سورة آل عمران

[١٧٨] أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع أن النصارى أتوا النبيّ [ﷺ] فخاصموه في عيسى، فأنزل الله: ﴿الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾(١) - إلى بضع وثمانين آية منها(٢).

[١٧٩] وقال ابن إِسحاق: حدثني محمد بن سهل بن أبي أُمامة قال: لما قدم أهل نجران على رسول الله [ﷺ] يسألونه عن عيسى بن مريم نزلت فيهم فاتحة آل عمران إلى رأس الثمانين منها. أخرجه البيهقي في الدلائل.

---

[١٧٨] (١) سورة آل عمران: الآية (١و ٢).

(٢) قال الواحدي في أسباب النزول: قال المفسرون: قدم وفد نجران وكانوا ستين راكباً على رسول الله ﷺ وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر إِليهم يؤول أمرهم فالعاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إِلا عن رأيه واسمه عبد المسيح والسيد إِمامهم وصاحب رحلهم واسمه الأيهم وأبو حارثة بن علقمة أسقفهم وحبرهم وإِمامهم وصاحب مدراسهم وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه في دينهم وكانت ملوك الروم قد شرفوه وموّلوه وبنوا له الكنائس لعلمه واجتهاده فقدموا على رسول الله ﷺ ودخلوا مسجده حين صلّى العصر عليهم ثياب الحبرات جبات وأردية في جمال رجال الحارث بن كعب يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول الله ﷺ: ما رأينا وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا فصلوا في مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: **«دعوهم.. فصلوا إِلى المشرق»** فكلم السيد والعاقب رسول الله ﷺ فقال لهما رسول الله ﷺ: **«أسلما»**.. فقالا: قد أسلمنا قبلك قال: **«كذبتما منعكما من الإِسلام دعاؤكما لله ولداً وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير»** قالا: إِن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسى فقال لهما النبي ﷺ: **«ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إِلا ويشبه أباه؟»** قالوا: بلى قال: **«فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟** قالوا: لا قال: **فإِن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث؟** قالوا: بلى قال: **ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذي كما يغذى الصبي ثم كان يطعم ويشرب ويحدث؟** قالوا: بلى. قال: **فكيف يكون هذا كما زعمتم؟** فسكتوا فأنزل الله عز وجل فيهم صدر سورة آل عمران - إلى بضعة وثمانين آية منها» - أسباب النزول للواحدي (ص ٥٣).

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ [آل عمران: ١٢].

[١٨٠] روى أبو داود في سننه والبيهقي في الدلائل من طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس إن رسول الله [ﷺ] لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال: **«يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً»** فقالوا: يا محمد لا يغرنّك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ - إلى قوله - ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[١].

[١٨١] وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال فنحاص اليهودي يوم بدر لا يغرنّ محمداً أن قتل قريشاً وغلبها، إن قريشاً لا تحسن القتال فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟..﴾ [آل عمران: ٢٣] الآية.

[١٨٢] أخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عن عكرمة عن ابن عباس قال: دخل رسول الله [ﷺ] بيت المدراس على جماعة من اليهود، فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ قال: على ملة إبراهيم ودينه قال: فإن إبراهيم كان يهودياً، فقال لهما رسول الله [ﷺ] **«فهلمّا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم»** فأبيا عليه فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ﴾ - إلى قوله - ﴿يَفْتَرُونَ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] الآية.

[١٨٣] أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله [ﷺ] سأل ربه أن يجعل ملك الروم وفارس في أمته، فأنزل الله ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾[٣] الآية[٤].

---

[١٨٠] (١) سورة آل عمران: الآية (١٢و ١٣) - والحديث في سنن أبي داود (٣٠٠١).

[١٨٢] (٢) سورة آل عمران: الآية (٢٣و ٢٤) - وقد ذكره الواحدي في أسباب النزول بلا إسناد ص (٥٥).

[١٨٣] (٣) سورة آل عمران: الآية (٢٦).

(٤) وذكر الواحدي في الآية بلا إسناد حديثاً.. قال ابن عباس وأنس بن مالك: لما افتتح رسول الله ﷺ مكة ووعد أمته ملك فارس والروم قالت المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم؟ هم أعز وأمنع من ذلك ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم؟ فأنزل الله هذه الآية... وقد روى=

= الأثر المتقدم عن قتادة من طريق روح بن عبادة عن سعيد عن قتادة مثله.. وروى الواحدي في سبب نزول الآية حديثاً آخر فقال: حدثنا الأستاذ أبو الحسن الثعالبي أخبرنا عبدالله بن حامد الوزّان أخبرنا محمد بن جعفر الميطري قال: قال حماد بن الحسن حدثنا محمد بن خالد بن عتمة حدثنا كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف قال: حدثني أبي عن أبيه قال: خطب رسول الله ﷺ على الخندق يوم الأحزاب ثم قطع لكل عشرة أربعين ذراعاً ـ قال عمرو بن عوف: كنت أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن المزني وستة من الأنصار في أربعين ذراعاً فحفرنا حتى إذا كنا تحت ذي ناب أخرج الله من بطن الخندق صخرة مروة كسرت حديدنا وشقت علينا فقلنا: يا سلمان أرق إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر هذه الصخرة فإما أن نعدل عنها وإما أن يأمرنا فيها بأمره فإنا لا نحب أن نجاوز خطه قال: فرقى سلمان إلى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية فقال يا رسول الله خرجت صخرة بيضاء مروة من بطن الخندق فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى ما يحيك فيها قليل ولا كثير فمرنا فيها بأمر فإنا لا نحب أن نجاوز خطك قال: فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان الخندق والتسعة على شفة الخندق فأخذ رسول الله ﷺ المعول من سلمان فضرب ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها ـ يعني المدينة ـ حتى كأن مصباحاً في جوفه بيت مظلم. وكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح فكبر المسلمون ثم ضربها رسول الله ﷺ فكسرها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتى كأن مصباحاً في جوف بيت مظلم وكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبر المسلمون ثم ضربها رسول الله ﷺ فكسرها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتى كأن مصباحاً في جوف بيت مظلم وكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبر المسلمون وأخذ يد سلمان ورقى فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئاً ما رأيت مثله قط فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم فقال: «**رأيتم ما يقول سلمان؟**» قالوا: نعم يا رسول الله قال: «**ضربت ضربتي الأولى فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها.. ثم ضربت ضربتي الثانية فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها ثم ضربت ضربتي الثالثة فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها فابشروا**».. فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله موعد صدق وعدنا النصر بعد الحصر فقال المنافقون ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق ولا تستطيعون أن تبرزوا؟ قال: «**فنزل القرآن**» ﴿**وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً**﴾ ـ وأنزل الله تعالى في هذه القصة قوله ﴿**قل اللّهم مالك الملك**﴾ الآية. كذا في أسباب النزول للواحدي ص (٥٥و ٥٦).

[١٨٤] أخرج ابن جرير من طريق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال: كان الحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف وابن أبي الحقيق وقيس بن زيد قد بطنوا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم. فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعد بن حثمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء النفر من يهود، واحذروا مباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم فأبوا. فأنزل الله فيهم ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ - إلى قوله - ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٣١].

[١٨٥] أخرج ابن المنذر عن الحسن قال: قال أقوام على عهد نبينا [ﷺ] يا محمد إنا لنحب ربنا، فأنزل الله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾(٢) الآية.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٥٨].

[١٨٦] أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: أتى رسول الله [ﷺ] راهبا نجران، فقال أحدهما من أبو عيسى؟ وكان رسول الله [ﷺ] لا يعجل حتى يؤامر ربه، فنزل عليه: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨﴾ - إلى ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾(٣).

[١٨٧] وأخرج من طريق العوفي عن ابن عباس قال: إن رهطاً من نجران قدموا على النبيّ [ﷺ]، وكان فيهم السيد والعاقب فقالوا: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ قال: **«من هو»**؟ قالوا عيسى تزعم أنه عبد الله فقال: **«أجل»** فقالوا: فهل رأيت مثل عيسى أو أُنبئت به؟ ثم خرجوا من عنده، فجاء جبريل فقال: قل لهم إذا أتوك: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ - إلى قوله - ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾(٤).

[١٨٨] ك.. وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق سلمة بن عبد يشوع عن أبيه عن جده: إن رسول الله [ﷺ] كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه.. **«(طس) سليمان باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب من محمد النبي»**.. الحديث - وفيه - فبعثوا إليه شرحبيل بن وداعة الهمداني وعبدالله بن شرحبيل الأصبحي

---

[١٨٤] (١) سورة آل عمران: الآية (٢٨و ٢٩).

[١٨٥] (٢) سورة آل عمران: الآية (٣١).

[١٨٦] (٣) سورة آل عمران: الآية (٥٨ و٦٠).

[١٨٧] (٤) سورة آل عمران: الآية (٥٨و ٦٠) - والحديث قد تقدم سرده بفقرة رقم (١٨٣) هامش رقم (٢).

وجباراً الحَرثي فانطلقوا فأتوه فسألهم وسألوه، فلم يزل به وبهم المسألة حتى قالوا: ما تقول في عيسى؟.. قال: «**ما عندي فيه شيء يومي هذا، فأقيموا حتى أخبركم**» فأصبح الغد وقد أنزل الله هذه الآيات ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ﴾(١) إلى قوله - ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾(٢).

[١٨٩] وأخرج ابن سعد في الطبقات عن الأزرق بن قيس قال: قدم على النبيّ [ﷺ] أسقف نجران والعاقب، فعرض عليهما الإسلام فقالا: إنّا كنا مسلمين قبلك قال [ﷺ]: «**كذبتما إنه منع منكما الإسلام ثلاث، قولكما اتخذ الله ولداً وأكلكما لحم الخنزير وسجودكما للصنم**». قالا: فمن أبو عيسى؟ فما درى رسول الله [ﷺ] ما يرد عليهما حتى أنزل الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٣)، فدعاهما إلى الملاعنة فأبيا وأقرّا بالجزية ورجعا(٤).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ..﴾ [آل عمران: ٦٥] الآية.

[١٩٠] روى ابن إسحاق بسنده المتكرر إلى ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله [ﷺ] فتنازعوا عنده فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ﴾(٥) الآية.. أخرجه البيهقي في الدلائل.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ﴾ [آل عمران: ٧٢] الآية.

[١٩١] روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: قال عبدالله بن الصيف وعدي بن زيد والحارث بن عوف بعضهم لبعض تعالوا نؤمن بما أُنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر به عشية حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون بما نصنع فيرجعون عن دينهم فأنزل الله فيهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٦).

---

[١٨٨] (١) سورة آل عمران: الآية (٥٩).
(٢) سورة آل عمران: الآية (٦١) ـ والحديث رواه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٣٨٧).
[١٨٩] (٣) سورة آل عمران: الآية (٥٩و ٦٢).
(٤) تاريخ الطبري (٣/١٠٨).
[١٩٠] (٥) سورة آل عمران: الآية (٦٥).
[١٩١] (٦) سورة آل عمران: الآية (٧١ و ٧٣).

[١٩٢] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي عن أبي مالك قال: كانت اليهود تقول أحبارهم للذين من دونهم: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم فأنزل الله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٧٧] الآية.

[١٩٣] روى الشيخان وغيرهما إنّ الأشعث قال: كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدمته إلى النبي [ﷺ] فقال: **«ألك بينة»** قلت: لا. فقال لليهودي: **«احلف»**. فقلت يا رسول الله إذن يحلف فيذهب مالي.. فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾(٢) - إلى آخر الآية(٣).

[١٩٤] وأخرج البخاري عن عبدالله بن أبي أوفى: إن رجلاً أقام سلعة له في السوق فحلف بالله لقد أعطي بها ما لم يعطه ليوقع فيها رجلاً من المسلمين فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾(٤).

قال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري: لا منافاة بين الحديثين بل يحمل على أن النزول كان بالسببين معاً.

[١٩٥] وأخرج ابن جرير عن عكرمة إن الآية نزلت في حيُي بن أخطب، وكعب بن الأشرف وغيرهما من اليهود الذين كتموا ما أنزل الله في التوراة وبدلوه وحلفوا أنه من عند الله. قال الحافظ ابن حجر: الآية محتملة لذلك لكن العمدة في ذلك ما ثبت في الصحيح.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ [آل عمران: ٧٩] الآية.

[١٩٦] أخرج ابن إسحاق والبيهقي عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله [ﷺ]

---

[١٩٢] (١) سورة آل عمران: الآية (٧٣).

[١٩٣] (٢) سورة آل عمران: الآية (٧٧).

(٣) والحديث رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١٦٠و ٢٣٢)، ومسلم في صحيحه كتاب الأيمان (٢٢٣)، والإمام أحمد في مسنده (١/ ٣٨٩و ٤٢٦)، وأبو داود في سننه (٣٢٤٣و ٣٢٤٥) و(٣٦٢١) و(٣٦٢٣)، وابن ماجة في سننه (٢٣٢٢)، والإمام البيهقي في السنن الكبرى (١/ ١٣٧) و(١٤٤)، والطبراني في الكبير (٥/ ٣٠٩)، والدارقطني في سننه (٤/ ١١٢).

[١٩٤] (٤) سورة آل عمران: الآية (٧٧).

ودعاهم إلى الإسلام(١). أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى؟ قال: «معاذ الله» فأنزل الله في ذلك ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ - إلى قوله - ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٢).

[١٩٧] وأخرج عبد الرزاق في تفسيره عن الحسن قال: بلغني أن رجلاً قال: يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك؟ قال: **«لا ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله فإنه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله. . فأنزل الله** ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ - إلى قوله - ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٣).

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا﴾ [آل عمران: ٨٦] الآيات.

[١٩٨] روى النسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ثم ندم فأرسل إلى قومه. . أرسلوا إلى رسول الله [ﷺ] هل لي من توبة؟ فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ﴾ - إلى قوله - ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤) فأرسل إليه قومه فأسلم.

[١٩٩] وأخرج مسدد في مسنده وعبد الرزاق عن مجاهد قال: قال: جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبي [ﷺ] ثم كفر فرجع إلى قومه فأنزل الله فيه القرآن ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ﴾ - إلى قوله - ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٥) فحملها إليه رجلاً من قومه فقرأها عليه فقال الحارث: إنك والله ما علمت لصدوق وإن رسول الله [ﷺ] لأصدق منك، وإن الله لأصدق الثلاثة، فرجع فأسلم وحسن إسلامه(٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ [آل عمران: ٩٧] الآية.

[٢٠٠] ك. . أخرج سعيد بن منصور عن عكرمة قال: لما نزلت: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾(٧) الآية قالت اليهود: فنحن مسلمون فقال لهم النبي [ﷺ]:

---

[١٩٦] (١) كذا بالأصل ولعل هنا سقط.
(٢) سورة آل عمران: الآية (٧٩و٨٠).
[١٩٧] (٣) سورة آل عمران: الآية (٧٩و٨٠).
[١٩٨] (٤) سورة آل عمران: الآية (٨٦ و٨٩).
[١٩٩] (٥) سورة آل عمران: الآية (٨٦و٨٩).
(٦) ورواه الواحدي في أسباب النزول (٦٥) بإسناده إلى حميد بن الأعرج عن مجاهد.
[٢٠٠] (٧) سورة آل عمران: الآية (٨٥).

«إن الله فرض على المسلمين حج البيت». فقالوا: لم يكتب علينا، وأبوا أن يحجوا، فأنزل الله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(1).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٠] الآية.

[٢٠١] أخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانت الأوس والخزرج في الجاهلية بينهم شرٌّ، فبينما هم جلوس ذكروا ما بينهم حتى غضبوا، وقام بعضهم إلى بعض بالسلاح فنزلت: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾(2) الآية والآيتان بعدها(3).

[٢٠٢] وأخرج ابن إسحاق وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال: مَرَّ شاس بن قيس وكان يهودياً على نفر من الأوس والخزرج يتحدثون فغاظه ما رأى من تآلفهم بعد العداوة فأمر شاباً معه من يهود أن يجلس بينهم فيذكرهم يوم بعاث ففعل، فتنازعوا وتفاخروا حتى وثب رجلان من الأوس وجبار بن صخر من الخزرج، فتقاولا وغضب الفريقان وتواثبوا للقتال، فبلغ ذلك رسول الله [ﷺ] فجاء حتى وعظهم وأصلح بينهم، فسمعوا وأطاعوا، فأنزل الله في أوس وجبار، ومن كان معهما ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾(4) الآية، وفي شاس بن قيس ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾(5) الآية.

قوله تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ [آل عمران: ١١٣] الآية.

[٢٠٣] أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مندة في الصحابة عن ابن عباس قال: لما أسلم عبدالله بن سلام وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبد، ومن أسلم من يهود معهم فآمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام قالت أحبار اليهود وأهل الكفر منهم ما آمن بمحمد واتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله في ذلك ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾(6) الآية.

---

(1) سورة آل عمران: الآية (٩٧) ـ والحديث رواه البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٣٢٤).

[٢٠١] (2) سورة آل عمران: الآية (١٠١).

(3) والحديث رواه الواحدي في أسباب النزول بنحوه وأطول منه من طريق أيوب عن عكرمة مرسلاً ص (٦١) وروى مثله عن ابن عباس ص (٦٢).

[٢٠٢] (4) سورة آل عمران: الآية (١٠٠).

(5) سورة آل عمران: الآية (٩٩).

[٢٠٣] (6) سورة آل عمران: الآية (١١٣).

[٢٠٤] وأخرج أحمد وغيره عن ابن مسعود قال: أخر رسول الله [ﷺ] صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: «أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم» وأُنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ - حتى بلغ - ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾[١].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ﴾ [آل عمران: ١١٨].

[٢٠٥] أخرج ابن جرير وابن إسحاق عن ابن عباس قال: كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من يهود لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية، فأنزل الله فيهم ينهاهم عن مباطنتهم تخوّف الفتنة عليهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾[٢]. الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ [آل عمران: ١٢١].

[٢٠٦] أخرج ابن أبي حاتم وأبو يعلى عن المسور بن مخرمة قال: قلت لعبد الرحمن بن عوف: أخبرني عن قصتكم يوم أُحد، فقال: اقرأ بعد العشرين ومائة من آل عمران تجد قصتنا: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[٣] - إلى قوله - ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾[٤] قال: هم الذين طلبوا الأمان من المشركين - إلى قوله - ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾[٥] قال: هو تمني المؤمنين لقاء العدو إلى قوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ﴾[٦] قال: هو صياح الشيطان يوم أُحد قُتل محمد - إلى قوله - ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾[٧] قال: ألقى عليهم النوم.

---

[٢٠٤] (١) سورة آل عمران: الآية (١١٣) - والحديث رواه أحمد في مسنده (١/٣٩٦)، ابن حبان في صحيحه (٢٧٤) موارد الظمآن من طريق عاصم بن أبي النجود عن زر بن حبيش عن ابن مسعود ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٦٨) من طريق عاصم عن زر عن ابن مسعود ورواه أيضاً من طريق يحيى بن أيوب عن ابن زحر عن سليمان عن زر بن حبيش عن عبدالله بن مسعود.

[٢٠٥] (٢) سورة آل عمران: الآية (١١٨).

[٢٠٦] (٣) سورة آل عمران: الآية (١٢١).

(٤) سورة آل عمران: الآية (١٢٢).

(٥) سورة آل عمران: الآية (١٤٣).

(٦) سورة آل عمران: الآية (١٤٤).

(٧) سورة آل عمران: الآية (١٥٤).

[٢٠٧] وأخرج الشيخان عن جابر بن عبدالله قال: فينا نزلت في بني سلمة وبني حارثة: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾[١].

[٢٠٨] وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي حاتم عن الشَعبي: إن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربي يمد المشركين، فشق عليهم، فأنزل الله: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿مُسَوِّمِينَ﴾[٢] فبلغتِ كرزاً الهزيمة فلم يمد المشركين ولم يمد المسلمين بالخمسة.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] الآية.

[٢٠٩] روى أحمد ومسلم[٣] عن أنس إن النبي [ﷺ] كسرت رباعيته يوم أُحُد وشج في وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال: «**كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم**». فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[٤] الآية.

[٢١٠] وروى أحمد والبخاري[٥] عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله [ﷺ] يقول: «**اللهم العن فلاناً، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سهيل بن عمرو، اللهم العن صفوان بن أمية**» فنزلت هذه الاية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[٦] ـ إلى آخرها.. فتيب عليهم كلهم.

وروى البخاري عن أبي هريرة نحوه[٧].. قال الحافظ ابن حجر: طريق الجمع بين الحديثين أنه [ﷺ] دعا على المذكورين في صلاته بعدما وقع له من الأمر المذكور يوم أُحُد فنزلت الآية في الأمرين معاً فيما وقع له وفيما نشأ عنه من الدعاء عليهم.

---

[٢٠٧] (١) سورة آل عمران: الآية (١٢٢).

[٢٠٨] (٢) سورة آل عمران: الآية (١٢٥).

[٢٠٩] (٣) الحديث رواه أحمد في مسنده ٣/ ٩٩، وابن سعد في الطبقات (٢/ ١/ ٣١) والواحدي في أسباب النزول ص (٦٩) من طريق حماد عن ثابت عن أنس به مثله.

(٤) سورة آل عمران: الآية (١٢٨).

[٢١٠] (٥) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٦٩و٧٠) من طريق الزهري عن سالم عن أبيه مثله وطريق البخاري الزهري عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر.

(٦) سورة آل عمران: الآية (١٢٨).

(٧) رواه الواحدي في أسباب النزول من طريق ابن شهاب قال: أخبرني سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن أنهما سمعا أبا هريرة يقول... الحديث وطريق البخاري موسى بن إسماعيل عن إبراهيم بن سعد عن الزهري.

قال: لكن يشكل على ذلك ما وقع في مسلم من حديث أبي هريرة أنه [ﷺ] كان يقول في الفجر: **«اللهم العن رعلاً وذكواناً وعصية»**[1] حتى أنزل الله عليه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[2].

ووجه الإشكال أن الآية نزلت في قصة أُحُد، وقصة رعل وذكوان بعدها، ثم ظهرت لي علة الخبر وأن فيه إدراجاً، فإن قوله «حتى أنزل الله» منقطع من رواية الزهري عمن بلغه بين ذلك مسلم وهذا البلاغ لا يصح فيما ذكرته.

قال: ويحتمل أن يقال أن قصتهم كانت عقب ذلك وتأخر نزول الآية عن سببها قليلاً ثم نزلت في جميع ذلك.

قلت: وورد في سبب نزولها أيضاً..

[٢١١] ما أخرجه البخاري في تاريخه وابن إسحاق عن سالم بن عبدالله بن عمر قال: جاء رجل من قريش إلى النبي [ﷺ]، فقال: إنك تنهى عن السب، ثم تحول فحوَّل قفاه إلى النبي [ﷺ]، وكشف إسته فلعنه ودعا عليه فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[3] الآية ثم أسلم الرجل فحسن إسلامه. مرسل غريب.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٣٠] الآية.

[٢١٢] أخرج الفريابي عن مجاهد قال: كانوا يتبايعون إلى الأجل، فإذا حلَّ الأجل زادوا عليهم وزادوا في الآية فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾[4].

[٢١٣] وأخرج أيضاً عن عطاء قال: كانت ثقيف تداين بني النضير في الجاهلية، فإذا جاء الأجل قالوا: نُرْبيكم وتؤخرون عنا، فنزلت: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾[5].

قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] الآية.

[٢١٤] أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لما أبطأ على النساء الخبر

---

(١) والحديث رواه أيضاً أحمد في مسنده (٢/١٢٦، ٤/٥٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢/٣١٧).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٢٨).

[٢١١] (٣) سورة آل عمران: الآية (١٢٨).

[٢١٢] (٤) سورة آل عمران: الآية (١٣٠).

[٢١٣] (٥) سورة آل عمران: الآية (١٣٠).

خرجن ليستخبرن، فإذا رجلان مقبلان على بعير، فقالت امرأة: ما فعل رسول الله [ﷺ]؟ قالا: حي. قالت: فلا أبالي يتخذ الله من عباده الشهداء ونزل القرآن على ما قالت: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٣] **الآية.**

[٢١٥] أخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس: إن رجالاً من الصحابة كانوا يقولون ليتنا نقتل كما قُتل أصحاب بدر أو ليت لنا يوماً كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ونبلي فيه خيراً أو نلتمس الشهادة والجنة أو الحياة والرزق، فأشهدهم الله أُحداً فلم يلبثوا إلا من شاء الله منهم، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾(٢) الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤] **الآية.**

[٢١٦] أخرج ابن المنذر عن عمر قال: تفرقنا عن رسول الله [ﷺ] يوم أحد فصعدت الجبل فسمعت يهود تقول: قُتل محمد، فقلت.. لا أسمع أحداً يقول قُتل محمد إلا ضربت عنقه، فنظرت فإذا رسول الله [ﷺ] والناس يتراجعون، فنزلت: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾(٣) الآية.

[٢١٧] وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع قال: لما أصابهم يوم أُحُد ما أصابهم من القرح وتداعوا نبي الله قالوا: قد قتل، فقال أناس: لو كان نبياً ما قتل، وقال أناس: قاتلوا على ما قاتل عليه نبيكم حتى يفتح الله عليكم أو تلحقوا به، فأنزل الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾(٤) الآية.

[٢١٨] وأخرج البيهقي في الدلائل عن أبي نجيح: إن رجلاً من المهاجرين مرَّ على رجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه، فقال: أشعرت أن محمداً قد قُتل. فقال: إن كان محمد قد قُتل فقد بلّغ فقاتلوا عن دينكم فنزلت.

[٢١٩] وأخرج ابن راهويه في مسنده عن الزهري: إن الشيطان صاح يوم أُحُد إن محمداً قد قُتل، قال كعب بن مالك : وأنا أول من عرف رسول الله [ﷺ]

---

[٢١٤] (١) سورة آل عمران: الآية (١٤٠).
[٢١٥] (٢) سورة آل عمران: الآية (١٤٣).
[٢١٦] (٣) سورة آل عمران: الآية (١٤٤).
[٢١٧] (٤) سورة آل عمران: الآية (١٤٤).

رأيت عينيه من تحت المغفر فناديت بأعلى صوتي: هذا رسول الله [ﷺ]. فأنزل الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾[1] الآية.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾[آل عمران: ١٥٤] الآيات.

[٢٢٠] أخرج ابن راهويه عن الزبير قال: لقد رأيتني يوم أُحُد حين اشتد علينا الخوف وأرسل علينا النوم، فما منا أحد إلا ذقنه في صدره، فوالله إني لأسمع كالحلم قول معتب بن قشير: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا.. فحفظتها، فأنزل الله في ذلك: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ - إلى قوله ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١] الآية.

[٢٢١] أخرج أبو داود والترمذي وحسّنه[3] عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض الناس: لعل رسول الله [ﷺ] أخذها فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾[4] إلى آخر الآية.

[٢٢٢] وأخرج الطبراني في الكبير بسند رجاله ثقات عن ابن عباس قال: بعث النبي [ﷺ] جيشاً فردّت، ثم بعث فردت بغلول رأس غزال من ذهب فنزلت ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾[5].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥] الآية.

[٢٢٣] أخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب قال: عوقبوا يوم أحد بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون وفرَّ أصحاب النبي [ﷺ]

---

[٢١٩] (١) سورة آل عمران: الآية (١٤٤).

[٢٢٠] (٢) سورة آل عمران: الآية (١٥٤).

[٢٢١] (٣) الحديث رواه الترمذي في سننه (٣١٩٧) وقال هذا حديث حسن غريب وقد روى عبد السلام بن حرب عن خصيف نحو هذا وروى بعضهم هذا الحديث عن خصيف عن مقسم ولم يذكر فيه عن ابن عباس - قال المبارك فورى في تحفة الأحوذي: والحديث أخرجه أبو داود وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم -.
قلت: ورواه الواحدي في أسباب النزول من طريق شريك عن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس.

(٤) سورة آل عمران: الآية (١٦١).

[٢٢٢] (٥) سورة آل عمران: الآية (١٦١).

وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على وجهه فأنزل الله: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ﴾(1) الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ [آل عمران: ١٦٩] الآية.

[٢٢٤] روى أحمد وأبو داود والحاكم(2) عن ابن عباس قال: قال رسول الله [ﷺ] **«لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا يتكلوا عن الحرب فقال الله أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله هذه الآيات** ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾**»**(3) الآية وما بعدها وروى عن جابر نحوه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ﴾ [آل عمران: ١٧٢] الآية.

[٢٢٥] أخرج ابن جرير(4) من طريق العوفي عن ابن عباس قال: إن الله قذف الرعب في قلب أبي سفيان يوم أُحُد بعد الذي كان منه فرجع إلى مكة فقال النبي [ﷺ]: **«إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب..»** وكانت وقعة أُحُد في شوال وكان التجار يقدمون المدينة في ذي القعدة فينزلون ببدر الصغرى وإنهم قدموا بعد وقعة أُحد وكان أصاب المؤمنين القرح واشتكوا ذلك فندب النبي [ﷺ] الناس لينطلقوا معه فجاء الشيطان فخوف أولياءه فقال [ﷺ]: **«إن الناس قد جمعوا لكم»** فأبى عليه الناس أن يتبعوه. فقال: [ﷺ] **«إني ذاهب وإن لم يتبعني أحد»**، فانتدب معه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير وسعد وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وعبدالله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وأبو عبيدة بن الجراح في سبعين رجلاً فساروا في طلب أبي سفيان فطلبوه حتى بلغوا الصفراء فأنزل الله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾(5) الآية.

---

[٢٢٣] (١) سورة آل عمران: الآية (١٦٥).

[٢٢٤] (٢) الحديث رواه أبو داود في سننه ٢٥٢٠، وأحمد في مسنده (١/ ٢٦٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٦٣)، وفي دلائل النبوة (٣/ ٣٠٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢٩٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٨٨و ٢٩٧) والواحدي في أسباب النزول ص (٧٣).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٦٩).

[٢٢٥] (٤) رواه الطبري في تاريخه (٤/ ١١٧).

(٥) سورة آل عمران: الآية (١٧٢).

[٢٢٦] ك.. وأخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال: لما رجع المشركون من أُحُد قالوا: لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتم، بئسما صنعتم ارجعوا فسمع رسول الله [ﷺ] فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد أو بئر أبي عتبة فأنزل الله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾(١) الآية.. وقد كان أبو سفيان قال للنبي [ﷺ]: موعدك موسم بدر حيث قتلتم أصحابنا، فأما الجبان فرجع، وأما الشجاع فأخذ أهبة القتال والتجارة، فأتوه فلم يجدوا به أحداً وتسوقوا، فأنزل الله: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾(٢) الآية.

[٢٢٧] وأخرج ابن مردويه عن أبي رافع: إن النبي [ﷺ] وجه علياً في نفر معه في طلب أبي سفيان فلقيهم أعرابي من خزاعة فقال: إن القوم قد جمعوا لكم، قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل فنزلت فيهم هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٨١] الآية.

[٢٢٨] أخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر بيت المدراس فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص، فقال له: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ولو كان غنياً عنا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، فغضب أبو بكر فضرب وجهه فذهب فنحاص إلى رسول الله [ﷺ] فقال: يا محمد انظر ما صنع صاحبك بي فقال: «**يا أبا بكر ما حملك على ما صنعت؟**» قال: يا رسول الله قال قولاً عظيماً يزعم أن الله فقير وإنهم عنه أغنياء.. فجحد فنحاص فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾(٣) الآية.

[٢٢٩] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: أتت اليهود النبي [ﷺ] حين أنزل الله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾(٤) فقالوا يا محمد افتقر ربك يسأل عباده؟ فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾(٥) الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ [آل عمران: ١٨٦] الآية.

---

[٢٢٦] (١) سورة آل عمران: الآية (١٧٢).
(٢) سورة آل عمران: الآية (١٧٤).
[٢٢٨] (٣) سورة آل عمران: الآية (١٨١).
[٢٢٩] (٤) سورة البقرة: الآية (٢٤٥).
(٥) سورة آل عمران: الآية (١٨١).

[٢٣٠] روى ابن أبي حاتم وابن المنذر بسند حسن عن ابن عباس أنها نزلت فيما كان بين أبي بكر وفنحاص من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[١].

[٢٣١] وذكر عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أنها نزلت في كعب بن الأشرف فيما كان يهجو به النبي [ﷺ] وأصحابه من الشعر[٢].

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٨] الآية.

[٢٣٢] روى الشيخان وغيرهما[٣] من طريق حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرىء منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذّباً لنعذبن أجمعون، فقال ابن عباس: ما لكم وهذه إنما نزلت هذه الآية في أهل الكتاب سألهم النبي [ﷺ] عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، فخرجوا وقد أروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمان ما سألهم عنه.

[٢٣٣] وأخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري أن رجالاً من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله [ﷺ] إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله [ﷺ]، فإذا قدم اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾[٤] الآية.

---

[٢٣٠] (١) سورة آل عمران: الآية (١٨٦).

[٢٣١] (٢) رواه الواحدي في أسباب النزول ص ٧٧ بأتم سياق من هذا الذي ذكره السيوطي فقال أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد الفارسي قال: أخبرنا محمد بن عبدالله بن حمدون قال: أخبرنا أبو حامد أحمد بن الحسن قال: حدثنا محمد بن يحيى قال: حدثنا أبو اليمان قال: حدثنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني عبد الرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك عن أبيه ـ وكان من أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ـ أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً وكان يهجو النبي ﷺ ويحرض عليه كفار قريش في شعره وكان النبي ﷺ قدم المدينة وأهلها أخلاط منهم المسلمون ومنهم المشركون ومنهم اليهود فأراد النبي ﷺ أن يستصلحهم فكان المشركون واليهود يؤذون أصحابه أشد الأذى فأمر الله تعالى نبيه ﷺ بالصبر على ذلك وفيهم أنزل الله **﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب﴾** سورة آل عمران: الآية (١٨٦).

[٢٣٢] (٣) ورواه الواحدي في أسباب النزول من طريق هشام بن سعد قال حدثنا يزيد بن أسلم أن مروان بن الحكم. . . الخبر ص (٧٨).

[٢٣٣] (٤) سورة آل عمران: الآية (١٨٨) ـ وطريق مسلم الحسن بن علي الحلواني عن ابن أبي =

[٢٣٤] وأخرج عبد في تفسيره عن زيد بن أسلم: إن رافع بن خديج وزيد بن ثابت كانا عند مروان فقال مروان: يا رافع في أي شيء نزلت هذه الآية ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا﴾(١) قال رافع: أنزلت في أناس من المنافقين كانوا إذا خرج النبي [ﷺ] اعتذروا وقالوا ما حبسنا عنكم إلا شغل، فلوددنا إنا كنا معكم فأنزل الله فيهم هذه الآية.. وكان مروان أنكر ذلك فجزع رافع من ذلك فقال لزيد بن ثابت: أنشدك بالله هل تعلم ما أقول؟ قال نعم. قال الحافظ ابن حجر: يجمع بين هذا وبين قول ابن عباس بأنه يمكن أن تكون نزلت في الفريقين معاً قال: وحكى الفراء أنها نزلت في قول اليهود نحن أهل الكتاب الأول والصلاة والطاعة، ومع ذلك لا يقرون بمحمد وروى ابن أبي حاتم من طرق عن جماعة من التابعين نحو ذلك، ورجحه ابن جرير، ولا مانع أن تكون نزلت في كل ذلك. انتهى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] الآية.

[٢٣٥] أخرج الطبراني وابن أبي حاتم(٢) عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود فقالوا: بما جاءكم موسى من الآيات؟ قالوا عصاه، ويد بيضاء للناظرين، وأتوا النصارى فقالوا: كيف كان عيسى؟ قالوا: كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، فأتوا النبي [ﷺ] فقالوا ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً، فدعا ربه فنزلت الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾(٣) فليتفكروا فيها.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥] الآية.

[٢٣٦] أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والترمذي والحاكم وابن أبي حاتم(٤) عن أم سلمة أنها قالت يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة

= مريم وقد رواه الواحدي في أسباب النزول من طريق الإمام البخاري عن سعيد بن أبي مريم ـ أسباب النزول ص (٧٨).

[٢٣٤] (١) سورة آل عمران: الآية (١٨٨).

[٢٣٥] (٢) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص ٧٩ من طريق جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مثله.

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٩٠).

[٢٣٦] (٤) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٨٠) من طريق سفيان عن عمرو بن دينار عن سلمة بن عمرو بن أبي سلمة قال: قالت أم سلمة... الحديث.

بشيء، فأنزل الله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾[1] إلى آخر الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] الآية.

[٢٣٧] روى النسائي[2] عن أنس قال: لما جاء نعي النجاشي قال رسول الله [ﷺ]: «**صلوا عليه**» قالوا: يا رسول الله نصلي على عبد حبشي؟ فأنزل الله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾[3]. وروى ابن جرير نحوه عن جابر، وفي المستدرك عن عبدالله بن الزبير قال: نزلت في النجاشي: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾[4] الآية.

* * *

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٩٥).

[٢٣٧] (٢) ورواه الواحدي من طريق المعتمر بن سليمان عن حميد عن أنس قال: قال نبي الله ﷺ لأصحابه: «**قوموا فصلوا على أخيكم النجاشي**» فقال بعضهم لبعض يأمرنا أن نصلي على علج من الحبشة فأنزل الله تعالى الآية.

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٩٩).

(٤) سورة آل عمران: الآية (١٩٩).

(٣) سورة آل عمران مدنية وآياتها مائتان

هذه السورة الكريمة تسمى سورة « آل عمران » وهي من السور المدَنيَّةِ الطويلةِ ، وسميت بـ « آل عمران » لورود ذكر تلك السلسلة الطاهرة ، والأسرة الفاضلة من آل عمران ، الذين عاشوا في بيت النبوة ، وحِجْر الفضيلة والدين ، وكانوا مثلاً أعلى للإنسانية في عبادتهم واستقامتهم وتمسكهم بأهداب الدين ، فعمران والدُ مريم البتول ، ومن ذريته جاء « عيسى ابن مريم » آخر أنبياء بني إسرائيل ، وقد كانت ولادة السيد المسيح عليه الصلاة والسلام مظهراً من مظاهر القدرة الإلهية ، حيث خلقه الله من أُمٍ بدون أب ، وحملت به مريم البتول بنفخةٍ نفخها في صدرها جبريل الأمين ، وكانت إرادة الله بتكوين هذا الجنين . وقد اشتملت السورة الكريمة ـ سورةُ آل عمران ـ على ركنين هامين من أركان الدين ، هما :

أولاً : ركن العقيدة الإسلامية ، والدلائل والبراهين على وحدانية رب العالمين .

ثانياً : ركن التشريع الإسلامي وبخاصة فيما يتعلق بالمغازي والجهادِ في سبيلِ الله . أما الأول « ركنُ العقيدة » فقد جاءت الآيات الكريمة تتحدث في بدء السورة عن وجود الله جلَّ وعلا ، وإثباتِ الوحدانية ، والنبوة ، وإثبات صدق القرآن ، والرد على الشبهات التي يثيرها أهل الكتاب حول القرآن والإسلام وأمرِ محمد عليه الصلاة والسلام ، استمع

إلى قوله تعالى ﴿ الٓمٓ . اللهُ لا إله إلا هو الحيُّ القيوم ، نزَّل عليك الكتاب بالحق ، مصدقاً لما بين يديه ، وأَنزل التوراةَ والإنجيلَ من قبلُ هدىً للناسِ وأنزلَ الفرقانَ ، إنَّ الذينَ كفروا بآياتِ اللهِ لهم عذابٌ شديدٌ واللهُ عزيزٌ ذو انتقام ﴾ .

وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الحديث عن الزمرة الأولى من أهل الكتاب وهم « اليهود » فإن سورة آل عمران قد تناولت الزمرةَ الثانية من أهل الكتاب وهم « النصارى » الذين جادلوا النبي ﷺ في شأن المسيح ، وزعموا ألوهيته ، وكذبوا القرآن ، وجحدوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . يروي المفسرون أن صدر السورة الكريمة نزل في وفد « نصارى نجران » وكانوا ستين راكباً ، فيهم ثلاثة من أكابرهم وأشرافهم « عبد المسيح ، والأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة » فقدموا على النبي ﷺ فتكلم منهم أولئك الثلاثة فقالوا تارة عيسى هو « الله » لأنه كان يُحيي الموتى ، وتارة قالوا هو « ابن الله » لأنه ليس له أب فلا بدَّ أن يكون ابناً لله ، وتارة قالوا إنه « ثالث ثلاثة » لقوله تعالى في الإنجيل « قلنا ، وفعلنا » ولو كان واحداً لقال « فعلتُ وقلتُ » وأخذوا يجادلون رسول الله ﷺ فقال لهم الرسول ﷺ : ألستم تعلمون أن ربنا حيٌّ لا يموت ، وأن عيسى يموت !! قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربَّنا قائمٌ على كل شيء يكلؤه ، ويحفظه ، ويرزقه ، فهل يملك عيسى شيئاً من ذلك ؟ قالوا : لا ، قال : ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلا ما علَّمه الله ؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشرابَ ، ولا يُحدِثُ الحدث ، وأن عيسى كان يطعم ، ويشرب ، ويُحْدث ؟ قالوا : بلى ، فقال ﷺ : فكيف يكونُ كما زعمتم ؟ فسكتوا وأبوا إلا الجحود فأنزل الله من أول

السورة الكريمة إلى ما يزيد على ثمانين آية ، وأنزل الله في هذه السورة الردَّ الحاسم ، بالحجج الساطعة ، والبراهين القاطعة ، على مزاعم النصارى وعقائدهم الزائغة ، إستمع إلى قوله تعالى ﴿ إنَّ مَثَل عيسى عند اللهِ كمثلِ آدمَ خلقَهُ من ترابٍ ثم قال له كنْ فيكون الحقُّ من ربك فلا تكوننَّ من الممترين . فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم ، فقل تعالَوْا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفُسَنا وأنفُسَكم ، ثم نبتهلْ فنجعلْ لعنة الله على الكاذبين ﴾ وهكذا نزلت الآيات في محاجة أهل الكتاب ، وتناول الحديثُ عن النصارى ما يقرب من نصف السورة الكريمة .

أما الركن الثاني وهو ركن التشريع فقد تحدثت السورة عن فريضة الحج ، وأحكام الجهاد ، وأمور الربا ، وحكم مانع الزكاة ، وقد جاء الحديث بالإسهاب عن الغزوات كغزوة بدر ، وغزوة أُحد ، والدروس التي تلقاها المسلمون من تلك الغزوات ، فقد انتصروا في بدر ، وهُزموا في أحد لفترة بسبب عصيانهم لأمر الرسول ﷺ وسمعوا بعد الهزيمة ـ من الكفار والمنافقين ـ كثيراً من كلمات الشماتة والتخذيل ، فأرشدهم الباري جل وعلا إلى الحكمة من ذلك ، وهي أنه تعالى يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة ، ليميز بين الخبيث والطيب ، ويفرق بين البر والفاجر ، وفي ذلك يقول تعالى ﴿ ما كان الله ليذرَ المؤمنينَ على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيثَ من الطيب ﴾ وفي هذه الغزوات دروسٌ وعبر ، فالله تعالى يبتلي عباده بالمحن والشدائد ليعلم الصادق من المنافق كما قال تعالى ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليَعلمَ المؤمنين . وليَعْلَمَ الذين نافقوا وقيل لهم تعالوْا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لا تَّبَعْناكم هم للكفر يومئذٍ أقربُ منهم للايمان .. ﴾ كما تحدثت الآيات بالتفصيل

عن النفاق والمنافقين ، وموقفهم من تثبيط همم المؤمنين ، وحذَّرت من كيدهم وخبثهم ، ثم بعد الفراغ من تلك الدروس والعبر ، لفَتَتْ الأنظارَ الى التدبير في ملكوت السموات والأرض ، وما فيهما من إتقانٍ وإبداع ، وعجائب وأسرار ، تدل على وجود الخالق الحكيم ﴿ إنَّ في خلق السموات والأرض واختلافِ الليل والنهار لآياتٍ لأُولي الألباب ﴾ وقد ختمت السورة الكريمة بذكر الجهاد والمجاهدين ، في تلك الوصية الفذَّة الجامعة ، التي بها يتحقق الخير ، ويعظم النصر ، ويتم الفلاحُ والنجاح « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة آل عمران[1]

بسم الله الرحمن الرحيم. وبه ثقتي، وهو حسبي.[2]

﴿الم﴾[١] ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[٢]

قوله:[3] **الم الله [لا إله إلا هو]**، قال بعضهم: تفسيره[4] ما وُصل به، كقوله:[5] الم ذَٰلِكَ الْكِتَابُ،[6] ذلك الكتاب[7] هو تفسير: الم، و **الم الله لا إله إلا هو**، **[الله لا إله إلا هو]** تفسير **الم**؛ و[نحوه قول:] المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ،[8] و[9][كذلك] جميع ما وُصل به الحروف المقطعة فهو[10] تفسيرها. ولله أن يسمي نفسه بما شاء؛ سمى[11] نفسه[12] مجيدًا كقوله: ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ،[13] وسمى القرآن مجيدًا كقوله: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ.[14]

وقال بعضهم: الحروف[15] المقطعة هي مفتاح السورة. وقال آخرون: إن[16] كل حرف منها اسم من أسماء الله تعالى. ومنهم من يقول بأنها من المتشابه[17] التي لا يوقف عليها.

---

[1] ن – سورة آل عمران.
[2] ك م – وبه ثقتي وهو حسبي؛ ع: وبه ثقتي.
[3] ع: وقوله.
[4] ع: يفسره.
[5] جميع النسخ: من قوله.
[6] ﴿الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ (سورة البقرة، ٢/١-٢).
[7] ع م – ذلك الكتاب.
[8] ﴿المص كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾ (سورة الأعراف، ٧/١-٢).
[9] ك: هو.
[10] ن + فهو.
[11] ع م – سمى.
[12] م – نفسه.
[13] سورة البروج، ٨٥/١٥.
[14] سورة البروج، ٨٥/٢١.
[15] ك ن ع: حروف.
[16] ن – ان.
[17] ع: التشابه.

ومنهم من يقول: هو[1] على[2] التشبيب،[3] إذ من عادة العرب ذلك. وقد مضى الكلام فيه في قوله: الم ذَٰلِكَ الْكِتَابُ،[4] بما يكفي.

الحي القيوم، هو الحي بذاته، وكل حي سواه حي بحياة هي غيره. فإذا كان هو حيا بذاته لم يوصف بالتغير[5] والزوال. ولما كان كل[6] حي سواه حيا[7] بغيره احتمل التغير[8] والزوال. وكان الحياة عبارة يوصف بها من عظُم شأنه، وشرُف أمرُه عند الخلق. ألا ترى أن الله تعالى وصف الأرض بالحياة عند نباتها،[9] لما يعظم قدرها، وتشرُف[10] منزلتها عند الخلق عند النبات. وكذلك سُمِّي[11] المؤمنُ حيا لعلو قدره عند الناس، والكافرُ مَيْتًا لدون[12] منزلته عند الناس. فكذلك الله[13] سبحانه وتعالى سُمِّي حيا، لعظمته وجلاله وكبريائه. وعلى هذا يخرج قوله في الشهداء حيث قال: وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ،[14] أي مكرمون معظّمون[15] مشرَّفون عند ربهم.

وقوله: **القيوم**. قال بعضهم: **القيوم**[16] هو القائم على كل نفس بما كسبت. وقال آخرون: **القيوم** الحافظ. وفي حرف ابن مسعود: هو القَيّام؛[17] كله[18] يرجع إلى واحد: القائم والقَيُّوم والقَيّام.

---

[1] ع م – هو.

[2] ن: من؛ ع م – على.

[3] التشبيب: تحسين القصيدة وتزيينها بذكر النساء خاصة (*لسان العرب*، «شبب»).

[4] سورة البقرة، ٢/١-٢.

[5] جميع النسخ: بالتغاير.

[6] ك ع – كل.

[7] جميع النسخ: حي.

[8] جميع النسخ: التغاير.

[9] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون﴾ (سورة يس، ٣٦/٣٣).

[10] جميع النسخ: يشرف.

[11] ع م – سمي.

[12] م: لداون. لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور﴾ (سورة فاطر، ٣٥/٢٢. وانظر أيضا: سورة الأنعام، ٦/١٢٢).

[13] ع – الله.

[14] ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ (سورة البقرة، ٢/١٥٤).

[15] ن – معظمون.

[16] ك ع م – القيوم.

[17] انظر: *كتاب المصاحف* للسجستاني، ٥٩. قال ابن الأعرابي: القَيُّوم والقَيّام والمُدبِّر واحد. وقال الزجاج: القيُّوم والقيّام في صفة الله تعالى وأسمائه الحسنى القائم بتدبير أمر خلقه في إنشائهم ورزقهم وعلمه بأمكِنتهم (*لسان العرب*، «قوم»).

[18] ك ن م: كله.

يقال: فلان قائم على أمر فلان، أي يحفظه حتى لا يغيب عنه من أمره شيء.[١] وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: إن اسم الله الأعظم هو[٢] الحي القيوم.[٣]

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[٣] ﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾[٤]

وقوله: **نزل عليك الكتاب**، ظاهر. **بالحق**، قيل فيه بوجوه. يحتمل **بالحق**، أي دعاء[٤] الخلق إلى الحق. ويحتمل **بالحق**، أي[٥] هو الحق نفسه، حجة[٦] مجعولة وآية معجزة، أيس العرب عن أن يعارضوه ويأتوا[٧] بمثله، وتحقق[٨] عند كلٍّ أنه[٩] آية[١٠] من عند الله إلا من أعرض عنه وكابر وعاند. وقيل: **بالحق**، أي بالصدق والعدل. وقيل: **بالحق** الذي لله عليهم، وما يكون لبعضهم على بعض.[١١]

ثم قال: **مصدقا لما بين يديه**، أي موافقًا لما قبله من الكتب السماوية، وهي غير مختلفة ولا متفاوتة. وفيه دلالة نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه أخبر أنه موافق[١٢] لتلك الكتب غير مخالف لها، ولو كان على خلاف ذلك لتكلفوا إظهار موضع الخلاف، فإذ لم يفعلوا ذلك دل أنهم عرفوا أنه من الله، وأن محمدًا رسوله،[١٣] لكنهم كابروا وعاندوا.

---

[١] ع م – شيء.
[٢] ع – هو.
[٣] ذكره القرطبي من غير نسبة، وفي ابن ماجة: عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾، وفاتحة سورة آل عمران». انظر: *سنن ابن ماجة*، دعاء ٩؛ و*تفسير القرطبي*، ٢٧١/٣.
[٤] ن ع م: دعا.
[٥] ع – أي دعاء الخلق إلى الحق ويحتمل بالحق أي.
[٦] ع – حجة.
[٧] ك ع م: أو يأتوا.
[٨] ن ع م: ويحقق.
[٩] ع م – أنه.
[١٠] ك ن – آية.
[١١] ك – على بعض.
[١٢] ن ع: موافقا.
[١٣] ن: رسول الله.

وقوله: **وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدي للناس وأنزل الفرقان**، من بعد. وقال بعضهم: **هدي للناس**، أي بيانًا لهم وحجةً لمن اهتدي، وإلزاما[1] وحجة على من عَمِي [وضل]؛ إذ لا يحتمل أن يكون له هدى وعليه حجة فيه الهلاك، إنما يكون حجة له وهدى إذا اهتدى، وعليه إذا ترك[2] الاهتداء. فبان أنه بخلاف ما يقوله المعتزلة.[3]

وقوله: **وأنزل الفرقان**. قد ذكرنا فيما تقدم[4] أنه إنما سمي فرقانًا لوجهين. أحدهما لما فُرّق آياته، وفرق إنزاله. والثاني لما يفرِّق بين الحق والباطل، وبين الحلال والحرام،[5] وبين ما يُتّقى ويؤتّى. فعلى هذا كل كتاب بُيِّن[6] فيه الحلال والحرام،[7] وبيّن ما يتقى ويؤتى. والإنجيل قد سمي[8] إنجيلا لما يجلِّي، وهو الإظهار[9] في اللغة.[10] وقيل: سمي التوراة توراة من أوريت الزَّنْد،[11] وهو كذلك. ***والله أعلم***.

وقوله: **إن الذين كفروا بآيات الله**، قيل: بحجج الله. وقيل: **كفروا بآيات الله**، أي بالله، لأنهم إذا كفروا بآياته[12] كفروا به، وكذلك الكفرُ[13] بدينه كفرٌ به، والبراءةُ من دينه براءةٌ منه، والبراءةُ من رسوله براءةٌ منه.

وقوله: **والله عزيز ذو انتقام**، قيل فيه بوجوه.[14] قيل: **ذو انتقام** لأوليائه من أعدائه. وقيل: **ذو انتقام**، ذو انتصار على الأعداء. وقيل: ذو بطش شديد.

---

[1] ك ع ن – وإلزاما.

[2] ع م: نزل.

[3] «وعلى ما يفسر المعتزلة الهداية [بالبيان] يكون هدى في حق الكل، وهو محال» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٠٢و).

[4] انظر: سورة البقرة، ١٨٥/٢.

[5] ك م: الحرام والحلال؛ ع:الحرام والباطل.

[6] ك ن ع: مبينا؛ م: ومتينا.

[7] ن: الحرام والحلال؛ م – والحرام.

[8] ك ن ع: فيه إنجيلا.

[9] ن ع م: من الإظهار.

[10] يقول ابن منظور: «الإنجيل: مثل الإكليل والإخريط. وقيل: اشتقاقه من النَّجل الذي هو الأصل والطبع... وهو اسم عبراني أو سرياني، وقيل: هو عربي»(*لسان العرب*، «نجل»). يبدو أنه في رأي اشتقاق الإنجيل للماتريدي وابن منظور خطأ. وفي *المنجد*: «الإنجيل كلمة يونانية معناها: البُشرى، لأن الإنجيل يتضمن بشرى الخلاص» (*المنجد*، «الإنجيل»). وعبارة *المعجم الوسيط* قريبة من هذا، «الإنجيل».

[11] «وسمي التوراة توراة من وَرِي الزندُ، أي نَوّرَ» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٠٢و). وَرِي الزند: خرجت ناره؛ الزند: العود الأعلى الذي يقتدح به النار (*لسان العرب*، «زند»).

[12] م: بآيات.

[13] م – الكفر.

[14] جميع النسخ: بوجهين.

﴿إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾[٥]

قوله: **إن الله لا يخفى عليه شيئ في الأرض ولا في السماء**، هو وعيد، / كأنه -والله أعلم- [٧٤و] قال: لا يخفى عليه ما في السماوات وما في الأرض[١] من الأمور المستورة الخفية على الخلق،[٢] فكيف يخفى عليه أعمالكم وأفعالكم التي هي[٣] ظاهرة عندكم؟ ويحتمل إذ[٤] لم يَخْفَ عليه ما بطن وخفي في الأصلاب والضمائر والأرحام، فكيف يخفى عليه أقوالكم وأفعالكم وهي ظاهرة. ألا ترى[٥] أنه قال: هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ،[٦] إذ علم [ما] في الأرحام، وصوَّرها على ما شاء وكيف شاء، وهم في ظلمات ثلاث.[٧]

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٦]

وقوله تعالى: **هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء**، فيه دليل نقض قول من يقول بالقائف؛[٨] لأنه جعل علم التصوير[٩] في الأرحام لنفسه، [و] لم يجعل[ه] لغيره. [ف]كيف عرف القائف تصوير الأول حتى قال: إنه على صورته وعلى[١٠] تصويره، وإنه من مائه.[١١] ثم اختلف في خلق الأشياء. قال بعضهم: يخلق الفروع من الأصول وهي[١٢] أسباب للفروع. وقال آخرون: يكون بأسباب وبغير أسباب. فإن كان بعض الأشياء يكون بأسباب، من نحو [خلق] الإنسان من النطفة، إلا أن[١٣] النطفة تتلف، فتكون علقة، ثم مضغة؛ فدل أنه يخلق الخلق كيف شاء؛ من شيئ ولا من شيئ، بسبب وبغير[١٤] سبب، وهو القادر على ذلك. ***وبالله التوفيق***.

---

[١] ك: والأرض.
[٢] ع م - على الخلق.
[٣] م - هي.
[٤] م: إن.
[٥] ك: ألا يرى.
[٦] الآية التالية.
[٧] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٦).
[٨] القائف الذي يتتبع الآثار ويعرفها، ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه (*لسان العرب*، «قوف»).
[٩] ك م: علم التصور؛ ن: على التصوير.
[١٠] م - صورته وعلى.
[١١] م: مائية.
[١٢] ن ع م: وهن.
[١٣] ع - أن.
[١٤] م: وبغيره.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[٧]

وقوله: **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات،** أختلف فيه. قيل: المحكمات هن الناسخات المعمولات بهن، والمتشابهات هن[١] المنسوخات غير المعمول[٢] بهن، وهو قول ابن عباس رضي الله عنه.[٣] وقال آخرون: المحكمات هن ثلاث آيات في آخر[٤] سورة الأنعام، قوله: قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ، إلى قوله: تَتَّقُونَ،[٥] وما ذكر في سورة بني إسرائيل من قوله: وَقَضَى رَبُّكَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ،[٦] إلى آخر هذه الآيات. سميت محكمة لأن فيها توحيدًا وإيمانا بالله. وغيره من المتشابه. ثم قيل بعد هذا بوجوه. قيل: المحكمات هي التي يعرفها كل[٧] أحد، إذا نظر فيها وتأمل فيها. والمتشابه هو المبهم الذي يعرف عند البحث فيه والطلب. وقيل: المحكمات ما يوقف [عليه] ويفهم مراده. والمتشابه[٨] هو الذي لا يوقف [عليه] ألبتة بعد ما قضى حوائج الخلق من البيان في المحكم منه [من نحو الحروف المقطعة وغيرها مما لا يفهم مرادها]،[٩] ولكن يلزم الإيمان به، وهو من الله محنة على عباده؛ ولله أن يمتحن خلقه بما شاء من أنواع المحن،[١٠] لأنها دار محنة.[١١]

---

[١] ع م: من.
[٢] ك ن ع: معمول.
[٣] انظر: *تنوير المقباس من تفسير ابن عباس*، ٥٥؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٢/١٤٤.
[٤] ع م - آخر.
[٥] ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون. ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون. وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ (سورة الأنعام، ٦/١٥١-١٥٣).
[٦] ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٢٣).
[٧] ن ع م - كل.
[٨] م: والتشابه.
[٩] والزيادة مستفادة من *الشرح*، ورقة ١٠٢ظ.
[١٠] «إذ جعل العلوم قسمين. قسم منها ابتلانا بتحصيله وتعلمه؛ وقسم منها عجزنا من تعلمه وطلبه. وأمرنا بالإمساك عنه كما جعل الأفعال قسمين، ابتلانا في قسم منها بالتحصيل، وفي قسم بالترك. والدار دار ابتلاء ومحنة، ولله أن يمتحن عباده بما شاء من أنواع المحن» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٠٢ظ).
[١١] جميع النسخ + وغيرها مالا يفهم مرادها؛ ن: مراده.

ويحتمل أن يكون المحكمات هن ما ظهر لكل[1] أحد من أهل الإسلام، حتى لم يختلفوا فيها. والمتشابه هو الذي اشتبه على الناس لاختلاف الألسن، فاختلفوا فيها، أو لما[2] يؤدي ظاهره إلى غير ما يؤدي [إليه] باطنه. فتعلق بعضهم بالظاهر فقالوا به، وتعلق آخرون بالباطن، لما رأوا ظاهره جورًا وظلمًا، أو تشبيهًا،[3] على اتفاقهم على نفي الجور والظلم [والتشبيه] عنه.[4] ويجوز أن يوقف على المتشابه بمعرفة المحكم. وقال آخرون: المحكم هو الواضح المبين. فلو كان على ما قالوا لم يكن [مجال] لاختلاف الناس فيه وادعاءِ كل أن الذي هو عليه هو المحكم، لأنه لو كان ظاهرًا مبينًا لتمسكوا به و لم يقع بينهم اختلاف.

وفيه دليل ونقض على المعتزلة، لأنهم يقولون بالأصلح في الدين، أنه لا يفعل إلا ذلك. ثم لم يبين[5] لهم المحكم من غير المحكم ولو بين كان أصلح لهم في الدين. فدل أن الله عز وجل قد يجوز أن يفعل بهم ما ليس بأصلح لهم في الدين امتحانًا وابتلاء منه[6] –والله أعلم– لكن لا يخرج من الحكمة.[7] ثم ما قالوه في الأمر حق: أن[8] لا يأمر إلا بالطاعة له،[9] لما[10] فيه الأصلح؛ وقد يفعل بهم[11] ما هو حكمة في حق المحنة وإن كان غير ذلك أصلح لهم:[12] أن يفعل بهم ما ليس بأصلح لهم[13] في الدين،[14] بمعنى أقرب وأدعى إليه. *والله الموفق*.

[1] ع: كل.

[2] ع م: ولما.

[3] ح: وتشبيها.

[4] «من نحو الاختلاف بين أهل الحق والمجسمة في قوله تعالى: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ ونحوه، فتعلقت المجسمة بظاهره، وعدل أهل الحق عن الظاهر إلى الباطن؛ لأن في التمسك بالظاهر تشبيها لله بالخلق، تعالى الله عن ذلك» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٠٢ظ).

[5] ن ع م: لم يتبين.

[6] ك ن + لهم.

[7] يقول علاء الدين السمرقندي رحمه الله: «وإن كانت قد تقصر عقولنا عن دركها؛ فإن الأمر والنهي من الله تعالى لا يكون إلا بما يكون الطاعة فيه أصلح للعباد من المخالفة والمعصية؛ ولذلك جميع ما شرع من الأحكام، فإنها لمصالحهم ولا يكون مصلحة لهم في خلاف ذلك» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٠٢ظ).

[8] ك: حق أنه؛ ع: حق لك؛ م: حق لأن.

[9] ن – له.

[10] ك ن – لما.

[11] ك ن – بهم.

[12] م – بالطاعة له لما فيه الأصلح وقد يفعل بهم ما هو حكمة في حق المحنة وإن كان غير ذلك أصلح لهم.

[13] ك ن – أن يفعل بهم ما ليس بأصلح لهم.

[14] ع + امتحانا وابتلاء منه لكن لا يخرج من الحكمة ثم ما قالوه في الأمر حق أن لا يأمر بالطاعة له فيه الأصلح وقد يفعل ما هو حكمة في حق المحنة وإن كان غير ذلك أصلح لهم في الدين.

وقال قوم: المحكم ما في العقل بيانه، والمتشابه ما لا يدرك في العقل،[1] وإنما يعرف بمعونة السمع. وقال قوم: لا متشابه فيما فيه أحكام من أمر ونهي وحلال وحرام، وإنما ذلك فيما ليس بالناس حاجة إلى العلم به نحو الإنباء عن منتهى الملك وعن عدد الملوك،[2] وعن الإحاطة بحقيقة الموعود، ونحو ذلك، *ولا قوة إلا بالله*. لكن أمكن أن يكون سمي متشابها[3] بما تشابه على أولئك القوم حقيقة ما راموا من الوجه الذي طلبوا.[4] وقد بينا[5] الحق في أمر المتشابه وما يجب في ذلك من القول. *وبالله العصمة والنجاة*.

وقوله: **هن أم الكتاب**، يحتمل وجهين. يحتمل **أم الكتاب**، أي أصل الكتاب، ويحتمل **أم الكتاب**، أي المتقدم على غيرها. وعلى هذا يخرج أم القرى -أعني مكة- لأنها هي المتقدمة على غيرها من القرى. ويحتمل هي[6] أصل القرى، كما سمي فاتحة الكتاب أم القرآن، لأنها أصل، أو لأنها[7] هي المتقدمة على غيرها[8] من السور. *والله أعلم*. ويحتمل قوله: **هن أم الكتاب**، أي مقصود الكتاب، يعني المحكمات. والمتشابه[9] ما[10] فيه شبه[11] من غيره فيتشابه[12] فهو متشابه، كقولهم: إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا،[13] وكذلك المشكل سمي مشكلاً لما يدخل فيه شكل من غيره، فسمي مشكلاً، فكذلك المتشابه يدخل فيه شبه غيره فصار متشابهًا. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **فأما الذين في قلوبهم زيغ**، قيل: ميل عن الحق. وقيل: الزيغ هو الريب والشك.

---

[1] ن + بيانه والمتشابه ما لا يدرك في العقل.
[2] ن: مملوك.
[3] ك ن ع: متشابه؛ م: تشابه.
[4] ن + وقد طلبوا.
[5] أي هنا.
[6] م – هي.
[7] م: ولأنها.
[8] ن – من القرى ويحتمل هي أصل القرى كما سمي فاتحة الكتاب أم القرآن لأنها أصل أو أنها هي المتقدمة على غيرها.
[9] ك: والمتشابهات.
[10] ك ن ع: ومما.
[11] ك: شبهة.
[12] ع م – فيتشابه.
[13] ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ (سورة البقرة، ٢/٧٠).

فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، فلو[1] كان ثَمَّ اتباع لَعُذِروا، إذ الاتباع للشيء اتباع ما فيه من المراد. وعلى هذا يقولون في قوله: يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ،[2] أي يتبعونه حق اتباعه، وكذلك قوله: اِتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ،[3] والمتشابه قد أنزل إلينا من ربنا، فيحمد متبعه في الحقيقة. فثبت أن لم يكن ثَمّ اتباع في الحقيقة، وأنه لو كان لَعُذروا. ولكنه كان -والله أعلم- اتباع الآراء في التأويل بالآراء / الفاسدة. ألا ترى أنهم طَلبوا بالتأويل منتهى مُلك هذه الأمة، [٧٤ظ] وفي الوقوف عليه وقوف على علم الساعة وسبب القيامة،[4] وذلك علم لم يُطْلع الله الرسل على ذلك، فضلاً أن يطلع عليه غيرهم. {قال الشيخ رحمه الله:} ويحتمل[5] أن يكون اتباعُهم نظرَهم فيما تقصر[6] أفهامهم عن الإدراك في الوقوف عليه. ولو كان نظرهم في المحكم من ذلك لكان لهم في ذلك بلاغ وكفاية فيما إليهم به حاجة. ***ولا قوة إلا بالله.***

{قال الشيخ رحمه الله:} في قوله: **فأما الذين في قلوبهم زيغ،** أي ميل عن الحق، وذلك همتهم،[7] أو كان ذلك اعتقادهم. فإن كان المراد من ذلك في الكفرة فهو الأول، وإن كان في أصحاب الهوى[8] من الذين يدينون دين الإسلام فهو[9] الثاني. وكذلك تجد كل ذي مذهب في الدين، ممن اعتقد حقيقة الأمر في قوله: اِتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ،[10] وقوله: إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ،[11] الآية، وقوله: إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ،[12] الآية. [فمن] تعلق[13] بظاهر الآية يدعي أنها محكمة بما عنده أنه الحق، بعد أن أجهد نفسه في طلب الحق ويسوّي غير ذلك[14] عليه. فإن كان على ذلك فحقه التسليم

---

[1] ع م: ولو.
[2] ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾ (سورة البقرة، ٢/١٢١).
[3] سورة الأعراف، ٧/٣.
[4] ع: القيمة.
[5] ك + ويحتمل.
[6] جميع النسخ: يقصر.
[7] أي همتهم وقصدهم.
[8] ع: الهواء.
[9] ع: فهي.
[10] سورة الأعراف، ٧/٣.
[11] سورة الإسراء، ١٧/٩.
[12] سورة النمل، ٢٧/٧٦.
[13] جميع النسخ: يتعلق.
[14] وفي شرح السمرقندي بدل «ويسوي غير ذلك عليه»، «ويبني المتشابه عليه» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٠٣و).

لما عليه توارث[1] الأمة ظاهرًا، على ما روي عن نبي الله صلى الله عليه وسلم أنه أخبر عن تفرق الأمة، ثم أشار [إلى] التمسك بما[2] عليه هو وأصحابه رضي الله عنهم.[3] فعلى ذلك[4] أمر المتوارث، فيجب جعله محكمًا وبيانًا اختلف عليه. *ولا قوة إلا بالله*. ويكون المبتدع في ابتغاء تأويله يريد التلبيس على من لزم تلك الجملة. وكذلك لأهل [الحق] جملٌ في الدين، من فزع إليها[5] لدى[6] التنازع، وترك الاشتغال بتأويل ما اعترضه لكان متبعَ المحكم عند الأمة، معطيًا المتشابه حقَّه. *ولا قوة إلا بالله*. وإن كان هو الأول فقد ذكر أن ذلك في استخراج منتهى مُلْك هذه الأمة، وأن نهايته الساعة. والعلم به لم يُطلع عليه الرسل فضلاً عمن دونهم.[7] أو كان[8] ذلك في أشياء[9] تقصر عقول الضعفاء[10] عن الإحاطة بها،[11] يريدون بذلك التلبيس على العوام وأهل الغباوة. فأخبر عز وجل بما ذكر أنه لا يعلمه إلا الله، كان ذلك فيما يعلمه غيره أولا. فإن كان اطلعه فبالله علم، لا أن في العقول بلوغَ ذلك. ومعنى الاتباع ما قد بين.[12]

وقوله: **فيتبعون ما تشابه منه [ابتغاء الفتنة]**، أي[13] من القرآن، بقول ما اشتبه [في] حسابهم، **ابتغاء الفتنة**. وقيل: **الفتنة** الكفر. ويحتمل **الفتنة** المحنة، أي يمتحنون أهل الإسلام.

---

[1] ن: إرث.
[2] جميع النسخ: إلى ما.
[3] يشير بذلك إلى ما روي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «افترقت اليهود على إحدى -أو اثنتين- وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى -أو اثنتين- وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»؛ وإلى ما روي عن معاوية بن أبي سفيان، أنه قال: ألا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا فقال: «ألا إن مَنْ قبلكم من أهل الكتاب افترقوا ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة». انظر: *مسند أحمد بن حنبل*، ٢/ ٣٣٢، ٣/١٢٠، ١٤٥؛ و*سنن ابن ماجة*، الفتن ١٧؛ و*سنن أبي داود*، السنة ١؛ و*سنن الترمذي*، الإيمان ١٨، ٢٠.
[4] ن + فعلى ذلك.
[5] ك ن: إليه؛ ع م: عليه.
[6] ن ع م: كذا.
[7] ك ن ع: من دونهم.
[8] ك: وكان.
[9] ع: في الأشياء.
[10] ك: الضعفة.
[11] جميع النسخ: بذلك.
[12] ع: يبين.
[13] ن - أي.

وقوله: **وابتغاء تأويله**، يقول: وابتغاء تأويل[1] منتهى ما كتب الله عز وجل لهذه[2] الأمة من المدة لهم والوقت. وأصل التأويل هو المنتهى.قال الله تعالى:**وما يعلم تأويله إلا الله**، أي ما يعلم منتهى ملك[3] الأمة إلا الله.

ثم المتشابه إن كان مما يوقف فيه فهو، وإن كان مما يعرفه أهل المعرفة ويعلمه بالواضح فهو هو. وأصل هذا أن كل ذي مذهب في الإسلام يدَّعي على خصمه -بما ذهب إليه من الحجاج بالآيات- الوقوعَ في المتشابه، ولنفسه الوقوعَ في الواضح، وعنده أن ما ذهب إليه هو الحق. فلا فرق بين أن يدعى عليه ذهابه إلى غير الحق، أو تعديه إلى المتشابه وترك الواضح. فسبيل مثله الفحص والبحث عما ذهب إليه: إن جاء بشيء يضطر العقلَ إلى قبوله سُلِّم له ما جاء به، وإلا فخصمه منه في دعوى مثله بالوقوع له في المتشابه بمحل دعواه.

وقوله: **وما يعلم تأويله إلا الله [والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا]**. قال قوم: موضع الوقف على قوله: **والراسخون في العلم**، ثم ابتدأ فقال: **يقولون آمنا به كل من عند ربنا. يقولون**، بمعنى قالوا: **آمنا به**، بما عرفنا. وذلك جائز في اللغة، يقول بمعنى قال. وقال آخرون موضع الوقف على قوله: **إلا الله**، ثم استأنف الكلام فقال: **والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا**، المحكم[4] والمتشابه وغيره. قيل: **الراسخون** هم المتدارسون. وقيل: المتثابتون، رسخ بمعنى ثبت. وقيل: **الراسخون** الناتخون،[5] يقال نتخ[6] في العلم ورسخ[7] فيه.

فإن قيل: ما الحكمة في إنزال المتشابه؟ قيل: إذا كان مما يعلم فهو يحتمل وجهين. يحتمل ليعلم فضل العالم على غير العالم. ويحتمل أنْ جعل عليهم طلبَ المراد منه،[8] والفحص عما[9] أودع فيه. وإن كان مما لا يعلم، [فـ]يحتمل المحنة. امتحنهم في ذلك بالوقف فيه، إذ الدار دار محنة، ولله أن يمتحن عباده بجميع أنواع المحن.

---

[1] ك م: تأويله.
[2] ن ع م: بهذه.
[3] م: تلك.
[4] ع: والمحكم.
[5] ن ع م: الناتجون.
[6] ن ع م: رسخ. النَّتخ: النزع، والقلع. والنتخ: إزالة الشيء عن موضعه. وقيل: النتخ: الاستخراج عامة. قال ابن الأثير: ويروى تقديم النون على التاء، أي رسخوا (*لسان العرب*، «نتخ»).
[7] ن ع م: نتج.
[8] جميع النسخ: فيه.
[9] ع: مما.

وقوله: **وما يذكر إلا أولو الألباب**. أي ما يتعظ إلا أولو الحِجَى[1] والعقل.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[٨]

وقوله: **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا**. فيه وجهان على المعتزلة. أحدهما أنه أضاف الزيغ إلى نفسه، وهو حرف مذموم عند الخلق، إذا قيل: فلان أزاغ فلانًا عن الحق؛ فإذا أضاف الله عز وجل إلى نفسه حرف الزيغ دل أن فيه معنى سوى ظاهره، حتى جاز إضافته إليه، وهو أنْ خلق منهم فعل الزيغ. وكذلك هذا في الضلال. وأضاف أيضًا الهداية إلى نفسه بقوله: **بعد إذ هديتنا**. فلو كان الهدى البيان على ما يقوله المعتزلة، لجاز أن يضاف ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ هو يملك البيان، لأنه بُعث مبينًا معلمًا، فإذ لم يجز ذلك دل أن فيه معنى سوى البيان، وهو[2] التوفيق والعصمة، حتى جاز إضافته إليه، ولا يجوز إلى غيره. *والله الموفق*.

[٧٥و] والثاني أنهم سألوا العصمة عن الزيغ والضلال، فلو كان عليه / أن يفعل وأن يبذل لهم العصمة لم يكن للسؤال[3] عن ذلك معنى. دل أنه [تعالى] مُفْضِلٌ[4] فيه ببذل[5] ذلك لهم. *والله أعلم*.

{قال الشيخ رحمه الله} في قوله **ربنا لا تزغ قلوبنا**، الآية: فيه وجهان. أحدهما أنه لو لم يكن له[6] إلا الأصلح في الدين فتركه جَوْر، فالقول: **ربنا لا تزغ قلوبنا**، لا يخلو من أن تكون الإزاغة أصلح له فهو[7] يدعو بأنه[8] يجور،[9] أو لا يكون أصلح فهو يدعو بأنه لا يجور.[10] ومحال الدعاء به[11] على خوف الجور، ومن خاف جور الخالق فهو غير عارف به.

---

[1] ك م: الحجح.
[2] م – البيان وهو.
[3] ع: سؤال.
[4] أفضل الرجل على فلان، وتفضل، بمعنىً، إذا أناله من فضله، وأحسن إليه (*لسان العرب*، «فضل»).
[5] ك: يبذل؛ م: فيبذل.
[6] ع م – له.
[7] جميع النسخ: وهو.
[8] م: بأن.
[9] ن ع م: يجوز.
[10] جميع النسخ: لا يجوز.
[11] م – به.

والثاني أن الداعي فيما جُبِل عليه الخلق يدعو على أمنٍ أنه لو أجابه لكان لا يَزيغ قلبه، وكذلك سؤال العصمة والهداية؛ ولهذا يؤمر به أيضًا. ولو كان يكون معه زيغ لكان لا فضل في الأمر بين الدعاء بالإزاغة وأن لا تُزِغْ، إذ الخوف مع الأمرين قائم. *والله الموفق*.

وفي ذلك أيضًا وجهان آخران. أحدهما[١] أن الإزاغة إذا أضيفت إلى أحد خرجت مخرج الشتم له والتعيير. ثبت أن فيما أضيفت إلى الله تبارك وتعالى معنىً ليس فيما أضيفت إلى[٢] غيره. وهو -والله أعلم- أن الإزاغة من كل أحد فعل هو زيغ بنفسه، فيه ذم، ومن الله ليست. فيكون فيه أنّ خلقَ فعل الزيغ ليس بزيغ وإن كان فعله زيغًا.[٣] *والله أعلم*. وفيه أنَّ خلق الشيء ليس هو ذلك الشيء وأنه يكون من الله ما يوصف بالإزاغة، ويصير لديه الآخر زائغًا، ولا شيء يوجد من الله تعالى[٤] سوى خلق فعل الإزاغة من العبد. *والله الموفق*.

والثاني قوله: **بعد إذ هديتنا**، ولو لم يكن من الله في الهداية سوى البيان لكان يصح ذلك لكل كافر. وتجوز الإضافة إلى الرسل، فإذ[٥] لم يصح ذلك ولم يجز ثبت أن ثَمّ[٦] فضل، وهو خلق فعل الهداية و التوفيق[٧] الذي معه الاهتداء لا محالة. *وبالله التوفيق والمعونة*.

وقوله: **وهب لنا من لدنك رحمة**، الرحمة[٨] تحتمل[٩] وجوها.[١٠] تحتمل[١١] الهدى والإسلام، إذ به يستفاد.[١٢] وتحتمل[١٣] الجنة. وتحتمل[١٤] أنهم سألوه كل رحمة. قال أبو بكر الأصم: الرحمة السعة في الدنيا، والثواب في الآخرة.

---

[١] م: إحديهما.
[٢] ك + أحد حز.
[٣] جميع النسخ: زيغ.
[٤] جميع النسخ: يكون كذلك، والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١٠٣و.
[٥] ن: فإذا.
[٦] ن: ثمه.
[٧] ك ن ع: أو التوفيق.
[٨] ك ع: والرحمة؛ ن م - الرحمة.
[٩] ن ع م: يحتمل.
[١٠] جميع النسخ: وجوه.
[١١] ع م: يحتمل.
[١٢] ك: تستفاد. «إذ به يستفاد آثار الرحمة من المغفرة والعفو والنجاة من العذاب، والوصول إلى النعيم الدائم» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٠٣ظ).
[١٣] ن ع م: يحتمل.
[١٤] ك ن ع: ويحتمل؛ م - وتحتمل.

*ويحتمل: **هب لنا**، ما يستوجب به الرحمة، وهو عمل الخير، كقوله: إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ.[1]*

وقوله: **إنك أنت الوهاب.** فهو على قول المعتزلة ليس بوهاب، لأن الوهاب هو المُفضِل الذي يهب ويبذل ما ليس عليه [فعله]. وهو على[3] قولهم عليه أن يعطي الخلق كل ما هو أصلح لهم في الدين. فالآية تكذبهم وترد عليهم قولَهم الوَحْش في الله. تعالى[4] الله[5] عن ذلك علوًّا كبيرًا.[6]

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[٩]

وقوله: **ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه**، فيه إقرار بالإيمان والبعث بعد الموت.

وقوله: **إن الله لا يخلف الميعاد**، في هذا خاصة أن يكون[7] يراد به القيامة والبعث. ويحتمل **لا يخلف الميعاد**، في كل شئ مما يصيب الخلق من الخير والشر والفرح والحزن والأسف. يقولون:[8] إنه كان بوعده ووعيده، وإنه كان مكتوبًا عليهم ولهم، وإنه لا يكون على خلاف ما كان مكتوبًا عليهم، ليصبروا على الشدائد والمصائب، فلا يجزعوا عليها ولا يحزنوا، وليشكروا على الآلاء والنعماء، ولا يفرحوا بها.[9] وهو كقوله تعالى: لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ.[10]

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾[١٠]

وقوله: **إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا**، وذلك أنهم كانوا يستنصرون بأولادهم وأموالهم في الدنيا، ويستعينون بهما على غيرهم.

---

[1] سورة الأعراف، ٥٦/٧.

* ورد ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه، فنقلناه إلى هنا. انظر: ورقة ٧٥و/سطر١٨.

[3] ك: وعلى.

[4] ك ن م: يتعالى.

[5] ك ن ع – الله.

[6] ك ن – علوا كبيرا.

[7] ع م: أن يراد.

[8] أي والراسخون في العلم يقولون.

[9] جميع النسخ: عليها.

[10] سورة الحديد، ٢٣/٥٧.

فظنوا أنهم يستنصرون بهم في الآخرة [أيضا]، ويدفعون بهم عن أنفسهم العذاب؛ وهو كقولهم: وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ.[١] فأخبرهم الله عز وجل أن أموالكم وأولادكم لا تغني عنكم من عذاب الله شيئًا.

وقوله: **وأولئك هم وقود النار**، أي حطب النار. فهو -والله أعلم- أن الإنسان إذا وقع في النار في هذه الدنيا لا يحترق احتراق الحطب ولكنه يذوب ويسيل منه الصديد، فقال الله عز وجل: إنهم يحترقون في النار في الآخرة احتراقَ الحطب، لا احتراق[٢] الإنسان في الدنيا، لأنها أشد بطشًا، وأسرع أخذًا، وأطول احتراقًا. وعلى[٣] هذا يخرج قوله: وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ،[٤] ليس كعذاب الدنيا أنه على الانقضاء والنفاد، ولكن على الدوام فيها والخلود أبدَ الآبدين. فنعوذ بالله منها.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[١١]

وقوله: **كدأب آل فرعون**، قيل: كأشباه آل فرعون. وقيل: كعمل آل فرعون وكصنيعهم، وكله واحد. ثم يحتمل بعد هذا وجهين. يحتمل: صنيع هؤلاء وعملهم[٥] كصنيع آل فرعون -ومن كان قبلهم-[٦] بموسى في التكذيب والتعنت. ويحتمل: صنيع[٧] هؤلاء بما يلحقهم من العذاب بالتكذيب والتعنت [كصنيع أولئك]. فألحق أولئك من العذاب بتكذيب الرسل وتعنتهم عليهم. **والله شديد العقاب**. قد ذكرناه.[٨]

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[١٢]

وقوله: **قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد**، هذا[٩] -والله أعلم- في قوم قد علم الله[١٠] عز وجل أنهم لا يؤمنون أبدًا، لذلك قال[١١] تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم

---

١ سورة سبأ، ٣٤/٣٥.
٢ ع: لاحتراق.
٣ م: علي.
٤ جزء من الآية التالية.
٥ جميع النسخ + بل.
٦ أي كصنيع من كان قبل آل فرعون من الكافرين برسلهم.
٧ جميع النسخ: بصنيع؛ والتصحيح مستفاد من شرح *التأويلات*، ورقة ١٠٣ظ.
٨ انظر: سورة البقرة، ٢/٢١١.
٩ ع: وهذا.
١٠ ن ع م - الله.
١١ ع + الله.

أن قل لهم: **ستغلبون وتحشرون إلى جهنم**، الآية. وإلا فلا يلحقه[م] ذلك الوعيد [على الإطلاق] –والله أعلم– لأن[1] من الكفار من يسلم ومن لا يسلم.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[١٣]

وقوله: **قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة [تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة]**.

فإن قال قائل: ما [هي الآية] في فئة قليلة وهي فئة أهل الإسلام[2] في غلبة[3] فئة كثيرة وهي فئة المشركين حيث غلبت فئةُ المسلمين وهم قليل فئةَ المشركين وهم كثير يوم بدر؟ وقد يكون لأهل الكفر –إذا كانوا قليلاً[4] فغلبوا على أهل الإسلام– آية.

قيل: ليست الآية في الغلبة خاصة، لكن الآية فيها –والله أعلم– في غيره[5] من وجوه.

[٧٥ظ] أحدها أن غلبة المسلمين –مع ضعف أبدانهم وقلة عددهم / وخروجهم لا على وجه الحرب والقتال– المشركينَ مع قوة أبدانهم وكثرة عددهم واستعدادهم[6] للحرب وخروجهم على [وجه] الحرب[7] والقتال آيةٌ. و[قد] علم العدو[8] أن ليس لهم[9] فئة، ولا لهم رجاء المدد، وأن لا غِياث لهم من البشر، وذلك آية الجرأة[10] وعلامة[11] الشجاعة، ومعه أمن.[12] *والله أعلم*.

والثاني ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ كفا من تراب فرماه على وجوههم، وقال:[13] «شاهت الوجوه»[14]، فامتلأت أعينهم من ذلك، وعَمُوا حتى انهزموا، فصار آية.

---

[1] ع: أن.
[2] ع – فئة أهل الإسلام.
[3] ع م – في غلبة.
[4] ك ن ع: قليل.
[5] ع – في غيره.
[6] ع م: فاستعدادهم.
[7] ك ن: ذلك؛ ع – الحرب.
[8] ك: العدة.
[9] أي للمسلمين.
[10] ع: الجرآة.
[11] ن + الجرأة و.
[12] أي ومع ذلك فيهم أمن، أو مع النبي أمن.
[13] ع: وقالت.
[14] *مسند أحمد بن حنبل*، ١/ ٣٠٨، ٣٦٨؛ ٥/٢٨٦، ٣١٠؛ وصحيح *مسلم*، الجهاد، ٨١. شاهَت الوجوهُ تَشُوهُ شَوْهًا: قَبُحت. وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم: أنه رَمى المشركينَ يومَ حُنَيْنٍ بكفٍّ مِنْ حَصًى وقال: شاهَت الوجوه، فهَزَمَهم الله تعالى (*لسان العرب*، «شوه»).

والثالث ما قيل: إن أبا جهل قام فدعا، فقال: [اللهم] أينا أحق دينًا وأوصلُ رَحِمًا فانصره، واجعل الغلبة [له] والهزيمة على الآخر.[١] فاستجيب فكانت الغلبة والهزيمة عليهم، فكان آية.

والرابع ما أعان الملائكةُ المسلمين، وبعثهم الله عز وجل مددا لنصرة المؤمنين على الكافرين يوم بدر، فذلك آية.

ووجه آخر ما ذكرنا،[٢] أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا خرجوا شِبه العير بغير سلاح، غير مستعدين للقتال، على علم منهم بذلك، وأولئك خرجوا مستعدين لذلك، فكان[٣] ما ذكر. **والله أعلم**.

{قال الشيخ رحمه الله:} في ذكر القليل في الأعين من الجانبين آية عظيمة؛ إذ هي حسية، والحواس تؤدى عن المحسوسات حقائقَها، فجعلها الله بحيث لا تؤدى،[٤] لما قال: لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا،[٥] فيحتمل أن يكون المراد مما ذكر من الآية في أمر الفئتين هذا. **والله أعلم**.

وقوله: **يرونهم مثليهم رأي العين**، وفي بعض القراءات: ترونهم بالتاء.[٦] يري المؤمنون أولئك مثلَي أنفسهم لا أكثر،[٧] وهم[٨] كانوا ثلاثة أمثالهم على ما روي في القصة.[٩]

---

[١] *البداية والنهاية* لابن كثير، ٣/ ٢٨٣.

[٢] ن ع + وهو.

[٣] ع: وكان.

[٤] ع م: لا يؤدى.

[٥] ﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلّم إنه عليم بذات الصدور. وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجعوا الأمور﴾ (سورة الأنفال، ٨/٤٣-٤٤).

[٦] قال ابن الجزري: «واختلفوا في ﴿ترونهم﴾ فقرأ المدنيان، ويعقوب بالخطاب، وقرأ الباقون بالغيب» (*النشر في القراءات العشر* لابن الجزري، ٢/١٧٩).

[٧] ك: لا أكبر.

[٨] ع م: هم.

[٩] روى البخاري عن البراء، قال: كنا أصحابَ محمد صلى الله عليه وسلم نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، و لم يجاوز معه إلا مؤمن، بضعة عشر وثلاثمائة. وذكر الطبري عن علي كرم الله وجهه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتخبر عن بدر. فلما بلغَنا أن المشركين قد أقبلوا سار رسول الله إلى بدر -وبدر بئر- فسبقنا المشركين إليها، فوجدنا فيها رجلين، منهم رجل من قريش، ومولى لعقبة بن أبي معيط. فأما القرشي فانفلت، وأما مولى عقبة فأخذناه فجعلنا نقول: كم القوم؟ فيقول: هم والله كثير، شديد بأسهم. فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه حتى انتهوا به إلى رسول الله فقال له: كم القوم؟ فقال: هم والله كثير شديد بأسهم. فجهد النبي أن يخبره كم هم؟ فأبى. ثم إن رسول الله سأله: كم ينحرون من الجزر؟ فقال: عشرا كل يوم. قال رسول الله: القوم ألف» (*صحيح البخاري*، المغازي ٦؛ و*تاريخ الطبري*، ٢/٢٢).

وهذا لمّا جعل الحق عليهم قيام الواحد من المسلمين بالاثنين منهم، مع ضعفهم لجهدهم في العبادات وبلوغهم الغاية من احتمال الشدائد والمشقات،[1] أخبر عز وجل بمعرفتهم أمر أهل الحرب وشدة رغبتهم في تعلمهم ما يحتاجون في الحرب والقتال. ولهذا قالوا: إن الله عز وجل علّم المؤمنين جميع ما يحتاجون في الحرب من الآداب[2] وغيرها في الكتاب، كقوله: إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا،[3] أمرهم بالتثبت، ثم قال: فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ،[4] وقال: وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا،[5] فجعل التنازع الواقع بينهم على خلاف بعضهم بعضًا سبب الهزيمة. ففيه أمر بالاجتماع، وجَعْلِ التدبير واحدًا والطاعة[6] لإمامهم.

وقوله: **إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار**، وإنما كان عبرة لما ذكرنا من خروج المؤمنين بقلة عددهم، وضعف أبدانهم بلا استعداد للحرب والقتال، إنما هو خروج[7] شبه العِير، وخروج أولئك بالعُدّة، مع قوة أبدانهم وكثرة عددهم وطمع المدد له[م]، ولم يكن للمسلمين ذلك. ففي مثل غلبة المؤمنين الكافرين والظفر بهم والنصر لهم عليهم على الوصف الذي وصفناهم عبرة وآية[8] لأولي الأبصار والعبر.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[١٤]

وقوله: **زين للناس حب الشهوات[9] من النساء والبنين**، وما ذكر إلى آخره. قال الحسن: والله ما زينها إلا الشيطان، إذ لا أحدَ أذمَّ لها[10] ولأهلها[11] من الله تعالى.

---

[1] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾ (سورة الأنفال، ٦٦/٨).

[2] ع م: الأدب.

[3] سورة الأنفال، ٤٥/٨.

[4] ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار﴾ (سورة الأنفال، ١٥/٨).

[5] ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ (سورة الأنفال، ٤٦/٨).

[6] م: إذ الطاعة.

[7] ن – خروج.

[8] ك ع: وأنه.

[9] ك + أي حب الشهوات؛ ن + أي حب الشهيات؛ ع – أي حب الشهوات؛ م: أي الشهوات.

[10] ع م: بها.

[11] ن ع م: ولأمثلها.

وإليه يذهب المعتزلة.[١] لكن الأصل [عندنا] في هذا وفي أمثاله أن الله عز وجل زيَّن هذه الأشياء. والتزيين من الله سبحانه وتعالى يقع لوجهين وكذلك الكراهة أيضًا[٢] تقع[٣] لوجهين: تزيين[٤] في الطباع، -والطبع[٥] يرغب فيما يتلذذ ويشتهي وإن لم يكن في نفسه حسنًا-[٦] وتزيين[٧] في العقل؛ فلا يتزين في العقل إلا ما[٨] ثبت حسنه بنفسه أو الأمر [به]، أو حمدُ العاقبة، ونحو ذلك. ثم جعل العقل مانعًا له، رادًا عما يرغب إليه الطبع ويميل، لأن الطبع[٩] أبدًا يميل ويرغب[١٠] إلى ما هو ألذّ، وأشهى وأخف عليه، وينفِر عما[١١] يضرّه ويؤلمه. والعقل لا ينفر إلا عما هو[١٢] القبيح في نفسه، ويرغب فيما هو الحسن في نفسه. وعلى ذلك يخرج قوله صلى الله علي وسلم: «حُفَّت[١٣] الجنة بالمكاره و[حُفت]النار بالشهوات»،[١٤] ليس على كراهة العقل ولا على شهوة العقل، ولكن[١٥] على كراهة الطبع وشهوته. وكذلك قوله: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ،[١٦] ليس على كراهة الاختيار، ولكن كراهة الطبع؛ لأن كراهةَ العقل كراهةُ الاختيار، وكذلك رغبة العقول رغبةُ[١٧] الاختيار. وفيها تجري الكلفة

---

[١] يقول علاء الدين السمرقندي رحمه الله: «قال الحسن: ما زينها إلا الشيطان إذ لا أحد أذم لها ولأهلها من الله تعالى. فقوله: ﴿زين للناس﴾ فعل ما لم يسم فاعله، فأقسم الحسن على أن فاعله هو الشيطان لا الله، إذ الله تعالى قدم ذم الدنيا وأهلها في كثير من المواضع. فأنى يستقيم إضافة التزيين إليه إذ بعيد أن يزين شيأ ثم يذمه ويستقبحه. فإلى هذا القول يذهب المعتزلة» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٠٤/و).

[٢] م: أنها.

[٣] ع: يقع.

[٤] ك ع م: تزين؛ ن – تزيين.

[٥] ع – والطبع.

[٦] جميع النسخ: حسن.

[٧] جميع النسخ: تزين.

[٨] جميع النسخ: فيما.

[٩] ع – ويميل لأن الطبع.

[١٠] ك – ويرغب.

[١١] ن: مما.

[١٢] م – هو.

[١٣] ن ع: خفت.

[١٤] *مسند أحمد بن حنبل*، ٢/٢٦٠، ٣/١٥٣، ٢٥٤، ٢٨٤؛ وصحيح *مسلم*، الجنة ٢١؛ وسنن *أبي داود*، السنة ٢٢.

[١٥] ك ع م: لكن.

[١٦] سورة البقرة، ٢/٢١٦.

[١٧] ع م – العقول رغبة.

أعني على اختيار العقل لا اختيار الطبع بما يميل ويرغب في الألذ، وينفر عن المضار.[1] دليله قوله:[2] فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا،[3] أخبر أنهم لا يؤمنون ما وجدوا في قضائه حرجًا. فدلت الآية أن الخطاب والكُلفة إنما يكون[4] على اختيار العقل وكراهيته، لا على اختيار الطبع. لذلك قلنا: إنه يجوز التزيين[5] في الطبع من الله تعالى، وكذلك الكراهية[6] في الطبع تكون[7] من الله تعالى.

فأما قولهم: إن الشيطان هو الذي زينها. فإن عنوا أنه يزينها لهم، أي يرغّبهم[8] ويدعوهم إليها ويريهم زينتها فنعم. وإن عنوا أنه يزينها بحيث نفسها لهم فلا، لأن[9] الله تعالى وصف الشيطان بالضعف ونفى عنه هذه القدرة، بقوله: إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا.[10] فلو جعلنا التزيين[11] لهم على ما قالوا لم يكن كيده على ما وصفه عز وجل بالضعف، ولكن كان قويًا. ولكنه يدعوهم إليها ويرغبهم فيها ويريهم المزيَّن لهم. ثم دعاؤه إياهم وحجته في ذلك وقوته من حيث ما لا يُطَّلع عليه بقوله: إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ.[12] فالعدو الذي يَرَى هو من يعاديه ولا يُرى هو كان يجب أن يكون أحذر منه وأخوف ممن يُرى.

ووجه أخر، [وهو] أن الشهوات التي أضاف التزيين[13] إليها لا خلاف بينهم [وبيننا] في أنها مخلوقة لله تعالى، فما بقي للشيطان إلا الدعاء إليها، / والترغيب فيها. وفيه وجه أخر، [٧٦و]
[وهو] أنه لو لم يُجعل هذا مزيَّنًا[14] من الله تعالى [لـ]زال موضع الاستدلال بالشاهد[15] على الغائب،

[1] ع: الضار.
[2] ن ع م – قوله.
[3] سورة النساء، ٤/٦٥.
[4] ك: تكون.
[5] جميع النسخ: التزين.
[6] جميع النسخ: الكراهة.
[7] ك ن ع: مكره؛ م: تكره.
[8] م – أي يرغبهم.
[9] ن: أن.
[10] سورة النساء، ٤/٧٦.
[11] جميع النسخ: التزين.
[12] سورة الأعراف، ٧/٢٧.
[13] جميع النسخ: التزين.
[14] ك: مرئيا؛ م: مرتبا.
[15] جميع النسخ: استدلال الشاهد.

وبالدنيا[١] على الآخرة. وقد[٢] جعل ما في الدنيا[٣] نوعين: مستحسنًا ومستقبَحا، وجعل ذلك عِيارا لما أوعد ووعد. فلما لم يكونا منه [في الدنيا] لم يصح[٤] موضع الاعتبار،[٥] لأنه جل وعلا بلطفه سخر كل مرغوب في الدنيا ومدعو[٦] إليه من جوهره في الآخرة، وحسَّنه[٧] ليرغِّب الناسَ هذا إلى ما في الجنة بحسنه ولطفه وزينته،[٨] ويدعوهم إلى ترك ما في الدنيا من الفاني إلى نعيم دائم أبدًا. فلو جعل هذا من تزيين[٩] الشيطان -لعنه الله- ومَصْنوعه لهم لذهب[١٠] عظيم موضع الاستدلال الذي ذكرنا. فدل أنه مزين منه عز وجل. تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

ثم امتحنهم الله عز وجل بترك ما زُيِّن لهم في الطباع بما ركَّب لهم من العقول الوافرة، ليختاروا ما حسن في العقول وتزين. وعلى[١١] ذلك جرت الكُلْفة والخطاب، لا بما مالت إليه الطباع ونفرت عنه العقول. *وبالله التوفيق*.

والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة، *ثم في الآية دلالة وجوب الحق في كل ما ذكر في الآية من المال، وكذلك الخيل. وأما في النساء والبنين فلما مَتَّعوا بهم أوجب[١٢] عليهم النفقة.* وكذلك[١٤] أوجب في النساء عليهم النفقة وكذلك البنين، وأوجب في الذهب والفضة حقا. ثم ذَكَر الخيل المسومة أن كان المراد منه جَعْلَها سائمة؛[١٥] لذلك قال أبو حنيفة رضي الله عنه:

---

[١] ك: بالدنيا.

[٢] م: قد.

[٣] ع – قد جعل ما في الدنيا.

[٤] م: لا يصح.

[٥] ك ع: التعيير؛ ن: التغيير؛ م: التعبير.

[٦] جميع النسخ: ومدعوا.

[٧] ن ع: وحسنة.

[٨] ع: وريثته.

[٩] ك ن ع: تزين.

[١٠] ك ن ع: يذهب.

[١١] ع م: على.

[١٢] ن: وجب.

* وقع ما بين النجمتين في جميع النسخ قبل ﴿والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة﴾.

[١٤] جميع النسخ: كذلك.

[١٥] يقول السمرقندي ما يقوله الإمام: «ثم [في] الآية إيجاب الحق والصدقة في الخيل السائمة؛ لأن الله تعالى أوجب الحق في كل ما ذكر في الآية من النساء، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة. فإنه أوجب عليهم في النساء والبنين النفقة، وأوجب في الذهب والفضة حقا هو الزكاة، وكذلك أوجب في الحرث والأنعام حقا وهو العشر والصدقة. فكذا يجب أن يكون في الخيل المسومة حقا وهو الزكاة. فيكون الآية بظاهرها حجة لأبي حنيفة في إيجاب الصدقة في الخيل المسومة» (*شرح السمرقندي*، ورقة ١٠٤ ظ).

إن في الخيل صدقة.[1] ثم اختلف في **المسومة**، قال بعضهم: هي[2] المسيَّبة الراعية.[3] وقال آخرون: هي الْمُعْلِمة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: المسوَّمة الراعية.[4] وقال غيرهم: المطهّمة[5] وهي المحسَّنة.[6]*

ثم اختلف في **القناطير المقنطرة**، منهم من قال: ألف ومائتا[8] أُوقِيَة. ومنهم من قال: اثنا[9] عشر ألفا. ومنهم من يقول: سبعون ألف دينار. ومنهم من يقول: هو بلسان الرومية ملء مَسْكِ[10] ثورٍ ذهبًا[11] أو فضة. ومنهم من يقول: كل مائةِ قنطارٍ من كل شيء. وهو اسم المال العظيم الكثير، لا ندري ما مقداره، وليس[12] لنا إلى معرفة قدره حاجة ولا فائدة، إنما الحاجة إلى معرفة الرغبة فيما كثر من المال؛ إذ ليس قدر أحقُّ بأن يحمل عليه الرغبة من الآخر.[13] ***والله أعلم.***

[٧٦و س ١٣] *ثم أخبر أن ما ذكر في الآية هو متاع الحياة[14] الدنيا. أمرهم بترك ذلك، وأخبر[15] أن لهم عنده حسنَ المآب إن هم تركوا ما امتحنوا[16] [به]. ثم قال: إن من اتقى في الدنيا له خير[17] من ذلك،

---

[1] انظر: *المبسوط* للشيباني، ٢/٦٤؛ شرح *معاني الآثار* للطحاوي، ٢/٢٩؛ و*تحفة الأحوذي* للمباركفوري، ٣/٢١٦.

[2] م: وهو.

[3] ن – الراعية.

[4] *تفسير الطبري*، ٣/٢٠٢.

[5] م: المطهرة.

[6] ك: المحسنة. والسُّومَةُ والسِّيمةُ والسِّيماء والسِّيمِياءُ: العلامة. وسَوَّمَ الفرسَ: جعل عليه السِّيمة. وقوله عز وجل: حجارةً من طينٍ **مُسَوَّمَةً** عند ربك للمُسْرفين؛ قال الزجاج: روي عن الحسن أنها **مُعَلَّمة** ببياض وحمرة، وقال غيره: **مُسَوَّمة** بعلامة يعلم بها أنها ليست من حجارة الدنيا ويعلم بسيماها أنها مما عَذَّبَ اللهُ بها؛ الجوهري: **مُسَوَّمة** أي عليها أمثال الخواتيم. الجوهري: السُّومة، بالضم، العلامة تجعل على الشاة وفي الحرب أيضا. قال ابن الأَعرابي: إِبل هَمَلى مُهْمَلة، وإِبل هَوامِل **مُسَيَّبة** لا راعي لها. **المُطَهَّمُ** من الناس والخيل: الحَسَنُ التامُّ كلُّ شيء منه على حدته فهو بارِعُ الجمالِ. فرسٌ مُطَهَّم ورجل مُطَهَّم (*لسان العرب*، «سوم»، «سيب»، «طهم»).

* ورد هنا مقطع من تفسير الآية مقدما، فنقلناه إلى هنالك. انظر: ورقة ٧٦و/سطر١٣–١٥.

[8] جميع النسخ: مائتي.

[9] جميع النسخ: اثني.

[10] الْمَسْك: الجلد (*لسان العرب*، «مسك»).

[11] جميع النسخ: ذهب.

[12] ع م: ليس.

[13] ع م: من الأمر.

[14] ع م – الحياة.

[15] م: أخبر.

[16] جميع النسخ: مما امتحنوا.

[17] جميع النسخ: خير له.

بقوله: قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ[١] إلى آخره.* [٧٦و س ١٥]

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[١٥]

*وقوله: **للذين اتقوا**، يحتمل: **اتقوا** الشرك. ويحتمل **للذين اتقوا**، الفواحش والمعاصي كلها.* [٧٦و س ٢٤]

وقوله: **خالدين فيها وأزواج مطهرة**. قيل: مطهرة[٤] من الآفات كلها، من الأخلاق السيئة والأقذار والعيوب كلها. وقد ذكرنا فيما تقدم في صدر السورة؛[٥] قال: وكل أهل الجنة مطهرة من جميع المعايب، لأن العيوب في الأشياء عَلَم الفناء، وهم خلقوا للبقاء؛ إلا أن الذكر جرى للنساء بما[٦] ظهر في الدنيا من فضل المعايب والأذى.

﴿اَلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١٦]

وقوله: **الذين يقولون ربنا إننا آمنا**، الآية، قد رضي عنهم[٧] بهذا القول، وفيه تزكية لهم. ولو كان الإيمان جميع الطاعات لم يرض منهم التزكية بها.[٨] وقد أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن للذين[٩] اتقوا عند ربهم في الجنة خيرا[١٠] من هذا الذي زين[١١] للناس في الدنيا من النساء وما ذكر إلى آخره.[١٢]*

---

[١] الآية التالية.

* ورد ما بين النجمتين مقدما عن موضعه فنقلناه إلى هنا. انظر: ورقة ٧٦و/سطر١٣-١٥.

* ورد ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه فنقلناه إلى هنا. انظر: ورقة ٧٦و/سطر٢٤-٢٥.

[٤] ع م - قيل مطهرة.

[٥] انظر: سورة البقرة، ٢/٢٥.

[٦] جميع النسخ: لما، والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١٠٥و.

[٧] ك - عنهم؛ ع م: منهم.

[٨] يقول علاء الدين السمرقندي: «الله تعالى مدحهم بهذا القول ورضي عنهم هذا القول. وفيه تزكية أنفسهم بإتيان الإيمان. والله تعالى نهى عن تزكية الأنفس -ووصفها [أي التزكية] بالطاعة لله تعالى والعبادة له- وقال: ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ (سورة النجم، ٣٢/٥٣). ولو كان الإيمان اسما لجميع الطاعات لم يرض منهم التزكية بالإيمان، كما لم يرض التزكية بسائر الطاعات. فتكون الآية حجة على من جعل الطاعات من الإيمان» (*شرح التأويلات*، نسخة حميدية، ورقة ١٠٥و؛ ونسخة المدينة، ورقة ١١٩ظ).

[٩] ن: الذين.

[١٠] ن ع م: خير.

[١١] ك - التزكية بها وقد أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن للذين اتقوا عند ربهم في الجنة خيرا من هذا الذي زين.

[١٢] يشير المؤلف رحمه الله إلى الآيتين السابقتين.

* وردت هنا فقرة من تفسير الآية السابقة فنقلناها إلى هنالك. انظر: ورقة ٧٦و/سطر٢٤-٢٥.

﴿اَلصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾[١٧]

وقوله: **الصابرين**، قيل: **الصابرين** على طاعة الله. وقيل: **الصابرين**[١] على أداء الفرائض. وقيل: **الصابرين** على الرزايا[٢] والمصائب والشدائد. والصبر هو حبس النفس عن جميع ما تهوَى وتشتهي.

وقوله: **والصادقين**، قيل: في إيمانهم. وقيل: **الصادقين** بما وعدوا، وقيل: **الصادقين** في جميع ما يقولون ويخبرون.* **والقانتين**، قيل: القانت الخاضع، وقيل: القانت المطيع، وقيل: الخاشع، وكله يرجع إلى واحد؛ وأصله القيام، وكل من قام لآخر كان مطيعًا وخاشعًا وخاضعًا ومقرًّا. وقيل: القانت المقر. كقوله: كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ،[٣] أي مقرون.* **والمنفقين**، يحتمل الإنفاق ما لزم في أموالهم[٥] من الزكوات والصدقات. ويحتمل **المنفقين** المؤدين حقوق بعضهم بعضا من حق القرابة والصلة. وقال قتادة:* **الصابرين**: الذين صبروا على طاعة الله وصبروا عن محارمه، **والصادقين**: الذين صدقت نيّاتهم، واستقامت قلوبهم وألسنتهم، وصدقوا في السر والعلانية. **والقانتين**: المطيعين،[٦] **والمنفقين**، يعني نفقة أموالهم في سبيل الله.

والمستغفرين بالأسحار، قيل:[٧] المصلين بالأسحار. وقيل: المصلين في أول الليل، والمستغفرين في آخره. وأصل الاستغفار طلب المغفرة مما ارتكب من المآثم على ندامة القلب، والعزيمةُ على ترك العَود إلى مثله أبدًا. ليس كقول[٨] الناس: أستغفر الله،[٩] على غير ندامة القلب. وأصل الاستغفار في الحقيقة طلب المغفرة بأسبابها، ليس أن يقول بلسانه: اغفر لي، كقول[١٠] نوح عليه السلام لقومه:[١١] إِسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ،[١٢] أمرهم بالتوحيد. ثم أخبر عز وجل أن الجنة هي للصابرين[١٣] والصادقين إلى أخر ما ذكرنا.[١٤] *والله أعلم*.

---

[١] ك - الصابرين.
[٢] ك ن: على المراذي؛ ع: المرازي؛ م: المرادي. والرزايا جمع الرزية، وهي المصيبة العظيمة (*لسان العرب*، «رزأ»).
[٣] سورة البقرة، ١١٦/٢.
* ورد ما بين النجمتين بعد تأويل قوله تعالى: ﴿والمنفقين﴾ في جميع النسخ، فنقلناها إلى هنا، انظر: ورقة ٧٦و/سطر ٢٩.
[٥] م: من أموالهم.
[٦] جميع النسخ + والمستغفرين بالأسحار.
[٧] ن: وقيل.
[٨] ع: كقوله.
[٩] ك ن ع: نستغفر الله.
[١٠] ع: كقوله.
[١١] ع م - لقومه.
[١٢] ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا﴾ (سورة نوح، ١٠/٧١).
[١٣] ع: الصابرين.
[١٤] ع: ذكرنا.

﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١٨]

وقوله: **شهد الله أنه لا إله إلا هو**، قيل فيه بوجوه. قيل: **شهد الله** شهادة ذاتية، أي هو بذاته **لا إله إلا هو**، إذ في ذاته ما تليق[١] الشهادة بمثله له من الألوهية والربوبية، وليس ذلك في ذات غيره. ***وبالله العصمة***. وقيل: **شهد الله**، بما خلق من الخلائق، **أنه لا إله إلا هو**، أي خلق من الخلائق ما يشهد خلق[٢] كل أحد على وحدانيته[٣] / وإلٰهيته[٤] لو نظروا في خلقتهم [٧٦ظ] وتدبروا فيها. وكذلك الملائكة وأولوا العلم شهدوا أنه لا إله إلا هو على تأويل [القول] الأول. وعلى التأويل الثاني[٥] أن خلقة الملائكة وأولو العلم يشهد على وحدانيته، فشهدوا على ذلك إلا الجهال، فإنهم لم يتأملوا في أنفسهم ولا تفكروا[٦] فيها،[٧] فلم يشهدوا به؛ لأنه أمر الرسل والأنبياء عليهم السلام بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فقوله وأمرُه به شهادةٌ منه. ويحتمل شهادةَ القول كقوله: إنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ.[٨] وذلك[٩] من الله الربوبية، ومن الخلق العبودية له، فيجب أن يَعرف الربوبية من العبودية. ففيه دلالة خلق الإيمان، فمن قال: إنه غير مخلوق لم يعرف ذا من ذاك.[١٠] ***وبالله التوفيق***. وقيل: **شهد الله**، أي علم الله، **أنه لا إله إلا هو**، وكذلك عَلِم **الملائكةُ وأولو العلم**، أنه لا إله إلا هو.

فإن قال لنا ملحد: كيف صح وهو دعوى؟

قيل: لأن دعوى من ظهر صدقه[١١] في شهادته إذا شهد[١٢] مقبولٌ. وهو بما ادعى من الألوهية والربوبية إذا لم يستقبله أحد ظهر صدقه[١٣] وقهرُ كل مكذِّب له في دعواه. ***وبالله النجاة***.

---

[١] ك ع: يليق.
[٢] جميع النسخ: خلقه.
[٣] ع: وحدانية؛ م: أحد وحدانيته.
[٤] ك: وإلاهيته؛ ع: وإلهية.
[٥] ع - الأول وعلى تأويل الثاني.
[٦] ع م: ولا يتفكروا.
[٧] جميع النسخ: في أنفسهم.
[٨] سورة الأحزاب، ٥٦/٣٣.
[٩] أي الشهادة لله بأن لا إله إلا هو.
[١٠] أي لم يعرف الشهادة من الله والشهادة من الخلق و لم يميز بينهما.
[١١] ع م: صدقة.
[١٢] ع م + وهو.
[١٣] ع: صدقة.

وقوله:[1] **قائما بالقسط**، أي [هو] حافظ ومتولّ،[2] كقوله: قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ،[3] أي حافظ لها ومتولّ. كما يقال: فلان قائم على أمر فلان، أي حافظ لأمره[4] ومتعاهد لأسبابه.

{قال[5] الشيخ رحمه الله:} وقيل: [**قائما بالقسط**] هو[6] عادل، أي لا يجور، لا أن ثَمّ معنى القيام، كقوله: قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ،[7] [أي] مقسطين، لا أن ثَمَّ للقيام فيه معنى يسبق الوهم إليه. ***والله أعلم***.

*وقوله: **قائما بالقسط**. قيل: هو عادل لا يجور،[8] لا أن[9] للقيام معنى في ذلك، كقوله:[10] كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ،[11] بمعنى كونوا عادلين مقسطين.[12] ***والله أعلم***. وقيل: [هو] قيامُ تولّ[13] وحفظ، أو كفاية وتدبير، كما يقال: فلان قائم بأمر كذا، لا على توهم الانتصاب،[14] وعلى ذلك قوله: أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ.[15]*

[٧٦ظ س٣٤] * قوله عز وجل: **شهد الله أنه لا إله إلا هو**، هي[18] شهادة ربوبية لا يتوهم له كيفية، ولا يخطر بالبال له ماهية،[19] ولا يحتمل الوصول إلى حقيقة ذلك بالتفكر، ولا أن يحتمل بلوغ العقل الوقوف على ذلك. إذ هو[20] خَلْق قصر عن الإحاطة بماهية[21] نفسه، وعن إدراك وجه قيامه بالمحل الذي[22]

---

[1] ن: قوله.
[2] جميع النسخ: ومتولي.
[3] ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ (سورة الرعد، ١٣/٣٣).
[4] ع: الأمر؛ م: لأمر.
[5] ع م: وقال.
[6] ع م – هو.
[7] سورة النساء، ٤/١٣٥.
[8] ن ع م: لا يجوز.
[9] ك: لأن.
[10] ن ع م: لقوله.
[11] سورة النساء، ٤/١٣٥.
[12] ع: بالقسط.
[13] ن ع م: تولي.
[14] جميع النسخ: انتصاب. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ١٠٦و.
[15] ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء﴾ (سورة الرعد، ١٣/٣٣).
* ورد ما بين النجمتين في غير موضعه فنقلناه إلى هنا. انظر: ورقة ٧٧و/سطر٣١-٣٣.
* وردت عدة صفحات من تفسير الآية فنقلناها إلى هنا. انظر: ورقة ٧٦ظ/سطر٣٤-٧٧و/سطر٢٥.
[18] ك ن ع: هو؛ م – هي.
[19] جميع النسخ: المائية.
[20] أي الإنسان.
[21] جميع النسخ: بمائية.
[22] جميع النسخ: بالذي، والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١٠٥/و.

ركب [فيه] أو تحديدِ[١] نفسه. وهو تحت جميع ما ذكرت، إذ هو خلْق وحَدَث، جرى عليه التدبير ودخل تحت التقدير. فالربوبية أحق أن ينحسر[٢] عنها الأوهام وتَكِلَّ[٣] عن توهم إدراكها الأفهام.

وعلى ذلك أمر تكوين الله الأشياء – على ما شُهدت الأشياء التي هي تحت التكوين– في العبارة[٤] لا على توهم في التكوين معنىً[٥] تحتمله[٦] الأفهام، وتبلغه[٧] / العقول. و إنما هو عبارة بها [٧٧و] جعل لا يقف على العبارات عن المتعالي[٨] عن صفات الخلق المحقَّقِ له الجلالُ عن جهاتهم إلا من[٩] حيث المفهوم في الخلق للتقريب إلى الأفهام دون تحقيق المفهوم مما عن العبارة عنه قدرت العبارات في الإخبار عن الله. سبحانه وتعالى عن ذلك.[١٠] وعلى هذا القول "الله" و"الرحمن" وجميع ما يتعارف الخلق من الأسماء على ما يقرّب إلى الأفهام،[١١] المراد بها، لا تحقيقُ الحروف أو إدخال تحت تركيب الكلام وتأليف العبارة. وهذا معنى معرفة وحدانيته[١٢] من جهة ضروراتٍ توجب المعرفة على الوصف بالسبحانية له عن معاني جميع المعروفين. *وبالله العصمة والمعونة.*[١٣]

---

[١] جميع النسخ + من حيث.

[٢] ع: يتحسر؛ م: يخبر. حسِر البصر يحسَر حُسورا: كلّ وضعف (*لسان العرب*، «حسر»).

[٣] ك ع م: يكل.

[٤] ك: في العبادة.

[٥] ك: ومعنى.

[٦] ن ع م: يحتمله.

[٧] ك: ويبلغه؛ ع م: أو تبلغه.

[٨] ن: التعالي.

[٩] ع: لا من.

[١٠] ع م – عن ذلك.

[١١] ع م: من الأفهام.

[١٢] م: وحدانية.

[١٣] يقول علاء الدين السمرقندي: «وعلى ذلك أمر تكوين الله تعالى الأشياء وخلقه إياها، لا على توهم معنى تحتمله الأفهام وتدركه العقول في الشاهد من التكوين والفعل الموجود من الخلق، بل هو ربوبية تتعالى عن صفات الحدث. لكن يعبّر بعبارة قُدّرت لتحقيق المعنى في الشهادة على ما يليق بهم، لحاجتنا إلى عبارة نفهم بها هذه الصفة عن الله تعالى في التقريب أو في أفهام الخلق، دون المشابهة في تحقيق المفهوم؛ فأنّى يشابه الحدث القديم؟ و لم توجد عبارة في الإخبار عن صفات الله تعالى الأزلية المتعالية عن شبه الخلق سوى العبارات الموضوعة في الخلق، فعبر بأنها على اعتقاد نفي التشابه والإقرار بالمخالفة. وكذلك نقول في سائر صفاته من العلم والقدرة والسمع والبصر، وكذا في جميع أسمائه من الله تعالى، والرحمن، والرحيم وجميع ما يتعارف الخلق من أسمائه العُلَى، على ما يقرب المراد بها إلى الأفهام بلا تحقيق الحروف أو الإدخال تحت تركيب الكلام وتأليف العبارة. وهذا لأنه قام دلالات ضرورية توجب القول بثبوت ذاته بصفاته العُلَى وأسمائه الحسنى، وهي ما نشاهده من العالَم المتقَن المحكم بما فيه من البدائع والعجائب، لكن على الوصف بالسبحانية والتنزيه عن معاني جميع العالم، حتى لا يتحقق بأجزاء العالم بتحقق المشابهة والأوصاف، فيجب القول بتعطيل الدلائل الضرورية مع قيامها حقيقة. فكان ما قلنا هو التوحيد المحض. والله الموفق» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٠٥و–ظ).

ثم قد يحتمل[١] أن يُؤْذَن في العبارة عن ذلك بما هو ألطف وأدفع للتوهم، توهّمِ ما لعل للقلب عند ذكر الشهادة فضل خِبْرة[٢] ليس عند تلك العبارة. وذلك يخرج على وجوه في الاحتمال لما يسعه[٣] عقولنا، دون القطع على شيء مما وقع[٤] عندنا [بما] يمكن الرجوع إليه. ***والله سبحانه أعلم.***

من ذلك شهادة[٥] الخلائق كلهم [ب]ما فيها من آثار الصنعة ودلالة الربوبية وشهادة الألوهية، لتكون شهادة بالذي ذكر بأن[٦] لا إله إلا هو، إذ في كل شئ سواه هذه الشهادة بالصنعة التي جعلها هو فيه له.[٧] ***والله أعلم.***

والثاني أن يكون بذاته متعاليا[٨] عن جميع معاني مَن سواه مِن المعاني التي أدخلتها [تحت] اسمِ المربوب،[٩] وصيرت[١٠] كل شيء في الحقيقة له [عبدا][١١] عند توهم المعبود،[١٢] ولا يستحق[١٣] غيره[١٤] آثار أحديته[١٥] والجهات[١٦] المدخلة تحت القدرة والتدبير. وهو بذاته متعال عن كلية الجهات والمعاني التي بها كانت[١٧] بعد أن لم تكن، وبها صارت مربوبة عبدا. وهو متعال أيضا عن الوصف بالجهات[١٨] والمعاني،[١٩] بل هو خلقها[٢٠] للخلق.[٢١] ***ولا قوة إلا بالله.***

---

[١] ن: ثم يحتمل.
[٢] ك م: حيرة. والخبرة: علم الشيء بحقيقته وكنهه، أو علم الشيء عن تجربة. انظر: *لسان العرب*، «خبر».
[٣] ن: يسع.
[٤] ك: بما وقع.
[٥] ع م: بشهادة.
[٦] ك – بأن.
[٧] ن – له.
[٨] جميع النسخ: متعالى.
[٩] جميع النسخ: مربوب.
[١٠] جميع النسخ: وظهر.
[١١] الزيادات والتصحيحات مستفادة من *الشرح*، ورقة ١٠٥ظ.
[١٢] ع + له.
[١٣] ك ن ع: لا يستحق.
[١٤] جميع النسخ + غير.
[١٥] جميع النسخ: الحدية.
[١٦] جميع النسخ: وجهان.
[١٧] ك: كانت بها.
[١٨] ع: والجهات.
[١٩] ن + التي بها كانت.
[٢٠] جميع النسخ: خلق.
[٢١] جميع النسخ: وللخلق.

ويحتمل **شهد**، عَلِم.[١] وكذا كل[٢] من شهد الشيء فقد علم. يخبر[٣] خلقته بـ[أنه] إله العالم،[٤] وأنه واحد لا شريك له، إله الكل وخالقهم؛ ليعلموا أن ما أَعْلَمهم أنه كما أخبر. وفي ذلك نقض[٥] قول كثير ممن ينفون[٦] عن الله تعالى أنه عالمُ وشاهدُ كل شيء. ***والله الموفق.***

ويحتمل: **شهد** على الخلائق[٧] أن يكون عليهم القول والاعتقاد بأنه[٨] لا إله غيره، بمعنى قضى وأمر. ***والله الموفق.***[٩]

وليس فيما جمعه الله بشهادة من ذكر توهُّم معنى [زائد] لشهادة[١٠] من ذَكر. مع ما قد يُحتمل -لَمَّا جمع إلى شهادته[١١] شهادة من ذكر- وجهان. أحدهما [بيان] فضل من ذكر، بما ذكر[١٢] شهادتَه عند ذكر شهادتهم، على نحو قوله: وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ،[١٣] الآية، أنه ذكر ما له وإن كان له الخلق كلُّه بوجهين. أحدهما بما جعل ذلك[١٤] لوجوه العبادة، كما أضاف إليه المساجد[١٥] على أنها وغيرها له، و[كما] ذكر في الملائكة الذين عنده،[١٦] وفي أمر القيامة: وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ،[١٧] ونحو ذلك. [وهو] إما مخصوص لما ذكر من الأوقات في فضل، أو غيره[١٨] جعله له.[١٩] أو لما كان ذلك[٢٠] لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فنسب إليه،

---

١ ع: عليهم.
٢ ك: وكذلك.
٣ ك م: مخبره.
٤ أي يخبر خلقة الكون بأن الله إله العالم.
٥ جميع النسخ: وذلك في نقض.
٦ ك: تنفون.
٧ ع: عن الخلائق.
٨ ك ع م: أنه؛ ن: وأنه. والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١٠٥/ظ.
٩ ك - ويحتمل شهد على الخلائق أن يكون عليهم القول والاعتقاد بأنه لا إله غيره بمعنى قضى وأمر والله الموفق.
١٠ جميع النسخ: لشهادته.
١١ ع م: لشهادته.
١٢ ع م - بما ذكر.
١٣ ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ (سورة الأنفال، ٤١/٨).
١٤ أي تقسيم الغنيمة.
١٥ لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا﴾ (سورة الجن، ١٨/٧٢).
١٦ لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون﴾ (سورة النساء، ١٧٢/٤).
١٧ انظر مثلا: سورة المائدة، ١٨/٥.
١٨ جميع النسخ: أو غير.
١٩ جميع النسخ: جعل له.
٢٠ ك - ذلك.

أو كان لكلية[1] المعاني للعبادة. فمثله أمر شهادات[2] من ذكر، قرنها[3] بشهادة الله تفضيلا لأولئك وتخصيصا[4] من بين الخلائق. *والله أعلم*.

والثاني على كون الشهادة من الإخبار بحق الأمر؛[5] نسبه إليه [كما نسب إليه تعالى] كتابة الألواح،[6] ونفخ جبريل الروح بما كان منه أمر به؛[7] فكذا فعله في الإضافة إليه. *والله أعلم*.

ثم حق ذلك فيما على التحقيق أن يفهم ما عن الله [شهادة] ربوبية وعن العبد [شهادة] عبودية. وعلى[8] [ذلك] جميع ما يضاف إلى الله أنه يفهم من غير الوجه الذي يضاف إلى الخلق

٧٧و س ٢٥] فمثله أمر الشهادة. *والله أعلم*.*

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[١٩]

وقوله: **إن الدين عند الله الإسلام**، قال قائلون: **إن الدين**[10] الذي هو حق من بين[11] الأديان، هو **الإسلام**؛ لأن كل أحد منهم مما دان دينا يدعي أنه هو دين الله الذي أمر[12] به. وقال قوم: إن الدين الذي أمر به الآمر من عند الله هو دين[13] الإسلام؛[14] لأنهم كانوا مع اختلافهم مقرين[15] بالإيمان، لكن بعضهم لا يقرون بالإسلام؛ فأخبر عز وجل أن الدين الذي أمر به، وفيه التوحيد،

---

[1] ك: بكلية.

[2] ع: أمر الشهادات.

[3] م: من ذكرهما.

[4] م + لأولئك وتخصيصا.

[5] أي يمكن أن يكون: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ بمعنى: اشهدوا أنه لا إله إلا هو.

[6] يشير إلى قوله تعالى: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء﴾ (سورة الأعراف، ١٤٥/٧).

[7] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾ (سورة التحريم، ١٢/٦٦).

[8] جميع النسخ: على.

* وقع ما بين النجمتين متقدما على موضعه في تفسير الآية، فأخرناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٧٦ظ/سطر ٣٤ - ٧٧و / سطر ٢٥.

[10] م - الدين.

[11] ك: بين.

[12] ع: أمره.

[13] ن - دين.

[14] ع م - هو دين الإسلام.

[15] ك: مقرون.

هو دين[١] الإسلام لا غيره.[٢] ألا يُرَى أنه قال: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا،[٣] أخبر عز وجل أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ليس على دين سوى دين الإسلام. والإسلام[٤] هو الإخلاص على ما ذكرنا فيما تقدم.[٥] وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ شهدوا وَأُولُو الْعِلْمِ،[٦] أن الدين عند الله الإسلام، وأنه قائم بالقسط.[٧] والقسط هو العدل في جميع القرآن.

وقوله تعالى: **وما اختلف الذين أوتوا الكتاب [إلا من بعد ما جاءهم العلم]**، يحتمل وجهين. يحتمل الاختلاف التفرق؛ أي تفرقوا في الكفر، كقوله: وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا،[٨] الآية. ويحتمل الاختلافُ نفسَ الاختلاف في الدين، كقوله: وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَنْ كَفَرَ،[٩] أخبر أنهم لم يختلفوا عن جهل[١٠] ولكن عن علم وبيان، كقوله: **إلا من بعد ما جاءهم العلم.**[١١]

ثم يحتمل[١٢] قوله: **إلا من بعد ما جاءهم العلم**، وجهين؛[١٣] أي لم يختلفوا إلا من بعد ما علموا وعرفوا. ويحتمل أي[١٤] لم يختلفوا إلا من بعد ما أوتوا من أسباب، ما لو تفكروا [فيه] وتدبروا لوقع العلمُ لهم بذلك والبيانُ، لكنهم تعنّتوا وكابروا فاختلفوا.

ثم في الآية دليل أنه لا يجوز[١٥] أن يفسر قوله: وَجَاءَ رَبُّكَ،[١٦] وقوله: إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ،[١٧]

---

[١] ن ع م - دين.
[٢] ع م: وغيره.
[٣] سورة آل عمران، ٦٧/٣.
[٤] ع: وبالإسلام.
[٥] انظر: سورة البقرة، ١١٢/٢.
[٦] الآية التالية.
[٧] انظر: *تنوير المقباس من تفسير ابن عباس*، ٥٧.
[٨] ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ (سورة آل عمران، ١٠٥/٣).
[٩] سورة البقرة، ٢٥٣/٢.
[١٠] ن ع م: من جهل.
[١١] ن + وجهين.
[١٢] ع: يختلفوا.
[١٣] ع - وجهين.
[١٤] ع م - أي.
[١٥] جميع النسخ: أن لا يجوز.
[١٦] سورة الفجر، ٢٢/٨٩.
[١٧] سورة البقرة، ٢١٠/٢.

ونحوه بالانتقال[1] من حال إلى حال، ومن مكان[2] إلى مكان، لأنه ذكر مجيء العلم، والعلم لا يوصف بالمجيء ولا [ال]ذهاب. وكذلك قوله: قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ،[3] ذكر مجيء الحق وزَهْق الباطل،[4] وهما[5] لا يوصفان بمجيء الأجسام وذهابهم، [ولا] بالانتقال والتحول من مكان إلى مكان، ولا يعرف ذلك ولا يصرف إليه. فعلى ذلك لا جائز أن يصرف قوله: وَجَاءَ رَبُّكَ،[6] و اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ،[7] ونحوه إلى المعروف من استواء الخلق ومجيئهم، لتعاليه عن ذلك.

{قال:} والمجيء لا يكون عن الانتقال خاصة، بل يكون مرة ذاك وأخرى غيره،[8] وكذلك الإتيان. ***والله أعلم***.

وقوله: **بغيا بينهم**، قيل:[9] حسدا بينهم؛ لأنهم طمعوا أن يبعث الرسول صلى الله عليه وسلم من بني إسرائيل على ما بعث سائر الرسل بعد إسرائيل منهم، فلما بعث من غير بني إسرائيل حسدوه وخالفوا دينه الإسلام. ويحتمل **بغيا** من البغي، وهو الجور.

وقوله: **ومن يكفر بآيات الله**، أي من المختلفين، **فإن الله سريع الحساب**، كأنه على الإضمار، أي[10] قل يا محمد: **ومن يكفر بآيات الله** من بعد ما جاءهم العلم والبيان، **فإن الله سريع الحساب**؛[11] لأن ظاهر الجواب على غير إضمار أن يكون: **ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب**، أي العذاب -والله أعلم-[12] وله[13] ثلاثة[14] أوجه.[15]

---

[1] ك ع م: الانتقال؛ ن: والانتقال. والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١٠٦ظ.

[2] ك: أو من مكان.

[3] سورة الإسراء، ٨١/١٧.

[4] ن ع - ذكر مجيء الحق وزهق الباطل.

[5] جميع النسخ: فهما، والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١٠٦ظ.

[6] سورة الفجر، ٢٢/٨٩.

[7] انظر مثلا: سورة الأعراف، ٥٤/٧.

[8] «لكن يحمل على ما يحتمله بطريق المجاز» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٠٦ظ).

[9] ن - قيل.

[10] جميع النسخ: أن. والتصحيح مستفاد من الشرح، ورقة ١٠٦ظ.

[11] جميع النسخ + وله ثلاثة أوجه.

[12] ع - أي العذاب والله أعلم.

[13] أي لقوله: ﴿سريع الحساب﴾.

[14] ع + أي العذاب والله أعلم.

[15] ك ن - وله ثلاثة أوجه.

ا) [الوجه الأول: أي سريع العذاب] سمي به لأن بعد الحساب عذابا،[١] لقوله صلى الله عليه وسلم[٢] «من نُوقِش الحسابَ عُذِّب»،[٣] فجعل الحساب عذابا. ب) ثم أخبر أنه سريع الحساب، [أي] لا كحساب الذي يكون بين الخلق؛ لأن الخلق يشغلهم أسباب، ويمنعهم أشياء، يحتاجون إلى التفكر والتدبر. والله يتعالى عن أن يشغله شيء، أو يمنعه[٤] معنى، جل الله عن ذلك. ج) وقيل: على التقريب، [أي] حسابه سريع، كأنه[٥] قد جاء لقربه.[٦] ***والله أعلم***.*

وروى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: شَهِدَ اللهُ[٨] إلى قوله: **إن الدين عند الله الإسلام**، على معنى جعل "أَنَّهُ" صلةً في الكلام. وحقيقته: شهد الله الذي[٩] لا إله إلا هو والملائكة ومن ذكر أن الدين عند الله الإسلام.[١٠]

والإسلام في الحقيقة جعل كلية الأشياء لله سالمة،[١١] لا شريك له فيها في ملك ولا إنشاء ولا تقدير. والإيمان [هو] التصديق بشهادة كلية الأشياء لله[١٢] تعالى بأنه ربها وخالقها على ما هي عليها [من آثار الحدثية]، جلَّ عن الشركاء. وقد قيل: الإسلام خضوع، وقيل:

[١] ك ن ع: عذاب.

[٢] م - لأن ظاهر الجواب على غير إضمار أن يكون ومن يكفر بآيات الله فإنه سريع الحساب أي العذاب والله أعلم وله ثلاثة أوجه سمى به لأن بعد الحساب عذابا لقوله صلى الله عليه وسلم.

[٣] صحيح *البخاري*، العلم ٣٥، الرقاق، ٤٩؛ وصحيح *مسلم*، الجنة ٧٩-٨٠.

[٤] ع م: ويمنعه.

[٥] جميع النسخ: كأن.

[٦] وعبارة السمرقندي هكذا: «وقوله تعالى: ﴿ومن يكفر بآيات الله﴾ أي من المختلفين، كأنه على الإضمار. أي قل يا محمد: من يكفر بآيات الله من بعد ما جاءه العلم والبيان ﴿فإن الله سريع الحساب﴾ أي فإن الله سريع العذاب. يسمى به -والله أعلم- لأن بعد الحساب عذابا وهذا كقوله عليه السلام: «من نوقش في الحساب عذب» أي المناقشة في الحساب دليل على العذاب بعده. ويحتمل ﴿سريع الحساب﴾ أي حسابه ليس كحساب يكون بين الخلق، لأن الخلق يشغلهم أسباب ويمنعهم موانع يحتاجون إلى التفكر والتأويل، والله يتعالى عن أن يشغله شيء أو يمنعه معنى. ويحتمل حسابه سريع على التقريب، أي كأنه قد جاء وقت الحساب لقربه. والله أعلم» (شرح *التأويلات*، ورقة ٥٦ظ).

* وردت هنا عدة صفحات من تفسير الآية السابقة فنقلناها إلى هنالك. انظر: ورقة ٧٦ظ/سطر ٣٤-٧٧و/سطر ٢٥.

[٨] الآية السابقة.

[٩] ع - الذي.

[١٠] قال القرطبي: وقرأ ابن عباس فيما حكى الكسائي: شهد الله "إنه" بالكسر، و"أن الدين" بالفتح. والتقدير: شهد الله أن الدين الإسلام، ثم ابتدأ فقال: إنه لا إله إلا هو (*تفسير القرطبي*، ٤٣/٤).

[١١] ك: لمة. سالمة لله: أي خالصة له.

[١٢] ع م - بحالة لا شريك له فيها في ملك ولا إنشاء ولا تقدير والإيمان التصديق بشهادة كلية الأشياء لله.

[هو] الإخلاص، وهو يرجع إلى ما بينا، وذلك كقوله: ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ.[1] والإيمان هو التصديق بالله[2] تعالى بما أخبر أنه رب كل شيء،[3] وأنه[4] له الخلق والأمر.[5] وقيل: هو التصديق بما جاءت به الرسل، وذلك يرجع إلى ما بينا أيضا. **والله أعلم**.*

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[٢٠]

وقوله: **فإن حاجوك**، ولم يقل فيماذا يحاجوك. فيحتمل -والله أعلم- أن يكون هذا بعد ما علم الله أنهم لا يؤمنون ولا يقبلون الحجة أَمَره بترك المحاجة بقوله: **فقل أسلمت وجهي لله**، وكذلك من اتبعني أسلموا أنفسهم لله، كقوله: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ،[7] [وقوله]: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ.[8] آيسه[9] من إيمانهم،[10] وأمره بترك المحاجة معهم.

وقوله: **فقل أسلمت وجهي لله**، أي أخلصت. ثم يحتمل قوله: **وجهي لله**، أي نفسي لله، لا أشرك فيها أحدا، ولا أجعل لغير الله فيها حقا[11] على ما جعل الكفار في أنفسهم شركاء أربابا.[12]

{قال الشيخ رحمه الله:} وقيل الإسلام أن يجعل نفسه بكليتها[13] لله سالمة لا شركة[14] فيها لأحد،[15]

---

[1] سورة الزمر، ٢٩/٣٩. سلما لرجل: أي منقادا وخالصا له.
[2] ن ع م: لله.
[3] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء﴾ (سورة الأنعام، ١٦٤/٦).
[4] ك ن: وأن.
[5] ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ (سورة الأعراف، ٥٤/٧).
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متقدما على موضعه، فأخرناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٧٧و/سطر ٣١-٣٣.
[7] ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون﴾ (سورة الصافات، ١٧١/٣٧-١٧٥).
[8] ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا﴾ (سورة النساء، ٦٣/٤).
[9] ن ع م: أياسة.
[10] جميع النسخ: عن إيمانهم.
[11] م - حقا.
[12] ك ع م: وأربابا.
[13] ع م: لكليتها.
[14] ك: لا شريك.
[15] م: أحد.

كما قال: وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ.[1] والإيمان هو التصديق شهود[2] الربوبية لله من نفسه وغيره، لأنه ما من شئ إلا وفيه شهادة الربوبية لله.[3]

وقوله: **ومن اتبعنِ**، أي من اتبع ديني، فقد أسلموا / أنفسهم لله تعالى أيضا، لم يشركوا [٧٧ظ] فيها شركاء وأربابا. ويحتمل قوله: **وجهي لله**، أي أسلمت أمر ديني وعملي لله، وكذلك من اتبعني واتبع ديني فقد اسلموا أعمالهم وأمورهم لله، كقوله تعالى: وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ.[4] وفي حرف ابن مسعود* رضي الله عنه: ومن اتبعني أي ومن معي.

وقوله: **وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين**، قيل: الذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى. **والأميين** العرب الذين لا يقرئون الكتاب ولا لهم كتاب.

أ أسلمتم أنتم لله، كما أسلمت أنا وجهي لله ومن اتبعني؟ **فإن أسلموا فقد اهتدوا**، وأخلصوا وجوههم لله وأعمالهم. **وإن تولوا فإنما عليك البلاغ**، أي إن[5] أبوا أن يسلموا فليس عليك إلا البلاغ، كقوله تعالى: مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ،[6] وكقوله: إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ،[7] وكقوله:[8] عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ.[9]

وقوله تعالى: **والله بصير بالعباد**، هو حرفُ وعيد. قيل: **بصير** غير غافل، وقيل: **بصير**، بجزاء أعمالهم، وقيل: **بصير**، بما أسرّوا وأعلنوا. وفي كل وجه وعد وعيد.

{قال الشيخ رحمه الله:} في قوله: **فإن حاجوك**: ولم يبين[10] فيماذا. وقد يجوز ترك الإخبار عن القصة بوجهين. أحدهما لعلم[11] أهله. والثاني بما في الجواب دليله، كقوله:[12]

---

[1] ﴿ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجلٍ هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ (سورة الزمر، ٢٩/٣٩).
[2] جميع النسخ: لشهود.
[3] ع م - لله.
[4] سورة المؤمن، ٤٤/٤٠.
[5] ك: فإن؛ ن - إن.
[6] سورة الأنعام، ٥٢/٦.
[7] سورة الشورى، ٤٨/٤٢.
[8] ع - وكقوله.
[9] ﴿وإن ما نُريَنك بعض الذي نَعِدهم أو نتوفّينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ (سورة الرعد، ٤٠/١٣).
[10] ع: فلم يبين.
[11] ن ع م: بعلم.
[12] جميع النسخ: قوله.

يَسْتَفْتُونَكَ،[1] و يَسْأَلُونَكَ،[2] في غير موضع على غير البيان؛ أنه عماذا؟ وهو[3] -والله أعلم- داخل تحت ذَيْنِك[4] الوجهين.

ثم يحتمل أن تكون[5] المحاجة قد كثرت فيما قال: **فإن حاجوك**. والحجة قد ظهرت فيه، فكانوا يعودون[6] إليها مرة بعد مرة[7] عَوْدَ تعنت وعناد، فاكرم الله رسوله بالإعراض عن محاجتهم [في] ذلك بما ظهر تعنتهم[8] فقال: **فقل أسلمتُ وجهيَ لله**، على الإعراض عن محاجتهم. ***والله أعلم***. وعلى ذلك يخرج معنى الأمر بالتولي عنهم في غير موضع. ويحتمل أن تكون المحاجة في عبادة الواحد القهار والأوثان التي كانوا يعبدونها من دون الله، فبين جل ثناؤه في ذلك بالذي يقول لهم هو ومن اتبعه على ذلك، نحو قوله: لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ،[9] وقوله: لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ،[10] الآية، ونحو ذلك. ***والله أعلم***.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢١]

وقوله: **إن الذين يكفرون بآيات الله**، قيل: **بآيات الله** التي في كتابهم من بعث محمد صلى الله عليه وسلم وصفته. وقيل: **بآيات الله**[11] بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم.

[٧٧ظ س٣٢] *{قال الشيخ رحمه الله} في قوله: **إن الذين يكفرون بآيات الله**، فالآيات أعلام وحجج. وهي[12] أنواع، منها حسيات، نحو الخلائق في الدلالة على وحدانية الله تعالى،

[1] ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ (سورة النساء، ١٧٦/٤).
[2] انظر مثلا قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ (سورة البقرة، ١٨٩/٢).
[3] م – وهو.
[4] جميع النسخ: ذانك.
[5] ع: أن يكون.
[6] ن: يقودون.
[7] ك – بعد مرة.
[8] ن: نفسهم.
[9] سورة الكافرون، ٦/١٠٩.
[10] ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم. الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾ (سورة الشورى، ١٥/٤٢).
[11] ن – الله.
[12] ن ع م: وهن.

والخارجة منها عن احتمال وسع البشر، يظهر عند ادعاء[١] الرسل الرسالة، يشهد على أن الذي أرسلهم هو الذي تولاها، ليُعْلِم بها حججهم،[٢] ويوضح[٣] بها رسالتهم. ومنها السمعيات، وهي التي جاءت بها[٤] الرسل من الأنباء عما لا سبيل إلى الوقوف عليها إلا بالتعلم بلا تقدم تعليم، أو ما لا يَعلم[٥] حقيقةَ ذلك إلا اللهُ، ليعلم أن الله هو الذي أَطْلعهم عليها لتكون[٦] آية لهم. ***والله أعلم***. ومنها العقليات، وهي التي تعرف بالمحن[٧] والبحث عنها، مما بها يوصل إلى معرفة[٨] التوحيد والرسالة ونحوها. ثم قد جعلها كلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فمن يكفر بها [فكفره] يخرج على وجهين. أحدهما على الكفران بحقيقة[٩] الآيات، أن تكون[١٠] هن آيات لما أقيمت له، وهن من الوجوه التي ذكرت، فقضى الله لمن يكفر بها بما ذكر،[١١] لتعنتهم / ومعاندتهم. [٧٨و] ***والله أعلم***. والثاني أن يريد بالكفر بالآيات الكفر بمن له الآيات، فنسب إلى الآيات لما بها يعلم[١٢] الحقيقة، كما تنسب[١٣] الأشياء إلى أسبابها التي بها يوصل إليها. فذلك معنى الكفر بالآيات.

ثم كانت الكتب السماوية وما فيها من النعوت وما أعجزهم عن إتيان مثل القرآن وغير ذلك من الحسيات.[١٤] ***والله أعلم***. فعلى ما ذكرنا،[١٥] يخرج معنى الكفر بالآيات،

---

[١] ع م: أداء.
[٢] جميع النسخ: حججه.
[٣] ع: حججهم.
[٤] ع: به.
[٥] ع: ما يعلم.
[٦] ن ع م: ليكون.
[٧] ك: بالجن.
[٨] ن: إلى معرفتها.
[٩] ع: أن حقيقة.
[١٠] جميع النسخ: أن يكون.
[١١] جميع النسخ: ذكرت. أي بما سيذكر في الآية التالية من حبط أعمالهم في الدنيا والآخرة.
[١٢] م: لأنها يعلم.
[١٣] ن ع م: ينسب.
[١٤] ك: من الحسنات.
[١٥] ع: ما ذكر.

لأنها بحيث تأخذها[1] الحواس، وتحيط[2] بها الأوهام والعقول، ولكن على أنهن آيات للذي
٧٨و س٥] دلهم[3] عليه. أو على [معنى] الكفر بالذي له آيات توجب تحقيقه. ***والله أعلم***.*

ويقتلون، يحتمل قوله: **ويقتلون**، أي يَهُمّون ويريدون[5] قتلهم، كقوله: فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ؛[6] فلو كان على حقيقة القتل فإذا قتلونا لم نقدر على قتلهم؛ وكقوله: فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ،[7] أي إذا أردت أن تقرأ القرآن، وكقوله: إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا،[8] كذا، أي إذا أردتم أن تقوموا إلى الصلاة، لأنه إذا قام إلى الصلاة لم يقدر[9] على الغسل، فكذلك الأول. ويحتمل أن يريد[10] الرضا[11] بقتل آبائهم الأنبياءَ، فأضاف ذلك إليهم. وقيل: إنه أراد آباءهم الذين قتلوا الأنبياء. وقيل: جاء أنهم كانوا يقتلون[12] ألف نبي كل يوم.

{قال} لا أعرف هذا، فأن صح فهو [يئوّل] على أنهم تمنوا ذلك، أو قتلوا نبيا [واحدا] وأنصاره، فسموا أنبياء، لما كان ينبئ بعضهم بعضا. ***والله أعلم***.

وقوله: **فبشرهم بعذاب أليم**. لو كان أراد آباءهم كيف يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالبِشارة وهم موتى. دل هذا على أن التأويل هو الأول، أن هموا بقتلهم ورضُوا بصنع آبائهم. ***والله أعلم***. والبشارة المطلقة إنما تستعمل في السرور والخيرات خاصة، إلا أن تكون[13] مقيدة، فحينئذ تجوز[14] في غيرها، كقوله: **فبشرهم بعذاب أليم**، قيدها هنا.[15]

[1] جميع النسخ: يأخذها.
[2] ن ع م: ويحيط.
[3] ع م: ذلكم.
* وقع ما بين النجمتين متقدما على موضعه في تفسير الآية، فأخرناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٧٧ظ / سطر٣٢ - ٧٨و / سطر٥.
[5] ع م: ويؤيدون.
[6] سورة البقرة، ١٩١/٢.
[7] سورة النحل، ٩٨/١٦.
[8] سورة المائدة، ٦/٥.
[9] ن: لم يفعل.
[10] ك: أن يكون.
[11] ك: الرضاة؛ ن ع م: الرضاء.
[12] ع م: يقتلوا.
[13] ك م: أن يكون.
[14] ك م: يجوز.
[15] ن ع: قيد هذا هنا؛ م: قيد هذا.

لذلك قال أصحابنا رحمهم الله أن ليست الحقائق أولى من المجاز ولا الظاهر أولى من الباطن إلا بدليل. على ما صُرفت أشياء كثيرة عن حقائقها بالعرف من نحو الإيمان وغيره.[١]

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[٢٢]

وقوله: **أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة**، يحتمل وجوها. يحتمل **أعمالهم**[٢] التي فعلوا قبل[٣] أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم، فلما بعث كفروا به، فبطلت تلك الأعمال. ويحتمل ما كان لهم من الأعمال من صلة المحارم والقربات[٤] والصدقات، فبطلت لما لا قوام لها إلا بالإيمان، فلما لم يأتوا به بطلت.

وقوله: **في الدنيا والآخرة**، أما في الآخرة[٥] فثوابها، وأما في الدنيا فحمدها وثناؤها. ويحتمل في الدنيا ثواب الدنيا، كقوله: مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.[٦] *والله أعلم*.*

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[٢٣]

*وقوله: **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب**. وقوله: **ألم تر**، إنما يُتكلم به لأحد [٧٨و س١٣] معنيين، إما للتعجب[٨] من الأمر العظيم؛ يقول الرجل لآخر: ألم تر فلانا يقول كذا، أو يعمل كذا، يقول ذلك له لعظيم ما وقع عنده؛ وإما للتنبيه. فأيهما كان ففيه تحذير للمؤمنين، ليحذر المؤمنون عن مثل صنيعهم، كقوله: وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ،[٩] الآية. حذر المؤمنين أن يكونوا مثل أولئك الذين أوتوا الكتاب،[١٠] ولا يخالفوا كتابهم، كما خالفوا هم.

---

[١] جميع النسخ: وغيرها.
[٢] ن ع م: إيمانهم.
[٣] ن: قيل.
[٤] ك: والقرابات.
[٥] ن - أما في الآخرة.
[٦] ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعا بصيرا﴾ (سورة النساء، ١٣٤/٤).
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٧٧ظ/سطر٣٢-٧٨و/سطر٥.
[٨] ك ن: على التعجب.
[٩] ﴿ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾ (سورة الحديد، ١٦/٥٧).
[١٠] ن - الآية حذر المؤمنين أن يكونوا مثل أولئك الذين أوتوا الكتاب.

وقوله: **يُدعون إلى كتاب الله**، يحتمل أن يكون أراد بالكتاب التوراة، على ما قيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: «أسلموا تهتدوا ولا تتكبروا»، فقالوا: نحن أهدى وأحق بالهدى منك، وما أرسل الله رسولا بعد موسى عليه السلام. فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: «بيني وبينكم التوراة والإنجيل، فإنه مكتوب فيهما نعتي، وأني رسول الله». فأبوا ذلك خوفا وإشفاقا على ظهور كذبهم.[1] وقيل: أراد بالكتاب القرآن؛ دُعُوا إليه لأنه مصدِّق لما معهم من الكتاب، فأبوا ذلك.

﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[٢٤]

وقوله:[2] **ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات**، الأيام التي عَبَدَ آباؤهم العِجْل، فظنوا أنهم إنما يُعذَّبون بقدر ما عَبَدَ آباؤهم العجل، وأنهم لا يُخلَّدون في النار، لأنهم زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه.[3] ويحتمل أن يكون آباؤهم قالوا لهم: إنكم لا تعذبون في النار إلا قدر عبادتنا العجل. فأخبر عز وجل أن **قد غرهم في دينهم ما كانوا يفترون**؛

٧٨و س٢٣] ثم خوفهم فقال: فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ.*

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٢٥]

[٧٨و س٥ *وقوله: **فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه**. وقال في [الكتاب:] ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ،[5] وقد ارتاب فيه[6] أكثر أهل الأرض. قيل قوله: **لا ريب فيه**، [يخرج على وجوه الأول أنه] قد يتكلم به على تثبيت المقول به عند قائله، لا على نفي الشك عن كل من سمعه إرادة التأكيد؛ فعلى ذلك أمكن أن يخرج معناه، إذ هو مخاطبة على ما عليه كلامهم. وكذلك قولهم: "أبدا" على دوامه وامتداده لا على حقيقة الأبدية، وكذلك يقولون:

---

[1] ذكر الطبري، قال ابن عباس: هذه الآية نزلت بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل بيت الْمِدْرَاس على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إني على ملة إبراهيم. فقالا: فإن إبراهيم كان يهوديا. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فهَلُمّوا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم، فأبيا عليه فنزلت الآية. (*تفسير الطبري*، ٤/٥٠).

[2] ك – وقوله.

[3] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾ (سورة المائدة، ١٨/٥).

* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه، فنقلناه إلى هنالك. انظر: ورقة ٧٨و/سطر١٣–٧٨و/سطر٢٣.

[5] ع – وقال في ذلك الكتاب لا ريب فيه. سورة البقرة، ٢/٢.

[6] جميع النسخ: فيها.

هٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ،[١] وأمر قديم، لا على حقيقة القدم التي تخرج[٢] على الكون[٣] بعد أن لم يكن. **والله الموفق.**

والثاني على أنه لا يرتاب فيه المتأمل المنصف، بما جعل الله لذلك من الآيات و[ما] عليه من الأدلة التي مَنْ تدبر فيها ظهرت[٤] له، حتى يصير كالمعايَن. **ولا قوة إلا بالله.**

والثالث أن يخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوم مخصوصين مما كانوا يتنازعون[٥] فيه بعد علمهم بصدقه، ليعرف به[٦] تعنتهم، ويؤيسه[٧] عن الطمع فيهم. **ولا قوة إلا بالله.*** [٧٨و س١٣]

﴿قُلِ اللّٰهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢٦]

وقوله: **قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء**، الآية. يحتمل قوله: **مالك الملك**، وجهين. أحدهما **مالكَ الملك**، كل ملك في الدنيا له[٩] حقيقة الملك.[١٠]

والثاني أن الملك له، يؤتي من يشاء من ملكه، وينزع ممن يشاء الملك،[١١] وهو المالك لذلك، والقادر عليه. والآية ترد على القدرية قولهم لأنهم يقولون:[١٢] إن الله لا يعطي الكافر الملك، وهو قد أخبر عز وجل أنه يؤتي[١٣] من يشاء الملك، وقد يؤتي[١٤] الكافر[١٥] الملك.

---

[١] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾ (سورة الأحقاف، ١١/٤٦).

[٢] ن: يخرج.

[٣] ن ع: عن الكون.

[٤] جميع النسخ: أظهرته.

[٥] ك ن: ينازعونه؛ ع م: ينازعون.

[٦] ع: منهم.

[٧] ع م: ويؤتيه.

* وقع ما بين النجمتين متقدما عن موضعه فنقلناه إلى هناك. انظر: ورقة ٧٨و/سطر٥-١٣.

[٩] ع م – له.

[١٠] «مالك الملك، أي جميع الملك في الدنيا والآخرة، فإن كل ملك في الدنيا فهو في الحقيقة له» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٠٧ظ)

[١١] ن – الملك.

[١٢] ك: يقون.

[١٣] ك: يعطي.

[١٤] ن ع: وقد يرى؛ م: وقد روي.

[١٥] جميع النسخ + له.

فإن قالوا:[1] أراد بالملك الدين. قيل: إن أراد الدين[2] فقد أخبر[3] عز وجل أيضا أنه ينزع [الملك]، فكيف يستقيم –على قولكم في الأصلح– هذا؟

ثم في الآية تقوية لمن قرأ:[4] مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ،[5] بالألف لأنه[6] أعم وأجمع، لأنه قال: **مالك الملك**، وهو أعم. والثاني لأن[7] الملك إنما يعبر [به] عن الولاية والسلطان، والمالك إنما يعبر [به] عن حقيقة[8] الملك. ومن له في الشيء حقيقة الملك[9] فله ولاية التغلب والتصرف فيه وولاية[10] السلطان. وليس كل[11] من له ولاية السلطان يكون له ولاية التغلب،[12] لذلك كان بالألف أقرب. ومن قرأ: مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ، بغير ألف ذهب إلى أن[13] هذا كقوله: اَلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ.[14] ومن المُلْك يقال: مَلِك، لا يقال: مالك؛ لذلك، كان ما ذكر. ***والله أعلم***.

والمالك على الإطلاق لا يقال إلا لله.[15] وكذلك الرب على الإطلاق لا يقال إلا لله.[16] وأما العبد فإنه يُقرَن الشيء إليه فيقال: رب الدار ومالكها، ورب الدابة[17] ومالكها. ***والله أعلم***.

وقوله: **قل اللهم مالك الملك**؛ قال قائلون:[18] الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة. وقال آخرون: الخطاب بذلك لكل عاقل، وهو كقوله: قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ،[19] إلى آخره،[20]

---

[1] ع: فإن قال.
[2] ك – قيل ان أراد الدين.
[3] ن: فقد أخبره؛ ع: قد أخبر.
[4] ع: إقراء.
[5] سورة الفاتحة، ٤/١.
[6] م – لأنه.
[7] ك ن ع: أن؛ م – أن.
[8] ع: من حقيقة.
[9] ن – ومن له في الشيء حقيقة الملك.
[10] م: ولاية.
[11] جميع النسخ: ولا كل.
[12] ن ع م + فيه.
[13] ع م – أن.
[14] ﴿الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم﴾ (سورة الحج، ٥٦/٢٢).
[15] م: على الله.
[16] م: على الله.
[17] ك: الدار.
[18] ن: القائلون.
[19] سورة الإخلاص، ١/١١٢.
[20] ع م: إلى آخر الآية.

ذلك الخطاب لكل أحد، لا لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة.

{وقال الشيخ رضي الله عنه:} ليس[١] هو خطابا،[٢] ولكنه أمر [له] بالبلاغ ليقوله كل أحد؛ لأنه لو خوطب به لم يَذْكر[٣] "قل" عند قراءته.

وقوله: **اللهم**، قال قائلون: **اللهم**،[٤] يعني: يا إلهنا.[٥] وقال آخرون: [يا] الله – على القطع– أُمّنا: اقصدنا بالخير. *والله أعلم.*

{قال الشيخ رحمه الله} في قوله: **قل اللهم مالك الملك**، الآية: فكأنه[٦] عز وجل امتحن من رغب في الملك أو نال حظا منه أن يصرفوا وجه الرغبة إليه أو يروا حقيقة ما نالوه منه، فيوجهوا إليه الشكر ويخضعوا له بالعبادة والطاعة فيما أمرهم به؛ لينالوا شرفه ويدوم لهم[٧] عزه، وذلك[٨] كقوله: مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا / وَالْآخِرَةِ،[٩] ليريهم أن الذي [٧٨ظ] يملك هذا النوع الذي رغبت فيه أنفسكم ومنعتكم عن القيام بحقه هو الذي يملك ذلك، فإليه فاصرفوا سعيكم، وبشكره استديموا الذي له اخترتم جُلَّ كدحكم،[١٠] فإنه [هو الذي] يملك ذلك دون غيره. وجملة ذلك في قوله: وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ.[١١] ومعقول فيما عليه طبع البشر، وإليه دعاهم عقولهم أن كل شئ تُؤْثره[١٢] أنفسهم [وتميل إليه طبائعهم] كان الذي يحق عليهم طلبه [مِن] عند مَن به[١٣] يوصَل إليه، و[الواجب عليهم][١٤] اختيارهم ما به يبلغون ما يأملون،[١٥]

---

[١] ع م – ليس.
[٢] جميع النسخ: خطاب.
[٣] ع م: ولم يذكر.
[٤] ع + قال قائلون اللهم.
[٥] جميع النسخ: يا الهتهم. والتصحيح مستفاد من شرح *التأويلات*، ورقة ١٠٧ظ.
[٦] ع م: فكأن الله.
[٧] ن ع: له.
[٨] م: ذلك.
[٩] سورة النساء، ١٣٤/٤.
[١٠] ك: كدديكم، غير منقوطة. الكَدْح: العمل والسعي والكسب وعمل الإنسان لنفسه من خير أو شر (*لسان العرب*، «كدح»).
[١١] ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾ (سورة النحل، ٥٣/١٦).
[١٢] ك: يوثره؛ م: يؤثر.
[١٣] ن – به.
[١٤] والزيادتان من *الشرح*، ورقة ١٠٨و.
[١٥] ن ع م: ويؤملون.

من أنواع الحيل التي تقرّبهم إلى ذلك. فمثله يلزم أمر الملك ولذّات الدنيا. و[قد] تقرر في قلوبهم وجود ذلك لقوم لو كان يُنال [هو] بالتدبير أو بحسن السياسة و[أنّ] طلبَ ذلك من الوجوه التي يَطلب بها البشر، لم يكن[١] الذين لهم ذلك بأحق[٢] من غيرهم. بل كان فيمن حُرِموا [منه] مَنْ هم[٣] أولى بذلك وأحق أن يكون في [استحقاق] ذلك متبوعا -لا تابعا- من الذين نالوه؛[٤] ليُعْلَم أنّ الذي يملك دفع ذلك[٥] إلى أحد أو تمليكه[٦] أحدا غير الذين صرفوا [إلى طلبه] كَدْحَهم، وقصروا[٧] له سعيهم [وشغلهم].[٨] فيكون لله في كل أمر مما عليه أمر البشر آيةٌ عظيمة وعلامة لطيفة على تفرده بملك ذلك وتوحده[٩] بالتدبير فيه، لمن له بصيرة ولمن به يمتحن عباده.

وعلى ذلك -إذ ثبتت[١٠] في ذلك أدلَّة التوحيد ولزوم الاعتبار به ليُعرَف من له الحق- ثبت القول ببطلان ما يذكره[١١] كثير من المعتزلة: أن الملكَ الذي ناله الجبابرة والسعةَ التي تصل[١٢] إلى الكفرة لم يكن نالوه بتقدير الله، ولا وصلوا إليه بتدبيره.[١٣] إذ حقه ما ذكرت من عظيم[١٤] ما فيه من النعم،

---

[١] ك: فلم يكن.

[٢] ع: بحق.

[٣] ع م: منهم.

[٤] ع: قالوه.

[٥] أي الملك ولذات الدنيا.

[٦] ن: تمليك.

[٧] ك: وحصلوا؛ ن ع م: وجعلوا. والتصحيح من *شرح التأويلات*، ورقة ١٠٨و.

[٨] بعض الزيادات هنا مستفاد من *الشرح*، ورقة ١٠٨و.

[٩] ع م: وتوحيده.

[١٠] م: يثبت.

[١١] ك ن م: ما ينكره؛ ع: وينكره.

[١٢] ك: يصل.

[١٣] يقول علاء الدين السمرقندي رحمه الله: «وبهذا يبطل قول المعتزلة: إن الملك الذي ناله الجبابرة والسعة التي تصل إلى الكفرة لم يكن نالوه بتقدير الله ولا وصلوا إليه بتدبيره فرارا عن المناقضة في مسألة الأصلح. لأنهم يقولون: إن الأصلح في الدين واجب على الله تعالى من حيث الحكمة. فيلزمهم أن الله تعالى أعطى الملك الجبابرة والكفرة وذلك مفسدة لهم في الدين لا مصلحة. فأنكروا ذلك وقالوا: إن الله تعالى ما أعطاهم ذلك بل هم الذين اكتسبوا الملك بأنفسهم بطريق الباطل. ولو كان ذلك لا بالله فكان يجب أن يُحْرَم منه الأحمق الضعيف ولكان لا يناله إلا من له يد بيضاء في القوة والتدبير. وما عليه تجارب الأمر بخلافه. وظهر بطلان قولهم على أن قولهم هذا خلاف النص وهو قوله: ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٠٨و).

[١٤] م: من عظم.

ليلزمهم به[١] أرفع المحن وأعلى الشكر. وله أن يبلو بالحسنات والسيئات كما وعد[٢] عز وجل.[٣]

وجملته أن الدنيا، إذ هي دار محنة ومكان ابتلاء، فليس الذي يُعطَى منها[٤] على الاستحقاق، ولا الذي[٥] يمنع [منها] على العقوبة،[٦] وإن احتمل الدفع والمنع ذلك،[٧] ولكن له وللمحن. والمحنة أكثرها على مخالفة الأهواء[٨] وتحمل[٩] المكاره، و[قد] يكون ذلك على إعطاء ما يعظم في أنفسهم، أو [على] التمكين ليمتحنوا فيتبين الإيثارُ والترك لوجه الله والرغبة فيمن إليه حقيقة ملك كل شيء، أو الميل إلى من إليه أنواع التغرير والمخادعات من غير تحقيق. **ولا قوة إلا بالله**. وعلى ذلك قوله: أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ،[١٠] يبين ذلك احتجاجه على إبراهيم عليه السلام بالذي ذكر وإغضاء إبراهيم عنه. ولو كان الذي آتاه[١١] الملكَ إبراهيم عليه السلام لم يكن ليجترئ على تلك المقالة بقوله: أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ. **ولا قوة إلا بالله**.

ثم على قول المعتزلة أن الله[١٢] تعالى إنما يشاء أن يؤتي الملك أولياءه، وينزع [الملك] عن أعدائه في الجملة، فكيف ادعى لنفسه هذا السلطان والملك، وكان الوجود على ضد ذلك؟ أيظن المعتزلة أن الملاحدة[١٣] تظفر بما[١٤] هو يوجب الشبهة في حجج التوحيد بأوضح مما أعطاهم المعتزلة بهذا القول؟ أو [بما] يمكنهم[١٥] من الطعن في نقض ما ادعت[١٦] الموحدة

---

[١] ع م - به.
[٢] ن + هم.
[٣] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٦٨).
[٤] جميع النسخ: منه.
[٥] جميع النسخ: ما. والتصحيح من *شرح التأويلات*، ورقة ١٠٨و.
[٦] «بل النعم التي يعطى للابتلاء بين الشكر فيثاب وبين الترك ليعاقب، والنعم والبلايا التي تقع للابتلاء بين الصبر فيثاب والجزع ليعاقب، وإن احتمل المنع والدفع ذلك...» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٠٨و).
[٧] جميع النسخ: لذلك.
[٨] ع: على الأهواء.
[٩] ن: ويحتمل.
[١٠] ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٥٨).
[١١] ن ع + الله.
[١٢] ك ن: إذ الله.
[١٣] ن: أن الملحدة.
[١٤] ن ع م: ما.
[١٥] م: ويمكنهم. وعبارة السمرقندي هكذا: «أتظن المعتزلة أن المعتزلة تظفر بما يوجب الشبه في حجج التوحيد بأوضح مما أعطتهم المعتزلة بهذا القول، لأن الكفرة هم الذين يحدثون الملك والبسطة لأنفسهم لا الله تعالى، وقد أراد بزعمهم عن ذلك أن الأصلح في الدين هذا وقد تحقق مراد الكفرة و لم يتم من الله تعالى، أو يمكنهم...» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٠٨ظ).
[١٦] ك: دعت.

من علو الرب وقدرته وجلاله بأبلغ مما لقنتهم[١] المعتزلة بما لبست ثوب التوحيد واسترت بستره[٢] في الظاهر، ثم أعطت الملحدةَ هذا ليظنوا أنهم بلغوا ما به نقض التوحيد ودفع حجج أهله. جل الله عما وصفته الملحدة[٣] وتعالى. *وبه[٤] العصمة والنجاة*. وما[٥] أعطتهم المعتزلة في الجملة سبقهم[٦] به إبليس، حتى كانوا[٧] بمثله يحتجون فيظنون أنهم أحق بالنبوة منهم[٨] بما أُعطوا من الملك والثروة في الدنيا، فظنوا أنهم[٩] أجل عند الله تعالى وأرفع في المنزلة منهم، [وأنه] لم يكن ليؤثرهم بالرسالة عليهم. لكن أولئك حققوا حقائق النعم لله ونيل ما نالوا من الملك والشرف به.[١٠] والمعتزلة رامت إزالة ذلك عن الله ليزيلوا عنهم ما لزمهم من الشكر له،[١١] والطاعة لمن بعثه الله [إليهم]. ونسأل الله تعالى تمام نعمه في الدين والدنيا.

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢٧]

وقوله: **تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل**، وقوله: **وتخرج الحي من الميت**، ونحو ذلك، [فيه] وجوه من الأدلة. أحدها أن يعلم أن الله عز وجل فيما يخلق لا يخلق على معونة الأسباب وتوليد الطبائع؛ لأن الأسباب تكون بموضع الأشكال [والأجناس]، وكذلك الطبائع تولّد الذي في جوهره، نحو الحار يولد الحرارة، والبارد يولد البرودة. فبين الله تعالى الإنشاء على أحوال التضاد ليعلم أنه القادر على اجتماع ما شاء مما[١٢] شاء، بلا معونة من ذلك ولا توليد. *ولا قوة إلا بالله*.

---

[١] ن ع م: لقنهم.
[٢] جميع النسخ: بسترة؛ والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ١٠٨ظ.
[٣] م: الملاحدة.
[٤] ك: فيه.
[٥] جميع النسخ: ولما.
[٦] ع م: سبقتهم.
[٧] م + به.
[٨] أي من الرسل.
[٩] ن + فظنوا أنهم.
[١٠] «فيتبين بهذه الجملة أنه يجب القول بتحقيق حقائق النعم لله تعالى في أن كل من نال الملك والعز والشرف به نال ومنه أصاب، ليظهر الشكر له فيما أصاب وتزيد الرغبة فيما يطمع من الزيادة» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٠٨ظ).
[١١] ع – له.
[١٢] ن ع م: ثم.

والوجه الثاني أنه جرى تقدير ذلك على ما لا تفاوت له، ولا اختلاف مع[١] اختلاف الأعوام [والأزمان]، ليعلم أنها مُسَوّاة[٢] على التدبير. أحكمه على ذلك العزيز الحكيم الذي لا يعجزه شيء ولا يخفى عليه أمر، وليعلم أن الذي قدر[٣] على ذلك واحد، إذ لم يختلف و لم يتناقض. **ولا قوة إلا بالله**.

وأيضا إنه قد صير كل جوهر بإحداث[٤] الآخر، كأنه لم يكن قط ولا كان بقي له أثر، ثم ردّه بالوصف [الأول] الذي كان، حتى لا يفوت منه شيء، حتى لا سبيل إلى العلم بالتفضيل بينهما؛ ليعلم[٥] قدرته على البعث بعد[٦] أن يَفنى كل الأجزاء والآثار.[٧] **ولا قوة إلا بالله**.

وأيضا إنه إذ بنى الأمر على ما فيه من عظيم[٨] الحكمة وعجيب التدبير لم يجز أن يكون فعله خارجا على العبث. ثم في رفع المحنة [والتكليف]، وإبطالِ الرسالة في تعليم ما في ذلك من الحكمة وما يلزم لمكان[٩] ذلك التدبير من الشكر والمعرفة ثم من الترغيب فيما يملك من النعمة والترهيب عما عنده من النقمة إبطالُ الحكمة[١٠] وتقرير العالم مع ما ذكرت على العبث. وذلك فاسد في العقول، وموجود في الجواهر[١١] عظم[١٢] حكمة منشئها. ثبت بذلك العبادة والرسالة والجزاء [جميعا]. **ولا قوة إلا بالله**.

وقوله: تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ،[١٣] إلى آخره، يحتمل وجهين.[١٤]

---

[١] ك ن: في؛ ع - مع اختلاف.
[٢] ك ع: مسواه.
[٣] م: قد.
[٤] ع م: إحداث.
[٥] ن ع م + أن.
[٦] ك: يعني.
[٧] ك + على ما كان؛ ن + بالفصل بينهما. «كالنطفة إذا صارت علقة لم يبق عن آثار النطفة فيها شيء ونحو ذلك. وكذلك الليل والنهار يذهب أحدهما بمجيء الآخر بحيث لا يبقى أثر الأول. ثم يرده إلى الوصف الأول الذي كان، حتى كأنه لا يفوت منه شيء...» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٠٨ظ).
[٨] ن ع م: عظم.
[٩] جميع النسخ: بمكان. والتصحيح من *شرح التأويلات*، ورقة ١٠٨ظ.
[١٠] أي في رفع المحنة والتكليف... إبطال الحكمة.
[١١] أي في نفوس الناس وفطرهم.
[١٢] ك: عظيم.
[١٣] الآية السابقة.
[١٤] ن - يحتمل وجهين.

[٧٩و] يحتمل أن تُؤْتِي ابتداء من غير أن كان / آتاهم مرة. وكذلك تَنْزِعُ، أي تمنع ابتداء من غير أن كان آتاهم[١] ثم ينزع،[٢] كقوله: رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ،[٣] رفع ابتداء، من غير أن كانت موضوعة فرفعها؛ وكقوله:[٤] يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ،[٥] إخراج ابتداء،[٦] لا[٧] أن كانوا فيها ثم أخرجهم؛ فعلى ذلك هذا.[٨] وعلى ذلك قوله: **تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل**، إيلاج ابتداء،[٩] لا أن كان أحدهما في الآخر، كقوله: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،[١٠] وَالنَّهَارَ سَرْمَدًا؛[١١] أخبر[١٢] أنه لم يجعل واحدا منهما[١٣] مؤبدا. وكذلك قوله: **تخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي**، إخراج ابتداء:[١٤] أن يخلق الحي من الميت ابتداء، ويخلق الميت من الحي، من غير أن كان فيه. ويحتمل هذا كلُّه أن كان يؤتي الملك بعد أن لم يكن، ويُعِزّ بعد الذل، وينزع الملك بعد أن كان، ويذل بعد أن كان العز. وكذا قوله: **تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل** أن يُدخل بعض[١٥] هذا في هذا،[١٦] وهذا في هذا.

وقوله: **تخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي**، قيل: أن يُخرج حي الأقوال من ميت الأفعال وميت الأفعال من حي الأقوال، ويخرج[١٧] المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن،

---

[١] ن + مرة وكذلك تنزع أي تمنع.
[٢] ن ع م: تنزع.
[٣] ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر﴾ (سورة الرعد، ٢/١٣).
[٤] ع: بقوله.
[٥] سورة البقرة، ٢٥٧/٢.
[٦] جميع النسخ: الابتداء.
[٧] ك: إلا.
[٨] ع م: فعلى هذا ذلك.
[٩] ع م: الابتداء.
[١٠] ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون﴾ (سورة القصص، ٧١/٢٧).
[١١] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾ (سورة القصص، ٧٢/٢٧).
[١٢] م: أخبره.
[١٣] ع م: منها.
[١٤] ع م: الابتداء.
[١٥] ع م: بعد.
[١٦] ك – وكذا قوله تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل أن يدخل بعض هذا في هذا.
[١٧] جميع النسخ: يخرج.

على ما سمّى الله تعالى الكافر ميتا والمؤمن حيا في غير موضع من القرآن.[١] وقيل: يخرج حي الجوهر من ميت الجوهر وميت الجوهر من حي الجوهر. وقيل: يخرج الحي من المنيّ، ويخرج المنيّ من الحي. وقيل: يخرج[٢] البيضة من الحي والحي من البيضة. وقيل: [يخرج] النخلة من النَّواة والنواة من النخلة، والحبّة من السُّنْبُلة والسنبلة من الحبة.

وقوله: **وترزق من تشاء بغير حساب**، قيل: بغير حساب[٣] يعرف الخلق عدده ومقداره. وقيل: بغير تَبِعة ولا طِلْبَة،[٤] أي لا يحاسبهم فيما أعطاهم من بعد ما أعطاهم. ويحتمل **بغير حساب**، أي لا يعطيهم بحساب أعمالهم، ولكن يتفضل، خلافا للمعتزلة.[٥] ويحتمل: **بغير حساب**، في الآخرة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: بغير[٦] هنداز،[٧] فارسية معربة. وعن مقاتل: لا يقدر ذلك غيره، يقول: ليس فوقي مَلِكٌ يحاسبني، أنا الْمَلِكُ أُعطي مَن شئتُ بغير حساب، لا أخاف من أحد يحاسبني.[٨] ***والله أعلم***.

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[٢٨]

وقوله: **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين**، يحتمل وجهين. يحتمل **لا يتخذ**، أي لا يكونون أولياء لهم[٩] وإن اتُّخذوا أولياء، بل هم لهم أعداء، كقوله: لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،[١٠] إلى آخر[١١] الآية. ويحتمل على النهي، أي لا تتخذوا أولياء، كقوله: لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ،[١٢] وكقوله: لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ.[١٣]

---

[١] ﴿وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمعٍ من في القبور﴾ (سورة فاطر، ٢٢/٣٥).
[٢] ك ع م – يخرج.
[٣] ع م – قيل بغير حساب.
[٤] الطلبة: ما كان لك عند آخر من حق تطالبه به (*لسان العرب*، «طلب»).
[٥] ن + للعدل؛ ع م: للعدل.
[٦] ع – بغير.
[٧] الهِنْدازُ: معرب، وأصله بالفارسية أَنْدازَه، يقال: أعطاه بلاحساب ولا هِنْدازٍ (*لسان العرب*، «هندز»).
[٨] م – أنا الملك أعطي من شئت بغير حساب لا أخاف من أحد يحاسبني.
[٩] ع م – لهم.
[١٠] ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروحٍ منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحونَ﴾ (سورة المجادلة، ٢٢/٥٨).
[١١] ع م – إلى آخر.
[١٢] سورة الممتحنة، ١/٦٠.
[١٣] سورة المائدة، ٥١/٥.

وقوله: **إلا أن تتقوا منهم تقاة**، اختلف فيه. قيل: إلا أن تكون[1] بينكم وبينهم قرابة ورَحِم، فَيَصِلُون أرحامهم من غير أن يتولَّوهم[2] في دينهم؛ على ما جاء عن علي رضي الله عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما مات أبوه أبو طالب: إن عمك الضال توفي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذهب فَوَارِه».[3] ويحتمل قوله: **إلا أن تتقوا**، على أنفسكم، **منهم تقاة**، إلا أن[4] تخافوا منهم، فتُظهرون لهم ذلك مخافة الهلاك، وقلوبُكم على غير ذلك. وعن ابن عباس رضي الله عنه: التقيَّة التكلم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان.[5]

وقوله: **ويحذّركم الله نفسه**. قيل: عقوبته، وقيل: نقمته. يقول الرجل لآخر: أحذّرك[6] فلانا، إنما يريد نقمته وبوائقه. فعلى ذلك قوله: **ويحذركم الله نفسه**، عقوبته[7] وبوائقه التي تكون[8] من نفسه، لما يكون ذلك به لا بغيره.[9] *والله أعلم*.

﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢٩]

وقوله: **قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه [يعلمه الله]**، يحتمل: ما تخفوا من ولاية الكفار و[ما] تبدوه يعلمه الله. فيه إخبار أن في قلوبهم شيئا.[10] ويحتمل أن يكون أراد جميع ما يخفون[11] ويبدون.[12] **ويعلم ما في السماوات وما في الأرض**، الآية.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[٣٠]

وقوله: **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا**، قيل: تجد ثواب ما عملت من خير حاضرا،

---

[1] ن ع م: يكون.

[2] ن: أن تولوهم.

[3] انظر: *نصب الراية* للزيلعي، ٢/٢٨١؛ و*تفسير ابن كثير*، ٢/٣٩٥.

[4] ك – أن.

[5] انظر: *تفسير الطبري*، ٣/٢٢٨؛ و *تفسير ابن كثير*، ١/٣٥٨.

[6] جميع النسخ: احذر.

[7] ك – وقيل نقمته يقول الرجل لآخر أحذر فلانا إنما يريد نقمته وبوائقه فعلى ذلك قوله ويحذركم الله نفسه عقوبته.

[8] ع م: يكون.

[9] أي تكون العقوبة والتعذيب بالنفس والذات في أفهام الناس، فبين الله عقوبته بذلك تقريبا لأفهامهم.

[10] أي من ولايتهم.

[11] ك: تخفون.

[12] ك: تبدون.

لأن عمله إنما كان للثواب[١] لا لنفس العمل.

وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا، يحتمل **ما عملت من سوء** تجده[٢] مكتوبا، يتجاوز عنه، لأن الله عز وجل وعد المؤمنين وأطمع لهم قبول حسناتهم والتجاوز عن سيئاتهم، بقوله:[٣] أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ.[٤] فيجد المؤمن ثواب ما عمل من خير حاضرا، ويتجاوز عن مساوئه. وأما الكافر فيجد عقاب ما عمل من سوء في الدنيا، كقوله: وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا،[٥] فلا يتجاوز عنهم، ويُبطل خيراتهم. وقوله: **أمدا بعيدا**، قيل: بعيدا من حيث لا يرى. وقيل: بعيدا تود[٦] أن لم يكن. ما من نفس مؤمنة ولا كافرة إلا ودت[٧] البعد عن ذنبها،[٨] وأنه[٩] لم يكن. **ويحذركم الله نفسه**، قد ذكرناه.[١٠]

وقوله: **والله رؤف بالعباد**، إن أراد رأفة الآخرة يعني بالمؤمنين خاصة، وإن أرد رأفة الدنيا فهو بالكل.

{قال الشيخ رحمه الله} في قوله: **والله رؤف بالعباد**: فالرحمة من الله جل ثناؤه والرأفة نوعان. أحدهما في حق الابتداء، أن خلق خلقا ركّب فيهم ما يميزون به بين مختلف الأمور ويجمعون بين المؤتلف. ثم لم يأخذ كلا منهم بما استحق من العقوبة، بل رحم وأمهل للتوبة[١١] والرجوع إليه. وهذه الرحمة رحمة عامة لا يخلو عنها عبد.

و[الثاني:] رحمة في حق الجزاء من التجاوز والمغفرة وإيجاب الثواب للفعل. فهذه لا ينالها أعداؤه، لما يوجب التجهيل في التفريق بين الذي جعل في العقول التفريق، ولما يكون [في ذلك]

---

١ م: الثواب.

٢ م: تجد.

٣ جميع النسخ: كقوله.

٤ ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ (سورة الأحقاف، ١٦/٤٦).

٥ ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا﴾ (سورة الكهف، ٤٩/١٨).

٦ جميع النسخ + ليت.

٧ جميع النسخ: ود.

٨ جميع النسخ: ذنبه.

٩ م: وان.

١٠ انظر عند تأويل قوله تعالى: من سورة آل عمران ٢٨/٣.

١١ ع م: التوبة.

وضع الإحسان في غير أهله، والإكرامُ لمن لا يعرف المكرِم به، ولما في الحكمة تعذيبهم تخويفا وزجرا عما يختارون. وينالها من عرفه[1] واعتقد موالاته،[2] وكان هو أعظمَ في قلوبهم [من كل شيء]، وطاعته [أعظم] من جميع لذات الدارين، وإن كانوا يُبتلَون بالمعاصي على الجهالة،
[٧٩ظ] أو على رجاء / الرحمة والعفو، إذ هو كذلك في شرطهم الذي به وَالَوه، وبالغلبة.[3] فهذه[4] رحمة خاصة،[5] بالمؤمنين وبالعباد الذين بذلوا أنفسهم له بالعبودية بحق الاختيار، وإن كانوا يُغلبون على ذلك في أحوال. *والله الموفق.*

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣١]

وقوله: **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**، قيل: إن ناسا كانوا يقولون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا نحب الله حبا شديدا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية وبيّن فيها لمحبته[6] عَلَما.[7] وقيل: إن اليهود لما قالوا: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ،[8] فأنزل الله تبارك وتعالى: **قل** يا محمد:[9] **إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله.**[10] وذلك أن من أحب[11] ملكا من الملوك يحب رسوله ويتبعه في أمره ويؤثر طاعته لحبه.[12] فإذا أظهرتم أنتم بغضكم لرسولي،[13] وتركتم اتباعه في أمره وإيثار[14] طاعته ظهر أنكم تكذبون في مقالتكم: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، لأن من أحب آخر يحب المتصلين به[15] ورسله وحشمه. والمحبة هاهنا الإيثار بالفعل طاعة من يحبه فيما أحبه، وكَرِهَه [فيما يكرهه]، والطاعة له في جميع أمره. *والله أعلم.*

[1] ك ن ع: تعرف؛ م: تفرق.
[2] جميع النسخ: الموالات؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٠٩و.
[3] «وإن كانوا يبتلون بالمعاصي على الجهالة أو على الغلبة، غلبة شهوة أو غلبة حمية» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٠٩و).
[4] جميع النسخ: فهي؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ١٠٩و.
[5] جميع النسخ + أي هي.
[6] ن: لمجيئه.
[7] «وهو اتباع الرسول وطاعته» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٠٩و).
[8] ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ (سورة المائدة، ١٨/٥).
[9] ع + قل.
[10] ن – يحببكم الله.
[11] ع – أحب.
[12] «وقد عرفتم أني رسوله بما وجدتم نعتي في كتابكم» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٠٩و).
[13] ع: الرسولي.
[14] جميع النسخ: وإيثاره؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ١٠٩و.
[15] ع م – به.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[٣٢]

وقوله: **قل أطيعوا الله والرسول**، الآية، قد تقدم ذكرها.[١]

﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٣٣]

وقوله: **إن الله اصطفى آدم**، اختلف فيه. قيل: اصطفى آدم ونوحا ومن ذكر لرسالته[٢] ونبوته.[٣] وقيل: اختارهم لدينه، وهو الإسلام. وقيل: اختارهم في النية والعمل الصالح والإخلاص لله.[٤]

{قال الشيخ رحمه الله:}[٥] الاصطفاء أن يجعلهم صافِين من غير تكدر بالدنيا.

وغيرُهم اختارهم لأمرين: لأمر الآخرة ولأمر المعاش. ألا ترى إلى قوله: «إنا معاشرَ الأنبياء لا نُورَث، نموت موت العبد لسيده».[٦]

{وقال الشيخ رحمه الله} أيضا في قوله: **إن الله اصطفى** من ذكر، فهو -والله أعلم- ذَكَّر الله أولياءه وأهل صفوته، ثم أعداءه وأهل الشقاء ترغيبا فيما استوجبوا [به] الصفوةَ، وتحذيرا عما به صاروا أهل الشقاء؛ إذ هما أمران يتولدان عن اختيار البشر، ويقوم بأسبابها[٧] أهل المحن [والتكليف]، لا بنفس الخلقة والجوهر. فصار الذكر للمعنى الذي ذكرت. وعلى هذا وجه ذكر[٨] عواقب الفريقين في الدنيا وما إليه يصير أمرهم في المعاد. وعلى هذا ما ضربه[٩] الله من الأمثال بأنواع الجواهر الطيبة والخبيثة في العقول والطبائع ترغيبا وترهيبا. وعلى هذا جميع أمور الدنيا أنها كلها عِبَر ومواعظ، وإن كان فيها شهوات ولذات،[١٠] وآلام وأوجاع، ليعلم أنها خلقت لا لها، لكن لأمر عظيم كان ذلك هو المقصودَ من مدبر العالم؛ إذ[١١] بالعواقب يذم أهل الاختيار ويحمدون.

---

[١] انظر عند تأويل قوله تعالى من سورة البقرة: ٢٨٥/٢؛ و من سورة آل عمران: ٢٠/٣.

[٢] ع م: الرسالة.

[٣] جميع النسخ: ولنبوته؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٠٩و.

[٤] ع م - لله.

[٥] ك + في.

[٦] رواه البخاري ومسلم بألفاظ مختلفة، أقربها إلى ما ذكره الماتريدي ما رواه البخاري عن عروة بن الزبير عن عائشة عن أبي بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا نُورَث ما تركنا صدقة» (*صحيح البخاري*، الخمس ١؛ و صحيح *مسلم*، الجهاد ٤٩، ٥٢، ٥٤، ٥٦).

[٧] جميع النسخ: ويقومان بأسبابهما.

[٨] ك: ذكر وجه.

[٩] ن ع: ضرب.

[١٠] ن - ولذات.

[١١] ك - إذ.

فجعل الله عواقبَ الحكماء وأهلِ الإحسان حميدةً لذيذة ترغيبا فيها، وعواقب السفهاء وأهل الإساءة ذميمة[١] وخيمة تزهيدا فيها. فخرج جميع فعل الله على الحكمة[٢] والإحسان، وإن كانت مختلفة[٣] في اللذة والكراهة؛ لأنه كذلك طريق الحكمة في الجزاء وفي ابتداء المحنة؛ إلا أن المحنة تكون مختلفة، والجزاء نوع لما هو كذلك في الحكمة والإحسان، إذ كذلك[٤] سبق من أهله الاختيار، و[في] الجزاء – على ما اختاره من له وعليه– حكمة وإحسان. أعني[٥] بالإحسان فيما يجوز الامتحان بلا جزاء بحق الشكر لما أولى وأبلى،[٦] والحكمة فيما[٧] كان[٨] لازما ذلك في التدبير. ***ولا قوة إلا بالله***.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣٤]

وقوله: **ذرية بعضها من بعض**، قيل: **بعضها من بعض** في النسب، من ذرية آدم، ثم من ذرية نوح،[٩] ثم من ذرية إبراهيم عليهم السلام. وقيل: بعضهم من ذرية بعض، وقيل: بعضهم من جوهر بعض، فلا تتكبروا، كقوله: وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ،[١٠] منع الحرَّ عن التعظّم[١١] على العبد. واختلف في الذرية. قال بعضهم: الذرية الأولاد والآباء، كقوله: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ،[١٢] وكانوا الأولاد والآباء. والذرية مأخوذة من ذَرَأَ يَذْرَأُ، وهو الخلقة. وقيل: الذرية الأولاد خاصة، يقال: ذرية فلان، إنما يراد بذلك أولاده خاصة، دليله قوله: هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً،[١٣] وقوله: إِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ.[١٤]

---

[١] ك: جهة.
[٢] ع: عن الحكمة.
[٣] ن – مختلفة.
[٤] ن: وكذلك.
[٥] ن: عنى.
[٦] لعل المؤلف يريد بأنه لو كان الامتحان بلا جزاء لكان ذلك عدلا بحق الشكر لما أولاه من النعمة، ولكن الله تعالى يجزي عبده إذا امتحنه بالبلايا إحسانا منه.
[٧] م: فيماذا.
[٨] ع – كان.
[٩] ع – ثم من ذرية نوح.
[١٠] ﴿ومن لم يستطع منكم طَوْلاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعضٍ﴾ (سورة النساء، ٤/٢٥).
[١١] جميع النسخ: التعظيم.
[١٢] سورة الإسراء، ١٧/٣. | [١٣] سورة آل عمران، ٣٨.
[١٤] ﴿فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ (سورة آل عمران، ٣/٣٦).

واختلف في الآل. قيل: آل الرجل المتصلون به، وقيل: آل الرجل أتباعه، وقيل: أقرباؤه. وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:[١] «كل تَقِيّ فهو من آلي».[٢] وقيل: إن عمران من ولد سليمان بن داوود عليهم السلام.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٣٥]

وقوله: **إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا**؛ لما أخبر عز وجل أنه اصطفى آل عمران واختارهم على سائر العالمين، وكان أقل ما في صفوته واختياره أن جعلت امرأة عمران ما في بطنها محررا. والمحرر هو العتيق عن المعاش بالعبادة. وقيل: المحرر هو الذي يعبد الله خالصا مطيعا له[٣] لا يَشغله شيء عن عبادته، فارغا لذلك. وهو قول ابن عباس رضي الله عنه.[٤] وقيل: المحرر هو الذي يكون لله صافيا. وقيل: المحرر هو من خدم المسجد. وقوله: **إني نذرت لك ما في بطني محررا**، جعلتْ ما في بطنها لله خالصا، لم تطلب منه الاستئناس به ولا ما يطمع الناس من أولادهم، وذلك من الصفوة التي ذكر عز وجل.

وهكذا الواجب على كل أحد أنه إذا طلب ولدا أن يطلبه للوجه الذي طلبت امرأةُ عمران وزكريا، حيث قال: رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً،[٥] وما سأل إبراهيم عليه الصلاة والسلام [حيث قال:] هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ،[٦] وكقوله: وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا،[٧] الآية. هكذا الواجب أن يطلب الولد، لا ما يطلبون من الاستئناس والاستنصار والاستعانة في أمر[٨] المعاش بهم.

---

[١] ك ن: روي أنه قال.

[٢] أخرج الهيثمي عن أنس بن مالك قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: من آل محمد؟ فقال:«كل تقي»، وقال: ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾. رواه الطبراني في الصغير والأوسط. وفيه نوح بن أبي مريم وهو ضعيف. انظر: *مجمع الزوائد* للهيثمي، ١٠/٢٦٩؛ وانظر أيضا: *تفسير القرطبي*، ١٦/٨١؛ و*تفسير ابن كثير*، ٢/٣٠٧.

[٣] ع م – له.

[٤] ذكره ابن كثير في تفسيره من غير نسبة؛ انظر: *تفسير ابن كثير*، ١/٣٦٠.

[٥] ﴿هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾ (سورة آل عمران، ٣/٣٨).

[٦] ﴿رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم﴾ (سورة الصافات، ٣٧/١٠٠-١٠١).

[٧] ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما﴾ (سورة الفرقان، ٢٥/٧٤).

[٨] جميع النسخ: بأمر.

وقوله: **فتقبل منى إنك أنت السميع العليم**، أي تقبل مني قرباني، وما جعلت لك خالصا. **إنك أنت السميع**[1] لنذري، **العليم** بقصدي في التحرير. وقيل: **السميع**: المجيب لدعائي، **العليم** بنيتي.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[٣٦]

[٨٠و] قوله تعالى: **فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى**، ومعنى قولها **إني وضعتها / أنثى** مع علمها أن الله[2] عالم بما في بطنها وبما وضعتها [فيه] وجهان. أحدهما [أن يكون] اعتذارا لما لم يكن يُحرَّر[3] في ذلك الزمان إلا الذكور من الأولاد، فاعتذرت أن[4] ما وضعت لا يصلح للوجه الذي ذكرت.[5] والثاني أن الإنسان إذا رأى شيئا عجيبا قد ينطق بذلك، وإن كان قد[6] يعلم أن غيره علم[7] ما علم هو وأنه رأى مثل ما رأى هو. أو يحتمل أن طلبت ردَّها إلى منافعها إذ وضعت الأنثى، لما رأت أن الأنثى[8] لا تصلح لذلك.

ويحتمل قوله: **إني وضعتها أنثى**، التعريض لإجابة الله تعالى لها[9] فيما قصدت من طاعته بالنذر، وإن لم تكن صلحت لما قصدت، وقد أجيبت[10] في ذلك[11] بقوله: فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ،[12] نحو ما يتقبل لو كان ذكرا في الاختيار والإكرام، وجعلها خير نساء العالمين.

وقوله: **وليس الذكر كالأنثى**، اختلف فيه. قيل: إن ذلك قولها، قالت: **وليس الذكر كالأنثى**، على أثر قولها: **إني وضعتها أنثى**، لما تحتاج إلى فضل حفظ وتعاهد والقيام بأسبابها مالا يحتاج الذكر.

---

[1] ع + العليم.
[2] ع م + هو.
[3] ع م: تحرير.
[4] جميع النسخ: أني. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٠٩ظ.
[5] ك: جعلت.
[6] ن – قد.
[7] ك ع م – علم.
[8] ع م – أن الأنثى.
[9] م – لها.
[10] م: قد أجيبت.
[11] ع م: في قولك.
[12] الآية التالية.

وقيل: إن[١] ذلك قولٌ قاله عز وجل لمّا قالت: **إني وضعتها أنثى**، جوابا لها[٢] **وليس الذكر كالأنثى** فيما قصدت. *والله أعلم.*

وقوله: **وإني سميتها مريم**، فيه دلالة أن تسمية[٣] الأولاد إلى الأمهات في الإناث دون الآباء. ثم التجأت إلى الله تعالى حيث أعاذتها به **وذرّيّتها من الشيطان الرجيم**. وفيه دلالة أن الذكور يكونون من ذرية الإناث، لأنه لم يكن منها إلا عيسى عليه السلام.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٣٧]

وقوله: **فتقبلها ربها بقبول حسن**. يحتمل قوله: **فتقبلها ربها بقبول حسن** أن أعاذها وذريتها من الشيطان الرجيم على ما سألت. ويحتمل أن جعلها تصلح للتحرير ولما جعلت وإن كانت أنثى.

وقوله: **وأنبتها نباتا حسنا**، يحتمل[٤] **نباتا حسنا**، أن لم يجعل للشيطان إليها سبيلا. ويحتمل أن رباها تربية حسنة، أن لم يجعل رزقها وكفايتها بيد أحد من الخلق، بل هو[٥] الذي يتولى ذلك، لما يبعث إليها من ألوان الرزق، كقوله: **وجد عندها رزقا**، وكقوله: وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا.[٦]

وقوله: **وكفّلها زكريا**؛ فيه لغتان، إحداهما[٧] بالتخفيف، والأخرى بالتشديد. فمن قرأ بالتخفيف فمعناه: ضمها زكريا إلى نفسه. ومن قرأ بالتشديد فمعناه أن[٨] الله عز وجل ضمها إلى زكريا.

كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قيل: وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف.

---

[١] ع – إن.
[٢] ع م – لها.
[٣] ع م: تسميته.
[٤] جميع النسخ + أيضا.
[٥] ك + بل هو.
[٦] سورة مريم، ١٩/٢٥.
[٧] ن ع: أحدهما.
[٨] ن ع: أي.

قال يا مريم[1] **أنّىٰ لكِ هذا**. قيل فيه بوجهين. قيل: استخبار عن موضعه، أو كيف لك هذا؟ على الاستيصاف، إنكارا عليها واتِّهاما؛[2] لما لا يدخل عليها غيرُه، ولا يقوم بكفايتها سواه، فوقع في قلبه أن أحدا من البشر يأتيها بذلك. وقيل: إنه قال ذلك تعجبا[3] منه لما رأى من الفاكهة والطعام في غير حينه غير متغير، فقال: **أنّىٰ لكِ هذا؟** تعجبا منه لذلك.

ثم: **قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**، أي يرزق من حيث لا يحتسب.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[٣٨]

وقوله: **هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة**. قيل: فعند ذلك دعا زكريا ربه، لما كانت نفسه الخاشية تحدِّث بالولد أن يهب [ربه] له من لدنه[4] ذرية طيبة،[5] لكنه لم يدع[6] لما رأى نفسه متغيرة عن الحال التي يطمع منها الولد، فرأى أن السؤال[7] في مثل ذلك لا يصلح.[8] فلما رأى عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف غير متغيرة عن حالها علم عند ذلك أن السؤال يصلح، وأنه يجاب للدعاء في غير حينه، فذلك معنى قوله: **هنالك دعا ذكريا ربه**. ***والله أعلم***. ويحتمل أنه لما رأى ما أُكرمت امرأة عمران في قبول دعوتها، وتبليغ ابنتها في الكرامة المبلغَ الذي رأى فيها، مما لعل أطماع الأنفس لا تبلغ ذلك دعا الله جل جلاله أن يكرمه بمن[9] يبقى له الأثر به والذكر، وإن كانت تلك الحال حالا[10] لا تطمع الأنفس[11] فيما رغب عليه السلام.

---

[1] جميع النسخ: قال زكريا.

[2] ع: وأنها.

[3] ك ع م: تعجيبا.

[4] ع م: لدنك.

[5] ك ن – من لدنه ذرية طيبة؛ ع م + قيل فعند ذلك دعا زكريا ربه لما كانت نفسه.

[6] ك: لم يدعوا؛ ن ع م: لم يدعو.

[7] ع م + أن السؤال.

[8] «لكنه لم يدع مراعاة للأدب؛ إذ الأدب أن لا يدعو المرء من الله تعالى إلا ما هو معتاد الوجود فيما بين الناس دون ما هو نادر أو خلاف المعتاد، وإن كان إحداث الكل تحت قدرة الله. وهو من أعلم الناس بقدرة الله تعالى، وهو نبي كان يرى نفسه متغيرة الحالة التي يطمع من مثله الولد، وامرأته على الحالة التي لا يطمع من مثلها الولد، لم يكن يقدر على الدعاء والسؤال» (شرح *التأويلات*، ورقة ١١٠ظ).

[9] ن ع: ممن.

[10] ن ع م: حال.

[11] ن – الأنفس.

مع ما كان[١] يعلم[٢] قدرة الله عز وجل على ما شاء من غير أن كان يجسر[٣] على طلب الإكرام بكل ما تبلغه قدرته،[٤] حتى رأى ما هو في الأعجوبة قريبا مما كانت نفسه تتمنى.[٥] والله أعلم بالمعنى الذي سأل.

وقوله: **رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء**، أي مجيب الدعاء.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٣٩]

وقوله: **فنادته الملائكة وهو قائم يصلى في المحراب**، دل هذا أن المحراب هو[٦] موضع[٧] الصلاة. **أن الله يبشرك بيحيى**، فيه دلالة لقول أصحابنا رحمهم الله: إن الرجل إذا حلف أن لا يبشّر فلانا فأرسل إليه غيره يبشره حنث في يمينه، لأنه هو البشير وإن كان المؤدى غيره. ألا ترى[٨] أن البشارة هاهنا أضيفت إلى الله تعالى، فكان هو البشير،[٩] فكذلك هذا.

وقوله: **مصدّقا بكلمة من الله**، قيل: عيسى عليه السلام كان بكلمة من الله، فيحيى صدّقه برسالته وشهد أنه كلمة الله. وقيل: أول من صدق عيسى يحيى بن زكريا. ولهذا وقع على النصارى شبهة، حيث قالوا: عيسى ابن الله بقوله: بِكَلِمَةٍ مِنْهُ،[١٠] وَرُوحٌ مِنْهُ.[١١] ظنوا أنه في معنىً فيه. لكن ذلك إنما يذكر إكراما له[١٢] وإجلالا، ولا يوجب ذلك ما قالوا. ألا ترى أن الله عز وجل قال: وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ،[١٣] ونحو ذلك، لم يكن فيه أن النعمة منه في شيء، فعلى ذلك الأول.

---

[١] ن - فيما رغب عليه السلام مع ما كان.
[٢] م - يعلم.
[٣] ع م: يحسر.
[٤] جميع النسخ: قدره.
[٥] ك: تتمنى؛ ع م: يتمنى.
[٦] ن - هو.
[٧] ن: بموضع.
[٨] ك: يرى.
[٩] ع - البشير.
[١٠] جميع النسخ: من الله. ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ (سورة آل عمران، ٣/٤٥).
[١١] ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ (سورة النساء، ٤/١٧١).
[١٢] جميع النسخ: لهم.
[١٣] سورة النحل، ١٦/٥٣.

وقوله: **وسيدا**. قيل: **سيدا** في العلم والعبادة. وقيل: السيد الحليم هاهنا. وقيل: السيد الذي يطيع ربه ولا يعصيه، فكذلك كان صلوات الله عليه. وقيل: السيد الحسن الخلق، وقيل: السيد التقي.

وقيل: اشتق يحيى من أسماء الله تعالى من الحي،[1] والله عز وجل هو الذي سماه يحيى. [٨٠ظ] وكذلك / عيسى[2] هو الذي سماه مسيحا، بقوله: يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ،[3] عليهما السلام، وذلك إكراما لهما وإجلالا؛ على ما سمى إبراهيم خليل الله، ومحمد حبيب الله، وموسى كليم الله، إكراما لهم وإجلالا، فكذلك الأول. وجائز أن يكون يحيى مما حَيِيَ به الدين.

{قال الشيخ رحمه الله} في قوله **يحيى**: قيل: سماه به، لما حيي به الدين والمروءة، أو حيي[4] به العلم والحكمة، أو حيي به الأخلاق الفاضلة والأفعال المرضية. ولهذا -والله أعلم- سُمِّي سيدا، لأن السؤدد[5] في الخلق يكسب[6] بهذا النوع من الأحوال. *وحقيقة السؤدد أنه يكتسب بالأخلاق الحسنة والأفعال المرضية. وجائز أن يكون عليه السلام جمعهما فيه، فسمى به. ***والله أعلم***.* وسمي [عيسى] مسيحا بما مسح بالبركة. أو [لأنه] يُبَارك في كل شئ بمسحه بيده، نحو أن يبرأ به [المريض] ويحيى. ***والله أعلم***. والأصل في هذا ونحوه أن الأسماء[8] إذ جعلت للمعارف، وليعلم بها المقصود، فالكف[9] عن التكلف في [تحديد] المعنى الذي له سُمُّوا به[10] أسلم، وإن كان في الجملة يختار ما يحسن منه في الأسماء، دون ما يقبح على المقال أو على الرغبة في ذكره، على ما يختار من كل شيء. ***والله أعلم***.

---

[1] جميع النسخ: من حي.
[2] ن ع م + الله.
[3] ﴿إذ قالت الملآئكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ (سورة آل عمران، ٤٥/٣).
[4] م: وحيي.
[5] ك: السيود؛ ع: السود؛ م: السؤد.
[6] ك ن: يكتسب.
* في جميع النسخ ما بين النجمتين وقع قبل «والأصل في هذا ونحوه...»فنقلناه إلى هنا.
[8] ك: لا سيما.
[9] ع: في الكف.
[10] ك ن ع: له.

وقوله: **وحصورًا**. قيل: الحصور الذي لا ماء له[١] ولا شهوة. وقيل: هو المأخوذ من النساء والممنوع منهن. وقيل: هو الذي لا يشتهي النساء.[٢] وكله واحد. ***والله أعلم***.

ونبيا من الصالحين. ذكر أنه من الصالحين -وإن كان كل نبي لا يكون إلا صالحا- على ما سمى بعض النبيين[٣] صديقا، وإن كان [كل نبي] لا يكون إلا صديقا. ووجه ذكره صالحا أنه كان يتحقق فيه ذلك؛ لأن غيره من الخلق وإن كان يستحق ذلك الاسم[٤] إنما يستحقه[٥] بجهة، والأنبياء صلوات الله عليهم يتحقق ذلك فيهم من الوجوه كلها. والثاني دعاء[٦] أن يلحق بالصالحين في الآخرة. ***والله أعلم***.

{قال الشيخ رحمه الله:} ما ذكر في كل نبي أنه كان من الصالحين يخرج على أوجه. على جميع الصلاح [فيهم]، وعلى البشارة لهم في الآخرة أنهم يلحقون بأهل الصلاح، وعلى أنهم منهم لولا النبوة، ليعلم أن النبوة إنما تختار[٧] في الدين لمن[٨] لهم وصف الصلاح، وعلى الوصف به أنهم كذلك على ألسن الناس وأن الذين ردوا عليهم ردوا[٩] بعد علمهم بصلاحهم. أو على الوصف به كالوصف بالصديق وإن كان كل نبي كذلك. مع ما لعل لذلك[١٠] حدا[١١] عند الله -[فهو] أراد ذلك-[١٢] [و]لم يكن أطلَع غيره عليه. ***والله أعلم***. وجائز أن يكون [سماه] يحيى بما حَيِيَ به الأخلاق المحمودة والأفعال المرضية، ولذلك سمي سيدا. وجملته أن لله أن يسميَ من شاء بما شاء، وليس لنا تكلف طلب المعنى فيما سمى الله الجواهر به؛ إذ الأسماء للتعريف، لكن يختار الأسماء الحسنة في السمع على التفاؤل. ***والله أعلم***.

---

[١] أي لا منيّ له.

[٢] «وقيل: الحصور هو الذي لا يأتي النساء مع القدرة. وهو الأصح؛ لأنه ليس في الامتناع الضروري لعدم صلاح الآلة وعدم الشهوة مدح. وإنما المدح مستحق بالامتناع عن اختيار، وذلك عند سلامة الآلة وأسباب القدرة» (شرح *التأويلات*، ورقة ١١٠ظ).

[٣] جميع النسخ: كل نبي. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ١١٠ظ.

[٤] ن - الاسم.

[٥] جميع النسخ: إنما يستحق.

[٦] ع: دعاه؛ م: دعا.

[٧] ن ع م: يختار.

[٨] جميع النسخ: ثم.

[٩] ع - ردوا.

[١٠] أي للصلاح.

[١١] ك ن ع: حد؛ م: أحد.

[١٢] جميع النسخ: ذلك أراد.

وقوله: وروح الله،[1] وكلمته،[2] كقوله: خليل الله،[3] وحبيبه، وذبيح الله، وكليم الله،[4] ليس على توهم معنى يزيل معنى الخلقة، ويوجب معنى الربوبية أو البنوة.[5] وذلك على ما قيل من بيوت[6] الله، وعلى ما قيل لدينه نور الله، وقيل لفرائضه حدود الله، لا على معنى يخرج عن جملة خلقه، بل على تخصيص لذلك في الفضل على أشكاله. وذلك كما قال لمحمد صلى الله عليه وسلم: وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ،[7] وقال في الجملة: وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ.[8] لا على ما توهمته النصارى في المسيح، فمثله الأول. **ولا قوة إلا بالله**.*

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[٤٠]

قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر. يحتمل هذا الكلام وجوها. أحدها على الإنكار، أي لا يكون. لكن هاهنا لا يحتمل، لأنه كان أعلم بالله وقدرته أن ينطق به أو يخطر بباله. والثاني، **أنى يكون لي غلام**، أي كيف وجهه وسببه؟ وكذلك قوله: أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا،[10] وقوله: أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا،[11] [وقوله:] أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا،[12] أي كيف وجهه وما سببه؟ والثالث: **أنى يكون لي غلام** في الحال التي أنا عليها؟ أو أردُّ إلى الشباب، فيكون لي الولد. هذان الوجهان محتملان. وأما الأول فإنه لا يحتمل.

---

[1] هكذا في جميع النسخ. ولم يرد في القرآن إلا "روح منه". وذلك قوله تعالى: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ (سورة النساء، ١٧١/٤).

[2] يشير بذلك إلى ما جاء في الآية السابقة من سورة النساء.

[3] لعله يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ (سورة النساء، ١٢٥/٤).

[4] ك – الله. لم يرد في القرآن الكريم نصوص تصرح بالإضافات: حبيب الله، ذبيح الله، كليم الله. ولعلها ذكرت وفق الاستعمال العام.

[5] ن: النبوة.

[6] ك ن ع: ثبوت؛ م: بتوت.

[7] سورة الضحى، ١١/٩٣.

[8] سورة النحل، ٥٣/١٦.

* وقع هنا قطعة من تفسير الآية ٤٦ من سورة آل عمران، فنقلناه إلى هنالك. انظر: ورقة ٨٠ظ/سطر٢٤-٢٨.

[10] سورة آل عمران، ٣٧/٣.

[11] ﴿أو كالذي مرّ على قريةٍ وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مئة عامٍ ثم بعثه﴾ (سورة البقرة، ٢٥٩/٢).

[12] ﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾ (سورة البقرة، ٢٤٧/٢).

وقوله تعالى: **وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر**، وذكر في سورة مريم: قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عتيا،[١] ذكر على التقديم والتأخير. وكذلك قوله ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا،[٢] و[قوله:] ثَلَاثَ لَيَالٍ،[٣] والقصة واحدة، [لكنه] ذكر على التقديم والتأخير، وعلى اختلاف الألفاظ. دل أن ليس على الخلق حفظُ اللفظ واللسان، وإنما عليهم حفظ المعاني المدرجة المودعة فيها. *وبالله التوفيق*. ويعلم [من ذلك] أنه لم يكن على كلا القولين، ولم يكن بهذا اللسان.

وقوله: **قال كذلك الله يفعل ما يشاء**، وقوله: قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ،[٤] واحدٌ وإن اختلف في اللسان.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[٤١]

وقوله: **قال رب اجعل لي آية**، طلب من ربه آية، لما لعله لم يعرف أن تلك البشارة بشارة الملائكة أو وساوس. فطلب آيةً ليعرف أن تلك البشارة بشارة الملائكة من الله عز وجل لا بشارةُ إبليس، لأنه لا يقدر أن يفتعل في الآية، لأن فيها تغيير[٥] الخلقة والجوهر، وهم لا يقدرون على ذلك ولعلهم يقدرون على[٦] الافتعال في البشارة. ألا ترى / أن إبراهيم صلوات الله على نبينا وعليه لما [٨١و] نزل به الملائكة لم يعرفهم[٧] بالكلام وهابهم[٨] حتى قال: إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ،[٩] حتى قالوا: إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ،[١٠] فذهب ذلك الروع منه بعد ما أخبروه أنهم ملائكة رسل الله أرسلهم إليه.

*وقيل في قوله: **اجعل لي آية** أنه طلب آية؛ لجهله بعلوق الولد، وحبلها[١١] ليعرف متى يأتيه.[١٢]*

---

[١] سورة مريم، ٨/١٩.
[٢] ﴿قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾ (سورة آل عمران، ٤١/٣).
[٣] ﴿قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سويا﴾ (سورة مريم، ١٠/١٩).
[٤] سورة مريم، ٢١/١٩.
[٥] جميع النسخ: تغير.
[٦] ك ن – على.
[٧] ع: لم يعرفها.
[٨] جميع النسخ: وهابوه.
[٩] سورة الحجر، ٦٢/١٥.
[١٠] سورة هود، ٧٠/١١.
[١١] ك ع م: وجعلها. وحبلها: أي وحبل امرأته.
[١٢] جميع النسخ: يأتيها. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ١١١و.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٨١و/سطر٧-٨.

وقوله: **قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا**، قال بعض أهل التفسير: حبس لسانه عقوبة له بقوله: أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ،[1] لكن ذلك خطأ، والوجه فيه منعه من تكليم الناس ولم يمنعه عن الكلام في نفسه. ألا ترى أنه أمره أن يذكر ربه ويسبح بالعشي والأبكار، كقوله: **واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار**. ويحتمل أن يكون أراه آية في نفسه من نوع ما كان سؤاله، إذ[2] كان عن العلم بالولد في غير حينه، فأراه[3] بمنع اللسان عن النطق وأعلى أحوال الاحتمال ليكون آية للأول.[4]*

وقوله: **إلا رمزا**، قيل: الرمز هو[6] تحريك الشفتين، وقيل: هو الإيماء بشفتيه، وقيل: هو الإشارة بالرأس، وقيل: هو الإشارة باليد. والله أعلم بذلك.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[٤٢]

وقوله: **وإذ قالت الملائكة يا مريم**، قال أهل التفسير: هو جبريل عليه السلام. لكن ذلك لا يعلم إلا بالخبر، فإن صح الخبر فهو كذلك، وإلا لم نقل[7] من كان من الملائكة قال ذلك.[8]

وقوله: **إن الله اصطفاك**، [أي] إنه اصطفاها[9] لعبادة نفسه، وخصها له،[10] بما[11] لم يكن ذلك لأحد من النساء، فيكون ذلك صفوتها. وقيل: اصطفاها بولادة عيسى عليه السلام، إذ أخرج منها نبيا مباركا تقيا على خلاف ولادة البشر.

---

[1] إشارة إلى الآية السابقة.

[2] م: إذا.

[3] ك: فأذاه.

[4] يقول علاء الدين السمرقندي رحمه الله: «إنما جعل الله المنع عن التكلم مع الناس في أعلى أحوال القدرة، فإن الطفل مع صلاح آلاته لا يعتاد منه الكلام، أما من الكبير في حال سلامة الآلة فالكلام هو المعتاد، والامتناع على طريق نقض العادة. فأراه الآية المناقضة للعادة على حسب سؤاله الولد في غير حينه المناقض للعادة، ليتأكد ما بشر به ويطمئن قلبه كذلك. والله أعلم» (*شرح التأويلات*، ورقة ١١١ظ).

* وقع هنا مقدار سطر من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فنقلناه إلى هنالك. انظر: ٨١و/سطر٧-٨.

[6] ع م – هو.

[7] ع م: لم يقل.

[8] أي لم نجزم فيمن قال هذا القول من الملائكة لمريم أ هو جبريل أم غيره.

[9] جميع النسخ: صفاها؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١١١ظ.

[10] ن: لنفسه.

[11] ك ن ع: ما.

وقوله: **وطهرك**، قيل:[١] من الآثام والفواحش. وقيل: **وطهرك** من مس الذكور وما قُذفت به.[٢] **واصطفاك على نساء العالمين**، هو ما ذكرنا من صفوتها أن جعلها لعبادة نفسه خالصة.[٣] أو ما قد وَلَدت[٤] من غير أب على خلاف سائر البشر. وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: خطّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة خطوط ثم قال: «هل تدرون ما هذه؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة، وفاطمة، ومريم، وآسية امرأة فرعون»،[٥] وكذلك روى أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:[٦] «خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عِمران، وآسية بنت مُزاحم، وخديجة بنت خُويلد، وفاطمة[٧] بنت محمد صلى الله عليه وسلم».[٨]

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[٤٣]

وقوله: **يا مريم اقنتي لربك**، يحتمل وجهين. الأمرَ بالقنوت: [أريد به][٩] القيام، ثم الأمر بالسجود: أي الصلاة، ثم الأمر بالركوع مع الراكعين، وهو الصلاة بجماعة.[١٠] ففيه الأمر بالصلاة بالجماعة على ما هو علينا، لأنه قال: **واركعي مع الراكعين**. وعلى ذلك روي في الخبر أنه سئل عن أفضل الصلوات، فقال: «طول القنوت».[١١] ويحتمل أنه الأمر بالركوع ثم بالسجود،[١٢] فيدل أن السجود وإن كان مقدما ذكره على الركوع فإنه ليس في تقديم ذكر شيء على شيء ولا تأخير شيء عن شيء[١٣] في الذكر دلالة وجوب الحكم كذلك.

---

[١] ن – قيل.
[٢] ك – به.
[٣] ن ع: خالصا.
[٤] ك ن + من ولد.
[٥] *مسند أحمد بن حنبل*، ١/ ٢٩٣، ٣١٦، ٣٢٢.
[٦] ع م – قال أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية امرأة فرعون وكذلك روى أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال.
[٧] ع + الزهراء.
[٨] *مسند أحمد بن حنبل*، ٣/١٣٥؛ و*تفسير الطبري*، ٣/٢٦٣؛ و*تفسير ابن كثير*، ١/٣٦٣.
[٩] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١١١ظ.
[١٠] ن: لجماعة.
[١١] *مسند أحمد بن حنبل*، ٣/٣٠٢، ٣٩١، ٤/٣٨٥؛ و*صحيح مسلم*، صلاة المسافرين، ١٦٤-١٦٥.
[١٢] ع: السجود.
[١٣] ع – عن شيء.

وقيل:[١] القنوت هو الخضوع والطاعة، كقوله: وَقُومُوا لِلهِ قَانِتِينَ،[٢] أي خاضعين مطيعين.

فإن قيل: كيف أُمِرتْ بالركوع مع الراكعين؟ قيل: كانوا –والله أعلم– ذوى قرابة منها ورحم. ألا ترى أنهم كيف اختصموا[٣] في ضمها وإمساكها حتى أراد كل واحد منهم ضمها إلى نفسه وأنه الأحق بذلك، دلّ أن بينهم وبينها رحما وقرابة.

وقيل في قوله: **اقنتي**: أطيلي الركوع[٤] في الصلاة. ***والله أعلم.***

{قال الشيخ رحمه الله:} ويحتمل **مع الراكعين**، أي ممن يركع ويخضع له بالعبادة، لا على الاجتماع. والله أعلم كيف كان الأمر في ذلك.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[٤٤]

قوله تعالى: **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك**، أي من أخبار الغيب، لم تشهده أنت يا محمد، ولم تحضره،[٥] بل نحن أخبرناك وذكرناك عن[٦] ذلك.

ثم في ذلك وجوه [من] الدلالة. أحدها أراد [الله] أن يخبره عن صفوة هؤلاء وصنيعهم ليكون على علم من ذلك. والثاني دلالة إثبات رسالته، لأنه أخبر[٧] على ما كان من غير أن اختلف إلى أحد، أو أعلمه أحد من البشر على علم منهم بذلك،[٨] دل أنه إنما علم ذلك بالله عز وجل. والثالث أن يتأمل وجه الصفوة لهم أنهم بم نالوه، فيجهدَ[٩] في ذلك. ***والله أعلم.***

وفي ذلك تأخير البيان عن وقت الحاجة إلى أن ظهر ذلك بإلقاء الأقلام.

وقوله: **وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم**، الآية. قيل: إنهم ألقوا أقلامهم على جِرْيَة الماء، فذهبت الأقلام كلها مع الجرية إلا قلم زكريا، فإنه وقف على وجه الماء.

---

١ يحتمل أن يكون هذا هو الوجه الثاني من الوجهين.

٢ ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٣٨).

٣ ع م: اختصوا.

٤ م – الركوع.

٥ جميع النسخ: ولم تحضر. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ١١١ظ.

٦ ن ع: عند.

٧ م: أخبره.

٨ ك ع م: ذلك.

٩ جميع النسخ: فيجهدوا. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ١١١ظ.

وقيل: طرحوا أقلامهم في الماء، وكان من شرطهم أن من صعد قلمه عاليا[١] به مع الجرية فهو أحق بها، ومن سَفَل قلمه مع الجِرية فهو المقروع؛ فصعد قلم زكريا وتسفّلت أقلامهم، فعند ذلك ضمها زكريا إلى نفسه.

ثم من الناس من احتج لجواز[٢] القرعة والعمل بها بهذه الآية، حيث ضم[٣] زكريا مريم إلى نفسه لما[٤] خرجت القرعة له.[٥] لكن [هذا الاحتجاج باطل لأن][٦] القرعة في الأنبياء لتبيين[٧] الأحق من غيره لوجهين: لحق الوحي؛ والثاني لظهور إعلام في نفس القرعة عن ما يعلم[٨] أنه كان بالله ذلك لا بنفسه، كارتفاع القلم على الماء، ومثل ذلك لا يكون للقلم.[٩] و[إظهار] المحق من المبطل فيما[١٠] بين سائر الخلق لدفع[١١] التهم، فهي لا تدفع [بالقرعة] أبدا.[١٢] ويحتمل استعمال القرعة فيها لتطييب الأنفس بذلك، أو علموا ذلك بالوحي، فليس اليوم وحي؛ لذلك بطل الاستدلال لجواز[١٣] العمل بالقرعة اليوم. ***والله أعلم***. أو كان ذلك آية، والآية لا يقاس عليها غيرها، نحو قبول[١٤] قول قتيل بني إسرائيل، [فإنه كان] آية، ليس به معتبر في جواز قول قتيل آخر قبل الموت.[١٥]

---

[١] ك ن ع: مغالبا.

[٢] ن ع: بجواز.

[٣] ك ن م: ضمها.

[٤] ن: إلى.

[٥] م – له. انظر لهذه المسألة: *تفسير القرطبي*، ٨٧/٤.

[٦] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١١٢و.

[٧] ع: التبيين؛ م: لتبين.

[٨] جميع النسخ: ما يعلم.

[٩] «ومثل ذلك لا يكون فعل القلم، وإنما هو فعل الله تعالى» (*شرح التأويلات*، ورقة ١١٢و).

[١٠] جميع النسخ: وفيما.

[١١] جميع النسخ: لدفعهم.

[١٢] والتصحيح مع الزيادة مستفاد من الشرح. ويقول الشارح في آخر قوله: «إنما الخلاف في القرعة لإظهار الحق. وهي لا تظهر الحق بنفسها أبدا، فإنها تارة يخرج على هذا وتارة لا، والمختلف لا يصلح دليلا. والله أعلم» (*شرح التأويلات*، ورقة ١١٢و).

[١٣] ك ن ع: بجواز.

[١٤] م – قبول.

[١٥] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وإذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون. فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ (سورة البقرة، ٧٢/٢-٧٣). وإنما قال: «قبل الموت»، لأنه لا يمكن لمن ليس بنبي أن يحيي الميت فيخبر مَن قتله.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[٤٥]

وقوله: **إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرِكِ بكلمة منه اسمه المسيح**، يحتمل **بكلمة** [٨١ظ] **منه**، أن قال: كن، فكان من غير أب / ولا سبب. وسائرُ البشر لم يكونوا إلا بالآباء والأسباب من النطفة، ثم من العلقة، ثم من مضغة مخلَّقه على ما وصف عز وجل في كتابه،[1] وكان أمر عيسى عليه السلام على خلاف ذلك. ويحتمل **بكلمة منه** ما ذكر أنه كلم الناس في المهد إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ،[2] الآية. وذلك مما خص به عيسى، وهو بكلمة من الله قال ذلك.

[٨١ظ س٧ *وقوله **اسمه المسيح**. قال ابن عباس رضي الله عنه: **المسيح** المبارك، أي مسح[3] بالبركة.[4] وقيل: سمي مسيحا لأنه كان يمسح عين[5] الأعمى والأعور فيبصر. وقيل: **المسيح** العظيم. لكنه -والله أعلم- بلسانهم، فيسأل ما المسيح بلسانهم؟

وقوله: **وجيها في الدنيا**، بالمنزلة ومكينا في الآخرة.[6]

وقوله: **ومن المقرَّبين**، في الدرجة والرفعة. ومن كان وجيها في الدنيا والآخرة[7] فهو ٨١ظ س١٠] مقرب فيهما.[8]*

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٤٦]

وقوله: **ويكلم الناس في المهد وكهلا**، بشارة ببقائه إلى أن يصير كهلا. وفيه وجه آخر، وهو أن[10] في ذلك بيان أن كلامه في المهد كلام مختار،[11] إذ ذلك وصف كلام الكهل ليعلم أن قوله:

---

[1] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلَّقةٍ وغير مخلقة لنبين لكم﴾ (سورة الحج، ٥/٢٢).

[2] ﴿قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا﴾ (سورة مريم، ٣٠/١٩).

[3] ع م: مسيح.

[4] تفسير الطبري، ٢٧٠/٣.

[5] ك: بعين.

[6] ك + ما ذكر.

[7] ن – وقوله ومن المقربين في الدرجة والرفعة ومن كان وجيها في الدنيا والآخرة.

[8] ك ن م: فيها.

* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٨١ظ/سطر٧-١٠.

[10] م + قوله.

[11] أي كلام حاصل من الحروف والكلمات.

إِنِّي عَبْدُ اللهِ،[١] إلى آخره إنما هو حقيقة الخضوع لله والإنباء عنه، لا على خلْقه كنطق الجوارح في الآخرة.[٢] *والله أعلم*. أو ليكون آية له دائمة، إذ لم يكن على ما عليه أمرا لبشر من التغيير.[٣] على أن الآيات[٤] الجوهرية تزول[٥] عند الغَناء، نحو العصا[٦] فيما تعود إلى حالها واليد ونحو ذلك،[٧] لِيُخَصَّ هو[٨] بنوع من الآيات الحسية بالدوام. ***ولا قوة إلا بالله***.

فإن قيل ما معنى قوله: **ويكلم الناس في المهد وكهلا**، والكهل مما يكلم [فيه] الناس؟

قيل: لأن كلامه في المهد آية والآية لا تدوم، كقوله: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ،[٩] الآية، وإنما يكون ذلك مرة، لا أنها تشهد وتنطق أبدا. فأخبر أن تكليمه الناس في المهد -وإن كانت آية- فإنه ليس بالذي لا يدوم ولا يكون إلا مرة. والثاني [أنه] أمنٌ من الله لمريم وبشارة لها[١٠] ببقاء ولدها[١١] إلى وقت كهولته. *والله أعلم*.*

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[٤٧]

وقوله: **قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر**، عرفت مريم أن الولد يكون بمس البشر، وعلمت أيضا أنها لا تتزوج ولا يمسها بشر أبدا، لأنها قالت: **أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر**، فإن لم يكن مسها[١٣] أحد قبل ذلك فلعله[١٤] يمسها في حادث الوقت فيكون لها منه الولد.

---

[١] ﴿قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا﴾ (سورة مريم، ٣٠/١٩).

[٢] وهو كلام غير مختار، كأنه حاصل بالخلقة ولسان الحال.

[٣] لأن كلام الصبي إنما يحصل بعد زمان ويكون في هذه المدة تغير وتطور فيه.

[٤] ك ن م: آيات.

[٥] ك ع م: نزول.

[٦] ك م: العصاء.

[٧] أي المعجزات الجوهرية الحاصلة بالعصا واليد وغيرها تزول بعد الاستغناء عنها وبعد وقوعها بمرأى من الناس فتعود إلى حالها الأولى.

[٨] أي كلام عيسى عليه السلام حال كونه صبيا في المهد.

[٩] ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ (سورة النور، ٢٤/٢٤).

[١٠] ع م: بها.

[١١] جميع النسخ: عند وفاته. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ١١٢و.

* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة، فنقلناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٨١ظ/سطر٧-١٠.

[١٣] ع: منها.

[١٤] م: فلم.

فلما لم يقل لها: يمسّك،[1] ولكن قال: **كذلكِ الله يخلق ما يشاء**، دل ذلك أنها علمت أنها لا تتزوج أبدا لأنها كانت محررة لله، مخلَصة له في العبادة. *والله أعلم*. ويحتمل قوله: **أنى يكون لي ولد**، أي من أي وجه يكون لي ولد، بالهبة؟ لأنها بشرت أن يهب لها ولدا، فقالت: من أي وجه يكون لي ولد،[2] بالهبة، ولم يمسسني بشر؟[3]

ثم قال: **كذلكِ الله يخلق ما يشاء**، تأويله ما ذكر في سورة مريم، حيث قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ، الآية، ثم قال: كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ،[4] أي خلْقُ الخلق عليّ هين بأب وبغير أب وبمس بشر وبغير[5] مس بشر،[6] وبسبب وبغير سبب. على ما خلق آدم بغير أب ولا أم، فعلى ذلك يخلق بتوالد بعض من بعض، وبغير توالد بعض من بعض،[7] كخلق الليل والنهار، يخلق بلا توالد أحدهما من الآخر. فكذلك يخلق لك ولدا من غير أب ولا مس بشر. ***وبالله الحول والقوة***.

وقوله:[8] **إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون**، أي إذا قضى أمرا بتكوين أحد أو بتكوين شيء، **فإنما يقول له كن فيكون**؛ لا يثقل عليه ولا يصعب خلق الخلق وتكوينهم، كقوله: مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ،[9] أي خلق الخلق كلهم ابتداء وبعثهم بعد الموت كخلق نفس واحدة أن يقول: كن فيكون. وإنما يثقل ذلك على الخلق ويصعب، لموانع تمنعهم[10] وأشغالٍ تشغلهم. فأما الله سبحانه وتعالى فيتعالى عن أن يشغله شغل أو يمنعه مانع أو يحجب عليه حجاب.

وقوله: **فإنما يقول له كن فيكون**. ذكر –والله أعلم– هذا الحرف لأنه ليس في كلام العرب حرف أو جزء[11] منه يعبر [به] فيفهم معناه، لا[12] أن كان منه عز وجل كافٌ أو نون

---

[1] م: يمسسك.
[2] ك م – ولد.
[3] أي أ يكون لي ولد بأن يؤذن لي بالتزوج؟ انظر: *شرح التأويلات*، ورقة ١١٢و.
[4] ﴿قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا. قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا﴾ (سورة مريم، ١٩/٢٠-٢١).
[5] ع: أو بغير.
[6] م – بشر.
[7] ك – وبسبب وبغير سبب على ما خلق آدم بغير أب ولا أم فعلى ذلك يخلق بتوالد بعض من بعض وبغير توالد بعض من بعض.
[8] ع – وقوله.
[9] سورة لقمان، ٣١/٢٨.
[10] م – تمنعهم.
[11] م: جز.
[12] ن ع م: إلا.

أو حرف هجاء[١] أو صوت[٢] يفهم ويعرف حقيقته، أو يوصف هو بمعنى من معاني كلام[٣] الخلق أو صفاتهم، أو يكون لتكوينه وقت أو مدة أو حال، أو يكون تكوين بعد تكوين على ما يكون من الخلق. إنما هو أوجز[٤] حرف يفهم معناه بالعبارة [و]إخبار منه عز وجل الخلقَ عن سرعة نفاذ أمره ومشيئته.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[٤٨]

وقوله: **ويعلمه الكتاب**، بشارة منه لها أيضا أنه يعلمه الكتاب. ثم اختلف في الكتاب. قيل: **الكتاب** هو الخط هاهنا يخط بيده. ويحتمل **الكتاب** الكتاب[٥] نفسه، التوراة والإنجيل. ويحتمل **الكتاب** كتب النبيين. **والحكمة**؛ قيل:[٦] الحكم بين الخلق، وقيل: الفقه، وقيل: الحلال والحرام، وقيل: السنة. **والحكمة** هي الإصابة. وقد ذكرنا فيما تقدم.[٧]

﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٤٩]

وقوله: **ورسولا إلى بني إسرائيل**، أي جعله رسولا إلى بني إسرائيل.[٨] وهذا أيضا بشارة لها منه. وكان عيسى -صلوات الله على نبينا وعليه- من أول أمره إلى آخره آية؛ لأنه وُلد من غير أب على خلاف ما كان سائر البشر، وكلّم[٩] الناس في المهد وأقر بالعبودية له،[١٠] ولم يكن لأحد من البشر ذلك. وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وإنباء ما كانوا[١١] يأكلون ويدخرون.

---

[١] ع: أو هجاء.
[٢] جميع النسخ: صفة.
[٣] ك - كلام.
[٤] م: أجز.
[٥] م - الكتاب.
[٦] ع م: وقيل.
[٧] انظر سورة البقرة، ١٢٩/٢.
[٨] ك - أي جعله رسولا إلى بني إسرائيل.
[٩] ن ع م: يكلم.
[١٠] ن: وأقر بالعبودة؛ ع: وأقرب بالعبودة.
[١١] ع: بما كانوا.

وما كان[1] له مأوى يأوي إليه، ولا عيش يتعيش هو به، والبشر لا يخلو عن ذلك. ثم أُلقي شِبْهه على غيره فقتل به ورفع هو[2] إلى السماء، وذلك كله آية. وكانت آياته كلها حسية يعلمها كل أحد.

وآيات رسول الله –عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات– كانت حسية وعقلية. أما الحسية فهو انشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وكلام الشاة المسمومة، وقطع مسيرة شهر في ليلة، وغير ذلك من الآيات، مما يكثر عددها. هذه كلها كانت حسية. وأما العقلية فهذا القرآن الذي نزل عليه،[3] وهو بين أظهرهم وفيهم[4] فصحاء وبلغاء وحكماء، يتلى[5] عليهم: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ،[6] الآية، وقوله: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا.[7] فلو كان بهم طاقة أو قدرة أن يأتوا بمثله لجهدوا كل الجهد وتكلفوا كل تكلف حتى يطفئوا هذا النور، ليتخلصوا عن قتلهم وسبي ذراريهم واستحياء نسائهم. فلما لم يفعلوا ذلك دل أنه كان آية معجزة عجزوا جميعا عن إتيان مثله. فأي[8] آية[9] أعظم من هذا؟ *وبالله النجاة*.

[٨٢و] وقوله: / **أَنِّي قد جئتكم بآية من ربكم**، أي بعلامة أني رسول منه إليكم. ثم فسر الآية فقال: **أَنِّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله**. قوله: **أني أخلق لكم**، هو على المجاز لا على التخليق والتكوين،[10] لأن الخلق ليس هو من فعل المخلوق، وإنما هو من فعل الله عز وجل، لأن التخليق هو الإخراج من العدم إلى الوجود، وذلك فعل الله سبحانه وتعالى لا يقدر المخلوق على ذلك، فهو على المجاز. ألا ترى أنه قال في آخره: وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ،[11] وليس إلى الخلق تحليل شئ أو تحريمه، إنما ذلك إلى الله عز وجل؛

[1] ك ن: ولا كان.
[2] م – هو.
[3] ع: عنه.
[4] م: وهم.
[5] ن: تتلى.
[6] ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٣).
[7] سورة الإسراء، ١٧/٨٨.
[8] ك ن ع: فأية.
[9] ن ع + تكون.
[10] ك ن – والتكوين.
[11] ﴿ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون﴾ (سورة آل عمران، ٣/٥٠).

فمعناه: أي أُظهر لكم حِلّ بعض ما حُرّم عليكم. فعلى ذلك قوله: **أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير**، أي أُظهر لكم بيدي ما خلق الله من الطين طائرا، فيكون آية لرسالتي إليكم. وكذلك الآيات ليس مما ينشئها[١] الأنبياء، ولكن تَظهر[٢] على أيديهم. وإنما لم يجز إضافة التخليق إلى الخلق لما ذكرنا أنه إخراج الشيء من العدم إلى الوجود، وذلك[٣] ليس إلى الخلق. والثاني: أن التخليق هو إخراج الفعل على التقدير، وفعل العبد إنما يخرج على تقدير الله، لا يخرج على تقديره، لذلك لم يجز إضافة ذلك إلى[٤] الخلق إلا على المجاز. ***والله أعلم***.

{قال الشيخ رحمه الله:} الخلق اسم[٥] المجاز والحقيقة، والتخليق فعل حقيقة خاصة.

وآيات الأنبياء عليهم السلام هي التي تخرج على خلاف الأمر المعتاد فيما بينهم، يجريها الله سبحانه وتعالى على أيديهم ليعلموا[٦] أن ذلك لم يكن بهم، إنما كان ذلك بالمرسِل الذي أرسلهم، ليدل على صدقهم. ***ولا قوة إلا بالله***. وإبراء الأكمه والأبرص هو من آيات النبوة، لخروجها عن الأمر المعتاد فيما بينهم.

فإن قيل: إن[٧] إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص من آيات النبوة لعجزهم عن إتيان مثله وخروجه عن المعتاد فيما بينهم،[٨] ولكن إنباء ما يأكلون وما يدخرون لِمَ كان من آيات النبوة، ويجوز أن يكون ذلك من منجم؟[٩]

قيل: له جوابان إن كان[١٠] يكون مثل ذلك بالنجوم. أحدهما أنه مضموم إلى[١١] الآيات، فصار آية بما ضُمّ إليها. والثاني أن هذا وإن كان يعلم بالنجوم،[١٢] فعيسى صلوات الله عليه

---

[١] ع م: ينشئ.
[٢] ك: يظهر.
[٣] ع: وكذلك.
[٤] ع – إلى.
[٥] ع م – الخلق اسم؛ ع م + هم.
[٦] ع م – ليعلموا.
[٧] ع: من.
[٨] ن – فإن قيل إن إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص من آيات النبوة لعجزهم عن إتيان مثله وخروجه عن المعتاد فيما بينهم.
[٩] ك – لعجزهم عن إتيان مثله وخروجه عن المعتاد فيما بينهم ولكن إنباء ما يأكلون وما يدخرون لم كان من آيات النبوة.
[١٠] ع: كن.
[١١] ع: من.
[١٢] ع م: النجوم.

لما علِم قومُه أنه لم يختلف إلى أحد في تعلم علم النجوم، ثم عرَف ذلك وأنبأهم بذلك، دل أنه إنما علم ذلك بالله، فكان آية. *وبالله التوفيق*. مع ما كان في قومه أطباء وحكماء وبصراء، و لم يدَّع أحدٌ شيئا من هذه الآيات التي جاء بها[1] عيسى عليه السلام. دل تركُ اشتغالهم بذلك[2] على إقرارهم[3] بأنها آية سماوية، لكنهم تعاندوا وكابروا فلم يؤمنوا به.

[4]وقوله تعالى: **بإذن الله**، قيل: بأمر الله، وقيل: بمشيئة الله.

واختلف في **الأكمه**، عن مجاهد[5] قال: **الأكمه** الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل.[6] وعن ابن عباس رضي الله عنه: **الأكمه** الأعمى الممسوح العين.[7] وقيل: هو الذي ولد من أمه أعمى، لا يتكلف أحد من الأطباء إبراء مثله ولا يشتغل[8] بدوائه. دل أنه عرف ذلك بالله تعالى، والأطباء [إنما] يتكلفون في دفع العلل العارضة الحادثة، وأما ما كان خِلقة وجبلة[9] فلا.

وقوله: **إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين**، قيل: قال[10] [عيسى عليه السلام]: إن هذه[11] آية لكم إن كنتم صدَّقتم أني رسول الله إليكم. وقيل: قال: **إن في ذلك لآية لكم** في رسالتي **إن كنتم مؤمنين** بالمرسِل.[12] ويحتمل: **إن كنتم مؤمنين** أي بالآيات أنها تُعرَف [وتظهر] ما[13] جعلن له. *والله أعلم*.

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [٥٠]

وقوله: **وجئتكم بآية من ربكم** [تفسير][14] الآية ما ذكر.

---

[1] ن ع م: به.
[2] جميع النسخ: في ذلك.
[3] ك م: إقرار.
[4] جميع النسخ + قال الشيخ رحمه الله: الخلق اسم المجاز والحقيقة والتخليق فعل حقيقة خاصة.
[5] ن +أنه.
[6] *تفسير الطبري*، ٢٧٦/٣.
[7] تفسير الطبري، ٢٧٧/٣.
[8] جميع النسخ: اشتغل.
[9] ك ع م: من جبلة.
[10] ن: كان.
[11] جميع النسخ: هذا.
[12] ع م: بالرسل.
[13] ن ع: بما
[14] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١١٣و.

وقوله: **فاتقوا الله**، يحتمل: **فاتقوا الله** في تكذيبي في الآيات **وأطيعون** في تصديقي.

﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[٥١]

قوله تعالى: **إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم**، ظاهر، قد ذكرنا فيما تقدم.[١]

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٥٢]

قوله تعالى: **فلما أحس عيسى منهم الكفر**. قيل: **أحس**، علم، وقيل: **أحس**، رأى، وهو كقوله تعالى هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ.[٢] وقيل: **أحس**، أي وجد، وهو قول الكسائي.[٣] وقيل: عرف. وهو كله واحد. ثم قوله: **فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله**، يحتمل –والله أعلم– أن قومه لما سألوه أن يسال ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء تكون لهم آية لرسالته وصدقه، ففعل الله عز وجل ذلك وأنزل عليهم المائدة. ثم أخبر أن من كفر منهم بعد إنزال المائدة يعذبه[٤] عذابا لا يعذبه أحدا.[٥] فكفروا به، فعلم أن العذاب ينزل عليهم، فأحب أن يخرج بمن آمن به لئلا يأخذهم العذاب، فقال: **من أنصاري إلى الله؟** يؤيد ذلك قوله: فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ،[٦] الآية. ويحتمل أن يكونوا أظهروا الإسلام له وكانوا في الحقيقة على خلاف ذلك. فلما علم ذلك[٧] منهم، وقد هموا بقتله،[٨] قال عند ذلك: **من أنصاري إلى الله؟** أحب أن يكون معه أنصار مع الله ينصرونه

---

[١] انظر تفسير الآية من سورة الفاتحة، ١/ ٦-٧، ومن سورة البقرة، ٢١/٢.

[٢] ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم رِكْزا﴾ (سورة مريم، ٩٨/١٩).

[٣] ذكره القرطبي منسوبا إلى الزجاج، وذكره أبو حيان منسوبا إلى الفراء. (*تفسير القرطبي*، ٩٧/٤؛ *والبحر المحيط* لأبي حيان، ٤٧١/٢).

[٤] ن: أعذبه.

[٥] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزّل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين. قال عيسى ابن مريم اللهم ربّنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين. قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعدُ منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين﴾ (سورة المائدة، ١١٢/٥-١١٥).

[٦] سورة الصف، ١٤/٦١.

[٧] ن – فلما علم ذلك.

[٨] جميع النسخ: على قتله. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ١١٣و.

فيظهر[1] المؤمنون من غيرهم، فنصرهم الله على أعدائهم؛[2] وهو قوله: فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ.[3] ومن الناس من يقول: إنه لم يكن في سنّة[4] عيسى عليه السلام الأمر بالقتال؛ وفي الآية إشارة إلى ذلك بقوله: فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ. أخبر أنهم أصبحوا ظاهرين على عدوهم؛ فلا يخلو إما أن يكون قتالا، أو غلبة بحجة أو بشيء[5] مما[6] يقهرهم. ***والله أعلم.***

وقوله: **قال الحواريون نحن أنصار الله،** اختلف في الحواريين. قال بعضهم: هم القصّارون الغسّالون للثياب ومبيّضوها. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: إنما سُمّوا الحواريين لبياض ثيابهم،[7] وكانوا يصيدون السمك. وقيل: الحواري الوزير والناصر والخاص، على ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لكل نبي حواريين، وحواري فلان وفلان».[8] ذكر [٨٢ظ] / نفرا من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. وإنما أراد –والله أعلم– الناصر والوزير. ويحتمل أن يكونوا سموا بذلك لصفاء قلوبهم، وهم أصفياء عيسى عليه السلام، كذلك روي[9] عن ابن عباس رضى الله عنه.[10] والله أعلم بهم.

وقوله: **نحن أنصار الله؛** إن الله يتعالى عن أن يُنصر.[11] ولكن يحتمل **نحن أنصار الله،** أي أنصار دين الله و أنصار[12] نبيه، أو أنصار أوليائه تعظيما. وكذلك قوله: إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ.[13] إن الله لا يُنصر، ولكن يُنصر دينُه أو رسُله[14] أو أولياؤه. وهو كقوله:

---

[1] ع: فينصر.
[2] جميع النسخ + ليظهر المؤمنون من غيرهم.
[3] سورة الصف، ١٤/٦١.
[4] ن: في صفة.
[5] ك ع: شيء.
[6] ن – مما.
[7] انظر: *تفسير القرطبي*، ٩٧/٤.
[8] *مسند أحمد بن حنبل*، ٨٩/١، ١٠٢، ١٠٣-١٠٣؛ ٣٠٧/٣، ٣١٤؛ وصحيح *البخاري*، الجهاد والسير، ٤٠-٤١، ١٣٥، *فضائل أصحاب النبي*، ١٣، المغازي، ٢٩؛ وصحيح *مسلم*، فضائل الصحابة، ٤٨.
[9] ع – روي.
[10] انظر: *التفسير الوجيز* لابن الجوزي، ٣٩٤/١؛ *والبحر المحيط* لأبي حيان، ٤٧١/٢.
[11] ك م: من أن ينصر.
[12] ك ن ع: أو أنصار.
[13] سورة محمد، ٧/٤٧.
[14] ع: أو أرسله.

يُخَادِعُونَ اللّٰهَ،[١] إن الله لا يُخادَع ولا يمكر،[٢] ولكن لما خادعوا أولياءه أو دينه أضاف ذلك إلى نفسه. فعلى ذلك لما نصروا دينَ الله ونبيّه ووليّه أضاف إلى نفسه.

وقوله: **آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون**. الآية تنقض[٣] قول من[٤] يجعل الإيمان غير الإسلام؛ لأنهم أخبَروا أنهم آمنوا، وأنهم مسلمون، [و]لم يفرقوا بينهما. وكذلك قوله: فَأَخرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،[٥] لم يَفصِل بينهما وجعلهما واحدا. وكذلك قول[٦] موسى لقومه: يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ،[٧] لم يجعل[٨] بين الإيمان والإسلام فرقا. وهو قولنا: إن العمل فيهما واحد؛ لأن الإيمان أن تصدق[٩] بأنك عبد الله، والإسلام أن تجعل[١٠] نفسك لله سالما. وقيل: الإيمان اسم ما بطن، والإسلام اسم ما ظهر. ألا ترى أنه أجاب[١١] في الإسلام [ب]الشهادة، وفي الإيمان [ب]التصديق.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[٥٣]

وقوله: **ربنا آمنا بما أنزلت**. يعني -والله أعلم- **بما أنزلت** من الكتب السماوية[١٢] التي أنزلتها[١٣] على الرسل جميعا. فإن أرادوا **بما أنزلت** على عيسى عليه السلام فالإيمان بواحد من الكتب أو بواحد من الرسل إيمانٌ بالكتب كلها وبالرسل جميعا. وقد ذكرنا هذا فيما تقدم.[١٤]

---

[١] ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ (سورة البقرة، ٩/٢).

[٢] ع: ولا يمكن. وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ (سورة آل عمران، ٥٤/٣).

[٣] ع م: ينقض.

[٤] ك: على من.

[٥] سورة الذاريات، ٥١/٣٥-٣٦.

[٦] ع: قال.

[٧] سورة يونس، ٨٤/١٠.

[٨] ع - لم يجعل.

[٩] جميع النسخ: بأن تصدق.

[١٠] م: وأن تجعل.

[١١] جميع النسخ: أجاز؛ والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١١٣/ظ. لعله يشير إلى حديث جبريل.

[١٢] ن ع م - السماوية.

[١٣] جميع النسخ: أنزلها.

[١٤] انظر سورة البقرة، ٢٨٥/٢.

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[٥٤]

وقوله: **ومكروا ومكر الله**، مكروا بنبي الله عيسى عليه السلام، حيث كذبوه وهموا بقتله. **ومكر الله**: أي يجزيهم جزاء مكرهم. وإلا فحرف[1] المكر مذموم عند الخلق، فلا يجوز أن يسمى الله به إلا في موضع الجزاء، على ما ذكره عز وجل في موضع الجزاء، كقوله: فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ [فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ]،[2] والاعتداء منهي [عنه] غير جائز، لقوله:[3] وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ.[4] فكان قوله: فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ، هو جزاءَ الاعتداء، فيجوز؛ فعلى ذلك المكر والخداع والاستهزاء، لا يجوز أن يسمى [الله تعالى] به فيقال: يا ماكر ويا خادع ويا مستهزئ؛ لأنها حروف مذمومة عند الناس، فيشتم بعضهم بعضا بذلك، لذلك لا يجوز أن يسمى الله به إلا في موضع الجزاء. *وبالله العصمة.*

وقوله: **والله خير الماكرين**، أي خير المجازين أهلَ الجور بالعدل، وأهل الخير بالفضل. وقيل: **ومكروا**،حيث كذبوه وهموا بقتله، **ومكر الله**، حيث رفع الله عيسى عليه السلام وألقى شِبْهه على رجل منهم حتى[5] قتلوه، فذلك خير لعيسى عليه السلام من مكرهم. وقيل: **ومكروا**، أي قالوا. **ومكر الله**:[6] قال الله. وقولهم الشرك، وقال لهم قولوا[7] التوحيد.[8] **والله خير الماكرين**، أي خير القائلين.

{قال الشيخ رحمه الله:} **والله خير الماكرين**، بما بالحق يمكر ويأخذ من استحق الأخذ، وهم لا.[9] *والله أعلم.*

والمكر هو الأخذ بالغفلة، والله يأخذهم بالحق من حيث لا يعلمون؛ فسُمِّي مكرا لذلك، كما يقال امتحنه الله –وهو الاستظهار– ولكن لا يراد[10] به هذا في الله.

---

[1] جميع النسخ: حرف.
[2] سورة البقرة، ١٩٤/٢.
[3] جميع النسخ: كقوله.
[4] سورة البقرة، ١٩٠/٢.
[5] م – حتى.
[6] ن + حيث رفع عيسى.
[7] ع: قالوا.
[8] «وقيل: ومكروا، أي قالوا قول الشرك. ومكر الله، أي قال لهم: قولوا التوحيد» (شرح *التأويلات*، ورقة ١١٣ظ).
[9] م: وهو.
[10] م: ولكن يراد.

﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[٥٥]

وقوله: **إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك،** اختلف فيه. قيل: هو على التقدم والتأخير: ورافعك إليّ، ثم متوفيك بعد نزولك من السماء. ولكن كان[1] التقديم والتأخير أو لم يكن[2] في الذكر فهو سواء؛ لأنا قد ذكرنا أن ليس في تقديم الذكر ولا في تأخيره ما يوجب الحكم كذلك، لأنه كم من مقدم في الذكر هو مؤخّر في الحكم، وكم من مؤخر في الذكر[3] هو مقدم في الحكم.[4] فإذا كان كذلك لم يكن في تقديم ذكر الشيء ولا في تأخيره ما يدل على إيجاب الحكم كذلك، كقوله: اَللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا،[5] فإنما هو قبض الأرواح؛ فيحتمل الأول ذلك.[6] ويحتمل توفي الجسم؛ أي متوفيك من الدنيا، أي قابضك، وليس بوفاة موت. وعن ابن عباس رضي الله عنه: **إني متوفيك،** أي مميتك.[7] وهو ما ذكرنا؛ ليعلم أن[8] ليس بمعبود.

[٨٣و س٩] *{قال الشيخ رحمه الله} في قوله: **إني متوفيك ورافعك إليّ:** قوله **متوفيك،** يحتمل توفّي الموتِ، بما يقبض روحه كفعله بجميع[9] البشر، تكذيبًا لمن ظن أنه الله أو ابنه لا يحتمل أن يموت. وقد ألزمهم هذا[10] أيضا بوجهين ظاهرين وإن كان فيما عليه خلقتُه وجوهره ثم تقلّبه[11] من حال إلى حال في نفسه و[من] مكان إلى مكان في حق القرار[12] والحاجة كفايةٌ لمن يعقل الحقائق وبُلْغةٌ لمن تأمل الأشياء عِبرا. أحدهما بقوله: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ،[13]

---

[1] جميع النسخ: هو.
[2] ن ع م: ولم يكن.
[3] ع: في الحكم وكم من مؤخر في الحكم؛ م: في الحكم وكم من مؤخر في الذكر.
[4] م – في الحكم.
[5] سورة الزمر، ٤٢/٣٩.
[6] جميع النسخ: كذلك.
[7] *تفسير الطبري*، ١٠٠/٤.
[8] ع: أنه.
[9] م: لجميع.
[10] ع + ألزمهم هذا.
[11] ن: يغلبه؛ ع م:يقلبه.
[12] ع – في القرار.
[13] ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون﴾ (سورة المائدة، ٧٥/٥).

وقوله: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ،[1] حتى أنطق[2] به لسان كل منهم. ومعلوم إحالة ابن بشر إلها أو ولدا لإله إذ هو يكون أصغر منهما، وذلك آية حدثه. وكذلك قوله في المهد: إِنِّي عَبْدُ اللهِ،[3] إلى آخر ما ذكر. مع ما لو احتمل ذلك لكان آدمُ عليه السلام الذي[4] هو الأصل وهو المقدم وهو الذي لا يعرف له والدان أحقّ،[5] إذ هو بجوهره، فهو ولده لا غير، إذ[6] ذلك وصف الأولاد.[7] *والله أعلم*. والثاني[8] قوله: كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ،[9] فأخبر عن حاجته وغلبة الجوع عليه، وفقر نفسه إلى ما يقيمها من الأغذية. ثم في ذلك حاجته إلى الخلاء، واختياره الأمكنة القذرة لقضاء حاجته. *وبالله التوفيق*.

والثاني[10] [يحتمل **متوفيك**] على قبضه بنفسه من بين أظهر أعدائه، ورفعه إلى ما به شرفه، وتطهيره مما كان يحس منهم من الكفر وأنواع الفساد، وختمه من بين البشر على وجه آية يكون[11] له عليهم من أول أحوال ظهوره إلى آخر أحواله، كمُقامه[12] فيهم، ليكون أوضح لمتبعيه

٨٣و س٢١] في الآيات، و[دليلا ظاهرا] على مخالفيه في قطع العذر. ***ولا قوة إلا بالله***.*

وقوله: **ورافعك إليّ**، هو على تعظيم عيسى عليه الصلاة والسلام، ليس على ما قالت المشبهة بإثبات المكان له [تعالى]؛ لأنه لو كان في قوله: **رافعك إلي** [ما] يوجب ذلك لوجب[14] أن يكون أهل الشام أقرب إليه، لأن إبراهيم صلى الله عليه قال: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ.[15]

[1] قد جاء في آيات كثيرة. انظر: *المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم* لمحمد فؤاد عبد الباقي، «عيسى».
[2] م: نطق.
[3] ﴿قال إني عبد الله آتانيَ الكتاب وجعلني نبيا﴾ (سورة مريم، ٣٠/١٩).
[4] ع م – الذي.
[5] جميع النسخ + أو هو.
[6] ع م: أو.
[7] «مع ما لو احتمل لكان آدم عليه السلام الذي هو الأصل للبشر وهو المتقدم لهذا الجنس و لم يعرف له والدان أحق. وأيضا فإن عيسى عليه السلام من جوهر آدم عليه السلام، فهو ولده فيكون على وصفه، إذ الأولاد على صفة الآباء» (*شرح التأويلات*، ورقة ١١٣ظ).
[8] أي الوجه الثاني من وجهي الإلزام.
[9] سورة المائدة، ٧٥/٥.
[10] أي الاحتمال الثاني لتأويل قوله: ﴿إني متوفيك﴾.
[11] م: ليكون.
[12] ن ع م: مقامه.
* ورد ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه فنقلناه إلى هنا. انظر: ورقة ٨٣و/سطر٩-٢١.
[14] ك: يجب؛ ن: يوجب؛ ع م: يجب.
[15] سورة الصافات، ٩٩/٣٧.

و[لكان] الكفرة إليه قريبا[1] منه، كقوله: **ثم إليّ مرجعكم**. دل هذا أن ما قالوا خيال فاسد، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا. ولكن [هو] على التبجيل والتعظيم، أعني المضاف إليه. والأصل في هذا أن الخاص إذا أضيف إلى الله فإنما يراد به تعظيم ذلك الخاص، نحو ما قال: بيت الله[2] على تعظيم البيت،[3] وناقة الله،[4] فهو على تعظيم الناقة، ونحوه مما يكثر وقوعه.[5] وإذا أضيف الجماعة إليه فهو على إرادة تعظيم الرب جل ثناؤه، نحو رَبِّ الْعَالَمِينَ،[6] ولَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،[7] ونحوه، كله على إرادة تعظيم الرب جل ثناؤه.[8]

وقوله: **ومطهرك من الذين كفروا**، قيل فيه بوجوه. قيل: **مطهرك** من أذى الكفرة ومن[9] بين أظهر المخالفين لك. وقيل: **ومطهرك** من الكفر والفواحش. ويحتمل **ومطهرك** مما قالوا فيك.

وقوله: **وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا**، يحتمل بجعله [إياهم] فوق الذين كفروا[10] بالقهر والغلبة والقتل، ويحتمل بالحجة، ويحتمل بالمنزلة[11] والدرجة في الآخرة. ويحتمل[12] **ومطهرك** بقتل الكفرة من وجه الأرض، على ما ذكر في بعض القصة أنه ينزل / من السماء فلا يبقى على وجه [٨٣و] الأرض كافر إلا وهو يقتله مع الذين اتبعوه فذلك تطهيره وجعلُ الذين اتبعوه فوق الذين كفروا.

وقوله: **ثم إليّ مرجعكم**، ذكر هذا -والله أعلم- وإن كان مرجع الكل[13] إليه في كل حال؛ لأنهم يقرون ويعترفون في ذلك اليوم أن المرجع إليه، وكانوا ينكرون ذلك في الدنيا، وهو كقوله: اَلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ،[14] الملك كان له في ذلك اليوم وفي غير ذلك اليوم.

---

[1] جميع النسخ: قريبا. أي لكان الكفرة من أهل الشام أقرب إلى الله من إبراهيم.
[2] لعله يشير إلى آية في القرآن أضيف فيها البيت إلى الضمير راجعا إلى الله تعالى: ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ (سورة البقرة، ١٢٥/٢).
[3] ع: التعظيم البيت؛ م: التعظيم.
[4] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله﴾ (سورة الأعراف، ٧٣/٧).
[5] ك ن - وقوعه؛ ك (هـ) وقوعه.
[6] انظر مثلا: سورة الفاتحة، ٢/١؛ وسورة البقرة، ١٣١/٢.
[7] انظر مثلا: سورة البقرة، ١٠٧/٢؛ وسورة المائدة، ٤٠/٥.
[8] ك + نحو رب العالمين وله ملك السماوات والأرض ونحوه كله على إرادة تعظيم الرب جل ثناؤه.
[9] ع م: من.
[10] ك - يحتمل بجعله فوق الذين كفروا.
[11] ك ن ع: في المنزلة.
[12] ك ن + قوله.
[13] جميع النسخ: المرجع للكل.
[14] سورة الحج، ٥٦/٢٢.

ولكن معناه لا ينازعه أحد يومئذ في ملكه ويقرّون له بالملك، [وكانوا] في الدنيا أنكروا ملكه. وهو كقوله: وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا،[1] كلهم بارزون لله[2] في كل وقت، لكنهم أنكروا بروزهم في الدنيا له، فيقرون يومئذ بالبروز له، فكذلك الأول. *والله أعلم*.

وقوله: **فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون**، يحتمل أحكم بينكم من المُحِق منكم ومَن المبطل. ويحتمل **أحكم بينكم**، أي أجزيكم على قدر أعمالكم. *ويحتمل **أحكم بينكم**: أي أجزي كلا[3] بعمله على ما يستوجبونه.[4]*

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[٥٦]
﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[٥٧]

وقوله:[6] **في الدنيا**، قيل: القتل والجزية، وفي الآخرة[7] العذاب.*

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾[٥٨]

وقوله: **ذلك نتلوه عليك**، قيل: **ذلك** الذي ذكر في هذه الآية **نتلوه عليك** يا محمد من الآيات.[9] **والذكر الحكيم**؛ قيل: **الحكيم**[10] هو المحكم. وقيل: **الحكيم**، أي من نظر فيه وتفكر يصير حكيما، كما قال: وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا،[11] أي يبصر فيه. *والله أعلم*.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٥٩]

وقوله: **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب**. قيل في القصة: إن نصارى

---

[1] سورة إبراهيم، ٢١/١٤.
[2] ع – لله.
[3] م: كل.
[4] جميع النسخ: يستوجبون.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه مقدار سطر، فقدمناه إلى هنا. انظر: ورقة ٨٣و/سطر٧-٨.
[6] م – وقوله.
[7] م: في الآخرة.
* وقعت هنا قطعة من تفسير الآية السابقة برقم ٥٥، فقدمناها إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٨٣و/س٩-٢١. ووقع بعدها مقطع من تفسير الآية ٦١ متقدما على موضعه، فأخرناه إلى هنالك، انظر: ورقة ٨٣و/س٢١-٣٧.
[9] ك – ذلك الذي ذكر في هذه الآية نتلوه عليك يا محمد من الآيات.
[10] م – قيل الحكيم.
[11] ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ (سورة يونس، ٦٧/١٠).

/ من أهل نجران قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له:[١] إن تشتم صاحبنا [٨٣ظ] عيسى ابن مريم عليه السلام [و]تزعم أنه عبد، وهو [كان] يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويخلق من الطين طيرا فأرنا فيما[٢] خلق الله عبدًا مثلَه يعمل هذا.

والنصارى في الحقيقة مشبهة وقدرية. أما التشبيه[٣] فإنما حَمَلهم[٤] على ذلك ظنُّهم في قول إبراهيم صلوات الله عليه، حيث قال: رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ،[٥] فظنوا[٦] أن عيسى لما قال: أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ،[٧] أنه رب وإله؛ لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أخبر أن ربه [هو] الذي يحيي ويميت،[٨] فسموا عيسى إلها بهذا. وهم كانوا يرون عيسى يأكل ويشرب وينام؛ فلو لا أنهم عرفوا الله عز وجل كذلك[٩] وإلا ما شبهوه به. تعالى الله عن ذلك.

وأما القدرية [فلأنهم] لما[١٠] لم يروا لله[١١] في أفعال العباد[١٢] صنعا،[١٣] إنما رأوا ذلك للخلق[١٤] خاصة. فلما رأوا ذلك من عيسى عليه السلام، ظنوا أنه رب، لِما لم يروا ذلك من غيره. ولو كانوا[١٥] عرفوا الله حق المعرفة لعلموا أن لم يكن من عيسى إلا تصوير ذلك الطير وتمثيله، ويكونُ مثلهُ من كل أحد. وإنما الإحياء كان من الله عز وجل أجراه[١٦] على يدي عيسى عليه السلام وأظهره، وإنما كان من عيسى عليه السلام[١٧] تصويره فقط. وكذلك ما كان من إبراء الأكمه والأبرص،

---

١ ع م – له.

٢ ك: فيم.

٣ ع – أما التشبيه.

٤ ن ع: عملهم.

٥ ﴿أَلم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت﴾ (سورة البقرة، ٢/ ٢٥٨).

٦ ك ن م: ظنوا؛ ع: وظنوا.

٧ سورة آل عمران، ٣/٤٩.

٨ ك + ظنوا أن عيسى لما قال أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير أنه رب وإله لأن إبراهيم أخبر أن ربه الذي يحيي ويميت.

٩ ع م – كذلك.

١٠ جميع النسخ: فلما.

١١ ن – لله.

١٢ ن + لله.

١٣ ع م: للحق.

١٤ ع م: صنعا.

١٥ ع: ولوكان.

١٦ م: جراه.

١٧ ع م – وأظهره وإنما كان من عيسى عليه السلام.

وغير ذلك [كان] من الله عز وجل، أجراه على يديه آياتٍ لنبوته. ولأنهم ادعوا له الربوبية من وجهين: لكونه من غير أب، ولآياته.[١]

ثم قوله: **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم**، يحتمل وجهين -والله أعلم- أحدهما أن الله عز وجل صور صورة آدم من طين، ثم جعل فيه الروح، لم يجز أن يقال: صار آدم حيا[٢] من نفسه لوجود صورته. كيف جاز لكم أن تقولوا: إن عيسى لما صوَّر ذلك الطير من الطين صار محييا[٣] له بتصويره إياه دون إحياء الله تعالى إياه. ***والله أعلم.***

والثاني أن آدم عليه السلام خلق لا من أب وأم، ثم لم تقولوا: إنه رب، أو إله[٤] فكيف[٥] قلتم في عيسى: إنه إله، وإنه[٦] خلق لا من أب؛ إذا عدم الأبوة في آدم لم توجب أن يكون ربا، فكيف[٧] أوجب عدم الأبوة في عيسى كونَه ربا وإلها؟ ***والله الموفق.*** وإنما[٨] كان عيسى بقوله: كن، كما كان آدم أيضا بكن من غير أب.

وقوله: **كن**. قد ذكرنا[٩] أنه أوجز[١٠] كلام في لسان العرب، يُعبّر فيؤدي المعنى فيفهم المراد. لا أن[١١] كان من الله عز وجل كاف ونون أو وقت أو حرف، أو يوصف كلامه بشيء مما يوصف به كلام الخلق. تعالى الله عن ذلك.

وقوله: **فيكون**، يحتمل وجهين. يحتمل يكون بمعنى كان، والعرب تستعمل ذلك، ولا تأبى.[١٢] والثاني أن يكون الكائنات بأسبابها في أوقاتها التي أراد كونها على ما أراد. وأصل ذلك [أنه] إذا ذكر الله ووصف يذكر بلا ذكر وقت في الأزل، وإذا ذكر الخلق معه يذكر[١٣] الوقت،

---

[١] ع: ولآية.
[٢] ن - حيا.
[٣] ع: يحييا.
[٤] ك: ولا إله.
[٥] ن ع: كيف.
[٦] ك ن ع: وأن.
[٧] ن ع م: كيف؛ ك - كيف؛ ك (هـ): كيف.
[٨] م: إنما.
[٩] سورة البقرة، ٢/١١٧.
[١٠] ن + في.
[١١] ن م: إلا أن؛ ع: وإلا أن.
[١٢] ع: ولا يأبى.
[١٣] ن ع: بذكر.

والوقت يكون للخلق. يقول:[١] خالق لم يزل، وخالقه[٢] في وقت خلقه.[٣]

﴿اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[٦٠]

وقوله: **الحق من ربك فلا تكن من الممترين.** يحتمل هذا وجوها. يحتمل أن يكون الخطاب لكل أحد قال في عيسى ما قالوا، أي لا تكن من الممترين في عيسى أنه عبد الله خالصا، وأنه نبيه ورسوله إليكم. ويحتمل أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد غيره. وهكذا عادة ملوك الأرض أنهم إذا أرادوا أن يعرِّفوا رعيتهم شيئا يخاطبون أعقلهم وأفضلهم وأرفعهم منزلة وقدرا عندهم، استكبارا منهم مخاطبة كل وضيع وسفيه، فكذلك الله عز وجل خاطب نبيه إعظاما له وإجلالا. ***والله أعلم***. ويحتمل ما ذكرنا فيما تقدم[٤] أن العصمة لا تمنع الأمر ولا النهي[٥] بل تزيد أمرا ونهيا، وإن كان يعلم أنه لا يكون من الممترين أبدا.[٦]

*وقوله: **الحق من ربك**، يحتمل: خبرَ الحقِ في أمر عيسى عليه السلام، أنه كان عبدا بشرا [٨٣ظ س ٣٠ نبيا. **فلا تكن من الممترين**، أي لا يحملنك شدة لجاجتهم،[٧] وكثرتُهم في القول فيه بهذا الوصف على الشك[٨] في الخبر الذي جاءك عن الله؛ كقوله: فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ،[٩] إلى آخره، على الموعظة، لا على أنه يكون كذلك، أو على ما سبق ذكره. ***والله أعلم***. ويحتمل: **الحق من ربك**، أي كلّ حق فهو عن الله، جائز إضافته إليه على الوجوه التي تضاف إليه. و[أما] الباطل[١٠] من الوجه[١١] الذي هو باطل فلا يجوز إضافته إليه مطلقا.[١٢] ***والله أعلم***.

---

[١] ن: بقول.
[٢] م: وخالق.
[٣] يقول الإمام الماتريدي رحمه الله في *كتاب التوحيد*: «والأصل أن الله تعالى إذا أطلق الوصف له [و]وصف بما يوصف من الفعل والعلم ونحوه يلزم الوصف به في الأزل. وإذا ذكر معه الذي هو تحت وصف به من المعلوم والمقدور عليه والمراد والمكوَنِ يذكر فيه أوقات تلك الأشياء لكلا يتوهم قدم تلك الأشياء» (*كتاب التوحيد*، ٧٤).
[٤] سورة البقرة، ١٢٠/٢.
[٥] ك ن ع: النهي ولا الأمر.
[٦] ع م – أبدا.
[٧] اللجاجة: التمادي على أمر والإباء عن الانصراف عنه (*لسان العرب*، «لج»).
[٨] ك: على الشكر؛ ك (ﻫ): على الشك.
[٩] ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾ (سورة هود، ١٢/١١).
[١٠] م: الباطل.
[١١] ك ن: لا من.
[١٢] جميع النسخ: فلا تكونن في ذلك من المترين. والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١١٤ظ.

٨٣ظ س ٣٥] وجائز أن يقول: جعل الله ذلك الفعل ممن فعله باطلا، ولا يقال الباطل من الله. *والله أعلم*.*

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٦١]

وقوله: **فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم**، الآية. دعاهم صلى الله عليه وسلم إلى المباهلة، والمباهلة[٢] في لغة العرب الملاعنة. دعاهم إلى الدعاء باللعنة على الكاذبين، فامتنعوا عن ذلك خوفا منهم لحوق اللعنة. فدل امتناعهم عن ذلك أنهم عرفوا كذبهم، لكنهم تعاندوا[٣] وكابروا، فلم يقروا بالحق.

[٨٣و س ٢١ *وفي الدعاء إلى المباهلة[٤] دلالة ظهور التعنت والعناد [منهم]. وفي تخلفهم عن ذلك دليل علمهم بتعنتهم وخوفهم مما قد وُعِدوا بالنزول عليهم. ثم لزموا مع ذلك ما كانوا عليه من السفه والعناد، ليعلم أن الحيل عمن[٥] اعتاد المعاندة منقطعة. ومعلوم أن الدعاء إلى المباهلة لا يكون في أول أحوال الدعوة، وإنما يكون بعد توفير الحجة وقطع الشبهة. ففي ذلك بيان أنه كانت ثَمَّ محاجات[٦] حتى بلغ الأمر [إلى] هذا.[٧] وعلى ذلك[٨] أمر القتال أنه لم يوضع في أول أحوال الإرسال وفي الحال التي للقول وللحق وجه القبول من طريق النَّصَف[٩] والعقل، وإنما كان عند ما ظهرت[١٠] معاندتهم وكثر[١١] سفههم، حتى هموا بالقتل وأكثروا الأذى وأكرهوا[١٢] أقواما[١٣] على الكفر، وأخرجوا رسول[١٤] رب العزة من بين أظهرهم، بما راموا قتله وطردوا أصحابه من بلادهم،

* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه، فنقلناه إلى هنا. انظر: ورقة ٨٣ظ/سطر ٣٠-٣٥.
[٢] ك ع: فالمباهلة.
[٣] ك – منهم لحوق اللعنة فدل امتناعهم عن ذلك أنهم عرفوا كذبهم لكنهم تعاندوا.
[٤] ع: ان المباهلة.
[٥] ك: عمل؛ ن: عما.
[٦] ع: محاجاة.
[٧] م – هذا.
[٨] م: على ذلك.
[٩] النَّصَفُ والنَّصَفةُ والإنصاف: إعطاء الحق (*لسان العرب*، «نصف»).
[١٠] ع م: عند ظهرت.
[١١] ن: وكثرة.
[١٢] م: وأكرهو.
[١٣] م: قواما.
[١٤] ك – رسول.

حتى تحصنوا بالغيران،[١] فأذن الله عند ذلك بالقتال وفتح الفتوح، لتكون[٢] آيته في كل وجوه الآيات ظاهرة، وحجته بينة.

وفي ذلك جواز محاجّة الكفرة في التوحيد والرسالة، لكن على ما قال الله تعالى: وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ،[٣] [وقال:] فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا.[٤] نهي عن التعمق والخوض فيما يقصر عنه الأفهام،[٥] وإن كان معلوما أن لله حججا ظاهرة وغامضة. ***ولا قوة إلا بالله***. وفي ذلك تعليم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنه يكون ذلك باللطف والرفق. فيُرى[٦] المقصود بذلك[٧] [فساد ما عليه] ويقرر عنده[٨] عنده الحجة، ويزيل عنه الشبهة من الوجه الذي يحتمله عقله، ويبلغه فهمه. فإن رآه يتعامى[٩] في ذلك،[١٠] يوعده ويخوفه بالذي في ذاك من الوعيد. فإن رآه[١١] يكابر عرف[١٢] شؤم طبعه وسوء عنصره، فيداويه[١٣] بما جاء به التعليم من الضرب، والحبس. فإن نفع ذلك، وإلا يكفّ[١٤] شره[١٥] عن غيره ويطهّر[١٦] الأرض عنه[١٧] فإنه النهاية في القمع والغاية فيما يحق من معاملة السفهاء. ***والله أعلم***. لكنه على منازل لا يحتمل انتهاء كل أنواع المآثم إلى هذه الغاية، بل فيها ما كان أعظمها دون هذا بكثير.[١٨] ***والله أعلم***. لذلك يلزم تعرف مقادير الآثام أولا، ليعرف بها ما يحتمل كل إثم من العقوبة فيه والزجر به. ***ولا قوة إلا بالله***.

---

[١] وهي جمع غار.
[٢] ن: ليكون.
[٣] سورة النحل، ١٦/١٢٥.
[٤] سورة الكهف، ١٨/٢٢.
[٥] ع: والأفهام.
[٦] جميع النسخ: يرى.
[٧] جميع النسخ: به.
[٨] ك ع م: ليقرر به عنده؛ ن: ليقرر عنده. والتصحيحات والزيادة من *الشرح*، ورقة ١١٥و.
[٩] م: يتعاهد.
[١٠] ن ع: عن ذلك.
[١١] جميع النسخ: فإن رأيته.
[١٢] جميع النسخ: عرفت.
[١٣] ن: اقتدلوه؛ ع م: فقداوه؛ ك: فتداوه. والتصحيحات من *الشرح*، ورقة ١١٥و.
[١٤] جميع النسخ: كف.
[١٥] ع: شرة.
[١٦] جميع النسخ: وتطهير؛ والتصحيحان من *الشرح*، نفس الورقة.
[١٧] ع م – عنه.
[١٨] ن: تكثير.

٨٣و س٣٧] وقوله: **والله لا يحب الظالمين**، لأنه لا يحب الظلم.*

﴿إِنَّ هٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٦٢] ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾[٦٣]

وقوله: **إن هذا لهو القصص الحق**، يعني الخبر الحق.

وقوله: **وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم. [فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين]**، ظاهر، وقد ذكرناه[٢] فيما تقدم.[٣] *والله أعلم*.*

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٦٤]

وقوله: **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم**، يعني كلمة الإخلاص والتوحيد. **سواءٍ بيننا وبينكم**، أي عَدْلٍ، أي تلك الكلمة عدل بيننا وبينكم. لأنهم كانوا يقرون أن خالق السماوات والأرض الله، بقوله: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ؛[٥] وكذلك يقرون أن خالقهم الله، بقوله: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ.[٦] لكن منهم من يعبد دون الله[٧] أوثانا ويقولون: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى.[٨] ومنهم من يجعل له شركاء وأندادا يشركهم في عبادته. فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى [٨٤و] أن لا يجعلوا[٩] عبادتهم إلى غير الذي أنعم عليهم، إذ العبادة لا تكون[١٠] إلا لله[١١] الذي / أقروا جميعا أنه خالق السماوات والأرض وأنه ربهم، وأن لا يصرفوا عبادتهم إلى غير الذي أنعم عليهم؛ إذ العبادة هي تشكر وجزاء ما أنعم عليهم.

---

* وقع ما بين النجمتين متقدما عن موضعه فنقلناه إلى هنا. انظر: ورقة ٨٣و/سطر ٢١-٣٧.
[٢] ن ع: قد ذكرناه.
[٣] سورة البقرة، ١٢٩/٢.
* ورد هنا قطعة من تفسير الآية السابقة برقم ٦٠، فقدمناها إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٨٣ظ/سطر ٣٠-٣٥.
[٥] سورة لقمان، ٢٥/٣١.
[٦] سورة الزخرف، ٨٧/٤٣.
[٧] ع: ما يعبدون من دون الله.
[٨] سورة الزمر، ٣/٣٩.
[٩] ك ن ع: إلى أن يجعلوا.
[١٠] ك ن – إلى غير الذي أنعم عليهم إذ العبادة لا تكون؛ ع – لا تكون.
[١١] ع م: الله.

ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيأ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، لأن العبادة لواحد أهون وأخف من العبادة لعدد، وإنّ صرف العبادة إلى[1] من أنعم عليكم أولى من صرفها إلى الذي لم ينعم عليكم، إذ ذاك جور وظلم في العقل: أن يُنعم أحد على آخرَ فيُشرك غيرَه.

{قال الشيخ رحمه الله:} العدل في اللغة وضع الشيء في موضعه.[2] وفي إخلاص العبادة لله والتوحيدِ ذلك، وهذا معنى سَوَاءٍ. وجائز أن يكون[3] كلمةً يستوي فيها أنها عدلُ ما شهد لنا بهذا كلُّ أنواع الحجج.[4]

وقوله: **فإن تولوا،** يحتمل تولوا عن طاعة الله وتوحيده وصرف العبادة إليه فقولوا[5] كذا. ويحتمل: **فإن تولوا** عن المباهلة والملاعنة، **فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون،** أي مخلصون العبادةَ له صارفون الشكر إلى ما[6] أنعم علينا. ***والله أعلم.***

{قال الشيخ رحمه الله}: **فإن تولوا،** عن قبول ما دعوتَهم إليه من الاجتماع على الكلمة.

*وقوله: **يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء،** الآية. قيل: فيها بأوجه. أحدها أنها[7] [٨٤ظ س٣٤] العدل وهي كلمة التوحيد، وكانت عدلا باتفاق الألسن إذا[8] سئلوا[9] عمن خلق السماوات والأرض في الفزع إليها بالإجابة وشهادة الخلقة على وحدانية من له الخلق والأمر. ***والله أعلم.*** ومن هذا الوجه أمكن أن يحاجَ[10] جميع الخلق، وإن خُصّ به أهل الكتاب. ***والله أعلم.***

والثاني[11] أن [يكون **تعالوا إلى كلمة سواء**] يستوي فيها أنه حق وعدل، وهي عبادة الواحد الذي لم يُختلف في أنه معبود، وأن كل من عبد غيره فعلى أن يكون له العبادة يعبده،[12]

---

[1] ع – إلى.
[2] ك ن: موضعه.
[3] أي جائز أن يكون قوله تعالى: ﴿تعالوا إلى كلمة سواء﴾ كلمة...
[4] ع: من الحجج.
[5] جميع النسخ: فقل. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١١٥و.
[6] م: التي ما.
[7] م: أن.
[8] ك ن م: إذ؛ ع: أو.
[9] ع: يسئلو.
[10] ع: لا يحاج.
[11] جميع النسخ: وأخرى.
[12] ن: يعبد.

فيرجع إلى حقيقته[1] دون أن يكون بيننا وبينه من يعلم أنه لا يستحق العبادة.[2] وهذا المعنى يلزم الجميع[3] أيضا.

والثالث أن يكون [تعالوا] **إلى كلمة** ظهر أنها عدل في كتابهم، بما جاءت [بها] رسلهم ونزلت بها كتبهم. ***ولا قوة إلا بالله.*** * ٨٤ظ س٣٩]

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٦٥]

وقوله: **يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم**، قيل: وذلك أن اليهود قالوا: إن إبراهيم كان على ديننا اليهودية، والنصارى ادعت[5] أنه كان على دينهم ومذهبهم وليس[6] على دين الإسلام، فنزل قوله: **لم تحاجون في إبراهيم**، يعني في دين إبراهيم صلوات الله عليه. **وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده**، يعني من بعد إبراهيم. وهو يحتمل وجهين. يحتمل أن التوراة والإنجيل إنما نزلا من بعده، وأنتم لم تشهدوه، يعني إبراهيم حتى تعلموا أنه كان على دينكم؛ فلم تقولون[7] بالجهل أنه كان على دينكم؟ ويحتمل **وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده**، أي إن التوراة والإنجيل إنما[8] نزلا من بعد موته، وكان فيهما أنه كان حنيفا مسلما. **أ فلا تعقلون**، أنه كان حنيفا مسلما. ثم أكذبهم الله عز وجل، فقال: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.[9]

{قال الشيخ رحمه الله:} وفي هذه الآية دلالة أنهم علموا أنه كان مسلما، لكن ادعوا ما ادعوا متعنتين، حيث لم يقابلوا بكتابهم[10] الذي[11] ادعوا من نعته،[12] بخلاف[13] ما ادعى عليهم

[1] ك ن ع: إلى حقيقة. أي فيرجع عبادة من يعبد غير الله إليه عز وجل.
[2] أي لا يوجد من يظن أن الله لا يستحق العبادة.
[3] ع م: الجمع.
* ورد ما بين النجمتين متقدما على موضعه في تفسير الآية، فأخرناه إلى هنا. انظر: ورقة ٨٤ظ/سطر٣٤-٣٩.
[5] م: ادعته.
[6] ك ن ع: ليس.
[7] ك ن ع: لم تقولون.
[8] ك: ما.
[9] سورة آل عمران، ٦٧/٣.
[10] ع: بكتابكم.
[11] جميع النسخ: بالذي.
[12] أي من نعت إبراهيم عليه السلام بأنه كان يهوديا أو نصرانيا.
[13] جميع النسخ: وبخلاف.

رسول الله صلى الله عليه وسلم [من] نعته.[١] وفيه دلالة الرسالة؛ إذ في دعواهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعرف نعته بهم،[٢] لما ادعوا هم غير الذي ادعى. فثبت أنه عرف بالله، وذلك علم الغيب. *والله الموفق.*

﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٦٦] ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٦٧]

وقوله: **ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم**، وهو ما ذكرنا. وفيه دلالة جواز المحاجّة في الدين على العلم به. وإنما نهى هؤلاء عن المحاجة فيما لا علم لهم.[٣] ألا ترى أن الرسل عليهم السلام حاجوا قومهم. حاج إبراهيمُ عليه السلام قومه في الله، وذلك قوله: وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ.[٤] وموسى عليه السلام حاج قومه. وما من نبي إلا وقد حاج قومه في الدين، فذلك يبطل[٥] قول من يأبى المحاجة في الدين.

{قال الشيخ رحمه الله:} وأيد الحقَّ أنه كذلك عجزُ البشر عن إيراد[٦] مثله وعجزهم عن المقابلة بما ادعوا[٧] أنهم عرفوه بالله.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٦٨]

وقوله: **إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا**. وهكذا يكون في العقل أن من اتبع آخر وأطاعه[٨] فهو أولى به، وإنما الحاجة إلى السمع بمعرفة المتبع له والمطيع أنه ذا أو ذا. فأخبر عز وجل أن الذين آمنوا والنبي صلى الله عليه وسلم هم المتبعون له فهم أولى به.

---

[١] وعبارة السمرقندي هكذا: «وفي هذه الآية دلالة أنهم علموا أنه كان مسلما لكن ادعوا متعنتين حيث لم يقابلوا بكتابهم ما ادعى النبي عليه السلام من نعت إبراهيم في كتابهم بأنه كان حنيفا مسلما خوفا من ظهور صدق النبي عليه السلام لعلمهم يقينا أن الأمر كما قال عليه السلام» (*شرح التأويلات*، ورقة ١١٥و-ظ.)

[٢] أي بسببهم وبطريقهم.

[٣] ن - لهم.

[٤] ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجاتٍ من نشاء إن ربك حكيم عليم﴾ (سورة الأنعام، ٨٣/٦).

[٥] ع م - يبطل.

[٦] ع: يراد.

[٧] ن ع + ما ادعوا.

[٨] ع: واطاعة.

وقوله: **والله ولي المؤمنين**، اختلف فيه. قيل: الولي الحافظ، وقيل: الولي الناصر، وقيل: هو أولى بالمؤمنين. وقد ذكرنا هذا فيما تقدم.[١] وقد يكون وليّهم بما دفع عنهم سفه أعدائهم في إبراهيم وأظهر الحق في قولهم.

{قال الشيخ رحمه الله:} في قوله تعالى: تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ،[٢] الآية، وفي قوله:[٣] لِمَ تُحَاجُّونَ،[٤] وفي قوله: لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ،[٥] الآية، ونوعِ ذلك من الآيات التي خص بالخطاب بها أهل الكتاب وجوه من المعتبر. أحدها أن الذين خوطبوا بهذا الاسم كانوا[٦] معروفين، وأنه لم يخطر ببال مسلم أنه[٧] قصد به غير أهل التوراة والإنجيل، ولا ذُكرت تلاوتها في حق المحاجة على غيرهم. ثبت أن المجوس ليسوا بأهل الكتاب، وأن المراد من ذكر أهل الكتاب غيرهم، وأن أخذ الجزية من المجوس ليس مما تضمنه[٨] قوله: مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ،[٩] لكن بدليل آخر، وهو ما روى عن نبي الله أنه قال: «سُنُّوا بهم سنةَ أهل الكتاب غيرَ ناكحي نسائهم، ولا آكلي ذبائحهم».[١٠] يدل على صحة ما قلنا[١١] قوله: أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا،[١٢] ليعلم أن الكتاب في المعروف[١٣] وأهلِه هؤلاء، وإن كانت ثَمّ[١٤] كتب وصحف. *والله أعلم*.[١٥]

---

[١] انظر تفسير الآية من سورة البقرة، ٢/١٠٧، ١٢٠، ٢٥٧.
[٢] سورة آل عمران، ٣/٦٤.
[٣] جميع النسخ: وفي قولهم.
[٤] سورة آل عمران، ٣/٦٥.
[٥] ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ (سورة آل عمران، ٣/٧١).
[٦] ك ن ع – كانوا.
[٧] ع – م يخطر ببال مسلم أنه.
[٨] ك ن ع: تضمنهم.
[٩] ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ (سورة التوبة، ٩/٢٩).
[١٠] انظر: *نصب الراية* للزيلعي، ٣/١٧٠.
[١١] جميع النسخ: وعلى ذلك أيد. والتصحيح من *شرح التأويلات*، ورقة ١١٥ظ.
[١٢] سورة الأنعام، ٦/١٥٦.
[١٣] ك: أن أهل الكتاب.
[١٤] أي عند المجوس.
[١٥] «ليعلم أن المراد كتاب معروف وهو التوراة والإنجيل وإن كان ثم كتب وصحف، وكان المراد من أهل الكتاب هم اليهود والنصارى لتعارف هذا الاسم في حقهم وإن كان غيرهم قد يكون من أهل الكتاب. والله أعلم» (*شرح التأويلات*، ورقة ١١٥ظ).

والثاني أن الله خص أهل الكتاب[١] بأنواع الحجج، وجعل المحاجة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوضح أنه وإن كان مرسلا إلى جميع البشر كان له التخصيص في المحاجة. وعلى ذلك عامة سورة الأنعام في محاجة أهل الشرك. على أن أهل المدينة كانوا أهل كتاب،[٢] وأهل مكة كانوا أهل شرك.[٣] فحاجّ كلًّا بالذي هو أحق أن يكلَّم فيه، وإن كانت الحجة تلزم الفريقين؛ لأن محاجةَ أهل الشرك أكثرُها في التوحيد وأمر البعث، وعلى وجودهما في أهل الكتاب[٤] [يوجد] بعض المشاركة لهم. ومحاجة أهل الكتاب بما في كتبهم.

وفيه وجهان. أحدهما العلم بما قد غاب عنه[٥] السبب الذي يوصل إليه / بالكسب، ليعلم أنه وصل إليه بالوحي، فيكون من ذلك الوجه حجةً على الفرقين. والثاني ظهور سفه أهل الكتاب بوجه يُسقط عند التأمل الرِّيبةَ والمحل الذي كان يمنعهم ذلك عن اتباعه، وذلك فيما فيه[٦] مدح كتبهم، وشهادةُ[٧] لها بالصدق والحق، وإظهارُ الإيمان برسلهم؛[٨] ليعلم أنه ليس بين الرسل والكتب اختلاف في الدعاء إلى عبادة الله وتوحيده وأن أولئك إنما كذّبوا لتسلم[٩] لهم الرياسة. ثم مع ذلك ظاهروا أهل الشرك المكذّبين لكتبهم ورسلهم. ليعلَمْ كلُّ ذي عقل شُبههم وتمردهم في الباطل، إذ ظاهروا أعداءهم في الدين على من أظهر[١٠] مُوالاته في الدين[١١] فيكون في ذلك أبلغ الزجر لمتعنّتيهم، وأعظم الحجة عليهم فيما آثروا من السفه[١٢] وتركوا الحق. ***والله أعلم***. [٨٤ظ]

وفي ذلك وجه آخر، [وهو] أن أهل الشرك قد عرفوا حاجاتهم إلى أهل الكتاب في أمور الدين وما عليه أمر السياسة، فيصير ما يلزم أولئك من الحجة لازمة لهم[١٣] في محاجته

---

[١] ن – أهل الكتاب.
[٢] لعله يريد قبائل اليهود، وقد تأثر منهم الأوس والخزرج.
[٣] جميع النسخ: أهل الشرك.
[٤] ك ن: وعلى وجوده في أهل الكتاب؛ ع م: وعلى وجوده فيه في أهل الكتاب.
[٥] م: عن.
[٦] ك ن ع: فيها؛ م – فيه. أي في الوحي أو في القرآن.
[٧] جميع النسخ: وشهد.
[٨] م: رسلهم.
[٩] ك: ليسلم.
[١٠] جميع النسخ: من الذي أظهروا.
[١١] جميع النسخ + ولى له.
[١٢] م: من السنة.
[١٣] أي يصير ما يلزم أهل الكتاب من الحجة لازمة لأهل الشرك.

بالذي في كتبهم لزومَ الحجة. مع ما عليهم في ذلك -بما قد أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ،[1] الآية- أبلغُ الحجة في محاجة أهل الكتاب، إذ تمنوا أن يكون منهم نذير فكان.

وقد بلغ [أمر النبي عليه السلام] المبلغَ الذي ظهر له [بسببه] ما خُصّوا[2] من الحجج. وشاركوا أولئك[3] في جميع ما به كان افتخارهم عليهم، وادّعوا[4] الفضل. *والله أعلم*. مع ما لم يكن له اللسان الذي به ظهر كتبهم أخبرهم[5] جميع ما في كتبهم[6] بغير[7] لسانهم، ليعلموا أنه أدرك[8] ذلك بمن له حقيقة كتبهم. *والله أعلم*.

وفي ذلك وجه آخر أنه حاجهم بوجهين. أحدهما بالموجود في كتابهم والمعروف عند أئمتهم من العلم، بالكلمة التي دعاهم إليها من التوحيد وعبادة من له الخلق والأمر وإخبار ما في كتبهم من أنواع البِشارات به،[9] ومن موافقة [كتابه] الكتب.[10] وعلى ذلك أمر إبراهيم عليه السلام وغيرهم ليكون أعظم في الحجة وأقطع للشغَب.[11] *والله أعلم*. والثاني مما قد حرفوا من كتبهم، وبدلوا من أحكامهم، وحرفوا من صفته ونعته[12] ونعت أمته، ليعلم كل متأمل أنه لا وجه لتعلم ذلك بهم. إذ لا يحتمل أن يكون منهم هتك أستارهم والاطلاع على أسرارهم، بما لا يتهيأ لهم دفع ذلك ولا المقابلة في ذلك، ليعلم كل الخلائق -مَن انقاد لهم أولا- أن ذلك لا يدركه [النبي] إلا بمن له العلم بكل سر ونجوى. **ولا قوة إلا بالله**.

مع ما في ذلك وجهان من المعتبر. أحدهما أن ذلك الزمان لم يكن زمان حِجاج ونظر في أمر الدين، إنما كان ذلك الزمان زمان تقليد[13] في أمر الدين، وتباهٍ[14] في أمر الدنيا،

---

[1] ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا﴾ (سورة فاطر، ٤٢/٣٥).

[2] ك ن ع: وقد بلغ المبلغ الذي له ظهر بما خصوا؛ م: وقد بلغ المبلغ الذي ظهر بما خصوا.

[3] أي شارك النبي عليه السلام ومن آمن به من أهل الكتاب.

[4] جميع النسخ: ودعوا.

[5] ك ن + به.

[6] ع م - أخبرهم جميع ما في كتبهم.

[7] ن: لغير.

[8] ك ن ع: أدركه.

[9] ن - به.

[10] ك: الكتاب.

[11] الشغْب والشغَب: تهييج الشر (*لسان العرب*، «شغب»).

[12] م - ونعته.

[13] م - زمان تقليد.

[14] جميع النسخ: وتباهى. أي تفاخر.

وتفاخر بكثرة الأموال والمواشي، فبعث الله تعالى رسولا صلى الله عليه وسلم نشأ من بين أظهرهم؛ دعاهم إلى ترك التقليد في الدين، واتباع الحجج التي لا يبلغها أهل الحِجاج بعقولهم دون أن يكون لهم المعونة من علم الوحي وما فيه من حكمة[١] الربوبية. فكيف والقوم أصحاب التقليد: إما ثقةٌ بأئمتهم الذين ادعوا[٢] علم الكتب المنزلة، وإما ثقة [و]أمنًا بآبائهم فيما نشئوا[٣] عليه أن الحق لا يشذ عنهم. على ما في ذلك من الاختلاف الذي يمنعهم الأمرين جميعا. لكنهم[٤] إذ[٥] لم يكونوا أهل نظر في الدين ومحاجة فيه لم يعرفوا أن ذلك يمنعهم [من] التقليد، فأظهر لهم الحجج، وأنبأهم بالمودع من حِجاج أنبيائهم في كتبهم، وألزمهم أن في آبائهم من يلزم التقليد كانوا أحق بذلك بما كان عندهم أن آباءهم كانوا على دينهم بما بين من تغييرهم وتبديلهم[٦] وترك الواجب عليهم من حق الاتباع.[٧] *والله أعلم*.

والثاني[٨] إذ[٩] ظهر فيهم الاختلاف في أئمتهم على ادعاء كل منهم أن ذلك هو الذي كان عليه الأنبياء والرسل في أهل الكتاب، وحاجات غيرهم بما ليس عندهم إلا آراء آباءٍ ليس عندهم فضل على القول [بها]. ثم كان معلوما[١٠] الاختلاف والتفرق، فصارت الحاجة قد عمتهم، والعلم بهم في لزوم الأحكام إلى من يدلهم على الحجة ويُعرّفهم الحق قد تقرر عندهم. فبعث الله بفضله من أظهر لهم بما أنطق به لسانه من الحجاج، وأراهم من علمه بما[١١] غيّر وحفظ مما كان عليه[١٢] أوائلهم.

---

[١] ك: من علم.

[٢] ع: دعوا.

[٣] فيما نشاؤا؛ والنون غير منقوطة.

[٤] ك: لكن.

[٥] جميع النسخ: إذا.

[٦] م – وتبديلهم.

[٧] «وألزمهم أنهم لو كانوا يقلدون الآباء لكان تقليد أولئك الآباء حقا؛ لما كان عندهم أن آباءهم على دين أولئك الذين كانوا على الحق. لكن بين لهم أن هؤلاء حرفوا تلك الكتب، وتركوا طريقة آبائهم المتقدمة، فكان اتباع أولئك أحق؛ وبيّن أن كتابه موافق لكتبهم، فألزمهم بموجب اعتقادهم التقليد الاتباعَ له، بما يدعوهم إلى ما كان عليه آباؤهم المتقدمة دون هؤلاء المتأخرين الذين ثبت عنهم التحريف. والله الموفق» (شرح *التأويلات*، ورقة ١١٦ظ).

[٨] ن ع: الثاني.

[٩] ع م: إذا.

[١٠] جميع النسخ + عند.

[١١] جميع النسخ: مما.

[١٢] ن ع م: عليهم.

فكان ذلك أظهر البيان وأولى ما يعرف من إفضال الله عليهم بالإغاثة، والامتنان عليهم بالفَرَج، مما قد مسّتهم[١] إليه الحاجة، ودفعتهم إلى العلم به الفاقة.[٢] **والله الموفق.**

وفي الفصل الأول بقي حرف لم نذكره، وهو أنه[٣] دعاهم[٤] إلى الزهد في الدنيا بعد الركون إليها، وإلى الأخوّة[٥] في الدين بعد ظهور التفاخر بينهم بتكثير العشائر، وتقابل القبائل، و[إلى] السخاء[٦] بجميع ما طُبعوا[٧] عليه بما أظهر لهم[٨] ما إليه ترجع[٩] عواقب أمرهم. وقام بذلك على قهر العادة ومخالفة الطبيعة التي يعلم أن ذلك في مثل ذلك العصر آية[١٠] سماوية خارجة عن وسع البشر، ليكون أقطع لعذرهم وأسكن لقلوبهم إليه. فلله الحمد على ذلك.*

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[٦٩]

[٨٥و] / وقوله: **ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم.** ذكر في القصة أن المشركين أخذوا عمارا وحذيفة فقالوا لهم: ديننا أفضل من دينكم وأفضل من الأديان كلها، فنزلت هذه[١٢] الآية.[١٣]

---

[١] جميع النسخ: مسهم.

[٢] م: القافة. «والثاني أنه لما كان أمرهم على التقليد لأئمتهم بين عليه السلام أنه قد ظهر الاختلاف في أئمتهم على ادعاء كل واحد منهم أن ذلك هو الذي كان عليه الأنبياء والرسل في أهل الكتاب، وعند الاختلاف والتفرق لا بد من رجحان قول البعض على البعض، وليس بعضهم أولى بالتقليد، وقد عمتهم الحاجات في الحوادث [وأحوجهم] إلى الأحكام، فلا بد من تبرزهم على المحجة وتعرّفهم الحق. فبعث الله عز وجل بفضله من أظهر لهم بما أنطق به لسانه من الحجاج، وأراهم علمه بما غيّر وحفظ مما كان عليه أوائلهم، فكان ذلك أظهر لبيان وأولى ما تعرف من إفضال الله عليهم بالإغاثة والامتنان عليهم بالفرج مما قد مستهم الحاجة، ودفعتهم إلى العلم به الفاقة. والله الموفق» (*شرح التأويلات*، ورقة ١١٦ظ).

[٣] جميع النسخ: أن.

[٤] م: دعاعهم.

[٥] ع م: الآخرة.

[٦] ك: والسخا.

[٧] م: طموا.

[٨] جميع النسخ: بما قدر عندهم. والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١١٦ظ.

[٩] ك ن: يرجع.

[١٠] جميع النسخ: أنه، والتصحيح من *شرح التأويلات* ورقة ١١٦ظ.

* ورد هنا جزء من تفسير الآية ٦٤، فنقلناه إلى موضعه؛ انظر: ورقة ٨٤ظ/سطر ٣٤-٣٩.

[١٢] ك ن: هذا.

[١٣] ك ن - الآية. قال البغوي والقرطبي: نزلت في معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر حين دعاهم اليهود من بني النضير وقريظة وقينقاع إلى دينهم. *معالم التنزيل* للبغوي، ٣١٥/١؛ و*تفسير القرطبي*، ١١٠/٤. وقال ابن الجوزي: سبب نزولها أن اليهود قالوا لمعاذ بن جبل وعمار بن ياسر: تركتما دينكما، واتبعتما دين محمد، فنزلت هذه الآية. *زاد المسير*، ٤٠٤/١.

والأشبه أن يكون مثل هذا من رؤساء أهل الكتاب وعلمائهم، هم[١] الذين يتولون مثل هذا العمل، وأما الجهال منهم والرُّذالة[٢] فإنهم لا يفعلون هذا. *والله أعلم*.

وقوله: **لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم**، الإضلال قيل فيه بوجوه قيل: الإضلال هو الإخمال،[٣] أرادوا أن يَخمُل ذكرهم، ولا يُذكرون بعدهم أبدا، كما يخمل ذكر أولئك. وقيل الإضلال هو الإهلاك. وقيل: الإضلال هو التحيير،[٤] وكل ضالّ طريقا فهو متحير، تائه. **وما يضلون إلا أنفسهم**، أي ما يهلكون إلا أنفسهم أو[٥] ما يُخملون[٦] إلا ذكر أنفسهم. **وما يشعرون**، أي وما يشعرون أنهم يهلكون أنفسهم، أو يحيّرون. **وما يشعرون** ماذا عليهم فيما وَدّوا من أليم العقاب. *والله أعلم*. ويقال نزلت في عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾[٧٠]

وقوله: **يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون**، قوله: **وأنتم تشهدون**، يحتمل وجوها. يحتمل: **وأنتم تشهدون**، تلك الآيات وتعاينونها، وتعلمون أنها آيات، لكن تُكابرون وتعاندون[٧] ولا تؤمنون بها.[٨] ويحتمل **وأنتم تشهدون**، أي وأنتم تعلمون ما في التوراة والإنجيل من بعث محمد صلى الله عليه وسلم وصفته أنه رسول الله عليه أفضل[٩] الصلوات وأكمل التحيات وأنه حق ولكن لا تتبعونه. وقيل: **وأنتم تشهدون**، أي تعلمون أنها آيات. والآيات تحتمل القرآن، وتحتمل رسول الله محمدا.[١٠] وتحتمل غيرها من الآيات التي جاء بها. وقال[١١] بعضهم: **لم تكفرون** بدين الله وأنتم تعلمون بدلالة الخلقة وشهادة كتبكم أن دين الله وتوحيده حق.

---

[١] م – هم.
[٢] ن ع م: والرذلة.
[٣] ك: الإخلال؛ ع: لاحمال. وخَمَل يَخمُل خُمُولا ذكره أو صوته: خفي وضعف وسقط (*لسان العرب*، «خمل»).
[٤] جميع النسخ: التحير.
[٥] ع م – ما يهلكون إلا أنفسهم أو.
[٦] ك: وما يخملون.
[٧] م: تعاندون وتكابرون.
[٨] ع – يحتمل وأنتم تشهدون تلك الآيات وتعاينونها وتعلمون أنها آيات لكن تكابرون وتعاندون ولا تؤمنون بها.
[٩] م: أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل.
[١٠] ن – محمدا؛ ع م – وأنه حق ولكن لا تتبعونه وقيل وأنتم تشهدون أي تعلمون أنها آيات والآيات تحتمل القرآن وتحتمل رسول الله محمدا.
[١١] ن: قال.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٧١]

وقوله: **يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون**، في الآية دلالة جواز هتك السر وإفشاء المكنون والمكتوم[١] من الأمر إذا[٢] كان في ذلك تحذير[٣] لغيرهم عن مثله، وترغيب[٤] لهم في المحمود من الفعل. ثم فيه دلالة إثبات رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه يخبرهم عما كانوا يكتمون ويُسِرّون فيما بينهم، وذلك من إطلاع الله إياه على ذلك. **وأنتم تعلمون** ذلك. ألا ترى أنهم لم يتعرضوا له بشيء من ذلك فيقولوا:[٥] متى كتمنا الحق، ومتى لَبَسْنا الحق بالباطل.[٦] فدل أنهم علموا أنه حق وأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن ذلك إنما عَلم بالله عز وجل،[٧] وذلك قوله: **وأنتم تعلمون**.[٨] ثُم عِلْم ذلك يكون بأن كان ذلك في كتابهم، أو علموا بالآيات المعجزة. ويحتمل قوله **وأنتم تعلمون** ما جزاء من لبس الحق بالباطل وكتمه. ***والله أعلم***. ويحتمل **وأنتم تعلمون**، أنكم تلبسون الحق بالباطل.

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٧٢]

وقوله: **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره**، قيل فيه بوجوه. قيل: قوله: **آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره**، يعني بأول أمر محمد صلى الله عليه وسلم، لا النهار نفسه. وذلك ما روى في القصة أن بعضهم كان يقول لبعض: إن محمدًا كان على قبلتنا –وقبلته بيت المقدس– ويصلي إليها فآمنوا أنتم به. **واكفروا آخره**، يعني آخر أمره، يَعنون قبلة البيت الحرام، الكعبة. أي اكفروا[٩] بقبلته[١٠] التي يصلي إليها الآن وهي[١١] الكعبة. وقيل: إن بعضهم [كان] يقول لبعض:

---

[١] ع – والمكتوم.
[٢] ك: إذ.
[٣] ك: تحذيرا.
[٤] ك: وترغيبا.
[٥] جميع النسخ: فيقولون.
[٦] ع م – بالباطل.
[٧] ع م – وأن ذلك إنما علم بالله عز وجل.
[٨] م + ذلك.
[٩] ع: كفروا.
[١٠] م: بقبلة.
[١١] جميع النسخ: وهو.

آمنوا بمحمد في أول أمره حتى يؤمن به[1] جميع العرب، ثم اكفروا به في آخر أمره فيقولوا[2] لنا: لم كفرتم به ورجعتم عن دينه؟ فنقول لهم: إنا وجدنا في التوراة نعت نبي وصفته فحسبنا أنه هذا فآمنا به، ثم نظرنا فإذا ذلك لم يكن نعته ولا صفته فرجعنا عن دينه وكفرنا به؛ حتى يرجعوا جميعا عن دينه. فذلك قوله: **آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره.**

وقيل أيضا: إن رءوس اليهود قالوا للسفلة: صدّقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن[3] **وجة النهار**، يعني أول النهار يعني صلاة الغداة، فإذا كان صلاة العصر اكفروا به، فقولوا لهم: إن قبلة بيت القدس كانت حقا، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ ليرجعوا عن دينهم. فلا ندري كيف كانت القصة، ولكن فيه دلالة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، لما ذكرنا أنه كان يخبرهم بما يضمرون في أنفسهم ويسرّون، فذلك من إطلاع الله تعالى إياه.

ويحتمل قوله: **آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار**، أي أظهروا لهم[4] الإسلام والموافقة ولا تؤمنوا[5] به في الحقيقة. يدل على ذلك قوله: وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ،[6] في الحقيقة، أي آمنوا به ظاهرا،[7] وأما في الحقيقة[8] فلا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم.

{وقال الشيخ رحمه الله} في قوله: وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين، الآية، يحتمل وجهين. **أحدهما** حقيقة النهار. ثم [هو] يتوجه وجهين. أحدهما أمر القبلة خاصة، فيريدون بذلك المحاجة بالموافقة في إحدى القبلتين[9] عليهم فيما خالفوا في ذلك، وإن علموا أن ذلك حق ليشبهوا على الضعفة أنه لا يزال ينتقل[10] من دين إلى دين ومذهب إلى مذهب، وأن من لزم الدين الأول والمذهب الأول أحق للموافقة فيه مرة،

---

[1] ع م – به.
[2] جميع النسخ: فيقولون.
[3] ن ع م: بالقرآن وبمحمد.
[4] ن: بهم.
[5] ع م: ولا يؤمنوا.
[6] جزء من الآية التالية.
[7] ن: ظاهرة.
[8] ع: وأما الحقيقة.
[9] جميع النسخ: في أحد القبلتين، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١١٦ظ.
[10] ع – تنتقل.

ولما لا يؤمَن[1] البقاء على الثاني،[2] وهو كقوله:[3] ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾.[4] وعلى ذلك أنكروا جواز نسخ الشرائع سفها منهم، إذ ليس معنى التناسخ[5] إلا اختلاف العبادات، لا اختلاف الأوقات، وذلك المعنى قائم. وما التناسخ إلا ما عليه تناسخ الأحوال في كل.[6] على أن العبادات فيها[7] المصلحة. ومن تعبَّدهم[8] عالمٌ بالذي به الأصلح في كل وقت، فله ذلك.

[٨٥ظ] / **والثاني** أن يكون الذي [أنزل] أولَ النهار لعله أنزل بما فيه وصف رسلهم وكتبهم من الهدى والبيان، أو وصف[9] أوائلهم في رعاية الحق وتعاهد الدين.[10] فأَمروا بالإيمان بذلك ليُروا قومهم أن قد ثبت وصف من تقدم [من أوائلهم] بما ذكروا أنهم [على الحق، وأنهم][11] على ذلك. ومنه جاء فيما أخبر مِن تبديل مَن بدل مِن أوائلهم وتحريفهم، لا[12] أن كانوا[13] كذلك، ليلزموهم التقليد في الأمرين. *والله أعلم*.[14]

---

[1] ع: ولما يؤمن.

[2] «قال بعضهم لبعض: ﴿آمِنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار﴾ أي بالقبلة إلى بيت المقدس واكفروا بالقبلة إلى الكعبة. يريدون بذلك المحاجة الموافقة في إحدى القبلتين يعني أن بيت المقدس إن كان حقا فما ذا بعد الحق إلا الضلال وإن علموا أن الكعبة حق وأن التحويل بأمر الله تعالى ليشبهوا ويلبسوا على الضعفة، لأنه لا يزال ينتقل من دين إلى دين ومذهب إلى مذهب، وأن من لزم الدين الأول أحق لأنه قد وافقنا فيه مرة، ولأنه لائق من البقاء على الثاني بالانتقال إلى الثالث فيجب التمسك بالأول. فهذا غرض أهل الكتاب وهو المحاجة على رسول الله صلى الله عليه وسلم» (*شرح التأويلات*، ورقة ١١٦ظ).

[3] ن: وكقوله.

[4] سورة البقرة، ١٤٢/٢.

[5] ن – التناسخ.

[6] ن: إلا ما عليه تناسخ الأحوال في كل أحوال.

[7] ن – فيها.

[8] ع: يقيدهم. أي الله عز وجلّ.

[9] ن: ووصف.

[10] ن: الذين.

[11] والزيادات مستفادة من *الشرح*، ورقة ١١٦ظ.

[12] ن ع م: إلا.

[13] ن: أن تكونوا.

[14] «والثاني أن يكون الذي أنزل أول النهار لعله أنزل بما فيه وصف رسلهم وكتبهم من الهدى والبيان أو وصف أوليائهم في دعائه الحق وتعاهد الدين، فأمروا بالإيمان بذلك ليُرُوا قومهم أن قد ثبت وصف من تقدم من أوائلهم بالثبات على الحق وأنهم على ذلك والذي أنزل في آخر النهار بعلة جاء فيما أخبر من تبديل من بدل من أوائلهم وتحريفهم، فأمروا بالكفر بما أنزل في آخره أي بالجحود والتكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم ليلزموا الضعفة بالتقليد لأوائلهم بما ثبت الاتفاق بذلك. والله الموفق» (*شرح التأويلات*، ورقة ١١٦ظ-١١٧و).

وحقه أنه إذ[١] عرف حال الأوائل لا بهم فعلى ذلك أمر الآخِر، ومن به كانت المعرفة ألزمهم التصديق في الأمرين جميعا.[٢] مع ما[٣] أن القرآن[٤] وُصِف بتصديق كتبهم، فحققهم فيما هوَوا مقابلة كتب أنبيائهم [بالقرآن] لتكون هي[٥] القاضية والمثبتةَ للحق أنه على ما[٦] ادَّعَوا، أو [على ما] ادَّعَى عليهم. وقد ظهر[٧] تعنتهم بمظاهرتهم للمنكرين لكتبهم المكذبين برسلهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد تصديقه إياهم، وشهادة كتابه بذلك. ليعلم المتأمل عنادهم بغيا وحسدًا، كما أخبر الله تعالى عنهم.[٨]

والوجه الآخر من تأويل الآية[٩] أن يراد بما أخبر عنهم أول أمره وآخره لا حقيقة بياض النهار. ثم ذلك يخرج على وجهين. أحدهما أن يكون دُعاؤه[١٠] في أول الأمر إلى التوحيد والإيمان بالكتب المتقدمة، وهم يَدْعون إلى ذلك، وعلى ذلك كانوا قبل ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم. وآخر ذلك بما تبين من تحريفهم[١١] وتعنتهم،[١٢] لما أخذهم البغي وغلبهم الحسد، وخافوا على رياستهم وأشفقوا على ملكهم، و[بسبب] جراء[١٣] الشُّح وإظهارِ كثير[١٤] مما قد كتم أوائلهم، فكذبوه في هذا. **والله أعلم**.

و[الثاني] يحتمل أن يكون[١٥] ذلك من أئمتهم اصطلاحا[١٦] على الإيمان بذلك حتى يعلم محلهم وحرصهم على قبول الحق، ثم يكفرون به ليكون الأول ذريعة لهم في الثاني:

---

[١] جميع النسخ: إذا.
[٢] ن - جميعا.
[٣] م: ومع ما.
[٤] ك م: أن في القرآن.
[٥] أي المقابلة.
[٦] ك ن ع + ذا على ما.
[٧] جميع النسخ: ظهرت.
[٨] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَدَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾(سورة البقرة، ٢/١٠٩).
[٩] ع: الآخر.
[١٠] ك ع م: دعاه.
[١١] م: من تخويفهم.
[١٢] ك: وبغيهم.
[١٣] ك ن م: جزاء.
[١٤] م: كبر. أي وبسبب إظهار القرآن كثيرًا مما قد كتم أوائلهم.
[١٥] م + من.
[١٦] ك ع م: اصطلاح؛ ن: اصلاح.

أنهم إذ ظنوا أنه على الحق أذعنوا[1] له، فلما تبين لهم[2] باطله رجعوا عن ذلك. فأطلع الله نبيه عليه السلام على ما أسرّوا ليصير ما ظنوا أنه حجةٌ لهم حجةً عليهم.

وجملة ذلك أنا لا ندري ما السبب الذي كان منهم القول وفيم[3] كان، ولكنه قد بان أن ذلك كان منهم إسرارا[4] أَطْلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم [عليه] ليكون حجة له وزجرا لهم عن كل[5] أنواع التبديل في شأن رسوله عليه أفضل الصلوات بما يهتك عليهم [سِترهم]، فيفتضحون عند من راموا سَتر أمرهم، ويسقط رئاستهم. *والله الموفق*.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٧٣] ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٧٤]

وقوله: **قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم**، اختلف فيه.[6] قيل: هو على التقديم والتأخير. فقوله:[7] **أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم**، كان على أثر قوله: **ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم**، يقول بعضهم لبعض: ما أنزل الله كتابا مثل كتابكم، ولا بعث نبيا مثل نبيكم. قالوا ذلك حسدًا منهم. وقيل: إن هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين لما نزل قوله: **قل إن الهدى هدى الله**، قال لهم: **أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم**؛ يقول: دينُ الله الإسلامُ هو الدين. **أن يؤتى**، يقول: لن يؤتى **أحد**[8] **مثل ما أوتيتم** من دين الإسلام والكتاب الذي فيه الحلال والحرام. *والله أعلم*. ويحتمل أن يكون قال: لم يؤت[9] أحد من الأنبياء قبلي[10] من الآيات مثل ما أوتيت أنا؛ لأن آياتهم كانت كلها حسية يفهمها كل أحد، وآياتُ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كانت حسية وعقلية، لا يفهمها كل أحد[11] إلا الخواص من الناس وخِيرَتُهم.

---

[1] ك: اذعقوا؛ ن ع م: إذ عفوا.
[2] ن – لهم.
[3] ن ع م: وفيما.
[4] جميع النسخ: إسرار.
[5] ن: من كل.
[6] ن – فيه.
[7] جميع النسخ: قوله.
[8] م + أحد.
[9] جميع النسخ: لن يؤتى.
[10] ك: قبل.
[11] ن – كل أحد.

وقوله: **أو يحاجّوكم عند ربكم**، راجع إلى قوله: **ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم**، فيحاجوكم به عند ربكم أنهم قد آمنوا به مرة وأقروا له، وهو[١] كقوله: وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ؛[٢] إنهم كانوا يظهرون لهم الإسلام والإيمان، ثم إذا خلوا قالوا: إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ.[٣] فقال بعضهم لبعض: لا[٤] تظهروا لهم الإسلام فيحاجّوكم عند ربكم في الآخرة.

وقوله: **قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم**. هذه الآيات على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: إن الفضل ليس بيد الله، وكذلك الاختصاص إنما ذلك بيد الخلق؛ لأن من قولهم أن ليس على الله أن يفعل بالخلق إلا ما هو أصلح لهم في الدين، ليس له أن يؤتِيَ أحدا فضلا، ولا له أن يختصّ[٥] أحدا برسالة إلا من هو مستحق لذلك مستوجب له. فذلك الفضل والاختصاص إنما استوجبو[ه] بأنفسهم، لا بالله على قولهم. ففي الحقيقة الفضل عندهم كان بيدهم لا بيد الله. فأكذبهم الله بذلك، إذ الفضل عند الخلق هو فعل ما ليس عليه، لا ما عليه. فنعوذ بالله من السَّرَف في القول والزيغ عن الرشد.

{قال الشيخ رحمه الله} في قوله: **ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم**. يحتمل أن يكون في السر وإن أعطيتم لهم الظاهر. ويحتمل أن يكون بعد ما أظهرتم اكفروا آخره. ويحتمل **لا تؤمنوا**[٦] بما جاء به إلا لأجل من تبع دينكم، فيكون عندهم قدوة يتقرر عندهم بالذي فعلتم[٧] أنكم أهل الحق، فيتبعكم كيفما تصيرون إليه. ويحتمل **لا تؤمنوا**، لا تصدقوا فيما يخبركم[٨] عن أوائلكم **إلا لمن تبع دينكم**، على المنع عن تصديق الرسول فيما[٩] يخبرهم من التحريف والتبديل.

---

[١] ن - وهو.
[٢] سورة البقرة، ٧٦/٢.
[٣] ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ (سورة البقرة، ١٤/٢).
[٤] م - لا.
[٥] ن ع: أن يخص.
[٦] ن: اكفروا.
[٧] ن: فعله.
[٨] ن: نخبركم.
[٩] ك: بما.

وقوله: **إن الهدى هدى الله**، يحتمل وجهين. أحدهما البيان هو ما بيّن الله، إذ هو الحق وكل ما فيه الصرف عنه فهو[1] تلبيس وتمويه. ويحتمل أن يكون الدين، [و]هو الذي دعا إليه بما أوضحه وأنار برهانه، لا الدين الذي دعا إليه أولئك المحرفون.

[٨٦و] **أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم**، / أي لن يؤتى –والله أعلم– من الكتاب والحجج. ويحتمل أن يكون صلة قوله: **إن الهدى هدى الله**، وهو دينه، أو القرآن، أو ما دعا إليه؛ ثم يقول: **أن يؤتى**، بمعنى لن يؤتى[2] **أحد مثل ما أوتيتم** –أهل الإسلام– من الحجج والبينات التي توضح أن الحق في أيديكم.

وقوله: **أو يحاجوكم عند ربكم**، فإن كان هو صلة الأول[3] فـ**أو** بمعنى ليحاجوكم أو حتى يحاجوكم،[4] إذا آمنتم بما دعوا إليه[5] فيحاجوكم بذلك عند ربكم، أي إنما آمنتم بالذي جاءكم من عند ربكم، فيصير ذلك لهم حجة عليكم. فإن كان صلة الثاني[6] فهو على أنهم لا يؤتون مثل ما أوتيتم من الحجج ليحاجوكم بها[7] عند ربكم في أن الذي هو عليه حق، لما قد ظهر تعنتهم وتحريفهم. ***والله أعلم***. ثم بين السبب الذي هو نيل كل خير وفضل. ***والله أعلم***.

وقوله: **قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء**، وقوله: **والله يختص برحمته من يشاء**، ينقض على المعتزلة قولهم بوجهين. أحدهما أنهم لا يرون لله أن يختص أحدا بشيء فيه صلاح غيره [وقد] صرفه عن[8] ذلك الغير، بل إن فعل ذلك كان محابيا[9] عندهم وبخيلا.[10] بل في الابتداء لم يكن له ذلك وإنما يعطي بالاستحقاق، وذلك حق يلزمه، وقد ذكر بحرف الامتنان. وعندهم أيضا ليس له أن لا يشاء،[11] أو لا يعطي؛ فلا معنى لذكره الذي ذكر، مع ما صار ذلك بيد غيره، إذ يلزمه ذلك.[12] ***والله أعلم***.

---

[1] ع م: هو.
[2] ع – بمعنى لن يؤتى.
[3] يعني صلة قوله تعالى: ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾.
[4] ع م: ليحاجوكم.
[5] ن – إليه.
[6] يعني صلة قوله تعالى: ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾.
[7] ن – بها.
[8] ع – عن.
[9] حابَى الرجلَ حِباءً: نصره واختصه ومال إليه (*لسان العرب*، «حبا»).
[10] ن ع م: وتخيلا.
[11] ع: أن الأشياء.
[12] ع م – بيد غيره إذ يلزمه ذلك.

والثاني أن الذي يحق عليه أن يبذل كلًّا الأصلحَ[1] في الدين، فإنه[2] إن قصر أحدا عن ذلك كان جائرا.[3] ثم لا إفضال [لله] على العبد[4] بشيء مما أعطى حتى يطيعه[5] فيما أمره؛ فيكون الفضل في الحقيقة في يد العبد، يؤتي نفسه إن شاء ويمنع إن شاء.[6] **والله الموفق.**

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٧٥]

وقوله: **ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك**، والقنطار ما تقدم ذكره. **ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك**؛ وصف عز جل[7] أهل الكتاب بعضهم بأداء الأمانة وبعضهم بالخيانة. وليس المراد من الآية -والله أعلم- القنطار نفسه أو الدينار،[8] لكن[9] وصفهم بأن فيهم أمانة وخيانة، قَلَّت الخيانة أو عظمت، وكذلك الأمانة. ألا ترى أنه يستحق الذم بدون القنطار والدينار إذا خان، وكذلك يستحق الحمد إذا أدّى بدون ذلك. دل أنه لم يُرَد به التقدير، ولكن على التمثيل. وهو كقوله عز وجل: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ،[10] ليس على إرادة الذرة ولكن على التمثيل أن[11] لعمل الخير والشر جزاء وإن قلَّ، فكذلك الأول.

وفيه دلالة جواز العمل بالاجتهاد لما[12] ذكرنا أنه لم يرد القدر الذي ذكره، ولكن لمعنى فيه بالاجتهاد يعرف لا بالنصوص.[13] و[فيه دلالة] على الشافعي رضي الله عنه أن الدينار عنده[14] مستكثر،

[1] ك + له.
[2] جميع النسخ: وإنه.
[3] ن ع م: جائزا.
[4] جميع النسخ: ثم الأفضل للعبد.
[5] ع م: يعطيه.
[6] ع م - ويمنع إن شاء.
[7] جميع النسخ + عن.
[8] ن ع: أو الدنيا.
[9] ن ع م: ولكن.
[10] سورة الزلزال، ٩٩/ ٧.
[11] ع م - أن.
[12] ك ع م: ولما.
[13] «وفي الآية دلالة جواز الاجتهاد والاستدلال دون القصر على المنصوص عليه. بما ذكرنا أنه لا يريد به القدر الذي ذكره من القنطار والدينار، ولكن أراد بها إثبات وصف الأمانة والخيانة فيهم يعرف ذلك بالاجتهاد» (*شرح التأويلات*، ورقة ١١٧ظ).
[14] ع: عند؛ م - عنده.

يحلف عليه مدعيه عند الرد،[1] والله تعالى جعله مستقلا.[2]

وفيه أيضا دلالة[3] جواز شهادة بعضهم لبعض، وعلى بعض إن كانت فيهم نزلت، على ما قاله بعض أهل التأويل، لأنه وصف عز وجل بعضهم بالأمانة في المال وإن كانت الأمانة لهم في الدَّيْن، والشهادة أمانة [لا في باب الدين].[4] *والله أعلم*.

ويحتمل أن تكون[5] الآية فيمن أسلم منهم وصف بالأمانة، ومن لم يسلم وصفهم بالخيانة، على ما ذكر عز وجل في آية أخرى: وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ،[6] وصف عز وجل من آمن منهم بالعدالة والهدى، ووصف الكفار بالخيانة في غير آي من القرآن. ويحتمل أن تكون[7] الآية فيمن أؤتمنوا [بالإيداع عندهم]،[8] أو فيما جرى بينهم وبين المسلمين من المداينة من غير[9] رهن ولا كفالة، وهو كقوله: فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ،[10] أمرهم بأداء الأمانة فيما أؤتمنوا.

وقوله: **إلا ما دُمْتَ عليه قائما**، قيل: ملازما مواظبا، ملحّا، دائما، متقاضيا. ومن عامل من المسلمين الناس هذه المعاملة يخاف دخوله في هذا النهي والوعيد.[11]

وقوله: **ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل**، قالوا ذلك لأنهم كانوا يستحلون[12] أموال المسلمين ظلما، يقولون: لم يجعل علينا في كتابنا لأموالهم[13] حرمة [كحرمة][14] أموالنا علينا،

---

[1] جميع النسخ: المنبر.

[2] «وفي هذا دلالة على بطلان قول الشافعي: إن الدينار في حد الكثرة، حتى قال: إنه يحلف مدعيه عند الرد كما في الأموال الكثيرة، والله تعالى ذكره في حد القلة وقابله بالقنطار، وأراد بذلك الكثير، وبالدينار القليل؛ فيكون هذا حجة عليه» (*شرح التأويلات*، ورقة ١١٧ظ).

[3] ع م: دلالة أيضا.

[4] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١١٧ظ.

[5] ع م: يكون.

[6] سورة الأعراف، ١٥٩/٧.

[7] ع م: أن يكون.

[8] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١١٧ظ.

[9] ع: وغير.

[10] سورة البقرة، ٢٨٣/٢.

[11] ك: والوعد.

[12] ن: يستجلبون.

[13] ن: لأموالنا.

[14] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١١٧ظ.

يقولون: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ.[١] وأرادوا بالأميين العرب إذ ليس لهم كتاب. وقيل: ذلك الاستحلال بأن قالوا: ليس علينا لله فيهم سبيل، وأرادوا: بالأميين المسلمين، على ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «نحن أمة أمية لا نحسُب ولا نكتُب».[٢]

وقيل: قالوا: لا حرج علينا –في حبس أموالهم– في التوراة، فأكذبهم الله عز وجل بقوله: **ويقولون على الله الكذب**، بأن ليس في كتابهم حرمة أموالهم، ولا لهم عليهم سبيل. **وهم يعلمون**، أنهم يكذبون على الله عز وجل.

﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٧٦]

وقوله: **بلى من أوفى بعهده**، يحتمل قوله **بلى** ردا على قولهم: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ،[٣] [أي] بل عليكم سبيل فيهم. ثم ابتدأ الكلام، فقال: **من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين**، أي هؤلاء الذين يحبهم الله، لا أنتم. ويحتمل قوله: **بلى من أوفى بعهده**، الذي عليه في التوراة [من] أمر بأداء الأمانة، وإظهار نعته صلى الله عليه وسلم وصفته التي فيها، واتقاء[٤] محارمه وظلم الناس في ترك الوفاء وفي نقض العهد، وصَدَّق اللهَ ورسله و لم يكتم نعته[٥] وصفته فإن الله يحبهم. *والله أعلم*.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٧٧]

وقوله: **إن الذين يشترون بعهد الله**، قيل: عهد الله أمره ونهيه. يحتمل [أن يكون] هذا العهد فيما عُهدوا في التوراة [في شأن محمد صلى الله عليه وسلم] أن لا يكتموا نعته وصفته، ولكن يظهرون ذلك للناس ويقرون به. **وأيمانهم ثمنا قليلا**، أيمانهم التي حلفوا[٦] كذبا أن ليس نعته وصفته. فيه مخافة ذهاب / منافعهم. ويحتمل أن حلفوا[٧] كذبا فأخذوا [٨٦ظ]
أموال الناس بالباطل والظلم. وعلى ذلك روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

---

[١] سورة المائدة، ٥/١٨.
[٢] *مسند أحمد بن حنبل*، ١/٣٠٦، ٢/٤٣؛ وصحيح *البخاري*، الصوم ١٣؛ وصحيح *مسلم*، الصيام ١٥.
[٣] الآية السابقة.
[٤] جميع النسخ: واتقى.
[٥] ن: نفسه.
[٦] ع: خلفوا.
[٧] ع: أن خلفوا.

«من حلف على يمين ليقطَع بها مال امرئ مسلم لقي الله تعالى وهو عليه غضبان»[1] وتلا هذه الآية: **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم**، الآية. والعهد والأيمان يكون سواء. أ لا ترى إلى قوله عز وجل: وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ،[2] الآية. ويحتمل: **عهد الله**، ما قبلوا عن الله[3] وما ألزمهم الله. **والأيمان**: ما حلفوا. ***والله أعلم***.

وقوله: **أولئك لا خلاق لهم في الآخرة**، أي[4] لا نصيب لهم في الآخرة مما ذكروا أن لهم عند الله من الخيرات والحسنات، كقوله:[5] حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.[6]

وقوله: **ولا يكلمهم الله**، يحتمل وجهين. يحتمل[7] أنه أراد بذلك كلام الملائكة الذين يأتون المؤمنين بالتحية والسلام من ربهم، كقوله:[8] وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُم،[9] [وقولِه: سَلامٌ عَلَيْكُمُ] ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ،[10] الآية.[11] فلا تكلمهم[12] الملائكة على ما تكلم المؤمنين. [ولكن الله تعالى] أضاف ذلك[13] إلى نفسه على ما ذكرنا فيما تقدم[14] من إضافة النصر إليه،[15] على إرادة أوليائه، فكذلك هذا. أو أن يكون الله عز وجل كان قد كلمهم بتكليم[16] الملائكة إياهم؛ لأنهم رسله، فكان كقوله: وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ

---

[1] صحيح *البخاري*، الشرب ٤، التوحيد، ٢٤؛ وصحيح *مسلم*، الإيمان، ٢١٨.

[2] ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون﴾ (سورة النحل، ٩١/١٦).

[3] ك - إلى قوله عز وجل وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان الآية ويحتمل عهد الله ما قبلوا عن الله.

[4] ع م - أي.

[5] ك: لقوله.

[6] ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (سورة البقرة، ٢١٧/٢).

[7] ع - يحتمل.

[8] ع م: لقوله.

[9] ﴿جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ (سورة الرعد، ٢٣/١٣- ٢٤).

[10] ﴿الذين تتوفاهم الملآئكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ (سورة النحل، ٣٢/١٦).

[11] جميع النسخ + وقوله.

[12] ك ن: ولا تكلمهم؛ ع م: لا تكلمهم. والتصحيح من *شرح التأويلات*، ورقة ١١٨و.

[13] أي كلام الملائكة.

[14] انظر عند تأويل قوله تعالى في سورة البقرة ٢١٤/٢.

[15] جميع النسخ: النصرانية. والتصحيح من *شرح التأويلات*، ورقة ١١٨و.

[16] ع: يتكلم.

إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً،[١] صيره ببعث الرسل كأن قد كلمهم هو، فكذلك الأول. ويحتمل أن يكون الله عز وجل يكرّم المؤمنين في الجنة بكلامه،[٢] على ما كرّم[٣] موسى في الدنيا،[٤] فلا يكلمهم كما يكلم[٥] المؤمنين. ويحتمل لا يكلمهم بالرحمة، سوى أن يقول لهم:[٦] اِخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ،[٧] وكقوله: **ولا ينظر إليهم يوم القيامة**.

وقوله عز وجل: **ولا ينظر إليهم** نظرَ رحمةٍ، كما ينظر إلى المؤمنين بالرحمة.

وقوله تعالى: **ولا يزكيهم**، أي لا يجعل لخيراتهم ثوابا. ويحتمل أن يكون هذا في قوم علم الله[٨] أنهم لا يؤمنون أبدا، فقال: **ولا يزكيهم**، أي لا يزكي[٩] أعمالهم.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٧٨]

وقوله: **وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب**، أي كانوا يحركون[١٠] ألسنتهم بالكتاب على التعظيم والتبجيل؛ **لتحسبوه من الكتاب**، أي كانوا يحرفون نعته عليه أفضل الصلوات وصفته، ثم يتلونه على التعظيم والتبجيل؛ **لتحسبوه**[١١] **من الكتاب** المنزل من السماء. **وما هو من الكتاب**، الذي أنزل من السماء.

ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، بل هم كتبوا بأيديهم. وهو كقوله عز وجل: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ.[١٢]

---

[١] ﴿وما كان لبشرٍ أن يكلِّمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم﴾ (سورة الشورى، ٤٢/٥١).

[٢] ع: بكلامهم.

[٣] جميع النسخ: كلم؛ والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١١٨و.

[٤] إشارة إلى ما جاء في قوله تعالى: ﴿ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما﴾ (سورة النساء، ٤/١٦٤).

[٥] ن ع م: كلم.

[٦] ع – لهم.

[٧] ﴿قال اخسئوا فيها ولا تكلّمون﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/١٠٨).

[٨] ك + منهم.

[٩] ن ع م: لا يزكوا.

[١٠] ك م: يحرفون.

[١١] جميع النسخ: ليحسبوه.

[١٢] ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ (سورة البقرة، ٢/٧٩).

ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون، أنهم يكذبون على الله وأن ذلك ليس هو من عند الله.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[٧٩]

وقوله: **ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة**، أي ما كان **لبشر** اختاره الله للذي قال. يبين[١] أنهم إنما أضافوا دينهم الذي فيه عبادة غير الله إلى أنبيائهم كَذِبَةً،[٢] وأن الله يجعل رسالته عند من يعصمه عن مثله، بقوله: اَللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ،[٣] لا يجعلها حيث يُخان ويُكتم. *والله الموفق*.

وهذه الآية تنقض[٤] على الباطنية قولَهم، لأنهم يقولون: إن الله لا يؤتي النفس البشرية الكتاب ولا النبوة، إنما يؤتي النفس البسيطة وهي الروحانية التي[٥] تُخَيِّل في قلوب الأنبياء ويؤيدهم حتى يؤلفوا، كقوله: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ،[٦] فإذا ثبت ذلك في قلوب الرسل ألّفوا هم الكتب والصحف، لا يقدر غير الرسل على ذلك، ثم الناس يأخذون ذلك منهم.[٧]

فالآية[٨] تكذبهم وترد عليهم قولهم، حيث أخبر أنه[٩] يؤتي البشر الكتاب والحكم والنبوة، بقوله: **ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة**، وكذلك قال عيسى عليه السلام في المهد: إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا.[١٠]

---

[١] ك: ويبين؛ ن ع م: وتبين.

[٢] «أخبر الله عز وجل أن الأنبياء عليهم السلام ما كانوا يدعون الناس إلى عبادة غير الله تعالى، وما أضاف الكفرة من دينهم الذي فيه عبادة غيرهم إلى أنبيائهم، فهو كذب وبهتان من الكفرة على أنبيائهم» (*شرح التأويلات*، ورقة ١١٨و).

[٣] سورة الأنعام، ١٢٤/٦.

[٤] ن: ينقض.

[٥] جميع النسخ: ليأتي؛ ك هـ: التي.

[٦] سورة الشعراء، ٢٦/ ١٩٣-١٩٥.

[٧] «يقول الباطنية: إن الله تعالى لا يؤتي النفس البشرية الكتاب ولا النبوة، ولكن تفسير الوحي والنبوة عندهم أن الله تعالى -الذي سموه العلة الأولى- أنطق العقل؛ فتستمد الفهم والعلم منه، يعني النفس الروحانية -وهي النفس الناطقة التي هي الروح عند الناس تستمد من العقل. ثم العقل يُخَيِّل في قلوب الأنبياء، ويزيدهم على الفهم والعلم- كقوله: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾ (سورة الشعراء، ١٩٣/٢٦-١٩٥). ثم الأنبياء والرسل غيّروا ذلك بعباراتهم، وألّفوا كتبا وصحفا بالعبرانية والسريانية والعربية» (*شرح التأويلات*، ورقة ١١٨و).

[٨] ك + فالآية.

[٩] ع م - أنه.

[١٠] ﴿فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا﴾ (سورة مريم، ٢٩/١٩-٣٠).

وفي الآية دليل عصمة الرسل والأنبياء عليهم السلام عن الكفر، بقوله: **ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله**. وخاصة في عصمة رسولنا محمد[1] صلى الله عليه وسلم، [مثل] قوله: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،[2] ثم قال:[3] وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا،[4] شرط في المؤمنين اكتساب ما يستوجبون به الأذى ولم يشترط في النبي صلى الله عليه وسلم. دل أنه لا يكون منه اكتساب ما يستوجب به الأذى، ويكون من المؤمنين، بشرطه فيهم ذلك. *والله أعلم*.

وقوله:[5] **ولكن كونوا**، معناه أي ولكن يقول لهم: **كونوا ربانيين**، وكأنه على الابتداء والاستئناف، ويقول لهم: **كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تَدْرُسون**.

ثم اختلف في **ربانيين**. قيل: متعبدين لله بالذي[6] يعلمون [من] الكتاب وبالذي يَدْرُسون. وقيل: **ربانيين**[7] علماء حكماء،[8] وقيل: حكماء علماء، وقيل: علماء فقهاء؛ وهو واحد.

ثم فيه دلالة أن الرجل قد يُدرّس ويعلّم آخر بما لا يفقه ولا يعلم معناه، لا كل[9] من يدرس شيئا أو يعلم آخر يكون فقيها فيه،[10] ويعرف[11] ما أودع فيه من المعنى.

وفيه دلالة جواز الاجتهاد، لأنه إنما يوصل إلى ما فيه من المعنى والفقه بالاجتهاد. ***والله أعلم***.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[٨٠]

وقوله: **ولا يأمرَكم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا**، اختلف فيه. قيل: **ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة [والنبيين] أربابا**، لأنهم يقولون: إن الله أمرهم بذلك، كقوله:

---

[1] ك ن - محمد.

[2] سورة الأحزاب، ٥٧/٣٣.

[3] جميع النسخ: وقال.

[4] ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا﴾ (سورة الأحزاب، ٥٨/٣٣).

[5] ك: قوله.

[6] ع: بالذين.

[7] جميع النسخ: الربانيين.

[8] جميع النسخ: العلماء الحكماء.

[9] ن ع م: إلا كل.

[10] ن - فيه.

[11] جميع النسخ: وتعرف.

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا.[1] وقيل:[2] إن عيسى وعُزَيْرا ومن ذكر لا يأمركم أن تتخذوا / الملائكة والنبيين أربابا من دون الله، وقد عصمهم الله[3] بالنبوة. [٨٧و]

وقوله: **أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون**، يحتمل وجوها. يحتمل: أيأمركم الله بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون له بالخلقة، لما تشهد[4] خلقة كل واحد[5] على وحدانيته، كقوله: وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.[6] ويحتمل **بعد إذ أنتم مسلمون**، أي أسلَموا له، وأقَروا به مرةً، ثم كفروا به بعد ما كانوا مخلصين له بالتوحيد.[7] ويحتمل قوله: **بعد إذ أنتم مسلمون**، بعد إذ دعاكم إلى الإسلام فأجاب بعضكم.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[٨١]

وقوله: **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة**، الآية. قال مجاهد: هذا خطأ من الكاتب وهي في قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ميثاق الذين أوتوا الكتاب[8] على ما ذكر في آية أخرى: وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ،[9] لأن الميثاق لا يؤخذ على النبيين أن يُصدِّقوا. لكنه يجوز هذا [أيضا].[10]

ثم اختلف فيه؛ قيل: ميثاق الأول من الأنبياء لَيُصدِّقَنَّ بما جاء به الأخِرُ منهم لو أدركه.[11]

---

[1] سورة الأعراف، ٢٨/٧.
[2] ك: قيل.
[3] ن ع م – الله.
[4] ك ع م: يشهد؛ ن: شهد.
[5] جميع النسخ: أحد.
[6] ﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون﴾ (سورة آل عمران، ٨٣/٣).
[7] ع م – بالتوحيد.
[8] انظر: *تفسير الطبري*، ٣٣١/٣؛ و*تفسير القرطبي*، ١٢٤/٤؛ و*البحر المحيط* لأبي حيان، ٥٠٨/٢.
[9] ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾ (سورة آل عمران، ١٨٧/٣).
[10] م – هذا. «قال مجاهد: قوله ﴿النبيين﴾ خطأ من الكتاب والصحيح ما ذكر في قراءة ابن مسعود ميثاق الذين أوتوا الكتاب لما آتيتكم من كتاب وحكمة وهو ما ذكر في آية أخرى ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبينه للناس ولا تكتمونه﴾ (سورة آل عمران، ١٨٧/٣)، وهذا لأن الميثاق لا يؤخذ على النبيين ليصدقوا. وقال غير مجاهد بأن القراءة المعروفة صحيحة» (*شرح التأويلات*، ورقة ١١٨ظ).
[11] ك ع م: لو أدرك.

وقيل: أخذ الله ميثاقا على النبيين أن يصدق بعضهم بعضا، وأن يبلّغوا كتاب الله ورسالاته إلى قومهم، ففعلوا.[١] ثم أخذوا مواثيق قومهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ويصدقوه وينصروه. وقيل: أخذ الله على النبيين ميثاقا على أن يبلّغوا الرسالة إلى قومهم ويدعوا الناس إلى دين الله.

قال [أبو بكر] الكيساني:[٢] فيه بوجهين. أحدهما، يقول: ميثاقَ الذين منهم النبيون، وهم بنو إسرائيل، وكل ميثاق ذكره الله تعالى في القرآن في أهل الكتاب فإنما يراد به بنو إسرائيل.

والثاني ذَكَره كما ذكرنا من تصديق بعضهم بعضا وتبليغ كتب الله إلى قومهم.

وقوله: **ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم**، أخذ عليهم الميثاق ليأخذوا على قومهم المواثيق: أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم إذا خرج وينصروه.

وقوله: **قال أ أقررتم**، قال الله تعالى للأنبياء: أ أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري. قيل: هو عهدي؛ والإصر، قيل: هو العهد. **قالوا أقررنا**، بالعهد لنؤمنن به[٣] ولننصرنه[٤] وأخذنا[٥] على قومنا ليؤمنن به ولينصرنه.

وقال الله: **فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين**. يقول الله: وأنا على إقراركم بمحمد عليه الصلاة والسلام من الشاهدين. وقيل: قال الله: **فاشهدوا** أي قد أخذت عليكم العهد،[٦] **وأنا معكم من الشاهدين**، أنكم قد أقررتم بالعهد.

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٨٢]

يقول الله: **فمن تولى بعد ذلك** العهد والإقرار بنقض[٧] العهد والرجوع عن الإقرار **فأولئك هم الفاسقون**.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[٨٣]

وقوله: **أ فغير دين الله يبغون**. الدين كأنه يتوجه إلى وجوه. يرجع إلى اعتقاد المذهب في الأصل،

---

[١] م - ففعلوا.
[٢] جميع النسخ: الكسائي. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١١٨ظ. وهو المعروف بالأصم.
[٣] ع م - به.
[٤] ن - ولننصرنه.
[٥] ع م: وإذ أخذنا.
[٦] جميع النسخ: بالعهد.
[٧] ن ع: ينقض.

ويرجع إلى الحكم والخضوع، كقوله تعالى: أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ،[١] ويرجع إلى الجزاء. ثم قوله: **أفغير دين الله يبغون**. كان كل منهم يبغي دينا هو دين الله، ويَدَّعي أن الدين الذي هو عليه دين الله. لكن هذا -والله أعلم- كلٌّ منهم في الابتداء، يبغي[٢] دين الله في نفسه، لكن بَانَ له من بعدُ وظَهَرَ بالآيات والحجج أنه ليس على دين الله، وأن دين الله[٣] هو الإسلام، فلم يرجع إليه ولا اعتقده، ولزم غيره، بالاعتناد[٤] والمكابرة، فهو باغٍ غيرَ دين الله.[٥] ***والله أعلم***.

{قال الشيخ رحمه الله} في قوله: **أفغير دين الله يبغون**، أي أفغير ما في دين الله[٦] من الأحكام والتوحيد.[٧] ويحتمل: **أفغير دين الله** يدينون. وليس على الاستفهام، ولكن على الإيجاب أنهم في صنيعهم يبغون غير الذي هو دين الله. كقوله: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ،[٨] الآية، وكقوله: أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ،[٩] الآية.

وقوله: **وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها**، يحتمل وجوها. يحتمل: **أسلم** أي استسلم وخضع له بالخلقة، إذ في خلقة كلٍّ دلالاتُ وحدانيته. ويحتمل: **وله أسلم من في السماوات** يعني الملائكة، **ومن في الأرض** [يعني] المؤمنين الذين أسلموا؛ **طوعا وكرها**،[١٠]

---

[١] سورة المائدة، ٥/٥٠.

[٢] ع م: أيبغي.

[٣] ع م - وأن دين الله.

[٤] ن: بالعناد. الاعتناد: المبالغة في العناد، وركوب الخلاف والعصيان (*لسان العرب*، «عند»).

[٥] «فإن قالوا: ما معنى قوله: ﴿أفغير دين الله يبغون﴾، وكل كافر له عقل وبصر يبغي دينا هو دين الله، ويدعي أن الذي هو عليه دين الله تعالى؟ قيل من وجهين. أحدهما أن كل عاقل يبغي دين الله تعالى، لكن لما كان بنوع تقصير في الطلب والاستدلال والاشتغال بلذات الدنيا وحطامها مُنع عن الوصول إلى الدين الحق، فجعل في المعنى كأنه باغٍ غيرَ دين الله تعالى، إذ لو كان باغيا دين الله تعالى لطلب لوجهه الذي وضع، فيصل إليه على ما قال الله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٦٩). فدل أنه لم يكن باغيا له من حيث المعنى، وإن كان باغيا من حيث الصورة. والثاني أن كلا منهم يبغي في نفسه دين الله تعالى، لكن قد بان للبعض في الانتهاء ما هو دين الحق لظهور الآيات والحجج، وأنه على غير دين الله تعالى، فلم يرجع عن ذلك إلى الإسلام، وبقي على ما عليه على طريق العناد والمكابرة، وهو باغٍ غير دين الله تعالى، فكانت الآية في المعاندين» (*شرح التأويلات*، ورقة ١١٨ظ- ١١٩و).

[٦] ع - والله أعلم قال الشيخ رحمه الله في قوله أفغير دين الله يبغون اي أ فغير ما في دين الله.

[٧] ع + ويحتمل أ فغير دين الله يبغون أي أفغير ما في دين الله من الأحكام والتوحيد.

[٨] سورة البقرة، ٢/٣٠.

[٩] سورة النور، ٢٤/٥٠.

[١٠] ع - يحتمل وجوها يحتمل أسلم أي استسلم وخضع له بالخلقة إذ في خلقة كل دلالات وحدانيته ويحتمل وله أسلم من في السماوات يعني الملائكة ومن في الأرض المؤمنين الذين أسلموا طوعا وكرها.

يعني أهل الأديان يقرون أن الله ربهم وهو خلقهم، كقوله تعالى: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ،[١] فذلك[٢] إسلامهم وهم في ذلك [الحال] مشركون.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: من في السماوات أسلموا طوعا، وأما أهل الأرض فمنهم من أسلم طوعا ومنهم من أسلم كَرْها مخافةَ السيف.[٣] وعن ابن عباس رضي الله عنه أيضا قال: طوعا من وُلد في الإسلام، وكل من أسلم ولم يولَد في الإسلام فهو كَرْه.[٤]

وقيل: منهم من أسلم طوعا، ومنهم من جُبِروا عليه. والإسلام هو تسليم النفس لله خالصا لا يشرك فيها غيره، كقوله تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ،[٥] الآية. دلت الآية أنه ما ذكرنا. ***والله أعلم.***

والإسلام[٦] هو اسم الخضوع، وكل منهم قد خضعوا، ولم يجترئ أحد أن يخرج عليه.

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٨٤]

وقوله: **قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم**، الآية -هذا والله أعلم- وذلك أن اليهود والنصارى لما آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، كقوله:[٧] نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ،[٨] أمر الله تعالى[٩] المؤمنين أن يؤمنوا بالرسل جميعا، فآمنوا بهم جميعا، وقالوا: **لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون**. والإسلام ما ذكرنا.[١٠] ***والله أعلم.***

---

[١] سورة الزخرف، ٨٧/٤٣.

[٢] ن: وذلك.

[٣] *تنوير المقباس من تفسير ابن عباس*، ٦٧.

[٤] المرجع السابق، ٦٧.

[٥] سورة الزمر، ٢٩/٣٩.

[٦] ع - والإسلام.

[٧] جميع النسخ: كقولهم.

[٨] ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعضٍ ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا﴾ (سورة النساء، ١٥٠/٤).

[٩] ن + إلى.

[١٠] انظر عند تأويل قوله تعالى في سورة آل عمران، ١٩/٣.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٨٥]

وقوله: **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه**، اختلف فيه. [قيل]: **فلن يقبل**[١] حسناتُ مَنْ يبغي غير دين الإسلام في الدنيا، وهو كقوله: وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ، أي بالمؤمَن به[٢] فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ.[٣] ويحتمل: من أتى بدين / سوى دين الإسلام فلن يقبل منه. وقيل: إنها نزلت في [٨٧ظ] نفر ارتدّوا عن الإسلام بعد ما أسلموا، ثم تاب بعضهم، فنزل قوله: **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه**[٤] **وهو في الآخرة من الخاسرين**.[٥]

{قال الشيخ رحمه الله} في قوله: **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه**: يحتمل يبتغي يطلب. **فلن يُقْبَل منه**، كأنه نهى عن ذلك، إذ[٦] يُقصَد بالتدين التقرب إلى الله تعالى. فأخبر أن ذلك[٧] لا يقبله ليصرف[٨] الطلب إلى غير ذلك؛ وذلك كما دانوا من عبادة الأوثان[٩] وغيرها لتُقرّبهم إلى الله زلفى، فأخبر أنه لا يُقرّب؛ ليصرف[١٠] الطلب إلى حقيقة ذلك الدين. على أن[١١] الأديان كانت معروفة، تأبى أنفسُ الكفرة قبولَ[١٢] اسم الإسلام لدينهم، وادعوا أن دينهم هو دين الله. فأخبر الله تعالى أن دينه هو الإسلام، وأن من يبتغي الدينِ ليَدين اللهَ به غيرَه[١٣] فالله لا يقبل منه. ***والله أعلم***.

ويحتمل الابتغاء الإرادة، فيكون فيه تحقيق الدين؛ إذ هي تجامع الفعل، فكأنه قال: من دان غير دين الإسلام فلن يقبل منه، وإن قصد به الله.[١٤] ***والله الموفق***. أيّد ذلك قوله:[١٥] **وهو في الآخرة من الخاسرين**، أنه فيمن أتى بغيره. ***والله أعلم***.

---

[١] جميع النسخ + منه.
[٢] ك - به، صح هـ.
[٣] سورة المائدة، ٥/٥.
[٤] ع م - وقيل إنها نزلت في نفر ارتدوا عن الإسلام بعد ما أسلموا ثم تاب بعضهم فنزل قوله ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه.
[٥] *روح المعاني* للآلوسي، ٣/٢١٥.
[٦] ع م: أن.
[٧] ع: عن ذلك.
[٨] ن ع م: لتصرف.
[٩] م - الأوثان.
[١٠] ن ع م: لتصرف.
[١١] جميع النسخ - أن؛ ك: صح هـ.
[١٢] جميع النسخ: عن قبول.
[١٣] أي غير الإسلام.
[١٤] جميع النسخ + بالدين؛ ع - الله.
[١٥] ن - أيد ذلك قوله.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٨٦]

وقوله: **كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق**، الآية. فالآية تحتمل[١] وجوها. تحتمل[٢] أن[٣] لا يهدي الله قومًا هم معاندون مكابرون فيه، غير خاضعين له[٤] ولا متواضعين. إنما يهدي من خضع له وتواضع، فأما من عاند وكابر فلا يهديه.

وتحتمل[٥] أن هذا في قوم مخصوصين، علم الله منهم أنهم لا يؤمنون أبدًا؛ فأخبر الله تعالى أنه لا يهديهم. وأما من علم أنه يؤمن ويتوب[٦] فإنه يهديهم، بقوله: إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا [مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ] وَأَصْلَحُوا،[٧] الآية؛ أطمع [الله] من[٨] تاب وأصلح أن يهديه ويغفر له.

ويحتمل أن[٩] لا يهديهم طريق الجنة إذا ماتوا على كفرهم، كقوله:[١٠] وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ.[١١]

{قال الشيخ رحمه الله:} ويحتمل لا يهديهم في وقت اختيارهم الضلالة. وقيل: بما اختاروا من الضلالة لا يهديهم، أي لا يسميهم.[١٢]

{قال الشيخ رحمه الله:} ودل قوله: **كيف يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم**، أن دين الإسلام هو الإيمان، وأن الكفر مقابله[١٣] من الأضداد.

---

[١] ع م: يحتمل.
[٢] ع م: يحتمل.
[٣] م – أن.
[٤] ن ع م – له.
[٥] ن ع م: ويحتمل.
[٦] جميع النسخ: وتاب.
[٧] ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ (سورة آل عمران، ٨٩/٣).
[٨] ع – من.
[٩] م: أنه.
[١٠] ع: لقولهم.
[١١] ﴿إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا﴾ (سورة النساء، ١٦٨/٤-١٦٩).
[١٢] جميع النسخ + والله لا يهدي القوم الظالمين. أي «لا يسميهم مهتدين بل ضالين». شرح *التأويلات*، ورقة ١١٩و.
[١٣] ن ع م: مقابلة.

وكيف يهدي، قيل: بكفرهم،[1] وقيل: وقت[2] اختيارهم [الضلالة]. وقيل: ذلك في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون، وكانت همتهم التعنت والمخالفة. *والله أعلم*.[3]

وقوله تعالى: **والله لا يهدي القوم الظالمين**. الآية ترد على المعتزلة قولهم؛ لأنهم قالوا:[4] إن الهدى البيان، والبيان للكل.[5] [و]قالوا بتقدم[6] الفعل؛[7] فلو كان متقدما لكان في ذلك[8] إعطاء الهدى للظالم. فأخبر عز وجل أنه لا يهدي الظالمين. وهم يقولون: لا، بل يهدي الظالم، فذلك خروج عليه. وأما على قولنا، فإن التوفيق والقدرة إنما تكون[9] معه، فكان قولنا موافقًا للآية.

{قال الشيخ رحمه الله} في قوله: **والله لا يهدي**:[10] فلو لم يكن الهدى غيرَ البيان فلقد هداهم إذًا على قول المعتزلة.

---

[1] ن ع: كفرهم.

[2] جميع النسخ: في وقت.

[3] «أي لا يهدي الله قوما هم معاندون مكابرون فيه غير خاضعين له فلا يخلق فيهم الاهتداء ولا يوفق لهم لاكتساب الاهتداء. وإنما يخلق الاهتداء ويوفقهم على كسب ذلك ويقدرهم عليه إذا كانوا خاضعين متواضعين له على ما بينا غير مرة أن الهداية من الله تعالى على أقسام ثلاثة. خلق الاهتداء وإعطاء القدرة، والتوفيق على كسب الاهتداء وتحصيله، وبيان الطريق؛ والثالث عام الوجود في حق الكافر والمؤمن، دل أن المراد منه غير بيان الطرق. ويحتمل أن هذا في قوم مخصوصين علم الله منهم أنهم لا يؤمنون أبدا فأخبر أنه لا يهديهم. فأما من علم منه أنه يؤمن في مستأنف الوقت فإنه يهديهم أي يخلق فيهم الاهتداء ويوفقه على تحصيله واكتسابه. ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا﴾ في سياق الآية أطمع الله أن من تاب عن الكفر وأصلح أنه يخلق فيه الاهتداء إلى الإيمان والقدرة على الإيمان ويغفر له. ويحتمل أي لا يهديهم طريق الجنة إذا ماتوا على كفرهم، لقوله: ﴿ولا ليهديهم طريقا إلا طريق جهنم﴾ وهذا تأويل الجبائي. وقيل: لا يهديهم، أي لا يسميهم مهتدين بل ضالين بما اختاروا من الضلالة وباشروها بأنفسهم وهو تأويل المعتزلة أيضا. ويحتمل لا يهديهم في وقت اختيارهم الضلالة أي لا يعطيهم قدرة تحصيل الاهتداء ولم يخلق فيهم ذلك، لأن قدرة الاهتداء في حال الضلالة لا يتحقق لأن القدرة مع الفعل عندنا، وكذلك خلق الاهتداء لا يجامع خلق الضلالة والكفر» (*شرح التأويلات*، ورقة ١١٩و).

[4] ك ن ع – قالوا؛ ك (هـ): قالوا.

[5] «يقولون: إن الهدى من الله تعالى، هو بيان الحجة والطريق لا غير، وهذا البيان شامل للكفرة والمسلمين. فيرد عليهم بأن الله تعالى خص الظالمين بالحرمان من الهداية، فيكون خلاف النص» (*شرح التأويلات*، ورقة ١١٩و).

[6] ن: يتقدم.

[7] «ويقولون: إن التوفيق يتقدم الفعل والقدرة على الإيمان» (المرجع السابق).

[8] ع – في ذلك.

[9] ن: يكون.

[10] ك ن + من ذكر.

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[٨٧] ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾[٨٨]

وقوله: **أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله**. قيل:[١] **لعنة الله**[٢] عذاب الله.[٣] وقيل: **لعنة الله** هي[٤] الإياس من رحمته وعفوه. واللعن هو الطرد في اللغة. ولعنة الملائكة ما قيل في آية أخرى، قوله: ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا،[٥] الآية. وقيل: لعنة الملائكة قولهم لهم [في قوله تعالى]: وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ،[٦] إلى آخره. وقيل: يدعون[٧] عليهم باللعن.

وقيل لعنة المؤمنين [هي ما جاء في] قوله: وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ،[٨] فذلك لعنهم عليهم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٨٩]

وقوله: **إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم**، ملحق على قوله: كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ،[٩] ذَكَرَ[١٠] الكفرَ بعد الإيمان، ثم ذكر التوبة فقال: **إلا الذين تابوا**، الآية، أطمع لهم المغفرة والرحمة بالتوبة بعد الكفر بقوله: **فإن الله غفور رحيم**. وما قيل في القصة أيضًا: إن نفرًا ارتدوا عن دين الإسلام، ثم تاب بعضهم ولم يتب البعض، فنزل قوله: **إلا الذين تابوا**، الآية.

وفي الآية[١١] دلالة قبول توبة المرتدين، لأن قوله: **إلا الذين تابوا من بعد ذلك**، الآية، قيل في القصة.

---

[١] م: وقيل.
[٢] ك – قيل لعنة.
[٣] ع – قيل لعنة الله عذاب الله.
[٤] ك – هي.
[٥] ﴿وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب. قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٤٩–٥٠).
[٦] سورة الزخرف، ٧٧/٤٣.
[٧] ن ع م: يدعوا.
[٨] سورة الأعراف، ٧/٥٠.
[٩] سورة آل عمران، ٨٦/٣.
[١٠] ك: ذلك، صح هـ.
[١١] ع – وفي الآية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾[٩٠]

وقوله: **إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم.**[١] اختلف فيه. قيل قوله: **كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا**،[٢] أي ماتوا على ذلك، فذلك زيادتهم الكفر. وقيل: إنهم[٣] الذين كفروا بعيسى بعد الإيمان بالرسل جميعًا، ثم ازدادوا كفرًا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

لن تقبل توبتهم. قيل: **لن تقبل توبتهم** التي تابوا مرة ثم تركوها. وقيل: **لن تقبل توبتهم** التي أظهروا باللسان ولَمّا كان[٤] ذلك في قلوبهم. أي ليست لهم توبة، لا أن[٥] تكون منهم توبة،[٦] فترد، كقوله: لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ.[٧]

وقيل: هم قوم عَلِم اللهُ أنهم لا يؤمنون[٨] أبدًا، فأخبر أنه لا تقبل[٩] توبتهم، كقوله: أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.[١٠]

وقيل: لا تقبل توبتهم عند الموت، كقوله: فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ،[١١] وكقوله: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ،[١٢] وكقوله: لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ.[١٣] أخبر أنه لا ينفع الإيمان في ذلك الوقت، فعلى ذلك قوله: **لن تقبل توبتهم**، في ذلك الوقت إذا داموا على الكفر إلى ذلك الوقت.

---

[١] ن + الآية.
[٢] ك – لن تقبل توبتهم اختلف فيه قيل كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا.
[٣] ك ن ع: إن.
[٤] أي و لم يكن.
[٥] ن ع م: إلا أن.
[٦] ك: لأن؛ ك هـ: إلا أن.
[٧] ﴿وكم من مَلَكٍ في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ (سورة النجم، ٢٦/٥٣).
[٨] ن ع: لا يتوبون.
[٩] ن: لا يقبل.
[١٠] ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ (سورة البقرة، ٦/٢).
[١١] ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٨٤–٨٥).
[١٢] سورة النساء، ١٥٩/٤.
[١٣] ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا﴾ (سورة الأنعام، ١٥٨/٦).

{قال الشيخ رحمه الله} في قوله: **إن الذين كفروا بعد إيمانهم [ثم ازدادوا كفرًا] لن تقبل توبتهم**: ذلك في قوم مخصوصين، أي لا يكون[١] منهم توبة،[٢] كقوله: وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ،[٣] أي لا شافع لهم.[٤] ويحتمل عند رؤية بأس[٥] الله، وجزاء فعله عند القيامة، ومعاينة[٦] الموت. / يدل على ذلك الآية التي تقدمت. [٨٨ر]

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[٩١]

وقوله: **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا ولو افتدى به**. يقول: لو كان معهم فافتدوا به أنفسهم[٧] ما قبل منهم، ولكن لا يكون، كقوله: وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ،[٨] أي لا يكون لهم شفيع، لا[٩] أن كان لهم شفعاء فيشفعون فلا تقبل شفاعتهم، ولكن لا يكون لهم. فهذا يدل على أن قوله: لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ،[١٠] أي لا يتوبون. ***والله أعلم***.

وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم[١١] قال: «يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له أرأيت لو كان لك مِلْءُ الأرض ذهبًا أ كنت مفتديًا به؟ فيقول: نعم يا ربِّ! فيقال له: قد سُئِلْتَ أيسرَ من ذلك، [فذلك قوله عز وجل: **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا**]».[١٢]

---

[١] ن: لما يكون.

[٢] ع م – توبة.

[٣] ﴿واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفسٍ شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾ (سورة البقرة، ٢/٤٨).

[٤] م + شفاعة لهم.

[٥] ن ع م: فعل.

[٦] ن: أو معاينة.

[٧] ك: لافتدوا فيه أنفسهم؛ ن ع: لافتدوا به أنفسهم؛ م: لافتدوا بأنفسهم.

[٨] سورة البقرة، ٢/٤٨.

[٩] ن ع: إلا.

[١٠] جزء من الآية السابقة.

[١١] ن م + أنه.

[١٢] *مسند أحمد بن حنبل*، ٣/٢١٨؛ وصحيح *البخاري*، الرقاق ٤٩؛ وصحيح *مسلم*، المنافقين، ٥٢.

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[٩٢]

وقوله عز وجل: **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**. يحتمل أن تكون[١] الآية -والله أعلم- في كفارٍ مَنَعَهم عن الإسلام الزكاةُ والصدقاتُ التي تجب في الأموال، كقوله: وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ، الآية إلى قوله: بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ.[٢] أخبر عز وجل [أنهم] لن ينالوا[٣] الإسلام حتى ينفقوا[٤] مما يحبون[٥] من الأموال. و[هو] كقوله: الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ.[٦]

ويحتمل [أن تكون] الآية في المؤمنين، رَغَّبهم عز وجل في إنفاق ما يحبون، كقوله: لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ،[٧] الآية، أخبر أن البر ما ذكر من الإيمان به، وإيتاء المال في حبه.

وروي عن أنس رضي الله عنه قال: لما نزل قوله تعالى: **لن تنالوا البر[٨] حتى تنفقوا مما تحبون**، قال أبو طلحة: يا رسول الله! حائطي الذي في مكان كذا وكذا فهو لله، ولو استطعت أن أُسِرَّه ما أعلنته. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجعله في قرابتك أو أقربائك».[٩] وروي عن عمر رضي الله عنه أنه لما نزل هذا أعتق جارية له.[١٠]

---

[١] ع م: أن يكون.

[٢] ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين. فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون. فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يومِ يَلْقَونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾ (سورة التوبة، ٩/ ٧٥-٧٧).

[٣] جميع النسخ: لن تنالوا.

[٤] جميع النسخ: حتى تنفقوا.

[٥] جميع النسخ: تحبون.

[٦] سورة فصلت، ٤١/٧.

[٧] ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ (سورة البقرة، ٢/١٧٧).

[٨] ع م + الآية.

[٩] جميع النسخ: أو قراباتك. *مسند أحمد بن حنبل*، ٣/١١٥، ١٤١، وصحيح *البخاري*، الزكاة ٤٤، الوكالة ١٥، الوصايا ١٠، ١٤، ١٧؛ وصحيح *مسلم*، الزكاة ٤٣-٤٤.

[١٠] ك ع م - له. *تفسير القرطبي*، ٣/ ١٣٣.

ثم اختلف في البِرّ، قيل: البر هو الجنة هاهنا،[1] وقيل: البر هو الإسلام إن كان [قوله تعالى] في الكافرين،[2] وقيل: لن تنالوا درجات الجنة وما عند الله من الثواب إلا بإنفاق ما تحبون.

وقوله تعالى: **وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم**، ففيه دليل قبول القليل من الصدقة؛ لأنهم كانوا[3] يمتنعون عن قليل التصدق استحقارًا؛ فأخبر أنه بذلك عليم، وإن قَلَّ بعد أن يكون ذلك لله عز وجل. ***والله أعلم.***

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٩٣] **﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**[٩٤]

وقوله: **كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه**، الآية. قال ابن عباس رضي الله عنه: وكان الطعام كله حلالا لهم إلا الميتة والدم ولحم الخنزير.[4] **إلا ما حرم إسرائيل على نفسه**، يعني يعقوب حرم على نفسه لحم الإبل وألبانها، وكان من أحب الطعام إليه. إن ثبت ما ذكر في القصة[5] أن يعقوب عليه السلام أقبل يريد بيت المقدس، فلقيه مَلَك، فظن يعقوب أنه لص[6] فعالجه يصارعه، حتى أضاء له الفجر، فلما أضاء لهما الفجر، غمز الملك فخذ يعقوب فتهيج[7] عليه عِرق النَّساء، فكان يبيت[8] الليل ساهرًا[9] من وجعه، فأقسم لئن شفاه الله ليُحرِّمنّ أحبَّ الطعام والشراب إليه على نفسه فشفاه الله من ذلك فحرَّم لحم الإبل وألبانها،[10] لأنهما من أحب الطعام والشراب إليه؛[11] فإن ثبت هذا فهو إنما حرم ذلك على نفسه بالإذن من الله عز وجل والأمر منه.

---

[1] ك: هذا هنا.
[2] ع: في الكافر.
[3] ع – كانوا.
[4] لم نجده فيما تيسر لنا من المراجع.
[5] ك + ذكر في القصة.
[6] ع م: لهن.
[7] ع م: فيهيج.
[8] م: بيت.
[9] م: سائرا.
[10] *روح المعاني* للآلوسي، ٤/٢.
[11] ع م – على نفسه فشفاه الله من ذلك فحرم لحم الإبل وألبانها لأنهما من أحب الطعام والشراب إليه.

ثم[1] إن اليهود قالوا: إنما كان تحريم ذلك من الله في التوراة،[2] فأمر الله تعالى نبيه[3] أن قل لهم: **فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين**، أن ذلك التحريم من الله في التوراة.

ويحتمل أن يكون التحريم كان بظلم، منهم، كقوله: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ،[4] الآية، ثم[5] أنكروا تحريم ذلك بظلمهم فدُعُوا بإحضار التوراة ليظهر كَذِبهم، فأبوا ذلك. فلا ندري كيف كانت القصة ولكن فيه إثبات دلالة رسالة رسولنا[6] محمد صلى الله عليه وسلم، حيث أخبر عما أسرّوا، وأظهر ما كتموا.

قال أبو زيد:[7] إنما قَدَر أهل الكتاب على تغيير كتابهم والزيادة فيه والنقصان، ولم يكن لأحد تغيير القرآن عن وجهه، أو زيادة فيه،[8] أو نقصان منه؛ لأن كتبهم تشبه كلام غيره من الحكماء، فغيروه[9] بغيره من كلام الحكماء. وأما القرآن فهو آية معجزة لم يقدروا على تحريفه ولا تبديله، وإن عَلِم أنه كان كما ذُكر،[10] وإلا فهو -والله أعلم- لَيَهْتِك عليهم أستارَهم، ولَيُظهر منهم ما كتموا. وفيه إثبات رسالة[11] محمد صلى الله عليه وسلم.

[**فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون**، أي من اختلق على الله الكذب من بعد البيان في كتابهم فأولئك هم الظالمون].[12]

﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٩٥]

وقوله: **قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا**، الآية، قد ذكرناه فيما تقدم.[13]

---

[1] ع – ثم.
[2] ع + ويحتمل.
[3] ك: بنبيه.
[4] ﴿فبظلمٍ من الذين هادوا حرمنا عليهم طيباتٍ أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا﴾ (سورة النساء، ٤/١٦٠).
[5] م – ثم.
[6] ك – رسولنا.
[7] م: أبو يزيد.
[8] م – فيه.
[9] جميع النسخ: فغيروا.
[10] أي لو كان القرآن يشبه كتب أهل الكتاب لاجترأ المحرِّف على تغيير القرآن بزيادة فيه أو نقصان منه.
[11] م: لرسالة.
[12] ما بين القوسين مأخوذ من *الشرح*، ورقة ١٢٠و.
[13] ك – وقوله قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا الآية قد ذكرناه فيما تقدم. «يحتمل **صدق الله**، أن الطعام كله كان حِلّا لبني إسرائيل قبل تحريم إسرائيل على نفسه، فصار ما حرم حراما على قومه إلى وقت نزول التوراة –

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَلَمِينَ﴾[٩٦]

وقوله: **إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا**. قيل فيه بوجوه.[١] قيل: إن أول بيت مبارك وضع للناس هو بكة. وقيل: أول مسجد وضع للناس ببكة.[٢] وقيل: يريد ببكة البُقعة، أي أول بقعة خلق الله هو بكة، ومنها دُحيت الأرض. وقيل: إن آدم عليه السلام لما أُمر بالحج فيه، قال جبريل عليه السلام: قد حج فيه الملائكة قبلك بألفي عام.[٣] وقيل: خلق الله البيت قبل الأرض بألفي عام.[٤]

ثم اختلف في قوله: بكة، قيل: البكة[٥] الزّحام.[٦] وقيل: البكة موضع البيت، ومكة[٧] سائر القرية.[٨] وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: مكة من فج إلى التنعيم إلى المتحر، وبكة من البيت إلى البطحاء.[٩] وقيل: بكة الكعبة، حيث يَبُكّ الناس؛ أي يزدحم بعضهم بعضًا، ومكة[١٠] ما وراءها.

وقوله: **مباركا**، قيل: يُغْفَر فيه الذنوب والخطايا، **وهدى للعالمين**.

= ثم صار حلالا ما صار حراما بتحريمه. ويحتمل صدق الله فيما أخبر أن تحريم ذلك عليهم بظلمهم بعد التوراة ردا على اليهود في دعواهم حرمة ذلك عليهم ابتداء لا بسبب ظلمهم. والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا﴾ أي فاتبعوا يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ملة أبيكم يعني دين إبراهيم، فكلوا لحوم الإبل وألبانها وكلوا الشحوم والتروب. فأحل الله تعالى لأمة محمد عليه ما كان حلالا على إبراهيم عليه السلام وحرم عليهم ما كان حراما عليه وهو تفسير الاتباع. والله أعلم» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٢٠و). وانظر أيضا عند تأويل قوله تعالى في سورة البقرة، ٢/١٢٠، ١٣٠.

١ ن + إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا قيل فيه بوجوه.

٢ جميع النسخ: مكة. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٢٠و.

٣ أخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في شعب الإيمان، (*مصنف ابن أبي شيبة*، ٢٦٧/٧؛ وشعب *الإيمان* للبيهقي، ٤٣٥/٣؛ وسنن *الكبرى* له، ١٧٧/٥) عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كان موضع البيت في زمن آدم عليه السلام شبرا أو أكثر علما، فكانت الملائكة تحج إليه قبل آدم، ثم حج فاستقبلته الملائكة قالوا: يا آدم من أين جئت؟ قال: حججت البيت. فقالوا: قد حجته الملائكة قبلك بألفي عام» (*الدر المنثور* للسيوطي، ٣١٧/١-٣١٨).

٤ ع م + في.

٥ ع م – قيل البكة.

٦ م: الرخام.

٧ ع م: موضع البيت وسائر القرية.

٨ وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا﴾، قيل: إن بكة موضع البيت وسائر ما حوله مكة. فأما اشتقاقه في اللغة فيصلح أن يكون الاسم اشتق من بَكّ الناسُ بعضهم بعضا في الطواف، أي دفع بعضهم بعضا. وقيل: بكة اسم بطن مكة، سمي بذلك لازدحام الناس. وفي حديث مجاهد: من أسماء مكة بَكَّة. قيل: بكة، موضع البيت، ومكة: سائر البلد، وقيل: هما أسماء البلدة. والباء والميم يتعاقبان (*لسان العرب*، «بكك»).

٩ *الدر المنثور* للسيوطي، ٢٦٧/٢.

١٠ ع م – ومكة.

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[٩٧]

[٨٨ظ] **فيه آيات بينات**، يحتمل قوله: **فيه آيات بينات**: / ما لو تأملوا لهداهم، وذلك أن الله عز وجل خلق هذا البيت بين الجبال في أرض مَلْساء، قليلة الأنزال والرَّيْع، لا ماء فيه ولا شجر ولا نزهة ولا ما يرغب الخلق إلى مثله، ثم جعل قلوب الناس تميل وتهوي[١] إليه أفئدتهم من غير أن كان فيه[٢] ما يرغّبهم من النزهة، فلو لا أن كان ذلك من آيات الله ولطفه، وإلا ما رغب[٣] الناس إلى مثله. ويحتمل قوله: **فيه**[٤] **آيات بينات**، ما ذكر [من] **مقام إبراهيم**، [وما ذكر من قوله][٥] **ومن دخله كان آمنا**، وذلك آياته. ***والله أعلم***.

وقوله: **ومن دخله كان آمنا**، ظاهره[٦] فيمن يجني ثم دخل الحرم أمن، لأن من لم يجن فهو آمن أين دخل من الحرم[٧] وغيره. وإنما الآية على ما يخص بالأمن[٨] إذا دخل الحرم دون غيره. وقد روي عن جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يوافق هذا. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إذا أصاب الرجل الحد في الحرم أقيم عليه، وإن أصابه في غير[٩] الحرم ثم لجأ إليه لا يحدَّث ولا يجالس ولا يؤاكل ولا يبايع حتى يخرج منه، فيؤخذ فيقام عليه الحد.[١٠] وروي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: لو وجدنا قاتل أبينا في الحرم لم نقتله.[١١]

وروي عن الحسن رحمه الله أنه قال في قوله: **ومن دخله كان آمنا**، كان هذا في الجاهلية، فأما الإسلام فلم يزده إلا شدةً، من أصاب الحد في غيره ثم لجأ إليه أقيم عليه الحد.[١٢]

---

[١] ك: تهوى وتميل.
[٢] ن: فيهم.
[٣] ن: رغبت.
[٤] ع م – ما يرغبهم من النزهة فلو لا أن كان ذلك من آيات الله ولطفه وإلا ما رغب الناس إلى مثله ويحتمل قوله فيه.
[٥] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٢٠و.
[٦] ن: ظاهرة.
[٧] ع: على الحرم.
[٨] م: بالأرض.
[٩] م: غير.
[١٠] *تفسير الطبري*، ٤/١١؛ و*تفسير القرطبي*، ٤/١٤١.
[١١] *الدر المنثور* للسيوطي، ٢/٢٧١.
[١٢] *المحرر الوجيز* لابن عطية، ١/٤٧٦.

يقال للحسن: إن الصيد كان يأمن في الجاهلية ثم [في] الإسلام لم يرفع ذلك الأمن، بل كان أمن الصيد في حال الإسلام كهو في حال الجاهلية، فعلى ذلك الأمن الذي كان في الجاهلية هو باق، غير زائل في الإسلام.

وأصحابنا رحمه الله يذهبون إلى ما روي عن ابن عباس، وابن عمر رضي الله عنهما. ولما روى ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن[1] الله تعالى حرم مكة يوم خلقها، لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد[2] بعدي وإنما أحلت لي ساعة من نهار. لا يُختَلى خلَاها، ولا يُعْضَد شجرها، ولا يُنَفَّر صيدها، ولا يُحْتش حشيشها».[3] أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مكة بعد الإسلام حرام كما كانت قبله،[4] وأنها لم تحل له إلا ساعة من نهار، فإذا كان الملتجئ إليها آمنا[5] قبل الإسلام فالواجب أن يكون آمنًا بعد الإسلام حتى يخرج منها.

وحجة أخرى[6] وهو أن الله تعالى أباح لرسوله صلى الله عليه وسلم قتل المشركين جميعًا، بل فرض[7] ذلك عليه إلا أهل مكة فإنه لم يُحل له قتلَهم إلا ساعة من نهار. ففضل مكة على غيرها بما خصها به من التحريم. فلا يبعد أن لا يقام [الحد أو القصاص] على من التجأ إليها في الإسلام، إذا كانت جنايته أقل مِن كفر أهلها، و لم يحل قتالهم إلا ساعة من نهار.

وفي الفرق [بين] من قَتل فيها وفي غيرها ثم لجأ إليه وجه آخر، [وهو] قول الله تعالى: وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ،[8] أباح لهم القتل عند المسجد الحرام إذا قاتلونا[9] فعلى ذلك يقام الحد إذا أصاب وهو فيه، وإذا أصاب وهو في غيره ثم[10] لجأ إليه لم يقم، كما لم يُقاتَلوا إذا لم يُقاتِلوا.[11] وهذا فرق حسن واضح بحمد الله وعونه.[12]

---

[1] ع: إنما.
[2] ع - قبلي ولا تحل لأحد.
[3] *مسند أحمد بن حنبل*، ١/٢٥٣، ٢٥٩؛ وصحيح *البخاري*، الحج ٤٣؛ وصحيح *مسلم*، الحج ٤٤٥-٤٤٨.
[4] ن ع: قبلة.
[5] ع م - آمنا.
[6] ك - أخرى، صح هـ.
[7] ن - فرض، صح هـ.
[8] ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين﴾ (سورة البقرة، ٢/١٩١).
[9] ع م: قتلونا.
[10] ن: لم.
[11] ن ع - إذا لم يقاتلوا.
[12] ك: والله أعلم.

{قال الشيخ رحمه الله} في قوله عز وجل **ومن دخله كان آمنًا**: يحتمل أن يكون خبرًا عن الحرم.[١] في قديم[٢] الدهر أنه كان – على ما بيّن – الخلقُ من القتال والحرب يأمنون بالحرم إذا التجئوا إليه. وذلك كقوله: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ،[٣] فيكون ذلك[٤] من عظيم آيات الله تعالى، لأن[٥] أهل[٦] الجاهلية – على عظيم ما بدلوا من الأمور وغيروا من الدين – منعهم الله تعالى عن هذا التغيير حتى بقيت لكل من شهده آية [على] أن الله له هذا السلطان، وبه قام هذا التدبير العظيم [و]له العلم بحقائق الأشياء، ووضع كل شيء[٧] موضعه. وعلى ذلك قال بعض أهل التأويل في قوله: ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ،[٨] قد جعل[٩] جل ثناؤه ذلك[١٠] كالمأمن في الشرع والطبع. فأما الشرع[١١] فما جاءت به[١٢] الرسل، وأما الطبع فما تنافر الناس [عنه] حتى سار[١٣] ذلك إلى الصيد الذي يؤذيه الآخذ، وإلى أنواع الأشياء التي قامت بجوهر[١٤] تلك البقعة من النبات، لا[١٥] بأسباب تكسب. ولهذا كره بيع رِباع[١٦] مكة، ورُخص في بيع ما يحدث فيها من النبات. *والله أعلم*. ودل قوله: جَعَلْنَا،[١٧] كذا على لزوم ذلك الحق؛ لأنه مذكور بحرف الامتنان والاحتجاج به،[١٨] ولا يجوز تغيير الذي هذا وصفه. *والله أعلم*.

---

[١] جميع النسخ: من الحرم.
[٢] ع: في قد.
[٣] سورة العنكبوت، ٦٧/٢٩.
[٤] ن – ذلك.
[٥] جميع النسخ: أن.
[٦] م – أهل.
[٧] ع: بني.
[٨] ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيءٍ عليم﴾ (سورة المائدة، ٩٧/٥).
[٩] ك ن: وقد جعل.
[١٠] ك ع: وذلك. ذلك: أي الحرم.
[١١] ن ع: فما الشرع.
[١٢] ع م – به.
[١٣] ن: صار.
[١٤] ع: بالجوهر.
[١٥] ع: إلا.
[١٦] جمع الرَّبْع، وهو المنزل والدار بعينها والوطن متى كان، وبأي مكان كان. وهو مشتق من ذلك. وجمعه أرْبُعٌ، ورِباع ورُبوع وأرباع وربع القوم: محتلهم. وفي حديث عائشة: أرادت بيع رباعها، أي منازلها (*لسان العرب*، «ربع»).
[١٧] ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطَّف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ (سورة العنكبوت، ٦٧/٢٩).
[١٨] جميع النسخ: له.

ويحتمل **كان**: صار **آمنًا**، أي أوجب له الأمان [بالدخول في الحرم]. ومعلوم أن الذي لم يلزمه القتل كان آمنًا دون دخوله، فثبت أن ذلك فيمن لزمه. وأيد ذلك قوله: وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ،[١] فهم قوم قد سبق منهم الكفر[٢] وقت شرع القتل بالكفر، لم يأخذهم بحق[٣] الشرع على ما سبق من الكفر في وقت لم يكن ذلك جزاؤه في الدنيا إلا أن يحدث القتال. فعلى ذلك من لزمه لا[٤] فيه فهو يأمن به إلا أن يكون أحدثه فيه. ***والله أعلم***.

وأصله أنه أضاف الأمان إلى نفسه بقوله: **كان آمنًا**. فكل[٥] حق يُتلف نفسه فله أمان[٦] بالدخول فيه؛ وكل حق في إقامته إحياء ما جعلت الحياة [به] ليقع مثله فهو يقام، ليكون زجرًا له وتكفيرًا على بقاء الأمن ليقي نفسه، ولرده[٧] إلى ما لا يدري[٨] أنه التجأ إليه للهرب عن حكم الله تعالى، أو للأمان بالله ليصل إلى إقامة أحكام الله تعالى آمنًا، وفي إقامته هذا أيضًا. ***والله أعلم***.

وقوله[٩] عز وجل: **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلًا**، فرض الله تعالى الحج بهذه الآية / على من استطاع إليه سبيلًا ولم يبين ما السبيل، وبين ذلك رسولُ الله صلى الله [٨٩و] عليه وسلم حيث سئل عن الاستطاعة فقال: «الزاد والراحلة».[١٠] وهكذا يقول علماؤنا: إن الاستطاعة[١١] والسبيل هو الزاد والراحلة، كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال[١٢] بعض الناس: إذا كان بينه وبين الحج بحر لم يلزمه الحج، فكأنه ذهب إلى ظاهر الآية **من استطاع إليه سبيلًا**، فجعل البحر وأشباهه مزيلًا للاستطاعة، فخالف ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الاستطاعة فقال: «الزاد والراحلة»، فلم يجز لأحد أن يزيد شرائط الاستطاعة مع الزاد والراحلة.[١٣]

---

[١] سورة البقرة، ٢/١٩١.
[٢] ك: القتل؛ صح هـ.
[٣] جميع النسخ: حق.
[٤] ن ع: إلا.
[٥] م: وكل.
[٦] م: الأمان.
[٧] جميع النسخ: ورده.
[٨] جميع النسخ: لا يدرا.
[٩] ن – وقوله.
[١٠] *سنن الترمذي*، الحج ٤؛ و*سنن ابن ماجة*، المناسك ٦.
[١١] ع: الاستطاع.
[١٢] ع م: وكان.
[١٣] ع م – فلم يجز لأحد أن يزيد شرائط الاستطاعة مع الزاد والراحلة.

لأن النبي صلى الله عليه وسلم هو المبيّن عن الله، فعلينا اتباعه في قوله وفعله وتفسيره الآية. ولكنا نجعل من يحول بينه وبين البيت [عدوٌّ][1] معذورًا في التأخير، ولا يأثم إن شاء الله إذا لم يقدر على الوصول إلى البيت بعلة على ما[2] جعل التأخير في غيره[3] من العبادات[4] عند[5] الأعذار والعلل، ولا يأثم في ذلك.

ثم في الآية دلالة أن لا يلزم المرأةَ الحجُّ إلا بالمحرم؛ لأن المرأة وإن وجدت الزاد والراحلة فإنها تحتاج إلى من يُركبها ويُنزلها، و لا تقدر على ذلك إلا بغيرها، وهكذا العرف فيهن؛ فإذا كان كذلك جعل كأنها غير واجدة للراحلة. *والله أعلم*.

وفيه دلالة أن العبد إذا حجّ ثم أُعتق لزمه حِجّة الإسلام؛ لأنه لا يملك الزاد والراحلة، فإذا لم يملك الزاد والراحلة لم يجز ذلك عن حجة[6] الإسلام. وكذلك روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أيما عبد حج ولو عَشْرَ حِجَجٍ فعليه إذا أُعتق حِجَّة الإسلام».[7] وليس كالحر الفقير يَحُجّ ثم أيسرَ جاز ذلك من حِجة[8] الإسلام، ففرقوا بينهما وإن كانا[9] في زوال الحج في الابتداء سواء. وذلك أن الفقير إذا بلغ ذلك المكان صار غنيًا ولزمه الفرض، لأنه لا يحتاج حينئذ إلى زاد وراحلة، وأما العبد [فإنه] إذا حضر ذلك المكان لم يُعتَق، لذلك افترقا. وفي ذلك حجة أخرى، ما أجمع [عليه] أهل العلم أن فقيرًا لو حضر القتال ضرب له بسهم كامل، كما يضرب لمن كان فَرْض الجهاد لازمًا له. ولو أن عبدًا شهد الوقعة رُضِخ[10] له ولم يُكمل له سهم الحرّ. فافترق[11] حال الفقير والعبد في الجهاد والضرب في السهام،[12] فعلى ذلك يفترق حالهما في الحج. *والله أعلم*.

---

[1] والزيادة مستفادة من *الشرح*، ورقة ١٢١و.

[2] م – ما.

[3] جميع النسخ: في غيرها.

[4] م + هذا.

[5] م – عند.

[6] جميع النسخ: من حجة.

[7] قال الزيلعي: رواه الحاكم في المستدرك وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. (*نصب الراية*، ٦/٣). وانظر أيضا: *مصنف ابن أبي شيبة*، ٣٥٥/٣.

[8] ن: من جهة.

[9] ك: كان، صح هـ.

[10] رضخ له من ماله يَرْضَخُ رَضْخًا: أعطاه. يقال: رضخت له من مالي رضيخة: وهو القليل (*لسان العرب*، «رضخ»).

[11] ك: فافترقت.

[12] ن: في السهمان.

وقال بعض أهل العلم: إن الشيخ الذي لا يستمسك على الراحلة إذا وجد غيره يحج عنه يلزمه فرض الحج، فما ينكر[١] ممن قال في المرأة بمثله، فاحتج بما روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن[٢] أبي شيخ [فقد] أدركته فريضة الحج وهو لا يستطيع أن يستمسك على الراحلة أفيُجزِئ[٣] أن أحج عنه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أرأيت لو كان على أبيك دَين فقضيته عنه أكان يقبل منك؟» قال نعم. قال: «فالله أولى بحج أبيك»، أو كلام نحوه.[٤] ولكن ليس في الخبر أن فريضة الحج إنما أدركته في الحال التي لا يستمسك [فيها] على الراحلة فيجوز[٥] أنه[٦] أدركته[٧] فريضة الحج قبل ذلك. فكذلك يقول علماؤنا: إن الحج إذا وجب فأخر أداءه حتى أعسر لم يسقط عنه الحج. وكذلك إذا وجب عليه الحج، فلم يحج حتى كَبِر، فصار لا يستمسك على الراحلة،[٨] عليه أن يوصي ليُحَجّ عنه. ويحتمل أيضًا[٩] أنه رغّبه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحج عنه تبرعًا،[١٠] لا أنه ألزمه الحج في ذلك الوقت الذي لا يثبت على الراحلة.

وعندنا أنه لا يلزمه لأنه إذا لم يستمسك على الراحلة فلا راحلة له.

ثم من قول هذا القائل أن من لزمه فرض الحج فله التأخير، وفي التأخير خوف[١١] إدراك المنية. ومن قوله أنه لو أخر حتى مات يصير فاسقًا، فإذا مات مات فاسقًا.[١٢] يجعل له رخصة التأخير ثم يفسقه،

---

[١] م: فما يذكر.

[٢] ن – إن.

[٣] ك – وقال بعض أهل العلم إن الشيخ الذي لا يستمسك على الراحلة إذا وجد غيره يحج عنه يلزمه فرض الحج فما ينكر ممن قال في المرأة بمثله فاحتج بما روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن أبي شيخ أدركته فريضة الحج وهو لا يستطيع أن يستمسك على الراحلة أفيجزئ.

[٤] *صحيح البخاري*، الحج ١، الجهاد ١٥٤، ١٦٢، ١٩٢، أدب ٦٨؛ و*صحيح مسلم*، حج ٤٠٧، فضائل الصحابة ١٣٥، ١٣٧.

[٥] ع – وهو لا يستطيع أن يستمسك على الراحلة أ فيجزئ أن أحج عنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أ رأيت لو كان على أبيك دين فقضيته عنه أكان يقبل منك قال نعم قال فالله أولى بحج أبيك أو كلام نحوه ولكن ليس في الخبر أن فريضة الحج إنما أدركته في الحال التي لا يستمسك على الراحلة فيجوز.

[٦] ك ن: ان؛ ع: انما.

[٧] م – في الحال التي لا يستمسك على الراحلة فيجوز أنه أدركته.

[٨] ع: الراحلة.

[٩] ع + عنه ويحتمل أيضا.

[١٠] ن ع: متبرعا.

[١١] ع: فوت؛ م: فوات.

[١٢] م – فإذا مات مات فاسقًا.

فكأنه يجعل[1] له الرخصة في الفسق، فذلك قبيح وحشو من القول[2] سَمِج.

وأما عندنا فإنه لا يسع له التأخير في أول أحوال الإمكان على تمام شرط الاختيار، كغيره من العبادات التي لزمت من نحو الصلاة والصيام وغيرهما لا يسع التأخير، فعلى ذلك الحج.

ثم من قول الشافعي رحمه الله: إن على الكافر الحج والصلاة والصيامَ في حال كفره، فإذا أسلم سقط ذلك عنه. فذلك عندنا لعب وعبث في دين الله تعالى وتبارك، غير جائز أن يلزمه فرض في حال لا يجوز له فعله، فإذا جاء سبب الجواز يسقط عنه ذلك. وفي الآية دلالة أن الحج إنما كان فرضًا على المؤمنين خاصة، بقوله: **وَمَن كَفَرَ فإن الله غني عن العالمين**، فلو كان هو على الكافر،[3] كما هو على المسلم لم يكن لقوله [**ومن كفر**] معنًى، دل أنه غير لازم. والله أمر بالعبادات باسم المؤمنين.

ثم المسألة بينا وبين المعتزلة[4] في الاستطاعة.[5] قالت المعتزلة:[6] [الاستطاعة] تكون[7] قبل الفعل؛ لأن الله تعالى فرض الحج، وأمر بالخروج إليه إذا قدر على الزاد والراحلة على ما فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا لم يقدر لم يلزمه، فدل أنها تتقدم.

وأما عندنا فهي على وجهين. أحدهما استطاعة الأسباب والأحوال. والثاني استطاعة الأفعال. فأما[8] استطاعة الأحوال والأسباب فيجوز تقدمها من نحو الزاد والراحلة والجوارح السليمة. وأما استطاعة الأفعال فإنها[9] لا تكون إلا مع الفعل؛ لأنها استطاعة الفعل وسببه، فلا تكون[10] إلا معه.

والوقت في الحج [شرط] لفعل الحج، لا للإيجاب،[11] لأنه لو كان للإيجاب لكان له أن لا يخرج ولا يأتي ذلك المكان فيجب عليه الحج؛ ولأنه لو لم يلزمه إلا بالوقت، ثم لا يتمكن فعله به دون المكان، فيجيء أن لا يلزمه إلا بحضور ذلك، فلا يلزمه الخروج / أبدا، [٨٩ظ]

[1] ن: يحتمل.
[2] ع – من.
[3] ك: الكافر، صح هـ.
[4] ن – المعتزلة.
[5] ع – في الاستطاعة.
[6] ع – قالت المعتزلة.
[7] جميع النسخ: يكون.
[8] ن – فأما.
[9] ن – فإنها.
[10] جميع النسخ: فلا يكون.
[11] ع: لا لإيجاب.

إذ الحج[١] غير لازم إلا بالوقت.[٢] ولأنه ليس على[٣] العبد[٤] أن يتكلف في اكتساب[٥] إيجاب العبادات،[٦] و[لكن] عليه أن يجهد في أداء الواجب عليه.[٧]

ثم الأوقات على أقسام ثلاثة: وقت الإيجاب والأداء جميعًا نحو الصلاة والصيام ونحوهما؛ ووقت الإيجاب نحو الزكاة؛[٨] ووقت الأداء وهو الحج، إنما وجوبه بالزاد والراحلة، وأما الوقت فهو[٩] للأداء خاصة. فإذا كان في أقصى بلاد المسلمين[١٠] فهو لم يعطَ قدرة فعل الحج، لأنه لا يقدر على فعله إذا كان فيما ذكرنا. دل أن قدرة الفعل لا تتقدم[١١] الفعل، وقدرة الأحوال تتقدم لما ذكرنا. *والله أعلم*.*

[وفي] قوله:[١٣] **ولله على الناس حج البيت** دلالتان.[١٤] إحداهما في الوجوب بقوله: **ولله على الناس**،[١٥] وأيد ذلك قوله: **ومن كفر فإن الله غني عن العالمين**، وما جاء من الآثار[١٦] واتفاق القول.[١٧]

---

١ ك: إذا كان بحج.

٢ ك ن ع: إلا بالوقت. يقول السمرقندي: «حتى يحضر ذلك الوقت، وإذا حضر الوقت لا يمكن القبول بالوجوب ما لم يحج إلى المكان الذي يوقع فيه الفعل، وهو بعيد منه» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٢١و).

٣ ع – على.

٤ ع: العند.

٥ ع م: باكتساب.

٦ ع: العباداة.

٧ «ولأن المرء لا يكلف تحصيل أسباب الوجوب، فإنه لا يجب على المرء تحصيل المال باكتساب أسبابها من التجارة ونحوها ليجب عليه الحقوق الواجبة بسبب المال من الحج والزكاة وصدقة الفطر ونحوها. وبالإجماع الحج واجب على من نأى عن الكعبة، دل أنه إنما يجب الاستطاعة من حيث الأسباب» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٢١و).

٨ ع – ووقت الإيجاب نحو الزكاة.

٩ ن – فهو.

١٠ ع – فهو للأداء خاصة فإذا كان في أقصى بلاد المسلمين.

١١ ن: لا يتقدم.

* ورد هنا قسم من تفسير الآية متقدما فنقلناه إلى موضعه، انظر: ورقة ٨٩ظ/سطر٥-١١.

١٣ ع م – قوله.

١٤ ن + دلالتان.

١٥ أي في كون الحج واجبا بدلالة، كلمة "على"، لأنها مستعملة في الوجوب. شرح *التأويلات*، ورقة ١٢٢و.

١٦ جميع النسخ: من الأثر.

١٧ أي إجماع الأمة. شرح *التأويلات*، ١٢٢و.

والثانية[1] جعلُ البيت شرطًا للقيام، لما هو في قوله: **على الناس** ذلك، فيكون[2] دليل لزوم الطواف تفسيره في قوله: وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ،[3] وكذلك أيده قوله: فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ،[4] وأيده[5] أيضا ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال[6] في امرأة[7] نُفِست: «أحَابِسَتُنا هي؟» قيل: إنها أفاضت.[8] وعلى ذلك اتفاق القول بلزوم الطواف. ***والله أعلم***.

فلما دل أن الطواف[9] لازم لم يخل إما أن يكون الطواف[10] المبدَأ به في الحج أو الذي يختم به. والذي يبدأ به لا يلزم كلَّ الناس؛ ثبت أن الفرض هو الذي يختم به.

وقوله:[11] **من استطاع إليه سبيلا**، أوجب جعل السبيل إليه والإمكانِ شرطًا للوجوب، إذ الآية في ذكر الوجوب[12] لا الفعل. وعلى ذلك جميع العبادات جُعِل الإمكان في وجوبها شرطًا بالسمع، بقوله: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا،[13] وغير ذلك مما ذكر في كل نوع من العبادات من الاستطاعة.

وكذا حق هذا بالعقل،[14] وذلك يخرج على وجهين. [الأول] استطاعة الفعل بمعنى القدرة[15] التي تحدث لا محالة ما سلمت الأسباب، إلا أن تكون[16] ممن[17] منه الفعل الإعراض عنها[18]

---

[1] ن ع: والثاني.

[2] ن ع + فيه.

[3] ﴿ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ (سورة الحج، ٢٢/٢٩).

[4] ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم﴾ (سورة البقرة، ٢/١٥٨).

[5] جميع النسخ: وأيد.

[6] ن - قال.

[7] ن + قال.

[8] روى مسلم عن عروة أن عائشة قالت: حاضت صفية بنت حُيَيّ بعد ما أفاضت. قالت عائشة: فذكرت حيضتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحابستنا هي؟» قالت قلت: يا رسول الله إنها قد كانت أفاضت، وطافت بالبيت ثم حاضت بعد الإفاضة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فَلْتَنْفِر» (*مسند أحمد بن حنبل*، ٦/٣٨-٣٩، ٨٢، ٨٥؛ و*صحيح البخاري*، الحج ١٢٩، الطلاق ٤٣؛ وصحيح مسلم، الحج ١٢٨).

[9] ن + والله أعلم فلما دل أن الطواف.

[10] ن - الطواف.

[11] م: وهو قوله.

[12] ع - إذ الآية في ذكر الوجوب، صح هـ.

[13] سورة البقرة، ٢/٢٨٦.

[14] م: بالفعل.

[15] م: من القدرة.

[16] جميع النسخ: أن يكون.

[17] ك م: فمن.

[18] م: عنهما. أي إلا أن توجد الإعراض من المكلف والفاعل عن القدرة.

بالشغل بغير ذلك [من] الأفعال، أو استثقالِ ذلك بالفعل؛ فيكون فوت الاستطاعة بتضييعه، ولا عذر بفوت[1] ما كان المكلف يفوته، كفوت العلم به على الإمكان، وإن كان لا يقوم دونه. والذي يؤيد أن هذه الاستطاعة ليست[2] بشرط في الإيجاب أنها لا تبقي. ثم محال وجودها في حالةٍ -لو أريد إقامة الحج- لا يتهيأ، وذلك نحو أن يكون في أقصى البلاد من مكة؛ ومعلوم أن القدرة التي بها يكون الفعل ليست معه، ومحال تكليف السبب الذي به يجب الفعل؛ فلذلك لم يجز تكليف[3] بالخروج ولا أمر بالحج، فكأنه يؤمر بتكليف سبب الإيجاب، ثبت أن قد يجب الحج لا بتلك القوة. وكذلك يجوز في الكفارات استعمال الأبدال في حال العجز، وإن كان لا يعلم أن [حقيقة][4] العجز يمتد إلى آخر ما يقدر على[5] الأصل، بل على ظهور أن لا يمتد بمضي[6] البدل؛ ثبت أن لا عبرة لفقد قدرة الفعل ووجودها في التكليف. **والله أعلم**.

والثاني يراد بالاستطاعة سلامة الأسباب. ولا يجوز التكليف دونها بالفعل، لأنه ممنوع، ومحال أمر الممنوع عن الفعل به كالأعمى والمُقعَد ونحو ذلك. فإلى[7] مثل هذا انصرف شرط الاستطاعة -وهو[8] اللازم في العقل- لأن[9] القُرَب [تكون] بحق الشكر لما أنعم على المأمور، فإذا منع عنه السبب الذي هو النعمة[10] لم يحتمل أن يؤمر بالشكر ولا نعمةَ. **والله أعلم**.

وعلى ذلك ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن ذلك، فقال «الزاد والراحلة».[11] **والله الموفق**. وعلى ما ذكرت يخرج قول أبي حنيفة رضي الله عنه [في] وجوب الحج، وإن لم يدرك الوقت الذي فيه يقوم الحج على ما لزمه، وإن لم يكن أصاب المكان الذي فيه يقام. **والله أعلم**. فظاهر[12] الآية، مع ما ذكرنا من بيان الأثر.

---

[1] ك ع: يفوت.

[2] م: ليس.

[3] ع - السبب الذي به يجب الفعل فلذلك لم يجز تكليف، صح هـ.

[4] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٢١و.

[5] جميع النسخ: ما يقوم به.

[6] ك ع م: بمعنى. وعبارة السمرقندي هكذا: «بل على اعتبار أن لا يمتد من حيث الظاهر». ورقة، ١٢١و.

[7] ك ن ع: وإلى.

[8] ع: هو.

[9] ك ن ع: لما.

[10] «وهو سلامة البدن أو المال» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٢١و).

[11] الحديث تقدم تخريجه.

[12] ن ع: فيظاهر.

وأصله أن الوقت في الحج جعل [شرطا] لجواز الفعل، إذ هو لو فات لا يحتمل في غيره. وكل فعل يجوز في غير وقته فما يقرب من الوقت به كان أحق بالجواز. فإذا لم يجز هذا وجاز في مثله من [العام] القابل ثبت أنه للجواز لا للوجوب. وأيد ذلك ما لا يوصف بالقضاء متى أدِّي. ولو كان في [العام] الأول واجبًا لوقت الأول لكان يكون في الثاني قاضيًا، فإذا لم يكن ثبت أن ليس لوجوبه وقت.[1] *والله أعلم*.

[٨٩ظ س ٥] *وقوله: **ومن كفر فإن الله غني عن العالمين**. في الآية دلالة أن الله عز وجل إذا أمر عباده بأمر ليس يأمره لحاجة نفسه، [بل] يأمر[2] لحاجة[3] العبد، لأنه غني بذاته لا حاجة تمسه. وأما الأمر فيما بين الخلق فإنما هو لحاجة بعضهم لبعض؛ إما لجر[4] منفعة، أو لدفع[5] مكروه، فذلك معنى قوله: **ومن كفر فإن الله غني عن العالمين**.

ثم اختلف في قوله: **ومن كفر**، عن ابن عباس رضي الله عنه، **ومن كفر**، قال: من زعم أنه لم ينزل[6] [آية وجوب الحج]. وعن الحسن، **ومن كفر**، قال: من زعم أن الحج ليس بواجب.[7] وقيل: **ومن كفر**،[8] قال: هو الذي إن حجّ لم يَرْجُ[9] ثوابه، وإن جلس لم يَخْشَ[10] عقابه.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: **من استطاع إليه سبيلا**، والسبيل أن يصح بدن[11] العبد وأن يكون له ثمن زاد وراحلة من غير أن يُجْحَف[12] [به]. ثم قال: **ومن كفر**، يقول:

[1] «...متى لم يؤد الحج في العام الأول فإنه لا يسمى قضاء متى أدى بعد ذلك. ولو كان الوقت [واجبا] لوجود الأداء فيه فبمضي ذلك الوقت دون الأداء يكون الفعل في غيره قضاء لا أداء، كما في الصوم والصلاة» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٢٢و).

[2] ك ن م: ويأمر.

[3] ع – نفسه يأمر لحاجة.

[4] جميع النسخ: جر.

[5] جميع النسخ: دفع.

[6] عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله ﴿ومن كفر﴾: من زعم أنه ليس بفرض عليه. (*تفسير الطبري*، ١٩/٤). و عنه أيضا: ومن كفر بفرض الحج و لم يره واجبا (*تفسير القرطبي*، ١٥٣/٤).

[7] روي عن الحسن في قوله ﴿ومن كفر﴾: من لم يره واجبا عليه. وروى عنه: من ترك الحج وهو قادر عليه فهو كافر. *تفسير الطبري*، ١٩/٤؛و *تفسير القرطبي*، ١٥٣/٤.

[8] جميع النسخ + بالله.

[9] جميع النسخ: و لم يرج.

[10] م: لم يكر ؛ ع – لم يخش.

[11] م: بدون.

[12] جميع النسخ: يجحب. وهو في *تفسير الطبري*، ١٥/٤؛ و*تفسير السيوطي*، ٢٧٤/٢: من غير جحف. أي من غير أن يضيق عليه ويكلف ما لا يطيق. انظر: *لسان العرب*، «جحف».

ومن كفر بالحج فلم ير حجه برًّا[1] ولا تَرْكَه مَأْثَمًا. *والله أعلم*.* ٨٩ظ س ١١]

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾[٩٨]

وقوله: **قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله**، وآيات الله[3] ما ذكرنا فيما تقدم[4] بمحمد صلى الله عليه وسلم و بالقرآن والحجج. **والله شهيد على ما تعملون**، هو حرف وعيد وتنبيه ينبههم[5] عن صنيعهم[6] ليكونوا على حذر من ذلك.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٩٩]

وقوله: **لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا**، يحتمل قوله: **لم تصدون عن سبيل الله من آمن** من الأتباع الذين كان إيمانهم إيمان تقليد، لا إيمانا[7] بالعقل، لأن من كان إيمانه إيمانًا[8] بالعقل فهو لا يُصَدُّ ولا يُصرف عنه أبدًا، لما عرف حُسْن الإيمان وحقيقته / بالعقل، فهو لا يترك[ه] أبدًا. وأما من كان إيمانه إيمانَ تقليد فلم يكن إيمانه إيمان حقيقة، فمثْله يُصَدّ عنه، إلا أن[9] يَمُنَّ الله عليه فيَشرح صدره، حتى يكون على نور منه. وذلك أحد وجوه اللطف. والمقلد غير معذور، لما معه ما[10] لو استعمله لأوضح له الطريق وأراه قبحَ ما آثر من التقليد.[11] *والله الموفق*. [٩٠و]

ويحتمل قوله: **لم تصدون عن سبيل الله من آمن**، أي لم تقصدون[12] قصد صدهم عن سبيل الله، وهم لا يرجعون إلى دينكم؟ [وهو] إياس منه [تعالى] إياهم عن أن يرجعوا عن دينهم الذي [هم] عليه، كقوله: ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي،[13]

---

[1] م: براء.

* ورد ما بين النجمتين متقدما عن موضعه فنقلناه إلى موضعه. انظر: ورقة ٨٩ظ/سطر٥-١١.

[3] ك: وآياته.

[4] انظر عند تأويل قوله تعالى في هذه السورة، ٣/٢١.

[5] ك ع: ينبهم؛ م: ينبئهم.

[6] م: إلى صنيعهم.

[7] ن: لا إيمان.

[8] ن ع: إيمان.

[9] جميع النسخ + من. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ١٢٢و.

[10] ك – ما، صح هـ.

[11] ع – من.

[12] ن + أي.

[13] ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ (سورة المائدة، ٥/٣).

فيه إياس الكفرة عن رجوع المسلمين إلى دينهم. وقيل: كانوا يصرفون المؤمنين عن الحج.

وقوله: **تبغونها عِوَجًا**، والعوج هو غير[١] طريق الحق، وهو الزيغ والتعوج عن الحق.

وقوله: **وأنتم شهداء** وقوله[٢] ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾[٣] واحد. وفي حرف حفصة رضي الله عنها:[٤] **وأنتم شهداء** على الناس.

وقوله: **وما الله بغافل عما تعملون**، هو حرف وعيد وتنبيه، لأن من علم أن عليه رقيبًا وحافظًا[٥] يكون أحذر وأخوف ممن[٦] لم يكن عليه ذلك.

{قال الشيخ رحمه الله:} وفيه أنه لا [عن] غفلة بالذي يكون منكم خلقكم،[٧] ولكن على علم، لتعلموا أنه لا للحاجة خلقكم بل لإظهار الغنى والسلطان. جلّ جلاله وعمّ نواله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾[١٠٠]

وقوله: **يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب**،الآية[٨] تحتمل[٩] وجوها. أحدها، معلوم أن المؤمنين لا يطيعون الكفار بحال في الكفر، ولكن معناه –والله أعلم– أن يدعوهم إلى شيء لا يعلمون أن في ذلك[١٠] كفرا.[١١] نهاهم أن يطيعوهم في كل ما يدعون،[١٢] لعل ما[١٣] يدعونكم[١٤] إليه كفر وأنتم لا تعلمون.

---

[١] ع – هو غير.
[٢] ن ع – وقوله. «أي علماء بما في كتابكم أن محمدا صلى الله عليه وسلم وأن دينه الإسلام هو الحق» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٢٢ظ).
[٣] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾ (سورة آل عمران، ٣/٧٠).
[٤] ع: عنه.
[٥] جميع النسخ: رقيب وحافظ.
[٦] جميع النسخ: من؛ ك ه: ممن.
[٧] م + حللكم.
[٨] ك م + الآية.
[٩] ن ع م: يحتمل.
[١٠] ن: أن ذلك.
[١١] جميع النسخ: كفر.
[١٢] ن: يدعون؛ ع م: يدعوكم.
[١٣] ك ع م – لعل ما.
[١٤] ع م – يدعونكم؛ ن: يدعوكم.

ويحتمل[١] النهي عن طاعتهم، نهاهم[٢] عن أن يطيعوهم وإن كان يعلم أنهم لا يطيعونهم، كما نهى الرسولَ صلى الله عليه وسلم في غير آي من القرآن، كقوله: وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،[٣] فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ،[٤] فكذلك هذا.

{قال الشيخ رحمه الله:} ويشبه أن تكون الآية في عرض أمور عظام ترغب[٥] فيها النفس[٦] ليكفر بها. فحذر [الله] عن ذلك بما بين من الاعتناء[٧] والخسار في آية أخرى ليعلموا[٨] أن ذلك تجارة مُخسِّرة، وقد كان لهم ولأهل كل دين ومذهب هذا الاعتناء.[٩] *والله أعلم*. وعلى ذلك قوله: وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ،[١٠] على أن الذي أراكم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ألذّ للعقول وأروح للأبدان مما وعدوه، مع سوء المآب. *والله أعلم*.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١٠١]

وقوله: **وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله**، هو[١١] على وجه التعجب [في] ظاهره،[١٢] ولكنه على طلب الحجة في كفرهم. **وفيكم رسوله**، يدفع عنكم الشبهة التي عَرضت لكم بإلقاء الكفار إليكم.

---

[١] ك: وتحتمل.
[٢] ك: كأنهم، صح هـ.
[٣] انظر مثلا: ﴿قل أغيرَ الله أتّخذُ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يُطعِم ولا يُطعَم قل إني أُمرت أن أكون أوّل من أسلم ولا تكوننّ من المشركين﴾ (سورة الأنعام، ٦/١٤).
[٤] انظر مثلا: ﴿الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ (سورة البقرة، ٢/١٤٧).
[٥] ك: يرغب.
[٦] ع م – النفس.
[٧] ن ع م: الاعتناد. والاعتناء: الاهتمام والمشقة.
[٨] ن ع م: لتعلموا.
[٩] ك: الاستثناء، صح هـ؛ ن م: الاعتناد. «يحتمل أن تكون الآية في قوم من أهل الكتاب كانوا عرضوا على قوم من المؤمنين الملك والنعم العظيمة التي ترغب فيها النفوس، وتميل إليها الطباع ليتركوا دينهم طمعا لنيل ما عرضوا عليهم، فحذر الله تعالى عن ذلك بما بين من الخسار في آي كثير ليعلموا أن ذلك تجارة مخسرة. وميل الطبع ورغبة النفس ثابت لكل أهل دين ومذهب، ولكن مَن رُزق العقل القويم وتوفيقَ الهدي يترك ما في طبعه إلى ما في عقله فيؤثر الآخرة على العاجلة. وكل أمر ونهي في الشرع ليترك ما في الطباع إلى ما في العقول. والله أعلم» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٢٢ظ).
[١٠] جزء من الآية التالية.
[١١] جميع النسخ: وهو.
[١٢] ك: ظاهرة.

ومن يعتصم بالله، أي من جعل الله عز وجل ملجأ له ومفزعا إليه عند [اعتراض][1] الشبه والإشكال، **فقد هدي إلى صراط مستقيم**، أي يحفظه عن الشبه ويُرشده إلى صراط مستقيم. *والله أعلم*. ويحتمل **ومن يعتصم بالله**، يتمسك بالذي جاء من القرآن، **فقد هدي إلى صراط مستقيم**.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[١٠٢]

وقوله: **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته**، روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: **حقَّ تقاته** أن يُطاع[2] فلا يُعصَى، ويُشكر فلا يكفَر -أي لا يغفل-[3] ويذكر فلا يُنسى.[4]

وأراد [بقوله:] **حقَّ تقاته**، مما يحتمل وسعَ الخلق. وروي في حرف حفصة **اتقوا الله حق تقاته:**[5] اعبدوا الله حق عبادته. وهذا اعتقاد التوحيد.[6] وروي عن أنس رضي الله عنه يقول: لا يتقى الله أحد حق تقاته حتى يَخزُن من لسانه، ويَعُدَّ كلامه[7] من عمله.[8] وقيل:[9] **اتقوا الله**، أطيعوا الله حق طاعته. وقيل: إن هذا نسخها قوله: فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ،[10] الآية، لكن [هذا لا يصح؛ لأنه] لا يحتمل أن يأمر [الله][11] الخلق بشيء ليس في وسعهم القيام به ثم ينسخ[12] ذلك بما يستطاع.

ولكن أصله ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «إن لله على عباده حقًّا ولعباده عليه حقًّا؛ وحق الله على عبده أن يعبد الله ولا يشرك غيره فيه، وحق العبد على الله

---

[1] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٢٢ظ.

[2] ع: أي يطاع.

[3] ع م – أي لا يغفل.

[4] *تفسير القرطبي*، ١٥٧/٤؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٢٨٢/٢.

[5] جميع النسخ + أي.

[6] ع م – وروي في حرف حفصة اتقوا الله حق تقاته اعبدوا الله حق عبادته وهذا اعتقاد التوحيد. «إذ عامة ما يذكر من العبادات في القرآن يراد بها التوحيد» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٢٢ظ).

[7] ع: من كلامه.

[8] ذكر السيوطي عن أنس رضي الله عنه: لا يتقي الله العبد حق تقاته حتى يخزن من لسانه. وروى ابن كثير: حتى يخزن لسانه (*تفسير ابن كثير*، ٣٨٩/١؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٢/ ٢٨٤، ٦٨٣). حتى يخزن لسانه: أي يحبسه ويحفظه (*لسان العرب*، «خزن»).

[9] ع م – وقيل.

[10] سورة التغابن، ١٦/٦٤.

[11] والزيادتان من *الشرح*، ورقة ١٢٢ظ.

[12] ن ع: تنسخ.

أن يُدخله الجنة إذا عبده و لم يُشرك[1] فيه أحدا».[2] فيكون هذا [الحديث] تأويلا للآية،[3] أي: **اتقوا الله** ولا تكفروه؛ فيكون فيه الأمر بالإيمان والنهي عن الكفر، لأنه ليس في وسع أحد أن يتقي الله حق تقاته في كل العبادة. ألا ترى إلى ما روي من أمر الملائكة مع ما وصفوا من عبادتهم أنهم لا يَفْتُرون،[4] ولا يسأمون،[5] ثم يقولون: «ما عبدناك حق عبادتك».[6] وإذا كان أحد [من البشر] لا يبلغ ذلك فلا يحتمل تكليف مثله. وجملته أن ذلك ليس بذي حد وغاية. فلذلك كان[7] -والله أعلم- الأمر فيه يرجع[8] إلى الإسلام أو في نفي حق الإشراك خاصة، لا في جميع الأحوال والأفعال. دليله ما ختم به الآية، وفي وسع الخلق أن لا يشركوا أحدًا في عبادته، ألا ترى[9] أنه قال: **ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون.**

وفي ظاهر الآية النهي عن الموت إلا مسلمًا، وليس في الموت صنع للخلق. و[لكن] المعنى -والله أعلم- أي كونوا في حال إذا أدرككم الموت كنتم مسلمين. فالنهي فيه نهي عن الكفر وأمر[10] بالإسلام، حتى إذا أدركه الموت أدركه[11] وهو مسلم. *والله أعلم*. وقد يكون على بيان أن لا عذر عند الموت، وإن اشتد أمره بإتيان[12] [ما] ليس بإسلام. وروي عن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه قال: أكثر ما يُسلب الإيمانُ عند الموت، كأن الشيطان يُطمعه[13] في أمر لو أعطاه ما طلب.[14]

---

[1] ك ن ع + غيره.

[2] *صحيح البخاري*، الجهاد ٤٦؛ و*صحيح مسلم*، الإيمان ٤٩.

[3] ك ن ع + أو قوله؛ م: ان قولوا.

[4] يشير إلى قوله تعالى: ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/٢٠).

[5] يشير إلى قوله تعالى: ﴿فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾ (سورة فصلت، ٤١/٣٨).

[6] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا فيه ملك قائم أو ملك ساجد. فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعًا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لم نشرك بك شيئا." (*شعب الإيمان* للبيهقي، ١/١٨٣؛ و*المعجم الأوسط* للطبراني، ٤/٤٤؛ و*مجمع الزوائد* للهيثمي، ١/٥١، ١٠/٣٥٨).

[7] ع م - كان.

[8] جميع النسخ: راجع.

[9] ك: ألا يرى.

[10] جميع النسخ: والأمر.

[11] ع - الموت أدركه.

[12] جميع النسخ: بالذي. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٢٣.

[13] ك ن ع: يطعمه، ك: صح هـ.

[14] قال الشارح: «فإن حالة الموت حالة عظيمة يحضرها الشياطين ويطمعونه إلى ما يحتاج إليه من الشراب لدفع العطش ونحوه، كأنهم يعطونه لو أعطاهم ما طلبوا من الموافقة لهم في الدين» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٢٣و).

ويحتمل قوله: **اتقوا الله حق تقاته**، أي احذروا عذاب الله حق حذره، واحذروا نقمته كقوله: وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ[١] بمعنى نقمته.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[١٠٣]

وقوله: **واعتصموا بحبل الله جميعا**، اختلف فيه. قيل: **حبل الله**، يعني القرآن. وهو قول ابن مسعود رضي الله عنه.[٢] وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: **حبل الله** الجماعة، وإنما هلكت [٩٠ظ] الأمم الخالية بتفرقها.[٣] أمر بالكون مع الجماعة ونهى عن التفرق، لأن أهل / الإسلام هم الجماعة؛ ألا ترى أنه قال[٤] في آية أخرى: وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ،[٥] وصف أهل دين الإسلام بالجماعة، وأهل الأديان[٦] غيره[٧] بالتفرق. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أيضًا، قال: **حبل الله** الجماعة.[٨]

وروي في بعض الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم[٩] قال: «من فارق الجماعة قَيْد شِبْرٍ فقد خَلع رِبْقَة[١٠] الإسلام من[١١] عنقه»،[١٢] يعني حبل الإسلام. وروي عنه أيضا:[١٣] «إن الشيطان ذئب[١٤] كذئب الغنم يأخذ [الشاة] الشاذة والقاصية والناحيةَ. فإياكم[١٥] والشِّعابَ،

---

[١] سورة آل عمران، ٣/٣٠.
[٢] *تفسير الطبري*، ٤/٣٠؛ و*تفسير القرطبي*، ٤/١٥٩.
[٣] *تفسير القرطبي*، ٤/١٦٤؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٢/٢٨٦.
[٤] ع + الله تعالى.
[٥] سورة الأنعام، ٦/١٥٣.
[٦] جميع النسخ: أديان.
[٧] جميع النسخ: غيرها.
[٨] *تفسير القرطبي*، ٤/١٥٩.
[٩] ع + أن.
[١٠] جميع النسخ: رتبة.
[١١] جميع النسخ: عن.
[١٢] *مسند أحمد بن حنبل* ٣/٣٣٢، ٤/١٣، ٢٢، ٥/١٦٠؛ و*سنن أبي داود*، السنة ٢٨؛ و*سنن الترمذي*، الأدب ٧٨.
[١٣] ك ن + قال.
[١٤] جميع النسخ: إن للشيطان ذئبا. والتصحيح مستفاد من مراجع الحديث.
[١٥] ع م: وإياكم.

وعليكم بالجماعة والعامة[1] وهذا المسجد».[2] وروي[3] عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: دعاني النبي صلى الله عليه وسلم ليلةً ثلاث مرات، ثم قال: «يكون في أمتي اختلاف». قلت:[4] كيف نصنع يا رسول الله إذا كان كذلك؟ قال: «عليكم بكتاب الله، فإن فيه نبأ من قبلكم، وخبرَ مَن بعدكم، وهو[5] حُكْم فيما بينكم. مَنْ يَدَعْه من جبّار[6] يَقْصِمه الله، ومن ابتغى[7] الهدى[8] في غيره يضله الله. وهو حبل الله المتينُ وأمره الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو[9] الذي لا يختلف فيه الألسنة، ولا يَخْلَقه كثرة الرّد، ولا تنقضي عجائبه».[10]

وقيل: **حبل الله** دين الله. والحبل: هو العهد؛ كأنه أمر بالتمسك بالعهود التي في القرآن والقيام بوفائها والحفظ لها، ونهي عن التفرق كما تفرق الأمم الخالية واختلفت[11] في الأديان.

وقوله: **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم**، [قيل: **فألف بين قلوبكم**][12] بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: **فألف بين قلوبكم**، بالإسلام، وقيل: بالقرآن.

---

[1] ع – والعامة.

[2] *مسند أحمد بن حنبل*، ٥/٢٣٣، ٢٤٣؛ و*مجمع الزوائد* للهيثمي، ٥/٢١٩.

[3] ع م – روي.

[4] ع – قلت.

[5] ع: وفي.

[6] ن: من جار.

[7] جميع النسخ: ومن ترك.

[8] م: طلب.

[9] ع: فهو.

[10] عن الحارث الأعور قال: مررت المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على عليّ فقلت: يا أمير المؤمنين ألا ترى أن الناس قد خاضوا في الأحاديث. قال: وقد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أَمَا إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ستكون فتن». قلت: وما المخرج منها؟ قال: «كتاب الله، كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلَق عن كثرة الردّ، – أي لا يبلى بسبب كثرة التكرار وإعادة قراءته– ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تَنْته الجن إذ سمعَتْه حتى قالوا: ﴿إنا سمعنا قرآنا عجبا﴾(سورة الجن، ٧٢/١) من قال به صَدَق ومن عمل به أُجِرَ، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هَدَى إلى صراط مستقيم» خذها إليك يا أعور. قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال. *سنن الترمذي*، ثواب القرآن ١٤. وانظر: *سنن الدارمي*، فضائل القرآن ١.

[11] ن ع: بما اختلفت.

[12] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٢٣و.

و لم يكن ذلك للدين نفسه، ولكن بلطف من الله منَّ به على أهل دينه وأخبر أن التأليف بين قلوبهم نعمة؛ لأن التفرق يوجب التباغض، والتباغض يوجب التقاتل، وفي ذلك التفاني.

وعلى قول المعتزلة، ليس من الله على المسلم من النعمة إلا ومثلها يكون على الكافر؛ لأن الهدى والتوفيق عندهم البيان، فذلك البيان للكافر كهو للمسلم. فعلى قولهم[١] لا يكون من الله على أحد نعمة؛ لأنهم لا يجعلون لله في الهداية فعلاً، إنما ذلك من الخلق. وأما عندنا فإنما يكون الإسلام بهدايته إياهم،[٢] فذلك من أعظم النعم عليهم.[٣]

وقوله: **فأصبحتم بنعمته إخوانًا**، أي صرتم بنعمته إخوانًا.

وقوله: **وكنتم على شفا حفرة من النار**، أي كنتم أشفيتم [على] حفرة من النار -وهو القرب[٤] منها- لولا أنه منَّ بالإسلام. ويحتمل أن يكون على الكون فيها والوقوع، لا القرب،[٥] كقوله: لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ،[٦] ليس على الرؤية خاصة ولكن على الوقوع فيها، وكقوله: فَذُوقُوا الْعَذَابَ،[٧] ليس على البعد منها ولكن على الكون فيها. ومثله كثير يترجم عن الوقوع[٨] فيها.

وقوله: **حُفْرةٍ** كأنه قال: كنتم على شفا درك من دركات النار فأنقذكم منها. وهذا أيضًا على المعتزلة، لأن على قولهم[٩] هم الذين[١٠] ينقذون أنفسهم، لا الله،[١١] على ما ذكرنا. ***والله أعلم***.

{قال الشيخ رحمه الله:} يقول: إذا كان الله تعالى عندهم قد جمع بين الكفرة والبررة في بذل الأصلح لهم في الدين وليس منه غير ذلك فلا يجيء أن يَمُنّ عليهم به،[١٢] بتأليفهم[١٣] بنعمته التي[١٤] منه،

---

[١] ن ع: وعلى قولهم.
[٢] جميع النسخ: إياه.
[٣] جميع النسخ: عليه.
[٤] ن ع م: القريب.
[٥] ع: للقرب.
[٦] سورة التكاثر، ١٠٢/٦.
[٧] ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ (سورة آل عمران، ١٠٦/٣؛ وانظر أيضا: سورة الأعراف، ٣٩/٧؛ وسورة الأحقاف، ٣٤/٤٦).
[٨] ع م: على الوقوع.
[٩] م: لأن قولهم.
[١٠] ع: من الذين.
[١١] ن: إلا الله.
[١٢] م - به.
[١٣] جميع النسخ: بتألف.
[١٤] جميع النسخ: والتي.

[إذ هو] موجود مع التفرق، بل أولئك تألفوا بنعمتهم. وبعد فإن النعمة لو كانت دينا فما الذي كان منه حتى يمنَّ، وذلك فعلهم بلا فضل منه فيه.[١] *والله أعلم*.

وفي قوله: **وكنتم على شفا حفرة**، الآية، أن قد يلزم خطاب الإيمان حين الفترة، لأنهم في ذلك الوقت كانوا قد أُنقِذوا.[٢] *والله الموفق*.

وقوله: **كذلك يبين الله لكم آياته**، إذ كنتم أعداء في الجاهلية والكفر[٣] متفرقين، وصرتم إخوانا في الإسلام وكَلِمَتكم[٤] واحدة. **لعلكم تهتدون**، لكي تعرفوا[٥] نعمته ومننه.[٦]

{قال الشيخ رحمه الله:} وقد يكون **كذلك يبين الله لكم آياته**، في حادث الأوقات لتكونوا فيها مهتدين كما اهتديتم، فيكون في ذلك وعد التوفيق والبِشارة بالثبات [على الدين الحق].[٧] *والله أعلم*.

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١٠٤]

وقوله: **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**. قوله:[٨] **ولتكن منكم أمة**، يحتمل أن يكون هذا خبرًا في الحقيقة، وإن كان في الظاهر أمرًا؛ فإن كان خبرًا ففيه دلالة أن جماعة منهم إذا قاموا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سقط ذلك عن الآخرين،

---

[١] «وفي هذه الآية حجة على المعتزلة في الأصلح لهم في الدين، لأن التوفيق والهدي من الله تعالى عندهم البيان، وهو يعم الكافر والمسلم؛ فلا يجيء على أصلهم أن يكون لله تعالى على المسلم نعمة لا يكون على الكافر فلا يتحقق المنة ولا يكون التألّف في حق المسلمين بتأليف الله تعالى إذ هو موجود في حق الكفرة مع قيام التفرق بل هم تألفوا بنعمتهم. وبعد فإن النعمة لو كانت عبارة عن الدين وما كان الدين من الله تعالى حتى يمن عندهم عليهم، بل ذلك فعل منهم حصل بتخليقهم، فلا فعل من الله تعالى في ذلك، والله تعالى أضاف التأليف إلى نعمته لقوله: ﴿فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ فدل أن هذا لازم على المعتزلة» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٢٣و).

[٢] «وفي الآية دلالة أن خطاب الإيمان لازم في زمان الفترة، لأنهم كانوا في زمان الفترة فأنقذهم الله تعالى بإرسال النبي عليه السلام إليهم حتى دعا هم إلى الإيمان فزال عنهم استحقاق العذاب. فتكون الآية حجة على من ينكر وجوب العقل بالإيمان دون السمع» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٢٣و).

[٣] م: والكفرة.

[٤] ك ن ع: كلمتهم.

[٥] ن ع م: لكي يعرفوا.

[٦] ك ع م: ومنته.

[٧] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٢٣ظ.

[٨] ع م: وقوله.

لأنه ذكر فيه حرف التبعيض، وهو قوله: **منكم أمة**، الآية. ويحتمل أن يكون على الأمر في الظاهر والحقيقة جميعًا، ويكون قوله: **منكم** صلةً. فإن كان على هذا ففيه دلالة[1] أن على كل أحد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وذلك واجب، كأنه[2] قال: كونوا أمة ... **يأمرون بالمعروف**، الآية، لأنه ذكر عز وجلّ الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر في آي كثيرة من كتابه،[3] منها هذا: **ولتكن منكم أمة**، الآية، ومنها قوله: كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ،[4] وذَمّ من تركهما بقوله: كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ.[5]

وروي عن عكرمة[6] أن ابن[7] عباس رضي الله عنهما قال له: قد أعياني أن أعلم ما يُفعل[8] بمن أمسك عن الوعظ. فقلت:[9] أنا أعلّمك ذلك، اقرأ الآية الثانية: أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ،[10] فقال لي: أصبت.[11] فاستدل ابن عباس رضي الله عنه بهذه الآية على[12] أن الله أهلك من عمل السوء ومن لم ينه عنه ممن يعلمه. فجعل –والله أعلم– الممسكين عن نهي الظالمين مع الظالمين في العذاب.[13] وقد روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال:

---

[1] جميع النسخ – دلالة؛ صح ك ه.

[2] م: لأنه.

[3] ع: في كتابه.

[4] سورة آل عمران، ٣/١١٠.

[5] سورة المائدة، ٥/٧٩.

[6] هو أبو عبد الله عكرمة بن عبد الله البربري المدني (ت١٠٥هـ/٧٢٣م)، مولى عبد الله بن عباس، تابعي. كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي. طاف البلدان، وروى عنه زهاء ثلاثمائة رجل، منهم أكثر من سبعين تابعيا. وذهب إلى نجد الحروري، فأقام عنده ستة أشهر، ثم كان يحدث برأي نجدة. وخرج إلى بلاد المغرب فأخذ عنه أهلها رأي "الصفرية"، وعاد إلى المدينة، فطلبه أميرها فتغيب عنه حتى مات. وكانت وفاته بالمدينة هو وكُثَيِّر عِزَّة، في يوم واحد، فقيل: مات أعلم الناس وأشعر الناس. *الأعلام* للزركلي، ٤/٢٤٤.

[7] ع: عن ابن.

[8] جميع النسخ: فعل.

[9] ن + يا رسول الله.

[10] ﴿وإذ قالت أمة منهم لم تَعظون قوما الله مُهلكهم أو معذّبهم عذابا شديدا قالوا مَعْذِرَةً إلى ربكم ولعلهم يتقون. فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به أنجينا الذين يَنهون عن السُّوء وأخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بئيسٍ بما كانوا يفسقون﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٦٤-١٦٥).

[11] *أحكام القرآن* للجصاص، ٢/٣١٩.

[12] م – على.

[13] ع: والعذاب.

يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ،[١] وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «[إن الناس] إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا /* على يده أَوْشَكَ أن يَعُمَّهم الله بعقاب».[٣] وعن جرير قال سمعت رسول الله [١٠١و] صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الرجل ليكون[٤] في القوم ويعمل فيهم بمعاصي الرحمن وهم أكثر[٥] منه وأعز، ولو شاءوا أن يأخذوا على يده لأخذوا على يده فيُدهنوا[٦] له فيعذبهم الله به».[٧] وعن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهون[٨] عن المنكر أو لَيَعُمَّكم الله بعقاب من عنده ثم لتدعونه ولا يستجيب لكم».[٩] وعن أبي سعيد الخدري يذكر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى يقول: ما منعك إذ رأيت منكرا أن تُنكره.[١٠] فإن[١١] الله لقّن[١٢] عبدًا حجته،[١٣] فقال: أي رب وَثِقتُ بك، وفَرِقت من الناس».[١٤] وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: اجتمع نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله[١٥]

---

[١] سورة المائدة، ١٠٥/٥.

* وقع هنا اضطراب من المجلدين باختلاط عشر أوراق من سورة النساء إلى سورة آل عمران من نسخة مهرشاه بين ورقة ٩١و-١٠٠و.

[٣] *مسند أحمد بن حنبل*، ٢/١، ٥، ٧؛ وسنن *أبي داود*، الملاحم ١٧؛ وسنن *الترمذي*، التفسير ٥، ١٧؛ وانظر أيضا: *تفسير الطبري*، ٩٨/٧.

[٤] ك - ليكون؛ صح هـ.

[٥] ن: أكبر.

[٦] جميع النسخ: فيرهبوا.

[٧] ن - به. قال الهيثمي: وفيه عبد العزيز بن عبيد الله، وهو ضعيف. *مجمع الزوائد*، ٧/ ٢٦٨؛ وانظر أيضا: *المعجم الكبير* للطبراني، ٢١٥/١٠.

[٨] ن: وتنهون.

[٩] سنن *الترمذي*، الفتن ٩؛ وانظر أيضا: سنن *البيهقي الكبرى*، ١٠/ ٩٣.

[١٠] ن: تكره.

[١١] جميع النسخ: فإذ؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٢٣ظ.

[١٢] جميع النسخ: لقي؛ صح ك هـ.

[١٣] ع: محبة.

[١٤] الحديث أخرجه أحمد عن أبي سعيد الخدري بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أحدكم ليسأل يوم القيامة حتى يكون فيما يسأل عنه أن يقال: ما منعك أن تنكر المنكر إذ رأيته. قال: فمن لقّنه الله حجته قال: رب رجوتك وخفت الناس». (*المسند*، ٢٧/٣).

[١٥] ك - فقالوا يا رسول الله.

أ رأيت إن قلنا بالمعروف حتى لا يبقى من المعروف إلا[1] عملنا به وانتهينا عن المنكر حتى لا يبقى، أَيَسَعُنا أن لا نأمر[2] بالمعروف ولا ننهى عن المنكر؟ فقال: «مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله، وانهوا عن المنكر وإن لم تنتهُوا[3] عنه».[4] ولا ينبغي[5] للرجل أن يقول: لست ممن يعمل[6] بالمعروف كله وينتهى[7] عن المنكر كله، حتى آمر[8] غيري وأنهاه، فإنّ فعلَه المعروفَ واجبٌ عليه، فلا يجب إذا قصّر في واجب أن يُقصِّر في غيره.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١٠٥]

*وقوله: **ولا تكونوا كالذين تفرقوا**، لأن التفرق هو سبيل الشيطان، بقوله: وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ.[10]

*ويحتمل: **تفرقوا** عما نهج لهم الله وأوضح لهم الرسل، فأبدعوا لأنفسهم الأديان بالأهواء؛ فحذّرنا ذلك وعرّفنا أن الخير كله في الاتباع: اتباع[11] من جعله الله حجة له ودليلا عليه وداعيا إليه. ***ولا قوة إلا بالله***.*

من بعد ما جاءهم البينات، و**البينات** هي الحجج التي أتي بها. ويحتمل بيان ما في كتابهم من صفة رسولنا[13] محمد صلى الله عليه وسلم ونعته الشريف.[14]

---

[1] ع م: إلا ما.
[2] ع م: أن لا يأمر.
[3] ك: وإن لم تنهوا.
[4] رواه الطبراني في *الصغير والأوسط* من طريق عبد السلام بن عبد القدوس بن حبيب عن أبيه، وهما ضعيفان. *مجمع الزوائد* للبيهقي، ٧/ ٢٧٧.
[5] م: ولا يبقى.
[6] ك: يأمر.
[7] ك: وينهى.
[8] ن ع م: فأمر.
* وقع هنا في جميع النسخ مقطع من تفسير الآية ١١٥ متقدما على موضعه، فنقلناه إلى هنالك. انظر: ورقة ١٠١و/سطر ١١-١٨.
[10] ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ (سورة الأنعام، ٦/١٥٣).
[11] م – اتباع.
* وقع هذا القسم في جميع النسخ بعد قوله: ﴿من بعد ما جاءهم البينات﴾ وتأويله.
[13] ك ن – رسولنا.
[14] ك ن – الشريف.

وأولئك لهم عذاب عظيم. دل هذا أن السبل هي التي يدعو[١] الشيطان إليها.[٢]

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[١٠٦] ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١٠٧]

وقوله: **يوم تبيض وجوه وتسود وجوه**، الآية. وصف الله عز وجل وجوه أهل الجنة بالبياض؛ لأن البياض هو غاية ما يكون به الصفاء، لأن كل الألوان يظهر[٣] في البياض. ووصف عز وجل وجوه أهل النار بالسواد؛ لأن السواد[٤] هو نهاية ما تكون به الظلمة، إذ الألوان لا تظهر في السواد،[٥] فهو شبيه[٦] بالظلمة. وقد يحتمل أن يكون المراد من وصف البياض والسواد ليس نفس البياض والسواد، ولكن البياض هو كناية عن شدة السرور والفرح، والسواد كناية عن شدة الحزن والأسف، كقوله: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ؛[٧] وصف وجوه أهل الجنة بالضحك وليس على حقيقة الضحك، ولكن وصف بغاية السرور والفرح، وكذلك وجوه أهل النار وصفها بالغَبَر والقَتَر وهو وصف بشدة الحزن. *والله أعلم*.

وقوله: **أكفرتم بعد إيمانكم**، يحتمل وجوها. يحتمل: **أكفرتم** بألسنتكم بعد ما شهدت خلقتكم بوحدانية الله تعالى، لأن خلقة كل أحد تشهد على وحدانيته. ويحتمل أي **أكفرتم**[٨] بعد ما آمنتم بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يُبعَث بوجودكم نعتَه وصفته في كتابكم. وعلى هذا قال بعض أهل التأويل [في قوله تعالى]: وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ،[٩] أي على استجابة كثير منهم من الأجلّة والكبراء[١٠] الذين لا يعرفون بالتعنت[١١] في الدين ولا بالتقليد. *والله أعلم*.

---

[١] جميع النسخ: يدعوا.
[٢] أي السبيل [السبل] التي في آية سورة الأنعام (١٥٣/٦) والتي استدل بها المؤلف في تفسير الآية هذه.
[٣] ك ن: تظهر.
[٤] ع - لأن السواد.
[٥] ع م - هو نهاية ما تكون به الظلمة إذ الألوان لا تظهر في السواد.
[٦] م: تشبيه.
[٧] ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة﴾ (سورة عبس، ٣٨/٨٠-٤٠).
[٨] ع م - بألسنتكم بعد ما شهدت خلقتكم بوحدانية الله تعالى لأن خلقة كل أحد تشهد على وحدانيته ويحتمل أي أكفرتم.
[٩] ﴿والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد﴾ (سورة الشورى، ١٦/٤٢).
[١٠] ع: والكبر.
[١١] م: بالنعت.

ويحتمل قوله: **أكفرتم** أنتم بعد ما[1] آمن منكم فرق؛ لأن منهم من قد آمن ومنهم من كفر، فقال لمن كفر: **أكفرتم** أنتم وقد آمن منكم نفر، ألا ترى[2] أنه قال: وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ.[3] *والله أعلم*. وكقوله: فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ.[4] وقيل: أراد بالإيمان الذين[5] قالوا [بالإيمان وأقرّوا] حين أُخرجوا من ظهر آدم.[6]

وفي الآية[7] رد قول المعتزلة بتخليد أهل الكبائر في النار وإخراجهم إياهم من الإيمان من غير أن أدخلوهم في الكفر، لأنه عز وجل لم يجعل [الخلق] إلا فريقين: بِيض[8] الوجوه وسُود[9] الوجوه. فبيض[10] الوجوه هم المؤمنون، وسود[11] الوجوه هم الكافرون، لأنه قال: **أكفرتم [بعد إيمانكم]**، وأصحاب[12] الكبائر لم يكفروا بارتكابهم الكبيرة. ولم يجعل الله تعالى فرقة ثالثة، وهم جعلوا فرقة ثالثة.[13] وكذلك قال عز وجل: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ،[14] لم يجعل الخلق إلا فريقين، وهم جعلوا فِرَقا، وكقوله: فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ.[15]

فإن قيل: ذكر في الآية الكفر بعد الإيمان،[16] ثم لم يكن[17] فيه منع دخول من لم يكفر / بعد الإيمان، فامتنع أن لا يكون فيه منع دخول صاحب الكبيرة. [١٠١ظ]

---

[1] ن – ما.
[2] ك: ألا يرى.
[3] ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ (سورة الأعراف، ١٥٩/٧).
[4] سورة الصف، ١٤/٦١.
[5] جميع النسخ: الذي.
[6] م – وقيل أراد بالإيمان الذين قالوا حين أخرجوا من ظهر آدم.
[7] م: ففي الآية.
[8] جميع النسخ: بياض.
[9] جميع النسخ: وسواد.
[10] جميع النسخ: فبياض.
[11] جميع النسخ: سواد. وجميع التصحيح من *الشرح*، ورقة ١٢٣ظ.
[12] ك ن م: فأصحاب؛ ع: في أصحاب.
[13] ن ع م – وهم جعلوا فرقة ثالثة.
[14] سورة الشورى، ٧/٤٢.
[15] ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير﴾ (سورة التغابن، ٢/٦٤).
[16] يشير القائل إلى قوله تعالى: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾.
[17] ن: لم يذكر.

فجوابنا ما سبق أن خلقة كل كافر تشهد[1] على وحدانية الله تعالى. لكنهم كفروا بألسنتهم، وذلك كفر بعد الإيمان، فلم يجز أن يدخل في الآية من لم يكن كافرا في حكم الكافر.[2] *وبالله التوفيق*.

وقوله: **فذوقوا العذاب.** [هذا] في الظاهر أمر، لكنه في الحقيقة ليس بأمر؛ لأن العذاب لا يذاق، وإنما يذوق هو، فكأنه قال: اعلموا أن عليكم العذاب.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾[١٠٨]

وقوله: **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق،** الآية،[3] يحتمل **آيات الله** حجج الله وبراهينه، ويحتمل **آيات الله** القرآن. **بالحق**؛ ببيان[4] الحق. ويحتمل **بالحق**: بالدين. والدين هو الحق. ويحتمل أن الآيات هي الحق.[5] {قال الشيخ رحمه الله:} أي بالأمر بالدعاء إلى الحق. ويحتمل **بالحق** الذي لله على عباده، ولبعضهم على بعض.

وقوله: **وما الله يريد ظلما للعالمين،** والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه. فإذا كان ما في السماوات وما في الأرض كله له -ومن وصف في الخلق بالظلم إنما وصف لأنه يضع حق بعض في بعض ويمنع حق بعض فيجعله[6] لغير المحق- فالله يتعالى عن ذلك. وقوله: **وما الله يريد ظلما للعالمين،** أي لا يريد أن يظلمهم. وإن شئت قلت: الإرادة صفة لكل فاعل في الحقيقة، فكأنه قال: لا يظلمهم، وكيف[7] يظلم وإنما يُظلَم بنفع تَشْرَه إليه النفس، أو ضرر يدفع به [عنها]، فالغني بذاته متعال عن ذلك.[8]

---

[1] ن: شهد.

[2] «قيل: جوابنا ما سبق أن كل كافر مؤمن بخلقته على وحدانية الله تعالى مصدق شهادة خلقته وهو ثبوت الصانع وتوحيده. لكنهم كفروا بعد وجود هذا التصديق والإيمان منهم اضطرارا من حيث الخلقة باختيارهم فامتنعوا عن الإيمان والتصديق الاختياري وذلك هو الكافر بعد الإيمان. فكان الداخل تحت الآية الكافر والمؤمن فلم يجز أن يدخل من لم يكن كافرا في حكم الكافر» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٢٤و).

[3] ن - الآية.

[4] ن: بيان.

[5] ع م - ويحتمل أن الآيات هي الحق.

[6] جميع النسخ: فيجعل.

[7] ع م: فكيف.

[8] «لا يحتمل أن يَظلم، لأن كل ما في السماوات والأرض ملكه ملكَ تخليق، فلا يتحقق أن يوصف فعله بالظلم؛ ولأن الظلم في الشاهد إنما يكون لجلب نفع تشره إليه النفس أو لدفع ضرر عنها، فالغني بذاته متعال عن ذلك» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٢٤و).

﴿وَلِلّٰهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[١٠٩]
وقوله: **وإلى الله ترجع الأمور**، أي إليه يرجع أمر كل أحد فلا يحتمل[1] وجود[2] الظلم منه.[3]

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[١١٠]

[١٠١و س١١ *وقوله: **كنتم خير أمة أخرجت للناس**، يحتمل وجوها. يحتمل **كنتم**، أي صرتم **خير أمة** أظهرت للناس بما تدعو الخلق إلى النجاة والخير. ويحتمل **كنتم خير أمة**، في الكتب السالفة، بأنكم **تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر**. ويحتمل تكونون خير أمة إن أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر. ويحتمل **كنتم**، صرتم **خير أمة**، وكانوا كذلك، هم خير ممن تقدمهم من الأمم بما بذلوا مُهَجهم[4] لله في نصر دينه وإظهار كلمته والإشفاق على رسوله، حتى كان أحب إليهم من أنفسهم، ويرونه أولى بها.[5] ***والله الموفق***.

ثم اختلف في المعروف والمنكر. قيل:[6] كل مستحسن في العقل فهو معروف، وكل مستقبح فيه فهو منكر. ويحتمل الأمر بالمعروف هو الأمر بالإيمان، والنهي عن المنكر هو النهي عن الكفر. دليله قوله: **وتؤمنون بالله**، الآية، يؤمنون هم، ويأمرون غيرهم بالإيمان، ١٠١و س١٨] وينهون عن المنكر.[7]*

وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: **كنتم خير أمة أخرجت للناس**، قال: خير الناس أنفعهم للناس.[9] **وتأمرون بالمعروف**، أي تأمرونهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله والإقرار بما أنزل الله وتقاتلون عليه؛ ولا إله إلا الله هو أعظم المعروف. والمنكر هو التكذيب فهو[10] أنكر المنكر.[11]

---

[1] ن ع م + الظلم.
[2] ك – وجود.
[3] ك – منه؛ ك هـ: وجود الظلم منه.
[4] م: منجهم.
[5] ع م – بها.
[6] جميع النسخ + المعروف.
[7] ك ع: الكفر.
* وقع ما بين النجمتين متقدما على موضعه فنقلناه إلى هنا. انظر: ورقة ١٠١و/سطر١١-١٨.
[9] *تفسير ابن كثير*، ٣٩١/١.
[10] ع: هو.
[11] *تفسير الطبري*، ٤٥/٤.

وعن علي رضي الله عنه[١] قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أُعْطِيتُ ما لم يُعْطَ أحد من الأنبياء». قلنا يا رسول الله وما هو؟ قال: «نُصرتُ بالرُّعب وأُعْطيتُ مفاتيحَ الأرض، وسُميتُ أحمدَ، وجعلتِ التراب لي طَهورا، وجعلت أمتي خير الأمم».[٢]

{قال الشيخ رحمه الله:} **كنتم خير أمة أخرجت**، له وجهان. أي كنتم على ألسن الرسل في الكتب المتقدمة خير أمة. ويحتمل **كنتم**، أي صرتم[٣] بإيمانكم برسول[٤] الله صلى الله عليه وسلم واتباعكم ما معه خيرَ أمة على وجه الأرض، لأنهم آمنوا ببعض وكفروا ببعض.

وقوله: **تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر**، يتوجه إلى وجوه ثلاثة. المعروف هو المعروف في العقول أي الذي يستحسنه العقول، والمنكر هو الذي قبحته العقول وأنكرته. ويحتمل أن يكون **المعروف** هو الذي عُرِف بالآيات والبراهين أنه حسن، والمنكر ما عرف بالحجج أنه قبيح. ويحتمل أن **المعروف** هو الذي جرى على ألسن الرسل أنه حسن، والمنكر هو الذي أنكروه فنَهَوا[٥] عنه. فعلى هذه الوجوه يخرج تأويل الآية. ***والله أعلم***.

وقوله: **ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم**، لا شك أن الإيمان خير لهم من الكفر. ولكن معناه –والله أعلم– أنهم إنما أبَوا الإيمان وتمسكوا بالكفر لوجهين. أحدهما أنهم كانوا أهل عز وشرف فيما بينهم، وأهلَ دراسة[٦] الكتب، ينتاب الناس إليهم،[٧] ويختلفون إليهم بحوائجهم، فخافوا ذهاب ذلك عنهم إذا آمنوا. فأخبرهم الله عز وجل: أنهم إن آمنوا لكان لهم من الذكر والشرف والعز في أهل الإيمان أكثر مما لهم في أهل الكفر. ألا ترى أن من آمن منهم مِن دَرَسة[٨] الكتب[٩] وعلمائهم كان لهم من الذكر والشرف في الإيمان[١٠] ما لم يكن لأحد منهم مات[١١] على الكفر،

---

[١] ع + أنه.
[٢] *مسند أحمد بن حنبل*، ١/ ٩٨، ١٥٨، ٢٢٣، ٢٢٨؛ وصحيح *البخاري*، التيمم ١؛ وصحيح *مسلم*، المساجد ٣.
[٣] جميع النسخ: أي كنتم صرتم.
[٤] م: رسول.
[٥] ن ع: ونهوا.
[٦] ن ع م: دراية.
[٧] ع م: إليهم الناس.
[٨] ع م: درية.
[٩] ك ع م: الكتاب.
[١٠] ن – أكثر مما لهم في أهل الكفر ألا ترى أن من آمن منهم من درسة الكتب وعلمائهم كان لهم من الذكر والشرف في الإيمان.
[١١] جميع النسخ: مات منهم.

نحو عبد الله بن سلام و[1]كعب وغيرهما[2] من الأحبار. وإنما كانوا من علمائهم و لم يكونوا[3] من علماء أهل الإيمان، ونالوا بالإيمان[4] من الذكر والعز والشرف ما لم ينل أحد منهم مات على الكفر، بل خَمَلَ ذكرهم وانْبَتَر[5] في أهلهم فضلا في أهل الإيمان والإسلام. *والله أعلم*.

والثاني أنهم كانوا أَبَوا الإسلام واتباع محمد صلى الله عليه وسلم، واختاروا الْمُقام على الكفر، خوفا وإشفاقا على ما لهم من المنافع والمنال أن يذهب ذلك عنهم بالإسلام. فأخبر عز وجل أنهم لو آمنوا لكان خيرا لهم في الآخرة؛ إذ ذلك ينقطع ويذهب عن قريب، والذي لأهل الإيمان في الآخرة باق دائم لا يزول أبدًا.

لَمّا كان الذي يُنال[6] بالإيمان غيبا[7] -وكذلك ما يَحِلّ بالكفار من جزاء الكفر غيب- اشتد عليهم الفكر والتدبر، لما يمنعهم[8] عن الشهوات ويَنقص عليهم اللذاتِ، فآثروا ما هوته أنفسهم وتلذذوا به على التدبر. مع ما كان إدراك الغائب بالشاهد أمرا عسيرا[9] لا يوصل إليه إلا بفضل الله، ولم يكن عليه ذلك إذ يسقط[10] معنى الإفضال والإنعام،[11] ويصير حقا. مع ما كان منهم تقديم[12] الصفاء[13] وإيثار زهرة الدنيا وبهجة الغني على الموعود. *والله أعلم*.

وقوله: **منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون**. كذلك[14] كانوا، كان المؤمنون أقل والكفار أكثر. *والله أعلم*.

---

[1] جميع النسخ + من أسلم منهم نحو.
[2] جميع النسخ: غيره.
[3] جميع النسخ: لم يكونوا.
[4] ك ن م: فنالوا بالإيمان؛ ع – ونالوا بالإيمان.
[5] ع م: وانتشر. الأبتر والمنبتر: الذي لا ولد له والذي انقطع من الخير أثره (*لسان العرب*، «بتر»).
[6] ن ع م: تنال.
[7] جميع النسخ: غيب.
[8] ع م: فلا يمنعهم.
[9] جميع النسخ: أمر عسير.
[10] جميع النسخ: لا يسقط.
[11] جميع النسخ: والأنام. وقول الشارح رحمه الله هكذا: «ولم يكن عليه ذلك، لأن إعطاء الفضل ليس بواجب ولا حتم، إذ يسقط بالوجوب معنى الإفضال والإنعام» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٢٤ظ).
[12] ن ع م: بقديم.
[13] جميع النسخ: الجفاء. والصفاء: نقيض الكدر.
[14] ع: وكذلك.

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾[١١١]

وقوله: **لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار**، الآية، فيه بشارة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وللمؤمنين بالأمن[١] لهم عن أذى المشركين وضررهم إلا أذى باللسان. وهو كقوله: لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ،[٢] وقوله: لَئِنْ أُخرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا / لَا يَنْصُرُونَهُمْ،[٣] الآية، ونحوه من الآيات التي فيها بشارة لأهل الإيمان بالنصر لهم على عدوّهم. [١٠٢و]

وفي قوله: **لن يضروكم إلا أذى**، الآية، دلالة إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه أخبر بذلك قبل أن يكون فكان على ما أخبر، فدلّ أنه إنما علم ذلك بالله عز وجل.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[١١٢]

وقوله: **ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله.** وفي[٤] حرف ابن مسعود رضي الله عنه: ضربت عليهم المسكنة، وليس فيه [ذكر] الذلة. وفي حرف حفصة: ضربت عليهم المسكنة والذلة. ثم اختلف في الذلة. قيل: هي الجزية التي ضربت عليهم، وهي ذلة، كقوله: عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ،[٥] لأنهم كانوا يأنفون عنها.

وقوله: **أينما ثقفوا**، أي وُجدوا، **إلا بحبل من الله وحبل من الناس**، يعني بعهد من الله وعهد من الناس يكونون[٦] تحت قوم يؤدون الجزية. وكذلك تأويل[٧] ابن عباس رضي الله عنه:

---

[١] جميع النسخ: والأمن.

[٢] ن – عن أذى المشركين وضررهم إلا أذى باللسان وهو كقوله لتسمعن من الذين أوتوا الكتاب. ﴿لَتُبْلَوُنَّ في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ (سورة آل عمران، ١٨٦/٣).

[٣] ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم لَيُوَلُّنَّ الأدبار ثم لا ينصرون لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾ (سورة الحشر، ١١/٥٩–١٣).

[٤] ك: وفي ل؛ ع: وهو.

[٥] ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يَدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾ (سورة التوبة، ٢٩/٩).

[٦] جميع النسخ: يكون.

[٧] جميع النسخ: تأول؛ والتصحيحان من الشرح، ورقة ١٢٤ظ.

بحبل من الله وحبل من الناس، أي بعهد من الله وعهد من الناس.[1] وقال[2] مقاتل رضي الله تعالى عنه: **والناس** في هذا الموضع[3] النبيُّ صلى الله عليه وسلم خاصة.[4]

ويحتمل قوله: **ضربت عليهم الذلة** بكفرهم فيما بين المسلمين بعد ما كانوا أهل ذكر وشرف وعز فيما بينهم. **أينما ثقفوا**، أي لا يوجدون **إلا بحبل من الله وحبل من الناس**، بالإسلام، أي لا يظفرون بهم ولا يوجدون إلا أن يُسلموا لخوفهم على أنفسهم.

وقوله: **وباءوا بغضب من الله**، قيل: استوجبوا غضبا من الله بكفرهم، وقيل: رجعوا، وقيل: وجب عليهم الغضب. وقد ذكرنا هذا في غير موضع.[5] *والله أعلم*.

وقوله: **وضربت عليهم المسكنة**، وهي الحاجة والفقر، وهو ما ذكرنا أنهم ظاهروا المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قربهم من رسول الله[6] صلى الله عليه وسلم وبعدهم من المشركين، فأذلهم الله تعالى بذلك وجعلهم أهل حاجة وضَعَةٍ فيما بين المسلمين، بعد ما كانوا أهل عز وشرف فيما بينهم، وهو كقوله: وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ،[7] الآية.

{قال الشيخ رحمه الله:} وقد يحتمل رجوع الآية إلى خاص منهم[8] وهم الذين ذكر[هم] الله في قوله: وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ،[9] الآية، وغير ذلك مما نُصر[10] فيه المسلمون. يعرف[11] حقيقة المراد من شهد النوازل وعرف الأسباب التي لها[12] جاءت البِشارات.

---

[1] ع – يكونون تحت قوم يؤدون الجزية وكذلك تأويل ابن عباس رضي الله عنه بحبل من الله وحبل من الناس أي بعهد من الله وعهد من الناس. انظر: *تفسير الطبري*، ٤/٤٨؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٢/٢٩٦؛ و*فتح القدير* للشوكاني، ١/٣٧٨.

[2] ع + ابن.

[3] م: الموضوع.

[4] ذكره القرطبي و لم ينسبه أحدا. *تفسير القرطبي*، ٤/١٧٤.

[5] انظر عند تأويل قوله تعالى في سورة البقرة، ٢/٦١.

[6] جميع النسخ: برسول الله.

[7] ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٢٦).

[8] م – منهم.

[9] سبقت قريبا.

[10] جميع النسخ: يصير. والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١٢٤ظ.

[11] ن ع م: تعرف.

[12] ع م – لها.

ويحتمل أن الله تعالى جعل كل حاجتهم إلى ما يفني، وهي[١] الدنيا التي لا بقاء لها ولا منفعة في الحقيقة، فهي حاجة، ثم بما فيهم بالجهل أن ذلك فيهم حاجة.[٢] ويحتمل أن الله تعالى مع ما وسّع عليهم[٣] الدنيا جعل في قلوبهم خوف الفقر وأعظم الحاجات، فهي المسكنة.

وقوله: **ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله**، وآيات الله ما ذكرنا في غير موضع.[٤]

وقوله: **ويقتلون الأنبياء بغير حق**، يحتمل وجوها. يحتمل أن أوائلهم قد قتلوا الأنبياء بغير حق وهؤلاء رضوا بذلك، وإن كانوا لم يتولوا هم [القتل] بأنفسهم، فأضاف الله تعالى ذلك إليهم؛ لأنهم شَرِكوهم[٥] في صنيعهم برضاهم، وهو كقوله: مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ [أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ] فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا.[٦] ويحتمل أن يكونوا قَصدوا[٧] قتل محمد صلى الله عليه وسلم، فإذا قصدوا ذلك فكأنهم قصدوا الأنبياء كلهم، كما ذكرنا في قوله: مَنْ قَتَلَ نَفْسًا، الآية. ويحتمل أن يكونوا هموا [بـ]قتل محمد صلى الله عليه وسلم. ويحتمل أن يكون عيّرهم بآبائهم إذ هم قلدوهم في الدين، فبين سوء صنيعهم بالأنبياء عليهم السلام ليعرفوا به سفههم وسفه كل من قصد تقليدهم.[٨] *والله أعلم*. ويحتمل أن يكونوا قتلوا[٩] أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، فأضاف[ه] إليهم؛[١٠] وهو كما أضاف[١١] مخادعتهم المؤمنين إلى نفسه،[١٢] وكما أضاف نصر أوليائه إليه،[١٣] وإن كان الله لا يخادع ولا ينصر. فعلى ذلك إضافة القتل إليهم[١٤] لقتلهم الأتباع. *والله أعلم*.[١٥]

---

[١] جميع النسخ: وهو.

[٢] «إذ الدنيا إنما تكون وسيلة إلى الآخرة، فكل ما يتوسل به إلى الآخرة فهو والعدم سواء» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٢٤ظ).

[٣] ن: عليها.

[٤] انظر عند تأويل قوله تعالى في سورة البقرة، ٢/٤١، ٦١.

[٥] ك ع م – هم.

[٦] سورة المائدة، ٥/٣٢.

[٧] ع م – قصدوا.

[٨] ك: قلدهم.

[٩] ع: قتل.

[١٠] جميع النسخ: إليه. إليهم: أي إلى الأنبياء لأنهم أهل الدين الحق مثلهم.

[١١] ع م + وهو كما أضاف إليه.

[١٢] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾ (سورة النساء، ٤/١٤٢).

[١٣] ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ (سورة محمد، ٤٧/٧).

[١٤] جمع النسخ: إليه. أي إلى أهل الكتاب الذين عاشوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

[١٥] ك – أعلم، صح هـ.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[١١٣]

وقوله: **ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله**، الآية، أي لا مساواة[١] بين من آمن منهم، يعني من أهل الكتاب، ومن لم يؤمن منهم، لأن منهم من قد آمن فصاروا أمة قائمة. قيل: [**أمةٌ قائمة**]، عَدْلة، كقوله: وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ.[٢] وقيل: **أمةٌ قائمةٌ**، على حدود الله وفرائضه وطاعته وكتابه لم يحرفوه. وقيل: **أمة قائمة**، مهتدية، وهم الذين آمنوا منهم. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: **أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل**، قال:[٣] أمة محمد صلى الله عليه وسلم يصلّون، ولم يكن هذا للأمم السالفة.[٤]

وفي حرف حفصة: ليس أهل الكتاب سواءٌ[٥] منهم أمة قائمة.[٦] كقوله تعالى: أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ، كذا. وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ،[٧] الآية.

وقوله: **وهم يسجدون**، يحتمل قوله: **وهم يسجدون**، أي يصلون، ويحتمل: **يسجدون**، يخضعون، والسجود هو الخضوع.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[١١٤]

[وقوله:] **يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف**، أي يؤمنون بأنفسهم ويأمرون غيرهم بالإيمان ويدعون إليه، **وينهون عن المنكر** يعني الكفر. ويحتمل **يأمرون بالمعروف** كل معروف، **وينهون عن المنكر** كل منكر. وقد ذكرنا هذا.[٨]

---

[١] جميع النسخ: سواء. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٢٤ظ.

[٢] سورة الأعراف، ١٥٩/٧.

[٣] ع م – قال.

[٤] عن ابن مسعود في قوله ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ قال: لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد. ﴿يتلون آيات الله آناء الليل﴾. قال: صلاة العتمة هم يصلونها ومن سواهم من أهل الكتاب لا يصلونها (*الدر المنثور* للسيوطي، ٢٩٧/٢).

[٥] ن ع م: ليسوا.

[٦] يبدو أن الرواية من مصحف حفصة قد انتهى هنا. وباقي العبارة تأويل من المؤلف.

[٧] سورة السجدة، ١٨/٣٢–٢٠.

[٨] انظر عند تأويل قوله تعالى في سورة آل عمران، ١١٠/٣.

ويسارعون في الخيرات، في الخيرات[١] كلها. **وأولئك من الصالحين**، قيل:[٢] مع الصالحين في الجنة. {قال الشيخ رحمه الله:} أي ومَنْ ذلك فعلُه فهو صالح.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾[١١٥]

وقوله: **وما يفعلوا من خير فلن يكفروه**، أي لن يُرَدَّ ذلك عليهم،[٣] بل يقبل، بل يُجْزَون[٤] به في الآخرة. {قال الشيخ رحمه الله:} أي كيف يَكفره[٥] وهو الشكور الذي يقبل اليسير ويعطي الجزيل؟ وهو في حرف حفصة: فلن يُتْرَكُوه.[٦] / أي لن يتركوه[٧] دون أن يُجزَوا[٨] عليه وإن قلّ [١٠٢ظ]
ذلك، كقوله: وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا،[٩] معناه –والله أعلم– ما ذكر، [وقوله:] وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ،[١٠] قيل:[١١] لن يظلمكم، وقيل: لن ينقصكم. وقيل [**فلن يكفروه**]: فلن يُضَلَّ عنهم،[١٢] بل يُشكَر[١٣] ذلك لهم، يعني فلن يُضَيَّع ذلك[١٤] عند الله. ***والله أعلم***.

والله عليم بالمتقين، ظاهر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١١٦]

وقوله: **إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا**. {قال الشيخ رحمه الله:} فهو –والله أعلم– أن بمثله يكون التناصر في الدنيا، لكن الذي كان فيها لا ينفع في الآخرة،

---

[١] ن ع م – في الخيرات.
[٢] جميع النسخ: وقيل.
[٣] جميع النسخ: عليكم.
[٤] جميع النسخ: بل تجزون.
[٥] ن ع: تكفره.
[٦] ن ع: فلن تكفروه؛ ك م: فلن تتركوه.
[٧] ك ن ع: لن تتركوه.
[٨] ك ن ع: أن يجزوا.
[٩] ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما﴾ (سورة النساء، ٤/٤٠).
[١٠] ﴿فلا تَهِنُوا وتَدْعُوا إلى السَّلْم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم﴾ (سورة محمد، ٤٧/٣٥).
[١١] جميع النسخ: وقيل.
[١٢] جميع النسخ: عنكم.
[١٣] ن ع: تشكر.
[١٤] ن ع م – ذلك.

بل يكون[1] كما قال الله عز وجل: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ،[2] الآية؛ ثم لا مال له ثَمّ ولا لو[3] كان ينفع.[4] وذلك أنهم ظنوا أن كثرة الأموال والأولاد تمنعهم من عذاب الله، كما أخبر عنهم في قوله:[5] نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ.[6] فأخبر الله عزّ وجلّ أن كثرة الأموال والأولاد لا تغني عنهم من عذاب الله شيئًا.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١١٧]

وقوله عز وجل: **مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم.** ضرب مثل نفقة الكفار التي أنفقوها بريح فيها صرّ أصابت حرث قوم، وذلك -والله أعلم- أنهم كانوا ينفقون ويعملون جميع الأعمال من عبادة الأصنام والأوثان ويقولون: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى.[7] ظنوا أن تلك الأعمال والنفقات التي أنفقوها في صد[8] الناس [عن سبيل الله][9] تنفعهم في الآخرة وتقربهم إلى الله؛ فأخبر أنها لا تنفع، فكانت[10] كالريح التي فيها صر وبرد، ظنوا أن فيها رحمة وشيئا ينفع زروعهم وينمو بها، فإذا فيها نار أحرقت حرثهم، كما طمعوا من أعمالهم ونفقاتهم التي في الدنيا بالآخرة قربة وزلفةً إليه، فإذا هي مَهْلَكة لأبدانهم كالريح التي فيها صر، كانت مهلكة محرقة لزروعهم وحرثهم. ***والله أعلم.***

والصِرّ هو البرد الشديد. وقيل: **الصِرّ** الصوت، كقوله: فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا،[11] قيل: هي الصوت.[12]

---

[1] ع: يكونوا.
[2] ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ (سورة عبس، ٨٠/٣٤-٣٧).
[3] ن: ولو لا.
[4] ن ع م: فينفع.
[5] جميع النسخ: كقولهم؛ والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١٢٥و.
[6] سورة سبأ، ٣٤/٣٥.
[7] سورة الزمر، ٣٩/٣.
[8] م - صد.
[9] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٢٥و.
[10] جميع النسخ: فكان.
[11] سورة الذاريات، ٥١/٢٩.
[12] قال الأنباري في قوله تعالى ﴿كمثل ريح فيها صِرٌّ﴾: فيها ثلاثة أقوال. أحدها ﴿فيها صِرٌّ﴾ أي برد. والثاني فيها تصويت وحركة. وروي عن ابن عباس قول آخر: ﴿فيها﴾، قال فيها نار (*لسان العرب*، «صرر»).

وقيل: **مثل ما ينفقون** في الصد عن سبيل الله، وفي قتال[١] رسول الله صلى الله عليه وسلم، كقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا،[٢] الآية، أي يتأسفون على ما أنفقوا تأسف صاحب الزرع على ما كان أنفق فيه. *والله أعلم*.

وقوله: **وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون**، والظلم [على] -ما ذكرنا-[٣] هو وضع الشيء في غير موضعه. فهو -والله أعلم- قال: هم الذين وضعوا أنفسهم في غير موضعها، لا أن وضع الله أنفسهم ذلك الموضع؛[٤] لأنهم عبدوا غير الله و لم يجعلوا أنفسهم خالصين سالمين لله؛ فهم الذين ظلموا أنفسهم حيث أسلموها لغير الله وعبدوا دونه. فذلك[٥] وضعها في غير موضعها، لأن وضعها موضعها هو أن يجعلوها خالصة لله سالمة له. وقيل: ما ضرّوا الله بعبادتهم غيرَه وبكفرهم به، إنما ضرّوا أنفسهم، إذ لا حاجة له إلى عبادتهم. *والله الموفق*. {قال الشيخ رحمه الله:} [فيه] تقديم وتأخير، وأصل ذلك أن الله قد وضع كل نفس بالخلقة[٦] بموضع العبودية[٧] [له] فجعلوها عبدة غيره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[١١٨]

وقوله: **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم**، اختلف فيه. قيل:[٨] نهى الله المؤمنين أن يستدخلوا المنافقين أو يُؤاخُوهم أو يَتولَّوهم دون المؤمنين. وقيل: في حرف حفصة: لا تتخذوا بطانة من دون أنفسكم، يعني من دون المؤمنين. وعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: نهى الله المؤمنين أن يتخذوا[٩] اليهود والنصارى[١٠] والمنافقين بطانة دون إخوانهم من المؤمنين فيحدثونهم ويفشون إليهم سرهم دون المؤمنين.[١١]

---

[١] م: وقتال.
[٢] ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾ (سورة الأنفال، ٣٦/٨).
[٣] انظر عند تأويل قوله تعالى في سورة البقرة، ٥١/٢-٥٧.
[٤] ن ع م: الوضع.
[٥] ع + في.
[٦] جميع النسخ: الخلقة.
[٧] جميع النسخ: العبودة.
[٨] ن: قال بعضهم.
[٩] ع: أن تتخذوا.
[١٠] ك ن - والنصارى.
[١١] *تفسير الطبري*، ٦١/٤؛ *والبحر المحيط* لأبي حيان، ٣٨/٣.

والبطانة، قيل: هم[1] الإخوان، يجعلونهم[2] موضع إنشاء سرهم.

{قال الشيخ رحمه الله:} والنهي عن اتخاذ الكفار بطانة لوجهين. أحدهما العُرْف[3] به، إذ كلٌّ يُعرَف بمن يصحبه. والثاني الميل إليه بما[4] يريه عدوه أنه حسن العشرة وحسن الصحبة، مع ما فيه الإسقاط عما به يستعان على أمر الدين والإغفالُ عن حقه.

وقوله: **لا يألونكم خبالا**، يقول:[5] لا يتركون جهدهم[6] في إفساد[7] أمركم.

وقوله: **وَدُّوا ما عَنِتّم**، أي يودون ويتمنون ما أثمتم. {قال الشيخ رحمه الله:} أي ودوا أن تشاركوهم في أشياء تؤثمكم،[8] وتبعثكم[9] عليه. وقيل: العنت الضيق؛ أي ذلك قصدهم، كالآية التي تتلوها.[10]

وقوله: **قد بدت البغضاء من أفواههم**، من قال: إن أول الآية في المنافقين يقول: قوله: **قد بدت البغضاء من أفواههم** ما ذكر في آية أخرى: وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ،[11] إنهم كانوا يعرفون المنافق في لحن كلامه.

{قال الشيخ رحمه الله} في قوله: **قد بدت البغضاء من أفواههم**: ما كان[12] من التخويف،[13] بقوله: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ،[14] وإظهار السرور بنَكْبتهم،[15] كقوله:[16] وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ،[17] الآية.

---

[1] ن + المؤمنون.

[2] جميع النسخ: ويجعلونهم.

[3] العرف به: العرف والعارفة والمعروف واحد: ضدّ النُّكر، وهو كل ما تعرف النفس (*لسان العرب*، «عرف»). أي كون المؤمن معروفا بالكافر ومصحوبا به.

[4] ك: مما، صح هـ.

[5] جميع النسخ: يقولون.

[6] ك: جهدكم؛ ن ع م: عهدهم.

[7] جميع النسخ: في فساد.

[8] جميع النسخ: يؤثمكم.

[9] جميع النسخ: ويبعثكم.

[10] جميع النسخ: تتلوهم؛ والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١٢٥ظ.

[11] ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم﴾ (سورة محمد، ٤٧/٣٠).

[12] م: بما كان.

[13] جميع النسخ: التفريق؛ والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١٢٥ظ.

[14] ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٧٣).

[15] م: بكتبهم.

[16] ع م – كقوله.

[17] ﴿وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا﴾ (سورة النساء، ٤/٧٢).

وقوله: **وما تخفي صدورهم أكبر**. وذلك أنهم[١] كانوا يظهرون الموافقة للمسلمين،[٢] ويضمرون العداوة والخلاف لهم والسعي في هلاكهم؛ فما كانوا يضمرون أكثر مما كانوا[٣] يظهرون. ومن قال بأن الآية في الكفار فهو ظاهر.

فقوله تعالى: **قد بدت البغضاء من أفواههم** من الشَّتيمة والعداوة، ويضمرون أكثر من ذلك من الفساد والشرور. *والله أعلم*.

وقوله: **قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون**. يحتمل قوله: **إن كنتم تعقلون** الآيات. ويحتمل:[٤] إن كنتم تنتفعون بعقولكم؛ لأنه عز وجل ذكر في غير آي من القرآن أنهم لا يعقلون، قد كان لهم عقول لكنهم لم ينتفعوا بعقولهم، فإذا لم ينتفعوا[٥] نفى عنهم العقل رأسا.

﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[١١٩]

وقوله: **هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم**. من قال إن أول الآية[٦] في المنافقين، فهذا يدل له ويشهد؛ لأنه قال: **وإذا لقوكم قالوا آمنا**، الآية. / يقول: **هاأنتم** يا **هؤلاء** المسلمين [١٠٣و] **تحبونهم** -يعني المنافقين- **ولا يحبونكم** على دينكم. {قال الشيخ رحمه الله:} وفي الآية بيان أن أولئك قوم يحبهم المؤمنون إما بظاهر الإيمان أو بظاهر الحال. منهم من طلب مودتهم فأَطْلع الله المؤمنين على سرهم، لئلا يغتروا بظاهرهم وليكون حجة لهم ولرسول الله صلى الله عليه وسلم بما أطلعه[٧] الله على ما أسروا. *والله أعلم*. ومن قال: إن أول الآية في الكفار يجعل قوله: **هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم** على الابتداء والقطع من الأول، لأنه وصفهم بصفة المنافقين ووسمهم بسمتهم وليس في الأول ذلك.

وقوله: **عَضُّوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم**، هو على التمثيل؛ يقال عند شدة الغضب: فلان يَعَضُّ أنامله على فلان، وذلك إذا بلغ الغضب[٨] غايته.

---

[١] ع م – أنهم.
[٢] جميع النسخ: لهم؛ والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١٢٥ظ.
[٣] ك ن ع – كانوا.
[٤] ع م: يحتمل.
[٥] ع م – بعقوله فإذا لم ينتفعوا.
[٦] أي الآية السابقة.
[٧] م: أطلع.
[٨] ن – الغضب.

{قال الشيخ رحمه الله} في قوله: **قل موتوا بغيظكم**، إنما كان يَغيظهم[1] ما كان للمسلمين من السعة والنصر والتكثر والعز، فيكون في ذلك دعاء لهم[2] بتمام ذلك حتى لا يروا فيهم الغير. ***والله أعلم***.

وفي حرف حفصة: قل موتوا بغيظكم لن تضرونا شيئا.

إن الله عليم بذات الصدور، على الوعيد.

﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[١٢٠]

وقوله: **إن تمسسكم حسنة تسؤهم**. {قال:} ليس هذا وصف المنافقين في الظاهر، لأنهم كانوا يطمئنون عند الخيرات. لكنه يحتمل أنهم كانوا يطمئنون بخيرات تكون لهم، لا للمؤمنين.

وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها. ذكر في القصة أنهم إذا رأوا للمسلمين الظفر على عدوهم والغنيمة يسوؤهم ذلك، وإذا رأوا القتل والهزيمة عليهم يفرحون به ويُسَرُّون. وقيل: إذا رأوا للمؤمنين الخِصب والسَّعة ساءهم، وإذا رأوا لهم القحط والجدب وغلاء السعر فرحوا به. لكن هذا يحتمل في كل خير رأوا لهم اهتموا لذلك، وفي كل مصيبة ونكبة رأوا لهم فرحوا بها.

وقوله: **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا**.[3] أخبر أن المؤمنين إذا اتقوا وصبروا أنْ لا يضرُّهم كيدهم شيئا[4] حتى يُعلَمَ أن ما يصيب المؤمنين إنما يصيب[5] بما كسبت أيديهم.

وقوله: **إن الله بما يعملون محيط** على الوعيد.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١٢١]

وقوله: **وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال**. قوله: **تبوئ**، قيل: **تهيئ** للمؤمنين أمكنة القتال، وقيل: **تبوئ**، تُنزل المؤمنين، وقيل: **تبوئ المؤمنين**، تتخذ للمؤمنين[6] مقاعد[7] لقتال[8] المشركين، وقيل: **تبوئ**، توطن، وقيل تستعد للقتال؛ كله يرجع إلى واحد.

---

[1] ن ع م: تغيضهم.
[2] أي يكون في قوله تعالى: ﴿قل موتوا بغيضكم﴾ دعاء للمؤمنين.
[3] ك ع م + وعد النصر بشرط لا يضركم كيدهم شيئا.
[4] ن – أخبر أن المؤمنين إذا اتقوا وصبروا أن لا يضرهم كيدهم شيئا.
[5] ن – المؤمنين إنما يصيب.
[6] ع م: المؤمنين.
[7] جميع النسخ: مقاعدا.
[8] ن ع: للقتال.

ثم اختلف في أي حرب كان وأي يوم؟ قال أكثر أهل التفسير: كان ذلك يوم أحد،[1] وقيل: إنه كان يوم الخندق، وقيل كان يوم بدر.[2] فلا يعلم ذلك إلا بخبر يصح أنه كان يوم كذا. لكن في ذلك أن الأئمة هم الذين يتولون أمر العساكر، ويختارون[3] لهم المقاعد [والمواطن للحرب]، وعليهم تعاهد[4] أحوالهم[5] ودفع الخلل والضياع عنهم ما احتمل وسعهم. وعليهم طاعة الأئمة وقبول الإشارة من الإمام. وذلك في قوله تعالى: أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ.[6]

ذَكَر مقاعد القتال[7] في هذه الآية، لكن الذي[8] لزم من ذلك في آية أخرى ذِكْرُ الصف، بقوله عز وجل: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ.[9] وذكر في آية أخرى الثبات، بقوله عز وجل: إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا.[10] والأصل أنهم أمروا بالثبات. فالأحسن أن [يكون لهم أمير] يختار لهم أمكنة [يكون][11] لهم بها معونة على الثبات. **والله أعلم**.

ويحتمل[12] أن يكون أراد بالمقاعد القعود، وذلك أثبتُ للقتال وأدفع للعدو. وفيما ذكر الصف ذكر للحملة عليه،[13] بقوله عز وجل: إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ.[14]

---

[1] ذكر الطبري أدلته على أن ذلك كان يوم أحد مستندا على ما رواه قتادة، والربيع، وعكرمة، وابن عباس، والحسن، وجابر، وابن إسحاق، وابن زيد، والسدي رضي الله تعالى عنهم. قال السدي: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد في ألف رجل، وقد وعدهم الفتح إن صبروا، فلما رجع عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول في ثلاثمائة فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم، فلما غلبوه وقالوا له: ما نعلم قتالا، ولئن أطعتنا لترجعن معنا. وقال الله عز وجل: ﴿إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ –وهم بنو سلمة وبنو حارثة– هموا بالرجوع حين رجع عبد الله بن أبي، فعصمهم الله، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعمائة. *تفسير الطبري*، ٧٣/٤؛ وانظر: *السيرة النبوية* لابن هشام، ٥٧/٤.

[2] جميع النسخ: الأحزاب. ويوم الأحزاب هو يوم الخندق.

[3] ك ع م: ويختار؛ ن: وتختار.

[4] ع م: وتعاهد.

[5] ن: وأحوالهم.

[6] سورة النساء، ٥٩/٤.

[7] ع: مقاعدا للقتال.

[8] ع م: الذين.

[9] سورة الصف، ٤/٦١.

[10] ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾ (سورة الأنفال، ٤٥/٨).

[11] والزيادتان من *الشرح*، ورقة ١٢٦و.

[12] ك: يحتمل؛ ن: فيحتمل.

[13] ع م – ويحتمل أن يكون أراد بالمقاعد القعود وذلك أثبت للقتال وأدفع للعدو ثم في ذكر الصف ذكره للحملة عليه.

[14] ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ (سورة الأنفال، ١٥/٨-١٦).

فيه رخصة الحملة[1] على العدو وإباحتها[2] وإن كان[3] فيها تولي الأدبار. ويحتمل أن يكون أراد بالمقاعد الأماكن والمواطن للقتال والحرب. *والله أعلم*.

وقوله: **والله سميع عليم**، يحتمل: **سميع** لمقالتكم، **عليم** بسرائركم. ويحتمل: **سميع** بذكركم الله والدعاء له؛ لأنهم أمروا بالذكر لله والثبات للعدو، بقوله عز وجل: فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا.[4] أو[5] **عليم** بثوابكم.[6] ويحتمل قوله: **سميع عليم** البشارةَ من الله عز وجل بالنصر لهم والأمن من ضرر[7] يلحقهم، كقوله عز وجل لموسى وهارون: فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا، الآية، فقالا: إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى،[8] ثم قال عز وجل: قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى.[9] آمنهما من عدوهما بقوله عز وجل: أَسْمَعُ وَأَرَى. فعلى ذلك يحتمل ذا في قوله عز وجل: **سميع عليم**. ويكون **سميع** أي أسمع دعاءكم، بمعنى أجيب، وأعلم ما به نصركم وظفركم. *والله أعلم*.[10]

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[١٢٢]

وقوله: **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا**، قوله: **همت** يحتمل أن هَمّوا همَّ خطر، ويحتمل أن هَمّوا هَمَّ عزم. وكذلك هذا التأويل في قوله: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا.[11] **همت** هي به هم عزم، وهَمَّ هو[12] بها هَمَّ[13] خطر. وهَمُّ الخطر يقع من غير صنع من صاحبه، وهَمُّ العزم يكون بالعزيمة والقصد.

---

[1] ن: الجملة.

[2] م: وباجتهاد.

[3] م: إن كان.

[4] ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾ (سورة الأنفال، ٨/٤٥).

[5] ك ن ع: و.

[6] م: بثباتكم.

[7] جميع النسخ: عن ضرر.

[8] ﴿فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى. قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾ (سورة طه، ٢٠/٤٤-٤٥).

[9] سورة طه، ٢٠/ ٤٦.

[10] ك - أعلم، صح هـ.

[11] سورة يوسف، ١٢/٢٤.

[12] م - هو.

[13] ك - هم، صح هـ.

وقوله: **إذ همت [طائفتان منكم] أن تفشلا**، والفشل ليس مما ينهى عنه، لأنه يقع من غير فعله، لكنه -والله أعلم- هموا أن يفعلوا فعل الفشل والجبن.[١] وذكر في القصة[٢] أن الطائفتين إحداهما كانت من بني كذا، والأخرى من بني كذا،[٣] فلا يجب أن يُذكَروا إلا أن يقروا هم بذلك. وقيل: إنهم كانوا أقروا بذلك، وكانوا يقولون:[٤] نحن كنا فعلنا وما نحب[٥] أن لا يكون [لأنه] في قوله: **والله وليهما** ظهر لنا ولاية الله ولو لم يكن / [ذلك] لم يظهر.[٦] [١٠٣ظ]

وقوله: **والله وليهما**، قد ذكرنا هذا في غير موضع[٧] أن الولي قيل: هو الناصر، وقيل: إنه[٨] هو الحافظ، وقيل إنه أولى بهم.

*وقوله: **وعلى الله فليتوكل المؤمنون**، حق على المؤمنين أن لا يثقوا[٩] إلا على الله عز وجل.*

{قال الشيخ رحمه الله:} المؤمن يعلم علم اليقين أنّ مَنْ نصره الله[١١] لا يغلبه شيء ومن يخذله الله لا ينصره شيء.[١٢] فتوكل [على الله] أي اعتمدَ على ما وعد [الله]،[١٣] واجتهدَ في الوفاء بما عهده،[١٤]

---

[١] ع م - والجبن.

[٢] قيل: إنه كان يوم الأحزاب، وقيل: إنه كان يوم الأحد، وقد ساق الطبري أدلته على أن ذلك كان يوم أحد مستندا ما رواه قتادة، والربيع، وعكرمة، وابن عباس، والحسن، وجابر، وابن إسحاق، وابن زيد، والسدي رضي الله تعالى عنهم. قال السدي: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد في ألف رجل، وقد وعدهم الفتح إن صبروا، فلما رجع عبد الله بن أبي بن سلول في ثلاثمائة فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم، فلما غلبوه وقالوا له: ما نعلم قتالا، ولئن أطعتنا لترجعن معنا. وقال الله عزوجل: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ -وهم بنو سلمة وبنو حارثة- هموا بالرجوع حين رجع عبد الله بن أبي، فعصمهم الله، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعمائة. *تفسير الطبري*، ٤/ ٧٣.

[٣] ع - والأخرى من بني كذا. كما جاء في القصة السابقة، هم بنو سلمة وبنو حارثة.

[٤] ك ن: وقالوا.

[٥] ن ع م: وما يجب.

[٦] في عبارة الماتريدي غموض لعله نشأ عن سقوط بعض كلامه. وعبارة السمرقندي هكذا: «وقالوا: نحن كنا فعلنا، وما نحب أن لا يكون فعل الفشل منا -كما ظهر لنا بسبب ذلك ولاية الله تعالى بقوله: ﴿والله وليهما﴾- ولو لم يكن ذلك الفشل منا لم يظهر لنا ولاية الله» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٢٦و).

[٧] انظر عند تأويل قوله تعالى في سورة البقرة، ٢/ ١٢٠، ٢٥٧، وفي سورة آل عمران، ٣/ ٦٨.

[٨] ع م - إنه.

[٩] ع: أن لا يتوكلوا؛ م - ولا يثقوا.

* وقع ما بين النجمتين بعد الجملة التالية، فقدمناه إلى هنا كما هو في *الشرح* (ورقة ١٢٦و)، ورقة ١٠٣ظ/سطر ٢-٣.

[١١] م: والله.

[١٢] جميع النسخ + قال الشيخ رحمه الله.

[١٣] والزيادتان من *الشرح*، ورقة ١٢٦و.

[١٤] ن ع م: بما عهد.

وفوّض كل أمره إلى الله، إذ علم أنه بكليته لله وإليه مرجعه. وبهذه الجملة عهد[1] أن ينصر دينه، ولا يولي عدوه دبره. *والله أعلم*.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١٢٣]

وقوله: **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة**، يذكّرهم عز وجل أن لا يَكِلوا[2] إلى أنفسهم لكثرتهم ولقوتهم ولعُدّتهم ولا يَتِقوا[3] بأحد سواه، بل على الله يتوكلون وإليه يكلون وبه يثقون؛[4] لأنه أخبر أنهم كانوا[5] أذلة[6] ضعفاء فنصرهم وأمدّهم[7] بالملائكة حتى قهر عدوَّهم مع ضعفهم[8] وقلة عددهم يوم بدر. ويوم أحد كانوا أقوياء كثيري[9] العدد فوكلوا إلى أنفسهم فكانت الهزيمة عليهم.

وقوله: **فاتقوا الله**، يعني اتقوا معاصيه، **لعلكم تشكرون**،[10] فيه دليل:[11] أن الشكر إنما يكون في طاعته[12] واتقاء معاصيه، وأن المحنة إنما تكون في الشكر لما أنعم عليه، أو لتكفير[13] ما[14] سبق منه من الجفاء والغفلة.[15] *والله أعلم*.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾[١٢٤] ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[١٢٥] ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[١٢٦]

---

[1] أي بكل هذه الأمور عهد المؤمن أن ينصر دين الله.
[2] ن م: أن لا يتكلوا؛ ع: يتوكلوا.
[3] ن ع م: ولا تتقوا.
[4] ع: يتقون.
[5] ع + لكثرتهم ولقوتهم ولعدتهم ولا تتقوا بأحد سواه بل على الله كانوا.
[6] ع م – أذلة.
[7] جميع النسخ: وأمد لهم.
[8] ع: من ضعفهم.
[9] جميع النسخ: كثيرة.
[10] ع + كثيرة العدد فوكلوا.
[11] ك: دلالة.
[12] ع م + معا.
[13] جميع النسخ: والتكفير.
[14] جميع النسخ: لما.
[15] «فيه دليل على أن الشكر إنما يكون في طاعته واتقاء معاصيه، وأن امتحان الله عبده بالعبادات لشكر ما أنعم عليه، أو ليكفّر ما جاء منه من التفريط والغفلة» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٢٦و).

وقوله: **إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين**، وذكر في سورة[١] الأنفال: بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ،[٢] فاختلف فيه. قيل: كانوا عشرة آلاف؛ لأنه ذكر مرة ثلاثة آلاف ومرة خمسة آلاف ومرة ألفًا[٣] مُرْدِفِين[٤] فيكون ألفين،[٥] فذلك عشرة آلاف. وقيل: كانوا تسعة آلاف: ثلاثة آلاف، وخمسةَ آلاف، وألفا.[٦] وقيل: كانوا كلهم خمسة آلاف: ثلاثة آلاف وألفين[٧] مددا لهم.

ثم اختلف فيه. قال بعضهم: كان يوم أحد، وقال آخرون: يوم بدر.[٨]

و[قيل:] قوله: فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، يوم بدر، [وما ذكر في هذه السورة كان يوم أحد].[٩] ولا ندري كيف كانت القصة، وليس لنا إلى معرفة القصة حاجة، سوى أن فيه بِشارةً للمؤمنين بالنصر لهم والمعونة، بقوله: **وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به**، جعل في ذلك تسكين قلوب المسلمين.

ثم اختلف في قتال الملائكة. قال بعضهم: قاتل الملائكة الكفار؛ وقال آخرون:[١٠] لم يقاتلوا ولكن جاءوا بتسكين قلوبهم [على] ما ذكر في الآية. ولا يحتمل القتال؛ لأنه ذكر في الآية: وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ،[١١] ولو كانوا يقاتلون لم يكن للتقليل[١٢] معنى، ولأن الواحد منهم كاف لجميع[١٣] المشركين؛ ألا ترى أن جبريل عليه السلام كيف رفع قُرَيَات لوط

---

١ ك ن – سورة.

٢ ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني مُمِدّكم بألفٍ من الملائكة مردفين﴾ (سورة الأنفال، ٩/٨).

٣ جميع النسخ: ألف.

٤ مردفين، أي متابعين يَرْدَف بعضهم بعضا. قال الزجاج: مردفين: معناه يأتون فرقة بعد فرقة. وقال الفراء: مردفين: متابعين (*لسان العرب*، «ردف»).

٥ جميع النسخ: ألفان.

٦ جميع النسخ: وألف.

٧ جميع النسخ: ألفان.

٨ قد ذكرنا (في تفسير الآية السابقة برقم ١٢٢) مع أدلته بأنه كان يوم أحد مستندا على ما ساقه الطبري في تفسيره، ٧٣/٤.

٩ والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٢٦و.

١٠ ن: بعضهم.

١١ ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور﴾ (سورة الأنفال، ٤٤/٨).

١٢ جميع النسخ: لما تقلل، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٢٦ظ.

١٣ ن ع م: بجميع.

إلى السماء فقلّبها؛[١] فدل أنه لما ذكرنا. *والله أعلم*. وقيل: قاتلوا يوم بدر و لم يقاتلوا يوم أحد. فلا ندري كيف كان الأمر.

وقوله: **مسوِّمين**. قيل: مُنزَلين ومسومين سواء، وهو الإرسال.[٢] وقيل: معلَّمين بعلامة. وذلك -والله أعلم- ليعلّم المؤمنين حاجتهم إلى العلامة، لا أن الملائكة يحتاجون إلى العلامة. وكذلك روي عن نبي الله[٣] صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه يوم بدر: «تَسَوَّموا[٤] فإن الملائكة قد تسومت».[٥]

وقوله: **وما النصر إلا من عند الله [العزيز الحكيم]**، ليعلم أن في النصر لطفا[٦] من الله لا يوصل إليه بشيء من خلقه؛ لأنه نفاه عنهم مع مدد الملائكة، ليعلم أن كل منصور على آخر إنما كان ذلك من الله عز وجل.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾[١٢٧]

وقوله: **ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين**. قال قتادة: كان يوم بدر، قتل صناديدهم وقادتهم في الشر.[٧] وقيل: **طرفا من الذين كفروا**، جماعة، وقيل: **طرفا من الذين كفروا**[٨] يعني أهل مكة.

وقوله: **أو يَكْبِتَهم**، قيل: يخزيهم. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: الكَبْت الهزيمة،[٩] وقيل: الكَبْت[١٠] هو الصَّرْع على وجهه.

---

[١] انظر: مثل قوله تعالى: ﴿ولما جاءت رسلنا لوطا سيىء بهم وضاق بهم ذَرعًا وقال هذا يوم عصيب﴾ إلى أن قال: ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسوَّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾ (سورة هود، ١١/٧٧، ٨٢-٨٣). في هذه الآيات وأمثالها لا يذكر جبريل عليه السلام. ولعل المؤلف قصد ما روي أن لوطا عليه السلام سرى بمن معه قبل الفجر، وطوى الله تعالى له الأرض حتى وصل إلى إبراهيم عليه السلام. ثم إن جبريل عليه السلام اقتلع المدائن بيده -وفي رواية- أدخل جناحه تحت المدائن فرفعها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب ثم قلبها. *تفسير الآلوسي*، ١٢/١١٢.

[٢] جميع النسخ: من الإرسال من التسويم.

[٣] م: عن نبي أنه.

[٤] ع: تسومون.

[٥] *تفسير الطبري*، ٤/٨٢، ٨٣؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٢/٣١٠.

[٦] جميع النسخ: لطف.

[٧] *تفسير الطبري*، ٤/٨٥.

[٨] ع م - جماعة وقيل طرفا من الذين كفروا.

[٩] *البحر المحيط* لأبي حيان، ٣/٥٢.

[١٠] ن - الهزيمة وقيل الكبت.

وقوله: **فينقلبوا خائبين؛**[١] والخائب هو الذي لم يظفر بحاجته، أي رجعوا [و] لم يصيبوا ما أمّلوا.

{قال الشيخ رحمه الله:} ما ذكر من حضور الملائكة الحرب فهو -والله أعلم- في حق محنة الملائكة. ولله أن يمتحنهم بما شاء من الحضور،[٢] والمعونة والكف عن ذلك، أو الدعاء لأوليائه بالنصر، وبما شاء الله من الوجوه التي يمتحن بها عباده. وفيهم من قد امتحنه على الأرزاق والأرواح والأمطار والأعمال وأنواع الأذكار والأفعال؛ إذ هم خلق اصطفاهم واختارهم لعبادته وطاعته في جميع ما يأمرهم، ليَجِلّ به قدرهم ويُغلى رتبتهم. ثم لو أذن لهم بالمعونة أعانوا المؤمنين على قدر الإذن لهم، إذ هم على ما وصفهم الله: لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ،[٣] وقوله: يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ،[٤] وغير ذلك مما[٥] وصفهم بالطاعة له[٦] والاتباع لأمره، وما أكرمهم من هيبة جلاله وخوف عقابه. صلوات الله عليهم أجمعين.

ثم كان للمؤمنين في حضورهم[٧] أنواع البشارات فيما لم يكن أذن لهم بالقتال وأنواعُ الآيات فيما قد أذن لهم، على ما ذكر من أمر بدر وغيره، مما أخبر الله عز وجل من إرسال جنوده وهزيمة أعدائه بمنه وفضله. أ) من ذلك ما[٨] قال الله عز وجل: إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا،[٩] الآية، بأن[١٠] يكون الله يؤيدهم[١١] بما به تشجيع قلوب المؤمنين على ما قد أَمْكن أعداءه[١٢] من أنواع الوساوس التي لديها تضطرب[١٣] قلوبهم، وتَزِلّ أقدامهم.

---

[١] ن + والخائبين.

[٢] ن – من الحضور.

[٣] سورة الأنبياء، ٢٧/٢١.

[٤] سورة فصلت، ٣٨/٤١.

[٥] جميع النسخ: ما.

[٦] ن – له.

[٧] أي الملائكة.

[٨] ك – ما، صح هـ.

[٩] سورة الأنفال، ١٢/٨.

[١٠] جميع النسخ: أن.

[١١] أي الملائكة.

[١٢] ع م: أعداء.

[١٣] ن ع: يضطرب.

[١٠٤ و] فمثلَهُ يمكن أولياءه[1] / في تشجيع المؤمنين ليَسْكن قلوبهم ويَثبت أقدامهم. ***والله أعلم***.
ب) والثاني أن يكون الذي جُبِل عليه الخلق: أن يكون كل أحد عند معاينة الحاجة إلى دعائه،[2] و[في] ما يحتمل وسعُه من معونة،[3] عليه أقبلَ وبه أرغبَ. فيكون للمؤمنين بحضورهم رجاءُ النصر بدعائهم. ويخرج [عليه] قوله: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا،[4] الآية، وقوله تعالى: وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ.[5] ***والله أعلم***. وكان[6] رسول الله صلى الله عليه وسلم في نصرهم يبشرهم بحضورهم،[7] فيكون لهم بذلك فضل ثبات وقرار حياة[8] منهم، لما[9] أُعْلِموا[10] اطلاعهم على ذلك.
ج) أو يكون لهم فضل قوة بذلك وإقبالٌ على الأمر على ما جبل [عليه] الخلق من الإقبال على الأمور المهمة إذا كثروا. وعلى[11] ذلك قوله: إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ.[12] د) ولعلهم أيضا بما يطمعون[13] أنهم لو أطاعوا الله وثبتوا لأعدائه أن لهم النصر والدفع، فكان ذلك بعض ما يستبشرون. وعلى ذلك أكثر ما يُلي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهزيمة إنما كان يصرف قلوبهم إلى بعض ما جبل عليه البشر من حب الدنيا والإعجاب بالكثرة ونحو ذلك.

ثم من أعظم الإعلام في ذلك ما قاله الله عز وجل: وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.[14] فتكون البشارة والطمأنينة بالذي جبل[15] عليه البشر على ما بينت.[16] ويكون النصر من عند الله الذي متى أراد نصر أحد لن يُغلَب قَلَّتْ أعوانه أو كثرت.

---

[1] وهم الملائكة هنا.
[2] ع م: إلى رعاية.
[3] أي وفي الأمور التي ترجى معونة الله فيها على عبده.
[4] ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ (سورة المؤمن، ٥١/٤٠).
[5] ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به﴾ (سورة آل عمران، ١٢٦/٣).
[6] ع: أو كان.
[7] ن: في حضورهم.
[8] ك ع: حيا؛ ك (هـ): حياة.
[9] جميع النسخ: بما.
[10] م: أعملوا.
[11] ع م: على ذلك.
[12] ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبَتْ ثم وَلَّيْتُم مُدبرين﴾ (سورة التوبة، ٢٥/٩).
[13] ع: يطعمون.
[14] الآية السابقة.
[15] ك: طبع.
[16] ن ع م: يثبت.

وذلك لطف من الله العزيز العليم، يريهم النصر من الوجه الذي لا يُعلَم[١] مأتاه.[٢] و[يريهم النصر أيضا] في حال الإياس[٣] من أنفسهم أن يقوم لعدوهم،[٤] ليعلموا عظم[٥] لطفه الذي بمثله ارتفعت درجات الأخيار، وشرُفت منازلهم. ولو كان لهم[٦] بالإذن على ما ذكر من قوة جبريل عليه السلام في قلب قَرَيات لوط بجناح واحد[٧] لم يكن يقوم لمثله أهل الأرض فضلا من عدد يسير منهم، ولكنهم لا يتقدمون بين يدي الله،[٨] والله لم يكن أذن لهم في القتال[٩] عند كل مشهد. ***والله أعلم.***

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾[١٢٨]

وقوله عز وجل: **ليس لك من الأمر شيء**، إنما أنت عبد مأمور، فليس لك من الأمر شيء،[١٠] إنما ذلك إلى الواحد القهار الذي لا شريك له ولا ندّ، كقوله: يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ.[١١]

وقوله: **أو يتوب عليهم أو يعذبهم**، الآية.[١٢] فيه [دلالة] أنه كان من النبي صلى الله عليه وسلم معنىً -قولا وفعلا[١٣]- حتى نزل[١٤] قوله: **ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم**،[١٥] ولكنا لا نعلم ذلك المعنى. غير[١٦] أنه قيل في بعض القصة: إن النبي صلى الله عليه وسلم شُجّ يوم[١٧] أحد[١٨] وجهه وكسرت رَباعِيَته، فدعا عليهم، فنزل قوله: **ليس لك من الأمر شيء.**

---

[١] ن ع م: لا يعلمه.
[٢] ع م: إلا هو. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٢٦ظ.
[٣] جميع النسخ: الأنفس. والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٢٦ظ.
[٤] أي أن يقوم كل أحد بشخصه لأخذ الثأر عن عدوه. والنفس يستعمل مذكرا إذا كان بمعنى الشخص.
[٥] ع: أعظم.
[٦] أي للملائكة.
[٧] قد سبق إيضاحه في هامش تفسير الآية السابقة.
[٨] ن + وحده.
[٩] م: بالقتال.
[١٠] ع – إنما أنت عبد مأمور فليس لك من الأمر شيء.
[١١] سورة آل عمران، ١٥٤/٣.
[١٢] ك الآية.
[١٣] ك م: فعلا.
[١٤] ع م: ترك.
[١٥] ك + الآية.
[١٦] م – غير.
[١٧] ن: في يوم.
[١٨] جميع النسخ + في.

وقيل: إن سرية من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا إلى قتال المشركين يقاتلونهم حتى قُتلوا جميعا فشَقّ على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قتلهم،[1] فدعا عليهم باللعنة -يعني على المشركين- أربعين يومًا في صلاة الغداة، فنزل قوله: **ليس لك من الأمر شيء**.

وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه[2] قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد: اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن فلانا، حتى لعن[3] نفرا منهم، فنزل قوله: **ليس لك من الأمر شيء**، الآية.[4]

وقيل:[5] إن نفرا من المسلمين انهزموا، فشَقّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل: **ليس لك من الأمر شيء**، فأمره بكف الدعاء عنهم. والله أعلم بالقصة في ذلك.

وقوله: **أو يتوبَ عليهم أو يعذبَهم**، فإن كانت القصة في الكفار فكأنه[6] طلب التوبة والهدي [لهم] وأفرط[7] في الشفقة [عليهم] فقال:[8] **ليس لك من الأمر شيء أو يتوبَ عليهم** فيهديهم لدينه، **أو يعذبهم** على كفرهم، **فإنهم ظالمون**، كقوله تعالى: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ.[9] وإن كانت[10] في المؤمنين فقوله: **أو يتوبَ [عليهم]** عن ذنبهم[11] الذي ارتكبوا **أو يعذبَهم** بذنبهم ولا يعفو عنهم. والله أعلم بذلك.

[١٠٤و س٣١] *[وفي قوله: **ليس لك من الأمر شيء**،[12] جواز[13] العمل بالاجتهاد، لأنه صلى الله عليه وسلم عمل[14] بالاجتهاد لا بالأمر حتى منع عنه. {قال الشيخ رحمه الله} قوله:[15] **ليس لك من الأمر شيء**،

---

[1] جميع النسخ: بقتلهم.
[2] ن ع - أنه.
[3] ن: أمن.
[4] انظر: *تفسير الطبري*، ٤/٨٨؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٢/٣١٢.
[5] ذكر الآلوسي عن ابن مسعود رضي الله عنه: أراد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يدعو على المنهزمين عنه من أصحابه يوم أحد فنهاه الله تعالى عن ذلك، وتاب عليهم، ونزلت هذه الآية. *روح المعاني*، ٤/٤٩.
[6] أي النبي صلى الله عليه وسلم.
[7] ن: فأفرط.
[8] ع: وقال.
[9] سورة القصص، ٢٨/٥٦.
[10] جميع النسخ: فإن كان.
[11] ع: عن دينهم.
[12] ن - إنما الأمر إلى الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض هو الذي يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وفي قوله ليس لك من الأمر شيء.
[13] ع م: لجواز.
[14] ع - عمل.
[15] ك ن - قوله.

يحتمل أن يكون على أثر أمرٍ مما جُبل عليه البشر ما[1] رأى في صلاح الخلق ومما عليه التدبير بحيث الإطلاق.[2] فقيل [له]: هذا وإن كان[3] على ما رأيت فليس لك من أمر هذا شيء، وإنما الذي إليك الصفح عن ذلك والإعراض. والله أعلم ما كان.

ويحتمل أن يكون يبتدئ القول به من[4] غير أن يسبق[5] منه ما يعاتَب عليه أو يمنع[6] منه؛ ليكون أبدا مقبلا نحو الإذن له في كل شيء والأمر ولا[7] يطمعَ نفسُه في شيء لم يسبق له البِشارة به. على أن النهي والوعيد أمران جائزان، وإن كان قد عُصم عن ركوب المنهي ووجوب الوعيد، إذ هناك[8] يظهر رتبة العصمة. ***ولا قوة إلا بالله***.

والظاهر أن يكون على أثر أمر استعجل ذلك من دعاء الهلاك أو الهداية[9] لقبول الحق والخضوع له فيقول:[10] ليس لك شيء من ذلك في أحد على الإشارة إليه،[11] إنما ذلك إلى الله يضع فيهم ما عنده من الثواب أو التعذيب على قدر ما يعلم من إقبالهم على الطاعة له / أو نِفارهم[12] عنها. ***والله أعلم***.]* [١٠٤ظ س١]

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١٢٩]

وقوله: **ولله ما في السماوات وما في الأرض**، الآية. فيه دلالة ما ذكرنا في قوله: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ؛ إنما الأمر إلى الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، هو الذي يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

---

[1] ك م: مما.

[2] يقول الشارح: «لأنه صلى الله عليه وسلم إنما عمل بالاجتهاد من الدعاء بالهلاك والهداية لا بأمر من الله تعالى تنصيصا؛ إذ لو كان بطريق النص لما منع عنه بقوله: ﴿ليس لك﴾ وما فعله النبي لا يكون إلا مطلقا مباحا، وإن كان قد يمنع عن فعل بمعنى وحكمة استأثر الله تعالى بعلم ذلك، لما يقرر عندنا من السمع والعقل على عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم من ارتكاب المحظور الذي هو المعصية» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٢٧و).

[3] ع م: يكون.

[4] م – من.

[5] ن ع: سبق.

[6] م: ويمنع.

[7] ن: لا.

[8] ن ع: هنالك.

[9] م: والهداية.

[10] م: فقيل؛ ن ع: فنقول.

[11] ع م – إليه.

[12] جميع النسخ: أو نفادهم.

* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه فنقلناه إلى هنا. انظر: ورقة ١٠٤و/سطر٣١-١٠٤ظ/سطر١.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١٣٠]

وقوله: **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة**. قوله: **لا تأكلوا الربا**، كقوله: وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا،[١] ففيه نهي عن الأخذ، كقوله: وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ،[٢] فعلى ذلك قوله: **لا تأكلوا الربا**، أي لا تأخذوا.

وقوله: **أضعافا مضاعفة**. فإن قيل: ما معنى النهي عن المضاعفة، وغير المضاعفة حرام؟ قيل:[٣] يحتمل هذا وجوها. يحتمل أن يكون هذا قبل تحريم[٤] الربا، فنهوا عن أخذ المضاعفة. ويحتمل قوله: **لا تأكلوا الربا**، أي لا تكثِّروا[٥] أموالكم بأخذ المضاعفة. ويحتمل **أضعافا مضاعفة**، أي لا تُصرّوا[٦] على استحلال الربا فتَبْقون عليه آخرَ الأبد. ويحتمل **أضعافا مضاعفة** تضعيف العذاب. ويحتمل ما قيل: كان أحدهم يبايع الرجل إلى أجل، فإذا حل[٧] الأجل زاد في الربح وزاد الآخر في الأجل، وذلك كان ربا الجاهلية.

{قال الشيخ رحمه الله} في قوله: **لا تأكلوا الربا**، يحتمل الأكل، لأنه نهاية كل كسب، ويحتمل الأخذ، كقوله: وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ،[٨] وقوله: وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا.[٩]

وقوله: **أضعافا مضاعفة** في الأخذ، أي لا تأخذوا[١٠] لتكثِّروا[١١] أموالكم،[١٢] وتقصدوا[١٣] بذلك تضاعف أموالكم إلى غير حد. وليس فيه أن القليل ليس بمحرَّم، ولكن[١٤] ذلك هو مقصود أهله، فنهوا عن ذلك، وحرمة القليل بغير ذلك من الآيات. ويحتمل أن يكون في نازلة،

١ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٧٨).
٢ ﴿وأخذِهم الربا وقد نُهوا عنه وأكْلِهم أموالَ الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما﴾ (سورة النساء، ٤/١٦١).
٣ جميع النسخ: لكنه.
٤ ع: التحريم.
٥ ع م: لا تكثرون.
٦ م: لا تصرون.
٧ ع: أجل.
٨ سورة النساء، ٤/١٦١.
٩ سورة البقرة، ٢/٢٧٨.
١٠ ن ع م: لا يأخذوا.
١١ جميع النسخ: ليكثرو.
١٢ جميع النسخ: أموالهم.
١٣ ك: أو تقصدوا؛ ن: ويقصدون.
١٤ ك ن ع: لكن.

عليها خرج النهي لا على الإذن بدون ذلك. ولو كان على حقيقة الأكل فهو على النهي[١] عن التوسع بالربا، أو الأمر بالعود إلى ما لا ربا فيه وإن كان في ذلك ضيق. ***والله أعلم***. ويحتمل أن يكون في الآية إضمار فيقول:[٢] لا تأكلوا الربا فإنكم[٣] إن أكلتموه بعد العلم بالتحريم تضاعفت عليكم المآثم والعقوبات.

وقد جعل الله للربا أعلاما دلت على[٤] غِلَظ شأنها نحو ما وصف من لا يتقيه بالخروج بحرب الله وحرب رسوله عليه الصلاة والسلام.[٥] وبالتخبط يوم القيامة،[٦] وانتفاخ البطن،[٧] وما جرى في معاقبة اليهود بتحريم أشياء لمكان[٨] ذلك؛[٩] وقوم شعيب[١٠] ما[١١] حل بهم بلزومهم بتعاطي الربا [وتطفيف الكيل والوزن].[١٢]

واتقوا الله، [في أخذ الربا][١٣] فلا[١٤] تأخذوا الربا ولا تستحلّوه، **لعلكم تفلحون**.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[١٣١]

وقوله: **واتقوا النار التي أعدت للكافرين**. فيه دلالة أنها إنما أعدت للكافرين، لم تُعَد لغيرهم.

---

[١] ع: عن النهي.

[٢] ن: فنقول.

[٣] ك: لأنكم.

[٤] ن ع + ما.

[٥] يشير إلى قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٧٨-٢٧٩).

[٦] ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المَسّ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٧٥).

[٧] قال القرطبي: ويقال: إنهم يُبعثون يوم القيامة قد انتفخت بطونهم كالحبالى، وكلما قاموا سقطوا، والناس يمشون عليهم. وقال بعض العلماء: إنما ذلك شعار لهم يعرفون به يوم القيامة (*تفسير القرطبي*، ٣/٣٥٤).

[٨] ن ع م: بمكان.

[٩] ﴿فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أُحلّت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾ (سورة النساء، ٤/١٦٠-١٦١).

[١٠] «وذلك مثل ما جرى في معاقبة قوم شعيب عليه السلام» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٢٧ظ).

[١١] م: وما.

[١٢] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٢٧و. انظر مثلا قوله تعالى: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرُه ولا تَنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط. ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تَبخسوا الناس أشياءهم ولا تَعثَوا في الأرض مفسدين﴾ (سورة هود، ٨٤-٨٥).

[١٣] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٢٧ظ.

[١٤] جميع النسخ: ولا.

فذلك يرد على المعتزلة، حيث[1] خلّدوا صاحب الكبيرة في النار، والله تعالى يقول: إنها **أعدت للكافرين**، وهم يقولون: و لغير الكافرين.

{قال الشيخ رحمه الله} في قوله: أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ:[2] يحتمل للذين اتقوا الشرك، كقوله: هُدًى لِلْمُتَّقِينَ،[3] ويحتمل للذين اتقوا جميع أنواع المعاصي.

فإن كان التأويل هو الأول فكل[4] من لم يستحق بفعله اسم الكفر فهو [داخل] في الآية، إذ قال في النار: **أعدت للكافرين**، لم يجز أن تكون[5] هي أبدا لغيرهم لوجهين. أحدهما إذ لا يجوز أن تكون الجنة المتخذة[6] للمؤمنين تكون لغيرهم فكذلك النار المعدّة للكافرين. وهذا أولى لجواز[7] القول في إيجاب الجنة لمن يكون[8] منه الإيمان نحو الذرة[9] وفسادِ القول فيهم بالنار. ***والله أعلم***. والثاني أنها إذا جعلت لغيرهم أو أعدت لغيرهم[10] لكان لا يكون للكفر فضل هيبةٍ و لفعله فضل[11] فزع في القلوب بوجود ذلك. ومعلوم أن ذلك[12] بالعواقب لا بنفس الفعل. ثبت أنه لا يجب خلود من ليس بكافر فيها حتى يكون لمن أعدت له –لا لغيره–[13] أثر وتحذير، لا تحقيقُ ذلك كلّه.[14] ***والله أعلم***.

وإن كان التأويل هو الثاني: من اتقاء جميع المعاصي فيكون لذلك بعدُ عبارتان.

إحداهما[15] أنْ قد ظهر أهل الجنة وأهل النار، وبينهم قوم لم تبلغ بهم الذنوب الشرك

---

[1] ع – حيث.

[2] سورة آل عمران، ١٣٣/٣.

[3] ﴿الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ (سورة البقرة، ٢/١-٢).

[4] جميع النسخ: وكل.

[5] جميع النسخ: أن يكون.

[6] ك: متخذة.

[7] جميع النسخ: بجواز.

[8] جميع النسخ: لا يكون.

[9] جميع النسخ: الذرية. لعل المؤلف رحمه الله يريد ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة رجل في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار رجل في قلبه مثقال ذرة من إيمان» (*مسند أحمد بن حنبل*، ٤١٦/١؛ قارن: *صحيح البخاري*، الإيمان ٤٤؛ و*صحيح مسلم*، الإيمان ١٤٧، ٢٠٢).

[10] ن – أو أعدت لغيرهم.

[11] ع – فضل.

[12] أي الهيبة والفزع.

[13] جميع النسخ: له ولغيره.

[14] أي لا يجب ولا يجوز تحقيق الخلود لمن كان كافرا ولمن لم يكن.

[15] ن ع: أحدهما.

فيدخلون في الوعيد بالنار المعدة لهم،[١] ولا اتقوا جميع المعاصي فيكونون[٢] في الوعد المطلق فيمن أعدت له الجنة. فحقه الوقف فيه حتى يظهر ذلك في قوله: وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ،[٣] وفي قوله: أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ،[٤] وقوله: وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ،[٥] الآية، وغيرِ ذلك من آيات[٦] العفو والمغفرة. ولو كان[٧] ذلك واجبا في الحكمة لكان[٨] القائم به يستحق وصف العدل، لا العفو والمغفرة؛ ثبت أن ذلك فيما قد وجب.

أو يكون فيمن يَجزيهم جزاءهم ويُدخلهم الجنة؛ إذ أخبر أنه لا يجزي السيئة إلا بمثلها،[٩] وبالتخليد مضاعفة ذلك من وجهين. أحدهما أنه عذاب الكفر، وهذا دونه. والثاني منع لذة الحسنة بكليتها، بل حق ذلك أن يكون كقوله: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ،[١٠] الآية، أي يجزي بالأمرين جميعا. ***ولا قوة إلا بالله***.

والثانية[١١] أنه قد جاء بمقابل السيئة من الحسنات ومقابل كل أنواع من المعاصي من الطاعات، وقد وعد [الله] على الحسنة عشر أمثالها، فمحال أن يقابِل مثلُ الذي دون الشرك من السيئات الشركَ في إحباط العمل، ولا يقابل مثلُ الذي دون الإيمان الإيمانَ[١٢] في إحباط الذنوب وتجب له الجنة. ثم [هو] مع ذلك الإيمان الذي لا أرفعَ منه، وهو الذي بعثه على الخوف والرجاء وقت الإساءة؛ وعلى أنه لو خشي على نفسه كل بلاء ورَجاءَ كل نفع في الكفر بربه لم يُؤْثِر ذلك.

---

[١] أي لأهل الشرك.

[٢] م: فيكون.

[٣] ﴿إن الله لا يغفر أن يُشرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (سورة النساء، ٤/٤٨).

[٤] ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ (سورة الأحقاف، ٤٦/١٦).

[٥] ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾ (سورة التوبة، ٩/١٠٢).

[٦] جميع النسخ: من الآيات.

[٧] ك ع: وما كان.

[٨] جميع النسخ: فيكون.

[٩] يشير إلى قوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يُجزَى إلا مثلَها وهم لا يُظلمون﴾ (سورة الأنعام، ٦/١٦٠).

[١٠] ﴿ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ (سورة الزلزال، ٩٩/٧-٨).

[١١] ع: والثاني.

[١٢] ن ع م – الإيمان.

مع ما وَعد على الحسنة عشرَ أمثالها ثم يُبطل[1] لذة ذلك كله ويُلزِم الخلق[2] القول فيه بالكرم والعفو والرحمة. *ولا قوة إلا بالله*.

﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[١٣٢]

[١٠٥و] وقوله: **وأطيعوا الله والرسول.** ذكر –والله أعلم– طاعة[3] الرسول لأن من الناس / من لا يرى طاعة الرسول؛ فأمر عز وجل بطاعة[4] رسول الله[5] لئلا يخالفوا أمر الله ولا أمر رسوله، وأن من أطاع الله و لم ير طاعة رسوله فهو لم يطع الله في الحقيقة. ويحتمل: أطيعوا الله في أمره[6] ونهيه،[7] وأطيعوا الرسول فيما بين في سننه أودعا أو بلّغ. والقصد في الآية إلى فرض طاعة الرسول؛ [أي] وأطيعوا الرسول في أمره ونهيه كما أطعتم الله في أمره ونهيه.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١٣٣]

وقوله: **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم،** يحتمل أن يكون هذا موصولا بقوله عز وجل: لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً،[8] أي لا تأخذوا الربا أضعافا مضاعفة[9] فتكثِّروا[10] أموالكم. وحقيقته: وسارعوا إلى ما فيه وعد المغفرة من ربكم بالإجابة له إلى ما دعا والقيام به بحق الوفاء. وقولِه عز وجل: وَاتَّقُوا اللهَ،[11] في استحلال الربا لأن من استحل محرما فقد كفر. وحقيقته: اتقوا ما أوعدكم ربكم عليه النارَ. وأصل الطاعة الائتمار بأمر المطاع في كل أمر، فمن أطاع الله فيما أمر وأطاع رسوله رحمه ربه. وفي الطاعة رحمة الخلق، على ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لن تدخلوا الجنة حتى[12] تَراحَمُوا». قالوا: كلنا نرحم يا رسول الله.

---

[1] ن: تبطل. أي يبطل الله تعالى.
[2] ع: الخلف؛ م: خلف.
[3] ك: إطاعة.
[4] ك ن ع: طاعة.
[5] ك ن: رسوله.
[6] ن + في أمره.
[7] ع م – في أمره ونهيه.
[8] سورة آل عمران، ١٣٠/٣.
[9] ن ع م – أي لا تأخذوا الربا أضعافا مضاعفة.
[10] ن ع م: فيكثروا.
[11] سورة آل عمران، ١٣٠/٣. أي يحتمل أن يكون قوله: ﴿وسارعوا...﴾ موصولا بقوله: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.
[12] ع م – حتى.

قال: «ليس رحمة الرجل ولده، ولكنه رحمة عامة».[١] وقوله: وَأَطِيعُوا اللهَ في تحريم الربا، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ في تبليغه إليكم تحريم الربا والنهي عن أخذه. لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ، أي ارحموا الناس وتَرحمونهم[٢] في ترك أخذ الربا تُرْحَمُوا[٣] أنتم وتنجوا[٤] من النار ومن عذاب[٥] الله. ثم قال: **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم**، أي بادروا بالتوبة والرجوع عن استحلال الربا، وبالترك[٦] عن أخذه. والمغفرة هي فعل الله، لكنه –والله أعلم– كأنه قال: بادروا إلى الأسباب التي بها[٧] تستوجبون المغفرة من ربكم. والمغفرة هي الستر في اللغة. ثم يحتمل وجهين. يحتمل أن لا يهتك أستاركم في الآخرة إذا تبتم. ويحتمل أن ينسيكم[٨] سيآتكم[٩] في الجنة، لأن ذكر المساوئ في الجنة ينغّص[١٠] عليهم[١١] نعمه، فأخبر عز وجل أنه ينسيهم مساوئهم في الجنة لئلا ينغص ذلك عليهم. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **وجنةٍ عرضها السماوات والأرض**: وبادروا أيضا بالتوبة عن استحلال الربا إلى جنة عرضها السماوات والأرض. فمعنى ضَرْب مثل[١٢] الجنة بضرب السماوات والأرض[١٣] وذلك –والله أعلم– ذكرُ هو أن للسماوات[١٤] والأرض أحوالا ليست تلك الأحوال لغيرهما[١٥] من الخلائق، بقوله عز وجل: لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ،[١٦]

---

[١] عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لن تؤمنوا حتى تَحابُّوا، أفلا أدلّكم على ما تحابّوا عليه؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «أَفْشُوا السلام بينكم تَحابّوا، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تحابوا» قالوا: يا رسول الله، كلنا رحيم، قال: «إنه ليس برحمة أحدكم ولكن رحمة العامة» (*المستدرك* للحاكم، ١٨٥/٤؛ *ومجمع الزوائد* للهيثمي، ٣٠/٨).

[٢] جميع النسخ: وترحموهم.

[٣] جميع النسخ: ترحمون.

[٤] جميع النسخ: وتنجون.

[٥] ك ن ع: وعذاب.

[٦] جميع النسخ: والترك.

[٧] ع – بها.

[٨] جميع النسخ: ينسي عليكم.

[٩] ك: نسياتكم.

[١٠] ك: تنغص؛ ن: يغض؛ ع: ينغض.

[١١] ع م: عليه.

[١٢] م – مثل.

[١٣] ع م – والأرض.

[١٤] ك: السماوات.

[١٥] ع: لغيرها.

[١٦] ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (سورة المؤمن، ٥٧/٤٠).

وذلك أنهما عندهم من أشد الخلائق وأقواها. فقال: إن الذي قَدَر على إيجاد[1] ما هو أشد وأقوى وأصلب لَقادرٌ على إنشاء ما هو دونه، وهو هذا العالم الصغير. ووَصَفَ أيضا السماوات والأرض بالغلظ والكثافة والشدة بقوله[2] عز وجل: سَبْعَ سَمَاوَاتٍ،[3] شِدَادا[4] وغلاظا.[5] ثم أخبر عز وجل أنها مع غلظها وكثافتها تكاد أن تَنشق لعظيم ما قالوا بأن الله ولدا[6] وشريكا بقوله: تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا.[7] ليعلموا عظم[8] [ذلك] القول وقبحه، لئلا يقولوا في الله ما لا يليق به. ووصف أيضا السماوات والأرض بالدوام[9] إلى وقت يبعد[10] فنائهما في أوهام الخلق، وإن كانا فانيين،[11] بقوله عز وجل: خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَات وَالْأَرْضُ.[12]

فلما[13] كان للسماوات والأرض ما ذكرنا من الأحوال عند الخلق، ليست تلك الأحوال لغيرهما[14] من الخلائق من شدتها[15] وقوتها وصلابتها وكثافتها وسعتها شَبّه عرض[16] جنته وسعتها بسعة السماوات والأرض وعرضهما؛[17] لما هما عند الخلق ليسا بذوي نهاية،

[1] ك: اتخاذه؛ ن ع م: اتخاذ.

[2] ن ع م: لقوله.

[3] ﴿فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم﴾ (سورة فصلت، ٤١/١٢).

[4] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وبنينا فوقكم سبعا شدادا﴾ (سورة النبأ، ٧٨/١٢).

[5] لم يرد في القرآن الكريم وصف السماوات بالغلظ. لعله هو تفسير الشداد، كما أشار السمرقندي إلى ذلك، فقال: «وكذا وصف السماوات والأرض بالغلظ والكثافة والشدة بقوله: ﴿سبعا شدادا﴾» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٢٧و).

[6] م: ولد.

[7] سورة مريم، ١٩/٩٠-٩١.

[8] ك: أعظم.

[9] ع: وبالدوام.

[10] م: يبعد.

[11] جميع النسخ: فانيان.

[12] ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد﴾ (سورة هود، ١١/١٠٧).

[13] ن ع: فإذا.

[14] ع: لغيرها.

[15] ك: بشدهما.

[16] ع م: وعرض.

[17] م: وعرضها.

وإن كانا ذوى[١] نهاية وغاية، كما وصف أهل الجنة وأهل النار بالدوام فيهما[٢] بدوام السماوات والأرض، وإن كانا فانيين[٣] غير دائمين أبدا لبعد فنائهما عن أوهام الخلق، فعلى ذلك الأول. *والله أعلم*.

وفيه دلالة أن الجنة ذات[٤] نهاية المكان والعَرْض، وإن لم تكن[٥] بذات[٦] نهاية الوقت وغايته، لأنه ذكر العرض لها، وكل ذي عرض يحتمل نهاية عرضه. *والله أعلم*. ولو لم تكن[٧] ذات[٨] نهاية من حيث العرض لكان[٩] الله غير موصوف بالقدرة على الزيادة، ومن زال عنه وصف ذلك انقطع عنه الطمع واضمحل الرجاء.

وبعد، فإن ثم[١٠] دارا[١١] أخرى سوى الجنة، فأوجب ذلك نهاية الجنة من حيث العرض،[١٢] إذ كان غير الجنة دارا[١٣] أخرى مثلها في ارتفاع نهاية الوقت. وجائز وجود أمرين مختلفين على اتفاق في الوقت، ومحال وجودهما في مكان واحد.[١٤] لذلك لزم نهايتهما وإن زالت عنهما نهاية الوقت.

وقوله عز وجل: **أُعِدّت للمتقين**، والاتقاء هو[١٥] الطاعة في كل أمره ونهيه وترك مخالفته في ذلك كله. ثم سبب التقوى يكون بوجوه ثلاثة. بذكر[١٦] عظمته وجلاله ورفعته [فيزجره][١٧]

---

[١] ع: ذو.
[٢] ن ع م: فيها.
[٣] جميع النسخ: فانيان.
[٤] جميع النسخ: ذو.
[٥] ن م: وإن لم يكن.
[٦] جميع النسخ: بذي.
[٧] جميع النسخ: لم يكن.
[٨] جميع النسخ: ذو.
[٩] ك: فكان؛ ن ع م: وكان.
[١٠] ن: ثمه.
[١١] ع: دار.
[١٢] «لأنه لا يتصور وجود غيرين في حيز واحد وإن كانا من حيث الزمان بلا نهاية وغاية» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٢٧ظ-١٢٨و).
[١٣] ن ع م: دار.
[١٤] جميع النسخ + واتفاق بمكان.
[١٥] جميع النسخ + من.
[١٦] ع - بذكر.
[١٧] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٢٨و.

عن مخالفة أمره ونهيه؛ فيذلّله ذلك ويحقره، فيمنعه[1] عن مخالفته. أو بذكر نعمته وإحسانه، فيمنعه ذلك عن ارتكاب ما نَهى عنه حياء منه.[2] والثالث بذكر نقمته وعذابه في مخالفة أمره ونهيه، فيتقى بذلك عذاب الله ونقمته.

[١٠٥ظ] {قال الشيخ رحمه الله} و قوله[3] عز وجل: / **أعدت للمتقين**، ثم فسر الذين يتقون إلى آخر ذلك. فهو يحتمل وجهين. أحدهما أن يكون المراد مِن[4] **أعدت** [الجنة] له من جميع الذي ذكر.[5] والثاني[6] أن يريد بـ**أعدت للمتقين** الذين اتقوا الشرك، بالذي أخبر عز وجل بقوله: إنْ يَنتَهُوا يُغفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ.[7] ثم وصفهم بالذي[8] ذكر[9] من الأفعال المحمودة. لا أن ذلك بكليته شرط لأن يُعَدّ له الجنة، حتى يُحْرَمَ من لم يبلغ ذلك.

فإن كان على الأول فكأنه وَصْف النهاية[10] لمن[11] أعدت [له] الجنة. وقد يجوز أن يكون لهم اتباع في الشركة وإن[12] لم يبلغوا تلك الرتبة،[13] أو بفضل الله أو بما أعطى من ذكر فيهم من الشفاعة، أو بما شاركوا أولئك [المتقين] في أصل الاعتقاد بقبول ذلك، وإن كان منهم تقصير.

على أنه قد يذكر في كل أمر من الأمور العظيمة النهاية[14] في ذلك على مشاركة من دونهم لهم في ذلك. وعلى ذلك ما ذكر من بعث الرسل إلى الفراعنة على دخول من دونه في ذلك، وعلى مخاطبة[15] أهل الجلال في ذلك ودخول من دونهم في الحق. وكذلك ذكر الخطاب في أهل الرفعة والعلو على تضمن من دون ذلك، فكذلك الأول. وكذلك الله سبحانه

---

[1] م: ويمنعه.
[2] ع م: منهم.
[3] ع: في قوله.
[4] ك ن: ممن.
[5] أي بسبب اتصافه بما ذكر في الآيات بعدها.
[6] ن – والثاني.
[7] ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين﴾ (سورة الأنفال، ٣٨/٨).
[8] ن + وصفهم.
[9] ن ع م + هم.
[10] ع: نهاية. أي وصف النهاية في الاتقاء الذي أشير إليه بقوله: ﴿أُعدّت للمتقين﴾ وبين أوصافها بعد هذه الآية.
[11] جميع النسخ: ممن.
[12] ع م: فإن.
[13] أي في اشتراك الأوصاف الجميلة التي بين بقوله تعالى: ﴿الذين ينفقون في السراء...﴾.
[14] ن ع م: والنهاية.
[15] م: وعلى من طب.

ذكر في القرآن من الكفرة الذين جمعوا مع الكفر العناد والتمرد، وذكر أهل الإيمان الذين[١] لهم مع ذلك الخيرات مَنًّا منه أن ذكر هؤلاء بأعلى ما استحقوا من الثناء، و الأول بأعلى ما[٢] به يصيرون[٣] لمقته، من غير تخصيص في أصل له الوعد والوعيد إلا من حيث التشديد والتفصيل،[٤] فمثله الأول. [و]أيد ذلك قسمته أهل الجنة قسمين: السابقين[٥] وأصحاب اليمين.[٦] ثم قال في الذين[٧] ذكر: الذين خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا.[٨]

وقد بُين في آخر ذلك ما يدل على ذلك. وهم من ذكر من الذين يأتون الفواحش والظلم ثم لم يصروا على ما فعلوا.[٩] ويكون في ذلك وجهان. أ) أحدهما أن الله[١٠] تعالى بمنه يوفقه لما يرضيه في آخر أمره ليختمه به إذا كان - في وقت ارتكابه ما ارتكب وتقصيره فيما قصر- معتقدا جلال ربه خائفا عظمته راجيا رحمته متعرضا لما عرفه من الكرم[١١] والعفو، فيكون هو شريك من ذكر بالخاتمة[١٢] وإن كان منه تخلف عنهم[١٣] في الابتداء. **والله أعلم.**

ب) أو أن يكون يجزيه بما[١٤] قصر وفرط، حتى يطهّره مما كان [منه] من الخلط،

---

١ ع م - الذين.

٢ ك - استحقوا من الثناء والأول بأعلى ما، صح هـ.

٣ ن ع م: يصير.

٤ ن - والتفصيل.

٥ ن ع م: التابعين.

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم﴾ (سورة الواقعة، ٥٦/١٠-١٢)، ثم قال: ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ (الآية ٢٧ وما بعدها).

٧ جميع النسخ + من.

٨ ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ (سورة التوبة، ٩/١٠٠) وقال: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾ (سورة التوبة، ٩/١٠٢).

٩ أي قد ذكر بعد الآية التي نحن بصدد تأويلها الذين هم صاحب الرفعة والعلو بقوله: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾، وذكر بعدهم مَن دونهم بقوله: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله و لم يُصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٣٤-١٣٥).

١٠ ن - الله.

١١ م: الكريم.

١٢ ع م: في الخاتمة.

١٣ ن ع: عنه.

١٤ ع م: لما.

فيرجع إلى ما وافق[1] الأول في جملة الاعتقاد. فتكون[2] معدة لمن جمع[3] ذلك. والجمع يكون بالذي[4] ذكر[5] أو بالعفو والجود، إذ جعل الجزاءَ طريقُه[6] الجود والكرم، لا الاستحقاق. *والله أعلم*.

وإن كان على المعنى[7] الثاني فالآية[8] تخرج مخرج الترغيب في جميع تلك الأوصاف، وتكون الجنة في الإطلاق معدَّة للمتقين الذين اتقوا الشرك. والدرجات وما فيها من الفضائل والمراتب على قدر ما يتقي من أنواع الخلاف في الأفعال ويتوسل إلى الله تعالى بالمبادرة والمسارعة إلى ما فيه الرغائب. وعلى ذلك أمر الوعد بتفضيل[9] الدرجات في الجنة، وتفريق الدركات في النار على ما أعدت النار في الجملة للكفرة، ويتفاوت أهلها بتفاوت الأفعال من الخلاف والتمرد. *والله الموفق*.

[١٠٦و س٦] *ثم الأصل في قوله: **أعدت للمتقين**، أن من لم يبلغ بما يرتكب من المعاصي الكفرَ لم يمتنع من احتمال التسمية [بـ]المتقين، على إرادة خصوص التقوى. وهو ممتنع عن احتمال التسمية بالكفر على[10] صرف الآية في إعداد النار إلى خصوص أو عموم. فثبت به خروج صاحب الكبائر عن أهل الاسم الذي له أعدت النار، و لم يثبت خروجه عن أهل الاسم الذي له أعدت الجنة.

فالقول فيه بالقطع [بأنه] في النار –وإنما ذلك في الجنة– فاسد بأوجه. أحدها مع الإشكال فيما[11] يُحرَم الجنةَ[12] والإحاطةِ بأن النار لم تُذكَر أنها أعدت له أدخل فيها، فيكون في ذلك إسقاطُ شهادة ثبتت[13] بيقين بالشك، وإيجابُ شهادة لم تجب بالخيال.[14]

[1] ع: واقف.
[2] أي الجنة.
[3] م: جميع.
[4] ع م: للذي.
[5] أي بين أهل الرفعة والعلو وبين من دونهم.
[6] ن: طريقة.
[7] ع م: معنى.
[8] ع م: والآية.
[9] ع م: تفضيل.
[10] ع م: على ما.
[11] ن + له.
[12] ك – فالقول فيه بالقطع في النار وإنما ذلك في الجنة فاسد بأوجه أحدها مع الإشكال فيمن يحرم الجنة.
[13] ن: تثبت؛ ع م: ثبث.
[14] قال الشارح: «أعني أنه امتنع عن الشهادة بأنه ليس ممن أعدت له النار مع اليقين بأنه غير داخل في النص لانعدام الكفر، وأَقدمَ على الشهادة بأنه ليس من أهل الجنة مع الشك والخيال. وذلك فاسد محال» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٢٩و).

والثاني أن يكون في ذلك إسقاط[1] اسم العفو والرحمة؛ إذ لو لم يجعل [العفو والرحمة] لمثله[2] لبطل أن يكون له موضع لما في غيره استحقاق.[3] *والله أعلم.*

والثالث ما فيه إسقاط الموازنة وإفساد المقابلة، مع مجيء الآيات بالكتب التي تقرأ والموازين[4] التي توزن.[5] [و]مع ما في ذلك مخالفة التوهم بالكريم الذي أمرنا أن نسميه[6] بها. مع ما قد جاء من التجاوز عن السيئات والتقبل للحسنات من واحد. وفي ذلك قلب ذلك.[7] *والله أعلم.** [١٠٦و س١٥

ثم السبب الذي به يستعان على التقوى ثلاثة. أحدها أن يذكر المرء عظمته[9] وجلاله وقدرته عليه في كل أحواله، فيتقي مخالفته بالهيبة والإجلال. والثاني أن يذكر عظم منته عليه ونعمه[10] عنده وأياديه التي فيها يتقلب وبها يتمتع، فيتقيه حياء منه. والثالث أن يُذكِّر نفسه عِظم[11] نقمته الموعودة وعذابه المعدَّة لأهل الخلاف له فيتقيه[12] إشفاقا على نفسه. *والله الموفق.*

وجملة ذلك أن من تأمل ما إليه مرجعه والذي منه بدؤه، وما فيه متقلَّبه من أول أحواله إلى منتهى آجاله حتى صَيَّر ذلك كلّه كالعيان لقلبه، سَهُل عليه وجه التقوى، لما عند ذلك تذهب[13] شهواته وتضمحل[14] أمانيه. *والله الموفق.*

---

[1] ك – شهادة ثبتت بيقين بالشك وإيجاب شهادة لم تجب بالخيال والثاني أن يكون في ذلك إسقاط.

[2] أي لصاحب الكبيرة.

[3] «أي إن العفو عن صاحب الصغيرة واجب عند المعتزلة» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٢٩و).

[4] ع م: الموازين.

[5] أي قد ورد في القرآن الكريم آيات تخبر عن قراءة العباد كتب أعمالهم ووضع الموازين القسط يوم القيامة لوزن الأعمال؛ مثل قوله تعالى: ﴿وكلَّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/١٣-١٤)، وقوله: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقالَ حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/٤٧).

[6] ع: أن يسميه.

[7] ن – ذلك. لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسنَ ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعدَ الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ (سورة الأحقاف، ٤٦/١٦).

* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية ١٣٤ فقدمناه إلى هنا. انظر: ورقة ١٠٦و/سطر٦-١٥.

[9] أي عظمة الله تعالى.

[10] ن: ونعمته.

[11] ك: عظيم.

[12] ع: ويتقيه.

[13] ك: يذهب.

[14] جميع النسخ: ويضمحل.

﴿اَلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[١٣٤]

وقوله عز وجل: **الذين ينفقون في السراء**. قيل: **السراء** الرخاء، **والضراء** الشدة، وقيل: **السراء** السعة، **والضراء** الضيق، وهو واحد. وقيل: **السراء** ما يسره[١] الإنفاق [عليه] من نحو الولد وغيره؛ يسره الإنفاق عليه، والأجنبي يضره. وعلى التأويل[٢] الأول أن[٣] الإنفاق في حال الرخاء والسعة أيسر وأهون[٤] على المرء من الإنفاق في حال الضيق والفقر، فإذا أنفق في [جميع][٥] الأحوال استوجب[٦] بذلك[٧] المدح. *والله أعلم*.

والسبب الذي ييسر[٨] عليه الأمر[٩] وجهان. أحدهما علمه بأن الذي في يده [هو] في الحقيقة في يد الله،[١٠] فهو يصرف ذلك حيث يصرفه لم يخرجه [إلا] من يد من[١١] يده[١٢] في يده، كأنه يُعَدّ في يده[١٣] [تعالى].

والثاني بعلمه[١٤] بجود ربه وقدرته، حيث يكون ذلك فيما به قضاء حاجته والوصولُ إلى منفعته. مع ما يعلم بالجود وكثرة الانتفاع بما لا ملك للمنتفع به، وحرمان ذي الملك[١٥] فيه.

{قال الشيخ رحمه الله} في قوله: **الذين ينفقون في السراء والضراء**، يحتمل فيما يسرهم ويضرهم، أو في حال يسر وعسر، أو حال بلاء ونعمة.

---

[١] جميع النسخ: ما يسرهم.
[٢] جميع النسخ: وعلى تأويل.
[٣] ن – أن.
[٤] ك: أهون وأيسر.
[٥] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٢٩و.
[٦] م: يستوجب.
[٧] ع: ذلك.
[٨] جميع النسخ: تيسر.
[٩] أي «يسهل سبيل الإنفاق في جميع الأحوال» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٢٩و).
[١٠] م: في يدك.
[١١] ع: من يده.
[١٢] ع – يده.
[١٣] م – كأنه يعد في يده.
[١٤] ن: يعلمه؛ ع: يعلم.
[١٥] ك ن ع + ذلك.

ثم السبب الذي يُسهّل سبيل الإنفاق في تلك الأحوال -وإن كان بالذي ذكر في تسهيل التقوى هذا[١]- وجوه ثلاثة. أحدها أن ترى [أن] ما في يدك [هو] لمن له يدك، [وهو] امتحنك بحق ذلك وحفظه، وأنك إذا بذلته [لغيرك] ارتفعت عنك مؤنة الحفظ ومراعاة الحق. على ما لم يكن زال عنك نفعه الذي كان له وقت كونه في يدك، إذ هو بعد البذل [يكون] في يد من يدك قبله في يده [وهو الله تعالى].[٢] فكأنه لم يخرج من يدك بحيث النفعُ، وإنما سقطت عنك ما ذكرتُ من المؤنة؛ إذ معلوم وجود مالك[٣] في الظاهر لا منتفِعٌ به، ومن لا ملك له في الشيء منتفعٌ به، / على العلم باستواء الأمر على من له بُذلت. ***والله أعلم***. [١٠٦و]

والثاني أن يَشعُرَ[٤] قلبك جوده بمن[٥] آثره على ما عنده، وقدرتَه على إعطائه إياه من خزائنه التي لا تنفَد ولا يتعذر عليه. فتُيقّن بذلك وتعلم أنه تعالى على الإيصال إليك ما لم يكن يوصله وعلى ما أعطاك وأوصلك[٦] في القدرة واحد، فيهون عليه ذلك. ***والله أعلم***.

والثالث أن يعلم[٧] [العبد] أن الذي عليه جبل[٨] وإليه دفع ليس للوقت الذي [هو] فيه، ولكن ليتزود لمعاده[٩] ويكتسب به الحياة الدائمة والمنفعة التي لا تنفد، فيصيرَ كبائع الشيء بأضعاف ثمنه، أو باذلِ ما فيه فِكاكُ[١٠] رقبته، أو كمقدم ما يمتهن إلى مكان مهنته، أو كمن يَعدّ الشيء في مسكنه لوقت حاجته، فإن مثله آثرُ شيءٍ[١١] في الطبيعة[١٢] وآلف[١٣] شيء في العقل. ***ولا قوة إلا بالله***.*

---

[١] «وإن كان هو السبب في تسهيل التقوى» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٢٩و).
[٢] والزيادات من *الشرح*، ورقة ١٢٩و.
[٣] ع: هالك.
[٤] جميع النسخ: أن تشعر.
[٥] ك ن م: من.
[٦] جميع النسخ: وتعلم أنه لك على الإيصال إليه فيما لم يكن أوصله على ذلك فيما أعطاه؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٢٩و.
[٧] ن ع م: أن تعلم.
[٨] ن: جبل عليه.
[٩] ن ع: لمعادة.
[١٠] م: فكأن.
[١١] ع م: الشيء.
[١٢] ن: على الطبيعة.
[١٣] ع م: والذي.
* وقع هنا قسم من تفسير الآية ١٣٣ فقدمناه إلى موضعه؛ انظر: ورقة ١٠٦و/سطر٦-١٥.

وقوله عز وجل: **والكاظمين الغيظ.** روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه[١] قال: «من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ملأه الله أمنا وإيمانا».[٢] فالغيظ[٣] كأنه متردد بين الحزن والغضب، الحزن[٤] على من فوقه والغضب على من دونه، والغيظ بين ذلك. مدحهم عز وجل بترديد حزنهم وغيظهم في أجوافهم.

وقوله عز وجل: **والعافين عن الناس،** أي عمن ظلمهم.[٥] وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه[٦] قال: «ما عفا رجل عمن ظلمه إلا زاده الله بها[٧] عزا».[٨] ومن عفا عن الناس عن مظلمة فقد أحسن بذلك، كما يقال: فلان يحسن [بِ]كذا و[فلان] لا يحسن.

وقوله عز وجل: **والله يحب المحسنين.** والإحسان يحتمل وجهين. يحتمل العلم والمعرفة. ويحتمل أن يفعل[٩] فعلا ليس عليه من نحو المعروف والأيادي الذي ليس عليه، إنما فعله [على] الإفضال.

ذَكر هاهنا المحسنين وحبه [إياهم] وأخبر في الآية الأولى أن الجنة أعدت للمتقين، بقوله عز وجل: وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، ثم قال: أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ،[١٠] وأخبر: أن النار أعدت للكافرين.[١١]

ثم اختلفوا فيه، قال بعضهم: من لم يكن من المتقين لم تُعَدّ الجنة له، فهو ممن أعدت له النار. وهو قول الخوارج والبغاة. وقال آخرون: إنه أخبر أن النار أعدت للكافرين، فهو إذًا لم يكن كافرًا ممن أعدت له النار، فهو ممن أعدت[١٢] له الجنة. وقال غيرهم: أخبر أن النار أعدت للكافرين وأخبر أن الجنة أعدت للمتقين. فوصف المتقين بأنهم[١٣] الذين اتقوا معاصيه[١٤] وتركوا مخالفة أمره ونهيه.

---

[١] ن ع – أنه.
[٢] *تفسير الصنعاني* لعبد الرزاق، ١/١٣٢؛ و*تفسير الطبري*، ٤/٩٤؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٢/٣١٦.
[٣] جميع النسخ: والغيظ.
[٤] جميع النسخ: والحزن.
[٥] ع: ظلمه.
[٦] ك ن – أنه.
[٧] ن – بها.
[٨] *مسند أحمد بن حنبل*، ١/١٦٣؛ ٢، ٢٣٥، ٤٣٨؛ و*سنن الترمذي*، البر ٨٢.
[٩] ع: أن يفعله.
[١٠] الآية السابقة.
[١١] سورة آل عمران، ٣/١٣١.
[١٢] ع – لهم النار فهو ممن أعدت.
[١٣] جميع النسخ: فهم.
[١٤] ع + فوصف المتقين فهم الذين اتقوا معاصيه.

فإذا كان قوم لهم مساوئ لم يدخلوا في إطلاق قوله عز وجل: أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، ولا دخلوا في قوله: أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ، فيكون لهم موضع[١] بالنار.

وأما عندنا فإنه يرجى دخول من ارتكب المساوئ من المؤمنين في قوله عز وجل: وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا، كذا، أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ،[٢] بقوله عز وجل:[٣] وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، ذكر خلط عمل الصالح بعمل السيئ، ثم وعد لهم التوبة بقوله عز وجل: عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ،[٤] و«عسى»[٥] من الله واجب. والثاني قوله عز وجل: أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ،[٦] أخبر أنه يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم،[٧] فإذا تجاوز لم يبق لهم مساوئ فصاروا من أهل هذه الآية: أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ.[٨]

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[١٣٥] ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[١٣٦]

وقوله:[٩] **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم،** [و]قالوا: **ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون.** أخبر أنهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم [ذكروا الله]. وقد ذكرنا فيما تقدم[١٠] أنهم لأي معنى ظلموا أنفسهم، حيث لم يُسلموا أنفسهم لله[١١] خالصين. والظلم هو وضع الشيء في غير[١٢] موضعه؛

---

[١] جميع النسخ: موضعا.

[٢] الآية السابقة.

[٣] ن + وجنة عرضها كذا أعدت للمتقين بقوله عز وجل.

[٤] ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾ (سورة التوبة، ١٠٢/٩).

[٥] جميع النسخ: والعسى.

[٦] ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ (سورة الأحقاف، ١٦/٤٦).

[٧] ك ع م – أخبر أنه يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم.

[٨] ع م + وقوله للمتقين.

[٩] جميع النسخ + أيضا.

[١٠] انظر عند تأويل قوله تعالى من هذه السورة ١١٧/٣.

[١١] ع م – لله.

[١٢] ع: غير.

فإذا لم يسلموا [أنفسهم] له [فقد] وضعوا أنفسهم في غير موضعها، لذلك صاروا ظلمة أنفسهم.

ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم [ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا]، أي طلبوا لذنوبهم مغفرة، وأقروا أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، و لم يصروا على ذنوبهم. والإصرار هو الدوام عليه. ثم أخبر أن جزاء هؤلاء المغفرةُ من ربهم، وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، إلى آخر ما ذكر.

دلت هذه الآيات على تأييد قولنا: إن أهل المساوئ والفواحش إذا تابوا صاروا ممن
[١٠٦ظ] أعدت لهم الجنة وإن لم يكونوا من المتقين من قبل. فمثله / إذا تجاوز الله عن سيئاتهم وعفا عنهم[١] بما هو عفو غفور. ***والله أعلم.***

{قال الشيخ رحمه الله} في قوله عز وجل: **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم،** الآية. يحتمل أن يكون الظلم غير الفاحشة، ويحتمل أن يكونا واحدا في المراد؛ إذ قد يكون في المعنى أن كل عاص ظالم لنفسه، بمعنى [أنه] ضرها، وبَخَس[٢] لِحَظّها، إذ فعل ما[٣] ليس له فعله،[٤] ووضع اختياره في غير موضعه، وهما معنيا الظلم. وكذلك من تعدى حد الله، أو آثر ما يزجره العقل والشرع فقد فَحش فعلُه، وذلك معنى الظلم الذي وصفت، إذ فَعَل ما ليس له [فعله]، واختار[٥] غير الذي له، [و]هو الذي يزجره العقل والشرع. ***والله أعلم.***

ويحتمل التفريق، وهو أن الظلم [اسم لما][٦] يجمع كل وجوه الخلاف عظم أو صغر. ولذلك قد نسب ذلك إلى زلات الأخيار، نحو ما قيل لآدم عليه السلام وحواء في أكل الشجرة: فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ،[٧] وقيل في الشرك: وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.[٨] والفواحش ما يظهر ويتبين قبحه

---

[١] م: وعفاهم.

[٢] ن ع م: ويحسن.

[٣] ن ع م + هو.

[٤] جميع النسخ: الفعل.

[٥] جميع النسخ: واختاره.

[٦] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٢٩ظ.

[٧] ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ (سورة البقرة، ٢/٣٥).

[٨] ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فَبُهِت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٥٨).

-لا ما قلّ أو كثر- من الذنوب.[١] وعلى ذلك سمي[٢] النقصان ظلما بقوله عز وجل: وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا.[٣] وقد يوصف العيب والنقصان بالفحش، لكنه إذا كثر وظهر [صار هذا] فمثله في الزلات.[٤] ويكون كالطيّب في المحلّلات من المباح ونحوه في الدرجة.[٥] *والله أعلم*.

ثم ليس بنا حاجة إلى معرفة المقصود بالذكر في الآية؛ لما فيها الرجوع عن ذلك وطلب المغفرة. وكل أنواع المآثم بالتوبة يغفر، بما وعد الله في الشرك والزنا والقتل [و]فيما دونه، بقوله: يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،[٦] إلى تمام[٧] الآية. *والله أعلم*.

وقوله: **إذا فعلوا فاحشة**، تحتمل[٨] الفاحشة ما فحش في العقل وقبح. وقال آخرون: كل محرم منهي [عنه] فهو فاحشة. والأول كأنه أقرب؛ لأن الشيء ما لم يبلغ في الفحش والقبح غايته فإنه لا يقال فاحشة، وإذا بلغ الغاية فحينئذ [يقال له]، كالطيّب أنه إنما يقال[٩] ذلك إذا بلغ غايته في الحل واللذة. فأما أن يقال لكل حل في الإطلاق طيبا فلا. فعلى ذلك الفواحش لا يقال لكل محظور محرّم، إنما يقال [ا]ما بلغ في القبح والفحش غايته، فأما أن يقال ذلك لكل محرم منهي [عنه] فلا. *وبالله التوفيق*. والطيب ما استطابه الطبع، فإذا بلغ طِيبه غايتَه في الطبع فهو طيّب. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **وهم يعلمون**، أنها معصية فلا يقيمون[١٠] عليها ولكن يتوبون [عنها]، فمن تاب من ذنبه فجزاؤه ما ذكر.[١١]

---

[١] جميع النسخ: في الذنوب.
[٢] م - سمي.
[٣] ﴿كلتا الجنتين آتت أُكُلَها و لم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا﴾ (سورة الكهف، ٣٣/١٨).
[٤] أي الزلات إذا كثرت وظهرت توصف بالظلم.
[٥] «كما قيل في المحللات إذا بلغ غايته: طيبا، ولا يقال لمطلق المباح ذلك. فكذا هذا» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٣٠و).
[٦] ﴿والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما﴾ (سورة الفرقان، ٦٨/٢٥-٧٠).
[٧] ك: آخر.
[٨] ع: يحتمل.
[٩] ع م - إنما يقال.
[١٠] ك ن: فلا يقيموا.
[١١] ك - ما ذكر؛ ع م - وقوله عز وجل وهم يعلمون أنها معصية فلا يقيمون عليها ولكن يتوبون فمن تاب من ذنبه فجزاؤه ما ذكر.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[١٣٧]

وقوله عز وجل: **قد خلت من قبلكم سنن**، يحتمل أحكاما. والأحكام تكون على وجهين. حكم يجب لهم، وهو الثواب عند الطاعة واتباع الحق. [والآخر يجب عليهم] و[هو يقتضي ال]عذاب [الذي] يحل بهم عند الخلاف والمعصية. ويحتمل السنن الأحكام المشروعة.

فسيروا في الأرض حتى تروا آثار من كذّب الرسل وما حلّ بهم من العذاب بالتكذيب. أو سيروا في الأرض، أي سَلُوا من يعلم ما الذي حل بهم حتى يخبروكم[1] [ب]ما[2] مضى من الهلاك في الأمم الخالية. فهذا تنبيه من الله عز وجل إياهم أنكم إن كذّبتم[3] الرسول فسيحل[4] بكم ما قد[5] حل بمن كان قبلكم، وإن أطعتم الرسول صلى الله عليه وسلم فلكم من الثواب ما لهم. فاعتبروا به كيف كان جزاؤهم بالتكذيب. وما في القرآن مثل[6] هذا فمعناه لو سألت لأخبروك. وقيل: **سيروا في الأرض**؛ أي تفكروا في القرآن يخبركم عن الأمم الماضية، فكأنكم سرتم في الأرض. وما في القرآن مثل هذا فمعناه لو سالت لأخبروك؛ فإن فيه خبرَ من كان قبلكم من الأمم، وما لهم من الثواب بالتصديق والطاعة وما عليهم من العقاب بالتكذيب. ***والله أعلم***.

وقوله[7] عز وجل: **قد خلت من قبلكم سنن**، يحتمل في المكذبين بالرسل والمصدقين. **فسيروا في الأرض**. يحتمل: لو سرتم فيها لرأيتم آثارهم ولعرفتم بذلك ما إليه يرجع عواقب الفريقين. ويحتمل الأمر بالتأمل في آثارهم والنظر في الأنباء عنهم، ليكون لكم[8] به العبر وعما هم عليه مَزْجَر. ويحتمل السنن الموضوعَ من الأحكام وبما به امتحنَ من قبلَهم، ليعلموا أن الذي بُلُوا به ليس ببديع بل [كان] على ذلك أمر من تقدمهم، كقوله: مَا كُنتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ،[9] وكقوله عز وجل: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ.[10] ***والله أعلم***.

---

[1] ك: يخرجوكم.
[2] ع م: وما.
[3] ن ع: كذبت.
[4] جميع النسخ: فيحل.
[5] ع: قل؛ م – قد.
[6] ك + مثل.
[7] جميع النسخ: وفي قوله.
[8] جميع النسخ: له.
[9] ﴿قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يُفعَل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين﴾ (سورة الأحقاف، ٩/٤٦).
[10] سورة آل عمران، ١٤٤/٣.

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١٣٨]

وقوله عز وجل: **هذا بيان للناس**، يحتمل قوله: **هذا بيان**، يعني القرآن، هو **بيان للناس**، **وهدى** من الضلالة، **وموعظة للمتقين**، أي يتعظ به المتقون. ويحتمل: **بيان للناس**، ما ذكر من السنن التي [قد خلت] في الأمم الخالية.*

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١٣٩]

وقوله: **ولا تهنوا** ولا تضعفوا في محاربة العدو، **ولا تحزنوا** بما يصيبكم من الجِراحات والقروح، كقوله تعالى: إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ.[٢] ويحتمل قوله عز وجل: **ولا تهنوا**، في الحرب وأنتم تعملون[٣] لله؛ إذ هم لا يضعفون فيها وهم يعملون للشيطان.

وقوله عز وجل: **ولا تحزنوا**، على ما فاتكم من إخوانكم الذين قُتِلوا. ويحتمل: [على] ما أصابكم من القروح،[٤] أي تلك القروح والجِراحات لا تمنعكم عن قتال العدو، ولكم الأجر والشهادة.

وقوله عز وجل: **وأنتم الأعلون**، / قيل فيه بوجوه. قيل: **وأنتم الأعلون** في الآخرة، [١٠٧و] وقيل: **الأعلون**[٥] المحقُّون بالحجج، وقيل: **وأنتم الأعلون** في النصر، أي ترجع[٦] عاقبة الأمر إليكم. ويحتمل أن النصر لكم إن لم تضعفوا في الحرب ولم تعصوا الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم. ويحتمل: **وأنتم الأعلون**، لكم الشهادة إذا قتلتم، و[تكونون] أحياء عند الله وهم أموات.

وقوله عز وجل: **إن كنتم مؤمنين**، إذ كنتم مؤمنين. ليس على الشرط ولكن على الخبر، كقوله عز وجل: وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ،[٧] أي إذ كن يؤمن بالله.[٨] و **إن كنتم مؤمنين**، بالوعد والخبر.[٩]

---

* ورد هنا جزء من تفسير الآية ١٤٠، فنقلناه إلى موضعه. انظر: ورقة ١٠٦ظ/سطر ٣٣-٣٥.
[٢] جزء من الآية التالية.
[٣] ك م: تعلمون.
[٤] ن + والجراحات.
[٥] م – في الآخرة وقيل الأعلون.
[٦] ك: يرجع.
[٧] سورة البقرة، ٢٢٨/٢.
[٨] ك – بالله.
[٩] ك: والخير؛ ن: بالخبر والوعد.

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[١٤٠]

وقوله: **إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله**، اختلف فيه. قيل: **إن يمسسكم قرح** في آخر الأمر[١] -يعني في أُحُد- **فقد مس** المشركين **قرح مثله** يومَ بدر. يذكر هذا -والله أعلم- على التسكين ليعلموا أنهم لم يُخَصّوا بذلك.

وقوله: **وتلك الأيام نداولها بين الناس**، يحتمل الآية وجوها. [يحتمل]:[٢] يوما للمؤمنين ويوما عليهم. وذلك أن الأمر بمجاهدة العدو والقتال معهم محنة من الله عز وجل إياهم[٣] يمتحنهم ويبتليهم، مرة بالظفر لهم والنصر على عدوهم، ومرة بالظفر للعدو[٤] عليهم، كقوله عز وجل: وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً،[٥] وكقوله تعالى: وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ،[٦] يمتحن عباده[٧] بجميع أنواع المحن: بالخير مرة، وبالشر ثانيا. ويحتمل المداولة أيضا[٨] وجها آخر، وهو أن الظفر والنصر لو كان أبدا للمؤمنين لكان الكفار إذا أسلموا لم يسلموا[٩] إسلام اختيار، ولكن إنما آمنوا إيمان قهرٍ وكره وجبر، لما يخافون على أنفسهم من الهلاك إذا رأوا الدولة والظفر للمؤمنين [أبدًا]. ولو كان[١٠] الظفر والنصر أبدا للكفار فلعلهم يظنون أنهم المحقون فيمنعهم ذلك عن الإسلام. ويحتمل أن ما يصيب[١١] للمؤمنين إنما يصيب بمعصية سبقت منهم أو خلاف كان منهم من ترك أمر أو ارتكاب نهي. ***والله أعلم***.

فإن طعن طاعن من الملحدة في قوله عز وجل: إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ،[١٢] وقوله عز وجل: إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ،[١٣] [قائلا]: أليس [الله] وعد أنكم إن نصرتم دينه ينصركم،

---

[١] ك: الآية؛ ك (هـ): الأمر.
[٢] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٣٠و.
[٣] ع م – إياهم.
[٤] ك: بالنصر، صح هـ.
[٥] سورة الأنبياء، ٣٥/٢١.
[٦] سورة الأعراف، ١٦٨/٧.
[٧] ك – عليهم كقوله عز وجل ونبلوكم بالشر والخير فتنة وكقوله وبلوناهم بالحسنات والسيئات يمتحن عباده.
[٨] ع + وكقوله تعالى وبلوناهم بالحسنات والسيئات.
[٩] ع – لم يسلموا.
[١٠] ك ع: وإن كان.
[١١] ن – ولو كان الظفر والنصر أبدا للكفار فلعلهم يظنون أنهم المحقون فيمنعهم ذلك عن الإسلام ويحتمل أن ما يصيب؛ ع – ما يصيب.
[١٢] ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ (سورة محمد، ٧/٤٧).
[١٣] سورة آل عمران، ١٦٠/٣.

وأخبر أيضا أنه إن نَصَركم فلا غالب لكم، فإذا نصرتم دينه فلم ينصركم أليس يكون خلفا في الوعد، وإن نصركم[1] فغلبتم يكون كذبا في الخبر؟

قيل: لهذا جواب من أوجه. قيل: يحتمل قوله عز وجل [إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ]،[2] إن تنصروا دين الله في الدنيا ينصركم في الآخرة [ويحتمل: إن تنصروا دين الله ينصركم في الدنيا][3] بالحجج،[4] كقوله عز وجل: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا،[5] الآية، وكقوله عز وجل: وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً.[6] وقيل: إن تنصروا دين الله ولم تعصوا الله فيه ينصركم فلا غالب لكم. وقيل: يحتمل إن تنصروا دين الله جملة ينصركم، [وهو] كقوله صلى الله عليه وسلم: «لن يغلب اثنا[7] عشر ألفا من قلة، كلمتهم واحدة»،[8] وكقوله عز وجل: وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ.[9] وقيل: إن تنصروا دين الله ينصركم، أي يجعل الظفر والنصر في العاقبة لكم. وكذلك كان[10] وإن كان في ابتداء الأمر الغلبة على المؤمنين، فإن العاقبة لهم في الحروب كلها. ومقدار ما كان عليهم إنما كان لأمر سبق منهم: إما إعجابا بالكثرة، كقوله تعالى: إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا،[11] وإما خلافا لرسول الله صلى الله عليه وسلم.[12]

وفي قوله عز وجل: **وتلك الأيام نداولها بين الناس**، دلالةُ أنْ كان من الله معنى لديه تكون الغلبة لهم، بقوله عز وجل: إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ،[13] و[إلا] لكان هو يجعل أبدا الدولة لأحد الفريقين -وقد أخبر أنه يجعل لهما- ومعلوم أن كانت الدولة بالغلبة.

---

[1] ك ن: أو إن نصركم.

[2] سورة محمد، ٧/٤٧.

[3] والزيادات من *الشرح*، ورقة ١٣٠و.

[4] «وبالحج وإظهار ما على الكفرة، والغلبة والإلزام عليهم» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٣٠و).

[5] ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ (سورة المؤمن، ٥١/٤٠).

[6] سورة النساء، ١٤١/٤.

[7] جميع النسخ: اثني.

[8] *مسند أحمد بن حنبل*، ٢٩٤/١، ٢٩٩؛ *وسنن ابن ماجة*، الجهاد ٢٥؛ *وسنن أبي داود*، الجهاد ٨٢.

[9] ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾ (سورة إبراهيم، ٣٤/١٤).

[10] م - كان.

[11] ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم ولّيتم مدبرين﴾ (سورة التوبة، ٢٥/٩).

[12] «كما في حرب أحد، حيث خالفه الرماة ولم يثبتوا في المكان الذي أمرهم» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٣٠و).

[13] سورة آل عمران، ١٦٠/٣.

فثبت أنه[1] من الله في صنع العباد صنعا،[2] له[3] أضيف إليه صنعهم.[4] *والله أعلم*.

[١٠٦ظ س٣٣ *[و]دل [أيضا] قوله عز وجل: **وتلك الأيام نداولها بين الناس** أن لله في صرف الدولة إلى أهل الشرك فعلا وتدبيرا،[5] إذ أضاف[6] إليه ما به الدولة. ثم ذلك معصية وقهر وتذليل، فثبت جواز كون ما هو فعلُ معصيةٍ [مضافا] إلى الله من طريق التخليق والتقدير. والله أعلم

١٠٦ظ س٣٥] أن ذلك لهم بما هم عصاة به.[7] *والله اعلم*.[8]*

ثم معلوم أن الغلبة لو كانت للمسلمين [ل]كان ذلك ألزم للحجة وأظهر للدعوة وأدعى إلى الإجابة،[10] وفيها كل صلاح؛ فثبت أن ليس في المحنة شرط إعطاء الأصلح. *والله أعلم*.

وفي قوله عز وجل: **وتلك الأيام نداولها بين الناس** رد قول الأصلح، حيث قالوا: إن الله لا يفعل إلا الأصلح في الدين. يقال لهم: أيّ صلاح للمؤمنين في مداولة الكافرين على المؤمنين؟

وقوله عز وجل: **وليعلم الله الذين آمنوا**، أي ليعلم – ما قد علم بالغيب أنه يؤمن بالامتحان– مؤمنا شاهدا، وليعلم ما قد علم أنه يكون كائنا. وجائز[11] أن يراد بالعلم المعلوم، كقولهم:[12] الصلاة أمر الله، أي بأمر الله.[13]

وقوله[14] عز وجل: **وليعلم الله الذين آمنوا**، الآية، تخرج على أوجه. أحدها أن ما وصفتَ الله به إذا ذكرتَ معه الخلق تذكر وقت كون الخلق لئلا يتوهم قدمه، فإذا[15] وصفت الله تعالى

---

[1] جميع النسخ: أن.

[2] جميع النسخ: صنع.

[3] ع: لهم. أي لهذا السبب.

[4] ع م: صنيعهم.

[5] جميع النسخ: فعل وتدبير.

[6] جميع النسخ + ذلك.

[7] ع م – به. أي والله تعالى يعلم أن غلبة المشركين على المؤمنين فعل لهم، وهم يصيرون عصاة بهذا الفعل.

[8] «وهذه الآية حجة أيضا على أن الله تعالى يخلق المعصية لما ذكرنا، وأن إضافة إثبات الدولة إلى الله تعالى دليل على أن له في صرف الدولة إلى أهل الشرك فعلا وتدبيرا. والدولة إنما تكون لغلبة المشركين؛ ومعلوم أن ذلك منهم معصية. فدل على جواز إضافة ما هو فعل معصية إلى الله تعالى من حيث التخليق والتقدير» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٣٠و).

* وقع ما بين النجمتين متقدما على موضعه فنقلناه إلى هنا. انظر: ورقة ١٠٦ظ/سطر٣٣-٣٥.

[10] ك: للإجابة.

[11] ك ع: وجائزا.

[12] جميع النسخ: كقوله.

[13] أي وتكون هي شيئا مأمورا من طرف الله.

[14] ك ع: وفي قوله.

[15] جميع النسخ: وإذا.

بلا ذكر الخلق وصفته به في الأزل، نحو أن تقول: عالم، قادر، سميع في الأزل. فإذ ذكرت المسموع والمقدور عليه والمعلوم ذكرت وقت كونه، لتزيل توهم القدم عن الآخر.[١] وعلى هذا عندنا القول بخالق، ورازق[٢] ونحو ذلك. *والله أعلم*.

والثاني على تسمية معلومه علما في مجاز اللغة، وذلك كما سُمّي عذاب الله في القرآن أمرَه،[٣] وسَمّى الناس الصلاة وغيرها من العبادات أمره على معنى أنها تفعل بأمره، وكذلك ما سميت الجنة رحمته[٤] على أن كان بها؛ فيكون **ليعلم الله الذين آمنوا**، أي ليكون الذين آمنوا على ما علمه يكون. *والله أعلم*.

والثالث: **ليعلم الله / الذين آمنوا** في الغيب شهودا، إذ هو[٥] عالم الغيب والشهادة، وتحقيق ذلك لا يكون بحادث العلم.[٦] وذلك نحو[٧] من [يريد أن] يعلم الغد يكون يعلمه[٨] بعد الغد،[٩] و لم[١٠] يكن له حدوث العلم قد كان.[١١] وعلى[١٢] هذا قيل: ليعلمه كائنا لوقت كونه ما قد علمه يكون قبل كونه. *والله أعلم*. وقال بعض أهل التأويل: ليكون الذي علمه يكون بالمحنة ظاهرا موجودا، وهو يرجع إلى ما بينا. وقال بعضهم: [معناه] ليراه. وهذا –من صاحبه– ظَنٌّ [يظن هو] أن الكلام في الرؤية لعله أيسر وعن الشُّبه[١٣] أبعد.[١٤] وعند[١٥] من يعرف الله حق المعرفة هما واحد. [١٠٧ظ]

---

[١] ع: على الآخر.

[٢] ك ن ع: رازق؛ م: ورزاق.

[٣] انظر مثلا: سورة هود، ١١/٤٣، ٧٦؛ وسورة النحل، ١٦/٣٣.

[٤] انظر مثلا: سورة آل عمران، ٣/١٠٧؛ وسورة النساء، ٤/١٧٥؛ وسورة الأعراف، ٧/١٥١؛ وسورة الجاثية، ٤٥/٣٠.

[٥] ن – هو؛ ك: بذي، ك هـ: هو.

[٦] «والثالث أي وليعلم الله الذين آمنوا بالغيب شهودا إذ هو عالم الغيب والشهادة. وتحقيق ذلك لا يكون بحادث العلم بل الحدوث على المعلوم. فإنه في الأزل حكم على المعدوم أن يكوّنه، ثم إذا حدث ذلك المعدوم علمه موجودا كائنا بذلك العلم الذي علمه أن يكون في حادث الوقت. والتغير والحدوث على المعلوم» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٣٠ظ).

[٧] ن + ذلك.

[٨] ن ع م: بعلمه.

[٩] أي وقت دخول الغد.

[١٠] جميع النسخ: وإن لم. والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١٣٠ظ.

[١١] لعله يريد أن يقول: و لم يكن بحدوث العلم له غدا أنه قد كان يعلمه قبل الغد. فبهذا المثال يريد أن يفصل بين علم الخالق وبين علم المخلوق.

[١٢] ع: على.

[١٣] م: وعن التشبيه.

[١٤] أي معنى قوله تعالى: ﴿وليَعلَم الله الذين آمنوا﴾: وليرى الله الذين آمنوا. ويظن صاحب هذا القول أن تأويل العلم هنا بالرؤية يمكن أن يكون أيسر للفهم وأقرب إلى مراد الله تعالى، مع كونه أبعد عن الشبه.

[١٥] ع م: وعنه.

والأصل في هذا ونحوه من الإضافات[١] إلى الله أنها كانت بالأحرف المجعولة المتعارف في الخلق. ثم هي تؤدي[٢] عن كل ما[٣] يضاف إليه ويشار إليه ما كان عُرف من حال ذلك قبل الإضافة، لا أن نقدّر[٤] عند[٥] الإضافة معنى لا نعرفه[٦] به لولا ذلك،[٧] على ما عُرف من الاشتراك في اللفظ والاختلاف في المعنى، فعلى ذلك أمر الإضافة إلى الله تعالى. ويوضّح ذلك ما لم يَفهم أحد من قوله عز وجل: وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ،[٨] ما فهم من إضافة الحدود إلى غيره. وكذلك بيوت الله،[٩] وعباد الله،[١٠] وروح الله، وكلمته،[١١] ونحو ذلك، فمثله الذي نحن فيه.

وجائز في الجملة أن يوصف الله بأنه لم يزل عالما[١٢] بكون[١٣] كل ما يكون كيف يكون، وفي وقت كونه كائنا، وبعد[١٤] كونه قد مضى كونه، على تحقيق التغير في أحوال الذي يكون، لا في الله سبحانه وتعالى؛ إذ تغير الأحوال واستحالتها من آيات الحدث[١٥] وأمارات الصنعة.

---

[١] جميع النسخ: في الإضافات.
[٢] ع: يودي؛ م: تؤذي.
[٣] جميع النسخ – ما؛ ك: صح هـ.
[٤] جميع النسخ: لا أن يقدر.
[٥] ع م: وعنه.
[٦] ن ع م: لا يعرفه.
[٧] أي لولا ذلك الإضافة والإشارة.
[٨] ﴿وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٣٠؛ وانظر أيضا سورة المجادلة، ٥٨/٤).
[٩] لا تضاف البيوت بصيغة الجمع إلى الله تعالى في القرآن الكريم؛ ولكن فيه إضافات بالمفرد، كما في قوله تعالى: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/٣٧؛ وانظر أيضا: سورة البقرة، ٢/١٢٥؛ وسورة الحج، ٢٢/٢٦.
[١٠] ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ (سورة الصافات، ٣٧/٤٠؛ وانظر أيضا: الآية، ٧٤، ١٢٨، ١٦٠، ١٦٩؛ وسورة الدخان، ٤٤/١٨؛ وسورة الإنسان، ٧٦/٦).
[١١] ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ (سورة النساء، ٤/١٧١)؛ وانظر: *المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم* لمحمد فؤاد عبد الباقي، «روح»).
[١٢] جميع النسخ: عالم.
[١٣] ع م: يكون.
[١٤] ع م: بعد.
[١٥] ع: الله.

*وقوله عز وجل: **ويتخذ منكم شهداء**، أي يُستَشهدون في سبيل الله بأيدي عدوهم. ويحتمل: **ويتخذ منكم شهداء** على الناس، كقوله عز وجل: وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ.[٢] وفيه دلالة أنهم لا يستوجبون بنفس الإيمان الشهادة على الناس حتى تظهر[٣] الصيانة والعدالة في أنفسهم.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[١٤١]

وقوله عز وجل: **وليمحص الله الذين آمنوا**، أي يمحص ذنوبهم وسيئاتهم.

وقوله عز وجل: **ويمحق الكافرين**، أي يهلكهم ويستأصلهم.

وقوله عز وجل: **وليمحص الله الذين آمنوا**، [هو] ما ذكرنا من تمحيص الذنوب على ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «السيف مَحَّاءٌ للذنوب».[٤] **ويمحق الكافرين**، أي يهلكهم، ولا يكون السيف تمحيصا لهم من الكفر، بل يهلكهم في النار.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[١٤٢]

وقوله عز وجل: **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة**، قيل: بل حسبتم أن تدخلوا الجنة. **ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم**، قيل فيه بوجهين. قيل: **ولما يعلم الله**، أي و لم يعلم الله الذين جاهدوا منكم، أي لم يجاهدوا. وقيل: **ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم**؛ **ولما** بمعنى إلا يعلم، بمعنى لا يدخلون[٥] الجنة إلا أن يعلم الله الذين جاهدوا منكم، وهو كقوله عز وجل: إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ،[٦] من قرأ بالتشديد فكان معناه: إلّا عليها حافظ. ومن قرأ بالتخفيف فمعناه: لَعَلَيْها حافظ، و ما صلة.*

*{قال الشيخ رحمه الله} في قوله عز وجل: **ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم**: قيل فيه بوجهين. أحدهما و لم يَعلَم، وهو يخرج على وجهين. أحدهما على إثبات أنه علم أنهم[٧] لم يجاهدوا،

---

* وقع هنا مقطع من تفسير الآية الآتية برقم ١٤٢ متقدما على موضعه، فأخرناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ١٠٧ظ / سطر ١٢-٢٢.

[٢] ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ (سورة البقرة، ١٤٣/٢).

[٣] ن ع م: يظهر.

[٤] *مسند أحمد بن حنبل*، ١٨٥/٤؛ وسنن *الدارمي*، الجهاد ١٩.

[٥] ك ن: لا يدخلوا؛ ك: صح هـ.

[٦] سورة الطارق، ٤/٨٦.

[٧] ع م - أنهم.

كقول الناس: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛[1] أي ما شاء أن لا يكون لا يكون.[2] والثاني أنه عالم بكل شيء فلو كان منكم جهاد لكان يعلمه، وإنما لم يعلمه لأنه لم يكن. وعلى ذلك قوله عز وجل: فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ،[3] أي ليس لهم [شافع ما].[4]

والثاني قوله عز وجل: **ولما يعلم**، بمعنى إلا. كقوله: لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ،[5] -بالتشديد- بمعنى إلا عليها حافظ، فيكون معنى الآية: **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة**، لا تدخلوها إلا[6] أن يعلم الله مجاهدتكم، أي حتى تجاهدوا فيعلم الله ذلك منكم موجودا. ***والله أعلم***. وكذلك قوله عز وجل: **ويَعلَم الصابرين**، أي ليعلم ما قد علم أنه يصير صابرا،[7] وكذلك قوله: فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ،[8] أي لَيعلمنّ الذين قد علم أنهم يَصدقون صادقين، ولَيعلمن[9] الذين قد علم أنهم يكذبون كاذبين، وكذلك قوله عز وجل: حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ،[10] أي حتى يعلم ما قد علم أنهم يجاهدون مجاهدين. وأصله قوله عز وجل: عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ،[11] [أي] ليعلم شاهدا ما قد علم غائبا. ***والله أعلم***.*

وفي قوله عز وجل أيضا: **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة**، أي ظننتم ذلك، **ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم**. وقال في موضع[13] آخر: أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ،[14] الآية، بمعنى:

---

[1] ك: وما لا يشاء لا يكون. لعله يشير إلى حديث رواه أبو داود عن عبد الحميد مولى بني هاشم عن أمه وكانت تخدم بعض بنات النبي أن ابنة النبي حدثتها أن النبي يعلمها فيقول: «قولي حين تُصبحين: سبحان الله وبحمده لا قوة إلا بالله ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. فإنه من قالهن حين يصبح حُفظ حتى يموتَ، ومن قالهن حين يُمسي حُفظ حتى يصبح» (*سنن أبي داود*، الأدب ١٠١).

[2] ع م – لا يكون.

[3] سورة المدثر، ٤٨/٧٤.

[4] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٣٠ ظ.

[5] سورة الطارق، ٤/٨٦.

[6] ن – كقوله لما عليها حافظ بالتشديد بمعنى إلا عليها حافظ فيكون معنى الآية أم حسبتم أن تدخلوا الجنة لا تدخلوها إلا.

[7] جميع النسخ + وهو.

[8] ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ (سورة العنكبوت، ٣/٢٩).

[9] ن ع م: وليعلم.

[10] ﴿ولَنبلونكم حتى نعلمَ المجاهدين منكم والصابرين ونَبلوَ أخباركم﴾ (سورة محمد، ٣١/٤٧).

[11] سورة الأنعام، ٧٣/٦.

* وقع ما بين النجمتين متقدما على موضعه، فنقلناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ١٠٧ظ/سطر١٢-٢٢.

[13] ك: في مواضع.

[14] ﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثلَيها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير﴾ (سورة آل عمران، ١٦٥/٣).

و لم يجاهدوا،[1] و لم يصبكم مثل الذي ذكر.

ففي ذلك وعد أن يصيب أولئك الذين خاطبهم به ما أصاب من تقدمهم، وأن الله قد يعلم أنهم يجاهدون قبل الموت. وعلى هذا قال قوم في تأويل قوله عز وجل: صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ:[2] [وعدهم] أن يدخلوا الجنة إذا أصابهم[3] مثل الذي أصاب من تقدمهم. ***والله أعلم***. فيكون تأويل قوله: **ولما**، و لم، والألف صلة.

وقيل: يحتمل بالتشديد فيه: **لَمّا**،[4] كما قيل في تأويل[5] قوله عز وجل: إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ،[6] بالتشديد: إلّا عليها حافظ، فيكون بمعنى الإضمار، أي لا تدخلوا إلا أن يعلم الله الذين جاهدوا منكم.

وقد بينا ما في العلم في الحرف الأول،[7] على أن له[8] وجهين[9] أيضا. أحدهما أن الله لم يعلم[10] بذلك، وهو العالم بكل شيء، فلو كان لكان يعلمه. والثاني أن يعلموا أن يكونوا / لم يجاهدوا[11] بعد، وسيجاهدون على ما بينا. ***والله أعلم***. [١٠٨و]

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[١٤٣]

وقوله: **ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه**، قيل فيه[12] بوجهين. قيل: قوله عز وجل: **تمنون** ما فيه الموت، وهو القتال، وقيل: **تمنون الموت**، نفس الموت. ثم يحتمل وجوها. يحتمل: **تمنون**[13] **[الموت]** إشفاقا على دينهم الإسلام، لئلا يخرجوا من الدنيا على غير دينهم الذي هم[14] عليه.

---

[1] ك ع: و لم تجاهدوا.

[2] ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾ (سورة الأحزاب، ٢٣/٣٣).

[3] جميع النسخ: إذا أصاب.

[4] جميع النسخ: إلا.

[5] ع م – أصاب من تقدمهم والله أعلم فيكون تأويل قوله ولما و لم والألف صلة وقيل يحتمل بالتشديد فيه لما كما قيل في تأويل.

[6] سورة الطارق، ٤/٨٦.

[7] أي في تأويلنا المتقدم.

[8] م: لها.

[9] ك ن م: وجهان؛ ع: وجها.

[10] ع – يعلم.

[11] ع م: لم تجاهدوا.

[12] ن – فيه.

[13] جميع النسخ: يتمنون.

[14] جميع النسخ: هو؛ ك: صح هـ.

ويحتمل أن يكونوا تمنوا الموت لينجوا ويتخلصوا من تعذيب الكفار إياهم وتغييرهم، على ما قيل: إن أهل مكة كانوا يعذبونهم، فطلبوا النجاة منهم والخلاص. ***والله أعلم***. وقيل يتمنون الموت، أي يتمنون الشهادة، لمّا سمعوا لها من عظيم الثواب وجزيل الأجر تمنوا أن يكونوا شهداء لله عز وجل، أحياء عند ربهم.[1] ***والله أعلم***. وقيل في قوله عز وجل: **تمنون الموت**: وذلك حين أخبر الله عز وجل عن قتلى بدر وما هم فيه من الخير، فتمنوا يوما مثل يوم بدر،[2] فأراهم الله يوم أُحُد، فانهزموا فعوتبوا على ذلك[3] بقوله:[4] **[ولقد كنتم] تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه**، يعني يوم أحد.

وقوله عز وجل: **فقد رأيتموه**، يحتمل أيضا وجوها. يحتمل:[5] فقد رأيتم أسباب الموت وأهواله، ويحتمل: فقد رأيتم أصحابكم الذين قتلوا بين أيديكم، على تأويل من صرف قوله عز وجل: **تمنون الموت** إلى القتال. ***والله أعلم***.

وقوله: **وأنتم تنظرون**، يحتمل: **وأنتم تنظرون** إلى الموت، يعني إلى موت أصحابكم أو إلى القتال. ويحتمل: **وأنتم تنظرون**، أي تعلمون أنكم كنتم تمنون الموت. ***والله أعلم***.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾[١٤٤]

وقوله عز وجل: **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم**، يحتمل هذا وجهين. يحتمل -والله أعلم- أن يقول لهم: إنكم لما آمنتم بمحمد صلى الله عليه وسلم يوم بعث[6] [إليكم] لم تؤمنوا به لأنه محمد صلى الله عليه وسلم ولكن آمنتم بالذي أرسله إليكم، والمرسِل حي، وإن كان محمد صلى الله عليه وسلم قتل أو مات على زعمكم فكيف انقلبتم على أعقابكم؟

{قال الشيخ رحمه الله:} وفي الآية خبر بانقلاب مَن علم الله أنه يرتدّ بموت رسول الله صلى الله عليه سلم، كقوله عز وجل: مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ.[7] والشاكرون [هم] الذين جاهدوهم.

---

[1] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يُرزَقون﴾ (سورة آل عمران، ١٦٩/٣).
[2] ن ع: البدر.
[3] ع م: بذلك.
[4] ع م - بقوله.
[5] ع: ويحتمل.
[6] جميع النسخ: قبل أن يبعث. والتصحيح مع الزيادة مستفاد من *الشرح*، ورقة ١٣١و.
[7] ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقومٍ يحبهم ويحبونه أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين﴾ (سورة المائدة، ٥٤/٥).

قد أخبر الله تعالى أنه يحبهم ويحبونه. وقال الحسن: إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان -والله- إمام الشاكرين.[١]

ويحتمل وجها آخر، وهو أن من كان قبلكم من قوم موسى وعيسى عليهما السلام كانوا يكذبون رسلهم ما داموا أحياء،[٢] حتى قال لهم موسى عليه السلام: يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ، وكذلك قال عيسى عليه السلام: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا،[٣] الآية، فإذا ماتوا ادّعوا أنهم على دينهم وأنهم صدّقوهم فيما دعوهم إليه، وإن لم يكونوا على ذلك، فلم ينقلبوا على أعقابهم فكيف تنقلبون أنتم على أعقابكم إن مات محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أو قتل؟

والانقلاب على الأعقاب على الكناية والتمثيل، ليس على التصريح. وهو الرجوع إلى ما كانوا عليه[٤] من الدين.

وقوله عز وجل: **ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا**، أي من ارتد بعد الإسلام فلن يضر الله شيئا؛ لأنه لم يستعملهم لنفسه، ولكن إنما استعملهم لأنفسهم، ليستوجبوا بذلك الثواب الجزيل في الآخرة، فإنما يضرون بذلك أنفسهم، لا الله تعالى. والثاني أنه إنما يأمرهم ويكلفهم لحاجة أنفسهم لا أنه يأمر لحاجة نفسه. ومن أمر آخر في الشاهد إنما يأمر لحاجة نفس الآمر، فإذا لم يأتمر لَحِق ضرر ذلك[٥] نفس[٦] الآمر. فإذا كان الله سبحانه يتعالى عن أن يأمر لحاجته وإنما يأمر لحاجة المأمور، فإذا ترك أمره ضر نفسه. ***والله التوفيق.***

وسيجزي الله الشاكرين، قيل: الموحدين لله، وقيل: الذين آمنوا وجاهدوا يجزيهم في الآخرة. وكل متمسك بأمر الله ومؤتمر بأمره فهو شاكر.

---

[١] «كان علي رضي الله عنه يقول: كان أبو بكر أمين الشاكرين وأمين أحباء الله، وكان أشكرهم وأحبّهم إلى الله» (*تفسير الطبري*، ٤/١١١؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٢/٣٣٨).

[٢] جميع النسخ: حيا. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٣١و.

[٣] ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ (سورة الصف، ٦١/٥-٦).

[٤] جميع النسخ + من قبل.

[٥] ع - ذلك.

[٦] ك ن - نفس؛ ع + ذلك.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾[١٤٥]

وقوله: **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله**، يحتمل قوله: **إلا بإذن الله**، أي لا تموت[1] إلا بقبض المسلَّط على قبض الأرواح روحه، كقوله: قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ،[2] إن مات أو قتل.

ويحتمل: **إلا بإذن الله**، إلا بعلم الله. **كتابا مؤجلا**. قيل: وقتا مؤقتا لا يتقدم ولا يتأخر، مات أو قتل، ما لم تستوف رزقها وأجلَها. وقيل: **كتابا مؤجلا**، أي مبيّنا في اللوح المحفوظ مكتوبا فيه.[3]

وقوله: **ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها**، أي من أراد بمحاسن أعماله الدنيا نؤته منها. **ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها**، أي من يرد بأعماله الصالحات ومحاسنه الآخرةَ نؤته منها. **وسنجزي الشاكرين**، وهو كقوله: مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا، على قدر ما قدّر، وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ،[4] فكذلك هذا أيضا. *والله أعلم*.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[١٤٦]

وقوله: **وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير**، قيل فيه لغات. أحدها: **قاتل معه**، بالألف. وتأويله: وكم من نبي قاتل [كائنا] معه ربيون كثير، فقيل على الإضمار.[5] والثاني: وكم من نبي قُتِلَ معه ربيون كثير، برفع القاف. والثالث: وكم من نبي قَتَل معه ربيون كثير،[6] بالنصب.[7]

---

[1] ن ع م: لا يموت.

[2] ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم تُرجَعون﴾ (سورة السجدة، ١١/٣٢).

[3] «ثم قال ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا﴾ يحتمل أن يكون جوابا لقولهم: ﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾(سورة آل عمران، ١٥٦/٣)، فأخبر الله عز وجل أن الذي كتب عليهم القتل إن خرج إلى القتال أو لم يخرج فلا ينتقل حكمه إلى الموت حتف أنفه، بل يُقتَل في أهله أو في الحرب. والله أعلم» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٣١ظ).

[4] سورة الشورى، ٢٠/٤٢.

[5] أي مضمر فيه مثل «فما بالكم يخطر ببالكم على أعقابكم...» كما سيجيء.

[6] ن ع م + فقيل على الإضمار.

[7] م – بالنصب؛ م + والرابع وكم من نبي قتل بالنصب.

ومعنى الآية -والله أعلم- كم من نبي قُتل فلم ينقلب أتباعه على أعقابهم، بل كانوا بعد وفاتهم / أشد اتباعا لهم من حال حياتهم، حتى قالوا: لن يبعث الله من بعده رسولا، فما بالكم يخطر بالكم الانقلاب على أعقابكم إذا أُخبرتم أنه قُتل نبيكم أو مات. [١٠٨ظ]

وفي إنباء هذه الأمة قصصَ الأمم الخالية وأخبارَهم وجهان. أحدهما دلالة إثبات رسالة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم علموا أنه لم يختلف إلى أحد منهم ممن يعلم هذا ثم أخبر بذلك فكان ما أخبر، فدل أنه علم ذلك بالله.

والثاني العمل بشرائعهم وسننهم إلا ما ظهر نسخه بشريعتنا. ألا ترى أنه ذكر محاسنهم وخيراتهم. وإنما ذكر [ها] لنتبعهم[١] في ذلك[٢] ونقتدي[٣] بهم؛ وذكر مساوئهم وما لحقهم بها لننتهي[٤] عنها، ونكون[٥] على حذر مما أصابهم بذلك. ***والله أعلم.***

وقوله: **ربيون كثير**، اختلف فيه. عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: عالم كثير. وعنه أيضا:[٦] الجموع الكثير[ة]. وعن الحسن رحمه الله مثله. وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: الألوف.[٧] وعن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله: **وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير**، يقول: قاتل. ألا ترى[٨] أنه يقول: **فما وهنوا لما أصابهم.**[٩]

ثم اختلف في قوله: **فما وَهَنوا ... وما ضَعُفوا**. قيل: **فما وهنوا** في الدين، **وما ضعفوا** في أنفسهم في قتال عدوهم بذهاب النبي صلى الله عليه وسلم، من بينهم، فما بالكم تضعفون أنتم؟ ويحتمل قوله: **فما وهنوا**، يعني: فما عجزوا لما نزل بهم مِن قتل أنبيائهم. **وما ضعفوا** في أنفسهم لِما أصابهم في سبيل الله من البلايا. وقيل: قوله عز وجل: **فما وهنوا** يرجع في[١٠] **قاتل** إلى المقاتلين، وفي "قُتل" إلى الباقين.

---

[١] ن ع م: ليتبعهم.
[٢] م - في ذلك.
[٣] ن ع م: ويقتدي.
[٤] ن: لينتهي؛ ع: ليتمنى؛ م: لينفي.
[٥] ن ع م: ويكون.
[٦] ع م - أيضا.
[٧] *تفسير الطبري*، ١١٧/٤؛ *والبحر المحيط* لأبي حيان، ٧٤/٣.
[٨] ك: ألا يرى.
[٩] *تفسير القرطبي*، ٢٣٠/٤. قال السمين: ورجح بعضهم قراءة «قاتل» لقوله بعد ذلك: ﴿فما وهنوا﴾ قال: وإذا قُتلوا فكيف يوصفون بذلك؟ إنما يوصف بهذا الأحياء (*الدر المصون* للسمين الحلبي، ٤٣٠/٣).
[١٠] جميع النسخ: إلى.

وقوله: **وما استكانوا**. قيل: لم يَذِلّوا لعدوهم،[1] و لم يَخْضَعُوا لقتل نبيهم، بل قاتلوا بعده على ما قاتلوا معه، فهلا قاتلتم أنتم[2] على ما قاتل عليه نبيكم كما قاتلت القرون من قبلكم إذا أصيب أنبياؤهم؟ *والله أعلم*.

والله يحب الصابرين على قتال عدوهم وعلى كل[3] مصيبة تصيبهم.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[١٤٧]

وقوله: **وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا**. قيل: وما كان قول الأمم السالفة عند قتل نبيهم **إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا**، الآية.[4] يعلّم الله هذه الأمة ويعاتبهم: هلا قلتم أنتم حين نُعِي[5] إليكم نبيكم كما قال[6] القوم في الأمة السابقة؟ وقوله: **ربنا اغفر لنا ذنوبنا**. قيل: الذنوب هي المعاصي؛ وقوله: **وإسرافنا في أمرنا**، والإسراف[7] هو[8] المجاوزة في الحد والتعدي عن أمره. وقيل: هما واحد.

وقوله: **وثبت أقدامنا**، يحتمل وجهين. يحتمل:[9] ثَبِّتنا على الإيمان ودين الإسلام. والقَدَم كناية [عن الثبوت]،[10] كقوله: فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا،[11] أي تكفروا[12] بعد الإيمان، كقوله: يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ.[13] وذكر القدم لِمَا بالقدم يثبت. ويحتمل قوله: **وثبت أقدامنا** في قتال العدو.

---

[1] جميع النسخ: في عدو لهم.

[2] ن م – أنتم.

[3] ك م – كل.

[4] ك ن + يقول؛ ع م + تقول.

[5] ع: بغي.

[6] ع: قالوا.

[7] ك م: الإسراف.

[8] جميع النسخ: هي.

[9] ع م – يحتمل.

[10] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٣١ظ.

[11] ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دَخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم﴾ (سورة النحل، ٩٤/١٦).

[12] جميع النسخ: تكفر.

[13] ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾ (سورة آل عمران، ١٤٩/٣).

وفَزَعوا إلى الله عز وجل بعد ذهاب نبيهم من بينهم[١] ليحفظهم على ما كان يحفظهم في حياة نبيهم.

وقوله: **وانصرنا على القوم الكافرين،** يحتمل النصر عليهم بالحجج والبراهين، ويحتمل النصر بالغلبة والهزيمة عليهم.

﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[١٤٨]

وقوله: **فآتاهم الله ثواب الدنيا.** يحتمل: **ثواب الدنيا**[٢] الذكر والثناء الحسن[٣] وهم كذلك اليوم: نتبعهم ونقتدي[٤] آثارهم، وهم موتى. ويحتمل -على ما قيل- النصر والغنيمة.

وقوله: **وحسن ثواب الآخرة،**: [أي النعيم] الدائم.[٥] وذكر في ثواب الآخرة الحسن ولم يذكر في ثواب الدنيا الحسن؛ لأن ثواب الآخرة دائم لا يزول أبدا، وثواب الدنيا قد يزول؛ أو أن يشوب في ثواب الدنيا آفات وأحزان فيُنغِّص ذلك، وليس ثواب الآخرة كذلك. ***والله أعلم.***

وقوله: **والله يحب المحسنين،** الإحسان يحتمل وجوها ثلاثة. يحتمل المحسن العارف، كما يقال: فلان يُحْسن ولا يُحْسن. ويحتمل المعروف من الفعل، مما ليس عليه، يصنع إلى آخر تفضلا منه وإحسانا. ويحتمل اختيار الحسن من الفعل على القبيح من الفعل والسوء،[٦] وكان كقوله: إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ؛[٧] هذا يختار المحاسن من الأفعال على المساوئ. ***والله أعلم.***
ويحتمل: **المحسنين** إلى أنفسهم باستعمالها فيما به نجاتها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾[١٤٩]

وقوله: **يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم،** يحتمل الطاعة لهم طاعة الدين أي تطيعونهم[٨] في كفرهم. ويحتمل الطاعة لهم في ترك الجهاد مع عدوهم، كقوله:

---

[١] م - من بينهم.
[٢] ن ع م - يحتمل ثواب الدنيا.
[٣] ع م - الحسن.
[٤] جميع النسخ: يتبعهم ويقتدي. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ١٣١ظ.
[٥] م: القائم.
[٦] ع: والسواء.
[٧] سورة الأعراف، ٥٦/٧.
[٨] ك: يطيعونهم؛ ع م: تطيعوا لهم.

وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً،[1] الآية. وقوله: **يردوكم على أعقابكم**. قد ذكرنا،[2] أي يردوكم على دينكم الأول. وهو على التمثيل والكناية. ***والله أعلم***.

﴿بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾[١٥٠]

وقوله: **بل الله مولاكم**، أي أولى بكم، أو ناصركم، أو حافظكم، أو وليكم. **وهو خير الناصرين**، أي خير من ينصر من نصره فلا يُغلَب، كقوله: إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ.[3]

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾[١٥١]

وقوله: **سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب**، الآية، هذه بِشارة من الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم بالنصر له، حيث أخبر أنه يلقي في قلوبهم الرعب. وكذلك[4] روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «نُصرت بالرُّعب مسيرةَ شهر»،[5] فكان كما ذكر؛[6] لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتيهم بعد ذلك ويقصدهم، لا أنهم[7] يأتونه،[8] وكانوا قبل ذلك يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقصدونه.

بما أشركوا بالله ما لم يُنزِّل به سلطانا، أي [كان] بالشرك ما قذف في قلوبهم من الرعب، [١٠٩و] من غير أن كان لهم بما أشركوا حجة أو برهان[9] أو كتاب[10] أو عذر. قال ابن عباس / رضي الله عنه: السلطان في القرآن الحجة.[11]

---

[1] ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير﴾ (سورة آل عمران، ١٥٦/٣).

[2] انظر تأويل قوله تعالى في سورة آل عمران، ١٤٤/٣، ١٤٧.

[3] سورة آل عمران، ١٥٩/٣.

[4] ك + قوله.

[5] جميع النسخ: شهرين. مسند *أحمد بن حنبل*، ٩٨/١، ٣٠١؛ وصحيح *البخاري*، التيمم ١، الصلاة ٥٦؛ وصحيح *مسلم*، المساجد ٣، ٥–٨؛ وسنن *النسائي*، الغسل ٢٦.

[6] جميع النسخ: وكان ما ذكر؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٣٢و.

[7] ن – أنهم، صح هـ.

[8] جميع النسخ: أتوه؛ والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ١٣٣و.

[9] ع: أو حجة.

[10] ع م: أو كتاب أو برهان.

[11] ك ن ع: حجة. *تفسير ابن كثير*، ٥٧١/١؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٣٥٠/٦.

وقوله: **ومأواهم النار**، أي مقامهم النار.[١] **وبئس مثوى الظالمين**، أي النار بئس مقام الظالمين.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[١٥٢]

وقوله: **ولقد صدقكم الله وعده**، أي أنجز الله وعده، حيث أخبر أنه يلقي في قلوبهم الرعب، وقد فعل. **إذ تحسونهم بإذنه**، قال أهل التفسير: إذ تقتلونهم.[٢]

وقوله: **حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر**، هو على التقديم والتأخير، [أي] حتى إذا تنازعتم فشلتم، إذ التنازع هو سبب الفشل والجبن،[٣] كقوله: وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا.[٤]

وقوله عز وجل: **وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون**، قيل في القصة: إن نفرًا من [ال]رماة أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم [يوم أحد] أن يكونوا في مكان، وأن لا يَدَعوا موقفهم، فتركوه ووقعوا في غنائمه، فعوقبوا على ذلك.[٥]

وقوله عز وجل: **من بعد ما أراكم ما تحبون**،[٦] يحتمل: **ما أراكم ما تحبون** من الهزيمة[٧] والغنيمة، ويحتمل: ما أراكم من النصر لكم على عدوكم وإنجاز الوعد لكم.

وقوله:[٨] **منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة**. روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ما كنا نعرف أن أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا حتى نزل قوله: **منكم من يريد الدنيا**.[٩]

وقوله: **ثم صرفكم عنهم**، روي عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: **ثم صرفكم عنهم**، يعني[١٠] هُزِم المسلمون. يقول: صُرِفوا عن المشركين منهزمين بعد أن كانوا هزموهم،

---

[١] جميع النسخ: في النار.
[٢] ن ع م: تضلونهم.
[٣] ك - والجبن.
[٤] ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ (سورة الأنفال، ٨/٤٦).
[٥] انظر: *سيرة ابن هشام*، ١/٦٥-٦٦.
[٦] ك - قيل في القصة إن نفرا من رماة أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكونوا في مكان وأن لا يدعوا موقفهم فتركوه ووقعوا في غنائمه فعوقبوا على ذلك وقوله عز وجل من بعد ما أراكم ما تحبون.
[٧] أي هزيمة مشركي قريش.
[٨] ن: قوله.
[٩] *تفسير الطبري*، ٤/١٣٠؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٢/٣٤٩.
[١٠] ك ن + حيث.

لكن لما عصوا وتركوا المركز صرفهم الله عن عدوهم.

[وقوله:] **ليبتليكم**، أي ذلك الصرف كان لكم من الله ابتلاء ومحنة. وقيل: ذلك العصيان الذي كان منكم كان[1] من الله ابتلاء، ليعلم [الله] من قد علم أنه يعصي عاصيا.[2] *والله أعلم*.

ودل قوله عز وجل:[3] **ثم صرفكم عنهم**، وإن كان الانصراف فعلهم، [على] أن الله لفعلهم على ما[4] عليه فعلهم خالق؛[5] وأن خلق الشيء ليس هو ذلك الشيء؛ إذ ذلك الشيء[6] -إذا كان انصرافا عن العدو- معصية،[7] وقد تبرأ الله تعالى عن أن يضاف إليه المعاصي، وقد أضاف انصرافهم إلى فعله، وهو الصرف، ثبت: أنه غير[8] فعلهم.[9] *والله أعلم*.

ولقد عفا عنكم، يحتمل وجهين. يحتمل: **عفا عنكم** حيث لم يستأصلكم بالقتل. ويحتمل: **عفا عنكم**، حيث قبل رجوعكم وتوبتكم عن العصيان.

وهذه الآية [أي] قوله عز وجل: **ثم صرفكم**، وقوله: وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ،[10] يرد[11] على المعتزلة، وكذلك قوله تعالى: لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ،[12] الآية؛ لأنهم يقولون: هم الذين صرفوا أنفسهم[13] لا الله، وهم الذين كَتَبوا عليهم القتل لا الله، وهم الذين يداولون لا الله، وقد أضاف عز وجل ذلك إلى نفسه. فعلى ذلك لا يضيف إليه إلا عن فعل وصنع له فيه،

[1] جميع النسخ: كان ذلك العصيان الذي منكم، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٣٢و.

[2] أي ليعلم الله من قد علمه في الأزل أنه يعصي حال كونه عاصيا. وكلمة «عاصيا» في كلام المؤلف مفعول ثانٍ لكلمة «ليعلم»، أو حال من كلمة «من».

[3] ك: وجز.

[4] م: عاما.

[5] ع م: خالقهم.

[6] ع م - الشيء.

[7] ن: ومعصية.

[8] ن ع: عن؛ م: على.

[9] «﴿ثم صرفكم عنهم﴾ أضاف الصرف إلى نفسه، وإن كان الانصراف فعلهم، على أن خالق فعل الانصراف هو الله تعالى. ودل أيضا على أن خلق الشيء غير ذلك الشيء لأن انصرافهم عن العدو معصية، وأنه فرار عن الزحف. وقد أضاف انصرافهم إلى فعله، وقد تبرأ الله تعالى عن أن يضاف إليه المعاصي، ثبت أنه غير فعلهم. والله الموفق» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٣٢و).

[10] ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين﴾ (سورة آل عمران، ١٤٠/٣).

[11] ك ن - يرد.

[12] ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ (سورة آل عمران، ١٥٤/٣).

[13] م - أنفسهم.

لأنهم[١] يقولون: لا يفعل إلا الأصلح لهم في الدين. فأي صلاح كان لهم في صرفه إياهم عن عدوهم، وأي صلاح لهم فيما كتب عليهم القتل؟ فدل أن الله قد يفعل بعباده ما ليس ذلك بأصلح لهم في الدين. *والله أعلم*.

وقوله: **والله ذو فضل على المؤمنين**، بالعفو عنهم وقبول التوبة، حيث عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركوا أمره. وعلى قول المعتزلة عليه أن يفعل ذلك، فعلى قولهم: ليس هو بذي فضل على أحد. نعوذ بالله من السرف في القول.

{قال الشيخ رحمه الله:} الفائدة في تخصيص المؤمنين بالفضل[٢] عليهم، دون جملةِ مَن بُعث النبي صلى الله عليه وسلم فيهم ومنهم –مع ما ذكر منته بالبعث من أنفسهم[٣] وقد بينا وجه المنة في البعث من جوهر البشر[٤]– وجهان. أحدهما أن من لم يؤمن به لم يكن عرفه نعمة من الله تعالى وإن كان في الحقيقة نعمة منه[٥] لهم ورحمة لهم وللعالمين؛[٦] فخص من عرفه ليشكروا له بما ذكرهم،[٧] وهو كقوله عز وجل: إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ،[٨] أي هم يقبلون ويعرفون حق الإنذار.

والثاني أنه صار لهم حجة على جميع[٩] الأعداء، إنهم لا يطيعونه لمعنى كان منهم إلا وللمؤمنين عليهم وجه دفع ذلك، بما كان عليه مما عرفوه[١٠] قبل الرسالة كما فيه لزوم القول بصدقه، فيكون ذلك منة لهم وسرورا ونعمة عظيمة، فاستأداهم الله شكرَها.[١١] **ولا قوة إلا بالله**.

---

[١] ن: ولأنهم.

[٢] جميع النسخ: بالامتنان، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٣٢ظ.

[٣] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ (سورة آل عمران، ١٦٤/٣).

[٤] انظر: عند تأويل الآية التي أشيرت إليها في الحاشية السابقة.

[٥] ن: من الله.

[٦] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾(سورة الأنبياء، ١٠٧/٢١).

[٧] أي خص الله تعالى بالذكر من عرف نبوة محمد عليه السلام وآمن به ليشكروا الله بما ذكره تعالى من كون النبي هدى ورحمة.

[٨] ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرةٍ وأجرٍ كريمٍ﴾ (سورة يس، ١١/٣٦).

[٩] ع + الحجة.

[١٠] ك ن + به.

[١١] «والثاني أنه صار للمسلمين حجة على جميع الأعداء حيث كان أهل مكة عرفوه قبل الرسالة بالصدق والأمانة حتى كانوا يسمونه محمد الأمين. فبعد البعث لما طعنوا فيه بأنه شاعر أو ساحر أو كذاب اندفع طعنهم بما عرفوه منزها عن هذا الوصف. فيكون ذلك منة لهم من الله تعالى وسرورا ونعمة عظيمة فاستأداهم شكرها» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٣٢ظ).

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[١٥٣]

وقوله: **إذ تصعدون ولا تلوون**، فيه لغتان. تَصْعَدون -بفتح التاء- وهو من الصعود: أنْ صعدوا الجبل؛ وتُصعِدون -بالرفع- وهو[١] أن أصعدوا[٢] أصحابهم نحو الوادي، لأن المنهزم الأول إذا التفت فرأى منهزما آخر اشتدّ. وقيل: الإصعاد هو الإبعاد في الأرض.[٣] وقيل: تَصعَدون من صعود الجبل، وتُصعدون في الوادي من الجبل.

وقوله: **ولا تلوون على أحد**، أي لا تلتفتون على أحد ولا ترجعون. **والرسول يدعوكم في أخراكم**، أي الرسول يدعوكم وينادي وراءكم: «إليّ أنا الرسول!».[٤] وقيل: يناديكم من بَعدكم [وخلفكم]:[٥] «إليّ أنا رسول الله يا معشر المؤمنين!».[٦] وكان يصل[٧] نداؤه في أُخراهم[٨] بأولاهم،[٩] بعضِهم ببعض، فلم يرجعوا إليه.

وقوله عز وجل: **فأثابكم غما بغم**، اختلف فيه. قيل: [ال]غم الأول الهزيمة والنَّكْبة التي أصابتهم، والغم الآخر الصوت الذي سمعوا: قُتل محمد عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات، فذلك غم على غم. ويحتمل: **غما** بعصيانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم،[١٠] والغم الآخر [اغتمّوا] أن كيف يعتذرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتركهم المركز وعصيانهم إياه والخلاف له. وقيل قوله عز وجل: / **فأثابكم غما بغم**، أي مرة بعد المرة الأولى.[١١] وقيل: [١٠٩ظ]
غما بغم، أي هزيمة بعد هزيمة؛ أصابتهم هزيمة بعد هزيمة من قتل إخوانهم وإصابتهم الجراحات.

---

[١] ن: هو.
[٢] ن: صعدوا.
[٣] قال الأخفش: أَصْعَد في البلاد: سار ومضى وذهب. وأصعد في الوادي: انحدر فيه. وأما صعد فهو ارتقى. وفي التنزيل: ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد﴾، قال الفراء: الإصعاد في ابتداء الأسفار والمخارج، تقول: أَصْعَدْنا من مكة، وأصعدنا من الكوفة إلى خراسان وأشباه ذلك. فإذا صَعدتَ في السلَّم وفي الدرجة وأشباهه تقول: صعدتُ، ولم تقل: أصعدت (*لسان العرب*، «صعد»).
[٤] ك: رسول الله.
[٥] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٣٢ظ.
[٦] ذكره السيوطي بلفظ: «يا معشر المسلمين! إليّ عبادَ الله، أنا رسول الله!». *الدر المنثور*، ٤/١٦٠. وانظر أيضا: *تفسير الطبري*، ٤/ ١٢٢، ١٣٣، ١٣٤؛ *وزاد المسير* لابن الجوزي، ١/٤٧٧؛ *وتفسير ابن كثير*، ٢/٣٤٥.
[٧] ع م: يصعد.
[٨] ن ع: في أخريهم.
[٩] جميع النسخ: بأولهم.
[١٠] جميع النسخ + اغتموا.
[١١] ك: فرة بعد الفرة الأول؛ ن: فترة بعد الفترة الأولى.

وقيل: **فأثابكم غما** بعصيانكم رسول الله صلى الله عليه وسلم **بغم** [وهو] الذي[١] أدخلتم[٢] على رسول الله بترككم[٣] المركز والطاعة له.[٤]

وقوله[٥] عز وجل: **فأثابكم غما بغم**، وهو غم الهزيمة والنَّكْبة بالغم الذي أدخلتم[٦] على رسول الله صلى الله عليه وسلم في عصيانكم[٧] إياه، وإهمالكم[٨] المقعد الذي أمركم[٩] بالْمُقام فيه. وقيل: غما بالغم الذي له تركوا المركز، وهو أن غمهم اغتمام أصحابهم. وقيل: غم الاعتذار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالغم الذي جفوه به، حيث مالوا إلى الدنيا وعصوه فيما أمرهم. وقيل: غما على أَثَر غم، نحو القتل والهزيمة والإرجاف بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وحقيقته أن يكون أحد الغمين ابتداء، والآخر جزاء،[١٠] وفي ذلك تحقيق الذلة والجزاء. وذلك كقوله عز وجل: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ.[١١]

وقوله: **لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم**، يعني [ما فاتكم] من الفتح والغنيمة، **ولا ما أصابكم** من القتل والهزيمة. ويحتمل قوله: **لكيلا تحزنوا على ما فاتكم** من الدنيا، **ولا ما أصابكم** فيها من أنواع الشدائد بما أدخلتم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغم بعصيانكم إياه. **والله خبير بما تعملون**، على الوعيد.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[١٥٤]

---

[١] ع - بغم الذي.
[٢] جميع النسخ: أدخلوا.
[٣] م: وبترككم.
[٤] ع م - له.
[٥] جميع النسخ: وفي قوله.
[٦] جميع النسخ: أدخلوا.
[٧] جميع النسخ: في عصيانهم.
[٨] جميع النسخ: وإهمالهم.
[٩] جميع النسخ: أمرهم.
[١٠] جميع النسخ: أحد الغمين جزاء والآخر ابتداء.
[١١] سورة الشورى، ٤٢/٣٠.

ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم، قيل فيه بوجهين. قيل: الطائفة التي أتاهم النعاس هم المؤمنون، سمعوا بانصراف العدو عنهم فصَدّقوا الخبر [فأمنوا،][1] فناموا، لأن الخوف إذا غلب يمنع النوم. وأما الطائفة التي[2] قد أهمتهم أنفسهم هم المنافقون، لم يصدّقوا الخبر فلم يذهب عنهم الخوف فلم يَنْعَسُوا. وذلك كقوله عز وجل: يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا،[3] الآية. وقيل: كانت الطائفتان جميعا من المؤمنين، لكن إحداهما[4] قد أتاها النعاس لما أمنوا من العدو والأخرى لا، لعصيانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركهم أمره، منع ذلك النومَ عنهم أن كيف يلقون[5] رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف يعتذرون[6] إليه؟ ***والله أعلم.***

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: النعاس في الصلاة من الشيطان، وفي القتال أَمَنَة من الله.[7]

وقوله عز وجل: **يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية.** قيل: **يظنون بالله** أن لا ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ذا في غير المؤمنين. وقيل: **يظنون بالله غير الحق** ظنونا كاذبة إنما هم أهل شرك وريبة في أمر الله، يقولون: **لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هاهنا.**

وقوله: **يقولون هل لنا من الأمر من شيء،** قيل: يقول[8] بعضهم لبعض: **هل لنا من الأمر من شيء،** يعني بالأمر النصر والغنيمة. وقيل: قالوا ذلك للمؤمنين.

قل إن الأمر كله لله، يعني النصر والفتح كله بيد الله.

يُخفُون في أنفسهم ما لا يُبدون لك، والذي يخفون قولهم: لو أقمنا في منازلنا ما قُتلنا هاهنا. وقيل: **يقولون لو كان لنا من الأمر شيء،** قالوا ليس لنا من الأمر من شيء، إنما الأمر إلى محمد، ولو كان الأمر لنا[9] ما خرجنا إلى هؤلاء حتى قتلنا هاهنا.

---

[1] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٣٢ظ.

[2] م – التي.

[3] ﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزابُ يوَدّوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا﴾ (سورة الأحزاب، ٢٠/٣٣).

[4] ك: إحديهما؛ ن ع م: احدهما.

[5] ن ع م: تلقون.

[6] ن ع: تعتذرون؛ م: تقدرون.

[7] *تفسير الطبري*، ١٤١/٤، ٩/ ١٩٣؛ *وتفسير ابن كثير*، ٤١٩/١، ٢٩٢/٢.

[8] ع م: يقولون.

[9] م – لنا.

قال الله عز وجل: **قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كُتب عليهم القتل إلى مضاجعهم،** قيل: **لو كنتم في بيوتكم،** كما تقولون:[١] **لبرز** يعني لخرج من البيوت **الذين كُتب عليهم القتل** لِيُقتَلوا.[٢] وقيل: من كُتب عليه القتل يظهر[٣] الذي كتب عليه حيث كان. وقيل: إذا كتب على أحد القتل لأتاه ولو كان في البيت، كقوله:[٤] أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ.[٥] وقيل: متى[٦] كتب الله على قوم القتل فلم يموتوا أبدا؟[٧]

وفي هذا بيان أن[٨] الآجال المكتوبة هي التي تنقضي بها الأعمار[٩] إن كان قتلا فقتل وإن كان موتا فموتٌ، لا على ما قالت المعتزلة: إن القتل تعجيل عن أجله المكتوب[١٠] له وعليه. *والله أعلم.*

وقوله عز وجل: **وَلِيَبْتَلِيَ الله ما في صدوركم،** والابتلاء هو الإظهار،[١١] كقوله عز وجل: يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ،[١٢] تُبْدى وتُظْهَر. وذلك يكون بوجهين: يظهر بالجزاء مرة، ومرة بالكتاب. فيعلم[١٣] الخلق من كانت سريرته حسنة بالجزاء، وكذلك إذا كانت سيئة، أو يعلم ذلك بالكتاب.

وقوله تعالى: **وليبتلي الله ما في صدوركم،** أي ليظهر الله للخلق ما في صدورهم بما مضى وليجعله ظاهرا لهم. **وليُمحص ما في قلوبكم،** من الذنوب. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: الابتلاء والتمحيص هما واحد.[١٤]

وقوله عز وجل: **والله عليم بذات الصدور.** يقول: هو عالم بما في صدورهم من سرائرهم، ولكن يجعلها ظاهرة عندكم. ويحتمل [أن يكون] الابتلاء هاهنا الأمر بالجهاد، ليعلموا المنافق منهم من المؤمن. *والله أعلم.*

---

[١] ع م: يقولون.
[٢] ع م – ليقتلوا.
[٣] ع م: لظهر.
[٤] ع م: وكقوله.
[٥] سورة النساء، ٤/٧٨.
[٦] م: إذا.
[٧] «أي من كتب عليه القتل يموت بسبب القتل ولا يموت حتف أنفه» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٣٣و).
[٨] ع م – أن.
[٩] ع م: الأعمال.
[١٠] م: المكتوبة.
[١١] جميع النسخ: الاستظهار.
[١٢] سورة الطارق، ٨٦/٩.
[١٣] جميع النسخ: يعلم، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٣٣و.
[١٤] *تفسير أبي حيان*، ٦٣/٣.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[١٥٥]

وقوله: **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان**، يعني إن الذين انصرفوا عن عدوهم مدبرين منهم منهزمين، **يوم التقى الجمعان**، جمع المؤمنين وجمعُ المشركين.

وقوله: **إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا**، أي إنما انهزموا و لم يثبتوا خوفا أن يُقتَلوا بالثبات فيلقوا الله وعليهم عصيان رسول الله صلى الله عليه وسلم. [ف]كرهوا أن يقتلوا وعليهم معصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، خوفا من الله عز وجل.

[١١٠ر] **ولقد عفا الله عنهم**، بما خافوا الله بعصيانهم رسول الله صلى الله / عليه وسلم. ويحتمل قوله عز وجل: **إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا**، أن اللعين لما رآهم أجابوه إلى ما دعاهم من اشتغالهم بالغنيمة وتركهم[١] المركز وعصيانِهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، دعاهم إلى الهزيمة فانهزموا وتولوا عدوهم.

ويحتمل قوله: **ببعض ما كسبوا**، أي بكسبهم، قال الله عز وجل: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ،[٢] فكذلك هذا. *والله أعلم*.

إن الله غفور حليم، [أي **غفور**، حيث][٣] قبل توبتكم وعفا عنكم؛ **حليم** لم يأخذكم[٤] وقت عصيانكم ولا عاقبكم، أو **حليم**[٥] بتأخير العذاب عنكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[١٥٦]

وقوله عز وجل: **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى**، الآية، اختلف في قوله تعالى: **كالذين كفروا**. قال بعضهم: نهى المؤمنين أن يكونوا كالذين كفروا في السر والعلانية. **وقالوا لإخوانهم**، يعني المنافقين

---

[١] ع م: وترك.

[٢] ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ (سورة الشورى، ٣٠/٤٢).

[٣] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٣٣و.

[٤] ع م: لم يأخذ.

[٥] ع م: وحليم.

لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا. وقيل: **لا تكونوا**[١] كالمنافقين[٢] قالوا **لإخوانهم**، يعني لبعضهم: **لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا**. وقيل: **قالوا لإخوانهم** يعني المؤمنين الذين تولوا، وهم كانوا إخوانهم في النسب وإن لم يكونوا إخوانهم في الدين والمذهب. لا حاجة لنا إلى معرفة قائله من كان، ولكن المعنى أن لا يقولوا[٣] مثل قولهم لمن قُتل.

وقوله: **إذا ضربوا في الأرض** تجارا، **[أوكانوا] غُزًّى**[٤] أي غزاة. وقيل: قوله **إذا ضربوا في الأرض**، وكانوا غزاة على إسقاط الألف.[٥]

وقوله: **ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم**، أي ليجعل الله ذلك[٦] القول الذي قالوا **حسرةً** تتردد[٧] في أجوافهم. ويحتمل[٨] قوله: **ليجعل الله ذلك حسرة** يوم القيامة، كقوله: [كَذٰلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ] أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ.[٩]

وقوله: **والله يحيي ويميت**، أي والله يحيي من ضرب في الأرض وغزا ويميت من أقام و لم يخرج غازيا، أي لا يتقدم الموت بالخروج في الغزو ولا يتأخر بالْمُقام وترك الخروج. دعاهم إلى التسليم. إنما هي أنفاس معدودة وأرزاق مقسومة وآجال مضروبة، ما لم يُفنها ويَسْتَوْفها ويَنْقَضِ[١٠] أجلُها لا يأتيها.

والله بما تعملون بصير وعيد.

﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[١٥٧]

وقوله: **ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير**، أي[١١] إن الموت

---

١ ك: لا يكونوا.
٢ م + عنه.
٣ ك: لا تقولوا.
٤ ع: غزا.
٥ «مِن "أو" ويكون المراد من حرف "أو" هو حرف الواو» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٣٣و).
٦ ع + حسرة في قلوبهم أي ليجعل الله ذلك.
٧ جميع النسخ: يتردد.
٨ ع: ويجعل.
٩ ﴿وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم وما هم بخارجين من النار﴾ (سورة البقرة، ٢/١٦٧).
١٠ جميع النسخ: لم يفناها واستوفاها وانقضى.
١١ ع م – أي.

إن كان لا بد نازلا[1] بكم فقتلكم[2] أو موتكم في طاعة الله[3] وجهادِه خيرٌ من أن يَنزل بكم في غير طاعة الله وسبيله. **لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون** من الأموال.

﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾[١٥٨]

ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون، أي إن[4] متم على فراشكم، أو قتلتم في سبيل الله فإليه تحشرون. فمعناه –والله أعلم– أي إن لم تقدروا على أن لا تُحشَروا[5] إليه [فـ]كيف تقدرون [على] أن لا يَنزل[6] بكم الموتُ وإن أقمتم في بيوتكم؟[7] *والله أعلم*.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[١٥٩]

وقوله عز وجل: **فبما رحمة من الله لنت لهم**، يحتمل هذا وجهين. يحتمل: فبرحمة من الله عليك لنت لهم، كقوله: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ.[8]

ويحتمل قوله: **فبما رحمة من الله**، أي فبرحمة من الله على العالمين لنت لهم[9] فيجب أن يكون الإنسان رحيما[10] على خلقه على ما جاء في الخبر، قال لأصحابه: «لن تدخلوا الجنة حتى تَراحَمُوا»، فقيل: كلنا[11] نرحم يا رسول الله، فقال: «ليس[12] تراحم الرجل ولده أو أخاه

[1] جميع النسخ: نازل.
[2] ع: فقتلتكم؛ م: بقتلكم.
[3] ع م: في طاعته.
[4] م – إن.
[5] جميع النسخ: لم تحشروا.
[6] م + على فراشكم.
[7] «بل كما اضطُررتم وجُبرتم على أن تُحشروا إليه فكذلك اضطررتم في أن يَنزل بكم الموت في أي مكان شاء، شئتم أو أبيتم» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٣٣و).
[8] سورة الحج، ١٠٧/٢٢.
[9] ن ع م – كقوله وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ويحتمل قوله فبما رحمة من الله أي فبرحمة من الله على العالمين لنت لهم.
[10] ن + كقوله وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ويحتمل قوله فبما رحمة من الله أي فبرحمة من الله على العالمين لنت لهم فيجب أن يكون الإنسان رحيما.
[11] جميع النسخ: كنا.
[12] ن – ليس.

ولكن بتراحم بعضهم بعضا».[١] أو كلام نحو هذا، وما جاء: «من لم يرحم صغيرنا و لم يوقِّر كبيرنا فليس منا»،[٢] وما جاء: «من لم يرحم أهل الأرض لم يرحمه أهل السماء».[٣] كما قال الله تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ،[٤] الآية. وقد أمر الله عباده أن يعامل بعضهم بعضا بالرحمة واللين، إلا عند المعاندة والمكابرة فحينئذ أمر بالقتال، كقوله لموسى وهارون حيث أرسلهما إلى فرعون فقال: فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى.[٥] وكان اللَّيِّن من القول أنفذ في القلوب وأسرع إلى الإجابة وأدعى إلى الطاعة من الخشن من القول، وذلك [أمر] ظاهر في الناس؛ لذلك أمر الله عز وجل رسله[٦] باللّين من المعاملة والرحمة على خلقه، وجعله سبب تأليف القلوب وجمعها، وجعل الخشن من القول والغليظ[٧] سبب الفُرْقة، بقوله: **ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك،** أي لو كنت في الابتداء فظا غليظا لتفرقوا و لم يجتمعوا عندك.

وقوله: **فاعف عنهم،** بأذاهم إياك ولا تكافئهم.[٨] **واستغفر لهم** فيما بينهم وبين ربهم. ويحتمل قوله: **فاعف عنهم واستغفر لهم،** بما عصوك ولا تنتصر منهم. وكذلك أمر الله المؤمنين جملة أن يعفوا[٩] عنهم وأن لا ينتصروا منهم، بقوله: فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ.[١٠]

وكان أرجى الآية للمؤمنين قوله: **واستغفر لهم،** كما قال الله تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون،[١١] الآية، وقوله أيضا: وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ؛[١٢]

---

[١] عن أبي موسى الأشعري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «... والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا. قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم. قال: «إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكن رحمة العامة»، هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (*المستدرك على الصحيحين* للنيسابوري، ١٨٥/٤؛ وانظر أيضا: *مجمع الزوائد* للهيثمي، ٣٠/٨، ١٨٦).

[٢] *مسند أحمد بن حنبل*، ١/ ٢٥٧، ٢/ ٢٠٧؛ *وسنن الترمذي*، البر ١٥.

[٣] *فيض القدير* للمناوي، ٢٣٩/٦؛ وكشف *الخفاء* للعجلوني، ١١٩/١.

[٤] ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون﴾ (سورة الجاثية، ١٤/٤٥).

[٥] سورة طه، ٤٤/٢٠.

[٦] جميع النسخ: رسلهم.

[٧] ن ع م: واللفظ.

[٨] جميع النسخ: ولا تكافهم.

[٩] ن ع م: أن يعفو.

[١٠] سورة البقرة، ١٠٩/٢.

[١١] سورة الجاثية، ١٤/٤٥.

[١٢] ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم مُتَقَلَّبَكم ومثواكم﴾ (سورة محمد، ١٩/٤٧).

لا جائز أن يؤمر بالاستغفار لهم ثم لا يَفعل وإذا فعل لا يجاب؛[1] فدل أنه ما ذكرنا. ***والله أعلم***.
وكذلك دعاء إبراهيم صلوات الله عليه: رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ،[2] ودعاء نوح: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ،[3] لا يجوز أن يدعو هؤلاء الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ثم لا يجاب لهم.

وقوله عز وجل: **وشاوِرْهم في الأمر**. أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يشاور أصحابه في الأمر. ففيه وجوه ثلاثة. أحدها أنه لا يجوز[4] / أن يأمره بالمشاورة فيما فيه النص [١١٠ظ] وإنما يأمر بها[5] فيما لا نص فيه، ففيه دليل جواز العمل بالاجتهاد.

والثاني لا يخلو أمره بالمشاورة إما لعظم قدرهم وعلو منزلتهم عند الله، أو لفضل العقل ورجحان اللب، فكيف ما كان فلا يجوز لمن دونهم أن يُسَوّوا[6] أنفسهم بهم،[7] ولا جائز أيضا أن يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين ثم لا يعمل برأيهم. دل أنهم إذا اجتمعوا كان الحق لا يشذ عنهم.

وقال بعضهم: إنما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورتهم في أمر الحرب والقتال. وعن الحسن رضي الله عنه: لما أنزل الله تعالى: **وشاورهم في الأمر**، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله ورسوله غنيان عن مشاورتكم، ولكنه أراد أن يكون سنة لأمتي».[8] وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه كان يقرأ: وشاورهم في بعض الأمر.[9]

وقيل: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يشاور أصحابه في الأمور [كلها][10] وهو يأتيه وحي السماء؛ لأنه أطيب لأنفس القوم، وأن القوم إذا شاور بعضهم بعضا وأرادوا[11] بذلك وجه الله

---

[1] ن ع م: الإيجاب.
[2] سورة إبراهيم، ٤١/١٤.
[3] سورة الجن، ٢٨/٧٢.
[4] ك + له.
[5] م: بهما.
[6] ن ع م: يسوؤا.
[7] ن − بهم.
[8] ن: لأمته. لم أجده. ولكن فخر الدين الرازي يقول: قال الحسن وسفيان بن عيينة: «إنما أمر بذلك ليقتدي به غيره في المشاورة ويصير سنة في أمته» (*مفاتيح الغيب* للرازي، ٦٩/٩).
[9] *زاد المسير* لابن الجوزي، ٤٨٩/١.
[10] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٣٣ظ.
[11] جميع النسخ: فأرادوا.

عزم الله لهم على أرْشِده. وقيل: إن العرب في الجاهلية كانوا إذا أراد سيدها أن يقطع[١] أمرا دونهم ولا يشاورهم في الأمر شق عليهم، فأمر الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يشاورهم[٢] في الأمر إذا أراد، فإن ذلك أعطف لهم عليه وأذهب لأضغانهم. وفي بعض الأخبار قيل: يا رسول الله ما الحزم؟ قال: «أن تستشير ذا الرأي ثم تطيعه».[٣] وكان يقال: ما هلك امرؤ عن مشورة، ولا سَعِد بَتُور. قيل: البتور الذي لا يستشير[٤] ويعمل برأيه.

وقوله عز وجل: **فإذا عزمت فتوكل على الله**، أي لا تتكلنَّ إلى نفسك ولا تعتمدنَ على أحد، ولكن اعتمد على الله وَكِلِ الأمر إليه. وقيل: فإذا فَرَق ذلك الأمرُ بعد المشاورة [وتميّز الحق من الباطل][٥] فامض لأمرك. وإن[٦] كان في أمر الحرب على ما قيل فمعناه[٧] -والله أعلم- لا تعجبن بالكثرة، ولا تَرَينَّ النصر بها،[٨] ولكن اعتمد بالنصر على الله، كقوله: إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا،[٩] والله أعلم بما أراد بذلك، وكقوله: وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ.[١٠]

﴿إِنْ يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[١٦٠]

وقوله عز وجل: **إن ينصركم الله فلا غالب لكم**. صدق الله، من كان الله[١١] ناصره فلا يغلبه العدو من بعد. **وإن يخذلكم**، أي يترككم، **فمن ذا الذي ينصركم**. والنصر يحتمل وجهين. يحتمل[١٢] المعونة، ويحتمل المنع، كقوله تعالى: وَمَا لَهُم مِن نَاصِرِينَ.[١٣] وقوله عز وجل:

---

١ ن: أن يقطعوا، صح هـ.
٢ م: أن يشاؤهم.
٣ *المراسيل* لأبي داود، ١/٣٣٤؛ وسنن *البيهقي الكبرى*، ١١٢/١٠؛ وفتح *الباري* لابن حجر، ١٩٠/١٣.
٤ م: لا يشير.
٥ والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٣٣ظ.
٦ جميع النسخ: فإن. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٣٣ظ.
٧ جميع النسخ: فهو. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٣٣ظ.
٨ ك ن م: به؛ ع – بها.
٩ ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبت ثم وَليتم مدبرين﴾ (سورة التوبة، ٢٥/٩).
١٠ ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ (سورة آل عمران، ١٢٦/٣).
١١ ع م – الله.
١٢ ع + وجهين يحتمل.
١٣ ﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يُضل وما لهم من ناصرين﴾ (سورة النحل، ٣٧/١٦).

إن ينصركم الله، أي [إن] أعانكم الله فلا يغلبكم العدو، **وإن يخذلكم**، فلم يُعنكم[١] فمن ذا الذي يعينكم[٢] سواه؟ ومن المنع:[٣] أي إن منع الله عنكم العدو فلا غالب لكم، وإن يخذلكم ولم يمنعكم[٤] فمن الذي يمنعكم من بعده؟ والخِذلان في الحقيقة هو ترك المأمول[٥] منه لما[٦] أُمِل منه، واستعمل في هذا كما استعمل الابتلاء على غير حقيقته.

وقوله عز وجل: **وعلى الله فليتوكل المؤمنون**، هو على الأمر في الحقيقة، كأنه قال: وعلى الله[٧] فتوكلوا أيها المؤمنون. والتوكل هو الاعتماد عليه وتفويض الأمر إليه، لا بالكثرة والأسباب التي يقوم بها[٨] من نحو القوة والعُدّة، والنصر والغلبة. وفي الشاهد إنما يكون [النصر] عند الخلق بثلاث، إما بالكثرة، وإما بفضل قوة بطش، وإما بفضل تدبير ورأي في أمر الحرب. وجميع نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلبته[٩] على عدوه إنما كان لا بذلك، ولكن بالتوكل عليه وتفويض الأمر إليه؛ دلّ أن ذلك كان بالله عز وجل، وذلك من آيات نبوته صلى الله عليه وسلم.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[١٦١]

وقوله عز وجل: **وما كان لنبي أن يغلّ**، فيه قراءتان:[١٠] يغلّ بنصب الياء، وبرفع الياء ونصب الغين. ومن قرأ بنصب الياء فذلك يحتمل وجهين. يحتمل: **وما كان لنبي أن يَغُلّ**،

---

[١] م – فلم يعنكم.
[٢] جميع النسخ: أعانكم.
[٣] أي والمعنى الثاني مأخوذ من المنع.
[٤] ع: ولم يعنكم.
[٥] ع م: المأمور.
[٦] جميع النسخ: ما. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٣٤و.
[٧] ن – وعلى الله.
[٨] ك ن: بها يقوم.
[٩] م: وغلبة.
[١٠] قال أبو حيان: «قرأ ابن عباس وابن كثير وأبو عمرو وعاصم أن يَغُلّ مِن غلّ مبنيا للفاعل... وقرأ ابن مسعود وباقي السبعة أن يُغَلّ بضم الياء وفتح الغين مبنيا للمفعول» (*البحر المحيط*، ٣/١٠١). قال ابن خالَوَيه: «فالحجة لمن فتح الياء أنه جعله من الغُلول، ومعناه أن يخون أصحابه بأخذ شيء من الغنيمة خُفية. والحجة لمن ضم الياء أنه أراد أحد وجهين، إما من الغُلول. ومعناه أن يُخوَّن؛ لأن بعض المنافقين قال يوم بدر –وقد فُقدت قطيفة حمراء من الغنيمة–: خاننا محمد وغلّنا، فأكذبه الله عز وجل. وإما من الغُلّ وهو قبض اليد إلى العنق» (*الحجة في القراآت السبع لابن خالويه*، ١١٦).

أي لم يكن نبي من الأنبياء غلّ قط، وهو أحق مَنْ لا تتهموه،[١] لعلمكم[٢] به، فكيف اتهمتموه[٣] بالغُلول. وقيل: إن ناسا من المنافقين خَشُوا أن لا يَقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنيمة بينهم، فطلبوا القسمة فنزلت هذه[٤] الآية. وقيل: قالوا: اعدل يا محمد في القسمة، فنزل هذا. ويحتمل قوله: **وما كان لنبي أن يغل**، أي قد كنتم عرفتموه من قبل أن يُرسَل، فما عرفتموه خان قط أو غل، فكيف يحتمل الخيانة بعد ما أرسل؟ هذا لا يَحتمل.

ومن قرأ بالرفع فهو أيضا يحتمل وجهين. أي يُتَّهم بالغلول في الغنيمة، فهو يرجع إلى [ال]تأويل الأول. ويحتمل قوله أن يُغَلّ: أن يخان في الغنيمة، لا يجوز[٥] ولا يحل أن يخان النبي في الغنيمة، فإنه يَطّلع على ذلك، يُطلع الله رسوله، على ما جاء في بعض الأخبار أنه مر بقبر فقال: «إنه في عذاب». قيل: بماذا يا رسول الله؟ فقال: «إنه كان أخذ من الغنيمة قدر درهمين أو نحوه».[٦]

ويحتمل تخصيص[٧] الغنيمة، بما يَتأوّل[٨] الغالّ حِلّه بما لا يُعرَف له صاحب،[٩] كالمال الذي لا مالك له وربما يباح التناول منه للحاجة والأخذ بغير البدل بوجه لا يحتمل بتلك[١٠] الحل من ذلك.[١١]

وقوله عز وجل: **[ومن يغلل] يأت بما غل يوم القيامة**، أي يؤخذ به يوم القيامة، وهكذا كل من أخذ من مال غيره بغير إذنه فإنه يؤخذ به. وقال بعض الناس: وإنما خص الغنيمة بفضل وعيد، لأن الغلول فيها يُجْحِف[١٢] بحق الفقراء وأهل الحاجة، أو يضر ذلك أصناف الخلق.

---

[١] ع م: لا يتهموه.
[٢] ن ع م: لعلكم.
[٣] جميع النسخ + هذا.
[٤] ك – هذه.
[٥] ك ع م: لا يخون؛ ن – لا يخون.
[٦] لم نجده بهذا اللفظ. ولكن روي عن عبد الله بن عمرو، قال: «كان على ثَقَل النبي صلى الله عليه وسلم رجل يقال له كِرْكِرَة فمات، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هو في النار». فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها» (*صحيح البخاري*، الجهاد ١٩٠). «الثَّقَل: متاع المسافر» (*النهاية* لابن الأثير، ١/٢١٧).
[٧] جميع النسخ: خصوص. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٣٤و.
[٨] ك ن م: يتناول؛ ك (هـ): يتأول.
[٩] ع – له صاحب.
[١٠] ك: بذلك؛ ن ع م + أكل.
[١١] «ثم تخصيص الغلول في الغنيمة – وإن كان ذلك حراما في سائر الأمور – أن الغال ربما يتأول حله بأن كان لا يعرف له صاحب معين بمنزلة المال الذي لا مالك له، وأنه يباح التناول فيه بقدر الحاجة لقُوته وعَلَف دوابه. فأكد في الوعيد ليتحرز عن هذا الوهم فلا يفضي إلى استحلال الحرام فيجرّه إلى الكفر» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٣٤و).
[١٢] أي يذهب ويستأصل.

وسائر الأموال ليس كذا. وقيل: إنما جاء الوعيد في هذا لأنهم[1] كانوا أهل نفاق يستحلون الغُلول في الغنيمة / والأخذ منها، وهذا كأنه أشبه. [١١١و]

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال:[2] بعث رسول الله[3] صلى الله عليه وسلم جيشا فغَلّوا رأس ذهب، فنزلت الآية: **وما كان لنبي أن يغل**. وعن ابن عباس رضي الله عنه أيضا قال: فُقدت قطيفة حمراء يوم بدر مما أصيب من المشركين، فقال الناس: لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها لنفسه، فأنزل الله تعالى: **وما كان لنبي أن يغل**.[4]

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[١٦٢]

وقوله عز وجل: **أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله**، قيل: أفمن لم يَغُلَّ و لم يأخذ من الغنيمة شيئا كمن غل وأخذ منها؟ ليسا سواء، رجع أحدهما برضوان الله والآخر بسخطه. ويحتمل: **أفمن اتبع رضوان الله**: أفمن أطاع الله واتبع أمره كمن عصى الله واتبع هواه؟ ليسا بسواء.

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[١٦٣]

وقوله عز وجل: **هم درجات عند الله**. والدرجات -والله أعلم- ما يقصدها أهلها، والدركات ما يدركهم من غير أن يقصدوها كالدرك في العقول[5] يدرك من غير قصد. وقيل: الدرجات ما يعلو، والدركات ما يَسفُل.[6] *والله أعلم*. فلهذا[7] في التسمية المعروفة[8] سميت النار دركات والجنة درجاتٍ، وحقيقة ذلك واحد، والآية تدل[9] على الأمرين.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[١٦٤]

وقوله عز وجل: **لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم**.

---

[1] جميع النسخ: أنهم.
[2] ع م - قال.
[3] ك: النبي.
[4] *تفسير الطبري*، ٤/١٥٤-١٥٥؛ و*تفسير ابن كثير*، ١/٤٢٢.
[5] جميع النسخ: في العقود. والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١٣٤و.
[6] ك: يسفك.
[7] جميع النسخ: فهذا. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ١٣٤و.
[8] جميع النسخ + أن.
[9] ع: يدل.

المنة[١] فيما بعث الرسلَ عليهم من البشر ولم يرسلهم من الملائكة ولا من الجن [لها] وجوه. أحدها أن كل جوهر يألف بجوهره وينضمّ إليه ما لا يألف[٢] بجوهر غيره، ولا ينضم إلى جنس آخر، فإذا كان كذلك والرسل إنما بعثوا لتأليف[٣] قلوب الخلق وجمعهم، والدعاءِ إلى دين يوجب الجمع[٤] بينهم، ويدفع الاختلاف من بينهم، فإذا كان ما[٥] وَصَفْنا بعثوا من جوهرهم وجنسهم ليألفوا بهم وينضموا إليهم.[٦] *والله أعلم*.

والثاني أن الرسل لا بد لهم من أن يقيموا آيات وبراهين[٧] لرسالتهم. فإذا كانوا من غير جوهرهم وجنسهم لا يَظهر لهم الآيات والبراهين لما يقع عندهم أنهم إنما يأتون ذلك بطباعهم دون أن يأتوها بغيرٍ أعطاهم[٨] إياها ذلك.

والثالث أن ليس في وسع البشر معرفة غير جوهرهم وغير جنسهم من نحو الملائكة والجن، ألا ترى أن البشر لا يرونهم. فإذا كان كذلك بعثوا منهم ليعرفوهم وليظهر لهم الحجة. *والله أعلم*.

ثم [بيان][٩] المنة الثانية حيث بعثهم من نسبهم[١٠] وجنسهم وحسبهم[١١] [و] لم يبعثهم من غيرهم. وذلك أنهم إذا بُعثوا من غير قبيلتهم وجنسهم لم يظهر لهم صدقهم ولا أمانتهم فيما ادعوا من الرسالة؛ فبعثهم منهم[١٢] ليظهر صدقهم وأمانتهم،[١٣] لما ظهر صدقهم وأمانتهم في غير ذلك؛ فيدل ذلك لهم أنهم لمّا لم يكذّبوا بشيء قط ولا خانوا في أمانة لا يكذّبون على الله تعالى. والثاني أنهم إذا كانوا من غير نسبهم، فلعلهم إذا أتوا بآيات[١٤] أو براهين يقولون:

١ جميع النسخ: وجه المنة.
٢ جميع النسخ: لم يألف.
٣ ع: التاليف.
٤ م: تجمع.
٥ م – ما.
٦ «فيتحقق معنى الداعي إلى البعث والإرسال» (*شرح التأويلات*، ورقة ١١٤و).
٧ جميع النسخ: وبراهينا.
٨ ن ع م: اعطائهم.
٩ والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٣٤ظ.
١٠ ك: بسيهم.
١١ ن ع م – وحسبهم.
١٢ ك: منه.
١٣ ن – فيما ادعوا من الرسالة فبعثهم منهم ليظهر صدقهم وأمانتهم.
١٤ جميع النسخ: بآية.

إنما كان ذلك بتعلمهم[١] من أحد أو اختلاف[٢] إلى أحد ممن يفتعل بمثل هذا. [لذلك] بعثهم الله منهم ليعلموا أنهم -إذا لم يتعلموا من أحد، ولا اختلفوا فيه[٣]- إنما علموا ذلك بالله تعالى لا بأحد من البشر. *والله أعلم*. ألا ترى أن[٤] ما أتى به موسى صلوات الله عليه من الآيات من نحو العصا واليد البيضاء[٥] وغير ذلك لو كان سحرا في الحقيقة لكان من أعظم آيات رسالته، لأنه لم يُعرف أنه اختلف إلى أحد في تعلم السحر قط، وقد نشأ بين أظهرهم، فيكف ولم يكن سحرا؟ فدل[٦] أن لله على خلقه منة عظيمة فيما بعث الرسل من نسبهم وقرابتهم، وممن نشأ بين أظهرهم للمعنى[٧] الذي وصفنا. *والله أعلم*.

وقيل قوله: **رسولا من أنفسهم**، أي من العرب، معروف النسب، أمّيا، ليعلموا أنه إنما أتى[٨] بما أتى[٩] به[١٠] سماويا ووحيا،[١١] وأن لا يرتابوا[١٢] في رسالته و فيما يقوله. [وهو] كقوله: وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ،[١٣] الآية.

وقوله عز وجل: **يتلو عليهم آياته**، يَحتمل أعلامَ رسالته ونبوته، وتحتمل[١٤] الآيات الحججَ والبراهينَ، وهما[١٥] واحد. وتحتمل آيات القرآن.

وقوله: **ويزكيهم**، يحتمل التزكية من الزكاء والنماء، وهو أن أظهر ذكرهم وأفشى شرفهم ومذاهبهم، حتى صاروا أئمة يذكرون ويقتدى[١٦] بهم بعد موتهم، كقوله تعالى:

---

[١] ك ع م: بتعيلم.
[٢] جميع النسخ: واختلاف.
[٣] جميع النسخ + أنهم.
[٤] ك - أن.
[٥] ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين. ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٠٧-١٠٨).
[٦] ك: فدلت.
[٧] جميع النسخ: لمعنى.
[٨] م + به.
[٩] ك ع - بما أتى؛ م: ما أتى.
[١٠] ك ن + به ما أتى؛ ع + ما أتى.
[١١] ن م: وحيا.
[١٢] ك ن ع: وأن يرتابوا.
[١٣] ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٤٨).
[١٤] ن ع: يحتمل.
[١٥] ن ع م: هما.
[١٦] جميع النسخ: ويقتدون.

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، أظهرها،[١] و لم يَخْمُل ذكرهم،[٢] ألا ترى أنه قال: وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا،[٣] أي أخفاها وأخملها. ويحتمل **يزكيهم**، أي يطهرهم بالتوحيد. وقيل: **يزكيهم**، أي يأخذ منهم[٤] الزكاة ليطهرهم.[٥]

وقوله عز وجل: **ويعلمهم الكتاب والحكمة**، إنه[٦] ينصرف إلى وجوه، وقد ذكرناه[٧] في غير موضع.[٨]

وقوله عز وجل: **وإن كانوا**، وقد كانوا،[٩] **من قبلُ لفي ضلال مبين**. وقد ذكرنا[١٠] الضلال أنه يتوجه إلى وجوه: إلى الهلاك، وإلى الحيرة، وإلى خمول الذكر وغيره.

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١٦٥]

وقوله عز وجل: **أولما أصابتكم مصيبة**. [قيل: قتل][١١] يوم أحد سبعون من المؤمنين -و[كان قد] قتل يوم بدر سبعون من المشركين وأُسِر سبعون- فنزل قوله: **أولما أصابتكم مصيبة**، حيث قتل منكم سبعون، فقد أصبتم مثليها يوم بدر، قتلتم سبعين وأسرتم سبعين. وقيل: إن ذلك كله يوم أحد، كانت الدَّبْرَة[١٢] والهزيمة على المشركين في ابتدائه،[١٣] ثم هُزم المؤمنون. يقول:[١٤] إن أصابكم في آخره ما أصاب فقد أصابهم أيضا مثلاها.[١٥] يذكر هذا لهم -والله أعلم-

---

[١] ن ع م: أظهره.
[٢] ك: ذكرها.
[٣] سورة الشمس، ٩١/٩-١٠.
[٤] م: هم.
[٥] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تُطهرهم وتُزكيهم بها وصل عليهم﴾ (سورة التوبة، ٩/١٠٣).
[٦] م: أن.
[٧] ك ع م: ذكرنا.
[٨] انظر عند تأويل قوله تعالى في سورة البقرة، ٢/١٢٩، ١٥١، ٢٣١، ٢٥١؛ وفي سورة آل عمران، ٣/٤٨.
[٩] ع: أو قد كانوا.
[١٠] انظر عند تأويل قوله تعالى في سورة آل عمران، ٣/٦٩.
[١١] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٣٤ظ.
[١٢] الدَّبْرَةُ الهزيمة في القتال، وهو اسم من الإدبار. يقال: جعل الله عليهم الدَّبْرَة، أي الهزيمة، وجعل لهم الدَّبْرَةَ على فلان، أي الظَّفَر والنُّصْرَة. وقال أبو جهل لابن مسعود يوم بدر وهو مُثْبَتٌ جريح صَرِيعٌ: لِمَنِ الدَّبْرَةُ؟ فقال: ولرسوله يا عدوّ الله (*لسان العرب*، «دبر»).
[١٣] ك: في ابتدائهم.
[١٤] ك: يقولون.
[١٥] جميع النسخ: مثليها.

على التسلية[1] بما أصيبوا ليتسلَّوا[2] بذلك عنها،[3] أو يُذكّرهم نعمه[4] عليهم بما أصيب المشركون مثلي ذلك، ليشكروا له عليها وليعلموا أنهم لم يُخَصُّوا[5] بذلك.

[١١١ظ] وقوله[6] عز وجل: **قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم**، كأنه يعاتبهم / -والله أعلم- بقولهم: **أنى هذا؟** فقال: **قل هو من عند أنفسكم**، يعاتبهم[7] بتركهم الاشتغال بالتوبة عما ارتكبوا من عصيان ربهم والخلاف لنبيهم صلى الله عليه وسلم؛ إذ مثل ذلك الكلام لا يكون إلا ممن[8] كان متبرءًا عن ارتكاب المنهي والخلافِ لأمره. فأما من كان منه ارتكاب المناهي والخلاف لربه فلا يسعه[9] ذلك. أو كان ما أصابهم إنما أصاب محنةً منه، ولله أن يمتحن عباده بأنواع المحن على يدَي من شاء إذ كلهم عبيده، فعاتبهم لما لم يعرفوا [أنه] محنة.

وقلتم أنى هذا، ونحن مسلمون نقاتل[10] في سبيل الله وهم مشركون؟ فقال: **هو من عند أنفسكم**،[11] بمعصيتكم الرسول صلى الله عليه وسلم وبترككم ما أمركم به من حفظ المركز وغيره، كقوله: مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ.[12]

{قال الشيخ رحمه} في قوله: **قلتم أنى هذا**: يخرج -إن كان من أهل النفاق- مخرج الاستهزاء. أي لو كان ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم من [أن] النصر له و[أن] الرسالة[13] حق[14] فمن أين بُلي[15] بهذا؟ وذلك كقولهم: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا،[16]

---

[1] جميع النسخ: التسلي. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ١٣٤ظ.
[2] ك م: ليتسلى.
[3] جميع النسخ: ذلك عنهم.
[4] ع م: نعمة.
[5] ك: لم يخصوا هم؛ ن ع م: لم يخصوهم.
[6] ن - وقوله.
[7] ك + والله أعلم بقولهم أنى هذا فقال قل هو من عند أنفسكم يعاتبهم؛ ع م - والله أعلم بقولهم أنى هذا فقال قل هو من عند أنفسكم يعاتبهم.
[8] جميع النسخ: من.
[9] ن ع م: فلا يسع.
[10] ك - نقاتل.
[11] جميع النسخ + يقول.
[12] سورة النساء، ٤/٧٩.
[13] ك ن ع: أو الرسالة.
[14] جميع النسخ: حقا.
[15] م: بل.
[16] سورة آل عمران، ٣/١٥٤.

وقولهم يوم الخندق: مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا،[1] وغير ذلك مما عليه معتمدهم في إظهار الإسلام. *والله أعلم*.

وإن كان ذلك من أهل الإيمان، فهو سؤال تعريف الوجه الذي بُلُوا به، وهم أنصار دين الله، وقد[2] وَعَد [الله] لأنصار دينه النصرَ وأن الذي ينصره الله لا يغلبه شيء. وكانوا[3] قد وُعدوا[4] إلقاءَ الرعب في قلوب[5] أعدائهم،[6] أو بما كانوا [قد] رأوا الدَّبْرَة عليهم والهزيمة من الأعداء، فيقولون: بم انقلب علينا الأمر؟ فبين [الله] أنه بما قد عصوا ومالوا عن الله وإن كان ذلك عن بعضهم لا عن كلهم.[7] فجائز ذلك بحق المحنة، إذ قد يجوز الابتلاء[8] به، مع ما يكون ذلك عن المعاصي أزجر[9] وللاجتماع على الطاعة أدعى، إذ المحنة بمثله تدعو كُلًّا إلى اتقاء الخلاف ومنع إخوانه أيضا عن ذلك؛ فيكون به التآلف وصلاح ذات البين. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **إن الله على كل شيء قدير** من النصر والهزيمة، ولكن ما أصابكم إنما أصاب بمعصيتكم ربكم وخلافكم رسوله صلى الله عليه وسلم، أو أصابكم[10] محنة منه إياكم.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١٦٦] ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَا تَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾[١٦٧]

وقوله: **وما أصابكم يوم التقى الجمعان**، جمع المؤمنين وجمعُ المشركين. **فبإذن الله**، قيل: فبمشيئة الله وإرادته. وقيل: **فبإذن الله**، فبتخلية[11] الله إياكم لما لعلهم[12] رأوا النصر والغلبة بالكثرة

---

[1] ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا﴾ (سورة الأحزاب، ١٢/٣٣).
[2] م – وقد.
[3] جميع النسخ: وكان.
[4] ع: وعدو.
[5] ع – قلوب.
[6] لعله يشير مثل قوله تعالى: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا﴾ (سورة آل عمران، ١٥١/٣؛ قارن: سورة الأنفال، ١٢/٨).
[7] ك: عن جلهم.
[8] م: الابتداء.
[9] ن: زجر.
[10] م: وأصابكم.
[11] ع: فبتجلية.
[12] ن ع م: لعلمهم.

أو بالقوة والعُدَّة، فخلّى[1] الله بينهم وبين عدوهم ليعلموا أن أمثالهم[2] مع قلتهم وضعفهم لا ينتصرون على أمثال[3] هؤلاء،[4] مع كثرة عددهم وقوة أبدانهم[5] وعُدّتهم في سلاحهم، ولكن بالله[6] ينتصرون منهم، ويغلبون[7] عليهم. وقيل: **فبإذن الله**: فبعلم الله، أي بعلم الله ما يصيبكم من خير أو شر، ليس عن سهو[8] وغفلة منه يصيبكم.

وقوله: **وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا**، كما[9] ذكرنا فيما تقدم[10] ليعلم ما قد علم أنهم يؤمنون ويصبرون على البلايا والقتال مؤمنين صابرين محتسبين، وكذلك ليعلم ما قد علم أنهم ينافقون ولا يصبرون[11] منافقين غير صابرين ولا محتسبين.[12]

وقوله: **وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا**، [أي قاتلوا في سبيل الله على الحقيقة، على ترك النفاق والرجوع إلى الإسلام].[13] قوله: **أو ادفعوا**، يحتمل وجوها.[14] يحتمل **أو ادفعوا**، أي كثّروا السواد، لأن المشركين إذا رأوا سواد المؤمنين كثيرا[15] يُرهبهم ذلك ويُخوّفهم، كقوله عز وجل: وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ.[16] ويحتمل **أو ادفعوا** العدو عن[17] أنفسكم لِما لعلهم يقصدون[18] أنفس المؤمنين المقاتلين،[19]

[1] ك ن م: فخلاهم؛ ع: فخلافهم.
[2] أي المسلمين.
[3] ك ن م: من أمثال.
[4] ك: أولئك.
[5] ك: أمالهم؛ صح هـ: أبدانهم.
[6] ن – ينتصرون على أمثال هؤلاء مع كثرة عددهم وقوة أبدانهم وعدتهم في سلاحهم ولكن بالله.
[7] ك ع: ويتغلبون.
[8] ع: من سهو.
[9] جميع النسخ: لما.
[10] انظر ما ذكر عند تأويل قوله تعالى في سورة آل عمران، ٣/١٤٠.
[11] ك: ولا يصيرون.
[12] «ليظهر ما قد علم على ما علم» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٣٥و).
[13] شرح *التأويلات*، ورقة ١٣٥و.
[14] م – يحتمل وجوها.
[15] ك – كثيرا.
[16] سورة الأنفال، ٨/٦٠.
[17] ن + دينكم إذا قصدوا دينكم.
[18] ن – أنفسكم لما لعلهم يقصدون.
[19] ن: المقابلين.

[لأنهم لا يفصلون بين المؤمنين والمنافقين لإظهاركم الإيمان باللسان]. **أو ادفعوا** عن أموالكم وذراريكم ويقصدون ذلك. **أو ادفعوا** عن دينكم [الذي تدينون به][١] إذا قصدوا دينكم،[٢] وقد يقصدون ذلك. أو أن يكون قوله عز وجل: **قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا**، واحدا،[٣] أي **قاتلوا في سبيل الله وادفعوا**.[٤] *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم**، يعني المنافقين. قيل: قال المنافقون الذين تخلفوا في المدينة لرسول الله صلى الله عليه وسلم [ذلك]. وقيل: قال ذلك غيرهم.[٥]

وقوله[٦] عز وجل: **هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان**، يعني المنافقين. أخبر أنهم إلى الكفر أقرب منهم من الإيمان للكفر، و"إلى الكفر" و"من الكفر"،[٧] كل ذلك لغة. وفي حرف حفصة: هم[٨] إلى الكفر أقرب.[٩]

وتأويله –والله[١٠] أعلم– أن المنافقين كانوا لا يعرفون الله عز وجل ولا كانوا يعبدونه، فإنما هم عُبّاد النعمة يميلون إلى حيث مالت[١١] النعمة إن كانت مع المؤمنين فيظهرون من أنفسهم الوفاق لهم، وإن كانت مع المشركين فمعهم، كقوله عز وجل: ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ،[١٢] الآية، وكقوله عز وجل: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ،[١٣] الآية.

---

[١] والزيادتان من *الشرح*، ورقة ١٣٥و.
[٢] ن ع – إذا قصدوا دينكم.
[٣] ك: ذاجد؛ ع: واحد.
[٤] «وحرف أو بمعنى الواو [هنا]، وهو مستعمل في الكلام» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٣٥و).
[٥] ع م – وقوله عز وجل قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم يعني المنافقين قيل قال المنافقون الذين تخلفوا في المدينة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل قال ذلك غيرهم.
[٦] م: قوله.
[٧] م: من الكفر.
[٨] ع م – هم.
[٩] ع م + هم إلى الكفر.
[١٠] م: وأنه.
[١١] م: ماله.
[١٢] ﴿الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾ (سورة النساء، ١٤١/٤).
[١٣] ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ (سورة الحج، ١١/٢٢).

وأما الكفار فإنهم كانوا يعرفون الله، لكنهم كانوا يعبدون الأصنام والأوثان لوجهين. أحدهما لما اتخذوها أربابا.[1] والثاني يطلبون بذلك تقربهم إلى الله زلفى، كقوله:[2] مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى،[3] لكنهم إذا أصابتهم الشدة و لم يروا فيما عبدوا الفَرَج عن ذلك فزعوا إلى الله عز وجل، كقوله عز وجل: فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ،[4] فإذا ذهب ذلك عنهم عادوا إلى دينهم الأول، وقوله عز وجل: وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ،[5] الآية.

وأما المؤمنون فهم في جميع أحوالهم - في حال[6] الرخاء والشدة والضراء والسراء- مخلصون[7] لله، صابرون[8] على مصائبهم وشدائدهم قائلون: إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.[9]

وقوله عز وجل: **هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان.** يحتمل هذا وجوها. قيل: إنما كانوا
[١١٢و] كذا؛ / لأنهم كانوا يقولون للمؤمنين: أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،[10] ذكروا كونهم مع المؤمنين،[11] وذكروا في الكافرين استحواذهم عليهم ومنعَهم من المؤمنين،[12] فذلك آية الأقرب منهم. ويحتمل **أقرب منهم للإيمان،** لأن ما أظهروا[13] من الإيمان كذب، والكفر نفسه كذب، فما أظهروا من الإيمان فهو كذب[14] [فهم] إلى الكذب الذي هم عليه أقرب، وهو الكفر. وعن ابن عباس رضي الله عنه:

---

[1] م - أربابا.
[2] ك ن م: كقولهم.
[3] ع - كقوله ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. سورة الزمر، ٣/٣٩.
[4] ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ (سورة العنكبوت، ٦٥/٢٩).
[5] ﴿وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوّله نعمةً منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليُضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار﴾ (سورة الزمر، ٨/٣٩).
[6] م - في حال.
[7] جميع النسخ: مخلصين.
[8] جميع النسخ: صابرين.
[9] ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ (سورة البقرة، ١٥٦/٢).
[10] ﴿الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم﴾ (سورة النساء، ١٤١/٤).
[11] ع - ذكروا كونهم مع المؤمنين.
[12] ك ن: عن المؤمنين؛ ع م: على المؤمنين.
[13] ن: ظهروا.
[14] ع - فما أظهروا من الإيمان فهو كذب.

هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان، قال: هم يومئذ يُسرّون[١] الكفر ويظهرون الإيمان، وسر العبد أولى من علانيته وفعله أولى به[٢] من قوله: **يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم**، وهو قولهم. وقيل: وهم منهم[٣] أقرب لأنهم كانوا في الحقيقة كفارا على دينهم.

وقوله[٤] تعالى: **هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان**، يحتمل ألزم،[٥] وأقبل،[٦] كقوله عز وجل: وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا،[٧] فيكون الوصف بالقرب على الوقوع والوجوب، كقوله عز وجل: إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ،[٨] أي هي لهم. ***وبالله التوفيق***. وذلك لأنهم كانوا أهل نفاق، والكفر لم يكن يفارق قلوبهم، وما كان من إيمانهم كان بظاهر اللسان، ثم[٩] قد يفارقها[١٠] في أكثر أوقاتهم. ***والله أعلم***. وقد يكون على القرب من حيث كانوا شاكّين في الأمر،[١١] والشاك[١٢] في أمر الكفر والإيمان تارك[١٣] للإيمان؛[١٤] إذ حقيقته[١٥] تصديق عن معرفة ولم يكن لهم معرفة،[١٦] والكفر قد يكون بالتكذيب -كان له بما يكذب عِلْمٌ بالكذب أو لا- فلذلك كان الكفر أقرب إليهم. ويحتمل **أقرب منهم**،[١٧] أولى بهم، وهم به أحق أن يُعرَفوا بما جعل الله لهم من أعلام ذلك في لحن القول ثم في أفعال الخير ثم في أحوال الجهاد وما[١٨] يظهر منهم من آثار الكفر في الأقوال والأفعال، مما جاء به القرآن. ***والله أعلم***.

---

[١] ع م: يرون.
[٢] ك - به.
[٣] أي من الكفرة.
[٤] ن: في قوله؛ ع م: وفي قوله.
[٥] م: ألذم.
[٦] م: وقيل.
[٧] ﴿ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/١٤).
[٨] سورة الأعراف، ٧/٥٦.
[٩] ك ع - ثم.
[١٠] أي يفارق إيمانهم لسانهم. قال اللحياني: اللسان في الكلام يذكّر ويؤنث (*لسان العرب*، «لسن»).
[١١] م - في الأمر.
[١٢] ن ع: والشان؛ م - والشاك.
[١٣] م: تاركوا
[١٤] م - للإيمان.
[١٥] م: حقيقة.
[١٦] ع - ولم يكن لهم معرفة.
[١٧] ك م: إليهم؛ ن ع - ويحتمل أقرب إليهم.
[١٨] جميع النسخ: ومما.

فإن قيل في قوله: أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ،[1] كيف عمّ هؤلاء بالعقوبة، وإنما كان العصيان والخلاف في الأمر من بعضهم لا من الكل؟

قيل: لما خرج لهم[2] ذلك[3] مخرج الامتحان والابتلاء لا مخرج الجزاء لفعلهم، ولله أن يمتحن عباده ابتداء بأنواع المحن من غير أن يسبق منهم خلاف في الأمر أو عصيان.[4] وكل عقوبة خرجت مخرج جزاءِ عصيانٍ أو خلاف[5] في أمر لم يُؤاخذ غير مرتكبها، لقوله[6] عز وجل: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى.[7] وما خرج مخرج الامتحان جاز أن يعمّهم، لما ذكرنا أن له ابتداءً امتحانا.[8] وإن كان[9] ما كان منهم بمعونة غيرهم فعمهم لذلك بذلك، كقطّاع الطريق والسّرّاق[10] إذ تعمهم[11] العقوبة جميعا: مَنْ أخذ ومن لم يأخذ ومن تولى ومن لم يتول،[12] فكذلك هذا. وكانوا[13] جميعا كنفس واحدة فعمهم بذلك. ***والله أعلم.***

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[١٦٨]

وقوله عز وجل: **الذين قالوا لإخوانهم**، قيل: **لإخوانهم**[14] في الدين ومعارفهم من المنافقين، **لو أطاعونا** ولم يخرجوا إلى الجهاد **ما قتلوا**.[15] وقيل: **قالوا لإخوانهم** في النسب والقرابة وليسوا بإخوانهم في الدين والولاية، كقوله عز وجل: وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا،[16]

[1] سورة آل عمران، ١٦٥/٣.
[2] ك - لهم.
[3] ك + لهم؛ ن - ذلك.
[4] م: وعصيان.
[5] م: وخلاف.
[6] ك ن: كقوله.
[7] سورة فاطر، ١٨/٣٥.
[8] ع م - امتحان.
[9] جميع النسخ: أو إن كان.
[10] جميع النسخ: وكسراق.
[11] ع: إذ يعمهم؛ ن م: أن تعمهم.
[12] ن ع م: لم يتولى.
[13] ك ن ع: أوكانوا.
[14] م - قيل لإخوانهم.
[15] ع م: وما قتلوا.
[16] سورة الأعراف، ٧٣/٧.

ليس بأخيهم في الدين والولاية،[١] ولكن كان أخوهم في النسب والقرابة؛ **لو أطاعونا** وقعدوا عن الخروج في الجهاد **ما قُتلوا** في الغزو.

ثم قال عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم أَنْ **قل** لهم: **فادرءوا عن أنفسكم الموت،** أي ادفعوا عن أنفسكم الموت **إن كنتم صادقين،** بأنهم لو قعدوا في بيوتهم ما قتلوا. فمعناه -والله أعلم- أن من قتل في سبيل الله فمكتوب ذلك عليه، ومن مات في بيته[٢] فمكتوب[٣] عليه، فإذا لم تقدروا[٤] [على] دفع ما كتب عليكم من الموت [في البيت] كيف زعمتم أنهم لو قعدوا ما قتلوا وهو مكتوب عليهم كالموت؟

وهذه[٥] الآية ترد على المعتزلة قولهم، لأنهم[٦] يقولون: إن من قُتل مات قبل أجله أو قبل[٧] أن يستوفي أجلَه، فهم واليهودُ[٨] -فيما أنكر[٩] الله عليهم قولَهم **لو أطاعونا**، وقَعدوا **ما قُتلوا**- سواءٌ، بقوله: **فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.**

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[١٦٩] **﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[١٧٠]

وقوله عز وجل: **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا.** قيل فيه بوجوه. قيل:[١٠] إن المنافقين قالوا للذين قتلوا بأُحد وبِبَدر: إنهم ماتوا، فأنزل الله عز وجل: **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله،** -بأحد وببدر-[١١] **أمواتا**، كسائر الموتى، **بل هم،**[١٢] **أحياءٌ عند ربهم.**

---

[١] ك: في الولاية؛ ع م + كقوله عز وجل.
[٢] م: في بيت.
[٣] ك + ذلك.
[٤] ع م: لم يقدروا.
[٥] ع م: وفي هذه.
[٦] م: أنهم.
[٧] ع م: وقبل.
[٨] لعل الإمام الماتريدي رحمه الله يرى أن منافقي اليهود داخلون في قوله تعالى: ﴿الذين قالوا لإخوانهم﴾.
[٩] ن ع م: أنكروا.
[١٠] ع: وقيل.
[١١] ن ع م - إنهم ماتوا فأنزل الله عز وجل ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله بأحد وببدر.
[١٢] ن ع م - هم.

وقيل: قالوا إن من قتل لا يحيى أبدا ولا يُبعث، فقال عز وجل: بل يَحيوْن ويُبعثون، كما يحيى ويبعث غيرهم من الموتى.[١] وقيل: إن العرب كانت تسمِّي "الميت" من انقطع ذِكْره إذا مات ولم يُذكر، بأن[٢] لم يَبق له أحد يذكر به، فقالوا إذا قتل هؤلاء: ماتوا، أي لا يذكرون. فأخبر الله[٣] عز وجل أنهم مذكورون في الملأ،[٤] ملأ[٥] الملائكة وملأ البشر، وهو الظاهر المعروف في الخلق أن الشهداء مذكورون عندهم.

وقيل: قوله عز وجل: **بل أحياء عند ربهم**، أي يجزى أعمالهم بعد قتلهم كما كانوا يجزى في حال حياتهم، فهم كالأحياء فيما يجزى لهم ثواب أعمالهم،[٦] ليسوا بأموات. وقيل: إن حياتهم[٧] حياة كلفة، وذلك أنهم أمروا بإحياء أنفسهم في الآخرة [بالخيرات في الدنيا]، ففعل المؤمنون ذلك [و]أحيَوا أنفسهم في الآخرة فسموا أحياء لذلك. والكفار لم يحيوا أنفسهم بل أماتوها، فسمي أولئك أحياءً و الكفار موتى. وقيل سمي هؤلاء أحياء لأنهم انتفعوا بحياتهم، وسمي الكفار أمواتا لما لم ينتفعوا بحياتهم، ألا ترى[٨] أنه عز وجل سماهم مرة صُمٌّ / بُكْمٌ عُمْيٌ،[٩] لما لم ينتفعوا [١١٢ظ] بسمعهم ولا ببصرهم ولا بلسانهم، و لم يسم بذلك المؤمنين لما انتفعوا بذلك كله.[١٠] فعلى ذلك سمي هؤلاء أحياء لما انتفعوا بحياتهم، وأولئك الكفرة موتى لما لم ينتفعوا بحياتهم. *والله أعلم*.

وقال الحسن: إن أرواح المؤمنين يعرضون على الجنات[١١] وأرواح الكفار على النار، فيكون لأرواح الشهداء فضل[١٢] لذة ما لا يكون لأرواح غيرهم من المؤمنين ذلك، ويكون لأرواح آل فرعون فضل ألم وشدة ما لا يكون لأرواح غيرهم من الكفرة[١٣] ذلك،

---

[١] ع: في الموتى.
[٢] ن ع م: أي.
[٣] ك – الله.
[٤] ع – الملأ.
[٥] م – ملأ.
[٦] جميع النسخ + وجزائهم.
[٧] أي حياة الناس كلهم.
[٨] ك: ألا يرى.
[٩] سورة البقرة، ١٨/٢.
[١٠] ن – كله.
[١١] ن م: الجنان.
[١٢] ع م: أفضل.
[١٣] ن ع م – من المؤمنين ذلك ويكون لأرواح آل فرعون فضل ألم وشدة ما لا يكون لأرواح غيرهم من الكفرة.

فاستوجبوا بفضل[١] الله[٢] على غيرهم اسم الحياة. ألا ترى أنه قال تعالى: **يُرْزَقون فَرِحين بما آتاهم الله من فضله**. وقيل: إن الناس كانوا يقولون فيما بينهم في قتلى[٣] بدر وأحد: مات فلان ومات فلان، فقال[٤] عز وجل: وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ.[٥]

وقوله عز وجل: **يُرْزَقون فَرِحين بما آتاهم الله من فضله**. روي عن مسروق قال: سألت عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية: **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله**، الآية، قال: سألت عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أرواحهم عند الله في حواصلِ طيرٍ خُضْر لها قناديلُ معلقة بالعرش تسرح[٦] في الجنة في أيها شاءت، ثم تَأْوِي[٧] إلى قناديلها»[٨] والحديث[٩] طويل.

وقوله عز وجل: **ويستبشرون بالذين لم يَلحقوا بهم مِن خلفهم**، الآية. عن ابن عباس رضي الله عنه قال: تنزل[١٠] عليهم صحف مكتوب فيها من يلحق بهم من الشهداء، فبذلك يستبشرون.[١١] وقيل يستبشرون لإخوانهم الذين فارقوهم على دينهم وأمرهم بما قَدِموا عليه من الكرامة والفضل والنعم الذي أعطاهم الله. وقيل: **يستبشرون**، يعني يفرحون، **بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم**، يعني من بعدهم من إخوانهم[١٢] في الدنيا رأوا قتالا، استُشْهِدوا فَلَحقوا. وقيل: **لم يلحقوا**[١٣] **بهم من خلفهم**، [أي] الذين يدخلون في الإسلام من بعدهم. والاستبشار هو الفرح أو طلب[١٤] البشارة، كأنهم طلبوا البشارة لقومهم ليعلموا بكرامتهم عند الله ومنزلتهم،

---

[١] م: لفضل.
[٢] جميع النسخ: اللذة. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٣٥ظ.
[٣] ك ع: من قتلى؛ ن م: من قتل.
[٤] ك ع + الله.
[٥] ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ (سورة البقرة، ٢/١٥٤).
[٦] ع م: يسرح.
[٧] ع: تأدى.
[٨] صحيح *مسلم*، الإمارة ١٢١؛ وانظر أيضا: *سنن ابن ماجة*، الجنائز ٤، الجهاد ٢٥؛ وسنن *أبي داود*، الجهاد ٢٥؛ وسنن *الترمذي*، التفسير ١٩.
[٩] ع: الحديث.
[١٠] ن ع م: ينزل.
[١١] انظر: *بحر العلوم* للسمرقندي، ١/٣١٤؛ وتفسير *الألوسي*، ٤/١٢١.
[١٢] ع: وإخوانهم.
[١٣] م – وقيل لم يلحقوا.
[١٤] ع: طلبوا.

كقوله:[1] قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ.[2]

وقيل: إن الحياة على ضربين: الحياة[3] الطبيعي والحياة[4] العرضي، وكذلك الموت على وجهين: الموت[5] الطبيعي والموت[6] العرضي. ثم الحياة[7] العرضي[8] على وجوه. أحدها الحياة بالدين[9] والطاعة، كقوله عز وجل: أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ.[10] و[الثاني] الحياة بالعلم[11] والبصيرة واليقظة، [كما] سمي العالم حيا والجاهل ميتا. و[الثالث] الحياة[12] [من حيث] الزينة والشرف، على ما سمى الله تعالى الأرض ميتة في حال يبوستها، وحية في حال خروج النبات منها، بقوله عز وجل: فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا.[13] و[الرابع] الحياة[14] [من حيث] الذكر واللذة. فجائز أن يكون الله[15] تعالى لمّا أخبر أنهم أحياء عند ربهم [كان يريد به][16] أن يكون لهم الحياة[17] من أحد[18] الوجوه التي ذكرنا:[19] حياةِ ذكر ولذة، أو حياة زينة وشرف، أو حياة العلم لهم بأهل الدنيا على ما كان لهم قبل ذلك، أو حياة[20] دين وعبادة؛

[1] ك ن م: كقول من.
[2] سورة يس، ٣٦/٢٦-٢٧.
[3] جميع النسخ: حياة.
[4] جميع النسخ: وحياة.
[5] جميع النسخ: موت.
[6] جميع النسخ: وموت.
[7] ك ن م: حياة.
[8] ع - ثم الحياة العرضي.
[9] جميع النسخ: حياة الدين. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٣٦و.
[10] ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾ (سورة الأنعام، ٦/١٢٢).
[11] جميع النسخ: وحياة العلم. والتصحيح من شرح *التأويلات*، ورقة ١٣٦و.
[12] ك ن م: وحياة.
[13] ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾ (سورة فصلت، ٤١/٣٩).
[14] ك ن م: وحياة.
[15] ك + من الله.
[16] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٣٦و.
[17] ك ن م: حياة.
[18] م - أحد.
[19] ع م: ذكر.
[20] ن: وحياة.

إذ يجرى[١] عليهم أعمالهم على ما كان لهم قبل الشهادة وإن كانت أجسادهم في الحقيقة ميتة في أحكام الدنيا عند أهل الدنيا.[٢]

وهذا يُقَوِّي قولنا في المرتد: إنه إذا لحق بدار الحرب يُحكَم في نفسه وماله بحكم الموتى في قسمة المواريث وقضاء الديون وغيرها، وإن كان هو في الحقيقة حيا،[٣] على ما حكم في أموال الشهداء وأنفسهم بحكم الموتى في حكم الدنيا لما لا يعودون إلى الدنيا وإن كانوا عند ربهم أحياء. فعلى ذلك يحكم في نفس المرتد وأمواله بحكم الموتى لما لا يعود إلى دارنا، وإن كان هو في الحقيقة حيا[٤] عند الله.[٥] لَمّا جاز أن يكون حيا عند الله ميتا عندنا جاز أن يكون حيا[٦] عندنا ميتا[٧] عند الله. ***والله أعلم***. والحياة[٨] الطبيعي هو حياة جوهر وما به تقوم[٩] النفس، والموت[١٠] الطبيعي هو هلاكه وفوته. ***والله أعلم***. والموت[١١] العرضي هو جهله. ***والله أعلم***.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١٧١]

وقوله: **يستبشرون بنعمة من الله وفضل**، يحتمل **بنعمة من الله وفضل**، أي بدين من الله، كقوله تعالى: فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا،[١٢] قيل: بدينه. ويحتمل **بنعمة من الله** الجنة، **وفضلٍ** زيادات لهم وكراماتٍ من الله عز وجل.

وقوله عز وجل: **وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين**، أي لا يضيع من حسناتهم وخيراتهم [شيئا] وإن قلّ وصغر، كقوله عز وجل: نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا،[١٣] [وقوله:]

---

١ ن ع: أن يجزي.

٢ ع – عند أهل الدنيا.

٣ جميع النسخ: حي.

٤ ك ع م: حي.

٥ ن – حي عند الله.

٦ جميع النسخ: ميتا.

٧ جميع النسخ: حيا.

٨ جميع النسخ: وحياة.

٩ جميع النسخ: يقوم.

١٠ جميع النسخ: وموت.

١١ جميع النسخ: وموت.

١٢ ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٠٣).

١٣ ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ (سورة الأحقاف، ٤٦/١٦).

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ،[1] [و]كقوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ،[2] الآية.

﴿اَلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلّٰهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[١٧٢]

وقوله: **الذين استجابوا لله والرسول**، قيل: أجابوا الله عز وجل والرسول صلى الله عليه وسلم إلى ما دعاهم إليه وأطاعوا فيما أمرهم به. **من بعد ما أصابهم القرح**، أي الجِراحة. قيل: دعاهم إلى بدرٍ الصغرى بعد ما أصابهم بأُحدٍ القروح والجراحاتُ، فأجابوه، فذلك قوله تعالى: **الذين استجابوا لله والرسول**، الآية.

وقوله: **للذين أحسنوا منهم** في الإجابة له بعد ما أصابتهم الجراحة وشهدوا القتال معه، **واتَّقوْا** الخلاف له وترك الإجابة. ويحتمل **اتقوا** النار وعقوبته. **أجرٌ عظيم** في الجنة، وثواب جزيل. ***والله أعلم***.

﴿اَلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّٰهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[١٧٣]

وقوله عز وجل: **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم**،[3] قيل: إن المنافقين قالوا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما انهزم كفار مكة وولَّوا دُبُرَهم: **إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم**؛ يخوفونهم حتى لا يتبعوا[4] إثرهم، فتلك[5] عادتهم لم تَزَلْ، كقوله تعالى: مَا زَادُوكُمْ إِلَّا / خَبَالًا،[6] أي فسادا. وقيل: إنه إنما قال ذلك لهم رجل [١١٣و]
يقال له[7] نُعَيم بن مسعود.[8] ولا ندري كيف كانت القصة؟

[1] سورة الزلزال، ٩٩/٧.
[2] سورة النساء، ٤/٤٠.
[3] ن ع + الآية.
[4] ك ن ع: لا يتبعونهم على؛ م: لا يتبعون على.
[5] جميع النسخ: فذلك.
[6] ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة﴾ (سورة التوبة، ٩/٤٧).
[7] ع م: لهم.
[8] هو نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي (ت نحو ٣٠ هـ/٦٥٠ م). صحابي من ذوي العقل الراجح. قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سرا أيام الخندق واجتماع الاحزاب، فأسلم وكتم إسلامه، وعاد إلى الاحزاب المجتمعة لقتال المسلمين، فألقى الفتنة بين قبائل قُريظة وغَطَفان وقريش، في حديث طويل، فتفرقوا. سكن المدينة. وكان رسولَ النبي صلى الله عليه وسلم إلى "ابن ذي اللحية". انظر: *الإصابة* لابن حجر، ٦/٤٦١؛ و*الاستيعاب* لابن عبد البر، ٤/١٥٠٨؛ و*الأعلام* للزركلي، ٨/٤١.

وقوله عز وجل: **فزادهم إيمانا**، لما وجدوا الأمر على ما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعد لهم، لا على ما قال أولئك؛ **فزادهم ذلك إيمانا**، أي [زادهم] تصديقا.[١] قيل: [أي زادهم] جرأة[٢] وقوة وصلابة[٣] على ما كانوا من قبل في الحرب والقتال. ويحتمل: زادهم ذلك في إيمانهم قوة وصلابة وتصديقا. وقيل قوله عز وجل: **زادهم إيمانا**، أي تصديقا ويقينا بجرأتهم على عدوهم ويقينهم بربهم واستجابتهم لنبيهم صلى الله عليه وسلم.

فإن قال قائل: ما معنى قوله سبحانه وتعالى: **فزادهم إيمانا** على إثر قوله عز وجل: **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا**، وذلك[٤] قول لا يحتمل أن يزيد الإيمان، وليس[٥] كقوله عز وجل: وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا،[٦] لأنها حجج، والحجج تزيد التصديق أو تحدث [به]، أو تدعو إلى الثبات على ذلك، فيزيد الإيمان. فقولهم: **فاخشوهم** كيف يزيد [الإيمان]؟

قيل: يخرج ذلك -والله أعلم- على وجوه. أحدها أنهم إذ علموا أنهم أهل النفاق وأنهم يُخَوِّفون بذلك، وقد كان وَعَدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بصنيعهم، فكذبوهم بذلك وأقبلوا نحو أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم[٧] إجابةً لأمره وتصديقا بوعده ومجانبة عن الاغترار[٨] بأخبار أعدائه والنزول على قولهم؛ فكان ذلك منهم عند[٩] ذلك زيادة[١٠] في إيمانهم، مع ما في تكذيبهم ذلك، نحو قوله عزّ وجلّ: وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ،[١١] الآية، أنه إذا زاد بتكذيب آيات الله رجسا فمثله تكذيب المكذِّب بالآيات، لذلك يزيد إيمانا. *والله أعلم*.

---

[١] جميع النسخ: أي تصديقا زادهم.
[٢] ك: جراءة.
[٣] ك ن ع: وصلابة وقوة.
[٤] م: وقول ذلك.
[٥] ع: ليس.
[٦] ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾ (سورة الأنفال، ٨/٢).
[٧] ع – فكذبوهم بذلك وأقبلوا نحو أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.
[٨] جميع النسخ: لاغترارهم؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٣٦و.
[٩] م – عند.
[١٠] جميع النسخ: زائدا.
[١١] ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾ (سورة التوبة، ٩/١٢٥).

والثاني أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرهم بتفرق أعداء الله وتشتت[1] أمرهم، وأخبرهم المنافقون بالاجتماع، فصاروا إلى ما نعتهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجدوا الأمر على ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. وذلك من أنباء الغيب، والإنباء عن الغيب[2] من أعظم آيات النبوة، فزادهم ذلك إيمانا. *والله أعلم*. وذلك[3] قوله عز وجل: أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ،[4] الآية.

والثالث أنهم[5] لما لم يغتروا[6] بقول المنافقين ولا قعدوا[7] لذلك ولا ضعفوا، فأنزل الله تعالى سكينته على قلوبهم ليزيدهم[8] بذلك إيمانا، كقوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ،[9] الآية. *وبالله التوفيق*.

ثم معنى زيادة الإيمان يخرج[10] على وجوه. أحدها بحق الابتداء في حادث الوقت، إذ له حكم التجدد في حق الأفعال بما هو للكفر به تارك، وعلى ذلك قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا،[11] الآية. فيكون ذلك بحق الزيادة على ما مضى، وإن كان بحق التجدد في حق الحادث والفرد.[12]

والثاني أن يكون به[13] الثبات عليه، إذ حجج الشيء توجب[14] لزومه والدوام عليه، فسمي ذلك زيادة.

---

[1] ن ع: وتثبت.

[2] ك: وإنباء الغيب.

[3] م – وذلك.

[4] ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ (سورة آل عمران، ١٦٢/٣).

[5] ع م – أنهم.

[6] ن ع م: لما يغتروا.

[7] جميع النسخ: ولا قصدوا؛ والتصحيح مستفاد من *الشرح*، ورقة ١٣٦ظ.

[8] جميع النسخ: ليزيد لهم.

[9] ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما﴾ (سورة الفتح، ٤/٤٨).

[10] جميع النسخ: تخرج.

[11] ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ (سورة النساء، ١٣٦/٤).

[12] «أحدها بحق الابتداء في حادث الوقت إذ الإيمان له حكم التجدد، فإنه فعل يتجدد ساعة فساعة وبه يكون المرء تارك الكفر في كل ساعة، فيكون المراد هو زيادة وجود فعل الإيمان بزيادة الوقت. ولا شك أن من كان أكثر عمرا كان أزيد تصديقا إذ حصول ذلك منه أكثر وأزيد، وعلى هذا خرج قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله﴾ أي الذين وُجد منكم التصديق فيما مضى فجدّدوا التصديق في المستأنف من الأوقات» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٣٦ظ).

[13] جميع النسخ: له.

[14] ن ع م: يوجب.

و[الثالث] يحتمل أن يكون يزداد[1] له في أمره بصيرةً، وعلى ما رَغِب فيه إقبالا ولحقوقه مراعاة؛ فيكون في ذلك زيادة في قوته أو في نوره أو بزينته وتمامه، وذلك أمر معروف.

و[الرابع] يحتمل أن يكون ذلك داعيا[2] إلى محافظة حقوقه[3] والتمسك بأدلته والوفاء بشرائطه، فيزيد ذلك فضله، كما عدت صلاة واحدة في التحقيق ألفا،[4] وبما في ذلك من حفظ الحقوق ومراعاتها. *والله أعلم.*

وقوله عز وجل: **وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**، فزعوا إلى الله تعالى بما رأوا من صدق وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم، وظهور كذب قول المنافقين: **إن الناس قد جمعوا لكم**، الآية؛ أو قالوا[5] ذلك عند قول المنافقين إياهم: **إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم**، فوّضوا أمرهم إلى الله[6] تعالى، وسلّموا لما رأوا النصرَ منه رضاء منهم بكل ما يصيبهم [في طاعته]، كقوله عز وجل: اَلَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ،[7] مدحهم الله[8] عز وجل بما رأوا أنفسهم لله، فكذلك هذا.

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[١٧٤]

*وقوله عز وجل: **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل**، تحتمل[10] النعمة نعمةَ[11] الدين على ما ذكرنا. وقيل: انقلبوا بنصر من الله والغنيمة.[12] وتحتمل[13] النعمة من الله[14] الأمنَ[15] من العدو،

---

[1] م: يزاد.
[2] جميع النسخ: داع.
[3] جميع النسخ: حقوق.
[4] لعله يشير إلى حديث: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام» (*الموطأ* لمالك، القبلة ٩؛ ومسند *أحمد بن حنبل*، ١٦/٢، ٢٩؛ وصحيح *البخاري*، مسجد مكة ١؛ وصحيح *مسلم*، الحج ٥٠٥-٥١٠).
[5] م: وقالوا.
[6] ك ن: إليه.
[7] سورة البقرة، ١٥٦/٢.
[8] ك ن - الله.
* وقع هنا جزء من تفسير آخر هذه الآية فأخرناه إلى موضعه؛ انظر: ورقة ١١٣و/سطر ٣٠-٣١.
[10] جميع النسخ: يحتمل.
[11] ن - نعمة.
[12] ع - وبالغنيمة.
[13] جميع النسخ: ويحتمل.
[14] ع - وتحتمل النعمة من الله.
[15] م - الأمن.

لأن[1] المنافقين كانوا يُخوّفونهم بقولهم: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ،[2] وتحتمل[3] النعمة الجنة. **وفضلٍ**، الزيادة على ذلك. وقيل: انصرفوا بأجر من الله، **وفضل**، وهو ما تشوّقوا به من الشوق، لم يمسسهم سوء ولا قتل ولا هزيمة.

ويحتمل قوله:[4] **بنعمة من الله وفضل**، الزيادة في الإيمان، وهو الصلابة والقوة فيه.

وقوله: **لم يمسسهم سوء**، مما كانوا يخوفونهم [به]، بقوله: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ.

ويحتمل قوله تعالى: **فانقلبوا بنعمة من الله**، أي رجعوا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

[١١٣و س٣٤] *وقوله عز وجل: **واتبعوا رضوان الله**، أي اتبعوا العمل الذي به [ينال] رضوان الله،[5] ورضاء رسوله صلى الله عليه وسلم. وقيل:[6] **اتبعوا** طاعته ورضاه.*

[١١٣و س٣٠] *وقوله عز وجل: **والله ذو فضل عظيم**، أي ذو مَنّ عظيم، يدفع المشركين عن المؤمنين.]*

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١٧٥]

وقوله عز وجل: **إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون**. يخوّف أولياءه وأعداءه لكن أعداءه لا يخافونه، وأولياءه[9] يخافونه،[10] كقوله تعالى: إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ.[11]

[1] م: ولأن.

[2] الآية السابقة.

[3] جميع النسخ: ويحتمل.

[4] ع م – قوله.

[5] ع م – أي اتبعوا العمل الذي به رضوان الله.

[6] ك ن: ويحتمل.

* وقع ما بين النجمتين متقدما على موضعه فأخرناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ١١٣و/سطر٣٤.

* وقع ما بين النجمتين متقدما على موضعه فأخرناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ١١٣و/سطر٣٠-٣١.

[9] جميع النسخ: وأولياؤه.

[10] ع – وأولياءه يخافونه.

[11] ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم﴾ (سورة يس، ١١/٣٦). «والإشكال أن الشيطان كيف يخوف أولياءه وهم أتباعه وإنما كان يخوف أعداءه وهم المؤمنون فلماذا قال يخوف أولياءه؟ قيل فيه بوجوه. أحدها أن الشيطان قد يخوف أولياءه كما يخوف أعداءه ولكن أعداءه لا يخافونه وأولياءه يخافونه و لم يظهر أثر تخويف في حق أعدائه وهم المؤمنون ويظهر في حق أوليائه. فكأنه يخوف أولياءه لا أعداءه، ولذلك قال: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾ وذلك كقوله تعالى: ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب﴾. وأنه كان ينذر المؤمن والكافر جميعا لكن من اتبع الذكر كان يقبل إنذاره ومن لم يتبع الذكر لا يقبل فكأنه لم ينذر إلا من اتبع الذكر. فعلى ذلك الشيطان كان يخوف أولياءه وأعداءه جميعا لكن لما كان لا يخاف منه أعداؤه لما ثبت لهم الوعد من الله تعالى وصدقوا وعده بقوله: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه [والذين هم به مشركون]﴾ (سورة النحل، ٩٩/١٦-١٠٠)، فصار كأنه لم يخوف إلا أولياءه» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٣٦ظ).

[فإنه] كان ينذر من اتبع الذكر[١] ومن لم يتبع، لكن من اتبع الذكر[٢] كان / يقبل إنذاره، ومن لم يتبع الذكر لا، مع أنه[٣] كان ينذر الفريقين جميعا. فعلى ذلك الشيطان كان يخوف أولياءه وأعداءه جميعا، لكن أعداءه لا يخافونه، وأولياءه يخافونه. ويحتمل قوله: **يخوف أولياءه**، أي بأوليائه. وجائز هذا في الكلام، كقوله: وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ،[٤] أي بيوم الجمع، ألا ترى أنه قال: وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ،[٥] فعلى ذلك قوله: **يخوف أولياءه**، أي بأوليائه. ***والله أعلم***. وعن ابن عباس رضي الله عنه: يخوفكم أولياءه.[٦] وهذا يؤيد تأويل من يتأول: يخوف بأوليائه. ***والله أعلم***. [١١٣ظ]

وقوله عز وجل: **فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين**، أي لا تخافوه[م] لمخالفتكم إياه[م]، **وخافون**، أي خافوا مخالفتكم أمري، كقوله: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ،[٧] أخبر أنه[٨] ليس له سلطان على الذين آمنوا إنما سلطانه على أوليائه،[٩] لذلك قال: **فلا تخافوهم** لما ليس لهم[١٠] عليكم سلطان، وخافوني لما لي[١١] عليكم سلطان. ***وبالله العصمة***.

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١٧٦]

وقوله عز وجل: **ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر**. تحتمل[١٢] الآية وجهين. تحتمل:[١٣] **ولا يحزنك** [يا محمد] **الذين** ظاهروا غيرهم من المشركين عليكم، وقد ظاهر[١٤] أهل مكة غيرهم

---

[١] ع م – كان من اتبع الذكر.
[٢] ع م – الذكر.
[٣] جميع النسخ: وإلا.
[٤] ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه﴾ (سورة الشورى، ٤٢/٧).
[٥] سورة الأنعام، ٦/١٢١.
[٦] *تفسير القرطبي*، ٤/٢٨٢؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٢/٣٩١.
[٧] سورة النحل، ١٦/٩٩-١٠٠.
[٨] ك م: أن.
[٩] ك: على الذين يتولونه.
[١٠] جميع النسخ: له.
[١١] ك – لي.
[١٢] ع: يحتمل.
[١٣] ع: يحتمل.
[١٤] ك: ظاهروا.

من المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال[1] الله لرسوله: **لا يحزنك** مظاهرتهم المشركين[2] عليك فإن الله ينصرك. فيخرج هذا مخرج البِشارة له بالنصر على أعدائه والغلبة عليهم.

ويحتمل أيضا[3] وجها آخر، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يشتد عليه[4] كفرهم بالله ويحزن لذلك، كقوله تعالى: لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ.[5] فيخرج قوله: **لا يحزنك**، مخرج تسكين الحزن ودفعه عنه والتسلي على ذلك لا مخرج النهي؛ إذ الحزن يأخذ الإنسان ويأتيه من غير تكلف ولا صنع، وكقوله[6] تعالى: لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا،[7] هو على مخرج التسكين والدفع عنه لا على النهي، فكذلك الأول. ***والله أعلم***، وكقوله تعالى لأم موسى عليه السلام: وَلَا تَحْزَنِي.[8]

وقوله عز وجل: **إنهم لن يضروا الله شيئا**، يحتمل قوله: **لن يضروا الله شيئا**، أي لن يضروا أولياء الله عز وجل، إنما ضرر ذلك عليهم، كقوله تعالى: عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ.[9] ويحتمل **لن يضروا الله شيئا**، لأنه ليس لله في فعلهم وعملهم نفع، ولا في ترك ذلك عليه[10] ضرر، إنما المنفعة في عملهم لهم، والضرر في ترك عملهم عليهم. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة**. هذه الآية تنقض على المعتزلة قولَهم، لأن الله تعالى يقول: أراد أن لا يجعل لهم في الآخرة حظا، والمعتزلة يقولون: بل أراد أن يجعل لهم حظا في الآخرة؛ إذ يقولون: أراد لهم الإيمان –وبالإيمان يكون لهم الحظ في الآخرة– فثبت بالآية أنه لم يكن أراد لهم الإيمان. و الآية في قوم خاص علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون أبدا،

---

[1] ك ن: فيقول.

[2] ع م – على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم لا يحزنك مظاهرتهم المشركين.

[3] ن – أيضا.

[4] ن: عليهم.

[5] سورة الشعراء، ٢٦/٣.

[6] ك ن: كقوله.

[7] ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ (سورة التوبة، ٩/٤٠).

[8] ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خِفتِ عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني﴾ (سورة القصص، ٢٨/٧).

[9] ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ (سورة المائدة، ٥/١٠٥).

[10] ن: عليهم.

فأراد أن لا يجعل لهم حظا في الآخرة. ولو كان على ما تقوله[١] المعتزلة[٢] بأنه أراد أن يجعل لهم حظا في الآخرة،[٣] لِمَا أراد لهم أن يؤمنوا ولكن لم يؤمنوا لكان حاصل قولهم: أراد الله أن لا يجعل لمن أراد أن يؤمن [حظا] في الآخرة، وذلك جور عندهم. *وبالله التوفيق.*

وقوله عز وجل: **ولهم عذاب عظيم**. وذكر مرةً أَلِيمٌ،[٤] ومرةً شَدِيدٌ،[٥] لان التعذيب بالنار أشد العذاب في الشاهد وأعظمه. لذلك أوعد بها في الغائب، وجعل شرابهم وطعامهم ولباسهم منها. فنعوذ بالله من ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١٧٧]

وقوله عز وجل: **إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان**، قد ذكرنا تأويل هذا فيما تقدم.[٦] **لن يضروا الله شيئا**، ما ذكرنا أنه على الوجهين اللذين وصفتهما. *والله أعلم.*

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[١٧٨]

وقوله عز وجل: **ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم**، الآية. اختلف في قراءتها؛[٧] قرأ بعضهم بالياء، وبعضهم بالتاء. فمن قرا بالتاء[٨] صرف الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،[٩] فقال: لا تحسبن يا محمد أنما نملي لهم خير لهم، إنما نملي لهم ليزدادوا شرا. ومن قرأ بالياء صرف الخطاب إلى الكفرة، فقال: ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم يكون خيرا لهم، بل إنما نملي لهم ليكون شرا[١٠] وإثما لهم.

---

[١] ك: يقوله؛ ن: يقولون.

[٢] ن – المعتزلة.

[٣] ع – ولو كان على ما تقوله المعتزلة بأنه أراد أن يجعل لهم حظا في الآخرة.

[٤] ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب اليم﴾ (سورة البقرة، ١٠٤/٢).

[٥] ﴿إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد﴾ (سورة آل عمران، ٤/٣).

[٦] انظر عند تأويل قوله تعالى من سورة البقرة، ١٦/٢.

[٧] قرأ حمزة بالتاء، والباقون بالياء (*الميسر في القراءات الأربع عشرة* لمحمد فهد خاروف، ١٧٥).

[٨] ن – فمن قرأ بالتاء.

[٩] ن + إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[١٠] ع م – ومن قرأ بالياء صرف الخطاب إلى الكفرة فقال ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم يكون خيرا لهم بل إنما نملي لهم ليكون شرا.

فالآية على المعتزلة، لكنهم تأولوا [ها] بوجهين. أحدهما على التقديم والتأخير، كأنه قال: ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم ليزدادوا إثما، إنما نملي لهم خير لأنفسهم. فيقال لهم: لو جاز جعل الآية وصرفها على ما حملتم عليه وصرفتم إليه [ل]جاز حمل جميع الآيات التي فيها وعدٌ للمؤمنين وصرفها إلى الكافرين، و[صرف] ما كان فيها وعيد للكافرين إلى المؤمنين؛ إذ لا فرق بين هذا وبين جعلكم الخير مكان الإثم والإثم مكان الخير، وبين جعل الوعد[1] في موضع الوعيد،[2] والوعيد[3] في موضع الوعد.[4]

والوجه الثاني قالوا: أخبر الله تعالى عما يئول أمرهم [إليه] في العاقبة، لا أن كان في الابتداء كذلك، كقوله تعالى: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا،[5] ومعلوم أنهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوا وحزنا، ولكنه[6] إخبار عن ما آل أمره [إليه] في العاقبة أن صار لهم عدوا وحزنا. وكذلك يقال للرجل: سرقت لتُقطع [يدك]، وقتلت لتقتل، وهو لم يسرق ليقطع ولا قتل ليقتل، ولكنه إخبار عما آل أمره وحاله [إليه] في العاقبة، فكذلك هذا.

[١١٤و] لكن / الإخبار عما يئول الأمر يخرج مخرج التنبيه عن السهو والغفلة في الابتداء. فالله سبحانه وتعالى يتعالى عن ذلك؛ فخرج ذلك مخرج التحقيق في الابتداء، لا مخرج الإخبار عن ما يئول الأمر في العاقبة. ***وبالله التوفيق.***

والثاني أن من أراد أمرا يعلم أنه لا يكون فهو لجهل يريد ذلك أو لعبث، فالله سبحانه يتعالى عن الجهل بالعواقب أو العبث في الفعل، دل أنه كان على ما أراد لا ما لم يرد.[7] ولو كان الله سبحانه وتعالى لا يفعل بخلقه إلا ما هو أصلح لهم في الدين وأَخيَرُ، لم يكن لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإعجاب بما أعطي الكفرة من الأموال والأولاد [معنى]، بقوله سبحانه وتعالى: فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ،[8] الآية؛ دلّ أنه قد يعطى ما ليس هو بأصلح في الدين ولا أخير. ***والله أعلم.***

---

[1] ن ع م: الوعيد.
[2] م: الوعد.
[3] م: الوعد.
[4] م: الوعيد.
[5] سورة القصص، ٨/٢٨.
[6] جميع النسخ: ولكن.
[7] م: لا ما يرد.
[8] ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ (سورة التوبة، ٥٥/٩).

{وقال الشيخ رحمه الله} في قوله: **ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما**، وقوله عز وجل: فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا، الآية، وقوله تعالى: أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ،[١] ونحو ذلك من الآيات: فيها وجهان على المعتزلة. أحدهما قولهم في الأصلح: إن الله تعالى لو فعل بالخلق شيئا غيرُه أصلح لهم في الدين في حال المحنة كان ذلك جورا. ومعلوم أن الفعل بهم ليزدادوا إثما لا يبلغ في الصلاح في الدين الفعل بهم ليزدادوا به[٢] برّا.[٣] ومعلوم أنه لو كان كذلك لم يكن ليجوز أن يحذّر رسوله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فيقول:[٤] لا يعجبك كذا؛ فكأنه قال: لا يعجبك الذي هو صلاح في الدين[٥]، ثم يؤكد ذلك بأنه جعل[٦] لهم ذلك ليعذّبهم بها، ثم شهد على من حسب ما حسبته المعتزلة بأنهم لا يشعرون. فكان ذلك شهادة منه تعالى عز وجل على كل من وافق رأيه رأيَ أولئك الكفرة أنهم لا يشعرون.[٧]

ومعلوم أن الجبابرة والفراعنة لو لم يجعل الله تعالى لهم[٨] تلك الحواشي والملك والقوة لم يكونوا[٩] ليجترئوا[١٠] على دعوى الربوبية ويبلغوا[١١] في المآثم ما بلغوا، فيكون فوت ذلك أصلح لهم في الدين. وقد قال الله تعالى: وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ،[١٢] الآية. ثم كان معلوم أنه إذا كان بما يجعل ذلك للكفرة يكفرون، فلو جعل للمؤمنين يؤمنون، ثم لم يجعل كذلك. *والله أعلم*. وأيد ذلك قوله تعالى: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا،[١٣] الآية.

[١] سورة المؤمنون، ٢٣/٥٥-٥٦.
[٢] ن: بهم.
[٣] ن + ومعلوم أن الفعل بهم ليزدادوا إثما لا يبلغ في الصلاح في الدين الفعل بهم ليزدادوا به برا.
[٤] ع م: فنقول.
[٥] ن: الدين.
[٦] ع م – جعل.
[٧] ن – فكان ذلك شهادة منه تعالى عز وجل على كل من وافق رأيه رأي أولئك الكفرة أنهم لا يشعرون.
[٨] ن – لهم.
[٩] جميع النسخ: لم يكن.
[١٠] ن: ليعجزوا.
[١١] ن: و لم يبلغوا.
[١٢] ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقُفًا من فضة ومَعارِجَ عليها يَظهرون﴾ (سورة الزخرف، ٤٣/٣٣).
[١٣] ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ (سورة التوبة، ٩/٥٥).

والثاني أن الإرادة إذ هي صفة لكل فاعل مختار في الحقيقة، وقد أخبر لأي وجه أعطى،[1] ثبت أنه أراد ذلك. مع ما كان المتعالَمُ من فعل كل أحد [أنه] لا يخرج [إلا] على ما أراده، ولا يبلغ به ما لو فعل أنه يكون من جهل[2] أو سفه. فالأول يكون فعله على ظنٍ أن يكون ذلك فلا يكون، والثاني إذا علم أَنْ لا يكون، فيكون له به عابثا سفيها. جل الله تعالى عن الوجهين. ثبت أن فعله [يحصل] لما علم أنه يكون، لا لغيره فيلحقه[3] به وصف جهل أو سفه، وبهما سقوط الربوبية.

ثم[4] وجهت المعتزلة الآية إلى وجهين. **أحدهما** على التقديم والتأخير، بمعنى: ولا يحسبن[5] الذين كفروا أنما لهم ليزدادوا إثما، إنما نملي لهم ليزدادوا خيرا. وذلك فاسد[6] لوجهين. أحدهما لو كان جَعْل الخير شرا والشر خيرا بالتأويل وصَرْفُ الآية عن سياقها ونظمها لجاز ذلك في كل وعد ووعيد، وأمر ونهي، وتحليل وتحريم، فتصير[7] كل أمور الدنيا مقلوبة.[8] والثاني أنه لو كان كذلك لكان يجب أن يَعجب به رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إذ [كان] على [كل ما فيه صلاح الدين] معجبا،[9] ولكانوا –فيما حسبوا أن ذلك خير لهم– يشعرون، لا أن لا يشعروا.[10] مع ما قيل: **ولا يحسبن** بالياء في بعض القراءة. ومتى كان يحسب الكفرة ذلك شرا حتى يعاتَبوا على الحِسبان؟ *والله الموفق*.

والثاني قالوا: ذلك خبر[11] عما يئول الأمر إليه، كقوله تعالى: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا،[12] وهم لا لذلك التقطوه. و[هو] كمن يقول للسارق: سرقت لتُقطع يدك،

---

[1] أي وقد أخبر الله تعالى أنه أنما يملي للكافرين ليزدادوا إثما.
[2] ك: على جهل.
[3] جميع النسخ: ليلحقه.
[4] م – ثم.
[5] ن ع م: ولا تحسبن.
[6] ع: فاسدا.
[7] جميع النسخ: فيصير.
[8] جميع النسخ: مقلوبا.
[9] جميع النسخ: إذ على ذلك معجبا. والتصحيح مع الزيادة مأخوذ من *الشرح*، ورقة ١٣٧ظ.
[10] ك ن م: لا أن لا يشعرون؛ ع – لا أن لا يشعروا.
[11] ن: خير.
[12] ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾ (سورة القصص، ٨/٢٨).

وكما يقال: لِدُوا للموت وابنُوا للخراب.[١] والذي قالوه إنما هو تنبيه وإيقاظ لقوم لا يذكرون عواقب الأمور، فيحرصون عليها عن غفلة بالعواقب. فأما الله سبحانه وتعالى فمحال أن يكون أمره على ذلك، ليكون فيما يذكره ذلك. ألا ترى أن أحدا لا يقول: وُلدتُ للموت، أو بَنيتُ للخراب، لأنه لا لذلك يفعل وإن كان إليه يئول، وإنما هو قول الواعظ لهم بما ذكرت. لذلك[٢] بطل هذا. و[أما] أمر قوم فرعون، لم يقل [الله تعالى]: ليكون لهم [عدوا وحزنا] عندهم، إنما هو ليكون لهم[٣] [كذلك] عند الله تعالى وبما أراد الله، وكان كذلك. ***ولا قوة إلا بالله***. وقد بينا ما في الحكمة من حقيقة[٤] طريق الاعتبار. ***ولا قوة إلا بالله***.

والأصل في ذلك[٥] أن الله تعالى عالم بمن يؤثر عداوته ويعاند آياته. فإرادته [منه الإيمان مع علمه] لا يكون[٦] منه[٧] ذلك [إيجابُ] حاجةٍ له إليه[٨] في موالاته، أو إيجاب غلبته عليه في بعض ما يريد.[٩] جلّ الله عن هذا الوصف.

﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[١٧٩]

وقوله عز وجل: **ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب**، قيل فيه بوجوه، قيل: لا يترك الله المؤمنين على ما أنتم عليه أيها المنافقون،

---

[١] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن ملكا بباب من أبواب السماء يقول: من يُقرض اليومَ يُجزَ غَدًا، وملك آخر ينادي: اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلفا، وملك بباب آخر ينادي: يا أيها الناس هَلُمّوا إلى ربكم، ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى، أي أبطل، وملك بباب آخر ينادي: يا بني آدم لِدُوا للموت وَابنُوا للخراب» (*كتاب العظمة* للإصفهاني، ٣/٩٩٦؛ و*كشف الخفاء* للعجلوني، ٢/١٨٣؛ وانظر أيضا: *تفسير القرطبي*، ١٣/١٦٥).

[٢] ع م: كذلك.

[٣] ع م – عندهم إنما هو ليكون لهم.

[٤] جميع النسخ: بحقيقة.

[٥] ع م: وأصل ذلك.

[٦] ع م: لا تكون.

[٧] أي من عدوه.

[٨] أي إيجاب حاجة الله إلى عدوه.

[٩] الزيادة من *الشرح*. يقول السمرقندي في آخر قوله: «ومن أراد في الشاهد أن يصير مغلوبا من جهة عدوه أو أراد أن يصير محتاجا إليه في موالاته يكون خارجا عن وصف الحكمة»(ورقة ١٣٧ظ).

[١١٤ظ] ولكن يمتحنكم بالجهاد وبأنواع المحن ليُظهر[1] المنافق لهم من المؤمن. وقيل: / ليظهر الكافر لهم من المؤمن المصدق. وقيل فيه بوجه آخر. وذلك أن المنافقين كانوا يطعنون في أصحاب[2] رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستهزءون بهم[3] سرا؛ فقال الله عز وجل: لا يدع المؤمنين على ما أنتم عليه من الطعن فيهم والاستهزاء بهم، ولكن يمتحنكم بأنواع المحن، لتفتضحوا وليَظهر نفاقُكم عندهم. ويحتمل وجها آخر، وهو أن قوله: **ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب،** أي لا يَدَع المؤمنين على ما أنتم عليه من النفاق والكفر في دار واحدة، ولكن يجعل لكم دارا أخرى يَميز فيها الخبيثَ من الطيب، [فـ]يجعل الخبيث في النار والطيب في الجنة، كقوله عز وجل:[4] لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ،[5] الآية.

وقوله عز وجل: **وما كان الله ليُطْلِعكم على الغيب،** قيل فيه بوجهين. قيل: إنهم كانوا يقولون: لا نؤمن حتى نُؤتَى مثلَ ما أوتي الأنبياءُ، كقوله:[6] لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ،[7] ومثل قوله: بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً كَلَّا،[8] فعلى ذلك قوله: **وما كان الله لِيُطْلِعكم على الغيب،** إلا من اجتباه لوحيه، وجعله موضعا لرسالته؛ أي لا يجعلكم رسلا، إذ علم الغيب آية من آيات رسالته. ***والله أعلم.***

وقيل: إن الشياطين كانوا يَصعَدون إلى السماء، فيسترقون فيأتون بأخبارها إلى الكهنة قبل أن يُبعَث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إن الكهنة يخبرون بها غيرهم من الكفرة، فأنزل الله سبحانه وتعالى: **وما كان الله ليطلعكم على الغيب،** بعد ما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم نبيا كما كنتم تَطّلعون على أخبار السماء قبل بعثه.

ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء، أي يصطفي من يشاء، فيجعله رسولا فيوحي إليه ذلك؛ أي ليس الوحي من السماء إلى غير الأنبياء عليهم السلام. ويحتمل[9] قوله تعالى:

---

[1] جميع النسخ: لظهر.
[2] جميع النسخ: لأصحاب.
[3] ن – بهم.
[4] ك – يجعل الخبيث في النار والطيب في الجنة كقوله عز وجل.
[5] سورة الأنفال، ٨/٣٧.
[6] جميع النسخ: كقولهم.
[7] ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ (سورة الأنفال، ٦/١٢٤).
[8] سورة المدثر، ٧٤/٥٢-٥٣.
[9] ع م: يحتمل.

يجتبي من رسله من يشاء، أي لا يُطلع أحدا منكم[١] على الغيب إلا من اجتباه منكم لرسالته. ويحتمل قوله: **يجتبي من رسله من يشاء**، أي لا يَنسخُ شرائعه وأحكامه برسول آخر، نحو ما بين موسى إلى عيسى عليهما الصلاة والسلام، إن كان فيما بينهما نبي، لم يجعل له أحكاما[٢] سوى أحكام موسى عليه السلام، ولكنه[٣] أبقى تلك الأحكام والشرائع. وكذلك ما بين عيسى إلى محمد عليهما الصلاة والسلام، فاجتبى هؤلاء لإبقاء شرائعهم وأحكامهم. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **فآمِنوا بالله ورسله**، ظاهر. **وإن تؤمنوا** برسله كلهم **وتتقوا** المعاصي، **فلكم أجر عظيم**. ويحتمل: **وإن تؤمنوا وتتقوا**، الشرك، فلكم كذا.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[١٨٠]

وقوله عز وجل: **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم**، قيل: نزلت الآية في علماء أهل الكتاب. يقول: ولا يحسبن الذين[٤] أوتوا العلم والكتاب[٥] أن ما يؤتون من المال وينالون من النيل بكتمان بعث محمد صلى الله عليه وسلم، وصفته وتحريفها يكون ذلك خيرا[٦] لهم، بل هو شر لهم[٧] في الدنيا والآخرة، ولو لم يكتموا لكان[٨] خيرا لهم في الدنيا ذكرا وشرفا، وفي الآخرة ثوابا وجزاء. وقيل: نزلت في مانعي[٩] الزكاة بخلا منهم وشحا، فذلك وعيد لهم. والأول أشبه. ***والله أعلم***. وإن كان في الزكاة قيل:[١٠] [يحمل المنع على][١١] الجحود بها، كقوله تعالى: اَلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ.[١٢]

---

[١] ك: منكم أحدا.
[٢] جميع النسخ: أحكام.
[٣] ع م – ولكنه.
[٤] ع م – قيل نزلت الآية في علماء أهل الكتاب يقول ولا يحسبن الذين.
[٥] ن ع م: بالكتاب.
[٦] م: خير.
[٧] ك – قيل نزلت الآية في علماء أهل الكتاب يقول ولا يحسبن الذين أوتوا العلم والكتاب أن ما يؤتون من المال وينالون من النيل بكتمان بعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وصفته وتحريفها يكون ذلك خيرا لهم بل هو شر لهم.
[٨] ك ع: كان.
[٩] ك ع: يفي.
[١٠] م: مثل.
[١١] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٣٨و.
[١٢] سورة فصلت، ٤١/٧.

وقوله عز وجل: **سيُطَوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة**، فإن كان على التأويل الأول من كتمان نعته وصفته فهو -والله أعلم- يطوق ذلك في عنقه يوم القيامة ليعرفه كل أحد، كقوله عز وجل: وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ.[1] وإن كان على التأويل الثاني قيل: إن الزكاة التي منعها تصير[2] حية ذكرا شجاعا أقرع ذا[3] زبيبتين[4] يعني نابين، فيُطَوَّق بها في عنقه، فتنهشه بنابَيْها فيتقيها بذراعيه حتى يقضى بين الناس فلا يزال معه حتى يساق إلى النار.[5]

والله أعلم.

وقوله عز وجل: **ولله ميراث السماوات والأرض**. في الآية دلالة أن أهل السماوات يموتون، ليس على ما يقوله القرامطة،[6] إنهم لا يموتون؛ لأنه أخبر أن له ميراث السماوات والأرض، والوارث هو الذي يَخلُف المُورث. دل أنه ما ذكرنا، وإن كانوا هم وجميع ما في أيديهم لله[7] عز وجل مُلكٌ وعبيدٌ. ألا ترى[8] أنه روي في الخبر: «لا يرث الكافرُ المسلم ولا المسلم الكافرَ إلا المولى من عبده»،[9] سمي ما يكون للمولى من عبده ميراثا، وإن كان العبد وما في يده ملكا[10] للمولى.

---

[1] ﴿وكل إنسانٍ ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/١٣).

[2] ع: يصير.

[3] جميع النسخ: ذو.

[4] ك: نبيبتين.

[5] عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مُثِل له ماله شُجاعا أقرع له زبيبتان يُطَوَّقه يوم القيامة يأخذ بلِهزِمَتيه يعني بشِدقَيه. يقول: أنا مالك أنا كنزك. ثم تلا هذه الآية ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله﴾ إلى آخر الآية» (*صحيح البخاري*، الزكاة ٣. وانظر: *تفسير الطبري*، ٤/١٩١-١٩٢؛ وتفسير القرطبي، ٤/٢٩١).

[6] القرامطة: فرقة من غلاة الشيعة، تنسب إلى حمدان القِرمِط. وهو رجل من أهل الكوفة. وقد ظهر أصل هذا المذهب بعد وفات الخلفاء الراشدين، على أيدي طائفة من المجوس الذين نهضوا للتلبيس على المسلمين، والدعوة إلى الكفر. ويدور مذهبهم على القول بأن لكل كلام بطنا وظهرا، والادعاء بأنهم يعلمون الباطن وتأويل القرآن بناء على هذا. وتسمى هذه الفرقة أيضا بالسبعية. انظر: *أصول الدين* لأبي اليسر محمد البزدوي، ٢٣٧-٢٤٠؛ و*كشاف اصطلاحات الفنون* للتهانوي، «القرامطة»، و«السبعية»؛ و(DİA)، «Karmatîler».

[7] ن - لله.

[8] ك: ألا يري.

[9] رُوي الحديث بدون قوله: «المولى من عبده» في *صحيح البخاري*، الفرائض ٢٦؛ و*صحيح مسلم*، الفرائض ١؛ و*السنن الكبرى* للنسائي، ٤/٨٣؛ و*المستدرك* للحاكم، ٤/٣٨٣. وفي *السنن الكبرى* للبيهقي، (٦/٢١٨) عن جابر رضي الله عنه مرفوعا بلفظ: «لا يرث المسلم النصراني إلا أن يكون عبده أو أمته». ونقل البيهقي عن الدارقطني أن المحفوظ في هذا الحديث الوقف. وقد روي عن علي وجابر رضي الله عنهما موقوفا. انظر: *مصنف ابن أبي شيبة*، ٦/٢٨٤.

[10] جميع النسخ: ملك.

فعلى ذلك الأول، سمى الله عز وجل ذلك ميراثا له وإن كانوا[١] هم عبيده وما في[٢] أيديهم ملكا[٣] له. *والله أعلم*.

{قال الشيخ رحمه الله:} وقوله[٤] تعالى: **ولله ميراث السماوات والأرض**، وكانت له لا بحق الميراث لوجهين. أحدهما على الإخبار عن ذهاب أهلها وبقائه عز وجل دائما، إذ ذلك وصف المواريث أن تكون[٥] لمن له البقاء بعد فناء من تقدم. والله عز وجل هو الباقي بعد فناء الكل. مع ما يجوز القول بما هو له في الحقيقة من قبله بالميراث؛ من حيث ملكُ غيره الانتفاعُ بذلك. وعلى ذلك المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر إلا المولى من عبده»؛ وليس ذلك في الحقيقة / ميراثا،[٦] إذ كان له في حال [١١٥و] حياته، ولكن كان [للعبد] ولاية الانتفاع به فزالت.[٧] وعلى مثل هذا وراثة المسلمين الجنة، لا على انتقال من غيرهم إليهم ولكن على بقائهم فيها وحصول أمرها لهم، أو على وراثة ما لو كان من لم يؤمن [قد] آمن، وما ادّعَوا أنها لهم بقولهم: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى،[٨] فصار ميراثا لغيرهم ما ادعوا أنها لهم. *والله أعلم*.

والثاني أن يعلم كلٌّ بالموت حقيقتها أنها له، فأضيفت إليه بالميراث عنهم. كما قال الله تعالى: وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا،[٩] وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ،[١٠] والمرجع[١١] ونحو ذلك، من غير غيبة [لأحد] عنه،[١٢] ولكن مما يعلم كل إذ ذاك ذلك، وكذلك قوله عز وجل: وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ.[١٣] وهو في الحقيقة في كل يوم له. ***ولا قوة إلا بالله***.

---

[١] ع: وإن كان.
[٢] ع م + يده.
[٣] جميع النسخ: ملك.
[٤] ك - وقوله.
[٥] ن ع م: أن يكون.
[٦] جميع النسخ: ميراث.
[٧] جميع النسخ: فزال.
[٨] ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانِيُّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ (سورة البقرة، ٢/١١١).
[٩] ﴿وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تَبَعا فهل أنتم مُغْنُون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أَجَزِعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/٢١).
[١٠] سورة المائدة، ٥/١٨.
[١١] يشير إلى قوله تعالى: ﴿إليه مرجعكم جميعا﴾ (سورة يونس، ١٠/٤).
[١٢] ن - عنه.
[١٣] ﴿يومَ لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله﴾ (سورة الانفطار، ٨٢/١٩).

وفي الذكر والإخبار أنها له ميراثٌ تحريضٌ على الإنفاق والتزود؛ إذ هي في الحقيقة لغير[١] أهلها، وإنما لهم ما ينفقون و[ما] يتزودون، دون ما يمسكون. وفيه منع [عن] الإمساك، وذلك كقوله[٢] تعالى: وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،[٣] الآية.

والله بما تعملون خبير، وعيد منه عز وجل إياهم.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[١٨١]

وقوله عز وجل: **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء**، قيل لما نزلت: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا،[٤] الآية، قالت اليهود: ربكم[٥] يستقرض منكم ونحن أغنياء. وليس في الآية بيان أن ذلك القول إنما قاله اليهود أو غيرهم من الكفرة، ولكن فيه أنهم قالوا ذلك. فلا ندري من قال ذلك، ولا يجوز أن يشار إلى أحد بعينه إلا ببيان.

ثم يحتمل ذلك القول منهم وجوها. يحتمل أن يكون قال ذلك أوائلهم، على ما قيل[٦] في قتل الأنبياء عليهم السلام، وهؤلاء لم يقتلوا ولكن إنما قتلهم أوائلهم، أضيف ذلك إليهم رضا منهم بصنيعهم.[٧] فعلى ذلك القول الذي قالوا يحتمل ما ذكرنا. ويحتمل أن يكون هؤلاء قالوا ذلك بحضرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبمشهدهم، أو قالوا ذلك في سر.

فإن قال ذلك أوائلهم فإنه يحتمل وجهين. يحتمل أن يكون الله تعالى أعلم ذلك رسوله تصبيرا منه[٨] إياه وتسكينا ليصبر على أذى الكفار، حيث قالوا في الله ما قالوا، فكيف فيه؟ *والله أعلم*. ويحتمل أن يكون أعلم[٩] ذلك ليكون آية من آيات رسالته.

---

[١] ن: بغير.
[٢] ن م: لقوله.
[٣] سورة الحديد، ١٠/٥٧.
[٤] ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ (سورة البقرة، ٢٤٥/٢).
[٥] م: وربكم.
[٦] ك ع م: قال.
[٧] ع: صنيعهم.
[٨] ن ع م – منه.
[٩] ع م – ويحتمل أن يكون أعلم.

وإن كانوا قالوا ذلك بحضرة أصحابه صلى الله عليه وسلم ففيه أيضا وجهان. أحدهما [على] ما ذكرنا من التسكين والتصبير على أذاهم. والثاني ليعلموا أن جميع ما يقولون محفوظ عليهم، ليس بغائب عنه ولا غافل،[١] كقوله عز وجل: وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ،[٢] الآية. لكن يؤخر ذلك إلى وقت.

وإن كانوا قالوا ذلك سرا، ففيه أيضا وجهان. أحدهما ما ذكرنا أن يكون آية من آيات رسالته[٣] ليعلموا أنه إنما علم ذلك بالله، على علم منهم أنه لم يكن فيما بينهم من يُنهِي الخبر إليه. والثاني خرج على التعزية له[٤] والتصبير على أذاهم.

ثم معنى قوله تعالى أَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا،[٥] و[قوله:] مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا،[٦] يحتمل وجوها.[٧] أحدهما لئلا يَمُنّوا على الفقراء بما يتصدقون عليهم إذ يعلمون أنه [عز وجل] ليس بفقير ولا محتاج[٨] فيستقرض لفقره ولحاجته. وكل من أقرض آخر [في الشاهد] لا لحاجة له في ذلك القرض ولا فقر، ولكن ليكون ماله عنده محفوظا في الشاهد، فإنه لا يَمنّ المقرِضُ عليه، بل تكون المنة للذي عنده القرض على المقرض، حيث يحفظ ماله في السَّفاتِج.[٩] فعلى ذلك المال الذي يقرضون ويتصدقون على الفقراء، يكون محفوظا عند الله ليوم حاجتهم إليه، فلا منة تكون[١٠] على الفقير. **والله أعلم.**

والثاني [هذا] إنباء عن جوده وكرمه، لأن العبد وما في يده له، فلو أراد أن يأخذ جميع ما في يده لكان له ذلك، ثم يطلب منه ببدل يضاعِف على ذلك.

والثالث أن المولى في الشاهد إذا طلب من عبده[١١] القرض يكون في ذلك شرف للعبد وعِظم.

---

[١] ك ن: ليس بفائت عنه ولا غافل عنه؛ ع م: ليس بفائت (ع (هـ): بغائب) ولا غافل عنه؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٣٨ظ.
[٢] ﴿ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ (سورة إبراهيم، ٤٢/١٤).
[٣] ع م: النبوة.
[٤] م – له.
[٥] ﴿إن المصَّدِّقين والمصَّدِّقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يُضاعَفُ لهم ولهم أجر كريم﴾ (سورة الحديد، ١٨/٥٧).
[٦] سورة البقرة، ٢/٢٤٥.
[٧] جميع النسخ: وجهين.
[٨] ع + إلى غيرهم.
[٩] جمع السُّفْتَجَة. وهو أن يعطي مالاً لآخر، وللآخر مال في بلد المعطي، بصيغة اسم الفاعل، فيُوفيه إياه ثَمّ، أي هناك، فيستفيد أمن الطريق (*القاموس المحيط*، «سُفتجة»).
[١٠] ن ع: يكون.
[١١] ع: منه.

فعلى ذلك الله سبحانه وتعالى إذا طلب من عبده القرض على علم منه[1] أنه غني بذاته لا يجب أن يبخل عليه، إذ في ذلك شرفه وعظمه. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير**. قال أهل التفسير: قالت [ذلك] اليهود. وذلك تنبيه لصنيعهم[2] وشدة سفههم حتى زعموا أن يد الله مغلولة.[3] لكن ليس في الآية بيان القائلين، ولا في النسبة إلى أحد نفع سوى خوف الكذب لو لم يكن ذلك منه، لكنهم قالوه. والأغلب على مثله أن يكونوا قالوه سرا يكون في إظهاره آية الرسالة. أو كانت الأوائل يقولونه،[4] فيكون في ذلك ذلك، إذ[5] لا يحتمل أن يصير لمثله يقال بحضرة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين إلا أن يكون في وقت أمروا بالكف [عنهم]، فيكون في ذلك بيان قدر طاعتهم لله، مع عظم[6] ما سمعوا من القول.

وجملة ذلك[7] أن في ذكر ذلك دعاءً إلى الصبر على أذاهم وسوء قولهم؛ إذ هم مع تقلبهم في نعم الله تعالى وعلمهم بأنهم لم ينالوا خيرا إلا بالله تعالى اجترءوا[8] عليه بمثل هذا القول وبلغ عتوّهم هذا، والله جل ثناؤه مع قدرته وسلطانه يَحْلُم[9] عنهم ليوم وعدهم فيه الجزاء. فمن ليس منه إليهم نعمة ولا تقدَّم عليهم منه كبير[10] مِنَة أحق بالصبر لأذاهم والإعراض[11] عن مكافأتهم. وعلى ذلك قوله تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ،[12] الآية، وقول[13] الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: فَاعْفُ عَنْهُمْ / وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.[14] [١١٥ظ]

---

[1] جميع النسخ + في.
[2] ك: بصنيعهم؛ ن: على صنيعهم.
[3] يشير إلى قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ (سورة المائدة، ٦٤/٦).
[4] ك ع م: إن كانت الأوائل يقولون فيكون في ذلك ذلك؛ ن: إن كانت الأوائل يقولون فيكون في ذلك.
[5] م: أن.
[6] ك: عظيم.
[7] ع - ذلك.
[8] ك: اجتراوا؛ ن ع م: اجتراء.
[9] ك: يحكم.
[10] ك: كثير.
[11] ن ع: وإعراض.
[12] ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون﴾ (سورة الجاثية، ١٤/٤٥).
[13] ع: وقال.
[14] ﴿ولا تزال تَطَّلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين﴾ (سورة المائدة، ١٣/٥).

وقوله عز وجل: **سنكتب ما قالوا**، قيل: سنجزيهم جزاء ما قالوا، وقيل: سنحفظ ما قالوا وسنُثبت وسنُلزم،[١] كقوله عز وجل: وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ.[٢] ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **وقَتْلَهم الأنبياءَ بغير حق**، قد ذكرنا هذا فيما تقدم أنه يحتمل أن قَتلَ أوائلهم فأضيف إليهم لرضاهم بفعلهم،[٣] كقوله عز وجل: مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا،[٤] لرضاه بقتله.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله: **وقَتْلَهم الأنبياءَ بغير حق**، والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لا يرتكبون ما يجب به قتلُهم، كقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ،[٥] الآية، أطلق القول فيه من غير ذكر اكتساب شيء يستوجب به ذلك، وشَرَط في المؤمنين اكتساب ما يستوجبون به،[٦] كقوله تعالى: وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا،[٧] الآية. فكيف ذكر هاهنا القتل[٨] بغير حق، وهم لا يكتسبون[٩] ما يستوجبون[١٠] به القتل؟

قيل:[١١] يحتمل قوله **بغير حق**، أي بغير حاجة، لأنهم كانوا يقتلون بلا منفعة تكون لهم في قتلهم، على ما قيل: إنهم كانوا يقتلون[١٢] كذا كذا نبيا ثم يهيج لهم سوء[١٣] النَّقَر.[١٤]

---

[١] جميع النسخ: وسألزم.

[٢] ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا﴾ (سورة الإسراء، ١٣/١٧).

[٣] م – كقوله عز وجل وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه والله أعلم وقوله عز وجل وقتلهم الأنبياء بغير حق قد ذكرنا هذا فيما تقدم انه يحتمل أن قتل أوائلهم فأضيف إليهم لرضاهم بفعلهم.

[٤] سورة المائدة، ٣٢/٥.

[٥] ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا﴾ (سورة الأحزاب، ٥٧/٣٣).

[٦] م – به.

[٧] ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا﴾ (سورة الأحزاب، ٥٨/٣٣).

[٨] ع م – القتل.

[٩] ك: لا يستوجبون؛ ك (هـ): لا يكتسبون.

[١٠] ك – ما يستوجبون.

[١١] ن: فيه.

[١٢] ع – يقتلون.

[١٣] جميع النسخ: سوق.

[١٤] ك ن: البقر؛ ع م – النقر. والنَّقَر: الفقر والحاجة (*لسان العرب*، «نقر»). وعبارة السمرقندي هكذا: «يحتمل قوله: ﴿بغير حق﴾ أي بغير حاجة، لأنهم كانوا يقتلون الأنبياء بلا منفعة لهم في قتلهم، لأن للكفرة شوكة وقوة و لم يكونوا تحت تصرف الأنبياء وقهرهم، على ما قيل: إنهم كانوا يقتلون كذا وكذا نبيا ثم يقول [لعله يهيج] لهم سوء النقر. فإذا كان كذلك فصار معنى قوله ﴿بغير حق﴾ أي بغير حاجة. وهذا مستعمل في الكلام، قال الله تعالى في قصة لوط خبرًا عن لوط وقومه...» (شرح *التأويلات*، نسخة مدينة، ورقة ١٥٨و).

فإذا كان كذلك يحتمل قوله: **بغير حق**، أي بغير حاجة، كقول لوط عليه السلام: هٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ، فقالوا: مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ،[1] أي من حاجة. ***والله أعلم***.

ويحتمل قوله عز وجل: **وقَتْلَهم الأنبياء**، أي قصدوا قصد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكأَنْ قد قتلوه، أو قتلوا[2] أصحابه رضي الله عنهم فأضيف إليهم[3]. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **ونقول ذوقوا عذاب الحريق**، أي المحرق، وقد ذكرنا هذا.[4]

﴿ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[١٨٢]

وقوله عز وجل: **ذلك بما قدمت أيديكم**، ذكر الأيدي لما بالأيدي يُقدَّم، وإن لم يكن هذا مقدما باليد في الحقيقة، وكذلك قوله: فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ،[5] لما باليد يُكتَسب.[6] ***والله أعلم***.

﴿اَلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[١٨٣]

وقوله عز وجل: **الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان**، قيل: إنهم لما دُعوا إلى الإسلام -يعني اليهود- قالوا: **إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار**، وكان ذلك آية في بني إسرائيل، فسأل اليهود من نبينا محمد[7] صلى الله عليه وسلم ذلك.[8] وقيل كان مِن قبلنا في الأمم الخالية ذلك، فسألوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك. ولكن[9] لم يكن القربان من آيات النبوة والرسالة، إن كان فهو من آيات التقوى، كقوله عز وجل: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ.[10] كان القربان من آيات التقوى،

---

[1] ﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزونِ في ضيفي أليس منكم رجل رشيد. قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد﴾ (سورة هود، ١١/٧٨-٧٩).

[2] ن: وقتلوا.

[3] ك ن ع: إليه.

[4] انظر عند تأويل قوله تعالى في هذه السورة، ٣/١٠٦.

[5] ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ (سورة الشورى، ٤٢/٣٠).

[6] ن: يكسب؛ م: يكتب.

[7] ك: من محمد ذلك.

[8] ك - ذلك.

[9] ك + لما.

[10] سورة المائدة، ٥/٢٧.

ألا ترى أنه قال: يا محمد **قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم**، يعني القربان، **فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين** أن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول إلا بكذا.[١] أي إن كان ذلك من آيات النبوة لم قتلتم الأنبياء الذين أتوا به؟ أو لم قَتل أوائلكم الأنبياء إذا أتوا بالقربان إن كنتم صادقين أنه[٢] من آيات[٣] النبوة، أو إن كنتم صادقين أنه عهد إليكم أن لا تؤمنوا به حتى يأتي بقربان. ***والله أعلم.***

وفي قوله عز وجل أيضا:[٤] **قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين،** [وجه آخر] فهو -والله أعلم-[٥] أن أوائلهم ادعوا الذي ذكروا من العهد، وهم تبعوا أولئك. فعرّفهم صنع من يَدّعون[٦] [أنّ] بهم احتجوا ليكون لهم فيه آية: إما يكذّبهم[٧] بما احتجوا بوصية المتقدمين في ذلك فبطل عذرهم؛ إذ هم قتلوهم، فلا يجوز تصديقهم على العهد الذي ادعوا وذلك صنيعهم؛ أو يقرّ[٨] أنهم أُخبروا بالعهد من غير أن كان[٩] كذبا وباطلا، فبطل حِجاجهم [أيضا].[١٠] على أن في الآية: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ،[١١] جعل[١٢] ذلك آية التقى لا آية النبوة.

والأصل فيه أنا لما عرفنا آيات الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يذكر فيها القرابين، ثبت أن هذا الذي ادعوا ليس هو بعهد جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولكنه حيل السفهاء بتلقين الشياطين ووحيهم؛ لذلك لم يجب الذي ذكروا. ***والله أعلم.***

---

[١] ك - إلا بكذا؛ ك + حتى يأتينا بقربان تأكله النار.
[٢] ع: آية.
[٣] ع - آيات.
[٤] ك ن: أيضا عزوجل.
[٥] جميع النسخ + ادعوا.
[٦] ك: بدعويهم؛ ن ع م: يدعوا.
[٧] جميع النسخ: إما تكذيبهم.
[٨] جميع النسخ: أو يقروا.
[٩] ع - كان.
[١٠] أي يبطل ادعاؤهم بأن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بنبي، لأنه أخبر مما كان من العهد في الأزمنة القديمة، وذلك إخبار من الغيب وآية للنبوة.
[١١] ﴿واتل عليهم نبأ ابنَيْ آدم بالحق إذ قرّبا قربانا فتُقُبّل من أحدهما و لم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين﴾ (سورة المائدة، ٥/٢٧).
[١٢] جميع النسخ: فجعل.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾[١٨٤]

وقوله عز وجل: **فإن كذّبوك** يا محمد في القول وما جئت من آيات تدل وتوضح أنك رسول الله وأنك صادق في قولك، **فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات**، يُعزّي نبيه صلى الله عليه وسلم ويُصبّره، ليصبر على أذاهم وتكذيبهم إياه، كما صبر أولئك على أذاهم وتكذيبهم،[١] كقوله عز وجل: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ،[٢] الآية.

وفي قوله تعالى أيضا: **فإن كذبوك فقد كُذّب رسل من قبلك**، وجوها. أحدها أن يصبّره على ذلك بما له فيه إخوان[٣] صبروا على عظم ذلك عليهم، وذلك [كما] في قوله عز وجل: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ.[٤]

والثاني على رفع العذر عنه في ترك الإبلاغ، إن ذلك لم يمنع من تقدمه.

والثالث على الإنباء أنهم أصحاب تقليد في التكذيب، لا أن يكذبوا[٥] عن محنة[٦] وظهور.[٧] فذلك أقل للتأذي به ولتوهم الارتياب في الإنباء؛ [و]ليستقين من حضره وصدّقه أن ذلك منهم [جري][٨] على الاعتياد والتقليد دون المحنة والظهور. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **بالبينات**، قد ذكرناها فيما تقدم في غير موضع.[٩] وقوله: **والزبر**، قيل: أحاديث الأنبياء عليهم السلام من قبلهم بالنبوءة[١٠] على ما يكون. وقيل: **الزبر** هي الكتب، أي **جاءوا بالبينات والزبر** يعني الكتب. **والكتاب المنير**، قيل: **الزبر والكتاب** واحد. وقيل: **الكتاب**[١١] هو الذي فيه الحلال والحرام والأحكام المكتوبة عليهم، **والمنير** هو الذي أنار قلب كل من تمسك بالهدى، كما قيل في الفرقان: إنه يَفصل ويفرّق بين الحق والباطل. *والله أعلم*.

---

[١] م - إياه كما صبر أولئك على أذاهم وتكذيبهم.

[٢] ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾ (سورة الأحقاف، ٣٥/٤٦).

[٣] م: أجران.

[٤] سورة الأحقاف، ٣٥/٤٦.

[٥] جميع النسخ: يكذبون.

[٦] م: من محنة.

[٧] أي ليس تكذيبهم بسبب المحنة وظهور آراء خاصة لهم وإن كانت باطلة.

[٨] والزيادة مستفاد من *الشرح*، ورقة ١٣٩و.

[٩] انظر عند تأويل قوله تعالى من سورة آل عمران، ٩٧/٣، ١٠٥.

[١٠] جميع النسخ: بالنبوة.

[١١] جميع النسخ + المنير.

وتسمى[١] كتب الله[٢] كلها فرقانا / ومنيرا، بما تُفرق[٣] بين الحق والباطل، وتبين[٤] السبيلين جميعا. [١١٦و]
والله أعلم.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[١٨٥]

وقوله عز وجل: **كل نفس ذائقة الموت**، فيه دلائل. **١)** أحدها دليل إثبات الرسالة، لأنه ليس في العقل أن لا تبقى هذه الأنفس أبدا ولا تدوم، ولا [توجد] فيها آثار فنائها وموتها.[٥] ثم وجود العلم من كل منهم بالموت والتسليم له والإقرار منهم أن كل نفس تموت يدل [على] أنهم إنما عرفوا ذلك وأيقنوا به من خبر السماء بالوحي. ***والله أعلم***.

٢) ثم إن كل حي يتلذذ بحياته وحُبّب ذلك إليه، ويتكرّه الموت[٦] ويبغضه.[٧] دل أن هذا العالم لم يكن بالطباع ولكن كان بغيره؛ لما يتلذذ[٨] طبع كل منهم بالحياة ويتكره بالموت ويبغضه،[٩] إذ لو كان به لكان يختار ما يتلذذ به ويدفع ما يتكره به. فدل[١٠] أن غيرا فعل ذلك وخلق، لما ذكر: خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ،[١١] الآية.[١٢] وفي ذلك بطلان قول أصحاب الطبائع.[١٣] وأيضا إن كل نفس يحتمع فيها الطبائع المختلفة المتضادة التي من طبعها التنافر،

---

[١] ن ع م: ويسمى.
[٢] م – الله.
[٣] جميع النسخ: يفرق.
[٤] ع م: ويبين.
[٥] ع م – وموتها. «لأنه ليس في العقل ما ينفي بقاء هذه الأنفس أبدا، ولا ما فيه يوجب فناءها وعدمها وتعقب موتها؛ ووجود الموت في حق البعض لا يوجب الوجود في الباقين» (*شرح التأويلات*، ورقة ١٣٩ظ).
[٦] ع م – الموت.
[٧] م: ويقبضه.
[٨] ع م + به.
[٩] ك: ويتنغض به؛ ن ع: ويتبغض.
[١٠] ع: ودل.
[١١] ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور﴾ (سورة الملك، ٢/٦٧).
[١٢] ن – الآية.
[١٣] فهم الطبيعيون، ويسمون أيضا بالطبائعيين أو الطبائعية. فهم قوم قالوا بأن أصل الوجود مبني على الطبائع الأربع، فهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة. فقد ذهبوا إلى أن العالم مركب منها، فهي قديمة في نظرهم، كما أن الأفلاك والكواكب قديمة أيضا. *كتاب التوحيد* للماتريدي، ١٤٠؛ و*التبصير في الدين* للإسفراييني، ١٥٠؛ و*الملل والنحل* للشهرستاني، ٣٥٩-٣٦٣.

لم يجز أن تكون[1] بنفسها[2] تجتمع،[3] دل أن له جامعا.[4] وأيضا إن العالم لو كان بنفسه وطبعه لاختار كل لنفسه أحوالا[5] أحسن الأحوال[6] وألذّها، فيبطل به الشرور والقبائح؛ فدل وجود ذلك على كونه بغيره.

٣) ثم فيه أن ذلك الغير الذي كان به العالم واحد لا عدد؛[7] إذ لو كان بعدد لم يحتمل وجود العالم على الطبائع المختلفة والهمم المتفرقة، ما[8] جمع هذا فرّق الآخر، وما أثبت هذا نفى الآخر، وفي ذلك[9] فساد الربوبية. فدل وجوده على ما ذكرنا أنه واحد لا عدد، فاتسق تدبيره ونفذ[10] أمره. مع ما كان الأمر المعتاد بين الملوك في الشاهد أن من فعل هذا نقضه[11] الآخر، وما رام هذا إيجاده يريد الآخر إعدامه، وما أبقى هذا أراد الآخر[12] إفناءه،[13] وفي ذلك تناقض وتناف. فدل الوجود على أن الذي به كان واحد لا عدد. ثم لا[14] يحتمل على الاصطلاح بينهم،[15] لأنه يدل على العجز والجهل؛[16] إذ[17] العجز والجهل هو الذي حملهم على الاصطلاح، والعاجز والجاهل لا يصلح أن يكون إلها وربا. *وبالله التوفيق*.

٤) ثم الدلالة على حكمته وعلمه؛ إذ[18] لم يعاين شيء ولا يشاهَد إلا وفيه حكمة عجيبة ودلالة بديعة مما يعجز الحكماء عن إدراك ماهيته وكيفية خروجه على ما خرج.

---

[1] ن ع: أن يكون.
[2] جميع النسخ: بنفسه.
[3] جميع النسخ: يجتمع.
[4] جميع النسخ: جامع.
[5] م: أموالا.
[6] م: الأموال.
[7] ك: عدة.
[8] جميع النسخ: لما.
[9] ع م + هنا.
[10] ن: وتقدير.
[11] جميع النسخ: نقض.
[12] م: الآخرة.
[13] ع: إعدامه.
[14] ع م - لا.
[15] ك ع: منهم.
[16] ك: على الجهل والعجز.
[17] ع م: ان.
[18] ن ع: ما.

وعلم كل أحد منهم بقصور[١] علمه –على ما عنده من الحكمة والعلم– عن إدراك كنه ذلك فيما ذكرنا. وفي خروج[٢] الفعل متقنا محكما دلالة حكمة مبدعه وخالقه. ***وبالله التوفيق***.

٥) ثم الدلالة أنه لم يَخلق الخلق للفناء خاصة، ولكن خَلق للعواقب: يُؤمَل[٣] ويرجى ويخاف ويحذر. وخروج[٤] فعل كل أحد في الشاهد عن الحكمة[٥] إذا بُني للفناء والنقض [مسلَّم]. فإذا كانت الحكمة التي هي جزء [من فعل الحكماء] تخرج[٦] عن الحكمة –إذا كان ذلك للفناء والهلاك خاصة– فخروج[٧] الكل[٨] عن ذلك[٩] أحرى وأولى أن يكون سفها، لا حكمة. ***والله الموفق***.

{قال [الشيخ][١٠]:} دلت طمأنينة القلوب بموت كل نفس [على] ترك[١١] حكماء البشر الاحتيالَ في دفعه. على [رغم] ما ليس في الجوهر دليله ولا في العقل امتناعه،[١٢] [فظهر] أنه عُرف ذلك بمن له التدبير فيها بالوحي إليهم.[١٣] وفي ذلك إيجاب القول بالرسل.[١٤]

ثم دل قهر جميع الحكماء به[١٥] –على حب الحياة إليهم وبغض الموت عندهم– على خروج جميع الأحياء عن تدبيرهم. وفي خروجهم [دليل] خروج الأموات، إذ هم تحت تدبير الأحياء. ثم في طمأنينة[١٦] كل قلب على الموت دلالةُ التدبير للواحد؛ إذ لو كان لأكثرَ لجاز[١٧] التمانع

---

[١] ع م: بتصور.
[٢] جميع النسخ: وخروج؛ ك هـ: وفي خروج.
[٣] ك ن ع: يتأمل؛ م: يأمل.
[٤] ك ن: خروج.
[٥] جميع النسخ: من الحكمة.
[٦] ن ع م: يخرج؛ جميع النسخ + فعله.
[٧] جميع النسخ: وخروج.
[٨] ع م: كل.
[٩] ك ن م + لذلك.
[١٠] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٣٩ظ.
[١١] جميع النسخ: وترك.
[١٢] أي لا يوجد في جوهر الإنسان وبنيته دليل وجوب الموت، ولا يوجد أيضا في العقل امتناع عدم الموت.
[١٣] ع م: إليه.
[١٤] ع م: بالرسول.
[١٥] أي دل كون جميع الحكماء مغلوبا ومقهورا بسبب وقوع الموت.
[١٦] م: ثم طمأنينة.
[١٧] جميع النسخ: ليجوز.

وإبطال الوارد من الوحي، وفي ذلك ارتياب. مع ما كانت كل نفس تحت أمورٍ تَقهرها[1] وتُحوجها[2] إلى أمورٍ تَعلم أن مدبرها هيّأها على ذلك وطَبعَها، وأنه العليم بما به صلاحها وقوامها، وإليه حاجتها، وعلى ذلك جَبَلها؛ ليظهر عظم[3] حكمته وتعاليه عن الشرك في التدبير أو المعونة في التقدير.

ثم لا يحتمل نشوء مثله على ما جرى عليه من حكمة في موت كل أنه كان للموت أُنْشِئ لا لغير[ه]، إذ تدبير فعلٍ واحد للفناء خاصة من حكماء البشر يخرج عن معنى الحكمة ويدل على قصور صاحب ذلك وسفهه. فجملة العالم -الذي كانت حكمة الحكماء جزءًا[4] منها وعقل العقلاء بعضا[5] منها- أحقُّ وأولى، فثبت أنها أنشئت: لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ،[6] و اَلْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ،[7] وذلك قوله تعالى: **كل نفس ذائقة الموت**، الآية.

وقوله عز وجل: **وإنما تُوَفَّوْن أجورَكم يومَ القيامة**، لما ذكرنا أنهم لها خلقوا، يعني[8] الآخرة للجزاء والثواب.

وقوله عز وجل: **فمن زحزح عن النار**، قيل: بعّد، ونُجّي عنها. **وأُدْخِل الجنةَ فقد فاز**، قيل: **فاز** نجا، وقيل: سَعَد، وقيل: الفائز السابق، وقيل: **فاز** غَنِم. وأصل الفوز النجاة، أي نجا مما يخاف ويحذر ويظفر بما يأمُل.[9]

وقوله[10] عز وجل: **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**، حياة الدنيا[11] غرور، كقوله عز وجل: [اِعْلَمُوا] أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ،[12]

---

[1] ع م: يقهرها.
[2] ن ع م: ويحوجها.
[3] ك: عظيم.
[4] جميع النسخ: جزء.
[5] جميع النسخ: بعض.
[6] ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ (سورة المطففين، ٨٣/٤-٦).
[7] سورة المؤمن، ٤٠/١٧.
[8] ن ع م: أعني.
[9] جميع النسخ: يتأمل.
[10] ن: قوله.
[11] ك + للدنيا.
[12] سورة الحديد، ٥٧/٢٠.

حياة[1] الدنيا[2] لعب ولهو وغرور، والآخرة ليست بلعب ولا لهو ولا غرور. وأصل الغرور هو أن يتراءى الشيءُ في ظاهره حسنا مموَّها[3] يغتر بها كل ناظر إليها ظاهرا، فإذا نظر في باطنها وجدها قاتلة مهلكة. نعوذ بالله من الاغترار بها. وقيل: الحياة الدنيا على ما عند أولئك الكفرة لعب / ولهو، وعند المؤمنين حكمة. [١١٦ظ]

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[١٨٦]

وقوله عز وجل: **لتبلون في أموالكم وأنفسكم**، يحتمل الابتلاء في الأموال والأنفس أن يُبْلُوا بالنقصان فيها، كقوله عز وجل: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ،[4] الآية. ويحتمل أن يُبْلُوا بما جُعل فيها من العبادات، من نحو الزكاة في الأموال والصدقات والحقوق التي جعل فيها. وفي الأنفس من العبادات[5] من [نحو] الصلاة والجهاد والحج وغيرها من العبادات. *والله أعلم*.

وقوله: **ولَتسمعُنّ من الذين أوتوا الكتاب**، يعني الذين لهم علم بالكتاب، ومن غيرهم، **أذى كثيرا**، أي تسمعون أنتم من هؤلاء **أذى كثيرا** على ما سمع إخوانك الذين كانوا من قبلك من أقوامهم **أذى كثيرا**،[6] كقوله عز وجل: فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ.[7]

وقوله عز وجل: **وإن تصبروا** على أذاهم **وتتقوا** مكافأتهم، على ما صبر أولئك واتقوا مكافأتهم، **فإن ذلك من عزم الأمور**، قيل: من خير الأمور، هذا يحتمل.

وقيل: **ولتسمعن من الذين أتوا الكتاب**، من قولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله،[8] **ومن الذين أشركوا**، يعني العرب، **أذى كثيرا**، نَصْب الحروب فيما بينهم والقتال والسب[9] وغير ذلك.

---

[1] ع: وحياة.
[2] ك ن ع + للدنيا.
[3] م: مموها.
[4] ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾ (سورة البقرة، ١٥٥/٢).
[5] ك – من نحو الزكاة في الأموال والأنفس والصدقات والحقوق التي جعل فيها وفي الأنفس من العبادات.
[6] ك – أي تسمعون أنتم من هؤلاء أذى كثيرا على ما سمع إخوانك الذين كانوا من قبلك من أقوامهم أذى كثيرا.
[7] سورة آل عمران، ١٨٤/٣.
[8] يشير إلى قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ (سورة التوبة، ٣٠/٩).
[9] ع م: والسيف.

وإن تصبروا على ذلك والطاعة له[1] وتتقوا معاصي الرب، **فإن ذلك من عزم الأمور**، يعني من حزم الأمور.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[١٨٧]

وقوله عز وجل: **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب**، أي الذين أوتوا العلم بالكتاب. وإذ أخذ الميثاق ليبينوا، أي يبينوا للناس ما في الكتاب من الأمر والنهي، وما يحل وما يحرم، وغير ذلك من الأحكام ولا يكتموا[2] ذلك. ويحتمل أنْ أَخذَ عليهم الميثاق أن بيّنوا للناس بعث محمد صلى الله عليه وسلم وصفته، ولا تكتموه بالتحريف وترك[3] البيان.

وقوله عز وجل: **فنبذوه وراء ظهورهم**، أي لم يعملوا[4] بما فيه ولا بينوا للناس، فهو كالمنبوذ وراء ظهورهم. **واشتروا به ثمنا قليلا**، الآية قد ذكرنا معناه في غير موضع.[5] وعن علي رضي الله عنه، قال: ما أخذ الله ميثاقا على أهل الجهل بطلب العلم حتى أخذ ميثاقا من أهل العلم ببيان العلم،[6] لأن العلم كان قبل الجهل.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١٨٨]

وقوله عز وجل: **لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا**، قيل: بما غيروا من نعت محمد عليه أفضل الصلوات وصفته في كتابهم وكتموه، وبتبديلهم[7] الكتاب وإعجاب الناس ذلك وحمدِهم على ذلك. وقيل: إن اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: نحن نعرفك ونصدقك، وليس ذلك في قلوبهم. فلما خرجوا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم المسلمون: ما صنعتم؟ فقالوا:[8] عرفناه وصدقناه. فقال[9] المسلمون: أحسنتم بارك الله فيكم،

---

[1] ع م – له.
[2] ن ع م: ولا تكتموا.
[3] ك: وبترك.
[4] ك م: لم يعلموا.
[5] انظر عند تأويل قوله تعالى من سورة البقرة، ١٢/٢، ١٦؛ وسورة آل عمران، ٧٧/٣.
[6] ع م – ببيان العلم. *زاد المسير* لابن الجوزي، ٥٢١/١؛ و*تفسير الآلوسي*، ١٥٠/٤.
[7] جميع النسخ + وتبديلهم.
[8] جميع النسخ: فيقولون.
[9] جميع النسخ: فيقول.

فحمدهم[١] المسلمون على ما أظهروا من الإيمان، وهم يحبون أن يُحَمَدوا على ذلك. فذلك تأويل قوله:[٢] **ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا**. وقيل: إنهم قالوا: نحن أهل الكتاب الأول والعلم، وأهل الصلاة والزكاة، ولم يكونوا كذلك، وأحبوا أن يحمدوا على ذلك. والله أعلم بالقصة.

وفي قوله أيضا: **لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا**، الآية،[٣] دليل ما ذم الله [به] عباده وأوعدهم عليه أليمَ عقابه فيما أحبوا الحمد على ما لم يفعلوا. تعالى الرب عن قول المعتزلة في قولهم: ليس لله في الإيمان تدبير سوى الأمر ولا صنع؛ وقد أحب أن يُحْمَد عليه بقوله عز وجل: أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ،[٤] وبقوله عز وجل: بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ،[٥] وقوله تعالى: وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ،[٦] في غير موضع من القرآن. ***ولا قوة إلا بالله***.

*وقوله عز وجل: **فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب**، قيل: ببعيد من العذاب، بل لهم [١١٧و س٣٢
عذاب أليم.[٧] وقيل: **بمفازة**، أي بمنجاة من العذاب، وهو ما ذكرنا[٨] من الفوز أنه نجاة مما[٩] يخاف ويحذر، أي ليسوا هم بمنجاة[١٠] من العذاب، بل لهم عذاب أليم.[١١]

﴿وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١٨٩]

وقوله عز وجل: **ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير**، يشبه –والله أعلم– أن يكون هذا جوابا لقوله:[١٢] لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ،[١٣]

---

[١] جميع النسخ: يحمدهم. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٤٠و.
[٢] ع م – على ذلك فذلك تأويل قوله.
[٣] جميع النسخ: دل.
[٤] سورة الفاتحة، ١/٧.
[٥] ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ (سورة الحجرات، ٤٩/١٧).
[٦] ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا﴾ (سورة النساء، ٤/٨٣؛ وانظر أيضا: *المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم* لمحمد فؤاد عبد الباقي، «فضل»).
[٧] م – قيل ببعيد من العذاب بل لهم عذاب أليم؛ ن ع – بل لهم عذاب أليم.
[٨] انظر عند تأويل قوله تعالى من سورة آل عمران، ٣/١٨٥.
[٩] ن ع م: على ما.
[١٠] ع: بنجاة.
[١١] ك – وقيل بمفازة أي بمنجاة من العذاب وهو ما ذكرنا من الفوز أنه نجاة مما يخاف ويحذر أي ليسوا هم بمنجاة من العذاب بل لهم عذاب أليم.
[١٢] جميع النسخ: لقولهم.
[١٣] سورة آل عمران، ٣/١٨١.

أي كيف جاز نسبة الفقر إليه والحاجة وله[1] ملك ما في السماوات وما[2] في الأرض ونسبةُ الغنى إلى أنفسكم وأنتم عبيده وإماؤه وما في يد العبد يكون لمولاه؟ أو أن يكون جوابا لقوله:[3] وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ،[4] أي كيف يجوز أن يتخذ ولدا وله ملك ما في السماوات وما[5] في الأرض، كلهم عبيده وإماؤه. والولد في الشاهد إنما يتخذ لأحد وجوه أربعة:[6] إما لوحشة أصابته فيستأنس به، أو لحاجة تبدو له فيدفعها[7] به، أو لقهر وغلبة يخاف من عدو[8] فيستنصر به على أعدائه، أو ليرث[9] ملكه إذا مات. فإذا كان الله له ملك السماوات والأرض [117ظ] [فالحق أنه] يتعالى عن أن يصيبه شيء / من ذلك. فكيف[10] جاز لكم أن تقولوا: اتخذ الله[11] ولدا؟ وإذا كان الخلق كلهم عبيده وإماءه –وأنتم لا تتخذون الأولاد من عبيدكم وإمائكم– كيف زعمتم أنه اتخذ ولدا من عبيده؟

وقوله عز وجل: **والله على كل شيء قدير**، وهذا على المعتزلة لأنهم يقولون: لا يقدر على خلق فعل العبد، وعلى قولهم: غير قادر على أكثر الأشياء، وهو قد أخبر أنه على كل شيء [117ظ س4] قدير.* وقال الله تعالى: **والله على كل شيء قدير**، امتدح جل ثناؤه بإدخال كلية الأشياء تحت قدرته، وبه خوّف من عاند نعمته[13] وأطمع من خضع له عظيم ثوابه. فلئن جاز إخراج شيء تحت القدرة عن قدرته لاضمحلّ[14] الخوف عما خوّفه والرجاءُ فيما أطمعه؛ إذ لم يظهر على ذلك قدرته إلا بقوله: **وهو على كل شيء قدير**، لأنه[15] لا صنع لأحد في شيء إلا بإقداره،

---

[1] م: له.
[2] ع م – وما.
[3] جميع النسخ: لقولهم.
[4] ﴿وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السماوات وما في الأرض كل له قانتون﴾ (سورة البقرة، 2/116).
[5] ع م – وما.
[6] جميع النسخ: ثلاثة. والتصحيح من الشرح، ورقة 140ظ.
[7] جميع النسخ: فيدفع.
[8] ن ع: من عدوه.
[9] جميع النسخ: ويرث.
[10] ن ع: كيف.
[11] ك م – الله.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة 117و/سطر32-117ظ/سطر4.
[13] ن: ونعمته. أي أنكرها ورد الحق وهو يعرفه.
[14] ن: لا اضمحل.
[15] جميع النسخ: وما.

ومحال أن يقدر [عبده] على ما لا يقدر هو عليه، أو تزول[١] به قدرته لما فيه ما ذكرت. فلذلك قلنا في بطلان قول المعتزلة بإخراج أفعال صنع الخلق عن قدرة الله وامتناعه عن تدبيره. *ولا قوة إلا بالله*.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[١٩٠]

قال الله عز وجل: **إن في خلق السماوات والأرض**، إلى قوله عز وجل: **لآيات لأولي الألباب**.

نقول وبالله نستعين: أخبر الله عز وجل أن فيما ذكر آياتٍ لمن ذكر. ومعلوم أن الآيات إنما احتيج إليها لمعرفة[٢] أمور غابت عن الحواس يوصل إليها بالتأمل والبحث[٣] عن الوجوه التي لها جعلت تلك الأشياء المحسوسة، التي يُغْنِي[٤] من له اللبُّ دخولُها تحت الحواس عن تكلف العلم بها بالتدبر.[٥] بل علم الحواس هو علم الضرورات وأوائل علوم البشر الذي منه يرتقى[٦] إلى درجات العلوم فيلزم طلب ذلك. فبطل به قول من قال: العلوم كلها ضرورات لا تقع بالأسباب، ولا يلزم الخطاب دون تولي الرب إنشاء العلم في القلوب بحقيقة ما فيه[٧] الخطاب؛ إذ ذلك يرفع حق الطلب، ويستوي فيه الموصوف باللب وغير الموصوف، والمتفكر في الأمر وغير المتفكر، وقد قال الله تعالى: وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،[٨] الآية. وفي ذلك دليل أن المقصود بما أظهر ليس هو [نفس] ما أظهر، إذ ألزم التفكر بالذي أظهر ليوصِلَ به إلى العلم بالذي له إنشاء الذي أظهر[٩] ويعلمَ ما جعل في الذي دليله وعلمه. وهذا لكل أنواع العلوم. / إن منها[١٠] ظاهرا[١١] مستغنيا[١٢] بظهوره [١١٧ر]
عن الطلب، وخَفِيًا[١٣] يُطلَب بما له في الذي ظهر من أثر ينبئ عنه التأمل.[١٤] *والله أعلم*.

---

[١] جميع النسخ: يزول.
[٢] ن: المعرفة.
[٣] ن: في البحث.
[٤] جميع النسخ: تغني.
[٥] ك ن م: بالتدبير؛ ع: التدبير.
[٦] ع م: ترتقي.
[٧] م: ما في.
[٨] الآية التالية.
[٩] ع م – ليس هو ما أظهر إذ ألزم التفكر بالذي أظهر ليوصل به إلى العلم بالذي له إنشاء الذي أظهر.
[١٠] م + أن منها.
[١١] جميع النسخ: ظاهر.
[١٢] جميع النسخ: مستغنى.
[١٣] جميع النسخ: وخفي.
[١٤] ك ن: المتأمل.

وفي ذلك دليل لزوم التوحيد باللب؛ إذ صيرها آيات لمن له ذلك، وأول درجات الآيات أن يعرف منشئها وجاعلها آياتٍ. *والله أعلم*. ثم دل [على هذا] اتصال منافع السماء والأرض على تباعد ما بينهما، حتى قام بها وحَيِيَ جميع من دب على وجه الأرض وانتفع بشيء.

ثم في اتصال الليل بالنهار في منافع كل حي -على تضادّ ما بينهما- حتى صارا[1] كالشكلين، والسماء والأرض كالقرينين [دلالة][2] على أن منشئ ذلك كله واحد؛ وأنه لو اختلف الإنشاء لتناقض التدبير وبطل وجوه النفع؛ وأن الذي أنشأ ذلك عليم،[3] عَلِم كيف يدبر إيصال[4] المنافع واجتماعها بغيرها على اختلاف ما بينها؛ وأنه حكيم وَضَع كل شيء [موضعه] على ما لو تدبر الحكماء فيه لم يكن يعرف اتصالا أقرب في المنافع -على اختلاف في الجواهر وتضاد في الأحوال- [و]أبلغ من ذلك. بل تقصر[5] حكمتهم عن الإحاطة بوجه الحكمة أو الظفر[6] بطرف منها إلا بمعونة من دَبَّر ذلك سبحانه.

وذلك هو الدليل على قدرته وعلو[7] سلطانه، إذ سخر ذلك كله[8] لبذل[9] ما فيها من المنافع لمن جعلها له. وجعل لبعض على بعض سلطانا وقهرا[10] لِيُعلَم أن التدبير يرجع إلى غير ذلك؛ ويُعْلَم أن من قدر على ذلك وَعلِم قبل خلق المنتفعين بما خلق على أي تدبير يَخلق ذلك، وبأي وجه يصل[11] كل خلق في ذلك إلى منافعه بها، وما الذي به[12] سوّى معاشهم، وعلى أي تدبير[13] دلّهم عليه لَقادرٌ[14] على إعادة مثله والزيادة منه على أنواع ذلك؛

---

[1] ع: صار.

[2] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٤٠ظ.

[3] ن ع: علم؛ م - عليم.

[4] جميع النسخ: لايصال.

[5] جميع النسخ: يقصر.

[6] ن: والظفر.

[7] ع م: وهو.

[8] ن ع: كلها.

[9] ع م: البذل.

[10] جميع النسخ: سلطان وقهر.

[11] ن ع: تصل.

[12] ع م - به.

[13] ك - يخلق ذلك وبأي وجه يصل كل خلق في ذلك إلى منافعه بها وما الذي سوى معاشهم وعلى أي تدبير.

[14] "لقادر" هو خبر أن، أي "ويُعْلَمَ أن من قدر على ذلك ... لقادر".

إذ كل أمر له[١] حق الابتداء كان ذلك أبعدَ عن التدبير مما له حق الاحتذاء بغيره أو الإعادة.[٢] مع ما كان في إعادة الليل والنهار وجَعْلِ كلٍّ مِن ذلك كالذي[٣] مضى -وإن كان الذي مضى [ذهب] مرة- دلالة كافيةٌ للبعث والقدرة عليه. *والله الموفق*.

ومنها أنها جُعلت على تدبير يُعرَف صاحبها ومنشئها، وأنه دبّرها على ما فيها من وجوه الحكمة التي صارت الحكمة جزءً منها. وفنون العلم التي تنال بالتأمل فيها مما يوضّح أن الذي أبرمها حكيم عليم، مع ما فيها من آثار الإحكام والإتقان الكافية في الإنباء عن الإنشاء للحكمة، وأن الذي أبدع ذلك ليس بعابث ولا سفيه.

ثم معلوم أن الفعل للهلاك والفناء غير داخل في الحكمة، ثبت أن ذلك غير مقصود، فصار المقصود من ذلك وجها يبقى؛ فثبت أن مع هذه دارا أخرى تبقى فهي المقصود جعلت بحق الجزاء. وفي ذلك لزوم المحنة والقول بالرسالة، ليعلم بالوحي كيفية وجوه المحنة. مع ما لم يخل شيء من أن يكون فيه آثار النعمة من غير أن كان منه ما يستحق ذلك، فثبت أنه في حق الابتداء.

[ثم] لازمٌ[٤] شكر المنعِم في العقول، فيجب به وجهان. أحدهما القول بالرسل لبيان وجوه الشكر إذ النعم مختلفة. وأصل الشكر يتفاضل على قدر المنعِمين، وكذلك النعم تتفاضل[٥] على قدر تفاضل متوليها. [فـ]لا بد من بيان ذلك ممن يعرف حقيقة مقادير النعم وجلالةَ حق المنعم. *وبالله التوفيق*. فكان فيها آيات الرسالة والتوحيد وحكمته وقدرته وعلمه وجلاله عن الأشباه والشركاء، وبها جل عن احتمال الشرك في صنعه، أو الشِّبْه في فعله.[٦] على أن كلية كل من سواه تحت القدرة، وهو المتعالي عن ذلك.

وفيه دلالة البعث؛ لما ذكرت، ولما إذا[٧] لزم الشكر بما ذكرت لزمت[٨] عقوبة الكفران،

---

[١] ك + له.

[٢] أي خلق الشيء ابتداء أعسر من خلق مثله أو إعادة عينه. ويمكن أن نقول: إحياء شيء أيسر من إنشائها أول مرة، كما قال عز وجل: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ (سورة يس، ٧٩/٣٦)، وقال أيضا: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ (سورة الروم، ٢٧/٣٠).

[٣] ك - كالذي، ك هـ: كالذي.

[٤] ك ن: أو لازم؛ ع م: ولازم.

[٥] ع م: يتفاضل.

[٦] ع م - في فعله.

[٧] ن: ولما ذا إذ.

[٨] ع م - ولما إذا لزم الشكر بما ذكرت لزمت.

وقد يخرج المعروف به[1] سليما غريقا في النعم، وفي الحكمة والعقل عقوبته، [فـ]لزم أن يكون ثَمَّ دار أخرى. مع ما كان خلق الخلق لا لمن يعرف الحكمة من السفه،[2] والولاية من العداوة، والخير من الشر، والرغبة من الرهبة لا معنى له، بما فيه تضييع الحكمة وجمعٌ بين الذي حقه التفريق في الحكمة والعقل، وذلك آية السفه. ومحال كونه ممن[3] الحكمةُ صفته والعدلُ نعته، فلزم به خلق الممتحَن بالذي ذكرت، فصار جميع الخلائق للمحن.

ثم لا بد من ترغيب وترهيب، إذ على مثله جُبل محتملو المحن؛ فلزم به القول بالدار الأخرى وهو البعث، لتكون[4] إحداهما بحق ابتداء النعم،[5] والأخرى بحق استحقاق الجزاء، وإن كان لله التكليفُ لإجراء سابق[6] النعم. *ولا قوة إلا بالله*. والمعاقبة واجبة في الحكمة للجفاء والكفران. *وبالله التوفيق*.*

وقوله عز وجل: **إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**، في الآية وجوه. أحدها أنه خلق السماوات والأرض للبشر ولمنافعهم، لا أنه خلقهما لأنفسهما، [لأنه] لا منفعة[8] لهما بخلقه إياهما حتى يكون خلقهما لأنفسهما؛ إذ خلق الشيء لا لمنفعة[9] أحد أو للفناء خاصة عبث. فإذا كان ما ذكرنا أنه لا منفعة لهما في خلقهما دل أنه إنما خلقهما لمنافع البشر وسخرهما لهم. ثم جعل منافع السماء مع بعدها من الأرض متصلة بمنافع الأرض، حتى لا تقومُ[10] منافع[11] هذا إلا بمنافع الآخر، فيُصيّرهما كالمتصلَين لاتصال المنافع مع بعد ما بينهما، فدلّ هذا أن الذي أنشأهما واحد.

---

[1] المعروف به: أي الذي أُنعم عليه.
[2] أي إيجاد الخلق لمن لا يميّز الحكمة من السفه ... فعل لا معنى له ولا حكمة.
[3] جميع النسخ: من، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٤١و.
[4] جميع النسخ: ليكون.
[5] م: والنعم.
[6] جميع النسخ: بلا جزاء السابق؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٤١و.
* وقعت هنا قطعة من تفسير الآيتين السابقتين برقم ١٨٨ و١٨٩، فقدمناها إلى موضعها؛ انظر: ورقة ١١٧و/سطر ٣٢-١١٧ظ/سطر ٤.
[8] م: لا لمنفعة.
[9] ع: لا منفعة.
[10] ن ع م: لا يقوم.
[11] ع م + الأرض.

وكذلك اختلاف الليل والنهار، هما مختلفان، أحدهما ظلام والآخر نور. يُفنيان[١] الأعمار ويقرّبان[٢] الآجال، وليس بينهما[٣] في رأي العين تشابه[٤] ولا تشاكل، إذ أحدهما ظلام والآخر نور،[٥] وهما متضادان. لكنْ خلقهما لمنافع البشر، والمقصود بخلقهما[٦] بنو آدم، لا أنفسهما[٧] على ما ذكرنا أن لا منفعة لهما[٨] في خلقهما.[٩] ثم صيرهما مع اختلافهما وتضادهما كالشكلين لاتصال منافع بعضها ببعض. فدل[١٠] أن منشئهما واحد، وأنه عليم حكيم؛ حيث جمع بين[١١] المتضادين المختلفين وصيرهما[١٢] كالشكلين، وهما لعلم وحكمة وتدبير صارا كذلك.

وفيهما[١٣] دلالة البعث، لأنهما يفنيان حتى لا يبقى من الليل أثر، حتى يجيء النهار فيذهب النهار أيضا[١٤] حتى لا يبقى من النهار أثر، فيجيء آخر لا يزالان كذلك. فإذا كان[١٥] قادرا على خلق الليل وإنشائه من غير أثر يبقى من النهار، وكذلك[١٦] [هو] قادر على إنشاء النهار من غير أن يبقى من الليل أثر ظلام [فهو] لَقادرٌ على أن ينشئ الخلق ثانيا ويحييهم وإن فَنُوا وهلكوا ولم يبق منهم[١٧] أثر. فإذا كان ما ذكرنا[١٨] من خلق السماوات والأرض وما فيهما لمنافع البشر، وهم[١٩] المقصود من خلقهما[٢٠] لا غيرهم من الخلائق،

---

[١] جميع النسخ: تفنيان.
[٢] جميع النسخ: وتقربان.
[٣] ع م – وليس بينهما.
[٤] م: لا تشابه.
[٥] ن ع م: إذ أحدهما نور والآخر ظلام.
[٦] جميع النسخ: بخلقهم.
[٧] جميع النسخ: أنفسهم.
[٨] جميع النسخ: لهم.
[٩] جميع النسخ: في خلقهم.
[١٠] ن ع: دل.
[١١] ع م: من.
[١٢] م: وغيرهما.
[١٣] ن ع: وفيها.
[١٤] ن: وأيضا.
[١٥] ع م + كذلك.
[١٦] ن ع: فكذلك.
[١٧] ك – منهم؛ ك هـ: منهم.
[١٨] ع م – ما ذكرنا.
[١٩] جميع النسخ: وهو.
[٢٠] جميع النسخ: في خلقهما.

لما رَكّب فيهم من العقول والأبصار التي بها[1] يميزون بين المنافع والمضار، وبين الخبيث والطيب، وبين الحسن والقبيح، ولم يركّب ذلك في غيرهم من الخلائق، [ف]لا بد من أمر ونهي؛ يأمر بأشياء وينهى عن أشياء، يمتحنهم على ذلك، إذ هم أهل التمييز والفهم والبصر. فإذا كان ما ذكرنا [ف]لا بد أيضا من دار أخرى للجزاء، يكرم المطيع له فيها والولي، ويعاقب العدو فيها والعاصي. *ولا قوة إلا بالله*.

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١٩١]

وقوله عز وجل: **الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم**، يحتمل هذا لِما جعل الله تعالى على العبد في كل حال نعمة ليست تلك في غيرها من الأحوال، نحوَ أن جعل القيام نعمة في قضاء حوائجه وتقلبه في تلك الحال، وجعل القعود راحة له عند الإعياء، وكذلك الاضطجاع؛ فاستأداهم بالشكر له في كل نعمة على حال من تلك الأحوال، ومدحهم على ذلك إذا فعلوا.

ويحتمل أن يكون تعالى أمرهم أن يذكروه في كل حال، في حال الرخاء والشدة، وفي الضراء والسراء، لا في حال[2] دون حال على ما يفعله بعض خلقه: يذكرونه في حال الشدة والضراء ولا يذكرونه في حال الرخاء[3] واليسر، ويذكرونه[4] في حال الرخاء واليسر[5] ولا يذكرونه[6] في حال الشدة والبلاء. فمدح المؤمنين أنهم يذكرونه في كل[7] حال، لا على ما يفعله أهل الشرك، [لا][8] على[9] إرادة نفس القيام ونفس القعود والاضطجاع، ولكن على كل حال، وفي كل وقت. *والله أعلم*.

---

[1] جميع النسخ: والبصر (م: والضر) الذي بهما.
[2] م – حال.
[3] ع – والشدة وفي الضراء والسراء لا في حال دون حال على ما يفعله بعض خلقه يذكرونه في حال الشدة والضراء ولا يذكرونه في حال الرخاء.
[4] م: ولا يذكرونه.
[5] م – واليسر.
[6] ع م: ويذكرونه.
[7] ك ن: على كل.
[8] الزياة من *الشرح*، ورقة ١٤١و.
[9] ك ن + غير.

وقيل: إنه جاء في رخصة صلاة المريض، يصلي قائما إن استطاع، وإلا فقاعدا إن لم يستطع، وإلا فمضطجعا. وكذلك [روي] عن ابن مسعود رضي الله عنه، أنه قال ذلك.[١]

وقوله عز وجل: **ويتفكرون في خلق السماوات والأرض**، إذ في خلقهما دليل وحدانيته، وشهادة ربوبيته. **ربنا ما خلقت هذا باطلا**، أي عبثا، ولكن خلقتهما[٢] دليلا على وحدانيتك وشاهدا على ربوبيتك.

وقوله عز وجل: **سبحانك**، هو التنزيه،[٣] والتنزيه هو إبعاده[٤] عن العيب وتبرئته[٥] منه وتطهيره[٦] عما يقول الكفار. وهو حرف يُقدَّم[٧] عند حاجات ترفع إليه ودعواتٍ يُدعى بها.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾[١٩٢]

وقوله عز وجل: **ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته**، قيل: أذللته وفَضَحته وأهنته.

وما للظالمين من أنصار، أي مانع يمنع عنهم العذاب ويدفع. ويحتمل الأنصار الأعوان، أي ليس لهم أعوان يعينونهم في الآخرة.

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾[١٩٣]

وقوله عز وجل: **ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان**، يحتمل هذا وجهين. أحدهما على حقيقة السمع؛ أن سمعوا مناديا يدعوهم إلى الإيمان، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم أو القرآن، كلاهما يدعوان الخلق إلى الإيمان بالله. ويحتمل قوله: / **سمعنا**، أي عقلنا. وعقل كل أحد يدعوه[٨] إلى التوحيد والإيمان به. وقيل: سمعوا دعوة الله فأجابوها وصبروا عليها. وعن ابن عباس رضي الله عنه: المنادي محمد صلى الله عليه وسلم،[٩] ثم قرأ: لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ،[١٠] الآية. وعن غيره: المنادي هو القرآن يدعوهم. [١١٨و]

---

[١] *تفسير الألوسي*، ٤/ ١٠٨.
[٢] جميع النسخ: خلقهم.
[٣] ك: للتبريه.
[٤] ع: إبعاد.
[٥] جميع النسخ: وتبرئة.
[٦] جميع النسخ: وتطهير.
[٧] ن ع م: تقدم.
[٨] ك: يدعي؛ ن ع: يدعوا؛ م: يدعو.
[٩] *زاد المسير* لابن الجوزي، ١/٥٢٨.
[١٠] ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون﴾ (سورة الأنعام، ٦/ ١٩).

أن آمنوا بربكم فآمنا رَبَّنا. فيه دلالة أن الإيمان ليس هو جميع الطاعات على ما يقول بعض الناس، ولكنه إقرار وتصديق؛ لأنه لما قال لهم: **آمنوا بربكم**، لم يطلبوا التفسير ولا قالوا: كم أشياء تكون؟ ولكن[1] أجابوه إجابة موجزة، فقالوا: **فآمنا ربنا**.[2] ثم فيه دلالة أن لا ثُنْيا[3] في الإيمان، لأنهم أطلقوا القول في الإخبار عن إيمانهم من غير ذكر حرف الثنيا، فدل أن الإيمان مما لا يحتمل الثنيا.

وقوله عز وجل: **ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا**، قيل قولهم: **فاغفر لنا ذنوبنا**، التي كانت فيما مضى من عمرنا. **وكفر عنا سيئاتنا**، أي اعصمنا فيما بقي من عمرنا، أو وفقنا للحسنات التي تكفر سيئاتنا؛ لما قد يلزم العبد التكفير لما أساء. وقيل: المغفرة والتكفير كلاهما سواء؛ لأن المغفرة هي[4] الستر، وكذلك التكفير. ولذلك سمى الحراثون كفارا لسترهم البَذْر في الأرض، وكذلك الكافر سمي كافرا لستره الحق بالباطل، ولستره جميع ما أنعم الله عليه بتوجيه الشكر إلى غيره. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **وتوفنا مع الأبرار**، يحتمل قوله: **توفنا مع الأبرار**، أي توفنا واجعلنا مع الأبرار. ويحتمل: **وتوفنا** من الأبرار،[5] وفي الأبرار.[6] ثم اختلف في البَرّ، قيل: هو الذي لا يؤذي أحدا، وقيل: الأبرار الأخيار. ويحتمل: **توفنا** على ما عليه تُوُفِّيت الأبرار، **وتوفنا** وإنا أبرار. والبِرّ الطاعة، والتقوى ترك المعصية.

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[١٩٤]

وقوله عز وجل: **ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك**، قيل فيه بوجهين. قيل: **وآتنا ما وعدتنا** على ألسن رسلك، على إضمار "ألسن" كقوله عز وجل: وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا.[7] وقيل: **ما وعدتنا على رسلك**، أي ما جعلت عليهم من الاستغفار للمؤمنين،

---

[1] ع – ولكن.

[2] ك – فيه دلالة أن الإيمان ليس هو جميع الطاعات على ما يقول بعض الناس ولكنه إقرار وتصديق لأنه لما قال لهم آمنوا بربكم لم يطلبوا التفسير ولا قالوا كم أشياء تكون ولكن أجابوه إجابة موجزة فقالوا فآمنا ربنا.

[3] ع: يثنا. الثُّنيا بالضم اسم من الاستِثناءِ. والاستثناء في الإيمان أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله.

[4] جميع النسخ: هو.

[5] ن: مع الأبرار.

[6] ع: والأبرار.

[7] سورة الأحزاب، ٤٧/٣٣.

كقوله تعالى: وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ،[١] وكقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ،[٢] الآية، وكقول نوح عليه السلام: رَبِّ اغْفِرْلِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.[٣]

ثم بيننا وبين المعتزلة كلام في الآية. قالت المعتزلة: يجوز الدعاء والسؤال عنه بما قد أعطى وما عليه أن يعطي، نحو ما ذكر من السؤال بما وعد. وما وعد لا شك أنه يعطي وأنه لا يخلف الميعاد، ونحو قوله عز وجل: قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ،[٤] وهو لا يحكم بالجور.

وأما[٥] عندنا أن السؤال عما عليه أن يعطي يخرج مخرج الدعاء له: ربنا لا تَجُرْ ولا تَظلم. وإن هذا لا يقال إلا لمن يُخاف الجور منه والظلم؛ إذ يَعلم أن ذلك عليه؛ والسؤال عما قد أعطي محال، لأنه يخرج مخرج كتمان ما أعطى؛ أو ليس[٦] عنده ما يعطيهم،[٧] فيخرج مخرج السخرية به. لذلك بطل السؤال. *والله أعلم*.

ثم تأويل الآية عندنا على وجوه. أحدها قوله: **وآتنا ما وعدتنا على رسلك**، يحتمل: أن يكون الوعد منه لرسله باستغفار الرسل إذا كان من المؤمنين استغفار وسؤال،[٨] كقوله: وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ،[٩] الآية. وعدهم المغفرة[١٠] باستغفار الرسول إذا كان منهم[١١] استغفار وسؤال عن التوبة، فعلى ذلك الوعد منه باستغفار الرسل إذا كان منهم استغفار وسؤال.[١٢] يقول: اجعل دعائي دعاء من جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم مستغفرا فاستَغْفَر له؛ وكقوله أيضا: لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْؤُولًا.[١٣]

---

[١] ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم مُتَقَلَّبَكم ومثواكم﴾ (سورة محمد، ١٩/٤٧).
[٢] ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ (سورة إبراهيم، ٤١/١٤).
[٣] سورة نوح، ٢٨/٧١.
[٤] ﴿قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ (سورة الأنبياء، ١١٢/٢١).
[٥] ك م: وما.
[٦] جميع النسخ: وليس.
[٧] «ويخرج مخرج سؤال شيء ليس عنده» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٤١ظ).
[٨] م: سؤال.
[٩] ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾ (سورة النساء، ٦٤/٤).
[١٠] جميع النسخ + لهم.
[١١] ك: بينهم؛ ك هـ: منهم.
[١٢] ع م – عن التوبة فعلى ذلك الوعد منه باستغفار الرسل إذا كان منهم استغفار وسؤال.
[١٣] سورة الفرقان، ١٦/٢٥.

والثاني يحتمل أن يكون الوعد لهم إذا ماتوا على ذلك، فالدعاء كان منهم، والسؤال أنه إذا أماتهم يميتهم على الإيمان على ما كانوا أحياء. والمغفرة والرحمة حينئذ تكون لهم. ألا ترى أنه قال: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ،[1] كذا، ولم يقل: من وُعد[2] بها فله كذا، ولكن ذكر مجيئه بها[3] فعلى ذلك الأول. *والله أعلم*. ثم يحتمل ما ذكرنا -والله أعلم- وفيما ذكر[4] من تأويل الآية في الابتداء كفاية من ذلك. *والله أعلم*.

والثالث [أنهم] يدعون[5] ليجعلهم [الله تعالى][6] من الجملة الذين كان لهم الوعد، إذ الوعد غير مبين لمن هو، فسألوا أن يجعلهم في تلك الجملة. *والله أعلم*.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾[١٩٥]

وقوله عز وجل: **فاستجاب لهم ربهم**، هذا يدل على أن الوعد لهم[7] كان مقرونا بشرط السؤال؛ لأنه قال: **فاستجاب لهم**، والاستجابة تكون على أثر السؤال، كقوله عز وجل: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ،[8] الآية.

وقوله عز وجل: **أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض،** قيل: من الخلق كلهم، لكن جعل جزاء أعمال الكفرة في الدنيا، كقوله تعالى: نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ،[9] وأما المؤمنون [ف]في الدنيا والآخرة. أما[10] الكفار فإنما يعطيهم ابتداء ليس بجزاء. وقوله عز وجل: نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ، أي نردها عليهم،[11]

---

[1] ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ ﴿سورة النمل، ٨٩/٢٧﴾.
[2] جميع النسخ: عمل؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ١٤١ظ.
[3] ع م – بها.
[4] م: ذكرنا.
[5] جميع النسخ: يدعوا.
[6] والزيادتان من *الشرح*، ورقة ١٤١ظ.
[7] ن – لهم.
[8] سورة البقرة، ١٨٦/٢.
[9] ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾ (سورة هود، ١٥/١١).
[10] جميع النسخ: وأما.
[11] ع – أي نردها عليهم.

وهم لا يُبْخَسون أرزاقهم. وقيل: قوله **منكم**، إشارة إلى المؤمنين خاصة، كقوله عز وجل: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ،[1] الآية.

وقوله عز وجل: **فالذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم / وأُوذُوا في سبيلي**، الآية، **فالذين هاجروا** إلى الله تعالى ورسوله طوعا، **وأخرجوا من ديارهم**، أي اضطرّوهم حتى خرجوا من ديارهم فهاجروا، **وأوذوا في سبيلي**، أي في طاعتي، **وقاتلوا** حتى قتلوا. ويحتمل هذا كلّه أن هاجر بعضٌ طوعا، وبعض أُخرجوا منْ ديارهم حتى هاجروا، وقاتل بعض حتى قُتلوا، وقاتل بعض ولم يُقتَلوا، وقُتل بعض. [١١٨ظ]

وقوله عز وجل: **ولأُدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار**، الآية، تأويلها ظاهر.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾[١٩٦] ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[١٩٧]

وقوله عز وجل: **لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل**، يحتمل[2] تقلبهم وجوها. [أحدها] ذلك[3] نعمة من الله عليهم، لتركهم يتّجرون في البلدان مع كفرهم بربهم. والثاني أعطاهم أموالا يتنعمون فيها ويتلذذون. والثالث ما أخّر عنهم العذاب والهلاك إلى وقت. يقول: **لا يغرنك** يا محمد ذلك، إنما هو متاع يسير، مصيرهم إلى النار، كقوله تعالى: فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ،[4] الآية، وكقوله: وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا،[5] الآية.

{قال [الشيخ أبو منصور رحمه الله:][6]} وليس الاغترار في نفس التقلب لأنه جهد ومشقة، ولكن لما فيه من الأمن والسعة والقوة، دليله قوله تعالى: **متاع قليل**، ثم قال: لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا،[7] منهم سعيهم[8] للآخرة، لهم متاع لا ينقطع.

---

[1] سورة التوبة، ٧١/٩.
[2] ن: تحتمل.
[3] جميع النسخ: وذلك.
[4] ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ (سورة التوبة، ٥٥/٩).
[5] سورة آل عمران، ١٧٨/٣.
[6] والزيادة من *الشرح*، ورقة ١٤٢و.
[7] الآية التالية.
[8] جميع النسخ: وسعيهم.

﴿لٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾[١٩٨]

وقوله عز وجل: **لكن الذين اتقوا ربهم**، يعني الشرك، **لهم جنات تجري من تحتها الأنهار**، إلى آخر ما ذكر، ثوابا **من عند الله**.

يحتمل أن يكون الأمر ما ذكر في بعض القصة أن بعض المؤمنين قالوا: إن الكفار في خصب ورخاء ونحن في جهد وشدة، فنزل: لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُهُمْ في ذلك، إنما هو متاع قليل، وذلك ثوابهم في الدنيا، وأما ثواب الذين اتقوا ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار، إلى آخر ما ذكر.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّٰهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[١٩٩]

وقوله عز وجل: **وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم**، يعني القرآن، **وما أنزل إليهم**، يعني التوراة. ثم اختلف في نزوله، قال بعضهم:[١] نزل[٢] في شأن عبد الله بن سلام وأصحابه، أقروا بأنه واحد لا شريك له، وصدّقوا رسوله صلى الله عليه وسلم، وما أنزل عليه.[٣] وقيل: نزل[٤] في شأن النجاشي. وروي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لمّا صلى على النجاشي قال أناس[٥] من المنافقين: يصلي على حبشي مات في أرض الحبشة. فأنزل الله عز وجل: **وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله**،[٦] الآية. وعن الحسن[٧] قال: لما مات النجاشي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: استغفروا لأخيكم. قالوا: يا رسول الله لذلك العِلْج؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى: **وإنّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله**، الآية.[٨] وقيل: لما صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المنافقون: صلى على من ليس من أهل دينه، فأنزل الله تعالى الآية. وعن الزهري، عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

---

[١] ن - بعضهم.
[٢] جميع النسخ: نزلت.
[٣] ك ع م + الآية.
[٤] جميع النسخ: نزلت.
[٥] ك ن ع: ناس.
[٦] *تفسير الطبري*، ٢١٨/٤؛ و*تفسير ابن كثير*، ٤٤٤/١؛ و*تفسير الآلوسي*، ١٧٣/٤.
[٧] م: عن الحسن.
[٨] *تفسير الحسن البصري*، ٢٥٣؛ و*تفسير ابن كثير*، ٤٤٤/١.

إن نبي الله صلى الله عليه وسلم صلى على النجاشي، فكبّر الله أربع تكبيرات، وصففنا في المصلى خلفه، وكان مات بالحبشة.[١]

{قال:} والنوازل على وجهين: من نزل[٢] بسببه خير أو سعة فله فيه فضل، لأنه كان مفتاح الخير. ومن نزل[٣] بسببه ضيق فعليه فضل لوم،[٤] لأنه كان[٥] مفتاح الضيق. وأما الأحكام فإنه ينظر إلى ما فيه نزل،[٦] فيشترك فيه الخلق. ولا يجوز أن يقال: نزل في شأن فلان، إنما [يقال:] نزل[٧] لما في شأن فلان، لا في شأنه.[٨]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢٠٠]

وقوله عز وجل: **يا أيها الذين آمنوا اصبروا**، قيل: على أداء الفرائض والعبادات. وقيل: **اصبروا** على البلايا والمصائب والشدائد. **وصابروا** في الجهاد لعدوكم. وقيل: **اصبروا** على أمر الله وفرائضه، **وصابروا** مع النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه[٩] في المواطن. وعن الحسن [أنه] قال: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضى الله لهم وهو الإسلام، ولا يَدَعوا دينهم لشدة ولا لرخاء ولا ضراء ولا سراء حتى يموتوا ويكونوا يصابروا الكفار حتى يكونوا هم[١٠] يميلون[١١] عن دينهم، وأمروا أن يرابطوا المشركين.[١٢] وقيل: **اصبروا** على الجهاد، **وصابروا** لعدوكم، **ورابطوا**، أي داوموا على دينكم، **واتقوا الله لعلكم تفلحون**.

---

[١] *تفسير الطبري*، ٢١٨/٤؛ و*تفسير الآلوسي*، ١٧٣/٤.
[٢] جميع النسخ: ترك.
[٣] جميع النسخ: ترك.
[٤] ع م: يوم.
[٥] ك ن ع: كأنه؛ ك ع هـ: لأنه كان.
[٦] ك ن: ترك.
[٧] ك: ترك؛ م: أنزل.
[٨] قال الشارح: «وأما الأحكام فإنه ينظر إلى ما فيه نزل، فإن كان مما يشترك فيه الخلق نحو آية الظهار واللعان والقذف ونحو ذلك، لا يجوز أن يقال: إنه نزل في شأن فلان، إنما [يقال:] نزل لأجل حادثة وجدت من فلان، لا في شأنه» (شرح *التأويلات*، ورقة ١٤٢و).
[٩] ك ن - وصحبه.
[١٠] ن ع م - هم.
[١١] جميع النسخ: يميلوا.
[١٢] *تفسير الحسن البصري*، ٢٥٤؛ و*تفسير الطبري*، ٢٢١/٤.

{قال:} والصبر في نفسه خاصة في طاعة يَصبر عليها، ومعصية يَصبر عنها، وفي بلوى. والمصابرة مع غيره. وقد يكون كل واحد على المعنيين، لأنه لا يخلو عن مصابرة عدو فيما يطيع ربه.

وقيل: **رابطوا** على عدوكم ما أقاموا، **واتقوا الله** فيما أمركم به، فلا تَدَعوا ذلك مع نبيكم،[1] وذَرُوا ما نهاكم عنه.

[1] أي لا تتركوا الرباط ولا تحيلوه إلى نبيكم.

سورة آل عمران

مدنية وآياتها ٢٠٠ نزلت بعد الانفال

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ ﴾

أما تفسير ﴿الٓمٓ﴾ فقد تقدم في سورة البقرة.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو بكر عن عاصم (الم، الله) بسكون الميم، ونصب همزة: الله، والباقون موصولاً بفتح الميم، أما قراءة عاصم فلها وجهان: الأول: نية الوقف ثم إظهار الهمزة لأجل الابتداء. والثاني: أن يكون ذلك على لغة من يقطع ألف الوصل، فمن فصل وأظهر الهمزة فللتفخيم والتعظيم، وأما مَن نَصَب الميم ففيه قولان:

القول الأول: وهو قول الفراء واختيار كثير من البصريين، أن أسماء الحروف موقوفة الأواخر، يقول: ألف، لام، ميم، كما تقول: واحد، اثنان، ثلاثة، وعلى هذا التقدير وجب الابتداء بقوله: الله، فإذا ابتدأنا به نثبت الهمزة متحركة، إلا أنهم أسقطوا الهمزة للتخفيف، ثم ألقيت حركتها على الميم لتدل حركتها على أنها في حكم المبقاة بسبب كون هذه اللفظة مبتدأ بها.

فإن قيل: إن كان التقدير فصل إحدى الكلمتين عن الأخرى، امتنع إسقاط الهمزة، وإن كان التقدير هو الوصل، امتنع بقاء الهمزة مع حركتها، وإذا امتنع بقاؤها امتنعت حركتها، وامتنع إلقاء حركتها على الميم.

قلنا: لمَ لا يجوز أن يكون ساقطًا بصورته باقيًا بمعناه، فأبقيت حركتها لتدل على بقائها في المعنى، هذا تمام تقرير قول الفرّاء.

والقول الثاني: قول سيبويه، وهو أن السبب في حركة الميم التقاء الساكنين، وهذا القول رده كثير من الناس، وفيه دقة ولطف، والكلام في تلخيصه طويل.

وأقول: فيه بحثان: أحدهما: سبب أصل الحركة، والثاني: كون تلك الحركة فتحة.

أما البحث الأول: فهو بناء على مقدمات:

المقدمة الأولى: أن الساكنين إذا اجتمعا فإن كان السابق منهما حرفًا من حروف المد واللين، لم يجب التحريك؛ لأنه يسهل النطق بمثل هذين الساكنين، كقولك: (هذا إبراهيم وإسحاق

ويعقوب) موقوفة الأواخر، أما إذا لم يكن كذلك وجب التحريك؛ لأنه لا يسهل النطق بمثل هذين؛ لأنه لا يمكن النطق إلا بالحركة.

المقدمة الثانية: مذهب سيبويه أن حرف التعريف هو اللام، وهي ساكنة، والساكن لا يمكن الابتداء به، فقدموا عليها همزة الوصل وحركوها ليتوصلوا بها إلى النطق باللام، فعلى هذا إن وجدوا قبل لام التعريف حرفًا آخر، فإن كان متحركًا توصلوا به إلى النطق بهذه اللام الساكنة، وإن كان ساكنًا حركوه وتوصلوا به إلى النطق بهذه اللام، وعلى هذا التقدير يحصل الاستغناء عن همزة الوصل لأن الحاجة إليها أن يتوصل بحركتها إلى النطق باللام، فإذا حصل حرف آخر توصلوا بحركته إلى النطق بهذه اللام، فتحذف هذه الهمزة صورة ومعنى، حقيقة وحكمًا، وإذا كان كذلك امتنع أن يقال: أُلقِيتْ حركتها على الميم لتدل تلك الحركة على كونها باقية حكمًا؛ لأن هذا إنما يصار إليه حيث يتعلق بوجوده حكم من الأحكام، أو أثر من الآثار، لكنا بينا أنه ليس الأمر كذلك، فعلمنا أن تلك الهمزة سقطت بذاتها وبآثارها سقوطًا كليًّا، وبهذا يبطل قول الفرّاء.

المقدمة الثالثة: أسماء هذه الحروف موقوفة الأواخر، وذلك متفق عليه.

إذا عرفت هذه المقدمات فنقول: الميم من قولنا: (الم) ساكن ولام التعريف من قولنا: (الله) ساكن، وقد اجتمعا فوجب تحريك الميم، ولزم سقوط الهمزة بالكلية صورة ومعنى، وصح بهذا البيان قول سيبويه، وبطل قول الفرّاء.

أما البحث الثاني: فلقائل أن يقول: الساكن إذا حُرك حُرك إلى الكسر، فلمَ اختير الفتح هاهنا؟

قال الزجاج في الجواب عنه: الكسر هاهنا لا يليق؛ لأن الميم من قولنا (الم) مسبوقة بالياء، فلو جُعلت الميم مكسورة لاجتمعت الكسرة مع الياء وذلك ثقيل، فتركت الكسرة واختيرت الفتحة. وطعن أبو علي الفارسي في كلام الزجاج، وقال: ينتقض قوله بقولنا: (جَيْرِ)، فإن الراء مكسورة مع أنها مسبوقة بالياء. وهذا الطعن عندي ضعيف؛ لأن الكسرة حركة فيها بعض الثقل والياء أختها، فإذا اجتمعا عظم الثقل، ثم يحصل الانتقال منه إلى النطق بالألف في قولك (الله) وهو في غاية الخفة، فيصير اللسان منتقلاً من أثقل الحركات إلى أخف الحركات، والانتقال من الضد إلى الضد دفعة واحدة صعب على اللسان، أما إذا جعلنا الميم مفتوحة، انتقل اللسان من فتحة الميم إلى الألف في قولنا: (الله) فكان النطق به سهلاً، فهذا وجه تقرير قول سيبويه، والله أعلم.

المسألة الثانية: في سبب نزول أول هذه السورة قولان:

القول الأول: وهو قول مقاتل بن سليمان: إن بعض أول هذه السورة في اليهود. وقد ذكرناه في تفسير ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢].

والقول الثاني: من ابتداء السورة إلى آية المباهلة في النصارى، وهو قول محمد بن إسحاق قال: قَدِم على رسول الله ﷺ وفد نجران ستون راكبًا، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وثلاثة منهم كانوا أكابر القوم، أحدهم: أميرهم، واسمه عبد المسيح، والثاني: مشيرهم وذو

رأيهم، وكانوا يقولون له: السيد، واسمه الأيهم، والثالث: حبرهم وأسقفهم وصاحب مدراسهم، يقال له: أبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل، وملوك الروم كانوا شرفوه ومولوه وأكرموه لِما بلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم، فلما قَدِموا من بحران ركب أبو حارثة بغلته، وكان إلى جنبه أخوه كرز بن علقمة، فبينا بغلة أبي حارثة تسير إذ عثرت، فقال كرز أخوه: تعس الأبعد!! يريد رسول الله ﷺ، فقال أبو حارثة: بل تعست أمك!! فقال: ولمَ يا أخي؟! فقال: إنه والله النبي الذي كنا ننتظره!! فقال له أخوه كرز: فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟! قال: لأن هؤلاء الملوك أعطونا أموالاً كثيرة وأكرمونا، فلو آمنا بمحمد ﷺ لأخذوا منا كل هذه الأشياء!! فوقع ذلك في قلب أخيه كرز، وكان يضمره إلى أن أسلم فكان يحدث بذلك، ثم تكلم أولئك الثلاثة: الأمير والسيد والحبر، مع رسول الله ﷺ على اختلاف من أديانهم، فتارة يقولون: (عيسى هو الله)، وتارة يقولون: (هو ابن الله)، وتارة يقولون: (ثالث ثلاثة)، ويحتجون لقولهم: (هو الله)، بأنه كان يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويبرئ الأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيطير، ويحتجون في قولهم: (إنه ولد الله) بأنه لم يكن له أب يُعلم، ويحتجون على ثالث ثلاثة بقول الله تعالى: (فَعَلنا وجَعَلنا)، ولو كان واحدًا لقال: (فعلتُ) فقال لهم رسول الله ﷺ: «أَسْلِمُوا»، فقالوا: قد أسلمنا. فقال ﷺ: «كَذَبْتُمْ كَيفَ يَصِحُّ إِسْلاَمُكُمْ وَأَنْتُمْ تُثْبِتُونَ لِلَّهِ وَلَدًا، وَتَعْبُدُونَ الصَّلِيبَ، وَتَأْكُلُونَ الْخِنْزِيرَ؟!»، قالوا: فمن أبوه؟ فسكت رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى في ذلك أول سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها(١).

ثم أخذ رسول الله ﷺ يناظر معهم، فقال: «أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، وَأَنَّ عِيسَى يَأْتِي عَلَيْهِ الْفَنَاءُ؟» قالوا: بلى. قال: «أَلَسْتُمْ تَعلَمُونَ أَنَّهُ لاَ يَكُونُ وَلَدٌ إِلاَّ وَيُشْبِهُ أَبَاهُ؟» قالوا: بلى. قال: «أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّنَا قَيِّمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَكْلَؤُهُ وَيَحْفَظُهُ وَيَرْزُقُهُ، فَهَلْ يَمْلِكُ عِيسَى شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ؟» قالوا: لا. قال: «أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ، فَهَلْ يَعْلَمُ عِيسَى شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ إِلاَّ مَا عَلِمَ؟» قالوا: لا. قال: «فَإِنَّ رَبَّنَا صَوَّرَ عِيسَى فِي الرَّحِمِ كَيفَ شَاءَ، فَهَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّنَا لاَ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَلاَ يَشْرَبُ الشَّرَابَ وَلاَ يُحْدِثُ الْحَدَثَ، وَتَعْلَمُونَ أَنَّ عِيسَى حَمَلَتْهُ امْرَأَةٌ كَحَمْلِ الْمَرْأَةِ وَوَضَعَتْهُ كَمَا تَضَعُ الْمَرْأَةُ، ثُمَّ كَانَ يَطْعَمُ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُ الشَّرَابَ، وَيُحْدِثُ الْحَدَثَ؟» قالوا: بلى. فقال ﷺ: «فَكَيفَ يَكُونُ كَمَا زَعَمْتُمْ؟» فعرفوا ثم أبوا إلا جحودًا، ثم

---

(١) إسناده ضعيف: رواه الطبري في (تاريخه) (٣/ ١٦٢)، وأبو بكر في (دلائل النبوة) (٥/ ٢٩٠)، حديث رقم (٢١٠٧) من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر قال: قدم... فذكره وفيه (أربعة عشر رجلاً) وليس (أربعة وعشرون) وفي إسناده محمد بن إسحاق مدلس وقد عنعنه، والشيخ محمد بن حميد ضعيف، وفي (السيرة النبوية) (٣/ ١١٢)، قال: قال ابن إسحاق: وقدم علي رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران... فذكره، وفيه أيضًا (أربعة عشر رجلاً) وفي إسناد المؤلف: بريدة بن سفيان ليس بالقوي، وابن لهيعة ضعيف، فما لهم: أصلهم وثمال القدم هو أصل القدم.

قالوا: يا محمد ألست تزعم أنه كلمة الله وروح منه؟ قال: «بَلَى»، قالوا: فحسبنا. فأنزل الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ﴾ الآية [آل عمران: ٧].

ثم إن الله تعالى أمَر محمدًا ﷺ بملاعنتهم إذ ردوا عليه ذلك، فدعاهم رسول الله إلى الملاعنة، فقالوا: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا، ثم نأتيك بما تريد أن نفعل. فانصرفوا ثم قال بعض أولئك الثلاثة لبعض: ما ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدًا نبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم ما لاعن قوم نبيًا قط إلا وفى كبيرهم وصغيرهم، وأنه الاستئصال منكم إن فعلتم، وأنتم قد أبيتم إلا دينكم والإقامة على ما أنتم عليه، فوادِعوا الرجل وانصرِفوا إلى بلادكم. فأتوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك وأن نتركك على دينك، ونرجع نحن على ديننا، فابعث رجلًا من أصحابك معنا يحكم بيننا في أشياء قد اختلفنا فيها من أموالنا؛ فإنكم عندنا رضًا. فقال عليه السلام: «آتوني العشية أبعث معكم الحكم القوي الأمين» وكان عمر يقول: ما أحببت الإمارة قط إلا يومئذٍ رجاء أن أكون صاحبها، فلما صلينا مع رسول الله ﷺ الظهر، سلَّم ثم نظر عن يمينه وعن يساره، وجعلتُ أتطاول له ليراني، فلم يزل يردد بصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح، فدعاه فقال: «اخرج معهم، واقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه»، قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة[1].

واعلم أن هذه الرواية دالة على أن المناظرة في تقرير الدين وإزالة الشبهات - حرفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأن مذهب الحشوية في إنكار البحث والنظر باطل قطعًا، والله أعلم.

المسألة الثالثة: اعلم أن مطلع هذه السورة له نظم لطيف عجيب، وذلك لأن أولئك النصارى الذين نازعوا رسول الله ﷺ - كأنه قيل لهم: إما أن تُنازعوه في معرفة الإله، أو في النبوّة: فإن كان النزاع في معرفة الإله وهو أنكم تثبتون له ولدًا وأن محمدًا لا يثبت له ولدًا، فالحق معه بالدلائل العقلية القطعية، فإنه قد ثبت بالبرهان أنه حي قيوم، والحي القيوم يستحيل عقلًا أن يكون له ولد، وإن كان النزاع في النبوّة، فهذا أيضًا باطل؛ لأن بالطريق الذي عرفتم أن الله تعالى أنزل التوراة والإنجيل على موسى وعيسى، فهو بعينه قائم في محمد ﷺ، وما ذاك إلا بالمعجزة وهو حاصل هاهنا، فكيف يمكن منازعته في صحة النبوّة؟! فهذا هو وجه النظم وهو مضبوط حسن جدًا **فلننظر هاهنا إلى بحثين:**

البحث الأول: ما يتعلق بالإلهيات فنقول: إنه تعالى حي قيوم، وكل من كان حيًا قيومًا يمتنع أن يكون له ولد، وإنما قلنا: إنه حي قيوم؛ لأنه واجب الوجود لذاته، وكل ما سواه فإنه ممكن

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (المغازي)، باب: (قصة أهل نجران) (٤/ ١٥٩٢)، حديث رقم (٤١١٩)، قال: حدثنا عباس بن الحسين حدثنا يحيى بن آدم عن إسرائيل... فذكره، ورواه مسلم في (صحيحه) (٤/ ١٨٨٢/ ٢٤٢٠) من طريق محمد بن جعفر حدثنا شعبة قال: سمعت أبا إسحاق... به، وأبو بكر في (دلائل النبوة) (٥/ ٢٩٧)، حديث رقم (٢١١٠)، ورواه ابن ماجه في كتاب (المقدمة) (١/ ٤٨)، حديث رقم (١٣٥).

لذاته محدث، حصل تكوينه وتخليقه وإيجاده على ما بينا، كل ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ وإذا كان الكل محدثًا مخلوقًا امتنع كون شيء منها ولدًا له وإلهًا، كما قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣] وأيضًا: لما ثبت أن الإله يجب أن يكون حيًا قيومًا، وثبت أن عيسى ما كان حيًّا قيومًا لأنه ولد، وكان يأكل ويشرب ويُحدث، والنصارى زعموا أنه قُتل وما قدر على دفع القتل عن نفسه، فثبت أنه ما كان حيًّا قيومًا، وذلك يقتضي القطع والجزم بأنه ما كان إلهًا، فهذه الكلمة وهي قوله: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ جامعة لجميع وجوه الدلائل على بطلان قول النصارى في التثليث.

وأما البحث الثاني: وهو ما يتعلق بالنبوّة، فقد ذكره الله تعالى هاهنا في غاية الحسن ونهاية الجودة، وذلك لأنه قال: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [آل عمران: ٣] وهذا يجري مجرى الدعوى، ثم إنه تعالى أقام الدلالة على صحة هذه الدعوى، فقال: وافقتمونا أيها اليهود والنصارى على أنه تعالى أنزل التوراة والإنجيل من قبلُ هدى للناس، فإنما عرفتم أن التوراة والإنجيل كتابان إلهيان. لأنه تعالى قرن بإنزالهما المعجزة الدالة على الفرق بين قول المحق وقول المبطل، والمعجز لما حصل به الفرق بين الدعوى الصادقة والدعوى الكاذبة كان فرقًا لا محالة، ثم إن الفرقان الذي هو المعجز كما حصل في كون التوراة والإنجيل نازلين من عند الله، فكذلك حصل في كون القرآن نازلاً من عند الله، وإذا كان الطريق مشتركًا، فإما أن يكون الواجب تكذيب الكل على ما هو قول البراهمة، أو تصديق الكل على ما هو قول المسلمين، وأما قَبول البعض وردُّ البعض فذلك جهل وتقليد. ثم إنه تعالى لما ذكر ما هو العمدة في معرفة الإله على ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، وما هو العمدة في إثبات نبوّة محمد ﷺ لم يبق بعد ذلك عذر لمن ينازعه في دينه، فلا جرم أردفه بالتهديد والوعيد فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤] فقد ظهر أنه لا يمكن أن يكون كلام أقرب إلى الضبط، وإلى حسن الترتيب وجودة التأليف - من هذا الكلام، والحمد لله على ما هدى هذا المسكين إليه، وله الشكر على نعمه التي لا حد لها ولا حصر.

ولما لخصنا ما هو المقصود الكلي من الكلام، فلنرجع إلى تفسير كل واحد من الألفاظ:

أما قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهو ردٌّ على النصارى لأنهم كانوا يقولون بعبادة عيسى عليه السلام، فبيّن الله تعالى أن أحدًا لا يستحق العبادة سواه.

ثم أتبع ذلك بما يجري مجرى الدلالة عليه فقال: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ فأما الحي فهو الفعال الدراك، وأما القيوم فهو القائم بذاته، والقائم بتدبير الخلق والمصالح لما يحتاجون إليه في معاشهم، من الليل والنهار، والحر والبرد، والرياح والأمطار، والنعم التي لا يقدر عليها سواه، ولا يحصيها غيره، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وقرأ عمر رضي الله عنه: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيَّامُ﴾ قال قتادة: الحي الذي لا يموت، والقيوم: القائم على خلقه

بأعمالهم، وآجالهم، وأرزاقهم. وعن سعيد بن جبير: الحي قبل كل حي، والقيوم الذي لا ند له. وقد ذكرنا في سورة البقرة أن قولنا: (الحي القيوم) محيط بجميع الصفات المعتبرة في الإلهية، ولما ثبت أن المعبود يجب أن يكون حيًّا قيومًا ودلّت البديهة والحسن على أن عيسى عليه السلام ما كان حيًّا قيومًا، وكيف وهم يقولون بأنه قُتل وأظهر الجزع من الموت؟! علمنا قطعًا أن عيسى ما كان إلهًا، ولا ولدًا للإله، تعالى وتقدس عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

أما قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾:

فاعلم أن الكتاب هاهنا هو القرآن، وقد ذكرنا في أول سورة البقرة اشتقاقه، وإنما خص القرآن بالتنزيل، والتوراة والإنجيل بالإنزال؛ لأن التنزيل للتكثير، والله تعالى نزل القرآن نجمًا نجمًا، فكان معنى التكثير حاصلاً فيه، وأما التوراة والإنجيل فإنه تعالى أنزلهما دفعة واحدة؛ فلهذا خصهما بالإنزال، ولقائل أن يقول: هذا يشكل بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١] وبقوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

واعلم أنه تعالى وصف القرآن المنزل بوصفين:

الوصف الأول: قوله: ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ قال أبو مسلم: إنه يحتمل وجوهًا: أحدها: أنه صدق فيما تضمنه من الأخبار عن الأمم السالفة. وثانيها: أن ما فيه من الوعد والوعيد يحمل المكلف على ملازمة الطريق الحق في العقائد والأعمال، ويمنعه عن سلوك الطريق الباطل. وثالثها: أنه حق، بمعنى أنه قول فصل، وليس بالهزل. ورابعها: قال الأصم: المعنى أنه تعالى أنزله بالحق الذي يجب له على خلقه من العبودية، وشكر النعمة، وإظهار الخضوع، وما يجب لبعضهم على بعض من العدل والإنصاف في المعاملات. وخامسها: أنزله بالحق لا بالمعاني الفاسدة المتناقضة، كما قال: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١] وقال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

والوصف الثاني لهذا الكتاب: قوله: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ والمعنى أنه مصدق لكتب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولما أخبروا به عن الله عزّ وجلّ، ثم في الآية وجهان: **الأول:** أنه تعالى دلّ بذلك على صحة القرآن؛ لأنه لو كان من عند غير الله لم يكن موافقًا لسائر الكتب؛ لأنه كان أُميًّا لم يختلط بأحد من العلماء، ولا تتلمذ لأحد، ولا قرأ على أحد شيئًا، والمفتري إذا كان هكذا امتنع أن يَسْلم عن الكذب والتحريف، فلما لم يكن كذلك ثبت أنه إنما عرف هذه القصص بوحي الله تعالى. **الثاني:** قال أبو مسلم: المراد منه أنه تعالى لم يبعث نبيًّا قط إلا بالدعاء إلى توحيده، والإيمان به، وتنزيهه عما لا يليق به، والأمر بالعدل والإحسان، وبالشرائع التي هي صلاح كل زمان، فالقرآن مصدق لتلك الكتب في كل ذلك. **بقي في الآية سؤالان:**

السؤال الأول: كيف سمي ما مضى بأنه بين يديه.

والجواب: أن تلك الأخبار لغاية ظهورها سماها بهذا الاسم.

السؤال الثاني: كيف يكون مصدقًا لما تقدمه من الكتب، مع أن القرآن ناسخ لأكثر تلك الأحكام؟

والجواب: إذا كانت الكتب مبشرة بالقرآن وبالرسول، ودالة على أن أحكامها تثبت إلى حين بعثه، وأنها تصير منسوخة عند نزول القرآن، كانت موافقة للقرآن، فكان القرآن مصدقًا لها، وأما فيما عدا الأحكام فلا شبهة في أن القرآن مصدق لها؛ لأن دلائل المباحث الإلهية لا تختلف في ذلك، فهو مصدق لها في الأخبار الواردة في التوراة والإنجيل.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): التوراة والإنجيل اسمان أعجميان، والاشتغال باشتقاقهما غير مفيد، وقرأ الحسن: (الأنجيل) بفتح الهمزة، وهو دليل على العجمية؛ لأن أفعيل بفتح الهمزة معدوم في أوزان العرب، واعلم أن هذا القول هو الحق الذي لا محيد عنه، ومع ذلك فننقل كلام الأدباء فيه.

أما لفظ ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ ففيه أبحاث ثلاثة:

البحث الأول في اشتقاقه: قال الفرّاء: التوراة معناها الضياء والنور، من قول العرب: ورى الزند يري، إذا قدح وظهرت النار، قال الله تعالى: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾[العاديات: ٢] ويقولون: وريت بك زنادي، ومعناه: ظهر بك الخير لي، فالتوراة سميت بهذا الاسم لظهور الحق بها، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾[الأنبياء: ٤٨].

البحث الثاني: لهم في وزنه ثلاثة أقوال:

القول الأول: قال الفرّاء: أصل التوراة: تورية، تفعلة بفتح التاء، وسكون الواو، وفتح الراء والياء، إلا أنه صارت الياء ألفًا لتحركها وانفتاح ما قبلها.

القول الثاني: قال الفرّاء: ويجوز أن تكون تفعلة على وزن توفية وتوصية، فيكون أصلها تورية، إلا أن الراء نُقلت من الكسر إلى الفتح على لغة طيئ، فإنهم يقولون في جارية: جاراة، وفي ناصية: ناصاة، قال الشاعر:

فما الدنيا بباقاة لحي ... وما حَيٌّ على الدنيا بِباقِ[1]

والقول الثالث: وهو قول الخليل والبصريين: إن أصلها: وورية، فوعلة، ثم قُلبت الواو الأولى تاء، وهذا القلب كثير في كلامهم، نحو: تجاه، وتراث، وتخمة، وتكلان، ثم قُلبت الياء ألفًا لتحركها وانفتاح ما قبلها، فصارت توراة، وكتبت بالياء على أصل الكلمة.

ثم طعنوا في قول الفرّاء، أما الأول: فقالوا: هذا البناء نادر، وأما فوعلة فكثير، نحو:

(١) هذا البيت لعمرو بن أسود، وهو عمرو بن أسود الكلبي؟ -؟هـ/ ؟ -؟م، من بني عامر الأجدر بن عوف، شاعر وفارس وسيد مطاع في قومه، يعود نسبه إلى قبيلة كلب بن وبرة.

صومعة، وحوصلة، ودوسرة، والحمل على الأكثر أَوْلى، وأما الثاني: فلأنه لا يتم إلا بحمل اللفظ على لغة طيئ، والقرآن ما نزل بها ألبتة.

البحث الثالث: في التوراة قراءتان: الإمالة والتفخيم، فمن فخم فلأن الراء حرف يمنع الإمالة لما فيه من التكرير، والله أعلم.

وأما الإنجيل ففيه أقوال:

الأول: قال الزجاج: إنه إفعيل من النجل، وهو الأصل، يقال: لعن الله ناجليه، أي والديه، فسمي ذلك الكتاب بهذا الاسم؛ لأن الأصل المرجوع إليه في ذلك الدين.

والثاني: قال قوم: الإنجيل مأخوذ من قول العرب: نجلت الشيء، إذا استخرجته وأظهرته ويقال للماء الذي يخرج من البئر: نجل، ويقال: قد استنجل الوادي، إذا خرج الماء من النز، فسمي الإنجيل إنجيلاً لأنه تعالى أظهر الحق بواسطته.

والثالث: قال أبو عمرو الشيباني: التناجل: التنازع، فسمي ذلك الكتاب بالإنجيل لأن القوم تنازعوا فيه.

والرابع: أنه من النجل الذي هو سعة العين، ومنه طعنة نجلاء، سمي بذلك لأنه سعة ونور وضياء أخرجه لهم.

وأقول: أَمْر هؤلاء الأدباء عجيب، كأنهم أوجبوا في كل لفظ أن يكون مأخوذًا من شيء آخر، ولو كان كذلك لزم إما التسلسل وإما الدور، ولما كانا باطلين وجب الاعتراف بأنه لا بد من ألفاظ موضوعة وضعًا أولاً؛ حتى يجعل سائر الألفاظ مشتقة منها، وإذا كان الأمر كذلك فلمَ لا يجوز في هذا اللفظ الذي جعلوه مشتقًّا من ذلك الآخر أن يكون الأصل هو هذا، والفرع هو ذاك الآخر، ومن الذي أخبرهم بأن هذا فرع وذاك أصل، وربما كان هذا الذي يجعلونه فرعًا ومشتقًّا في غاية الشهرة، وذاك الذي يجعلونه أصلاً في غاية الخفاء، وأيضًا: فلو كانت التوراة إنما سميت توراة لظهورها، والإنجيل إنما سمي إنجيلاً لكونه أصلاً - وجب في كل ما ظهر أن يسمى بالتوراة، فوجب تسمية كل الحوادث بالتوراة، ووجب في كل ما كان أصلاً لشيء آخر أن يسمى بالإنجيل، والطين أصل الكوز، فوجب أن يكون الطين إنجيلاً، والذهب أصل الخاتم والغزل أصل الثوب، فوجب تسمية هذه الأشياء بالإنجيل، ومعلوم أنه ليس كذلك.

ثم إنهم عند إيراد هذه الإلزامات عليهم لا بدّ وأن يتمسكوا بالوضع، ويقولوا: العرب خصصوا هذين اللفظين بهذين الشيئين على سبيل الوضع، وإذا كان لا يتم المقصود في آخر الأمر إلا بالرجوع إلى وضع اللغة، فلمَ لا نتمسك به في أول الأمر ونريح أنفسنا من الخوض في هذه الكلمات؟ وأيضًا: فالتوراة والإنجيل اسمان أعجميان أحدهما بالعبرية والآخر بالسّريانية، فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بتطبيقها على أوزان لغة العرب؟! فظهر أن الأَوْلى بالعاقل أن لا يلتفت إلى هذه المباحث، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝﴾

أما قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ فاعلم أنه تعالى بيّن أنه أنزل التوراة والإنجيل قبل أن أنزل القرآن، ثم بيّن أنه إنما أنزلهما هدى للناس، قال الكعبي: هذه الآية دالة على بطلان قول من يزعم أن القرآن عمى على الكافرين وليس بهدى لهم، ويدل على معنى قوله ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] أن عند نزوله اختاروا العمى على وجه المجاز، كقول نوح عليه السلام: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦] لما فروا عنده.

واعلم أن قوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ **فيه احتمالان: الأول:** أن يكون ذلك عائدًا إلى التوراة والإنجيل فقط، وعلى هذا التقدير يكون قد وصف القرآن بأنه حق، ووصف التوراة والإنجيل بأنهما هدى، والوصفان متقاربان. **فإن قيل:** إنه وصف القرآن في أول سورة البقرة بأنه هدى للمتقين، فلمَ لم يصفه هاهنا به؟ **قلنا:** فيه لطيفة، وذلك لأنا ذكرنا في سورة البقرة أنه إنما قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] لأنهم هم المنتفعون به، فصار من هذا الوجه هدى لهم لا لغيرهم، أما هاهنا فالمناظرة كانت مع النصارى، وهم لا يهتدون بالقرآن، فلا جرم لم يقل هاهنا في القرآن: إنه هدى بل قال: إنه حق في نفسه، سواء قبلوه أو لم يقبلوه، وأما التوراة والإنجيل فهم يعتقدون في صحتهما ويدعون بأنا إنما نتقول في ديننا عليهما، فلا جرم وصفهما الله تعالى لأجل هذا التأويل بأنهما هدى، فهذا ما خطر بالبال والله أعلم.

القول الثاني: وهو قول الأكثرين: أنه تعالى وصف الكتب الثلاثة بأنها هدى، فهذا الوصف عائد إلى كل ما تقدم، وغير مخصوص بالتوراة والإنجيل، والله أعلم بمراده.

ثم قال: ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ **ولجمهور المفسرين فيه أقوال:**

الأول: أن المراد هو الزبور، كما قال: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

والثاني: أن المراد هو القرآن، وإنما أعاده تعظيمًا لشأنه ومدحًا بكونه فارقًا بين الحق والباطل، أو يقال: إنه تعالى أعاد ذكره ليبين أنه أنزله بعد التوراة والإنجيل ليجعله فرقًا بين ما اختلف فيه اليهود والنصارى من الحق والباطل، وعلى هذا التقدير فلا تكرار.

والقول الثالث: وهو قول الأكثرين: أن المراد أنه تعالى كما جعل الكتب الثلاثة هدى ودلالة، فقد جعلها فارقة بين الحلال والحرام وسائر الشرائع، فصار هذا الكلام دالاً على أن الله تعالى بيّن بهذه الكتب ما يلزم عقلاً وسمعًا.

هذا جملة ما قاله أهل التفسير في هذه الآية وهي عندي مشكلة: أما حمله على الزبور فهو بعيد؛ لأن الزبور ليس فيه شيء من الشرائع والأحكام، بل ليس فيه إلا المواعظ، ووصف التوراة والإنجيل مع اشتمالهما على الدلائل وبيان الأحكام بالفرقان - أوْلى من وصف الزبور بذلك، وأما القول

الثاني - وهو حمله على القرآن - فبعيد من حيث إن قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ عطف على ما قبله، والمعطوف مغاير للمعطوف عليه، والقرآن مذكور قبل هذا، فهذا يقتضي أن يكون هذا الفرقان مغايرًا للقرآن، وبهذا الوجه يظهر ضعف القول الثالث؛ لأن كون هذه الكتب فارقة بين الحق والباطل صفة لهذه الكتب، وعطف الصفة على الموصوف وإن كان قد ورد في بعض الأشعار النادرة، إلا أنه ضعيف بعيد عن وجه الفصاحة اللائقة بكلام الله تعالى.

والمختار عندي في تفسير هذه الآية وجه رابع، وهو أن المراد من هذا الفرقان المعجزات التي قرنها الله تعالى بإنزال هذه الكتب، وذلك لأنهم لما أتوا بهذه الكتب وادعوا أنها كتب نازلة عليهم من عند الله تعالى، افتقروا في إثبات هذه الدعوى إلى دليل حتى يحصل الفرق بين دعواهم وبين دعوى الكذابين، فلما أظهر الله تعالى على وَفق دعواهم تلك المعجزات حصلت المفارقة بين دعوى الصادق وبين دعوى الكاذب، فالمعجزة هي الفرقان، فلما ذكر الله تعالى أنه أنزل الكتاب بالحق، وأنه أنزل التوراة والإنجيل من قبل ذلك، بَيّن أنه تعالى أنزل معها ما هو الفرقان الحق، وهو المعجز القاهر الذي يدل على صحتها، ويفيد الفرق بينها وبين سائر الكتب المختلفة.

فهذا هو ما عندي في تفسير هذه الآية، وهَبْ أن أحدًا من المفسرين ما ذكره إلا أن حَمْل كلام الله تعالى عليه يفيد قوة المعنى، وجزالة اللفظ، واستقامة الترتيب والنظم، والوجوه التي ذكروها تنافي كل ذلك، فكان ما ذكرناه أَوْلى والله أعلم بمراده.

واعلم أنه سبحانه وتعالى لما قرر في هذه الألفاظ القليلة جميع ما يتعلق بمعرفة الإله، وجميع ما يتعلق بتقرير النبوّة، أتبع ذلك بالوعيد زجرًا للمُعْرضين عن هذه الدلائل الباهرة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾ واعلم أن بعض المفسرين خصص ذلك بالنصارى، فقصر اللفظ العام على سبب نزوله، والمحققون من المفسرين قالوا: خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ، فهو يتناول كل من أعرض عن دلائل الله تعالى.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ والعزيز: الغالب الذي لا يغلب. والانتقام: العقوبة، يقال: انتقم منه انتقامًا، أي عاقبه، وقال الليث: يقال: لم أرضَ عنه حتى نقمت منه وانتقمت، إذا كافأه عقوبة بما صنع، والعزيز إشارة إلى القدرة التامة على العقاب، وذو الانتقام إشارة إلى كونه فاعلاً للعقاب، فالأول: صفة الذات، والثاني: صفة الفعل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾

اعلم أن هذا الكلام يحتمل وجهين:

الاحتمال الأول: أنه تعالى لما ذكر أنه قيوم، والقيوم هو القائم بإصلاح مصالح الخلق ومهماتهم، وكونه كذلك لا يتم إلا بمجموع أمرين: أحدهما: أن يكون عالمًا بحاجاتهم على

جميع وجوه الكمية والكيفية. والثاني: أن يكون بحيث متى علم جهات حاجاتهم قدر على دفعها، والأول لا يتم إلا إذا كان عالمًا بجميع المعلومات، والثاني لا يتم إلا إذا كان قادرًا على جميع الممكنات، فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ إشارة إلى كمال علمه المتعلق بجميع المعلومات، فحينئذٍ يكون عالمًا لا محالة مقادير الحاجات ومراتب الضرورات، لا يشغله سؤال عن سؤال، ولا يشتبه الأمر عليه بسبب كثرة أسئلة السائلين، ثم قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ إشارة إلى كونه تعالى قادرًا على جميع الممكنات، وحينئذٍ يكون قادرًا على تحصيل مصالح جميع الخلق ومنافعهم، وعند حصول هذين الأمرين يظهر كونه قائمًا بالقسط قيومًا بجميع الممكنات والكائنات، ثم فيه لطيفة أخرى، وهي أن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ كما ذكرناه إشارة إلى كمال علمه سبحانه. والطريق إلى إثبات كونه تعالى عالمًا لا يجوز أن يكون هو السمع؛ لأن معرفة صحة السمع موقوفة على العلم بكونه تعالى عالمًا بجميع المعلومات، بل الطريق إليه ليس إلا الدليل العقلي، وذلك هو أن نقول: إن أفعال الله تعالى محكمة متقنة، والفعل المحكم المتقن يدل على كون فاعله عالمًا، فلما كان دليل كونه تعالى عالمًا هو ما ذكرنا، فحين ادعى كونه عالمًا بكل المعلومات بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أتبعه بالدليل العقلي الدال على ذلك، وهو أنه هو الذي صَوَّر في ظلمات الأرحام هذه البنية العجيبة، والتركيب الغريب، وركبه من أعضاء مختلفة في الشكل والطبع والصفة، فبعضها عظام، وبعضها غضاريف، وبعضها شرايين، وبعضها أوردة، وبعضها عضلات، ثم إنه ضم بعضها إلى بعض على التركيب الأحسن، والتأليف الأكمل، وذلك يدل على كمال قدرته حيث قدر أن يخلق من قطرة من النطفة هذه الأعضاء المختلفة في الطبائع والشكل واللون، ويدل على كونه عالمًا من حيث إن الفعل المحكم لا يصدر إلا عن العالم، فكان قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ دالاً على كونه قادرًا على كل الممكنات، ودالاً على صحة ما تقدم من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وإذا ثبت أنه تعالى عالم بجميع المعلومات، وقادر على كل الممكنات، ثبت أنه قيوم المحدثات والممكنات. فظهر أن هذا كالتقرير لما ذكره تعالى أولاً من أنه هو الحي القيوم، ومن تأمل في هذه اللطائف علم أنه لا يعقل كلام أكثر فائدة، ولا أحسن ترتيبًا، ولا أكثر تأثيرًا في القلوب من هذه الكلمات.

والاحتمال الثاني: أن تُنزل هذه الآيات على سبب نزولها، وذلك لأن النصارى ادعوا إلهية عيسى عليه السلام، وعولوا في ذلك على نوعين من الشُّبه، أحد النوعين شُبَه مستخرجة من مقدمات مشاهدة، والنوع الثاني: شُبَه مستخرجة من مقدمات إلزامية.

أما النوع الأول من الشبه: فاعتمادهم في ذلك على أمرين: أحدهما: يتعلق بالعلم. والثاني: يتعلق بالقدرة.

أما ما يتعلق بالعلم، فهو أن عيسى عليه السلام كان يخبر عن الغيوب، وكان يقول لهذا: أنت أكلت في دارك كذا. ويقول لذاك: إنك صنعت في دارك كذا. فهذا النوع من شبه النصارى يتعلق بالعلم.

وأما الأمر الثاني من شبههم، فهو متعلق بالقدرة، وهو أن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، وهذا النوع من شبه النصارى يتعلق بالقدرة، وليس للنصارى شُبه في المسألة سوى هذين النوعين.

ثم إنه تعالى لما استدل على بطلان قولهم في إلهية عيسى وفي التثليث بقوله ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢] يعني الإله يجب أن يكون حيًا قيومًا، وعيسى ما كان حيًا قيومًا، لزم القطع إنه ما كان إلهًا، فأتبعه بهذه الآية ليقرر فيها ما يكون جوابًا عن هاتين الشبهتين:

أما الشبهة الأولى: وهي المتعلقة بالعلم، وهي قولهم: إنه أخبر عن الغيوب فوجب أن يكون إلهًا. فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وتقرير الجواب أنه لا يلزم من كونه عالمًا ببعض المغيبات أن يكون إلهًا؛ لاحتمال أنه إنما علم ذلك بوحي من الله إليه، وتعليم الله تعالى له ذلك، لكن عدم إحاطته ببعض المغيبات يدل دلالة قاطعة على أنه ليس بإله؛ لأن الإله هو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فإن الإله هو الذي يكون خالقًا، والخالق لا بد وأن يكون عالمًا بمخلوقه، ومن المعلوم بالضرورة أن عيسى عليه السلام ما كان عالمًا بجميع المعلومات والمغيبات، فكيف والنصارى يقولون: إنه أظهر الجزع من الموت، فلو كان عالمًا بالغيب كله، لعَلِم أن القوم يريدون أَخْذه وقَتْله، وأنه يتأذى بذلك ويتألم، فكان يفر منهم قبل وصولهم إليه، فلما لم يعلم هذا الغيب ظهر أنه ما كان عالمًا بجميع المعلومات والمغيبات، والإله هو الذي لا يخفى عليه شيء من المعلومات، فوجب القطع بأن عيسى عليه السلام ما كان إلهًا، فثبت أن الاستدلال بمعرفة بعض الغيب لا يدل على حصول الإلهية، وأما الجهل ببعض الغيب يدل قطعًا على عدم الإلهية، فهذا هو الجواب عن النوع الأول من الشبه المتعلقة بالعلم.

أما النوع الثاني: من الشبه، وهو الشبهة المتعلقة بالقدرة: فأجاب الله تعالى عنها بقوله ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ والمعنى أن حصول الإحياء والإماتة على وَفق قوله في بعض الصور - لا يدل على كونه إلهًا؛ لاحتمال أن الله تعالى أكرمه بذلك الإحياء إظهارًا لمعجزته وإكرامًا له.

أما العجز عن الإحياء والإماتة في بعض الصور يدل على عدم الإلهية، وذلك لأن الإله هو الذي يكون قادرًا على أن يصور في الأرحام من قطرة صغيرة من النطفة هذا التركيب العجيب، والتأليف الغريب، ومعلوم أن عيسى عليه السلام ما كان قادرًا على الإحياء والإماتة على هذا الوجه، وكيف، ولو قدر على ذلك، لأمات أولئك الذين أخذوه على زعم النصارى وقتلوه،

فثبت أن حصول الإحياء والإماتة على وَفق قوله في بعض الصور لا يدل على كونه إلهًا، أما عدم حصولهما على وَفق مراده في سائر الصور يدل على أنه ما كان إلهًا، فظهر بما ذُكر أن هذه الشبهة الثانية أيضًا ساقطة.

وأما النوع الثاني من الشبه، فهي الشبه المبنية على مقدمات إلزامية، وحاصلها يرجع إلى نوعين:

النوع الأول: أن النصارى يقولون: أيها المسلمون أنتم توافقوننا على أنه ما كان له أب من البشر، فوجب أن يكون ابنًا له. فأجاب الله تعالى عنه أيضًا بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ لأن هذا التصوير لما كان منه فإن شاء صَوَّره من نطفة الأب، وإن شاء صَوَّره ابتداء من غير الأب.

والنوع الثاني: أن النصارى قالوا للرسول ﷺ: ألست تقول: (إن عيسى روح الله وكلمته)، فهذا يدل على أنه ابن الله. فأجاب الله تعالى عنه بأن هذا إلزام لفظي، واللفظ محتمل للحقيقة والمجاز، فإذا ورد اللفظ بحيث يكون ظاهره مخالفًا للدليل العقلي، كان من باب المتشابهات، فوجب رده إلى التأويل، وذلك هو المراد بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧] فظهر بما ذكرنا أن قوله: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ إشارة إلى ما يدل على أن المسيح ليس بإله ولا ابن له، وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فهو جواب عن الشبهة المتعلقة بالعلم، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ جواب عن تمسكهم بقدرته على الإحياء والإماتة، وعن تمسكهم بأنه ما كان له أب من البشر، فوجب أن يكون ابنًا لله، وأما قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ٧] فهو جواب عن تمسكهم بما ورد في القرآن أن عيسى روح الله وكلمته.

ومن أحاط علمًا بما ذكرناه ولخصناه، عَلِم أن هذا الكلام على اختصاره أكثر تحصيلاً من كل ما ذكره المتكلمون في هذا الباب، وأنه ليس في المسألة حجة ولا شبهة ولا سؤال ولا جواب، إلا وقد اشتملت هذه الآية عليه، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وأما كلام من قبلنا من المفسرين في تفسير هذه الآيات، فلم نذكره لأنه لا حاجة إليه، فمن أراد ذلك طالع الكتب. ثم إنه تعالى لما أجاب عن شبههم أعاد كلمة التوحيد زجرًا للنصارى عن قولهم بالتثليث، فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فالعزيز إشارة إلى كمال القدرة، والحكيم إشارة إلى كمال العلم، وهو تقرير لما تقدم من أن علم المسيح ببعض الغيوب، وقدرته على الإحياء والإماتة في بعض الصور - لا يكفي في كونه إلهًا، فإنَ الإله لا بد وأن يكون كامل القدرة وهو العزيز، وكامل العلم وهو الحكيم. **وبقي في الآية أبحاث لطيفة:**

أما قوله: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فالمراد أنه لا يخفى عليه شيء.

فإن قيل: ما الفائدة في قوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ مع أنه لو أطلق كان أبلغ؟

قلنا: الغرض بذلك إفهام العباد كمال علمه، وفهمهم هذا المعنى عند ذكر السماوات والأرض

أقوى، وذلك لأن الحس يرى عظمة السماوات والأرض، فيعين العقل على معرفة عظمة علم الله عزّ وجلّ، والحس متى أعان العقل على المطلوب كان الفهم أتم والإدراك أكمل؛ ولذلك فإن المعاني الدقيقة إذا أريد إيضاحها ذُكر لها مثال، فإن المثال يعين على الفهم.

اما قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ﴾ قال الواحدي: التصوير جعل الشيء على صورة، والصورة هيئة حاصلة للشيء عند إيقاع التأليف بين أجزائه، وأصله من صاره يصوره، إذا أماله، فهي صورة لأنها مائلة إلى شكل أبويه، وتمام الكلام فيه ذكرناه في قوله تعالى: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠] وأما الأرحام فهي جمع رحم، وأصلها من الرحمة، وذلك لأن الاشتراك في الرحم يوجب الرحمة والعطف؛ فلهذا سمي ذلك العضو رحمًا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝٧﴾

اعلم أن في هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: قد ذكرنا في اتصال قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥] بما قبله احتمالين: أحدهما: أن ذلك كالتقرير لكونه قيومًا. والثاني: أن ذلك الجواب عن شبه النصارى. فأما على الاحتمال الأول فنقول: إنه تعالى أراد أن يبين أنه قيوم وقائم بمصالح الخلق، ومصالح الخلق قسمان: جسمانية وروحانية، أما الجسمانية فأشرفها تعديل البنية، وتسوية المزاج على أحسن الصور وأكمل الأشكال، وهو المراد بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [آل عمران: ٦] وأما الروحانية فأشرفها العلم الذي تصير الروح معه كالمرآة المجلوة التي تجلت صور جميع الموجودات فيها، وهو المراد بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾. وأما على الاحتمال الثاني فقد ذكرنا أن من جملة شبه النصارى تمسكهم بما جاء في القرآن من قوله تعالى في صفة عيسى عليه السلام: (إنه روح الله وكلمته)، فبيّن الله تعالى بهذه الآية أن القرآن مشتمل على محكم وعلى متشابه، والتمسك بالمتشابهات غير جائز، فهذا ما يتعلق بكيفية النظم، وهو في غاية الحسن والاستقامة.

المسألة الثانية: اعلم أن القرآن دل على أنه بكليته محكم، ودل على أنه بكليته متشابه، ودل على أن بعضه محكم، وبعضه متشابه.

اما ما دل على أنه بكليته محكم، فهو قوله: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١] ﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] فذكر في هاتين الآيتين أن جميعه محكم، والمراد من المحكم بهذا المعنى

كونه كلامًا حقًّا فصيح الألفاظ صحيح المعاني، وكل قول وكلام يوجد كان القرآن أفضل منه في فصاحة اللفظ وقوة المعنى، ولا يتمكن أحد من إتيان كلام يساوي القرآن في هذين الوصفين، والعرب تقول في البناء الوثيق والعقد الوثيق الذي لا يمكن حله: محكم، فهذا معنى وصف جميعه بأنه محكم.

وأما ما دل على أنه بكليته متشابه، فهو قوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣] والمعنى أنه يشبه بعضه بعضًا في الحسن ويصدق بعضه بعضًا، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] أي لكان بعضه واردًا على نقيض الآخر، ولتفاوت نسق الكلام في الفصاحة والركاكة.

وأما ما دل على أن بعضه محكم وبعضه متشابه، فهو هذه الآية التي نحن في تفسيرها.

ولا بد لنا من تفسير المحكم والمتشابه بحسب أصل اللغة، ثم من تفسيرهما في عرف الشريعة:

أما المحكم فالعرب تقول: حاكمت وحكمت وأحكمت، بمعنى رددت، ومنعت، والحاكم يمنع الظالم عن الظلم، وحكمة اللجام التي هي تمنع الفرس عن الاضطراب، وفي حديث النخعي: احكم اليتيم كما تحكم ولدك، أي امنعه عن الفساد، وقال جرير: أحكِموا سفهاءكم، أي امنعوهم، وبناء محكم، أي وثيق يمنع من تعرض له، وسميت الحكمة حكمة لأنها تمنع عما لا ينبغي.

وأما المتشابه فهو أن يكون أحد الشيئين مشابهًا للآخر بحيث يعجز الذهن عن التمييز، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٧٠] وقال في وصف ثمار الجنة: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] أي متفق المنظر مختلف الطعوم، وقال الله تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨] ومنه يقال: اشتبه عليَّ الأمران، إذا لم يفرق بينهما، ويقال لأصحاب المخاريق: أصحاب الشبه، وقال عليه السلام: «الْحَلالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمورٌ مُتَشَابِهاتٌ» وفي رواية أخرى: «مُشْتَبِهَاتٌ».

ثم لما كان من شأن المتشابهين عَجْز الإنسان عن التمييز بينهما، سمي كل ما لا يهتدي الإنسان إليه بالمتشابه، إطلاقًا لاسم السبب على المسبب، ونظيره المشكل، سمي بذلك لأنه أشكل، أي دخل في شكل غيره فأشبهه وشابهه، ثم يقال لكل ما غمض وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة مشكل، ويحتمل أن يقال: إنه الذي لا يعرف أن الحق ثبوته أو عدمه، وكان الحكم بثبوته مساويًا للحكم بعدمه في العقل والذهن، ومشابهًا له، وغير متميز أحدهما عن الآخر بمزيد رجحان، فلا جرم سمي غير المعلوم بأنه متشابه، فهذا تحقيق القول في المحكم والمتشابه بحسَب أصل اللغة، فنقول: الناس قد أكثروا من الوجوه في تفسير المحكم والمتشابه، ونحن نذكر الوجه الملخص الذي عليه أكثر المحققين، ثم نذكر عقيبه أقوال الناس

فيه فنقول: اللفظ الذي جعل موضوعًا لمعنى، فإما أن يكون محتملاً لغير ذلك المعنى، وإما أن لا يكون: فإذا كان اللفظ موضوعًا لمعنى ولا يكون محتملاً لغيره فهذا هو النص، وأما إن كان محتملاً لغيره، فلا يخلو إما أن يكون احتماله لأحدهما راجحًا على الآخر، وإما أن لا يكون كذلك بل يكون احتماله لهما على السواء: فإن كان احتماله لأحدهما راجحًا على الآخر سمي ذلك اللفظ بالنسبة إلى الراجح ظاهرًا، وبالنسبة إلى المرجوح مؤولاً، وأما إن كان احتماله لهما على السوية كان اللفظ بالنسبة إليهما معًا مشتركًا، وبالنسبة إلى كل واحد منهما على التعيين مجملاً، فقد خرج من التقسيم الذي ذكرناه أن اللفظ إما أن يكون نصًا، أو ظاهرًا، أو مؤولاً، أو مشتركًا، أو مجملاً، أما النص والظاهر فيشتركان في حصول الترجيح، إلا أن النص راجح مانع من الغير، والظاهر راجح غير مانع من الغير، فهذا القدر المشترك هو المسمى بالمحكم.

وأما المجمل والمؤول فهما مشتركان في أن دلالة اللفظ عليه غير راجحة، وإن لم يكن راجحًا لكنه غير مرجوح، والمؤول مع أنه غير راجح فهو مرجوح لا بحسب الدليل المنفرد، فهذا القدر المشترك هو المسمى بالمتشابه؛ لأن عدم الفهم حاصل في القسمين جميعًا، وقد بينا أن ذلك يسمى متشابهًا، إما لأن الذي لا يعلم يكون النفي فيه مشابهًا للإثبات في الذهن، وإما لأجل أن الذي يحصل فيه التشابه يصير غير معلوم، فأطلق لفظ المتشابه على ما لا يعلم إطلاقًا لاسم السبب على المسبب. فهذا هو الكلام المحصل في المحكم والمتشابه، ثم اعلم أن اللفظ إذا كان بالنسبة إلى المفهومين على السوية، فهاهنا يتوقف الذهن، مثل: القرء، بالنسبة إلى الحيض والطهر، إنما المشكل بأن يكون اللفظ بأصل وضعه راجحًا في أحد المعنيين، ومرجوحًا في الآخر، ثم كان الراجح باطلاً، والمرجوح حقًا، ومثاله من القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ [الإسراء: ١٦] فظاهر هذا الكلام أنهم يؤمرون بأن يفسقوا، ومحكمه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] ردًا على الكفار فيما حكى عنهم ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] وكذلك قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وظاهر النسيان ما يكون ضدًا للعلم، ومرجوحه الترك، والآية المحكمة فيه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] وقوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

واعلم أن هذا موضع عظيم فنقول: إن كل واحد من أصحاب المذاهب يدعي أن الآيات الموافقة لمذهبه محكمة، وأن الآيات الموافقة لقول خصمه متشابهة، فالمعتزلي يقول: قوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] محكم، وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] متشابه. والسُّني يقلب الأمر في ذلك، فلا بد هاهنا من قانون يرجع إليه في هذا الباب فنقول: اللفظ إذا كان محتملاً لمعنيين وكان بالنسبة إلى أحدهما راجحًا، وبالنسبة إلى الآخر مرجوحًا، فإن حملناه على الراجح ولم نحمله على المرجوح، فهذا هو المحكم، وأما إن حملناه

على المرجوح ولم نحمله على الراجح، فهذا هو المتشابه فنقول: صَرْف اللفظ عن الراجح إلى المرجوح لا بد فيه من دليل منفصل، وذلك الدليل المنفصل إما أن يكون لفظيًا وإما أن يكون عقليًا.

أما القسم الأول: فنقول: هذا إنما يتم إذا حصل بين ذينك الدليلين اللفظيين تعارض، وإذا وقع التعارض بينهما فليس ترك ظاهر أحدهما رعاية لظاهر الآخر أَوْلى من العكس، اللّهم إلا أن يقال: إن أحدهما قاطع في دلالته والآخر غير قاطع، فحينئذٍ يحصل الرجحان، أو يقال: كل واحد منهما وإن كان راجحًا إلا أن أحدهما يكون أرجح، وحينئذٍ يحصل الرجحان إلا أنا نقول:

أما الأول فباطل؛ لأن الدلائل اللفظية لا تكون قاطعة ألبتة؛ لأن كل دليل لفظي فإنه موقوف على نقل اللغات، ونقل وجوه النحو والتصريف، وموقوف على عدم الاشتراك وعدم المجاز، وعدم التخصيص، وعدم الإضمار، وعدم المعارض النقلي والعقلي، وكل ذلك مظنون، والموقوف على المظنون أولى أن يكون مظنونًا، فثبت أن شيئًا من الدلائل اللفظية لا يكون قاطعًا.

وأما الثاني وهو أن يقال: أحد الدليلين أقوى من الدليل الثاني، وإن كان أصل الاحتمال قائمًا فيهما معًا، فهذا صحيح، ولكن على هذا التقدير يصير صرف الدليل اللفظي عن ظاهره إلى المعنى المرجوح ظنيًا، ومثل هذا لا يجوز التعويل عليه في المسائل الأصولية، بل يجوز التعويل عليه في المسائل الفقهية فثبت بما ذكرناه أن صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معناه المرجوح في المسائل القطعية - لا يجوز إلا عند قيام الدليل القطعي العقلي على أن ما أشعر به ظاهر اللفظ محال، وقد علمنا في الجملة أن استعمال اللفظ في معناه المرجوح جائز عند تعذر حمله على ظاهره، فعند هذا يتعين التأويل، فظهر أنه لا سبيل إلى صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معناه المرجوح إلا بواسطة إقامة الدلالة العقلية القاطعة على أن معناه الراجح محال عقلاً، ثم إذا أقامت هذه الدلالة وعرف المكلف أنه ليس مراد الله تعالى من هذا اللفظ ما أشعر به ظاهره، فعند هذا لا يحتاج إلى أن يعرف أن ذلك المرجوح الذي هو المراد ماذا؛ لأن السبيل إلى ذلك إنما يكون بترجيح مجاز على مجاز وترجيح تأويل على تأويل، وذلك الترجيح لا يمكن إلا بالدلائل اللفظية، والدلائل اللفظية على ما بينا ظنية، لا سيما الدلائل المستعملة في ترجيح مرجوح على مرجوح آخر يكون في غاية الضعف، وكل هذا لا يفيد إلا الظن الضعيف، والتعويل على مثل هذه الدلائل في المسائل القطعية محال؛ فلهذا التحقيق المتين مذهبًا أن بعد إقامة الدلائل القطعية على أن حمل اللفظ على الظاهر محال لا يجوز الخوض في تعيين التأويل، فهذا منتهى ما حصلناه في هذا الباب، والله ولي الهداية والرشاد.

المسألة الثالثة: في حكاية أقوال الناس في المحكم والمتشابه: **فالأول:** ما نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: المحكمات هي الثلاث آيات التي في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ [الأنعام: ١٥١] إلى آخر الآيات الثلاث، والمتشابهات هي التي تشابهت على اليهود، وهي أسماء حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور، وذلك أنهم أوّلوها على حساب الجمل فطلبوا أن

يستخرجوا منها مدة بقاء هذه الأمة، فاختلط الأمر عليهم واشتبه. وأقول: التكاليف الواردة من الله تعالى تنقسم إلى قسمين: منها ما لا يجوز أن يتغير بشرع وشرع، وذلك كالأمر بطاعة الله تعالى، والاحتراز عن الظلم والكذب والجهل وقتل النفس بغير حق، ومنها ما يختلف بشرع وشرع؛ كأعداد الصلوات ومقادير الزكوات وشرائط البيع والنكاح وغير ذلك، فالقسم الأول هو المسمى بالمحكم عند ابن عباس؛ لأن الآيات الثلاث في سورة الأنعام مشتملة على هذا القسم.

وأما المتشابه فهو الذي سميناه بالمجمل، وهو ما يكون دلالة اللفظ بالنسبة إليه وإلى غيره على السوية، فإن دلالة هذه الألفاظ على جميع الوجوه التي تفسر هذه الألفاظ بها على السوية، لا بدليل منفصل على ما لخصناه في أول سورة البقرة.

القول الثاني: وهو أيضًا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن المحكم هو الناسخ، والمتشابه هو المنسوخ.

والقول الثالث: قال الأصم: المحكم هو الذي يكون دليله واضحًا لائحًا، مثل ما أخبر الله تعالى به من إنشاء الخلق في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ [المؤمنون: ١٤] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وقوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢] والمتشابه ما يحتاج في معرفته إلى التدبر والتأمل، نحو الحكم بأنه تعالى يبعثهم بعد أن صاروا ترابًا، ولو تأملوا لصار المتشابه عندهم محكمًا؛ لأن مَن قَدَر على الإنشاء أولاً قدر على الإعادة ثانيًا.

واعلم أن كلام الأصم غير ملخص، فإنه إن عنى بقوله: (المحكم ما يكون دلائله واضحة) أن المحكم هو الذي يكون دلالة لفظه على معناه متعينة راجحة، والمتشابه ما لا يكون كذلك، وهو إما المجمل المتساوي، أو المؤول المرجوح، فهذا هو الذي ذكرناه أولاً، وإن عنى به أن المحكم هو الذي يعرف صحة معناه من غير دليل، فيصير المحكم على قوله ما يعلم صحته بضرورة العقل، والمتشابه ما يعلم صحته بدليل العقل، وعلى هذا يصير جملة القرآن متشابهًا، لأن قوله: ﴿خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ [المؤمنون: ١٤] أمر يحتاج في معرفة صحته إلى الدلائل العقلية، وإن أهل الطبيعة يقولون: السبب في ذلك الطبائع والفصول، أو تأثيرات الكواكب، وتركيبات العناصر وامتزاجاتها، فكما أن إثبات الحشر والنشر مفتقر إلى الدليل، فكذلك إسناد هذه الحوادث إلى الله تعالى مفتقر إلى الدليل، ولعلّ الأصم يقول: هذه الأشياء وإن كانت كلها مفتقرة إلى الدليل، إلا أنها تنقسم إلى ما يكون الدليل فيه ظاهرًا بحيث تكون مقدماته قليلة مرتبة مبينة يؤمن الغلط معها إلا نادرًا، ومنها ما يكون الدليل فيه خفيًا كثير المقدمات غير مرتبة، فالقسم الأول هو المحكم، والثاني هو المتشابه.

القول الرابع: أن كل ما أمكن تحصيل العلم به سواء كان ذلك بدليل جلي، أو بدليل خفي، فذاك هو المحكم، وكل ما لا سبيل إلى معرفته فذاك هو المتشابه، وذلك كالعلم بوقت قيام

الساعة، والعلم بمقادير الثواب والعقاب في حق المكلفين، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧].

المسألة الرابعة: في الفوائد التي لأجلها جُعل بعض القرآن محكمًا وبعضه متشابهًا.

اعلم أن من الملحدة من طعن في القرآن لأجل اشتماله على المتشابهات، وقال: إنكم تقولون: إن تكاليف الخلق مرتبطة بهذا القرآن إلى قيام الساعة، ثم إنا نراه بحيث يتمسك به كل صاحب مذهب على مذهبه، فالجبري يتمسك بآيات الجبر، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥] والقَدَري يقول: بل هذا مذهب الكفار، بدليل أنه تعالى حكى ذلك عن الكفار في معرض الذم لهم في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] وفي موضع آخر: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨] وأيضًا: مثبت الرؤية يتمسك بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] والنافي يتمسك بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ومثبت الجهة يتمسك بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وبقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] والنافي يتمسك بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ثم إن كل واحد يسمي الآيات الموافقة لمذهبه: محكمة، والآيات المخالفة لمذهبه: متشابهة، وربما آل الأمر في ترجيح بعضها على بعض إلى ترجيحات خفية، ووجوه ضعيفة، فكيف يليق بالحكيم أن يجعل الكتاب الذي هو المرجوع إليه في كل الدين إلى قيام الساعة هكذا؟! أليس أنه لو جعله ظاهرًا جليًّا نقيًّا عن هذه المتشابهات كان أقرب إلى حصول الغرض!!

واعلم أن العلماء ذكروا في فوائد المتشابهات وجوهًا:

الوجه الأول: أنه متى كانت المتشابهات موجودة، كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب، قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

الوجه الثاني: لو كان القرآن محكمًا بالكلية لما كان مطابقًا إلا لمذهب واحد، وكان تصريحه مبطلاً لكل ما سوى ذلك المذهب، وذلك مما ينفر أرباب المذاهب عن قَبوله وعن النظر فيه، فالانتفاع به إنما حصل لما كان مشتملاً على المحكم وعلى المتشابه، فحينئذٍ يطمع صاحب كل مذهب أن يجد فيه ما يقوي مذهبه، ويؤثر مقالته، فحينئذٍ ينظر فيه جميع أرباب المذاهب، ويجتهد في التأمل فيه كل صاحب مذهب، فإذا بالغوا في ذلك صارت المحكمات مفسرة للمتشابهات، فبهذا الطريق يتخلص المبطل عن باطله ويصل إلى الحق.

الوجه الثالث: أن القرآن إذا كان مشتملاً على المحكم والمتشابه افتقر الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل العقل، وحينئذٍ يتخلص عن ظلمة التقليد، ويصل إلى ضياء الاستدلال والبينة، أما لو كان كله محكمًا لم يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية، فحينئذٍ كان يبقى في الجهل والتقليد.

الوجه الرابع: لما كان القرآن مشتملاً على المحكم والمتشابه، افتقروا إلى تعلم طرق التأويلات وترجيح بعضها على بعض، وافتقر تعلم ذلك إلى تحصيل علوم كثيرة من علم اللغة والنحو وعلم أصول الفقه، ولو لم يكن الأمر كذلك ما كان يحتاج الإنسان إلى تحصيل هذه العلوم الكثيرة، فكان إيراد هذه المتشابهات لأجل هذه الفوائد الكثيرة.

الوجه الخامس: - وهو السبب الأقوى في هذا الباب - أن القرآن كتاب مشتمل على دعوة الخواص والعوام بالكلية، وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمر عن إدراك الحقائق، فمن سمع من العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا بمتحيز ولا مشار إليه، ظن أن هذا عدم ونفي، فوقع في التعطيل، فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتوهمونه ويتخيلونه، ويكون ذلك مخلوطًا بما يدل على الحق الصريح، فالقسم الأول وهو الذي يخاطبون به في أول الأمر يكون من باب المتشابهات، والقسم الثاني وهو الذي يكشف لهم في آخر الأمر هو المحكمات. فهذا ما حضرنا في هذا الباب والله أعلم بمراده.

وإذا عرفت هذه المباحث فلنرجع إلى التفسير:

أما قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فالمراد به هو القرآن ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ وهي التي يكون مدلولاتها متأكدة، إما بالدلائل العقلية القاطعة وذلك في المسائل القطعية، أو يكون مدلولاتها خالية عن معارضات أقوى منها.

ثم قال: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ **وفيه سؤالان:**

السؤال الأول: ما معنى كون المحكم أُمًّا للمتشابه؟

الجواب: الأم في حقيقة اللغة الأصل الذي منه يكون الشيء، فلما كانت المحكمات مفهومة بذواتها، والمتشابهات إنما تصير مفهومة بإعانة المحكمات، لا جرم صارت المحكمات كالأم للمتشابهات. وقيل: إن ما جرى في الإنجيل من ذكر الأب، وهو أنه قال: إن الباري القديم المكون للأشياء الذي به قامت الخلائق وبه ثبتت إلى أن يبعثها، فعبّر عن هذا المعنى بلفظ الأب من جهة أن الأب هو الذي حصل منه تكوين الابن، ثم وقع في الترجمة ما أوهم الأبوة الواقعة من جهة الولادة، فكان قوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥] محكمًا لأن معناه متأكد بالدلائل العقلية القطعية، وكان قوله: (عيسى روح الله وكلمته) من المتشابهات التي يجب ردها إلى ذلك المحكم.

السؤال الثاني: لمَ قال: ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ولم يقل: أمهات الكتاب؟

الجواب: أن مجموع المحكمات في تقدير شيء واحد، ومجموع المتشابهات في تقدير شيء آخر، وأحدهما أم الآخر، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠] ولم يقل آيتين، وإنما قال ذلك على معنى أن مجموعهما آية واحدة، فكذلك هاهنا.

ثم قال: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ وقد عرفت حقيقة المتشابهات، قال الخليل وسيبويه: أن (أُخر) فارقت أخواتها في حكم واحد، وذلك لأن أُخر جمع أخرى، وأخرى تأنيث آخر، وآخر على وزن (أفعَل) وما كان على وزن (أفعَل) فإنه يستعمل مع (مِن) أو بالألف واللام، فيقال: زيد أفضل من عمرو، وزيد الأفضل، فالألف واللام معاقبتان لمِن في باب أفعل، فكان القياس أن يقال: زيد آخر من عمرو، أو يقال: زيد الآخر، إلا أنهم حذفوا منه لفظ (مِن) لأن لفظه اقتضى معنى (مِن) فأسقطوها اكتفاء بدلالة اللفظ عليه والألف واللام معاقبتان لمن، فسقط الألف واللام أيضًا، فلما جاز استعماله بغير الألف واللام صار أخر فأُخر جمعه، فصارت هذه اللفظة معدولة عن حكم نظائرها في سقوط الألف واللام عن جمعها ووحدانها.

ثم قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ اعلم أنه تعالى لما بيّن أن الكتاب ينقسم إلى قسمين، منه محكم ومنه متشابه، بيّن أن أهل الزيغ لا يتمسكون إلا بالمتشابه، والزيغ: الميل عن الحق، يقال: زاغ زيغًا: أي مال ميلاً. واختلفوا في هؤلاء الذين أُريدوا بقوله: ﴿فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ فقال الربيع: هم وفد نجران، لما حاجوا رسول الله ﷺ في المسيح فقالوا: أليس هو كلمة الله وروح منه؟! قال: بلى. فقالوا: حسبنا. فأنزل الله هذه الآية، ثم أنزل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقال الكلبي: هم اليهود طلبوا علم مدة بقاء هذه الأمة واستخراجه من الحروف المقطعة في أوائل السور. وقال قتادة والزجاج: هم الكفار الذين ينكرون البعث؛ لأنه قال في آخر الآية: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ وما ذاك إلا وقت القيامة؛ لأنه تعالى أخفاه عن كل الخلق حتى عن الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقال المحققون: إن هذا يعم جميع المبطلين، وكل من احتج لباطله بالمتشابه؛ لأن اللفظ عام، وخصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ، ويدخل فيه كل ما فيه لبس واشتباه، ومن جملته ما وعد الله به الرسول من النصرة وما أوعد الكفار من النقمة ويقولون: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٩] ومتى ﴿تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ [سبأ: ٣] ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الحجر: ٧] فموهوا الأمر على الضعفة، ويدخل في هذا الباب استدلال المشبهة بقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فإنه لما ثبت بصريح العقل أن كل ما كان مختصًا بالحيز فإما أن يكون في الصغر كالجزء الذي لا يتجزأ، وهو باطل بالاتفاق، وإما أن يكون أكبر فيكون منقسمًا مركبًا، وكل مركب فإنه ممكن ومحدث، فبهذا الدليل الظاهر يمتنع أن يكون الإله في مكان، فيكون قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] متشابهًا، فمن تمسك به كان متمسكًا بالمتشابهات، ومن جملة ذلك استدلال المعتزلة بالظواهر الدالة على تفويض الفعل بالكلية إلى العبد، فإنه لما ثبت بالبرهان العقلي أن صدور الفعل يتوقف على حصول الداعي، وثبت أن حصول ذلك الداعي من الله تعالى، وثبت أنه متى كان الأمر كذلك، كان حصول الفعل عند تلك الداعية واجبًا، وعدمه عند عدم هذه الداعية واجبًا، فحينئذٍ يبطل ذلك التفويض، وثبت أن الكل بقضاء الله تعالى وقدره ومشيئته،

فيصير استدلال المعتزلة بتلك الظواهر وإن كثرت - استدلالاً بالمتشابهات، فبيّن الله تعالى في كل هؤلاء الذين يُعْرضون عن الدلائل القاطعة ويقتصرون على الظواهر الموهمة أنهم يتمسكون بالمتشابهات؛ لأجل أن في قلوبهم زيغًا عن الحق وطلبًا لتقرير الباطل.

واعلم أنك لا ترى طائفة في الدنيا إلا وتسمي الآيات المطابقة لمذهبهم محكمة، والآيات المطابقة لمذهب خصمهم متشابهة ثم هول الأمر في ذلك.

ألا ترى إلى الجبائي فإنه يقوله: المجبرة الذين يضيفون الظلم والكذب، وتكليف ما لا يطاق إلى الله تعالى هم المتمسكون بالمتشابهات.

وقال أبو مسلم الأصفهاني: الزائغ: الطالب للفتنة: هو من يتعلق بآيات الضلال، ولا يتأوله على المحكم الذي بيّنه الله تعالى بقوله: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥] ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩] ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وفسروا أيضًا قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] على أنه تعالى أهلكهم وأراد فسقهم، وأن الله تعالى يطلب العلل على خلقه ليهلكهم، مع أنه تعالى قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] وتأولوا قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤] على أنه تعالى زين لهم النعمة. ونقضوا بذلك ما في القرآن كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] وقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] وقال: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٨] وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] فكيف يزين النعمة؟

فهذا ما قاله أبو مسلم، وليت شعري لِمَ حكم على الآيات الموافقة لمذهبه بأنها محكمات، وعلى الآيات المخالفة لمذهبه بأنها متشابهات؟ ولِمَ أوجب في تلك الآيات المطابقة لمذهبه إجرائها على الظاهر، وفي الآيات المخالفة لمذهبه صرفها عن الظاهر؟ ومعلوم أن ذلك لا يتم إلا بالرجوع إلى الدلائل العقلية الباهرة، فإذا دلّ على بطلان مذهب المعتزلة الأدلة العقلية، فإن مذهبهم لا يتم إلا إذا قلنا بأنه صدر عن أحد الفعلين دون الثاني من غير مرجح، وذلك تصريح بنفي الصانع، ولا يتم إلا إذا قلنا بأن صدور الفعل المحكم المتقن عن العبد - لا يدل على علم فاعله به، فحينئذٍ يكون قد تخصص ذلك العدد بالوقوع دون الأزيد والأنقص لا لمخصص، وذلك نفي للصانع، ولزم منه أيضًا أن لا يدل صدور الفعل المحكم على كون الفاعل عالمًا، وحينئذٍ ينسد باب الاستدلال بأحكام أفعال الله تعالى على كون فاعلها عالمًا، ولو أن أهل السماوات والأرض اجتمعوا على هذه الدلائل لم يقدروا على دفعها، فإذا لاحت هذه الدلائل العقلية الباهرة فكيف يجوز لعاقل أن يسمي الآيات الدالة على القضاء والقدر بالمتشابه، فظهر بما ذكرناه أن القانون المستمر عند جمهور الناس أن كل آية توافق مذهبهم فهي المحكمة، وكل آية تخالفهم فهي المتشابهة.

وأما المحقق المنصف، فإنه يحمل الأمر في الآيات على أقسام ثلاثة: أحدها: ما يتأكد ظاهرها بالدلائل العقلية، فذاك هو المحكم حقًا. وثانيها: الذي قامت الدلائل القاطعة على امتناع ظواهرها، فذاك هو الذي يحكم فيه بأن مراد الله تعالى غير ظاهره. وثالثها: الذي لا يوجد مثل هذه الدلائل على طرفي ثبوته وانتفائه، فيكون من حقه التوقف فيه، ويكون ذلك متشابهًا بمعنى أن الأمر اشتبه فيه، ولم يتميز أحد الجانبين عن الآخر، إلا أن الظن الراجح حاصل في إجرائها على ظواهرها، فهذا ما عندي في هذا الباب، والله أعلم بمراده.

واعلم أنه تعالى لما بيّن أن الزائغين يتبعون المتشابه، بيّن أن لهم فيه غرضين: فالأول: هو قوله تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ والثاني: هو قوله: ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾.

فأما الأول: فاعلم أن الفتنة في اللغة الاستهتار بالشيء والغلو فيه، يقال: فلان مفتون بطلب الدنيا، أي قد غلا في طلبها وتجاوز القدر، وذكر المفسرون في تفسير هذه الفتنة وجوهًا: أولها: قال الأصم: إنهم متى أوقعوا تلك المتشابهات في الدين، صار بعضهم مخالفًا للبعض في الدين، وذلك يفضي إلى التقاتل والهرج والمرج، فذاك هو الفتنة. وثانيها: أن التمسك بذلك المتشابه يقرر البدعة والباطل في قلبه، فيصير مفتونًا بذلك الباطل عاكفًا عليه، لا ينقلع عنه بحيلة ألبتة. وثالثها: أن الفتنة في الدين هو الضلال عنه، ومعلوم أنه لا فتنة ولا فساد أعظم من الفتنة في الدين والفساد فيه.

وأما الغرض الثاني لهم: وهو قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ فاعلم أن التأويل هو التفسير، وأصله في اللغة المرجع والمصير، من قولك: آل الأمر إلى كذا، إذا صار إليه، وأولته تأويلًا، إذا صيرته إليه، هذا معنى التأويل في اللغة، ثم يسمى التفسير تأويلًا، قال تعالى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾ [الكهف: ٧٨] وقال تعالى: ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] وذلك أنه إخبار عما يرجع إليه اللفظ من المعنى، واعلم أن المراد منه أنهم يطلبون التأويل الذي ليس في كتاب الله عليه دليل ولا بيان، مثل طلبهم أن الساعة متى تقوم؟ وأن مقادير الثواب والعقاب لكل مطيع وعاصٍ كم تكون؟ قال القاضي: هؤلاء الزائغون قد ابتغوا المتشابه من وجهين: أحدهما: أن يحملوه على غير الحق، وهو المراد من قوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ والثاني: أن يحكموا بحكم في الموضع الذي لا دليل فيه، وهو المراد من قوله: ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾.

ثم بيّن تعالى ما يكون زيادة في ذم طريقة هؤلاء الزائغين فقال: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ واختلف الناس في هذا الموضع. **فمنهم من قال:** تم الكلام هاهنا، ثم الواو في قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ واو الابتداء، وعلى هذا القول: لا يعلم المتشابه إلا الله. وهذا قول ابن عباس وعائشة ومالك بن أنس والكسائي والفرّاء، ومن المعتزلة قول أبي علي الجبائي، وهو المختار عندنا.

والقول الثاني: أن الكلام إنما يتم عند قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ وعلى هذا القول يكون العلم بالمتشابه حاصلًا عند الله تعالى وعند الراسخين في العلم، وهذا القول أيضًا مروي عن

ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس وأكثر المتكلمين. **والذي يدل على صحة القول الأول وجوه:**

الحجة الأولى: أن اللفظ إذا كان له معنى راجح، ثم دل دليل أقوى منه على أن ذلك الظاهر غير مراد، علمنا أن مراد الله تعالى بعض مجازات تلك الحقيقة، وفي المجازات كثرة، وترجيح البعض على البعض لا يكونْ إلا بالترجيحات اللغوية، والترجيحات اللغوية لا تفيد إلا الظن الضعيف، فإذا كانت المسألة قطعية يقينية، كان القول فيها بالدلائل الظنية الضعيفة غير جائز.

مثاله: قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ثم قال الدليل القاطع على أن مثل هذا التكليف قد وجد على ما بينا في البراهين الخمسة في تفسير هذه الآية، فعلمنا أن مراد الله تعالى ليس ما يدل عليه ظاهر هذه الآية، فلا بد من صرف اللفظ إلى بعض المجازات، وفي المجازات كثرة وترجيح بعضها على بعض لا يكون إلا بالترجيحات اللغوية، وأنها لا تفيد إلا الظن الضعيف، وهذه المسألة ليست من المسائل الظنية، فوجب أن يكون القول فيها بالدلائل الظنية باطلاً. وأيضًا: قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] دلّ الدليل على أنه يمتنع أن يكون الإله في المكان، فعرفنا أنه ليس مراد الله تعالى من هذه الآية ما أشعر به ظاهرها، إلا أن في مجازات هذه اللفظة كثرة، فصَرْف اللفظ إلى البعض دون البعض لا يكون إلا بالترجيحات اللغوية الظنية، والقول بالظن في ذات الله تعالى وصفاته غير جائز بإجماع المسلمين، وهذه حجة قاطعة في المسألة، والقلب الخالي عن التعصب يميل إليه، والفطرة الأصلية تشهد بصحته، وبالله التوفيق.

الحجة الثانية: وهو أن ما قبل هذه الآية يدل على أن طلب تأويل المتشابه مذموم، حيث قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ ولو كان طلب تأويل المتشابه جائزًا، لما ذم الله تعالى ذلك.

فإن قيل: لمَ لا يجوز أن يكون المراد منه طلب وقت قيام الساعة، كما في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف: ١٧٨] وأيضًا: طلب مقادير الثواب والعقاب، وطلب ظهور الفتح والنصرة كما قالوا: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الحجر: ٧].

قلنا: إنه تعالى لما قسم الكتاب إلى قسمين: محكم ومتشابه، ودلّ العقل على صحة هذه القسمة من حيث إن حمل اللفظ على معناه الراجح هو المحكم، وحمله على معناه الذي ليس براجح هو المتشابه، ثم إنه تعالى ذم طريقة من طلب تأويل المتشابه، كان تخصيص ذلك ببعض المتشابهات دون البعض تركًا للظاهر، وأنه لا يجوز.

الحجة الثالثة: أن الله مدح الراسخين في العلم بأنهم يقولون: (آمنا به)، وقال في أول سورة البقرة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦] فهؤلاء الراسخون لو كانوا عالمين بتأويل ذلك المتشابه على التفصيل، لَمَا كان لهم في الإيمان به مدح؛ لأن كل من عرف شيئًا على سبيل التفصيل فإنه لا بد وأن يؤمن به، إنما الراسخون في العلم هم الذين علموا

بالدلائل القطعية أن الله تعالى عالم بالمعلومات التي لا نهاية لها، وعلموا أن القرآن كلام الله تعالى، وعلموا أنه لا يتكلم بالباطل والعبث، فإذا سمعوا آية ودلت الدلائل القطعية على أنه لا يجوز أن يكون ظاهرها مراد الله تعالى، بل مراده منه غير ذلك الظاهر، ثم فوضوا تعيين ذلك المراد إلى علمه، وقطعوا بأن ذلك المعنى أي شيء كان فهو الحق والصواب، فهؤلاء هم الراسخون في العلم بالله، حيث لم يزعزعهم قطعهم بترك الظاهر، ولا عدم علمهم بالمراد على التعيين - عن الإيمان بالله والجزم بصحة القرآن.

الحجة الرابعة: لو كان قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ معطوفًا على قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لصار قوله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ ابتداء، وأنه بعيد عن ذوق الفصاحة، بل كان الأَوْلى أن يقال: وهم يقولون: آمنا به. أو يقال: ويقولون: آمنا به.

فإن قيل: في تصحيحه وجهان: الأول: أن قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ كلام مبتدأ، والتقدير: هؤلاء العالمون بالتأويل يقولون: آمنا به. والثاني: أن يكون ﴿يَقُولُونَ﴾ حالاً من الراسخين.

قلنا: أما الأول فمدفوع؛ لأن تفسير كلام الله تعالى بما لا يحتاج معه إلى الإضمار أَوْلى من تفسيره بما يحتاج معه إلى الإضمار. والثاني: أن ذا الحال هو الذي تقدم ذكره، وهاهنا قد تقدم ذكر الله تعالى وذكر الراسخين في العلم، فوجب أن يُجعل قوله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ حالاً من الراسخين لا من الله تعالى، فيكون ذلك تركًا للظاهر، فثبت أن ذلك المذهب لا يتم إلا بالعدول عن الظاهر، ومذهبنا لا يحتاج إليه، فكان هذا القول أَوْلى.

الحجة الخامسة: قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ يعني أنهم آمنوا بما عرفوه على التفصيل، وبما لم يعرفوا تفصيله وتأويله، فلو كانوا عالمين بالتفصيل في الكل لم يبق لهذا الكلام فائدة.

الحجة السادسة: نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: تفسير القرآن على أربعة أوجه: تفسير لا يسع أحدًا جهله، وتفسير تعرفه العرب بألسنتها، وتفسير تعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى.

وسئل مالك بن أنس رحمه الله عن الاستواء، فقال: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وقد ذكرنا بعض هذه المسألة في أول سورة البقرة، فإذا ضُم ما ذكرناه هاهنا إلى ما ذكرنا هناك تم الكلام في هذه المسألة، وبالله التوفيق.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الرسوخ في اللغة: الثبوت في الشيء.

واعلم أن الراسخ في العلم هو الذي عرف ذات الله وصفاته بالدلائل اليقينية القطعية، وعرف أن القرآن كلام الله تعالى بالدلائل اليقينية، فإذا رأى شيئًا متشابهًا، ودل القطعي على أن الظاهر ليس مراد الله تعالى، علم حينئذٍ قطعًا أن مراد الله شيء آخر سوى ما دلّ عليه ظاهره، وأن ذلك المراد حق، ولا يصير كون ظاهره مردودًا شبهة في الطعن في صحة القرآن.

ثم حكي عنهم أيضًا أنهم يقولون: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ والمعنى: أن كل واحد من المحكم والمتشابه من عند ربنا. **وفيه سؤالان:**

السؤال الأول: لو قال: (كل من ربنا) كان صحيحًا، فما الفائدة في لفظ ﴿عِندِ﴾؟

الجواب: الإيمان بالمتشابه يحتاج فيه إلى مزيد التأكيد، فذكر كلمة ﴿عِندِ﴾ لمزيد التأكيد.

السؤال الثاني: لمَ جاز حذف المضاف إليه من ﴿كُلٌّ﴾؟

الجواب: لأن دلالة المضاف عليه قوية، فبعد الحذف الأمن من اللبس حاصل.

ثم قال: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وهذا ثناء من الله تعالى على الذين قالوا: آمنا به، ومعناه: ما يتعظ بما في القرآن إلا ذوو العقول الكاملة. فصار هذا اللفظ كالدلالة على أنهم يستعملون عقولهم في فهم القرآن، فيعلمون الذي يطابق ظاهره دلائل العقول فيكون محكمًا، وأما الذي يخالف ظاهره دلائل العقول فيكون متشابهًا، ثم يعلمون أن الكل كلام من لا يجوز في كلامه التناقض والباطل، فيعلمون أن ذلك المتشابه لا بد وأن يكون له معنى صحيح عند الله تعالى. وهذه الآية دالة على علو شأن المتكلمين الذين يبحثون عن الدلائل العقلية، ويتوسلون بها إلى معرفة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله، ولا يفسرون القرآن إلا بما يطابق دلائل العقول، ويوافق اللغة والإعراب.

واعلم أن الشيء كلما كان أشرف كان ضده أخس، فكذلك مفسر القرآن متى كان موصوفًا بهذه الصفة كانت درجته هذه الدرجة العظمى التي عظم الله الثناء عليه، ومتى تكلم في القرآن من غير أن يكون متبحرًا في علم الأصول، وفي علم اللغة والنحو، كان في غاية البعد عن الله؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «مَن فَسَّرَ القُرآنَ بِرأيه، فَلْيَتبَوَّأْ مَقعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(١).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾

واعلم أنه تعالى كما حكى عن الراسخين أنهم يقولون: (آمنا به) حكى عنهم أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا﴾ وحذف (يَقُولُونَ) لدلالة الأول عليه، وكما في قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١].

وفي هذه الآية اختلف كلام أهل السنة وكلام المعتزلة:

أما كلام أهل السنة فظاهر، وذلك لأن القلب صالح لأن يميل إلى الإيمان، وصالح لأن يميل إلى الكفر، ويمتنع أن يميل إلى أحد الجانبين إلا عند حدوث داعية وإرادة يُحدثها الله تعالى،

(١) **إسناده ضعيف:** أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ١٩٩)، حديث رقم (٢٩٥١)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن. والنسائي في (سننه الكبرى) (٥/ ٣١)، حديث رقم (٨٠٨٥)، وأحمد في (مسنده) (١/ ٢٣٣)، حديث رقم (٢٠٦٩) من طريق عبد الأعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس... به، وفي إسناده عبد الأعلى الثعلبي قال الحافظ: صدوق يهم. وعند الذهبي: لين. وضَعَّفه أحمد.

فإن كانت تلك الداعية داعية الكفر، فهي الخذلان، والإزاغة، والصد، والختم، والطبع، والرين، والقسوة، والوقر، والكنان، وغيرها من الألفاظ الواردة في القرآن، وإن كانت تلك الداعية داعية الإيمان فهي: التوفيق، والرشاد، والهداية، والتسديد، والتثبيت، والعصمة، وغيرها من الألفاظ الواردة في القرآن، وكان رسول الله ﷺ يقول: «قَلْبُ المُؤمنِ بَيْنَ أُصْبُعيْنِ من أَصَابعِ الرَّحْمنِ» والمراد من هذين الأصبعين: الداعيتان، فكما أن الشيء الذي يكون بين أصبعي الإنسان يتقلب كما يقلبه الإنسان بواسطة ذينك الأصبعين، فكذلك القلب لكونه بين الداعيتين يتقلب كما يقلبه الحق بواسطة تينك الداعيتين، ومن أنصف ولم يتعسف، وجرب نفسه، وجد هذا المعنى كالشيء المحسوس، ولو جوّز حدوث إحدى الداعيتين من غير محدث ومؤثر، لزمه نفي الصانع، وكان ﷺ يقول: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ وَالأَبْصَارِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»(١) ومعناه ما ذكرنا، فلما آمن الراسخون في العلم بكل ما أنزل الله تعالى من المحكمات والمتشابهات تضرعوا إليه سبحانه وتعالى في أن لا يجعل قلوبهم مائلة إلى الباطل بعد أن جعلها مائلة إلى الحق، فهذا كلام برهاني متأكد بتحقيق قرآني.

ومما يؤكد ما ذكرناه أن الله تعالى مدح هؤلاء المؤمنين بأنهم لا يتبعون المتشابهات، بل يؤمنون بها على سبيل الإجمال، وترك الخوض فيها، فيبعد منهم في مثل هذا الوقت أن يتكلموا بالمتشابه، فلا بد وأن يكونوا قد تكلموا بهذا الدعاء لاعتقادهم أنه من المحكمات، ثم إن الله تعالى حكى ذلك عنهم في معرض المدح لهم والثناء عليهم بسبب أنهم قالوا ذلك، وهذا يدل على أن هذه الآية من أقوى المحكمات، وهذا كلام متين.

وأما المعتزلة فقد قالوا: لما دلّت الدلائل على أن الزيغ لا يجوز أن يكون بفعل الله تعالى، وجب صرف هذه الآية إلى التأويل. فأما دلائلهم فقد ذكرناها في تفسير قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

ومما احتجوا به في هذا الموضع خاصة: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وهو صريح في أن ابتداء الزيغ منهم.

وأما تأويلاتهم في هذه الآية فمن وجوه:

الأول: وهو الذي قاله الجبائي واختاره القاضي: أن المراد بقوله: ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ يعني لا تمنعها الألطاف التي معها يستمر قلبهم على صفة الإيمان، وذلك لأنه تعالى لما منعهم ألطافه

(١) إسناده صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٤٤٨)، حديث رقم (٢١٤٠)، وقال: هذا حديث حسن. والحاكم في (المستدرك) (١/ ٧٠٧)، حديث رقم (١٩٢٧)، وأحمد في (مسنده) (٣/ ١١٢)، حديث رقم (١٢١٢٨)، جميعًا من طريق أبي معاوية... به، وابن أبي عاصم في (السنة) (١/ ١٥١)، حديث رقم (٢٢٥)، والبخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٢٣٧)، حديث رقم (٦٨٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٠/ ٢٠٩)، حديث رقم (٢٩٨٠٦)، جميعًا من طرق عن الأعمش عن أبي سفيان، عن أنس قال: كان النبي ﷺ يُكثر أن يقول: يا مقلب القلوب... الحديث.

عند استحقاقهم منع ذلك، جاز أن يقال: (أزاغهم) ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

والثاني: قال الأصم: لا تُبْلنا ببلوى تزيغ عندها قلوبنا. فهو كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦] وقال: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ [الزخرف: ٣٣] والمعنى: لا تكلفنا من العبادات ما لا نأمن معه الزيغ، وقد يقول القائل: لا تحملني على إيذائك، أي لا تفعل ما أصير عنده مؤذيًا لك.

الثالث: قال الكعبي: ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ أي: لا تُسمنا باسم الزائغ، كما يقال: فلان يُكَفر فلانًا، إذا سماه كافرًا.

والرابع: قال الجبائي: أي: لا تزغ قلوبنا عن جنتك وثوابك بعد إذ هديتنا. وهذا قريب من الوجه الأول إلا أن يحمل على شيء آخر، وهو أنه تعالى إذا علم أنه مؤمن في الحال، وعلم أنه لو بقي إلى السنة الثانية لكفر، فقوله: ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ محمول على أن يميته قبل أن يصير كافرًا، وذلك لأن إبقاءه حيًا إلى السنة الثانية يجري مجرى ما إذا أزاغه عن طريق الجنة.

الخامس: قال الأصم: ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ عن كمال العقل بالجنون بعد إذ هديتنا بنور العقل.

السادس: قال أبو مسلم: احرسنا من الشيطان ومن شرور أنفسنا حتى لا نزيغ.

فهذا جمل ما ذكروه في تأويل هذه الآية وهي بأسرها ضعيفة.

أما الأول: فلأن من مذهبهم أن كل ما صحّ في قدرة الله تعالى أن يفعل في حقهم لطفًا، وجب عليه ذلك وجوبًا لو تركه لبطلت إلهيته، ولصار جاهلًا ومحتاجًا، والشيء الذي يكون كذلك فأي حاجة إلى الدعاء في طلبه، بل هذا القول يستمر على قول بشر بن المعتمر وأصحابه الذين لا يوجبون على الله فعل جميع الألطاف.

وأما الثاني: فضعيف؛ لأن التشديد في التكليف إن علم الله تعالى له أثرًا في حمل المكلف على القبيح، قَبُح من الله تعالى، وإنْ عَلِم الله تعالى أنه لا أثر له ألبتة في حمل المكلف على فعل القبيح، كان وجوده كعدمه فيما يرجع إلى كون العبد مطيعًا وعاصيًا، فلا فائدة في صرف الدعاء إليه.

وأما الثالث: فهو أن التسمية بالزيغ والكفر دائر مع الكفر وجودًا وعدمًا، والكفر والزيغ باختيار العبد، فلا فائدة في قوله: لا تُسمنا باسم الزيغ والكفر.

وأما الرابع: فهو أنه لو كان علمه تعالى بأنه يكفر في السنة الثانية، يوجب عليه أن يميته، لكان عِلمه بأن لا يؤمن قط ويكفر طول عمره يوجب عليه لا يخلقه.

وأما الخامس: - وهو حمله على إبقاء العقل - فضعيف؛ لأن هذا متعلق بما قال قبل هذه الآية: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران: ٧].

وأما السادس: وهو أن الحراسة من الشيطان ومن شرور النفس إن كان مقدورًا وجب فعله، فلا فائدة في الدعاء، وإن لم يكن مقدورًا تعذر فعله، فلا فائدة في الدعاء، فظهر بما ذكرنا سقوط

هذه الوجوه، وأن الحق ما ذهبنا إليه.

فإن قيل: فعلى ذلك القول كيف الكلام في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥]؟

قلنا: لا يبعد أن يقال إن الله تعالى يزيغهم ابتداء فعند ذلك يزيغون، ثم يترتب على هذا الزيغ إزاغة أخرى سوى الأولى من الله تعالى، وكل ذلك لا منافاة فيه.

أما قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ أي بعد أن جعلتنا مهتدين، وهذا أيضًا صريح في أن حصول الهداية في القلب بتخليق الله تعالى.

ثم قال: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ﴾ واعلم أن تطهير القلب عما لا ينبغي مقدم على تنويره مما ينبغي، فهؤلاء المؤمنون سألوا ربهم أولاً أن لا يجعل قلوبهم مائلة إلى الباطل والعقائد الفاسدة، ثم إنهم ابتغوا ذلك بأن طلبوا من ربهم أن ينور قلوبهم بأنوار المعرفة، وجوارحهم وأعضائهم بزينة الطاعة، وإنما قال: (رحمة) ليكون ذلك شاملاً لجميع أنواع الرحمة، فأولها: أن يحصل في القلب نور الإيمان والتوحيد والمعرفة. وثانيها: أن يحصل في الجوارح والأعضاء نور الطاعة والعبودية والخدمة. وثالثها: أن يحصل في الدنيا سهولة أسباب المعيشة من الأمن والصحة والكفاية. ورابعها: أن يحصل عند الموت سهولة سكرات الموت. وخامسها: أن يحصل في القبر سهولة السؤال، وسهولة ظلمة القبر. وسادسها: أن يحصل في القيامة سهولة العقاب والخطاب، وغفران السيئات وترجيح الحسنات.

فقوله: ﴿مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ﴾ يتناول جميع هذه الأقسام، ولما ثبت بالبراهين الباهرة القاهرة أنه لا رحيم إلا هو، ولا كريم إلا هو، لا جرم أكد ذلك بقوله: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ تنبيهًا للعقل والقلب والروح على أن المقصود لا يحصل إلا منه سبحانه، ولما كان هذا المطلوب في غاية العظمة بالنسبة إلى العبد لا جرم ذكرها على سبيل التنكير، كأنه يقول: أطلب رحمة وأية رحمة، أطلب رحمة من لدنك، وتليق بك، وذلك يوجب غاية العظمة.

ثم قال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ كأن العبد يقول: إلهي هذا الذي طلبته منك في هذا الدعاء عظيم بالنسبة إليَّ، لكنه حقير بالنسبة إلى كمال كرمك، وغاية جودك ورحمتك، فأنت الوهاب الذي من هبتك حصلت حقائق الأشياء وذواتها وماهياتها ووجوداتها، فكل ما سواك فمن جودك وإحسانك وكرمك، يا دائم المعروف، يا قديم الإحسان، لا تخيب رجاء هذا المسكين، ولا تَرُد دعاءه، واجعله بفضلك أهلاً لرحمتك يا أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾

واعلم أن هذا الدعاء من بقية كلام الراسخين في العلم، وذلك لأنهم لما طلبوا من الله تعالى

أن يصونهم عن الزيغ، وأن يخصهم بالهداية والرحمة، فكأنهم قالوا: ليس الغرض من هذا السؤال ما يتعلق بمصالح الدنيا فإنها منقضية منقرضة، وإنما الغرض الأعظم منه ما يتعلق بالآخرة، فإنا نعلم أنك يا إلهنا جامع الناس للجزاء في يوم القيامة، ونعلم أن وعدك لا يكون خلفًا وكلامك لا يكون كذبًا، فمن زاغ قلبه بقي هناك في العذاب أبد الآباد، ومن أعطيته التوفيق والهداية والرحمة وجعلته من المؤمنين، بقي هناك في السعادة والكرامة أبد الآباد. فالغرض الأعظم من ذلك الدعاء ما يتعلق بالآخرة، **بقي في الآية مسائل:**

المسألة الأولى: قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ تقديره: جامع الناس للجزاء في يوم لا ريب فيه، فحذف لكون المراد ظاهرًا.

المسألة الثانية: قال الجبائي: إن كلام المؤمنين تم عند قوله: ﴿لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ فأما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ فهو كلام الله عزّ وجلّ، كأن القوم لما قالوا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ صدقهم الله تعالى في ذلك وأيد كلامهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ كما قال حكاية عن المؤمنين في آخر هذه السورة: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] ومن الناس من قال: لا يبعد ورود هذا على طريقة العدول في الكلام من الغيبة إلى الحضور، ومثله في كتاب الله تعالى كثير، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ [يونس: ٢٢].

فإن قيل: فلمَ قالوا في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ وقالوا في تلك الآية: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

قلت: الفرق - والله أعلم - أن هذه الآية في مقام الهيبة، يعني أن الإلهية تقتضي الحشر والنشر لينتصف للمظلومين من الظالمين، فكان ذكره باسمه الأعظم أولى في هذا المقام، أما قوله في آخر السورة: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] فذاك المقام مقام طلب العبد من ربه أن ينعم عليه بفضله، وأن يتجاوز عن سيئاته، فلم يكن المقام مقام الهيبة، فلا جرم قال: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

المسألة الثالثة: احتج الجبائي بهذه الآية على القطع بوعيد الفساق، قال: وذلك لأن الوعيد داخل تحت لفظ الوعد، بدليل قوله تعالى: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ﴾ [الأعراف: ٤٤] والوعد والموعد والميعاد واحد، وقد أخبر في هذه الآية أنه لا يخلف الميعاد، فكان هذا دليلًا على أنه لا يخلف في الوعيد.

والجواب: لا نُسَلم أنه تعالى يوعد الفساق مطلقًا، بل ذلك الوعيد عندنا مشروط بشرط عدم العفو، كما أنه بالاتفاق مشروط بشرط عدم التوبة، فكما أنكم أثبتم ذلك الشرط بدليل منفصل، فكذا نحن أثبتنا شرط عدم العفو بدليل منفصل، سَلَّمنا أنه يوعدهم، ولكن لا نُسَلم أن الوعيد داخل تحت لفظ الوعد.

أما قوله تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾[الأعراف: ٤٤]. قلنا: لـمَ لا يجوز أن يكون ذلك كما في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[آل عمران: ٢١] وقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[الدخان: ٤٩] وأيضًا: لـمَ لا يجوز أن يكون المراد منه أنهم كانوا يتوقعون من أوثانهم أنها تشفع لهم عند الله، فكان المراد من الوعد تلك المنافع، وتمام الكلام في مسألة الوعيد قد مرّ في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة: ٨١].

وذكر الواحدي في البسيط طريقة أخرى، فقال: لـمَ لا يجوز أن يُحمل هذا على ميعاد الأولياء، دون وعيد الأعداء؛ لأن خلف الوعيد كرم عند العرب. قال: والدليل عليه أنهم يمدحون بذلك، قال الشاعر:

إذا وَعَدَ السَّرَّاءَ أنجزَ وَعْدَهُ وإن أوعَدَ الضَّرَّاءَ فالعَفوُ مانِعُهْ

وروى المناظرة التي دارت بين أبي عمرو بن العلاء، وبين عمرو بن عبيد، قال أبو عمرو بن العلاء لعمرو بن عبيد: ما تقول في أصحاب الكبائر؟ قال: أقول: إن الله وعد وعدًا، وأوعد إيعادًا، فهو منجز إيعاده، كما هو منجز وعده. فقال أبو عمرو بن العلاء: إنك رجل أعجم، لا أقول: أعجم اللسان ولكن أعجم القلب، إن العرب تَعُد الرجوع عن الوعد لؤمًا وعن الإيعاد كرمًا وأنشد:

وإنـي وَإنْ أوعـدتُـه أو وعَـدتُـه لمُخْلِفُ إيعادي ومُنجِزُ مَوْعدي(١)

واعلم أن المعتزلة حكوا أن أبا عمرو بن العلاء لما قال هذا الكلام قال له عمرو بن عبيد: يا أبا عمرو، فهل يسمى الله مكذب نفسه؟ فقال: لا. فقال عمرو بن عبيد: فقد سقطت حجتك. قالوا: فانقطع أبو عمرو بن العلاء.

وعندي أنه كان لأبي عمرو بن العلاء أن يجيب عن هذا السؤال فيقول: إنك قست الوعيد على الوعد، وأنا إنما ذكرت هذا لبيان الفرق بين البابين، وذلك لأن الوعد حق عليه والوعيد حق له، ومن أسقط حق نفسه فقد أتى بالجود والكرم، ومن أسقط حق غيره فذلك هو اللؤم، فظهر الفرق بين الوعد والوعيد، وبطل قياسك، وإنما ذكرت هذا الشعر لإيضاح هذا الفرق.

فأما قولك: لو لم يفعل لصار كاذبًا ومكذبًا نفسه. فجوابه: أن هذا إنما يلزم لو كان الوعيدُ ثابتًا جزمًا من غير شرط، وعندي جميع الوعيدات مشروطة بعدم العفو، فلا يلزم من تركه دخول الكذب في كلام الله تعالى، فهذا ما يتعلق بهذه الحكاية، والله أعلم.

(١) البيت للشاعر عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامري، أبو علي، من بني عامر بن صعصعة. ٧٠ ق. هـ - ١١هـ/ ٥٥٤ - ٦٣٢م، فارس قومه وأحد فتاك العرب وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية. وُلد ونشأ بنجد، خاض المعارك الكثيرة، أدرك الإسلام شيخًا فوفد على رسول الله ﷺ وهو في المدينة بعد فتح مكة، يريد الغدر به، فلم يجرؤ عليه، فدعاه إلى الإسلام فاشترط أن يجعل له نصف ثمار المدينة وأن يجعله ولي الأمر من بعده، فردَّه، فعاد حانقًا ومات في طريقه قبل أن يبلغ قومه.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾

اعلم أن الله سبحانه وتعالى لما حكى عن المؤمنين دعاءهم وتضرعهم، حكى كيفية حال الكافرين وشديد عقابهم، فهذا هو وجه النظم، **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ﴾ قولان:

الأول: المراد بهم وفد نجران، وذلك لأنا روينا في بعض قصتهم أن أبا حارثة بن علقمة قال لأخيه: إني لأعلم أنه رسول الله ﷺ حقًّا ولكنني إن أظهرت ذلك أخذ ملوك الروم مني ما أعطوني من المال والجاه!! فالله تعالى بيّن أن أموالهم وأولادهم لا تدفع عنهم عذاب الله في الدنيا والآخرة.

والقول الثاني: أن اللفظ عام، وخصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ.

المسألة الثانية: اعلم أن كمال العذاب هو أن يزول عنه كل ما كان منتفعًا به، ثم يجتمع عليه جميع الأسباب المؤلمة.

أما الأول: فهو المراد بقوله: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ وذلك لأن المرء عند الخطوب والنوائب في الدنيا يفزع إلى المال والولد، فهما أقرب الأمور التي يفزع المرء إليها في دفع الخطوب، فبيّن الله تعالى أن صفة ذلك اليوم مخالفة لصفة الدنيا؛ لأن أقرب الطرق إلى دفع المضار إذا لم يتأتَ في ذلك اليوم، فما عداه بالتعذر أَوْلى، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. وقوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ [الكهف: ٤٦] وقوله: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٠] وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ﴾ [مريم: ٨٠].

وأما القسم الثاني من أسباب كمال العذاب: فهو أن يجتمع عليه الأسباب المؤلمة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ وهذا هو النهاية في شرح العذاب فإنه لا عذاب أزيد من أن تشتعل النار فيهم كاشتعالها في الحطب اليابس.

والوقود (بفتح الواو) الحطب الذي توقد به النار، وبالضم هو مصدر وقدت النار وقودًا، كقوله: وردت ورودًا.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: التقدير: لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه. والثاني: قال أبو عبيدة: (مِنْ) بمعنى عند، والمعنى لن تغني عند الله شيئًا.

قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١١﴾

يقال: دأبت الشيء أدأب دأبًا ودءوبًا، إذا أجهدت في الشيء وتعبت فيه، قال الله تعالى: ﴿سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: ٤٧] أي بجدٍّ واجتهاد ودوام، ويقال: سار فلان يومًا دائبًا، إذا أجهد في السير يومه كله، هذا معناه في اللغة، ثم صار الدأب عبارة عن الشأن والأمر والعادة، يقال: هذا دأب فلان، أي عادته، وقال بعضهم: الدءوب والدأب: الدوام.

إذا عرفت هذا فنقول: في كيفية التشبيه وجوه: **الأول:** أن يفسر الدأب بالاجتهاد، كما هو معناه في أصل اللغة، وهذا قول الأصم والزجاج، ووجه التشبيه أن دأب الكفار، أي جدهم واجتهادهم في تكذيبهم بمحمد ﷺ وكفرهم بدينه - كدأب آل فرعون مع موسى عليه السلام، ثم إنا أهلكنا أولئك بذنوبهم، فكذا نهلك هؤلاء.

الوجه الثاني: أن يفسر الدأب بالشأن والصنع، وفيه وجوه:

الأول: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي شأن هؤلاء وصنعهم في تكذيب محمد ﷺ، كشأن آل فرعون في التكذيب بموسى. ولا فرق بين هذا الوجه وبين ما قبله إلا أنا حملنا اللفظ في الوجه الأول على الاجتهاد، وفي هذا الوجه على الصنع والعادة.

والثاني: أن تقدير الآية: إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، ويجعلهم الله وَقود النار كعادته وصنعه في آل فرعون، فإنهم لما كذبوا رسولهم أخذهم بذنوبهم، والمصدر تارة يضاف إلى الفاعل، وتارة إلى المفعول، والمراد هاهنا: كدأب الله في آل فرعون، فإنهم لما كذبوا برسولهم أخذهم بذنوبهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] أي كحبهم الله، وقال: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ [الإسراء: ٧٧] والمعنى: سنتي فيمن أرسلنا قبلك.

والثالث: قال القفال رحمه الله: يحتمل أن تكون الآية جامعة للعادة المضافة إلى الله تعالى، والعادة المضافة إلى الكفار، كأنه قيل: إن عادة هؤلاء الكفار ومذهبهم في إيذاء محمد ﷺ كعادة من قبلهم في إيذاء رسلهم، وعادتنا أيضًا في إهلاك هؤلاء - كعادتنا في إهلاك أولئك الكفار المتقدمين، والمقصود على جميع التقديرات نصر النبي ﷺ على إيذاء الكفرة وبشارته بأن الله سينتقم منهم.

الوجه الثالث: في تفسير الدأب والدءوب، وهو اللبث والدوام وطول البقاء في الشيء، وتقدير الآية: وأولئك هم وقود النار كدأب آل فرعون، أي دءوبهم في النار كدءوب آل فرعون.

والوجه الرابع: أن الدأب هو الاجتهاد، كما ذكرناه، ومن لوازم ذلك التعب والمشقة ليكون المعنى: ومشقتهم وتعبهم من العذاب كمشقة آل فرعون بالعذاب وتعبهم به، فإنه تعالى بيّن أن

عذابهم حصل في غاية القرب، وهو قوله تعالى: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥] وفي غاية الشدة أيضاً وهو قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

الوجه الخامس: أن المشبه هو أن أموالهم وأولادهم لا تنفعهم في إزالة العذاب، فكان التشبيه بآل فرعون حاصلاً في هذين الوجهين، والمعنى: أنكم قد عرفتم ما حل بآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين بالرسل من العذاب المعجل الذي عنده لم ينفعهم مال ولا ولد، بل صاروا مضطرين إلى ما نزل بهم، فكذلك حالكم أيها الكفار المكذبون بمحمد ﷺ في أنه ينزل بكم مثل ما نزل بالقوم، تقدم أو تأخر، ولا تغني عنكم الأموال والأولاد.

الوجه السادس: يحتمل أن يكون وجه التشبيه أنه كما نزل بمن تقدم العذاب المعجل بالاستئصال، فكذلك ينزل بكم أيها الكفار بمحمد ﷺ وذلك من القتل والسبي وسلب الأموال، ويكون قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ [آل عمران: ١٢] كالدلالة على ذلك، فكأنه تعالى بيّن أنه كما نزل بالقوم العذاب المعجل، ثم يصيرون إلى دوام العذاب، فسينزل بمن كذب بمحمد ﷺ أمران: أحدهما: المِحن المعجلة وهي القتل والسبي والإذلال، ثم يكون بعده المصير إلى العذاب الأليم الدائم، وهذان الوجهان الأخيران ذكرهما القاضي رحمه الله تعالى.

أما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فالمعنى: والذين من قبلهم من مكذبي الرسل.

وقوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المراد بالآيات: المعجزات، ومتى كذبوا بها فقد كذبوا لا محالة بالأنبياء.

ثم قال: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وإنما استعمل فيه الأخذ لأن من ينزل به العقاب يصير كالمأخوذ المأسور الذي لا يقدر على التخلص.

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي (سيغلبون ويحشرون) بالياء فيهما، والباقون بالتاء المنقطة من فوق فيهما، فمن قرأ بالياء المنقطة من تحت، فالمعنى: بلغهم أنهم سيغلبون، ويدل على صحة الياء قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] و﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا﴾ [النور: ٣٠] ولم يقل (غضوا)، ومن قرأ بالتاء فللمخاطبة، ويدل على حسن التاء قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ﴾ [آل عمران: ٨١]. والفرق بين القراءتين من حيث المعنى أن القراءة بالتاء أمر بأن يخبرهم بما سيجري عليهم من الغلبة والحشر إلى جهنم،

والقراءة بالياء أمر بأن يحكي لهم، والله أعلم.

المسألة الثانية: ذكروا في سبب نزول هذه الآية وجوهًا.

الأول: لما غزا رسول الله ﷺ قريشًا يوم بدر وقدم المدينة، جمع يهود في سوق بني قينقاع، وقال: يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشًا. فقالوا: يا محمد لا تغرنك نفسك، إن قتلتَ نفرًا من قريش لا يعرفون القتال، لو قاتلتنا لعرفتَ. فأنزل الله تعالى هذه الآية(١).

الرواية الثانية: أن يهود أهل المدينة لما شاهدوا وقعة أهل بدر، قالوا: والله هو النبي الأمي الذي بشرنا به موسى في التوراة، ونعته وأنه لا ترد له راية. ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا. فلما كان يوم أُحد ونكب أصحابه قالوا: ليس هذا هو ذاك. وغلب الشقاء عليهم فلم يسلموا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

والرواية الثالثة: أن هذه الآية واردة في جمع من الكفار بأعيانهم عَلِم الله تعالى أنهم يموتون على كفرهم، وليس في الآية ما يدل على أنهم من هم.

المسألة الثالثة: احتج من قال بتكليف ما لا يطاق بهذه الآية، فقال: إن الله تعالى أخبر عن تلك الفرقة من الكفار أنهم يحشرون إلى جهنم، فلو آمنوا وأطاعوا لانقلب هذا الخبر كذبًا، وذلك محال، ومستلزم المحال محال، فكان الإيمان والطاعة محالاً منهم، وقد أُمروا به، فقد أُمروا بالمحال وبما لا يطاق، وتمام تقريره قد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

المسألة الرابعة: قوله: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ إخبار عن أمر يحصل في المستقبل، وقد وقع مخبره على موافقته، فكان هذا إخبارًا عن الغيب وهو معجز، ونظيره قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ الآية [الروم: ٢، ٣]، ونظيره في حق عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

المسألة الخامسة: دلّت الآية على حصول البعث في القيامة، وحصول الحشر والنشر، وأن مرد الكافرين إلى النار.

ثم قال: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ وذلك لأنه تعالى لما ذكر حشرهم إلى جهنم، وَصَفه فقال: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ والمهاد: الموضع الذي يتمهد فيه وينام عليه كالفراش، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨] فلما ذكر الله تعالى مصير الكافرين إلى جهنم، أخبر عنها بالشر لأن (بئس) مأخوذ من البأساء والبأساء هو الشر والشدة، قال الله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍ﴾ [الأعراف: ١٦٥] أي شديد. وجهنم معروفة، أعاذنا الله منها بفضله.

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه أبو داود في كتاب (الخراج والإمارة والفيء)، باب: (كيف كان إخراج اليهود من المدينة) (٣/ ١٣١٢)، حديث رقم (٣٠٠١)، والبيهقي في كتاب (الجزية)، باب: (من لا تؤخذ منه الجزية) (٩/ ١٨٣) من طريق يونس... به، وفي إسناده محمد بن أبي محمد، قال الحافظ: مجهول.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾

اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: لم يقل: قد كانت لكم آية، بل قال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾.

وفيه وجهان:

الأول: أنه محمول على المعنى، والمراد: قد كان لكم إتيان هذا آية.

والثاني: قال الفرّاء: إنما ذكَّر للفصل الواقع بينهما، وهو قوله: ﴿لَكُمْ﴾.

المسألة الثانية: وجه النظم أنا ذكرنا أن الآية المتقدمة، وهي قوله تعالى: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾ نزلت في اليهود، وأن رسول الله ﷺ لما دعاهم إلى الإسلام أظهروا التمرد وقالوا لسنا أمثال قريش في الضَّعف وقلة المعرفة بالقتال، بل معنا من الشوكة والمعرفة بالقتال ما يغلب كل من ينازعنا!! فالله تعالى قال لهم: إنكم وإن كنتم أقوياء وأرباب العِدة والعُدة، فإنكم ستُغلبون. ثم ذكَر الله تعالى ما يجري مجرى الدلالة على صحة ذلك الحكم، فقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ﴾ يعني واقعة بدر، كانت كالدلالة على ذلك؛ لأن الكثرة والعدة كانت من جانب الكفار والقلة وعدم السلاح من جانب المسلمين، ثم إن الله تعالى قهر الكفار وجعل المسلمين مظفرين منصورين، وذلك يدل على أن تلك الغلبة كانت بتأييد الله ونصره، ومن كان كذلك فإنه يكون غالبًا لجميع الخصوم، سواء كانوا أقوياء أو لم يكونوا كذلك، فهذا ما يجري مجرى الدلالة على أنه عليه السلام يهزم هؤلاء اليهود ويقهرهم وإن كانوا أرباب السلاح والقوة، فصارت هذه الآية كالدلالة على صحة قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ الآية، فهذا هو الكلام في وجه النظم.

المسألة الثالثة: ﴿فِئَةٌ﴾ الجماعة، وأجمع المفسرون على أن المراد بالفئتين: رسول الله ﷺ وأصحابه يوم بدر، ومشركو مكة، روي أن المشركين يوم بدر كانوا تسعمائة وخمسين رجلاً، وفيهم أبو سفيان وأبو جهل، وقادوا مائة فرس، وكانت معهم من الإبل سبعمائة بعير، وأهل الخيل كلهم كانوا دارعين وهم مائة نفر، وكان في الرجال دروع سوى ذلك، وكان المسلمون ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً، بين كل أربعة منهم بعير، ومعهم من الدروع ستة، ومن الخيل فَرَسان، ولا شك أن في غلبة المسلمين للكفار على هذه الصفة آية بينة ومعجزة قاهرة.

واعلم أن العلماء ذكروا في تفسير كون تلك الواقعة آية بينة وجوهًا:

الأول: أن المسلمين كان قد اجتمع فيهم من أسباب الضعف عن المقاومة أمور، منها: قلة

العدد، ومنها: أنهم خرجوا غير قاصدين للحرب فلم يتأهبوا، ومنها: قلة السلاح والفرس، ومنها: أن ذلك ابتداء غارة في الحرب لأنها أول غزوات رسول الله ﷺ، وكان قد حصل للمشركين أضداد هذه المعاني، منها: كثرة العدد، ومنها: أنهم خرجوا متأهبين للحرب، ومنها: كثرة سلاحهم وخيلهم، ومنها: أن أولئك الأقوام كانوا ممارسين للمحاربة والمقاتلة في الأزمنة الماضية، وإذا كان كذلك فلم تجر العادة أن مثل هؤلاء العدد في القلة والضعف وعدم السلاح وقلة المعرفة بأمر المحاربة - يغلبون مثل ذلك الجمع الكثير مع كثرة سلاحهم وتأهبهم للمحاربة، ولما كان ذلك خارجًا عن العادة كان معجزًا.

والوجه الثاني في كون هذه الواقعة آية: أنه عليه الصلاة والسلام كان قد أخبر قومه بأن الله ينصره على قريش بقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] يعني جمع قريش أو عير أبي سفيان، وكان قد أخبر قبل الحرب بأن هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان، فلما وجد مخبر خبره في المستقبل على وَفق خبره، كان ذلك إخبارًا عن الغيب، فكان معجزًا.

والوجه الثالث في بيان كون هذه الواقعة آية: ما ذكره تعالى بعد هذه الآية، وهو قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ والأصح في تفسير هذه الآية أن الرائين هم المشركون والمرئيين هم المؤمنون، والمعنى أن المشركين كانوا يرون المؤمنون مثلي عدد المشركين قريبًا من ألفين، أو مثلي عدد المسلمين وهو ستمائة، وذلك معجز.

فإن قيل: تجويز رؤية ما ليس بموجود يفضي إلى السفسطة.

قلنا: نحمل الرؤية على الظن والحسبان، وذلك لأن من اشتد خوفه قد يظن في الجمع القليل أنهم في غاية الكثرة، وإما أن نقول: إن الله تعالى أنزل الملائكة حتى صار عسكر المسلمين كثيرين، والجواب الأول أقرب؛ لأن الكلام مقتصر على الفئتين ولم يدخل فيهما قصة الملائكة.

والوجه الرابع في بيان كون هذه القصة آية: قال الحسن: إن الله تعالى أَمَدَّ رسوله ﷺ في تلك الغزوة بخمسة آلاف من الملائكة لأنه قال: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ﴾ [الأنفال: ٩] وقال: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [آل عمران: ١٢٥] والألف مع الأربعة آلاف: خمسة آلاف من الملائكة، وكان سيماهم هو أنه كان على أذناب خيولهم ونواصيها صوف أبيض، وهو المراد بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ والله أعلم.

ثم قال الله تعالى: ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: القراءة المشهورة ﴿فِئَةٌ﴾ بالرفع، وكذا قوله: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ وقرئ (فِئَةٍ تقَاتِلُ وأخرى كَافِرَةٍ) بالجر على البدل من فئتين، وقرئ بالنصب إما على الاختصاص، أو على الحال من الضمير في التقتا، قال الواحدي رحمه الله: والرفع هو الوجه لأن المعنى: إحداهما تقاتل في سبيل الله، فهو رفع على استئناف الكلام.

المسألة الثانية: المراد بالفئة التي تقاتل في سبيل الله هم المسلمون؛ لأنهم قاتلوا لنصرة دين الله.

وقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ المراد بها كفار قريش.

ثم قال تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ **وفيه مسألتان**:

المسألة الأولى: قرأ نافع وأبان عن عاصم (تَرَوْنَهُمْ) بالتاء المنقطة من فوق، والباقون بالياء، فمن قرأ بالتاء فلأن ما قبله خطاب لليهود، والمعنى ترون أيها اليهود المسلمين مثل ما كانوا، أو مثلي الفئة الكافرة، أو تكون الآية خطابًا مع مشركي قريش، والمعنى: ترون يا مشركي قريش المسلمين مثلي فئتكم الكافرة، ومن قرأ بالياء فللمغالبة التي جاءت بعد الخطاب، وهو قوله: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ فقوله: ﴿يَرَوْنَهُم﴾ يعود إلى الإخبار عن إحدى الفئتين.

المسألة الثانية: اعلم أنه قد تقدم في هذه الآية ذكر الفئة الكافرة وذكر الفئة المسلمة، فقوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ يحتمل أن يكون الراءون هم الفئة الكافرة، والمرئيون هم الفئة المسلمة، ويحتمل أن يكون بالعكس من ذلك، فهذان احتمالان، وأيضًا: فقوله: ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ يحتمل أن يكون المراد مثلي الرائين وأن يكون المراد مثلي المرئيين، فإذن هذه الآية تحتمل وجوهًا أربعة:

الأول: أن يكون المراد أن الفئة الكافرة رأت المسلمين مثلي عدد المشركين قريبًا من ألفين.

والاحتمال الثاني: أن الفئة الكافرة رأت المسلمين مثلي عدد المسلمين ستمائة ونيفًا وعشرين، والحكمة في ذلك أنه تعالى كَثَّر المسلمين في أعين المشركين مع قلتهم؛ ليهابوهم فيحترزوا عن قتالهم.

فإن قيل: هذا مناقض لقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤].

فالجواب: أنه كان التقليل والتكثير في حالين مختلفين، فقللوا أولاً في أعينهم حتى اجترءوا عليهم، فلما تلاقوا كَثَّرهم الله في أعينهم حتى صاروا مغلوبين، ثم إن تقليلهم في أول الأمر، وتكثيرهم في آخر الأمر - أبلغ في القدرة وإظهار الآية.

والاحتمال الثالث: أن الرائين هم المسلمون، والمرئيين هم المشركون، فالمسلمون رأوا المشركين مثلى المسلمين ستمائة وأزيد، والسبب فيه أن الله تعالى أَمَر المسلم الواحد بمقاومة الكافرين، قال الله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦].

فإن قيل: كيف يرونهم مثليهم رأي العين، وكانوا ثلاثة أمثالهم؟

الجواب: أن الله تعالى إنما أظهر للمسلمين من عدد المشركين القدر الذي علم المسلمون أنهم يغلبونهم، وذلك لأنه تعالى قال: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦] فأظهر ذلك العدد من المشركين للمؤمنين تقوية لقلوبهم، وإزالة للخوف عن صدورهم.

والاحتمال الرابع: أن الرائين هم المسلمون، وأنهم رأوا المشركين على الضِّعف من عدد

المشركين، فهذا قول لا يمكن أن يقول به أحد؛ لأن هذا يوجب نصرة المشركين بإيقاع الخوف في قلوب المؤمنين، والآية تنافي ذلك.

وفي الآية احتمال خامس: وهو أنَّا أول الآية قد بينا أن الخطاب مع اليهود، فيكون المراد ترون أيها اليهود المشركين مثلي المؤمنين في القوة والشوكة.

فإن قيل: كيف رأوهم مثليهم فقد كانوا ثلاثة أمثالهم؟! فقد سبق الجواب عنه.

بقي من مباحث هذا الموضع أمران:

البحث الأول: أن الاحتمال الأول والثاني يقتضي أن المعدوم صار مرئيًّا، والاحتمال الثالث يقتضي أن ما وُجد وحضر لم يصر مرئيًّا، أما الأول: فهو محال عقلاً؛ لأن المعدوم لا يُرى، فلا جرم وجب حمل الرؤية على الظن القوي، وأما الثاني: فهو جائز عند أصحابنا؛ لأن عندنا مع حصول الشرائط وصحة الحاسة يكون الإدراك جائزًا لا واجبًا، وكان ذلك الزمان زمان ظهور المعجزات وخوارق العادات، فلم يبعد أن يقال: إنه حصل ذلك المعجز، وأما المعتزلة فعندهم الإدراك واجب الحصول عند اجتماع الشرائط وسلامة الحاسة فلهذا المعنى اعتذر القاضي عن هذا الموضع من وجوه: أحدها: أن عند الاشتغال بالمحاربة والمقاتلة قد لا يتفرغ الإنسان لأن يدير حدقته حول العسكر وينظر إليهم على سبيل التأمل التام، فلا جرم يرى البعض دون البعض، وثانيها: لعلّه يحدث عند المحاربة من الغبار ما يصير مانعًا عن إدراك البعض. وثالثها: يجوز أن يقال: إنه تعالى خلق في الهواء ما صار مانعًا عن إدراك ثلث العسكر، وكل ذلك محتمل.

البحث الثاني: اللفظ وإن احتمل أن يكون الراؤن هم المشركون، وأن يكون هم المسلمون، فأي الاحتمالين أظهر؟ فقيل: إن كون المشرك رائيًا أولى، ويدل عليه وجوه: الأول: أن تعلق الفعل بالفاعل أشد من تعلقه بالمفعول، فجَعْل أقرب المذكورين السابقين فاعلاً، وأبعدهما مفعولاً - أَوْلى من العكس، وأقرب المذكورين هو قوله: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ والثاني: أن مقدمة الآية وهو قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ خطاب مع الكفار، فقراءة نافع بالتاء يكون خطابًا مع أولئك الكفار والمعنى: ترون يا مشركي قريش المسلمين مثليهم، فهذه القراءة لا تساعد إلا على كون الرائي مشركًا. الثالث: أن الله تعالى جعل هذه الحالة آية الكفار، حيث قال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ فوجب أن تكون هذه الحالة مما يشاهدها الكافر حتى تكون حجة عليه، أما لو كانت هذه الحالة حاصلة للمؤمن لم يصح جعلها حجة الكافر، والله أعلم.

واحتج من قال: الراءون هم المسلمون، وذلك لأن الرائين لو كانوا هم المشركين لزم رؤية ما ليس بموجود وهو محال، ولو كان الراءون هم المؤمنون، لزم أن لا يُرى ما هو موجود، وهذا ليس بمحال، وكان ذلك أولى، والله أعلم.

ثم قال: ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ يقال: رأيته رأيًا ورؤية، ورأيت في المنام رؤيا حسنة، فالرؤيا مختص بالمنام، ويقول: هو مني مرأى العين، حيث يقع عليه بصري، فقوله: ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ يجوز أن

ينتصب على المصدر، ويجوز أن يكون ظرفًا للمكان، كما تقول: ترونهم أمامكم، ومثله: هو مني مناط العنق ومَزْجر الكلب.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ نَصْر الله المسلمين على وجهين: نصر بالغلبة كنصر يوم بدر، ونصر بالحجة؛ فلهذا المعنى لو قدرنا أنه هُزم قوم من المؤمنين لجاز أن يقال: هم المنصورون لأنهم هم المنصورون بالحجة، وبالعاقبة الحميدة، والمقصود من الآية أن النصر والظفر إنما يحصلان بتأييد الله ونصره، لا بكثرة العدد والشوكة والسلاح.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ والعبرة الاعتبار، وهي الآية التي يعبر بها من منزلة الجهل إلى العلم، وأصله من العبور وهو النفوذ من أحد الجانبين إلى الآخر، ومنه العبارة وهي كلام الذي يعبر بالمعنى إلى المخاطب، وعبارة الرؤيا من ذلك؛ لأنها تعبير لها.

وقوله: ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي لأولي العقول، كما يقال: لفلان بصر بهذا الأمر، أي علم ومعرفة، والله أعلم.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في كيفية النظم قولان:

الأول: ما يتعلق بالقصة، فإنا روينا أن أبا حارثة بن علقمة النصراني اعترف لأخيه بأنه يعرف صدق محمد ﷺ في قوله، إلا أنه لا يقر بذلك خوفًا من أن يأخذ منه ملوك الروم المال والجاه، وأيضًا: روينا أنه عليه الصلاة والسلام لما دعا اليهود إلى الإسلام بعد غزوة بدر أظهروا من أنفسهم القوة والشدة والاستظهار بالمال والسلاح، فبيّن الله تعالى في هذه الآية أن هذه الأشياء وغيرها من متاع الدنيا زائلة باطلة، وأن الآخرة خير وأبقى.

القول الثاني: - وهو على التأويل العام - أنه تعالى لما قال في الآية المتقدمة: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ ذكر بعد هذه الآية ما هو كالشرح والبيان لتلك العبرة، وذلك هو أنه تعالى بيّن أنه زُين للناس حب الشهوات الجسمانية، واللذات الدنيوية، ثم إنها فانية منقضية تذهب لذّاتها، وتبقى تبعاتها، ثم إنه تعالى حث على الرغبة في الآخرة بقوله: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ﴾ [آل عمران: ١٥] ثم بيّن أن طيبات الآخرة معدة لمن واظب على العبودية من الصابرين والصادقين... إلى آخر الآية.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ من الذي زَين ذلك؟

أما أصحابنا فقولهم فيه ظاهر، وذلك لأن عندهم خالق جميع الأفعال هو الله تعالى وأيضًا قالوا: لو كان المزين الشيطان فمن الذي زين الكفر والبدعة للشيطان؟ فإن كان ذلك شيطانًا آخر لزم التسلسل، وإن وقع ذلك من نفس ذلك الشيطان في الإنسان فليكن كذلك الإنسان، وإن كان من الله تعالى - وهو الحق - فليكن في حق الإنسان كذلك، وفي القرآن إشارة إلى هذه النكتة في سورة القصص في قوله: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [القصص: ٦٣] يعني: إن اعتقد أحد أنا أغويناهم فمن الذي أغوانا؟! وهذا الكلام ظاهر جدًّا.

أما المعتزلة فالقاضي نقل عنهم ثلاثة أقوال:

القول الأول: حكي عن الحسن أنه قال: الشيطان زين لهم، وكان يحلف على ذلك بالله.

واحتج القاضي لهم بوجوه: أحدها: أنه تعالى أطلق حب الشهوات، فيدخل فيه الشهوات المحرمة ومُزين الشهوات المحرمة هو الشيطان. وثانيها: أنه تعالى ذكر القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وحب هذا المال الكثير إلى هذا الحد لا يليق إلا بمن جعل الدنيا قبلة طلبه، ومنتهى مقصوده؛ لأن أهل الآخرة يكتفون بالغلبة. وثالثها: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ولا شك أن الله تعالى ذكر ذلك في معرض الذم للدنيا، والذم للشيء يمتنع أن يكون مزينًا له ورابعها: قوله بعد هذه الآية: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥] والمقصود من هذا الكلام صرف العبد عن الدنيا وتقبيحها في عينه، وذلك لا يليق بمن يزين الدنيا في عينه.

والقول الثاني: قول قوم آخرين من المعتزلة وهو أن المزين لهذه الأشياء هو الله.

واحتجوا عليه بوجوه: أحدها: أنه تعالى كما رغَّب في منافع الآخرة فقد خلق ملاذ الدنيا وأباحها لعبيده، وإباحتها للعبيد تزيين لها، فإنه تعالى إذا خلق الشهوة والمشتهى، وخلق للمشتهي علمًا بما في تناول المشتهى من اللذة، ثم أباح له ذلك التناول، كان تعالى مزينًا لها. وثانيها: أن الانتفاع بهذه المشتهيات وسائل إلى منافع الآخرة، والله تعالى قد ندب إليها، فكان مزينًا لها.

وإنما قلنا: إن الانتفاع بها وسائل إلى ثواب الآخرة لوجوه: الأول: أن يتصدق بها. والثاني: أن يتقوى بها على طاعة الله تعالى. والثالث: أنه إذا انتفع بها وعلم أن تلك المنافع إنما تيسرت بتخليق الله تعالى وإعانته، صار ذلك سببًا لاشتغال العبد بالشكر العظيم؛ ولذلك كان الصاحب ابن عباد يقول: شرب الماء البارد في الصيف يستخرج الحمد من أقصى القلب. وذكر شِعرًا هذا معناه. والرابع: أن القادر على التمتع بهذه اللذات والطيبات إذا تركها واشتغل بالعبودية وتحمل ما فيها من المشقة، كان أكثر ثوابًا، فثبت بهذه الوجوه أن الانتفاع بهذه الطيبات وسائل إلى ثواب الآخر، والخامس: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: ٧] وقال: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] وقال في سورة البقرة:

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢٢] وقال: ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨] وكل ذلك يدل على أن التزيين من الله تعالى، ومما يؤكد ذلك قراءة مجاهد (زَيَّن للناس) على تسمية الفاعل.

والقول الثالث: وهو اختيار أبي علي الجبائي والقاضي وهو التفصيل، وذلك أن كل ما كان من هذا الباب واجبًا أو مندوبًا، كان التزيين فيه من الله تعالى، وكل ما كان حرامًا كان التزيين فيه من الشيطان، هذا ما ذكره القاضي، وبقي قسم ثالث وهو المباح الذي لا يكون في فعله ولا في تركه ثواب ولا عقاب، والقاضي ما ذكر هذا القسم، وكان من حقه أن يذكره ويبيّن أن التزيين فيه من الله تعالى أو من الشيطان.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ **فيه أبحاث ثلاثة:**

البحث الأول: أن الشهوات هاهنا هي الأشياء المشتهيات، سُميت بذلك على الاستعارة للتعلق والاتصال، كما يقال للمقدور قدرة، وللمرجو رجاء وللمعلوم علم، وهذه استعارة مشهورة في اللغة، يقال: هذه شهوة فلان، أي مشتهاه، قال صاحب (الكشاف): وفي تسميتها بهذا الاسم فائدتان: إحداهما: أنه جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كونها مشتهاة محروصًا على الاستمتاع بها. والثانية: أن الشهوة صفة مسترذلة عند الحكماء مذمومة، من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمية، فكان المقصود من ذكر هذا اللفظ التنفير عنها.

البحث الثاني: قال المتكلمون: دلّت هذه الآية على أن الحب غير الشهوة؛ لأنه أضاف الحب إلى الشهوة والمضاف غير المضاف إليه، والشهوة من فعل الله تعالى، والمحبة من أفعال العباد، وهي عبارة عن أن يجعل الإنسان كل غرضه وعيشه في طلب اللذات والطيبات.

البحث الثالث: قال الحكماء: الإنسان قد يحب شيئًا، ولكنه يحب أن لا يحبه مثل المسلم؛ فإنه قد يميل طبعه إلى بعض المحرمات لكنه يحب أن لا يحب، وأما من أحب شيئًا وأحب أن يحبه فذاك هو كمال المحبة، فإن كان ذلك في جانب الخير فهو كمال السعادة، كما في قوله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [ص: ٣٢] ومعناه أُحب الخير وأُحب أن أكون محبًّا للخير، وإن كان ذلك في جانب الشر، فهو كما قال في هذه الآية فإن قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ يدل على أمور ثلاثة مرتبة: أولها: أنه يشتهي أنواع المشتهيات. وثانيها: أنه يحب شهوته لها. وثالثها: أنه يعتقد أن تلك المحبة حسنة وفضيلة، ولما اجتمعت في هذه القضية الدرجات الثلاثة بلغت الغاية القصوى في الشدة والقوة، ولا يكاد ينحل إلا بتوفيق عظيم من الله تعالى. ثم إنه تعالى أضاف ذلك إلى الناس، وهو لفظ عام دخله حرف التعريف فيفيد الاستغراق، فظاهر اللفظ يقتضي أن هذا المعنى حاصل لجميع الناس، والعقل أيضًا يدل عليه، وهو أن كل ما كان لذيذًا ونافعًا فهو محبوب ومطلوب لذاته، واللذيذ النافع قسمان: جسماني وروحاني، والقسم الجسماني حاصل لكل أحد في أول الأمر، وأما

القسم الروحاني فلا يكون إلا في الإنسان الواحد على سبيل الندرة، ثم ذلك الإنسان إنما يحصل له تلك اللذة الروحانية بعد استئناس النفس باللذات الجسمانية، فيكون انجذاب النفس إلى اللذات الجسمانية كالملكة المستقرة المتأكدة، وانجذابها إلى اللذات الروحانية كالحالة الطارئة التي تزول بأدنى سبب، فلا جرم كان الغالب على الخلق إنما هو الميل الشديد إلى اللذات الجسمانية، وأما الميل إلى طلب اللذات الروحانية فذاك لا يحصل إلا للشخص النادر، ثم حصوله لذلك النادر لا يتفق إلا في أوقات نادرة؛ فلهذا السبب عم الله هذا الحكم فقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ .

وأما قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ ففيه بحثان:

البحث الأول: (مِن) في قوله: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ كما في قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] فكما أن المعنى: فاجتنبوا الأوثان التي هي رجس، فكذا أيضًا معنى هذه الآية: زُين للناس حب النساء وكذا وكذا، التي هي مشتهاة.

البحث الثاني: اعلم أنه تعالى عَدَّد هاهنا من المشتهيات أمورًا سبعة:

أولها: النساء وإنما قدمهن على الكل لأن الالتذاذ بهن أكثر والاستئناس بهن أتم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] ومما يؤكد ذلك أن العشق الشديد المفلق المهلك لا يتفق إلا في هذا النوع من الشهوة.

المرتبة الثانية: حب الولد: ولما كان حب الولد الذكر أكثر من حب الأنثى، لا جرم خصه الله تعالى بالذكر، ووجه التمتع بهم ظاهر من حيث السرور والتكثر بهم... إلى غير ذلك.

واعلم أن الله تعالى في إيجاد حب الزوجة والولد في قلب الإنسان حكمة بالغة، فإنه لولا هذا الحب لما حصل التوالد والتناسل، ولأدى ذلك إلى انقطاع النسل، وهذه المحبة كأنها حالة غريزية، ولذلك فإنها حاصلة لجميع الحيوانات، والحكمة فيه ما ذكرنا من بقاء النسل.

المرتبة الثالثة والرابعة: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ وفيه أبحاث:

البحث الأول: قال الزجاج: القنطار مأخوذ من عقد الشيء وإحكامه، والقنطرة مأخوذة من ذلك لتوثقها بعقد الطاق، فالقنطار مال كثير يتوثق الإنسان به في دفع أصناف النوائب، وحكى أبو عبيد عن العرب أنهم يقولون: إنه وزن لا يُحد. واعلم أن هذا هو الصحيح، ومن الناس من حاول تحديده، وفيه روايات: فروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «القِنْطَارُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أُوقِيَةٍ»(١) وروى أنس عنه أيضًا أن القنطار ألف دينار. وروى أُبي بن كعب أنه عليه السلام قال:

(١) أخرجه ابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٢٠٧)، حديث رقم (٣٦٦٠)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٦٣)، حديث رقم (٨٧٤٣)، كلاهما من طريق حماد بن سلمة عن عاصم عن أبي صالح عن أبي هريرة... به، وأورده الدارقطني في (العلل) (٨/ ١٦٩)، حديث رقم (١٤٨٦). **وقال**: يرويه عاصم بن أبي النجود واختلف عنه: فرواه عبد الصمد بن عبد الوارث وأبو علي الحنفي عبيد الله بن عبد المجيد عن حماد بن سلمة عن عاصم عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وغيره يرويه عن حماد بن سلمة موقوفًا وكذلك قال حماد بن زيد عن عاصم، والموقوف أشبه.

«الْقِنطَارُ أَلْفٌ وَمِائَتَا أُوقِيَّةٍ» وقال ابن عباس: القنطار ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم، وهو مقدار الدية. وبه قال الحسن، وقال الكلبي: القنطار بلسان الروم ملء مسك ثور من ذهب أو فضة. وفيه أقوال سوى ما ذكرنا لكنا تركناها لأنها غير معضودة بحجة ألبتة.

البحث الثاني: ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ منفعلة من القنطار، وهو للتأكيد، كقولهم: ألف مؤلفة، وبدرة مبدرة، وإبل مؤبلة، ودراهم مدرهمة، وقال الكلبي: القناطير ثلاثة، والمقنطرة المضاعفة، فكان المجموع ستة.

البحث الثالث: الذهب والفضة إنما كانا محبوبين لأنهما جُعلا ثمن جميع الأشياء، فمالكهما كالمالك لجميع الأشياء، وصفة المالكية هي القدرة، والقدرة صفة كمال، والكمال محبوب لذاته، فلما كان الذهب والفضة أكمل الوسائل إلى تحصيل هذا الكمال الذي هو محبوب لذاته، وما لا يوجد المحبوب إلا به فهو محبوب، لا جرم كانا محبوبين.

المسألة الخامسة: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ قال الواحدي: الخيل جمع لا واحد له من لفظه، كالقوم والنساء والرهط، وسميت الأفراس خيلاً لخيلائها في مشيها، وسميت حركة الإنسان على سبيل الجولان اختيالاً، وسمي الخيال خيالاً، والتخيل تخيلاً؛ لجولان هذه القوة في استحضار تلك الصورة، والأخيل: الشقراق؛ لأنه يتخيل تارة أخضر، وتارة أحمر.

واختلفوا في معنى ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ على ثلاثة أقوال:

الأول: أنها الراعية، يقال: أَسَمْتُ الدابة وسَوَّمتها، إذا أرسلتها في مروجها للرعي، كما يقال: أقمت الشيء وقومته، وأجدته وجودته، وأنمته ونَوَّمته، والمقصود أنها إذا رعت ازدادت حسنًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾[النحل: ١٠].

والقول الثاني: المسومة: المُعلَّمة، قال أبو مسلم الأصفهاني: وهو مأخوذ من السيما، بالقصر والسيماء بالمد، ومعناه واحد، وهو الهيئة الحسنة، قال الله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[الفتح: ٢٩].

ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في تلك العلامة: فقال أبو مسلم: المراد من هذه العلامات: الأوضاح والغُرر التي تكون في الخيل، وهي أن تكون الأفراس غُرًّا محجلة. وقال الأصم: إنما هي البُلق. وقال قتادة: الشية. وقال المؤرج: الكي. وقول أبي مسلم أحسن لأن الإشارة في هذه الآية إلى شرائف الأموال، وذلك هو أن يكون الفرس أغر محجلاً، وأما سائر الوجوه التي ذكروها فإنها لا تفيد شرفًا في الفرس.

القول الثالث: - وهو قول مجاهد وعكرمة - أنها الخيل المطهمة الحسان، قال القفال: المطهمة: المرأة الجميلة.

المرتبة السادسة: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهي جمع نَعَم، وهي الإبل والبقر والغنم، ولا يقال للجنس الواحد منها: نعم إلا للإبل خاصة فإنها غلبت عليها.

المرتبة السابعة: ﴿وَٱلْحَرْثِۗ﴾ وقد ذكرنا اشتقاقه في قوله: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَۗ﴾[البقرة: ٢٠٥] .

ثم إنه تعالى لما عدّد هذه السبعة قال: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال القاضي: ومعلوم أن متاعها إنما خُلق ليُستمتع به فكيف يقال: إنه لا يجوز إضافة التزيين إلى الله تعالى؟! ثم قال: للاستمتاع بمتاع الدنيا وجوه: منها: أن ينفرد به من خصه الله تعالى بهذه النعم فيكون مذمومًا. ومنها: أن يترك الانتفاع به مع الحاجة إليه فيكون أيضًا مذمومًا. ومنها: أن ينتفع به في وجه مباح من غير أن يتوصل بذلك إلى مصالح الآخرة، وذلك لا ممدوح ولا مذموم. ومنها: أن ينتفع به على وجه يتوصل به إلى مصالح الآخرة، وذلك هو الممدوح.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ اعلم أن المآب في اللغة المرجع، يقال: آب الرجل إيابًا وأوبة وأيبة ومآبًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾[الغاشية: ٢٥] . والمقصود من هذا الكلام بيان أن من آتاه الله الدنيا، كان الواجب عليه أن يصرفها إلى ما يكون فيه عمارة لمعاده ويتوصل بها إلى سعادة آخرته، ثم لما كان الغرض الترغيب في المآب وصف المآب بالحسن.

فإن قيل: المآب قسمان: الجنة وهي في غاية الحسن، والنار وهي خالية عن الحسن، فكيف وصف المآب المطلق بالحسن.

قلنا: المآب المقصود بالذات هو الجنة، فأما النار فهي المقصود بالغرض؛ لأنه سبحانه خلق الخلق للرحمة لا للعذاب، كما قال: (سبقت رحمتي غضبي)، وهذا سر يُطلع منه على أسرار غامضة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝١٥﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾ بهمزتين، واختلفت الرواية عن نافع وأبي عمرو.

المسألة الثانية: ذكروا في متعلق الاستفهام ثلاثة أوجه: **الأول:** أن يكون المعنى: هل أؤنبئكم بخير من ذلكم؟ ثم يبتدأ فيقال: للذين اتقوا عند ربهم كذا وكذا. **والثاني:** هل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا؟ ثم يبتدأ فيقال: عند ربهم جنّات تجري. **والثالث:** هل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم؟ ثم يبتدأ فيقال: جنّات تجري.

المسألة الثالثة: في وجه النظم وجوه. **الأول:** أنه تعالى لما قال: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤] بيّن في هذه الآية أن ذلك المآب كما أنه حسن في نفسه فهو أحسن وأفضل من هذه الدنيا، فقال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ﴾ . **الثاني:** أنه تعالى لما عَدّد نعم الدنيا بيَّن أن منافع الآخرة خير منها، كما قال في آية أخرى ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧] . **الثالث:** كأنه تعالى نبّه

على أن أمرك في الدنيا وإن كان حسنًا منتظمًا، إلا أن أمرك في الآخرة خير وأفضل، والمقصود منه أن يعلم العبد أنه كما أن الدنيا أطيب وأوسع وأفسح من بطن الأم، فكذلك الآخرة أطيب وأوسع وأفسح من الدنيا.

المسألة الرابعة: إنما قلنا: إن نعم الآخرة خير من نعم الدنيا؛ لأن نعم الدنيا مشوبة بالمضرة، ونعم الآخرة خالية عن شوب المضار بالكلية، وأيضًا: فنعم الدنيا منقطعة لا محالة، ونعم الآخرة باقية لا محالة.

أما قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡا﴾ فقد بَيَّنا في تفسير قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٢] أن التقوى ما هي، وبالجملة: فإن الإنسان لا يكون متقيًا إلا إذا كان آتيًا بالواجبات، متحرزًا عن المحظورات، وقال بعض أصحابنا: التقوى عبارة عن اتقاء الشرك، وذلك لأن التقوى صارت في عرف القرآن مختصة بالإيمان، قال تعالى: ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾[الفتح: ٢٦] وظاهر اللفظ أيضًا مطابق له؛ لأن الاتقاء عن الشرك أعم من الاتقاء عن جميع المحظورات، ومن الاتقاء عن بعض المحظورات؛ لأن ماهية الاشتراك لا تدل على ماهية الامتياز، فحقيقة التقوى وماهيتها حاصلة عند حصول الاتقاء عن الشرك، وعُرْف القرآن مطابق لذلك، فوجب حمله عليه، فكان قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡا﴾ محمولاً على كل من اتقى الكفر بالله.

أما قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡا عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ ففيه احتمالان: **الأول:** أن يكون ذلك صفة للخير، والتقدير: هل أنبئكم بخير من ذلكم عند ربهم للذين اتقوا. **والثاني:** أن يكون ذلك صفة للذين اتقوا، والتقدير: للذين اتقوا عند ربهم خير من منافع الدنيا. ويكون ذلك إشارة إلى أن هذا الثواب العظيم لا يحصل إلا لمن كان متقيًا عند الله تعالى، فيخرج عنه المنافق، ويدخل فيه من كان مؤمنًا في علم الله.

وأما قوله: ﴿جَنَّٰتٌ﴾ فالتقدير: هو جنّات، وقرأ بعضهم (جناتٍ) بالجر على البدل من خير، واعلم أن قوله: ﴿جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وصف لطيب الجنّة، ودخل تحته جميع النعم الموجودة فيها من المطعم والمشرب والملبس والمفرش والمنظر، وبالجملة: فالجنة مشتملة على جميع المطالب، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾[الزخرف: ٧١]

ثم قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ والمراد كون تلك النعم دائمة.

ثم قال: ﴿وَأَزۡوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضۡوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وقد ذكرنا لطائفها عند قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾[البقرة: ٢٥] وتحقيق القول فيه أن النعمة وإن عظمت فلن تتكامل إلا بالأزواج اللواتي لا يحصل الأنس إلا بهن، ثم وصف الأزواج بصفة واحدة جامعة لكل مطلوب، فقال: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ ويدخل في ذلك: الطهارة من الحيض والنفاس وسائر الأحوال التي تظهر عن النساء في الدنيا مما ينفر عنه الطبع، ويدخل فيه كونهن مطهرات من الأخلاق الذميمة ومن القبح وتشويه الخلقة، ويدخل فيه كونهن مطهرات من سوء العشرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ عاصم: (ورُضوان) بضم الراء، والباقون بكسرها، أما الضم فهو لغة قيس وتميم، وقال الفرّاء: يقال رضيت رضًا ورضوانًا، ومثل الرضوان بالكسر: الحِرمان والقِربان. وبالضم: الطغيان والرجحان والكفران والشكران.

المسألة الثانية: قال المتكلمون: الثواب له ركنان: أحدهما: المنفعة، وهي التي ذكرناها، والثاني: التعظيم، وهو المراد بالرضوان، وذلك لأن معرفة أهل الجنة مع هذا النعيم المقيم بأنه تعالى راضٍ عنهم، حامد لهم، مُثنٍ عليهم - أَزْيَد في إيجاب السرور من تلك المنافع، وأما الحكماء فإنهم قالوا: الجنّات بما فيها إشارة إلى الجنة الجسمانية، والرضوان فهو إشارة إلى الجنة الروحانية، وأعلى المقامات إنما هو الجنة الروحانية، وهو عبارة عن تجلي نور جلال الله تعالى في روح العبد واستغراق العبد في معرفته، ثم يصير في أول هذه المقامات راضيًا عن الله تعالى، وفي آخرها مرضيًا عند الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله: ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨] ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي عالم بمصالحهم، فيجب أن يرضوا لأنفسهم ما اختاره لهم من نعيم الآخرة، وأن يزهدوا فيما زهّدهم فيه من أمور الدنيا.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في إعراب موضع ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ وجوه: **الأول**: أنه خفض صفة (للذين اتقوا)، وتقدير الآية: للذين اتقوا الذين يقولون. ويجوز أن يكون صفة للعباد، والتقدير: والله بصير بالعباد وأولئك هم المتقون الذين لهم عند ربهم جنّات، هم الذين يقولون كذا وكذا. **والثاني**: أن يكون نصبًا على المدح. **والثالث**: أن يكون رفعًا على التخصيص، والتقدير: هم الذين يقول كذا وكذا.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ ثم إنهم قالوا بعد ذلك: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ وذلك يدل على أنهم توسلوا بمجرد الإيمان إلى طلب المغفرة، والله تعالى حكى ذلك عنهم في معرض المدح لهم والثناء عليهم، فدل هذا على أن العبد بمجرد الإيمان يستوجب الرحمة والمغفرة من الله تعالى.

فإن قالوا: الإيمان عبارة عن جميع الطاعات. أبطلنا ذلك عليهم بالدلائل المذكورة في تفسير

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[البقرة: ٣] وأيضًا: فمن أطاع الله تعالى في جميع الأمور، وتاب عن جميع الذنوب، كان إدخاله النار قبيحًا من الله عندهم، والقبيح هو الذي يلزم من فعله إما الجهل وإما الحاجة، فهما محالان، ومستلزم المحال محال، فإدخال الله تعالى إياهم النار محال، وما كان محال الوقوع عقلاً كان الدعاء والتضرع في أن لا يفعله الله عبثًا وقبيحًا، ونظير هذه الآية قوله تعالى في آخر هذه السورة: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾[آل عمران: ١٩٣].

فإن قيل: أليس أنه تعالى اعتبر جملة الطاعات في حصول المغفرة حيث أتبع هذه الآية بقوله: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾[آل عمران: ١٧].

قلنا: تأويل هذه الآية ما ذكرناه؛ وذلك لأنه تعالى جعل مجرد الإيمان وسيلة إلى طلب المغفرة، ثم ذكر بعدها صفات المطيعين وهي كونهم صابرين صادقين، ولو كانت هذه الصفات شرائط لحصول هذه المغفرة لكان ذكرها قبل طلب المغفرة أَوْلى، فلما رتب طلب المغفرة على مجرد الإيمان، ثم ذكر بعد ذلك هذه الصفات، علمنا أن هذه الصفات غير معتبرة في حصول أصل المغفرة، وإنما هي معتبرة في حصول كمال الدرجات.

قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ قيل: نصب على المدح، بتقدير: أعني الصابرين، وقيل: (الصابرين) في موضع جر على البدل من الذين.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى ذكر هاهنا صفات خمسة:

الصفة الأولى: كونهم صابرين، والمراد كونهم صابرين في أداء الواجبات والمندوبات، وفي ترك المحظورات، وكونهم صابرين في كل ما ينزل بهم من المحن والشدائد، وذلك بأن لا يجزعوا بل يكونوا راضين في قلوبهم عن الله تعالى، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة: ١٥٦] قال سفيان بن عيينة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾[السجدة: ٢٤]: إن هذه الآية تدل على أنهم إنما استحقوا تلك الدرجات العالية من الله تعالى بسبب الصبر. ويروى أنه وقف رجل على الشبلي، فقال: أي صبر أشد على الصابرين؟ فقال: الصبر في الله تعالى. فقال: لا. فقال: الصبر لله تعالى. فقال: لا. فقال: الصبر مع الله تعالى. قال: لا. قال: فأيش؟ قال: الصبر عن الله تعالى. فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف. وقد كثر مدح الله تعالى للصابرين، فقال: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾[البقرة: ١٧٧].

الصفة الثانية: كونهم صادقين، اعلم أن لفظ الصدق قد يجري على القول والفعل والنية،

فالصدق في القول مشهور، وهو مجانبة الكذب. والصدق في الفعل الإتيان به وترك الانصراف عنه قبل تمامه، يقال: صدق فلان في القتال، وصدق في الحملة، ويقال في ضده: كذب في القتال، وكذب في الحملة. والصدق في النيّة إمضاء العزم والإقامة عليه حتى يبلغ الفعل.

الصفة الثالثة: كونهم قانتين، وقد فسرناه في قوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وبالجملة: فهو عبارة عن الدوام على العبادة والمواظبة عليها.

الصفة الرابعة: كونهم منفقين، ويدخل فيه إنفاق المرء على نفسه وأهله وأقاربه وصلة رحمه، وفي الزكاة والجهاد وسائر وجوه البر.

الصفة الخامسة: كونهم مستغفرين بالأسحار، والسَّحر: الوقت الذي قبل طلوع الفجر، وتَسَحَّر: إذا أكل في ذلك الوقت، واعلم أن المراد منه من يصلي بالليل ثم يُتبعه بالاستغفار والدعاء؛ لأن الإنسان لا يشتغل بالدعاء والاستغفار إلا أن يكون قد صلّى قبل ذلك، فقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ يدل على أنهم كانوا قد صلوا بالليل.

واعلم أن الاستغفار بالسحر له مزيد أثر في قوة الإيمان وفي كمال العبودية من وجوه: **الأول:** أن في وقت السحر يطلع نور الصبح بعد أن كانت الظلمة شاملة للكل، وبسبب طلوع نور الصبح كأن الأموات يصيرون أحياء، فهناك وقت الجود العام والفيض التام، فلا يبعد أن يكون عند طلوع صبح العالم الكبير يطلع صبح العالم الصغير، وهو ظهور نور جلال الله تعالى في القلب. **والثاني:** أن وقت السحر أطيب أوقات النوم، فإذا أعرض العبد عن تلك اللذة، وأقبل على العبودية، كانت الطاعة أكمل. **والثالث:** نُقل عن ابن عباس: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ يريد المصلين صلاة الصبح.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ أكمل من قوله: (الذين يصبرون ويصدقون)، لأن قوله: ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ يدل على أن هذا المعنى عادتهم وخُلُقهم، وأنهم لا ينفكون عنها.

المسألة الرابعة: اعلم أن لله تعالى على عباده أنواعًا من التكليف، والصابر هو من يصبر على أداء جميع أنواعها، ثم إن العبد قد يلتزم من عند نفسه أنواعًا أُخر من الطاعات، إما بسبب النذر، وإما بسبب الشروع فيه، وكمال هذه المرتبة أنه إذا التزم طاعة أن يصدق نفسه في التزامه، وذلك بأن يأتي بذلك للملتزم من غير خلل ألبتة، ولما كانت هذه المرتبة متأخرة عن الأولى، لا جرم ذكر سبحانه الصابرين أولاً ثم قال: ﴿وَٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ ثانيًا، ثم إنه تعالى ندب إلى المواظبة على هذين النوعين من الطاعة، فقال: ﴿وَٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ فهذه الألفاظ الثلاثة للترغيب في المواظبة على جميع أنواع الطاعات، ثم بعد ذلك ذكر الطاعات المعينة، وكان أعظم الطاعات قدرًا أمران: **أحدهما:** الخدمة بالمال، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «وَالشَّفَقَةُ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ»(١) فذكر هنا

---

(١) أورده العجلوني في (كشف الخفا والإلباس) (٢/ ١٥)، وقال: قال في المقاصد: لا أعرفه بهذا اللفظ، ولكن معناه صحيح. وقال القاري: هو من كلام بعض المشايخ حيث قال: مدار الأمر على شيئين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله. انتهى وقال النجم: ليس بحديث. انتهى.

بقوله: ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾. والثانية: الخدمة بالنفس، وإليه الإشارة بقوله: «التَّعْظِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ» فذكره هنا بقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾.

فإن قيل: فلِمَ قَدَّم هاهنا ذكر المنفقين على ذكر المستغفرين، وأخَّر في قوله: «التَّعْظِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَالشَّفَقَةُ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ»؟

قلنا: لأن هذه الآية في شرح عروج العبد من الأدنى إلى الأشرف، فلا جرم وقع الختم بذكر المستغفرين بالأسحار، وقوله: «التَّعْظِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ» في شرح نزول العبد من الأشرف إلى الأدنى، فلا جرم كان الترتيب بالعكس.

المسألة الخامسة: هذه الخمسة إشارة إلى تعديد الصفات لموصوف واحد، فكان الواجب حذف واو العطف عنها، كما في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤] إلا أنه ذكر هاهنا واو العطف، وأظن - والعلم عند الله - أن كل من كان معه واحدة من هذه الخصال، دخل تحت المدح العظيم، واستوجب هذا الثواب الجزيل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما مدح المؤمنين وأثنى عليهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٦] أردفه بأن بيّن أن دلائل الإيمان ظاهرة جلية، فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن كل ما يتوقف العلم بنبوّة محمد ﷺ على العلم به، فإنه لا يمكن إثباته بالدلائل السمعية، أما ما يكون كذلك فإنه يجوز إثباته بالدلائل السمعية، وفي حق الملائكة، وفي حق أولي العلم، لكن العلم بصحة نبوّة محمد ﷺ لا يتوقف على العلم بكون الله تعالى واحدًا، فلا جرم يجوز إثبات كون الله تعالى واحدًا بمجرد الدلائل السمعية القرآنية.

إذا عرفت هذا فنقول: ذكروا في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ قولين: **أحدهما:** أن الشهادة من الله تعالى، ومن الملائكة، ومن أولي العلم بمعنى واحد. **الثاني:** أنه ليس كذلك. **أما القول الأول فيمكن تقريره من وجهين:**

الوجه الأول: أن تُجعل الشهادة عبارة عن الإخبار المقرون بالعلم، فهذا المعنى مفهوم واحد، وهو حاصل في حق الله تعالى، وفي حق الملائكة، وفي حق أولي العلم:

أما من الله تعالى فقد أخبر في القرآن عن كونه واحدًا لا إله معه، وقد بيّنّا أن التمسك بالدلالة السمعية في هذه المسألة جائز. وأما من الملائكة وأولي العلم فكلهم أخبروا أيضًا أن الله تعالى واحد لا شريك له. فثبت على هذا التقرير أن المفهوم من الشهادة معنى واحد في حق الله، وفي حق الملائكة، وفي حق أولي العلم.

الوجه الثاني: أن نجعل الشهادة عبارة عن الإظهار والبيان، ثم نقول: إنه تعالى أظهر ذلك وبَيَّنه بأن خلق ما يدل على ذلك، أما الملائكة وأولو العلم فقد أظهروا ذلك، وبيّنوه بتقرير الدلائل والبراهين، أما الملائكة فقد بيّنوا ذلك للرسل عليهم الصلاة والسلام، والرسل للعلماء، والعلماء لعامة الخلق، فالتفاوت إنما وقع في الشيء الذي به حصل الإظهار والبيان، فأما مفهوم الإظهار والبيان فهو مفهوم واحد في حق الله سبحانه وتعالى وفي حق أولي العلم.

فظهر أن المفهوم من الشهادة واحد على هذين الوجهين، والمقصود من ذلك كأنه يقول للرسول ﷺ: إن وحدانية الله تعالى أمر قد ثبت بشهادة الله تعالى، وشهادة جميع المعتبرين من خلقه، ومثل هذا الدين المتين والمنهج القويم لا يضعف، بخلاف بعض الجهال من النصارى وعبدة الأوثان، فاثبت أنت وقومك يا محمد على ذلك؛ فإنه هو الإسلام، والدين عند الله هو الإسلام.

القول الثاني: قول من يقول: شهادة الله تعالى على توحيده، عبارة عن أنه خلق الدلائل الدالة على توحيده، وشهادة الملائكة وأولي العلم عبارة عن إقرارهم بذلك، ولما كان كل واحد من هذين الأمرين يسمى شهادة، لم يبعد أن يجمع بين الكل في اللفظ، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] ومعلوم أن الصلاة من الله غير الصلاة من الملائكة، ومن الملائكة غير الصلاة من الناس، مع أنه قد جمعهم في اللفظ.

فإن قيل: المدعي للوحدانية هو الله، فكيف يكون المدعي شاهدًا؟

الجواب: من وجوه:

الأول: وهو أن الشاهد الحقيقي ليس إلا الله، وذلك لأنه تعالى هو الذي خلق الأشياء وجعلها دلائل على توحيده، ولولا تلك الدلائل لما صحت الشهادة، ثم بعد ذلك نصب تلك الدلائل هو الذي وفق العلماء لمعرفة تلك الدلائل، ولولا تلك الدلائل التي نصبها الله تعالى وهدى إليها لعجزوا عن التوصل بها إلى معرفة التوحيد، وإذا كان الأمر كذلك كان الشاهد على الوحدانية ليس إلا الله وحده؛ ولهذا قال: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [الأنعام: ١٩].

الوجه الثاني في الجواب: أنه هو الموجود أزلاً وأبدًا، وكل ما سواه فقد كان في الأزل عدمًا صرفًا، ونفيًا محضًا، والعدم يشبه الغائب، والموجود يشبه الحاضر، فكل ما سواه فقد كان غائبًا، وبشهادة الحق صار شاهدًا، فكان الحق شاهدًا على الكل؛ فلهذا قال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

الوجه الثالث: أن هذا وإن كان في صورة الشهادة، إلا أنه في معنى الإقرار؛ لأنه لما أخبر أنه لا إله سواه، كان الكل عبيدًا له، والمولى الكريم لا يليق به أن يخل بمصالح العبيد، فكان هذا الكلام جاريًا مجرى الإقرار بأنه يجب وجوب الكريم عليه أن يصلح جهات جميع الخلق.

الوجه الرابع في الجواب: قرأ ابن عباس: (شهد الله إنه لا إله إلا هو) بكسر (إِنَّهُ) ثم قرأ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] بفتح (أن) فعلى هذا يكون المعنى: شهد الله أن الدين عند الله الإسلام، ويكون قوله: (إنه لا إله إلا هو) أعتراضًا في الكلام، واعلم أن الجواب لا يعتمد عليه؛ لأن هذه القراءة غير مقبولة عند العلماء، وبتقدير أن تكون مقبولة لكن القراءة الأولى متفق عليها، فالإشكال الوارد عليها لا يندفع بسبب القراءة الأخرى.

المسألة الثانية: المراد من ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ في هذه الآية الذين عرفوا وحدانيته بالدلائل القاطعة؛ لأن الشهادة إنما تكون مقبولة إذا كان الإخبار مقرونًا بالعلم؛ ولذلك قال ﷺ: «إِذَا عَلِمْتَ مِثْلَ الشَّمْسِ فَاشْهَدْ»[1] وهذا يدل على أن هذه الدرجة العالية والمرتبة الشريفة - ليست إلا لعلماء الأصول.

أما قوله تعالى: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ منتصب، وفيه وجوه:

الوجه الأول: نصب على الحال، ثم فيه وجوه: أحدها: التقدير: شهد الله قائمًا بالقسط. وثانيها: يجوز أن يكون حالاً من (هو) تقديره: لا إله إلا هو قائمًا بالقسط، ويسمى هذا حالاً مؤكدة، كقولك: أتانا عبد الله شجاعًا، وكقولك: لا رجل إلا عبد الله شجاعًا.

الوجه الثاني: أن يكون صفة المنفي، كأنه قيل: (لا إله قائمًا بالقسط إلا هو)، وهذا غير بعيد لأنهم يفصلون بين الصفة والموصوف.

والوجه الثالث: أن يكون نصبًا على المدح.

فإن قيل: أليس من حق المدح أن يكون معرفة، كقولك، الحمد لله الحميد؟

قلنا: وقد جاء نكرة أيضًا، وأنشد سيبويه:

ويأوي إلى نسوة عطلٍ ... وشعثًا مراضيع مثل السعالي[2]

المسألة الثانية: قوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ فيه وجهان: **الأول**: أنه حال من المؤمنين، والتقدير: وأولو العلم حال كون كل واحد منهم قائمًا بالقسط في أداء هذه الشهادة. **والثاني**: - وهو قول جمهور المفسرين - أنه حال من ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾.

المسألة الثالثة: معنى كونه ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ قائمًا بالعدل، كما يقال: فلان قائم بالتدبير، أي: يجريه على الاستقامة.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سيبويه (١٤٨ - ١٨٠هـ/ ٧٦٥ - ٧٩٦م) عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه: إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو، وُلد في إحدى قرى شيراز، وفد البصرة، فلزم الخليل بن أحمد ففاقه. وصَنَّف كتابه المسمى (كتاب سيبويه) في النحو، لم يُصنع قبله ولا بعده مثله، ورحل إلى بغداد، فناظر الكسائي، وأجازه الرشيد بعشرة آلاف درهم. وعاد إلى الأهواز فتوفي بها، وقيل: وفاته وقبره بشيراز.

واعلم أن هذا العدل منه ما هو متصل بباب الدنيا، ومنه ما هو متصل بباب الدين.

أما المتصل بالدنيا، فانظر أولاً في كيفية خلقة أعضاء الإنسان؛ حتى تعرف عدل الله تعالى فيها، ثم انظر إلى اختلاف أحوال الخلق في الحسن والقبح، والغنى والفقر والصحة والسقم، وطول العمر وقصره، واللذة والآلام، واقطع بأن كل ذلك عدل من الله وحكمة وصواب، ثم انظر في كيفية خلقة العناصر وأجرام الأفلاك، وتقدير كل واحد منها بقدر معين وخاصية معينة، واقطع بأن كل ذلك حكمة وصواب.

أما ما يتصل بأمر الدين، فانظر إلى اختلاف الخلق في العلم والجهل، والفطانة والبلادة، والهداية والغواية، واقطع بأن كل ذلك عدل وقسط، ولقد خاض صاحب (الكشاف) هاهنا في التعصب للاعتزال وزعم أن الآية دالة على أن الإسلام هو العدل والتوحيد، وكان ذلك المسكين بعيدًا عن معرفة هذه الأشياء، إلا أنه فضولي كثير الخوض فيما لا يعرف، وزعم أن الآية دلّت على أن من أجاز الرؤية، أو ذهب إلى الجبر، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام، والعجب أن أكابر المعتزلة وعظماءهم أفنوا أعمارهم في طلب الدليل على أنه لو كان مرئيًا لكان جسمًا، وما وجدوا فيه سوى الرجوع إلى الشاهد من غير جامع عقلي قاطع، فهذا المسكين الذي ما شم رائحة العلم من أين وجد ذلك، وأما حديث الجبر فالخوض فيه من ذلك المسكين خوض فيما لا يعنيه؛ لأنه لما اعترف بأن الله تعالى عالم بجميع الجزئيات، واعترف بأن العبد لا يمكنه أن يقلب علم الله جهلاً، فقد اعترف بهذا الجبر، فمن أين هو والخوض في أمثال هذه المباحث؟!

ثم قال الله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ والفائدة في إعادته وجوه: **الأول:** أن تقدير الآية: شهد الله أنه لا إله إلا هو، وإذا شهد بذلك فقد صح أنه لا إله إلا هو، ونظيره قول من يقول: الدليل دلّ على وحدانية الله تعالى، ومتى كان كذلك صح القول بوحدانية الله تعالى. **الثاني:** أنه تعالى لما أخبر أن الله شهد أنه لا إله إلا هو وشهدت الملائكة وأولو العلم بذلك، صار التقدير كأنه قال: يا أمة محمد فقولوا أنتم على وفق شهادة الله وشهادة الملائكة وأولي العلم لا إله إلا هو. فكان الغرض من الإعادة الأمر بذكر هذه الكلمة على وفق تلك الشهادات. **الثالث:** فائدة هذا التكرير الإعلام بأن المسلم يجب أن يكون أبدًا في تكرير هذه الكلمة، فإن أشرف كلمة يذكرها الإنسان هي هذه الكلمة، فإذا كان في أكثر الأوقات مشتغلاً بذكرها وبتكريرها، كان مشتغلاً بأعظم أنواع العبادات، فكان الغرض من التكرير في هذه الآية حث العباد على تكريرها. **الرابع:** ذكر قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أولاً: ليعلم أنه لا تحق العبادة إلا لله تعالى، وذكرها ثانيًا: ليعلم أنه القائم بالقسط لا يجور ولا يظلم.

أما قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فالعزيز إشارة إلى كمال القدرة، والحكيم إشارة إلى كمال العلم، وهما الصفتان اللتان يمتنع حصول الإلهية إلا معهما؛ لأن كونه قائمًا بالقسط لا يتم إلا إذا كان عالمًا بمقادير الحاجات، وكان قادرًا على تحصيل المهمات، وقدَّم العزيز على الحكيم في

الذكر؛ لأن العلم بكونه تعالى قادرًا متقدم على العلم بكونه عالمًا في طريق المعرفة الاستدلالية، فلما كان مقدمًا في المعرفة الاستدلالية، وكان هذا الخطاب مع المستدلين، لا جرم قَدَّم تعالى ذكر العزيز على الحكيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اتفق القرّاء على كسر (إن) إلا الكسائي فإنه فتح (أن) وقراءة الجمهور ظاهرة؛ لأن الكلام الذي قبله قد تم، وأما قراءة الكسائي فالنحويون ذكروا فيه ثلاثة أوجه: **الأول**: أن التقدير: (شهد الله أنه لا إله إلا هو أن الدين عند الله الإسلام) وذلك لأن كونه تعالى واحدًا مُوجِب أن يكون الدين الحق هو الإسلام؛ لأن دين الإسلام هو المشتمل على هذه الوحدانية. **والثاني**: أن التقدير: (شهد الله أنه لا إله إلا هو، وأن الدين عند الله الإسلام). **الثالث**: وهو قول البصريين أن يجعل الثاني بدلاً من الأول، ثم إن قلنا بأن دين الإسلام مشتمل على التوحيد نفسه كان هذا من باب قولك: (ضربت زيدًا نفسه)، وإن قلنا: دين الإسلام مشتمل على التوحيد كان هذا من باب بدل الاشتمال، كقولك: (ضربت زيدًا رأسه).

فإن قيل: فعلى هذا الوجه وجب أن لا يحسب إعادة اسم الله تعالى، كما يقال: ضربت زيدًا رأس زيد.

قلنا: قد يظهرون الاسم في موضع الكناية، قال الشاعر:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء(١)

وأمثاله كثيرة.

المسألة الثانية: في كيفية النظم، من قرأ (أَنَّ الدِّينَ) بفتح (أن) كان التقدير: شهد الله لأجل أنه لا إله إلا هو أن الدين عند الله الإسلام، فإن الإسلام إذا كان هو الدين المشتمل على التوحيد، والله تعالى شهد بهذه الوحدانية كان اللازم من ذلك أن يكون الدين عند الله الإسلام،

---

(١) البيت للشاعر عدي بن زيد، وهو عدي بن زيد بن حمّاد بن زيد العابدي التميمي.

؟ - ٣٦ق. هـ/ ؟ - ٥٨٧م، شاعر من دهاة الجاهليين، كان قرويًا من أهل الحيرة، فصيحًا، يحسن العربية والفارسية، والرمي بالنشاب. وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى، الذي جعله ترجمانًا بينه وبين العرب، فسكن المدائن، ولما مات كسرى وولي الحكم هرمز أعلى شأنه ووجّهه رسولاً إلى ملك الروم طيباريوس الثاني في القسطنطينية، فزار بلاد الشام، ثم تزوج هندًا بنت النعمان. وشى به أعداء له إلى النعمان بما أوغر صدره فسجنه وقتله في سجنه بالحيرة.

ومن قرأ (إِنَّ الدِّينَ) بكسر الهمزة، فوجه الاتصال هو أنه تعالى بيّن أن التوحيد أَمْر شهد الله بصحته، وشهد به الملائكة وأولو العلم، ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

المسألة الثالثة: أصل الدين في اللغة الجزاء، ثم الطاعة تسمى دينًا لأنها سبب الجزاء، وأما الإسلام ففي معناه في أصل اللغة أوجه: **الأول**: أنه عبارة عن الدخول في الإسلام، أي في الانقياد والمتابعة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ [النساء: ٩٤] أي لمن صار منقادًا لكم ومتابعًا لكم. **والثاني**: من أسلم، أي دخل في السلم، كقولهم: (أسنى وأقحط) وأصل السلم السلامة. **الثالث**: قال ابن الأنباري: المسلم معناه المخلص لله عبادته، من قولهم: سَلِم الشيء لفلان، أي خَلُص له، فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى، هذا ما يتعلق بتفسير لفظ الإسلام في أصل اللغة.

أما في عرف الشرع فالإسلام هو الإيمان، والدليل عليه وجهان: **الأول**: هذه الآية فإن قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ يقتضي أن يكون الدين المقبول عند الله ليس إلا الإسلام، فلو كان الإيمان غير الإسلام وجب أن لا يكون الإيمان دينًا مقبولاً عند الله، ولا شك في أنه باطل. **الثاني**: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] فلو كان الإيمان غير الإسلام، لوجب أن لا يكون الإيمان دينًا مقبولاً عند الله تعالى.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] هذا صريح في أن الإسلام مغاير للإيمان.

قلنا: الإسلام عبارة عن الانقياد في أصل اللغة على ما بينا، والمنافقون انقادوا في الظاهر من خوف السيف، فلا جرم كان الإسلام حاصلاً في حكم الظاهر، والإيمان كان أيضًا حاصلاً في حكم الظاهر؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١] والإيمان الذي يمكن إدارة الحكم عليه هو الإقرار الظاهر، فعلى هذا الإسلام والإيمان تارة يعتبران في الظاهر، وتارة في الحقيقة، والمنافق حصل له الإسلام الظاهر، ولم يحصل له الإسلام الباطن؛ لأن باطنه غير منقاد لدين الله، فكان تقدير الآية: لم تسلموا في القلب والباطن، ولكن قولوا: أسلمنا في الظاهر، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ **ففيه مسائل**:

المسألة الأولى: الغرض من الآية بيان أن الله تعالى أوضح الدلائل، وأزال الشبهات، والقوم ما كفروا إلا لأجل التقصير، فقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ فيه وجوه: **الأول**: المراد بهم اليهود، واختلافهم أن موسى عليه السلام لما قربت وفاته سَلَّم التوراة إلى سبعين حبرًا، وجعلهم أمناء عليها، واستخلف يوشع، فلما مضى قرن بعد قرن اختلف أبناء السبعين من بعد ما

جاءهم العلم في التوراة بغيًا بينهم، وتحاسدوا في طلب الدنيا. **والثاني**: المراد النصارى واختلافهم في أمر عيسى عليه السلام بعد ما جاءهم العلم بأنه عبد الله ورسوله. **والثالث**: المراد اليهود والنصارى، واختلافهم هو أنه قالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله. وأنكروا نبوّة محمد ﷺ، وقالوا: نحن أحق بالنبوّة من قريش؛ لأنهم أميون ونحن أهل الكتاب.

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ المراد منه إلا من بعد ما جاءتهم الدلائل التي لو نظروا فيها لحصل لهم العلم، لأنا لو حملناه على العلم لصاروا معاندين، والعناد على الجمع العظيم لا يصح، وهذه الآية وردت في كل أهل الكتاب وهم جَمْع عظيم.

المسألة الثالثة: في انتصاب قوله: ﴿بَغۡيَۢا﴾ وجهان: **الأول**: قول الأخفش: إنه انتصب على أنه مفعول له، أي للبغي، كقولك: جئتك طلب الخير ومَنْع الشر. **والثاني**: قول الزجاج: إنه انتصب على المصدر من طريق المعنى، فإن قوله: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ قائم مقام قوله: وما بغى الذين أوتوا الكتاب، فجعل ﴿بَغۡيَۢا﴾ مصدرًا، والفرق بين المفعول له وبين المصدر أن المفعول له غرض للفعل، وأما المصدر فهو المفعول المطلق الذي أحدثه الفاعل.

المسألة الرابعة: قال الأخفش قوله: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ من صلة قوله: ﴿ٱخۡتَلَفَ﴾ والمعنى: وما اختلفوا بغيًا بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم. وقال غيره: المعنى: وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم إلا للبغي بينهم، فيكون هذا إخبارًا عن أنهم إنما اختلفوا للبغي، وقال القفال: وهذا أجود من الأول؛ لأن الأول يوهم أنهم اختلفوا بسبب ما جاءهم من العلم، والثاني يفيد أنهم إنما اختلفوا لأجل الحسد والبغي.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ وهذا تهديد، وفيه وجهان: **الأول**: المعنى: فإنه سيصير إلى الله تعالى سريعًا فيحاسبه، أي يجزيه على كفره. **والثاني**: أن الله تعالى سيعلمه بأعماله ومعاصيه وأنواع كفره بإحصاء سريع مع كثرة الأعمال.

قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر من قبل أن أهل الكتاب اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم، وأنهم أصروا على الكفر مع ذلك، بيّن الله تعالى للرسول ﷺ ما يقوله في محاجتهم، فقال: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ وفي كيفية إيراد هذا الكلام طريقان:

الطريق الأول: أن هذا إعراض عن المحاجة، وذلك لأنه ﷺ كان قد أظهر لهم الحجة على صدقه قبل نزول هذه الآية مرارًا وأطوارًا، فإن هذه السورة مدنيّة، وكان قد أظهر لهم المعجزات بالقرآن، ودعاء الشجرة وكلام الذئب وغيرها، وأيضًا: قد ذكر قبل هذه الآية آيات دالة على

صحة دينه، فأولها: أنه تعالى ذكر الحجة بقوله: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢] على فساد قول النصارى في إلهية عيسى عليه السلام، وبقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [آل عمران: ٣] على صحة النبوّة، وذكر شُبَه القوم، وأجاب عنها بأسرها على ما قررناه فيما تقدم، ثم ذكر لهم معجزة أخرى، وهي المعجزات التي شاهدوها يوم بدر، على ما بيناه في تفسير قوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَا﴾ [آل عمران: ١٣] ثم بيّن صحة القول بالتوحيد، ونفى الضد والند والصاحبة والولد بقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] ثم بيّن تعالى أن ذهاب هؤلاء اليهود والنصارى عن الحق، واختلافهم في الدين - إنما كان لأجل البغي والحسد، وذلك ما يحملهم على الانقياد للحق والتأمل في الدلائل لو كانوا مخلصين، فظهر أنه لم يبق من أسباب إقامة الحجة على فِرق الكفار شيء إلا وقد حصل، فبعد هذا قال: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ يعني إنا بالغنا في تقرير الدلائل، وإيضاح البينات، فإن تركتم الأنف والحسد، وتمسكتم بها، كنتم أنتم المهتدين، وإن أعرضتم فإن الله تعالى من وراء مجازاتكم.

وهذا التأويل طريق معتاد في الكلام، فإن المُحق إذا ابتلي بالمبطل اللجوج، وأورد عليه الحجة حالاً بعد حال، فقد يقول في آخر الأمر: أما أنا ومن اتبعني فمنقادون للحق، مستسلمون له، مقبلون على عبودية الله تعالى، فإن وافقتم واتبعتم الحق الذي أنا عليه بعد هذه الدلائل التي ذكرتها، فقد اهتديتم، وإن أعرضتم فإن الله بالمرصاد، فهذا الطريق قد يذكره المحتج المُحق مع المبطل المُصر في آخر كلامه.

الطريق الثاني: وهو أن نقول: إن قوله: ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ محاجة، وإظهار للدليل، وبيانه من وجوه:

الوجه الأول: أن القوم كانوا مقرين بوجود الصانع، وكونه مستحقًّا للعبادة، فكأنه عليه الصلاة والسلام قال للقوم: هذا متفق عليه بين الكل، فأنا مستمسك بهذا القدر المتفق عليه وداعٍ للخلق إليه، وإنما الخلاف في أمور وراء ذلك وأنتم المدعون فعليكم الإثبات، فإن اليهود يَدَّعون التشبيه والجسمية، والنصارى يَدَّعون إلهية عيسى، والمشركين يَدَّعون وجوب عبادة الأوثان، فهؤلاء هم المدعون لهذه الأشياء فعليهم إثباتها، وأما أنا فلا أدعي إلا وجوب طاعة الله تعالى وعبوديته، وهذا القدر متفق عليه، ونظيره هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [آل عمران: ٦٤].

والوجه الثاني في كيفية الاستدلال: ما ذكره أبو مسلم الأصفهاني، وهو أن اليهود والنصارى وعبدة الأوثان كانوا مقرين بتعظيم إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، والإقرار بأنه كان مُحقًّا في قوله صادقًا في دينه، إلا في زيادات من الشرائع والأحكام، فأمَر الله تعالى محمدًا ﷺ بأن يتبع ملته فقال: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ [النحل: ١٢٣] ثم إنه تعالى أمر محمدًا ﷺ في هذا الموضع أن يقول كقول إبراهيم ﷺ حيث قال: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] فقول محمد ﷺ: ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ﴾ كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾ [الأنعام: ٧٩] أي أعرضت عن كل معبود سوى الله تعالى، وقصدته بالعبادة وأخلصت له، فتقدير الآية كأنه تعالى قال: فإن نازعوك يا محمد في هذه التفاصيل فقل: أنا مستمسك بطريقة إبراهيم، وأنتم معترفون بأن طريقته حقة، بعيدة عن كل شبهة وتهمة. فكان هذا من باب التمسك بالإلزامات، وداخلاً تحت قوله: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

والوجه الثالث في كيفية الاستدلال: ما خطر ببالي عند كتبة هذا الموضع، وهو أنه ادعى قبل هذه الآية أن الدين عند الله الإسلام لا غير، ثم قال: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ﴾ يعني فإن نازعوك في قولك: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩] فقل: الدليل عليه أني أسلمت وجهي لله، وذلك لأن المقصود من الدين إنما هو الوفاء بلوازم الربوبية، فإذا أسلمت وجهي لله فلا أعبد غيره ولا أتوقع الخير إلا منه، ولا أخاف إلا من قهره وسطوته، ولا أشرك به غيره، كان هذا هو تمام الوفاء بلوازم الربوبية والعبودية، فصح أن الدين الكامل هو الإسلام، وهذا الوجه يناسب الآية.

الوجه الرابع في كيفية الاستدلال: ما خطر ببالي أن هذه الآية مناسبة لقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤٢] يعني لا تجوز العبادة إلا لمن يكون نافعًا ضارًا، ويكون أمري في يديه، وحكمي في قبضة قدرته، فإن كان كل واحد يعلم أن عيسى ما كان قادرًا على هذه الأشياء، امتنع في العقل أن أُسلم له، وأن انقاد له، وإنما أُسلم وجهي للذي منه الخير، والشر، والنفع، والضر، والتدبير، والتقدير.

الوجه الخامس: يحتمل أيضًا أن يكون هذا الكلام إشارة إلى طريقة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] وهذا مروي عن ابن عباس.

أما قوله: ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ ففيه وجوه:

الأول: قال الفرّاء: أسلمت وجهي لله، أي أخلصت عملي لله، يقال أسلمت الشيء لفلان، أي أخلصته له، ولم يشاركه غيره. قال: ويعني بالوجه هاهنا العمل كقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الكهف: ٢٨] أي عبادته، ويقال: هذا وجه الأمر، أي خالص الأمر، وإذا قصد الرجل غيره لحاجة يقول: وجهت وجهي إليك، ويقال للمنهمك في الشيء الذي لا يرجع عنه: مرّ على وجهه.

الثاني: أسلمت وجهي لله، أي أسلمت وجه عملي لله، والمعنى أن كل ما يصدر مني من الأعمال، فالوجه في الإتيان بها هو عبودية الله تعالى والانقياد لإلهيته وحكمه.

الثالث: أسلمت وجهي لله، أي أسلمت نفسي لله، وليس في العبادة مقام أعلى من إسلام النفس لله، فيصير كأنه موقوف على عبادته، عادل عن كل ما سواه.

وأما قوله ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: حذف عاصم وحمزة والكسائي، الياء من (اتبعن) اجتزاء بالكسر واتباعًا للمصحف، وأثبته الآخرون على الأصل.

المسألة الثانية: (مَنْ) في محل الرفع عطفًا على التاء في قوله: ﴿أَسْلَمْتُ﴾ أي ومَن اتبعني أسلم أيضًا.

فإن قيل: لمَ قال: (أسلمت ومن اتبعن)، ولم يقل: (أسلمت أنا ومن اتبعن)؟

قلنا: إن الكلام طال بقوله: ﴿وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ فصار عوضًا من تأكيد الضمير المتصل، ولو قيل: (أسلمت وزيد) لم يحسن حتى يقال: (أسلمت أنا وزيد) ولو قال: (أسلمت اليوم بانشراح صدر، ومن جاء معي) جاز وحسن.

ثم قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: هذه الآية متناولة لجميع المخالفين لدين محمد ﷺ، وذلك لأن منهم من كان من أهل الكتاب، سواء كان مُحقًّا في تلك الدعوى كاليهود والنصارى، أو كان كاذبًا فيه كالمجوس، ومنهم من لم يكن من أهل الكتاب وهم عبدة الأوثان.

المسألة الثانية: إنما وصف مشركي العرب بأنهم أميون لوجهين: **الأول**: أنهم لما لم يدعوا الكتاب الإلهي وُصفوا بأنهم أُميون تشبيهًا بمن لا يقرأ ولا يكتب. **والثاني**: أن يكون المراد أنهم ليسوا من أهل القراءة والكتابة، فهذه كانت صفة عامتهم وإن كان فيهم من يكتب فنادر من بينهم، والله أعلم.

المسألة الثالثة: دلّت هذه الآية على أن المراد بقوله: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ عام في كل الكفار؛ لأنه دخل كل من يدعي الكتاب تحت قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ ودخل من لا كتاب له تحت قوله: ﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ فهو استفهام في معرض التقرير، والمقصود منه الأمر، قال النحويون: إنما جاء بالأمر في صورة الاستفهام؛ لأنه بمنزلته في طلب الفعل والاستدعاء إليه، إلا أن في التعبير عن معنى الأمر بلفظ الاستفهام فائدة زائدة، وهي التعبير بكون المخاطب معاندًا بعيدًا عن الإنصاف؛ لأن المنصف إذا ظهرت له الحجة لم يتوقف بل في الحال يقبل، ونظيره قولك لمن لخصت له المسألة في غاية التلخيص والكشف والبيان؛ هل فهمتها؟ فإن فيه الإشارة إلى كون المخاطب بليدًا قليل الفهم، وقال الله تعالى في آية الخمر: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] وفيه إشارة إلى التقاعد عن الانتهاء والحرص الشديد على تعاطي المنهي عنه.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ وذلك لأن هذا الإسلام تمسك بما هدي إليه، والمتمسك بهداية الله تعالى يكون مهتديًا، ويحتمل أن يريد: فقد اهتدوا للفوز والنجاة في الآخرة إن ثبتوا عليه. ثم قال: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الإسلام واتباع محمد ﷺ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ﴾ والغرض منه تسلية الرسول ﷺ وتعريفه أن الذي عليه ليس إلا إبلاغ الأدلة وإظهار الحجة، فإذا بلّغ ما جاء به فقد أدى ما عليه، وليس عليه قَبولهم، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ وذلك يفيد الوعد والوعيد، وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ۝٢٢﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر من قبل حال مَن يُعْرِض ويتولى بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ﴾ أردفه بصفة هذا المتولي، فذكر ثلاثة أنواع من الصفات:

الصفة الأولى: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾.

فإن قيل: ظاهر الآية يقتضي كونهم كافرين بجميع آيات الله، واليهود والنصارى ما كانوا كذلك؛ لأنهم كانوا مقرين بالصانع وعلمه وقدرته والمعاد.

قلنا: الجواب من وجهين:

الأول: أن نصرف آيات الله إلى المعهود السابق وهو القرآن، ومحمد ﷺ.

الثاني: أن نحمله على العموم، ونقول: إن من كَذَّب بنبوّة محمد ﷺ يلزمه أن يكذب بجميع آيات الله تعالى؛ لأن مَن تناقض لا يكون مؤمنًا بشيء من الآيات؛ إذ لو كان مؤمنًا بشيء منها لآمن بالجميع.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾:

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ الحسن (وَيُقَتِّلون النبيين بِغَيْرِ حَقّ) وهو للمبالغة.

المسألة الثانية: روي عن أبي عبيدة بن الجراح أنه قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد عذابًا يوم القيامة؟ قال: «رَجلٌ قَتَلَ نَبيًا أو رجلاً أَمَرَ بِالمعْرُوفِ ونَهَى عَنِ المُنْكَر»، وقرأ هذه الآية ثم قال: «يا أبَا عُبَيْدَةَ، قَتَلَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ ثَلاثَةً وأَرْبَعين نَبيًا، من أَوَّلِ النَّهَارِ في ساعةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَامَ مِائَة رَجُلٍ وَاثْنَا عَشَرَ رَجُلا مِنْ عُبَّادِ بَني إسْرائيلَ، فأمَرُوا مَنْ قَتَلَهُم بالمَعْرُوفِ ونَهَوْهُمْ عَنِ المنكرِ، فقتلوا جَمِيعًا مِنْ آخِرِ النَّهارِ مِنْ ذَلكَ اليَوْمِ، فَهُم الذِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ تعالى»، وأيضًا: القوم قتلوا يحيى بن زكريا، وزعموا أنهم قتلوا عيسى بن مريم، فعلى قولهم ثبت أنهم كانوا يقتلون الأنبياء.

وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: إذا كان قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ في حكم المستقبل؛ لأنه وعيد لمن كان في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم يقع منهم قتل الأنبياء ولا القائمين بالقسط فكيف يصح ذلك؟

والجواب من وجهين: **الأول**: أن هذه الطريقة لما كانت طريقة أسلافهم صحت هذه الإضافة إليهم؛ إذ كانوا مصوبين وبطريقتهم راضين، فإن صنع الأب قد يضاف إلى الابن إذا كان راضيًا به وجاريًا على طريقته. **الثاني**: إن القوم كانوا يريدون قتل رسول الله ﷺ وقتل والمؤمنين، إلا أنه تعالى عصمه منهم، فلما كانوا في غاية الرغبة في ذلك، صح إطلاق هذا الاسم عليهم على سبيل المجاز، كما يقال: النار محرقة، والسم قاتل، أي ذلك من شأنهما إذا وجد القابل، فكذا هاهنا لا يصح أن يكون إلا كذلك.

السؤال الثاني: ما الفائدة في قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وقتل الأنبياء لا يكون إلا كذلك؟

والجواب: ذكرنا وجوه ذلك في سورة البقرة، والمراد منه شرح عِظم ذنبهم، وأيضًا: يجوز أن يكون المراد أنهم قصدوا بطريقة الظلم في قتلهم طريقة العدل.

السؤال الثالث: قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ظاهره مشعر بأنهم قتلوا الكل، ومعلوم أنهم ما قتلوا الكل ولا الأكثر ولا النصف.

والجواب: الألف واللام محمولان على المعهود، لا على الاستغراق.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة وحده (ويقاتلون) بالألف، والباقون (وَيَقْتُلُونَ) وهما سواء؛ لأنهم قد يقاتلون فيُقتلون بالقتال، وقد يُقتلون ابتداء من غير قتال، وقرأ أُبي (وَيَقْتُلُونَ النبيين والذين يَأْمُرُونَ).

المسألة الثانية: قال الحسن: هذه الآية تدل على أن القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الخوف - تلي منزلته في العظم منزلة الأنبياء، وروي أن رجلا قام إلى رسول الله ﷺ بمِنًى - فقال: أيُّ الجهاد أفضلُ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[(١)].

واعلم أنه تعالى كما وصفهم بهذه الصفات الثلاثة، فقد ذكر وعيدهم من ثلاثة أوجه:

الأول: قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: إنما دخلت الفاء في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ مع أنه خبر؛ لأنه في معنى الجزاء

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي في كتاب (البيعة) باب: (فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر) (٤/ ٩٤)، حديث رقم (٤٢٢٠)، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٣١٥)، وأورده الألباني في (الصحيحة) (١/ ١٠٢)، وقال: إسناده صحيح ومراسيل صاحبه حجة. طارق بن شهاب صحابي رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه، كذا في (التهذيب) (٥/ ٤)، وهو قول أبي داود... به.

والتقدير: من يكفر فبشرهم.

المسألة الثانية: هذا محمول على الاستعارة، وهو أن إنذار هؤلاء بالعذاب قائم مقام بشرى المحسنين بالنعيم، والكلام في حقيقة البشارة تقدم في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥].

النوع الثاني من الوعيد: قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

اعلم أنه تعالى بيّن بهذا أن محاسن أعمال الكفار محبطة في الدنيا والآخرة: أما الدنيا فإبدال المدح بالذم والثناء باللعن، ويدخل فيه ما ينزل بهم من القتل والسبي، وأخذ الأموال منهم غنيمة والاسترقاق لهم... إلى غير ذلك من الذل الظاهر فيهم، وأما حبوطها في الآخرة فبإزالة الثواب إلى العقاب.

النوع الثالث من وعيدهم: قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾.

اعلم أنه تعالى بيّن بالنوع الأول من الوعيد اجتماع أسباب الآلام والمكروهات في حقهم، وبيّن بالنوع الثاني زوال أسباب المنافع عنهم بالكلية، وبيّن بهذا الوجه الثالث لزوم ذلك في حقهم على وجه لا يكون لهم ناصر ولا دافع، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما نبّه على عناد القوم بقوله: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠] بيّن في هذه الآية غاية عنادهم، وهو أنهم يُدعون إلى الكتاب الذي يزعمون أنهم يؤمنون به، وهو التوراة، ثم إنهم يتمردون ويتولون، وذلك يدل على غاية عنادهم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ظاهر قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يتناول كلهم، ولا شك أن هذا مذكور في معرض الذم، إلا أنه قد دلّ دليل آخر على أنه ليس كل أهل الكتاب كذلك؛ لأنه تعالى يقول: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ المراد به غير القرآن؛ لأنه أضاف الكتاب إلى الكفار، وهم اليهود والنصارى، وإذا كان كذلك وجب حمله على الكتاب الذي

كانوا مقرين بأنه حق، ومن عند الله.

المسألة الثالثة: ذكروا في سبب النزول وجوهًا: **أحدها**: روى ابن عباس: أنَّ رجلاً وامرأةً - من اليهود - زنيا، وكانا ذوي شرفٍ، وكان في كتابهم الرَّجم، فكرهوا رجمهما؛ لشرفهما، فرجعوا في أمرهما إلى النبي ﷺ، رجاء أن يكون عنده رخصة في ترك الرجم، فحكم الرسولُ ﷺ بالرجم، فأنكروا ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «بَيني وَبَينكم التوراةُ؛ فإنَّ فيها الرَّجمَ، فَمَنْ أعْلَمُكم؟» قالوا: عبد الله بن صوريا الفدكي. فأتوا به وأحضروا التوراة، فلما أتى على آية الرجم وضع يده عليها، فقال ابن سلام: قد جاوز موضعها يا رسول الله. وقام فرفع كفه عنها فوجدوا آيةَ الرجم، فأمر النبي ﷺ بهما فرجما، فغضبت اليهودُ لعنهم الله لذلك غضبًا شديدًا، فأنزل الله تعالى هذه الآية(١).

والرواية الثانية: أنه ﷺ دخل مدرسة اليهود، وكان فيها جماعة منهم فدعاهم إلى الإسلام فقالوا: على أي دين أنت؟ فقال: «على مِلَّةِ إبْرَاهِيم»، فقالوا: إنَّ إبراهيم كان يهوديًّا. فقال ﷺ: «هَلمُّوا إلى التَّوراةِ»، فأبوا ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية(٢).

والرواية الثالثة: أن علامات بعثة محمد ﷺ مذكورة في التوراة، والدلائل الدالة على صحة نبوته موجودة فيها، فدعاهم النبي ﷺ إلى التوراة، وإلى تلك الآيات الدالة على نبوته فأبوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، والمعنى أنهم إذا أبوا أن يجيبوا إلى التحاكم إلى كتابهم، فلا تعجب من مخالفتهم كتابك؛ فلذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣] وهذه الآية على هذه الرواية دلّت على أنه وجد في التوراة دلائل صحة نبوّته؛ إذ لو علموا أنه ليس في التوراة ما يدل على صحة نبوّته، لسارعوا إلى بيان ما فيها ولكنهم أسَرُّوا ذلك.

والرواية الرابعة: أن هذا الحكم عام في اليهود والنصارى، وذلك لأن دلائل نبوّة محمد ﷺ كانت موجودة في التوراة والإنجيل، وكانوا يُدعون إلى حكم التوراة والإنجيل وكانوا يأبون.

أما قوله: ﴿نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فالمراد منه نصيبًا من علم الكتاب؛ لأنا لو أجريناه على ظاهره فُهم أنهم قد أوتوا كل الكتاب والمراد بذلك العلماء منهم وهم الذين يُدعون إلى الكتاب؛ لأن من لا علم له بذلك لا يُدعى إليه.

أما قوله تعالى: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ ففيه قولان:

القول الأول: وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما والحسن أنه القرآن.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الحدود)، باب: (أحكام أهل الذمة) (١٢/ ١٧٢)، حديث رقم (٦٨٤١) من طريق مالك... به، ومسلم في كتاب (الحدود)، باب: (رجم اليهود أهل الذمة في الزنى) (٣/ ١٣٢٦) من طريق عبيد الله... به، جميعًا عن نافع... به.

(٢) لم أجده إلا في كتب التفاسير وبدون إسناد.

فإن قيل: كيف دُعوا إلى حكم كتاب لا يؤمنون به؟

قلنا: إنهم إنما دُعوا إليه بعد قيام الحجج الدالة على أنه كتاب من عند الله.

والقول الثاني : - وهو قول أكثر المفسرين - إنه التوراة.

واحتج القائلون به بوجوه: الأول: أن الروايات المذكورة في سبب النزول دالة على أن القوم كانوا يُدعون إلى التوراة، فكانوا يأبون. **والثاني:** أنه تعالى عَجَّب رسوله ﷺ من تمردهم وإعراضهم، والتعجب إنما يحصل إذا تمردوا عن حكم الكتاب الذي يعتقدون في صحته، ويقرون بحقيته.

الثالث: أن هذا هو المناسب لما قبل الآية، وذلك لأنه تعالى لما بيّن أنه ليس عليه إلا البلاغ، وصَبَّره على ما قالوه في تكذيبه مع ظهور الحجة، بيّن أنهم إنما استعملوا طريق المكابرة في نفس كتابهم الذي أقروا بصحته فستروا ما فيه من الدلائل الدالة على نبوّة محمد ﷺ، فهذا يدل على أنهم في غاية التعصب والبعد عن قَبول الحق.

واما قوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ فالمعنى: ليحكم الكتاب بينهم، وإضافة الحكم إلى الكتاب مجاز مشهور، وقرئ (لِيُحْكَمَ) على البناء للمفعول، قال صاحب (الكشاف): وقوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يقتضي أن يكون الاختلاف واقعًا فيما بينهم، لا فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ، ثم بيّن الله أنهم عند الدعاء يتولى فريق منهم، وهم الرؤساء الذين يزعمون أنهم هم العلماء.

ثم قال: ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ **وفيه وجهان:**

الأول: المتولون هم الرؤساء والعلماء والمُعْرِضون الباقون منهم، كأنه قيل: ثم يتولى العلماء والأتباع معرضون عن القَبول من النبي ﷺ لأجل تولي علمائهم.

والثاني: أن المتولي والمُعْرِض هو ذلك الفريق، والمعنى أنه متولٍ عن استماع الحجة في ذلك المقام ومُعْرِض عن استماع سائر الحجج في سائر المسائل والمطالب، كأنه قيل: لا تظن أنه تولى عن هذه المسألة بل هو مُعْرِض عن الكل.

واما قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤] فالكلام في تفسيره قد تقدم في سورة البقرة، ووجه النظم أنه تعالى لما قال في الآية الأولى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ قال في هذه الآية: ذلك التولي والإعراض إنما حصل بسبب أنهم قالوا: لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودات.

قال الجبائي: وفيها دلالة على بطلان قول من يقول: (إن أهل النار يخرجون من النار) قال: لأنه لو صحّ ذلك في هذه الأمة لصح في سائر الأمم، ولو ثبت ذلك في سائر الأمم لما كان المخبر بذلك كاذبًا، ولما استحق الذم، فلما ذكر الله تعالى ذلك في معرض الذم علمنا أن القول بخروج أهل النار قول باطل.

واقول: كان من حقه أن لا يذكر مثل هذا الكلام؛ وذلك لأن مذهبه أن العفو حسن جائز من الله تعالى، وإذا كان كذلك لم يلزم من حصول العفو في هذه الأمة حصوله في سائر الأمم.

سَلَّمنا أنه يلزم ذلك، لكن لمَ قلتم: إن القوم إنما استحقوا الذم على مجرد الإخبار بأن الفاسق يخرج من النار؟ بل هاهنا وجوه أُخر: **الأول:** لعلمهم استوجبوا الذم على أنهم قطعوا بأن مدة عذاب الفاسق قصيرة قليلة، فإنه روي أنهم كانوا يقولون: (مدة عذابنا سبعة أيام)، ومنهم من قال: (بل أربعون ليلة على قدر مدة عبادة العجل). **والثاني:** أنهم كانوا يتساهلون في أصول الدين ويقولون: (بتقدير وقوع الخطأ منا فإن عذابنا قليل) وهذا خطأ؛ لأن عندنا المخطىء في التوحيد والنبوّة والمعاد - عذابه دائم؛ لأنه كافر، والكافر عذابه دائم. **والثالث:** أنهم لما قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍۖ﴾[آل عمران: ٢٤] فقد استحقروا تكذيب محمد ﷺ واعتقدوا أنه لا تأثير له في تغليظ العقاب، فكان ذلك تصريحًا بتكذيب محمد ﷺ وذلك كفر، والكافر المُصر على كفره لا شك أن عذابه مخلد، وإذا كان الأمر على ما ذكرناه ثبت أن احتجاج الجبائي بهذه الآية ضعيف، وتمام الكلام على سبيل الاستقصاء مذكور في سورة البقرة.

أما قوله تعالى: ﴿وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾[آل عمران: ٢٤] فاعلم أنهم اختلفوا في المراد بقوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ فقيل: هو قولهم: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[المائدة: ١٨] وقيل: هو قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍۖ﴾ وقيل: غرهم قولهم: نحن على الحق وأنت على الباطل.

أما قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ فالمعنى أنه تعالى لما حكى عنهم اغترارهم بما هم عليه من الجهل، بيّن أنه سيجيء يوم يزول فيه ذلك الجهل، ويُكشف فيه ذلك الغرور فقال: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ وفي الكلام حذف، والتقدير: فكيف صُورتهم وحالهم؟ ويحذف الحال كثيرًا مع (كيف) لدلالته عليها، تقول: (كنت أكرمه وهو لم يزرني، فكيف لو زارني؟) أي كيف حاله إذا زارني، واعلم أن هذا الحذف يوجب مزيد البلاغة لِما فيه من تحريك النفس على استحضار كل نوع من أنواع الكرامة في قول القائل: (لو زارني) وكل نوع من أنواع العذاب في هذه الآية.

أما قوله تعالى: ﴿إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٍ﴾ ولم يقل في يوم؛ لأن المراد: لجزاء يوم أو لحساب يوم، فحذف المضاف ودلّت اللام عليه، قال الفرّاء: اللام لفعل مضمر، إذا قلت: (جمعوا ليوم الخميس)، كان المعنى: جُمعوا لفعل يوجد في يوم الخميس. وإذا قلت: (جُمعوا في يوم الخميس) لم تضمر فعلاً، وأيضًا: فمن المعلوم أن ذلك اليوم لا فائدة فيه إلا المجازاة وإظهار الفرق بين المثاب والمعاقب، وقوله: ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه.

ثم قال: ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا كَسَبَتۡ﴾ فإن حملت ﴿مَّا كَسَبَتۡ﴾ على عمل العبد جُعل في الكلام حذف، والتقدير: ووفيت كل نفس جزاء ما كسبت من ثواب أو عقاب. وإن حملت (ما كَسَبَتْ) على الثواب والعقاب استغنيت عن هذا الإضمار.

ثم قال: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ فلا ينقص من ثواب الطاعات، ولا يزاد على عقاب السيئات.

واعلم أن قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ يستدل به القائلون بالوعيد، ويستدل به أصحابنا القائلون بأن صاحب الكبيرة من أهل الصلاة لا يُخلد في النار:

أما الأولون قالوا: لأن صاحب الكبيرة لا شك أنه مستحق العقاب بتلك الكبيرة، والآية دلّت على أن كل نفس توفى عملها وما كسبت، وذلك يقتضي وصول العقاب إلى صاحب الكبيرة.

وجوابنا: أن هذا من العمومات، وقد تكلمنا في تمسك المعتزلة بالعمومات.

وأما أصحابنا فإنهم يقولون: إن المؤمن استحق ثواب الإيمان، فلا بد وأن يوفى عليه ذلك الثواب لقوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ فإما أن يثاب في الجنة ثم يُنقل إلى دار العقاب، وذلك باطل بالإجماع، وإما أن يقال: يعاقب بالنار ثم يُنقل إلى دار الثواب أبدًا مخلدًا، وهو المطلوب.

فإن قيل: لِمَ لا يجوز أن يقال: إن ثواب إيمانهم يحبط بعقاب معصيتهم؟

قلنا: هذا باطل لأنا بينا أن القول بالمحابطة محال في سورة البقرة، وأيضًا: فإنا نعلم بالضرورة أن ثواب توحيد سبعين سنة أَزْيَد من عقاب شرب جرعة من الخمر، والمُنازع فيه مكابر، فبتقدير القول بصحة المحابطة يمتنع سقوط كل ثواب الإيمان بعقاب شرب جرعة من الخمر، وكان يحيى بن معاذ رحمة الله عليه يقول: ثواب إيمان لحظة يُسقط كفر سبعين سنة، فثواب إيمان سبعين سنة كيف يُعقل أن يحبط بعقاب ذنب لحظة؟! ولا شك أنه كلام ظاهر.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد والنبوّة، وصحة دين الإسلام، ثم قال لرسوله: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠] ثم ذكر من صفات المخالفين كفرهم بالله، وقتْلهم الأنبياء والصالحين بغير حق، وذَكر شدة عنادهم وتمردهم في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٢٣] ثم ذكر شدة غرورهم بقوله: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤] ثم ذكر وعيدهم بقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥] أَمَر رسولَ الله ﷺ بدعاء وتمجيد يدل على مباينة طريقه وطريق أتباعه لطريقة هؤلاء الكافرين المعاندين المُعْرضين، فقال معلمًا نبيّه كيف يمجّد ويعظم ويدعو ويطلب: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾:

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اختلف النحويون في قوله: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ فقال الخليل وسيبويه: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾

معناه: يا ألله، والميم المشددة عوض من يا، وقال الفرّاء: كان أصلها، (يا الله أُمَّ بخير): فلما كثر في الكلام حذفوا حرف النداء، وحذفوا الهمزة من: (أم)، فصار (اللهم) ونظيره قول العرب: هلم، والأصل: هل، فضم: (أم) إليها، حجة الأولين على فساد قول الفرّاء وجوه؛ الأول: لو كان الأمر على ما قاله الفراء لما صحّ أن يقال: اللّهم افعل كذا إلا بحرف العطف، لأن التقدير: يا الله أمنا واغفر لنا، ولم نجد أحدًا يذكر هذا الحرف العاطف، والثاني: وهو حجة الزجاج أنه لو كان الأمر كما قال، لجاز أن يتكلم به على أصله، فيقال (وَيْلُ أُمِّه) كما يقال (ويلم) ثم يتكلم به على الأصل فيقال (وَيْلُ أُمِّهُ)، الثالث: لو كان الأمر على ما قاله الفراء لكان حرف النداء محذوفًا، فكان يجوز أن يقال: يا اللّهم، فلما لم يكن هذا جائزًا علمنا فساد قول الفراء بل نقول: كان يجب أن يكون حرف النداء لازمًا، كما يقال: يا ألله اغفر لي، وأجاب الفراء عن هذه الوجوه، فقال: أما الأول فضعيف، لأن قوله (يا الله أم) معناه: يا الله اقصد، فلو قال: واغفر لكان المعطوف مغايرًا للمعطوف عليه فحينئذ يصير السؤال سؤالين أحدهما: قوله (أمنا)، والثاني: قوله ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾[البقرة: ٢٨٦] أما إذا حذفنا العطف صار قوله: اغفر لنا تفسيرًا لقوله: أمنا. فكان المطلوب في الحالين شيئًا واحدًا فكان ذلك آكد، ونظائره كثيرة في القرآن، وأما الثاني فضعيف أيضًا، لأن أصله عندنا أن يقال: يا ألله أمنا. ومن الذي ينكر جواز التكلم بذلك، وأيضًا فلأن كثيرًا من الألفاظ لا يجوز فيها إقامة الفرع مقام الأصل، ألا ترى أن مذهب الخليل وسيبويه أن قوله: ما أكرمه، معناه: أي شيء أكرمه ثم إنه قط لا يستعمل هذا الكلام الذي زعموا أنه الأصل في معرض التعجب فكذا هاهنا، وأما الثالث: فمن الذي سلم لكم أنه لا يجوز أن يقالّ: يا اللّهم، وأنشد الفرّاء:

وما عليك أن تقولي كلما سبحت أو صليت يا اللهما

وقول البصريين: إن هذا الشعر غير معروف، فحاصله تكذيب النقل، ولو فتحنا هذا الباب لم يبق شيء من اللغة والنحو سليمًا عن الطعن، وأما قوله: كان يلزم أن يكون ذكر حرف النداء لازمًا فجوابه أنه قد يحذف حرف النداء كقوله ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾[يوسف: ٤٦] فلا يبعد أن يختص هذا الاسم بإلزام هذا الحذف، ثم احتج الفراء على فساد قول البصريين من وجوه؛ الأول: أنا لو جعلنا الميم قائمًا مقام حرف النداء لكنا قد أخرنا النداء عن ذكر المنادى، وهذا غير جائز البتة، فإنه لا يقال البتة: (الله يا) وعلى قولكم يكون الأمر كذلك، الثاني: لو كان هذا الحرف قائمًا مقام النداء لجاز مثله في سائر الأسماء، حتى يقال: زيدم وبكرم، كما يجوز أن يقال: يا زيد ويا بكر، والثالث: لو كان الميم بدلاً عن حرف النداء لما اجتمعا، لكنهما اجتمعا في الشعر الذي رويناه، الرابع: لم نجد العرب يزيدون هذه الميم في الأسماء التامة لإفادة معنى بعض الحروف المباينة للكلمة الداخلة عليها، فكان المصير إليه في هذه اللفظة الواحدة حكمًا على خلاف الاستقراء العام في اللغة وأنه غير جائز، فهذا جملة الكلام في هذا الموضع.

المسألة الثانية: ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ في نصبه وجهان؛ الأول: وهو قول سيبويه أنه منصوب على النداء، وكذلك قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[الزمر: ٤٦] ولا يجوز أن يكون نعتًا لقوله ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ لأن قولنا (اللهم) مجموع الاسم والحرف، وهذا المجموع لا يمكن وصفه، والثاني: وهو قول المبرد والزجاج أن (مالك) وصف للمنادى المفرد، لأن هذا الاسم ومعه الميم بمنزلته ومعه (يا) ولا يمتنع الصفة مع الميم، كما لا يمتنع مع الياء.

المسألة الثالثة: روي أن النبي ﷺ حين افتتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم، فقال المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم، وهم أعز وأمنع من ذلك، وروي أنه عليه الصلاة والسلام لما خط الخندق عام الأحزاب، وقطع لكل عشرة أربعين ذراعًا، وأخذوا يحفرون خرج من بطن الخندق صخرة كالتل العظيم لم تعمل فيها المعاول، فوجهوا سلمان إلى النبي ﷺ فخبره، فأخذ المعول من سلمان فلما ضربها ضربة صدعَهَا، وبَرَقَ مِنهَا بَرْقٌ أضَاءَ ما بَيْنَ لابَتَيْها، كأنه مصباح في جوْف ليل مظلم، فكَبَّرَ، وكَبَّرَ المسلمونَ، وقال عليه الصلاة والسلام: «أضَاءَتْ لي مِنهَا قُصُور الحيرة كأنَّها أنيابُ الكِلاب» ثم ضرب الثانية، فقال: «أضَاءَتْ لي مِنها القُصورُ الحُمْر مِنْ أرْضِ الرُّومِ» ثم ضرب الثالثة فقال: «أضاءت لي منها قُصُورُ صَنعاء، وأخبَرَنِي جِبْرِيل عليه السلام أنَّ أُمَّتِي ظَاهِرةٌ علَى كُلِّها فأبْشِرُوا»(١) فقال المنافقون: ألا تعجبون من نبيّكم يعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومداين كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق من الخوف لا تستطيعون أن تخرجوا فنزلت هذه الآية والله أعلم، وقال الحسن: إن الله تعالى أمر نبيّه أن يسأله أن يعطيه ملك فارس والروم ويرد ذل العرب عليهما، وأمره بذلك دليل على أنه يستجيب له هذا الدعاء، وهكذا منازل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا أمروا بدعاء استجيب دعاؤهم.

المسألة الرابعة: ﴿ٱلۡمُلۡكِ﴾ هو القدرة، والمالك هو القادر، فقوله: ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ معناه: القادر على القدرة، والمعنى إن قدرة الخلق على كل ما يقدرون عليه ليست إلا بإقدار الله تعالى فهو الذي يقدر كل قادر على مقدوره، ويملك كل مالك مملوكه، قال صاحب (الكشاف) ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ أي: يملك جنس الملك فيتصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون، واعلم أنه تعالى لما بيّن كونه ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ على الإطلاق، فصل بعد ذلك وذكر منه أنواعًا خمسة:

النوع الأول: قوله تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ وذكروا فيه وجوهًا الأول: المراد منه: ملك النبوّة والرسالة، كما قال تعالى: ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٥٤] والنبوّة أعظم مراتب الملك؛ لأن العلماء لهم أمر عظيم على

(١) أخرجه الطبري في (تفسيره) (٢١/ ١٣٣/ ١٣٤)، وابن سعد في (الطبقات الكبرى) (٤/ ٨٢)، كلاهما من طريق محمد بن خالد بن عثمة قال حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني قال حدثني أبي عن أبيه. . . فذكره. ضمن حديث طويل في حفر الخندق.

بواطن الخلق والجبابرة لهم أمر على ظواهر الخلق والأنبياء أمرهم نافذ في البواطن والظواهر، فأما على البواطن فلأنه يجب على كل أحد أن يقبل دينهم وشريعتهم، وأن يعتقد أنه هو الحق، وأما على الظواهر فلأنهم لو تمردوا واستكبروا لاستوجبوا القتل، ومما يؤكد هذا التأويل أن بعضهم كان يستبعد أن يجعل الله تعالى بشرًا رسولاً فحكى الله عنهم قولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩] وقوم آخرون جوزوا من الله تعالى أن يرسل رسولاً من البشر، إلا أنهم كانوا يقولون: إن محمدًا فقير يتيم، فكيف يليق به هذا المنصب العظيم على ما حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وأما اليهود فكانوا يقولون: النبوّة كانت في آبائنا وأسلافنا، وأما قريش فهم ما كانوا أهل النبوّة والكتاب فكيف يليق النبوّة بمحمد ﷺ؟ وأما المنافقون فكانوا يحسدونه على النبوّة، على ما حكى الله ذلك عنهم في قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤].

وأيضًا فقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢] أن اليهود تكبروا على النبي ﷺ بكثرة عددهم وسلاحهم وشدتهم، ثم إنه تعالى رد على جميع هؤلاء الطوائف بأن بيّن أنه سبحانه هو مالك الملك فيؤتي ملكه من يشاء، فقال ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾.

فإن قيل: فإذا حملتم قوله: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ على إيتاء ملك النبوّة، وجب أن تحملوا قوله ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ على أنه قد يعزل عن النبوّة من جعله نبيًّا، ومعلوم أن ذلك لا يجوز.

قلنا: الجواب من وجهين: الأول: أن الله تعالى إذا جعل النبوّة في نسل رجل، فإذا أخرجها الله من نسله، وشرّف بها إنسانًا آخر من غير ذلك النسل، صح أن يقال إنه تعالى نزعها منهم، واليهود كانوا معتقدين أن النبوّة لا بد وأن تكون في بني إسرائيل، فلما شرف الله تعالى محمدًا ﷺ بها، صح أن يقال: إنه ينزع ملك النبوّة من بني إسرائيل إلى العرب.

والجواب الثاني: أن يكون المراد من قوله ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ أي: تحرمهم ولا تعطيهم هذا الملك لا على معنى أنه يسلبه ذلك بعد أن أعطاه، ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] مع أن هذا الكلام يتناول من لم يكن في ظلمة الكفر قط، وقال الله تعالى مخبرًا عن الكفار أنهم قالوا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] وأولئك الأنبياء قالوا: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٨٩] مع أنهم ما كانوا فيها قط، فهذا جملة الكلام في تقرير قول من فسّر قوله تعالى: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ بملك النبوة.

القول الثاني: أن يكون المراد من الملك، ما يسمى ملكًا في العرف، وهو عبارة عن مجموع

أشياء أحدها: تكثير المال والجاه، أما تكثير المال فيدخل فيه ملك الصامت والناطق والدور والضياع، والحرث، والنسل، وأما تكثير الجاه فهو أن يكون مهيبًا عند الناس، مقبول القول، مطاعًا في الخلق، والثاني: أن يكون بحيث يجب على غيره أن يكون في طاعته، وتحت أمره ونهيه، والثالث: أن يكون بحيث لو نازعه في ملكه أحد، قدر على قهر ذلك المنازع، وعلى غلبته، ومعلوم أن كل ذلك لا يحصل إلا من الله تعالى، أما تكثير المال فقد نرى جمعًا في غاية الكياسة لا يحصل لهم مع الكد الشديد، والعناء العظيم قليل من المال، ونرى الأبله الغافل قد يحصل له من الأموال ما لا يعلم كميته، وأما الجاه فالأمر أظهر، فإنا رأينا كثيرًا من الملوك بذلوا الأموال العظيمة لأجل الجاه، وكانوا كل يوم أكثر حقارة ومهانة في أعين الرعية، وقد يكون على العكس من ذلك وهو أن يكون الإنسان معظمًا في العقائد مهيبًا في القلوب، ينقاد له الصغير والكبير، ويتواضع له القاصي والداني، وأما القسم الثاني وهو كونه واجب الطاعة، فمعلوم أن هذا تشريف يشرف الله تعالى به بعض عباده، وأما القسم الثالث، وهو حصول النصرة والظفر فمعلوم أن ذلك مما لا يحصل إلا من الله تعالى، فكم شاهدنا من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، وعند هذا يظهر بالبرهان العقلي صحة ما ذكره الله تعالى من قوله: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ .

واعلم أن للمعتزلة هاهنا بحثًا قال الكعبي: قوله: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ ليس على سبيل المختارية، ولكن بالاستحقاق فيؤتيه من يقوم به، ولا ينزعه إلا ممن فسق عن أمر ربه، ويدل عليه قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] وقال في حق العبد الصالح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] فجعله سببًا للملك، وقال الجبائي: هذا الحكم مختص بملوك العدل، فأما ملوك الظلم فلا يجوز أن يكون ملكهم بإيتاء الله، وكيف يصح أن يكون ذلك بإيتاء الله، وقد ألزمهم أن لا يتملكوه، ومنعهم من ذلك فصح بما ذكرنا أن الملوك العادلين هم المختصون بأن الله تعالى آتاهم ذلك الملك، فأما الظالمون فلا، قالوا: ونظير هذا ما قلناه في الرزق أنه لا يدخل تحته الحرام الذي زجره الله عن الانتفاع به، وأمره بأن يرده على مالكه فكذا هاهنا، قالوا: وأما النزع فبخلاف ذلك لأنه كما ينزع الملك من الملوك العادلين لمصلحة تقتضي ذلك فقد ينزع الملك عن الملوك الظالمين ونزع الملك يكون بوجوه: منها بالموت، وإزالة العقل، وإزالة القوى، والقدر والحواس، ومنها بورود الهلاك والتلف عن الأموال، ومنها أن يأمر الله تعالى المحق بأن يسلب الملك الذي في يد المتغلب المبطل ويؤتيه القوة والنصرة، فإذا حاربه المحق وقهره وسلب ملكه جاز أن يضاف هذا السلب والنزع إليه تعالى، لأنه وقع عن أمره، وعلى هذا الوجه نزع الله تعالى ملك فارس على يد الرسول، هذا جملة كلام المعتزلة في هذا الباب.

واعلم أن هذا الموضع مقام بحث مهم وذلك لأن حصول الملك للظالم، إما أن يقال: إنه

وقع لا عن فاعل وإنما حصل بفعل ذلك المتغلب، أو إنما حصل بالأسباب الربانية، والأول: نفي للصانع، والثاني: باطل لأن كل أحد يريد تحصيل الملك والدولة لنفسه، ولا يتيسر له البتة فلم يبق إلا أن يقال بأن ملك الظالمين إنما حصل بإيتاء الله تعالى، وهذا الكلام ظاهر، ومما يؤكد ذلك أن الرجل قد يكون بحيث تهابه النفوس، وتميل إليه القلوب، ويكون النصر قرينًا له والظفر جليسًا معه فأينما توجه حصل مقصوده، وقد يكون على الضد من ذلك، ومن تأمل في كيفية أحوال الملوك اضطر إلى العلم بأن ذلك ليس إلا بتقدير الله تعالى، ولذلك قال حكيم الشعراء(١):

لَو كانَ بِالحِيَلِ الغِنى لَوَجَدتَني ... بِأَجَلِّ أَقطارِ السَماءِ تَعَلُّقي
لَكِنَّ مَن رُزِقَ الحِجا حُرِمَ الغِنى ... ضِدّانِ مُفتَرِقانِ أَيَّ تَفَرُّقِ
وَمِنَ الدَّليلِ عَلى القَضاءِ وكَونِه ... بُؤسُ اللَبيبِ وَطيبُ عَيشِ الأَحمَقِ

والقول الثاني: أن قوله ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ محمول على جميع أنواع الملك فيدخل فيه ملك النبوّة، وملك العلم، وملك العقل، والصحة والأخلاق الحسنة، وملك النفاذ والقدرة وملك المحبة، وملك الأموال، وذلك لأن اللفظ عام فالتخصيص من غير دليل لا يجوز.

وأما قوله تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ﴾ فاعلم أن العزة قد تكون في الدين، وقد تكون في الدنيا، أما في الدين فأشرف أنواع العزة الإيمان قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[المنافقون: ٨] إذا ثبت هذا فنقول: لما كان أعز الأشياء الموجبة للعزة هو الإيمان، وأذل الأشياء الموجبة للمذلة هو الكفر، فلو كان حصول الإيمان والكفر بمجرد مشيئة العبد، لكان إعزاز العبد نفسه بالإيمان وإذلاله نفسه بالكفر أعظم من إعزاز الله عبده بكل ما أعزه به، ومن إذلال الله عبده بكل ما أذله به ولو كان الأمر كذلك لكان حظ العبد من هذا الوصف أتم وأكمل من حظ الله تعالى منه، ومعلوم أن ذلك باطل قطعًا، فعلمنا أن الإعزاز بالإيمان والحق ليس إلا من الله، والإذلال بالكفر والباطل ليس إلا من الله، وهذا وجه قوي في المسألة، قال القاضي: الإعزاز المضاف إليه تعالى قد يكون في الدين، وقد يكون في الدنيا أما الذي في الدين فهو أن الثواب لا بد وأن يكون مشتملاً على التعظيم والمدح والكرامة في الدنيا والآخرة، وأيضًا فإنه تعالى يمدهم بمزيد الألطاف ويعليهم على الأعداء بحسب المصلحة، وأما ما يتعلق بالدنيا فبإعطاء الأموال الكثيرة من الناطق والصامت وتكثير الحرث وتكثير النتاج في الدواب، وإلقاء الهيبة في قلوب الخلق.

واعلم أن كلامنا يأبى ذلك لأن كل ما يفعله الله تعالى من التعظيم في باب الثواب فهو حق واجب على الله تعالى ولو لم يفعله لانعزل عن الإلهية ولخرج عن كونه إلهًا للخلق فهو تعالى بإعطاء هذه التعظيمات يحفظ إلهية نفسه عن الزوال فأما العبد، فلما خص نفسه بالإيمان الذي

(١) رأينا هذه الأبيات للإمام الشافعي مع تغيير طفيف، والله أعلم.

يوجب هذه التعظيمات فهو الذي أعز نفسه فكان إعزازه لنفسه أعظم من إعزاز الله تعالى إياه، فعلمنا أن هذا الكلام المذكور لازم على القوم.

اما قوله: ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ فقال الجبائي في (تفسيره): إنه تعالى إنما يذل أعداءه في الدنيا والآخرة ولا يذل أحدًا من أوليائه وإن أفقرهم وأمرضهم وأحوجهم إلى غيرهم، لأنه تعالى إنما يفعل هذه الأشياء ليعزهم في الآخرة، إما بالثواب، وإما بالعوض فصار ذلك كالفصد والحجامة فإنهما وإن كانا يؤلمان في الحال إلا أنهما لما كانا يستعقبان نفعًا عظيمًا لا جرم لا يقال فيهما: إنهما تعذيب، قال: وإذا وصف الفقر بأنه ذل فعلى وجه المجاز كما سمى الله تعالى لين المؤمنين ذلاً بقوله ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

إذا عرفت هذا فنقول: إذلال الله تعالى عبده المبطل إنما يكون بوجوه منها بالذم واللعن ومنها بأن يخذلهم بالحجة والنصرة، ومنها بأن يجعلهم خولاً لأهل دينه، ويجعل مالهم غنيمة لهم ومنها بالعقوبة لهم في الآخرة هذا جملة كلام المعتزلة، ومذهبنا أنه تعالى يعز البعض بالإيمان والمعرفة، ويذل البعض بالكفر والضلالة، وأعظم أنواع الإعزاز والإذلال هو هذا والذي يدل عليه وجوه؛ الأول: وهو أن عز الإسلام وذل الكفر لا بد فيه من فاعل وذلك الفاعل إما أن يكون هو العبد أو الله تعالى والأول باطل، لأن أحدًا لا يختار الكفر لنفسه، بل إنما يريد الإيمان والمعرفة والهداية فلما أراد العبد الإيمان ولم يحصل له بل حصل له الجهل، علمنا أن حصوله من الله تعالى لا من العبد، الثاني: وهو أن الجهل الذي يحصل للعبد إما أن يكون بواسطة شبهة وإما أن يقال: يفعله العبد ابتداء، والأول باطل إذ لو كان كل جهل إنما يحصل بجهل آخر يسبقه ويتقدمه لزم التسلسل وهو محال، فبقي أن يقال: تلك الجهات تنتهي إلى جهل يفعله العبد ابتداء من غير سبق موجب البتة لكنا نجد من أنفسنا أن العاقل لا يرضى لنفسه أن يصير على الجهل ابتداء من غير موجب فعلمنا أن ذلك بإذلال الله عبده وبخذلانه إياه، الثالث: ما بينا أن الفعل لا بد فيه من الداعي والمرجح، وذلك المرجح يكون من الله تعالى فإن كان في طرف الخير كان إعزازًا، وإن كان في طرف الجهل والشر والضلالة كان إذلالاً، فثبت أن المعز والمذل هو الله تعالى.

اما قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ : فاعلم أن المراد من اليد هو القدرة، والمعنى بقدرتك الخير والألف واللام في الخير يوجبان العموم، فالمعنى بقدرتك تحصل كل البركات والخيرات، وأيضًا فقوله ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ يفيد الحصر كأنه قال: بيدك الخير لا بيد غيرك، كما أن قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرين: ٦] أي: لكم دينكم أي: لا لغيركم وذلك الحصر ينافي حصول الخير بيد غيره، فثبت دلالة هذه الآية من هذين الوجهين على أن جميع الخيرات منه، وبتكوينه وتخليقه وإيجاده وإبداعه، إذا عرفت هذا فنقول: أفضل الخيرات هو الإيمان بالله تعالى ومعرفته، فوجب أن يكون الخير من تخليق الله تعالى لا من تخليق العبد، وهذا استدلال ظاهر

ومن الأصحاب من زاد في هذا التقدير فقال: كل فاعلين فعل أحدهما أشرف وأفضل من فعل الآخر كان ذلك الفاعل أشرف وأكمل من الآخر، ولا شك أن الإيمان أفضل من الخير، ومن كل ما سوى الإيمان فلو كان الإيمان بخلق العبد لا بخلق الله لوجب كون العبد زائدًا في الخيرية على الله تعالى، وفي الفضيلة والكمال، وذلك كفر قبيح فدلت هذه الآية من هذين الوجهين على أن الإيمان بخلق الله تعالى.

فإن قيل: فهذه الآية حجة عليكم من وجه آخر لأنه تعالى لما قال: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ كان معناه أنه ليس بيدك إلا الخير، وهذا يقتضي أن لا يكون الكفر والمعصية واقعين بتخليق الله.

والجواب: أن قوله ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ يفيد أن بيده الخير لا بيد غيره، وهذا ينافي أن يكون الخير بيد غيره ولكن لا ينافي أن يكون بيده الخير وبيده ما سوى الخير إلا أنه خص الخير بالذكر لأنه الأمر المنتفع به فوقع التنصيص عليه لهذا المعنى قال القاضي: كل خير حصل من جهة العباد فلولا أنه تعالى أقدرهم عليه وهداهم إليه لما تمكنوا منه، فلهذا السبب كان مضافًا إلى الله تعالى إلا أن هذا ضعيف لأن على هذا التقدير يصير بعض الخير مضافًا إلى الله تعالى، ويصير أشرف الخيرات مضافًا إلى العبد، وذلك على خلاف هذا النص، أما قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهذا كالتأكيد لما تقدم من كونه مالكًا لإيتاء الملك ونزعه والإعزاز والإذلال.

أما قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾

فيه وجهان:

الأول: أنه يجعل الليل قصيرًا ويجعل ذلك القدر الزائد داخلاً في النهار وتارة على العكس من ذلك وإنما فعل سبحانه وتعالى ذلك لأنه علق قوام العالم ونظامه بذلك، والثاني: أن المراد هو أنه تعالى يأتي بالليل عقيب النهار، فيلبس الدنيا ظلمة بعد أن كان فيها ضوء النهار، ثم يأتي بالنهار عقيب الليل فيلبس الدنيا ضوءه فكان المراد من إيلاج أحدهما في الآخر إيجاد كل واحد منهما عقيب الآخر، والأول أقرب إلى اللفظ، لأنه إذا كان النهار طويلاً فجعل ما نقص منه زيادة في الليل كان ما نقص منه داخلاً في الليل.

وأما قوله ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وحمزة والكسائي (الميت) بالتشديد، والباقون بالتخفيف، وهما لغتان بمعنى واحد، قال المبرد: أجمع البصريون على أنهما سواء، وأنشدوا:

إنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأحياءِ

وهو مثل قوله: هَيْن وهَيِّن، ولَيْن ولَيِّن، وقد ذهب ذاهبون إلى أن الميت من قد مات، والميت من لم يمت.

المسألة الثانية: ذكر المفسرون فيه وجوهًا: أحدها: يخرج المؤمن من الكافر كإبراهيم من آزر، والكافر من المؤمن مثل كنعان من نوح عليه السلام، والثاني: يخرج الطيب من الخبيث وبالعكس، والثالث: يخرج الحيوان من النطفة، والطير من البيضة وبالعكس، والرابع: يخرج السنبلة من الحبة وبالعكس، والنخلة من النواة وبالعكس، قال القفّال رحمه الله: والكلمة محتملة للكل أما الكفر والإيمان فقال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] يريد كان كافرًا فهديناه فجعل الموت كفرًا والحياة إيمانًا، وسمى إخراج النبات من الأرض إحياء، وجعل قبل ذلك ميتة فقال ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ١٩] وقال: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [فاطر: ٩] وقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]

أما قوله: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

ففيه وجوه:

الأول: أنه يعطي من يشاء ما يشاء لا يحاسبه على ذلك أحد، إذ ليس فوقه ملك يحاسبه بل هو الملك يعطي من يشاء بغير حساب، والثاني: ترزق من تشاء غير مقدور ولا محدود، بل تبسطه له وتوسعه عليه كما يقال: فلان ينفق بغير حساب إذا وصف عطاؤه بالكثرة، ونظيره قولهم في تكثير مال الإنسان: عنده مال لا يحصى، والثالث: ترزق من تشاء بغير حساب، يعني على سبيل التفضل من غير استحقاق لأن من أعطى على قدر الاستحقاق فقد أعطى بحساب، وقال بعض من ذهب إلى هذا المعنى: إنك لا ترزق عبادك على مقادير أعمالهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

في كيفية النظم وجهان؛ الأول: أنه تعالى لما ذكر ما يجب أن يكون المؤمن عليه في تعظيم الله تعالى، ثم ذكر بعده ما يجب أن يكون المؤمن عليه في المعاملة مع الناس، لأن كمال الأمر ليس إلا في شيئين: التعظيم لأمر الله تعالى، والشفقة على خلق الله قال: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الثاني: لـمّا بيّن أنه تعالى مالك الدنيا والآخرة بين أنه ينبغي أن تكون الرغبة فيما عنده، وعند أوليائه دون أعدائه.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في سبب النزول وجوه: الأول: جاء قوم من اليهود إلى قوم من المسلمين ليفتنوهم عن دينهم فقال رفاعة بن المنذر، وعبد الرحمن بن جبير، وسعيد بن خيثمة لأولئك

النفر من المسلمين: اجتنبوا هؤلاء اليهود، واحذروا أن يفتنوكم عن دينكم فنزلت هذه الآية، والثاني: قال مقاتل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره، وكانوا يظهرون المودة لكفار فنهاهم الله عنها، الثالث في عبد الله بن أبي وأصحابه وكانوا يتولون اليهود والمشركين ويخبرونهم بالأخبار ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية، الرابع: أنها نزلت في عبادة بن الصامت، وكان له حلفاء من اليهود، ففي يوم الأحزاب قال: يا نبي الله، إن معي خمسمائة من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معي فنزلت هذه الآية.

فإن قيل: إنه تعالى قال: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾ وهذه صفة الكافر.

قلنا: معنى الآية فليس من ولاية الله في شيء، وهذا لا يوجب الكفر في تحريم موالاة الكافرين. واعلم أنه تعالى أنزل آيات أخر كثيرة في هذا المعنى منها قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١١٨] وقوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمًا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١] وقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١] وقال: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [التوبة: ٧١].

واعلم أن كون المؤمن مواليا للكافر يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون راضيًا بكفره ويتولاه لأجله، وهذا ممنوع منه لأن كل من فعل ذلك كان مصوبًا له في ذلك الدين، وتصويب الكفر كفر والرضا بالكفر كفر، فيستحيل أن يبقى مؤمنًا مع كونه بهذه الصفة.

فإن قيل: أليس أنه تعالى قال: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾ وهذا لا يوجب الكفر فلا يكون داخلاً تحت هذه الآية، لأنه تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الممتحنة: ١] فلا بد وأن يكون خطابًا في شيء يبقى المؤمن معه مؤمنًا، وثانيها: المعاشرة الجميلة في الدنيا بحسب الظاهر، وذلك غير ممنوع منه.

والقسم الثالث: وهو كالمتوسط بين القسمين الأولين، هو أن موالاة الكفار بمعنى الركون إليهم والمعونة، والمظاهرة، والنصرة إما بسبب القرابة، أو بسبب المحبة، مع اعتقاد أن دينه باطل؛ فهذا لا يوجب الكفر إلا أنه منهي عنه، لأن الموالاة بهذا المعنى قد تجره إلى استحسان طريقته والرضا بدينه، وذلك يخرجه عن الإسلام فلا جرم هدد الله تعالى فيه فقال: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون المراد من الآية النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء بمعنى أن يتولوهم دون المؤمنين، فأما إذا تولوهم وتولوا المؤمنين معهم فذلك ليس بمنهي عنه، وأيضًا فقوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾ فيه زيادة مزية، لأن الرجل قد يوالي غيره ولا يتخذه مواليًا فالنهي عن اتخاذه مواليًا لا يوجب النهي عن أصل موالاته.

قلنا: هذان الاحتمالان وإن قاما في الآية إلا أن سائر الآيات الدالة على أنه لا تجوز موالاتهم

دلّت على سقوط هذين الاحتمالين.

المسألة الثانية: إنما كسرت الذال من يتخذ لأنها مجزومة للنهي، وحركت لاجتماع الساكنين قال الزجاج: ولو رفع على الخبر لجاز، ويكون المعنى على الرفع أن من كان مؤمنًا فلا ينبغي أن يتخذ الكافر وليًّا، واعلم أن معنى النهي ومعنى الخبر يتقاربان؛ لأنه متى كانت صفة المؤمن أن لا يوالي الكافر كان لا محالة منهيًّا عن موالاة الكافر، ومتى كان منهيًّا عن ذلك، كان لا محالة من شأنه وطريقته أن لا يفعل ذلك.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من غير المؤمنين كقوله: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣] أي: من غير الله، وذلك لأن لفظ دون مختص بالمكان، تقول: زيد جلس دون عمرو أي: في مكان أسفل منه، ثم إن من كان مباينًا لغيره في المكان فهو مغاير له فجعل لفظ دون مستعملاً في معنى (غير)، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ وفيه حذف، والمعنى: فليس من ولاية الله في شيء يقع عليه اسم الولاية يعني أنه منسلخ من ولاية الله تعالى رأسًا، وهذا أمر معقول فإن موالاة الولي، وموالاة عدوه ضدان، قال الشاعر [(١)]:

تَـوَدُّ عَـدُوِّي ثُـمَّ تَـزعُـمُ أنَّـنـي ... صَدِيقُكَ ليس النوكُ عنك بِعازِب

ويحتمل أن يكون المعنى: فليس من دين الله في شيء وهذا أبلغ.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ الكسائي: تقاة بالإمالة، وقرأ نافع وحمزة: بين التفخيم والإمالة، والباقون بالتفخيم، وقرأ يعقوب تقية، وإنما جازت الإمالة لتؤذن أن الألف من الياء، وتقاة وزنها فعلة نحو تؤدة وتخمة، ومن فخم فلأجل الحرف المستعلي وهو القاف.

المسألة الثانية: قال الواحدي: تقيته تقاة، وتقى، وتقية، وتقوى، فإذا قلت: اتقيت كان مصدره الاتقاء، وإنما قال تتقوا ثم قال: تقاة ولم يقل اتقاء، لأن تقاة اسم وضع موضع المصدر، كما يقال: جلس جلسة، وركب ركبة، وقال الله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] وقال الشاعر:

وبَـعـدَ عَـطـائِـكَ الـمـائـةَ الـرِّتـاعـا [(٢)]

---

(١) البيت للنابغة الشيباني وهو عبد الله بن المخارق بن سليم بن حضيرة بن قيس، من بني شيبان. ؟ - ١٢٥هـ/ ؟ ٧٤٣م، شاعر بدوي من شعراء العصر الأموي. كان يفد إلى الشام فيمدح الخلفاء من بني أمية، ويجزلون له العطاء. مدح عبد الملك بن مروان وولده من بعده، وله في الوليد مدائح كثيرة، ومات في أيام الوليد بن يزيد.

(٢) البيت للقطامي التغلبي وهو عُمير بن شُييم بن عمرو بن عبّاد، من بني جُشَم بن بكر، أبو سعيد، التغلبي الملقب بالقطامي. ؟ - ١٣٠هـ/ ؟ - ٧٤٧م. شاعر غزل فحل، كان من نصارى تغلب في العراق، وأسلم. وجعله ابن سلام في الطبقة الثانية من الإسلاميين، وقال: الأخطل أبعد منه ذكرًا وأمتن شعرًا.

فأجراه مجرى الإعطاء، قال: ويجوز أن يجعل تقاة هاهنا مثل رماة فيكون حالاً مؤكدة.

المسألة الثالثة: قال الحسن أخذ مسيلمة الكذاب رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ فقال لأحدهما: أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ نَعَمْ نَعَمْ، فقَالَ: أفشهد أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ - وكان مسيلمة يزعم أنه رسول بني حنيفة، ومحمد رسول قريش - فتركه ثُمَّ دَعَا بِالآخَرِ وَقَالَ: أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: أفتشهد أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ فقَالَ: إِنِّي أَصَمُّ، ثلاثًا؛ فقدمه وقتله، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فقَالَ: «أَمَّا هَذَا الْمَقْتُولُ فَمَضَى عَلَى صِدْقِهِ وَيَقِينِهِ فَهَنِيئًا لَهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَقَبِلَ رُخْصَةَ اللَّهِ فَلَا تَبِعَةَ عَلَيْهِ» (١).

واعلم أن نظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

المسألة الرابعة: اعلم أن للتقية أحكامًا كثيرة ونحن نذكر بعضها.

الحكم الأول: أن التقية إنما تكون إذا كان الرجل في قوم كفار، ويخاف منهم على نفسه وماله فيداريهم باللسان، وذلك بأن لا يظهر العداوة باللسان، بل يجوز أيضًا أن يظهر الكلام الموهم للمحبة والموالاة، ولكن بشرط أن يضمر خلافه، وأن يعرض في كل ما يقول، فإن التقية تأثيرها في الظاهر لا في أحوال القلوب.

الحكم الثاني للتقية: هو أنه لو أفصح بالإيمان والحق حيث يجوز له التقية كان ذلك أفضل، ودليله ما ذكرناه في قصة مسيلمة.

الحكم الثالث للتقية: أنها إنما تجوز فيما يتعلق بإظهار الموالاة والمعاداة، وقد تجوز أيضًا فيما يتعلق بإظهار الدين فأما ما يرجع ضرره إلى الغير كالقتل والزنا وغصب الأموال والشهادة بالزور وقذف المحصنات واطلاع الكفار على عورات المسلمين، فذلك غير جائز البتة.

الحكم الرابع: ظاهر الآية يدل على أن التقية إنما تحل مع الكفار الغالبين إلا أن مذهب الشافعي رضي الله عنه أن الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحالة بين المسلمين والمشركين حلت التقية محاماة على النفس.

الحكم الخامس: التقية جائزة لصون النفس، وهل هي جائزة لصون المال يحتمل أن يحكم فيها بالجواز، لقوله ﷺ: «حُرْمَةُ مَالِ المسلم كَحُرْمَةِ دَمِهِ» (٢) ولقوله ﷺ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ» (٣) ولأن الحاجة إلى المال شديدة والماء إذا بيع بالغبن سقط فرض الوضوء، وجاز

---

(١) إسناده ضعيف: أورده النيسابوري في (غرائب القرآن) (٢/ ١٤٠)، وقال: روى الحسن أنه أخذ مسيلمة الكذاب رجلين... وذكر القصة وهي رواية ضعيفة مرسلة.

(٢) تقدم.

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (السنة)، باب: (في قتال اللصوص) (٤/ ٢٠٤٠)، حديث رقم (٤٧٧٢)، والترمذي في كتاب (الديات)، باب: (ما جاء في من قتل دون ماله فهو شهيد) (٤/ ٢٢)، حديث رقم (١٤٢١)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، والنسائي في كتاب (التحريم)، باب: (من قاتل دون أهله) (٧/ ١٣٢)، حديث رقم (٤١٠٥)، وأحمد في (مسنده) (١/ ١٩٠)، حديث رقم (١٦٥٢)، جميعًا من طريق إبراهيم بن سعد... به.

الاقتصار على التيمم دفعًا لذلك القدر من نقصان المال، فكيف لا يجوز هاهنا، والله أعلم.

الحكم السادس: قال مجاهد: هذا الحكم كان ثابتًا في أول الإسلام لأجل ضعف المؤمنين فأما بعد قوة دولة الإسلام فلا، وروى عوف عن الحسن: أنه قال التقية جائزة للمؤمنين إلى يوم القيامة، وهذا القول أولى، لأن دفع الضرر عن النفس واجب بقدر الإمكان.

ثم قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ وفيه قولان؛ الأول: أن فيه محذوفًا، والتقدير: ويحذركم الله عقاب نفسه، وقال أبو مسلم المعنى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ أن تعصوه فتستحقوا عقابه والفائدة في ذكر النفس أنه لو قال: ويحذركم الله فهذا لا يفيد أن الذي أريد التحذير منه أهو عقاب يصدر من الله أو من غيره، فلما ذكر النفس زال هذا الاشتباه، ومعلوم أن العقاب الصادر عنه يكون أعظم أنواع العقاب لكونه قادرًا على ما لا نهاية له، وأنه لا قدرة لأحد على دفعه ومنعه مما أراد.

والقول الثاني: أن النفس هاهنا تعود إلى اتخاذ الأولياء من الكفار، أي: ينهاهم الله عن نفس هذا الفعل.

ثم قال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ والمعنى: إن الله يحذركم عقابه عند مصيركم إلى الله.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩﴾

اعلم أنه تعالى لما نهى المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء ظاهرًا وباطنًا واستثنى عنه التقية في الظاهر أتبع ذلك بالوعيد على أن يصير الباطن موافقًا للظاهر في وقت التقية، وذلك لأن من أقدم عند التقية على إظهار الموالاة، فقد يصير إقدامه على ذلك الفعل بحسب الظاهر سببًا لحصول تلك الموالاة في الباطن، فلا جرم بيّن تعالى أنه عالم بالبواطن كعلمه بالظواهر، فيعلم العبد أنه لا بد أن يجازيه على كل ما عزم عليه في قلبه، وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: هذه الآية جملة شرطية فقوله: ﴿إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ﴾ شرط، وقوله: ﴿يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ جزاء ولا شك أن الجزاء مترتب على الشرط متأخر عنه، فهذا يقتضي حدوث علم الله تعالى.

والجواب: أن تعلق علم الله تعالى بأنه حصل الآن لا يحصل إلا عند حصوله الآن، ثم إن هذه التبدل والتجدد إنما وقع في النسب والإضافات والتعليقات لا في حقيقة العلم، وهذه المسألة لها غور عظيم وهي مذكورة في علم الكلام.

السؤال الثاني: محل البواعث والضمائر هو القلب، فلم قال: ﴿إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾ ولم يقل إن تخفوا ما في قلوبكم؟.

الجواب: لأن القلب في الصدر، فجاز إقامة الصدر مقام القلب كما قال: ﴿يُوَسۡوِسُ فِي

﴿صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥] وقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

السؤال الثالث: إن كانت هذا الآية وعيدًا على كل ما يخطر بالبال فهو تكليف ما لا يطاق.

الجواب: ذكرنا تفصيل هذه الكلام في آخر سورة البقرة في قوله: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

ثم قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾.

واعلم أنه رفع على الاستئناف، وهو كقوله: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ١٤] جزم الأفاعيل، ثم قال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ١٥] فرفع، ومثله قوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤] رفعًا، وفي قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ غاية التحذير لأنه إذا كان لا يخفى عليه شيء فيهما فكيف يخفى عليه الضمير.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إتمامًا للتحذير، وذلك لأنه لما بيّن أنه تعالى عالم بكل المعلومات كان عالمًا بما في قلبه، وكان عالمًا بمقادير استحقاقه من الثواب والعقاب، ثم بيّن أنه قادر على جميع المقدورات، فكان لا محالة قادرًا على إيصال حق كل أحد إليه، فيكون في هذا تمام الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

اعلم أن هذه الآية من باب الترغيب والترهيب، ومن تمام الكلام الذي تقدم.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في العامل في قوله ﴿يَوْمَ﴾ وجوهًا؛ الأول: قال ابن الأنباري: اليوم متعلق بالمصير، والتقدير: وإلى الله المصير يوم تجد، الثاني: العامل فيه قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ﴾ في الآية السابقة، كأنه قال: ويحذركم الله نفسه في ذلك اليوم، الثالث: العامل فيه قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قدير في ذلك اليوم الذي تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا، وخص هذا اليوم بالذكر، وإن كان غيره من الأيام بمنزلته في قدرة الله تعالى تفضيلاً له لعظم شأنه، كقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، الرابع: أن العامل فيه قوله ﴿تَوَدُّ﴾ والمعنى: تود كل نفس كذا وكذا في ذلك اليوم، الخامس: يجوز أن يكون منتصبًا بمضمر، والتقدير: واذكر يوم تجد كل نفس.

المسألة الثانية: اعلم أن العمل عَرَضٌ لا يبقى، ولا يمكن وجدانه يوم القيامة، فلا بد فيه من التأويل وهو من وجهين؛ الأول: أنه يجد صحائف الأعمال، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ

مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] وقال: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، الثاني: أنه يجد جزاء الأعمال وقوله تعالى: ﴿مُّحْضَرًا﴾ يحتمل أن يكون المراد أن تلك الصحائف تكون محضرة يوم القيامة، ويحتمل أن يكون المعنى: أن جزاء العمل يكون محضرًا، كقوله: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩] وعلى كلا الوجهين، فالترغيب والترهيب حاصلان.

أما قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال الواحدي: الأظهر أن يجعل (مَا) هاهنا بمنزلة الذي، ويكون (عَمِلَتْ) صلة لها، ويكون معطوفًا على (مَا) الأول، ولا يجوز أن تكون (مَا) شرطية، وإلا كان يلزم أن ينصب (تَوَدُّ) أو يخفضه، ولم يقرأه أحد إلا بالرفع، فكان هذا دليلاً على أن (مَا) هاهنا بمعنى الذي.

فإن قيل: فهل يصح أن تكون شرطية على قراءة عبد الله: (ودت).

قلنا: لا كلام في صحته لكن الحمل على الابتداء والخبر أوقع، لأنه حكاية حال الكافر في ذلك اليوم، وأكثر موافقة للقراءة المشهورة.

المسألة الثانية: الواو في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ فيه قولان؛ الأول: وهو قول أبي مسلم الأصفهاني: الواو واو العطف، والتقدير: تجد ما عملت من خير وما عملت من سوء، وأما قوله: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ ففيه وجهان؛ الأول: أنه صفة للسوء، والتقدير: وما عملت من سوء الذي تود أن يبعد ما بينها وبينه، والثاني: أن يكون حالاً، والتقدير: يوم تجد ما عملت من سوء محضرًا حال ما تود بعده عنها.

والقول الثاني: أن الواو للاستئناف، وعلى هذا القول لا تكون الآية دليلاً على القطع بوعيد المذنبين، وموضع الكرم واللطف هذا، وذلك لأنه نص في جانب الثواب على كونه محضرًا وأما في جانب العقاب فلم ينص على الحضور، بل ذكر أنهم يودون الفرار منه، والبعد عنه، وذلك ينبه على أن جانب الوعد أولى بالوقوع من جانب الوعيد.

المسألة الثالثة: الأمد، الغاية التي ينتهي إليها، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

واعلم أن المراد من هذا التمني معلوم، سواء حملنا لفظ الأمد على الزمان أو على المكان، إذ المقصود تمني بعده، ثم قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ وهو لتأكيد الوعيد. ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ وفيه وجوه؛ الأول: أنه رؤوف بهم حيث حذرهم من نفسه، وعرفهم كمال علمه وقدرته، وأنه يمهل ولا يهمل، ورغبهم في استيجاب رحمته، وحذرهم من استحقاق غضبه، قال الحسن: ومن رأفته بهم أن حذرهم نفسه، الثاني: أنه رؤوف بالعباد حيث أمهلهم

للتوبة والتدارك والتلافي، الثالث: أنه لما قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ وهو للوعيد أتبعه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ وهو للموعد ليعلم العبد أن وعده ورحمته، غالب على وعيده وسخطه، والرابع: وهو أن لفظ العباد في القرآن مختص، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] فكان المعنى أنه لما ذكر وعيد الكفار والفساق ذكر وعد أهل الطاعة فقال: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: كما هو منتقم من الفساق، فهو رؤوف بالمطيعين والمحسنين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما دعا القوم إلى الإيمان به، والإيمان برسله على سبيل التهديد والوعيد، دعاهم إلى ذلك من طريق آخر وهو أن اليهود كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] فنزلت هذه الآية، ويروى أنه ﷺ وقف على قريش وهم في المسجد الحرام يسجدون للأصنام فقال: «يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة إبراهيم» فقالت قريش: إنما نعبد هذه حبًّا لله تعالى ليقربونا إلى الله زلفى، فنزلت هذه الآية، ويروى أن النصارى قالوا: إنما نعظم المسيح حبًّا لله، فنزلت هذه الآية، وبالجملة فكل واحد من فرق العقلاء يدعي أنه يحب الله، ويطلب رضاه وطاعته فقال لرسوله ﷺ: قل إن كنتم صادقين في ادعاء محبة الله تعالى فكونوا منقادين لأوامره محترزين عن مخالفته، وتقدير الكلام: أن من كان محبًّا لله تعالى لا بد وأن يكون في غاية الحذر مما يوجب سخطه، وإذا قامت الدلالة القاطعة على نبوّة محمد ﷺ وجبت متابعته، فإن لم تحصل هذه المتابعة دلّ ذلك على أن تلك المحبة ما حصلت.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أما الكلام المستقصى في المحبة، فقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] والمتكلمون مصرون على أن محبة الله تعالى عبارة عن محبة إعظامه وإجلاله، أو محبة طاعته، أو محبة ثوابه، قالوا: لأن المحبة من جنس الإرادة، والإرادة لا تعلق لها إلا بالحوادث وإلا بالمنافع.

واعلم أن هذا القول ضعيف، وذلك لأنه لا يمكن أن يقال في كل شيء إنه إنما كان محبوبًا لأجل معنى آخر وإلا لزم التسلسل والدور، فلا بد من الانتهاء إلى شيء يكون محبوبًا بالذات، كما أنا نعلم أن اللذة محبوبة لذاتها، فكذلك نعلم أن الكمال محبوب لذاته، وكذلك أنا إذا سمعنا أخبار رستم واسفنديار في شجاعتهما مال القلب إليهما مع أنا نقطع بأنه لا فائدة لنا في ذلك الميل، بل ربما نعتقد أن تلك المحبة معصية لا يجوز لنا أن نصر عليها، فعلمنا أن الكمال محبوب لذاته، كما أن اللذة محبوبة لذاتها، وكمال الكمال لله سبحانه وتعالى، فكان ذلك

يقتضي كونه محبوبًا لذاته من ذاته ومن المقربين عنده الذين تجلى لهم أثر من آثار كماله وجلاله قال المتكلمون: وأما محبة الله تعالى للعبد فهي عبارة عن إرادته تعالى إيصال الخيرات والمنافع في الدين والدنيا إليه.

المسألة الثانية: القوم كانوا يدعون أنهم كانوا محبين لله تعالى، وكانوا يظهرون الرغبة في أن يحبهم الله تعالى، والآية مشتملة على أن الإلزام من وجهين؛ أحدهما: إن كنتم تحبون الله فاتبعوني، لأن المعجزات دلّت على أنه تعالى أوجب عليكم متابعتي، الثاني: إن كنتم تحبون أن يحبكم الله فاتبعوني لأنكم إذا اتبعتموني فقد أطعتم الله، والله تعالى يحب كل من أطاعه، وأيضًا فليس في متابعتي إلا أني دعوتكم إلى طاعة الله تعالى وتعظيمه وترك تعظيم غيره، ومن أحب الله كان راغبًا فيه، لأن المحبة توجب الإقبال بالكلية على المحبوب، والإعراض بالكلية عن غير المحبوب.

المسألة الثالثة: خاض صاحب (الكشاف) في هذا المقام في الطعن في أولياء الله تعالى وكتب هاهنا ما لا يليق بالعاقل أن يكتب مثله في كتب الفحش فهب أنه اجترأ على الطعن في أولياء الله تعالى فكيف اجترأ على كتبه مثل ذلك الكلام الفاحش في تفسير كلام الله تعالى، نسأل الله العصمة والهداية، ثم قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ والمراد من محبة الله تعالى له إعطاؤه الثواب، ومن غفران ذنبه إزالة العقاب، وهذا غاية ما يطلبه كل عاقل، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني: غفور في الدنيا يستر على العبد أنواع المعاصي رحيم في الآخرة بفضله وكرمه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

يروى أنه لما نزل قوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ الآية قال عبد الله بن أبي: إن محمدًا يجعل طاعته كطاعة الله، ويأمرنا أن نحبه كما أحبت النصارى عيسى، فنزلت هذه الآية، وتحقيق الكلام أن الآية الأولى لما اقتضت وجوب متابعته، ثم إن المنافق ألقى شبهة في الدين، وهي أن محمدًا يدعي لنفسه ما يقوله النصارى في عيسى، ذكر الله تعالى هذه الآية إزالة لتلك الشبهة، فقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ يعني: إنما أوجب الله عليكم متابعتي لا كما تقول النصارى في عيسى بل لكوني رسولاً من عند الله، ولما كان مبلغ التكاليف عن الله هو الرسول لزم أن تكون طاعته واجبة فكان إيجاب المتابعة لهذا المعنى لا لأجل الشبهة التي ألقاها المنافق في الدين.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ يعني: إن أعرضوا فإنه لا يحصل لهم محبة الله، لأنه تعالى إنما أوجب الثناء والمدح لمن أطاعه، ومن كفر استوجب الذم والإهانة، وذلك ضد المحبة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن محبته لا تتم إلا بمتابعة الرسل بيّن علو درجات الرسل وشرف مناصبهم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ .

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن المخلوقات على قسمين: المكلف وغير المكلف، واتفقوا على أن المكلف أفضل من غير المكلف، واتفقوا على أن أصناف المكلفين أربعة: الملائكة، والإنس والجن، والشياطين، أما الملائكة، فقد روي في الأخبار أن الله تعالى خلقهم من الريح ومنهم من احتج بوجوه عقلية على صحة ذلك، فالأول: أنهم لهذا السبب قدروا على الطيران على أسرع الوجوه، والثاني: لهذا السبب قدروا على حمل العرش، لأن الريح تقوم بحمل الأشياء، الثالث: لهذا السبب سموا روحانيين، وجاء في رواية أخرى أنهم خلقوا من النور، ولهذا صفت وأخلصت لله تعالى، والأولى أن يجمع بين القولين فنقول: أبدانهم من الريح وأرواحهم من النور فهؤلاء هم سكان عالم السموات، أما الشياطين فهم كفرة، أما إبليس فكفره ظاهر لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] وأما سائر الشياطين فهم أيضًا كفرة بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] ومن خواص الشياطين أنهم بأسرهم أعداء للبشر قال تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: ٥٠] وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] ومن خواص الشياطين كونهم مخلوقين من النار قال الله تعالى حكاية عن إبليس ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] وقال: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧] فأما الجن فمنهم كافر ومنهم مؤمن، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤] وأما الإنس فلا شك أن لهم والدًا هو والدهم الأول، وإلا لذهب إلى ما لا نهاية والقرآن دلّ على أن ذلك الأول هو آدم ﷺ على ما قال تعالى في هذه السورة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١].

إذا عرفت هذا فنقول: اتفق العلماء على أن البشر أفضل من الجن والشياطين، واختلفوا في أن البشر أفضل أم الملائكة، وقد استقصينا هذه المسألة في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ [البقرة: ٣٤] والقائلون بأن البشر أفضل تمسكوا بهذه الآية، وذلك لأن الاصطفاء يدل على مزيد الكرامة وعلو الدرجة، فلما بيّن تعالى أنه اصطفى آدم وأولاده من الأنبياء على كل العالمين وجب أن يكونوا أفضل من الملائكة لكونهم من العالمين.

فإن قيل: إن حملنا هذه الآية على تفضيل المذكورين فيها على كل العالمين أدى إلى التناقض لأن الجمع الكثير إذا وصفوا بأن كل واحد منهم أفضل من كل العالمين يلزم كون كل واحد منهم أفضل من كل العالمين يلزم كون كل واحد منهم أفضل من الآخر وذلك محال، ولو حملناه على كونه أفضل عالمي زمانه أو عالمي جنسه لم يلزم التناقض، فوجب حمله على هذا المعنى دفعًا للتناقض، وأيضًا قال تعالى في صفة بني إسرائيل: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[البقرة: ٤٧] ولا يلزم كونهم أفضل من محمد ﷺ بل قلنا: المراد به عالمو زمان كل واحد منهم فكذا هاهنا والجواب ظاهر في قوله: اصطفى آدم على العالمين، يتناول كل من يصح إطلاق لفظ العالم عليه فيندرج فيه الملك، غاية ما في هذا الباب أنه ترك العمل بعمومه في بعض الصور لدليل قام عليه، فلا يجوز أن نتركه في سائر الصور من غير دليل.

المسألة الثانية: (اصطفى) في اللغة اختار، فمعنى: اصطفاهم، أي: جعلهم صفوة خلقه، تمثيلًا بما يشاهد من الشيء الذي يصفى وينقى من الكدورة، ويقال على ثلاثة أوجه: صفوة، وصفوة وصفوة، ونظير هذه الآية قوله لموسى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي﴾[الأعراف: ١٤٤] وقال في إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[ص:٤٧].

إذا عرفت هذا فنقول: في الآية قولان الأول: المعنى أن الله اصطفى دين آدم ودين نوح فيكون الاصطفاء راجعًا إلى دينهم وشرعهم وملتهم، ويكون هذا المعنى على تقدير حذف المضاف، والثاني: أن يكون المعنى: إن الله اصطفاهم، أي: صفاهم من الصفات الذميمة، وزينهم بالخصال الحميدة، وهذا القول أولى لوجهين؛ أحدهما: أنا لا نحتاج فيه إلى الإضمار، والثاني: أنه موافق لقوله تعالى: (ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاتَه) [الأنعام: ١٢٤] وذكر الحليمي في كتاب (المنهاج) أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا بد وأن يكونوا مخالفين لغيرهم في القوى الجسمانية، والقوى الروحانية، أما القوى الجسمانية، فهي إما مدركة، وإما محركة.

أما المدركة: فهي إما الحواس الظاهرة، وإما الحواس الباطنة، أما الحواس الظاهرة فهي خمسة؛ أحدها: القوة الباصرة، ولقد كان الرسول ﷺ مخصوصًا بكمال هذه الصفة ويدل عليه وجهان؛ الأول: قوله ﷺ: «زُوِيَتْ لِي الأَرْضُ، فَأُرِيت مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا»(١) والثاني: قوله ﷺ: «أَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ وَتَرَاصُوا، فَإِنِّي أَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي»(٢) ونظير هذه القوة ما حصل

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الفتن)، باب: (هلاك هذه الأمة بعضها ببعض) (٤/ ١٩/ ٢٢١٥)، وأبو داود في كتاب (الفتن والملاحم)، باب: (ذكر الفتن ودلائلها) (٤/ ١٨١٧)، حديث رقم (٤٢٥٢)، والترمذي في كتاب (الفتن)، باب: (ما جاء في سؤال النبي ﷺ ثلاثًا لأمته) (٤/ ٤١٠)، حديث رقم (٣٩٥٢)، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٤٧٨)، جميعًا من طريق أبي قلابة . . . به.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الأذان)، باب: (إقبال الإمام على الناس في الصلاة) (٢/ ٢٤٣)، حديث رقم (٧١٩) من طريق حدثنا زائدة بن قدامة . . . به، والنسائي في كتاب (الإمامة)، باب: (حث الإمام على رص=

لإبراهيم ﷺ وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] ذكروا في تفسيره أنه تعالى قوّى بصره حتى شاهد جميع الملكوت من الأعلى والأسفل، قال الحليمي رحمه الله: وهذا غير مستبعد لأن البصراء يتفاوتون فروي أن زرقاء اليمامة[١] كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام، فلا يبعد أن يكون بصر النبي ﷺ أقوى من بصرها، وثانيها: القوة السامعة، وكان ﷺ أقوى الناس في هذه القوة، ويدل عليه وجهان؛ أحدهما: قوله ﷺ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أن تَئِطَّ مَا فِيها مَوْضِعَ قَدَمٍ إلاَّ وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ للهِ تَعَالَى»[٢] فسمع أطيط السماء والثاني: أنه سمع دويًا وذكر أنه هوي صخرة قذفت في جهنم فلم تبلغ قعرها إلى الآن[٣]، قال الحليمي: ولا سبيل للفلاسفة إلى استبعاد هذا، فإنهم زعموا أن فيثاغورث راض نفسه حتى سمع حفيف الفلك، ونظير هذه القوة لسليمان عليه السلام في قصة النمل: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ [النمل: ١٨] فالله تعالى أسمع سليمان كلام النمل وأوقفه على معناه وهذا داخل أيضًا في باب تقوية الفهم، وكان ذلك حاصلاً لمحمد ﷺ حين تكلم مع الذئب ومع البعير، وثالثها: تقوية قوة الشم، كما في حق يعقوب عليه السلام، فإن يوسف عليه السلام لما أمر بحمل قميصه إليه وإلقائه على وجهه، فلما فصلت العير قال يعقوب: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤] فأحس بها من مسيرة أيام؛ ورابعها: تقوية قوة الذوق، كما في حق

=الصفوف والمقاربة بينها) (٢/ ٥٤٨)، حديث رقم (٨١٣)، وأحمد في (مسنده) (٣/ ١٢٥/ ٢٢٩)، حدثنا سليمان بن حيان... به، وفي (٣/ ١٨٢)، يحيى بن سعيد... به، وفي (٣/ ٢٦٣)، حدثنا زائدة... به، والبيهقي في (السنن الكبرى) (٢/ ٢١) من طريق زائدة... به، جميعًا (زائدة، أبو خالد، يحيى بن سعيد) عن حميد... به.

(١) **زرقاء اليمامة هي**: الزرقاء - هند بنت الخس (زرقاء اليمامة) الزرقاء، من بني جديس، من أهل اليمامة: مضرب المثل في حدة النظر وجودة البصر. يقال لها (زرقاء اليمامة) و (زرقاء جو) لزرقة عينيها. وجو اسم لليمامة.

قال المتنبي: (وأبصر من زرقاء جو، لأنني إذا نظرت عيناي شاء هما علمي) قالوا: إنها كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام. وذكروا من أخبارها أن حسان بن تبع الحميري لما أقبلت جموعه تريد غزو (جديس) رأتهم الزرقاء وأنذرت جديسا، فلم يصدقوها فاجتاحهم حسان. (الأعلام للزركلي) (٣/ ٤٤).

(٢) **إسناده صحيح**: أخرجه الشيباني في (الآحاد والمثاني) (١/ ٤٢٢)، حديث رقم (٥٩٧)، قال حدثنا محمد بن يحيى بن ميمون العتكي أخبرنا عبد الوهاب بن عطاء عن سعيد... به، والطبراني في (الكبير) (٣/ ٢٠١)، حديث رقم (٣١٢٢) من طريق عبد الوهاب بن عطاء... به، والأصبهاني في (العظمة) (٣/ ٩٨٦)، حديث رقم (٥٠٩) من طريق عبد الوهاب بن عطاء... به، والمروزي في (تعظيم قدر الصلاة) (١/ ٢٥٨)، حديث رقم (٢٥٠) من طريق عبد الوهاب بن عطاء... به، وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (٢/ ٢١٧) من طريق محمد بن يزيد قال حدثنا عبد الوهاب بن عطاء... به، والبزار في مسنده (٨/ ١٧٧)، حديث رقم (٣٢٠٨)، عبد الوهاب بن عطاء قال أخبرنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال... فذكره، وأورده الألباني في (السلسلة الصحيحة) (٣/ ١٣٤)، حديث رقم (١٠٦٠).

(٣) **إسناده ضعيف**: أخرجه الطبراني في (الأوسط) (٣/ ١٠٠)، حديث رقم (٢٦١٣) من طريق يزيد بن إبراهيم التستري قال حدثنا الحسن وإبراهيم بن العلاء الغنوي قالا في خطبة عتبة بن غزوان البصرة... فذكره، وأورده الهيثمي في (المجمع) (١٠/ ٣٩٠)، وقال: رواه الطبراني وفيه راو لم يسم وبقية رجاله رجال الصحيح.

رسولنا ﷺ حين قال: «إِنَّ هَذَا الذِّرَاعَ يُخْبِرُنِي أَنَّهُ مَسْمُومٌ»(١) ، وخامسها: تقوية القوة اللامسة كما في حق الخليل حيث جعل الله تعالى النار بردًا وسلامًا عليه، فكيف يستبعد هذا ويشاهد مثله في السمندل والنعامة، وأما الحواس الباطنة فمنها قوة الحفظ، قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦] ومنها قوة الذكاء قال علي عليه السلام: (علمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم واستنبطت من كل باب ألف باب) فإذا كان حال الولي هكذا، فكيف حال النبي ﷺ.

وأما القوى المحركة: فمثل عروج النبي ﷺ إلى المعراج، وعروج عيسى حيًّا إلى السماء، ورفع إدريس وإلياس على ما وردت به الأخبار، وقال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

وأما القوى الروحانية العقلية: فلا بد وأن تكون في غاية الكمال، ونهاية الصفاء.

واعلم أن تمام الكلام في هذا الباب أن النفس القدسية النبوية مخالفة بماهيتها لسائر النفوس، ومن لوازم تلك النفس الكمال في الذكاء، والفطنة، والحرية، والاستعلاء، والترفع عن الجسمانيات والشهوات، فإذا كانت الروح في غاية الصفاء والشرف، وكان البدن في غاية النقاء والطهارة كانت هذه القوى المحركة المدركة في غاية الكمال لأنها جارية مجرى أنوار فائضة من جوهر الروح واصلة إلى البدن، ومتى كان الفاعل والقابل في غاية الكمال كانت الآثار في غاية القوة والشرف والصفاء. إذا عرفت هذا فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾ معناه: إن الله تعالى اصطفى آدم إما من سكان العالم السفلي على قول من يقول: الملك أفضل من البشر، أو من سكان العالم العلوي على قول من يقول: البشر أشرف المخلوقات، ثم وضع كمال القوة الروحانية في شعبة معينة من أولاد آدم عليه السلام، هم شيث وأولاده، إلى إدريس، ثم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم، ثم حصل من إبراهيم شعبتان: إسماعيل وإسحاق، فجعل إسماعيل مبدأ لظهور الروح القدسية لمحمد ﷺ، وجعل إسحاق مبدأ لشعبتين: يعقوب وعيصو، فوضع النبوّة في نسل يعقوب، ووضع الملك في نسل عيصو، واستمر ذلك إلى زمان محمد ﷺ، فلما ظهر محمد ﷺ نقل نور النبوّة ونور الملك إلى محمد ﷺ، وبقيا أعني الدين والملك لأتباعه إلى قيام القيامة، ومن تأمل في هذا الباب وصل إلى أسرار عجيبة.

المسألة الثالثة: من الناس من قال: المراد بآل إبراهيم المؤمنون، كما في قوله ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۝٤٦﴾ [غافر: ٤٦] والصحيح أن المراد بهم الأولاد، وهم المراد بقوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] وأما آل عمران فقد اختلفوا فيه، فمنهم من قال: المراد عمران والد موسى وهارون، وهو عمران بن يصهر بن قاهث بن

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (المغازي) (٧/ ٤٤٢٨/ فتح) تعليقًا، وأبو داود في كتاب (الديات)، باب: (فيمن سقي رجلًا سمًّا أو أطعمه فمات أيقاد منه) (٤/ ١٩٣٣)، حديث رقم (٤٥١٢)، والدارمي في (المقدمة) (١/ ٤٦)، حديث رقم (٦٧)، وأحمد في (مسنده) (٦/ ١٨).

لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فيكون المراد من آل عمران موسى وهارون وأتباعهما من الأنبياء، ومنهم من قال: بل المراد: عمران بن ماثان والد مريم، وكان هو من نسل سليمان بن داود بن إيشا، وكانوا من نسل يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، قالوا: وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة، واحتج من قال بهذا القول على صحته بأمور؛ أحدها: أن المذكور عقيب قوله: ﴿وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هو عمران بن ماثان جد عيسى عليه السلام من قبل الأم، فكان صرف الكلام إليه أولى، وثانيها: أن المقصود من الكلام أن النصارى كانوا يحتجون على إلهية عيسى بالخوارق التي ظهرت على يديه، فالله تعالى يقول: إنما ظهرت على يده إكرامًا من الله تعالى إياه بها، وذلك لأنه تعالى اصطفاه على العالمين وخصه بالكرامات العظيمة، فكان حمل هذا الكلام على عمران بن ماثان أولى في هذا المقام من حمله على عمران والد موسى وهارون، وثالثها: أن هذا اللفظ شديد المطابقة لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] واعلم أن هذه الوجوه ليست دلائل قوية، بل هي أمور ظنية، وأصل الاحتمال قائم.

أما قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: في نصب قوله: ﴿ذُرِّيَّةً﴾ وجهان الأول: أنه بدل من آل إبراهيم، والثاني: أن يكون نصبًا على الحال، أي: اصطفاهم في حال كون بعضهم من بعض.

المسألة الثانية: في تأويل الآية وجوه؛ الأول: ذرية بعضها من بعض في التوحيد والإخلاص والطاعة، ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧] وذلك بسبب اشتراكهم في النفاق، والثاني: ذرية بعضها من بعض بمعنى أن غير آدم عليه السلام كانوا متولدين من آدم عليه السلام، ويكون المراد بالذرية من سوى آدم.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤] فقال القفال: المعنى: والله سميع لأقوال العباد، عليم بضمائرهم وأفعالهم، وإنما يصطفي من خلقه من يعلم استقامته قولاً وفعلاً، ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقوله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠] وفيه وجه آخر: وهو أن اليهود كانوا يقولون: نحن من ولد إبراهيم ومن آل عمران، فنحن أبناء الله وأحباؤه، والنصارى كانوا يقولون: المسيح ابن الله، وكان بعضهم عالمًا بأن هذا الكلام باطل، إلا أنه لتطييب قلوب العوام بقي مصرًا عليه، فالله تعالى كأنه يقول: والله سميع لهذه الأقوال الباطلة منكم، عليم بأغراضكم الفاسدة من هذه الأقوال فيجازيكم عليها، فكان أول الآية بيانًا لشرف الأنبياء والرسل، وآخرها تهديدًا لهؤلاء الكاذبين الذين يزعمون أنهم مستقرون على أديانهم.

واعلم أنه تعالى ذكر عقيب هذه الآية قصصًا كثيرة:

القصة الأولى: وقعة حنة أم مريم عليهما السلام

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في موضع (إِذْ) من الإعراب أقوال؛ الأول: قال أبو عبيدة: إنها زائدة لغوًا، والمعنى: قالت امرأة عمران، ولا موضع لها من الإعراب، قال الزجاج: لم يصنع أبو عبيدة في هذا شيئًا، لأنه لا يجوز إلغاء حرف من كتاب الله تعالى، ولا يجوز حذف حرف من كتاب الله تعالى من غير ضرورة، والثاني: قال الأخفش والمبرد: التقدير (اذكر إِذْ قَالَتِ امرأت عمران) ومثله في كتاب الله تعالى كثير، الثالث: قال الزجاج: التقدير: واصطفى آل عمران على العالمين إذ قالت امرأة عمران، وطعن ابن الأنباري فيه وقال: إن الله تعالى قرن اصطفاء آل عمران باصطفاء آدم ونوح، ولما كان اصطفاؤه تعالى آدم ونوحًا قبل قول امرأة عمران استحال أن يقال: إن هذا الاصطفاء مقيد بذلك الوقت الذي قالت امرأة عمران هذا الكلام فيه ويمكن أن يجاب عنه بأن أثر اصطفاء كل واحد إنما ظهر عند وجوده، وظهور طاعاته، فجاز أن يقال: إن الله اصطفى آدم عند وجوده، ونوحًا عند وجوده، وآل عمران عندما قالت امرأة عمران هذا الكلام، الرابع: قال بعضهم: هذا متعلق بما قبله، والتقدير: والله سميع عليم إذ قالت امرأة عمران هذا القول.

فإن قيل: إن الله سميع عليم قبل أن قالت المرأة هذا القول، فما معنى هذا التقييد؟

قلنا: إن سمعه تعالى لذلك الكلام مقيد بوجود ذلك الكلام وعلمه تعالى بأنها تذكر ذلك مقيد بذكرها لذلك والتغير في العلم والسمع إنما يقع في النسب والمتعلقات.

المسألة الثانية: أن زكريا بن أذن، وعمران بن ماثان، كانا في عصر واحد، وامرأة عمران حنة بنت فاقوذ، وقد تزوج زكريا بابنته إيشاع أخت مريم، وكان يحيى وعيسى عليهما السلام ابني خالة، ثم في كيفية هذا النذر روايات:

الأولى: قال عكرمة. إنها كانت عاقرًا لا تلد، وكانت تغبط النساء بالأولاد، ثم قالت: اللّهم إن لك علي نذرًا إن رزقتني ولدًا أن أتصدق به على بيت المقدس ليكون من سدنته.

والرواية الثانية: قال محمد بن إسحاق: إن أم مريم ما كان يحصل لها ولد حتى شاخت، وكانت يومًا في ظل شجرة فرأت طائرًا يطعم فرخًا له فتحركت نفسها للولد، فدعت ربها أن يهب لها ولدًا فحملت بمريم، وهلك عمران، فلما عرفت جعلته لله محررًا، أي: خادمًا للمسجد، قال الحسن البصري: إنها إنما فعلت ذلك بإلهام من الله ولولاه ما فعلت كما رأى إبراهيم ذبح ابنه في المنام فعلم أن ذلك أمر من الله وإن لم يكن عن وحي، وكما ألهم الله أم موسى فقذفته في اليم وليس بوحي.

المسألة الثالثة: المحرر الذي جعل حرًّا خالصًا، يقال: حررت العبد إذا خلصته عن الرق، وحررت الكتاب إذا أصلحته، وخلصته فلم تبق فيه شيئًا من وجوه الغلط، ورجل حر إذا كان خالصًا لنفسه ليس لأحد عليه تعلق، والطين الحر الخالص عن الرمل والحجارة والحمأة والعيوب أما التفسير فقيل مخلصًا للعبادة عن الشعبي، وقيل: خادمًا للبيعة، وقيل: عتيقًا من أمر الدنيا لطاعة الله، وقيل: خادمًا لمن يدرس الكتاب، ويعلم في البيع، والمعنى أنها نذرت أن تجعل ذلك الولد وقفًا على طاعة الله، قال الأصم: لم يكن لبني إسرائيل غنيمة ولا سبي، فكان تحريرهم جعلهم أولادهم على الصفة التي ذكرنا، وذلك لأنه كان الأمر في دينهم أن الولد إذا صار بحيث يمكن استخدامه كان يجب عليه خدمة الأبوين، فكانوا بالنذر يتركون ذلك النوع من الانتفاع، ويجعلونهم محررين لخدمة المسجد وطاعة الله تعالى، وقيل: كان المحرر يجعل في الكنيسة يقوم بخدمتها حتى يبلغ الحلم، ثم يخير بين المقام والذهاب، فإن أبى المقام وأراد أن يذهب ذهب، وإن اختار المقام فليس له بعد ذلك خيار، ولم يكن نبي إلا ومن نسله محرر في بيت المقدس.

المسألة الرابعة: هذا التحرير لم يكن جائزًا إلا في الغلمان أما الجارية فكانت لا تصلح لذلك لما يصيبها من الحيض والأذى، ثم إن حنة نذرت مطلقًا إما لأنها بنت الأمر على التقدير، أو لأنها جعلت ذلك النذر وسيلة إلى طلب الذكر.

المسألة الخامسة: في انتصاب قوله: ﴿مُحَرَّرًا﴾ وجهان؛ الأول: أنه نصب على الحال من (مَا) وتقديره: نذرت لك الذي في بطني محررًا، والثاني: وهو قول ابن قتيبة أن المعنى نذرت لك أن أجعل ما في بطني محررًا.

ثم قال الله تعالى حاكيا عنها: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ التقبل: أخذ الشيء على الرضا، قال الواحدي: وأصله من المقابلة لأنه يقابل بالجزاء، وهذا كلام من لا يريد بما فعله إلا الطلب لرضا الله تعالى والإخلاص في عبادته، ثم قالت ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ والمعنى: إنك أنت السميع لتضرعي ودعائي وندائي، العليم بما في ضميري وقلبي ونيتي.

واعلم أن هذا النوع من النذر كان في شرع بني إسرائيل وغير موجود في شرعنا، والشرائع لا يمتنع اختلافها في مثل هذه الأحكام.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ واعلم أن هذا الضمير إما أن يكون عائدًا إلى الأنثى التي كانت في بطنها وكان عالمًا بأنها كانت أنثى أو يقال: إنها عادت إلى النفس والنسمة أو يقال: عادت إلى المنذورة.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ واعلم أن الفائدة في هذا الكلام أنه تقدم منها النذر في تحرير ما في بطنها، وكان الغالب على ظنها أنه ذكر فلم تشترط ذلك في كلامها، وكانت العادة عندهم أن الذي يحرر ويفرغ لخدمة المسجد وطاعة الله هو الذكر دون الأنثى فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ خائفة أن نذرها لم يقع الموقع الذي يعتد به ومعتذرة من إطلاقها النذر المتقدم فذكرت ذلك لا على سبيل الإعلام لله تعالى، تعالى الله عن أن يحتاج إلى إعلامها، بل ذكرت ذلك على سبيل الاعتذار.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم وابن عامر (وَضَعْتُ) برفع التاء على تقدير أنها حكاية كلامها، والفائدة في هذا الكلام أنها لما قالت: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ خافت أن يظن بها أنها تخبر الله تعالى، فأزالت الشبهة بقولها: (وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ) وثبت أنها إنما قالت ذلك للاعتذار لا للإعلام، والباقون بالجزم على أنه كلام الله، وعلى هذه القراءة يكون المعنى أنه تعالى قال: والله أعلم بما وضعت تعظيمًا لولدها، وتجهيلاً لها بقدر ذلك الولد، ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وَضَعَتْ وبما علق به من عظائم الأمور، وأن يجعله وولده آية للعالمين، وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئًا فلذلك تحسرت، وفي قراءة ابن عباس (والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ) على خطاب الله لها، أي: أنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب والله هو العالم بما فيه من العجائب والآيات.

ثم قال تعالى حكاية عنها: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ وفيه قولان؛ الأول: أن مرادها تفضيل الولد الذكر على الأنثى، وسبب هذا التفضيل من وجوه؛ أحدها: أن شرعهم أنه لا يجوز تحرير الذكور دون الإناث، والثاني: أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة، ولا يصح ذلك في الأنثى لمكان الحيض وسائر عوارض النسوان، والثالث: الذكر يصلح لقوته وشدته للخدمة دون الأنثى فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة، والرابع: أن الذكر لا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس وليس كذلك الأنثى، والخامس: أن الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى فهذه الوجوه تقتضي فضل الذكر على الأنثى في هذا المعنى.

والقول الثاني: أن المقصود من هذا الكلام ترجيح هذه الأنثى على الذكر، كأنها قالت الذكر مطلوبي وهذه الأنثى موهوبة الله تعالى، وليس الذكر الذي يكون مطلوبي كالأنثى التي هي موهوبة لله، وهذا الكلام يدل على أن تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال الله عالمة بأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريده العبد لنفسه.

ثم حكى تعالى عنها كلامًا ثانيًا وهو قولها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ وفيه أبحاث:

البحث الأول: أن ظاهر هذا الكلام يدل على ما حكينا من أن عمران كان قد مات في حال حمل حنة بمريم، فلذلك تولت الأم تسميتها، لأن العادة أن ذلك يتولاه الآباء.

البحث الثاني: أن مريم في لغتهم: العابدة، فأرادت بهذه التسمية أن تطلب من الله تعالى أن يعصمها من آفات الدين والدنيا، والذي يؤكد هذا قولها بعد ذلك: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ .

البحث الثالث: أن قوله: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ معناه: وإني سميتها بهذا اللفظ أي: جعلت هذا اللفظ اسمًا لها، وهذا يدل على أن الاسم والمسمى والتسمية أمور ثلاثة متغايرة.

ثم حكى الله تعالى عنها كلامًا ثالثًا وهو قولها: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ وذلك لأنه لما فاتها ما كانت تريد من أن يكون رجلاً خادمًا للمسجد تضرعت إلى الله تعالى في أن يحفظها من الشيطان الرجيم، وأن يجعلها من الصالحات القانتات، وتفسير الشيطان الرجيم قد تقدم في أول الكتاب.

ولما حكى الله تعالى عن حنة هذه الكلمات قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ﴾ :

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: إنما قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ ولم يقل: فتقبلها ربها بتقبل؛ لأن القبول والتقبل متقاربان، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] أي إنباتًا، والقبول مصدر قولهم: قبل فلان الشيء قبولاً إذا رضيه، قال سيبويه: خمسة مصادر جاءت على فَعُول: قَبُول وطَهُور ووَضُوء ووَقُود ووَلُوغ، إلا أن الأكثر في الوقود إذا كان مصدرًا الضم، وأجاز الفراء والزجاج: قُبُولاً بالضم، وروى ثعلب عن ابن الأعرابي يقال: قبلته قَبُولاً وقُبُولاً، وفي الآية وجه آخر وهو أن ما كان من باب التفعل فإنه يدل على شدة اعتناء ذلك الفاعل بإظهار ذلك الفعل كالتصبر والتجلد ونحوهما فإنهما يفيدان الجد في إظهار الصبر والجلادة، فكذا هاهنا التقبل يفيد المبالغة في إظهار القبول.

فإن قيل: فلم لم يقل: فتقبلها ربها بتقبل حسن حتى صارت المبالغة أكمل؟

والجواب: أن لفظ التقبل وإن أفاد ما ذكرنا إلا أنه يفيد نوع تكلف على خلاف الطبع، أما القبول فإنه يفيد معنى القبول على وفق الطبع فذكر التقبل ليفيد الجد والمبالغة، ثم ذكر القبول ليفيد أن ذلك ليس على خلاف الطبع، بل على وفق الطبع، وهذه الوجوه وإن كانت ممتنعة في حق الله تعالى، إلا أنها تدل من حيث الاستعارة على حصول العناية العظيمة في تربيتها، وهذا الوجه مناسب معقول.

المسألة الثانية: ذكر المفسرون في تفسير ذلك القبول الحسن وجوهًا:

الأول: أنه تعالى عصمها وعصم ولدها عيسى عليه السلام من مس الشيطان روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلاَّ وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ

الشَّيطَانِ إِيَّاهُ إِلاَّ مَرْيَمَ وَابْنَهَا» ثُمَّ قال أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ طعن القاضي في هذا الخبر وقال: إنه خبر واحد على خلاف الدليل فوجب رده، وإنما قلنا: إنه على خلاف الدليل لوجوه؛ أحدها: أن الشيطان إنما يدعو إلى الشر من يعرف الخير والشر والصبي ليس كذلك، والثاني: أن الشيطان لو تمكن من هذا النخس لفعل أكثر من ذلك من إهلاك الصالحين وإفساد أحوالهم، والثالث: لم خص بهذا الاستثناء مريم وعيسى عليهما السلام دون سائر الأنبياء عليهم السلام، الرابع: أن ذلك النخس لو وجد بقي أثره، ولو بقي أثره لدام الصراخ والبكاء، فلما لم يكن كذلك علمنا بطلانه، واعلم أن هذه الوجوه محتملة، وبأمثالها لا يجوز دفع الخبر والله أعلم.

الوجه الثاني: في تفسير أن الله تعالى تقبلها بقبول حسن، ما روي أن حنة حين ولدت مريم لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون، وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة، وقالت: خذوا هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم، وكانت بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم فقال لهم زكريا: أنا أحق بها عندي خالتها فقالوا: لا حتى نقترع عليها، فانطلقوا وكانوا سبعة وعشرين إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم التي كانوا يكتبون الوحي بها على أن كل من ارتفع قلمه فهو الراجح، ثم ألقوا أقلامهم ثلاث مرات، ففي كل مرة كان يرتفع قلم زكريا فوق الماء وترسب أقلامهم فأخذها زكريا.

الوجه الثالث: روى القفال عن الحسن أنه قال: إن مريم تكلمت في صباها كما تكلم المسيح ولم تلتقم ثديًا قط، وإن رزقها كان يأتيها من الجنة.

الوجه الرابع: في تفسير القبول الحسن أن المعتاد في تلك الشريعة أن التحرير لا يجوز إلا في حق الغلام حين يصير عاقلاً قادرًا على خدمة المسجد، وهاهنا لما علم الله تعالى تضرع تلك المرأة قبل تلك الجارية حال صغرها وعدم قدرتها على خدمة المسجد، فهذا كله هو الوجوه المذكورة في تفسير القبول الحسن.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ قال ابن الأنباري: التقدير أنبتها فنبتت هي نباتًا حسنًا ثم منهم من صرف هذا النبات الحسن إلى ما يتعلق بالدنيا، ومنهم من صرفه إلى ما يتعلق بالدين، أما الأول فقالوا: المعنى أنها كانت تنبت في اليوم مثل ما ينبت المولود في عام واحد، وأما في الدين فلأنها نبتت في الصلاح والسداد والعفة والطاعة.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: يقال: كفل يكفل كفالة وكفلاً فهو كافل، وهو الذي ينفق على إنسان ويهتم بإصلاح مصالحه، وفي الحديث «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ» وقال الله تعالى: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ [ص: ٢٣]

المسألة الثانية: قرأ عاصم وحمزة والكسائي (وكفلها) بالتشديد، ثم اختلفوا في زكريا فقرأ عاصم بالمد، وقرأ حمزة والكسائي بالقصر على معنى ضمها الله تعالى إلى زكريا، فمن قرأ (زكرياء) بالمد أظهر النصب ومن قرأ بالقصر كان في محل النصب والباقون قرأوا بالمد والرفع على معنى ضمها زكرياء إلى نفسه، وهو الاختيار، لأن هذا مناسب لقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤] وعليه الأكثر، وعن ابن كثير في رواية (وكَفِلَها) بكسر الفاء، وأما القصر والمد في زكريا فهما لغتان، كالهيجاء والهيجا، وقرأ مجاهد (فَتَقَبَّلْها رَّبها، وأَنْبِتْهَا وكَفِّلْهَا) على لفظ الأمر في الأفعال الثلاثة، ونصب (رَبُّهَا) كأنها كانت تدعو الله فقالت: اقبلها يا ربها، وأنبتها يا ربها، واجعل زكريا كافلاً لها.

المسألة الثالثة: اختلفوا في كفالة زكريا عليه السلام إياها متى كانت، فقال الأكثرون: كان ذلك حال طفوليتها، وبه جاءت الروايات، وقال بعضهم: بل إنما كفلها بعد أن فطمت، واحتجوا عليه بوجهين: الأول: أنه تعالى قال: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ ثم قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ وهذا يوهم أن تلك الكفالة بعد ذلك النبات الحسن، والثاني: أنه تعالى قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهذا يدل على أنها كانت قد فارقت الرضاع وقت تلك الكفالة، وأصحاب القول الأول أجابوا بأن الواو لا توجب الترتيب، فلعل الإنبات الحسن وكفالة زكرياء حصلا معًا.

وأما الحجة الثانية: فلعل دخوله عليها وسؤاله منها هذا السؤال إنما وقع في آخر زمان الكفالة.

ثم قال الله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿الْمِحْرَابَ﴾ الموضع العالي الشريف، قال عمر بن أبي ربيعة(١):

رَبَّةُ مِحْرَابٍ إذَا جِئْتُهَا ... لَمْ أدنُ حتى أرتَقي سُلَّمَا

واحتج الأصمعي على أن المحراب هو الغرفة بقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] والتسور لا يكون إلا من علو، وقيل: المحراب أشرف المجالس وأرفعها، يروى أنها لما صارت شابة بنى زكريا عليه السلام لها غرفة في المسجد، وجعل بابها في وسطه لا يصعد إليه إلا بسلم، وكان إذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا على صحة القول بكرامة الأولياء بهذه الآية، ووجه الاستدلال أنه تعالى أخبر أن زكرياء كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقًا قال يا مريم: أنى لك هذا؟

---

(١) هو: عمر بن عبد الله بن عمرو بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي (أبو حفص، ابن أبي ربيعة) (٢٣-٩٣هـ) (٦٤٤-٧١٢م) شاعر. ولد في الليلة التي توفي بها عمر بن الخطاب، فسمي باسمه، وكان يفد على عبد الملك بن مروان فيكرمه ويقربه، وغزا في البحر فاحترقت السفينة به وبمن معه، فمات فيها غرقا وقد قارب السبعين أو جاوزها. (معجم المؤلفين لكحالة) (٤/ ٢٩٤).

قالت هو من عند الله، فحصول ذلك الرزق عندها إما أن يكون خارقًا للعادة، أو لا يكون، فإن قلنا: إنه غير خارق للعادة فهو باطل من خمسة أوجه؛ الأول: أن على هذا التقدير لا يكون حصول ذلك الرزق عند مريم دليلاً على علو شأنها وشرف درجتها وامتيازها عن سائر الناس بتلك الخاصية ومعلوم أن المراد من الآية هذا المعنى، والثاني: أنه تعالى قال بعد هذه الآية ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨] والقرآن دل على أنه كان آيسًا من الولد بسبب شيخوخته وشيخوخة زوجته، فلما رأى انخراق العادة في حق مريم طمع في حصول الولد فيستقيم قوله: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٨] أما لو كان الذي شاهده في حق مريم لم يكن خارقًا للعادة لم تكن مشاهدة ذلك سببًا لطمعه في انخراق العادة بحصول الولد من المرأة الشيخة العاقر، الثالث: أن التنكير في قوله: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ يدل على تعظيم حال ذلك الرزق، كأنه قيل: رزقًا. أي: رزق غريب عجيب، وذلك إنما يفيد الغرض اللائق لسياق هذه الآية لو كان خارقًا للعادة، الرابع: هو أنه تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] ولولا أنه ظهر عليهما من الخوارق، وإلا لم يصح ذلك.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: المراد من ذلك هو أن الله تعالى خلق لها ولدًا من غير ذكر؟

قلنا: ليس هذا بآية، بل يحتاج تصحيحه إلى آية، فكيف نحمل الآية على ذلك، بل المراد من الآية ما يدل على صدقها وطهارتها، وذلك لا يكون إلا بظهور خوارق العادات على يدها كما ظهرت على يد ولدها عيسى عليه السلام، الخامس: ما تواترت الروايات به أن زكريا عليه السلام كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، فثبت أن الذي ظهر في حق مريم عليها السلام كان فعلاً خارقًا للعادة، فنقول: إما أن يقال: إنه كان معجزة لبعض الأنبياء أو ما كان كذلك، والأول باطل لأن النبي الموجود في ذلك الزمان هو زكريا عليه السلام، ولو كان ذلك معجزة له لكان هو عالمًا بحاله وشأنه، فكان يجب أن لا يشتبه أمره عليه وأن لا يقول لمريم ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا﴾ وأيضًا فقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٨] مشعر بأنه لما سألها عن أمر تلك الأشياء ثم إنها ذكرت له أن ذلك من عند الله فهنالك طمع في انخراق العادة في حصول الولد من المرأة العقيمة الشيخة العاقر وذلك يدل على أنه ما وقف على تلك الأحوال إلا بأخبار مريم، ومتى كان الأمر كذلك ثبت أن تلك الخوارق ما كانت معجزة لزكريا عليه السلام فلم يبق إلا أن يقال: إنها كانت كرامة لعيسى عليه السلام، أو كانت كرامة لمريم عليها السلام، وعلى التقديرين فالمقصود حاصل، فهذا هو وجه الاستدلال بهذه الآية على وقوع كرامات الأولياء.

اعترض أبو علي الجبائي وقال: لم لا يجوز أن يقال: إن تلك الخوارق كانت من معجزات زكريا عليه السلام، وبيانه من وجهين؛ الأول: أن زكريا عليه السلام دعا لها على الإجمال أن يوصل الله إليها رزقًا، وأنه ربما كان غافلاً عن تفاصيل ما يأتيها من الأرزاق من عند الله تعالى،

فإذا رأى شيئًا بعينه في وقت معين قال لها ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فعند ذلك يعلم أن الله تعالى أظهر بدعائه تلك المعجزة، والثاني: يحتمل أن يكون زكريا يشاهد عند مريم رزقًا معتادًا إلا أنه كان يأتيها من السماء، وكان زكريا يسألها عن ذلك حذرًا من أن يكون يأتيها من عند إنسان يبعثه إليها، فقالت: هو من عند الله لا من عند غيره.

المقام الثاني: أنا لا نسلم أنه كان قد ظهر على مريم شيء من خوارق العادات، بل معنى الآية أن الله تعالى كان قد سبب لها رزقًا على أيدي المؤمنين الذين كانوا يرغبون في الإنفاق على الزاهدات العابدات، فكان زكريا عليه السلام إذا رأى شيئًا من ذلك خاف أنه ربما أتاها ذلك الرزق من وجه لا ينبغي، فكان يسألها عن كيفية الحال، هذا مجموع ما قاله الجبائي في (تفسيره) وهو في غاية الضعف، لأنه لو كان ذلك معجزًا لزكريا عليه السلام كان مأذونًا له من عند الله تعالى في طلب ذلك، ومتى كان مأذونًا في ذلك الطلب كان عالمًا قطعًا بأنه يحصل، وإذا علم ذلك امتنع أن يطلب منها كيفية الحال، ولم يبق أيضًا لقوله: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ [آل عمران: ٣٨] فائدة، وهذا هو الجواب بعينه عن الوجه الثاني.

وأما سؤاله الثالث ففي غاية الركاكة لأن على هذا التقدير لا يبقى فيه وجه اختصاص لمريم بمثل هذه الواقعة، وأيضًا فإن كان في قلبه احتمال أنه ربما أتاها هذا الرزق من الوجه الذي لا ينبغي فبمجرد إخبارها كيف يعقل زوال تلك التهمة فعلمنا سقوط هذه الأسئلة وبالله التوفيق.

أما المعتزلة فقد احتجوا على امتناع الكرامات بأنها دلالات صدق الأنبياء، ودليل النبوّة لا يوجد مع غير الأنبياء، كما أن الفعل المحكم لما كان دليلاً على العلم لا جرم لا يوجد في حق غير العالم.

والجواب من وجوه؛ الأول: وهو أن ظهور الفعل الخارق للعادة دليل على صدق المدعي، فإن ادعى صاحبه النبوّة فذاك الفعل الخارق للعادة يدل على كونه نبيًا، وإن ادعى الولاية فذلك يدل على كونه وليًا.

والثاني: قال بعضهم: الأنبياء مأمورون بإظهارها، والأولياء مأمورون بإخفائها.

والثالث: وهو أن النبي يدعي المعجز ويقطع به، والولي لا يمكنه أن يقطع به.

والرابع: أن المعجزة يجب انفكاكها عن المعارضة، والكرامة لا يجب انفكاكها عن المعارضة، فهذا جملة الكلام في هذا الباب وبالله التوفيق.

ثم قال تعالى حكاية عن مريم عليها السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فهذا يحتمل أن يكون من جملة كلام مريم، وأن يكون من كلام الله سبحانه وتعالى، وقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير تقدير لكثرته، أو من غير مسألة سألها على سبيل يناسب حصولها، وهذا كقوله: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣] وهاهنا آخر الكلام في قصة حنة.

القصة الثانية: واقعة زكريا عليه السلام

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ٣٨﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن قولنا: ثم، وهناك، وهنالك، يستعمل في المكان، ولفظة: عند، وحين يستعملان في الزمان.

قال تعالى: ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩] وهو إشارة إلى المكان الذي كانوا فيه.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] أي: في ذلك المكان الضيق، ثم قد يستعمل لفظة ﴿هُنَالِكَ﴾ في الزمان أيضًا.

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ [الكهف: ٤٤] فهذا إشارة إلى الحال والزمان.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ إن حملناه على المكان فهو جائز، أي: في ذلك المكان الذي كان قاعدًا فيه عند مريم عليها السلام، وشاهد تلك الكرامات دعا ربه، وإن حملناه على الزمان فهو أيضًا جائز، يعني في ذلك الوقت دعا ربه.

المسألة الثانية: اعلم أن قوله: ﴿هُنَالِكَ دَعَا﴾ يقتضي أنه دعا بهذا الدعاء عند أمر عرفه في ذلك الوقت له تعلق بهذا الدعاء، وقد اختلفوا فيه، والجمهور الأعظم من العلماء المحققين والمفسرين قالوا: هو أن زكريا عليه السلام رأى عند مريم من فاكهة الصيف في الشتاء، ومن فاكهة الشتاء في الصيف، فلما رأى خوارق العادات عندها، طمع في أن يخرقها الله تعالى في حقه أيضًا فيرزقه الولد من الزوجة الشيخة العاقر.

والقول الثاني: وهو قول المعتزلة الذين ينكرون كرامات الأولياء، وإرهاصات الأنبياء قالوا: إن زكريا عليه السلام لما رأى آثار الصلاح والعفاف والتقوى مجتمعة في حق مريم عليها السلام اشتهى الولد وتمناه فدعا عند ذلك، واعلم أن القول الأول أولى، وذلك لأن حصول الزهد والعفاف والسيرة المرضية لا يدل على انخراق العادات، فرؤية ذلك لا يحمل الإنسان على طلب ما يخرق العادة، وأما رؤية ما يخرق العادة قد يطمعه في أن يطلب أيضًا فعلاً خارقًا للعادة ومعلوم أن حدوث الولد من الشيخ الهرم، والزوجة العاقر من خوارق العادات، فكان حمل الكلام على هذا الوجه أولى.

فإن قيل: إن قلتم إن زكريا عليه السلام ما كان يعلم قدرة الله تعالى على خرق العادات إلا عندما شاهد تلك الكرامات عند مريم عليها السلام كان في هذا نسبة الشك في قدرة الله تعالى إلى زكريا عليه السلام.

فإن قلنا: إنه كان عالمًا بقدرة الله على ذلك لمن تكن مشاهدة تلك الأشياء سببًا لزيادة علمه بقدرة الله تعالى، فلم يكن لمشاهدة تلك الكرامات أثر في ذلك، فلا يبقى لقوله هنالك أثر.

والجواب: أنه كان قبل ذلك عالمًا بالجواز، فأما أنه هل يقع أم لا فلم يكن عالمًا به، فلما شاهد علم أنه إذا وقع كرامة لولي، فبأن يجوز وقوع معجزة لنبي كان أولى، فلا جرم قوي طمعه عند مشاهدة تلك الكرامات.

المسألة الثالثة: إن دعاء الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام لا يكون إلا بعد الإذن، لاحتمال أن لا تكون الإجابة مصلحة، فحينئذ تصير دعوته مردودة، وذلك نقصان في منصب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، هكذا قاله المتكلمون، وعندي فيه بحث، وذلك لأنه تعالى لما أذن في الدعاء مطلقًا، وبين أنه تارة يجيب وأخرى لا يجيب، فللرسول أن يدعو كلما شاء وأراد مما لا يكون معصية، ثم إنه تعالى تارة يجيب وأخرى لا يجيب، وذلك لا يكون نقصانًا بمنصب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأنهم على باب رحمة الله تعالى سائلون فإن أجابهم فبفضله وإحسانه وإن لم يجبهم فمن المخلوق حتى يكون له منصب على باب الخالق.

أما قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: أما الكلام في لفظة (لَّدُنْ) فسيأتي في سورة الكهف والفائدة في ذكره هاهنا أن حصول الولد في العرف والعادة له أسباب مخصوصة فلما طلب الولد مع فقدان تلك الأسباب كان المعنى: أُريد منك إلهي أن تعزل الأسباب في هذه الواقعة وأن تحدث هذا الولد بمحض قدرتك من غير توسط شيء من هذه الأسباب.

المسألة الثانية: الذرية: النسل، وهو لفظ يقع على الواحد، والجمع، والذكر والأنثى، والمراد منه هاهنا: ولد واحد، وهو مثل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥] قال الفراء: وأنث (طَيِّبَةً) لتأنيث الذرية في الظاهر، فالتأنيث والتذكير تارة يجيء على اللفظ، وتارة على المعنى، وهذا إنما نقوله في أسماء الأجناس، أما في أسماء الأعلام فلا، لأنه لا يجوز أن يقال جاءت طلحة، لأن أسماء الأعلام لا تفيد إلا ذلك الشخص، فإذا كان ذلك الشخص مذكرًا لم يجز فيها إلا التذكير.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ليس المراد منه أن يسمع صوت الدعاء فذلك معلوم، بل المراد منه أن يجيب دعاءه ولا يخيب رجاءه، وهو كقول المصلين: سمع الله لمن حمده، يريدون قبل حمد من حمد من المؤمنين، وهذا متأكد بما قال تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام في سورة مريم: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي: (فناداه الملائكة)، على التذكير والإمالة، والباقون على التأنيث على اللفظ، وقيل: من ذكَّر فلأن الفعل قبل الاسم، ومن أنث فلأن الفعل للملائكة، وقرأ ابن عامر (المحراب) بالإمالة، والباقون بالتفخيم، وفي قراءة ابن مسعود: (فناداهُ جِبْريل).

المسألة الثانية: ظاهر اللفظ يدل على أن النداء كان من الملائكة، ولا شك أن هذا في التشريف أعظم، فإن دل دليل منفصل على أن المنادي كان جبريل عليه السلام فقط صرنا إليه. وحملنا هذ اللفظ على التأويل، فإنه يقال: فلان يأكل الأطعمة الطيبة، ويلبس الثياب النفيسة، أي يأكل من هذا الجنس، ويلبس من هذا الجنس، مع أن المعلوم أنه لم يأكل جميع الأطعمة، ولم يلبس جميع الأثواب، فكذا هاهنا، ومثله في القرآن ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وهم نعيم بن مسعود إن الناس: يعني أبا سفيان، قال المفضل بن سلمة: إذا كان القائل رئيسًا جاز الإخبار عنه بالجمع لاجتماع أصحابه معه، فلما كان جبريل رئيس الملائكة، وقلما يبعث إلا ومعه جمع صح ذلك.

أما قوله: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ فهو يدل على أن الصلاة كانت مشروعة في دينهم، والمحراب قد ذكرنا معناه.

أما قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: أما البشارة فقد فسرناها في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥] وفي قوله: ﴿يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ وجهان؛ الأول: أنه تعالى كان قد عرف زكريا أنه سيكون في الأنبياء رجل اسمه يحيى وله ذرية عالية، فإذا قيل: إن ذلك النبي المسمى بيحيى هو ولدك كان ذلك بشارة له بيحيى عليه السلام، والثاني: أن الله يبشرك بولد اسمه يحيى.

المسألة الثانية: قرأ ابن عامر وحمزة (إن) بكسر الهمزة، والباقون بفتحها، أما الكسر فعلى إرادة القول، أو لأن النداء نوع من القول، وأما الفتح فتقديره: فنادته الملائكة بأن الله يبشرك.

المسألة الثالثة: قرأ حمزة والكسائي (يَبْشُرُكَ) بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين، وقرأ الباقون ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ وقرئ أيضًا (يُبْشِرُك) قال أبو زيد يقال: بَشَّر يُبَشِّر بِشْرًا، وبَشَر يَبْشُر تَبْشِيرًا، وأَبْشر يُبْشِر ثلاث لغات.

المسألة الرابعة: قرأ حمزة والكسائي (يحيى) بالإمالة لأجل الياء، والباقون بالتفخيم، وأما أنه لم سمي يحيى فقد ذكرناه في سورة مريم، واعلم أنه تعالى ذكر من صفات (يحيى) ثلاثة أنواع:

الصفة الأولى: قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال الواحدي قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ نصب على الحال لأنه نكرة، ويحيى معرفة.

المسألة الثانية: في المراد ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قولان؛ الأول: وهو قول أبي عبيدة: أنها كتاب من الله، واستشهد بقولهم: أنشد فلان كلمة، والمراد به القصيدة الطويلة.

والقول الثاني: وهو اختيار الجمهور: أن المراد من قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هو عيسى عليه السلام، قال السدي: لقيت أم عيسى أم يحيى عليهما السلام، وهذه حامل بيحيى وتلك بعيسى، فقالت: يا مريم أشعرت أني حبلى؟ فقالت مريم: وأنا أيضًا حبلى، قالت امرأة زكريا: فإني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك فذلك قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وقال ابن عباس: إن يحيى كان أكبر سنًّا من عيسى بستة أشهر، وكان يحيى أول من آمن وصدق بأنه كلمة الله وروحه، ثم قتل يحيى قبل رفع عيسى عليهما السلام، فإن قيل: لم سمي عيسى كلمة في هذه الآية، وفي قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥ﴾ [النساء: ١٧١] قلنا: فيه وجوه؛ الأول: أنه خلق بكلمة الله، وهو قوله: (كُن) من غير واسطة الأب، فلما كان تكوينه بمحض قول الله (كُن) وبمحض تكوينه وتخليقه من غير واسطة الأب والبذر، لا جرم سمي: (كلمة)، كما يسمى المخلوق خلقًا، والمقدور قدرة، والمرجو رجاء، والمشتهي شهوة، وهذا باب مشهور في اللغة، والثاني: أنه تكلم في الطفولية، وآتاه الله الكتاب في زمان الطفولية، فكان في كونه متكلمًا بالغًا مبلغًا عظيمًا، فسمي كلمة بهذا التأويل وهو مثل ما يقال: فلان جود وإقبال إذا كان كاملاً فيهما، والثالث: أن الكلمة كما أنها تفيد المعاني والحقائق، كذلك عيسى كان يرشد إلى الحقائق والأسرار الإلهية، فسمي: (كلمة)، بهذا التأويل، وهو مثل تسميته روحًا من حيث إن الله تعالى أحيا به من الضلالة كما يحيا الإنسان بالروح، وقد سمى الله القرآن روحًا فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، والرابع: أنه قد وردت البشارة به في كتب الأنبياء الذين كانوا قبله، فلما جاء قيل: هذا هو تلك الكلمة، فسمى كلمة بهذا التأويل قالوا: ووجه المجاز فيه أن من أخبر عن حدوث أمر فإذا حدث ذلك الأمر قال: قد جاء قولي وجاء كلامي، أي ما كنت أقول وأتكلم به، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٦] وقال: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، الخامس: أن الإنسان قد يسمى بفضل الله ولطف الله، فكذا عيسى عليه السلام كان اسمه العلم: كلمة الله، وروح الله، واعلم أن كلمة الله هي كلامه، وكلامه

على قول أهل السنة صفة قديمة قائمة بذاته، وعلى قول المعتزلة أصوات يخلقها الله تعالى في جسم مخصوص دالة بالوضع على معان مخصوصة، والعلم الضروري حاصل بأن الصفة القديمة أو الأصوات التي هي أعراض غير باقية يستحيل أن يقال: أنها هي ذات عيسى عليه السلام، ولما كان ذلك باطلاً في بداهة العقول لم يبق إلا التأويل.

الصفة الثانية: ليحيى عليه السلام قوله: ﴿وَسَيِّدًا﴾ والمفسرون ذكروا فيه وجوهًا:

الأول: قال ابن عباس: السيد الحليم، وقال الجبائي: إنه كان سيدًا للمؤمنين، رئيسًا لهم في الدين، أعني في العلم والحلم والعبادة والورع، وقال مجاهد: الكريم على الله، وقال ابن المسيب: الفقيه العالم، وقال عكرمة: الذي لا يغلبه الغضب، قال القاضي: السيد هو المتقدم المرجوع إليه، فلما كان سيدًا في الدين كان مرجوعًا إليه في الدين وقدوة في الدين، فيدخل فيه جميع الصفات المذكورة من العلم والحلم والكرم والعفة والزهد والورع.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَحَصُورًا﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في تفسير الحصور: والحصر في اللغة الحبس، يقال: حصره يحصره حصرًا وحصر الرجل: أي: اعتقل بطنه، والحصور الذي يكتم السر ويحبسه، والحصور: الضيق البخيل، وأما المفسرون: فلهم قولان: أحدهما: أنه كان عاجزًا عن إتيان النساء، ثم منهم من قال: كان ذلك لصغر الآلة، ومنهم من قال: كان ذلك لتعذر الإنزال، ومنهم من قال: كان ذلك لعدم القدرة، فعلى هذا الحصور فعول بمعنى مفعول، كأنه قال: محصور عنهن، أي: محبوس، ومثله ركوب بمعنى مركوب وحلوب بمعنى محلوب، وهذا القول عندنا فاسد، لأن هذا من صفات النقصان وذكر صفة النقصان في معرض المدح لا يجوز، ولأن على هذا التقدير لا يستحق به ثوابًا ولا تعظيمًا.

والقول الثاني: وهو اختيار المحققين، أنه الذي لا يأتي النساء لا للعجز بل للعفة والزهد، وذلك لأن الحصور هو الذي يكثر منه حصر النفس ومنعها كالأكول الذي يكثر منه الأكل وكذا الشَّرُوب، والظَّلُوم، والغَشُوم، والمنع إنما يحصل أن لو كان المقتضي قائمًا، فلولا أن القدرة والداعية كانتا موجودتين، وإلا لما كان حاصرًا لنفسه فضلاً عن أن يكون حصورًا، لأن الحاجة إلى تكثير الحصر والدفع إنما تحصل عند قوة الرغبة والداعية والقدرة، وعلى هذا الحصور بمعنى الحاصر فَعُول بمعنى فاعل.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن ترك النكاح أفضل وذلك لأنه تعالى مدحه بترك النكاح، وذلك يدل على أن ترك النكاح أفضل في تلك الشريعة، وإذا ثبت أن الترك في تلك الشريعة أفضل، وجب أن يكون الأمر كذلك في هذه الشريعة بالنص والمعقول، أما النص

فقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] وأما المعقول فهو أن الأصل في الثابت بقاؤه على ما كان والنسخ على خلاف الأصل.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿وَنَبِيًّا﴾ واعلم أن السيادة إشارة إلى أمرين؛ أحدهما: قدرته على ضبط مصالح الخلق فيما يرجع إلى تعليم الدين، والثاني: ضبط مصالحهم فيما يرجع إلى التأديب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأما الحصور فهو إشارة إلى الزهد التام فلما اجتمعا حصلت النبوة بعد ذلك، لأنه ليس بعدهما إلا النبوة.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وفيه ثلاثة أوجه؛ الأول: معناه أنه من أولاد الصالحين والثاني: أنه خير كما يقال في الرجل الخَيِّر (إنه من الصالحين)، والثالث: أن صلاحه كان أتم من صلاح سائر الأنبياء، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ إلاَّ وقد عَصَى، أوْ هَمَّ بِمَعْصِيَةٍ غيرَ يحيَى، فَإنَّه لَم يَعْصِ ولم يَهِمَّ**».

فإن قيل: لما كان منصب النبوة أعلى من منصب الصلاح فلما وصفه بالنبوة فما الفائدة في وصفه بعد ذلك بالصلاح؟

قلنا: أليس أن سليمان عليه السلام بعد حصول النبوة قال: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] وتحقيق القول فيه: أن للأنبياء قدرًا من الصلاح لو انتقص لانتفت النبوة، فذلك القدر بالنسبة إليهم يجري مجرى حفظ الواجبات بالنسبة إلينا، ثم بعد اشتراكهم في ذلك القدر تتفاوت درجاتهم في الزيادة على ذلك القدر، وكل من كان أكثر نصيبًا منه كان أعلى قدرًا والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾.

في الآية سؤالات:

السؤال الأول: قوله: ﴿رَبِّ﴾ خطاب مع الله أو مع الملائكة، لأنه جائز أن يكون خطابًا مع الله، لأن الآية المتقدمة دلت على أن الذين نادوه هم الملائكة، وهذا الكلام لا بد أن يكون خطابًا مع ذلك المنادي لا مع غيره، ولا جائز أن يكون خطابًا مع الملك، لأنه لا يجوز للإنسان أن يقول للملك: يا رب.

والجواب: للمفسرين فيه قولان؛ الأول: أن الملائكة لما نادوه بذلك وبشروه به تعجب زكريا عليه السلام ورجع في إزالة ذلك التعجب إلى الله تعالى، والثاني: أنه خطاب مع الملائكة، والربُّ إشارة إلى المربي، ويجوز وصف المخلوق به، فإنه يقال: فلان يربيني ويحسن إلي.

السؤال الثاني: لما كان زكريا عليه السلام هو الذي سأل الولد، ثم أجابه الله تعالى إليه فلم تعجب منه ولم استبعده؟

الجواب: لم يكن هذا الكلام لأجل أنه كان شاكًا في قدرة الله تعالى على ذلك، والدليل عليه وجهان؛ الأول: أن كل أحد يعلم أن خلق الولد من النطفة إنما كان على سبيل العادة لأنه لو

كان لا نطفة إلا من خلق، ولا خلق إلا من نطفة، لزم التسلسل ولزم حدوث الحوادث في الأزل وهو محال، فعلمنا أنه لا بد من الانتهاء إلى مخلوق خلقه الله تعالى لا من نطفة أو من نطفة خلقها الله تعالى لا من إنسان.

والوجه الثاني: أن زكريا عليه السلام طلب ذلك من الله تعالى، فلو كان ذلك محالاً ممتنعًا لما طلبه من الله تعالى، فثبت بهذين الوجهين أن قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ ليس للاستبعاد، بل ذكر العلماء فيه وجوهًا؛ الأول: أن قوله: ﴿أَنَّىٰ﴾ معناه: من أين. ويحتمل أن يكون معناه: كيف تعطي ولدًا على القسم الأول أم على القسم الثاني، وذلك لأن حدوث الولد يحتمل وجهين؛ أحدهما: أن يعيد الله شبابه ثم يعطيه الولد مع شيخوخته، فقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ معناه: كيف تعطي الولد على القسم الأول أم على القسم الثاني؟ فقيل له كذلك، أي على هذا الحال والله يفعل ما يشاء، وهذا القول ذكره الحسن والأصم، والثاني: أن من كان آيسًا من الشيء مستبعدًا لحصوله ووقوعه إذا اتفق أن حصل له ذلك المقصود فربما صار كالمدهوش من شدة الفرح فيقول: كيف حصل هذا، ومن أين وقع هذا كمن يرى إنسانًا وهبه أموالاً عظيمة، يقول كيف وهبت هذه الأموال، ومن أين سمحت نفسك بهبتها؟ فكذا هاهنا لما كان زكريا عليه السلام مستبعدًا لذلك، ثم اتفق إجابة الله تعالى إليه، صار من عظم فرحه وسروره قال ذلك الكلام، الثالث: أن الملائكة لما بشّروه بيحيى لم يعلم أنه يرزق الولد من جهة أنثى أو من صلبه، فذكر هذا الكلام لذلك الاحتمال، الرابع: أن العبد إذا كان في غاية الاشتياق إلى شيء فطلبه من السيد، ثم إن السيد يعده بأنه سيعطيه بعد ذلك، فالتذ السائل بسماع ذلك الكلام، فربما أعاد السؤال ليعيد ذلك الجواب فحينئذ يلتذ بسماع تلك الإجابة مرة أخرى، فالسبب في إعادة زكريا هذا الكلام يحتمل أن يكون من هذا الباب، الخامس: نقل سفيان بن عيينة أنه قال: كان دعاؤه قبل البشارة بستين سنة حتى كان قد نسي ذلك السؤال وقت البشارة فلما سمع البشارة زمان الشيخوخة لا جرم استبعد ذلك على مجرى العادة لا شكًّا في قدرة الله تعالى فقال ما قال، السادس: نقل عن السدي أن زكريا عليه السلام جاءه الشيطان عند سماع البشارة فقال إن هذا الصوت من الشيطان، وقد سخر منك فاشتبه الأمر على زكريا عليه السلام فقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ وكان مقصوده من هذا الكلام أن يريه الله تعالى آية تدل على أن ذلك الكلام من الوحي والملائكة لا من إلقاء الشيطان، قال القاضي: لا يجوز أن يشتبه كلام الملائكة بكلام الشيطان عند الوحي على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذ لو جوزنا ذلك لارتفع الوثوق عن كل الشرائع ويمكن أن يقال: لما قامت المعجزات على صدق الوحي في كل ما يتعلق بالدين لا جرم حصل الوثوق هناك بأن الوحي من الله تعالى بواسطة الملائكة ولا مدخل للشيطان فيه، أما ما يتعلق بمصالح الدنيا وبالولد فربما لم يتأكد ذلك المعجز فلا جرم بقي احتمال كون ذلك من الشيطان فلا جرم رجع إلى الله تعالى في أن يزيل عن خاطره ذلك الاحتمال.

أما قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: الكبر مصدر كبر الرجل يكبر إذا أسن، قال ابن عباس: كان يوم بشر بالولد ابن عشرين ومائة سنة وكانت امرأته بنت تسعين وثمان.

المسألة الثانية: قال أهل المعاني: كل شيء صادفته وبلغته فقد صادفك وبلغك، وكلما جاز أن يقول: بلغت الكبر جاز أن يقول بلغني الكبر يدل عليه قول العرب: لقيت الحائط، وتلقاني الحائط.

فإن قيل: يجوز بلغني البلد في موضع بلغت البلد، قلنا: هذا لا يجوز، والفرق بين الموضعين أن الكبر كالشيء الطالب للإنسان فهو يأتيه بحدوثه فيه، والإنسان أيضًا يأتيه بمرور السنين عليه، أما البلد فليس كالطالب للإنسان الذاهب، فظهر الفرق.

أما قوله: ﴿وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾:

اعلم أن العاقر من النساء التي لا تلد، يقال: عَقُر يَعقُر عُقْرًا، ويقال أيضًا: عَقُر الرجل، وعَقِر بالحركات الثلاثة في القاف إذا لم يحمل له، ورَمْلٌ عاقر: لا ينبت شيئًا، واعلم أن زكريا عليه السلام ذكر كبر نفسه مع كون زوجته عاقرًا لتأكيد حال الاستبعاد.

أما قوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ ففيه بحثان؛ الأول: أن قوله: ﴿قَالَ﴾ عائد إلى مذكور سابق، وهو الرب المذكور في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ وقد ذكرنا أن ذلك يحتمل أن يكون هو الله تعالى، وأن يكون هو جبريل.

البحث الثاني: قال صاحب (الكشاف): ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ﴾ مبتدأ وخبر أي على نحو هذه الصفة الله، ويفعل ما يشاء بيان له، أي: يفعل ما يريد من الأفاعيل الخارقة للعادة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

واعلم أن زكريا عليه السلام لفرط سروره بما بشّر به وثقته بكرم ربه، وإنعامه عليه أحب أن يجعل له علامة تدل على حصول العلوق، وذلك لأن العلوق لا يظهر في أول الأمر فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ فقال الله تعالى: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكره هاهنا ثلاثة أيام، وذكر في سورة مريم ثلاث ليال فدل مجموع الآيتين على أن تلك الآية كانت حاصلة في الأيام الثلاثة مع لياليها.

المسألة الثانية: ذكروا في تفسير هذه الآية وجوهًا؛ أحدها: أنه تعالى حبس لسانه ثلاثة أيام

فلم يقدر أن يكلم الناس إلا رمزًا، وفيه فائدتان؛ إحداهما: أن يكون ذلك آية على علوق الولد. والثانية: أنه تعالى حبس لسانه عن أمور الدنيا، وأقدره على الذكر والتسبيح والتهليل، ليكون في تلك المدة مشتغلاً بذكر الله تعالى، وبالطاعة والشكر على تلك النعمة الجسيمة وعلى هذا التقدير يصير الشيء الواحد علامة على المقصود، وأداء لشكر تلك النعمة، فيكون جامعًا لكل المقاصد.

ثم اعلم أن تلك الواقعة كانت مشتملة على المعجز من وجوه؛ أحدها: أن قدرته على التكلم بالتسبيح والذكر، وعجزه عن التكلم بأمور الدنيا من أعظم المعجزات، وثانيها: أن حصول ذلك المعجز في تلك الأيام المقدرة مع سلامة البنية واعتدال المزاج من جملة المعجزات، وثالثها: أن إخباره بأنه متى حصلت هذه الحالة فقد حصل الولد، ثم إن الأمر خرج على وفق هذا الخبر يكون أيضًا من المعجزات.

القول الثاني في تفسير هذه الآية: وهو قول أبي مسلم: أن المعنى أن زكريا عليه السلام لما طلب من الله تعالى آية تدله على حصول العلوق، قال: آيتك أن لا تكلم، أي: تصير مأمورًا بأن لا تتكلم ثلاثة أيام بلياليها مع الخلق، أي: تكون مشتغلاً بالذكر والتسبيح والتهليل معرضًا عن الخلق والدنيا شاكرًا لله تعالى على إعطاء مثل هذه الموهبة، فإن كانت لك حاجة دل عليها بالرمز فإذا أمرت بهذه الطاعة فاعلم أنه قد حصل المطلوب، وهذا القول عندي حسن معقول، وأبو مسلم حسن الكلام في التفسير كثير الغوص على الدقائق واللطائف.

القول الثالث: روي عن قتادة أنه عليه الصلاة والسلام عوقب بذلك من حيث سأل الآية بعد بشارة الملائكة فأُخِذ لسانه وصير بحيث لا يقدر على الكلام.

أما قوله: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾:

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: أصل الرمز الحركة، يقال: ارتمز إذا تحرك، ومنه قيل للبحر: الراموز، ثم اختلفوا في المراد بالرمز هاهنا على أقوال؛ أحدها: أنه عبارة عن الإشارة كيف كانت باليد، أو الرأس، أو الحاجب، أو العين، أو الشفة، والثاني: أنه عبارة عن تحريك الشفتين باللفظ من غير نطق وصوت قالوا: وحمل الرمز على هذا المعنى أولى، لأن الإشارة بالشفتين يمكن وقوعها بحيث تكون حركات الشفتين وقت الرمز مطابقة لحركاتهما عند النطق فيكون الاستدلال بتلك الحركات على المعاني الذهنية أسهل، والثالث: وهو أنه كان يمكنه أن يتكلم بالكلام الخفي، وأما رفع الصوت بالكلام فكان ممنوعًا منه.

فإن قيل: الرمز ليس من جنس الكلام فكيف استثنى منه؟

قلنا: لما أدى ما هو المقصود من الكلام سمي كلامًا، ويجوز أيضًا أن يكون استثناءً منقطعًا فأما إن حملنا الرمز على الكلام الخفي فإن الإشكال زائل.

المسألة الثانية: قرأ يحيى بن وثاب (إِلاَّ رُمُزًا) بضمتين جمع رموز، كرسول ورسل، وقرئ (رمَزًا) بفتح الراء والميم جمع رَامز، كخَادِم وخَدَم، وهو حال منه ومن الناس، ومعنى (إِلاَّ رَمْزًا) إلا مترامزين، كما يتكلم الناس مع الأخرس بالإشارة ويكلمهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ وفيه قولان؛ أحدهما: أنه تعالى حبس لسانه عن أمور الدنيا (إِلاَّ رَمْزًا) فأما في الذكر والتسبيح، فقد كان لسانه جيدًا، وكان ذلك من المعجزات الباهرة، والقول الثاني: إن المراد منه الذكر بالقلب وذلك لأن المستغرقين في بحار معرفة الله تعالى عادتهم في الأول أن يواظبوا على الذكر اللساني مدة فإذا امتلأ القلب من نور ذكر الله سكت اللسان وبقي الذكر في القلب، ولذلك قالوا: من عرف الله كَلَّ لسانُه، فكأن زكريا عليه السلام أمر بالسكوت واستحضار معاني الذكر والمعرفة واستدامتها.

﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: (العشي) من حين تزول الشمس إلى أن تغيب، قال الشاعر:

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ... ولا الفيء من برد العشى تذوق

والفيء إنما يكون من حين زوال الشمس إلى أن يتناهى غروبها، وأما الإبكار فهو مصدر أَبْكَرَ يُبْكر إذا خرج للأمر في أول النهار، ومثله بَكَر وابتكر وبكَّر، ومنه الباكورة لأول الثمرة، هذا هو أصل اللغة، ثم سمي ما بين طلوع الفجر إلى الضحى: إبكارًا، كما سمي إصباحًا، وقرأ بعضهم (والأَبْكار) بفتح الهمزة، جمع بَكَر كسَحَر وأَسْحَار، ويقال: أتيته بَكَرًا بفتحتين.

المسألة الثانية: في قوله ﴿وَسَبِّحْ﴾ قولان؛ أحدهما: المراد منه: وصَلِّ لأن الصلاة تسمى تسبيحًا قال الله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ [الروم: ١٧] وأيضًا الصلاة مشتملة على التسبيح، فجاز تسمية الصلاة بالتسبيح، وهاهنا الدليل دل على وقوع هذا المحتمل وهو من وجهين؛ الأول: أنا لو حملناه على التسبيح والتهليل لم يبق بين هذه الآية وبين ما قبلها وهو قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ فرق، وحينئذ يبطل العطف؛ لأن عطف الشيء على نفسه غير جائز، والثاني: وهو أنه شديد الموافقة لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود: ١١٤] والقول الثاني: أن قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ محمول على الذكر باللسان.

القصة الثالثة: وصفه طهارة مريم صلوات الله عليها

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: عامل الإعراب هاهنا في (إِذْ) هو ما ذكرناه في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾

[آل عمران: ٣٥] من قوله ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ١٨١] ثم عطف عليه ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَٰئِكَةُ﴾ وقيل: تقديره واذكر إذ قالت الملائكة.

المسألة الثانية: قالوا المراد بالملائكة هاهنا جبريل وحده، وهذا كقوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَٰئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾[النحل: ٢] يعني: جبريل، وهذا وإن كان عدولاً عن الظاهر إلا أنه يجب المصير إليه، لأن سورة مريم دلت على أن المتكلم مع مريم عليها السلام هو جبريل عليه السلام، وهو قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[مريم: ١٧].

المسألة الثالثة: اعلم أن مريم عليها السلام ما كانت من الأنبياء لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾[يوسف: ١٠٩] وإذا كان كذلك كان إرسال جبريل عليه السلام إليها إما أن يكون كرامة لها، وهو مذهب من يجوز كرامات الأولياء، أو إرهاصًا لعيسى عليه السلام، وذلك جائز عندنا، وعند الكعبي من المعتزلة، أو معجزة لزكرياء عليه السلام، وهو قول جمهور المعتزلة، ومن الناس من قال: إن ذلك كان على سبيل النفث في الروع والإلهام والإلقاء في القلب، كما كان في حق أم موسى عليه السلام في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾[القصص: ٧].

المسألة الرابعة: اعلم أن المذكور في هذه الآية أولاً: هو الاصطفاء، وثانيًا: التطهير، وثالثًا: الاصطفاء على نساء العالمين، ولا يجوز أن يكون الاصطفاء أولاً من الاصطفاء الثاني، لما أن التصريح بالتكرير غير لائق، فلا بد من صرف الاصطفاء الأول إلى ما اتفق لها من الأمور الحسنة في أول عمرها، والاصطفاء الثاني إلى ما اتفق لها في آخر عمرها.

النوع الأول من الاصطفاء: فهو أمور؛ أحدها: أنه تعالى قبل تحريرها مع أنها كانت أنثى ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الإناث، وثانيها: قال الحسن: إن أمها لما وضعتها ما غذتها طرفة عين، بل ألقتها إلى زكريا، وكان رزقها يأتيها من الجنة، وثالثها: أنه تعالى فرغها لعبادته، وخصها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة، ورابعها: أنه كفاها أمر معيشتها، فكان يأتيها رزقها من عند الله تعالى، على ما قال الله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾[آل عمران: ٣٧]، وخامسها: أنه تعالى أسمعها كلام الملائكة شفاهًا، ولم يتفق ذلك لأنثى غيرها، فهذا هو المراد من الاصطفاء الأول، وأما التطهير ففيه وجوه: أحدها: أنه تعالى طهرها عن الكفر والمعصية، فهو كقوله تعالى في أزواج النبي ﷺ: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب: ٣٣]، وثانيها: أنه تعالى طهرها عن مسيس الرجال، وثالثها: طهرها عن الحيض، قالوا: كانت مريم لا تحيض، ورابعها: وطهرك من الأفعال الذميمة، والعادات القبيحة، وخامسها: وطهرك عن مقالة اليهود وتهمتهم وكذبهم.

وأما الاصطفاء الثاني: فالمراد أنه تعالى وهب لها عيسى عليه السلام من غير أب، وأنطق عيسى حال انفصاله منها حتى شهد بما يدل على براءتها عن التهمة، وجعلها وابنها آية للعالمين، فهذا

هو المراد من هذه الألفاظ الثلاثة.

المسألة الخامسة: روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ العَالَمِين أَرْبَعٌ: مَرْيَم وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ، وَفَاطِمَةُ عَلَيهن السَّلام»(١) فقيل: هذا الحديث دل على أن هؤلاء الأربع أفضل من النساء، وهذه الآية دلت على أن مريم عليها السلام أفضل من الكل، وقول من قال المراد إنها مصطفاة على عالمي زمانها، فهذا ترك الظاهر.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى﴾ وقد تقدم تفسير القنوت في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وبالجملة فلما بيّن تعالى أنها مخصوصة بمزيد المواهب والعطايا من الله أوجب عليها مزيد الطاعات، شكرًا لتلك النعم السنية، وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: لم قدم ذكر السجود على ذكر الركوع؟

والجواب من وجوه؛ الأول: أن الواو تفيد الاشتراك ولا تفيد الترتيب، الثاني: أن غاية قرب العبد من الله أن يكون ساجدًا قال عليه الصلاة والسلام: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ إذا سَجَدَ» فلما كان السجود مختصًا بهذا النوع من الرتبة والفضيلة لا جرم قدمه على سائر الطاعات.

ثم قال: ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ وهو إشارة إلى الأمر بالصلاة، فكأنه تعالى يأمرها بالمواظبة على السجود في أكثر الأوقات، وأما الصلاة فإنها تأتي بها في أوقاتها المعينة لها، والثالث: قال ابن الأنباري: قوله تعالى: ﴿ٱقْنُتِى﴾ أمر بالعبادة على العموم، ثم قال بعد ذلك ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى﴾ يعني: استعملي السجود في وقته اللائق به، واستعملي الركوع في وقته اللائق به، وليس المراد أن يجمع بينهما، ثم يقدم السجود على الركوع والله أعلم، الرابع: أن الصلاة تسمى سجودًا كما قيل في قوله: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠] وفي الحديث: «إذا دَخَلَ أَحَدُكم المَسْجِد فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ» وأيضًا المسجد سمي باسم مشتق من السجود والمراد منه موضع الصلاة، وأيضًا أشرف أجزاء الصلاة السجود وتسمية الشيء باسم أشرف أجزائه نوع مشهور في المجاز.

إذا ثبت هذا فنقول قوله: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى﴾ معناه: يا مريم قومي، وقوله: ﴿وَٱسْجُدِى﴾ أي: صلي فكان المراد من هذا السجود الصلاة، ثم قال: ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ إما أن يكون أمرًا لها بالصلاة بالجماعة فيكون قوله: ﴿وَٱسْجُدِى﴾ أمرًا بالصلاة حال الانفراد، وقوله: ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أمرًا بالصلاة في الجماعة، أو يكون المراد من الركوع التواضع ويكون قوله: ﴿وَٱسْجُدِى﴾ أمرًا ظاهرًا بالصلاة، وقوله: ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أمرًا بالخضوع والخشوع بالقلب.

الوجه الخامس في الجواب: لعلّه كان السجود في ذلك الدين متقدمًا على الركوع.

السؤال الثاني: ما المراد من قوله ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾؟

والجواب: قيل معناه: افعلي كفعلهم، وقيل المراد به الصلاة في الجماعة كانت مأمورة بأن

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٧٠٣)، حديث رقم (٣٨٧٨)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في (مسنده) (٣/ ١٣٥)، حديث رقم (١٢٤١٨)، كلاهما من طريق قتادة عن أنس... به.

تصلي في بيت المقدس مع المجاورين فيه، وإن كانت لا تختلط بهم.

السؤال الثالث: لِمَ لَمْ يقل واركعي مع الراكعات؟

والجواب: لأن الاقتداء بالرجال حال الاختفاء من الرجال أفضل من الاقتداء بالنساء.

واعلم أن المفسرين قالوا: لما ذكرت الملائكة هذه الكلمات مع مريم عليها السلام شفاها، قامت مريم في الصلاة حتى ورمت قدماها وسال الدم والقيح من قدميها.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: (ذلك) إشارة إلى ما تقدم، والمعنى أن الذي مضى ذكره من حديث حنة وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم، إنما هو من إخبار الغيب فلا يمكنك أن تعلمه إلا بالوحي.

فإن قيل: لم نفيت هذه المشاهدة، وانتفاؤها معلوم بغير شبهة، وترك نفي استماع هذه الأشياء من حفاظها وهو موهوم؟

قلنا: كان معلومًا عندهم علمًا يقينيًّا أنه ليس من أهل السماع والقراءة، وكانوا منكرين للوحي، فلم يبق إلا المشاهدة، وهي وإن كانت في غاية الاستبعاد إلا أنها نفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي مع علمهم بأنه لا سماع ولا قراءة، ونظيره ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ [القصص: ٤٦] ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ [يوسف: ١٠٢] ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩].

المسألة الثانية: (الأنباء): الأخبار عما غاب عنك، وأما الإيحاء فقد ورد الكتاب به على معان مختلفة، يجمعها تعريف الموحى إليه بأمر خفي من إشارة أو كتابة أو غيرهما، وبهذا التفسير يعد الإلهام وحيًا كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] وقال في الشياطين: ﴿لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] وقال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] فلما كان الله سبحانه ألقى هذه الأشياء إلى الرسول ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام بحيث يخفى ذلك على غيره سماه وحيًا.

أما قوله تعالى: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في تلك الأقلام وجوهًا؛ الأول: المراد بالأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة وسائر كتب الله تعالى، وكان القراع على أن كل من جرى قلمه على عكس جري الماء فالحق معه، فلما فعلوا ذلك صار قلم زكريا كذلك فسلموا الأمر له، وهذا قول الأكثرين،

والثاني: أنهم ألقوا عصيهم في الماء الجاري فجرت عصا زكريا على ضد جرية الماء فغلبهم، وهذا قول الربيع، والثالث: قال أبو مسلم: معنى يلقون أقلامهم مما كانت الأمم تفعله من المساهمة عند التنازع فيطرحون منها ما يكتبون عليها أسماءهم فمن خرج له السهم سلم له الأمر، وقد قال الله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١] وهو شبيه بأمر القداح التي تتقاسم بها العرب لحم الجزور، وإنما سميت هذه السهام أقلامًا لأنها تقلم وتبرى، وكل ما قطعت منه شيئًا بعد شيء فقد قلمته، ولهذا السبب يسمى ما يكتب به قلمًا.

قال القاضي: وقوع لفظ القلم على هذه الأشياء وإن كان صحيحًا نظرًا إلى أصل الاشتقاق، إلا أن العرف الظاهر أوجب اختصاص القلم بهذا الذي يكتب به، فوجب حمل لفظ القلم عليه.

المسألة الثانية: ظاهر الآية يدل على أنهم كانوا يلقون أقلامهم في شيء على وجه يظهر به امتياز بعضهم عن البعض في استحقاق ذلك المطلوب، وإما ليس فيه دلالة على كيفية ذلك الإلقاء، إلا أنه روي في الخبر أنهم كانوا يلقونها في الماء بشرط أن من جرى قلمه على خلاف جري الماء فاليد له، ثم إنه حصل هذا المعنى لزكريا عليه السلام، فلا جرم صار هو أولى بكفالتها، والله أعلم.

المسألة الثالثة: اختلفوا في السبب الذي لأجله رغبوا في كفالتها حتى أدتهم تلك الرغبة إلى المنازعة.

فقال بعضهم: إن عمران أباها كان رئيسًا لهم ومقدمًا عليهم، فلأجل حق أبيها رغبوا في كفالتها، وقال بعضهم: إن أمها حررتها لعبادة الله تعالى ولخدمة بيت الله تعالى، ولأجل ذلك حرصوا على التكفل بها.

وقال آخرون: بل لأن في الكتب الإلهية كان بيان أمرها وأمر عيسى عليه السلام حاصلاً فتقربوا لهذا السبب حتى اختصموا.

المسألة الرابعة: اختلفوا في أن أولئك المختصمين من كانوا؟ فمنهم من قال: كانوا هم خدمة البيت، ومنهم من قال: بل العلماء والأحبار وكتاب الوحي، ولا شبهة في أنهم كانوا من الخواص وأهل الفضل في الدين والرغبة في الطريق.

أما قوله: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ ففيه حذف، والتقدير: يلقون أقلامهم لينظروا أيهم يكفل مريم وإنما حسن لكونه معلومًا.

أما قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فالمعنى، وما كنت هناك إذ يتقارعون على التكفل بها وإذ يختصمون بسببها فيحتمل أن يكون المراد بهذا الاختصام ما كان قبل الإقراع، ويحتمل أن يكون اختصامًا آخر حصل بعد الإقراع، وبالجملة فالمقصود من الآية شدة رغبتهم في التكفل بشأنها، والقيام بإصلاح مهماتها، وما ذاك إلا لدعاء أمها حيث قالت: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥] وقالت: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]

قوله سبحانه تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح حال مريم عليها السلام، في أول أمرها وفي آخر أمرها وشرح كيفية ولادتها لعيسى عليه السلام، فقال: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اختلفوا في العامل في (إِذْ) قيل: العامل فيه. وما كنت لديهم إذ قالت الملائكة، وقيل: يختصمون إذ قالت الملائكة، وقيل: إنه معطوف على (إِذْ) الأولى في قوله ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ [آل عمران: ٣٥] وقيل: التقدير: إن ما وصفته من أمور زكريا، وهبة الله له يحيى كان إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك، وأما أبو عبيدة: فإنه يجري في هذا الباب على مذهب له معروف، وهو أن (إِذْ) صلة في الكلام وزيادة، واعلم أن القولين الأولين فيهما بعض الضعف وذلك لأن مريم حال ما كانوا يلقون الأقلام وحال ما كانوا يختصمون ما بلغت الحد الذي تبشر فيه بعيسى عليه السلام، إلا قول الحسن: فإنه يقول إنها كانت عاقلة في حال الصغر، فإن ذلك كان من كراماتها، فإن صح ذلك جاز في تلك الحال أن يرد عليها البشرى من الملائكة، وإلا فلا بد من تأخر هذه البشرى إلى حين العقل، ومنهم من تكلف الجواب، فقال: يحتمل أن يقال الاختصام والبشرى وقعا في زمان واسع، كما تقول: لقيته في سنة كذا، وهذا الجواب بعيد، والأصوب هو الوجه الثالث والرابع، أما قول أبي عبيدة: فقد عرفت ضعفه، والله أعلم.

المسألة الثانية: ظاهر قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يفيد الجمع إلا أن المشهور أن ذلك المنادي كان جبريل عليه السلام، وقد قررناه فيما تقدم، وأما البشارة فقد ذكرنا تفسيرها في سورة البقرة في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥].

وأما قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ فقد ذكرنا تفسير الكلمة من وجوه وأليقها بهذا الموضع وجهان؛ الأول: أن كل علوق وإن كان مخلوقًا بواسطة الكلمة وهي قوله: ﴿كُن﴾ إلا أن ما هو السبب المتعارف كان مفقودًا في حق عيسى عليه السلام وهو الأب، فلا جرم كان إضافة حدوثه إلى الكلمة أكمل وأتم فجعل بهذا التأويل كأنه نفس الكلمة كما أن من غلب عليه الجود والكرم والإقبال يقال فيه على سبيل المبالغة إنه نفس الجود، ومحض الكرم، وصريح الإقبال، فكذا هاهنا.

والوجه الثاني: أن السلطان العادل قد يوصف بأنه ظل الله في أرضه، وبأنه نور الله لما أنه

سبب لظهور ظل العدل، ونور الإحسان، فكذلك كان عيسى عليه السلام سببًا لظهور كلام الله عزّ وجلّ بسبب كثرة بياناته وإزالة الشبهات والتحريفات عنه فلا يبعد أن يسمى بكلمة الله تعالى على هذا التأويل.

فإن قيل: ولم قلتم إن حدوث الشخص من غير نطفة الأب ممكن، قلنا: أما على أصول المسلمين فالأمر فيه ظاهر ويدل عليه وجهان؛ الأول: أن تركيب الأجسام وتأليفها على وجه يحصل فيها الحياة والفهم، والنطق أمر ممكن، وثبت أنه تعالى قادر على الممكنات بأسرها، وكان سبحانه وتعالى قادرًا على إيجاد الشخص، لا من نطفة الأب، وإذا ثبت الإمكان، ثم إن المعجز قام على صدق النبي، فوجب أن يكون صادقًا، ثم أخبر عن وقوع ذلك الممكن، والصادق إذا أخبر عن وقوع الممكن وجب القطع بكونه كذلك، فثبت صحة ما ذكرناه، الثاني: ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] فلما لم يبعد تخليق آدم من غير أب فلأن لا يبعد تخليق عيسى من غير أب كان أولى وهذه حجة ظاهرة، وأما على أصول الفلاسفة فالأمر في تجويزه ظاهر ويدل عليه وجوه؛ الأول: أن الفلاسفة اتفقوا على أنه لا يمتنع حدوث الإنسان على سبيل التوالد من غير تولد قالوا: لأن بدن الإنسان إنما استعد لقبول النفس الناطقة التي تدبر بواسطة حصول المزاج المخصوص في ذلك البدن، وذلك المزاج إنما جعل لامتزاج العناصر الأربعة على قدر معين في مدة معينة، فحصول أجزاء العناصر على ذلك القدر الذي يناسب بدن الإنسان غير ممتنع وامتزاجها غير ممتنع، فامتزاجها يكون عند حدوث الكيفية المزاجية واجبًا، وعند حدوث الكيفية المزاجية يكون تعلق النفس بذلك البدن واجبًا، فثبت أن حدوث الإنسان على سبيل التولد معقول ممكن، وإذا كان الأمر كذلك فحدوث الإنسان لا عن الأب أولى بالجواز والإمكان.

الوجه الثاني: وهو أنا نشاهد حدوث كثير من الحيوانات على سبيل التولد، كتولد الفأر عن المدر، والحيات عن الشعر، والعقارب عن الباذروج، وإذا كان كذلك فتولد الولد لا عن الأب أولى أن لا يكون ممتنعًا.

الوجه الثالث: وهو أن التخيلات الذهنية كثيرًا ما تكون أسبابًا لحدوث الحوادث الكثيرة ليس أن تصور المنافي يوجب حصول كيفية الغضب، ويوجب حصول السخونة الشديدة في البدن أليس اللوح الطويل إذا كان موضوعًا على الأرض قدر الإنسان على المشي عليه ولو جعل كالقنطرة على وهدة لم يقدر على المشي عليه، بل كلما مشى عليه يسقط وما ذاك إلا أن تصور السقوط يوجب حصول السقوط، وقد ذكروا في (كتب الفلسفة) أمثلة كثيرة لهذا الباب، وجعلوها كالأصل في بيان جواز المعجزات والكرامات، فما المانع من أن يقال إنه لما تخيلت صورته عليه السلام كفى ذلك في علوق الولد في رحمها. وإذا كان كل هذه الوجوه ممكنًا محتملاً كان القول بحدوث عيسى عليه السلام من غير واسطة الأب قولاً غير ممتنع، ولو أنك

طالبت جميع الأولين والآخرين من أرباب الطبائع والطب والفلسفة على إقامة حجة إقناعية في امتناع حدوث الولد من غير الأب لم يجدوا إليه سبيلاً إلا الرجوع إلى استقراء العرف والعادة، وقد اتفق علماء الفلاسفة على أن مثل هذا الاستقراء لا يفيد الظن القوي فضلاً عن العلم، فعلمنا أن ذلك أمر ممكن فلما أخبر العباد عن وقوعه وجب الجزم به والقطع بصحته.

اما قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ فلفظة (مِنْ) ليست للتبعيض هاهنا إذ لو كان كذلك لكان الله تعالى متجزئًا متبعضًا متحملاً للاجتماع والافتراق وكل من كان كذلك فهو محدث وتعالى الله عنه، بل المراد من كلمة (مِنْ) هاهنا ابتداء الغاية وذلك لأن في حق عيسى عليه السلام لما لم تكن واسطة الأب موجودة صار تأثير كلمة الله تعالى في تكوينه وتخليقه أكمل وأظهر فكان كون كلمة (الله) مبدأ لظهوره ولحدوثه أكمل فكان المعنى لفظ ما ذكرناه لا ما يتوهمه النصارى والحلولية.

وأما قوله تعالى: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

ففيه سؤالات:

السؤال الأول: المسيح: هل هو اسم مشتق، أو موضوع؟

والجواب: فيه قولان: الأول: قال أبو عبيدة والليث: أصله بالعبرانية مشيحًا، فعربته العرب وغيروا لفظه، وعيسى: أصله يشوع كما قالوا في موسى: أصله موشى، أو ميشا بالعبرانية، وعلى هذا القول لا يكون له اشتقاق.

والقول الثاني: أنه مشتق، وعليه الأكثرون، ثم ذكروا فيه وجوهًا؛ الأول: قال ابن عباس: إنما سمي عيسى عليه السلام مسيحًا، لأنه ما كان يمسح بيده ذا عاهة، إلا برئ من مرضه، الثاني: قال أحمد بن يحيى: سمي مسيحًا لأنه كان يمسح الأرض أي: يقطعها، ومنه مساحة أقسام الأرض، وعلى هذا المعنى يجوز أن يقال: لعيسى مِسِّيح بالتشديد على المبالغة كما يقال للرجل فِسِّيق وشِرِّيب، الثالث: أنه كان مسيحًا، لأنه كان يمسح رأس اليتامى لله تعالى، فعلى هذه الأقوال: هو فعيل بمعنى: فاعل، كرحيم بمعنى: راحم، الرابع: أنه مسح من الأوزار والآثام، والخامس: سمي مسيحًا لأنه ما كان في قدمه خمص، فكان ممسوح القدمين، والسادس: سمي مسيحًا لأنه كان ممسوحًا بدهن طاهر مبارك يمسح به الأنبياء، ولا يمسح به غيرهم، ثم قالوا: وهذا الدهن يجوز أن يكون الله تعالى جعله علامة حتى تعرف الملائكة أن كل من مسح به وقت الولادة فإنه يكون نبيًا، السابع: سمي مسيحًا لأنه مسحه جبريل ﷺ بجناحه وقت ولادته ليكون ذلك صونًا له عن مس الشيطان، الثامن: سمي مسيحًا لأنه خرج من بطن أمه ممسوحًا بالدهن، وعلى هذه الأقوال يكون المسيح، بمعنى: الممسوح، فعيل بمعنى: مفعول. قال أبو عمرو بن العلاء: المسيح: الملك. وقال النخعي: المسيح: الصديق والله أعلم. ولعلّهما قالا ذلك من جهة كونه مدحًا لا لدلالة اللغة عليه، وأما المسيح الدجال فإنما

سمي مسيحًا لأحد وجهين أحدهما: لأنه ممسوح أحد العينين، والثاني: أنه يمسح الأرض أي: يقطعها في المدة القليلة، قالوا: ولهذا قيل له: دجال لضربه في الأرض، وقطعه أكثر نواحيها، يقال: قد دجل الدجال إذا فعل ذلك، وقيل: سمي دجالاً من قوله: دجل الرجل إذا موه ولبس.

السؤال الثاني: المسيح كان كاللقب له، وعيسى كالاسم فلم قدم اللقب على الاسم؟.

الجواب: أن المسيح كاللقب الذي يفيد كونه شريفًا رفيع الدرجة، مثل الصديق والفاروق فذكره الله تعالى أولاً بلقبه ليفيد علو درجته، ثم ذكره باسمه الخاص.

السؤال الثالث: لم قال عيسى ابن مريم والخطاب مع مريم؟

الجواب: لأن الأنبياء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات، فلما نسبه الله تعالى إلى الأم دون الأب، كان ذلك إعلامًا لها بأنه محدث بغير الأب، فكان ذلك سببًا لزيادة فضله وعلو درجته.

السؤال الرابع: الضمير في قوله: اسمه عائد إلى الكلمة وهي مؤنثة فلم ذكر الضمير؟.

الجواب: لأن المسمى بها مذكر.

السؤال الخامس: لم قال اسمه المسيح عيسى ابن مريم؟ والاسم ليس إلا عيسى، وأما المسيح فهو لقب، وأما ابن مريم فهو صفة.

الجواب: الاسم علامة المسمى ومعرف له، فكأنه قيل: الذي يعرف به هو مجموع هذه الثلاثة.

أما قوله تعالى: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: معنى الوجيه: ذو الجاه والشرف والقدر، يقال: وجه الرجل، يوجه وجاهة فهو وجيه، إذا صارت له منزلة رفيعة عند الناس والسلطان، وقال بعض أهل اللغة: الوجيه: هو الكريم، لأن أشرف أعضاء الإنسان وجهه فجعل الوجه استعارة عن الكرم والكمال.

واعلم أن الله تعالى وصف موسى ﷺ بأنه كان وجيهًا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩] ثم للمفسرين أقوال: الأول: قال الحسن: كان وجيهًا في الدنيا بسبب النبوة، وفي الآخرة بسبب علو المنزلة عند الله تعالى، والثاني: أنه وجيه عند الله تعالى، وأما عيسى عليه السلام، فهو وجيه في الدنيا بسبب أنه يستجاب دعاؤه ويحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص بسبب دعائه، ووجيه في الآخرة بسبب أنه يجعله شفيع أمته المحقين ويقبل شفاعتهم فيهم كما يقبل شفاعة أكابر الأنبياء عليهم السلام والثالث: أنه وجيه في الدنيا بسبب أنه كان مبرأ من العيوب التي وصفه لليهود بها، ووجيه في الآخرة بسبب كثرة ثوابه وعلو درجته عند الله تعالى.

فإن قيل: كيف كان وجيهًا في الدنيا واليهود عاملوه بما عاملوه، قلنا: قد ذكرنا أنه تعالى سمى موسى عليه السلام بالوجيه مع أن اليهود طعنوا فيه، وآذوه إلى أن برأه الله تعالى مما قالوا، وذلك لم يقدح في وجاهة موسى عليه السلام، فكذا هاهنا.

المسألة الثانية: قال الزجاج (وَجِيهًا) منصوب على الحال، المعنى: أن الله يبشرك بهذا الولد وجيهًا في الدنيا والآخرة، والفراء يسمي هذا قطعًا كأنه قال: عيسى ابن مريم الوجيه فقطع منه التعريف.

أما قوله ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

ففيه وجوه:

أحدها: أنه تعالى جعل ذلك كالمدح العظيم للملائكة فألحقه بمثل منزلتهم ودرجتهم بواسطة هذه الصفة.

وثانيها: أن هذا الوصف كالتنبيه على أنه عليه السلام سيرفع إلى السماء وتصاحبه الملائكة.

وثالثها: أنه ليس كل وجيه في الآخرة يكون مقربًا لأن أهل الجنة على منازل ودرجات، ولذلك قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة: ٧] إلى قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١].

أما قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: الواو للعطف على قوله: (وَجِيهًا) والتقدير كأنه قال: وجيهًا ومكلمًا للناس وهذا عندي ضعيف، لأن عطف الجملة الفعلية على الاسمية غير جائز إلا للضرورة، أو الفائدة والأولى أن يقال: تقدير الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ الوجيه في الدنيا والآخرة المعدود من المقربين، وهذا المجموع جملة واحدة، ثم قال: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ فقوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ عطف على قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾.

المسألة الثانية: في المهد قولان؛ أحدهما: أنه حجر أمه، والثاني: هو هذا الشيء المعروف الذي هو مضجع الصبي وقت الرضاع، وكيف كان فالمراد منه: إنه يكلم الناس في الحالة التي يحتاج الصبي فيها إلى المهد، ولا يختلف هذا المقصود سواء كان في حجر أمه أو كان في المهد.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿وَكَهْلًا﴾ عطف على الظرف من قوله: ﴿فِى ٱلْمَهْدِ﴾ كأنه قيل: يكلم الناس صغيرًا وكهلاً وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: ما الكهل؟.

الجواب: الكهل في اللغة ما اجتمع قوته وكمل شبابه، وهو مأخوذ من قول العرب اكتهل النبات إذا قوي وتم، قال الأعشى:

يُضاحِكُ الشَّمسَ مِنها كَوكَبٌ شَرِقٌ ... مُؤَزَّرٌ بِعَميمِ النَّبتِ مُكتَهِلُ

أراد بالمكتهل المتناهي في الحسن والكمال.

السؤال الثاني: أن تكلمه حال كونه في المهد من المعجزات، فأما تكلمه حال الكهولة فليس من المعجزات، فما الفائدة في ذكره؟.

والجواب: من وجوه: الأول: أن المراد منه بيان كونه متقلبًا في الأحوال من الصبا إلى الكهولة والتغير على الإله تعالى محال، والمراد منه الرد على وفد نجران في قولهم: إن عيسى كان إلهًا، والثاني: المراد منه أن يكلم الناس مرة واحدة في المهد لإظهار طهارة أمه، ثم عند الكهولة يتكلم بالوحي والنبوة، والثالث: قال أبو مسلم: معناه أنه يكلم حال كونه في المهد، وحال كونه كهلاً على حد واحد وصفة واحدة وذلك لا شك أنه غاية في المعجز، الرابع: قال الأصم: المراد منه أنه يبلغ حال الكهولة.

السؤال الثالث: نقل أن عمر عيسى عليه السلام إلى أن رفع كان ثلاثًا وثلاثين سنة وستة أشهر، وعلى هذا التقدير: فهو ما بلغ الكهولة.

والجواب: من وجهين: الأول: بينا أن الكهل في أصل اللغة عبارة عن الكامل التام، وأكمل أحوال الإنسان إذا كان بين الثلاثين والأربعين، فصح وصفه بكونه كهلاً في هذا الوقت، والثاني: هو قول الحسين بن الفضل البجلي: أن المراد بقوله: ﴿وَكَهْلًا﴾ أن يكون كهلاً بعد أن ينزل من السماء في آخر الزمان، ويكلم الناس، ويقتل الدجال، قال الحسين بن الفضل: وفي هذه الآية نص في أنه عليه الصلاة والسلام سينزل إلى الأرض.

المسألة الرابعة: أنكرت النصارى كلام المسيح عليه السلام في المهد، واحتجوا على صحة قولهم بأن كلامه في المهد من أعجب الأمور وأغربها، ولا شك أن هذه الواقعة لو وقعت لوجب أن يكون وقوعها في حضور الجمع العظيم الذي يحصل القطع واليقين بقولهم، لأن تخصيص مثل هذا المعجز بالواحد والاثنين لا يجوز، ومتى حدثت الواقعة العجيبة جدًا عند حضور الجمع العظيم فلا بد وأن تتوفر الدواعي على النقل فيصير ذلك بالغًا حد التواتر، وإخفاء ما يكون بالغًا إلى حد التواتر ممتنع، وأيضًا فلو كان ذلك لكان ذلك الإخفاء هاهنا ممتنعًا لأن النصارى بالغوا في إفراط محبته إلى حيث قالوا إنه كان إلهًا، ومن كان كذلك يمتنع أن يسعى في إخفاء مناقبه وفضائله بل ربما يجعل الواحد ألفًا فثبت أن لو كانت هذه الواقعة موجودة لكان أولى الناس بمعرفتها النصارى، ولما أطبقوا على إنكارها علمنا أنه ما كان موجودًا البتة.

أجاب المتكلمون عن هذه الشبهة، وقالوا: إن كلام عيسى عليه السلام في المهد إنما كان للدلالة على براءة حال مريم عليها السلام من الفاحشة، وكان الحاضرون جمعًا قليلين، فالسامعون لذلك الكلام، كان جمعًا قليلاً، ولا يبعد في مثله التواطؤ على الإخفاء، وبتقدير: أن يذكروا ذلك إلا أن اليهود كانوا يكذبونهم في ذلك وينسبونهم إلى البهت، فهم أيضًا قد سكتوا لهذه العلة فلأجل هذه الأسباب بقي الأمر مكتومًا مخفيًّا إلى أن أخبر الله سبحانه وتعالى محمدًا ﷺ بذلك، وأيضًا فليس كل النصارى ينكرون ذلك، فإنه نقل عن جعفر بن أبي طالب:

لما قرأ على النجاشي سورة مريم، قال النجاشي: لا تفاوت بين واقعة عيسى، وبين المذكور في هذا الكلام بذرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ .

فإن قيل: كون عيسى كلمة من الله تعالى، وكونه ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ وكونه من المقربين عند الله تعالى، وكونه مكلمًا للناس في المهد، وفي الكهولة كل واحد من هذه الصفات أعظم وأشرف من كونه صالحًا فلم ختم الله تعالى أوصاف عيسى بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ؟.

قلنا: إنه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحًا لأنه لا يكون كذلك إلا ويكون في جميع الأفعال والتروك مواظبًا على النهج الأصلح، والطريق الأكمل، ومعلوم أن ذلك يتناول جميع المقامات في الدنيا والدين في أفعال القلوب، وفي أفعال الجوارح، فلما ذكر الله تعالى بعض التفاصيل أردفه بهذا الكلام الذي يدل على أرفع الدرجات.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾

قال المفسرون: إنها إنما قالت ذلك لأن التبشير به يقتضي التعجب مما وقع على خلاف العادة وقد قررنا مثله في قصة زكريا عليه السلام، وقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ تقدم تفسيره في سورة البقرة.

أما قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ نافع، وعاصم: ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ بالياء والباقون بالنون، أما الياء فعطف على قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ وقال المبرد: عطف على يبشرك بكلمة، وكذا وكذا ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ومن قرأ بالنون قال تقدير الآية أنها قالت: رب أنى يكون لي ولد فقال لها الله: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فهذا وإن كان إخبارًا على وجه المغايبة إلا أنه إخبار من الله تعالى عن نفسه، فلا جرم حسن أن يوصل به الإخبار على وجه غير المغايبة فقال: (ونعلمه) لأن معنى قوله: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ معناه: كذلك نحن نخلق ما نشاء ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ والله أعلم.

المسألة الثانية: في هذه الآية أمور أربعة معطوف بعضها على بعض بواو العطف، والأقرب عندي أن يقال: المراد من الكتاب تعليم الخط والكتابة، ثم المراد بالحكمة تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ومجموعهما هو المسمى بالحكمة، ثم بعد أن صار عالمًا بالخط والكتابة، ومحيطًا بالعلوم

العقلية والشرعية، يعلمه التوراة، وإنما أخر تعليم التوراة عن تعليم الخط والحكمة، لأن التوراة كتاب إلهي، وفيه أسرار عظيمة، والإنسان ما لم يتعلم العلوم الكثيرة لا يمكنه أن يخوض في البحث على أسرار الكتب الإلهية، ثم قال في المرتبة الرابعة: ﴿وَٱلۡإِنجِيلَ﴾، وإنما أخر ذكر الإنجيل عن ذكر التوراة لأن من تعلم الخط، ثم تعلم علوم الحق، ثم أحاط بأسرار الكتاب الذي أنزله الله تعالى على من قبله من الأنبياء فقد عظمت درجته في العلم فإذا أنزل الله تعالى عليه بعد ذلك كتابًا آخر وأوقفه على أسراره فذلك هو الغاية القصوى، والمرتبة العليا في العلم، والفهم والإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية، والاطلاع على الحكم العلوية والسفلية، فهذا ما عندي في ترتيب هذه الألفاظ الأربعة.

ثم قال تعالى ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٤٩﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في هذه الآية وجوه:

الأول: تقدير الآية: ونعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ونبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل، قائلًا: أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ، والحذف حسن إذا لم يفض إلى الاشتباه.

الثاني: قال الزجاج: الاختيار عندي أن تقديره: ويكلم الناس رسولاً، وإنما أضمرنا ذلك لقوله: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم﴾ والمعنى: ويكلمهم رسولاً بأني قد جئتكم.

الثالث: قال الأخفش: إن شئت جعلت الواو زائدة، والتقدير: ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة، والإنجيل رسولاً إلى بني إسرائيل، قائلًا: أني قد جئتكم بآية.

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أنه ﷺ كان رسولاً إلى كل بني إسرائيل بخلاف قول بعض اليهود إنه كان مبعوثًا إلى قوم مخصوصين منهم.

المسألة الثالثة: المراد بالآية الجنس لا الفرد لأنه تعالى عدد هاهنا أنواعًا من الآيات، وهي إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار عن المغيبات فكان المراد من قوله: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ الجنس لا الفرد.

ثم قال: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾.

اعلم أنه تعالى حكى هاهنا خمسة أنواع من معجزات عيسى عليه السلام:

النوع الأول

ما ذكره هاهنا في هذه الآية وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة: (أني) بفتح الهمزة، وقرأ نافع بكسر الهمزة فمن فتح (أني) فقد جعلها بدلاً من آية كأنه قال: وجئتكم بأني أخلق لكم من الطين، ومن كسر فله وجهان؛ أحدهما: الاستئناف وقطع الكلام مما قبله، والثاني: أنه فسّر الآية بقوله: (إني أَخْلُقُ لَكُم) ويجوز أن يفسر الجملة المتقدمة بما يكون على وجه الابتداء قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الفتح: ٢٩] ثم فسّر الموعود بقوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] ثم فسّر المثل بقوله. ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] وهذا الوجه أحسن لأنه في المعنى كقراءة من فتح (أني) على جعله بدلاً من آية.

المسألة الثانية: ﴿أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ أي: أقدر وأصور، وقد بينا في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] أن الخلق هو التقدير ولا بأس بأن نذكره هاهنا أيضًا فنقول الذي يدل عليه القرآن والشعر والاستشهاد، أما القرآن فآيات:

إحداها: قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] أي: المقدرين، وذلك لأنه ثبت أن العبد لا يكون خالقًا بمعنى التكوين والإبداع فوجب تفسير كونه خالقًا بالتقدير والتسوية.

وثانيها: أن لفظ الخلق يطلق على الكذب قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧] وفي العنكبوت ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] وفي سورة ص ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧] والكاذب إنما سمي خالقًا لأنه يقدر الكذب في خاطره ويصوره.

وثالثها: هذه الآية التي نحن في تفسيرها وهي قوله ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ أي أصور وأقدر وقال تعالى في المائدة: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠] وكل ذلك يدل على أن الخلق هو التصوير والتقدير.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وقوله ﴿خَلَقَ﴾ إشارة إلى الماضي، فلو حملنا قوله: ﴿خَلَقَ﴾ على الإيجاد والإبداع، لكان المعنى: أن كل ما في الأرض فهو تعالى قد أوجده في الزمان الماضي، وذلك باطل بالاتفاق، فإذن وجب حمل الخلق على التقدير حتى يصح الكلام وهو أنه تعالى قدر في الماضي كل ما وجد الآن في الأرض، وأما الشعر فقوله[1]:

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى وهو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني، من مُضَر.
؟ - ١٣ق. هـ/ ؟ - ٦٠٩م، حكيم الشعراء في الجاهلية وفي أئمة الأدب من يفضّله على شعراء العرب كافة.
قال ابن الأعرابي: كان لزهير من الشعر ما لم يكن لغيره: كان أبوه شاعرًا، وخاله شاعرًا، وأخته سلمى شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعرين، وأخته الخنساء شاعرة. ولد في بلاد مُزَيْنَة بنواحي المدينة وكان يقيم في الحاجر (من ديار نجد)، واستمر بنوه فيه بعد الإسلام.

فَلأَنتَ تَفري ما خَلَقتَ وَبَعضُ القَومِ يَخلُقُ ثُمَّ لا يَفري

وقوله:

وَلا يُغطِي بأيدي الخالِقينَ وَلا أيدي الخَوالِقِ إلاّ جَيِّدُ الأَدَمِ(١)

وأما الاستشهاد: فهو أنه يقال: خلق النعل إذا قدرها وسواها بالقياس والخلاق المقدار من الخير، وفلان خليق بكذا، أي: له هذا المقدار من الاستحقاق، والصخرة الخلقاء الملساء، لأن الملاسة استواء، وفي الخشونة اختلاف، فثبت أن الخلق عبارة عن التقدير والتسوية.

إذا عرفت هذا فنقول: اختلف الناس في لفظ (الخالق) قال أبو عبد الله البصري: إنه لا يجوز إطلاقه على الله في الحقيقة، لأن التقدير والتسوية عبارة عن الظن والحسبان وذلك على الله محال، وقال أصحابنا: الخالق، ليس إلا الله، واحتجوا عليه بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: ١٦] ومنهم من احتج بقوله ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم﴾ [فاطر: ٣] وهذا ضعيف، لأنه تعالى قال: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [فاطر: ٣] فالمعنى: هل من خالق غير الله موصوف بوصف كونه رازقًا من السماء ولا يلزم من صدق قولنا الخالق الذي يكون هذا شأنه، ليس إلا الله، صدق قولنا أنه لا خالق إلا الله.

وأجابوا عن كلام أبي عبد الله بأن التقدير والتسوية عبارة عن العلم والظن لكن الظن وإن كان محالاً في حق الله تعالى فالعلم ثابت.

إذا عرفت هذا فنقول: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ معناه: أصور وأقدر، وقوله: ﴿كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ فالهيئة: الصورة المهيئة من قولهم: هيأت الشيء إذا قدرته، وقوله: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ أي: في ذلك الطين المصور وقوله: ﴿فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع (فَيَكُونُ طائرًا) بالألف على الواحد، والباقون ﴿طَيۡرَۢا﴾ على الجمع، وكذلك في المائدة، والطير اسم الجنس يقع على الواحد وعلى الجمع.

يروى أن عيسى عليه السلام لما ادعى النبوة، وأظهر المعجزات أخذوا يتعنتون عليه وطالبوه بخلق خفاش، فأخذ طينًا وصوره، ثم نفخ فيه، فإذا هو يطير بين السماء والأرض، قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتًا، ثم اختلف الناس فقال قوم: إنه لم يخلق غير الخفاش، وكانت قراءة نافع عليه. وقال آخرون: إنه خلق أنواعًا من الطير وكانت قراءة الباقين عليه.

(١) هذا البيت لإبراهيم بن هرمة وهو أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر بن هرمة بن هذيل بن ربيع. ٨٠-١٧٦هـ/ ٦٩٩-٧٩٢م، ينتهي نسبه إلى الحارث بن فهر، وفهر أصل قريش، تربى في قبيلة تميم وهي من القبائل العربية الكبيرة في شرق الجزيرة، كان لها شأن في الجزيرة والإسلام. شاعر مشهور من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، ذكر الأصمعي أنه رآه ينشد الشعر بين يدي الرشيد.

المسألة الثانية: قال بعض المتكلمين: الآية تدل على أن الروح جسم رقيق كالريح، ولذلك وصفها بالنفخ، ثم هاهنا بحث، وهو أنه هل يجوز أن يقال: إنه تعالى أودع في نفس عيسى عليه السلام خاصية، بحيث متى نفخ في شيء كان نفخه فيه موجبًا لصيرورة ذلك الشيء حيًّا، أو يقال: ليس الأمر كذلك بل الله تعالى كان يخلق الحياة في ذلك الجسم بقدرته عند نفخة عيسى عليه السلام فيه على سبيل إظهار المعجزات، وهذا الثاني هو الحق لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] وحكي عن إبراهيم عليه السلام أنه قال في مناظرته مع الملك: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فلو حصل لغيره، هذه الصفة لبطل ذلك الاستدلال.

المسألة الثالثة: القرآن دلّ على أنه عليه الصلاة والسلام إنما تولد من نفخ جبريل عليه السلام في مريم وجبريل ﷺ روح محض وروحاني محض فلا جرم كانت نفخة عيسى عليه السلام للحياة والروح.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ معناه بتكوين الله تعالى وتخليقه لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥] أي: إلا بأن يوجد الله الموت، وإنما ذكر عيسى عليه السلام هذا القيد إزالة للشبهة، وتنبيهًا على أني أعمل هذا التصوير، فأما خلق الحياة فهو من الله تعالى على سبيل إظهار المعجزات على يد الرسل.

وأما النوع الثاني والثالث والرابع من المعجزات

فهو قوله: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

ذهب أكثر أهل اللغة إلى أن الأكمه هو الذي ولد أعمى، وقال الخليل وغيره: هو الذي عمي بعد أن كان بصيرًا، وعن مجاهد هو الذي لا يبصر بالليل، ويقال: إنه لم يكن في هذه الأمة أكمه غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب (التفسير)، وروي أنه عليه الصلاة والسلام ربما اجتمع عليه خمسون ألفًا من المرضى من أطاق منهم أتاه، ومن لم يطق أتاه عيسى عليه السلام، وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده، قال الكلبي: كان عيسى عليه السلام يحيي الأموات بيا حي يا قيوم وأحيا عاذر، وكان صديقًا له، ودعا سام بن نوح من قبره، فخرج حيًّا، ومرّ على ابن ميت لعجوز فدعا الله، فنزل عن سريره حيًّا، ورجع إلى أهله وبقي وولد له، وقوله ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ رفع لتوهم من اعتقد فيه الإلهية.

وأما النوع الخامس: من المعجزات إخباره عن الغيوب

فهو قوله تعالى حكاية عنه: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في هذه الآية قولان:

أحدهما: أنه عليه الصلاة والسلام كان من أول أمره يخبر عن الغيوب، روى السدي: أنه

كان يلعب مع الصبيان، ثم يخبرهم بأفعال آبائهم وأمهاتهم، وكان يخبر الصبي بأن أمك قد خبأت لك كذا فيرجع الصبي إلى أهله ويبكي إلى أن يأخذ ذلك الشيء ثم قالوا لصبيانهم: لا تلعبوا مع هذا الساحر، وجمعوهم في بيت، فجاء عيسى عليه السلام يطلبهم، فقالوا له، ليسوا في البيت، فقال: فمن في هذا البيت، قالوا: خنازير قال عيسى عليه السلام: كذلك يكونون فإذا هم خنازير.

والقول الثاني: إن الإخبار عن الغيوب إنما ظهر وقت نزول المائدة، وذلك لأن القوم نهوا عن الادخار، فكانوا يخزنون ويدخرون، فكان عيسى عليه السلام يخبرهم بذلك.

المسألة الثانية: الإخبار عن الغيوب على هذا الوجه معجزة، وذلك لأن المنجمين الذين يدعون استخراج الخبر لا يمكنهم ذلك إلا عن سؤال يتقدم ثم يستعينون عند ذلك بآلة ويتوصلون بها إلى معرفة أحوال الكواكب، ثم يعترفون بأنهم يغلطون كثيرًا، فأما الإخبار عن الغيب من غير استعانة بآلة، ولا تقدم مسألة لا يكون إلا بالوحي من الله تعالى.

ثم إنه عليه السلام ختم كلامه بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

والمعنى أن في هذه الخمسة لمعجزة قاهرة قوية دالة على صدق المدعي لكل من آمن بدلائل المعجزة في الحمل على الصدق، بلى من أنكر دلالة أصل المعجز على صدق المدعي، وهم البراهمة، فإنه لا يكفيه ظهور هذه الآيات، أما من آمن بدلالة المعجز على الصدق لا يبقى له في هذه المعجزات كلام البتة.

قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

اعلم أنه عليه السلام لما بيّن بهذه المعجزات الباهرة كونه رسولاً من عند الله تعالى، بيّن بعد ذلك أنه بماذا أرسل وهو أمران:

أحدهما: قوله ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قد ذكرنا في قوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾ [آل عمران: ٤٩] أن تقديره: وأبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾ فقوله: ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ معطوف عليه والتقدير: وأبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾، وإني بعثت ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ وإنما حسن حذف هذه الألفاظ لدلالة الكلام عليها.

المسألة الثانية: إنه يجب على كل نبي أن يكون مصدقًا لجميع الأنبياء عليهم السلام، لأن

الطريق إلى ثبوت نبوتهم هو المعجز، فكل من حصل له المعجز، وجب الاعتراف بنبوته، فلهذا قلنا: بأن عيسى عليه السلام يجب أن يكون مصدقًا لموسى بالتوراة، ولعلّ من جملة الأغراض في بعثة عيسى عليه السلام إليهم تقرير التوراة وإزالة شبهات المنكرين وتحريفات الجاهلين.

وأما المقصود الثاني: من بعثة عيسى عليه السلام قوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

وفيه سؤال: وهو أنه يقال: هذه الآية الأخيرة مناقضة لما قبلها لأن هذه الآية الأخيرة صريحة في أنه جاء ليحل بعض الذي كان محرمًا عليه في التوراة، وهذا يقتضي أن يكون حكمه بخلاف حكم التوراة، وهذا يناقض قوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

والجواب: أنه لا تناقض بين الكلامين، وذلك لأن التصديق بالتوراة لا معنى له إلا اعتقاد أن كل ما فيها فهو حق وصواب، وإذا لم يكن الثاني مذكورًا في التوراة لم يكن حكم عيسى بتحليل ما كان محرمًا فيها، مناقضًا لكونه مصدقًا بالتوراة، وأيضًا إذا كانت البشارة بعيسى عليه السلام موجودة في التوراة لم يكن مجيء عيسى عليه السلام وشرعه مناقضًا للتوراة، ثم اختلفوا فقال بعضهم: إنه عليه السلام ما غيّر شيئًا من أحكام التوراة، قال وهب بن منبه: إن عيسى عليه السلام كان على شريعة موسى عليه السلام كان يقرر السبت ويستقبل بيت المقدس، ثم إنه فسّر قوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ بأمرين؛ أحدهما: إن الأحبار كانوا قد وضعوا من عند أنفسهم شرائع باطلة ونسبوها إلى موسى، فجاء عيسى عليه السلام ورفعها وأبطلها وأعاد الأمر إلى ما كان في زمن موسى عليه السلام، والثاني: أن الله تعالى كان قد حرم بعض الأشياء على اليهود عقوبة لهم على بعض ما صدر عنهم من الجنايات، كما قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] ثم بقي ذلك التحريم مستمرًا على اليهود فجاء عيسى عليه السلام ورفع تلك التشديدات عنهم، وقال آخرون: إن عيسى عليه السلام رفع كثيرًا من أحكام التوراة، ولم يكن ذلك قادحًا في كونه مصدقًا بالتوراة على ما بيناه ورفع السبت ووضع الأحد قائمًا مقامه وكان محقًّا في كل ما عمل لما بينا أن الناسخ والمنسوخ كلاهما حق وصدق.

ثم قال: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وإنما أعاده لأن إخراج الإنسان عن المألوف المعتاد من قديم الزمان عسر فأعاد ذكر المعجزات ليصير كلامه ناجعًا في قلوبهم ومؤثرًا في طباعهم، ثم خوفهم فقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ لأن طاعة الرسول من لوازم تقوى الله تعالى فبيّن أنه إذا لزمكم أن تتقوا الله لزمكم أن تطيعوني فيما آمركم به عن ربي، ثم إنه ختم كلامه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ ومقصوده إظهار الخضوع والاعتراف بالعبودية لكيلا يتقولوا عليه الباطل فيقولوا: إنه إله وابن إله لأن إقراره لله بالعبودية يمنع ما تدعيه جهال النصارى عليه، ثم قال: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ والمعنى: أنه تعالى لما كان رب الخلائق بأسرهم وجب على الكل أن يعبدوه، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى بشارة مريم بولد مثل عيسى واستقصى في بيان صفاته وشرح معجزاته وترك هاهنا قصة ولادته، وقد ذكرها في سورة مريم على الاستقصاء، شرع في بيان أن عيسى لما شرح لهم تلك المعجزات، وأظهر لهم تلك الدلائل فهم بماذا عاملوه، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ﴾:

وفي الآية مسائل:

الأولى: الإحساس عبارة عن وجدان الشيء بالحاسة وهاهنا وجهان؛ أحدهما: أن يجري اللفظ على ظاهره، وهو أنهم تكلموا بالكفر، فأحس ذلك بإذنه، والثاني: أن نحمله على التأويل، وهو أن المراد أنه عرف منهم إصرارهم على الكفر، وعزمهم على قتله، ولما كان ذلك العلم علمًا لا شبهة فيه، مثل العلم الحاصل من الحواس، لا جرم عبر عن ذلك العلم بالإحساس.

المسألة الثانية: اختلفوا في السبب الذي به ظهر كفرهم على وجوه؛ الأول: قال السدي: أنه تعالى لما بعثه رسولاً إلى بني إسرائيل جاءهم ودعاهم إلى دين الله فتمردوا وعصوا فخافهم واختفى عنهم، وكان أمر عيسى عليه السلام في قومه كأمر محمد ﷺ وهو بمكة فكان مستضعفًا، وكان يختفي من بني إسرائيل كما اختفى النبي ﷺ في الغار، وفي منازل من آمن به لما أرادوا قتله، ثم إنه عليه الصلاة والسلام خرج مع أمه يسيحان في الأرض، فاتفق أنه نزل في قرية على رجل فأحسن ذلك الرجل ضيافته وكان في تلك المدينة ملك جبار، فجاء ذلك الرجل يومًا حزينًا، فسأله عيسى عن السبب فقال: ملك هذه المدينة رجل جبار، ومن عادته أنه جعل على كل رجل منا يومًا يطعمه ويسقيه هو وجنوده، وهذا اليوم نوبتي والأمر متعذر علي، فلما سمعت مريم عليها السلام ذلك، قالت: يا بني ادع الله ليُكفَي ذلك، فقال: يا أماه إن فعلت ذلك كان فيه شر، فقالت: قد أحسن وأكرم ولا بد من إكرامه فقال عيسى عليه السلام: إذا قرب مجيء الملك فاملأ قدورك وخوابيك ماء ثم أعلمني، فلما فعل ذلك دعا الله تعالى فتحول ما في القدور طبيخًا، وما في الخوابي خمرًا، فلما جاءه الملك أكل وشرب وسأله من أين هذا الخمر؟ فتعلل الرجل في الجواب فلم يزل الملك يطالبه بذلك حتى أخبره بالواقعة فقال: إن من دعا الله حتى جعل الماء خمرًا إذا دعا أن يحيي الله تعالى ولدي لا بد وأن يجاب، وكان ابنه قد مات قبل

ذلك بأيام، فدعا عيسى عليه السلام وطلب منه ذلك، فقال عيسى: لا نفعل، فإنه إن عاش كان شرًّا، فقال: ما أبالي ما كان إذا رأيته، وإن أحييته تركتك على ما تفعل، فدعا الله عيسى، فعاش الغلام، فلما رآه أهل مملكته قد عاش تبادروا بالسلاح واقتتلوا، وصار أمر عيسى عليه السلام مشهورًا في الخلق، وقصد اليهود قتله، وأظهروا الطعن فيه والكفر به.

والقول الثاني: أن اليهود كانوا عارفين بأنه هو المسيح المبشر به في التوراة، وأنه ينسخ دينهم، فكانوا من أول الأمر طاعنين فيه طالبين قتله، فلما أظهر الدعوة اشتد غضبهم، وأخذوا في إيذائه وإيحاشه وطلبوا قتله.

والقول الثالث: أن عيسى عليه السلام ظن من قومه الذين دعاهم إلى الإيمان أنهم لا يؤمنون به وأن دعوته لا تنجع فيهم فأحب أن يمتحنهم ليتحقق ما ظنه بهم فقال لهم: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فما أجابه إلا الحواريون، فعند ذلك أحس بأن من سوى الحواريين كافرون مصرون على إنكار دينه وطلب قتله.

أما قوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: في الآية أقوال؛ الأول: أن عيسى عليه السلام لما دعا بني إسرائيل إلى الدين، وتمردوا عليه فر منهم وأخذ يسيح في الأرض فمر بجماعة من صيادي السمك، وكان فيهم شمعون ويعقوب ويوحنا ابنا زيدي وهم من جملة الحواريين الاثنى عشر، فقال عيسى عليه السلام: الآن تصيد السمك، فإن تبعتني صرت بحيث تصيد الناس لحياة الأبد، فطلبوا منه المعجزة، وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة في الماء فما اصطاد شيئًا فأمره عيسى بإلقاء شبكته في الماء مرة أخرى، فاجتمع في تلك الشبكة من السمك ما كادت تتمزق منه، واستعانوا بأهل سفينة أخرى، وملئوا السفينتين، فعند ذلك آمنوا بعيسى عليه السلام.

والقول الثاني: أن قوله: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إنما كان في آخر أمره حين اجتمع اليهود عليه طلبًا لقتله، ثم هاهنا احتمالات؛ الأول: أن اليهود لما طلبوه للقتل، وكان هو في الهرب عنهم قال لأولئك الاثنى عشر من الحواريين: أيكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة على أن يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني؟.

فأجابه إلى ذلك بعضهم، وفيما تذكره النصارى في إنجيلهم: أن اليهود لما أخذوا عيسى سل شمعون سيفه فضرب به عبدًا كان فيهم لرجل من الأحبار عظيم فرمى بأذنه، فقال له عيسى: حسبك ثم أخذ أذن العبد فردها إلى موضعها، فصارت كما كانت، والحاصل أن الغرض من طلب النصرة إقدامهم على دفع الشر عنه.

والاحتمال الثاني: أنه دعاهم إلى القتال مع القوم لقوله تعالى في سورة أخرى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]

المسألة الثانية: قوله ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه وجوه؛ الأول: التقدير: من أنصاري حال ذهابي إلى الله أو حال التجائي إلى الله، والثاني: التقدير: من أنصاري إلى أن أبين أمر الله تعالى، وإلى أن أظهر دينه ويكون إلى هاهنا غاية كأنه أراد من يثبت على نصرتي إلى أن تتم دعوتي، ويظهر أمر الله تعالى الثالث: قال الأكثرون من أهل اللغة: (إلى) هاهنا بمعنى (مع) قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾[النساء: ٢] أي: معها، وقال ﷺ: «الذود إلى الذود إبل» أي مع الذود.

قال الزجاج: كلمة (إلى) ليست بمعنى (مع)، فإنك لو قلت: ذهب زيد إلى عمرو، لم يجز أن تقول: ذهب زيد مع عمرو لأن (إلى) تفيد الغاية و(مع) تفيد ضم الشيء إلى الشيء، بل المراد من قولنا أن (إلى) هاهنا بمعنى (مع) هو أنه يفيد فائدتها من حيث إن المراد من يضيف نصرته إلى نصرة الله إياي، وكذلك المراد من قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي: لا تأكلوا أموالهم مضمومة إلى أموالكم، وكذلك قوله عليه السلام: «الذَّوْد إِلَى الذَّوْد إِبِل» معناه: الذود مضمومًا إلى الذود إبل، والرابع: أن يكون المعنى من أنصاري فيما يكون قربة إلى الله ووسيلة إليه، وفي الحديث أنه ﷺ كان يقول إذا ضحى: «اللَّهُمَّ مِنكَ وإِلَيكَ»(١) أي: تقربًا إليك، ويقول الرجل لغيره عند دعائه إياه (إلى) أي: انضم إلي، فكذا هاهنا المعنى: من أنصاري فيما يكون قربة إلى الله تعالى، الخامس: أن يكون (إلى) بمعنى اللام كأنه قال: من أنصاري لله، نظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾[يونس: ٣٥]، والسادس: تقدير الآية: من أنصاري في سبيل الله. و(إلى) بمعنى (في) جائز، وهذا قول الحسن.

أما قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في لفظ (الحواري) وجوهًا؛ الأول: أن الحواري اسم موضوع لخاصة الرجل، وخالصته، ومنه يقال للدقيق حواري، لأنه هو الخالص منه، وقال ﷺ للزبير:

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أبو داود في كتاب (الضحايا)، باب: (ما يستحب من الضحايا) (٣/ ٩٥)، حديث رقم (٢٧٩٥)، وابن ماجه في كتاب (الأضاحي)، باب: (أضاحي رسول الله ﷺ) (٢/ ١٠٤٣)، حديث رقم (٣١٢١) من طريق إسماعيل بن عياش... به، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٣٧٥)، والدارمي في كتاب (الأضاحي)، باب: (السُّنة في الأضحية) (٢/ ٥٣٧)، حديث رقم (١٩٤٦)، وابن خزيمة في (صحيحه) (٤/ ٢٨٧)، حديث رقم (٢٨٩٩) من طريق إبراهيم... به.

قال: حدثنا ابن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي عياش عن جابر بن عبد الله قال: ضحى رسول الله ﷺ... الحديث، جميعًا عن محمد بن إسحاق... به، ومحمد بن إسحاق مدلس وقد صرح بالتحديث عند ابن خزيمة ولكن فيه علة أبو عياش وهو العافري ولم يوثقه أحد وأشار الحافظ في التقريب إلى تليين حديثه وقد وقع في طريق ابن ماجه وحده أنه الزرقي وهذا آخر لكن السند بذلك ضعيف فيه إسماعيل بن عياش وهو ضعيف في روايته عند الشاميين وهذه منها ثم إن قوله في الحديث: على ملة إبراهيم لم يرد إلا في رواية أبي داود وهي شاذة عندي وكأنها مدرجة والله أعلم. كذا في (مشكاة المصابيح) (١/ ٤٥٥)... به.

«إنَّه ابْنُ عَمَّتِي، وَحَوارِيَّ من أُمَّتِي»[1] والحواريات من النساء النقيات الألوان والجلود، فعلى هذا الحواريون هم صفوة الأنبياء الذي خلصوا وأخلصوا في التصديق بهم وفي نصرتهم.

القول الثاني: الحواري أصله من الحَوَر، وهو شدة البياض، ومنه قيل للدقيق حواري، ومنه الأحور، والحَوَر: نقاء بياض العين، وحَوَّرْتُ الثياب: بَيَّضْتُها، وعلى هذا القول اختلفوا في أن أولئك لم سموا بهذا الاسم؟ فقال سعيد بن جبير: لبياض ثيابهم، وقيل كانوا قصارين، يبيضون الثياب، وقيل: لأن قلوبهم كانت نقية طاهرة من كل نفاق وريبة فسموا بذلك مدحًا لهم، وإشارة إلى نقاء قلوبهم، كالثوب الأبيض، وهذا كما يقال فلان نقي الجيب، طاهر الذيل، إذا كان بعيدًا عن الأفعال الذميمة، وفلان دنس الثياب: إذا كان مقدمًا على ما لا ينبغي.

القول الثالث: قال الضحاك: مرّ عيسى عليه السلام بقوم من الذين كانوا يغسلون الثياب، فدعاهم إلى الإيمان فآمنوا، والذي يغسل الثياب يسمى بلغة النبط هواري، وهو القصار فعربت هذه اللفظة فصارت حواري، وقال مقاتل بن سليمان: الحواريون: هم القصارون، وإذا عرفت أصل هذا اللفظ فقد صار بعرف الاستعمال دليلاً على خواص الرجل وبطانته.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن هؤلاء الحواريين من كانوا؟.

فالقول الأول: أنه عليه السلام مرّ بهم وَهُمْ يَصْطَادُونَ السَّمَك فقال لهم: تعالوا نَصْطَاد النَّاس قَالُوا: وَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا عِيسَى ابْن مَرْيَم، عبد الله ورسوله. فطلبوا منه المعجز على ما قال فلما أظهر المعجز آمنوا به، فهم الحواريون.

القول الثاني: قالوا: سلمته أمه إلى صباغ، فكان إذا أراد أن يعلمه شيئًا كان هو أعلم به منه وأراد الصباغ أن يغيب لبعض مهماته، فقال له: هاهنا ثياب مختلفة، وقد علمت على كل واحد علامة معينة، فاصبغها بتلك الألوان، بحيث يتم المقصود عند رجوعي، ثم غاب فطبخ عيسى عليه السلام جبًّا واحدًا، وجعل الجميع فيه وقال: كوني بإذن الله كما أريد. فرجع الصباغ فأخبره بما فعل فقال: قد أفسدت علي الثياب، قال: قم فانظر، فكان يخرج ثوبًا أحمر، وثوبًا أخضر، وثوبًا أصفر كما كان يريد، إلى أن أخرج الجميع على الألوان التي أرادها، فتعجب الحاضرون منه، وآمنوا به فهم الحواريون.

القول الثالث: كانوا الحواريون اثني عشر رجلاً اتبعوا عيسى عليه السلام، وكانوا إذا جاعوا قالوا: يا روح الله جعنا، فيضرب بيده إلى الأرض، فيخرج لكل واحد رغيفان، وإذا عطشوا قالوا: يا روح الله عطشنا، فيضرب بيده إلى الأرض، فيخرج الماء فيشربون، فقالوا: من أفضل منا إذا شئنا أطعمتنا، وإذا شئنا سقيتنا، وقد آمنا بك فقال: أفضل منكم من يعمل بيده، ويأكل من كسبه. فصاروا يغسلون الثياب بالكراء، فسموا حواريين.

---

(١) أخرجه الخلال في (السنة) (٢/ ٤٧٢)، حديث رقم (٧٤٣) من طريق هشام بن عروة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله... به.

القول الرابع: أنهم كانوا ملوكًا قالوا: وذلك أن واحدًا من الملوك صنع طعامًا، وجمع الناس عليه، وكان عيسى عليه السلام على قصعة منها، فكانت القصعة لا تنقص، فذكروا هذه الواقعة لذلك الملك، فقال: تعرفونه، قالوا: نعم، فذهبوا بعيسى عليه السلام، قال: من أنت؟ قال: أنا عيسى ابن مريم، قال: فإني أترك ملكي وأتبعك فتبعه ذلك الملك مع أقاربه، فأولئك هم الحواريون، قال القفال: ويجوز أن يكون بعض هؤلاء الحواريين الاثني عشر من الملوك، وبعضهم من صيادي السمك، وبعضهم من القصارين، والكل سموا بالحواريين لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه السلام، وأعوانه، والمخلصين في محبته، وطاعته، وخدمته.

المسألة الثالثة: المراد من قوله: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ أي: نحن أنصار دين الله وأنصار أنبيائه، لأن نصرة الله تعالى في الحقيقة محال، فالمراد منه ما ذكرناه.

أما قوله: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ فهذا يجري مجرى ذكر العلة، والمعنى يجب علينا أن نكون من أنصار الله، لأجل أنا آمنا بالله، فإن الإيمان بالله يوجب نصرة دين الله، والذب عن أوليائه، والمحاربة مع أعدائه.

ثم قالوا: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وذلك لأن إشهادهم عيسى عليه السلام على أنفسهم، إشهاد لله تعالى أيضًا، ثم فيه قولان؛ الأول: المراد واشهد أنا منقادون لما تريده منا في نصرتك، والذب عنك، مستسلمون لأمر الله تعالى فيه، الثاني: أن ذلك إقرار منهم بأن دينهم الإسلام، وأنه دين كل الأنبياء صلوات الله عليهم.

واعلم أنهم لما أشهدوا عيسى عليه السلام على إيمانهم، وعلى إسلامهم تضرعوا إلى الله تعالى، وقالوا: ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وذلك لأن القوم آمنوا بالله حين قالوا: في الآية المتقدمة ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ ثم آمنوا بكتب الله تعالى حيث قالوا ﴿ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ﴾ وآمنوا برسول الله حيث قالوا ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ فعند ذلك طلبوا الزلفة والثواب، فقالوا: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وهذا يقتضي أن يكون للشاهدين فضل يزيد على فضل الحواريين، ويفضل على درجته، فعند هذا ذكر المفسرون وجوهًا: الأول قال ابن عباس (مع الشاهدين) أي: مع محمد وأمته، لأنهم هم المخصوصون بأداء الشهادة قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، والثاني: وهو منقول أيضًا عن ابن عباس: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي اكتبنا في زمرة الأنبياء لأن كل نبي شاهد لقومه قال الله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

وقد أجاب الله تعالى دعاءهم وجعلهم أنبياء ورسلاً، فأحيوا الموتى، وصنعوا كل ما صنع عيسى عليه السلام.

والقول الثالث: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: اكتبنا في جملة من شهد لك بالتوحيد ولأنبيائك بالتصديق، والمقصود من هذا أنهم لما أشهدوا عيسى عليه السلام على إسلام

أنفسهم، حيث قالوا: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ فقد أشهدوا الله تعالى على ذلك تأكيدًا للأمر، وتقوية له، وأيضًا طلبوا من الله مثل ثواب كل مؤمن شهد لله بالتوحيد ولأنبيائه بالنبوّة.

القول الرابع: أن قوله ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ إشارة إلى أن كتاب الأبرار إنما يكون في السموات مع الملائكة قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] فإذا كتب الله ذكرهم مع الشاهدين المؤمنين كان ذكرهم مشهورًا في الملأ الأعلى وعند الملائكة المقربين.

القول الخامس: أنه تعالى قال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] فجعل (أولو العلم) من الشاهدين، وقرن ذكرهم بذكر نفسه، وذلك درجة عظيمة، ومرتبة عالية، فقالوا: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: اجعلنا من تلك الفرقة الذين قرنت ذكرهم بذكرك.

والقول السادس: أن جبريل عليه السلام لما سأل محمدًا ﷺ عن الإحسان فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»(١) وهذا غاية درجة العبد في الاشتغال بالعبودية، وهو أن يكون العبد في مقام الشهود، لا في مقام الغيبة، فهؤلاء القوم لما صاروا كاملين في درجة الاستدلال أرادوا الترقي من مقام الاستدلال، إلى مقام الشهود والمكاشفة، فقالوا: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

القول السابع: أن كل من كان في مقام شهود الحق لم يبال بما يصل إليه من المشاق والآلام، فلما قبلوا من عيسى عليه السلام أن يكونوا ناصرين له، ذابين عنه، قالوا: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: اجعلنا ممن يكون في شهود جلالك، حتى نصير مستحقرين لكل ما يصل إلينا من المشاق والمتاعب فحينئذ يسهل علينا الوفاء بما التزمناه من نصرة رسولك ونبيك.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أصل المكر في اللغة، السعي بالفساد في خفية ومداجاة، قال الزجاج: يقال مكر الليل، وأمكر إذا أظلم، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٣٠] وقال: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢] وقيل: أصله من اجتماع الأمر وإحكامه، ومنه امرأة ممكورة أي: مجتمعة الخلق وإحكام الرأي يقال له الإجماع والجمع قال الله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١] فلما كان المكر رأيًا محكمًا قويًا مصونًا عن جهات النقص والفتور، لا جرم سمي مكرًا.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب (الإيمان)، باب: (بيان الإيمان الإسلام) (١١/ ٣٦/ ٣٧)، وأبو داود في كتاب (السنة)، باب: (في القدر) (٤/ ٢٠٠٥)، حديث رقم (٤٦٥٩)، والترمذي في كتاب (الإيمان)، باب: (ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ) (٥/ ٨٠٦)، حديث رقم (٢٦١٠)، والنسائي في كتاب (الإيمان)، باب: (نعت الإسلام) (٨/ ٤٧٢)، حديث رقم (٥٠٠٥)، وابن ماجه في كتاب (المقدمة)، باب: (في الإيمان) (١/ ٢٤)، حديث رقم (٦٣)، جميعًا من طريق كهمس بن الحسين... به.

المسألة الثانية: أما مكرهم بعيسى عليه السلام، فهو أنهم هموا بقتله، وأما مكر الله تعالى بهم، ففيه وجوه؛ الأول: مكر الله تعالى بهم هو أنه رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، وذلك أن يهودا ملك اليهود، أراد قتل عيسى عليه السلام، وكان جبريل عليه السلام، لا يفارقه ساعة، وهو معنى قوله ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧] فلما أرادوا ذلك أمره جبريل عليه السلام أن يدخل بيتًا فيه روزنة، فلما دخلوا البيت أخرجه جبريل عليه السلام من تلك الروزنة، وكان قد ألقى شبهه على غيره، فأخذ وصلب فتفرق الحاضرون ثلاث فرق، فرقة قالت: كان الله فينا فذهب، وأخرى قالت: كان ابن الله، والأخرى قالت: كان عبد الله ورسوله، فأكرمه بأن رفعه إلى السماء، وصار لكل فرقة جمع فظهرت الكافرتان على الفرقة المؤمنة إلى أن بعث الله تعالى محمدًا ﷺ، وفي الجملة، فالمراد من مكر الله بهم أن رفعه إلى السماء وما مكنهم من إيصال الشر إليه.

الوجه الثاني: أن الحواريين كانوا اثنى عشر، وكانوا مجتمعين في بيت، فنافق رجل منهم، ودل اليهود عليه، فألقى الله شبهه عليه ورفع عيسى، فأخذوا ذلك المَنافق الذي كان فيهم، وقتلوه وصلبوه على ظن أنه عيسى عليه السلام، فكان ذلك هو مكر الله تعالى بهم.

الوجه الثالث: ذكر محمد بن إسحاق أن اليهود عذبوا الحواريين بعد أن رفع عيسى عليه السلام، فشمسوهم وعذبوهم، فلقوا منهم الجهد فبلغ ذلك ملك الروم، وكان ملك اليهود من رعيته فقيل له: إن رجلاً من بني إسرائيل ممن تحت أمرك كان يخبرهم أنه رسول الله، وأراهم إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص فقتل، فقال: لو علمت ذلك لحلت بينه وبينهم، ثم بعث إلى الحواريين، فانتزعهم من أيديهم وسألهم عن عيسى عليه السلام، فأخبروه فتابعهم على دينهم، وأنزل المصلوب فغيبه، وأخذ الخشبة فأكرمها وصانها، ثم غزا بني إسرائيل وقتل منهم خلقًا عظيمًا ومنه ظهر أصل النصرانية في الروم، وكان اسم هذا الملك طباريس، وهو صار نصرانيًا، إلا أنه ما أظهر ذلك، ثم إنه جاء بعده ملك آخر، يقال له: ملطيس، وغزا بيت المقدس بعد ارتفاع عيسى بنحو من أربعين سنة، فقتل وسبى ولم يترك في مدينة بيت المقدس حجرًا على حجر فخرج عند ذلك قريظة والنضير إلى الحجاز فهذا كله مما جازاهم الله تعالى على تكذيب المسيح والهم بقتله.

القول الرابع: أن الله تعالى سلّط عليهم ملك فارس حتى قتلهم وسباهم، وهو قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥] فهذا هو مكر الله تعالى بهم.

القول الخامس: يحتمل أن يكون المراد أنهم مكروا في إخفاء أمره، وإبطال دينه ومكر الله بهم حيث أعلى دينه وأظهر شريعته وقهر بالذل والدناءة أعداءه وهم اليهود، والله أعلم.

المسألة الثالثة: المكر عبارة عن الاحتيال في إيصال الشر، والاحتيال على الله تعالى محال فصار لفظ المكر في حقه من المتشابهات وذكروا في تأويله وجوهًا؛ أحدها: أنه تعالى سمى

جزاء المكر بالمكر، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] وسمي جزاء المخادعة بالمخادعة، وجزاء الاستهزاء، بالاستهزاء والثاني: أن معاملة الله معهم كانت شبيهة بالمكر فسمي بذلك، الثالث: أن هذا اللفظ ليس من المتشابهات، لأنه عبارة عن التدبير المحكم الكامل ثم اختص في العرف بالتدبير في إيصال الشر إلى الغير، وذلك في حق الله تعالى غير ممتنع، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٥٥﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: العامل في (إِذْ) قوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ أي وجد هذا المكر ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ﴾ هذا القول، وقيل: التقدير: ذاك إذ قال الله.

المسألة الثانية: اعترفوا بأن الله تعالى شرف عيسى في هذه الآية بصفات:

الصفة الأولى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ ونظيره قوله تعالى حكاية عنه: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٧] واختلف أهل التأويل في هاتين الآيتين على طريقين؛ أحدهما: إجراء الآية على ظاهرها من غير تقديم، ولا تأخير فيها، والثاني: فرض التقديم والتأخير فيها، أما الطريق الأول فبيانه من وجوه؛ الأول: معنى قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: متمم عمرك، فحينئذ أتوفاك، فلا أتركهم حتى يقتلوك، بل أنا رافعك إلى سمائي، ومقربك بملائكتي، وأصونك عن أن يتمكنوا من قتلك وهذا تأويل حسن، والثاني: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: مميتك، وهو مروي عن ابن عباس، ومحمد بن إسحاق قالوا: والمقصود أن لا يصل أعداؤه من اليهود إلى قتله ثم إنه بعد ذلك أكرمه بأن رفعه إلى السماء، ثم اختلفوا على ثلاثة أوجه؛ أحدها: قال وهب: توفي ثلاث ساعات، ثم رفع، وثانيها: قال محمد بن إسحاق: توفي سبع ساعات، ثم أحياه الله ورفعه، الثالث: قال الربيع بن أنس: أنه تعالى توفاه حين رفعه إلى السماء، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ [الزمر: ٤٢].

الوجه الرابع: في تأويل الآية أن الواو في قوله: ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ تفيد الترتيب فالآية تدل على أنه تعالى يفعل به هذه الأفعال، فأما كيف يفعل، ومتى يفعل، فالأمر فيه موقوف على الدليل، وقد ثبت الدليل أنه حي وورد الخبر عن النبي ﷺ: (أنه سينزل ويقتل الدجال) ثم إنه تعالى يتوفاه بعد ذلك.

الوجه الخامس: في التأويل ما قاله أبو بكر الواسطي، وهو أن المراد ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ عن شهواتك وحظوظ نفسك، ثم قال: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وذلك لأن من لم يصر فانيًا عما سوى الله لا

يكون له وصول إلى مقام معرفة الله، وأيضًا فعيسى لما رفع إلى السماء صار حاله كحال الملائكة في زوال الشهوة، والغضب والأخلاق الذميمة.

والوجه السادس: إن التوفي أخذ الشيء وافيًا، ولما علم الله أن من الناس من يخطر بباله أن الذي رفعه الله هو روحه لا جسده ذكر هذا الكلام ليدل على أنه عليه الصلاة والسلام رفع بتمامه إلى السماء بروحه وبجسده ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ [النساء: ١١٣].

والوجه السابع: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: أجعلك كالمتوفى لأنه إذا رفع إلى السماء وانقطع خبره وأثره عن الأرض كان كالمتوفى، وإطلاق اسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن.

الوجه الثامن: أن التوفي هو القبض يقال: وَفَّاني فلان دراهمي وأوفاني وتوفيتها منه، كما يقال: سلم فلان دراهمي إلي وتسلمتها منه، وقد يكون أيضًا توفي بمعنى استوفى، وعلى كلا الاحتمالين كان إخراجه من الأرض وإصعاده إلى السماء توفيًا له.

فإن قيل: فعلى هذا الوجه كان التوفي عين الرفع إليه فيصير قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ تكرارًا.

قلنا: قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ يدل على حصول التوفي وهو جنس تحته أنواع بعضها بالموت وبعضها بالإصعاد إلى السماء، فلما قال بعده ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ كان هذا تعيينًا للنوع ولم يكن تكرارًا.

الوجه التاسع: أن يقدر فيه حذف المضاف، والتقدير: متوفي عملك بمعنى مستوفي عملك ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: ورافع عملك إلي، وهو كقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] والمراد من هذه الآية أنه تعالى بشّره بقبول طاعته وأعماله، وعرفه أن ما يصل إليه من المتاعب والمشاق في تمشية دينه وإظهار شريعته من الأعداء فهو لا يضيع أجره ولا يهدم ثوابه، فهذه جملة الوجوه المذكورة على قول من يجري الآية على ظاهرها.

الطريق الثاني: وهو قول من قال: لا بد في الآية من تقديم وتأخير من غير أن يحتاج فيها إلى تقديم أو تأخير، قالوا: إن قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ يقتضي إنه رفعه حيًّا، والواو لا تقتضي الترتيب، فلم يبق إلا أن يقول فيها تقديم وتأخير، والمعنى: أني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالي إياك في الدنيا، ومثله من التقديم والتأخير كثير في القرآن.

واعلم أن الوجوه الكثيرة التي قدمناها تغني عن التزام مخالفة الظاهر، والله أعلم.

(الصفة الثانية) من الصفات التي ذكرها الله تعالى لعيسى عليه السلام قوله ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

والمشبهة يتمسكون بهذه الآية في إثبات المكان لله تعالى وأنه في المساء، وقد دللنا في المواضع الكثيرة من هذا الكتاب بالدلائل القاطعة على أنه يمتنع كونه تعالى في المكان فوجب حمل اللفظ على التأويل، وهو من وجوه:

الوجه الأول: أن المراد إلى محل كرامتي، وجعل ذلك رفعًا إليه للتفخيم والتعظيم ومثله

قوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩] وإنما ذهب إبراهيم ﷺ من العراق إلى الشام وقد يقول السلطان: ارفعوا هذا الأمر إلى القاضي، وقد يسمى الحجاج زوار الله، ويسمى المجاورون جيران الله، والمراد من كل ذلك التفخيم والتعظيم فكذا هاهنا.

الوجه الثاني: في التأويل أن يكون قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ معناه: أنه يرفع إلى مكان لا يملك الحكم عليه فيه غير الله لأن في الأرض قد يتولى الخلق أنواع الأحكام فأما السموات فلا حاكم هناك في الحقيقة وفي الظاهر إلا الله.

الوجه الثالث: أن بتقدير القول بأن الله في مكان لم يكن ارتفاع عيسى إلى ذلك سببًا لانتفاعه وفرحه بل إنما ينتفع بذلك لو وجد هناك مطلوبه من الثواب والروح والراحة والريحان، فعلى كلا القولين لا بد من حمل اللفظ على أن المراد: ورافعك إلى محل ثوابك ومجازاتك، وإذا كان لا بد من إضمار ما ذكرناه لم يبق في الآية دلالة على إثبات المكان لله تعالى.

الصفة الثالثة: من صفات عيسى قوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والمعنى: مخرجك من بينهم ومفرق بينك وبينهم، وكما عظم شأنه بلفظ الرفع إليه أخبر عن معنى التخليص بلفظ التطهير وكل ذلك يدل على المبالغة في إعلاء شأنه وتعظيم منصبه عند الله تعالى.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وجهان؛ الأول: أن المعنى: الذين اتبعوا دين عيسى يكونون فوق الذين كفروا به، وهم اليهود بالقهر والسلطان والاستعلاء إلى يوم القيامة، فيكون ذلك إخبارًا عن ذل اليهود وإنهم يكونون مقهورين إلى يوم القيامة، فأما الذين اتبعوا المسيح عليه السلام فهم الذين كانوا يؤمنون بأنه عبد الله ورسوله، وأما بعد الإسلام فهم المسلمون، وأما النصارى فهم وإن أظهروا من أنفسهم موافقته فهم يخالفونه أشد المخالفة من حيث إن صريح العقل يشهد أنه عليه السلام ما كان يرضى بشيء مما يقوله هؤلاء الجهال، ومع ذلك فإنا نرى أن دولة النصارى في الدنيا أعظم وأقوى من أمر اليهود فلا نرى في طرف من أطراف الدنيا ملكًا يهوديًا ولا بلدة مملوءة من اليهود بل يكونون أين كانوا بالذلة والمسكنة وأما النصارى فأمرهم بخلاف ذلك، القول الثاني: أن المراد من هذه الفوقية الفوقية بالحجة والدليل.

واعلم أن هذه الآية تدل على أن رفعه في قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ هو الرفعة بالدرجة والمنقبة، لا بالمكان والجهة، كما أن الفوقية في هذه الآية ليست بالمكان بل بالدرجة والرفعة.

أما قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فالمعنى أنه تعالى بشّر عيسى عليه السلام بأنه يعطيه في الدنيا تلك الخواص الشريفة، والدرجات الرفيعة العالية، وأما في القيامة فإنه يحكم بين المؤمنين به، وبين الجاحدين برسالته، وكيفية ذلك الحكم ما ذكره في الآية التي بعد هذه الآية وبقي من مباحث هذه الآية موضع مشكل وهو أن نص القرآن دل على أنه

تعالى حين رفعه ألقى شبهه على غيره على ما قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] والأخبار أيضًا واردة بذلك إلا أن الروايات اختلفت، فتارة يروى أن الله تعالى ألقى شبهه على بعض الأعداء الذين دلوا اليهود على مكانه حتى قتلوه وصلبوه، وتارة يروى أنه عليه السلام رغب بعض خواص أصحابه في أن يلقى شبهه حتى يقتل مكانه، وبالجملة فكيفما كان ففي إلقاء شبهه على الغير إشكالات:

الإشكال الأول: أنا لو جوزنا إلقاء شبه إنسان على إنسان آخر لزم السفسطة، فإني إذا رأيت ولدي ثم رأيته ثانيًا فحينئذ أجوز أن يكون هذا الذي رأيته ثانيًا ليس بولدي بل هو إنسان ألقي شبهه عليه وحينئذ يرتفع الأمان على المحسوسات، وأيضًا فالصحابة الذين رأوا محمدًا ﷺ يأمرهم وينهاهم وجب أن لا يعرفوا أنه محمد لاحتمال أنه ألقي شبهه على غيره وذلك يفضي إلى سقوط الشرائع، وأيضًا فمدار الأمر في الأخبار المتواترة على أن يكون المخبر الأول إنما أخبر عن المحسوس، فإذا جاز وقوع الغلط في المبصرات كان سقوط خبر المتواتر أولى وبالجملة ففتح هذا الباب أوله سفسطة وآخره إبطال النبوات بالكلية.

والإشكال الثاني: وهو أن الله تعالى كان قد أمر جبريل عليه السلام بأن يكون معه في أكثر الأحوال، هكذا قاله المفسرون في تفسير قوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠] ثم إن طرف جناح واحد من أجنحة جبريل عليه السلام كان يكفي العالم من البشر فكيف لم يكف في منع أولئك اليهود عنه؟ وأيضًا أنه عليه السلام لما كان قادرًا على إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، فكيف لم يقدر على إماتة أولئك اليهود الذين قصدوه بالسوء وعلى إسقامهم وإلقاء الزمانة والفلج عليهم حتى يصيروا عاجزين عن التعرض له؟.

والإشكال الثالث: أنه تعالى كان قادرًا على تخليصه من أولئك الأعداء بأن يرفعه إلى السماء فما الفائدة في إلقاء شبهه على غيره، وهل فيه إلا إلقاء مسكين في القتل من غير فائدة إليه؟.

والإشكال الرابع: أنه إذا ألقى شبهه على غيره ثم إنه رفع بعد ذلك إلى السماء فالقوم اعتقدوا فيه أنه هو عيسى مع أنه ما كان عيسى، فهذا كان إلقاء لهم في الجهل والتلبيس، وهذا لا يليق بحكمة الله تعالى.

والإشكال الخامس: أن النصارى على كثرتهم في مشارق الأرض ومغاربها وشدة محبتهم للمسيح عليه السلام، وغلوهم في أمره أخبروا أنهم شاهدوه مقتولاً مصلوبًا، فلو أنكرنا ذلك كان طعنًا فيما ثبت بالتواتر، والطعن في التواتر يوجب الطعن في نبوّة محمد ﷺ، ونبوّة عيسى، بل في وجودهما، ووجود سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكل ذلك باطل.

والإشكال السادس: أنه ثبت بالتواتر أن المصلوب بقي حيًا زمانًا طويلاً، فلو لم يكن ذلك عيسى بل كان غيره لأظهر الجزع، ولقال: إني لست بعيسى بل إنما أنا غيره، ولبالغ في تعريف هذا المعنى، ولو ذكر ذلك لاشتهر عند الخلق هذا المعنى، فلما لم يوجد شيء من هذا علمنا أن

ليس الأمر على ما ذكرتم، فهذا جملة ما في الموضع من السؤالات:

والجواب عن الأول: أن كل من أثبت القادر المختار، سلم أنه تعالى قادر على أن يخلق إنسانًا آخر على صورة زيد مثلاً، ثم إن هذا التصوير لا يوجب الشك المذكور، فكذا القول فيما ذكرتم.

والجواب عن الثاني: أن جبريل عليه السلام لو دفع الأعداء عنه أو أقدر الله تعالى عيسى عليه السلام على دفع الأعداء عن نفسه لبلغت معجزته إلى حد الإلجاء، وذلك غير جائز.

وهذا هو الجواب عن الإشكال الثالث: فإنه تعالى لو رفعه إلى السماء وما ألقى شبهه على الغير لبلغت تلك المعجزة إلى حد الإلجاء.

والجواب عن الرابع: أن تلامذة عيسى كانوا حاضرين، وكانوا عالمين بكيفية الواقعة، وهم كانوا يزيلون ذلك التلبيس.

والجواب عن الخامس: أن الحاضرين في ذلك الوقت كانوا قليلين ودخول الشبهة على الجمع القليل جائز والتواتر إذا انتهى في آخر الأمر إلى الجمع القليل لم يكن مفيدًا للعلم.

والجواب عن السادس: أن بتقدير أن يكون الذي ألقي شبه عيسى عليه السلام عليه كان مسلمًا وقبل ذلك عن عيسى جائز أن يسكت عن تعريف حقيقة الحال في تلك الواقعة، وبالجملة فالأسئلة التي ذكروها أمور تتطرق الاحتمالات إليها من بعض الوجوه، ولما ثبت بالمعجز القاطع صدق محمد ﷺ في كل ما أخبر عنه امتنع صيرورة هذه الأسئلة المحتملة معارضة للنص القاطع، والله ولي الهداية.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٥٦﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥] بيّن بعد ذلك مفصلاً ما في ذلك الاختلاف، أما الاختلاف فهو أن كفر قوم وآمن آخرون، وأما الحكم فيمن كفر فهو أن يعذبه عذابًا شديدًا في الدنيا والآخرة، وأما الحكم فيمن آمن وعمل الصالحات، فهو أن يوفيهم أجورهم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أما عذاب الكافر في الدنيا فهو من وجهين؛ أحدهما: القتل والسبي وما شاكله، حتى لو ترك الكفر لم يحسن إيقاعه به، فذلك داخل في عذاب الدنيا، والثاني: ما يلحق الكافر من الأمراض والمصائب، وقد اختلفوا في أن ذلك هل هو عقاب أم لا؟ قال بعضهم: إنه عقاب في حق الكافر، وإذا وقع مثله للمؤمن فإنه لا يكون عقابًا بل يكون ابتلاءً وامتحانًا، وقال الحسن: إن مثل هذا إذا وقع للكافر لا يكون عقابًا بل يكون أيضًا ابتلاءً وامتحانًا، ويكون جاريًا

مجرى الحدود التي تقام على التائب، فإنها لا تكون عقابًا بل امتحانًا، والدليل عليه أنه تعالى يعد الكل بالصبر عليها والرضا بها والتسليم لها وما هذا حاله لا يكون عقابًا.

فإن قيل: فقد سلمتم في الوجه الأول أنه عذاب للكافر على كفره، وهذا على خلاف قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١] وكلمة (لَوْ) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، فوجب أن لا توجد المؤاخذة في الدنيا، وأيضًا قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر: ١٧] وذلك يقتضي حصول المجازاة في ذلك اليوم، لا في الدنيا، قلنا: الآية الدالة على حصول العقاب في الدنيا خاصة، والآيات التي ذكرتموها عامة، والخاص مقدم على العام.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول وصف العذاب بالشدة، يقتضي أن يكون عقاب الكافر في الدنيا أشد، ولسنا نجد الأمر كذلك، فإن الأمر تارة يكون على الكفار وأخرى على المسلمين، ولا نجد بين الناس تفاوتًا.

قلنا: بل التفاوت موجود في الدنيا، لأن الآية في بيان أمر اليهود الذين كذبوا بعيسى عليه السلام، ونري الذلة والمسكنة لازمة لهم، فزال الإشكال.

المسألة الثالثة: وصف تعالى هذا العذاب بأنه ليس لهم من ينصرهم ويدفع ذلك العذاب عنهم.

فإن قيل: أليس قد يمتنع على الأئمة والمؤمنين قتل الكفار بسبب العهد وعقد الذمة.

قلنا: المانع هو العهد، ولذلك إذا زال العهد حل قتله.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حفص عن عاصم (فَيُوَفِّيهِمْ) بالياء، يعني فيوفيهم الله، والباقون بالنون حملًا على ما تقدم من قوله: ﴿فَأَحْكُمُ﴾، ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ﴾ وهو الأولى لأنه نسق الكلام.

المسألة الثانية: ذكر الذين آمنوا، ثم وصفهم بأنهم عملوا الصالحات، وذلك يدل على أن العمل الصالح خارج عن مسمى الإيمان، وقد تقدم ذكر هذه الدلالة مرارًا.

المسألة الثالثة: احتج من قال بأن العمل علة للجزاء بقوله: (فَنُوفِّيهم أُجُورَهُمْ) فشبههم في عبادتهم لأجل طلب الثواب بالمستأجر، والكلام فيه أيضًا قد تقدم والله أعلم.

المسألة الرابعة: المعتزلة احتجوا بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ على أنه تعالى لا يريد الكفر والمعاصي، قالوا: لأن مريد الشيء لا بد وأن يكون محبًا له، إذا كان ذلك الشيء من الأفعال وإنما تخالف المحبة الإرادة إذا علقتا بالأشخاص، فقد يقال: أحب زيدًا، ولا يقال: أريده،

وأما إذا علقتا بالأفعال: فمعناهما واحد إذا استعملتا على حقيقة اللغة، فصار قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بمنزلة قوله: (لا يريد ظلم الظالمين) هكذا قرره القاضي، وعند أصحابنا أن المحبة عبارة عن إرادة إيصال الخير إليه فهو تعالى وإن أراد كفر الكافر إلا أنه لا يريد إيصال الثواب إليه، وهذه المسألة قد ذكرناها مرارًا وأطوارًا.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من نبأ عيسى وزكريا وغيرهما، وهو مبتدأ، خبره ﴿نَتْلُوهُ﴾ و﴿مِنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون ذلك بمعنى الذي، و﴿نَتْلُوهُ﴾ صلته، و﴿مِنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الخبر.

المسألة الثانية: التلاوة والقصص واحد في المعنى، فإن كلًّا منهما يرجع معناه إلى شيء يذكر بعضه على إثر بعض، ثم إنه تعالى أضاف التلاوة إلى نفسه في هذه الآية، وفي قوله: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٣] وأضاف القصص إلى نفسه فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] وكل ذلك يدل على أنه تعالى جعل تلاوة الملك جارية مجرى تلاوته سبحانه وتعالى، وهذا تشريف عظيم للملك، وإنما حسن ذلك لأن تلاوة جبريل ﷺ لما كان بأمره من غير تفاوت أصلًا أُضيف ذلك إليه سبحانه وتعالى.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿مِنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه، أن ذلك من آيات القرآن ويحتمل أن يكون المراد منه أنه من العلامات الدالة على ثبوت رسالتك، لأنها أخبار لا يعلمها إلا قارئ من كتاب أو من يوحى إليه، فظاهر أنك لا تكتب ولا تقرأ، فبقي أن ذلك من الوحي.

المسألة الرابعة: ﴿وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ فيه قولان، الأول: المراد منه القرآن وفي وصف القرآن بكونه ذكرًا حكيمًا وجوه؛ الأول: أنه بمعنى الحاكم مثل القدير والعليم، والقرآن حاكم بمعنى أن الأحكام تستفاد منه، والثاني: معناه ذو الحكمة في تأليفه ونظمه وكثرة علومه، والثالث: أنه بمعنى المحكم، فعيل بمعنى مفعل، قال الأزهري: وهو شائع في اللغة، لأن حكمت يجري مجرى أحكمت في المعنى، فرد إلى الأصل، ومعنى المحكم في القرآن أنه أحكم عن تطرق وجوه الخلل إليه قال تعالى: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، والرابع: أن يقال القرآن لكثرة حكمه أنه ينطق بالحكمة، فوصف بكونه حكيمًا على هذا التأويل.

القول الثاني: أن المراد بالذكر الحكيم هاهنا غير القرآن، وهو اللوح المحفوظ الذي منه نقلت جميع الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام، أخبر أنه تعالى أنزل هذا القصص مما كتب هنالك، والله أعلم بالصواب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾

أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت عند حضور وفد نجران على الرسول ﷺ، وكان من جملة شبههم أن قالوا: يا محمد، لما سلمت أنه لا أب له من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى، فقال: إن آدم ما كان له أب ولا أم ولم يلزم أن يكون ابنًا لله تعالى، فكذا القول في عيسى عليه السلام، هذا حاصل الكلام، وأيضًا إذا جاز أن يخلق الله تعالى آدم من التراب فلم لا يجوز أن يخلق عيسى من دم مريم؟ بل هذا أقرب إلى العقل، فإن تولد الحيوان من الدم الذي يجتمع في رحم الأم أقرب من تولده من التراب اليابس، هذا تلخيص الكلام.

ثم هاهنا مسائل:

المسألة الأولى: ﴿مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أي: صفته كصفة آدم ونظيره قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] أي: صفة الجنة.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ ليس بصلة لآدم ولا صفة ولكنه خبر مستأنف على جهة التفسير بحال آدم، قال الزجاج: هذا كما تقول في الكلام: مثلك كمثل زيد، تريد أن تشبهه به في أمر من الأمور، ثم تخبر بقصة زيد فتقول فعل كذا وكذا.

المسألة الثالثة: اعلم أن العقل دل على أنه لا بد للناس من والد أول، وإلا لزم أن يكون كل ولد مسبوق بوالد لا إلى أول وهو محال، والقرآن دل على أن ذلك الوالد الأول هو آدم عليه السلام كما في هذه الآية، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] ثم إنه تعالى ذكر في كيفية خلق آدم عليه السلام وجوهًا كثيرة؛ أحدها: أنه مخلوق من التراب كما في هذه الآية، والثاني: أنه مخلوق من الماء، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]، والثالث: أنه مخلوق من الطين قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧، ٨]، والرابع: أنه مخلوق من سلالة من طين قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣]، الخامس: أنه مخلوق من طين لازب قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]، السادس: إنه مخلوق من صلصال قال تعالى: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨]، السابع: أنه مخلوق من عجل، قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، الثامن: قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] أما الحكماء فقالوا: إنما خلق آدم عليه السلام من تراب لوجوه: الأول: ليكون متواضعًا، الثاني: ليكون ستارًا، الثالث: ليكون أشد التصاقًا بالأرض، وذلك لأنه إنما خلق لخلافة أهل الأرض، قال

تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة: ٣٠]، الرابع: أراد إظهار القدرة فخلق الشياطين من النار التي هي أضوأ الأجرام وابتلاهم بظلمات الضلالة، وخلق الملائكة من الهواء الذي هو ألطف الأجرام وأعطاهم كمال الشدة والقوة، وخلق آدم عليه السلام من التراب الذي هو أكثف الأجرام، ثم أعطاه المحبة والمعرفة والنور والهداية، وخلق السموات من أمواج مياه البحار وأبقاها معلقة في الهواء حتى يكون خلقه هذه الأجرام برهانًا باهرًا ودليلاً ظاهرًا على أنه تعالى هو المدبر بغير احتياج، والخالق بلا مزاج وعلاج، الخامس: خلق الإنسان من تراب ليكون مطفئًا لنار الشهوة، والغضب، والحرص، فإن هذه النيران لا تطفأ إلا بالتراب وإنما خلقه من الماء ليكون صافيًا تتجلى فيه صور الأشياء، ثم إنه تعالى مزج بين الأرض والماء ليمتزج الكثيف باللطيف فيصير طينًا وهو قوله ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[ص: ٧١] ثم إنه في المرتبة الرابعة قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[المؤمنون: ١٢] والسلالة بمعنى المسولة، فعالة المفعولة لأنها هي التي تسل من ألطف أجزاء الطين، ثم إنه في المرتبة الخامسة جعله طينًا لازبًا، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾[الصافات: ١١] ثم إنه في المرتبة السادسة أثبت له من الصفات ثلاثة أنواع:

أحدها: أنه من صلصال، والصلصال: اليابس الذي إذا حرك تصلصل كالخزف الذي يسمع من داخله صوت. والثاني: الحمأ وهو الذي استقر في الماء مدة، وتغير لونه إلى السواد. والثالث: تغير رائحته قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾[البقرة: ٢٥٩] أي: لم يتغير.

فهذه جملة الكلام في التوفيق بين الآيات الواردة في خلق آدم عليه السلام.

المسألة الرابعة: في الآية إشكال، وهو أنه تعالى قال: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فهذا يقتضي أن يكون خلق آدم متقدمًا على قول الله له (كُنْ) وذلك غير جائز.

وأجابوا عنه من وجوه؛ الأول: قال أبو مسلم: قد بينا أن الخلق هو التقدير والتسوية، ويرجع معناه إلى علم الله تعالى بكيفية وقوعه وإرادته لإيقاعه على الوجه المخصوص وكل ذلك متقدم على وجود آدم عليه السلام تقديمًا من الأزل إلى الأبد، وأما قوله (كُن) فهو عبارة عن إدخاله في الوجود فثبت أن خلق آدم متقدم على قوله (كُنْ).

والجواب الثاني: وهو الذي عول عليه القاضي أنه تعالى خلقه من الطين ثم قال له (كُنْ) أي أحياه كما قال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[المؤمنون: ١٤] فإن قيل: الضمير في قوله: (خلقه) راجع إلى آدم وحين كان ترابًا لم يكن آدم عليه السلام موجودًا.

أجاب القاضي وقال: بل كان موجودًا وإنما وجد بعد حياته، وليست الحياة نفس آدم وهذا ضعيف لأن آدم عليه السلام ليس عبارة عن مجرد الأجسام المشكلة بالشكل المخصوص، بل هو عبارة عن هوية أخرى مخصوصة وهي: إما المزاج المعتدل، أو النفس، وينجر الكلام من

هذا البحث إلى أن النفس ما هي، ولا شك أنها من أغمض المسائل.

الجواب: الصحيح أن يقال لما كان ذلك الهيكل بحيث سيصير آدم عن قريب سماه آدم عليه السلام قبل ذلك، تسمية لما سيقع بالواقع.

والجواب الثالث: أن قوله ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ يفيد تراخي هذا الخبر عن ذلك الخبر كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧] ويقول القائل: أعطيت زيدًا اليوم ألفًا ثم أعطيته أمس ألفين، ومراده: أعطيته اليوم ألفًا، ثم أنا أخبركم أني أعطيته أمس ألفين فكذا قوله: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ أي: صيره خلقًا سويًا ثم إنه يخبركم أني إنما خلقته بأن قلت له (كُن).

المسألة الخامسة: في الآية إشكال آخر وهو أنه كان ينبغي أن يقال: ثم قال له كن فكان فلم يقل كذلك بل قال: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

والجواب: تأويل الكلام، ثم قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فكان.

واعلم يا محمد أن ما قال له ربك (كُن) فإنه يكون لا محالة.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الفرّاء، والزجاج قوله: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والمعنى: الذي أنبأناك من قصة عيسى عليه السلام، أو ذلك النبأ في أمر عيسى عليه السلام ﴿ٱلْحَقُّ﴾ فحذف لكونه معلومًا، وقال أبو عبيدة هو استئناف بعد انقضاء الكلام، وخبره قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وهذا كما تقول: الحق من الله، والباطل من الشيطان، وقال آخرون: الحق، رفع بإضمار فعل أي: جاءك الحق، وقيل أيضًا: إنه مرفوع بالصفة وفيه تقديم وتأخير، تقديره: من ربك الحق فلا تكن.

المسألة الثانية: الامتراء الشك، قال ابن الأنباري: هو مأخوذ من قول العرب مريت الناقة والشاة إذا حلبتها فكأن الشاك يجتذب بشكه مراء كاللبن الذي يجتذب عند الحلب، يقال: قد مارى فلان فلانًا إذا جادله، كأنه يستخرج غضبه، ومنه قيل: الشكر يمتري المزيد أي: يجلبه.

المسألة الثالثة: في الحق تأويلان؛ الأول: قال أبو مسلم: المراد أن هذا الذي أنزلت عليك هو الحق من خبر عيسى عليه السلام لا ما قالت النصارى واليهود، فالنصارى قالوا: إن مريم ولدت إلهًا، واليهود رموا مريم عليها السلام بالإفك ونسبوها إلى يوسف النجار، فالله تعالى بيّن أن هذا الذي أنزل في القرآن هو الحق ثم نهى عن الشك فيه، ومعنى ممتري مفتعل من المرية وهي الشك.

والقول الثاني: أن المراد أن الحق في بيان هذه المسألة ما ذكرناه من المثل وهو قصة آدم عليه السلام فإنه لا بيان لهذه المسألة ولا برهان أقوى من التمسك بهذه الواقعة، والله أعلم.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ خطاب في الظاهر مع النبي ﷺ، وهذا بظاهره يقتضي أنه كان شاكًا في صحة ما أنزل عليه، وذلك غير جائز، واختلف الناس في

الجواب عنه، فمنهم من قال: الخطاب وإن كان ظاهره مع النبي عليه الصلاة والسلام إلا أنه في المعنى مع الأمة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]، والثاني: أنه خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام والمعنى: فدم على يقينك، وعلى ما أنت عليه من ترك الامتراء.

قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦١﴾

اعلم أن الله تعالى بيّن في أول هذه السورة وجوهًا من الدلائل القاطعة على فساد قول النصارى بالزوجة والولد، وأتبعها بذكر الجواب عن جميع شبههم على سبيل الاستقصاء التام، وختم الكلام بهذه النكتة القاطعة لفساد كلامهم، وهو أنه لما لم يلزم من عدم الأب والأم البشريين لآدم عليه السلام أن يكون ابنًا لله تعالى لم يلزم من عدم الأب البشري لعيسى عليه السلام أن يكون ابنًا لله، تعالى الله عن ذلك، ولما لم يبعد انخلاق آدم عليه السلام من التراب لم يبعد أيضًا انخلاق عيسى عليه السلام من الدم الذي كان يجتمع في رحم أم عيسى عليه السلام، ومن أنصف وطلب الحق، علم أن البيان قد بلغ إلى الغاية القصوى، فعند ذلك قال تعالى: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ﴾ بعد هذه الدلائل الواضحة والجوابات اللائحة فاقطع الكلام معهم وعاملهم بما يعامل به المعاند، وهو أن تدعوهم إلى الملاعنة فقال: ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ﴾ إلى آخر الآية، ثم هاهنا مسائل:

المسألة الأولى: اتفق أني حين كنت بخوارزم، أخبرت أنه جاء نصراني يدعي التحقيق والتعمق في مذهبهم، فذهبت إليه وشرعنا في الحديث فقال لي: ما الدليل على نبوّة محمد ﷺ؟ فقلت له كما نقل إلينا ظهور الخوارق على يد موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام، نقل إلينا ظهور الخوارق على يد محمد ﷺ، فإن رددنا التواتر، أو قبلناه لكن قلنا: إن المعجزة لا تدل على الصدق، فحينئذ بطلت نبوّة سائر الأنبياء عليهم السلام، وإن اعترفنا بصحة التواتر، واعترفنا بدلالة المعجزة على الصدق، ثم إنهما حاصلان في حق محمد وجب الاعتراف قطعًا بنبوّة محمد عليه السلام ضرورة أن عند الاستواء في الدليل لا بد من الاستواء في حصول المدلول، فقال النصراني: أنا لا أقول في عيسى عليه السلام إنه كان نبيًا بل أقول إنه كان إلهًا، فقلت له: الكلام في النبوّة لا بد وأن يكون مسبوقًا بمعرفة الإله وهذا الذي تقوله باطل ويدل عليه أن الإله عبارة عن موجود واجب الوجود لذاته، يجب أن لا يكون جسمًا ولا متحيزًا ولا عرضًا، وعيسى عبارة عن هذا الشخص البشري الجسماني الذي وجد بعد أن كان معدومًا وقتل بعد أن كان حيًا على قولكم وكان طفلاً أولاً، ثم صار مترعرعًا، ثم صار شابًا، وكان يأكل ويشرب ويحدث وينام ويستيقظ، وقد تقرر في بداهة العقول أن المحدث لا يكون قديمًا

والمحتاج لا يكون غنيًا والممكن لا يكون واجبًا والمتغير لا يكون دائمًا.

والوجه الثاني: في إبطال هذه المقالة أنكم تعترفون بأن اليهود أخذوه وصلبوه وتركوه حيًا على الخشبة، وقد مزقوا ضلعه، وأنه كان يحتال في الهرب منهم، وفي الاختفاء عنهم، وحين عاملوه بتلك المعاملات أظهر الجزع الشديد، فإن كان إلهًا أو كان الإله حالاً فيه أو كان جزء من الإله حالا فيه، فلم لم يدفعهم عن نفسه؟ ولم لم يهلكهم بالكلية؟ وأي حاجة به إلى إظهار الجزع منهم والاحتيال في الفرار منهم! وبالله أنني لأتعجب جدًا! إن العاقل كيف يليق به أن يقول هذا القول ويعتقد صحته، فتكاد أن تكون بديهة العقل شاهدة بفساده.

والوجه الثالث: وهو أنه: إما أن يقال بأن الإله هو هذا الشخص الجسماني المشاهد، أو يقال حل الإله بكليته فيه، أو حل بعض الإله-وجزء منه فيه، والأقسام الثلاثة باطلة، أما الأول: فلأن إله العالم لو كان هو ذلك الجسم، فحين قتله اليهود كان ذلك قولاً بأن اليهود قتلوا إله العالم، فكيف بقي العالم بعد ذلك من غير إله! ثم إن أشد الناس ذلاً ودناءة اليهود، فالإله الذي تقتله اليهود إله في غاية العجز! وأما الثاني: وهو أن الإله بكليته حل في هذا الجسم، فهو أيضًا فاسد، لأن الإله لم يكن جسمًا ولا عرضًا امتنع حلوله في الجسم، وإن كان جسمًا، فحينئذ يكون حلوله في جسم آخر عبارة عن اختلاط أجزائه بأجزاء ذلك الجسم، وذلك يوجب وقوع التفرق في أجزاء ذلك الإله، وإن كان عرضًا كان محتاجًا إلى المحل، وكان الإله محتاجًا إلى غيره، وكل ذلك سخف، وأما الثالث: وهو أنه حل فيه بعض من أبعاض الإله، وجزء من أجزائه، فذلك أيضًا محال لأن ذلك الجزء إن كان معتبرًا في الإلهية، فعند انفصاله عن الإله، وجب أن لا يبقى الإله إلها، وإن لم يكن معتبرًا في تحقق الإلهية، لم يكن جزأ من الإله، فثبت فساد هذه الأقسام، فكان قول النصارى باطلاً.

الوجه الرابع: في بطلان قول النصارى ما ثبت بالتواتر أن عيسى عليه السلام كان عظيم الرغبة في العبادة والطاعة لله تعالى، ولو كان إلهًا لاستحال ذلك، لأن الإله لا يعبد نفسه، فهذه وجوه في غاية الجلاء والظهور، دالة على فساد قولهم، ثم قلت للنصراني: وما الذي دلك على كونه إلهًا؟ فقال: الذي دل عليه ظهور العجائب عليه من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وذلك لا يمكن حصوله إلا بقدرة الإله تعالى، فقلت له: هل تسلم أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول أم لا؟ فإن لم تسلم لزمك من نفي العالم في الأزل نفي الصانع، وإن سلمت أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول، فأقول: لما جوّزت حلول الإله في بدن عيسى عليه السلام، فكيف عرفت أن الإله ما حل في بدني وبدنك وفي بدن كل حيوان ونبات وجماد؟ فقال: الفرق ظاهر، وذلك لأني إنما حكمت بذلك الحلول، لأنه ظهرت تلك الأفعال العجيبة عليه، والأفعال العجيبة ما ظهرت على يدي ولا على يدك، فعلمنا أن ذلك الحلول مفقود هاهنا، فقلت له: تبين الآن أنك ما عرفت معنى قولي إنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول، وذلك لأن

ظهور تلك الخوارق دالة على حلول الإله في بدن عيسى: فعدم ظهور تلك الخوارق مني ومنك ليس فيه إلا أنه لم يوجد ذلك الدليل، فإذا ثبت أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول لا يلزم من عدم ظهور تلك الخوارق مني ومنك عدم الحلول في حقي وفي حقك، بل وفي حق الكلب والسنور والفأر ثم قلت: إن مذهبًا يؤدي القول به إلى تجويز حلول ذات الله في بدن الكلب والذباب لفي غاية الخسة والركاكة.

الوجه الخامس: أن قلب العصا حية، أبعد في العقل من إعادة الميت حيًا، لأن المشاكلة بين بدن الحي وبدن الميت أكثر من المشاكلة بين الخشبة وبين بدن الثعبان، فإذا لم يوجب قلب العصا حية كون موسى إلهًا ولا ابنًا للإله، فبأن لا يدل إحياء الموتى على الإلهية كان ذلك أولى، وعند هذا انقطع النصراني ولم يبق له كلام، والله أعلم.

المسألة الثانية: روي أنه عليه السلام لما أورد الدلائل على نصارى نجران، ثم إنهم أصروا على جهلهم، فقال عليه السلام: **«إنَّ اللهَ أَمَرَنِي إنْ لَم تَقْبَلوا الحُجَة أنْ أُبَاهِلَكُم»** فقالوا: يا أبا القاسم، بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك فلما رجعوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم: يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدًا نبي مرسل، ولقد جاءكم بالكلام الحق في أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبيًا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لكان الاستئصال فإن أبيتم إلا الإصرار على دينكم والإقامة على ما أنتم عليه، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم وكان رسول الله ﷺ خرج وعليه مرط من شعر أسود، وكان قد احتضن الحسين وأخذ بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، وعلي رضي الله عنه خلفها، وهو يقول: إذا دعوت فأمنوا، فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى، إني لأرى وجوهًا لو سألوا الله أن يزيل جبلًا من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، ثم قالوا: يا أبا القاسم، رأينا أن لا نباهلك وأن نقرك على دينك فقال صلوات الله عليه: **«فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا، يكن لكم ما للمسلمين، وعليكم ما على المسلمين»**، فأبوا، فقال: **«فإني أناجزكم القتال»**، فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تردنا عن ديننا، على أن نؤدي إليك في كل عام ألفي حلة: ألفا في صفر، وألفا في رجب، وثلاثين درعًا عادية من حديد، فصالحهم على ذلك، وقال: **«والذي نفسي بيده، إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي نارًا، ولاستأصل الله نجران وأهله، حتى الطير على رؤوس الشجر، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا»**(١)، وروي أنه عليه السلام لما خرج في المرط الأسود، فجاء الحسن رضي الله عنه فأدخله، ثم جاء الحسين رضي الله عنه فأدخله ثم فاطمة، ثم علي رضي الله عنهما ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

(١) تقدم.

[الأحزاب: ٣٣] واعلم أن هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث.

المسألة الثالثة: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ أي في عيسى عليه السلام، وقيل: الهاء تعود إلى الحق، في قوله: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [هود: ١٧] ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٤٥] بأن عيسى عبد الله ورسوله عليه السلام وليس المراد هاهنا بالعلم نفس العلم لأن العلم الذي في قلبه لا يؤثر في ذلك، بل المراد بالعلم ما ذكره بالدلائل العقلية، والدلائل الواصلة إليه بالوحي والتنزيل، فقل تعالوا: أصله تعاليوا، لأنه تفاعلوا من العلو، فاستثقلت الضمة على الياء، فسكنت، ثم حذفت لاجتماع الساكنين، وأصله العلو والارتفاع، فمعنى تعالى: ارتفع، إلا أنه كثر في الاستعمال حتى صار لكل مجيء، وصار بمنزلة هلم.

المسألة الرابعة: هذه الآية دالة على أن الحسن والحسين عليهما السلام كانا ابني رسول الله ﷺ، وعد أن يدعو أبناءه، فدعا الحسن والحسين، فوجب أن يكونا ابنيه، ومما يؤكد هذا قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنعام: ٨٤] إلى قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: ٨٥] ومعلوم أن عيسى عليه السلام إنما انتسب إلى إبراهيم عليه السلام بالأم لا بالأب، فثبت أن ابن البنت قد يسمى ابنًا، والله أعلم.

المسألة الخامسة: كان في الرّي رجل يقال له: محمود بن الحسن الحمصي، وكان معلم الاثنى عشرية، وكان يزعم أن عليًا رضي الله عنه أفضل من جميع الأنبياء سوى محمد عليه السلام، قال: والذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ وليس المراد بقوله ﴿وَأَنفُسَنَا﴾ نفس محمد ﷺ لأن الإنسان لا يدعو نفسه بل المراد به غيره، وأجمعوا على أن ذلك الغير كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فدلت الآية على أن نفس علي هي نفس محمد، ولا يمكن أن يكون المراد منه، أن هذه النفس هي عين تلك النفس، فالمراد أن هذه النفس مثل تلك النفس، وذلك يقتضي الاستواء في جميع الوجوه، ترك العمل بهذا العموم في حق النبوة، وفي حق الفضل لقيام الدلائل على أن محمدًا عليه السلام كان نبيًا وما كان علي كذلك، ولانعقاد الإجماع على أن محمدًا عليه السلام كان أفضل من علي رضي الله عنه، فيبقى فيما وراءه معمولاً به، ثم الإجماع دل على أن محمدًا عليه السلام كان أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام فيلزم أن يكون علي أفضل من سائر الأنبياء، فهذا وجه الاستدلال بظاهر هذه الآية، ثم قال: ويؤيد الاستدلال بهذه الآية، الحديث المقبول عند الموافق والمخالف، وهو قوله عليه السلام: «من أَرادَ أنْ يَرَى آدَمَ فِي عِلمِهِ، وَنُوحًا في طَاعَتِهِ، وإبْرَاهِيمَ فِي خُلَّتِهِ، وَمُوسَى في هَيْبَتِهِ، وَعِيسَى في صَفوَتِهِ، فَلْيَنْظُرْ إلى عَلِيِّ بنِ أبي طالِبٍ» فالحديث دل على أنه اجتمع فيه ما كان متفرقًا فيهم، وذلك يدل على أن عليًا رضي الله عنه أفضل من جميع الأنبياء سوى محمد ﷺ، وأما سائر الشيعة فقد كانوا قديمًا وحديثًا يستدلون بهذه الآية على أن عليًا رضي الله عنه أفضل من سائر الصحابة، وذلك لأن الآية لما دلت على أن نفس علي رضي الله عنه مثل نفس محمد عليه السلام إلا فيما خصه الدليل،

وكان نفس محمد أفضل من الصحابة رضوان الله عليهم، فوجب أن يكون نفس علي أفضل أيضًا من سائر الصحابة، هذا تقدير كلام الشيعة، والجواب: أنه كما انعقد الإجماع بين المسلمين على أن محمدًا عليه السلام أفضل من علي، فكذلك انعقد الإجماع بينهم قبل ظهور هذا الإنسان، على أن النبي أفضل ممن ليس بنبي، وأجمعوا على أن عليًا رضي الله عنه ما كان نبيًا، فلزم القطع بأن ظاهر الآية كما أنه مخصوص في حق محمد ﷺ، فكذلك مخصوص في حق سائر الأنبياء عليهم السلام.

المسألة السادسة: قوله: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي: نتباهل، كما يقال: اقتتل القوم وتقاتلوا واصطحبوا وتصاحبوا، والابتهال فيه وجهان؛ أحدهما: أن الابتهال هو الاجتهاد في الدعاء، وإن لم يكن باللعن، ولا يقال: ابتهل في الدعاء إلا إذا كان هناك اجتهاد، والثاني: أنه مأخوذ من قولهم عليه بَهْلَةُ الله، أي: لَعْنته، وأصله مأخوذ مما يرجع إلى معنى اللعن، لأن معنى اللعن هو الإبعاد والطرد وبَهَلَه الله، أي: لعنه وأبعده من رحمته من قولك: أبهله إذا أهمله وناقة باهل لا صرار عليها، بل هي مرسلة مُخَلَّاة، كالرجل الطريد المنفي، وتحقيق معنى الكلمة: أن البهل إذا كان هو الإرسال والتخلية فكان من بهله الله فقد خلاه الله ووكله إلى نفسه ومن وكله إلى نفسه فهو هالك لا شك فيه فمن باهل إنسانًا، فقال: علي بَهْلَةُ الله إن كان كذا، يقول: وكلني الله إلى نفسي، وفرضني إلى حولي وقوتي، أي: من كلاءته وحفظه، كالناقة الباهل التي لا حافظ لها في ضرعها، فكل من شاء حلبها وأخذ لبنها لا قوة لها في الدفع عن نفسها، ويقال أيضًا: رجل باهل، إذا لم يكن معه عصًا، وإنما معناه أنه ليس معه ما يدفع عن نفسه، والقول الأول أولى، لأنه يكون قوله: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي: ثم نجتهد في الدعاء، ونجعل اللعنة على الكاذب، وعلى القول الثاني يصير التقدير: ثم نبتهل، أي: ثم نلتعن ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ وهي تكرار، بقي في الآية سؤالات أربع.

السؤال الأول: الأولاد إذا كانوا صغارًا لم يجز نزول العذاب بهم وقد ورد في الخبر أنه صلوات الله عليه أدخل في المباهلة الحسن والحسين عليهما السلام فما الفائدة فيه؟.

والجواب: إن عادة الله تعالى جارية بأن عقوبة الاستئصال إذا نزلت بقوم هلكت معهم الأولاد والنساء، فيكون ذلك في حق البالغين عقابًا، وفي حق الصبيان لا يكون عقابًا، بل يكون جاريًا مجرى إماتتهم وإيصال الآلام والأسقام إليهم ومعلوم أن شفقة الإنسان على أولاده وأهله شديدة جدًا فربما جعل الإنسان نفسه فداءً لهم وجنة لهم، وإذا كان كذلك فهو عليه السلام أحضر صبيانه ونساءه مع نفسه وأمرهم بأن يفعلوا مثل ذلك ليكون ذلك أبلغ في الزجر وأقوى في تخويف الخصم، وأدل على وثوقه صلوات الله عليه وعلى آله بأن الحق معه.

السؤال الثاني: هل دلت هذه الواقعة على صحة نبوّة محمد ﷺ؟.

الجواب: أنها دلّت على صحة نبوته عليه السلام من وجهين؛ أحدهما: وهو أنه عليه السلام

خوفهم بنزول العذاب عليهم، ولو لم يكن واثقًا بذلك، لكان ذلك منه سعيًا في إظهار كذب نفسه؛ لأن بتقدير: أن يرغبوا في مباهلته، ثم لا ينزل العذاب، فحينئذ كان يظهر كذبه فيما أخبر ومعلوم أن محمدًا ﷺ كان من أعقل الناس، فلا يليق به أن يعمل عملاً يفضي إلى ظهور كذبه فلما أصر على ذلك علمنا أنه إنما أصر عليه لكونه واثقًا بنزول العذاب عليهم، وثانيهما: أن القوم لما تركوا مباهلته، فلولا أنهم عرفوا من التوراة والإنجيل ما يدل على نبوته، وإلا لما أحجموا عن مباهلته.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: إنهم كانوا شاكين، فتركوا مباهلته خوفًا من أن يكون صادقًا فينزل بهم ما ذكر من العذاب؟

قلنا: هذا مدفوع من وجهين؛ الأول: أن القوم كانوا يبذلون النفوس والأموال في المنازعة مع الرسول عليه الصلاة والسلام، ولو كانوا شاكين لما فعلوا ذلك، الثاني: أنه قد نقل عن أولئك النصارى أنهم قالوا: إنه والله هو النبي المبشر به في التوراة والإنجيل، وإنكم لو باهلتموه لحصل الاستئصال فكان ذلك تصريحًا منهم بأن الامتناع عن المباهلة كان لأجل علمهم بأنه نبي مرسل من عند الله تعالى.

السؤال الثالث: أليس أن بعض الكفار اشتغلوا بالمباهلة مع محمد ﷺ؟ حيث قالوا ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ثم إنه لم ينزل العذاب بهم البتة، فكذا هاهنا، وأيضًا فبتقدير نزول العذاب، كان ذلك مناقضًا لقوله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

والجواب: الخاص مقدم على العام، فلما أخبر عليه السلام بنزول العذاب في هذه السورة على التعيين وجب أن يعتقد أن الأمر كذلك.

السؤال الرابع: قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ هل هو متصل بما قبله أم لا؟.

والجواب: قال أبو مسلم: إنه متصل بما قبله ولا يجوز الوقف على قوله: ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وتقدير الآية فنجعل لعنة الله على الكاذبين بأن هذا هو القصص الحق وعلى هذا التقدير كان حق ﴿إِنَّ﴾ أن تكون مفتوحة، إلا أنها كسرت لدخول اللام في قوله: ﴿لَهُوَ﴾ كما في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ١١] وقال الباقون: الكلام تم عند قوله: ﴿عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وما بعده جملة أخرى مستقلة غير متعلقة بما قبلها، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من الدلائل، ومن الدعاء إلى

المباهلة ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين، ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة فبين تعالى أن الذي أنزله على نبيه هو القصص الحق ليكون على ثقة من أمره، والخطاب وإن كان معه فالمراد به الكل.

المسألة الثانية: (هُوَ) في قوله: ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ فيه قولان؛ أحدهما: أن يكون فصلاً وعمادًا، ويكون خبر (إن) هو قوله: ﴿ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾.

فإن قيل: فكيف جاز دخول اللام على الفصل؟.

قلنا: إذا جاز دخولها على الخبر كان دخولها على الفصل أجود، لأنه أقرب إلى المبتدأ منه، وأصلها أن تدخل على المبتدأ.

والقول الثاني: إنه مبتدأ، والقصص الحق خبره، والجملة خبر (إن).

المسألة الثالثة: قرئ (لَهُوَ) بتحريك الهاء على الأصل، وبالسكون لأن اللام ينزل من (هُوَ) منزلة بعضه فخفف كما خفف عَضُد.

المسألة الرابعة: يقال: قص فلان الحديث يقصه قصًا وقصصًا، وأصله اتباع الأثر، يقال: خرج فلان قصصًا، في أثر فلان، وقصًا، وذلك إذا اقتص أثره، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] وقيل للقاص إنه قاص لاتباعه خبرًا بعد خبر، وسوقه الكلام سوقًا، فمعنى القصص الخبر المشتمل على المعاني المتابعة.

ثم قال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وهذا يفيد تأكيد النفي، لأنك لو قلت عندي من الناس أحد، أفاد أن عندك بعض الناس، فإذا قلت ما عندي من الناس من أحد، أفاد أنه ليس عندك بعضهم، وإذا لم يكن عندك بعضهم، فبأن لا يكون عندك كلهم أولى فثبت أن قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مبالغة في أنه لا إله إلا الله الواحد الحق سبحانه وتعالى.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وفيه إشارة إلى الجواب عن شبهات النصارى، وذلك لأن اعتمادهم على أمرين؛ أحدهما: أنه قدر على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، فكأنه تعالى قال: هذا القدر من القدرة لا يكفي في الإلهية، بل لا بد وأن يكون عزيزًا غالبًا لا يدفع ولا يمنع، وأنتم قد اعترفتم بأن عيسى ما كان كذلك، وكيف وأنتم تقولون: إن اليهود قتلوه؟ والثاني: أنهم قالوا: إنه كان يخبر عن الغيوب وغيرها، فيكون إلهًا، فكأنه تعالى قال: هذا القدر من العلم لا يكفي في الإلهية، بل لا بد وأن يكون حكيمًا، أي عالمًا بجميع المعلومات وبجميع عواقب الأمور، فذكر ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ هاهنا إشارة إلى الجواب عن هاتين الشبهتين ونظير هذه الآية ما ذكره تعالى في أول السورة من قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦].

ثم قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ والمعنى: فإن تولوا عما وصفت من أن الله هو الواحد، وأنه يجب أن يكون عزيزًا غالبًا قادرًا على جميع المقدورات، حكيمًا عالمًا بالعواقب

والنهايات مع أن عيسى عليه السلام ما كان عزيزًا غالبًا، وما كان حكيمًا عالمًا بالعواقب والنهايات. فاعلم أن توليهم وإعراضهم ليس إلا على سبيل العناد فاقطع كلامك عنهم وفوض أمرهم إلى الله، فإن الله عليم بفساد المفسدين، مطلع على ما في قلوبهم من الأغراض الفاسدة، قادر على مجازاتهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

واعلم أن النبي ﷺ لما أورد على نصارى نجران أنواع الدلائل وانقطعوا، ثم دعاهم إلى المباهلة فخافوا وما شرعوا فيها وقبلوا الصغار بأداء الجزية، وقد كان عليه السلام حريصًا على إيمانهم، فكأنه تعالى قال: يا محمد اترك ذلك المنهج من الكلام واعدل إلى منهج آخر يشهد كل عقل سليم وطبع مستقيم أنه كلام مبني على الإنصاف وترك الجدال، و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هلموا إلى كلمة فيها إنصاف من بعضنا لبعض، ولا ميل فيه لأحد على صاحبه، وهي ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ هذا هو المراد من الكلام ولنذكر الآن تفسير الألفاظ.

أما قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ففيه ثلاثة أقوال؛ أحدها: المراد نصارى نجران، والثاني: المراد يهود المدينة، والثالث: أنها نزلت في الفريقين، ويدل عليه وجهان؛ الأول: أن ظاهر اللفظ يتناولهما، والثاني: روي في سبب النزول، أن اليهود قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام، ما تريد إلا أن نتخذك ربًا كما اتخذت النصارى عيسى! وقالت النصارى: يا محمد ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزير! فأنزل الله تعالى هذه الآية، وعندي أن الأقرب حمله على النصارى، لما بينا أنه لما أورد الدلائل عليهم أولاً، ثم باهلهم ثانيًا، فعدل في هذا المقام إلى الكلام المبني على رعاية الإنصاف، وترك المجادلة، وطلب الإفحام والإلزام، ومما يدل عليه، أنه خاطبهم هاهنا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهذا الاسم من أحسن الأسماء وأكمل الألقاب حيث جعلهم أهلاً لكتاب الله، ونظيره، ما يقال لحافظ القرآن يا حامل كتاب الله، وللمفسر يا مفسر كلام الله، فإن هذا اللقب يدل على أن قائله أراد المبالغة في تعظيم المخاطب وفي تطييب قلبه، وذلك إنما يقال عند عدول الإنسان مع خصمه عن طريقة اللجاج والنزاع إلى طريقة طلب الإنصاف.

أما قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا۟﴾ فالمراد تعيين ما دعوا إليه والتوجه إلى النظر فيه وإن لم يكن انتقالاً من مكان إلى مكان لأن أصل اللفظ مأخوذ من التعالي وهو الارتفاع من موضع هابط إلى مكان عال، ثم كثر استعماله حتى صار دالاً على طلب التوجه إلى حيث يدعى إليه.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا﴾ فالمعنى هلموا إلى كلمة فيها إنصاف من بعضنا

لبعض، لا ميل فيه لأحد على صاحبه، والسواء هو العدل والإنصاف، وذلك لأن حقيقة الإنصاف إعطاء النصف، فإن الواجب في العقول ترك الظلم على النفس وعلى الغير، وذلك لا يحصل إلا بإعطاء النصف، فإذا أنصف وترك ظلمه أعطاه النصف فقد سوى بين نفسه وبين غيره وحصل الاعتدال، وإذا ظلم وأخذ أكثر مما أعطى زال الاعتدال فلما كان من لوازم العدل والإنصاف التسوية جعل لفظ التسوية عبارة عن العدل.

ثم قال الزجاج ﴿سَوَآءِۭ﴾ نعت للكلمة يريد: ذات سواء، فعلى هذا قوله ﴿كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ﴾ أي: كلمة عادلة مستقيمة مستوية، فإذا آمنا بها نحن وأنتم كنا على السواء والاستقامة، ثم قال: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾:

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: محل (أن) في قوله أن لا نعبد، فيه وجهان؛ الأول: أنه رفع بإضمار، هي: كأن قائلاً قال: ما تلك الكلمة؟ فقيل: هي أن لا نعبد إلا الله، والثاني: خفض على البدل من: كلمة.

المسألة الثانية: أنه تعالى ذكر ثلاثة أشياء؛ أولها: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وثانيها: أن ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وثالثها: أن ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وإنما ذكر هذه الثلاثة لأن النصارى جمعوا بين هذه الثلاثة فيعبدون غير الله وهو المسيح، ويشركون به غيره وذلك لأنهم يقولون: إنه ثلاثة: أب وابن وروح القدس، فأثبتوا ذوات ثلاثة قديمة سواء، وإنما قلنا: إنهم أثبتوا ذوات ثلاثة قديمة، لأنهم قالوا: إن أقنوم الكلمة تدرعت بناسوت المسيح، وأقنوم روح القدس تدرعت بناسوت مريم، ولولا كون هذين الأقنومين ذاتين مستقلتين وإلا لما جازت عليهما مفارقة ذات الأب والتدرع بناسوت عيسى ومريم، ولما أثبتوا ذوات ثلاثة مستقلة فقد أشركوا، وأما إنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله فيدل عليه وجوه:

أحدها: إنهم كانوا يطيعونهم في التحليل والتحريم، والثاني: إنهم كانوا يسجدون لأحبارهم، والثالث: قال أبو مسلم: من مذهبهم أن من صار كاملاً في الرياضة والمجاهدة يظهر فيه أثر حلول اللاهوت، فيقدر على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، فهم وإن لم يطلقوا عليه لفظ الرب إلا أنهم أثبتوا في حقه معنى الربوبية، والرابع: هو أنهم كانوا يطيعون أحبارهم في المعاصي، ولا معنى للربوبية إلا ذلك، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] فثبت أن النصارى جمعوا بين هذه الأمور الثلاثة، وكان القول ببطلان هذه الأمور الثلاثة كالأمر المتفق عليه بين جمهور العقلاء وذلك لأن قبل المسيح ما كان المعبود إلا الله، فوجب أن يبقى الأمر بعد ظهور المسيح على هذا الوجه، وأيضًا القول بالشركة باطل باتفاق الكل، وأيضًا إذا كان الخالق والمنعم بجميع النعم هو الله، وجب أن لا يرجع في التحليل والتحريم

والانقياد والطاعة إلا إليه، دون الأحبار والرهبان، فهذا هو شرح هذه الأمور الثلاثة.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ والمعنيك إن أبوا إلا الإصرار، فقولوا إنا مسلمون، يعني أظهروا أنكم على هذا الدين، لا تكونوا في قيد أن تحملوا غيركم عليه.

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾

اعلم أن اليهود كانوا يقولون: إن إبراهيم كان على ديننا، والنصارى كانوا يقولون: كان إبراهيم على ديننا، فأبطل الله عليهم ذلك بأن التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعده فكيف يعقل أن يكون يهوديًا أو نصرانيًا؟.

فإن قيل: فهذا أيضًا لازم عليكم لأنكم تقولون: إن إبراهيم كان على دين الإسلام، والإسلام إنما أنزل بعده بزمان طويل، فإن قلتم إن المراد أن إبراهيم كان في أصول الدين على المذهب الذي عليه المسلمون الآن، فنقول: فلم لا يجوز أيضًا أن تقول اليهود: إن إبراهيم كان يهوديًا بمعنى أنه كان على الدين الذي عليه اليهود، وتقول النصارى إن إبراهيم كان نصرانيًا بمعنى أنه كان على الدين الذي عليه النصارى، فكون التوراة والإنجيل نازلين بعد إبراهيم لا ينافي كونه يهوديًا أو نصرانيًا بهذا التفسير، كما أن كون القرآن نازلاً بعده لا ينافي كونه مسلمًا.

والجواب: إن القرآن أخبر أن إبراهيم كان حنيفًا مسلمًا، وليس في التوراة والإنجيل أن إبراهيم كان يهوديًا أو نصرانيًا، فظهر الفرق، ثم نقول: أما أن النصارى ليسوا على ملة إبراهيم، فالأمر فيه ظاهر، لأن المسيح ما كان موجودًا في زمن إبراهيم، فما كانت عبادته مشروعة في زمن إبراهيم لا محالة، فكان الاشتغال بعبادة المسيح مخالفة لملة إبراهيم لا محالة، وأما أن اليهود ليسوا على ملة إبراهيم، فذلك لأنه لا شك أنه كان لله سبحانه وتعالى تكاليف على الخلق قبل مجيء موسى عليه السلام، ولا شك أن الموصل لتلك التكاليف إلى الخلق واحد من البشر، ولا شك أن ذلك الإنسان قد كان مؤيدًا بالمعجزات، وإلا لم يجب على الخلق قبول تلك التكاليف منه فإذن قد كان قبل مجيء موسى أنبياء، وكانت لهم شرائع معينة، فإذا جاء موسى فإما أن يقال إنه جاء بتقرير تلك الشرائع، أو بغيرها فإن جاء بتقريرها لم يكن موسى صاحب تلك الشريعة، بل كان كالفقيه المقرر لشرع من قبله، واليهود لا يرضون بذلك، وإن كان قد جاء بشرع آخر سوى شرع من تقدمه فقد قال بالنسخ، فثبت أنه لا بد وأن يكون دين كل الأنبياء جواز القول بالنسخ واليهود ينكرون ذلك، فثبت أن اليهود ليسوا على ملة إبراهيم، فبطل قول اليهود والنصارى بأن إبراهيم كان يهوديًا أو نصرانيًا، فهذا هو المراد من الآية، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن

كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم وحمزة والكسائي (ها أَنتُمْ) بالمد والهمزة، وقرأ نافع وأبو عمرو بغير همز ولا مد، إلا بقدر خروج الألف الساكنة، وقرأ ابن كثير بالهمز والقصر على وزن (صنعتم) وقرأ ابن عامر بالمد دون الهمز، فمن حقق فعلى الأصل، لأنهما حرفان (ها) و(أَنتُمْ) ومن لم يمد ولم يهمز فللتخفيف من غير إخلال.

المسألة الثانية: اختلفوا في أصل ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ فقيل: (ها) تنبيه والأصل (أَنتُمْ) وقيل: أصله (أأَنتُمْ) فقلبت الهمزة الأولى هاء كقولهم هَرَقْتُ الماء وأَرَقْتُ و(هَؤُلاء) مبني على الكسر وأصله أولاء دخلت عليه (ها) التنبيه، وفيه لغتان: القصر والمد، فإن قيل: أين خبر أنتم في قوله: (ها أنتم)؟ قلنا: فيه ثلاثة أوجه، الأول: قال صاحب (الكشاف): (ها) للتنبيه و(أَنتُمْ) مبتدأ و ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ خبره و﴿حَٰجَجْتُمْ﴾ جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى بمعنى: أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم وإن جادلتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم؟ والثاني: أن يكون (أَنتُمْ) مبتدأ، وخبر (هَؤُلاء) بمعنى أولاء على معنى الذي وما بعده صلة له، الثالث: أن يكون (أَنتُمْ) مبتدأ (وَهَؤُلاء) عطف بيان (وحاججتم) خبره، وتقديره: أنتم يا هؤلاء حاججتم.

المسألة الثالثة: المراد من قوله: ﴿حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ هو أنهم زعموا أن شريعة التوراة والإنجيل مخالفة لشريعة القرآن فكيف تحاجون فيما لا علم لكم به وهو ادعاؤكم أن شريعة إبراهيم كانت مخالفة لشريعة محمد عليه السلام؟.

ثم يحتمل في قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أنه لم يصفهم في العلم حقيقة وإنما أراد إنكم تستجيزون محاجته فيما تدعون علمه، فكيف تحاجونه فيما لا علم لكم به البتة؟.

ثم حقق ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ كيف كانت حال هذه الشرائع في المخالفة والموافقة ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ كيفية تلك الأحوال.

ثم بيّن تعالى ذلك مفصلاً فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ فكذبهم فيما ادعوه من موافقته لهما.

ثم قال: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ وقد سبق تفسير الحنيف في سورة البقرة.

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهو تعريض بكون النصارى مشركين في قولهم بإلهية المسيح وبكون اليهود مشركين في قولهم بالتشبيه.

فإن قيل: قولكم إبراهيم على دين الإسلام أتريدون به الموافقة في الأصول أو في الفروع؟ فإن كان الأول لم يكن مختصًا بدين الإسلام بل نقطع بأن إبراهيم أيضًا على دين اليهود، أعني ذلك الدين الذي جاء به موسى، فكان أيضًا على دين النصارى، أعني تلك النصرانية التي جاء بها عيسى فإن أديان الأنبياء لا يجوز أن تكون مختلفة في الأصول، وإن أردتم به الموافقة في الفروع، فلزم أن لا يكون محمد عليه السلام صاحب الشرع البتة، بل كان كالمقرر لدين غيره، وأيضًا فمن المعلوم بالضرورة أن التعبد بالقرآن ما كان موجودًا في زمان إبراهيم عليه السلام فتلاوة القرآن مشروعة في صلاتنا وغير مشروعة في صلاتهم. قلنا: جاز أن يكون المراد به الموافقة في الأصول والغرض منه بيان أنه ما كان موافقًا في أصول الدين لمذهب هؤلاء الذين هم اليهود والنصارى في زماننا هذا، وجاز أيضًا أن يقال المراد به الفروع وذلك لأن الله نسخ تلك الفروع بشرع موسى، ثم في زمن محمد ﷺ نسخ شرع موسى عليه السلام بتلك الشريعة التي كانت ثابتة في زمن إبراهيم عليه السلام وعلى هذا التقدير يكون محمد عليه السلام صاحب الشريعة ثم لما كان غالب شرع محمد عليه السلام موافقًا لشرع إبراهيم عليه السلام، فلو وقعت المخالفة في القليل لم يقدح ذلك في حصول الموافقة.

ثم ذكر تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾ فريقان أحدهما: من اتبعه ممن تقدم، والآخر: النبي وسائر المؤمنين.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصرة والمعونة والتوفيق والإعظام والإكرام.

قوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن من طريقة أهل الكتاب العدول عن الحق، والإعراض عن قبول الحجة بيّن أنهم لا يقتصرون على هذا القدر، بل يجتهدون في إضلال من آمن بالرسول عليه السلام بإلقاء الشبهات كقولهم: إن محمدًا عليه السلام مقر بموسى وعيسى ويدعي لنفسه النبوّة، وأيضًا إن موسى عليه السلام أخبر في التوراة بأن شرعه لا يزول، وأيضًا القول بالنسخ يفضي إلى البداء، والغرض منه تنبيه المؤمنين على أن لا يغتروا بكلام اليهود، ونظير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩] وقوله: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩].

واعلم أن (مِنْ) هاهنا للتبعيض وإنما ذكر بعضهم ولم يعمهم لأن منهم من آمن وأثنى الله عليهم بقوله ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ [المائدة: ٦٦] ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ [آل عمران: ١١٣] وقيل: نزلت هذه الآية في معاذ وعمّار بن ياسر وحذيفة دعاهم اليهود إلى دينهم، وإنما قال: ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ ولم يقل أن يضلوكم، لأن (لَوْ) للتمني فإن قولك: لو كان كذا يفيد التمني، ونظيره

قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ وهو يحتمل وجوهًا منها إهلاكهم أنفسهم باستحقاق العقاب على قصدهم إضلال الغير وهو كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧] وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥] ومنها إخراجهم أنفسهم عن معرفة الهدى والحق لأن الذاهب عن الاهتداء يوصف بأنه ضال ومنها أنهم لما اجتهدوا في إضلال المؤمنين ثم إن المؤمنين لم يلتفتوا إليهم فهم قد صاروا خائبين خاسرين، حيث اعتقدوا شيئًا ولاح لهم أن الأمر بخلاف ما تصوروه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يعلمون أن هذا يضرهم ولا يضر المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٧٠﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن حال الطائفة التي لا تشعر بما في التوراة من دلالة نبوّة محمد ﷺ، بيّن أيضًا حال الطائفة العارفة بذلك من أحبارهم.

فقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: (لم) أصلها لما، لأنها: ما، التي للاستفهام، دخلت عليها اللام فحذفت الألف لطلب الخفة، ولأن حرف الجر صار كالعوض عنها ولأنها وقعت طرفًا ويدل عليها الفتحة وعلى هذا قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ: ١] و﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤] والوقف على هذه الحروف يكون بالهاء نحو: فبمه، ولمه.

المسألة الثانية: في قوله ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وجوه؛ الأول: أن المراد منها الآيات الواردة في التوراة والإنجيل، وعلى هذا القول فيه وجوه؛ أحدها: ما في هذين الكتابين من البشارة بمحمد عليه السلام، ومنها ما في هذين الكتابين، أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفًا مسلمًا، ومنها أن فيهما أن الدين هو الإسلام. واعلم أن على هذا القول المحتمل لهذه الوجوه نقول: إن الكفر بالآيات يحتمل وجهين: أحدهما: أنهم ما كانوا كافرين بالتوراة بل كانوا كافرين بما يدل عليه التوراة فأطلق اسم الدليل على المدلول على سبيل المجاز، والثاني: أنهم كانوا كافرين بنفس التوراة لأنهم كانوا يحرفونها وكانوا ينكرون وجود تلك الآيات الدالة على نبوّة محمد ﷺ.

فأما قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ فالمعنى على هذا القول أنهم عند حضور المسلمين، وعند حضور عوامهم، كانوا ينكرون اشتمال التوراة والإنجيل على الآيات الدالة على نبوّة محمد ﷺ، ثم إذا خلا بعضهم مع بعض شهدوا بصحتها، ومثله قوله تعالى: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ [آل عمران: ٩٩].

واعلم أن تفسير الآية بهذا القول، يدل على اشتمال هذه الآية على الإخبار عن الغيب لأنه عليه الصلاة والسلام أخبرهم بما يكتمونه في أنفسهم، ويظهرون غيره، ولا شك أن الإخبار عن الغيب معجز.

القول الثاني: في تفسير آيات الله أنها هي القرآن وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ يعني: أنكم تنكرون عند العوام كون القرآن معجزًا ثم تشهدون بقلوبكم وعقولكم كونه معجزًا.

القول الثالث: أن المراد بآيات الله جملة المعجزات التي ظهرت على يد النبي ﷺ وعلى هذا القول فقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ معناه: أنكم إنما اعترفتم بدلالة المعجزات التي ظهرت على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الدالة على صدقهم، من حيث إن المعجز قائم مقام التصديق من الله تعالى فإذا شهدتهم بأن المعجز إنما دل على صدق سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من هذا الوجه، وأنتم تشهدون حصول هذا الوجه في حق محمد ﷺ كان إصراركم على إنكار نبوته ورسالته مناقضًا لما شهدتهم بحقيته من دلالة معجزات سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على صدقهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾

اعلم أن علماء اليهود والنصارى كانت لهم حرفتان؛ إحداهما: أنهم كانوا يكفرون بمحمد ﷺ مع أنهم كانوا يعلمون بقلوبهم أنه رسول حق من عند الله والله تعالى نهاهم عن هذه الحرفة في الآية الأولى، وثانيتهما: إنهم كانوا يجتهدون في إلقاء الشبهات، وفي إخفاء الدلائل والبينات والله تعالى نهاهم عن هذه الحرفة في هذه الآية الثانية، فالمقام الأول مقام الغواية والضلالة والمقام الثاني مقام الإغواء والإضلال، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (تُلَبِّسُونَ) بالتشديد، وقرأ يحيى بن وثاب (تَلْبَسُون) بفتح الباء، أي: تلبسون الحق مع الباطل، كقوله عليه السلام: «كَلاَبِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ» وقوله[1].

إذا هو بالمجد ارتدى وتأزرا

المسألة الثانية: اعلم أن الساعي في إخفاء الحق لا سبيل له إلى ذلك إلا من أحد وجهين: إما بإلقاء شبهة تدل على الباطل، وإما بإخفاء الدليل الذي يدل على الحق، فقوله: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ إشارة إلى المقام الأول وقوله ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ إشارة إلى المقام الثاني أما لبس الحق بالباطل فإنه يحتمل هاهنا وجوهًا: أحدها: تحريف التوراة، فيخلطون المنزل بالمحرف، عن الحسن وابن زيد، وثانيها: إنهم تواضعوا على إظهار الإسلام أول النهار، ثم الرجوع عنه

---

(١) البيت للكميت وتقدم ترجمته.

في آخر النهار، تشكيكًا للناس، عن ابن عباس وقتادة، وثالثها: أن يكون في التوراة ما يدل على نبوته ﷺ من البشارة والنعت والصفة ويكون في التوراة أيضًا ما يوهم خلاف ذلك، فيكون كالمحكم والمتشابه فيلبسون على الضعفاء أحد الأمرين بالآخر كما يفعله كثير من المشبهة، وهذا قول القاضي، ورابعها: أنهم كانوا يقولون إن محمدًا معترف بأن موسى عليه السلام حق، ثم إن التوراة دالة على أن شرع موسى عليه السلام لا ينسخ وكل ذلك إلقاء للشبهات.

أما قوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ فالمراد أن الآيات الموجودة في التوراة الدالة على نبوّة محمد ﷺ كان الاستدلال بها مفتقرًا إلى التفكر والتأمل، والقوم كانوا يجتهدون في إخفاء تلك الألفاظ التي كان بمجموعها يتم هذا الاستدلال مثل ما أن أهل البدعة في زماننا يسعون في أن لا يصل إلى عوامهم دلائل المحققين.

أما قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ففيه وجوه:

أحدها: إنكم تعلمون أنكم إنما تفعلون ذلك عنادًا وحسدًا، وثانيها: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنتم أرباب العلم والمعرفة لا أرباب الجهل والخرافة، وثالثها: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن عقاب من يفعل مثل هذه الأفعال عظيم.

المسألة الثالثة: قال القاضي: قوله تعالى: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ و﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ دال على أن ذلك فعلهم، لأنه لا يجوز أن يخلقه فيهم، ثم يقول: لم فعلتم؟ وجوابه: أن الفعل يتوقف على الداعية فتلك الداعية إن حدثت لا لمحدث لزم نفي الصانع، وإن كان محدثها هو العبد افتقر إلى إرادة أخرى وإن كان محدثها هو الله تعالى لزمكم ما ألزمتموه علينا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم يلبسون الحق بالباطل أردف ذلك بأن حكى عنهم نوعًا واحدًا من أنواع تلبيساتهم، وهو المذكور في هذه الآية وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قول بعضهم لبعض: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ ويحتمل أن يكون المراد كل ما أنزل وأن يكون المراد بعض ما أنزل.

أما الاحتمال الأول: ففيه وجوه؛ الأول: أن اليهود والنصارى استخرجوا حيلة في تشكيك ضعفة المسلمين في صحة الإسلام، وهو أن يظهروا تصديق ما ينزل على محمد ﷺ من الشرائع في بعض الأوقات، ثم يظهروا بعد ذلك تكذيبه، فإن الناس متى شاهدوا هذا التكذيب، قالوا: هذا التكذيب ليس لأجل الحسد والعناد، وإلا لما آمنوا به في أول الأمر وإذا لم يكن هذا التكذيب

لأجل الحسد والعناد وجب أن يكون ذلك لأجل أنهم أهل الكتاب وقد تفكروا في أمره واستقصوا في البحث عن دلائل نبوته فلاح لهم بعد التأمل التام، والبحث الوافي أنه كذاب، فيصير هذا الطريق شبهة لضعفة المسلمين في صحة نبوته، وقيل: تواطأ اثنا عشر رجلاً من أحبار يهود خيبر على هذا الطريق.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ معناه: أنا متى ألقينا هذه الشبهة فلعل أصحابه يرجعون عن دينه.

الوجه الثاني: يحتمل أن يكون معنى الآية أن رؤساء اليهود والنصارى قال بعضهم لبعض: نافقوا وأظهروا الوفاق للمؤمنين، ولكن بشرط أن تثبتوا على دينكم إذا خلوتم بإخوانكم من أهل الكتاب، فإن أمر هؤلاء المؤمنين في اضطراب فزجوا الأيام معهم بالنفاق فربما ضعف أمرهم واضمحل دينهم ويرجعوا إلى دينكم، وهذا قول أبي مسلم الأصفهاني ويدل عليه وجهان؛ الأول: أنه تعالى لما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ [النساء: ١٣٧] أتبعه بقوله: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [النساء: ١٣٨] وهو بمنزلة قوله: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، الثاني: أنه تعالى أتبع هذه الآية بقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣] فهذا يدل على أنهم نهوا عن غير دينهم الذي كانوا عليه فكان قولهم: ﴿ءَامِنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أمر بالنفاق.

الوجه الثالث: قال الأصم: قال بعضهم لبعض: إن كذبتموه في جميع ما جاء به فإن عوامكم يعلمون كذبكم، لأن كثيرًا مما جاء به حق ولكن صدقوه في بعض وكذبوه في بعض حتى يحمل الناس تكذيبكم له على الإنصاف لا على العناد فيقبلوا قولكم.

الاحتمال الثاني: أن يكون قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ بعض ما أنزل الله والقائلون بهذا القول حملوه على أمر القبلة وذكروا فيه وجهين؛ الأول: قال ابن عباس: وجه النهار أوله، وهو صلاة الصبح واكفروا آخره: يعني: صلاة الظهر وتقريره أنه ﷺ كان يصلي إلى بيت المقدس بعد أن قدم المدينة ففرح اليهود بذلك وطمعوا أن يكون منهم، فلما حوله الله إلى الكعبة كان ذلك عند صلاة الظهر قال كعب بن الأشرف وغيره: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ يعني: آمنوا بالقبلة التي صلّى إليها صلاة الصبح فهي الحق، واكفروا بالقبلة التي صلّى إليها صلاة الظهر، وهي آخر النهار، وهي الكفر، الثاني: أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم، فقال بعضهم لبعض: صلوا إلى الكعبة في أول النهار، ثم اكفروا بهذه القبلة في آخر النهار وصلوا إلى الصخرة لعلّهم يقولون إن أهل الكتاب أصحاب العلم فلولا أنهم عرفوا بطلان هذه القبلة لما تركوها فحينئذ يرجعون عن هذه القبلة.

المسألة الثانية: الفائدة في إخبار الله تعالى عن تواضعهم على هذه الحيلة من وجوه؛ الأول: أن هذه الحيلة كانت مخفية فيما بينهم، وما أطلعوا عليها أحدًا من الأجانب، فلما أخبر الرسول عنها كان ذلك إخبارًا عن الغيب، فيكون معجزًا، الثاني: أنه تعالى لما أطلع المؤمنين

على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصل لهذه الحيلة أثر في قلوب المؤمنين، ولولا هذا الإعلان لكان ربما أثرت هذه الحيلة في قلب بعض من كان في إيمانه ضعف، الثالث: أن القوم لما افتضحوا في هذه الحيلة صار ذلك رادعًا لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتلبيس.

المسألة الثالثة: وجه النهار هو أوله، والوجه في اللغة هو مستقبل كل شيء، لأنه أول ما يواجه منه، كما يقال لأول الثوب وجه الثوب، روى ثعلب عن ابن الأعرابي: أتيته بوجه نهار وصدر نهار، وشباب نهار، أي: أول النهار، وأنشد الربيع بن زياد فقال[1]:

مَن كان مَسرُورًا بمَقتَلِ مالِكٍ ... فَليَأتِ نِسوَتَنا بوَجهِ نَهارِ

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

اتفق المفسرون على أن هذا بقية كلام اليهود، وفيه وجهان: الأول: المعنى: ولا تصدقوا إلا نبيًا يقرر شرائع التوراة، فأما من جاء بتغيير شيء من أحكام التوراة فلا تصدقوه، وهذا هو مذهب اليهود إلى اليوم، وعلى هذا التفسير تكون (اللام) في قوله ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ﴾ صلة زائدة فإنه يقال صدقت فلانًا. ولا يقال صدقت لفلان، وكون هذه اللام صلة زائدة جائز، كقوله تعالى: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢] والمراد ردفكم، والثاني: أنه ذكر قبل هذه الآية قوله: ﴿ءَامِنُوا وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾.

ثم قال في هذه الآية: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي: لا تأتوا بذلك الإيمان إلا لأجل من تبع دينكم، كأنهم قالوا: ليس الغرض من الإتيان بذلك التلبيس إلا بقاء أتباعكم على دينكم، فالمعنى ولا تأتوا بذلك الإيمان إلا لأجل من تبع دينكم، فإن مقصود كل واحد حفظ أتباعه وأشياعه على متابعته.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما. معناه: الدين دين الله ومثله في سورة البقرة ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠].

واعلم أنه لا بد من بيان أنه كيف صار هذا الكلام جوابًا عما حكاه عنهم؟ فنقول: أما على الوجه الأول وهو قولهم لا دين إلا ما هم عليه، فهذا الكلام إنما صلح جوابًا عنه من حيث إن الذي هم عليه إنما ثبت دينًا من جهة الله، لأنه تعالى أمر به وأرشد إليه وأوجب الانقياد له وإذا

---

(١) البيت للربيع بن زياد وهو الربيع بن زياد بن عبد الله بن سفيان، من قيس بن عيلان.
؟ - ٣٣ ق.هـ/ ؟ - ٥٩٠م. أمه فاطمة بنت الخرشب وهي إحدى المنجبات. أحد دهاة العرب وشجعانهم ورؤسائهم في الجاهلية، يروى له شعر جيد. وكان يقال له (الكامل) اتصل بالنعمان بن المنذر ونادمه مدة، ثم أفسد لبيد الشاعر ما بينهما فارتحل الربيع وأقام في ديار عبس إلى أن كانت حرب داحس والغبراء فشهدها.

كان كذلك، فمتى أمر بعد ذلك بغيره، وأرشد إلى غيره، وأوجب الانقياد إلى غيره كان دينًا يجب أن يتبع، وإن كان مخالفًا لما تقدم، لأن الدين إنما صار دينًا بحكمه وهدايته، فحيثما كان حكمه وجبت متابعته، ونظيره قوله تعالى جوابًا لهم عن قولهم: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ﴾ [البقرة: ١٤٢] يعني: الجهات كلها لله، فله أن يحول القبلة إلى أي جهة شاء، وأما على الوجه الثاني فالمعنى أن الهدى هدى الله، وقد جئتكم به فلن ينفعكم في دفعه هذا الكيد الضعيف.

ثم قال تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ﴾.

واعلم أن هذه الآية من المشكلات الصعبة، فنقول هذا إما أن يكون من جملة كلام الله تعالى أو يكون من جملة كلام اليهود، ومن تتمة قولهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، وقد ذهب إلى كل واحد من هذين الاحتمالين قوم من المفسرين.

أما الاحتمال الأول: ففيه وجوه؛ الأول: قرأ ابن كثير (أن يؤتى) بمد الألف على الاستفهام والباقون بفتح الألف من غير مد ولا استفهام، فإن أخذنا بقراءة ابن كثير، فالوجه ظاهر وذلك لأن هذه اللفظة موضوعة للتوبيخ كقوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٤، ١٥] والمعنى: أمن أجل أن يؤتي أحد شرائع مثل ما أوتيتم من الشرائع ينكرون اتباعه؟ ثم حذف الجواب للاختصار، وهذا الحذف كثير يقول الرجل بعد طول العتاب لصاحبه، وتعديده عليه ذنوبه بعد كثرة إحسانه إليه أمن قلة إحساني إليك أمن إهانتي لك؟ والمعنى أمن أجل هذا فعلت ما فعلت؟ ونظيره قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ﴾ [الزمر: ٩] وهذا الوجه مروي عن مجاهد وعيسى بن عمر. أما قراءة من قرأ بقصر الألف من (أن) فقد يمكن أيضًا حملها على معنى الاستفهام كما قرئ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦] بالمد والقصر، وكذا قوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [القلم: ١٤] قرئ بالمد والقصر، وقال امرؤ القيس:

تَروحُ مِنَ الحَيِّ أم تَبتَكِر وَماذا عَلَيكَ وَلَمْ تَنتَظِر

أراد أتروح من الحي؟ فحذف ألف الاستفهام، وإذا ثبت أن هذه القراءة محتملة لمعنى الاستفهام كان التقدير ما شرحناه في القراءة الأولى.

الوجه الثاني: أن أولئك لما قالوا لأتباعهم: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ فلا تنكروا ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ﴾ سواكم من الهدى ﴿مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ و﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ﴾ يعني: هؤلاء المسلمين بذلك ﴿عِندَ رَبِّكُمْ ۗ﴾ إن لم تقبلوا ذلك منهم، أقصى ما في الباب أنه يفتقر في هذا التأويل إلى إضمار قوله فلا تنكروا لأن عليه دليلاً وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ فإنه لما كان الهدى هدى الله كان له تعالى أن يؤتيه من يشاء من عباده ومتى كان كذلك لزم ترك الإنكار.

الوجه الثالث: إن الهدى اسم للبيان كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] فقوله: ﴿إِنَّ الْهُدَىٰ﴾ مبتدأ وقوله: ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ بدل منه وقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ خبر بإضمار حرف لا، والتقدير: قل يا محمد لا شك أن بيان الله هو أن لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، وهو دين الإسلام الذي هو أفضل الأديان وأن لا يحاجوكم يعني هؤلاء اليهود عند ربكم في الآخرة لأنه يظهر لهم في الآخرة أنكم محقون وأنهم مضلون، وهذا التأويل ليس فيه إلا أنه لا بد من إضمار حرف (لا) وهو جائز كما في قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ٤٤] أي: أن لا تضلوا.

الوجه الرابع: (الهدى) اسم و ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ بدل منه و ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ﴾ خبره، والتقدير: إن هدى الله هو أن يؤتي أحد مثل ما أوتيتم، وعلى هذا التأويل فقوله: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ لا بد فيه من إضمار، والتقدير: أو يحاجوكم عند ربكم فيقضى لكم عليهم، والمعنى: أن الهدى هو ما هديتكم به من دين الإسلام الذي من حاجكم به عندي قضيت لكم عليه، وفي قوله: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ ما يدل على هذا الإضمار ولأن حكمه بكونه ربًّا لهم يدل على كونه راضيًا عنهم وذلك مشعر بأنه يحكم لهم ولا يحكم عليهم.

والاحتمال الثاني: أن يكون قوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ من تتمة كلام اليهود، وفيه تقديم وتأخير، والتقدير: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتي أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم، قل إن الهدى هدى الله، وأن الفضل بيد الله، قالوا، والمعنى لا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم، وأسروا تصديقكم، بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين لئلا يزيدهم ثباتًا ودون المشركين لئلا يدعوهم ذلك إلى الإسلام.

أما قوله: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ فهو عطف على أن يؤتى، والضمير في يحاجوكم لأحد، لأنه في معنى الجمع بمعنى ولا تؤمنوا لغير أتباعكم، إن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق ويغالبونكم عند الله بالحجة، وعندي أن هذا التفسير ضعيف، وبيانه من وجوه؛ الأول: إن جد القوم في حفظ أتباعهم عن قبول دين محمد عليه السلام كان أعظم من جدهم في حفظ غير أتباعهم وأشياعهم عنه، فكيف يليق أن يوصي بعضهم بعضًا بالإقرار بما يدل على صحة دين محمد ﷺ عند أتباعهم وأشياعهم، وأن يمتنعوا من ذلك عند الأجانب؟ هذا في غاية البعد، الثاني: أن على هذا التقدير يختل النظم ويقع فيه تقديم وتأخير لا يليق بكلام الفصحاء، والثالث: إن على هذا التقدير لا بد من الحذف فإن التقدير: قل إن الهدى هدى الله وأن الفضل بيد الله، ولا بد من حذف (قُلْ) في قوله ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾، الرابع: إنه كيف وقع قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ فيما بين جزأى كلام واحد؟ فإن هذا في غاية البعد عن الكلام المستقيم، قال القفال: يحتمل أن يكون قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ كلامًا أمر الله نبيه أن يقوله عند انتهاء الحكاية عن اليهود إلى

هذا الموضع لأنه لما حكى عنهم في هذا الموضع قولاً باطلًا لا جرم أدب رسوله ﷺ بأن يقابله بقول حق، ثم يعود إلى حكاية تمام كلامهم كما إذا حكى المسلم عن بعض الكفار قولاً فيه كفر، فيقول: عند بلوغه إلى تلك الكلمة آمنت بالله، أو يقول لا إله إلا الله، أو يقول تعالى الله ثم يعود إلى تمام الحكاية فيكون قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ من هذا الباب، ثم أتى بعده بتمام قول اليهود إلى قوله: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ ثم أمر النبي ﷺ بمحاجتهم في هذا وتنبيههم على بطلان قولهم، فقيل له: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية.

الإشكال الخامس: في هذه الوجوه: أن الإيمان إذا كان بمعنى التصديق لا يتعدى إلى المصدق بحرف اللام لا يقال صدقت لزيد بل يقال: صدقت زيدًا، فكان ينبغي أن يقال: ولا تؤمنوا إلا من تبع دينكم، وعلى هذا التقدير يحتاج إلى حذف اللام في قوله: ﴿لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ ويحتاج إلى إضمار الباء أو ما يجري مجراه في قوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ﴾ لأن التقدير: ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم، بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، فقد اجتمع في هذا التفسير الحذف والإضمار وسوء النظم وفساد المعنى، قال أبو علي الفارسي: لا يبعد أن يحمل الإيمان على الإقرار فيكون المعنى: ولا تقروا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لمن تبع دينكم، وعلى هذا التقدير لا تكون اللام زائدة، لكن لا بد من إضمار حرف الباء أو ما يجري مجراه على كل حال، فهذا محصل ما قيل في تفسير هذه الآية والله أعلم بمراده.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

واعلم أنه تعالى حكى عن اليهود أمرين؛ أحدهما: أن يؤمنوا وجه النهار، ويكفروا آخره، ليصير ذلك شبهة للمسلمين في صحة الإسلام.

فأجاب عنه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ والمعنى: أن مع كمال هداية الله وقوة بيانه لا يكون لهذه الشبهة الركيكة قوة ولا أثر، والثاني: أنه حكى عنهم أنهم استنكروا أن يؤتى أحد مثل ما أوتوا من الكتاب والحكم والنبوة.

فأجاب عنه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ والمراد بالفضل الرسالة، وهو في اللغة عبارة عن الزيادة، وأكثر ما يستعمل في زيادة الإحسان، والفاضل الزائد على غيره في خصال الخير، ثم كثر استعمال الفضل لكل نفع قصد به فاعله الإحسان إلى الغير وقوله: ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي: إنه مالك له قادر عليه، وقوله ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: هو تفضل موقوف على مشيئته، وهذا يدل على أن النبوة تحصل بالتفضل لا بالاستحقاق، لأنه تعالى جعلها من باب الفضل الذي لفاعله أن يفعله وأن لا يفعله، ولا يصح ذلك في المستحق إلا على وجه المجاز وقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ مؤكد لهذا المعنى، لأن كونه واسعًا، يدل على كمال القدرة، وكونه عليمًا على كمال العلم، فيصح منه لمكان القدرة أن يتفضل على أي عبد شاء بأي تفضل شاء، ويصح منه لمكان كمال العلم أن لا يكون شيء من أفعاله إلا على وجه الحكمة والصواب.

ثم قال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهذا كالتأكيد لما تقدم، والفرق بين هذه الآية وبين ما قبلها أن الفضل عبارة عن الزيادة، ثم إن الزيادة من جنس المزيد عليه، فبيّن بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أنه قادر على أن يؤتي بعض عباده مثل ما آتاكم من المناصب العالية ويزيد عليها من جنسها، ثم قال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ والرحمة المضافة إلى الله سبحانه أمر أعلى من ذلك الفضل، فإن هذه الرحمة ربما بلغت في الشرف وعلو الرتبة إلى أن لا تكون من جنس ما آتاهم، بل تكون أعلى وأجل من أن تقاس إلى ما آتاهم، ويحصل من مجموع الآيتين إنه لا نهاية لمراتب إعزاز الله وإكرامه لعباده، وأن قصر إنعامه وإكرامه على مراتب معينة، وعلى أشخاص معينين جهل بكمال الله في القدرة والحكمة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

اعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها من وجهين:

الأول: أنه - تعالى - حكى عنهم في الآية المتقدمة أنهم ادعوا أنهم أوتوا من المناصب الدينية، ما لم يؤتَ أحد غيرُهم مثلَه، ثم إنه تعالى بيّن أن الخيانة مستقبحة عند جميع أرباب الأديان، وهم مصرون عليها، فدل هذا على كذبهم، والثاني: أنه تعالى لما حكى عنهم في الآية المتقدمة قبائح أحوالهم فيما يتعلق بالأديان وهو أنهم قالوا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣] حكى في هذه الآية بعض قبائح أحوالهم فيما يتعلق بمعاملة الناس، وهو إصرارهم على الخيانة والظلم وأخذ أموال الناس في القليل والكثير، وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: الآية دالة على انقسامهم إلى قسمين: بعضهم أهل الأمانة، وبعضهم أهل الخيانة وفيه أقوال؛ الأول: أن أهل الأمانة منهم هم الذين أسلموا، أما الذين بقوا على اليهودية فهم مصرون على الخيانة لأن مذهبهم أنه يحل لهم قتل كل من خالفهم في الدين وأخذ أموالهم ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣] مع قوله: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، الثاني: أن أهل الأمانة هم النصارى، وأهل الخيانة هم اليهود، والدليل عليه ما ذكرنا، أن مذهب اليهود أنه يحل قتل المخالف ويحل أخذ ماله بأي طريق كان، الثالث: قال ابن عباس: أودع رجل عبد الله بن سلاّم ألفًا ومائتي أوقية من ذهب فأدى إليه، وأودع آخر فنحاص بن عازوراء دينارًا فخانه فنزلت الآية.

المسألة الثانية: يقال: أمنته بكذا وعلى كذا، كما يقال مررت به وعليه، فمعنى (الباء) إلصاق الأمانة، ومعنى: (عَلَىٰ) استعلاء الأمانة، فمن اؤتمن على شيء فقد صار ذلك الشيء في معنى الملتصق به لقربه منه، واتصاله بحفظه وحياطته، وأيضًا صار المودع كالمستعلي على تلك الأمانة والمستولي عليها، فلهذا حسن التعبير عن هذا المعنى بكلتا العبارتين، وقيل: إن معنى قولك أمنتك بدينار أي: وثقت بك فيه، وقولك أمنتك عليه، أي: جعلتك أمينًا عليه وحافظًا له.

المسألة الثالثة: المراد من ذكر القنطار والدينار هاهنا العدد الكثير والعدد القليل، يعني أن فيهم من هو في غاية الأمانة حتى لو اؤتمن على الأموال الكثيرة أدى الأمانة فيها، ومنهم من هو في غاية الخيانة حتى لو اؤتمن على الشيء القليل، فإنه يجوز فيه الخيانة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٢٠] وعلى هذا الوجه، فلا حاجة بنا إلى ذكر مقدار القنطار، وذكروا فيه وجوهًا؛ الأول: إن القنطار ألف ومائتا أوقية، قالوا: لأن الآية نزلت في عبد الله بن سلاّم حين استودعه رجل من قريش ألفًا ومائتي أوقية من الذهب فرده ولم يخن فيه، فهذا يدل على أن القنطار هو ذلك المقدار، الثاني: روي عن ابن عباس أنه ملء جلد ثور من المال، الثالث: قيل القنطار هو ألف ألف دينار أو ألف ألف درهم، وقد تقدم القول في تفسير القنطار.

المسألةالرابعة: قرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر (يُؤَدِّهْ) بسكون الهاء، وروي ذلك عن أبي عمرو، وقال الزجاج: هذا غلط من الراوي عن أبي عمرو كما غلط في (بَارِئْكُمْ) بإسكان الهمزة وإنما كان أبو عمرو يختلس الحركة، واحتج الزجاج على فساد هذه القراءة بأن قال: الجزم ليس في الهاء وإنما هو فيما قبل الهاء والهاء اسم المكنى والأسماء لا تجزم في الوصل، وقال الفراء: من العرب من يجزم الهاء إذا تحرك ما قبلها. فيقول: ضربته ضربًا شديدًا كما يسكنون (ميم) أنتم وقمتم وأصلها الرفع، وأنشد:

لما رأى أن لا دعه ولا شبع

وقرئ أيضًا باختلاس حركة الهاء اكتفاء بالكسرة من الياء، وقرئ بإشباع الكسرة في الهاء وهو الأصل.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في لفظ (القائم) وجهان: منهم من حمله على حقيقته، قال السدي: يعني إلا ما دمت قائمًا على رأسه بالاجتماع معه والملازمة له، والمعنى: أنه إنما يكون معترفًا بما دفعت إليه ما دمت قائمًا على رأسه، فإن أنظرت وأخرت أنكر، ومنهم من حمل لفظ (القائم) على مجازه، ثم ذكروا فيه وجوهًا؛ الأول: قال ابن عباس: المراد من هذا القيام الإلحاح والخصومة والتقاضي والمطالبة، قال ابن قتيبة: أصله أن المطالب للشيء يقوم فيه والتارك له

يقعد عنه، دليله قوله تعالى: ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ [آل عمران: ١١٣] أي: عاملة بأمر الله غير تاركة، ثم قيل: لكل من واظب على مطالبة أمر أنه قام به وإن لم يكن ثَمَّ قيام، الثاني: قال أبو علي الفارسي: القيام في اللغة بمعنى الدوام والثبات، وذكرنا ذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٣] ومنه قوله ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: ١٦١] أي: دائمًا ثابتًا لا ينسخ، فمعنى قوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ أي: دائمًا ثابتًا في مطالبتك إياه بذلك المال.

المسألة الثانية: يدخل تحت قوله: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ و﴿بِدِينَارٍ﴾ العين والدين، لأن الإنسان قد يأتمن غيره على الوديعة وعلى المبايعة وعلى المقارضة، وليس في الآية ما يدل على التعيين والمنقول عن ابن عباس أنه حمله على المبايعة، فقال: منهم من تبايعه بثمن القنطار فيؤده إليك، ومنهم من تبايعه بثمن الدينار فلا يؤده إليك، ونقلنا أيضًا أن الآية نزلت في أن رجلاً أودع مالاً كثيرًا عند عبد الله بن سلام، ومالاً قليلاً عند فنحاص بن عازوراء، فخان هذا اليهودي في القليل، وعبد الله بن سلام أدى الأمانة، فثبت أن اللفظ محتمل لكل الأقسام.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ والمعنى: أن ذلك الاستحلال والخيانة هو بسبب أنهم يقولون ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب سبيل. وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في السبب الذي لأجله اعتقد اليهود هذا الاستحلال وجوهًا؛ الأول: أنهم مبالغون في التعصب لدينهم، فلا جرم يقولون: يحل قتل المخالف ويحل أخذ ماله بأي طريق كان، وروي في الخبر أنه لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام: «**كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرّ والفاجر**»، الثاني: أن اليهود قالوا ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] والخلق لنا عبيد، فلا سبيل لأحد علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا، الثالث: أن اليهود إنما ذكروا هذا الكلام لا مطلقًا لكل من خالفهم، بل للعرب الذين آمنوا بالرسول ﷺ، روي أن اليهود بايعوا رجالاً في الجاهلية، فلما أسلموا طالبوهم بالأموال فقالوا: ليس لكم علينا حق؛ لأنكم تركتم دينكم، وأقول: من المحتمل أنه كان من مذهب اليهود أن من انتقل من دين باطل إلى دين آخر باطل كان في حكم المرتد، فهم وإن اعتقدوا أن العرب كفار إلا أنهم لما اعتقدوا في الإسلام أنه كفر حكموا على العرب الذين أسلموا بالردة.

المسألة الثانية: نفي السبيل المراد منه نفي القدرة على المطالبة والإلزام. قال تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١] وقال: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١] وقال: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [الشورى: ٤١، ٤٢].

المسألة الثالثة: (الأمي) منسوب إلى الأم، وسمي النبي ﷺ أميًا، قيل لأنه كان لا يكتب، وذلك لأن الأم أصل الشيء، فمن لا يكتب فقد بقي على أصله في أن لا يكتب، وقيل: نسب إلى مكة وهي أم القرى.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وفيه وجوه، الأول: أنهم قالوا: إن

جواز الخيانة مع المخالف مذكور في التوراة وكانوا كاذبين في ذلك وعالمين بكونهم كاذبين فيه، ومن كان كذلك كانت خيانته أعظم وجرمه أفحش، الثاني: أنهم يعلمون كون الخيانة محرمة، الثالث: أنهم يعلمون ما على الخائن من الإثم.

ثم قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

اعلم أن في (بلى) وجهين؛ أحدهما: أنه لمجرد نفي ما قبله، وهو قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ فقال الله تعالى رادًا عليهم (بلى) عليهم سبيل في ذلك، وهذا اختيار الزجاج، قال: وعندي وقف التمام على (بلى) وبعده استئناف، والثاني: أن كلمة (بلى) كلمة تذكر ابتداء لكلام آخر يذكر بعده، وذلك لأن قولهم: ليس علينا فيما نفعل جناح قائم مقام قولهم: نحن أحباء الله تعالى، فذكر الله تعالى أن أهل الوفاء بالعهد والتقى هم الذين يحبهم الله تعالى لا غيرهم، وعلى هذا الوجه فإنه لا يحسن الوقف على (بلى) وقوله: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ مضى الكلام في معنى الوفاء بالعهد والضمير في (بِعَهْدِهِ) يجوز أن يعود على اسم (الله) في قوله ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ويجوز أن يعود على ﴿مَنْ﴾ لأن العهد مصدر فيضاف إلى المفعول وإلى الفاعل وهاهنا سؤالان:

السؤال الأول: بتقدير (أن) يكون الضمير عائدًا إلى الفاعل وهو (مِنْ) فإنه يحتمل أنه لو وَفَى أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة، فإنهم يكتسبون محبة الله تعالى.

الجواب: الأمر كذلك، فإنهم إذا أوفوا بالعهود أوفوا أول كل شيء بالعهد الأعظم، وهو ما أخذ الله عليهم في كتابهم من الإيمان بمحمد ﷺ، ولو اتقوا الله في ترك الخيانة، لاتقوه في ترك الكذب على الله، وفي ترك تحريف التوراة.

السؤال الثاني: أين الضمير الراجع من الجزاء إلى (مَن)؟.

الجواب: عموم المتقين قام مقام رجوع الضمير.

واعلم أن هذه الآية دالة على تعظيم أمر الوفاء بالعهد، وذلك لأن الطاعات محصورة في أمرين التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، فالوفاء بالعهد مشتمل عليهما معًا، لأن ذلك سبب لمنفعة الخلق، فهو شفقة على خلق الله، ولما أمر الله به، كان الوفاء به تعظيمًا لأمر الله، فثبت أن هذه العبارة مشتملة على جميع أنواع الطاعات والوفاء بالعهد، كما يمكن في حق الغير يمكن أيضًا في حق النفس لأن الوافي بعهد النفس هو الآتي بالطاعات والتارك للمحرمات، لأن عند ذلك تفوز النفس بالثواب وتبعد عن العقاب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

اعلم أن في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوهًا؛ الأول: أنه تعالى لما وصف اليهود بالخيانة في

أموال الناس، ثم من المعلوم أن الخيانة في أموال الناس لا تتمشى إلا بالأيمان الكاذبة لا جرم ذكر عقيب تلك الآية هذه الآية المشتملة على وعيد من يقدم على الأيمان الكاذبة، الثاني: أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥] ولا شك أن عهد الله على كل مكلف أن لا يكذب على الله ولا يخون في دينه، لا جرم ذكر هذا الوعيد عقيب ذلك، الثالث: أنه تعالى ذكر في الآية السابقة خيانتهم في أموال الناس، ثم ذكر في هذه الآية خيانتهم في عهد الله وخيانتهم في تعظيم أسمائه حين يحلفون بها كذبًا، ومن الناس من قال: هذه الآية ابتداء كلام مستقل بنفسه في المنع عن الأيمان الكاذبة، وذلك لأن اللفظ عام والروايات الكثيرة دلت على أنها إنما نزلت في أقوام أقدموا على الأيمان الكاذبة، وإذا كان كذلك وجب اعتقاد كون هذا الوعيد عامًا في حق كل من يفعل هذا الفعل وأنه غير مخصوص باليهود.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اختلفت الروايات في سبب النزول، فمنهم من خصها باليهود الذين شرح الله أحوالهم في الآيات المتقدمة، ومنهم من خصها بغيرهم.

أما الأول ففيه وجهان: الأول: قال عكرمة: إنها نزلت في أحبار اليهود، كتموا ما عهد الله إليهم في التوراة من أمر محمد ﷺ وكتبوا بأيديهم غيره، وحلفوا بأنه من عند الله لئلا يفوتهم الرشا، واحتج هؤلاء بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، الثاني: أنها نزلت في ادعائهم أنه ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥] كتبوا بأيديهم كتابًا في ذلك وحلفوا أنه من عند الله، وهو قول الحسن.

وأما الاحتمال الثاني: ففيه وجوه: الأول: أنها نزلت في الأشعث بن قيس وخصم له في أرض، اختصما إلى رسول الله ﷺ، فقال للرجل: **«أقم بينتك»** فقال الرجل: ليس لي بينة، فقال للأشعث: **«فعليك اليمين»** فهم الأشعث باليمين، فأنزل الله تعالى هذه الآية فنكل الأشعث عن اليمين ورد الأرض إلى الخصم واعترف بالحق، وهو قول ابن جريج، الثاني: قال مجاهد: نزلت في رجل حلف يمينًا فاجرة في تنفيق سلعته، الثالث: نزلت في عبدان وامرئ القيس اختصما إلى الرسول ﷺ في أرض، فتوجه اليمين على امرئ القيس، فقال: أنظرني إلى الغد، ثم جاء من الغد وأقر له بالأرض، والأقرب الحمل على الكل، فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ يدخل فيه جميع ما أمر الله به، ويدخل فيه ما نصب عليه الأدلة ويدخل فيه المواثيق المأخوذة من جهة الرسول، ويدخل فيه ما يلزم الرجل نفسه، لأن كل ذلك من عهد الله الذي يلزم الوفاء به.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ [التوبة: ٧٥] الآية، وقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] وقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧] وقال: ﴿مِّنَ

ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] وقد ذكرنا في سورة البقرة معنى الشراء، وذلك لأن المشتري يأخذ شيئًا ويعطي شيئًا فكل واحد من المعطى والمأخوذ ثمن للآخر، وأما الأيمان فحالها معلوم وهي الحلف التي يؤكد بها الإنسان خبره من وعد، أو وعيد، أو إنكار، أو إثبات.

ثم قال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ واعلم أنه تعالى فَرَّع على ذلك الشرط وهو الشراء بعهد الله والأيمان ثمنًا قليلاً، خمسة أنواع من الجزاء، أربعة منها في بيان صيرورتهم محرومين عن الثواب والخامس: في بيان وقوعهم في أشد العذاب، أما المنع من الثواب فاعلم أن الثواب عبارة عن المنفعة الخالصة المقرونة بالتعظيم.

فالأول: وهو قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ إشارة إلى حرمانهم عن منافع الآخرة.

وأما الثلاثة الباقية: وهي قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ فهو إشارة إلى حرمانهم عن التعظيم والإعزاز.

وأما الخامس: وهو قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهو إشارة إلى العقاب، ولما نبهت لهذا الترتيب فلنتكلم في شرح كل واحد من هذه الخمسة:

أما الأول: وهو قوله: ﴿لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فالمعنى لا نصيب لهم في خير الآخرة ونعيمها واعلم أن هذا العموم مشروط بإجماع الأمة بعدم التوبة، فإنه إن تاب عنها، سقط الوعيد بالإجماع وعلى مذهبنا مشروط أيضًا بعدم العفو، فإنه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وأما الثاني: وهو قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ ففيه سؤال، وهو أنه تعالى قال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] وقال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] فكيف الجمع بين هاتين الآيتين، وبين تلك الآية؟ قال القفال في الجواب: المقصود من كل هذه الكلمات بيان شدة سخط الله عليهم، لأن من منع غيره كلامه في الدنيا، فإنما ذلك بسخط الله عليه، وإذا سخط إنسان على آخر، قال له: لا أكلمك، وقد يأمر بحجبه عنه ويقول: لا أرى وجه فلان، وإذا جرى ذكره لم يذكره بالجميل فثبت أن هذه الكلمات كنايات عن شدة الغضب نعوذ بالله منه. وهذا هو الجواب الصحيح، ومنهم من قال: لا يبعد أن يكون إسماع الله جلّ جلاله أولياءه كلامه بغير سفير تشريفًا عاليًا يختص به أولياءه، ولا يكلم هؤلاء الكفرة والفساق، وتكون المحاسبة معهم بكلام الملائكة ومنهم من قال: معنى هذه الآية أنه تعالى لا يكلمهم بكلام يسرهم وينفعهم، والمعتمد هو الجواب الأول.

وأما الثالث: وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ فالمراد: أنه لا ينظر إليهم بالإحسان، يقال فلان لا ينظر إلى فلان، والمراد به نفي الاعتداد به وترك الإحسان إليه، والسبب لهذا المجاز أن

من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاد نظره إليه مرة بعد أخرى، فلهذا السبب صار نظر الله عبارة عن الاعتداد والإحسان، وإن لم يكن ثَم نظر، ولا يجوز أن يكون المراد من هذا النظر الرؤية، لأنه تعالى يراهم كما يرى غيرهم، ولا يجوز أن يكون المراد من النظر تقليب الحدقة إلى جانب المرئي التماسًا لرؤيته لأن هذا من صفات الأجسام، وتعالى إلهنا عن أن يكون جسمًا، وقد احتج المخالف بهذه الآية على أن النظر المقرون بحرف (إلى) ليس للرؤية وإلا لزم في هذه الآية أن لا يكون الله تعالى رائيًا لهم وذلك باطل.

وأما الرابع: وهو قوله: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ففيه وجوه؛ الأول: أن لا يطهرهم من دنس ذنوبهم بالمغفرة بل يعاقبهم عليها، والثاني: لا يزكيهم أي: لا يثني عليهم كما يثني على أوليائه الأزكياء والتزكية من المزكى للشاهد مدح منه له.

واعلم أن تزكية الله عباده قد تكون على ألسنة الملائكة كما قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] وقال: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٢١] وقد تكون بغير واسطة، أما في الدنيا فكقوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] وأما في الآخرة فكقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

وأما الخامس: وهو قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فاعلم أنه تعالى لما بيّن حرمانهم من الثواب بيّن كونهم في العقاب الشديد المؤلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٨﴾

اعلم أن هذه الآية تدل على أن الآية المتقدمة نازلة في اليهود بلا شك لأن هذه الآية نازلة في حق اليهود وهي معطوفة على ما قبلها فهذا يقتضي كون تلك الآية المتقدمة نازلة في اليهود أيضًا واعلم أن (اللَّيّ) عبارة عن عطف الشيء ورده عن الاستقامة إلى الاعوجاج، يقال: لويت يده، والتوى الشيء إذا انحرف والتوى فلان عليّ إذا غيَّر أخلاقه عن الاستواء إلى ضده، ولوى لسانه عن كذا إذا غيره، ولوى فلانًا عن رأيه إذا أماله عنه، وفي الحديث: «لَيُّ الوَاجِدِ ظُلْمٌ» وقال تعالى: ﴿وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦].

إذا عرفت هذا الأصل ففي تأويل الآية وجوه؛ الأول: قال القفال رحمه الله قوله: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم﴾ معناه: وأن يعمدوا إلى اللفظة فيحرفونها في حركات الإعراب تحريفًا يتغير به المعنى، وهذا كثير في لسان العرب فلا يبعد مثله في العبرانية، فلما فعلوا مثل ذلك في الآيات الدالة على نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام من التوراة كان ذلك هو المراد من قوله تعالى: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم﴾

وهذا تأويل في غاية الحسن، الثاني: نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن النفر الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم كتبوا كتابًا شوشوا فيه نعت محمد ﷺ وخلطوه بالكتاب الذي كان فيه نعت محمد ﷺ ثم قالوا: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

إذا عرفت هذا فنقول: إن ليَّ اللسان تثنيه بالتشدق والتنطع والتكلف، وذلك مذموم فعبّر الله تعالى عن قراءتهم لذلك الكتاب الباطل بلي اللسان ذمًّا لهم وعيبًا ولم يعبر عنها بالقراءة، والعرب تفرق بين ألفاظ المدح والذم في الشيء الواحد، فيقولون في المدح: خطيب مُصْقِعٌ، وفي الذم: مِكثارٌ ثَرْثَارٌ.

فقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ المراد: قراءة ذلك الكتاب الباطل، وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩] ثم قال: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: وما هو الكتاب الحق المنزّل من عند الله، بقي هاهنا سؤالان:

السؤال الأول: إلى ماذا يرجع الضمير في قوله ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾؟.

الجواب: إلى ما دل عليه قوله: ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم﴾ وهو المحرّف.

السؤال الثاني: كيف يمكن إدخال التحريف في التوراة مع شهرتها العظيمة بين الناس؟.

الجواب: لعله صدر هذا العمل عن نفر قليل، يجوز عليهم التواطؤ على التحريف، ثم إنهم عرضوا ذلك المحرف على بعض العوام وعلى هذا التقدير يكون هذا التحريف ممكنًا، والأصوب عندي في تفسير الآية وجه آخر وهو أن الآيات الدالة على نبوّة محمد ﷺ كان يحتاج فيها إلى تدقيق النظر وتأمل القلب، والقوم كانوا يوردون عليها الأسئلة المشوشة والاعتراضات المظلمة فكانت تصير تلك الدلائل مشتبهة على السامعين، واليهود كانوا يقولون: مراد الله من هذه الآيات ما ذكرناه لا ما ذكرتم، فكان هذا هو المراد بالتحريف وبليّ الألسنة وهذا مثل ما أن المحق في زماننا إذا استدل بآية من كتاب الله تعالى، فالمبطل يورد عليه الأسئلة والشبهات ويقول: ليس مراد الله ما ذكرت، فكذا في هذه الصورة.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ واعلم أن من الناس من قال: إنه لا فرق بين قوله: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وبين قوله: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وكرر هذا الكلام بلفظين مختلفين لأجل التأكيد، أما المحققون فقالوا: المغايرة حاصلة، وذلك لأنه ليس كل ما لم يكن في الكتاب لم يكن من عند الله، فإن الحكم الشرعي قد ثبت تارة بالكتاب، وتارة بالسنة، وتارة بالإجماع، وتارة بالقياس والكل من عند الله.

فقوله: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هذا نفي خاص، ثم عطف عليه النفي العام فقال: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وأيضًا يجوز أن يكون المراد من الكتاب التوراة، ويكون المراد من قولهم: هو من عند الله، أنه موجود في كتب سائر الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام مثل أشعياء، وأرمياء، وحيقوق، وذلك لأن القوم في نسبة ذلك التحريف إلى الله كانوا متحيرين، فإن وجدوا قومًا من الأغمار والبله الجاهلين بالتوراة نسبوا ذلك المحرف إلى أنه من التوراة، وإن وجدءوا قومًا عقلاء أذكياء زعموا أنه موجود في كتب سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين جاءوا بعد موسى عليه السلام، واحتج الجُبّائي والكَعْبيّ به على أن فعل العبد غير مخلوق لله تعالى فقالا: لو كانَ ليُّ اللِّسان بالتحريف والكذب خلقًا لله تعالى لصدق اليهود في قولهم: إنه من عند الله ولزم الكذب في قوله تعالى: إنه ليس من عند الله، وذلك لأنهم أضافوا إلى الله ما هو من عنده، والله ينفي عن نفسه ما هو من عنده، ثم قال: وكفى خزيًا لقوم يجعلون اليهود أولى بالصدق من الله، قال: وليس لأحد أن يقول المراد من قولهم: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أنه كلام الله وكتابه، قال: لأنا لو حملناه على هذا الوجه فحينئذ لا يبقى بين قوله: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وبين قوله ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فرق، وإذا لم يبق الفرق لم يحسن العطف، وأجاب الكعبي عن هذا السؤال أيضًا من وجهين آخرين؛ الأول: أن كون المخلوق من عند الخالق أوكد من كون المأمور به من عند الآمر به، وحمل الكلام على الوجه الأقوى أولى، والثاني: أن قوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ نفي مطلق لكونه من عند الله وهذا ينفي كونه من عند الله بوجه من الوجوه، فوجب أن لا يكون من عنده لا بالخلق ولا بالحكم.

والجواب: أما قول الجُبّائي لو حملنا قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ على أنه كلام الله لزم التكرار، فجوابه ما ذكرنا أن قوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ معناه أنه غير موجود في الكتاب وهذا لا يمنع من كونه حكمًا لله تعالى ثابتًا بقول الرسول أو بطريق آخر فلما قال: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ثبت نفي كونه حكمًا لله تعالى، وعلى هذا الوجه زال التكرار.

وأما الوجه الأول: من الوجهين اللذين ذكرهما الكعبي فجوابه، أن الجواب لا بد وأن يكون منطبقًا على السؤال، والقوم ما كانوا في ادعاء أن ما ذكروه وفعلوه خلق الله تعالى، بل كانوا يدعون أنه حكم الله ونازل في كتابه، فوجب أن يكون قوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ عائدًا إلى هذا المعنى لا إلى غيره، وبهذا الطريق يظهر فساد ما ذكره في الوجه الثاني، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ والمعنى أنهم يتعمدون ذلك الكذب مع العلم، واعلم أنه إن كان المراد من التحريف تغيير ألفاظ التوراة، وإعراب ألفاظها، فالمقدمون عليه يجب أن يكونوا طائفة يسيرة يجوز التواطؤ منهم على الكذب، وإن كان المراد منه تشويش دلالة تلك الآيات على نبوّة محمد ﷺ بسبب إلقاء الشكوك والشبهات في وجوه الاستدلالات لم يبعد إطباق الخلق الكثير عليه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ

ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن عادة علماء أهل الكتاب التحريف والتبديل أتبعه بما يدل على أن من جملة ما حرّفوه ما زعموا أن عيسى عليه السلام كان يدعي الإلهية، وأنه كان يأمر قومه بعبادته فلهذا قال: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ الآية.

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: في سبب نزول هذه الآية وجوه؛ الأول: قال ابن عباس: لما قالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله نزلت هذه الآية، الثاني: قيل إن أبا رافع القرظي من اليهود، ورئيس وفد نجران من النصارى قالا لرسول الله ﷺ: أتريد أن نعبدك ونتخذك ربًا، فقال عليه الصلاة والسلام: «مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَعْبُدَ غَيْرَ اللهِ أَوْ أن نَأْمُرَ بغير عِبَادَةِ اللهِ، فَمَا بِذَلِكَ بَعَثَنِي وَلا بِذَلِكَ أَمَرَنِي»(١) فنزلت هذه الآية، الثالث: قال رجل: يَا رَسُولَ اللهِ! نُسَلِّمُ عَلَيْكَ كَمَا يُسَلِّمُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ، أَفَلَا نَسْجُدُ لَكَ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْجُد لِأَحَدٍ مِنْ دُونِ اللهِ، وَلَكِنْ أَكْرِمُوا نَبِيَّكُمْ وَاعْرِفُوا الْحَقَّ لِأَهْلِهِ»(٢)، الرابع: أن اليهود لما ادعوا أن أحدًا لا ينال من درجات الفضل والمنزلة ما نالوه، فالله تعالى قال لهم: إن كان الأمر كما قلتم، وجب أن لا تشتغلوا باستعباد الناس واستخدامهم ولكن يجب أن تأمروا الناس بالطاعة لله والانقياد لتكاليفه وحينئذ يلزمكم أن تحثوا الناس على الإقرار بنبوّة محمد ﷺ، لأن ظهور المعجزات عليه يوجب ذلك، وهذا الوجه يحتمله لفظ الآية فإن قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مثل قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

المسألة الثانية: اختلفوا في المراد بقوله ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على وجوه؛ الأول: قال الأصم: معناه، أنهم لو أرادوا أن يقولوا ذلك لمنعهم الله عنه، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٥]، قال: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥]، الثاني: أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام موصوفون بصفات لا يحسن مع تلك الصفات ادعاء الإلهية والربوبية منها أن الله تعالى آتاهم الكتاب والوحي وهذا لا يكون إلا

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) (٣/ ٦٦) حديث رقم (٣٨٠٧) من طريق محمد بن إسحاق قال محمد بن أبي محمد وقال أبو نافع القرظي... به، وفي إسناده ابن إسحاق مدلس وقد عنعنه ومحمد بن أبي محمد... مجهول.

(٢) إسناده ضعيف: ذكره الواحدي في (أسباب النزول) (١/ ٧٤)، وقال: قال الحسن: بلغني أن رجلاً قال يا رسول الله... فذكره. وإسناده منقطع.

في النفوس الطاهرة والأرواح الطيبة، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقال: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢] وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] والنفس الطاهرة يمتنع أن يصدر عنها هذه الدعوى، ومنها أن إيتاء النبوّة لا يكون إلا بعد كمال العلم، وذلك لا يمنع من هذه الدعوى، وبالجملة فللإنسان قوتان: نظرية وعملية، وما لم تكن القوة النظرية كاملة بالعلوم والمعارف الحقيقية ولم تكن القوة العملية مطهرة عن الأخلاق الذميمة لا تكون النفس مستعدة لقبول الوحي والنبوّة، وحصول الكمالات في القوة النظرية والعملية يمنع من مثل هذا القول والاعتقاد، الثالث: أن الله تعالى لا يشرف عبده بالنبوّة والرسالة إلا إذا علم منه أنه لا يقول مثل هذا الكلام، الرابع: أن الرسول ادعى أنه يبلغ الأحكام عن الله تعالى، واحتج على صدقه في هذه الدعوى بالفحرة فلو أمرهم بعبادة نفسه فحينئذ تبطل دلالة المعجزة على كونه صادقًا، وذلك غير جائز، واعلم أنه ليس المراد من قوله ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ ذلك أنه يحرم عليه هذا الكلام لأن ذلك محرم على كل الخلق، وظاهر الآية يدل على أنه إنما لم يكن له ذلك لأجل أن الله آتاه الكتاب والحكم والنبوّة، وأيضًا لو كان المراد منه التحريم لما كان ذلك تكذيبًا للنصارى في ادعائهم ذلك على المسيح عليه السلام لأن من ادعى على رجل فعلاً فقيل له إن فلانًا لا يحل له أن يفعل ذلك لم يكن تكذيبًا له فيما ادعى عليه وإنما أراد تعالى بهذا القول تكذيب النصارى في ادعائهم أن عيسى عليه السلام قال لهم: اتخذوني إلهًا من دون الله، فالمراد إذن ما قدمناه، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥] على سبيل النفي لذلك عن نفسه، لا على وجه التحريم والحظر، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١] والمراد النفي لا النهي، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ إشارة إلى ثلاثة أشياء ذكرها على ترتيب في غاية الحسن، وذلك لأن الكتاب السماوي ينزل أولاً ثم إنه يحصل في عقل النبي فهم ذلك الكتاب وإليه الإشارة بالحكم، فإن أهل اللغة والتفسير اتفقوا على أن هذا الحكم هو العلم، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] يعني: العلم والفهم، ثم إذا حصل فهم الكتاب، فحينئذ يُبَلِّغُ ذلك إلى الخلق وهو النبوّة فما أحسن هذا الترتيب.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: القراءة الظاهرة، ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾ بنصب اللام، وروي عن أبي عمرو برفعها، أما النصب فعلى تقدير: لا تجتمع النبوّة وهذا القول، والعامل فيه (أن) وهو معطوف عليه بمعنى ثم أن يقول، وأما الرفع فعلى الاستئناف.

المسألة الثانية: حكى الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى﴾: إنه لغة مزينة يقولون للعبيد عبادًا.

ثم قال: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في هذه الآية إضمار، والتقدير: ولكن يقول لهم كونوا ربانيين فأضمر القول على حسب مذهب العرب في جواز الإضمار إذا كان في الكلام ما يدل عليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦] أي: فيقال لهم ذلك.

المسألة الثانية: ذكروا في تفسير (الرباني) أقوالاً: الأول: قال سيبويه: الرباني المنسوب إلى الرب، بمعنى كونه عالمًا به، ومواظبًا على طاعته، كما يقال: رجل إلهي إذا كان مقبلاً على معرفة الإله وطاعته، وزيادة الألف والنون فيه للدلالة على كمال هذه الصفة، كما قالوا: شعراني ولحياني ورقباني إذا وصف بكثرة الشعر وطول اللحية وغلظ الرقبة، فإذا نسبوا إلى الشعر قالوا: شعري وإلى الرقبة رقبي وإلى اللحية لحيي، والثاني: قال المبرّد (الربانيون): أرباب العلم واحدهم رباني، وهو الذي يرب العلم، ويرب الناس أي: يعلمهم ويصلحهم ويقوم بأمرهم، فالألف والنون للمبالغة كما قالوا: ريان وعطشان وشبعان وعريان، ثم ضمت إليه ياء النسبة، كما قيل: لحياني ورقباني، قال الواحدي: فعلى قول سيبويه: الرباني: منسوب إلى الرب على معنى التخصيص بمعرفة الرب وبطاعته، وعلى قول المبرد (الرباني) مأخوذ من التربية، الثالث: قال ابن زيد: الرباني. هو الذي يرب الناس، فالربانيون هم ولاة الأمة والعلماء، وذكر هذا أيضًا في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٦٣] أي: الولاة والعلماء وهما الفريقان اللذان يطاعان ومعنى الآية على هذا التقدير: لا أدعوكم إلى أن تكونوا عبادًا لي، ولكن أدعوكم إلى أن تكونوا ملوكًا وعلماء باستعمالكم أمر الله تعالى ومواظبتكم على طاعته، قال القفال رحمه الله: ويحتمل أن يكون الوالي سمي ربانيًا، لأنه يطاع كالرب تعالى، فنسب إليه، الرابع: قال أبو عبيدة أحسب أن هذه الكلمة ليست بعربية إنما هي عبرانية، أو سريانية، وسواء كانت عربية أو عبرانية، فهي تدل على الإنسان الذي علم وعمل بما علم، واشتغل بتعليم طرق الخير.

ثم قال تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قراءتان: إحداهما: (تَعْلَمُونَ) من العلم، وهي قراءة عبد الله بن كثير، وأبي عمرو ونافع، والثانية: (تُعَلِّمُون) من التعليم وهي قراءة الباقين من السبعة وكلاهما صواب، لأنهم كانوا يَعْلَمُونه في أنفسهم ويعلمونه غيرهم، واحتج أبو عمرو على أن قراءته أرجح بوجهين؛ الأول: أنه قال: (تَدْرُسُون) ولم يقل (تُدَرِّسُون) بالتشديد، الثاني: أن التشديد، يقتضي مفعولين، والمفعول هاهنا واحد، وأما الذين قرأوا بالتشديد فزعموا أن المفعول الثاني محذوف تقديره: بما كنتم تعلمون الناس الكتاب، أو

غيركم الكتاب وحذف، لأن المفعول به قد يحذف من الكلام كثيرًا، ثم احتجوا على أن التشديد أولى بوجهين؛ الأول: أن التعليم يشتمل على العلم ولا ينعكس فكان التعليم أولى، الثاني: أن الربانيين لا يكتفون بالعلم حتى يضموا إليه التعليم لله تعالى، ألا ترى أنه تعالى أمر محمدًا ﷺ بذلك فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] ويدل عليه قول مرة بن شراحيل: كان علقمة من الربانيين الذين يعلمون الناس القرآن.

المسألة الثانية: نقل ابن جِني في (المحتسب)، عن أبي حيوة أنه قرأ (تُدْرِسون) بضم التاء ساكنة الدال مكسورة الراء، قال ابن جني: ينبغي أن يكون هذا منقولاً من دَرَس هو، وأدرس غيره، وكذلك قَرَأ وأَقْرَأ غيره، وأكثر العرب على دَرَس ودَرَّس، وعليه جاء المصدر على التدريس.

المسألة الثالثة: (ما) في القراءتين، هي التي بمعنى المصدر مع الفعل، والتقدير: كونوا ربانيين بسبب كونكم عالمين ومعلمين وبسبب دراستكم الكتاب، ومثل هذا من كون (ما) مع الفعل بمعنى المصدر قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١] وحاصل الكلام أن العلم والتعليم والدراسة توجب على صاحبها كونه ربانيًا والسبب لا محالة مغاير للمسبب، فهذا يقتضي أن يكون كونه ربانيًا، أمرًا مغايرًا لكونه عالمًا، ومعلمًا، ومواظبًا على الدراسة، وما ذاك إلا أن يكون بحيث يكون تعلمه لله، وتعليمه ودراسته لله، وبالجملة فأن يكون الداعي له إلى جميع الأفعال طلب مرضاة الله، والصارف له عن كل الأفعال الهرب عن عقاب الله، وإذا ثبت أن الرسول يأمر جميع الخلق بهذا المعنى ثبت أنه يمتنع منه أن يأمر الخلق بعبادته، وحاصل الحرف شيء واحد، وهو أن الرسول هو الذي يكون منتهى جهده وجده صرف الأرواح والقلوب عن الخلق إلى الحق، فمثل هذا الإنسان كيف يمكن أن يصرف عقول الخلق عن طاعة الحق إلى طاعة نفسه. وعند هذا يظهر أنه يمتنع في أحد من الأنبياء صلوات الله عليهم أن يأمر غيره بعبادته.

المسألة الرابعة: دلّت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانيًا، فمن اشتغل بالتعلم والتعليم لا لهذا المقصود ضاع سعيه وخاب عمله وكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء مونقة بمنظرها ولا منفعة بثمرها ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «نَعُوذُ باللهِ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ، وَقَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ».

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم وحمزة وابن عامر ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ بنصب الراء، والباقون بالرفع أما النصب فوجهه أن يكون عطفًا على ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾ وفيه وجهان؛ أحدهما: أن تجعل (لا) مزيدة والمعنى: ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة أن يقول للناس كونوا عبادًا لي من دون الله ويأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا، كما تقول: ما كان لزيد أن أكرمه ثم يهينني ويستخف بي، والثاني: أن تجعل (لا) غير مزيدة، والمعنى أن النبي ﷺ كان ينهى قريشًا عن

عبادة الملائكة، واليهود والنصارى عن عبادة عزير والمسيح، فلما قالوا: أتريد أن نتخذك ربًا؟ قيل لهم: ما كان لبشر أن يجعله الله نبيًا ثم يأمر الناس بعبادة نفسه وينهاهم عن عبادة الملائكة والأنبياء، وأما القراءة بالرفع على سبيل الاستئناف فظاهر؛ لأنه بعد انقضاء الآية وتمام الكلام، ومما يدل على الانقطاع عن الأول ما روي عن ابن مسعود أنه قرأ (وَلَنْ يَأْمُرَكُمْ).

المسألة الثانية: قال الزجاج: ولا يأمركم الله، وقال ابن جُرَيْج: لا يأمركم محمد، وقيل: لا يأمركم الأنبياء بأن تتخذوا الملائكة أربابًا كما فعلته قريش.

المسألة الثالثة: إنما خص الملائكة والنبيّين بالذكر؛ لأن الذين وصفوا من أهل الكتاب بعبادة غير الله لم يحك عنهم إلا عبادة الملائكة وعبادة المسيح وعزير، فلهذا المعنى خصهما بالذكر.

ثم قال تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الهمزة في (أَيَأْمُرُكُم) استفهام بمعنى الإنكار، أي: لا يفعل ذلك.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف) قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ دليل على أن المخاطبين كانوا مسلمين، وهم الذين استأذنوا الرسول ﷺ في أن يسجدوا له.

المسألة الثالثة: قال الجبائي: الآية دالة على فساد قول من يقول: الكفر بالله هو الجهل به والإيمان بالله هو المعرفة به، وذلك لأن الله تعالى حكم بكفر هؤلاء، وهو قوله تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾ ثم إن هؤلاء كانوا عارفين بالله تعالى، بدليل قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وظاهر هذا يدل على معرفتهم بالله فلما حصل الكفر هاهنا مع المعرفة بالله دل ذلك على أن الإيمان به ليس هو المعرفة والكفر به تعالى ليس هو الجهل به.

والجواب: أن قولنا: الكفر بالله هو الجهل به، لا نعني به مجرد الجهل بكونه موجودًا بل نعني به الجهل بذاته وبصفاته السلبية وصفاته الإضافية أنه لا شريك له في المعبودية، فلما جهل هذا فقد جهل بعض صفاته.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

اعلم أن المقصود من هذه الآيات تعديد تقرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب، مما يدل على نبوّة محمد ﷺ قطعًا لعذرهم وإظهارًا لعنادهم، ومن جملتها ما ذكره الله تعالى في هذه الآية، وهو أنه تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء الذين آتاهم الكتاب والحكمة بأنهم كلما جاءهم

رسول مصدق لما معهم آمنوا به ونصروه، وأخبر أنهم قبلوا ذلك وحكم تعالى بأن من رجع عن ذلك كان من الفاسقين، فهذا هو المقصود من الآية فحاصل الكلام أنه تعالى أوجب على جميع الأنبياء الإيمان بكل رسول جاء مصدقًا لما معهم إلا أن هذه المقدمة الواحدة لا تكفي في إثبات نبوّة محمد ﷺ ما لم يضم إليها مقدمة أخرى، وهي أن محمدًا رسول الله جاء مصدقًا لما معهم، وعند هذا، لقائل أن يقول: هذا إثبات للشيء بنفسه، لأنه إثبات لكونه رسولاً بكونه رسولاً.

والجواب: أن المراد من كونه رسولاً ظهور المعجز عليه، وحينئذ يسقط هذا السؤال، والله أعلم، ولنرجع إلى تفسير الألفاظ:

أما قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ فقال ابن جرير الطبري: معناه واذكروا يا أهل الكتاب إذ أخذ الله ميثاق النبيّين، وقال الزجاج: واذكر يا محمد في القرآن إذ أخذ الله ميثاق النبيّين.

أما قوله: ﴿مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فاعلم أن المصدر يجوز إضافته إلى الفاعل وإلى المفعول، فيحتمل أن يكون الميثاق مأخوذًا منهم، ويحتمل أن يكون مأخوذًا لهم من غيرهم، فلهذا السبب اختلفوا في تفسير هذه الآية على هذين الوجهين.

أما الاحتمال الأول: وهو أنه تعالى أخذ الميثاق منهم في أن يصدق بعضهم بعضًا، وهذا قول سعيد بن جبير والحسن وطاوس رحمهم الله، وقيل: إن الميثاق هذا مختص بمحمد ﷺ، وهو مروي عن علي وابن عباس وقتادة والسدي رضوان الله عليهم، واحتج أصحاب هذا القول على صحته من وجوه؛ الأول: أن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ يشعر بأن آخذ الميثاق هو الله تعالى، والمأخوذ منهم هم النبيون، فليس في الآية ذكر الأمة، فلم يحسن صرف الميثاق إلى الأمة، ويمكن أن يجاب عنه من وجوه؛ الأول: أن على الوجه الذي قلتم يكون الميثاق مضافًا إلى الموثق عليه، وعلى الوجه الذي قلنا يكون إضافته إليهم إضافة الفعل إلى الفاعل، وهو الموثق له، ولا شك أن إضافة الفعل إلى الفاعل أقوى من إضافته إلى المفعول، فإن لم يكن فلا أقل من المساواة، وهو كما يقال ميثاق الله وعهده، فيكون التقدير: وإذ أخذ الله الميثاق الذي وثقه الله للأنبياء على أممهم، الثاني: أن يراد ميثاق أولاد النبيّين، وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف وهو كما يقال: فعل بكر بن وائل كذا، وفعَل معد بن عدنان كذا، والمراد أولادهم وقومهم، فكذا هاهنا الثالث: أن يكون المراد من لفظ (النبيين) أهل الكتاب وأطلق هذا اللفظ عليهم تهكمًا بهم على زعمهم لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوّة من محمد عليه الصلاة والسلام لأنا أهل الكتاب ومنا كان النبيون، الرابع: أنه كثيرًا ورد في القرآن لفظ النبي، والمراد منه أمته قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١].

الحجة الثانية: لأصحاب هذا القول: ما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**لقد جئتكم بها بيضاء نقية أما والله لو كان موسى بن عمران حيًا لما وسعه إلا اتباعي**».

الحجة الثالثة: ما نقل عن علي رضي الله عنه أنه قال: إن الله تعالى ما بعث آدم عليه السلام ومن بعده من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا أخذ عليهم العهد لئن بعث محمد عليه الصلاة والسلام وهو حي ليُؤمننَّ به ولينْصُرُنه، فهذا يمكن نصرة هذا القول به والله أعلم.

الاحتمال الثاني: أن المراد من الآية أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يأخذون الميثاق من أممهم بأنه إذا بعث محمد ﷺ فإنه يجب عليهم أن يؤمنوا به وأن ينصروه، وهذا قول كثير من العلماء، وقد بينا أن اللفظ محتمل له وقد احتجوا على صحته بوجوه؛ الأول: ما ذكره أبو مسلم الأصفهاني فقال: ظاهر الآية يدل على أن الذين أخذ الله الميثاق منهم يجب عليهم الإيمان بمحمد ﷺ عند مبعثه، وكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يكونون عند مبعث محمد ﷺ من زمرة الأموات، والميت لا يكون مكلفًا فلما كان الذين أخذ الميثاق عليهم يجب عليهم الإيمان بمحمد عليه السلام عند مبعثه ولا يمكن إيجاب الإيمان على الأنبياء عند مبعث محمد عليه السلام، علمنا أن الذين أخذ الميثاق عليهم ليسوا هم النبيّين بل هم أمم النبيّين قال: ومما يؤكد هذا أنه تعالى حكم على الذين أخذ عليهم الميثاق أنهم لو تولوا لكانوا فاسقين وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء عليهم السلام وإنما يليق بالأمم، أجاب القفال رحمه الله فقال: لم لا يجوز أن يكون المراد من الآية أن الأنبياء لو كانوا في الحَيَاة لوجب عليهم الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وقد علم الله تعالى أنه لا يشرك قط ولكن خرج هذا الكلام على سبيل التقدير والفرض فكذا هاهنا، وقال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦] وقال في صفة الملائكة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١] مع أنه تعالى أخبر عنهم بأنهم لا يسبقونه بالقول وبأنهم يخافون ربهم من فوقهم، فكل ذلك خرج على سبيل الفرض والتقدير فكذا هاهنا، ونقول: إنه سماهم فاسقين على تقدير التولي فإن اسم الفسق ليس أقبح من اسم الشرك، وقد ذكر تعالى ذلك على سبيل الفرض والتقدير في قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] فكذا هاهنا.

الحجة الثانية: أن المقصود من هذه الآية أن يؤمن الذين كانوا في زمان الرسول ﷺ، وإذا كان الميثاق مأخوذًا عليهم كان ذلك أبلغ في تحصيل هذا المقصود من أن يكون مأخوذًا على الأنبياء عليهم السلام، وقد أجيب عن ذلك بأن درجات الأنبياء عليهم السلام، أعلى وأشرف من درجات الأمم، فإذا دلت هذه الآية على أن الله تعالى أوجب على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد عليه السلام لو كانوا في الأحياء، وأنهم لو تركوا ذلك لصاروا من زمرة الفاسقين فلأن يكون الإيمان بمحمد ﷺ واجبًا على أممهم لو كان ذلك أولى، فكان صرف هذا الميثاق إلى الأنبياء أقوى في تحصيل المطلوب من هذا الوجه.

الحجة الثالثة: ما روي عن ابن عباس أنه قيل له: إن أصحاب عبد الله يقرءون ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ونحن نقرأ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ فقال ابن عباس

رضي الله عنهما: إنما أخذ الله ميثاق النبيّين على قومهم.

الحجة الرابعة: أن هذا الاحتمال متأكد بقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠] وبقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] فهذا جملة ما قيل في هذا الموضوع، والله أعلم بمراده.

وأما قوله تعالى: ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ الجمهور ﴿لَمَآ﴾ بفتح اللام وقرأ حمزة بكسر اللام وقرأ سعيد بن جبير (لَمَّا) مشددة، أما القراءة بالفتح فلها وجهان: الأول: أن (مَا) اسم موصول والذي بعده صلة له وخبره قوله ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ﴾ والتقدير: للذي آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به، وعلى هذا التقدير (مَا) رفع بالابتداء والراجع إلى لفظة (مَا) من صلتها محذوف، والتقدير: لما آتيتكموه، فحذف الراجع كما حذف من قوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] وعليه سؤالان:

السؤال الأول: إذا كانت (مَا) موصولة لزم أن يرجع من الجملة المعطوفة على الصلة ذكر إلى الموصول وإلا لم يجز، ألا ترى أنك لو قلت: الذي قام أبوه ثم انطلق زيد لم يجز.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ ليس فيه راجع إلى الموصول، قلنا: يجوز إقامة المظهر مقام المضمر عند الأخفش، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] ولم يقل: فإن الله لا يضيع أجره، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] ولم يقل: إنا لا نضيع أجرهم وذلك لأن المظهر المذكور قائم مقام المضمر فكذا هاهنا.

السؤال الثاني: ما فائدة اللام في قوله: ﴿لَمَآ﴾ قلنا: هذه اللام هي لام الابتداء بمنزلة قولك: لزيد أفضل من عمرو، ويحسن إدخالها على ما يجري مجرى المقسم عليه؛ لأن قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بمنزلة القسم والمعنى استحلفهم، وهذه اللام المتلقية للقسم، فهذا تقرير هذا الكلام.

الوجه الثاني: وهو اختيار سيبويه والمازني والزجاج أن (مَا) هاهنا هي المتضمنة لمعنى الشرط والتقدير ما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به، فاللام في قوله: ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ﴾ هي المتلقية للقسم، أما اللام في ﴿لَمَآ﴾ هي لام تحذف تارة، وتذكر أخرى، ولا يتفاوت المعنى ونظيره قولك: والله لو أن فعلت، فعلت فلفظة (أن) لا يتفاوت الحال بين ذكرها وحذفها فكذا هاهنا، وعلى هذا التقدير كانت (ما) في موضع نصب بآتيتكم (وَجَاءَكُمُ) جزم بالعطف على (ءاتَيْتُكُم) و﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ﴾ هو الجزاء، وإنما لم يرض سيبويه

بالقول الأول لأنه لا يرى إقامة المظهر مقام المضمر، وأما الوجه في قراءة (لِمَا) بكسر اللام فهو أن هذا لام التعليل كأنه قيل: أخذ ميثاقهم لهذا لأن من يؤتى الكتاب والحكمة فإن اختصاصه بهذه الفضيلة يوجب عليه تصديق سائر الأنبياء والرسل (وَمَا) على هذه القراءة تكون موصولة، وتمام البحث فيه ما قدمناه في الوجه الأول، وأما قراءة (لَمَّا) بالتشديد فذكر صاحب (الكشاف) فيه وجهين: الأول: أن المعنى: حين آتيتكم بعض الكتاب والحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق له، وجب عليكم الإيمان به ونصرته، والثاني: أن أصل (لَمَّا) لمن ما فاستثقلوا اجتماع ثلاث ميمات، وهي الميمان والنون المنقلبة ميمًا بإدغامها في الميم فحذفوا إحداها فصارت (لَمَّا) ومعناه: لمن أجل ما آتيتكم لتؤمنن به، وهذا قريب من قراءة حمزة في المعنى.

المسألة الثانية: قرأ نافع (ءاتيناكم) بالنون على التفخيم، والباقون بالتاء على التوحيد، حجة نافع قوله ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ [الصافات: ١١٧] ولأن هذا أدل على العظمة فكان أكثر هيبة في قلب السامع، وهذا الموضع يليق به هذا المعنى، وحجة الجمهور قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الحديد: ٩] و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١] وأيضًا هذه القراءة أشبه بما قبل هذه الآية وبما بعدها لأنه تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ وقال بعدها: ﴿إِصْرِى﴾ وأجاب نافع عنه بأن أحد أبواب الفصاحة تغيير العبارة من الواحد إلى الجمع ومن الجمع إلى الواحد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى﴾ [الإسراء: ٢] ولم يقل من دوننا كما قال: (وجعلناه)، والله أعلم.

المسألة الثالثة: أنه تعالى ذكر النبيّين على سبيل المغايبة ثم قال: ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾ وهو مخاطبة وفيه إضمار، والتقدير: وإذ أخذ الله ميثاق النبيّين فقال مخاطبًا لهم لما آتيتكم من كتاب وحكمة، والإضمار باب واسع في القرآن، ومن العلماء من التزم في هذه الآية إضمارًا آخر وأراح نفسه عن تلك التكلفات التي حكيناها عن النحويين فقال: تقدير الآية: وإذ أخذ الله ميثاق النبيّين لتبلغن الناس ما آتيتكم من كتاب وحكمة، قال: إلا أنه حذف لتبلغن لدلالة الكلام عليه لأن لام القسم إنما يقع على الفعل فلما دلت هذه اللام على هذا الفعل لا جرم حذفه اختصارًا ثم قال تعالى بعده: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ وعلى هذا التقدير يستقيم النظم ولا يحتاج إلى تكليف تلك التعسفات، وإذا كان لا بد من التزام الإضمار فهذا الإضمار الذي به ينتظم الكلام نظمًا بينًا جليًا أولى من تلك التكلفات.

المسألة الرابعة: في قوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ﴾ إشكال، وهو أن هذا الخطاب إما أن يكون مع الأنبياء أو مع الأمم، فإن كان مع الأنبياء فجميع الأنبياء ما أوتوا الكتاب، وإنما أوتي بعضهم وإن كان مع الأمم، فالإشكال أظهر، والجواب عنه من وجهين: الأول: أن جميع الأنبياء عليهم السلام أوتوا الكتاب، بمعنى كونه مهتديًا به داعيًا إلى العمل به، وإن لم ينزل عليه

والثاني: أن أشرف الأنبياء عليهم السلام هم الذين أوتوا الكتاب، فوصف الكل بوصف أشرف الأنواع.

المسألة الخامسة: الكتاب هو المنزل المقروء والحكمة هي الوحي الوارد بالتكاليف المفصلة التي لم يشتمل الكتاب عليها.

المسألة السادسة: كلمة (مِنْ) في قوله: ﴿مِّن كِتَٰبٍ﴾ دخلت تبيينًا لـ(مَا) كقولك: ما عندي من الورق دانقان.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾.

ففيه سؤالات:

السؤال الأول: ما وجه قوله: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾ والرسول لا يجيء إلى النبيّين وإنما يجيء إلى الأمم؟.

والجواب: إن حملنا قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ على أخذ ميثاق أممهم فقد زال السؤال، وإن حملناه على أخذ ميثاق النبيّين أنفسهم كان قوله: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾ أي: جاء في زمانكم.

السؤال الثاني: كيف يكون محمد ﷺ مصدقًا لما معهم مع مخالفة شرعه لشرعهم، قلنا: المراد به حصول الموافقة في التوحيد، والنبوات، وأصول الشرائع، فأما تفاصيلها وإن وقع الخلاف فيها؛ فذلك في الحقيقة ليس بخلاف، لأن جميع الأنبياء عليهم السلام متفقون على أن الحق في زمان موسى عليه السلام ليس إلا شرعه، وأن الحق في زمان محمد ﷺ ليس إلا شرعه، فهذا وإن كان يوهم الخلاف، إلا أنه في الحقيقة وفاق، وأيضًا فالمراد من قوله: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ هو محمد ﷺ، والمراد بكونه مصدقًا لما معهم هو أن وصفه وكيفية أحواله مذكورة في التوراة والإنجيل، فلما ظهر على أحوال مطابقة لما كان مذكورًا في تلك الكتب، كان نفس مجيئه تصديقًا لما كان معهم، فهذا هو المراد بكونه مصدقًا لما معهم.

السؤال الثالث: حاصل الكلام أن الله تعالى أخذ الميثاق على جميع الأنبياء بأن يؤمنوا بكل رسول يجيء مصدقًا لما معهم، فما معنى ذلك الميثاق.

والجواب: يحتمل أن يكون هذا الميثاق ما قرر في عقولهم من الدلائل الدالة على أن الانقياد لأمر الله واجب، فإذا جاء الرسول فهو إنما يكون رسولاً عند ظهور المعجزات الدالة على صدقه، فإذا أخبرهم بعد ذلك أن الله أمر الخلق بالإيمان به عرفوا عند ذلك وجوبه، فتقرير هذا الدليل في عقولهم هو المراد من أخذ الميثاق، ويحتمل أن يكون المراد من أخذ الميثاق أنه تعالى شرح صفاته في كتب الأنبياء المتقدمين، فإذا صارت أحواله مطابقة لما جاء في الكتب الإلهية المتقدمة وجب الانقياد له، فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يدل على هذين الوجهين، أما على الوجه الأول، فقوله: ﴿رَسُولٌ﴾، وأما على الوجه الثاني، فقوله: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾.

أما قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ فالمعنى ظاهر، وذلك لأنه تعالى أوجب الإيمان به أولاً، ثم الاشتغال بنصرته ثانيًا، واللام في ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ لام القسم، كأنه قيل: والله لتؤمنن به.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إن فسرنا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ بأنه تعالى أخذ المواثيق على الأنبياء كان قوله تعالى: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ معناه: قال الله تعالى للنبيّين أأقررتم بالإيمان به والنصرة له وإن فسرنا أخذ الميثاق بأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أخذوا المواثيق على الأمم كان معنى قوله ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ أي: قال كل نبي لأمته: أأقررتم، وذلك لأنه تعالى أضاف أخذ الميثاق إلى نفسه، وإن كانت النبيون أخذوه على الأمم، فكذلك طلب هذا الإقرار أضافه إلى نفسه، وإن وقع من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والمقصود أن الأنبياء بالغوا في إثبات هذا المعنى وتأكيده، فلم يقتصروا على أخذ الميثاق على الأمم، بل طالبوهم بالإقرار بالقول، وأكدوا ذلك بالإشهاد.

المسألة الثانية: الإقرار في اللغة منقول بالألف، من قَرَّ الشيء يقر، إذا ثبت ولزم مكانه وأقره غيره والمقر بالشيء يقره على نفسه أي: يثبته.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أي: قبلتم عهدي، والأخذ بمعنى القبول كثير في الكلام قال تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨] أي لا يقبل منها فدية وقال: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤] أي: يقبلها، والإصر: هو الذي يلحق الإنسان لأجل ما يلزمه من عمل قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فسمى العهد إصرًا لهذا المعنى، قال صاحب (الكشاف): سمى العهد إصرًا لأنه مما يؤصر أي: يشد ويعقد، ومنه الإصار الذي يعقد به، وقرئ (أُصْرِي) ويجوز أن يكون لغة في إصر.

ثم قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وفي تفسير قوله: ﴿فَٱشْهَدُواْ﴾ وجوه؛ الأول: فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار، وأنا على إقراركم وإشهاد بعضكم بعضًا ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وهذا توكيد عليهم وتحذير من الرجوع إذا علموا شهادة الله وشهادة بعضهم على بعض، الثاني: أن قوله ﴿فَٱشْهَدُواْ﴾ خطاب للملائكة، الثالث: أن قوله: ﴿فَٱشْهَدُواْ﴾ أي: ليجعل كل أحد نفسه شاهدًا على نفسه، ونظيره قوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وهذا من باب المبالغة، الرابع: ﴿فَٱشْهَدُواْ﴾ أي: بينوا هذا الميثاق للخاص والعام، لكي لا يبقى لأحد عذر في الجهل به، وأصله أن الشاهد هو الذي يبين صدق الدعوى، الخامس: ﴿فَٱشْهَدُواْ﴾ أي: فاستيقنوا ما قررته عليكم من هذا الميثاق، وكونوا فيه كالمشاهد للشيء المعاين له، السادس: إذا قلنا: إن أخذ الميثاق كان من الأمم فقوله: ﴿فَٱشْهَدُواْ﴾ خطاب للأنبياء عليهم السلام بأن يكونوا شاهدين عليهم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ فهو للتأكيد وتقوية الإلزام، وفيه فائدة أخرى وهي أنه تعالى وإن أشهد غيره، فليس محتاجًا إلى ذلك الإشهاد، لأنه تعالى لا يخفى عليه خافية لكن لضرب من المصلحة لأنه سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى، ثم إنه تعالى ضم إليه تأكيدًا آخر فقال: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ يعني: من أعرض عن الإيمان بهذا الرسول وبنصرته بعد ما تقدم من هذه الدلائل كان من الفاسقين ووعيد الفاسق معلوم، وقوله: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ هذا شرط، والفعل الماضي ينقلب مستقبلاً في الشرط والجزاء، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن في الآية الأولى أن الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام شرع شرعه الله وأوجبه على جميع من مضى من الأنبياء والأمم، لزم أن كل من كره ذلك فإنه يكون طالبًا دينًا غير دين الله، فلهذا قال بعده ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ .

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حفص عن عاصم (يَبْغُونَ) و(يُرْجَعُونَ) بالياء المنقطة من تحتها، لوجهين أحدهما: ردًا لهذا إلى قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨٢]، والثاني: أنه تعالى إنما ذكر حكاية أخذ الميثاق حتى يبين أن اليهود والنصارى يلزمهم الإيمان بمحمد ﷺ، فلما أصروا على كفرهم قال على جهة الاستنكار: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ وقرأ أبو عمرو (تَبْغُون) بالتاء خطابًا لليهود وغيرهم من الكفار و (يُرْجعون) بالياء ليرجع إلى جميع المكلفين المذكورين في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقرأ الباقون فيهما بالتاء على الخطاب، لأن ما قبله خطاب كقوله: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ﴾ [آل عمران: ٨١] وأيضًا فلا يبعد أن يقال للمسلم والكافر ولكل أحد: أفغير دين الله تبغون مع علمكم بأنه أسلم له من في السموات والأرض، وأن مرجعكم إليه، وهو كقوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٠١].

المسألة الثانية: الهمزة للاستفهام والمراد استنكار أن يفعلوا ذلك أو تقرير أنهم يفعلونه، وموضع الهمزة هو لفظة (يَبْغُونَ) تقديره: أيبغون غير دين الله؟ لأن الاستفهام إنما يكون عن الأفعال والحوادث، إلا أنه تعالى قدم المفعول الذي هو (غير دِينِ الله) على فعله، لأنه أهم من حيث إن الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود الباطل وأما الفاء فلعطف جملة على جملة وفيه وجهان؛ أحدهما: التقدير: فأولئك هم الفاسقون، فغير دين الله يبغون.

واعلم أنه لو قيل أو غير دين الله يبغون جاز إلا أن في الفاء فائدة زائدة كأنه قيل: أفبعد أخذ هذا الميثاق المؤكد بهذه التأكيدات البليغة تبغون؟

المسألة الثالثة: روي أن فريقين من أهل الكتاب اختصموا إلى الرسول ﷺ فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام، وكل واحد من الفريقين ادعى أنه أولى به، فقال عليه الصلاة والسلام: «**كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم عليه السلام**» فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك، فنزلت هذه الآية، ويبعد عندي حمل هذه الآية على هذا السبب، لأن على هذا التقدير تكون هذه الآية منقطعة عما قبلها، والاستفهام على سبيل الإنكار يقتضي تعلقها بما قبلها، فالوجه في الآية أن هذا الميثاق لما كان مذكورًا في كتبهم وهم كانوا عارفين بذلك فقد كانوا عالمين بصدق محمد ﷺ في النبوّة فلم يبق لكفرهم سبب إلا مجرد العداوة والحسد فصاروا كإبليس الذي دعاه الحسد إلى الكفر، فأعلمهم الله تعالى أنهم متى كانوا كذلك كانوا طالبين دينًا غير دين الله، ومعبودًا سوى الله سبحانه، ثم بيّن أن التمرد على الله تعالى والإعراض عن حكمه مما لا يليق بالعقلاء، فقال: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: الإسلام، هو الاستسلام والانقياد والخضوع.

إذا عرفت هذا، ففي خضوع كل من في السموات والأرض لله وجوه؛ الأول: وهو الأصح عندي أن كل ما سوى الله سبحانه ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته فإنه لا يوجد إلا بإيجاده ولا يعدم إلا بإعدامه فإذن كل ما سوى الله فهو منقاد خاضع لجلال الله في طرفي وجوده وعدمه، وهذا هو نهاية الانقياد والخضوع، ثم إن في هذا الوجه لطيفة أخرى، وهي أن قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾ يفيد الحصر أي: وله أسلم كل من في السموات والأرض لا لغيره، فهذه الآية تفيد أن واجب الوجود واحد وأن كل ما سواه فإنه لا يوجد إلا بتكوينه ولا يفنى إلا بإفنائه سواء كان عقلاً أو نفسًا أو روحًا أو جسمًا أو جوهرًا أو عرضًا أو فاعلاً أو فعلاً، ونظير هذه الآية في الدلالة على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥] وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

الوجه الثاني: في تفسير هذه الآية أنه لا سبيل لأحد إلى الامتناع عليه في مراده، وإما أن ينزلوا عليه طوعًا أو كرهًا، فالمسلمون الصالحون ينقادون لله طوعًا فيما يتعلق بالدين، وينقادون له كرهًا فيما يخالف طباعهم من المرض والفقر والموت وأشباه ذلك، وأما الكافرون فهم ينقادون لله تعالى على كل حال كرهًا؛ لأنهم لا ينقادون فيما يتعلق بالدين، وفي غير ذلك مستسلمون له سبحانه كرهًا، لأنه لا يمكنهم دفع قضائه وقدره، الثالث: أسلم المسلمون طوعًا، والكافرون عند موتهم كرهًا لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]، الرابع: أن كل الخلق منقادون لإلهيته طوعًا، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ومنقادون لتكاليفه وإيجاده للآلام كرهًا، الخامس: أن

انقياد الكل إنما حصل وقت أخذ الميثاق وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، السادس: قال الحسن: الطوع لأهل السموات خاصة، وأما أهل الأرض فبعضهم بالطوع وبعضهم بالكره، وأقول: إنه سبحانه ذكر في تخليق السموات والأرض هذا، وهو قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وفيه أسرار عجيبة.

أما قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١] فالمراد أن من خالفه في العاجل فسيكون مرجعه إليه، والمراد إلى حيث لا يملك الضر والنفع سواه هذا وعيد عظيم لمن خالف الدين الحق.

المسألة الثانية: قال الواحدي رحمه الله: الطوع: الانقياد، يقال: طاعه يطوعه طوعًا: إذا انقاد له وخضع، وإذا مضى لأمره فقد أطاعه، وإذا وافقه فقد طاوعه، قال ابن السكيت: يقال طاع له وأطاع، فانتصب طوعًا وكرهًا على أنه مصدر وقع موقع الحال، وتقديره طائعًا وكارهًا، كقولك: أتاني ركضًا أي راكضًا، ولا يجوز أن يقال: أتاني كلامًا أي متكلمًا، لأن الكلام ليس بضرب للإتيان، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة أنه إنما أخذ الميثاق على الأنبياء في تصديق الرسول الذي يأتي مصدقًا لما معهم بيّن في هذه الآية أن من صفة محمد ﷺ كونه مصدقًا لما معهم فقال: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية، وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: وحد الضمير في (قُلْ) وجمع في (آمنا) وفيه وجوه: الأول: أنه تعالى حين خاطبه، إنما خاطبه بلفظ الوحدان، وعلمه أنه حين يخاطب القوم يخاطبهم بلفظ الجمع على وجه التعظيم والتفخيم، مثل ما يتكلم الملوك والعظماء، والثاني: أنه خاطبه أولاً بخطاب الوحدان ليدل هذا الكلام على أنه لا مبلغ لهذا التكليف من الله إلى الخلق إلا هو، ثم قال: (آمنا) تنبيهًا على أنه حين يقول هذا القول فإن أصحابه يوافقونه عليه، الثالث: إنه تعالى عينه في هذا التكليف بقوله (قُلْ) ليظهر به كونه مصدقًا لما معهم ثم قال: (آمنا) تنبيهًا على أن هذا التكليف ليس من خواصه بل هو لازم لكل المؤمنين كما قال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

المسألة الثانية: قدم الإيمان بالله على الإيمان بالأنبياء، لأن الإيمان بالله أصل الإيمان بالنبوة، وفي المرتبة الثانية ذكر الإيمان بما أنزل عليه، لأن كتب سائر الأنبياء حرفوها وبدلوها فلا سبيل إلى معرفة أحوالها إلا بما أنزله الله على محمد ﷺ، فكان ما أنزل على محمد كالأصل

لما أنزل على سائر الأنبياء فلهذا قدمه عليه، وفي المرتبة الثالثة ذكر بعض الأنبياء وهم الأنبياء الذين يعترف أهل الكتاب بوجودهم، ويختلفون في نبوتهم (وَالأَسْبَاطَ) هم أسباط يعقوب عليه السلام الذين ذكر الله أممهم الاثنى عشر في سورة الأعراف، وإنما أوجب الله تعالى الإقرار بنبوّة كل الأنبياء عليهم السلام لفوائد؛ إحداها: إثبات كونه عليه السلام مصدقًا لجميع الأنبياء، لأن هذا الشرط كان معتبرًا في أخذ الميثاق، وثانيها: التنبيه على أن مذاهب أهل الكتاب متناقضة، وذلك لأنهم إنما يصدقون النبي الذي يصدقونه لمكان ظهور المعجزة عليه، وهذا يقتضي أن كل من ظهرت المعجزة عليه كان نبيًا، وعلى هذا يكون تخصيص البعض بالتصديق والبعض بالتكذيب متناقضًا، بل الحق تصديق الكل والاعتراف بنبوّة الكل وثالثها: إنه قال قبل هذه الآية ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣] وهذا تنبيه على أن إصرارهم على تكذيب بعض الأنبياء إعراض عن دين الله ومنازعة مع الله، فههنا أظهر الإيمان بنبوّة جميع الأنبياء، ليزول عنه وعن أمته ما وصف أهل الكتاب به من منازعة الله في الحكم والتكليف، ورابعها: أن في الآية الأولى ذكر أنه أخذ الميثاق على جميع النبيّين، أن يؤمنوا بكل من يأتي بعدهم من الرسل، وهاهنا أخذ الميثاق على محمد ﷺ بأن يؤمن بكل من أتى قبله من الرسل، ولم يأخذ عليه الميثاق لمن يأتي بعده من الرسل، فكانت هذه الآية دالة من هذا الوجه على أنه لا نبي بعده البتة، فإن قيل: لم عدّى (أَنْزَلَ) في هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتهاء؟ قلنا: لوجود المعنيين جميعًا، لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل، فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالآخر، وقيل أيضًا: إنما قيل (عَلَيْنَا) في حق الرسول، لأن الوحي ينزل عليه وإلينا في حق الأمة لأن الوحي يأتيهم من الرسول على وجه الانتهاء وهذا تعسف، ألا ترى إلى قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٤] وأنزل إليك الكتاب وإلى قوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ٧٢].

المسألة الثالثة: اختلف العلماء في أن الإيمان بهؤلاء الأنبياء الذين تقدموا ونسخت شرائعهم كيف يكون؟ وحقيقة الخلاف، أن شرعه لما صار منسوخًا، فهل تصير نبوته منسوخة؟ فمن قال إنها تصير منسوخة قال: نؤمن أنهم كانوا أنبياء ورسلًا، ولا نؤمن بأنهم الآن أنبياء ورسل، ومن قال إن نسخ الشريعة لا يقتضي نسخ النبوّة قال: نؤمن أنهم أنبياء ورسل في الحال فتنبه لهذا الموضع.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ فيه وجوه؛ الأول: قال الأصم: التفريق قد يكون بتفضيل البعض على البعض، وقد يكون لأجل القول بأنهم ما كانوا على سبيل واحد في الطاعة لله والمراد من هذا الوجه يعني: نقر بأنهم كانوا بأسرهم على دين واحد في الدعوة إلى الله وفي الانقياد لتكاليف الله، الثاني: قال بعضهم: المراد ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بأن نؤمن ببعض دون بعض كما تفرقت اليهود والنصارى، الثالث: قال أبو مسلم ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾: أي لا

نفرق ما أجمعوا عليه، وهو كقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣] وذم قومًا وصفهم بالتفريق فقال: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]

أما قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

ففيه وجوه:

الأول: إن إقرارنا بنبوّة هؤلاء الأنبياء إنما كان لأجل كوننا منقادين لله تعالى مستسلمين لحكمه وأمره، وفيه تنبيه على أن حاله على خلاف الذين خاطبهم الله بقوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والثاني: قال أبو مسلم ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾: أي مستسلمون لأمر الله بالرضا وترك المخالفة وتلك صفة المؤمنين بالله وهم أهل السلم والكافرون يوصفون بالمحاربة لله كما قال: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٣]، الثالث: أن قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ يفيد الحصر والتقدير: له أسلمنا لا لغرض آخر من سمعة ورياء وطلب مال، وهذا تنبيه على أن حالهم بالضد من ذلك فإنهم لا يفعلون ولا يقولون إلا للسمعة والرياء وطلب الأموال، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قال في آخر الآية المتقدمة: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤] أتبعه بأن بيّن في هذه الآية أن الدين ليس إلا الإسلام، وأن كل دين سوى الإسلام فإنه غير مقبول عند الله، لأن القبول للعمل هو أن يرضى الله ذلك العمل، ويرضى عن فاعله ويثيبه عليه، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] ثم بيّن تعالى أن كل من له دين سوى الإسلام فكما أنه لا يكون مقبولاً عند الله، فكذلك يكون من الخاسرين، والخسران في الآخرة يكون بحرمان الثواب، وحصول العقاب، ويدخل فيه ما يلحقه من التأسف والتحسر على ما فاته في الدنيا من العمل الصالح وعلى ما تحمله من التعب والمشقة في الدنيا في تقريره ذلك الدين الباطل واعلم أن ظاهر هذه الآية يدل على أن الإيمان هو الإسلام إذ لو كان الإيمان غير الإسلام لوجب أن لا يكون الإيمان مقبولاً لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ إلا أن ظاهر قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] يقتضي كون الإسلام مغايرًا للإيمان ووجه التوفيق بينهما أن تحمل الآية الأولى على العرف الشرعي، والآية الثانية على الوضع اللغوي.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ

﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما عظم أمر الإسلام والإيمان بقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] أكد ذلك التعظيم بأن بيّن وعيد من ترك الإسلام، فقال: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾:

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في سبب النزول أقوال؛ الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في عشرة رهط كانوا آمنوا ثم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم أخذوا يتربصون به ريب المنون فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية، وكان فيهم من تاب فاستثنى التائب منهم بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾، الثاني: نقل أيضًا عن ابن عباس أنه قال: نزلت في يهود قريظة والنضير ومن دان بدينهم كفروا بالنبي ﷺ بعد أن كانوا مؤمنين قبل مبعثه، وكانوا يشهدون له بالنبوّة، فلما بعث وجاءهم بالبينات والمعجزات كفروا بغيًا وحسدًا، والثالث: نزلت في الحارث بن سويد وهو رجل من الأنصار حين ندم على ردته فأرسل إلى قومه أن اسألوا لي هل لي من توبة؟ فأرسل إليه أخوه بالآية، فأقبل إلى المدينة وتاب على يد الرسول ﷺ وقبل الرسول ﷺ توبته[(١)]، قال القفال رحمه الله: للناس في هذه الآية قولان: منهم من قال: إن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ [آل عمران: ٨٥] وما بعده من قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠] نزل جميع ذلك في قصة واحدة، ومنهم من جعل ابتداء القصة من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [آل عمران: ٩١] ثم على التقديرين ففيها أيضًا قولان؛ أحدهما: أنها في أهل الكتاب، والثاني: أنها في قوم مرتدين عن الإسلام آمنوا ثم ارتدوا على ما شرحناه.

المسألة الثانية: اختلف العقلاء في تفسير قوله ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ أما المعتزلة فقالوا: إن أصولنا تشهد بأنه تعالى هدى جميع الخلق إلى الدين بمعنى التعريف، ووضع الدلائل وفعل الألطاف، إذ لو لم يعم الكل بهذه الأشياء لصار الكافر والضال معذورًا، ثم إنه تعالى حكم بأنه لم يهد هؤلاء الكفار، فلا بد من تفسير هذه الهداية بشيء آخر سوى نصب

---

(١) **صحيح**: أخرجه النسائي في كتاب (تحريم الدم)، باب: (توبة المُرتد) (٤/ ٢٤)، حديث رقم (٤٠٧٩)، وأحمد في (مسنده) (١/ ٢٤٧) من طريق علي بن عاصم... به، كلاهما (علي، يزيد) عن داود بن أبي هند... به، والنسائي في (سننه الكبرى)، (٢/ ٣٠٣)، حديث رقم (٣٥٣١)، والطحاوي في (مشكل الآثار) (٦/ ٣٥٨)، حديث رقم (٢٤٠٥)، جميعًا من طريق داود عن عكرمة عن ابن عباس... به.

الدلائل، ثم ذكروا فيه وجوهًا؛ الأول: المراد من هذه الآية منع الألطاف التي يؤتيها المؤمنين ثوابًا لهم على إيمانهم كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] وقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦] فدلت هذه الآيات على أن المهتدي قد يزيده الله هدًى الثاني: أن المراد أن الله تعالى لا يهديهم إلى الجنة قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩] وقال: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [يونس: ٩]، الثالث: أنه لا يمكن أن يكون المراد من الهداية خلق المعرفة فيه لأن على هذا التقدير يلزم أن يكون الكفر أيضًا من الله تعالى لأنه تعالى إذا خلق المعرفة كان مؤمنًا مهتديًا، وإذا لم يخلقها كان كافرًا ضالاً، ولو كان الكفر من الله تعالى لم يصح أن يذمهم الله على الكفر ولم يصح أن يضاف الكفر إليهم، لكن الآية ناطقة بكونهم مذمومين بسبب الكفر وكونهم فاعلين للكفر فإنه تعالى قال: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ فضاف الكفر إليهم وذمهم على ذلك الكفر فهذا جملة أقوالهم في هذه الآية، وأما أهل السنة فقالوا: المراد من الهداية خلق المعرفة، قالوا: وقد جرت سنة الله في دار التكليف أن كل فعل يقصد العبد إلى تحصيله فإن الله تعالى يخلقه عقيب قصد العبد، فكأنه تعالى قال: كيف يخلق الله فيهم المعرفة وهم قصدوا تحصيل الكفر أو أرادوه والله أعلم.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿وَشَهِدُوا﴾.

فيه قولان:

الأول: أنه عطف والتقدير بعد أن آمنوا وبعد أن شهدوا أن الرسول حق، لأن عطف الفعل على الاسم لا يجوز فهو في الظاهر وإن اقتضى عطف الفعل على الاسم لكنه في المعنى عطف الفعل على الفعل، الثاني: أن الواو للحال بإضمار (قد) والتقدير: كيف يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم حال ما شهدوا أن الرسول حق.

المسألة الرابعة: تقدير الآية: كيف يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم، وبعد الشهادة بأن الرسول حق، وقد جاءتهم البينات، فعطف الشهادة بأن الرسول حق، على الإيمان، والمعطوف مغاير للمعطوف عليه، فيلزم أن الشهادة بأن الرسول حق مغاير للإيمان وجوابه: أن مذهبنا أن الإيمان هو التصديق بالقلب، والشهادة هو الإقرار باللسان، وهما متغايران فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالة على أن الإيمان مغاير للإقرار باللسان وأنه معنى قائم بالقلب.

المسألة الخامسة: اعلم أنه تعالى استعظم كفر القوم من حيث إنه حصل بعد خصال ثلاث؛ أحدها: بعد الإيمان، وثانيها: بعد شهادة كون الرسول حقًا وثالثها: بعد مجيء البينات، وإذا كان الأمر كذلك كان ذلك الكفر صلاحًا بعد البصيرة وبعد إظهار الشهادة، فيكون الكفر بعد هذه

الأشياء أقبح لأن مثل هذا الكفر يكون كالمعاندة والجحود، وهذا يدل على أن زلة العالم أقبح من زلة الجاهل.

أما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

ففيه سؤالان:

السؤال الأول: قال في أول الآية ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا﴾ وقال في آخرها: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا تكرار.

والجواب: أن قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ﴾ مختص بالمرتدين، ثم إنه تعالى عمم ذلك الحكم في المرتد وفي الكافر الأصلي فقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

السؤال الثاني: لم سمي الكافر ظالمًا؟

الجواب: قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] والسبب فيه أن الكافر أورد نفسه موارد البلاء والعقاب بسبب ذلك الكفر، فكان ظالمًا لنفسه.

ثم قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ والمعنى: أنه تعالى حكم بأن الذين كفروا بعد إيمانهم يمنعهم الله تعالى من هدايته، ثم بيّن أن الأمر غير مقصور عليه، بل كما لا يهديهم في الدنيا يلعنهم اللعن العظيم ويعذبهم في الآخرة، على سبيل التأبيد والخلود.

واعلم أن لعنة الله، مخالفة للعنة الملائكة، لأن لعنته بالإبعاد من الجنة وإنزال العقوبة والعذاب واللعنة من الملائكة هي بالقول، وكذلك من الناس، وكل ذلك مستحق لهم بسبب ظلمهم وكفرهم فصح أن يكون جزاء لذلك، وهاهنا سؤالان:

السؤال الأول: لم عم جميع الناس ومن يوافقه لا يلعنه؟

قلنا: فيه وجوه؛ الأول: قال أبو مسلم له أن يلعنه وإن كان لا يلعنه، الثاني: أنه في الآخرة يلعن بعضهم بعضًا قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] وقال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] وعلى هذا التقدير فقد حصل اللعن للكفار من الكفار، والثالث: كأن الناس هم المؤمنون، والكفار ليسوا من الناس، ثم لما ذكر لعن الثلاث قال: ﴿أَجْمَعِينَ﴾، الرابع: وهو الأصح عندي أن جميع الخلق يلعنون المبطل والكافر، ولكنه يعتقد في نفسه أنه ليس بمبطل ولا بكافر، فإذا لعن الكافر وكان هو في علم الله كافرًا، فقد لعن نفسه وإن كان لا يعلم ذلك.

السؤال الثاني: قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: خالدين في اللعنة، فما خلود اللعنة؟.

قلنا: فيه وجهان؛ الأول: أن التخليد في اللعنة على معنى أنهم يوم القيامة لا يزال يلعنهم الملائكة والمؤمنون ومن معهم في النار فلا يخلو شيء من أحوالهم، من أن يلعنهم لاعن من هؤلاء، الثاني: أن المراد بخلود اللعن خلود أثر اللعن، لأن اللعن يوجب العقاب، فعبر عن

خلود أثر اللعن بخلود اللعن، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ [طه: ١٠٠، ١٠١]، الثالث: قال ابن عباس: قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في جهنم فعلى هذا الكناية عن غير مذكور، واعلم أن قوله ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ نصب على الحال مما قبله، وهو قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦١].

ثم قال: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ معنى الإنظار التأخير قال تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] فالمعنى أنه لا يجعل عذابهم أخف ولا يؤخر العقاب من وقت إلى وقت وهذا تحقيق قول المتكلمين: إن العذاب الملحق بالكافر مضرة خالصة عن شوائب المنافع دائمة غير منقطعة، نعوذ منه بالله.

ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ والمعنى: إلا الذين تابوا منه، ثم بيّن أن التوبة وحدها لا تكفي حتى ينضاف إليها العمل الصالح فقال: ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ أي: أصلحوا باطنهم مع الحق بالمراقبات وظاهرهم مع الخلق بالعبادات، وذلك بأن يعلنوا بأنا كنا على الباطل حتى إنه لو اغتر بطريقتهم الفاسدة مغتر رجع عنها.

ثم قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وفيه وجهان؛ الأول: غفور لقبائحهم في الدنيا بالستر، رحيم في الآخرة بالعفو، الثاني: غفور بإزالة العقاب، رحيم بإعطاء الثواب، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] ودخلت الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لأنه الجزاء، وتقدير الكلام: إن تابوا فإن الله يغفر لهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۝٩٠﴾

وفي الآية مسألتان:

المسألة الأولى: اختلفوا فيما به يزداد الكفر، والضابط أن المرتد يكون فاعلاً للزيادة بأن يقيم ويصر فيكون الإصرار كالزيادة، وقد يكون فاعلاً للزيادة بأن يضم إلى ذلك الكفر كفرًا آخر، وعلى هذا التقدير الثاني ذكروا فيه وجوهًا؛ الأول: أن أهل الكتاب كانوا مؤمنين بمحمد عليه الصلاة والسلام قبل مبعثه، ثم كفروا به عند المبعث، ثم ازدادوا كفرًا بسبب طعنهم فيه في كل وقت، ونقضهم ميثاقه، وفتنتهم للمؤمنين، وإنكارهم لكل معجزة تظهر، الثاني: أن اليهود كانوا مؤمنين بموسى عليه السلام، ثم كفروا بسبب إنكارهم عيسى والإنجيل، ثم ازدادوا كفرًا، بسبب إنكارهم محمدًا عليه الصلاة والسلام والقرآن، والثالث: أن الآية نزلت في الذين ارتدوا وذهبوا إلى مكة، وازديادهم الكفر أنهم قالوا: نقيم بمكة نتربص بمحمد ﷺ ريب المنون، الرابع: المراد فرقة ارتدوا، ثم عزموا على الرجوع إلى الإسلام على سبيل النفاق، فسمى الله تعالى ذلك النفاق كفرًا.

المسألة الثانية: أنه تعالى حكم في الآية الأولى بقبول توبة المرتدين، وحكم في هذه الآية بعدم قبولها وهو يوهم التناقض، وأيضًا ثبت بالدليل أنه متى وجدت التوبة بشروطها فإنها تكون مقبولة لا محالة، فلهذا اختلف المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ على وجوه:

الأول: قال الحسن وقتادة وعطاء: السبب أنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت والله تعالى يقول: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: ١٨].

الثاني: أن يحمل هذا على ما إذا تابوا باللسان ولم يحصل في قلوبهم إخلاص.

الثالث: قال القاضي والقفال وابن الأنباري: أنه تعالى لما قدم ذكر من كفر بعد الإيمان، وبيّن أنه أهل اللعنة، إلا أن يتوب ذكر في هذه الآية أنه لو كفر مرة أخرى بعد تلك التوبة فإن التوبة الأولى تصير غير مقبولة وتصير كأنها لم تكن، قال: وهذا الوجه أليق بالآية من سائر الوجوه لأن التقدير: إلا الذين تابوا وأصلحوا فإن الله غفور رحيم، فإن كانوا كذلك ثم ازدادوا كفرًا لن تقبل توبتهم.

الرابع: قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ جعل كناية عن الموت على الكفر، لأن الذي لا تقبل توبته من الكفار هو الذي يموت على الكفر، كأنه قيل إن اليهود والمرتدين الذين فعلوا ما فعلوا مائتون على الكفر داخلون في جملة من لا تقبل توبتهم.

الخامس: لعلّ المراد ما إذا تابوا عن تلك الزيادة فقط فإن التوبة عن تلك الزيادة لا تصير مقبولة ما لم تحصل التوبة عن الأصل، وأقول: جملة هذه الجوابات إنما تتمشى على ما إذا حملنا قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ على المعهود السابق لا على الاستغراق وإلا فكم من مرتد تاب عن ارتداده توبة صحيحة مقرونة بالإخلاص في زمان التكليف، فأما الجواب الذي حكيناه عن القفال والقاضي فهو جواب مطرد سواء حملنا اللفظ على المعهود السابق أو على الاستغراق.

أما قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ ففيه سؤالان؛ الأول: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ ينفي كون غيرهم ضالاً، وليس الأمر كذلك فإن كل كافر فهو ضال سواء كفر بعد الإيمان أو كان كافرًا في الأصل.

والجواب: هذا محمول على أنهم هم الضالون على سبيل الكمال.

السؤال الثاني: وصفهم أولاً بالتمادي على الكفر والغلو فيه والكفر أقبح أنواع الضلال والوصف إنما يراد للمبالغة، والمبالغة إنما تحصل بوصف الشيء بما هو أقوى حالاً منه لا بما هو أضعف حالاً منه، والجواب: قد ذكرنا أن المراد أنهم هم الضالون على سبيل الكمال، وعلى هذا التقدير تحصل المبالغة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

اعلم أن الكافر على ثلاثة أقسام:

أحدها: الذي يتوب عن الكفر توبة صحيحة مقبولة وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩]، وثانيها: الذي يتوب عن ذلك الكفر توبة فاسدة وهو الذي ذكره الله في الآية المتقدمة وقال: إنه لن تقبل توبته، وثالثها: الذي يموت على الكفر من غير توبة البتة وهو المذكور في هذه الآية، ثم إنه تعالى أخبر عن هؤلاء بثلاثة أنواع.

النوع الأول: قوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ قال الواحدي: ملء الشيء قدر ما يملؤه وانتصب ﴿ذَهَبًا﴾ على التفسير، ومعنى التفسير: أن يكون الكلام تامًّا إلا أنه يكون مبهمًا كقولك: عندي عشرون، فالعدد معلوم، والمعدود مبهم، فإذا قلت: درهمًا فسرت العدد، وكذلك إذا قلت: هو أحسن الناس فقد أخبرت عن حسنه، ولم تبين في ماذا، فإذا قلت وجهًا أو فعلاً فقد بينته ونصبته على التفسير وإنما نصبته لأنه ليس له ما يخفضه ولا ما يرفعه فلما خلا من هذين نصب لأن النصب أخف الحركات فيجعل كأنه لا عامل فيه قال صاحب (الكشاف): وقرأ الأعمش: (ذَهَبٌ) بالرفع ردًّا على ملء كما يقال: عندي عشرون نفسًا رجال.

وهاهنا ثلاثة أسئلة:

السؤال الأول: لم قيل في الآية المتقدمة (لَّن تُقْبَلَ) بغير فاء وفي هذه الآية (فَلَن يُقْبَلَ) بالفاء؟

الجواب: أن دخول الفاء يدل على أن الكلام مبني على الشرط والجزاء، وعند عدم الفاء لم يفهم من الكلام كونه شرطًا وجزاء، تقول: الذي جاءني له درهم، فهذا لا يفيد أن الدرهم حصل له بسبب المجيء، وإذا قلت: الذي جاءني فله درهم، فهذا يفيد أن الدرهم حصل له بسبب المجيء فذكر الفاء في هذه الآية يدل على أن عدم قبول الفدية معلل بالموت على الكفر.

السؤال الثاني: ما فائدة الواو في قوله: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ ؟

الجواب: ذكروا فيه وجوهًا؛ الأول: قال الزجاج: إنها للعطف، والتقدير: لو تقرب إلى الله بملء الأرض ذهبًا لم ينفعه ذلك مع كفره، ولو افتدى من العذاب بملء الأرض ذهبًا لم يقبل منه، وهذا اختيار ابن الأنباري قال: وهذا أوكد في التغليظ، لأنه تصريح بنفي القبول من جميع الوجوه، الثاني: (الواو) دخلت لبيان التفصيل بعد الإجمال وذلك لأن قوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ يحتمل الوجوه الكثيرة، فنص على نفي القبول بجهة الفدية، الثالث: وهو وجه خطر ببالي، وهو أن من غضب على بعض عبيده، فإذا أتحفه ذلك العبد

بتحفة وهدية لم يقبلها البتة إلا أنه قد يقبل منه الفدية، فأما إذا لم يقبل منه الفدية أيضًا كان ذلك غاية الغضب، والمبالغة إنما تحصل بتلك المرتبة التي هي الغاية، فحكم تعالى بأنه لا يقبل منهم ملء الأرض ذهبًا ولو كان واقعًا على سبيل الفداء تنبيهًا على أنه لما لم يكن مقبولاً بهذا الطريق، فبأن لا يكون مقبولاً منه بسائر الطرق أولى.

السؤال الثالث: أن من المعلوم أن الكافر لا يملك يوم القيامة نقيرًا ولا قطميرًا ومعلوم أن بتقدير أن يملك الذهب فلا ينفع الذهب البتة في الدار الآخرة، فما فائدة قوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾.

الجواب: فيه وجهان: أحدهما: أنهم إذا ماتوا على الكفر فلو أنهم كانوا قد أنفقوا في الدنيا ملء الأرض ذهبًا لن يقبل الله تعالى ذلك منهم، لأن الطاعة مع الكفر لا تكون مقبولة، والثاني: أن الكلام وقع على سبيل الفرض، والتقدير: فالذهب كناية عن أعز الأشياء، والتقدير: لو أن الكافر يوم القيامة قدر على أعز الأشياء ثم قدر على بذله في غاية الكثرة لعجز أن يتوسل بذلك إلى تخليص نفسه من عذاب الله، وبالجملة فالمقصود أنهم آيسون من تخليص النفس من العقاب.

النوع الثاني: من الوعيد المذكور في هذه الآية قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ واعلم أنه تعالى لما بيّن أن الكافر لا يمكنه تخليص النفس من العذاب، أردفه بصفة ذلك العذاب، فقال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم.

النوع الثالث: من الوعيد قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ والمعنى: أنه تعالى لما بيّن أنه لا خلاص لهم عن هذا العذاب الأليم بسبب الفدية، بيّن أيضًا أنه لا خلاص لهم عنه بسبب النصرة والإعانة والشفاعة، ولأصحابنا أن يحتجوا بهذه الآية على إثبات الشفاعة وذلك لأنه تعالى ختم تعديد وعيد الكفار بعدم النصرة والشفاعة فلو حصل هذا المعنى في حق غير الكافر بطل تخصيص هذا الوعيد بالكفر، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن الإنفاق لا ينفع الكافر البتة عَلَّمَ المؤمنين كيفية الإنفاق الذي ينتفعون به في الآخرة، فقال: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وبيّن في هذه الآية أن من أنفق مما أحب كان من جملة الأبرار، ثم قال في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٢] وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥] وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٦] وقال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧] فالله تعالى لما فصل في سائر الآيات كيفية ثواب الأبرار اكتفى هاهنا بأن ذكر أن من أنفق ما

أحب نال البر، وفيه لطيفة أخرى. وهي أنه تعالى قال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى آخر الآية، فذكر في هذه الآية أكثر أعمال الخير، وسماه بالبر ثم قال في هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ والمعنى: أنكم وإن أتيتم بكل تلك الخيرات المذكورة في تلك الآية فإنكم لا تفوزون بفضيلة البر حتى تنفقوا مما تحبون، وهذا يدل على أن الإنسان إذا أنفق ما يحبه كان ذلك أفضل الطاعات، وهاهنا بحث وهو: أن لقائل أن يقول كلمة (حتى) لانتهاء الغاية فقوله: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ يقتضي أن من أنفق مما أحب فقد نال البر ومن نال البر دخل تحت الآيات الدالة على عظم الثواب للأبرار، فهذا يقتضي أن من أنفق ما أحب وصل إلى الثواب العظيم وإن لم يأت بسائر الطاعات، وهو باطل، وجواب هذا الإشكال: أن الإنسان لا يمكنه أن ينفق محبوبه إلا إذا توسل بإنفاق ذلك المحبوب إلى وجدان محبوب أشرف من الأول، فعلى هذا الإنسان لا يمكنه أن ينفق الدنيا في الدنيا إلا إذا تيقن سعادة الآخرة، ولا يمكنه أن يعترف بسعادة الآخرة إلا إذا أقر بوجود الصانع العالم القادر، وأقر بأنه يجب عليه الانقياد لتكاليفه وأوامره ونواهيه، فإذا تأملت علمت أن الإنسان لا يمكنه إنفاق الدين في الدنيا إلا إذا كان مستجمعًا لجميع الخصال المحمودة في الدين، ولنرجع إلى التفسير فنقول في الآية مسائل:

المسألة الأولى: كان السلف إذا أحبوا شيئًا جعلوه لله، روي أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو طلحة: يا رسول الله لي حائط بالمدينة وهو أحب أموالي إليّ أفأتصدق به؟ فقال عليه السلام: «**بَخٍ بَخٍ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ**» فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَسَّمَهَا فِي أَقَارِبِهِ، ويروى أنه جعلها بين حسّان بن ثابت وأبي بن كعب رضي الله عنهما[(١)]، وروي أن زيد بن حارثة رضي الله عنه جاء عند نزول هذه الآية بِفَرَسٍ لَهُ كَانَ يُحِبّه، وَجَعَلَهُ فِي سَبِيلِ اللَّه! فَحَمَلَ عَلَيْهَا رَسُول اللَّه ﷺ أُسَامَة، فَوَجَدَ زيدٌ فِي نَفْسِهِ، فقال عليه السلام: «**إِنَّ اللَّه قَدْ قَبِلَهَا**» واشترى ابن عمر جارية أعجبته فأعتقها فقيل له: لم أعتقتها ولم تصب منها؟ فقال: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[(٢)].

المسألة الثانية: للمفسرين في تفسير البر قولان:

أحدهما: ما به يصيرون أبرارًا حتى يدخلوا في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣] فيكون المراد بالبر ما يحصل منهم من الأعمال المقبولة، والثاني: الثواب والجنة فكأنه قال: لن تنالوا

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الزكاة)، باب: (الزكاة على الأقارب) (٣/ ٣٩٧)، حديث رقم (١٤٦١)، ومسلم في كتاب (الزكاة)، باب: (فضل النفقة والصدقة على الأخوين) (٢/ ٤٢/ ٦٩٣/ ٦٩٤)، جميعًا من طريق مالك. . . به.

(٢) **إسناده ضعيف**: رواه الطبري في (تفسيره) (٦/ ٥٩٢)، حديث رقم (٧٣٩٧) من طريق عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين عن عمرو بن دينار. . . فذكره، وهذا إسناد معضل.

هذه المنزلة إلا بالإنفاق على هذا الوجه.

أما القائلون بالقول الأول، فمنهم من قال: ﴿ٱلْبِرَّ﴾ هو التقوى واحتج بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧] وقال أبو ذر: إن البر هو الخير، وهو قريب مما تقدم.

وأما الذين قالوا: البر هو الجنة فمنهم من قال: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾ أي: لن تنالوا ثواب البر، ومنهم من قال: المراد بر الله أولياءه وإكرامه إياهم وتفضله عليهم، وهو من قول الناس: برني فلان بكذا، وبر فلان لا ينقطع عني، وقال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[الممتحنة: ٨] إلى قوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾[الممتحنة: ٨].

المسألة الثالثة: اختلف المفسرون في قوله: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ منهم من قال: إنه نفس المال، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[العاديات: ٨] ومنهم من قال: أن تكون الهبة رفيعة جيدة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾[البقرة: ٢٦٧] ومنهم من قال: ما يكون محتاجًا إليه قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا﴾[الإنسان: ٨] أحد تفاسير الحب في هذه الآية على حاجتهم إليه، وقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: ٩] وقال عليه السلام: «**أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا تَصَدَّقْتَ بِهِ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَأْمُلُ الْعَيْشَ، وَتَخْشَى الْفَقْرَ**»[(١)] والأولى أن يقال: كل ذلك معتبر في باب الفضل وكثرة الثواب.

المسألة الرابعة: اختلف المفسرون في أن هذا الإنفاق، هل هو الزكاة أو غيرها؟ قال ابن عباس: أراد به الزكاة، يعني: حتى تخرجوا زكاة أموالكم، وقال الحسن: كل شيء أنفقه المسلم من ماله طلب به وجه الله فإنه من الذين عنى الله سبحانه بقوله: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ حتى التمرة، والقاضي اختار القول الأول، واحتج عليه بأن هذا الإنفاق، وقف الله عليه كون المكلف من الأبرار، والفوز بالجنة، بحيث لو لم يوجد هذا الإنفاق، لم يصر العبد بهذه المنزلة، وما ذاك إلا الإنفاق الواجب، وأنا أقول: لو خصصنا الآية بغير الزكاة لكان أولى لأن الآية مخصوصة بإيتاء الأحب، والزكاة الواجبة ليس فيها إيتاء الأحب، فإنه لا يجب على المزكي أن يخرج أشرف أمواله وأكرمها، بل الصحيح أن هذه الآية مخصوصة بإيتاء المال على سبيل الندب.

المسألة الخامسة: نقل الواحدي عن مجاهد والكلبي: أن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة، وهذا في غاية البعد لأن إيجاب الزكاة كيف ينافي الترغيب في بذل المحبوب لوجه الله سبحانه وتعالى.

المسألة السادسة: قال بعضهم: كلمة (مِنْ) في قوله: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ للتبعيض، وقرأ عبد الله:

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (الزكاة)، باب: (فضل صدقة الشحيح الصحيح) (٣/ ٣٣٤)، حديث رقم (١٤١٩)، ومسلم في كتاب (الزكاة)، باب: (بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح) (٢/ ٩٢/ ٧١٦)، جميعًا من طريق عمارة بن القعقاع... به.

(حتى تُنفِقُواْ بَعْضِ مَا تُحِبُّونَ) وفيه إشارة إلى أن إنفاق الكل لا يجوز كما قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] وقال آخرون: إنها للتبيين.

وأما قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

ففيه سؤال:

وهو أن يقال: قيل ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ على جهة جواب الشرط مع أن الله تعالى يعلمه على كل حال.

والجواب: من وجهين؛ الأول: أن فيه معنى الجزاء تقديره: وما تنفقوا من شيء فإن الله به يجازيكم قل أم كثر، لأنه عليم به لا يخفى عليه شيء منه، فجعل كونه عالمًا بذلك الإنفاق كناية عن إعطاء الثواب، والتعريض في مثل هذا الموضع يكون أبلغ من التصريح، والثاني: أنه تعالى يعلم الوجه الذي لأجله يفعلونه ويعلم أن الداعي إليه أهو الإخلاص أم الرياء ويعلم أنكم تنفقون الأحب الأجود، أم الأخس الأرذل.

واعلم أن نظير هذه الآية قوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٧٩] وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠] قال صاحب (الكشاف): (مِنْ) في قوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ لتبيين ما ينفقونه أي من شيء كان طيبًا تحبونه أو خبيثًا تكرهونه فإن الله به عليم يجازيكم على قدره.

قوله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾

اعلم أن الآيات المتقدمة إلى هذه الآية كانت في تقرير الدلائل الدالة على نبوّة محمد ﷺ، وفي توجيه الإلزامات الواردة على أهل الكتاب في هذا الباب.

وأما هذه الآية فهي في بيان الجواب عن شبهات القوم فإن ظاهر الآية يدل على أنه ﷺ كان يدعي أن كل الطعام كان حلاً ثم صار البعض حرامًا بعد أن كان حلاً والقوم نازعوه في ذلك وزعموا أن الذي هو الآن حرام كان حرامًا أبدًا.

وإذا عرفت هذا فنقول: الآية تحتمل وجوهًا؛ الأول: أن اليهود كانوا يعولون في إنكار شرع محمد ﷺ على إنكار النسخ، فأبطل الله عليهم ذلك بأن ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فذاك الذي حرمه على نفسه، كان حلالاً ثم صار حرامًا عليه وعلى أولاده فقد حصل النسخ، فبطل قولكم: النسخ غير جائز، ثم إن اليهود لما توجه عليهم هذا

السؤال أنكروا أن يكون حرمة ذلك الطعام الذي حرم الله بسبب أن إسرائيل حرمه على نفسه، بل زعموا أن ذلك كان حرامًا من لدن زمان آدم عليه السلام إلى هذا الزمان، فعند هذا طلب الرسول عليه السلام منهم أن يحضروا التوراة فإن التوراة ناطقة بأن بعض أنواع الطعام إنما حرم بسبب أن إسرائيل حرمه على نفسه، فخافوا من الفضيحة وامتنعوا من إحضار التوراة، فحصل عند ذلك أمور كثيرة تقوي دلائل نبوّة محمد ﷺ.

أحدها: أن هذا السؤال قد توجه عليهم في إنكار النسخ، وهو لازم لا محيص عنه.

وثانيها: أنه ظهر للناس كذبهم وأنهم ينسبون إلى التوراة ما ليس فيها تارة، ويمتنعون عن الإقرار بما هو فيها أخرى.

وثالثها: أن الرسول ﷺ كان رجلاً أُميًا لا يقرأ ولا يكتب فامتنع أن يعرف هذه المسألة الغامضة من علوم التوراة إلا بخبر السماء فهذا وجه حسن علمي في تفسير الآية وبيان النظم.

الوجه الثاني: أن اليهود قالوا له: إنك تدعي أنك على ملة إبراهيم، فلو كان الأمر كذلك فكيف تأكل لحوم الإبل وألبانها مع أن ذلك كان حرامًا في دين إبراهيم فجعلوا هذا الكلام شبهة طاعنة في صحة دعواه، فأجاب النبي ﷺ عن هذه الشبهة بأن قال: ذلك كان حلاً لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، إلا أن يعقوب حرمه على نفسه بسبب من الأسباب وبقيت تلك الحرمة في أولاده فأنكر اليهود ذلك، فأمرهم الرسول عليه السلام بإحضار التوراة وطالبهم بأن يستخرجوا منها آية تدل على أن لحوم الإبل وألبانها كانت محرمة على إبراهيم عليه السلام فعجزوا عن ذلك وافتضحوا فظهر عند هذا أنهم كانوا كاذبين في ادعاء حرمة هذه الأشياء على إبراهيم عليه السلام.

الوجه الثالث: أنه تعالى لما أنزل قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] وقال أيضًا: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] فدلت هذه الآية على أنه تعالى إنما حرم على اليهود هذه الأشياء جزاءً لهم على بغيهم وظلمهم وقبيح فعلهم وأنه لم يكن شيء من الطعام حرامًا غير الطعام الواحد الذي حرمه إسرائيل على نفسه، فشق ذلك على اليهود من وجهين؛ أحدهما: أن ذلك يدل على أن تلك الأشياء حرمت بعد أن كانت مباحة، وذلك يقتضي وقوع النسخ وهم ينكرونه، والثاني: أن ذلك يدل على أنهم كانوا موصوفين بقبائح الأفعال، فلما حق عليهم ذلك من هذين الوجهين أنكروا كون حرمة هذه الأشياء متجددة، بل زعموا أنها كانت محرمة أبدًا، فطالبهم النبي ﷺ بآية من التوراة تدل على صحة قولهم فعجزوا عنه فافتضحوا، فهذا وجه الكلام في تفسير هذه الآية وكله حسن مستقيم، ولنرجع إلى تفسير الألفاظ.

أما قوله ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ أي: كل المطعومات أو كل أنواع الطعام، وأقول: اختلف الناس في أن اللفظ المفرد المحلى بالألف واللام هل يفيد العموم أم لا؟.

ذهب قوم من الفقهاء والأدباء إلى أنه يفيده، واحتجوا عليه بوجوه؛ أحدها: أنه تعالى أدخل لفظ ﴿كُلُّ﴾ على لفظ الطعام في هذه الآية، ولولا أن لفظ الطعام قائم مقام لفظ المطعومات وإلا لما جاز ذلك، وثانيها: أنه استثنى عنه ما حرم إسرائيل على نفسه والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل، فلولا دخول كل الأقسام تحت لفظ الطعام وإلا لم يصح هذا الاستثناء وأكدوا هذا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر: ٢، ٣] وثالثها: أنه تعالى وصف هذا اللفظ المفرد بما يوصف به لفظ الجمع، فقال: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ [ق: ١٠، ١١] فعلى هذا من ذهب إلى هذا المذهب لا يحتاج إلى الإضمار الذي ذكره صاحب (الكشاف)، أما من قال إن الاسم المفرد المحلى بالألف واللام لا يفيد العموم، وهو الذي نظرناه في أصول الفقه احتاج إلى الإضمار الذي ذكره صاحب (الكشاف).

المسألة الثانية: الطعام اسم لكل ما يطعم ويؤكل، وزعم بعض أصحاب أبي حنيفة رحمة الله عليه إنه اسم للبر خاصة، وهذه الآية دالة على ضعف هذا الوجه، لأنه استثنى من لفظ الطعام ما حرم إسرائيل على نفسه، والمفسرون اتفقوا على أن ذلك الذي حرمه إسرائيل على نفسه كان شيئًا سوى الحنطة، وسوى ما يتخذ منها ومما يؤكد ذلك قوله تعالى في صفة الماء: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وقال تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥] وأراد الذبائح، وقالت عائشة رضي الله عنها: ما لنا طعام إلا الأسودان، والمراد التمر والماء.

إذا عرفت هذا فنقول: ظاهر هذه الآية يدل على أن جميع المطعومات كان حلاً لبني إسرائيل ثم قال القفال: لم يبلغنا أنه كانت الميتة مباحة لهم مع أنها طعام، وكذا القول في الخنزير، ثم قال فيحتمل أن يكون ذلك على الأطعمة التي كان يدعي اليهود في وقت الرسول ﷺ أنها كان محرمة على إبراهيم، وعلى هذا التقدير لا تكون الألف واللام في لفظ الطعام للاستغراق، بل للعهد السابق، وعلى هذا التقدير يزول الإشكال، ومثله قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥] فإنه إنما خرج هذا الكلام على أشياء سألوا عنها فعرفوا أن المحرم منها كذا وكذا دون غيره فكذا في هذه الآية.

المسألة الثالثة: الحل مصدر يقال: حل الشيء حلاً كقولك: ذلت الدابة ذلاً وعز الرجل

عزًّا، ولذلك استوى في الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع قال تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠] والوصف بالمصدر يفيد المبالغة فهاهنا الحل والحَلَال والمحلل واحد، قال ابن عباس رضي الله عنهما في زمزم هي حل وبل (١) رواه سفيان بن عيينة فسئل سفيان: ما حل؟ فقال: محلل.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في الشيء الذي حرمه إسرائيل على نفسه على وجوه: الأول: روى ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ يَعْقُوبَ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا فَنَذَرَ نَذْرًا لَئِنْ عَافَاهُ اللَّهُ لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لحمان الإِبِلِ وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانهَا**» وهذا قول أبي العالية وعطاء ومقاتل، والثاني: قيل: إنه كان به عرق النسا، فنذر إن شفاه الله أن لا يأكل شيئًا من العروق، الثالث: جاء في بعض الروايات أن الذي حرمه على نفسه زوائد الكبد والشحم إلا ما على الظهر، ونقل القفال رحمه الله عن ترجمة التوراة، أن يعقوب لما خرج من حران إلى كنعان بعث بردًا إلى عيصو أخيه إلى أرض ساعير، فانصرف الرسول إليه، وقال: إن عيصو هو ذا يتلقاك ومعه أربعمائة رجل، فذعر يعقوب وحزن جدًّا وصلّى ودعا وقدم هدايا لأخيه وذكر القصة إلى أن ذكر الملك الذي لقيه في صورة رجل، فدنا ذلك الرجل ووضع أصبعه على موضع عرق النسا، فخدرت تلك العصبة وجفت فمن أجل هذا لا يأكل بنو إسرائيل العروق.

المسألة الثانية: ظاهر الآية يدل على أن إسرائيل حرم ذلك على نفسه، وفيه سؤال: وهو أن التحريم والتحليل إنما يثبت بخطاب الله تعالى، فكيف صار تحريم يعقوب عليه السلام سببًا لحصول الحرمة.

أجاب المفسرون عنه من وجوه؛ الأول: أنه لا يبعد أن الإنسان إذا حرم شيئًا على نفسه فإن الله يحرمه عليه ألا ترى أن الإنسان يحرم امرأته على نفسه بالطلاق، ويحرم جاريته بالعتق، فكذلك جائز أن يقول تعالى إن حرمت شيئًا على نفسك فأنا أيضًا أحرمه عليك، الثاني: أنه عليه الصلاة والسلام ربما اجتهد فأدى اجتهاده إلى التحريم، فقال بحرمته وإنما قلنا: إن الاجتهاد جائز من الأنبياء لوجوه؛ الأول: قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَٰٓأُولِي الْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢] ولا شك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام رؤساء أولي الأبصار، والثاني: قال: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] مدح المستنبطين والأنبياء أولى بهذا المدح، والثالث: قال تعالى لمحمد عليه

(١) **صحيح موقوف**: أخرجه الفاكهي في (أخبار مكة) (٢/ ٦٤)، حديث رقم (١١٥٦) من طريق سفيان عن عمرو أنه سمع ابن عباس... فذكره، وابن أبي شيبة في (مصنفه) (١/ ٤١)، حديث رقم (٣٨٥)، وابن سلام في (الطهور) (١/ ١٤٤)، حديث رقم (١٢٨)، كلاهما من طريق عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس... به.

الصلاة والسلام: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] فلو كان ذلك الإذن بالنص، لم يقل: لم أذنت، فدلَّ على أنه كان بالاجتهاد، الرابع: أنه لا طاعة إلا وللأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيها أعظم نصيب ولا شك أن استنباط أحكام الله تعالى بطريق الاجتهاد طاعة عظيمة شاقة، فوجب أن يكون للأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيها نصيب لا سيما ومعارفهم أكثر وعقولهم أنور وأذهانهم أصفى وتوفيق الله وتسديده معهم أكثر، ثم إذا حكموا بحكم بسبب الاجتهاد يحرم على الأمة مخالفتهم في ذلك الحكم كما أن الإجماع إذا انعقد على الاجتهاد فإنه يحرم مخالفته والأظهر الأقوى أن إسرائيل صلوات الله عليه إنما حرم ذلك على نفسه بسبب الاجتهاد إذ لو كان ذلك بالنص لقال إلا ما حرّم الله على إسرائيل فلما أضاف التحريم إلى إسرائيل دل هذا على أن ذلك كان بالاجتهاد وهو كما يقال: الشافعي يحلل لهم الخيل وأبو حنيفة يحرمه بمعنى أن اجتهاده أدى إليه فكذا هاهنا.

الثالث: يحتمل أن التحريم في شرعه كالنذر في شرعنا، فكما يجب علينا الوفاء بالنذر كان يجب في شرعه الوفاء بالتحريم.

واعلم أن هذا لو كان فإنه كان مختصًا بشرعه، أما في شرعنا فهو غير ثابت قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]، الرابع: قال الأصم: لعل نفسه كانت مائلة إلى أكل تلك الأنواع فامتنع من أكلها قهرًا للنفس وطلبًا لمرضاة الله تعالى، كما يفعله كثير من الزهاد فعبر عن ذلك الامتناع بالتحريم، الخامس: قال قوم من المتكلمين أنه يجوز من الله تعالى أن يقول لعبده: احكم فإنك لا تحكم إلا بالصواب فلعل هذه الواقعة كانت من هذا الباب، وللمتكلمين في هذه المسألة منازعات كثيرة ذكرناها في أصول الفقه.

المسألة الثالثة: ظاهر هذه الآية يدل على أن الذي حرمه إسرائيل على نفسه فقد حرمه الله على بني إسرائيل، وذلك لأنه تعالى قال: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فحكم بحل كل أنواع المطعومات لبني إسرائيل، ثم استثنى عنه ما حرمه إسرائيل على نفسه، فوجب بحكم الاستثناء أن يكون ذلك حرامًا على بني إسرائيل، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ فالمعنى أن قبل نزول التوراة كان حلاً لبني إسرائيل كل أنواع المطعومات سوى ما حرّمه إسرائيل على نفسه، أما بعد التوراة فلم يبق كذلك بل حرم الله تعالى عليهم أنواعًا كثيرة، روي أن بني إسرائيل كانوا إذا أتوا بذنب عظيم حرم الله عليهم نوعًا من أنواع الطعام، أو سلّط عليهم شيئًا لهلاك أو مضرة، دليله قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وهذا يدل على أن القوم نازعوا رسول الله ﷺ، إما لأنهم ادعوا أن تحريم هذه الأشياء كان موجودًا من لدن آدم عليه السلام إلى هذا الزمان، فكذبهم رسول الله ﷺ في ذلك، وإما لأن الرسول ﷺ ادعى كون هذه المطعومات

مباحة في الزمان القديم، وأنها إنما حرمت بسبب أن إسرائيل حرمها على نفسه، فنازعوه في ذلك، فطلب الرسول عليه السلام إحضار التوراة ليستخرج منها المسلمون من علماء أهل الكتاب آية موافقة لقول الرسول، وعلى كلا الوجهين، فالتفسير ظاهر، ولمنكري القياس أن يحتجوا بهذه الآية، وذلك لأن الرسول عليه السلام طالبهم فيما ادعوه بكتاب الله، ولو كان القياس حجة لكان لهم أن يقولوا: لا يلزم من عدم هذا الحكم في التوراة عدمه، لأنا نثبته بالقياس، ويمكن أن يجاب عنه بأن النزاع ما وقع في حكم شرعي، وإنما وقع في أن هذا الحكم، هل كان موجودًا في زمان إبراهيم ونوح وسائر الأنبياء عليهم السلام أم لا؟ ومثل هذا لا يمكن إثباته إلا بالنص، فلهذا المعنى طالبهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه، بنص التوراة.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ الافتراء اختلاق الكذب، والفرية الكذب والقذف، وأصله من فرى الأديم، وهو قطعه، فقيل للكذب افتراء، لأن الكاذب يقطع به في القول من غير تحقيق في الوجود.

ثم قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد ظهور الحجة بأن التحريم إنما كان من جهة يعقوب، ولم يكن محرمًا قبله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المستحقون لعذاب الله لأن كفرهم ظلم منهم لأنفسهم ولمن أضلوه عن الدين.

ثم قال تعالى: ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ﴾ ويحتمل وجوهًا:

احدها: ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ﴾ في أن ذلك النوع من الطعام صار حرامًا على إسرائيل وأولاده بعد أن كان حلالاً لهم، فصح القول بالنسخ، وبطلت شبهة اليهود.

وثانيها: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُۗ﴾ في قوله إن لحوم الإبل وألبانها كانت محللة لإبراهيم عليه السلام وإنما حرمت على بني إسرائيل لأن إسرائيل حرمها على نفسه، فثبت أن محمدًا ﷺ لما أفتى بحل لحوم الإبل وألبانها، فقد أفتى بملة إبراهيم.

وثالثها: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُۗ﴾ في أن سائر الأطعمة كانت محللة لبني إسرائيل وأنها إنما حرمت على اليهود جزاءً على قبائح أفعالهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ أي اتبعوا ما يدعوكم إليه محمد صلوات الله عليه من ملة إبراهيم، وسواء قال: ملة إبراهيم حنيفًا، أو قال: ملة إبراهيم الحنيف لأن الحال والصفة سواء في المعنى.

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: لم يدع مع الله إلها آخر، ولا عبد سواه، كما فعله بعضهم من عبادة الشمس والقمر، أو كما فعله العرب من عبادة الأوثان، أو كما فعله اليهود من ادعاء أن عزيرًا ابن الله، وكما فعله النصارى من ادعاء أن المسيح ابن الله، والغرض منه بيان أن محمدًا صلوات الله عليه على دين إبراهيم عليه السلام، في الفروع والأصول.

أما في الفروع، فلما ثبت أن الذي حكم بحله كان إبراهيم قد حكم بحله أيضًا، وأما في

الأصول فلأن محمدًا صلوات الله وسلامه عليه لا يدعو إلا إلى التوحيد، والبراءة عن كل معبود سوى الله تعالى وما كان إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه إلا على هذا الدين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

في اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه: الأول: أن المراد منه الجواب عن شبهة أخرى من شبه اليهود في إنكار نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام، وذلك لأنه عليه السلام لما حول القبلة إلى الكعبة طعن اليهود في نبوته، وقالوا: إن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال، وذلك لأنه وضع قبل الكعبة، وهو أرض المحشر، وقبلة جملة الأنبياء، وإذا كان كذلك كان تحويل القبلة منه إلى الكعبة باطلاً، فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ فبيّن تعالى أن الكعبة أفضل من بيت المقدس وأشرف، فكان جعلها قبلة أولى، والثاني: أن المقصود من الآية المتقدمة بيان أن النسخ هل يجوز أم لا؟ فإن النبي ﷺ استدل على جوازه بأن الأطعمة كانت مباحة لبني إسرائيل، ثم إن الله تعالى حرم بعضها، والقوم نازعوا رسول الله ﷺ فيه، وأعظم الأمور التي أظهر رسول الله نسخها هو القبلة، لا جرم ذكر تعالى في هذه الآية بيان ما لأجله حولت القبلة إلى الكعبة، وهو كون الكعبة أفضل من غيرها، الثالث: أنه تعالى لما قال في الآية المتقدمة: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥] وكان من أعظم شعار ملة إبراهيم الحج، ذكر في هذه الآية فضيلة البيت، ليفرع عليه إيجاب الحج، الرابع: أن اليهود والنصارى زعم كل فرقة منهم أنه على ملة إبراهيم، وقد سبقت هذه المناظرة في الآيات المتقدمة، فإن الله تعالى بيّن كذبهم، من حيث إن حج الكعبة كان ملة إبراهيم واليهود والنصارى لا يحجون، فيدل هذا على كذبهم في ذلك، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال المحققون: الأول: هو الفرد السابق، فإذا قال: أول عبد أشتريه فهو حر فلو اشترى عبدين في المرة الأولى لم يعتق أحد منهما لأن الأول هو الفرد، ثم لو اشترى في المرة الثانية عبدًا واحدًا لم يعتق، لأن شرط الأول كونه سابقًا فثبت أن الأول هو الفرد السابق.

إذا عرفت هذا فنقول: إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ لا يدل على أنه أول بيت خلقه الله تعالى، ولا أنه أول بيت ظهر في الأرض، بل ظاهر الآية يدل على أنه أول بيت وضع للناس، وكونه موضوعًا للناس يقتضي كونه مشتركًا فيه بين جميع الناس، فأما سائر البيوت فيكون كل واحد منها مختصًا بواحد من الناس، فلا يكون شيء من البيوت موضوعًا للناس، وكون البيت مشتركًا فيه بين كل الناس، لا يحصل إلا إذا كان البيت موضوعًا للطاعات والعبادات وقبلة للخلق، فدل قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ على أن هذا البيت

وضعه الله موضعًا للطاعات والخيرات والعبادات فيدخل فيه كون هذا البيت قبلة للصلوات، وموضعًا للحج، ومكانًا يزداد ثواب العبادات والطاعات فيه.

فإن قيل: كونه أولاً في هذا الوصف يقتضي أن يكون له ثان، وهذا يقتضي أن يكون بيت المقدس يشاركه في هذه الصفات التي منها وجوب حجه، ومعلوم أنه ليس كذلك.

والجواب: من وجهين: الأول: أن لفظ (الأول): في اللغة اسم للشيء الذي يوجد ابتداء، سواء حصل عقيبه شيء آخر، أو لم يحصل، يقال: هذا أول قدومي مكة، وهذا أول مال أصبته، ولو قال: أول عبد ملكته فهو حر فملك عبدًا عتق وإن لم يملك بعده عبدًا آخر، فكذا هنا، والثاني: أن المراد من قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي: أول بيت وضع لطاعات الناس وعباداتهم وبيت المقدس يشاركه في كونه بيتًا موضوعًا للطاعات والعبادات، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: «**لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَالْمَسْجِدِ الأَقْصَى، وَمَسْجِدِي هَذَا**» فهذا القدر يكفي في صدق كون الكعبة أول بيت وضع للناس، وأما أن يكون بيت المقدس مشاركًا له في جميع الأمور حتى في وجوب الحج، فهذا غير لازم، والله أعلم.

المسألة الثانية: اعلم أن قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ يحتمل أن يكون المراد كونه أولاً في الوضع والبناء، وأن يكون المراد كونه أولاً في كونه مباركًا وهدًى فحصل للمفسرين في تفسير هذه الآية قولان؛ الأول: أنه أول في البناء والوضع، والذاهبون إلى هذا المذهب لهم أقوال؛ أحدها: ما روى الواحدي رحمه الله تعالى في (البسيط) بإسناده عن مجاهد أنه قال: خلق الله تعالى هذا البيت قبل أن يخلق شيئًا من الأرضين، وفي رواية أخرى: خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئًا من الأرض بألفي سنة، وإن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى وروي أيضًا عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليهم أجمعين عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ تعالى بَعَثَ مَلاَئِكَةً، فَقَالَ: ابْنُوا لِي فِي الأَرْضِ بَيْتًا عَلَى مِثَالِ البَيْتِ المَعْمُورِ وَأَمَرَ اللهُ تعالى مَنْ فِي الأَرْضِ أَنْ يَطُوفُوا بِهِ كَمَا يَطُوفُ أَهْلُ السَّمَاءِ بِالْبَيْتِ المَعْمُورِ وَهَذَا كَانَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ**»(١).

وأيضًا ورد في سائر كتب التفسير عن عبد الله بن عمر، ومجاهد والسدي: أنه أول بيت وضع على وجه الماء عند خلق الأرض والسماء، وقد خلقه الله تعالى قبل الأرض بألفي عام وكان زبدة بيضاء على الماء ثم دحيت الأرض تحته، قال القفال في (تفسيره): روى حبيب بن

---

(١) إسناده ضعيف جدًا: ذكره ابن حجر في (الإصابة) (٢/ ٣١٧)، وقال: وقال الزبير بن بكار في كتاب النسب حدثني حمزة بن عتبة اللهبي حدثنا محمد بن عمران عن جعفر بن محمد وهو الصادق قال: كنت مع أبي محمد بن علي . . . وذكر قصة معناها أن الذي أخبره بذلك الخضر عليه السلام، والحمودي في (معجم البلدان) (٤/ ٤٦٣) من طريق حمزة بن عتبة . . . بنحوه، وفي إسناده حمزة بن عتبة اللهبي، قال ابن حجر في (اللسان) (٢/ ٣٦٠): هو شيخ للزبير بن بكار لا يعرف وحديثه منكر.

ثابت عن ابن عباس أنه قال: وجد في كتاب في المقام أو تحت المقام «أَنا اللَّهُ ذُو بَكَّةَ وضعتُها يومَ وضعتُ الشمسَ والقمرَ، وحرَّمْتُها يوم وَضَعْتُ هذين الحجرَيْن وحففْتُها بسبعة أملاك حُنَفَاء»، وثانيها: أن آدم صلوات الله عليه وسلامه لما أهبط إلى الأرض شكا الوحشة، فأمره الله تعالى ببناء الكعبة وطاف بها، وبقي ذلك إلى زمان نوح عليه السلام، فلما أرسل الله تعالى الطوفان، رفع البيت إلى السماء السابعة حيال الكعبة، يتعبد عنده الملائكة، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك سوى من دخل من قبل فيه، ثم بعد الطوفان اندرس موضع الكعبة، وبقي مختفيًا إلى أن بعث الله تعالى جبريل صلوات الله عليه إلى إبراهيم عليه السلام ودله على مكان البيت، وأمره بعمارته، فكان المهندس جبريل والبنَّاء إبراهيم والمعين إسماعيل عليهم السلام.

واعلم أن هذين القولين يشتركان في أن الكعبة كانت موجودة في زمان آدم عليه السلام، وهذا هو الأصوب ويدل عليه وجوه؛ الأول: أن تكليف الصلاة كان لازمًا في دين جميع الأنبياء عليهم السلام، بدليل قوله تعالى في سورة مريم: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾[مريم: ٥٨] فدلت الآية على أن جميع الأنبياء عليهم السلام كانوا يسجدون لله والسجدة لا بد لها من قبلة، فلو كانت قبلة شيث وإدريس ونوح عليهم السلام موضعًا آخر سوى القبلة لبطل قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ فوجب أن يقال: إن قبلة أولئك الأنبياء المتقدمين هي الكعبة، فدل هذا على أن هذه الجهة كانت أبدًا مشرفة مكرمة، الثاني: أن الله تعالى سمى مكة أم القرى، وظاهر هذا يقتضي أنها كانت سابقة على سائر البقاع في الفضل والشرف منذ كانت موجودة، الثالث: روي أن النبي ﷺ قال في خطبته يوم فتح مكة: «أَلاَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ والشَّمْسَ وَالْقَمَرَ»(١) وتحريم مكة لا يمكن إلا بعد وجود مكة، الرابع: أن الآثار التي حكيناها عن الصحابة والتابعين دالة على أنها كانت موجودة قبل زمان إبراهيم عليه السلام.

واعلم أن لمن أنكر ذلك أن يحتج بوجوه؛ الأول: ما روي أن النبي ﷺ قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ»(٢) وظاهر هذا يقتضي أن مكة بناء إبراهيم عليه السلام ولقائل أن يقول: لا يبعد أن يقال البيت كان موجودًا قبل إبراهيم وما كان محرمًا ثم حرمه إبراهيم عليه السلام، الثاني: تمسكوا بقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾[البقرة: ١٢٧] ولقائل أن يقول: لعل البيت كان موجودًا قبل ذلك ثم انهدم، ثم أمر الله إبراهيم برفع

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (العلم)، باب: (العلم) (١/ ٢٤٨)، حديث رقم (١١٢)، ومسلم في كتاب (الحج)، باب: (تحريم مكة وصيدها) (٢/ ٩٨٨/٤٤٧)، جميعًا من طريق يحيى بن أبي كثير... به.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٢/ ٩٩١/ ١٣٦٠) من طريق عباد بن تميم عن عمه عبد الله بن زيد بن عاصم... به.

قواعده وهذا هو الوارد في أكثر الأخبار. الثالث: قال القاضي: إن الذي يقال من أنه رُفِعَ زمان الطوفان إلى السماء بعيد، وذلك لأن الموضع الشريف هو تلك الجهة المعينة، والجهة لا يمكن رفعها إلى السماء ألا ترى أن الكعبة والعياذ بالله تعالى لو انهدمت ونقل الأحجار والخشب والتراب إلى موضع آخر لم يكن له شرف البتة، ويكون شرف تلك الجهة باقيًا بعد الانهدام، ويجب على كل مسلم أن يصلي إلى تلك الجهة بعينها، وإذا كان كذلك فلا فائدة في نقل تلك الجدران إلى السماء ولقائل أن يقول: لما صارت تلك الأجسام في العزة إلى حيث أمر الله بنقلها إلى السماء، وإنما حصلت لها هذه العزة بسبب أنها كانت حاصلة في تلك الجهة، فصار نقلها إلى السماء من أعظم الدلائل على غاية تعظيم تلك الجهة وإعزازها، فهذا جملة ما في هذا القول:

القول الثاني: أن المراد من هذه الأولية كون هذا البيت أولاً في كونه مباركًا وهدًى للخلق روي أن النبي عليه الصلاة والسلام سُئِلَ عَنْ أَوَّلِ مَسْجِدٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ، فَقَالَ عليه الصلاة والسلام: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ ثُمَّ بَيْتُ الْمَقْدِسِ»، فَقِيلَ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً»(١) وعن علي رضي الله عنه أن رجلاً قال له: أهو أول بيت؟ قال: لا قد كان قبله بيوت ولكنه أول بيت وضع للناس مباركًا فيه الهدى والرحمة والبركة أول من بناه إبراهيم، ثم بناه قوم من العرب من جرهم، ثم هدم فبناه العمالقة، وهم ملوك من أولاد عمليق بن سام بن نوح، ثم هدم فبناه قريش.

واعلم أن دلالة الآية على الأولية في الفضل والشرف أمر لا بد منه، لأن المقصود الأصلي من ذكر هذه الأولية بيان الفضيلة، لأن المقصود ترجيحه على بيت المقدس، وهذا إنما يتم بالأولية في الفضيلة والشرف، ولا تأثير للأولية في البناء في هذا المقصود، إلا أن ثبوت الأولية بسبب الفضيلة لا ينافي ثبوت الأولية في البناء، وقد دللنا على ثبوت هذا المعنى أيضًا.

المسألة الثالثة: إذا ثبت أن المراد من هذه الأولية زيادة الفضيلة والمنقبة فلنذكر هاهنا وجوه فضيلة البيت:

الأول: اتفقت الأمم على أن باني هذا البيت هو الخليل عليه السلام، وباني بيت المقدس سليمان عليه السلام، ولا شك أن الخليل أعظم درجة وأكثر منقبة من سليمان عليه السلام فمن هذا الوجه يجب أن تكون الكعبة أشرف من بيت المقدس.

واعلم أن الله تعالى أمر الخليل عليه السلام بعمارة هذا البيت، فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (أحاديث الأنبياء)، باب رقم (١٠) (٦/ ٤٦٩)، حديث رقم (٣٣٦٦) من طريق عبد الواحد... به، والإمام مسلم في كتاب (المساجد ومواضع الصلاة)، باب: (المساجد ومواضع الصلاة) (١/ ٢/ ٣٧٠) من طريق علي بن مسهر... به، كلاهما (عبد الواحد، علي بن مسهر) عن الأعمش... به.

والمبلغ لهذا التكليف هو جبريل عليه السلام، فلهذا قيل: ليس في العالم بناء أشرف من الكعبة، فالآمر هو الملك الجليل والمهندس هو جبريل، والباني هو الخليل، والتلميذ إسماعيل عليهم السلام.

الفضيلة الثانية لهذا البيت: ﴿مَقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهو الحجر الذي وضع إبراهيم قدمه عليه فجعل الله ما تحت قدم إبراهيم عليه السلام من ذلك الحجر دون سائر أجزائه كالطين حتى غاص فيه قدم إبراهيم عليه السلام، وهذا مما لا يقدر عليه إلا الله ولا يظهره إلا على الأنبياء، ثم لما رفع إبراهيم قدمه عنه خلق فيه الصلابة الحجرية مرة أخرى، ثم إنه تعالى أبقى ذلك الحجر على سبيل الاستمرار والدوام فهذه أنواع من الآيات العجيبة والمعجزات الباهرة أظهرها الله سبحانه في ذلك الحجر.

الفضيلة الثالثة: قلة ما يجتمع فيه من حصى الجمار، فإنه منذ آلاف سنة وقد يبلغ من يرمي في كل سنة ستمائة ألف إنسان كل واحد منهم سبعين حصاة، ثم لا يرى هناك إلا ما لو اجتمع في سنة واحدة لكان غير كثير وليس الموضع الذي ترمي إليه الجمرات مسيل ماء ولا مهب رياح شديدة وقد جاء في الآثار أن من كانت حجته مقبولة رفعت حجارة جمراته إلى السماء.

الفضيلة الرابعة: إن الطيور تترك المرور فوق الكعبة عند طيرانها في الهواء بل تنحرف عنها إذا ما وصلت إلى ما فوقها.

الفضيلة الخامسة: أن عنده يجتمع الوحش لا يؤذي بعضها بعضًا كالكلاب والظباء، ولا يصطاد فيه الكلاب والوحوش وتلك خاصية عجيبة وأيضًا كل من سكن مكة أمن من النهب والغارة وهو بركة دعاء إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾[البقرة: ١٢٦] وقال تعالى في صفة أمنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[العنكبوت: ٦٧] وقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾[قريش: ٣، ٤] ولم ينقل البتة أن ظالمًا هدم الكعبة وخرب مكة بالكلية؛ وأما بيت المقدس فقد هدمه بختنصر بالكلية.

الفضيلة السادسة: أن صاحب الفيل وهو أبرهة الأشرم لما قاد الجيوش والفيل إلى مكة لتخريب الكعبة وعجز قريش عن مقاومة أولئك الجيوش وفارقوا مكة وتركوا له الكعبة فأرسل الله عليهم طيرًا أبابيل، والأبابيل هم الجماعة من الطير بعد الجماعة، وكانت صغارًا تحمل أحجارًا ترميهم بها فهلك الملك وهلك العسكر بتلك الأحجار مع أنها كانت في غاية الصغر، وهذه آية باهرة دالة على شرف الكعبة وإرهاص لنبوّة محمد عليه الصلاة والسلام.

فإن قال قائل: لم لا يجوز أن يقال: إن كل ذلك بسبب طلسم موضوع هناك بحيث لا يعرفه أحد فإن الأمر في تركيب الطلسمات مشهور.

قلنا: لو كان هذا من باب الطلسمات لكان هذا طلسمًا مخالفًا لسائر الطلسمات فإنه لم يحصل لشيء سوى الكعبة مثل هذا البقاء الطويل في هذا المدة العظيمة، ومثل هذا يكون من

المعجزات، فلا يتمكن منها سوى الأنبياء.

الفضيلة السابعة: أن الله تعالى وضعها بواد غير ذي زرع، والحكمة من وجوه: أحدها: إنه تعالى قطع بذلك رجاء أهل حرمه وسدنة بيته عمن سواه حتى لا يتوكلوا إلا على الله، وثانيها: أنه لا يسكنها أحد من الجبابرة والأكاسرة فإنهم يريدون طيبات الدنيا فإذا لم يجدوها هناك تركوا ذلك الموضع، فالمقصود تنزيه ذلك الموضع عن لوث وجود أهل الدنيا، وثالثها: أنه فعل ذلك لئلا يقصدها أحد للتجارة بل يكون ذلك لمحض العبادة والزيارة فقط، ورابعها: أظهر الله تعالى بذلك شرف الفقر حيث وضع أشرف البيوت في أقل المواضع نصيبًا من الدنيا، فكأنه قال: جعلت الفقراء في الدنيا أهل البلد الأمين، فكذلك أجعلهم في الآخرة أهل المقام الأمين، لهم في الدنيا بيت الأمن وفي الآخرة دار الأمن، وخامسها: كأنه قال: لما لم أجعل الكعبة إلا في موضع خال عن جميع نعم الدنيا فكذا لا أجعل كعبة المعرفة إلا في كل قلب خال عن محبة الدنيا، فهذا ما يتعلق بفضائل الكعبة، وعند هذا ظهر أن هذا البيت أول بيت وضع للناس في أنواع الفضائل والمناقب، وإذا ظهر هذا بطل قول اليهود: إن بيت المقدس أشرف من الكعبة والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لا شك أن المراد من (بكة) هو مكة ثم اختلفوا فمنهم من قال: بكة ومكة اسمان لمسمى واحد، فإن الباء والميم حرفان متقاربان في المخرج فيقام كل واحد منهما مقام الآخر فيقال: هذه ضربة لازم، وضربة لازب، ويقال: هذا دائم ودائب، ويقال: راتب وراتم، ويقال: سمد رأسه، وسبده، وفي اشتقاق بكة وجهان؛ الأول: أنه من البك الذي هو عبارة عن دفع البعض بعضًا، يقال: بكه يبكه بكًّا إذا دفعه وزحمه، وتَبَاكَّ القوم إذا ازدحموا فلهذا قال سعيد بن جبير: سميت مكة بكة لأنهم يتباكُّون فيها أي: يزدحمون في الطواف، وهو قول محمد بن علي الباقر ومجاهد وقتادة، قال بعضهم: رأيت محمد بن علي الباقر يصلي فمرت امرأة بين يديه فذهبت أدفعها فقال: دعها فإنها سميت بكة لأنه يبك بعضهم بعضًا، تمر المرأة بين يدي الرجل وهو يصلي، والرجل بين يدي المرأة وهي تصلي لا بأس بذلك في هذا المكان.

الوجه الثاني: سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة لا يريدها جبار بسوء إلا اندقت عنقه قال قطرب: تقول العرب بككت عنقه أبكُّه بكًّا إذا وضعت منه ورددت نخوته.

وأما مكة ففي اشتقاقها وجوه: الأول: أن اشتقاقها من أنها تمك الذنوب أي: تزيلها كلها، من قولك: امتَكَّ الفصيلُ ضرعَ أمه، إذا امتص ما فيه، الثاني: سميت بذلك لاجتلابها الناس من كل جانب من الأرض، يقال أمتك الفصيل، إذا استقصى ما في الضرع، ويقال تمككت العظم، إذا استقصيت ما فيه، الثالث: سميت مكة، لقلة مائها، كأن أرضها امتكت ماءها، الرابع: قيل: إن مكة وسط الأرض، والعيون والمياه تنبع من تحت مكة، فالأرض كلها تمكُّ من ماء مكة،

ومن الناس من فرّق بين مكة وبكة، فقال بعضهم: إن بكة اسم للمسجد خاصة، وأما مكة، فهو اسم لكل البلد، قالوا: والدليل عليه أن اشتقاق بكة من الازدحام والمدافعة، وهذا إنما يحصل في المسجد عند الطواف، لا في سائر المواضع، وقال الأكثرون: مكة اسم للمسجد والمطاف. وبكة اسم البلد، والدليل عليه أن قوله تعالى: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ يدل على أن البيت حاصل في بكة ومظروف في بكة فلو كان بكة اسمًا للبيت لبطل كون بكة ظرفًا للبيت، أما إذا جعلنا بكة اسمًا للبلد، استقام هذا الكلام.

المسألة الثانية: لمكة أسماء كثيرة، قال القفال رحمه الله في (تفسيره): مكة وبكة وأم رحم وكويساء والبشاشة والحاطمة تحطم من استخف بها، وأم القرى قال تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢] وسميت بهذا الاسم لأنها أصل كل بلدة ومنها دحيت الأرض، ولهذا المعنى يزار ذلك الموضع من جميع نواحي الأرض.

المسألة الثالثة: للكعبة أسماء؛ أحدها: الكعبة قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٩٧] والسبب فيه أن هذا الاسم يدل على الإشراف والارتفاع، وسمي الكعب كعبًا لإشرافه وارتفاعه على الرسغ، وسميت المرأة الناهدة الثديين كاعبًا، لارتفاع ثديها، فلما كان هذا البيت أشرف بيوت الأرض وأقدمها زمانًا، وأكثرها فضيلة سمي بهذا الاسم، وثانيها: البيت العتيق: قال تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣] وقال: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩] وفي اشتقاقه وجوه؛ الأول: العتيق هو القديم، وقد بينا أنه أقدم بيوت الأرض بل عند بعضهم أن الله خلقه قبل الأرض والسماء، والثاني: أن الله أعتقه من الغرق حيث رفعه إلى السماء، الثالث: من عتق الطائر إذا قوي في وكره، فلما بلغ في القوة إلى حيث أن كل من قصد تخريبه أهلكه الله سمي عتيقًا، الرابع: أن الله أعتقه من أن يكون ملكًا لأحد من المخلوقين، الخامس: أنه عتيق بمعنى أن كل من زاره أعتقه الله تعالى من النار، وثالثها: المسجد الحرام قال سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١] والمراد من كونه حرامًا سيجيء إن شاء الله في تفسير هذه الآية.

فإن قال قائل: كيف الجمع بين قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ وبين قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦] فأضافه مرة إلى نفسه ومرة إلى الناس؟

والجواب: كأنه قيل: البيت لي ولكن وضعته لا لأجل منفعتي فإني منزّه عن الحاجة ولكن وضعته لك ليكون قبلة لدعائك، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

واعلم أنه تعالى وصف هذا البيت بأنواع الفضائل، فأولها: أنه أول بيت وضع للناس، وقد ذكرنا معنى كونه أولاً في الفضل ونزيد هاهنا وجوهًا أُخر؛ الأول: قال علي رضي الله عنه، هو أول بيت خص بالبركة، وبأن من دخله كان آمنًا، وقال الحسن: هو أول مسجد عبد الله فيه في

الأرض، وقال مطرف أول بيت جُعل قبلة وثانيها: أنه تعالى وصفه بكونه مباركًا، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: انتصب (مُبَارَكًا) على الحال والتقدير الذي استقر هو ببكة مباركًا.

المسألة الثانية: البركة لها معنيان أحدهما: النمو والتزايد، والثاني: البقاء والدوام، يقال تبارك الله، لثبوته لم يزل ولا يزال، والبِرْكة شبه الحوض لثبوت الماء فيها، وبرك البعير إذا وضع صدره على الأرض وثبت واستقر، فإن فسرنا البركة بالتزايد والنمو فهذا البيت مبارك من وجوه؛ أحدها: أن الطاعات إذا أتى بها في هذا البيت ازداد ثوابها. قال ﷺ: «فَضْلُ المَسْجِدِ الحَرَامِ عَلَى مَسْجِدِي كَفَضْلُ مَسْجِدِي عَلَى سَائِرِ المَسَاجِدِ»(١) ثم قال ﷺ: «صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ»(٢) فهذا في الصلاة، وأما الحج، فقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ حَجَّ ولَمْ يَرْفُثْ، ولم يَفسُق، خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْم وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»(٣) وفي حديث آخر: «الحَجُّ المَبْرُورُ لَيسَ لَهُ جَزَاءٌ إلاَّ الجَنَّةَ»(٤) ومعلوم أنه لا أكثر بركة مما يجلب المغفرة والرحمة وثانيها: قال القفال رحمه الله تعالى: ويجوز أن يكون بركته ما ذكر في قوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ

(١) أخرجه الأزرقي في (أخبار مكة) (٢/ ٢٩٦)، حديث رقم (٦٦٦) من طريق مسلم بن خالد، عن خلاد بن عطاء، عن عطاء بن أبي رباح، قال: سمعت ابن الزبير، يقول: قال رسول الله ﷺ: (فضل المسجد الحرام على مسجدي هذا مائة صلاة)، قال خلاد: فلقيت عمرو بن شعيب، فقلت: إن عطاء بن أبي رباح أخبرني أن ابن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ (فضل المسجد الحرام على مسجدي مائة صلاة)، فقال عمرو بن شعيب: أوهم عطاء، إنما قال رسول الله، ﷺ: (وفضل المسجد الحرام على مسجدي كفضل مسجدي على المساجد).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (فضل الصلاة)، باب: (فضل الصلاة في مسجدي مكة والمدينة) (٣/ ٨٣)، حديث رقم (١١٩٠) من طريق زيد بن رباح وعبيد الله بن أبي عبد الله الأغر... به، والترمذي في كتاب (الصلاة)، باب: (في أي المساجد أفضل) (٢/ ١٤٧)، حديث رقم (٣٢٥) من طريق البخاري وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في كتاب (الصلاة)، باب: (فضل الصلاة في المسجد) (١/ ٤٥٠)، حديث رقم (١٤٠٤) من طريق البخاري... به، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٥٦/ ٤٧٣) من طريق محمد بن عمرو... به، والدارمي في كتاب (الصلاة)، باب: (فضل الصلاة في مسجد النبي ﷺ) (١/ ٣٥٤/ ٣٥٥)، حديث رقم (١٤١٨)، جميعًا (محمد بن عمرو، زيد بن رباح، عبيد الله، أبو بكر) عن أبي عبد الله الأغر... به، وأخرجه مسلم في كتاب (الحج)، باب: (فضل الصلاة بمكة والمدينة) (٢/ ٥٠٥/ ١٠١٢)، وابن ماجه في كتاب (الصلاة)، باب: (فضل الصلاة في المسجد الحرام والحرم النبوي) (١/ ٤٥٠)، حديث رقم (١٤٠٤)، والدارمي في كتاب (الصلاة)، باب: (فضل الصلاة في مسجد النبي ﷺ) (١/ ٣٥٥)، حديث رقم (١٤٢٠)، والحميدي في (مسنده) (٢)، حديث رقم (٩٤٠)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٣٩)، جميعًا من طريق سفيان بن عيينة... به. كلاهما (سلمان الأغر، سعيد بن المسيب) عن أبي هريرة رضي الله عنه... به.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (المحصر)، باب: (قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ [البقرة:١٩٧]) (٤/ ٢٥)، حديث رقم (١٨١٩) من طريق شعبة... به، ومسلم في كتاب (الحج)، باب: (في فضل الحج والعمرة) (٢/ ٢٣٨/ ٩٨٣) من طريق جرير... به، كلاهما عن منصور... به.

(٤) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الحج)، باب: (وجوب العمرة وفضلها) (٢/ ٦٢٩)، حديث رقم (١٦٨٣)، ومسلم في (صحيحه) (٢/ ٩٨٣)، حديث رقم (١٣٤٩)، كلاهما من طريق أبي صالح السمان عن أبي هريرة... به.

شَيْءٍ﴾[القصص: ٥٧] فيكون كقوله: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[الإسراء: ١]، وثالثها: أن العاقل يجب أن يستحضر في ذهنه أن الكعبة كالنقطة وليتصور أن صفوف المتوجهين إليها في الصلوات كالدوائر المحيطة بالمركز، وليتأمل كم عدد الصفوف المحيطة بهذه الدائرة حال اشتغالهم بالصلاة، ولا شك أنه يحصل فيما بين هؤلاء المصلين أشخاص أرواحهم علوية، وقلوبهم قدسية وأسرارهم نورانية وضمائرهم ربانية ثم إن تلك الأرواح الصافية إذا توجهت إلى كعبة المعرفة وأجسادهم توجهت إلى هذه الكعبة الحسيّة فمن كان في الكعبة يتصل أنوار أرواح أولئك المتوجهين بنور روحه، فتزداد الأنوار الإلهية في قلبه، ويعظم لمعان الأضواء الروحانية في سره وهذا بحر عظيم ومقام شريف، وهو ينبهك على معنى كونه مباركًا. وأما إن فسرنا البركة بالدوام فهو أيضًا كذلك لأنه لا تنفك الكعبة من الطائفين والعاكفين والركع السجود، وأيضًا الأرض كرة، وإذا كان كذلك فكل وقت يمكن أن يفرض فهو صبح لقوم، وظهر لثان وعصر لثالث، ومغرب لرابع وعشاء لخامس، ومتى كان الأمر كذلك لم تكن الكعبة منفكة قط عن توجه قوم إليها من طرف من أطراف العالم لأداء فرض الصلاة، فكان الدوام حاصلاً من هذه الجهة، وأيضًا بقاء الكعبة على هذه الحالة ألوفًا من السنين دوام أيضًا فثبت كونه مباركًا من الوجهين.

الصفة الثالثة: من صفات هذا البيت كونه (هدى للعالمين).

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قيل: المعنى أنه قبلة للعالمين يهتدون به إلى جهة صلاتهم، وقيل: هدًى للعالمين أي: دلالة على وجود الصانع المختار، وصدق محمد ﷺ في النبوّة بما فيه من الآيات التي ذكرناها والعجائب التي حكيناها فإن كل ما يدل على النبوة فهو بعينه يدل أولاً على وجود الصانع، وجميع صفاته من العلم والقدرة والحكمة والاستغناء، وقيل: هدًى للعالمين إلى الجنة لأن من أدى الصلوات الواجبة إليها استوجب الجنة.

المسألة الثانية: قال الزجاج: المعنى: وذا هدًى للعالمين، قال: ويجوز أن يكون ﴿وَهُدًى﴾ في موضع رفع على معنى وهو هدى.

أما قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾.

ففيه قولان:

الأول: أن المراد ما ذكرناه من الآيات التي فيه وهي: أمن الخائف، وانمحاق الجمار على كثرة الرمي، وامتناع الطير من العلو عليه واستشفاء المريض به وتعجيل العقوبة لمن انتهك فيه حرمة، وإهلاك أصحاب الفيل لما قصدوا تخريبه فعلى هذا تفسير الآيات وبيانها غير مذكور.

وقوله: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ لا تعلق له بقوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ فكأنه تعالى قال: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ ومع ذلك فهو مقام إبراهيم ومقره والموضع الذي اختاره وعبد الله فيه، لأن كل ذلك من

الخلال التي بها يشرف ويعظم.

القول الثاني: أن تفسير الآيات مذكور، وهو قوله: ﴿مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: هي مقام إبراهيم. فإن قيل: الآيات جماعة ولا يصح تفسيرها بشيء واحد، أجابوا عنه من وجوه؛ الأول: أن مقام إبراهيم بمنزلة آيات كثيرة، لأن ما كان معجزة لرسول الله ﷺ، فهو دليل على وجود الصانع، وعلمه وقدرته وإرادته وحياته، وكونه غنيًا منزهًا مقدسًا عن مشابهة المحدثات فمقام إبراهيم وإن كان شيئًا واحدًا إلا أنه لما حصل فيه هذه الوجوه الكثيرة كان بمنزلة الدلائل كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل: ١٢٠]، الثاني: أن مقام إبراهيم اشتمل على الآيات، لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخرة دون بعض آية، لأنه لان من الصخرة ما تحت قدميه فقط، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية خاصة لإبراهيم عليه السلام وحفظه مع كثرة أعدائه من اليهود والنصارى والمشركين والملحدين ألوف سنين فثبت أن مقام إبراهيم عليه السلام آيات كثيرة، الثالث: قال الزجاج إن قوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ من بقية تفسير الآيات، كأنه قيل: فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله، ولفظ الجمع قد يستعمل في الاثنين، قال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] وقال عليه السلام: «الاثْنَانِ فَمَا فَوْقَهُمَا جَمَاعَةٌ» ومنهم من تمم الثلاثة فقال: مقام إبراهيم، وأن من دخله كان آمنًا، وأن لله على الناس حجه، ثم حذف (أن) اختصارًا، كما في قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩] أي: أمر ربي بأن تقسطوا، الرابع: يجوز أن يذكر هاتان الآيتان ويطوي ذكر غيرهما دلالة على تكاثر الآيات، كأنه قيل فيه آيات بينات مقام إبراهيم، وأمن من دخله، وكثير سواهما، الخامس: قرأ ابن عباس ومجاهد وأبو جعفر المدني في رواية قتيبة (آيَةٌ بَيِّنَةٌ) على التوحيد، السادس: قال المبرّد (مَقَام) مصدر فلم يجمع كما قال: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] والمراد مقامات إبراهيم، وهي ما أقامه إبراهيم عليه السلام من أمور الحج وأعمال المناسك ولا شك أنها كثيرة وعلى هذا فالمراد بالآيات شعائر الحج كما قال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ [الحج: ٣٢]

ثم قال تعالى: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾

وفيه أقوال:

أحدها: أنه لما ارتفع بنيان الكعبة، وضعف إبراهيم عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه، والثاني: أنه جاء زائرًا من الشام إلى مكة، وكان قد حلف لامرأته أن لا ينزل بمكة حتى يرجع، فلما وصل إلى مكة قالت له أم إسماعيل: انزل حتى نغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءته بهذا الحجر فوضعته على الجانب الأيمن، فوضع قدمه عليه حتى غسلت أحد جانبي رأسه، ثم حولته إلى الجانب الأيسر، حتى غسلت الجانب الآخر، فبقي أثر قدميه عليه، والثالث: أنه هو الحجر الذي قام إبراهيم عليه عند الأذان بالحج، قال القفال رحمه الله:

ويجوز أن يكون إبراهيم قام على ذلك الحجر في هذه المواضع كلها.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ ولهذه الآية نظائر: منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧] وقال إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] وقال تعالى: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٤] قال أبو بكر الرازي: لما كانت الآيات المذكورة عقيب قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ موجودة في الحرم ثم قال: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ وجب أن يكون مراده جميع الحرم، وأجمعوا على أنه لو قتل في الحرم فإنه يستوفي القصاص منه في الحرم وأجمعوا على أن الحرم لا يفيد الأمان فيما سوى النفس، إنما الخلاف فيما إذا وجب القصاص عليه خارج الحرم فالتجأ إلى الحرم فهل يستوفى منه القصاص في الحرم؟ قال الشافعي: يستوفى، وقال أبو حنيفة: لا يستوفى، بل يمنع منه الطعام والشراب والبيع والشراء والكلام حتى يخرج، ثم يستوفى منه القصاص، والكلام في هذه المسألة قد تقدم في تفسير قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] واحتج أبو حنيفة رضي الله عنه بهذه الآية، فقال: ظاهر الآية الاخبار عن كونه آمنًا، ولكن لا يمكن حمله عليه إذ قد لا يصير آمنًا فيقع الخلف في الخبر، فوجب حمله على الأمر ترك العمل به في الجنايات التي دون النفس، لأن الضرر فيها أخف من الضرر في القتل، وفيما إذا وجب عليه القصاص لجناية أتى بها في الحرم، لأنه هو الذي هتك حرمة الحرم، فيبقى في محل الخلاف على مقتضى ظاهر الآية.

والجواب: أن قوله ﴿كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ إثبات لمسمى الأمن، ويكفي في العمل به إثبات الأمن من بعض الوجوه، ونحن نقول به وبيانه من وجوه: الأول: أن من دخله للنسك تقربًا إلى الله تعالى كان آمنًا من النار يوم القيامة، قال النبي عليه السلام: «**مَنْ مَاتَ فِي أَحَدِ الحَرَمَينِ بُعِثَ يَومَ القِيامَةِ آمِنًا**» وقال أيضًا: «**مَنْ صَبَرَ عَلَى حَرِّ مكةَ سَاعةً من نَهَارٍ تَبَاعَدَتْ عَنْهُ جَهَنَّمُ مَسِيرَةَ مِائَتَيْ عَام**» وقال: «**مَنْ حَجَّ وَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يفسقْ خَرَجَ من ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّه**»، والثاني: يحتمل أن يكون المراد ما أودع الله في قلوب الخلق من الشفقة على كل من التجأ إليه ودفع المكروه عنه، ولما كان الأمر واقعًا على هذا الوجه في الأكثر أخبر بوقوعه على هذا الوجه مطلقًا وهذا أولى مما قالوه لوجهين؛ الأول: أنا على هذا التقدير لا نجعل الخبر قائمًا مقام الأمر وهم جعلوه قائمًا مقام الأمر، والثاني: أنه تعالى إنما ذكر هذا لبيان فضيلة البيت وذلك إنما يحصل بشيء كان معلومًا للقوم حتى يصير ذلك حجة على فضيلة البيت، فأما الحكم الذي بيّنه الله في شرع محمد عليه السلام فإنه لا يصير ذلك حجة على اليهود والنصارى في إثبات فضيلة الكعبة.

الوجه الثالث: في تأويل الآية: أن المعنى من دخله عام عمرة القضاء مع النبي ﷺ كان آمنًا لأنه تعالى قال: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، الرابع: قال الضحاك: من حج حجة كان آمنًا من الذنوب التي اكتسبها قبل ذلك.

واعلم أن طرق الكلام في جميع هذه الأجوبة شيء واحد، وهو أن قوله ﴿كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ حكم بثبوت الأمن وذلك يكفي في العمل به إثبات الأمن من وجه واحد وفي صورة واحدة فإذا حملناه على بعض هذه الوجوه فقد عملنا بمقتضى هذا النص فلا يبقى للنص دلالة على ما قالوه، ثم يتأكد ذلك بأن حمل النص على هذا الوجه لا يفضي إلى تخصيص النصوص الدالة على وجوب القصاص وحمله على ما قالوه يفضي إلى ذلك فكان قولنا أولى، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾.

اعلم أنه تعالى لما ذكر فضائل البيت ومناقبه، أردفه بذكر إيجاب الحج.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ بكسر الحاء، والباقون بفتحها، قيل الفتح لغة الحجاز، والكسر لغة نجد وهما واحد في المعنى، وقيل: هما جائزان مطلقًا في اللغة، مثل رَطْل ورِطْل، وبَزْر وبِزْر، وقيل: المكسورة اسم للعمل والمفتوحة مصدر، وقال سيبويه: يجوز أن تكون المكسورة أيضًا مصدرًا، كالذكر والعلم.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ وجوه: الأول: قال الزجاج: موضع (مِنْ) خفض على البدل من (الناس) والمعنى: ولله على من استطاع من الناس حج البيت، الثاني: قال الفرّاء إن نويت الاستئناف بـ(من) كانت شرطًا وأسقط الجزاء لدلالة ما قبله عليه، والتقدير من استطاع إلى الحج سبيلاً فلله عليه حج البيت، الثالث: قال ابن الأنباري: يجوز أن يكون (مِنْ) في موضع رفع على معنى الترجمة للناس، كأنه قيل: من الناس الذين عليهم لله حج البيت؟ فقيل: هم من استطاع إليه سبيلاً.

المسألة الثالثة: اتفق الأكثرون على أن الزاد والراحلة شرطان لحصول الاستطاعة، روى جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ أنه فسّر استطاعة السبيل إلى الحج بوجود الزاد والراحلة، وروى القفال عن جويبر عن الضحاك أنه قال: إذا كان شابًا صحيحًا ليس له مال فعليه أن يؤاجر نفسه حتى يقضي حجه فقال له قائل: أكلف الله الناس أن يمشوا إلى البيت؟ فقال: لو كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه؟ قال: لا بل ينطلق إليه ولو حبوًا، قال: فكذلك يجب عليه حج البيت، عن عكرمة أيضًا أنه قال: الاستطاعة هي صحة البدن، وإمكان المشي إذا لم يجد ما يركبه.

واعلم أن كل من كان صحيح البدن قادرًا على المشي إذا لم يجد ما يركب فإنه يصدق عليه أنه مستطيع لذلك الفعل، فتخصيص هذه الاستطاعة بالزاد والراحلة ترك لظاهر اللفظ فلا بد فيه من دليل منفصل، ولا يمكن التعويل في ذلك على الأخبار المروية في هذا الباب لأنها أخبار آحاد فلا يترك لأجلها ظاهر الكتاب لا سيما وقد طعن محمد بن جرير الطبري في رواة تلك الأخبار،

وطعن فيها من وجه آخر، وهو أن حصول الزاد والراحلة لا يكفي في حصول الاستطاعة، فإنه يعتبر في حصول الاستطاعة صحة البدن وعدم الخوف في الطريق، وظاهر هذه الأخبار يقتضي أن لا يكون شيء من ذلك معتبرًا، فصارت هذه الأخبار مطعونًا فيها من هذا الوجه بل يجب أن يعول في ذلك على ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وقوله ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

المسألة الرابعة: احتج بعضهم بهذه الآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع قالوا: لأن ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ يعم المؤمن والكافر وعدم الإيمان لا يصلح معارضًا ومخصصًا لهذا العموم، لأن الدهري مكلف بالإيمان بمحمد ﷺ مع أن الإيمان بالله الذي هو شرط صحة الإيمان بمحمد عليه السلام غير حاصل والمحدث مكلف بالصلاة مع أن الوضوء الذي هو شرط صحة الصلاة غير حاصل، فلم يكن عدم الشرط مانعًا من كونه مكلفًا بالمشروط، فكذا هاهنا والله أعلم.

المسألة الخامسة: احتج جمهور المعتزلة بهذه الآية على أن الاستطاعة قبل الفعل، فقالوا: لو كانت الاستطاعة مع الفعل لكان من لم يحج مستطيعًا للحج، ومن لم يكن مستطيعًا للحج لا يتناوله التكليف المذكور في هذه الآية فيلزم أن كل من لم يحج أن لا يصير مأمورًا بالحج بسبب هذه الآية وذلك باطل بالاتفاق.

أجاب الأصحاب بأن هذا أيضًا لازم لهم، وذلك لأن القادر إما أن يصير مأمورًا بالفعل قبل حصول الداعي إلى الفعل أو بعد حصوله أما قبل حصول الداعي فمحال، لأن قبل حصول الداعي يمتنع حصول الفعل، فيكون التكليف به تكليف ما لا يطاق، وأما بعد حصول الداعي فالفعل يصير واجب الحصول، فلا يكون في التكليف به فائدة، وإذا كانت الاستطاعة منتفية في الحالين وجب أن لا يتوجه التكليف المذكور في هذه الآية على أحد.

المسألة السادسة: روي أنه لما نزلت هذه الآية قيل: يا رسول الله أكتب الحج علينا في كل عام؟ ذكروا ذلك ثلاثًا، فسكت الرسول ﷺ، ثم قال في الرابعة: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ مَا قُمتم بها، وَلَو لَمْ تَقُومُوا بِهَا لَكَفَرْتُمْ، ألا فَوَادِعونِي ما وَادَعْتُكم وَإذَا أمَرْتُكُمْ بِأمْرٍ فَافْعَلوا مِنْهُ ما اسْتَطَعْتُمْ، وَإذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ أمْرٍ فَانْتَهُوا عَنْهُ، فَإنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلافِهِمْ على أنْبِيائِهِمْ» ثم احتج العلماء بهذا الخبر على أن الأمر لا يفيد التكرار من وجهين:

الأول: أن الأمر ورد بالحج ولم يفد التكرار.

والثاني: أن الصحابة استفهموا أنه هل يوجب التكرار أم لا؟ ولو كانت هذه الصيغة تفيد التكرار لما احتاجوا إلى الاستفهام مع كونهم عالمين باللغة.

المسألة السابعة: استطاعة السبيل إلى الشيء عبارة عن إمكان الوصول إليه، قال تعالى: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١] وقال: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤] وقال: ﴿مَا عَلَى

ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١] فيعتبر في حصول هذا الإمكان صحة البدن، وزوال خوف التلف من السبع أو العدو، وفقدان الطعام والشراب والقدرة على المال الذي يشتري به الزاد والراحلة وأن يقضي جميع الديون ويرد جميع الودائع، وإن وجب عليه الإنفاق على أحد لم يجب عليه الحج إلا إذا ترك من المال ما يكفيهم في المجيء والذهاب، وتفاصيل هذا الباب مذكورة في كتب الفقهاء، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في هذه الآية قولان:

القول الأول: أنها كلام مستقل بنفسه ووعيد عام في حق كل من كفر بالله ولا تعلق له بما قبله.

القول الثاني: أنه متعلق بما قبله، والقائلون بهذا القول منهم من حمله على تارك الحج ومنهم من حمله على من لم يعتقد وجوب الحج، أما الذين حملوه على تارك الحج فقد عولوا فيه على ظاهر الآية فإنه لما تقدم الأمر بالحج ثم أتبعه بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ فهم منه أن هذا الكفر ليس إلا ترك ما تقدم الأمر به ثم إنهم أكدوا هذا الوجه بالأخبار، روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ مَات ولم يَحُجَّ حَجَّةَ الإسْلام فَلْيَمُتْ إن شاء يَهُودِيًا وإن شاء نَصْرَانِيًا»[١] وعن أبي أمامة قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ مَات ولَم يَحُجَّ حَجَّة الإسْلام وَلَمْ تَمْنَعْهُ حَاجَةٌ ظَاهِرَةٌ أوْ مَرَضٌ حَابِسٌ، أو سُلْطَانٌ جَائِر فَلْيَمُتْ عَلَى أي حَالٍ شَاء يَهُودِيًا أو نَصْرَانِيًا»[٢] وعن سعيد بن جبير: لو مات جار لي وله ميسرة ولم يحج لم أصل عليه.

فإن قيل: كيف يجوز الحكم عليه بالكفر بسبب ترك الحج؟

أجاب القفال رحمه الله تعالى عنه: يجوز أن يكون المراد منه التغليظ، أي قد قارب الكفر وعمل ما يعمله من كفر بالحج، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] أي: كادت تبلغ، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ تَرَكَ صَلاَةً مُتَعَمِّدًا فَقَدْ كَفَرَ» وقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أَتَى امرأة حَائِضًا أوْ فِي دُبُرِهَا فَقَدْ كَفَرَ» وأما الأكثرون: فهم الذين حملوا هذا الوعيد على من ترك اعتقاد وجوب الحج، قال الضحاك: لما نزلت آية الحج جمع الرسول ﷺ أهل الأديان الستة المسلمين، والنصارى واليهود والصابئين والمجوس والمشركين

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الدارمي في كتاب (المناسك)، باب: (من مات ولم يحج) (١/ ٤٧٨)، حديث رقم (١٧٨٥)، أورده السيوطي في (اللآلئ المصنوعة) (٢/ ١١٨)، والأصفهاني في (حلية الأولياء) (٩/ ٢٥١)، وأورده التبريزي في (المشكاة)، حديث رقم (٢٥٣٥)، قال الألباني: إسناده ضعيف وفي إسناده: ليث بن أبي سليم، قال الحافظ في التقريب: صدوق اختلط أخيرًا ولم يميز حديثه فترك.

(٢) انظر سابقة.

فخطبهم وقال: «إِنَّ اللّٰهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ فَحُجُّوا» فآمن به المسلمون وكفرت به الملل الخمس، وقالوا: لا نؤمن به، ولا نصلي إليه، ولا نحجه، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا القول هو الأقوى.

المسألة الثانية: اعلم أن تكليف الشرع في العبادات قسمان، منها ما يكون أصله معقولاً إلا أن تفاصيله لا تكون معقولة مثل الصلاة فإن أصلها معقول وهو تعظيم الله أما كيفية الصلاة فغير معقولة، وكذا الزكاة أصلها دفع حاجة الفقير وكيفيتها غير معقولة، والصوم أصله معقول، وهو قهر النفس وكيفيته غير معقولة، أما الحج فهو سفر إلى موضع معين على كيفيات مخصوصة، فالحكمة في كيفيات هذه العبادات غير معقولة وفي أصلها أيضًا غير معلومة.

إذا عرفت هذا فنقول: قال المحققون إن الإتيان بهذا النوع من العبادة أدل على كمال العبودية والخضوع والانقياد من الإتيان بالنوع الأول، وذلك لأن الآتي بالنوع الأول يحتمل أنه إنما أتى به لما عرف بعقله من وجوه المنافع فيه، أما الآتي بالنوع الثاني فإنه لا يأتي به إلا لمجرد الانقياد والطاعة والعبودية، فلأجل هذا المعنى اشتمل الأمر بالحج في هذه الآية على أنواع كثيرة من التوكيد أحدها: قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ والمعنى: أنه سبحانه لكونه إلهًا ألزم عبيده هذه الطاعة فيجب الانقياد سواء عرفوا وجه الحكمة فيها أو لم يعرفوا، وثانيها: أنه ذكر (الناس) ثم أبدل منه ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ وفيه ضربان من التأكيد، أما أولاً فلأن الإبدال تثنية للمراد وتكرير، وذلك يدل على شدة العناية، وأما ثانيًا فلأنه أجمل أولاً وفصل ثانيًا وذلك يدل على شدة الاهتمام، وثالثها: أنه سبحانه عبّر عن هذا الوجوب بعبارتين:

إحداهما: لام الملك في قوله ﴿وَلِلَّهِ﴾.

وثانيتهما: كلمة (على) وهي للوجوب في قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، ورابعها: أن ظاهر اللفظ يقتضي إيجابه على كل إنسان يستطيعه، وتعميم التكليف يدل على شدة الاهتمام، وخامسها: أنه قال: (وَمَن كَفَرَ) مكان (ومن لم يحج) وهذا تغليظ شديد في حق تارك الحج وسادسها: ذكر الاستغناء وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان، وسابعها: قوله: ﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولم يقل عنه لأن المستغني عن كل العالمين أولى أن يكون مستغنيًا عن ذلك الإنسان الواحد وعن طاعته، فكان ذلك أدل على السخط، وثامنها: أن في أول الآية قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فبيّن أن هذا الإيجاب كان لمجرد عزة الإلهية وكبرياء الربوبية، لا لجر نفع ولا لدفع ضر، ثم أكد هذا في آخر الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ومما يدل من الأخبار على تأكيد الأمر بالحج، قوله عليه الصلاة والسلام: «**حُجُّوا قَبْلَ أَنْ لاَ تَحُجُّوا فَإِنَّه قَد هُدِمَ البَيت مَرَّتَين وَيُرْفَعُ فِي الثَّالِثِ**» وروي «**حُجُّوا قَبْلَ أَنْ لاَ تَحُجُّوا حجوا قبل أن يمنع البر جانبه**» قيل: معناه أنه يتعذر عليكم السفر في البر في مكة لعدم الأمن أو غيره، وعن ابن مسعود «**حجوا هذا البيت قبل أن تنبت في البادية شجرة لا تأكل منها دابة إلا هلكت**».

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

اعلم أن في كيفية النظم وجهين:

الأول: وهو الأوفق: أنه تعالى لما أورد الدلائل على نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام مما ورد في التوراة والإنجيل من البشارة بمقدمه، ثم ذكر عقيب ذلك شبهات القوم.

فالشبهة الأولى: ما يتعلق بإنكار النسخ.

وأجاب عنها بقوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [آل عمران: ٩٣].

والشبهة الثانية: ما يتعلق بالكعبة ووجوب استقبالها في الصلاة ووجوب حجها.

وأجاب عنها بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦] إلى آخرها، فعند هذا تمت وظيفة الاستدلال وكمل الجواب عن شبهات أرباب الضلال، فبعد ذلك خاطبهم بالكلام اللين وقال: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ بعد ظهور البينات وزوال الشبهات، وهذا هو الغاية القصوى في ترتيب الكلام وحسن نظمه.

الوجه الثاني: وهو أنه تعالى لما بيّن فضائل الكعبة ووجوب الحج، والقوم كانوا عالمين بأن هذا هو الدين الحق والملة الصحيحة قال لهم: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ بعد أن علمتم كونها حقة صحيحة.

واعلم أن المبطل إما أن يكون ضالاً فقط، وإما أن يكون مع كونه ضالاً يكون مضلاً، والقوم كانوا موصوفين بالأمرين جميعًا فبدأ تعالى بالإنكار عليهم في الصفة الأولى على سبيل الرفق واللطف.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ واختلفوا فيمن المراد بأهل الكتاب، فقال الحسن: هم علماء أهل الكتاب الذين علموا صحة نبوته، واستدل عليه بقوله: ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ وقال بعضهم: بل المراد كل أهل الكتاب لأنهم وإن لم يعلموا فالحجة قائمة عليهم فكأنهم بترك الاستدلال والعدول إلى التقليد بمنزلة من علم ثم أنكر.

فإن قيل: ولم خص أهل الكتاب بالذكر دون سائر الكفار؟.

قلنا: لوجهين: الأول: أنا بينا أنه تعالى أورد الدليل عليهم من التوراة والإنجيل على صحة نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم أجاب عن شبههم في ذلك، ثم لما تمّ ذلك خاطبهم فقال:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فهذا الترتيب الصحيح، الثاني: أن معرفتهم بآيات الله أقوى لتقدم اعترافهم بالتوحيد وأصل النبوّة، ولمعرفتهم بما في كتبهم من الشهادة بصدق الرسول والبشارة بنبوته.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دلالة على أن الكفر من قبلهم حتى يصح هذا التوبيخ وكذلك لا يصح توبيخهم على طولهم وصحتهم ومرضهم.

والجواب عنه: المعارضة بالعلم والداعي.

المسألة الثالثة: المراد (مِنْ آيات الله) الآيات التي نصبها الله تعالى على نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام، والمراد بكفرهم بها كفرهم بدلالتها على نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ الواو للحال والمعنى: لم تكفرون بآيات الله التي دلتكم على صدق محمد عليه الصلاة والسلام، والحال أن الله شهيد على أعمالكم ومجازيكم عليها وهذه الحال توجب أن لا تجترئوا على الكفر بآياته.

ثم إنه تعالى لما أنكر عليهم في ضلالهم ذكر بعد ذلك الإنكار عليهم في إضلالهم لضعفة المسلمين فقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ﴾ قال الفرّاء: يقال صددته أصده صدًّا وأصددته إصدادًا، وقرأ الحسن (تُصِدُّون) بضم التاء من أصده، قال المفسرون: وكان صدهم عن سبيل الله بإلقاء الشبه والشكوك في قلوب الضعفة من المسلمين وكانوا ينكرون كون صفته ﷺ في كتابهم.

ثم قال: ﴿تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ العِوج بكسر العين الميل عن الاستواء في كل ما لا يرى، وهو الدين والقول، فأما الشيء الذي يرى فيقال فيه: عَوَج بفتح العين كالحائط والقناة والشجرة، قال ابن الأنباري: البغي يقتصر له على مفعول واحد إذا لم يكن معه اللام كقولك: بغيت المال والأجر والثواب وأُريد هاهنا: تبغون لها عوجًا، ثم أسقطت اللام كما قالوا: وهبتك درهمًا أي: وهبت لك درهمًا، ومثله صدت لك ظبيًا وأنشد:

فتولى غلامهم ثم نادى أظليما أصيدكم أم حمارًا

أراد أصيد لكم والهاء في (تَبْغُونَهَا) عائدة إلى (السبيل) لأن السبيل يؤنث ويذكر و(العوج) يعني به الزيغ والتحريف، أي: تلتمسون لسبيله الزيغ والتحريف بالشبه التي توردونها على الضعفة نحو قولهم: النسخ يدل على البداء وقولهم: إنه ورد في التوراة أن شريعة موسى عليه السلام باقية إلى الأبد، وفي الآية وجه آخر وهو أن يكون ﴿عِوَجٗا﴾ في موضع الحال، والمعنى: تبغونها ضالين وذلك أنهم كأنهم كانوا يدعون أنهم على دين الله وسبيله فقال الله تعالى: إنكم تبغون سبيل الله ضالين وعلى هذا القول لا يحتاج إلى إضمار اللام في تبغونها.

ثم قال: ﴿وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُ﴾.

وفيه وجوه:

الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني أنتم شهداء أن في التوراة أن دين الله الذي لا

يقبل غيره هو الإسلام، الثاني: وأنتم شهداء على ظهور المعجزات على نبوته ﷺ، الثالث: وأنتم شهداء أنه لا يجوز الصد عن سبيل الله، الرابع: وأنتم شهداء بين أهل دينكم عدول يثقون بأقوالكم ويعولون على شهادتكم في عظام الأمور وهم الأحبار والمعنى: أن من كان كذلك فكيف يليق به الإصرار على الباطل والكذب والضلال والإضلال.

ثم قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ والمراد التهديد، وهو كقول الرجل لعبده، وقد أنكر طريقة لا يخفى عليَّ ما أنت عليه ولست غافلاً عن أمرك وإنما ختم الآية الأولى بقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ وهذه الآية بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وذلك لأنهم كانوا يظهرون الكفر بنبوّة محمد ﷺ وما كانوا يظهرون إلقاء الشبه في قلوب المسلمين، بل كانوا يحتالون في ذلك بوجوه الحيل فلا جرم قال فيما أظهروه: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ وفيما أضمروه ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وإنما كرر في الآيتين قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لأن المقصود التوبيخ على ألطف الوجوه، وتكرير هذا الخطاب اللطيف أقرب إلى التلطف في صرفهم عن طريقتهم في الضلال والإضلال وأدل على النصح لهم في الدين والإشفاق.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما حذر الفريق من أهل الكتاب في الآية الأولى عن الإغواء والإضلال حذر المؤمنين في هذه الآية عن إغوائهم وإضلالهم ومنعهم عن الالتفات إلى قولهم، روي أن شاس بن قيس اليهودي كان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد، فاتفق أنه مرّ على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج فرآهم في مجلس لهم يتحدثون، وكان قد زال ما كان بينهم في الجاهلية من العداوة ببركة الإسلام، فشق ذلك على اليهودي فجلس إليهم وذكرهم ما كان بينهم من الحروب قبل ذلك وقرأ عليهم بعض ما قيل في تلك الحروب من الأشعار فتنازع القوم وتغاضبوا وقالوا: السلاح السلاح، فوصل الخبر إلى النبي عليه السلام، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار، وقال: أترجعون إلى أحوال الجاهلية وأنا بين أظهركم، وقد أكرمكم الله بالإسلام وألف بين قلوبكم فعرف القوم أن ذلك كان من عمل الشيطان، ومن كيد ذلك اليهودي، فألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ، فما كان يوم أقبح أولاً وأحسن آخرًا من ذلك اليوم، وأنزل الله تعالى هذه الآية فقوله: ﴿إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يحتمل أن يكون المراد هذه الواقعة، ويحتمل أن يكون المراد جميع ما يحاولونه من أنواع الإضلال، فبيّن تعالى أن المؤمنين إن لانوا وقبلوا منهم قولهم أدى ذلك حالاً

بعد حال إلى أن يعودوا كفارًا، والكفر يوجب الهلاك في الدنيا والدين، أما في الدنيا فبوقوع العداوة والبغضاء وهيجان الفتنة وثوران المحاربة المؤدية إلى سفك الدماء، وأما في الدين فظاهر.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ وكلمة (كَيْفَ) تعجب، والتعجب إنما يليق بمن لا يعلم السبب، وذلك على الله محال، والمراد منه المنع والتغليظ وذلك لأن تلاوة آيات الله عليهم حالاً بعد حال مع كون الرسول فيهم الذي يزيل كل شبهة ويقرر كل حجة، كالمانع من وقوعهم في الكفر، فكان صدور الكفر عن الذين كانوا بحضرة الرسول أبعد من هذا الوجه، فقوله: ﴿إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ تنبيه على أن المقصد الأقصى لهؤلاء اليهود والمنافقين أن يردوا المسلمين عن الإسلام ثم أرشد المسلمين إلى أنه يجب أن لا يلتفتوا إلى قولهم، بل الواجب أن يرجعوا عند كل شبهة يسمعونها من هؤلاء اليهود إلى الرسول ﷺ، حتى يكشف عنها ويزيل وجه الشبهة فيها.

ثم قال: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والمقصود: أنه لما ذكر الوعيد أردفه بهذا الوعد، والمعنى: ومن يتمسك بدين الله، ويجوز أن يكون حثًا لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار والاعتصام في اللغة الاستمساك بالشيء وأصله من العصمة، والعصمة المنع في كلام العرب، والعاصم المانع، واعتصم فلان بالشيء إذا تمسك بالشيء في منع نفسه من الوقوع في آفة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] قال قتادة: ذكر في الآية أمرين يمنعان عن الوقوع في الكفر: أحدهما: تلاوة كتاب الله، والثاني: كون الرسول فيهم، أما الرسول ﷺ فقد مضى إلى رحمة الله، وأما الكتاب فباق على وجه الدهر.

وأما قوله: ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فقد احتج به أصحابنا على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى، قالوا: لأنه جعل اعتصامهم هداية من الله، فلما جعل ذلك الاعتصام فعلاً لهم وهداية من الله ثبت ما قلناه، أما المعتزلة فقد ذكروا فيه وجوهًا:

الأول: أن المراد بهذه الهداية الزيادة في الألطاف المرتبة على أداء الطاعات كما قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦] وهذا اختاره القفال رحمه الله.

والثاني: أن التقدير من يعتصم بالله فنعم ما فعل فإنه إنما هدي إلى الصراط المستقيم ليفعل ذلك.

والثالث: أن من يعتصم بالله فقد هدي إلى طريق الجنة.

والرابع: قال صاحب (الكشاف): ﴿فَقَدْ هُدِىَ﴾ أي: فقد حصل له الهدى لا محالة، كما تقول: إذا جئت فلانًا فقد أفلحت، كأن الهدى قد حصل فهو يخبر عنه حاصلاً وذلك لأن المعتصم بالله متوقع للهدى كما أن قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حذر المؤمنين من إضلال الكفار ومن تلبيساتهم في الآية الأولى أمر المؤمنين في هذه الآيات بمجامع الطاعات، ومعاقد الخيرات، فأمرهم أولاً: بتقوى الله وهو قوله ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، وثانيًا: بالاعتصام بحبل الله، وهو قوله ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾، وثالثًا: بتذكر نعم الله وهو قوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ والسبب في هذا الترتيب أن فعل الإنسان لا بد وأن يكون معللاً، إما بالرهبة وإما بالرغبة، والرهبة مقدمة على الرغبة، لأن دفع الضرر مقدم على جلب النفع، فقوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ إشارة إلى التخويف من عقاب الله تعالى، ثم جعله سببًا للأمر بالتمسك بدين الله والاعتصام بحبل الله، ثم أردفه بالرغبة، وهي قوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فكأنه قال: خوف عقاب الله يوجب ذلك، وكثرة نعم الله عليكم توجب ذلك فلم تبق جهة من الجهات الموجبة للفعل إلا وهي حاصلة في وجوب انقيادكم لأمر الله ووجوب طاعتكم لحكم الله، فظهر بما ذكرناه أن الأمور الثلاثة المذكورة في هذه الآية مرتبة على أحسن الوجوه، ولنرجع إلى التفسير:

أما قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال بعضهم: هذه الآية منسوخة وذلك لما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين لأن حق تقاته: أن يطاع فلا يعصى طرفة عين، وأن يشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى، والعباد لا طاقة لهم بذلك، فأنزل الله تعالى بعد هذه ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] ونسخت هذه الآية أولها ولم ينسخ آخرها وهو قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وزعم جمهور المحققين أن القول بهذا النسخ باطل واحتجوا عليه من وجوه:

الأول: ما روي عن معاذ أنه عليه السلام قال له: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: «هو أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» وهذا مما لا يجوز أن ينسخ.

الثاني: أن معنى قوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي: كما يحق أن يتقى، وذلك بأن يجتنب جميع معاصيه، ومثل هذا لا يجوز أن ينسخ لأنه إباحة لبعض المعاصي، وإذا كان كذلك صار معنى هذا ومعنى قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] واحدًا لأن من اتقى الله ما استطاع فقد

اتقاه حق تقاته، ولا يجوز أن يكون المراد بقوله: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ ما لا يستطاع من التقوى، لأن الله سبحانه أخبر أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها والوسع دون الطاقة ونظير هذه الآية قوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨].

فإن قيل: أليس أنه تعالى قال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١].

قلنا: سنبين في تفسير هذه الآية أنها جاءت في القرآن في ثلاثة مواضع وكلها في صفة الكفار لا في صفة المسلمين؛ أما الذين قالوا: إن المراد هو أن يطاع فلا يعصى فهذا صحيح والذي يصدر عن الإنسان على سبيل السهو والنسيان فغير قادح فيه لأن التكليف مرفوع في هذه الأوقات، وكذلك قوله: أن يُشْكَر فلا يُكْفَر، لأن ذلك واجب عليه عند خطور نعم الله بالبال، فأما عند السهو فلا يجب، وكذلك قوله: أن يُذْكَر فلا يُنسَى، فإن هذا إنما يجب عند الدعاء والعبادة وكل ذلك مما لا يطاق، فلا وجه لما ظنوه أنه منسوخ.

قال المصنف رضي الله تعالى عنه، أقول: للأولين أن يقرروا قولهم من وجهين:

الأول: أن كنه الإلهية غير معلوم للخلق، فلا يكون كمال قهره وقدرته وعزته معلومًا للخلق، وإذا لم يحصل العلم بذلك لم يحصل الخوف اللائق بذلك فلم يحصل الاتقاء اللائق به.

الثاني: أنهم أمروا بالاتقاء المغلظ والمخفف معًا فنسخ المغلظ وبقي المخفف، وقيل: إن هذا باطل، لأن الواجب عليه أن يتقى ما أمكن والنسخ إنما يدخل في الواجبات لا في النفي، لأنه يوجب رفع الحجر عما يقتضي أن يكون الإنسان محجورًا عنه وإنه غير جائز.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي: كما يجب أن يتقى يدل عليه قوله تعالى: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] ويقال: هو الرجل حقًا، ومنه قوله عليه السلام: «**أَنَا النبيُّ لا كذِبْ، أنَا ابنُ عَبْدِ المُطَّلِب**» وعن علي رضي الله عنه أنه قال: أنا علي لا كذب أنا ابن عبد المطلب، والتقى اسم الفعل من قولك: اتقيت، كما أن الهدى اسم الفعل من قولك اهتديت.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فلفظ النهي واقع على الموت، لكن المقصود الأمر بالإقامة على الإسلام، وذلك لأنه لما كان يمكنهم الثبات على الإسلام حتى إذا أتاهم الموت أتاهم وهم على الإسلام، صار الموت على الإسلام بمنزلة ما قد دخل في إمكانهم، ومضى الكلام في هذا عند قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾.

واعلم أنه تعالى لما أمرهم بالاتقاء عن المحظورات أمرهم بالتمسك بالاعتصام بما هو كالأصل لجميع الخيرات والطاعات، وهو الاعتصام بحبل الله.

واعلم أن كل من يمشي على طريق دقيق يخاف أن تزلق رجله، فإذا تمسك بحبل مشدود الطرفين بجانبي ذلك الطريق أمن من الخوف، ولا شك أن طريق الحق طريق دقيق، وقد انزلق رجل الكثير من الخَلْق عنه، فمن اعتصم بدلائل الله وبيناته فإنه يأمن من ذلك الخوف، فكان

المراد من الحبل هاهنا كل شيء يمكن التوصل به إلى الحق في طريق الدين، وهو أنواع كثيرة، فذكر كل واحد من المفسرين واحدًا من تلك الأشياء، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد بالحبل هاهنا العهد المذكور في قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وقال: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢] أي: بعهد، وإنما سمي العهد حبلاً لأنه يزيل عنه الخوف من الذهاب إلى أي موضع شاء، وكان كالحبل الذي من تمسك به زال عنه الخوف، وقيل: إنه القرآن، روي عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أما إنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ» قيل: فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا؟ قال: «كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ»(١) وروي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «هذا القُرْآنُ حَبْلُ اللَّهِ»(٢) وروي عن أبي سعيد الخُدْريّ عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ، كتابَ اللهِ تعالى حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أَهْلَ بَيْتِي»(٣) وقيل: إنه دين الله، وقيل: هو طاعة الله، وقيل: هو إخلاص التوبة، وقيل: الجماعة، لأنه تعالى ذكر عقيب ذلك قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ وهذه الأقوال كلها متقاربة، والتحقيق ما ذكرنا أنه لما كان النازل في البئر يعتصم بحبل تحرزًا من السقوط فيها، وكان كتاب الله وعهده ودينه وطاعته وموافقته لجماعة المؤمنين حرزًا لصاحبه من السقوط في قعر جهنم جعل ذلك حبلاً لله، وأمروا بالاعتصام به.

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي في كتاب (فضائل القرآن)، باب: (ما جاء في فضل القرآن) (٥/ ١٧٢)، حديث رقم (٢٩٠٦) من طريق حسين بن علي الجعفر قال: سمعت حمزة الزيات... به، وقال أبو عيسى: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول وفي الحارث مقال والدارمي في كتاب (فضائل القرآن)، باب: (فضل من قرأ القرآن) (٢/ ٥٢٦)، حديث رقم (٣٣٣١) من طريق الحسين الجعفي عن حمزة الزيات... به، وابن أبي شيبة في (المصنف) (٦/ ١٢٥)، حديث رقم (٣٠٠٠٧)، قال حدثنا حسين بن علي عن حمزة الزيات... به، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ٣٢٦)، حديث رقم (١٩٣٥) من طريق حسين الجعفي قال: سمعت حمزة الزيات... به، والبزار في (مسنده) (٣/ ٧١)، حديث رقم (٨٣٦)، قال حدثنا حمزة الزيات... به، وأورده الألباني في (١/ ٤٨٤) وقال: ضعيف جدًا، وفي (ضعيف الجامع) (٤٨٩١)، (قلت): وعلته أبو المختار الطائي الكوفي فيه اسمه سعد قال ابن حجر: مجهول قال ابن المديني وأبو زرعة: لا نعرفه وشيخه مجهول والحارث ضعيف.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ١٨٧٤/ ٢٤٠٨) من طريق يزيد بن حبان عن زيد بن أرقم... به.

(٣) صحيح لغيره: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٦٦٣)، حديث رقم (٣٧٨٨) من طريق محمد بن فضيل قال حدثنا الأعمش عن عطية عن أبي سعيد والأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن زيد بن أرقم رضي الله عنهما قالا قال رسول الله ﷺ... الحديث، قال هذا حديث حسن غريب، وأحمد في (مسنده) (٣/ ١٤)، حديث رقم (١١١١٩) من طريق أبي إسحاق الملائي عن عطية... به، وأيضًا في (٣/ ١٧) حديث رقم (١١١٤٧) من طريق الأعمش عن عطية... به، وابن أبي شيبة في (مصنفه) (١٠/ ٥٠٦)، حديث رقم (٣٠٧٠٤) من طريق عطية عن أبي سعيد... به، وأبو يعلى في (مسنده) (٢/ ٣٧٦)، حديث رقم (١١٤٠) من طريق عبد الملك بن سليمان عن عطية العوفي... به، وابن أبي عاصم في (السنة) (٢/ ٦٤٣)، حديث رقم (١٥٥٣) من طريق عبد الملك عن عطية... به، والحديث في إسناده عطية العوفي ضعيف ولكن له شاهد صحيح كما مر عند الترمذي من طريق حبيب بن أبي ثابت عن زيد بن أرقم... به.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في التأويل وجوه: الأول: أنه نهى عن الاختلاف في الدين وذلك لأن الحق لا يكون إلا واحدًا، وما عداه يكون جهلاً وضلالاً، فلما كان كذلك وجب أن يكون النهي عن الاختلاف في الدين، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، والثاني: أنه نهى عن المعاداة والمخاصمة، فإنهم كانوا في الجاهلية مواظبين على المحاربة والمنازعة فنهاهم الله عنها، الثالث: أنه نهى عما يوجب الفرقة ويزيل الألفة والمحبة.

واعلم أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى نَيِّفٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، النَاجِي مِنْهُمْ وَاحِدَةٌ وَالبَاقِي فِي النَّارِ» فقيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «الجَمَاعَةَ» (١) وروي «السَّوَادُ الأَعْظَمُ» وروي «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي» (٢) والوجه المعقول فيه: أن النهي عن الاختلاف والأمر بالاتفاق يدل على أن الحق لا يكون إلا واحدًا، وإذا كان كذلك كان الناجي واحدًا.

المسألة الثانية: استدلت نفاة القياس بهذه الآية، فقالوا: الأحكام الشرعية إما أن يقال: إنه سبحانه نصب عليها دلائل يقينية أو نصب عليها دلائل ظنية، فإن كان الأول امتنع الاكتفاء فيها بالقياس الذي يفيد الظن، لأن الدليل الظني لا يكتفى به في الموضع اليقيني، وإن كان الثاني كان الأمر بالرجوع إلى تلك الدلائل الظنية يتضمن وقوع الاختلاف ووقوع النزاع، فكان ينبغي أن لا يكون التفرق والتنازع منهيًا عنه، لكنه منهي عنه لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟﴾ [الأنفال: ٤٦] ولقائل أن يقول: الدلائل الدالة على العمل بالقياس تكون مخصصة لعموم

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (السنة)، باب: (شرح السنة) (٤/ ١٩٧٠)، حديث رقم (٤٥٩٧)، من طريق أبي المغيرة عن صفوان... به، والدارمي في كتاب (السير)، باب: (في افتراق هذه الأمة) (٢/ ١٠٨)، حديث رقم (٢٥١٨)، وأحمد في (مسنده) (٤/ ١٠٢)، حديث رقم (١٦٩٧٩) من طريق أبي المغيرة عن صفوان... به، واللالكائي في (اعتقاد أهل السنة والجماعة) (١/ ٧٧)، حديث رقم (١٥٠)، والحاكم في (المستدرك) (١/ ٢١٨)، حديث رقم (٤٤٣) من طريق أبي اليمان الحكم بن نافع البهراني... به.

(٢) **وحديث السواد الأعظم**: أخرجه ابن ماجه في كتاب (الفتن)، باب: (السواد الأعظم) (٢/ ٣٩٥)، حديث رقم (٣٩٥٠) من طريق الوليد بن مسلم حدثنا معان بن رفاعة السلامي... به، وأبو يعلى في (مسنده) (٧٧/ ٣٢)، حديث رقم (٣٩٣٨) من طريق مبارك عن عبد العزيز عن أنس... به، وفي (كنز العمال) (١/ ١٨٠)، حديث رقم (٩٠٩) وأيضًا في (٧/ ٣٦)، حديث رقم (٣٩٤٤) من طريق مبارك بن عبد الله الشيباني حدثنا عبد العزيز عن صهيب عن أنس... به، واللالكائي في (اعتقاد أهل السنة والجماعة) (١/ ٧٩)، حديث رقم (١٥٣)، وأما حديث ما أنا عليه وأصحابي، إسناده حسن: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٢٦)، حديث رقم (٢٦٤١) من طريق عبد الرحمن بن زياد الأفريقي عن عبد الله بن يزيد عن عبد الله بن عمرو... به.

قال أبو عيسى: هذا حديث مفسر حسن غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه ورواه البغوي في (شرح السنة) (١/ ٢١٢)، حديث رقم (١٠٤) من طريق هشام بن حسان عن حميد بن سيرين عن عقبة بن أوس عن عبد الله بن عمرو... به.

قوله ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ ولعموم قوله ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ﴾ [الأنفال: ٤٦] والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ واعلم أن نعم الله على الخلق إما دنيوية وإما أُخروية وإنه تعالى ذكرهما في هذه الآية، أما النعمة الدنيوية فهي قوله تعالى: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قيل إن ذلك اليهودي لما ألقى الفتنة بين الأوس والخَزْرَج وهَمَّ كلُّ واحد منهما بمحاربة صاحبه، فخرج الرسول ﷺ ولم يزل يرفق بهم حتى سكنت الفتنة وكان الأوس والخزرج أخوين لأب وأم، فوقعت بينهما العداوة، وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام، فالآية إشارة إليهم وإلى أحوالهم، فإنهم قبل الإسلام كان يحارب بعضهم بعضًا ويبغض بعضهم بعضًا، فلما أكرمهم الله تعالى بالإسلام صاروا إخوانًا متراحمين متناصحين وصاروا إخوة في الله: ونظير هذه الآية قوله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

واعلم أن كل من كان وجهه إلى الدنيا كان معاديًا لأكثر الخلق، ومن كان وجهه إلى خدمة الله تعالى لم يكن معاديًا لأحد، والسبب فيه أنه ينظر من الحق إلى الخلق فيرى الكل أسيرًا في قبضة القضاء والقدر فلا يعادي أحدًا، ولهذا قيل: إن العارف إذا أمر أمر برفق ويكون ناصحًا لا يعنف ويعير فهو مستبصر بسر الله في القدر.

المسألة الثانية: قال الزَّجّاج: أصل الأخ في اللُّغة من التوخي وهو الطلب، فالأخ مقصده مقصد أخيه، والصديق مأخوذ من أن يصدق كل واحد من الصديقين صاحبه ما في قلبه، ولا يخفي عنه شيئًا وقال أبو حاتم قال أهل البصرة: الأخوة في النسب والإخوان في الصداقة، قال وهذا غلط، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] ولم يعن النسب، وقال: ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾ [النور: ٦١] وهذا في النسب.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ يدل على أن المعاملات الحسنة الجارية بينهم بعد الإسلام إنما حصلت من الله، لأنه تعالى خلق تلك الداعية في قلوبهم وكانت تلك الداعية نعمة من الله مستلزمة لحصول الفعل، وذلك يبطل قول المعتزلة في خلق الأفعال، قال الكعبي: إن ذلك بالهداية والبيان والتحذير والمعرفة والألطاف.

قلنا: كل هذا كان حاصلاً في زمان حصول المحاربات والمقاتلات، فاختصاص أحد الزمانين بحصول الألفة والمحبة لا بد أن يكون لأمر زائد على ما ذكرتم.

ثم قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾.

واعلم أنه تعالى لما شرح النعمة الدنيوية ذكر بعدها النعمة الأخروية، وهي ما ذكره في آخر هذه الآية.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: المعنى أنكم كنتم مشرفين بكفركم على جهنم، لأن جهنم مشبهة بالحفرة التي فيها النار فجعل استحقاقهم للنار بكفرهم كالإشراف منهم على النار، والمصير منهم إلى حفرتها، فبيّن تعالى أنه أنقذهم من هذه الحفرة، وقد قربوا من الوقوع فيها.

قالت المعتزلة: ومعنى ذلك أنه تعالى لطف بهم بالرسول عليه السلام وسائر ألطافه حتى آمنوا، وقال أصحابنا: جميع الألطاف مشترك فيه بين المؤمن والكافر، فلو كان فاعل الإيمان وموجده هو العبد لكان العبد هو الذي أنقذ نفسه من النار، والله تعالى حكم بأنه هو الذي أنقذهم من النار، فدل هذا على أن خالق أفعال العباد هو الله سبحانه وتعالى.

المسألة الثانية: شفا الشيء حرفه مقصور، مثل شفا البئر والجمع الإشفاء، ومنه يقال: أشفى على الشيء إذا أشرف عليه كأنه بلغ شفاه، أي: حده وحرفه وقوله: ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ قال الأزهري: يقال نقذته وأنقذته واستنقذته، أي خلصته ونجيته.

وفي قوله: ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ سؤال وهو: أنه تعالى إنما ينقذهم من الموضع الذي كانوا فيه وهم كانوا على شفا الحفرة، وشفا الحفرة مذكر فكيف قال منها؟

وأجابوا عنه من وجوه الأول: الضمير عائد إلى الحفرة ولما أنقذهم من الحفرة فقد أنقذهم من شفا الحفرة لأن شفاها منها، والثاني: أنها راجعة إلى النار، لأن القصد الإنجاء من النار لا من شفا الحفرة، وهذا قول الزجاج، الثالث: أن شفا الحفرة، وشفتها طرفها، فجاز أن يخبر عنه بالتذكير والتأنيث.

المسألة الثالثة: أنهم لو ماتوا على الكفر لوقعوا في النار، فمثلت حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالقعود على حرفها، وهذا فيه تنبيه على تحقير مدة الحياة، فإنه ليس بين الحياة وبين الموت المستلزم للوقوع في الحفرة إلا ما بين طرف الشيء، وبين ذلك الشيء، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ الكاف في موضع نصب، أي مثل البيان المذكور يبين الله لكم سائر الآيات لكي تهتدوا بها، قال الجبائي: الآية تدل على أنه تعالى يريد منهم الاهتداء، أجاب الواحدي عنه في (البسيط) فقال: بل المعنى لتكونوا على رجاء هداية.

وأقول: وهذا الجواب ضعيف؛ لأن على هذا التقدير يلزم أن يريد الله منهم ذلك الرجاء ومن المعلوم أن على مذهبنا قد لا يريد ذلك الرجاء، فالجواب الصحيح أن يقال كلمة (لعلّ) للترجي، والمعنى أنا فعلنا فعلاً يشبه فعل من يترجى ذلك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا
عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ
وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

واعلم أنه تعالى في الآيات المتقدمة عاب أهل الكتاب على شيئين؛ أحدهما: أنه عابهم على الكفر، فقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠] ثم بعد ذلك عابهم على سعيهم في إلقاء الغير في الكفر، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٩٩] فلما انتقل منه إلى مخاطبة المؤمنين أمرهم أولاً بالتقوى والإيمان، فقال: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣] ثم أمرهم بالسعي في إلقاء الغير في الإيمان والطاعة، فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ وهذا هو الترتيب الحسن الموافق للعقل.

وفي الآية مسألتان:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ قولان؛ أحدهما: أن (مِنْ) هاهنا ليست للتبعيض لدليلين الأول: أن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل الأمة في قوله ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] والثاني: هو أنه لا مكلف إلا ويجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إما بيده، أو بلسانه، أو بقلبه، ويجب على كل أحد دفع الضرر عن النفس إذا ثبت هذا فنقول: معنى هذه الآية كونوا أمة دعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، وأما كلمة (مِنْ) فهي هنا للتبيين لا للتبعيض كقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] ويقال أيضًا: لفلان من أولاده جند وللأمير من غلمانه عسكر يريد بذلك جميع أولاده وغلمانه لا بعضهم، كذا هاهنا، ثم قالوا: إن ذلك وإن كان واجبًا على الكل إلا أنه متى قام به قوم سقط التكليف عن الباقين، ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١] وقوله ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩] فالأمر عام، ثم إذا قامت به طائفة وقعت الكفاية وزال التكليف عن الباقين.

والقول الثاني: أن (مِنْ) هاهنا للتبعيض، والقائلون بهذا القول اختلفوا أيضًا على قولين؛ أحدهما: أن فائدة كلمة (مِنْ) هي أن في القوم من لا يقدر على الدعوة ولا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل النساء والمرضى والعاجزين، والثاني: أن هذا التكليف مختص بالعلماء ويدل عليه وجهان؛ الأول: أن هذه الآية مشتملة على الأمر بثلاثة أشياء: الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومعلوم أن الدعوة إلى الخير مشروطة بالعلم بالخير

وبالمعروف وبالمنكر، فإن الجاهل ربما دعا إلى الباطل وأمر بالمنكر ونهى عن المعروف، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر، وقد يغلظ في موضع اللين ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديًا، فثبت أن هذا التكليف متوجه على العلماء، ولا شك أنهم بعض الأمة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]، والثاني: أنا أجمعنا على أن ذلك واجب على سبيل الكفاية بمعنى أنه متى قام به البعض سقط عن الباقين، وإذا كان كذلك كان المعنى ليقم بذلك بعضكم، فكان في الحقيقة هذا إيجابًا على البعض لا على الكل، والله أعلم.

وفيه قول رابع: وهو قول الضحاك: إن المراد من هذه الآية أصحاب رسول الله ﷺ لأنهم كانوا يتعلمون من الرسول عليه السلام ويعلمون الناس، والتأويل على هذا الوجه: كونوا أمة مجتمعين على حفظ سنن الرسول ﷺ وتعلم الدين.

المسألة الثانية: هذه الآية اشتملت على التكليف بثلاثة أشياء، أولها: الدعوة إلى الخير ثم الأمر بالمعروف، ثم النهي عن المنكر، ولأجل العطف يجب كون هذه الثلاثة متغايرة، فنقول: أما الدعوة إلى الخير فأفضلها الدعوة إلى إثبات ذات الله وصفاته وتقديسه عن مشابهة الممكنات وإنما قلنا إن الدعوة إلى الخير تشتمل على ما ذكرنا لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

إذا عرفت هذا فنقول: الدعوة إلى الخير جنس تحته نوعان؛ أحدهما: الترغيب في فعل ما ينبغي وهو الأمر بالمعروف، والثاني: الترغيب في ترك ما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر فذكر الجنس أولاً ثم أتبعه بنوعيه مبالغة في البيان، وأما شرائط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمذكورة في كتب الكلام.

ثم قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وقد سبق تفسيره:

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: منهم من تمسك بهذه الآية في أن الفاسق ليس له أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، قال لأن هذه الآية تدل على أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر من المفلحين، والفاسق ليس من المفلحين، فوجب أن يكون الآمر بالمعروف ليس بفاسق، وأجيب عنه بأن هذا ورد على سبيل الغالب فإن الظاهر أن من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر لم يشرع فيه إلا بعد إصلاح أحوال نفسه، لأن العاقل يقدم مهم نفسه على مهم الغير، ثم إنهم أكدوا هذا بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] وبقوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣] ولأنه لو جاز ذلك لجاز لمن يزني بامرأة أن يأمرها بالمعروف في أنها لِمَ كشفت وجهها؟ ومعلوم أن ذلك في غاية القبح، والعلماء قالوا: الفاسق له أن يأمر بالمعروف لأنه وجب عليه ترك ذلك المنكر ووجب عليه النهي عن ذلك

المنكر، فبأن ترك أحد الواجبين لا يلزمه ترك الواجب الآخر، وعن السلف: مروا بالخير وإن لم تفعلوا، وعن الحسن أنه سمع مطرف بن عبد الله يقول: لا أقول ما لا أفعل، فقال: وأينا يفعل ما يقول؟ ودَّ الشيطان لو ظفر بهذه الكلمة منكم فلا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن المنكر.

المسألة الثانية: عن النبي ﷺ: «مَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، كَانَ خَلِيفَةَ اللهِ فِي أَرْضِهِ، وَخَلِيفَةَ رَسُولِهِ، وَخَلِيفَةَ كِتَابِهِ» وعن علي رضي الله عنه: أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال أيضًا: من لم يعرف بقلبه معروفًا ولم ينكر منكرًا نكس وجعل أعلاه أسفله، وروى الحسن عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: يا أيها الناس ائتمروا بالمعروف وانتهوا عن المنكر تعيشوا بخير، وعن الثوري: إذا كان الرجل محببًا في جيرانه محمودًا عند إخوانه فاعلم أنه مداهن.

المسألة الثالثة: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] قدم الإصلاح على القتال، وهذا يقتضي أن يبدأ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالأرفق فالأرفق مترقيًا إلى الأغلظ فالأغلظ، وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤] يدل على ما ذكرناه، ثم إذا لم يتم الأمر بالتغليظ والتشديد وجب عليه القهر باليد، فإن عجز فباللسان، فإن عجز فبالقلب، وأحوال الناس مختلفة في هذا الباب.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في النظم وجهان؛ الأول: أنه تعالى ذكر في الآيات المتقدمة أنه بيّن في التوراة والإنجيل ما يدل على صحة دين الإسلام وصحة نبوّة محمد ﷺ، ثم ذكر أن أهل الكتاب حسدوا محمدًا ﷺ واحتالوا في إلقاء الشكوك والشبهات في تلك النصوص الظاهرة، ثم إنه تعالى أمر المؤمنين بالإيمان بالله والدعوة إلى الله، ثم ختم ذلك بأن حذر المؤمنين من مثل فعل أهل الكتاب، وهو إلقاء الشبهات في هذه النصوص واستخراج التأويلات الفاسدة الرافعة لدلالة هذه النصوص فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ أيها المؤمنون عند سماع هذه البينات ﴿كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ﴾ من أهل الكتاب ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ﴾ في التوراة والإنجيل تلك النصوص الظاهرة، فعلى هذا الوجه تكون الآية من تتمة جملة الآيات المتقدمة والثاني: وهو أنه تعالى لما أمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك مما لا يتم إلا إذا كان الآمر بالمعروف قادرًا على تنفيذ هذا التكليف على الظلمة والمتغالين، ولا تحصل هذه القدرة إلا إذا حصلت الألفة والمحبة بين أهل الحق والدين، لا جرم حذرهم تعالى من الفرقة والاختلاف لكي لا يصير ذلك سببًا لعجزهم عن القيام بهذا التكليف، وعلى هذا الوجه تكون هذه الآية من تتمة الآية السابقة فقط.

المسألة الثانية: قوله: ﴿تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ﴾ فيه وجوه، الأول: تفرقوا واختلفوا بسبب اتباع

الهوى وطاعة النفس والحسد، كما أن إبليس ترك نص الله تعالى بسبب حسده لآدم، الثاني: تفرقوا حتى صار كل فريق منهم يصدق من الأنبياء بعضًا دون بعض، فصاروا بذلك إلى العداوة والفرقة، الثالث: صاروا مثل مبتدعة هذه الأمة، مثل المشبهة والقدرية والحشوية.

المسألة الثالثة: قال بعضهم: ﴿تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ﴾ معناهما واحد وذكرهما للتأكيد وقيل: بل معناهما مختلف، ثم اختلفوا فقيل: تفرقوا بالعداوة واختلفوا في الدين، وقيل: تفرقوا بسبب استخراج التأويلات الفاسدة من تلك النصوص، ثم اختلفوا بأن حاول كل واحد منهم نصرة قوله ومذهبه، والثالث: تفرقوا بأبدانهم بأن صار كل واحد من أولئك الأحبار رئيسًا في بلد، ثم اختلفوا بأن صار كل واحد منهم يدعي أنه على الحق وأن صاحبه على الباطل، وأقول: إنك إذا أنصفت علمت أن أكثر علماء هذا الزمان صاروا موصوفين بهذه الصفة فنسأل الله العفو والرحمة.

المسألة الرابعة: إنما قال: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ ولم يقل: ﴿جَآءَتْهُمُ﴾ لجواز حذف علامة من الفعل إذا كان فعل المؤنث متقدمًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني الذين تفرقوا لهم عذاب عظيم في الآخرة بسبب تفرقهم، فكان ذلك زجرًا للمؤمنين عن التفرق.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

اعلم أنه تعالى لما أمر اليهود ببعض الأشياء ونهاهم عن بعض، ثم أمر المسلمين بالبعض ونهاهم عن البعض أتبع ذلك بذكر أحوال الآخرة، تأكيدًا للأمر.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في نصب (يَوْمٍ) وجهان؛ الأول: أنه نصب على الظرف، والتقدير: ولهم عذابٌ عظيم في هذا اليوم، وعلى هذا التقدير ففيه فائدتان؛ إحداهما: أن ذلك العذاب في هذا اليوم، والأخرى أن من حكم هذا اليوم أن تبيض فيه وجوه وتسود وجوه، والثاني: أنه منصوب بإضمار (اذكر).

المسألة الثانية: هذه الآية لها نظائر منها قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] ومنها قوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦] ومنها قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨ - ٤١] ومنها قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٥] ومنها قوله: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤] ومنها قوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١].

إذا عرفت هذا فنقول: في هذا البياض والسواد والغبرة والقترة والنضرة للمفسرين قولان؛

أحدهما: أن البياض مجاز عن الفرح والسرور، والسواد عن الغم، وهذا مجاز مستعمل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨] ويقال: لفلان عندي يد بيضاء، أي جلية سارة، ولما سلم الحسن بن علي رضي الله عنه الأمر لمعاوية قال له بعضهم: يا مسود وجوه المؤمنين، ولبعضهم في الشيب:

يا بياضَ القرون سوَّدتَ وجهي ... عند بيض الوجوه سُودِ القرونِ[1]
فلَعَمْرِي لأخفينَّك جهدي ... عن عياني وعن عيان العيون
بسواد فيه بياض لوجهي ... وسواد لوجهك الملعون

وتقول العرب لمن نال بغيته وفاز بمطلوبه: ابيض وجهه ومعناه الاستبشار والتهلل، وعند التهنئة بالسرور يقولون: الحمد لله الذي بيض وجهك، ويقال لمن وصل إليه مكروه: اربد وجهه واغبر لونه وتبدلت صورته، فعلى هذا معنى الآية أن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه فإن كان ذلك من الحسنات ابيض وجهه بمعنى استبشر بنعم الله وفضله، وعلى ضد ذلك إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة اسود وجهه بمعنى شدة الحزن والغم وهذا قول أبي مسلم الأصفهاني.

والقول الثاني: إن هذا البياض والسواد يحصلان في وجوه المؤمنين والكافرين، وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما، ولا دليل يوجب ترك الحقيقة، فوجب المصير إليه، قلت: ولأبي مسلم أن يقول: الدليل دل على ما قلناه، وذلك لأنه تعالى قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٤١] فجعل الغبرة والقترة في مقابلة الضحك والاستبشار، فلو لم يكن المراد بالغبرة والقترة ما ذكرنا من المجاز لما صح جعله مقابلاً له، فعلمنا أن المراد من هذه الغبرة والقترة الغم والحزن حتى يصح هذا التقابل، ثم قال القائلون بهذا القول: الحكمة في ذلك أن أهل الموقف إذا رأوا البياض في وجه إنسان عرفوا أنه من أهل الثواب فزادوا في تعظيمه فيحصل له الفرح بذلك من وجهين؛ أحدهما: أن السعيد يفرح بأن يعلم قومه أنه من أهل السعادة، قال تعالى مخبرًا عنهم ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧] الثاني: أنهم إذا عرفوا ذلك خصوه بمزيد التعظيم فثبت أن ظهور البياض في وجه المكلف سبب لمزيد سروره في الآخرة وبهذا الطريق يكون ظهور السواد في وجه الكفار سببًا لمزيد غمهم في الآخرة، فهذا وجه الحكمة في الآخرة، وأما في الدنيا فالمكلف حين يكون في الدنيا إذا عرف حصول هذه الحالة في الآخرة صار ذلك مرغبًا له في الطاعات وترك المحرمات لكي يكون في الآخرة من قبيل من يبيض وجهه لا من قبيل من يسود وجهه، فهذا تقرير هذين القولين.

---

(١) هذه الأبيات لابن الرومي وتقدم.

المسألة الثالثة: احتج أصحابُنا بهذه الآية على أن المُكلَّف إما مؤمن وإما كافر، وأنه ليس هاهنا منزلة بين المنزلتين كما يذهب إليه المعتزِلة، فقالوا: إنه تعالى قسم أهل القيامة إلى قسمين منهم من يبيض وجهه وهم المؤمنون، ومنهم من يسود وجهه وهم الكافرون ولم يذكر الثالث، فلو كان هاهنا قسم ثالث لذكره الله تعالى قالوا: وهذا أيضًا متأكد بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٨ - ٤٢].

أجاب القاضي عنه بأن عدم ذكر القسم الثالث لا يدل على عدمه، يبين ذلك أنه تعالى إنما قال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ فذكرهما على سبيل التنكير، وذلك لا يفيد العموم، وأيضًا المذكور في الآية المؤمنون والذين كفروا بعد الإيمان ولا شبهة أن الكافر الأصلي من أهل النار مع أنه غير داخل تحت هذين القسمين، فكذا القول في الفساق.

واعلم أن وجه الاستدلال بالآية هو أنا نقول: الآيات المتقدمة ما كانت إلا في الترغيب في الإيمان بالتوحيد والنبوّة وفي الزجر عن الكفر بهما ثم إنه تعالى أتبع ذلك بهذه الآية فظاهرها يقتضي أن يكون ابيضاض الوجه نصيبًا لمن آمن بالتوحيد والنبوّة، واسوداد الوجه يكون نصيبًا لمن أنكر ذلك، ثم دل ما بعد هذه الآية على أن صاحب البياض من أهل الجنة، وصاحب السواد من أهل النار، فحينئذ يلزم نفي المنزلة بين المنزلتين، وأما قوله يشكل هذا بالكافر الأصلي فجوابنا عنه من وجهين؛ الأول: أن نقول لم لا يجوز أن يكون المراد منه أن كل أحد أسلم وقت استخراج الذرية من صلب آدم؟ وإذا كان كذلك كان الكل داخلاً فيه والثاني: وهو أنه تعالى قال في آخر الآية: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فجعل موجب العذاب هو الكفر من حيث إنه كفر لا الكفر من حيث انه بعد الإيمان، وإذا وقع التعليل بمطلق الكفر دخل كل الكفار فيه سواء كفر بعد الإيمان، أو كان كافرًا أصليًا والله أعلم.

ثم قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾

وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: أنه تعالى ذكر القسمين أولاً فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ فقدم البياض على السواد في اللفظ، ثم لما شرع في حكم هذين القسمين قدم حكم السواد، وكان حق الترتيب أن يقدم حكم البياض.

والجواب عنه من وجوه: أحدها: أن الواو للجمع المطلق لا للترتيب، وثانيها: أن المقصود من الخلق إيصال الرحمة لا إيصال العذاب، قال عليه الصّلاة والسّلام حاكيًا عن رَبِّ العزة سبحانه: «**خلقتهم ليربحوا علي لا لأربح عليهم**» وإذا كان كذلك فهو تعالى ابتدأ بذكر أهل الثواب وهم أهل البياض، لأن تقديم الأشرف على الأخس في الذكر أحسن، ثم ختم بذكرهم أيضًا تنبيهًا على أن إرادة الرحمة أكثر من إرادة الغضب كما قال: «**سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي**»، وثالثها: أن الفصحاء والشعراء قالوا: يجب أن يكون مطلع الكلام ومقطعه شيئًا يسر الطبع ويشرح الصدر

ولا شك أن ذكر رحمة الله هو الذي يكون كذلك فلا جرم وقع الابتداء بذكر أهل الثواب والاختتام بذكرهم.

السؤال الثاني: أين جواب (أما)؟

والجواب: هو محذوف، والتقدير فيقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم، وإنما حسن الحذف لدلالة الكلام عليه ومثله في التنزيل كثير قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] وقال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البقرة: ١٢٧] وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ﴾ [السجدة: ١٢].

السؤال الثالث: من المراد بهؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم؟

والجواب: للمفسرين فيه أقوال:

أحدها: قال أُبيٌّ بن كَعْب: الكل آمنوا حال ما استخرجهم من صلب آدم عليه السلام، فكل من كفر في الدنيا، فقد كفر بعد الإيمان، ورواه الواحدي في (البسيط) بإسناده عن النبي ﷺ.

وثانيها: أن المراد: أكفرتم بعد ما ظهر لكم ما يوجب الإيمان وهو الدلائل التي نصبها الله تعالى على التوحيد والنبوّة، والدليل على صحة هذا التأويل، قوله تعالى فيما قبل هذه الآية ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠] فذمهم على الكفر بعد وضوح الآيات، وقال للمؤمنين ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾. ثم قال هاهنا ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ فكان ذلك محمولاً على ما ذكرناه حتى تصير هذه الآية مقررة لما قبلها، وعلى هذين الوجهين تكون الآية عامة في حق كل الكفار، وأما الذين خصصوا هذه الآية ببعض الكفار فلهم وجوه؛ الأول: قال عكرمة والأصم والزجاج: المراد أهل الكتاب فإنهم قبل مبعث النبي ﷺ كانوا مؤمنين به، فلما بعث ﷺ كفروا به، الثاني: قال قتادة: المراد الذين كفروا بعد الإيمان بسبب الارتداد، الثالث: قال الحسن: الذين كفروا بعد الإيمان بالنفاق الرابع: قيل هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة، الخامس: قيل: هم الخوارج، فإنه عليه الصلاة والسلام قال فيهم: «إنَّهم يَمرقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمرقُ السَّهمُ مِنَ الرَّمِيَّة»(١) وهذان الوجهان الأخيران في غاية البعد لأنهما لا يليقان بما قبل هذه الآية، ولأنه تخصيص لغير دليل، ولأن الخروج على الإمام لا يوجب الكفر البتة.

السؤال الرابع: ما الفائدة في همزة الاستفهام في قوله: ﴿أَكَفَرْتُم﴾؟

الجواب: هذا استفهام بمعنى الإنكار، وهو مؤكد لما ذكر قبل هذه الآية وهو قوله: ﴿قُلْ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأنبياء)، باب: (قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥]) (٦/ ٤٣٣)، حديث رقم (٣٣٤٤) من طريق أبي سفيان... به، ومسلم في كتاب (الزكاة)، باب: (ذكر الخوارج وصفاتهم) (٢/ ١٤٣/ ٧٤١) من طريق سعيد بن مسروق... به، كلاهما (أبو سفيان، سعيد) عن عبد الرحمن بن أبي نعيم... به.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ۝ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٩٨، ٩٩].

ثم قال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾.

وفيه فوائد الأولى: أنه لو لم يذكر ذلك لكان الوعيد مختصًّا بمن كفر بعد إيمانه، فلما ذكر هذا ثبت الوعيد لمن كفر بعد إيمانه ولمن كان كافرًا أصليًّا، الثانية: قال القاضي قوله: ﴿أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ يدل على أن الكفر منه لا من الله وكذا قوله: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾، الثالثة: قالت المرجئة: الآية تدل على أن كل نوع من أنواع العذاب وقع معللاً بالكفر، وهذا ينفي حصول العذاب لغير الكافر.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وفيه سؤالات:

السؤال الأول: ما المراد برحمة الله؟

الجواب: قال ابن عباس: المراد الجنة، وقال المحققون من أصحابنا: هذا إشارة إلى أن العبد وإن كثرت طاعته فإنه لا يدخل الجنة إلا برحمة الله، وكيف لا نقول ذلك والعبد ما دامت داعيته إلى الفعل وإلى الترك على السوية يمتنع منه الفعل؟ فإذن ما لم يحصل رجحان داعية الطاعة امتنع أن يحصل منه الطاعة وذلك الرجحان لا يكون إلا بخلق الله تعالى، فإذن صدور تلك الطاعة من العبد نعمة من الله في حق العبد فكيف يصير ذلك موجبًا على الله شيئًا، فثبت أن دخول الجنة لا يكون إلا بفضل الله وبرحمته وبكرمه لا باستحقاقنا.

السؤال الثاني: كيف موقع قوله: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ بعد قوله: ﴿فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ﴾.

الجواب: كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون.

السؤال الثالث: الكفار مخلدون في النار كما أن المؤمنين مخلدون في الجنة، ثم إنه تعالى لم ينص على خلود أهل النار في هذه الآية مع أنه نص على خلود أهل الجنة فيها فما الفائدة؟

والجواب: كل ذلك إشعارات بأن جانب الرحمة أغلب، وذلك لأنه ابتدأ في الذكر بأهل الرحمة وختم بأهل الرحمة، ولما ذكر العذاب ما أضافه إلى نفسه، بل قال: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ مع أنه ذكر الرحمة مضافة إلى نفسه حيث قال: ﴿فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ﴾ ولما ذكر العذاب ما نص على الخلود مع أنه نص على الخلود في جانب الثواب، ولما ذكر العذاب علله بفعلهم فقال: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ ولما ذكر الثواب علله برحمته فقال: ﴿فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ﴾ ثم قال في آخر الآية ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهذا جار مجرى الاعتذار عن الوعيد بالعقاب، وكل ذلك مما يشعر بأن جانب الرحمة مغلب، يا أرحم الراحمين لا تحرمنا من برد رحمتك ومن كرامة غفرانك وإحسانك.

ثم قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾ فقوله: ﴿تِلۡكَ﴾ فيه وجهان؛ الأول:

المراد أن هذه الآيات التي ذكرناها هي دلائل الله، وإنما جاز إقامة (تِلْكَ) مقام (هذه) لأن هذه الآيات المذكورة قد انقضت بعد الذكر، فصار كأنها بعدت فقيل فيها (تِلْكَ)، والثاني: أن الله تعالى وعده أن ينزل عليه كتابًا مشتملاً على كل ما لا بد منه في الدين، فلما أنزل هذه الآيات قال: تلك الآيات الموعودة هي التي نتلوها عليك بالحق، وتمام الكلام في هذه المسألة قد تقدم في سورة البقرة في تفسير قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢] وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فيه وجهان، الأول: أي ملتبسة بالحق والعدل من إجزاء المحسن والمسيء بما يستوجبانه، الثاني: بالحق، أي بالمعنى الحق، لأن معنى التلو حق.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إنما حسن ذكر الظلم هاهنا لأنه تقدم ذكر العقوبة الشديدة وهو سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين، فكأنه تعالى يعتذر عن ذلك وقال: إنهم ما وقعوا فيه إلا بسبب أفعالهم المنكرة، فإن مصالح العالم لا تستقيم إلا بتهديد المذنبين، وإذا حصل هذا التهديد فلا بد من التحقيق دفعًا للكذب، فصار هذا الاعتذار من أدل الدلائل، على أن جانب الرحمة غالب، ونظيره قوله تعالى في سورة (عم) بعد أن ذكر وعيد الكفار ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٢٧، ٢٨] أي: هذا الوعيد الشديد إنما حصل بسبب هذه الأفعال المنكرة.

المسألة الثانية: قال الجُبّائي: هذه الآية تدل على أنه سبحانه لا يريد شيئًا من القبائح لا من أفعاله ولا من أفعال عباده، ولا يفعل شيئًا من ذلك، وبيانه: وهو أن الظلم إما أن يفرض صدوره من الله تعالى، أو من العبد، وبتقدير صدوره من العبد، فإما أن يظلم العبد نفسه وذلك بسبب إقدامه على المعاصي أو يظلم غيره، فأقسام الظلم هي هذه الثلاثة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ نكرةٌ في سياق النَّفي، فوجب أن لا يريد شيئًا مما يكون ظلمًا، سواء كان ذلك صادرًا عنه أو صادرًا عن غيره، فثبت أن هذه الآية تدل على أنه لا يريد شيئًا من هذه الأقسام الثلاثة، وإذا ثبت ذلك وجب أن لا يكون فاعلاً لشيء من هذه الأقسام، ويلزم منه أن لا يكون فاعلاً للظلم أصلاً ويلزم أن لا يكون فاعلاً لأعمال العباد، لأن من جملة أعمالهم ظلمهم لأنفسهم وظلم بعضهم بعضًا، وإنما قلنا: إن الآية تدل على كونه تعالى غير فاعل للظلم البتة لأنها دلت على أنه غير مريد لشيء منها، ولو كان فاعلاً لشيء من أقسام الظلم لكان مريدًا لها، وقد بطل ذلك، قالوا: فثبت بهذه الآية أنه تعالى غير فاعل للظلم، وغير فاعل لأعمال العباد، وغير مريد للقبائح من أفعال العباد، ثم قالوا: إنه تعالى تمدح بأنه لا يريد ذلك، والتمدح إنما يصح لو صح منه فعل ذلك الشيء وصح منه كونه مريدًا له، فدلت هذه الآية على كونه تعالى قادرًا على الظلم وعند هذا تبجحوا وقالوا: هذه الآية الواحدة وافية بتقرير جميع أصول المعتزلة في مسائل العدل، ثم قالوا: ولما ذكر تعالى أنه لا يريد الظلم ولا يفعل الظلم قال بعده: ﴿وَلِلَّهِ مَا

﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ وإنما ذكر هذه الآية عقيب ما تقدم لوجهين؛ الأول: أنه تعالى لما ذكر أنه لا يريد الظلم والقبائح استدل عليه بأن فاعل القبيح إنما يفعل القبيح إما للجهل، أو العجز، أو الحاجة، وكل ذلك على الله محال لأنه مالك لكل ما في السموات وما في الأرض، وهذه المالكية تنافي الجهل والعجز والحاجة، وإذا امتنع ثبوت هذه الصفات في حقه تعالى امتنع كونه فاعلاً للقبيح، والثاني: أنه تعالى لما ذكر أنه لا يريد الظلم بوجه من الوجوه كان لقائل أن يقول: إنا نشاهد وجود الظلم في العالم، فإذا لم يكن وقوعه بإرادته كان على خلاف إرادته، فيلزم كونه ضعيفًا عاجزًا مغلوبًا وذلك محال.

فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: أنه تعالى قادر على أن يمنع الظلمة من الظلم على سبيل الإلجاء والقهر، ولما كان قادرًا على ذلك خرج عن كونه عاجزًا ضعيفًا لا أنه تعالى أراد منهم ترك المعصية اختيارًا وطوعًا ليصيروا بسبب ذلك مستحقين للثواب فلو قهرهم على ترك المعصية لبطلت هذه الفائدة، فهذا تلخيص كلام المعتزلة في هذه الآية، وربما أوردوا هذا الكلام من وجه آخر، فقالوا: المراد من قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ إما أن يكون هو لا يريد أن يظلمهم أو أنه لا يريد منهم أن يظلم بعضهم بعضًا فإن كان الأول فهذا لا يستقيم على قولكم، لأن مذهبكم أنه تعالى لو عذب البريء عن الذنب بأشد العذاب لم يكن ظالمًا، بل كان عادلاً، لأن الظلم تصرُّفٌ في ملك الغير، وهو تعالى إنما يتصرف في ملك نفسه فاستحال كونه ظالمًا وإذا كان كذلك لم يكن حمل الآية على أنه لا يريد أن يظلم الخلق وأما إن حملتم الآية على أنه لا يريد أن يظلم بعض العباد بعضًا، فهذا أيضًا لا يتم على قولكم لأن كل ذلك بإرادة الله وتكوينه على قولكم، فثبت أن على مذهبكم لا يمكن حمل الآية على وجه صحيح.

والجواب: لم لا يجوز أن يكون المراد أنه تعالى لا يريد أن يظلم أحدًا من عباده؟ قوله: الظلم منه محال على مذهبكم فامتنع التمدح به قلنا: الكلام عليه من وجهين الأول: أنه تعالى تمدح بقوله ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وبقوله ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤] ولا يلزم من ذلك صحة النوم والأكل عليه فكذا هاهنا الثاني: أنه تعالى إن عذب من لم يكن مستحقًا للعذاب فهو وإن لم يكن ظلمًا في نفسه لكنه في صورة الظلم، وقد يطلق اسم أحد المتشابهين على الآخر كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾ [الشورى: ٤٠] ونظائره كثيرة في القرآن هذا تمام الكلام في هذه المناظرة.

المسألة الثالثة: احتج أصحابنا بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ على كونه خالقًا لأعمال العباد، فقالوا: لا شك أن أفعال العباد من جملة ما في السموات وما في والأرض، فوجب كونها له بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ وإنما يصح قولنا: إنها له لو كانت مخلوقة له فدلت هذه الآية على أنه خالق لأفعال العباد.

أجاب الجبائي عنه بأن قوله: (لِلَّهِ) إضافة ملك لا إضافة فعل، ألا ترى أنه يقال: هذا البناء

لفلان فيريدون أنه مملوكه لا أنه مفعوله، وأيضًا المقصود من الآية تعظيم الله لنفسه ومدحه لإلهية نفسه، ولا يجوز أن يتمدح بأن ينسب إلى نفسه الفواحش والقبائح، وأيضًا فقوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إنما يتناول ما كان مظروفًا في السموات والأرض وذلك من صفات الأجسام لا من صفات الأفعال التي هي أعراض.

أجاب أصحابنا عنه بأن هذه الإضافة إضافة الفعل بدليل أن القادر على القبيح والحسن لا يرجح الحسن على القبيح إلا إذا حصل في قلبه ما يدعوه إلى فعل الحسن، وتلك الداعية حاصلة بتخليق الله تعالى دفعًا للتسلسل، وإذا كان المؤثر في حصول فعل العبد هو مجموع القدرة والداعية، وثبت أن مجموع القدرة والداعية بخلق الله تعالى ثبت أن فعل العبد مستند إلى الله تعالى خلقًا وتكوينًا بواسطة فعل السبب، فهذا تمام القول في هذه المناظرة.

المسألة الرابعة: قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ زعمت الفلاسفة أنه إنما قدم ذكر ما في السموات على ذكر ما في الأرض لأن الأحوال السماوية أسباب للأحوال الأرضية، فقدم السبب على المسبب، وهذا يدل على أن جميع الأحوال الأرضية مستندة إلى الأحوال السماوية، ولا شك أن الأحوال السماوية مستندة إلى خلق الله وتكوينه فيكون الجبر لازمًا أيضًا من هذا الوجه.

المسألة الخامسة: قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فأعاد ذكر الله في أول الآيتين والغرض منه تأكيد التعظيم، والمقصود أن منه مبدأ المخلوقات وإليه معادهم، فقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى أنه سبحانه هو الأول وقوله ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ إشارة إلى أنه هو الآخر، وذلك يدل على إحاطة حكمه وتصرفه وتدبيره بأولهم وآخرهم، وأن الأسباب والمسببات منتسبة إليه وأن الحاجات منقطعة عنده.

المسألة السادسة: كلمة (إلى) في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ لا تدل على كونه تعالى في مكان وجهة، بل المراد أن رجوع الخلق إلى موضع لا ينفذ فيه حكم أحد إلا حكمه ولا يجري فيه قضاء أحد إلا قضاؤه.

قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾

في النظم وجهان:

الأول: أنه تعالى لما أمر المؤمنين ببعض الأشياء ونهاهم عن بعضها وحذرهم من أن يكونوا

مثل أهل الكتاب في التمرد والعصيان، وذكر عقيبه ثواب المطيعين وعقاب الكافرين، كان الغرض من كل هذه الآيات حمل المؤمنين والمكلفين على الانقياد والطاعة ومنعهم عن التمرد والمعصية، ثم إنه تعالى أردف ذلك بطريق آخر يقتضي حمل المؤمنين على الانقياد والطاعة فقال ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ والمعنى أنكم كنتم في اللوح المحفوظ خير الأمم وأفضلهم، فاللائق بهذا أن لا تبطلوا على أنفسكم هذه الفضيلة، وأن لا تزيلوا عن أنفسكم هذه الخصلة المحمودة، وأن تكونوا منقادين مطيعين في كل ما يتوجه عليكم من التكاليف، الثاني: أن الله تعالى لما ذكر كمال حال الأشقياء وهو قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾[آل عمران: ١٠٦] وكمال حال السعداء وهو قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾[آل عمران: ١٠٧] نبه على ما هو السبب لوعيد الأشقياء بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران: ١٠٨] يعني أنهم إنما استحقوا ذلك بأفعالهم القبيحة، ثم نبه في هذه الآية على ما هو السبب لوعد السعداء بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي: تلك السعادات والكمالات والكرامات إنما فازوا بها في الآخرة لأنهم كانوا في الدنيا ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: لفظة (كَانَ) قد تكون تامة وناقصة وزائدة على ما هو مشروح في النحو واختلف المفسرون في قوله: ﴿كُنتُمْ﴾ على وجوه؛ الأول: أن (كان) هاهنا تامة بمعنى الوقوع والحدوث وهو لا يحتاج إلى خبر، والمعنى: حدثتم خير أمة ووجدتم وخلقتم خير أمة، ويكون قوله: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ بمعنى الحال وهذا قول جمع من المفسرين، الثاني: أن (كان) هاهنا ناقصة وفيه سؤال: وهو أن هذا يوهم أنهم كانوا موصوفين بهذه الصفة وأنهم ما بقوا الآن عليها.

والجواب عنه: أن قوله: (كان) عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإبهام، ولا يدل ذلك على انقطاع طارئ بدليل قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾[نوح: ١٠] وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفتح: ١٤] إذا ثبت هذا فنقول: للمفسرين على هذا التقدير أقوال؛ أحدها: كنتم في علم الله خير أمة، وثانيها: كنتم في الأمم الذين كانوا قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة وهو كقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾[الفتح: ٢٩] فشدتهم على الكفار أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وثالثها: كنتم في اللوح المحفوظ موصوفين بأنكم خير أمة، ورابعها: كنتم منذ آمنتم خير أمة أخرجت للناس، وخامسها: قال أبو مسلم: قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ تابع لقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾[آل عمران: ١٠٧] والتقدير: أنه يقال لهم عند الخلود في الجنة: كنتم في دنياكم خير أمة فاستحقيتم ما أنتم فيه من الرحمة وبياض الوجه بسببه، ويكون ما عرض بين أول القصة وآخرها كما لا يزال يعرض في القرآن من مثله، وسادسها: قال بعضهم: لو شاء الله تعالى لقال (أنتم) وكان هذا التشريف حاصلاً لكلنا ولكن قوله: ﴿كُنتُمْ﴾ مخصوص بقوم معينين من أصحاب الرسول ﷺ وهم السابقون الأولون، ومن صنع مثل ما صنعوا، وسابعها: كنتم مذ آمنتم خير أمة تنبيهًا على أنهم كانوا موصوفين بهذه الصفة مذ كانوا.

الاحتمال الثالث: أن يقال: (كان) هاهنا زائدة، وقال بعضهم: قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ هو كقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦] وقال في موضع آخر: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦] وإضمار كان وإظهارها سواء إلا أنها تذكر للتأكيد ووقوع الأمر لا محالة: قال ابن الأنباري: هذا القول ظاهر الاختلال، لأن (كان) تلغى متوسطة ومؤخرة، ولا تلغى متقدمة، تقول العرب: عبد الله كان قائم، وعبد الله قائم كان على أن كان ملغاة، ولا يقولون: كان عبد الله قائم على إلغائها، لأن سبيلهم أن يبدؤا بما تنصرف العناية إليه، والملغي لا يكون في محل العناية، وأيضًا لا يجوز إلغاء الكون في الآية لانتصاب خبره، وإذا عمل الكون في الخبر فنصبه لم يكن ملغى.

الاحتمال الرابع: أن تكون (كان) بمعنى صار، فقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ معناه صرتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، أي: صرتم خير أمة بسبب كونكم آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ومؤمنين بالله.

ثم قال: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ يعني: كما أنكم اكتسبتم هذه الخيرية بسبب هذه الخصال، فأهل الكتاب لو آمنوا لحصلت لهم أيضًا صفة الخيرية والله أعلم.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن إجماع الأمة حُجَّة، وتقريره من وجهين؛ الأول: قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٥٩] ثم قال في هذه الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ فوجب بحكم هذه الآية أن تكون هذه الآية أفضل من أولئك الذين يهدون بالحق من قوم موسى، وإذا كان هؤلاء أفضل منهم وجب أن تكون هذه الأمة لا تحكم إلا بالحق إذ لو جاز في هذه الأمة أن تحكم بما ليس بحق لامتنع كون هذه الأمة أفضل من الأمة التي تهدي بالحق، لأن المبطل يمتنع أن يكون خيرًا من المحق، فثبت أن هذه الأمة لا تحكم إلا بالحق، وإذا كان كذلك كان إجماعهم حجة.

الوجه الثاني: وهو (أن الألف واللام) في لفظ (المعروف) ولفظ (المنكر) يفيدان الاستغراق، وهذا يقتضي كونهم آمرين بكل معروف، وناهين عن كل منكر ومتى كانوا كذلك كان إجماعهم حقًّا وصدقًا لا محالة فكان حجة، والمباحث الكثيرة فيه ذكرناها في الأصول.

المسألة الثالثة: قال الزجاج: قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ ظاهر الخطاب فيه مع أصحاب النبي ﷺ، ولكنه عام في كل الأمة، ونظيره قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨] فإن كل ذلك خطاب مع الحاضرين بحسب اللفظ، ولكنه عام في حق الكل كذا هاهنا.

المسألة الرابعة: قال القفال رحمه الله: أصل الأمة الطائفة المجتمعة على الشيء الواحد فأمة نبينا ﷺ هم الجماعة الموصوفون بالإيمان به والإقرار بنبوته، وقد يقال لكل من جمعتهم دعوته أنهم أمته إلا أن لفظ الأمة إذا أطلقت وحدها وقع على الأول، ألا ترى أنه إذا قيل أجمعت الأمة

على كذا فهم منه الأول وقال عليه الصلاة والسلام: «أُمَّتِي لا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلالَةٍ» وروي أنه عليه الصلاة والسلام يقول يوم القيامة «أُمَّتِي أُمَّتِي» فلفظ الأمة في هذه المواضع وأشباهها يفهم منه المقرون بنبوته، فأما أهل دعوته فإنه إنما يقال لهم: إنهم أمة الدعوة ولا يطلق عليهم إلا لفظ الأمة بهذا الشرط.

أما قوله: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ففيه قولان: الأول: أن المعنى كنتم خير الأمم المخرجة للناس في جميع الأعصار، فقوله: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي: أظهرت للناس حتى تميزت وعرفت وفصل بينها وبين غيرها، والثاني: أن قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ من تمام قوله: ﴿كُنتُمْ﴾ والتقدير: كنتم للناس خير أمة، ومنهم من قال: ﴿أُخْرِجَتْ﴾ صلة، والتقدير: كنتم خير أمة للناس.

ثم قال: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

واعلم أن هذا كلام مستأنف، والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية، كما تقول: زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم، وتحقيق الكلام أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم مقرونًا بالوصف المناسب له يدل على كون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف، فهاهنا حكم تعالى بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة، ثم ذكر عقيبه هذا الحكم وهذه الطاعات، أعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان، فوجب كون تلك الخيرية معللة بهذه العبادات.

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: من أي وجه يقتضي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله كون هذه الأمة خير الأمم مع أن هذه الصفات الثلاثة كانت حاصلة في سائر الأمم؟.

والجواب: قال القفال: تفضيلهم على الأمم الذين كانوا قبلهم إنما حصل لأجل أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بآكد الوجوه وهو القتال لأن الأمر بالمعروف قد يكون بالقلب وباللسان وباليد، وأقواها ما يكون بالقتال، لأنه إلقاء النفس في خطر القتل وأعرف المعروفات الدين الحق والإيمان بالتوحيد والنبوة، وأنكر المنكرات: الكفر بالله، فكان الجهاد في الدين محملاً لأعظم المضار لغرض إيصال الغير إلى أعظم المنافع، وتخليصه من أعظم المضار، فوجب أن يكون الجهاد أعظم العبادات، ولما كان أمر الجهاد في شرعنا أقوى منه في سائر الشرائع، لا جرم صار ذلك موجبًا لفضل هذه الأمة على سائر الأمم، وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية: قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ تأمرونهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ويقروا بما أنزل الله، وتقاتلونهم عليه و(لا إله إلا الله) أعظم المعروف، والتكذيب هو أنكر المنكر.

ثم قال القفال: فائدة القتال على الدين لا ينكره منصف، وذلك لأن أكثر الناس يحبون أديانهم بسبب الألف والعادة، ولا يتأملون في الدلائل التي تورد عليهم فإذا أكره على الدخول في الدين

بالتخويف بالقتل دخل فيه، ثم لا يزال يضعف ما في قلبه من حب الدين الباطل، ولا يزال يقوى في قلبه حب الدين الحق إلى أن ينتقل من الباطل إلى الحق، ومن استحقاق العذاب الدائم إلى استحقاق الثواب الدائم.

السؤال الثاني: لِمَ قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر مع أن الإيمان بالله لا بد وأن يكون مقدمًا على كل الطاعات؟

والجواب: أن الإيمان بالله أمر مشترك فيه بين جميع الأمم المحقة، ثم إنه تعالى فضل هذه الأمة على سائر الأمم المحقة، فيمتنع أن يكون المؤثر في حصول هذه الخيرية هو الإيمان الذي هو القدر المشترك بين الكل، بل المؤثر في حصول هذه الزيادة هو كون هذه الأمة أقوى حالاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من سائر الأمم، فإذن المؤثر في حصول هذه الخيرية هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأما الإيمان بالله فهو شرط لتأثير هذا المؤثر في هذا الحكم لأنه ما لم يوجد الإيمان لم يصر شيء من الطاعات مؤثرًا في صفة الخيرية، فثبت أن الموجب لهذه الخيرية هو كونهم آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، وأما إيمانهم فذاك شرط التأثير، والمؤثر ألصق بالأثر من شرط التأثير، فلهذا السبب قدم الله تعالى ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ذكر الإيمان.

السؤال الثالث: لِمَ اكتفى بذكر الإيمان بالله ولم يذكر الإيمان بالنبوة مع أنه لا بد منه.

والجواب: الإيمان بالله يستلزم الإيمان بالنبوّة، لأن الإيمان بالله لا يحصل إلا إذا حصل الإيمان بكونه صادقًا، والإيمان بكونه صادقًا لا يحصل إلا إذا كان الذي أظهر المعجز على وفق دعواه صادقًا لأن المعجز قائم مقام التصديق بالقول، فلما شاهدنا ظهور المعجز على وفق دعوى محمد ﷺ كان من ضرورة الإيمان بالله الإيمان بنبوّة محمد ﷺ، فكان الاقتصار على ذكر الإيمان بالله تنبيهًا على هذه الدقيقة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ وفيه وجهان؛ الأول: ولو آمن أهل الكتاب بهذا الدين الذي لأجله حصلت صفة الخيرية لأتباع محمد عليه الصلاة والسلام لحصلت هذه الخيرية أيضًا لهم، فالمقصود من هذا الكلام ترغيب أهل الكتاب في هذا الدين، الثاني: أن أهل الكتاب إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حبًا للرياسة واستتباع العوام ولو آمنوا لحصلت لهم هذه الرياسة في الدنيا مع الثواب العظيم في الآخرة، فكان ذلك خيرًا لهم مما قنعوا به.

واعلم أنه تعالى أتبع هذا الكلام بجملتين على سبيل الابتداء من غير عاطف، إحداهما: قوله ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠] وثانيتهما: قوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ قال صاحب (الكشاف): هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب، كما يقول القائل: وعلى ذكر فلان فإن من شأنه كيت وكيت، ولذلك جاء ﴿ءَامَنَ﴾ غير عاطف.

أما قوله ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

ففيه سؤالان:

السؤال الأول: الألف واللام في قوله ﴿ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ للاستغراق أو للمعهود السابق؟

والجواب: بل للمعهود السابق، والمراد: عبد الله بن سلام ورهطه من اليهود، والنجاشي ورهطه من النصارى.

السؤال الثاني: الوصف إنما يذكر للمبالغة فأي مبالغة تحصل في وصف الكافر بأنه فاسق.

والجواب: الكافر قد يكون عدلاً في دينه وقد يكون فاسقًا في دينه فيكون مردودًا عند الطوائف كلهم، لأن المسلمين لا يقبلونه لكفره، والكفار لا يقبلونه لكونه فاسقًا فيما بينهم، فكأنه قيل أهل الكتاب فريقان: منهم من آمن، والذين ما آمنوا فهم فاسقون في أديانهم، فليسوا ممن يجب الاقتداء بهم البتة عند أحد من العقلاء.

أما قوله تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ فاعلم أنه تعالى لما رغب المؤمنين في التصلب في إيمانهم وترك الالتفات إلى أقوال الكفار وأفعالهم بقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ رغبهم فيه من وجه آخر، وهو أنهم لا قدرة لهم على الإضرار بالمسلمين إلا بالقليل من القول الذي لا عبرة به، ولو أنهم قاتلوا المسلمين صاروا منهزمين مخذولين، وإذا كان كذلك لم يجب الالتفات إلى أقوالهم وأفعالهم، وكل ذلك تقرير لما تقدم من قوله: ﴿إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١٠]فهذا وجه النظم، فأما قوله ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ فمعناه: أنه ليس على المسلمين من كفار أهل الكتاب ضرر وإنما منتهى أمرهم أن يؤذوكم باللسان، إما بالطعن في محمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وإما بإظهار كلمة الكفر، كقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]و ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]و﴿ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]وإما بتحريف نصوص التوراة والإنجيل، وإما بإلقاء الشبه في الأسماع، وإما بتخويف الضعفة من المسلمين، ومن الناس من قال: إن قوله: ﴿ إِلَّآ أَذًى﴾ استثناء منقطع وهو بعيد، لأن كل الوجوه المذكورة يوجب وقوع الغم في قلوب المسلمين والغم ضرر، فالتقدير لا يضروكم إلا الضرر الذي هو الأذى، فهو استثناء صحيح، والمعنى لن يضروكم إلا ضررًا يسيرًا، والأذى وقع موقع الضرر، والأذى مصدر أذيت الشيء أذى.

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ وهو إخبار بأنهم لو قاتلوا المسلمين لصاروا منهزمين مخذولين ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي إنهم بعد صيرورتهم منهزمين لا يحصل لهم شوكة ولا قوة البتة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١٢]وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [آل عمران: ١٢] وقوله: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٤-٤٥] وكل ذلك وعد بالفتح والنصرة والظفر.

واعلم أن هذه الآية اشتملت على الإخبار عن غيوب كثيرة، منها أن المؤمنين آمنون من ضررهم، ومنها أنهم لو قاتلوا المؤمنين لانهزموا، ومنها أنه لا يحصل لهم قوة وشوكة بعد الانهزام وكل هذه الأخبار وقعت كما أخبر الله عنها، فإن اليهود لم يقاتلوا إلا انهزموا، وما أقدموا على محاربة وطلب رياسة إلا خذلوا، وكل ذلك إخبار عن الغيب فيكون معجزًا وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: هب أن اليهود كذلك، لكن النصارى ليسوا كذلك فهذا يقدح في صحة هذه الآيات، قلنا: هذه الآيات مخصوصة باليهود، وأسباب النزول تدل على ذلك فزال هذا الإشكال.

السؤال الثاني: هلا جزم قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

قلنا: عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء كأنه قيل أخبركم أنهم لا ينصرون، والفائدة فيه أنه لو جزم لكان نفي النصر مقيدًا بمقاتلتهم كتولية الأدبار، وحين رفع كان نفي النصر وعدًا مطلقًا كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم لا يجدون النصرة بعد ذلك قط بل يبقون في الذلة والمهانة أبدًا دائمًا.

السؤال الثالث: ما الذي عطف عليه قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾؟.

الجواب: هو جملة الشرط والجزاء، كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون، وإنما ذكر لفظ ﴿ثُمَّ﴾ لإفادة معنى التراخي في المرتبة، لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار.

قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما بيّن أنهم إن قاتلوا رجعوا مخذولين غير منصورين ذكر أنهم مع ذلك قد ضربت عليهم الذلة.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قد ذكرنا تفسير هذه اللفظة في سورة البقرة، والمعنى جعلت الذلة ملصقة بهم كالشيء يضرب على الشيء فيلصق به، ومنه قولهم: ما هذا عليَّ بضربة لازب، ومنه تسمية الخراج ضريبة.

المسألة الثانية: الذلة هي الذل، وفي المراد بهذا الذل أقوال؛ الأول: وهو الأقوى أن المراد أن يحاربوا ويقتلوا وتغنم أموالهم وتسبى ذراريهم وتملك أراضيهم فهو كقوله تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ والمراد إلا بعهد من الله وعصمة وذِمام من الله ومن المؤمنين لأن عند ذلك تزول الأحكام، فلا قتل ولا غنيمة ولا سبي، الثاني: أن هذه الذلة هي الجزية، وذلك لأن ضرب الجزية عليهم يوجب الذلة والصغار، والثالث: أن المراد من هذه الذلة أنك لا ترى فيهم ملكًا قاهرًا ولا رئيسًا معتبرًا، بل هم مستخفون في جميع البلاد ذليلون مهينون.

واعلم أنه لا يمكن أن يقال المراد من الذلة هي الجزية فقط أو هذه المهانة فقط لأن قوله: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ يقتضي زوال تلك الذلة عند حصول هذا الحبل والجزية والصغار والدناءة لا يزول شيء منها عند حصول هذا الحبل، فامتنع حمل الذلة على الجزية فقط، وبعض من نصر هذا القول، أجاب عن هذا السؤال بأن قال: إن هذا الاستثناء منقطع، وهو قول محمد بن جرير الطبري، فقال: اليهود قد ضُربت عليهم الذلة، سواء كانوا على عهد من الله أو لم يكونوا فلا يخرجون بهذا الاستثناء من الذلة إلى العزة، فقوله: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ تقديره لكن قد يعتصمون بحبل من الله وحبل من الناس. واعلم أن هذا ضعيف لأن حمل لفظ (إلا) على (لكن) خلاف الظاهر، وأيضًا إذا حملنا الكلام على أن المراد: لكن قد يعتصمون بحبل من الله وحبل من الناس لم يتم هذا القدر فلا بد من إضمار الشيء الذي يعتصمون بهذه الأشياء لأجل الحذر عنه والإضمار خلاف الأصل، فلا يصار إلى هذه الأشياء إلا عند الضرورة فإذا كان لا ضرورة هاهنا إلى ذلك كان المصير إليه غير جائز، بل هاهنا وجه آخر وهو أن يحمل الذلة على كل هذه الأشياء أعني: القتل، والأسر، وسبي الذراري، وأخذ المال، وإلحاق الصغار، والمهانة، ويكون فائدة الاستثناء هو أنه لا يبقى مجموع هذه الأحكام، وذلك لا ينافي بقاء بعض هذه الأحكام، وهو أخذ القليل من أموالهم الذي هو مسمى بالجزية، وبقاء المهانة والحقارة والصغار فيهم، فهذا هو القول في هذا الموضع، وقوله: ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أي وجدوا وصودفوا، يقال: ثقفت فلانًا في الحرب أي: أدركته، وقد مضى الكلام فيه عند قوله: ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١].

المسألة الثالثة: قوله: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ فيه وجوه؛ الأول: قال الفرّاء: التقدير إلا أن يعتصموا بحبل من الله، وأنشد على ذلك:

رأتني بحبلها فصدت مخافة ... وفي الحبل روعاء الفؤاد فروق(١)

واعترضوا عليه، فقالوا: لا يجوز حذف الموصول وإبقاء صلته، لأن الموصول هو الأصل والصلة فرع فيجوز حذف الفرع لدلالة الأصل عليه، أما حذف الأصل وإبقاء الفرع فهو غير جائز، الثاني: أن هذا الاستثناء واقع على طريق المعنى، لأن معنى ضرب الذلة لزومها إياهم على أشد الوجوه بحيث لا تفارقهم ولا تنفك عنهم، فكأنه قيل: لا تنفك عنهم الذلة، ولن

---

(١) هذا البيت لحميد بن ثور الهلالي وهو حُميد بن ثور بن حزن الهلالي العامري، أبو المثنى.
؟ - ٣٠هـ/ ؟ - ٦٥٠م، شاعر مخضرم عاش زمنًا في الجاهلية وشهد حنينًا مع المشركين، وأسلم ووفد على النبي ﷺ، ومات في خلافة عثمان رضي الله عنه، وقيل أدرك زمن عبد الملك بن مروان.

يتخلصوا عنها إلا بحبل من الله وحبل من الناس، الثالث: أن تكون الباء بمعنى (مع) كقولهم: اخرج بنا نفعل كذا، أي: معنا، والتقدير: إلا مع حبل من الله.

المسألة الرابعة: المراد من حبل الله عهده، وقد ذكرنا فيما تقدم أن العهد إنما سمي بالحبل لأن الإنسان لما كان قبل العهد خائفًا، صار ذلك الخوف مانعًا له من الوصول إلى مطلوبه، فإذا حصل العهد توصَّل بذلك العهد إلى الوصول إلى مطلوبه، فصار ذلك شبيهًا بالحبل الذي من تمسك به تخلص من خوف الضرر.

فإن قيل: إنه عطف على حبل الله حبلاً من الناس وذلك يقتضي المغايرة فكيف هذه المغايرة؟

قلنا: قال بعضهم: حبل الله هو الإسلام، وحبل الناس هو العهد والذمة، وهذا بعيد لأنه لو كان المراد ذلك لقال: أو حبل من الناس، وقال آخرون: المراد بكلا الحبلين العهد والذمة والأمان، وإنما ذكر تعالى الحبلين لأن الأمان المأخوذ من المؤمنين هو الأمان المأخوذ بإذن الله وهذا عندي أيضًا ضعيف، والذي عندي فيه أن الأمان الحاصل للذمي قسمان؛ أحدهما: الذي نص الله عليه وهو أخذ الجزية، والثاني: الذي فوض إلى رأي الإمام فيزيد فيه تارة وينقص بحسب الاجتهاد؛ فالأول: هو المسمى بحبل الله، والثاني: هو المسمى بحبل المؤمنين والله أعلم.

ثم قال: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وقد ذكرنا أن معناه: أنهم مكثوا، ولبثوا وداموا في غضب الله، وأصل ذلك مأخوذ من البوء وهو المكان، ومنه: تبوأ فلان منزل كذا وبوأته إياه، والمعنى: أنهم مكثوا في غضب من الله وحلوا فيه، وسواء قولك: حل بهم الغضب وحلوا به.

ثم قال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ والأكثرون حملوا المسكنة على الجزية وهو قول الحسن قال: وذلك لأنه تعالى أخرج المسكنة عن الاستثناء وذلك يدل على أنها باقية عليهم غير زائلة عنهم، والباقي عليهم ليس إلا الجزية، وقال آخرون: المراد بالمسكنة أن اليهودي يظهر من نفسه الفقر وإن كان غنيًّا موسرًا، وقال بعضهم: هذا إخبار من الله سبحانه بأنه جعل اليهود أرزاقًا للمسلمين فيصيرون مساكين، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الأنواع من الوعيد قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ والمعنى: أنه تعالى ألصق باليهود ثلاثة أنواع من المكروهات أولها: جعل الذلة لازمة لهم، وثانيها: جعل غضب الله لازمًا لهم، وثالثها: جعل المسكنة لازمة لهم، ثم بيّن في هذه الآية أن العلة لإلصاق هذه الأشياء المكروهة بهم هي: أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق، وهنا سؤالات:

السؤال الأول: هذه الذلة والمسكنة إنما التصقت باليهود بعد ظهور دولة الإسلام، والذين قتلوا الأنبياء بغير حق هم الذين كانوا قبل محمد ﷺ بأدوار وأعصار، فعلى هذا الموضع الذي حصلت فيه العلة وهو قتل الأنبياء لم يحصل فيه المعلول الذي هو الذلة والمسكنة، والموضع الذي حصل فيه هذا المعلول لم تحصل فيه العلة، فكان الإشكال لازمًا.

والجواب عنه: أن هؤلاء المتأخرين وإن كان لم يصدر عنهم قتل الأنبياء عليهم السلام لكنهم كانوا راضين بذلك، فإن أسلافهم هم الذين قتلوا الأنبياء وهؤلاء المتأخرون كانوا راضين بفعل أسلافهم، فنسب ذلك الفعل إليهم من حيث كان ذلك الفعل القبيح فعلاً لآبائهم وأسلافهم مع أنهم كانوا مصوبين لأسلافهم في تلك الأفعال.

السؤال الثاني: لم كرر قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا﴾ وما الحكمة فيه ولا يجوز أن يقال التكرير للتأكيد، لأن التأكيد يجب أن يكون بشيء أقوى من المؤكد، والعصيان أقل حالاً من الكفر فلم يجز تأكيد الكفر بالعصيان؟.

والجواب من وجهين؛ الأول: أن علة الذلة والغضب والمسكنة هي الكفر وقتل الأنبياء، وعلة الكفر وقتل الأنبياء هي المعصية، وذلك لأنهم لما توغلوا في المعاصي والذنوب فكانت ظلمات المعاصي تتزايد حالاً فحالاً، ونور الإيمان يضعف حالاً فحالاً، ولم يزل كذلك إلى أن بطل نور الإيمان وحصلت ظلمة الكفر، وإليه الإشارة بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]فقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا﴾ إشارة إلى علة العلة ولهذا المعنى قال أرباب المعاملات: من ابتلي بترك الآداب وقع في ترك السنن، ومن ابتلي بترك السنن وقع في ترك الفريضة، ومن ابتلي بترك الفريضة وقع في استحقار الشريعة، ومن ابتلي بذلك وقع في الكفر، الثاني: يحتمل أن يريد بقوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ من تقدم منهم، ويريد بقوله ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا﴾ من حضر منهم في زمان الرسول ﷺ، وعلى هذا لا يلزم التكرار، فكأنه تعالى بيّن علة عقوبة من تقدم، ثم بيّن أن من تأخر لما تبع من تقدم كان لأجل معصيته وعداوته مستوجبًا لمثل عقوبتهم حتى يظهر للخلق أن ما أنزله الله بالفريقين من البلاء والمحنة ليس إلا من باب العدل والحكمة.

قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ۖ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن في قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ قولين؛ أحدهما: أن قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ كلام تام، وقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ كلام مستأنف لبيان قوله ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ كما وقع قوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: ١١٠] بيانًا لقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠] والمعنى أن أهل الكتاب الذين سبق ذكرهم ليسوا سواء، وهو تقرير لما تقدم من قوله: ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ وعلى هذا القول احتمالان؛

أحدهما: أنه لما قال: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ كان تمام الكلام أن يقال: ومنهم أمة مذمومة، إلا أنه أضمر ذكر الأمة المذمومة على مذهب العرب من أن ذكر أحد الضدين يغني عن ذكر الضد الآخر وتحقيقه أن الضدين يعلمان معًا، فذكر أحدهما يستقل بإفادة العلم بهما، فلا جرم يحسن إهمال الضد الآخر.

قال أبو ذؤيب:

دعاني إليها القلب إني لامرئ مطيع فلا أدري أرشد طلابها[1]

أراد (أم غي) فاكتفى بذكر الرشد عن ذكر الغي، وهذا قول الفراء وابن الأنباري، وقال الزجاج: لا حاجة إلى إضمار الأمة المذمومة، لأن ذكر الأمة المذمومة قد جرى فيما قبل هذه الآيات فلا حاجة إلى إضمارها مرة أخرى، لأنا قد ذكرنا أنه لما كان العلم بالضدين معًا كان ذكر أحدهما مغنيًا عن ذكر الآخر، وهذا كما يقال زيد وعبد الله لا يستويان زيد عاقل ديّن زكي، فيغني هذا عن أن يقال: وعبد الله ليس كذلك، فكذا هاهنا لما تقدم قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ أغنى ذلك عن الإضمار.

والقول الثاني: أن قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ كلام غير تام ولا يجوز الوقف عنده، بل هو متعلق بما بعده، والتقدير: ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة وأمة مذمومة، فأمة رفع بليس وإنما قيل (ليْسُواْ) على مذهب من يقول: أكلوني البراغيث، وعلى هذا التقدير لا بد من إضمار الأمة المذمومة وهو اختيار أبي عبيدة إلا أن أكثر النحويين أنكروا هذا القول لاتفاق الأكثرين على أن قوله أكلوني البراغيث وأمثالها لغة ركيكة، والله أعلم.

المسألة الثانية: يقال فلان وفلان سواء، أي: متساويان وقوم سواء، لأنه مصدر لا يثنى ولا يجمع ومضى الكلام في (سَوَآء) في أول سورة البقرة.

المسألة الثالثة: في المراد بأهل الكتاب قولان؛ الأول: وعليه الجمهور: أن المراد منه الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام، روي أنه لما أسلم عبد الله بن سلاّم وأصحابه قال لهم بعض كبار اليهود: لقد كفرتم وخسرتم، فأنزل الله تعالى لبيان فضلهم هذه الآية، وقيل: إنه تعالى لما وصف أهل الكتاب في الآية المتقدمة بالصفات المذمومة ذكر هذه الآية لبيان أن كل أهل الكتاب ليسوا كذلك، بل فيهم من يكون موصوفًا بالصفات الحميدة والخصال المرضية، قال الثوري: بلغني أنها نزلت في قوم كانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء، وعن عطاء: أنها نزلت في أربعين من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثلاثة من الروم كانوا على دين عيسى

---

(١) أبو ذؤيب هو خويلد بن خالد بن محرِّث أبو ذُؤيب من بني هذيل بن مدركة المضري.

؟ - ٢٧هـ/ ؟ - ٦٤٨م، شاعر فحل، مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وسكن المدينة واشترك في الغزو والفتوح، وعاش إلى أيام عثمان فخرج في جند عبد الله بن سعد بن أبي السرح إلى إفريقية سنة (٢٦هـ) غازيًا. فشهد فتح إفريقية وعاد مع عبد الله بن الزبير وجماعة يحملون بشرى الفتح إلى عثمان، فلما كانوا بمصر مات أبو ذؤيب فيها. وقيل مات بإفريقية.

وصدقوا بمحمد عليه الصلاة والسلام.

والقول الثاني: أن يكون المراد بأهل الكتاب كل من أوتي الكتاب من أهل الأديان، وعلى هذا القول يكون المسلمون من جملتهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢] ومما يدل على هذا ما روى ابن مسعود أن النبي ﷺ أخر صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: «**أَمَا إِنَّه لَيْسَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الأَدْيَانِ أَحَدٌ يَذْكُرُ اللهَ تَعَالَى هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرَكُمْ**» وقرأ هذه الآية، قال القفال رحمه الله: ولا يبعد أن يقال: أولئك الحاضرون كانوا نفرًا من مؤمني أهل الكتاب، فقيل ليس يستوي من أهل الكتاب هؤلاء الذين آمنوا بمحمد ﷺ فأقاموا صلاة العتمة في الساعة التي ينام فيها غيرهم من أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا، ولم يبعد أيضًا أن يقال: المراد كل من آمن بمحمد ﷺ فسماهم الله بأهل الكتاب، كأنه قيل: أولئك الذين سموا أنفسهم بأهل الكتاب حالهم وصفتهم تلك الخصال الذميمة والمسلمون الذين سماهم الله بأهل الكتاب حالهم وصفتهم هكذا، فكيف يستويان؟ فيكون الغرض من هذه الآية تقرير فضيلة أهل الإسلام تأكيدًا لما تقدم من قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠] وهو كقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨].

ثم اعلم أنه تعالى مدح الأمة المذكورة في هذه الآية بصفات ثمانية.

الصفة الأولى: أنها قائمة وفيها أقوال؛ الأول: أنها قائمة في الصلاة يتلون آيات الله آناء الليل فعبّر عن تهجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل وهو كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤] وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ [المزمل: ٢٠] وقوله ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ [المزمل: ٢] وقوله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] والذي يدل على أن المراد من هذا القيام في الصلاة قوله: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ والظاهر أن السجدة لا تكون إلا في الصلاة.

والقول الثاني: في تفسير كونها قائمة: أنها ثابتة على التمسك بالدين الحق ملازمة له غير مضطربة في التمسك به كقوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥] أي: ملازمًا للاقتضاء ثابتًا على المطالبة مستقصيًا فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

وأقول: إن هذه الآية دلّت على كون المسلم قائمًا بحق العبودية وقوله: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ يدل على أن المولى قائم بحق الربوبية في العدل والإحسان فتمت المعاهدة بفضل الله تعالى كما قال: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وهذا قول الحسن البصري، واحتج عليه بما روي أن عمر بن الخطاب قال يا رسول الله: إن أناسًا من أهل الكتاب يحدثوننا بما يعجبنا فلو كتبناه، فغضب ﷺ وقال: «**أَمُتَهَوِّكُونَ أنتم يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، كَمَا تَهَوَّكَتِ الْيَهُودُ**»(١)، قال الحسن:

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد في (مسنده) (٣/ ٣٨٧)، حديث رقم (١٥١٩٥)، والبيهقي في (شعب الإيمان) (١/ ٢٠٠)، كلاهما من طريق مجالد عن الشعبي عن جابر... به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (١/ ١٧٤)، وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار وفيه مجالد بن سعيد ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما، ورواه الخطيب في (الجامع=

متحيرون مترددون «أما وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَقَدْ أتيتُكُم بِهَا بَيضَاءَ نَقِيَّةً» وفي رواية أخرى قال عند ذلك: «إنكم لم تكلفوا أن تعملوا بما في التوراة والإنجيل وإنما أمرتم أن تؤمنوا بهما وتفوضوا علمهما إلى الله تعالى، وكلفتم أن تؤمنوا بما أُنزلَ عليَّ في هذا الوحي غدوةً وعشيًا والذي نفس محمد بيده لو أدركني إبراهيم وموسى وعيسى لآمنوا بي واتبعوني» (١)فهذا الخبر يدل على أن الثبات على هذا الدين واجب وعدم التعلق بغيره واجب، فلا جرم مدحهم الله في هذه الآية بذلك فقال: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ .

القول الثالث: ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ أي: مستقيمة عادلة من قولك: أقمت العود فقام بمعنى استقام، وهذا كالتقرير لقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ .

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: (يتلون ويؤمنون) في محل الرفع صفتان لقوله: ﴿أُمَّةٌ﴾ أي: أمة قائمة تالون مؤمنون.

المسألة الثانية: التلاوة القراءة وأصل الكلمة من الإتباع فكأن التلاوة هي إتباع اللفظ للفظ.

المسألة الثالثة: آيات الله قد يراد بها آيات القرآن، وقد يراد بها أصناف مخلوقاته التي هي دالة على ذاته وصفاته والمراد هاهنا الأولى.

المسألة الرابعة: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ أصلها في اللغة الأوقات والساعات وواحدها إنًا، مثل: مِعًى وأمعاء وإنًى مثل نِحًى وإنحاء، مكسور الأول ساكن الثاني، قال القفال رحمه الله: كأن التأني مأخوذ منه لأنه انتظار الساعات والأوقات، وفي الخبر أن النبي ﷺ قال للرجل الذي أخر المجيء إلى الجمعة: «آذَيتَ وَآنَيتَ» (٢)أي: دافعت الأوقات.

الصفة الثالثة:قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ وفيه وجوه؛ الأول: يحتمل أن يكون حالاً من التلاوة كأنهم يقرءون القرآن في السجدة مبالغة في الخضوع والخشوع إلا أن القفال رحمه الله روى في (تفسيره) حديثًا: أن ذلك غير جائز، وهو قوله عليه السلام: «ألاَ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ رَاكِعًا

=لأخلاق الراوي) (٢/ ١٦١)، حديث رقم (١٤٨٨) من طريق الحسن أن عمر بن الخطاب... فذكره، وفي إسناده انقطاع، الحسن لم يسمع من عمر رضي الله عنه.

(١) لم أجده إلا في كتب التفسير بدون إسناد.

(٢) **إسناده صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة)، باب: (تخطي رقاب الناس يوم الجمعة) (١/ ٢٩٢)، حديث رقم (١١١٨) من طريق بشر بن السرى حدثنا معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية... به، والنسائي في كتاب (الجمعة)، باب: (النهي عن تخطي رقاب الناس...) (٣/ ١٠٣)، حديث رقم (١٣٩٩) من طريق ابن وهب قال سمعت معاوية بن صالح... به، وأحمد في (مسنده) (٤/ ١٨٨) من طريق أبي الزاهرية... به، والبزار في مسنده (٨/ ٤٣٢)، حديث رقم (٣٥٠٦)، معاوية بن صالح قال حدثني أبو الزاهرية عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال... فذكره.

أَوْ سَاجِدًا»، الثاني: يحتمل أن يكون كلامًا مستقلاً والمعنى أنهم يقومون تارة ويسجدون تارة ويبتغون الفضل والرحمة بأنواع ما يكون في الصلاة من الخضوع لله تعالى وهو كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾[الفرقان: ٦٤] وقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾[الزمر: ٩] قال الحسن: يريح رأسه بقدميه وقدميه برأسه، وهذا على معنى إرادة الراحة وإزالة التعب وإحداث النشاط، الثالث: يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أنهم يصلون وصفهم بالتهجد بالليل والصلاة تسمى سجودًا وسجدة وركوعًا وركعة وتسبيحًا وتسبيحة، قال تعالى: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[البقرة: ٤٣] أي: صلوا وقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾[الروم: ١٧] والمراد الصلاة، الرابع: يحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يخضعون ويخشعون لله لأن العرب تسمي الخشوع سجودًا كقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[النحل: ٤٩] وكل هذه الوجوه ذكرها القفال رحمه الله.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ واعلم أن اليهود كانوا أيضًا يقومون في الليالي للتهجد وقراءة التوراة، فلما مدح المؤمنين بالتهجد وقراءة القرآن أردف ذلك بقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ وقد بينا أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بجميع أنبيائه ورسله والإيمان باليوم الآخر يستلزم الحذر من المعاصي، وهؤلاء اليهود ينكرون أنبياء الله ولا يحترزون عن معاصي الله، فلم يحصل لهم الإيمان بالمبدأ والمعاد.

واعلم أن كمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته، والخير لأجل العمل به، وأفضل الأعمال الصلاة وأفضل الأذكار ذكر الله، وأفضل المعارف معرفة المبدأ ومعرفة المعاد، فقوله: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ إشارة إلى الأعمال الصالحة الصادرة عنهم وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ إشارة إلى فضل المعارف الحاصلة في قلوبهم فكان هذا إشارة إلى كمال حالهم في القوة العملية وفي القوة النظرية، وذلك أكمل أحوال الإنسان، وهي المرتبة التي يقال لها: إنها آخر درجات الإنسانية وأول درجات الملكية.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

الصفة السادسة: قوله: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ واعلم أن الغاية القصوى في الكمال أن يكون تامًّا وفوق التمام فكون الإنسان تامًّا ليس إلا في كمال قوته العملية وقوته النظرية وقد تقدم ذكره، وكونه فوق التمام أن يسعى في تكميل الناقصين، وذلك بطريقين، إما بإرشادهم إلى ما ينبغي وهو الأمر بالمعروف، أو بمنعهم عما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بتوحيد الله وبنبوّة محمد ﷺ ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: ينهون عن الشرك بالله، وعن إنكار نبوّة محمد ﷺ، واعلم أن لفظ المعروف والمنكر مطلق فلم يجز تخصيصه بغير دليل، فهو يتناول كل معروف وكل منكر.

الصفة السابعة: قوله: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وفيه وجهان؛ أحدهما: أنهم يتبادرون إليها

خوف الفوت بالموت، والآخر: يعملونها غير متثاقلين. فإن قيل: أليس أن العجلة مذمومة قال عليه الصلاة والسلام: «الْعَجَلَةُ من الشَّيطَانِ، والتأني من الرَّحْمَنِ» فما الفرق بين السرعة وبين العجلة؟ قلنا: السرعة مخصوصة بأن يقدم ما ينبغي تقديمه، والعجلة مخصوصة بأن يقدم ما لا ينبغي تقديمه، فالمسارعة مخصوصة بفرط الرغبة فيما يتعلق بالدين، لأن من رغب في الأمر، آثر الفور على التراخي، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وأيضًا العجلة ليست مذمومة على الإطلاق بدليل قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].

الصفة الثامنة: قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ والمعنى وأولئك الموصوفون بما وصفوا به من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله تعالى ورضيهم، واعلم أن الوصف بذلك غاية المدح ويدل عليه القرآن والمعقول، أما القرآن، فهو أن الله تعالى مدح بهذا الوصف أكابر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال: بعد ذكر إسماعيل وإدريس وذي الكفل وغيرهم ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٦] وذكر حكاية عن سليمان عليه السلام أنه قال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم: ٤] وأما المعقول فهو أن الصلاح ضد الفساد، وكل ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد، سواء كان ذلك في العقائد، أو في الأعمال، فإذا كان كل ما حصل من باب ما ينبغي أن يكون، فقد حصل الصلاح، فكان الصلاح دالاً على أكمل الدرجات.

ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الصفات الثمانية قال: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٖ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٖ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ﴾ بالياء على المغايبة، لأن الكلام متصل بما قبله من ذكر مؤمني أهل الكتاب، يتلون ويسجدون ويؤمنون ويأمرون وينهون ويسارعون، ولن يضيع لهم ما يعملون، والمقصود أن جهال اليهود لما قالوا لعبد الله بن سلام: إنكم خسرتم بسبب هذا الإيمان، قال تعالى بل فازوا بالدرجات العظمى، فكان المقصود تعظيمهم ليزول عن قلبهم أثر كلام أولئك الجهال، ثم هذا وإن كان بحسب اللفظ يرجع إلى كل ما تقدم ذكره من مؤمني أهل الكتاب، فإن سائر الخلق يدخلون فيه نظرًا إلى العلة.

وأما الباقون فإنهم قرؤوا بالتاء على سبيل المخاطبة فهو ابتداء خطاب لجميع المؤمنين على معنى أن أفعال مؤمني أهل الكتاب ذكرت، ثم قال: وما تفعلوا من خير معاشر المؤمنين الذين من جملتكم هؤلاء، فلن تكفروه، والفائدة أن يكون حكم هذه الآية عامًّا بحسب اللفظ في حق جميع المكلفين، ومما يؤكد ذلك أن نظائر هذه الآية جاءت مخاطبة لجميع الخلائق من غير تخصيص بقوم دون قوم كقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٖ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ١٩٧] ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ

خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢] ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠] وأما أبو عمرو فالمنقول عنه أنه كان يقرأ هذه الآية بالقراءتين.

المسألة الثانية: (فلن تُكْفَرُوه) أي لن تمنعوا ثوابه وجزاءه وإنما سمي منع الجزاء كفر لوجهين؛ الأول: أنه تعالى سمى إيصال الثواب شكرًا قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨] وقال: ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] فلما سمى إيصال الجزاء شكرًا سمى منعه كفرًا، والثاني: أن الكفر في اللغة هو الستر فسمي منع الجزاء كفرًا، لأنه بمنزلة الجحد والستر.

فإن قيل: لم قال: (فلن تُكْفَرُوه) فعداه إلى مفعولين مع أن شَكَر وكَفَر لا يتعديان إلا إلى واحد يقال شكر النعمة وكفرها.

قلنا: لأنا بينا أن معنى الكفر هاهنا هو المنع والحرمان، فكان كأنه قال: فلن تحرموه، ولن تمنعوا جزاءه.

المسألة الثالثة: احتج القائلون بالموازنة من الذاهبين إلى الإحباط بهذه الآية فقال: صريح هذه الآية يدل على أنه لا بد من وصول أثر فعل العبد إليه، فلو انحبط ولم ينحبط من المحبط بمقداره شيء لبطل مقتضى هذه الآية، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ والمعنى أنه تعالى لما أخبر عن عدم الحرمان والجزاء أقام ما يجري مجرى الدليل عليه وهو أن عدم إيصال الثواب والجزاء إما أن يكون للسهو والنسيان وذلك مُحالٌ في حقِّه؛ لأنه عليم بكل المعلومات، وإما أن يكون للعجز والبخل والحاجة وذلك محال لأنه إله جميع المحدثات، فاسم الله تعالى يدل على عدم العجز والبخل والحاجة، وقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ يدل على عدم الجهل، وإذا انتفت هذه الصفات امتنع المنع من الجزاء، لأن منع الحق لا بد وأن يكون لأجل هذه الأمور والله أعلم، إنما قال: ﴿عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ مع أنه عالم بالكل بشارة للمتقين بجزيل الثواب ودلالة على أنه لا يفوز عنده إلا أهل التقوى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١٦﴾

اعلم أنه تعالى ذكر في هذه الآيات مرة أحوال الكافرين في كيفية العقاب، وأخرى أحوال المؤمنين في الثواب جامعًا بين الزجر والترغيب والوعد والوعيد، فلما وصف من آمن من الكفار بما تقدم من الصفات الحسنة أتبعه تعالى بوعيد الكفار، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم﴾ وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قولان الأول: المراد منه بعض الكفار ثم

القائلون بهذا القول ذكروا وجوهًا، أحدها: قال ابن عباس: يريد قريظة والنضير، وذلك لأن مقصود رؤساء اليهود في معاندة الرسول ما كان إلا المال، والدليل عليه قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١]، وثانيها: أنها نزلت في مشركي قريش، فإن أبا جهل كان كثير الافتخار بماله ولهذا السبب نزل فيه قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤] وقوله ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧، ١٨]، وثالثها: أنها نزلت في أبي سفيان، فإنه أنفق مالاً كثيرًا على المشركين يوم بدر وأحد في عداوة النبي ﷺ.

والقول الثاني: أن الآية عامة في حق جميع الكفار، وذلك لأنهم كلهم كانوا يتعززون بكثرة الأموال، وكانوا يعيرون الرسول ﷺ وأتباعه بالفقر، وكان من جملة شبههم أن قالوا: لو كان محمد على الحق لما تركه ربه في هذا الفقر والشدة ولأن اللفظ عام، ولا دليل يوجب التخصيص فوجب إجراؤه على عمومه، وللأولين أن يقولوا: إنه تعالى قال بعد هذه الآية ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٧] فالضمير في قوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾ عائد إلى هذا الموضع، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ثم إن قوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾ مخصوص ببعض الكفار، فوجب أن يكون هذا أيضًا مخصوصًا.

المسألة الثانية: إنما خص تعالى الأموال والأولاد بالذكر لأن أنفع الجمادات هو الأموال وأنفع الحيوانات هو الولد، ثم بيّن تعالى أن الكافر لا ينتفع بهما البتة في الآخرة، وذلك يدل على عدم انتفاعه بسائر الأشياء بطريق الأولى، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨] الآية وقوله ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١] وقوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧] ولما بيّن تعالى أنه لا انتفاع لهم بأموالهم ولا بأولادهم، قال: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن فساق أهل الصلاة لا يبقون في النار أبدًا فقالوا قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ كلمة تفيد الحصر فإنه يقال: أولئك أصحاب زيد لا غيرهم وهم المنتفعون به لا غيرهم ولما أفادت هذه الكلمة معنى الحصر ثبت أن الخلود في النار ليس إلا للكافر.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن أموال الكفار لا تغني عنهم شيئًا، ثم إنهم ربما أنفقوا أموالهم في وجوه الخيرات، فيخطر ببال الإنسان أنهم ينتفعون بذلك، فأزال الله تعالى بهذه الآية تلك الشبهة، وبيّن أنهم لا ينتفعون بتلك الإنفاقات، وإن كانوا قد قصدوا بها وجه الله.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: المثل الشبه الذي يصير كالعلم لكثرة استعماله فيما يشبه به، وحاصل الكلام أن كفرهم يبطل ثواب نفقتهم، كما أن الريح الباردة تهلك الزرع.

فإن قيل: فعلى هذا التقدير: مَثَلُ إنفاقهم هو الحرث الذي هلك، فكيف شبه الإنفاق بالريح الباردة المهلكة.

قلنا: المثل قسمان: منه ما حصلت فيه المشابهة بين ما هو المقصود من الجملتين وإن لم تحصل المشابهة بين أجزاء الجملتين، وهذا هو المسمى بالتشبيه المركب، ومنه ما حصلت المشابهة فيه بين المقصود من الجملتين، وبين أجزاء كل واحدة منهما، فإذا جعلنا هذا المثل من القسم الأول زال السؤال، وإن جعلناه من القسم الثاني ففيه وجوه؛ الأول: أن يكون التقدير: مثل الكفر في إهلاك ما ينفقون، كمثل الريح المهلكة للحرث، الثاني: مثل ما ينفقون، كمثل مهلك ريح، وهو الحرث، الثالث: لعلّ الإشارة في قوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ إلى ما أنفقوا في إيذاء رسول الله ﷺ في جمع العساكر عليه، وكان هذا الإنفاق مهلكًا لجميع ما أتوا به من أعمال الخير والبر، وحينئذ يستقيم التشبيه من غير حاجة إلى إضمار وتقديم وتأخير، والتقدير: مثل ما ينفقون في كونه مبطلاً لما أتوا به قبل ذلك من أعمال البر كمثل ريح فيها صر في كونها مبطلة للحرث، وهذا الوجه خطر ببالي عند كتابتي على هذا الموضع، فإن انفاقهم في إيذاء الرسول ﷺ من أعظم أنواع الكفر ومن أشدها تأثيرًا في إبطال آثار أعمال البر.

المسألة الثانية: اختلفوا في تفسير هذا الإنفاق على قولين؛ الأول: أن المراد بالإنفاق ههنا هو جميع أعمالهم التي يرجون الانتفاع بها في الآخرة سماه الله إنفاقًا كما سمى ذلك بيعًا وشراء في قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١] إلى قوله ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ [التوبة: ١١١] ومما يدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] والمراد به جميع أعمال الخير وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨] والمراد جميع أنواع الانتفاعات.

والقول الثاني: وهو الأشبه أن المراد إنفاق الأموال، والدليل عليه ما قبل هذه الآية وهو قوله: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ [آل عمران: ١٠].

المسألة الثالثة: قوله ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ المراد منه جميع الكفار أو بعضهم، فيه قولان: الأول: المراد الإخبار عن جميع الكفار، وذلك لأن إنفاقهم إما أن يكون لمنافع الدنيا أو لمنافع الآخرة فإن كان لمنافع الدنيا لم يبقَ منه أثر البتة في الآخرة في حق المسلم فضلاً عن الكافر وإن كان لمنافع الآخرة لم ينتفع به في الآخرة لأن الكفر مانع من الانتفاع به، فثبت أن جميع نفقات الكفار لا فائدة فيها في الآخرة، ولعلّهم أنفقوا أموالهم في الخيرات نحو بناء الرباطات والقناطر والإحسان إلى الضعفاء والأيتام والأرامل، وكان ذلك المنفق يرجو من ذلك الإنفاق خيرًا كثيرًا

فإذا قدم الآخرة رأى كفره مبطلاً لآثار الخيرات، فكان كمن زرع زرعًا وتوقع منه نفعًا كثيرًا فأصابته ريح فأحرقته فلا يبقى معه إلا الحزن والأسف، هذا إذا أنفقوا الأموال في وجوه الخيرات، أما إذا أنفقوها فيما ظنوه أنه الخيرات لكنه كان من المعاصي مثل إنفاق الأموال في إيذاء الرسول ﷺ وفي قتل المسلمين وتخريب ديارهم، فالذي قلناه فيه أسد وأشد، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: ٣٦] وقوله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] فكل ذلك يدل على الحسنات من الكفار لا تستعقب الثواب، وكل ذلك مجموع في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] وهذا القول هو الأقوى والأصح.

واعلم أنا إنما فسرنا الآية بخيبة هؤلاء الكفار في الآخرة، ولا يبعد أيضًا تفسيرها بخيبتهم في الدنيا، فإنهم أنفقوا الأموال الكثيرة في جمع العساكر وتحملوا المشاق، ثم انقلب الأمر عليهم، وأظهر الله الإسلام وقواه فلم يبقَ مع الكفار من ذلك الإنفاق إلا الخيبة والحسرة.

والقول الثاني: المراد منه الإخبار عن بعض الكفار، وعلى هذا القول ففي الآية وجوه؛ الأول: أن المنافقين كانوا ينفقون أموالهم في سبيل الله ولكن على سبيل التقية والخوف من المسلمين، وعلى سبيل المداراة لهم، فالآية فيهم، الثاني: نزلت هذه الآية في أبي سفيان وأصحابه يوم بدر عند تظاهرهم على الرسول عليه السلام، الثالث: نزلت في إنفاق سفلة اليهود على أحبارهم لأجل التحريف، والرابع: المراد ما ينفقون ويظنون أنه تقرب إلى الله تعالى مع أنه ليس كذلك.

المسألة الرابعة: اختلفوا في (الصِّرّ) على وجوه؛ الأول: قال أكثر المفسرين وأهل اللغة: الصرُّ: البرد الشديد وهو قول ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد، والثاني: أن الصِّرَّ: هو السموم الحارة والنار التي تغلي، وهو اختيار أبي بكر الأصم وأبي بكر بن الأنباري، قال ابن الأنباري: وإنما وصفت النار بأنها (صِرٌّ) لتصويتها عند الالتهاب، ومنه صرير الباب، والصرصر مشهور، والصرة الصيحة ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩] وروى ابن الأنباري بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ قال فيها نار، وعلى القولين فالمقصود من التشبيه حاصل، لأنه سواء كان بردًا مهلكًا أو حرًا محرقًا فإنه يصير مبطلاً للحرث والزرع فيصح التشبيه به.

المسألة الخامسة: المعتزلة احتجوا بهذه الآية على صحة القول بالإحباط، وذلك لأنه كما أن هذه الريح تهلك الحرث فكذلك الكفر يهلك الإنفاق، وهذا إنما يصح إذا قلنا: إنه لولا الكفر لكان ذلك الإنفاق موجبًا لمنافع الآخرة وحينئذ يصح القول بالإحباط، وأجاب أصحابنا عنه بأن العمل لا يستلزم الثواب إلا بحكم الوعد، والوعد من الله مشروط بحصول الإيمان، فإذا حصل

الكفر فات المشروط لفوات شرطه؛ لأن الكفر أزاله بعد ثبوته، ودلائل بطلان القول بالإحباط قد تقدمت في سورة البقرة.

ثم قال تعالى: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ وفيه سؤال: وهو أن يقال: لِمَ لَمْ يقتصر على قوله ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ وما الفائدة في قوله: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.

قلنا: في تفسير قوله: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ وجهان الأول: أنهم عصوا الله فاستحقوا هلاك حرثهم عقوبة لهم، والفائدة في ذكره هي أن الغرض تشبيه ما ينفقون بشيء يذهب بالكلية حتى لا يبقى منه شيء، وحرث الكافرين الظالمين هو الذي يذهب بالكلية ولا يحصل منه منفعة لا في الدنيا ولا في الآخرة، فأما حرث المسلم المؤمن فلا يذهب بالكلية لأنه وإن كان يذهب صورة فلا يذهب معنى، لأن الله تعالى يزيد في ثوابه لأجل وصول تلك الأحزان إليه، والثاني: أن يكون المراد من قوله: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ هو أنهم زرعوا في غير موضع الزرع أو في غير وقته، لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وعلى هذا التفسير يتأكد وجه التشبيه، فإن من زرع لا في موضعه ولا في وقته يضيع، ثم إذا أصابته الريح الباردة كان أولى بأن يصير ضائعًا، فكذا هاهنا الكفار لما أتوا بالإنفاق لا في موضعه ولا في وقته ثم أصابه شؤم كفرهم امتنع أن لا يصير ضائعًا، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ والمعنى: أن الله تعالى ما ظلمهم حيث لم يقبل نفقاتهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث أتوا بها مقرونة بالوجوه المانعة من كونها مقبولة لله تعالى، قال صاحب (الكشاف): قرئ (ولكن) بالتشديد بمعنى ولكن أنفسهم يظلمونها، ولا يجوز أن يراد، ولكنه أنفسهم يظلمون على إسقاط ضمير الشأن، لأنه لا يجوز إلا في الشعر.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال المؤمنين والكافرين شرع في تحذير المؤمنين عن مخالطة الكافرين في هذه الآية.

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أن الذين نهى الله المؤمنين عن مخالطتهم من هم؟ على أقوال: الأول: أنهم هم اليهود وذلك لأن المسلمين كانوا يشاورونهم في أمورهم ويؤانسونهم لما كان بينهم من الرضاع والحلف ظنًّا منهم أنهم وإن خالفوهم في الدين فهم ينصحون لهم في أسباب

المعاش فنهاهم الله تعالى بهذه الآية عنه، وحجة أصحاب هذا القول أن هذه الآيات من أولها إلى آخرها مخاطبة مع اليهود فتكون هذه الآية أيضًا كذلك، الثاني: أنهم هم المنافقون، وذلك لأن المؤمنين كانوا يغترون بظاهر أقوال المنافقين ويظنون أنهم صادقون فيفشون إليهم الأسرار ويطلعونهم على الأحوال الخفية، فالله تعالى منعهم عن ذلك، وحجة أصحاب هذا القول أن ما بعد هذه الآية يدل على ذلك وهو قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩] ومعلوم أن هذا لا يليق باليهود بل هو صفة المنافقين، ونظيره قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، الثالث: المراد به جميع أصناف الكفار، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ فمنع المؤمنين أن يتخذوا بطانة من غير المؤمنين فيكون ذلك نهيًا عن جميع الكفار وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١] ومما يؤكد ذلك ما روي أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: هاهنا رجل من أهل الحيرة نصراني لا يعرف أقوى حفظًا ولا أحسن خطًّا منه، فإن رأيت أن تتخذه كاتبًا، فامتنع عمر من ذلك وقال: إذن اتخذت بطانة من غير المؤمنين، فقد جعل عمر رضي الله عنه هذه الآية دليلاً على النهي عن اتخاذ النصراني بطانة، وأما ما تمسكوا به من أن ما بعد الآية مختص بالمنافقين فهذا لا يمنع عموم أول الآية، فإنه ثبت في أصول الفقه أن أول الآية إذا كان عامًّا وآخرها إذا كان خاصًّا لم يكن خصوص آخر الآية مانعًا من عموم أولها.

المسألة الثانية: قال أبو حاتم عن الأصمعي: بطن فلان بفلان يبطن به بطونًا وبطانة، إذا كان خاصًّا به داخلاً في أمره، فالبطانة مصدر يسمى به الواحد والجمع، وبطانة الرجل خاصته الذين يبطنون أمره وأصله من البطن خلاف الظهر، ومنه بطانة الثوب خلاف ظهارته، والحاصل أن الذي يخصه الإنسان بمزيد التقريب يسمى بطانة لأنه بمنزلة ما يلي بطنه في شدة القرب منه.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً﴾ نكرة في سياق النفي فيفيد العموم.

أما قوله: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أي من دون المسلمين ومن غير أهل ملتكم ولفظ ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ يحسن حمله على هذا الوجه كما يقول الرجل: قد أحسنتم إلينا وأنعمتم علينا، وهو يريد أحسنتم إلى إخواننا، وقال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: ٢١] أي: آباؤهم فعلوا ذلك.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ احتمالان؛ أحدهما: أن يكون متعلقًا بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ أي: لا تتخذوا من دونكم بطانة، والثاني: أن يجعل وصفًا للبطانة والتقدير: بطانة كائنة من دونكم. **فإن قيل**: ما الفرق بين قوله: لا تتخذوا من دونكم بطانة، وبين قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾؟

قلنا: قال سيبويه: إنهم يقدمون الأهم والذي هم بشأنه أعني وهاهنا ليس المقصود اتخاذ البطانة إنما المقصود أن يتخذ منهم بطانة فكان قوله: لا تتخذوا من دونكم بطانة أقوى في إفادة المقصود.

المسألة الثالثة: قيل (مِنْ) زائدة، وقيل للتبيين أي: لا تتخذوا بطانة من دون أهل ملتكم. فإن قيل: هذه الآية تقتضي المنع من مصاحبة الكفار على الإطلاق، وقال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ [الممتحنة: ٨] ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ﴾ [الممتحنة: ٩] فكيف الجمع بينهما؟ قلنا: لا شك أن الخاص يقدم على العام.

واعلم أنه تعالى لما منع المؤمنين من أن يتخذوا بطانة من الكافرين ذكر علة هذا النهي وهي أمور:

أحدها: قوله تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ وفيه مسائلُ:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): يقال (ألَا) في الأمر يألو: إذا قصر فيه، ثم استعمل معدى إلى مفعولين في قولهم: لا آلوك نصحًا، ولا آلوك جهدًا على التضمين، والمعنى لا أمنعك نصحًا ولا أنقصك جهدًا.

المسألة الثانية: الخبال: الفساد والنقصان، وأنشدوا:

لستم بيد إلا يدًا أبدا مخبولة العضد

أي: فاسدة العضد منقوصتها، ومنه قيل: رجل مخبول ومخبل ومختبل لمن كان ناقص العقل، وقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧] أي: فسادًا وضررًا.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي: لا يَدَعُون جهدهم في مضرتكم وفسادكم، يقال: ما ألوته نصحًا، أي: ما قصرت في نصيحته، وما ألوته شرًّا مثله.

المسألة الرابعة: انتصب الخبال بلا يألونكم لأنه يتعدى إلى مفعولين كما ذكرنا وإن شئت نصبته على المصدر، لأن معنى قوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ لا يخبلونكم خبالاً، وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾:

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: يقال: وددت كذا، أي: أحببته و(العنت) شدة الضرر والمشقة قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

المسألة الثانية: ما مصدرية كقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥] أي: بفرحكم ومرحكم وكقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥، ٦] أي: بنائه إياها وطحيه إياها.

المسألة الثالثة: تقدير الآية: أحبوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشد الضرر.

المسألة الرابعة: قال الواحدي رحمه الله: لا محل لقوله: ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ لأنه استئناف

بالجملة وقيل: إنه صفة لبطانة، ولا يصح هذا لأن البطانة قد وصفت بقوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ فلو كان هذا صفة أيضًا لوجب إدخال حرف العطف بينهما.

المسألة الخامسة: الفرق بين قوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ وبين قوله: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ في المعنى من وجوه:

الأول: لا يقصرون في إفساد دينكم، فإن عجزوا عنه ودوا إلقاءكم في أشد أنواع الضرر.

الثاني: لا يقصرون في إفساد أموركم في الدنيا، فإذا عجزوا عنه لم يزل عن قلوبهم حب إعناتكم.

والثالث: لا يقصرون في إفساد أموركم، فإن لم يفعلوا ذلك لمانع من خارج، فحب ذلك غير زائل عن قلوبهم، وثالثها: قوله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: البغضاء أشد البغض، فالبغض مع البغضاء كالضر مع الضراء.

المسألة الثانية: الأفواه جمع الفم، والفم أصله فوه بدليل أن جمعه أفواه، يقال: فَوه وأفْواه كسَوط وأَسْواط، وطَوق وأَطْواق، ويقال رجل مفوه إذا أجاد القول، وأفوه إذا كان واسع الفم، فثبت أن أصل الفم فوه بوزن سوط، ثم حذفت الهاء تخفيفًا ثم أقيم الميم مقام الواو لأنهما حرفان شفويان.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ إن حملناه على المنافقين ففي تفسيره وجهان؛ الأول: أنه لا بد في المنافق من أن يجري في كلامه ما يدل على نفاقه ومفارقته لطريق المخالصة في الود والنصيحة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، الثاني: قال قتادة: قد بدت البغضاء لأوليائهم من المنافقين والكفار لإطلاع بعضهم بعضًا على ذلك، أما إن حملناه على اليهود فتفسير قوله: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ فهو أنهم يظهرون تكذيب نبيّكم وكتابكم وينسبونكم إلى الجهل والحمق، ومن اعتقد في غيره الإصرار على الجهل والحمق امتنع أن يحبه، بل لا بد وأن يبغضه، فهذا هو المراد بقوله ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ يعني: الذي يظهر على لسان المنافق من علامات البغضاء أقل مما في قلبه من النفرة، والذي يظهر من علامات الحقد على لسانه أقل مما في قلبه من الحقد، ثم بيّن تعالى أن إظهار هذه الأسرار للمؤمنين من نعمه عليهم، فقال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: من أهل العقل والفهم والدراية، وقيل: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الفصل بين ما يستحقه العدو والولي، والمقصود بعثهم على استعمال العقل في تأمل هذه الآية وتدبر هذه البينات، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾

واعلم أن هذا نوع آخر من تحذير المؤمنين عن مخالطة المنافقين.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال السيد السرخسي سلمه الله: (ها) للتنبيه و(أَنتُمْ) مبتدأ و﴿ أُوْلَآءِ ﴾ خبره و﴿ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ في موضع النصب على الحال من اسم الإشارة، ويجوز أن تكون ﴿ أُوْلَآءِ ﴾ بمعنى الذين و﴿ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ صلة له، والموصول مع الصلة خبر (أَنتُمْ) وقال الفرّاء: ﴿ أُوْلَآءِ ﴾ خبر، و﴿ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ خبر بعد خبر.

المسألة الثانية: أنه تعالى ذكر في هذه الآية أمورًا ثلاثة، كل واحد منها يدل على أن المؤمن لا يجوز أن يتخذ غير المؤمن بطانة لنفسه؛ فالأول: قوله: ﴿ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ وفيه وجوه: أحدها: قال المفضل: ﴿ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ تريدون لهم الإسلام وهو خير الأشياء ﴿ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ لأنهم يريدون بقاءكم على الكفر، ولا شك أنه يوجب الهلاك، الثاني: ﴿ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ بسبب ما بينكم وبينهم من الرضاعة والمصاهرة ﴿ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ بسبب كونكم مسلمين، الثالث: (تُحِبُّونَهُمْ) بسبب أنهم أظهروا لكم الإيمان ﴿ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ بسبب أن الكفر مستقر في باطنهم، الرابع: قال أبو بكر الأصم ﴿ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ بمعنى أنكم لا تريدون إلقاءهم في الآفات والمحن ﴿ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ بمعنى أنهم يريدون إلقاءكم في الآفات والمحن ويتربصون بكم الدوائر، الخامس: ﴿ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ بسبب أنهم يظهرون لكم محبة الرسول ومحب المحبوب محبوب ﴿ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ لأنهم يعلمون أنكم تحبون الرسول وهم يبغضون الرسول ومحب المبغوض مبغوض، السادس: ﴿ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ أي: تخالطونهم، وتفشون إليهم أسراركم في أمور دينكم ﴿ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ أي: لا يفعلون مثل ذلك بكم.

واعلم أن هذه الوجوه التي ذكرناها إشارة إلى الأسباب الموجبة لكون المؤمنين يحبونهم ولكونهم يبغضون المؤمنين، فالكل داخل تحت الآية، ولما عرفهم تعالى كونهم مبغضين للمؤمنين وعرفهم أنهم مبطلون في ذلك البغض صار ذلك داعيًا من حيث الطبع، ومن حيث الشرع إلى أن يصير المؤمنون مبغضين لهؤلاء المنافقين.

والسبب الثاني لذلك: قوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الآية إضمار، والتقدير: وتؤمنون بالكتاب كله وهم لا يؤمنون به،

وحسن الحذف لما بينا أن الضدين يعلمان معًا فكان ذكر أحدهما مغنيًا عن ذكر الآخر.

المسألة الثانية: ذكر (الكتاب) بلفظ الواحد لوجوه؛ أحدها: أنه ذهب به مذهب الجنس كقولهم: كثر الدرهم في أيدي الناس، وثانيها: أن المصدر لا يجمع إلا على التأويل، فلهذا لم يقل الكتب بدلاً من الكتاب، وإن كان لو قاله لجاز توسعًا.

المسألة الثالثة: تقدير الكلام: أنكم تؤمنون بكتبهم كلها وهم مع ذلك يبغضونكم فما بالكم مع ذلك تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم، وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

السبب الثالث لقبح هذه المخالطة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ والمعنى: أنه إذا خلا بعضهم ببعض أظهروا شدة العداوة، وشدة الغيظ على المؤمنين حتى تبلغ تلك الشدة إلى عض الأنامل، كما يفعل ذلك أحدنا إذا اشتد غيظه وعظم حزنه على فواتِ مطلوبه، ولما كثر هذا الفعل من الغضبان، صار ذلك كناية عن الغضب حتى يقال في الغضبان: إنه يعض يده غيظًا وإن لم يكن هناك عض، قال المفسرون: وإنما حصل لهم هذا الغيظ الشديد لما رأوا من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ وهو دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به، والمراد من ازدياد الغيظ ازدياد ما يوجب لهم ذلك الغيظ من قوة الإسلام وعزة أهله وما لهم في ذلك من الذل والخزي.

فإن قيل: قوله: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ أمر لهم بالإقامة على الغيظ، وذلك الغيظ كفر، فكان هذا أمرًا بالإقامة على الكفر وذلك غير جائز.

قلنا: قد بينا أنه دعاء بازدياد ما يوجب هذا الغيظ وهو قوة الإسلام فسقط السؤال:

وأيضًا فإنه دعاء عليهم بالموت قبل بلوغ ما يتمنون.

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾:

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: (ذات) كلمة وضعت لنسبة المؤنث كما أن (ذو) كلمة وضعت لنسبة المذكر والمراد بذات الصدور الخواطر القائمة بالقلب والدواعي والصوارف الموجودة فيه وهي لكونها حالة في القلب منتسبة إليه فكانت ذات الصدور، والمعنى أنه تعالى عالم بكل ما حصل في قلوبكم من الخواطر والبواعث والصوارف.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف) يحتمل أن تكون هذه الآية داخلة في جملة المقول وأن لا تكون، أما الأول: فالتقدير: أخبرهم بما يسرونه من عضهم الأنامل غيظًا إذا خلوا وقل

لهم: إن الله عليم بما هو أخفى مما تسرونه بينكم، وهو مضمرات الصدور، فلا تظنوا أن شيئًا من أسراركم يخفى عليه، زأما الثاني: وهو أن لا يكون داخلاً في المقول فمعناه: قل لهم ذلك يا محمد ولا تتعجب من إطلاعي إياك على ما يسرون، فإني أعلم ما هو أخفى من ذلك، وهو ما أضمروه في صدورهم ولم يظهروه بألسنتهم ويجوز أن لا يكون، ثم قول وأن يكون قوله: ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾ أمر الرسول ﷺ بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله إياه أنهم يهلكون غيظًا بإعزاز الإسلام وإذلالهم به، كأنه قيل: حدث نفسك بذلك، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

واعلم أن هذه الآية من تمام وصف المنافقين، فبيّن تعالى أنهم مع ما لهم من الصفات الذميمة والأفعال القبيحة مترقبون نزول نوع من المحنة والبلاء بالمؤمنين.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: المس أصله باليد ثم يسمى كل ما يصل إلى الشيء (ماسًا) على سبيل التشبيه فيقال: فلان مسّه التعب والنصب، قال تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [فاطر: ٣٥] وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٦٧] قال صاحب (الكشاف): المس هاهنا بمعنى الإصابة، قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ [التوبة: ٥٠] وقوله ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] وقال: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠، ٢١].

المسألة الثانية: المراد من الحسنة هاهنا منفعة الدنيا على اختلاف أحوالها، فمنها صحة البدن وحصول الخصب والفوز بالغنيمة والاستيلاء على الأعداء وحصول المحبة والأُلفة بين الأحباب والمراد بالسيئة أضدادها، وهي المرض والفقر والهزيمة والانهزام من العدو وحصول التفرقة بين الأقارب، والقتل والنهب والغارة، فبيّن تعالى أنهم يحزنون ويغتمون بحصول نوع من أنواع الحسنة للمسلمين ويفرحون بحصول نوع من أنواع السيئة لهم.

المسألة الثالثة: يقال: ساء الشيء يسوء فهو سيئ، والأنثى سيئة أي: قبح، ومنه قوله تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦] والسوأى ضد الحسنى.

ثم قال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟﴾ يعني على طاعة الله وعلى ما ينالكم فيها من شدة وغم ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ كل ما نهاكم عنه وتتوكلوا في أموركم على الله ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو (لاَ يَضِرْكُم) بفتح الياء وكسر الضاد وسكون

الراء، وهو من ضَارَه يُضيرُه، ويضوره ضورًا إذا ضرَّه، والباقون (لاَ يَضُرُّكُمْ) بضم الضاد والراء المشددة وهو من الضر، وأصله يضرركم جزمًا، فأدغمت الراء في الراء ونقلت ضمة الراء الأولى إلى الضاد وضمت الراء الأخيرة، اتباعًا لأقرب الحركات وهي ضمة الضاد، وقال بعضهم: هو على التقديم والتأخير تقديره: ولا يضركم كيدهم شيئًا إن تصبروا وتتقوا، قال صاحب (الكشاف): وروى المفضل عن عاصم (لاَ يَضُرَّكُمْ) بفتح الراء.

المسألة الثانية: الكيد هو أن يحتال الإنسان ليوقع غيره في مكروه، وابن عباس فسّر الكيد هاهنا بالعداوة.

المسألة الثالثة: (شَيْئًا) نصب على المصدر أي: شيئًا من الضر.

المسألة الرابعة: معنى الآية: أن كل من صبر على أداء أوامر الله تعالى واتقى كل ما نهى الله عنه كان في حفظ الله فلا يضره كيد الكافرين ولا حيل المحتالين.

وتحقيق الكلام في ذلك هو أنه سبحانه إنما خلق الخلق للعبودية كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فمن وفى بعهد العبودية في ذلك فالله سبحانه أكرم من أن لا يفي بعهد الربوبية في حفظه عن الآفات والمخافات.

وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] إشارة إلى أنه يوصِّل إليه كل ما يسره، وقال بعض الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك فاجتهد في اكتساب الفضائل.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ بما يعملون بالياء على سبيل المغايبة بمعنى أنه عالم بما يعملون في معاداتكم فيعاقبهم عليه، ومن قرأ بالتاء على سبيل المخاطبة، فالمعنى أنه عالم محيط بما تعملون من الصبر والتقوى فيفعل بكم ما أنتم أهله.

المسألة الثانية: إطلاق لفظ المحيط على الله مجاز، لأن المحيط بالشيء هو الذي يحيط به من كل جوانبه، وذلك من صفات الأجسام، لكنه تعالى لما كان عالمًا بكل الأشياء قادرًا على كل الممكنات، جاز في مجاز اللغة أنه محيط بها، ومنه قوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج: ٢٠] وقال: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩] وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] وقال: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: ٢٨].

المسألة الثالثة: إنما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ولم يقل إن الله محيط بما يعملون لأنهم يقدمون الأهم والذي هم بشأنه، أعني وليس المقصود هاهنا بيان كونه تعالى عالمًا، بل بيان أن جميع أعمالهم معلومة لله تعالى ومجازيهم عليها، فلا جرم قدم ذكر العمل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠] أتبعه بما يدلهم على سنة الله تعالى فيهم في باب النصرة والمعونة ودفع مضار العدو إذا هم صبروا واتقوا، وخلاف ذلك فيهم إذا لم يصبروا فقال: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ يعني: أنهم يوم أحد كانوا كثيرين مستعدين للقتال، فلما خالفوا أمر الرسول انهزموا، ويوم بدر كانوا قليلين غير مستعدين للقتال فلما أطاعوا أمر الرسول غلبوا واستولوا على خصومهم، وذلك يؤكد قولنا، وفيه وجه آخر وهو أن الانكسار يوم أحد إنما حصل بسبب تخلف عبد الله ابن أُبي بن سلول المنافق، وذلك يدل على أنه لا يجوز اتخاذ هؤلاء المنافقين بطانة.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ فيه ثلاثة أوجه؛ الأول: تقديره: واذكر إذ غدوت، والثاني: قال أبو مسلم: هذا كلام معطوف بالواو على قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٣] يقول: قد كان لكم في نصر الله تلك الطائفة القليلة من المؤمنين على الطائفة الكثيرة من الكافرين موضع اعتبار لتعرفوا به أن الله ناصر المؤمنين، وكان لهم مثل ذلك من الآية إذ غدا الرسول ﷺ يبوئ المؤمنين مقاعد للقتال، والثالث: العامل فيه محيط: تقديره والله بما يعملون محيط وإذ غدوت.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن هذا اليوم أي يوم هو؟ فالأكثرون: أنه يوم أُحد: وهو قول ابن عباس والسدي وابن إسحاق والربيع والأصم وأبي مسلم، وقيل: إنه يوم بدر، وهو قول الحسن، وقيل: إنه يوم الأحزاب وهو قول مجاهد ومقاتل، حجة من قال هذا اليوم هو يوم أُحد وجوه؛ الأول: أن أكثر العلماء بالمغازي زعموا أن هذه الآية نزلت في وقعة أُحد، الثاني: أنه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ [آل عمران: ١٢٣] والظاهر أنه معطوف على ما تقدم، ومن حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه، وأما يوم الأحزاب، فالقوم إنما خالفوا أمر الرسول ﷺ يوم أُحد لا يوم الأحزاب، فكانت قصة أُحد أليق بهذا الكلام لأن المقصود من ذكر هذه القصة تقرير قوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ فثبت أن هذا اليوم هو يوم أُحد الثالث: أن الانكسار واستيلاء العدو كان في يوم أُحد أكثر منه في يوم الأحزاب لأن في يوم أُحد قتلوا جمعًا كثيرًا من أكابر الصحابة ولم يتفق ذلك يوم الأحزاب فكان حمل الآية على يوم أُحد أولى.

المسألة الثالثة: روي أن المشركين نزلوا بأُحد يوم الأربعاء فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه

ودعا عبد الله بن أبي ابن سلول ولم يدعه قط قبلها فاستشاره فقال عبد الله وأكثر الأنصار: يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم والله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخل عدو علينا إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا؟ فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر موضع وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين وقال آخرون: اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لئلا يظنوا أنا قد خفناهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إنِّي قَدْ رَأيتُ فِي مَنَامِي بَقَرًا تُذْبَحُ حَوْلِي، فأوَّلْتُها خَيْرًا، وَرَأيْتُ فِي ذُبَابَةِ سَيْفِي ثَلْمًا، فَأوَّلْتُه هَزِيمَةً ورَأيتُ كأنِّي أدْخَلتُ يَدِي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ، فأوَّلْتُها المَدِينَةَ، فَإنْ رَأيْتُمْ أن تُقِيمُوا بِالْمَدِينَةِ، وتدعوهُمْ**»(١) فقال قوم من المسلمين من الذين فاتتهم (بدر) وأكرمهم الله بالشهادة يوم أُحد: اخرج بنا إلى أعدائنا فلم يزالوا به حتى دخل فلبس لأمته، فلما لبس ندم القوم، وقالوا: بئسما صنعنا نشير على رسول الله والوحي يأتيه، فقالوا له: اصنع يا رسول الله ما رأيت، فقال: «**لاَ يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أنْ يَلْبَسَ لأمَتَهُ، فَيَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ**»(٢) فخرج يَوْمَ الجُمُعَةِ بَعْدَ صَلاة الجمعة، وَأصْبَحَ بالشِّعْبِ من أحُد يوم السَّبْتِ للنصف من شوَّال، فَمَشَى عَلَى رِجْلَيْهِ، وَجَعَلَ يَصُفُّ أصحابَه لِلْقِتَالِ كأنما يقوم بهم القدح، إنْ رَأى صدْرًا بَارِزًا تأخَّر، وكان نزوله في جانب الوادي، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وأمَّرَ عبد الله بن جبير على الرماة، وقال: ادفعوا عنا بالنبل حتى لا يأتونا من ورائنا، وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «**اثْبُتُوا فِي هَذَا المَقَامِ، فَإذَا عاينوكم وَلَّوْكم الأدبار، فلا تطلبوا المدبرين ولا تخرجوا من هذا المقام**»، ثم إن الرسول عليه الصلاة والسلام لما خالف رأي عبد الله بن أُبَيّ شق عليه ذلك، وقال: أطاع الولدان وعصاني، ثم قال لأصحابه: إن محمدًا إنما يظفر بعدوه بكم، وقد وعد أصحابه أن أعداءهم إذا عاينوهم انهزموا، فإذا رأيتم أعداءهم فانهزموا فيتبعوكم، فيصير الأمر على خلاف ما قاله محمد عليه السلام، فلما التقى الفريقان انهزم عبد الله بالمنافقين، وكان جملة عسكر المسلمين ألفًا، فانهزم عبد الله بن أُبي مع ثلثمائة، فبقيت سبعمائة، ثم قواهم الله مع ذلك حتى هزموا المشركين، فلما رأى المؤمنون انهزام القوم، وكان الله تعالى بشرهم بذلك، طمعوا أن تكون

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد في (مسنده) (٣/ ٣٥١) من طريق عبد الصمد وعفان... به، والدارمي في كتاب (الرؤيا)، باب: (في القمص والبئر واللبن والعسل والسمن والتمر وغير ذلك في النوم) (١/ ٦١٠)، حديث رقم (٢١٥٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١١/ ٦٨)، حديث رقم (٣١١٢٩)، حماد بن سلمة عن أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره. وابن سعد في (الطبقات الكبرى) (٢/ ٤٥)، من طريق عفان بن مسلم... به، جميعًا عن حماد بن سلمة... به.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد في (مسنده) (٣/ ٣٥١) من طريق عبد الصمد وعفان... به، والدارمي في كتاب (الرؤيا)، باب: (في القمص والبئر واللبن والعسل والسمن والتمر وغير ذلك في النوم) (١/ ٦١٠)، حديث رقم (٢١٥٩)، وابن سعد في (الطبقات الكبرى) (٢/ ٤٥) من طريق عفان بن مسلم... به، جميعًا عن حماد بن سلمة... به.

هذه الواقعة كواقعة بدر، فطلبوا المدبرين وتركوا ذلك الموضع، وخالفوا أمر الرسول ﷺ بعد أن أراهم ما يحبون، فأراد الله تعالى أن يفطمهم عن هذا الفعل لئلا يقدموا على مخالفة الرسول عليه السلام وليعلموا أن ظفرهم إنما حصل يوم بدر ببركة طاعتهم لله ولرسوله، ومتى تركهم الله مع عدوهم لم يقوموا لهم فنزع الله الرعب من قلوب المشركين، فكثر عليهم المشركون وتفرق العسكر عن رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣] وشج وجه الرسول ﷺ وكسرت رباعيته وشلت يد طلحة دونه [١]، ولم يبق معه إلا أبو بكر وعلي والعباس وطلحة وسعد، ووقعت الصيحة في العسكر أن محمدًا قد قُتل، وكان رجل يكنى أبا سفيان من الأنصار نادى الأنصار وقال: هذا رسول الله، فرجع إليه المهاجرون والأنصار، وكان قتل منهم سبعون وكثر فيهم الجراح، فقال ﷺ: «رَحِمَ الله رَجُلاً ذَبَّ عَن إِخْوَانِه» وشد على المشركين بمن معه حتى كشفهم عن القتلى والجرحى والله أعلم.

والمقصود من القصة أن الكفار كانوا ثلاثة آلاف والمسلمون كانوا ألفًا وأقل، ثم رجع عبد الله بن أبي مع ثلثمائة من أصحابه فبقي الرسول ﷺ مع سبعمائة، فأعانهم الله حتى هزموا الكفار، ثم لما خالفوا أمر الرسول واشتغلوا بطلب الغنائم انقلب الأمر عليهم وانهزموا ووقع ما وقع، وكل ذلك يؤكد قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠] وأن المقبل من أعانه الله، والمدبر من خذله الله.

المسألة الرابعة: يقال: بوأته منزلاً وبوأت له منزلاً أي: أنزلته فيه، والمباءة والباءة المنزل وقوله: ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي: مواطن ومواضع، وقد اتسعوا في استعمال المقعد والمقام بمعنى المكان، ومنه قوله تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: ٥٥] وقال: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩] أي من مجلسك وموضع حكمك وإنما عبر عن الأمكنة هاهنا بالمقاعد لوجهين؛ الأول: وهو أنه عليه السلام أمرهم أن يثبتوا في مقاعدهم وأن لا ينتقلوا عنها، والقاعد في المكان لا ينتقل عنه فسمى تلك الأمكنة بالمقاعد، تنبيهًا على أنهم مأمورون بأن يثبتوا فيها ولا ينتقلوا عنها البتة، والثاني: أن المقاتلين قد يقعدون في الأمكنة المعينة إلى أن يلاقيهم العدو فيقوموا عند الحاجة إلى المحاربة فسميت تلك الأمكنة بالمقاعد لهذا الوجه.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ يروى أنه عليه السلام غدا من منزل عائشة رضي الله عنها فمشى على رجليه إلى أحد [٢]، وهذا قول مجاهد

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٥/ ١٧٩/ ٤٦٦٨)، والترمذي في (سننه) (٥/ ٢٢٦)، حديث رقم (٣٠٠٢)، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٢٥٣)، حديث رقم (١٣٦٨٢)، جميعًا من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس. . . به.

(٢) هذا الحديث عند أهل التفسير فقط، وقال الخازن في (تفسيره) (١/ ٤٤٨)، قال مجاهد والكلبي والواقدي. . . فذكره.

والواقدي، فدل هذا النص على أن عائشة رضي الله عنها كانت أهلاً للنبي ﷺ وقال تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [النور: ٢٦] فدل هذا النص على أنها مطهرة مبرأة عن كل قبيح، ألا ترى أن ولد نوح لما كان كافرًا قال: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ [هود: ٤٦] وكذلك امرأة لوط.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لأقوالكم عليم بضمائركم ونياتكم، فإنا ذكرنا أنه عليه السلام شاور أصحابه في ذلك الحرب، فمنهم من قال له: أقم بالمدينة، ومنهم من قال: اخرج إليهم، وكان لكل أحد غرض آخر فيما يقول، فمن موافق، ومن مخالف فقال تعالى: أنا سميع لما يقولون عليم بما يضمرون.

ثم قال تعالى: ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: العامل في قوله: ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا﴾ فيه وجوه: الأول: قال الزجاج: العامل فيه التبوئة، والمعنى كانت التبوئة في ذلك الوقت، الثاني: العامل فيه قوله: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، الثالث: يجوز أن يكون بدلاً من (إِذْ غَدَوْتَ).

المسألة الثانية: الطائفتان: حيان من الأنصار: بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس لما انهزم عبد الله بن أُبي همت الطائفتان باتباعه، فعصمهم الله، فثبتوا مع الرسول ﷺ، ومن العلماء من قال: إن الله تعالى أبهم ذكرهما وستر عليهما، فلا يجوز لنا أن نهتك ذلك الستر.

المسألة الثالثة: الفشل: الجبن والخور، فإن قيل: الهم بالشيء هو العزم، فظاهر الآية يدل على أن الطائفتين عزمتا على الفشل والترك وذلك معصية فكيف يليق بهما أن يقال والله وليهما؟

والجواب: الهم قد يراد به العزم، وقد يراد به الفكر، وقد يراد به حديث النفس، وقد يراد به ما يظهر من القول الدال على قوة العدو وكثرة عدده ووفور عدده، لأن أي شيء ظهر من هذا الجنس صح أن يوصف من ظهر ذلك منه بأنه هم بأن يفشل من حيث ظهر منه ما يوجب ضعف القلب، فكان قوله: ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا﴾ لا يدل على أن معصية وقعت منهما، وأيضًا فبتقدير أن يقال: إن ذلك معصية لكنها من باب الصغائر لا من باب الكبائر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ فإن ذلك الهم لو كان من باب الكبائر لما بقيت ولاية الله لهما.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عبد الله (والله وَلِيُّهُم) كقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٩].

المسألة الثانية: في المعنى وجوه؛ الأول: أن المراد منه بيان أن ذلك الهم ما أخرجهما عن

ولاية الله تعالى، الثاني: كأنه قيل: الله تعالى ناصرهما ومتولي أمرهما فكيف يليق بهما هذا الفشل وترك التوكل على الله تعالى؟ الثالث: فيه تنبيه على أن ذلك الفشل إنما لم يدخل في الوجود لأن الله تعالى وليهما فأمدهما بالتوفيق والعصمة، والغرض منه بيان أنه لولا توفيقه سبحانه وتسديده لما تخلص أحد عن ظلمات المعاصي، ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ .

فإن قيل: ما معنى ما روي عن بعضهم عند نزول هذه الآية أنه قال: والله ما يسرنا أنا لم نهم بما همت الطائفتان به، وقد أخبرنا الله تعالى بأنه وليهما؟

قلنا: معنى ذلك فرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله تعالى، وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية، وأن تلك الهمة ما أخرجتهم عن ولاية الله تعالى.

ثم قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ التوكل: تفعل، من وكَّل أمره إلى فلان إذا اعتمد فيه كفايته عليه ولم يتوله بنفسه، وفي الآية إشارة إلى أنه ينبغي أن يدفع الإنسان ما يعرض له من مكروه وآفة بالتوكل على الله، وأن يصرف الجزع عن نفسه بذلك التوكل.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

في كيفية النظم وجهان:

الأول: أنه تعالى لما ذكر قصة أُحد أتبعها بذكر قصة بدر، وذلك لأن المسلمين يوم بدر كانوا في غاية الفقر والعجز، والكفار كانوا في غاية الشدة والقوة، ثم إنه تعالى سلّط المسلمين على المشركين فصار ذلك من أقوى الدلائل على أن العاقل يجب أن لا يتوسل إلى تحصيل غرضه ومطلوبه إلا بالتوكل على الله والاستعانة به والمقصود من ذكر هذه القصة تأكيد قوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠] وتأكيد قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢] الثاني: أنه تعالى حكى عن الطائفتين أنهما همتا بالفشل.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢] يعني من كان الله ناصرًا له ومعينًا له فكيف يليق به هذا الفشل والجبن والضعف؟ ثم أكد ذلك بقصة بدر فإن المسلمين كانوا في غاية الضعف ولكن لما كان الله ناصرًا لهم فازوا بمطلوبهم وقهروا خصومهم فكذا هاهنا، فهذا تقرير وجه النظم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في بدر أقوال؛ الأول: بدر اسم بئر لرجل يقال له بدر؛ فسميت البئر باسم صاحبها هذا قول الشعبي، الثاني: أنه اسم للبئر كما يسمى البلد باسم من غير أن ينقل إليه اسم صاحبه وهذا قول الواقدي وشيوخه، وأنكروا قول الشعبي وهو ماء بين مكة والمدينة.

المسألة الثانية: (أَذِلَّةٌ) جمع ذليل، قال الواحديّ: الأصل في الفعيل إذا كان صفة أن يجمع

على فعلاء كظَرِيف وظُرَفاء وكَثِير وكُثَراء وشَرِيك وشُرَكاء إلا أن لفظ فُعَلاء اجتنبوه في التضعيف لأنهم لو قالوا: قَليل وقُلَلاء وخليل وخُلَلاء لاجتمع حرفان من جنس واحد فعدل إلى أَفعلة لأن من جموع الفعيل: الأفعلة، كجَريب وأَجْربة، وقَفِيز وأَقْفِزة فجعلوا جمع ذليل أذلة، قال صاحب (الكشاف): الأذلة جمع قلة، وإنما ذكر جمع القلة ليدل على أنهم مع ذلهم كانوا قليلين.

المسألة الثالثة: قوله ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ في موضع الحال، وإنما كانوا أذلة لوجوه؛ الأول: أنه تعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] فلا بد من تفسير هذا الذل بمعنى لا ينافي مدلول هذه الآية، وذلك هو تفسيره بقلة العدد وضعف الحال وقلة السلاح والمال وعدم القدرة على مقاومة العدو ومعنى الذل الضعف عن المقاومة ونقيضه العز وهو القوة والغلبة، روي أن المسلمين كانوا ثلثمائة وبضعة عشر، وما كان فيهم إلا فرس واحد، وأكثرهم كانوا رجالة، وربما كان الجمع منهم يركب جملاً واحدًا، والكفار قريبين من ألف مقاتل ومعهم مائة فرس مع الأسلحة الكثيرة والعدة الكاملة، الثاني: لعل المراد أنهم كانوا أذلة في زعم المشركين واعتقادهم لأجل قلة عددهم وسلاحهم، وهو مثل ما حكى الله عن الكفار أنهم قالوا: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، الثالث: أن الصحابة قد شاهدوا الكفار في مكة في القوة والثروة وإلى ذلك الوقت ما اتفق لهم استيلاء على أولئك الكفار، فكانت هيبتهم باقية في قلوبهم واستعظامهم مقررًا في نفوسهم فكانوا لهذا السبب يهابونهم ويخافون منهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: في الثبات مع رسوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصرته أو لعلّ الله ينعم عليكم نعمة أخرى تشكرونها، فوضع الشكر موضع الإنعام، لأنه سبب له.

ثم قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلف المفسرون في أن هذا الوعد حصل يوم بدر، أو يوم أُحد ويتفرع على هذين القولين بيان العامل في (إِذْ) فإن قلنا هذا الوعد حصل يوم بدر كان العامل في (إِذْ) قوله: ﴿نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٢٣] والتقدير: إذ نصركم الله ببدر وأنتم أذلة تقول للمؤمنين، وإن قلنا إنه حصل يوم أُحد، كان ذلك بدلاً ثانيًا من قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ [آل عمران: ١٢١].

إذا عرفت هذا فنقول:

القول الأول: أنه يوم أُحد، وهو مروي عن ابن عباس والكلبي والواقدي ومقاتل ومحمد بن إسحاق، والحجة عليه من وجوه:

الحجة الأولى: أن يوم بدر إنما أمد رسول الله ﷺ بألف من الملائكة قال تعالى في سورة

الأنفال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ [الأنفال: ٩] فكيف يليق ما ذكر فيه ثلاثة آلاف وخمسة آلاف بيوم بدر؟.

الحجة الثانية: أن الكفار كانوا يوم بدر ألفًا أو ما يقرب منه والمسلمون كانوا على الثلث منهم لأنهم كانوا ثلثمائة وبضعة عشر، فأنزل الله تعالى يوم بدر ألفًا من الملائكة، فصار عدد الكفار مقابلاً بعدد الملائكة مع زيادة عدد المسلمين فلا جرم وقعت الهزيمة على الكفار فكذلك يوم أحد كان عدد المسلمين ألفًا، وعدد الكفار ثلاثة آلاف، فكان عدد المسلمين على الثلث من عدد الكفار في هذا اليوم، كما في يوم بدر، فوعدهم الله في هذا اليوم أن ينزل ثلاثة آلاف من الملائكة ليصير عدد الكفار مقابلاً بعدد الملائكة مع زيادة عدد المسلمين، فيصير ذلك دليلاً على أن المسلمين يهزمونهم في هذا اليوم كما هزموهم يوم بدر ثم جعل الثلاثة آلاف خمسة آلاف لتزداد قوة قلوب المسلمين في هذا اليوم ويزول الخوف عن قلوبهم، ومعلوم أن هذا المعنى إنما يحصل إذا قلنا إن هذا الوعد إنما حصل يوم أحد.

الحجة الثالثة: أنه تعالى قال في هذه الآية: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥] والمراد ويأتوكم أعداؤكم من فورهم، ويوم أحد هو اليوم الذي كان يأتيهم الأعداء، فأما يوم بدر فالأعداء ما أتوهم، بل هم ذهبوا إلى الأعداء.

فإن قيل: لو جرى قوله تعالى: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ في يوم أحد، ثم إنه ما حصل هذا الإمداد لزم الكذب؟

والجواب عنه من وجهين: الأول: أن إنزال خمسة آلاف من الملائكة كان مشروطًا بشرط أن يصبروا ويتقوا في المغانم ثم إنهم لم يصبروا ولم يتقوا في المغانم بل خالفوا أمر الرسول ﷺ، فلما فات الشرط لا جرم فات المشروط وأما إنزال ثلاثة آلاف من الملائكة فإنما وعد الرسول بذلك للمؤمنين الذين بوأهم مقاعد للقتال وأمرهم بالسكون والثبات في تلك المقاعد، فهذا يدل على أنه ﷺ إنما وعدهم بهذا الوعد بشرط أن يثبتوا في تلك المقاعد، فلما أهملوا هذا الشرط لا جرم لم يحصل المشروط.

الوجه الثاني: في الجواب: لا نسلم أن الملائكة ما نزلت، روى الواقدي عن مجاهد أنه قال: حضرت الملائكة يوم أُحد ولكنهم لم يقاتلوا، وروي أن رسول الله ﷺ أعطى اللواء مصعب بن عمير فقتل مصعب فأخذه ملك في صورة مصعب، فقال رسول الله ﷺ: «تَقَدَّمْ يَا مُصْعَبُ» فقال الملك: لَسْت بِمُصْعَبٍ فَعَرَفَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّهُ مَلَكٌ أُمِدَّ بِهِ[1]، وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: كنت أَرْمِي بِالسَّهْمِ يَوْمَئِذٍ فَيَرُدُّهُ عَلَيَّ رَجُلٌ أَبْيَضُ حَسَنُ الْوَجْهِ وما

(١) إسناده ضعيف: أخرجه ابن سعد في (الطبقات الكبرى) (٣/ ١٢١)، أخبرنا محمد بن علي الواقدي قال حدثني الزبير بن سعد النوفلي عن عبد الله بن الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب... به، وفيه الواقدي وهو متروك.

كنت أعرفه، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ مَلَكٌ، فهذا ما نقوله في تقرير هذا الوجه.

إذا عرفت هذا فنقول: نظم الآية على هذا التأويل أنه تعالى ذكر قصة أحد، ثم قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: يجب أن يكون توكلهم على الله لا على كثرة عَددهم وعُددهم فلقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فكذلك هو قادر على مثل هذه النصرة في سائر المواضع، ثم بعد هذا أعاد الكلام إلى قصة أحد فقال: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

القول الثاني: أن هذا الوعد كان يوم بدر، وهو قول أكثر المفسرين، واحتجوا على صحته بوجوه.

الحجة الأولى: أن الله تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[آل عمران: ١٢٣] ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ كذا وكذا، فظاهر هذا الكلام يقتضي أن الله تعالى نصرهم ببدر حينما قال الرسول للمؤمنين هذا الكلام، وهذا يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام قال هذا الكلام يوم بدر.

الحجة الثانية: أن قلة العَدد والعُدد كانت يوم بدر أكثر وكان الاحتياج إلى تقوية القلب ذلك اليوم أكثر، فكان صرف هذا الكلام إلى ذلك اليوم أولى.

الحجة الثالثة: أن الوعد بإنزال ثلاثة آلاف من الملائكة كان مطلقًا غير مشروط بشرط، فوجب أن يحصل، وهو إنما حصل يوم بدر لا يوم أُحد، وليس لأحد أن يقول إنهم نزلوا لكنهم ما قاتلوا لأن الوعد كان بالإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة، وبمجرد الإنزال لا يحصل الإمداد بل لا بد من الإعانة، والإعانة حصلت يوم بدر ولم تحصل يوم أحد، ثم القائلون بهذا القول أجابوا عن دلائل الأولين فقالوا:

أما الحجة الأولى: وهي قولكم: الرسول ﷺ إنما أمد يوم بدر بألف من الملائكة.

فالجواب عنها: من وجهين: الأول: أنه تعالى أمد أصحاب الرسول ﷺ بألف ثم زاد فيهم ألفين فصاروا ثلاثة آلاف، ثم زاد ألفين آخرين فصاروا خمسة آلاف، فكأنه عليه الصلاة والسلام قال لهم: ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بألف من الملائكة؟ فقالوا: بلى، ثم قال: ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف؟ فقالوا: بلى، ثم قال لهم: إن تصبروا وتتقوا يمددكم ربكم بخمسة آلاف، وهو كما روي أنه ﷺ قال لأصحابه: «أيسركم أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّة»؟ قالوا: نعم. قال: أيسركم أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَي أهلِ الجَنَّة؟ قالوا: نعم، قال: «فإني أرجو أَنْ تَكُونوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّة»(١).

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (الرقاق)، باب: (كيف الحشر) (٥/ ٢٣٩٢)، حديث رقم (٦١٦٣)، قال: حدثني محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة . . . به، ومسلم في كتاب (الإيمان)، باب: (كون هذه الأمة نصف أهل الجنة) (١/ ٢٠٠/ ٢٢١)، وقال: حدثنا محمد بن المثنى ومحمد بن بشار واللفظ لابن المثنى قالا حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة . . . به.

الوجه الثاني في الجواب: أن أهل بدر إنما أمدوا بألف على ما هو مذكور في سورة الأنفال، ثم بلغهم أن بعض المشركين يريد إمداد قريش بعدد كثير فخافوا وشق عليهم ذلك لقلة عددهم، فوعدهم الله بأن الكفار إن جاءهم مدد فأنا أمدكم بخمسة آلاف من الملائكة، ثم إنه لم يأت قريشًا ذلك المدد، بل انصرفوا حين بلغهم هزيمة قريش، فاستغنى عن إمداد المسلمين بالزيادة على الألف.

وأما الحجة الثانية: وهي قولكم: إن الكفار كانوا يوم بدر ألفًا فأنزل الله ألفًا من الملائكة ويوم أحد ثلاثة آلاف فأنزل الله ثلاثة آلاف.

فالجواب: إنه تقريب حسن، ولكنه لا يوجب أن لا يكون الأمر كذلك، بل الله تعالى قد يزيد وقد ينقص في العدد بحسب ما يريد.

وأما الحجة الثالثة: وهي التمسك بقوله: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

فالجواب عنه: أن المشركين لما سمعوا أن الرسول ﷺ وأصحابه قد تعرضوا للعير ثار الغضب في قلوبهم واجتمعوا وقصدوا النبي ﷺ، ثم إن الصحابة لما سمعوا ذلك خافوا فأخبرهم الله تعالى: أنهم إن يأتوكم من فورهم يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة فهذا حاصل ما قيل في تقرير هذين القولين، والله أعلم بمراده.

المسألة الثانية: اختلفوا في عدد الملائكة، وضبط الأقوال فيها أن من الناس من ضم العدد الناقص إلى العدد الزائد، فقالوا: لأن الوعد بإمداد الثلاثة لا شرط فيه، والوعد بإمداد الخمسة مشروط بالصبر والتقوى ومجيء الكفار من فورهم، فلا بد من التغاير وهو ضعيف، لأنه لا يلزم من كون الخمسة مشروطة بشرط أن تكون الثلاثة التي هي جزؤها مشروطة بذلك الشرط ومنهم من أدخل العدد الناقص في العدد الزائد، أما على التقدير الأول: فإن حملنا الآية على قصة بدر كان عدد الملائكة تسعة آلاف لأنه تعالى ذكر الألف، وذكر ثلاثة آلاف، وذكر خمسة آلاف، والمجموع تسعة آلاف، وإن حملناها على قصة أُحد، فليس فيها ذكر الألف، بل فيها ذكر ثلاثة آلاف، وخمسة آلاف، والمجموع: ثمانية آلاف، وأما على التقدير الثاني: وهو إدخال الناقص في الزائد فقالوا: عدد الملائكة خمسة آلاف، لأنهم وعدوا بالألف ثم ضم إليها ألفان فلا جرم وعدوا بثلاثة آلاف، ثم ضم إليها ألفان آخران فلام جر وعدوا بخمسة آلاف، وقد حكينا عن بعضهم أنه قال: أمد أهل بدر بألف فقيل: إن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على المسلمين، فقال النبي ﷺ لهم: ألن يكفيكم يعني بتقدير أن يجيء المشركين مدد فالله تعالى يمدكم أيضًا بثلاثة آلاف وخمسة آلاف، ثم إن المشركين ما جاءهم المدد، فكذا هاهنا الزائد على الألف ما جاء المسلمين فهذه وجوه كلها محتملة، والله أعلم بمراده.

المسألة الثالثة: أجمع أهل التفسير والسير أن الله تعالى أنزل الملائكة يوم بدر وأنهم قاتلوا الكفار، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم تقاتل الملائكة سوى يوم بدر وفيما سواه كانوا عددًا

ومددًا لا يقاتلون ولا يضربون، وهذا قول الأكثرين، وأما أبو بكر الأصم، فإنه أنكر ذلك أشد الإنكار، واحتج عليه بوجوه:

الحجة الأولى: إن الملك الواحد يكفي في إهلاك الأرض، ومن المشهور أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت المدائن الأربع لقوم لوط وبلغ جناحه إلى الأرض السابعة، ثم رفعها إلى السماء وقلب عاليها سافلها، فإذا حضر هو يوم بدر، فأي حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفار؟ ثم بتقدير حضوره، فأي فائدة في إرسال سائر الملائكة؟.

الحجة الثانية: أن أكابر الكفار كانوا مشهورين وكل واحد منهم مقابله من الصحابة معلوم وإذا كان كذلك امتنع إسناد قتله إلى الملائكة.

الحجة الثالثة: الملائكة لو قاتلوا لكانوا إما أن يصيروا بحيث يراهم الناس أو لا يراهم الناس فإن رآهم الناس فإما أن يقال إنهم رأوهم في صورة الناس أو في غير صورة الناس، فإن كان الأول فعلى هذا التقدير صار المُشاهَد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف، أو أكثر، ولم يقل أحد بذلك، ولأن هذا على خلاف قوله تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤] وإن شاهدوهم في صورة غير صور الناس لزم وقوع الرعب الشديد في قلوب الخلق فإن من شاهد الجن لا شك أنه يشتد فزعه ولم ينقل ذلك البتة.

وأما القسم الثاني: وهو أن الناس ما رأوا الملائكة فعلى هذا التقدير: إذا حاربوا وحزوا الرؤوس، ومزقوا البطون وأسقطوا الكفار عن الأفراس، فحينئذ الناس كانوا يشاهدون حصول هذه الأفعال مع أنهم ما كانوا شاهدوا أحدًا من الفاعلين، ومثل هذا يكون من أعظم المعجزات، وحينئذ يجب أن يصير الجاحد لمثل هذه الحالة كافرًا متمردًا، ولما لم يوجد شيء من ذلك عرف فساد هذا القسم أيضًا.

الحجة الرابعة: أن هؤلاء الملائكة الذين نزلوا، إما أن يقال: إنهم كانوا أجسامًا كثيفة أو لطيفة، فإن كان الأول وجب أن يراهم الكل وأن تكون رؤيتهم كرؤية غيرهم، ومعلوم أن الأمر ما كان كذلك، وإن كانوا أجسامًا لطيفة دقيقة مثل الهواء لم يكن فيهم صلابة وقوة، ويمتنع كونهم راكبين على الخيول وكل ذلك مما ترونه.

واعلم أن هذه الشبهة إنما تليق بمن ينكر القرآن والنبوّة، فأما من يقرُّ بهما فلا يليق به شيء من هذه الكلمات، فما كان يليق بأبي بكر الأصم إنكار هذه الأشياء مع أن نص القرآن ناطق بها وورودها في الأخبار قريب من التواتر، روى عبد الله بن عمر قال: لما رجعت قريش من أحد جعلوا يتحدثون في أنديتهم بما ظفروا، ويقولون: لم نر الخيل البُلْق ولا الرجال البيض الذين كنا نراهم يوم بدر والشبهة المذكورة إذا قابلناها بكمال قدرة الله تعالى زالت وطاحت فإنه تعالى يفعل ما يشاء لكونه قادرًا على جميع الممكنات ويحكم ما يريد لكونه منزّهًا عن الحاجات.

المسألة الرابعة: اختلفوا في كيفية نصرة الملائكة قال بعضهم: بالقتال مع المؤمنين، وقال

بعضهم: بل بتقوية نفوسهم وإشعارهم بأن النصرة لهم وبإلقاء الرعب في قلوب الكفار، والظاهر في المدد أنهم يشركون الجيش في القتال إن وقعت الحاجة إليهم، ويجوز أن لا تقع الحاجة إليهم في نفس القتال وأن يكون مجرد حضورهم كافيًا في تقوية القلب، وزعم كثير من المفسرين أنهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا في سائر الأيام.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ معنى الكفاية هو سد الخلة والقيام بالأمر، يقال كفاه أمر كذا إذا سد خلته، ومعنى الإمداد إعطاء الشيء حالاً بعد حال قال المفضل: ما كان على جهة القوة والإعانة قيل فيه أمده يمده، وما كان على جهة الزيادة قيل فيه: مده، يمده ومنه قوله: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ﴾ [لقمان: ٢٧].

المسألة السادسة: قرأ ابن عامر (مُنزَّلِينَ) مشدد الزاي مفتوحة على التكثير، والباقون بفتح الزاي مخففة، وهما لغتان.

المسألة السابعة: قال صاحب (الكشاف): إنما قدم لهم الوعد بنزول الملائكة لتقوى قلوبهم ويعزموا على الثبات ويثقوا بنصر الله، ومعنى (أَلَنْ يَكْفِيكُمْ) إنكار أن لا يكفيكم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة وإنما جيء بلن التي هي لتأكيد النفي للإشعار بأنهم كانوا لقلتهم وضعفهم وكثرة عددهم كالآيسين من النصر.

ثم قال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾

وفي هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: بلى: إيجاب لما بعد (لن) يعني بل يكفيكم الإمداد فأوجب الكفاية، ثم قال: ﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ يعني والمشركون يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بأكثر من ذلك العدد وهو خمسة آلاف، فجعل مجيء خمسة آلاف من الملائكة مشروطًا بثلاثة أشياء، الصبر والتقوى ومجيء الكفار على الفور، فلما لم توجد هذه الشرائط لا جرم لم يوجد المشروط.

المسألة الثانية: الفور مصدر من فارت القدر إذا غلت، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] قيل إنه أول ارتفاع الماء منه ثم جعلوا هذه اللفظة استعارة في السرعة، يقال: جاء فلان ورجع من فوره، ومنه قول الأصوليين الأمر للفور أو التراخي، والمعنى حدة مجيء العدو وحرارته وسرعته.

المسألة الثالثة: قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم (مُسَوِّمِينَ) بكسر الواو أي معلمين علموا أنفسهم بعلامات مخصوصة، وأكثر الأخبار أنهم سوموا خيولهم بعلامات جعلوها عليها، والباقون بفتح الواو، أي: سومهم الله أو بمعنى أنهم سوموا أنفسهم، فكان في المراد من

التسويم في قوله (مُسَوِّمِينَ) قولان، الأول: السومة العلامة التي يعرف بها الشيء من غيره، ومضى شرح ذلك في قوله: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ [آل عمران: ١٤] وهذه العلامة يعلمها الفارس يوم اللقاء ليعرف بها، وفي الخبر أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «سوموا؛ فإنَّ المَلائِكَةَ قَدْ سَوَّمَتْ»(١) قال ابن عباس: كانت الملائكة قد سوموا أنفسهم بالعمائم الصفر، وخيولهم وكانوا على خيل بلق، بأن علقوا الصوف الأبيض في نواصيها وأذنابها، وروي أن حمزة بن عبد المطلب كان يعلم بريشة نعامة، وأن عليًّا كان يعلم بصوفة بيضاء وأن الزبير كان يتعصب بعصابة صفراء وأن أبا دجانة كان يعلم بعصابة حمراء.

القول الثاني: في تفسير المسومين إنه بمعنى المرسلين مأخوذًا من الإبل السائمة المرسلة في الرعي، تقول: أسمت الإبل إذا أرسلتها، ويقال في التكثير سومت كما تقول أكرمت وكرمت، فمن قرأ ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بكسر الواو فالمعنى أن الملائكة أرسلت خيلها على الكفار لقتلهم وأسرهم، ومن قرأ بفتح الواو فالمعنى أن الله تعالى أرسلهم على المشركين ليهلكوهم كما تهلك الماشية النبات والحشيش.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

الكناية في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ عائدة على المصدر، كأنه قال: وما جعل الله المدد والإمداد إلا بشرى لكم بأنكم تنصرون فدل (يُمْدِدْكُمْ) على الإمداد فكنى عنه، كما قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١] معناه: وإن أكله لفسق فدل (تَأْكُلُوا۟) على الأكل فكنى عنه وقال الزجاج: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: ذكر المدد ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ والبشرى اسم من الإبشار ومضى الكلام في معنى التبشير في سورة البقرة في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥].

ثم قال: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾

وفيه سؤال:

وهو أن قوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ فعل وقوله: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ اسم وعطف الفعل على الاسم مستنكر، فكان الواجب أن يقال إلا بشرى لكم واطمئنانًا، أو يقال إلا ليبشركم ولتطمئن قلوبكم به فلم ترك ذلك وعدل عنه إلى عطف الفعل على الاسم.

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه سعيد بن منصور في (السنن) (٢/ ٣٦٠)، حديث رقم (٢٨٦١) من طريق ابن عون عن عمير بن إسحاق قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره. ورواه الواقدي في (المغازي) (١/ ٢٨)، قال: حدثني محمد بن صالح عن عاصم بن عمر عن محمود بن لبيد... به، ومحمد بن عمر الواقدي متروك.

والجواب عنه من وجهين:

الأول: في ذكر الإمداد مطلوبان، وأحدهما أقوى في المطلوبية من الآخر، فأحدهما إدخال السرور في قلوبهم، وهو المراد بقوله: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، والثاني: حصول الطمأنينة على أن إعانة الله ونصرته معهم فلا يجبنوا عن المحاربة، وهذا هو المقصود الأصلي ففرق بين هاتين العبارتين تنبيهًا على حصول التفاوت بين هذين الأمرين في المطلوبية فكونه بشرى مطلوب ولكن المطلوب الأقوى حصول الطمأنينة، فلهذا أدخل حرف التعليل على فعل الطمأنينة، فقال: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ ونظيره قوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨] ولما كان المقصود الأصلي هو الركوب أدخل حرف التعليل عليها، فكذا هاهنا، الثاني: قال بعضهم في الجواب: الواو زائدة، والتقدير وما جعله الله إلا بشرى لكم لتطمئن به قلوبكم.

ثم قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ والغرض منه أن يكون توكلهم على الله لا على الملائكة وهذا تنبيه على أن إيمان العبد لا يكمل إلا عند الإعراض عن الأسباب والإقبال بالكلية على مسبب الأسباب أو قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فالعزيز إشارة إلى كمال قدرته، والحكيم إشارة إلى كمال علمه، فلا يخفى عليه حاجات العباد ولا يعجز عن إجابة الدعوات، وكل من كان كذلك لم يتوقع النصر إلا من رحمته ولا الإعانة إلا من فضله وكرمه.

ثم قال: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ واللام في ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ متعلق بقوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ والمعنى: أن المقصود من نصركم بواسطة إمداد الملائكة هو أن يقطعوا طرفًا من الذين كفروا، أي: يهلكوا طائفة منهم ويقتلوا قطعة منهم، وقيل: إنه راجع إلى قوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾، و﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ ولكنه ذكر بغير حرف العطف لأنه إذا كان البعض قريبًا من البعض جاز حذف العاطف، وهو كما يقول السيد لعبده: أكرمتك لتخدمني لتعينني لتقوم بخدمتي حذف العاطف، لأن البعض يقرب من البعض، فكذا هاهنا، وقوله: ﴿طَرَفًا﴾ أي: طائفة وقطعة وإنما حسن في هذا الموضع ذكر الطرف ولم يحسن ذكر الوسط لأنه لا وصول إلى الوسط إلا بعد الأخذ من الطرف، وهذا يوافق قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ [التوبة: ١٢٣] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الرعد: ٤١].

ثم قال: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ الكبت في اللغة صرع الشيء على وجهه، يقال: كبته فانكبت هذا تفسيره، ثم قد يذكر والمراد به الإخزاء والإهلاك واللعن والهزيمة والغيظ والإذلال، فكل ذلك ذكره المفسرون في تفسير الكبت.

وقوله: ﴿خَآئِبِينَ﴾ الخيبة هي الحرمان والفرق بين الخيبة وبين اليأس أن الخيبة لا تكون إلا بعد التوقع، وأما اليأس فإنه قد يكون بعد التوقع وقبله، فنقيض اليأس الرجاء، ونقيض الخيبة الظفر، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٢٨﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في سبب نزول هذه الآية قولان؛ الأول: وهو المشهور: أنها نزلت في قصة أحد، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا على ثلاثة أوجه؛ أحدها: أنه أراد أن يدعو على الكفار فنزلت هذه الآية والقائلون بهذا ذكروا احتمالات أحدها: روي أن عتبة بن أبي وقاص شجه وكسر رباعيته فجعل يمسح الدم عن وجهه وسالم مولى أبي حذيفة يغسل عن وجهه الدم وهو يقول: «**كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم**» ثم أراد أن يدعو عليهم فنزلت هذه الآية، وثانيها: ما روى سالم بن عبد الله عن أبيه عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ لعن أقوامًا فقال: «**اللّهم العن أبا سفيان، اللّهم العن الحارث بن هشام، اللّهم العن صفوان بن أُمية**»[1] فنزلت هذه الآية ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ فتاب الله على هؤلاء وحسن إسلامهم، وثالثها: أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب وذلك لأنه ﷺ لما رآه ورأى ما فعلوا به من المثلة قال: «**لأمثلن منهم بثلاثين**» فنزلت هذه الآية، قال القفال رحمه الله وكل هذه الأشياء حصلت يوم أُحد، فنزلت هذه الآية عند الكل فلا يمتنع حملها على كل الاحتمالات، الثاني: في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت بسبب أنه ﷺ أراد أن يلعن المسلمين الذين خالفوا أمره والذين انهزموا فمنعه الله من ذلك وهذا القول مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الوجه الثالث: أنه ﷺ أراد أن يستغفر للمسلمين الذين انهزموا وخالفوا أمره ويدعو عليهم فنزلت الآية، فهذه الاحتمالات والوجوه كلها مفرعة على قولنا: إن هذه الآية نزلت في قصة أُحد.

القول الثاني: أنها نزلت في واقعة أخرى وهي أن النبي ﷺ بعث جمعًا من خيار أصحابه إلى أهل بئر معونة ليعلموهن القرآن فذهب إليهم عامر بن الطفيل مع عسكره وأخذهم وقتلهم فجزع من ذلك الرسول ﷺ جزعًا شديدًا ودعا على الكفار أربعين يومًا، فنزلت هذه الآية[2]، هذا قول

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٢٢٧)، حديث رقم (٣٠٠٤) من طريق أحمد بن بشير عن عمر بن حمزة عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه... به.

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب يستغرب من حديث عمر بن حمزة عن سالم عن أبيه قد رواه الزهري عن سالم عن أبيه محمد بن إسماعيل من حديث عمر بن حمزة وعرفه من حديث الزهري، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٩٣)، حديث رقم (٥٦٧٤) من طريق عمر بن حمزة عن سالم بن عبد الله عن أبيه... به.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (المغازي)، باب: (غزوة الرجيع) (٤/ ١٥٠١)، حديث رقم (٣٨٦٤)، ورواه أيضًا في (٤/ ١٥٠٣)، حديث رقم (٣٨٦٩)، ومسلم في (صحيحه) (١/ ٤٦٨/ ٦٧٧)، جميعًا من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة قال: حدثني أنس... به.

مقاتل وهو بعيد؛ لأن أكثر العلماء اتفقوا على أن هذه الآية في قصة أحد، وسياق الكلام يدل عليه وإلقاء قصة أجنبية عن أول الكلام وآخره غير لائق.

المسألة الثانية: ظاهر هذه الآية يدل على أنها وردت في أمر كان النبي ﷺ يفعل فيه فعلاً، وكانت هذه الآية كالمنع منه، وعند هذا يتوجه الإشكال، وهو أن ذلك الفعل إن كان بأمر الله تعالى، فكيف منعه الله منه؟ وإن قلنا: إنه ما كان بأمر الله تعالى وبإذنه، فكيف يصح هذا مع قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣] وأيضًا دلت الآية على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فالأمر الممنوع عنه في هذه الآية إن كان حسنًا فلم منعه الله؟ وإن كان قبيحًا، فكيف يكون فاعله معصومًا؟

والجواب من وجوه:

الأول: أن المنع من الفعل لا يدل على أن الممنوع منه كان مشتغلاً به؛ فإنه تعالى قال للنبي ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وأنه عليه الصلاة والسلام ما أشرك قط، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] فهذا لا يدل على أنه ما كان يتقي الله، ثم قال: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهذا لا يدل على أنه أطاعهم، والفائدة في هذا المنع أنه لما حصل ما يوجب الغم الشديد، والغضب العظيم، وهو مُثلة عمه حمزة، وقتل المسلمين، والظاهر أن الغضب يحمل الإنسان على ما لا ينبغي من القول والفعل، فلأجل أن لا تؤدي مشاهدة تلك المكاره إلى ما لا يليق به من القول والفعل نص الله تعالى على المنع تقوية لعصمته وتأكيدًا لطهارته.

والثاني: لعله عليه الصلاة والسلام إن فعل لكنه كان ذلك من باب ترك الأفضل والأولى، فلا جرم أرشده الله إلى اختيار الأفضل والأولى، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٦، ١٢٧] كأنه تعالى قال: إن كنت تعاقب ذلك الظالم فاكتف بالمثل، ثم قال ثانيًا: وإن تركته كان ذلك أولى، ثم أمره أمرًا جازمًا بتركه، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

والوجه الثالث: في الجواب: لعلّه ﷺ لما مال قلبه إلى اللعن عليهم استأذن ربه فيه، فنص الله تعالى على المنع منه، وعلى هذا التقدير لا يدل هذا النهي على القدح في العصمة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾.

فيه قولان:

الأول: أن معناه: ليس لك من قصة هذه الواقعة ومن شأن هذه الحادثة شيء، وعلى هذا فنقل عن المفسرين عبارات: أحدها: ليس لك من مصالح عبادي شيء إلا ما أوحي إليك، وثانيها: ليس لك من مسألة إهلاكهم شيء، لأنه تعالى أعلم بالمصالح فربما تاب عليهم، وثالثها: ليس لك في أن يتوب الله عليهم، ولا في أن يعذبهم شيء.

والقول الثاني: أن المراد هو الأمر الذي يضاد النهي، والمعنى: ليس لك من أمر خلقي شيء

إلا إذا كان على وفق أمري، وهو كقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ [الأنعام: ٦٢] وقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤] وعلى القولين فالمقصود من الآية منعه ﷺ من كل فعل وقول، إلا ما كان بإذنه وأمره وهذا هو الإرشاد إلى أكمل درجات العبودية، ثم اختلفوا في أن المنع من اللعن لأي معنى كان؟ منهم من قال: الحكمة فيه أنه تعالى ربما علم من حال بعض الكفار أنه يتوب، أو إن لم يتب لكنه علم أنه سيولد منه ولد يكون مسلمًا برًّا تقيًّا، وكل من كان كذلك، فإن اللائق برحمة الله تعالى أن يمهله في الدنيا وأن يصرف عنه الآفات إلى أن يتوب، أو إلى أن يحصل ذلك الولد، فإذا حصل دعاء الرسول عليهم بالإهلاك، فإن قبلت دعوته فات هذا المقصود، وإن لم تقبل دعوته كان ذلك كالاستخفاف بالرسول ﷺ، فلأجل هذا المعنى منعه الله تعالى من اللعن وأمره بأن يفوض الكل إلى علم الله تعالى، ومنهم من قال: المقصود منه إظهار عجز العبودية وأن لا يخوض العبد في أسرار الله تعالى في ملكه وملكوته، وهذا هو الأحسن عندي والأوفق لمعرفة الأصول الدالة على حقيقة الربوبية والعبودية.

المسألة الرابعة: ذكر الفرّاء والزجاج وغيرهما في هذه الآية قولين؛ أحدهما: أن قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على ما قبله، والتقدير: ليقطع طرفًا من الذين كفروا، أو يكبتهم، أو يتوب عليهم، أو يعذبهم، ويكون قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ كالكلام الأجنبي الواقع بين المعطوف والمعطوف عليه، كما تقول: ضربت زيدًا، فاعلم ذلك وعمرًا، فعلى هذا القول هذه الآية متصلة بما قبلها.

والقول الثاني: أن معنى (أَوْ) هاهنا معنى حتى، أو إلا أن كقولك: لألزمنك أو تعطيني حقي والمعنى: إلا أن تعطيني أو حتى تعطيني، ومعنى الآية ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم، أو يعذبهم فتتشفى منهم.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ مفسر عند أصحابنا بخلق التوبة فيهم وذلك عبارة عن خلق الندم فيهم على ما مضى، وخلق العزم فيهم على أن لا يفعلوا مثل ذلك في المستقبل.

قال أصحابنا: وهذا المعنى متأكد ببرهان العقل وذلك لأن الندم عبارة عن حصول إرادة في المضي متعلقة بترك فعل من الأفعال في المستقبل، وحصول الإرادات والكراهات في القلب لا يكون بفعل العبد، لأن فعل العبد مسبوق بالإرادة، فلو كانت الإرادات فعلاً للعبد لافتقر العبد في فعل تلك الإرادة إلى إرادة أخرى ويلزم التسلسل وهو محال، فعلمنا أن حصول الإرادات والكراهات في القلب ليس إلا بتخليق الله تعالى وتكوينه ابتداء، ولما كانت التوبة عبارة عن الندم والعزم، وكل ذلك من جنس الإرادات والكراهات، علمنا أن التوبة لا تحصل للعبد إلا بخلق الله تعالى، فصار هذا البرهان مطابقًا لما دل عليه ظاهر القرآن، وهو قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وأما المعتزلة فإنهم فسروا قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إما بفعل الألطاف أو بقبول التوبة.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: إن كان الغرض من الآية منعه من الدعاء على الكفار صح الكلام وهو أنه تعالى سماهم ظالمين، لأن الشرك ظلم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣] وإن كان الغرض منها منعه من الدعاء على المسلمين الذين خالفوا أمره صح الكلام أيضًا، لأن من عصى الله فقد ظلم نفسه.

المسألة الثانية: يحتمل أن يكون المراد من العذاب المذكور في هذه الآية هو عذاب الدنيا، وهو القتل والأسر وأن يكون عذاب الآخرة، وعلى التقديرين فعلم ذلك مفوض إلى الله.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ جملة مستقلة، إلا أن المقصود من ذكرها تعليل حسن التعذيب، والمعنى: أو يعذبهم فإنه إن عذبهم إنما يعذبهم لأنهم ظالمون.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

فيه مسألتان:

المسألة الأولى: أن المقصود من هذا تأكيد ما ذكره أولاً من قوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[آل عمران: ١٢٨] والمعنى: أن الأمر إنما يكون لمن له الملك، وملك السموات والأرض ليس إلا لله تعالى فالأمر في السموات والأرض ليس إلا لله، وهذا برهان قاطع.

المسألة الثانية: إنما قال: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولم يقل (من) لأن المراد الإشارة إلى الحقائق والماهيات، فدخل فيه الكل.

أما قوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ فاعلم أن أصحابنا يحتجون بهذه الآية على أنه سبحانه له أن يدخل الجنة بحكم إلهيته جميع الكفار والمردة، وله أن يدخل النار بحكم إلهيته جميع المقربين والصدّيقين وأنه لا اعتراض عليه في فعل هذه الأشياء ودلالة الآية على هذا المعنى ظاهرة والبرهان العقلي يؤكد ذلك أيضًا، وذلك أن فعل العبد يتوقف على الإرادة وتلك الإرادة مخلوقة لله تعالى، فإذا خلق الله تلك الإرادة أطاع، وإذا خلق النوع الآخر من الإرادة عصى، فطاعة العبد من الله ومعصيته أيضًا من الله، وفعل الله لا يوجب على الله شيئًا البتة، فلا الطاعة توجب الثواب، ولا المعصية توجب العقاب، بل الكل من الله بحكم إلهيته وقهره وقدرته، فصح ما ادعيناه أنه لو شاء يعذب جميع المقربين حسن منه، ولو شاء يرحم جميع الفراعنة حسن منه ذلك، وهذا البرهان هو الذي دل عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ .

فإن قيل: أليس أنه ثبت أنه لا يغفر للكفار ولا يعذب الملائكة والأنبياء.

قلنا: مدلول الآية أنه لو أراد لفعل ولا اعتراض عليه، وهذا القدر لا يقتضي أنه يفعل أو لا يفعل، وهذا الكلام في غاية الظهور.

ثم ختم الكلام بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والمقصود بيان أنه وإن حسن كل ذلك منه إلا أن جانب الرحمة والمغفرة غالب لا على سبيل الوجوب بل على سبيل الفضل والإحسان.

تم الجزء الثامن ويليه إن شاء الله تعالى الجزء التاسع وأوله قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [آل عمران: ١٣٠]

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

اعلم أن من الناس من قال: إنه تعالى لما شرح عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بإرشادهم إلى الأصلح لهم في أمر الدين وفي أمر الجهاد، أتبع ذلك بما يدخل في الأمر والنهي والترغيب والتحذير فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ وعلى هذا التقدير تكون هذه الآية ابتداء كلام ولا تعلق لها بما قبلها، وقال القفال رحمه الله: يحتمل أن يكون ذلك متصلاً بما تقدم من جهة أن المشركين إنما أنفقوا على تلك العساكر أموالاً جمعوها بسبب الربا، فلعل ذلك يصير داعيًا للمسلمين إلى الإقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر فيتمكنون من الانتقام منهم، فلا جرم نهاهم الله عن ذلك.

وفي قوله: ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ مسألتان:

المسألة الأولى: كان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل، فاذا جاء الأجل ولم يكن المديون واجدًا لذلك المال قال: زد في المال حتى أزيد في الأجل فربما جعله مائتين.

ثم إذا حل الأجل الثاني فعل ذلك، ثم إلى آجال كثيرة، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها فهذا هو المراد من قوله: ﴿ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾.

المسألة الثانية: انتصب ﴿ أَضْعَٰفًا ﴾ على الحال.

ثم قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

اعلم أن اتقاء الله في هذا النهي واجب، وأن الفلاح يتوقف عليه، فلو أكل ولم يتق زال الفلاح وهذا تنصيص على أن الربا من الكبائر لا من الصغائر وتفسير قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ تقدم في سورة البقرة في قوله: ﴿ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١] وتمام الكلام في الربا أيضًا مر في سورة البقرة. ثم قال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ وفيه سؤالات: الأول: أن النار التي أعدت للكافرين تكون بقدر كفرهم وذلك أزيد مما يستحقه المسلم بفسقه، فكيف قال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾.

والجواب: تقدير الآية: اتقوا أن تجحدوا تحريم الربا فتصيروا كافرين.

السؤال الثاني: ظاهر قوله: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ يقتضي أنها ما أعدت إلا للكافرين، وهذا يقتضي القطع بأن أحدًا من المؤمنين لا يدخل النار وهو على خلاف سائر الآيات.

والجواب من وجوه: الأول: أنه لا يبعد أن يكون في النار دركات أعد بعضها للكفار وبعضها

للفساق فقوله: ﴿ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ إشارة الى تلك الدركات المخصوصة التي أعدها الله للكافرين، وهذا لا يمنع ثبوت دركات أخرى في النار أعدها الله لغير الكافرين. الثاني: أن كون النار معدة للكافرين، لا يمنع دخول المؤمنين، فيها لأنه لما كان أكثر أهل النار هم الكفار فلأجل الغلبة لا يبعد أن يقال: إنها معدة لهم، كما أن الرجل يقول: لدابة ركبها لحاجة من الحوائج، إنما أعددت هذه الدابة للقاء المشركين، فيكون صادقًا في ذلك وإن كان هو قد ركبها في تلك الساعة لغرض آخر فكذا ههنا.

الوجه الثالث: في الجواب: أن القرآن كالسورة الواحدة فهذه الآية دلت على أن النار معدة للكافرين وسائر الآيات دالة أيضًا على أنها معدة لمن سرق وقتل وزنى وقذف، ومثاله قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾[الملك: ٨] وليس لجميع الكفار يقال ذلك، وأيضًا قال تعالى: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾[الشعرا: ٩٤] الى قوله: ﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الشعرا: ٩٨] وليس هذا صفة جميعهم ولكن لما كانت هذه الشرائط مذكورة في سائر السور، كانت كالمذكورة ههنا، فكذا فيما ذكرناه والله أعلم.

الوجه الرابع: أن قوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ إثبات كونها معدة لهم ولا يدل على الحصر كما أن قوله: في الجنة ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣] لا يدل على أنه لا يدخلها سواهم من الصبيان والمجانين والحور العين.

الوجه الخامس: أن المقصود من وصف النار بأنها أعدت للكافرين تعظيم الزجر، وذلك لأن المؤمنين الذين خوطبوا باتقاء المعاصي إذا علموا بأنهم متى فارقوا التقوى أدخلوا النار المعدة للكافرين، وقد تقرر في عقولهم عظم عقوبة الكفار، كان انزجارهم عن المعاصي أتم، وهذا بمنزلة أن يخوف الوالد ولده بأنك إن عصيتني أدخلتك دار السباع، ولا يدل ذلك على أن تلك الدار لا يدخلها غيرهم فكذا ههنا.

السؤال الثالث: هل تدل الآية على أن النار مخلوقة الآن أم لا؟

الجواب: نعم لأن قوله: ﴿أُعِدَّتۡ﴾ إخبار عن الماضي فلا بد أن يكون قد دخل ذلك الشيء في الوجود.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ ولما ذكر الوعيد ذكر الوعد بعده على ما هو العادة المستمرة في القرآن، وقال: محمد بن إسحاق بن يسار هذه الآية معاتبة للذين عصوا الرسول ﷺ حين أمرهم بما أمرهم يوم أحد، وقالت المعتزلة: هذه الآية دالة على أن حصول الرحمة موقوف على طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ، وهذا عام فيدل الظاهر على أن من عصى الله ورسوله في شيء من الأشياء أنه ليس أهلًا للرحمة وذلك يدل على قول أصحاب الوعيد.

قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن عامر (سارعوا) بغير واو، وكذلك هو في مصاحف أهل المدينة والشام، والباقون بالواو، وكذلك هو في مصاحف مكة والعراق ومصحف عثمان، فمن قرأ بالواو عطفها على ما قبلها والتقدير أطيعوا الله والرسول وسارعوا، ومن ترك الواو فلأنه جعل قوله: (سارعوا) وقوله: (أَطِيعُواْ الله) كالشيء الواحد، ولقرب كل واحد منها من الآخر في المعنى أسقط العاطف.

المسألة الثانية: روي عن الكسائي الإمالة في (سارعوا وأولئك يسارعون ونسارع) وذلك جائز لمكان الراء المسكورة، ويمنع كما المفتوحة الامالة، كذلك المسكورة يميلها.

المسألة الثالثة: قالوا: في الكلام حذف والمعنى: وسارعوا الى ما يوجب مغفرة من ربكم ولا شك أن الموجب للمغفرة ليس إلا فعل المأمورات وترك المنهيات، فكان هذا أمرًا بالمسارعة الى فعل المأمورات وترك المنهيات، وتمسك كثير من الأصوليين بهذه الآية في أن ظاهر الأمر يوجب الفور ويمنع من التراخي ووجهه ظاهر، وللمفسرين فيه كلمات: إحداها: قال ابن عباس: هو الإسلام أقول: وجهه ظاهر، لأنه ذكر المغفرة على سبيل التنكير، والمراد منه المغفرة العظيمة المتناهية في العظم وذلك هو المغفرة الحاصلة بسبب الإسلام. الثاني: روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: هو أداء الفرائض، ووجهه أن اللفظ مطلق فيجب أن يعم الكل. والثالث: إنه الإخلاص وهو قول عثمان بن عفان رضي الله عنه: ووجهه أن المقصود من جميع العبادات الإخلاص، كما قال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، الرابع: قال أبو العالية: هو الهجرة. والخامس: أنه الجهاد وهو قول الضحاك ومحمد بن إسحاق، قال: لأن من قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى تمام ستين آية نزل في يوم أحد فكان كل هذه الأوامر والنواهي مختصة بما يتعلق بباب الجهاد. السادس: قال سعيد بن جبير: إنها التكبيرة الأولى. والسابع: قال عثمان: إنها الصلوات الخمس. والثامن: قال عكرمة: إنها جميع الطاعات. لأن اللفظ عام فيتناول الكل. والتاسع: قال الأصم: سارعوا، أي بادروا الى التوبة من الربا والذنوب، والوجه فيه أنه تعالى نهى أولاً عن الربا، ثم قال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فهذا يدل على أن المراد منه المسارعة في ترك ما تقدم النهي عنه، والأولى ما تقدم من وجوب حمله على أداء الواجبات والتوبة عن جميع المحظورات، لأن اللفظ عام فلا وجه في تخصيصه، ثم أنه تعالى بين أنه كما تجب المسارعة إلى المغفرة فكذلك تجب المسارعة إلى الجنة، وإنما فصل بينهما لأن الغفران معناه إزالة

العقاب، والجنة معناها إيصال الثواب، فجمع بينهما للإشعار بأنه لا بد للمكلف من تحصيل الأمرين، فأما وصف الجنة بأن عرضها السموات: فمعلوم أن ذلك ليس بحقيقة؛ لأن نفس السموات لا تكون عرضًا للجنة، فالمراد كعرض السموات والأرض وههنا سؤالات.

السؤال الأول: ما معنى أن عرضها مثل عرض السموات والأرض وفيه وجوه:

الأول: أن المراد لو جعلت السموات والأرضون طبقًا طبقًا بحيث يكون كل واحدة من تلك الطبقات سطحًا مؤلفًا من أجزاء لا تتجزأ، ثم وصل البعض بالبعض طبقًا واحدًا لكان ذلك مثل عرض الجنة، وهذا غاية في السعة لا يعلمها إلا الله.

والثاني: أن الجنة التي يكون عرضها مثل عرض السموات والأرض إنما تكون للرجل الواحد لأن الانسان إنما يرغب فيما يصير ملكًا، فلا بد وأن تكون الجنة المملوكة لكل واحد مقدارها هذا.

الثالث: قال أبو مسلم: وفيه وجه آخر وهو أن الجنة لو عرضت بالسموات والأرض على سبيل البيع لكانتا ثمنًا للجنة، تقول: إذا بعت الشيء بالشيء الآخر: عرضته عليه وعارضته به، فصار العرض يوضع موضع المساواة بين الشيئين في القدر، وكذا أيضًا معنى القيمة لأنها مأخوذة من مقاومة الشيء بالشيء حتى يكون كل واحد منهما مثلاً للآخر.

الرابع: المقصود المبالغة في وصف سعة الجنة وذلك لأنه لا شيء عندنا أعرض منهما ونظيره قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧] فإن أطول الأشياء بقاء عندنا هو السموات والأرض، فخوطبنا على وفق ما عرفناه، فكذا ههنا.

السؤال الثاني: لم خص العرض بالذكر.

والجواب فيه وجهان: الأول: أنه لما كان العرض ذلك فالظاهر أن الطول يكون أعظم ونظيره قوله: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] وإنما ذكر البطائن لأن من المعلوم أنها تكون أقل حالاً من الظهارة، فإذا كانت البطانة هكذا فكيف الظهارة؟ فكذا ههنا إذا كان العرض هكذا فكيف الطول، والثاني: قال القفال: ليس المراد بالعرض ههنا ما هو خلاف الطول، بل هو عبارة عن السعة كما تقول العرب: بلاد عريضة، ويقال هذه دعوى عريضة، أي: واسعة عظيمة، والأصل فيه ان ما اتسع عرضه لم يضق، وما ضاق عرضه دق، فجعل العرض كناية عن السعة.

السؤال الثالث: أنتم تقولون: الجنة في السماء فكيف يكون عرضها كعرض السماء؟

والجواب من وجهين:

الأول: أن المراد من قولنا انها فوق السموات وتحت العرش، قال عليه السلام: في صفة الفردوس «سَقْفُهَا عرْشُ الرَّحْمنِ» (١) وروي أن رسول هرقل سأل النبي ﷺ وقال: إنك تدعو الى

(١) مرسل: رواه أبو الشيخ في (العظمة) (٣/ ١٠٥٨)، حديث رقم (٥٧٣) من طريق عبد الصمد بن معقل عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى. . . فذكره، وهذا إسناده مرسل.

جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين فأين النار؟ فقال النبي ﷺ: «سُبْحَانَ الله! فأَيْنَ اللَّيلُ إذَا جَاءَ النَّهَارُ؟»[(١)] والمعنى والله أعلم أنه إذا دار الفلك حصل النهار في جانب من العالم والليل في ضد ذلك الجانب، فكذا الجنة في جهة العلو والنار في جهة السفل، وسئل أنس بن مالك عن الجنة أفي الأرض أم في السماء؟ فقال: وأي أرض وسماء تسع الجنة، قيل: فأين هي؟ قال: فوق السموات السبع تحت العرش.

والوجه الثاني: أن الذين يقولون الجنة والنار غير مخلوقتين الآن، بل الله تعالى يخلقهما بعد قيام القيامة، فعلى هذا التقدير لا يبعد أن تكون الجنة مخلوقة في مكان السموات، والنار في مكان الأرض، والله أعلم.

أما قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فظاهره يدل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن وقد سبق تقرير ذلك.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن الجنة معدة للمتقين ذكر صفات المتقين حتى يتمكن الإنسان من اكتساب الجنة بواسطة اكتساب تلك الصفات.

فالصفة الأولى: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وفيه وجوه: الأول: أن المعنى أنهم في حال الرخاء واليسر والقدرة والعسر لا يتركون الإنفاق، وبالجملة فالسراء هو الغنى، والضراء هو الفقر. يحكى عن بعض السلف أنه ربما تصدق ببصلة، وعن عائشة رضي الله عنها أنها تصدقت بحبة عنب، والثاني: أن المعنى أنهم سواء كانوا في سرور أو في حزن أو في عسر أو في يسر فإنهم لا يدعون الإحسان إلى الناس، الثالث: المعنى أن ذلك الإحسان والإنفاق سواء سرهم بأن كان على وفق طبعهم، أو ساءهم بأن كان على خلاف طبعهم فانهم لا يتركونه، وإنما افتتح الله بذكر الإنفاق لأنه طاعة شاقة ولأنه كان في ذلك الوقت أشرف الطاعات لأجل الحاجة اليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: يقال: كظم غيظة إذا سكت عليه ولم يظهره لا بقول ولا بفعل قال المبرد: تأويله أنه كتم على امتلائه منه، يقال: كظمت السقاء إذا ملأته وسددت عليه، ويقال: فلان لا

---

(١) أورده الهيثمي في (المجمع) (٨/ ٢٣٦)، وقال: رواه عبد الله بن أحمد وأبو يعلى ورجال أبي يعلى ثقات ورجال عبد الله بن أحمد كذلك.

يكظم على جرته إذا كان لا يحتمل شيئًا، وكل ما سددت من مجرى ماء أو باب أو طريق فهو كظم، والذي يسد به يقال له الكظامة والسدادة، ويقال للقناة التي تجري في بطن الأرض كظامة، لامتلائها بالماء كامتلاء القرب المكظومة، ويقال: أخذ فلان بكظم فلان إذا أخذ بمجرى نفسه، لأنه موضع الامتلاء بالنفس، وكظم البعير كظومًا إذا أمسك على ما في جوفه ولم يجتر، ومعنى قوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ الذين يكفون غيظهم عن الإمضاء ويردون غيظهم في أجوافهم، وهذا الوصف من أقسام الصبر والحلم وهو كقوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

المسألة الثانية: قال النبي ﷺ: «**مَنْ كَظَمَ غَيظًا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى إنْفاذِهِ مَلأ اللهُ قَلْبَه أمنًا وَإيمَانًا**»(١) وقال عليه السلام: لأصحابه «**تَصَدَّقُوا**» فتصدقوا بالذهب والفضة والطعام، وأتاه الرجل بقشور التمر فتصدق به، وجاءه آخر فقال: والله ما عندي ما أتصدق به، ولكن أتصدق بعرضي فلا أعاقب أحدًا بما يقوله في حديثه، فوفد إلى رسول الله ﷺ من قوم ذلك الرجل وفد، فقال عليه السلام: «**لقد تصدق منكم رجل بصدقة ولقد قبلها الله منه تَصَدَّقَ بِعِرْضِهِ**»(٢) وقال عليه السلام: «**مَنْ كَظَمَ غَيظًا وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنَفِّذَهُ زَوَّجَهُ الله مِنَ الحُورِ العينِ حَيْثُ يَشَاءُ**»(٣) وقال عليه السلام: «**ما من جرعتين أحب إلى الله من جرعة موجعة يجرعها صاحبها بصبر وحسن عزاء ومن جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا**»(٤) وقال عليه السلام: «**لَيسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، لَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**»(٥).

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ قال القفال رحمه الله: يحتمل أن يكون هذا راجعًا الى ما ذم من فعل المشركين في أكل الربا، فنهي المؤمنون عن ذلك وندبوا الى العفو

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (الأدب)، باب: (من كظم غيظًا) (٤/ ٤٣ ٢٠)، حديث رقم (٤٧٧٧)، والترمذي في كتاب (البر والصلة)، باب: (كظم الغيظ) (٤/ ٣٢٦)، حديث رقم (٢٠٢١)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه في كتاب (الزهد)، باب: (الحلم) (٢/ ١٤٠٠)، حديث رقم (٤١٨٦)، والإمام أحمد في (مسنده) (٣/ ٤٣٨/ ٤٤٠)، جميعًا من طريق سهيل بن معاذ عن أبيه . . . به.

(٢) أورده الهيثمي في (المجمع) (٣/ ١١٤)، وقال: رواه البزار وفيه محمد بن سيرين بن مشمول وهو ضعيف.

(٣) انظر الحديث رقم (١)، ونضيف هنا وإسناده حسن، وأخرجه الطبراني في (الكبير) (٢٠/ ١٨٩)، حديث رقم (٤١٧)، وأبو نعيم في (الحلية) (٨/ ٤٧)، وابن عساكر (٦٢/ ٣٦٧)، جميعًا من طريق بقية حدثنا إبراهيم بن أدهم عن محمد بن عجلان عن فروة بن مجاهد عن سهل بن معاذ عن أنس عن أبيه . . . به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٤/ ٢٧٦)، وقال: فيه بقية وهو مدلس قلت: ولكنه صرح بالتحديث عند الطبراني في الأوسط.

(٤) **إسناده ضعيف**: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٣/ ٢٥١)، حديث رقم (٣٥٥٥٠)، البيهقي في (شعب الإيمان) (٦/ ٣١٤)، حديث رقم (٨٣٠٨) من طريق معمر عمن سمع الحسن . . . به.

(٥) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الأدب)، باب: (الحذر من الغضب) (٥/ ٢٢٦٧)، حديث رقم (٥٧٦٣)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٠١٤/ ٢٦٠٩)، كلاهما من طريق ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة . . . به.

عن المعسرين. قال تعالى: عقيب قصة الربا والتداين ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٠] ويحتمل أن يكون كما قال في الدية: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] الى قوله: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٠] ويحتمل أن يكون هذا بسبب غضب رسول الله ﷺ حين مثلوا بحمزة وقال: «**لأمثلن بهم**» (١) فندب إلى كظم هذا الغيظ والصبر عليه والكف عن فعل ما ذكر أنه يفعله من المثلة، فكان تركه فعل ذلك عفوًا، قال تعالى: في هذه القصة ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] قال ﷺ: «**لا يكون العبد ذا فضل حتى يَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ ويَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ**» (٢) وروي عن عيسى ابن مريم صلوات الله عليه: ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن اليك ذلك مكافأة إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء اليك.

أما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فاعلم أنه يجوز أن تكون اللام للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورون، وأن تكون للعهد فيكون إشارة إلى هؤلاء.

واعلم أن الإحسان إلى الغير إما أن يكون بإيصال النفع إليه أو بدفع الضرر عنه. أما إيصال النفع إليه فهو المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ ويدخل فيه إنفاق العلم، وذلك بأن يشتغل بتعليم الجاهلين وهداية الضالين، ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه الخيرات والعبادات وأما دفع الضرر عن الغير فهو إما في الدنيا وهو أن لا يشتغل بمقابلة تلك الإساءة بإساءة أخرى، وهو المراد بكظم الغيظ، وإما في الآخرة وهو أن يبرئ ذمته عن التبعات والمطالبات في الآخرة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالة على جميع جهات الإحسان إلى الغير، ولما كانت هذه الأمور الثلاثة مشتركة في كونها إحسانا إلى الغير ذكر ثوابها فقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإن محبة الله للعبد أعم درجات الثواب.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ

---

(١) ضعيف: أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٣/ ٢١٨)، حديث رقم (٤٨٩٤) من طريق صالح المري عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن أبي هريرة... به، وفي إسناده صالح المري واهٍ. وأورده الألباني في الضعيفة (٥٥٠)، وقال: ضعيف.

(٢) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه أبو الشيخ في (مكارم الأخلاق) (١/ ٢٣)، حديث رقم (٢٢) من طريق هشام بن عمار أخبرنا يحيى بن حمزة أخبرنا الحكم بن سعد بن عبد الله بن عبد الله أنه سمع عياض بن عبد الله بن أبي سرح يحدث عن أبي هريرة... مرفوعًا بلفظ (لن ينال عبد صريح الإيمان حتى يصل... الحديث)، وفي إسناده الحكم بن عبد الله بن سعد، ذكره البخاري في (التاريخ الكبير) (٢/ ٣٤٥)، وقال: تركوه، كان ابن المبارك يوهنه وشهر أحمد عن حديثه، وأورده الذهبي في (الميزان) (٢/ ٣٣٧)، وقال: قال أحمد: أحاديثه كلها موضوعة، وقال ابن معين: ليس بثقة، وقال السعدي وأبو حاتم: كذاب، وقال النسائي والدارقطني وجماعة: متروك الحديث.

يَعْلَمُونَ ۝١٣٥ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝١٣٦﴾

واعلم أن وجه النظم من وجهين:

الأول: أنه تعالى لما وصف الجنة بأنها معدة للمتقين بيّن أن المتقين قسمان: أحدهما: الذين أقبلوا على الطاعات والعبادات، وهم الذين وصفهم الله بالإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس. وثانيهما: الذين أذنبوا ثم تابوا وهو المراد بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ وبيّن تعالى أن هذه الفرقة كالفرقة الأولى في كونها متقية، وذلك لأن المذنب إذا تاب عن الذنب صار حاله كحال من لم يذنب قط في استحقاق المنزلة والكرامة عند الله.

والوجه الثاني: أنه تعالى ندب في الآية الأولى إلى الإحسان إلى الغير، وندب في هذه الآية إلى الإحسان إلى النفس، فإن المذنب العاصي إذا تاب كانت تلك التوبة إحسانًا منه إلى نفسه، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: روى ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في رجلين، أنصاري وثقفي، والرسول ﷺ كان قد آخى بينهما، وكانا لا يفترقان في أحوالهما، فخرج الثقفي مع الرسول ﷺ بالقرعة في السفر، وخلف الأنصاري على أهله ليتعاهدهم، فكان يفعل ذلك. ثم قام إلى امرأته ليقبلها فوضعت كفها على وجهها، فندم الرجل، فلما وافى الثقفي مع الرسول ﷺ لم ير الأنصاري، وكان قد هام في الجبال للتوبة، فلما عرف الرسول ﷺ سكت حتى نزلت هذه الآية.

وقال ابن مسعود: قال المؤمنون للنبي ﷺ: كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منا، فكان أحدهم إذا أذنب ذنبًا أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة داره: اجدع أنفك، افعل كذا، فأنزل الله تعالى هذه الآية وبيّن أنهم أكرم على الله منهم حيث جعل كفارة ذنبهم الاستغفار.

المسألة الثانية: الفاحشة ههنا نعت محذوف والتقدير: فعلوا فعلة فاحشة، وذكروا في الفرق بين الفاحشة وبين ظلم النفس وجوهًا: الأول: قال صاحب (الكشاف): الفاحشة ما يكون فعله كاملًا في القبح، وظلم النفس: هو أي ذنب كان مما يؤاخذ الانسان به. والثاني: أن الفاحشة هي الكبيرة، وظلم النفس هي الصغيرة، والصغيرة يجب الاستغفار منها، بدليل أن النبي ﷺ كان مأمورًا بالاستغفار وهو قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾[محمد: ١٩] وما كان استغفاره دالًا على الصغائر بل على ترك الأفضل. الثالث: الفاحشة: هي الزنا، وظلم النفس: هي القبلة واللمسة والنظرة، وهذا على قول من حمل الآية على السبب الذي رويناه، ولأنه تعالى سمى الزنا فاحشة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾[الإسراء: ٣٢].

أما قوله: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ ففيه وجهان: أحدهما: أن المعنى ذكروا وعيد الله أو عقابه أو جلاله

الموجب للخشية والحياء منه، فيكون من باب حذف المضاف، والذكر ههنا هو الذي ضد النسيان وهذا معنى قول الضحاك، ومقاتل، والواقدي، فإن الضحاك قال: ذكروا العرض الأكبر على الله، ومقاتل، والواقدي. قال: تفكروا أن الله سائلهم، وذلك لأنه قال: بعد هذه الآية ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ وهذا يدل على أن الاستغفار كالأثر، والنتيجة لذلك: الذكر، ومعلوم أن الذكر الذي يوجب الاستغفار ليس إلا ذكر عقاب الله، ونهيه ووعيده، ونظير هذه الآية قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾[الأعراف: ٢٠١].

والقول الثاني: أن المراد بهذا الذكر ذكر الله بالثناء والتعظيم والإجلال، وذلك لأن من أراد أن يسأل الله مسألة، فالواجب أن يقدم على تلك المسألة الثناء على الله، فهنا لما كان المراد الاستغفار من الذنوب قدموا عليه الثناء على الله تعالى، ثم اشتغلوا بالاستغفار عن الذنوب.

ثم قال: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ والمراد منه الإتيان بالتوبة على الوجه الصحيح، وهو الندم على فعل ما مضى مع العزم على ترك مثله في المستقبل، فهذا هو حقيقة التوبة، فأما الاستغفار باللسان، فذاك لا أثر له في إزالة الذنب، بل يجب إظهار هذا الاستغفار لإزالة التهمة، ولإظهار كونه منقطعًا إلى الله تعالى، وقوله: ﴿لِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي: لأجل ذنوبهم.

ثم قال: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ والمقصود منه أن لا يطلب العبد المغفرة إلا منه، وذلك لأنه تعالى هو القادر على عقاب العبد في الدنيا والآخرة، فكان هو القادر على إزالة ذلك العقاب عنه، فصح أنه لا يجوز طلب الاستغفار إلا منه.

ثم قال: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ واعلم أن قوله: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، والتقدير: فاستغفروا لذنوبهم ولم يصروا على ما فعلوا.

وقوله: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ فيه وجهان: الأول: أنه حال من فعل الإصرار، والتقدير: ولم يصروا على ما فعلوا من الذنوب حال ما كانوا عالمين بكونها محظورة محرمة لأنه قد يعذر من لا يعلم حرمة الفعل، أما العالم بحرمته فإنه لا يعذر في فعله ألبتة. الثاني: أن يكون المراد منه العقل والتمييز والتمكين من الاحتراز من الفواحش فيجري مجرى قوله ﷺ: «**رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلاثٍ**»(١).

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الحدود)، باب: (في المجنون يسرق أو يصيب حدًا) (٤/ ١٣٧)، حديث رقم (١٣٩٨) من طريق يزيد بن هارون... به، والنسائي في كتاب (الطلاق)، باب: (من لا يقع طلاقه من الأزواج) (٦/ ٤٦٨)، حديث رقم (٣٤٣٢) من طريق عبد الرحمن بن مهدي... به، وابن ماجه في كتاب (الطلاق)، باب: (طلاق المعتوه والصغير والنائم) (١/ ٦٥٨)، حديث رقم (٢٠٤١) من طريق عبد الرحمن بن مهدي... به، وأحمد في (مسنده) (٦/ ١٠٠) من طريق عفان... به، والدارمي في كتاب (الحدود)، باب: (رفع القلم عن ثلاثة) (٢/ ١٩)، حديث رقم (٢٢٩٦)، جميعًا عن حماد بن سلمة... به.

ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ والمعنى: أن المطلوب أمران: الأول: الأمن من العقاب وإليه الإشارة بقوله: ﴿مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾، والثاني: إيصال الثواب إليه وهو المراد بقوله: ﴿وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ ثم بيّن تعالى أن الذي يحصل لهم من ذلك وهو الغفران والجنات يكون أجرًا لعملهم وجزاء عليه بقوله: ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ قال القاضي: وهذا يبطل قول من قال إن الثواب تفضل من الله وليس بجزاء على عملهم.

قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨﴾

اعلم أن الله تعالى لما وعد على الطاعة والتوبة من المعصية الغفران والجنات، أتبعه بذكر ما يحملهم على فعل الطاعة وعلى التوبة من المعصية وهو تأمل أحوال القرون الخالية من المطيعين والعاصين فقال: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي: أصل الخلو في اللغة الانفراد والمكان الخالي هو المنفرد عمن يسكن فيه ويستعمل أيضًا في الزمان بمعنى المضي لأن ما مضى انفرد عن الوجود وخلا عنه، وكذا الأمم الخالية، وأما السنة فهي الطريقة المستقيمة والمثال المتبع، وفي اشتقاق هذه اللفظة وجوه:

الأول: أنها فعلة من سن الماء يسنه إذا والى صبه، والسن الصب للماء، والعرب شبهت الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب فإنه لتوالي أجزاء الماء فيه على نهج واحد يكون كالشيء الواحد، والسنة فعلة بمعنى مفعول.

وثانيها: أن تكون من: سننت النصل والسنان أسنه سَنًّا فهو مسنون إذا حددته على المسن، فالفعل المنسوب إلى النبي ﷺ سمي سنة على معنى أنه مسنون.

وثالثها: أن يكون من قولهم: سن الإبل إذا أحسن الرعي، والفعل الذي داوم عليه النبي ﷺ سمي سنة بمعنى أنه عليه الصلاة والسلام أحسن رعايته وإدامته.

المسألة الثانية: المراد من الآية: قد انقضت من قبلكم سنن الله تعالى في الأمم السالفة، واختلفوا في ذلك، فالأكثرون من المفسرين على أن المراد سنن الهلاك والاستئصال بدليل قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ وذلك لأنهم خالفوا الأنبياء والرسل للحرص على الدنيا وطلب لذاتها، ثم انقرضوا ولم يبق من دنياهم أثر وبقي اللعن في الدنيا والعقاب في الآخرة عليهم، فرغب الله تعالى أمة محمد ﷺ في تأمل أحوال هؤلاء الماضين ليصير ذلك داعيًا لهم إلى الإيمان بالله ورسله والإعراض عن الرياسة في الدنيا وطلب الجاه، وقال مجاهد:

بل المراد سنن الله تعالى في الكافرين والمؤمنين؛ فإن الدنيا ما بقيت لا مع المؤمن ولا مع الكافر، ولكن المؤمن يبقى له بعد موته الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى، والكافر بقي عليه اللعنة في الدنيا والعقاب في العقبى ثم إنه تعالى قال: ﴿فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ لأن التأمل في حال أحد القسمين يكفي في معرفة حال القسم الآخر، وأيضًا يقال الغرض منه زجر الكفار عن كفرهم وذلك إنما يعرف بتأمل أحوال المكذبين والمعاندين، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣] وقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨، القصص: ٨٣] وقوله: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

المسألة الثالثة: ليس المراد بقوله: ﴿فَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا﴾ الأمر بذلك لا محالة، بل المقصود تعرف أحوالهم، فإن حصلت هذه المعرفة بغير المسير في الأرض كان المقصود حاصلا، ولا يمتنع أن يقال أيضًا: إن لمشاهدة آثار المتقدمين أثرًا أقوى من أثر السماع كما قال الشاعر:

إنَّ آثارنا تدلُّ علينا فانظروا بعدَنا إلى الآثارِ

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ويعني بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ ما تقدم من أمره ونهيه ووعده ووعيده وذكره لأنواع البينات والآيات، ولا بد من الفرق بين البيان وبين الهدى وبين الموعظة، لأن العطف يقتضي المغايرة فنقول فيه وجهان:

الأول: أن البيان هو الدلالة التي تفيد إزالة الشبهة بعد أن كانت الشبهة حاصلة، فالفرق أن البيان عام في أي معنى كان، وأما الهدى فهو بيان لطريق الرشد ليسلك دون طريق الغي. وأما الموعظة فهي الكلام الذي يفيد الزجر عما لا ينبغي في طريق الدين، فالحاصل أن البيان جنس تحته نوعان:

أحدهما: الكلام الهادي إلى ما ينبغي في الدين وهو الهدى.

الثاني: الكلام الزاجر عما لا ينبغي في الدين وهو الموعظة.

الوجه الثاني: أن البيان هو الدلالة، وأما الهدى فهو الدلالة بشرط كونها مفضية إلى الاهتداء، وقد تقدم هذا البحث في تفسير قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] في سورة البقرة.

المسألة الرابعة: في تخصيص هذا البيان والهدى والموعظة للمتقين وجهان:

أحدهما: أنهم هم المنتفعون به، فكانت هذه الأشياء في حق غير المتقين كالمعدومة ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥] ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وقد تقدم تقريره في تفسير قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

الثاني: أن قوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ كلام عام ثم قوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ﴾ للمتقين مخصوص بالمتقين، لأن الهدى اسم للدلالة بشرط كونها موصلة إلى البغية، ولا شك أن هذا المعنى لا يحصل إلا في حق المتقين، والله أعلم بالصواب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

اعلم أن الذي قدمه من قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران: ١٣٧] وقوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨] كالمقدمة لقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ كأنه قال: إذا بحثتم عن أحوال القرون الماضية علمتم أن أهل الباطل وإن اتفقت لهم الصولة، لكن كان مآل الأمر إلى الضعف والفتور، وصارت دولة أهل الحق عالية، وصولة أهل الباطل مندرسة، فلا ينبغي أن تصير صولة الكفار عليكم يوم أحد سببًا لضعف قلبكم ولجبنكم وعجزكم، بل يجب أن يقوى قلبكم فإن الاستعلاء سيحصل لكم والقوة والدولة راجعة إليكم.

ثم نقول قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أي: لا تضعفوا عن الجهاد، والوهن الضعف قال تعالى: حكاية عن زكريا عليه السلام ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤] وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي: على من قتل منكم أو جرح وقوله: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ فيه وجوه:

الأول: أن حالكم أعلى من حالهم في القتل لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد، وهو كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ١٦٥] أو لأن قتالكم لله وقتالهم للشيطان، أو لأن قتالهم للدين الباطل وقتالكم للدين الحق، وكل ذلك يوجب كونكم أعلى حالاً منهم.

الثاني: أن يكون المراد وأنتم الأعلون بالحجة والتمسك بالدين والعاقبة الحميدة.

الثالث: أن يكون المعنى وأنتم الأعلون من حيث إنكم في العاقبة تظفرون بهم وتستولون عليهم وهذا شديد المناسبة لما قبله، لأن القوم انكسرت قلوبهم بسبب ذلك الوهن فهم كانوا محتاجين الى ما يفيدهم قوة في القلب، وفرحًا في النفس، فبشرهم الله تعالى بذلك.

فأما قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ **ففيه وجوه:**

الأول: وأنتم الأعلون إن بقيتم على إيمانكم، والمقصود بيان أن الله تعالى إنما تكفل بإعلاء درجتهم لأجل تمسكهم بدين الاسلام.

الثاني: وأنتم الأعلون فكونوا مصدقين لهذه البشارة إن كنتم مصدقين بما يعدكم الله ويبشركم به من الغلبة.

والثالث: التقدير: ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، فإن الله تعالى وعد بنصرة هذا الدين، فإن كنتم من المؤمنين علمتم أن هذه الواقعة لا تبقى بحالها، وأن الدولة تصير للمسلمين والاستيلاء على العدو يحصل لهم.

قوله تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٤١ ﴾

واعلم أن هذا من تمام قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] فبين تعالى أن الذي يصيبهم من القرح لا يجب أن يزيل جدهم واجتهادهم في جهاد العدو، وذلك لأنه كما أصابهم ذلك فقد أصاب عدوهم مثله قبل ذلك، فإذا كانوا مع باطلهم، وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في الحرب، فبأن لا يلحقكم الفتور مع حسن العاقبة والتمسك بالحق أولى، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم (قُرْحٌ) بضم القاف وكذلك قوله: (مِن بَعْدِ مَا أصابهم القُرح) [آل عمران: ١٧٢] والباقون بفتح القاف فيهما واختلفوا على وجوه: فالأول: معناهما واحد، وهما لغتان: كالجُهد والجَهد، والوُجد والوَجد، والضُّعف والضَّعف. والثاني: أن الفتح لغة تهامة والحجاز والضم لغة نجد. والثالث: أنه بالفتح مصدر وبالضم اسم. والرابع: وهو قول الفرّاء أنه بالفتح الجراحة بعينها وبالضم ألم الجراحة. والخامس: قال ابن مقسم: هما لغتان إلا أن المفتوحة توهم أنها جمع قرحة.

المسألة الثانية: في الآية قولان: أحدهما: إن يمسسكم قرح يوم أحد فقد مسهم يوم بدر، وهو كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ١٦٥] والثاني: أن الكفار قد نالهم يوم أحد مثل ما نالكم من الجرح والقتل، لأنه قتل منهم نيف وعشرون رجلًا، وقتل صاحب لوائهم والجراحات كثرت فيهم وعقر عامة خيلهم بالنبل، وقد كانت الهزيمة عليهم في أول النهار.

فإن قيل كيف قال: ﴿ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ وما كان قرحهم يوم أحد مثل قرح المشركين؟

قلنا: يجب أن يفسر القرح في هذا التأويل بمجرد الانهزام لا بكثرة القتلى.

ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: (تلك) مبتدأ و(الأيام) صفة و﴿ نُدَاوِلُهَا﴾ خبره ويجوز أن يقال: تلك الأيام مبتدأ وخبر كما تقول: هي الأيام تبلي كل جديد، فقوله: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ﴾ إشارة إلى جميع أيام الوقائع العجيبة، فبين أنها دول تكون على الرجل حينًا وله حينًا والحرب سجال.

المسألة الثانية: قال القفال: المداولة نقل الشيء من واحد إلى آخر، يقال: تداولته الأيدي إذا تناقلته ومنه قوله تعالى: ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧] أي: تتداولونها ولا

تجعلون للفقراء منها نصيبًا، ويقال: الدنيا دول، أي: تنتقل من قوم الى آخرين، ثم عنهم إلى غيرهم، ويقال: دال له الدهر بكذا إذا انتقل إليه، والمعنى أن أيام الدنيا هي دول بين الناس لا يدوم مسارها ولا مضارها، فيوم يحصل فيه السرور له والغم لعدوه، ويوم آخر بالعكس من ذلك، ولا يبقى شيء من أحوالها ولا يستقر أثر من آثارها.

واعلم أنه ليس المراد من هذه المداولة أن الله تعالى تارة ينصر المؤمنين وأخرى ينصر الكافرين وذلك لأن نصرة الله منصب شريف وإعزاز عظيم، فلا يليق بالكافر، بل المراد من هذه المداولة أنه تارة يشدد المحنة على الكفار وأخرى على المؤمنين والفائدة فيه من وجوه: الأول: أنه تعالى لو شدد المحنة على الكفار في جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات لحصل العلم الاضطراري بأن الإيمان حق وما سواه باطل، ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب فلهذا المعنى تارة يسلط الله المحنة على أهل الإيمان، وأخرى على أهل الكفر لتكون الشبهات باقية والمكلف يدفعها بواسطة النظر في الدلائل الدالة على صحة الإسلام فيعظم ثوابه عند الله. والثاني: أن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصي، فيكون عند الله تشديد المحنة عليه في الدنيا أدبًا له وأما تشديد المحنة على الكافر فإنه يكون غضبًا من الله عليه. والثالث: وهو أن لذات الدنيا وآلامها غير باقية وأحوالها غير مستمرة، وإنما تحصل السعادات المستمرة في دار الآخرة، ولذلك فإنه تعالى يميت بعد الإحياء، ويسقم بعد الصحة، فاذا حسن ذلك فلم لا يحسن أن يبدل السراء بالضراء، والقدرة بالعجز، وروي أن أبا سفيان صعد الجبل يوم أحد ثم قال: أين ابن أبي كبشة أين ابن أبي قحافة أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسول الله ﷺ، وهذا أبو بكر، وها أنا عمر، فقال أبو سفيان: يوم بيوم والأيام دول والحرب سجال، فقال عمر رضي الله عنه لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، فقال: إن كان كما تزعمون، فقد خبنا إذن وخسرنا[(١)].

أما قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: اللام في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ متعلق بفعل مضمر، أما بعده أو قبله، أما الإضمار بعده فعلى تقدير: وليعلم الله الذين آمنوا فعلنا هذه المداولة، وأما الإضمار قبله فعلى تقدير ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ لأمور، منها ليعلم الله الذين آمنوا، ومنها ليتخذ منكم

(١) صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (١/ ٢٨٧)، حديث رقم (٢٦٠٩)، والبيهقي في (دلائل النبوة) (٣/ ٣٠٧)، حديث رقم (١١٣٨)، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (٣/ ٢١٦)، حديث رقم (٤٣٧٤)، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٣٢٤)، حديث رقم (٣١٦٣)، والطبراني في (الكبير) (١٠/ ٣٠١)، حديث رقم (١٠٧٥٣)، جميعًا من طريق سليمان بن داود الهاشمي حدثنا ابن أبي الزناد عن أبيه عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس. . . به.

شهداء، ومنها ليمحص الله الذين آمنوا، ومنها ليمحق الكافرين، فكل ذلك كالسبب والعلة في تلك المداولة.

المسألة الثانية: الواو في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ نظائره كثيرة في القرآن، قال تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] وقال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣] والتقدير: وتلك الأيام نداولها بين الناس ليكون كيت وكيت وليعلم الله، وإنما حذف المعطوف عليه للإيذان بأن المصلحة في هذه المداولة ليست بواحدة، ليسليهم عما جرى، وليعرفهم أن تلك الواقعة وأن شأنهم فيها، فيه من وجوه المصالح ما لو عرفوه لسرهم.

المسألة الثالثة: ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مشعر بأنه تعالى إنما فعل تلك المداولة ليكتسب هذا العلم، ومعلوم أن ذلك محال على الله تعالى، ونظير هذه الآية في الإشكال قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣] وقوله: ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢] وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] وقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧، الملك: ٢] وقد احتج هشام بن الحكم بظواهر هذه الآيات على أن الله تعالى لا يعلم حدوث الحوادث إلا عند وقوعها، فقال: كل هذه الآيات دالة على أنه تعالى إنما صار عالمًا بحدوث هذه الأشياء عند حدوثها.

أجاب المتكلمون عنه: بأن الدلائل العقلية دلت على أنه تعالى يعلم الحوادث قبل وقوعها، فثبت أن التغيير في العلم محال إلا أن اطلاق لفظ العلم على المعلوم والقدرة على المقدور مجاز مشهور، يقال: هذا علم فلان والمراد معلومه، وهذه قدرة فلان والمراد مقدوره، فكل آية يشعر ظاهرها بتجدد العلم، فالمراد تجدد المعلوم.

إذا عرفت هذا، فنقول: في هذه الآية وجوه: أحدها: ليظهر الإخلاص من النفاق والمؤمن من الكافر. والثاني: ليعلم أولياء الله، فأضاف الى نفسه تفخيمًا. وثالثها: ليحكم بالامتياز، فوضع العلم مكان الحكم بالامتياز، لأن الحكم بالامتياز لا يحصل إلا بعد العلم. ورابعها: ليعلم ذلك واقعًا منهم كما كان يعلم أنه سيقع، لأن المجازاة تقع على الواقع دون المعلوم الذي لم يوجد.

المسألة الرابعة: العلم قد يكون بحيث يكتفى فيه بمفعول واحد، كما يقال: علمت زيدًا، أي علمت ذاته وعرفته، وقد يفتقر إلى مفعولين، كما يقال: علمت زيدًا كريما، والمراد منه في هذه الآية هذا القسم الثاني، إلا أن المفعول الثاني محذوف، والتقدير: وليعلم الله الذين آمنوا متميزين بالإيمان من غيرهم، أي الحكمة في هذه المداولة أن يصير الذين آمنوا متميزين عمن يدعي الإيمان بسبب صبرهم وثباتهم على الإسلام، ويحتمل أن يكون العلم ههنا من القسم الأول، بمعنى معرفة الذات، والمعنى وليعلم الله الذين آمنوا لما يظهر من صبرهم على جهاد

عدوهم، أي ليعرفهم بأعيانهم إلا أن سبب حدوث هذا العلم، وهو ظهور الصبر حذف ههنا.

أما قوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ فالمراد منه ذكر الحكمة الثانية في تلك المداولة، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في هذه الآية قولان: الأول: يتخذ منكم شهداء على الناس بما صدر منهم من الذنوب والمعاصي، فإن كونهم شهداء على الناس منصب عال ودرجة عالية. والثاني: المراد منه وليكرم قومًا بالشهادة، وذلك لأن قومًا من المسلمين فاتهم يوم بدر، وكانوا يتمنون لقاء العدو وأن يكون لهم يوم كيوم بدر يقاتلون فيه العدو ويلتمسون فيه الشهادة، وأيضًا القرآن مملوء من تعظيم حال الشهداء قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[آل عمران: ١٦٩] وقال: ﴿وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾[الزمر: ٦٩] وقال: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[النساء: ٦٩] فكانت هذه المنزلة هي المنزلة الثالثة للنبوة، وإذا كان كذلك فكان من جملة الفوائد المطلوبة من تلك المداولة حصول هذا المنصب العظيم لبعض المؤمنين.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن جميع الحوادث بإرادة الله تعالى فقالوا: منصب الشهادة على ما ذكرتم، فإن كان يمكن تحصيلها بدون تسليط الكفار على المؤمنين لم يبق لحسن التعليل وجه، وإن كان لا يمكن فحينئذ يكون قتل الكفار للمؤمنين من لوازم تلك الشهادة، فاذا كان تحصيل تلك الشهادة للعبد مطلوبًا لله تعالى وجب أن يكون ذلك القتل مطلوبًا لله تعالى، وأيضًا فقوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ تنصيص على أن ما به حصلت تلك الشهادة هو من الله تعالى، وذلك يدل على أن فعل العبد خلق الله تعالى.

المسألة الثالثة: الشهداء جمع شهيد كالكرماء والظرفاء، والمقتول من المسلمين بسيف الكفار شهيدًا، وفي تعليل هذا الاسم وجوه: الأول: قال النضر بن شميل: الشهداء أحياء لقوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[آل عمران: ١٦٩] فأرواحهم حية وقد حضرت دار السلام، وأرواح غيرهم لا تشهدها، الثاني: قال ابن الأنباري: لأن الله تعالى وملائكته شهدوا له بالجنة، فالشهيد فعيل بمعنى مفعول، الثالث: سموا شهداء لأنهم يشهدون يوم القيامة مع الأنبياء والصديقين، كما قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[البقرة: ١٤٣] الرابع: سموا شهداء لأنهم كما قتلوا أدخلوا الجنة، بدليل أن الكفار كما ماتوا أدخلوا النار بدليل قوله: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾[نوح: ٢٥] فكذا ههنا يجب أن يقال: هؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله، كما ماتوا دخلوا الجنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي المشركين، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣] وهو اعتراض بين بعض التعليل وبعض، وفيه وجوه: الأول: والله لا يحب من لا يكون ثابتًا على الايمان صابرًا على الجهاد. الثاني: فيه

إشارة إلى أنه تعالى إنما يؤيد الكافرين على المؤمنين لما ذكر من الفوائد، لا لأنه يحبهم.

ثم قال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي ليطهرهم من ذنوبهم ويزيلها عنهم، والمحص: في اللغة التنقية، والمحق في اللغة النقصان، وقال المفضل: هو أن يذهب الشيء كله حتى لا يرى منه شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[البقرة: ٢٧٦] أي: يستأصله. قال الزجاج: معنى الآية أن الله تعالى جعل الأيام مداولة بين المسلمين والكافرين، فإن حصلت الغلبة للكافرين على المؤمنين كان المراد تمحيص ذنوب المؤمنين، وإن كانت الغلبة للمؤمنين على هؤلاء الكافرين كان المراد محق آثار الكافرين ومحوهم، فقابل تمحيص المؤمنين بمحق الكافرين، لأن تمحيص هؤلاء بإهلاك ذنوبهم نظير محق أولئك بإهلاك أنفسهم، وهذه مقابلة لطيفة في المعنى. والأقرب أن المراد بالكافرين ههنا طائفة مخصوصة منهم وهم الذين حاربوا الرسول ﷺ يوم أحد، وإنما قلنا ذلك لعلمنا بأنه تعالى لم يمحق كل الكفار، بل كثير منهم بقي على كفره، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى الوجوه التي هي الموجبات والمؤثرات في مداولة الأيام ذكر في هذه الآية ما هو السبب الأصلي لذلك، فقال ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ بدون تحمل المشاق.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أم: منقطعة، وتفسير كونها منقطعة تقدم في سورة البقرة. قال أبو مسلم: في ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾ إنه نهي وقع بحرف الاستفهام الذي يأتي للتبكيت، وتلخيصه: لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ولم يقع منكم الجهاد، وهو كقوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾[العنكبوت: ١، ٢] وافتتح الكلام بذكر (أم) التي هي أكثر ما تأتي في كلامهم واقعة بين ضربين يشك في أحدهما لا بعينه، يقولون: أزيدًا ضربت أم عمروًا، مع تيقن وقوع الضرب بأحدهما، قال: وعادة العرب يأتون بهذا الجنس من الاستفهام توكيدًا، فلما قال: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾[آل عمران: ١٣٩] كأنه قال: أفتعلمون أن ذلك كما تؤمرون به، أم تحسبون أن تدخلوا الجنة من غير مجاهدة وصبر، وإنما استبعد هذا لأن الله تعالى أوجب الجهاد قبل هذه الواقعة، وأوجب الصبر على تحمل متاعبها، وبين وجوه المصالح فيها في الدين وفي الدنيا، فلما كان كذلك، فمن البعيد أن يصل الانسان إلى السعادة والجنة مع إهمال هذه الطاعة.

المسألة الثانية: قال الزجاج: إذا قيل فعل فلان، فجوابه أنه لم يفعل، وإذا قيل قد فعل فلان، فجوابه لما يفعل. لأنه لما أكد في جانب الثبوت بقد، لا جرم أكد في جانب النفي بكلمة (لما).

المسألة الثالثة: ظاهر الآية يدل على وقوع النفي على العلم، والمراد وقوعه على نفي المعلوم، والتقدير: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يصدر الجهاد عنكم، وتقريره أن العلم متعلق بالمعلوم، كما هو عليه، فلما حصلت هذه المطابقة لا جرم. حسن إقامة كل واحد منهما مقام الآخر، وتمام الكلام فيه قد تقدم.

أما قوله: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ فاعلم أنه قرأ الحسن (ويعلمِ الصابرين) بالجزم عطفًا على ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ وأما النصب فبإضمار أن، وهذه الواو تسمى واو الصرف، كقولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، أي: لا تجمع بينهما، وكذا ههنا المراد أن دخول الجنة وترك المصابرة على الجهاد مما لا يجتمعان، وقرأ أبو عمرو (وَيَعْلَمُ) بالرفع على تقدير أن الواو للحال. كأنه قيل: ولما تجاهدوا وأنتم صابرون.

واعلم أن حاصل الكلام أن حب الدنيا لا يجتمع مع سعادة الآخرة، فبقدر ما يزداد أحدهما ينتقص الآخر، وذلك لأن سعادة الدنيا لا تحصل إلا باشتغال القلب بطلب الدنيا، والسعادة في الآخرة لا تحصل إلا بفراغ القلب من كل ما سوى الله وامتلائه من حب الله، وهذان الأمران مما لا يجتمعان، فلهذا السر وقع الاستبعاد الشديد في هذه الآية من اجتماعهما، وأيضًا حب الله وحب الآخرة لا يتم بالدعوى، فليس كل من أقر بدين الله كان صادقًا، ولكن الفصل فيه تسليط المكروهات والمحبوبات، فإن الحب هو الذي لا ينقص بالجفاء ولا يزداد بالوفاء، فإن بقي الحب عند تسليط أسباب البلاء ظهر أن ذلك الحب كان حقيقيًا، فلهذه الحكمة قال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ بمجرد تصديقكم الرسول قبل أن يبتليكم الله بالجهاد وتشديد المحنة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: لما نزل النبي ﷺ بأُحد أمر الرماة أن يلزموا أصل الجبل، وأن لا ينتقلوا عن ذلك سواء كان الأمر لهم أو عليهم، فلما وقفوا وحملوا على الكفار وهزموهم وقتل عليٌّ طلحةَ بن أبي طلحة صاحب لوائهم، والزبير والمقداد شدا على المشركين ثم حمل الرسول مع أصحابه فهزموا أبا سفيان، ثم إن بعض القوم لما أن رأوا

انهزام الكفار بادر قوم من الرماة إلى الغنيمة وكان خالد بن الوليد صاحب ميمنة الكفار، فلما رأى تفرق الرماة حمل على المسلمين فهزمهم وفرق جمعهم وكثر القتل في المسملين، ورمى عبد الله بن قميئة الحارثي رسول الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه، وأقبل يريد قتله، فذب عنه مصعب بن عمير وهو صاحب الراية يوم بدر ويوم أُحد حتى قتله ابن قميئة، فظن أنه قتل رسول الله ﷺ، فقال: قد قتلت محمدًا، وصرخ صارخ ألا إنَّ محمدًا قد قتل، وكان الصارخ الشيطان، ففشا في الناس خبر قتله، فهنالك قال بعض المسلمين: ليت عبد الله بن أبي يأخذ لنا أمانًا من أبي سفيان. وقال قوم من المنافقين: لو كان نبيًّا لما قُتل، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم، فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: يا قوم إن كان قد قتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟ قاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه، ثم قال: اللهم اني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، ثم سل سيفه فقاتل حتى قتل رحمه الله تعالى، ومر بعض المهاجرين بأنصاري يتشحط في دمه، فقال: يا فلان أشعرت أن محمدًا قد قتل، فقال: إن كان قد قتل فقد بلغ، قاتلوا على دينكم، ولما شج ذلك الكافر وجه الرسول ﷺ وكسر رباعيته، احتمله طلحة بن عبيد الله، ودافع عنه أبو بكر وعلي رضي الله عنهم ونفر آخرون معهم، ثم إن الرسول ﷺ جعل ينادي ويقول: إليَّ عباد الله حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هزيمتهم، فقالوا يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا، أتانا خبر قتلك فاستولى الرعب على قلوبنا فولينا مدبرين، ومعنى الآية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ فسيخلو كما خلوا، وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم، فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه، لأن الغرض من بعثة الرسل تبليغ الرسالة وإلزام الحجة، لا وجودهم بين أظهر قومهم أبدًا(١).

المسألة الثانية: قال أبو علي: الرسول جاء على ضربين: أحدهما: يراد به المرسل، والآخر الرسالة، وههنا المراد به المرسل بدليل قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ [المائدة: ٦٧] وفعول قد يراد به المفعول، كالركوب والحلوب لما يركب ويحلب والرسول بمعنى الرسالة كقوله:

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم ... بسر ولا أرسلتهم برسول(٢)

---

(١) **صحيح**: أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٣/ ٢٩)، حديث رقم (٤٣١٦)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، الضياء في (الأحاديث المختارة) (٣/ ٧٦)، حديث رقم (٨٨٢)، كلاهما من طريق يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد عن عبد الله بن الزبير عن الزبير... به مختصرًا.

(٢) هذا البيت لكثير عزة ضمن قصيدة من البحر الطويل وتقدم ترجمة كثير عزة والبيت هكذا:

لَقَد كَذِبَ الواشونَ ما بُحتُ عِندَهُم ... بِلَيلى وَلا أَرسَلتُهُم بِرَسيلِ

فَإِن جاءَكِ الواشونَ عَنّي بِكِذبَةٍ ... فَرَوها وَلَم يَأتوا لَها بِحَويلِ

أي برسالة، قال: ومن هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] ونذكره في موضعه إن شاء الله تعالى.

ثم قال: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: حرف الاستفهام دخل على الشرط وهو في الحقيقة داخل على الجزاء، والمعنى أتنقلبون على أعقابكم ان مات محمد أو قتل، ونظيره قوله: هل زيد قائم، فأنت إنما تستخبر عن قيامه، إلا أنك أدخلت هل على الاسم والله أعلم.

المسألة الثانية: أنه تعالى بين في آيات كثيرة أنه عليه السلام لا يقتل قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] وقال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٩] فليس لقائل أن يقول: لما علم أنه لا يقتل فلم قال ﴿أَوْ قُتِلَ﴾؟ فإن الجواب عنه من وجوه: الأول: أن صدق القضية الشرطية لا يقتضي صدق جزأيها، فإنك تقول: إن كانت الخمسة زوجًا كانت منقسمة بمتساويين، فالشرطية صادقة وجزآها كاذبان، وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢] فهذا حق مع أنه ليس فيهما آلهة، وليس فيهما فساد، فكذا ههنا. والثاني: ان هذا ورد على سبيل الإلزام، فإن موسى عليه السلام مات ولم ترجع أمته عن ذلك، والنصارى زعموا أن عيسى عليه السلام قتل وهم لا يرجعون عن دينه، فكذا ههنا، والثالث: ان الموت لا يوجب رجوع الأمة عن دينه، فكذا القتل وجب أن لا يوجب الرجوع عن دينه، لأنه فارق بين الأمرين، فلما رجع الى هذا المعنى كان المقصود منه الرد على أولئك الذين شكوا في صحة الدين وهموا بالارتداد.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾ أي: صرتم كفارًا بعد إيمانكم، يقال لكل من عاد إلى ما كان عليه رجع وراءه وانقلب على عقبه ونكص على عقبيه، وذلك أن المنافقين قالوا لضعفة المسلمين: إن كان محمد قتل فالحقوا بدينكم، فقال بعض الأنصار: إن كان محمد قتل فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد. وحاصل الكلام أنه تعالى بين أن قتله لا يوجب ضعفًا في دينه بدليلين: الأول: بالقياس على موت سائر الأنبياء وقتلهم، والثاني: أن الحاجة إلى الرسول لتبليغ الدين وبعد ذلك فلا حاجة إليه، فلم يلزم من قتله فساد الدين، والله أعلم.

المسألة الرابعة: ليس لقائل أن يقول: إن قوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ شك وهو على الله تعالى لا يجوز، فإنا نقول: المراد أنه سواء وقع هذا أو ذاك فلا تأثير له في ضعف الدين ووجوب الارتداد.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾ والغرض منه تأكيد الوعيد، لأن كل عاقل يعلم أن الله تعالى لا يضره كفر الكافرين، بل المراد أنه لا يضر إلا نفسه، وهذا كما إذا

قال الرجل لولده عند العتاب: إن هذا الذي تأتي به من الأفعال لا يضر السماء والأرض، ويريد به أنه يعود ضرره عليه فكذا ههنا، ثم أتبع الوعيد بالوعد فقال: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ فالمراد أنه لما وقعت الشبهة في قلوب بعضهم بسبب تلك الهزيمة ولم تقع الشبهة في قلوب العلماء الأقوياء من المؤمنين، فهم شكروا الله على ثباتهم على الإيمان وشدة تمسكهم به، فلا جرم مدحهم الله تعالى بقوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ وروى محمد بن جرير الطبري عن علي رضي الله عنه أنه قال: المراد بقوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أبو بكر وأصحابه، وروي عنه أنه قال أبو بكر من الشاكرين وهو من أحباء الله، والله أعلم بالصواب.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في كيفية تعلق هذه الآية بما قبلها وجوه: الأول: أن المنافقين أرجفوا أن محمدًا ﷺ قد قتل، فالله تعالى يقول: إنه لا تموت نفس إلا بإذن الله وقضائه وقدره، فكان قتله مثل موته في أنه لا يحصل إلا في الوقت المقدر المعين، فكما أنه لو مات في داره لم يدل ذلك على فساد دينه، فكذا إذا قتل وجب أن لا يؤثر ذلك في فساد دينه، والمقصود منه إبطال قول المنافقين لضعفة المسلمين أنه لما قتل محمد فارجعوا إلى ما كنتم عليه من الأديان. الثاني: أن يكون المراد تحريض المسلمين على الجهاد بإعلامهم أن الحذر لا يدفع القدر، وأن أحدًا لا يموت قبل الأجل وإذا جاء الأجل لا يندفع الموت بشيء، فلا فائدة في الجبن والخوف. والثالث: أن يكون المراد حفظ الله للرسول ﷺ وتخليصه من تلك المعركة المخوفة، فإن تلك الواقعة ما بقي سبب من أسباب الهلاك إلا وقد حصل فيها، ولكن لما كان الله تعالى حافظًا وناصرًا ما ضره شيء من ذلك وفيه تنبيه على أن أصحابه قصروا في الذب عنه. والرابع: وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله، فليس في إرجاف من أرجف بموت النبي ﷺ ما يحقق ذلك فيه أو يعين في تقوية الكفر، بل يبقيه الله إلى أن يظهر على الدين كله. الخامس: أن المقصود منه الجواب عما قاله المنافقون، فإن الصحابة لما رجعوا وقد قتل منهم من قتل قالوا: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، فأخبر الله تعالى أن الموت والقتل كلاهما لا يكونان إلا بإذن الله وحضور الأجل والله أعلم بالصواب.

المسألة الثانية: اختلفوا في تفسير الإذن على أقوال: الأول: أن يكون الإذن هو الأمر وهو قول أبي مسلم، والمعنى أن الله تعالى يأمر ملك الموت بقبض الأرواح فلا يموت أحد إلا بهذا

الأمر. الثاني: أن المراد من هذا الإذن ما هو المراد بقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] والمراد من هذا الأمر إنما هو التكوين والتخليق والإيجاد، لأنه لا يقدر على الموت والحياة أحد إلا الله تعالى، فإذن المراد: أن نفسًا لن تموت إلا بما أماتها الله تعالى. الثالث: أن يكون الإذن هو التخلية والإطلاق وترك المنع بالقهر والإجبار، وبه فسر قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي بتخليته فإنه تعالى قادر على المنع من ذلك بالقهر، فيكون المعنى: ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله بتخلي الله بين القاتل والمقتول، ولكنه تعالى يحفظ نبيه ويجعل من بين يديه ومن خلفه رصدًا ليتم على يديه بلاغ ما أرسله به، ولا يخلي بين أحد وبين قتله حتى ينتهي إلى الأجل الذي كتبه الله له، فلا تنكسروا بعد ذلك في غزواتكم بأن يرجف مرجف أن محمدًا قد قتل.

الرابع: أن يكون الإذن بمعنى العلم ومعناه أن نفسًا لن تموت إلا في الوقت الذي علم الله موتها فيه، وإذا جاء ذلك الوقت لزم الموت، كما قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]. الخامس: قال ابن عباس: الإذن هو قضاء الله وقدره، فإنه لا يحدث شيء إلا بمشيئته وإرادته فيجعل ذلك على سبيل التمثيل، كأنه فعل لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا بإذن الله.

المسألة الثالثة: قال الأخفش والزجاج: اللام في ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ معناها النفي، والتقدير وما كانت نفس لتموت الا بإذن الله.

المسألة الرابعة: دلت الآية على أن المقتول ميت بأجله، وأن تغيير الآجال ممتنع.

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾.

فيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ منصوب بفعل دل عليه ما قبله فإن قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قام مقام أن يقال: كتب الله، فالتقدير كتب الله كتابًا مؤجلاً ونظيره قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] لأن في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] دلالة على أنه كتب هذا التحريم عليكم ومثله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٨٨] و﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٠] و﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، و﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨].

المسألة الثانية: المراد بالكتاب المؤجل الكتاب المشتمل على الآجال، ويقال: إنه هو اللوح المحفوظ، كما ورد في الأحاديث أنه تعالى قال للقلم: «اكْتُبْ فَكَتَبَ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

واعلم أن جميع الحوادث لا بد أن تكون معلومة لله تعالى، وجميع حوادث هذا العالم من الخلق والرزق والأجل والسعادة والشقاوة لا بد وأن تكون مكتوبة في اللوح المحفوظ، فلو وقعت بخلاف علم الله لانقلب علمه جهلاً، ولانقلب ذلك الكتاب كذبًا، وكل ذلك محال، وإذا كان الأمر كذلك ثبت أن الكل بقضاء الله وقدره. وقد ذكر بعض العلماء هذا المعنى في

تفسير هذه الآية وأكده بحديث الصادق المصدوق، وبالحديث المشهور من قوله عليه السلام: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»(١) قال القاضي: أما الأجل والرزق فهما مضافان إلى الله، وأما الكفر والفسق والإيمان والطاعة فكل ذلك مضاف الى العبد، فإذا كتب تعالى ذلك فإنما يكتب بعلمه من اختيار العبد، وذلك لا يخرج العبد من أن يكون هو المذموم أو الممدوح.

واعلم أنه ما كان من حق القاضي أن يتغافل عن موضع الإشكال، وذلك لأنا نقول: إذا علم الله من العبد الكفر وكتب في اللوح المحفوظ منه الكفر، فلو أتى بالإيمان لكان ذلك جمعًا بين المتناقضين، لأن العلم بالكفر والخبر الصدق عن الكفر مع عدم الكفر جمع بين النقيضين وهو محال، وإذا كان موضع الإلزام هو هذا فأنى ينفعه الفرار من ذلك الى الكلمات الأجنبية عن هذا الإلزام.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

فاعلم أن الذين حضروا يوم أحد كانوا فريقين، منهم من يريد الدنيا، ومنهم من يريد الآخرة كما ذكره الله تعالى فيما بعد من هذه السورة، فالذين حضروا القتال للدنيا، هم الذين حضروا لطلب الغنائم والذكر والثناء، وهؤلاء لا بد وأن ينهزموا، والذين حضروا للدين، فلا بد وأن لا ينهزموا ثم أخبر الله تعالى في هذه الآية أن من طلب الدنيا لا بد وأن يصل إلى بعض مقصوده ومن طلب الآخرة فكذلك، وتقريره قوله عليه السلام: «**إِنَّما الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**» الى آخر الحديث.

واعلم أن هذه الآية وإن وردت في الجهاد خاصة، لكنها عامة في جميع الأعمال، وذلك لأن المؤثر في جلب الثواب، والعقاب المقصود والدواعي لا ظواهر الأعمال، فإن من وضع الجبهة على الأرض في صلاة الظهر والشمس قدامه، فإن قصد بذلك السجود عبادة الله تعالى كان ذلك من أعظم دعائم الإسلام، وإن قصد به عبادة الشمس كان ذلك من أعظم دعائم الكفر. وروى أبو هريرة عنه عليه السلام أن الله تعالى يقول يوم القيامة لمقاتل في سبيل الله: «**فِي مَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ فَيَقُولُ تَعَالَى: كَذَبْتَ؛ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلَانٌ محارب وقد قيل ذلك**»(٢) ثم إن الله تعالى يأمر به الى النار.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (القدر)، باب: (تحاج آدم وموسى) (١١/ ٥١٣)، حديث رقم (٦٦١٤)، ومسلم في كتاب (القدر)، باب: (حجاج آدم وموسى عليهما السلام) (٤/ ١٣/ ٢٠٤٢)، كلاهما من طريق سفيان بن عيينة... به.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٥٩١)، حديث رقم (٢٣٨٢)، والبخاري في (خلق أفعال العباد) (١/ ٧٩)، حديث رقم (٤٢)، وابن خزيمة في (صحيحه) (٤/ ١١٥)، حديث رقم (٢٤٨٢)، وابن حبان في (صحيحه) (٢/ ١٣٥)، حديث رقم (٤٠٧)، وابن المبارك في (الزهد) (١/ ١٥٩)، حديث رقم (٤٦٩)، جميعًا من طريق عقبة بن مسلم حدثه أن شقيًّا الأصبحي عن أبي هريرة... به.

قوله عز وجل: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

واعلم أنه تعالى من تمام تأديبه قال للمنهزمين يوم أُحد: إن لكم بالأنبياء المتقدمين وأتباعهم أسوة حسنة، فلما كانت طريقة أتباع الأنبياء المتقدمين الصبر على الجهاد وترك الفرار، فكيف يليق بكم هذا الفرار والانهزام.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير (وكائن) على وزن كاعن ممدودًا مهموزًا مخففًا، وقرأ الباقون (كأين) مشدودًا بوزن كعين وهي لغة قريش، ومن اللغة الأولى قول جرير [1]:

وَكَـائِـن بِـالأَبَـاطِـحِ مِـن صَـديـقٍ يَـراني لَـو أُصِبـتُ هُـوَ الـمُـصابـا

وأنشد المفضل:

وَكائِن تَرى في الحَيِّ مِن ذي قَرابَةٍ

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو (قتل معه) والباقون ﴿ قَٰتَلَ مَعَهُۥ ﴾ فعلى القراءة الأولى يكون المعنى أن كثيرًا من الأنبياء قتلوا والذين بقوا بعدهم ما وهنوا في دينهم، بل استمروا على جهاد عدوهم ونصرة دينهم، فكان ينبغي أن يكون حالكم يا أمة محمد هكذا. قال القفال رحمه الله: والوقف على هذا التأويل على قوله: (قتل) وقوله: ﴿ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ ﴾ حال بمعنى قتل حال ما كان معه ربيون، أو يكون على معنى التقديم والتأخير، أي وكأين من نبي معه ربيون كثير قتل فما وهن الربيون على كثرتهم، وفيه وجه آخر، وهو أن يكون المعنى وكأين من نبي قتل ممن كان معه وعلى دينه ربيون كثير فما ضعف الباقون ولا استكانوا لقتل من قتل من إخوانهم، بل مضوا على جهاد عدوهم، فقد كان ينبغي أن يكون حالكم كذلك، وحجة هذه القراءة أن المقصود من هذه الآية حكاية ما جرى لسائر الأنبياء لتقتدي هذه الأمة بهم، وقد قال تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾ [آل عمران: ١٤٤]فيجب أن يكون المذكور قتل سائر الأنبياء لا قتالهم، ومن قرأ ﴿ قَٰتَلَ مَعَهُۥ ﴾ فالمعنى: وكم من نبي قاتل معه العدد الكثير من أصحابه فأصابهم من عدوهم قرح فما وهنوا، لأن الذي أصابهم إنما هو في سبيل الله وطاعته وإقامة دينه ونصرة رسوله، فكذلك كان ينبغي أن تفعلوا مثل ذلك يا أمة محمد. وحجة هذه القراءة أن المراد من هذه الآية ترغيب الذين كانوا مع النبي ﷺفي القتال، فوجب أن يكون المذكور هو القتال. وأيضًا روي عن سعيد بن جبير أنه قال: ما سمعنا بنبي قُتل في القتال.

المسألة الثالثة: قال الواحدي رحمه الله: أجمعوا على أن معنى (كأين) كم، وتأويلها التكثير

(١)جرير تقدم ترجمته.

لعدد الأنبياء الذين هذه صفتهم، ونظيره قوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الحج: ٤٥] ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ [الحج: ٤٨]والكاف في (كأين) كاف التشبيه دخلت على (أي) التي هي للاستفهام كما دخلت على (ذا) من (كذا) و(أن) من كأن، ولا معنى للتشبيه فيه كما لا معنى للتشبيه في كذا، تقول: لي عليه كذا وكذا: معناه لي عليه عدد ما، فلا معنى للتشبيه، الا أنها زيادة لازمة لا يجوز حذفها، واعلم أنه لم يقع للتنوين صورة في الخط إلا في هذا الحرف خاصة، وكذا استعمال هذه الكلمة فصارت كلمة واحدة موضوعة للتكثير.

المسألة الرابعة: قال صاحب (الكشاف): الربيون الربانيون، وقرئ بالحركات الثلاث والفتح على القياس، والضم والكسر من تغييرات النسب. وحكى الواحدي عن الفراء أنه قال: الربيون: الأولون، وقال الزجاج: هم الجماعات الكثيرة، الواحد ربي، قال ابن قتيبة: أصله من الربة وهي الجماعة، يقال: ربي كأنه نسب إلى الربة. وقال الأخفش: الربيون الذين يعبدون الرب، وطعن فيه ثعلب، وقال: كان يجب أن يقال: رَبي ليكون منسوبًا إلى الرب، وأجاب من نصر الأخفش وقال: العرب إذا نسبت شيئًا الى شيء غيرت حركته، كما يقال: بصري في النسب الى البصرة، ودهري في النسبة الى الدهر، وقال ابن زيد: الربانيون الأئمة والولاة، والربيون الرعية، وهم المنتسبون الى الرب.

واعلم أنه تعالى مدح هؤلاء الربيين بنوعين: أولاً بصفات النفي، وثانيًا بصفات الإثبات، أما المدح بصفات النفي فهو قوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ ولا بد من الفرق بين هذه الأمور الثلاثة، قال صاحب (الكشاف): ما وهنوا عند قتل النبي وما ضعفوا عن الجهاد بعده وما استكانوا للعدو، وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار، عند الإرجاف بقتل رسولهم، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين، واستكانتهم للكفار حتى أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أُبَيّ، وطلب الأمان من أبي سفيان، ويحتمل أيضًا أن يفسر الوهن باستيلاء الخوف عليهم، ويفسر الضعف بأن يضعف إيمانهم، وتقع الشكوك والشبهات في قلوبهم، والاستكانة هي الانتقال من دينهم إلى دين عدوهم، وفيه وجه ثالث وهو أن الوهن ضعف يلحق القلب. والضعف المطلق هو اختلال القوة والقدرة بالجسم، والاستكانة هي إظهار ذلك العجز وذلك الضعف، وكل هذه الوجوه حسنة محتملة، قال الواحدي: الاستكانة الخضوع، وهو أن يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريد.

ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ والمعنى: أن من صبر على تحمل الشدائد في طريق الله ولم يظهر الجزع والعجز والهلع فإن الله يحبه، ومحبة الله تعالى للعبد عبارة عن إرادة إكرامه واعزازه وتعظيمه، والحكم له بالثواب والجنة، وذلك نهاية المطلوب.

ثم إنه تعالى أتبع ذلك بأن مدحهم بصفات الثبوت فقال:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ يدل على أن فعل العبد خلق الله تعالى، والمعتزلة يحملونه على فعل الألطاف.

المسألة الثانية: بين تعالى أنهم كانوا مستعدين عند ذلك التصبر والتجلد بالدعاء والتضرع بطلب الأمداد والإعانة من الله، والغرض منه أن يقتدي بهم في هذه الطريقة أمة محمد ﷺ، فإن من عول في تحصيل مهماته على نفسه ذل، ومن اعتصم بالله فاز بالمطلوب، قال القاضي: إنما قدموا قولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ لأنه تعالى لما ضمن النصرة للمؤمنين، فإذا لم تحصل النصرة وظهر أمارات استيلاء العدو، دل ذلك ظاهرًا على صدور ذنب وتقصير من المؤمنين؛ فلهذا المعنى يجب عليهم تقديم التوبة والاستغفار على طلب النصرة، فبين تعالى أنهم بدأوا بالتوبة عن كل المعاصي وهو المراد بقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ فدخل فيه كل الذنوب، سواء كانت من الصغائر أو من الكبائر، ثم إنهم خصوا الذنوب العظيمة الكبيرة منها بالذكر بعد ذلك لعظمها وعظم عقابها وهو المراد من قوله: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ لأن الإسراف في كل شيء هو الإفراط فيه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] وقال: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣] وقال: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١] ويقال: فلان مسرف إذا كان مكثرًا في النفقة وغيرها، ثم إنهم لما فرغوا من ذلك سألوا ربهم أن يثبت أقدامهم، وذلك بإزالة الخوف عن قلوبهم، وإزالة الخواطر الفاسدة عن صدورهم، ثم سألوا بعد ذلك أن ينصرهم على القوم الكافرين، لأن هذه النصرة لا بد فيها من أمور زائدة على ثبات أقدامهم، وهو كالرعب الذي يلقيه في قلوبهم، وإحداث أحوال سماوية أو أرضية توجب انهزامهم، مثل هبوب رياح تثير الغبار في وجوههم، ومثل جريان سيل في موضع وقوفهم، ثم قال القاضي: وهذا تأديب من الله تعالى في كيفية الطلب بالأدعية عند النوائب والمحن سواء كان في الجهاد أو غيره.

ثم قال تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما شرح طريقة الربيين في الصبر، وطريقتهم في الدعاء ذكر أيضًا ما ضمن لهم في مقابلة ذلك في الدنيا والآخرة فقال: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ يقتضي أنه تعالى أعطاهم الأمرين، أما ثواب الدنيا فهو النصرة والغنيمة وقهر العدو والثناء الجميل، وانشراح الصدر بنور الإيمان وزوال ظلمات الشبهات وكفارة المعاصي والسيئات، وأما ثواب الآخرة فلا شك أنه هو الجنة وما فيها من المنافع واللذات وأنواع السرور والتعظيم، وذلك غير حاصل في الحال، فيكون المراد أنه تعالى حكم لهم بحصولها في الآخرة، فأقام حكم الله بذلك مقام نفس الحصول، كما أن الكذب في وعد الله والظلم في عدله محال، أو يحمل قوله: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ﴾ على أنه سيؤتيهم على قياس قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] أي سيأتي أمر الله. قال القاضي: ولا يمتنع أن تكون هذه الآية مختصة بالشهداء، وقد أخبر الله تعالى عن بعضهم أنهم أحياء عند ربهم يرزقون، فيكون حال هؤلاء الربيين أيضًا كذلك، فإنه تعالى في حال إنزال هذه الآية كان قد آتاهم حسن ثواب الآخرة في جنان السماء.

المسألة الثانية: خص تعالى ثواب الآخرة بالحسن تنبيهًا على جلالة ثوابهم، وذلك لأن ثواب الآخرة كله في غاية الحسن، فما خصه الله بأنه حسن من هذا الجنس فانظر كيف يكون حسنه، ولم يصف ثواب الدنيا بذلك لقلتها وامتزاجها بالمضار وكونها، منقطعة زائلة، قال القفال رحمه الله: يحتمل أن يكون الحسن هو الحسن كقوله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] أي حسنًا، والغرض منه المبالغة كأن تلك الأشياء الحسنة لكونها عظيمة في الحسن صارت نفس الحسن، كما يقال: فلان جود وكرم، إذا كان في غاية الجود والكرم، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قال فيما تقدم: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٤٥] فذكر لفظة (من) الدالة على التبعيض فقال في الآية: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ولم يذكر كلمة (من) والفرق: أن الذين يريدون ثواب الآخرة إنما اشتغلوا بالعبودية لطلب الثواب، فكانت مرتبتهم في العبودية نازلة، وأما المذكورون في هذه الآية فإنهم لم يذكروا في أنفسهم إلا الذنب والقصور، وهو المراد من قوله: ﴿ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧] ولم يروا التدبير والنصرة والإعانة إلا من ربهم، وهو المراد بقوله: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧] فكان مقام هؤلاء في العبودية في غاية الكمال، فلا جرم أولئك فازوا ببعض الثواب، وهؤلاء فازوا بالكل، وأيضًا أولئك أرادوا الثواب، وهؤلاء ما أرادوا الثواب. وإنما أرادوا خدمة مولاهم فلا جرم أولئك حرموا وهؤلاء أعطوا، ليعلم أن كل من أقبل على خدمة الله أقبل على خدمته كل ما سوى الله.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وفيه دقيقة لطيفة وهي أن هؤلاء اعترفوا بكونهم مسيئين حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ فلما اعترفوا بذلك سماهم الله محسنين، كأن الله تعالى يقول لهم: إذا اعترفت بإساءتك وعجزك فأنا أصفك بالإحسان وأجعلك حبيبًا لنفسي،

حتى تعلم أنه لا سبيل للعبد إلى الوصول إلى حضرة الله إلا بإظهار الذلة والمسكنة والعجز. وأيضًا: أنهم لما أرادوا الإقدام على الجهاد طلبوا تثبيت أقدامهم في دينه ونصرتهم على العدو من الله تعالى، فعند ذلك سماهم بالمحسنين، وهذا يدل على أن العبد لا يمكنه الإتيان بالفعل الحسن، إلا إذا أعطاه الله ذلك الفعل الحسن وأعانه عليه، ثم إنه تعالى قال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] وقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وكل ذلك يدل على أنه سبحانه هو الذي يعطي الفعل الحسن للعبد، ثم أنه يثيبه عليه ليعلم العبد أن الكل من الله وبإعانة الله.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

واعلم أن هذه الآية من تمام الكلام الأول، وذلك لأن الكفار لما أرجفوا أن النبي ﷺ قد قُتل، ودعا المنافقون بعض ضعفة المسلمين إلى الكفر، منع الله المسلمين بهذه الآية عن الالتفات إلى كلام أولئك المنافقين. فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قيل: ﴿إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ المراد أبو سفيان، فإنه كان كبير القوم في ذلك اليوم، قال السدي: المراد أبو سفيان لأنه كان شجرة الفتن، وقال آخرون: المراد عبد الله بن أُبي وأتباعه من المنافقين، وهم الذين ألقوا الشبهات في قلوب الضعفة وقالوا لو كان محمد رسول الله ما وقعت له هذه الواقعة، وإنما هو رجل كسائر الناس، يومًا له ويومًا عليه، فارجعوا إلى دينكم الذي كنتم فيه، وقال آخرون: المراد اليهود لأنه كان بالمدينة قوم من اليهود، وكانوا يلقون الشبهة في قلوب المسلمين، ولا سيما عند وقوع هذه الواقعة، والأقرب أنه يتناول كل الكفار، لأن اللفظ عام وخصوص السبب لا يمنع من عموم اللفظ.

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لا يمكن حمله على طاعتهم في كل ما يقولونه بل لا بد من التخصيص فقيل: ان تطيعوهم فيما أمروكم به يوم أُحد من ترك الإسلام، وقيل: إن تطيعوهم في كل ما يأمرونكم من الضلال، وقيل في المشورة، وقيل في ترك المحاربة وهو قولهم: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٦].

ثم قال: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ يعني يردوكم إلى الكفر بعد الإيمان، لأن قبول قولهم في الدعوة إلى الكفر كفر.

ثم قال: ﴿ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ .

واعلم أن اللفظ لما كان عامًّا وجب أن يدخل فيه خسران الدنيا والآخرة، أما خسران الدنيا فلأن أشق الأشياء على العقلاء في الدنيا الانقياد للعدو والتذلل له وإظهار الحاجة اليه، وأما خسران الآخرة فالحرمان عن الثواب المؤبد والوقوع في العقاب المخلد.

ثم قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ والمعنى: أنكم إنما تطيعون الكفار لينصروكم ويعينوكم على مطالبكم وهذا جهل، لأنهم عاجزون متحيرون، والعاقل يطلب النصرة من الله تعالى، لأنه هو الذي ينصركم على العدو ويدفع عنكم كيده، ثم بين أنه خير الناصرين، ولو لم يكن المراد بقوله: ﴿ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ النصرة، لم يصح أن يتبعه بهذا القول، وإنما كان تعالى خير الناصرين لوجوه: الأول: أنه تعالى هو القادر على نصرتك في كل ما تريد، والعالم الذي لا يخفى عليه دعاؤك وتضرعك، والكريم الذي لا يبخل في جوده، ونصرة العبيد بعضهم لبعض بخلاف ذلك في كل هذه الوجوه، والثاني: أنه ينصرك في الدنيا والآخرة، وغيره ليس كذلك، والثالث: أنه ينصرك قبل سؤالك ومعرفتك بالحاجة، كما قال: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الأنبياء: ٤٢] وغيره ليس كذلك.

واعلم أن قوله: ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ ظاهره يقتضي أن يكون من جنس سائر الناصرين وهو منزه عن ذلك، لكنه ورد الكلام على حسب تعارفهم كقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ [الروم: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾

اعلم أن هذه الآية من تمام ما تقدم ذكره، فإنه تعالى ذكر وجوهًا كثيرة في الترغيب في الجهاد وعدم المبالاة بالكفار، ومن جملتها ما ذكر في هذه الآية أنه تعالى يلقي الخوف في قلوب الكفار، ولا شك أن ذلك مما يوجب استيلاء المسلمين عليهم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أن هذا الوعد هل هو مختص بيوم أحد، أو هو عام في جميع الأوقات؟ قال كثير من المفسرين: إنه مختص بهذا اليوم، وذلك لأن جميع الآيات المتقدمة إنما وردت في هذه الواقعة، ثم القائلون بهذا القول ذكروا في كيفية إلقاء الرعب في قلوب المشركين في هذا اليوم وجهين: الأول: أن الكفار لما استولوا على المسلمين وهزموهم أوقع الله الرعب في قلوبهم، فتركوهم وفروا منهم من غير سبب، حتى روي أن أبا سفيان صعد الجبل، وقال: أين ابن أبي كبشة، وأين ابن أبي قحافة، وأين ابن الخطاب، فأجابه عمر، ودارت بينهما كلمات، وما تجاسر أبو سفيان على النزول من الجبل والذهاب إليهم، والثاني: أن الكفار لما ذهبوا إلى مكة، فلما كانوا في بعض الطريق قالوا: ما صنعنا شيئًا، قتلنا الأكثرين منهم، ثم

تركناهم ونحن قاهرون، ارجعوا حتى نستأصلهم بالكلية، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم.

والقول الثاني: أن هذا الوعد غير مختص بيوم أُحد، بل هو عام. قال القفال رحمه الله: كأنه قيل إنه وإن وقعت لكم هذه الواقعة في يوم أُحد إلا أن الله تعالى سيلقي الرعب منكم بعد ذلك في قلوب الكافرين حتى يقهر الكفار، ويظهر دينكم على سائر الأديان. وقد فعل الله ذلك حتى صار دين الإسلام قاهرًا لجميع الأديان والملل، ونظير هذه الآية قوله عليه السلام: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**».

المسألة الثانية: قرأ ابن عامر والكسائي (الرعُب) بضم العين، والباقون بتخفيفها في كل القرآن، قال الواحدي: هما لغتان، يقال: رعبته رُعبًا ورعبًا وهو مرعوب، ويجوز أن يكون الرعب مصدرًا، والرعب اسم منه.

المسألة الثالثة: الرعب: الخوف الذي يحصل في القلب، وأصل الرعب الملء، يقال سيل راعب إذا ملأ الأودية والأنهار، وإنما سمي الفزع رعبًا لأنه يملأ القلب خوفًا.

المسألة الرابعة: ظاهر قوله: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ يقتضي وقوع الرعب في جميع الكفار، فذهب بعض العلماء إلى إجراء هذا العموم على ظاهره، لأنه لا أحد يخالف دين الإسلام إلا وفي قلبه ضرب من الرعب من المسلمين، إما في الحرب، وإما عند المحاجة.

وقوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ لا يقتضي وقوع جميع أنواع الرعب في قلوب الكفار، إنما يقتضي وقوع هذه الحقيقة في قلوبهم من بعض الوجوه، وذهب جمع من المفسرين إلى أنه مخصوص بأولئك الكفار.

أما قوله: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ فاعلم أن (ما) مصدرية، والمعنى: بسبب إشراكهم بالله. واعلم أن تقدير هذا بالوجه المعقول هو أن الدعاء إنما يصير في محل الإجابة عند الاضطرار كما قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النحل: ٦٢] ومن اعتقد أن لله شريكًا لم يحصل له الاضطرار، لأنه يقول: إن كان هذا المعبود لا ينصرني، فذاك الآخر ينصرني، وإن لم يحصل في قلبه الاضطرار لم تحصل الإجابة ولا النصرة، وإذا لم يحصل ذلك وجب أن يحصل الرعب والخوف في قلبه، فثبت أن الإشراك بالله يوجب الرعب.

أما قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: السلطان ههنا هو الحجة والبرهان، وفي اشتقاقه وجوه: الأول: قال الزجاج: إنه من السليط وهو الذي يضاء به السراج، وقيل للأمراء سلاطين لأنهم الذين بهم يتوصل الناس إلى تحصيل الحقوق. الثاني: أن السلطان في اللغة هو الحجة، وإنما قيل للأمير سلطان، لأن معناه أنه ذو الحجة. الثالث: قال الليث: السلطان القدرة، لأن أصل بنائه من

التسليط وعلى هذا سلطان الملك: قوته وقدرته، ويسمى البرهان سلطانًا لقوته على دفع الباطل. الرابع: قال ابن دريد: سلطان كل شيء حدته، وهو مأخوذ من اللسان السليط، والسلاطة بمعنى الحدة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ يوهم أن فيه سلطانًا إلا أن الله تعالى ما أنزله وما أظهره، إلا أن الجواب عنه أنه لو كان لأنزل الله به سلطانًا، فلما لم ينزل به سلطانًا وجب عدمه، وحاصل الكلام فيه ما يقوله المتكلمون: أن هذا مما لا دليل عليه فلم يجز إثباته، ومنهم من يبالغ فيقول: لا دليل عليه فيجب نفيه، ومنهم من احتج بهذا الحرف على وحدانية الصانع، فقال: لا سبيل إلى إثبات الصانع إلا باحتياج المحدثات اليه، ويكفي في دفع هذه الحاجة إثبات الصانع الواحد، فما زاد عليه لا سبيل إلى إثباته فلم يجز إثباته.

المسألة الثالثة: هذه الآية دالة على فساد التقليد، وذلك لأن الآية دالة على أن الشرك لا دليل عليه، فوجب أن يكون القول به باطلاً، وهذا إنما يصح إذا كان القول بإثبات ما لا دليل على ثبوته يكون باطلا، فيلزم فساد القول بالتقليد.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

واعلم أنه تعالى بيّن أن أحوال هؤلاء المشركين في الدنيا هو وقوع الخوف في قلوبهم، وبيّن أحوالهم في الآخرة، وهي أن مأواهم ومسكنهم النار.

ثم قال: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ المثوى: المكان الذي يكون مقر الانسان ومأواه، من قولهم: ثوى يثوي ثويًا، وجمع المثوى مثاوي.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

اعلم أن اتصال هذه الآية بما قبلها من وجوه: الأول: أنه لما رجع رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة وقد أصابهم ما أصابهم بأحد، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر! فأنزل الله تعالى هذه الآية. الثاني: قال بعضهم: كان النبي ﷺ رأى في المنام أنه يذبح كبشًا فصدق الله رؤياه بقتل طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين يوم أحد، وقتل بعده تسعة نفر على اللواء فذاك قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ يريد تصديق رؤيا الرسول ﷺ. الثالث: يجوز أن يكون هذا الوعد ما ذكره في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾ [آل عمران: ١٢٥] إلا أن هذا كان مشروطًا بشرط الصبر والتقوى.

والرابع: يجوز أن يكون هذا الوعد هو قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠] إلا أن هذا أيضًا مشروط بشرط. والخامس: يجوز أن يكون هذا الوعد هو قوله: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥١] والسادس: قيل: الوعد هو أن النبي ﷺ قال للرماة: «**لا تبرحوا من هذا المكان، فإنا لا نزال غالبين ما دمتم في هذا المكان**»[١] السابع: قال أبو مسلم: لما وعدهم الله في الآية المتقدمة إلقاء الرعب في قلوبهم أكد ذلك بأن ذكرهم ما أنجزهم من الوعد بالنصر في واقعة أُحد، فإنه لما وعدهم بالنصرة بشرط أن يتقوا ويصبروا فحين أتوا بذلك الشرط لا جرم، وفى الله تعالى بالمشروط وأعطاهم النصرة، فلما تركوا الشرط لا جرم فاتهم المشروط.

إذا عرفت وجه النظم ففي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي رحمه الله: الصدق يتعدى إلى مفعولين، تقول: صدقته الوعد والوعيد.

المسألة الثانية: قد ذكرنا في قصة أُحد أن النبي ﷺ جعل أُحدًا خلف ظهره واستقبل المدينة وأقام الرماة عند الجبل، وأمرهم أن يثبتوا هناك ولا يبرحوا، سواء كانت النصرة للمسلمين أو عليهم، فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون نبلهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا، والمسلمون على آثارهم يحسونهم، قال الليث: الحس: القتل الذريع، تحسونهم: أي تقتلونهم قتلاً كثيرًا، قال أبو عبيد، والزجاج، وابن قتيبة: الحس: الاستئصال بالقتل، يقال: جراد محسوس. إذا قتله البرد. وسنة حسوس: إذا أتت على كل شيء، ومعنى (تحسونهم) أي: تستأصلونهم قتلاً، قال أصحاب الاشتقاق: (حسه) إذا قتله لأنه أبطل حسه بالقتل، كما يقال: بَطَنه إذا أصاب بطنه، ورَأَسه، إذا أصاب رأسه، وقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي: بعلمه، ومعنى الكلام أنه تعالى لما وعدكم النصر بشرط التقوى والصبر على الطاعة فما دمتم وافين بهذا الشرط أنجز وعده ونصركم على أعدائكم، فلما تركتم الشرط وعصيتم أمر ربكم لا جرم زالت تلك النصرة.

أما قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: لقائل أن يقول ظاهر قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ بمنزلة الشرط، ولا بد له من الجواب فأين جوابه؟

واعلم أن للعلماء ههنا طريقين: الأول: أن هذا ليس بشرط، بل المعنى، ولقد صدقكم الله وعده

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب (المغازي)، باب: (غزوة أحد) (٤/ ١٤٨٦)، حديث رقم (٣٨١٧)، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٢٩٤)، كلاهما من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه. . . به.

حتى إذا فشلتم، أي: قد نصركم إلى أن كان منكم الفشل والتنازع، لأنه تعالى كان إنما وعدهم بالنصرة بشرط التقوى والصبر على الطاعة، فلما فشلوا وعصوا انتهى النصر، وعلى هذا القول تكون كلمة (حتى) غاية بمعنى (إلى) فيكون معنى قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ إلى أن، أو إلى حين.

الطريق الثاني: أن يساعد على أن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ شرط، وعلى هذا القول اختلفوا في الجواب على وجوه: الأول: وهو قول البصريين أن جوابه محذوف، والتقدير: حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منعكم الله نصره، وإنما حسن حذف هذا الجواب لدلالة قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ عليه، ونظائره في القرآن كثيرة، قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنعام: ٣٥] والتقدير: فافعل، ثم أسقط هذا الجواب لدلالة هذا الكلام عليه، وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٩] والتقدير: أم من هو قانت كمن لا يكون كذلك؟

الوجه الثاني: وهو مذهب الكوفيين واختيار الفراء: أن جوابه هو قوله: ﴿وَعَصَيْتُم﴾ والواو زائدة كما قال: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ [الصافات: ١٠٣، ١٠٤] والمعنى: ناديناه، كذا ههنا، الفشل والتنازع صار موجبًا للعصيان، فكان التقدير حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر عصيتم، فالواو زائدة، وبعض من نصر هذا القول زعم أن من مذهب العرب إدخال الواو في جواب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ بدليل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ [الزمر: ٧١] والتقدير: حتى إذا جاءوها فتحت لهم أبوابها.

فإن قيل: إن فشلتم وتنازعتم معصية، فلو جعلنا الفشل والتنازع علة للمعصية لزم كون الشيء علة لنفسه وذلك فاسد.

قلنا: المراد من العصيان ههنا خروجهم عن ذلك المكان، ولا شك أن الفشل والتنازع هو الذي أوجب خروجهم عن ذلك المكان، فلم يلزم تعليل الشيء بنفسه.

واعلم أن البصريين إنما لم يقبلوا هذا الجواب لأن مذهبهم أنه لا يجوز جعل الواو زائدة.

الوجه الثالث في الجواب: أن يقال تقدير الآية: حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعدما أراكم ما تحبون، صرتم فريقين، منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة.

فالجواب: هو قوله: صرتم فريقين، إلا أنه أسقط لأن قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾. يفيد فائدته ويؤدي معناه، لأن كلمة (من) للتبعيض فهي تفيد هذا الانقسام، وهذا احتمال خطر ببالي.

الوجه الرابع: قال أبو مسلم: جواب قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ هو قوله: ﴿صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ والتقدير حتى إذا فشلتم وكذا وكذا صرفكم عنهم ليبتليكم وكلمة (ثم) ههنا كالساقطة وهذا الوجه في غاية البعد. والله أعلم.

المسألة الثانية: أنه تعالى ذكر أمورًا ثلاثة: أولها: الفشل وهو الضعف، وقيل الفشل هو

الجبن، وهذا باطل بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ [الأنفال: ٤٦] أي: فتضعفوا، لأنه لا يليق به أن يكون المعنى فتجبنوا. ثانيها: التنازع في الأمر وفيه بحثان.

البحث الأول: المراد من التنازع أنه عليه الصلاة والسلام أمر الرماة بأن لا يبرحوا عن مكانهم ألبتة، وجعل أميرهم عبد الله بن جبير؛ فلما ظهر المشركون أقبل الرماة عليهم بالرمي الكثير حتى انهزم المشركون، ثم إن الرماة رأوا نساء المشركين صعدن الجبل وكشفن عن سوقهن بحيث بدت خلاخيلهن، فقالوا: الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله: عهد الرسول إلينا أن لا نبرح عن هذا المكان فأبوا عليه وذهبوا إلى طلب الغنيمة، وبقي عبد الله مع طائفة قليلة دون العشرة الى أن قتلهم المشركون فهذا هو التنازع.

البحث الثاني: قوله: ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾ فيه وجهان: الأول: أن الأمر ههنا بمعنى الشأن والقصة، أي تنازعتم فيما كنتم فيه من الشأن: والثاني: أنه الأمر الذي يضاده النهي. والمعنى: وتنازعتم فيما أمركم الرسول به من ملازمة ذلك المكان.

وثالثها: وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، والمراد عصيتم بترك ملازمة ذلك المكان. بقي في هذه الآية سؤالات: الأول: لم قدم ذكر الفشل على ذكر التنازع والمعصية؟

والجواب: أن القوم لما رأوا هزيمة الكفار وطمعوا في الغنيمة فشلوا في أنفسهم عن الثبات طمعًا في الغنيمة، ثم تنازعوا بطريق القول في أنا: هل نذهب لطلب الغنيمة أم لا؟ ثم اشتغلوا بطلب الغنيمة.

السؤال الثاني: لما كانت المعصية بمفارقة تلك المواضع خاصة بالبعض فلم جاء هذا العتاب باللفظ العام؟

والجواب: هذا اللفظ وإن كان عامًا إلا أنه جاء المخصص بعده، وهو قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾.

السؤال الثالث: ما الفائدة في قوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾.

والجواب عنه: أن المقصود منه التنبيه على عظم المعصية، لأنهم لما شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية، فلما أقدموا عليها لا جرم سلبهم الله ذلك الإكرام وأذاقهم وبال أمرهم.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ وقد اختلف قول أصحابنا وقول المعتزلة في تفسير هذه الآية، وذلك لأن صرفهم عن الكفار معصية، فكيف أضافه إلى نفسه؟ أما أصحابنا فهذا الإشكال غير وارد عليهم، لأن مذهبهم أن الخير والشر بإرادة الله وتخليقه، فعلى هذا قالوا معنى هذا الصرف أن الله تعالى رد المسلمين عن الكفار، وألقى الهزيمة عليهم وسلط الكفار عليهم، وهذا قول جمهور المفسرين. قالت المعتزلة: هذا التأويل غير جائز ويدل عليه القرآن والعقل، أما القرآن فهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ

﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥]فأضاف ما كان منهم الى فعل الشيطان، فكيف يضيفه بعد هذا إلى نفسه؟ وأما المعقول فهو أنه تعالى عاتبهم على ذلك الانصراف، ولو كان ذلك بفعل الله لم يجز معاتبة القوم عليه، كما لا يجوز معاتبتهم على طولهم وقصرهم وصحتهم ومرضهم، ثم عند هذا ذكروا وجوهًا من التأويل: الأول: قال الجبائي: إن الرماة كانوا فريقين، بعضهم فارقوا المكان أولاً لطلب الغنائم، وبعضهم بقوا هناك، ثم هؤلاء الذين بقوا أحاط بهم العدو، فلو استمروا على المكث هناك لقتلهم العدو من غير فائدة أصلاً، فلهذا السبب جاز لهم أن يتنحوا عن ذلك الموضع إلى موضع يتحرزون فيه عن العدو، ألا ترى أن النبي ﷺ ذهب الى الجبل في جماعة من أصحابه وتحصنوا به ولم يكونوا عصاة بذلك، فلما كان ذلك الانصراف جائزًا أضافه إلى نفسه بمعنى أنه كان بأمره وإذنه، ثم قال: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ والمراد أنه تعالى لما صرفهم إلى ذلك المكان وتحصنوا به أمرهم هناك بالجهاد والذب عن بقية المسلمين، ولا شك أن الإقدام على الجهاد بعد الانهزام، وبعد أن شاهدوا في تلك المعركة قتل أقربائهم وأحبائهم هو من أعظم أنواع الابتلاء.

فإن قيل: فعلى هذا التأويل هؤلاء الذين صرفهم الله عن الكفار ما كانوا مذنبين، فلم قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾.

قلنا: الآية مشتملة على ذكر من كان معذورًا في الانصراف ومن لم يكن، وهم الذين بدءوا بالهزيمة فمضوا وعصوا فقوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ راجع الى المعذورين، لأن الآية لما اشتملت على قسمين وعلى حكمين رجع كل حكم إلى القسم الذي يليق به، ونظيره قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٤٠]والمراد الذي قال له: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ وهو أبو بكر، لأنه كان خائفًا قبل هذا القول، فلما سمع هذا سكن، ثم قال: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]وعنى بذلك الرسول دون أبي بكر، لأنه كان قد جرى ذكرهما جميعًا، فهذا جملة ما ذكره الجبائي في هذا المقام.

والوجه الثاني: ما ذكره أبو مسلم الأصفهاني، وهو أن المراد من قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أنه تعالى أزال ما كان في قلوب الكفار من الرعب من المسلمين عقوبة منه على عصيانهم وفشلهم، ثم قال: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي: ليجعل ذلك الصرف محنة عليكم لتتوبوا إلى الله وترجعوا إليه وتستغفروه فيما خالفتم فيه أمره وملتم فيه إلى الغنيمة، ثم أعلمهم أنه تعالى قد عفا عنهم.

والوجه الثالث: قال الكعبي: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ بأن لم يأمركم بمعاودتهم من فورهم ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ بكثرة الإنعام عليكم والتخفيف عنكم، فهذا ما قيل في هذا الموضع، والله أعلم.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ فظاهره يقتضي تقدم ذنب منهم. قال القاضي: إن كان ذلك الذنب من الصغائر صح أن يصف نفسه بأنه عفا عنهم من غير توبة، وإن كان من باب الكبائر،

فلا بد من إضمار توبتهم لقيام الدلالة على أن صاحب الكبيرة إذا لم يتب لم يكن من أهل العفو والمغفرة.

واعلم أن الذنب لا شك أنه كان كبيرة، لأنهم خالفوا صريح نص الرسول، وصارت تلك المخالفة سببًا لانهزام المسلمين، وقتل جمع عظيم من أكابرهم، ومعلوم أن كل ذلك من باب الكبائر وأيضًا: ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ [الأنفال: ١٦] يدل على كونه كبيرة، وقول من قال: إنه خاص في بدر ضعيف، لأن اللفظ عام، ولا تفاوت في المقصود، فكان التخصيص ممتنعًا، ثم إن ظاهر هذه الآية يدل على أنه تعالى عفا عنهم من غير توبة، لأن التوبة غير مذكورة، فصار هذا دليلاً على أنه تعالى قد يعفو عن أصحاب الكبائر، وأما دليل المعتزلة في المنع عن ذلك، فقد تقدم الجواب عنه في سورة البقرة.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو راجع إلى ما تقدم من ذكر نعمه سبحانه وتعالى بالنصر أولاً، ثم بالعفو عن المذنبين ثانيًا. وهذه الآية دالة على أن صاحب الكبيرة مؤمن، لأنا بيّنا أن هذا الذنب كان من الكبائر، ثم إنه تعالى سماهم المؤمنين، فهذا يقتضي أن صاحب الكبيرة مؤمن بخلاف ما تقوله المعتزلة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

فيه قولان:

أحدهما: أنه متعلق بما قبله، وعلى هذا التقدير ففيه وجوه: أحدها: كأنه قال: وعفا عنكم إذ تصعدون، لأن عفوه عنهم لا بد وأن يتعلق بأمر اقترفوه، وذلك الأمر هو ما بينه بقوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ والمراد به ما صدر عنهم من مفارقة ذلك المكان والأخذ في الوادي كالمنهزمين لا يلوون على أحد، وثانيها: التقدير: ثم صرفكم عنهم إذ تصعدون. وثالثها: التقدير: ليبتليكم إذ تصعدون.

والقول الثاني: أنه ابتداء كلام لا تعلق له بما قبله، والتقدير: اذكر إذ تصعدون.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): قرأ الحسن (إذ تصعدون في الجبل)، وقرأ أبي (إذ تصعدون في الوادي) وقرأ أبو حيوة (إذ تَصَعَّدون) بفتح التاء وتشديد العين، من تَصَعَّد في السلم.

المسألة الثانية: الإصعاد: الذهاب في الأرض والإبعاد فيه، يقال: صعد في الجبل، وأصعد

في الأرض، ويقال: أصعدنا من مكة إلى المدينة، قال أبو معاذ النحوي: كل شيء له أسفل وأعلى مثل الوادي والنهر والأزقة، فإنك تقول: صعد فلان يصعد في الوادي إذا أخذ من أسفله إلى أعلاه، وأما ما ارتفع كالسلم فإنه يقال صعدت.

المسألة الثالثة: ولا تلوون على أحد: أي لا تلتفتون إلى أحد من شدة الهرب، وأصله أن المعرج على الشيء يلوي إليه عنقه أو عنان دابته، فإذا مضى ولم يعرج قيل لم يلوه، ثم استعمل اللي في ترك التعريج على الشيء وترك الالتفات إلى الشيء، يقال: فلان لا يلوي على شيء، أي لا يعطف عليه ولا يبالي به.

ثم قال تعالى: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ كان يقول: «إليَّ عِبَادَ اللهِ أنَا رَسُولُ اللهِ، مَنْ كَرَّ فَلَهُ الجَنَّةُ» فيحتمل أن يكون المراد أنه عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم إلى نفسه حتى يجتمعوا عنده، ولا يتفرقوا، ويحتمل أن يكون المراد أنه كان يدعوهم إلى المحاربة مع العدو.

ثم قال: ﴿فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ أي آخركم، يقال: جئت في آخر الناس وأخراهم، كما يقال: في أولهم وأولاهم، ويقال: جاء فلان في أخريات الناس، أي آخرهم، والمعنى أنه عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم وهو واقف في آخرهم، لأن القوم بسبب الهزيمة قد تقدموه.

ثم قال: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لفظ الثواب لا يستعمل في الأغلب إلا في الخير، ويجوز أيضًا استعماله في الشر، لأنه مأخوذ من قولهم: ثاب إليه عقله، أي رجع إليه، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٢٥] والمرأة تسمى ثيبًا لأن الواطىء عائد اليها، وأصل الثواب كل ما يعود الى الفاعل من جزاء فعله سواء كان خيرًا أو شرًّا، إلا أنه بحسب العرف اختص لفظ الثواب بالخير، فإن حملنا لفظ الثواب ههنا على أصل اللغة استقام الكلام، وإن حملناه على مقتضى العرف كان ذلك واردًا على سبيل التهكم، كما يقال: تحيتك الضرب، وعتابك السيف، أي جعل الغم مكان ما يرجون من الثواب قال تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [التوبة: ٣٤].

المسألة الثانية: الباء في قوله: ﴿غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى المعاوضة، كما يقال: هذا بهذا أي هذا عوض عن ذاك، ويحتمل أن تكون بمعنى (مع) والتقدير: أثابهم غمًّا مع غم، أما على التقدير الأول ففيه وجوه: الأول: وهو قول الزجاج أنكم لما أذقتم الرسول غمًّا بسبب أن عصيتم أمره، فالله تعالى أذاقكم هذا الغم، وهو الغم الذي حصل لهم بسبب الانهزام وقتل الأحباب، والمعنى جازاكم من ذلك الغم بهذا الغم. الثاني: قال الحسن: يريد غم يوم أُحد للمسلمين بغم يوم بدر للمشركين، والمقصود منه أن لا يبقى في قلبكم إلتفات إلى الدنيا، فلا تفرحوا بإقبالها ولا تحزنوا بإدبارها، وهو المعنى بقوله: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ [الحديد: ٢٣] في واقعة أحد ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ [الحديد: ٢٣] في واقعة بدر، طعن القاضي في هذا الوجه

وقال: إن غمهم يوم أحد إنما كان من جهة استيلاء الكفار، وذلك كفر ومعصية، فكيف يضيفه الله إلى نفسه؟ ويمكن أن يجاب عنه بأنه لا يبعد أن يعلم الله تعالى أن في تسليط الكفار على المسلمين نوع مصلحة، وهو أن لا يفرحوا بإقبال الدنيا ولا يحزنوا بإدبارها، فلا يبقى في قلوبهم اشتغال بغير الله. الثالث: يجوز أن يكون الضمير في قوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ يعود للرسول، والمعنى أن الصحابة لما رأوا أن النبي ﷺ شج وجهه وكسرت رباعيته وقتل عمه، اغتموا لأجله، والرسول عليه السلام لما رأى أنهم عصوا ربهم لطلب الغنيمة ثم بقوا محرومين من الغنيمة، وقتل أقاربهم اغتم لأجلهم، فكان المراد من قوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾ هو هذا، أما على التقدير الثاني وهو أن تكون الباء في قوله: ﴿غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾ بمعنى (مع) أي غمًّا مع غم، أو غمًّا على غم، فهذا جائز لأن حروف الجر يقام بعضها مقام بعض، تقول: ما زلت به حتى فعل، وما زلت معه حتى فعل، وتقول: نزلت ببني فلان، وعلى بني فلان.

واعلم أن الغموم هناك كانت كثيرة: فأحدها: غمهم بما نالهم من العدو في الأنفس والأموال. وثانيها: غمهم بما لحق سائر المؤمنين من ذلك، وثالثها: غمهم بما وصل إلى الرسول من الشجة وكسر الرباعية، ورابعها: ما أرجف به من قتل الرسول ﷺ، وخامسها: بما وقع منهم من المعصية وما يخافون من عقابها، وسادسها: غمهم بسبب التوبة التي صارت واجبة عليهم، وذلك لأنهم إذا تابوا عن تلك المعصية لم تتم توبتهم إلا بترك الهزيمة والعود إلى المحاربة بعد الانهزام، وذلك من أشق الأشياء، لأن الإنسان بعد صيرورته منهزمًا يصير ضعيف القلب جبانًا، فإذا أمر بالمعاودة، فإن فعل خاف القتل، وإن لم يفعل خاف الكفر أو عقاب الآخرة، وهذا الغم لا شك أنه أعظم الغموم والأحزان، وإذا عرفت هذه الجملة فكل واحد من المفسرين فسر هذه الآية بواحد من هذه الوجوه ونحن نعدها:

الوجه الأول: أن الغم الأول ما أصابهم عند الفشل والتنازع، والغم الثاني ما حصل عند الهزيمة.

الوجه الثاني: أن الغم الأول ما حصل بسبب فوت الغنائم، والغم الثاني ما حصل بسبب أن أبا سفيان وخالد بن الوليد اطلعا على المسلمين فحملوا عليهم وقتلوا منهم جمعًا عظيمًا.

الوجه الثالث: أن الغم الأول ما كان عند توجه أبي سفيان وخالد بن الوليد عليهم بالقتل والغم الثاني هو أن المشركين لما رجعوا خاف الباقون من المسلمين من أنهم لو رجعوا لقتلوا الكل فصار هذا الغم بحيث أذهلهم عن الغم الأول.

والوجه الرابع: أن الغم الأول ما وصل إليهم بسبب أنفسهم وأموالهم، والغم الثاني ما وصل إليهم بسبب الإرجاف بقتل النبي ﷺ، وفي الآية قول ثالث اختاره القفال رحمه الله تعالى قال: وعندنا أن الله تعالى ما أراد بقوله: ﴿غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾ اثنين، وإنما أراد مواصلة الغموم وطولها، أي إن الله عاقبكم بغموم كثيرة، مثل قتل إخوانكم وأقاربكم، ونزول المشركين من فوق الجبل

عليكم بحيث لم تأمنوا أن يهلك أكثركم، ومثل إقدامكم على المعصية، فكأنه تعالى قال: أثابكم هذه الغموم المتعاقبة ليصير ذلك زاجرًا لكم عن الإقدام على المعصية والاشتغال بما يخالف أمر الله تعالى.

المسألة الثالثة: معنى أن الله أثابهم غمًّا بغم: أنه خلق الغم فيهم، وأما المعتزلة فهذا لا يليق بأصولهم، فذكروا في علة هذه الإضافة وجوهًا: الأول: قال الكعبي: إن المنافقين لما أرجفوا أن محمدًا عليه الصلاة والسلام قد قُتل ولم يبين الله تعالى كذب ذلك القائل، صار كأنه تعالى هو الذي فعل ذلك الغم، وهذا كالرجل الذي يبلغه الخبر الذي يغمه ويكون معه من يعلم أن ذلك الخبر كذب، فإذا لم يكشفه له سريعًا وتركه يتفكر فيه ثم أعلمه فإنه يقول له: لقد غممتني وأطلت حزني وهو لم يفعل شيئًا من ذلك، بل سكت وكف عن إعلامه، فكذا ههنا. الثاني: أن الغم وإن كان من فعل العبد فسببه فعل الله تعالى، لأن الله طبع العباد طبعًا يغتمون بالمصائب التي تنالهم وهم لا يحمدون على ذلك ولا يذمون. الثالث: أنه لا يبعد أن يخلق الله تعالى الغم في قلب بعض المكلفين لرعاية بعض المصالح.

ثم قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟﴾ وفيه وجهان: الأول: أنها متصلة بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢] كأنه قال: ولقد عفا عنكم لكيلا تحزنوا، لأن في عفوه تعالى ما يزيل كل غم وحزن، والثاني: أن اللام متصلة بقوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ ثم على هذا القول ذكروا وجوهًا:

الأول: قال الزجاج: المعنى أثابكم غم الهزيمة من غمكم النبي ﷺ بسبب مخالفته، ليكون غمكم بأن خالفتموه فقط، لا بأن فاتتكم الغنيمة وأصابتكم الهزيمة، وذلك لأن الغم الحاصل بسبب الإقدام على المعصية ينسي الغم الحاصل بسبب مصائب الدنيا.

الثاني: قال الحسن: جعلكم مغمومين يوم أحد في مقابلة ما جعلتموهم مغمومين يوم بدر، لأجل أن يسهل أمر الدنيا في أعينكم فلا تحزنوا بفواتها ولا تفرحوا بإقبالها، وهذان الوجهان مفرعان على قولنا الباء في قوله: ﴿غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ للمجازاة، أما إذا قلنا إنها بمعنى (مع) فالمعنى أنكم قلتم لو بقينا في هذا المكان وامتثلنا أمر الرسول لوقعنا في غم فوات الغنيمة، فاعلموا أنكم لما خالفتم أمر الرسول وطلبتم الغنيمة وقعتم في هذه الغموم العظيمة التي كل واحد منها أعظم من ذلك الغم أضعافًا مضاعفة، والعاقل إذا تعارض عنده الضرران، وجب أن يخص أعظمهما بالدفع، فصارت إثابة الغم على الغم مانعًا لكم من أن تحزنوا بسبب فوات الغنيمة، وزاجرًا لكم عن ذلك، ثم كما زجرهم عن تلك المعصية بهذا الزجر الحاصل في الدنيا، زجرهم عنها بسبب الزواجر الموجودة في الغنيمة فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: هو عالم بجميع أعمالكم وقصودكم ودواعيكم، قادر على مجازاتها، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، وذلك من أعظم الزواجر للعبد عن الإقدام على المعصية، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

في كيفية النظم وجهان: الأول: أنه تعالى لما وعد نصر المؤمنين على الكافرين، وهذا النصر لا بد وأن يكون مسبوقًا بإزالة الخوف عن المؤمنين، بيّن في هذه الآية أنه تعالى أزال الخوف عنهم ليصير ذلك كالدلالة على أنه تعالى ينجز وعده في نصر المؤمنين. الثاني: أنه تعالى بيّن أنه نصر المؤمنين أولاً، فلما عصى بعضهم سلط الخوف عليهم، ثم ذكر أنه أزال ذلك الخوف عن قلب من كان صادقًا في إيمانه مستقرًا على دينه بحيث غلب النعاس عليه.

واعلم أن الذين كانوا مع الرسول ﷺ يوم أحد فريقان: أحدهما: الذين كانوا جازمين بأن محمدًا عليه الصلاة والسلام نبي حق من عند الله وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وكانوا قد سمعوا من النبي ﷺ أن الله تعالى ينصر هذا الدين ويظهره على سائر الأديان، فكانوا قاطعين بأن هذه الواقعة لا تؤدي إلى الاستئصال، فلا جرم كانوا آمنين، وبلغ ذلك الأمن إلى حيث غشيهم النعاس، فإن النوم لا يجيء مع الخوف، فمجيء النوم يدل على زوال الخوف بالكلية، فقال ههنا في قصة أحد في هؤلاء: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ وقال في قصة بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١] ففي قصة أُحد قدم الأمنة على النعاس، وفي قصة بدر قدم النعاس على الأمنة، وأما الطائفة الثانية وهم المنافقون الذين كانوا شاكين في نبوته عليه الصلاة والسلام، وما حضروا إلا لطلب الغنيمة، فهؤلاء اشتد جزعهم وعظم خوفهم، ثم إنه تعالى وصف حال كل واحدة من هاتين الطائفتين، فقال في صفة المؤمنين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي: (الأمنة) مصدر كالأمن، ومثله من المصادر: العظمة والغلبة، وقال الجبائي: يقال: أمن فلان يأمن أمنًا وأمانًا.

المسألة الثانية: قال صاحب الكشاف: قرئ (أمْنة) بسكون الميم، لأنها المرة من الأمن.

المسألة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿نُّعَاسًا﴾ وجهان: أحدهما: أن يكون بدلاً من أمنة،

والثاني: إن يكون مفعولاً، وعلى هذا التقدير ففي قوله: ﴿أَمَنَةً﴾ وجوه: أحدها: أن تكون حالاً منه مقدمة عليه، كقولك: رأيت راكبًا رجلًا، وثانيها: أن يكون مفعولاً له بمعنى نعستم أمنة، وثالثها: أن يكون حالاً من المخاطبين بمعنى ذوي أمنة.

ثم قال تعالى: ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قد ذكرنا أن هذه الطائفة هم المؤمنون الذين كانوا على البصيرة في إيمانهم قال أبو طلحة: غشينا النعاس ونحن في مصافنا، فكان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه. ثم يسقط فيأخذه، وعن الزبير قال: كنت مع النبي ﷺ حين اشتد الخوف، فأرسل الله علينا النوم، وإني لأسمع قول معتب بن قشير: والنعاس يغشاني يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا. وقال عبد الرحمن بن عوف: ألقي النوم علينا يوم أُحد، وعن ابن مسعود: النعاس في القتال أمنة، والنعاس في الصلاة من الشيطان، وذلك لأنه في القتال لا يكون إلا من غاية الوثوق بالله والفراغ عن الدنيا، ولا يكون في الصلاة إلا من غاية البعد عن الله.

واعلم أن ذلك النعاس فيه فوائد: أحدها: أنه وقع على كافة المؤمنين لا على الحد المعتاد، فكان ذلك معجزة ظاهرة للنبي ﷺ، ولا شك أن المؤمنين متى شاهدوا تلك المعجزة الجديدة ازدادوا إيمانًا مع إيمانهم، ومتى صاروا كذلك ازداد جدهم في محاربة العدو ووثوقهم بأن الله منجز وعده، وثانيها: أن الأرق والسهر يوجبان الضعف والكلال، والنوم يفيد عود القوة والنشاط واشتداد القوة والقدرة، وثالثها: أن الكفار لما اشتغلوا بقتل المسلمين ألقى الله النوم على عين من بقي منهم لئلا يشاهدوا قتل أعزتهم، فيشتد الخوف والجبن في قلوبهم، ورابعها: أن الأعداء كانوا في غاية الحرص على قتلهم، فبقاؤهم في النوم مع السلامة في مثل تلك المعركة من أدل الدلائل على أن حفظ الله وعصمته معهم، وذلك مما يزيل الخوف عن قلوبهم ويورثهم مزيد الوثوق بوعد الله تعالى، ومن الناس من قال: ذكر النعاس في هذا الموضع كناية عن غاية الأمن، وهذا ضعيف لأن صرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز لا يجوز إلا عند قيام الدليل المعارض، فكيف يجوز ترك حقيقة اللفظ مع اشتمالها على هذه الفوائد والحكم.

المسألة الثانية: قرأ حمزة والكسائي (تغشى) بالتاء ردًا إلى الأمنة، والباقون بالياء ردًا، إلى النعاس، وهو اختيار أبي حاتم وخلف وأبي عبيد.

واعلم أن الأمنة والنعاس كل واحد منهما يدل على الآخر، فلا جرم يحسن رد الكناية إلى أيهما شئت، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٥] وتغلي، إذا عرفت جوازهما فنقول: مما يقوي القراءة بالتاء أن الأصل الأمنة، والنعاس بدل، ورد الكناية إلى الأصل أحسن، وأيضًا الأمنة هي المقصود، وإذا حصلت الأمنة حصل النعاس لأنها سببه، فإن الخائف لا يكاد ينعس، وأما من قرأ بالياء فحجته أن النعاس هو

الغاشي، فإن العرب يقولون غشينا النعاس، وقلما يقولون غشيني من النعاس أمنة، وأيضًا فان النعاس مذكور بالغشيان في قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١] وأيضًا: النعاس يلي الفعل، وهو أقرب في اللفظ إلى ذكر الغشيان من الأمنة فالتذكير أولى.

ثم قال تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: هؤلاء هم المنافقون عبد الله بن أُبي ومعتب بن قشير وأصحابهما، كان همهم خلاص أنفسهم، يقال: همني الشيء أي كان من همي وقصدي، قال أبو مسلم: من عادة العرب أن يقولوا لمن خاف، قد أهمته نفسه، فهؤلاء المنافقون لشدة خوفهم من القتل طار النوم عنهم، وقيل المؤمنون، كان همهم النبي ﷺ وإخوانهم من المؤمنين، والمنافقون كان همهم أنفسهم وتحقيق القول فيه: أن الإنسان إذا اشتد اشتغاله بالشيء واستغراقه فيه، صار غافلًا عما سواه، فلما كان أحب الأشياء إلى الإنسان نفسه، فعند الخوف على النفس يصير ذاهلًا عن كل ما سواها، فهذا هو المراد من قوله: ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ وذلك لأن أسباب الخوف وهي قصد الأعداء كانت حاصلة والدافع لذلك وهو الوثوق بوعد الله ووعد رسوله ما كان معتبرًا عندهم، لأنهم كانوا مكذبين بالرسول في قلوبهم، فلا جرم عظم الخوف في قلوبهم.

المسألة الثانية: (طائفة) رفع بالابتداء وخبره ﴿يَظُنُّونَ﴾ وقيل: خبره ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ ثم إنه تعالى وصف هذه الطائفة بأنواع من الصفات.

الصفة الأولى: من صفاتهم قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في هذا الظن احتمالان: أحدهما: وهو الأظهر: هو أن ذلك الظن أنهم كانوا يقولون في أنفسهم لو كان محمد محقًا في دعواه لما سلط الكفار عليه وهذا ظن فاسد، أما على قول أهل السنة والجماعة، فلأنه سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحد عليه، فإن النبوة خلعة من الله سبحانه يشرف عبده بها، وليس يجب في العقل أن المولى إذا شرف عبده بخلعة أن يشرفه بخلعة أخرى، بل له الأمر والنهي كيف شاء بحكم الإلهية، وأما على قول من يعتبر المصالح في أفعال الله وأحكامه، فلا يبعد أن يكون لله تعالى في التخلية بين الكافر والمسلم، بحيث يقهر الكافر المسلم، حكم خفية وألطاف مرعية، فإن الدنيا دار الامتحان والابتلاء، ووجوه المصالح مستورة عن العقول، فربما كانت المصلحة في التخلية بين الكافر والمؤمن حتى يقهر الكافر المؤمن، وربما كانت المصلحة في تسليط الفقر والزمانة على المؤمنين. قال القفال: لو كان كون المؤمن محقًا يوجب زوال هذه المعاني لوجب أن يضطر الناس إلى معرفة المحق بالجبر، وذلك ينافي التكليف واستحقاق الثواب والعقاب، بل الإنسان

إنما يعرف كونه محقًّا بما معه من الدلائل والبينات، فأما القهر فقد يكون من المبطل للمحق، ومن المحق للمبطل، وهذه جملة كافية في بيان أنه لا يجوز الاستدلال بالدولة والشوكة ووفور القوة على أن صاحبها على الحق. الثاني: أن ذلك الظن هو أنهم كانوا ينكرون إله العالم بكل المعلومات القادر على كل المقدورات، وينكرون النبوة والبعث، فلا جرم ما وثقوا بقول النبي ﷺ في أن الله يقويهم وينصرهم.

المسألة الثانية: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ في حكم المصدر، ومعناه: يظنون بالله غير الظن الحق الذي يجب أن يُظن به (وظن الجاهلية) بدل منه، والفائدة في هذا الترتيب أن غير الحق: أديان كثيرة، وأقبحها مقالات أهل الجاهلية، فذكر أولاً أنهم يظنون بالله غير الظن الحق، ثم بيَّن أنهم اختاروا من أقسام الأديان التي غير حقة أركها وأكثرها بطلانًا، وهو ظن أهل الجاهلية، كما يقال: فلان دينه ليس بحق، دينه دين الملاحدة.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ قولان: أحدهما: أنه كقولك: حاتم الجود، وعمر العدل، يريد الظن المختص بالملة الجاهلية، والثاني: المراد ظن أهل الجاهلية.

الصفة الثانية: من الصفات التي ذكرها الله تعالى لهؤلاء المنافقين قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾.

واعلم أن قوله: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ حكاية للشبهة التي تمسك أهل النفاق بها، وهو يحتمل وجوهًا: الأول: أن عبد الله بن أُبي لما شاوره النبي ﷺ في هذه الواقعة أشار عليه بأن لا يخرج من المدينة، ثم إن الصحابة ألحوا على النبي ﷺ في أن يخرج إليهم، فغضب عبد الله بن أبي من ذلك، فقال: عصاني وأطاع الولدان، ثم لما كثر القتل في بني الخزرج ورجع عبد الله بن أُبي قيل له: قتل بنو الخزرج، فقال: هل لنا من الأمر من شيء، يعني أن محمدًا لم يقبل قولي حين أمرته بأن يسكن في المدينة ولا يخرج منها، ونظيره ما حكاه الله عنهم أنهم قالوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾[آل عمران: ١٦٨] والمعنى: هل لنا من أمر يطاع وهو استفهام على سبيل الإنكار.

الوجه الثاني في التأويل: أن من عادة العرب أنه إذا كانت الدولة لعدوه قالوا: عليه الأمر، فقوله: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: هل لنا من الشيء الذي كان يعدنا به محمد، وهو النصرة والقوة شيء وهذا استفهام على سبيل الإنكار، وكان غرضهم منه الاستدلال بذلك على أن محمدًا ﷺ كان كاذبًا في ادعاء النصرة والعصمة من الله تعالى لأمته، وهذا استفهام على سبيل الانكار. الثالث: أن يكون التقدير: أنطمع أن تكون لنا الغلبة على هؤلاء، والغرض منه تصبير المسلمين في التشديد في الجهاد والحرب مع الكفار، ثم إن الله سبحانه أجاب عن هذه الشبهة بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو (كلُّه) برفع اللام، والباقون بالنصب، أما وجه الرفع فهو أن

قوله: ﴿كُلَّهُۥ﴾ مبتدأ وقوله: ﴿لِلَّهِۗ﴾ خبره، ثم صارت هذه الجملة خبرًا لـ(إن)، وأما النصب فلأن لفظة (كل) للتأكيد، فكانت كلفظة أجمع، ولو قيل: إن الأمر أجمع، لم يكن إلا النصب، فكذا إذا قال (كله).

المسألة الثانية: الوجه في تقرير هذا الجواب ما بينا: أنا إذا قلنا بمذهب أهل السنة لم يكن على الله اعتراض في شيء من أفعاله في الإماتة والإحياء، والفقر والإغناء والسراء والضراء، وإن قلنا بمذهب القائلين برعاية المصالح، فوجوه المصالح مخفية لا يعلمها إلا الله تعالى، فربما كانت المصلحة في إيصال السرور واللذة، وربما كانت في تسليط الأحزان والآلام، فقد اندفعت شبهة المنافقين من هذا الوجه.

المسألة الثالثة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن جميع المحدثات بقضاء الله وقدره، وذلك لأن المنافقين قالوا: إن محمدًا لو قبل منا رأينا ونصحنا، لما وقع في هذه المحنة، فأجاب الله عنه بأن الأمر كله لله، وهذا الجواب: إنما ينتظم لو كانت أفعال العباد بقضاء الله وقدره ومشيئته إذ لو كانت خارجة عن مشيئته لم يكن هذا الجواب دافعًا لشبهة المنافقين، فثبت أن هذه الآية دالة على ما ذكرنا. وأيضًا فظاهر هذه الآية مطابق للبرهان العقلي، وذلك لأن الموجود، إما واجب لذاته أو ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يترجح وجوده على عدمه إلا عند الانتهاء الى الواجب لذاته، فثبت أن كل ما سوى الله تعالى مستند إلى إيجاده وتكوينه، وهذه القاعدة لا اختصاص لها بمحدث دون محدث، أو ممكن دون ممكن، فتدخل فيه أفعال العباد وحركاتهم وسكناتهم، وذلك هو المراد بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ وهذا كلام في غاية الظهور لمن وفقه الله للإنصاف.

ثم أنه تعالى قال: ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾.

واعلم أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾، وهذا الكلام محتمل، فلعل قائله كان من المؤمنين المحقين، وكان غرضه منه إظهار الشفقة، وأنه متى يكون الفرج؟ ومن أين تحصل النصرة؟ ولعله كان من المنافقين، وإنما قاله طعنًا في نبوة محمد ﷺ وفي الإسلام فبيّن تعالى في هذه الآية أن غرض هؤلاء من هذا الكلام هذا القسم الثاني، والفائدة في هذا التنبيه أن يكون النبي ﷺ متحرزًا عن مكرهم وكيدهم.

النوع الثالث: من الأشياء التي حكى الله عن المنافقين، قولهم: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا. وفيه إشكال، وهو أن لقائل أن يقول: ما الفرق بين هذا الكلام وبين ما تقدم من قوله: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾ ويمكن أن يجاب عنه من وجهين: الأول: أنه تعالى لما حكى عنهم قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾ فأجاب عنه بقوله: ﴿ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ واحتج المنافقون على الطعن في هذا الجواب بقولهم: لو كان لنا من الأمر شيء لما خرجنا من المدينة وما قتلنا ههنا، فهذا يدل على أنه ليس الأمر كما قلتم من أن الأمر كله لله، وهذا هو بعينه المناظرة الدائرة

بين أهل السنة وأهل الاعتزال فإن السني يقول: الأمر كله في الطاعة والمعصية والإيمان والكفر بيد الله، فيقول المعتزلي: ليس الأمر كذلك، فإن الإنسان مختار مستقل بالفعل، إن شاء آمن، وإن شاء كفر، فعلى هذا الوجه لا يكون هذا الكلام شبهة مستقلة بنفسها، بل يكون الغرض منه الطعن فيما جعله الله تعالى جوابًا عن الشبهة الأولى.

والوجه الثاني: أن يكون المراد من قوله: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ هو أنه هل لنا من النصرة التي وعدنا بها محمد شيء، ويكون المراد من قوله: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ هو ما كان يقوله عبد الله بن أبي من أن محمدًا لو أطاعني وما خرج من المدينة ما قتلنا ههنا.

واعلم أنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول من الجواب: قوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ والمعنى أن الحذر لا يدفع القدر، والتدبير لا يقاوم التقدير، فالذين قدر الله عليهم القتل لا بد وأن يقتلوا على جميع التقديرات، لأن الله تعالى لما أخبر أنه يقتل، فلو لم يقتل لانقلب علمه جهلًا؛ وقد بينا أيضًا أنه ممكن فلا بد من انتهائه الى إيجاد الله تعالى، فلو لم يوجد لانقلبت قدرته عجزا، وكل ذلك محال، ومما يدل على تحقيق الوجوب كما قررنا قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾ وهذه الكلمة تفيد الوجوب، فإن هذه الكلمة في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨] تفيد وجوب الفعل، وها هنا لا يمكن حملها على وجوب الفعل، فوجب حملها على وجوب الوجود وهذا كلام في غاية الظهور لمن أيده الله بالتوفيق. ثم نقول للمفسرين: فيه قولان: الأول: لو جلستم في بيوتكم لخرج منكم من كتب الله عليهم القتل إلى مضاجعهم ومصارعهم حتى يوجد ما علم الله أنه يوجد، والثاني: كأنه قيل للمنافقين لو جلستم في بيوتكم وتخلفتم عن الجهاد لخرج المؤمنون الذين كتب عليهم قتال الكفار إلى مضاجعهم، ولم يتخلفوا عن هذه الطاعة بسبب تخلفكم.

الوجه الثاني في الجواب عن تلك الشبهة: قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ وذلك لأن القوم زعموا أن الخروج إلى تلك المقاتلة كان مفسدة، ولو كان الأمر اليهم لما خرجوا إليها، فقال تعالى: بل هذه المقاتلة مشتملة على نوعين من المصلحة: أن يتميز الموافق من المنافق، وفي المثل المشهور: لا تكرهوا الفتن فإنها حصاد المنافقين، ومعنى الابتلاء في حق الله تعالى قد مر تفسيره مرارًا كثيرة.

فإن قيل: لم ذكر الابتلاء وقد سبق ذكره في قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

قلنا: لما طال الكلام أعاد ذكره، وقيل الابتلاء الأول هزيمة المؤمنين، والثاني سائر الأحوال.

والوجه الثالث في الجواب: قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: أن هذه

الواقعة تمحص قلوبكم عن الوساوس والشبهات، والثاني: أنها تصير كفارة لذنوبكم فتمحصكم عن تبعات المعاصي والسيآت، وذكر في الابتلاء الصدور، وفي التمحيص القلوب، وفيه بحث ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

واعلم أن ذات الصدور هي الأشياء الموجودة في الصدور، وهي الأسرار والضمائر، وهي ذات الصدور، لأنها حالة فيها مصاحبة لها، وصاحب الشيء ذوه وصاحبته ذاته، وإنما ذكر ذلك ليدل به على أن ابتلاءه لم يكن لأنه يخفي عليه ما في الصدور، أو غير ذلك، لأنه عالم بجميع المعلومات وإنما ابتلاهم إما لمحض الإلهية، أو للاستصلاح.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

واعلم أن المراد: أن القوم الذين تولوا يوم أحد عند التقاء الجمعين وفارقوا المكان وانهزموا قد عفا الله عنهم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اختلفت الأخبار فيمن ثبت ذلك اليوم وفيمن تولى، فذكر محمد بن إسحاق أن ثلث الناس كانوا مجروحين، وثلثهم انهزموا، وثلثهم ثبتوا، واختلفوا في المنهزمين، فقيل: إن بعضهم ورد المدينة وأخبر أن النبي ﷺ قتل، وهو سعد بن عثمان، ثم ورد بعده رجال دخلوا على نسائهم، وجعل النساء يقلن: عن رسول الله ﷺ تفرون! وكن يحثين التراب في وجوههم ويقلن: هاك المغزل اغزل به، ومنهم قال: إن المسلمين لم يعدوا الجبل. قال القفال: والذي تدل عليه الأخبار في الجملة أن نفرًا منهم تولوا وأبعدوا، فمنهم من دخل المدينة، ومنهم من ذهب إلى سائر الجوانب، وأما الأكثرون فإنهم نزلوا عند الجبل واجتمعوا هناك. ومن المنهزمين عمر، إلا أنه لم يكن في أوائل المنهزمين ولم يبعد، بل ثبت على الجبل إلى أن صعد النبي ﷺ، ومنهم أيضًا عثمان انهزم مع رجلين من الأنصار يقال لهما سعد وعقبة، انهزموا حتى بلغوا موضعًا بعيدًا ثم رجعوا بعد ثلاثة أيام، فقال لهم النبي ﷺ «**لَقَدْ ذَهَبْتُمْ فِيهَا عَرِيضَة**» وقالت فاطمة لعلي: ما فعل عثمان؟ فنقصه، فقال النبي ﷺ: «**يا علي أعياني أزواج الأخوات أن يتحابوا**»(١) وأما الذين ثبتوا مع الرسول ﷺ فكانوا أربعة عشر رجلاً، سبعة من المهاجرين، وسبعة من الأنصار، فمن المهاجرين أبو بكر، وعلي وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة بن الجراح والزبير بن العوام، ومن الأنصار الخباب بن المنذر وأبو دجانة وعاصم بن ثابت والحرث بن الصمة وسهل بن حنيف وأسيد بن حضير وسعد بن

---

(١) لم أجده.

معاذ، وذكر أن ثمانية من هؤلاء كانوا بايعوه يومئذ على الموت ثلاثة من المهاجرين: علي وطلحة والزبير، وخمسة من الأنصار: أبو دجانة والحرث بن الصمة وخباب بن المنذر وعاصم بن ثابت وسهل بن حنيف، ثم لم يقتل منهم أحد. وروى ابن عيينة أنه أصيب مع رسول الله ﷺ نحو من ثلاثين كلهم يجيء ويجثو بين يديه ويقول: وجهي لوجهك الفداء، ونفسي لنفسك الفداء، وعليك السلام غير مودع (١).

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ هذا خطاب للمؤمنين خاصة يعني الذين انهزموا يوم أحد ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي حملهم على الزلة. وأزل واستزل بمعنى واحد، قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦] وقال ابن قتيبة: استزلهم طلب زلتهم، كما يقال استعجلته أي: طلبت عجلته، واستعملته طلبت عمله.

المسألة الثالثة: قال الكعبي: الآية تدل على أن المعاصي لا تنسب إلى الله، فإنه تعالى نسبها في هذه الآية إلى الشيطان وهو كقوله تعالى عن موسى: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥] وكقول يوسف. ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٠] وكقول صاحب موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣].

المسألة الرابعة: أنه تعالى لم يبين أن الشيطان في أي شيء استزلهم، وذلك لأن مع العفو لا حاجة إلى تعيين المعصية، لكن العلماء جوزوا أن يكون المراد بذلك تحولهم عن ذلك الموضع، بأن يكون رغبتهم في الغنيمة، وأن يكون فشلهم في الجهاد وعدولهم عن الإخلاص، وأي ذلك كان، فقد صح أن الله تعالى عفا عنهم. وروي أن عثمان عوتب في هزيمته يوم أحد، فقال إن ذلك وإن كان خطأ لكن الله عفا عنه، وقرأ هذه الآية.

أما قوله تعالى: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ ففيه وجهان: أحدهما: أن الباء للإلصاق كقولك: كتبت بالقلم، وقطعت بالسكين، والمعنى أنه كان قد صدرت عنهم جنايات، فبواسطة تلك الجنايات قدر الشيطان على استزلالهم، وعلى هذا التقدير ففيه وجوه، الأول: قال الزجاج: إنهم لم يتولوا على جهة المعاندة ولا على جهة الفرار من الزحف رغبة منهم في الدنيا، وإنما ذكرهم الشيطان ذنوبًا كانت لهم، فكرهوا لقاء الله إلا على حال يرضونها، وإلا بعد الاخلاص في التوبة، فهذا خاطر خطر ببالهم وكانوا مخطئين فيه. الثاني: أنهم لما أذنبوا بسبب مفارقة ذلك المكان أزلهم الشيطان بشؤم هذه المعصية وأوقعهم في الهزيمة، لأن الذنب يجر إلى الذنب،

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد في (مسنده) (٣/ ٢٦١)، حديث رقم (١٣٧٧١)، والبخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٢٧٩)، حديث رقم (٨٠٢)، والحميدي في (مسنده) (٢/ ٥٠٦)، حديث رقم (١٢٠٢)، جميعًا من طريق سفيان بن عيينة عن علي بن جدعان عن أنس... به، وفي إسناده ابن جدعان وهو ضعيف، ورواه ابن المبارك في (الجهاد) (١/ ٧٦)، حديث رقم (٨٩)، عن سفيان بن عيينة قال: من أصيب مع رسول الله ﷺ يوم أحد نحو من ثلاثين... الحديث. وهذا إسناد معضل.

كما أن الطاعة تجر إلى الطاعة. ويكون لطفًا فيها. الثالث: لما أذنبوا بسبب الفشل ومنازعة بعضهم مع بعض وقعوا في ذلك الذنب.

والوجه الثاني: أن يكون المعنى: استزلهم الشيطان في بعض ما كسبوا، لا في كل ما كسبوا، والمراد منه بيان أنهم ما كفروا وما تركوا دينهم، بل هذه زلة وقعت لهم في بعض أعمالهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾.

واعلم أن هذه الآية دلت على أن تلك الزلة ما كانت بسبب الكفر، فإن العفو عن الكفر لا يجوز لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] ثم قالت المعتزلة: ذلك الذنب إن كان من الصغائر جاز العفو عنه من غير توبة، وإن كان من الكبائر لم يجز إلا مع التوبة، فههنا لا بد من تقدم التوبة منهم، وإن كان ذلك غير مذكور في الآية، قال القاضي: والأقرب أن ذلك الذنب كان من الصغائر ويدل عليه وجهان: الأول: أنه لا يكاد في الكبائر يقال إنها زلة، إنما يقال ذلك في الصغائر. الثاني: أن القوم ظنوا أن الهزيمة لما وقعت على المشركين لم يبق إلى ثباتهم في ذلك المكان حاجة، فلا جرم انتقلوا عنه وتحولوا لطلب الغنيمة، ومثل هذا لا يبعد أن يكون من باب الصغائر لأن للاجتهاد في مثله مدخلاً، وأما على قول أصحابنا فالعفو عن الصغائر والكبائر جائز، فلا حاجة إلى هذه التكلفات.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي غفور لمن تاب وأناب، حليم لا يعجل بالعقوبة. وقد احتج أصحابنا بهذه الآية على أن ذلك الذنب كان من الكبائر، لأنه لو كان من الصغائر لوجب على قول المعتزلة أن يعفو عنه، ولو كان العفو عنه واجبًا لما حسن التمدح به، لأن من يظلم إنسانًا فإنه لا يحسن أن يتمدح بأنه عفا عنه وغفر له، فلما ذكر هذا التمدح علمنا أن ذلك الذنب كان من الكبائر، ولما عفا عنه علمنا أن العفو عن الكبائر واقع، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

اعلم أن المنافقين كانوا يعيرون المؤمنين في الجهاد مع الكفار بقولهم: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، ثم إنه لما ظهر عن بعض المؤمنين فتور وفشل في الجهاد حتى وقع يوم أحد ما وقع وعفا الله بفضله عنهم، ذكر في هذه الآية ما يدل على النهي عن أن يقول أحد من المؤمنين مثل مقالتهم فقال: يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا لمن يريد الخروج إلى الجهاد: لو لم تخرجوا لما

متم وما قتلتم فإن الله هو المحيي والمميت، فمن قدر له البقاء لم يقتل في الجهاد، ومن قدر له الموت لم يبق وإن لم يجاهد، وهو المراد من قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾ وأيضًا الذي قتل في الجهاد، لو أنه ما خرج إلى الجهاد لكان يموت لا محالة، فإذا كان لا بد من الموت فلأن يقتل في الجهاد حتى يستوجب الثواب العظيم، كان ذلك خيرًا له من أن يموت من غير فائدة، وهو المراد من قوله: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ فهذا هو المقصود من الكلام.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في المراد بقوله: ﴿كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فقال بعضهم: هو على إطلاقه، فيدخل فيه كل كافر يقول مثل هذا القول سواء كان منافقًا أو لم يكن، وقال آخرون: إنه مخصوص بالمنافقين لأن هذه الآيات من أولها إلى آخرها مختصة بشرح أحوالهم، وقال آخرون: هذا مختص بعبد الله بن أبي بن سلول، ومعتب بن قشير، وسائر أصحابه، وعلى هذين القولين فالآية تدل على أن الإيمان ليس عبارة عن الإقرار باللسان، كما تقول الكرامية إذ لو كان كذلك لكان المنافق مؤمنًا، ولو كان مؤمنًا لما سماه الله كافرًا.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ أي لأجل إخراجهم كقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأحقاف: ١١] وأقول: تقرير هذا الوجه أنهم لما قالوا لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، فهذا يدل على أن أولئك الإخوان كانوا ميتين ومقتولين عند هذا القول، فوجب أن يكون المراد من قوله: ﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ هو أنهم قالوا ذلك لأجل إخوانهم، ولا يكون المراد هو أنهم ذكروا هذا القول مع إخوانهم.

المسألة الثالثة: قوله: (إِخْوَانِهِم) يحتمل أن يكون المراد منه الإخوة في النسب وإن كانوا مسلمين، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ [الأعراف: ٦٥] ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ [الأعراف: ٧٣] فإن الأخوّة في هذه الآيات أخوة النسب لا أخوّة الدين، فلعل أولئك المقتولين من المسلمين كانوا من أقارب المنافقين، فالمنافقون ذكروا هذا الكلام، ويحتمل أن يكون المراد من هذه الأخوة المشاكلة في الدين، واتفق الى أن صار بعض المنافقين مقتولاً في بعض الغزوات فالذين بقوا من المنافقين قالوا ذلك.

المسألة الرابعة: المنافقون كانوا يظنون أن الخارج منهم لسفر بعيد، وهو المراد بقوله: ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والخارج إلى الغزو، وهو المراد بقوله: ﴿أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى﴾ إذا نالهم موت أو قتل فذلك إنما نالهم بسبب السفر والغزو، وجعلوا ذلك سببًا لتنفير الناس عن الجهاد، وذلك لأن في الطباع محبة الحياة وكراهية الموت والقتل، فإذا قيل للمرء: إن تحرزت من السفر والجهاد فأنت سليم طيب العيش، وإن تقحمت أحدهما وصلت إلى الموت أو القتل، فالغالب أنه ينفر طبعه

عن ذلك ويرغب في ملازمة البيت، وكان ذلك من مكايد المنافقين في تنفير المؤمنين عن الجهاد.

فإن قيل: فلماذا ذكر بعض الضرب في الأرض الغزو وهو داخل فيه؟

قلنا: لأن الضرب في الأرض يراد به الإبعاد في السفر، لا ما يقرب منه، وفي الغزو لا فرق بين بعيده وقريبه، إذ الخارج من المدينة إلى جبل أحد لا يوصف بأنه ضارب في الأرض مع قرب المسافة وإن كان غازيًا، فهذا فائدة إفراد الغزو عن الضرب في الأرض.

المسألة الخامسة: في الآية إشكال وهو أن قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ يدل على الماضي، وقوله: ﴿إِذَا ضَرَبُوا۟﴾ يدل على المستقبل فكيف الجمع بينهما؟ بل لو قال: وقالوا لإخوانهم إذ ضربوا في الأرض، أي حين ضربوا لم يكن فيه إشكال.

والجواب عنه من وجوه: الأول: أن قوله: (قَالُوا) تقديره: يقولون فكأنه قيل: لا تكونوا كالذين كفروا ويقولون لإخوانهم كذا وكذا، وإنما عبر عن المستقبل بلفظ الماضي لفائدتين: أحدهما: أن الشيء الذي يكون لازم الحصول في المستقبل فقد يعبر عنه بأنه حدث أو هو حادث قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٣٠] فهنا لو وقع التعبير عنه بلفظ المستقل لم يكن فيه مبالغة أما لما وقع التعبير عنه بلفظ الماضي، دل ذلك على أن جدهم واجتهادهم في تقرير الشبهة قد بلغ الغاية، وصار بسبب ذلك الجد هذا المستقبل كالكائن الواقع.

الفائدة الثانية: إنه تعالى لما عبر عن المستقبل بلفظ الماضي دل ذلك على أنه ليس المقصود الإخبار عن صدور هذا الكلام، بل المقصود الإخبار عن جدهم واجتهادهم في تقرير هذه الشبهة، فهذا هو الجواب المعتمد عندي، والله أعلم.

الوجه الثاني في الجواب: أن الكلام خرج على سبيل حكاية الحال الماضية، والمعنى أن إخوانهم اذا ضربوا في الأرض، فالكافرون يقولون لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، فمن أخبر عنهم بعد ذلك لا بد وأن يقول: قالوا، فهذا هو المراد بقولنا: خرج هذا الكلام على سبيل حكاية الحال الماضية.

الوجه الثالث: قال قطرب: كلمة (إذ) وإذا، يجوز إقامة كل واحدة منهما مقام الأخرى، وأقول: هذا الذي قاله قطرب كلام حسن، وذلك لأنا إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول منقول عن قائل مجهول، فلأن يجوز إثباتها بالقرآن العظيم، كان ذلك أولى، أقصى ما في الباب أن يقال (إذ) حقيقة في المستقبل، ولكن لم لا يجوز استعماله في الماضي على سبيل المجاز لما بينه وبين كلمة (إذ) من المشابهة الشديدة؟ وكثيرًا أرى النحويين يتحيرون في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن، فإذا استشهدوا في تقريره ببيت مجهول فرحوا به، وأنا شديد التعجب منهم، فإنهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقه دليلاً على صحته، فلأن يجعلوا ورود

القرآن به دليلاً على صحته كان أولى .

المسألة السادسة: ﴿غُزَّى﴾ جمع غاز، كالقول والركع والسجد، جمع قائل وراكع وساجد، ومثله من الناقص (عُفًّا) ويجوز أيضًا: غزاة، مثل قضاة ورماة في جمع القاضي والرامي، ومعنى الغزو في كلام العرب قصد العدو، والمغزى المقصد.

المسألة السابعة: قال الواحدي: في الآية محذوف يدل عليه الكلام، والتقدير: إذا ضربوا في الأرض فماتوا أو كانوا غزاة فقتلوا، لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، فقوله: ﴿مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ يدل على موتهم وقتلهم.

ثم قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ وفيه وجهان: الأول: أن التقدير أنهم قالوا ذلك الكلام ليجعل الله ذلك الكلام حسرة في قلوبهم، مثل ما يقال: ربيته ليؤذيني ونصرته ليقهرني ومثله قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[القصص: ٨] إذا عرفت هذا فنقول: ذكروا في بيان أن ذلك القول كيف استعقب حصول الحسرة في قلوبهم وجوهًا: الأول: أن أقارب ذلك المقتول إذا سمعوا هذا الكلام ازدادت الحسرة في قلوبهم، لأن أحدهم يعتقد أنه لو بالغ في منعه عن ذلك السفر وعن ذلك الغزو لبقي، فذلك الشخص إنما مات أو قتل بسبب أن هذا الإنسان قصر في منعه، فيعتقد السامع لهذا الكلام انه هو الذي تسبب إلى موت ذلك الشخص العزيز عليه أو قتله، ومتى اعتقد في نفسه ذلك فلا شك أنه تزداد حسرته وتلهفه، أما المسلم المعتقد في أن الحياة والموت لا يكون إلا بتقدير الله وقضائه، لم يحصل ألبتة في قلبه شيء من هذا النوع من الحسرة، فثبت أن تلك الشبهة التي ذكرها المنافقون لا تفيدهم إلا زيادة الحسرة.

الوجه الثاني: ان المنافقين إذا ألقوا هذه الشبهة إلى إخوانهم تثبطوا عن الغزو والجهاد وتخلفوا عنه، فإذا اشتغل المسلمون بالجهاد والغزو، ووصلوا بسببه إلى الغنائم العظيمة والاستيلاء على الأعداء. والفوز بالأماني، بقي ذلك المتخلف عند ذلك في الخيبة والحسرة.

الوجه الثالث: أن هذه الحسرة إنما تحصل يوم القيامة في قلوب المنافقين إذا رأوا تخصيص الله المجاهدين بمزيد الكرامات وإعلاء الدرجات، وتخصيص هؤلاء المنافقين بمزيد الخزي واللعن والعقاب.

والوجه الرابع: أن المنافقين إذا أوردوا هذه الشبهة على ضعفة المسلمين ووجدوا منهم قبولاً لها، فرحوا بذلك، من حيث أنه راج كيدهم ومكرهم على أولئك الضعفة، فالله تعالى يقول: إنه سيصير ذلك حسرة في قلوبهم إذا علموا أنهم كانوا على الباطل في تقرير هذه الشبهة.

الوجه الخامس: أن جدهم واجتهادهم في تكثير الشبهات وإلقاء الضلالات يعمي قلوبهم فيقعون عند ذلك في الحيرة والخيبة وضيق الصدر، وهو المراد بالحسرة، كقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[الأنعام: ١٢٥] .

الوجه السادس: أنهم متى ألقوا هذه الشبهة على أقوياء المسلمين لم يلتفتوا إليهم فيضيع سعيهم ويبطل كيدهم فتحصل الحسرة في قلوبهم.

والقول الثاني في تفسير الآية: أن اللام في قوله: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ﴾ متعلقة بما دل عليه النهي، والتقدير: لا تكونوا مثلهم حتى يجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة في قلوبهم، لأن مخالفتهم فيما يقولون ويعتقدون ومضادتهم مما يغيظهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ وفيه وجهان: الأول: أن المقصود منه بيان الجواب عن هذه الشبهة، وتقريره أن المحيي والمميت هو الله، ولا تأثير لشيء آخر في الحياة والموت، وأن علم الله لا يتغير، وأن حكمه لا ينقلب، وأن قضاءه لا يتبدل، فكيف ينفع الجلوس في البيت من الموت؟

فإن قيل: إن كان القول بأن قضاء الله لا يتبدل يمنع من كون الجد والاجتهاد مفيدًا في الحذر عن القتل والموت، فكذا القول بأن قضاء الله لا يتبدل وجب أن يمنع من كون العمل مفيدًا في الاحتراز عن عقاب الآخرة، وهذا يمنع من لزوم التكليف، والمقصود من هذه الآيات تقرير الأمر بالجهاد والتكليف، وإذا كان الجواب يفضي بالآخرة إلى سقوط التكليف كان هذا الكلام يفضي ثبوته إلى نفيه فيكون باطلاً.

الجواب: أن حسن التكليف عندنا غير معلل بعلة ورعاية مصلحة، بل عندنا أنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

والوجه الثاني: في تأويل الآية: أنه ليس الغرض من هذا الكلام الجواب عن تلك الشبهة بل المقصود أنه تعالى لما نهى المؤمنين عن أن يقولوا مثل قول المنافقين، قال: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ يريد: يحيي قلوب أوليائه وأهل طاعته بالنور والفرقان، ويميت قلوب أعدائه من المنافقين.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: المقصود منه الترغيب والترهيب فيما تقدم ذكره من طريقة المؤمنين وطريقة المنافقين.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي (يعملون) كناية عن الغائبين، والتقدير ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ والباقون بالتاء على الخطاب ليكون وفقًا لما قبله في قوله: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ولما بعده في قوله: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

واعلم أن هذا هو الجواب الثاني عن شبهة المنافقين، وتقريره أن هذا الموت لا بد واقع ولا محيص للإنسان من أن يقتل أو يموت، فإذا وقع هذا الموت أو القتل في سبيل الله وفي طلب

رضوانه، فهو خير من أن يجعل ذلك في طلب الدنيا ولذاتها التي لا ينتفع الانسان بها بعد الموت ألبتة، وهذا جواب في غاية الحسن والقوة، وذلك لأن الإنسان إذا توجه الى الجهاد أعرض قلبه عن الدنيا وأقبل على الآخرة، فإذا مات فكأنه تخلص عن العدو ووصل إلى المحبوب، وإذا جلس في بيته خائفًا من الموت حريصًا على جمع الدنيا، فإذا مات فكأنه حجب عن المعشوق وألقي في دار الغربة، ولا شك في كمال سعادة الأول، وكمال شقاوة الثاني.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وحمزة والكسائي (مِتُّمْ) بكسر الميم، والباقون بضم الميم، والأولون أخذوه من: مات يمات مت، مثل هاب يهاب هبت، وخاف يخاف خفت، وروى المبرد هذه اللغة فإن صح فقد صحت هذه القراءة، وأما قراءة الجمهور فهو مأخوذ من مات يموت مت، مثل: قال يقول قلت.

المسألة الثانية: قال الواحدي رحمه الله: اللام في قوله: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ﴾ لام القسم، بتقدير الله لئن قتلتم في سبيل الله، واللام في قوله: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾ جواب القسم، ودال على أن ما هو داخل عليه جزاء، والأصوب عندي أن يقال: هذه اللام للتأكيد، فيكون المعنى إن وجب أن تموتوا وتقتلوا في سفركم وغزوكم، فكذلك يجب أن تفوزوا بالمغفرة أيضًا، فلماذا تحترزون عنه كأنه قيل: إن الموت والقتل غير لازم الحصول، ثم بتقدير أن يكون لازمًا فإنه يستعقب لزوم المغفرة، فكيف يليق بالعاقل أن يحترز عنه؟

المسألة الثالثة: قرأ حفص عن عاصم ﴿يَجْمَعُونَ﴾ بالياء على سبيل الغيبة، والباقون بالتاء على وجه الخطاب، أما وجه الغيبة فالمعنى أن مغفرة الله خير مما يجمعه هؤلاء المنافقون من الحطام الفاني، وأما وجه الخطاب فالمعنى أنه تعالى كأنه يخاطب المؤمنين فيقول لهم مغفرة الله خير لكم من الأموال التي تجمعونها في الدنيا.

المسألة الرابعة: إنما قلنا: إن رحمة الله ومغفرته خير من نعيم الدنيا لوجوه: أحدها: أن من يطلب المال فهو في تعب من ذلك الطلب في الحال، ولعله لا ينتفع به غدًا لأنه يموت قبل الغد وأما طلب الرحمة والمغفرة فإنه لا بد وأن ينتفع به لأن الله لا يخلف وعده، وقد قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] وثانيها: هب أنه بقي إلى الغد لكن لعل ذلك المال لا يبقى إلى الغد، فكم من إنسان أصبح أميرًا وأمسى أسيرًا، وخيرات الآخرة لا تزول لقوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٤٦] ولقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] وثالثها: بتقدير أن يبقى إلى الغد ويبقى المال إلى الغد، لكن لعله يحدث حادث يمنعك عن الانتفاع به مثل مرض وألم وغيرهما، ومنافع الآخرة ليست كذلك. ورابعها: بتقدير أنه في الغد يمكنك الانتفاع بذلك المال، ولكن لذات الدنيا مشوبة بالآلام ومنافعها مخلوطة بالمضار، وذلك مما لا يخفى، وأما منافع الآخرة فليست كذلك. وخامسها: هب أن تلك المنافع تحصل

في الغد خالصة عن الشوائب ولكنها لا تدوم ولا تستمر، بل تنقطع وتفنى، وكلما كانت اللذة أقوى وأكمل، كان التأسف والتحسر عند فواتها أشد وأعظم، ومنافع الآخرة مصونة عن الانقطاع والزوال. وسادسها: أن منافع الدنيا حسية ومنافع الآخرة عقلية، والحسية خسيسة، والعقلية شريفة، أترى أن انتفاع الحمار بلذة بطنه وفرجه يساوي ابتهاج الملائكة المقربين عند إشراقها بالأنوار الإلهية، فهذه المعاقد الستة تنبهك على ما لانهاية لها من الوجوه الدالة على صحة قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾.

فإن قيل: كيف تكون المغفرة موصوفة بأنها خير مما تجمعون، ولا خير فيما تجمعون أصلاً؟

قلنا: إن الذي تجمعونه في الدنيا قد يكون من باب الحلال الذي يعد خيرًا، وأيضًا هذا وارد على حسب قولهم ومعتقدهم أن تلك الأموال خيرات، فقيل: المغفرة خير من هذه الأشياء التي تظنونها خيرات.

ثم قال: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

واعلم أنه سبحانه وتعالى رغب المجاهدين في الآية الأولى بالحشر إلى مغفرة الله، وفي هذه الآية زاد في إعلاء الدرجات فرغبهم ههنا بالحشر إلى الله، يروى أن عيسى ابن مريم صلوات الله عليه وسلامه مر بأقوام نحفت أبدانهم واصفرت وجوههم، ورأى عليهم آثار العبادة، فقال ماذا تطلبون؟ فقالوا: نخشى عذاب الله، فقال: هو أكرم من أن لا يخلصكم من عذابه، ثم مر بأقوام آخرين فرأى عليهم تلك الآثار فسألهم، فقالوا: نطلب الجنة والرحمة، فقال: هو أكرم من أن يمنعكم رحمته ثم مر بقوم ثالث ورأى آثار العبودية عليهم أكثر، فسألهم فقالوا: نعبده لأنه إلهنا، ونحن عبيده لا لرغبة ولا لرهبة، فقال: أنتم العبيد المخلصون والمتعبدون المحقون، فانظر في ترتيب هذه الآيات فإنه قال في الآية الأولى: ﴿ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهو إشارة إلى من يعبده خوفًا من عقابه، ثم قال ﴿ وَرَحْمَةٌ﴾ وهو إشارة الى من يعبده لطلب ثوابه، ثم قال في خاتمة الآية: ﴿ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ وهو إشارة إلى من يعبد الله لمجرد الربوبية والعبودية، وهذا أعلى المقامات وأبعد النهايات في العبودية في علو الدرجة، ألا ترى أنه لما شرف الملائكة قال: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩] وقال للمقربين من أهل الثواب: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] فبين أن هؤلاء الذين بذلوا أنفسهم وأبدانهم في طاعته ومجاهدة عدوه يكون حشرهم إليه، واستئناسهم بكرمه، وتمتعهم بشروق نور ربوبيته، وهذا مقام فيه إطناب، والمستبصر يرشده القدر الذي أوردناه.

ولنرجع إلى التفسير: كأنه قيل إن تركتم الجهاد واحترزتم عن القتل والموت بقيتم أيامًا قليلة في الدنيا مع تلك اللذات الخسيسة، ثم تتركونها لا محالة، فتكون لذاتها لغيركم وتبعاتها عليكم، أما لو أعرضتم عن لذات الدنيا وطيباتها، وبذلتم النفس والمال للمولى يكون حشركم إلى الله، ووقوفكم على عتبة رحمة الله، وتلذذكم بذكر الله، فشتان ما بين هاتين الدرجتين والمنزلتين.

واعلم أن في قوله: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾ دقائق:

أحدها: أنه لم يقل: تحشرون إلى الله بل قال: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾، وهذا يفيد الحصر، معناه إلى الله يحشر العالمون لا إلى غيره، وهذا يدل على أنه لا حاكم في ذلك اليوم ولا ضار ولا نافع إلا هو، قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقال تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

وثانيها: أنه ذكر من أسماء الله هذا الاسم، وهذا الاسم أعظم الأسماء وهو دال على كمال الرحمة وكمال القهر، فهو لدلالته على كمال الرحمة أعظم أنواع الوعد، ولدلالته على كمال القهر أشد أنواع الوعيد.

وثالثها: إدخال لام التأكيد في اسم الله حيث قال: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ وهذا ينبهك على أن الإلهية تقتضي هذا الحشر والنشر، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

ورابعها: أن قوله: ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ فعل ما لم يسم فاعله، مع أن فاعل ذلك الحشر هو الله، وإنما لم يقع التصريح به لأنه تعالى هو العظيم الكبير الذي، شهدت العقول بأنه هو الله الذي يبدئ ويعيد، ومنه الإنشاء والإعادة، فترك التصريح في مثل هذا الموضع أدل على العظمة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ [هود: ٤٤].

وخامسها: أنه أضاف حشرهم إلى غيرهم، وذلك ينبه العقل على أن جميع الخلق مضطرون في قبضة القدرة ونفاذ المشيئة، فهم سواء كانوا أحياء أم أمواتًا لا يخرجون عن قهر الربوبية وكبرياء الإلهية.

وسادسها: أن قوله: ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ خطاب مع الكل، فهو يدل على أن جميع العالمين يحشرون ويوقفون في عرصة القيامة وبساط العدل، فيجتمع المظلوم مع الظالم، والمقتول مع القاتل، والحق سبحانه وتعالى يحكم بين عبيده بالعدل المبرأ عن الجور، كما قال: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧] فمن تأمل في قوله تعالى: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾ وساعده التوفيق علم أن هذه الفوائد التي ذكرناها كالقطرة من بحار الأسرار المودعة في هذه الآية، وتمسك القاضي بهذه الآية على أن المقتول ليس بميت، قال: لأن قوله: ﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ﴾ يقتضي عطف المقتول على الميت، وعطف الشيء على نفسه ممتنع.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾

واعلم أن القوم لما انهزموا عن النبي ﷺ يوم أُحد ثم عادوا لم يخاطبهم الرسول ﷺ بالتغليظ والتشديد، وإنما خاطبهم بالكلام اللين، ثم إنه سبحانه وتعالى لما أرشدهم في الآيات المتقدمة

إلى ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وكان من جملة ذلك أن عفا عنهم، زاد في الفضل والاحسان بأن مدح الرسول ﷺ على عفوه عنهم، وتركه التغليظ عليهم فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ ومن أنصف علم أن هذا ترتيب حسن في الكلام.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن لينه ﷺ مع القوم عبارة عن حسن خلقه مع القوم قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] وقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وقال عليه الصلاة والسلام: «**لاَ حِلْمَ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ حِلْمِ إِمَامٍ وَرِفْقِهِ، وَلاَ جَهْلَ أَبْغَضُ إِلَى اللَّهِ مِنْ جَهْلِ إِمَامٍ وخرقه**»[(١)] فلما كان عليه الصلاة والسلام إمام العالمين، وجب أن يكون أكثرهم حلمًا وأحسنهم خلقًا. وروي أن امرأة عثمان دخلت عليه ﷺ، وكان النبي وعلي يغسلان السلاح، فقالت: ما فعل ابن عفان؟ أما والله لا تجدونه إمام القوم، فقال لها علي: ألا إن عثمان فضح الزمان اليوم، فقال عليه الصلاة والسلام «**مَهْ**»[(٢)] وروي أنه قال حينئذ: أعياني أزواج الأخوات أن يتحابوا، ولما دخل عليه عثمان مع صاحبيه ما زاد على أن قال: «**لَقَدْ ذَهَبْتُمْ فِيهَا عَرِيضَةً**»[(٣)] وروي عن بعض الصحابة أنه قال: لقد أحسن الله إلينا كل الإحسان، كنا مشركين، فلو جاءنا رسول الله بهذا الدين جملة، وبالقرآن دفعة لثقلت هذه التكاليف علينا، فما كنا ندخل في الإسلام، ولكنه دعانا إلى كلمة واحدة، فلما قبلناها وعرفنا حلاوة الإيمان، قبلنا ما وراءها كلمة بعد كلمة على سبيل الرفق إلى أن تم الدين وكملت الشريعة. وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ فَإِذَا ذَهَبَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْغَائِطِ فَلاَ يَسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ وَلاَ يَسْتَدْبِرْهَا**»[(٤)] واعلم

---

(١) **إسناده ضعيف موقوف**: أخرجه وكيع في (الزهد) (١/ ٤٧٥)، حديث رقم (٤١٢) من طريق عمرو بن مرة عن ابن سابط قال: قال عمر بن الخطاب... فذكره موقوفًا، وهناد في (الزهد) (٢/ ٦٠٢)، حديث رقم (١٢٧٩) من طريق عبد الرحمن بن إسحاق عن عبد الله القرشي عن عبد الله بن حكيم قال: قال عمر... فذكره، والطبري في (التاريخ) (٢/ ٤١٨) من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن سلمة بن كهيل قال: قال عمر... به، وفي إسناده وكيع عن عبد الرحمن بن سابط لم يدرك عمر بن الخطاب، وفي إسناد هناد عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف وأما إسناد الطبري فإسناده مرسلاً إن لم يكن معضلاً، هذا إسناد الموقوف ضعيف ولم أجده مرفوعًا.

(٢) ذكر نحوها ابن المديني في المجموع المغيث: (١/ ٧٠٨)، وابن الأثير في النهاية: (٣/ ١٦٧)، والنكارة ظاهرة عليها، بل كان عثمان وعلي رضي الله عنهما من المتحابين المتصافين في الله سبحانه وتعالى.

(٣) أخرجه الطبري في (تفسيره) (٤/ ١٤٥) من طريق سلمة عن ابن إسحاق قال... فذكره، وفي إسناده إرسال ابن إسحاق مع أنه مدلس.

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الطهارة)، باب: (الاستطابة) (١/ ٦٠/ ٢٢٤) مختصرًا من طريق سهل عن القعقاع... به، وأبو داود في كتاب (الطهارة)، باب: (كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة) (١/ ٩)، حديث رقم (٨)، والنسائي في كتاب (الطهارة)، باب: (النهي عن الاستطابة بالروث) (١/ ٤١)، حديث رقم (٤٠) من

أن سر الأمر في حسن الخلق أمران: اعتبار حال القائل، واعتبار حال الفاعل، أما اعتبار حال القائل فلأن جواهر النفوس مختلفة بالماهية، كما قال عليه الصلاة والسلام: «الأَرْواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَة»[(١)] وقال: «النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ»[(٢)] وكما أنها في جانب النقصان تنتهي إلى غاية البلادة والمهانة والنذالة، واستيلاء الشهوة والغضب عليها واستيلاء حب المال واللذات، فكذلك في جانب الكمال قد تنتهي إلى غاية القوة والجلالة، أما في القوة النظرية فيكون كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] وقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] وأما في القوة العملية، فكما وصفه الله بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] كأنها من جنس أرواح الملائكة، فلا تنقاد للشهوة ولا تميل لدواعي الغضب، ولا تتأثر من حب المال والجاه، فإن من تأثر عن شيء كان المتأثر أضعف من المؤثر، فالنفس إذا مالت إلى هذه المحسوسات كانت روحانياتها أضعف من الجسمانيات، وإذا لم تمل إليها ولم تلتفت إليها كانت روحانياتها مستعلية على الجسمانيات، وهذه الخواص نظرية، وكانت نفسه المقدسة في غاية الجلالة والكمال في هذه الخصال. وأما اعتبار حال الفاعل فقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ عَرَفَ يُسْرَ اللَّهِ في القَدَر هَانَتْ عليْهِ المَصَائِبُ» فإنه يعلم أن الحوادث الأرضية مستندة إلى الأسباب الإلهية، فيعلم أن الحذر لا يدفع القدر، فلا جرم إذا فاته مطلوب لم يغضب، وإذا حصل له محبوب لم يأنس به، لأنه مطلع على الروحانيات التي هي أشرف من هذه الجسمانيات، فلا ينازع أحدًا من هذا العالم في طلب شيء من لذاتها وطيباتها، ولا يغضب على أحد بسبب فوت شيء من مطالبها، ومتى كان الانسان كذلك كان حسن الخلق، طيب العشرة مع الخلق، ولما كان صلوات الله وسلامه عليه أكمل البشر في هذه الصفات الموجبة لحسن الخلق، لا جرم كان أكمل الخلق في حسن الخلق.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا في مسألة القضاء والقدر بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾

طريق يحيى بن سعيد عن محمد بن عجلان... به، وابن ماجه في كتاب (الطهارة)، باب: (الاستنجاء بالحجارة والنهي عن الروث والرمة) (١/ ٤١٤)، حديث رقم (٣١٣) من طريق سفيان بن عيينة عن ابن عجلان... به، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٤٧/ ٢٥٠) من طريق ابن عجلان... به، والدارمي في كتاب (الطهارة)، باب: (الاستنجاء بالأحجار) (١/ ١٨٢)، حديث رقم (٦٧٤) من طريق ابن عجلان... به، وابن خزيمة في (صحيحه) من كتاب (الوضوء)، باب: (النهي عن الاستطابة بدون ثلاثة أحجار) (١/ ٤٣/ ٤٤)، حديث رقم (٨٠)، جميعًا من طريق ابن عجلان... به، كلاهما (سهيل ومحمد بن عجلان) عن القعقاع... به.

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب (الأنبياء)، باب: (الأرواح جنود مجندة) (٦/ ٤٢٦)، حديث رقم (٣٣٣٦)، والبخاري في كتاب (الأدب المفرد) (٢/ ٣٤٤)، حديث رقم (٩٠٠)، ومسلم في كتاب (البر والصلة)، باب: (الأرواح جنود مجندة) (٤/ ٢٠٣١)، حديث رقم (١٥٩)، وأبو داود في كتاب (الأدب)، باب: (في كراهية المراء) (٤/ ٢٦٣)، حديث رقم (٤٨٣٤)، جميعًا من طريق سهيل... به.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٠٣١/ ٢٦٣٨)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٥٣٩)، حديث رقم (١٠٩٦٩)، كلاهما من طريق جعفر بن برقان حدثنا يزيد عن أبي هريرة... به.

وجه الاستدلال أنه تعالى بين أن حسن خلقه مع الخلق، إنما كان بسبب رحمة الله تعالى، فنقول: رحمة الله عند المعتزلة عامة في حق المكلفين، فكل ما فعله مع محمد عليه الصلاة والسلام من الهداية والدعوة والبيان والإرشاد، فقد فعل مثل ذلك مع إبليس وفرعون وهامان وأبي جهل وأبي لهب، فإذا كان على هذا القول كل ما فعله الله تعالى مع المكلفين في هذا الباب مشتركًا فيه بين أصفى الأصفياء، وبين أشقى الأشقياء لم يكن اختصاص بعضهم بحسن الخلق وكمال الطريقة مستفادًا من رحمة الله، فكان على هذا القول تعليل حسن خلق الرسول عليه الصلاة والسلام برحمة الله باطلاً، ولما كان هذا باطلاً علمنا أن جميع أفعال العباد بقضاء الله وبقدره، والمعتزلة يحملون هذا على زيادة الألطاف وهذا في غاية البعد، لأن كل ما كان ممكنًا من الألطاف، فقد فعله في حق المكلفين، والذي يستحقه المكلف بناء على طاعته من مزيد الألطاف، فذاك في الحقيقة إنما اكتسبه من نفسه لا من الله، لأنه متى فعل الطاعة استحق ذلك المزيد من اللطف، ووجب إيصاله إليه، ومتى لم يفعل امتنع إيصاله، فكان ذلك للعبد من نفسه لا من الله.

المسألة الثالثة: ذهب الأكثرون إلى أن (ما) في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صلة زائدة ومثله في القرآن كثير، كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠] و ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ [ص: ١١] ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ [النساء: ١٥٥، المائدة: ١٣] ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ [نوح: ٢٥] قالوا: والعرب قد تزيد في الكلام للتأكيد على ما يستغنى عنه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ [يوسف: ٩٦] أراد فلما جاء، فأكد بأن، وقال المحققون: دخول اللفظ المهمل الضائع في كلام أحكم الحاكمين غير جائز، وهاهنا يجوز أن تكون (ما) استفهامًا للتعجب تقديره: فبأي رحمة من الله لنت لهم، وذلك لأن جنايتهم لما كانت عظيمة ثم إنه ما أظهر ألبتة، تغليظًا في القول، ولا خشونة في الكلام، علموا أن هذا لا يتأتى الا بتأييد رباني وتسديد إلهي، فكان ذلك موضع التعجب من كمال ذلك التأييد والتسديد، فقيل: فبأي رحمة من الله لنت لهم، وهذا هو الأصوب عندي.

المسألة الرابعة: اعلم أن هذه الآية دلت على أن رحمة الله هي المؤثرة في صيرورة محمد عليه الصلاة والسلام رحيمًا بالأمة، فإذا تأملت حقيقة هذه الآية عرفت دلالتها على أنه لا رحمة إلا لله سبحانه، والذي يقرر ذلك وجوه: أحدها: أنه لولا أن الله ألقى في قلب عبده داعية الخير والرحمة واللطف لم يفعل شيئًا من ذلك، وإذا ألقى في قلبه هذه الداعية فعل هذه الأفعال لا محالة، وعلى هذا التقدير فلا رحمة إلا لله: وثانيها: أن كل رحيم سوى الله تعالى فإنه يستفيد برحمته عوضًا، إما هربًا من العقاب، أو طلبًا للثواب، أو طلبًا للذكر الجميل، فإذا فرضنا صورة خالية عن هذه الأمور كان السبب هو الرقة الجنسية، فإن من رأى حيوانًا في الألم رق قلبه، وتألم بسبب مشاهدته إياه في الألم، فيخلصه عن ذلك الألم دفعًا لتلك الرقة عن قلبه، فلو لم يوجد شيء من هذه الأعراض لم يرحم ألبتة، أما الحق سبحانه وتعالى فهو الذي يرحم لا

لغرض من الأغراض، فلا رحمة إلا لله، وثالثها: أن كل من رحم غيره فإنه إنما يرحمه بأن يعطيه مالاً، أو يبعد عنه سببًا من أسباب المكروه والبلاء، إلا أن المرحوم لا ينتفع بذلك المال إلا مع سلامة الأعضاء، وهي ليست إلا من الله تعالى، فلا رحمة في الحقيقة إلا لله، وأما في الظاهر فكل من أعانه الله على الرحمة سمي رحيمًا، قال عليه السلام: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ» (١) وقال في صفة محمد عليه السلام: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

واعلم أن كمال رحمة الله في حق محمد ﷺ أنه عرفه مفاسد الفظاظة والغلظة.

وفيه مسائل.

المسألة الأولى: قال الواحدي: رحمه الله تعالى: الفظ، الغليظ الجانب السيئ الخلق، يقال: فظظت تفظ فظاظة فأنت فظ، وأصله فظظ، كقوله: حذر من حذرت، وفرق من فرقت، إلا أن ما كان من المضاعف على هذا الوزن يدغم نحن رجل صب، وأصله صبب، وأما (الفض) بالضاد فهو تفريق الشيء، وانفض القوم تفرقوا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١] ومنه: فضضت الكتاب، ومنه يقال: لا يفضض الله فاك.

فإن قيل: ما الفرق بين الفظ وبين غليظ القلب؟

قلنا: الفظ الذي يكون سيئ الخلق، وغليظ القلب هو الذي لا يتأثر قلبه عن شيء، فقد لا يكون الانسان سيئ الخلق ولا يؤذي أحدًا ولكنه لا يرق لهم ولا يرحمهم، فظهر الفرق من هذا الوجه.

المسألة الثانية: أن المقصود من البعثة أن يبلغ الرسول تكاليف الله إلى الخلق، وهذا المقصود لا يتم إلا إذا مالت قلوبهم إليه وسكنت نفوسهم لديه، وهذا المقصود لا يتم إلا إذا كان رحيمًا كريمًا، يتجاوز عن ذنبهم، ويعفو عن إساءتهم، ويخصهم بوجوه البر والمكرمة والشفقة، فلهذه الأسباب وجب أن يكون الرسول مبرأ عن سوء الخلق، وكما يكون كذلك وجب أن يكون غير غليظ القلب، بل يكون كثير الميل إلى إعانة الضعفاء، كثير القيام بإعانة الفقراء، كثير التجاوز عن سيآتهم، كثير الصفح عن زلاتهم، فلهذا المعنى قال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ ولو انفضوا من حولك فات المقصود من البعثة والرسالة. وحمل

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (الأدب)، باب: (في الرحمة) (٤/ ٢١٠٤/ ٢١٠٥)، حديث رقم (٤٩٤١)، والترمذي في كتاب (البر والصلة)، باب: (ما جاء في رحمة المسلمين) (٤/ ٢٨٥)، حديث رقم (١٩٢٤).

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، والإمام أحمد في (مسنده) (٢/ ١٦٠)، حديث رقم (١٦٩٤)، أحمد شاكر، والحميدي في (مسنده) (٢/ ٢٦٩)، حديث رقم (٥٩١)، جميعًا من طريق سفيان... به.

القفال رحمه الله هذه الآية على واقعة أُحد قال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ يوم أُحد حين عادوا إليك بعد الانهزام ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ وشافهتهم بالملامة على ذلك الانهزام لانفضوا من حولك، هيبة منك وحياء بسبب ما كان منهم من الانهزام، فكان ذلك مما لا يطمع العدو فيك وفيهم.

المسألة الثالثة: اللين والرفق إنما يجوز إذا لم يفض إلى إهمال حق من حقوق الله، فأما إذا أدى إلى ذلك لم يجز، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] وقال للمؤمنين في إقامة حد الزنا: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢].

وههنا دقيقة أخرى: وهي أنه تعالى منعه من الغلظة في هذه الآية، وأمره بالغلظة في قوله: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] فههنا نهاه عن الغلظة على المؤمنين، وهناك أمره بالغلظة مع الكافرين، فهو كقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وتحقيق القول فيه أن طرفي الإفراط والتفريط مذمومان، والفضيلة في الوسط، فورود الأمر بالتغليظ تارة، وأخرى بالنهي عنه، إنما كان لأجل أن يتباعد عن الإفراط والتفريط، فيبقى على الوسط الذي هو الصراط المستقيم، فلهذا السر مدح الله الوسط فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ثم قال تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ واعلم أنه تعالى أمره في هذه الآية بثلاثة أشياء: أولها: بالعفو عنهم.

وفيه مسائل.

المسألة الأولى: أن كمال حال العبد ليس إلا في أن يتخلق بأخلاق الله تعالى، قال عليه السلام: «تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ» (١) ثم إنه تعالى لما عفا عنهم في الآية المتقدمة أمر الرسول أيضًا أن يعفو عنهم ليحصل للرسول عليه السلام فضيلة التخلق بأخلاق الله.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يتعلق بحقك ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما يتعلق بحق الله تعالى.

المسألة الثالثة: ظاهر الأمر للوجوب، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ يدل على التعقيب، فهذا يدل على أنه تعالى أوجب عليه أن يعفو عنهم في الحال، وهذا يدل على كمال الرحمة الإلهية حيث عفا هو عنهم، ثم أوجب على رسوله أن يعفو في الحال عنهم.

واعلم أن قوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ إيجاب للعفو على الرسول عليه السلام، ولما آل الأمر إلى الأمة لم يوجبه عليهم، بل ندبهم إليه فقال تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ليعلم أن حسنات الأبرار سيآت المقربين. وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

---

(١) أورده الألباني في (الضعيفة) (٦/ ٣٢٣)، حديث رقم (٢٨٢٢)، وقال: لا أصل له.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في هذه الآية دلالة قوية على أنه تعالى يعفو عن أصحاب الكبائر، وذلك لأن الانهزام في وقت المحاربة كبيرة لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٦] فثبت أن انهزام أهل أُحد كان من الكبائر، ثم إنه تعالى نص في الآية المتقدمة على أنه عفا عنهم وأمر رسوله ﷺ في هذه الآية بالعفو عنهم، ثم أمره بالاستغفار لهم، وذلك من أدل الدلائل على ما ذكرنا.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أمر له بالاستغفار لأصحاب الكبائر، وإذا أمره بطلب المغفرة لا يجوز أن لا يجيبه إليه، لأن ذلك لا يليق بالكريم، فدلت هذه الآية على أنه تعالى يشفع محمدًا ﷺ في الدنيا في حق أصحاب الكبائر، فبأن يشفعه في حقهم في القيامة كان أولى.

المسألة الثالثة: أنه سبحانه وتعالى عفا عنهم أولاً بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥] ثم أمر محمدًا ﷺ في هذه الآية بالاستغفار لهم ولأجلهم، كأنه قيل له: يا محمد استغفر لهم فإني قد غفرت لهم قبل أن تستغفر لهم، واعف عنهم فإني قد عفوت عنهم قبل عفوك عنهم، وهذا يدل على كمال رحمة الله لهذه الأمة، وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: يقال: شاورهم مشاورة وشوارًا ومشورة، والقوم شورى، وهي مصدر سمي القوم بها كقوله: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧] قيل: المشاورة مأخوذة من قولهم: شرت العسل أشوره إذا أخذته من موضعه واستخرجته، وقيل مأخوذة من قولهم: شرت الدابة شورًا إذا عرضتها، والمكان الذي يعرض فيه الدواب يسمى مشوارًا، كأنه بالعرض يعلم خيره وشره، فكذلك بالمشاورة يعلم خير الأمور وشرها.

المسألة الثانية: الفائدة في أنه تعالى أمر الرسول بمشاورتهم وجوه: الأول: أن مشاورة الرسول ﷺ إياهم توجب علو شأنهم ورفعة درجتهم، وذلك يقتضي شدة محبتهم له وخلوصهم في طاعته، ولو لم يفعل ذلك لكان ذلك إهانة بهم فيحصل سوء الخلق والفظاظة. الثاني: أنه عليه السلام وإن كان أكمل الناس عقلاً إلا أن علوم الخلق متناهية، فلا يبعد أن يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح ما لا يخطر بباله، لا سيما فيما يفعل من أمور الدنيا فإنه عليه السلام قال: «**أنتم أعرف بأمور دنياكم وأنا أعرف بأمور دينكم**» ولهذا السبب قال عليه السلام: «**مَا تَشَاوَرَ قَوْمٌ قَطُّ إلاَّ هُدُوا لأرشد أمرهم**» الثالث: قال الحسن وسفيان بن عيينة إنما أمر بذلك ليقتدي به غيره في المشاورة ويصير سنة في أمته. الرابع: أنه عليه السلام شاورهم في واقعة أُحد فأشاروا عليه بالخروج، وكان ميله إلى أن يخرج، فلما خرج وقع ما وقع، فلو ترك مشاورتهم بعد ذلك لكان ذلك يدل على أنه بقي في قلبه منهم بسبب مشاورتهم بقية أثر. فأمره الله تعالى بعد تلك الواقعة

بأن يشاورهم ليدل على أنه لم يبق في قلبه أثر من تلك الواقعة. الخامس: وشاورهم في الأمر، لا لتستفيد منهم رأيًا وعلمًا، لكن لكي تعلم مقادير عقولهم وأفهامهم ومقادير حبهم لك وإخلاصهم في طاعتك فحينئذ يتميز عندك الفاضل من المفضول فبين لهم على قدر منازلهم. السادس: وشاورهم في الأمر لا لأنك محتاج إليهم، ولكن لأجل أنك إذا شاورتهم في الأمر اجتهد كل واحد منهم في استخراج الوجه الأصلح في تلك الواقعة، فتصير الأرواح متطابقة متوافقة على تحصيل أصلح الوجوه فيها، وتطابق الأرواح الطاهرة على الشيء الواحد مما يعين على حصوله، وهذا هو السر عند الاجتماع في الصلوات. وهو السر في أن صلاة الجماعة أفضل من صلاة المنفرد. السابع: لما أمر الله محمدًا عليه السلام بمشاورتهم دلَّ ذلك على أن لهم عند الله قدرًا وقيمة، فهذا يفيد أن لهم قدرًا عند الله وقدرًا عند الرسول وقدرًا عند الخلق. الثامن: الملك العظيم لا يشاور في المهمات العظيمة إلا خواصه والمقربين عنده، فهؤلاء لما أذنبوا عفا الله عنهم، فربما خطر ببالهم أن الله تعالى وإن عفا عنا بفضله إلا أنه ما بقيت لنا تلك الدرجة العظيمة، فبين الله تعالى أن تلك الدرجة ما انتقصت بعد التوبة، بل أنا أزيد فيها، وذلك أن قبل هذه الواقعة ما أمرت رسولي بمشاورتكم، وبعد هذه الواقعة أمرته بمشاورتكم، لتعلموا أنكم الآن أعظم حالاً مما كنتم قبل ذلك، والسبب فيه أنكم قبل هذه الواقعة كنتم تعولون على أعمالكم وطاعتكم، والآن تعولون على فضلي وعفوي، فيجب أن تصير درجتكم ومنزلتكم الآن أعظم مما كان قبل ذلك، لتعلموا أن عفوي أعظم من عملكم وكرمي أكثر من طاعتكم. والوجوه الثلاثة الأول مذكورة، والبقية مما خطر ببالي عند هذا الموضع، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

المسألة الثالثة: اتفقوا على أن كل ما نزل فيه وحي من عند الله لم يجز للرسول أن يشاور فيه الأمة، لأنه إذا جاء النص بطل الرأي والقياس، فأما ما لا نص فيه فهل تجوز المشاورة فيه في جميع الأشياء أم لا؟ قال الكلبي وكثير من العلماء: هذا الأمر مخصوص بالمشاورة في الحروب وحجته أن الألف واللام في لفظ ﴿ ٱلْأَمْرِ ﴾ ليسا للاستغراق، لما بين أن الذي نزل فيه الوحي لا تجوز المشاورة فيه، فوجب حمل الألف واللام ههنا على المعهود السابق، والمعهود السابق في هذه الآية إنما هو ما يتعلق بالحرب ولقاء العدو، فكان قوله: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ مختصًا بذلك، ثم قال القائلون بهذا القول: قد أشار الحباب بن المنذر يوم بدر على النبي ﷺ بالنزول على الماء فقبل منه [1]، فأشار عليه السعدان: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، يوم الخندق بترك مصالحة غطفان على بعض ثمار المدينة لينصرفوا، فقبل منهما وخرق الصحيفة، ومنهم من قال: اللفظ عام خص عنه ما نزل فيه وحي فتبقى حجته في الباقي، والتحقيق في القول أنه تعالى

(١) أخرجه البيهقي في (سننه الكبرى) (٩/ ٨٤)، وقال: روى أبو داود في المراسيل عن محمد بن عبيد عن حماد بن يحيى بن سعيد قال: استشار . . . الحديث.

أمر أولي الأبصار بالاعتبار فقال: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢] وكان عليه السلام سيد أولي الأبصار، ومدح المستنبطين فقال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء: ٨٣] وكان أكثر الناس عقلاً وذكاء، وهذا يدل على أنه كان مأمورًا بالاجتهاد إذا لم ينزل عليه الوحي، والاجتهاد يتقوى بالمناظرة والمباحثة فلهذا كان مأمورًا بالمشاورة. وقد شاورهم يوم بدر في الأسارى وكان من أمور الدين، والدليل على أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس أن النص كان لعامة الملائكة في سجود آدم، ثم إن ابليس خص نفسه بالقياس وهو قوله: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢] فصار ملعونًا، فلو كان تخصيص النص بالقياس جائزًا لما استحق اللعن بهذا السبب.

المسألة الرابعة: ظاهر الأمر للوجوب فقوله: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ﴾ يقتضي الوجوب، وحمل الشافعي رحمه الله ذلك على الندب فقال هذا كقوله عليه الصلاة والسلام: «الْبِكْرُ تُسْتَأْمَرُ فِي نَفْسِهَا» (١) ولو أكرهها الأب على النكاح جاز، لكن الأولى ذلك تطييبًا لنفسها فكذا هاهنا.

المسألة الخامسة: روى الواحدي في الوسيط عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أنه قال: الذي أمر النبي ﷺ بمشاورته في هذه الآية أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وعندي فيه إشكال، لأن الذين أمر الله رسوله بمشاورتهم في هذه الآية هم الذين أمره بأن يعفو عنهم ويستغفر لهم وهم المنهزمون، فهب أن عمر كان من المنهزمين فدخل تحت الآية، إلا أن أبا بكر ما كان منهم فكيف يدخل تحت هذه الآية، والله أعلم.

ثم قال: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المعنى أنه إذا حصل الرأي المتأكد بالمشورة فلا يجب أن يقع الاعتماد عليه بل يجب أن يكون الاعتماد على إعانة الله وتسديده وعصمته، والمقصود أن لا يكون للعبد

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (النكاح)، باب: (استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت) (٢/ ١٠٣٧/ ٦٦) من طريق سعيد بن منصور... به، وأبو داود في كتاب (النكاح)، باب: (في الثيب) (٢/ ٢٣٩)، حديث رقم (٢٠٩٨) من طريق أحمد بن يونس وعبد الله بن مسلمة... به، والترمذي في كتاب (النكاح)، باب: (في استئمار البكر والثيب) (٣/ ٤١٦)، حديث رقم (١١٠٨) من طريق قتيبة... به، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في كتاب (النكاح)، باب: (استئذان البكر في نفسها) (٦/ ٣٩١)، حديث رقم (٣٢٦٠) من طريق قتيبة... به، وابن ماجه في كتاب (النكاح)، باب: (استئمار البكر والثيب) (١/ ٦٠١)، حديث رقم (١٨٧٠) من طريق إسماعيل بن موسى... به، ومالك في (الموطأ)، كتاب (النكاح)، باب: (استئذان البكر والأيم في نفسها) (٢/ ٥٢٤)، حديث رقم (٤)، وأحمد في (مسنده) (١/ ٢١٩/ ٢٤١) من طريق عبد الرحمن بن مهدي... به، جميعًا عن مالك... به، وأحمد في (مسنده) (١/ ٢٧٤)، حديث رقم (٢٤٨١) من طريق أبي أحمد... به، وكذلك في (١/ ٣٥٥) حديث رقم (٣٣٤٣) من طريق سفيان... به، والدارمي في كتاب (النكاح)، باب: (استئمار البكر والثيب) (١/ ٦٢٢)، حديث رقم (٢١٩٠)، جميعًا عن عبيد الله بن عبد الرحمن بن موهب... به.

اعتماد على شيء إلا على الله في جميع الأمور.

المسألة الثانية: دلت الآية على أنه ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه، كما يقوله بعض الجهال، وإلا لكان الأمر بالمشاورة منافيًا للأمر بالتوكل، بل التوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة، ولكن لا يعول بقلبه عليها، بل يعول على عصمة الحق.

المسألة الثالثة: حكي عن جابر بن زيد أنه قرأ (فإذا عزمتُ) بضم التاء، كأن الله تعالى قال للرسول إذا عزمت أنا فتوكل، وهذا ضعيف من وجهين: الأول: وصف الله بالعزم غير جائز، ويمكن أن يقال: هذا العزم بمعنى الإيجاب والإلزام، والمعنى وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت لك على شيء وأرشدتك إليه. فتوكل علي، ولا تشاور بعد ذلك أحدا. والثاني: أن القراءة التي لم يقرأ بها أحد من الصحابة لا يجوز إلحاقها بالقرآن، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ والغرض منه ترغيب المكلفين في الرجوع إلى الله تعالى والإعراض عن كل ما سوى الله.

قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

قال ابن عباس: إن ينصركم الله كما نصركم يوم بدر. فلا يغلبكم أحد، وإن يخذلكم كما خذلكم يوم أحد لم ينصركم أحد.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قيل المقصود من الآية الترغيب في الطاعة، والتحذير عن المعصية، وذلك لأنه تعالى بيّن فيما تقدم أن من اتقى معاصي الله تعالى نصره الله، وهو قوله: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [آل عمران: ١٢٥] ثم بين في هذه الآية أن من نصره الله فلا غالب له، فيحصل من مجموع هاتين المقدمتين، أن من اتقى الله فقد فاز بسعادة الدنيا والآخرة فإنه يفوز بسعادة لا شقاوة معها وبعز لا ذل معه، ويصير غالبًا لا يغلبه أحد، وأما من أتى بالمعصية فإن الله يخذله، ومن خذله الله فقد وقع في شقاوة لا سعادة معها، وذل لا عز معه.

المسألة الثانية: احتج الأصحاب بهذه الآية على أن الإيمان لا يحصل إلا بإعانة الله، والكفر لا يحصل إلا بخذلانه، والوجه فيه ظاهر لأنها دالة على أن الأمر كله لله.

المسألة الثالثة: قرأ عبيد بن عمير (وإن يُخْذِلْكُم) من أخذله إذا جعله مخذولاً.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ فيه وجهان: الأول: يعني من بعد خذلانه، والثاني: أنه مثل قولك: ليس لك من يحسن إليك من بعد فلان.

ثم قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني لما ثبت أن الأمر كله بيد الله، وأنه لا راد لقضائه ولا

دافع لحكمه، وجب أن لا يتوكل المؤمن إلا عليه، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يفيد الحصر، أي على الله فليتوكل المؤمنون لا على غيره.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بالغ في الحث على الجهاد أتبعه بذكر أحكام الجهاد. ومن جملتها المنع من الغلول، فذكر هذه الآية في هذا المعنى.

وفيها مسائل:

المسألة الأولى: الغلول هو الخيانة، وأصله أخذ الشيء في الخفية، يقال: أغل الجازر والسالخ إذا أبقى في الجلد شيئًا من اللحم على طريق الخيانة، والغل الحقد الكامن في الصدر. والغلالة الثوب الذي يلبس تحت الثياب، والغلل الماء الذي يجري في أصول الشجرة لأنه مستتر بالأشجار وتغلل الشيء إذا تخلل وخفي، وقال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ بَعَثْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَغَلَّ شَيْئًا، جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى عُنُقِه**» وقال: «**هدايا الولاة غلول**» وقال: «**لَيْسَ عَلَى الْمُسْتَعِيرِ غَيْرِ الْمُغِلِّ ضَمَانٌ**» وقال: «**لاَ إِغْلاَلَ وَلاَ إِسْلاَلَ**» وأيضًا يقال: أغله إذا وجده غالاً، كقولك: أبخلته وأفحمته. أي: وجدته كذلك.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وعاصم وأبو عمرو (يَغُلّ) بفتح الياء وضم الغين، أي ما كان للنبي أن يخون، وقرأ الباقون من السبعة (يغل) بضم الياء وفتح الغين، أي: ما كان للنبي أن يخان.

واختلفوا في أسباب النزول، فبعضها يوافق القراءة الأولى. وبعضها يوافق القراءة الثانية.

أما النوع الأول: ففيه روايات: الأولى: أنه عليه الصلاة والسلام غنم في بعض الغزوات وجمع الغنائم، وتأخرت القسمة لبعض الموانع، فجاء قوم وقالوا: ألا تقسم غنائمنا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**لَوْ كَانَ لَكُمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا حَبَسْتُ عَنْكُمْ دِرْهَمًا، أَتَحْسَبُونَ أَنِّي أَغُلُّكُمْ مَغْنَمَكُمْ**» فأنزل الله هذه الآية. الثاني: أن هذه الآية نزلت في أداء الوحي، كان عليه الصلاة والسلام يقرأ القرآن وفيه عيب دينهم وسب آلهتم، فسألوه أن يترك ذلك فنزلت هذه الآية. الثالث: روى عكرمة وسعيد بن جبير: أن الآية نزلت في قطيفة حمراء فُقدت يوم بدر، فقال بعض الجهال لعل النبي ﷺ أخذها فنزلت هذه الآية[1]. الرابع: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق آخر أن أشراف الناس طمعوا أن يخصهم النبي عليه الصلاة والسلام من الغنائم بشيء زائد فنزلت

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (الحروف والقراءات) (٤/ ١٧٠٨)، حديث رقم (٣٩٧١)، والترمذي في كتاب (تفسير القرآن)، باب: (سورة آل عمران) (٥/ ٢١٤)، حديث رقم (٣٠٠٩)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من طريق قتيبة... به.

هذه الآية. الخامس: روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث طلائع فغنموا غنائم فقسمها ولم يقسم للطلائع فنزلت هذه الآية[(١)]. السادس: قال الكلبي ومقاتل: نزلت هذه الآية حين ترك الرماة المركز يوم أُحد طلبًا للغنيمة وقالوا: نخشى أن يقول النبي ﷺ: من أخذ شيئًا فهو له وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر، فقال عليه الصلاة والسلام: «**ظننتم أنا نغل فلا نقسم لكم**» فنزلت هذه الآية[(٢)].

واعلم أن على الرواية الأولى المراد من الآية النهي عن أن يكتم الرسول شيئًا من الغنيمة عن أصحابه لنفسه، وعلى الروايات الثلاثة يكون المقصود نهيه عن الغلول، بأن يعطى للبعض دون البعض.

وأما ما يوافق القراءة الثانية: فروي أن النبي ﷺ لما وقعت غنائم هوازن في يده يوم حنين، غل رجل بمخيط فنزلت هذه الآية[(٣)]. واعلم أن النبي ﷺ عظم أمر الغلول وجعله من الكبائر، عن ثوبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ فَارَقَ الرُّوحُ الْجَسَدَ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ثَلَاثٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ: الْغُلُولِ وَالدَّيْنِ وَالْكِبْرِ**»[(٤)] وعن عبد الله بن عمرو: أن رجلًا كان على ثقل النبي ﷺ، يقال له: كركرة فمات، فقال النبي ﷺ: «**هُوَ فِي النَّارِ**»[(٥)] فذهبوا ينظرون فوجدوا عليه كساء وعباءة قد غلهما، وقال عليه الصلاة والسلام: «**أَدُّوا الْخَيطَ وَالْمَخِيطَ فَإِنَّهُ عَارٌ وَنَارٌ وَشَنَارٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(٦)]

---

(١) إسناده معضل: أخرجه الطبري في (تفسيره) (٤/ ١٥٦)، وابن أبي شيبة في مسنده (١٢/ ٤١٣)، حديث رقم (٣٣٩٠٦)، كلاهما من طريق سَلَمَةَ بْنُ نُبَيْطٍ، عَنِ الضَّحَّاكِ، قال: بعث رسول الله ﷺ طلائع... الحديث.

(٢) ذكر الألوسي في (روح المعاني) (٣/ ٢٩٣)، وقال: حكى الواحدي عن الكلبي ومقاتل... فذكره.

(٣) سيأتي برقم (٦) بنحوه.

(٤) صحيح: أخرجه الترمذي في كتاب (السير)، باب: (ما جاء في الغلول) (٤/ ١١٧)، حديث رقم (١٥٧٢) من طريق سعيد... به، وابن ماجه في كتاب (الصدقات)، باب: (التشديد في الدين) (٢/ ٨٠٦)، حديث رقم (٢٤١٢) من طريق سعيد... به، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٢٧٦)، والدارمي في كتاب (البيوع)، باب: (ما جاء في التشديد في الدين) (٢/ ١٣٥)، حديث رقم (٢٥٩٢)، قال: حدثنا عفان وهمام... به، ثلاثتهم (همام، سعيد، أبان) عن قتادة عن سالم عن معدان... فذكره.

(٥) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الجهاد)، باب: (القليل من الغلول) (٣/ ١١١٩)، حديث رقم (٢٩٠٩)، وابن ماجه في (سننه) (٢/ ٩٥٠)، حديث رقم (٢٨٤٩)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ١٦٠)، حديث رقم (٦٤٩٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٢/ ٤٩١)، حديث رقم (٣٤٢١٢)، جميعًا من طريق عمرو بن دينار، عن سالم بن أبي الجعد، عن ابن عمر، قال: كان على ثقل النبي ﷺ رجل، يقال له: كركرة فمات... الحديث.

(٦) حسن: أخرجه ابن ماجه في كتاب (الجهاد)، باب: (الغلول) (٢/ ٩٥٠)، حديث رقم (٥٨٥٠) من طريق يعلى بن شداد عن عبادة بن الصامت... به.

وفي الزوائد: وفي إسناده عيسى بن سنان اختلف فيه كلام ابن معين، قال: لين الحديث وليس بالقوي قيل: ضعيف، وقيل: لا بأس به وذكره ابن حيان في الثقات وباقي رجال الإسناد ثقات وله شاهد من طريق عمرو بن شعيب عنه، وأخرجه أبو داود في كتاب (الجهاد)، باب: (في فداء الأسير بالمال) (٣/ ٦٣)، حديث رقم (٢٦٩٤) من طريق عمرو بن شعيب... به، والنسائي في كتاب (الهبة)، باب: (هبة المشاع) (٦/ ٥٧٤/ ٥٧٥)، حديث رقم

وروي رويفع بن ثابت الأنصاري عن النبي ﷺ أنه قال: «لاَ يَحِلُّ لِأَحَدٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَرْكَبَ دَابَّةً مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى إِذَا أَعْجَفَهَا رَدَّهَا وَلاَ يَحِلُّ لامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَلْبَسَ ثَوْبًا حَتَّى إِذَا أَخْلَقَهُ رَدَّهُ» (١)وروي أنه ﷺ جعل سلمان علي الغنيمة فجاءه رجل وقال يا سلمان كان في ثوبي خرق فأخذت خيطًا من هذا المتاع فخطته به، فهل علي جناح؟ فقال سلمان: كل شيء بقدره فسل الرجل الخيط من ثوبه ثم ألقاه في المتاع (٢) وروي أن رجلاً جاء النبي ﷺ بشراك أو شراكين من المغنم، فقال: أصبت هذا يوم خيبر، فقال النبي ﷺ «شِرَاكٌ أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ» (٣)ورُمي رجل بسهم في خيبر، فقال القوم لما مات: هنيئًا له الشهادة فقال عليه الصلاة والسلام: «كَلاَّ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ الشَّمْلَةَ التى أَخَذَهَا مِنَ الْغَنَائِمِ قبل قسمتها لَتَلْتَهِبُ عَلَيْهِ نَارًا» (٤)واعلم أنه يستثنى عن هذا النهي حالتان.

الحالة الأولى:أخذ الطعام وأخذ علف الدابة بقدر الحاجة، قال عبد الله بن أبي أوفى: أصبنا طعامًا يوم حنين، فكان الرجل يأتي فيأخذ منه قدر الكفاية ثم ينصرف، وعن سلمان أنه أصاب يوم المدائن أرغفة وجبنًا وسكينًا، فجعل يقطع من الجبن ويقول: كلوا على اسم الله.

الحالة الثانية:إذا احتاج اليه، روي عن البراء بن مالك أنه ضرب رجلاً من المشركين يوم اليمامة فوقع على قفاه فأخذ سيفه وقتله به.

المسألة الثالثة:أما القراءة بفتح الياء وضم الغين، بمعنى: ما كان لنبي أن يخون، فله تأويلان: الأول: أن يكون المراد أن النبوة والخيانة لا يجتمعان، وذلك لأن الخيانة سبب للعار في الدنيا والنار في الآخرة، فالنفس الراغبة فيها تكون في نهاية الدناءة، والنبوة أعلى المناصب الإنسانية فلا تليق إلا بالنفس التي تكون في غاية الجلالة والشرف، والجمع بين الصفتين في النفس الواحدة ممتنع، فثبت أن النبوة والخيانة لا تجتمعان، فنظير هذه الآية قوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ

(٣٦٩٠)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ١٨٤) من طريق عمرو بن شعيب... به، والدارمي في كتاب (السير)، باب: ما جاء أنه قال: «أدوا الخياط والمخيط» (٢/ ٩٥)، حديث رقم (٢٤٨٧).

(١) **حسن صحيح**:أخرجه أبو داود في كتاب (الجهاد)، باب: (في الرجل ينتفع من الغنيمة بالشيء) (٣/ ١١٧٦)، حديث رقم (٢٧٠٨)، وأحمد في (مسنده) (٤/ ١٠٨/ ١٠٩)، والدارمي في (سننه) (٢/ ٣٠٢)، حديث رقم (٢٤٨٨)، والبيهقي في (سننه) (٩/ ٦٢)، وابن حبان في (الموارد) (٥/ ٢٨١)، حديث رقم (١٦٧٥)، جميعًا من طريق محمد بن إسحاق... به.

(٢) **إسناده ضعيف**:أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٢/ ٢٢٣)، حديث رقم (٣٣٢٣٣) من طريق قابوس، عن أبيه، قال: كان سلمان على قبض من قبض المهاجرين، فجاء إليه رجل... الحديث، وفي إسناده قابوس بن أبي ظبيان قال الحافظ: فيه لين.

(٣) **متفق عليه**:أخرجه البخاري في كتاب (الإيمان)، باب: (هل يدخل في الإيمان) (١١/ ٦٠٠)، حديث رقم (٦٧٠٧)، ومسلم في كتاب (الإيمان)، باب: (غلظ تحريم الغلول) (١/ ١٨٣/ ١٠٨)، كلاهما من طريق مالك... به.

(٤)انظر سابقه.

أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥] يعني: الإلهية واتخاذ الولد لا يجتمعان، وقيل: اللام منقولة، والتقدير: وما كان النبي ليغل، كقوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ أي ما كان الله ليتخذ ولدًا.

الوجه الثاني: في تأويل هذه الآية على هذه القراءة أن يقال: إن القوم قد التمسوا منه أن يخصهم بحصة زائدة من الغنائم، ولا شك أنه لو فعل ذلك لكان ذلك غلولاً، فأنزل الله تعالى هذه الآية مبالغة في النهي له عن ذلك، ونظيره قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٥] فقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أي: ما كان يحل له ذلك، وإذا لم يحل له لم يفعله، ونظيره قوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ [النور: ١٦] أي: ما يحل لنا. وإذا عرفت تأويل الآية على هذه القراءة فنقول: حجة هذه القراءة وجوه: أحدها: أن أكثر الروايات في سبب نزول هذه الآية أنهم نسبوا الرسول ﷺ إلى الغلول، فبين الله بهذه الآية أن هذه الخصلة لا تليق به. وثانيها: أن ما هو من هذا القبيل في التنزيل أسند الفعل فيه إلى الفاعل كقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٨] و ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ [يوسف: ٧٦] ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥] ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ [التوبة: ١١٥] ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] وقل أن يقال: ما كان زيد ليضرب، وإذا كان كذلك وجب إلحاق هذه الآية بالأعم الأغلب، ويؤكده ما حكى أبو عبيدة عن يونس أنه كان يختار هذه القراءة، وقال: ليس في الكلام ما كان لك أن تضرب، بضم التاء. وثالثها: أن هذه القراءة اختيار ابن عباس: فقيل له إن ابن مسعود يقرأ (يغل) فقال ابن عباس: كان النبي يقصدون قتله، فكيف لا ينسبونه إلى الخيانة؟ وأما القراءة الثانية وهي (يغل) بضم الياء وفتح الغين ففي تأويلها وجهان: الأول: أن يكون المعنى: ما كان للنبي أن يخان.

واعلم أن الخيانة مع كل أحد محرمة، وتخصيص النبي بهذه الحرمة فيه فوائد: أحدها: أن المجني عليه كلما كان أشرف وأعظم درجة كانت الخيانة في حقه أفحش، والرسول أفضل البشر فكانت الخيانة في حقه أفحش. وثانيها: أن الوحي كان يأتيه حالاً فحالاً، فمن خانه فربما نزل الوحي فيه فيحصل له مع عذاب الآخرة فضيحة الدنيا. وثالثها: ان المسلمين كانوا في غاية الفقر في ذلك الوقت فكانت تلك الخيانة هناك أفحش.

الوجه الثاني: في التأويل: أن يكون من الإغلال: أن يخون، أي: ينسب إلى الخيانة، قال المبرد تقول العرب: أكفرت الرجل جعلته كافرًا ونسبته إلى الكفر، قال العتبي: لو كان هذا هو المراد لقيل: يغلل، كما قيل: يفسق ويفجر ويكفر، والأولى: أن يقال: إنه من أغللته، أي: وجدته غالاً، كما يقال: أبخلته وأفحمته، أي: وجدته كذلك. قال صاحب (الكشاف): وهذه القراءة بهذا التأويل يقرب معناها من معنى القراءة الأولى، لأن هذا المعنى لهذه القراءة هو أنه لا يصح أن يوجد النبي غالاً، لأنه يوجد غالاً إلا إذا كان غالاً.

المسألة الرابعة: قد ذكرنا أن الغلول هو الخيانة، إلا أنه في عرف الاستعمال صار مخصوصًا بالخيانة في الغنيمة، وقد جاء هذا أيضًا في غير الغنيمة، قال ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الغلول الرجلان يكون بينهما الدار والأرض فإن اقتطع أحدهما من صاحبه موضع حصاة طوقها من الأرضين السبع**»(١) وعلى هذا التأويل يكون المعنى كونه صلوات الله وسلامه عليه مبرأ عن جميع الخيانات، وكيف لا نقول ذلك والكفار كانوا يبذلون له الأموال العظيمة لترك ادعاء الرسالة فكيف يليق بمن كان كذلك وكان أمينًا لله في الوحي النازل إليه من فوق سبع سموات أن يخون الناس!

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وفيه وجهان: الأول: وهو قول أكثر المفسرين إجراء هذه الآية على ظاهرها، قالوا: وهي نظير قوله في مانع الزكاة: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟﴾ [التوبة: ٣٥] ويدل عليه قوله: «**لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدكُمْ يَجِيء يَوْم الْقِيَامَة عَلَى رَقَبَته بَعِير لَهُ رُغَاء، أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خُوَارٌ، أو شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، فَيُنَادِي يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، فأقولَ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، قَدْ بَلَّغْتُكَ**» وعن ابن عباس أنه قال: يمثل له ذلك الشيء في قعر جهنم، ثم يقال له: انزل إليه فخذه فينزل إليه، فإذا انتهى إليه حمله على ظهره فلا يقبل منه. قال المحققون: والفائدة فيه أنه إذا جاء يوم القيامة وعلى رقبته ذلك الغلول ازدادت فضيحته.

الوجه الثاني: أن يقال: ليس المقصود منه ظاهره، بل المقصود تشديد الوعيد على سبيل التمثيل والتصوير، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦]فإنه ليس المقصود نفس هذا الظاهر: بل المقصود إثبات أن الله تعالى لا يعزب عن علمه وعن حفظه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فكذا ههنا المقصود تشديد الوعيد، ثم القائلون بهذا القول ذكروا وجهين: الأول: قال أبو مسلم: المراد أن الله تعالى يحفظ عليه هذا الغلول ويعزره عليه يوم القيامة ويجازيه، لأنه لا يخفى عليه خافية. الثاني: قال أبو القاسم الكعبي: المراد أنه يشتهر بذلك مثل اشتهار من يحمل ذلك الشيء، واعلم أن هذا التأويل يُحتمل إلا أن الأصل المعتبر في علم القرآن أنه يجب إجراء اللفظ على الحقيقة، إلا إذا قام دليل يمنع منه، وههنا لا مانع من هذا الظاهر، فوجب إثباته.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ **وفيه سؤالان**:

السؤال الأول: هلا قيل ثم يوفى ما كسب ليتصل بما قبله؟

والجواب: الفائدة في ذكر هذا العموم أن صاحب الغلول إذا علم أن ههنا مجازيًا يجازي كل أحد على عمله سواء كان خيرًا أو شرًّا، علم أنه غير متخلص من بينهم مع عظم ما اكتسب.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في (تفسيره) (٧/ ٢١٦)، حديث رقم (٣١٤٦) من طريق أبي الضحى عن مسروق الأجدع قال... فذكر حديث بنحوه، وهذا إسناد موقوف على مسروق.

السؤال الثاني: المعتزلة يتمسكون بهذا في إثبات كون العبد فاعلاً، وفي إثبات وعيد الفساق.

أما الأول: فلأنه تعالى أثبت الجزاء على كسبه، فلو كان كسبه خلقًا لله لكان الله تعالى يجازيه على ما خلقه فيه.

وأما الثاني: فلأنه تعالى قال في القاتل المتعمد: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾[النساء: ٩٣] وأثبت في هذه الآية أن كل عامل يصل إليه جزاؤه فيحصل من مجموع الآيتين القطع بوعيد الفساق.

والجواب: أما سؤال الفعل فجوابه المعارضة بالعلم، وأما سؤال الوعيد فهذا العموم مخصوص في صورة التوبة، فكذلك يجب أن يكون مخصوصا في صورة العفو للدلائل الدالة على العفو.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ قال القاضي: هذا يدل على أن الظلم ممكن في أفعال الله وذلك بأن ينقص من الثواب أو يزيد في العقاب، قال: ولا يتأتى ذلك إلا على قولنا دون قول من يقول من المجبرة: إن أي شيء فعله تعالى فهو عدل وحكمة لأنه المالك.

الجواب: نفي الظلم عنه لا يدل على صحته عليه، كما أن قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[البقرة: ٢٥٥] لا يدل على صحتهما عليه.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾[آل عمران: ١٦١] أتبعه بتفصيل هذه الجملة، وبين أن جزاء المطيعين ما هو، وجزاء المسيئين ما هو، فقال: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: للمفسرين فيه وجوه: الأول: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ في ترك الغلول ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في فعل الغلول، وهو قول الكلبي والضحاك. الثاني: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بالإيمان به والعمل بطاعته، ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بالكفر به والاشتغال بمعصيته، الثالث: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ وهم المهاجرون، ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهم المنافقون، الرابع: قال الزجاج: لما حمل المشركون على المسلمين دعا النبي ﷺ أصحابه إلى أن يحملوا على المشركين، ففعله بعضهم وتركه آخرون. فقال: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ وهم الذين امتثلوا أمره ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهم الذين لم يقبلوا قوله، وقال القاضي: كل واحد من هذه الوجوه صحيح، ولكن لا يجوز قصر اللفظ عليه لأن اللفظ عام، فوجب أن يتناول الكل. لأن كل من أقدم على الطاعة فهو داخل تحت قوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ وكل من أخلد إلى متابعة

النفس والشهوة فهو داخل تحت قوله: ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أقصى ما في الباب أن الآية نازلة في واقعة معينة، لكنك تعلم أن عموم اللفظ لا يبطل لأجل خصوص السبب.

المسألة الثانية: قوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ﴾ الهمزة فيه للإنكار، والفاء للعطف على محذوف تقديره: أمن اتقى فاتبع رضوان الله.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿بَآءَ بِسَخَطٖ﴾ أي: احتمله ورجع به، وقد ذكرناه في سورة البقرة.

المسألة الرابعة: قرأ عاصم في إحدى الروايتين عنه: (رُضوان الله) بضم الراء، والباقون بالكسر وهما مصدران، فالضم كالكفران، والكسر كالحسبان.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ﴾ من صلة ما قبله والتقدير: كمن باء بسخط من الله وكان مأواه جهنم، فأما قوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فمنقطع عما قبله وهو كلام مبتدأ، كأنه لما ذكر جهنم أتبعه بذكر صفتها.

المسألة السادسة: نظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾ [الجاثية: ٢١] وقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨] وقوله: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] واحتج القوم بهذه الآية على أنه لا يجوز من الله تعالى أن يدخل المطيعين في النار، وأن يدخل المذنبين الجنة، وقالوا: إنه تعالى ذكر ذلك على سبيل الاستبعاد، ولولا أنه ممتنع في العقول، وإلا لما حسن هذا الاستبعاد، وأكد القفال ذلك فقال: لا يجوز في الحكمة أن يسوى المسيء بالمحسن، فإن فيه إغراء بالمعاصي وإباحة لها وإهمالاً للطاعات.

ثم قال تعالى: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٦٣﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تقدير الكلام: لهم درجات عند الله، إلا أنه حسن هذا الحذف، لان اختلاف أعمالهم قد صيرتهم بمنزلة الأشياء المختلفة في ذواتها. فكان هذا المجاز أبلغ من الحقيقة والحكماء يقولون: إن النفوس الإنسانية مختلفة بالماهية والحقيقة، فبعضها ذكية وبعضها بليدة، وبعضها مشرقة نورانية، وبعضها كدرة ظلمانية، وبعضها خيرة وبعضها نذلة، واختلاف هذه الصفات ليس لاختلاف الأمزجة البدنية، بل لاختلاف ماهيات النفوس، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ» (١) وقال: «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ» (٢) وإذا كان كذلك ثبت أن الناس في أنفسهم درجات، لا أن لهم درجات.

(١) تقدم.

(٢) تقدم أيضًا.

المسألة الثانية: ﴿هُمْ﴾ عائد إلى لفظ (من) في قوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٢] ولفظ (من) يفيد الجمع في المعنى، فلهذا صح أن يكون قوله: ﴿هُمْ﴾ عائدًا اليه، ونظيره قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨] فإن قوله: (يستوون) صيغة الجمع وهو عائد إلى (من).

المسألة الثالثة: ﴿هُمْ﴾: ضمير عائد إلى شيء قد تقدم ذكره، وقد تقدم ذكر من اتبع رضوان الله وذكر من باء بسخط من الله، فهذا الضمير يحتمل أن يكون عائدًا إلى الأول، أو إلى الثاني، أو إليهما معًا، والاحتمالات ليست إلا هذه الثلاثة.

الوجه الأول: أن يكون عائدًا إلى (من اتبع رضوان الله) وتقديره: أفمن اتبع رضوان الله سواء، لا بل هم درجات عند الله على حسب أعمالهم، والذي يدل على أن هذا الضمير عائد إلى من اتبع الرضوان وأنه أولى، وجوه: الأول: أن الغالب في العرف استعمال الدرجات في أهل الثواب، والدركات في أهل العقاب. الثاني: أنه تعالى وصف من باء بسخط من الله، وهو أن مأواهم جهنم وبئس المصير، فوجب أن يكون قوله: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ وصفًا لمن اتبع رضوان الله. الثالث: أن عادة القرآن في الأكثر جارية بأن ما كان من الثواب والرحمة فإن الله يضيفه إلى نفسه، وما كان من العقاب لا يضيفه إلى نفسه، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] فما أضاف هذه الدرجات إلى نفسه حيث قال: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ علمنا أن ذلك صفة أهل الثواب. ورابعها: أنه متأكد بقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

والوجه الثاني: أن يكون قوله: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ عائدًا على ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والحجة أن الضمير عائد إلى الأقرب وهو قول الحسن، قال: والمراد أن أهل النار متفاوتون في مراتب العذاب، وهو كقوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف: ١٩] وعن رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِيهَا ضَحْضَاحًا وغمْرًا، وأَنَا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ أَبو طَالِبٍ فِي ضَحْضَاحِهَا»(١) وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رجل يحذى له نعلان من نار يغلي من حرهما دماغه ينادي يا رب وهل أحد يعذب عذابي»(٢).

الوجه الثالث: أن يكون قوله: ﴿هُمْ﴾ عائدًا إلى الكل، وذلك لأن درجات أهل الثواب

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (فضائل الصحابة)، باب: (قصة أبي طالب) (٣/ ١٤٠٨)، حديث رقم (٣٦٧٠)، ومسلم في (صحيحه) (١/ ١٩٤/ ٢٠٩)، كلاهما من طريق عبد الله بن الحارث حدثنا العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه. . . فذكره بنحوه.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم في (صحيحه) (١/ ١٩٦/ ٢١٣) من طريق الأعمش عن أبي إسحاق عن النعمان بن بشير. . . به، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٢٧١) من طريق شعبة عن أبي إسحاق. . . به.

متفاوتة، ودرجات أهل العقاب أيضًا متفاوتة على حسب تفاوت أعمال الخلق، لأنه تعالى قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] فلما تفاوتت مراتب الخلق في أعمال المعاصي والطاعات وجب أن تتفاوت مراتبهم في درجات العقاب والثواب.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في حكم الله وعلمه، فهو كما يقال: هذه المسألة عند الشافعي كذا، وعند أبي حنيفة كذا، وبهذا يظهر فساد استدلال المشبهة بقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩] وقوله: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ والمقصود أنه تعالى لما ذكر أنه يوفي لكل أحد بقدر عمله جزاء، وهذا لا يتم إلا إذا كان عالمًا بجميع أفعال العباد على التفصيل الخالي عن الظن والريب والحسبان، أتبعه ببيان كونه عالمًا بالكل تأكيدًا لذلك المعنى، وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ وذكر محمد بن إسحاق صاحب المغازي في تأويل قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١] وجهًا آخر فقال: ما كان لنبي أن يغل أي: ما كان لنبي أن يكتم الناس ما بعثه الله به اليهم رغبة في الناس أو رهبة عنهم ثم قال: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ يعني رجح رضوان الله على رضوان الخلق، وسخط الله على سخط الخلق، ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فرجح سخط الخلق على سخط الله، ورضوان الخلق على رضوان الله، ووجه النظم على هذا التقرير أنه تعالى لما قال: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] بيّن أن ذلك إنما يكون معتبرًا إذا كان على وفق الدين، فأما إذا كان على خلاف الدين فإنه غير جائز، فكيف يمكن التسوية بين من اتبع رضوان الله وطاعته، وبين من اتبع رضوان الخلق، وهذا الذي ذكره محتمل، لأنا بينا أن الغلول عبارة عن الخيانة على سبيل الخفية، وأما أن اختصاص هذا اللفظ بالخيانة في الغنيمة فهو عرف حادث.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾

اعلم أن في وجه النظم وجوهًا: الأول: أنه تعالى لما بيّن خطأ من نسبه إلى الغلول والخيانة أكد ذلك بهذه الآية، وذلك لأن هذا الرسول وُلد في بلدهم ونشأ فيما بينهم، ولم يظهر منه طول عمره إلا الصدق والأمانة والدعوة إلى الله والإعراض عن الدنيا، فكيف يليق بمن هذا حاله الخيانة.

الوجه الثاني: أنه لما بين خطأهم في نسبته إلى الخيانة والغلول قال: لا أقنع بذلك ولا أكتفي في حقه بأن أبين براءته عن الخيانة والغلول، ولكني أقول: إن وجوده فيكم من أعظم نعمتي

عليكم فإنه يزكيكم عن الطريق الباطلة، ويعلمكم العلوم النافعة لكم في دنياكم وفي دينكم، فأي عاقل يخطر بباله أن ينسب مثل هذا الإنسان إلى الخيانة.

الوجه الثالث: كأنه تعالى يقول: إنه منكم ومن أهل بلدكم ومن أقاربكم، وأنتم أرباب الخمول والدناءة، فإذا شرفه الله تعالى وخصه بمزايا الفضل والإحسان من جميع العالمين، حصل لكم شرف عظيم بسبب كونه فيكم، فطعنكم فيه واجتهادكم في نسبة القبائح إليه على خلاف العقل.

الوجه الرابع: أنه لما كان في الشرف والمنقبة بحيث يمن الله به على عباده وجب على كل عاقل أن يعينه بأقصى ما يقدر عليه، فوجب عليكم أن تحاربوا أعداءه وأن تكونوا معه باليد واللسان والسيف والسنان، والمقصود منه العود إلى ترغيب المسلمين في مجاهدة الكفار.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي رحمه الله: للمن في كلام العرب معان: أحدها: الذي يسقط من السماء وهو قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧]، وثانيها: أن تمن بما أعطيت وهو قوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وثالثها: القطع وهو قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨] ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ٣]، ورابعها: الإنعام والإحسان إلى من لا تطلب الجزاء منه، ومنه قوله: ﴿هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ [ص: ٣٩] وقوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦] والمنان في صفة الله تعالى: المعطي ابتداء من غير أن يطلب منه عوضًا وقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أنعم عليهم وأحسن اليهم ببعثه هذا الرسول.

المسألة الثانية: أن بعثة الرسول إحسان إلى كل العالمين، وذلك لأن وجه الإحسان في بعثته كونه داعيًا لهم إلى ما يخلصهم من عقاب الله ويوصلهم إلى ثواب الله، وهذا عام في حق العالمين، لأنه مبعوث إلى كل العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨] إلا أنه لما لم ينتفع بهذا الإنعام إلا أهل الإسلام، فلهذا التأويل خص تعالى هذه المنة بالمؤمنين، ونظيره قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] مع أنه هدى للكل، كما قال: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

المسألة الثالثة: اعلم أن بعثة الرسول إحسان من الله إلى الخلق ثم إنه لما كان الانتفاع بالرسول أكثر كان وجه الإنعام في بعثة الرسل أكثر، وبعثة محمد ﷺ كانت مشتملة على الأمرين: أحدهما: المنافع الحاصلة من أصل البعثة، والثاني: المنافع الحاصلة بسب ما فيه من الخصال التي ما كانت موجودة في غيره.

أما المنفعة بسبب أصل البعثة فهي التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] قال أبو عبد الله الحليمي: وجه الانتفاع ببعثة الرسل ليس إلا في طريق الدين وهو من وجوه: الأول: أن الخلق جبلوا على النقصان وقلة

الفهم وعدم الدراية، فهو صلوات الله عليه أورد عليهم وجوه الدلائل ونقحها، وكلما خطر ببالهم شك أو شبهة أزالها وأجاب عنها. والثاني: أن الخلق وإن كانوا يعلمون أنه لا بد لهم من خدمة مولاهم، ولكنهم ما كانوا عارفين بكيفية تلك الخدمة، فهو شرح تلك الكيفية لهم حتى يقدموا على الخدمة آمنين من الغلط ومن الإقدام على ما لا ينبغي. والثالث: أن الخلق جبلوا على الكسل والغفلة والتواني والملالة فهو يورد عليهم أنواع الترغيبات والترهيبات حتى إنه كلما عرض لهم كسل أو فتور نشطهم للطاعة ورغبهم فيها. الرابع: أن أنوار عقول الخلق تجري مجرى أنوار البصر، ومعلوم أن الانتفاع بنور البصر لا يكمل إلا عند سطوع نور الشمس، ونوره عقلي إلهي يجري مجرى طلوع الشمس، فيقوي العقول بنور عقله، ويظهر لهم من لوائح الغيب ما كان مستترًا عنهم قبل ظهوره، فهذا إشارة حقيقية إلى فوائد أصل البعثة.

وأما المنافع الحاصلة بسبب ما كان في محمدﷺ من الصفات، فأمور ذكرها الله تعالى في هذه الآية أولها قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

واعلم أن وجه الانتفاع بهذا من وجوه: الأول: أنه عليه السلام ولد في بلدهم ونشأ فيما بينهم وهم كانوا عارفين بأحواله مطلعين على جميع أفعاله وأقواله، فما شاهدوا منه من أول عمره إلى آخره إلا الصدق والعفاف، وعدم الالتفات إلى الدنيا والبعد عن الكذب، والملازمة على الصدق، ومن عرف من أحواله من أول العمر إلى آخره ملازمته الصدق والأمانة، وبعده عن الخيانة والكذب، ثم ادعى النبوة والرسالة التي يكون الكذب في مثل هذه الدعوى أقبح أنواع الكذب، يغلب على ظن كل أحد أنه صادق في هذه الدعوى. الثاني: أنهم كانوا عالمين بأنه لم يتلمذ لأحد ولم يقرأ كتابًا ولم يمارس درسًا ولا تكرارًا، وأنه إلى تمام الأربعين لم ينطق البتة بحديث النبوة والرسالة، ثم إنه بعد الأربعين ادعى الرسالة وظهر على لسانه من العلوم ما لم يظهر على أحد من العالمين، ثم إنه يذكر قصص المتقدمين وأحوال الأنبياء الماضين على الوجه الذي كان موجودًا في كتبهم، فكل من له عقل سليم علم أن هذا لا يتأتى إلا بالوحي السماوي والإلهام الإلهي. الثالث: أنه بعد ادعاء النبوة عرضوا عليه الأموال الكثيرة والأزواج ليترك هذه الدعوى فلم يلتفت إلى شيء من ذلك، بل قنع بالفقر وصبر على المشقة، ولما علا أمره وعظم شأنه وأخذ البلاد وعظمت الغنائم لم يغير طريقه في البعد عن الدنيا والدعوة إلى الله، والكاذب إنما يقدم على الكذب ليجد الدنيا، فإذا وجدها تمتع بها وتوسع فيها، فلما لم يفعل شيئًا من ذلك علم أنه كان صادقًا. الرابع: أن الكتاب الذي جاء به ليس فيه إلا تقرير التوحيد والتنزيه والعدل والنبوة وإثبات المعاد وشرح العبادات وتقرير الطاعات، ومعلوم أن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته، والخير لأجل العمل به، ولما كان كتابه ليس إلا في تقرير هذين الأمرين علم كل عاقل أنه صادق فيما يقوله. الخامس: أن قبل مجيئه كان دين العرب أرذل الأديان وهو عبادة الأوثان، وأخلاقهم أرذل الأخلاق وهو الغارة والنهب والقتل وأكل الأطعمة الرديئة. ثم لما

بعث الله محمدًا ﷺ نقلهم الله ببركة مقدمه من تلك الدرجة التي هي أخس الدرجات إلى أن صاروا أفضل الأمم في العلم والزهد والعبادة وعدم الالتفات إلى الدنيا وطيباتها . ولا شك أن فيه أعظم المنة .

إذا عرفت هذه الوجوه فنقول: إن محمدًا عليه الصلاة والسلام ولد فيهم ونشأ فيما بينهم وكانوا مشاهدين لهذه الأحوال، مطلعين على هذه الدلائل، فكان إيمانهم مع مشاهدة هذه الأحوال أسهل مما إذا لم يكونوا مطلعين على هذه الأحوال . فلهذه المعاني مَنَّ الله عليهم بكونه مبعوثًا منهم فقال : ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وفيه وجه آخر من المنة وذلك لأنه صار شرفًا للعرب وفخر لهم، كما قال : ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وذلك لأن الافتخار بإبراهيم عليه السلام كان مشتركًا فيه بين اليهود والنصارى والعرب . ثم إن اليهود والنصارى كانوا يفتخرون بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل، فما كان للعرب ما يقابل ذلك، فلما بعث الله محمدًا عليه السلام وأنزل القرآن صار شرف العرب بذلك زائدًا على شرف جميع الأمم، فهذا هو وجه الفائدة في قوله : ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ .

ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ .

واعلم أن كمال حال الإنسان في أمرين : في أن يعرف الحق لذاته، والخير لأجل العمل به، وبعبارة أخرى : للنفس الإنسانية قوتان، نظرية وعملية، والله تعالى أنزل الكتاب على محمد عليه السلام ليكون سببًا لتكميل الخلق في هاتين القوتين، فقوله : ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ إشارة إلى كونه مبلغًا لذلك الوحي من عند الله إلى الخلق، وقوله : ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ إشارة إلى تكميل القوة النظرية بحصول المعارف الإلهية و﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ إشارة إلى معرفة التأويل، وبعبارة أخرى ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ إشارة الى ظواهر الشريعة ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ إشارة إلى محاسن الشريعة وأسرارها وعللها ومنافعها، ثم بين تعالى ما تتكمل به هذه النعمة . وهو أنهم كانوا من قبل في ضلال مبين، لأن النعمة إذا وردت بعد المحنة كان توقعها أعظم، فإذا كان وجه النعمة العلم والإعلام، ووردا عقيب الجهل والذهاب عن الدين، كان أعظم ونظيره قوله : ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أخبر عن المنافقين أنهم طعنوا في الرسول ﷺ بأن نسبوه إلى الغلول والخيانة، حكى عنهم شبهة أخرى في هذه الآية وهي قولهم : لو كان رسولاً من عند الله لما انهزم عسكره من الكفار في يوم أُحد، وهو المراد من قولهم : ﴿أَنَّىٰ هَـٰذَا﴾، وأجاب الله عنه بقوله : ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي هذا الانهزام إنما حصل بشؤم عصيانكم فهذا بيان وجه النظم .

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: تقرير الآية: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ المراد منها واقعة أُحد، وفي قوله: ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ قولان: الأول: وهو قول الأكثرين أن معناه قد أصبتم يوم بدر، وذلك لأن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أُحد سبعين، وقتل المسلمون منهم يوم بدر سبعين وأسروا سبعين. والثاني: أن المسلمين هزموا الكفار يوم بدر، وهزموهم أيضًا في الأول يوم أحد، ثم لما عصوا هزمهم المشركون، فانهزام المشركين حصل مرتين، وانهزام المسلمين حصل مرة واحدة، وهذا اختيار الزجاج، وطعن الواحدي في هذا الوجه فقال: كما أن المسلمين نالوا من المشركين يوم بدر، فكذلك المشركون نالوا من المسلمين يوم أُحد، ولكنهم ما هزموا المسلمين البتة، أما يوم أحد فالمسلمون هزموا المشركين أولاً ثم انقلب الأمر.

المسألة الثانية: الفائدة في قوله: ﴿أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ هو التنبيه على أن أمور الدنيا لا تبقى على نهج واحد، فلما هزمتموهم مرتين فأي استبعاد في أن يهزموكم مرة واحدة، أما قوله: ﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: سبب تعجبهم أنهم قالوا: نحن ننصر الاسلام الذي هو دين الحق، ومعنا الرسول، وهم ينصرون دين الشرك بالله والكفر، فكيف صاروا منصورين علينا!

واعلم أنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة من وجهين: الأول: ما أدرجه عند حكاية السؤال وهو قوله: ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ يعني أن أحوال الدنيا لا تبقى على نهج واحد، فإذا أصبتم منهم مثلي هذه الواقعة.. فكيف تستبعدون هذه الواقعة؟ والثاني: قوله قل: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تقرير هذا الجواب من وجهين: الأول: أنكم إنما وقعتم في هذه المصيبة بشؤم معصيتكم وذلك لأنهم عصوا الرسول في أمور: أولها: أن الرسول عليه السلام قال: المصلحة في أن لا نخرج من المدينة بل نبقى ههنا، وهم أبوا إلا الخروج، فلما خالفوه توجه إلى أُحد. وثانيها: ما حكى الله عنهم من فشلهم. وثالثها: ما وقع بينهم من المنازعة. ورابعها: أنهم فارقوا المكان وفرقوا الجمع. وخامسها: اشتغالهم بطلب الغنيمة وإعراضهم عن طاعة الرسول عليه السلام في محاربة العدو، فهذه الوجوه كلها ذنوب ومعاصي، والله تعالى إنما وعدهم النصر بشرط ترك المعصية، كما قال: ﴿إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم﴾ [آل عمران: ١٢٥] فلما فات الشرط لا جرم فات المشروط.

الوجه الثاني في التأويل: ما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ يوم بدر، فقال: يا محمد إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الفداء من

الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أن يقدموا الأسارى فيضربوا أعناقهم، وبين أن يأخذوا الفداء على أن تقتل منهم عدتهم، فذكر رسول الله ﷺ ذلك لقومه، فقالوا: يا رسول الله عشائرنا وإخواننا نأخذ الفداء منهم، فنتقوى به على قتال العدو، ونرضى أن يستشهد منا بعددهم، فقتل يوم أُحد سبعون رجلاً عدد أسارى أهل بدر، فهو معنى قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي بأخذ الفداء واختياركم القتل.

المسألة الثانية: استدلت المعتزلة على أن أفعال العبد غير مخلوقة لله تعالى بقوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ من وجوه: أحدها: أن بتقدير أن يكون ذلك حاصلاً بخلق الله ولا تأثير لقدرة العبد فيه، كان قوله: ﴿مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ كذبًا، وثانيها: أن القوم تعجبوا أن الله كيف يسلط الكافر على المؤمن، فالله تعالى أزال التعجب بأن ذكر أنكم إنما وقعتم في هذا المكروه بسبب شؤم فعلكم، فلو كان فعلهم خلقًا لله لم يصح هذا الجواب. وثالثها: أن القوم قالوا: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾، أي: من أين هذا فهذا طلب لسبب الحدوث، فلو لم يكن المحدث لها هو العبد لم يكن الجواب مطابقًا للسؤال.

والجواب: أنه معارض بالآيات الدالة على كون أفعال العبد بإيجاد الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: إنه قادر على نصركم لو ثبتم وصبرتم، كما أنه قادر على التخلية إذا خالفتم وعصيتم، واحتج أصحابنا بهذا على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى قالوا: إن فعل العبد شيء فيكون مخلوقًا لله تعالى قادرًا عليه، وإذا كان الله قادرًا على إيجاده، فلو أوجده العبد امتنع كونه تعالى قادرًا على إيجاده لأنه لما أوجده العبد امتنع من الله إيجاده، لأن إيجاد الموجود محال فلما كان كون العبد موجدًا له يفضي إلى هذا المحال، وجب أن لا يكون العبد موجدًا له، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾

اعلم أن هذا متعلق بما تقدم من قوله: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾[آل عمران: ١٦٥] فذكر في هذه الآية الأولى أنها أصابتهم بذنبهم ومن عند أنفسهم، وذكر في هذه الآية أنها أصابتهم لوجه آخر، وهو أن يتميز المؤمن عن المنافق.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ المراد يوم أُحد، والجمعان: أحدهما جمع

المسلمين أصحاب محمد ﷺ، والثاني: جمع المشركين الذين كانوا مع أبي سفيان.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وجوه: الأول: أن إذن الله عبارة عن التخلية وترك المدافعة، استعار الأذن لتخلية الكفار فإنه لم يمنعهم منهم ليبتليهم، لأن الإذن في الشيء لا يدفع المأذون عن مراده، فلما كان ترك المدافعة من لوازم الإذن أطلق لفظ الإذن على ترك المدافعة على سبيل المجاز.

الوجه الثاني: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: أي بعلمه كقوله: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣] أي إعلام، وكقوله: ﴿ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٧] وقوله: ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩] وكل ذلك بمعنى العلم. طعن الواحدي فيه فقال: الآية تسلية للمؤمنين مما أصابهم ولا تقع التسلية إلا إذا كان واقعًا بعلمه، لأن علمه عام في جميع المعلومات بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١].

الوجه الثالث: أن المراد من الإذن الأمر، بدليل قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢] والمعنى أنه تعالى لما أمر بالمحاربة، ثم صارت تلك المحاربة مؤدية إلى ذلك الانهزام، صح على سبيل المجاز أن يقال حصل ذلك بأمره.

الوجه الرابع: وهو المنقول عن ابن عباس: أن المراد من الإذن قضاء الله بذلك وحكمه به وهذا أولى لأن الآية تسلية للمؤمنين مما أصابهم، والتسلية إنما تحصل إذا قيل إن ذلك وقع بقضاء الله وقدره، فحينئذ يرضون بما قضى الله.

ثم قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ والمعنى ليميز المؤمنين عن المنافقين.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي: يقال: نافق الرجل فهو منافق إذا أظهر كلمة الإيمان وأضمر خلافها، والنفاق اسم إسلامي اختلف في اشتقاقه على وجوه: الأول: قال أبو عبيدة: هو من نافقاء اليربوع، وذلك لأن جحر اليربوع له بابان: القاصعاء والنافقاء، فإذا طُلب من أيهما كان خرج من الآخر فقيل للمنافق: أنه منافق، لأنه وضع لنفسه طريقين، إظهار الإسلام وإضمار الكفر، فمن أيهما طلبته خرج من الآخر، الثاني: قال ابن الأنباري: المنافق من النفق وهو السرب، ومعناه أنه يتستر بالإسلام كما يتستر الرجل في السرب. الثالث: أنه مأخوذ من النافقاء، لكن على غير هذا الوجه الذي ذكره أبو عبيدة، وهو أن النافقاء جحر يحفره اليربوع في داخل الأرض، ثم انه يرقق بما فوق الجحر، حتى إذا رابه ريب دفع التراب برأسه وخرج، فقيل للمنافق منافق لأنه يضمر الكفر في باطنه، فإذا فتشته رمى عنه ذلك الكفر وتمسك بالإسلام.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظاهره يشعر بأنه لأجل أن يحصل له هذا العلم أذن في تلك المصيبة، وهذا يشعر بتجدد علم الله، وهذا محال في حق علم الله تعالى، فالمراد هھنا من العلم المعلوم، والتقدير: ليتبين المؤمن من المنافق، وليتميز أحدهما عن الآخر حصل

الإذن في تلك المصيبة، وقد تقدم تقرير هذا المعنى في الآيات المتقدمة والله أعلم.

المسألة الثالثة: في الآية حذف، تقديره: وليعلم إيمان المؤمنين ونفاق المنافقين.

فإن قيل: لم قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٦٦ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ ولم يقل: وليعلم المنافقين.

قلنا: الاسم يدل على تأكيد ذلك المعنى، والفعل يدل على تجدده، وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يدل على كونهم مستقرين على إيمانهم متثبتين فيه، وأما ﴿نَافَقُوا۟﴾ فيدل على كونهم إنما شرعوا في الأعمال اللائقة بالنفاق في ذلك الوقت.

ثم قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في أن هذا القائل من هو؟ وجهان: الأول: قال الأصم: إنه الرسول عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم إلى القتال. الثاني: روي أن عبد الله بن أبي بن سلول لما خرج بعسكره إلى أُحد قالوا: لِمَ نلقي أنفسنا في القتل، فرجعوا وكانوا ثلاثمائة من جملة الألف الذين خرج بهم رسول الله ﷺ، فقال لهم عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر بن عبد الله الأنصاري: أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عند حضور العدو، فهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ يعني قول عبد الله هذا.

المسألة الثانية: قوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ يعني: إن كان في قلبكم حب الدين والإسلام فقاتلوا للدين والإسلام، وإن لم تكونوا كذلك، فقاتلوا دفعًا عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم، يعني كونوا إما من رجال الدين، أو من رجال الدنيا. قال السدي وابن جريج: ادفعوا عنا العدو بتكثير سوادنا إن لم تقاتلوا معنا، قالوا: لأن الكثرة أحد أسباب الهيبة والعظمة، والأول هو الوجه.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ تصريح بأنهم قدموا طلب الدين على طلب الدنيا، وذلك يدل على أن المسلم لا بد وأن يقدم الدين على الدنيا في كل المهمات.

ثم قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ﴾ وهذا هو الجواب الذي ذكره المنافقون وفيه وجهان: الأول: أن يكون المراد أن الفريقين لا يقتتلان ألبتة، فلهذا رجعنا. الثاني: أن يكون المعنى لو نعلم ما يصلح أن يسمى قتالاً لاتبعناكم، يعني أن الذي يقدمون عليه لا يقال له قتال، وإنما هو إلقاء النفس في التهلكة لأن رأي عبد الله كان في الإقامة بالمدينة، وما كان يستصوب الخروج.

واعلم أنه إن كان المراد من هذا الكلام هو الوجه الأول فهو فاسد، وذلك لأن الظن في أحوال الدنيا قائم مقام العلم، وأمارات حصول القتال كانت ظاهرة في ذلك اليوم، ولو قيل لهذا

المنافق الذي ذكر هذا الجواب: فينبغي لك لو شاهدت من شهر سيفه في الحرب أن لا تقدم على مقاتلته لأنك لا تعلم منه قتالاً، وكذا القول في سائر التصرفات في أمور الدنيا، بل الحق أن الجهاد واجب عند ظهور أمارات المحاربة، ولا أمارات أقوى من قربهم من المدينة عند جبل أُحد، فدل ذكر هذا الجواب على غاية الخزي والنفاق، وإنه كان غرضهم من ذكر هذا الجواب إما التلبيس، وإما الاستهزاء. وأما إن كان مراد المنافق هو الوجه الثاني فهو أيضًا باطل، لأن الله تعالى لما وعدهم بالنصرة والإعانة لم يكن الخروج إلى ذلك القتال إلقاء للنفس في التهلكة.

ثم إنه تعالى بيّن حالهم عندما ذكروا هذا الجواب فقال: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في التأويل وجهان: الأول: أنهم كانوا قبل هذه الواقعة يظهرون الإيمان من أنفسهم وما ظهرت منهم أمارة تدل على كفرهم، فلما رجعوا عن عسكر المؤمنين تباعدوا بذلك عن أن يظن بهم كونهم مؤمنين.

واعلم أن رجوعهم عن معاونة المسلمين دل على أنهم ليسوا من المسلمين، وأيضًا قولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ يدل على أنهم ليسوا من المسلمين، وذلك لأنا بيّنا أن هذا الكلام يدل إما على السخرية بالمسلمين، وإما على عدم الوثوق بقول النبي ﷺ وكل واحد منهما كفر.

الوجه الثاني: في التأويل أن يكون المراد أنهم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان، لأن تقليلهم سواد المسلمين بالانعزال يجر إلى تقوية المشركين.

المسألة الثانية: قال أكثر العلماء: إن هذا تنصيص من الله تعالى على أنهم كفار، قال الحسن إذا قال الله تعالى: ﴿أَقْرَبُ﴾ فهو اليقين بأنهم مشركون، وهو مثل قوله: ﴿مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] فهذه الزيادة لا شك فيها، وأيضًا المكلف لا يمكن أن ينفك عن الإيمان والكفر، فلما دلت الآية على القرب لزم حصول الكفر. وقال الواحدي في (البسيط): هذه الآية دليل على أن من أتى بكلمة التوحيد لم يكفر ولم يطلق القول بتكفيره، لأنه تعالى لم يطلق القول بكفرهم مع أنهم كانوا كافرين، لإظهارهم القول بلا إله إلا الله محمد رسول الله.

ثم قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ والمراد أن لسانهم مخالف لقلبهم، فهم وإن كانوا يظهرون الإيمان باللسان لكنهم يضمرون في قلوبهم الكفر.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

فإن قيل: إن المعلوم إذا علمه عالمان لا يكون أحدهما أعلم به من الآخر، فما معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

قلنا: المراد أن الله تعالى يعلم من تفاصيل تلك الأحوال ما لا يعلمه غيره.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٦٨ ﴾

اعلم أن الذين حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٧] وصفهم الله تعالى بأنهم كما قعدوا واحتجوا لقعودهم، فكذلك ثبطوا غيرهم واحتجوا لذلك، فحكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا لإخوانهم إن الخارجين لو أطاعونا ما قتلوا، فخوفوا من مراده موافقة الرسول ﷺ في محاربة الكفار بالقتل لما عرفوا ما جرى يوم أُحد من الكفار على المسلمين من القتل، لأن المعلوم من الطباع محبة الحياة فكان وقوع هذه الشبهة في القلوب يجري مجرى ما يورده الشيطان من الوسواس.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في محل ﴿ ٱلَّذِينَ﴾ وجوه: أحدها: النصب على البدل من ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ﴾ [آل عمران: ١٦٧] وثانيها: الرفع على البدل من الضمير في ﴿يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وثالثها: الرفع على خبر الابتداء بتقدير: هم الذين، ورابعها: أن يكون نصبًا على الذم.

المسألة الثانية: قال المفسرون: المراد بـ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ عبد الله بن أبي وأصحابه، وقال الأصم: هذا لا يجوز لأن عبد الله بن أبي خرج مع النبي ﷺ في الجهاد يوم أُحد، وهذا القول فهو واقع فيمن قد تخلف لأنه قال: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا﴾ أي: في القعود ما قتلوا فهو كلام متأخر عن الجهاد، قاله لمن خرج إلى الجهاد ولمن هو قوي النية في ذلك ليجعله شبهة فيما بعده صارفًا لهم عن الجهاد.

المسألة الثالثة: قالوا لإخوانهم: أي قالوا لأجل إخوانهم، وقد سبق بيان المراد من هذه الأخوة، الأخوة في النسب، أو الأخوة بسبب المشاركة في الدار، أو في عداوة الرسول ﷺ أو في عبادة الأوثان؟ والله أعلم.

المسألة الرابعة: قال الواحدي: الواو في قوله: ﴿ وَقَعَدُواْ﴾ للحال ومعنى هذا القعود القعود عن الجهاد يعني: من قتل بأُحد لو قعدوا كما قعدنا وفعلوا كما فعلنا لسلموا ولم يقتلوا، ثم أجاب الله عن ذلك بقوله: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

فإن قيل: ما وجه الاستدلال بذلك مع أن الفرق ظاهر فإن التحرز عن القتل ممكن، أما التحرز عن الموت فهو غير ممكن ألبتة؟

والجواب: هذا الدليل الذي ذكره الله تعالى لا يتمشى إلا إذا اعترفنا بالقضاء والقدر، وذلك لأنا إذا قلنا لا يدخل الشيء في الوجود إلا بقضاء الله وقدره، اعترفنا بأن الكافر لا يقتل المسلم إلا بقضاء الله، وحينئذ لا يبقى بين القتل وبين الموت فرق، فيصح الاستدلال. أما إذا قلنا بأن فعل العبد ليس بتقدير الله وقضائه، كان الفرق بين الموت والقتل ظاهرًا من الوجه الذي ذكرتم،

فتفضي إلى فساد الدليل الذي ذكره الله تعالى، ومعلوم أن المفضي إلى ذلك يكون باطلاً، فثبت أن هذه الآية دالة على أن الكل بقضاء الله. وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يعني: إن كنتم صادقين في كونكم مشتغلين بالحذر عن المكاره، والوصول إلى المطالب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

اعلم أن القول لما ثبطوا الراغبين في الجهاد بأن قالوا: الجهاد يفضي إلى القتل، كما قالوا في حق من خرج إلى الجهاد يوم أحد، والقتل شيء مكروه، فوجب الحذر عن الجهاد، ثم إن الله تعالى بيّن أن قولهم: الجهاد يفضي إلى القتل باطل، بأن القتل إنما يحصل بقضاء الله وقدره كما أن الموت يحصل بقضاء الله وقدره، فمن قدر الله له القتل لا يمكنه الاحتراز عنه، ومن لم يقدر له القتل لا خوف عليه من القتل، ثم أجاب عن تلك الشبهة في هذه الآية بجواب آخر وهو أنا لا نسلم أن القتل في سبيل الله شيء مكروه، وكيف يقال ذلك والمقتول في سبيل الله أحياه الله بعد القتل وخصه بدرجات القربة والكرامة، وأعطاه أفضل أنواع الرزق وأوصله الى أجل مراتب الفرح والسرور؟ فأي عاقل يقول إن مثل هذا القتل يكون مكروهًا، فهذا وجه النظم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: هذه الآية واردة في شهداء بدر وأُحد، لأن في وقت نزول هذه الآية لم يكن أحد من الشهداء إلا من قتل في هذين اليومين المشهورين، والمنافقون إنما ينفرون المجاهدين عن الجهاد لئلا يصيروا مقتولين مثل من قُتل في هذين اليومين من المسلمين، والله تعالى بيّن فضائل من قُتل في هذين اليومين ليصير ذلك داعيًا للمسلمين إلى التشبه بمن جاهد في هذين اليومين وقتل، وتحقيق الكلام أن من ترك الجهاد فربما وصل إلى نعيم الدنيا وربما لم يصل، وبتقدير أن يصل إليه فهو حقير وقليل، ومن أقبل على الجهاد فاز بنعيم الآخرة قطعًا وهو نعيم عظيم، ومع كونه عظيمًا فهو دائم مقيم، وإذا كان الأمر كذلك ظهر أن الإقبال على الجهاد أفضل من تركه.

المسألة الثانية: اعلم أن ظاهر الآية يدل على كون هؤلاء المقتولين أحياء، فإما أن يكون المراد منه حقيقة أو مجازًا، فإن كان المراد منه هو الحقيقة، فإما أن يكون المراد أنهم سيصيرون في الآخرة أحياء، أو المراد أنهم أحياء في الحال، وبتقدير أن يكون هذا هو المراد، فإما أن يكون المراد إثبات الحياة الروحانية أو إثبات الحياة الجسمانية، فهذا ضبط الوجوه التي يمكن ذكرها في هذه الآية.

الاحتمال الأول: أن تفسير الآية بأنهم سيصيرون في الآخرة أحياء، قد ذهب إليه جماعة من متكلمي المعتزلة، منهم أبو القاسم الكعبي قال: وذلك لأن المنافقين الذين حكى الله عنهم ما حكى، كانوا يقولون: أصحاب محمد ﷺ يعرضون أنفسهم للقتل فيقتلون ويخسرون الحياة ولا يصلون إلى خير، وإنما كانوا يقولون ذلك لجحدهم البعث والميعاد، فكذبهم الله تعالى وبين بهذه الآية أنهم يبعثون ويرزقون ويوصل إليهم أنواع الفرح والسرور والبشارة.

واعلم أن هذا القول عندنا باطل، ويدل عليه وجوه:

الحجة الأولى: أن قوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ ظاهره يدل على كونهم أحياء عند نزول الآية، فحمله على أنهم سيصيرون أحياء بعد ذلك عدول عن الظاهر.

الحجة الثانية: أنه لا شك أن جانب الرحمة والفضل والإحسان أرجح من جانب العذاب والعقوبة، ثم إنه تعالى ذكر في أهل العذاب أنه أحياهم قبل القيامة لأجل التعذيب فإنه تعالى قال: ﴿أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥] والفاء للتعقيب، والتعذيب مشروط بالحياة، وأيضًا قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] وإذا جعل الله أهل العذاب أحياء قبل قيام القيامة لأجل التعذيب، فلأن يجعل أهل الثواب أحياء قبل القيامة لأجل الإحسان والاثابة كان ذلك أولى.

الحجة الثالثة: أنه لو أراد أنه سيجعلهم أحياء عند البعث في الجنة لما قال للرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ مع علمه بأن جميع المؤمنين كذلك، أما إذا حملناه على ثواب القبر حسن قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ لأنه عليه الصلاة والسلام لعله ما كان يعلم أنه تعالى يشرف المطيعين والمخلصين بهذا التشريف، وهو أنه يحييهم قبل قيام القيامة لأجل إيصال الثواب إليهم.

فإن قيل: إنه عليه الصلاة والسلام وإن كان عالمًا بأنهم سيصيرون أحياء عند ربهم عند البعث ولكنه غير عالم بأنهم من أهل الجنة، فجاز أن يبشره الله بأنهم سيصيرون أحياء ويصلون إلى الثواب والسرور.

قلنا: قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ إنما يتناول الموت لأنه قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ فالذي يزيل هذا الحسبان هو كونهم أحياء في الحال لأنه لا حسبان هناك في صيرورتهم أحياء يوم القيامة، وقوله: ﴿يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ﴾ فهو خبر مبتدأ ولا تعلق له بذلك الحسبان فزال هذا السؤال.

الحجة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ والقوم الذين لم يلحقوا بهم لا بد وأن يكونوا في الدنيا، فاستبشارهم بمن يكون في الدنيا لا بد وأن يكون قبل قيام القيامة، والاستبشار لا بد وأن يكون مع الحياة، فدل هذا على كونهم أحياء قبل يوم القيامة، وفي هذا الاستدلال بحث سيأتي ذكره.

الحجة الخامسة: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال في صفة الشهداء:

«أنَّ أرواحَهُمْ في أجوافِ طَيْرٍ خُضْر وإنها تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، وتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا وَتَسْرَحُ حيثُ شاءتْ، وتأوي إلى قَنَاديلَ من ذهب تحت العَرْشِ، فلما رأوا طِيبَ مَسْكَنِهِمْ ومَطْعَمِهِمْ ومَشْرَبِهِمْ قَالُوا: يَا لَيتَ قومَنَا يَعْلَمُونَ بِمَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ النَّعِيم، وما صنع الله تعالى بنا كَيْ يَرْغَبُوا فِي الجِهَادِ، فَقَالَ اللهُ تَعالَى أَنَا مُخبِرٌ عَنْكُمْ، وَمُبَلِّغٌ إِخْوَانِكُم، فَفَرِحُوا بِذَلِكَ وَاسْتَبْشَرُوا» فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هذه الآية[1].

وسئل ابن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية، فقال: سألنا عنها فقيل لنا: إن الشهداء على نهر بباب الجنة في قبة خضراء، وفي رواية في روضة خضراء، وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أبَشِّرُكَ أنَّ أباكَ حَيْثُ أُصِيبَ بأحُدٍ أحْيَاهُ اللهُ، ثُمَّ قَالَ: مَا تُرِيدُ يا عبدَ اللهِ بنَ عَمرو أن أَفْعَلَ بك؟ فقال: يَا رَبِّ، أُحِبُّ أن تَرُدَّنِي إلى الدُّنْيَا فأُقْتَلَ فيها مرةً أُخْرَى»[2] والروايات في هذا الباب كأنها بلغت حد التواتر، فكيف يمكن إنكارها؟ طعن الكعبي في هذه الروايات وقال: إنها غير جائزة لأن الأرواح لا تتنعم، وإنما يتنعم الجسم إذا كان فيه روح لا الروح، ومنزلة الروح من البدن منزلة القوة، وأيضًا: الخبر المروي ظاهره يقتضي أن هذه الأرواح في حواصل الطير، وأيضًا ظاهره يقتضي أنها ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتسرح، وهذا يناقض كونها في حواصل الطير.

والجواب: أما الطعن الأول: فهو مبني على أن الروح عرض قائم بالجسم، وسنبين أن الأمر ليس كذلك، وأما الطعن الثاني: فهو مدفوع لأن القصد من أمثال هذه الكلمات الكنايات عن حصول الراحات والمسرات وزوال المخافات والآفات، فهذا جملة الكلام في هذا الاحتمال.

وأما الوجه الثاني: من الوجوه المحتملة في هذه الآية هو أن المراد أن الشهداء أحياء في الحال، والقائلون بهذا القول منهم من أثبت هذه الحياة للروح، ومنهم من أثبتها للبدن، وقبل الخوض في هذا الباب يجب تقديم مقدمة، وهي أن الإنسان ليس عبارة عن مجموع هذه البنية، ويدل عليه أمران: أحدهما: أن أجزاء هذه البنية في الذوبان والانحلال، والتبدل، والإنسان المخصوص شيء باق من أول عمره إلى آخره، والباقي مغاير للمتبدل، والذي يؤكد ما قلناه: أنه تارة يصير سمينًا وأخرى هزيلاً، وأنه يكون في أول الأمر صغير الجثة، ثم انه يكبر وينمو،

(١) حسن: أخرجه أحمد في (مسنده) (١/ ٢٦٥)، حديث رقم (٢٣٨٨)، قال: حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن ابن إسحاق حدثني إسماعيل بن أمية... به، وهناد في (الزهد) (١/ ١٢٠)، حديث رقم (١٥٥)، قال حدثنا محمد بن فضيل... به، وأما رواية ابن إدريس فقد أخرجه أبو داود في (سننه) (٣/ ١٠٩١)، حديث رقم (٢٥٢٠) من طريق عبد الله بن إدريس عن محمد بن إسحاق عن إسماعيل بن أمية عن أبي الزبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس... به.

(٢) إسناده حسن: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٢٣٠)، حديث رقم (٣٠١٠)، وابن ماجه في (سننه) (٢/ ٩٣٦)، حديث رقم (٢٨٠٠)، وابن أبي عاصم في (السنة) (١/ ٢٦٧)، حديث رقم (٢٠٦)، جميعًا من طريق طلحة بن خراش قال: سمعت جابر بن عبد الله... به.

ولا شك أن كل إنسان يجد من نفسه أنه شيء واحد من أول عمره إلى آخره فصح ما قلناه. الثاني: أن الإنسان قد يكون عالمًا بنفسه حال ما يكون غافلاً عن جميع أعضائه وأجزائه، والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم، فثبت بهذين الوجهين أنه شيء مغاير لهذا البدن المحسوس، ثم بعد ذلك يحتمل أن يكون جسمًا مخصوصًا ساريًا في هذه الجثة سريان النار في الفحم. والدهن في السمسم، وماء الورد في الورد. ويحتمل أن يكون جوهرًا قائمًا بنفسه ليس بجسم ولا حال في الجسم، وعلى كلا المذهبين فإنه لا يبعد أنه لما مات البدن انفصل ذلك الشيء حيًّا، وان قلنا إنه أماته الله إلا أنه تعالى يعيد الحياة إليه، وعلى هذا التقدير تزول الشبهات بالكلية عن ثواب القبر، كما في هذه الآية، وعن عذاب القبر كما في قوله: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]فثبت بما ذكرناه أنه لا امتناع في ذلك، فظاهر الآية دال عليه، فوجب المصير إليه، والذي يؤكد ما ذكرناه القرآن والحديث والعقل. أما القرآن فآيات: إحداها: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۝ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]ولا شك أن المراد من قوله: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ الموت. ثم قال: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ وفاء التعقيب تدل على أن حصول هذه الحالة يكون عقيب الموت، وهذا يدل على ما ذكرناه، وثانيها: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]وهذا عبارة عن موت البدن. ثم قال: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢]فقوله: ﴿رُدُّوا﴾ ضمير عنه. وإنما هو بحياته وذاته المخصوصة، فدل على أن ذلك باق بعد موت البدن، وثالثها: قوله: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]وفاء التعقيب تدل على أن هذا الروح والريحان والجنة حاصل عقيب الموت، وأما الخبر فقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ» (١)والفاء فاء التعقيب تدل على أن قيامة كل أحد حاصلة بعد موته، وأما القيامة الكبرى فهي حاصلة في الوقت المعلوم عند الله، وأيضًا قوله عليه الصلاة والسلام: «القَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النار» (٢)وأيضًا روي أنه عليه الصلاة والسلام يوم بدر كان ينادي المقتولين ويقول: «هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا» فقيل له: يا رسول الله إنهم أموات، فكيف تناديهم؟ فقال عليه الصلاة

---

(١) **ضعيف**: قال الألباني: (٣/ ٣٠٩): ضعيف، قال الحافظ العراقي في (تخريج الإحياء) (٤/ ٥٦) طبع الحلبي: رواه ابن أبي الدنيا في (كتاب الموت) من حديث أنس بسند ضعيف. ومن حديثه رواه العسكري والديلمي كما في (المقاصد الحسنة) ص (٧٥ و ٤٢٨) بلفظ: إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته. وسكت عليه.

(٢) **ضعيف**: أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٦٣٩)، حديث رقم (٢٤٦٠) من طريق عبيد الله بن الوليد الوصافي عن عطية عن أبي سعيد... به، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. اهـ، وإسناده ضعيف فيه عطية العوفي ضعيف وتلميذه الوصافي ضعيف أيضًا، رواه الطبراني في (الأوسط) (٨/ ٢٧٢)، حديث رقم (٨٦١٣) من طريق محمد بن أيوب بن سويد أخبرنا أبي عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة... به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٣/ ٤٦) من رواية أبي هريرة وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن أيوب بن سويد وهو ضعيف.

والسلام: «إنهم أسمع منكم»(١) أو لفظًا هذا معناه، وأيضًا قال عليه الصلاة والسلام: «أَوْلياءَ اللهِ لا يَمُوتُونَ ولكِنْ يُنْقَلُون من دارٍ إلى دارٍ»(٢) وكل ذلك يدل على أن النفوس باقية بعد موت الجسد.

وأما المعقول فمن وجوه: الأول: وهو أن وقت النوم يضعف البدن، وضعفه لا يقتضي ضعف النفس، بل النفس تقوى وقت النوم فتشاهد الأحوال وتطلع على المغيبات، فإذا كان ضعف البدن لا يوجب ضعف النفس، فهذا يقوي الظن في أن موت البدن لا يستعقب موت النفس. الثاني: وهو أن كثرة الأفكار سبب لجفاف الدماغ، وجفافه يؤدي إلى الموت، وهذه الأفكار سبب لاستكمال النفس بالمعارف الإلهية، وهو غاية كمال النفس، فما هو سبب في كمال النفس فهو سبب لنقصان البدن، وهذا يقوي الظن في أن النفس لا تموت بموت البدن. الثالث: أن أحوال النفس على ضد أحوال البدن، وذلك لأن النفس انما تفرح وتبتهج بالمعارف الإلهية، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وقال عليه الصلاة والسلام: «أَبِيت عِنْد رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي»(٣). ولا شك أن ذلك الطعام والشراب ليس إلا عبارة عن المعرفة والمحبة والاستنارة بأنوار عالم الغيب وأيضًا، فإنا نرى أن الإنسان إذا غلب عليه الاستبشار بخدمة سلطان، أو بالفوز بمنصب، أو بالوصول إلى معشوقه، قد ينسى الطعام والشراب، بل يصير بحيث لو دعي إلى الأكل والشرب لوجد من قلبه نفرة شديدة منه، والعارفون المتوغلون في معرفة الله تعالى قد يجدون من أنفسهم أنهم إذا لاح لهم شيء من تلك الأنوار، وانكشف لهم شيء من تلك الأسرار، لم يحسوا ألبتة بالجوع والعطش وبالجملة فالسعادة النفسانية كالمضادة للسعادة الجسمانية، وكل ذلك يغلب على الظن أن النفس مستقلة بذاتها ولا تعلق لها بالبدن، وإذا كان كذلك وجب أن لا تموت النفس بموت البدن، ولتكن هذه الإقناعيات كافية في هذا المقام.

واعلم أنه متى تقررت هذه القاعدة زالت الإشكالات والشبهات عن كل ما ورد في القرآن من ثواب القبر وعذابه، وإذا عرفت هذه القاعدة فنقول: قال بعض المفسرين: أرواح الشهداء أحياء وهي تركع وتسجد كل ليلة تحت العرش إلى يوم القيامة، والدليل عليه ما روي أن النبي ﷺ

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الجنائز)، باب: (ما جاء في عذاب القبر) (١/ ٤٦٢)، حديث رقم (١٣٠٤) من طريق نافع عن ابن عمر... بنحوه.

(٢) لم أجده.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الصيام)، باب: (النهي عن الوصال في الصوم) (٢/ ٧٧٥)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٣٧/ ٢٥٧/ ٤١٨)، ومالك في (الموطأ) كتاب (الصيام)، باب: (النهي عن الوصال) (١/ ٣٠١)، حديث رقم (٣٩)، والدارمي في كتاب (الصوم)، باب: (النهي عن الوصال في الصوم) (١/ ٤٥٠)، حديث رقم (١٧٠٣)، والحميدي في (مسنده) (٢)، حديث ورقم (١٠٠٩)، وابن خزيمة في (صحيحه) (٣/ ٢٠٦٨)، جميعًا من طريق أبي الزناد... به.

قال: «ذَا نَامَ الْعَبْدُ فِي سُجُودِهِ يُبَاهِي اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مَلَائِكَتَهُ فَيَقُولُ أُنْظُرُوا إِلَى عَبْدِي رُوحُهُ عِنْدِي، وَجَسَدُهُ فِي خدمتي» (١).

واعلم أن الآية دالة على ذلك وهي قوله: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ولفظ ﴿عِندَ﴾ فكما أنه مذكور ههنا فكذا في صفة الملائكة مذكور وهو قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩] فإذا فهمت السعادة الحاصلة للملائكة بكونهم عند الله، فهمت السعادة الحاصلة للشهداء بكونهم عند الله، وهذه كلمات تفتح على العقل أبواب معارف الآخرة.

الوجه الثالث: في تفسير هذه الآية عند من يثبت هذه الحياة للأجساد، والقائلون بهذا القول اختلفوا، فقال بعضهم: إنه تعالى يصعد أجساد هؤلاء الشهداء إلى السموات وإلى قناديل تحت العرش ويوصل أنواع السعادة والكرامات إليها، ومنهم من قال: يتركها في الارض ويحييها ويوصل هذه السعادات إليها، ومن الناس من طعن فيه وقال: إنا نرى أجساد هؤلاء الشهداء قد تأكلها السباع، فإما أن يقال إن الله تعالى يحييها حال كونها في بطون هذه السباع ويوصل الثواب اليها، أو يقال: إن تلك الأجزاء بعد انفصالها من بطون السباع يركبها الله تعالى، ويؤلفها ويرد الحياة إليها ويوصل الثواب إليها، وكل ذلك مستبعد، ولأنا قد نرى الميت المقتول باقيا أيامًا إلى أن تنفسخ أعضاؤه وينفصل القيح والصديد، فإن جوزنا كونها حية متنعمة عاقلة عارفة لزم القول بالسفسطة.

الوجه الرابع: في تفسير هذه الآية أن نقول: ليس المراد من كونها أحياء حصول الحياة فيهم، بل المراد بعض المجازات وبيانه من وجوه: الأول: قال الأصم البلخي: إن الميت إذا كان عظيم المنزلة في الدين، وكانت عاقبته يوم القيامة البهجة والسعادة والكرامة، صح أن يقال: إنه حي وليس بميت، كما يقال في الجاهل الذي لا ينفع نفسه ولا ينتقع به أحد: إنه ميت وليس بحي، وكما يقال للبليد: إنه حمار، وللمؤذي إنه سبع، وروي أن عبد الملك بن مروان لما رأى الزهري وعلم فقهه وتحقيقه قال له: ما مات من خلف مثلك، وبالجملة فلا شك أن الإنسان إذا

---

(١) **ضعيف**: أخرجه تمام في (فوائده) (٤/ ٥٦)، حديث رقم (١٥٥٤) من طريق يزيد بن موهب حدثنا إسحاق بن عبد الواحد عن داود بن الزبرقان عن سليمان التيمي عن أنس... به، وأورده ابن حجر في (التلخيص) (١/ ٢٢٢/ ٢٢٣)، وقال: أنكر جماعة منهم القاضي ابن العربي وجوده فقد رواه البيهقي في الخلافيات من حديث أنس، وفيه داود بن الزبرقان وهو ضعيف. وروي من وجه آخر، عن أبان، عن أنس. وأبان متروك، ورواه ابن شاهين في الناسخ والمنسوخ، من حديث المبارك بن فضالة، وذكره الدارقطني في العلل، من حديث عباد بن راشد، كلاهما عن الحسن، عن أبي هريرة بلفظ: (إذا نام العبد وهو ساجد، يقول الله: انظروا إلى عبدي)، قال: وقيل: عن الحسن بلغنا عن النبي ﷺ قال: والحسن لم يسمع من أبي هريرة، انتهى. وعلى هذه الرواية اقتصر ابن حزم، وأعلها بالانقطاع، ومرسل الحسن أخرجه أحمد في الزهد، ولفظه: (إذا نام العبد وهو ساجد يباهي الله به الملائكة، يقول: انظروا إلى عبدي روحه عندي، وهو ساجد لي)، وروى ابن شاهين عن أبي سعيد معناه، وإسناده ضعيف. وأورده الألباني في (الضعيفة) (٢/ ٢٦٩)، حديث رقم (٩٥٣) وقال: ضعيف.

مات وخلف ثناء جميلاً وذكرًا حسنًا، فإنه يقال على سبيل المجاز إنه ما مات بل هو حي. الثاني: قال بعضهم مجاز هذه الحياة أن أجسادهم باقية في قبورهم، وأنها لا تبلى تحت الأرض البتة. واحتج هؤلاء بما روي أنه لما أراد معاوية أن يجري العين على قبور الشهداء، أمر بأن ينادى: من كان له قتيل فليخرجه من هذا الموضع، قال جابر: فخرجنا إليهم فأخرجناهم رطاب الأبدان، فأصابت المسحاة أصبع رجل منهم فقطرت دمًا. والثالث: أن المراد بكونهم أحياء أنهم لا يغسلون كما تغسل الأموات، فهذا مجموع ما قيل في هذه الآية والله أعلم بأسرار المخلوقات.

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد وقرئ بالياء، وفيه وجوه: أحدها: ولا يحسبن رسول الله. والثاني: ولا يحسبن حاسب، والثالث: ولا يحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتًا قال: وقرئ ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ بفتح السين، وقرأ ابن عامر (قتّلوا) بالتشديد والباقون بالتخفيف.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ قال الواحدي: التقدير: بل هم أحياء، قال صاحب (الكشاف): قرئ (أحياءً) بالنصب على معنى بل أحسبهم أحياءً. وأقول: إن الزجاج قال: ولو قرئ (أحياءً) بالنصب لجاز على معنى بل أحسبهم أحياء، وطعن أبو علي الفارسي فيه فقال: لا يجوز ذلك لأنه أمر بالشك والأمر بالشك غير جائز على الله، ولا يجوز تفسير الحسبان بالعلم لأن ذلك لم يذهب إليه أحد من علماء أهل اللغة، وللزجاج أن يجيب فيقول: الحسبان ظن لا شك، فلم قلتم إنه لا يجوز أن يأمر الله بالظن، أليس أن تكليفه في جميع المجتهدات ليس إلا بالظن.

وأقول: هذه المناظرة من الزجاج وأبي علي الفارسي تدل على أنه ما قرئ (أحياءً) بالنصب بل الزجاج كان يدعي أن لها وجهًا في اللغة، والفارسي نازعه فيه، وليس كل ما له وجه في الإعراب جازت القراءة به.

أما قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ففيه وجوه: أحدها: بحيث لا يملك لهم أحد نفعًا ولا ضرًا إلا الله تعالى. والثاني: هم أحياء عند ربهم، أي هم أحياء في علمه وحكمه، كما يقال: هذا عند الشافعي كذا، وعند أبي حنيفة بخلافه. والثالث: أن ﴿عِندَ﴾ معناه القرب والإكرام، كقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩] وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [فصلت: ٣٨].

أما قوله: ﴿يُرْزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ فاعلم أن المتكلمين قالوا: الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم، فقوله: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ إشارة إلى المنفعة، وقوله: ﴿فَرِحِينَ﴾ إشارة إلى الفرح الحاصل بسبب ذلك التعظيم، وأما الحكماء فإنهم قالوا: إذا أشرقت جواهر الأرواح القدسية بالأنوار الإلهية كانت مبتهجة من وجهين: أحدهما: أن تكون ذواتها منيرة مشرقة متلألئة بتلك الجلايا القدسية والمعارف الإلهية. والثاني: بكونها ناظرة إلى ينبوع النور ومصدر الرحمة

والجلالة، قالوا: وابتهاجها بهذا القسم الثاني أتم من ابتهاجها بالأول، فقوله: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ إشارة إلى الدرجة الأولى وقوله: ﴿فَرِحِينَ﴾ إشارة إلى الدرجة الثانية، ولهذا قال: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني أن فرحهم ليس بالرزق، بل بإيتاء الرزق لأن المشغول بالرزق مشغول بنفسه، والناظر إلى إيتاء الرزق مشغول بالرازق، ومن طلب الحق لغيره فهو محجوب.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

واعلم أن قوله: ﴿أَلَّا خَوْفٌ﴾ في محل الخفض بدل من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ والتقدير: ويستبشرون بأن لا خوف ولا حزن بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: الاستبشار السرور الحاصل بالبشارة، وأصل الاستفعال طلب الفعل، فالمستبشر بمنزلة من طلب السرور فوجده بالبشارة.

المسألة الثانية: اعلم أن الذين سلموا كون الشهداء أحياء قبل قيام القيامة ذكروا لهذه الآية تأويلات أخر.

أما الأول: فهو أن يقال: إن الشهداء يقول بعضهم لبعض: تركنا إخواننا فلانًا وفلانًا في صف المقاتلة مع الكفار فيقتلون إن شاء الله فيصيبون من الرزق والكرامة ما أصبنا، فهو قوله: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم﴾.

وأما الثاني: فهو أن يقال: إن الشهداء إذا دخلوا الجنة بعد قيام القيامة يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله، والمراد بقوله: ﴿لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ هم إخوانهم من المؤمنين الذين ليس لهم مثل درجة الشهداء، لأن الشهداء يدخلون الجنة قبلهم، دليله قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦] فيفرحون بما يرون من مأوى المؤمنين والنعيم المعد لهم، وبما يرجونه من الاجتماع بهم وتقر بذلك أعينهم، هذا اختيار أبي مسلم الأصفهاني والزجاج.

واعلم أن التأويل الأول أقوى من الثاني، وذلك لأن حاصل الثاني يرجع إلى استبشار بعض المؤمنين ببعض بسبب اجتماعهم في الجنة، وهذا أمر عام في حق كل المؤمنين، فلا معنى لتخصيص الشهداء بذلك، وأيضًا: فهم كما يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، فكذلك يستبشرون بمن تقدمهم في الدخول، لأن منازل الأنبياء والصديقين فوق منازل الشهداء، قال تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩] وعلى هذا التقدير لا يبقى فائدة في التخصيص. أما إذا فسرنا الآية بالوجه الأول ففي تخصيص المجاهدين بهذه الخاصية أعظم الفوائد فكان ذلك أولى والله أعلم.

المسألة الثالثة: الخوف يكون بسبب توقع المكروه النازل في المستقبل، والحزن يكون

بسبب فوات المنافع التي كانت موجودة في الماضي، فبيّن سبحانه أنه لا خوف عليهم فيما سيأتيهم من أحوال القيامة، ولا حزن لهم فيما فاتهم من نعيم الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى بيّن أنهم كما يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم على ما ذكر فهم يستبشرون لأنفسهم بما رزقوا من النعيم، وانما أعاد لفظ ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لأن الاستبشار الأول كان بأحوال الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، والاستبشار الثاني كان بأحوال أنفسهم خاصة.

فإن قيل: أليس أنه ذكر فرحهم بأحوال أنفسهم والفرح عين الاستبشار؟

قلنا: الجواب من وجهين: الأول: أن الاستبشار هو الفرح التام فلا يلزم التكرار. والثاني: لعل المراد حصول الفرح بما حصل في الحال، وحصول الاستبشار بما عرفوا أن النعمة العظيمة تحصل لهم في الآخرة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ النعمة هي الثواب والفضل هو التفضل الزائد.

المسألة الثالثة: الآية تدل على أن استبشارهم بسعادة إخوانهم أتم من استبشارهم بسعادة أنفسهم، لأن الاستبشار الأول في الذكر هو بأحوال الإخوان، وهذا تنبيه من الله تعالى على أن فرح الإنسان بصلاح أحوال إخوانه ومتعلقيه، يجب أن يكون أتم وأكمل من فرحه بصلاح أحوال نفسه.

ثم قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ الكسائي (وإن الله) بكسر الألف على الاستئناف. وقرأ الباقون بفتحها على معنى: وبأن الله، والتقدير: يستبشرون بنعمة من الله وفضل وبأن الله لا يضيع أجر المؤمنين، والقراءة الأولى أتم وأكمل لأن على هذه القراءة يكون الاستبشار بفضل الله وبرحمته فقط، وعلى القراءة الثانية يكون الاستبشار بالفضل والرحمة وطلب الأجر، ولا شك أن المقام الأول أكمل لأن كون العبد مشتغلاً بطلب الله أتم من اشتغاله بطلب أجر عمله.

المسألة الثانية: المقصود من الآية بيان أن الذي تقدم من إيصال الثواب والسرور العظيم إلى الشهداء ليس حكمًا مخصوصًا بهم، بل كل مؤمن يستحق شيئًا من الأجر والثواب، فإن الله سبحانه يوصل إليه ذلك الأجر والثواب ولا يضيعه ألبتة.

المسألة الثالثة: الآية عندنا دالة على العفو عن فساق أهل الصلاة لأنه بإيمانه استحق الجنة

فلو بقي بسبب فسقه في النار مؤبدًا مخلدًا لما وصل إليه أجر إيمانه، فحينئذ يضيع أجر المؤمنين على إيمانهم وذلك خلاف الآية.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾

اعلم أن الله تعالى مدح المؤمنين على غزوتين، تُعرف إحداهما بغزوة حمراء الأسد، والثانية بغزوة بدر الصغرى، وكلاهما متصلة بغزوة أحد، أما غزوة حمراء الأسد فهي المراد من هذه الآية على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في محل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وجوه: الأول: وهو قول الزجاج أنه رفع بالابتداء وخبره ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾ إلى آخر هذه الآية. الثاني: أن يكون محله هو الخفض على النعت للمؤمنين، الثالث: أن يكون نصبًا على المدح.

المسألة الثانية: في سبب نزول هذه الآية قولان: الأول: وهو الأصح أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أُحد وبلغوا الروحاء ندموا، وقالوا: إنا قتلنا أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل فلمَ تركناهم؟ بل الواجب أن نرجع ونستأصلهم، فهموا بالرجوع فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأراد أن يرهب الكفار ويريهم من نفسه ومن أصحابه قوة، فندب أصحابه إلى الخروج في طلب أبي سفيان وقال: (لا أريد أن يخرج الآن معي إلا من كان معي في القتال)، فخرج الرسول ﷺ مع قوم من أصحابه، قيل كانوا سبعين رجلًا حتى بلغوا حمراء الأسد وهو من المدينة على ثلاثة أميال، فألقى الله الرعب في قلوب المشركين فانهزموا[1]، وروي أنه كان فيهم من يحمل صاحبه على عنقه ساعة، ثم كان المحمول يحمل الحامل ساعة أخرى، وكان كل ذلك لإثخان الجراحات فيهم، وكان فيهم من يتوكأ على صاحبه ساعة، ويتوكأ عليه صاحبه ساعة. والثاني: قال أبو بكر الأصم: نزلت هذه الآية في يوم أُحد لما رجع الناس إليه ﷺ بعد الهزيمة فشد بهم على المشركين حتى كشفهم، وكانوا قد هموا بالمثلة فدفعهم عنها بعد أن مثلوا بحمزة، فقذف الله في قلوبهم الرعب فانهزموا، وصلى عليهم ﷺ ودفنهم بدمائهم[2]، وذكروا أن صفية

---

(١) أخرجه النسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٣١٧)، حديث رقم (١١٠٨٣)، والطبراني في (الكبير) (١١/ ٢٤٧)، حديث رقم (١١٦٣٢)، كلاهما من طريق سفيان عن عمرو عن عكرمة عن ابن عباس... به.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الجنائز)، باب: (من يقوم باللحد) (٣/ ٢٥٢)، حديث رقم (١٣٤٧)، وأبو داود في كتاب (الجنائز)، باب: (في الشهيد يُغسل) (٣/ ١٣٧٠)، حديث رقم (٣١٣٨)، والترمذي في كتاب (الجنائز)، باب: (ما جاء في ترك الصلاة على الشهيد) (٣/ ٣٥٤)، حديث رقم (١٠٣٦)، والنسائي في كتاب (الجنائز)، باب: (ترك الصلاة عليهم) (٤/ ٣٦٣)، حديث رقم (١٩٥٤)، وابن ماجه في كتاب (الجنائز)، باب:

جاءت لتنظر إلى أخيها حمزة فقال عليه الصلاة والسلام للزبير: (ردها لئلا تجزع من مثلة أخيها)، فقالت: قد بلغني ما فعل به وذلك يسير في جنب طاعة الله تعالى، فقال للزبير: (فدعها تنظر إليه)، فقالت خيرًا واستغفرت له[1]. وجاءت امرأة قد قتل زوجها وأبوها وأخوها وابنها فلما رأت النبي ﷺ وهو حي قالت: إن كل مصيبة بعدك هدر[2]، فهذا ما قيل في سبب نزول هذه الآية، وأكثر الروايات على الوجه الأول.

المسألة الثالثة: استجاب: بمعنى أجاب، ومنه قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ [البقرة: ١٨٦] وقيل: أجاب، فعل الإجابة، واستجاب طلب أن يفعل الإجابة، لأن الأصل في الاستفعال طلب الفعل، والمعنى أجابوا وأطاعوا الله في أوامره وأطاعوا الرسول من بعد ما أصابهم الجراحات القوية.

أما قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وجوه: الأول: ﴿أَحْسَنُوا﴾ دخل تحته الائتمار بجميع المأمورات، وقوله: ﴿وَاتَّقَوْا﴾ دخل تحته الانتهاء عن جميع المنهيات، والمكلف عند هذين الأمرين يستحق الثواب العظيم. الثاني: أحسنوا في طاعة الرسول في ذلك الوقت، واتقوا الله في التخلف عن الرسول، وذلك يدل على أنه يلزمهم الاستجابة للرسول وإن بلغ الأمر بهم في الجراحات ما بلغ من بعد أن يتمكنوا معه من النهوض. الثالث: أحسنوا فيما أتوا به من طاعة الرسول ﷺ، واتقوا ارتكاب شيء من المنهيات بعد ذلك.

المسألة الثانية: قال صاحب الكشاف: (من) في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾ للتبيين لأن الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا واتقوا كلهم لا بعضهم.

(ما جاء في الشهداء ودفنهم) (١/ ٤٨٥)، حديث رقم (١٥١٤)، جميعًا من طريق الليث بن سعد... به، ولم أجد لفظ الصلاة عليهم في الحديث ولكن في الصلاة على شهداء أحد خلاف.

(١) ذكره ابن كثير في (البداية) (٤/ ٤٢) من طريق ابن إسحاق... به، أورده البيهقي في (دلائل النبوة) (٣/ ٢٢٧)، حديث رقم (٢) وقال عن ابن إسحاق... فذكر قصة صفية، وأخرجه أحمد في (مسنده) (١/ ١٦٥) من طريق سليمان بن داود الهاشمي أنبأنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن عروة قال: أخبرني أبي الزبير رضي الله عنه أنه لما كان يوم أُحُد أقبلت امرأة تسعى حتى إذا كادت أن تشرف على القتلى قال: فكره النبي ﷺ أن تراهم فقال: (المرأة المرأة) قال الزبير: فتوسمت أنها صفية قال أحمد شاكر: (إسناده صحيح)، وذكره الهيثمي في (المجمع) (٦/ ١١٨)، وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار وفيه عبد الرحمن بن أبي الزناد وهو ضعيف وقد وثق.

(٢) أخرجه البيهقي في (دلائل النبوة) (٣/ ٢٤١)، قال: وبإسناده عن ابن إسحاق قال: حدثني عبد الواحد بن أبي عوف عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص قال... فذكره، أخرجه الطبري في (تاريخه) (٢/ ٧٤)، وذكره ابن سيد الناس في (عيون الأثر) (٢/ ٣٦) من طريق ابن إسحاق قال: وحدثني عبد الأحد بن أبي عوف عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص قال... فذكره.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: هذه الآية نزلت في غزوة بدر الصغرى، روى ابن عباس أن أبا سفيان لما عزم على أن ينصرف من المدينة إلى مكة نادى: يا محمد موعدنا موسم بدر الصغرى فنقتتل بها إن شئت، فقال عليه الصلاة والسلام لعمر: (قل بيننا وبينك ذلك إن شاء الله تعالى)، فلما حضر الأجل خرج أبو سفيان مع قومه حتى نزل بمر الظهران، وألقى الله تعالى الرعب في قلبه، فبدا له أن يرجع، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي وقد قدم نعيم معتمرًا، فقال: يا نعيم إني وعدت محمدًا أن نلتقي بموسم بدر، وإن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن، وقد بدا لي أن أرجع، ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاد بذلك جراءة، فاذهب إلى المدينة فثبطهم ولك عندي عشرة من الإبل، فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم: ما هذا بالرأي، أتوكم في دياركم وقتلوا أكثرهم فإن ذهبتم إليهم لم يرجع منكم أحد، فوقع هذا الكلام في قلوب قوم منهم، فلما عرف الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك قال: **«والذي نفس محمد بيده لأخرجن إليهم ولو وحدي»** ثم خرج النبي ﷺ، ومعه نحو من سبعين رجلاً فيهم ابن مسعود، وذهبوا إلى أن وصلوا إلى بدر الصغرى، وهي ماء لبني كنانة، وكانت موضع سوق لهم يجتمعون فيها كل عام ثمانية أيام، ولم يلق رسول الله ﷺ وأصحابه أحدًا من المشركين، ووافقوا السوق، وكانت معهم نفقات وتجارات، فباعوا واشتروا أدمًا وزبيبًا وربحوا وأصابوا بالدرهم درهمين، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، ورجع أبو سفيان إلى مكة فسمى أهل مكة جيشه جيش السويق، وقالوا: إنما خرجتم لتشربوا السويق، فهذا هو الكلام في سبب نزول هذه الآية.

المسألة الثانية: في محل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وجوه: أحدها: أنه جر، صفة للمؤمنين بتقدير: والله لا يضيع أجر المؤمنين الذين قال لهم الناس. الثاني: أنه بدل من قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾، الثالث: أنه رفع بالابتداء وخبره ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾.

المسألة الثالثة: المراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من تقدم ذكرهم، وهم الذين استجابوا لله والرسول، وفي المراد بقوله: ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ وجوه: الأول: أن هذا القائل هو نعيم بن مسعود كما ذكرناه في سبب نزول هذه الآية، وإنما جاز إطلاق لفظ الناس على الإنسان الواحد، لأنه إذا قال الواحد قولاً وله أتباع يقولون مثل قوله أو يرضون بقوله، حسن حينئذ إضافة ذلك الفعل إلى

الكل، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢] ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] وهم لم يفعلوا ذلك وإنما فعله أسلافهم، إلا أنه أضيف إليهم لمتابعتهم لهم على تصويبهم في تلك الأفعال فكذا ههنا يجوز أن يضاف القول إلى الجماعة الراضين بقول ذلك الواحد. الثاني: وهو قول ابن عباس، ومحمد بن إسحاق: أن ركبًا من عبد القيس مروا بأبي سفيان، فدسهم إلى المسلمين ليجبنوهم وضمن لهم عليه جعلًا. الثالث: قال السدي: هم المنافقون، قالوا للمسلمين حين تجهزوا للمسير إلى بدر لميعاد أبي سفيان: القوم قد أتوكم في دياركم، فقتلوا الأكثرين منكم، فإن ذهبتم إليهم لم يبق منكم أحد.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ المراد بالناس هو أبو سفيان وأصحابه ورؤساء عسكره، وقوله: ﴿قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ أي جمعوا لكم الجموع، فحذف المفعول لأن العرب تسمي الجيش جمعًا ويجمعونه جموعًا، وقوله: ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ أي: فكونوا خائفين منهم، ثم إنه تعالى أخبر أن المسلمين لما سمعوا هذا الكلام لم يلتفتوا اليه ولم يقيموا له وزنًا، فقال تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الضمير في قوله: ﴿فَزَادَهُمْ﴾ إلى ماذا يعود؟ فيه قولان: الأول: عائد إلى الذين ذكروا هذه التخويفات. والثاني: أنه عائد إلى نفس قولهم، والتقدير: فزادهم ذلك القول إيمانًا، وإنما حسنت هذه الإضافة لأن هذه الزيادة في الإيمان لما حصلت عند سماع هذا القول حسنت إضافتها إلى هذا القول وإلى هذا القائل، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢]

المسألة الثانية: المراد بالزيادة في الإيمان أنهم لما سمعوا هذا الكلام المخوف لم يلتفتوا إليه، بل حدث في قلوبهم عزم متأكد على محاربة الكفار، وعلى طاعة الرسول ﷺ في كل ما يأمر به وينهى عنه ثقل ذلك أو خف، لأنه قد كان فيهم من به جراحات عظيمة، وكانوا محتاجين إلى المداواة، وحدث في قلوبهم وثوق بأن الله ينصرهم على أعدائهم ويؤيدهم في هذه المحاربة، فهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾.

المسألة الثالثة: الذين يقولون إن الإيمان عبارة لا عن التصديق بل عن الطاعات، وإنه يقبل الزيادة والنقصان، احتجوا بهذه الآية، فإنه تعالى نص على وقوع الزيادة، والذين لا يقولون بهذا القول قالوا: الزيادة إنما وقعت في مراتب الإيمان وفي شعائره، فصح القول بوقوع الزيادة في الإيمان مجازًا.

المسألة الرابعة: هذه الواقعة تدل دلالة ظاهرة على أن الكل بقضاء الله وقدره، وذلك لأن المسلمين كانوا قد انهزموا من المشركين يوم أُحد، والعادة جارية بأنه إذا انهزم أحد الخصمين عن الآخر فانه يحصل في قلب الغالب قوة وشدة استيلاء، وفي قلب المغلوب انكسار وضعف،

ثم إنه سبحانه قلب القضية ههنا، فأودع قلوب الغالبين وهم المشركون الخوف والرعب، وأودع قلوب المغلوبين القوة والحمية والصلابة، وذلك يدل على أن الدواعي والصوارف من الله تعالى، وإنها متى حدثت في القلوب وقعت الأفعال على وفقها.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ والمراد أنهم كلما ازدادوا إيمانًا في قلوبهم أظهروا ما يطابقه فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. قال ابن الأنباري: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي كافينا الله، ومثله قول امرئ القيس:

وَحَسْبُكَ مِن غِنى شِبعٌ وَرِيُّ (١)

أي: يكفيك الشبع والري، وأما ﴿ٱلْوَكِيلُ﴾ ففيه أقوال: أحدها: أنه الكفيل. قال الشاعر:

ذَكَرتُ أَبا أروى فَبِتُّ كَأَنَّني بَردُ الأمور الماضياتِ وَكيلُ (٢)

أراد كأنني برد الأمور كفيل. الثاني: قال الفراء: الوكيل: الكافي، والذي يدل على صحة هذا القول أن (نعم) سبيلها أن يكون الذي بعدها موافقًا للذي قبلها، تقول: رازقنا الله ونعم الرازق، وخالقنا الله ونعم الخالق، وهذا أحسن من قول من يقول: خالقنا الله ونعم الرازق، فكذا ههنا تقدير الآية: يكفينا الله ونعم الكافي. الثالث: الوكيل، فعيل بمعنى مفعول، وهو الموكول إليه، والكافي والكفيل يجوز أن يسمى وكيلاً، لأن الكافي يكون الأمر موكولاً إليه، وكذا الكفيل يكون الأمر موكولا إليه.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ وذلك أن النبي ﷺ خرج والمعنى: وخرجوا فانقلبوا، فحذف الخروج لأن الانقلاب يدل عليه، كقوله: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣] أي: فضرب فانفلق، وقوله: ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ قال مجاهد والسدي: النعمة ههنا العافية، والفضل التجارة، وقيل: النعمة منافع الدنيا، والفضل ثواب الآخرة، وقوله: ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ لم يصبهم قتل ولا جراح في قول الجميع ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ في طاعة رسوله ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا، وفي ذلك إلقاء الحسرة في قلوب المتخلفين عنهم وإظهار لخطأ رأيهم حيث حرموا أنفسهم مما فاز به هؤلاء، وروي أنهم قالوا: هل يكون هذا غزوًا، فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضي عنهم.

واعلم أن أهل المغازي اختلفوا، فذهب الواقدي إلى تخصيص الآية الأولى بواقعة حمراء الأسد، والآية الثانية ببدر الصغرى، ومنهم من يجعل الآيتين في وقعة بدر الصغرى، والأول أولى لأن قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢] كأنه يدل على قرب عهد بالقرح، فالمدح فيه أكثر من المدح على الخروج على العدو من وقت إصابة القرح لمسه، والقول الآخر أيضًا محتمل. والقرح على هذا القول يجب أن يفسر بالهزيمة، فكأنه قيل: إن

(١) تقدم ترجمة امرؤ القيس في المجلد الأول.

(٢) ينسب هذا البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الذين انهزموا ثم أحسنوا الأعمال بالتوبة واتقوا الله في سائر أمورهم، ثم استجابوا لله وللرسول عازمين على الثواب موطنين أنفسهم على لقاء العدو، بحيث لما بلغهم كثرة جموعهم لم يفتروا ولم يفشلوا، وتوكلوا على الله ورضوا به كافيًا ومعينًا فلهم أجر عظيم لا يحجبهم عنه ما كان منهم من الهزيمة إذ كانوا قد تابوا عنها والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ خبر ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ بمعنى: إنما ذلكم المثبط هو الشيطان و﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ جملة مستأنفة بيان لتثبيطه، أو ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ صفة لاسم الإشارة و﴿يُخَوِّفُ﴾ الخبر، والمراد بالشيطان الركب، وقيل: نعيم بن مسعود، وسمي شيطانًا لعتوه وتمرده في الكفر، كقوله: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقيل: هو الشيطان يخوف بالوسوسة.

أما قوله تعالى: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ ففيه سؤال: وهو أن الذين سماهم الله بالشيطان إنما خوفوا المؤمنين، فما معنى قوله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ والمفسرون ذكروا فيه ثلاثة أوجه: الأول: تقدير الكلام: ذلكم الشيطان يخوفكم بأوليائه، فحذف المفعول الثاني وحذف الجار، ومثال حذف المفعول الثاني قوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٧] أي: فإذا خفت عليه فرعون، ومثال حذف الجار قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف: ٢] معناه: لينذركم ببأس وقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥] أي: لينذركم بيوم التلاق، وهذا قول الفراء، والزجاج، وأبي علي. قالوا: ويدل عليه قراءة أبي بن كعب (يخوفكم بأوليائه).

القول الثاني: أن هذا على قول القائل: خوفت زيدًا عمرًا، وتقدير الآية: يخوفكم أولياءه، فحذف المفعول الأول، كما تقول: أعطيت الأموال، أي: أعطيت القوم الأموال، قال ابن الأنباري: وهذا أولى من ادعاء جار لا دليل عليه وقوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا﴾ [الكهف: ٢] أي: لينذركم بأسًا وقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥] أي: لينذركم يوم التلاق والتخويف يتعدى إلى مفعولين من غير حرف جر تقول: خاف زيد القتال، وخوفته القتال وهذا الوجه يدل عليه قراءة ابن مسعود (يخوفكم أولياءه).

القول الثالث: أن معنى الآية: يخوف أولياءه المنافقين ليقعدوا عن قتال المشركين، والمعنى الشيطان يخوف أولياءه الذين يطيعونه ويؤثرون أمره، فأما أولياء الله، فإنهم لا يخافونه إذا خوفهم ولا ينقادون لأمره ومراده منهم، وهذا قول الحسن والسدي، فالقول الأول فيه محذوفان، والثاني فيه محذوف واحد، والثالث لا حذف فيه. وأما الأولياء فهم المشركون والكفار، وقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ الكناية في القولين الأولين عائدة إلى الأولياء. وفي القول الثالث عائدة إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾

فتقعدوا عن القتال وتجبنوا ﴿وَخَافُونِ﴾ فجاهدوا مع رسولي وسارعوا إلى ما يأمركم به ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني أن الإيمان يقتضي أن تؤثروا خوف الله على خوف الناس.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع (يُحْزِنْك) بضم الياء وكسر الزاي، وكذلك في جميع ما في القرآن إلا قوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] في سورة الأنبياء، فإنه فتح الياء وضم الزاي، والباقون كلهم بفتح الياء وضم الزاي. قال الأزهري: اللغة الجيدة: حزنه يحزنه على ما قرأ به أكثر القراء، وحجة نافع أنهما لغتان يقال: حزن يحزن كنصر ينصر، وأحزن يحزن كأكرم يكرم لغتان.

المسألة الثانية: اختلفوا في سبب نزول الآية على وجوه: الأول: أنها نزلت في كفار قريش، والله تعالى جعل رسوله آمنا من شرهم، والمعنى: لا يحزنك من يسارع في الكفر بأن يقصد جمع العساكر لمحاربتك، فانهم بهذا الصنيع إنما يضرون أنفسهم ولا يضرون الله، ولا بد من حمل ذلك على أنهم لن يضروا النبي وأصحابه من المؤمنين شيئًا، وإذا حمل على ذلك فلا بد من حمله على ضرر مخصوص، لأن من المشهور أنهم بعد ذلك ألحقوا أنواعًا من الضرر بالنبي عليه الصلاة والسلام، والأولى أن يكون ذلك محمولاً على أن مقصودهم من جمع العساكر إبطال هذا الدين وإزالة هذه الشريعة، وهذا المقصود لا يحصل لهم، بل يضمحل أمرهم وتزول شوكتهم، ويعظم أمرك ويعلو شأنك. الثاني: أنها نزلت في المنافقين، ومسارعتهم هي أنهم كانوا يخوفون المؤمنين بسبب وقعة أحد ويؤيسونهم من النصرة والظفر، أو بسبب أنهم كانوا يقولون إن محمدًا طالب ملك، فتارة يكون الأمر له، وتارة عليه، ولو كان رسولاً من عند الله ما غلب، وهذا كان ينفر المسلمين عن الإسلام، فكان الرسول يحزن بسببه. قال بعضهم: إن قومًا من الكفار أسلموا ثم ارتدوا خوفًا من قريش فوقع الغم في قلب الرسول ﷺ بذلك السبب، فإنه عليه السلام ظن أنهم بسبب تلك الردة يلحقون به مضرة. فبين الله أن ردتهم لا تؤثر في لحوق ضرر بك قال القاضي: ويمكن أن يقوي هذا الوجه بأمور: الأول: أن المستمر على الكفر لا يوصف بأنه يسارع في الكفر، وإنما يوصف بذلك من يكفر بعد الإيمان. الثاني: أن إرادته تعالى أن لا يجعل لهم حظًا في الآخرة لا يليق إلا بمن قد آمن، فاستوجب ذلك، ثم أحبط. الثالث: أن الحزن إنما يكون على فوات أمر مقصود، فلما قدر النبي ﷺ الانتفاع بإيمانهم، ثم كفروا زن ﷺ عند ذلك لفوات التكثير بهم، فآمنه الله من ذلك وعرفه أن وجود إيمانهم كعدمه في أن اله لا تتغير.

القول الرابع: أن المراد رؤساء اليهود: كعب بن الأشرف وأصحابه الذين كتموا صفة محمد ﷺ لمتاع الدنيا. قال القفال رحمه الله: ولا يبعد حمل الآية على جميع أصناف الكفار بدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١] إلى قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤١] فدلت هذه الآية على أن حزنه كان حاصلاً من كل هؤلاء الكفار.

المسألة الثالثة: في الآية سؤال: وهو أن الحزن على كفر الكافر ومعصية العاصي طاعة، فكيف نهى الله عن الطاعة؟

والجواب من وجهين: الأول: أنه كان يفرط ويسرف في الحزن على كفر قومه حتى كاد يؤدي ذلك إلى لحوق الضرر به، فنهاه الله تعالى عن الإسراف فيه ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، الثاني: أن المعنى لا يحزنوك بخوف أن يضروك ويعينوا عليك، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ يعني أنهم لا يضرون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم، ولا يعود وبال ذلك على غيرهم ألبتة.

ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ والمعنى أنهم لن يضروا النبي وأصحابه شيئًا، وقال عطاء: يريد: لن يضروا أولياء الله شيئًا.

ثم قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أنه رد على المعتزلة، وتنصيص على أن الخير والشر بإرادة الله تعالى، قال القاضي: المراد أنه يريد الإخبار بذلك والحكم به.

واعلم أن هذا الجواب ضعيف من وجهين:

الأول: أنه عدول عن الظاهر.

والثاني: بتقدير أن يكون الأمر كما قال، لكن الإتيان بضد ما أخبر الله عنه وحكم به محال فيعود الإشكال.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: الإرادة لا تتعلق بالعدم، وقال أصحابنا: ذلك جائز، والآية دالة على قول أصحابنا لأنه قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فبين أن إرادته متعلقة بهذا العدم. قالت المعتزلة: المعنى أنه تعالى ما أراد ذلك كما قال: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] قلنا: هذا عدول عن الظاهر.

المسألة الثالثة: الآية تدل على أن النكرة في موضع النفي تعم، إذ لو لم يحصل العموم لم يحصل تهديد الكفار بهذه الآية ثم قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا كلام مبتدأ والمعنى أنه كما لاحظ لهم ألبتة من منافع الآخرة فلهم الحظ العظيم من مضار الآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١٧٧﴾

اعلم أنا لو حملنا الآية الأولى على المنافقين واليهود، وحملنا هذه الآية على المرتدين لا يبعد أيضًا حمل الآية الأولى على المرتدين، وحمل هذه الآية على اليهود، ومعنى اشتراء الكفر بالإيمان منهم، أنهم كانوا يعرفون النبي ﷺ ويؤمنون به قبل مبعثه ويستنصرون به على أعدائهم، فلما بعث كفروا به وتركوا ما كانوا عليه، فكأنهم أعطوا الإيمان وأخذوا الكفر بدلاً عنه كما يفعل المشتري من إعطاء شيء وأخذ غيره بدلاً عنه، ولا يبعد أيضًا حمل هذه الآية على المنافقين، وذلك لأنهم متى كانوا مع المؤمنين أظهروا الإيمان، فإذا خلوا إلى شياطينهم كفروا وتركوا الايمان، فكان ذلك كأنهم اشتروا الكفر بالإيمان.

واعلم أنه تعالى. قال في الآية الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ [آل عمران: ١٧٦] وقال في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ والفائدة في هذا التكرار أمور: أحدها: أن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لا شك أنهم كانوا كافرين أولاً، ثم آمنوا ثم كفروا بعد ذلك، وهذا يدل على شدة الاضطراب وضعف الرأي وقلة الثبات، ومثل هذا الإنسان لا خوف منه ولا هيبة له ولا قدرة له البتة على إلحاق الضرر بالغير. وثانيها: أن أمر الدين أهم الأمور وأعظمها، ومثل هذا مما لا يقدم الإنسان فيه على الفعل أو على الترك إلا بعد إمعان النظر وكثرة الفكر، وهؤلاء يقدمون على الفعل أو على الترك في مثل هذا المهم العظيم بأهون الأسباب وأضعف الموجبات، وذلك يدل على قلة عقلهم وشدة حماقتهم، فأمثال هؤلاء لا يلتفت العاقل إليهم. وثالثها: أن أكثرهم إنما ينازعونك في الدين، لا بناء على الشبهات، بل بناء على الحسد والمنازعة في منصب الدنيا، ومن كان عقله هذا القدر، وهو أنه يبيع بالقليل من الدنيا السعادة العظيمة في الآخرة كان في غاية الحماقة، ومثله لا يقدر في إلحاق الضرر بالغير، فهذا هو الفائدة في إعادة هذه الآية، والله أعلم بمراده.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝١٧٨﴾

اعلم أنه تعالى حكى عن الذين ذهبوا إلى المدينة لتثبيط أصحاب النبي ﷺ أنهم إنما ثبطوهم لأنهم خوفوهم بأن يقتلوا كما قتل المسلمون يوم أُحد، والله تعالى بيّن أن أقوال هؤلاء الشياطين لا يقبلها المؤمن ولا يلتفت إليها، وإنما الواجب على المؤمن أن يعتمد على فضل الله، ثم بين في هذه الآية أن بقاء هؤلاء المتخلفين ليس خيرًا من قتل أولئك الذين قتلوا بأُحد، لأن هذا البقاء صار وسيلة إلى الخزي في الدنيا والعقاب الدائم في القيامة، وقتل أولئك الذين قتلوا يوم أُحد

صار وسيلة إلى الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة، فترغيب أولئك المثبطين في مثل هذه الحياة وتنفيرهم عن مثل ذلك القتل لا يقبله إلا جاهل. فهذا بيان وجه النظم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ولا تحسبن الذين كفروا). (ولا تحسبن الذين يبخلون) [آل عمران: ١٨٠] ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ [آل عمران: ١٨٨] في الأربعة بالتاء وضم الباء في قوله: (تحسبنُهم) وقرأ نافع وابن عامر بالياء إلا قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ فإنه بالتاء، وقرأ حمزة كلها بالتاء، واختلاف القراء في فتح السين وكسرها قدّمناه في سورة البقرة، أما الذين قرأوا بالياء المنقطة من تحت: فقوله: ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ فعل، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فاعل يقتضي مفعولين أو مفعولاً يسد مسد مفعولين نحو حسبت، وقوله: حسبت أن زيدًا منطلق، وحسبت أن يقوم عمرو، فقوله في الآية: ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ يسد مسد المفعولين، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ [الفرقان: ٤٤] وأما قراءة حمزة بالتاء المنقطة من فوق فأحسن ما قيل فيه ما ذكره الزجاج، وهو أن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ نصب بأنه المفعول الأول، و﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ بدل عنه. و﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ هو المفعول الثاني والتقدير: ولا تحسبن يا محمد إملاء الذين كفروا خيرًا لهم. ومثله مما جعل (أن) مع الفعل بدلاً من المفعول قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] فقوله: ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدل من إحدى الطائفتين.

المسألة الثانية: (ما) في قوله: ﴿أَنَّمَا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون بمعنى الذي فيكون التقدير: لا تحسبن الذين كفروا أن الذي نمليه خير لأنفسهم، وحذف الهاء من (نملي) لأنه يجوز حذف الهاء من صلة الذي كقولك: الذي رأيت زيد، والآخر: أن يقال: (ما) مع ما بعدها في تقدير المصدر، والتقدير: لا تحسبن الذين كفروا أن إملائي لهم خير.

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): (ما) مصدرية وإذا كان كذلك فكان حقها في قياس علم الخط أن تكتب مفصولة ولكنها وقعت في مصحف عثمان متصلة، واتباع خط المصاحف لذلك المصحف واجب، وأما في قوله: ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ فههنا يجب أن تكون متصلة لانها كافة بخلاف الأولى.

المسألة الرابعة: معنى (نملي) نطيل ونؤخر، والإملاء الإمهال والتأخير، قال الواحدي رحمه الله: واشتقاقه من الملوة وهي المدة من الزمان، يقال: ملوت من الدهر مَلوة ومُلوة ومَلاوة ومُلاوة بمعنى واحد، قال الأصمعي: يقال: أملى عليه الزمان أي طال، وأملى له أي طول له وأمهله، قال أبو عبيدة: ومنه الملا للأرض الواسعة الطويلة والملوان الليل والنهار.

المسألة الخامسة: احتج أصحابنا بهذه الآية في مسألة القضاء والقدر من وجوه: الأول: أن هذا الإملاء عبارة عن إطالة المدة، وهي لا شك أنها من فعل الله تعالى، والآية نص في بيان أن هذا الإملاء ليس بخير، وهذا يدل على أنه سبحانه فاعل الخير والشر. الثاني: أنه تعالى نص

على أن المقصود من هذا الإملاء هو أن يزدادوا الإثم والبغي والعدوان، وذلك يدل على أن الكفر والمعاصي بإرادة الله، ثم إنه تعالى أكد ذلك بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا وليكون لهم عذاب مهين. الثالث: أنه تعالى أخبر عنهم أنهم لا خير لهم في هذا الإملاء، أنهم لا يحصلون إلا على ازدياد البغي والطغيان، والإتيان بخلاف مخبر الله تعالى مع بقاء ذلك الخبر جمع بين النقيضين وهو محال، وإذا لم يكونوا قادرين مع ذلك الإملاء على الخير والطاعة مع أنهم مكلفون بذلك لزم في نفسه بطلان مذهب القوم. قالت المعتزلة:

أما الوجه الأول: فليس المراد من هذه الآية أن هذا الإملاء ليس بخير، إنما المراد أن هذا الاملاء ليس خيرًا لهم من أن يموتوا كما مات الشهداء يوم أُحد، لأن كل هذه الآيات في شأن أُحد وفي تثبيط المنافقين المؤمنين عن الجهاد على ما تقدم شرحه في الآيات المتقدمة، فبين تعالى أن إبقاء الكافرين في الدنيا وإملاءه لهم ليس بخير لهم من أن يموتوا كموت الشهداء، ولا يلزم من نفي كون هذا الإملاء أكثر خيرية من ذلك القتل، أن لا يكون هذا الإملاء في نفسه خيرًا.

وأما الوجه الثاني: فقد قالوا: ليس المراد من الآية أن الغرض من الإملاء إقدامهم على الكفر والفسق بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦] وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[النساء: ٦٤] بل الآية تحتمل وجوهًا من التأويل: أحدها: أن تحمل هذه اللام على لام العاقبة كقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[القصص: ٨] وقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾[الأعراف: ١٧٩] وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[إبراهيم: ٣٠] وهم ما فعلوا ذلك لطلب الإضلال، بل لطلب الاهتداء، ويقال: ما كانت موعظتي لك إلا لزيادة في تماديك في الفسق إذا كانت عاقبة الموعظة ذلك، وثانيها: أن يكون الكلام على التقديم والتأخير، والتقدير: ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا إنما نملي لهم خير لأنفسهم، وثالثها: أنه تعالى لما أمهلهم مع علمه بأنهم لا يزدادون عند هذا الإمهال إلا تماديًا في الغي والطغيان، أشبه هذا حال من فعل الإملاء لهذا الغرض والمشابهة أحد أسباب حسن المجاز. ورابعها: وهو السؤال الذي ذكرته للقوم وهو أن اللام في قوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ غير محمول على الغرض بإجماع الأمة، أما على قول أهل السنة فلأنهم يحيلون تعليل أفعال الله بالأغراض، وأما على قولنا فلأنا لا نقول بأن فعل الله معلل بغرض التعب والإيلام، بل عندنا أنه تعالى لم يفعل فعلاً إلا لغرض الإحسان، وإذا كان كذلك فقد حصل الإجماع على أن هذه اللام غير محمولة على التعليل والغرض، وعند هذا يسقط ما ذكرتم من الاستدلال، ثم بعد هذا: قول القائل: ما المراد من هذه اللام غير ملتفت اليه، لأن المستدل إنما بنى استدلاله على أن هذه اللام للتعليل، فإذا بطل ذلك سقط استدلاله.

وأما الوجه الثالث: وهو الإخبار والعلم فهو معارض بأن هذا لو منع العبد من الفعل لمنع الله منه، ويلزم أن يكون الله موجبًا لا مختارًا، وهو بالإجماع باطل.

والجواب عن الأول: أن قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ﴾ معناه نفي الخيرية في نفس الأمر، وليس معناه أنه ليس خيرًا من شيء آخر، لأن بناء المبالغة لا يجوز ذكره إلا عند ذكر الراجح والمرجوح، فلما لم يذكر الله ههنا إلا أحد الأمرين عرفنا أنه لنفي الخيرية لا لنفي كونه خيرًا من شيء آخر.

وأما السؤال الثاني: وهو تمسكهم بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وبقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ [النساء: ٦٤].

فجوابه: أن الآية التي تمسكنا بها خاص، والآية التي ذكرتموها عام، والخاص مقدم على العام.

وأما السؤال الثالث: وهو حمل اللام على لام العاقبة فهو عدول عن الظاهر، وأيضًا فإن البرهان العقلي يبطله؛ لأنه تعالى لما علم أنهم لا بد وأن يصيروا موصوفين بازدياد الغي والطغيان، كان ذلك واجب الحصول لأن حصول معلوم الله واجب، وعدم حصوله محال، وإرادة المحال محال، فيمتنع أن يريد منهم الإيمان، ويجب أن يريد منهم ازدياد الغي والطغيان، وحينئذ ثبت أن المقصود هو التعليل وأنه لا يجوز المصير إلى لام العاقبة.

وأما السؤال الرابع: وهو التقديم والتأخير.

فالجواب عنه من ثلاثة أوجه: أحدها: أن التقديم والتأخير ترك للظاهر. وثانيها: قال الواحدي رحمه الله: هذا إنما يحسن لو جازت قراءة ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ بكسر (إنما) وقراءة ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ بالفتح. ولم توجد هذه القراءة ألبتة. وثالثها: أنا بينا بالبرهان القاطع العقلي أنه يجب أن يكون مراد الله من هذا الاملاء حصول الطغيان لا حصول الايمان، فالقول بالتقديم والتأخير ترك للظاهر والتزام لما هو على خلاف البرهان القاطع.

وأما السؤال الخامس: وهو قوله: هذه اللام لا يمكن حملها على التعليل.

فجوابه أن عندنا يمتنع تعليل أفعال الله لغرض يصدر من العباد، فأما أن يفعل تعالى فعلا ليحصل منه شيء آخر فهذا غير ممتنع، وأيضًا قوله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ تنصيص على أنه ليس المقصود من هذا الإملاء إيصال الخير لهم والإحسان اليهم، والقوم لا يقولون بذلك، فتصير الآية حجة عليهم من هذا الوجه.

وأما السؤال السادس: وهو المعارضة بفعل الله تعالى.

فالجواب: أن تأثير قدرة الله في إيجادِ المحدثات متقدم على تعلق علمه بعدمه، فلم يمكن أن يكون العلم مانعًا عن القدرة. أما في حق العبد فتأثير قدرته في إيجاد الفعل متأخر عن تعلق علم الله بعدمه، فصلح أن يكون هذا العلم مانعًا للعبد عن الفعل، فهذا تمام المناظرة في هذه الآية.

المسألة السادسة: اتفق أصحابنا أنه ليس لله تعالى في حق الكافر شيء من النعم الدينية،

وهل له في حقه شيء من النعم الدنيوية، اختلف فيه قول أصحابنا، فالذين قالوا ليس له في حقه شيء من النعم الدنيوية تمسكوا بهذه الآية، وقالوا هذه الآية دالة على أن إطالة العمر وإيصاله إلى مراداته في الدنيا ليس شيء منها نعمة، لأنه تعالى نص على أن شيئًا من ذلك ليس بخير، والعقل أيضًا يقرره وذلك لأن من أطعم إنسانًا خبيصًا مسمومًا فإنه لا يعد ذلك إلا طعام إنعامًا، فإذا كان المقصود من إعطاء نعم الدنيا عقاب الآخرة لم يكن شيء منها نعمة حقيقة، وأما الآيات الواردة في تكثير النعم في حق الكفار فهي محمولة على ما يكون نعمًا في الظاهر، وأنه لا طريق إلى التوفيق بين هذه الآية وبين تلك الآيات إلا أن نقول: تلك النعم نعم في الظاهر ولكنها نقم وآفات في الحقيقة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

اعلم أن هذه الآية من بقية الكلام في قصة أُحد، فأخبر تعالى أن الأحوال التي وقعت في تلك الحادثة من القتل والهزيمة، ثم دعاء النبي ﷺ إياهم مع ما كان بهم من الجراحات إلى الخروج لطلب العدو، ثم دعائه إياهم مرة أخرى إلى بدر الصغرى لموعد أبي سفيان، فأخبر تعالى أن كل هذه الأحوال صار دليلاً على امتياز المؤمن من المنافق، لأن المنافقين خافوا ورجعوا وشمتوا بكثرة القتلى منكم، ثم ثبطوا وزهدوا المؤمنين عن العود إلى الجهاد، فأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يجوز في حكمته أن يذركم على ما أنتم عليه من اختلاط المنافقين بكم وإظهارهم أنهم منكم ومن أهل الإيمان بل كان يجب في حكمته إلقاء هذه الحوادث والوقائع حتى يحصل هذا الامتياز، فهذا وجه النظم. وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي: (حتى يميِّز الخبيث) بالتشديد، وكذلك في الأنفال والباقون ﴿يَمِيزَ﴾ بالتخفيف وفتح الياء الأولى وكسر الميم وسكون الياء الأخيرة، قال الواحدي رحمه الله: وهما لغتان يقال مِزْتُ الشيء بعضه من بعض فأنا أَمِيزُه مَيْزًا او أُمَيِّزُه تمييزًا، ومنه الحديث «من ماز أذى عن طريق فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ» وحجة من قرأ بالتخفيف وفتح الياء أن الميز يفيد فائدة التمييز وهو أخف في اللفظ فكان أولى، وحكى أبو زيد عن أبي عمرو أنه كان يقول: التشديد للكثرة، فأما واحد من واحد فيميز بالتخفيف، والله تعالى قال: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ فذكر شيئين، وهذا كما قال بعضهم في الفرق والتفريق، وأيضًا قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ [يس: ٥٩] وهو مطاوع الميز، وحجة من قرأ بالتشديد: أن التشديد للتكثير والمبالغة، وفي المؤمنين والمنافقين كثرة، فلفظ التمييز ههنا أولى، ولفظ الطيب والخبيث وإن كان مفردًا إلا أنه للجنس، فالمراد بهما جميع المؤمنين والمنافقين لا اثنان منهما.

المسألة الثانية: قد ذكرنا أن معنى الآية: ما كان الله ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من اختلاط المؤمن بالمنافق وأشباهه حتى يميز الخبيث من الطيب، أي المنافق من المؤمن. واختلفوا بأي شيء ميز بينهم وذكروا وجوهًا: أحدها: بإلقاء المحن والمصائب والقتل والهزيمة، فمن كان مؤمنًا ثبت على إيمانه وعلى تصديق الرسول ﷺ، ومن كان منافقًا ظهر نفاقه وكفره. وثانيها: أن الله وعد بنصرة المؤمنين وإذلال الكافرين، فلما قوي الإسلام عظمت دولته وذل الكفر وأهله، وعند ذلك حصل هذا الامتياز. وثالثها: القرائن الدالة على ذلك، مثل أن المسلمين كانوا يفرحون بنصرة الإسلام وقوته، والمنافقين كانوا يغتمون بسبب ذلك.

المسألة الثالثة: ههنا سؤال، وهو أن هذا التمييز إن ظهر وانكشف فقد ظهر كفر المنافقين، وظهور الكفر منهم ينفي كونهم منافقين، وإن لم يظهر لم يحصل موعود الله.

وجوابه: أنه ظهر بحيث يفيد الامتياز الظني، لا الامتياز القطعي.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ معناه أنه سبحانه حكم بأن يظهر هذا التمييز، ثم بيّن بهذه الآية أنه لا يجوز أن يحصل ذلك التمييز بأن يطلعكم الله على غيبه فيقول: إن فلانًا منافق وفلانًا مؤمن، وفلانًا من أهل الجنة وفلانًا من أهل النار، فإن سنة الله جارية بأنه لا يطلع عوام الناس على غيبه، بل لا سبيل لكم إلى معرفة ذلك الامتياز إلا بالامتحانات مثل ما ذكرنا من وقوع المحن والآفات، حتى يتميز عندها الموافق من المنافق، فأما معرفة ذلك على سبيل الاطلاع من الغيب فهو من خواص الأنبياء، فلهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي ولكن الله يصطفي من رسله من يشاء فخصهم بإعلامهم أن هذا مؤمن وهذا منافق. ويحتمل ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فيمتحن خلقه بالشرائع على أيديهم حتى يتميز الفريقان بالامتحان، ويحتمل أيضًا أن يكون المعنى: وما كان الله ليجعلكم كلكم عالمين بالغيب من حيث يعلم الرسول حتى تصيروا مستغنين عن الرسول، بل الله يخص من يشاء من عباده بالرسالة، ثم يكلف الباقين طاعة هؤلاء الرسل.

ثم قال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ والمقصود أن المنافقين طعنوا في نبوة محمد ﷺ بوقوع الحوادث المكروهة في قصة أُحد، فبيّن الله تعالى أنه كان فيها مصالح. منها تمييز الخبيث من الطيب، فلما أجاب عن هذه الشبهة التي ذكرتموها قال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ يعني لما دلت الدلائل على نبوته وهذه الشبهة التي ذكرتموها في الطعن في نبوته فقد أجبنا عنها، فلم يبق إلا أن تؤمنوا بالله ورسله، وإنما قال: ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ ولم يقل: ورسوله لدقيقة، وهي أن الطريق الذي به يتوصل إلى الإقرار بنبوة أحد من الأنبياء عليهم السلام ليس إلا المعجز وهو حاصل في حق محمد ﷺ، فوجب الإقرار بنبوة كل واحد من الأنبياء، فلهذه الدقيقة قال: ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ والمقصود التنبيه على أن طريق إثبات نبوة جميع الأنبياء واحد، فمن أقر بنبوة واحد منهم لزمه الإقرار بنبوة الكل، ولما أمرهم بذلك قرن به الوعد بالثواب فقال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بالغ في التحريض على بذل النفس في الجهاد في الآيات المتقدمة شرع ههنا في التحريض على بذل المال في الجهاد، وبين الوعيد الشديد لمن يبخل ببذل المال في سبيل الله.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة (ولا تحسبن) بالتاء والباقون بالياء، أما قراءة حمزة بالتاء المنقطة من فوق فقال الزجاج: معناه ولا تحسبن بخل الذين يبخلون خيرًا لهم، فحذف المضاف لدلالة يبخلون عليه، وأما من قرأ بالياء المنقطة من تحت ففيه وجهان: الأول: أن يكون فاعل ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ ضمير رسول الله ﷺ، أو ضمير أحد، والتقدير: ولا يحسبن رسول الله أو لا يحسبن أحد بخل الذين يبخلون خيرًا لهم. الثاني: أن يكون فاعل ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ هم الذين يبخلون، وعلى هذا التقدير يكون المفعول محذوفًا، وتقديره: ولا يحسبن الذين يبخلون بخلهم هو خيرًا لهم، وانما جاز حذفه لدلالة يبخلون عليه، كقوله: من كذب كان شرًّا له، أي الكذب، ومثله:

إذا نهى السفيه جرى إليه

أي: السفه، وأنشد الفراء:

هُمُ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ هُمُ والآخذون به والسَّاسَةُ الأُوَلُ[1]

فقوله به: يريد بالملك ولكنه اكتفى عنه بذكر الملوك.

المسألة الثانية: هو في قوله: ﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ تسميه البصريون فصلاً، والكوفيون عمادًا، وذلك لأنه لما ذكر ﴿يَبْخَلُونَ﴾ فهو بمنزلة ما إذا ذكر البخل، فكأنه قيل: ولا يحسبن الذين يبخلون البخل خيرًا لهم، وتحقيق القول فيه أن للمبتدأ حقيقة، وللخبر حقيقة، وكون حقيقة المبتدأ موصوفًا بحقيقة الخبر أمر زائد على حقيقة المبتدأ وحقيقة الخبر، فإذا كانت هذه الموصوفية أمرًا زائدًا على الذاتين فلا بد من صيغة ثالثة دالة على هذه الموصوفية وهي كلمة ﴿هُوَ﴾.

المسألة الثالثة: اعلم أن الآية دالة على ذم البخل بشيء من الخيرات والمنافع، وذلك الخير يحتمل أن يكون مالاً، وأن يكون علمًا.

---

(١) الفراء تقدم ترجمته في المجلد الثالث.

فالقول الأول: إن هذا الوعيد ورد على البخل بالمال، والمعنى: لا يتوهمن هؤلاء البخلاء أن بخلهم هو خير لهم، بل هو شر لهم، وذلك لأنه يبقى عقاب بخلهم عليهم، وهو المراد من قوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ مع أنه لا تبقى تلك الأموال عليهم وهذا هو المراد بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

والقول الثاني: أن المراد من هذا البخل: البخل بالعلم، وذلك لأن اليهود كانوا يكتمون نعت محمد ﷺ وصفته، فكان ذلك الكتمان بخلاً، يقال: فلان يبخل بعلمه، ولا شك أن العلم فضل من الله تعالى قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[النساء: ١١٣] ثم إنه تعالى علم اليهود والنصارى ما في التوراة والإنجيل، فإذا كتموا ما في هذين الكتابين من البشارة بمبعث محمد ﷺ كان ذلك بخلاً.

واعلم أن القول الأول أولى، ويدل عليه وجهان: الأول: أنه تعالى قال: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ﴾ ولو فسرنا الآية بالعلم احتجنا الى تحمل المجاز في تفسير هذه الآية، ولو فسرناها بالمال لم نحتج إلى المجاز فكان هذا أولى. الثاني: أنا لو حملنا هذه الآية على المال كان ذلك ترغيبًا في بذل المال في الجهاد فحينئذ يحصل لهذه الآية مع ما قبلها نظم حسن، ولو حملناها على أن اليهود كتموا ما عرفوه من التوراة انقطع النظم، إلا على سبيل التكلف، فكان الأول أولى.

المسألة الرابعة: أكثر العلماء على أن البخل عبارة عن منع الواجب، وإن منع التطوع لا يكون بخلاً، واحتجوا عليه بوجوه: أحدها: أن الآية دالة على الوعيد الشديد في البخل، والوعيد لا يليق إلا الواجب. وثانيها: أنه تعالى ذم البخل وعابه، ومنع التطوع لا يجوز أن يذم فاعله وأن يعاب به. وثالثها: وهو أنه تعالى لا ينفك عن ترك التفضل لأنه لا نهاية لمقدوراته في التفضل، وكل ما يدخل في الوجود فهو متناهٍ، فيكون لا محالة تاركًا التفضل، فلو كان ترك التفضل بخلاً لزم أن يكون الله تعالى موصوفًا بالبخل لا محالة، تعالى الله عز وجل عنه علوًّا كبيرًا. ورابعها: قال عليه الصلاة والسلام: «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ البُخْلِ»(١) ومعلوم أن تارك التطوع لا يليق به هذا الوصف. وخامسها: أنه كان لو تارك التفضل بخيلاً لوجب فيمن يملك المال كله العظيم أن لا يتخلص من البخل إلا بإخراج الكل. وسادسها: أنه تعالى قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[البقرة: ٣] وكلمة (من) للتبعيض، فكان المراد من هذه الآية: الذين ينفقون بعض ما رزقهم الله، ثم إنه تعالى قال في صفتهم: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[البقرة: ٥] فوصفهم بالهدى والفلاح، ولو كان تارك التطوع بخيلاً مذمومًا لما صح ذلك. فثبت بهذه الآية أن البخل عبارة عن ترك الواجب، إلا أن الإنفاق الواجب أقسام كثيرة، منها إنفاقه على نفسه وعلى أقاربه الذين يلزمه مؤنتهم، ومنها ما يتصل بأبواب الزكاة، ومنها ما إذا احتاج المسلمون

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (الهبة وفضلها)، باب: (إذا وهب هبة أو وعد...) (٢/ ٩١٧)، حديث رقم (٢٤٥٨)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٨٠٦/ ٢٣١٤)، جميعًا من طريق سفيان بن عيينة... به.

إلى دفع عدو يقصد قتلهم ومالهم، فههنا يجب عليهم إنفاق الأموال على من يدفعه عنهم، لأن ذلك يجري مجرى دفع الضرر عن النفس، ومنها إذا صار أحد من المسلمين مضطرًا فإنه يجب عليه أن يدفع إليه مقدار ما يستبقي به رمقه، فكل هذه الاتفاقات من الواجبات وتركه من باب البخل، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تفسير هذا الوعيد وجوه: الأول: أن يحمل هذا على ظاهره وهو أنه تعالى يطوقهم بطوق يكون سببًا لعذابهم. قيل: إنه تعالى يصير تلك الأموال في أعناقهم حيات تكون لهم كالأطواق تلتوي في أعناقهم، ويجوز أيضًا أن تلتوي تلك الحيات في سائر أبدانهم، فأما ما يصير من ذلك في أعناقهم فعلى جهة أنهم كانوا التزموا أداء الزكاة ثم امتنعوا عنها، وأما ما يلتوي منها في سائر أبدانهم فعلى جهة أنهم كانوا يضمون تلك الأموال إلى أنفسهم، فعوضوا منها بأن جعلت حيات التوت عليهم كأنهم قد التزموها وضموها إلى أنفسهم. ويمكن أن يكون الطوق طوقًا من نار يجعل في أعناقهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: تجعل تلك الزكاة الممنوعة في عنقهم كهيئة الطوق شجاعًا ذا زبيبتين يلدغ بهما خديه ويقول: أنا الزكاة التي بخلت في الدنيا بي.

القول الثاني: في تفسير قوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ قال مجاهد: سيكلفون أن يأتوا بما بخلوا به يوم القيامة ونظيره ما روي عن ابن عباس أنه كان يقرأ (وَعَلَى الَّذِينَ يطوقونه فِدْيَةٌ) [البقرة: ١٨٤] قال المفسرون: يكلفونه ولا يطيقونه، فكذا قوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: يؤمرون بأداء ما منعوا حين لا يمكنهم الإتيان به، فيكون ذلك توبيخًا على معنى: هلا فعلتم ذلك حين كان ممكنًا.

والقول الثالث: أن قوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ﴾ أي: سيلزمون إثمه في الآخرة، وهذا على طريق التمثيل لا على أن ثم أطواقًا، يقال منه: فلان كالطوق في رقبة فلان، والعرب يعبرون عن تأكيد إلزام الشيء بتصييره في العنق، ومنه يقال: قلدتك هذا الأمر، وجعلت هذا الأمر في عنقك قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣].

القول الرابع: إذا فسرنا هذا البخل بالبخل بالعلم كان معنى ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ أن الله تعالى يجعل في رقابهم طوقًا من نار، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ، فَكَتَمَهُ، أُلْجِمَ الله بِلِجامٍ مِنْ نارٍ يوم القيامة**» والمعنى أنهم عوقبوا في أفواههم وألسنتهم بهذا اللجام لأنهم لم ينطقوا بأفواههم وألسنتهم بما يدل على الحق.

واعلم أن تفسير هذا البخل بكتمان دلائل نبوة محمد ﷺ غير بعيد، وذلك لأن اليهود

والنصارى موصوفون بالبخل في القرآن مذمومون به. قال تعالى في صفتهم: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣] وقال أيضًا فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧] وأيضًا ذكر عقيب هذه الآية قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] وذلك من أقوال اليهود، ولا يبعد أيضًا أن تكون الآية عامة في البخل بالعلم، وفي البخل بالمال، ويكون الوعيد حاصلاً عليهما معًا.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: هذه الآية دالة على القطع بوعيد الفساق، وذلك لأن من يلزمه هذه الحقوق ولا تسقط عنه هو المصدق بالرسول وبالشريعة، أما قوله: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ فلأنه يؤدي إلى حرمان الثواب وحصول النار، وأما قوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فهو صريح بالوعيد. واعلم أن الكلام في هذه المسألة تقدم في سورة البقرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وفيه وجهان: الأول: وله ما فيهما مما يتوارثه أهلهما من مال وغيره. فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] والثاني: وهو قول الأكثرين: المراد أنه يفنى أهل السموات والأرض وتبقى الأملاك ولا مالك لها إلا الله، فجرى هذا مجرى الوراثة إذ كان الخلق يدعون الأملاك، فلما ماتوا عنها ولم يخلفوا أحدًا كان هو الوارث لها، والمقصود من الآية أنه يبطل ملك جمع المالكين إلا ملك الله سبحانه وتعالى، فيصير كالميراث. قال ابن الأنباري: يقال: ورث فلان علم فلان إذا انفرد به بعد أن كان مشاركًا فيه، وقال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦] وكان المعنى انفراده بذلك الأمر بعد أن كان داود مشاركًا له فيه وغالبًا عليه.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو (بما يعملون) بالياء على المغايبة كناية عن الذين يبخلون، والمعنى والله بما يعملون خبير من منعهم الحقوق فيجازيهم عليه، والباقون قرؤا بالتاء على الخطاب، وذلك لأن ما قبل هذه الآية خطاب وهو قوله: ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩] والله بما تعملون خبير فيجازيكم عليه، والغيبة أقرب إليه من الخطاب قال صاحب الكشاف: الياء على طريقة الالتفات، وهي أبلغ في الوعيد.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

اعلم أن في كيفية النظم وجهين: الأول: أنه تعالى لما أمر المكلفين في هذه الآيات ببذل النفس وبذل المال في سبيل الله وبالغ في تقرير ذلك، شرع بعد ذلك في حكاية شبهات القوم في الطعن في نبوته.

فالشبهة الأولى: أنه تعالى لما أمر بإنفاق الأموال في سبيله قالت الكفار: إنه تعالى لو طلب الإنفاق في تحصيل مطلوبه لكان فقيرًا عاجزًا، لأن الذي يطلب المال من غيره يكون فقيرًا، ولما كان الفقر على الله تعالى محالاً، كان كونه طالبًا للمال من عبيده محالاً، وذلك يدل على أن محمدًا كاذب في إسناد هذا الطلب إلى الله تعالى.

الوجه الثاني: في طريق النظم أن أمة موسى عليه السلام كانوا إذا أرادوا التقرب بأموالهم إلى الله تعالى، فكانت تجيء نار من السماء فتحرقها، فالنبي ﷺ لما طلب منهم بذل الأموال في سبيل الله قالوا له لو كنت نبيًّا لما طلبت الأموال لهذا الغرض، فإنه تعالى ليس بفقير حتى يحتاج في إصلاح دينه إلى أموالنا، بل لو كنت نبيًّا لكنت تطلب أموالنا لأجل أن تجيئها نار من السماء فتحرقها، فلما لم تفعل ذلك عرفنا أنك لست بنبي، فهذا هو وجه النظم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه يبعد من العاقل أن يقول إن الله فقير ونحن أغنياء، بل الإنسان إنما يذكر ذلك إما على سبيل الاستهزاء أو على سبيل الإلزام، وأكثر الروايات أن هذا القول إنما صدر عن اليهود، روي أنه ﷺ كتب مع أبي بكر إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضًا حسنًا، فقال فنحاص اليهودي: إن الله فقير حتى سألنا القرض، فلطمه أبو بكر في وجهه وقال: لولا الذي بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك، فشكاه إلى رسول الله ﷺ وجحد ما قاله، فنزلت هذه الآية تصديقًا لأبي بكر رضي الله عنه(١). وقال آخرون: لما أنزل الله تعالى ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: نرى إله محمد يستقرض منا، فنحن إذن أغنياء وهو فقير، وهو ينهانا عن الربا ثم يعطينا الربا، وأرادوا قوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

واعلم أنه ليس في الآية تعيين هذا القائل، إلا أن العلماء نسبوا هذا القول إلى اليهود واحتجوا عليه بوجوه: أحدها: أن الله تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: إن يد الله مغلولة: يعنون أنه بخيل بالعطاء وذلك الجهل مناسب للجهل المذكور في هذه الآية. وثانيها: ما روي في الخبر أنهم تكلموا بذلك على ما رويناه في قصة أبي بكر. وثالثها: أن القول بالتشبيه غالب على اليهود، ومن قال بالتشبيه لا يمكنه إثبات كونه تعالى قادرًا على كل المقدورات، وإذا عجز عن إثبات هذا الأصل عجز عن بيان أنه غني وليس بفقير.

والوجه الرابع: أن موسى عليه الصلاة والسلام لما طلب منهم أن يوافقوه في مجاهدة الأعداء قالوا: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. فموسى عليه السلام لما طلب منهم الجهاد

(١) **إسناده ضعيف:** أخرجه الطبري في (تفسيره) (٧/ ٤٤٣) من طريق أحمد بن مفضل قال: حدثنا أسباط عن السدى... فذكره، والواحدي في (أسباب النزول) (١/ ٧٧) من طريق شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد... به.

بالنفس قالوا: لما كان الإله قادرًا فأي حاجة به إلى جهادنا، وكذا ههنا أن محمدًا عليه الصلاة والسلام لما طلب منهم الجهاد ببذل المال قالوا: لما كان الإله غنيًا فأي حاجة به إلى أموالنا. فكان إسنادهم هذه الشبهة إلى اليهود لائقًا من هذا الوجه، وإن كان لا يمتنع أن يكون غيرهم من الجهال قد قال ذلك. والأظهر أنهم قالوه على سبيل الطعن في نبوة محمد ﷺ، يعني لو صدق محمد في أن الإله يطلب المال من عبيده لكان فقيرًا، ولما كان ذلك محالاً ثبت أنه كاذب في هذا الإخبار، أو ذكروه على سبيل الاستهزاء والسخرية، فأما أن يقول العاقل مثل هذا الكلام عن اعتقاد فهو بعيد.

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أنه تعالى سميع للأقوال، ونظيره قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ [المجادلة: ١].

المسألة الثالثة: ظاهر الآية يدل على أن قائل هذا القول كانوا جماعة، لأنه تعالى قال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ وظاهر هذا القول يفيد الجميع. وأما ما روي أن قائل هذا القول هو فنحاص اليهودي، فهذا يدل على أن غيره لم يقل ذلك، فلما شهد الكتاب أن القائلين كانوا جماعة وجب القطع بذلك.

ثم قال تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوٓاْ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة (سيُكتب) بالياء وضمها على ما لم يسم فاعله (وقتلُهم الأنبياء) برفع اللام على معنى سيكتب قتلهم، والباقون بالنون وفتح اللام إضافة إليه تعالى. قال صاحب (الكشاف): وقرأ الحسن والأعرج (سيكتب) بالياء وتسمية الفاعل.

المسألة الثانية: هذا وعيد على ذلك القول وهو يحتمل وجوهًا: أحدها: أن يكون المراد من كتبه عليهم إثبات ذلك عليهم وأن لا يلغى ولا يطرح، وذلك لأن الناس إذا أرادوا إثبات الشيء على وجه لا يزول ولا ينسى ولا يتغير كتبوه، والله تعالى جعل الكتبة مجازًا عن إثبات حكم ذلك عليهم. الثاني: سنكتب ما قالوا في الكتب التي تكتب فيها أعمالهم ليقرءوا ذلك في جرائد أعمالهم يوم القيامة، والثالث: عندي فيه احتمال آخر، وهو أن المراد: سنكتب عنهم هذا الجهل في القرآن حتى يعلم الخلق إلى يوم القيامة شدة تعنت هؤلاء وجهلهم وجهدهم في الطعن في نبوة محمد ﷺ بكل ما قدروا عليه.

ثم قال: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: ونكتب قتلهم الأنبياء بغير حق.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: الفائدة في ضم أنهم قتلوا الأنبياء إلى أنهم وصفوا الله تعالى بالفقر، هي بيان أن جهل هؤلاء ليس مخصوصًا بهذا الوقت، بل هم منذ كانوا، مصرون على الجهالات والحماقات.

المسألة الثانية: في إضافة قتل الأنبياء إلى هؤلاء وجهان: أحدهما: سنكتب ما قال هؤلاء ونكتب ما فعله أسلافهم فنجازي الفريقين بما هو أهله، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البقرة: ٧٢] أي: قتلها أسلافكم ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩] ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٥٠] والفاعل لهذه الأشياء هو أسلافهم، والمعنى أنه سيحفظ على الفريقين معًا أقوالهم وأفعالهم.

والوجه الثاني: سنكتب على هؤلاء ما قالوا بأنفسهم، ونكتب عليهم رضاهم بقتل آبائهم الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. وعن الشعبي أن رجلاً ذكر عنده عثمان رضي الله عنه وحسن قتله، فقال الشعبي: صرت شريكًا في دمه، ثم قرأ الشعبي ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٣] فنسب لهؤلاء قتلهم وكان بينهما قريب من سبعمائة سنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة (سيكتب) على لفظ ما لم يسم فاعله (وقتلهم الأنبياء) برفع اللام (ويقول ذوقوا) بالياء المنقطة من تحت، والباقون (سنكتب ونقول) بالنون.

المسألة الثانية: المراد أنه تعالى ينتقم من هذا القائل بأن يقول له: ذق عذاب الحريق، كما أذقت المسلمين الغصص، والحريق هو المحرق كالأليم بمعنى المؤلم.

المسألة الثالثة: يحتمل أن يقال له هذا القول عند الموت أو عند الحشر أو عند قراءة الكتاب ويحتمل أن يكون هذا كناية عن حصول الوعيد، وإن لم يكن هناك قول.

المسألة الرابعة: لقائل أن يقول: إنهم أوردوا سؤالاً وهو أن من يطلب المال من غيره كان فقيرًا محتاجًا، فلو طلب الله المال من عبيده لكان فقيرًا وذلك محال، فوجب أن يقال: إنه لم يطلب المال من عبيده، وذلك يقدح في كون محمد عليه الصلاة والسلام صادقًا في ادعاء النبوة فهذا هو شبهة القوم فأين الجواب عنها؟ وكيف يحسن ذكر الوعيد على ذكرها قبل ذكر الجواب عنها؟

فنقول: إذا فرعنا على قول أصحابنا من أهل السنة والجماعة قلنا: يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، فلا يبعد أن يأمر الله تعالى عبيده ببذل الأموال مع كونه تعالى أغنى الأغنياء.

وإن فرعنا على قول المعتزلة في أنه تعالى يراعي المصالح لم يبعد أن يكون في هذا التكليف أنواع من المصالح العائدة إلى العباد: منها: أن إنفاق المال يوجب زوال حب المال عن القلب، وذلك من أعظم المنافع، فإنه إذا مات فلو بقي في قلبه حب المال مع أنه ترك المال لكان ذلك سببًا لتألم روحه بتلك المفارقة، ومنها: أن يتوسل بذلك الإنفاق إلى الثواب المخلد المؤبد، ومنها: أن بسبب الإنفاق يصير القلب فارغًا عن حب ما سوى الله، وبقدر ما يزول عن القلب حب غير الله فإنه يقوى في حب الله، وذلك رأس السعادات، وكل هذه الوجوه قد ذكرها الله

في القرآن وبينها مرارًا وأطوارا، كما قال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ [الكهف: ٤٦] وقال: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧] وقال: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] وقال: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] فلما تقدم ذكر هذه الوجوه على الاستقصاء كان إيراد هذه الشبهة بعد تقدم هذه البينات محض التعنت، فلهذا اقتصر الله تعالى عند ذكرها على مجرد الوعيد.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى لما ذكر الوعيد الشديد ذكر سببه فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: هذا العذاب المحرق جزاء فعلكم حيث وصفتم الله بالفقر وأقدمتم على قتل الأنبياء، فيكون هذا العقاب عدلاً لا جورًا.

المسألة الثانية: قال الجبائي: الآية تدل على أن فعل العقاب بهم كان يكون ظلمًا بتقدير أن لا يقع منهم تلك الذنوب، وفيه بطلان قول المجبرة: إن الله يعذب الأطفال بغير جرم، ويجوز أن يعذب البالغين بغير ذنب، ويدل على كون العبد فاعلاً، وإلا لكان الظلم حاصلاً.

والجواب: إن ما ذكرتم معارض بمسألة الداعي ومسألة العلم على ما شرحناه مرارًا وأطوارًا.

المسألة الثالثة: لقائل أن يقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] يفيد نفي كونه ظلامًا، ونفي الصفة يوهم بقاء الأصل، فهذا يقتضي ثبوت أصل الظلم. أجاب القاضي عنه بأن العذاب الذي توعد بأن يفعله بهم لو كان ظلمًا لكان عظيمًا، فنفاه على حد عظمه لو كان ثابتًا، وهذا يؤكد ما ذكرنا أن إيصال العقاب اليهم يكون ظلمًا لو لم يكونوا مذنبين.

المسألة الرابعة: اعلم أن ذكر الأيدي على سبيل المجاز، لأن الفاعل هو الإنسان لا اليد، إلا أن اليد لما كانت آلة الفعل حسن إسناد الفعل إليها على سبيل المجاز، ثم في هذه الآية ذكر اليد بلفظ الجمع فقال: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وفي آية أخرى ذكر بلفظ التثنية فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] والكل حسن متعارف في اللغة.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾

اعلم أن هذه هي الشبهة الثانية للكفار في الطعن في نبوته ﷺ، وتقريرها أنهم قالوا: إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، وأنت يا محمد ما فعلت ذلك فوجب أن لا تكون من الأنبياء، فهذا بيان وجه النظم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في كعب بن الأشرف، وكعب بن أسد ومالك بن الصيف، ووهب بن يهوذا، وزيد بن التابوب، وفنحاص بن عازوراء وغيرهم، أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد تزعم أنك رسول الله وأنه تعالى أنزل عليك كتابًا، وقد عهد إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، ويكون لها دوي خفيف، تنزل من السماء، فإن جئتنا بهذا صدقناك، فنزلت هذه الآية[١]. قال عطاء: كانت بنو اسرائيل يذبحون لله، فيأخذون الثروب وأطايب اللحم فيضعونها في وسط بيت، والسقف مكشوف فيقوم النبي في البيت ويناجي ربه، وبنو اسرائيل خارجون واقفون حول البيت فتنزل نار بيضاء لها دوي خفيف ولا دخان لها فتأكل كل ذلك القربان.

واعلم أن للعلماء فيما ادعاه اليهود قولين: الأول وهو قول السدى: أن هذا الشرط جاء في التوراة ولكنه مع شرط، وذلك أنه تعالى قال في التوراة: من جاءكم يزعم أنه نبي فلا تصدقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار إلا المسيح ومحمدًا عليهما السلام. فإنهما إذا أتيا فآمنوا بهما فانهما يأتيان بغير قربان تأكله النار. قال: وكانت هذه العادة باقية إلى مبعث المسيح عليه السلام، فلما بعث الله المسيح ارتفعت وزالت.

القول الثاني: ان ادعاء هذا الشرط كذب على التوراة، ويدل عليه وجوه: أحدها: أنه لو كان ذلك حقًّا لكانت معجزات كل الأنبياء هذا القربان، ومعلوم أنه ما كان الأمر كذلك، فإن معجزات موسى عليه السلام عند فرعون كانت أشياء سوى هذا القربان. وثانيها: أن نزول هذه النار وأكلها للقربان معجزة فكانت هي وسائر المعجزات على السواء، فلم يكن في تعيين هذه المعجزة وتخصيصها فائدة، بل لما ظهرت المعجزة القاهرة على يد محمد عليه الصلاة والسلام وجب القطع بنبوته سواء ظهرت هذه المعجزة أو لم تظهر. وثالثها: أنه إما أن يقال إنه جاء في التوراة أن مدعي النبوة وإن جاء بجميع المعجزات فلا تقبلوا قوله إلا أن يجيء بهذه المعجزة المعينة، أو يقال جاء في التوراة أن مدعي النبوة يطالب بالمعجزة سواء كانت المعجزة هي مجيء النار، أو شيء آخر، والأول باطل، لأن على هذا التقدير لم يكن الإتيان بسائر المعجزات دالاً على الصدق، وإذا جاز الطعن في سائر المعجزات جاز الطعن أيضًا في هذه المعجزة المعينة.

وأما الثاني: فإنه يقتضي توقيت الصدق على ظهور مطلق المعجزة، لا على ظهور هذه المعجزة المعينة، فكان اعتبار هذه المعجزة عبثًا ولغوًا، فظهر بما ذكرنا سقوط هذه الشبهة بالكلية، والله أعلم.

المسألة الثانية: في محل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وجوه: أحدها: قال الزجاج: الجر، وهذا نعت

---

(١) جاء هذا الأثر في كتب التفاسير من طريق الكلبي. . . به، ولم أره مسندًا.

العبيد، والتقدير: وما ربك بظلام للعبيد الذين قالوا كذا وكذا. وثانيها: أن التقدير: لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير، وقول الذين قالوا إن الله عهد إلينا. وثالثها: أن يكون رفعًا بالابتداء والتقدير: هم الذين قالوا ذلك.

المسألة الثالثة: قال الواحدي رحمه الله: القربان البر الذي يتقرب به إلى الله، وأصله المصدر من قولك قرب قربانًا، كالكفران والرجحان والخسران، ثم سمى به نفس المتقرب به، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لكعب بن عجرة «**يَا كَعْبُ، الصَّوْمُ جُنَّةٌ، والصَّلاةُ قُرْبانٌ**» أي بها يتقرب إلى الله ويستشفع في الحاجة لديه.

واعلم أنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة فقال: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى بيّن بهذه الدلائل أنهم يطلبون هذه المعجزة لا على سبيل الاسترشاد، بل على سبيل التعنت، وذلك لأن أسلاف هؤلاء اليهود طلبوا هذا المعجز من الأنبياء المتقدمين مثل زكريا وعيسى ويحيى عليهم السلام، وهم أظهروا هذا المعجز، ثم إن اليهود سعوا في قتل زكرياء ويحيى، ويزعمون أنهم قتلوا عيسى عليه السلام أيضًا، وذلك يدل على أن أولئك القوم إنما طلبوا هذا المعجز من أولئك الأنبياء على سبيل التعنت، إذ لو لم يكن كذلك لما سعوا في قتلهم، ثم إن المتأخرين راضون بأفعال أولئك المتقدمين ومصوبون لهم في كل ما فعلوه، وهذا يقتضي كون هؤلاء في طلب هذا المعجز من محمد عليه الصلاة والسلام متعنتين، واذا ثبت أن طلبهم لهذا المعجز وقع على سبيل التعنت لا على سبيل الاسترشاد، لم يجب في حكمة الله إسعافهم بذلك، لا سيما وقد تقدمت المعجزات الكثيرة لمحمد ﷺ، وهذا الجواب شاف عن هذه الشبهة.

المسألة الثانية: إنما قال: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى﴾ ولم يقل جاءتكم رسل لأن فعل المؤنث يذكر إذا تقدمه.

المسألة الثالثة: المراد بقوله: ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ هو ما طلبوه منه، وهو القربان الذي تأكله النار.

واعلم أنه تعالى لم يقل: قد جاءكم رسل من قبلي بالذي قلتم، بل قال: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ والفائدة: أن القوم قالوا: إن الله تعالى وقف التصديق بالنبوة على ظهور القربان الذي تأكله النار، فلو أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لهم: إن الأنبياء المتقدمين أتوا بهذا القربان، لم يلزم من هذا القدر وجوب الاعتراف بنبوتهم، لاحتمال أن الإتيان بهذا القربان شرط للنبوة لا موجب لها، والشرط هو الذي يلزم عند عدمه عدم المشروط، لكن لا يلزم عند وجوده وجود المشروط، فثبت أنه لو اكتفى بهذا القدر لما كان الإلزام واردًا، أما لما قال: ﴿قَدْ

جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ كان الإلزام واردًا، لأنهم لما أتوا بالبينات فقد أتوا بالموجب للتصديق، ولما أتوا بهذا القربان فقد أتوا بالشرط، وعند الإتيان بهما كان الإقرار بالنبوة واجبًا، فثبت أنه لولا قوله: ﴿جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ لم يكن الإلزام واردًا على القوم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

في قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وجوه: أحدها: فإن كذبوك في قولك أن الأنبياء المتقدمين جاءوا إلى هؤلاء اليهود بالقربان الذي تأكله النار فكذبوهم وقتلوهم، فقد كذب رسل من قبلك: نوح وهود وصالح وإبراهيم وشعيب وغيرهم. والثاني: أن المراد: فإن كذبوك في أصل النبوة والشريعة فقد كذب رسل من قبلك، ولعل هذا الوجه أوجه، لأنه تعالى لم يخصص، ولأن تكذيبهم في أصل النبوة أعظم، ولأنه يدخل تحته التكذيب في ذلك الحجاج. والمقصود من هذا الكلام تسلية رسول الله ﷺ، وبيان أن هذا التكذيب ليس أمرًا مختصًا به من بين سائر الأنبياء، بل شأن جميع الكفار تكذيب جميع الأنبياء والطعن فيهم، مع أن حالهم في ظهور المعجزات عليهم وفي نزول الكتب إليهم كحالك، ومع هذا فإنهم صبروا على ما نالهم من أولئك الأمم واحتملوا إيذاءهم في جنب تأدية الرسالة، فكن متأسيًا بهم سالكًا مثل طريقتهم في هذا المعنى، وإنما صار ذلك تسلية لأن المصيبة إذا عمت طابت وخفت، فأما البينات فهي الحجج والمعجزات، وأما الزبر فهي الكتب، وهي جمع زبور، والزبور الكتاب، بمعنى المزبور أي المكتوب، يقال: زبرت الكتاب أي كتبته، وكل كتاب زبور. قال الزجاج: الزبور كل كتاب ذي حكمة، وعلى هذا: الأشبه أن يكون معنى الزبور من الزبر الذي هو الزجر، يقال: زبرت الرجل إذا زجرته عن الباطل، وسمي الكتاب زبورًا لما فيه من الزبر عن خلاف الحق، وبه سمي زبور داود لكثرة ما فيه من الزواجر والمواعظ. وقرأ ابن عباس (وبالزبر) أعاد الباء للتأكيد وأما (المنير) فهو من قولك أنرت الشيء أي: أوضحته.

وفي الآية مسألتان:

المسألة الأولى: المراد من البينات المعجزات ثم عطف عليها الزبر والكتاب، وهذا يقتضي أن يقال إن معجزاتهم كانت مغايرة لكتبهم، وذلك يدل على أن أحدًا من الأنبياء ما كانت كتبهم معجزة لهم، فالتوراة والإنجيل والزبور والصحف ما كان شيء منها معجزة، وأما القرآن فهو

وحده كتاب ومعجزة، وهذا أحد خواص الرسول عليه الصلاة والسلام.

المسألة الثانية: عطف (الكتاب المنير) على (الزبر) مع أن الكتاب المنير لا بد وأن يكون من الزبر، وإنما حسن هذا العطف لأن الكتاب المنير أشرف الكتب وأحسن الزبر، فحسن العطف كما في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧] وقال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] ووجه زيادة الشرف فيه إما كونه مشتملاً على جميع الشريعة، أو كونه باقيًا على وجه الدهر، ويحتمل أن يكون المراد بالزبر: الصحف، وبالكتاب المنير التوراة والإنجيل والزبور.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

اعلم ان المقصود من هذه الآية تأكيد تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام والمبالغة في إزالة الحزن من قلبه وذلك من وجهين: أحدهما: أن عاقبة الكل الموت، وهذه الغموم والأحزان تذهب وتزول ولا يبقى شيء منها، والحزن متى كان كذلك لم يلتفت العاقل إليه. والثاني: أن بعد هذه الدار دار يتميز فيها المحسن عن المسيء، ويتوفر على عمل كل واحد ما يليق به من الجزاء، وكل واحد من هذين الوجهين في غاية القوة في إزالة الحزن والغم عن قلوب العقلاء.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ سؤال: وهو أن الله تعالى يسمى بالنفس قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] وأيضًا النفس والذات واحد فعلى هذا يدخل الجمادات تحت اسم النفس، ويلزم على هذا عموم الموت في الجمادات، وأيضًا قال تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] وذلك يقتضي أن لا يموت الداخلون في هذا الاستثناء، وهذا العموم يقتضي موت الكل، وأيضًا يقتضي وقوع الموت لأهل الجنة ولأهل النار لأن كلهم نفوس.

وجوابه: أن المراد بالآية المكلفون الحاضرون في دار التكليف بدليل أنه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ فإن هذا المعنى لا يتأتى إلا فيهم، وأيضًا العام بعد التخصيص يبقى حجة.

المسألة الثانية: ﴿ذَآئِقَةُ﴾ فاعلة من الذوق، واسم الفاعل إذا أضيف إلى اسم وأريد به الماضي لم يجز فيه إلا الجر، كقولك: زيد ضارب عمرو أمس، فإن أردت به الحال والاستقبال جاز الجر والنصب تقول: هو ضارب زيد غدًا، وضارب زيدا غدًا، قال تعالى: ﴿هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٨] قرئ بالوجهين لأنه للاستقبال. وروي عن الحسن أنه قرأ ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ بالتنوين ونصب (الموت) وهذا هو الأصل وقرأ الأعمش ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ بطرح التنوين مع النصب كقوله:

وَلا ذاكِـرَ الـلَـهَ إلاّ قَـلـيـلا

وتمام الكلام في هذه المسألة يأتي في سورة النساء عند قوله: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧]إن شاء الله تعالى.

المسألة الثالثة: زعمت الفلاسفة أن الموت واجب الحصول عند هذه الحياة الجسمانية، وذلك لأن هذه الحياة الجسمانية لا تحصل إلا بالرطوبة الغريزية والحرارة الغريزية، ثم إن الحرارة الغريزية تؤثر في تحليل الرطوبة الغريزية، ولا تزال تستمر هذه الحالة إلى أن تفنى الرطوبة الأصلية فتنطفئ الحرارة الغريزية ويحصل الموت، فبهذا الطريق كان الموت ضروريًا في هذه الحياة. قالوا وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ يدل على أن النفوس لا تموت بموت البدن، لأنه جعل النفس ذائقة الموت، والذائق لا بد وأن يكون باقيًا حال حصول الذوق، والمعنى أن كل نفس ذائقة موت البدن، وهذا يدل على أن النفس غير البدن، وعلى أن النفس لا تموت بموت البدن، وأيضًا: لفظ النفس مختص بالأجسام، وفيه تنبيه على أن ضرورة الموت مختصة بالحياة الجسمانية، فأما الأرواح المجردة فلا، وقد جاء في الروايات ما هو خلاف ذلك، فإنه روي عن ابن عباس أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] قالت الملائكة: مات أهل الأرض، ولما نزل قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ قالت الملائكة: متنا.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ يدل على أن المقتول يسمى بالميت وإنما لا يسمى المذكى بالميت بسبب التخصيص بالعرف.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بيّن تعالى أن تمام الأجر والثواب لا يصل إلى المكلف إلا يوم القيامة، لأن كل منفعة تصل إلى المكلف في الدنيا فهي مكدرة بالغموم والهموم وبخوف الانقطاع والزوال، والأجر التام والثواب الكامل إنما يصل إلى المكلف يوم القيامة لأن هناك يحصل السرور بلا غم، والأمن بلا خوف، واللذة بلا ألم. والسعادة بلا خوف الانقطاع، وكذا القول في جانب العقاب فإنه لا يحصل في الدنيا ألم خالص عن شوائب اللذة، بل يمتزج به راحات وتخفيفات، وإنما الألم التام الخالص الباقي هو الذي يكون يوم القيامة، نعوذ بالله منه.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ الزحزحة التنحية والإبعاد، وهو تكرير الزح، والزح هو الجذب بعجلة، وهذا تنبيه على أن الإنسان حينما كان في الدنيا كأنه كان في النار، وما ذاك إلا لكثرة آفاتها وشدة بلياتها، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ».

واعلم أنه لا مقصود للإنسان وراء هذين الأمرين، الخلاص عن العذاب، والوصول إلى الثواب، فبيّن تعالى أن من وصل إلى هذين المطلوبين فقد فاز بالمقصد الأقصى والغاية التي لا مطلوب بعدها. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا

فِيهَا»(١) وقرأ قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَلْتُدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ، وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَيَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»(٢).

ثم قال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ الغرور مصدر من قولك: غررت فلانًا غرورًا شبه الله الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويغر عليه حتى يشتريه ثم يظهر له فساده ورداءته والشيطان هو المدلس الغرور.

وعن سعيد بن جبير: أن هذا في حق من آثر الدنيا على الآخرة، وأما من طلب الآخرة بها فإنها نعم المتاع، والله أعلم.

واعلم أن فساد الدنيا من وجوه: أولها: أنه لو حصل للانسان جميع مراداته لكان غمه وهمه أزيد من سروره، لأجل قصر وقته وقلة الوثوق به وعدم علمه بأنه هل ينتفع به أم لا، وثانيها: أن الإنسان كلما كان وجدانه بمرادات الدنيا أكثر كان حرصه في طلبها أكثر، ولكما كان الحرص أكثر كان تألم القلب بسبب ذلك الحرص أشد، فإن الإنسان يتوهم أنه إذا فاز بمقصوده سكنت نفسه وليس كذلك، بل يزداد طلبه وحرصه ورغبته، وثالثها: أن الإنسان بقدر ما يجد من الدنيا يبقى محرومًا عن الآخرة التي هي أعظم السعادات والخيرات، ومتى عرفت هذه الوجوه الثلاثة علمت أن الدنيا متاع الغرور، وأنها كما وصفها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث قال: لين مسها قاتل سمها. وقال بعضهم: الدنيا ظاهرها مطية السرور، وباطنها مطية الشرور.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في كتاب (التفسير)، باب: (سورة آل عمران) (٥/ ٢١٦)، حديث رقم (٣٠١٣) من طريق يزيد بن هارون وسعيد بن عامر... به، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في كتاب (الزهد)، باب: (صفة الجنة) (٢/ ١٤٥٠)، حديث رقم (٤٣٣٥) من طريق عبد الرحمن بن عثمان... به، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٤٣٨) من طريق يحيى بن سعيد... به، والدارمي في كتاب (الرقاق)، باب: (لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها) (٢/ ٢٢٠)، حديث رقم (٢٨٢٠)، جميعًا عن محمد بن عمرو... به، والحديث في الصحيحين من رواية أبي هريرة، أخرجه البخاري في كتاب (بدء الخلق)، باب: (في صفة الجنة) (٦/ ٣٦٨)، حديث رقم (٣٢٥٢) من طريق عبد الرحمن بن أبي عمرة... به، ومسلم في كتاب (الجنة)، باب: (في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها) (٤/ ٦/ ٢١٧٥) من طريق سعيد المقبري... به، جميعًا عن أبي هريرة... به.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الإمارة)، باب: (وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء) (٣/ ٤٦/ ١٤٧٢)، وأبو داود في كتاب (الفتن والملاحم)، باب: (ذكر الفتن ودلائلها) (٤/ ١٨١٦)، حديث رقم (٤٢٤٨)، والنسائي في كتاب (البيعة)، باب: (ذكر ما على من بايع الإمام) (٧/ ١٧٢)، حديث رقم (٤٢٠٢)، وابن ماجه في كتاب (الفتن)، باب: (ما يكون من الفتن) (٢/ ١٣٠٦)، حديث رقم (٣٩٥٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٥/ ٥)، حديث رقم (٣٨٢٦٤)، جميعًا من طريق الأعمش عن زيد بن وهب، عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة، قال: انتهيت إلى عبد الله بن عمرو وهو جالس في ظل الكعبة والناس عليه مجتمعون فسمعته يقول... به، واللفظ عند ابن أبي شيبة في المصنف.

قوله تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما سلى الرسول ﷺ بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥] زاد في تسليته بهذه الآية، فبين أن الكفار بعد أن آذوا الرسول والمسلمين يوم أُحد، فسيؤذونهم أيضًا في المستقبل بكل طريق يمكنهم، من الإيذاء بالنفس والإيذاء بالمال، والغرض من هذا الإعلام أن يوطنوا أنفسهم على الصبر وترك الجزع، وذلك لأن الإنسان إذا لم يعلم نزول البلاء عليه فإذا أنزل البلاء عليه شق ذلك عليه، أما إذا كان عالمًا بأنه سينزل، فإذا نزل لم يعظم وقعه عليه.

أما قوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي رحمه الله: اللام لام القسم، والنون دخلت مؤكدة وضمت الواو لسكونها وسكون النون، ولم تكسر لالتقاء الساكنين لأنها واو جمع فحركت بما كان يجب لما قبلها من الضم، ومثله ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ [البقرة: ١٦].

المسألة الثانية: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ لتختبرن، ومعلوم أنه لا يجوز في وصف الله تعالى الاختبار لأنه طلب المعرفة ليعرف الجيد من الرديء، ولكن معناه في وصف الله تعالى أنه يعامل العبد معاملة المختبر.

المسألة الثالثة: اختلفوا في معنى هذا الابتلاء فقال بعضهم: المراد ما ينالهم من الشدة والفقر وما ينالهم من القتل والجرح والهزيمة من جهة الكفار، ومن حيث ألزموا الصبر في الجهاد. وقال الحسن: المراد به التكاليف الشديدة المتعلقة بالبدن والمال، وهي الصلاة والزكاة والجهاد. قال القاضي: والظاهر يحتمل كل واحد من الأمرين فلا يمتنع حمله عليهما.

وأما قوله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ﴾ فالمراد منه أنواع الإيذاء الحاصلة من اليهود والنصارى والمشركين للمسلمين، وذلك لأنهم كانوا يقولون عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وثالث ثلاثة، وكانوا يطعنون في الرسول عليه الصلاة والسلام بكل ما يقدرون عليه، ولقد هجاه كعب بن الأشرف، وكانوا يحرضون الناس على مخالفة الرسول ﷺ.

وأما المشركون فهم كانوا يحرضون الناس على مخالفة الرسول ﷺ ويجمعون العساكر على محاربة الرسول ﷺ ويثبطون المسلمين عن نصرته، فيجب أن يكون الكلام محمولاً على الكل إذ ليس حمله على البعض أولى من حمله على الثاني.

ثم قال عطفا على الأمرين: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال المفسرون: بعث الرسول ﷺ أبا بكر إلى فنحاص اليهودي يستمده، فقال فنحاص قد احتاج ربك إلى أن نمده، فهمَّ أبو بكر رضي الله عنه أن يضربه بالسيف، وكان رسول الله ﷺ قال له حين بعثه: (لا تغلبن على شيء حتى ترجع إلي)، فتذكر أبو بكر رضي الله عنه ذلك وكف عن الضرب ونزلت هذه الآية.

المسألة الثانية: للآية تأويلان: الأول: أن المراد منه أمر الرسول ﷺ بالمصابرة على الابتلاء في النفس والمال، والمصابرة على تحمل الأذى وترك المعارضة والمقابلة، وإنما أوجب الله تعالى ذلك لأنه أقرب إلى دخول المخالف في الدين، كما قال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] وقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] والمراد بهذا الغفران الصبر وترك الانتقام وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] وقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] قال الواحدي رحمه الله: كان هذا قبل نزول آية السيف. قال القفال رحمه الله: الذي عندي أن هذا ليس بمنسوخ والظاهر أنها نزلت عقيب قصة أُحد، والمعنى أنهم أمروا بالصبر على ما يؤذون به الرسول ﷺ على طريق الأقوال الجارية فيما بينهم، واستعمال مداراتهم في كثير من الأحوال. والأمر بالقتال لا ينافي الأمر بالمصابرة على هذا الوجه، واعلم أن قول الواحدي ضعيف، والقول ما قاله القفَّال.

الوجه الثاني في التأويل: أن يكون المراد من الصبر والتقوى: الصبر على مجاهدة الكفار ومنابذتهم والإنكار عليهم، فأمروا بالصبر على مشاق الجهاد، والجري على نهج أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الإنكار على اليهود والاتقاء عن المداهنة مع الكفار، والسكوت عن إظهار الإنكار.

المسألة الثالثة: الصبر عبارة عن احتمال المكروه، والتقوى عبارة عن الاحتراز عما لا ينبغي فقدم ذكر الصبر ثم ذكر عقبه التقوى، لأن الإنسان إنما يقدم على الصبر لأجل أنه يريد الاتقاء عما لا ينبغي، وفيه وجه آخر: وهو أن المراد من الصبر هو أن مقابلة الإساءة بالإساءة تفضي إلى ازدياد الإساءة، فأمر بالصبر تقليلاً لمضار الدنيا، وأمر بالتقوى تقليلاً لمضار الآخرة، فكانت الآية على هذا التأويل جامعة لآداب الدنيا والآخرة.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي من صواب التدبير الذي لا شك في ظهور الرشد فيه، وهو مما ينبغي لكل عاقل أن يعزم عليه، فتأخذ نفسه لا محالة به، والعزم كأنه من جملة الحزم وأصله من قول الرجل: عزمت عليك أن تفعل كذا، أي ألزمته إياك لا محالة على وجه لا يجوز ذلك الترخص في تركه، فما كان من الأمور حميد العاقبة معروفًا بالرشد والصواب

فهو من عزم الأمور لأنه مما لا يجوز لعاقل أن يترخص في تركه، ويحتمل وجهًا آخر، وهو أن يكون معناه: فإن ذلك مما قد عزم عليكم فيه أي ألزمتم الأخذ به، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

اعلم أن في كيفية النظم وجهين: الأول: أنه تعالى لما حكى عن اليهود شبهًا طاعنة في نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وأجاب عنه أتبعه بهذه الآية، وذلك لأنه تعالى أوجب عليهم في التوراة والإنجيل على أمة موسى وعيسى عليهما السلام، أن يشرحوا ما في هذين الكتابين من الدلائل الدالة على صحة دينه وصدق نبوته ورسالته، والمراد منه التعجب من حالهم كأنه قيل: كيف يليق بكم إيراد الطعن في نبوته ودينه مع ان كتبكم ناطقة ودالة على أنه يجب عليكم ذكر الدلائل الدالة على صدق نبوته ودينه. الثاني: أنه تعالى لما أوجب في الآية المتقدمة على محمد ﷺ احتمال الأذى من أهل الكتاب، وكان من جملة إيذائهم للرسول ﷺ أنهم كانوا يكتمون ما في التوراة والإنجيل من الدلائل الدالة على نبوته، فكانوا يحرفونها ويذكرون لها تأويلات فاسدة، فبيّن أن هذا من تلك الجملة التي يجب فيها الصبر وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير وأبو بكر وعاصم وأبو عمرو (ليبيننه ولا يكتمونه) بالياء فيهما كناية عن أهل الكتاب، وقرأ الباقون بالتاء فيهما على الخطاب الذي كان حاصلاً في وقت أخذ الميثاق، أي فقال لهم: لتبيننه، ونظير هذه الآية قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣] بالتاء والياء وأيضًا قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ٤].

المسألة الثانية: الكلام في كيفية أخذ الميثاق قد تقدم في الآية المتقدمة، وذلك لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أوردوا الدلائل في جميع أبواب التكاليف وألزموهم قبولها، فالله سبحانه وتعالى إنما أخذ الميثاق منهم على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فذلك التوكيد والإلزام هو المراد بأخذ الميثاق. وعن سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: إن أصحاب عبد الله يقرءون ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [آل عمران: ٨١] فقال أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم. واعلم أن إلزام هذا الإظهار لا شك أنه مخصوص بعلماء القوم الذين يعرفون ما في الكتاب، والله أعلم.

المسألة الثالثة: الضمير في قوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ إلى ماذا يعود؟ فيه قولان: قال سعيد بن جبير والسدي: هو عائد إلى محمد عليه السلام، وعلى هذا التقدير يكون الضمير عائدًا إلى معلوم غير مذكور، وقال الحسن وقتادة: يعود إلى الكتاب في قوله: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي أخذنا ميثاقهم بأن يبينوا للناس ما في التوراة والإنجيل من الدلالة على صدق نبوة محمد ﷺ.

المسألة الرابعة: اللام لام التأكيد يدخل على اليمين، تقديره: استحلفهم ليبيننه.

المسألة الخامسة: إنما قال: ولا تكتمونه ولم يقل: ولا تكتمنه، لأن الواو واو الحال دون واو العطف، والمعنى لتبيننه للناس غير كاتمين.

فإن قيل: البيان يضاد الكتمان، فلما أمر بالبيان كان الأمر به نهيًا عن الكتمان، فما الفائدة في ذكر النهي عن الكتمان؟

قلنا: المراد من البيان ذكر تلك الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ من التوراة والإنجيل، والمراد من النهي عن الكتمان أن لا يلقوا فيها التأويلات الفاسدة والشبهات المعطلة.

المسألة السادسة: اعلم أن ظاهر هذه الآية وإن كان مختصًا باليهود والنصارى فإنه لا يبعد أيضًا دخول المسلمين فيه، لأنه أهل القرآن وهو أشرف الكتب. حكي أن الحجاج أرسل إلى الحسن وقال: ما الذي بلغني عنك؟ فقال: ما كل الذي بلغك عني قلته: ولا كل ما قلته بلغك، قال: أنت الذي قلت: إن النفاق كان مقموعًا فأصبح قد تعمم وتقلد سيفًا، فقال: نعم، فقال: وما الذي حملك على هذا ونحن نكرهه، قال: لأن الله أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه. وقال قتادة: مثل علم لا يقال به كمثل كنز لا ينفق منه، ومثل حكمة لا تخرج كمثل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب، وكان يقول: طوبى لعالم ناطق، ولمستمع واع، هذا علم علمًا فبذله، وهذا سمع خيرًا فوعاه، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ كَتَمَ عِلْمًا عَنْ أَهْلِه أُلْجِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**» وعن علي رضي الله عنه: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا.

ثم قال تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ والمراد أنهم لم يراعوه ولم يلتفتوا إليه، والنبذ وراء الظهر مثل الطرح وترك الاعتداد، ونقيضه: جعله نصب عينه وإلقاؤه بين عينيه وقوله: ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ﴾ معناه أنهم أخفوا الحق ليتوسلوا به إلى وجدان شيء من الدنيا، فكل من لم يبين الحق للناس وكتم شيئًا منه لغرض فاسد، من تسهيل على الظلمة وتطييب لقلوبهم، أو لجر منفعة، أو لتقية وخوف، أو لبخل بالعلم دخل تحت هذا الوعيد.

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾

اعلم أن هذا من جملة ما دخل تحت قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ﴾ [آل عمران: ١٨٦] فبين تعالى أن من جملة أنواع هذا الأذى أنهم يفرحون بما أتوا به من أنواع الخبث والتلبيس على ضعفة المسلمين، ويحبون أن يحمدوا بأنهم أهل البر والتقوى والصدق والديانة، ولا شك

أن الإنسان يتأذى بمشاهدة مثل هذه الأحوال، فأمر النبي عليه الصلاة والسلام بالمصابرة عليها، وبين ما لهم من الوعيد الشديد.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة وعاصم والكسائي بالتاء المنقطة من فوق، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر بالياء المنقطة من تحت، وكذا في قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ أما القراءة الأولى ففيها وجهان: أحدهما: أن يقرأ كلاهما بفتح الباء. والثاني: أن يقرأ كلاهما بضم الباء، فمن قرأ بالتاء وفتح الباء فيهما جعل التقدير: لا تحسبن يا محمد، أو أيها السامع، ومن ضم الباء فيهما جعل الخطاب للمؤمنين: وجعل أحد المفعولين الذين يفرحون، والثاني: بمفازة وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ﴾ تأكيد للأول وحسنت إعادته لطول الكلام، كقولك: لا تظن زيدًا إذا جاءك وكلمك في كذا وكذا فلا تظنه صادقًا، وأما القراءة الثانية وهي بالياء المنقطة من تحت في قوله: (لا يحسبن) ففيها أيضًا وجهان: الأول: بفتح الباء وبضمها فيهما جعل الفعل للرسول ﷺ والباقي كما علمت.

والوجه الثاني: بفتح الباء في الأول وضمها في الثاني وهو قراءة أبي عمرو، ووجهه أنه جعل الفعل للذين يفرحون ولم يذكر واحدًا من مفعوليه، ثم أعاد قوله: (فَلَا تَحْسَبُنَّ) بضم الباء وقوله: ﴿هُمْ﴾ رفع بإسناد الفعل إليه، والمفعول الأول محذوف والتقدير: ولا تحسبن هؤلاء الذين يفرحون أنفسهم بمفازة من العذاب.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى وصف هؤلاء القوم بأنهم يفرحون بفعلهم ويحبون أيضًا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، والمفسرون ذكروا فيه وجوهًا: الأول: أن هؤلاء اليهود يحرفون نصوص التوراة ويفسرونها بتفسيرات باطلة ويروجونها على الأغمار من الناس، ويفرحون بهذا الصنع ثم يحبون أن يحمدوا بأنهم أهل الدين والديانة والعفاف والصدق والبعد عن الكذب، وهو قول ابن عباس، وأنت إذا أنصفت عرفت أن أحوال أكثر الخلق كذلك، فإنهم يأتون بجميع وجوه الحيل في تحصيل الدنيا ويفرحون بوجدان مطلوبهم، ثم يحبون أن يحمدوا بأنهم أهل العفاف والصدق والدين والثاني: روي أنه عليه الصلاة والسلام سأل اليهود عن شيء مما في التوراة فكتموا الحق وأخبروا بخلافه، وأروه أنهم قد صدقوه وفرحوا بذلك التلبيس، وطلبوا من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يثني عليهم بذلك، فأطلع الله رسوله على هذا السر. والمعنى: أن هؤلاء اليهود فرحوا بما فعلوا من التلبيس وتوقعوا منك أن تثني عليهم بالصدق والوفاء. والثالث: يفرحون بما فعلوا من كتمان النصوص الدالة على مبعث محمد ﷺ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من اتباع دين إبراهيم، حيث ادعوا أن إبراهيم عليه السلام كان على اليهودية وأنهم على دينه. الرابع: أنه نزل في المنافقين فإنهم يفرحون بما أتوا من إظهار الإيمان للمسلمين على سبيل النفاق من حيث أنهم كانوا يتوصلون بذلك إلى تحصيل مصالحهم في

الدنيا، ثم كانوا يتوقعون من النبي عليه الصلاة والسلام أن يحمدهم على الإيمان الذي ما كان موجودًا في قلوبهم. الخامس: قال أبو سعيد الخدري نزلت في رجال من المنافقين كانوا يتخلفون عن رسول الله ﷺ في الغزو، ويفرحون بقعودهم عنه فإذا قدم اعتذروا إليه فيقبل عذرهم، ثم طمعوا أن يثني عليهم كما كان يثني عن المسلمين المجاهدين. السادس: المراد منه كتمانهم ما في التوراة من أخذ الميثاق عليهم بالاعتراف بمحمد ﷺ، وبالإقرار بنبوته ودينه، ثم إنهم فرحوا بكتمانهم لذلك وإعراضهم عن نصوص الله تعالى، ثم زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن تمسنا النار إلا أياما معدودة.

واعلم أن الأولى أن يحمل على الكل، لأن جميع هذه الأمور مشتركة في قدر واحد، وهو أن الإنسان يأتي بالفعل الذي لا ينبغي ويفرح به، ثم يتوقع من الناس أن يصفوه بسداد السيرة واستقامة الطريقة والزهد والإقبال على طاعة الله.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿بِمَآ أَتَوا۟﴾ بحثان: الأول: قال الفراء: قوله: ﴿بِمَآ أَتَوا۟﴾ يريد فعلوه كقوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ﴾ [النساء: ١٦] وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧] أي: فعلت. قال صاحب (الكشاف): أتى وجاء، يستعملان بمعنى فعل، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧] ويدل عليه قراءة أبيّ (يفرحون بما فعلوا).

البحث الثاني: قرئ (آتوا) بمعنى أعطوا، وعن علي رضي الله عنه ﴿بِمَآ أُوتُوا۟﴾.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: بمنجاة منه، من قولهم: فاز فلان إذا نجا، وقال الفراء: أي ببعد من العذاب، لأن الفوز معناه التباعد من المكروه، وذكر ذلك في قوله: ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ ثم حقق ذلك بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولا شبهة أن الآية، واردة في الكفار والمنافقين الذين أمر الله رسوله ﷺ بالصبر على أذاهم.

ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لهم عذاب أليم ممن له ملك السموات والأرض، فكيف يرجو النجاة من كان معذبه هذا القادر الغالب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾

اعلم أن المقصود من هذا الكتاب الكريم جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق في معرفة الحق، فلما طال الكلام في تقرير الأحكام والجواب عن شبهات المبطلين عاد إلى إنارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال، فذكر هذه الآية.
قال ابن عمر: قلت لعائشة: أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ، فبكت وأطالت ثم قالت: كل أمره عجب، أتاني في ليلتي فدخل في لحافي حتى ألصق جلده بجلدي، ثم قال لي: (يا عائشة هل لك أن تأذني لي الليلة في عبادة ربي)، فقلت: يا رسول الله إني لأحب قربك

وأحب مرادك قد أذنت لك . فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلي، فقرأ من القرآن وجعل يبكي، ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي، فقال له: يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «**يَا بِلالُ، أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟**»، ثم قال: «**وَمَا لِي لا أَبْكِي، وَقَدْ نَزَلَ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ**: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾» ثم قال: «**وَيلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا**»(1) وروي: «**ويلٌ لِمَنْ لاكَها بَيْنَ فَكَّيْهِ وَلَمْ يَتَأَمَّلْ فِيهَا**». وعن علي رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يتسوك ثم ينظر إلى السماء ويقول: «**إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض**»(2) . وحكى أن الرجل من بني إسرائيل كان إذا عبد الله ثلاثين سنة أظلته سحابة. فعبدها فتى من فتيانهم فما أظلته السحابة، فقالت له أمه: لعل فرطة صدرت منك في مدتك، قال: ما أذكر، قالت: لعلك نظرت مرة إلى السماء ولم تعتبر قال: نعم، قالت: فما أتيت إلا من ذلك.

واعلم أنه تعالى ذكر هذه الآية في سورة البقرة، وذكرها هنا أيضًا، وختم هذه الآية في سورة البقرة بقوله: ﴿لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[البقرة: ١٦٤] وختمها ههنا بقوله: ﴿لَأَيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ وذكر في سورة البقرة مع هذه الدلائل الثلاثة خمسة أنواع أخرى، حتى كان المجموع ثمانية أنواع من الدلائل، وههنا اكتفى بذكر هذه الأنواع الثلاثة: وهي السماوات والأرض، والليل والنهار، فهذه أسئلة ثلاثة:

السؤال الأول: ما الفائدة في إعادة الآية الواحدة باللفظ الواحد في سورتين؟

والسؤال الثاني: لِمَ اكتفى ههنا بإعادة ثلاثة أنواع من الدلائل وحذف الخمسة الباقية؟

والسؤال الثالث: لِمَ قال هناك: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[البقرة: ١٦٤] وقال ههنا: ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ؟

فأقول والله أعلم بأسرار كتابه: إن سويداء البصيرة تجري مجرى سواد البصر فكما أن سواد البصر لا يقدر أن يستقصي في النظر إلى شيئين، بل إذا حدق بصره نحو شيء تعذر عليه في تلك الحالة تحديق البصر نحو شيء آخر، فكذلك ههنا إذا حدق الإنسان حدقة عقله نحو ملاحظة معقول امتنع عليه في تلك الحالة تحديق حدقة العقل نحو معقول آخر، فعلى هذا كلما كان اشتغال العقل بالالتفات إلى المعقولات المختلفة أكثر، كان حرمانه عن الاستقصاء في تلك التعقلات

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن حبان في (صحيحه) (٢/ ٣٨٦)، حديث رقم (٦٢٠)، وأبو الشيخ في (أخلاق النبي) (٢/ ٦٩)، حديث رقم (٥١٠)، كلاهما من طريق عبيد بن عمير على عائشة... الحديث، وأورده الألباني في (الصحيحة) (٦٨)، وقال: صحيح.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الطهارة)، باب: (السواك) (١/ ٤٨/ ٢٢١)، وأبو داود في كتاب (الطهارة)، باب: (السواك لمن قام بالليل) (١/ ٣٥)، حديث رقم (٥٨)، والنسائي في كتاب (قيام الليل) (٣/ ٢٦٣)، حديث رقم (١٧٠٤)، وأحمد في (مسنده) (١/ ٣٧١) من طريق حبيب بن أبي ثابت... به.

والإدراكات أكثر، فعلى هذا: السالك إلى الله لا بد له في أول الأمر من تكثير الدلائل، فإذا استنار القلب بنور معرفة الله صار اشتغاله بتلك الدلائل كالحجاب له عن استغراق القلب في معرفة الله، فالسالك في أول أمره كان طالبًا لتكثير الدلائل، فعند وقوع هذا النور في القلب يصير طالبًا لتقليل الدلائل، حتى إذا زالت الظلمة المتولدة من اشتغال القلب بغير الله كمل فيه تجلى أنوار معرفة الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢] والنعلان هما المقدمتان اللتان بهما يتوصل العقل إلى المعرفة فلما وصل إلى المعرفة أمر بخلعهما، وقيل له: إنك تريد أن تضع قدميك في وادي قدس الوحدانية فاترك الاشتغال بالدلائل.

إذا عرفت هذه القاعدة، فذكر في سورة البقرة ثمانية أنواع من الدلائل، ثم أعاد في هذه السورة ثلاثة أنواع منها، تنبيهًا على أن العارف بعد صيرورته عارفًا لا بد له من تقليل الالتفات إلى الدلائل ليكمل له الاستغراق في معرفة المدلول، فكان الغرض من إعادة ثلاثة أنواع من الدلائل وحذف البقية، التنبيه على ما ذكرناه، ثم إنه تعالى استقصى في هذه الآية الدلائل السماوية وحذف الدلائل الخمسة الباقية، التي هي الدلائل الأرضية، وذلك لأن الدلائل السماوية أقهر وأبهر، والعجائب فيها أكثر، وانتقال القلب منها إلى عظمة الله وكبريائه أشد، ثم ختم تلك الآية بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وختم هذه الآية بقوله: ﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لأن العقل له ظاهر وله لب، ففي أول الأمر يكون عقلاً، وفي كمال الحال يكون لبًا، وهذا أيضًا يقوي ما ذكرناه، فهذا ما خطر بالبال، والله أعلم بأسرار كلامه العظيم الكريم الحكيم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل الإلهية والقدرة والحكمة وهو ما يتصل بتقرير الربوبية ذكر بعدها ما يتصل بالعبودية، وأصناف العبودية ثلاثة أقسام: التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح، فقوله تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ إشارة إلى عبودية اللسان، وقوله: ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ إشارة إلى عبودية الجوارح والأعضاء، وقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى عبودية القلب والفكر والروح، والإنسان ليس إلى هذا المجموع، فإذا كان اللسان مستغرقا في الذكر، والأركان في الشكر، والجنان في الفكر، كان هذا العبد مستغرقا بجميع أجزائه في العبودية، فالآية الأولى دالة على كمال الربوبية، وهذه الآية دالة على كمال العبودية، فما أحسن هذا الترتيب في جذب الأرواح من الخلق إلى الحق، وفي نقل الأسرار من جانب عالم الغرور إلى جناب الملك الغفور.

ونقول في الآية مسائل:

المسألة الأولى: للمفسرين في هذه الآية قولان: الأول: أن يكون المراد منه كون الإنسان دائم الذكر لربه، فإن الأحوال ليست إلا هذه الثلاثة، ثم لما وصفهم بكونهم ذاكرين فيها كان ذلك دليلاً على كونهم مواظبين على الذكر غير فاترين عنه ألبتة.

والقول الثاني: أن المراد من الذكر الصلاة، والمعنى أنهم يصلون في حال القيام، فإن عجزوا ففي حال القعود، فإن عجزوا ففي حال الاضطجاع، والمعنى أنهم لا يتركون الصلاة في شيء من الأحوال، والحمل على الأول أولى لأن الآيات الكثيرة ناطقة بفضيلة الذكر، وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْتَعَ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ، فَلْيُكْثِرْ ذِكْرَ اللَّهِ»(١).

المسألة الثانية: يحتمل أن يكون المراد بهذا الذكر هو الذكر باللسان، وأن يكون المراد منه الذكر بالقلب، والأكمل أن يكون المراد الجمع بين الأمرين.

المسألة الثالثة: قال الشافعي رضي الله عنه: إذا صلى المريض مضطجعًا وجب أن يصلي على جنبه، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: بل يصلي مستلقيًا حتى إذا وجد خفة قعد، وحجة الشافعي رضي الله عنه ظاهر هذه الآية، وهو أنه تعالى مدح من ذكره على حال الاضطجاع على الجنب، فكان هذا الوضع أولى.

واعلم أن فيه دقيقة طبية وهو أنه ثبت في المباحث الطبية أن كون الإنسان مستلقيًا على قفاه يمنع من استكمال الفكر والتدبر، وأما كونه مضطجعًا على الجنب فإنه غير مانع منه، وهذا المقام يراد فيه التدبر والتفكر، ولأن الاضطجاع على الجنب يمنع من النوم المغرق، فكان هذا الوضع أولى، لكونه أقرب إلى اليقظة، وإلى الاشتغال بالذكر.

المسألة الرابعة: محل ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ نصب على الحال عطفًا على ما قبله، كأنه قيل: قيامًا وقعودًا ومضطجعين.

واعلم أنه تعالى لما وصفهم بالذكر وثبت أن الذكر لا يكمل إلا مع الفكر، لا جرم قال بعده: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى رغب في ذكر الله، ولما آل الأمر إلى الفكر لم يرغب في الفكر في الله، بل رغب في الفكر في أحوال السموات والأرض، وعلى وفق هذه الآية قال عليه

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، حديث رقم (٣٠٠٧٠)، والطبراني في (الكبير) (٢٠/ ١٥٧)، حديث رقم (٣٢٦)، كلاهما من طريق موسى بن عبيدة، عن أبي عبد الله القراظ، عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول الله ﷺ... به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (١٠/ ٧٥)، وقال: رواه الطبراني وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف وهو كما قال.

الصلاة والسلام: «تَفَكَّرُوا فِي الخَلْقِ وَلا تَتَفَكَّرُوا فِي الخَالِقِ» والسبب في ذلك أن الاستدلال بالخلق على الخالق لا يمكن وقوعه على نعت المماثلة، إنما يمكن وقوعه على نعت المخالفة، فإذن نستدل بحدوث هذه المحسوسات على قدم خالقها، وبكميتها وكيفيتها وشكلها على براءة خالقها عن الكمية والكيفية والشكل، وقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» معناه من عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم، ومن عرف نفسه بالإمكان عرف ربه بالوجوب، ومن عرف نفسه بالحاجة عرف ربه بالاستغناء، فكان التفكر في الخلق ممكنًا من هذا الوجه، أما التفكر في الخالق فهو غير ممكن ألبتة، فإذن لا يتصور حقيقته إلا بالسلوب فنقول: إنه ليس بجوهر ولا عرض، ولا مركب ولا مؤلف، ولا في الجهة، ولا شك أن حقيقته المخصوصة مغايرة لهذه السلوب، وتلك الحقيقة المخصوصة لا سبيل للعقل إلى معرفتها فيصير العقل كالواله المدهوش المتحير في هذا الموقف فلهذا السبب نهى النبي ﷺ عن التفكر في الله، وأمر بالتفكر في المخلوقات، فلهذه الدقيقة أمر الله في هذه الآيات بذكره، ولما ذكر الفكر لم يأمر بالتفكر فيه، بل أمر بالفكر في مخلوقاته.

المسألة الثانية: اعلم أن الشيء الذي لا يمكن معرفته بحقيقته المخصوصة إنما يمكن معرفته بآثاره وأفعاله، فكلما كانت أفعاله أشرف وأعلى كان وقوف العقل على كمال ذلك الفاعل أكمل، ولذلك أن العامي يعظم اعتقاده في القرآن ولكنه يكون اعتقادًا تقليديًّا إجماليًّا، أما المفسر المحقق الذي لا يزال يطلع في كل آية على أسرار عجيبة، ودقائق لطيفة، فإنه يكون اعتقاده في عظمة القرآن أكمل.

إذا عرفت هذا فنقول: دلائل التوحيد محصورة في قسمين: دلائل الآفاق، ودلائل الأنفس ولا شك أن دلائل الآفاق أجل وأعظم كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[غافر: ٥٧] ولما كان الأمر كذلك لا جرم أمر في هذه الآية بالفكر في خلق السموات والأرض لأن دلالتها أعجب وشواهدها أعظم، وكيف لا نقول ذلك ولو أن الإنسان نظر إلى ورقة صغيرة من أوراق شجرة، رأى في تلك الورقة عرقًا واحدًا ممتدا في وسطها، ثم يتشعب من ذلك العرق عروق كثيرة إلى الجانبين، ثم يتشعب منها عروق دقيقة. ولا يزال يتشعب من كل عرق عروق أخر حتى تصير في الدقة بحيث لا يراها البصر، وعند هذا يعلم أن للخالق في تدبير تلك الورقة على هذه الخلقة حكمًا بالغة وأسرارًا عجيبة، وأن الله تعالى أودع فيها قوى جاذبة لغذائها من قعر الأرض ثم إن ذلك الغذاء يجري في تلك العروق حتى يتوزع على كل جزء من أجزاء تلك الورقة جزء من أجزاء ذلك الغذاء بتقدير العزيز العليم، ولو أراد الإنسان أن يعرف كيفية خلقة تلك الورقة وكيفية التدبير في إيجادها وإيداع القوى الغاذية والنامية فيها لعجز عنه، فإذا عرف أن عقله قاصر عن الوقوف على كيفية خلقة تلك الورقة الصغيرة، فحينئذ يقيس تلك الورقة إلى السموات مع ما فيها من الشمس والقمر والنجوم، وإلى الأرض مع ما فيها من البحار

والجبال والمعادن والنبات والحيوان، عرف أن تلك الورقة بالنسبة إلى هذه الأشياء كالعدم، فإذا عرف قصور عقله عن معرفة ذلك الشيء الحقير عرف أنه لا سبيل له ألبتة إلى الاطلاع على عجائب حكمة الله في خلق السموات والأرض، وإذا عرف بهذا البرهان النير قصور عقله وفهمه عن الإحاطة بهذا المقام لم يبق معه إلا الاعتراف بأن الخالق أجل وأعظم من أن يحيط به وصف الواصفين ومعارف العارفين، بل يسلم أن كل ما خلقه ففيه حكم بالغة وأسرار عظيمة وإن كان لا سبيل له إلى معرفتها، فعند هذا يقول: سبحانك! والمراد منه اشتغاله بالتسبيح والتهليل والتحميد والتعظيم، ثم عند ذلك يشتغل بالدعاء فيقول: فقنا عذاب النار. وعن النبي ﷺ: «**بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء وقال: أشهد أن لك ربًا وخالقًا، اللهم اغفر لي فنظر الله إليه فغفر له**»(١) وقال النبي ﷺ: «**لاَ عِبَادَةَ كَالتَّفَكُّرِ**»(٢) وقيل: الفكرة تذهب الغفلة وتجذب للقلب الخشية كما ينبت الماء الزرع. وعن النبي ﷺ: «**لا تُفضِّلُونِي على يونِسَ بنِ مَتَّى فإنَّهُ كانَ يُرفعُ لهُ كلَّ يوم مثلُ عملِ أهلِ الأرضِ**»(٣) قالوا: وكان ذلك العمل هو التفكر في معرفة الله، لأن أحدًا لا يقدر أن يعمل بجوارحه مثل عمل أهل الأرض.

المسألة الثالثة: دلت الآية على أن أعلى مراتب الصديقين التفكر في دلائل الذات والصفات وأن التقليد أمر باطل لا عبرة به ولا التفات إليه.

واعلم أنه تعالى حكى عن هؤلاء العباد الصالحين المواظبين على الذكر والفكر أنهم ذكروا خمسة أنواع من الدعاء.

النوع الأول: قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الآية إضمار وفيه وجهان، قال الواحدي رحمه الله: التقدير: يقولون

---

(١) **ضعيف**: رواه الثعلبي في تفسيره (٣/ ٢١٦) قال: وجدت في كتابي عن أبي زرعة محمد بن جعفر بن الحسن وشككت في سماعي منه أنا محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله السلمي أنا محمد بن حسان بن أحمد أنا محمد بن الحسن الخليل حدثنا عبد الله بن زياد القطواني حدثنا سيار ثنا عبد الله بن جعفر ثنا زيد بن أسلم ثنا عطاء بن يسار عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره.

(٢) **موضوع**: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٥٧)، رقم (٤٦٤٧)، وقال: تفرد به هذا الحبطي عن شعبة وليس بالقوي. وأخرجه أيضًا: الطبراني (٣/ ٦٨)، رقم (٢٦٨٨) كلاهما من طريق محمد بن عبد الله الحبطي من أهل تستر نا شعبة بن الحجاج عن أبي إسحاق عن عاصم بن ضمرة عن علي... به، قال الهيثمي (١٠/ ٢٨٣): فيه أبو رجاء الحبطي واسمه محمد بن عبد الله وهو كذاب.

(٣) هذا حديث غريب بهذا النص وإنما الصحيح هو (ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى).

متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأنبياء)، باب: (قوله تعالى: وإن يونس لمن المرسلين) (٦/ ٥١٩)، حديث رقم (٣٤١٣)، ومسلم في كتاب (الفضائل)، باب: (في ذكر يونس عليه السلام) (٤/ ١٦٧/ ١٨٤٦)، جميعًا من طريق شعبة... به.

ربنا ما خلقت هذا باطلاً، وقال صاحب (الكشاف): أنه في محال الحال بمعنى يتفكرون قائلين.

المسألة الثانية: هذا: في قوله: ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا﴾ كناية عن المخلوق، يعني: ما خلقت هذا المخلوق العجيب باطلا، وفي كلمة ﴿هَٰذَا﴾ ضرب من التعظيم كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

المسألة الثالثة: في نصب قوله ﴿بَٰطِلًا﴾ وجوه: الأول: أنه نعت لمصدر محذوف أي: خلقًا باطلاً. الثاني: أنه بنزع الخافض تقديره: بالباطل أو للباطل. الثالث: قال صاحب (الكشاف): يجوز أن يكون ﴿بَٰطِلًا﴾ حالاً من ﴿هَٰذَا﴾.

المسألة الرابعة: قالت المعتزلة: إن كل ما يفعله الله تعالى فهو إنما يفعله لغرض الإحسان إلى العبيد ولأجل الحكمة، والمراد منها رعاية مصالح العباد، واحتجوا عليه بهذه الآية لأنه تعالى لو لم يخلق السموات والأرض لغرض لكان قد خلقها باطلاً، وذلك ضد هذه الآية قالوا: وظهر بهذه الآية أن الذي تقوله المجبرة: إن الله تعالى أراد بخلق السموات والأرض صدور الظلم والباطل من أكثر عباده وليكفروا بخالقها، وذلك رد لهذه الآية، قالوا: وقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيه له عن خلقه لهما باطلاً، وعن كل قبيح، وذكر الواحدي كلامًا يصلح أن يكون جوابًا عن هذه الشبهة فقال: الباطل عبارة عن الزائل الذاهب الذي لا يكون له قوة ولا صلابة ولا بقاء، وخلق السموات والأرض خلق متقن محكم، ألا ترى إلى قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣] وقال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢] فكان المراد من قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ هذا المعنى، لا ما ذكره المعتزلة.

فإن قيل: هذا الوجه مدفوع بوجوه: الأول: لو كان المراد بالباطل الرخو المتلاشي لكان قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا له عن أن يخلق مثل هذا الخلق، ومعلوم أن ذلك باطل. الثاني: أنه إنما يحسن وصل قوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ به إذا حملناه على المعنى الذي ذكرناه لأن التقدير: ما خلقته باطلاً بغير حكمة بل خلقته بحكمة عظيمة، وهي أن تجعلها مساكن للمكلفين الذين اشتغلوا بطاعتك وتحرزوا عن معصيتك، فقنا عذاب النار، لأنه جزاء من عصى ولم يطع، فثبت أنا إذا فسرنا قوله: ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ بما ذكرنا حسن هذا النظم، أما إذا فسرناه بأنك خلقته محكمًا شديد التركيب لم يحسن هذا النظم. الثالث: أنه تعالى ذكر هذا في آية أخرى فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧] وقال في آية أخرى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩] وقال في آية أخرى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] إلى قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٦] أي: فتعالى الملك الحق عن أن يكون فعله عبثًا، وإذا امتنع أن يكون عبثًا فبأن يمتنع كونه باطلاً أولى.

والجواب: اعلم أن بديهة العقل شاهدة بأن الموجود إما واجب لذاته، وإما ممكن لذاته؛

وشاهده أن كل ممكن لذاته فإنه لا بد وأن ينتهي في رجحانه إلى الواجب لذاته، وليس في هذه القضية تخصيص بكون ذلك الممكن مغايرًا لأفعال العباد، بل هذه القضية على عمومها قضية يشهد العقل بصحتها، وإذا كان كذلك وجب أن يكون الخير والشر بقضاء الله، وإذا كان كذلك امتنع أن يكون المراد من هذه الآية تعليل أفعال الله تعالى بالمصالح، إذا عرفت هذا فنقول: لم لا يجوز أن يكون تأويل الآية ما حكيناه عن الواحدي: قوله: ولو كان كذلك لكان قوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا له عن فعل ما لا شدة فيه ولا صلابة وذلك باطل. قلنا: لمَ لا يجوز أن يكون المراد: ربنا ما خلقت هذا رخوًا فاسد التركيب بل خلقته صلبًا محكمًا، وقوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ معناه أنك وإن خلقت السموات والأرض صلبة شديدة باقية فأنت منزه عن الاحتياج إليه والانتفاع به فيكون قوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ معناه هذا. قوله ثانيًا: إنما حسن وصل قوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ به إذا فسرناه بقولنا، قلنا لا نسلم بل وجه النظم أنه لما قال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ اعترف بكونه غنيًّا عن كل ما سواه، فعندما وصفه بالغنى أقر لنفسه بالعجز والحاجة إليه في الدنيا والآخرة فقال: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ وهذا الوجه في حسن النظم إن لم يكن أحسن مما ذكرتم لم يكن أقل منه، وأما سائر الآيات التي ذكرتموها فهي دالة على أن أفعاله منزهة عن أن تكون موصوفة بكونها عبثًا ولعبًا وباطلاً، ونحن نقول بموجبه، وإن أفعال الله كلها حكمة وصواب، لأنه تعالى لا يتصرف إلا في ملكه وملكه، فكان حكمه صوابًا على الإطلاق فهذا ما في هذه المناظرة والله أعلم.

المسألة الخامسة: احتج حكماء الإسلام بهذه الآية على أنه سبحانه خلق هذه الأفلاك والكواكب وأودع في كل واحد منها قوى مخصوصة، وجعلها بحيث يحصل من حركاتها واتصال بعضها ببعض مصالح هذا العالم ومنافع سكان هذه البقعة الأرضية، قالوا: لأنها لو لم تكن كذلك لكانت باطلة، وذلك رد للآية. قالوا: وليس لقائل أن يقول الفائدة فيها الاستدلال بها على وجود الصانع المختار، وذلك لأن كل واحد من كرات الهواء والماء يشارك الأفلاك والكواكب في هذا المعنى، فحينئذ لا يبقى لخصوص كونه فلكًا وشمسًا وقمرًا فائدة، فيكون باطلاً وهو خلاف هذا النص.

أجاب المتكلمون عنه: بأن قالوا: لم لا يكفي في هذا المعنى كونها أسبابًا على مجرى العادة لا على سبيل الحقيقة.

أما قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: هذا إقرار بعجز العقول عن الإحاطة بآثار حكمة الله في خلق السموات والأرض، يعني: أن الخلق إذا تفكروا في هذه الأجسام العظيمة لم يعرفوا منها إلا هذا القدر،

وهو أن خالقها ما خلقها باطلاً، بل خلقها لحكم عجيبة، وأسرار عظيمة، وإن كانت العقول قاصرة عن معرفتها.

المسألة الثانية: المقصود منه تعليم الله عباده كيفية الدعاء، وذلك أن من أراد الدعاء فلا بد وأن يقدم الثناء ثم يذكر بعده الدعاء كما في هذه الآية.

أما قوله تعالى: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فاعلم أنه تعالى لما حكى عن هؤلاء العباد المخلصين أن ألسنتهم مستغرقة بذكر الله تعالى، وأبدانهم في طاعة الله، وقلوبهم في التفكر في دلائل عظمة الله، ذكر أنهم مع هذه الطاعات يطلبون من الله أن يقيهم عذاب النار، ولولا أنه يحسن من الله تعذيبهم وإلا لكان هذا الدعاء عبثًا، فإن كان المعتزلة ظنوا أن أول الآية حجة لهم، فليعلموا أن آخر هذه الآية حجة لنا في أنه لا يقبح من الله شيء أصلاً، ومثل هذا التضرع ما حكاه الله تعالى عن إبراهيم في قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

النوع الثاني من دعواتهم: قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنهم لما سألوا ربهم أن يقيهم عذاب النار أتبعوا ذلك بما يدل على عظم ذلك العقاب وشدته وهو الخزي، ليكون موقع السؤال أعظم، لأن من سأل ربه أن يفعل شيئًا أو أن لا يفعله، إذا شرح عظم ذلك المطلوب وقوته كانت داعيته في ذلك الدعاء أكمل وإخلاصه في طلبه أشد، والدعاء لا يتصل بالاجابة إلا إذا كان مقرونًا بالإخلاص، فهذا تعليم من الله عباده في كيفية إيراد الدعاء.

المسألة الثانية: قال الواحدي: الإخزاء في اللغة يرد على معان يقرب بعضها من بعض. قال الزجاج: أخزى الله العدو، أي: أبعده، وقال غيره: أخزاه الله أي: أهانه، وقال شمر بن حمدويه: أخزاه الله أي: فضحه الله، وفي القرآن ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ [هود: ٧٨] وقال المفضل: أخزاه الله أي: أهلكه وقال ابن الأنباري: الخزي في اللغة الهلاك بتلف أو انقطاع حجة أو بوقوع في بلاء، وكل هذه الوجوه متقاربة. ثم قال صاحب (الكشاف): ﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أي: قد أبلغت في إخزائه وهو نظير ما يقال: من سبق فلانًا فقد سبق، ومن تعلم من فلان فقد تعلم.

المسألة الثالثة: قالت المعتزلة: هذه الآية دالة على أن صاحب الكبيرة من أهل الصلاة ليس بمؤمن، وذلك لأن صاحب الكبيرة إذا دخل النار فقد أخزاه الله لدلالة هذه الآية، والمؤمن لا يخزى لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم: ٨] فوجب من مجموع هاتين الآيتين أن لا يكون صاحب الكبيرة مؤمنًا.

والجواب: أن قوله ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم: ٨] لا يقتضي نفي الإخزاء مطلقًا، وإنما يقتضي أن لا يحصل الإخزاء حال ما يكون مع النبي، وهذا النفي لا

يناقضه إثبات الإخزاء في الجملة لاحتمال أن يحصل ذلك الإثبات في وقت آخر، هذا هو الذي صح عندي في الجواب، وذكر الواحدي في البسيط أجوبة ثلاثة سوى ما ذكرناه: أحدها: أنه نقل عن سعيد بن المسيب والثوري وقتادة أن قوله: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ مخصوص بمن يدخل النار للخلود، وهذا الجواب عندي ضعيف، لأن مذهب المعتزلة أن كل فاسق دخل النار فإنما دخلها للخلود، فهذا لا يكون سؤالاً عنهم. ثانيها: قال: المدخل في النار مخزي في حال دخوله وإن كانت عاقبته أن يخرج منها، وهذا ضعيف أيضًا لأن موضع الاستدلال أن قوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨] يدل على نفي الخزي عن المؤمنين على الإطلاق، وهذه الآية دلت على حصول الخزي لكل من دخل النار، فحصل بحكم هاتين الآيتين بين كونه مؤمنًا وبين كونه كافرًا ممن يدخل النار منافاة، وثالثها: قال: الإخزاء يحتمل وجهين: أحدهما: الإهانة والإهلاك، والثاني: التخجيل، يقال: خزي خزاية اذا استحيا، وأخزاه غيره إذا عمل به عملاً يخجله ويستحي منه.

واعلم أن حاصل هذا الجواب: أن لفظ الإخزاء لفظ مشترك بين التخجيل وبين الإهلاك، واللفظ المشترك لا يمكن حمله في طرفي النفي والإثبات على معنييه جميعًا، وإذا كان كذلك جاز أن يكون المنفي بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨] غير المثبت في قوله: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ وعلى هذا يسقط الاستدلال، إلا أن هذا الجواب إنما يتمشى إذا كان لفظ الإخزاء مشتركًا بين هذين المفهومين، أما إذا كان لفظًا متواطئًا مفيدًا لمعنى واحد، وكان المعنيان اللذان ذكرهما الواحدي نوعين تحت جنس واحد، سقط هذا الجواب لأن قوله: ﴿لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ١٠٨] لنفي الجنس وقوله: ﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ لإثبات النوع، وحينئذ يحصل بينهما منافاة.

المسألة الرابعة: احتجت المرجئة بهذه الآية في القطع على أن صاحب الكبيرة لا يخزي وكل من دخل النار فإنه يخزى، فيلزم القطع بأن صاحب الكبيرة لا يدخل النار، إنما قلنا صاحب الكبيرة لا يخزى لأن صاحب الكبيرة مؤمن، والمؤمن لا يخزى. إنما قلنا إنه مؤمن لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] سُمي الباغي حال كونه باغيًا مؤمنًا، والبغي من الكبائر بالإجماع، وأيضًا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨] سمي القاتل بالعمد العدوان مؤمنًا، فثبت أن صاحب الكبيرة مؤمن، وإنما قلنا إن المؤمن لا يخزى لقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨] ولقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

ثم قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وهذه الاستجابة تدل على أنه تعالى لا يخزي المؤمنين، فثبت بما ذكرنا أن صاحب الكبيرة لا يخزى بالنار، وإنما قلنا إن كل من دخل

النار فإنه يخزى لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ وحينئذ يتولد من هاتين المقدمتين القطع بأن صاحب الكبيرة لا يدخل النار.

والجواب عنه ما تقدم: أن قوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨] لا يدل على نفي الإخزاء مطلقًا، بل يدل على نفي الإخزاء حال كونهم مع النبي، وذلك لا ينافي حصول الإخزاء في وقت آخر.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ عام دخله الخصوص في مواضع منها: أن قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ [مريم: ٧١، ٧٢] يدل على أن كل المؤمنين يدخلون النار، وأهل الثواب يصانون عن الخزي. وثانيها: أن الملائكة الذين هم خزنة جهنم يكونون في النار، وهم أيضًا يصانون عن الخزي. قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦].

المسألة السادسة: احتج حكماء الإسلام بهذه الآية على أن العذاب الروحاني أشد وأقوى من العذاب الجسماني، قالوا: لأن الآية دالة على التهديد بعد عذاب النار بالخزي، والخزي عبارة عن التخجيل وهو عذاب روحاني، فلولا أن العذاب الروحاني أقوى من العذاب الجسماني وإلا لما حسن تهديد من عذب بالنار بعذاب الخزي والخجالة.

المسألة السابعة: احتجت المعتزلة بهذه الآية على أن الفساق الذين دخلوا النار لا يخرجون منها بل يبقون هناك مخلدين، وقالوا: الخزي هو الهلاك، فقوله: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ معناه: فقد أهلكته، ولو كانوا يخرجون من النار إلى الجنة لما صح أن كل من دخل النار فقد هلك. والجواب: أنا لا نفسر الخزي بالإهلاك بل نفسره بالإهانة والتخجيل، وعند هذا يزول كلامكم.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: المعتزلة تمسكوا به في نفي الشفاعة للفساق، وذلك لأن الشفاعة نوع نصرة، ونفي الجنس يقتضي نفي النوع.

والجواب من وجوه: الأول: أن القرآن دل على أن الظالم بالإطلاق هو الكافر، قال تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ومما يؤكد هذا أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم خصصوا أنفسهم بنفي الشفعاء والأنصار حيث قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، وثانيها: أن الشفيع لا يمكنه أن يشفع إلا بإذن الله، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وإذا كان كذلك لم يكن الشفيع قادرًا على النصرة إلا بعد الإذن، وإذا حصل الإذن لم يكن في شفاعته فائدة في الحقيقة، وعند ذلك يظهر أن العفو إنما حصل من الله تعالى، وتلك الشفاعة ما كان لها تأثير في نفس الأمر، وليس الحكم إلا لله، فقوله: ﴿وَمَا

﴿لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ يفيد أنه لا حكم إلا الله كما قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ [الأنعام: ٦٢] وقال: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] لا يقال: فعلى هذا التقدير لا يبقى لتخصيص الظالمين بهذا الحكم فائدة، لأنا نقول: بل فيه فائدة لأنه وعد المؤمنين المتقين في الدنيا بالفوز بالثواب والنجاة من العقاب، فلهم يوم القيامة هذه الحجة. أما الفساق فليس لهم ذلك، فصح تخصيصهم بنفي الأنصار على الإطلاق. الثالث: أن هذه الآية عامة وواردة بثبوت الشفاعة خاصة والخاص مقدم على العام، والله أعلم.

المسألة الثانية: المعتزلة تمسكوا في أن الفاسق لا يخرج من النار، قالوا: لو خرج من النار لكان من أخرجه منها ناصرًا له، والآية دالة على أنه لا ناصر له ألبتة.

والجواب: المعارضة بالآيات الدالة على العفو كما ذكرناه في سورة البقرة.

النوع الثالث: من دعواتهم.

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في المنادي قولان: أحدهما: أنه محمد عليه الصلاة والسلام وهو قول الأكثرين، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥] ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤٦] ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [يوسف: ١٠٨]، والثاني: أنه هو القرآن، قالوا: إنه تعالى حكى عن مؤمني الإنس ذلك كما حكى عن مؤمني الجن قوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ﴾ [الجن: ١، ٢] قالوا: والدليل على أن تفسير الآية بهذا الوجه أولى لأنه ليس كل أحد لقي النبي ﷺ، أما القرآن فكل أحد سمعه وفهمه، قالوا: وهذا وان كان مجازًا إلا أنه مجاز متعارف، لأن القرآن لما كان مشتملاً على الرشد، وكان كل من تأمله وصل به إلى الهدى إذا وفقه الله تعالى لذلك، فصار كأنه يدعو إلى نفسه وينادي بما فيه من أنواع الدلائل، كما قيل في جهنم: ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج: ١٧] إذ كان مصيرهم إليها، والفصحاء والشعراء يصفون الدهر بأنه ينادي ويعظ، ومرادهم منها دلالة تصاريف الزمان، قال الشاعر:

يا واضع الميت في قبره ... خاطبك الدهر فلم تسمع

المسألة الثانية: في قوله: ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ وجوه: الأول: ان اللام بمعنى (إلى) كقوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٨] ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ [المجادلة: ٣] ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] ويقال: دعاه لكذا والى كذا، وندبه له وإليه، وناداه له وإليه، وهداه للطريق وإليه، والسبب في إقامة كل واحدة من هاتين اللفظتين مقام الأخرى: أن معنى انتهاء الغاية ومعنى الاختصاص حاصلان جميعًا. الثاني: قال أبو عبيدة: هذا على التقديم

والتأخير، أي سمعنا مناديًا للإيمان ينادي بأن آمنوا، كما يقال: جاءنا منادي الأمير ينادي بكذا وكذا. والثالث: أن هذه اللام لام الأجل والمعنى: سمعنا مناديًا كان نداؤه ليؤمن الناس، أي كان المنادي ينادي لهذا الغرض، ألا تراه قال: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ﴾ أي: لتؤمن الناس، وهو كقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

المسألة الثالثة: قوله: ﴿سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى﴾ نظيره قولك: سمعت رجلاً يقول كذا، وسمعت زيدًا يتكلم، فيوقع الفعل على الرجل ويحذف المسموع، لأنك وصفته بما يسمع وجعلته حالاً عنه فأغناك عن ذكره، ولأن الوصف أو الحال لم يكن بد منه، وأنه يقال: سمعت كلام فلان أو قوله.

المسألة الرابعة: ههنا سؤال وهو أن يقال: ما الفائدة في الجمع بين المنادي وينادي؟

وجوابه: ذكر النداء مطلقًا ثم مقيدًا بالإيمان تفخيمًا لشأن المنادي، لأنه لا منادي أعظم من مناد ينادي للإيمان، ونظيره قولك: مررت بهاد يهدي للإسلام، وذلك لأن المنادي إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب، أو لإطفاء النائرة، أو لإغاثة المكروب، أو الكفاية لبعض النوازل، وكذلك الهادي، وقد يطلق على من يهدي للطريق، ويهدي لسداد الرأي، فإذا قلت ينادي للإيمان ويهدي للإسلام فقد رفعت من شأن المنادي والهادي وفخمته.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ﴾ فيه حذف أو إضمار، والتقدير: آمنوا أو بأن آمنوا، ثم حكى الله عنهم أنهم قالوا بعد ذلك: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أعلم أنهم طلبوا من الله تعالى في هذا الدعاء ثلاثة أشياء: أولها: غفران الذنوب، وثانيها: تكفير السيئات، وثالثها: أن تكون وفاتهم مع الأبرار. أما الغفران فهو الستر والتغطية، والتكفير أيضًا هو التغطية، يقال: رجل مكفر بالسلاح، أي: مغطى به، والكفر منه أيضًا، وقال لبيد:

في ليلة كفر النجوم ظلامها

إذا عرفت هذا: فالمغفرة والتكفير بحسب اللغة معناهما شيء واحد.

أما المفسرون فذكروا فيه وجوهًا: أحدها: أن المراد بهما شيء واحد وإنما أعيد ذلك للتأكيد لأن الإلحاح في الدعاء والمبالغة فيه مندوب، وثانيها: المراد بالأول ما تقدم من الذنوب، وبالثاني المستأنف، وثالثها: أن يريد بالغفران ما يزول بالتوبة، وبالكفران ما تكفره الطاعة العظيمة، ورابعها: أن يكون المراد بالأول ما أتى به الإنسان مع العلم بكونه معصية وذنبًا، وبالثاني: ما أتى به الإنسان مع جهله بكونه معصية وذنبًا.

وأما قوله: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ ففيه بحثان: الأول: أن الأبرار جمع بر أو بار، كرب وأرباب، وصاحب وأصحاب، الثاني: ذكر القفال في تفسير هذه المعية وجهين: الأول: أن وفاتهم معهم

هي أن يموتوا على مثل أعمالهم حتى يكونوا في درجاتهم يوم القيامة، قد يقول الرجل أنا مع الشافعي في هذه المسألة، ويريد به كونه مساويًا له في ذلك الاعتقاد، والثاني: يقال فلان في العطاء مع أصحاب الألوف، أي هو مشارك لهم في أنه يعطي ألفًا. والثالث: أن يكون المراد منه كونهم في جملة أتباع الأبرار وأشياعهم، ومنه قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

المسألة الثانية: احتج أصحابنا على حصول العفو بدون التوبة بهذه الآية أعني قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ والاستدلال به من وجهين: الأول: أنهم طلبوا غفران الذنوب ولم يكن للتوبة فيه ذكر، فدل على أنهم طلبوا المغفرة مطلقًا، ثم إن الله تعالى أجابهم إليه لأنه قال في آخر الآية: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وهذا صريح في أنه تعالى قد يعفو عن الذنب وإن لم توجد التوبة. والثاني: وهو أنه تعالى حكى عنهم أنهم لما أخبروا عن أنفسهم بأنهم آمنوا، فعند هذا قالوا: فاغفر لنا ذنوبنا، والفاء في قوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾ فاء الجزاء وهذا يدل على أن مجرد الإيمان سبب لحسن طلب المغفرة من الله، ثم إن الله تعالى أجابهم إليه بقوله: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٩٥] فدلت هذه الآية على أن مجرد الإيمان سبب لحصول الغفران، إما من الابتداء وهو بأن يعفو عنهم ولا يدخلهم النار أو بأن يدخلهم النار ويعذبهم مدة ثم يعفو عنهم ويخرجهم من النار، فثبت دلالة هذه الآية من هذين الوجهين على حصول العفو.

المسألة الثالثة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن شفاعة محمد ﷺ في حق أصحاب الكبائر مقبولة يوم القيامة، وذلك لأن هذه الآية دلت على أن هؤلاء المؤمنين طلبوا من الله غفران الذنوب مطلقًا من غير أن قيدوا ذلك بالتوبة، فأجاب الله قولهم وأعطاهم مطلوبهم فإذا قبل شفاعة المؤمنين في العفو عن الذنب، فلأن يقبل شفاعة محمد ﷺ فيه كان أولى.

النوع الرابع: من دعائهم:

قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ﴾ فيه حذف المضاف، ثم فيه وجوه أحدها: وآتنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك. وثانيها: وآتنا ما وعدتنا على تصديق رسلك، والدليل عليه أن هذه الآية مذكورة عقيب ذكر المنادي للإيمان وهو، الرسول وعقيب قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ وهو التصديق.

المسألة الثانية: ههنا سؤال: وهو أن الخلف في وعد الله محال، فكيف طلبوا بالدعاء ما علموا أنه لا محالة واقع؟

والجواب عنه من وجوه: الأول: أنه ليس المقصود من الدعاء طلب الفعل، بل المقصود منه

إظهار الخضوع والذلة والعبودية، وقد أمرنا بالدعاء في أشياء نعلم قطعًا أنها توجد لا محالة، كقوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [الأنبياء: ١١٢] وقوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧].

والوجه الثاني في الجواب: أن وعد الله لا يتناول آحاد الأمة بأعيانهم، بل إنما يتناولهم بحسب أوصافهم، فانه تعالى وعد المتقين بالثواب، ووعد الفساق بالعقاب، فقوله: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾ معناه: وفقنا للأعمال التي بها نصير أهلاً لوعدك، واعصمنا من الأعمال التي نصير بها أهلاً للعقاب والخزي، وعلى هذا التقدير يكون المقصود من هذه الآية طلب التوفيق للطاعة والعصمة عن المعصية.

الوجه الثالث: ان الله تعالى وعد المؤمنين بأن ينصرهم في الدنيا ويقهر عدوهم، فهم طلبوا تعجيل ذلك، وعلى هذا التقدير يزول الإشكال.

المسألة الثالثة: الآية دلت على أنهم إنما طلبوا منافع الآخرة بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق لأنهم قالوا: ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك، وفي آخر الكلام قالوا: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ وهذا يدل على أن المقتضي لحصول منافع الآخرة هو الوعد لا الاستحقاق.

المسألة الرابعة: ههنا سؤال آخر: وهو أنه متى حصل الثواب كان اندفاع العقاب لازمًا لا محالة، فقوله: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ طلب للثواب، فبعد طلب الثواب كيف طلب ترك العقاب؟ وهو قوله: ﴿وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ بل لو طلب ترك العقاب أولاً ثم طلب إيصال الثواب كان الكلام مستقيمًا.

والجواب من وجهين: الأول: أن الثواب شرطه أن يكون منفعة مقرونة بالتعظيم والسرور فقوله: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ المراد منه المنافع، وقوله: ﴿وَلَا تُخۡزِنَا﴾ المراد منه التعظيم، الثاني: أنا قد بينا أن المقصود من هذه الآية طلب التوفيق على الطاعة والعصمة عن المعصية، وعلى هذا التقدير يحسن النظم كأنه قيل: وفقنا للطاعات، واذا وفقتنا لها فاعصمنا عما يبطلها ويزيلها ويوقعنا في الخزي والهلاك، والحاصل كأنه قيل: وفقنا لطاعتك فإنا لا نقدر على شيء من الطاعات إلا بتوفيقك، وإذا وفقت لفعلها فوفقنا لاستبقائها فإنا لا نقدر على استبقائها واستدامتها إلا بتوفيقك، وهو إشارة إلى أن العبد لا يمكنه عمل من الأعمال، ولا فعل من الأفعال، ولا لمحة ولا حركة إلا بإعانة الله وتوفيقه.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ شبيه بقوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] فإنه ربما ظن الإنسان أنه على الاعتقاد الحق والعمل الصالح، ثم إنه يوم القيامة يظهر له أن اعتقاده كان ضلالاً وعمله كان ذنبًا، فهناك تحصل الخجالة العظيمة والحسرة الكاملة والأسف الشديد، ثم قال حكماء الإسلام: وذلك هو العذاب الروحاني. قالوا: وهذا العذاب أشد من العذاب الجسماني، ومما يدل على هذا أنه سبحانه حكى عن هؤلاء العباد المؤمنين أنهم طلبوا في هذا الدعاء أشياء فأول مطالبهم الاحتراز عن العذاب الجسماني وهو

قوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وآخرها الاحتراز عن العذاب الروحاني وهو قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وذلك يدل على أن العذاب الروحاني أشد من العذاب الجسماني.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم عرفوا الله بالدليل وهو قوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] إلى قوله: ﴿لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ثم حكى عنهم مواظبتهم على الذكر وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا﴾ [آل عمران: ١٩٠] وعلى التفكر وهو قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم حكى عنهم أنهم أثنوا على الله تعالى وهو قولهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١] ثم حكى عنهم أنهم بعد الثناء اشتغلوا بالدعاء وهو من قولهم: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] إلى قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] بين في هذه الآية أنه استجاب دعاءهم فقال: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في الآية تنبيه على أن استجابة الدعاء مشروطة بهذه الأمور، فلما كان حصول هذه الشرائط عزيزًا، لا جرم كان الشخص الذي يكون مجاب الدعاء عزيزًا.

المسألة الثانية: قال صاحب الكشاف: يقال استجابه واستجاب له، قال الشاعر:

وَداعٍ دعا هَل مَن يُجيبُ إلى النَّدى فَلَم يَستَجِبهُ عِندَ ذاكَ مُجيبُ(١)

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٣٤].

المسألة الثالثة: أني لا أضيع: قرئ بالفتح، والتقدير: بأني لا أضيع، وبالكسر على إرادة القول، وقرئ (لا أضيّع) بالتشديد.

المسألة الرابعة: ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ﴾ قيل للتبيين كقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] وقيل: إنها مؤكدة للنفي بمعنى: عمل عامل منكم ذكر أو أنثى.

المسألة الخامسة: اعلم أنه ليس المراد أنه لا يضيع نفس العمل، لأن العمل كلما وجد تلاشى وفنى، بل المراد أنه لا يضيع ثواب العمل، والإضاعة عبارة عن ترك الإثابة فقوله: ﴿لَآ أُضِيعُ﴾ نفي للنفي فيكون إثباتًا، فيصير المعنى: أني أوصل ثواب جميع أعمالهم إليكم، إذا ثبت

---

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي تقدم ترجمته.

ما قلنا فالآية دالة على أن أحدًا من المؤمنين لا يبقى في النار مخلدًا، والدليل عليه أنه بإيمانه استحق ثوابًا، وبمعصيته استحق عقابًا، فلا بد من وصولهما إليه بحكم هذه الآية والجمع بينهما محال، فإما أن يقدم الثواب ثم ينقله إلى العقاب وهو باطل بالإجماع، أو يقدم العقاب ثم ينقله إلى الثواب وهو المطلوب.

المسألة السادسة: جمهور المفسرين فسروا الآية بأن معناها أنه تعالى قَبِلَ منهم أنه يجازيهم على أعمالهم وطاعاتهم ويوصل ثواب تلك الأعمال إليهم.

فإن قيل: القوم أولا طلبوا غفران الذنوب، وثانيا إعطاء الثواب فقوله: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ إجابة لهم في إعطاء الثواب، فأين الإجابة في طلب غفران الذنوب؟

قلنا: إنه لا يلزم من إسقاط العذاب حصول الثواب، لكن يلزم من حصول الثواب سقوط العقاب فصار قوله: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ إجابة لدعائهم في المطلوبين. وعندي في الآية وجه آخر: وهو أن المراد من قوله: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ أني لا أضيع دعاءكم، وعدم إضاعة الدعاء عبارة عن إجابة الدعاء، فكان المراد منه أنه حصلت إجابة دعائكم في كل ما طلبتموه وسألتموه.

وأما قوله تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ فالمعنى: أنه لا تفاوت في الإجابة وفي الثواب بين الذكر والأنثى إذا كانا جميعًا في التمسك بالطاعة على السوية، وهذا يدل على أن الفضل في باب الدين بالأعمال، لا بسائر صفات العاملين، لأن كون بعضهم ذكرًا أو أنثى، أو من نسب خسيس أو شريف لا تأثير له في هذا الباب، ومثله قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] وروي أن أم سلمة قالت: يا رسول الله إني لأسمع الله يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء فنزلت هذه الآية [١].

أما قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ ففيه وجوه: أحسنها أن يقال: ﴿مِّنۢ﴾ بمعنى الكاف أي: بعضكم كبعض، ومثل بعض في الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية. قال القفال: هذا من قولهم: فلان مني أي على خلقي وسيرتي، قال تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وقال عليه الصلاة والسلام: «من غشنا فليس منا» وقال: «لَيسَ مِنَّا مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاحَ» [٢] فقوله: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي: بعضكم شبه بعض في استحقاق

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبري في (تفسيره) (٤/ ٢١٥)، وابن حزم في (الأحكام) (٣/ ٣٤٠)، كلاهما من طريق سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: قالت أم سلمة . . . به، وقال ابن حزم: ويقال إن التفسير لم يسمعه ابن أبي نجيح من مجاهد، حدثنا بذلك يحيى بن عبد الرحمن عن أحمد بن دحيم عن إبراهيم بن حماد عن إسماعيل بن إسحاق ولم يذكر مجاهد سماعًا لهذا الخبر عن أم سلمة ولا يعلم له منها سماع أصلًا وإنما صح أنهن قلن: يا رسول الله غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يومًا فجعل لهن عليه السلام يومًا وعظهن فيه وأمرهن بالصدقة.

(٢) صحيح: جاء الحديث مجموعًا عند مسلم في (صحيحه) (١/ ٩٩/ ١٨)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٤١٧)، حديث رقم (٩٣٨٥)، كلاهما من طريق سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة . . . به.

الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية، فكيف يمكن إدخال التفاوت فيه؟

ثم قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ والمراد من قوله: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ الذين اختاروا المهاجرة من أوطانهم في خدمة الرسول ﷺ، والمراد من الذين ﴿أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ الذين ألجأهم الكفار إلى الخروج، ولا شك أن رتبة الأولين أفضل لأنهم اختاروا خدمة الرسول عليه السلام وملازمته على الاختيار، فكانوا أفضل وقوله: ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ أي: من أجله وسببه ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ لأن المقاتلة تكون قبل القتال، قرأ نافع وعاصم وأبو عمرو ﴿وَقَاتَلُوا﴾ بالألف أولاً ﴿وَقُتِلُوا﴾ مخففة، والمعنى أنهم قاتلوا معه حتى قتلوا، وقرأ ابن كثير وابن عامر ﴿وَقَاتَلُوا﴾ أولاً (وقتّلوا) مشددة قيل: التشديد للمبالغة وتكرر القتل فيهم كقوله: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ [ص: ٥٠].

وقيل: قطعوا عن الحسن، وقرأ حمزة والكسائي (وقتلوا) بغير ألف أولاً (وقاتلوا) بالألف بعده وفيه وجوه:

الأول: أن الواو لا توجب الترتيب كما في قوله: ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي﴾ [آل عمران: ٤٣].

والثاني: على قولهم: قتلنا ورب الكعبة، إذا ظهرت أمارات القتل، أو إذا قتل قومه وعشائره.

والثالث: بإضمار (قد) أي: قتلوا وقد قاتلوا.

ثم إن الله تعالى وعد من فعل هذا بأمور ثلاثة: أولها: محو السيئات وغفران الذنوب وهو قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وذلك هو الذي طلبوه بقولهم: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وثانيها إعطاء الثواب العظيم وهو قوله: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وهو الذي طلبوه بقولهم: وآتنا ما وعدتنا على رسلك، وثالثها: أن يكون ذلك الثواب ثوابًا عظيمًا مقرونًا بالتعظيم والإجلال وهو قوله: ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وهو الذي قالوه: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لأنه سبحانه هو العظيم الذي لا نهاية لعظمته، وإذا قال السلطان العظيم لعبده: إني أخلع عليك خلعة من عندي دل ذلك على كون تلك الخلعة في نهاية الشرف وقوله: ﴿ثَوَابًا﴾ مصدر مؤكد، والتقدير: لأثيبنهم ثوابًا من عند الله، أي: لأثيبنهم إثابة أو تثويبًا من عند الله، لأن قوله: لأكفرن عنهم ولأدخلنهم في معنى لأثيبنهم. ثم قال: ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ وهو تأكيد ليكون ذلك الثواب في غاية الشرف لأنه تعالى لما كان قادرًا على كل المقدورات، عالمًا بكل المعلومات، غنيًا عن الحاجات، كان لا محالة في غاية الكرم والجود والإحسان، فكان عنده حسن الثواب. روي عن جعفر الصادق أنه قال: من حزبه أمر فقال خمس مرات: ربنا، أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد، وقرأ هذه الآية، قال: لأن الله حكى عنهم أنهم قالوا خمس مرات: ربنا، ثم أخبر أنه استجاب لهم.

قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما وعد المؤمنين بالثواب العظيم، وكانوا في الدنيا في نهاية الفقر والشدة، والكفار كانوا في النعم، ذكر الله تعالى هذه الآية ما يسليهم ويصبرهم على تلك الشدة، فقال: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قد ذكرنا أن الغرور مصدر قولك: غررت الرجل بما يستحسنه في الظاهر ثم يجده عند التفتيش على خلاف ما يحبه، فيقول: غرني ظاهره أي: قبلته على غفلة عن امتحانه، وتقول العرب في الثوب إذا نشر ثم أعيد إلى طيه: رددته على غرة.

المسألة الثانية: المخاطب في قوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ من هو؟ فيه قولان: الأول: أنه الرسول ﷺ ولكن المراد هو الأمة. قال قتادة: والله ما غروا نبي الله ﷺ حتى قبضه الله[1]، والخطاب وإن كان له إلا أن المراد غيره، ويمكن أن يقال: السبب لعدم إغرار الرسول عليه السلام بذلك هو تواتر هذه الآيات عليه، كما قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] فسقط قول قتادة، ونظيره قوله: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢] ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨] والثاني: وهو أن هذا خطاب لكل من سمعه من المكلفين، كأنه قيل: لا يغرنك أيها السامع.

المسألة الثالثة: تقلب الذين كفروا في البلاد، فيه وجهان: الأول: نزلت في مشركي مكة كانوا يتجرون ويتنعمون فقال بعض المؤمنين: إن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد فنزلت الآية. والثاني: قال الفراء: كانت اليهود تضرب في الأرض فتصيب الأموال فنزلت هذه الآية، والمراد بتقلب الذين كفروا في البلاد، تصرفهم في التجارات والمكاسب، أي: لا يغرنكم أمنهم على أنفسهم وتصرفهم في البلاد كيف شاءوا، وأنتم معاشر المؤمنين خائفون محصورون، فإن ذلك لا يبقى إلا مدة قليلة ثم ينتقلون إلى أشد العذاب.

ثم قال تعالى: ﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ﴾ قيل: أي: تقلبهم متاع قليل، وقال الفراء: ذلك متاع قليل، وقال الزجاج: ذلك الكسب والربح متاع قليل، وإنما وصفه الله تعالى بالقلة لأن نعيم الدنيا مشوب بالآفات والحسرات، ثم إنه بالعاقبة ينقطع وينقضي، وكيف لا يكون قليلاً وقد كان معدومًا من الأزل إلى الآن، وسيصير معدومًا من الأزل إلى الأبد، فإذا قابلت زمان الوجود بما مضى وما

---

(١) أخرجه الطبري في (تفسيره) (٤/ ٢١٧) من طريق يزيد حدثنا سعيد عن قتادة . . . به، وإسناده مرسل ومراسيل قتادة ضعيفة.

يأتي وهو الأزل والأبد، كان أقل من أن يجوز وصفه بأنه قليل.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يعني: أنه مع قلته يسبب الوقوع في نار جهنم أبد الآباد والنعمة القليلة إذا كانت سببًا للمضرة العظيمة لم يعد ذلك نعمة، وهو كقوله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وقوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣].

ثم قال: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: الفراش، والدليل على أنه بئس المهاد قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] فهم بين أطباق النيران، ومن فوقهم غواش يأكلون النار ويشربون النار.

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد أتبعه بالوعد بالنزل، والنزل ما يهيأ للضيف وقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ يتناول جميع الطاعات، لأنه يدخل في التقوى الاحتراز عن المنهيات، وعن ترك المأمورات. واحتج بعض أصحابنا بهذه الآية على الرؤية لأنه لما كانت الجنة بكليتها نزلاً، فلا بد من الرؤية لتكون خلعة، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] وقوله: ﴿نُزُلًا﴾ نصب على الحال من ﴿جَنَّٰتٌ﴾ لتخصيصها بالوصف، والعامل اللام، ويجوز أن يكون بمعنى مصدر مؤكد، لأن خلودهم فيها إنزالهم فيها أو نزولهم، وقال الفراء: هو نصب على التفسير كما تقول: هو لك هبة وبيعًا وصدقة ثم قال: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الكثير الدائم ﴿خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ مما يتقلب فيه الفجار من القليل الزائل، وقرأ مسلمة بن محارب والأعمش ﴿نُزْلًا﴾ بسكون الزاي، وقرأ يزيد بن القعقاع ﴿لَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ بالتشديد.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر حال المؤمنين وكان قد ذكر حال الكفار من قبل، بأن مصيرهم إلى النار بين في هذه الآية أن من آمن منهم كان داخلاً في صفة الذين اتقوا فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ واختلفوا في نزولها، فقال ابن عباس وجابر وقتادة: نزلت في النجاشي حين مات وصلى عليه النبي ﷺ، فقال المنافقون: إنه يصلي على نصراني لم يره قط، وقال ابن جريج وابن زيد: نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه، وقيل: نزلت في أربعين من أهل نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى عليه السلام فأسلموا. وقال

مجاهد: نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلهم، وهذا هو الأولى لأنه لما ذكر الكفار بأن مصيرهم إلى العقاب، بيّن فيمن آمن منهم بأن مصيرهم إلى الثواب.

واعلم أنه تعالى وصفهم بصفات: أولها: الإيمان بالله، وثانيها: الإيمان بما أنزل الله على محمد ﷺ. وثالثها: الإيمان بما أنزل على الأنبياء الذين كانوا قبل محمد عليه الصلاة والسلام. ورابعها: كونهم خاشعين لله وهو حال من فاعل يُؤْمِنُ لأن مَن يُؤْمِنُ في معنى الجمع. وخامسها: أنهم لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلاً كما يفعله أهل الكتاب ممن كان يكتم أمر الرسول وصحة نبوته.

ثم قال تعالى في صفتهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ والفائدة في كونه سريع الحساب كونه عالمًا بجميع المعلومات، فيعلم ما لكل واحد من الثواب والعقاب.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

واعلم أنه تعالى لما ذكر في هذه السورة أنواعًا كثيرة من علوم الأصول والفروع، أما الأصول ففيما يتعلق بتقرير التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وأما الفروع ففيما يتعلق بالتكاليف والأحكام نحو الحج والجهاد وغيرهما، ختم هذه السورة بهذه الآية المشتملة على جميع الآداب، وذلك لأن أحوال الإنسان قسمان: منها ما يتعلق به وحده، ومنها ما يكون مشتركًا بينه وبين غيره، أما القسم الأول فلا بد فيه من الصبر، وأما القسم الثاني فلا بد فيه من المصابرة.

أما الصبر فيندرج تحته أنواع: أولها: أن يصبر على مشقة النظر والاستدلال في معرفة التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وعلى مشقة استنباط الجواب عن شبهات المخالفين. وثانيها: أن يصبر على مشقة أداء الواجبات والمندوبات. وثالثها: أن يصبر على مشقة الاحتراز عن المنهيات. ورابعها: الصبر على شدائد الدنيا وآفاتها من المرض والفقر والقحط والخوف، فقوله: ﴿ٱصْبِرُواْ﴾ يدخل تحته هذه الأقسام، وتحت كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة أنواع لا نهاية لها، وأما المصابرة فهي عبارة عن تحمل المكاره الواقعة بينه وبين الغير، ويدخل فيه تحمل الأخلاق الردية من أهل البيت والجيران والأقارب، ويدخل فيه ترك الانتقام ممن أساء إليك كما قال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] ويدخل فيه الإيثار على الغير كما قال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] ويدخل فيه العفو عمن ظلمك كما قال: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧] ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن المقدم عليه ربما وصل إليه بسببه ضرر، ويدخل فيه الجهاد فإنه تعريض النفس للهلاك، ويدخل فيه المصابرة مع المبطلين، وحل شكوكهم والجواب عن شبههم، والاحتيال في إزالة تلك الأباطيل عن قلوبهم، فثبت أن قوله: ﴿ٱصْبِرُواْ﴾ تناول كل ما تعلق به وحده ﴿وَصَابِرُواْ﴾ تناول كل ما كان مشتركًا بينه وبين غيره.

واعلم أن الإنسان وإن تكلف الصبر والمصابرة إلا أن فيه أخلاقًا ذميمة تحمل على أضدادها وهي الشهوة والغضب والحرص، والإنسان ما لم يكن مشتغلاً طول عمره بمجاهدتها وقهرها لا يمكنه الإتيان بالصبر والمصابرة، فلهذا قال: ﴿وَرَابِطُواْ﴾ ولما كانت هذه المجاهدة فعلاً من الأفعال ولا بد للإنسان في كل فعل يفعله من داعية وغرض، وجب أن يكون للإنسان في هذه المجاهدة غرض وباعث، وذلك هو تقوى الله لنيل الفلاح والنجاح، فلهذا قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتمام التحقيق فيه أن الأفعال مصدرها هو القوى، فهو تعالى أمر بالصبر والمصابرة، وذلك عبارة عن الاتيان بالافعال الحسنة، والاحتراز عن الأفعال الذميمة، ولما كانت الافعال صادرة عن القوى أمر بعد ذلك بمجاهدة القوى التي هي مصادر الأفعال الذميمة، وذلك هو المراد بالمرابطة، ثم ذكر ما به يحصل دفع هذه القوى الداعية إلى القبائح والمنكرات، وذلك هو تقوى الله، ثم ذكر ما لأجله وجب ترجيح تقوى الله على سائر القوى والأخلاق، وهو الفلاح، فظهر أن هذه الآية التي هي خاتمة لهذه السورة مشتملة على كنوز الحكم والأسرار الروحانية، وأنها على اختصارها كالمتمم لكل ما تقدم ذكره في هذه السورة من علوم الأصول والفروع فهذا ما عندي فيه.

ولنذكر ما قاله المفسرون: قال الحسن: اصبروا على دينكم ولا تتركوه بسبب الفقر والجوع، وصابروا على عدوكم ولا تفشلوا بسبب وقوع الهزيمة يوم أُحد.

وقال الفراء: اصبروا مع نبيكم وصابروا عدوكم فلا ينبغي أن يكون أصبر منكم.

وقال الأصم: لما كثرت تكاليف الله في هذه السورة أمرهم بالصبر عليها، ولما كثر ترغيب الله تعالى في الجهاد في هذه السورة أمرهم بمصابرة الأعداء.

وأما قوله: ﴿وَرَابِطُواْ﴾ ففيه قولان: الأول: أنه عبارة عن أن يربط هؤلاء خيلهم في الثغور ويربط أولئك خيلهم أيضًا، بحيث يكون كل واحد من الخصمين مستعدًا لقتال الآخر، قال تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] وعن النبي ﷺ **«مَنْ رَابَطَ يَوْمًا وَلَيْلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَانَ مثل صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ لا يفطر ولا ينتقل عن صلاته إلا لحاجة»**(١)

الثاني: أن معنى المرابطة انتظار الصلاة بعد الصلاة ويدل عليه وجهان:

الأول: ما روي عن أبي سلمة عبد الرحمن أنه قال: لم يكن في زمن رسول الله ﷺ غزو يرابط فيه، وإنما نزلت هذه الآية في انتظار الصلاة بعد الصلاة.

الثاني: ما روي من حديث أبي هريرة حين ذكر انتظار الصلاة بعد الصلاة ثم قال: «فَذلِكُمُ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الإمارة)، باب: (فضل الرباط في سبيل الله) (٣/ ١٦٣/ ١٥٢٠) من طريق مكحول... به، والنسائي في كتاب (الجهاد)، باب: (فضل الرباط) (٣/ ٣٤٤)، حديث رقم (٣١٦٧)، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٤٤١) من طريق خالد بن معدان... به، جميعًا (مكحول، خالد بن معدان، أبو عبيدة) عن شرحبيل بن السمط... به.

الرِّبَاطُ» ثلاث مرات[١].

واعلم أنه يمكن حمل اللفظ على الكل، وأصل الرباط من الربط وهو الشد، يقال: لكل من صبر على أمر ربط قلبه عليه، وقال آخرون: الرباط هو اللزوم والثبات، وهذا المعنى أيضًا راجع إلى ما ذكرناه من الصبر وربط النفس، ثم هذا الثبات والدوام يجوز أن يكون على الجهاد، ويجوز أن يكون على الصلاة والله أعلم.

قال الامام رضي الله تعالى عنه: تم تفسير هذه السورة بفضل الله وإحسانه يوم الخميس أول ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وخمسمائة

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الطهارة)، باب: (فضل إسباغ الوضوء على المكاره) (١/ ٤١/ ٢١٩) حدثنا معن حدثنا مالك... به، والنسائي في كتاب (الطهارة)، باب: (الفضل في ذلك) (١/ ١٦٥)، حديث رقم (١٤٣)، والترمذي في كتاب (الطهارة)، باب: (في إسباغ الوضوء) (١/ ٧٢)، حديث رقم (٥)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، ومالك في (الموطأ)، كتاب: (الصلة)، باب: (انتظار الصلاة والمشي إليها) (١/ ١٦١)، حديث رقم (٥٥)، وأحمد في (المسند) (٢/ ٢٧٧/ ٣٠٣) من طريق عبد الرزاق... به، ثلاثتهم (معن، إسماعيل بن جعفر، مالك) عن العلاء... به.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة آل عمران

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾ هذه السورةُ مدنيةٌ بإجماع. وحكى النقَّاش أنَّ اسمَها في التَّوراة طَيْبَة[1].

وقرأ الحسن وعمرو بنُ عُبَيْد وعاصم بن أبي النَّجُود وأبو جعفر الرُّؤاسِي[2]: «الٓمٓ أللّه» بقطع ألف الوصل[3]، على تقدير الوقف على «الٓمٓ» كما يُقدِّرون الوقفَ على أسماء الأعداد في نحو واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، وهم واصلون.

قال الأخفشُ سعيدٌ: ويجوزُ «الٓمِ اللّه» بكسر الميم لالتقاء السَّاكنَين[4]. قال الزَّجَّاجُ[5]: هذا خطأ، ولا تقولُه العربُ لثقله.

قال النَّحاس[6]: القراءةُ [الأُولى] قراءةُ العامَّة، وقد تكلَّم فيها النَّحويون القدماءُ، فمذهبُ سيبويه[7] أنَّ الميمَ فُتحت لالتقاءِ السَّاكنين، واختاروا لها الفتحَ لِئلَّا يُجْمعَ بينَ كسرةٍ وياءٍ وكسرةٍ قبلَها.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٣٩٦ .

(٢) محمد بن أبي سارة، الكوفي النحوي، سمِّي الرؤاسي لكبر رأسه، كان أستاذ الكسائي والفراء، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء، وتقدم في النحو وعُمِّر إلى أيام الرشيد. إنباه الرواة ٤/ ٩٩

(٣) نسبها ابن مجاهد في السبعة ص٢٠٠ لأبي بكر عن عاصم، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٩ لعاصم وغيره. ولكن قراءة عاصم المشهورة عنه كقراءة الجماعة، وهي بفتح الميم وإسقاط الهمزة حالة الوصل. وينظر جامع البيان لأبي عمرو ٢/ ٧٠ .

(٤) معاني القرآن للأخفش ١/ ١٧٢ ونسب ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٩ هذه القراءة لعمرو بن عبيد.

(٥) معاني القرآن له ١/ ٣٧٣ .

(٦) في إعراب القرآن ١/ ٣٥٣ وما بين حاصرتين منه، ونقل المصنف عنه قولي الأخفش والزجاج السالفين.

(٧) الكتاب ٤/ ١٥٣ .

وقال الكسائيُّ: حروفُ التهجِّي إذا لَقِيَتْها ألفُ وَصْلٍ، فحذِفَت ألفُ الوصلِ، حرَّكتَها بحركة الألفِ، فقلْتَ: الٓمَ اللّه، والٓمُ اذْكُر، والٓمِ اقْتَرَبتْ.

وقال الفرَّاء[(١)]: الأصل: «الٓمْ أللّه» كما قرأ الرؤاسيُّ، فأُلقيَتْ حركةُ الهمزةِ على الميم.

وقرأ عمرُ بنُ الخطَّاب: «الْحَيُّ القَيَّام»[(٢)]. وقال خارجة: في مصحف عبدِ اللّه: «الْحَيُّ القَيِّمُ»[(٣)].

وقد تقدَّم ما للعلماء في الحروف التي في أوائل السُّورِ في أوَّل «البقرة». ومن حيثُ جاء في هذه السورة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾جملةً قائمة بنفسها، فتتصوَّرُ تلك الأقوالُ كلُّها.

الثانية: روى النَّسائيُّ[(٤)] أنَّ عمرَ بن الخطاب ﷺ صلَّى العِشاءَ، فاستفتحَ «آل عمران»، فقرأ: «الٓمٓ. اللَّهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَالْحَيُّ القَيَّامُ» فقرأ في الركعة الأولى بمئة آية، وفي الثانية بالمئة الباقية[(٥)].

قال علماؤنا: ولا يقرأ سورةً في ركعتين، فإنْ فعلَ أَجْزأَهُ. وقال مالك في المجموعة: لا بأسَ به[(٦)]، وما هو بالشأن.

قلت: الصحيحُ جوازُ ذلك. وقد قرأ النبيُّ ﷺ بالأعراف في المغرب، فرَّقها في

---

(١) معاني القرآن له ١/ ٩ ونقل المصنف كلامه وكلام الكسائي السالف بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٥٤

(٢) أخرجها ابن أبي داود في المصاحف (١٥٠) وما بعدها. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٩ وابن جني في المحتسب ١/ ١٥١ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١ / ٣٥٤ . ونسب ابن خالويه هذه القراءة في القراءات الشاذة ص١٩ ، وابن جني في المحتسب ١ / ١٥١ لعلقمة بن قيس. ونسب ابن أبي داود في المصاحف ١ / ٣٠٩ ، وابن جني في المحتسب ١ / ١٥١ لابن مسعود قراءة: «الحيُّ القيام».

(٤) في (د) و (م): الكسائي، وهو خطأ. وهذا الخبر رواه النحاس في معاني القرآن ١/ ٣٤٠ عن شيخه النسائي، وعنه نقل المصنف، والخبر ليس في سنن النسائي.

(٥) أخرجه بتمامه ابن أبي داود في المصاحف ١/ ٢٨٦-٢٨٧ . وأخرج منه ذكر القراءة «الحيّ القيام» سعيد ابنُ منصور في سننه (٤٨٦) (قسم التفسير)، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص١٦٨ . وعلقه البخاري في صحيحه في تفسير سورة نوح (الفتح ٨/ ٦٦٦). وذكر القراءة ابن جني في المحتسب ١/ ١٥١، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤ .

(٦) المنتقى للباجي ١/ ١٤٨ .

ركعتين. خرَّجه النَّسَائيُّ أيضاً[١] وصحَّحه أبو محمد عبدُ الحق[٢]، وسيأتي[٣].

الثالثة: هذه السُّورةُ وردَ في فضلها آثارٌ وأخبار، فمن ذلك ما جاءَ أنَّها أمَانٌ من الحيَّات، وكَنْزٌ للصُّعْلوك، وأنَّها تُحاجُّ عن قارئها في الآخِرة، ويُكْتَب لمن قرأ آخرَها في ليلةٍ كقيام ليلة، إلى غير ذلك:

ذكر الدَّارمي أبو محمد في مسنده: حدَّثنا أبو عُبَيْد القاسم بن سلَّام قال: حدَّثني عُبَيْد الله الأشجَعيّ قال: حدَّثني مِسْعَر قال: حدَّثني جابر قبلَ أنْ يقعَ فيما وقعَ فيه، عن الشَّعْبي قال: قالَ عبدُ الله: نِعم كنْزُ الصُّعْلوك سورةُ آل عمران يقومُ بها في آخر اللَّيل[٤].

حدَّثنا محمد بنُ سعيد، حدَّثنا عبدُ السَّلام، عن الجُرَيْرِيّ عن أبي السَّلِيل قال: أصابَ رجلٌ دَماً قال: فأوى إلى وادي مَجَنّة[٥]: وادٍ لا يمشي فيه أحدٌ إلا أصابته حيةٌ[٦]، وعلى شَفِير الوادي راهبان؛ فلمَّا أمسى قال أحدُهما لصاحبه: هلكَ واللّهِ الرَّجلُ! قال: فافتتحَ سورةَ آل عمران قالا: فقرأ سورةَ طَيْبَة لعلَّه سيَنجو، قال: فأصبحَ سليماً[٧].

وأسندَ عن مَكْحُول قال: مَنْ قرأ سورةَ آلِ عمرانَ يومَ الجمعةِ، صلَّت عليه المَلائكةُ إلى اللَّيل[٨].

---

(١) في السنن الكبرى (١٠٦٥)، وفي المجتبى ٢/ ١٧٠ من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها. وأخرجه أحمد (٢١٦٠٩) من حديث أبي أيوب أو زيد بن ثابت رضي الله عنهما.

(٢) في الأحكام الصغرى ١/ ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٣) في أول سورة الأعراف.

(٤) سنن الدارميّ (٣٤٤١)، وهو عند شيخه أبي عبيد في فضائل القرآن ص ١٢٧ وفي إسناده جابر بن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، وقول مسعر فيه: قبل أن يقع فيما وقع فيه، لعله يريد كذبه وتدليسه، وإيمانه برجعة علي ﷺ. تنظر ترجمته في تهذيب الكمال ٤/ ٤٦٥.

(٥) قال البكري في معجمه ٤/ ١١٨٧: مَجَنَّة على أميال يسيرة من مكة، بناحية مرّ الظهران. وفي القاموس (جنن): المَجَنَّة: الأرض الكثيرة الجنّ، وموضع قرب مكة، وقد تكسر ميمها.

(٦) في سنن الدارميّ: جِنَّة.

(٧) سنن الدارميّ (٣٤٤١)، والجُريري ـ وهو سعيد بن إياس ـ اختلط، ولم يُذكر عن عبد السلام ـ ولعله ابن حرب ـ هل روى عن الجُريري قبل اختلاطه أم بعده.

(٨) سنن الدارميّ (٣٤٤٠)، وهو مقطوع.

وأسندَ عن عثمانَ بنِ عفانَ قال: من قرأ آخرَ سورةِ آل عمران في ليلة، كُتبَ له قيامُ لَيلة. في طريقه ابنُ لَهِيْعَة[١].

وخرَّج مسلمٌ عن النوَّاس بنِ سَمْعَان الكِلابي قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «يُؤْتَى بالقرآن يومَ القيامةِ وأهلِه الذين كانوا يعملونَ به، تَقْدُمُه سورةُ البقرةِ وآلِ عمرانَ» ـ وضربَ لهما رسولُ اللّه ﷺ ثلاثةَ أمْثَالٍ ما نسيتُهُنَّ بعدُ، قال: ـ «كأنَّهما غمامتانِ، أو ظُلَّتانِ سَوْداوان بينَهما شَرْقٌ، أو كأنَّهما حِزْقانِ من طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عن صاحبهما[٢]».

وخرَّج أيضاً عن أبي أُمَامَة الباهليِّ قال: سمعت رسولَ اللّه ﷺ يقول: «اقْرؤوا القرآنَ فإنَّه يأتي يومَ القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرؤوا الزّهْرَاوَين البقرةَ وسورةَ آلِ عمرانَ، فإنَّهما يأتيان يوم القيامة كأنَّهما غمامتان، أو كأنَّهما غَيَايتَان، أو كأنَّهما فِرْقَانِ من طَيْرٍ صَوَافَّ تُحاجَّانِ عن أصحابهما، اقرؤوا سورةَ البقرة، فإنَّ أخْذَها بركَةٌ، وتَرْكَها حَسْرةٌ، ولا يَستطيعُها البَطَلَةُ». قال معاوية: وبلغني أنَّ البَطَلَةَ السَّحَرةُ[٣].

الرابعة: للعلماء في تسمية البقرة وآلِ عمرانَ بالزَّهْرَاوَيْن ثلاثةُ أقوال:

الأول: أنهما النَّيِّرتان، مأخوذٌ من الزَّهْر والزُّهْرَةِ، فإما لهدايتهما قارئهما بما يزهر له من أنوارهما، أي: من معانيهما.

وإما لِما يترتَّبُ على قراءتهما من النُّور التَّامِّ يوم القيامة، وهو **القولُ الثاني**.

الثالث: سُمِّيتا بذلك؛ لأنَّهما اشتركتا في تضمُّن[٤] اسمِ اللّه الأعظم، كما ذكره

---

(١) سنن الدارميِّ (٣٤٣٩). وابن لهيعة: هو عبدالله، قال الحافظ ابن حجر في التقريب: صدوق، خلَّط بعد احتراق كتبه. اهـ. وهذا الخبر من رواية إسحاق بن عيسى الطباع عنه، ورواية إسحاق عنه قبل احتراق كتبه، كما في علل أحمد (١٥٧٢)، والله أعلم.

(٢) صحيح مسلم (٨٠٥)، وهو في مسند أحمد (١٧٦٣٧)، قوله: شرق، هو بفتح الراء وإسكانها، أي: ضياء ونور، يعني أن بين تلك الظلتين السوداوين مشارق أنوار، والحزقان بكسر الحاء المهملة وإسكان الزاي: قطيعان وجماعتان. قاله النووي في شرح صحيح مسلم ٦/ ٩٠ - ٩١.

(٣) صحيح مسلم (٨٠٤)، وأخرجه أحمد (٢٢١٤٦)، ومعاوية: هو ابن سلّام أحد رجال الإسناد. قوله: فرقان، بكسر الفاء وإسكان الراء: قطيعان وجماعتان. قاله النووي في شرح مسلم.

(٤) في النسخ: فيما تضمنه، والمثبت من المفهم، ٢/ ٤٣٠ وعنه نقل المصنف.

أبو داود وغيرُه[١] عن أسماءَ بنتِ يزيد أنَّ رسول اللّه ﷺ قال: إن اسمَ اللّهِ الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، والتي في آل عمران: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أخرجه ابنُ ماجه أيضاً[٢].

والغمام: السَّحابُ الملْتفُّ، وهو الغَيَايَة إذا كانت قريباً من الرأس، وهي الظُّلَّة أيضاً. والمعنى: أنَّ قارِئَهما في ظِلِّ ثوابهما، كما جاء: «الرجل في ظلِّ صَدقتِه»[٣].

وقوله: تُحاجَّان؛ أي: يخلقُ اللّهُ مَنْ يُجادلُ عنه بثوابهما ملائكة، كما جاء في بعض الحديث أن «مَن قرأ ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران:١٨] الآية، خلق اللّه سبعين مَلَكاً يستغفرون له إلى يوم القيامة»[٤].

وقوله: بينهما شَرْقٌ؛ قُيِّد بسكون الراء وفتحها، وهو تنبيه عن الضياء؛ لأنه لما قال: «سَوْداوان» قد يُتَوَهَّم أنَّهما مُظْلِمتان، فنفى ذلك بقوله: «بينَهما شَرْقٌ». ويعني بكونهما سوداوان، أي: من كثافتهما التي بسببهما حالتَا بينَ مَنْ تحتهما وبينَ حرارةِ الشَّمس وشدَّة اللَّهَب. واللّه أعلم[٥].

الخامسة: صَدْرُ هذه السورة نزل بسبب وفد نَجْران فيما ذكر محمد بن إسحاق[٦]، عن محمد بن جعفر بن الزُّبير، وكانوا نصارى وَفَدوا على رسول اللّه ﷺ بالمدينة في ستِّين راكباً، فيهم من أشرافهم أربعةَ عشرَ رجلاً، في الأربعةَ عشرَ ثلاثةُ نفرٍ؛ إليهم يرجِعُ أمرُهم: العاقبُ: أميرُ القوم وذو آرائهم، واسمهُ عبدُ المسيح،

---

(١) سنن أبي داود (١٤٩٦)، وسنن الترمذي (٣٤٧٨).

(٢) في سننه (٣٨٥٥).

(٣) المفهم ٢/ ٤٣١، وأخرج الحديث أحمد (١٧٣٣٣)، وأبو يعلى (١٧٦٦)، وابن حبان (٣٣١٠) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٤) المفهم ٢/ ٤٣١، وأورده الكناني في تنزيه الشريعة ١/ ٢٩٨، والفتني في تذكرة الموضوعات ص٨٠، والشوكاني في الفوائد المجموعة ص٣١٢ من حديث أنس رضي الله عنه. قال الفتني: وفيه مجاشع بن عمرو كذاب يضع. اهـ. ونقل الذهبي في ترجمته في الميزان ٣/ ٤٣٦ عن ابن معين قوله فيه: أحد الكذابين، وعن العقيلي: حديثه منكر.

(٥) المفهم ٢/ ٤٣٣ .

(٦) نقله عنه ابن هشام في السيرة ١/ ٥٧٣-٥٧٦ مطولاً.

والسيِّد: ثِمالُهم[١] وصاحبُ مجتمعهم، واسمُه الأيْهم، وأبو حارثة بنُ علقمة: أحدُ بكر بن وائل أُسْقُفُهم وعالِمُهم، فدَخلُوا على رسول اللّه ﷺ إثرَ صلاةِ العَصْرِ، عليهم ثيابُ الحِبَرات[٢] جُبَبٌ وأرْدية. فقال أصحابُ النبيِّ ﷺ: ما رأينا وَفْداً مثلَهم جَمَالاً وجلالةً. وحانت صلاتُهم، فقاموا فصلَّوا في مسجد النبيِّ ﷺ إلى المَشْرِق، فقال النَّبيُّ ﷺ: «دَعُوهم»، ثم أقاموا بها أياماً يُناظرون رسول اللّه ﷺ في عيسى، ويزعمون أنه ابنُ اللّه، إلى غير ذلك من أقوال شنيعةٍ مضطربةٍ، ورسولُ اللّه ﷺ يردُّ عليهم بالبراهين الساطعة وهم لا يُبْصرون، ونزل فيهم صَدْرُ هذه السُّورةِ إلى نَيِّفٍ وثمانينَ آيةً؛ إلى أن آلَ أمرُهم إلى أنْ دعاهم رسول اللّه ﷺ إلى الابتهال[٣] حسب ما هو مذكورٌ في سيرة ابنِ إسحاق[٤] وغيرِه.

قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصِّدق، وقيل: بالحجَّة الغالبة. والقرآن نزل نُجوماً: شيئاً بعدَ شيء، فلذلك قال: «نَزَّلَ» والتَّنزيل مرَّةً بعدَ مرَّة. والتَّوراةُ والإنجيلُ نزلا دَفْعةً واحدةً؛ فلذلك قال: «أَنْزَلَ».

والباء في قوله: «بِالحَقِّ» في موضع الحالِ من الكتاب، والباءُ متعلِّقةٌ بمحذوفٍ، التَّقدير: آتياً بالحقِّ. ولا تتعَلَّقُ بـ«نَزَّلَ»؛ لأنه قد تعدَّى إلى مفعولين أحدُهما بحرفِ جرٍّ، ولا يَتعدَّى إلى ثالث.

---

(١) الثِّمال بوزن الكتاب: غياث القوم الذي يقوم بأمرهم. القاموس (ثمل)

(٢) الحِبَرة كعِنَبَة: ضرب من بُرود اليمن. القاموس (حبر).

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٣٩٦ - ٣٩٧، والابتهال: الاجتهاد في الدعاء وإخلاصُه لله عز وجل، وفي التنزيل ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١) أي: يخلص ويجتهد كل منا في الدعاء واللعن على الكاذب منا. اللسان (بهل).

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٥٨٢-٥٨٤ .

و«مُصَدِّقًا» حال مؤكِّدة غير مُنتقِلةٍ، لأنه لا يمكنُ أنْ يكونَ غيرَ مُصدِّق، أي: غيرَ موافق؛ هذا قول الجمهور. وقدَّر فيه بعضُهم الانتقالَ، على معنى أنه مصدِّقٌ لنفسه ومصدِّقٌ لغيره[(١)].

قوله تعالى: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني من الكتب المنزَّلة. والتَّوراةُ معناها الضياءُ والنُّور؛ مشتقَّةٌ من وَرَى الزَّنْدُ ووَرِيَ، لُغتان: إذا خرجت نارهُ. وأصلُها تَوْرَيَةٌ على وزن تَفْعَلَةٌ، التاء زائدة، وتحرَّكت الياءُ وقبلَها فتحة فقُلِبت ألفاً. ويجوزُ أن تكونَ تَفْعِلة، فتنقلُ الراء من الكسر إلى الفتح، كما قالوا في جاريةٍ: جَارَاة، وفي ناصِيةٍ: ناصاة، كلاهما عن الفرّاء[(٢)].

وقال الخليل: أصلُها فَوْعَلة، فالأصل: وَوْرَيَةٌ، قُلِبت الواو الأولى تاءً، كما قلبت في تَوْلَج[(٣)]، والأصلُ: وَوْلَج؛ فَوْعَلٌ من وَلَجَت، وقُلبت الياء ألفاً لحركتها وانفتاح ما قبلَها. وبناء فَوْعَلَة أكثر من تَفْعَلَة[(٤)].

وقيل: التوراة مأخوذة من التَّورِية، وهي التَّعريض بالشيء والكتمان لغيره؛ فكأنَّ أكثرَ التوراة معاريضُ وتلويحات من غير تصريح وإيضاح[(٥)]، هذا قول المؤرِّج. والجمهور على القول الأول لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨] يعني التَّوراةَ.

والإنجيل: إفْعِيلٌ من النَّجْل، وهو الأصل، ويجمع على أنَاجِيل، وتوراة على تَوَارٍ[(٦)]؛ فالإنجيل أصلٌ لعلوم وحِكَم. ويقال: لعن اللّه نَاجِلَيْه، يعني والدَيه، إذْ كانا أصلَه. وقيل: هو من نَجَلْتُ الشيء: إذا استَخرجتَه؛ فالإنجيل مُستخرَج به علومٌ وحِكَم، ومنه سُمِّي الوَلدُ والنَّسْل نَجْلاً لخروجه[(٧)]؛ كما قال:

---

(١) انظر المحرر الوجيز ١/ ٣٩٧ - ٣٩٨، والوسيط للواحدي ١/ ٤١٢، وتفسير البغوي ١/ ٢٧٧ .

(٢) ذكرهما في كتابه المصادر فيما ذكر الأزهري في تهذيب اللغة ١٥/ ٣٠٧ .

(٣) التَّولَجُ: كِناسُ الوحش، وهو مستتره من الشجر. القاموس (ولج، كنس)

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٣٩٨، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٣٧٥، وللنحاس ١/ ٣٤٢ .

(٥) تفسير البغوي ١/ ٢٧٧ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٧٥، وللنحاس ١/ ٣٤٣ .

(٧) زاد المسير ١/ ٣٤٩، وينظر المعرّب للجواليقي ص٧١-٧٢ .

إلى مَعْشَرٍ لم يُورِثِ اللؤمَ جَدُّهم أصاغرَهم وكلُّ فَحْلٍ لهم نَجْلُ[(١)]

والنَّجْلُ: الماء الذي يخرجُ من النَّزِّ. واستَنْجَلَت الأرضُ، وبها نِجَالٌ: إذا خرجَ منها الماءُ[(٢)]، فسمِّي الإنْجيل به؛ لأنَّ اللّه تعالى أخرج به دَارِساً من الحقِّ عافياً. وقيل: هو من النَّجَلِ في العين، بالتحريك، وهو سَعَتُها[(٣)]، وطعنةٌ نَجْلاء، أي: واسعة، قال:

رُبَّما ضَرْبةٍ بسيفٍ صَقيلٍ بين بُصْرَى وطعنةٍ نَجْلاءِ[(٤)]

فسمِّيَ الإنجيلُ بذلك؛ لأنَّه أصلٌ أخرجَه لهم ووسَّعه عليهم نُوراً[(٥)] وضياءً.

وقيل: التَّناجُل التَّنازُع؛ وسمِّيَ إنجيلاً لتنازع الناس فيه. وحكى شَمِرٌ عن بعضهم: الإنجيلُ كلُّ كتابٍ مكتوبٍ وافرِ السُّطور. وقيل: نَجَل: عَمِلَ وصنَع؛ قال:

وأنجلُ في ذاك الصَّنيع كما نَجَلْ[(٦)]

أي: أعملُ وأصنَعُ. وقيل: التوراة والإنجيل من اللغة السُّرْيانية. وقيل: الإنجيل بالسُّريانية إنْكليون؛ حكاه الثعلبيُّ.

قال الجوهري[(٧)]: الإنجيل كتابُ عيسى عليه السَّلام يذكَّر ويؤنَّث، فمن أنَّثَ أرادَ الصَّحيفة، ومن ذكَّر أرادَ الكتابَ.

قال غيرهُ: وقد يُسمَّى القرآن إنجيلاً أيضاً، كما رُوي في قصة مناجاة موسى عليه السَّلام أنَّه قال: يا ربِّ، أرى في الألواح أقواماً أناجيلُهم في صدورهم، فاجعلْهم

---

(١) قائله زهير بن أبي سلمى، والبيت في ديوانه ص١٠٠، قال شارحه: النجل: النسل.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٣٩٨ .

(٣) تفسير البغوي ١/ ٢٧٧ .

(٤) قائله عدي بن الرَّعلاء الغساني، والبيت من قصيدة له في الأصمعيات ص١٥٢، وخزانة الأدب ٩/ ٥٨٢، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٥٦٦ .

(٥) في (م): ونوراً.

(٦) صدره: ولما أتى يوم بأيام فخة، وهو لبلعاء بن قيس كما في تاج العروس (نجل).

(٧) في الصحاح (نجل).

أمَّتي، فقال اللّه تعالى له: تلك أمَّةُ أحمدَ ﷺ. وإنَّما أرادَ بالأناجيل القرآنَ(١).

وقرأ الحسن: «والأَنْجيل» بفتح الهمزة(٢)، والباقون بالكسر، مثلُ الإكليل، لغتان. ويُحتملُ إن سُمع أنْ يكونَ ممَّا عرَّبته العربُ من الأسماء الأعجمية، ولا مثالَ له في كلامها.

قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ يعني القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ قال ابن فُورَك: التقديرُ: هدىً للنَّاس المتقين؛ دليلُه في البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فردَّ هذا العامَّ إلى ذلك الخاص(٣). و«هدىً» في مَوضِع نَصبٍ على الحال. و﴿الْفُرْقَانَ﴾: القرآن. وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٥﴾

هذا خبرٌ عن علمِه تعالى بالأشياء على التَّفصيل، ومثلُه في القرآن كثير. فهو العالم بما كان وما يكونُ وما لا يكونُ، فكيف يكونُ عيسى إلهاً أو ابنَ إلهٍ وهو تَخْفى عليه الأشياء؟!

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾ أخبر تعالى عن تصويره للبشر في أرحام الأمَّهات.

وأصل الرَّحِم من الرَّحْمة؛ لأنَّها مما يُتَراحَمُ به. واشتقاقُ الصُّورَة من صارَه إلى كذا: إذا أماله، فالصُّورة مائلةٌ إلى شَبَهٍ وهَيْئة.

وهذه الآيةُ تعظيمٌ لله تعالى، وفي ضمنها الرَّدُّ على نصارى نَجْرانَ، وأنَّ عيسى

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٢٤٤، وأخرجه الطبري ١٠/ ٤٥٢-٤٥٣، وابن أبي حاتم ٥/ ١٥٦٤-١٥٦٥ عن قتادة.

(٢) المحتسب ١/ ١٥٢، والقراءات الشاذة ص١٩ .

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٣٣٩ .

من المصوَّرين، وذلك مما لا يُنكره عاقل»[١].

وأشار تعالى إلى شرح التَّصْوير في سورة الحَجِّ والمؤمنُون[٢].

وكذلك شرحَه النبيُّ ﷺ في حديث ابن مسعود، على ما يأتي هناك بيانُه إنْ شَاءَ اللّهُ تعالى.

وفيها الردُّ على الطبائعيين أيضاً، إذْ يجعلونها فاعلةً مستبِدَّة. وقد مضى الردُّ عليهم في آية التَّوحيد[٣].

وفي مسند ابن سنجر ـ واسمُه محمد بن سنْجر[٤] ـ حديث: «إنَّ اللّه تعالى يخلقُ عِظامَ الجنينِ وغَضاريفَه من مَنيِّ الرَّجلِ، وشحمَه ولحمَه من مَنيِّ المرأةِ[٥]».

وفي هذا أدَلُّ دليل على أنَّ الولدَ يكونُ من ماء الرَّجل والمَرأة، وهو صريح قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾[الحجرات: ١٣].

وفي صحيح مسلم[٦] من حديث ثوبان وفيه: أنَّ اليهوديَّ قال للنبيِّ ﷺ: وجئتُ أسألُك عن شيءٍ لا يعلمُه أحدٌ من أهل الأرض إلا نبيٌّ أو رجلٌ أو رجلان. قال: «يَنفعُك إنْ حدَّثتُك»؟ قال: أسمعُ بأُذُنيَّ، قال: جئتُكَ أسألُكَ عن الوَلَدِ؛ فقال النبيُّ ﷺ: «ماءُ الرَّجلِ أبيضُ، وماءُ المرأةِ أصْفرُ، فإذا اجْتمَعَا فَعَلا مَنيُّ الرَّجلِ مَنيَّ المرأةِ أذْكَرا بإذْنِ اللّه تعالى، وإذا عَلاَ مَنيُّ المرأةِ مَنيَّ الرَّجل آنَثَا بإذن اللّه» الحديث. وسيأتي بيانُه آخرَ الشُّورَى إن شاء اللّه تعالى[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٠ .

(٢) في تفسير الآية (٥) من سورة الحج، والآيات (١٢-١٤) من سورة المؤمنون.

(٣) ٢/ ٥٠٤ .

(٤) أبو عبدالله، الجرجاني، صاحب المسند، سمع يزيد بن هارون والفريابي وأبا نعيم والحميدي، كان ثقة خيِّراً، توفي سنة (٢٥٨هـ) بصعيد مصر. تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٧٨، وشذرات الذهب ٣/ ٢٥٩، وتاريخ جرجان ص٣٧٩ .

(٥) نقله ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٠ ، والله أعلم.

(٦) برقم (٣١٥).

(٧) في تفسير الآيتين (٤٩-٥٠) منها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ يعني من حُسْنٍ وقُبْح، وسَوَادٍ وبيَاضٍ، وطُولٍ وقِصَرٍ، وسَلامةٍ وعاهةٍ، إلى غير ذلك من الشَّقاء والسَّعادة.

وذُكر عن إبراهيم بن أدْهَم أن القُرَّاءَ اجتمعوا إليه ليسمعوا ما عندَه من الأحاديث، فقال لهم: إني مشغولٌ عنكم بأربعةِ أشياءَ، فلا أتفرَّغُ لرواية الحديث، فقيل له: وما ذاك الشُّغلُ؟ قال:

أحدُها: أني أتفكَّر في يومِ الميثاق حيثُ قال: «هؤلاءِ في الجنةِ ولا أُبالي، وهؤلاءِ في النَّار ولا أُبالي[1]» فلا أدري من أيِّ الفريقين كنتُ في ذلك الوقت.

والثاني: حيث صُوِّرتُ في الرَّحِم، فقال المَلَكُ الذي هو موكَّل على الأرحام: «يا ربِّ، شَقيٌّ هو أم سعيد[2]» فلا أدري كيف كان الجوابُ في ذلك الوقت.

والثالثُ: حينَ يَقبِضُ مَلَكُ الموت رُوحي فيقولُ: يا ربِّ مع الكفر أم مع الإيمان. فلا أدري كيف يخرجُ الجوابُ.

والرابع: حيث يقولُ: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] فلا أدري في أيِّ الفريقين أكونُ.

ثم قال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا خالِق ولا مصوِّر [إلا هو][3]، وذلك دليلٌ على وحدانيَّته، فكيف يكون عيسى إلهاً مُصَوِّراً وهو مُصَوَّرٌ؟!

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي لا يغالب. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: ذو الحكمة أو المُحْكِم، وهذا أخصُّ بما ذكر من التَّصوير.

---

(١) أخرجه أحمد (٣١١) و(١٧٥٩٣) و(١٧٦٦٠) و(٢٢٠٧٧) و(٢٧٤٨٨) من حديث عمر، وأبي عبدالله رجل من الصحابة، وعبد الرحمن بن قتادة السلمي، ومعاذ بن جبل، وأبي الدرداء، رضي الله عنهم.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٣٦٢٤)، والبخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) عن عبدالله بن مسعود، وأحمد (١٢١٥٧)، والبخاري (٣١٨)، ومسلم (٢٦٤٦) عن أنس بن مالك، وأحمد (١٦١٤٣)، ومسلم (٢٦٤٤) عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنهم.

(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٢٤٥ وما بين حاصرتين منه، وعنه نقل المصنف كلام ابن أدهم.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾

فيه تسع مسائل:

الأولى: خرَّج مسلم[1] عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتُم الذين يتَّبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّاهم الله فاحذروهم».

وعن أبي غالب قال: كنتُ أمشي مع أبي أُمَامة وهو على حمارٍ له، حتى إذا انتهى إلى دَرَج مسجدِ دمشق؛ فإذا رؤوسٌ منصوبة، فقال: ما هذه الرُّؤوس؟ قيل: هذه رؤوسُ خوارج يُجاء بهم من العراق، فقال أبو أمامةَ: كلابُ النَّار، كلابُ النَّار، كلابُ النَّار، شرُّ قتلى تحت ظلِّ السماء، طوبى لمَن قتلَهم وقتلُوه ـ يقولُها ثلاثاً ـ ثم بكى. فقلت: ما يُبكيك يا أبا أمامة؟ قال: رحمةً لهم، إنَّهم كانوا من أهل الإسلام، فخرجوا منه، ثم قرأ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ إلى آخر الآيات. ثم قرأ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. فقلت: يا أبا أُمَامة، هُمْ هؤلاء؟ قال: نعم. قلتُ: أشيءٌ تقولُه برأيك، أم شيءٌ سمعتَه من رسول الله ﷺ؟ فقال: إني إذاً لَجَرِيءٌ، إني إذاً لَجَرِيء، بل سمعتُه من رسول الله ﷺ غيرَ مرَّةٍ ولا مرتين ولا ثلاثٍ ولا أربع ولا خمسٍ ولا ست ولا سبع، ووضعَ أُصبعيْه في أُذُنيْه، قال: وإلَّا فصُمَّتا ـ قالها ثلاثاً ـ ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تفرَّقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقةً، واحدة في الجنَّة، وسائرهم في النار، ولَتزيدنَّ عليهم

---

(١) في صحيحه (٢٦٦٥)، وأخرجه أحمد (٢٦١٩٧)، والبخاري (٤٥٤٧).

هذه الأمَّةُ واحدةً، واحدةٌ في الجنَّة وسائرُهم في النَّار[1]».

الثانية: اختلف العلماءُ في المحكمات والمتشابهات على أقوال عديدة، فقال جابر بن عبد اللّه [بن رئاب]، وهو مقتضى قول الشعبيِّ وسفيان الثوريِّ وغيرهما: المحكمات من آي القرآن ما عُرِف تأويلُه، وفُهِم معناه وتفسيرُه. والمتشابه ما لم يكن لأحدٍ إلى علمه سبيلٌ، مما استأثر اللّه تعالى بعلمه دونَ خلقِه. قال بعضُهم: وذلك مِثلُ وقتِ قيامِ السَّاعة، وخروجِ يأجوجَ ومأجوجَ والدَّجالِ وعيسى، ونحوُ الحروفِ المقطَّعةِ في أوائلِ السُّورِ[2].

قلت: هذا أحسنُ ما قيل في المتشابه. وقد قدَّمنا في أوّل[3] سورة البقرة عن الربيع بن خُثيم أن اللّه تعالى أنزلَ هذا القرآنَ، فاستأثَرَ منه بعلم ما شاءَ، الحديث.

وقال أبو عثمان: المحكم فاتحةُ الكتاب التي لا تُجزِئ الصلاة إلا بها.

وقال محمد بنُ الفضل: سورة الإخلاص؛ لأنَّه ليس فيها إلا التَّوحيدُ فقط. وقد قيل: القرآن كُلُّه مُحْكَم؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، وقيل: كلُّه متشابِه؛ لقوله: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣].

قلتُ: وليس هذا من معنى الآية في شيء، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: في النَّظمِ والرَّصْف، وأنَّه حقٌّ من عند اللّه. ومعنى ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ أي: يُشبِهُ بعضُه بعضاً، ويُصدِّق بعضُه بعضاً. وليس المرادُ بقوله: «آياتٌ مُحْكَمَاتٌ» «وأُخَرُ مُتَشَابِهاتٌ» هذا المعنى، وإنَّما المتشابه في هذه الآيةِ من بابِ الاحتمال والاشتباه، من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٧٠]، أي: التبسَ علينا، أي: يحتملُ أنواعاً كثيرةً من البقر. والمرادُ بالمُحْكَمِ ما في مقابَلةِ هذا، وهو ما لا التباسَ فيه، ولا يحتملُ إلَّا وجهاً واحداً.

---

(١) أخرجه بهذا السياق الطبراني في الكبير (٨٠٥١)، وأخرجه مختصراً أحمد (٢٢١٨٣) و (٢٢٢٠٨)، والترمذي (٣٠٠٠).

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٠١ وما بين حاصرتين منه.

(٣) في (م): أوائل، وسلف خبر الربيع ١/ ٢٣٤ .

وقيل: إنَّ المتَشابِه ما يحتملُ وجوهاً، ثم إذا رُدَّت الوجوهُ إلى وجهٍ واحدٍ وأبطل الباقي؛ صارَ المتشابِه مُحكَماً. فالمحكَمُ أبداً أصلٌ تُردُّ إليه الفروع، والمتشابه هو الفرعُ.

وقال ابنُ عباس: المحكماتُ: هي[١] قولُه في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [١٥١] إلى ثلاث آيات، وقولُه في بني إسرائيل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. قال ابن عطية[٢]: وهذا عندي مثالٌ أعطاه في المحكمات.

وقال ابن عباس أيضاً: المحكماتُ: ناسخه[٣]، [وحلاله]، وحرامه، وفرائضه، وما يؤمنُ به، ويعمل[٤]، والمتشابهات: المنسوخاتُ، ومقدَّمه، ومؤخَّره، وأمثالُه، وأقسامُه، وما يؤمنُ به ولا يعملُ به.

وقال ابنُ مسعود وغيرُه: المحكماتُ: الناسخاتُ، والمتشابهاتُ: المنسوخاتُ، وقاله قتادة والربيع والضَّحاك[٥].

وقال محمد بن جعفر بن الزبير: المحكَماتُ: هي التي فيها حجَّةُ الربِّ، وعصمةُ العباد، ودفعُ الخُصوم والباطل، ليس لها تصريفٌ ولا تحريفٌ عما وُضِعْن عليه. والمتشابهاتُ: لهنَّ تصريفٌ وتحريفٌ وتأويل، ابتلى الله فيهنَّ العبادَ، وقاله مجاهد وابن إسحاق[٦].

قال ابنُ عطية[٧]: وهذا أحسنُ الأقوالِ في هذه الآية.

قال النَّحاس[٨]: أحسنُ ما قيلَ في المحكَمات والمتشابهات: إن المحكماتِ ما

---

(١) في (د) و (م): هو.

(٢) في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٠ .

(٣) في النسخ الخطية: ناسخه ومنسوخه، وهو خطأ، والمثبت من (م).

(٤) في (د) و (م): ويعمل به.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٠ وما بين حاصرتين منه، وأخرج الأقوال الطبري ٥/ ١٩٣ - ١٩٦ .

(٦) أخرج أثر محمد بن جعفر الطبريُّ ٥/ ١٩٧، وانظر سيرة ابن هشام ١/ ٥٧٦ .

(٧) في المحرر الوجيز ١/ ٤٠١ وعنه نقل المصنف قول محمد بن جعفر.

(٨) في إعراب القرآن ١/ ٣٥٥.

كانَ قائماً بنفسه لا يحتاجُ أنْ يُرجَع فيه إلى غيره، نحو: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢]. والمتشابهاتُ نحوُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، يُرجع فيه إلى قوله جل وعلا: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢]، وإلى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨].

قلت: ما قاله النَّحاس يبيِّن ما اختاره ابنُ عطيَّة، وهو الجاري على وَضْع اللسان، وذلك أن المُحكَم اسمُ مفعولٍ من أَحْكَم، والإحكامُ الإتْقان، ولا شك في أنَّ ما كان واضحَ المعنى لا إشكالَ فيه ولا تردُّد، وإنما يكونُ كذلك لوضوح مفرداتِ كلماتِه واتِّفاق[1] تركيبها، ومتى اخْتَلَّ أحدُ الأمرين جاءَ التّشابُه والإشكال[2]. والله أعلم.

وقال ابن خُويزِمَنْدَاد: للمتشابه وجوهٌ، والذي يتعلَّقُ به الحكمُ ما اختلف فيه العلماء أيّ الآيتين نَسخت الأخرى؛ كقول عليٍّ وابن عباس في الحامل المتوفَّى عنها زوجُها: تعتدُّ أقْصَى الأجلين. فكان عمرُ وزيدُ بنُ ثابت وابنُ مسعود وغيرُهم يقولون: وضعُ الحمل، ويقولون: سورةُ النساء القُصرى[3] نسختْ: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. وكان عليٌّ وابنُ عباس يقولان: لم تُنسخ.

وكاختلافهم في الوصيَّة للوارث هل نُسِخت أم لم تُنْسخ.

وكتعارُض الآيتين أيُّهما أولى أن تُقدَّم إذا لم يُعرف النَّسخُ، ولم تُوجد شرائطُه، كقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، يقتضي الجمعَ بين الأقارب من مِلك اليمين، وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣]، يمنع ذلك منه[4].

---

(١) في (خ) و (م): وإتقان.

(٢) المفهم ٦/ ٦٩٦.

(٣) يعني سورة الطلاق؛ أخرج البخاري (٤٩١٠) عن عبدالله بن مسعود قال: لَنَزَلَتْ سورةُ النساء القُصرى بعد الطولى: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٦٥٥: أي سورة الطلاق بعد سورة البقرة. وانظر الإتقان ١/ ٥٥.

(٤) لفظ: منه، ليس في (م).

ومنه أيضاً تعارضُ الأخبار عن النبيِّ ﷺ وتعارضُ الأقْيِسَة، فذلك المتشابه.

وليس من المتشابه أن تقرأ الآية بقراءتين ويكون الاسم [(١)] محتملاً أومُجملاً يحتاجُ إلى تفسير؛ لأنَّ الواجبَ منه قدرُ ما يتناولُه الاسم أوجميعُه. والقراءتان كالآيتين يجبُ العملُ بموجبهما جميعاً، كما قرئ: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ [المائدة:٦] بالفتح والكسر، على ما يأتي بيانُه في «المائدة» إن شاء الله تعالى.

الثالثة: روى البخاريُّ[(٢)] عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إني أجدُ في القرآن أشياءَ تختلفُ عليَّ، قال: ما هو؟ قال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١]، وقال: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات:٢٧]، وقال: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء:٤٢]، وقال: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، فقد كتموا في هذه الآية. وفي النازعات: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ إلى قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾. فذكر خلق السماء قبلَ خلقِ الأرض، ثم قال: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ إلى قوله[(٣)]: ﴿طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، فذكر في هذه[(٤)] خلق الأرض قبل خلق السماء. وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء:٩٦]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء:١٥٨]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء:١٣٤]، فكأنه كان ثم مضى.

فقال ابن عباس: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾ في النَّفخة الأولى، ثم يُنفَخُ في الصُّور، فصَعِقَ مَنْ في السَّماوات ومن في الأرض إلّا مَن شاءَ الله، فلا أنسابَ بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النَّفخة الآخِرة أقبلَ بعضُهم على بعض يتساءلون. وأما قولُه: ﴿مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ فإنَّ الله يَغفر لأهل الإخلاص ذنوبَهم، وقال المشركون: تعالَوا نقولُ: ما كنا[(٥)] مشركين، فختم اللّهُ على أفواههم، فتَنطقُ

---

(١) في (خ): الأمر.

(٢) في صحيحه باب تفسير سورة فصلت، (٨/ ٥٥٥ فتح الباري)، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) لفظ: قوله، من (خ).

(٤) في النسخ: هذا، والمثبت من صحيح البخاري.

(٥) في (م) وصحيح البخاري: لم نكن.

جوارحُهم بأعمالهم، فعند ذلك عُرفَ أن اللّه لا يُكتَم حديثاً، وعندَه ﴿رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢].

وخلق اللّه الأرض في يومين، ثم استوى إلى السماء، فسوَّاهنَّ سبعَ سماواتٍ في يومين، ثم دحا الأرضَ، أي: بسطَها، فأخرجَ منها الماءَ والمرعى، وخلقَ فيها الجبالَ والأشجارَ والآكام وما بينهما[١] في يومين آخرين؛ فذلك قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، فخُلِقَتِ الأرضُ وما فيها في أربعة أيام، وخُلِقَت السماءُ في يومين.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يعني [سمَّى] نفسَه ذلك، أي: لم يزل ولا يزالُ كذلك، فإنَّ اللّه لم يُرِد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد. ويحكَ! فلا يختلِفْ عليك القرآنُ، فإن كلًّا من عند اللّه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ ﴾ لم تُصرف أُخَرُ؛ لأنَّها عُدِلت عن الألف واللام؛ لأنَّ أصلَها أن تكونَ صفةً بالألف واللّام، كالكُبَرِ والصُّغَر، فلما عُدِلت عن مجرى الألف واللام مُنِعت الصَّرف.

أبو عبيد: لم يَصْرِفوها؛ لأنَّ واحدَها لا ينصرفُ في معرفةٍ ولا نكرة. وأنكر ذلك المبرِّد وقال: يجبُ على هذا ألَّا ينصرف غِضابٌ وعِطاشٌ.

الكسائيُّ: لم تنصرف؛ لأنَّها صفةٌ. وأنكره المبردُ أيضاً وقال: إن لِبَداً وحُطَماً صفتان، وهما منصرفان.

سيبويه: لا يجوز أن تكونَ أُخَرُ معدولة عن الألف واللام؛ لأنَّها لو كانت معدولةً عن الألف واللام لكان معرفةً[٢]، ألا ترى أن سَحَرَ معرفةٌ في جميع الأقاويل لما

---

(١) في (خ) و (م): بينها.

(٢) كذا ذكر المصنف رحمه الله عن سيبويه ـ ونقله عنه الشوكاني في فتح القدير ١/ ٣١٥ ـ وهو وهم منه، ولعله نقله عن المهدوي، فقد ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٢ أن المهدوي خلط في هذه المسألة وأفسد كلام سيبويه، وقد نقل المصنف كلام سيبويه على الجادة بواسطة النحاس عند تفسير قوله تعالى: ﴿فعدة من أيام أخر﴾ (البقرة: ١٨٤) فقال: لم ينصرف «أُخر» عند سيبويه لأنها معدولة عن الألف واللام...

كانت معدولة [عن السَّحَر][١]. وَأَمْسِ في قول من قالَ: ذهبَ أمسِ، معدولاً عن الأمسِ؛ فلو كانَ أخرُ معدولاً أيضاً عن الألف واللام لكان معرفةً، وقد وصفه الله تعالى بالنكرة.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ الذين رفع بالابتداء، والخبرُ: «فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ[٢]».

والزيغُ: الميلُ، ومنه زاغت الشمسُ، وزاغت الأبصارُ، ويقال: زاغَ يَزيغُ زَيْغاً: إذا تركَ القَصْدَ[٣]، ومنه قولُه تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وهذه الآيةُ تعمُّ كلَّ طائفة من كافرٍ وزِنديق وجاهلٍ وصاحبِ بِدْعةٍ، وإنْ كانت الإشارةُ بها في ذلك الوقت إلى نصارى نجران.

وقال قَتادةُ في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾: إنْ لم يكونوا الحروريَّةَ وأنواعَ الخوارج؛ فلا أدري مَن هم[٤].

قلت: قد مرَّ هذا التفسيرُ عن أبي أمامةَ مرفوعاً، وحسبُك[٥].

السادسة: قوله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ قال شيخُنا أبو العباس[٦] رحمةُ الله عليه: متَّبِعو المتشابه لا يخلو أن يتَّبعوه ويجمعوه طلباً للتَّشكيك في القرآن وإضلالِ العوامِّ؛ كما فعلتْه الزنادقةُ والقَرامِطة الطاعنون في القرآن، أو طلباً لاعتقاد ظواهر المتشابه؛ كما فعلتْه المجسِّمةُ الذين جمعوا ما في الكتاب والسُّنة مما [يوهم] ظاهرُه الجِسمية، حتى اعتقدوا أنَّ الباريَ تعالى جسمٌ مجَسَّمٌ، وصورةٌ مصوَّرةٌ ذاتُ وجْهٍ، وعَينٍ، ويَدٍ، وجَنْبٍ، ورِجلٍ، وأُصْبُع! تعالى

(١) ما بين حاصرتين زيادة للتوضيح، انظر المحرر الوجيز ١/ ٤٠٢ .
(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٥٥ .
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٢، وإعراب القرآن ١/ ٣٥٥ .
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٢، وأخرج أثر قتادة الطبري ٥/ ٢٠٧ .
(٥) في المسألة الأولى من تفسير هذه الآية.
(٦) في المفهم ٦/ ٦٩٧ - ٦٩٨، وما سيرد بين حاصرتين منه.

اللّه عن ذلك! أو يتبعوه على جهة إبداءِ تأويلاتِها وإيضاحِ معانيها، أو كما فعل صَبِيغ[١] حينَ أكثر على عمر فيه السؤال. فهذه أربعة أقسام:

الأول: لا شكَّ في كُفرهم، وأنَّ حكمَ اللّه فيهم القتلُ من غير استتابة.

الثاني: الصحيح القولُ بتكفيرهم، إذ لا فرقَ بينهم وبين عُبَّاد الأصنامِ والصُّوَر، ويُستتابون، فإن تابوا؛ وإلا قُتلوا كما يُفعلُ بمن ارتدَّ.

الثالث: اختلفوا في جواز ذلك بناءً على الخلاف في جواز تأويلها[٢]. وقد عُرِف أنَّ مذهبَ السَّلف تركُ التعرُّضِ لتأويلها، مع قطعهم باستحالة ظواهرها، فيقولون: أَمِرُّوها كما جاءت. وذهب بعضُهم إلى إبداء تأويلاتها، وحملها على ما يَصِحُّ حملُه في اللسان عليها من غير قطعٍ بتعيين مَحْملٍ منها.

الرابع: الحكم فيه الأدبُ البليغ، كما فعلَه عمرُ بصَبِيغ.

وقال أبو بكر الأنباريُّ: وقد كان الأئمةُ من السَّلف يعاقبون من يسألُ عن تفسير الحروف المشكلةِ[٣] في القرآن، لأنَّ السائلَ إن كان يَبْغي بسؤاله تخليدَ البدعة وإثارةَ الفتنة، فهو حقيقٌ بالنَّكير وأعظمِ التَّعزير، وإنْ لم يكن ذلك مقصدُه، فقد استحقَّ العَتَبَ بما اجترَم من الذنب، إذ أوجدَ للمنافقين الملحدين في ذلك الوقت سبيلاً إلى أنْ يقصدوا ضَعَفَة المسلمين بالتشكيك والتَّضليل في تحريف القرآن عن مناهج التَّنزيل وحقائقِ التَّأويل. فمن ذلك ما حدثنا إسماعيلُ بن إسحاق القاضي، أنبأنا سليمان بن حَرْب، عن حماد بن زيد، عن يزيد بن حازم، عن سليمانَ بن يسار أنَّ صَبِيغَ بن عِسل قدم المدينة، فجعل يسألُ عن متشابه القرآن وعن أشياءَ، فبلغ ذلك عمرَ ﷺ، فبعثَ إليه عمرُ، فأحضره وقد أعدَّ له عَراجينَ من عراجين النَّخل. فلما حضر قال له عمر: مَن أنت؟ قال: أنا عبدُ اللّه صَبيغ، فقال عمرُ ﷺ: وأنا عبدُ اللّه عمرُ، ثم قام إليه

---

(١) صَبِيغ بوزن عظيم، وآخره معجمة، ويقال بالتصغير، ذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة ٥/ ١٦٨ وذكر قصته، وسيرد تخريجها قريباً.

(٢) في المفهم ٦/ ٦٩٧: فأما مَن يتبع المتشابه لا على تلك الجهتين، فإن كان ذلك على إبداء تأويلاتها وإيضاح معانيها، فذلك مختلف في جوازه بناء على الخلاف في جواز تأويلها.

(٣) في (م): المشكلات.

فضربَ رأسَه بعرجُون فشَجَّه، ثم تابع ضَرْبَه حتى سالَ دمُه على وجهه، فقال: حسبُك يا أمير المؤمنين؛ فقد واللّهِ ذهبَ ما كنتُ أجدُ في رأسي.

وقد اختلفت الرواياتُ في أدبه، وسيأتي ذكرُها في «الذاريات». ثم إن اللّه تعالى ألهمَه التوبةَ، وقذفها في قلبه، فتابَ وحسُنت توبته[١].

ومعنى «ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ» طلب الشبهات واللَّبْس على المؤمنين حتى يُفسِدوا ذاتَ بينهم، ويردُّوا الناس إلى زيغهم.

وقال أبو إسحاق الزَّجَّاج: معنى ابتغائهم[٢] تأويلَه: أنَّهم طلبوا تأويلَ بعثِهم وإحيائهم، فأعلم اللّه جلَّ وعزَّ أنَّ تأويلَ ذلك ووقتَه لا يعلمُه إلَّا اللّه. قال: والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: يومَ يرون ما يوعدون من البعث والنُّشور والعذاب ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: تركوه ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، أي: قد رأينا تأويلَ ما أنبأتنا به الرُّسُلُ. قال: فالوقف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: لا يعلم أحدٌ متى البعثُ إلَّا اللّه[٣].

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يقال: إنَّ جماعةً من اليهود ـ منهم حُيَيُّ بن أخطب ـ دخلوا على رسول اللّه ﷺ وقالوا: بلغنا أنه نزلَ عليك «الٓمٓ»، فإنْ كنتَ صادقاً في مقالتك فإن مُلْكَ أمَّتك يكونُ إحدى وسبعين سنةً، لأنَّ الألِف في حساب الجُمَّل[٤] واحد، واللَّامَ ثلاثون، والميمَ أربعون، فنزل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[٥].

---

(١) وأخرجه الدرامي (١٤٦)، والآجري في الشريعة (١٥٣)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١١٣٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٣/ ٤١١ من طريق حماد بن زيد، به. وذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة ٥/ ١٦٨-١٦٩ طرقاً أخرى للخبر. وسيذكر بعضها المصنف في تفسير الآية الأولى من سورة الذاريات.

(٢) في (د) و (م): ابتغاء.

(٣) معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٧٨، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٣٥٥ وعنه نقل المصنف.

(٤) في معجم متن اللغة: الجُمَّلُ (ويخفَّف): حساب مبناه على حروف أبجد، كل حرف يدلُّ على رقم من الأعداد، آحادها، وعشراتها، ومئاتها.

(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٢٤٧، وأخرجه مطولاً الطبري ١/ ٢٢١ عن جابر بن عبدالله بن رئاب، وضعّفه =

والتأويل يكون بمعنى التفسير، كقولك: تأويلُ هذه الكلمة على كذا. ويكون بمعنى ما يَؤولُ الأمرُ إليه. واشتقاقه من آل الأمرُ إلى كذا يَؤولُ إليه، أي: صار. وأوّلتُه تأويلاً، أي: صيَّرتُه. وقد حدَّه بعضُ الفقهاء فقالوا: هو إبداء احتمالٍ في اللفظ مقصود بدليل خارج عنه. فالتفسيرُ بيانُ اللفظ، كقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِۛ﴾ أي: لا شكَّ. وأصلُه من الفَسْرِ، وهو البيان، يقالُ: فَسَرْتُ الشَّيءَ (مخفَّفاً) أفْسِرُه (بالكسر) فَسْراً. والتأويل بيانُ المعنى، كقوله: لا شكَّ فيه عند المؤمنين، أو لأنّه حقٌّ في نفسه، فلا تَقبلُ ذاتُه الشَّكَّ، وإنَّما الشَّكُّ وصفُ الشَّاكِّ. وكقول ابن عباس في الجدِّ أباً؛ لأنَّه تأوَّل قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾[1] [الأعراف: ٢٦].

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ اختلف العلماءُ في «والرَّاسِخُونَ في الْعِلْم» هل هو ابتداءُ كلامٍ مقطوعٍ ممَّا قَبلَه، أو هو معطوفٌ على ما قبلَه فتكونُ الواوُ للجمعِ، فالذي عليه الأكثرُ أنه مقطوعٌ مما قبلَه، وأن الكلام تمَّ عند قوله: «إلا اللّٰهُ»، هذا قولُ ابنِ عمرَ وابنِ عباسٍ وعائشةَ وعروةَ بن الزبير وعمرَ بنِ عبد العزيز وغيرهم، وهو مذهبُ الكِسائيِّ والأخفشِ والفرَّاء وأبي عُبيد وغيرهم[2].

قال أبو نَهِيك الأسدي: إنكم تَصِلون هذه الآيَة، وإنَّها مقطوعة. وما انتهى علمُ الراسخين إلَّا إلى قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾.

وقال مثلَ هذا عمرُ بن عبد العزيز، وحكى الطبريُّ نحوَه عن يونسَ، عن أشهبَ، عن مالك بن أنس[3]. و«يقولون» على هذا خبر «الراسخون».

قال الخطابي: وقد جعل الله تعالى آياتِ كتابه الذي أَمَرَنا بالإيمان به والتَّصديق بما فيه على[4] قسمين: محكماً ومتشابهاً، فقال عزَّ من قائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ

= ابن كثير في تفسير الآية الأولى من البقرة وقال: مداره على محمد بن السائب الكلبي، وهو ممن لا يحتج بما انفرد به.

(١) انظر معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٥١ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٢٨٠، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٣٥١ .

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٣ . وأخرج الطبري ٥/ ٢١٩ قول أبي نهيك وعمر بن عبد العزيز ومالك.

(٤) لفظة: على، من (د) و (ظ).

ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ إلى قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فأعْلَم أن المتشابهَ من الكتاب قد استأثر اللّهُ بعلمه، فلا يعلم تأويلَه أحَدٌ غيرُه، ثم أثنى اللّه عزَّ وجلَّ على الراسخين في العلم بأنهم يقولون: آمنا به. ولولا صحّةُ الإيمان منهم لم يستحقُّوا الثناءَ عليهم.

ومذهبُ أكثر العلماء أن الوقفَ التامَّ في هذه الآية، إنما هو عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وأن ما بعده استئنافُ كلامٍ آخرَ، وهو قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، وروي ذلك عن ابن مسعود وأبيٍّ بن كعب وابنِ عباسٍ وعائشة[١].

وإنما رويَ عن مجاهد أنه نَسَق الراسخين[٢] على ما قبله وزعم أنهم يعلمونه[٣].

واحتجَّ له بعضُ أهل اللُّغة فقال: معناه: والراسخون في العلم يعلمونه قائلين آمنَّا، وزعم أن موضعَ «يقولون» نَصبٌ على الحال. وعامةُ أهلِ اللُّغة يُنكرونه ويستبعدونه؛ لأن العربَ لا تُضمِرُ الفعلَ والمفعولَ معاً، ولا تذكر حالاً إلَّا مع ظهور الفعل، فإذا لم يظهر فعلٌ فلا يكون حال، ولو جاز ذلك لجاز أن يقال: عبدُ اللّه راكباً، بمعنى: أقبل عبدُ اللّهِ راكباً، وإنما يجوز ذلك مع ذكر الفعل، كقوله: عبدُ اللّه يتكلَّمُ يصلحُ بين الناس؛ فكان «يصلحُ» حالاً له، كقول الشاعر ـ أنشدنيه أبو عمر قال: أنشدنا أبو العباس ثعلب ـ:

أرسلتُ فيها رَجُلاً[٤] لُكالِكا يَقْصُر يَمْشي ويَطولُ بارِكا[٥]

أي: يقصرُ ماشياً، فكان قولُ عامةِ العلماء مع مساعدة مذاهب النَّحويين له أولى

---

(١) انظر إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٥٦٥، والمكتفى للداني ص١٩٥، وتفسير البغوي ١/ ٢٨٠، وأخرج الطبري ٥/ ٢١٨ أثر ابن عباس وعائشة رضي الله عنهم.

(٢) في (م): الراسخون.

(٣) تفسير مجاهد ١٢٢، وأخرجه الطبري ٥/ ٢٢٠، وابن الأنباري في إيضاح الوقف ٢/ ٥٦٥، والداني في المكتفى ص١٩٦.

(٤) في (م) ولسان العرب (لكك): قَطِماً، والقَطِم: الرجل المشتهي للحم. اللسان (قطم).

(٥) مجالس ثعلب ص٣٨٤، ونسب الرجز لمبشِّر بن هُذيل بن زافر الفزاري، وفيه قَرِداً، بدل: رجلاً، قال: ولُكالك: عظيم شديد.

من قول مجاهد وحدَه، وأيضاً؛ فإنه لا يجوز أنْ ينفيَ اللّه سبحانَه شيئاً عن الخلق ويثبته لنفسه، ثم يكون له في ذلك شريك. ألا ترى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقولَه: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقولَه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، فكان هذا كلُّه مما استأثر اللّه سبحانه بعلمه، لا يَشْرَكُه فيه غيره. وكذلك قوله تبارك وتعالى: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ». ولو كانت الواو في قوله: «وَالرَّاسِخُونَ» للنسق لم يكن لقوله: «كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا» فائدة. واللّه أعلم.

قلت: ما حكاه الخطابيُّ من أنه لم يقل بقول مجاهدٍ غيرُهُ، فقد رُوي عن ابن عباس أن الراسخين معطوفٌ على اسم اللّه عزَّ وجلَّ، وأنهم داخلون في علم المتشابه، وأنهم مع علمهم به يقولون آمنا به، وقاله الربيعُ ومحمد بنُ جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد وغيرهم[(١)].

و«يقولون» على هذا التأويل نصبٌ على الحال من الراسخين، كما قال:

الريحُ تَبْكِي شَجْوَه[(٢)] والبرقُ يلْمَعُ في الغَمَامَهْ

وهذا البيتُ يَحتملُ المعنيين، فيجوزُ أن يكونَ: «والبرقُ» مبتدأ، والخبرُ «يلمعُ» على التأويل الأول، فيكون مقطوعاً مما قبلَه. ويجوزُ أن يكونَ معطوفاً على «الريح»، و«يلمعُ» في موضع الحال على التأويل الثاني، أي: لامعاً.

واحتجَّ قائلو هذه المقالةِ أيضاً بأن اللّه سبحانه مدحهم بالرسوخ في العلم، فكيف يمدحُهم وهم جُهَّال! وقد قال ابن عباس: أنا ممَّن يعلمُ تأويلَه.

وقرأ مجاهدٌ هذه الآيةَ وقال: أنا ممن يعلمُ تأويلَه؛ حكاهُ عنه إمامُ الحرمين أبو المعالي.

قلت: وقد ردَّ بعضُ العلماء هذا القولَ إلى القول الأوَّل، فقال: وتقديرُ تمامِ الكلام «عِندَ اللّهِ»[(٣)] أنَّ معناهُ: وما يعلم تأويلَه إلاَّ اللّه، يعني تأويلَ المتشابهاتِ،

---

(١) أخرج أقوالهم الطبري ٥/ ٢٢٠ .

(٢) في (م): شجوها، والبيت ليزيد بن مفرغ الحميري، وهو في ديوانه ص١٤٣ .

(٣) كذا في النسخ، ولم يتبين لنا المراد، ولعل قوله: «عند الله» مقحم، والله أعلم.

والراسخون في العلم يعلمون بعضَه قائلين: آمنَّا به كلٌّ من عند ربنا بما نُصِب من الدلائل في المُحْكَم ومكَّن من ردِّه إليه. فإذا علموا تأويلَ بعضِه ولم يعلموا البعضَ قالوا: آمنا بالجميع كلٌّ من عند ربِّنا، وما لم يحط به علمُنا من الخفايا مما في شرعه الصَّالح؛ فعلمُه عند ربِّنا[(١)].

فإنْ قالَ قائلٌ: قد أشكل على الراسخين بعضُ تفسيره، حتى قال ابن عباس: لا أدري ما الأوَّاهُ ولا ما غِسْلِين، قيل له: هذا لا يلزم؛ لأن ابنَ عباسٍ قد علم بعدَ ذلك، ففسَّر ما وقفَ عليه. وجوابٌ أقطعُ من هذا؛ وهو أنَّه سبحانه لم يقل: وكلُّ راسخ، فيجب هذا، فإذا لم يعلمه أحدهم علمَه الآخر[(٢)].

ورجَّح ابنُ فُورَك أنَّ الراسخين يعلمون التأويل، وأطنب في ذلك[(٣)]. وفي قوله عليه الصلاة والسلام لابن عباس: «اللّهم فقِّهه في الدِّين وعلِّمْه التأويل[(٤)]» ما يبينُ لك ذلك، أي: علِّمْه معانيَ كتابك. والوقفُ على هذا يكونُ عندَ قوله: «والرَّاسِخُونَ في العلم».

قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر: وهو الصحيح[(٥)]، فإن تسميتَهم راسخين يقتضي بأنَّهم يعلمون أكثرَ من المُحكَم الذي يستوي في علمه جميعُ من يفهمُ كلامَ العرب. وفي أيِّ شيءٍ هو رسوخُهم إذا لم يعلموا إلَّا ما يعلمُ الجميع؟ لكنَّ المتشابهَ يتنوَّعُ، فمنه ما لا يُعلمُ البتَّةَ، كأمر الرُّوحِ والساعة ممَّا استأثر اللّه بغيبه، وهذا لا يتعاطى عِلمَه أحدٌ؛ لا ابنُ عباس ولا غيرُه.

فمن قال من العلماء الحُذَّاق بأنَّ الراسخين لا يعلمون علمَ المتشابه، فإنما أرادَ هذا النَّوع، وأما ما يمكن حملُه على وجوهٍ في اللغة ومَنَاحٍ في كلام العرب، فيُتأوَّل

---

(١) انظر أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٥ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٥٦ - ٣٥٧ .

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٤ .

(٤) أخرجه البخاري (١٤٣)، ومسلم (٢٤٧٧) من حديث ابن عباس، وسلف ١/ ٥٨ .

(٥) هذا خلاف ما في كتاب المفهم ٦/ ٦٩٦ - ٦٩٧ لأبي العباس، فقد ذكر أن الوقف على: «إلا الله» أولى وأليق وأسلم.

ويُعلَمُ تأويلُه المستقيم، ويُزالُ ما فيه مما عسى أن يتعلق [به] من تأويل غير مستقيم؛ كقوله في عيسى: ﴿ وَرُوحٌ مِنْه ﴾ إلى غير ذلك. فلا يُسمَّى أحدٌ راسخاً إلَّا بأنْ يعلمَ من هذا النوعِ كثيراً بحَسب ما قُدِّر له.

وأما مَن يقول: إن المتشابهَ هو المنسوخُ، فيستقيمُ على قولِه إدخالُ الراسخين في علم التَّأويل؛ لكنَّ تخصيصَه المتشابهاتِ بهذا النَّوع غيرُ صحيح.

والرُّسوخُ: الثُّبوتُ في الشيء، وكلُّ ثابتٍ راسخٌ. وأصلُه في الأجرام أنْ يرسخَ الجبلُ والشجرُ في الأرض[1]؛ وقال الشاعر:

لقد رَسَخَتْ في الصَّدر مني مودَّةٌ ... لليلى أبَتْ آياتُها أن تَغيَّرا[2]

ورسَخ الإيمانُ في قلب فلان يَرْسَخ رسوخاً. وحكى بعضُهم: رسخَ الغَديرُ: نَضَب ماؤه؛ حكاه ابن فارس[3]، فهو من الأضداد. ورَسَخ ورَصَخ ورَصَن ورسَب؛ كلُّه ثبت[4].

وسئل النبيُّ ﷺ عن الراسخين في العلم فقال: «هو مَنْ بَرَّتْ يمينُه، وصدَق لسانُه، واستقامَ قلبُه[5]».

فإن قيل: كيف كان في القرآن متشابه والله يقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فكيف لم يُجعل[6] كلُّه واضحاً؟ قيل له: الحكمةُ في ذلك ـ والله أعلم ـ أنْ يظهرَ فضلُ العلماءِ؛ لأنَّه لو كان كلُّه واضحاً لم يظهر فضلُ بعضهم على بعضٍ. وهكذا يفعلُ مَن يصنِّف تصنيفاً، يجعلُ بعضَه واضحاً وبعضَه

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٣-٤٠٤ وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) في مجمل اللغة ١/ ٣٧٧ .

(٤) في (د) و (م): ثبت فيه.

(٥) أخرجه الطبري ٥/ ٢٢٣، وابن أبي حاتم (١٢٦)، والطبراني في الكبير (٧٦٥٨) من طريق عبدالله بن يزيد بن آدم، عن أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع رضي الله عنهم، وعبدالله ابن يزيد؛ قال أحمد: أحاديثه موضوعة، وقال الجوزجاني: أحاديثه منكرة. ميزان الاعتدال ٢/ ٥٢٧ .

(٦) في (م): يجعله.

مُشكلاً، ويترك للخبرة[١] موضعاً؛ لأنَّ ما هان وجودُه قلَّ بهاؤه. والله أعلم.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فيه ضميرٌ عائدٌ على كتاب الله تعالى؛ مُحكَمِه ومتُشابِهه، والتقدير: كلُّه من عند ربنا. وحذف الضمير لدلالة «كلّ» عليه؛ إذْ هي لفظة تقتضي الإضافة.

ثم قال: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: ما يقول هذا ويُؤمنُ [به] ويقفُ حيثُ وقَفَ، ويَدَع اتِّباعَ المتشابه إلاَّ ذو لُبٍّ، وهو العقل. ولُبُّ كلِّ شيءٍ خالصُه؛ فلذلك قيل للعقل: لُبٌّ. و«أولو» جمع ذو[٢].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ في الكلام حذفٌ تقديرُه: يقولون. وهذا حكاية عن الراسخين. ويجوزُ أن يكونَ المعنى: قل يا محمد.

ويقالُ: إزاغةُ القلبِ فسادٌ ومَيْلٌ عن الدِّين[٣]، أفكانوا يخافون ـ وقد هُدُوا ـ أنْ ينقلَهم اللّهُ إلى الفساد؟

فالجوابُ: أن يكونوا سألوا إذ هداهم الله ألّا يبتليَهم بما يَثقُلُ عليهم من الأعمال فَيَعْجِزوا عنه، نحوُ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ [النساء: ٦٦].

قال ابن كيسان: سألوا ألّا يَزِيغوا فيُزِيغَ الله قلوبهم؛ نحو: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، أي: ثبِّتنا على هدايتك إذ هديتنا، وألا نَزيغَ فنستحقَّ أن تُزيغَ قلوبَنا[٤].

---

(١) لم تجود اللفظة في النسخ، ففي (خ) و (د) و (م): للجثوة، وفي (ف): للحتوه، وفي (ظ): للخيرة، والمثبت من تفسير أبي الليث (وعنه نقل) ١/ لوحة ١١٠، ووقع في مطبوعه ١/ ٢٤٧: للحيرة.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٤ وما بين حاصرتين منه.

(٣) في (ظ) و(خ): وميل عن الدين جحود.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٥٥-٣٥٦ .

وقيل: هو منقطع مما قبلُ؛ وذلك أنَّه تعالى لمَّا ذكرَ أهلَ الزَّيغ، عقَّبَ ذلك بأنْ علَّم عبادَه الدعاءَ إليه في ألَّا يكونوا من الطائفة الذَّميمة التي ذُكِرت، وهي أهلُ الزَّيغ[١].

وفي الموطأ[٢] عن أبي عبد الله الصُّنابحيِّ أنه قال: قَدِمتُ المدينة في خلافة أبي بكر الصِّدِّيق، فصلَّيتُ وراءَه المغربَ، فقرأ في الركعتين الأُولَيَين بأمِّ القرآن، وسورةٍ سورة[٣] من قِصار المُفصَّل، ثمَّ قامَ في الثالثة، فدنَوتُ منه حتى إنَّ ثيابي لتكادُ تَمَسُّ ثيابَه، فسمعتُه يقرأُ بأمِّ القرآن وهذه الآيةِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ الآية.

قال العلماء: قراءتُه بهذه الآية ضَربٌ من القُنوت والدعاء لما كان فيه من أمرِ أهلِ الرِّدة. والقُنوت جائز في المغربِ عند جماعةٍ من أهلِ العلم، وفي كلِّ صلاة أيضاً إذا دَهِمَ المسلمين أمرٌ عظيم يُفزعُهم ويخافونَ منه على أنفسِهم[٤].

وروى الترمذي من حديث شَهْر بن حَوْشَب قال: قلتُ لأمِّ سَلَمة: يا أمَّ المؤمنين، ما كان أكثرُ دعاءِ رسول الله ﷺ إذا كان عندَك؟ قالت: كان أكثرُ دعائه: «يا مُقلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قَلْبي على دينِك» فقلتُ: يا رسولَ الله، ما أكثرَ دعاءَك «يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قَلْبي على دينِك»! قال: «يا أمَّ سلمةَ، إنَّه ليسَ آدمي إلَّا وقلبُه بينَ أُصْبُعينِ من أصابعِ اللهِ، فمن شاءَ أقامَ، ومَنْ شاءَ أزاغَ» فتلا معاذ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾. قال: حديث حسن[٥].

وهذه الآيةُ حُجَّةٌ على المعتزلة في قولهم: إنَّ اللهَ لا يُضلُّ العبادَ. ولو لم تكن الإزاغةُ من قِبَلِه لَمَا جازَ أن يُدْعى في دفع ما لا يجوزُ عليه فعلُه.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٤.

(٢) ١/ ٧٩. وأخرجه عن مالك عبد الرزاق (٢٦٩٨)، والشافعي في مسنده (٢٣٣) (بترتيب السندي)، والبيهقي ٢/ ٦٤، و٣٩١.

(٣) لفظ: سورة (الثانية) من (خ)، وهي موافقة لما في الموطأ.

(٤) الاستذكار ٤/ ١٤٧.

(٥) في سنن الترمذي (٣٥٢٢). وهو في مسند أحمد (٢٦٦٧٩) ومعاذ المذكور: هو ابن معاذ بن نصر العنبري، أحد رجال الإسناد.

وقرأ أبو واقد والجرَّاح[١]: «لا تَزِغْ قُلُوبُنا» بإسناد الفعل إلى القلوب، وهذه رغبةٌ إلى اللّه تعالى. ومعنى الآية على القراءتين: أي: لا يكون[٢] منك خلقُ الزَّيغ فيها فتزيغ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي: من عندِك، ومن قِبَلك تفضُّلاً، لا عن سببٍ منَّا ولا عمل، وفي هذا استسلامٌ وتَطارُح[٣].

وفي «لَدُنْ» أربع لغات: لَدُن بفتح اللَّام وضم الدَّال وجَزْمِ النُّون، وهي أفصحُها. وبفتح اللَّام وضمِّ الدَّال وحذف النُّون. وبضم اللَّام وجَزْمِ الدَّال وفتح النون. وبفتح اللَّام وسكون الدَّال وفتح النون[٤].

ولعل جُهّال المتصوِّفة وزنادقةَ الباطنية يتشبَّثون بهذه الآية وأمثالها فيقولون: العلم ما وهبه اللّه ابتداءً من غير كَسْب، والنظرُ في الكتب والأوراق حجاب. وهذا مردود على ما يأتي بيانُه في غير[٥] هذا الموضع.

ومعنى الآية: هب لنا نعيماً صادراً عن الرحمة؛ لأنَّ الرحمةَ راجعةٌ إلى صفة الذَّاتِ، فلا تتصوَّرُ فيها الهبة[٦].

يقال: وَهب يَهَب، والأصل: يَوهِب بكسر الهاء. ومن قال: الأصل يَوهَب بفتح الهاء فقد أخطأ؛ لأنَّه لو كان كما قال لم تُحذف الواو، كما لم تُحذف في يَوْجَل. وإنما حُذفت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة؛ ثم فُتِحَ بعدَ حذفِها؛ لأنَّ فيه حرفاً من حروف الحَلْق.

---

(١) في (م) والمحتسب ١/ ١٥٤: أبو واقد الجراح، والمثبت من النسخ الخطية والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٤ والكلام منه. ونسب ابن خالويه ص ١٩ القراءة لعمرو بن فايد، والجحدري. والجراح: لعله ابن عبد اللّه أبو عقبة الحَكَمي، وليَ البصرة وغيرها، كان بطلاً شجاعاً، عابداً قارئاً. السير ٥/ ١٨٩.

(٢) في (م): ألا يكون، وفي المحرر ١/ ٤٠٤ (وعنه نقل المصنف): أن لا يكن.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٤ - ٤٠٥.

(٤) ذكر لها النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٥٧ عشر لغات.

(٥) لفظ: غير، من (ظ) و (خ). وسيتكلم المصنف في هذا الموضوع في المسألة الثالثة من تفسير قوله تعالى في سورة الكهف ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ (الآية: ٨٢).

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٥.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩﴾.

أي: باعثُهم ومحييهم بعد تفرُّقهم، وفي هذا إقرارٌ بالبَعْث ليوم القيامة.

قال الزَّجاج[(١)]: هذا هو التأويلُ الذي عَلِمه الراسخون وأقرُّوا به، وخالف الذين اتَّبعوا ما تشابَه عليهم من أمر البعث حين[(٢)] أنكروه.

والرَّيْبُ الشَّكُّ، وقد تقدَّمت محَامِلُه في البقرة[(٣)]. والميعاد: مِفْعَال من الوعد[(٤)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠﴾

معناه بَيِّنٌ، أي: لن تدفعَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من عذابِ اللّهِ شيئاً.

وقرأ السُّلَميُّ: «لَنْ يُغْنيَ» بالياء لتقدُّم الفعل، ودخولِ الحائل بين الاسم والفعل[(٥)].

وقرأ الحسن: «يُغْني» بالياء[(٦)] وسكون الياء الآخرة للتخفيف؛ كقول الشاعر[(٧)]:

كفَى باليَأْسِ من أسماءَ كَافي ... وليسَ لِسُقْمِها إذْ طالَ شافي

وكان حقُّه أنْ يقولَ: كافياً، فأرسلَ الياءَ. وأنشد الفرَّاء في مثله:

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٣٧٩.

(٢) في (م) حتى.

(٣) ١/ ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٥ وعنه نقل المصنف كلام الزجاج.

(٥) ذكر قراءة السلمي النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٥٨، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٥ ووقع في القراءات الشاذة ص ١٩: لن تُغنيْ عنهم، بإسكان الياء للسلمي عن علي.

(٦) في النسخ: تغني بالتاء، وقيدها أبو حيان في البحر ٢/ ٣٨٨ فقال: بالياء أولاً، وبالياء الساكنة آخراً، وذلك لاستثقال الحركة في حرف اللين، وإجراء المنصوب مجرى المرفوع. وكذا قيدها السمين الحلبي في الدر المصون ٣/ ٣٥.

(٧) هو بشر بن أبي خازم، والبيت في ديوانه ص ١٦٢، وخزانة الأدب ٤/ ٤٣٩.

كـأنَّ أيـدِيـهِـنَّ بـالـقـاعِ الـقَـرِقْ أيـدي جَـوَارٍ يَـتَـعـاطَـيْـن الـوَرِق[١]

القَرِقُ والقَرِقَة لُغتان في القاع.

و«من» في قوله: «مِن اللّهِ» بمعنى عند، قاله أبو عبيدة[٢].

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ الوَقُود اسم للحطب، وقد تقدَّم في البقرة[٣].

وقرأ الحسنُ ومجاهد وطلحةُ بن مُصَرِّف: «وُقُود» بضمِّ الواو على حذف مضاف تقديرهُ حطبُ وُقودِ النَّارِ[٤]. ويجوزُ في العربية إذا ضمَّ الواو أن تقول: أُقُود، مثل أُقِّتَتْ[٥]. والوُقود بضمِّ الواو المصدر؛ وَقَدَتِ النَّار تَقِدُ: إذا اشتعلَتْ[٦].

وخرَّج ابنُ المبارك[٧] من حديث العبَّاس بن عبد المطلب قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يظهرُ هذا الدِّين حتى يجاوزَ البحارَ، وحتى تُخاضَ البحارُ بالخيل في سبيل اللّه تبارك وتعالى، ثم يأتي أقوامٌ يقرؤون القرآن، فإذا قَرؤوه قالوا: مَنْ أقْرَأُ منَّا، من أعْلَمُ منَّا؟» ثم التفت إلى أصحابه فقال: «هل ترون في أولئكم مِنْ خَير؟» قالوا: لا. قال: «أولئك منكم، وأولئك من هذه الأمَّة، وأولئك هم وَقود النار».

---

(١) الرجز لرؤبة بن العجاج، وهو في ملحقات ديوانه ص١٧٩. وهو في الكامل ص٩٠٩، والخصائص ١/ ٣٠٦ و ٢/ ٢٩١، والمحتسب١/ ١٢٦ و ٢٨٩، وأمالي المرتضى ١/ ٥٦١، وأمالي ابن الشجري ١/ ١٥٨، والصحاح واللسان (قرق)، ومجمل اللغة ٧٤٩، وتهذيب اللغة ١٥/ ١٠٧، وخزانة الأدب ٨/ ٣٤٧. قال البغدادي في الخزانة: ضمير أيديهن للإبل، والقاع: هو المكان المستوي، والقَرِق بفتح القاف الأولى وكسر الراء: الأملس، وجَوارٍ جمع جارية، ويتعاطَيْنَ: يناول بعضهن بعضاً، والوَرِق: الدراهم.

(٢) في مجاز القرآن ١/ ٨٧، وتفسير البغوي ١/ ٢٨١ وعنه نقل المصنف.

(٣) ١/ ٣٥٤.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٥. وذكر القراءة النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٥٨، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٩.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٥٨.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٥.

(٧) في الزهد والرقاق (٤٥٠)، وسلف ١/ ٣٤.

قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١١﴾

الدَّأْبُ: العادة والشَّأنُ. ودَأَبَ الرجلُ في عمله يَدْأَبُ دَأْباً ودُؤوباً: إذا جَدَّ واجتهدَ، وأدأبتُه أنا. وأدْأَبَ بعيرَه: إذا جَهَدَه في السَّير. والدَّائبان: الليلُ والنَّهارُ[1].

قال أبو حاتم: وسمعتُ يعقوبَ يذكر: «كدَأَبِ» بفتح الهمزة، وقال لي وأنا غُلَيِّمٌ: على أيِّ شيءٍ يجوزُ «كَدَأَبِ»؟ فقلت له: أظنُّه من دَئِبَ يدْأَب دَأَباً، فقبل ذلك مني، وتعجَّب من جَودَةِ تقديري على صغري؛ ولا أدري أيُقالُ [ذلك] أم لا.

قال النَّحاسُ[2]: وهذا القولُ خطأ، لا يُقال البتَّة: دَئِب، وإنما يُقال: دَأَب يَدْأَب دُؤُوباً [ودَأْباً]، هكذا حكى النَّحْويونَ، منهم الفرَّاء، حكاه في كتاب المصادر؛ كما قال امرؤ القيس[3]:

كدأْبِكَ مِن أمِّ الحُوَيْرِث قَبْلَها ... وجارَتِها أمِّ الرَّبابِ بِمَأْسَلِ

فأما الدَّأَب فإنَّه يجوزُ؛ كما يقال: شَعْرٌ وشَعَرٌ، ونَهْرٌ ونَهَرٌ؛ لأن فيه حرفاً من حروف الحلق.

واختلفوا في الكاف، فقيل: هي في موضع رفع، تقديره: دَأْبُهم كدَأْب آل فرعون، أي: صنيع الكفَّار معَك كصنيع آلِ فرعونَ مع موسى[4].

وزَعَم الفَرَّاء أن المعنى: كفَرَت العَرَبُ [كُفراً] ككُفرِ آلِ فرعون[5]

قال النَّحاس[6]: لا يجوزُ أن تكونَ الكافُ متعلِّقةً بكفروا؛ لأن كفروا داخلةٌ في الصِّلة [وكدأب خارج منها].

---

(١) الصحاح (دأب).

(٢) في إعراب القرآن له ١/ ٣٥٩، وعنه نقل المصنف قول أبي حاتم، وما بين حاصرتين منه.

(٣) ديوانه ص٩، وفيه: كدِيْنِكَ، وتفسير الطبري ٥/ ٢٣٧، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٥٩، وسلف ١/ ٢٢٢.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٥٧، وتفسير أبي الليث ١/ ٢٤٨.

(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ١٩١، وفيه: كفرت اليهود.

(٦) في إعراب القرآن له ١/ ٣٥٩، وعنه نقل المصنف كلام الفراء، وما سلف وما سيرد بين حاصرتين منه.

وقيل: هي متعلقةٌ بـ «أَخَذَهُمُ اللّه»، أي: أخذهم أَخْذاً كما أخذ آلَ فرعون. وقيل: هي متعلقةٌ بقوله: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾[١] أي: لم تُغْنِ عنهم غَنَاءً، كما لم تُغنِ الأموالُ والأولادُ عن آل فرعون.

وهذا جوابٌ لمن تخلَّف عن الجهاد وقال: شغَلَتنا أموالُنا وأهلونا.

ويَصِحُّ أن يعملَ فيه فِعْلٌ مقدَّرٌ من لفظ الوَقود، ويكون التَّشبيهُ في نفس الاحتراق. ويؤيد هذا المعنى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[٢] [غافر: ٤٦]، والقول الأوَّل أرجحُ، واختاره غيرُ واحد من العلماء.

قال ابنُ عرفة: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: كعادةِ آلِ فرعونَ. يقولُ: اعتادَ هؤلاءِ الكَفَرةُ الإلحادَ والإعناتَ للنبيِّ ﷺ، كما اعتادَ آلُ فرعونَ من إعنات الأنبياء، وقال معناه الأزهريُّ[٣]. فأمَّا قولُه في سورة الأنفال: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [٥٢]، فالمعنى: جُوزيَ هؤلاءِ بالقتل والأسر كما جُوزِيَ آلُ فرعونَ بالغَرقِ والهلاكِ[٤].

قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يحتملُ أن يُريدَ الآياتِ المتلوَّة، ويحتملُ أنْ يُريدَ الآياتِ المنصوبةَ للدَّلالة على الوحدانيَّة[٥]. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾.

يعني اليهود. قال محمد بن إسحاق: لمَّا أصابَ رسولُ اللّه ﷺ قريشاً ببدرٍ وقَدم المدينةَ، جَمَعَ اليهودَ فقال: «يا معشرَ اليهودِ، احذروا من اللّه مِثْلَ ما نزلَ بقريش يومَ بدرٍ، [وأسلموا] قبلَ أنْ ينزلَ بكم ما نزلَ بهم، فقد عَرَفتم أني نبيٌّ مرسلٌ، تجدون

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٥٩.

(٢) في النسخ والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٥ (وعنه نقل المصنف): «أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب، النار يعرضون عليها غدواً وعشياً».

(٣) في تهذيب اللغة ١٤/ ٢٠٢.

(٤) الغريبين للهروي ٢/ لوحة ١، وعنه نقل المصنف كلام ابن عرفة والأزهري.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٥.

ذلك في كتابكم وعهد اللّه إليكم»، فقالوا: يا محمد، لا يغرَّنَّك أنكَ قتلت قوماً[(١)] أغْمَاراً[(٢)] لا عِلم لهم بالحرب، فأصبت فيهم فُرصة، واللّه لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن النَّاسُ. فأنزل اللّه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ﴾ بالتاء، يعني اليهود، أي: تُهزَمون ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة. فهذه روايةُ عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس[(٣)].

وفي رواية أبي صالح عنه: أن اليهود لمَّا فرِحوا بما أصاب المسلمين يوم أُحُد نزلت[(٤)]. فالمعنى على هذا: «سَيُغْلَبُونَ» بالياء، يعني قريشاً، «ويُحْشَرُونَ» بالياء فيهما، وهي قراءةُ نافع[(٥)].

قوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ يعني جهنم؛ هذا ظاهر الآية. وقال مجاهد: المعنى: بئس ما مهدوا لأنفسهم، فكأنَّ المعنى، بئسَ فعلُهم الذي أدَّاهم إلى جهنم[(٦)].

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ أي: علامة. وقال: «كان» ولم يقل:

(١) في (د) و (م): أقواماً.

(٢) الأغمار: جمع غُمْر؛ وهو مَن لم يجرِّب الأمور. القاموس (غمر).

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٩١-٩٢، وما بين حاصرتين منه، وتفسير البغوي ١/ ٢٨٢ . وأخرجه أبو داود (٣٠٠١)، والطبري ٥/ ٢٣٩، والبيهقي في دلائل النبوة ٣/ ١٧٣-١٧٤ . ورواية الطبري والبيهقي: عن سعيد بن جبير أو عكرمة، بالشك بينهما، قال الحافظ ابن حجر في العجاب ١/ ٢٠٦: هذا السند بالشك، ولا يضر لكونه يدور على ثقة. اهـ. وهو على الشك كذلك في سيرة ابن هشام ٢/ ٤٧ .

(٤) أسباب النزول للواحدي ص ٩١، وتفسير البغوي ١/ ٢٨٢ .

(٥) كذا ذكر المصنف رحمه الله عن نافع، وهو وهم منه، فإن قراءة نافع بالتاء من فوق في (ستغلبون وتحشرون)، والذي قرأ بالياء في (ستغلبون وتحشرون) هو حمزة والكسائي. انظر السبعة ص٢٠١، والتيسير ص٨٦ .

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٦، وأخرج قول مجاهد الطبري ٥/ ٢٤١ .

كانت؛ لأنَّ «آية» تأنيثُها غيرُ حقيقي. وقيل: ردَّها إلى البيان، أي: قد كان لكم بيان، فذهبَ إلى المعنى وتركَ اللَّفظ، كقول امرئ القيس:

بَـــرَهْـــرَهَـــةٌ رُؤْدَةٌ رَخْـــصَـــةٌ   كـخُـرْعُـوبَـةِ الـبـانَـةِ الـمُـنْـفَـطِـرْ[١]

ولم يقل: المنفطرة، لأنه ذهب إلى القضيب.

وقال الفرّاء: ذكَّره لأنه فرَّقَ بينهما بالصفة، فلما حالت الصفةُ بين الاسم والفعل ذُكِّر الفعل[٢].

وقد مضى هذا المعنى في البقرة في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [الآية: ١٨٠]

﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ يعني المسلمين والمشركين يومَ بدر.

﴿فِئَةٌ﴾ قرأ الجمهور: ﴿فئةٌ﴾ بالرفع، بمعنى: إحداهما فئةٌ. وقرأ الحسن ومجاهد: «فِئةٍ» بالخفض، «وأُخْرَى كَافِرةٍ» على البدل. وقرأ ابن أبي عَبْلة بالنصب فيهما. قال أحمد بن يحيى: ويجوز النصب على الحال، أي: التقتا مختلفتين مؤمنةً وكافرةً. قال الزجَّاج: النصب بمعنى: أعني[٣].

وسمِّيت الجماعةُ من الناس فئةً، لأنها يُفَاءُ إليها ـ أي: يُرجع[٤] ـ في وقت الشِّدة. وقال الزجَّاج[٥]: الفئة الفِرقة، مأخوذ[٦] من: فَأَوْتُ رأسَه بالسيف ـ ويقال: فَأَيْتُه ـ إذا فَلَقْتَه[٧].

---

(١) ديوان امرئ القيس ص١٥٧ ، وقد سلف ٣/ ١١٥ .

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ١/ ٢٨٢ .

(٣) انظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٨٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٥٩ - ٣٦٠ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٨ ، وقراءة «فئةٍ» بالخفض نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٩ للزهري ومجاهد، وزاد ابن عطية نسبتها إلى حُميد بن قيس. وقراءة ابن أبي عبلة ذكرها ابن خالويه أيضاً.

(٤) في (م): يرجع إليها.

(٥) في معاني القرآن ١/ ٣٨١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٧ ، والكلام الذي قبله منه.

(٦) في (م): مأخوذة.

(٧) في النسخ الخطية: قلعته، والمثبت من معاني القرآن للزجاج والمحرر الوجيز.

ولا خلاف أن الإشارة بهاتين الفئتين هي إلى يوم بَدْر. واختلف مَن المخاطب بها، فقيل: يحتمل أن يُخاطبَ بها المؤمنون، ويحتمل أن يُخاطب بها جميعُ الكفار، ويحتمل أن يُخاطب بها يهودُ المدينة، وبكل احتمال منها قد قال قوم. وفائدةُ الخِطاب للمؤمنين تثبيتُ النفوس وتشجيعُها حتى يُقدِموا على مِثْلَيْهم وأمثالهم كما قد وقع[(١)].

قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾، قال أبو علي[(٢)]: الرؤية في هذه الآية رؤيةُ عين، ولذلك تعدَّتْ إلى مفعول واحد. قال مكيّ[(٣)] والمهدويّ: يدلّ عليه: «رَأْيَ الْعَيْنِ».

وقرأ نافع: «تَرَوْنَهُم» بالتاء، والباقون بالياء[(٤)].

﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ نصب على الحال من الهاء والميم في «ترونهم». والجمهور من الناس على أنَّ الفاعل بـ «ترون» هم المؤمنون، والضمير المتصل هو للكفار[(٥)]. وأنكر أبو عمرو أن يُقرأ: «ترونهم» بالتاء، قال: ولو كان كذلك لكان: مِثْليكم. قال النحاس[(٦)]: وذا لا يلزم، ولكن يجوز أن يكون: مِثْلي أصحابكم.

قال مكيّ[(٧)]: «تَرَوْنَهُم» بالتاء جرى على الخطاب في «لَكُم»، فيحسُن أن يكون الخطاب للمسلمين، والهاء والميم للمشركين. وقد كان يلزمُ من قرأ بالتاء أن يقرأ: مِثْلَيْكم، بالكاف، وذلك لا يجوزُ لمخالفة الخطّ، ولكن جرى الكلامُ على الخروج من الخطاب إلى الغَيْبة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ [الروم: ٣٩] فخاطب، ثم قال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ فرجَع إلى الغَيْبة.

---

(١) انظر المحرر الوجيز ١/ ٤٠٦ .

(٢) في الحجة للقراء السبعة ٣/ ١٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٧ .

(٣) في الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٣٣٧ .

(٤) انظر السبعة ص٢٠١-٢٠٢ ، والتيسير ص٨٦ .

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٧ .

(٦) في معاني القرآن ١/ ٣٦٢ ، والكلام الذي قبله منه.

(٧) في الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٣٣٦ .

فالهاء والميم في «مِثْلَيْهِمْ» يحتمل أن يكون للمشركين، أي: ترون أيها المسلمون المشركين مثلَيْ ما هم عليه من العدد، وهو بعيد في المعنى، لأن اللّه تعالى لم يُكْثِرِ المشركين في أَعين المسلمين، بل أَعْلَمنا أنه قلَّلَهم في أعين المؤمنين، فيكون المعنى: تَرون أيها المؤمنون المشركين مِثْلَيْكم في العدد، وقد كانوا ثلاثة أمثالهم، فقلَّلَ اللّه المشركين في أعين المسلمين، فأراهم إيَّاهم مِثْلَيْ عِدَّتِهم لتقوَى أنفسُهم ويقعَ التجاسُر، وقد كانوا أُعلِموا أنَّ المئة منهم تغلب المئتين من الكفار، وقلَّل المسلمين في أعين المشركين لِيَجْتَرئوا عليهم، فينْفُذَ حكمُ اللّه فيهم.

ويحتمل أن يكون الضمير في «مِثليْهِم» للمسلمين، أي: تَرون أيها المسلمون المسلمين مِثْلَيْ ما أنتم عليه من العدد، أي: تَرون أنفسَكم مِثْلَيْ عددِكم، فعل اللّهُ ذلك بهم لتقوى أنفسُهم على لقاء المشركين. والتأويل الأوّل أولى، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: ٤٣] وقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: ٤٤].

ورُوي عن ابن مسعود أنه قال: قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أظنهم مئةً. فلما أخذنا الأُسارَى أخبرونا أنهم كانوا ألفاً[(١)].

وحكى الطبريّ عن قوم أنهم قالوا: بل كَثَّر اللّه عددَ المؤمنين في عيون الكافرين حتى كانوا عندهم ضِعفيْهم. وضعَّف الطبري هذا القول[(٢)].

قال ابن عطية[(٣)]: وكذلك هو مردودٌ من جهات. بل قلَّل اللّه المشركين في أعين المؤمنين كما تقدّم. وعلى هذا التأويل كان يكون «ترون» للكافرين، أي: ترون أيها الكافرون المؤمنين مِثْليهم، ويحتمل مِثْليكم، على ما تقدَّم.

وزعم الفرّاء[(٤)] أنّ معنى[(٥)] «تروْنَهم مثلَيْهم» ثلاثةَ أمثالهم. وهو بعيدٌ غير معروف

---

(١) أخرجه الطبري ٦/ ٢٣٦ بنحوه.

(٢) انظر تفسير الطبري ٦/ ٢٣٩ .

(٣) في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٧ ، ونقل عنه المصنف أثر ابن مسعود وقول الطبري السالفين.

(٤) في معاني القرآن له ١/ ١٩٤ .

(٥) في (خ) و(ز) و(م): المعنى.

في اللغة. قال الزجَّاج[١]: وهذا بابُ الغَلَط، فيه غَلَطٌ في جميع المقاييس، لأنَّا إنما نعقِل مِثْلَ الشيء مُساوياً له، ونعقِل مثْلَيْه ما يُساويه مرتين.

قال ابن كَيْسان: وقد بيَّن الفرّاء قوله بأن قال: كما تقول وعندك عبدٌ: أحتاج إلى مثله، فأنت مُحتاجٌ إليه وإلى مثله. وتقول: أحتاج إلى مِثْلَيه، فأنت محتاج إلى ثلاثة. والمعنى على خلاف ما قال، واللغةُ. والذي أوقع الفرّاءَ في هذا أنّ المشركين كانوا ثلاثةَ أمثال المؤمنين يوم بدر، فتوهَّم أنه لا يجوز أن يكونوا يرونهم إلا على عِدَّتهم، وهذا بعيدٌ، وليس المعنى عليه. وإنما أراهم اللّه على غير عِدَّتهم لجهتين: إحداهما أنه رأى الصلاح في ذلك؛ لأن المؤمنين تقوَى قلوبهم بذلك. والأُخرى أنه آيةٌ للنبيّ ﷺ[٢]. وسيأتي ذكر وقعة بدر إن شاء اللّه تعالى[٣].

وأمّا قراءة الياء، فقال ابن كيسان: الهاء والميم في «يرونهم»[٤] عائدةٌ على «وَأُخْرَى كَافِرَةٌ»، والهاء والميم في «مِثْلَيْهم» عائدةٌ على «فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، وهذا من الإضمار الذي يدل عليه سياق الكلام، وهو قوله: ﴿يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾. فدلَّ ذلك على أن الكافرين كانوا مِثْلَي المسلمين في رَأْي العين، وثلاثةَ أمثالهم في العدد. قال: والرؤية هنا لليهود[٥].

وقال مكيّ[٦]: الرؤية للفئة المقاتلة في سبيل اللّه، والمَرْئية الفئة الكافرة، أي: يُري[٧] الفئةَ المقاتلةَ في سبيل اللّه الفئةَ الكافرةَ مِثْلَي الفئةِ المؤمنة، وقد كانت الفئةُ الكافرة ثلاثةَ أمثال المؤمنةِ، فقلَّلهم اللّه في أعينهم على ما تقدَّم. والخطاب في «لكم» لليهود.

---

(١) في معاني القرآن له ١/ ٣٨١ ، وفيه كلام الفراء السالف.

(٢) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٦٤ - ٣٦٦ .

(٣) عند الآية (١٢٣) من هذه السورة.

(٤) في (خ) و(د): ترونهم.

(٥) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٦٢ .

(٦) في الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٣٣٧ .

(٧) في (ز) و(ظ) و(م): ترى.

وقرأ ابن عباس وطلحة: «يُرَوْنَهم» بِضم الياء[١]، والسُّلميّ بالتاء[٢] مضمومة على ما لم يسمَّ فاعله.

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ تقدَّم معناه والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾.

فيه إحدى عشرةَ مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ زُيِّنَ من التزيين[٣]. واختلف الناس مَن المُزيِّن، فقالت فرقةٌ: اللّه زيَّن ذلك، وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب ﷺ، ذَكَره البخاريّ[٤]. وفي التنزيل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف:٧]، ولما قال عمر: الآن يا ربِّ حين زيّنتها لنا! نزلت: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ [آل عمران:١٥].

وقالت فرقة: المزيِّن هو الشيطان، وهو ظاهر قول الحسن، فإنه قال: مَنْ زيَّنَها؟ ما أحدٌ أشدُّ لها ذَمّاً مِن خالقها. فتزيين اللّه تعالى إنما هو بالإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الجِبِلّة على المَيْل إلى هذه الأشياء. وتزيين الشيطان هو[٥] بالوَسْوَسة والخديعة وتحسين أَخْذِها من غير وجوهها. والآية على كلا الوجهين ابتداءُ وعظٍ لجميع الناس، وفي ضمن ذلك توبيخٌ لمعاصري محمد ﷺ من اليهود وغيرِهم.

---

(١) كذا في (د) و(ظ)، والقراءات الشاذة ص١٩، والمحتسب ١/ ١٥٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٦: يُرونهم، بضم الياء. ونسبها ابن خالويه لطلحة وحده، وزاد ابن عطية نسبتها لأبي حيوة، ووقع في (خ) و(ف) و(م): «تُرونهم» بضم التاء، وكذا قيَّدها أبو حيان في البحر ٢/ ٣٩٤.

(٢) كذا في النسخ والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٦: بالتاء، وقيَّدها أبو حيان في البحر ٢/ ٣٩٤ بضمِّ الياء على الغيبة.

(٣) في النسخ الخطية: التزيّن، والمثبت من (م).

(٤) في صحيحه قبل الحديث (٦٤٤١)، ولفظه: اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زيَّنته لنا، اللهم إني أسألك أن أُنفقه في حقِّه.

(٥) في (م): إنما هو.

وقرأ الجمهور: «زُيِّنَ» على بناء الفعل للمفعول، ورفع «حُبّ». وقرأ الضَّحاك ومجاهد: «زَيَّنَ» على بناء الفعل للفاعل، ونصب «حُبّ»[١].

وحُرِّكت الهاء من «الشَّهَوَاتِ» فرقاً بين الاسم والنعت[٢].

والشَّهَوات جمع شَهْوة، وهي معروفة. ورجلٌ شهوانُ للشيء، وشيء شهيٌّ، أي: مُشْتَهىً. واتّباع الشهوات مُرْدٍ، وطاعتُها مَهْلَكة. وفي «صحيح» مسلم: «حُفَّتِ الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشَّهَوات» رواه أنس عن النبيّ ﷺ[٣].

وفائدةُ هذا التمثيل أن الجنة لا تُنال إلا بقطع مَفَاوز المكاره وبالصبر عليها. وأن النار لا يُنْجَى منها إلا بترك الشهوات وفِطام النفس عنها. وقد رُوِيَ عنه ﷺ أنه قال: «طريقُ الجنةِ حَزْنٌ برَبْوة، وطريقُ النارِ سَهْلٌ بسَهْوَة»[٤]، وهو معنى قوله: «حُفَّتِ الجنة بالمكاره، وحُفَّتِ النار بالشهوات». أي: طريقُ الجنة صعبةُ المَسْلك، فيه أعلى ما يكون من الرَّوَابي، وطريقُ النار سَهْل لا غِلَظ فيه ولا وُعورة، وهو معنى قوله: «سهلٌ بسهوة» وهو بالسين المهملة[٥].

الثانية: قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بَدَأَ بِهِنَّ لِكثرة تشوُّف النفوسِ إليهنّ، لأنهنَّ حَبائلُ الشيطان وفتنةُ الرجال. قال رسول الله ﷺ: «ما تركتُ بعدي فِتنةً أضرَّ[٦] على

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٨، وقولا عمر والحسن أخرجهما الطبري ٦/ ٢٤٣ - ٢٤٤. وقراءة مجاهد أوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٩، وابن جني في المحتسب ١/ ١٥٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٠.

(٣) صحيح مسلم (٢٨٢٢)، وهو في مسند أحمد (١٢٥٥٩)، وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ عند أحمد(٧٥٣٠)، والبخاري (٦٤٨٧)، ومسلم (٢٨٢٣). وعند البخاري: «حُجبت» بدل «حُفّت».

(٤) في النسخ الخطية: بشهوة، والمثبت من (م)، وسيقيدها المصنف بالسين المهملة. والحديث أخرجه أحمد (٣٠١٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مطولاً، وفي إسناده نوح بن أبي مريم، قال البخاري وأحمد والحاكم: ذاهب الحديث، وقال مسلم: متروك الحديث. انظر ميزان الاعتدال ٤/ ٢٧٩، ولسان الميزان ٦/ ١٧٢ - ١٧٣، وتهذيب التهذيب ٤/ ٢٤٧. وأخرجه البيهقي في الشعب (١٤٦١) من حديث أبي البُجير ﷺ، وفي إسناده سعيد بن سنان الحنفي، وهو متروك، رماه الدار قطني وغيره بالوضع، كما في تقريب التهذيب.

(٥) انظر المفهم ٧/ ١٦١.

(٦) في (م): أشدّ.

الرجال من النساء» أخرجه البخاريّ ومسلم(١).

ففتنة النساء أشدُّ من جميع الأشياء. ويقال: في النساء فتنتان، وفي الأولاد فتنةٌ واحدة. فأما اللّتان في النساء، فإحداهما(٢) أن تُؤدِّيَ إلى قطع الرَّحِم؛ لأن المرأة تأمرُ زوجَها بقطعه عن الأُمَّهَات والأخوات، والثانية: يُبْتلى بجمع المال من الحلال والحرام. وأمّا البنون(٣)؛ فإنّ الفتنة فيهم واحدة، وهو ما ابْتُلي بجمع المال لأجلهم(٤).

وروى عبد اللّه بن مسعود قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا تُسْكِنوا نساءَكم الغُرَفَ، ولا تُعَلِّموهنّ الكِتاب»(٥). حذَّرهم رسولُ اللّه ﷺ، لأن في إسكانهنَّ الغُرفَ تطلُّعاً إلى الرجال، وليس في ذلك تَحْصِينٌ لهنَّ ولا سِتْر، لأنهنَّ قد يُشرفن على الرجال، فتحدُثُ الفتنةُ والبلاء، ولأنهنَّ خُلِقْن(٦) من الرجل، فَنَهْمتُهنَّ(٧) في الرجل، والرجلُ خُلِق فيه الشهوة، وجُعِلَتْ سَكَناً له، فغيرُ مأمونٍ كلُّ واحدٍ منهما على صاحبه. وفي

(١) صحيح البخاري (٥٠٩٦)، وصحيح مسلم (٢٧٤٠) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (٢١٧٤٦).

(٢) في النسخ الخطية: فإحداهن، والمثبت من (م).

(٣) في النسخ الخطية وتفسير أبي الليث ١/ لوحة ١١٣ (والكلام منه): البنين، والمثبت من (م).

(٤) في (خ) و(د) و(ز) و(ظ) وتفسير أبي الليث: لأجله، وفي (ف): من أجله، والمثبت من (م).

(٥) أخرجه ابن عدي في الكامل ٢/ ٥٧٥، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ١٧٣ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفي إسناده جعفر بن نصر أبو ميمون العنبري، قال ابن عدي: حدّث عن الثقات بالبواطيل، وليس بالمعروف. وأخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ١٤/ ٢٢٤، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ١٧٤، وأورده الذهبي في الميزان ٣/ ٤٤٦ من حديث عائشة رضي الله عنها، وفي إسناده محمد بن إبراهيم الشامي، قال الذهبي: قال الدارقطني: كذاب، وقال ابن حبان: لا تحلُّ الرواية عنه إلا عند الاعتبار، كان يضع الحديث. وسيذكر المصنف حديث عائشة رضي الله عنها عند تفسير الآية (١) من سورة النور. ونسبه لابن مسعود ﷺ الحكيمُ الترمذي في نوادر الأصول ص ٢٧٠-٢٧١ ونقله المصنف مع الكلام الذي بعده منه.

ثم إنَّ قوله: ولا تعلموهن الكتاب، مخالف لما ورد في الكتاب والسنة، كما سنذكر.

(٦) في (م): قد خلقن.

(٧) في (د) و(ف) و(م) ونوادر الأصول: فهمّتها، وفي (خ): فنهمتها، والمثبت من (ظ). والنَّهمة، كما في القاموس (نهم): الحاجة، وبلوغ الهمَّة، والشهوة في الشيء.

تعلمهنَّ الكتابَ هذا المعنى من الفتنة وأشدُّ[١].

وفي كتاب الشِّهاب عن النبي ﷺ: «أَعْرُوا النساء يَلْزَمْن الحِجَال»[٢].

فعلى الإنسان إذا لم يصبر في هذه الأزمان أن يبحثَ عن ذات الدِّين لِيسلَم له الدِّين، قال ﷺ: «عليك بذاتِ الدِّين تَرِبَتْ يداك» أخرجه مسلم عن أبي هريرة[٣]. وفي «سنن» ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَزَوَّجُوا النساء لحسنِهنّ، فعسى حُسْنُهنَّ أنْ يُرْدِيَهنَّ، ولا تَزَوَّجُوهنَّ لأموالهنَّ، فعسى أموالُهنَّ

---

(١) لا ينبغي بناء حكم على حديث تالف، فقوله: لا تعلِّموهن الكتاب، مخالف للعقل والنقل، فقد أمر الله تعالى عباده بتعلم القراءة في أول آية نزلت: ﴿اقرأ باسم ربك﴾ وقال تعالى: ﴿الرحمن، علم القرآن﴾ وآيات أخرى، وترجم البخاري (كما في الفتح ١/ ١٩٠): باب تعليم الرجل أمته وأهله، وأورد حديث أبي موسى الأشعري (٩٧) مرفوعاً: «ثلاثة لهم أجران». وذكر منهم: «ورجل كانت عنده أمة فأدَّبها فأحسن تأديبها، وعلَّمها فأحسنَ تعليمها، ثم أعتقها فتزوَّجها، فله أجران».
وأخرج عبد الرزاق في مصنفه (١٩٧٦٨) عن معمر، عن الزهري قال: بلغني أن النبي ﷺ قال لامرأة: «ألا تعلّمين هذه رُقْيَةَ النملة - يريد حفصةَ زوجتَه - كما عَلَّمتِها الكتابة؟».
قال ابن القيم في زاد المعاد ٤/ ١٧٠: في الحديث دليل على جواز تعليم النساء الكتابة.

(٢) مسند الشهاب (٦٨٩). وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير ١٩/(١٠٦٣). والحديث من طريق عمرو ابن الحارث، عن مجمع بن كعب، عن مسلمة بن مخلد ﷺ، وهذا الإسناد ضعيف جداً، لانقطاع فيه وجهالة؛ فإن عمرو بن الحارث لا يروي عن مجمع بن كعب، بينهما جعفر بن ربيعة، كما في التاريخ الكبير ٧/ ٤١٠. ولا يروي عن مجمع بن كعب إلا جعفر بن ربيعة، كما في الجرح والتعديل ٨/ ٢٩٧، وثقات ابن حبان ٥/ ٤٣٨.
وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١٢٩٧). ورمز السيوطي لضعفه في الجامع الصغير ١/ ١٤٩، ووهم المناوي في فيض القدير ١/ ٥٦٠ في نقله عن الحافظ ابن حجر العسقلاني (في لسان الميزان ٢/ ٥٢) أن ابن عساكر حسَّنه، لإخراجه الحديث من وجه آخر في أماليه، فإن ذلك التحسين لحديث آخر، وليس لهذا الحديث. والله أعلم. قوله: أعروا النساء، أي: جرِّدوهن من ثياب الزينة والخيلاء، ومن الحليّ، وقوله: الحِجال: جمع حَجَلة، وهو بيت كالقبة يُستر بالثياب. قاله المناوي.

(٣) صحيح مسلم (١٤٦٦)، وأخرجه أحمد (٩٥٢١)، والبخاري (٥٠٩٠) بلفظ: «فاظفر» بدل: «عليك»، وفي الباب عن جابر ﷺ عند أحمد (١٤٢٣٧)، ومسلم ٢/ ١٠٨٧ (٧١٥)، وعن عائشة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما عند أحمد (٢٥١٩١) و(١١٧٦٥). وسيأتي هذا الحديث بتمامه عند تفسير الآية التالية، وعند تفسير الآية (١٣) من سورة الحجرات.

(٤) في (د) و(ز) و(ظ) و(ف) و(م): عبدالله بن عمر، وهو خطأ، والمثبت من (خ) وسنن ابن ماجه وتحفة الأشراف ٦/ ٣٥٤.

أنْ تُطْغِيَهنَّ، ولكن تَزَوَّجُوهنَّ على الدِّين، وَلَأمةٌ سَوْداءُ خَرْماءُ ذاتُ دِين أفضلُ»[١].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ عطف على ما قبله. وواحد البنين[٢] ابن. قال اللّه تعالى مخبراً عن نوح: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥]. وتقول في التصغير: بُنَيّ، كما قال لقمان[٣]. وفي الخبر: أن النبي ﷺ قال للأشعث بن قيس: «هل لكَ من ابنة جَمْد[٤] من ولد؟» قال: نعم، لي منها غلامٌ، ولَوَدِدْت أنَّ لي به جَفْنَةً مِنْ طعام أُطعِمها مَنْ بقيَ من بَني جَبَلة. فقال النبيّ ﷺ: «لئن قلتَ ذلك، إنهم لَثمرةُ القلوب، وقُرَّةُ الأعين، وإنهم مع ذلك لَمَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ مَحْزَنَةٌ»[٥].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَنَـٰطِيرِ﴾ القناطير جمع قِنطار، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠]، وهو العُقْدَة الكبيرة من المال، وقيل: هو اسمٌ للمِعْيار الذي يُوزَن به، كما هو الرِّطل والرُّبْع. ويقال لِما بَلَغ ذلك الوزنَ: هذا قِنطار، أي: يَعدِلُ القِنطار. والعرب تقول: قَنْطرَ الرجلُ: إذا بلغ مالُه [أنْ] يُوزَنَ بالقِنطار. وقال الزجَّاج[٦]: القِنطار مأخوذ مِن عَقْد الشيء وإحكامه، تقول العرب: قنطرتُ الشيءَ إذا أحكمتَه، ومنه سُميت القنطرة، لإحكامها. قال طَرَفة[٧]:

كَقَنْطَرَةِ الرُّوميِّ أقسَمَ ربُّها ... لَتُكْتَنَفَنْ حتى تُشَادَ بقَرْمَدِ

---

(١) سنن ابن ماجه (١٨٥٩)، وفي إسناده عبد الرحمن بن زياد الإفريقي، وهو ضعيف، فيما ذكره الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب ص٢٨٢. قوله: «خَرْماء» أي: مثقوبة الأذن، أو التي قطعت وترةُ أنفها أو طرفُه. النهاية ٢/ ٢٧.

(٢) في (م): من البنين.

(٣) كما في الآيات ١٣ - ١٧ من سورة لقمان.

(٤) في النسخ: حمزة، وهو خطأ؛ والمثبت من المصادر.

(٥) أخرجه بنحوه أحمد في المسند (٢١٨٤٠)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٢٣٩ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وأورده بلفظ المصنف الطبرسيُّ في مجمع البيان ٢/ ٣٠ - ٣٩. قوله: «مجبنة محزنة» قال البغوي في شرح السنة ١٣/ ٣٦: أراد أن الرجل إذا كثر ولده، بخل بماله إبقاءً عليهم، وجَبُن عن الحروب استبقاءً لنفسه.

(٦) في معاني القرآن ١/ ٣٨٣، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٩، والكلام الذي قبله وما بين حاصرتين منه.

(٧) في ديوانه ص٢٥.

والقَنْطرة: المعقودة، فكأنَّ القِنطار عَقْدُ مال.

واختلف العلماء في تحرير حَدِّهِ كم هو على أقوال عديدة، فروَى أُبيُّ بنُ كعب عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «القِنطار ألفُ أُوقِيَّة ومئتا أُوقِيَّة»[١]. وقال بذلك معاذُ بن جبل، وعبد اللّه بن عمر، وأبو هريرة وجماعة من العلماء. قال ابن عطية[٢]: وهو أصحُّ الأقوال، لكن القِنطار على هذا يختلف باختلاف البلاد في قدر الأُوقيَّة.

وقيل: اثنا عشر ألف أُوقية، أسنده البُستيّ في «مسنده» الصحيح عن أبي هريرة، أن رسول اللّه ﷺ قال: «القِنطارُ اثنا عشرَ ألف أُوقيّة، الأُوقيّة خيرٌ مما بين السماء والأرض»[٣]. وقال بهذا القول أبو هريرة أيضاً[٤].

وفي «مسند» أبي محمد الدارميّ[٥] عن أبي سعيد الخدريّ قال: مَن قرأ في ليلة عشرَ آيات كُتِب من الذاكرين، ومَن قرأ بمئة آية كُتب من القانتين، ومَن قرأ بخمس مئة آية إلى الألف أصبح وله قِنطار من الأجر، قيل: وما القِنطار؟ قال: مِلْءُ مَسْكِ ثَوْرٍ ذهباً. موقوف، وقال به أبو نَضْرَة العَبْديّ[٦].

وذكر ابنُ سِيده أنه هكذا بالسُّريانية. وقال النقَّاش عن ابن الكلبي: إنه هكذا بلغة الروم.

وقال ابن عباس والضحَّاك والحسن: ألف ومئتا مِثقال من الفضة، ورَفعَه الحسن. وعن ابن عباس: اثنا عشر ألف درهم من الفضة، ومن الذهب ألفُ دينار دِيَةُ الرجل المسلم، ورُوي عن الحسن والضحّاك. وقال سعيد بن المسيّب: ثمانون

---

(١) أخرجه الطبري ٦/ ٢٤٤ - ٢٤٥، وفي إسناده مخلد بن عبد الواحد أبو الهذيل البصري؛ قال ابن حبان في المجروحين ٣/ ٤٣: منكر الحديث جداً. وأورد ابن كثير الحديث في تفسيره ٢/ ٢٠، وقال: هذا حديث منكر، والأقرب أن يكون موقوفاً على أُبيّ بن كعب كغيره من الصحابة.

(٢) في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٨، وما قبله منه.

(٣) صحيح ابن حبان (٢٥٧٣)، وهو في مسند أحمد (٨٧٥٨).

(٤) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٩.

(٥) الحديث (٣٤٥٨).

(٦) هو المنذر بن مالك بن قُطَعة، العوفي، البصري، المحدث، الثقة، توفي سنة (١٠٨هـ). السير ٤/ ٥٢٩.

ألفاً. قتادة: مئة رِطْل من الذهب، أو ثمانون ألف درهم من الفضة[١].

وقال أبو حمزة الثُّماليّ: القنطار بإفريقيَّة والأندلس ثمانية آلاف مِثْقال من ذهب أو فضة[٢].

السدّيّ: أربعة آلاف مثقال. مجاهد: سبعون ألف مثقال، ورُوي عن ابن عمر. وحَكَى مكيٌّ قولاً أنَّ القِنطار أربعون أُوقيَّة من ذهب أو فضة، وقاله ابن سِيدَه في «المحكم» وقال: القنطار بلغة بَرْبَر ألف مثقال. وقال الربيع بن أنس: القنطار المالُ الكثير بعضُه على بعض[٣]، وهذا هو المعروف عند العرب، ومنه قوله: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠]، أي: مالاً كثيراً. ومنه الحديث: إنَّ صفوانَ بنَ أُميَّة قَنْطَرَ في الجاهلية وقَنْطَرَ أبوه[٤]، أي: صار له قِنطارٌ من المال. وعن الحَكَم: القنطارُ هو ما بين السماء والأرض[٥].

واختلفوا في معنى «المُقَنْطَرَةِ»، فقال الطبري[٦] وغيرُه: معناه المُضَعَّفة، وكأنّ القناطيرَ ثلاثةٌ، والمُقنطرةَ تسعٌ. ورُوي عن الفرّاء[٧] أنه قال: القناطيرُ جمع القنطار، والمُقنطرة جمع الجمع، فيكون تسعَ قناطير. السُّدِّيّ: المُقنطرة: المضروبة حتى

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٨ - ٤٠٩ . وأخرج الأقوال السابقة الطبري في تفسيره ٦/ ٢٤٥ - ٢٤٨ .

(٢) أورده ابن قتيبة في تفسير غريب بالقرآن ص١٠٢ ، ولم ينسبه، وأبو حيان في البحر ٢/ ٣٩٧ ، وأبو حمزة الثمالي: هو ثابت بن أبي صفية الأزدي، الكوفي، توفي في خلافة أبي جعفر، قال عنه أحمد وابن معين: ليس بشيء، وقال الدارقطني: متروك. تهذيب التهذيب ١/ ٢٦٤ .

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٨ - ٤٠٩ ، وأخرج الأقوال السابقة الطبري ٦/ ٢٤٨ - ٢٤٩ ، وفيهما قول السدي: القنطار: ثمانية آلاف مثقال.

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٤/ ١١٩ من قول أبي عبيدة. وصفوان بن أمية بن خلف القرشي الجمحي المكي: صحابي، أسلم بعد الفتح، وشهد اليرموك أميراً على كُردوس، توفي سنة (٤١هـ) ﷺ. السير ٢/ ٥٦٢

(٥) أورده البغوي في تفسيره ١/ ٢٨٤ .

(٦) في تفسيره ٦/ ٢٤٩ .

(٧) انظر معاني القرآن له ١/ ١٩٥ .

صارت دنانيرَ أو دراهم. مكيّ: المُقنطرة: المُكمَّلة[١]، وحكاه الهروي[٢]، كما يقال: بَدْرة[٣] مُبَدَّرَة، وَألفٌ[٤] مؤَلّفة. وقال بعضهم. ولهذا سُمِّي البناءُ القنطرةَ لِتكاثف البناء بعضِه على بعض.

ابن كَيسان والفرّاء: لا تكون المُقنطرة أقلَّ من تسعة[٥] قناطير[٦]. وقيل: المُقَنْطَرة إشارةٌ إلى حضور المال وكونه عتيداً[٧].

وفي «صحيح» البُستي: عن عبد الله بن عمرو[٨] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ قامَ بعشر آياتٍ لم يُكتَبْ من الغافلين، ومَن قام بمئة آيةٍ كُتبَ من القانتين، ومَن قام بألف آية كُتب من المُقَنْطِرين».

الخامسة: قوله تعالى: ﴿مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ الذهب مُؤَنَّثة، يقال: هي الذَّهب الحسنةُ، جمعُها ذِهاب وذُهُوب. ويجوز أن يكون جمعُ ذهبة، ويجمع على الأَذْهَاب. وذهب فلانٌ مَذْهباً حسناً. والذَّهَب: مِكْيالٌ لأهل اليمن. ورجل ذَهِبٌ: إذا رأى مَعْدِنَ الذَّهب فَدَهِش. والفضّة معروفة، وجمعها فِضَضٌ[٩].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٩ ، ونقل المصنف عنه قول الطبريّ السالف، وأخرج قولَ السُّدِّيِّ الطبريُّ ٦/ ٢٥٠

(٢) انظر تهذيب اللغة ٩/ ٤٠٥ ، وفيه: المقنطرة: المُتَمَّمة.

(٣) في (خ) و(د) و(ف) و(م): بدر، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٠٢ . والبدرة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم، أو سبعة آلاف دينار. القاموس المحيط (بدر).

(٤) في (م): آلاف، وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٠٢ .

(٥) في (خ) و(د): سبعة، وفي (ظ): سبع، وفي (م): تسع، والمثبت من (ف).

(٦) نسب ابن عطية في المحرر الوجيز١/ ٤٠٩ والنحاس في إعراب القرآن هذا القول لابن كيسان وحده وذكر ابن عطية أيضاً أن المهدوي حكى عن ابن كيسان والفراء: لا تكون المقنطرة أكثر من تسعة.

(٧) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٩ .

(٨) في (د) و(ظ) و(م): عبدالله بن عمر، وهو خطأ، والمثبت من (خ) و(ف) وهو الموافق لصحيح ابن حبان (٢٥٧٢).

(٩) انظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٠ ، ومجمل اللغة ١/ ٣٦١ . وقوله: الذهب مؤنثة، كذا عند النحاس، وفي معاجم اللغة أن الذهب يُذكَّر ويُؤنَّث. وقوله: جمعها ذهاب، هذا أيضاً عند النحاس، وفي معاجم اللغة أن جمع الذَّهَب: أذهاب وذُهوب، وذُهبان. وانظر تهذيب اللغة ٦/ ٢٦٣ ، والقاموس المحيط، واللسان (ذهب).

فالذهب مأخوذة من الذَّهَاب، والفضة مأخوذة من انفَضّ الشيء تفرَّق[١]، ومنه فَضَضْتُ القوم فانفضُّوا، أي: فرَّقتُهم فتفرَّقوا، وهذا الاشتقاقُ يُشعر بزوالهما وعدم ثُبوتهما كما هو مُشاهَد في الوجود. ومن أحسن ما قيل في هذا[٢] قولُ بعضهم:

النّارُ آخرُ دِينارٍ نطقتَ به والهَمُّ آخِرُ هذا الدِّرْهِم الجاري

والمرءُ بينَهما إن كان ذا وَرَعٍ مُعذَّبُ القلبِ بين الهَمِّ والنارِ

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلِ﴾ الخيل مُؤنَّثة. قال ابن كيسان: حُدِّثت عن أبي عُبيدة أنه قال: واحدُ الخيل خائل، مثل: طائر وطير، وضائن وضَيْن، وسُمِّيَ الفرس بذلك لأنه يختال في مَشْيه[٣]. وقال غيره: هو اسم جمع لا واحدَ له من لفظه، واحده فرس[٤]، كالقوم والرَّهْط والنساء والإبل ونحوها.

وفي الخبر من حديث عليّ، عن النبيّ ﷺ: «إنَّ اللّه خلَق الفرسَ من الريح، ولذلك جعلَها تطيرُ بلا جناح»[٥]. وَهْبُ بن مُنَبِّه: خلَقها من ريح الجَنُوب. قال وهب: فليس من[٦] تسبيحةٍ ولا تكبيرة ولا تهليلة يُكبِّرها صاحبُها إلا وهو يَسمعه[٧]، فَيُجيبُه بمثلها[٨].

وسيأتي لذكر الخَيْل ووصفِها في سورة الأنفال[٩] ما فيه كفايةٌ إن شاء اللّه تعالى.

---

(١) انظر تفسير البغوي ١/ ٢٨٤ .

(٢) في (م): هذا المعنى.

(٣) في (ظ): مشيته.

(٤) انظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٠ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٩ .

(٥) أورده الثعلبي في قصص الأنبياء ص٣٠٥ عن أبي عبدالله عقيل الأنصاري بإسناده عن علي ﷺ. وأبو عبدالله عقيل لم نقف له على ترجمة، ولم نقف على إسناد الخبر، والضعف فيه ظاهر. والثعلبي ـ وهو أحمد بن إسحاق ـ قال فيه ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير ص٧٦ : والثعلبي في نفسه كان فيه خير ودين، ولكنه كان حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع.

(٦) لفظة: من، ليست في (م).

(٧) في (م): يسمعها.

(٨) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (١٣٠١) مطولاً، وهو من الإسرائيليات.

(٩) في تفسير الآية (٦٠) منها.

وفي الخبر[(١)]: إن اللّه عرضَ على آدمَ جميعَ الدوابِّ، فقيل له: اختَرْ منها واحداً، فاختار الفرس، فقيل له: اخترتَ عِزَّك، فصار اسمه الخير من هذا الوجه. وسُمِّيت خيلاً لأنها مَوْسُومَةٌ بالعِزِّ، فمن ركبَه اعتزَّ بِنِحْلة اللّه له، واختال[(٢)] به على أعداء اللّه تعالى. وسُمِّيَ فرساً لأنه يفترسُ مسافاتِ الجوِّ افتراسَ الأسد وَثَباناً، ويقطعُها كالالتهام بيديه على شيء خَبْطاً وتناولاً، وسُمِّي عربيّاً لأنه جِيء به من بعد آدمَ لإسماعيلَ جزاءً عن رفع قواعدِ البيت، وإسماعيلُ عربيٌّ، فصار له نِحلةً من اللّه تعالى فسمِّي عربياً[(٣)]. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «لا يدخل الشيطانُ داراً فيها فرسٌ عَتِيق»[(٤)]. وإنما سُمِّي عَتيقاً لأنه قد تخلَّص من الهَجانة[(٥)].

وقد قال ﷺ: «خيرُ الخيلِ الأدهمُ الأَقْرحُ الأَرْثمُ، [ثم الأقرحُ المحجَّل]، طلقُ اليمين، فإن لم يكن أدهمَ، فكُميت على هذه الشِّيَةِ». أخرجه الترمذيّ عن أبي قتادة[(٦)].

وفي مسند الدارميّ عنه أن رجلاً قال: يا رسول اللّه، إني أُريد أن أشتريَ فرساً [فأيُّها أشترِي؟] قال: «اِشْترِ أدهمَ، أرثَم، مُحجَّل[(٧)]، طَلْقَ اليمين، أو من الكُميت

---

(١) هو قطعة من قول وهب بن منبِّه السالف.

(٢) في (خ) و(د) و(ف) و(م): ويختال، والمثبت من (ظ).

(٣) تقدم نحو هذا الكلام ٢/ ٣٩٠، وذكر المصنف ثمة حديثاً موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١١٩٧، وأبو الشيخ في العظمة (١٣٠٥) من حديث عَريب المُليكي، وفي إسناده سعيد بن سنان أبو مهدي الحمصي؛ قال الذهبي في الميزان ٢/ ١٤٤: ضعّفه أحمد، وقال يحيى: ليس بشيء، وقال النسائي: متروك، وسيتكرر الخبر عند تفسير الآية (٦٠) من سورة الأنفال.

قوله: «فرس عتيق»: هو الرائع الكريم. اللسان (عتق).

(٥) الهجين من الخيل: الذي ولدته بِرْذَونة من حصان عربي، وفرس هجين: غير عتيق. انظر تهذيب اللغة ٦/ ٦٠ والقاموس المحيط (هجن).

(٦) سنن الترمذي (١٦٩٦)، وما بين حاصرتين منه، وهو في مسند أحمد (٢٢٥٦١). قال السندي كما في حاشية مسند أحمد: قوله: «الأدهم»، أي: الأسود. «الأقرح»: هو ما كان في جبهته قُرحة - بالضم - وهو بياض يسير دون الغُرّة. «الأرثم»: هو الذي أنفه أبيض وشفته العليا. «المحجل»: هو الذي في قوائمه بياض. «طلق اليمين»، أي: مُطلقُها، ليس فيها تحجيل. «فكُميت» بضم الكاف مصغّر: هو الذي لونُه بين السواد والحمرة، يستوي فيه المذكر والمؤنث. «على هذه الشِّية» بكسر الشين: هو اللون المخالف لغالب اللون.

(٧) كذا وقع في النسخ وسنن الدارمي: محجل، والجادة: مُحجَّلاً.

على هذه الشِّيَة، تغنَم وتسلَم»[١].

وروَى النسائيُّ عن أنس قال: لم يكن أحبَّ إلى رسول اللّه ﷺ بعد النساء من الخيل[٢].

وروَى الأئمةُ عن أبي هريرةَ أنّ رسول اللّه ﷺ قال: «الخيلُ ثلاثة: لرجلٍ أجرٌ، ولرجلٍ سِتْرٌ، ولرجل وِزْرٌ» الحديث[٣] بطوله، شُهرته أغنتْ عن ذكره. وسيأتي ذكر أحكام الخيل في «الأنفال» و«النحل»[٤] بما فيه كفاية إن شاء اللّه تعالى.

السابعة: قوله تعالى: ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ يعني الراعية في المُروج والمسارح، قاله سعيد ابنُ جُبير. يقال: سامَت الدابةُ والشاةُ إذا سَرَحَتْ، تسومُ سَوْماً، فهي سائمة. وأَسَمْتُها أنا: إذا تركتُها لذلك، فهي مُسامَة. وسوَّمتها تسويماً فهي مُسوَّمة[٥].

وفي «سنن» ابن ماجه[٦] عن عليّ قال: نهى رسولُ اللّه ﷺ عن السَّوْمِ قبل طلوعِ الشمس، وعن ذَبْح ذواتِ الدَّرِّ. السَّوم هنا في معنى الرعي. وقال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠]. قال الأخطل[٧]:

مثل ابنِ بَزْعةَ[٨] أو كآخَرَ مثلِهِ أَوْلَى لك ابنَ مُسِيمَةِ الأَجْمالِ

أراد: ابنَ راعية الإبل. والسَّوَام: كل بَهيمة تَرْعَى، وقيل: المُعَدَّة للجهاد، قاله ابن زيد. مجاهد: المُسَوَّمَة: المُطَهَّمَة الحِسان. وقال[٩] عِكرمة: سوَّمها الحُسن،

---

(١) سنن الدارمي (٢٤٢٨)، وما بين حاصرتين منه.

(٢) المجتبى ٦/ ٢١٧ - ٢١٨، وفي الباب عن معقل بن يسار ﷺ عند أحمد (٢٠٣١٢).

(٣) أخرجه أحمد (٧٥٦٣)، والبخاري (٢٣٧١)، ومسلم (٩٨٧).

(٤) عند تفسير الآية (٦٠) من الأنفال، وتفسير الآية (٨) من النحل.

(٥) انظر المحرر الوجيز ١/ ٤٠٩، وقول سعيد أخرجه الطبري ٦/ ٢٥٢.

(٦) الحديث (٢٢٠٦).

(٧) في ديوانه ص ١٥٩.

(٨) وقع في (خ): ضل ابن زرعة، وفي (د): ظل ابن زرعة، ولم تتبين في (ظ)، والمثبت من الديوان، قال شارحه: ابن بزعة: يعني شداد بن المنذر أخا حصين الذُّهلي، وبزعة أُمُّه، وروايته في الأغاني ٨/ ٣١٩: كابن البزيعة.

(٩) في النسخ: وقاله، والمثبت من (م).

واختاره النحاس[١]، من قولهم: رجل وَسِيم. ورُوي عن ابن عباس أنه قال: المسوَّمة المُعْلَمة بِشِيات الخيل في وجوهها، من السِّيما، وهي العلامة[٢]. وهذا مذهب الكِسائيّ وأبي عُبيدة[٣]. قلت: كل ما ذكر يَحتمله اللفظ، فتكون راعيةً مُعَدَّةً حِساناً مُعْلَمَةً لِتُعرفَ من غيرها.

قال أبو زيد: أصلُ ذلك أن تجعلَ عليها صُوفةً أو علامةً تخالف سائر جسدها لتبين من غيرها في المرعى[٤].

وحكى ابن فارس اللغويّ في «مجمله»[٥]: المسَوَّمَة: المُرْسَلَة وعليها رُكبانها. وقال المُؤرِّج: المسوَّمة: المَكْوِيَّة. المبرّد: المعروفة في البلدان. ابن كَيْسان: البُلْقُ[٦]. وكلُّها متقارب من السِّيما. قال النابغة[٧]:

وضُمْرٍ كالقِداح مُسَوَّماتٍ عليها مَعْشَرٌ أشْباهُ جِنٍّ

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ قال ابن كَيْسان: إذا قلت: نَعَمٌ، لم تكن إلَّا للإبل، فإذا قلت: أنعامٌ وقعتْ للإبل وكلِّ ما يرعى[٨]. قال الفرّاء: هو مُذَكَّر ولا يؤنّث، يقولون: هذا نَعَمٌ واردٌ، ويُجمع أنعاماً[٩]. قال الهَرَوِيّ[١٠]: والنَّعَم يذكّر ويؤنّث، والأنعام: المَواشي من الإبل والبقر والغنم، وإذا قيل: النَّعَم فهو الإبل

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٣٦٧ .

(٢) انظر المحرر الوجيز ١/ ٤٠٩ - ٤١٠ ، وأخرج الأقوال السابقة الطبري ٦/ ٢٥٢ - ٢٥٤ ، وقول عكرمة فيه: تسويمها الحُسن.

(٣) انظر مجاز القرآن ١/ ٨٩ ، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٣٦٧ .

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ١/ ٣٦٨ .

(٥) ١/ ٤٧٩ .

(٦) أورد قولي المؤرّج وابن كيسان ابنُ الجوزي في زاد المسير ١/ ٣٦٠ ، وقول المبرد أورده أبو حيان في البحر ٢/ ٣٩٨ .

(٧) هو الذبياني، والبيت في ديوانه ص١٢٤ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٠ .

(٩) الصحاح (نعم) وعنه نقل المصنف كلام الفراء، وفيه: يُجمع على نُعمان، مثل: حَمَل وحُملان . اهـ.

(١٠) انظر تهذيب اللغة ٣/ ١٣ .

خاصَّة. وقال حسان[١]:

وكانت لا يزالُ بها أَنِيسٌ خِلالَ مُروجِها نَعَمٌ وشَاءُ

وفي «سنن» ابن ماجه عن عُروة البارقيِّ يرفعه قال: «الإبلُ عِزٌّ لأهلها والغنم بركةٌ، والخيرُ معقودٌ في نواصي الخيل إلى يوم القيامة»[٢].

وفيه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الشاة من دوابِّ الجنة»[٣].

وفيه عن أبي هريرة قال: أمَرَ رسول الله ﷺ الأغنياءَ باتِّخاذ الغنم، والفقراء باتخاذ الدَّجاج. وقال: «عند اتِّخاذ الأغنياءِ الدجاج يأذَن الله تعالى بهلاك القُرى»[٤].

وفيه عن أُمِّ هانِئ أنّ النبيّ ﷺ قال لها: «اتّخذِي غَنَماً، فإنَّ فيها بركةً». أخرجه عن أبي بكر بن أبي شَيْبة، عن وكيع، عن هشام بن عُرْوة، عن أبيه، عن أمِّ هانئ، إسناد صحيح[٥].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ الحرث هنا اسمٌ لكل ما يُحْرَث، وهو مصدر سُمِّيَ به، تقول: حَرَثَ الرجلُ حَرْثاً: إذا أثار الأرضَ لمعنى[٦] الفِلاحَة، فيقع اسمُ الحِراثَة على زرع الحبوب وعلى الجَنّات وغير[٧] ذلك من نوع الفِلاحة[٨]. وفي

---

(١) في ديوانه ص ٥٨.

(٢) سنن ابن ماجه (٢٣٠٥)، وقوله منه: «الخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة» أخرجه أحمد (١٩٣٥٤)، والبخاري (٣٦٤٣)، ومسلم (١٨٧٣)، وسلف ٣/ ٢٤١.

(٣) سنن ابن ماجه (٢٣٠٦). قال البوصيري في الزوائد ٢/ ٢٧: هذا إسناد ضعيف، زَرْبي بن عبدالله، أبو يحيى الأزدي [وهو أحد رجال السند] متفق على ضعفه، وانظر ميزان الاعتدال ٢/ ٦٩.

(٤) سنن ابن ماجه (٢٣٠٧) قال البوصيري في الزوائد ٢/ ٢٨: هذا إسناد ضعيف، علي بن عروة تركوه، قال ابن حبان: يضع الحديث، وعثمان بن عبد الرحمن مجهول، والمتن ذكره ابن الجوزي في الموضوعات من حديث نافع عن عبدالله بن عمر.

(٥) سنن ابن ماجه (٢٣٠٤)، وهو في مسند أحمد (٢٧٣٨١).

(٦) في (د) و(ظ): بمعنى.

(٧) في (م): وعلى غير.

(٨) المحرر الوجيز ١/ ٤١٠.

الحديث: «أُحْرُثْ لدنياك كأنك تعيش أبداً[١]». يقال: حرثتُ واحترثت.

وفي حديث عبد اللّه: احْرُثُوا هذا القرآن[٢]، أي: فَتِّشُوه. قال ابن الأعرابيّ: الحرث التَفْتِيشُ، وفي الحديث: «أصدقُ الأسماء الحارِثُ»[٣] لأنَّ الحارث هو الكاسب، واحتراثُ المال كَسْبُه، .والمِحْرَاثُ: مِسْعَرُ النار[٤]، والحَرَاثُ مَجْرى الوَتَر في القوس، والجمع أَحْرِثة، وأحرثَ الرجل ناقتَه: أهْزَلها. وفي حديث معاوية: ما فعلتْ نَواضِحُكم؟ قالوا: حرَثْناها يومَ بَدْر. قال أبو عبيد[٥]: يعنون: هزلناها، يقال: حرثت الدابةَ وأحرثتها، لغتان.

وفي «صحيح» البخاريّ عن أبي أُمامة الباهِليِّ قال؛ وقد رأى سِكّةً وشيئاً من آلة الحرث، فقال: سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول: «لا يدخلُ هذا بيتَ قوم إلا دَخَله الذُّلُّ»[٦]. قيل: إنَّ الذُّلَّ هنا ما يلزَمُ أهلَ الشُّغلِ بالحرث من حقوق الأرض التي يُطالبهم بها الأئمة والسلاطين.

وقال المهلب: معنى قوله في هذا الحديث ـ واللّه أعلم ـ الحَضّ على مَعالي الأحوال وطلب الرزق من أشرف الصناعات، وذلك لما خَشِي النبيّ ﷺ على أمّته من الاشتغال بالحرث وتَضييع ركوب الخيل والجهاد في سبيل اللّه، لأنهم إن اشتغلوا بالحَرْث؛ غلَبتهم الأمم الراكبة للخيل المتعيشة من مكاسبها، فحضَّهم على التعيُّش من الجهاد؛ لا من الخُلود إلى عِمارة الأرض ولزوم المِهْنَة. ألا ترى أنَّ عمر قال:

---

(١) سلف ٣/ ٣٨٦.

(٢) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٤/ ٤٧٨ والكلام منه، وانظر مجمل اللغة ١/ ٢٣٠.

(٣) أخرجه أحمد (١٩٠٣٢)، وأبو داود (٤٩٥٠) من حديث أبي وهب الجُشمي، وإسناده ضعيف، فيه عقيل بن شبيب، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٨٨: لا يعرف هو ولا الصحابي إلا بهذا الحديث، تفرد به محمد بن مهاجر عنه.

(٤) وهو ما سُعِرَ به، كالمِسعار. القاموس (سعر). وقال في معجم متن اللغة: هو ما تحرك به النار حديداً كان أو خشباً لتسعر.

(٥) في غريب الحديث ٤/ ٢٦٥، وأورد خبر معاوية أيضاً الزمخشري في الفائق ٢/ ٣٨٣.

(٦) صحيح البخاري (٢٣٢١). قوله: سِكَّة، بكسر المهملة: هي الحديدة التي تحرث بها الأرض. فتح الباري ٥/ ٥.

تَمَعْدَدُوا واخْشَوْشِنُوا، واقطعُوا الرُّكُبَ، وَثِبُوا على الخيل وَثْباً؛ لا تَغلبنَّكم عليها رُعاةُ الإبل[١]. فأمرهم بملازمة الخيل، ورياضة أبدانهم بالوُثوب عليها.

وفي «الصحيحين» عن أنس بن مالك قال: قال النبيّ ﷺ: «ما مِن مسلم يَغْرِسُ غَرْساً، أو يَزْرَعُ زرعاً[٢]، فيأكلُ منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ، إلا كان له به صدقة»[٣].

قال العلماء[٤]: ذكَر اللّه تعالى أربعةَ أصناف من المال، كلُّ نوع من المال يتموَّل به صِنْفٌ من الناس، أمّا الذهب والفضة فيتموَّل بها التجار، وأمّا الخيل المسوَّمة فيتموَّل بها الملوك، وأمَّا الأنعام فيتموَّل بها أهل البَوادي، وأمّا الحرث فيتموَّل به[٥] أهل الرَّساتيق[٦]. فتكون فتنةُ كلِّ صنف في النوع الذي يتموَّل، فأمّا النساء والبنون ففتنةٌ للجميع.

العاشرة[٧]: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ما يُتَمتَّع به فيها، ثم يذهَب ولا يبقى. وهذا منه تزهيدٌ في الدنيا وترغيبٌ في الآخرة. روى ابن ماجه وغيره عن عبد اللّه بن عمرو[٨] أنّ رسول اللّه ﷺ قال: «إنما الدنيا متاعٌ، وليس من متاع الدنيا شيءٌ أفضلَ من المرأة الصالحة»[٩]. وفي الحديث: «اِزهَدْ في الدنيا يُحِبَّك

---

(١) لم نقف عليه بهذا السياق، وأخرجه أحمد (٣٠١)، وفيه: وألقوا الرُّكُبَ، وانزُوا نَزْواً، وعليكم بالمَعَدِّية. وابنُ حبان (٥٤٥٤) وفيه: واخشوشنوا، واخلولقوا.. وانزُوا نَزْواً.

قال السندي كما في حاشية المسند: عليكم بالمَعَدِّية (تمعدَدُوا): يريد خشونة العيش واللباس تشبهاً بمعَدِّ بن عدنان جَدِّ العرب وقوله: الرُّكُب: جمع ركاب، وهو موضع القدم في السَّرج. وقوله: وانزُوا نَزْواً، أي ثِبُوا على الخيل وثباً.

(٢) في (د) و(ز) و(ف) و(م): غرس غرساً وزرع زرعاً، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لما في البخاري ومسلم.

(٣) صحيح البخاري (٢٣٢٠)، وصحيح مسلم (١٥٥٣)، وهو في مسند أحمد (١٢٤٩٥).

(٤) القائل هو أبو الليث السمرقندي في تفسيره ١/ ٢٥١ - ٢٥٢.

(٥) في (م): بها.

(٦) قوله: الرساتيق: جمع رُستاق، وهو السواد والقُرى، انظر القاموس المحيط (رستق).

(٧) قوله العاشرة، لم ترد هنا في النسخ الخطية، بل وردت عند قوله: قال العلماء (السالف)، والمثبت من (م) وهو الأنسب.

(٨) في (د) و(ظ) و(ف) و(م): عمر، وهو خطأ، والمثبت من (خ) ومصادر الحديث.

(٩) سنن ابن ماجه (١٨٥٥)، وأخرجه أحمد (٦٥٦٧)، ومسلم (١٤٦٧) بنحوه.

اللّه»[(١)] أي: في متاعها من الجاه والمال الزائد على الضروريّ. قال ﷺ: «ليس لابن آدمَ حقٌّ في سوى هذه الخِصالِ: بيتٌ يَسكنُه، وثوبٌ يُوارِي عورتَه، وجِلْفُ الخبز والماء». أخرجه الترمذي من حديث المِقدام بن معدِ يكرب[(٢)]. وسُئل سهلُ بنُ عبد اللّه: بِمَ يسهُلُ على العبد تركُ الدنيا وكلِّ الشَّهوات؟ قال: بتشاغُله بما أُمِرَ به.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ ابتداءٌ وخبر. والمآب: المَرْجِع، آبَ يؤوبُ إياباً: إذا رجَعَ، قال امرؤ القيس[(٣)]:

وقد طوَّفْتُ في الآفاق حتى ... رضِيتُ من الغَنِيمَةِ بالإيابِ

وقال آخر[(٤)]:

وكلُّ ذي غَيْبَةٍ يؤُوبُ ... وغائِبُ الموتِ لا يؤوبُ

وأصلُ مآب: مَأْوَب، قُلبت حركةُ الواو إلى الهمزة، وأُبدل من الواو ألف، مثل: مَقال. ومعنى الآية: تقليل الدنيا وتحقيرُها، والترغيب في حسن المرجِع إلى اللّه تعالى في الآخرة[(٥)].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾.

منتهى الاستفهام عند قوله: «مِن ذلكم». «للّذينَ اتَّقَوا» خبرٌ مقدَّم، و«جناتٌ» رَفْع

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ، وفي إسناده خالد بن عمرو القرشي، قال أحمد وابن معين وابن عدي: أحاديثه موضوعة، وقال البخاري: منكر الحديث. وصححه الحاكم ٣١٣/٤ فتعقبه الذهبي بقوله: خالد وضاع. وانظر جامع العلوم والحكم ١٧٤/٢ .

(٢) سنن الترمذي (٢٣٤١)، وهو من حديث عثمان بن عفان، ﷺ، وليس من حديث المقدام بن معدي كرب ﷺ وهو في مسند أحمد (٤٤٠). وفي إسناده حُريث بن السائب؛ وقد وهم في رفعه، والصواب: عن بعض أهل الكتاب؛ كما ذكر الدارقطني في العلل ٢٩/٣ . وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية ٧٩٩/٢ : هذا حديث لا يصح. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح!.. قال النضر بن شُميل: جلف الخبز يعني ليس معه إدام.

(٣) في ديوانه ص٩٩ .

(٤) هو عَبيد بن الأبرص، والبيت في ديوانه ص٢٦ .

(٥) انظر المحرر الوجيز ٤١٠/١ .

بالابتداء. وقيل: مُنتهاه «عند رَبِّهم»، و«جنات» على هذا رفع بابتداء مضمر، تقديره: ذلك جناتٌ. ويجوز على هذا التأويل «جَنَّاتٍ» بالخفض بدلاً من «خيرٍ»، ولا يجوز ذلك على الأوَّل.

قال ابن عطية[١]: وهذه الآيةُ والتي قبلها نظيرُ قوله عليه الصلاة والسلام: «تُنْكَح المرأة لأربع: لِمالِها وحَسَبها وجمالها ودِينها، فاظْفَرْ بذاتِ الدِّين تَرِبَتْ يَداك» خرَّجه مسلم وغيره[٢]. فقوله: «فاظْفَرْ بذات الدِّين» مِثالٌ لهذه الآية. وما قبلُ مثالٌ للأُولى. فذكر تعالى هذه تسليةً عن الدنيا وتقويةً لنفوس تاركيها. وقد تقدّم[٣] في البقرة معاني ألفاظِ هذه الآية.

والرِّضوانُ مصدر من الرِّضا، وهو أنه إذا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ يقول اللّه تعالى لهم: «تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: يا ربَّنا، وأيُّ شيء أفضلُ من هذا؟ فيقول: رِضايَ، فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً» خرَّجه مسلم[٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ وعدٌ ووَعِيدٌ[٥].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلٌ من قوله: «للّذِين اتَّقوا»، وإن شئتَ كان رفعاً، أي: هم الذين، أو نصباً على المدح.

﴿رَبَّنَآ﴾ أي: يا ربَّنا. ﴿إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أي: صدَّقنا. ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ دعاء بالمغفرة. ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ تقدّم في البقرة[٦].

---

(١) في المحرر الوجيز ١/ ٤١٠، والكلام الذي قبله منه.

(٢) سلف ص٤٧ من هذا الجزء.

(٣) ١/ ٣٥٨.

(٤) برقم (٢٨٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وأخرجه أحمد (١١٨٣٥)، والبخاري (٦٥٤٩)، ولفظه عندهم: «أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

(٥) انظر المحرر الوجيز ١/ ٤١١.

(٦) ٣/ ٣٥٧.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يعني عن المعاصي والشَّهوات، وقيل: على الطاعات. ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: في الأفعال والأقوال. ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ الطائعين. ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ يعني في سبيل اللّه. وقد تقدّم في البقرة هذه المعاني على الكمال[1]. ففسر تعالى في هذه الآية أحوالَ المتقين الموعودين بالجنات[2].

واختُلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ فقال أنس بن مالك: هم السائلون المغفرةَ. قتادة: المُصلُّون[3].

قلت: ولا تناقض، فإنهم يُصلُّون ويستغفرون. وخَصَّ السَّحَرَ بالذكر، لأنه مَظَانُّ القَبول، ووقتُ إجابةِ الدعاء. قال رسول اللّه ﷺ في تفسير قوله تعالى مُخبِراً عن يعقوب عليه السلام لِبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٩٨]: «إنه أخَّر ذلك إلى السَّحَر» خَرَّجَه الترمذي، وسيأتي[4]. وسأل النبيُّ ﷺ جبريلَ: «أيُّ الليل أسمعُ؟» فقال: لا أدري غير أنَّ العرشَ يهتزُّ عند السَّحَر»[5].

يقال: سَحَر وسَحْر، بفتح الحاء وسكونها، وقال الزجَّاج[6]: السَّحَر من حين

---

(١) ينظر ١/ ٢٧٣، ٣٥١ و٢/ ٦٥.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٤١١.

(٣) أخرجهما الطبري ٦/ ٢٦٥ - ٢٦٦، ولفظ قول أنس فيه: أُمرنا أن نستغفر بالأسحار سبعين استغفارة، وسيأتي قريباً.

(٤) سنن الترمذي (٣٥٧٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه أنه أخَّر الاستغفار حتى تأتي ليلة الجمعة. قال الترمذي: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم. وسيأتي بأطول من هذا في تفسير الآية (٩٨) من سورة يوسف. وأما القول بأنه أخَّر ذلك إلى السحر، فأخرجه الطبري ٦/ ٢٦١ - ٢٦٢ من قول ابن مسعود ﷺ.

(٥) لم نقف عليه بهذا السياق، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٠٠ من طريق حماد بن سلمة، وأحمد في الزهد ص٨٩، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٢٠٣ من طريق جعفر بن سليمان، كلاهما عن سعيد بن إياس الجريري قال: بلغنا أن داود سأل جبريل فقال: يا جبريل، أي الليل أفضل؟ قال: يا داود ما أدري، إلا أن العرش يهتز من السحر. وهو ضعيف لانقطاعه. ويغني عنه ما أخرجه أبو داود (١٢٧٧) بإسناد صحيح عن عمرو بن عبسة السلمي أنه قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الليل أسمع؟ قال: «جوف الليل الآخِر، فصلِّ ما شئت، فإنَّ الصلاة مشهودة مكتوبة».

(٦) انظر معاني القرآن له ١/ ٣٨٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٦٢. وينظر المحرر الوجيز ١/ ٤١١.

يُدبر الليلُ إلى أن يطلُعَ الفجر الثاني، وقال ابن زيد: السَّحر هو سُدس الليل الآخِر.

قلت: أصحُّ من هذا ما روَى الأئمة عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «ينزِلُ اللّه عزَّ وجلَّ إلى سماء الدنيا كلَّ ليلة حين يمضي ثلثُ الليل الأوّل، فيقول: أنا المَلِكُ، أنا[1] المَلِكُ، مَن ذا الذي يدعوني فأستجيبَ له، مَن ذا الذي يسألني فأُعطيَه، مَن ذا الذي يستغفرني فأغفِرَ له، ولا يزال[2] كذلك حتى يطلُعَ الفجر». في روايةٍ: «حتى يَنفجِرَ الصبح». لفظ مسلم[3].

وقد اختُلف في تأويله، وأولى ما قيل فيه ما جاء في كتاب النَّسائيّ[4] مفسَّراً عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي اللّه عنهما قالا: قال رسول اللّه ﷺ: «إنَّ اللّه عزَّ وجلَّ يُمهِلُ حتى يمضيَ شطرُ الليل الأوّل، ثم يأمُر منادياً فيقول: هل من داعٍ يُستجابُ له، هل من مُستغفِرٍ يُغفَرُ له، هل من سائل يُعطَى». صحَّحه أبو محمد عبد الحقّ[5]، وهو يرفع الإشكالَ، ويُوضح كلّ احتمال، وأنّ الأوّلَ من باب حذف المضاف، أي: ينزل مَلَكُ ربِّنا فيقول. وقد رُوي: «يُنزِل» بضم الياء[6]، وهو يُبيِّن ما ذكرنا، وباللّه توفيقنا.

وقد أتينا على ذكره في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء اللّه الحسنى وصفاته العُلى»[7].

مسألة: الاستغفار مندوبٌ إليه، وقد أثنى اللّه تعالى على المستغفرين في هذه الآية وغيرها، فقال: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وقال أنس بن مالك: أُمِرْنا أن نستغفر بالسَّحَر سبعين استغفارة[8].

---

(١) من هنا إلى ص١١٩ من هذا الجزء (الآية: ٣٨) سقط من (ف).

(٢) في (م): فلا يزال.

(٣) أخرجه أحمد (٩٤٣٦)، والبخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)، وفي رواية البخاري ورواية أخرى لمسلم: «حين يبقى ثلث الليل الآخِر» وذكر القاضي عياض في إكمال المعلم ٣/ ١١١ أنها الروايةُ الصحيحة.

(٤) في عمل اليوم والليلة (٤٨٢).

(٥) الأحكام الصغرى ١/ ٢٧٨.

(٦) انظر المفهم ٢/ ٣٨٦.

(٧) لم نقف عليه فيه.

(٨) أخرجه الطبري ٦/ ٢٦٦.

وقال سفيان الثوريّ: بلغني أنه إذا كان أوّلُ الليل نادى مُنادٍ: لِيَقُمِ القانتون. فيقومون كذلك يُصلُّون إلى السَّحَر، فإذا كان عند السَّحَر نادى مُنادٍ: أين المستغفرون، فيستغفر أولئك، ويقوم آخرون فيصلون فيلحقون بهم. فإذا طلَع الفجر؛ نادى مُنادٍ: ألا لِيقُم الغافلون، فيقومون من فُرشِهم كالموتى نُشِروا من قبورهم.

وروي عن أنس قال[١]: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «إنّ اللّه يقول: إني لأهُمُّ بعذاب أهل الأرض، فإذا نظرتُ إلى عُمَّار بيوتي، وإلى المتحابّين فيَّ، وإلى المتهجِّدين والمستغفرين بالأسحار، صَرفتُ عنهم العذابَ بهم»[٢].

قال مكحول: إذا كان في أُمَّة خمسةَ عشرَ رجلاً يستغفرون اللّه كلَّ يوم خمساً وعشرين مرةً، لم يؤاخذِ اللّه تلك الأُمّةَ بعذاب العامَّة. ذكره أبو نُعيم في كتاب «الحِلية»[٣].

وقال نافع: كان ابن عمر يُحيي الليلَ ثم يقول: يا نافع، أسَحَرْنا؟ فأقول: لا. فَيُعاوِدُ الصلاةَ ثم يسأل، فإذا قلت: نعم، قَعَد يستغفر.

ورَوَى إبراهيم بنُ حاطِب عن أبيه قال: سمعتُ رجلاً في السَّحَر في ناحية المسجد يقول: يا ربِّ، أمرتَني فأطعتُك، وهذا سَحَرٌ، فاغْفِرْ لي. فنظرتُ، فإذا ابنُ مسعود[٤]. قلت: فهذا كلُّه يدلُّ على أنه استغفارٌ باللسان مع حضور القلب، لا ما قال ابنُ زيد أنّ المرادَ بالمستغفرين الذين يُصلُّون صلاةَ الصبح في جماعة[٥]، واللّه أعلم.

---

(١) لفظة: قال، من (ظ).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩٠٥١) وفي إسناده صالح بن بشير المرّي، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير ١/ ٢٦٠.

(٣) ٥/ ١٨٣. ووقع في (م): الحلية له.

(٤) في (م): فإذا هو ابن مسعود، وأخرج هذا الأثر والذي قبله الطبري ٦/ ٢٦٦. وانظر المحرر الوجيز ١/ ٤١١.

(٥) أخرجه الطبري ٦/ ٢٦٧، وأورده ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤١١ من قول زيد بن أسلم.

وقال لقمانُ لابنه: يا بُنيَّ لا يَكُنِ الدِّيكُ أكيَسَ منك، يُنادِي بالأسحار وأنت نائم[١].

والمختار من لفظ الاستغفار ما رواه البخاريُّ عن شدَّاد بنِ أوس ـ وليس له في «الجامع» غيره ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن تقول: اللّهم أنت ربِّي لا إله إلا أنت، خلقتَني وأنا عبدُك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعتُ، أَبُوءُ لك بنعمتك عليَّ، وأبوءُ لك[٢] بذنبي، فاغفِرْ لي، فإنه لا يغفر الذنوبَ إلا أنت». قال: «ومَنْ قالَها من النهار مُوقناً بها، فماتَ من يومه قبل أن يُمسيَ، فهو من أهل الجنة، ومَنْ قالَها من الليل وهو مُوقِنٌ بها، فماتَ من ليله[٣] قبل أن يُصبحَ، فهو من أهل الجنة»[٤].

وروى أبو محمد عبد الغنيّ بنُ سعيد من حديث ابن لَهيعةَ، عن أبي صخر، عن أبي معاوية، عن سعيد بنِ جُبير، عن أبي الصَّهْباء البكريّ، عن عليِّ بن أبي طالب ﷺ أنّ رسول اللّه ﷺ أخذَ بيد عليِّ بن أبي طالب ﷺ، ثم قال: «ألا أُعلِّمك كلماتٍ تقولُهنَّ لو كانت ذنوبُك كَمَدبِّ النمل ـ أو كَمَدبِّ الذّرّ ـ لَغَفَرَها اللّه لك، على أنه مغفورٌ لك: اللّهم لا إله إلا أنت سبحانك، عَمِلتُ سوءاً وظلمتُ نفسي، فاغفِرْ لي، فإنه لا يغفر الذنوبَ إلا أنتَ»[٥].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥٦٩٨)، وأورده البغوي في تفسيره ١/ ٢٨٥ من قول الحسن.

(٢) قوله: «لك» ليس في (د) و(م).

(٣) في (ظ): من ليلته.

(٤) صحيح البخاري (٦٣٠٦)، وهو في مسند أحمد (١٧١١١).

(٥) ذكر الهندي في كنز العمال (٥٠٥٢) أنه في إيضاح الإشكال لعبد الغني بن سعيد، وزاد نسبته لابن أبي الدنيا في الدعاء. قلنا: وأخرجه من طريق ابن لهيعة ـ بهذا الإسناد ـ البيهقيُّ في الدعوات الكبير (١٩٠). وابن لهيعة ـ وهو عبدالله ـ ضعيف. وفي إسناده أيضاً محفوظ بن أبي توبة، وهو ضعيف كما في علل أحمد (٥١٣٤). وأبو صخر: هو حميد بن زياد. وأبو معاوية: هو عمار بن معاوية الدهني البجلي.

وأخرج أحمد (٨)، والبخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥) عن أبي بكر الصديق أنه قال لرسول الله ﷺ: علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي. قال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كبيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم». وفي رواية: ظلماً كثيراً.

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِالْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قال سعيد بن جُبير: كان حولَ الكعبة ثلاثُ مئة وستون صنماً، فلما نزلتْ هذه الآيةُ خَرَّتْ[١] سُجّداً[٢].

وقال الكلبيّ: لما ظهر رسولُ اللّه ﷺ بالمدينة قَدِمَ عليه حِبْران من أحبار أهل الشام، فلما أبصَرا المدينةَ قال أحدهما لصاحبه: ما أشبهَ هذه المدينة بصفة مدينة النبيِّ الذي يخرجُ في آخر الزمان! فلما دخلا على النبيِّ ﷺ، عَرَفاه بالصِّفة والنَّعْت فقالا له: أنت محمد؟ قال: «نعم»، قالا: وأنت أحمد؟ قال: «نعم»، قالا: نسألك عن شهادة، فإنْ أنت أخبرتَنا بها آمنَّا بك وصدَّقناك. فقال لهما رسول اللّه ﷺ: «سَلاني». فقالا: أخْبِرْنا عن أعظم شهادة في كتاب اللّه. فأنزل اللّه تعالى على نبيه ﷺ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِالْقِسْطِۚ﴾. فأسلمَ الرجلان، وصدَّقا برسول اللّه ﷺ[٣].

وقد قيل: إنّ المراد بأُولي العلم الأنبياءُ عليهم السلام. وقال ابن كَيْسان: المهاجرون[٤] والأنصار. مقاتل: مؤمنو[٥] أهل الكتاب. السدّيّ والكلبيّ: المؤمنون كلهم[٦]، وهو الأظهرُ، لأنه عامّ.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على فضل العلم وشَرَف العلماء وفضلهم، فإنه لو كان

---

(١) في (خ) و(د) و(م): خَرَزْن.

(٢) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٣٦٢، والسيوطي في الدر المنثور ٢/ ١٢ ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر، والله أعلم بصحته.

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٩٢، وابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٣٦٢.

(٤) في النسخ: المهاجرين، والمثبت من (م).

(٥) في النسخ: مؤمني، والمثبت من (م).

(٦) أورد هذه الأقوال البغوي في تفسيره ١/ ٢٨٦، وفيه قول مقاتل: علماء مؤمني أهل الكتاب، وقول السُّدّيّ والكلبيّ: يعني جميع علماء المؤمنين.

أحدٌ أشرفَ من العلماء لَقَرنَهم اللّه باسمه واسمِ ملائكته كما قَرَنَ اسمَ العلماء. وقال في شرف العلم لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. فلو كان شيء أشرفَ من العلم لأمر اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أن يسأله المزيدَ منه كما أمره[١] أن يَستزيدَه من العلم. وقال ﷺ: «إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء»[٢]. وقال: «العلماءُ أُمَناء اللّه على خَلْقه»[٣]. وهذا شَرَفٌ للعلماء عظيم، ومحلٌّ لهم في الدِّين خطير.

وخرَّج أبو محمد عبد الغنيّ الحافظ من حديث بَرَكَة بن نشيط ـ وهو غَنْكل[٤] بن حكارك، وتفسيره: بركة بن نَشِيط ـ وكان حافظاً، حدثنا عمر بن المُؤمل، حدثنا محمد بن أبي الخصيب، حدثنا غنكل، حدّثنا محمد بن اسحاق، حدثنا شَريك، عن أبي اسحاق، عن البراء قال: قال رسول اللّه ﷺ: «العلماءُ ورثةُ الأنبياء، يُحبُّهم أهلُ السماء، ويستغفرُ لهم الحِيتانُ في البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة»[٥]. وفي هذا الباب[٦] عن أبي الدرداء، خرَّجه أبو داود[٧].

الثالثة: روى غالبُ القطَّان قال: أتيت الكوفةَ في تجارة، فنزلتُ قريباً من الأعمش، فكنت أختلف إليه. فلما كان ليلة أردتُ أن أنحدرَ إلى البصرة قام فتهجد

---

(١) في (م): أمر.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢) من حديث أبي الدرداء ﷺ مطولاً وفيه قصة. وأورده البخاري في صحيحه في ترجمة كتاب العلم؛ باب: العلم قبل القول والعمل (فتح الباري ١/ ١٥٩ - ١٦٠).

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١١٥) من حديث أنس ﷺ. وحسنه السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ١٥٢ والعامري في شرح الشهاب فيما ذكره المُناوي في فيض القدير ٤/ ٣٨٢.

(٤) في النسخ: عنكل (في الموضعين) والمثبت من نزهة الألباب في الألقاب للحافظ ابن حجر ٢/ ٤٧، فقد قيَّده بمعجمة، ثم مثلثة، بوزن جعفر، ووقع في مطبوع موضح أوهام الجمع والتفريق ٢/ ٣٥٧: غتكل؛ بالتاء.

(٥) نسبه السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ١٥٣ لابن النجار من حديث أنس، ورمز لضعفه، وتعقبه المناوي في فيض القدير ٤/ ٣٨٥، بأنه خرَّجه أبو نعيم والديلمي والحافظ عبد الغني، وغيرهم، بعضهم من حديث أنس، وبعضهم من حديث البراء، ونقل عن الحافظ ابن حجر قوله فيه: له طرق وشواهد، يعرف بها أن للحديث أصلاً.

(٦) بعدها في (م): حديث.

(٧) رقم (٣٦٤١)، وفيه: «إن العلماء ورثة الأنبياء» وقد سلف قريباً. وهو عند أحمد (٢١٧١٥).

من الليل، فقرأ بهذه الآية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾، قال الأعمش: وأنا أشهدُ بما شَهِد اللّه به، وأستودعُ اللّهَ هذه الشهادةَ، وهي لي عند اللّه وديعةٌ، وأنّ الدين عند اللّه الإسلام ـ قالها مِراراً ـ فغَدوتُ إليه وودَّعتُه، ثم قلت: إني سمعتُك تقرأُ هذه الآيةَ، فما بلغكَ فيها؟ أنا عندك منذ سنة لم تُحدِّثني به. قال: واللّه، لا حدَّثتُك به سنةً. قال: فأقمتُ وكتبتُ على بابه ذلك اليوم، فلما مضت السنة قلت: يا أبا محمد، قد مضتِ السنة. قال: حدثني أبو وائل، عن عبد اللّه بن مسعود قال: قال رسولُ اللّه ﷺ: «يُجاءُ بصاحبها يومَ القيامة، فيقول اللّه تعالى: عبدي عَهِدَ إليَّ، وأنا أحَقُّ مَنْ وَفَى، أدْخِلوا عبدي الجنةَ».

قال أبو الفرج الجوزيّ: غالبٌ القطّان: هو غالب بن خُطّاف القطّان، يروي عن الأعمش حديث: «شَهِدَ اللّه»، وهو حديثٌ مُعْضَل[(١)]، قال ابن عَدِيّ: الضعف على حديثه بَيِّن. وقال أحمد بن حنبل: غالبُ بن خُطَّاف القطّان ثِقةٌ ثقة[(٢)]. وقال ابن مَعِين: ثِقة[(٣)]. وقال أبو حاتم: صدوق صالح[(٤)].

قلت: يَكفيكَ من عَدالته وثِقته أن خرَّج له البخاريّ ومسلمٌ في كتابيهما، وحسبك بهما[(٥)].

ورُوي من حديث أنس عن النبيّ ﷺ أنه قال: «مَنْ قرأ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

---

(١) كذا نقل المصنف رحمه الله عن ابن الجوزي في الضعفاء والمتروكين ٢/ ٢٤٤، ونقله ابن الجوزي عن ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٠٣٥، ولم يتبين لنا الإعضال فيه، ولم يُعِلَّ أحدٌ الحديثَ بالإعضال، إنما أعلوه بالراوي عن غالب بن خُطَّاف، كما فعل ابن الجوزي نفسه في العلل، فإسناد الحديث متصل، وهو من رواية عمار بن عمر بن المختار، عن أبيه، عن غالب بن خُطَّاف، به. كذا أخرجه البيهقي في الشعب (٢٤١٤)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٤٦). قال البيهقي: عمار بن عمر عن أبيه ضعيفان، وهذا لم يأت به غيرهما، وقال ابن الجوزي في العلل: هذا حديث لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ، تفرَّد به عمر بن المختار، وعمر يحدث بالأباطيل. وقال الذهبي في الميزان في ترجمة غالب بن خُطَّاف ٣/ ٣٣١: الآفة فيه من عمر، فإنه متهم بالوضع، فما أنصف ابن عدي في إحضاره هذا الحديث في ترجمة غالب.

(٢) علل أحمد ٢/ ٢٠٧.

(٣) اختلف قول ابن معين فيه، فقد نقل المزي في تهذيب الكمال ٢٣/ ٨٤ عنه توثيقه، ونقل عثمان الدارمي في تاريخه ص١٨٩ عنه تضعيفه، ونقل الذهبي في الميزان ٣/ ٣٣٠ قوله فيه: لا أعرفه.

(٤) الجرح والتعديل ٧/ ٤٨.

(٥) لفظة «بهما»، من (ظ).

﴿هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ عند مَنامه خَلَق اللّه له سبعين ألفَ ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة»[١]. ويقال: مَن أقرَّ بهذه الشهادة عن عَقْد من قلبه؛ فقد قام بالعَدْل. ورُوي عن سعيد بن جُبير أنه قال: كان حولَ الكعبة ثلاث مئة وستون صنماً؛ لكل حَيٍّ من أحْياء العرب صَنَمٌ أو صنمان. فلما نزلتْ هذه الآية أصبحت الأصنام قد خرَّتْ ساجدةً لله[٢].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ أي: بَيَّنَ وأعْلم، كما يقال: شَهِد فلانٌ عند القاضي إذا بيَّن وأعْلم لمن الحقُّ، أو على مَنْ هو.

قال الزجَّاج[٣]: الشاهد هو الذي يَعلم الشيء ويُبَيِّنه، فقد دَلّنا اللّه تعالى على وحدانيته بما خَلَق وبَيّن.

وقال أبو عُبَيْدة[٤]: «شهِد اللّه» بمعنى: قَضى اللّه، أي: أعلم. قال ابن عطية[٥]: وهذا مردودٌ من جهات.

وقرأ الكِسائي بفتح «أنّ» في قوله: «أنّه لا إله إلاّ هُو» وقولِه: «أنّ الدِّينَ»[٦]. قال المبرّد: التقدير: أنّ الدين عند اللّه الإسلام بأنه لا إله إلا هو، ثم حذفت الباء كما قال: أمرتُك الخيْرَ...[٧] أي: بالخير. قال الكِسائيّ: أنصِبهما جميعاً، بمعنى: شَهِد اللّه أنه كذا، وأنَّ الدين عند اللّه. قال ابن كيسان: «أنّ» الثانية بدل من الأُولى، لأنّ الإسلام تفسير المعنى الذي هو التوحيد.

وقرأ ابن عباس فيما حكَى الكِسائي: «شَهِدَ اللّهُ إنَّهُ» بالكسر، «أَنّ الدِّين» بالفتح. والتقدير: شَهِد اللّه أَنَّ الدين الإسلام، ثم ابتدأ فقال: إنه لا إله إلا هو. وقرأ أبو

---

(١) حديث موضوع، وسلف في الصفحة ٩ .

(٢) سلف في المسألة الأولى.

(٣) في معاني القرآن ١/ ٣٨٥ .

(٤) في مجاز القرآن ١/ ٨٩ .

(٥) في المحرر الوجيز ١/ ٤١٢ ، ونقل المصنف عنه قول أبي عبيدة السالف.

(٦) السبعة في القراءات ص٢٠٢ ، والتيسير ص٨٧ .

(٧) هو من بيت نسبه سيبويه في الكتاب ١/ ٣٧ لعمرو بن معدي كرب، وذكر البغدادي في الخزانة ٩/ ٣٤٣ اختلافاً في قائله على أربعة أقوال، وتمامه:

أمرتك الخيرَ فافعل ما أُمرت به ... فقد تركتُك ذا مالٍ وذا نشبِ

المُهلَّب ـ وكان قارئاً ـ: «شُهَدَاءَ لله»[١]، بالنصب على الحال[٢]، وعنه: «شُهَدَاءُ لله»[٣].

وروى شعبةُ، عن عاصم، عن زِرٍّ، عن أُبَيٍّ، عن النبيِّ ﷺ أنه كان يقرأ[٤]: «أن الدين عند الله الحنِيفية، لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسِية[٥]». قال أبو بكر الأنبارِيّ: ولا يخفَى على ذي تمييزٍ أنَّ هذا كلامٌ[٦] من النبيِّ ﷺ على جِهة التفسير، أَدخله بعضُ مَن نقل الحديثَ في القرآن.

و﴿قَآئِمَۢا﴾ نصب على الحال المؤكّدة من اسمه تعالى في قوله: «شَهِدَ اللّهُ»، أو مِن قوله: «إلّا هو». وقال الفرّاء[٧]: هو نصب على القطع، كان أصلُه: القائم، فلما قطعت الألف واللام نُصب، كقوله: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ [النحل: ٥٢]. وفي قراءة عبد الله: «القائمُ بالقسط» على النعت، والقِسْط العدل[٨].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ كرّر لأنّ الأُولى حَلَّتْ محلَّ الدعوى، والشهادةُ الثانية حلَّت محلَّ الحُكم.

وقال جعفر الصادق: الأُولى وصفٌ وتوحيدٌ، والثانية رَسْمٌ وتعليمٌ، يعني: قولوا: لا إله إلا الله العزيز الحكيم[٩].

---

(١) في (م): شهداء الله (في الموضعين). ويمكن قراءتها في (د) و(ظ): شُهُد الله، وهي مروية عن أبي المهلب، فيما ذكر أبو حيان في البحر ٢/ ٤٠٣، وقيدها بضم الشين والهاء، جمع شهيد.

(٢) انظر معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٦٩ - ٣٧١، وقراءة ابن عباس رضي الله عنهما ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٩، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤١٢. وقد ردَّ الطبري في تفسيره ٦/ ٢٦٨ على الكسائي قراءته بالنصب فيهما.

(٣) وذكر النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٦٢، أنه روي عنه أيضاً: شهداء الله، بالرفع والنصب.

(٤) في (خ) و(ظ): يقول.

(٥) أخرج نحوه أحمد (٢١٢٠٢)، والترمذي (٣٧٩٣) مطولاً. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٦) في (م): الكلام.

(٧) في معاني القرآن ١/ ٢٠٠.

(٨) انظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٢، والمحرر الوجيز ١/ ٤١٣.

(٩) زاد المسير ١/ ٣٦٢.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ الدِّين في هذه الآية الطاعةُ والمِلَّة، والإسلام بمعنى الإيمان والطّاعات. قاله أبو العالية، وعليه جُمهور المتكلّمين[(١)].

والأصل في مسمَّى الإيمان والإسلام التَّغايرُ، لحديث جبريل[(٢)]. وقد يكون بمعنى المُرَادفة. فَيُسمَّى كلٌّ واحد منهما باسم الآخر، كما في حديث وَفْد عبد القَيْس، وأنه أمرهم بالإيمان باللّه وحده وقال: «هل تدرون ما الإيمان؟» قالوا: اللّه ورسوله أعلمُ. قال: «شهادةُ أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً رسول اللّه، وإقامُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة، وصومُ رمضان، وأن تُؤَدُّوا خُمساً من المَغْنم» الحديث[(٣)]. وكذلك قوله ﷺ: «الإيمانُ بِضعٌ وسبعون باباً، فأدناها إماطةُ الأذى، وأرفعُها قولُ لا إله إلا اللّه» أخرجه الترمذي[(٤)]. وزاد مسلم[(٥)]: «والحياءُ شعبةٌ من الإيمان». ويكون أيضاً بمعنى التداخل، وهو أن يُطلق أحدهما ويُراد به مُسمَّاه في الأصل ومسمَّى الآخر، كما في هذه الآية إذ قد دخَل فيها التصديق والأعمال، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «الإيمانُ معرفةٌ بالقلب، وقولٌ باللسان، وعملٌ بالأركان» أخرجه ابن ماجه، وقد تقدّم[(٦)]. والحقيقةُ هو الأوّل وضعاً[(٧)] وشرعاً، وما عداه من باب

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤١٣.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر ﷺ والذي يسأل فيه جبريلُ عليه السلام النبيَّ ﷺ: ما الإيمان... ما الإسلام ... ما الإحسان...

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٢٠)، والبخاري (٥٣)، ومسلم (١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رقم (٢٦١٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو في مسند أحمد (٩٧٤٨). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) في صحيحه (٣٥)، وهو عند أحمد (٩٣٦١)، والبخاري (٩)، ولفظ البخاري: «الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان».

(٦) سنن ابن ماجه (٦٥).

(٧) في (د) و(ظ): وصفاً.

التوسُّع. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الآية. أخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب أنه كان على علم منهم بالحقائق، وأنه كان بَغْياً وطَلَباً للدنيا. قاله ابن عمر وغيره[١]. وفي الكلام تقديمٌ وتأخير، والمعنى: وما اختلف الذين أُوتوا الكتاب بَغْياً بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم، قاله الأخفش[٢].

قال محمد بن جعفر بن الزُّبير: المراد بهذه الآية النصارى، وهي توبيخٌ لنصارى نَجْران. وقال الربيع بن أنس: المرادُ بها اليهود. ولفظ «الذين أُوتوا الكتاب» يعمُّ اليهود والنصارى[٣]، أي: وما اختلف الذين أوتوا الكتاب ـ يعني في نبوّة محمد ﷺ ـ إلاّ مِنْ بعد ما جاءهم العلمُ. يعني: بيان صِفته ونبوَّته في كُتبهم. وقيل: أي: وما اختلف الذين أُوتوا الإنجيل[٤] في أمر عيسى، وفرَّقوا فيه القول، إلا من بعد ما جاءهم العلمُ بأنَّ الله إلهٌ واحد، وأنَّ عيسى عبدُ الله ورسولُه[٥].

و«بَغْياً» نصب على المفعول من أجله، أو على الحال من «الذين». والله تعالى أعلم[٦].

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ﴾ أي: جادلوك بالأقاويل المزوَّرة والمغالَطات، فأَسْنِدْ أمرَك إلى ما كُلِّفتَ من الإيمان والتَّبليغ، وعلى الله نصرُك[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤١٣، وأخرج قول ابن عمر رضي الله عنهما الطبري ٦/ ٢٧٧.

(٢) في معاني القرآن ١/ ٤٠١، وذكره الزجاج في معاني القرآن ١/ ٣٨٧، والنحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٦٢.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤١٣، وأخرج قولي محمد بن جعفر بن الزبير والربيع بن أنس الطبريُّ ٦/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

(٤) في (د): الكتاب.

(٥) انظر تفسير البغوي ١/ ٢٨٧.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤١٣.

(٧) المحرر الوجيز ١/ ٤١٣ ـ ٤١٤.

وقوله: «وَجْهِي» بمعنى ذاتي، ومنه الحديث: «سجد وجهي للّذي خلقه وصوَّره»[١].

وقيل: الوَجْهُ هنا بمعنى القَصْد، كما تقول: خرج فلانٌ في وجه كذا. وقد تقدَّم هذا المعنى في البقرة مستوفىً[٢]، والأوَّل أَوْلى. وعبَّر بالوجه عن سائر الذَّات؛ إذ هو أشرفُ أعضاء الشَّخص وأجمعُها للحواسِّ[٣]. وقال[٤]:

أسلمتُ وجهِي لمَنْ أسلَمَتْ ... له المُزْنُ تحمِلُ عَذْباً زُلالا

وقد قال حُذَّاق المتكلِّمين في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧]: إنها عبارةٌ عن الذَّات[٥].

وقيل: العملُ الذي يُقصَدُ به وجهُه[٦].

وقوله: «ومَنِ اتَّبَعَنِ»؛ «من» في محلِّ رفعٍ عطفاً على التّاء في قوله: «أَسْلَمْتُ» أي: ومنِ اتَّبعنِ أسلمَ أيضاً، وجاز العطفُ على الضَّمير المرفوع من غير تأكيدٍ للفصل بينهما.

وأثبت نافع وأبو عمرو ويعقوب ياء «اتَّبعنِ» على الأصل، وحذف الآخرون اتّباعاً للمصحف، إذ وقعت فيه بغير ياء[٧]. وقال الشاعر:

ليس تَخفَى يَسارَتي قَدْرَ يومٍ ... ولقد تُخْفِ شيمتي إعساري[٨]

---

(١) أخرجه أحمد (٧٢٩)، ومسلم (٧٧١) من حديث علي ﷺ مطولاً في صفة صلاة النبي ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٤٠٢٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) ٢/ ٣١٩.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤١٤.

(٤) زيدُ بن عمرو بن نُفيل، والبيت في سيرة ابن هشام ١/ ٢٣١، والمعارف ص٥٩، وتأويل مشكل القرآن ص٣٦٦ كلاهما لابن قتيبة، وتفسير الطبري ٢/ ٥١١، والأغاني ٣/ ١٢٨.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤١٤.

(٦) الذي عليه السَّلَف رضي الله عنهم إثبات صفة الوجه لله تعالى على ما يليق به، من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل.

(٧) تفسير البغوي ١/ ٢٨٧، وأثبتها نافع وأبو عمرو وصلاً، انظر السبعة ص٢٢٢ - ٢٢٣، والتيسير ص٩٣، وأثبتها يعقوب وصلاً ووقفاً، انظر النشر ٢/ ٢٤٧.

(٨) البيت في ديوان الأدب للفارابي ٣/ ٢٣٤، والصحاح واللسان (يسر)، والإنصاف لابن الأنباري ص٣٨٨

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ يعني اليهودَ والنَّصارى. «والأمِّيين» الذين لا كتاب لهم، وهم مشركو العرب.

«أأسْلَمْتُمْ» استفهامٌ معناه التَّقرير، وفي ضمنه الأمرُ، أي: أسلموا، كذا قال الطبريُّ[(١)] وغيره.

وقال الزجاج[(٢)]: «أأسلمتُم» تهديد. وهذا حسن، لأن المعنى: أأسلمتُم أم لا.

وجاءت العبارةُ في قوله: «فَقَدِ اهْتَدَوْا» بالماضي مبالغةً في الإخبار بوقوع الهُدى لهم وتحصيلِه.

و«البلاغ» مصدر بَلَغَ[(٣)]، بتخفيف عينِ الفعل، أي: إنَّما عليك أن تُبلِّغَ. وقيل: إنه ممَّا نُسخ بالجهاد. وقال ابن عطيَّة[(٤)]: وهذا يحتاجُ إلى معرفةِ تاريخ نزولها، وأما على ظاهر نزولِ هذه الآيات في وَفْد نَجْران فإنما المعنى: فإنما عليك أن تُبلِّغَ ما أُنزِل إليك بما فيه من قتالٍ وغيره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ قال أبو العبَّاس المبرِّد[(٥)]: كان ناسٌ من بني إسرائيل جاءهم النبيُّون يَدعونَهم إلى الله عزَّ وجلَّ

(١) في تفسيره ٦/ ٢٨١ - ٢٨٢.

(٢) في معاني القرآن ١/ ٣٩٠.

(٣) في النسخ: بالغ، والمثبت من (م).

(٤) في المحرر الوجيز ١/ ٤١٤ وما قبله منه، وعنه نقل المصنف كلام الطبري والزجاج.

(٥) كذا قال المصنف رحمه الله، ونقله عنه الشوكاني في فتح القدير ١/ ٣٢٧ - ٣٢٨، والذي في إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٣ وعنه نقل المصنف: أبو العالية، ولم نقف على كلام المبرد في كتبه التي بين أيدينا.

فقَتلوهم، فقام أناسٌ من بعدهم من المؤمنين، فأمَروهم بالإسلام فقتَلوهم، ففيهم نزلت هذه الآية.

وكذلك قال مَعْقِلُ بنُ أبي مسكين: كانت الأنبياءُ صلواتُ اللّه عليهم تجيءُ إلى بني إسرائيلَ بغير كتاب فيقتلونهم، فيقوم قومٌ ممن اتَّبعهم فيأمرون بالقسط ـ أي: بالعدل ـ فيُقْتَلون(١).

وقد رُوي عن ابن مسعود قال: قال النبيُّ ﷺ: «بئس القومُ قومٌ يقتلون الذين يأمُرون بالقِسْط من الناس، بئس القومُ قومٌ لا يأمرون بالمعروف ولا ينهَوْن عن المنكر، بئس القومُ قومٌ يمشي المؤمنُ بينهم بالتَّقيَّة»(٢).

وروى أبو عبيدة بنُ الجرَّاح أن النبيَّ ﷺ قال: «قتلت بنو إسرائيل ثلاثةً وأربعين نبيّاً من أوَّل النَّهار في ساعةٍ واحدة، فقام مئةُ رجلٍ واثنا عشر رجلاً من عبَّاد بني إسرائيل؛ فأمروا بالمعروف ونَهَوا عن المنكر، فقُتِلوا جميعاً في آخر النَّهار من ذلك اليوم، وهم الذين ذكرهم اللّه في هذه الآية»(٣). ذكره المهدويُّ وغيرُه.

وروى شعبة عن أبي إسحاق، عن أبي عُبيدة، عن عبد اللّه قال: كانت بنو إسرائيل تقتُلُ في اليوم سبعين نبيّاً، ثم تقوم سُوقُ بَقْلِهم من آخر النهار(٤).

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٧٥، وأخرجه الطبري ٦/ ٢٨٥، وابن أبي حاتم ٢/ ٦٢١.

(٢) لم نقف عليه بتمامه، وأخرج شطره الأخير ابن عدي في الكامل ٣/ ١٢٩٤، وفيه سوّار بن مصعب الهمداني، قال ابن عدي: عامة ما يرويه ليس محفوظاً، وهو ضعيف، اهـ. ونقل الذهبي في الميزان ٢/ ٢٤٦ بعد إيراده الحديث عن ابن معين قوله فيه: ليس بشيء، وعن البخاري: منكر الحديث، وعن النسائي: متروك، وعن أبي داود: ليس بثقة.

(٣) النكت والعيون ١/ ٣٨١، وأخرجه الطبري ٦/ ٢٨٥ - ٢٨٦، وابن أبي حاتم ٢/ ٦٢٠ - ٦٢١، والبغوي في تفسيره ١/ ٢٨٨.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٣، وأبو عبيدة ـ وهو عامر بن عبدالله بن مسعود ـ لم يسمع من أبيه كما في المراسيل لابن أبي حاتم ص١٩٦.

وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره (٦٣٦) من طريق شعبة، عن الأعمش، عن إبراهيم النخعي، عن أبي معمر الأزدي، عن ابن مسعود قال: كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاث مئة نبي... الخبر، ورجاله ثقات.

فإن قال قائلٌ: الذين وُعِظوا بهذا لم يَقتلوا نبيّاً؟ فالجواب عن هذا أنهم رَضُوا فعلَ من قَتل، فكانوا بمنزلته، وأيضاً فإنهم قاتلوا النبيَّ ﷺ وأصحابَه، وهَمُّوا بقتلِهم، قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾(١) [الأنفال: ٣٠].

الثانية: دلَّت هذه الآيةُ على أن الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر كان واجباً في الأمم المتقدِّمة، وهو فائدة الرِّسالة وخلافةُ النبوَّة. قال الحسن: قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ أمرَ بالمعروف ونهى عن المنكر، فهو خليفةُ اللّه في أرضه، وخليفةُ رسوله، وخليفةُ كتابه»(٢).

وعن دُرَّةَ بنتِ أبي لهبٍ قالت: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ وهو على المنبر فقال: مَن خيرُ الناس يا رسول اللّه؟ قال: «آمَرُهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله، وأوصلُهم لِرَحِمِه»(٣).

وفي التنزيل: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ ثم قال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٦٧-٧١]. فجعل تعالى الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر فرقاً بين المؤمنين والمنافقين، فدلَّ على أن أخصَّ أوصافِ المؤمن الأمْرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، ورأسُها الدعاءُ إلى الإسلام والقتالُ عليه. ثم إن الأمرَ بالمعروف لا يليقُ بكلِّ أحد، وإنما يقومُ به السلطان، إذْ كانت إقامةُ الحدود إليه، والتَّعْزيرُ[موكَلٌ] إلى رأيه، والحبسُ والإطلاقُ له، والنفيُ والتَّغريبُ، فينصِبُ في كلِّ بلدة رجلاً صالحاً قوياً عالماً أمِيناً ويأمره بذلك، ويُمضِي الحدودَ على وجهها من غير زيادة. قال اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١](٤).

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٧٥ - ٣٧٦ .

(٢) لم نقف عليه من طريق الحسن مرسلاً، كما ذكره المصنف، وأخرجه ابن عدي ٦/ ٢١٠٤ من حديث عبادة بن الصامت، وفي إسناده كادح العُرني، قال ابن عدي: وأحاديثه عامة ما يرويه غير محفوظة ولا يتابع عليه في أسانيده ولا متونه.

(٣) لفظ: لرحمه، من (م)، والحديث أخرجه أحمد (٢٧٤٣٤)، وإسناده ضعيف.

(٤) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ٣/ ٢١٦ وما بين حاصرتين منه.

الثالثة: وليس من شرط النَّاهي أن يكون عَدْلاً عند أهل السنَّة، خلافاً للمبتدِعة حيث تقول: لا يُغيِّره إلا عَدْل. وهذا ساقط؛ فإن العدالة محصورةٌ في القليل من الخَلْق، والأمْرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر عامٌّ في جميع الناس. فإن تشبَّثوا بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣] ونحوِه، قيل لهم: إنما وقع الذمُّ ها هنا على ارتكاب ما نَهَى عنه، لا على نَهْيه عن المنكر. ولا شكَّ في أن النَّهيَ عنه ممن يأتيه أقبحُ ممن لا يأتيه[1]، ولذلك يدور في جهنَّم كما يدور الحمار بالرَّحى، كما بيَّنَّاه في البقرة عند قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾[2].

الرابعة: أجمعَ المسلمون ـ فيما ذكر ابنُ عبد البرّ[3] ـ أن المنكَر واجبٌ تغييرُه على كلِّ مَن قَدَر عليه، وأنه إذا لم يلحقْه بتغييره إلّا اللَّومُ الذي لا يتعدَّى إلى الأذى؛ فإن ذلك لا يَجب أن يمنعَه من تغييره [بيده]، فإن لم يقدِر فبلسانه، فإن لم يقدِرفبقلبه، ليس عليه أكثرُ من ذلك. وإذا أنكر بقلبه فقد أدَّى ما عليه إذا لم يستطع سوى ذلك.

قال: والأحاديثُ عن النبيِّ ﷺ في تأكيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرةٌ جداً، ولكنها مقيَّدةٌ بالاستطاعة.

قال الحسن: إنما يُكَلَّم مؤمنٌ يُرجَى، أو جاهلٌ يُعلَّم، فأمَّا مَنْ وضعَ سيفَه أو سَوطَه وقال: اتَّقِني اتَّقِني[4]، فما لك وله؟!

وقال ابنُ مسعود: بِحسْبِ المرء إذا رأى منكراً لا يستطيعُ تغييرَه أن يَعلم اللّه من قلبه أنه له كارهٌ.

وروى ابنُ لَهِيعَةَ عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا يَحِلُّ لمؤمن أن يُذِلَّ نفسَه». قالوا: يا رسول اللّه، وما إذلالُه نفسَه؟ قال: «يتعرَّض من

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٦٦ .

(٢) ٢/ ٥٧ - ٥٨ .

(٣) في التمهيد ٢٣/ ٢٨١ - ٢٨٤ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في النسخ الخطية: اتقي اتقي، والمثبت من (م) والتمهيد ٢٣/ ٢٨٣ .

البلاء لِما يقومُ له»[١].

قلت: وخرَّجه ابنُ ماجه عن عليِّ بن زيد بن جُدْعان، عن الحسن، عن جُندب[٢]، عن حُذيفةَ، عن النبيِّ ﷺ، وكلاهما قد تُكُلِّم فيه.

ورُوي عن بعض الصحابة أنه قال: إن الرَّجلَ إذا رأى مُنكراً لا يستطيع النَّكيرَ عليه فليقل ثلاث مرات: اللّهم إن هذا منكر، فإذا قال ذلك؛ فقد فعل ما عليه.

وزعم ابن العربي[٣] أن مَن رجا زوالَه، وخاف على نفسه من تغييره الضَّربَ أو القتلَ، جاز له عند أكثر العلماء الاقتحامُ عند هذا الغَرَر، وإن لم يَرْجُ زوالَه فأيُّ فائدةٍ عنده. قال: والذي عندي أن النيَّة إذا خَلَصت[٤] فليقتحمْ كيف ما كان ولا يُبالي.

قلت: هذا خلافُ ما ذكره أبو عمر من الإجماع، وهذه الآية تدلُّ على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع خوفِ القتلِ، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧]، وهذا إشارةٌ إلى الإذاية.

الخامسة: روى الأئمة[٥] عن أبي سعيد الخدريِّ قال: سمعتُ رسولَ اللّه ﷺ يقول: «مَنْ رأى منكم منكراً فليُغيِّرْهُ بيده، فإن لم يَستطعْ فبلسانه، فإن لم يَسْتطِعْ فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان».

قال العلماء: الأمرُ بالمعروف باليد على الأُمراء، وباللّسان على العلماء،

---

(١) التمهيد ٢٣/ ٢٨٤ و ٢٤/ ٣١٣ - ٣١٤، وروايته من طريق عبدالله بن أبي حسان (ولم نعرفه) عن ابن لهيعة، وابن لهيعة خلَّط بعد احتراق كتبه، ولم يُذكر ابنُ أبي حسان هذا من الذين رَوَوْا عنه قبل احتراق كتبه.

(٢) في النسخ: عن الحسن بن جندب، وهو خطأ، والحديث في سنن ابن ماجه (٤٠١٦). وعلي بن زيد ابن جُدعان ضعيف، وهو في مسند أحمد (٢٣٤٤٤).

ورواه عبد الرزاق (٢٠٧٢١) عن الحسن وقتادة مرسلاً، ورواه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٨٢١) عن الحسن مرسلاً.

(٣) في أحكام القرآن ١/ ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٤) في النسخ الخطية: حصلت، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

(٥) أحمد (١١٠٧٣)، ومسلم (٤٩)، وأبو داود (١١٤٠) و(٤٣٤٠)، والترمذي (٢١٧٢)، والنسائي ٨/ ١١٢، وابن ماجه (١٢٧٥) و(٤٠١٣).

وبالقلب على الضُّعفاء، يعني لعوامِّ الناس. فالمنكر إذا أمكَنَ[١] إزالتُه باللسان للنَّاهِي فليفعلْه، وإن لم يُمكنْه إلا بالعقوبة أو القتل فلْيفعلْ، فإن زالَ بدون القتلِ لم يَجُزِ القَتْلُ، وهذا تُلُقِّي من قول الله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات:٩]. وعليه بنى العلماء أنه إذا دفع الصَّائلَ على النَّفس أو على المال عن نفسه، أو عن ماله، أو نفْسِ غيره، فله ذلك، ولا شيءَ عليه.

ولو رأى زيد عَمْراً وقد قصد مالَ بكرٍ، فيجب عليه أن يدفعه عنه إذا لم يكن صاحبُ المال قادراً عليه ولا راضياً به، حتى لقد قال العلماء: لو فَرَضْنا قَوَداً[٢].

وقيل: كلُّ بلدة يكون فيها أربعةٌ فأهلُها معصومون من البلاء: إمامٌ عادلٌ لا يَظلِم، وعالِمٌ على سبيل الهُدى، ومشايخُ يأمرون بالمعروف ويَنْهَوْن عن المنكر، ويُحرِّضون على طلب العلم والقرآن، ونساؤهم مستورات لا يَتبرَّجْنَ تبرُّجَ الجاهلية الأولى.

السادسة: روى أنس بنُ مالك قال: قيل: يا رسول الله، متى نترك[٣] الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر؟ قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلَكم». قلنا: يا رسول الله، وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: «المُلْكُ في صِغاركم، والفاحشةُ في كِبارِكم، والعلمُ في رُذَالتكم».

قال زيد: تفسير معنى قولِ النبيِّ ﷺ: «والعلمُ في رُذَالتكم» إذا كان العلمُ في الفُسَّاق. خرَّجه ابنُ ماجه[٤].

وسيأتي لهذا الباب مزيدُ بيان في «المائدة»[٥] وغيرها إن شاء الله تعالى. وتقدَّم معنى «فَبَشِّرْهُم» و«حَبِطَتْ» في البقرة[٦] فلا معنى للإعادة.

---

(١) في (م): يعني عوامَّ الناس، فالمنكر إذا أمكنت.

(٢) كذا في النسخ الخطية و(م).

(٣) في النسخ الخطية: يترك، والمثبت من (م)، وهو الموافق لمصدر الحديث.

(٤) في سننه (٤٠١٥)، وزيد: هو ابن يحيى بن عُبيد الخُزاعي، أحد رجال الإسناد.

(٥) في تفسير الآية (٧٩) منها.

(٦) ١/٣٥٨ و٣/٤٢٨.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى: قال ابن عباس: هذه الآيةُ نزلت بسبب أنَّ رسول اللّه ﷺ دخل بيت المِدْرَاس على جماعةٍ من يهود، فدعاهم إلى اللّه، فقال له نُعَيم بن عمرو والحارثُ ابنُ زيد: على أيِّ دينٍ أنت يا محمد؟ فقال النبيُّ ﷺ: «أنا[(١)] على مِلَّة إبراهيم». فقالا: فإن إبراهيم كان يهودياً. فقال النبيُّ ﷺ: «فهلُمّوا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم». فأبيا عليه، فنزلت الآية[(٢)].

وذكر النقَّاش أنها نزلت لأن جماعةً من اليهود أنكروا نبوَّة محمد ﷺ، فقال لهم النبيُّ: «هلمُّوا إلى التوراة ففيها صِفتي» فأبَوا[(٣)].

وقرأ الجمهور: «لِيَحْكُمَ»، وقرأ أبو جعفر يزيدُ بن القعقاع: «لِيُحْكَمَ» بضمِّ الياء، والقراءة الأولى أحسن؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩][(٤)].

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على وجوب ارتفاع المَدعُوِّ إلى الحاكم؛ لأنه دُعي إلى كتاب اللّه، فإن لم يفعل، كان مخالفاً يتعيَّن عليه الزجرُ بالأدب على قدر المُخالِف والمخالَف[(٥)]. وهذا الحكم جارٍ عندنا بالأندلس وبلادِ المغرب، وليس بالديار المصرية. وهذا الحكم الذي ذكرناه مبيَّن في التنزيل في سورة النور في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [٤٨-٥٠].

---

(١) في (خ) و (م): إني.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤١٥، وأخرجه الطبري ٦/ ٢٨٨ - ٢٨٩، وفي إسناده محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، وهو مجهول، كما في تقريب التهذيب.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤١٦.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٧٦، وقراءة أبي جعفر من العشرة، ينظر النشر ٢/ ٢٢٧ و ٢٣٩.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٦٧.

وأسند الزَّهراوي[١] عن الحسن أن رسول اللّه ﷺ قال: «مَن دعاه خصمُه إلى حاكمٍ من حُكّام المسلمين، فلم يُجب، فهو ظالمٌ، ولا حقَّ له»[٢].

قال ابن العربي[٣]: وهذا حديثٌ باطل. أما قولُه: «فهو ظالم» فكلامٌ صحيح. وأما قوله: «فلا حقَّ له» فلا يصحّ، ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق.

قال ابن خُوَيْزمَنداد المالكيّ: واجبٌ على كلِّ من دُعِيَ إلى مجلس الحاكم أن يُجيبَ ما لم يعلم أن الحاكم فاسق، أو يعلم عداوةً بين[٤] المدَّعي والمدَّعَى عليه.

الثالثة: وفيها دليلٌ على أن شرائعَ مَنْ قبلَنا شريعةٌ لنا إلَّا ما علِمنا نسخَه، وأنه يجبُ علينا الحكمُ بشرائع الأنبياء قبلَنا، على ما يأتي بيانُه.

وإنما لا نَقرأ التوراةَ ولا نعمل بما فيها؛ لأن مَن هي في يده غيرُ أمين عليها، وقد غيَّرها وبدَّلها، ولو علمنا أن شيئاً منها لم يتغيَّر ولم يتبدَّل، جاز لنا قراءتُه.

ونحو ذلك رُوِيَ عن عمر حيث قال لكعب: إن كنت تعلمُ أنها التوراةُ التي أنزلها اللّه على موسى بن عمران فاقرأها[٥].

وكان عليه الصلاة والسلام عالماً بما لم يغيَّر منها، فلذلك دعاهم إليها وإلى الحُكم بها.

وسيأتي بيانُ هذا في «المائدة»[٦] والأخبار الواردة في ذلك إن شاء اللّه تعالى. وقد قيل: إن هذه الآية نزلت في ذلك. واللّه أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

إشارةٌ إلى التَّولِّي والإعراض، واغترارٌ منهم في قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾

---

(١) في (د) و (م): الزهري، والمثبت من (خ) و (ظ)، وسيرد أيضاً ١٢/ ٢٩٤ (الطبعة المصرية)، والزهراوي هو عمر بن عبيد الله.

(٢) أخرجه أبو داود في المراسيل (٣٩١)، والجصاص في أحكام القرآن ٣/ ٣٢٩، والدارقطني ٤/ ٢١٤، والبيهقي ١٠/ ١٤٠ وقال: هذا مرسل.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٧٩.

(٤) في (م): من.

(٥) التمهيد ١٤/ ٣٨٧.

(٦) في تفسير الآية (٤١) منها.

[المائدة:١٨]، إلى غير ذلك من أقوالهم[١]. وقد مضى الكلامُ في معنى قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ في البقرة[٢].

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

خطابٌ للنبيِّ ﷺ وأمَّتِه على جهةِ التَّوقيفِ والتعجُّب، أي: فكيف يكون حالُهم، أو كيف يصنعون إذا حُشروا يومَ القيامة واضمحلَّت عنهم تلك الزخارفُ التي ادَّعَوْها في الدنيا، وجُوْزُوا بما اكتسبوه من كفرهم واجترائهم وقبيحِ أعمالهم[٣].

واللام في قوله: «ليوم» بمعنى «في»، قاله الكسائيُّ. وقال البصريُّون: المعنى: لحساب يوم[٤]. الطبريّ: لِما يَحدث في يوم[٥].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾.

قال عليٌّ ﷺ: قال النبيُّ ﷺ: «لمَّا أرادَ اللّه تعالى أن يُنزلَ فاتحةَ الكتاب، وآيةَ الكُرسيّ، وشهد اللّه، وقل اللّهمَّ مالك الملك، إلى قوله: بغير حساب؛ تعلَّقنَ بالعرش، وليس بينهنَّ وبين اللّه حجابٌ، وقلن: يا ربِّ تهبط بنا إلى دار الذّنوب، وإلى مَن يعصيك، فقال اللّه تعالى: وعزَّتي وجلالي، لا يقرأُكنَّ عبدٌ عَقِبَ كلِّ صلاةٍ مكتوبة إلّا أسكنتُه حظيرةَ القُدس على ما كان منه، وإلّا نظرتُ إليه بعيني المكنونة في كلِّ يوم سبعين نظرة، وإلا قضيتُ له في كلِّ يوم سبعين حاجةً، أدناها المغفرة، وإلا

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤١٦.
(٢) ٢/ ٢٢٤.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤١٦.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٤.
(٥) تفسير الطبري ٦/ ٢٩٤.

أعذتُه من كلِّ عدوٍّ ونصرتُه عليه، ولا يمنعُه من دُخول الجنة إلا أن يموت»[١].

وقال معاذ بنُ جبل: احتبستُ عن النبيِّ ﷺ يوماً، فلم أصلِّ معه الجمعة، فقال: «يا معاذ، ما منعك من صلاة الجمعة؟» قلت: يا رسول الله، كان ليوحنَّا بن بارِيا اليهودي عليَّ أوقِيَّة من تِبر، وكان على بابي يرصُدني، فأشفقتُ أن يحبِسني دونك. قال: «أتحبُّ يا معاذُ أنْ يقضيَ الله دَينَك؟» قلت: نعم. قال: «قل كلَّ يوم: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ، إلى قوله: بِغَيْرِ حِسَابٍ، رحمانَ الدُّنيا والآخرة ورحيمَهما، تُعطي منهما مَن تشاء، وتمنعُ منهما مَن تشاء، اقْضِ عنّي دَيني. فلو كان عليك مِلْءُ الأرض ذهباً لأدَّاه الله عنك»[٢].

خرَّجه أبو نعيم الحافظ أيضاً[٣] عن عَطاء الخُراسانيِّ أنَّ معاذَ بنَ جبل قال: علَّمَني رسولُ الله ﷺ آياتٍ من القرآن وكلماتٍ، ما في الأرض مسلمٌ يدعو بهنَّ وهو مكروبٌ، أو غارِمٌ أو ذو دَيْن، إلا قضى الله عنه، وفرَّج همَّه، احتبسْتُ عن النبيِّ ﷺ، فذكره. غريبٌ من حديث عطاء، أرسله عن معاذ.

وقال ابن عباس وأنس بن مالك: لما افتتحَ رسولُ الله ﷺ مكَّةَ، وواعدَ أمَّته مُلْكَ فارسَ والروم، قال المنافقون واليهود: هيهات هيهات! من أين لمحمد مُلْكُ فارسَ والروم؟! هم أعزُّ وأمنعُ من ذلك، ألم يكفِ محمداً مكةُ والمدينةُ حتى طمِع في مُلْك فارس والروم؟! فأنزل الله تعالى هذه الآية[٤].

وقيل: نزلت دامغةً لباطل نصارى أهل نَجران في قولهم: إن عيسى هو الله، وذلك أن هذه الأوصافَ تبيِّن لكلِّ صحيح الفطرةِ أنَّ عيسى ليس في شيءٍ منها[٥].

---

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (١٢٥)، والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق ٢/ ٤٢٧، والواحدي في الوسيط ١/ ٤٢٦، وابن الجوزي في الموضوعات (٢٥٣) وقال: هذا حديث موضوع، تفرد به الحارث بن عُمير، وأورده ابن حبان في المجروحين ١/ ٢٢٣ وقال: موضوع لا أصل له.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٠/ (٣٢٣) و(٣٣٢)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٨٦: في الراوية الأولى نصر بن مرزوق، ولم أعرفه، وسعيد بن المسيب لم يسمع من معاذ، وفي الرواية الثانية من لم أعرفه.

(٣) في حلية الأولياء ٥/ ٢٠٤. وعطاء الخراساني لم يسمع من معاذ. انظر تهذيب التهذيب ٣/ ١٠٨ - ١٠٩

(٤) أسباب النزول للواحدي ص٩٣، وتفسير البغوي ١/ ٢٨٩ - ٢٩٠، ولم نقف له على إسناد.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤١٦.

قال ابن إسحاق: أعلمَ اللّه عزَّ وجلَّ في هذه الآية بعنادِهم وكُفرهم، وأن عيسى ﷺ وإن كان اللّه تعالى أعطاه آياتٍ تدلُّ على نُبوَّته من إحياء الموتى وغير ذلك؛ فإن اللّه عزَّ وجلَّ هو المنفردُ بهذه الأشياء، من قوله: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فلو كان عيسى إلهاً، كان هذا إليه، فكان في ذلك اعتبارٌ وآيةٌ بيِّنة(١).

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ اختلف النحويُّون في تركيب لفظة «اللّهمَّ» بعد إجماعهم أنها مضمومةُ الهاء مشدَّدةُ الميم المفتوحة، وأنَّها منادى(٢)، وقد جاءت مخفَّفَة الميم في قول الأعشى:

كدَعْوَةٍ من أبي رِياحٍ يسمعُها اللَّهُمُ الكُبَارُ(٣)

قال الخليل وسيبويه(٤) وجميعُ البصريِّين: إن أصل اللّهم: يا اللّه، فلما استُعملت الكلمةُ دون حرف النداء الذي هو «يا» جعلوا بدلَه هذه الميم المشدَّدة، فجاؤوا بحرفين، وهما الميمان عِوضاً من حرفين، وهما الياء والألف، والضمَّة في الهاء هي ضمَّةُ الاسم المنادى المفرد.

وذهب الفرَّاء والكوفيُّون(٥) إلى أن الأصل في اللَّهم: يا اللّه أُمَّنا بخير، فحذف وخلط الكلمتين، وأنَّ الضمَّةَ التي في الهاء هي الضمةُ التي كانت في أُمَّنا؛ لما حُذفت الهمزةُ انتقلت الحركة(٦).

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٥.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤١٧.

(٣) ديوان الأعشى ص٣٣٣ وروايته: يسمعها لاهُهُ الكُبار، وتفسير الطبري ٦/ ٢٩٨، وخزانة الأدب ٢/ ٢٦٦.
قال البغدادي: أبو رياح: رجل من بني ضُبيعة، وهو حصن بن عمرو بن بدر، وكان قتل رجلاً من بني سعد ابن ثعلبة، فسألوه أن يحلف أو يعطي الدِّيَة، فحلفَ ثم قُتل بعد حلفته، فضربته العرب مثلاً لما لا يغني من الحلف. والكُبار، بضم الكاف وتخفيف الموحدة: صيغة مبالغة الكبير، بمعنى العظيم.

(٤) الكتاب ١/ ٢٥ و ٢/ ١٩٦.

(٥) معاني القرآن ١/ ٢٠٣، والزاهر لابن الأنباري ١/ ٥١.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤١٧ وعنه نقل المصنف قول الخليل وسيبويه والفراء.

قال النحاس(١): هذا عند البصريِّين من الخطأ العظيم، والقولُ في هذا ماقاله الخليلُ وسيبويه.

قال الزجَّاج(٢): مُحالٌ أن يُترك الضمُّ الذي هو دليلٌ على النِّداء المفرَد، وأن يُجعل في اسم اللّه ضمَّةُ أُمَّ، هذا إلحادٌ في اسم اللّه تعالى.

قال ابن عطية(٣): وهذا غلوٌّ من الزجَّاج، وزَعَم أنه ما سُمع قطّ: يا اللّه أُمَّ، ولا تقولُ العرب: يا اللّهُمَّ.

وقال الكوفيُّون: إنه قد يَدخل حرفُ النّداء على «اللَّهُمَّ»، وأنشدوا على ذلك قول الرَّاجز:

غـفـرْتَ أو عَـذَّبْـتَ يـا الـلّـهـمـا(٤)

آخر:

ومـا عـلـيـكِ أن تـقـولِـي كـلَّـمـا ... سبَّحْـتِ أو هَـلَّـلـتِ يـا الـلّـهُـمَّ مـا(٥)

أُرْدُدْ عـلـيـنـا شـيـخَـنـا مُـسَـلَّـمـا ... فـإنَّـنـا مـن خَـيـرِهِ لـن نُـعْـدَمـا(٦)

آخر:

إنِّـــي إذا مـــا حَـــدَثٌ أَلـــمَّـــا ... أقـولُ يـا الـلَّـهـمَّ يـا الـلَّـهـمَّـا(٧)

---

(١) في إعراب القرآن ١/ ٣٦٤ .

(٢) في معاني القرآن ١/ ٣٩٣ .

(٣) في المحرر الوجيز ١/ ٤١٧ .

(٤) البيت في الصحاح (ليه)، والإنصاف لابن الأنباري ١/ ٣٤٣ .

(٥) في (ظ): يا اللهمَّا، والمثبت من باقي النسخ، وذكر البغدادي في الخزانة ٢/ ٢٩٦ أن الزجَّاجي أنشده على أن «ما» تزاد قليلاً بعد «يا اللهمّ» .

(٦) الرجز في معاني القرآن للفراء ١/ ٢٠٣ ، وتفسير الطبري ٦/ ٢٩٧ ، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٣٩٤ ، والزاهر لابن الأنباري ١/ ٥١ ، والجمل للزجاجي ص١٦٥ ، وتهذيب اللغة ٦/ ٤٢٦ ، والإنصاف ١/ ٣٤٢ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤١٧ ، وخزانة الأدب ٢/ ٢٩٦ على اختلاف في بعض ألفاظه، ورواية الطبري: يا اللهما.

(٧) الرجز في نوادر أبي زيد ص١٦٥ ، والزاهر لابن الأنباري ١/ ٥١ ، وسر صناعة الإعراب لابن جني ١/ ٤١٩ و ٤٣٠ ، وتهذيب اللغة ٦/ ٤٢٦ ، وشرح المفصل ٢/ ١٦ ، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٣٤٠ ، والإنصاف ١/ ٣٤١ ، والخزانة ٢/ ٢٩٥ .

قالوا: فلو كانت الميمُ عوضاً من حرف النِّداء لما اجتمعا.

قال الزجَّاج[١]: وهذا شاذٌّ لا يُعرف قائلُه، ولا يترك له ما في[٢] كتاب اللّه، وفي جميع دِيوان العرب، وقد ورد مثلُه في قوله:

هما نفثَا في فيَّ من فَمَوَيْهِما   على النَّابِحِ العَاوِي أشَدَّ رِجَامِ[٣]

قال الكوفيُّون: وإنما تُزاد الميمُ مخفَّفةً في فَم وابْنِم، وأما ميم مشدَّدة فلا تُزاد[٤].

وقال بعض النحويِّين: ما قاله الكوفيُّون خطأ، لأنه لو كان كما قالوا، لكان يجب أن يُقال: «اللّهم»، ويُقتصر عليه؛ لأنه معه دعاء. وأيضاً[٥] فقد تقول: أنت اللّهم الرزَّاق. فلو كان كما ادَّعَوْا؛ لكنتَ قد فصلتَ بجملتين بين الابتداء والخبر.

وقال النَّضْرُ بنُ شُمَيْل: من قال: اللَّهم، فقد دعا اللّه تعالى بجميع أسمائه كلِّها.
وقال الحسن: «اللّهم» تجمعُ الدعاء[٦].

قوله تعالى: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ قال قتادة: بلغني أن النبيَّ ﷺ سأل اللّه عزَّ وجلَّ أن يُعطِيَ أمَّتَه مُلْكَ فارس، فأنزل الله هذه الآية[٧].

وقال مقاتل: سأل النبيُّ ﷺ أن يجعلَ اللّه له مُلْكَ فارس والروم في أمَّته، فعلَّمه

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٣٩٤.
(٢) في (م): ما كان في.
(٣) قائله الفرزدق، والبيت في ديوانه ص٧٧١ وفيه: تفلا... لجام، والكتاب ٣/ ٣٦٤ و ٦٢٢، والخزانة ٤/ ٤٦٠. قوله: هما نفثا: ضمير التثنية راجع إلى إبليس وابنه، ونفثا: ألقيا على لساني، والنابح: أراد به من يتعرض للهجوم والسبّ من الشعراء، وأصله في الكلب، ومثله العاوي، والرِّجام: مصدر راجمه بالحجارة، أي: راماه، جعل الهجاء كالمراجمة لجعْلِه كالكلب النابح. قاله البغدادي في الخزانة، وذكر أن الشاهد في البيت هو الجمع بين البدل والمبدل منه، وهما الميم والواو.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤١٧ وعنه نقل المصنف قول الزجاج.
(٥) في (ظ): لأنه معه دعاء، ودليله ما تقدم من قول بعضهم: إني ما حدث ألمَّا أقول يا اللهم يا اللهما، إلى غير ذلك مما جاء في كلام العرب المقتدى بأقوالهم في اللغة، وأيضاً...
(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤١٧.
(٧) أخرجه الطبري ٦/ ٣٠٠.

اللّه تعالى بأن يدعوَ بهذا الدعاء[١]. وقد تقدَّم معناه.

و «مالك» منصوبٌ عند سيبويه على أنَّه نداءٌ ثان، ومثله قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٤٦]، ولا يجوز عنده أن يُوصف اللّهم؛ لأنه قد ضُمَّت إليه الميم[٢]. وخالفه محمد بنُ يزيد وإبراهيم بن السَّريّ الزجَّاج فقالا[٣]: «مالك» في الإعراب صفةٌ لاسم اللّه تعالى، وكذلك ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

قال أبو علي: وهو مذهبُ أبي العباس المبرِّد، وما قاله سيبويه أصْوَبُ وأبْيَنُ؛ وذلك أنه ليس في الأسماء الموصوفة شيءٌ على حدِّ «اللّهم»؛ لأنه اسمٌ مفرَدٌ ضُمَّ إليه صوت، والأصوات لا تُوصف، نحو: غاقْ، وما أشبهه. وكان حكم الاسم المفرَد ألّا يوصَف، وإن كانوا قد وصفوه في مواضِعَ، فلما ضُمَّ هنا ما لا يُوصَف إلى ما كان قياسُه ألَّا يوصَف، صار بمنزلة صوتٍ ضُمَّ إلى صوت، نحو: حَيَّهل، فلم يُوصَف[٤].

و﴿ٱلْمُلْكِ﴾ هنا النبوَّةُ، عن مجاهد. وقيل: الغَلَبةُ. وقيل: المالُ والعبيدُ[٥]. الزجَّاج[٦]: المعنى: مالك العباد وما مَلَكُوا. وقيل: المعنى: مالك الدّنيا والآخرة[٧].

ومعنى ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ﴾ أي: الإيمانَ والإسلامَ. ﴿مَن تَشَآءُ﴾ أي: مَن تشاء أن تُؤتِيَه إياه، وكذلك ما بعدَه، ولا بدّ فيه من تقدير الحذف، أي: وتَنزِعُ المُلْكَ ممَّن تشاءُ أن تَنْزِعَه منه، ثم حُذف هذا، وأنشد سيبويه[٨]:

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٢٥٧، وينظر العُجاب لابن حجر ٢/ ٦٧٥.

(٢) الكتاب ٢/ ١٩٦ - ١٩٧.

(٣) في النسخ الخطية: وإبراهيم بن السري والزجَّاج فقالوا، وهو خطأ، فالزجَّاج هو إبراهيم بن السَّريّ. وكلام محمد بن يزيد (وهو المبرد) في المقتضب ٤/ ٢٣٩، وكلام الزجَّاج في معاني القرآن ١/ ٣٩٤، وقد نقلهما المصنف مع كلام سيبويه عن إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٥.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤١٧، وعنه نقل المصنف كلام أبي علي، ولم نقف عليه.

(٥) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٧٨، وأخرج أثر مجاهد الطبري ٦/ ٣٠٠ - ٣٠١.

(٦) معاني القرآن ١/ ٣٩٢.

(٧) النكت والعيون ١/ ٣٨٣ وعنه نقل المصنف كلام الزجاج.

(٨) في الكتاب ٢/ ٢٤٦ و ٣/ ٦٩ ونسب البيت للأسود بن يعفر، وهو في نوادر أبي زيد ص١٥٩، وأمالي ابن الشجري ١/ ١٩٣.

ألا هـل لـهـذا الـدَّهـرِ مـن مُـتـعـلَّـلِ على الناس مهما شاء بالناسِ يفعَلِ

قال الزجاج[١]: مهما شاء أن يفعلَ بالناس يفعل.

وقوله: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ يقال: عزَّ إذا غلب[٢]، ومنه ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣].

﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ ذَلَّ يَذِلُّ ذُلّاً؛ إذا غُلِبَ وعُلِيَ[٣] وقُهِر، قال طَرَفة:

بطيءٍ عن الجُلَّى سريعٍ إلى الخَنَا ذليلٍ، بأَجْماع الرِّجال مُلَهَّدِ[٤]

﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ أي: بيدك الخيرُ والشَّر، فحذف كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، وقيل: خَصَّ الخير؛ لأنه موضعُ دعاء ورَغبة في فضله. قال النقَّاش: بيدك الخير، أي: النَّصرُ والغنيمةُ[٥].

وقال أهلُ الإشارات: كان أبو جهل يملك المالَ الكثير، ووقع في الرَّسِّ يوم بدر، والفقراءُ صُهَيْب وبِلال وخبَّاب لم يكن لهم مال، وكان مُلكهم الإيمان. ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ تقيمُ الرسولَ يتيمَ أبي طالب على رأس الرَّسِّ حتى يُنادِيَ أبداناً قد انقلبت إلى القَلِيب: يا عُتْبَة، يا شَيْبَة. ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ أي صُهَيْبُ، أي بِلالُ، لا تعتقدوا أنَّا منعناكم من الدُّنيا ببغضِكم. ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ ما مَنْعُكم مِن عَجْز ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إنْعامُ الحقِّ عامٌّ يتولَّى من يشاء.

قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسُّدِّيّ في معنى قوله ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي

---

(١) في معاني القرآن له ١/ ٣٩٣، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٣٧٩، وعنه نقل المصنف كلام الزجاج وإنشاد سيبويه.

(٢) في (م): إذا علا وقهر وغلب.

(٣) في (د) و(ظ) و(م): علا، وهو خطأ، والمثبت من (خ).

(٤) معاني القرآن ١/ ٣٧٩ للنحاس. والبيت في ديوان طرفة ص٤٦. قوله: الجُلَّى: الأمر الجليل، والخنا: الفحشاء، يقول: إذا ناب القومَ أمرٌ جليل بطؤ عنه ولم يشارك في دفعه، وإن أحسّ بفساد ودناءة أسرع إلى ذلك ولم يتخلف عنه، والأجماع: جمع جُمْع، وهو قبض الرجل أصابعه، وشدّه إياها للَّكز، والملهّد: المدفّع. قاله الشنتمري في شرح الديوان.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤١٧.

﴿ٱلنَّهَارِ﴾ الآية، أي: تُدخلُ ما نَقصَ من أحدهما في الآخر، حتى يصيرَ النهارُ خمس عشرةَ ساعة، وهو أطولُ مايكون، والليلُ تسعَ ساعات، وهو أقصرُ ما يكون، وكذا ﴿تُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾. وهو قولُ الكلبيِّ، ورُوي عن ابن مسعود[١].

وتحتمل ألفاظُ الآية أن يدخلَ فيها تعاقُبُ الليل والنهار، كأنَّ زوالَ أحدِهما وُلوجٌ في الآخر.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ فقال الحسن: معناه: تُخرج المؤمنَ من الكافر، والكافرَ من المؤمن، ورُويَ نحوُه عن سَلْمَانَ الفارسيّ[٢].

وروى مَعْمَر عن الزُّهريِّ أن النبيَّ ﷺ دخل على نسائه؛ فإذا بامرأةٍ حسنةِ الهيئة، قال: «مَن هذه»؟ قلْن: إحدى خالاتك. قال: «ومن هي»؟ قلن: هي خالدة بنتُ الأسود بنِ عبدِ يغوث. فقال النبيُّ ﷺ: «سبحان الذي يُخرج الحيَّ من الميت». وكانت امرأةً صالحة، وكان أبوها كافراً[٣].

فالمرادُ على هذا القول موتُ قلبِ الكافر وحياةُ قلبِ المؤمن، فالموتُ والحياة مستعاران.

وذهب كثيرٌ من العلماء إلى أن الحياةَ والموتَ في الآية حقيقتان، فقال عِكرمة: هي إخراجُ الدَّجاجة وهي حيَّة من البيضة وهي ميتة، وإخراجُ البيضة وهي ميتة من الدَّجاجة وهي حيَّة.

وقال ابن مسعود: هي النُّطفةُ تَخرجُ من الرجل وهي ميتة وهو حيٌّ، ويَخرج الرجل منها حيّاً وهي ميتة.

وقال عِكرمة والسدّيّ: هي الحبَّةُ تَخرج من السُّنبُلَة، والسُّنبُلَة تَخرج من الحبَّة،

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤١٧ ، وتفسير أبي الليث ١/ ٢٥٧ ، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٣٨٠ ، وأخرج الآثار الطبري ٦/ ٣٠٢ - ٣٠٣ ، وابن أبي حاتم ٢/ ٦٢٥ .

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤١٨ . وأخرج الطبري القولين ٦/ ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٢٥٨ . وأخرجه كذلك عن الزهري مرسلاً عبد الرزاق في تفسيره ١/ ١١٧- ١١٨ ، وابن سعد في الطبقات ٨/ ٢٤٨ ، والطبري ٦/ ٣٠٨ .

والنَّواةُ من النَّخلة، والنَّخلةُ تَخرج من النَّواة، والحياة في النَّخلة والسُّنبُلَة تشبيه[(١)].

ثم قال: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير تضييقٍ ولا تَقتير، كما تقول: فلانٌ يُعطِي بغير حساب، كأنه لا يَحسب ما يُعطي[(٢)].

قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قال ابن عباس: نهى اللّه المؤمنين أن يُلاطفوا الكفارَ فيتَّخِذوهم أولياء[(٣)]، ومثلُه: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران:١١٨]. وهناك يأتي بيانُ هذا المعنى.

ومعنى ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي: فليس من حزب اللّه ولا من أوليائه في شيءٍ، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢]. وحكى سيبويه: هو مِنّي فرسخين، أي: من أصحابي ومعي[(٤)].

ثم استثنى، وهي:

الثانية: فقال: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ قال معاذ بنُ جبل ومجاهد: كانت التَّقِيَّة في جِدَّة الإسلام قبل قُوَّة المسلمين، فأما اليوم فقد أعزَّ اللّه الإسلام، [فليس ينبغي لأهل الإسلام] أن يتَّقوا من عدوِّهم[(٥)].

قال ابن عباس: هو أن يتكلَّمَ بلسانة وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان، ولا يقتلَ ولا يأتيَ مأثماً.

---

(١) المحرر الوجيز ١/٤١٨، وأخرج الآثار الطبري ٦/ ٣٠٤ و ٣٠٦، وابن أبي حاتم ٢/ ٦٢٦ - ٦٢٨.

(٢) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٨٢.

(٣) أخرجه الطبري ٦/ ٣١٣.

(٤) الكتاب ١/ ٤١٧ وفيه: أنت مني فرسخين، أي: أنت مني ما دمنا نسير فرسخين، ونقله المصنف عنه بواسطة معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٨٣.

(٥) تفسير البغوي ١/ ٢٩٢ وما بين حاصرتين منه.

وقال الحسن: التَّقيَّةُ جائزةٌ للإنسان إلى يوم القيامة، ولا تقيَّةَ في القتل[١].

وقرأ جابر بن زيد ومجاهد والضحَّاك: «إلَّا أن تَتَّقُوا منهم تَقِيَّةً»[٢].

وقيل: إن المؤمن إذا كان قائماً بين الكفّار؛ فله أن يُدارِيَهم باللسان إذا كان خائفاً على نفسه وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان. والتقيَّة لا تحِلُّ إلا مع خوفِ القتلِ أو القطعِ أو الإيذاءِ العظيم. ومَن أُكره على الكفر؛ فالصحيحُ أنَّ له أن يتصلَّبَ، ولا يجيب إلى التَّلفُّظِ[٣] بكلمة الكفر، بل يجوز له ذلك؛ على ما يأتي بيانُه في «النحل» إن شاء اللّه تعالى[٤].

وأمالَ حمزة والكسائيُّ «تقاة»، وفخَّم الباقون[٥]، وأصلُ «تُقاة»: وُقَيَة على وزن فُعَلَة، مثل تُؤَدَة وتُهَمَة، قُلبت الواو تاءً والياء ألفاً.

وروى الضحَّاك عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عبادةَ بنِ الصامت الأنصاريّ، وكان بدرياً نقيباً[٦]، وكان له حِلفٌ من اليهود، فلما خرج النبيُّ ﷺ يوم الأحزاب قال عبادة: يا نبيَّ اللّه، إن معي خمسَ مئة رجل من اليهود، وقد رأيتُ أن يخرجوا معي فأستظهرَ بهم على العدوّ، فأنزل اللّه تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية[٧].

وقيل: إنها نزلت في عمار بن ياسِر حين تكلَّم ببعض ما أراد منه المشركون، على ما يأتي بيانُه في «النحل»[٨].

قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ قال الزجَّاج[٩]: أي: ويحذِّرُكم اللّه إياه، ثم

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٨٣ ، وأخرج قول ابن عباس الطبري ٦/ ٣١٥ .

(٢) ذكرها الفراء في معاني القرآن ١/ ٢٠٥ ، والنحاس في معاني القرآن ١/ ٣٨٣ ، والبغوي في تفسيره ١/ ٢٩٢ ، وابن عطية في المحرر ١/ ٤١٩ ، وهي قراءة يعقوب من العشرة . انظر النشر ٢/ ٢٣٩ .

(٣) في (خ) و (ظ): ولا يجب التلفظ.

(٤) في تفسير الآية (١٠٦) منها، وانظر تفسير البغوي ١/ ٢٩٢ .

(٥) السبعة ص٢٠٤ ، والتيسير ص٤٩ .

(٦) في (د) و(ظ) و(م): تقياً، والمثبت من (خ)، وهو الصواب.

(٧) أسباب النزول للواحدي ص٩٦-٩٧ .

(٨) في تفسير الآية (١٠٦) منها.

(٩) في معاني القرآن ١/ ٣٩٧ .

استَغنَوْا عن ذلك بذا، وصار المستعمَل؛ قال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] فمعناه: تعلم ما عندي وما في حقيقتي، ولا أعلم ما عندك ولا ما في حقيقتك.

وقال غيره: المعنى: ويحذِّركم الله عقابَه، مثل ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. وقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ أي: مُغَيَّبي، فجُعلت النفس في موضع الإضمار؛ لأنه فيها يكون[١].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: وإلى جزاء الله المصيرُ. وفيه إقرارٌ بالبعث.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

فهو العالِمُ بخفيَّات الصُّدورِ وما اشتملت عليه، وبما في السماوات والأرض وما احتوَت عليه، علّامُ الغُيوب، لا يَعزُب عنه مِثقالُ ذرَّة، ولا يغيبُ عنه شيء، سبحانه لا إله إلا هو، عالمُ الغيب والشهادة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾.

«يوم» منصوبٌ متَّصلٌ بقوله: «ويُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ، يَوْمَ تَجِدُ». وقيل: هو متَّصلٌ بقوله: «وَإِلَى اللّهِ المَصِيرُ، يَوْمَ تَجِدُ»[٢]. وقيل: هو متَّصلٌ بقوله: «واللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، يَوْمَ تَجِدُ». ويجوز أن يكون منقطِعاً على إضمار: اذْكُرْ، ومثلُه قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ [إبراهيم: ٤٧ - ٤٨].

و«مُحْضَراً» حالٌ من الضميرِ المحذوفِ من صلةِ «ما»، تقديرُه: يوم تَجدُ كلُّ نفسٍ ما عملتْهُ من خيرٍ مُحضَراً[٣]. هذا على أن يكون «تَجِدُ» من وُجْدان الضالَّة.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٦ وعنه نقل المصنف كلام الزجاج.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٦.

(٣) مشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ١٥٥.

و«ما» من قوله ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ عطفٌ على «ما» الأولى. و«تَوَدُّ» في موضع الحال من «ما» الثانية[١].

وإن جعلتَ «تَجِدُ» بمعنى تعلمُ، كان «مُحْضَراً» المفعولَ الثاني، وكذلك تكون «تَوَدُّ» في موضع المفعول الثاني، تقديرُه: يوم تَجدُ كل نفسٍ جزاءَ ما عملت مُحضَراً.

ويجوز أن تكون «ما» الثانية رفعاً بالابتداء، و«تَوَدُّ» في موضع رفعٍ على أنه خبرُ الابتداء، ولا يجوز[٢] أن تكون «ما» بمعنى الجزاء؛ لأن «تَوَدُّ» مرفوع، ولو كان ماضياً لجاز أن يكون جزاءً، وكان يكون معنى الكلام: وما عملت من سُوءٍ وَدَّت لو أنَّ بينها وبينه أمداً بعيداً، أي: كما بين المشرق والمغرب. ولا يكون المستقبل إذا جعلتَ «ما» للشَّرط إلا مجزوماً، إلا أن تحملَه على تقدير حَذْفِ الفاء، على تقدير: وما عملَتْ من سوء فهي تَوَدُّ[٣].

أبو علي: هو قياسُ قولِ الفرَّاء عندي، لأنه قال في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١]: إنه على حذفِ الفاءِ.

والأَمَدُ: الغايةُ، وجمعُه آماد. ويقال: استولى على الأَمَد، أي: غَلَبَ سابقاً. قال النابغة[٤]:

إلَّا لِمثلِك أو مَنْ أنت سابِقُه سبْقَ الجَوادِ إذا استولى على الأَمَدِ

والأَمَدُ: الغضب، يقال: أمِدَ أَمَداً، إذا غَضِبَ غَضَباً[٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

الحُبُّ: المحبَّةُ، وكذلك الحِبُّ، بالكسر. والحِبُّ أيضاً الحبيب؛ مثلُ الخِدْن والخَدِين، يقال: أحبَّه فهو مُحَبٌّ، وحَبَّه يَحِبُّه، بالكسر، فهو مَحْبُوب. قال

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٢١.

(٢) في (م): ولا يصح.

(٣) وضعف هذا الوجه ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٢١.

(٤) ديوانه ص٣٣.

(٥) الصحاح (أمد).

الجوهري[١]: وهذا شاذٌّ؛ لأنه لا يأتي في المُضاعَفِ يَفْعِل بالكسر.

قال أبو الفتح: والأصل فيه حَبُب كظَرُف، فأُسكِنت الباء وأُدغِمت في الثانية.

قال ابنُ الدَّهَّان سعيد[٢]: في حَبَّ لُغتان: حَبَّ وأَحَبَّ، وأصل «حَبَّ» في هذا البناء: حَبُبَ، كَظُرفَ، يدل على ذلك قولُهم: حَبُبْت، وأكثر ما ورد فَعيل من فَعُل.

قال أبو الفتح: والدّلالة على أَحَبَّ قولُه تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] بضمِّ الياء، و﴿اتَّبِعوني يُحبِبْكُم الله﴾. و«حَبَّ» يَرِدُ على فَعُلَ، لقولهم: حَبِيب، وعلى فَعِلَ، لقولهم[٣]: محبوب. ولم يَرِد اسمُ الفاعل من حَبَّ، المتعدِّي، فلا يقال: أنا حَابٌّ. ولم يَرِد اسمُ المفعول من أَفْعَلَ إلّا قليلاً، كقوله:

مِنِّي بِمنزلةِ المُحَبِّ المُكْرَمِ[٤]

وحكى أبو زيد: حَبَبْتُه أحِبُّه[٥]. وأنشد:

فوالله لولا تَمْرُهُ ما حَبَبْتُهُ ... ولا كان أدْنى من عُوَيْفٍ وهاشِمِ[٦]

وأنشد:

لَعَمْرُكَ إنَّني وطِلَابَ مِصْرٍ ... لَكَالمُزْدادِ مِمّا حَبَّ بُعْدَا[٧]

---

(١) الصحاح (حبب) وما قبله منه.

(٢) ابن المبارك، أبو محمد، البغدادي النحوي، له شرح الإيضاح لأبي علي في ثلاثة وأربعين مجلداً، وشرح اللُّمَع لابن جني، توفي سنة (٥٩٦هـ). سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٨١.

(٣) في (د) و(ظ) و(م): كقولهم، وكذلك وقعت اللفظة الأخرى في (د) و(ظ).

(٤) صدره: ولقد نزلتِ فلا تظنّي غيرَه، وهو لعنترة في ديوانه ص١٦.

(٥) لم نقف على كلامه في النوادر، ولا مَن ذكره عنه.

(٦) البيت لغَيْلان بن شجاع النهشلي، وهو في الاشتقاق لابن دريد ص٣٨ برواية: من عُمَيرٍ وسالمِ، والكامل للمبرد ص ٤٣٨ برواية: وكان عياضٌ منه أدنى ومُشرِقُ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٨، والخصائص ٢/ ٢٢٠، وتهذيب اللغة ٤/ ٨، وشرح القصائد السبع ص٣٠١، والزاهر ١/ ٣٣١، والمخصص ١٢/ ٢٤٢ و١٤/ ١٧٦، وشرح المفصل لابن يعيش ٧/ ١٣٨، واللسان (حبب)، وشرح شواهد المغني ٦/ ١١٦، وخزانة الأدب ٩/ ٤٢٩، وروايته فيها: من عُبَيْدٍ ومُشرِقِ. قال البغدادي: وعُبَيد ومُشرِق: ابنا الشاعر.

(٧) البيت في الكامل ص٤٣٧، والاقتضاب لابن السيد البطليوسي ص٢٨٣، وشرح أبيات المغني ٦/ ١١٧ دون نسبة.

وحكى الأصمعيُّ فَتْحَ حرفِ المُضارعة مع الياء وحدَها.

والحُبُّ: الخابية، فارسيٌّ مُعرَّب، والجمع حِبَاب وحِبَبَةٌ، حكاه الجوهريُّ[١].

والآية نزلت في وفد نَجران إذْ زعموا أن ما ادَّعَوْه في عيسى حُبٌّ للّه عزَّ وجلَّ، قاله محمد بن جعفر بن الزبير.

وقال الحسن وابن جُريج: نزلت في قومٍ من أهل الكتاب قالوا: نحن الذين نُحِبُّ ربَّنا.

ورُوي أن المسلمين قالوا: يا رسول اللّه، واللّهِ إنا لنُحِبُّ ربَّنا، فأنزل اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾[٢].

قال ابن عرفة: المحبَّةُ عند العرب إرادةُ الشيءِ على قصدٍ له.

وقال الأزهريُّ: محبةُ العبدِ للّه ورسولِهِ طاعتهُ لهما، واتِّباعُه أمرَهما، قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾. ومحبَّةُ اللّه للعباد إنعامُه عليهم بالغفران[٣]، قال اللّه تعالى: ﴿إنَّ الله لا يحب الكافرين﴾ أي: لا يغفرُ لهم.

وقال سهل بن عبد اللّه: علامةُ حُبِّ اللّه حبُّ القرآن، وعلامةُ حبِّ القرآن حبُّ النبيِّ ﷺ، وعلامةُ حبِّ النبيِّ ﷺ حبُّ السنَّةِ، وعلامةُ حُبِّ اللّه وحبِّ القرآن وحبِّ النبيِّ ﷺ وحبِّ السنَّةِ حبُّ الآخرة، وعلامةُ حبِّ الآخرة أن يُحبَّ نفسَه، وعلامةُ حبِّ نفسِه أن يُبغض الدنيا، وعلامةُ بغضِ الدُّنيا ألَّا يأخذَ منها إلا الزَّادَ والبُلْغَة.

وروى أبو الدَّرداء عن رسول اللّه ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ قال: «على البِرِّ والتَّقوى والتَّواضعِ وذلَّةِ النفس» خرَّجه أبو عبداللّه الترمِذيُّ[٤].

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَن أراد أن يُحِبَّه اللّه فعليه بصِدْق الحديث، وأداءِ

---

(١) في الصحاح (حبب).

(٢) أخرج هذه الآثار الطبري ٦/ ٣٢٤- ٣٢٥، وينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٧.

(٣) الذي عليه السلف رضي الله عنهم أن المغفرة صفة، والمحبة صفة أخرى، ثابتة لله تعالى على الوجه الذي يليق به، من غير مشابهة لمحبة المخلوقين.

(٤) في نوادر الأصول ص٣٥٦ ولم نقف على إسناده.

الأمانة، وألّا يؤذيَ جارَه»[١].

وفي صحيح مسلم[٢] عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل فقال: إني أُحِبُّ فلاناً فأحِبَّه، قال: فيُحِبُّه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إنَّ اللّه يُحِبُّ فلاناً فأحِبُّوه، فيحبُّه أهلُ السماء، قال: ثم يُوضَعُ له القَبولُ في الأرض. وإذا أبغضَ عبداً دعا جبريل فيقول: إني أُبغضُ فلاناً فأبْغِضْه، قال: فيُبغِضُه جبريل، ثم يُنادي في أهل السماء: إن اللّه يُبغِضُ فلاناً فأبْغِضُوه، قال: فيُبغضونَه، ثم تُوضَع له البَغضاءُ في الأرض».

وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في آخر سورة مريم إن شاء اللّه تعالى[٣].

وقرأ أبو رجاء العُطارديُّ: «فاتّبِعُونِي يَحْبُبْكُم» بفتح الياء[٤].

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ عطفٌ على «يُحْبِبْكُم». وروى مَحبوب[٥] عن أبي عمرو بن العلاء أنه أدغم الراءَ من «يغفر» في الّلام من «لكم»[٦]. قال النحاس[٧]: لا يُجيزُ الخليلُ وسيبويه[٨] إدغامَ الرّاء في اللام، وأبو عمرو أجلُّ من أن يَغلَط في مثل هذا، ولعلَّه كان يُخفي الحركةَ كما يفعلُ في أشياءَ كثيرة[٩].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٧، وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٩٧٤٨)، ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان (٩٥٥١) ضمن حديث.

(٢) برقم (٢٦٣٧)، وأخرجه أحمد (٧٦٢٥)، والبخاري (٣٢٠٩).

(٣) في تفسير الآية (٩٦) منها.

(٤) في النسخ: فاتبعوني بفتح الباء، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٧، وذكر قراءة أبي رجاء ابن خالويه في شواذ القراءات ص٢٠، وابن عطية في المحرر ١/ ٤٢٢، وأبو حيان في البحر ٢/ ٤٣١.

(٥) هو محمد بن الحسن بن هلال، أبو جعفر البصري، مولى قريش، ولقبه محبوب وهو به أشهر، روى له البخاري مقروناً بغيره والترمذي. تهذيب الكمال ٢٥/ ٧٤.

(٦) قال ابن الجزري في النشر ٢/ ١٢ - ١٣: أدغم الراء في اللام أبو عمرو من رواية السوسي، واختلف عنه من رواية الدوري، والأكثرون [عنه] على الإدغام، والوجهان صحيحان عن أبي عمرو. وانظر السبعة ص١٢١، والتيسير ص٤٤-٤٥.

(٧) في إعراب القرآن ١/ ٣٦٧ - ٣٦٨ وما قبله منه.

(٨) الكتاب ٤/ ٤٤٨.

(٩) قال أبو حيان في البحر المحيط ٢/ ٣٦٣: قد اتفق على نقل إدغام الراء في اللام كبيرُ البصريين =

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ يأتي بيانه في «النساء»[(١)].

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ شرط، إلا أنه ماضٍ لا يُعرَب. والتقدير: فإن تولَّوا على كُفرهم، وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لا يرضى فعلَهم، ولا يغفرُ لهم، كما تقدّم.

وقال: «فإنّ الله» ولم يقل: «فإنه» لأنَّ العرب إذا عظَّمت الشيءَ أعادت ذكرَه، وأنشد سيبويه[(٢)]:

لا أرَى الموتَ يَسبِقُ الموتَ شيءٌ نَغَّصَ الموتُ ذَا الغِنَى والفَقِيرا

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا﴾ الآية. اصطفى: اختار، وقد تقدَّم في البقرة. وتقدَّم فيها اشتقاقُ آدم وكنيته[(٣)]، والتقدير: إن الله اصطفى دينَهم وهو دينُ الإسلام، فحذف المضاف. وقال الزجّاج[(٤)]: اختارهم للنبوّة على عالَمِي زمانِهم.

«ونوحاً» قيل: إنه مشتقٌّ من ناح يَنوح، وهو اسم أعجمِيٌّ؛ إلا أنه انصرف على ثلاثة أحرف[(٥)]، وهو شيخُ المرسَلين، وأوّلُ رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدمَ عليه السلام بتحريم البناتِ والأخَوات والعمّات والخالات وسائرِ القرابات، ومَن قال: إن إدرِيسَ كان قبلَه. من المؤرّخين، فقد وَهِمَ، على ما يأتي بيانُه في «الأعراف»

= ورأسُهم أبو عمرو بنُ العلاء، ويعقوب الحضرمي، وكبراء أهل الكوفة: الرؤاسي والكسائي والفرّاء، وأجازوه، ورَوَوْه عن العرب، فوجب قبوله والرجوع فيه إلى علمهم ونقلهم، إذ مَنْ عَلِمَ حجة على مَنْ لم يعلم. وانظر أيضاً البحر ٢/ ٤٣١ .

(١) في تفسير الآية (٥٩) منها.

(٢) لسواد بن عدي في الكتاب ١/ ٦٢ ، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٣٨٤ - ٣٨٥ وعنه نقل المصنف إنشاد سيبويه، وصحح البغدادي في الخزانة ١/ ٣٨١ نسبة البيت إلى عدي بن زيد.

(٣) ١/ ٤١٧ و ٢/ ٤٠٦ .

(٤) انظر معاني القرآن له ١/ ٣٩٩ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٨ .

إن شاء الله تعالى(١).

قوله تعالى: ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تقدَّم في البقرة معنى الآلِ وعلى ما يُطلَق مستوفى(٢).

وفي البخاريِّ عن ابن عباس(٣) قال: آلُ إبراهيم وآلُ عمران: المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨].

وقيل: آلُ إبراهيم: إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وأنّ محمداً ﷺ من آل إبراهيم. وقيل: آلُ إبراهيم نفسُه، وكذا آل عمران، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ [البقرة:٢٤٨](٤).

وفي الحديث: «لقد أُعْطِي مِزماراً مِن مزامِير آل داود»(٥).

وقال الشاعر:

ولا تَبْكِ مَيْتاً بعد مَيْتٍ أَجَنَّهُ عليٌّ وعبَّاسٌ وآلُ أبي بكرِ(٦)

---

(١) في تفسير الآية (٥٩) منها.

(٢) ٢/ ٨١.

(٣) علّقه عنه بصيغة الجزم قبل الحديث (٣٤٣١) (فتح الباري ٦/ ٤٦٩) ووصله الطبري ٦/ ٣٢٦، وابن أبي حاتم ٢/ ٦٣٥.

(٤) تفسير البغوي ١/ ٢٩٤.

(٥) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣) (٢٣٦) من حديث أبي موسى الأشعري، وأحمد (٢٢٩٦٩)، ومسلم (٧٩٣) (٢٣٥) من حديث بريدة الأسلمي، وأحمد (٨٦٤٦) و (٢٤٠٩٧) من حديث أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهم.

(٦) في النسخ: ولا تنس . . . أحبّه، والمثبت من المصادر. والبيت لأراكة الثقفي يرثي ابنه، وكان قتله بُسر ابن أرطاة، وهو ضمن أبيات في الكامل ص١٣٨٦، والفاضل ص٦٥، والتعازي والمراثي ص٣و٦٩، والعقد الفريد ٣/ ٣٠٦، والمؤتلف والمختلف للآمدي ص٦٨، والحماسة البصرية ١/ ٢٧٧، وأمالي المرتضى ١/ ٤٦١، وحماسة ابن الشجري ١/ ٤٧٩، والمحرر الوجيز ١/ ١٤٠ و ٤٢٣. قال الميمني في حواشي الفاضل، والمرصفي في رغبة الآمل ٨/ ١٥٧: أَجَنَّهُ: قَبَرَهُ ودفَنَه، وأراد بالميت رسول الله ﷺ، والمروي أن الذين نزلوا بقبره ﷺ هم علي بن أبي طالب، والفضل وقُثَم ابنا العباس، فذكر العباس وأراد ابنَيه، وأراد بآل أبي بكر عائشة أمَّ المؤمنين، حيث دُفن في بيتها، رضي الله عنهم جميعاً.

وقال آخر:

يُـلاقـي مـن تَـذَكُّـرِ آلِ لَيْـلى كما يَلْقَى السَّليمُ من العِدَادِ[١]

أراد من تذكُّرِ ليلى نفسِها.

وقيل: آلُ عمران آلُ إبراهيم، كما قال: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٍۗ﴾. وقيل: المرادُ عيسى؛ لأن أمَّه ابنةُ عمران. وقيل: نفسُه كما ذكرنا.

قال مقاتل: هو عمران أبو موسى وهارون، وهو عمرانُ بن يَصْهُر بن فاهاث بن لاوي بن يعقوب[٢].

وقال الكلبيُّ: هو عمران أبو مريم، وهو من ولد سليمان عليه السلام[٣].

وحكى السُّهيلي[٤]: عمران بن ماثان، وامرأتُه حَنَّة، بالنون.

وخصَّ هؤلاء بالذِّكر من بين الأنبياء؛ لأن الأنبياء والرسلَ بقضِّهم وقضيضِهم من نسلِهم. ولم يَنْصرف عمران؛ لأن في آخره ألفاً ونوناً زائدَتَيْن.

ومعنى قوله: «عَلَى العَالَمِينَ» أي: على عالَمِي زمانهم في قول أهل التفسير. وقال الترمذيُّ الحكيمُ أبو عبد الله محمد بن عليّ: جميع الخلقِ كلّهم. وقيل: «عَلَى العَالَمِينَ»: على جميع الخلق كلِّهم إلى يوم الصُّور، وذلك أن هؤلاء رُسُلٌ وأنبياء، فهم صفوةُ الخلق، فأما محمدٌ ﷺ فقد جازت مرتبتُه الاصطفاءَ؛ لأنه حبيبٌ ورحمةٌ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، فالرسل خُلقوا للرحمة، ومحمد ﷺ خُلق بنفسه رحمةً، فلذلك صار أماناً للخلق، لمّا بعثه الله أَمِنَ الخلقُ العذابَ إلى نفخة الصور. وسائرُ الأنبياء لم يحلُّوا هذا المحلَّ؛ ولذلك قال

---

(١) البيت دون نسبة في العين للخليل ١/ ٨٠، وغريب الحديث للهروي ١/ ٧٣، وكتاب الحيوان للجاحظ ٤/ ٢٤٩، وجمهرة اللغة ١/ ٢٧٩، وتهذيب الألفاظ لابن السكيت ١/ ١١٨، والأضداد لابن الأنباري ص١٠٦، ولأبي الطيب اللغوي ص٣٥٢، والصحاح (عدد)، وتهذيب اللغة ١/ ٨٩، والمخصص ٥/ ٨٨. والسليم: اللّديغ، والعِداد: وجع اللديغ، وذلك إذا تمت له سنة منذ يوم لُدغ اهتاج به الألم. الصحاح (عدد).

(٢) تفسير البغوي ١/ ٢٩٤.

(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٢.

(٤) في التعريف والإعلام ص٣٢.

عليه الصلاة والسلام: «أنا رحمةٌ مُهداة»[١] يخبر أنه بنفسِه رحمةٌ للخلق من اللّه. وقوله: «مُهداة» أي: هديَّةٌ من اللّه للخلق.

ويقال: اختار آدمَ بخمسة أشياء: أوَّلُها: أنه خَلَقَه بيده في أحسن صورة بقُدرته، والثاني: أنه علَّمَه الأسماءَ كلَّها، والثالث: أمرَ الملائكةَ بأن يسجدوا له، والرابع: أسكنَه الجنَّةَ، والخامس: جعله أبا البشر.

واختار نوحاً بخمسة أشياء: أوَّلها: أنه جعله أبا البشر؛ لأن الناسَ كلَّهم غَرِقوا وصار ذرِّيتُه هم الباقين، والثاني: أنه أطال عمُرَه، ويقال: طُوبَى لِمَنْ طال عمرُه وحسُنَ عملُه[٢]، والثالث: أنه استجابَ دعاءَه على الكافرين والمؤمنين، والرابع: أنه حمله على السفينة، والخامس: أنه كان أوَّلَ مَن نسخ [به] الشرائعَ، وكان قبل ذلك لم يُحرِّم تزويجَ[٣] الخالات والعمَّات.

واختار إبراهيمَ بخمسة أشياء: أوَّلها: أنه جعله أبا الأنبياء؛ لأنه رُوي أنه خَرج من صُلبه ألفُ نبيٍّ من زمانه إلى زمن النبيِّ ﷺ، والثاني: أنه اتَّخذه خليلاً، والثالث: أنه أنجاه من النّار، والرابع: أنه جعله إماماً للناس، والخامس: أنه ابتلاه بالكلمات،

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ١٩٢- ١٩٣ ، وابن أبي شيبة ١١/ ٥٠٤ ، والبيهقي في دلائل النبوة ١/ ١٥٧ ، وشعب الإيمان (١٤٠٤) من طريق وكيع، والدارمي (١٥) من طريق علي بن مُسهر كلاهما عن الأعمش، عن أبي صالح قال: قال رسول الله ﷺ . . . فذكره مرسلاً. ووصله عبدالله بن نصر، فيما أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/ ١٥٤٦ من طريقه، عن وكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. ثم ذكر أن هذا غير محفوظ عن وكيع، عن الأعمش، وأن عبدالله بن نصر له مناكير، وهذا منها.

وأخرجه البزار (٢٣٦٩) (زوائد)، والطبراني في الأوسط (٣٠٠٥) ، وفي الصغير (٢٦٤) ، والحاكم ١/ ٣٥ ، والشهاب القضاعي (١١٦٠) و (١١٦١) ، والبيهقي في دلائل النبوة ١/ ١٥٧ - ١٥٨ ، وفي شعب الإيمان (١٤٠٥) من طريق زياد بن يحيى الحساني، عن مالك بن سُعَير، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. قال البزار: لا نعلم أحداً وصله إلا مالك بن سعير، وغيره يرسله ولا يقول عن أبي هريرة، وقال الحاكم: وهذا حديث صحيح على شرطهما، فقد احتجا جميعاً بمالك ابن سعير، والتفرد من الثقات مقبول. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٥٧ : ورجال البزار رجال الصحيح. وأورده السيوطي في الجامع الصغير ١/ ٣٤٨ ، ورمز له بالصحة.

(٢) قوله: طوبى لمن طال عمره وحسُن عمله، حديث مرفوع؛ رواه عبدالله بن بُسر المازني ﷺ، أخرجه أحمد (١٧٦٨٠) و (١٧٦٩٨) ، والترمذي (٢٣٢٩) ، وأبو القاسم البغوي في الجعديات (٣٤٦٦) ، وأبو محمد البغوي في شرح السنة (١٢٤٥) .

(٣) في تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٢ (والكلام منه): تزوّج. وما بين حاصرتين منه.

فوفَّقه حتى أتمَّهُنَّ.

ثم قال: «وَآلَ عِمْرَانَ»؛ فإن كان عمرانُ أبا موسى وهارون؛ فإنما اختارَهما على العالَمين حيثُ بَعث على قومه المَنَّ والسَّلْوَى، وذلك لم يكن لأحدٍ من الأنبياء في العالم. وإن كان أبا مريم؛ فإنه اصطفى له مريمَ بولادة عيسى بغير أب، ولم يكن ذلك لأحدٍ في العالم، والله أعلم(١).

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾.

تقدَّم في البقرة معنى الذرِّيةِ واشتقاقها(٢). وهي نصبٌ على الحال، قاله الأخفش(٣). أي: في حال كونِ بعضِهم من بعض، أي: ذرِّيَّة بعضُها من ولد بعض. الكوفيُّون: على القطع(٤). الزجاج(٥): بدل، أي: اصطفى ذرِّيةً بعضُها من بعض.

ومعنى «بعضُها من بعض»: يعني في التَّناصُرِ في الدِّين، كما قال: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ [التوبة: ٦٧] يعني: في الضَّلالة، قاله الحسن وقتادة(٦). وقيل: في الاجتباءِ والاصطفاءِ والنبوَّة. وقيل: المراد به التناسُلُ، وهذا أضعفُها.

قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾.

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ﴾ قال أبو عبيدة: «إذ» زائدة(٧)، وقال

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٢.

(٢) ٢/ ٣٦٨.

(٣) في معاني القرآن ١/ ٤٠٢.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٩ وعنه نقل قول الأخفش، ومعنى قوله: على القطع، أي: على الحال. انظر تعليق الشيخ محمود شاكر رحمه الله على تفسير الطبري ٦/ ٢٧٠.

(٥) معاني القرآن له ١/ ٣٩٩.

(٦) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٠، وذكرهما الماوردي ١/ ٣٨٦، والطبرسي ٢/ ٦٣.

(٧) مجاز القرآن ١/ ٩٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٦٩، قال ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٢٤: هذا قول مردود.

محمد بن يزيد: التقدير: اذكر إذ. وقال الزجَّاج: المعنى: واصطفى آلَ عمران إذ قالت امرأة عمران[١]. وهي حَنَّةُ ـ بالحاء المهملة والنون ـ بنتُ فاقود بن قنبل، أمُّ مريم، جدَّة عيسى عليه السلام، وليس باسمٍ عربيٍّ، ولا يُعرف في العربية حَنَّة اسمُ امرأة، وفي العربية أبو حَنَّةَ البَدْريُّ، ويُقال فيه: أبو حبَّة -بالباء بواحدة- وهو أصحُّ، واسمُه عامر[٢]، ودير حَنَّة بالشام، وديرٌ آخرُ أيضاً يقال له كذلك؛ قال أبو نُوَاس:

يـا دَيْـرَ حَـنَّـةَ مِـن ذات الأُكَـيْـرَاحِ   مَن يَصْحُ عنكَ فإنّي لستُ بالصَّاحي[٣]

وحَبَّةُ في العرب كثير، منهم أبو حَبَّة الأنصاريُّ[٤]. وأبو السَّنابل بنُ بَعْكَك ـ المذكور في حديث سُبَيعةَ[٥] ـ حَبَّة[٦]، ولا يُعرف خَنَّةُ ـ بالخاء المعجمة ـ إلَّا بنتُ يحيى بنِ أكثم القاضي، وهي أمُّ محمد بنِ نصر[٧]، ولا يعرف جَنَّة ـ بالجيم ـ إلَّا أبو جَنَّة، وهو خال ذي الرُّمَّة الشاعر[٨]. كلُّ هذا من كتاب ابن ماكُولَا[٩].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٠٠ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٩ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٤ .

(٢) قال الذهبي في التجريد ٢/ ١٥٧ : أبو حبة الأنصاري الأوسي البدري، بالباء الموحدة وهو الصحيح، ويقال: أبو حية بنقطتين، ويقال: أبو حنة بالنون، اسمه عامر، وقيل: مالك بن عمرو بن ثابت، وقيل: اسمه ثابت بن النعمان بن أمية. وينظر الإصابة ١١/ ٧٨ ، والإكمال ٢/ ٣٢١ .

(٣) ديوان أبي نواس ص١٦٤ ، الأُكيراح: بيوت صغار تسكنها الرهبان الذين لا قلاليّ (أي: صوامع) لهم، يقال لواحدها: كُرْح، بالقرب منها ديران، يقال لأحدهما: دير مرعبدا، وللآخر: دير حنة، وهو موضع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياض. معجم البلدان ١/ ٢٤٢ .

(٤) ابن غزية بن عمرو الخزرجي المازني النَّجاري، شهد أحداً واستشهد باليمامة، وقد خلطه غير واحد بالذي قبله (أي عامر) وفرق بينهما غير واحد، وقال أبو عمر: هذا خزرجي وذاك أوسي، وهذا لم يشهد بدراً وذاك شهدها. الإصابة ١١/ ٧٩ ، والاستيعاب على هامش الإصابة ١١/ ١٨٦ .

(٥) بنت الحارث الأسلمية، كانت تحت سعد بن خولة، وتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل. الإصابة ١٢/ ٢٩٦ . وحديث سبيعة مع أبي السنابل أخرجه البخاري (٣٩٩١)، ومسلم (١٤٨٤) من حديث سبيعة رضي الله عنها.

(٦) ابن الحارث بن عَميلة، القرشي العَبْدَري، وقيل: اسمه عمرو، وقيل غير ذلك، وهو من مسلمة الفتح، وأقام بمكة حتى مات. الإصابة ١١/ ١٧٩ .

(٧) كذا نقل المصنف عن السهيلي في التعريف والإعلام ص٣٣ ، ونسبه السهيلي لابن ماكولا، والذي في الإكمال لابن ماكولا ٢/ ٣٣٠ : أن خنة هي بنت أكثم أخت يحيى بن أكثم، وأنها كانت تحت محمد ابن نصر المروزي.

(٨) واسمه حكيم بن عبيد الأسدي، ويقال: حكيم بن مصعب. المؤتلف والمختلف للآمدي ص١٤٦ .

(٩) الإكمال ٢/ ٣١٩ - ٣٣٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة السهيلي في التعريف والإعلام ص٣٢-٣٣ .

الثانية: قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ تقدَّم معنى النَّذر، وأنه لا يلزم العبدَ إلَّا بأن يُلزِمَه نفسَه[١]. ويقال: إنها لمَّا حملت قالت: لئن نجَّاني الله، ووضعتُ ما في بطني، لجعلتُه مُحَرَّراً. ومعنى «لك» أي: لعبادتك. «محرَّراً» نصبٌ على الحال، وقيل: نعتٌ لمفعول محذوف، أي: إني نذرتُ لك ما في بطني غلاماً مُحرَّراً، والأوَّلُ أولى من جهة التفسير وسياقِ الكلام والإعراب:

أمَّا الإعرابُ: فإن إقامة النعت مقامَ المنعوت لا يجوزُ في مواضع، ويجوز على المجاز في أخرى.

وأمَّا التفسيرُ: فقيل: إن سببَ قولِ امرأةِ عمرانَ هذا أنها كانت كبيرةً لا تَلِد، وكانوا أهلَ بيتٍ من الله بمكان، وأنها كانت تحت شجرةٍ، فبَصُرت بطائر يَزُقُّ فَرْخاً[٢]، فتحرَّكت نفسُها لذلك، ودعت ربَّها أن يَهَب لها ولداً، ونذرت إن وَلَدت أن تجعل ولدها مُحرَّراً، أي: عتيقاً خالصاً لله تعالى، خادماً للكنيسة حَبِيساً عليها، مُفرَّغاً لعبادة الله تعالى. وكان ذلك جائزاً في شريعتهم، وكان على أولادهم أن يُطيعوهم. فلمَّا وضعتْ مريمَ قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ يعني أن الأنثى لا تصلح لخدمة الكنيسة؛ قيل: لِمَا يصيبها من الحَيْض والأذى، وقيل: لا تصلح لمخالطة الرجال. وكانت ترجو أن يكون ذَكَراً، فلذلك حَرَّرت[٣].

الثالثة: قال ابن العربيّ[٤]: لا خلافَ أن امرأة عِمران لا يتطرَّق إلى حملها نذرٌ لكونها حرَّةً، فلو كانت امرأته أمَةً، فلا خلافَ أن المرء لا يصح له نذرُ ولدِه[٥] وكيفما تصرفَتْ حاله؛ فإنه إن كان الناذرُ عبداً لم[٦] يتقرَّر له قولٌ في ذلك؛ وإن كان حرَّاً، فلا يصحُّ أن يكون مملوكاً له، وكذلك المرأةُ مثله، فأيُّ وجهٍ للنذر فيه؟

---

(١) ٤/ ٣٥٩.

(٢) أي: يطعمه بفمه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٩ - ٣٧٠، وتفسير الطبري ٥/ ٣٣٢، ٣٣٧ - ٣٣٨، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٤.

(٤) أحكام القرآن ١/ ٢٧٠.

(٥) في (خ) و (د) و (م): نذر في ولده، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في أحكام القرآن.

(٦) في (م): فلم.

وإنما معناه ـ واللّه أعلم ـ أن المرء إنما يريد ولدَه للأُنس به والاستنصار[١] والتسلِّي، فطلبت هذه المرأةُ الولدَ أُنساً به وسُكوناً إليه؛ فلما منَّ اللّه تعالى عليها به، نذرت أنَّ حَظَّها من الأنْس به متروكٌ فيه، وهو على خدمة اللّه تعالى موقوف، وهذا نذرُ الأحرار من الأبرار. وأرادت به: مُحَرَّراً من جهتي، محرَّراً من رِقِّ الدنيا وأشغالها. وقد قال رجلٌ من الصُّوفيَّة لأمِّه: يا أُمَّهْ، ذَرِيني لله أتعبَّد له وأتعلَّم العلم، فقالت: نعم. فسار حتى تبصَّرَ، ثمَّ عاد إليها فدَقَّ الباب، فقالت: مَنْ؟ فقال لها: ابنُكِ فلان، قالت: قد تركناك لله ولا نعود فيك.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿مُحَرَّرًا﴾ مأخوذٌ من الحُرية التي هي ضدُّ العُبوديَّة؛ من هذا تحريرُ الكتاب، وهو تخليصُه من الاضطراب والفساد. وروى خُصَيفٌ عن عِكرمة ومجاهد: أن المحرَّر الخالصُ لله عزَّ وجلَّ، لا يشوبه شيءٌ من أمر الدنيا[٢]. وهذا معروف في اللغة أنْ يقال لكل ما خَلَص: حُرٌّ، ومحرَّر بمعناه؛ قال ذو الرُّمَّة:

والقُرْط في حُرَّة الذِّفْرَى مُعَلَّقُهُ ... تَباعَدَ الحبلُ منه فهو يَضْطرِب[٣]

وطِينٌ حُرٌّ: لا رَمْلَ فيه، وباتت فلانة بليلةٍ حُرَّةٍ: إذا لم يَصِلْ إليها زوجها أوَّلَ ليلة، فإن تمكَّن منها فهي بلَيْلةٍ شَيْباء[٤].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ قال ابنُ عباس: إنما قالت هذا لأنه لم يكن يُقبل في النَّذْر إلَّا الذكورُ[٥]، فقبِل اللّه مريم. «وأنثى» حال، وإن شئتَ بدلٌ[٦]. فقيل: إنها ربَّتها حتى ترعرعت، وحينئذٍ أرسلتها؛ رواه أشهب عن مالك. وقيل: لفَّتها في خِرقتها وأرسلت بها إلى المسجد، فوفَّت بنذرها

---

(١) في (ظ): الاستبصار.

(٢) أخرجه الطبري ٥/ ٣٣٣، وابن أبي حاتم (٣٤٢٢).

(٣) ديوان ذي الرمة ١/ ٣٥، وحُرةُ الذِّفرى: موضع مجال القرط منها. اللسان (حرر). والذِّفريان: ما عن يمين النقرة وشمالها، واستعار الذِّفرى ها هنا، وإنما هي للإبل. قاله شارحه ١/ ٣٧.

(٤) مجمل اللغة ١/ ٢١١.

(٥) أورده الواحدي في الوسيط ١/ ٤٣٠، وأخرجه الطبري ٥/ ٣٣٤ - ٣٣٥ عن قتادة والربيع.

(٦) مشكل إعراب القرآن ١/ ١٥٦.

وتبرَّأت منها. ولعلَّ الحجابَ لم يكن عندهم كما كان في صدر الإسلام[١]؛ ففي البخاريِّ ومسلمٍ أن امرأةً سوداءَ كانت تَقُمُّ المسجد على عهد رسول الله ﷺ فماتت. الحديث[٢].

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ هو على قراءة مَن قرأ: «وَضَعْتُ» ـ بضمِّ التاء ـ من جملة كلامها، فالكلام متَّصلٌ. وهي قراءة أبي بكر وابن عامر[٣]، وفيها معنى التسليمِ لله والخضوعِ والتنزيه له أن يخفى عليه شيء، ولم تَقُلْه على طريق الإخبار؛ لأن علم الله في كلِّ شيءٍ قد تقرَّر في نفس المؤمن، وإنما قالته على طريق التعظيم والتنزيه لله تعالى.

وعلى قراءة الجمهور هو من كلام الله عزَّ وجلَّ؛ قُدِّم، وتقديرُه أن يكون مؤخَّراً بعدَ: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ قاله المَهْدويُّ.

وقال مكِّي: هو إعلامٌ من الله تعالى لنا على طريق التثبيت، فقال: والله أعلم بما وضعتْ أمُّ مريم، قالته أو لم تقله. ويقوِّي ذلك أنه لو كان من كلام أمِّ مريم لكان وجهُ الكلام: وأنتَ أعلم بما وضعتُ؛ لأنها نادته في أوَّل الكلام في قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾[٤]. ورُوي عن ابن عباس: «بما وَضَعْتِ» بكسر التاء[٥]، أي: قيل لها هذا.

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ استدلَّ به بعض الشافعية على أن المطاوِعة في نهار رمضان لزوجها على الوطء لا تساويه في وجوب الكفارة عليها. قال ابنُ العربيّ[٦]: وهذه منه غفلة، فإنَّ هذا خبرٌ عن شرعِ مَن قَبلنا، وهم لا يقولون

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٠ .

(٢) صحيح البخاري (٤٥٨)، وصحيح مسلم (٩٥٦)، وهو عند أحمد (٨٦٣٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.
وقوله: تقم المسجد، أي: تكنسه. المفهم ٢/ ٦١٧ .

(٣) السبعة ص ٢٠٤ ، والتيسير ص٨٧ .

(٤) الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٥) القراءات الشاذة لابن خالويه ص٢٠ .

(٦) لفظة «قال» من (ظ)، وكلام ابن العربي في أحكام القرآن ١/ ٢٧١ .

به[١]، وهذه الصالحةُ إنما قصدتْ بكلامها ما تشهد له به بيِّنةُ حالِها، ومَقْطَعُ كلامها، فإنها نذرت خدمةَ المسجد في ولدها، فلمَّا رأته أنثى لا تصلح، وأنها عورةٌ، اعتذرت إلى ربِّها من وجودها لها على خلاف ما قصدته فيها.

ولم ينصرف «مريم»؛ لأنه مؤنثٌ معرفة، وهو أيضاً أعجمي؛ قاله النحاس[٢]. والله تعالى أعلم.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ يعني خادم الربِّ في لغتهم[٣]. ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ يعني مريم. ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ يعني عيسى. وهذا يدلُّ على أن الذرِّية قد تقع على الولد خاصة[٤].

وفي صحيح مسلم[٥] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولودٍ يُولد إلَّا نَخَسه الشيطانُ، فيستهلُّ صارخاً من نخسة [الشيطان] إلَّا ابنَ مريم وأمَّه» ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

قال علماؤُنا[٦]: فأفاد هذا الحديثُ أن الله تعالى استجاب دعاءَ أمِّ مريم، فإن الشيطان ينخَس جميعَ ولد آدم حتى الأنبياءِ والأولياءِ إلَّا مريمَ وابنها.

قال قتادة: كلُّ مولودٍ يَطْعُن الشيطانُ في جنبه حين يُولد غيرَ عيسى وأمِّه، جُعل بينهما حجابٌ، فأصابت الطعنة الحجابَ، ولم ينفذ لهما منه شيءٌ[٧].

---

(١) يعني الشافعية، وعبارته في أحكام القرآن هي: ولا خلاف بين الشافعية عن بكرة أبيهم أن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا.

(٢) إعراب القرآن ١/ ٣٧١ .

(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٣ .

(٤) أحكام القرآن ١/ ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٥) رقم (٢٣٦٦) وما بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (٧١٨٢)، والبخاري (٣٤٣١).

(٦) المفهم ٦/ ١٧٨ .

(٧) أخرجه الطبري ٥/ ٣٤٢ ، وأخرجه بنحوه أحمد (١٠٧٧٣)، والبخاري (٣٢٨٦) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً.

قال علماؤنا[(١)]: وإن لم يكن كذلك بطلت الخصوصيةُ بهما، ولا يلزم[(٢)] من هذا أن نَخْسَ الشيطان يلزم منه إضلالُ المنخوس[(٣)] وإغواؤه، فإن ذلك ظنٌّ فاسد؛ فكم تعرَّض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء، ومع ذلك فعصمهم الله ممَّا يَرُومه الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. هذا مع أن كلَّ واحد من بني آدم قد وُكِّل به قَرِينُه من الشياطين؛ كما قال رسول الله ﷺ[(٤)]، فَمَرْيَمُ وَابْنُها وإن عُصِما مِن نخسه، فلم يُعْصَما من ملازمته لهما ومقارنته. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ المعنى: سلك بها طريق السعداء؛ عن ابن عباس. وقال قوم: معنى التَّقبُّل: التكفُّلُ في التربية والقيامُ بشأنها. وقال الحسن: معنى التقبُّل: أنه ما عذَّبها ساعةً قطُّ من ليل ولا نهار.

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ يعني سوَّى خَلْقَها من غير زيادة ولا نقصان، فكانت تَنبت في اليوم ما يَنبت المولود في عام واحد[(٥)]. والقَبول والنبات مصدران على غير المصدر،

---

(١) المفهم ٦/ ١٧٨ .

(٢) في المفهم: ولا يُفهم.

(٣) في النسخ: الممسوس، والمثبت من المفهم.

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٢٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد أيضاً (٣٦٤٨)، ومسلم (٢٨١٤) من حديث ابن مسعود ﷺ بلفظ: «ما منكم من أحد إلا وكِّل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة».

(٥) تفسير البغوي ١/ ٢٩٦ ، ومجمع البيان ٣/ ٦٨ . وهذا الكلام على سبيل المبالغة، إذ لا يمكن حمله على الحقيقة، وقد ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٢٥ أن المراد بالمعنى حسن النشأة وسرعة الجودة فيها في خلقة وخلق. وقال ابن كثير: أي جعلها شكلاً مليحاً، ومنظراً بهيجاً، ويسَّر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم الخير والعلم والدين، ولهذا قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

والأصل: تقبُّلاً وإنباتاً؛ قال الشاعر:

أكُفراً بعد ردِّ الموت عنِّي وبعدَ عطائكَ المئةَ الرِّتاعا[١]

أراد: بعد إعطائك. لكن لمَّا قال: «أنبتها» دلَّ على نَبَت؛ كما قال امرؤ القيس:

فصِرْنا إلى الحُسْنَى ورَقَّ كلامُنا ورُضْتُ فذلَّت صعبةً أيَّ إذلالِ[٢]

وإنما مصدر ذَلَّتْ: ذُلّ، ولكنه ردَّه على معنى أذْلَلت، وكذلك كلُّ ما يَرِد عليك في هذا الباب. فمعنى تقبَّل وقَبِل واحد، فالمعنى: فقَبِلَها ربُّها بقبول حَسَن[٣].

ونظيره قولُ رُؤْبَة[٤]:

وقد تَطَوَّيْتُ انطواءَ الحِضْبِ

أي[٥]: الأفعى. لأن معنى تَطَوَّيتُ وانطويت واحدٌ؛ ومثله قول القَطَاميِّ[٦]:

وخيرُ الأمرِ ما استقبلتَ منه وليس بأن تَتَبَّعَه اتِّباعا

لأن تَتَبَّعتُ واتَّبعتُ واحد. وفي قراءة ابن مسعود: «وأَنْزَلَ الملائكةَ تَنْزيلاً» لأن معنى نزَّل وأنزل واحد[٧].

وقال المُفَضَّل: معناه: وأنبتها فنبتتْ نَباتاً حَسَناً. ومراعاة المعنى أوْلى كما ذكرنا.

---

(١) قائله القطامي، وهو في ديوانه ص٣٧ ، والخزانة ٨/ ١٣٧ وهو ضمن قصيدة في مدح زفر بن الحارث الكلابي، يقول: أخونك بعد هذا وقد مننت عليَّ وأطلقتني؟ والرتاع: جمع راتعة وهي: الراعية. قاله البغدادي في الخزانة.

(٢) ديوانه ص٣٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧١ ، قوله: ورُضْت فذلَّت، قال شارح الديوان: ليَّنْتُها بالكلام والمداراة كما يُرَاض البعير بالسير حتى يذلَّ.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧١ - ٣٧٢ .

(٤)ديوانه ص١٦ .

(٥) لفظة أي، من (ظ).

(٦) عُمير بن شُيَيْم التغلبي، ولقب القطامي منقول من الصقر ؛ لأن الصقر يقال له قطامي، وله لقب آخر وهو: صريع الغواني، كان نصرانياً فأسلم، وهو ابن أخت الأخطل وعدَّه الجمحي في الطبقة الثانية من شعراء الإسلام. خزانة الأدب ٢/ ٣٧١ . والبيت في ديوانه ص٣٥ ، والكتاب ٤/ ٨٢ .

(٧) القراءات الشاذة لابن خالويه ص١٠٤ وهي من سورة الفرقان الآية (٢٥). قال ابن خالويه: وهذا غريب، جعل مصدر أفعل تفعيلاً، ولكن لما كان أنزل بمعنى: نزّل، حمله على معناه.

والأصلُ في القَبول الضم؛ لأنه مصدرٌ، مثلُ الدخول والخروج، والفتح جاء في حروف قليلة، مثل الوَلوع والوَزوع، هذه الثلاثة لا غيرُ[١]؛ قاله أبو عمرو والكسائيُّ والأئمة. وأجاز الزجاج[٢]: «بقُبُول» بضم القاف على الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّآ﴾ أي: ضَمَّها إليه. أبو عبيدة: ضَمِن القيام بها[٣].

وقرأ الكوفيون: «وكفَّلها» بالتشديد[٤]، فهو يتعدَّى إلى مفعولين؛ والتقدير: وكفَّلها ربُّها زكريا، أي: ألزمه كفالتها، وقدَّر ذلك عليه، ويَسَّره له. وفي مصحف أُبَيّ: «وأكْفَلَها»، والهمزة كالتشديد في التعدِّي[٥]. وأيضاً فإن قَبْله: «فتقبَّلَها، وأنبتها» فأخبر تعالى عن نفسه بما فعل بها، فجاء «كفَّلها» بالتشديد على ذلك.

وخفَّفه الباقون على إسناد الفعل إلى زكريا، فأخبر اللّه تعالى [عنه] أنه هو الذي تولَّى كفالتَها والقيامَ بها، بدلالة قوله: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾؛

قال مَكّيّ[٦]: وهو الاختيار؛ لأن التشديد يرجع إلى التخفيف، لأن اللّه تعالى إذا كفَّلها زكريا كفَلها بأمر اللّه، ولأن زكريا إذا كفَلها فعن مشيئة اللّه وقدرته؛ فعلى ذلك فالقراءتان متداخلتان.

وروى هارون[٧] بن موسى عن عبداللّه بن كَثِير وأبي عبداللّه المُزَنِي[٨]: «وكَفِلها» بكسر الفاء. قال الأخفش[٩]: يقال كَفَلَ يَكْفُلُ، وكَفِلَ يَكْفَلُ، ولم أسمع

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٢٩٦ ، واللسان (ولع).
(٢) معاني القرآن ١/ ٤٠١ .
(٣) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٨٨ ، ووقع في مجاز القرآن ١/ ٩١ : (وكفلها زكريا) أي: ضمها.
(٤) السبعة ص٢٠٤ ، والتيسير ص٨٧ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٢ .
(٥) الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٣٤١ ، والكشاف ١/ ٤٢٧ .
(٦) الكشف ١/ ٣٤٢ ، وما سلف بين حاصرتين منه.
(٧) في النسخ: عمرو: والمثبت من مطبوع إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٢ ، والكلام منه، وذكر محققه أنه وقع في بعض نسخه: عمرو. ولعل ما أثبتناه هو الصواب، لأن هارون بن موسى أبو عبدالله العتكي البصري الأزدي مولاهم، روى القراءة عن ابن كثير، كما ذكر ابن الجزري في طبقات القراء ٢/ ٣٤٨ .
(٨) في (خ) وإعراب القرآن ١/ ٣٧٢: المدني، وفي المحرر: المزني، وفي البحر: عبدالله المزني والقراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٠ .
(٩) معاني القرآن ١/ ٤٠٣ - ٤٠٤ ، ونقلها المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٧٢ .

كَفُلَ، وقد ذُكِرَتْ.

وقرأ مجاهد: «فتقبَّلْها» بإسكان اللام على المسألة والطلب، «رَبَّها» بالنصب نداء مضاف، «وأَنْبِتْها» بإسكان التاء، «وكَفِّلْها» بإسكان اللام، «زكرياءَ» بالمدِّ والنصب[١].

وقرأ حفص وحمزة والكسائيُّ: «زكريا» بغير مدٍّ ولا همز، ومدَّه الباقون وَهَمزُوه[٢]. وقال الفَرَّاء[٣]: أهلُ الحجاز يمدُّون «زكرياء» ويَقْصُرونه، وأهل نَجْد يحذفون منه الألف ويصرفونه فيقولون: زكريٌّ. قال الأخفش: فيه أربعُ لغات: المدُّ، والقصر، وزكرِيٌّ بتشديد الياء والصَّرف، وزكَرٍ، ورأيتُ زكرِياً[٤].

قال أبو حاتم: زكريُّ بلا صرفٍ؛ لأنه أعجميٌّ. وهذا غلط؛ لأن ما كانت[٥] فيه ياء مثل هذه[٦] انصرف، مثل: كرسيّ ويحيى[٧]، ولم ينصرف زكرياء في المدِّ والقصر لأن فيه ألفَ تأنيث والعُجمةَ والتعريف.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ المِحرابُ في اللغة: أكرمُ موضعٍ في المجلس. وسيأتي له مزيدُ بيان في سورة مريم[٨]. وجاء في الخبر: أنها

---

(١) القراءات الشاذة ص٢٠، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٦.

(٢) السبعة ص٢٠٥ والتيسير ص٨٧.

(٣) معاني القرآن ١/ ٢٠٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٧٢.

(٤) يعني مخففاً كما قيده في القاموس (زكر). وأما قوله: زَكَر، فقد ذكر الزبيدي في تاج العروس أن بعض المفسرين شذّ، فزاد لغة خامسة وقال: زَكَر، مثل جبل. وحكى السمين الحلبي في الدّرّ المصون ٣/ ١٤٤ عن الأخفش: زَكْر، زنة: عَمْرو.

(٥) في (م): كان.

(٦) في (م): هذا.

(٧) كذا وقع في النسخ، ولعل الصواب: نَجِيّ، أو: بَخِيّ، أو ما شابهها، والكلام في إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٢ دون المثال.

(٨) عند قوله تعالى: ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ الآية (١١).

كانت في غرفةٍ؛ كان زكريا يصعَد إليها بسُلَّم. قال عديّ بن زيد[١]:

رَبَّـةُ مِـحـرابٍ إذا جـئـتُـهـا لـم أدْنُ[٢] حـتـى أرْتَـقِـي سُـلَّـمـا[٣]

أي: رَبَّة غرفة.

روى أبو صالح عن ابن عباس قال: حملت امرأة عِمران بعد ما أسنَّت، فنذرت ما في بطنها محرَّراً، فقال لها عمران: ويحكِ! ما صنعت؟ أرأيتِ إن كانت أنثى؟ فاغتمَّا لذلك جميعاً. فهلك عِمرانُ وحَنَّة حامل، فولدت أنثى، فتقبَّلها اللّه بِقَبُول حَسَن، وكان لا يُحرَّر إلَّا الغلمانُ، فتَساهَم عليها الأحبار بالأقلام التي يكتبون بها الوَحي ـ على ما يأتي[٤] ـ فكفِلها زكريا وأخذ لها موضعاً، فلمَّا شبَّت[٥] جعل لها مِحراباً لا يُرتَقى إليه إلَّا بسلَّم، واستأجر لها ظِئراً، وكان يُغلِق عليها باباً، وكان لا يدخل عليها إلَّا زكريَّا حتى كَبِرت، فكانت إذا حاضت أخرجها إلى منزله، فتكونُ عند خالتها ـ وكانت خالتها امرأة زكريا في قول الكَلْبيّ، وقال مُقاتِل: كانت أختها امرأة زكريا ـ وكانت إذا طَهُرت من حيضتها واغتسلت ردَّها إلى المحراب.

وقال بعضهم: كانت لا تحيض، وكانت مطهَّرةً من الحيض[٦].

وكان زكريا إذا دخل عليها يجدُ عندها فاكهةَ الشتاء في القَيْظ، وفاكهةَ القَيْظ في الشتاء، فقال: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾. فعند ذلك طمِع زكريا في الولد وقال: إن الذي يأتيها بهذا قادر أن يرزقني ولداً[٧].

---

(١) كذا وقع في النسخ: عدي بن زيد، وهو منسوب في المصادر لوضاح اليمن، وانظر التعليق التالي.

(٢) في (م): لم ألقها.

(٣) جمهرة اللغة ١/ ٢١٩، وهو أيضاً في الأغاني ٦/ ٢٣٧ (ضمن قصيدة) ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٠٣، واللسان (حرب) برواية: لم ألقها أو أرتقي سلماً. ونُسب فيها كلِّها لوضاح اليمن وهو عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كُلال، ولقِّب بذلك لجماله وبهائه، وحكي أن أحد خلفاء بني أمية دفنه في صندوق وهو حي. الأغاني ٦/ ٢٠٩.

(٤) في الصفحة ١٣١.

(٥) في (ظ). أنبتت، وفي (د) و (ز) و (م): أسنت، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٠.

(٦) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٤.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٠.

ومعنى: «أنَّى»: من أين؛ قاله أبو عبيدة[١]. قال النحاس[٢]: وهذا فيه تساهل؛ لأن «أين» سؤالٌ عن المواضع، و«أنَّى» سؤالٌ عن المذاهب والجهات. والمعنى: من أيِّ المذاهب، ومن أيِّ الجهات لكِ هذا؟ وقد فرَّق الكُمَيت بينهما فقال:

أنَّى ومن أينَ آبكَ الطَّربُ ... من حيث لا صَبْوةٌ ولا رِيَبُ[٣]

و«كلَّما» منصوب بـ «وَجَدَ»، أي: كلّ دَخْلة[٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ قيل: هو من قول مريم. ويجوز أن يكون مستأنفاً[٥]. فكان ذلك سببَ دعاءِ زكريا وسؤالِه الولد.

الثانية: قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ «هنالك» في موضع نصب؛ لأنه ظرفٌ يُستعمل للزمان والمكان، وأصلُه للمكان[٦]. وقال المُفَضَّل بن سَلَمة: «هنالك» في الزمان، و«هناك» في المكان، وقد يُجعل هذا مكانَ هذا.

و﴿هَبۡ لِي﴾: أعطني ﴿مِن لَّدُنكَ﴾: من عِندِك. ﴿ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةً﴾ أي: نَسلاً صالحاً. والذُّرِّيةُ تكون واحداً[٧] وتكون جمعاً، ذكراً وأنثى، وهو هنا واحدٌ؛ يدلُّ عليه قولُه: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ [مريم:٥]، ولم يقل: أولياء. وإنما أنَّثَ «طَيِّبةً» لتأنيث لفظ الذرية[٨]؛ كقوله:

أبوك خليفةٌ وَلَدَتْه أخرى ... وأنتَ خليفةٌ ذاك الكمالُ[٩]

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٩١ .

(٢) في معاني القرآن ١/ ٣٨٩ .

(٣) شرح هاشميات الكميت ص١٠٠ ، قال الشارح: آبك: أتاك ليلاً، يقول: إنما طربُكَ إلى بني هاشم لا صبوة في صبا. ولا رِيَب، أي: لا ريبة.

(٤) إعراب القرآن ١/ ٣٧٢ .

(٥) النكت والعيون ١/ ٣٨٩ .

(٦) مشكل إعراب القرآن ١/ ١٥٧ .

(٧) في (م): واحدة.

(٨) هذا قول الطبري ٥/ ٣٦٢ وتعقبه ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٢٧ ، وقال ابن عطية: إنما الذرية والولي اسما جنس يقعان للواحد فما زاد.

(٩) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٠٨ ، وتفسير الطبري ٥/ ٣٦٢ ، ونسبه ابن الأنباري في المذكر والمؤنث ٢/ ١٦٣ لنُصيب.

فأنَّث «ولدته» لتأنيث لفظ الخليفة[١].

ورُوِي من حديث أنس قال: قال النبيُّ ﷺ: «أيُّ رجلٍ مات وترك ذُرِّيَّةً طيبةً، أجرى اللّه له مِثْلَ أجرِ عملِهم ولم يَنْقصْ من أجورهم شيئاً»[٢]. وقد مضى في «البقرة» اشتقاق الذرِّية[٣].

و﴿طَيِّبَةً﴾ أي: صالحة مباركة. ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: قابلُه، ومنه: سمِع اللّه لمن حَمِده.

الثالثة: دلَّت هذه الآية على طلب الولد، وهي سُنَّة المرسلين والصدِّيقين، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]. وفي صحيح مسلم[٤] عن سعد بن أبي وَقَّاصٍ قال: أراد عثمان [بن مظعون] أن يتبتَّلَ، فنهاهُ رسول اللّه ﷺ، ولو أجاز له ذلك لاختَصَيْنا.

وخرَّج ابن ماجه، عن عائشة قالت: قال رسول اللّه ﷺ «النكاحُ من سُنَّتي، فمن لم يعمل بسُنَّتي فليس منِّي، وتزوَّجوا، فإني مكاثِرٌ بكم الأممَ، ومن كان ذا طَوْلٍ فَلْيَنْكِحْ، ومن لم يجدْ فعليه بالصيام[٥]، فإنَّه له وِجاءٌ»[٦] وفي هذا رَدٌّ على بعض جُهَّال المتصوِّفة حيث قال: الذي يطلب الولدَ أحمق. وما عَرَف أنه هو الغبيُّ الأخرق؛ قال اللّه تعالى مُخبِراً عن إبراهيم الخليل: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤].

---

(١) قال الفراء: قال «أخرى» لتأنيث اسم الخليفة، والوجه أن تقول: وَلَدَه آخر.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العيال (٤٩٢) من طريق عطاء بن أبي رباح عن النبي ﷺ، مرسلاً. ولم نقف عليه من حديث أنس ﵁.

(٣) ٢/ ٣٦٨.

(٤) برقم (١٤٠٢) وما سيرد بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (١٥١٤)، والبخاري (٥٠٧٤).

(٥) في (د) و (م) بالصوم، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق لما في سنن ابن ماجه.

(٦) سنن ابن ماجه (١٨٤٦) قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١١٦: في إسناده عيسى بن ميمون وهو ضعيف، وفي الصحيحين [البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)] حديث أنس في ضمن حديث: «لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأتزوج، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وقد ترجم البخاريُّ على هذا: باب طلب الولد[١]. وقال ﷺ لأبي طَلْحة حين مات ابنه: «أعْرَسْتُم الليلةَ؟» قال: نعم. قال: «بارك اللّه لكما في غابر ليلتِكُما». قال: فحملَتْ[٢]. في البخاريِّ: قال سفيان: فقال رجل من الأنصار: فرأيتُ [لهما] تسعةَ أولادٍ كلُّهم قد قرؤوا القرآن[٣].

وترجم أيضاً: باب الدعاء بكثرة الولد مع البركة، وساق حديثَ أنسِ بن مالك، قال: قالت أمُّ سُلَيم: يا رسول اللّه، خادمُك أنسٌ، ادعُ اللّه له، فقال: «اللَّهُمَّ أكْثِرْ مالَه وولدَه، وبارِكْ له فيما أعطيتَه»[٤].

وقال ﷺ: «اللَّهُمَّ اغفر لأبي سَلَمة، وارفَعْ درجَتَه في المهديِّين، واخْلُفْه في عَقِبِه في الغابرين». خرَّجه البخاريُّ ومسلم[٥].

وقال ﷺ: «تزوَّجوا الوَلُودَ الوَدود، فإني مُكاثِرٌ بكم الأمم». أخرجه أبو داود[٦].

والأخبارُ في هذا المعنى كثيرة، تحثُّ على طلب الولد وتَندب إليه؛ لِمَا يرجوه الإنسان من نفعه في حياته وبعد موته. قال ﷺ: «إذا ماتَ أَحدُكُم، انقطع عملُه إلَّا من ثلاث» فذكر: «أو ولدٍ صالحٍ يدعو له»[٧]. ولو لم يكن إلَّا هذا الحديثُ، لكان فيه كفاية.

الرابعة: فإذا ثبت هذا؛ فالواجب على الإنسان أن يتضرَّع إلى خالقه في هداية

---

(١) في كتاب النكاح (فتح الباري ٩/ ٣٤١)

(٢) صحيح البخاري (٥٤٧٠)، وصحيح مسلم (٢١٤٤).

(٣) صحيح البخاري (١٣٠١) وما بين حاصرتين منه. وهي رواية أخرى للحديث السالف، وسفيان المذكور: هو ابنُ عيينة.

(٤) صحيح البخاري (٦٣٤٤)، وهو عند أحمد (٢٧٤٢٦)، ومسلم (٢٤٨٠).

(٥) لم نقف عليه عند البخاري، وهو عند مسلم (٩٢٠)، وأحمد (٢٦٥٤٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها. قال أبو العباس في المفهم ٢/ ٥٧٣ : قوله: «واخلفه في عقبه في الغابرين» أي: كن الخليفة على من يتركه من عقبه ويبقى بعده، ويعني بالغابرين: الباقين.

(٦) سنن أبي داود (٢٠٥٠)، وهو عند أحمد (١٢٦١٣) وهو من حديث معقل بن يسار ﷺ ووقع عند أحمد: مكاثر الأنبياء، بدل: الأمم.

(٧) أخرجه أحمد (٨٨٤٤)، ومسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ولده وزوجه بالتوفيق لهما، والهدايةِ والصلاح والعفاف والرعاية، وأن يكونا مُعينين له على دينه ودنياه، حتى تعظمَ منفعتُه بهما في أُولاهُ وأُخراه؛ ألا ترى قولَ زكريًا: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٦]، وقال: ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾. وقال: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان:٧٤]. ودعا رسول الله ﷺ لأنس فقال: «اللّهُمَّ أكثر ماله وولده، وبارك له فيه». خرَّجه البخاريُّ ومسلم[١]، وحسْبُك.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قرأ حمزة والكسائيُّ: «فناداه» بالألف على التذكير ويُميلانها؛ لأن أصلَها الياء، ولأنها رابعةٌ[٢]، وبالألف قراءةُ ابن عباس، وابن مسعود[٣]، وهو اختيار أبي عبيد. ورَوَى عن جرير، عن مُغِيرة، عن إبراهيم قال: كان عبدُ الله يذكِّر الملائكة في [كلِّ] القرآن. قال أبو عبيد: نراه اختار ذلك خلافاً على المشركين، لأنهم قالوا: الملائكة بنات الله.

قال النحاس[٤]: هذا احتجاجٌ لا يُحصِّلُ منه شيءٌ؛ لأن العرب تقول: قالت الرجال، وقال الرجال، وكذا النساء، وكيف يُحتجُّ عليهم بالقرآن؟ ولو جاز أن يُحتجَّ عليهم بالقرآن بهذا لجاز أن يحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [آل عمران:٤٢] ولكن الحجةَ عليهم في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف:١٩] أي: فلم يشاهدوا خَلْقَهم[٥]، فكيف يقولون إنهم إناثٌ؟ ! فقد عُلم أن هذا ظنٌّ وهوىً. وأمَّا «فناداه» فهو جائز على تذكير الجمع، «ونادته» على تأنيث الجماعة.

---

(١) صحيح البخاري (١٩٨٢)، وصحيح مسلم (٦٦٠)، وسلف في المسألة قبلها بلفظ: «وبارك له فيما أعطَيته».

(٢) السبعة ص٢٠٥ ، والتيسير ص٨٧ ، والكشف ١/ ٣٤٢ .

(٣) القراءات الشاذة ص٢٠ ، ونسبها لابن مسعود، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٣ .

(٤) في إعراب القرآن ١/ ٣٧٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وأثر إبراهيم عن عبدالله ذكره أيضاً البغوي ١/ ٢٩٨ ، ونسبه السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢١ لابن المنذر.

(٥) قوله: خلقهم، من (خ) و (ظ) وليس في باقي النسخ، وهو موافق لما في إعراب القرآن.

قال مَكِّي[١]: والجماعة[٢] ممن يعقلُ في التكسير يجري[٣] في التأنيث مَجرى ما لا يعقل، تقول: هي الرجال، وهي الجُذوع، وهي الجِمال، وقالت الأعراب. ويقوِّي ذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [آل عمران:٤٢] وقد ذكَّر في موضع آخرَ فقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام:٩٤] وهذا إجماع. وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد:٢٣]، فتأنيثُ هذا الجمعِ وتذكيرُه حَسَنان.

وقال السُّدِّي: ناداه جبريل وحدَه؛ وكذا في قراءة ابن مسعود[٤]. وفي التنزيل: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل:٢] يعني: جبريل، والروح: الوَحْي. وجائز في العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع. وجاء في التنزيل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران:١٧٣] يعني نُعيم بن مسعود؛ على ما يأتي.

وقيل: ناداه جميع الملائكة، وهو الأظهر، أي: جاء النداء من قِبَلهم[٥].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ «وهو قائم» ابتداء وخبر، «يصلِّي» في موضع رفع، وإن شئتَ كان نصباً على الحال من المضمر. «أنَّ اللّه» أي: بأن اللّه.

وقرأ حمزة والكِسائيُّ: «إنَّ» أي: قالت: إن اللّه[٦]؛ فالنداءُ بمعنى القول. «يبشِّركَ» بالتشديد قراءةُ أهل المدينة. وقرأ حمزة: «يَبْشُرُك» مخفَّفاً[٧]، وكذلك حُميد ابن قيس[٨] المكِّي، إلَّا أنه كَسَر الشين وضم الياء وخفف الباء[٩]. قال الأخفش:

---

(١) الكشف ١/ ٣٤٢ - ٣٤٣ .

(٢) في (خ) و (د) و (م): والملائكة، والمثبت من (خ) وهو الموافق لما في الكشف.

(٣) في (د) و (م): فجرى، والمثبت من (خ) و (ظ) وهو الموافق لما في الكشف.

(٤) أخرجها الطبري في التفسير ٥/ ٣٦٤ - ٣٦٥ ، وذكر أبو حيان في البحر ٢/ ٤٤٦ أنها كذلك في قراءة عبدالله ومصحفه.

(٥) تفسير الطبري ٥/ ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٦) كذا نقل المصنف عن النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٧٣ ، والذي ذكره ابن مجاهد في السبعة ص٢٠٥ ، والداني في التيسير ص٨٧ ، ومكي في الكشف ١/ ٣٤٣ أنها قراءة حمزة وابن عامر.

(٧) وقرأ بها الكسائي أيضاً. السبعة ص٢٠٥ ، والتيسير ٨٧ .

(٨) في (م): حميد بن القيس.

(٩) المحتسب ١/ ١٦١ ، وزاد نسبتها لمجاهد، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٢٩ لابن مسعود ﵁.

هي ثلاثُ لغاتٍ بمعنىً واحد(١). دليل الأولى ـ وهي(٢) قراءة الجماعة ـ أن ما في القرآن من هذا، من فعل ماضٍ أو أمر، فهو بالتثقيل؛ كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر:١٧] ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ [يس:١١] ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ [هود:٧١] ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ [الحجر:٥٥].

وأما الثانية، وهي قراءة عبد اللّه بن مسعود، فهي من بَشَر يَبْشُر، وهي لغة تِهامة(٣)؛ ومنه قول الشاعر:

بَشَرتُ عِيَالِي إذْ رأيتُ صحيفةً ... أتَتْكَ من الحجَّاج يُتْلَى كتابُها(٤)

وقال آخر:

وإذا رأيتَ الباهِشِينَ إلى النَّدى ... غُبْراً أكُفُّهُمُ بِقاعٍ مُمْحِلِ

فأَعِنْهُمُ وابْشَر بما بَشِروا به ... وإذا هُمُ نَزلُوا بضَنْكٍ فانزلِ(٥)

وأما الثالثة فهي من: أَبْشَرَ يُبْشِر إِبْشاراً قال:

يا أمَّ عَمْرٍو أبشري بالبُشْرَى ... موتٌ ذريعٌ وجَرادٌ عَظْلَى(٦)

---

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٧٣. قال ابن عطية في المحرر ١/ ٤٢٩: قال غير واحد من اللغويين في هذه اللفظة ثلاث لغات: بشَّر بشد الشين، وبَشَر بتخفيفها، وأَبْشَر يُبْشِر إبشاراً، وهذه القراءات كلها متَّجهة فصيحة مَرْويَّة.

(٢) في (م): هي.

(٣) تفسير البغوي ١/ ٢٩٨ وهي قراءة حمزة كما سلف. وقال ابن عطية في المحرر ١/ ٤٢٩: وفي قراءة عبدالله بن مسعود: «يُبْشِرك» بضم الياء وتخفيف الشين المكسورة ـ من أَبْشَر ـ وهكذا قرأ في كل القرآن. وذكر مثل ذلك أيضاً أبو حيان في البحر ٢/ ٤٤٧.

(٤) لم نقف على قائله، وذكره الفراء في معاني القرآن ١/ ٢١٢، والطبري ٥/ ٣٦٨.

(٥) البيتان لعبد قيس بن خُفَاف البُرْجُمِيِّ، وهما في معاني القرآن للفراء ١/ ٢١٢، وتفسير الطبري ٥/ ٣٦٨، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٠٥، واللسان (بشر). وللبيت الثاني رواية أخرى، فهو في المفضليات ص٣٨٥، والأصمعيات ص٢٣٠، والصحاح (يسر)، واللسان (كرب) (يسر) برواية: فأعنهم وايسِرْ بما يَسَروا به.. قال الجوهري: الياسر: اللاعب بالقِداح. قوله: الباهشين، قال في اللسان (بهش): البَهْش: الإسراع إلى المعروف بالفرح.

(٦) لم نقف على قائله، وهو في تهذيب اللغة ٢/ ٢٩٨، واللسان (عظل). قوله: عظلى؛ يقال: تعاظلت الكلاب: إذا لزم بعضها بعضاً في السِّفاد، ويقال ذلك في الجراد أيضاً. المجمل ٣/ ٦٧٥. وقال الأزهري: أراد أن يقول: يا أم عامر، فلم يستقم البيت، فقال: يا أم عمرو، وأم عامر كنية الضبع.

قوله تعالى: ﴿بِيَحْيَىٰ﴾ كان اسمه في الكتاب الأوَّل: حَيَا، وكان اسم سارةَ زوجةِ إبراهيم عليه السلام: يَسَارَة، وتفسيره بالعربية: لا تلد، فلمَّا بُشِّرتْ بإسحاقَ قيل لها: سارة، سمَّاها بذلك جبريلُ عليه السلام، فقالت: يا إبراهيمُ، لِمَ نقصَ من اسمي حرف؟ فقال ذلك إبراهيم[(١)] لجبريل عليهما السلام، فقال: إن ذلك الحرفَ زِيدَ في اسم ابنٍ لها من أفضل الأنبياء اسمه حَيَى ويُسمَّى[(٢)] بيحيى؛ ذكره النقاش.

وقال قتَادة: سمِّي بيحيى لأن اللّه تعالى أحياه بالإيمان والنبوَّة. وقال بعضهم: سُمِّي بذلك لأن اللّه تعالى أحيا به الناس بالهُدَى. وقال مُقاتِل: اشتُقَّ اسمه من اسم اللّه تعالى: حَيّ، فسمَّاه[(٣)] يحيى. وقيل: لأنه أحيا به رَحِمَ أمِّه.

﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني عيسى في قول أكثر المفسرين، وسمِّي عيسى كلمةً لأنه كان بكلمة اللّه تعالى التي هي: «كنْ»، فكان من غير أب[(٤)].

وقرأ أبو السَّمَّال العَدَويُّ: «بكِلْمة» مكسورةَ الكاف ساكنةَ اللام في جميع القرآن[(٥)]، وهي لغة فصيحةٌ، مثل: كِتْف وفِخْذ.

وقيل: سمِّي كلمةً لأن الناس يهتدون به كما يهتدون بكلام اللّه تعالى.

وقال أبو عبيدة[(٦)]: معنى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بكتابٍ من اللّه. قال: والعرب تقول: أنْشَدَني كلمةً، أي: قصيدة[(٧)]، كما رُوي أن الحُوَيْدِرَة ذُكِر لحسانٍ، فقال:

---

(١) في (م): فقال إبراهيم ذلك.

(٢) في (خ) و(د) و(م): وسمي، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في التعريف والإعلام ص٣٣، والكلام منه.

(٣) في (خ) و(م): فسمي، والمثبت من (د) و(ظ) وهو الموافق لما في تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٥، والكلام منه، وخبر قتادة أخرجه الطبري ٥/ ٣٧٠.

(٤) تفسير الطبري ٥/ ٣٧١ - ٣٧٣، وتفسير البغوي ١/ ٢٩٨ - ٢٩٩، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٩.

(٥) ينظر القراءات الشاذة لابن خالويه ص٢١، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٣.

(٦) وقع في النسخ: أبو عبيد والمثبت من المصادر، وانظر التعليق التالي.

(٧) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٩١. ونقله عنه البغوي في تفسيره ١/ ٢٩٨ - ٢٩٩، والماوردي في النكت والعيون ١/ ٣٩٠، والطبرسي في مجمع البيان ٣/ ٧٢، وأبو حيان في البحر ٢/ ٤٤٧، وقد ردَّ هذا الكلام الطبري ٥/ ٣٧٣، وذكر أن ذلك جهل منه بتأويل الكلمة، واجتراءٌ على ترجمة القرآن بالرأي.

لعن اللّه كلمته، يعني قصيدته[١].

وقيل غيرُ هذا من الأقوال، والقولُ الأوَّل أشهرُ، وعليه من العلماء الأكثر.

و«يحيى» أوَّلُ من آمن بعيسى عليهما السلام وصَدَّقه [فشهد له أنه كلمة اللّه وروحُه] وكان يحيى أكبرَ من عيسى بثلاث سنين، ويقال: بستة أشهر. وكانا ابني خالة، فلما سمع زكريا شهادته قام إلى عيسى فضمَّه إليه وهو في خِرَقِهِ[٢].

وذكر الطبريُّ أن مريم لمَّا حملت بعيسى، حملت أيضاً أختُها بيحيى، فجاءت أختها زائرةً، فقالت: يا مريم أشعرت أني حملتُ؟ فقالت لها مريم: أشعرت أنت أني حملت؟ فقالت لها: وإني لأجدُ ما في بطني يسجد لِمَا في بطنك[٣]. وذلك أنه رُوي أنها أحسَّت جنينَها يَخِرُّ برأسه إلى ناحية بَطْن مريم؛ قال السُّديُّ: فذلك قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾. و«مصدِّقاً» نصب على الحال.

﴿وَسَيِّدًا﴾ السيد: الذي يسود قومَه، ويُنْتَهَى إلى قوله، وأصلُه: سَيْوِد، يقال: فلان أسْوَد من فلان، أَفْعَل، من السيادة؛ ففيه دلالةٌ على جواز تسميةِ الإنسان سيداً، كما يجوز أن يُسمَّى عزيزاً أو كريماً. وكذلك رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال لبني قُريظة: «قوموا إلى سيِّدكم»[٤].

وفي البخاريِّ ومسلم[٥] أن النبيَّ ﷺ قال في الحسن: «إن ابني هذا سيدٌ، ولعلَّ اللّهَ أن[٦] يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين». وكذلك كان، فإنه لما قُتل

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٩٢، والكشاف ١/ ٤٢٨. والحويدرة هو قطبة بن أوس بن محصن، ويسمى أيضاً: الحادرة، ومعناه الضخم، وهو شاعر جاهلي مقل. الأغاني ٢/ ٢٧٠.

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٥، وما سلف بين حاصرتين منه، وينظر تفسير البغوي ١/ ٢٩٩.

(٣) تفسير الطبري ٥/ ٣٧٢، وقد أخرجه من قول ابن عباس بإسناد منقطع وأخرجه أيضاً من قول السدّي. قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٤٤٢: معنى السجود ها هنا الخضوع والتعظيم، كالسجود عند المواجهة للسلام، كما كان في شرع من قبلنا، وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم.

(٤) قطعة من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، أخرجه أحمد (١١١٦٨)، والبخاري (٤١٢١)، ومسلم (١٧٦٨)، قال: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ. قال: فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد، فأتاه على حمار. قال: فلما دنا قريباً من المسجد قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم». الحديث...

(٥) صحيح البخاري (٢٧٠٤)، ولم نقف عليه عند مسلم، وهو عند أحمد (٢٠٣٩٢)، وهو من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٦) قوله: أن، من (ظ).

عليٌّ ﷺ، بايعه أكثرُ من أربعين ألفاً، وكثيرٌ ممن تخلَّف عن أبيه، ومن نَكث بيعتَه، فبقي نحو سبعةَ[١] أشهرٍ خليفةً بالعِراق وما وراءها من خُراسان، ثم سار إلى معاويةَ في أهل الحجاز والعراق، وسار إليه معاويةُ في أهل الشام. فلمَّا تراءى الجَمعان بموضعٍ يقال له «مَسْكِن» من أرض السَّواد بناحية الأنبار، كرِه الحسَنُ القتالَ؛ لعلمِه أنَّ إحدى الطائفتين لا تغلِبُ حتى تَهلِك أكثرُ الأخرى، فيَهلك المسلمون؛ فسلَّم الأمرَ إلى معاويةَ على شروط شَرَطها عليه، منها أن يكون الأمر له من بعد معاوية؛ فالتزم كلَّ ذلك معاويةُ. فصدَق قولُه عليه الصلاة والسلام: «إن ابني هذا سيِّدٌ» ولا أسْودَ ممن سوَّده الله تعالى ورسوله.

قال قتَادة في قوله تعالى: «وَسَيِّداً» قال: في العلم والعبادة. ابن جبير والضحاك: في العلم والتُّقى. مجاهد: السيِّد: الكريم. ابن زيد: الذي لا يغلبه الغضب[٢]. وقال الزجَّاج[٣]: السيد الذي يفوق أقرانه في كلِّ شيءٍ من الخير. وهذا جامع.

وقال الكِسَائيُّ: السيد من المعز المُسِن؛ وفي الحديث: «ثَنِيٌّ من الضَّأْن[٤] خيرٌ من السيِّد [من] المعز»[٥]. قال:

سَواءٌ عليه شاةُ عامٍ دَنتْ له ... ليذبَحها للضيفِ أم شاةُ سيِّدِ[٦]

﴿وَحَصُورًا﴾ أصله من الحَصْر، وهو الحبس. حَصَرني الشيءُ وأحصرني: إذا حبسني.

---

(١) في (ظ): ستة، وفي الاستيعاب ٣/ ١٠١ (على هامش الإصابة): أربعة.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٣٧٤ - ٣٧٦، وتفسير البغوي ١/ ٢٩٩، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٩ والقول الذي نسبه المصنف لابن زيد نُسب في هذه المصادر لعكرمة، أما قول ابن زيد كما أخرجه الطبري وأورده ابن عطية؛ فهو السيد: الشريف.

(٣) معاني القرآن ١/ ٤٠٦.

(٤) في (خ) و(د): ثنيُّ الضأن.

(٥) المجمل ٢/ ٤٧٨، والصحاح (سود)، وما بين حاصرتين منهما، والحديث أخرجه أحمد (٩٢٢٧)، والحاكم ٤/ ٢٢٧ عن أبي هريرة ﷺ وعندهما: «الجذع من الضأن...» وفي إسناده أبو ثِفَال المرِّي ثمامة بن وائل، قال الذهبي في ميزان الاعتدال ٤/ ٥٠٨: قال البخاري: في حديثه نظر. وأخرجه البيهقي ٩/ ٢٧١ من طريق أخرى وضعفها. والجذع من الضأن: هو ما تمت له سنة، وقيل أقل منها، والثَّنِيُّ من الغنم: ما دخل في السنة الثالثة. النهاية ١/ ٢٥٠، ٢٢٦.

(٦) المجمل ٢/ ٤٧٨، والصحاح واللسان (سود).

قال ابن ميَّادة[١]:

وما هجرُ ليلَى أن تكونَ تَباعَدتْ   عليكَ ولا أن أحْصَرَتْكَ شُغولُ

وناقة حَصور: ضيِّقةُ الإحليل. والحَصُور: الذي لا يأتي النساء، كأنه مُحجِم عنهن؛ كما يقال: رجلٌ حَصورٌ وحَصيرٌ: إذا حبَس رِفدَه ولم يُخرج ما يُخرجه النَّدامَى. يقال: شرب القوم فحَصِر عليهم فلانٌ، أي: بخِل؛ عن أبي عمرو[٢]؛ قال الأخطل:

وشاربٍ مُرْبحٍ بالكأس نادمني   لا بالحَصُور ولا فيها بِسوَّارِ[٣]

وفي التنزيل: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء:٨] أي: مَحْبِساً. والحَصِير: المِلِكُ؛ لأنه محجوب.

وقال لبيد:

وقُماقِمٍ غُلْبِ الرِّقابِ كأنهم   جِنٌّ لَدَى بابِ الحَصِيرِ قِيامُ[٤]

فيحيى عليه السلام حَصورٌ، فَعولٌ بمعنى مفعول، لا يأتي النساء، كأنه ممنوعٌ مما يكون في الرجال؛ عن ابن مسعود وغيره. وفعولٌ بمعنى مفعول كثيرٌ في اللغة، من ذلك: حَلوبٌ بمعنى محلوبة[٥]؛ قال الشاعر:

فيها اثنتان وأربعون حَلُوبةً   سُوداً كخافيةِ الغرابِ الأسْحَمِ[٦]

---

(١) الرماح بن أبرد، وأمه ميادة أم ولد، بربرية، وقيل: صَقْلَبية، وكان هو يزعم أنها فارسية، وهو شاعر فصيح مقدم من شعراء الدولتين، وكان يحب مهاجاة الشعراء ومُسَابَّة الناس، توفي في صدر خلافة المنصور. الأغاني ٢/ ٢٦١ . والبيت في ديوانه ص١٨٧ ، والمجمل ١/ ٢٣٩ ، والصحاح (حصر).

(٢) المجمل ١/ ٢٣٨ - ٢٣٩ ، والصحاح (حصر).

(٣) ديوان الأخطل ص١١٦ ، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٠٧ . قال الزجاج: أي نادمني وهو كريم منفق على الندامى، والسوَّار: المعربد يساور نديمه، أي: يثب عليه.

(٤) المجمل ١/ ٢٣٨ ، والصحاح (حصر)، وهو في شرح ديوان لبيد ص٢٩٠ برواية: ومقامة.

قال شارح الديوان: والمقامة: الجماعة يجتمعون في المجلس، وإذا قيل القماقم: فهي جمع القمقام، وهو العدد الكثير، وغُلْب الرقاب: غِلاظُها جمع أغلب.

(٥) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٠٥ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٤ .

(٦) قائله عنترة، والبيت في ديوانه ص١٧ ، قال ابن الأنباري في شرح المعلقات ص٣٠٦ : الخوافي (وهي جمع الخافية): الريش دون الريشات العشر في مقدم الجناح، والأسحم: الأسود.

وقال ابن مسعود أيضاً وابن عباس وابن جُبير وقَتادة وعطاء وأبو الشَّعْثاء والحسنُ والسُّدِّيُّ وابنُ زيد: هو الذي يكُفُّ عن النساء ولا يَقْرَبُهنَّ مع القدرة[١]. وهذا أصح الأقوال[٢] لوجهين:

أحدهما: أنه مَدْحٌ وثناءٌ عليه، والثناءُ إنما يكونُ عن الفعل المكتَسَب دون الجِبِلَّة في الغالب.

الثاني: أن فعولاً في اللغة من صيغ الفاعلين؛ كما قال:

ضَروبٌ بنصل السَّيف سُوقَ سِمَانِها إذا عَـدِمـوا زاداً فـإنـك عـاقـرُ[٣]

فالمعنى: أنه يحصُر نفسه عن الشهوات. ولعلَّ هذا كان شَرْعَه، فأمَّا شرعُنا فالنكاح[٤]، كما تقدَّم[٥].

وقيل: الحَصورُ: العِنِّين الذي لا ذَكَر له يتأتَّى له به النكاح، ولا يُنزل؛ عن ابن عباس أيضاً وسعيدِ بن المسيب والضَّحَّاك[٦].

وروى أبو صالحٍ، عن أبي هريرةَ قال: سمعتُ رسولَ اللّه ﷺ يقول: «كلُّ ابنِ آدَمَ يلقى الله بذنب قد أذنبه، يعذِّبه عليه إن شاء أو يرحمه، إلَّا يحيى بن زكريا، فإنه كان سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين». ثم أهوى النبيُّ ﷺ بيده إلى قَذاةٍ من الأرضِ،

(١) عرائس المجالس ص٣٧٨، وتفسير البغوي ١/ ٢٩٩، ومجمع البيان ٣/ ٧٢، والأخبار المذكورة أخرجها الطبري ٥/ ٣٧٧ - ٣٨١.

(٢) قوله: الأقوال، من (م).

(٣) البيت لأبي طالب في رثاء أبي أمية بن المغيرة وكان زوج أخته عاتكة، وهو في الكتاب ١/ ١١١، والمقتضب ٢/ ١١٤، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٢٤٦، والخزانة ٨/ ١٤٦. والسوق جمع ساق، مدحه بأنه كان يعرقب الإبل للضيفان عند عدم الأزواد، وكانوا إذا أرادوا نحر الناقة ضربوا ساقها بالسيف فخرَّت، ثم نحروها.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٢.

(٥) ٤/ ٧٢ - ٧٣.

(٦) أخرج أقوالهم الطبري ٥/ ٣٧٨ و ٣٧٩ و ٣٨٠، وابن أبي حاتم (٣٤٦٧) (٣٤٦٨).

فأخذها وقال: «كان ذَكَره مثلَ هذه القَذَاة»(١).

وقيل: معناه الحابس نفسَه عن معاصي اللّه عزَّ وجلَّ(٢).

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال الزجّاج(٣): الصالحُ الذي يؤدّي لله ما افْترض عليه، وإلى الناس حقوقَهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾.

قيل: الربُّ هنا جبريلُ، أي: قال لجبريلَ: ربِّ ـ أي: يا سيدي ـ أنَّى يكون لي غلام؟! يعني ولداً؛ وهذا قولُ الكلبيِّ(٤). وقال بعضهم: قوله: «ربِّ» يعني اللّهَ تعالى. «أنَّى» بمعنى: كيف، وهو في موضع نصبٍ على الظرف.

وفي معنى هذا الاستفهام وجهان:

أحدُهُما: أنه سأل: هل يكون له الولدُ وهو وامرأته على حاليهما، أو يُردّان إلى حالِ مَن يَلِد؟.

الثاني: سأل: هل يُرزقُ الولد من امرأته العاقرِ، أو من غيرها.

وقيل: المعنى: بأيِّ منزلة أستوجب هذا وأنا وامرأتي على هذه الحال؟ على وجه التواضع.

ويُروى أنه كان بين دعائه والوقتِ الذي بُشِّر فيه أربعون سنةً، وكان يومَ بُشِّر ابنَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٤٧٠)، والطبراني في المعجم الأوسط (٦٥٥٢)، وابن عدي ٢/ ٦٥١ من طريق حجاج بن سليمان الرُّعيني، عن الليث بن سعد، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، به. قال ابن أبي حاتم: قال أبي: لم يكن هذا الحديث عند أحد غير الحجاج [بن سليمان الرُّعَيْني] ولم يكن في كتاب الليث [بن سعد]. وقال الذهبي في الميزان ١/ ٤٦٢ : حجاج بن سليمان الرعيني عن الليث، قال ابن يونس: في حديثه مناكير، وقال أبو زرعة: منكر الحديث، ومشّاه ابن عدي.

(٢) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٩٤ .

(٣) معاني القرآن١/ ٤٠٧ .

(٤) ذكر أبو حيان في البحر ٢/ ٤٦٢ أن من ذهب إلى أن قوله: «ربِّ»، إنما هو نداء لجبريل، ومعناه: يا سيدي، فقد أبعد، ونقل عن الزمخشري قوله: هو من بدع التفاسير.

تسعين سنةً، وامرأته قريبةُ السنِّ منه. وقال ابن عباس والضحاك: كان يومَ بُشِّر ابنَ عشرين ومئة سنةٍ، وكانت امرأته بنتَ ثمانٍ وتسعين سنةً؛ فذلك قوله: «وامْرَأَتِي عَاقِرٌ» أي: عَقيمٌ لا تلد[١].

يقال: رجل عاقر، وامرأة عاقر: بيِّنة العُقْر، وقد عَقُرت ـ وعَقُر، بضم القاف فيهما ـ تَعْقُر عُقْراً: صارت عاقراً، مثل: حَسُنَتْ تَحْسُنُ حُسْناً؛ عن أبي زيد[٢]. وعَقَارة أيضاً[٣]. وأسماء الفاعِلِين من فَعُل: فَعِيلة، يقال: عَظُمت فهي عظيمة، وظرُفت فهي ظريفة. وإنما قيل: عاقرٌ؛ لأنه يُراد به: ذات عُقْرٍ، على النَّسَب[٤]، ولو كان على الفعل لقال: عَقُرت فهي عقيرة كأنَّ بها عُقْراً، أي: كبراً من السنِّ يمنعها من الولد.

والعاقر: العظيم من الرمل لا يُنبت شيئاً. والعُقْر أيضاً: مَهْرُ المرأة إذا وُطِئت على شُبهة. وبيضة العُقْر ـ زعموا ـ هي بيضةُ الديك؛ لأنه يبيض في عمره بيضةً واحدة إلى الطُّول [ما هي]. وعُقْر النار أيضاً: وسطُها ومعظَمُها. وعُقْر الحوض: مؤخّره حيث تقف الإبل إذا وردت؛ يقال: عُقْر وعُقُر مثل عُسْر وعُسُر، والجمعُ الأعقار[٥] فهو لفظٌ مشترك.

والكاف في قوله: «كذلك» في موضع نصب، أي: يفعل اللّه ما يشاء مثلَ ذلك[٦].

والغلامُ مشتقٌ من الغُلْمةِ، وهي[٧] شدَّةُ طلبِ النكاح. واغْتَلَم الفحلُ غُلْمةً: هاج

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٣٨٣، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٠٨، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٣٩٦، وعرائس المجالس ص٣٧٨، وتفسير البغوي ١/ ٢٩٩ - ٣٠٠، ومجمع البيان ٣/ ٧٤.

(٢) الصحاح (عقر).

(٣) في اللسان (عقر): عقُرت المرأة عَقارة وعِقارة.

(٤) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٠٨.

(٥) الصحاح (عقر) وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٤.

(٧) في (خ) و (د) و (م): وهو، والمثبت من (ظ).

من شهوة الضِّرَاب. وقالت لَيْلَى الأَخْيَلِيَّة[١]:

شَفَاها من الداء العُضَال الذي بها غلامٌ إذا هَزَّ القناةَ سقاها

والغلام: الطارُّ الشارب. وهو بيِّن الغُلُومةِ والغُلومِيَّةِ، والجمعُ: الغِلْمة والغِلمان. ويقال: إن الغَيْلم الشابُّ والجاريةُ أيضاً. والغَيْلم: ذَكر السُّلَحْفاة. والغيلم: موضع. واغتلم البحر: هاج وتلاطمت أمواجُه[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ «اجْعَلْ[٣]» هنا بمعنى صيِّر، لتعدِّيه إلى مفعولين. و«لي» في موضع المفعول الثاني[٤].

ولمَّا بُشِّر بالولد ولم يَبْعُد عنده هذا في قدرة الله تعالى، طلب آيةً ـ أي: علامة ـ يَعرفُ بها صحةَ هذا الأمرِ، وكونَه من عند الله تعالى؛ فعاقبه الله تعالى بأن أصابه السكوتُ عن كلام الناس؛ لسؤاله الآيةَ بعد مُشافَهة الملائكةِ إياه؛ قاله أكثر المفسرين[٥]؛ قالوا: وكذلك إن لم يكنْ من مرضٍ؛ خَرَسٍ أو نحوه؛ ففيه على كلِّ حال عقابٌ ما. قال ابن زيد: إن زكريا عليه السلام لمَّا حملت زوجه منه بيحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم أحداً، وهو مع ذلك يقرأ التوراةَ ويذكر الله تعالى؛ فإذا أراد مقاولَةَ أحدٍ لم يطقه.

---

(١) هي ليلى بنت عبدالله بن الرَّحَّال بن شداد بن كعب بن معاوية، وهي من النساء المتقدمات في الشعر من شعراء الإسلام. الأغاني ١١/ ٢٠٤ . والبيت فيه ٢٤٨/١١، وفي أمالي القالي ٨٦/١ ، وزاد المسير ١/ ٣٨٥ .

(٢) المجمل ٣/ ٦٨٣ ، والصحاح (غلم).

(٣) في (خ) و(د) و(م): جعل.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٤ .

(٥) هذا قول قتادة، وقد أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ١٢٠ ، والطبري ٥/ ٣٨٦ ، وابن أبي حاتم (٣٤٧٨)، وذكرته أغلب كتب التفسير. وانظر عرائس المجالس ص٣٧٩ .

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَمۡزٗا﴾ الرمز في اللغة الإيماء بالشفتين، وقد يُستعمل في الإيماء بالحاجبين والعينين واليدين؛ وأصله الحركة.

وقيل: طلبَ تلك الآيةَ زيادةَ طمأنينة. المعنى: تَمِّمْ[1] النعمة بأن تجعل لي آية، وتكون تلك الآية زيادةَ نعمةٍ وكرامة؛ فقيل له: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي: تُمنع من الكلام ثلاثَ ليالٍ؛ دليلُ هذا القولِ قولُه تعالى بعد بشرى الملائكة له: ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم:٩] أي: أوجدْتُك بقدرتي، فكذلك أُوجِدُ لك الولد. واختار هذا القولَ النحاسُ[2] وقال: قولُ قتادة: إن زكريا عُوقب بترك الكلام قولٌ مرغوبٌ عنه؛ لأن اللّه عزَّ وجلَّ لم يخبرنا أنه أذنب، ولا أنه نهاه عن هذا؛ والقولُ فيه أن المعنى: اجعل لي علامةً تدلُّ على كون الولد؛ إذ كان ذلك مغيَّباً عني.

و «رَمْزاً» نصبٌ على الاستثناء المنقطع؛ قاله الأخفش[3]. وقال الكِسائي: رَمَز يَرْمُز ويَرْمِز. وقرئ: «إِلَّا رَمَزاً» بفتح الميم، و«رُمُزاً» بضمها وضمِّ الراء، والواحدة رُمْزة[4].

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ على أن الإشارة تنزل منزلةَ الكلام، وذلك موجود في كثير من السنة، وآكد الإشارات ما حكم به النبيُّ ﷺ من أمْرِ السوداء حين قال لها: «أين اللّه»؟ فأشارت برأسها إلى السماء، فقال: «أَعْتِقْها فإنها مؤمنة»[5]. فأجاز

---

(١) في (ظ): تتم.

(٢) إعراب القرآن ١/ ٣٧٥ .

(٣) معاني القرآن ١/ ٤٠٥ .

(٤) نسب ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٠ القراءة الأولى للأعمش، والثانية ليحيى بن وثاب. ونسب ابن جني في المحتسب ص١٦١ القراءة الثانية للأعمش.

(٥) أخرجه بهذه السياقة (يعني أنها أشارت برأسها إلى السماء) الإمام أحمد في المسند (٧٩٠٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي إسناده المسعودي، وقد اختلط. وأخرجه أحمد أيضاً (٢٣٧٦٢)، ومسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم مطولاً، وفيه: قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أين الله؟» فقالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله... وأخرجه أيضاً أحمد (١٥٧٤٣) عن رجل من الأنصار، وفيه: قال لها رسول الله ﷺ: «أتشهدين أن لا إله إلا الله؟» قالت: نعم. قال: «أتشهدين أني رسول الله؟». قالت: نعم... قال الشوكاني في شرح الموطأ ٤/ ٨٥: يؤوَّل قوله: قالت: نعم، على أنها قالت بالإشارة، وأنه وقع منها الأمران، فقالت: نعم باللفظ... وأشارت إلى السماء حين قوله: أين الله؟...

الإسلامَ بالإشارة الذي هو أصلُ الديانة، الذي يَحْرُز الدمَ والمالَ، وتُستحقُّ به الجنة، ويُنَجَّى به من النار، وحَكَم بإيمانها كما يُحكم بنطق مَن يقول ذلك؛ فيجب أن تكون الإشارةُ عاملةً في سائر الديانة، وهو قول عامة الفقهاء[(١)].

وروى ابن القاسم عن مالك: أن الأخرس إذا أشار بالطلاق أنه يَلْزَمُه[(٢)]. وقال الشافعيُّ في الرجل يمرض فيختلُّ لسانه: فهو كالأخرس في الرجعة والطلاق. وقال أبو حنيفة: ذلك جائزٌ إذا كانت إشارتُهُ تُعرف، وإن شُكَّ فيها فهي باطلٌ[(٣)]. وليس ذلك بقياس، وإنما هو استحسان. والقياس في هذا كلِّه أنه باطل؛ لأنه لا يتكلَّم ولا تُعقل إشارته.

قال أبو الحسن بن بطَّال: وإنما حمل أبا حنيفة على قوله هذا أنه لم يعلم السُّنن التي جاءت بجواز الإشارات في أحكامٍ مختلفة في الديانة. ولعلَّ البخاريَّ حاول بترجمته: «باب الإشارة في الطلاق والأمور»[(٤)] الردَّ عليه.

وقال عطاء: أراد بقوله: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ صومَ ثلاثةِ أيام، وكانوا إذا صاموا لا يتكلَّمون إلَّا رَمْزاً[(٥)]. وهذا فيه بُعْدٌ. والله أعلم.

الرابعة: قال بعض من يجيز نسخَ القرآن بالسُّنَّة: إن زكريا عليه السلام مُنع الكلامَ وهو قادرٌ عليه. وإنه منسوخٌ بقوله عليه الصلاة والسلام: «لا صَمتَ يوماً[(٦)] إلى

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٢ .

(٢) المدونة ٣/ ٢٤ .

(٣) مختصر اختلاف العلماء ٢/ ٤٥١ .

(٤) صحيح البخاري، قبل الحديث (٥٢٩٣)، وينظر فتح الباري ٩/ ٤٣٨ .

(٥) عرائس المجالس ص٣٧٩ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٠٠ .

(٦) كذا في النسخ: يوماً (في الموضعين)، والحديث أخرجه أبو داود (٢٨٧٣) من حديث علي ﷺ بلفظ: «لا صمات يومٍ إلى الليل». قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٤/ ١٥٢ - ١٥٣ وقد روي هذا الحديث من رواية جابر بن عبدالله وأنس بن مالك وليس فيها شيء يثبت.
قال عبد الحق في الأحكام الوسطى ٣/ ٣٢٣ : المحفوظ موقوف على علي. قلنا: أخرج الموقوف عبد الرزاق (١١٤٥١) وانظر علل الدارقطني ٤/ ١٤٢ .

الليل». وأكثرُ العلماء على أنه ليس بمنسوخٍ(١)، وأن زكريا إنما مُنع الكلامَ بآفةٍ(٢) دخلت عليه منعته إياه، وتلك الآفة(٣): عدمُ المقدرةِ(٤) على الكلام مع الصحة؛ كذلك قال المفسرون(٥).

وذهب كثيرٌ من العلماء إلى أنه: «لا صَمتَ يوماً إلى الليل» إنما معناه: عن ذكر الله، وأما عن الهَذَر وما لا فائدةَ فيه، فالصمتُ عن ذلك حسن.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أَمَره بألَّا يتركَ الذكرَ في نفسه مع اعتقال لسانه، على القول الأوَّل. وقد مضى في البقرة معنى الذكر(٦).

وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: لو رُخِّصَ لأحد في ترك الذكرِ لرُخِّص لزكريا بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ ولرُخِّص للرجل يكون في الحرب بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥]. ذكره الطبري(٧).

﴿وَسَبِّحْ﴾ أي: صلِّ؛ سمِّيت الصلاةُ سُبحةً لِمَا فيها من تنزيه الله تعالى عن السوء. و«العشيّ» جمع عشيَّة، وقيل: هو واحد. وذلك من حين تزولُ الشمسُ إلى أن تغيب؛ عن مجاهد(٨).

وفي الموطأ(٩) عن القاسم بن محمد قال: ما أدركتُ الناسَ إلَّا وهم يصلُّونَ الظُّهرَ بعشيٍّ. «والإبكار»: من طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٢ .

(٢) في (د) و (خ): بآية.

(٣) في النسخ الخطية: الآية، والمثبت من (م).

(٤) في (م): القدرة.

(٥) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٣٢ : وقال قوم من المفسرين: لم تكن آفة، ولكنه منع محاورة الناس فلم يقدر عليها، وكان يقدر على ذكر الله، قاله الطبري. وانظر تفسيره ٥/ ٣٩٠ .

(٦) ٢/ ٤٥٩ - ٤٦٠ .

(٧) في (م) وذكره الطبري، وهو في تفسيره ٥/ ٣٩١ ، وتفسير ابن أبي حاتم (٣٤٨٤)، دون قوله: ولرخص للرجل يكون في الحرب، وأخرجه بتمامه أبو نعيم في الحلية ٣/ ٢١٥ .

(٨) أخرجه الطبري ٥/ ٣٩٢ .

(٩) ١/ ٩ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أي: اختاركِ، وقد تقدَّم[١]. ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي: من الكفر؛ عن مجاهد والحسن[٢]. الزجَّاج[٣]: من سائر الأدناسِ، من الحيض والنِّفاس وغيرهما، واصطفاك لولادة عيسى.

﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: عالَمِي زمانِها؛ عن الحسن وابن جُريجٍ وغيرهما[٤]. وقيل: «على نساء العالمين» أجْمَعَ إلى يوم الصُّور، وهو الصحيح على ما نبيِّنه، وهو قول الزجَّاج وغيره[٥]. وكرَّر الاصطفاء لأن معنى الأوَّل: الاصطفاء لعبادته، ومعنى الثاني: لولادة عيسى.

وروى مسلم[٦] عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمُلَ من الرجال كثيرٌ، ولم يكمل من النساء غيرُ مريمَ بنتِ عمرانَ، وآسيةَ امرأةِ فرعون، وإن فَضْلَ عائشةَ على النساء، كفضل الثَّريدِ على سائرِ الطعام».

قال علماؤنا رحمة الله عليهم[٧]: الكمالُ هو التناهي والتمام؛ ويقال في ماضيه: «كمل» بفتح الميم وضمِّها، و«يَكْمُل» في مضارعه بالضم، وكمال كلِّ شيءٍ بحَسبِه. والكمالُ المطلَق إنما هو لله تعالى خاصةً، ولا شكَّ أن أكملَ نوعِ الإنسان الأنبياءُ، ثم يليهم الأولياءُ من الصدِّيقين والشهداءِ والصالحين. وإذا تقرَّر هذا فقد قيل: إن الكمالَ المذكورَ في الحديث يعني به النبوَّةَ، فيلزم عليه أن تكون مريمُ عليها السلام

---

(١) ٢/٤٠٦ .

(٢) النكت والعيون ١/ ٣٩٢ ، وأخرج الطبري ٥/ ٣٩٦ وابن أبي حاتم (٣٤٨٩) قول مجاهد.

(٣) معاني القرآن ١/ ٤١٠ .

(٤) زاد المسير ١/ ٣٨٧ وزاد نسبته لابن عباس، وأخرج الطبري ٥/ ٣٩٦ خبر مجاهد. ونقل ابن الجوزي عن ابن الأنباري قوله: وهذا قول الأكثرين.

(٥) معاني القرآن ١/ ٤١٠ .

(٦) صحيح مسلم (٢٤٣١)، وهو عند أحمد (١٩٥٢٣)، والبخاري (٣٤١١).

(٧) المفهم ٦/ ٣٣١ - ٣٣٢ .

وآسيةُ نبيَّتين، وقد قيل بذلك. والصحيح أن مريم نبيَّة؛ لأن اللّه تعالى أوحى إليها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر النبيِّين حَسْبَ ما تقدَّم، ويأتي بيانُه أيضاً في «مريم»(١). وأما آسيةُ فلم يَرِدْ ما يدلُّ على نبوَّتها دلالةً واضحة، بل على صدِّيقيَّتها وفضلها، على ما يأتي بيانُه في «التحريم»(٢).

ورُوي من طرق صحيحة أنه عليه الصلاة والسلام قال فيما رواه عنه أبو هريرة: «خيرُ نساءِ العالمين أربعٌ: مريمُ بنتُ عمرانَ، وآسيةُ بنتُ مُزَاحِمٍ امرأةُ فرعون، وخديجةُ بنتُ خُوَيْلد، وفاطمةُ بنتُ محمد»(٣).

ومن حديث ابن عباسٍ، عن النبيِّ ﷺ: «أفضلُ نساءِ أهلِ الجنةِ خديجةُ بنتُ خويلدٍ، وفاطمةُ بنتُ محمد، ومريمُ بنتُ عمرانَ، وآسيةُ بنتُ مُزَاحِمٍ امرأة فرعون»(٤). وفي طريق آخر عنه: «سيدةُ نساءِ أهلِ الجنةِ بعد مريمَ فاطمةُ وخديجة»(٥).

فظاهرُ القرآن والأحاديث يقتضي أنَّ مريمَ أفضلُ من جميع نساءِ العالَم؛ من حوَّاء إلى آخِرِ امرأة تقوم عليها الساعة؛ فإن الملائكة قد بلَّغتها الوحيَ عن اللّه عزَّ وجلَّ بالتكليف والإخبار والبشارة، كما بلَّغت سائر الأنبياء؛ فهي إذاً نبيَّة، والنبيُّ أفضلُ من الوليِّ، فهي أفضلُ من كلِّ النساء: الأوَّلين والآخِرين مطلقاً. ثم بعدها في الفضيلة فاطمة، ثم خديجة، ثم آسِية. وكذلك رواه موسى بن عقبةَ، عن كُرَيْب، عن ابن

---

(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ [الآية: ١٦].

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾ [الآية:١٢].

(٣) المفهم ٦/ ٣١٤، وأخرج الحديث ابن عبد البر في الاستيعاب على هامش الإصابة ١٢/ ١٧٩، وله شاهد من حديث أنس ﷺ أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٩٦١)، وابن حبان، (٦٩٥١)، والطبراني في المعجم الكبير ٢٢/(١٠٠٤).

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٦٨)، وأبو يعلى (٢٧٢٢)، والطبراني (١١٩٢٨)، والحاكم ٣/ ١٨٥ وصححه، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٢٣: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، ورجالهم رجال الصحيح.

(٥) المفهم ٦/ ٣١٤، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢١٧٩) وزاد في آخره: «وآسية امرأة فرعون» قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٠١: رواه الطبراني في الأوسط والكبير ورجال الكبير رجال الصحيح.

عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيدةُ نساء العالمين مريم، ثم فاطمة، ثم خديجة، ثم آسِية». وهذا حديثٌ حسن يرفع الإشكال[١].

وقد خَصَّ الله مريمَ بما لو يؤته أحداً من النساء، وذلك أن روحَ القُدُسِ كلَّمها وظهر لها، ونفخ في دِرعها، ودنا منها للنفخة، فليس هذا لأحدٍ من النساء. وصدَّقت بكلمات ربِّها، ولم تسأل آيةً عندما بُشِّرت كما سأل زكريا ﷺ من الآية[٢]؛ ولذلك سمَّاها الله في تنزيله صِدِّيقةً، فقال: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ﴾ [المائدة:٧٥]، وقال: ﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢]. فشهد لها بالصدِّيقيَّة، وشهد لها بالتصديق لكلمات البشرى، وشهد لها بالقُنُوت.

وإنما[٣] بُشِّر زكريا بغلام، فلَحظ إلى كِبَرِ سنِّه وعَقَامةِ رحم امرأته، فقال: أنَّى يكون لي غلام وامرأتي عاقر[٤]، فسأل آيةً؛ وبُشِّرتْ مريمُ بالغلام[٥]، فلحظَت أنها بِكْرٌ ولم يمسَسْها بشرٌ، فقيل لها: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ [مريم:٢١]، فاقتصرت على ذلك، وصدَّقْت بكلمات ربِّها، ولم تسأل آيةً ممن يعلم كُنْهَ هذا الأمر. ومن أين[٦] لامرأةٍ في جميع نساء العالمين من بنات آدم ما لها من هذه المناقب؟!

ولذلك رُوي أنها سبقت السابقين مع الرسل إلى الجنة؛ جاء في الخبر عنه ﷺ: «لو أقسمتُ لبرَرْتُ، لا يدخل الجنة قبل سابقي أمتي إلَّا بضعةَ عشرَ رجلاً، منهم إبراهيمُ، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباطُ، وموسى، وعيسى، ومريمُ ابنة عمران»[٧].

---

(١) المفهم ٦/ ٣١٥ ، والحديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٣/ (٢) لكن في إسناده محمد بن حسن ابن زَبالة، وهو متروك، كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٢٣، ويغني عنه الأحاديث السالفة قبله.

(٢) قوله: من، ليس في (ظ).

(٣) في (ظ): ولما.

(٤) لفظ الآية (٤٠) من آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾.

(٥) في (خ) و (ظ): بغلام.

(٦) قوله: أين، من (ظ).

(٧) أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ ٢/ ٣٤٤ ، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٣٦٨) من حديث عتبة بن عبد ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٦٩ : فيه بقية [بن الوليد] وهو ثقة لكنه مدلس.

وقد كان يحِقُّ على من انتحل علمَ الظاهرِ، واستدلَّ بالأشياء الظاهرة على الأشياء الباطنة، أن يعرف قولَ رسول اللّه ﷺ: «أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ ولا فخر»[١] وقوله حيث يقول: «لِواءُ الحمدِ يومَ القيامةَ بيدي، ومفاتيح الكرم بيدي، وأنا أوَّلُ خطيبٍ، وأوَّلُ شفيعٍ، وأوَّلُ مُبشِّرٍ، وأوَّل وأوَّل»[٢]. فلم ينل هذا السُّؤدد في الدنيا على الرسل إلَّا لأمرٍ عظيم في الباطن. وكذلك شأنُ مريم لم تنل شهادة اللّه في التنزيل بالصدِّيقيَّة والتصديقِ بالكلمات إلَّا لمرتبة قريبة دانية.

ومن قال: لم تكن نبيَّةً، قال: إن رؤيَتها للملك كما رُؤي جبريلُ عليه السلام في صفة دِحية الكلبيِّ حين سؤاله عن الإسلام والإيمان، ولم تكن الصحابة بذلك أنبياءَ، والأولُ أظهرُ وعليه الأكثر. واللّه أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: أطيلي القيامَ في الصلاة. عن مجاهد. قتادة: أديمي الطاعةَ[٣]. وقد تقدَّم القولُ في القنوت[٤]؛ قال الأوزاعِيُّ: لمَّا قالت لها الملائكة ذلك، قامت في الصلاةِ حتى وَرِمَتْ قدماها وسالت دماً وقيحاً عليها السلام[٥].

﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى﴾ قدَّم السجود هاهنا على الركوع؛ لأن الواو لا توجب الترتيب، وقد تقدَّم الخلافُ في هذا في البقرة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾. فإذا قلتَ: قام زيد وعمرو جاز أن يكون عمرو قام قبل زيد، فعلى هذا يكون المعنى: واركعي واسجدي. وقيل: كان شرعهم السجودَ قبل الركوع. ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ قيل: معناه: افعلي كفعلهم وإن لم تصلِّي معهم. وقيل: المراد به صلاةُ

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن حبان (٦٢٤٢) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه وأحمد (١٠٩٨٧) وابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وسلف ٣/ ٢٦٢.

(٢) أخرجه بنحوه الترمذي (٣٦١٠) وقال: حسن غريب. وينظر الشفا للقاضي عياض ١/ ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٣) النكت والعيون ١/ ٣٩٢.

(٤) ٢/ ٣٣٤ - ٣٣٥ و ٤/ ١٨٤.

(٥) تفسير البغوي ١/ ٣٠١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٣٤، وأخرجه الطبري ٥/ ٣٩٩، وابن أبي حاتم (٣٤٩٦).

الجماعة[(١)]. وقد تقدَّم في البقرة[(٢)].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: الذي ذكرنا من حديث زكريا ويحيى ومريمَ عليهم السلام من أخبار الغيب. ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ فيه دلالة على نبوَّة محمد ﷺ، حيث أخبر عن قصة زكريا ومريم ولم يكن قرأ الكتب، وأخبر عن ذلك وصدَّقه أهل الكتاب بذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾. فردَّ الكناية إلى «ذلك» فلذلك ذُكِّر[(٣)]. والإيحاء هنا: الإرسال إلى النبيِّ ﷺ. والوحيُ يكون إلهاماً وإيماءً وغير ذلك. وأصلُه في اللغة: إعلامٌ في خفاء، ولذلك صار الإلهام يسمَّى وحياً، ومنه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١]، وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨].

وقيل: معنى ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾: أمرتهم، يقال: وَحَى وأَوْحَى، ووَمَى وأَوْمَى بمعناه[(٤)]. قال العجَّاج:

أوحى لها القرارَ فاستقرَّتِ[(٥)]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٦، والنكت والعيون ١/ ٣٩٢، وتفسير البغوي ١/ ٣٠١. ورأي ابن عطية رحمه الله في المحرر ١/ ٤٣٤: أن مريم أمرت بالقنوت والسجود وهذان يختصان بصلاتها مفردة، ثم أمرت ـ بعدُ ـ بالصلاة في الجماعة، فقيل لها: ﴿واركعي مع الراكعين﴾ وقُصد هنا مَعلم من معالم الصلاة؛ لئلا يتكرر اللفظ، ولم يرد بالآية السجود والركوع الذي هو منتظِم في ركعة واحدة.

(٢) ٢/ ٢٥.

(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٧، وتفسير البغوي ١/ ٣٠١.

(٤) في النسخ: رمى وأرمى، والتصويت من تهذيب اللغة ٥/ ٢٩٦ - ٢٩٧، واللسان (وحى)، وتاج العروس (ومى).

(٥) ديوانه ١/ ٤٠٨ - ٤٠٩ وبعده: وشدها بالراسيات الثُبَّت. ورواية الديوان: وحى لها... ، قال ابن دريد في الجمهرة ٢/ ١٩٨، والجوهري في الصحاح (وحى): ويروى: أوحى لها.

أي: أمر الأرضَ بالقرار. وفي الحديث: «الوَحَى الوَحَى»[١] وهو السرعة، والفعل منه تَوَحَّيتُ تَوَحِّياً. قال ابن فارس[٢]: الوحيُ الإشارة والكتابة[٣] والرسالة، وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرك حتى يعلمه وحيٌ كيف كان. والوَحِيُّ: السريع. والوَحَى الصَّوْت، ويقال: استوحيناهم، أي: استصرخناهم. قال:

أوحيتُ ميموناً لها والأزرقَ[٤]

الثانية: قوله تعالى ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: وما كنتَ يا محمد لديهم، أي: بحضرتهم وعندهم. ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ جَمْعُ قَلَم، مِن قَلَمَه: إذا قطعه. قيل: قِدَاحهم وسهامهم. وقيل: أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة، وهو أجود، لأن الأزلام قد نَهى اللّه عنها، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة:٣]. إلَّا أنه يجوز أن يكونوا فعلوا ذلك على غير الجهة التي كانت عليها الجاهلية تفعلها[٥].

﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ أي: يحضُنها، فقال زكريا: أنا أحقُّ بها، خالتُها عندي. وكانت عنده أشيعُ بنتُ فاقود أختُ حَنَّةَ بنتِ فاقود أمِّ مريم. وقال بنو إسرائيل: نحن أحقُّ بها، بنت عالِمنا. فاقترعوا عليها، وجاء كلُّ واحد بقلمه، واتفقوا أن يجعلوا الأقلام في الماء الجاري، فمَن وقف قلمه ولم يُجرِه الماء[٦] فهو حاضنها[٧]. قال

---

(١) قطعة من خطبة أبي بكر الصديق ﷺ أخرجها هنّاد في الزهد ٤٩٥، والطبري في التاريخ ٣/ ٢٢٣ - ٢٢٤، والحاكم ٢/ ٣٨٣ - ٣٨٤، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣٤ - ٣٥. وأخرجها أحمد في الزهد ص٣٤٠ عن الحسن، وذكر الأزهري في تهذيب اللغة ٥/ ٢٩٨، والجوهري في الصحاح (وحى)، والميداني في مجمع الأمثال ٢/ ٣٩٢ أن من كلام العرب قولهم: الوحَى الوحَى، أي العَجَلَ العَجَل. وقال ابن الأثير في النهاية (وحى): يُمدّ ويقصر، يقال: توحَّيتُ تَوَحِّياً: إذا أسرعتَ، وهو منصوب على الإغراء بفعل مضمر.

(٢) مجمل اللغة ٤/ ٩١٩.

(٣) في النسخ: والكتاب، والمثبت من (م).

(٤) في (د) و(ز) و(م): والأزراق، والمثبت من (خ) و(ظ) وهو الموافق لما في المجمل، ولم نقف على قائله.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٦.

(٦) في (خ): ولم يجر بالماء، وفي (ظ): ولم يجر مع الماء، وفي أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٣ (والكلام منه): ولم يجر في الماء.

(٧) في (ظ) وأحكام القرآن: صاحبها.

النبيُّ ﷺ: «فَجَرَتِ الأقلام وعالَ قلمُ زكريا»[١]. وكانت آيةً له، لأنه نبيٌّ تجري الآيات على يديه. وقيل غير هذا.

و﴿أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ ابتداء وخبر في موضع نصبٍ بالفعل المضمَر الذي دلَّ عليه الكلام، التقدير: ينظرون أيُّهم يكفل مريم. ولا يعمل الفعل في لفظ «أي» لأنها استفهام[٢].

الثالثة: استدل بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القُرْعة، وهي أصلٌ في شرعنا لكلِّ مَن أراد العدل في القسمة، وهي سنَّةٌ عند جمهور الفقهاء في المستَوِيين في الحجة ليُعدلَ بينهم وتطمئنَّ قلوبهم، وترتفعَ[٣] الظِّنَّة عمن يتولَّى قسمتهم، ولا يَفْضُلَ أحد منهم على صاحبه إذا كان المقسوم من جنس واحد، اتباعاً للكتاب والسنَّة.

وردَّ العملَ بالقُرْعة أبو حنيفة وأصحابُه، وردُّوا الأحاديث الواردة فيها، وزعموا أنها لا معنًى لها وأنها تشبه الأزلام التي نَهى اللّه عنها. وحكى ابن المنذر[٤] عن أبي حنيفة أنه جوَّزها وقال: القرعةُ في القياس لا تستقيم، ولكنَّا تركنا القياس في ذلك وأخذنا بالآثار والسنَّة.

قال أبو عبيد[٥]: وقد عمِل بالقرعة ثلاثةٌ من الأنبياء: يونس وزكريا ونبيُّنا محمدٌ ﷺ. قال ابن المنذر: واستعمال القرعة كالإجماع من أهل العلم فيما يقسم بين الشركاء، فلا معنى لقول مَن ردَّها[٦].

---

(١) لم نقف عليه مرفوعاً، وعلقه البخاري في صحيحه بصيغة الجزم عن ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الشهادات، باب القُرعة في المشكلات (الفتح ٥/ ٢٩٢) ووصله البيهقي في السنن ١٠/ ٢٨٦ - ٢٨٧، وأخرجه الطبري ٥/ ٣٤٨ عن عكرمة قوله. وعن السُّدِّيِّ كذلك مطولاً. قال الحافظ في الفتح ٥/ ٢٩٤: قوله: وعال قلم زكريا، أي: ارتفع، وفي رواية الكشميهني: وعلا، وفي نسخة: وعدا بالدال.

(٢) مشكل إعراب القرآن ١/ ١٥٩، وتتمة كلامه: ولا يعمل في الاستفهام ما قبله.

(٣) في (ظ): وتدفع.

(٤) الإشراف ٢/ ٤٤٢.

(٥) بنحوه في غريب الحديث ٢/ ٢٣٤.

(٦) إكمال المعلم ٨/ ٢٨٦، والمفهم ٧/ ٣٦٥ وشرح النووي لصحيح مسلم ١٧/ ١٠٣.

وقد ترجم البخاريُّ في آخر كتاب الشهادات: باب القُرْعةِ في المشكِلات وقولِ اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ وساق حديثَ النعمان بن بشير: «مَثَلُ القائم على حدود اللّه والمُدْهِنِ فيها كمَثَل[1] قومٍ اسْتَهَمُوا على سفينةٍ» الحديث[2]. وسيأتي في «الأنفال» إن شاء اللّه تعالى، وفي سورة «الزخرف» أيضاً بحَوْلِ اللّه سبحانه[3]. وحديثَ أمِّ العلاء، وأن عثمان بن مَظْعُون طار لهم سَهمُه في السُّكْنَى حين اقترعت الأنصار سُكْنَى المهاجرين، الحديث[4]، وحديثَ عائشة قالت: كان رسول اللّه ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهنَّ خرج سهمها خرج بها، وذكر الحديث[5].

وقد اختلفت الرواية عن مالك في ذلك، فقال مرَّةً: يُقْرِع، للحديث. وقال مَرَّة: يسافِر بأوفقهنَّ له في السفر[6]. وحديثُ أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «لو يعلمُ الناس ما في النِّداءِ والصَّفِّ الأول، ثم لم يجدوا إلَّا أن يَسْتَهِموا عليه لاستهموا»[7]. والأحاديثُ في هذا المعنى كثيرة. وكيفيةُ القُرْعة مذكورةٌ في كتب الفقه والخلاف.

واحتجَّ أبو حنيفة بأن قال: إن القرعة في شأن زكريا وأزواجِ النبيِّ ﷺ كانت ممَّا لو تراضَوْا عليه دون قرعةٍ لجاز. قال ابن العربيِّ[8]: وهذا ضعيف، لأن القرعة إنما فائدتُها استخراجُ الحكم الخَفِيِّ عند التَّشَاحِّ، فأما ما يُخرجه التراضي فبابٌ آخر، ولا يصحُّ لأحد أن يقول: إن القرعة تجري مع موضِع التراضي، فإنها لا تكون أبداً مع التراضي، وإنما تكون فيما يَتَشاحُّ الناس فيه ويُضَنُّ به.

وصفة القرعة عند الشافعيِّ ومَن قال بها: أن تُقطع رِقاعٌ صغار مستوية، فيكتب في كلِّ رقعةٍ اسمُ ذي السهم، ثم تجعل في بنادق طينٍ مستوية لا تفاوتَ فيها، ثم

---

(١) في (م): مثل.

(٢) صحيح البخاري (٢٦٨٦)، وهو عند أحمد (١٨٣٦١)، قوله: المدهن، أي: المحابي. الفتح ٥/ ٢٩٥.

(٣) الآية: ٢٥ من سورة الأنفال، والآية: ٣٣ من سورة الزخرف.

(٤) صحيح البخاري (٢٦٨٧)، وهو عند أحمد (٢٧٤٥٧).

(٥) صحيح البخاري (٢٦٨٨)، وهو عند أحمد (٢٥٦٢٣)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٦) إكمال المعلم ٨/ ٢٨٧، والمفهم ٧/ ٣٦٥ - ٣٦٦.

(٧) أخرجه أحمد (٧٢٢٦)، والبخاري (٢٦٨٩).

(٨) أحكام القرآن ١/ ٢٧٣.

تجفَّف قليلاً، ثم تُلقى في ثوب رجل لم يحضُر ذلك، ويغطِّي عليها ثوبه، ثم يدخل يده ويُخرج، فإذا أخرج[١] اسم رجل أُعطي الجزء الذي أُقرع عليه.

الرابعة: ودلَّت الآية أيضاً على أن الخالة أحقُّ بالحضانة من سائر القرابات ما عدا الجدَّة، وقد قضى النبيُّ ﷺ في ابنة حمزة - واسمُها أَمَةُ الله - لجعفر، وكانت عنده خالتُها، وقال: «إنما الخالةُ بمنزلة الأم»[٢]. وقد تقدَّمت في البقرة هذه المسألة[٣].

وخرَّج أبو داود[٤] عن عليٍّ قال: خرج زيد بن حارثة إلى مكة فقدِم بابنة حمزة، فقال جعفر: أنا آخذُها، أنا أحقُّ بها، ابنةُ عمي وخالتُها عندي، وإنما الخالةُ أم. فقال عليٌّ: أنا أحقُّ بها، ابنةُ عمي وعندي ابنةُ رسول الله ﷺ، فهي أحقُّ بها. وقال زيد: أنا أحقُّ بها، أنا خرجتُ إليها وسافرتُ وقدِمت بها، فخرج النبيُّ ﷺ، فذكر حديثاً؛ قال: «وأما الجاريةُ فأقضي بها لجعفر تكونُ مع خالتها، وإنما الخالةُ أمٌّ»[٥].

وذكر ابن أبي خَيْثَمة[٦] أن زيد بن حارثة كان وصِيَّ حمزة[٧]، فتكون الخالةُ على هذا أحقَّ من الوصِيِّ، ويكون ابن العم إذا كان زوجاً غيرَ قاطعٍ بالخالة في الحضانة، وإن لم يكن مَحْرَماً لها[٨].

---

(١) في النسخ الخطية: خرج والمثبت من (م).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٩) من حديث البراء بن عازب. قال الحافظ في الفتح ٧/ ٥٠٥: ابنة حمزة اسمها عمارة، وقيل: فاطمة، وقيل: أمامة، وقيل: أمة الله، وقيل: سلمى، والأول هو المشهور، ونقل في الإصابة ١٢/ ١٢٦ عن الخطيب: أن رسول الله ﷺ زوجها من سلمة بن أم سلمة.

(٣) ٤/ ١١٣.

(٤) سنن أبي داود (٢٢٧٨)، وهو عند أحمد (٧٧٠)، وتقدم ٤/ ١١٣.

(٥) جاء في رواية أحمد: فقال رسول الله ﷺ: «أمّا أنت يا جعفر، فأشبَهْتَ خَلْقي وخُلُقي، وأمّا أنت يا عليُّ، فمنّي وأنا منك، وأما أنت يا زيد، فأخونا ومَوْلانا، والجاريةُ عند خالتها فإن الخالة والدة». ووقع هذا أيضاً عند البخاري من حديث البراء السالف.

(٦) واسمه أحمد بن زهير بن حرب، صاحب كتاب «التاريخ الكبير» الكثير الفائدة، توفي في سنة (٢٧٩هـ). السير ١١/ ٤٩٢.

(٧) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٨/ ١٥٩ من حديث ابن عباس ﷺ، وهو من رواية الواقدي.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٤.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

دليلٌ على نبوَّتها كما تقدَّم. و«إذ» متعلقةٌ بـ «يختصِمون». ويجوز أن تكون متعلقةً بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾[1].

﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ وقرأ أبو السَّمَّال[2]: «بِكِلْمَة»، وقد تقدَّم. ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾ ولم يقل: اسمها: لأن معنى «كلمة»: ولد[3]. والمسيح لقبٌ لعيسى، ومعناه: الصدِّيق، قاله إبراهيم النخعيُّ[4]. وهو فيما يقال معرَّب، وأصله الشين وهو مشترك.

قال ابن فارس[5]: والمسِيح: العَرَق، والمَسِيح: الصِّدِّيق، والمَسِيح: الدرهم الأطلسُ لا نقشَ فيه. والمَسْح: الجماع، يقال: مسحها. والأَمْسح: المكان الأملس. والمَسْحَاءُ: المرأة الرَّسْحاء التي لا اسْتَ لها. وبفلان مَسْحة من جمال. والمسائح قِسِيٌّ جِياد، واحدتها مَسِيحة. قال:

لـهـا مَـسـائـحُ زُورٌ فـي مـراكِـضـهـا لِـيـنٌ ولـيـس بـهـا وَهْـيٌ ولا رَقَـق[6]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٧ . قال ابن عطية في المحرر ١/ ٤٣٥: وهذا كله يردُّه المعنى، لأن الاختصام لم يكن عند قول الملائكة.

(٢) في (د): السماك، وفي (خ) و(ظ): سماك، وفي (م): السمان، والمثبت هو الصواب، وسلف ص١١٥، عند قوله تعالى: (مصدقاً بكلمة من الله)، ونسبها لأبي السمال أيضاً أبو حيان في البحر ١/ ٤٤٧ .

(٣) في (خ) و(د) و(ز) و(م): لأن معنى كلمة معنى ولد، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٧، والكلام منه.

(٤) علقه عنه البخاري بصيغة الجزم في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك..﴾. وأخرجه الطبري ٥/ ٤٠٩، وابن أبي حاتم (٣٥١٦). ونقل الأزهري في تهذيب اللغة ٤/ ٣٤٧ عن أبي بكر بن الأنباري قوله: واللغويون لا يعرفون هذا، قال: ولعل هذا كان مستعملاً في بعض الأزمان، فدَرَس فيما درس من الكلام.

(٥) المجمل ٣/ ٨٣٠ وما قبله منه.

(٦) المجمل ٣/ ٨٣٠، والصحاح واللسان (مسح)، ووقع في (م) والصحاح واللسان: وهن، بدل: وهي، ونسبه ابن منظور في اللسان لأبي الهيثم الثعلبي، ونقل عن ابن بري قوله: صواب: إنشاده: لنا مسائح، أي: لنا قسِيٌّ. وزور: جمع زوراء وهي المائلة، ومراكضها: يريد مِرْكَضَيْها وهما جانباها من عن يمين الوتر ويساره، والوهن والرقق: الضعف.

واختُلِف في المسيح ابن مريم مماذا أخذ؟ فقيل: لأنه مسح الأرض، أي: ذهب فيها فلم يستكِنَّ بِكِنٍّ، ورُوِي عن ابن عباس أنه كان لا يمسح ذا عاهةٍ إلَّا بَرِئ، فكأنه سُمِّي مسيحاً لذلك، فهو على هذا فعيلٌ بمعنى فاعل.

وقيل: لأنه ممسوحٌ بدهن البركة، كانت الأنبياء تُمسح به، طيِّبِ الرائحة، فإذا مُسح به عُلم أنه نبيّ.

وقيل: لأنه كان ممسوح الأَخْمَصَيْن. وقيل: لأن الجمال مَسَحَه، أي: أصابه وظهر عليه. وقيل: إنما سُمي بذلك لأنه مُسح بالطُّهر[1] من الذنوب.

وقال أبو الهيثم[2]: المسيح ضِدُّ المسيخ، يقال: مَسَحَه اللّه، أي: خلقه خَلْقاً حسناً مباركاً، ومسخه أي: خَلَقه خلقاً ملعوناً قبيحاً. وقال ابن الأعرابيّ: المسيح الصِّدِّيق [وبه سمي عيسى]، والمسيخ الأعور، وبه سُمِّي الدجّال. وقال أبو عبيد: المسيح أصلُه بالعبرانية مَشِيحاً، بالشين، فعرِّب كما عُرِّب موشى بموسى. وأما الدَّجَّال فسمِّي مسيحاً لأنه ممسوح إحدى العينين. وقد قيل في الدَّجَّال مِسِّيح، بكسر الميم وشدِّ السِّين. وبعضُهم يقوله[3] كذلك بالخاء المنقوطة. وبعضهم يقول: مَسِيخ، بفتح الميم وبالخاء والتخفيف، والأوَّل أشهرُ وعليه الأكثر. سمِّي به لأنه يسيح في الأرض، أي: يطوفُها، ويدخل جميع بلدانها، إلَّا مكةَ والمدينة وبيتَ المقدس، فهو فَعِيل بمعنى فاعل، فالدجَّال يمسح الأرض مِحْنَةً، وابن مريم يمسحها مِنْحةً. وعلى أنه ممسوح العين فعيل بمعنى مفعول[4]. وقال الشاعر:

---

(١) في النسخ الخطية: بالتطهير والمثبت من (م).

(٢) أبو الهيثم الرازي، اشتهر بكنيته، كان بارعاً حافظاً صحيح الأدب، عالماً ورعاً كثير الصلاة، من كتبه: الشامل في اللغة، والفاخر في اللغة، توفي سنة (٢٧٦هـ). إنباه الرواة ٤/ ١٨٢ ، ومقدمة تهذيب اللغة ١/ ٢٦

(٣) في (ظ) و(م): يقول.

(٤) تهذيب اللغة ٤/ ٣٤٧ - ٣٤٨ ، وإكمال المعلم ١/ ٥١٩ - ٥٢٠ ، والمفهم ١/ ٣٩٨ - ٣٩٩ ، وما بين حاصرتين مثبت من هذه المصادر. وينظر كذلك المحرر الوجيز ١/ ٤٣٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٧ .

إنَّ المسِيح يقتل المسِيحا[١]

وفي صحيح مسلم، عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ليس مِن بلدٍ إلّا سَيَطَؤه الدجّال إلاّ مكّةَ والمدينةَ» الحديث[٢]. ووقع في حديث عبد اللّه بن عمرو: «إلا الكعبةَ وبيتَ المقدس» ذكره أبو جعفر الطبري[٣].

وزاد أبو جعفر الطَّحَاويُّ: «ومسجد الطور»، رواه من حديث جُنَادَة بنِ أبي أمية، عن بعض أصحاب النبيِّ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ[٤].

وفي حديث أبي بكر بن أبي شيبة، عن سَمُرةَ بن جُنْدُب، عن النبيِّ ﷺ: «وأنه سيظهرُ على الأرض كلِّها إلّا الحرمَ وبيتَ المقدس، وأنه يَحصُر المؤمنين في بيت المقدس» وذكر الحديث[٥].

وفي صحيح مسلم: «فبينا هو كذلك، إذ بعث اللّه المسيحَ ابنَ مريم، فينزلُ عند المنارةِ البيضاءِ شَرْقِيَّ دِمَشق، بين مَهْرُودتين، واضِعاً كفَّيه على أجنحةِ مَلَكَيْن، إذا طَأْطَأَ رأسه قَطَر، وإذا رَفَعَه تحدَّر منه جُمَان كاللؤلؤ، فلا يَحِلُّ لكافر يجدُ ريح نَفَسه إلا مات، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طَرْفُه، فيطلبه حتى يُدْرِكَه بباب لُدٍّ فيقتلُه» الحديث بطوله[٦].

---

(١) في (د) و(ظ) و(م): المسيخا، والمثبت من (خ)، وهو الموافق لما في تهذيب اللغة ٤/ ٣٤٧، ومجمع البيان ٢/ ٨٠، واللسان (مسح)، وهو في التهذيب واللسان برواية: إذا المسيح. وفي مجمع البيان: إذ المسيح، ولم نقف على قائله.

(٢) صحيح مسلم (٢٩٤٣)، وأخرجه البخاري (١٨٨١)، وهو عند أحمد بنحوه (١٢٩٨٦).

(٣) لم نقف عليه عند الطبري، ونسبه الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٣٥٠ إلى الطبراني وقال: وفيه من لم أعرفهم.

(٤) شرح مشكل الآثار (٥٦٩٢)، وهو عند أحمد (٢٣٠٩٠)، قال الحافظ في الفتح ١٣/ ١٠٥: رجاله ثقات.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٤٦٩، وهو عند أحمد (٢٠١٧٨)، والحاكم ١/ ٣٣٠ وصححه.

(٦) صحيح مسلم (٢٩٣٧)، وهو عند أحمد (١٧٦٢٩) من حديث النَّوَّاس بن سمعان الكلابي. قوله: بين مهرودتين، أي: في شُقَّتَيْن أو حُلَّتين، وقيل: الثوب المهرود: الذي يصبغ بالورس ثم بالزعفران، فيجيء لونه مثل لون زهرة الحوذانة. النهاية ٥/ ٢٥٨. وقال القاضي عياض في إكمال المعلم ٨/ ٤٨٦: قوله: لا يحل، قيل: لا يمكن، ومعناه عندي: واجب وحق.

وقد قيل: إن المسيح اسمٌ لعيسى غيرُ مشتقٍّ؛ سمَّاه اللّه به[١]. فعلى هذا يكون عيسى بدلاً من المسيح، من البدل الذي هو هو.

وعيسى اسم أعجميٌّ، فلذلك لم ينصرف، وإن جعلتَه عربيّاً لم ينصرف في معرفة ولا نكرة، لأن فيه ألف تأنيث. ويكون مشتقّاً من عاسَه يَعُوسُه: إذا ساسَه وقامَ عليه[٢].

﴿وَجِيهًا﴾ أي: شريفاً ذا جاهٍ وقَدْر، وانتصب على الحال، قاله الأخفش. ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عِند اللّه تعالى، وهو معطوف على «وجيهاً» أي: ومُقَرَّباً، قاله الأخفش. وجَمْعُ وجيه: وُجَهَاء ووِجاه[٣]. ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ عطف على «وجيهاً»، قاله الأخفش أيضاً.

و﴿ٱلْمَهْدِ﴾ مضجع الصبيّ في رضاعه. ومَهَّدْتُ الأمر: هيَّأتُه ووطَّأتُه. وفي التنزيل ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]. وامتَهد الشيءُ: ارتفع كما يمتهد سَنَام البعير. ﴿وَكَهْلًا﴾ الكهلُ بين حال الغلومة وحال الشيخوخة. وامرأة كَهْلَة. واكتَهلت الروضة: إذا عمَّها النَّوْر[٤]. يقول: يكلِّم الناس في المهد آيةً، ويكلمهم كهلاً بالوحي والرسالة.

وقال أبو العباس[٥]: كلَّمهم في المهد حين برَّأ أمَّه، فقال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ الآية [مريم: ٣٠]. وأما كلامه وهو كهل؛ فإذا أنزله اللّه تعالى أنزله على[٦] صورة ابن ثلاثٍ وثلاثين سنة، وهو الكهل، فيقول لهم: «إني عبد اللّه» كما قال في المهد. فهاتان آيتان وحُجَّتان.

قال المهدوِيُّ: وفائدة الآية أنه أعلمهم أن عيسى عليه السلام يكلِّمهم في المهد،

---

(١) المفهم ١/ ٣٩٩.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٧.

(٣) في (خ) و(م): ووِجهاء، والمثبت من (د) و(ظ) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٧ والكلام منه، وكلام الأخفش في معاني القرآن ١/ ٤٠٧.

(٤) مجمل اللغة ٣/ ٨١٨ (مهد)، و٣/ ٧٧٣ (كهل).

(٥) هو ثعلب، أحمد بن يحيى، وقد نقل الأزهري هذا القول عنه بنحوه في تهذيب اللغة ٦/ ١٨.

(٦) في النسخ الخطية: في. والمثبت من (م).

ويعيش إلى أن يكلِّمهم كهلاً، إذ كانت العادة أنَّ من تكلم في المهد لم يعش.

قال الزجَّاج: «وكهلاً» بمعنى: ويكلِّم الناس كهلاً. وقال الفرَّاء والأخفش: هو معطوف على «وجِيهاً»[1]. وقيل: المعنى: ويكلِّم الناسَ صغيراً وكهلاً. وروى ابن جُريح عن مجاهد قال: الكهلُ: الحليم[2]. قال النحاس[3]: هذا لا يُعرف في اللغة، وإنما الكهل عند أهل اللغة مَن ناهز الأربعين. وقال بعضهم: يقال له حَدَثٌ إلى ستَّ عَشْرَةَ سنة، ثم شابٌ إلى اثنتين وثلاثين سنة. ثم يَكْتهل في ثلاثٍ وثلاثين. قال[4] الأخفش: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ عطف على «وجِيهاً» أي: وهو من العِباد الصالحين.

ذكر أبو بكر بن أبي شيبة: حدَّثنا عبد الله بن إدريس، عن حُصَيْن، عن هلال بن يِسَاف قال: لم يتكلَّم في المهد إلا ثلاثةٌ: عيسى، وصاحبُ يوسفَ، وصاحبُ جريج[5]. كذا قال: «وصاحب يوسف». وفي[6] صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «لم يتكلَّم في المهد إلَّا ثلاثةٌ: عيسى ابنُ مريم، وصاحب جُريج، . . .، وبيْنا صبيٌّ يرضع من أمِّه» وذكر الحديث بطوله[7].

وقد جاء من حديث صُهيبٍ في قصة الأُخدود «أنَّ امرأةً جِيءَ بها لتُلقَى في النار

(١) معاني القرآن للزجَّاج ١/ ٤١٢، وللفراء ١/ ٢١٣، وللأخفش ١/ ٤٠٧، ونقل المصنف هذه الأقوال بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٧٧.

(٢) علقه البخاري عنه قبل الحديث (٣٤٣٣)، قال الحافظ في الفتح ٦/ ٤٧٢: وصله الفريابي من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) إعراب القرآن ١/ ٣٧٨.

(٤) في (م): قاله. وكلامه في إعراب القرآن ١/ ٣٧٨.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٥٤٥. وهو مرسل كما ذكر الحافظ في الفتح ٦/ ٤٨٠.

(٦) في (خ) و(م): وهو في.

(٧) وقع في النسخ: «وصاحب جُريج، وصاحب الجبَّار، وبينا صبيٌّ يرضع من أمه»، بزيادة لفظ: وصاحب الجبَّار، وهو تكرار، فلفظ الحديث كما في صحيح مسلم (٢٥٥٠): (٨): «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابنُ مريم، وصاحب جريج، وكان جريج رجلاً عابداً، فاتخذ صومعة. . .». وذكر قصة جُريج. . . وبعده: «وبينا صبيّ يرضعُ من أمه، فمرَّ رجل راكبٌ على دابة فارهة وشارة حسنة. . .» إلى آخر الحديث. فـ«صاحب الجبار» هو الصبيّ الذي يرضع من أمه. والحديث أيضاً عند أحمد (٨٠٧١) والبخاري (٣٤٣٦).

على إيمانها ومعها صبيٌّ ـ في غير كتاب مسلم: يَرضعُ ـ فتقاعست أن تقع فيها، فقال الغلام: يا أمَّهْ، اصبري، فإنك على الحقّ»[١].

وقال الضحَّاك: تكلَّم في المهد ستَّةٌ: شاهِدُ يوسف، وصبيُّ ماشِطةِ امرأةِ فرعون، وعيسى، ويحيى، وصاحبُ جُريج، وصاحبُ الجَبَّار. ولم يَذكر الأخدود، فأسقَطَ صاحبَ الأخدود، وبه يكون المتكلِّمون سبعة. ولا معارضةَ بين هذا وبين قوله عليه الصلاة والسلام: «لم يتكلَّم في المهد إلَّا ثلاثةٌ» بالحصر، فإنه أخبر بما كان في علمه ممَّا أُوحي إليه في تلك الحال، ثم بعد هذا أعلمه اللّه تعالى بما شاء من ذلك فأخبر به[٢].

قلت: أمَّا صاحبُ يوسفَ فيأتي الكلام فيه[٣]، وأما صاحب جُريج وصاحبُ الجَبَّار وصاحبُ الأخدودِ، ففي صحيح مسلم. وستأتي قصةُ الأخدود في سورة «البروج» إن شاء اللّه تعالى.

وأما صبيُّ ماشطةِ امرأةِ فرعونِ، فذكر البيهقيُّ عن ابن عباس[٤] قال: قال النبيُّ ﷺ: «لما أُسري بي سِرْتُ في[٥] رائحة طيِّبة، فقلت: ما هذه الرائحة؟ قالوا: ماشطةُ ابنةِ فرعون وأولادُها، سقط مشطُها من يديها[٦] فقالت: بسم اللّه، فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قالت: ربِّي وربُّكِ وربُّ أبيكِ، قالت: أوَلكِ ربٌّ غيرُ أبي؟ قالت: نعم، ربِّي وربُّكِ وربُّ أبيكِ اللّهُ، قال: فدعاها فرعونُ، فقال: ألكِ ربٌّ غيري؟ قالت: نعم، ربي وربُّكَ اللّه، قال: فأمر بنُقرةٍ[٧] من نُحاس، فأُحميت، ثم أمر بها لتلقَى فيها، قالت: إن لي

---

(١) المفهم ٦/٥١١ ، والحديث في صحيح مسلم (٣٠٠٥)، ومسند أحمد (٢٣٩٣١) ولفظه فيه: «فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست».

(٢) المفهم ٦/ ٥١٢ ، وقوله: وصاحب الجبار، من (م) وليس في باقي النسخ، ووقع في المفهم بدلاً منه: وصاحب الأخدود، وقال أبو العباس إثره: فأسقط الضحاك صبي الجبار وذكر مكانه يحيى، وعلى هذا يكون المتكلمون سبعة .

(٣) عند قوله تعالى: ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ [٢٦] .

(٤) دلائل النبوة ٢/ ٣٨٩ ، والشعب (١٦٣٦) ، وهو عند أحمد (٢٨٢١) ، وابن حبان (٢٩٠٤) .

(٥) في (د): سرت بي، وفي الدلائل والشعب: مرَّت بي، وعند أحمد: أتت علي.

(٦) في (خ) و(ظ): من بين يديها، وفي الدلائل والشعب: من يدها.

(٧) في (ظ): ببقرة، وقد رويت في الحديث بالوجهين، ففي المسند والدلائل: ببقرة، وعند ابن حبان =

إليك حاجةً، قال: ما هي؟ قالت: تجمعُ عظامي وعظامَ ولدي[١] في موضع واحد، قال: ذاكَ لكِ، لِمَا لكِ علينا من الحق. فأمر بهم فأُلقوا واحداً بعد واحد، حتى بلغ رضيعاً فيهم فقال: قَعِي يا أمَّه، ولا تقاعسِي، فإنَّا على الحقّ. قال: وتكلَّم أربعة وهم صغار: هذا، وشاهد يوسف، وصاحب جُريح، وعيسى ابن مريم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ أي: يا سَيِّدي. تخاطب جبريل عليه السلام، لأنه لمَّا تمثَّل لها قال لها: «إنما أنا رسولُ ربِّكِ لِيَهَبَ لكِ غلاماً زكيّاً»[٢]. فلما سمعت ذلك من قوله استفهمت عن طريق الولد، فقالت: أنَّى يكون لي ولد ولم يمسَسْني بشر؟! أي: بنكاح، في سورتها: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٠]، ذكرت هذا تأكيداً، لأن قولها: «لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ» يشمل الحرام والحلال. تقول: العادة الجارية التي أجراها اللّه في خلقه أن الولد لا يكون إلَّا عن نكاحٍ أو سِفَاح. وقيل: ما استبعدت من قدرة اللّه تعالى شيئاً، ولكن أرادت: كيف يكون هذا الولد، أَمِنْ قِبَلِ زوجٍ في المستقبل، أم يخلقُه اللّه ابتداءً[٣]؟ فرُوي أن جبريل عليه السلام حين قال لها: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم:٢١]، نفخ في جَيب دِرعها وكُمِّها. قاله ابن جُريج[٤].

= والشعب: بنقرة. قال ابن الأثير في النهاية (بقر) ١/ ١٤٥: قال الحافظ أبو موسى: الذي يقع لي في معناه أنه لا يريد شيئاً مصوغاً على صورة البقرة، ولكنه ربما كانت قدراً كبيراً واسعة فسماها بقرة، مأخوذاً من التبقُّر: التوسع، أو كان شيئاً يسع بقرة تامة بتوابلها فسميت بذلك. وقال ٥/ ١٠٥ (نقر) بعد أن أورد الحديث بالرواية الأخرى: النقرة قدر يسخن فيها الماء وغيره، وقيل: هو بالباء الموحدة.

(١) يعني أولادي، كما يدل عليه قوله قبله: ماشطة ابنة فرعون وأولادها، وقوله بعده: فأمر بهم فأُلقوا واحداً بعد واحد. فلفظ «ولد» يطلق على الواحد، وعلى الجمع.

(٢) قال أبو حيان في البحر ٢/ ٤٦٢: من ذهب إلى أن قولها: «ربِّ»، وقول زكريا: «ربِّ» إنما هو نداء لجبريل لِما بشَّرهما، ومعناه يا سيدي، فقد أبعد، وقال الزمخشري: هو من بدع التفاسير.

(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٤٨٩.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٩١. وقال أبو حيان في البحر ٢/ ٤٨٠: في قصة زكريا: «يفعل ما يشاء» من حيث أن أمر زكريا داخل في الإمكان العادي الذي يُتعارف، وإن قلّ، وفي قصة مريم: «يخلق» لأنه لا يُتعارف مثله، وهو وجود ولد من غير والد، فهو إيجاد واختراع من غير سبب عادي، فلذلك جاء =

ابن عباس[١]: أخذ جبريلُ رُدْنَ[٢] قميصها بأصبعه، فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى. وقيل غيرُ ذلك، على ما يأتي بيانه في سورتها إن شاء اللّه تعالى[٣].

وقال بعضهم: وقع نَفْخُ جبريل في رحمها، فعلِقت بذلك. وقال بعضهم: لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل، لأنه يصير الولد بعضُه من الملائكة وبعضه من الإنس[٤]، ولكن سبب ذلك أن اللّه تعالى لمَّا خلق آدم وأخذ الميثاق من ذُرِّيته، فجعل بعضَ الماء في أصلاب الآباء وبعضَه في أرحام الأمَّهات، فإذا اجتمع الماءان صارا[٥] ولداً، وأن اللّه تعالى جعل الماءين جميعاً في مريم، بعضَه في رحمها وبعضه في صُلبها، فنفخ فيه جبريل لتهيج شهوتُها، لأن المرأة ما لم تَهِج شهوتها لا تحبل، فلما هاجت شهوتها بنفخ جبريل، وقع الماء الذي كان في صُلبها في رَحِمها، فاختلط الماءان فعلِقت بذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ يعني إذا أراد أن يخلق خلقاً ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٦]. وقد تقدَّم في «البقرة» القول فيه مستوفى[٧].

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ قال ابن جُريج:

= بلفظ «يخلق» الدالّ على هذا المعنى.

(١) في (م): قال ابن عباس. والأثر ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٨٠، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٧/ ٣٤٩ (طبعة دار الفكر).

(٢) في مختار الصحاح: الرُّدْن، بالضم: أصل الكُمّ.

(٣) عند تفسير الآية: ٢٠ منها.

(٤) هذا كلام مردود بداهة.

(٥) في (خ) و(ظ): صار.

(٦) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٨. وهذا الكلام المذكور لا يصحُّ شرعاً ولا عقلاً، ويُخرج المعجزة في خلق عيسى عليه السلام عن معناها.

(٧) ٢/ ٣٣٦ - ٣٣٧.

الكتابُ: الكتابة والخط[١]. وقيل: هو كتابٌ غيرُ التوراة والإنجيل علَّمه اللّه عيسى عليه السلام.

﴿وَرَسُولًا﴾ أي: ونجعلُه رسولاً. أو يكلِّمهم رسُولاً. وقيل: هو معطوفٌ على قوله: «وجيهاً»[٢]. وقال الأخفش: وإن شئت جعلتَ الواو في قوله: «ورسولاً» مُقْحَمةً والرسولَ حالاً للهاء، تقديره: ويعلِّمه الكتاب رسولاً[٣]. وفي حديث أبي ذَرٍّ الطويلِ: «وأوَّل أنبياء بني إسرائيل موسى، وآخِرهُم عيسى عليه السلام»[٤].

﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم﴾ أي: أصوِّر وأقدِّر لكم ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ قرأ الأعرج وأبو جعفر: «كهيَّة» بالتشديد، الباقون بالهمز[٥]. والطير يُذكَّر ويؤنَّث.

﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ أي: في الواحد منه، أو منها، أو في الطِّين، فيكونُ طائراً. وطائرٌ وطَيْر مثلُ تاجرٍ وتَجْر[٦].

قال وَهْب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً، ليتميَّز فعلُ الخلق من فعل اللّه تعالى.

وقيل: لم يخلقْ غيرَ الخُفّاش؛ لأنه أكملُ الطير خَلْقاً ليكونَ أبلغَ في القدرة، لأن لها ثَدْياً وأسناناً وأُذناً، وهي تحيض وتطهرُ وتلد[٧].

---

(١) ذكره البغوي ١/ ٣٠٢ ولم ينسبه، وأخرج ابن أبي حاتم (٣٥٣١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الكتاب» الخط بالقلم.

(٢) معاني القرآن للأخفش ١/ ٤٠٨، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٩.

(٣) تفسير الرازي ٧/ ٥٧ - ٥٨.

(٤) ذكره ابن كثيرٍ في التفسير عند قوله تعالى: (ورسلاً لم نقصصهم عليك) [الآية: ١٦٤] ونسبه لابن حِبَّان، وهو في صحيح ابن حبان (٣٦١) بتمامه دون هذه العبارة التي ذكرها المصنِّف. وفي إسناده: إبراهيم بن هشام قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٧٣: متروك. وله طريق أخرى أخرجه الطبري في التاريخ ١/ ٤٥١ وإسناده ضعيف. وأورده السيوطي في الجامع الصغير ١/ ٣٨٣ ضمن حديث، ورمز لضعفه.

(٥) النشر ١/ ٤٠٥ عن أبي جعفر، وقرأ بها حمزة وقفاً كما في التيسير ص٣٨.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٩.

(٧) عرائس المجالس ص٣٩٥، وتفسير البغوي ١/ ٣٠٣.

ويقال: إنما طلبوا خَلْق خُفَّاشٍ لأنه أعجبُ من سائر الخلق، ومن عجائبه أنه لحمٌ ودمٌ يطير بغير ريشٍ، ويلد كما يلد الحيوانُ، ولا يبيض كما يبيض سائرُ الطُّيور، فيكون له الضَّرع يخرج منه اللَّبن، ولا يُبْصِر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل، وإنما يَرى في ساعتين: بعد غروب الشمس ساعةً، وبعد طلوع الفجر ساعةً قبل أن يُسفِر جدّاً، ويضحك كما يضحك الإنسان، ويحيض كما تحيض المرأة.

ويقال: إن سؤالهم كان له على وجه التعنُّت، فقالوا: اخلق لنا خُفّاشاً واجعل فيه روحاً إن كنتَ صادقاً في مقالتك. فأخذ طيناً وجعل منه خُفَّاشاً، ثم نفخ فيه، فإذا هو يطير بين السماء والأرض. وكان تسويةُ الطين والنفخُ من عيسى، والخلقُ من الله عزَّ وجلَّ، كما أن النفخ [في مريم] من جبريلَ والخَلْقَ من الله[١].

قوله تعالى: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ الأكمهُ: الذي يولَد أعمى، عن ابن عباس. وكذا قال أبو عبيدةَ؛ قال: هو الذي يولد أعمى[٢]، وأنشد لرؤبة:

فارتدَّ ارْتِدادَ الأكمهِ[٣]

وقال ابن فارس[٤]: الكَمَهُ: العمَى، يولد به الإنسان، وقد يَعْرِض. قال سُويد:

كَمِهتْ عيناه حتى ابيضَّتا[٥]

مجاهد: هو الذي يُبصر بالنهار ولا يُبصر بالليل. عكرمة: هو الأعمش. ولكنه في اللغة العمَى، يقال: كَمِه يَكْمَه كَمَهاً، وكَمَّهْتُها أنا: إذا أعميتها[٦].

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٩ وما بين حاصرتين منه في مطبوعه ١/ ٢٦٩.

(٢) مجاز القرآن ١/ ٩٣، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٥/ ٤٢٢، وابن أبي حاتم (٣٥٤٢).

(٣) لم نقف عليه في ديوان رؤبة، وهو في تفسير الطبري ٥/ ٤٢٣، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤١٤، والأضداد لابن الأنباري ص٣٧٨، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٤٠٣، واللسان (كمه) (هرج) وتمامه:

هرَّجتُ فارتدَّ ارتداد الأكمه

قوله: هرَّجتُ، قال في اللسان (هرج): هرَّج بالسَّبُع: صاح به وزجره.

(٤) مجمل اللغة ٣/ ٧٧٠.

(٥) المفضَّليَّات ص٢٠٠، والأضداد ٣٧٨ وعجزه: فهو يلحى نفسه لما نزع وسويد بن أبي كاهل، من بني يشكر، شاعر متقدم من مخضرمي الجاهلية والإسلام. جعله محمد بن سلاَّم في الطبقة السادسة وقرنه بعنترة العبسي. الأغاني ١٣/ ١٠٢، وطبقات فحول الشعراء ١/ ١٥٢.

(٦) تفسير الطبري ٥/ ٤٢٣.

والبَرَصُ معروفٌ: وهو بياض يعتري الجلدَ، والأبرصُ القمر، وسامٌّ أبْرَصَ معروفٌ، ويُجمع على الأَبَارِص[١].

وخُصَّ هذان بالذكر لأنهما عَياءان. وكان الغالبُ على زمن عيسى عليه السلامُ الطِّبَّ، فأراهم اللّه المعجزة من جنس ذلك[٢].

﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قيل: أحيا أربعة أنفس: العازَرَ[٣]، وكان صديقاً له، وابنَ العجوز، وابنة العاشر، وسام بنَ نوح، فاللّه أعلم.

فأمَّا العازَرُ فإنه كان قد تُوفِّي قبل ذلك بأيام، فدعا اللّه، فقام بإذن اللّه ووَدَكُه يقْطُر[٤]، فعاش ووُلِدَ له.

وأما ابنُ العجوز: فإنه مرَّ به يُحمَل على سريره، فدعا اللّه، فقام ولبِس ثيابه، وحمل السرير على عنقه، ورجع إلى أهله.

وأما بنتُ العاشرِ[٥]: فكان أتى عليها ليلة، فدعا اللّه، فعاشت بعد ذلك، ووُلد لها.

فلما رأوا ذلك قالوا: إنك تُحيي مَن كان موته قريباً، فلعلَّهم لم يموتوا، فأصابتهم سكتةٌ، فأحْيِ لنا سام بنَ نوح. فقال لهم: دُلُّوني على قبره، فخرج وخرج القوم معه حتى انتهى إلى قبره، فدعا اللّه، فخرج من قبره وقد شابَ رأسُه، فقال له عيسى: كيف شابَ رأسُك ولم يكن في زمانكم شيْبٌ؟ فقال: يا روحَ اللّه، إنك دعوتني، فسمعتُ صوتاً يقول: أَجِبْ روحَ اللّه، فظننتُ أن القيامةَ قد قامت، فمِن هول ذلك شاب رأسي. فسأله عن النَّزْع فقال: يا روح اللّه، إن مرارة النزع لم تَذْهَب

---

(١) المجمل ١/ ١٢١ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٠٣ ، وتفسير أبي الليث ١/ ٢٧٠ .

(٣) قيَّده صاحب القاموس (عزر) على وزن هاجر، ووقع في (ظ) و(م): العاذر (في الموضعين).

(٤) في القاموس: الوَدَك: الدَّسَم.

(٥) وقع في عرائس المجالس ص٣٩٧: ابنة العشار، رجل كان يأخذ العشر.

عن[1] حَنْجَرَتي، وقد كان من وقتِ موتهِ أكثرُ من أربعة آلاف سنة، فقال للقوم: صدِّقوه فإنه نبيّ، فآمن به بعضُهم، وكذَّبه بعضُهم وقالوا: هذا سحر[2].

ورُوي من حديث إسماعيل بن عيَّاش قال: حدثني محمد بن طلحة، عن رجل: أن عيسى ابنَ مريم كان إذا أراد أن يُحييَ الموتى صلَّى رَكعتين يقرأ في الأولى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، وفي الثانية: «تنزيل» السجدة، فإذا فرَغ حمد[3] الله وأثنى عليه، ثم دعا بسبعة أسماء: يا قديمُ، يا خَفيُّ، يا دائمُ، يا فَرْدُ، يا وِتْرُ، يا أحدُ، يا صمد. ذكره البيهقيُّ وقال: ليس إسناده بالقويّ[4].

قوله تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: بالذي تأكلونه وما تدَّخرون. وذلك أنه[5] لمَّا أحيا لهم الموتى، طلبوا منه آيةً أُخرى وقالوا: أَخْبِرْنا بما نأكل في بيوتنا وما ندَّخر للغد، فأخبرهم فقال: يا فلان أنت أكلتَ كذا وكذا، وأنت أكلتَ كذا وكذا، وادخرتَ كذا وكذا، فذلك قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم﴾ الآية[6].

وقرأ مجاهد والزُّهريُّ والسَّخْتِيانِيُّ: «وما تَذْخَرون» بالذال المعجَمة مخفَّفاً[7].

وقال سعيد بن جبير وغيره: كان يخبر الصبيان في الكُتَّاب بما يدَّخرون، حتى منعهم آباؤهم من الجلوس معه. قتادة: أخبرهم بما أكلوه من المائدة وما ادَّخروه منها خِفْية[8].

---

(١) في النسخ: من.

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٩، وعرائس المجالس ص٣٩٦-٣٩٧، وتفسير البغوي ١/ ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٣) في (خ) و(ظ): مدح.

(٤) الأسماء والصفات (١٦١)، وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٧٠٠٣) من طريق محمد بن طلحة بن مصرف، عن أبي بشر عن أبي الهذيل قال: كان عيسى ابن مريم. وذكر الحديث. قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠]: هذا أثر عجيب جداً.

(٥) في (م): أنهم.

(٦) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٩، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٠.

(٨) أخرج الخبرين الطبري ٥/ ٤٢٧، ٤٢٩.

قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَمُصَدِّقًا﴾ عطف على قوله: «ورَسُولاً»[١]. وقيل: المعنى: وجئتكم مصدِّقاً. ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾ لما قَبْلي. ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾ فيه حذف، أي: ولِأُحِلَّ لكم جئتكم. ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني من الأطعمة. قيل: إنما أحلَّ لهم عيسى عليه السلام ما حُرِّم عليهم بذنوبهم ولم يكن في التوراة، نحو أَكْلِ الشحوم وكلِّ ذي ظُفُر. وقيل: إنما أحلَّ لهم أشياءَ حرَّمَتْها عليهم الأحبارُ ولم تكن في التوراة محرَّمة عليهم[٢]. قال أبو عبيدة[٣]: يجوز أن يكون «بعض» بمعنى كل، وأنشد لَبِيد:

تَـرَّاكُ أمْـكِـنَـةٍ إذا لـم أرْضَـهـا ... أو يَرْتَبِطْ بعضَ النفوسِ حِمامُها[٤]

وهذا القول غَلَطٌ عند أهل النظرِ من أهل اللغة، لأن البعضَ والجزءَ لا يكونان بمعنى الكلِّ في هذا الموضع، لأن عيسى ﷺ إنما أَحَلَّ لهم أشياءَ ممَّا حرَّمها عليهم موسى، من أَكْل الشحوم وغيرها، ولم يُحِلَّ لهم القتلَ ولا السرقةَ ولا فاحشةً. والدليلُ على هذا أنه رُوي عن قتادةَ أنه قال: جاءهم عيسى بألْينَ ممَّا جاء به موسى صلى الله عليهما وعلى نبينا، لأن موسى جاءهم بتحريم الإبل وأشياءَ من الشحوم، فجاءهم عيسى بتحليل بعضِها[٥].

وقرأ النَّخَعيُّ: «بَعْضَ الذي حَرُمَ عَلَيْكُمْ»[٦] مثل كَرُمَ، أي: صار حراماً.

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٠٤، قال الفراء في معاني القرآن ١/ ٢١٦: وليس نصبه بتابع لقوله: «وجيهاً» لأنه لو كان كذلك لكان: ومصدقاً لما بين يديه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٠.

(٣) مجاز القرآن ١/ ٩٤.

(٤) شرح ديوان لبيد ص٣١٣، برواية: أو يعتلق بعض النفوس، وأشار شارح الديوان إلى رواية: أو يرتبط، قال الزوزني في شرح المعلقات السبع ص١٠٩: وتحرير المعنى: إني لا أترك الأماكن التي أجتويها، وأقليها إلا أن أموت.

(٥) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٠٣ - ٤٠٤، وخبر قتادة أخرجه الطبري ٦/ ٤٣٩.

(٦) القراءات الشاذة ص٢٠.

وقد يوضَعُ البعضُ بمعنى الكلِّ إذا انضمَّت إليه قرينةٌ تدلُّ عليه، كما قال الشاعر[١]:

أبا مُنْذِرٍ أفْنَيتَ فاستَبْقِ بعضَنا حَنَانَيْك، بعضُ الشرِّ أهْوَنُ من بعضِ

يريد: بعضُ الشَّرِّ أهونُ من كلِّه.

﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إنَّما وحَّد وهي آياتٌ؛ لأنها جنسٌ واحدٌ في الدلالة على رسالته[٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: من بني إسرائيل. و«أحسَّ» معناه: علم ووجَد، قاله الزجَّاج[٣]. وقال أبو عبيدة[٤]: معنى «أحسَّ»: عرف. وأصْلُ ذلك وجودُ الشيء بالحاسَّة. والإحساس: العِلم بالشيء، قال الله تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [مريم:٩٩]. والحَسُّ: القتلُ، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران:١٥٢]. ومنه الحديثُ في الجَرَاد: «إذا حَسَّهُ البَرْدُ»[٥].

﴿مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: الكفر بالله. وقيل: سَمِعَ منهم كلمةَ الكفر. وقال الفرَّاءُ: أرادوا قتلَه[٦].

﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: استنصرَ عليهم. قال السدِّيُّ والثوريُّ وغيرُهما: المعنى: مع الله، فـ«إلى» بمعنى مع، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [النساء:٢] أي: مع. والله أعْلَم. وقال الحسنُ: المعنى من أنصاري في السبيل إلى

---

(١) هو طرفة، والبيت في ديوانه ص٦٦ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٠٤ .

(٣) معاني القرآن ١/ ٤١٦ .

(٤) مجاز القرآن ١/ ٩٤ .

(٥) مجمل اللغة ١/ ٢١٢ ، والحديث لم نقف عليه وذكره ابن الأثير في النهاية (حس) ١/ ٣٨٥ وينظر ما يأتي في الصفحة ٢٧١ من هذا الجزء.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٠ .

اللّه؛ لأنه دعاهم إلى اللّه عزَّ وجلَّ. وقيل: المعنى: مَن يضمُّ نُصْرته إلى نُصرة اللّه عزَّ وجلَّ[١]. فـ «إلى» على هذين القولين على بابها، وهو الجيِّد.

وطَلَبَ النُّصْرَةَ ليَحْتميَ بها من قومه ويُظْهرَ الدَّعوة، عن الحسن ومجاهد. وهذه سنَّةُ اللّه في أنبيائه وأوليائه، وقد قال لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] أي: عشيرة وأصحاب ينصُرونني.

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: أنصارُ نبيِّه ودينه. والحواريُّون أصحابُ عيسى عليه السلام، وكانوا اثني عشر رجلاً، قاله الكلبيُّ[٢] وأبو رَوْق.

واخْتُلِفَ في تسميتهم بذلك، فقال ابنُ عباس: سُمُّوا بذلك لبياضِ ثيابهم، وكانوا صيَّادين[٣]. ابن أبي نَجِيح وأبو أرْطَاة[٤]: كانوا قصَّارين، فسُمُّوا بذلك لتبييضهم الثياب.

قال عطاء: أَسْلَمَتْ مريمُ عيسى إلى أعمالٍ شَتَّى، وآخِرُ ما دفعته إلى الحواريين، وكانوا قصَّارين وصبَّاغين، فأراد معلِّمُ عيسى السفَر، فقال لعيسى: عندي ثيابٌ كثيرةٌ مختلِفةُ الألوان، وقد علَّمتُكَ الصَّبغَة فاصبغها. فطَبَخَ عيسى حُبّاً[٥] واحداً، وأدْخَلَه جميعَ الثياب وقال: كوني بإذنْ اللّه على ما أريد منك. فقَدِمَ الحواريُّ والثيابُ كلُّها في الحُبِّ، فلما رآها قال: قد أفْسَدْتَها، فأخرجَ عيسى ثوباً أحمرَ وأصفرَ وأخضرَ إلى غير ذلك ممَّا كان كلٌّ[٦] ثوبٍ مكتوب عليه صِبْغُه، فَعجِبَ الحواريُّ، وعَلِم أنَّ ذلك من اللّه، ودعا الناسَ إليه، فآمنوا به، فهمُ الحواريُّون[٧].

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٠٥ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٤٢ . وقول السدي أخرجه الطبري ٥/ ٤٣٧ ، وقول الثوري أخرجه ابن أبي حاتم (٣٥٦٦) .

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٢٧٠ ، وتفسير البغوي ١/ ٤٠٦ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٠٦ ، وأخرجه ابن أبي حاتم (٣٥٦٨) .

(٤) وقع في النسخ: وابن أرطاة، وهو خطأ، والمثبت من تفسير الطبري ٥/ ٤٤٣ ، وذكره أيضاً عن أبي أرطاة ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٤٢ ، وأبو حيان في البحر ٢/ ٤٧١ ، والسيوطي في الدر ٢/ ٣٥ .

(٥) في القاموس (حبب): الحُبُّ: الجرَّة، أو الضخمة منها.

(٦) في (م): على كل.

(٧) عرائس المجالس ص٣٩٢ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٠٦ .

قتادة والضحاك: سُمُّوا بذلك لأنهم كانوا خاصَّةَ الأنبياء. يريدان لنقاء قلوبهم[١].

وقيل: كانوا ملوكاً، وذلك أن المِلِكَ صنع طعاماً، فدعا الناسَ إليه، فكان عيسى على قَصْعَةٍ، فكانت لا تنقُصُ، فقال المِلِك له: من أنت؟ قال: عيسى ابنُ مريم. قال: إني أترك مُلْكي هذا وأَتَّبِعُك. فانطَلَق بمن اتَّبَعَه معه، فهم الحواريُّون، قاله ابنُ عون[٢].

وأصلُ الحَوَرِ في اللغة البياضُ، وحَوَّرْتُ الثيابَ: بيَّضْتُها، والحُوَّارَى من الطعام: ما حُوِّر، أي: بُيِّضَ، واحْوَرَّ الشيء[٣]: ابيضَّ، والجَفْنَة المحوَّرةُ: المبيَّضَة بالسَّنام، والحَوَاريُّ أيضاً: النَّاصر، قال رسولُ اللّه ﷺ: «لكل نبيٍّ حَوَاريٌّ، وحَوارِيِّي الزبير». والحَواريّاتُ: النِّساء لبياضهن[٤]، وقال[٥]:

فقُلْ للحوَارِيَّات يَبْكِيْنَ غيرنا ... ولا تبْكنا إلّا الكلابُ النَّوابحُ

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ أي: يقولون: ربَّنا آمنَّا. ﴿بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ يعني في كتابك، وما أظهرْتَهُ من حكمك. ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ يعني عيسى. ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ يعني أُمَّةَ محمد ﷺ، عن ابن عباس[٦]. والمعنى: أَثْبِتْ أسماءَنا مع أسمائهم، واجعلنا من جُملتهم.

وقيل: المعنى: فاكتبنا مع الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق.

---

(١) النكت والعيون ١/ ٣٩٥، وأخرج قوليهما الطبري ٥/ ٤٤٣.

(٢) عرائس المجالس ص٣٩٤.

(٣) قوله: الشيء، ليس في (م).

(٤) مجمل اللغة ١/ ٢٥٦، والحديث أخرجه أحمد (١٤٢٩٧)، والبخاري (٢٨٤٦)، ومسلم (٢٤١٥) من حديث جابر ﷺ، وأخرجه أحمد (٦٨٠) من حديث علي ﷺ، و(١٦١١٣) من حديث عبدالله بن الزبير ﷺ.
قوله: وحواريّي، ذكر القاضي في إكمال المعلم ٧/ ٤٢٨: أنه اختلف في ضبطه، فضبطه جماعة من المحققين بفتح الياء من الثاني كمصرخيَّ، وضبطه أكثرهم بكسرها.

(٥) هو أبو جَلْدة اليَشْكُري، والبيت في مجاز القرآن ١/ ٩٥، والأغاني ١١/ ٣١١، والمؤتلف والمختلف ص١٠٦، والحماسة الشجرية ١/ ٢٤٣، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٤٠٧.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٥٧٧) وجوَّد إسناده الحافظ ابن كثير في تفسيره.

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ يعني كفَّارَ بني إسرائيلَ الذين أحسَّ منهم الكُفْرَ، أي: قَتْلَه. وذلك أن عيسى عليه السلام لمَّا أخرجه قومُه وأمَّه من بين أظهُرهم، عاد إليهم مع الحواريِّين، وصاحَ فيهم بالدعوة، فَهَمُّوا بقتله، وتواطَؤُوا على الفتك به، فذلك مكرُهم[١]. ومَكْرُ اللّه: استدراجُه لعباده من حيثُ لا يعلمون، عن الفرّاء[٢] وغيره. قال ابن عباس: كلّما أحدثوا خطيئة جدَّدْنا لهم نعمة. وقال الزَّجاج[٣]: مَكْرُ اللّه: مجازاتُهم على مكرهم، فسمَّى الجزاءَ باسم الابتداء، كقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. وقد تقدَّم في البقرة.

وأصلُ المكر في اللغةِ الاحتيالُ والخِداعُ. والمَكْرُ: خَدَالَةُ السّاق. وامرأةٌ ممكورةُ الساقين. والمَكْرُ: ضَرْبٌ من النَّبات[٤]. ويقال: بل هو المَغْرَة، حكاه ابن فارس[٥].

وقيل: «مَكْرُ اللّه»: إلقاؤُه[٦] شَبَهَ عيسى على غيره، ورَفْعُ عيسى إليه، وذلك أن اليهودَ لمَّا اجتمعوا على قتل عيسى دخل البيتَ هارباً منهم، فرفعه جبريلُ من الكُوَّة إلى السماء، فقال مَلِكهم لرجل منهم خبيثٍ يقال له يهوذا: ادْخُلْ عليه فاقتله، فدخلَ الخَوْخَة، فلم يجدْ هناك عيسى، وألقى اللّه عليه شَبَهَ عيسى، فلمَّا خرجَ رَأَوْه على شَبَه عيسى، فأخذوه وقتلوه وصَلَبوه. ثم قالوا: وجهُه يشبه وجْهَ عيسى، وبدنُه يشبه بدنَ صاحِبنا، فإن كان هذا صاحبَنا؛ فأين عيسى؟! وإن كان هذا عيسى؛ فأين صاحبُنا؟! فوقع بينهم قتالٌ، فقتَلَ بعضُهم بعضاً، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[٧]. وقيل غيرُ هذا على ما يأتي.

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٠٧.

(٢) معاني القرآن ١/ ٢١٨.

(٣) معاني القرآن ١/ ٤١٩، ونقله المصنف عنه بواسطة البغوي في التفسير ١/ ٣٠٧.

(٤) في النسخ: الثياب، وهو خطأ.

(٥) المجمل ٤/ ٨٣٨. خدالة الساق: استدارتها، والمَغْرَة: طين أحمر يُصبغ به. اللسان (خدل) واللسان (مغر).

(٦) في (م) إلقاء.

(٧) تفسير أبي الليث ١/ ٢٧١.

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾: اسمُ فاعلٍ من مَكَر يمْكُر مَكْراً. وقد عدَّه بعضُ العلماء في أسماءِ اللّه تعالى، فيقول إذا دعا به: يا خيرَ الماكرين امكُرْ لي. وكان عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه: «اللّهمَّ امْكُرْ لي ولا تَمْكُر عَلَيَّ». وقد ذكرناه في «الكتاب الأَسْنَى في شرح أسماء اللّه الحسنى»[1] واللّه أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ العامل في «إذْ»: «ومَكَرَ اللّه»[2]، أو فِعْلٌ مُضْمَر[3].

وقال جماعة من أهل المعاني ـ منهم الضحاك والفراء ـ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: هو[4] على التقديم والتأخير؛ لأن الواو لا توجبُ الرتبة[5]. والمعنى: إني رافعك إليَّ، ومطهِّرك من الذين كفروا، ومتوفِّيك بعد إنزالك[6] من السماء، كقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه:١٢٩]، والتقدير: ولولا كلمةٌ سبقت من ربك وأجلٌ مسمًّى لكان لِزاماً. قال الشاعر:

أَلَا يا نخلةً مِن ذات عِرْقٍ ... عليكِ ورحمةُ اللّه السلامُ[7]

---

(١) ص٤٣ ، والحديث أخرجه أحمد (١٩٩٧) ، والترمذي (٣٥٥١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال: حسن صحيح.

(٢) في النسخ: مكروا، بدل: ومكر الله، وهو خطأ، وهذا الرأي هو اختيار الطبري في التفسير ٥/ ٤٤٧ والتقدير عنده: ومكر الله بهم حين قال الله لعيسى إني متوفيك ورافعك إلي.

(٣) تقديره: اذكر، كما في المحرر الوجيز ١/ ٤٤٤ .

(٤) لفظة: هو ، من (خ).

(٥) في (خ) و(ظ): الترتيب.

(٦) في (د) و(م): بعد أن تنزل، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للفراء ١/ ٢١٩ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٠٨ .

(٧) ذكره البَطَلْيَوسي في كتاب الحلل في شرح أبيات الجمل ص١٨٩ وقال: لا أعلم لمن هو، ونسبه قومٌ إلى الأحوص (عبدالله بن محمد). وهو بلا نسبةٍ في الخصائص ٢/ ٣٨٦ ،وأمالي ابن الشجري ١/ ٢٧٦ ، والخزانة ١/ ٣٩٩ . قال البغدادي: وذات عِرق: موضعٌ بالحجاز .

أي عليكِ السلامُ ورحمةُ اللّه.

وقال الحسن وابن جُريج: معنى: «متوفِّيك»: قابضُك[١] ورافعُك إلى السماء من غير موت، مثلُ: تَوَفَّيْتُ مالي من فلانٍ، أي: قبضتُه. وقال وهب بن منبِّه: تَوَفَّى اللّه عيسى عليه السلام ثلاثَ ساعاتٍ من نهارٍ، ثم رفَعه إلى السماء. وهذا فيه بُعْدٌ، فإنه صَحَّ في الأخبار عن النبيِّ ﷺ نزولُه وقتلُه الدجَّالَ، على ما بيَّناه في كتاب «التذْكِرة»[٢]، وفي هذا الكتاب حَسْبَ ما تقدَّم، ويأتي[٣].

وقال ابن زيد: متوفِّيك: قابضُك، ومتوفِّيك[٤] ورافعُك واحدٌ، ولم يَمُتْ بعدُ.

وروى ابنُ أبي[٥] طلحةَ عن ابنِ عباسٍ: معنى «متوفِّيك»: مميتُك. الربيعُ بن أنس: هي وفاةُ نومٍ[٦]، قال اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ [الأنعام:٦٠] أي: ينيمكم؛ لأن النومَ أخو الموت، كما قال ﷺ لمَّا سُئل: أفي الجنة نومٌ؟ قال: «لا، النوم أخو الموت، والجنةُ لا موتَ فيها». أخرجه الدارقطنيّ[٧].

والصحيحُ أنَّ اللّه تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاةٍ ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد، وهو اختيار الطَّبَري[٨]. وهو الصحيحُ عن ابن عباس، وقاله الضحَّاك؛ قال الضحَّاك: كانتِ القِصَّةُ لمَّا أرادوا قتلَ عيسى اجتمع الحواريُّون في غرفةٍ، وهم

---

(١) جاء بعدها في (خ) و(ظ) زيادة نصُّها: ويقالُ إنه يتزوج امرأةً من العرب بعدما يقتل الدجال وتلدُ له بنتاً فتموت، ثمَّ يموت هو بعدما يعيش سنين، لأنه سأل ربَّه أن يجعله من هذه الأمة فاستجاب الله دعاءه، وهذه الزيادة في تفسير أبي الليث ١/ ٢٧٢ .

(٢) ص ٦٦٨ .

(٣) تقدم في الصفحة ١٣٧ ، وسيأتي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته﴾ [النساء:١٥٩].

(٤) قبلها في النسخ: قال .

(٥) قوله: أبي، من (خ)، وهو علي بن أبي طلحة، وروى ابنُ أبي حاتم في المراسيل ص١١٨ ، عن أبيه قال: علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مرسل، ولم يسمع من ابن عباس التفسير.

(٦) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٠٩ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٠٨ ، وأخرج الآثار المذكورة الطبري ٥/ ٤٤٨ - ٤٥٠ .

(٧) لم نقف عليه عند الدارقطني. وأخرجه البَزَّار (٣٥١٧) من طريق محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعاً، وأخرجه بنحوه العقيلي في الضعفاء ٢/ ٣٠١ ، وابن عدي في الكامل ٤/ ١٥٣٣ و٦/ ٢٣٦٤ . قال ابنُ أبي حاتم في العلل: قال أبي: الصحيح ابن المنكدر عن النبي ﷺ ، ليس فيه جابر . اهـ . وقد أخرج المرسَل العقيلي في الضعفاء ٢/ ٣٠١ . وأورده السيوطي في الجامع الصحيح ٢/ ٥٨٨ ، ورمز لضعفه.

(٨) في تفسيره ٥/ ٤٥٢ .

اثنا عشرَ رجلاً، فدخلَ عليهمُ المسيحُ من مِشكاة الغرفة، فأخبر إبليسُ لعنه اللّه جمعَ اليهود، فركبَ منهم أربعةُ آلافِ رجلٍ، فأخذوا باب الغرفة، فقال المسيح للحواريّين: أيُّكم يخرجُ ويُقتَلُ ويكونُ معي في الجنة؟ فقال رجلٌ: أنا يا نبيَّ اللّه، فألقى إليه مِدْرَعَةً من صوفٍ وعِمامةً من صوف، وناولَه عُكَّازه، وأُلقيَ عليه شَبَهُ عيسى، فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه. وأمَّا المسيح؛ فكساه اللّه الرِّيشَ، وألبسه النور، وقطع عنه لَذَّةَ المطعم والمشرب، فطارَ مع الملائكة.

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة(١): حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المِنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لمَّا أراد اللّه تبارك وتعالى أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج على أصحابه ـ وهم اثنا عشرَ رجلاً ـ من عينٍ في البيت ورأسُه يقطُرُ ماءً، فقال لهم: أمَا إنَّ منكم مَن سيكفر بي اثنتي عَشْرةَ مرةً بعدَ أن آمن بي، ثم قال: أيُّكم يُلقَى عليه شَبَهي، فيُقْتَلُ مكاني، ويكونُ معي في درجتي؟، فقامَ شابٌّ مِن أَحْدَثِهم فقال: أنا، فقال عيسى: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال: أنا، فقال عيسى: اجلس. ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال: أنا، فقال: نعم، أنت ذاك. فألقى اللّه عليه شَبَهَ عيسى عليه السلام. قال: ورفع اللّه تعالى عيسى من رَوْزَنةٍ كانت في البيت إلى السماء. قال: وجاء الطَّلَبُ من اليهود، فأخذوا الشبيهَ، فقتلوه ثم صلبوه، وكفر به بعضُهم اثنتي عشرةَ مرَّةً بعد أن آمن به، فتفرَّقُوا ثلاثَ فرقٍ: قالت فرقةٌ: كان فينا اللّه ما شاءَ، ثم صَعِدَ إلى السماء، وهؤلاء اليَعْقُوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابنُ اللّهِ ما شاء اللّهُ، ثم رفعه اللّهُ إليه، وهؤلاءِ النَّسْطُورِيّة. وقال فرقة: كان فينا عبدُ اللّه ورسوله ما شاء اللّه، ثم رفعه اللّه إليه، وهؤلاء المسلمون. فتظاهَرَتِ الكافرتان على المسْلِمةِ، فقتلوها، فلم يزلِ الإسلامُ طامساً حتى بعث اللّه محمداً ﷺ، فأنزل(٢) اللّه تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: آمن آباؤُهم في زمن عيسى ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ بإظهار دينهم على دين الكفار ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

---

(١) في مصنفه ١١/٥٤٦ - ٥٤٧، وأخرجه أيضاً النسائي في السنن الكبرى (١١٥٢٧)، والطبري في التفسير ٢٢/٦٢٢ - ٦٢٣.

(٢) قبلها في النسخ: فقتلوا، ولا معنى لها، وليست في المصادر.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرةَ[(١)] قال: قال رسول اللّه ﷺ: «واللّه لينزِلَنَّ ابنُ مريمَ حَكَماً عادلاً[(٢)]، فلَيَكْسِرنَّ الصليبَ، ولَيَقْتُلَنَّ الخنزيرَ، ولَيَضَعَنَّ الجِزْيةَ، ولتُتْرَكَنَّ القِلَاصُ[(٣)]، فلا يُسْعَى عليها، ولَتَذهَبَنَّ الشحناءُ والتباغضُ والتحاسدُ، ولَيُدْعَوُنَّ إلى المال، فلا يقبلُه أحد».

وعنه أيضاً عن النبيِّ ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لَيُهِلَّنَّ ابنُ مريمَ بفَجِّ الرَّوْحاء، حاجّاً، أو معتمِراً، أو لَيَثْنِيَنَّهما»[(٤)].

ولا ينزلُ بشَرْعٍ مبتَدَأ فينسَخَ به شريعتَنا، بل ينزل مجدِّداً لما دَرَس منها متَّبِعَها[(٥)]، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال: «كيف أنتم إذا نزل ابنُ مريمَ فيكم وإمامُكم منكم؟» ـ وفي رواية: «فأمَّكم منكم» ـ قال ابن أبي ذِئب: تدري ما أمَّكم منكم؟. قلت: تخبِرني. قال: فأمَّكم بكتاب ربِّكم تبارك وتعالى وسنَّةِ نبيكم ﷺ[(٦)]. وقد زدنا هذا الباب بياناً في كتاب «التذكرة»[(٧)] والحمدُ لله.

و«مُتَوفِّيكَ»: أصلُه: متوفِّيُك، حُذِفتِ الضَّمةُ استثقالاً، وهو خبرُ إنَّ. و«رَافِعُكَ» عطفٌ عليه، وكذا «مُطَهِّرُكَ»، وكذا «وجَاعِلُ الّذِينَ اتَّبعُوكَ». ويجوز: «وجاعلٌ الذين» وهو الأصلُ. وقيل: إن الوقفَ التامَّ عند قوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. قال النَّحاس[(٨)]: وهو قولٌ حسنٌ.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ يا محمدُ ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: بالحجَّةِ وإقامةِ البرهان.

---

(١) برقم (١٥٥): (٢٤٣)، وهو عند أحمد (١٠٤٠٤)، وأخرجه البخاري بنحوه (٣٤٤٨).

(٢) في (ظ): عدلاً.

(٣) جمع قَلُوص: وهي الناقة الشابة، أي: لا يخرج ساعٍ إلى زكاة، لقلة حاجة الناس إلى المال واستغنائهم عنه. النهاية ٤/ ١٠٠.

(٤) صحيح مسلم (١٢٥٢)، وهو عند أحمد (٧٢٧٣) قوله: «ليَثْنِيَنَّهما» أي: يقرن بينهما، وفجّ الرَّوْحَاء: هو بين مكة والمدينة، وكان طريق رسول الله ﷺ إلى بدر، وإلى مكة عام الفتح وعام حجة الوداع. صحيح مسلم بشرح النووي ٨/ ٢٢٤.

(٥) المفهم ١/ ٣٧١.

(٦) صحيح مسلم (١٥٥): (٢٤٤) و(٢٤٦)، وهو عند أحمد (٧٦٨٠)، والبخاري (٣٤٤٩). ابن أبي ذئب: هو محمد بن عبد الرحمن، أحد رجال الإسناد.

(٧) ص ٦٧٥.

(٨) إعراب القرآن ١/ ٣٨١، وما قبله منه.

وقيلَ: بالعزِّ والغَلَبة[١]. وقال الضحَّاك ومحمد بن أَبان: المرادُ الحواريُّون[٢]. والله تعالى أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني بالقتل والصَّلْبِ[٣] والسَّبْيِ والجِزْيَةِ، وفي الآخرة بالنَّار[٤].

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ «ذلك» في موضع رفعٍ بالابتداء، وخبرُه «نتلوه». ويجوز: الأمرُ ذلك، على إضمار المبتدأ[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ دليلٌ على صحَّة القِياس[٦]. والتشبيهُ واقعٌ على أن عيسى خُلِقَ من غير أبٍ كآدمَ، لا على أنه خُلقَ من تراب. والشيء قد يشبَّهُ بالشيء ـ وإن كان بينهما فرقٌ كبيرٌ ـ بعدَ أن يجتمعا في وصفٍ واحد، فإن[٧] آدمَ خُلِقَ من تراب ولم يُخلقْ عيسى من تراب، فكان بينهما فرقٌ من هذه الجهة، ولكن شَبَهُ ما بينَهما أنهما خُلقا[٨] من غير أبٍ، ولأن أصلَ خلقهما[٩]

(١) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٢٠ .

(٢) أورده البغوي ١/ ٤٠٩ عن الضحاك .

(٣) قوله: والصلب، ليس في (خ) و(ظ).

(٤) معاني القرآن للزجّاج ١/ ٤٢٠ ،وتفسير البغوي ١/ ٣٠٩ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٢ .

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٤٦ .

(٧) في (خ): وكما أن ، وفي (د) و(ظ): كما أن .

(٨) في (خ) و(م): خَلَقَهما .

(٩) في (د) و(ز) و(م): خلقتهما، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في تفسير أبي الليث ١/ ٣٧٣ ، والكلام منه.

كانَ من ترابٍ؛ لأن آدمَ لم يُخْلَقْ مِن نفس التراب، ولكنه جَعَل التراب طيناً، ثم جعله صَلْصالاً، ثم خلقه منه، فكذلك عيسى حوَّلَه من حالٍ إلى حال، ثم جعله بشراً من غير أبٍ[(١)].

ونزلتْ هذه الآيةُ بسبب وفد نجرانَ حين أنكروا على النبيِّ ﷺ قولَه: «إنَّ عيسى عبدُالله وكلمتُه» فقالوا: أرِنا عبداً خُلِقَ من غير أب، فقال لهم النبيُّ ﷺ: «آدمُ، مَن كان أبوه؟ أعجبْتُم من عيسى ليس له أبٌ؟ فآدمُ عليه السلامُ ليس له أبٌ ولا أمٌّ»[(٢)]. فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: في عيسى ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ في آدمَ ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

ورُوي أنه عليه الصلاة والسلام لمَّا دعاهم إلى الإسلام قالوا: قد كنا مسلمين قبلَك. فقال: «كذبتم، يمنعُكم من الإسلام ثلاثٌ: قولُكم اتخذَ اللّه ولداً، وأكْلُكُمُ الخنزيرَ، وسجودُكُم للصَّليب». فقالوا: من أبو عيسى؟ فأنزل اللّه تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾. فدعاهمُ النبيُّ ﷺ [إلى الالتعان]، فقال بعضُهم لبعض: إن فعلتُم اضطرمَ الوادي عليكم ناراً. فقالوا: أما تَعرض علينا سوى هذا؟ فقال: «الإسلامُ، أو الجزيةُ، أو الحرب» فأقرُّوا بالجزية[(٣)] على ما يأتي[(٤)].

وتَمَّ الكلامُ عند قوله: «آدَمَ»، ثم قال: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: فكان، والمستقبلُ يكون في موضع الماضي إذا عُرِفَ المعنى[(٥)].

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٢٧٣.

(٢) أخرج بعضه الطبري بنحوه ٥/ ٤٦٠، وابن أبي حاتم (٣٦٠٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقوله: «أعجبتم من عيسى...». لم نقف عليه.

(٣) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤١٥ - ٤١٦، وما سلف بين حاصرتين منه، والحديث أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٢٤٥) من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. وأخرجه بنحوه أبو نعيم أيضاً في دلائل النبوة (٢٤٤)، والواحدي في أسباب النزول ص٩٩، وفي إسناده بشر بن مهران الخصاف ـ ويقال بشير ـ قال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٢/ ٣٧٩: ترك أبي حديثه، وأمرني أن لا أقرأ عليه حديثه. وأخرجه الواحدي ص٩٨ عن الحسن مرسلاً.

(٤) في المسألة الثانية من تفسير الآية التالية.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٢.

قال الفرَّاء[(١)]: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ مرفوعٌ بإضمار هو. أبو عبيدة[(٢)]: هو استئنافُ كلام، وخبرُه في قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾. وقيل: هو فاعل، أي: جاءك الحقُّ.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الخطاب للنبيِّ ﷺ، والمرادُ أمتُه، لأنه ﷺ لم يكن شاكّاً في أمر عيسى عليه السلام[(٣)].

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ أي: جادلَك وخاصمَك يا محمدُ. ﴿فِيهِ﴾ أي: في عيسى. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بأنه عبدُ الله ورسولُه. ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾ أي: أقبِلوا. وُضِعَ لمن له جلالةٌ ورِفعةٌ، ثم صارَ في الاستعمال لكل داعٍ إلى الإقبال، وسيأتي له مزيدُ بيانٍ في «الأنعام»[(٤)].

﴿نَدْعُ﴾ في موضع جزم. ﴿أَبْنَآءَنَا﴾دليل على أن أبناء البناتِ يسمَّونَ أبناءً، وذلك أن النبيَّ ﷺ جاء بالحسن[(٥)] والحسين، وفاطمة تمشي خلفَه وعليٌّ خلفها[(٦)]، وهو يقول لهم: «إن أنا دعوتُ فأمِّنوا»[(٧)] وهو معنى قوله: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي: نتضرع في

---

(١) معاني القرآن له ١/ ٢٢٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٨٢ .

(٢) مجاز القرآن ١/ ٩٥ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٢٣ ، وتفسير البغوي ١/ ٣١٠ .

(٤) عند تفسير الآية: ١٥١ منها.

(٥) في (ظ): جاءه الحسن.

(٦) في (خ) و(ظ): خلفهما.

(٧) أخرجه مطولاً أبو نعيم في دلائل النبوة (٢٤٥) من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الواحدي في الوسيط ١/ ٤٤٤ ، والبغوي ١/ ٣١٠ .

وأخرج أحمد (١٦٠٨)، ومسلم (٢٤٠٤):(٣٢) عن سعد بن أبي وقاص أنه لما نزلت هذه الآية: ﴿ندع أبناءنا وأبناءكم﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: «اللهم هؤلاء أهلي».

الدعاء، عن ابن عباس. أبو عبيدة والكسائي: نلتعِن[١]. وأصلُ الابتهال: الاجتهادُ في الدعاء باللَّعن وغيرِه. قال لبيد:

فـي كـهـولٍ سـادةٍ مـن قـومِـه نَـظَـرَ الـدهـرُ إلـيـهـم فـابـتـهـلْ[٢]

أي: اجتهد في إهلاكهم. يقال: بَهَلَه اللّهُ، أي: لعنه، والبَهْلُ: اللَّعنُ، والبَهْلُ: الماء القليل، وأبْهَلْتُه: إذا خلَّيتَه وإرادتَه، وبهلتُه أيضاً[٣].

وحكى أبو عبيدة: بَهَلَهُ اللّهُ يبهَلُه بَهْلةً، أي: لعنه. قال ابن عباس: هم أهلُ نجرانَ: السَّيِّد والعاقبُ وابنُ الحارث رؤساؤهم. ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [عطف][٤].

الثانية: هذه الآيةُ من أعلام نبوَّةِ محمد ﷺ؛ لأنه دعاهم إلى المباهلة فأبَوْا منها، ورضُوا بالجزيةِ بعدَ أنْ أعْلَمَهُم كبيرُهم العاقبُ أنهم إن باهلوه اضطرمَ عليهمُ الوادي ناراً، فإنّ محمداً نبيٌّ مرسَل، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل في أمر عيسى، فتركوا المباهلةَ، وانصرفوا إلى بلادهم على أن يؤدُّوا في كل عام ألفَ حُلَّةٍ في صَفَر، وألفَ حُلَّةٍ في رَجَب، فصالحهم رسولُ اللّه ﷺ على ذلك بدلاً من الإسلام[٥].

الثالثة: قال كثيرٌ من العلماء: إنَّ قولَه عليه الصلاة والسلام في الحسن والحسين لمَّا باهل: ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ وقولَه في الحسن: «إن ابني هذا سيِّد»[٦] مخصوص بالحسن والحسين أن يُسَمَّيا ابني النبيِّ ﷺ دونَ غيرِهما، لقوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ سببٍ ونَسَبٍ يَنقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي»[٧] ولهذا قال بعض أصحاب

(١) تفسير البغوي ١/ ٣١٠ . وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٩٦/١ ، وأثر ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم (٣٦٢٣) وفيه: (ثم نبتهل): نجتهد .

(٢) ديوان لبيد ص١٩٧ برواية: في قروم سادةٍ .

(٣) مجمل اللغة ١٣٨/١ .

(٤) مجاز القرآن ٩٦/١ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٣ ، وما بين حاصرتين منه. وأخرج خبر ابن عباس أبو نعيم في دلائل النبوة (٢٤٥) وقد تقدم آنفاً وانظر ما سلف ص١٠ .

(٥) تفسير الطبري ٤٦٩/٥ - ٤٧٠ ، والمحرر الوجيز ٤٤٨/١ .

(٦) أخرجه أحمد (٢٠٣٩٢)، والبخاري (٢٧٠٤). وقد تقدم ص١١٦ من هذا الجزء.

(٧) أخرجه أحمد (١٨٩٠٧)، والطبراني ٢٠/(٣٠) مطولاً من حديث المسور بن مخرمة، وصححه الحاكم ١٥٨/٣ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٠٣/٩ : وفيه أم بكر بنت المسور، ولم يجرحها أحد، =

الشافعيّ فيمن أوصى لولد فلان، ولم يكن له ولد لصلبه[١]، وله ولدُ ابنٍ وولدُ ابنة: إن الوصية لولد الابن دون ولد الابنة؛ وهو قول الشافعيّ[٢]. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في «الأنعام» و«الزخرف» إن شاء الله تعالى[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ الإشارةُ في قوله: «إن هذا» إلى القرآن وما فيه من الأقاصيص، سمِّيت قَصَصاً لأن المعاني[٤] تتابع فيها، فهو من قولهم: فلانٌ يقُصُّ أثر فلان، أي: يتَّبعه.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ «مِن» زائدةٌ للتوكيد، والمعنى: وما إلهٌ إلَّا اللّه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الذي لا يُغْلَب. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ ذو الحكمة[٥]. وقد تقدَّم مِثلُه[٦]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الخِطَاب في قول الحسن وابن زيد والسُّدِّي لأهل نجران، وفي قول قَتادة وابن جُريج وغيرِهما ليهود المدينة[٧]، خوطبوا

= ولم يوثقها أحد، وبقية رجاله وثقوا. وأخرجه الطبراني (١١٦٢١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١٧٣: ورجاله ثقات.

وأخرجه الطبراني بنحوه (٢٦٣٣) (٢٦٣٥)، والحاكم ٣/ ١٤٢ من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(١) في (ظ): ولم يكن لصلبه ولد.

(٢) أحكام القرآن للكيا الطبري ١/ ٢٨٨.

(٣) سورة الأنعام الآية(٨٤)، وسورة الزخرف الآية: (٢٨).

(٤) في (ظ): المعنى.

(٥) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤١٦ - ٤١٧.

(٦) ١/ ٤٢٩.

(٧) النكت والعيون ١/ ٣٩٩، وأخرج هذه الأخبار الطبري ٥/ ٤٧٤ - ٤٧٥.

بذلك لأنهم جعلوا أحبارَهم في الطاعة لهم كالأرباب.

وقيل: هو لليهود والنصارى جميعاً[(١)]؛ وفي كتاب النبيِّ ﷺ إلى هِرقلَ: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمدٍ رسولِ الله إلى هِرقلَ عظِيمِ الرّوم، سلامٌ على من اتبع الهدى [أما بعدُ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام] أسلِمْ تسلَمْ [وأسلِمْ] يؤتِك اللهُ أجرَك مرتين، وإن تولَّيتَ فإن عليك إثمَ الأريسيِّين، و﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إلى قوله: ﴿فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾. لفظ مسلم[(٢)].

والسواءُ: العدل والنَّصَفَة؛ قاله قتادة. وقال زهير:

أَرُوني خُطَّةً لا ضَيْمَ فيها ... يُسَوَّى بيننا فيها السَّواءُ[(٣)]

الفرّاء[(٤)]: ويقال في معنى العدل: سِوىً وسُوىً. فإذا فتحتَ السينَ مددتَ، وإذا كسرت أو ضممتَ؛ قصرتَ، كقوله تعالى: ﴿مَكَانٗا سُوٗى﴾ [طه:٥٨].

قال: وفي قراءة عبدالله: «إلى كلمةٍ عدلٍ بيننا وبينكم»، وقرأ قَعْنَب: «كِلْمَة» بإسكان اللام، ألقى حركة اللام على الكاف؛ كما يقال: كِبْد[(٥)].

فالمعنى: أجيبوا إلى ما دُعيتم إليه، وهو الكلمة العادلة المستقيمة التي ليس فيها ميلٌ عن الحق؛ وقد فسَّرها بقوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾. فموضعُ «أن» خَفْضٌ على البدل من «كلمة»، أو رفعٌ على إضمار مبتدأ، التقدير: هي أن لا نعبدَ إلا الله. أو تكون مفسِّرةً لا موضعَ لها، ويجوز مع ذلك في «نعبد» وما عُطف عليه الرفعُ والجزم: فالجزم على أن تكون «أن» مفسِّرة بمعنى «أي»، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَنِ

(١) تفسير الطبري ٥/ ٤٧٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٤٨.

(٢) صحيح مسلم (١٧٧٣) وما بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (٢٣٧٠)، والبخاري (٧) وهو جزء من حديث طويل لابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤١٨، وللزجاج ١/ ٤٢٥، والبيت في ديوان زهير بشرح ثعلب ص٨٤ برواية: أرونا سنة لا عيب فيها.

(٤) معاني القرآن ١/ ٢٢٠، وتفسير البغوي ١/ ٣١١.

(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٢٠، والقراءات الشاذة ص٢١، ٢٣، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٤٩. قعنب: هو أبو السَّمَّال، وسلف ذكر القراءة عنه ص١١٥.

ﵟآمَنُواﵞ [ص:٦]، وتكون «لا» جازمة؛ هذا مذهبُ سيبويه. ويجوز على هذا أن ترفع «نعبد» وما بعده، ويكون[١] خبراً، ويجوز الرفعُ بمعنى: أنه لا نعبدُ؛ ومثلُه: ﵟأَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاﵞ [طه:٨٩].

وقال الكسائيُّ والفرَّاء: «وَلَا نُشْرِكْ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذْ» بالجزم على التوهُّم أنه ليس في أوَّلِ الكلام «أن»[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﵟوَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِﵞ أي: لا نتَّبعه في تحليلِ شيءٍ أو تحريمه إلَّا فيما حلَّله اللّه تعالى، وهو نظير قوله تعالى: ﵟاتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِﵞ [التوبة:٣١]. معناه: أنَّهم أنزلوهم منزلةَ ربِّهم في قَبول تحريمهم وتحليلهم لِمَا لم يحرِّمْه اللّه ولم يُحِلَّه اللّه.

وهذا يدلُّ على بطلان القول بالاستحسان المجرَّد الذي لا يستندُ إلى دليل شرعيّ؛ قال الكيا الطبريُّ[٣]: مِثل استحسانات أبي حنيفةَ في التقديرات التي قدَّرها دون مستَنَدَاتٍ بيِّنة.

وفيه ردٌّ على الرَّوافض الذين يقولون: يجب قَبول قول الإمام دونَ إبانةِ مُسْتَنَدٍ شرعيّ، وأنه يُحِلُّ ما حرَّمه اللّه من غير أن يُبيِّنَ مستَنَداً من الشريعة.

وأرباب: جمع رب. و«دون» هنا بمعنى غير.

الثالثة: قوله تعالى: ﵟفَإِن تَوَلَّوْاﵞ أي: أعْرَضوا عما دُعوا إليه. ﵟفَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَﵞ أي: متَّصفون بدين الإسلام، مُنْقادون لأحكامه، معترفون بما لِلّه علينا في ذلك من المِنَن والإنعام[٤]، غيرُ متَّخذين أحداً ربّاً، لا عيسى ولا عُزَيراً ولا الملائكة؛ لأنهم بشرٌ مثلُنا، مُحدَث كحدوثنا، ولا نقبل من الرُّهبان شيئاً بتحريمهم علينا ما لم يحرِّمه اللّه علينا، فنكونَ قد اتخذناهم أرباباً.

---

(١) في (م): يكون، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٤.

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٢٠، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٣ - ٣٨٤، ومشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ١٦٢.

(٣) أحكام القرآن ١/ ٢٨٨.

(٤) المفهم ٣/ ٦٠٩.

وقال عكرمة: معنى «يَتّخِذَ»: يسجد[١].

وقد تقدَّمَ أن السجودَ كان إلى زمن النبيِّ ﷺ، ثم نهى النبيُّ ﷺ[٢] مُعَاذاً لمَّا أراد أن يسجدَ؛ كما مضى في البقرة بيانُه[٣].

وروى أنسُ بن مالك قال: قلنا يا رسول اللّه، أينحني بعضنا لبعض؟ قال: «لا» قلنا: أيعانق بعضُنا بعضاً؟ قال: «لا، ولكن تصافحوا» أخرجه ابن ماجه في سننه[٤].

وسيأتي لهذا المعنى زيادةُ بيانٍ في سورة يوسف إن شاء اللّه[٥].

وفي «الواقعة» مسُّ القرآنِ أو بعضِه على غير طهارة إن شاء اللّه تعالى[٦].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الأصل «لِمَا» فحُذِفَتِ الألفُ فرقاً بين الاستفهام والخبر[٧]. وهذه الآية نزلَتْ بسبب دعوى كلِّ فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان على دينه، فأكْذَبَهُمُ اللّهُ تعالى بأنَّ اليهودية والنصرانيةَ إنما كانتا من بعده؛ فذلك قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري ٥/ ٤٨٠، وابن أبي حاتم (٣٦٣٥).

(٢) في (خ) و(ظ): ثم نهى عنه ﷺ.

(٣) ١/ ٤٣٧.

(٤) برقم (٣٧٠٢)، وهو عند أحمد (١٣٠٤٤)، والترمذي (٢٧٢٨)، وابن عدي في الكامل ٢/ ٨٢٨. قال الحافظ في التلخيص الحبير ٣/ ١٤٩: حسنه الترمذي، واستنكره أحمد، لأنه من رواية السدوسي (وهو حنظلة بن عبدالله) وقد اختلط، وتركه يحيى القطان.

(٥) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ [الآية: ١٠٠].

(٦) عند قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الآية: ٧٩]، ويبدو أن المصنِّف قد ذكر هذا تعقيباً على كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، وأن هرقل قد أمسكه وفيه آيات من القرآن الكريم، وقال أبو العباس القرطبي في المفهم ٣/ ٦١٠ في هذا الحديث: وفيه دليل على جواز مس الجنب والكافر كتب الفقه والتفسير وإن كان فيها قرآن، لأن القرآن فيها تابع لغيره، بخلاف ما إذا كان القرآن وحده، فلا يجوز للجنب ولا للكافر أن يمسَّا منه شيئاً.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٤.

قال الزَّجَّاج[١]: هذه الآية أبْيَنُ حجةٍ على اليهود والنصارى؛ إذِ[٢] التوراةُ والإنجيلُ أُنْزِلا من بعده، وليس فيهما اسمه بواحد[٣] من الأديان، واسمُ الإسلام [له] فِي كلِّ كتاب.

ويقال: كان بين إبراهيمَ وموسى ألفُ سنةٍ، وبين موسى وعيسى أيضاً ألفُ سنةٍ[٤]. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ دحوضَ حُجَّتِكم وبطلانَ قولِكم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ﴾ يعني في أمر محمد ﷺ؛ لأنهم كانوا يَعْلَمُونه فيما يجدون من نعته في كتابهم، فحاجُّوا فيه بالباطل ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يعني دعواهم في إبراهيمَ أنَّه كان يهوديّاً أو نصرانيّاً[٥].

والأصلُ في «ها أنتم»: أأنتم، فأُبدل من الهمزة الأولى هاءٌ؛ لأنها أختُها. عن أبي عمرو بنِ العلاء والأخفش. قال النَّحَّاس[٦]: وهذا قولٌ حسنٌ.

وقرأ قُنْبُل عن ابن كثير: «هَأَنْتُم» مثل: هَعَنْتُم[٧]. والأحسن منه[٨] أن يكون الهاءُ

---

(١) معاني القرآن ١/ ٤٢٦ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) في النسخ الخطية: أن، والمثبت من (م).

(٣) في النسخ الخطية: وليس فيها اسم لواحد، وفي (م): وليس فيهما اسم لواحد، والمثبت من معاني القرآن، والوسيط ١/ ٤٤٧ .

(٤) كذا وقع في النسخ، والذي في تفسير البغوي ١/ ٣١٢: ألفا سنة، وذكر الثعلبي في عرائس المجالس ص٣٧٤ أنه بين عمران أبي موسى عليه السلام وعمران والد مريم ألف وثمان مئة عام، وذكر ابن حبيب في المحبَّر ص١ ، أنه من موسى إلى داود خمس مئة وتسعون سنة، ومن داود إلى عيسى ألف وثلاث وخمسون سنة ،والله أعلم.

(٥) تفسير البغوي ١/ ٣١٣ .

(٦) إعراب القرآن ١/ ٣٨٤ ، وما قبله منه دون ذكر الأخفش، ونقله عن الأخفشِ البغويُّ ١/ ٣١٢ .

(٧) السبعة ص٢٠٧ . وانظر التيسير ص٨٨ . وقنبل: هو محمد بن عبد الرحمن المخزومي مولاهم، المكي، إمام في القراءة، راوي ابن كثير المكي، مات سنة (٢٩١ هـ). السير ١٤/ ٨٤ .

(٨) في (خ) و(ظ): فيه.

بدلاً من همزةٍ، فيكون أصلُه: أأنتم. ويجوز أن تكون «ها» للتنبيه؛ دخلت على «أنتم»، وحُذِفَت الألفُ لكثرة الاستعمال. وفي «هؤلاءِ» لغتان: المدُّ والقصرُ[(١)]. ومن العرب من يَقْصُرُها. وأنشد أبو حاتم:

لعمركَ إنّا والأحاليفُ هاؤلا لفي محنةٍ أظفارُها لم تُقَلَّمِ[(٢)]

وهؤلاء ها هنا في موضع النداء، يعني: يا هؤلاء. ويجوز «هؤلاء» خبر أنتم، على أن يكون أولاء بمعنى الذين، وما بعده صلة له، ويجوزُ أن يكونَ خبرُ «أنتم»: حاججتُم. وقد تقدَّم هذا في «البقرة»[(٣)] والحمد لله.

الثانية: في الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علمَ له، والحظرِ على من لا تحقيقَ عندَه، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾. وقد وَرَدَ الأمرُ بالجِدال لمن عَلِم وأَيْقَنَ[(٤)]؛ فقال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ورُوي عن النَّبيِّ ﷺ أنه أتاه رجلٌ أنكر ولدَه، فقال: يا رسولَ اللّه، إنَّ امرأتي ولدَتْ غلاماً أسودَ، فقال رسول اللّه ﷺ: «هل لك مِن إبل؟» قال: نعم. قال: «ما ألوانُها؟» قال: حُمْرٌ: قال: «هل فيها مِنْ أَوْرَقَ؟» قال: نعم. قال: «فمن أين ذلك؟» قال: لعلَّ عِرْقاً نَزَعَه. فقال رسولُ اللّه ﷺ: «وهذا الغلامُ لعلَّ عِرقاً نَزَعَه»[(٥)]. وهذا حقيقةُ الجدالِ، ونهايةٌ في تبيين الاستدلال من رسول اللّه ﷺ.

---

(١) انظر الحجة للفارسي ٣/ ٤٦ - ٤٧ و٥١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٥٠.

(٢) قائله أوس بن حجر، وهو في ديوانه ص١٢٠، والمعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٨٩٨ وشرح ديوان زهير للأعلم الشنتمري ص٢٢، برواية: حقبة، بدل: محنة. قال ابن قتيبة: أي نحن في حرب. وأظفارها كناية عن السلاح. قال الأعلم الشنتمري: أول من كنى بالأظفار عن السلاح أوس بن حجر.

(٣) ٢/ ٢٣٧ - ٢٣٨، وينظر معاني القرآن للزجاج ١/ ١٦٧، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٤٣.

(٤) في (ظ): وأتقن.

(٥) أخرجه أحمد (٧١٨٩)، والبخاري (٥٣٠٥)، ومسلم (١٥٠٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، والأورق: الأسمر. وقوله: لعل عرقاً نزعه، يقال: نزع إليه في الشبه، إذا أشبهه. النهاية (ورق) (نزع).

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾

نزَّهه تعالى من دعاويهم الكاذبةِ، وبيَّنَ أنه كان على الحنيفيَّة الإسلاميَّة، ولم يكن مشركاً. والحنيفُ: الذي يوحِّدُ ويحجُّ ويُضَحِّي ويختتِنُ ويستقبل القبلة[١]. وقد مضى في «البقرة» اشتقاقُه[٢]. والمسلِمُ في اللغة: المتذلِّلُ لأمر اللّه تعالى المنطاعُ له. وقد تقدَّم في «البقرة» معنى الإسلام مستوفىً[٣] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

قال ابن عباس: قال رؤساء اليهود: واللّه يا محمد، لقد علمتَ أنَّا أَولى الناسِ بدين إبراهيمَ منك ومن غيرك، وإنه[٤] كان يهودياً، وما بك إلا الحسدُ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية[٥].

﴿أَوْلَى﴾ معناه أحقُّ، قيل: بالمعونة والنصرة. وقيل: بالحجة[٦]. ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ على مِلَّته وسنَّته. ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ أفردَ ذكرَهُ تعظيماً له؛ كما قال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن:٦٨]. وقد تقدَّم في «البقرة» هذا المعنى مستوفىً[٧].

و«هذا» في موضع رفعٍ عطفٌ[٨] على الذين، و«النبيُّ» نعتٌ لـ «هذا»، أو بدل[٩]،

---

(١) تفسير البغوي١/ ٣١٣ .

(٢) ٢/ ٤١٤ .

(٣) ٢/ ٤٠٧ .

(٤) في (م): فإنه.

(٥) أسباب النزول للواحدي ص١٠٠ .

(٦) مجمع البيان ٣/ ١١٠ .

(٧) ٢/ ٢٦٢ ، ٤/ ١٧٤ - ١٧٥ .

(٨) في (خ) و(ظ): على العطف .

(٩) قوله: أو بدل، من (خ) و(ظ)، وليس في باقي النسخ، وهو الموافق لما في مشكل إعراب القرآن ١/ ١٦٢ ، والكلام منه.

أو عطفُ بيان، ولو نُصب لكان جائزاً في الكلام عطفاً على الهاء في «اتبعوه».

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ناصرُهم. وعن ابن مسعود أن النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ لكل نبيٍّ ولاةً من النبيين، وإنَّ وليِّيَ منهم أبي وخليلُ ربي، ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

نزلت في معاذ بن جبلٍ وحذيفةَ بن اليمان وعمار بن ياسرٍ؛ حين دعاهم اليهود من بني النضير وقريظة وبني قينقاع إلى دينهم.

وهذه الآيةُ نظيرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾[(٢)][البقرة:١٠٩]. و«مِنْ» على هذا القول للتبعيض. وقيل: جميع أهل الكتاب. فتكونُ «مِنْ» لبيان الجنس[(٣)].

ومعنى «لَوْ يُضِلُّونَكُم» أي: يُكسبونكم المعصية بالرجوع عن دين الإسلام والمخالفةِ له. وقال ابن جرير[(٤)]: «يُضِلُّونكم» أي: يهلكونكم؛ ومنه قول الأخطل:

كُنْتَ الْقَذَى في مَوْجِ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ قَذَفَ الأَتِيُّ به فضَلَّ ضلالا[(٥)]

أي: هلك هلاكاً.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ نفيٌ وإيجاب. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: يفطنون أنهم لا يَصِلُون إلى إضلال المؤمنين. وقيل: «وما يشعرون» أي: لا يعلمون بصحة الإسلام،

(١) أخرجه أحمد (٣٨٠٠)، والترمذي (٢٩٩٥)، والطبري ٦/ ٤٩٨.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص١٠٤، وتفسير البغوي ١/ ٣١٥، ونسبه ابن حجر في العجاب في بيان الأسباب ٢/ ٦٩٢ لمقاتل بن سليمان.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٥٢.

(٤) في النسخ: ابن جريج، ولم نقف عليه من قول ابن جُريج، ولعلها سبق قلم من المصنف رحمه الله، وهو قول الطبري في تفسيره ٦/ ٥٠٠، ونقله عنه ابن عطية في المحرر ١/ ٤٥٢.

(٥) ديوانه ص٥٠، والأتيُّ: السيل الذي يأتي من بلد مُطِر فيه إلى بلد لم يُمطر فيه. اللسان (أتى).

وواجب عليهم أن يعلموا؛ لأن البراهينَ ظاهرةٌ والحججَ باهرةٌ[١]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾

أي: بصحة الآيات التي عندكم في كتبكم؛ عن قتادة والسُّدي[٢].

وقيل: المعنى: وأنتم تشهدون بمثلها من آيات الأنبياء التي أنتم مُقِرُّون بها.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾.

اللَّبْس: الخَلْط، وقد تقدّم في البقرة[٣]، ومعنى هذه الآية والتي قبلها معنى تلك[٤].

﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ ويجوز: «وتكتموا» على جواب الاستفهام[٥]. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة في موضع الحال.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾

نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بنِ الصّيف وغيرهما، قالوا للسَّفِلة من قومهم: آمِنوا بالذي أُنزل على الذين آمنوا وجهَ النهار، يعني أولَه[٦].

وسُمّيَ وجهاً؛ لأنه أحسنُه، وأول ما يُواجَه منه أولُه. قال الشاعر:

وتُضيءُ في وجه النهارِ منيرةً ... كجُمانةِ البَحْريِّ سُلَّ نظامُها[٧]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٥.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٤٩١ - ٤٩٢، والمقصود بالآيات هنا: نعت النبي ﷺ وأنه موجود في كتبهم، وهم يشهدون بذلك ثم يكفرون به وينكرونه.

(٣) ٢/ ١٩.

(٤) في (د) و (م): ذلك.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٦.

(٦) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٢٧٧.

(٧) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٢٠، والبيت للبيد بن ربيعة، وهو في ديوانه ص٣٠٩، وفيه: الظلام،=

وقال آخر:

مَنْ كان مسروراً بمقتل مالكٍ فلْيأتِ نسوتَنا بوجه نهارِ[(١)]

وهو منصوب على الظرف، وكذلك «آخرَه». ومذهب قتادةَ أنهم فعلوا ذلك ليُشكِّكُوا المسلمين[(٢)].

والطائفة الجماعة، من: طاف يطوف، وقد يستعمل للواحد على معنى نفس طائفة.

ومعنى الآية: أن اليهود قال بعضهم لبعض: أَظْهِرُوا الإيمان بمحمد في أول النهار، ثم اكفُروا به آخرَه؛ فإنكم إذا فعلتُم ذلك ظهر لمَنْ يتبعه ارتيابٌ في دينه، فيرجعون عن دينه إلى دينكم، ويقولون: إنَّ أهل الكتاب أعلمُ به منا[(٣)].

وقيل: المعنى: آمِنوا بصلاته في أول النهار إلى بيت المقدس، فإنه الحقّ، واكفُروا بصلاته آخِرَ النهار إلى الكعبة لعلهم يرجعون إلى قِبْلتكم. عن ابن عباس وغيره[(٤)].

وقال مقاتل: معناه: أنهم جاؤوا محمداً ﷺ أوَّلَ النهار، ورجعوا من عنده فقالوا للسَّفِلَة: هو حقٌّ فاتَّبِعوه، ثم قالوا: حتى ننظرَ في التوراة، ثم رجعوا في آخر النهار فقالوا: قد نظرنا في التوراة فليس هو به. يقولون: إنه ليس بحقٍّ، وإنما أرادوا أن يُلَبِّسُوا على السَّفِلَة، وأن يُشكِّكُوا فيه[(٥)].

= بدل: النهار. وقوله: كجُمانة البحري؛ قال شارح الديوان: لؤلؤة الغواص الصغيرة. وقوله: سُلَّ نظامها: خيطها.

(١) البيت للربيع بن زياد العبسي، وقد أورده أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٩٧، والطبري في تفسيره ٦/ ٥٠٩، والزجاج في معاني القرآن ١/ ٤٢٩، والبغدادي في خزانة الأدب ٨/ ٣٦٩.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٦.

(٣) ينظر زاد المسير ١/ ٤٠٥.

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٢٩، وأخرج قول ابن عباس الطبريُّ في تفسيره ٦/ ٥٠٨.

(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٢٧٧.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هذا نهيٌ، وهو من كلام اليهود بعضِهم لبعض. أي: قال ذلك الرؤساء للسَّفِلَة. وقال السُّدِّيّ: من قول يهود خيبر ليهود المدينة[١].

وهذه الآية أشكلُ ما في السورة[٢]. فرُوِيَ عن الحسن ومجاهد أن معنى الآية: ولا تؤمنوا إلا لمَنْ تَبِعَ دينَكم، ولا تؤمنُوا أن يُحاجُّوكم عندَ ربِّكم؛ لأنهم لا حُجَّةَ لهم، فإنكم أصحُّ منهم دِيناً[٣]. و«أن يحاجُّوكم»[٤] في موضع خفض، أي: بأنْ يُحاجُّوكم، أي: باحتجاجهم[٥]. أي: لا تصدِّقوهم في ذلك، فإنهم لا حجةَ لهم أنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ من التوراة والمَنِّ والسَّلْوى وفَرْقِ البحر، وغيرِها من الآيات والفضائل[٦]. فيكون: «أن يؤتى» مؤخَّراً بعد: «أو يُحَاجُّوكم»، وقولَه: «إنّ الْهُدَى هُدَى اللّه» اعتراضٌ بين كلامين[٧].

وقال الأخفش: المعنى: ولا تؤمنوا إلا لِمَنْ تَبِعَ دينكم، ولا تؤمنوا أنْ يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتم، ولا تُصدِّقوا أنْ يُحاجُّوكم، يذهب إلى أنه معطوف[٨].

وقيل: المعنى: ولا تؤمنوا إلا لمَنْ تَبِعَ دينكم، أَنْ يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتم، بالمدّ[٩] على الاستفهام أيضاً؛ تأكيدٌ للإنكار الذي قالوه: إنه لا يُؤتى أحدٌ مثلَ ما

---

(١) النكت والعيون ١/ ٤٠١، والقول الأول عنده من كلام السُّدِّيّ، والثاني من كلام الحسن.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٦.

(٣) ينظر الوسيط للواحدي ١/ ٤٥٠، وتفسير البغوي ١/ ٣١٦.

(٤) يعني في قول الحسن ومجاهد: ولا تؤمنوا أن يُحاجُّوكم، ووقع في (م): وأن ويحاجُّوكم، وهو خطأ.

(٥) ينظر الوجيز للواحدي - بهامش مراح لبيد ١/ ١٠٤.

(٦) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٢٧٧، وتفسير البغوي ١/ ٣١٦.

(٧) المحرر الوجيز ١/ ٤٥٤.

(٨) معاني القرآن للأخفش ١/ ٤١١، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٧ وعنه نقل المصنف.

(٩) في (د) و (م): فالمدّ.

أُوتوه؛ لأن علماء اليهود قالت لهم: لا تؤمنوا إلا لمَنْ تَبعَ دينكم أنْ يؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتم، أي: لا يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم، فالكلام على نسقه. و«أنْ» في موضع رفع على قول مَنْ رفع في قولك: أزيدٌ ضربتَه، والخبر محذوف تقديره: أنْ يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتم تصدِّقون أو تُقرُّون، أي: إيتاء موجود مصدَّقٌ أو مُقَرٌّ به، أي: لا تصدِّقون بذلك. ويجوز أن تكون «أنْ» في موضع نصب على إضمار فعل، كما جاز في قولك: أزيداً ضربتَه، وهو[1] أقوى في العربية؛ لأن الاستفهام بالفعل أوْلى، والتقدير: أتقرُّون أنْ يؤتى، أو: أتُشِيعون ذلك، أو: أتَذْكرون ذلك ونحوه[2].

وبالمدّ قرأ ابنُ كثير[3] وابن مُحَيصِن وحميد.

وقال أبو حاتم: «آن» معناه: ألِأنْ[4]، فحذفت لام الجرِّ استخفافاً، وأُبدلت مَدَّةً، كقراءة مَنْ قرأ: «آنْ كَانَ ذَا مَالٍ»[5] [القلم: ١٤] أي: ألِأن.

وقوله: «أو يُحَاجُّوكُم» على هذه القراءة رجوعٌ إلى خطاب المؤمنين. و[6] تكون «أو» بمعنى «أنْ»؛ لأنهما حَرْفا شكٍّ وجزاء، يوضَع أحدُهما موضعَ الآخر. وتقدير الآية: وأنْ يحاجُّوكم عند ربِّكم يا معشر المؤمنين، فقل يا محمد: إن الهدى هدى الله ونحن عليه[7].

ومَنْ قرأ بترك المدّ قال: إن النفي الأول دلَّ على إنكارهم في قولهم: ولا تؤمنوا. فالمعنى: أن علماء اليهود قالت لهم: لا تصدقوا بأنْ يُؤتَى أحدٌ مثل ما أُوتيتم[8].

---

(١) في (د) و (م): وهذا.

(٢) الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(٣) السبعة ص٢٠٧ ، والتيسير ص٨٩، وقال أبو عمرو في البيان ٢/ ٨١ : قرأ ابن كثير «أن يؤتى» على الاستفهام بهمزة محققة بعدها همزة مسهلة بين بين من غير ألف فاصلة بينهما على مذهبه في جميع الاستفهام، وقرأ الباقون على الخبر بهمزة واحدة محققة من غير مدّ.

(٤) في (د) و (ظ): لأن.

(٥) قرأ أبو بكر وحمزة: أأن كان، بهمزتين محققتين، وابن عامر بهمزة ومدة، وابن ذكوان دون هشام في المدّ، والباقون بهمزة واحدة مفتوحة على الخبر. التيسير ص٢١٣ ، وانظر السبعة ص٦٤٦ .

(٦) في (د) و (م): أو.

(٧) تفسير البغوي ١/ ٣١٦ .

(٨) الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٣٤٨.

أي: لا إيمان لهم ولا حجَّة، فعطف على المعنى من العلم والحكمة والكتاب والحجة والمنِّ والسلوى وفَلْق البحر وغيرها من الفضائل والكرامات. أي: إنها لا تكون إلا فيكم، فلا تؤمنوا أنْ يُؤتى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتم إلا مَنْ تبع دينكم، فالكلام فيه تقديم وتأخير على هذه القراءة، واللام زائدة[1]، و«مَن» استثناء[2]؛ ليس من الأول، وإلا لم يجز الكلام. ودخلت «أَحَدٌ» لأن أول الكلام نفي، فدخلت في صلة فـ «أنْ»، لأنه مفعول الفعل المنفي، فـ «أنْ» في موضع نصب؛ لعدم الخافض.

وقال الخليل: «أنْ» في موضع خفض بالخافض المحذوف.

وقيل: إن اللام ليست بزائدة، و«تُؤمِنُوا» محمول على تُقِرُّوا[3].

وقال ابن جُريج: المعنى: ولا تؤمنوا إلا لمَنْ تبع دينكم؛ كراهيةَ أن يُؤتَى أحدٌ مثل ما أُوتيتم.

وقيل: المعنى: لا تخبروا بما في كتابكم من صفة محمد ﷺ إلا لِمَنْ تبعَ دينكم؛ لئلا يكون طريقاً إلى عَبدَة الأوثان إلى تصديقه[4].

وقال الفرَّاء[5]: يجوز أن يكون قد انقطع كلامُ اليهود عند قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ ثم قال لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾. أي: إن البيان الحقَّ هو بيانُ اللّه عزَّ وجلَّ ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾؛ بيّن أنْ لا يُؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتُم، و«لا» مقدرة بعد «أن» أي: لئلا يؤتى، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦] أي: لئلا تضلوا. فلذلك صلح[6] دخول «أحد» في الكلام.

و«أو» بمعنى «حتى» و«إلا أن»؛ كما قال امرؤ القيس:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٢٢ .

(٢) في (د) و(ظ) و(م): استثنى، وانظر الدر المصون ٣/ ٢٥١ وما بعدها.

(٣) ينظر الحجة للفارسي ٣/ ٥٢ - ٥٥ ، والكشف عن وجوه القراءات ١/ ٣٤٨.

(٤) ينظر النكت والعيون ١/ ٤٠١ وفيه: أنهم نُهوا أن يؤمنوا إلا لمن تبع دينهم؛ لئلا يكون طريقاً لعبدة الأوثان إلى تصديقه. وقال: هذا قول الزجاج.

(٥) معاني القرآن له ١/ ٢٢٢ - ٢٢٣ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٧ ، وعنه نقل المصنف.

(٦) في النسخ: صلحت، والمثبت من (م).

فقلتُ له لا تَبكِ عَيْنُكَ إنما نحاول مُلكاً أو نموتَ فنُعذَرا[(١)]

وقال آخر:

وكنتُ إذا غَمزْتُ قَناةَ قومٍ كَسَرْتُ كُعُوبَها أو تستقيما[(٢)]

ومثلُه قولهم: لا نلتقي أو تقومَ الساعة، بمعنى: «حتى» أو: «إلى أن»، وكذلك مذهب الكسائيِّ[(٣)].

وهي عند الأخفش عاطفةٌ على «وَلَا تُؤْمِنُوا» وقد تقدَّم. أي: لا إيمانَ لهم ولا حجَّة، فعطف على المعنى.

ويحتمل أن تكون الآية كلُّها خِطاباً للمؤمنين من اللّه تعالى على جهة التثبيت لقلوبهم، والتشحيذ لبصائرهم؛ لئلا يشكُّوا عند تلبيس اليهود وتزويرهم في دينهم. والمعنى: لا تصدِّقوا يا معشر المؤمنين إلا مَنْ تَبعَ دينكم، ولا تُصدِّقوا أنْ يُؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتم من الفضل والدِّين، ولا تُصدِّقوا أنْ يُحاجُّوكم[(٤)] في دينكم عند ربِّكم مَنْ خالفَكم أو يقدرون[(٥)] على ذلك؛ فإن الهدى هدى اللّه، وإنَّ الفضلَ بيد اللّه[(٦)].

قال الضحَّاك: إن اليهود قالوا: إنا نُحاجُّ عند ربِّنا مَنْ خالفَنا في ديننا، فبيَّنَ اللّه تعالى أنهم هم المُدْحَضُون المعذَّبون، وأن المؤمنين هم الغالبون[(٧)].

ومحاجَّتُهم خصومتُهم يوم القيامة، ففي الخبر عن رسول اللّه ﷺ: «إن اليهود والنصارى يُحاجُّونا عند ربِّنا، فيقولون: أعطيتَنا أجراً واحداً وأعطيتَهم أجرَيْن فيقول: هل ظلمتُكم من حقوقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإن ذلك فَضْلي أُوتيه مَنْ أشاء»[(٨)].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٢٣ ، وبيت امرئ القيس في ديوانه ص٦٦.

(٢) نسبه سيبويه في الكتاب ٣/ ٤٨ ، وابن الشجري في أماليه ٣/ ٧٨ لزياد الأعجم، وليس في ديوانه.

(٣) انظر النكت والعيون ١/ ٤٠٢ .

(٤) في (م) يحاجكم.

(٥) كذا في النسخ الخطية، وفي (م): يقدر.

(٦) تفسير البغوي ١/ ٣١٧.

(٧) أورده الطبرسي في مجمع البيان ٣/ ١١٧ ، وفيه: المغلوبون، بدل: المعذبون.

(٨) أخرجه بنحوه أحمد (٥٩٠٢) والبخاري (٢٢٦٩) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

قال علماؤنا: فلو علموا أنَّ ذلك من فضل اللّه لم يُحاجُّونا عند ربِّنا، فأعلمَ اللّه نبيَّه ﷺ أنهم يحاجُونكم[(١)] يومَ القيامة عند ربِّكم، ثم قال: قلْ لهم الآن: ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقرأ ابن كثير: «آنْ يُؤْتى» بالمدّ على الاستفهام[(٢)]، كما قال الأعشى:

أأنْ رأتْ رجلاً أعْشَى أضَرَّ بهِ ... رَيْبُ المَنُونِ ودَهْرٌ مُتْبِلٌ خَبِلُ[(٣)]

وقرأ الباقون بغير مدٍّ على الخبر[(٤)]. وقرأ سعيد بن جبير: «إنْ يُؤتى» بكسر الهمزة، على معنى النفي[(٥)]، ويكون من كلام اللّه تعالى كما قال الفرَّاء، والمعنى: قل يا محمد: إن الهُدَى هدَى اللّه إنْ يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم، أو يحاجُوكم عند ربِّكم ـ يعني اليهود ـ بالباطل، فيقولون: نحن أفضلُ منكم[(٦)].

ونصب «أو يحاجُوكم» يعني بإضمار «أن»، و«أو» تضمر بعدها «أن» إذا كانت بمعنى: «حتى» و «إلا أن».

وقرأ الحسن «أن يُؤتِيَ» بكسر التاء وياء مفتوحة، على معنى: أن يُؤتِيَ أحدٌ أحداً مثلَ ما أُوتيتم، فحذف المفعول[(٧)].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ فيه قولان:

أحدُهما: أن الهدى إلى الخير والدلالة إلى اللّه عزَّ وجلَّ بيد اللّه جلَّ ثناؤه يؤتيه أنبياءَه، فلا تنكروا أن يُؤتى أحدٌ سواكم مثلَ ما أُوتيتم، فإنْ أنكروا ذلك، فقل لهم: ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

---

(١) في النسخ: يحاجوكم، والمثبت من (م).

(٢) نقلنا ص١٧٨ من هذا الجزء عن أبي عمرو أن ابن كثير قرأ بهمزة محققة بعدها همزة مسهلة بين بين، من غير ألف فاصلة بينهما.

(٣) ديوان الأعشى ص١٠٥، وفيه: مُفْنِد، بدل: مُتْبِل. وقوله: مُتْبِل أي: رماه الدهر بصروفه وأفناه. القاموس (تبل). وقوله: خَبِل أي: ملتوٍ على أهله. القاموس (خبل).

(٤) السبعة لابن مجاهد ص٢٠٧ .

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢١ للأعمش وطلحة.

(٦) انظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٢٢.

(٧) المحتسب ١/ ١٦٣ .

والقول الآخر: قل: إنَّ الهدى هدى الله الذي آتاه المؤمنين من التصديق بمحمد ﷺ لا غيرُه[١].

وقال بعض أهل الإشارات في هذه الآية: لا تُعاشروا إلا مَنْ يوافقُكم على أحوالكم وطريقتكم، فإن مَنْ لا يوافقكم لا يرافقُكم. والله أعلم[٢].

قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

أي: بنبوَّته وهدايته. عن الحسن ومجاهد وغيرهما، ابن جُريج: بالإسلام والقرآن[٣].

﴿مَن يَشَآءُ﴾. قال أبو عثمان: أجمَلَ القولَ ليبقى معه رجاءُ الراجي وخوفُ الخائف. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ مثل عبدالله بن سَلَام. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ وهو فنحاص بن عازوراء اليهودي، أودعه رجلٌ ديناراً، فخانه. وقيل: كعب بن الأشرف وأصحابه[٤].

وقرأ ابن وثَّاب والأشهب العُقيلي: «مَنْ إنْ تِيمَنْه»[٥] على لغة مَنْ قرأ: «نِسْتَعين»، وهي لغة بكر وتميم[٦]. وفي حرف عبد الله: «مالك لَا تِيْمَنَّا على

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٧.

(٢) ينظر لطائف الإشارات للقشيري ١/ ٢٥١.

(٣) النكت والعيون ١/ ٤٠٢، وأخرج الآثار الطبري في تفسيره ٥/ ٥٠٧.

(٤) انظر تفسير البغوي ١/ ٣١٧.

(٥) القراءات الشاذة لابن خالويه ص٢١، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٧.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٨، والقراءات الشاذة ص١.

يوسف»[١] والباقون بالألف.

وقرأ نافع والكسائيُّ: «يؤدِّهِي» بياء في الإدراج[٢].

قال أبو عبيد: واتفق أبو عمرو والأعمش وحمزة وعاصم[٣] في رواية أبي بكر على وقف الهاء، فقرؤوا: «يؤدِّهْ إليك».

قال النحاس[٤]: بإسكان الهاء لا يجوز إلا في الشعر عند بعض النحويين، وبعضُهم لا يجيزُه البتة، ويرى أنه غلطٌ ممن قرأ به، وأنه توهَّم أن الجزم يقع على الهاء. وأبو عمرو أجَلُّ من أن يَجوز عليه مثلُ هذا، والصحيح عنه أنه كان يكسرُ الهاء، وهي قراءة يزيد بن القَعْقاع[٥].

وقال الفرَّاء[٦]: مذهبُ بعضِ العرب يجزمون الهاء إذا تحرَّكَ ما قبلَها، يقولون: ضربتُهْ ضَرْباً شديداً، كما يسكّنون ميم أنتُم وقمتُم، وأصلُها الرفع. كما قال الشاعر:

لـمـا رأى ألَّا دَعَـهْ ولا شِـبَـعْ مـالَ إلـى أرْطَـاةِ حِـقْـفٍ فـاضـطَـجَـعْ[٧]

---

(١) قيَّدها المصنف رحمه الله في سورة يوسف (الآية: ١١) بكسر التاء ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٢ ليحيى بن وثاب، وضبطت في مطبوعه بفتح التاء.

(٢) قراءة نافع هي من رواية ورش عنه، وهي أيضاً قراءة ابن كثير، وعاصم: من رواية حفص، وابن عامر من رواية ابن ذكوان، ووجه لهشام عنه. وأما قالون فقرأ بالاختلاس، وكذا هشام بوجه. انظر السبعة ص٢٠٨، والتيسير ص٨٩.

(٣) في (د) و(م): وعاصم وحمزةُ، والمثبت من باقي النسخ، وهو الصواب؛ لأن أبا بكر (وهو شعبة) راوي عاصم. وانظر المصدرين السالفين.

(٤) في إعراب القرآن ١/ ٣٨٨، وما قبله منه.

(٥) هو أبو جعفر المدني من العشرة. وذكر ابن الجزري له في النشر ١/ ٣٠٥ وجهين: الإسكان واختلاس الكسر، وذكر له في تحبير التيسير ص١٠٠ الإسكان فقط.

(٦) ينظر معاني القرآن له ١/ ٢٢٣.

(٧) الرجز في إصلاح المنطق لابن السكيت ص١٠٨، وفي المحتسب ١/ ١٠٧، والخصائص لابن جني ١/ ٦٣، وفي المخصص لابن سيده ٨/ ٢٤ دون نسبة، ونسبه البغدادي في شرح شواهد الشافية ٢/ ٣٢٤ لمنظور بن مرثد الأسدي. قوله: أرطاة: واحدة الأرطى، وهو شجر من شجر الرمل. والحقف: التل المعوج. شرح شواهد الشافية ٢/ ٣٢٤.

وقيل: إنما جاز إسكانُ الهاء في هذا الموضع؛ لأنها وقعت في موضع الجزم، وهي الياء الذاهبة[١].

وقرأ أبو المُنْذر سلّام والزُّهْريُّ: «يؤدِّهُ»، بضم الهاء بغير واو[٢]. وقرأ قَتادة وحُميدٌ ومجاهد: «يُؤَدِّهُو»، بواو في الإدراج، اختِير لها الواو؛ لأن الواو من الشَّفَة، والهاءُ بعيدةُ المخرج. قال سيبويه: الواو في المذكَّر بمنزلة الألف في المؤنَّث، ويبدل منها ياء؛ لأن الياء أخفُّ إذا كان قبلَها كسرة أو ياء، وتُحذف الياء وتَبقى الكسرة؛ لأن الياء قد كانت تُحذف والفعل مرفوع، فأثبتت بحالها[٣].

الثانية: أخبر تعالى أنَّ في أهل الكتاب الخائنَ والأمينَ، والمؤمنون لا يميزون ذلك، فينبغي اجتنابُ جميعهم. وخصَّ أهلَ الكتاب بالذِّكْر - وإنْ كان المؤمنون كذلك - لأن[٤] الخيانة فيهم أكثر، فخرج الكلامُ على الغالب. والله أعلم.

وقد مضى تفسير القنطار[٥]. وأما الدينار فأربعةٌ وعشرون قيراطاً، والقيراط: ثلاثُ حبات من وسط الشعير، فمجموعُه اثنتانِ وسبعون حبةً، وهو مُجْمَعٌ عليه[٦].

ومَنْ حَفِظَ الكثير وأدّاه؛ فالقليل أَوْلى، ومَنْ خانَ في اليسير أو منَعه؛ فذلك في الكثير أكثر. وهذا أدلُّ دليل على القول بمفهوم الخطاب. وفيه بين العلماء خلافٌ مذكور[٧] في أصول الفقه.

وذكر تعالى قسمين: مَنْ يؤدِّي، ومَنْ لا يؤدِّي إلا بالملازمة عليه، وقد يكون من الناس مَنْ لا يؤدِّي وإن دُمتَ عليه قائماً، فذكَر تعالى القسمين؛ لأنه الغالب والمعتاد، والثالث نادرٌ، فخرج الكلام على الغالب[٨].

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣١٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٨، وانظر إملاء ما مَنَّ به الرحمن للعكبري ٢/ ٨٧، والبحر المحيط ٢/ ٥٠٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٨، وانظر الكتاب لسيبويه ٤/ ١٨٩.

(٤) في النسخ: لكن، والمثبت من (م).

(٥) ص٤٦ من هذا الجزء.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٥.

(٧) في (م): خلاف كثير مذكور.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٦.

وقرأ طلحة بنُ مُصَرِّف وأبو عبد الرحمن السُّلَميّ وغيرهما: «دِمْتَ»؛ بكسر الدال، وهما لغتان، والكسر لغةُ أزْد السَّراة، من: دِمْتَ تَدَامُ؛ مثل: خفتَ تخافُ. وحكى الأخفش: دِمْتَ تدومُ، شاذّاً(١).

الثالثة: استدلَّ أبو حنيفةَ على مذهبه في ملازمة الغريم بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ﴾ وأباه سائر العلماء(٢)، وقد تقدم في البقرة(٣).

وقد استدلَّ بعض البغداديين من علمائنا على حبس المِدْيان(٤) بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ﴾. فإذا كان له ملازمتُه ومَنْعُه من التصرف، جاز حبسُه(٥).

وقيل: إن معنى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ﴾ أي: بوجهك، فيهَابُك ويستحي منك، فإنَّ الحياء في العينين، ألا ترى إلى قول ابن عباس ﷺ: لا تطلبوا من الأعمى حاجةً؛ فإن الحياء في العينين. وإذا طلبت من أخيك حاجة، فانظر إليه بوجهك حتى يستحيَ فيقضيَها.

ويقال: «قائماً» أي: ملازماً له، فإنْ أنظَرْتَه أنكَرك(٦). وقيل: أراد بالقيام إدامةَ المطالبة لا عينَ القيام.

والدِّينار أصله: دِنَّار، فعوِّضت من إحدى النونين ياء؛ طلباً للتخفيف؛ لكثرة استعماله(٧). يدلُّ عليه أنه يجمع: دنانير، ويصغَّر: دُنَيْنِير.

الرابعة: الأمانةُ عظيمةُ القَدْرِ في الدِّيْن، ومن عِظَم قدرِها أنها تقومُ هي والرَّحِم

(١) معاني القرآن للأخفش ١/ ٤١١، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٨، ونسب فيه قراءة: دِمت، بكسر الدال ليحيى بن وثاب والأعمش، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢١ ليحيى بن وثاب وحده. وانظر المحرر الوجيز ١/ ٤٥٨.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٦.

(٣) ٤/ ٤١٧.

(٤) هو الذي عادتُه أن يأخذ بالدين ويستقرض. الصحاح (دين).

(٥) انظر المعونة للقاضي عبد الوهاب البغدادي ٢/ ١١٨١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٥٨.

(٦) تفسير الرازي ٨/ ١٠٨.

(٧) مجمع البيان ٣/ ١١٩.

على جَنَبَتَي الصراط، كما في صحيح مسلم[١]، فلا يُمَكَّن من الجواز إلا مَنْ حفظهما[٢].

وروى مسلم[٣] عن حذيفة قال: حدّثنا النبيُّ ﷺ عن رفع الأمانة، قال: «ينامُ الرجلُ النَّومةَ فتُقبضُ الأمانة من قلبه» الحديث. وقد تقدم بكماله أولَ البقرة[٤].

وروى ابن ماجه: حدثنا محمد بن المُصَفَّى، حدّثنا محمد بن حرب، عن سعيد ابن سِنان، عن أبي الزَّاهِرِيَّة، عن أبي شجرةَ كثيرِ بن مُرَّة، عن ابن عمر؛ أن النبيَّ ﷺ قال: «إن اللّه عزَّ وجلَّ إذا أرادَ أن يُهلك عبداً نزَع منه الحياء، فإذا نزَع منه الحياء لم تَلْقه إلا مَقِيتاً مُمقَّتاً، فإذا لم تَلْقه إلا مَقِيتاً مُمقَّتاً؛ نُزِعت منه الأمانة، فإذا نُزِعت منه الأمانة؛ لم تَلْقه إلا خائناً مُخَوَّناً، فإذا لم تَلْقه إلا خائناً مُخوَّناً؛ نُزِعت منه الرحمةُ، فإذا نُزِعت منه الرحمةُ؛ لم تَلْقه إلا رَجِيماً مُلعَّناً، فإذا لم تَلْقه إلا رجِيماً مُلعَّناً؛ نُزِعت منه رِبْقةُ الإسلام»[٥].

وقد مضى في البقرة معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «أدِّ الأمانةَ إلى مَنِ ائتَمَنك، ولا تَخُنْ مَنْ خانَك»[٦]. واللّه أعلم.

الخامسة: ليس في هذه الآية تعديلٌ لأهل الكتاب ولا لبعضهم، خلافاً لِمَنْ ذهب إلى ذلك؛ لأن فُسَّاق المسلمين يوجد فيهم مَنْ يؤدِّي الأمانة، ويُؤمَّنُ على المال الكثير، ولا يكونون بذلك عدولاً. فطريقُ العدالة والشهادة ليس يجزئُ فيه أداءُ الأمانة في المال من جهة المعاملة والوديعة، ألا ترى قولهم: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾؟ فكيف يُعدَّل مَنْ يعتقدُ استباحةَ أموالِنا وحَرِيمِنا بغير حرجٍ عليه؟! ولو كان ذلك كافياً في تعديلهم لَسُمعت شهادتُهم على المسلمين.

---

(١) برقم (١٩٥) من حديث حذيفة ﷺ.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٣) في صحيحه (١٤٣) .

(٤) ١/ ٢٨٨ .

(٥) سنن ابن ماجه (٤٠٥٤) وقال البوصيري في الزوائد ٤/ ١٩٥ : هذا إسناد ضعيف؛ لضعف سعيد بن سنان والاختلاف في اسمه. وقال ابن حجر: متروك. تقريب التهذيب ص١٧٧ .

(٦) ٣/ ٢٤٨ .

السادسة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ يعني اليهود: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ قيل: إن اليهود كانوا إذا بايعوا المسلمين يقولون: ليس علينا في الأُمِّيِّينَ سبيلٌ ـ أي: حرجٌ في ظلمهم ـ لمخالفتهم إيَّانا. وادَّعَوْا أن ذلك في كتابهم، فأكذَبهم اللّه عزَّ وجلَّ، وردَّ عليهم فقال: «بلى» أي: بلى عليهم سبيلُ العذاب بكذبهم واستحلالهم أموالَ العرب. قال أبو إسحاق الزَّجَّاج: وتمَّ الكلام، ثم قال: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾[١].

ويقال: إن اليهود كانوا قد استدانوا من الأعراب أموالًا، فلما أسلم أرباب الحقوق قالت اليهود: ليس لكم علينا شيءٌ؛ لأنكم تركتم دِيْنَكم، فسقط عنا دَيْنُكم[٢]. وادَّعَوا أنه حُكم التوراة، فقال اللّه تعالى: «بلى»، ردّاً لقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ أي: ليس كما تقولون، ثم استأنف فقال: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ الشركَ، فليس من الكاذبين، بل يحبُّه اللّه ورسولُه.

السابعة: قال رجل لابن عباس: إنَّا نصيبُ في العَمْد من أموال أهل الذمَّة الدجاجةَ والشاةَ، ونقول: ليس علينا في ذلك بأس؟ فقال له: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾. إنهم إذا أدَّوا الجزية لم تحلَّ لكم أموالهم إلا عن طِيْب أنفسهم؛ ذكره عبد الرازق عن معمر، عن أبي إسحاق الهَمْداني، عن صَعْصعةَ؛ أن رجلاً قال لابن عباس، فذكره[٣].

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ الكافر لا يُجعل أهلاً لقبول شهادتِه؛ لأن اللّه تعالى وصفَه بأنه كذَّاب، وفيه ردٌّ على الكَفرة الذين يُحرِّمون ويحلِّلون من[٤] غير تحريم اللّه وتحليله، ويجعلون ذلك من الشرع.

قال ابن العربي[٥]: ومن هذا يخرِّج الردُّ على مَنْ يحكم بالاستحسان من غير

---

(١) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٣٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٩ ، وانظر تفسير البغوي ١/ ٣١٨ .

(٢) انظر تفسير الرازي ٨/ ١٠٩ .

(٣) تفسير عبد الرزاق ١/ ١٢٣ - ١٢٤ ، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ٥/ ٥١٣ .

(٤) لفظة (من) ليست في (د) و (م).

(٥) في أحكام القرآن له ١/ ٢٧٧ ،وما قبله منه.

دليل، ولستُ أعلم أحداً من أهل القِبْلة قاله.

وفي الخبر: لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «ما شيءٌ كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميَّ، إلا الأمانةَ، فإنها مؤدَّاةٌ إلى البَرِّ والفاجر»[١].

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

«مَنْ» رفع بالابتداء، وهو شرط. و«أوفَى» في موضع جزم. و«اتقى» معطوف عليه، أي: واتقى الله ولم يكذب، ولم يستحلَّ ما حرّم عليه. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: يحب أولئك[٢]. وقد تقدّم معنى حبِّ الله لأوليائه.

والهاء في قوله: «بعهده» راجعة إلى الله عزَّ وجلَّ، وقد جرى ذِكْره في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. ويجوز أن تعود على الموفي ومتَّقي الكفر والخيانة ونقضِ العهد. والعهدُ مصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: روى الأئمة عن الأشعث[٤] بن قيس قال: كان بيني وبين رجل من اليهود أرضٌ، فجحدَني، فقدَّمتُه إلى النبيِّ ﷺ، فقال لي رسول الله ﷺ: «هل لك بيِّنة»؟ قلت: لا، قال لليهودي: «احلفْ»، قلت: إذاً يحلفَ فيذهبَ بمالي، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخر الآية[٥].

---

(١) تفسير الرازي ٨/١٠٨، وأخرج الخبر الطبريُّ في تفسيره ٥/ ٥١١ عن سعيد بن جبير مرسلاً.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٩.

(٣) ينظر مجمع البيان للطبرسي ٣/ ١٢١، وتفسير الرازي ٨/ ١٠٩.

(٤) في النسخ: روى الأشعث. والمثبت من (م).

(٥) أسباب النزول للواحدي ص١٠٥، وأخرج هذا الخبر أحمد (٣٥٩٧)، والبخاري (٢٤١٦)، ومسلم (١٣٨) من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ.

وروى الأئمة أيضاً عن أبي أُمامةَ أن رسول اللّه ﷺ قال: «مَنِ اقتطعَ حقَّ امرئٍ مسلم بيمينه؛ فقد أوجب اللّه له النارَ، وحرَّم عليه الجنةَ». فقال له رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول اللّه؟ قال: «وإنْ كان قضِيباً من أَرَاك»[١]. وقد مضى في البقرة معنى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾[٢].

الثانية: ودلَّت هذه الآية والأحاديثُ أن حكم الحاكم لا يُحلُّ المالَ في الباطن بقضاء الظاهر إذا علم المحكومُ له بطلانَه. وقد روى الأئمة عن أمِّ سلمةَ قالت: قال رسول اللّه ﷺ: «إنكم تختصمون إليَّ، وإنما أنا بشرٌ، ولعلَّ بعضَكم أن يكونَ أَلْحَنَ بحجَّته من بعض، وإنما أقضي بينكم على نحوٍ ممَّا أسمعُ منكم، فمَنْ قضيتُ له من حقِّ أخيه شيئاً، فلا يأخُذْه؛ فإنما أقطعُ له قطعةً من النار يأتِي بها يومَ القيامة»[٣].

وهذا لا خلافَ فيه بين الأمة[٤]، وإنما ناقض أبو حنيفة وغلا، فقال: إن حكم الحاكم المبنيَّ على الشهادة الباطلة يُحلُّ الفَرْجَ لمَنْ كان محرَّماً عليه[٥]. كما تقدم في البقرة[٦]. وزعم أنه لو شهد شاهدا زُورٍ على رجل بطلاق زوجته، وحكَم الحاكم بشهادتهما، فإنَّ فَرْجَها يحلُّ لمتزوِّجها ممن يعلم أن القضية باطل. وقد شُنِّع عليه بإعراضه عن هذا الحديث الصحيح الصريح، وبأنه صان الأموالَ ولم يرَ استباحتَها بالأحكام الفاسدة، ولم يَصُن الفُروج عن ذلك، والفُروج أحقُّ أن يُحتاط لها وتُصان[٧]. وسيأتي بطلان قوله في آية اللِّعان إنْ شاء اللّه تعالى[٨].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢٣٩)، ومسلم (١٣٧)، وأبو أمامة راويه هو إياس بن ثعلبة الأنصاري الحارثي، وليس هو أبا أمامة الباهلي صُدَيّ بن عجلان وانظر شرح مسلم للنووي ٢/ ١٦٠ .

(٢) ٣/ ٥٠ .

(٣) أخرجه أحمد (٢٥٦٧٠)، والبخاري (٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣)، وقد سلف ذكره ٢/ ٣٣٨ .

(٤) في (م): الأئمة.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٨ .

(٦) ٣/ ٢٢٣ .

(٧) المفهم ٥/ ١٥٨ .

(٨) عند تفسير الآية (٦) من سورة النور.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يعني طائفةً من اليهود ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾. وقرأ أبو جعفر وشَيْبَةُ: «يُلوُّون» على التكثير[١]، والمعنى[٢]: يحرِّفون الكَلِمَ، ويعدِلون به عن القصد[٣]. وأصلُ اللَّيِّ الميل. لَوى بيده، ولَوى برأسه: إذا أماله، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ [النساء:٤٦]، أي: عِناداً عن الحقِّ، ومَيْلاً عنه إلى غيره. ومعنى ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، أي: لا تُعرِّجون عليه، يقال: لَوَى عليه: إذا عرَّج وأقام. واللَّيُّ المَطْلُ. لواه بدَينه يَلْويه لَيّاً ولِيَاناً: مَطله[٤]. قال:

قد كنتُ داينتُ بها حسَّانا   مخافةَ الإفلاسِ واللَّيَّانا
يُحسِنُ بيعَ الأصلِ والقِيانا[٥]

وقال ذو الرُّمَّة:

تريدين لَيَّاني وأنتِ مَلِيَّةٌ   وأُحسِنُ يا ذاتَ الوِشاحِ التَّقاضِيا[٦]

وفي الحديث: «لَيُّ الواجِدِ يُحِلُّ عِرْضَه وعُقُوبَته»[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٩ ، والكشاف ١/ ٤٣٩ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٠ ، وقراءة أبي جعفر (وهو من العشرة) المشهورةُ عنه كقراءة الجماعة.

(٢) في (م): التكثير: إذا أماله ومنه، والمعنى... الخ وهو خطأ. فقوله: «إذا أماله ومنه»سيرد على الجادة في السطر بعده.

(٣) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٣٥ .

(٤) الصحاح (لوى)، ومجمع البيان ٤/ ١٢٣ ، وتفسير الرازي ٨/ ١١٣ .

(٥) في النسخ: العيان، وهو خطأ. والرجز لرؤبة، وهو في ملحقات ديوانه ص١٨٧ ، ونسبه ابن يعيش في شرح المفصل ٦/ ٦٥ لزياد العنبري، وقال في شرحه: القينة: الأمة، مغنية كانت أو غير مغنية، يريد أنه داينَ بها ـ يعني الإبل ـ حسان؛ لأنه مليء لا يماطل، مخافة أن يداين غيره ممن ليس بمليء، فيماطل لإفلاسه، واللّيّان مصدر بمعنى اللّيّ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «ليُّ الغني ظلم».

(٦) ديوان ذي الرُّمة ٢/ ١٣٠٦ ، وفيه: تسيئين بدل: تريدين، وأورده بلفظ المصنف الجوهري في الصحاح (لوى).

(٧) سلف ٣/ ٢٥٦ .

وأَلْسِنةٌ جمع لسانٍ في لغة من ذَكَّر، ومن أنَّث قال: أَلْسُن[١].

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿مَا كَانَ﴾ معناه: ما ينبغي، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء: ٩٢]، و﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥]. و ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا﴾ [النور: ١٦]، يعني ما ينبغي. والبشر يقع للواحد والجمع؛ لأنه بمنزلة المصدر، والمراد به هنا عيسى في قول الضحَّاكِ والسُّدِّيّ[٢]. والكتاب: القرآن. والحُكْم: العلمُ والفهم. وقيل أيضاً: الأحكام. أي: إنَّ اللّهَ لا يصطفي لنبوَّته الكَذَبةَ، ولو فعلَ ذلك بشرٌ لسلبه اللّه آياتِ النبوَّةِ وعلاماتِها. ونصب «ثم يقولَ» على الاشتراك بين «أنْ يؤتيَه» وبين[٣] «يقول»، أي: لا يجتمع لنبيٍّ إتيانُ النبوّة وقولُه: ﴿كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. ﴿وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾، أي: ولكن جائزٌ أنْ يكونَ النبيُّ يقولُ لهم: كونوا ربَّانيّين. وهذه الآيةُ قيل: إنها نزلت في نصارى نَجْران[٤]. وكذلك رُوِيَ أنَّ السورةَ كلَّها إلى قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ كان سببُ نزولِها نصارى نَجْران، ولكن مُزِجَ معهم اليهود؛ لأنهم فعلوا من الجَحْد والعِناد فِعلَهم.

والرَّبَّانِيُّون واحِدُهم رَبَّانِيٌّ، منسوبٌ إلى الرَّبّ. والربَّانِيُّ: الذي يُرَبِّي النَّاسَ بصغار العلمِ قبلَ كباره؛ وكأنه يقتدي بالربِّ سبحانه في تيسير الأمور[٥]؛ رُوِيَ معناه عن ابن عباس[٦].

قال بعضهم: كان في الأصل: رَبِّيّ، فأدخلت الألف والنونُ للمبالغة؛ كما يقال

---

(١) زاد المسير ١/ ٤١٢، وانظر الصحاح (لسن).

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٢٠.

(٣) في (خ) و (ظ): ومن، وفي (د): وبين أن، والمثبت من (م)، ومعاني الزجاج ١/ ٤٥٦، والكلام منه.

(٤) تفسير الطبري ٦/ ٥٣٩، وأسباب النزول للواحدي ص١٠٨.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧٨ - ٢٧٩، وانظر تفسير البغوي ١/ ٣٢٠.

(٦) ذكره البخاري، باب العلم قبل القول والعمل. فتح الباري ١/ ١٦٠.

للعظيم اللحيةِ: لِحْيَانِيّ، ولعظيم الجُمَّةِ: جُمَّانيّ، ولغليظ الرَّقبَةِ: رَقَباني[١].

وقال المبرِّد: الرَّبَّانيُّون أربابُ العلم، واحدُهم رَبَّان، من قولهم: رَبَّه يَرُبُّه، فهو رَبَّان: إذا دَبَّره وأصلحه، فمعناه على هذا: يُدَبِّرون أمورَ النَّاسِ ويُصلحونها. والألف والنون للمبالغة كما قالوا: رَيَّان وعطشان، ثم ضُمت إليها ياءُ النِّسبةِ كما قيل: لِحْيانيٌّ ورَقَبانيٌّ وجُمَّانيّ[٢]. قال الشاعر:

لو كنتُ مُرتَهناً في الجَوِّ أنزلني ... منه الحديثُ وربَّانيُّ أحباري[٣]

فمعنى الربَّانِيِّ: العالِمُ بدين الرَّبِّ الذي يعمل بعلمه؛ لأنه إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم. وقد تقدم هذا المعنى في البقرة[٤].

وقال أبو رَزِين: الربَّانيُّ: هو العالمُ الحكيم. وروى شعبةُ عن عاصم، عن زِرٍّ، عن عبد اللّه بن مسعود ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ قال: حكماء علماء. ابن جُبير: حكماء أتقياء. وقال الضَّحَّاك[٥]: لا ينبغي لأحد أنْ يدعَ حفظَ القرآنِ جَهدَه، فإنَّ اللّهَ تعالى يقول: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾. وقال ابن زيد: الرَّبَّانيُّون: الولاة، والأحبار: العلماء. وقال مجاهد: الربَّانيُّون فوقَ الأحبار.

قال النحاس[٦]: وهو قولٌ حسن؛ لأنَّ الأحبارَ هم العلماء. والربَّانيُّ الذي يجمع إلى العلم البصرَ بالسياسة، مأخوذٌ من قول العرب: رَبَّ أمرَ الناسِ: يَرُبُّه: إذا أصلحه وقام به، فهو رابٌّ، وربَّانِيٌّ على التكثير.

قال أبو عبيدة: سمعت عالماً يقول: الربَّانيُّ: العالِمُ بالحلال والحرامِ والأمرِ والنهي، العارفُ بأنباء الأمَّةِ، وما كان وما يكون[٧].

---

(١) انظر كتاب سيبويه ٣/ ٣٨٠ ، ومعاني الزجاج ١/ ٤٣٥ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٢١ ، والوسيط ١/ ٤٥٦ ، وتفسير الرازي ٨/ ١١٩ .

(٣) لم نقف عليه.

(٤) ١/ ٢١١ - ٢١٢، وهو في سورة الفاتحة، وليس في البقرة.

(٥) أورده النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٩٠ ، وما قبله منه.

(٦) في معاني القرآن ١/ ٤٢٩ ، وأخرج الأقوال السالفة الطبري ٦/ ٥٤٠ - ٥٤٣ .

(٧) تفسير البغوي ١/ ٣٢٠ .

وقال محمد بنُ الحنفِيَّة يوم مات ابنُ عباس: اليومَ مات ربَّانِيُّ هذه الأمّة[(١)].

ورُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ما من مؤمنٍ ذكرٍ ولا أنثى؛ حرٌّ ولا مملوكٍ، إلا ولله عزَّ وجلَّ عليه حقٌّ أنْ يتعلمَ من القرآن، ويتفقَّه في دينه، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ الآية. رواه ابن عباس[(٢)].

قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ قرأه أبو عمرو وأهل المدينة بالتخفيف؛ من العلم. واختار هذه القراءةَ أبو حاتم. قال أبو عمرو: وتصديقُها «تَدْرُسُون»، ولم يقل: «تُدَرِّسون» بالتشديد من التدريس. وقرأ ابن عامر وأهلُ الكوفة: «تُعلّمون» بالتشديد من التعليم؛ واختارها أبو عبيد. قال: لأنها تجمع المعنيَين: «تَعْلَمون، وتدرسون»[(٣)].

قال مَكّي[(٤)]: التشديد أبلغ؛ لأنَّ كلَّ معلِّمٍ عالمٌ بمعنى يَعْلم[(٥)]، وليس كلُّ من عَلِم شيئاً مُعَلِّماً، فالتشديدُ يدلُّ على العلم والتعليم، والتخفيفُ إنما يدلُّ على العلم فقط، فالتعليم أبلغُ وأمدح، وغيرُه أبلغ في الذَّمّ. احتجَّ من رجَّح قراءَة التخفيفِ بقول ابن مسعود: ﴿كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ قال: حكماء علماء[(٦)]؛ فيبعد أنْ يقالَ: كونوا فقهاءَ حكماء بتعليمكم. قال الحسن: كونوا حكماءَ علماء بعلمكم[(٧)].

وقرأ أبو حَيْوَة: «تُدْرِسون»، من أدرس يُدرِس[(٨)]. وقرأ مجاهد: «تَعلَّمون» بفتح

---

(١) أورده الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٤٠، والطبرسي في مجمع البيان ٣/ ١٢٧، وابن الجوزي في غريب الحديث ١/ ٣٧٢.

(٢) أورده الطبرسي في مجمع البيان ٣/ ١٢٧، ولم يذكر راويه. وفيه: من العلم، بدل: من القرآن.

(٣) وقرأ بالتخفيف أيضاً ابن كثير. انظر السبعة ص٢١٣، والتيسير ص٨٩، والحجة للفارسي ٣/ ٥٨ - ٦١.

(٤) في الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٣٥١.

(٥) في الكشف: عالم بما يعلّم.

(٦) أورده النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٩٠، وسلف قريباً.

(٧) أخرجه الطبري ٦/ ٥٤١.

(٨) المحتسب ١/ ١٦٣، وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٦٣ عنه أيضاً: تَدرِسُون، بكسر الراء، وقال: هذا على أنه يقال في مضارع درس: يَدرُسُ، ويَدرِسُ. اهـ. وذكر ابن عطية أيضاً وابن خالويه ص٢١ عنه: تُدَرِّسُون، بضم التاء وكسر الراء وشدّها، بمعنى: تُدَرِّسُون غيركم، وذكر ابن خالويه عنه أيضاً: تَدَرَّسُون، بفتح التاء والتشديد.

التاء وتشديد اللام، أي: تتعلمون[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بالنصب عطفاً على ﴿أَن يُؤْتِيَهُ﴾[٢]. ويقوّيه أنَّ اليهودَ قالت للنبيِّ ﷺ: أتريد أنْ نتَّخذَك يا محمد ربّاً؟ فقال اللّه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾[٣]. وفيه ضميرُ: البشر، أي: ولا يأمرَكم البشرُ، يعني عيسى وعُزَيراً.

وقرأ الباقون بالرفع[٤] على الاستئناف والقطعِ من الكلام الأوّل، وفيه ضميرُ اسمِ اللّه عزَّ وجلَّ، أي: ولا يأمرُكم اللّه أنْ تتخذوا. ويقوّي هذه القراءةَ أنَّ في مصحف عبدِ اللّه: «ولن يأمرَكم». فهذا يدلُّ على الاستئناف، والضميرُ أيضاً للّه عزَّ وجلَّ، ذكَره مكّي[٥]، وقاله سيبويه والزجّاج[٦]. وقال ابن جُريج وجماعة: ولا يأمركم محمدٌ عليه الصلاة والسلام[٧]. وهذه قراءةُ أبي عمرو والكِسائي وأهلِ الحرمين[٨].

﴿أَن تَتَّخِذُوا﴾، أي: بأنْ تتخذوا الملائكة والنبيين أرْباباً. وهذا موجودٌ في النصارى؛ يعظِّمون الأنبياء والملائكةَ حتى يجعلوهم لهم أرباباً[٩].

﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ على طريق الإنكارِ والتعجب؛ فحرَّم اللّه

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٦٣ ، وزاد نسبتها للحسن، والقراءات الشاذة ض٢١، ونسبها لسعيد بن جبير.

(٢) السبعة ص٢١٣ ، والتيسير ص٨٩ .

(٣) أخرجه الطبري ٦/ ٥٣٩ .

(٤) عدا البصريّ، فإنه قرأ بالإسكان والاختلاس. انظر التيسير ص٨٩ .

(٥) في الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٣٥٠ - ٣٥١ ، وانظر السبعة ص٢١٣ ، وتفسير الطبري ٦/ ٥٤٨ ، والحجة ٣/ ٥٨ ، والمحرَّر الوجيز ١/ ٤٦٣ .

(٦) الكتاب ٣/ ٥٢ ، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٣٦ .

(٧) أخرجه الطبري ٦/ ٥٤٦ .

(٨) يعني الرفع، وقد سلف ذكرها.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٠ .

تعالى على الأنبياء أنْ يتخذوا الناسَ عباداً يتألَّهون لهم، ولكن ألزمَ الخلقَ حرمتَهم.

وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا يقولنَّ أحدُكم: عَبْدِي وأَمَتِي، وليقلْ: فَتايَ وفتاتِي، ولا يقل أحدكم: ربِّي، وليقل: سَيِّدِي»[1]. وفي التنزيل: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]. وهناك يأتي بيانُ هذا المعنى إنْ شاء اللّه تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١﴾

قيل: أخذ اللّه تعالى ميثاقَ الأنبياءَ أنْ يصدِّقَ بعضُهم بعضاً، ويأمرَ بعضُهم بالإيمان بعضاً؛ فذلك معنى النُّصرةِ بالتصديق. وهذا قولُ سعيد بنِ جُبير وقَتادةَ وطاوس والسُّدِّيّ والحسن[2]، وهو ظاهرُ الآية.

قال طاوس: أخذ اللّه ميثاقَ الأوَّلِ من الأنبياء أنْ يؤمن بما جاء به الآخِر.

وقرأ ابن مسعود: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ»[3].

قال الكسائي: يجوز أنْ يكونَ ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بمعنى: وإذْ أخذ اللّه ميثاقَ الذين مع النبيين.

وقال البصريون: إذا أخذ اللّه ميثاقَ النبيين، فقد أخذَ ميثاقَ الذين معهم؛ لأنهم قد اتبعوهم وصدّقوهم. و«ما» في قوله «لَمَا» بمعنى الذي[4].

قال سيبويه[5]: سألت الخليلَ بن أحمد عن قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ

---

(١) أخرجه أحمد (٩٤٥١)، والبخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٥٥٥ - ٥٥٦.

(٣) أخرجه الطبري ٥/ ٥٣٨ - ٥٣٩ عن ابن مسعود، وأُبيّ بن كعب. قال أبو حيان في البحر المحيط ٢/ ٥٠٨: وهذا لا يصحُّ عنه؛ لأن الرواة الثقات نقلوا عنه أنه قرأ: النبيين، كعبدالله بن كثير وغيره، وإن صحَّ ذلك عن غيره فهو خطأ مردود بإجماع الصحابة على مصحف عثمان.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٣٠ - ٤٣١، وقراءة ابن مسعود أخرجها الطبري ٦/ ٥٥٣.

(٥) في الكتاب ٣/ ١٠٧.

﴿النَّبِيِّينَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾، فقال: «ما»[١] بمعنى الذي. قال النحاس[٢]: التقدير على قول الخليل: لَلذي آتيتُكموه، ثم حذف الهاء لطول الاسم. و«الذي» رفعٌ بالابتداء، وخبرُه: «من كتاب وحكمة». و«مِن» لبيان الجنس. وهذا كقول القائل: لزيدٌ أفضلُ منك؛ وهو قولُ الأخفشِ أنها لامُ الابتداء[٣].

قال المَهْدويُّ: وقولُه: «ثم جاءكم» وما بعدَه جملةٌ معطوفة على الصِّلة، والعائدُ منها على الموصول محذوف؛ التقدير: ثم جاءكم رسولٌ مصدِّقٌ به[٤].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾؛ الرسول هنا محمدٌ ﷺ في قول عليٍّ وابن عباس رضي الله عنهما[٥]، واللفظ وإن كان نكرةً؛ فالإشارة إلى معين؛ كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ [النحل: ١١٢-١١٣]. فأخذ الله ميثاقَ النبيِّين أجمعين أنْ يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام وينصروه إنْ أدركوه، وأمرَهم أنْ يأخذوا بذلك الميثاق على أممهم[٦].

واللام من قوله: «لَتُؤْمِنُنَّ به» جوابُ القسمِ الذي هو أَخذُ الميثاق، إذ هو بمنزلة الاستحلاف. وهو كما تقول في الكلام: أخذتُ ميثاقَك لتَفعلَنَّ كذا، كأنك قلت: أستحلفُك، وفَصَلَ بين القَسَم وجوابِهِ بحرف الجرّ الذي هو «لِما» في قراءة ابن كَثير[٧] على ما يأتي. ومن فتحَها جعلَها متلقيةً للقسم الذي هو أخذُ الميثاق. واللام في «لَتؤمِنُنَّ به» جوابُ قسمٍ محذوف، أي: والله لتؤمننَّ به[٨].

---

(١) في (د) و (م): لما، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٢) في إعراب القرآن ١/ ٣٩١، ونقل المصنف عنه قول سيبويه.

(٣) معاني القرآن للأخفش ١/ ٤١٣.

(٤) بعدها في (د) زيادة: وهي متعلقة بأخذ، وانظر مشكل إعراب القرآن ص١٦٣ - ١٦٤.

(٥) تفسير الطبري ٦/ ٥٥٥ - ٥٥٦.

(٦) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٣٨، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٤ - ٤٦٥.

(٧) كذا قال المصنف رحمه الله، وهو خطأ، والذي قرأ بكسر اللام من السبعة حمزة كما سيأتي، وانظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٢٥، ومشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ١٦٥.

(٨) الحجة ٣/ ٦٤، ومشكل إعراب القرآن ص١٦٥، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٤.

وقال المبرّد والكسائيُّ والزجاج[(١)]: «ما» شرطٌ دخلت عليها لامُ التحقيق كما تدخل على «إنْ»، ومعناه: لَمهما[(٢)] آتيتُكم، فموضع «ما» نصب، وموضع «آتيتكم» جزم، و«ثم جاءكم» معطوفٌ عليه، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ اللام في قوله: «لتؤمننَّ به» جوابُ الجزاء، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ﴾ [الإسراء: ٨٦]، ونحوه.

وقال الكسائيّ: لَتؤمننَّ به مُعتمدُ القسم، فهو متَّصلٌ بالكلام الأول، وجوابُ الجزاء قولُه: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، ولا يحتاج على هذا الوجهِ إلى تقديرِ عائد[(٣)].

وقرأ أهل الكوفة: «لِمَا آتيتكم» بكسر اللام[(٤)]، وهي أيضاً بمعنى الذي، وهي متعلقةٌ ب «أخذ»، أي: أخذَ اللّه ميثاقَهم لأجل الذي آتاهم من كتاب وحكمةٍ، ثم إن جاءكم رسولٌ مصدِّقٌ لما معكم لتؤمننَّ به من بعد الميثاق؛ لأنَّ أخذَ الميثاقِ في معنى الاستحلاف كما تقدَّم[(٥)].

قال النحاس[(٦)]: ولأبي عبيدةَ في هذا قولٌ حَسَن. قال: المعنى: وإذ أخذ اللّه ميثاقَ الذين أوتوا الكتاب لتؤمننّ به لِما آتيتكم من ذكر التوراة، وقيل: في الكلام حذفٌ، والمعنى: وَإذْ أخذ اللّه ميثاقَ النبيّين لَتُعَلِّمُنّ الناس لِمَا جاءكم من كتاب وحكمة، ولتأخذنَّ على الناس أنْ يؤمنوا. ودلَّ على هذا الحذفِ: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾.

وقيل: إنَّ اللامَ في قولِه: «لِما» في قراءة من كَسرَها بمعنى بَعْد، يعني: بَعْدَ ما آتيتُكم من كتاب وحكمة[(٧)]، كما قال النابغة:

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٤٣٦.

(٢) في (د): ما، وفي (ظ): لما، والمثبت من (خ).

(٣) تفسير الطبري ٦/ ٥٥١، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩١، ومشكل إعراب القرآن ص١٦٦ - ١٦٧.

(٤) هي قراءة حمزة وحده من السبعة، وانظر السبعة ٢١٣، والتيسير ص٨٩.

(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٢٥، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٤.

(٦) في إعراب القرآن ١/ ٣٩٢.

(٧) نقل هذا المعنى السجاوندي عن صاحب النظم، فيما ذكره أبو حيان في البحر ٢/ ٥١٢، وذكره أيضاً السمين الحلبي في الدر المصون ٣/ ٢٨٧ - ٢٨٨ واستغربه وقال: لا أدري ما حمله على ذلك؟ وكيف ينتظم هذا كلاماً، إذ يصير تقديره: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين بعد ما آتيناكم، ومَن المخاطب بذلك؟

تـوهـمـتُ آيـاتٍ لـهـا فـعـرفـتُـهـا لـسـتَّـةِ أعـوامٍ وذا الـعـامُ سـابـعُ[(١)]

أيْ: بعد ستَّةِ أعوام.

وقرأ سعيد بنُ جُبير: «لَمَّا» بالتشديد[(٢)]، ومعناه: حينَ آتيتُكم. واحتمل أنْ يكون أصلُها التخفيف، فزيدت «مِن» على مذهب من يرى زيادتَها في الواجب، فصارت لَمِن ما، وقُلبت النون ميماً للإدغام، فاجتمعت ثلاثُ ميمات، فحذفت الأولى منهنَّ استخفافاً[(٣)].

وقرأ أهل المدينة: «آتيناكم» على التعظيم، والباقون: «آتيتُكم» على لفظ الواحد[(٤)].

ثم كلُّ الأنبياءِ لم يُؤتَوا الكتاب، وإنما أُوتي البعضُ؛ ولكن الغلبة للذين أوتوا الكتاب، والمراد أخذُ ميثاقِ جميعِ الأنبياء، فمن لم يؤت الكتابَ، فهو في حكم من أُوتي الكتابَ؛ لأنه أوتي الحُكْمَ والنبوَّة. وأيضاً من لم يؤت الكتاب أُمر بأنْ يأخذَ بكتابِ مَنْ قبلَه، فدخل تحتَ صفةِ مَنْ أُوتي الكتاب[(٥)].

قوله تعالى: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ «أقررتم» من الإقرار، والإِصْر والأَصْر لغتان، وهو العهد. والإصْرُ في اللغة الثِّقْل؛ فَسُمِّي العهدُ إصراً؛ لأنه مَنْعٌ وتشديد[(٦)].

﴿قَالَ فَٱشْهَدُوا۟﴾، أي: اعلموا؛ عن ابن عباس[(٧)]. الزجّاج: بيِّنوا؛ لأنَّ الشاهدَ هو الذي يصحِّح دعوى المدَّعِي[(٨)].

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص٧٩، والكتاب ٢/ ٨٦.

(٢) الكشاف ١/ ٤٤١، وزاد المسير ١/ ٤١٥، ونسبها ابن جني في المحتسب ١/ ١٦٤ للأعرج. قال الزمخشري: ومعناها: لَمِنْ أجل ما آتيتكم لتؤمننَّ به، وهذا نحو من قراءة حمزة في المعنى.

(٣) الكشاف ١/ ٤٤١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٥.

(٤) السبعة ص٢١٤، والتيسير ص٨٩.

(٥) ينظر تفسير الرازي ٨/ ١٢٦.

(٦) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٣٢، وزاد المسير ١/ ٤١٦.

(٧) أورده البغوي ١/ ٣٢٢.

(٨) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٣٧، وفيه: تبينوا لأن...

وقيل: المعنى: اشهدوا أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم. ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ عليكم وعليهم. وقال سعيد بنُ المسيِّب: قال اللّه عزَّ وجلَّ للملائكة: فاشهدوا عليهم، فتكون كنايةً عن غير مذكور[١].

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٨٢﴾

«مَنْ» شرط، والمعنى[٢]: فمن تولَّى من أمم الأنبياءِ عن الإيمان بعدَ أخذِ الميثاق ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[٣] أي: الخارجون عن الإيمان. والفاسق: الخارج. وقد تقدم[٤].

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ۝٨٣ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝٨٤﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾ قال الكَلْبي: إنَّ كعب بنَ الأشرفِ وأصحابَه اختصموا مع النصارى إلى النبيِّ ﷺ، فقالوا: أيُّنا أحقُّ بِدين إبراهيم؟ فقال النبيُّ ﷺ: «كِلَا الفريقين بريءٌ من دِينه». فقالوا: ما نرضى بقضائك، ولا نأخذُ بِدينك، فنزل: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾ يعني يطلبون[٥]. ونصبت «غير» بـ«يبغون»، أي: يبغون غيرَ دينِ اللّه. وقرأ أبو عمرو وحده: «يبغون» بالياء على الخبر «وإليه تُرجعون» بالتاء على المخاطبة. قال: لأنَّ الأوَّلَ خاصٌّ، والثاني عامٌّ، ففرَّق بينهما لافتراقهما في المعنى. وقرأ حفص وغيره: «يبغون، ويُرجعون» بالياء فيهما[٦]؛

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٢٢.
(٢) لفظة: «والمعنى» من (خ) و(ظ).
(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٢.
(٤) ١/ ٣٦٨ - ٣٦٩.
(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٢٨١ - ٢٨٢، وانظرأسباب النزول للواحدي ص١٠٨.
(٦) هي رواية حفص عن عاصم فقط من السبعة، ووافقه من العشرة يعقوب، ولكن بفتح الياء في (يَرجعون). انظر النشر ٢/ ٢٤١، وانظر التعليق التالي.

لقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾. وقرأ الباقون بالتاء فيهما على الخطاب؛ لقوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ﴾. واللّه أعلم(١). قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ﴾ أي: استسلم وانقاد وخضع وذلَّ، وكلُّ مخلوقٍ فهو منقادٌ مستسلم؛ لأنه مجبولٌ على ما لا يقدر أنْ يخرجَ عنه.

قال قتادة(٢): أسلم المؤمن طوعاً، والكافر عند موته كَرهاً، ولا ينفعه ذلك؛ لقوله: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾ [غافر: ٨٥].

قال مجاهد: إسلامُ الكافرِ كَرهاً بِسجودِهِ لِغير اللّه، وسجودِ ظِلِّه للّه، ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾[النحل: ٤٨]، ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وقيل: المعنى أنَّ اللّه خلق الخلق على ما أراد منهم؛ فمنهم الحَسَنُ والقبيح، والطويلُ والقصيرُ، والصحيح والمريضُ، وكلُّهم منقادون اضطراراً، فالصحيح منقادٌ طائعٌ محبٌّ لذلك، والمريض منقادٌ خاضع وإن كان كارهاً(٣).

والطَّوْع: الانقياد، والاتباعُ بسهولة. والكَرْهُ: ما كان بمشقَّةٍ وإباءٍ من النَّفس. و﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ مصدران في موضع الحال، أي: طائعين ومُكرهين.

وروى أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه ﷺ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾، قال: «الملائكة أطاعوه في السماء، والأنصارُ وعبدُ القَيْس في الأرض»(٤).

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فإنَّ أصحابي أسلموا من خوف اللّهِ، وأسلم الناسُ من خوف السَّيف»(٥).

---

(١) السبعة ص٢١٤ ، والتيسير ص٨٩ ، والحجة ٣/ ٦٩ - ٧٠ ، والكشف ١/ ٣٥٣ .

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٥٦٦ - ٥٦٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٢ .

(٤) أخرجه الديلمي في مسنده (٧١٨١)، وأخرج نحوه الطبراني في الكبير (١١٤٧٣) . وفي إسناده محمد بن محصن العكاشي، وهو متروك كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٢٦ . وأخرجه الطبري ٦/ ٥٦٧ من قول مطر الورَّاق، وابنُ أبي حاتم ٢/ ٦٩٦ من قول الحسن.

(٥) لم نقف عليه بهذا اللفظ، غير أن قوله: «لا تسبُّوا أصحابي» أخرجه أحمد (١١٠٧٩)، والبخاري =

وقال عِكْرِمة: «طوعاً»: مَنْ أسلمَ من غير مُحاجَّة، «وكَرْهاً»: مَن اضطرته الحجةُ إلى التوحيد، يدلُّ عليه قولُهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

قال الحسن: هو عمومٌ معناه الخصوص. وعنه: ﴿أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وتمَّ الكلام، ثم قال: ﴿وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾. قال: والكارهُ: المنافقُ لا ينفعُه عملُه.

و«طوعاً وكرهاً» مصدران في موضع الحال[١].

عن مجاهد عن ابن عباس قال: إذا استصعبتْ دابّةُ أحدِكم، أو كانت شَمُوساً، فليقرأ في أذنها هذه الآية: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ إلى آخر الآية[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

«غير» مفعول بـ «يبتغ»، «ديناً» منصوبٌ على التفسير، ويجوز أنْ ينتصبَ «ديناً» بـ «يبتغ»، وينتصب «غير» على أنه حالٌ من الدِّين[٣].

قال مجاهد والسُّدِّيّ: نزلت هذه الآيةُ في الحارث بن سُويد أخو الجُلَاس بن سُويد، وكان من الأنصار، ارتدَّ عن الإسلام هو واثنا عشرَ معه، ولحقُوا بمكة كفاراً، فنزلت هذه الآية، ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة. ورُوِيَ ذلك عن ابن عباس وغيره.

= (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠) من حديث أبي سعيد ﷺ. وسيرد ص١٧١ من هذا الجزء.

(١) تكرر هذا الكلام قريباً.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٤) من حديث أنس ﷺ بنحوه، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٥: فيه محمد بن عبيد بن عمير، وهو متروك. وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٥١٠) من قول يونس بن عبيد.

(٣) مشكل إعراب القرآن ص١٦٨.

قال ابن عباس: وأسلم بعد نزولِ الآيات[١].

﴿وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ قال هشام: أي[٢]: وهو خاسرٌ في الآخرة من الخاسرين؛ ولولا هذا لفرقت بين الصلة والموصول. وقال المازني: الألف واللام مثلُها في الرجل.

وقد تقدَّم هذا في البقرة عند قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية: ١٣٠].

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

قال ابن عباس: إنَّ رجلاً من الأنصار أسلم، ثم ارتدَّ ولحقَ بالشرك، ثم ندم، فأرسل إلى قومه: سَلُوا لي رسولَ اللّه ﷺ: هل لي مِنْ توبة؟ فجاء قومُه إلى رسول اللّه ﷺ، فقالوا: هل له من توبة؟ فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فأرسل إليه، فأسلم. أخرجه النسائي[٣].

وفي رواية[٤]: أنَّ رجلاً من الأنصار ارتدَّ، فلَحِقَ بالمشركين، فأنزل اللّه: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾، فبعث بها قومُه إليه، فلما قرئت عليه قال: واللّه ما كَذَبَني قومي على رسول اللّه ﷺ، ولا كذَبَ[٥] رسولُ اللّه ﷺ على[٦] اللّه، واللّه عزَّ وجلَّ أصدقُ الثلاثة؛ فرجع تائباً، فقَبِلَ منه رسولُ اللّه ﷺ وتركَه.

وقال الحسن[٧]: نزلت في اليهود؛ لأنهم كانوا يبشِّرون بالنبيِّ ﷺ، ويَسْتَفْتِحون

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٥٧٢ - ٥٧٣ .

(٢) لفظة أي، من (م)، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٣ ، والكلام منه. وهشام المذكور: هو ابن معاوية النحوي.

(٣) في المجتبى ٧/ ١٠٧ .

(٤) عند البيهقي ٧/ ١٩٧ .

(٥) في (د) و (م): أكذبت، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٦) في (د) و (م): عن، والمثبت من (ظ).

(٧) أخرجه الطبري ٦/ ٥٧٥ ، وأورده النحاس في معاني القرآن ١/ ٤٣٤ .

على الذين كفروا، فلما بُعث، عانَدُوا وكفَروا، فأنزلَ اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾.

ثم قيل: «كيف» لفظة استفهام، ومعناه الجَحْد، أي: لا يهدي اللّه. ونظيرُه قولُه: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة:٧]، أي: لا يكون لهم عهد[١]، وقال الشاعر:

كيف نومي على الفِراش ولَمَّا يشملِ القومَ غارةٌ شَعْواءُ[٢]

أي: لا نومَ لي. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقال: ظاهرُ الآية أنَّ[٣] مَن كفر بعد إسلامه لا يهديه اللّه، ومن كان ظالماً لا يهديه اللّه، وقد رأينا كثيراً من المرتدِّين قد أسلموا وهداهم اللّه، وكثيراً من الظالمين تابوا عن الظلم.

قيل له: معناه: لا يهديهم اللّه ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمِهم، ولا يُقبِلون على الإسلام، فأما إذا أسلموا وتابوا، فقد وفَّقهم اللّه لذلك. واللّه تعالى أعلم[٤].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

أي: إنْ دامُوا على كفرهم. وقد تقدَّم معنى لعنةِ اللّه والناس في «البقرة»[٥] فلا معنى لإعادته.

﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يؤخَّرُون ولا يؤجَّلُون، ثم استثنى التائبين، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ هو الحارث بنُ سُوَيْد كما تقدَّم[٦]. ويدخلُ في الآية بالمعنى كلُّ من

---

(١) مجمع البيان ٣/ ١٣٥، والوسيط ١/ ٤٦٠، وزاد المسير ١/ ٤١٨.

(٢) قائله عُبيد الله بن قيس الرُّقَيَّات، وهو في ديوانه ص٩٥، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٦٣، وفيها: الشام، بدل: القوم.

(٣) لفظة أنَّ، من (م).

(٤) تفسير أبي الليث ١/ ٢٨٣.

(٥) ٢/ ٤٨٥ - ٤٨٦.

(٦) ص١٩٤ من هذا الجزء.

رجع إلى الإسلام[١] وأخلص.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۝٩٠﴾

قال قتادة وعطاء الخراسانيُّ والحسن: نزلت في اليهود؛ كفروا بعيسى والإنجيل، ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ والقرآن.

وقال أبو العالية: نزلت في اليهود والنصارى؛ كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بنعته وصفتِه، «ثم ازدادوا كفراً» بإقامتهم على كفرهم.

وقيل: «ازدادوا كفراً» بالذنوب التي اكتسبوها[٢]. وهذا اختيارُ الطبريِّ[٣]، وهي عندَه في اليهود.

﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ مشكلٌ لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

فقيل: المعنى لن تُقْبَلَ توبتُهم عند الموت. قال النحاس[٤]: وهذا قولٌ حسن، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء: ١١٨]. ورُوي عن الحسن وقتادةَ وعطاء[٥]. وقد قال ﷺ: «إنَّ الله يقبلُ توبةَ العبد ما لم يُغَرْغِرْ»[٦]. وسيأتي في «النساء» بيانُ هذا المعنى[٧].

وقيل: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ التي كانوا عليها قبل أنْ يكفُروا؛ لأنَّ الكفر قد

---

(١) في (خ) و (د) و (م): راجع الإسلام، والمثبت من (ظ).

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٥٦٤ - ٥٦٥، وتفسير البغوي ١/ ٣٢٤.

(٣) في تفسيره ٥/ ٥٦٥.

(٤) في إعراب القرآن ١/ ٣٩٤.

(٥) تفسير الطبري ٥/ ٥٦٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٧٠.

(٦) أخرجه أحمد (٦١٦٠)، والترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وفي الباب عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عند أحمد (٦٩٢٠).

(٧) عند تفسير الآية (١١٨) منها.

أحبطَها[١]. وقيل: «لن تقبل توبتُهم» إذا تابوا من كفرهم إلى كفر آخرَ؛ وإنما تقبلُ توبتُهم إذا تابوا إلى الإسلام[٢].

وقال قطرب: هذه الآيةُ نزلت في قومٍ من أهل مكةَ؛ قالوا: نتربَّصُ بمحمد ريبَ المَنون، فإنْ بدَا لنا الرَّجعةُ رجعنا إلى قومنا، فأنزل اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾، أي: لن تُقبلَ توبتُهم وهم مقيمون على الكفر، فسماها توبةً غيرَ مقبولة؛ لأنه لم يصحَّ من القوم عزمٌ، واللّه عزَّ وجلَّ يقبل التوبةَ كلَّها إذا صحَّ العزم[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

المِلْءُ، بالكسر: مقدارُ ما يملأ الشَّيء، والمَلْءُ، بالفتح: مصدر ملأتُ الشَّيءَ، ويقال: أعطني مِلْأَه ومِلْأَيْه وثلاثةَ أَمْلائِه[٤].

والواو في «ولَوِ افْتَدَى بِهِ» قيل: هي مقحمةٌ زائدة؛ المعنى: فلن يُقْبلَ من أحدهم مِلْءُ الأرضِ ذهباً لو افتدى به.

وقال أهل النظرِ من النحويين: لا يجوز أنْ تكونَ الواوُ مقحمةً؛ لأنها تدلُّ على معنى. ومعنى الآية: فلن يُقبلَ من أحدهم مِلْءُ الأرضِ ذهباً تبرُّعاً ولو افتدى به[٥].

و«ذهباً» نصبٌ على التفسيرِ في قول الفرَّاء[٦]. قال المفضّل: شرطُ التفسير أنْ يكونَ الكلامُ تامّاً وهو مُبْهَمٌ؛ كقولك: عندي عشرون، فالعدد معلومٌ، والمعدودُ مبهم؛ فإذا قلت: درهماً، فَسَّرْتَ. وإنما نُصِبَ التمييزُ؛ لأنه ليس له ما يخفضُه ولا ما

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٤ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٣٦ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٤ ، وانظر تفسير البغوي ١/ ٣٢٤ .

(٤) الصحاح (ملأ) .

(٥) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٣٧ ، وانظر معاني الزجاج ١/ ٤٤١ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٢٥ .

(٦) في معاني القرآن له ١/ ٢٢٥ .

يرفعُه، وكان النصب أخفَّ الحركات، فجُعِلَ لكلِّ ما لا عاملَ فيه[١].

وقال الكسائيّ[٢]: نُصب على إضمار مِنْ، أي: من ذهب؛ كقوله: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]، أي: من صيام. وفي البخاريّ ومسلم عن قتادةَ، عن أنس بن مالك أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يُجاء بالكافر يومَ القيامة، فيقال له: أرأيت لو كان لك ملءُ الأرضِ ذهباً، أكنت تَفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد كنتَ سُئلتَ ما هو أيسرُ من ذلك». لفظ البخاري. وقال مسلم بدل «قد كنت»: «كذبتَ، قد سُئلتَ»[٣].

قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: رَوى الأئمةُ ـ واللفظُ للنسائي ـ عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: إنَّ ربَّنا لَيسألُنا من أموالنا، فأُشهِدُك يا رسولَ اللّه أنِّي جعلتُ أرضي للّه. فقال رسول اللّه ﷺ: «اجعلْها في قَرابتك، في حسان بن ثابت وأُبيِّ بن كعب»[٤].

وفي الموطأ[٥]: وكانت أحبَّ أمواله إليه بَيْرَحاء[٦]، وكانت مستقبلةَ المسجد،

---

(١) تفسير الرازي ٨/ ١٤٠ .

(٢) لم نقف على قوله، وأورده السمين في الدر المصون ٣/ ٣٠٦ .

(٣) صحيح البخاري (٦٥٣٨)، وصحيح مسلم (٢٨٠٥) (٥٣) ، وهو عند أحمد (١٢٣١٢).

(٤) أخرجه أحمد (١٤٠٣٦)، والبخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨)، وأبو داود (١٦٨٩)، والترمذي (٢٩٩٧)، والنسائي في المجتبى ٦/ ٢٣١ - ٢٣٢ واللفظ له، وفي الكبرى (١١٠٠١)، وفيه: فجعلها في حسان. . . ، وهو الموافق لروايات الحديث الأخرى.

(٥) ٢/ ٩٩٥ - ٩٩٦ .

(٦) في بعض النسخ: بئرحاء، بإضافة البئر إلى الحاء، قال الفيروز أبادي في القاموس (برح): بَيْرَحَى، كفَيْعَلَى: أرض بالمدينة، ويصحِّفها المحدِّثون: بئرحاء، وقال في (الحا): اسم رجل ينسب إليه بئرحاء بالمدينة، وقد يقصر. وقال ابن الأثير في النهاية (برح): هذه اللفظة كثيراً ما تختلف ألفاظ المحدثين فيها، فيقولون: بيرحاء، بفتح الباء وكسرها، وبفتح الراء وضمها، والمد فيهما، وبفتحهما والقصر، وهي اسم مال وموضع بالمدينة، وقال الزمخشري في الفائق: إنها فَيْعَلَى من البَراح، وهي الأرض الظاهرة.

وكان رسولُ اللّه ﷺ يدخلُها ويشرَبُ من ماء فيها طيِّبٍ. وذكر الحديث.

ففي هذه الآية دليلٌ على استعمال ظاهرِ الخطاب وعمومه، فإنَّ الصحابةَ رضوانُ اللّه عليهم أجمعين لم يفهموا من فحوى الخطابِ حين نزلت الآيةُ غيرَ ذلك. ألا ترى أبا طلحةَ حين سمع ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟﴾ الآية، لم يحتجْ أنْ يقفَ حتى يردَ البيانُ الذي يريدُ اللّهُ أنْ ينفقَ منه عبادُه بآيةٍ أخرى، أو سُنةٍ مبيِّنةٍ لذلك، فإنهم يحبُّون أشياءَ كثيرة.

وكذلك فعل زيدُ بنُ حارثة؛ عَمِدَ مما يحبُّ إلى فرس يقال له: سَبَل، وقال: اللّهمَّ إنك تعلمُ أنه ليس لي مالٌ أحبَّ إليَّ من فرسي هذه. فجاء بها إلى النبيِّ ﷺ، فقال: هذا في سبيل اللّه، فقال لأسامةَ بن زيد: «اِقْبِضْه». فكأنَّ زيداً وجدَ من ذلك في نفسه، فقال رسول اللّه ﷺ: «إنَّ اللّهَ قد قَبِلَها منك». ذكره أسد بنُ موسى[(١)].

وأعتق ابنُ عمر نافعاً مولاه، وكان أعطاه فيه عبد اللّه بنُ جعفر ألفَ دينار. قالت صفية بنتُ أبي عبيد: أظنه تأوَّل قولَ اللّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

ورَوى شِبلٌ عن ابن أبي نَجِيح[(٢)]، عن مجاهد قال: كتب عمر بنُ الخطاب إلى أبي موسى الأشعريِّ أنْ يبتاعَ له جاريةً من سَبْي جَلُولاء يومَ فتحِ مدائنِ كسْرَى، فقال سعد بنُ أبي وقاص: فدعا بها عمرُ، فأعجبته، فقال: إنَّ اللّه عزَّ وجلَّ يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، فأعتقَها عمرُ ﷺ[(٣)].

ورُوِيَ عن الثوريِّ أنه بلغَه أنَّ أمَّ ولدِ الرَّبيع بن خُثيم قالت: كان إذا جاءه السَّائل

---

(١) وأخرجه مرسلاً عبد الرزاق ١/ ١٢٦ (تفسير)، والطبري ٥/ ٥٧٧ عن أيوب السختياني، و٥/ ٥٧٦ عن عمرو بن دينار، وسعيد بن منصور في التفسير (٥٠٧) عن محمد بن المنكدر.

(٢) في (د) و (م): عن أبي نجيح، وهو خطأ، والمثبت من (خ).

(٣) تفسير مجاهد ١٣١، وأخرجه الواحدي في الوسيط ١/ ٤٦٣ - ٤٦٤ من طريق شِبْل به. وأخرجه الطبري ٥/ ٥٧٤ من طريق عيسى عن ابن أبي نجيح به. وأورده النحاس في معاني القرآن ١/ ٤٣٩، والبغوي ١/ ٣٢٦، وقوله: جلولاء: ناحية من نواحي السَّواد في طريق خُراسان؛ بها الوقعة المشهورة على الفرس للمسلمين سنة (١٦ هـ)، فاستباحهم المسلمون، فسميَّت جلولاء الوقيعة. انظر معجم البلدان ٢/ ١٥٦.

يقولُ لي: يا فلانةُ، أعطي السَّائلَ سُكَّراً، فإنَّ الربيع يحبُّ السُّكَّر؛ قال سفيان: يتأوَّل قولَه جلَّ وعزَّ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾[١].

ورُوِيَ عن عمر بنِ عبد العزيزِ أنه كان يشتري أعدالاً من سُكَّر ويتصدَّقُ بها. فقيل له: هلَّا تصدَّقتَ بقيمتها؟ فقال: لأنَّ السكرَ أحبُّ إليَّ، فأردتُ أنْ أنفقَ مما أحبُّ[٢].

وقال الحسن: إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تُدركون[٣] ما تأمُلُون إلا بالصَّبر على ما تكرهون[٤].

الثانية: واختلفوا في تأويل «البِرّ» فقيل: الجنة؛ عن ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد وعمرو بن ميمون والسُّدِّيّ. والتقدير: لن تنالوا ثوابَ البِرِّ حتى تنفقوا مما تحبون[٥]. والنَّوال: العطاءُ، من قولك: نوَّلتُه تنويلاً: أعطيتُه[٦]. ونالني من فلان معروفٌ ينالُني، أي: وصل إليَّ. فالمعنى: لن تصلوا إلى الجنة وتُعْطَوْها حتى تنفقوا مما تُحبُّون.

وقيل: البِرُّ: العملُ الصالح[٧]. وفي الحديث الصحيح: «عليكم بالصدق، فإنه يهدي[٨] إلى البِرّ، وإنَّ البِرَّ يهدي إلى الجنة». وقد مضى في البقرة[٩].

قال عطية العوفي: يعني الطاعة. عطاء: لن تنالوا شرفَ الدِّين والتقوى حتى تتصدَّقوا وأنتم أصحَّاءُ أشحَّاءُ؛ تأملُون العيشَ، وتخشَوْن الفقر.

وعن الحسن: «حتى تُنفِقوا»: هي الزكاةُ المفروضة. مجاهد والكلبيّ: هي

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٠٤.

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٢٨٤.

(٣) في (خ) و (م): تدركوا.

(٤) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٠٥.

(٥) تفسير الطبري ٥/ ٥٧٣، وتفسير البغوي ١/ ٣٢٥.

(٦) مجمل اللغة ٣/ ٨٤٨.

(٧) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٤٨.

(٨) في النسخ: يدعو (في الموضعين)، والمثبت من (م)، ومصادر الحديث.

(٩) قطعة من حديث ابن مسعود ﷺ أخرجه أحمد (٣٦٣٨)، والبخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧). وقد سلف ٣/ ٦٣.

منسوخةٌ، نسخَتْها آيةُ الزَّكاة[١].

وقيل: المعنى حتى تنفقوا مما تحبون في سبيل الخيرِ من صدقةٍ أو غيرِها من الطاعات، وهذا جامع.

وروى النسائيُّ عن صعصعةَ بنِ معاويةَ قال: لَقِيتُ أبا ذرٍّ قال: قلت: حدِّثْني، قال: نعم، قال رسول اللّه ﷺ: «ما من عبدٍ مسلمٍ يُنفقُ من كلِّ ماله زوجين في سبيل اللّه، إلا استقبلته حَجَبَةُ الجنة، كلُّهم يَدعوه إلى ما عندَه». قلت: وكيف ذلك؟ قال: إنْ كانت إبلاً فبعيرين، وإن كانت بقراً فبقرتين[٢].

وقال أبو بكر الورَّاق: دلَّهم بهذه الآيةِ على الفُتُوَّة[٣]، أي: لن تنالوا بِرِّي بكم إلا بِبِرِّكم بإخوانكم، والإنفاقِ عليهم من أموالكم وجاهِكم، فإذا فعلتُم ذلك نالكم بِرِّي وعطفي[٤].

قال مجاهد: وهو مثلُ قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا﴾ [الإنسان:٨]. ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾، أي: وإذا علِم جازَى عليه[٥].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿حِلًّا﴾، أي: حَلالاً، ثم استثنى، فقال: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ وهو يعقوبُ عليه السلام[٦].

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٢٥ ، وزاد المسير ١/ ٤٢١ .

(٢) سنن النسائي ٦/ ٤٨ - ٤٩ ، وهو عند أحمد (٢١٣٤١)، وله شاهد من حديث أبي هريرة؛ أخرجه أحمد (٧٦٣٣).

(٣) قوله: الفتوّة، أي: الكرم. القاموس (فتى).

(٤) مجمع البيان ٤/ ١٤١ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٣٩ - ٤٤٠ . وقول مجاهد في تفسيره ص١١٣ .

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٧٢ .

في الترمذيِّ عن ابن عباس أنَّ اليهودَ قالوا للنبيِّ ﷺ: أخبرنا ما حرَّم إسرائيلُ على نفسه؟ قال: «كان يسكُن البَدْوَ، فاشتكى عِرْقَ النَّسا، فلم يجد شيئاً يُلائمه إلا لحومَ الإبلِ وألبانَها، فلذلك حرَّمها». قالوا: صدقت[1]. وذكر الحديث.

ويقال: إنه نَذَرَ إنْ برأ منه ليتركنَّ أحبَّ الطعامِ والشَّرابِ إليه، وكان أحبَّ الطعامِ والشَّرابِ إليه لحومُ الإبلِ وألبانُها[2].

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادةُ والسُّدّيُّ: أقبلَ يعقوبُ عليه السلام من حرَّان يريد بيتَ المقدسِ حين هَرَبَ من أخيه عِيصو، وكان رجلاً بطشاً قوياً، فلقِيَه ملَكٌ، فظنّ يعقوبُ أنه لصٌّ، فعالجه أنْ يصرعَه، فغمز المَلَكُ فخِذَ يعقوبَ عليه السلام، ثم صَعِدَ الملَكُ إلى السماء ويعقوبُ ينظر إليه، فهاج به[3] عِرْقُ النَّسا، ولقِيَ من ذلك بلاءً شديداً، فكان لا ينامُ الليلَ من الوَجَع، ويبيتُ وله زُقاء، أي: صياح، فحلفَ يعقوب عليه السلام إنْ شفاه اللّه جلَّ وعزَّ ألَّا يأكلَ عِرْقاً، ولا يأكلَ طعاماً فيه عِرْقٌ، فحرَّمَها على نفسه، فجعلَ بنوه يتبعون بعد ذلك العروقَ، فيخرجونها من اللحم[4]. وكان سببُ غمزِ المَلَك ليعقوب أنه كان نذرَ إنْ وهبَ اللّه له اثني عشر ولداً وأتى بيت المقدسِ صحيحاً أنْ يذبح آخرَهم، فكان ذلك للمخرج من نذره؛ عن الضحاك[5].

الثانية: واختُلف: هل كان التحريمُ من يعقوبَ باجتهادٍ منه، أو بإذنٍ من اللّه تعالى؟ والصحيحُ الأوّل؛ لأنَّ اللّه تعالى أضافَ التحريمَ إليه بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ﴾، وأنَّ النبيَّ إذا أدَّاه اجتهادُه إلى شيءٍ كان دِيناً يلزمنا اتباعُه؛ لتقرير اللّه سبحانه إياه على ذلك. وكما يُوحَى إليه ويلزمُ اتّباعُه، كذلك يؤذَنُ له ويجتهد، ويتعيَّن موجبُ اجتهاده إذا قدر عليه، ولولا تقدُّمُ الإذنِ له في تحريم ذلك ما تسوَّر[6] على التحليل

(١) سنن الترمذي (٣١١٧) دون قوله: كان يسكن البدو، فهو عند النسائي في الكبرى (٩٠٢٤) وعند أحمد (٢٤٨٣) ضمن حديث مطول، وسلفت قطعة أخرى منه ٢/ ٢٦١ . وقوله: النَّسا: عِرْق يخرج من الورك، فيستبطن الفخذ، والأفصحُ أن يقال له: النَّسا، لا عِرق النَّسا. النهاية (نسا).

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٥٧٨ ، والوسيط ١/ ٤٦٤ .

(٣) في (د) و (م): عليه، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق لتفسير البغوي ١/ ٣٢٧ .

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٢٧ ، وانظر تفسير أبي الليث ١/ ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٥) أورده البغوي ١/ ٣٢٦ ، والخبر من رواية جويبر عن الضحاك، وجويبر ضعيف جداً.

(٦) قوله: تسوَّر: هجمَ. اللسان (سور).

والتحريم. وقد حرَّم نبيُّنا ﷺ العسلَ على الرواية الصَّحيحة[(١)]، أو خادمَه ماريةَ[(٢)]، فلم يقرَّ اللّه تحريمَه، ونزل: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾[(٣)] على ما يأتي بيانه في «التحريم».

قال الكيا الطبري[(٤)]: فيمكن أنْ يقال: مطلقُ قولِه تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾ يقتضي ألَّا يختَصَّ بمارية، وقد رأى الشافعيُّ أنَّ وجوبَ الكفارةِ في ذلك غيرُ معقولِ المعنى، فجعلها مخصوصاً بموضع النص، وأبو حنيفة رأى ذلك أصلاً في تحريم كلِّ مباح، وأجراه مُجرى اليمين.

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

قال ابن عباس: لما أصاب يعقوبَ عليه السلام عِرْقُ النَّسا، وصفَ الأطباءُ له أنْ يجتنبَ لحومَ الإبلِ، فحرَّمها على نفسه، فقالت اليهود: إنما حرَّمنا[(٥)] على أنفسنا لحومَ الإبلِ؛ لأنَّ يعقوبَ حرَّمها، وأنزل اللّه تحريمَها في التوراة، فأنزلَ اللّه هذه الآية. قال الضَّحَّاك: فكذَّبهم اللّه، وردَّ عليهم فقال: يا محمد ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، فلم يأتوا، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[(٦)].

قال الزجَّاج[(٧)]: في هذه الآية أعظمُ دلالةٍ لنبوّة محمدٍ نبيِّنا ﷺ، أخبرَهم أنه ليس

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٨٥٢)، والبخاري (٥٢٦٧)، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أبو داود في المراسيل (٢٣٩) عن الحسن، وأخرجه النسائي ٧/ ٧١ من حديث أنس ﷺ، ولم يذكر أنها مارية.
وأخرجه الشاشي في مسنده ـ كما ذكر ابن كثير، وصحح إسناده ـ ومن طريقه الضياء في المختارة (١٨٩)، عند تفسير الآية (١) من سورة التحريم.
وأخرجه البزار (كشف الأستار (٢٢٧٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٢٦: رجال البزار رجالُ الصحيح غير بِشر بن آدم، وهو ثقة.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٨٢ .

(٤) في أحكام القرآن له ٢/ ٢٩٠ .

(٥) في (د) و (م): نحرم، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٦) تفسير أبي الليث ١/ ٢٨٥ ، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٤٤١ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٢٧ .

(٧) في معاني القرآن له ١/ ٤٤٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي الليث ١/ ٢٨٥ .

في كتابهم، وأمرَهم أنْ يأتوا بالتوراة، فأبَوا؛ يعني عرفوا أنه قال ذلك بالوحي.

وقال عطيةُ العوفيّ: إنما كان ذلك حراماً عليهم بتحريم يعقوبَ ذلك عليهم. وذلك أنَّ إسرائيلَ قال حين أصابَه عِرقُ النَّسا: واللّه لئن عافاني اللّه منه لا يأكلُه لي ولدٌ، ولم يكن ذلك محرَّماً عليهم في التوراة[١].

وقال الكلبيُّ: لم يُحرِّمْه اللّه عزَّ وجلَّ في التوراة عليهم، وإنما حرَّمه عليهم[٢] بعد التوراة بظلمهم وكفرِهم، وكانت بنو إسرائيل إذا أصابوا ذنباً عظيماً حرَّم اللّه تعالى عليهم طعاماً طيِّباً، أو صبَّ عليهم رِجْزاً، وهو الموت، فذلك قولُه تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ الآية [النساء: ١٦٠]، وقولُه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ الآية. إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[٣] [الأنعام: ١٤٦].

الرابعة: ترجم ابن ماجه في سننه: «دواء عِرْق النَّسا»: حدثنا هشام بنُ عمَّار وراشدُ بن سعيد الرملي قالا[٤]: حدَّثنا الوليد بنُ مسلم، حدَّثنا هشام بنُ حسَّان، حدَّثنا أنس بنُ سيرين أنه سمع أنس بنَ مالك يقول: سمعتُ رسولَ اللّه ﷺ يقول: «شفاءُ عِرْقِ النَّسا أليةُ شاةٍ أعرابيةٍ تُذابُ، ثم تُجزَّأ ثلاثةَ أجزاء، ثم يُشربُ على الرِّيق في كلِّ يوم جزءٌ»[٥].

وأخرجه الثعلبيُّ في تفسيره أيضاً من حديث أنس بنِ مالك قال: قال رسول اللّه ﷺ في عِرق النسا: «تؤخذ أليةُ كبشٍ عربيٍّ، لا صغير ولا كبيرٍ، فتقطع صغاراً، فتخرج إهالتُه، فتقسم ثلاثةَ أقسام، في كل يوم على ريقِ النفس ثلثاً». قال أنس: فوصفتُه لأكثرَ

---

(١) قوله: في التوراة، من (خ) و (ظ).

(٢) قوله: عليهم من (خ) و (ظ).

(٣) أورد القولين البغويُّ في تفسيره ١/ ٣٢٧.

(٤) في النسخ: قال، والمثبت من (م)، وسنن ابن ماجه.

(٥) سنن ابن ماجه (٣٤٦٣)، وهو عند أحمد (١٣٢٩٥) بنحوه.

من مئة، فبرأ بإذن اللهِ تعالى[١].

شعبة: حدّثني شيخٌ في زمن الحجّاج بنِ يوسفَ في عِرْقِ النَّسا: أُقسم لك باللّه الأعلى، لئن لم تنته لأكوينَّك بنارٍ، أو لأحلقنَّك بموسى. قال شعبة: قد جرَّبتُه، تقولُه، وتمسحُ[٢] على ذلك الموضع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾

أي: قل يا محمد: صدق اللّه، إنَّ ذلك لم يكن[٣] في التوراة محرَّماً. ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أمرٌ باتّباع دينه. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ردٌّ عليهم في دعواهم الباطل كما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذرّ قال: سألتُ رسولَ اللّه ﷺ عن أوّلِ مسجدٍ وُضع في الأرض، قال: «المسجدُ الحرام». قلتُ: ثم أيّ؟ قال: «المسجد الأقصى». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعونَ عاماً، ثم الأرضُ لك مسجدٌ، فحيثما أدركَتْكَ الصلاةُ فصَلِّ»[٤].

قال مجاهد وقتادة: لم يوضع قبلَه بيت.

قال عليٌّ ﷺ: كان قبلَ البيت بيوتٌ كثيرة، والمعنى أنه أوَّلُ بيتٍ وضع للعبادة.

---

(١) وأخرجه أيضاً الحاكم ٢/ ٢٩٢، وصححه، ووافقه الذهبي، وقوله: قال أنس هو ابن سيرين راوي الحديث عن أنس بن مالك كما هو مبيَّن في رواية الحاكم، وقوله: إهالته، أي: شحمُه أو ما أذيب منه. انظر القاموس (أهل).

(٢) في (د): بقوله ويمسح.

(٣) في (د) و (م): إنه لم يكن ذلك، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٤) صحيح مسلم (٥٢٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢١٣٣٣)، والبخاري (٣٣٦٦).

وعن مجاهد قال: تفاخر المسلمون واليهودُ، فقالت اليهود: بيتُ المقدِسِ أفضلُ وأعظمُ من الكعبة؛ لأنه مهاجَرُ الأنبياء، وفي الأرض المقدسة. وقال المسلمون: بل الكعبةُ أفضل، فأنزل الله هذه الآية. وقد مضى في البقرة بنيانُ البيتِ وأوّلُ مَنْ بناه[١].

قال مجاهد: خلق الله موضعَ هذا البيتِ قبلَ أن يَخلقَ شيئاً من الأرض بألفي سنة، وإنَّ قواعدَه لفي الأرض السابعةِ السُّفلى[٢].

وأما المسجدُ الأقصى، فبناه سليمانُ عليه السلام، كما خرَّجه النسائي بإسناد صحيحٍ من حديث عبد الله بنِ عمرو، عن النبيِّ ﷺ: «أنَّ سليمان بنَ داود عليه السلام لما بنى بيتَ المقدسِ سأل اللّهَ خِلالاً ثلاثةً: [سأل اللّهَ عزَّ وجلَّ] حُكْماً يصادفُ حُكمَه، فأُوتِيَه، وسأل اللّهَ عزَّ وجلَّ مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأوتِيَه، وسأل اللّهَ عزَّ وجلَّ حين فرغَ من بناء المسجدِ ألَّا يأتيَه أحدٌ لا يَنْهزُه إلا الصلاةُ فيه أنْ يُخرجَه من خطيئته كيومَ ولدته أمُّه، فأوتِيَه»[٣].

فجاء إشكالٌ بين الحديثين[٤]؛ لأنَّ بين إبراهيمَ وسليمانَ آماداً طويلة؛ قال أهلُ التواريخ: أكثرُ من ألف سنة. فقيل: إنَّ إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنَّما جدَّدا ما كان أسَّسَه غيرُهما. وقد رُوِيَ أنَّ أوَّلَ مَنْ بنى البيتَ آدمُ عليه السلام كما تقدَّم[٥]. فيجوزُ أنْ يكونَ غيرُه من ولده وضعَ بيتَ المقدِس بعدَه[٦] بأربعين عاماً، ويجوزُ أنْ تكون الملائكةُ أيضاً بنته بعد بنائها البيتَ بإذن الله، وكلٌّ محتمل. والله أعلم.

وقال علي بن أبي طالب ﷺ: أمر الله تعالى الملائكةَ ببناء بيتٍ في الأرض، وأنْ

---

(١) ٢/ ٣٨٦ - ٣٨٩ .

(٢) وردت الأقوال السالفة في تفسير الطبري ٥/ ٥٩٠ - ٥٩١ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٢٨ ، والنكت والعيون ١/ ٤١٠ ، والوسيط ١/ ٤٦٦، وأسباب النزول للواحدي ص٨٤ ، وزاد المسير ١/ ٤٢٤ .

(٣) سنن النسائي ٢/ ٣٤ ، وما بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (٦٦٤٤) مطول، قوله: لا ينهزه، أي: لا يدفعه. النهاية (نهز)، وقوله: حكماً يصادف حكمه؛ قال السندي في حاشيته على النسائي: أي: يوافق حكم الله تعالى، والمراد التوفيق للصواب في الاجتهاد، وفصل الخصومات بين الناس.

(٤) يعني حديث أبي ذر وحديث عبدالله بن عمرو السَّالفين.

(٥) ٢/ ٣٨٧ .

(٦) في (م): من بعده.

يطوفوا به، وكان هذا قبلَ خلقِ آدم، ثم إنَّ آدم بَنى منه ما بَنى، وطاف به، ثم الأنبياءُ بعدَه، ثم استتمَّ بناءَه إبراهيمُ عليه السَّلام.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ خبر «إنَّ»، واللام توكيد. و«بكة» موضعُ البيت، ومكةُ سائرُ البلد، عن مالك بنِ أنس[١].

وقال محمد[٢] بن شهاب: بَكَّةُ المسجد، ومكة الحرم كلُّه، تدخلُ فيه البيوت.

قال مجاهد: بكة هي مكة. فالميم على هذا مُبْدَلَةٌ من الباء؛ كما قالوا: طينٌ لازِبٌ ولازم. وقاله الضحاك والمؤرّج[٣].

ثم قيل: بكة مشتقةٌ من البَكِّ، وهو الازدحام، تَباكَّ القوم: ازدحموا. وسُمِّيت بَكَّةَ لازدحام الناسِ في موضع طوافِهم. والبَكُّ: دَقُّ العُنق.

وقيل: سُمِّيت بذلك؛ لأنها كانت تَدُقُّ رقابَ الجبابرةِ إذا ألْحَدُوا فيها بظلم[٤]. قال عبد الله بنُ الزبير: لم يَقْصِدْها جبارٌ قَطُّ بسوء إلا وَقَصَه[٥] الله عزَّ وجلَّ.

وأما مكةُ؛ فقيل: إنها سُمِّيت بذلك لقلة مائها، وقيل: سُمِّيت بذلك؛ لأنها تَمُكُّ المخَّ من العظم مما ينالُ قاصدَها من المشقة؛ من قولهم: مَكَكْتُ العظم: إذا أخرجتَ ما فيه. ومَكَّ الفَصِيلُ ضَرْعَ أمِّه، وامْتَكَّه: إذا امْتَصَّ كلَّ ما فيه من اللبن وشَرِبَه[٦]، قال الشاعر:

مَكَّتْ فلم تُبْقِ في أجْوافها دِرَرا[٧]

---

(١) النوادر والزيادات ٢/ ٥٠٠، والبيان والتحصيل ٣/ ٤٦٣.

(٢) لفظة: محمد، من (م).

(٣) تفسير الطبري ٥/ ٥٩٧، وتفسير البغوي ١/ ٣٢٨، والوسيط ١/ ٤٦٦، وزاد المسير ١/ ٤٢٥.

(٤) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٤٥، وتفسير أبي الليث ١/ ٢٦٨، والنكت والعيون ١/ ٢١٠، وتهذيب اللغة ٩/ ٣٦٣.

(٥) في (د): أوقصه، وفي (ظ): وقصمه.

(٦) تفسير البغوي ١/ ٣٢٨.

(٧) لم نقف عليه.

وقِيل: سُمِّيت بذلك؛ لأنها تَمُكُّ مَنْ ظَلَمَ فيها(١)، أي: تُهلكه وتنقصه(٢).

وقيل: سُمِّيت بذلك لأنَّ الناس كانوا يَمُكُّون ويضحكون فيها، من قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال:٣٥] أي: تَصْفِيقاً وتَصْفِيراً. وهذا لا يوجبه التَّصريف؛ لأنَّ «مكة» ثنائيٌّ مضاعف، و«مُكَاءٌ» ثلاثيٌّ معتلّ.

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿مُبَارَكًا﴾ جعلَه مباركاً لتضاعف العملِ فيه، فالبركة كثرةُ الخير، ونُصب على الحال من المضمر في «وُضِعَ»، أو بالظرف من «بَكَّةَ»، المعنى: الذي استقرَّ «ببَكّة مُبَارَكاً»، ويجوزُ في غير القرآنِ: «مبارك»، على أنْ يكونَ خبراً ثانياً، أو على البدل من «الذي»، أو على إضمار مبتدأ.

﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ عطفٌ عليه، ويكون بمعنى: وهو هدًى للعالَمين. ويجوزُ في غير القرآن: «مباركٍ»، بالخفض، يكون نعتاً للبيت(٣).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ رفعٌ بالابتداء أو بالصفة.

وقرأ أهل مكةَ وابنُ عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: «آيةٌ بينة»، على التوحيد(٤)، يعني مقامَ إبراهيم وحدَه؛ قالوا: أثرُ قدميه في المقام آيةٌ بيِّنة. وفسَّر مجاهد مقامَ إبراهيمَ بالحرم كلِّه(٥)؛ فذهبَ إلى أنَّ من آياته الصفا والمروةَ والركنَ والمقام. والباقون بالجمع؛ أرادوا مقامَ إبراهيم، والحجرَ الأسود، والحطيم، وزمزمَ، والمشاعرَ كلَّها.

قال أبو جعفر النحاس(٦): من قرأ: «آياتٍ بيِّنات» فقراءتُه أبين؛ لأنَّ الصفا والمروةَ من الآيات، ومنها أنَّ الطائر لا يعلو البيتَ صحيحاً، ومنها أنَّ الجارح يطلب الصيدَ، فإذا دخل الحرمَ تركَه، ومنها أنَّ الغيثَ إذا كان ناحيةَ الركنِ اليمانيِّ كان

---

(١) انظر الزاهر لابن الأنباري ٢/ ١٠٦ .

(٢) في (د): وتنفضه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٥ .

(٤) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٢ لمجاهد وأُبيّ، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٧٥ لأبيّ بن كعب وعمر وابن عباس. وقراءة الجمهور بالجمع.

(٥) أخرجه الطبري ٢/ ٥٢٦ .

(٦) في معاني القرآن ١/ ٤٤٤ - ٤٤٥ ، وما قبله منه، وانظر تفسير الطبري ٢/ ٥٢٧ .

الخِصْبُ باليمن، وإذا كان بناحية الشامي كان الخِصبُ بالشَّام، وإذا [١] عمَّ البيتَ كان الخِصبُ في جميع البلدان، ومنها أنَّ الجِمار على ما يُزادُ عليها تُرى على قدر واحد.

والمَقام من قولهم: قمت مَقاماً، وهو الموضعُ الذي يُقام فيه، والمُقام من قولك: أقمت مُقاماً. وقد مضى هذا في البقرة، ومضى الخلاف أيضاً في المقام والصحيح منه[٢].

وارتفع المقام على الابتداء، والخبرُ محذوف، والتقدير: منها مقامُ إبراهيم، قاله الأخفش[٣].

وحُكي عن محمد بنِ يزيدَ أنه قال: «مقام» بدلٌ من: «آيات». وفيه قولٌ ثالث بمعنى: هي مقامُ إبراهيم. وقولُ الأخفش معروفٌ في كلام العرب. كما قال زهير:

لـهـا مـتـاعٌ وأعـوانٌ غَـدَوْنَ بـه ... قِتْبٌ وغَرْبٌ إذا ما أُفْرِغَ انْسَحَقَا[٤]

أي: مضى وبَعُدَ سيلانه.

وقولُ أبي العباس: إنَّ مقاماً بمعنى مقامات؛ لأنه مصدر، قال الله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة:٧]. وقال الشاعر:

إنَّ العُيونَ التي في طَرْفِها مَرَضٌ[٥]

أي: في أطرافها. ويقوِّي هذا الحديثُ المرويّ: الحج كلُّه مقامُ إبراهيم[٦].

---

(١) في (م): وإذْ.

(٢) ٢/ ٣٧٤ - ٣٧٦.

(٣) في معاني القرآن ١/ ٤١٥، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٥.

(٤) ديوان زهير ص٦٧، برواية الشنتمري، ورواية ثعلب ص٣٩: لها أداة وأعوانٌ غدون لها. وقال الشنتمري في شرحه: قوله: لها متاع، أي: لهذه الناقة التي يُستقى عليها، وقوله: قِتْب وغَرْبٌ تبيين للمتاع، والقِتْب أداة السَّانية، والغَرْب: الدلو العظيمة، وقوله: غَدَوْن به، أراد جماعات الأعوان.

(٥) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ١٦٣، وتمامه: قَتَلْننا ثم لم يحيين قتلانا، وذكر محققه أن ثمة رواية: في طرفها حَوَر.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٥ - ٣٩٦، والخبر أخرجه ابن أبي حاتم ٣/ ٧١١ عن ابن عباس قال: مقامُ إبراهيم الحَرَمُ كلُّه. وذكره ابن كثير عند الآية (٩٧) من آل عمران بلفظ: الحِجْر، بدل: الحجّ. =

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ قال قتادة: ذلك أيضاً من آيات الحرم.

قال النحاس[١]: وهو قولٌ حسن؛ لأن الناسَ كانوا يُتَخَطَّفُون من حواليه، ولا يصل إليه جبَّار، وقد وُصِل إلى بيت المقدسِ وخُرِّب، ولم يوصَلْ إلى الحرم. قال اللّه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١].

وقال بعضُ أهلِ المعاني: صورةُ الآية خبرٌ، ومعناها أمر، تقديرها: ومن دخله فأمِّنُوه، كقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٩٧]، أي: لا ترفثوا ولا تفسُقوا ولا تجادلوا[٢]. ولهذا المعنى قال الإمام السَّابق النعمانُ بن ثابت: من اقترف ذنباً واستوجبَ به حدّاً، ثم لجأ إلى الحرم، عَصَمَه؛ لقوله تعالى[٣]: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾، فأوجب اللّه سبحانه الأمْنَ لمن دخلَه. ورُوِيَ ذلك عن جماعة من السَّلَف، منهم ابنُ عباس[٤] وغيرُه من الناس.

قال ابن العربيّ[٥]: وكلُّ من قال هذا فقد وهم من جهتين: إحداهما أنه لم يفهمْ من الآية أنها خبرٌ عما مضى، ولم يُقْصَدْ بها إثباتُ حكمٍ مستقبل. الثاني: أنه لم يعلمْ أنَّ ذلك الأمنَ قد ذهب، وأنَّ القتلَ والقتالَ قد وقع بعد ذلك فيها، وخبرُ اللّه لا يقع بخلاف مخبره، فدلَّ ذلك على أنه كان في الماضي هذا. وقد ناقضَ أبو حنيفة، فقال: إذا لجأ إلى الحَرَم فإنَّه[٦] لا يُطعَم ولا يُسْقَى ولا يُعامَل ولا يُكلَّم حتى يخرج،

= وأخرج ابن أبي حاتم ٢/ ٧١١ عن سعيد بن جبير قال: الحجُّ مقام إبراهيم. قال ابن كثير: هكذا رأيت في النسخة، ولعله: الحِجْر كلُّه مقام إبراهيم، وقد صرَّح بذلك مجاهد.

(١) في معاني القرآن ١/ ٤٩٥ - ٤٩٦ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٢٩، وانظر أحكام القرآن للجصاص٢/ ٢١ .

(٣) قوله: لقوله تعالى، من (م)، وأحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٨٤.

(٤) أخرجه الطبري ٥/ ٦٠٣ .

(٥) أحكام القرآن ١/ ٢٨٤ - ٢٨٥ ، وما قبله منه.

(٦) لفظة: فإنه، ليست في (م).

فاضطراره[١] إلى الخروج ليس[٢] يصحُّ معه أمْنٌ. ورُوي عنه أنه قال: يقعُ القِصاص في الأطراف في الحرم، ولا أمنَ أيضاً مع هذا.

والجمهورُ من العلماء على أنَّ الحدودَ تُقام في الحرم[٣]، وقد أمر النبيُّ ﷺ بقتل ابن خَطَلٍ وهو متعلِّقٌ بأستار الكعبة[٤].

قلت: ورَوَى الثوريُّ عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس: مَنْ أصابَ حدّاً في الحَرَم، أُقيمَ عليه فيه، وإنْ أصابَه في الحِلِّ ولجأ إلى الحرم، لم يُكلَّمْ ولم يُبايَعْ حتى يخرجَ من الحرم، فيقامَ عليه الحدّ[٥]؛ وهو قولُ الشَّعبي[٦]. فهذه حجةُ الكوفيين، وقد فهم ابن عباس ذلك من معنى الآية، وهو حَبْرُ الأمّةِ وعالِمُها.

والصحيح أنه قصدَ بذلك تعديدَ النِّعم على كلِّ من كان بها جاهلاً ولها منكراً من العرب، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، فكانوا في الجاهلية من دخله، لجأ إليه وأَمِن من الغارة والقتل، على ما يأتي بيانه في «المائدة» إن شاء الله تعالى[٧].

قال قتادة: ومن دخله في الجاهلية كان آمناً. وهذا حسن[٨].

ورُوي أنَّ بعض المُلْحدة قال لبعض العلماء: أليس في القرآن: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾؟ فقد دخلناه وفعلنا كذا وكذا، فلم يأمنْ من كان فيه! قال له: ألستَ من العرب؟! ما الذي يريد القائلُ: مَنْ دخلَ داري كان آمناً؟ أليس إنَّما يقول[٩] لمن

---

(١) في (خ) و (ظ): فاضطره، وفي (د): فاضطروه، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٨٥.

(٢) في النسخ: وليس، والمثبت من (م)، وأحكام القرآن لابن العربي.

(٣) الإشراف لابن المنذر ٢/ ٢٩.

(٤) سلف ٣/ ٢٤٤.

(٥) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٤٦.

(٦) تفسير الطبري ٥/ ٦٠٥.

(٧) عند تفسير الآية (٩٧) منها.

(٨) أخرجه الطبري ٥/ ٦٠١.

(٩) في (د) و (م): أن يقولَ.

أطاعه: كُفَّ عنه فقد أمَّنتُه وكففتُ عنه؟! قال: بلى، قال: فكذلك قوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾.

وقال يحيى بنُ جَعْدة: معنى ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ يعني من النار[(١)].

قلت: وهذا ليس على عمومه؛ لأنَّ في صحيح مسلم عن أبي سعيدٍ الخُدرِيِّ حديثَ الشفاعةِ الطويل: «فوالذِي نفسي بيده، ما منكم من أحدٍ بأشَدَّ مناشدةً لله في استقصاء الحقِّ من المؤمنين لله يومَ القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون: ربَّنا، كانوا يصومون معنا، ويُصلُّون ويحُجّون، فيقال لهم: أخْرِجُوا مَنْ عَرَفتُم...»[(٢)] الحديث. وإنما يكون آمِناً من النار من دخلَه لقضاء النُّسُكِ معظِّماً له، عارفاً بحقِّه، متقرِّباً إلى الله تعالى.

قال جعفر الصادق: من دخله على الصَّفاء كما دخله الأنبياءُ والأولياء، كان آمناً من عذابه. وهذا معنى قولِه عليه الصلاة والسلام: «مَنْ حَجَّ فلم يَرْفُثْ ولم يَفْسُقْ، خرجَ من ذنوبه كيومَ ولدَتْه أمُّه» و«الحجُّ المبرورُ ليس له جزاءٌ إلَّا الجنة»[(٣)].

قال الحسن: الحج المبرورُ هو أنْ يرجعَ زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة[(٤)].

وأنشد[(٥)]:

يا كعبةَ اللّهِ دعوة اللّاجِي ... دعوة مستشعرٍ ومحتاجِ
ودَّعَ أحبابَه ومسكَنه ... فجاء ما بينَ خائفٍ راجي
إنْ يقبلِ اللّه سعيَه كرماً ... نجا، وإلا فليس بالنَّاجي
وأنت ممَّن تُرجى شفاعتُه ... فاعطفْ على وافِدِ بنِ حَجَّاجِ[(٦)]

---

(١) أخرجه الطبري ٥/٦٠٦.

(٢) صحيح مسلم (١٨٣)، وأخرجه أيضاً أحمد (١١١٢٧)، والبخاري (٧٤٣٩). وسيذكر المصنف قطعة منه عند تفسير قوله: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ من الآية (١٧٣) من هذه السورة.

(٣) سلف ذكرهما ٣/ ٣٢٤.

(٤) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٣/٢٣٨، وسلف ٣/ ٣٢٤.

(٥) في (د) و (ظ): وأنشدوا.

(٦) لم نقف عليها.

وقيل: المعنى: ومن دخله عامَ عمرةِ القضاءِ مع محمدٍ ﷺ كان آمناً. دليلُه قولُه تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]. وقد قيل: إنَّ «مَنْ» هاهنا لمن لا يعقل، والآية في أمان الصيد، وهو شاذٌّ، وفي التنزيل: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ الآية [النور: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

فيه تسع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ﴾ اللام في قوله: «ولله» لامُ الإيجابِ والإلزام، ثم أكَّده بقوله تعالى: ﴿عَلَى﴾ التي هي من أوكد ألفاظِ الوجوبِ عند العرب، فإذا قال العربي: لفلان عليّ كذا، فقد وكّده وأوجبه. فذكر الله تعالى الحجَّ بأبلغِ[1] ألفاظِ الوجوب تأكيداً لحقِّه وتعظيماً لحُرْمته[2].

ولا خلافَ في فريضته[3]، وهو أحدُ قواعدِ الإسلام، وليس يجب إلا مرةً في العمر. وقال بعضُ الناس: يجب في كلِّ خمسة أعوامٍ مرَّةً، ورَوَوْا في ذلك حديثاً أسندوه إلى النَّبيِّ ﷺ، والحديثُ باطلٌ لا يصحُّ، والإجماعُ صادٌّ في وجوههم[4].

قلت: ذكر عبد الرزاق قال: حدَّثنا سفيان الثوريُّ، عن العلاء بن المسيِّب، عن أبيه، عن أبي سعيد الخُدْريّ أنَّ النبي ﷺ قال: «يقول الربُّ جلَّ وعزَّ: إن عبداً أوسعتُ عليه في الرزق، فلم يَفِدْ[5] إليّ في كلِّ أربعة أعوامٍ لمحرومٌ»[6] مشهورٌ من حديث العلاء بنِ المسيِّب بن رافع الكاهليِّ الكوفيِّ من أولاد المحدِّثين، روَى عنه

(١) في (د) بأوكد.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٨٥.

(٣) في (خ): فرضيَّته.

(٤) القبس ٢/ ٥٣٩ - ٥٤٠، والحديث الذي أشار إليه سيذكره المصنف لاحقاً.

(٥) في النسخ الخطية: يَعُد، والمثبت من مصادر الحديث.

(٦) هو في مصنف عبد الرزاق (٨٨٢٦). وأخرجه من طريقه الطبراني في «الأوسط» (٤٩٠)، وإسناده منقطع، لأن المسيِّب بن رافع ـ والد العلاء ـ لم يسمع من أبي سعيد الخدري، فقد قال ابن معين كما في تهذيب التهذيب: لم يسمع من أحد من الصحابة إلا من البراء وأبي إياس عامر بن عقدة.

غيرُ واحد، منهم من قال: في خمسة[١] أعوامٍ[٢].

ومنهم من قال: عن العلاء، عن يونس بن خَبَّاب[٣]، عن أبي سعيد، في غير ذلك من الاختلاف.

وأنكرت الملحِدة الحَجَّ، فقالت: إنَّ فيه تجريدَ الثِّياب، وذلك يخالف الحياء، والسَّعيَ؛ وهو يناقض الوَقَار، ورَمْيَ الجمارِ لغير مَرْمِيّ، وذلك يضادُّ العقل، فصاروا إلى أنَّ هذه الأفعال كلَّها باطلةٌ؛ إذ لم يعرفوا لها حِكمةً ولا عِلَّة، وجهِلُوا أنه ليس من شرط المولى مع العبد أنْ يفهم المقصودَ بجميع ما يأمرُه به، ولا أنْ يطَّلعَ على فائدة تكليفِه، وإنما يتعينُ عليه الامتثال، ويلزمُه الانقياد من غير طلب فائدةٍ ولا سؤالٍ عن مقصود. ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول في تلبيته: «لَبَّيْك حقّاً حقّاً، تعبُّداً ورِقّاً»، «لَبَّيْك إلهَ الحقِّ»[٤].

وروى الأئمة عن أبي هريرة قال: خطبَنا رسول اللّه ﷺ فقال: «أيها الناسُ، قد فَرَضَ اللّه عليكم الحجَّ فَحُجُّوا». فقال رجل: كلَّ عام يا رسول اللّه؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول اللّه ﷺ: «لو قلت: نعم، لوجبتْ ولما استطعتُم». ثم قال: «ذرُوني ما تركتُكم، فإنما هلكَ مَنْ كان قَبلكم بكثرة مسائلهم[٥]، واختلافِهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيءٍ فَأْتُوا منه ما استطعتُم، وإذا نهيتكم عن شيءٍ فدَعُوه» لفظ

(١) في (م): في كلِّ خمسة.

(٢) أخرجه أبو يعلى (١٠٣١)، وابن حبان (٣٧٠٣). وأخرجه البيهقي في السنن ٥/ ٢٦٢ من حديث أبي هريرة، وضعف إسناده. وانظر الكامل لابن عدي ٤/ ١٣٩٥ - ١٣٩٦.

(٣) في (خ): حباب، وفي (د): حبان، والمثبت من(ظ)، وذكر روايته البيهقي في السنن ٥/ ٢٦٢. ويونس ابن خبَّاب قال فيه يحيى القطان: كان كذاباً، وقال ابن معين: رجل سوء ضعيف، وقال ابن حبان: لا تحلُّ الرواية عنه، وقال البخاري: منكر الحديث. ميزان الاعتدال ٤/ ٤٧٩.

(٤) القبس ٢/ ٥٧٦. وقوله: «لبيك حقّاً تعبداً ورِقّاً» أخرجه البزار (كشف الأستار) (١٠٩٠)، والخطيب في تاريخ بغداد ١٤/ ٢١٥ من حديث أنس ﷺ مرفوعاً، وأخرجه أيضاً البزار (١٠٩١) عن أنس موقوفاً، ونقل ابن الملقن في خلاصة البدر المنير ١/ ٣٦١ عن الدارقطني أن الموقوف الصحيح. وقوله: «لبيَّك إله الحقِّ» أخرجه أحمد (٨٤٩٧)، والنسائي ٥/ ١٦١، وابن ماجه (٢٩٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الحاكم ١/ ٤٥٠، ووافقه الذهبي.

(٥) في (م): سؤالهم.

مسلم[١]. فبيَّنَ هذا الحديثُ أنَّ الخطابَ إذا توجَّهَ على المكلَّفين بفرضٍ أنه يكفي منه فعلُ مرَّة، ولا يقتضي التَّكرار، خلافاً للأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني وغيره[٢].

وثبت أنَّ النبيَّ ﷺ قال له أصحابه: يا رسول الله، أحجُّنا لعامِنا هذا أم للأبد؟ فقال: «لا، بل للأبد»[٣] وهذا نصٌّ في الردِّ على مَنْ قال: يجب في كلِّ خمس سنين مرَّة.

وقد كان الحجُّ معلوماً عند العرب مشهوراً[٤] لديهم، وكان مما يُرغبُ فيه لأسواقها وتَبَرُّرِها[٥] وتحنُّفِها؛ فلما جاء الإسلام خُوطبوا بما علموا، وأُلزموا بما عرفوا. وقد حجَّ النبيُّ ﷺ قبل حجِّ الفرض[٦]، وقد وقف بعرفة، ولم يغيِّر من شرع إبراهيمَ ما غيَّروا؛ حين كانت قريش تقف بالمَشْعَر الحرام ويقولون: نحن أهلُ الحرمِ، فلا نخرجُ منه، ونحن الْحُمْسُ[٧]. حسب ما تقدَّم بيانه في «البقرة»[٨].

قلت: من أغرب ما رأيته أنَّ النبيَّ ﷺ حجَّ قبلَ الهجرةِ مرتين[٩]، وأنَّ الفرضَ سقطَ عنه بذلك؛ لأنه قد أجاب نداءَ إبراهيمَ حينَ قيل له: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج:٢٧]. قال الكيا الطبري[١٠]: وهذا بعيدٌ؛ فإنه إذا ورد في شرعه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ فلا بدَّ من وجوبه عليه بحكم الخطابِ في شرعه. ولئن قيل: إنما

---

(١) برقم (١٣٣٧)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٠٦٠٧)، والنسائي ٥/ ١١٠ - ١١١.

(٢) البرهان في أصول الفقه لأبي المعالي ١/ ١٦٤.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٥٨٩)، والنسائي ٥/ ١٧٨ - ١٧٩ من حديث سراقة بن جُعْشُم ﷺ، وأخرجه أيضاً أحمد (١٤١١٦) من حديث جابر ﷺ مطولاً، ووقع في (خ) و(ظ): أحجنا هذا لعامنا أم لأبد؟ فقال: لا، بل لأبد أبد.

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٨٦ : مشروعاً.

(٥) قوله: تبرّرها، من التبرُّر، وهو الطاعة، القاموس (برر). ووقع في (ظ): وتبروها.

(٦) أخرج الترمذي (٨١٥)، وابن ماجه (٣٠٧٦) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ حجَّ ثلاث حجج، حجتين قبل أن يُهاجر، وحجة بعد ما هاجر..

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٨٦ .

(٨) ٣/ ٢٣٤ و ٣٥٠ .

(٩) سلف قريباً.

(١٠) في أحكام القرآن له ٣/ ٢٨٠ ، وما قبله منه.

خاطب من لم يحجَّ، كان تَحكُّماً وتخصيصاً لا دليلَ عليه، ويلزمُ عليه ألا يجبَ بهذا الخطابِ على من حجَّ على دِين إبراهيم. وهذا في غاية البعد.

الثانية: ودلَّ الكتابُ والسنة على أنَّ الحجَّ على التراخِي، لا على الفور، وهو تحصيلُ مذهبِ مالكٍ فيما ذكر ابن خُوَيزمَنْداد، وهو قولُ الشَّافعيِّ ومحمد بنِ الحسن وأبي يوسف في رواية عنه. وذهب بعضُ البغداديّين من المتأخرين من المالكيّين إلى أنه على الفور، ولا يجوز تأخيرُه مع القدرة عليه؛ وهو قولُ داود[1]. والصحيحُ الأوَّل؛ لأنَّ اللّه تعالى قال في سورة الحج: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الآية: ٢٧]، وسورةُ الحجِّ مكية[2]. وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ الآية، وهذه السورةُ نزلت عام أُحُدٍ بالمدينة؛ سنةَ ثلاثٍ من الهجرة، ولم يحجَّ رسولُ اللّه ﷺ إلى سنةِ عشر.

وأما السُّنَّة؛ فحديثُ ضِمام بنِ ثعلبة السَّعديِّ من بني سعد بن بكر، قدمَ على النبيِّ ﷺ، فسألَه عن الإسلام، فذكر الشهادةَ والصلاةَ والزكاةَ والصِّيامَ والحجَّ. رواه ابن عباس وأبو هريرة وأنس[3]، وفيها كلِّها ذِكرُ الحج، وأنه كان مفروضاً، وحديثُ أنسٍ أحسنُها سياقاً وأتَمُّها.

واختُلف في وقت قدومه، فقيل: سنةَ خمس. وقيل: سنةَ سبع. وقيل: سنةَ تسع، ذكره ابن هشام[4] عن أبي عُبيدةَ.

الواقدي: عامَ الخَنْدَقِ بعد انصرافِ الأحْزَاب[5].

قال ابن عبد البر[6]: ومن الدليل على أنَّ الحجَّ على التراخي إجماعُ العلماء على

---

(١) انظر التمهيد ١٦/ ١٦٣.

(٢) ذكر المصنف أول سورة الحج؛ هل هي مكية أو مدنية، وصحح القول بأن منها المكيَّ ومنها المدنيَّ، وعزاه للجمهور.

(٣) حديث ابن عباس أخرجه أحمد (٢٣٨٠)، وأبو داود (٤٨٧)، وحديث أبي هريرة أخرجه النسائي في المجتبى ٤/ ١٢٤، والكبرى (٢٤١٥)، وحديث أنس أخرجه أحمد (١٢٧٩١)، والبخاري (٦٣)، ومسلم (١٢).

(٤) في السيرة ٢/ ٥٧٣.

(٥) التمهيد ١٦/ ١٦٧.

(٦) في التمهيد ١٦/ ١٧٢ - ١٧٣.

ترك تفسيقِ القادرِ على الحجِّ إذا أخَّره العامَ والعامين ونحوَهما، وأنه إذا حجَّ من بعد أعوامٍ من حين استطاعتِه، فقد أدَّى الحجَّ الواجبَ عليه في وقته، وليس هو عند الجميع كمن فاتته الصلاةُ حتى خرج وقتُها، فقضاها بعد خروجِ وقتِها، ولا كمن فاته صيامُ رمضانَ لمرض أو سفرٍ فقضاه، ولا كمن أفسدَ حجَّه فقضاه، فلما أجمعوا على أنه لا يقالُ لمن حجَّ بعد أعوامٍ من وقت استطاعتِه: أنت قاضٍ لِما وجب عليك، علِمنا أنَّ وقتَ الحجِّ مُوسَّعٌ فيه، وأنه على التراخي، لا على الفور.

قال أبو عمر[١]: كلُّ من قال بالتراخي لا يَحُدُّ في ذلك حدّاً؛ إلا ما رُوِيَ عن سحنون وقد سُئل عن الرجل يجدُ ما يحجُّ به، فيؤخِّرُ ذلك إلى سنين كثيرةٍ مع قدرته على ذلك: هل يُفَسَّقُ بتأخيره الحجَّ، وتُردُّ شهادتُه؟ قال: لا، وإنْ مضى من عمره ستون سنة، فإذا زاد على الستين فُسِّق، ورُدَّت شهادتُه. وهذا توقيفٌ وحَدٌّ، والحدودُ في الشرع لا تؤخذُ إلا عمَّن له أنْ يُشَرِّع.

قلت: وحكاه ابن خُويزِمنداد عن ابن القاسم. قال ابنُ القاسم وغيره: إنْ أخَّره ستين سنة لم يُحَرَّجْ، وإن أخَّره بعد الستين حُرِّج؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أعمارُ أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وقَلَّ من يتجاوزها»[٢]، فكأنه في هذا العشرِ قد يتضايق[٣] عليه الخطاب.

قال أبو عمر[٤]: وقد احتج بعضُ الناس لسحنون[٥] بقوله ﷺ: «مُعتَرَكُ أمّتي من[٦] الستين إلى السبعين، وقَلَّ من يجاوزُ ذلك»[٧]. ولا حجةَ فيه؛ لأنه كلامٌ خرج

---

(١) التمهيد ١٦/ ١٦٤.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٣١) و (٣٥٥٠)، وحسَّنه، وابن ماجه (٤٢٣٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وحسنه الحافظ في الفتح ١١/ ٢٤٠، وصححه ابن حبان (٢٩٨٠)، وأخرجه أبو يعلى (٢٩٠٢) بإسناد ضعيف عن أنس ﷺ. وقد غمز ابن عبد البر في الحديث، كما سيرد.

(٣) في (خ) و(ظ): تضايق.

(٤) في التمهيد ١٦/١٦٦.

(٥) في (م): كسحنون، وليست في (د)، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق للتمهيد.

(٦) في (م): بين.

(٧) هو حديث أبي هريرة السالف، وقد أخرجه بهذا اللفظ الرامهرمزي في أمثال الحديث ص٢٦، وأبو يعلى =

على الأغلب من أعمار أمّتِه لو صحّ الحديث. وفيه دليلٌ على التوسعة إلى السبعين؛ لأنه من الأغلب أيضاً، ولا ينبغي أنْ يُقطعَ بتفسيقِ مَنْ صحَّت عدالتُه وأمانتُه بمثل هذا من التأويل الضعيف. وبالله التوفيق.

الثالثة: أجمع العلماء على أنَّ الخطابَ بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ عامٌّ في جميعهم مسترسلٌ على جملتهم.

قال ابن العربيّ[١]: وإن كان الناس قد اختلفوا في مطلق العموماتِ؛ بَيْدَ أنهم اتفقوا على حمل هذه الآيةِ على جميع الناسِ؛ ذَكَرِهم وأُنثاهم، خلا الصغير، فإنه خارجٌ بالإجماع عن أصول التكليفِ، وكذلك العبدُ لم يدخلْ فيه؛ لأنه أخرجه عن مطلق العمومِ قولُه تعالى في التمام[٢]: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. والعبد غيرُ مستطيع؛ لأن السيِّدَ يمنعُه لحقوقه[٣] عن هذه العبادة. وقد قدَّم الله سبحانه حقَّ السَّيد على حقِّه رِفقاً بالعباد، ومصلحةً لهم. ولا خلافَ فيه بين الأمةِ ولا بين الأئمة. فلا نَهْرِف[٤] بما لا نعرِف، ولا دليلَ عليه إلا الإجماعُ.

قال ابن المنذر: أجمع عامَّة أهلِ العلم ـ إلا من شَذَّ منهم ممن لا يعدُّ خلافاً ـ على أنَّ الصبيَّ إذا حَجَّ في حال صغره، والعبدَ إذا حجَّ في حال رِقِّه، ثم بلغ الصبيُّ وعَتَق العبدُ أنّ عليهما حجةَ الإسلام إذا وجدا إليه[٥] سبيلا[٦].

وقال أبو عمر[٧]: خالف داود جماعةَ فقهاءِ الأمصارِ وأئمة الأثرِ في المملوك، وأنه عنده مخاطبٌ بالحجّ. وهو عند جمهورِ العلماء خارجٌ من الخطاب العامّ في قوله

= (٦٥٤٣)، والخطيب في تاريخ بغداد ٥/ ٤٧٦ من حديث أبي هريرة بلفظ: (معترك المنايا ما بين..).

(١) في أحكام القرآن ١/ ٢٨٧، وما قبله منه.

(٢) في أحكام القرآن: في تمام الآية.

(٣) في (خ) و(ظ): بحقوقه.

(٤) أي: لا نهذي، ووقع في (د) و(خ): نهدف، وفي (ظ): تهتف... تعرف.

(٥) في (م): إليهما.

(٦) نقل ابن قدامة المقدسي كلام ابن المنذر في المغني ٥/ ٤٤.

(٧) في التمهيد ١/ ١٠٧ - ١٠٨.

تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ بدليل عدمِ التَّصرف، وأنه ليس له أنْ يحجَّ بغير إذنِ سيِّدِه، كما خرج من خطاب الجمعةِ، وهو قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ الآية [الجمعة: ٩] عند عامَّةِ العلماء إلا من شذَّ، وكما خرج من خطاب إيجابِ الشَّهادة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فلم يدخلْ في ذلك العبدُ. وكما جاز خروجُ الصَّبيِّ من قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾، وهو من الناس بدليل رفعِ القلمِ عنه[1]. وخرجت المرأةُ من قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ [الجمعة: ٩]، وهي ممّن شَمِلَهُ اسمُ الإيمان، فكذلك خروجُ العبيد[2] من الخطاب المذكور. وهو قولُ فقهاءِ الحجاز والعراقِ والشَّامِ والمغرب، ومثلُهم لا يجوزُ عليهم تحريفُ تأويلِ الكتاب[3].

فإن قيل: إذا كان حاضرَ المسجدِ الحرامِ وأذِن له سيِّدُه، فلِمَ لا يلزمُه الحجّ؟ قيل له: هذا سؤالٌ على الإجماع، وربما لا يُعَلّل ذلك، ولكن إذا ثبتَ هذا الحكمُ بالإجماع[4] استدلَلْنا به على أنه لا يُعْتَدُّ بحجِّهِ في حال الرِّقِّ عن حَجَّة الإسلام، وقد رُوِيَ عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أيُّما صبيٍّ حجَّ ثم أدرك، فعليه أنْ يحجَّ حجةً أخرى، وأيُّما أعرابيٍّ حجَّ ثم هاجر، فعليه أنْ يحجَّ حجَّةً أخرى، وأيُّما عبدٍ حجَّ ثم أُعتق، فعليه أنْ يحجَّ حجةً أخرى»[5].

---

(١) يشير المصنف إلى قوله ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الغلام حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق». أخرجه أحمد (٢٤٦٩٤)، وأبو داود (٤٣٩٨)، والنسائي في المجتبى ٦/ ١٥٦، والكبرى (٥٥٩٦)، وابن ماجه (٢٠٤١) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه أحمد (٩٤٠)، وأبو داود (٤٤٠٣)، والترمذي (١٤٣٣)، وابن ماجه (٢٠٤٢) من حديث علي ﷺ، وفي الباب من حديث ثوبان وابن عباس وشداد بن أوس ﷺ ذكرها الزيلعيُّ في نصب الراية ٤/ ١٦٤ - ١٦٥، والهيثميُّ في مجمع الزوائد ٦/ ٢٥١.

(٢) في (د) و(م): وكذلك خروج العبد.

(٣) التمهيد ١/ ١٠٨.

(٤) في (د) و (م): على الإجماع، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق لأحكام القرآن للكيا ١/ ٢٩٧، والكلام منه.

(٥) أخرجه ابن خزيمة (٣٠٥٠)، والحاكم ١/ ٤٨١، والبيهقي ٤/ ٣٢٥، والخطيب في تاريخ بغداد =

قال ابن العربيّ[(١)]: وقد تساهلَ بعضُ علمائنا، فقال: إنما لم يثبت الحجُّ على العبد وإنْ أذن له السيد؛ لأنه كان كافراً في الأصل، ولم يكن حَجُّ الكافرِ معتدّاً به، فلما ضُرب عليه الرِّقُّ ضرباً مؤبّداً لم يخاطَبْ بالحج. وهذا فاسدٌ من ثلاثة أوجهٍ فاعلموه:

أحدها: أنَّ الكفارَ عندنا مُخاطبون بفروع الشريعة، ولا خلافَ فيه في قول مالك.

الثاني: أنَّ سائر العباداتِ تلزمُه من صلاة وصوم مع كونه رقيقاً، ولو فعلَها في حال كفره لم يعتدَّ بها، فوجبَ أنْ يكون الحجُّ مثلَها.

الثالث: أنَّ الكفرَ قد ارتفع بالإسلام، فوجبَ ارتفاعُ حكمِه. فتبيَّنَ أنَّ المعتمدَ ما ذكرناه من تقدُّم حقوقِ السيد، واللّه الموفِّق.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ «مَنْ» في موضع خفضٍ، على بدل البعضِ من الكلّ، هذا قولُ أكثرِ النحويين. وأجاز الكسائيُّ أنْ يكونَ «مَنْ» في موضع رفعٍ بـ «حِجُّ»، التقدير: أنْ يحجَّ البيتَ مَن. وقيل: هي شرط. و«استطاع» في موضع جزم، والجواب محذوفٌ، أي: من استطاع إليه سبيلاً، فعليه الحجّ[(٢)]؛ روَى الدارقطنِيُّ عن ابن عباس قال: قيل: يا رسولَ اللّه، الحجُّ كلَّ عام؟ قال: «لا، بل حجة»؟ قيل: فما السبيل، قال: «الزاد والراحلة». ورواه عن أنس وابنِ مسعود وابنِ عمر وجابر وعائشةَ، وعمرو بنِ شعيب عن أبيه عن جدّه[(٣)].

= ٨/ ٢٠٩ ، وأخرجه الشافعي (٧٤٣) (بترتيب السندي)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٢/ ٢٥٧ ، والبيهقي ٥/ ١٥٦ عن ابن عباس موقوفاً، وصحح إسناده (يعني الموقوف) الحافظ في الفتح ٤/ ٧١ .

(١) في أحكام القرآن ١/ ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٦ .

(٣) سنن الدارقطني ٢/ ١٩٣ - ١٩٦ (طبعة الكتب العلمية). قال صاحب التعليق المغني على الدارقطني ٢/ ٢١٩ : الروايات التي جاءت في هذا الباب كلها ضعيفة، كما صرح بذلك الزيلعي وابن حجر، وأحسن ما يستدل به في هذا الباب ما رواه البخاري في صحيحه عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا المدينة ـ وفي رواية: مكة ـ سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

وعن عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ، عن النبيِّ ﷺ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال: فسئل عن ذلك، فقال النبيُّ ﷺ: «أنْ تجدَ ظهرَ بَعيرٍ»(١).

وأخرج حديثَ ابن عمرَ أيضاً ابن ماجه في سُننه، وأبو عيسى الترمذيُّ في جامِعه وقال: حديث حَسَن، والعملُ عليه عند أهلِ العلم أنَّ الرجل إذا ملك زاداً وراحلةً وجب عليه الحج، وإبراهيم بنُ يزيدَ هو الخُوزيُّ المكيُّ، وقد تكلم فيه بعضُ أهلِ الحديثِ من قِبلَ حِفظِه؛ أخرجاه(٢) عن وَكيع، والدَّارقُطْنِيُّ(٣) عن سفيانَ بنِ سعيد، قالوا: حدَّثنا إبراهيم بنُ يزيدَ، عن محمد بن عبَّاد، عن ابن عمر قال: قام رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما يوجبُ الحجَّ؟. قال: «الزادُ والراحلة». قال(٤): يا رسولَ الله، وما الحاجُّ؟ قال: «الشَّعِثُ التَّفِلُ». وقام آخر فقال: يا رسول الله، وما الحجُّ؟ قال: «العَجُّ والثَّجُّ». قال وكيع: يعني بالعجِّ: العجيجَ بالتَّلبية، والثَّجّ: نحرَ البُدْن، لفظُ ابنِ ماجه(٥).

وممن قال: إنَّ الزاد والراحلةَ شرطٌ في وجوب الحجّ: عمر بنُ الخطاب، وابنُه عبدُ الله وعبد الله بنُ عباس، والحسن البصريُّ، وسعيد بنُ جُبير، وعطاء، ومجاهد. وإليه ذهب الشافعيُّ، والثوريُّ، وأبو حنيفة وأصحابُه، وأحمدُ، وإسحاق، وعبد العزيز بنُ

---

(١) سنن الدارقطني ٢/ ٢١٨، وفي إسناده حسين بن عبدالله بن ضميرة، قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٥٣٨: كذبه مالك، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، كذاب، وقال أحمد: لا يساوي شيئاً، وقال ابن معين: ليس بثقة ولا مأمون، وقال البخاري: منكر الحديث ضعيف.

(٢) في (د) و (ظ) و (م): وأخرجاه، والمثبت من (خ)، وهو عند الترمذي (٨١٣) مختصر، وسنن ابن ماجه (٢٨٩٦)، وإبراهيم بن يزيد الخوزي قال فيه الحافظ في التقريب ص٣٥: متروك الحديث، وقال البيهقي ٤/ ٣٣٠: ضعَّفه أهل العلم بالحديث، وقد تابعه محمد بن عبدالله بن عبيد عن محمد بن عباد، إلا أنه أضعف من إبراهيم بن يزيد، ورواه أيضاً محمد بن الحجاج عن جرير عن محمد بن عباد، ومحمد بن الحجاج متروك.

(٣) سنن الدارقطني ٢/ ١٩٤ (طبعة الكتب العلمية).

(٤) في النسخ: قالوا، والمثبت من (م)، ومصادر التخريج.

(٥) برقم (٢٨٩٦)، وسلفت الإشارة إليه. قوله: الشَّعِث: المغبرّ الرأس، والتَّفِل: الذي ترك استعمال الطيب. انظر القاموس (شعث)، والنهاية (تفل).

أبي سلمة، وابنُ حبيب، وذَكر ابن عبدوس[١] مثلَه عن سُحْنون[٢].

قال الشافعيّ[٣]: الاستطاعة وجهان:

أحدُهما: أنْ يكونَ مستطيعاً ببدنه، واجداً من ماله ما يبلِّغه الحجّ.

والثاني: أنْ يكونَ معضُوباً[٤] في بدنه، لا يثبتُ على مَركَبِهِ، وهو قادرٌ على من يُطيعُه إذا أمرَه أنْ يحجَّ عنه بأجرة وبغيرِ أجرة، على ما يأتي بيانه.

أما المستطيع ببدنه، فإنه يلزمُه فرضُ الحجّ بالكتاب بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾. وأما المستطيعُ بالمال، فقد لزمَه فرضُ الحجِّ بالسُّنة بحديث الخثعمِيةِ على ما يأتي[٥]. وأما المستطيعُ بنفسه؛ وهو القويُّ الذي لا تلحقه مشقَّةٌ غيرُ محتملةٍ في الركوب على الراحلة؛ فإنَّ هذا إذا ملك الزادَ والراحلة؛ لزمه فرضُ الحجِّ بنفسه، وإن عَدِم الزادَ والراحلةَ أو أحدَهما سقطَ عنه فرضُ الحج، فإن كان قادراً على المشي مُطيقاً له، ووجد الزاد، أو قَدَر على كسب الزادِ في طريقه بصنعةٍ؛ مثل الخرزِ والحجامةِ أو نحوِهما، فالمستحبُّ له أنْ يَحُجَّ ماشياً، رَجلاً كان أو امرأة[٦].

قال الشافعيّ: والرجلُ أقلُّ عُذْراً من المرأة؛ لأنه أقوى. وهذا عندهم على طريق الاستحبابِ، لا على طريق الإيجاب، فأمّا إن قَدَرَ على الزاد بمسألة الناسِ في الطريق، كَرِهْتُ له أنْ يحجَّ، لأنه يصير كَلّاً على الناس[٧].

وقال مالك بنُ أنس رحمه اللّه: إذا قَدَرَ على المشي ووجدَ الزادَ، فعليه فرضُ

---

(١) في (د) و (م): وذكر عبدوس، والمثبت من (خ)، و(ظ)، وهو الصواب.

وابن عبدوس: هو أبو عبدالله محمد بن إبراهيم، من كبار أصحاب سحنون وأفقههم، صنف المجموعة في الفقه على مذهب الإمام مالك. توفي سنة (٢٦٠ هـ). الديباج المذهب ٢/ ١٧٤.

(٢) النوادر والزيادات ٢/ ٣١٧، والمنتقى ٢/ ٢٦٩، وعقد الجواهر الثمينة ١/ ٣٧٩.

(٣) الأم ٢/ ٩٦ و ١٠٤، والتمهيد ٩/ ١٢٧ - ١٢٨، والاستذكار ١٢/ ٦٣.

(٤) أي: ضعيفاً زَمِناً، لا حراك به. القاموس (عضب). وسيذكر المصنف معناه في المسألة السابعة.

(٥) ص٢٢٩ من هذا الجزء.

(٦) انظر التمهيد ٩/ ١٢٧ - ١٢٨، والمعونة ١/ ٥٠٠ - ٥٠١، والمجموع ٧/ ٥٧، ٥٩.

(٧) الأم ٢/ ٩٩ والتمهيد ٩/ ١٢٧ والمجموع ٧/ ٥٧ - ٥٨.

الحج، وإن لم يجد الراحلةَ، وقَدَر على المشي، نُظر؛ فإن كان مالكاً للزاد، وجب عليه فرضُ الحج، وإن لم يكن مالكاً للزاد، ولكنه يَقدِر على كسب حاجتِه منه في الطريق، نُظر أيضاً؛ فإن كان من أهل المروءاتِ ممن لا يَكتسبُ بنفسه، لا يجب عليه، وإن كان ممن يَكتَسبُ كفايتَه بتجارة أو صناعةٍ، لزمه فرضُ الحج، وهكذا إن كانت عادتُه مسألةَ الناس، لزمه فرضُ الحجِّ. وكذلك أَوجبَ مالكٌ على المطيق للمشي[(١)] الحجَّ، وإن لم يكن معه زاد وراحلة. وهو قول عبد الله بن الزبير والشَّعْبيّ وعكرمة[(٢)].

وقال الضحاك: إنْ كان شاباً قوياً صحيحاً ليس له مالٌ، فعليه أن يؤجرَ نفسَه بأكلِهِ أو عُقَبِهِ حتى يقضِيَ حجَّه. فقال له قائل[(٣)]: كلَّف اللّه الناسَ أنْ يمشوا إلى البيت؟ فقال: لو أنَّ لأحدهم ميراثاً بمكةَ، أكان تاركَه؟! بل ينطلق إليه ولو حَبْواً، كذلك يجبُ عليه الحجُّ[(٤)].

واحتجَّ هؤلاء بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] أي: مُشاةً. قالوا: ولأنَّ الحجَّ من عبادات الأبدان، ومن[(٥)] فرائضِ الأعيان، فوجبَ ألَّا يكونَ الزادُ من شروط وجوبِها ولا الراحلةُ، كالصلاة والصيام. قالوا: ولو صحَّ حديثُ الخُوزِيِّ[(٦)]: «الزادُ والراحلة»، لحملناه على عموم الناسِ، والغالبِ منهم في الأقطار البعيدة. وخروجُ مطلقِ الكلامِ على غالب الأحوالِ كثيرٌ في الشريعة، وفي كلام العربِ وأشعارها.

---

(١) في (د) و(م): المشي.

(٢) انظر التمهيد ٩/ ١٢٨ ، والمنتقى ٢/ ٢٦٩ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٧٨ ، وأخرج هذه الأقوال الطبري ٥/ ٦١٥ - ٦١٦ .

(٣) في النسخ: مقاتل، والمثبت من تفسير الطبري ٥/ ٦١٥ .

(٤) أخرجه الطبري ٥/ ٦١٥ ، وقوله عُقَبِهِ: هو جمع عُقْبة، وهي النَّوْبة. انظر معجم متن اللغة ٤/ ١٥٥، وأخرج قول الضحاك أيضاً ابنُ أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٧١٤ بلفظ: إن كان فقيراً وهو صحيح شابٌ، فليؤاجر نفسه بالأُكْلَةِ والعُقْبَة حتى يحجَّ. وأخرج أيضاً عن معمر بن خثيم قال: قلت لأبي جعفر: قول الله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال: يا معمر أن تكون لك راحلة، أو يمشي عُقبةً ويركب عُقبة.

(٥) في (خ) (د) . (م): من دون واو، والمثبت من (ظ).

(٦) هو حديث ابن عمر رضي الله عنهما السالف أول هذه المسألة.

وقد روى ابنُ وَهْب وابنُ القاسم وأشهبُ عن مالك أنه سُئل عن هذه الآيةِ، فقال: الناسُ في ذلك على قدر طاقتِهم ويُسْرهم وجَلَدِهم؛ قال أشْهَبُ لمالك: أهو الزادُ والراحلة؟ قال: لا واللّه، ما ذاك إلا على قدر طاقةِ الناس، وقد يجدُ الزادَ والراحلةَ، ولا يقدرُ على السير، وآخَرُ يقدر أنْ يمشيَ على رجليه(١).

الخامسة: إذا وُجدت الاستطاعة، وتوجَّه فرضُ الحجِّ، فقد يعرضُ ما يمنعُ منه، كالغرِيم يمنعُه عن الخروج حتى يؤدّيَ الدَّيْن؛ ولا خلافَ في ذلك. أو يكونُ له عِيَالٌ يجبُ عليه نفقتُهم، فلا يلزمه الحجُّ حتى يكونَ لهم نفقتُهم مدّةَ غَيْبَتِه لذهابه ورجوعه؛ لأنَّ هذا الإنفاقَ فرضٌ على الفَوْر، والحجُّ فرضٌ على التَّراخي، فكان تقديمُ العيالِ أوْلى، وقد قال النبيُّ ﷺ: «كَفَى بالمرء إثماً أنْ يُضيِّعَ من يقوت»(٢).

وكذلك الأَبَوانِ يخافُ الضَّيْعَةَ عليهما وعَدَمَ العِوَض في التلطُّف بهما، فلا سبيلَ له إلى الحجّ؛ فإنْ مَنَعاه لأجل الشَّوْقِ والوَحْشةِ، فلا يُلتفتُ إليه.

والمرأةُ يمنعُها زوجُها، وقيل: لا يمنعها. والصحيح المنعُ، لا سيما إذا قلنا: إنَّ الحج لا يلزم على الفَوْر(٣).

والبحر لا يمنع الوجوبَ إذا كان غالبُه السَّلامة ـ كما تقدَّم بيانه في «البقرة(٤)» ـ ويَعلمُ من نفسه أنه لا يَمِيد(٥). فإن كان الغالبَ عليه العَطَبُ أو المَيْدُ حتى يُعطِّلَ الصَّلاة، فلَا. وإنْ كان لا يجد موضعاً لسجوده لكثرة الراكبِ وضيقِ المكانِ، فقد قال مالك: إذا لم يستطع الركوعَ والسجودَ إلا على ظهر أخيه، فلا يركبْه. ثم قال: أيركب حيثُ لا يُصلِّي؟! ويلٌ لمن ترك الصلاة!.

ويسقط الحجُّ إذا كان في الطريق عدوٌّ يطلب الأنفسَ، أو يطلبُ من الأموال

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٨٨ ، والنوادر والزيادات ٢/ ٣١٧ .

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٦٤٩٥)، وأبو داود (١٦٩٢)، والنسائي في الكبرى (٩١٣٢) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وأخرجه مسلم (٦٩٦) بلفظ: «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قُوْتَه».

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٤) ٢/ ٤٩٥ - ٤٩٦ .

(٥) قوله: يَميد، من: مَادَ: إذا أصابه غثيان ودُوَار. القاموس (ماد).

مالاً[١] يتحدَّد بحدٍّ مخصوصٍ، أو يتحدَّد بقدْرٍ يُجحف[٢]، وفي سقوطه بغير المُجْحفِ خلاف. وقال الشافعيُّ: لا يُعطي حبَّةً، ويسقطُ فرضُ الحجّ. ويجبُ على المتسوِّل إذا كانت تلك عادتَه، وغلَب على ظنّه أنه يجدُ من يُعطيه. وقيل: لا يجب[٣]، على ما تقدَّم من مراعاة الاستطاعة.

السادسة: إذا زالت الموانعُ ولم يكن عنده من النَّاضِّ[٤] ما يحجُّ به، وعندَه عُروض، فيلزمُه أنْ يبيعَ من عُروضه للحجّ ما يُباع عليه في الدَّيْن. وسُئل ابنُ القاسم عن الرجل تكون له القَرْية[٥] ليس له غيرُها، أيبيعُها في حجَّة الإسلام، ويترك ولَده ولا شيءَ لهم يعيشون به؟. قال: نعم، ذلك عليه، ويتركُ ولَدَه في الصدقة! والصحيح القولُ الأوَّل؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «كفى بالمرء إثماً أنْ يُضَيِّعَ من يقوت»[٦]، وهو قولُ الشَّافعي[٧]. والظاهرُ من مذهبه أنه لا يلزم الحجُّ إلا من له ما يكفيه من النفقة ذاهباً وراجعاً - قاله في الإملاء - وإن لم يكن له أهلٌ وعِيالٌ. وقال بعضُهم: لا يعتبرُ الرجوع؛ لأنه ليس عليه كبيرُ مشقَّةٍ في تركه القيامَ ببلده؛ لأنه لا أهلَ له فيه ولا عيالَ، وكلُّ البلاد له وطن. والأوَّلُ أصوب؛ لأنَّ الإنسانَ يستوحش لفراق وطنِه كما يستوحشُ لفراق سكنِه[٨]. ألا ترى أنَّ البِكر إذا زنا جُلد وغُرِّب عن بلده، سواء كان له أهلٌ أو لم يكن؟

قال الشافعيّ في الأمّ[٩]: إذا كان له مسكنٌ وخادم، وله نفقةُ أهلِه بقدْرِ غيبتِه؛

---

(١) في (د) و (م): ما لم، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق لعقد الجواهر الثمينة ١/ ٣٨٠، والكلام منه.

(٢) في (م): مجحف.

(٣) عقد الجواهر الثمينة ١/ ٣٨٠، والعزيز شرح الوجيز ٣/ ٢٩٢.

(٤) قوله: الناضّ؛ المراد به هنا الدراهم والدنانير، كما يسميه أهل الحجاز. انظر المصباح المنير (نضّ).

(٥) في (خ) و(م): القربة، والمثبت من (د) و (ظ)، وعقد الجواهر الثمينة ١/ ٣٨١، والكلام منه، والنوادر والزيادات ٢/ ٣١٩، والبيان والتحصيل ٤/ ٧٢.

(٦) سلف ذكره في المسألة الخامسة.

(٧) الأم ٢/ ٩٩.

(٨) العزيز شرح الوجيز للرافعي ٣/ ٢٨٤ - ٢٨٥، والمجموع ٧/ ٥٢ - ٥٣ و ٦٩.

(٩) ٢/ ٩٩.

يلزمه الحج. وظاهرُ هذا أنه اعتبر أنْ يكون مالُ الحج فاضلاً عن الخادم والمسكن؛ لأنه قدَّمه على نفقة أهلِه، فكأنه قال: بعد هذا كله.

وقال أصحابه: يلزمُه أنْ يبيعَ المسكنَ والخادمَ ويَكْتَرِيَ مسكناً وخادماً لأهله، فإن كان له بضاعةٌ يتَّجر بها، وربحُها؛ قدرُ كفايتِه وكفايةِ عيالِه على الدوام، ومتى أنفقَ من أصل البضاعة اختلَّ عليه ربحُها؛ ولم يكن فيه قدرُ كفايته[1]؛ فهل يلزمُه الحجُّ من أصل البضاعةِ أم لا؟ قولان: الأوّل للجمهور، وهو الصحيحُ المشهور؛ لأنه لا خلافَ في أنه لو كان له عَقَارٌ تكفيه غَلَّتُه، لزمه أنْ يبيعَ أصلَ العَقارِ في الحجّ، فكذلك البضاعة. وقال ابن سُريج[2]: لا يلزمه ذلك، ويُبقي البضاعة، ولا يحجُّ من أصلها؛ لأنَّ الحج إنما يجبُ عليه في الفاضل من كفايته. فهذا الكلامُ في الاستطاعة بالبدن والمال[3].

السابعة: المريضُ والمَعْضُوبُ، والعَضْبُ: القطع، ومنه سُمِّيَ السَّيفُ عَضْباً، وكأنَّ من انتهى إلى ألَّا يقدرَ أنْ يستمسكَ على الراحلة، ولا يثبتَ عليها بمنزلة من قُطعت أعضاؤه؛ إذْ لا يقدرُ على شيء. وقد اختلف العلماء في حكمهما بعد إجماعِهم أنه لا يلزمُهما المسيرُ إلى الحج؛ لأنَّ الحجَّ إنما فرَضه الله على المستطيع إجماعاً، والمريضُ والمعضوب لا استطاعةَ لهما. فقال مالك: إذا كان معضُوباً سقط عنه فرضُ الحجِّ أصلاً، سواء كان قادراً على مَنْ يحجُّ عنه بالمال أو بغير المال، لا يلزمه فرضُ الحج[4].

ولو وجب عليه الحج، ثم عُضِب وزَمِن، سقط عنه فرضُ الحجِّ، ولا يجوز أنْ يُحَجَّ عنه في حال حياتِه بحال، بل إنْ أوْصى أن يُحَجَّ عنه بعد موتِه، حُجَّ عنه من الثلث، وكان تطوُّعاً؛ واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:١٩]، فأخبر أنه ليس له إلا ما سعى. فمن قال: إنه له سَعْيُ غيره، فقد خالف

---

(١) بعدها في (ظ): وكفاية عياله على الدَّوام.

(٢) في (د) و (م): شريح، وفي (خ): سريح، والمثبت من (ظ)، والعزيز شرح الوجيز ٣/ ٢٨٦ .

(٣) العزيز شرح الوجيز ٣/ ٢٨٥ - ٢٨٦ ، والمغني ٥/ ١٢ .

(٤) الاستذكار ١٦/ ٦٢ ، وأحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٨٩ ، والمفهم ٣/ ٤٤١ - ٤٤٢ .

ظاهرَ الآية. وبقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾، وهذا غيرُ مستطيع؛ لأن الحجَّ هو قصدُ المكلَّفِ البيتَ بنفسه، ولأنها عبادةٌ لا تدخلها النِّيابة مع العجزِ عنها كالصلاة[١].

وروى محمد بنُ المُنْكَدر عن جابر قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إنَّ اللّه عزَّ وجلَّ لَيُدخِلُ بالحَجّة الواحدةِ ثلاثةً الجنةَ: الميِّتَ، والحاجَّ عنه، والمنفِذَ ذلك». خرّجه الطبرانيُّ أبو القاسم سليمان بنُ أحمدَ قال: حدثنا عُمر بن حفص[٢] السَّدوسي قال: حدّثنا إسحاق بن بشر قال: حدثنا[٣] أبو معشر عن محمد بن المنكدر، فذكره[٤].

قلت: أبو معشر اسمه نَجِيحٌ، وهو ضعيفٌ عندَهم.

وقال الشافعيُّ[٥] في المريض الزَّمِنِ والمعضوبِ والشيخِ الكبيرِ يكون قادراً على من يُطِيعُه إذا أمره بالحج عنه؛ فهو مستطيعٌ استطاعةً مّا. وهو على وجهين:

أحدُهما أنْ يكونَ قادراً على مالٍ يستأجرُ به من يَحُجُّ عنه، فإنه يلزمُه فرضُ الحجِّ. وهذا قولُ عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ، رُوِيَ عنه أنه قال لشيخ كبيرٍ لم يَحجَّ: جهِّزْ رجلاً يحجُّ عنك[٦]. وإلى هذا ذهبَ الثَّوريُّ، وأبو حنيفةَ وأصحابُه، وابنُ المبارك، وأحمدُ، وإسحاق.

والثاني أن يكونَ قادراً على من يبذل له الطاعةَ والنيابةَ، فيحجُّ عنه، فهذا أيضاً

---

(١) المعونة ١/ ٥٠١، والكافي ١/ ٣٥٦ - ٣٥٧، والمنتقى ٢/ ٢٦٩، والمجموع ٧/ ٨٠.

(٢) في (ظ): عمرو بن حفص، وفي (د) و (م): عمرو بن حصين، والمثبت من (خ)، وهو الصواب، فقد روى عنه الطبراني في معاجمه، وانظر تاريخ بغداد ١١/ ٢١٦.

(٣) قوله: «إسحاق بن بشر قال: حدثنا»، ليس في (م).

(٤) لم نقف عليه في مصنفات الطبراني، وأخرجه أيضاً الحارث بن أبي أسامة في مسنده (بغية الباحث) (٣٥٥)، وابن عديٍّ ١/ ٣٣٦، وأبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان ٢/ ٣٦٥ من طريق إسحاق بن بشر به. قال ابن عديٍّ: هو في عداد من يضع الحديث. وأبو معشر قال فيه البيهقي ٥/ ١٨٠: مدني ضعيف، وقال ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ١٣٠: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، والمتهم به إسحاق بن بشر. وتابع إسحاقَ بنَ بشر عبد الرزاق كما في تنزيه الشريعة ٢/ ١٧٣ عن أبي معشر به، وأبو معشر سلف الكلام عليه وأورده السيوطي في الجامع الصغير ١/ ٢٥٥، ورمز لضعفه.

(٥) في الأم ٢/ ٩٦ - ٩٧.

(٦) أورده الشافعي في الأم ٢/ ٩٨.

يلزمه الحجُّ عنه[١] عندَ الشافعيِّ وأحمدَ وابن راهويه، وقال أبو حنيفة: لا يلزم الحجُّ ببذل الطاعةِ بحال[٢].

استدلَّ الشافعيُّ بما رواه ابن عباس أنَّ امرأةً من خَثْعَم سألتِ النبيَّ ﷺ، فقالت: يا رسولَ اللّه، إنَّ فريضةَ اللّهِ على عباده في الحجِّ أدركَتْ أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أنْ يثبتَ على الراحلة، أفأحجُّ عنه؟ قال: «نعم». وذلك في حجَّة الوَدَاع[٣]. في رواية: لا يستطيع أنْ يستويَ على ظهر بعيرِه، فقال النبيُّ ﷺ: «فحجِّي عنه، أرأيتِ لو كان على أبيكِ دَيْنٌ، أكنتِ قاضِيَتَه»؟ قالت: نعم. قال: «فدَيْنُ اللّهِ أحقُّ أنْ يُقْضَى»[٤].

فأوجبَ النبيُّ ﷺ الحجَّ بطاعة ابنته إياه، وبذلِها من نفسها له بأنْ تحجَّ عنه، فإذا وجب ذلك بطاعة البنتِ له، كان بأنْ يجبَ عليه بقدرته على المال الذي يستأجرُ به أوْلى. فأمَّا إنْ بذل له المال دونَ الطاعة؛ فالصحيح أنه لا يلزمُه قبولُه والحجُّ به عن نفسه، ولا يصيرُ ببذل المالِ له مستطيعاً[٥].

وقال علماؤنا: حديثُ الخثعمية ليس مقصودُه الإيجابَ، وإنَّما مقصودُه الحثُّ على بِرِّ الوالدَيْن، والنظرِ في مصالحهما دُنْيا ودِيناً[٦]، وجلبُ المنفعةِ إليهما جِبِلَّةً وشَرْعاً، فلما رأى من المرأة انفعالاً وطواعيةً ظاهرة ورغبةً صادقة في بِرِّها بأبيها، وحرصاً على إيصال الخيرِ والثَّوابِ إليه، وتأسَّفت أنْ تفوتَه بركةُ الحجِّ، أجابَها إلى ذلك، كما قال للأخرى التي قالت: إنَّ أُمِّي نذرت أنْ تحجَّ، فلم تحجَّ حتى ماتت،

---

(١) لفظة: عنه، من (م).

(٢) المنتقى ٢/ ٢٦٩، والعزيز شرح الوجيز ٣/ ٣٠٠ - ٣٠٢ و ٣٠٥ - ٣٠٦. والمفهم ٣/ ٤٤٢، والمجموع ٧/ ٧٥ - ٧٦، و ٨٠ - ٨١.

(٣) أخرجه أحمد (٣٢٣٨) (٣٣٧٥)، والبخاري (١٥١٣)، و مسلم (١٣٣٤).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٩٠٩)بنحوه، وأخرجه أيضاً النسائي ٥/ ١١٨، لكن فيه أن السائل رجل، وأحمد (١٦١٢٥) والنسائي ٥/ ١١٧ - ١١٨ من حديث عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما. وانظر حديث ابن عباس السالف ٣/ ٣٦١.

(٥) الوجيز ٣/ ٣٠٥.

(٦) في (ظ): وأُخرى.

أفأحجُّ عنها؟ قال: «حُجِّي عنها، أرأيتِ لو كان على أمِّك دينٌ أكنتِ قاضِيَتَه»؟ قالت: نعم[١]. ففي هذا ما يدلُّ على أنه من باب التطوّعاتِ وإيصالِ البرِّ والخيراتِ للأموات؛ ألَا ترى أنه قد شبَّه فعلَ الحج بالدَّيْن. وبالإجماع لو مات ميِّتٌ وعليه دَينٌ لم يجبْ على وَلِيِّه قضاؤه من ماله، فإن تَطَوَّعَ بذلك تأدَّى الدَّينُ عنه[٢].

ومن الدليل على أنَّ الحجَّ في هذا الحديثِ ليس بفرضٍ على أبيها ما صرَّحت به هذه المرأة بقولها: لا يستطيع، ومن لا يستطيعُ لا يجبُ عليه. وهذا تصريحٌ بنفي الوجوبِ ومنعِ الفريضة، فلا يجوز ما انتفى في أوّل الحديثِ قطعاً أنْ يثبتَ في آخره ظَنّاً؛ يحقِّقُه قولُه: «فدَين اللّه أحقُّ أن يُقضى»، فإنه ليس على ظاهره إجماعاً، فإنَّ دَيْنَ العبدِ أوْلى بالقضاءِ، وبه يُبدأ إجماعاً، لفقر الآدميِّ، واستغناءِ اللّه تعالى؛ قاله ابن العربيّ[٣].

وذكر أبو عمر بنُ عبد البَرّ[٤] أنَّ حديثَ الخثعميةِ عند مالك وأصحابِه مخصوصٌ بها. وقال آخرون: فيه اضطراب. وقال ابن وهب وأبو مصعب: هو في حقِّ الولدِ خاصَّةً. وقال ابنُ حبيب: جاءت الرخصةُ في الحجِّ عن الكبير الذي لا منهض له ولم يحجَّ، وعمَّن مات ولم يحجَّ، أنْ يَحُجَّ عنه ولده وإنْ لم يُوصِ به، ويجزئُه إنْ شاء اللّه تعالى[٥].

فهذا الكلامُ على المعضوب وشبهه. وحديثُ الخثعمية أخرجه الأئمة[٦]، وهو يردُّ على الحسن قولَه: إنه لا يجوزُ حجُّ المرأةِ عن الرجل[٧].

الثامنة: وأجمعَ العلماء على أنه إذا لم يكن للمكلَّف قوتٌ يتزوَّده في الطريق، لم

(١) أخرجه أحمد (٢١٤٠)، والبخاري (١٨٥٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وانظر الكلام على الحديث في الفتح ٤/ ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢) المفهم ٣/ ٤٤٣ .

(٣) في أحكام القرآن ١/ ٢٩٠ .

(٤) في الاستذكار ١٢/ ٥٩ - ٦٠، وانظر المفهم ٣/ ٤٤٣ .

(٥) النوادر والزيادات ٢/ ٤٨٢ .

(٦) سلف قريباً.

(٧) التمهيد ٩/ ١٣٦ ، والاستذكار ١٢/ ٦٨ ، وإكمال المعلم ٤/ ٤٤٠، والمفهم ٣/ ٣٤٣ .

يلزمه الحجُّ. وإنْ وَهب له أجنبيٌّ مالاً يحجُّ به، لم يلزمه قبولُه إجماعاً، لما يلحقُه من المِنَّة في ذلك. فلو كان رجلٌ وهبَ لأبيه مالاً؛ فقد قال الشَّافعيّ: يلزمُه قبولُه؛ لأنَّ ابنَ الرجلِ من كسْبِه، ولا مِنَّةَ عليه في ذلك. وقال مالك وأبو حنيفة: لا يلزمه قبولُه؛ لأنَّ فيه سقوطَ حُرْمَةِ الأبوّة؛ إذ يقال: قد جَزَاه وقد وفَّاه[1]. والله أعلم.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال ابن عباس[2] وغيره: المعنى: ومن كفر بفرض الحجِّ، ولم يره واجباً.

وقال الحسنُ البصريُّ وغيره: إنَّ من ترك الحج وهو قادرٌ عليه فهو كافر[3].

وروى الترمذيُّ عن الحارث، عن عليٍّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ ملكَ زاداً وراحلةً تُبلِّغُه إلى بيت اللهِ، ولم يحجَّ، فلا عليه أنْ يموت[4] يهودياً أو نصرانيّاً، وذلك أنَّ الله يقول في كتابه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، قال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي إسناده مَقال، وهلال ابنُ عبد الله مجهول، والحارث يُضعَّف[5].

ورُوِيَ نحوُه عن أبي أمامة[6] وعمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنهما[7].

وعن عبد خير بن يزيدَ عن عليّ بن أبي طالب ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال في خطبته: «يا أيها الناس، إنَّ الله فرضَ الحجَّ[8] على من استطاع إليه سبيلاً، ومن لم

---

(١) أحكام القرآن ١/ ٢٩٠ ، وانظر المجموع ٧/ ٧٤ - ٧٥ ، و ٧٧، ٨٠.

(٢) أخرجه الطبري ٥/٦١٩ .

(٣) أورده الزجاج في معاني القرآن ١/ ٤٤٧ من غير نسبة.

(٤) في (د) و (ظ): لا يموت، وفي (خ): ألا، والمثبت من (م)، وسنن الترمذي.

(٥) سنن الترمذي (٨١٢)، وقال البخاري في هلال هذا: منكر الحديث، وقال العقيلي: لا يتابع على حديثه، ميزان الاعتدال ٤/ ٣١٥؛ وقال الذهبي: ويروى عن علي قوله.

(٦) أخرجه الدارمي (١٧٨٥)، والبيهقي ٤/ ٣٣٤ ، والبغوي في تفسيره ١/ ٢٣١ ، وفي إسناده ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٣٣٧ (الجزء المفقود) عن عمر موقوفاً، وصحح إسناده ابن كثير (يعني موقوفاً) في مسند الفاروق ١/ ٢٩٢ .

(٨) في (م) فرض عليكم الحجَّ.

يفعلْ فليمتْ على أيِّ حالٍ شاء؛ إنْ شاء يهودياً أو نصرانيّاً أو مجوسياً، إلا أنْ يكون به عذرٌ من مرض، أو سلطانٍ جائرٍ. ألا لا نصيبَ[1] له في شفاعتي ولا وُرودِ حَوْضِي»[2].

وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «من كان عنده مالٌ يبلّغه الحجَّ فلم يحجَّ، أو عنده مالٌ تحلُّ فيه الزكاة فلم يزكِّه، سأل عند الموت الرجعةَ». فقيل: يا ابن عباس، إنَّا كنَّا نرى هذا للكافرين، فقال: أنا أقرأ عليكم به قرآناً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ، وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3] [المنافقون: ٩-١٠].

قال الحسن بنُ صالح في تفسيره: فأزكِّي وأحجّ.

وعن النبيِّ ﷺ أنَّ رجلاً سأله عن الآية، فقال: «مَنْ حَجَّ لا يرجو ثواباً، أو جلس لا يخافُ عقاباً، فقد كفر به»[4].

وروى قتادةُ عن الحسن قال: قال عمر ﷺ: لقد هممتُ أنْ أبعثَ رجالاً إلى الأمصار، فينظرون إلى مَنْ كان له مالٌ ولم يحجَّ، فيضربون عليه الجزية، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5].

قلتُ: هذا خرجَ مَخرجَ التغليط، ولهذا قال علماؤنا: تَضمَّنتِ الآيةُ أنَّ من ماتَ ولم يحجَّ وهو قادرٌ، فالوعيدُ يتوجَّه عليه، ولا يُجزئُ أنْ يَحجَّ عنه غيرُه؛ لأنَّ حجَّ الغيرِ لو أسقط عنه الفرضَ؛ لسقط عنه الوعيد. والله أعلم.

---

(١) في (م): ألا نصيب؛ سقطت منه (لا).

(٢) أخرجه أبو الليث في تفسيره ١/ ٢٨٦، وروايته من طريق داود بن المحبر، عن عباد بن كثير الثقفي، عن عبد خير. وداود وعباد كلٌّ منهما متروك الحديث كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣١٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أورده النحاس في معاني القرآن ١/ ٤٤٨، والسيوطي في الإتقان ٢/ ١٢٤٣، وعزاه لعبد بن حميد في تفسيره عن نفيع مرسلاً.

(٥) أخرجه سعيد بن منصور في سننه ـ كما في مسند الفاروق لابن كثير ١/ ٢٩٣، والدر المنثور ٢/ ٥٦ ـ وابن الجوزي في التحقيق ٢/ ١١٨.

وقال سعيد بنُ جُبير: لو مات جارٌ لي وله مَيْسرةٌ ولم يحجّ، لم أصلِّ عليه(١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: تَصرِفون عن دين الله ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾.

وقرأ الحسن: «تُصِدُّون»، بضم التاء وكسر الصاد(٢)، وهما لغتان: صَدَّ وأصَدَّ، مثل: صلَّ اللحمُ وأصَلَّ: إذا أنْتَنَ، وخَمّ وأخَمَّ أيضاً: إذا تغيَّر.

﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: تطلبون لها، فحذف اللام، مثل: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣]. يقال: بغيتُ له كذا، أي: طلبتُه. وأبغيتُه كذا، أي: أعَنْتُه [عليه](٣).

والعِوَج: المَيْلُ والزَّيغ ـ بكسر العين ـ في الدِّين والقولِ والعملِ، وما خرج عن طريق الاستواء. وبالفتح: في الحائِط والجِدار، وكلِّ شخصٍ قائم. عن أبي عبيدة وغيرِه(٤).

ومعنى قولِه تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه: ١٠٨]، أي: لا يقدرون أنْ يَعُوجُوا عن دعائه. وعاجَ بالمكان وعَوَّجَ: أقام ووقف. والعائجُ الواقف(٥)، قال الشاعر:

هلَ انْتُمْ عائجونَ بنا لعنَّا ... نَرَى العَرَصاتِ أو أثَرَ الخِيامِ(٦)

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٣٣٧ (الجزء المفقود).

(٢) القراءات الشاذة ص٢٢، والمحرر الوجيز ١/ ٤٨١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٩ وما بين حاصرتين منه، وانظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٢٧، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٤٧.

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٩٨، وتفسير البغوي ١/ ٣٣١.

(٥) الصحاح (عوج)، وتهذيب اللغة ٣/ ٤٧.

(٦) أورده البغدادي في شرح شواهد الشافية ٤/ ٤٦٤ و ٤٦٦. بمثل رواية المصنف، ونسبه للفرزدق، ونسبه إليه كذلك صاحب طبقات فحول الشعراء ٢/ ٣٦٥، وصاحب الأغاني ٢١/ ٣٠٧، وروايته فيهما: ألستم عائجين بنا لعنَّا. قال البغدادي: الأصل: لعلنا، فأُبدلت اللام نوناً بضعف. =

والرجل الأعوجُ: السيِّءُ الخَلْقِ، وهو بَيِّنُ العَوَج. والعُوجُ من الخيل التي في أرجلها تَحْنِيبٌ، والأَعْوجِيَّةُ من الخيل تُنسبُ إلى فرسٍ كان في الجاهلية سابقاً[(١)]. ويقال: فرسٌ مُحَنَّبٌ: إذا كان بعيدَ ما بين الرِّجْلَيْن بغير فَحَجٍ[(٢)]، وهو مَدْحٌ. ويقال: الحَنَب اعوجاجٌ في السَّاقَين. قال الخليل: التَّحْنيبُ يوصف في الشدَّة، وليس ذلك باعوجاج[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أي: عقلاء. وقيل: شهداء أنَّ في التوراة مكتوباً أنَّ دِينَ اللّه الذي لا يُقبل غيرُه الإسلامُ، إذ فيه نعتُ محمدٍ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

نزلت في يهوديٍّ أرادَ تجديد الفِتنة بين الأَوْسِ والخَزْرَج بعد انقطاعها بالنبيِّ ﷺ، فجلس بينَهم وأنشدَهم شِعْراً قاله أحدُ الحَيَّيْنِ في حربهم. فقال الحَيُّ الآخر: قد قال شاعرُنا في يوم [كذا:] كذا وكذا، فكأنهم دخلَهم من ذلك شيءٌ، فقالوا: تعالَوْا نردَّ الحربَ جَذَعاً[(٤)] كما كانت. فنادى هؤلاء: يا آلَ أَوْس. ونادى هؤلاء: يا آل خَزْرَج. فاجتمعوا وأخذُوا السلاحَ، واصطفُّوا للقتال، فنزلت هذه الآية، فجاء النبيُّ ﷺ حتى

= وأورده ابن منظور في اللسان (لغن) ونسبه للفرزدق أيضاً، وروايته فيه: قفا يا صاحبيَّ بنا لغنَّا. وبنحوه أورده ابن الأنباري في الإنصاف ١/ ٢٢٥، ولم ينسبه. ولغنَّ (بالغين المعجمة) لغة في (لعلَّ) كما ذكر ابن منظور، وقال: بعض بني تيم يقول: لغنَّك، بمعنى: لعلَّك، وأورد البيت.

وأورده ابن منظور أيضاً في اللسان (أنن)، ونسبه لجرير، وروايتُه فيه: هلَ اَنتم عائجون بنا لأنَّا. أي: لعلنا، فقد تكون (أنَّ) المفتوحة بمعنى: لعلَّ، كما ذكر.

قوله: العَرَصات؛ هو جمع عَرْصَة، وهي كل بقعة بين الدور واسعة، ليس فيها بناء. اللسان (عرص).

(١) مجمل اللغة ٣/ ٦٣٥ .

(٢) في القاموس (فحج): فَحَجَ في مِشيته (كمنعَ): تدانى صدورُ قدميه، وتباعَدَ عَقِباه.. وهو أفحج، بيِّنُ الفَحَج، محركةً.

(٣) العين ٣/ ٢٥٠، ومجمل اللغة ١/ ٢٥٣ ، وعنه نقل المصنف كلام الخليل.

(٤) في (م): جذعاء. ولم تجود اللفظة في النسخ. والمثبت من أسباب النزول للواحدي ص١١١. قال في اللسان (جذع): أعدت الأمر جَذَعاً، أي: جديداً كما بدأ.. وإذا طفئت حرب بين قوم فقال بعضهم: إن شئتم أعدناها جَذَعَة، أي أول ما يبتدأ فيها.

وقف بين الصَّفَّين، فقرأها ورفعَ صوتَه، فلما سمعوا صوتَه، أَنْصَتوا له، وجعلوا يستمعون، فلما فرغَ؛ أَلْقَوا السِّلاح، وعانق بعضُهم بعضاً، وجعلوا يبكون. عن عكرمة وابن زيد وابن عباس.

والذي فعل ذلك شاسُ بنُ قيس اليهوديُّ، دَسَّ على الأوْس والخَزْرج مَنْ يُذَكِّرُهم ما كان بينهم منَ الحروب، وإنَّ النبيَّ ﷺ أتاهم وذَكَّرهم، فعرف القومُ أنها نَزْغةٌ منَ الشيطان، وكَيْدٌ من عدوِّهم، فألْقَوا السلاحَ من أيديهم، وبكَوا، وعانقَ بعضُهم بعضاً، ثم انصرفوا مع النبيِّ ﷺ سامعين مُطيعين، فأنزلَ اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يعني الأوسَ والخزرجَ. ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يعني شاساً وأصحابَه ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ﴾.

قال جابر بن عبد اللّه: ما كان طَالِعٌ أَكْرَهَ[1] إلينا من رسول اللّه ﷺ، فأومأ إلينا بيده فكَفَفْنا، وأصلحَ اللّهُ تعالى ما بينَنا، فما كان شخصٌ أحبَّ إلينا من رسول اللّه ﷺ، فما رأيتُ يوماً أقبحَ؛ ولا أَوْحَشَ أوَّلاً، وأحسَنَ آخِراً؛ من ذلك اليوم[2].

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

قاله تعالى على جهة التعجُّب، أي: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآن. ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ يعني محمداً ﷺ.

قال ابن عباس: كان بين الأوْس والخَزْرَج قتَالٌ وشَرٌّ في الجاهلية، فذكروا ما كان بينَهم، فثارَ بعضُهم على بعض بالسيوف، فَأُتِيَ النبيُّ ﷺ، فذُكر ذلك له، فذهب

---

(١) كذا وقع في النسخ و (م) وأسباب النزول للواحدي والعجاب لابن حجر: (أكره). ومعناه ـ إن صحَّ ـ أنه لم يكن شيءٌ أكرهَ إليهم من أن يراهم رسولُ الله ﷺ على تلك الحال من التنازع والاختلاف. ووقع في تفسير أبي الليث ١/ ٢٨٩ (المجلد ١/ورقة ١٣٦): فما كان من طالعٍ يومئذ أكرم إلينا من رسول الله ﷺ، إذ طلع إلينا فأومأ إلينا بيده..

(٢) انظر أسباب النزول للواحدي ص١١١ - ١١٢ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وأخرج الطبري ٥/ ٦٢٧ حديث زيد بن أسلم، وأورده ابن حجر في الإصابة ١/ ١٣٩ - ١٤٠ وقال: إسناد مرسل، وفيه راوٍ مبهم. وأخرج ابن المنذر ـ كما في الدر المنثور ٢/ ٥٨ ـ حديث عكرمة، وسترد رواية ابن عباس في الآية بعدها.

إليهم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[١].

ويدخل في هذه الآية مَنْ لم يَرَ النبيَّ ﷺ؛ لأنَّ ما فيهم من سُنَّته يقوم مَقام رؤيته.

قال الزَّجّاج: يجوزُ أن يكونَ هذا الخطابُ لأصحاب محمدٍ ﷺ خاصَّةً؛ لأنَّ رسولَ اللّه ﷺ كان فيهم وهم يشاهدونه، ويجوز أن يكونَ هذا الخطابُ لجميع الأمة؛ لأنَّ آثارَه وعلاماتِه والقرآنَ الذي أُوتِيَه[٢] فِينَا، فكأنَّ[٣] النبيَّ ﷺ فِينَا، وإنْ لم نشاهده[٤].

وقال قَتادة: في هذه الآية عَلَمان بيِّنان: كتابُ اللّه، ونبيُّ اللّه. فأمّا نبيُّ اللّه فقد مَضَى، وأمّا كتابُ اللّه فأبقاه[٥] اللّهُ بين أظهرهم رحمةً منه ونعمةً، فيه حلالُه وحرامُه، وطاعتُه ومعصيتُه[٦].

﴿وَكَيْفَ﴾ في موضع نصب، وفُتحت الفاءُ عند الخليل وسيبويه لالتقاء الساكنين، واخْتِير لها الفتحُ، لأنَّ ما قبل الفاء ياء، فثَقُل أن يجمعوا بين ياء وكسرة[٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ أي: يمتنع به[٨] ويتمسَّك بدينه وطاعته. ﴿فَقَدْ هُدِىَ﴾: وُفِّقَ وأُرشد ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. ابن جُريج: ﴿يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾: يؤمن به[٩].

وقيل: المعنى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ أي: يتمسَّك بحبل اللّه، وهو القرآن. يقال: أَعصم به واعتصم، وتمسَّك واستمسك: إذا امتنع به من غيره. واعتصمتُ فلاناً: هيَّأتُ له ما يَعتصِمُ به. وكلُّ متمسِّكٍ بشيءٍ مُعْصِمٌ ومُعتصِمٌ. وكل مانع شيئاً فهو

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص١١٣، وأخرجه الطبري ٥/ ٦٣٦، وابن أبي حاتم (٣٨٩٨).
(٢) في (د) و(خ) و(م): أوتي.
(٣) في (د) و(م): مكان.
(٤) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٤٨، ونقله المصنف عنه بواسطة تفسير أبي الليث ١/ ٢٨٧.
(٥) في (م): فقد أبقاه.
(٦) أخرجه الطبري ٥/ ٦٣٤، وابن أبي حاتم (٣٨٩٩).
(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٧.
(٨) لفظة (به) من (خ) و (ظ).
(٩) أخرجه الطبري ٥/ ٦٣٤، وابن أبي حاتم (٣٩٠١).

عاصم.

قال الفرزدق[١]:

أنا ابنُ العاصِمينَ بَنِي تَميم إذا مَا أَعْظَمُ الحَدَثانِ نَابَا

وقال النابغة:

يَظَلُّ من خوفه الملَّاحُ مُعْتَصِماً بالخَيْزُرانةِ بَعْدَ الأَيْنِ والنَّجَدِ[٢]

وقال آخر:

فأَشرَطَ فيها نَفْسَه وهو مُعْصِمٌ وألقى بأسبابٍ له وتَوكَّلا[٣]

وعَصَمه الطعامُ: منعَ الجوعَ منه، تقول العرب: عَصَم فلاناً الطعامُ، أي: منعه من الجوع، فكَنَّوْا السَّوِيقَ بأبي عاصم لذلك.

قال أحمد بن يحيى: العربُ تُسمِّي الخبزَ عاصماً وجابراً، وأنشد:

فلا تلوميني ولُومِي جابرا فجابرٌ كلَّفني الهواجِرَا

ويُسمُّونه عامراً. وأنشد:

أبو مالكٍ يعتادُني بالظَّهائرِ يجيءُ فيُلقي رَحْلَهُ عند عامِرِ

أبو مالك كنية الجوع[٤].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

فيه مسألة واحدة:

---

(١) ديوانه ص٩٩.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص٣٦ . والخيزرانة: ذنب السفينة، وهو السُّكَّان الذي تسكَّن به السفينة، والأَيْن: الإعياء. والنَّجَد: العَرَق. القاموس (خزر) (أين) (نجد).

(٣) قائله أوس بن حجر، والبيت في ديوانه ص٨٧ . وقوله: فأشرط أي: أعلم وأعدّ. مختار الصحاح (شرط).

(٤) تهذيب اللغة للأزهري ٢/ ٥٨ - ٥٩ .

رَوَى النحاس[١] عن مُرة عن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه ﷺ: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أنْ يُطاعَ فلا يُعْصَى، وأَنْ يُذْكَرَ فلا يُنْسَى، وأَنْ يُشْكَرَ فلا يُكْفر»[٢].

وقال ابن عباس: هو أَلَّا يُعْصَى طَرْفَةَ عيْن[٣].

وذكر المفسرون أنه لما نَزلت هذه الآية قالوا: يا رسول اللّه، مَنْ يَقْوَى على هذا؟ وشقَّ عليهم، فأنزل اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾. فنسخت هذه الآيةَ، عن قَتادةَ والرَّبيع وابنِ زيد[٤].

قال مقاتل: وليس في آل عمران من المنسوخ شيءٌ إلَّا هذه الآية[٥].

وقيل: إنَّ قوله: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ بيانٌ لهذه الآية. والمعنى: فاتَّقوا اللّهَ حَقَّ تُقاتِهِ ما اسْتَطَعْتُم[٦]، وهذا أصوب؛ لأنَّ النسخ إنما يكون عند عدم الجمع، والجمعُ ممكنٌ فهو أوْلَى.

وقد رَوَى عليُّ بنُ أبي طلحة، عن ابن عباس قال: قول اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ قال: لم تُنسخ، ولكن﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أنْ تُجاهدوا[٧] في اللّه[٨] حَقَّ جهادِه، ولا تَأْخُذْكم في اللّه لَوْمةُ لائم، وتقُوموا بالقِسط ولو على أنفسكم

---

(١) في (خ) و (ف) و (م): البخاري، وهو خطأ. والمثبت من (د) و (ظ).

(٢) هو في الناسخ والمنسوخ له (٢٩٩) موقوف على ابن مسعود، وذكر أنه أصح ما روي في تفسير هذه الآية. وأخرجه موقوفاً النسائي في الكبرى (١١٨٤٧)، وابن المبارك في الزهد ص٨ ، وعبد الرزاق في تفسيره ١/ ١٢٩ ، وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩٧ ، والطبري ٥/ ٦٣٧ ، والطبراني في المعجم الكبير ٩/ (٨٥٠١) و (٨٥٠٢)، والحاكم ٢/ ٢٩٤ وصححه على شرط الشيخين، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ٢٣٨ . قال ابن كثير: إسناد صحيح موقوف.

(٣) تفسير الرازي ٨/ ١٧١ .

(٤) أخرج أقوالهم الطبري ٥/ ٦٤٢ - ٦٤٣ .

(٥) تفسير البغوي ١/ ٣٣٣ .

(٦) انظر المحرر الوجيز ١/ ٤٨٣ .

(٧) في (د) و (خ) و (م): يجاهد، وفي (ظ): يجاهدوا والمثبت من الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ١٣٠ .

(٨) في (خ) و (ظ) و(م): في سبيل الله، والمثبت من (د)، وهو الموافق للناسخ والمنسوخ للنحاس.

وأبنائكم[١].

قال النحاس[٢]: وكلُّ ما ذُكِر في الآية؛ واجبٌ على المسلمين أن يستعملوه، ولا يقع فيه نسخٌ.

وقد مضى في البقرة[٣] معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟﴾ العِصمة: المَنْعَة، ومنه يقال للبَذْرَقَة: عِصْمةٌ. والبَذْرَقَةُ: الخَفَارَةُ للقافِلة، وذلك بأن يرسَلَ معها مَن يحميها ممَّن يُؤذيها. قال ابن خالويه: البَذْرَقَةُ ليست بعربية، وإنما هي كلمة فارسيَّة عرَّبتها العرب؛ يقال: بعثَ السلطانُ بَذْرَقةً مع القافلة[٤].

والحَبْل لفظ مشترك، وأصله في اللغة: السببُ الذي يُوصَل به إلى البُغية والحاجة[٥].

والحَبْلُ: حَبْلُ العاتق[٦]. والحَبْلُ: مستطيلٌ من الرمل، ومنه الحديث: واللّهِ ما تركتُ مِن حَبْلٍ إلا وقفتُ عليه، فهل لي مِن حَجٍّ[٧]؟ والحَبْلُ: الرَّسَنُ. والحَبْل:

(١) أخرجه أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ (٤٧٤)، والطبري ٥/ ٦٤٠ - ٦٤١ ، وابن أبي حاتم (٣٩١٠)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ١٣٠ .

(٢) الناسخ والمنسوخ ٢/ ١٣٠ .

(٣) ٢/ ٤١١ .

(٤) انظر اللسان (بذق).

(٥) تفسير الطبري ٥/ ٦٤٣ .

(٦) حبل العاتق: عَصَب ما بين العنق والمنكب. انظر النهاية (عتق).

(٧) هو من حديث عروة بن مضرِّس؛ أخرجه أحمد (١٦٢٠٨)، والترمذي (٨٩١)، والنسائي ٥/ ٢٦٣ ، وابن ماجه (٣٠١٦)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

العهد، قال الأعشى[١]:

وإذا تُجَوِّزُها حِبالُ قَبيلةٍ أخذتْ مِنَ الأُخرَى إليك حِبالَها

يريد الأمان.

والحَبْل: الداهية، قال كُثَيِّر[٢]:

فلا تعجَلِي يا عَزُّ أنْ تَتَفهَّمِي بنُصْحٍ أتَى الواشُونَ أم بِحُبُولِ

والحِبَالة: حِبالةُ الصائد[٣].

وكلُّها ليس مراداً في الآية إلا الذي بمعنى العهد، عن ابن عباس[٤]. وقال ابن مسعود: حبلُ اللّه: القرآن[٥]. ورواه عليٌّ وأبو سعيد الخدريُّ عن النبيِّ ﷺ[٦]. وعن مجاهد وقتادة مثل ذلك[٧]. وأبو معاوية عن الهَجَريّ، عن أبي الأحوص، عن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إنَّ هذا القرآنَ هو حَبْلُ اللّه»[٨].

ورَوى بَقيُّ[٩] بنُ مَخْلَد، حدَّثنا يحيى بنُ عبد الحميد، حدَّثنا هُشيم، عن العوَّام ابن حَوْشب، عن الشعبيِّ، عن عبد اللّه بن مسعود: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ قال: الجماعة، رُويَ عنه وعن غيره من وجوه[١٠]، والمعنى كلُّه متقارب

---

(١) ديوانه ص٧٩.

(٢) في النسخ الخطية: لبيد، والبيت في ديوان كثيّر ص٢٧٨.

(٣) انظر مجمل اللغة ١/ ٢٦٢.

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ١/ ٤٥٣.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٥/ ٦٤٦.

(٦) حديث علي ﷺ أخرجه ابن أبي حاتم (٣٩١٤)، وهو قطعة من حديث طويل أخرجه أحمد (٧٠٤)، والترمذي (٢٩٠٦). وسلف ١/ ١٠. وحديث أبي سعيد الخدري ﷺ أخرجه الطبري ٥/ ٦٤٦. وأخرجه أحمد (١١١٠٤) بأطول منه.

(٧) أخرجه الطبري ٥/ ٦٤٤ - ٦٤٥.

(٨) سلف مطولاً ١/ ١٢.

(٩) في النسخ و(م): تقي، وهو خطأ، والخبر في التمهيد ٢١/ ٢٧٣، وعنه نقل المصنف، وأخرجه أيضاً سعيد بن منصور في تفسيره (٥٢٠)، والطبري ٥/ ٦٤٤، والطبراني في المعجم الكبير ٩/ (٩٠٣٣). وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٢٦ وقال: منقطع الإسناد.

(١٠) ذكرها ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ٢٧٣.

مُتَداخل، فإنَّ اللّه تعالى يأمرُ بالأُلفة، وينهَى عن الفُرْقة، فإنَّ الفُرقةَ هَلَكةٌ، والجماعةَ نجاةٌ. ورحم اللّهُ ابنَ المباركِ حيث قال:

إنَّ الجماعةَ حَبْلُ اللّهِ فاعْتَصِمُوا مِنهُ بعُرْوَتِهِ الوُثْقَى لِمَنْ دَانا[1]

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ يعني في دينكم كما افترقتِ اليهودُ والنصارى في أديانهم. عن ابن مسعود وغيره.

ويجوز أن يكون معناه: ولا تفرَّقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة، وكونوا في دين اللّه إخواناً، فيكون ذلك مَنْعاً لهم عن التقاطع والتدابر، ودلَّ عليه ما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.

وليس فيه دليلٌ على تحريم الاختلاف في الفروع، فإنَّ ذلك ليس اختلافاً، إذِ الاختلافُ ما يتعذَّر معه الائتلافُ والجمعُ، وأمّا حكم مسائل الاجتهاد، فإنَّ الاختلافَ فيها سببٌ لاستخراج[2] الفرائض ودقائق معاني الشرع، وما زالت الصحابةُ يختلفون في أحكام الحوادث، وهم مع ذلك متآلفون. وقال رسول اللّه ﷺ: «اختلافُ أُمَّتي رحمة»[3] وإنما منع اللّهُ اختلافاً هو سببُ الفساد[4].

رَوَى الترمذيُّ عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول اللّه ﷺ قال: «تَفرَّقَتِ اليهودُ على إحدَى وسَبعينَ فِرْقةً، أو اثنتينِ وسبعين فِرْقةً، والنصارى مثلَ ذلك، وتفترقُ أمتي على

---

(١) أورده ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ٢٧٥ ضمن ثلاثة أبيات.

(٢) في (م): بسبب استخراج.

(٣) لم نقف عليه مسنداً بهذا اللفظ، وقال السيوطي في الجامع الصغير (٢٨٨): ولعله خرج في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا. وأورده ملّا علي القاري في الأسرار المرفوعة (١٧) وقال: زعم كثير من الأئمة أنه لا أصل له، لكن ذكره الخطابي في غريب الحديث مستطرداً، وأشعر بأن له أصلاً عنده. وأورده السخاوي في المقاصد الحسنة (٣٩) وقال: رواه البيهقي في: المدخل [١٥٢] من حديث سليمان بن أبي كريمة، عن جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «... واختلاف أصحابي لكم رحمة». ومن هذا الوجه أخرجه الطبراني والديلمي في مسنده، وجويبر ضعيف جداً، والضحاك عن ابن عباس منقطع وانظر كشف الخفاء ١/ ٦٦ .

(٤) انظر المحرر الوجيز ١/ ٤٨٤ .

ثلاثٍ وسبعينَ فِرْقةً». قال الترمذيُّ: هذا حديث صحيح[١].

وأخرجه أيضاً عن ابن عَمرو[٢] قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لَيأْتينَّ على أُمَّتي ما أَتَى على بني إسرائيلَ، حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْلِ، حتى إنْ[٣] كانَ منهم مَنْ يأتي أُمَّهُ عَلانيةً، لكان من أُمَّتي مَنْ يصنعُ ذلك، وإنَّ بني إسرائيلَ تَفَرَّقتْ ثِنتينِ[٤] وسَبعينَ مِلَّةً، وتَفْتَرِقُ أُمَّتي على ثلاثٍ وسبعينَ مِلَّةً، كلُّهم في النَّار إلَّا مِلَّةً واحدةً». قالوا: مَنْ هيَ يا رسولَ اللّه؟ قال: «مَا أنا عليهِ وأصحابي». أخرجه من حديث عبد الرحمن[٥] بن زياد الإفريقيِّ، عن عبدِ اللّهِ بنِ يزيدَ، عن ابن عمرو، وقال: هذا حديثٌ مُفَسَّرٌ[٦] غريبٌ، لا نعرفه إلَّا مِن هذا الوجه[٧]. قال أبو عمر: وعبد الرحمن[٨] الإفريقي ثِقةٌ، وَثَّقه قومُه وأثنَوا عليه، وضعَّفه آخرون[٩].

وأخرجه أبو داود في سننه من حديث معاوية بن أبي سفيانَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «ألَا إنَّ مَنْ قبلَكم مِنْ أهلِ الكتابِ افترقُوا على ثنتينِ[١٠] وسبعينَ مِلَّةً، وإنَّ هذه المِلَّة[١١] ستفترقُ على ثلاثٍ وسبعينَ؛ ثنتانِ وسبعونَ في النار، وواحدةٌ في الجنة، وهي الجماعة، وإنه سيخرج مِنْ أُمَّتي أقوامٌ تَجارَى بهم[١٢] تلك الأهْواءُ كما يتجارَى

---

(١) سنن الترمذي (٢٦٤٠). وأخرجه أيضاً أحمد (٨٣٩٦)، وأبو داود (٤٥٩٦)، وابن ماجه (٣٩٩١).

(٢) في النسخ: عمر، وهو خطأ. والمثبت من سنن الترمذي (٢٦٤١). وانظر تحفة الأشراف ٦/ ٣٥٤ .

(٣) في (م) ونسخة في (د): لو.

(٤) في (د) و (م): اثنتين.

(٥) في (م) و (د): عبدالله، وهو خطأ.

(٦) في (د) و (م): حسن، وفي (خ): حسن مفسر.

(٧) سنن الترمذي (٢٦٤١). وأخرجه أيضاً اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٤٧).

(٨) في (د) و (م): عبدالله، وهو خطأ، وسقط من (ظ).

(٩) قال الذهبي في الميزان ٢/ ٥٦٢ : وكان البخاري يقوي أمره، وقال يحيى: ليس به بأس وقد ضعِّف، وقال أحمد: ليس بشيء نحن لا نروي عنه شيئاً، وقال النسائي: ضعيف، وقال الدارقطني: ليس بالقوي، وقال ابن حبان فأسرف: يروي الموضوعات عن الأثبات.

(١٠) في (د): اثنين، وفي (م): اثنتين.

(١١) ليست في (د)، وفي (ظ) و (خ): الأمة.

(١٢) في النسخ الخطية: بينهم، والمثبت من (م) وهو الموافق لسنن أبي داود.

الكَلَبُ بصاحبه، لا يَبْقَى منه عِرْقٌ ولا مِفصَلٌ إلا دخله»[١].

وفي سنن ابنِ ماجه: عن أنسِ بنِ مالك قال: قال رسول اللّه ﷺ: «مَنْ فَارقَ الدُّنيا على الإخلاصِ للهِ وحدَه، وعبادتِه لا شريكَ له، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، ماتَ واللّهُ عنه راضٍ». قال أنس: وهو دِينُ اللّهِ الذي جاءتْ به الرسلُ، وبلَّغوهُ عن ربهم قَبْلَ هرجِ الأحاديثِ، واختلافِ الأهْوَاء، وتصديقُ ذلك في كتاب اللّه في آخر ما نَزَل، يقولُ اللّهُ: ﴿فَإِن تَابُوا﴾ قال: خلعوا الأوثانَ وعبادتَها ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة: ٥]، وقال في آيةٍ أُخرى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]. أخرجه عن نَصْر بن عليٍّ الجَهْضَمِيِّ، عن أبي أحمد، عن أبي جعفرٍ الرازيِّ، عن الربيعِ بن أنس، عن أنس[٢].

قال أبو الفرج الجَوْزيُّ[٣]: فإن قيل: [هل] هذه الفِرَقُ معروفة؟ فالجواب: أنَّا نعرف الافتراقَ وأصولَ الفِرَق، وأنَّ كلَّ طائفة من الفِرَق انقسمت إلى فِرَق، وإنْ لم نُحِطْ بأسماءِ تلك الفِرَق ومذاهبِها، فقد ظهر لنا من أصول الفِرَق: الحَرُوريَّة، والقَدَرِيَّة، والجَهْمِيَّة، والمُرْجِئة، والرَّافِضَة، والجَبْرِيَّة.

وقال بعضُ أهلِ العلم: أصلُ الفِرقِ الضَّالَّةِ هذه الفِرَقُ السِّتُّ، وقد انقسمتْ كلُّ فِرْقةٍ منها [على] اثنتي عَشْرةَ فِرْقة، فصارتِ اثنتينِ وسبعينَ فِرْقة.

انقسمت الحَرُوريَّةُ[٤] اثنتَيْ عَشْرَةَ فِرْقَةً:

---

(١) سنن أبي داود (٤٥٩٦)، وهو في مسند أحمد (١٦٩٣٧) قوله: تَجارى بهم تلك الأهواء... أي: يتواقعون في الأهواء الفاسدة، ويتداعون فيها، تشبيهاً بجري الفرس، والكَلَب ـ بالتحريك ـ داء يعرض للكلب فمن عضّه قتله. النهاية (جرى)..

(٢) سنن ابن ماجه (٧٠). وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٣١ - ٣٣٢ وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٥٦) قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢٤): هذا إسناد ضعيف، الربيع بن أنس ضعيف هنا.

(٣) في تلبيس إبليس ص٢٠ وما بعدها، وما بين حاصرتين منه.

(٤) الحرورية: هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين عليٍّ ﷺ حين جرى أمر المحكّمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، ورأسهم عبدالله بن الكوّاء، وعتّاب بن الأعور، وعبدالله بن وهب الراسبي، وعروة ابن جرير، ويزيد بن أبي عاصم المحاربي، وحُرْقُوص بن زهير البجلي المعروف بذي الثُّدَيَّة. الملل والنحل ١/ ١١٥ .

فأوَّلهم الأزْرقِيَّة[١]: قالوا: لا نعلمُ أحداً مؤمناً، وكفَّروا أهلَ القِبْلة إلَّا مَنْ دانَ بقولهم.

والإباضيَّة[٢]: قالوا: مَنْ أخذَ بقولنا فهو مؤمن، ومَنْ أعرضَ عنه فهو منافق.

والثعلبيَّة[٣]: قالوا: إنَّ اللّه عزَّ وجلَّ لم يقضِ ولم يُقَدِّر.

والحازِمِيَّة[٤]: قالوا: لا ندري ما الإيمانُ، والخلقُ كلُّهم معذورون.

والخَلَفِية[٥]: زعموا أنَّ مَنْ تركَ الجهادَ مِنْ ذَكَر أو أنثى كَفَرَ.

والمَكْرَميَّة[٦]: قالوا: ليس لأحدٍ أنْ يَمسَّ أحداً لأنه لا يعرفُ الطاهر من النَّجِس، ولا أنْ يؤاكلَه حتى يتوبَ ويغتسلَ.

والكَنْزيَّة: قالوا: لا يَسَعُ أحداً[٧] أنْ يُعطيَ مالَه أحداً؛ لأنه ربَّما لم يكن مستحقّاً، بل يَكْنِزُه في الأرض حتى يظهرَ أهلُ الحقِّ.

والشمراخِيَّة[٨]: قالوا: لا بأسَ بمسِّ النساء الأجانب، لأنهنَّ رَياحين.

---

(١) الأزرقيَّة: أصحاب أبي راشد نافع بن الأزرق، خرج في أواخر دولة يزيد بن معاوية، إلى أن كان قتلُه في جمادى الآخرة سنة (٦٥هـ)، له أسئلة عن ابن عباس مجموعة في جزء. لسان الميزان ٨/ ٢٤٧، والملل والنحل ١/ ١١٨.

(٢) الإباضيَّة: أصحاب عبدالله بن إباض. قال الزركلي في الأعلام ٤/ ٦١: اضطرب المؤرخون في سيرته وتاريخ وفاته، وكان معاصراً لمعاوية، وعاش إلى أواخر أيام عبد الملك بن مروان.

(٣) الثعلبيَّة: ويقال: الثعالبة، وهم أصحاب ثعلبة بن عامر، وقيل: ثعلبة بن مشكان. انظر الملل والنحل ١/ ١٣١، والفرق بين الفرق ص٨٠.

(٤) الحازميَّة: أصحاب حازم بن علي. الملل ١/ ١٣١. وفي (د) و (ظ) و (م): الخازميَّة. وكذا في مقالات الإسلاميين ص١٧٩ ولم ينسبها. والمثبت من (خ) وتلبيس إبليس.

(٥) الخَلَفيَّة: أصحاب خَلَف الخارجي، وهم من خوارج كرمان ومكران. الملل والنحل ١/ ١٣٠، والفرق بين الفرق ص٧٥.

(٦) في (خ) و (د) و (م): الكوزية. وفي (ظ): الكروية. والمثبت من تلبيس إبليس ص٢١. والمَكْرَميَّة: أصحاب مَكْرَم بن عبدالله العجلي. الملل والنحل ١/ ١٣٣.

(٧) في تلبيس إبليس ص٢٢: لا ينبغي لأحد.

(٨) الشمراخيَّة: نسبة إلى عبدالله بن شمراخ. مقالات الإسلاميين ص١٩٨.

والأَخْنَسيَّة(١): قالوا: لا يلحقُ الميتَ بعد موته خيرٌ ولا شرٌ.

والحكميَّة(٢): قالوا: مَنْ حَاكَمَ إلى مخلوقٍ فهو كافرٌ. والمعتزلة [من الحرورية]: قالوا: اشتبهَ علينا أمرُ عليٍّ ومعاوية، فنحن نتبرَّأُ من الفريقين.

والميمونية(٣): قالوا: لا إمامَ إلا برضا أهلِ محبَّتنا.

وانقسمت القَدَرِيَّة اثنتَيْ عَشْرَةَ فِرْقَةً:

الأحمرية: وهي التي زعمت أنَّ في شرط العَدلِ مِنَ اللّه أنْ يُملِّكَ عبادَه أمورَهم، ويحولَ بينهم وبين معاصيهم.

والثَّنَويَّة: وهي التي زعمت أنَّ الخيرَ مِنَ اللّه، والشرَّ مِنَ الشيطان.

والمعتزلة(٤): وهم الذين قالوا بخلقِ القرآن وجحدوا صفاتِ الرُّبوبيَّة.

والكَيْسانية(٥): وهم الذين قالوا: لا ندري هذه الأفعال مِنَ اللّهِ أو مِنَ العباد، ولا نعلمُ أيثابُ الناسُ بعد [الموت] أو يعاقبون.

والشيطانيَّة(٦): قالوا: إنَّ اللّهَ تعالى لم يخلقِ الشيطانَ.

---

(١) الأخنسية: أصحاب أخنس بن قيس. الملل والنحل ١/ ١٣٢، ومقالات الإسلاميين ص٩٨، والفرق بين الفرق ص٨١.

(٢) في تلبيس إبليس: المحكّمية.

(٣) الميمونية: أصحاب ميمون بن خالد، وهو رجل من أهل بلخ. الملل والنحل ١/ ١٢٩، ومقالات الإسلاميين ص٩٥.

(٤) المعتزلة: ويقال لهم: الواصلية، والقدرية والعدلية. وهم أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزّال، مولده سنة ثمانين بالمدينة، وكان تلميذ الحسن البصري، وطرده عن مجلسه لما قال: الفاسق لا مؤمن ولا كافر، فانضم إليه عمرو بن عبيد، واعتزلا حلقة الحسن، فسموا المعتزلة. مات سنة إحدى وثلاثين ومئة. انظر سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٦٤، والملل والنحل ١/ ٤٣ و ٤٦.

(٥) هم أتباع المختار بن أبي عبيد الثقفي، الذي قام بثأر الحسين بن علي، وقتل أكثر الذين قتلوا حسيناً بكربلاء، وكان المختار يقال له كيسان، وقيل: إنه أخذ مقالته عن مولى لعلي ﷺ اسمه كيسان، قتل سنة (٦٧ هـ). الفرق بين الفرق ص٢٧. والملل والنحل ١/ ١٤٧، ومقالات الإسلاميين ص١٨، والأعلام ٧/ ١٩٢.

(٦) الشيطانية: ويقال لهم: النعمانية، وهم أتباع محمد بن النعمان الرافضي أبي جعفر الأحول الملقب بشيطان الطاق. والشيعة تقول: هو مؤمن الطاق. وهو تلميذ الباقر محمد بن علي بن الحسين. انظر الملل ١/ ١٨٦.

والشَّريكيَّة: قالوا: إنَّ السيئاتِ كلَّها مقدَّرَةٌ إلَّا الكفر.

والوَهْمِيَّة: قالوا: ليس لأفعالِ الخلقِ وكلامهم ذاتٌ، ولا للحسنةِ والسيئةِ ذاتٌ.

والرَّاوندية[١]: قالوا: كلُّ كتابٍ نزلَ من عندِ اللّه فالعملُ به حقٌّ، ناسخاً كانَ أو منسوخاً.

والبُتْرِيَّة[٢]: زعموا أنَّ مَنْ عصى ثم تابَ، لم تقبلْ توبتُه.

والناكِثيَّة: زعموا أنَّ مَنْ نَكَثَ بيعةَ رسولِ اللّه ﷺ فلا إثمَ عليه.

والقاسِطيَّة: [فضّلوا طلب الدنيا على الزهد فيها.

والنَّظَّاميّة[٣]]: تبعوا إبراهيمَ بن النَّظَّام في قوله: مَنْ زعمَ أنَّ اللّه شيءٌ فهو كافرٌ.

وانقسمت الجَهْميَّة[٤] اثنتَي عَشْرَةَ فرقةً:

المعطِّلة: زعموا أنَّ كلَّ ما يقع عليه وهمُ الإنسان فهو مخلوقٌ، وأنَّ من ادَّعى أنَّ اللّه يُرى فهو كافرٌ.

والمَرِيسيَّة[٥]، قالوا: أكثرُ صفاتِ اللّه تعالى مخلوقةٌ.

---

(١) في (د) و (م): الزبرية. وفي (ظ) و (خ): الزبوندية. والمثبت من تلبيس إبليس ص٢٢ . والراوندية نسبة إلى أحمد بن يحيى أبي الحسين بن الراوندي، كان من متكلمي المعتزلة، ثم تزندق، واشتهر بالإلحاد. لسان الميزان ١/ ٣٢٣ - ٣٢٤ ، الأعلام ١/ ٢٦٧ .

(٢) في (خ) و (ظ): المنبرية. وفي (م): المسعدية. والمثبت من تلبيس إبليس ص٢٢ . والبُتْرية: أصحاب الحسن بن صالح بن حيّ، وأصحاب كثير النوَّاء الملقب بالأبتر. وهي فرقة من الزيدية. انظر مقالات الإسلاميين ١/ ١٤٤ ، والفرق بين الفرق ص٢٤ .

(٣) ما بين حاصرتين من تلبيس إبليس ص٢٢ . والنَّظَّامية: أتباع أبي إسحاق إبراهيم بن سيَّار المعروف بالنَّظَّام، والمعتزلة يوهمون أنه كان نظَّاماً للكلام المنثور والشعر الموزون، وإنما كان ينظم الخرز في سوق البصرة، ولأجل ذلك قيل له: النَّظّام.. وأكثر المعتزلة متفقون على تكفير النَّظَّام، وإنما تبعه في ضلالته شرذمة من القدرية. له تصانيف جمّة، ورد أنه سقط من غرفة وهو سكران، فمات سنة بضع وعشرين ومئتين. الفرق بين الفرق ص١١٣ ، و السير ١٠/ ٥٤١ .

(٤) الجَهْمية: أصحاب جَهْم بن صفوان، أبو محرز الراسبي مولاهم، السمرقندي، أسُّ الضلالة، كان صاحب ذكاء وجدال، قتل سنة (١٢٨هـ). الملل والنحل ص٨٦ ، والسير ٦/ ٢٦ .

(٥) المريسية: هم أتباع بشر بن غياث المَريسي، أبو عبد الرحمن، كان من كبار الفقهاء، وجرّد القول بخلق القرآن ودعا إليه، مات آخر سنة (٢١٨ هـ). السير ١٠/ ١٩٩ ، والفرق بين الفرق ص١٩٢ .

والملتزقة(١): جعلوا الباري سبحانه في كل مكان.

والوَارِدِيَّة: قالوا: لا يدخلُ النارَ مَنْ عَرف ربَّه، ومَنْ دخلَها لم يخرجْ منها أبداً.

والزنَادِقَة(٢): قالوا: ليس لأحدٍ أنْ يُثبتَ لنفسه ربّاً، لأنَّ الإثباتَ لا يكون إلا بعد إدراكِ الحواس، [وما يُدرك فليس بإله](٣) وما لا يُدرَك لا يثبت.

والحَرْقيَّة: زعموا أنَ الكافرَ تَحرقُه النارُ مرَّةً واحدةً، ثم يَبْقَى محترقاً أبداً لا يجدُ حرَّ النار.

والمخْلُوقية: زعموا أنَّ القرآنَ مخلوقٌ.

والفانيّة: زعموا أنَّ الجنَّةَ والنارَ يفنيان، ومنهم مَنْ قال: لم يُخلقا.

والمغيريَّة(٤): جحدوا الرسلَ، وقالوا: إنما هم حكماء. والواقفيَّة، قالوا: لا نقول إنَّ القرآن مخلوقٌ ولا غيرَ مخلوق.

والقَبْريَّة: يُنكرون عذابَ القبرِ والشفاعةَ.

واللفْظيَّة: قالوا: لَفْظُنا بالقرآن مخلوقٌ.

وانقسمتِ المُرْجِئةُ اثنتَيْ عَشْرةَ فِرْقة:

التَّارِكيَّة: قالوا: ليس للهِ عزَّ وجلَّ على خلقه فريضةٌ سِوى الإيمان به، فمَنْ آمنَ به فليفعل ما شاء.

والسَّائبيَّة: قالوا: إنَّ الله تعالى سيَّبَ خلقَه ليفعلوا ما شاؤوا.

والراجِيَّة: قالوا: لا يُسمَّى الطائعُ طائعاً ولا العاصي عاصياً، لأنّا لا ندري مآله عند الله تعالى.

---

(١) في تلبيس إبليس: الملتزمة.

(٢) في (ظ): الزبارقة.

(٣) ما بين حاصرتين من تلبيس إبليس ص٢٣ .

(٤) في (د) و (م): العبدية. وفي (ظ): العمرية، وفي (خ): العيرية. والمثبت من تلبيس إبليس. والمغيرية: أصحاب المغيرة بن سعيد العجلي، أبو عبدالله الكوفي الكذاب، قال الجوزجاني: قُتل على ادعاء النبوة في حدود (١٢٠ هـ). لسان الميزان ٨/ ١٢٩ ، والملل والنحل ١/ ١٧٦ .

والشَّاكِيَة[١]: قالوا: الطاعةُ ليست منَ الإيمان.

والبيْهسية[٢]: قالوا: الإيمانُ عِلْمٌ، ومَنْ لا يعلمُ الحقَّ منَ الباطل، والحلالَ منَ الحرام، فهو كافرٌ.

والعَمَلِيَّة: قالوا: الإيمان عَملٌ.

والمَنْقُوصِيَّة: قالوا: الإيمانُ لا يزيدُ ولا ينقصُ.

والمسْتَثْنِيَّة: قالوا: الاستثناء منَ الإيمان.

والمشبِّهة: قالوا: بَصَرٌ كبصرٍ، ويَدٌ كيدٍ[٣].

والحَشَويّة: قالوا: حكم الأحاديث كلِّها واحدٌ، فعندهم أنَّ تاركَ النفل كتارك الفرض.

والظاهِرِيّة: الذين نفوا القياس.

والبِدْعيَّة: أوَّلُ منِ ابتدعَ الأحداثَ في هذه الأمّة.

وانقسمت الرافضةُ اثنتي عشرة فرقة:

العَلَويَّة: قالوا: إنَّ الرسالةَ كانت إلى عليٍّ، وإنَّ جبريلَ أخطأ.

والأمْرِيَّة: قالوا: إنَّ علياً شريكُ محمدٍ في أمره.

والشِّيعة: قالوا: إنَّ علياً ﷺ وصِيُّ رسولِ اللّه ﷺ، ووَليُّه من بعده، وإنَّ الأُمَّةَ كفرتْ بمبايعةِ غيرِه.

والإسحاقيَّة[٤] قالوا: إنَّ النبوّة متصلةٌ إلى يوم القيامة، وكلُّ مَنْ يعلمُ علمَ أهلِ

---

(١) في (د) و (م): السالبية. والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لكتاب تلبيس إبليس، والكلام منه.

(٢) في (د) و (م): البهيشية. وفي (ظ). السمتية. والمثبت موافق لكتاب تلبيس إبليس. والبيهسية: أصحاب أبي بَيْهس الهيصم بن جابر، أحد بني سعد بن ضبيعة، طلبه الحجاج أيام الوليد، فهرب إلى المدينة. الملل ١/ ١٢٥، والأعلام ٨/ ١٠٥.

(٣) في تلبيس إبليس ص٢٣: يقولون: لله بصرٌ كبصري، ويَدٌ كَيَدي.

(٤) الإسحاقية: نسبة إلى إسحاق بن محمد النخعي الأحمر، كذاب مارق من الغلاة، وكان خبيث المذهب، يقول: إن علياً هو الله، مات سنة (٢٨٦هـ). تاريخ بغداد ٣/ ٢٩٠، وتلبيس إبليس ص٩٤، ولسان الميزان ٢/ ٧١.

البيت فهو نبيٌّ.

والناوُوسيّة(١): قالوا: عليٌّ أفضلُ الأمة، فمَنْ فضَّلَ غيرَه عليه فقد كَفرَ.

والإماميَّة: قالوا: لا يمكنُ أنْ تكونَ الدنيا بغير إمامٍ من وَلَدِ الحسين، وإنَّ الإمامَ يُعَلِّمُه جبريلُ عليه السلام، فإذا ماتَ بدّل غيره مكانه.

والزيدِيّة(٢): قالوا: وَلَدُ الحسين كلُّهم أئمةٌ في الصلوات، فمتى وُجد منهم أحدٌ لم تَجُزِ الصلاةُ خلفَ غيرهم، بَرِّهم وفاجِرِهم.

والعبَّاسيَّة: زعموا أنَّ العبَّاسَ كان أولى بالخلافة من غيره.

والتناسخية: قالوا: الأرواحُ تتناسخ، فمَنْ كان مُحسناً خرجتْ روحُه، فدخلت في خلق يسعد بعيشه.

والرَّجعية: زعموا أنَّ علياً وأصحابَه يرجعون إلى الدنيا، وينتقمون من أعدائهم.

واللاعِنَة: يلعنون عثمان وطلحة والزُّبير ومعاويةَ وأبا موسى وعائشةَ وغيرَهم.

والمتربِّصة: تشبَّهوا بزيّ النُّساك، ونصبوا في كل عَصْرٍ رجلاً ينسُبون إليه الأمر، ويزعمون أنه مَهْدِيُّ هذه الأمة، فإذا ماتَ نصبوا آخر.

ثم انقسمت الجَبْرِيَّة اثنتَيْ عَشْرَةَ فِرْقَةً، فمنهم:

المضطرية(٣): قالوا: لا فعلَ للآدميّ، بل اللّهُ يفعل الكُلَّ.

والأفعالية: قالوا: لنا أفعالٌ، ولكن لا استطاعة لنا فيها، وإنما نحن كالبهائم نُقاد بالحبل.

والمفروغيَّة: قالوا: كلُّ الأشياء قد خُلقت، والآن لا يُخلقُ شيءٌ.

---

(١) الناووسية: أتباع رجل يقال له: ناووس. وقيل: نسبوا إلى قرية ناووسا، وقيل: إلى رجل من أهل البصرة يقال له: عجلان بن ناوس. الملل والنحل ١/١٦٦، ومقالات الإسلاميين ص٢٥ .

(٢) الزيدية: أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسين الهاشمي العلوي المدني، أخو أبي جعفر الباقر، كان ذا علم وجلالة وصلاح، استشهد سنة (١٢٢ هـ). السير ٥/٣٨٩، والملل والنحل ١/ ١٥٤ .

(٣) في (د) وتلبيس إبليس ص٢٤: المضطربة.

والنجاريّة[١]: زعمتْ أنَّ اللّه تعالى يُعذِّب الناسَ على فِعْلِه، لا على فِعْلِهم.

والمنّانيَّة: قالوا: عليك بما يخطر بقلبك، فافْعَلْ ما توسَّمتَ منه الخيرَ.

والكَسْبية: قالوا: لا يكتسبُ العبدُ ثواباً ولا عقاباً.

والسَّابقية: قالوا: مَنْ شاءَ فليعملْ، ومَنْ شاءَ لا[٢] يعمل، فإنَّ السعيدَ لا تضرُّه ذنوبُه، والشَّقيَّ لا ينفعُه بِرُّه.

والحِبِّيّة: قالوا: مَنْ شربَ كأسَ محبَّةِ اللّه تعالى سقطتْ عنه عبادةُ الأركان.

والخَوْفيّة: قالوا: مَنْ أحبَّ اللّه تعالى لم يسعْهُ أنْ يخافَه، لأنَّ الحبيبَ لا يَخافُ حبيبه.

والفكريَّة[٣]: قالوا: مَنِ ازدادَ عِلماً أُسقطَ عنه بقدر ذلك منَ العبادة.

والخشبية[٤]: قالوا: الدُّنيا بين العبادِ سواءٌ، لا تفاضُلَ بينهم فيما ورَّثهم أبوهم آدمُ.

والمنِّيَّة: قالوا: مِنَّا الفعل، ولنا الاستطاعةُ.

وسيأتي بيانُ الفِرقة التي زادت في هذه الأمة في آخر سورة الأنعام[٥] إن شاء اللّهُ تعالى.

وقال ابن عباس لِسِمَاك الحنفيّ[٦]: يا حنفيّ، الجماعةَ الجماعةَ، فإنَّما هلكتِ الأممُ الخاليةُ لتفرُّقها؛ أما سمعتَ اللّه عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾.

---

(١) النجارية: أصحاب الحسين بن محمد النجار، أحد كبار المتكلمين، له مناظرة مع النظام، وله مصنفات. السير ١٠/ ٥٥٤، والملل والنحل ١/ ٨٨ .

(٢) في النسخ الخطية: لم. والمثبت من تلبيس إبليس ص٢٤ والكلام منه.

(٣) في (د): الفركية.

(٤) في تلبيس إبليس: الخسية. وقال ابن الأثير في النهاية (خشب): هم أصحاب المختار بن أبي عبيد، ويقال لضرب من الشيعة الخشبية، قيل: لأنهم حفظوا خشبة زيد بن علي حين صلب، والوجهُ الأول.

(٥) في تفسير الآية (١٥٣) منها.

(٦) هو سماك بن الوليد المحدِّث أبو زُميل الحنفي اليمامي، نزيل الكوفة. سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٤٩ .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرةَ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إنَّ اللّهَ يَرْضَى لكم ثلاثاً، ويَكْرهُ لكم ثلاثاً: يَرْضَى لكم أنْ تَعبدُوه ولا تُشركوا به شيئاً، وأنْ تَعتصموا بحبلِ اللّهِ جميعاً ولا تفرقوا، ويَكْرَهُ لكم ثلاثاً: قيلَ وقالَ، وكثرةَ السؤال، وإضاعةَ المال»[1].

فأوجبَ تعالى علينا التمسُّكَ بكتابه وسنةِ نبيِّه، والرجوعَ إليهما عند الاختلاف، وأمرَنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسُّنة اعتقاداً وعملاً، وذلك سببُ اتفاقِ الكلمة، وانتظامِ الشَّتاتِ الذي يتمُّ به مصالحُ الدنيا والدِّين، والسلامة من الاختلاف، وأمرَ بالاجتماع، ونَهَى عن الافتراق الذي حصل لأهل الكتابين.

هذا معنى الآية على التمام، وفيها دليلٌ على صحَّةِ الإجماع حسبما هو مذكورٌ في موضعه من أصول الفقه، واللّه أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾.

أمر تعالى بتذكُّر نِعَمِه، وأعظمُها الإسلامُ واتِّباعُ نبيِّهِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام؛ فإنَّ به زالتِ العداوةُ والفُرْقةُ، وكانتِ المحبَّةُ والأُلفة. والمرادُ الأوْسُ والخزرج؛ والآيةُ تَعمُّ.

ومعنى ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ أي: صِرْتُم بنعمة الإسلام إخواناً في الدِّين. وكلُّ ما في القرآن «أصبحتم» معناه: صِرْتُم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: ٣٠] أي: صار غائراً[2].

والإخوان جمعُ أَخٍ، وسُمِّيَ أخاً لأنه يتوخَّى مذهبَ أخيه، أي: يقصده.

وشَفا كلِّ شيءٍ: حَرْفُهُ، وكذلك شفيرُه، ومنه قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾[3] [التوبة: ١٠٩].

---

(١) صحيح مسلم (١٧١٥)، وهو في مسند أحمد (٨٣٣٤).

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٢٨٨ .

(٣) انظر الصحاح (شفا).

قال الراجز:

نحنُ حفَرْنا للحجيجِ سَجْلَهْ نابتةٌ فوق شِفاها بَقْلَهْ[١]

وأشْفَى على الشيء: أشرفَ عليه، ومنه: أشفى المريضُ على الموت. وما بقي منه إلا شَفاً؛ أي: قليل. قال ابنُ السِّكِّيت[٢]: يقال للرجلِ عند موته، وللقمرِ عند امِّحاقِه، وللشمسِ عند غروبها: ما بقي منه إلا شَفاً، أي: قليل. قال العجَّاج[٣]:

ومَرْبَأٍ عالٍ لمن تَشَرَّفا أَشْرَفْتُه بلا شَفاً أو بِشَفَا

قوله: «بلا شَفاً» أي: غابت الشمسُ. «أو بشَفا»: أو: قد بقيتْ منها بقيَّةٌ[٤]. وهو من ذَوات الياء، وفيه لغةٌ أنه من ذوات الواو.

وقال النحاس[٥]: الأصلُ في شَفا: شَفَوَ، ولهذا يُكتب بالألف، ولا يُمال.

وقال الأخفش[٦]: لمَّا لم تَجُزْ فيه الإمالةُ؛ عُرِف أنه من الواو؛ ولأن الإمالةَ من[٧] الياء، وتثنيتُه شَفَوان.

قال المَهْدَويُّ: وهذا تمثيلٌ يُراد به خروجُهم من الكفر إلى الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

قد مضَى القولُ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه السورة[٨]. و«مِن»

---

(١) الرجز في تفسير الطبري ٥/ ٦٥٧ دون نسبة. وأخرج نحوه الفاكهي في أخبار مكة (٢٤٤٧) من قول خالدة بنت هاشم، وأورده ياقوت في معجم البلدان بلفظ:

نحن وهبنا لعديٍّ سَجْلَهْ تروي الحجيج زُغْلَةً فزُغْلَهْ

وقال: السَّجل الدلو إذا كان فيه ماء، قلَّ أو كثر.. والسَّجْلَة: بئر حفرها هاشم بن عبد مناف، فوهبها أسد بن هاشم لعدي بن نوفل، ولم يكن لأسد بن هاشم عقب. وقيل: حفرها قصيّ.

(٢) إصلاح المنطق ص٤٥٢، ونقله المصنف عنه بواسطة الصحاح (شفا).

(٣) ديوانه ص٤٢٤ .

(٤) الصحاح (شفا). وما قبله منه ووقع في (خ): أي: وقد، وفي (م): وقد.

(٥) في إعراب القرآن ١/ ٣٩٨ .

(٦) معاني القرآن ١/ ٤١٦ . ونقله المصنف عنه بواسطة الصحاح (شفا).

(٧) في (د) و (م): بين.

(٨) ص٧٣ من هذا الجزء.

في قوله: «مِنكم» للتبعيض، ومعناه أن الآمِرين يجب أن يكونوا علماء، وليس كلُّ الناسِ علماء. وقيل: لبيان الجنس، والمعنى: لتكونوا كلكم كذلك.

قلت: القولُ الأوّل أصحُّ؛ فإنه يدلُّ على أنَّ الأمرَ بالمعروف والنهْيَ عن المنكر فرضٌ على الكفاية، وقد عيَّنهم اللّهُ تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية [الحج: ٤١]. وليس كل الناس مُكِّنُوا. وقرأ ابنُ الزبير: «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ويَستَعينونَ اللّه على ما أصابهم»[1]. قال أبو بكر الأنباريّ: وهذه الزيادة تفسيرٌ من ابنِ الزبير، وكلامٌ من كلامه، غَلِطَ فيه بعضُ الناقلين، فألحقَه بألفاظ القرآن؛ يدلّ على صحة ما أصِفُ الحديثُ الذي حدَّثنيه أبي، حدَّثنا حسنُ بنُ عَرَفة، حدَّثنا وكيع، عن أبي عاصم، عن أبي عَوْن، عن صَبيح قال: سمعت عثمانَ بنَ عفَّان يقرأ: «ويأمرون بِالمعروفِ وَيَنْهَوْنَ عن المنكرِ ويستعينون اللّه على ما أصابهم»[2] فما يشكُّ عاقلٌ في أنَّ عثمانَ لا يعتقد هذه الزيادةَ منَ القرآن؛ إذْ لم يكتبْها في مصحفه الذي هو إمامُ المسلمين، وإنما ذَكَرها واعظاً بها، ومؤكِّداً ما تقدَّمها من كلام ربِّ العالمين جلَّ وعَلا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾

يعني اليهود والنصارى في قول جمهور المفسرين. وقال بعضهم: هم المبتدِعةُ من هذه الأُمة. وقال أبو أمامة: هم الحَرُورِيَّة، وتلا الآية[3].

وقال جابرُ بنُ عبد اللّه: ﴿كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ اليهود والنصارَى. «جاءهم» مذكر على الجمع، وجاءتهم على الجماعة[4].

---

(١) أخرج هذه القراءة الشاذة سعيد بن منصور في تفسيره (٥٢١)، والطبري ٥/ ٦٦١ ، وابن أبي داود في المصاحف (٢٢٧)، وعبد بن حميد وابن الأنباري في المصاحف كما في الدر المنثور ٢/ ٦١ .

(٢) هو عند أبي بكر الأنباري في المصاحف كما في الدر المنثور ٢/ ٦٣ . وأخرجه أيضاً الطبري ٥/ ٦٦١ ، وابن أبي داود في المصاحف (١٢٨). وأورده ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٤/ ٤٤٩ .

(٣) سيرد في تفسير الآية التالية.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٩ .

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يعني يومَ القيامة حين يُبعثون من قبورهم، تكون وجوهُ المؤمنين مبيضَّةً، ووجُوه الكافرين مُسْوَدَّةً.

ويقال: إنَّ ذلك عند قراءةِ الكتاب، إذا قرأ المؤمنُ كتابَه، فرأى في كتابه حسناتِه، استبشر وابيَضَّ وجهُه، وإذا قرأ الكافرُ والمنافقُ كتابَه، فرأى فيه سيئاتِه، اسودَّ وجهُه.

ويقال: إنَّ ذلك عند الميزان، إذا رجحتْ حسناتُه ابيضَّ وجهُه، وإذا رجحتْ سيئاتُه اسودَّ وجهُه.

ويقال: ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩].

ويقال: إذا كان يوم القيامة يُؤمرُ كلُّ فريقٍ بأن يجتمعَ إلى معبودِه، فإذا انتهَوا إليه حزنوا واسودَّتْ وجوهُهم، فيبقَى المؤمنون وأهلُ الكتاب والمنافقون، فيقول اللّهُ تعالى للمؤمنين: «مَنْ ربُّكم»؟ فيقولون: ربُّنا اللّهُ عزَّ وجلَّ. فيقول لهم: «أتعرفونه إذا رأيتموه»؟. فيقولون: سبحانه، إذا عَرَّفَنا[1] عَرَفْناه. فيرونه كما شاء اللّهُ. فيَخِرُّ المؤمنون سُجَّداً لله تعالى، فتصير وجوهُهم مثلَ الثلج بياضاً، ويبقَى المنافقون وأهلُ الكتابِ لا يقدرون على السجود، فيحزنوا[2] وتسودُّ وجوهُهم، وذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

ويجوز: «تِبْيَضُّ وتِسْوَدُّ» بكسر التائين، لأنك تقول: ابيضَّتْ، فتكسر التاءَ كما

---

(١) في (ظ): عرَّفنا به. وفي (خ): عرَّفناه. وفي (م): اعترف. والمثبت من (د) وهو الموافق لتفسير أبي الليث ١/ ٢٩٠ (١/ لوحة ١٣٧) والأقوال منه. وأورده ابن الأثير في النهاية (عرف) بلفظ: (إذا اعترف لنا عرفناه) وقال: أي إذا وصف نفسه بصفة نحققه بها عَرَفْناه.

(٢) كذا في النسخ، غير (خ)، ففيها: فحزنوا.

تكسر الألف[١]، وهي لغةُ تميم، وبها قرأ يحيى بنُ وثاب[٢].

وقرأ الزهريُّ: «يوم تَبياضُّ وتسوادُّ»[٣]. ويجوز كسرُ التاءِ أيضاً[٤]، ويجوز: «يوم يَبْيَضُّ وجوه» بالياء على تذكير الجمع، ويجوز: «أُجوه»، مثل: «أُقِّتت»[٥].

وابْيِضَاضُ الوجوه: إشراقُها بالنَّعيم. واسْوِدادُها: هو ما يُرهِقُها منَ العذابِ الأليم.

الثانية: واختلفوا في التعيين، فقال ابن عباس: تبيضُّ وجوهُ أهلِ السُّنَّة، وتسودُّ وجوهُ أهلِ البِدْعة[٦].

قلت: وقولُ ابنِ عباس هذا رواه مالك بنُ سليمان الهرويُّ أخو غسَّان، عن مالك بن أنس، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه ﷺ في قول اللّه تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قال: «يعني تبيضُّ وجوهُ أهلِ السُّنَّة، وتسودُّ وجوهُ أهلِ البِدعة». ذكره أبو بكر أحمدُ بن عليِّ بنِ ثابت الخطيب. وقال فيه: منكر من حديث مالك[٧].

قال عطاء: تبيضُّ وجوهُ المهاجرين والأنصار، وتسودُّ وجوهُ بني قريظة والنضِير[٨].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٩.

(٢) ذكر النحاس ١/ ٣٩٩، والزمخشري في الكشاف ١/ ٤٥٣ هذه القراءة دون نسبة. ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٤٣٥ لأبي رزين العقيلي، وأبي عمران الجويني، وأبي نهيك.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٧. وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٢.

(٤) قال أبو حيان في البحر المحيط ٢/ ٢٢: ولم ينقل أنه قرئ بذلك.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٩. وما قبله منه.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٩٥٠)، واللالكائي في الاعتقاد (٧٤)، والسهمي في تاريخ جرجان ص١٣٢، والخطيب في تاريخ بغداد ٧/ ٣٧٩.

(٧) الحديث من رواية أبي نصر أحمد بن عبدالله بن فلان الأنصاري، عن الفضل بن عبدالله، عن مالك بن سليمان الهروي، به. قال الدارقطني: هذا موضوع، والحمل فيه على أبي نصر الأنصاري، والفضل ضعيف. لسان الميزان ١/ ٢٠٢. وأورده السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٦٣ ونسبه أيضاً للخطيب في تاريخه، ولم نقف عليه فيه. وأورده الديلمي في الفردوس (٨٩٨٦).

(٨) ذكره الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٥٣.

وقال أبيُّ بن كعب: الذين اسودَّت وجوههم هم الكفارُ، وقيل لهم: أكَفرتم بعد إيمانكم لإقراركم حين أُخْرِجتم مِن ظهر آدمَ كالذَّرِّ. هذا اختيار الطبري(١).

الحسن: الآيةُ في المنافقين(٢). قتادة: هي في المرتدِّين(٣). عِكرمة: هم قومٌ من أهل الكتاب كانوا مصدِّقين بأنبيائهم، مصدِّقين بمحمدٍ ﷺ قبلَ أنْ يُبعثَ، فلمّا بُعثَ عليه الصلاة والسلامُ كفروا به، فذلك قوله: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾(٤). وهو اختيار الزجاج(٥).

مالك بن أنس: هي في أهل الأهواء(٦).

أبو أمامة الباهِليُّ عن النبيِّ صلى الله علي وسلم: هي في الحرورِية، وفي خبرٍ آخرَ عن النبي عليه الصلاة والسلام(٧): هي في القدرية(٨).

رَوَى الترمذيُّ عن أبي غالبٍ قال: رأى أبو أمامةَ رؤوساً منصوبةً على دَرَج(٩) دمشقَ، فقال أبو أُمَامةَ: كلابُ النَّار، شرُّ قَتْلَى تحتَ أدِيمِ السماء، خيرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوه. ثم قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إلى آخر الآية. قلتُ لأبي أُمامةَ: أنتَ

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٦٦٥ و ٦٦٦. وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم (٣٩٥٦).

(٢) أخرجه الطبري ٥/ ٦٦٦ ، وابن أبي حا تم (٣٩٥٣).

(٣) في المحرر الوجيز ١/ ٤٨٧ .

(٤) أخرجه الفريابي وابن المنذر، كما في الدر المنثور ٢/ ٦٣ . وأورده ابن حجر في العجاب ٢/ ٧٣٢ .

(٥) معاني القرآن وإعرابه له ١/ ٤٥٥ .

(٦) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٨٧ .

(٧) في (د) و(م): أنه عليه السلام، وزاد بعدها في (م) لفظة «قال»، وهو خطأ، والمثبت من (خ)، وسقط من (ظ) قوله: هي في الحرورية. . . إلى هذا الموضع. وانظر ما بعده.

(٨) قوله: هي في الحرورية. . وهي في القدرية. ليس مرفوعاً بهذا اللفظ، وقد اختصر المصنف كلام ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٨٨ ، ولفظه فيه: رُوي حديث أن الآية في القدرية، وقال أبو أمامة سمعنا من رسول الله ﷺ أنها في الحرورية، وقد تقدم أنها في الخوارج، وهو قول واحد . اهـ. وحديث أبي أمامة المشار إليه أورده المصنف بإثر هذا الكلام، وسلف ص١٦ من هذا الجزء.

(٩) في (د) و (ف) و (خ): على برج. وفي (ظ): بسور. وفي (م): على باب. والمثبت من سنن الترمذي (٣٠٠٠)، وتحفة الأشراف ٤/ ١٨٣ ، والدر المنثور ٢/ ٦٣ ، وسلف على الصواب ص١٦ من هذا الجزء. قال المباركفوري في تحفة الأحوذي ٨/ ٣٥١ : أي: على درج مسجد دمشق، الدَّرَج: الطريق؛ وجمعه: الأدْراج، والدَّرَجة: المِرْقاة، وجمعه: الدَّرَج، وهو المراد هنا.

سمعتَه مِن رسولِ اللّه ﷺ؟ قال: لَوْ لَمْ أسمعْهُ مِن رسولِ اللّه ﷺ إلَّا مرَّةً، أو مرَّتين، أو ثلاثاً ـ حتى عَدَّ سبعاً ـ ما حَدَّثْتُكُموه. قال: هذا حديث حسن.

وفي صحيح البخاريِّ عن سَهْل بنِ سعد قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إنِّي فَرَطُكم على الحَوْضِ، مَنْ مَرَّ عَليَّ شَرِبَ، ومَنْ شَرِبَ لم يَظْمَأْ أبداً، لَيَرِدَنَّ عَليَّ أقوامٌ أَعْرِفُهم ويَعْرِفُوني، ثم يُحالُ بيني وبينهم». قال أبو حازم: فسمعني النُّعمانُ بنُ أبي عيَّاش فقال: هكذا سمعتَ من سهلِ بنِ سعد؟ فقلتُ: نعم. فقال: أَشهدُ على أبي سعيدٍ الخدريِّ لَسَمِعْتُهُ وهو يزيدُ فيها: «فأَقُولُ: إنَّهم مِنِّي، فيقال: إنَّكَ لا تَدْرِي ما أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فأقولُ: سُحْقاً سُحْقاً لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي»[١].

وعن أبي هريرةَ أنه كان يُحَدِّثُ أنَّ رسولَ اللّه ﷺ قال: «يَرِدُ عَلَيَّ الحَوْضَ يومَ القيامةِ رَهْطٌ مِنْ أصحابي، فيُجْلَونَ عنِ الحَوْض، فأقول: يا ربِّ أصحابي، فيقول: إنَّك لا عِلْمَ لكَ بما أحدثوا بعدَكَ، إنَّهم ارْتَدُّوا على أدبارهم القَهْقَرَى»[٢].

والأحاديث في هذا المعنَى كثيرة. فمَنْ بَدَّل أو غَيَّرَ أو ابتدَعَ في دين اللّه ما لايرضاهُ اللّهُ، ولم يأذَنْ به اللّهُ، فهو مِنَ المطْرُودينَ عنِ الحوضِ، المُبعَدِينَ[٣] منه، المُسْوَدِّي[٤] الوُجُوه، وأشدُّهم طرداً وإبعاداً مَنْ خالفَ جماعةَ المسلمين، وفارقَ سبيلَهم، كالخوارج على اختلافِ فِرَقها، والروافِضِ على تَبايِنِ ضَلالِها، والمعتزلةِ على أصنافِ أهوائِها، فهؤلاء كلهم مُبَدِّلون ومُبتدِعون، وكذلك الظَّلَمةُ المسرفون في الجَوْرِ والظلم وطَمْسِ الحقِّ، وقتلِ أهلِه وإذْلالِهم، والمعلنون بالكبائر، المستَخِفُّون بالمعاصي، وجماعةُ أهلِ الزَّيْغ والأهْواء والبِدَع؛ كلٌّ يُخافُ عليهم أن يكونوا عُنُوا بالآية والخَبَرِ كما بيَّنَّا، ولا يَخلُد في النَّار إلا كافرٌ جاحِدٌ؛ ليس في قلبه مثقالُ حبَّةِ خَرْدلٍ من إيمان.

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٨٣ - ٦٥٨٤)، وهو في صحيح مسلم أيضاً (٢٢٩٠ - ٢٢٩١)، ومسند أحمد (٢٢٨٢٢). وأبو حازم هو سلمة بن دينار. وقوله: «فرطكم» أي: مُتَقَدِّمُكم إليه. النهاية (فرط).

(٢) صحيح البخاري (٦٥٨٥). وأخرجه بنحوه مطوّلاً مسلم (٢٤٩)، وأحمد (٩٢٩٢).

(٣) في (م): المبتعدين.

(٤) في النسخ الخطية: المسودين. والمثبت من (م).

وقد قال ابن القاسم: وقد يكون مِنْ غيرِ أهلِ الأهْواء مَنْ هو شَرٌّ مِنْ أهلِ الأهواء. وكان يقال[١]: تمامُ الإخلاصِ تَجنُّبُ المعاصي.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ في الكلام حذفٌ، أي: فيقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ يعني يومَ الميثاق حين قالوا: بلى. ويقال: هذا لليهود، وكانوا مؤمنين بمحمدٍ ﷺ قبل أن يُبعث، فلما بُعث كفروا به. وقال أبو العالية: هذا للمنافقين، يقال: أكفرتم في السِّرِّ بعد إقراركم في العلانية[٢].

وأجمعَ أهلُ العربية على أنه لابُدَّ منَ الفاء في جواب «أمَّا»، لأنَّ المعنى في قولك: أمَّا زيدٌ فمنطلقٌ: مهما يكن من شيء فزيدٌ منطلقٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ هؤلاء أهلُ طاعةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ، والوفاءِ بعهده[٣]. ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: في جنَّتِهِ ودارِ كرامتِه خالدون باقون. جَعَلَنا اللّهُ منهم، وجنَّبَنا طرقَ البِدَعِ والضَّلالات، ووَفَّقنا لطريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات. آمين.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ، يعني القرآن. ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يعني نُنزل عليك جبريلَ، فيقرؤها عليك. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصِّدق[٤].

وقال الزجَّاج: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ المذكورة حُجَجُ اللّه ودلائله[٥].

وقيل: «تلك» بمعنى هذه، ولكنها لمَّا انقضتْ، صارت كأنها بَعُدَتْ، فقيل: «تلك»[٦].

---

(١) في (د) و (م): يقول. والمثبت موافق للتمهيد ٢٠/ ٢٦٢ - ٢٦٣، وما قبله منه.

(٢) انظر تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٠.

(٣) انظر تفسير الطبري ٥/ ٦٦٦.

(٤) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٠.

(٥) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٤٥٥ بنحوه. وذكره النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٩٩.

(٦) انظر تفسير الرازي ٨/ ١٨٥.

ويجوز أن تكون «آيات الله» بدلاً من «تلك»، ولا تكون نعتاً، لأنْ المبْهَم لايُنعت بالمضاف[١]. ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني أنه لا يعذِّبُهم بغير ذنب[٢].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال المهدويُّ: وجهُ اتصالِ هذا بما قبله أنَّه لمَّا ذَكَر أحوالَ المؤمنين والكافرين، وأنه لا يريدُ ظلماً للعالمين، وصلَه بذِكْرِ اتِّساعِ قدرته، وغناه عن الظلم؛ لكون ما في السماوات وما في الأرض في قبضته.

وقيل: هو ابتداءُ كلامٍ؛ بيَّن لعباده أنَّ جميعَ ما في السماوات وما في الأرض له، حتى يسألوه ويعبدوه، ولا يعبدوا غيره[٣].

قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: رَوَى الترمذيُّ عن بَهْز بن حكيم، عن أبيه، عن جدِّه، أنه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «أنتم تُتِمُّون سبعينَ أمَّةً، أنتم خيرُها وأكرمُها عند الله». وقال: هذا حديثٌ حسنٌ[٤].

وقال أبو هريرة: نحنُ خيرُ الناسِ للناس، نسوقُهم بالسلاسلِ إلى الإسلام[٥]. وقال ابن عباس: همُ الذين هاجَروا من مكةَ إلى المدينة، وشهدوا بَدْراً والحُديبِية[٦]. وقال عمر بن الخطاب: مَنْ فَعَلَ فِعْلَهم كان مثلَهم[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٩ .

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩١ .

(٣)المرجع السابق نفسه .

(٤) سنن الترمذي (٣٠٠١). وأخرجه أيضاً أحمد (٢٠٠١٥)، وابن ماجه (٤٢٨٨). وأخرجه مطولاً النسائي في السنن الكبرى (١١٣٦٧). وجدُّ بهز بن حكيم هو معاوية بن حيدة ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري (٤٥٥٧).

(٦) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ١٣٠ ، وأحمد (٢٤٦٣)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٠٠٦).

(٧) أورده ابن عبد البَرّ في التمهيد ٢٠/ ٢٥١ .

وقيل: هم أمّة محمدٍ ﷺ، يعني الصالحين منهم وأهلَ الفضل، وهم الشهداء على الناس يوم القيامة، كما تقدَّم في البقرة(١).

وقال مجاهد: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ على الشرائط المذكورة في الآية.

وقيل: معناه: كنتم في اللوحِ المحفوظ(٢). وقيل: كنتم مُذْ آمنتُم خيرَ أُمَّة(٣). وقيل: جاء ذلك لتقدّم البِشارة بالنبيِّ ﷺ وأمَّتِه؛ فالمعنى: كنتم عند مَنْ تقدَّمكم مِنْ أهلِ الكتب خيرَ أمة.

وقال الأخفشُ(٤): يُريد أهلَ أمَّةٍ، أي: خيرَ أهلِ دين، وأنشد:

حَلَفْتُ فلم أَتْرُكْ لنَفْسِكَ رِيبَةً ... وهلْ يأْثَمَنْ ذو أُمَّةٍ وهو طائعُ(٥)

وقيل: هي «كان» التامَّة، والمعنى: خُلِقْتم ووُجِدتُم خيرَ أمَّة، فـ «خيرَ أمّة» حال.

وقيل: «كان» زائدة، والمعنى: أنتم خيرُ أمَّة. وأنشدَ سيبويه:

وجِيرانٍ لنا كانوا كرامِ(٦)

ومثله قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم:٢٩]. وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف:٨٦]. وقال في موضع آخر: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال:٢٦].

وروى سفيان عن مَيْسَرةَ الأشجعيّ، عن أبي حازم، عن أبي هريرة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: تَجرُّون الناسَ بالسلاسل إلى الإسلام(٧).

---

(١) ٢/ ٤٣٥.

(٢) ذكره النحاس في إعراب القرآن ١/ ٤٠٠.

(٣) ذكره الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ١/ ٤٥٦.

(٤) معاني القرآن ١/ ٤١٩.

(٥) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٨١.

(٦) الكتاب ٢/ ١٥٣. ونقل المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٠، والبيت للفرزدق وهو في ديوانه ص٢٩٠، وصدره: فكيف إذا رأيت ديار قوم.

(٧) أخرجه البخاري (٤٥٥٧). ونقله المصنف بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٠. وسلف ذكره أول المسألة.

قال النحاس[١]: والتقديرُ على هذا: كُنتم للناسِ خيرَ أُمَّة. وعلى قول مجاهد: كنتم خيرَ أمّةٍ إذا[٢] كنتم تأمرون بالمعروف، وتَنْهَوْن عنِ المنكر.

وقيل: إنما صارت أمَّةُ محمدٍ ﷺ خيرَ أمّة؛ لأنَّ المسلمين منهم أكثرُ، والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر فيهم أَفْشَى. فقيل: هذا لأصحابِ رسولِ اللّه ﷺ، كما قال ﷺ: «خَيْرُ النَّاس قَرْنِي»[٣] أي: الذين بُعِثْتُ فيهم.

الثانية: وإذا ثبتَ بنَصِّ التنزيل أنَّ هذه الأمةَ خيرُ الأمم، فقد روى الأئمةُ من حديثِ عِمرانَ بنِ حُصَيْن عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْني، ثُمَّ الذينَ يَلُونَهم، ثُمَّ الذين يَلُونَهم». الحديث[٤]. وهذا يدلُّ على أنَّ أوَّلَ هذه الأمةِ أفضلُ ممن بعدها[٥]، وإلى هذا ذهبَ معظم العلماء، وأنَّ مَنْ صَحِبَ النبيَّ ﷺ ورآه ولو مرَّةً في عمره أفضلُ ممن يأتي بعدَه، وأنَّ فضيلةَ الصحبة لا يَعْدِلُها عَمَلٌ.

وذهب أبو عمر بنُ عبد البَرّ[٦] إلى أنه قد يكون فيمن يأتي بعدَ الصحابةِ أفضلُ ممَّن كان في جملة الصحابة، وأنَّ قولَه عليه الصلاة والسلام: «خَيْرُ النَّاس قَرْني» ليس على عمومه، بدليل ما يجمع القرنُ من الفاضلِ والمفضول. وقد جَمَعَ قرنُه جماعةً مِنَ المنافقين المظهِرين للإيمان، وأهلِ الكبائر الذين أقامَ عليهم أو على بعضهم الحدود، وقال لهم: ما تقولون في السَّارقِ والشَّاربِ والزاني[٧]. وقال مُوَاجهةً لمَنْ هو في قرنه: «لا تَسُبُّوا أصحابي»[٨]. وقال لخالد بن الوليد في عمَّار:

---

(١) إعراب القرآن ١/ ٤٠٠ .

(٢) في (د) و (م): إذ. والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو موافق لإعراب القرآن.

(٣) أخرجه أحمد (٤١٣٠) ، والبخاري (٢٦٥٢) ، ومسلم (٢٥٣٣) (٢١٢) من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ.
وأخرج أحمد (٧١٢٣) ، ومسلم (٢٥٣٤) عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «خير أمتي القرن الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم».

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥)، وأحمد (١٩٨٢٠) واللفظ له.

(٥) في (م): بعدهم.

(٦) التمهيد ٢٠/ ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٧) قطعة من حديث، أخرجه مالك ١/ ١٦٧ ، وعبد الرزاق (٣٧٤٠) عن النعمان بن مرة، مرسلاً. قال ابن عبد البر في التمهيد ٢٣/ ٤٠٩ : هو حديث صحيح يستند من وجوه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد. . . (وذكرها).

(٨) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وهو في مسند أحمد (١١٠٧٩).

«لا تَسُبَّ مَنْ هو خيرٌ منك»[١].

وروى أبو أُمَامةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «طُوبَى لمَنْ رآني وآمنَ بي، وطُوبَى سبع مرات لمَنْ لم يَرَني وآمنَ بي»[٢].

وفي مسند أبي داودَ الطيالِسِيِّ: عن محمد بن أبي حُميد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمرَ قال: كنتُ جالساً عند رسولِ اللّه ﷺ، فقال: «أَتَدْرُونَ أيُّ الخلقِ أفضلُ إيماناً؟» قلنا: الملائكة. قال: «وحُقَّ لهم، بل غيرُهم». قلنا: الأنبياء. قال: «وحُقَّ لهم، بلْ غيرُهم». ثمَّ قال رسول اللّه ﷺ: «أفضلُ الخلق إيماناً قومٌ في أصلاب الرجال، يؤمنون بي ولم يروني، يجِدون ورقاً فيعملون بما فيها، فهم أفضلُ الخلقِ إيماناً»[٣].

ورَوَى صالح بن جُبير، عن أبي جُمْعَة قال: قلنا: يا رسول اللّه، هل أحدٌ خيرٌ مِنَّا؟ قال: «نعم، قومٌ يجيئون مِنْ بعدِكم، فيجدون كتاباً بين لَوْحَين، فيؤمنون بما فيه، ويؤمنون بي ولم يَرَوْني»[٤]. وقال أبو عمر[٥]: وأبو جُمعة له صحبة، واسمه حَبِيبُ بنُ سِبَاع، وصالح بن جبير من ثِقَات التابعين.

ورَوَى أبو ثعلبة الخُشَنِيّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ أَمامَكم أيّاماً: الصَّابرُ فيها على دينه كالقابضِ على الجَمْر، للعامل فيها أجرُ خمسين رجلاً يَعمَلُ مثلَ عَمَلِه». قيل: يا رسولَ اللّه، منهم؟ قال: «بلْ منكم»[٦]. قال أبو عمر: هذه اللفظة: «بل

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٨٢١٤) من حديث خالد بن الوليد ﷺ، بلفظ: «لا تسبَّ عماراً». وانظر حديث أحمد (١٦٨١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢١٣٨)، وابن عبد البر في التمهيد ٢٠/ ٢٤٧ .

(٣) التمهيد ٢/ ٢٤٨ . ولم نقف عليه عند الطيالسي. وأخرجه أبو يعلى في مسنده (١٦٠)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٨٥ - ٨٦ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي بقوله: بل محمد [يعني ابن أبي حميد] ضعفوه. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٦٥ وقال: رواه أبو يعلى، ورواه البزار [٢٨٣٩(زوائد)] وقال: الصواب أنه مرسل عن زيد بن أسلم.

(٤) أخرجه أحمد (١٦٩٧٦).

(٥) في التمهيد ٢٠/ ٢٥٠ . وما قبله منه.

(٦) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤)، وصححه ابن حبان (٣٨٥). قال الترمذي: حديث حسن غريب.

منكم» قد سكتَ عنها بعضُ المحدِّثين فلم يذكرها[١].

وقال عمر بن الخطاب في تأويل قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: مَنْ فَعَلَ مثلَ فعلِكم كان مثلَكم[٢]. ولا تعارضَ بين الأحاديث؛ لأن الأوّل على الخصوص، والله الموفّق.

وقد قيل في توجيه أحاديث هذا الباب: إنَّ قرنَه إنما فُضِّل لأنهم كانوا غُرَبَاء في إيمانهم؛ لكثرة الكفار، وصبرِهم على أذاهم، وتمسُّكهم بدينهم، وإنَّ أواخرَ هذه الأمّة إذا أقاموا الدِّينَ وتمسَّكوا به، وصبروا على طاعةِ ربِّهم في حين ظهورِ الشَّرِّ والفسقِ والهَرْج والمعاصي والكبائر؛ كانوا عند ذلك أيضاً غُرَبَاء، وزَكَت أعمالُهم في ذلك الوقت، كما زكَتْ أعمالُ أوائلِهم، وممَّا يشهدُ لهذا قولُه عليه الصلاة والسلام: «بدأَ الإسلامُ غريباً، وسيعودُ كما بدأَ، فطُوْبَى للغرباء»[٣]. ويشهدُ له أيضاً حديثُ أبي ثعلبةَ، ويشهدُ له أيضاً قولُه ﷺ: «أُمَّتي كالمطر، لا يُدْرَى أوَّلُه خيرٌ أم آخرُه». ذكره أبو داود الطيالِسيّ وأبو عيسى الترمذي[٤]، ورواه هشام بن عبيد الله الرازي، عن مالكٍ، عن الزُّهري، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ أُمَّتي مَثَلُ المَطَرِ، لا يُدْرَى أوّلُه خيرٌ أم آخرُه» ذكره الدارقطني في مسند حديث مالك. قال أبو عمر[٥]: هشام بن عبيد الله ثقةٌ لا يختلفون في ذلك.

ورُوي أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيز لمَّا وليَ الخلافةَ كتب إلى سالم بن عبد الله: أنِ اكتب إليَّ بسيرةِ عمرَ بنِ الخطاب لأعملَ بها، فكتب إليه سالم: إنْ عملتَ بسيرةِ عمر، فأنتَ أفضلُ مِن عمر؛ لأنَّ زمانَك ليس كزمان عمر، ولا رجالك كرجال عمر. قال: وكتب إلى فقهاء زمانه، فكلُّهم كتب إليه بمثل قول سالم.

---

(١) التمهيد ٢٠/ ٢٥٠ ، وما قبله منه. وهذه اللفظة لم يذكرها ابن ماجه.

(٢) التمهيد ٢٠/ ٢٥١ ، وسلف قول عمر ﷺ في المسألة الأولى.

(٣) أخرجه أحمد (٩٠٥٤)، ومسلم (١٤٥)، وابن ماجه (٣٩٨٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه مسلم أيضاً (١٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد أيضاً من حديث سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن مسعود، وعبد الرحمن بن سنة، على التوالي: (١٦٠٤) و (٣٧٨٤) و (١٦٦٩٠).

(٤) مسند الطيالسي (٢٠٢٣)، وسنن الترمذي (٢٨٦٩)، وهو في مسند أحمد (١٢٣٢٧).

(٥) في التمهيد ٢٠/ ٢٥٤ . وما قبله منه. وقد أخرج الحديث فيه من طريق هشام بن عبيد الله، وأخرجه أيضاً ابنُ حبان في المجروحين ٣/ ٩٠ ، والخطيب في تاريخ بغداد ١١/ ١١٤ .

وقد عارضَ بعضُ الجِلَّة من العلماء قولَه ﷺ: «خيرُ الناسِ قَرْنِي» بقوله ﷺ: «خيرُ الناسِ مَنْ طالَ عمرُهُ وحَسُنَ عَمَلُه، وشرُّ الناسِ مَنْ طالَ عمرُهُ وساءَ عملُه»[١]. قال أبو عمر[٢]: فهذه الأحاديث تقتضي مع تَوَاتُرِ طُرقها وحُسنِها التّسْوية بين أوّلِ هذه الأُمَّةِ وآخرِها. والمعنى في ذلك ما تقدَّم ذِكره؛ منَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ في الزمان الفاسد الذي يُرفع فيهِ مِنْ أهلهِ[٣] العلمُ والدِّينُ، ويكثر فيه الفسقُ والهَرْج، ويُذَلُّ المؤمنُ، ويُعَزُّ الفاجر، ويعودُ الدِّينُ غَرِيباً كما بدأ[٤]، ويكون القائمُ فيه [بدينه] كالقابض على الجَمْر، فيستوي حينئذٍ أوّلُ هذه الأُمَّة بآخرِها في فضل العمل، إلاَّ أهلَ بَدْر والحُديبية، ومَنْ تَدبَّر آثارَ هذا البابِ بانَ له الصَّوابُ، واللّه يُؤتي فضلَه مَنْ يشاء.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ مدحٌ لهذه الأمَّةِ ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغييرَ وتَواطَؤوا على المنكر، زالَ عنهم اسمُ المدح، ولحقَهم اسمُ الذَّمِّ، وكان ذلك سبباً لهلاكهم. وقد تقدَّم الكلامُ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أوّل السورة[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ أخبرَ أنَّ إيمانَ أهلِ الكتاب بالنبيِّ ﷺ خيرٌ لهم، وأخبر أنَّ منهم مؤمناً وفاسقاً، وأنَّ الفاسقَ أكثر.

قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ يعني كذبَهم وتحريفَهم وبَهْتَهم، لا أنه تكون لهم الغَلَبَة. عن الحسن وقتادة. فالاستثناء متَّصِل، والمعنى: لن يضرُّوكم إلا ضرّاً يسيراً، فوقع الأذى موقع المصدر.

(١) أخرجه أحمد (٢٠٤١٥)، والترمذي (٢٣٣٠) من حديث أبي بكرة. وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) التمهيد ٢٠/ ٢٥٥ . وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.
(٣) في (م) و (خ): أهل. وفي التمهيد: يرفع فيه العلم والدين من أهله.
(٤) بعدها في (م): غريباً.
(٥) ص٧٣ من هذا الجزء.

فالآية وعدٌ منَ اللّه لرسوله ﷺ وللمؤمنين؛ أنَّ أهلَ الكتابِ لا يغلبونهم، وأنهم منصورون عليهم، لا ينالُهم منهم اصطلام[١] إلّا إيذاءً بالبَهْت والتحريف، وأمّا العاقبة فتكون للمؤمنين[٢].

وقيل: هو منقطع، والمعنى: لن يضروكم البتّة، لكن يؤذونكم بما يُسمِّعونكم.

قال مقاتل: إنَّ رؤوس[٣] اليهود: كعب وبحريّ[٤] والنعمان وأبو رافع وأبو ياسر وكنانة وابن صوريا، عمدوا إلى مؤمنيهم: عبد اللّه بن سلام وأصحابه، فآذَوْهم لإسلامهم، فأنزل اللّه تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ يعني باللسان، وتَمَّ الكلام. ثم قال: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ يعني منهزمين، وتَمَّ الكلام. ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ مستأنف، فلذلك ثبتت فيه النون. وفي هذه الآية معجزة للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، لأنَّ مَنْ قاتلَه من اليهود ولّاه دُبُرَه.

قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (١١٢) لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ (١١٥)﴾

قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ يعني: اليهودَ. ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ أي: وُجدوا ولُقُوا. وتَمَّ الكلام. وقد مضى في البقرة معنى ضرب الذِّلّة عليهم[٥]. ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ

---

(١) أي: استئصال. (مختار الصحاح).

(٢) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١/ ٤٥٧.

(٣) في (د): أما رؤساء.

(٤) في النسخ و (م): عدي. والمثبت من أسباب النزول للواحدي ص١١٤، والعجاب لابن حجر ٢/ ٧٣٤. وبحريّ هو ابن عمرو كما في السيرة النبوية ١/ ٥١٤.

(٥) ٢/ ١٥٤ - ١٥٥.

﴿ٱللَّهِ﴾ استثناءٌ منقطعٌ ليس من الأوَّل. أي: لكنهم يعتصمون بحبلٍ من اللّه[١]. ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: الذِّمَّة التي لهم. والناسُ: محمدٌ والمؤمنون؛ يُؤدُّون إليهم الخَراجَ فيُؤَمِّنُونهم[٢]. وفي الكلام اختصار، والمعنى: إلَّا أنْ يعتصموا بحبلٍ من[٣] الله، فحذف؛ قاله الفَّراء[٤].

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: رجعوا. وقيل: احتَملوا. وأصلُه في اللغة أنه لزِمَهم، وقد مضى في البقرة[٥]. ثم أخبر لِم فَعل ذلك بهم؟ فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾، وقد مضى في البقرة مُسْتوفى[٦].

ثم أخبر، فقال: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾[٧]، وتمَّ الكلام، والمعنى: ليس أهلُ الكتابِ وأمَّةُ محمدٍ ﷺ سواءً؛ عن ابن مسعود[٨].

وقيل: المعنى: ليس المؤمنون والكافرون من أهل الكتابِ سواءً[٩].

وذكر أبو خَيْثَمَة زُهَيْر بنُ حَرْب: حدَّثنا هاشم[١٠] بنُ القاسم، حدَّثنا شَيبان، عن عاصم، عن زِرٍّ، عن ابن مسعودٍ قال: أخَّر رسولُ اللهِ ﷺ ليلةً صلاةَ العشاءِ، ثمَّ خرج إلى المسجد، فإذا الناسُ ينتظرون الصلاة، فقال: «إنه ليس من أهل الأديانِ أحدٌ يَذكرُ اللهَ تعالى في هذه الساعةِ غيرُكم»، قال: وأُنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ ـ إلى قولِه ـ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾[١١]، وروى ابن وهب

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠١ .
(٢) انظر تفسير البغوي / ٣٤٢ .
(٣) لفظة: من، من (م).
(٤) في معاني القرآن ١/ ٢٣٠ .
(٥) ٢/ ١٥٥ .
(٦) ٢/ ١٥٥ .
(٧) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٦١ .
(٨) أخرجه الطبري ٥/ ٦٩٢ - ٦٩٣ .
(٩) انظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٥٨ ، والوسيط ١/ ٤٨٠ .
(١٠) في النسخ: هشام، وهو خطأ، والمثبت من (م)، ومصادر التخريج.
(١١) أخرجه أحمد (٣٧٦٠)، والنسائي في الكبرى (١١٠٠٧) من طريق هاشم بن القاسم، به.

مثلَه[١].

وقال ابن عباس[٢]: قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾: من آمن مع النبيِّ ﷺ.

وقال ابن إسحاق عن ابن عباس: لمَّا أسلم عبدالله بنُ سَلَام، وثعلبة بنُ سَعْيَةَ، وأَسِيد[٣] بنُ سعية، وأسيد[٤] بنُ عُبيد، ومَن أسلَمَ من يهود، فآمنوا وصدَّقوا، ورغبوا في الإسلام، ورسَخوا فيه، قالت أحبارُ يهود وأهلُ الكفرِ[٥] منهم: ما آمن بمحمد ولا تبعَه إلا شرارُنا، ولو كانوا من خِيارِنا ما تركوا دينَ آبائهم، وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله عزَّ وجلَّ في ذلك من قولهم: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٦].

وقال الأخفش: التقديرُ: من أهل الكتابِ ذو أُمَّة، أي: ذو طريقةٍ حسنةٍ، وأنشد:

وهـل يَـأْثَـمَـنْ ذُو أُمَّـةٍ وهْـوَ طَـائِـعُ[٧]

وقيل: في الكلام حذفٌ، والتقديرُ: من أهل الكتابِ أُمَّةٌ قائمةٌ، وأخرى غيرُ قائمةٍ، فتَرَكَ الأخرى اكتفاءً بالأولى[٨]؛ كقول أبي ذؤيب:

---

(١) أخرجه الطبري ٥/ ٦٩٧ من طريق يونس، عن ابن وهب، به.

(٢) أورده النحاس في إعراب القرآن ١/ ٤٠١ .

(٣) قيَّده ابن ماكولا في الإكمال ١/ ٥٣ ، وابن الأثير في أسْد الغابة ١/ ٨٥ بفتح الهمزة وكسر السين وتخفيفِ الياء، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب ١/ ١٨٢ - ١٨٣ الوجهين (فتح الهمزة أو ضمُّها)، وقال: والفتح عندهم أصح.

(٤) كذا في النسخ، والذي في المصادر: أسد.

(٥) في النسخ: يهود أهل الكفر، والمثبت من (م)، وهو الموافق لمصادر التخريج.

(٦) أخرجه الطبري ٥/ ٦٩١ ، وابن أبي حاتم ٣/ ٣٣٧ ، وانظر السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٩٧ .

(٧) معاني القرآن للأخفش ١/ ٤١٨ - ٤١٩ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠١ ، وعنه نقل المصنف، والبيت للنابغة، وهو في ديوانه ص٨١ ، وصدره: حَلفتُ فلم أترُكْ لنفسِكَ رِيبةً. وقد سلف ص٢٦٠ من هذا الجزء.

(٨) انظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٠ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٢ .

عَصَيْتُ[١] إلَيْهَا القَلْبَ إنِّي لأمْرِهِ مُطِيعٌ فما أدري أَرُشْدٌ[٢] طِلابُها

أراد: أرُشْدٌ أم غَيٌّ، فحذفَ.

قال الفرَّاء: «أُمَّة» رفع بـ«سواء»، والتقديرُ: ليس يستوي أمَّةٌ من أهل الكتابِ قائمةٌ يتلون آياتِ الله وأمَّةٌ كافرةٌ.

قال النَّحاس[٣]: وهذا قولٌ خطأٌ من جهات: إحداها[٤]: أنه يرفع «أُمَّة» بـ«سواء»، فلا يعودُ على اسمِ ليس شيءٌ[٥]، ويرفع[٦] بما ليس جارياً على الفعل، ويُضمر ما لا يحتاج إليه؛ لأنه قد تقدَّم ذكرُ الكافرة[٧]، فليس لإضمارِ هذا وجهٌ.

وقال أبو عبيدة: هذا مثلُ قولهم: أكلوني البراغيثُ، وذهبوا أصحابُك[٨].

قال النحاس: وهذا غلطٌ؛ لأنه قد تقدَّم ذكرهم، وأكلوني البراغيثُ لم يتقدَّمْ لهم ذكر.

و﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾: ساعاته، واحدُها إِنًى وأَنًى وإِنْيٌ، وهو منصوبٌ على الظَّرف[٩].

---

(١) كذا في النسخ: عصيتُ، ومثله في معاني القرآن للفراء ١/ ٧٠، وتفسير الطبري ١/ ٣٤٤ و ٥/ ٦٩٠، ومجمع البيان ٤/ ١٧١، وزاد المسير ١/ ٤٤٢، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٢، ووقع في ديوان الهذليين ص٧١، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٥٩: عصاني؛ قال الشيخ محمود شاكر رحمه الله في تعليقه على الطبري ١/ ٣٢٧: المعنى لا يستقيم برواية: عصيت، والصواب رواية: عصاني.

(٢) في المصادر المذكورة آنفاً: سميع.

(٣) في إعراب القرآن ١/ ٤٠١، وقول الفراء منه، وانظر معاني القرآن له ١/ ٢٣٠، ومجمع البيان ٤/ ١٧١، والبحر المحيط ٣/ ٣٣.

(٤) في النسخ: أحدها، والمثبت من (م).

(٥) في النسخ: بشيء، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠١، وفتح القدير ١/ ٣٧٣. قال ابن الأنباري في البيان ١/ ٢١٥: وليس قول من قال: إنه مرفوع بسواء صحيحاً، لأنه يؤدي إلى ألا يعود من خبر ليس إلى اسمها شيء، وذلك لا يجوز.

(٦) عبارة النحاس: فلا يعود على اسمِ ليس شيء يُرفع...

(٧) في (م): الكافر، وفي إعراب القرآن: الكافرين، وقوله: الكافرة يعني الأُمَّة الكافرة.

(٨) مجاز القرآن ١/ ١٠١ - ١٠٢، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠١، وعنه نقل المصنف.

(٩) انظر تفسير الطبري ٥/ ٦٩٥ - ٦٩٦، والوسيط ١/ ٤٨١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٣.

و﴿يَسْجُدُونَ﴾: يُصلُّون؛ عن الفراء والزجَّاج؛ لأنَّ التلاوةَ لا تكون في الرُّكوع والسُّجود[١]، نظيره قولُه: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، أي: يصلُّون، وفي الفرقان: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [٦٠] وفي النجم: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾ [٦٢].

وقيل: يُراد به السجودُ المعروفُ خاصَّةً[٢]. وسببُ النزولِ يردُّه، وأنَّ المرادَ صلاةُ العتمةِ كما ذكرنا عن ابن مسعود؛ فعبدةُ الأوثانِ ناموا حيث[٣] جَنَّ عليهم الليلُ، والموحِّدون قيامٌ بين يدي اللهِ تعالى في صلاة العشاءِ يتلون آياتِ الله؛ ألا ترى لمَّا ذكر قيامَهم، قال: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾، أي: مع القيامِ أيضاً.

الثوريُّ[٤]: هي الصَّلاةُ بين العشاءين.

وقيل: هي في قيام الليل، عن[٥] رجل من بني شيبةَ كان يدرس الكتبَ قال: إنَّا نجدُ كلاماً من كلام الربِّ عزَّ وجلَّ: أيحسَب راعي إبلٍ أو راعي غنمٍ، إذا جنَّه الليلُ انخذل كمن هو قائمٌ وساجدٌ آناءَ الليل؟!

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ يعني: يُقِرُّون بالله وبمحمدٍ ﷺ[٦].

﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ قيل: هو عمومٌ، وقيل: يراد به الأمرُ باتباعِ النبيِّ ﷺ، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ النهيُ عن المنكر: النهيُ عن مخالفته[٧].

﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ التي يعملونها مبادرين غيرَ متثاقلين؛ لمعرفتهم بقَدْرِ ثوابِها[٨]. وقيل: يبادرون بالعمل قبلَ الفوت[٩].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: مع الصالحين، وهم أصحابُ محمدٍ ﷺ في

---

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣١ ، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٥٩ .

(٢) ينظر تفسير الطبري ٥/ ٦٩٩ ، وزاد المسير ١/ ٤٤٤ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٣ .

(٣) في (ظ): حين.

(٤) أورده الماوردي في النكت والعيون ١/ ٤١٧ .

(٥) في (م): وعن.

(٦) من (م): ويصدقون بمحمد ﷺ.

(٧) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٢ ، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٦٠ .

(٨) في (م): ثوابهم.

(٩) الوسيط للواحدي ١/ ٤٨١ .

الجنَّة[١].

﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾، قرأ الأعمش وابنُ وَثَّاب وحمزةُ والكِسائيُّ وحفص وخَلَف بالياء فيهما؛ إخباراً عَنِ الأمَّة القائمةِ، وهي قراءةُ ابنِ عباسٍ، واختيارُ أبي عبيد. وقرأ الباقون بالتَّاء فيهما على الخطاب؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وهي اختيارُ أبي حاتم، وكان أبو عمرو يرى القراءتين جميعاً الياءَ والتَّاء[٢].

ومعنى الآيةِ: وما تفعلوا من خيرٍ فلن تُجحدوا ثوابَه، بل يُشكَر لكم وتُجازَوْن عليه[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ اسم إنَّ، والخبرُ: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

قال مقاتل: لمَّا ذكر تعالى مؤمني أهلِ الكتابِ، ذكر كفَّارَهم، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

وقال الكلبيُّ: جعل هذا ابتداءً، فقال: إنَّ الذين كفروا لن تُغنيَ عنهم كثرةُ أموالِهم، ولا كثرةُ أولادِهم من عذاب اللهِ شيئاً[٤].

وخصَّ الأولادَ؛ لأنهم أقربُ أنسابِهم إليهم[٥].

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ١٣٩ .

(٢) قال مكي في الكشف ١/ ٣٥٤ : والمشهور عن أبي عمرو بالتاء وقال ابن الجزري في النشر ٢/ ٢٤١ : والوجهان صحيحان. . . إلا أن الخطاب أكثر وأشهر، وعليه الجمهور من أهل الأداء. وينظر السبعة ص٢١٥ ، والتيسير ص٩٠ .

(٣) تفسير البغوي ١/ ٣٤٤ .

(٤) تفسير أبي الليث ١/ ١٣٩ .

(٥) من (خ): أنسبائه إليه، وفي (د) و (ظ): أنسابه إليه، والمثبت من (م).

﴿وَأُولَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ، وكذا ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[١]. وقد تقدَّم جميعُ هذا[٢].

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾ «ما» تصلحُ أنْ تكونَ مصدريةً، وتصلحُ أنْ تكونَ بمعنى الذي، والعائدُ محذوفٌ، أي: مَثَلُ ما ينفقونه. ومعنى «كَمَثَلِ رِيحٍ»: كمثل مهلكِ[٣] ريحٍ.

قال ابنُ عباس: والصِّرُّ: البردُ الشَّديدُ[٤].

قيل: أصلُه من الصَّرير الذي هو الصَّوتُ، فهو صوتُ الريحِ الشَّديدة.

الزجَّاج: هو صوتُ لَهَبِ النار التي كانت في تلك الريح[٥]. وقد تقدَّم هذا المعنى في البقرة[٦]. وفي الحديث: إنَّه نهى عن الجراد الذي قتله الصِّرُّ[٧].

ومعنى الآية: مَثَلُ نفقةِ الكافرين في بطلانها وذهابِها وعدمِ منفعتِها، كمثل زرعٍ أصابه ريحٌ باردةٌ أو نارٌ، فأحرقَتْه وأهلكَتْه، فلم ينتفعْ أصحابُه بشيءٍ بعد ما كانوا يرجون فائدتَه ونفعه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك، ﴿وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ

---

(١) في (خ) و (م): وكذا و﴿هم فيها خالدون﴾، والمثبت من (د) و (ظ)، وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٢ ، والكلام منه.

(٢) ٥/ ٣٣ ، ١/ ٤٨٩ ، ٤٩٠ .

(٣) في (د) و (ظ) و (م): مهبّ، والمثبت من (خ)، وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٢ ، والكلام منه، وانظر مجمع البيان ٤/ ١٧٥ .

(٤) أخرجه الطبري ٥/ ٧٠٥ .

(٥) معاني القرآن ١/ ٤٦١ ، والنكت والعيون ١/ ٤١٨ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٥ .

(٦) ٤/ ٣٤١ .

(٧) أورده النحاس في معاني القرآن ١/ ٤٦٤ ، والخطابي في غريب الحديث ٣/ ٢٣ والزمخشري في الفائق ٢/ ٢٩٧ . وأخرجه أحمد في العلل ٢/ ٢٥٤ وأبو عبيد في غريب الحديث ٢/ ٤٤٥ عن هُشَيم، عن حجَّاج، عن عطاء من قوله، قال أحمد: لم يسمعه هُشَيم من حجَّاج، وقوله: الصرُّ، المقصود به هنا: البرد.

﴿يَظۡلِمُونَ﴾ بالكفر والمعصيةِ ومَنْعِ حقِّ الله تعالى(١).

وقيل: ظلموا أنفسَهم بأنْ زرعوا في غير وقتِ الزِّراعة، أو في غير موضِعِها فأدَّبهم الله تعالى؛ لوضعهِم الشَّيءَ في غيرِ موضعه، حكاه المَهْدَوِيُّ(٢).

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَـٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: أكَّدَ الله تعالى الزَّجْرَ عن الركُون إلى الكفار. وهو متَّصلٌ بما سبق من قوله: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

والبِطَانَةُ مصدرٌ، يُسَمَّى به الواحدُ والجمع. وبِطَانَةُ الرجلِ: خاصَّتُه الذين يستبطنون أمرَه. وأصلُه من البَطْن، الذي هو خلافُ الظَّهْر. وبَطَنَ فلانٌ بفلان يَبْطُن بُطوناً وبِطَانَةً: إذا كان خاصّاً به(٣). قال الشاعر:

أولئك خُلْصاني نعَمْ وبِطَانَتي وهم عَيْبَتِي من دون كلِّ قَرِيبِ(٤)

الثانية: نهى الله عزَّ وجلَّ المؤمنين بهذه الآيةِ أنْ يَتَّخِذوا من الكفَّار واليهودِ وأهلِ الأهْوَاء دُخَلاءَ ووُلَجاءَ، يفاوضونهم في الآراء، ويُسنِدون إليهم أمورَهم، ويُقال: كلُّ من كان على خلاف مَذْهَبِك ودينِك، فلا(٥) ينبغي لك أنْ تُحادثَه(٦)؛ قال الشاعر:

---

(١) ينظر تفسير البغوي ١/ ٣٤٤، والوسيط ١/ ٤٨٢.

(٢) ينظر النكت والعيون ١/ ٤١٩، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٥.

(٣) ينظر مجمع البيان ٢/ ١٧٦، وتفسير البغوي ١/ ٣٤٥، والنكت والعيون ١/ ٤١٩.

(٤) ورد البيت في مجمع البيان ٤/ ١٧٦، واللباب ٥/ ٤٨٨، والدّر المصون ٣/ ٣٦٣، والبحر المحيط ٣/ ٣٣ من غير نسبة، وقوله: خُلْصاني، أي: خالصتي، يستوي فيه الواحد والجماعة، وعَيْبَتي، أي: خاصَّتي وموضعُ سري، والجمع: عِيَب. اللسان (خلص، عيب).

(٥) في النسخ: لا، والمثبت من (م).

(٦) انظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٢، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٦١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٦.

عن المَرْءِ لا تَسْألْ[١] وسَلْ عن قَرِينِه فكلُّ قَرِينٍ[٢] بالمُقارِنِ يَقْتَدِي[٣]

وفي سنن أبي داود، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «المرءُ على دِينِ خليلِه، فَلْينظرْ أحدُكُم مَنْ يُخالِلُ»[٤].

ورُوي عن ابن مسعود أنه قال: اعْتَبِروا الناسَ بإخوانهم[٥].

ثم بيَّن تعالى المعنى الذي لأجله نهى عن المواصلة، فقال: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ يقول: فساداً. يعني: لا يتركون الجُهدَ في فسادكم، يعني: أنهم وإنْ لم يقاتلوكم في الظاهر، فإنهم لا يتركون الجُهْدَ في المكر والخديعة[٦]، على ما يأتي بيانُه.

روى أبو أُمَامَةَ[٧] عن رسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾، قال: «هم الخوارجُ»[٨].

ورُوي أنَّ أبا موسى الأشعريَّ استَكتَب ذِمِّياً، فكتب إليه عمرُ يُعنِّفُه، وتلا عليه هذه الآية[٩].

---

(١) في (د) و (خ): لا تَسَلْ، وهو صواب أيضاً.

(٢) في (خ) و (ظ): فإن القرين، والمثبت من (د) و(م)، وهو الموافق للديوان.

(٣) في (خ) و (ظ): مقتد، وفي(د): مقتدي، والمثبت من (م)، وهو الموافق للديوان والبيت لطرفة بن العبد وهو في ديوانه ص٤٤ ، قال التبريزي في شرح القصائد العشر ص١٢٤ : قيل: إنه لعدي بن زيد. ونسبه له الجاحظ في البيان والتبيين ٧/ ١٥٠ ، ورواية البيت فيه:

عن المرء لا تسألْ وأبصِر قرينَه فإنَّ القرينَ بالمقارن مقتدي

(٤) سنن أبي داود (٤٨٣٣)، وفيه: الرجل، بدل: المرء، وأخرجه أيضاً أحمد (٨٠٢٨)، والترمذي (٢٣٧٨).

(٥) رواه الطبراني في الكبير (٨٩١٩)، وفيه: بأخدانهم، بدل بإخوانهم، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٩٠: فيه محمد بن كثير بن عطاء، وثقه ابن معين وغيره، وفيه ضعف. وأخرجه أيضاً ابن عدي ٢/ ٥٨٥ ، والبيهقي في الشعب (٩٤٤٠) بلفظ: ... اعتبروا الصاحب بالصاحب. وانظر فيض القدير ١/ ٥٥١ - ٥٥٢ .

(٦) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٤ .

(٧) في (د) و (م): ورُوي عن أبي أمامة، والمثبت من (خ) و(ظ).

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم ٣/ ٧٤٢ ، والطبراني في الكبير (٨٠٤٧) وفي إسناده أبو غالب حزوَّر، قال الذهبي في الميزان ٤/ ٥١٠ : فيه شيء، وقال ١/ ٤٧٦ : ضعفه النسائي، وقال ابن حبان: لا يحتج به، وقد صحح له الترمذي.

(٩) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٤٤٧ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٩٦ .

وقدِم أبو موسى الأشعريُّ على عمرَ رضي الله عنهما بحساب، فرفعه إلى عمر فأعجبَهُ، وجاء عمرَ كتابٌ، فقال لأبي موسى: أين كاتبُك يقرأ هذا الكتابَ على الناس؟ فقال: إنه لا يدخلُ المسجد، فقال: لِمَ! أجُنُبٌ هو؟ قال: إنه نصرانيٌّ؛ فانتهره، وقال: لا تُدْنِهم وقد أقصاهم الله، ولا تُكرِمْهم وقد أهانَهم الله، ولا تأْمَنهم وقد خوَّنهم الله[١].

وعن عمرَ ﷺ قال: لا تستعملوا أهلَ الكتابِ، فإنهم يَستَحِلُّون الرِّشا، واستَعينوا على أموركم وعلى رعيَّتِكم بالذين يخشَون اللهَ تعالى[٢].

وقيل لعمر ﷺ: إنَّ ههنا رجلاً من نصارى الحِيرةِ لا أحدَ أكتَبُ منه، ولا أخطُّ بقلم، أفلا يَكتُبُ عنك؟ فقال: إذاً أتَّخذُ[٣] بِطانةً من دون المؤمنين[٤]. فلا يجوزُ استكتابُ أهلِ الذِّمةِ، ولا غيرُ ذلك من تصرُّفاتهم في البيع والشراءِ والاستنابة إليهم[٥].

قلت: وقد انقلبتِ الأحوالُ في هذه الأزمانِ باتخاذ أهلِ الكتابِ كَتَبةً وأُمناءَ، وتَسوَّدُوا بذلك عند الجَهَلةِ الأغْبياءِ، من الوُلاة والأمراء.

روى البخاريُّ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «ما بعث اللهُ مِن نبيٍّ ولا استَخلفَ مِن خليفةٍ إلا كانت له بِطانتانِ: بِطانةٌ تأمرُهُ بالخير[٦]، وتحُضُّه عليه، وبطانةٌ تأمرُه بالشرِّ، وتحضُّه عليه، والمعصومُ من عَصَمه[٧] اللهُ تعالى»[٨].

وروى أنس بنُ مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تستضِيؤوا بِنار المشركين،

---

(١) أخرجه البيهقي ١٠/ ١٢٧ .

(٢) لم نقف عليه.

(٣) من (د) و (م): لا آخذ، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٦٥٨ .

(٥) انظر المحرر الوجيز ١/ ٤٩٦ .

(٦) في (م): بالمعروف.

(٧) من (م): فالمعصوم من عصم.

(٨) صحيح البخاري (٦٦١١)، (٧١٩٨)، وهو عند أحمد (١١٨٣٤) بنحوه.

ولا تَنْقُشوا في خواتيمكم عَربياً»(١)، فسَّره الحسن بنُ أبي الحسن، فقال: أراد عليه الصَّلاة والسلام: لا تستشيروا المشركين في شيءٍ من أموركم، ولا تَنقُشوا في خواتيمكم محمداً، قال الحسن: وتصديقُ ذلك في كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾(٢) الآية.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ يعني: مِن سواكم. قال الفرَّاء: ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأنبياء: ٨٢] أي: سِوى ذلك.

وقيل: «مِن دونِكم» يعني: في السِّيَرِ(٣) وحُسْنِ المذهب(٤).

ومعنى «لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً»: لا يُقصِّرون فيما فيه الفسادُ عليكم، وهو في موضع الصِّفةِ لـ «بِطَانَةً من دُونِكُم»، يقال: لا آلُو جُهْداً، أي: لا أُقصِّر. وأَلَوْتُ أُلُوّاً(٥) قصَّرت؛ قال امرؤ القيس:

وما المرءُ ما دامتْ حُشاشَةُ نفسِه ... بمُدْرِكِ أطْرافِ الخُطُوبِ ولا آلِ(٦)

والخَبَال: الخَبْل. والخَبْل: الفساد؛ وقد يكون ذلك في الأفعال والأبدانِ والعقول. وفي الحديث: «من أُصيب بدَمٍ أو خَبْلٍ»(٧)، أي: جُرْحٍ يُفسِدُ العُضْوَ.

---

(١) في (د) و (م): غريباً، وقد سقطت الكلمة من (ظ)، والمثبت من (خ) و (ز)، وهو الموافق لمصادر التخريج.

(٢) أخرجه الطبري ٥/ ٧١٠، والبيهقي ١٠/ ١٢٧، وفي الشعب (٩٣٧٥). وأخرجه أيضاً أحمد (١١٩٥٤)، والنسائي ٨/ ١٧٦ - ١٧٧ دون تفسير الحسن رحمه الله. قال ابن كثير عند تفسير الآية (١١٨) من آل عمران: وهذا التفسير [يعني تفسير الحسن] فيه نظر، ومعناه ظاهر؛ «لا تنقُشوا في خواتيمكم عَربيّاً»، أي: بخط عربي، لئلا يشابه نقشَ خاتم النبي ﷺ، فإنه كان نقشُه محمد رسول الله، وأما الاستضاءة بنار المشركين فمعناه: لا تقاربوهم في المنازل بحيث تكونون معهم في بلادهم.

(٣) في (خ): السَّتر.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٢.

(٥) ضبطت في (خ): أَلْواً، وهو صحيح أيضاً، وينظر مجمع البيان ٤/ ١٧٦، والبيان لابن الأنباري ١/ ٢١٧، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٦.

(٦) ديوان امرئ القيس ص٣٩. ومعنى البيت أن الإنسان ما دام حيّاً فإنه لا يدرك أواخر الأمور، ولا يتأتى له كل ما يريد، وهو مع ذلك لا يألو، أي: لا يترك جهداً في الطلب. شرح الديوان ص٣٩.

(٧) قطعة من حديث أبي شُريح الخُزاعي ﷺ؛ أخرجه أحمد (١٦٣٧٥)، وأبو داود (٤٤٩٦)، وابن ماجه (٢٦٢٣).

والخَبْل: فسادُ الأعضاء، ورجُلٌ خَبْلٌ ومُخْتَبَلٌ، وخَبَلَه الحبُّ، أي: أفسده؛ قال: أوْسٌ:

أبـنِـي لُـبَـيْـنَـى لـسـتُـم بـيَـدٍ إلّا يـداً مَـخْـبـولَـةَ الـعَـضُـدِ[١]

أي: فاسدةَ العَضُد[٢]. وأنشد الفرَّاء:

نَـظَـر ابـنُ سـعـدٍ نـظـرةً وبَّـتْ بـهـا كـانـت لِصُحْبِك والمطِيِّ خَبالاً[٣]

أي: فساداً[٤].

وانتصب «خَبَالاً» بالمفعول الثاني؛ لأنَّ الألْوَ يتعدَّى إلى مفعولين، وإنْ شئتَ على المصدر، أي: يخَبِلونكم خَبالاً. وإنْ شئتَ بنزع الخافضِ، أي: بالخبال؛ كما قالوا: أوجعتُه ضرباً[٥].

«وما» في قوله: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ مصدريةٌ، أي: وَدُّوا عَنَتَكم. أي: ما يشُقُّ عليكم. والعَنَت: المشقَّةُ[٦]، وقد مضى في «البقرة» معناه[٧].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ يعني: ظهرت العداوةُ والتكذيبُ لكم من أفواههم[٨]. والبغضاءُ: البغضُ، وهو ضدُّ الحُبِّ. والبغضاءُ مصدرٌ مؤنث[٩].

---

(١) قائله أوس بن حجر، وهو في ديوانه ص٢١، وروايته: ... إلا يداً ليست لها عضدُ، وذكره بمثل رواية المصنف الزجاج في معاني القرآن ١/ ٤٦٢.

(٢) ينظر مجمل اللغة ٢/ ٣١١ - ٣١٢، وتهذيب اللغة ٧/ ٤٢٦ - ٤٢٧.

(٣) قائله عبد الرحمن بنُ دارة، وهو في الأغاني ٢١/ ٢٤٧ بلفظ: نظر ابن سَعْدَةَ نظرةً ويلاً لها...، وقوله: وبَّتْ، من الوَبِّ، وهو التهيؤ للحرب، اللسان (وبب)، وهذا البيت قاله ابنُ دارة مع أبيات له يهجو فيها الكُميتَ وهو ابنُ سعدةَ المذكورُ في البيت. انظر الأغاني ٢١/ ٣٤٦ - ٣٤٧.

(٤) في (م): فساد.

(٥) ينظر تفسير البغوي ١/ ٣٤٥.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٦.

(٧) ٣/ ٤٥٣.

(٨) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٤.

(٩) ينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣١.

وخصَّ تعالى الأفواهَ بالذِّكر دونَ الألسنةِ إشارةً إلى تَشدُّقهم وثَرْثَرَتِهم في أقوالهم هذه، فهم فوق المتَستِّر الذي تبدو البغضاءُ في عينيه. ومن هذا المعنى نهيُه عليه الصلاة والسَّلام أنْ يَتَشحَّى(١) الرجلُ فاه في عِرض أخيه. معناه: أنْ يفتحَ؛ يُقَالُ: شحَى الحمارُ فاه بالنَّهيق، وشحَى الفَمُ نفسُه. وشحَى اللِّجامُ فَمَ الفرسِ شَحْياً، وجاءتْ الخيلُ شَوَاحِيَ: فاتحاتٍ أفواهَها. ولا يُفهمُ من هذا الحديثِ دليلُ خطابٍ على الجواز، فيأخذَ أحدٌ في عِرْضِ أخيه هَمْساً؛ فإنَّ ذلك يَحْرمُ باتفاق من العلماء(٢). وفي التنزيل ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ [الحجرات: ١٢] الآية. وقال ﷺ: «إنَّ دِماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حرامٌ»(٣). فذِكرُ الشَّحْوِ إنما هو إشارةٌ إلى التشدُّق والانبساطِ(٤)، فاعلم.

الخامسة: وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ شهادةَ العدوِّ على عدوِّه لا تجوز، وبذلك قال أهلُ المدينةِ وأهلُ الحجاز، ورُوي عن أبي حنيفةَ جوازُ ذلك(٥).

وحكى ابن بَطَّال عن ابن شعبانَ أنه قال: أجمع العلماءُ على أنه لا تجوزُ شهادةُ العدوِّ على عدوِّه في شيءٍ وإن كان عدلاً، والعداوةُ تُزيلُ العدالةَ، فكيف بعداوةِ كافرٍ(٦)؟.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ﴾ إخبارٌ وإعلامٌ بأنهم يُبطنون من البغضاء أكثرَ ممَّا يُظهِرون بأفواههم.

وقرأ عبدالله بنُ مسعود: «قد بدا(٧) البغضاءُ» بتذكير الفعل؛ لمَّا كانت البغضاءُ

(١) في (د) و (م): يشتحي، ولم تجود الكلمة في باقي النسخ، والمثبت من المحرر الوجيز ١/ ٤٩٦، والكلام منه، قال في اللسان (شحا): تَشَحَّى فلان على فلان إذا بسط لسانه فيه، وأصله التوسعُ في كل شيء، قال: شحا فاه يشحوه، ويشحاه شحواً فتحه، وشحا فوه انفتح، يتعدى ولا يتعدى، والحديث لم نقف عليه.

(٢) انظر المحرر الوجيز ١/ ٤٩٦ - ٤٩٧، وتهذيب اللغة ٥/ ١٤٨.

(٣) سلف ٣/ ٢٢٨.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٧.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٩٦.

(٦) انظر النوادر والزيادات ٨/ ٣٠٨ وما بعدها.

(٧) في (م): قد بدأ.

بمعنى البُغض(١).

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾ يعني: المنافقين؛ دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾؛ قاله أبو العالية ومقاتل(٢).

والمحبةُ هنا بمعنى: المصافاة، أي: أنتم أيها المسلمون تُصافونهم، ولا يُصافونكم لِنفاقهم(٣).

وقيل: المعنى: تريدون لهم الإسلامَ، وهم يريدون لكم الكفر(٤).

وقيل: المرادُ: اليهودُ(٥)؛ قاله الأكثرُ.

والكتاب اسمُ جنسٍ؛ قال ابن عباس: يعني: بالكُتُب. واليهودُ يؤمنون بالبعض؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ [البقرة: ٩١].

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، أي: بمحمد ﷺ، وأنه رسولُ اللهِ ﷺ. ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ فيما بينهم ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ﴾ يعني: أطرافَ الأصابع ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ والحنَقِ عليكم؛ فيقول بعضُهم لبعض: ألا ترون إلى هؤلاء ظهروا وكثُروا(٦).

والعَضُّ: عبارةٌ عن شِدَّة الغيظِ مع عدمِ القدرةِ على إنفاذه؛ ومنه قولُ أبي طالب:

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٧، وقراءة ابن مسعود ﷺ وردت في معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣١، وتفسير الطبري ٥/ ٧١٤، والكشاف ١/ ٤٥٨.

(٢) قول أبي العالية أورده ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٤٤٧، وقول مقاتل أورده البغوي في تفسيره ١/ ٣٤٥.

(٣) ينظر مجمع البيان ٤/ ١٧٩، وزاد المسير ١/ ٤٤٧.

(٤) ينظر الوسيط ١/ ٤٨٣.

(٥) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٤٩٧.

(٦) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٤.

يَعَضُّونَ غَيْظاً خَلْفَنا بالأَنامِلِ[١]

وقال آخر:

إذا رَأَوني ـ أطال الله غيظَهُم ـ عَضُّوا من الغَيْظِ أطرافَ الأَبَاهِيم[٢]

يقال: عَضَّ يَعَضُّ عَضّاً وعَضِيضاً. والعُضُّ، بضم العين: عَلَفُ أهلِ[٣] الأمصار، مثلُ الكُسْبِ والنَّوَى المرْضُوخِ، تقول[٤] منه: أعَضَّ القومُ، إذا أكلت إبلُهم العُضَّ. وبعير عُضَاضيٌّ، أي: سمينٌ، كأنه منسوبٌ إليه. والعِضُّ، بالكسر: الدَّاهي من الرجال والبليغُ المُنكَرُ[٥].

وعَضُّ الأناملِ من فعل المُغْضَبِ الذي فاته ما لا يَقدِرُ عليه، أو نزل به ما لا يَقدِرُ على تغييره. وهذا العَضُّ هو بالأسنان، كعَضِّ اليد على اليد[٦] على فائتٍ قريبِ الفوت[٧]. وكقرع السِّنِّ النَّادمةِ، إلى غير ذلك من عدِّ الحصى والخَطِّ في الأرض للمهموم. ويُكتب هذا العضُّ بالضاد السَّاقطة، وعَظُّ الزمانِ بالظاء المشالة[٨]؛ كما قال:

وعَظُّ زمانٍ يا ابنَ مَروانَ لم يَدَعْ من المال إلا مُسْحَتاً أو مُجَلَّفُ[٩]

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٧ ، والبيت ورد في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٧٢ ، والروض الأنف ٢/ ١٣ ، والدر المصون ٣/ ٣٧٠ ، واللباب ٥/ ٤٩٧ ، والبحر المحيط ٣/ ٤١ ، وصدره: وقد حالفوا قوماً علينا أَظِنَّةً.

(٢) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ٢/ ٣٥٨ .

(٣) في (م): علف دوابّ أهل، والمثبت من النسخ الخطية، وهو موافق لما في الصحاح (عضض)، وتهذيب اللغة ١/ ٧٥ .

(٤) في (خ) و (د): يقال، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للصحاح (عضض)، والكلام منه.

(٥) في (م): المكر، والمثبت من النسخ الخطية، وهو موافق لما في الصحاح والمجمل (عضض) وتهذيب اللغة ١/ ٧٤ .

(٦) قوله: على اليد، ليست في (م).

(٧) في (د) و(م): الفوات، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٨) انظر المحرر الوجيز ١/ ٤٩٧ .

(٩) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ص٥٥٦ ، وفيه: مجرَّف بدل: مجلَّف، وفيه أيضاً وفي المحتسب ٢/ ٣٦٥ ، وطبقات فحول الشعراء ١/ ٣٦٨ ، والجمل للزجاجي ص٢٠٤ ، والإنصاف ١/ ١٨٨ ، =

وواحدُ الأناملِ: أَنْمُلة ـ بضم الميم ـ ، ويقال: بفتحها، والضَّمُّ أشهر. وكان أبو الجَوْزَاء إذا تلا هذه الآيةَ قال: هُم الإباضِية[١]، قال ابن عطيَّة[٢]: وهذه الصِّفةُ قد تترتَّبُ في كثيرٍ من أهل بدعٍ من الناس إلى[٣] يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إن قيل: كيف لم يموتوا واللهُ تعالى إذا قال لشيء: كن، فيكون؟ قيل عنه جوابان:

أحدُهُما: قال فيه الطبريُّ[٤] وكثيرٌ من المفسرين: هو دعاءٌ عليهم، أي: قل يا محمدُ: أدام الله غيظَكم إلى أنْ تموتوا. فعلى هذا يتجه أن يُدْعَى[٥] عليهم بهذا مُوَاجهةً وغيرَ مواجَهةٍ، بخلاف اللَّعْنَة.

الثاني: أنَّ المعنى: أَخْبِرْهم أنهم لا يدركون ما يُؤَمِّلون، فإنَّ الموتَ دون ذلك. فعلى هذا زال[٦] معنى الدعاءِ، وبقي معنى التقْرِيعِ والإغَاظَة. ويجري هذا المعنى مع قولِ مسافرِ بن أبي عمرو:

ونَـنْـمِـي[٧] فـي أَرُومـتـنـا ونَـفْـقَـأُ عـيـنَ مَـنْ حَـسَـدا[٨]

= والخزانة ٥/ ١٤٤ : وعضٌ، بدل: وعظٌ، ونقل البغدادي في الخزانة ٥/ ١٥٢ عن الخليل قوله: العضّ كله بالضاد إلا عظّ الزمان والحرب، ونقل أيضاً عن ابن سِراج: العظّ المجازي بالظاء والحقيقي بالضاد، وقوله: مُسْحَت، أي: مُهْلَك، ومُجلَّف: الذي بقيت منه بقية، والمجلّف أيضاً الرجل الذي جلَّفته السِّنون، أي: أذهبت أمواله. اللسان (جلف).

(١) أخرجه الطبري ٥/ ٧١٩ وسلف التعريف بالإباضية في الصفحة ٢٤٤ من هذا الجزء.

(٢) في المحرر الوجيز ١/ ٤٩٨ ، وما قبله منه.

(٣) في (د) و (م): أهل البدع إلى، والمثبت من (خ) و(ط)، وهو الموافق للمحرر الوجيز ١/ ٤٩٨ .

(٤) في تفسيره ٥/ ٧٢١ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٨ ، وعنه نقل المصنف.

(٥) في (م): يدعو.

(٦) في (د) و (م): هذا المعنى زال، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق للمحرر الوجيز ١/ ٤٨٩ .

(٧) في (د) و (م): يتمنى، وفي (خ): ينمي، وسقطت الكلمة من (ز) و (ظ)، والمثبت من المحرر الوجيز ١/ ٤٩٨ ، والكلام منه.

(٨) ورد البيت في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٥٠ ، والأغاني ٩/ ٥٥ ، وفيهما: وزمزم، بدل: وننمي، وقوله: ننمي من نمى ينمي نمياً، ونمى الماء: طمى وعلا. انظر القاموس (نما)، وقوله: أرومتنا، بوزن أكولة: الأصل. النهاية (أرم). ومسافر بن أبي عمرو هو أبو أمية كان سيداً جواداً، أحد أزواد الركب الثلاثة: زمعة بن الأسود، وأبو أمية بن المغيرة، ومسافر، وسُمُّوا بذلك؛ لأنهم كانوا لا يدَعون غريباً ولا محتاجاً إلا تكفَّلوا به حتى يظعن. انظر الأغاني ٩/ ٤٩ . وهذا الرجز قاله مسافر في أبيات له يفخر بها على قريش.

وينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [الحج: ١٦].

قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ قرأ السُّلَميُّ بالياء[1]، والباقون بالتاء.

واللفظُ عامٌّ في كل ما يحسُن ويَسُوء. وما ذكره المفسرون من الخِصْب والجَدْب، واجتماعِ المؤمنين، ودخولِ الفُرقةِ بينهم، إلى غير ذلك من الأقوال؛ أمثلةٌ، وليس باختلاف.

والمعنى في الآية: أنَّ من كانت هذه صفتَه؛ من شدَّة العداوةِ والحِقدِ، والفرحِ بنزول الشَّدائدِ بالمؤمنين[2]، لم يكن أهلاً لأَنْ يُتَّخذَ بِطانةً، لا سِيما في هذا الأمرِ الجسيمِ من الجهاد، الذي هو مِلاكُ الدنيا والآخرةِ؛ ولقد أحسن القائلُ في قوله:

كلُّ العداوةِ قد تُرجى إفاقتُها ... إلَّا عداوةَ مَن عاداك مِنْ حسدِ[3]

﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟﴾، أي: على أذاهم، وعلى الطَّاعة، وموالاةِ المؤمنين ﴿وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضِرْكُم كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ يقال: ضارَه يَضُوره ويَضِيرُه ضَيْراً وضَوْراً؛ فَشَرط تعالى نفيَ ضَرِرهم بالصَّبر والتقوى، فكان ذلك تسليةً للمؤمنين وتقويةً لنفوسهم[4]. قلت[5]: قرأ الحِرْميَّان وأبو عمرٍو: ﴿لَا يَضِرْكُمْ﴾[6] من ضارَ يضير كما ذكرنا؛ ومنه قوله: ﴿لَا

(١) لم نقف على هذه القراءة، وذكرها أبو حيان في البحر ٣/ ٤٣، وقال: لأن تأنيث الحسنة مجازي.

(٢) في (د) و (م): على المؤمنين، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٨، وفيه: إزالتها، بدل: إفاقتها، وورد البيت في عيون الأخبار ٢/ ١٠، وبهجة المجالس ١/ ٤١٤ من غير نسبة، وفيهما: إماتتها، بدل: إفاقتها، والمزهر ١/ ٨٠، وفيه: العداوات، بدل: العداوة.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٨ - ٤٩٩.

(٥) في (خ) و (د): قراءات، وسقطت هذه الكلمة من (ظ)، والمثبت من (م).

(٦) السبعة ص٢١٥، والتيسير ص٩٠: وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: لا يضُرُّكم، بضم الراء وتشديدها كما سيذكر المصنف. والحِرْميان هما: نافع المدني، وابن كثير المكي، قال في اللسان (حرم): النسب في الناس إلى الحرم: حِرْميّ، بكسر الحاء وسكون الراء، يقال: رجل حِرْميّ، فإذا كان في غير الناس، قالوا: ثوب حَرَميّ.

ضَيۡرَۖ﴾ [الشعراء: ٥٠]، وحُذفت الياءُ لالتقاء الساكنَين؛ لأنك لمَّا حَذَفْتَ الضَّمةَ من الراء، بقيتْ الراء ساكنةً، والياءُ ساكنة، فحُذِفت الياءُ، وكانت أولى بالحذف؛ لأنَّ قبلَها ما يدلُّ عليها.

وحكى الكسائيُّ أنه سمع: «ضَارَه يَضُورُه»، وأجاز: «لا يَضُرْكُم»، وزعم أنَّ في قراءة أُبَيٍّ بن كعبٍ: «لا يَضْرُرْكُم»[١].

وقرأ الكوفيون: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بضمِّ الراءِ وتشديدِها؛ من ضَرَّ يَضُرُّ[٢]. ويجوزُ أنْ يكونَ مرفوعاً على تقدير إضمارِ الفاءِ؛ والمعنى: فلا يضُرُّكم، ومنه قولُ الشاعر:

مَن يَفعلِ الحسناتِ[٣] اللهُ يَشْكُرُها

هذا قولُ الكسائيِّ والفرَّاءِ[٤]، أو يكونَ مرفوعاً على نيَّة التَّقديم؛ وأنشد سيبويه[٥]:

إنكَ[٦] إنْ يُصرَعْ أخوك تُصرَعُ

أي: لا يضرُّكم إنْ تصبِروا وتتقوا[٧].

ويجوز أنْ يكونَ مجزوماً، وضُمَّت الراءُ لالتقاء السَّاكنَين على إتباعِ الضَّم. وكذلك قراءةُ من فَتح الراءَ على أنَّ الفعلَ مجزومٌ، وفَتح «يَضُرَّكم»؛ لالتقاء

(١) في (خ) و(ظ): لا يضور، وفي (د): لا يضر، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٣ ، والكلام منه، وقراءة أُبيّ وردت في المحرر الوجيز ١/ ٤٩٩ ، والبحر المحيط ٣/ ٤٣ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٣ ، وانظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٢ ، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٦٤-٤٦٥ .

(٣) في (خ) و (ظ): الخيرات، والمثبت من (د) و (م)، وهو الموافق لمصادر التخريج.

(٤) في معاني القرآن ١/ ٢٣٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٤ ، وعنه نقل المصنف، والبيت نُسب لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، كما سلف ٣/ ٩٢ .

(٥) في الكتاب ٣/ ٦٧ .

(٦) لفظة: إنك، من (م).

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٤ ، والبيت نسبه سيبويه في الكتاب ٣/ ٦٧ لجرير بن عبدالله، ونسبه البغدادي في خزانة الأدب ٨/ ٢٠ لعمرو بن خُثادم، وورد الرجز في الكامل ١/ ١٧٤ ، والمقتضب ٢/ ٧٢ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ١٥٥ ، وأمالي ابن الشجري ١/ ١٢٥ ، والمقرَّب ١/ ٢٧٥ من غير نسبة، وقبله: يا أقرعُ بنَ حابسٍ يا أقرعُ.

الساكنين؛ لخفَّة الفتح؛ رواه أبو زيدٍ عن المفضَّل، عن عاصم(١)، حكاه المهْدوِيُّ.

وحكى النحاسُ: وزعمَ المفضَّل الضَّبيُّ عن عاصم(٢): «لا يَضُرِّكم» بكسر الراءِ لالتقاء السَّاكنَين(٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ العامل في «إِذْ» فعلٌ مضمرٌ تقديرُه: واذكر إذْ غدوت، يعني: خرجت بالصَّباح. ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾: من منزلك من عندِ عائشة. ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، هذه غزوةُ أُحُدٍ، وفيها نزلت هذه الآيةُ كلُّها(٤).

وقال مجاهدٌ والحسنُ ومقاتل والكلبيُّ: هي غزوةُ الخَنْدَقِ(٥).

وعن الحسن أيضاً: يوم بَدْرٍ(٦).

والجمهورُ: على أنها غزوةُ أُحُدٍ(٧)؛ يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾. وهذا إنَّما كان يومَ أُحدٍ، وكان المشركون قَصدوا المدينةَ في ثلاثة آلافِ رجلٍ، ليأخذوا بثأْرهم في يوم بدر؛ فنزلوا عند أُحُدٍ على شَفِير الوادي

(١) انظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٩، وقراءة عاصم هذه ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٢، والزمخشري في الكشاف ١/ ٤٦٠.

(٢) قوله: الضبي عن عاصم، ليس في (ظ).

(٣) كذا حكى المصنف عن النحاس، والذي في إعراب القرآن ١/ ٤٠٣ أن رواية المفضل عن عاصم، بفتح الراء كما ذكر قبل، وأما الكسر، فقد ذكره النحاس وجهاً لا قراءة، قال ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٩٩: أما الكسر فلا أعرفها قراءة، وعبارة الزجاج (في معاني القرآن ١/ ٤٦٥) في هذا متجوز فيها، إذ يظهر من دَرَج كلامِه أنها قراءة. اهـ وأما كسر الراء في: لا يَضُرِّكم، فقد نسبه السمين في الدر ٣/ ٣٧٧، وأبو حيان في البحر المحيط ٣/ ٤٣ للضحاك.

(٤) تنظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٠٦، وتفسير الطبري ٦/ ٧، وأسباب النزول ص ١١٥ - ١١٦.

(٥) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٥، وتفسير الطبري ٦/ ٧، والنكت والعيون ١/ ٤٢٠.

(٦) أورده البغوي ١/ ٣٤٦.

(٧) ينظر تفسير البغوي ١/ ٣٤٦، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٩.

بقناةٍ مقابل المدينة، يومَ الأربعاء الثاني عشرَ من شوَّال سنةَ ثلاثٍ من الهِجرة، على رأس أَحَدٍ وثلاثينَ شهراً من الهجرة، فأقاموا هنالك يومَ الخميس، ورسول الله ﷺ بالمدينة[١]؛ فرأى رسولُ اللهِ ﷺ في منامه أنَّ في سيفه ثُلْمَةً، وأنَّ بقراً له تُذبحُ، وأنه أَدخل يدَه في دِرْعٍ حصينةٍ؛ فتأوَّلَها أنَّ نفراً من أصحابه يُقتلون، وأنَّ رجلاً من أهل بيتِه يُصاب، وأنَّ الدِّرعَ الحصينةَ المدينةُ. أخرجه مسلم[٢]. فكان كلُّ ذلك على ما هو معروفٌ مشهورٌ من تلك الغَزاة.

وأصلُ التبوُّءِ اتخاذُ المنزل، بوَّأْتُه منزلاً: إذا أسكنته إياه؛ ومنه قولُه عليه الصلاة والسلام: «من كذبَ عليَّ مُتعمِّداً، فَلْيتبوَّأْ مقعدَه مِنَ النَّارِ»[٣]، أي: لِيتخذْ فيها منزلاً. فمعنى «تُبوِّئُ المؤمنين»: تَتَّخذُ لهم مَصافَّ[٤].

وذكر البيهقيُّ من حديث أنس أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «رأيتُ فيما يرى النائمُ كأنِّي مُردِفٌ كبشاً، وكأنَّ ظُبَةَ[٥] سيفي انكسرت، فأوَّلْتُ أنِّي أَقْتُلُ كبشَ القومِ، وأوَّلْتُ كَسْرَ ظُبَةِ[٦] سيفِي، قَتْلَ رجلٍ من عِترتي» فقُتل[٧] حمزةُ، وقَتلَ رسولُ اللهِ ﷺ طلحةَ، وكان صاحبَ اللِّواءِ[٨].

وذكر موسى بنُ عقبةَ عن ابن شهاب: وكان حاملَ لواءِ المهاجرين رجلٌ من

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٠.

(٢) برقم (٢٢٧٢) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ بنحوه، وهو عند البخاري (٣٦٢٢)، وأخرجه أحمد (٢٤٤٥) (١٤٧٨٧) من حديث ابن عباس وجابر ﷺ.

(٣) سلف ١/ ٥٧.

(٤) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٠١.

(٥) في (خ): طية، وفي (د) و (ظ) و (م): ضبة، والمثبت من دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٢٠٥، ومصادر الحديث.

(٦) في (د) و (م): ضبة، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٧) لفظة: فقُتل، من (د) و (م).

(٨) البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢٠٥ وفيه: وقُتل طلحة بن أبي طلحة وكان صاحب اللواء. وأخرجه أيضاً البراز (كشف الأستار) (٢١٣١)، والطبراني في الكبير (٢٩٥٠)، والحاكم ٣/ ١٩٨. وهو عند أحمد (١٣٨٢٥) مختصراً، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٠٧ - ١٠٨: رواه الطبراني، وأحمد ولم يكمله، وفيه علي بن زيد، وهو سيىء الحفظ، وبقية رجاله رجال الصحيح، وقوله: ظُبة سيفي، أي: طرفه، ويجمع على الظُّباه والظبين. النهاية (ظبب).

أصحاب رسولِ الله ﷺ، فقال: أنا عاصمٌ إنْ شاء الله لِمَا معي؛ فقال له طلحة بنُ عثمانَ أخو سعيد[١] بنُ عثمانَ اللخميُّ[٢]: هل لك يا عاصم في المبارزة؟ قال: نعم؛ فبدَره ذلك الرَّجلُ، فَضَرب بالسَّيف على رأس طلحةَ حتى وقع السَّيفُ في لَحْيَيْهِ[٣]، فقتله؛ فكان قتلُ صاحبِ لواءِ المشركين تصديقاً[٤] لرؤيا رسولِ الله ﷺ: «أني[٥] مُرْدِفٌ كبشاً»[٦].

قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

العامل في «إذ»: «تبوئ»، أو: «سميع عليم». والطائفتان: بنو سلَمةَ من الخزرج، وبنو حارثةَ من الأوس، وكانا جناحَي العسكرِ يومَ أُحُدٍ. ومعنى ﴿أَن تَفْشَلَا﴾: أن[٧] تَجْبُنا[٨].

وفي البخاريِّ عن جابرٍ قال: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، قال: نحن الطائفتان: بنو حارثةَ وبنو سلمةَ، وما نُحِبُّ أنَّها لم تَنزلْ؛ لقول اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[٩].

وقيل: هم بنو الحارثِ، وبنو[١٠] الخزرج، وبنو النَّبِيت[١١]، والنَّبِيت: هو عمرو

---

(١) في (خ): شيبة.

(٢) في (د): الحجبي.

(٣) في (خ) و (ظ) و(م) والدلائل (كما سيرد): لحيته.

(٤) في (م): اللواء تصديقاً.

(٥) في (خ): أيْ، وفي (ظ) و (م): كأني، والمثبت من (د)، وهو الموافق لدلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٢١٠ .

(٦) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢١٠ مطولاً.

(٧) في (خ) و (ظ): أي.

(٨) ينظر تفسير البغوي ١/ ٣٤٧ ، وتفسير الرازي ٨/ ٢٢٠ .

(٩) صحيح البخاري (٤٥٥٨)، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٥٠٥).

(١٠) في (خ) و (ظ): ابن.

(١١) في (خ) و (ظ): النبت، وقد سقطت الكلمة من (د).

ابنُ مالك من بني الأوس. والفشلُ: عبارةٌ عنِ الجبن؛ وكذلك هو في اللغة.

والهَمُّ من الطائفتين كان بعد الخروجِ؛ لمَّا رجع عبدالله بنُ أُبَيٍّ بمن معه من المنافقين، فحفِظ الله قلوبَهم، فلم يرجعوا؛ فذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾، يعني: حافظٌ قلوبَهما عن تحقيق هذا الهمِّ[١].

وقيل: أرادوا التَّقاعدَ عن الخروج، وكان ذلك صغيرةً منهم.

وقيل: كان ذلك حديثَ نفسٍ منهم خَطَر ببالهم، فأطلَع اللهُ نبيَّه عليه الصلاة والسلام، فازدادوا[٢] بصيرةً؛ ولم يكن ذلك الخَوَرُ[٣] مكتسَباً لهم، فعصَمهم الله، وذمَّ[٤] بعضُهم بعضاً، ونهضوا مع النبيِّ ﷺ، فمضى رسولُ اللهِ ﷺ حتى أطَلَّ[٥] على المشركين، وكان خروجُه من المدينة في ألفٍ، فرجعَ عنه عبداللهِ بنُ أبَيّ بنُ سَلُولٍ بثلاث مئة رجلٍ مُغاضِباً؛ إذْ خُولِف رأيُه حين أشار بالقعود والقتالِ في المدينة إن نهض إليهم العدوُّ، وكان رأيُه وافَقَ رأيَ رسولِ الله ﷺ، وأبى ذلك أكثرُ الأنصار[٦]، وسيأتي[٧]. ونهضَ رسولُ الله ﷺ بالمسلمين، فاستُشهِد منهم من أكرمه الله بالشَّهادة.

قال مالكٌ رحمه الله: قُتِل من المهاجرين يومَ أُحُدٍ أربعةٌ، ومن الأنصارِ سبعون ﷺ[٨].

والمقاعِدُ: جمع مَقْعَدٍ وهو مكانُ القعود، وهذا بمنزلة: مَوَاقف، ولكنَّ لفظَ القعودِ دالٌّ على الثُّبوت؛ ولاسِيما أنَّ الرُّماةَ كانوا قعوداً[٩]. هذا معنى حديثِ غزاةِ

---

(١) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٥، وتفسير الطبري ٦/ ١٥.

(٢) في (ظ): فازداد.

(٣) في النسخ: الجور، والمثبت من (م)، وقوله: الخَوَر: الضعف، يقال: خار يخور: ضعف وانكسر. انظر الصحاح (خور).

(٤) في (خ): ودبر، وفي (ظ): ودمر، والمثبت من (د) و (م)، وهو الموافق للمحرر الوجيز ١/ ٥٠٠.

(٥) في النسخ الخطية: أظل، والمثبت من (م).

(٦) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٣ - ٦٤، والدرر في اختصار المغازي والسِّير لابن عبد البَرّ ص١٥٦-١٥٧، والمحرر الوجيز ١/ ٥٠٠.

(٧) ص٣٨٥ من هذا الجزء.

(٨) الجامع في السنن والآداب لابن أبي زيد القيرواني ص ٢٧٧.

(٩) المحرر الوجيز ١/ ٥٠١.

أُحدٍ على الاختصار، وسيأتي من تفصيلها ما فيه شِفاءٌ[١].

وكان مع المشركين يومَئِذٍ مئةُ فرسٍ عليها خالد بنُ الوليد، ولم يكن مع المسلمين يَومئِذٍ فرسٌ. وفيها جُرِحَ رسولُ اللهِ ﷺ في وجهه، وكُسِرتْ رَباعِيَتُه[٢] اليمنى السُّفلى بحجر، وهُشِمت البَيْضَةُ[٣] من على رأسه ﷺ، وجزاه عن أُمَّته ودِينه بأفضل ما جزى به نبيّاً من أنبيائه عن[٤] صبره. وكان الذي تَوَلَّى ذلك من النبيِّ ﷺ عمرو بنُ قَمِئَة[٥] الليثيُّ، وعُتْبَةُ بنُ أبي وَقَّاص.

وقد قيل: إنَّ عبدَ اللهِ بنَ شِهابٍ ـ جدَّ الفقيهِ محمدِ بنِ مسلم بنِ شهابٍ ـ هو الذي شَجَّ رسولَ الله ﷺ في جبهته[٦].

قال الواقِدِيُّ[٧]: والثابتُ عندنا أنَّ الذي رمى في وجْنَتَي[٨] النبيِّ ﷺ ابنُ قمئةَ، والذي أَدمى شفتَه وأصابَ رَباعِيَتَه عُتبةُ بنُ أبي وَقَّاص.

قال الواقِدِيُّ بإسناده عن نافع بنِ جُبير قال: سمعت رجلاً من المهاجرين يقولُ: شهدتُ أُحُداً، فنظرتُ إلى النَّبْلِ تأتي من كل ناحية، ورسولُ اللهِ ﷺ وسطَها، كلُّ [ذلك] يُصْرَفُ عنه. ولقد رأيتُ عبدَ اللهِ بنَ شِهاب الزُّهرِيَّ يقولُ يومئذٍ: دُلُّونِي على محمد، دُلُّوني على محمد، فلا نجوْتُ إنْ نجا، [وإنَّ] رسولَ اللهِ ﷺ إلى جنْبه ما معه أحدٌ، ثمَّ جاوزَه، فعاتبه في ذلك صفوانُ، فقال: واللهِ ما رأيتُه، أحلِفُ بالله إنه مِنَّا ممنوعٌ! خرجنا أربعةً، فتعاهدْنا وتعاقدنا على قتله، [فلم نَخْلُصْ إلى ذلك][٩].

---

(١) ص٣٥٨-٣٧٥.

(٢) انظر صحيح مسلم (١٧٦١)، وسيذكره المصنف ص٣٠٦. قوله: رَبَاعيَته، هي السنُّ التي بين الثنيةِ والناب، والجمع رَبَاعيات. الصحاح (ربع).

(٣) قوله: البيضة: الخوذة. انظر النهاية ٤/ ١١٤.

(٤) في (م): على.

(٥) في (م): قميئة.

(٦) الدرر في اختصار المغازي والسِّير ص١٦١، وانظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٧٩ - ٨٠.

(٧) في المغازي ١/ ٢٤٤.

(٨) في (د) و (م): وجه، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق لمغازي الواقدي ١/ ٢٤٤.

(٩) في المغازي ١/ ٢٣٧ - ٢٣٨، وما بين حاصرتين منه.

وأكَبَّتِ الحجارةُ على رسول اللهِ ﷺ حتّى سقط في حفرة، كان أبو عامر الرَّاهبُ قد حفرها مكيدةً للمسلمين، فخرَّ عليه الصلاة والسَّلام على جنبه، [فأخَذ عليٌّ بيده]، واحتضنه طلحةُ حتى قام، ومَصَّ مالك بنُ سِنان والدُ أبي سعيدٍ الخدريّ من جُرْح رسولِ الله ﷺ الدَّمَ، ونَشِبَتْ[1] حلْقَتان من دِرع المِغْفَر[2] في وجهه ﷺ، فانتزعهما أبو عبيدةَ بنُ الجرَّاح، وعَضّ عليهما بِثَنِيَّتَيهِ، فسقطتا؛ فكان أَهْتَمَ[3] يُزيِّنُه هَتَمُه ﷺ[4].

وفي هذه الغَزاةِ قُتل حمزةُ ﷺ، قتلَه وحشِيٌّ، وكان وَحْشِيٌّ مملوكاً لجُبير بنِ مُطْعِم، وقد كان جبيرٌ قال له: إنْ قَتلتَ محمداً جعلنا لك أعِنَّةَ الخيلِ، وإنْ أنت قتلتَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ جعلنا لك مئة ناقةٍ؛ كلُّها سُودُ الحَدَق، وإنْ أنت قتلتَ حمزةَ، فأنت حُرٌّ. فقال وحشِيٌّ: أمَّا محمدٌ فعليه حافظٌ من الله لا يخلُص إليه أحدٌ. وأما عليٌّ ما برز إليه أحدٌ إلَّا قتلَه. وأما حمزةُ فرجل شجاعٌ، وعسى أنْ أُصادفَه فأقتلَه. وكانت هِندُ كلَّما مرَّ بها[5] وَحْشِيٌّ أو مرَّتْ به، قالت: إيْهاً أبا دَسَمَةَ، اشْفِ واستشفِ. فكَمِنَ له خلفَ صَخْرة، وكان حمزةُ حَمَلَ على القوم من المشركين، فلمَّا رجع من حَمْلته، ومرَّ بوحشِيٍّ، زَرَقه بالمِزْرَاق[6]، فأصابه فسقط منها[7]، رحمه الله ورضي عنه[8].

قال ابنُ إسحاقَ: فَبَقَرت هِنْدٌ عن كبدِ حمزةَ، فلاكَتْها، فلم[9] تستطع أنْ تُسِيغَها، فلفَظَتْها، ثم علَتْ على صخرة مُشْرفةٍ، فصرخَتْ بأعلى صوتِها، فقالت:

نـحـنُ جَـزَيْـنـاكـم بـيَـوْم بَـدْرِ والـحـربُ بـعـدَ الـحـربِ ذاتُ سُـعُـرِ

---

(١) يعني علقت، ووقع في (د) و (م): تشبثت، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق للدُّرر في اختصار المغازي والسِّير لابن عبد البَرّ ص١٦١ ، والكلام منه.

(٢) قوله: المِغْفَر: زَردٌ (درع) ينسج على قدر الرأسِ يُلبس تحت القَلَنْسُوة. مختار الصحاح (غفر).

(٣) قوله: أَهتم من الهَتَم، وهو انكسار الثنايا من أصولها، وقيل: من أطرافها. انظر اللسان (هتم).

(٤) الدرر في اختصار المغازي والسِّير ص١٦١ ، وما بين حاصرتين منه.

(٥) في (د) و (م): تهيأ، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٦) قوله: المِزْراق: رمحٌ قصير. الصحاح (زرق).

(٧) في (م): ميتا.

(٨) انظر السير والمغازي لابن إسحاق ص ٣٢٣ - ٣٢٤ ، والمغازي للواقدي ١/ ٢٨٥ - ٢٨٧ ، والدرر في اختصار المغازي والسِّير لابن عبد البر ص١٦٧ .

(٩) في (خ): لم، وفي (م): ولم، والمثبت من (د) و (ظ).

ما كان عن عُتْبَةَ لي من صَبْرِ ... ولا أخِي وعَمِّهِ وبِكْري
شفَيْتُ نفسي وقضَيْتُ نَذْرِي ... شفيتَ وَحْشِيُّ غليلَ صَدْرِي
فشُكْرُ وحْشِيٍّ عليَّ عُمْرِي ... حتى تَرِمَّ أعْظُمِي في قَبْرِي

فأجابتها هِنْدُ بنتُ أُثَاثَةَ بنِ عَبَّاد بنِ المطَّلب(١)، فقالت:

خَزِيتِ(٢) في بدْرٍ وبعدَ بدرِ ... يا بنتَ وقَّاعٍ عظيمِ الكُفْرِ
صبَّحَكِ اللهُ غَداةَ الفجرِ ... مِلْهَاشِمِيِّينَ الطِّوَال الزُّهْرِ
بكلِّ قَطَّاعٍ حُسامٍ يَفْرِي ... حمزةُ لَيْثِي وعَلِيٌّ صَقْرِي
إذْ رَامَ شَيْبَ وأبوكِ غَدْرِي ... فَخَضَّبَا منه ضَوَاحِي النَّحْرِ
ونَذْرُكِ السُّوء فشرُّ نَذْرِ(٣)

وقال عبدالله بنُ رواحةَ يبكي حمزةَ ﷺ:

بكتْ عيني وحُقَّ لها بُكاها ... وما يُغني البكاءُ ولا العَوِيلُ
على أسَدِ الإلهِ غَداةَ قالوا: ... أحَمْزَةُ ذاكُم الرَّجُل القتِيلُ؟!
أُصيبَ المسلمونَ به جميعاً ... هناك، وقد أُصيب به الرَّسُولُ
أبا يَعْلَى لك الأركانُ هُدَّتْ ... وأنتَ الماجدُ البَرُّ الوَصُولُ

---

(١) في النسخ: بن عبد المطلب، والمثبت من مغازي ابن إسحاق ص٣٣٣، ومصادر الخبر، وهند بنت أثاثة هي أخت مسطح، القرشية المطَّلبيَّه، أسلمت بمكة. انظر الإصابه ١٣/ ١٥٩.

(٢) في (د) و (ظ): جُريتِ، والمثبت من (خ) و (م)، وهو الموافق لمغازي ابن إسحاق ص٣٣٣، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٩١.

(٣) السير والمغازي ص٣٣٣، والسيرة النبوية ٢/ ٩١ - ٩٢، وقولها: غليل: العطش أو مرارة الجوف، وقولها: تَرِمَّ: تبلى، وقولها: وقَّاع، أي كثير الوقوع. شرح غريب السيرة ٢/ ١١٥، وقولها: مِلْهاشِمِيِّين؛ الأصل: من الهاشميين، فحذفت النون من حرف «من» لالتقاء الساكنين، ولا يجوز ذلك إلا في «مِن» وحدها لكثرة استعمالها. الروض الأُنف ٣/ ١٧٧، وقولها: الزُّهر: البيض، وقولها: رام شيبَ، أي: أراد شيبةُ، فرخَّمَتْه في غير النداء، وقولها: ضواحي النحر، أي: ما ظهر من النحر. شرح غريب السيرة ٢/ ١١٥.

عـلـيـك سـلامُ ربِّـك فـي جِـنـانٍ ... مُـخـالِـطُـهـا[(١)] نـعـيـمٌ لا يـزولُ
ألا يـا هـاشـمَ الأخـيـارِ صـبـراً ... فـكـلُّ فِـعـالِـكـم حَـسَـنٌ جـمـيـلُ
رسـولُ الـلـهِ مـصـطـبِـرٌ كـريـمٌ ... بـأمـرِ الـلـه يـنـطِـقُ إذْ يـقـولُ
ألا مَـنْ مُـبْـلِـغٌ عـنِّـي لُـؤَيّـاً ... فـبَـعـدَ الـيـومِ[(٢)] دَائِـلَـةٌ تَـدُولُ
وقـبـلَ الـيـومِ مـا عـرَفـوا وذاقـوا ... وقـائِـعَـنـا بـهـا يُـشْـفَـى الـغَـلِـيـلُ
نـسِـيْـتُـم ضَـرْبَـنـا بِـقَـلـيـبِ بَـدْرٍ ... غـداةَ أتـاكـم الـمـوتُ الـعَـجِـيـلُ
غَـداةَ ثَـوَى أبـو جـهـلٍ صـريـعـاً ... عـلـيـه الـطَّـيْـرُ حَـائِـمَـةً تَـجُـولُ
وعُـتْـبَـةُ وابـنُـه خَـرَّا جـمـيـعـاً ... وشَـيْـبَـةُ عَـضَّـه الـسَّـيـفُ الـصَّـقِـيـلُ
ومَـتْـرَكُـنـا أمَـيَّـةَ مُـجْـلَـعِـبّـاً ... وفـي حَـيْـزُومِـه لَـدْنٌ نَـبِـيـلُ
وهَـامَ بـنـي ربـيـعـةَ سـائِـلـوهـا ... فـفـي أسـيـافِـنـا مـنـهـا فُـلُـولُ
ألا يـا هِـنْـدُ لا تُـبـدي شَـمَـاتـاً ... بـحـمـزةَ إنَّ عِـزَّكُـم ذَلـيـلُ
ألا يـا هِـنْـدُ فـابـكـي لا تَـمَـلِّـي ... فـأنـتِ الـوَالِـهُ الـعَـبْـرَى الـهَـبُـولُ[(٣)]

ورَثَته أيضاً أختُه صفيةُ، وذلك مذكورٌ في السيرة[(٤)]، رضي اللهُ عنهم أجمعين.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه مسألةٌ واحدةٌ، وهي بيانُ التوكُّلِ.

والتَّوكُّلُ في اللغة: إظهارُ العجزِ، والاعتمادُ على غيرك[(٥)]، ووَاكل فلانٌ: إذا

(١) في (خ) و (د): يخالطها، والمثبت من (ظ) و (م)، وهو الموافق لمصدر التخريج.

(٢) في (خ) و (ظ): القوم، والمثبت من (د) و (م)، وهو الموافق لمصدر التخريج.

(٣) السيرة النبوية ٢/ ١٦٢ - ١٦٣، قوله: العويل: البكاء مع رفع الصوت، وقوله: أبو يعلى: كنية حمزة ﷺ، وقوله: الماجد: الشريف، وقوله دائلة تدول، يريد دَولة في الحرب بعد دولة، وقوله: حائمة، أي: مستديرة، وقوله: مُجْلَعِبّاً: ممتداً مع الأرض، والحَيزوم: أسفل الصدر، واللَّدْنُ: الرمحُ الليِّن، ونبيل، أي: عظيم، والوالِهُ: الفاقد، والعَبْرَى: الكثيرةُ الدمع، والهَبُول: الفاقد أيضاً. شرح غريب السيرة ٢/ ١٥٩ - ١٦٠.

(٤) انظر السيرة النبوية ٢/ ١٦٧.

(٥) في (م): الغير.

ضَيَّع أمرَه مُتَّكلاً على غيره[١].

واختلف العلماء في حقيقةِ التَّوكلِ؛ فسُئِلَ عن ذلك[٢] سهل بنُ عبدالله، فقال: قالت فرقة: الرِّضَا بالضَّمان، وقطع الطَّمَع من المخلوقين. وقال قومٌ: التَوكُّل: تركُ الأسبابِ والركونُ إلى مُسبِّب الأسباب؛ فإذا شغله السَّببُ عن المسبِّبِ، زال عنه اسمُ التوكُّل.

قال سَهْلٌ: من قال: إنَّ التَّوكلَ يكونُ بترك السَّبب، فقد طعَن في سُنَّة رسولِ اللهِ ﷺ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]. فالغنيمةُ اكتسابٌ، وقال تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، فهذا عَملٌ[٣]، وقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ يحبُّ العبدَ المحترِفَ»[٤]. وكان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يُقْرِضُون[٥]، على السَّرِيَّة.

قال غيرُه: وهذا قولُ عامَّةِ الفقهاءِ، وإنَّ التوكلَ على الله هو الثقةُ بالله، والإيقانُ بأنَّ قضاءَه ماضٍ، واتباعُ سنةِ نبيِّهِ ﷺ في السعي فيما لابدَّ منه من الأسباب؛ من مَطعم ومَشربٍ، وتحرُّزٍ من عدوٍّ، وإعدادِ الأسلحةِ، واستعمالِ ما تقتضيه سنةُ اللهِ تعالى المعتادةُ. وإلى هذا ذهب محقِّقو الصُّوفية، لكنه لا يستحقُّ اسمَ المتوكِّلِ[٦] عندَهم مع الطُّمأنينةِ إلى تلك الأسبابِ والالتفاتِ إليها بالقلوب؛ فإنها لا تجلبُ نفعاً ولا تدفعُ ضرّاً، بلِ السَّببُ والمسبَّبُ فعلُ اللهِ تعالى، والكلُّ منه وبمشيئته، ومتى وقع من

---

(١) انظر زاد المسير ١/ ٤٥٠، والمفهم ١/ ٤٦٧.

(٢) في (د) و (م): فسئل عنه.

(٣) تنظر حلية الأولياء ١٠/ ١٩٥، والرسالة القشيرية ٣/ ٥٤.

(٤) أخرجه ابن عدي ١/ ٣٦٩، والطبراني في الكبير (١٣٢٠٠)، والبيهقي في الشعب (١٢٣٧) من طريق أبي الربيع السمان، عن عاصم بن عُبيد الله، عن سالم، عن ابن عمر مرفوعاً، قال ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٥٨٩: هذا حديث لا يصح؛ أبو الربيع كان يكذب، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٦٢: فيه عاصم بن عُبيد الله، وهو ضعيف.

وأخرجه القضاعي في مسنده (١٠٧٢) من طريق عُبيد بن إسحاق، عن قيس، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عمر مرفوعاً، قال أبو حاتم كما في العلل لابنه ٢/ ١٢٨: هذا حديث منكر.

(٥) في (د) و (ظ): يعرضون، وفي (خ): يغرضون، والمثبت من (م).

(٦) في (د) و (ظ) و (م): التوكل، والمثبت من (خ)، وهو الموافق للمفهم ١/ ٤٦٧.

المتوكِّل ركونٌ إلى تلك الأسبابِ، فقد انسَلَخَ عن ذلك الاسم[١].

ثم المتوكلون على حالين:

الأوَّلُ: حالُ المتمَكِّن في التوكُّل، فلا يَلتَفتُ إلى شيءٍ من تلك الأسبابِ بقلبه، ولا يتعاطاها[٢] إلَّا بحكم الأمر.

الثاني: حالُ غيرِ المتَمكِّن، وهو الذي يقع له الالتفاتُ إلى الأسباب[٣] أحياناً، غيرَ أنه يدفعُها عن نفسه بالطُّرُق العِلْميَّة، والبراهينِ القطعيَّة، والأذواقِ الحاليَّة؛ فلا يزالُ كذلك إلى أنْ يُرَقِّيَه اللهُ بجوده إلى مقامِ المتوكلين المتمكِّنين، ويُلحِقَه بدرجات العارفين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ كانت بدرٌ يومَ سبعةَ عشرَ من رمضان، يوم جُمُعَة لثمانيةَ عشرَ شهراً من الهِجرة، وبدرٌ: مَاءٌ هنالك، وبه سُمِّيَ الموضِعُ.

وقال الشعبيُّ: كان ذلك الماءُ لرجلٍ من جُهَينةَ يُسَمَّى بدراً، وبه سُمِّي الموضع. والأوَّل أكثرُ.

وقال الواقِديُّ وغيرُه: بدرٌ: اسمٌ لموضع غيرُ منقول[٤]. وسيأتي في قِصةِ بدرٍ في

(١) المفهم ١/ ٤٦٧ .

(٢) في (د) و (م): يتعاطاه، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق للمفهم ١/ ٤٦٨ والكلام منه.

(٣) في (د) و (م): إلى تلك الأسباب، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق للمفهم.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٢ ، وأخرج الطبري ٦/ ١٧ - ١٨ قول الشعبي والواقدي.

«الأنفال» إن شاء الله تعالى[١].

و﴿أَذِلَّةٌ﴾ معناها: قليلون؛ وذلك أنهم كانوا ثلاث مئةٍ وثلاثةَ عشَر أو أربعةَ عشَر رجلاً. وكان عدوُّهم ما بين التسع مئة إلى الألف.

و«أذِلة» جمعُ ذليل. واسم الذلِّ في هذا الموضع مُسْتعارٌ، ولم يكونوا في أنفسهم إلَّا أعِزَّةً، ولكنَّ نسبتَهم إلى عدوِّهم وإلى جميع الكفَّار في أقطار الأرض، تقتضي عند التأمل[٢] ذِلَّتهم، وأنهم يُغلبون.

والنصرُ: العونُ؛ فنصرهم الله يومَ بَدْرٍ، وقُتِلَ فيه صنادِيدُ المشركين، وعلى ذلك اليومِ انبنى[٣] الإسلامُ، وكان أوَّلَ قتال قاتلَه النبيُّ ﷺ[٤].

وفي صحيح مسلم عن بُريدة قال: غزا رسول الله ﷺ سبعَ عَشْرةَ غزوةً، قاتل في ثمانٍ[٥] منهنَّ.

وفيه عن أبي[٦] إسحاقَ قال: لقيت زيدَ بنَ أرْقَم، فقلت له: كم غزا رسول الله ﷺ؟ قال: تسعَ عشْرَةَ غزوةً. فقلت: فكم غزوتَ أنت معه؟ فقال: سبعَ عَشْرةَ غزوةً. قال: فقلت: فما أوَّلُ غزوةٍ غزاها؟ قال: ذات العُسَير أو العُشَيْر[٧].

وهذا كلُّه مخالفٌ لما عليه أهلُ التواريخِ والسِّيَر. قال محمد بنُ سعد في كتاب «الطبقات» له: إن غزواتِ رسولِ الله ﷺ سبعٌ وعشرون غزوةً، وسراياه ستٌّ وخمسون، وفي رواية: ستٌّ وأربعون، والتي قاتل فيها رسولُ الله ﷺ: بَدْرٌ، وأُحدٌ[٨]، والمُرَيْسِيع، والخَنْدَق، وخَيْبَر، وقُرَيْظَة، والفتْحُ، وحُنَيْن، والطائف. قال

(١) في تفسير الآية (٩ - ١٠) منها.

(٢) في النسخ: المتأمل، والمثبت من (م).

(٣) في (د) و (ظ) و (م): ابتنى، والمثبت من (خ) و (ز) و (ف).

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٢ .

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٣/ ٦٩٣ وعنه نقل المصنف الحديث، وفي صحيح مسلم (١٨١٤) أنه ﷺ غزا تسع عشرة غزوة، بدل: سبع عشرة.

(٦) في (ظ) و (م): ابن، وهو خطأ، وأبو إسحاق: هو السبيعي.

(٧) صحيح مسلم (١٢٥٤) ص١٤٤٧ (كتاب الجهاد والسير)، وأخرجه أحمد (١٩٣٣٥)، والبخاري (٣٩٤٩).

(٨) في النسخ: بدراً وأحداً، والمثبت من (م).

ابن سعد: هذا الذي اجتمع لنا عليه. وفي بعض الروايات أنه قاتل في بني النَّضِير، وفي وادي القرى مُنصَرفَه من خَيْبَر، وفي الغَابة[(١)].

وإذا تقرَّر هذا فنقول: زيدٌ وبُريدةُ، إنما أخبر كلُّ واحدٍ منهما[(٢)] عما[(٣)] في علمه، أو شاهده. وقولُ زيدٍ: إن أوَّلَ غزاةٍ غزاها ذاتُ العُسَير[(٤)]، مخالفٌ أيضاً لما قال أهلُ التواريخ والسِّيَر.

قال محمد بن سعد: كان قبلَ غزوةِ العُشيرةِ ثلاثُ غَزَوات، يعني غزاها بنفسه[(٥)].

وقال ابن عبد البَرِّ في كتاب «الدُّرر في المغازي والسير»[(٦)]: أوَّلُ غزاةٍ غزاها رسول الله ﷺ غزوةُ وَدَّان[(٧)]، غزاها بنفسه في صَفَر؛ وذلك أنه وصل إلى المدينة لاثنتي عَشْرَةَ ليلةً خلت من ربيع الأوَّل، وأقام بها بقيَّةَ ربيع الأوَّل، وباقي العامِ كلِّه إلى صفر من سنة اثنتين من الهجرة، ثم خرج في صفر المذكور، واستعمل على المدينة سعد بنَ عبادةَ حتى بلغ وَدَّانَ، فوادع بني ضَمْرة، ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق حَرْباً، وهي المسماةُ بغزوة الأبْوَاء، ثم أقام بالمدينة إلى ربيعِ الآخِرِ من السنة المذكورة، ثم خرج فيها، واستعمل على المدينة السائبَ بنَ عثمان بن مظعونٍ، حتى بلغ بَوَاط من ناحية رَضْوَى[(٨)]، ثمَّ رجع إلى المدينة ولم يلقَ حرباً، ثم أقام بها بقيةَ

(١) المفهم ٣/ ٦٩١ ، وعنه نقل المصنف قول ابن سعد، والذي في الطبقات ٢/ ٥ - ٦ أن سراياه التي بعث بها سبع وأربعون سرية والغابة: موضع قريب من المدينة من عواليها، وبها أموال لأهلها. النهاية (غيب).

(٢) في النسخ: منهم، والمثبت من (م).

(٣) في (د) و (م): بما.

(٤) في (ظ) العشير، وفي (م): العسيرة.

(٥) المفهم ٣/ ٦٩٢ وعنه نقل قول ابن سعد، والذي في الطبقات ٢/ ٨ - ٩ ذكر الغزوات الثلاث التي غزاها النبي ﷺ قبل غزوة العشيرة مفصّلة.

(٦) ص٩٠ - ٩٤ .

(٧) وَدَّان: موضع بين مكة والمدينة من نواحي الفُرْع، بينها وبين الأبواء نحو من ثمانية أميال، قريبة من الجحفة، وبين الأبواء وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً. معجم البلدان ١/ ٧٩ و ٥/ ٣٦٥ .

(٨) بواط، بضم الباء وفتحها: جبل من جبال جُهينة، بناحية رَضْوى، ورَضْوى: جبل بالمدينة، وهو من ينبع على مسيرة يوم، ومن المدينة على سبع مراحل. معجم البلدان ١/ ٥٠٣ و ٣/ ٥١ .

ربيعٍ الآخر، وبعضَ جمادى الأولى، ثم خرج غازياً، واستخلف على المدينة أبا سلمةَ بن عبدِ الأسد، وأخذ على طريق مَلَلٍ[(١)] إلى العُشَيْرة.

قلت: ذكر ابن إسحاقَ عن عمار بنِ ياسر قال: كنت أنا وعليُّ بنُ أبي طالبٍ رفيقين في غزوةِ العُشيرة من بطن يَنْبُع، فلما نزلها رسولُ الله ﷺ أقام بها شهراً، فصالح بها بني مُدْلِجٍ وحلفاءَهم من بني ضَمْرة، فوادعهم، فقال لي عليُّ بنُ أبي طالب: هل لك أبا اليقظان أن تأتيَ هؤلاء ـ نفرٌ من بني مُدلج يعملون في عينٍ لهم ـ ننظر كيف يعملون؟ فأتيناهم، فنظرنا إليهم ساعةً، ثم غشيَنا النومُ، فعَمِدنا إلى صَوْرٍ من النخل في دَقْعَاءَ من الأرض، فَنِمْنا فيه، فوالله ما أَهَبَّنا إلا رسولُ الله ﷺ بقدمه، فجلسنا وقد تَترَّبنا من تلك الدَّقْعاء، فيومئذٍ قال رسول الله ﷺ لعليّ: «يا أبا تُراب»[(٢)]، فأخبرناه بما كان من أمرنا، فقال: «ألا أخبرُكم بأشقى الناس رجلين؟» قلنا: بلى يا رسول الله، فقال: «أُحَيْمِر ثمودَ الذي عقر الناقة، والذي يَضربُك يا عليُّ على هذه». ووضع رسول الله ﷺ يدَه على رأسه «حتّى يَبُلَّ منها هذه». ووضع يده على لحيته[(٣)].

قال أبو عمر[(٤)]: فأقام بها بقيَّةَ جُمادى الأولى وليالي من جمادى الآخرة، ووادع فيها بني مُدْلِجٍ، ثم رجع ولم يلق حرباً.

ثم كانت بعد ذلك غزوةُ بدرٍ الأولى بأيام قلائلَ، هذا الذي لا يشكُّ فيه أهلُ التواريخ والسِّيَر، فزيد بنُ أرقم إنما أخبر عما عنده. والله أعلم.

ويُقال: ذاتُ العُسَير، بالسين والشين، ويزاد عليها، هاء فيقال: العُشَيْرَة[(٥)].

---

(١) في (د) صكك، وفي (ظ) و (م): ملك، وهو خطأ، والمثبت من (خ) و (ز) و (ف)، وهو الموافق لما في المفهم ٣/ ٦٩٢، وعنه نقل المصنف قول ابن عبد البر. ومَلَل: موضع، يقال: إنما سُمّي مللاً لأن الماشي إليه من المدينة لا يبلغه إلا بعد جهد وملل، وهو على عشرين ميلاً من المدينة أو أكثر قليلاً. قاله السهيلي في الروض الأُنُف ٣/ ٢٨، وانظر معجم البلدان ٥/ ١٩٤.

(٢) في (م): ما بالك يا أبا تراب؟

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٥٩٩ - ٦٠٠، والحديث أخرجه أحمد (١٨٣٢١). قوله: صَوْر؛ النخل الصغار، والدقعاء: التربة الليّنة، وأهبَّنا: أيقظنا. الإملاء المختصر في شرح غريب السير للخشني ٢/ ٣٢ - ٣٣.

(٤) في الدرر في اختصار المغازي والسير ص٩٤.

(٥) المفهم ٣/ ٦٩٢ وما قبله منه.

ثم غزوةُ بدرٍ الكبرى، وهي أعظمُ المشاهد فضلاً لمن شهدها، وفيها أمدَّ الله بملائكته نبيَّهُ والمؤمنين في قول جماعةِ العلماء، وعليه يدلُّ ظاهرُ الآيةِ، لا في يوم أُحُد. ومن قال: إن ذلك كان يومَ أُحدٍ جعل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ إلى قوله: ﴿تَشْكُرُونَ﴾ اعتراضاً بين الكلامين. هذا قولُ عامر الشعبيِّ(١)، وخالفه الناس.

وتظاهرت الروايات بأن الملائكةَ حضرتْ يومَ بدر وقاتلت؛ ومن ذلك قولُ أبي أُسَيدٍ مالك بنِ ربيعة(٢): لو كنتُ معكم الآن ببدرٍ ومعي بصري؛ لأريتُكم الشِّعْبَ الذي خرجتْ منه الملائكةُ، لا أشكُّ ولا أمْتَري. رواه عقيل، عن الزُّهريِّ، عن أبي حازمٍ سلمَةَ بن دينار(٣).

قال ابن أبي حاتم: لا يُعرفُ للزهريِّ عن أبي حازمٍ غيرُ هذا الحديثِ الواحد، وأبو أُسَيْدٍ يُقال: إنه آخرُ من مات من أهل بدر؛ ذكره أبو عمر في «الاستيعاب» وغيره(٤).

وفي «صحيح» مسلم(٥) من حديث عمر بن الخطاب قال: لمّا كان يومُ بَدْر؛ نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألفٌ، وأصحابُه ثلاث مئة وسبعةَ عشرَ(٦) رجلاً، فاستقبل نبيُّ الله ﷺ القبلةَ، ثم مدَّ يديه، فجعل يَهْتِف بربِّه: «اللهم أنجِزْ لِي ما وَعدتَني، اللهم آتِني(٧) ما وعدتَني، اللَّهم إن تُهْلِكْ هذه العِصابةَ من أهل الإسلام؛ لا تُعْبَدْ في الأرض». فما زال يَهْتِف بربه مادّاً يديه، مُستقبلَ القبلةِ، حتى سقط رداؤُه عن مَنْكِبَيْه. فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءَه، فألقاه على مَنْكِبَيْه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبيَّ الله، كفاكَ مناشَدَتُك(٨) ربَّك، فإنه سيُنْجِزُ لك ما وَعدَك، فأنزل الله عز وجل:

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٢٠ - ٢١.

(٢) بعدها في (م): وكان شهيد بدر.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٣، وأخرجه الطبري ٦/ ٢٢، والبيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٥٢ - ٥٣.

(٤) الاستيعاب ١١/ ١٢٢ (بهامش الإصابة).

(٥) برقم (١٧٦٣) وما سيرد بين حاصرتين منه، وهو في مسند أحمد (٢٠٨).

(٦) في (م) وصحيح مسلم: وتسعة عشر، والمثبت موافق لما في المفهم ٣/ ٥٧٢، وعنه نقل المصنف.

(٧) في (م) وصحيح مسلم: آت.

(٨) بالرفع على أنه فاعل كفاك، وضُبط بالنصب على المفعول. المفهم ٣/ ٥٧٦.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] فأمدَّه الله تعالى بالملائكة.

قال أبو زُمَيْل[١]: فحدَّثني ابنُ عباسٍ قال: بينما رجلٌ من المسلمين يومئذٍ يَشتدُّ في أَثَر رجلٍ من المشركين أمامه، إذْ سمع ضربةً بالسَّوط فوقه، وصوتَ الفارس يقول: أَقْدِم حَيْزُومُ، فنظر إلى المشرك أمامه، فخرَّ مستلقياً؛ فنظر إليه، فإذا هو قد خُطِم أنفُه[٢]، وشُقَّ وجهُه [كضربة السَّوط]، فاخضرَّ ذلك أجمع. فجاء الأنصاريُّ، فحدَّث بذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: «صدقْتَ، ذلك من مدد السَّماء الثالثة». فقَتلوا يومئذٍ سبعينَ، وأسروا سبعين. وذكر الحديث.

وسيأتي تمامُه في آخر «الأنفال»[٣] إن شاء الله تعالى. فتظاهرتِ السنةُ والقرآنُ على ما قالهُ الجمهور، والحمدُ لله.

وعن خارجةَ بنِ إبراهيم، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «مَن القائلُ يوم بدر من الملائكة: أقدِم حَيْزُوم؟» فقال جبريل: يا محمد، ما كلُّ أهلِ السماء أعرِف[٤].

وعن عليٍّ ﷺ أنه خطب الناسَ، فقال: بينا أنا أمْتَح من قَليب بَدْر، جاءت ريحٌ شديدة لم أر مثلَها قطّ، ثم ذهبت، ثم جاءت ريحٌ شديدةٌ لم أر مثلَها قطّ إلّا التي كانت قبلَها، قال: وأظنُه ذكر: ثم جاءت ريحٌ شديدةٌ، فكانت الرِّيحُ الأولى جبريل، نزل في ألفٍ من الملائكةِ مع رسول الله ﷺ، وكانت الرِّيحُ الثانيةُ ميكائيل، نزل في ألفٍ من الملائكة عن يمين رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر عن يمينه، وكانت الرِّيحُ الثالثةُ إسرافيل، نزل في ألفٍ من الملائكة عن مَيْسَرة رسول الله ﷺ وأنا في الميسرة[٥].

---

(١) هو سماك الحنفي، أحد رجال الإسناد.

(٢) أي: أثّر فيه أثراً كالخطام، وهو الزِّمام. المفهم ٣/ ٥٧٧.

(٣) في تفسير الآية (٦٧) منها.

(٤) دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٥٧، وهو مرسل كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية ٣/ ٢٨١.

(٥) دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٥٥ من طريق موسى بن يعقوب الزمعي، عن أبي الحويرث أن محمد بن جبير =

وعن سهل بن حُنَيف ﷺ قال: لقد رأيتُنا يوم بدر، وإنَّ أحدَنا يُشير بسيفه إلى رأس المشرك، فيقع رأسُه عن جسدِه قبل أن يَصِل إليه[١].

وعن الرَّبيع بن أنس قال: كان الناسُ يوم بَدْر يعرفون قتلى الملائكة ممَّن قتلوهم؛ بضربٍ فوق الأعناق وعلى البَنَان، مثلُ سِمَة النار قد أُحرِق به؛ ذكر جميعه البيهقيُّ[٢] رحمه الله.

وقال بعضُهم: إنَّ الملائكةَ كانوا يقاتلون، وكانت علامةُ ضربهم في الكفار ظاهرةً؛ لأنَّ كلَّ موضعٍ أصابتْ ضربتُهم اشتعلت النارُ في ذلك الموضع، حتى إنَّ أبا جهلٍ قال لابن مسعود: أنت قتلتَني؟ !. إنما قتلَني الذي لم يصل سِناني إلى سُنْبُكِ فرسِه[٣] وإن اجتهدتُ. وإنما كانت الفائدةُ في كَثرة الملائكة لتسكين قلوبِ المؤمنين؛ ولأن الله تعالى جعل أولئك الملائكة مجاهدين إلى يوم القيامة؛ فكلُّ عسكر صَبَر واحتسب تأتيهم الملائكة ويقاتلون معهم[٤].

وقال ابن عباس ومجاهد: لم تقاتِل الملائكةُ إلا يوم بَدْر، وفيما سوى ذلك يَشهدون ولا يقاتلون، إنما يكونون عَدداً ومَدداً[٥].

وقال بعضهم: إنما كانت الفائدةُ في كثرة الملائكة أنهم كانوا يَدْعون ويسبِّحون، ويُكَثِّرون الذين يقاتلون يومئذ[٦]، فعلى هذا لم تقاتل الملائكةُ يوم بدر، وإنما حضروا للدُّعاء بالتثبيت، والأوَّلُ أكثر.

= ابن مطعم حدثه أنه سمع علياً..، وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٤٨٩)، والحاكم ٣/ ٦٨ - ٦٩ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، فتعقبه الذهبي بقوله: بل منكر عجيب، وأبو الحويرث عبد الرحمن؛ قال مالك: ليس بثقة، وموسى: فيه شيء.

(١) دلائل النبوة ٣/ ٥٦ ، وأخرجه الطبري في التاريخ ٢/ ٤٥٣ - ٤٥٤ ، والطبراني في الكبير (٥٥٥٦)، والحاكم ٣/ ٤٠٩ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٨٤ وقال: فيه محمد بن يحيى الإسكندراني، قال ابن يونس: روى مناكير.

(٢) دلائل النبوة ٣/ ٥٦ .

(٣) السِّنان: نَصْل الرُّمح، والسُّنْبُك: طرف الحافر. القاموس (سنن، سنبك).

(٤) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٦ .

(٥) تفسير البغوي ١/ ٣٤٧ - ٣٤٨ ، وأخرجهما الطبري ٦/ ٢٣ و ٢٥ .

(٦) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٦ - ٢٩٧ .

قال قتادة: كان هذا يوم بدر، أمدَّهم الله بألفٍ، ثم صاروا ثلاثةَ آلاف، ثم صاروا خمسةَ آلافٍ؛ فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩]، وقوله: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾، وقوله: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾. فصبر المؤمنون يوم بدرٍ، واتَّقوا الله، فأمدَّهم الله بخمسة آلاف من الملائكة على ما وعدهم، فهذا كلُّه يومَ بدر.

وقال الحسن: فهؤلاء الخمسةُ آلافِ رِدْءٌ للمؤمنين إلى يوم القيامة(١).

قال الشعبي: بلغ النبيَّ ﷺ وأصحابَه يومَ بدر أن كُرْزَ بنَ جابرٍ المُحارِبيَّ يريدُ أن يُمدَّ المشركين، فشقَّ ذلك على النبيِّ ﷺ وعلى المسلمين، فأنزل الله تعالى ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ فبلغ كُرْزاً الهزيمةُ، فلم يُمدَّهم ورجع، فلم يُمدَّهم الله أيضاً بالخمسة آلاف، وكانوا قد مُدُّوا بألف.

وقيل: إنما وعد الله المؤمنين يوم بدر إن صبروا على طاعته، واتَّقَوْا محارمَه، أن يُمدَّهم أيضاً في حروبهم كلِّها، فلم يصبروا، ولم يتَّقوا محارمَه إلَّا في يوم الأحزاب، فأمدَّهم حين حاصروا قُرَيْظة.

وقيل: إنما كان هذا يوم أُحُدٍ، وعدَهم الله المددَ إن صبروا، فما صبروا، فلم يُمدَّهم بمَلَك واحد، ولو أُمِدُّوا لما هُزِموا، قاله عكرمة والضحاك(٢).

فإن قيل: فقد ثبت عن سعد بن أبي وَقَّاص أنه قال: رأيتُ عن يَمين رسول الله ﷺ وعن يساره يوم أُحد(٣) رجلين، عليهما ثيابٌ بيضٌ، يقاتلان عنه أشدَّ القتال، ما رأيتُهما قبلُ ولا بعدُ(٤).

قيل له: لعلَّ هذا مختصٌّ بالنبيِّ ﷺ، خصَّه بملَكين يقاتلان عنه، ولا يكون هذا إمداداً للصحابة. والله أعلم.

---

(١) تفسير البغوي ١/٣٤٧، وأخرج الطبري ٦/٢٥ قول قتادة.

(٢) تفسير البغوي ١/٣٤٨، وأخرج الطبري ٦/٢٠ - ٢١ و ٢٧ قول الشعبي وعكرمة والضحاك.

(٣) في (د) و (م): يوم بدر، وهو خطأ، وفي (ز): يومئذ، بدل: يوم أحد، وليست في (ظ).

(٤) أخرجه أحمد (١٤٦٨)، والبخاري (٤٠٥٤)، ومسلم (٢٣٠٦).

الثانية: نزولُ الملائكة سببٌ من أسباب النصر، لا يحتاج إليه الربُّ تعالى، وإنما يحتاج إليه المخلوق، فلْيَعْلَق القلبُ بالله، ولْيَثِق به، فهو الناصر بسبب وبغير سبب ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. لكنْ أخبر بذلك ليمتثل الخلقُ ما أمرهم به من الأسباب التي قد خلت من قبل، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، ولا يقدح ذلك في التوكُّل. وهو ردٌّ على من قال: إن الأسباب إنما سُنَّت في حقِّ الضعفاء، لا للأقوياء؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ وأصحابَه كانوا الأقوياء، وغيرُهم هم الضعفاء؛ وهذا واضِحٌ.

و«مدَّ» في الشرِّ، و«أمدَّ» في الخير[(١)]. وقد تقدَّم في «البقرة»[(٢)].

وقرأ أبو حَيْوة: «مُنْزِلِين» بكسر الزاي مخففاً[(٣)]، يعني: مُنزِلين النصرَ. وقرأ ابنُ عامر مشدَّدة الزاي مفتوحةً على التكثير[(٤)].

ثم قال: ﴿بَلَىٰٓ﴾ وتمَّ الكلام. ﴿إِن تَصْبِرُوا۟﴾ شرط، أي: على لقاء العدوِّ. ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ عطفٌ عليه، أي: معصيتَه. والجواب: ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾[(٥)].

ومعنى «مِنْ فَوْرِهِمْ»: من وجهِهم. هذا عن عكرمة وقتادة والحسن والربيع والسُّدِّي وابنِ زيد. وقيل: مِن غَضَبِهم؛ عن مجاهد والضحاك، كانوا قد غضِبوا يوم أُحُد ليوم بَدْر مما لَقُوا[(٦)].

وأصلُ الفَوْر: القصدُ إلى الشيء، والأخذُ فيه بِجِدٍّ؛ وهو من قولهم: فارتِ القِدْر تَفُور فَوْراً وَفَوَرَاناً: إذا غَلَت. والفَوْر: الغَلَيان. وفار غَضَبُه: إذا جاشَ. وفَعَلَه من فَوْرِه؛ أي: قبل أن يسْكُن. والفُوَارة: ما يَفُور من القِدْر[(٧)]. وفي التنزيل: ﴿وَفَارَ

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٤٨.

(٢) ١/ ٣١٧.

(٣) القراءات الشاذة لابن خالويه ص٢٢.

(٤) السبعة ص٢١٥، والتيسير ص٩٠. قال مكي في الكشف ١/ ٣٥٥: وفي التشديد معنى التكرير.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٥.

(٦) تفسير البغوي ١/ ٣٤٨، والمحرر الوجيز ١/ ٥٠٤، وأخرج الآثار الطبري ٦/ ٢٩ - ٣١.

(٧) تفسير الطبري ٦/ ٣١، ومجمل اللغة ٣/ ٧٠٧.

﴿التَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠]، قال الشاعر:

تَفُورُ علينا قِدْرُهُم فنُدِيمُها[١]

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مُسَوَّمين﴾ بفتح الواو: اسم مفعول، وهي قراءة ابنِ عامر وحمزةَ والكِسائِيِّ ونافع، أي: معَلَّمين بعلامات. و«مُسَوِّمين» بكسر الواو: اسم فاعل، وهي قراءة أبي عمرو وابن كثير وعاصم[٢]، فيَحتمل من المعنى ما تقدَّم، أي: قد أعلموا أنفسهم بعلامة، وأعلموا خَيْلَهم.

ورجَّح الطبريُّ[٣] وغيرُه هذه القراءة.

وقال كثير من المفسِّرين: مُسَوِّمِين، أي: مُرسِلِين خيلَهم في الغارة.

وذكر المهدويُّ هذا المعنى في «مُسَوَّمِينَ» بفتح الواو، أي: أرسلهم الله تعالى على الكفار، وقاله ابن فُورَك أيضاً[٤].

وعلى القراءة الأولى اختلفوا في سِيما الملائكة؛ فرُوي عن علي بن أبي طالبٍ وابن عباس وغيرِهما أن الملائكة اعتمَّت بعمائمَ بيضٍ قد أرسلوها بين أكتافهم[٥] ـ ذكره البيهقيُّ عن ابن عباس، وحكاه المهدويُّ عن الزجاج[٦] ـ إلَّا جبريلَ، فإنه كان بعمامة صَفْراءَ على مِثال الزبير بن العوَّام، وقاله ابن إسحاق[٧].

وقال الربيع: كانت سِيماهم أنهم كانوا على خَيْل بُلْق[٨]. قلت: ذكر البيهقيُّ[٩] عن سهيل بن عمرو ﷺ قال: لقد رأيتُ يوم بدر رجالاً بِيضاً، على خيلٍ بُلْقٍ، بين

(١) تمامه: ونَفْثَؤُها عنّا إذا حَمْيُها غلا، وهو للنابغة الجعدي في ديوانه ص١١٨ ، وسلف ٢/ ١٤٥ .

(٢) السبعة ص٢١٦ ، والتيسير ص٩٠ .

(٣) في تفسيره ٦/ ٣٣ .

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٤ - ٥٠٥ وعنه نقل المصنف ترجيح الطبري وكلام المهدوي وابن فورك.

(٥) تفسير البغوي ١/ ٣٤٩ .

(٦) دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٥٧، وانظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٦٧ .

(٧) انظر سيرة ابن هشام ١/ ٦٣٣ .

(٨) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٤ وعنه نقل المصنف ما حكاه المهدوي وقول ابن إسحاق، وأخرج قول الربيع الطبري ٦/ ٣٥ .

(٩) في دلائل النبوة ٣/ ٥٧ .

السماء والأرض، مُعَلَّمين، يقتلون ويأسِرون. فقوله: «مُعَلَّمين» دلَّ على أن الخيل البُلْقَ ليست السِّيما. والله أعلم.

وقال مجاهد: كانت خيلُهم مَجْزُوزةَ الأذناب والأعْرَاف، معلَّمةَ النَّواصِي والأذناب بالصُّوف والعِهْن[1].

وروي عن ابن عباس: تسوَّمَت الملائكة يوم بدر بالصُّوف الأبيض في نواصي الخيل وأذنابها[2].

وقال عبَّاد بن [حمزة بن] عبدالله بن الزبير، وهشام بن عُروة، والكلبيُّ: نزلت الملائكة في سِيما الزُّبير، عليهم عمائمُ صُفْر مُرْخَاةٌ على أكتافهم. وقال ذلك عبدالله وعروة ابنا الزبير. قال عبدالله: كانت ملاءةً صفراءَ اعْتَمَّ بها الزبير ﷺ[3].

قلت: ودلَّت الآيةُ، وهي:

الرابعة: على اتخاذ الشارة والعلامةِ لِلقبائلِ والكتائب، يجعلُها السلطان لهم؛ لتتميَّز كلُّ قبيلةٍ وكتِيبةٍ من غيرها عند الحرب، وعلى فَضْل الخيلِ البُلْقِ لنزولِ الملائكة عليها.

قلت: ولعلَّها نزلت عليها مُوافَقةً لفرس المقداد، فإنه كان أبلق، ولم يكن لهم فرسٌ غيره، فنزلت الملائكة على الخيل البُلْق إكراماً للمقداد، كما نزل جبريل مُعْتَجِراً[4] بعمامةٍ صفراءَ على مثال الزبير. والله أعلم.

ودلَّت الآية أيضاً، وهي:

الخامسة: على لِباس الصُّوف، وقد لَبِسه الأنبياءُ والصَّالحون. وروى أبو داود وابن ماجه ـ واللفظ له ـ عن أبي بُرْدة، عن أبيه قال: قال لي أبي: لو شهدتَنا ونحن مع رسول الله ﷺ إذ أصابَتْنا السماء، لحسِبتَ أن ريحَنا ريحُ الضَّأن[5].

---

(١) تفسير مجاهد ١/ ١٣٥ ، ونقل قوله المصنف عن المحرر الوجيز ١/ ٥٠٤ ، وأخرجه الطبري ٦/ ٣٤ و ٣٥ .
(٢) النكت والعيون ١/ ٤٢٢ ، وأخرجه الطبري ٦/ ٣٦ .
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٤ وما بين حاصرتين منه، وتفسير البغوي ١/ ٣٤٩ ، وأخرج الأقوال الطبري ٦/ ٣٦ .
(٤) الاعتجار: هو لَفُّ العِمامة دون التلحّي، القاموس (عجر)، ووقع في (ظ) و (خ): معتماً .
(٥) سنن أبي داود (٤٠٣٣)، وسنن ابن ماجه (٣٥٦٢)، وهو في مسند أحمد (١٩٧٥٩). وأبو أبي بُردة هو أبو موسى الأشعري، ﷺ .

ولبس ﷺ جُبَّةً روميَّةً من صوف، ضيِّقة الكُمَّين. رواه الأئمة[١].

ولبِسها يُونُس عليه السلام، رواه مسلم[٢]. وسيأتي لهذا المعنى مزيدُ بيانٍ في «النحل»[٣] إن شاء الله تعالى.

السادسة: قلت: وأما ما ذكره مجاهد من أنَّ خيلَهم كانت مَجْزوزةَ الأذنابِ والأَعْرافِ فبعيدُ، فإن في مصنف أبي داود، عن عُتْبة بن عبدٍ السُّلميّ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تقُصُّوا نواصيَ الخيلِ، ولا معارفَها، ولا أذنابَها، فإن أذنابَها مَذَابُّها، ومعارفَها دِفاؤُها، ونواصيها معقودٌ فيها الخير»[٤]. فقولُ مجاهدٍ يحتاج إلى توقيف، من أن خيلَ الملائكةِ كانت على تلك الصِّفة. والله أعلم.

ودلَّت الآيةُ على حُسْن الأبيضِ والأصفر من الألوان لنزول الملائكة بذلك[٥]، وقد قال ابن عباس: من لبس نَعلاً أَصْفَرَ قُضِيَت حاجتُه[٦].

وقال عليه الصلاة والسلام: «الْبَسوا من ثيابكم البياضَ، فإنه من خيرِ ثيابكم،

---

(١) أخرجه أحمد (١٨١٩٦) و(١٨٢٤١)، والبخاري (٣٦٣)، ومسلم (٢٧٤) (٧٧) من حديث المغيرة ابن شعبة ﷺ.

(٢) برقم (١٦٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (١٨٥٤).

(٣) في تفسير الآية (٨٠) منها.

(٤) سنن أبي داود (٢٥٤٢)، وهو في مسند أحمد (١٧٦٣٨) قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٣/ ٣٨٥: في إسناده مجهول. اهـ. قلنا وقوله: «ونواصيها معقود فيها الخير» له شاهد من حديث عروة البارقي وغيره، عند أحمد (١٩٣٥٥)، والبخاري (٣٦٤٣) ومسلم (١٨٧٣). قوله: نواصي الخيل؛ شعر مقدّم رأسها. معارفها: بكسر الراء، جمع مَعْرَفة بفتحها، الموضع الذي ينبت عليه عُرْفُ الفرس. وهو شعر عنقه. من رقبته، مَذَابُّها: جمع مِذَبَّة، بكسر الميم: ما يُذَبُّ به الذباب. دفاؤها: بكسر الدال؛ أي: كساؤها الذي تَدَفَّأ به. شرح سنن أبي داود للعظيم آبادي ٧/ ١٧٥.

(٥) ليس في الآية ما يدل على ذلك.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٩٧، وقال في قول ابن عباس: لم يصحّ عندي فأنظر فيه، وأخرجه العقيلي في الضعفاء ١/ ٢٣٥ و٣/ ٤٤٦، والطبراني في الكبير (١٠٦١٢)، والخطيب في تاريخ بغداد ٥/ ٢٤ - ٢٥، وفي الجامع لأخلاق الراوي (٩٢٢) ولفظه عندهم: من لبس نعلاً صفراء لم يزل في سرور ما دام لابسها، وأورده أبي حاتم في الجرح والتعديل ٩/ ٣٢٥ وقال: ليس بشيء، هو حديث النّوكى (يعني الحمقى والجاهلين) وهو حديث كذب موضوع، وقال أبو حاتم الرازي ـ كما في علل الحديث لابنه ٢/ ٣١٩ ـ: هذا حديث كذب موضوع.

وكفِّنوا فيه موتاكمُ»[١].

وأمَّا العمائم فتيجانُ العربِ ولِباسُها، روى[٢] رُكَانةُ ـ وكان صارع النبيَّ ﷺ؛ فَصرعه النبيُّ ﷺ ـ قال رُكانةُ: وسمعت النبيَّ ﷺ يقول: «فَرْقُ ما بيننا وبين المشركين العمائمُ على القلانس». أخرجه أبو داود[٣]. قال البخاري[٤]: إسنادُه مجهولٌ لا يُعرفُ سماعُ بعضِه من بعض.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ الهاءُ للمَدَد، وهو الملائكةُ، أو الوعدُ، أو الإمدادُ، ويدلُّ عليه: «يُمْدِدْكُمْ»، أو للتَّسْوِيم، أو للإنْزال، أو للعدد[٥] على المعنى؛ لأن خمسةَ آلافٍ عددٌ[٦].

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ اللام لامُ كي، أي: ولِتطمئنَّ قلوبُكم به جعله؛ كقوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾ [فصلت: ١٢] أي: وحفظاً لها جعل ذلك.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني: نصرَ المؤمنين، ولا يدخلُ في ذلك نصرُ الكافرين؛ لأنَّ ما وقع لهم من غلبةٍ إنما هو إملاءٌ محفوفٌ بخِذلانٍ وسوءِ عاقبةٍ وخُسرانٍ.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: بالقتل. ونظم الآية: ولقد نَصركم الله ببدرٍ لِيقطعَ. وقيل: المعنى: وما النصرُ إلَّا من عند الله ليقطعَ. ويجوزُ أن يكون متعلِّقاً بـ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢١٩)، وأبو داود (٣٨٧٨)، والترمذي (٩٩٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: حسن صحيح.

(٢) في (د) و (م): وروى.

(٣) في سننه (٤٠٧٨)، وأخرجه الترمذي (١٧٨٤) وقال: هذا حديث حسن غريب، وإسناده ليس بالقائم.

(٤) في التاريخ الكبير ١/ ٨٢ .

(٥) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: العدد.

(٦) مشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ١٧٣ .

«يُمْدِدْكُمْ»[(١)]، أي: يُمدِدْكُم لِيقطع. والمعنى: مَن قُتِل من المشركين يوم بَدْر. عن الحسن وغيره. السدّيّ: يعني به مَن قُتِل من المشركين يومَ أُحُدٍ، وكانوا ثمانيةَ عشرَ رجلاً[(٢)].

ومعنى ﴿يَكْبِتَهُمْ﴾: يُحْزِنَهم؛ والمكْبُوتُ: المحزون. ورُوي أن النبيَّ ﷺ جاء إلى أبي طلحة، فرأى ابنَه مَكْبُوتاً، فقال: «ما شأنُه؟». فقيل: مات بعيرُه[(٣)].

وأصلُهُ فيما ذكر بعض أهل اللغة: «يكبِدُهُم» أي: يصيبهم بالحزن والغيظِ في أكبادهم، فأبدلَت الدالُ تاءً، كما قُلِبت في سَبَتَ رأسَه وسبَدَه، أي: حَلَقه[(٤)]. كَبتَ الله العدوَّ كَبْتاً: إذا صرفَهُ وأذَلَّه. وكبَدَه: أصابه في كَبده؛ يقال: قد أحرق الحزنُ كَبِدَه، وأحرقت العداوةُ كبِدَه. وتقول العربُ للعدوِّ: أسودُ الكَبِد[(٥)]؛ قال الأعشى[(٦)]:

فـمـا أُجـشِـمْـتِ مـن إتـيـانِ قـومٍ هـم الأعـداءُ والأكـبـادُ سُـودُ

كأنَّ الأكباد لمَّا احترقت بشدَّة العداوة اسْوَدَّتْ[(٧)].

وقرأ أبو مِجْلَز: «أو يكبِدَهم» بالدَّال[(٨)].

والخَائِبُ: المنقَطِعُ الأملِ. خاب يخيب: إذا لم ينَلْ ما طلب. والخَيَّاب: القِدْحُ لا يُوري[(٩)].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٦ .

(٢) تفسير الماوردي ١/ ٤٢٢ ، وأخرج القولين الطبري ٦/ ٤٠ و ٤١ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٧٢ ، وذكره مختصراً ابن الجوزي في غريب الحديث ٢/ ٢٧٧ ، وابن الأثير في النهاية (كبت).

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٤٩ .

(٥) انظر مجمل اللغة ٣/ ٧٧٦ ، والصحاح (كبت، كبد).

(٦) ديوانه ص٣٧٣ ، والصحاح (كبد)، والخطاب فيه لناقته.

(٧) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١١٠ - ١١١ .

(٨) ذكرها أبو حيان في البحر ٣/ ٥٢ ، والسمين الحلبي في الدر المصون ٣/ ٣٩١ ، وأبو مجلز: هو لاحق ابن حُميد.

(٩) مجمل اللغة ٣/ ٣٠٨ .

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: ثبَت في صحيح مسلمٍ أن النبيَّ ﷺ كُسِرتْ رَباعِيَتُه يومَ أُحُد، وشُجَّ في رأسه، فجعل يَسْلُتُ الدمَ عنه ويقول: «كيف يُفلح قومٌ شَجُّوا نبيَّهم[(١)] وكسروا رَباعِيَتَه وهو يدعوهم إلى الله تعالى» فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[(٢)].

الضحاك: هَمَّ النبيُّ ﷺ أن يدعوَ على المشركين، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[(٣)]. وقيل: استأذنَ في أن يدعوَ في استئصالهم، فلما نزلتْ هذه الآيةُ عَلِم أن منهم من سيُسلِم[(٤)]. وقد آمن كثيرٌ منهم، [فمنهم] خالدُ بنُ الوليد، وعمرو بنُ العاص، وعِكرمةُ بن أبي جهل، وغيرُهم[(٥)].

وروى الترمذيُّ[(٦)] عن ابن عمرَ قال: كان رسول الله ﷺ يدعو على أربعةِ نفرٍ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. فهداهمُ اللهُ للإسلام. وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيحٌ.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ قيل: هو معطوفٌ على ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾، والمعنى: ليقتلَ طائفةً منهم، أو يحزنَهم[(٧)] بالهزيمة، أو يتوبَ عليهم، أو يعذِّبهم. وقد تكونُ

---

(١) في (د) و (م): شجوا رأس نبيهم، والمثبت من (خ) و (ظ) وهو الموافق لما في صحيح مسلم.

(٢) صحيح مسلم (١٧٩١): (١٠٤)، وأخرجه أحمد بنحوه (١٣٠٨٣). وهو من حديث أنس بن مالك ﷺ.
الرَّبَاعية: هي كل سن بعد ثنية. وسلت الدم عنه: نزعه بيده. المفهم ٣/ ٦٤٩ ، وانظر ما سلف ص٢٨٧ من هذا الجزء.

(٣) أورده أبو الليث ١/ ٢٩٧ من رواية جويبر عن الضحاك، وأخرجه الطبري ٦/ ٤٦ عن الربيع.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٧٣ . وتفسير البغوي ١/ ٣٥٠ .

(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٧ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) سنن الترمذي (٣٠٠٥)، وهو عند أحمد (٥٨١٢). وجابر ذكر أسماء ثلاثة منهم عند البخاري (٤٠٧٠) مرسل، وعند أحمد (٥٦٧٤).

(٧) في (د): يخزيهم.

«أو» ها هنا بمعنى «حتى» و«إلا أن»[(١)]. قال امرؤ القيس:

... أو نَـــمـــوتَ فـــنُـــعْـــذَرَا[(٢)]

قال علماؤنا[(٣)]: قوله عليه الصلاة والسلام: «كيفَ يفلحُ قومٌ شَجُّوا نبيهم»[(٤)] استبعادٌ لتوفيقِ مَن فَعَلَ ذلك به. وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ تقريبٌ لِمَا استبعدَه، وإطماعٌ في إسلامِهم، ولمَّا أُطْمِعَ في ذلك قال ﷺ: «اللّهمَّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، كما في صحيح مسلم[(٥)] عن ابن مسعود قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يَحكي نبيّاً من الأنبياء ضربَه قومُه، وهو يمسَحُ الدَّمَ عن وجهه ويقول: «ربِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

قال علماؤنا[(٦)]: فالحاكي في حديث ابن مسعودٍ هو الرسولُ عليه الصلاة والسلام، وهو المحكيُّ عنه؛ بدليل ما قد جاء صريحاً مبيَّناً، أنه عليه الصلاة والسلام لمَّا كُسرتْ رَباعيتُه وشُجَّ وجهُه يومَ أُحُدٍ، شَقَّ ذلك على أصحابه شَقّاً شديداً وقالوا: لو دَعَوْتَ عليهم! فقال: «إني لم أُبعثْ لَعَّاناً، ولكني بُعثْتُ داعِياً ورحمة، اللَّهمَّ اغْفرْ لقومي[(٧)] فإنَّهم لا يعلمون»[(٨)].

فكأنه عليه الصلاة والسلام أُوحيَ إليه بذلك قبلَ وقوعِ قضِية[(٩)] أُحُد، ولم يعيَّن له ذلك النَّبيُّ، فلما وَقَع له ذلك تَعيَّن؛ أنه المعنيُّ بذلك بدليلِ ما ذكرنا.

ويُبيِّنه أيضاً ما قاله عمرُ له في بعضِ كلامه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٧٤.

(٢) ديوانه ص٦٦ والبيت بتمامه:

فقلتُ له لا تبكِ عينُك إنَّما ... نحاول ملكاً أو نموتَ فنُعْذرا

(٣) المفهم ٣/ ٦٥٠.

(٤) في (م): شجوا رأس نبيهم.

(٥) برقم (١٧٩٢): (١٠٥)، وهو عند أحمد (٣٦١١)، والبخاري (٣٤٧٧).

(٦) المفهم ٣/ ٦٥١.

(٧) في (خ) و (ظ): اللهم اهدِ قومي.

(٨) أورده القاضي عياض في الشفاء ص٢٢١، وأخرجه البيهقي في الشعب (١٤٤٦) عن عبدالله بن عبيد مرسلاً.

(٩) في (خ) و (ظ): قصة.

دعا نوحٌ على قومه فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ الآية [نوح:٢٦]. ولو دعوتَ علينا مثلَها لهلكنا من عند آخرنا؛ فلقد وُطِئ ظهرُك، وأُدْمِيَ وجهُك، وكُسِرتْ رَبَاعيتك، فأبيتَ أن تقولَ إلّا خيراً، فقلتَ: «ربِّ اغْفِرْ لقومي فإنهم لا يعلمون»[١].

وقوله: «اشتدَّ غضبُ الله على قومٍ كسروا رَباعية نبيهم»[٢] يعني بذلك: المباشِرَ لذلك، وقد ذكرنا اسمه على اختلافٍ في ذلك[٣]، وإنما قلنا: إنه خُصوصٌ في المباشِر؛ لأنه قد أسلم جماعةٌ ممن شهدَ أُحداً وحَسُنَ إسلامُهم.

الثانية: زعمَ بعضُ الكوفيين أن هذه الآيَةَ ناسخةٌ للقُنُوتِ الذي كان النبيُّ ﷺ يفعلُه بعد الركوع في الرَّكعة الأخيرةِ من الصبح، واحتجَّ بحديث ابن عمرَ أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول في صلاة الفجر بعد رَفْعِ رأسه من الركوع فقال: «اللَّهم ربَّنا ولك الحمد» في الآخرة، ثم قال: «اللّهمَّ الْعَنْ فلاناً وفلاناً». فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية. أخرجه البخاريّ[٤]، وأخرجه مسلمٌ أيضاً من حديث أبي هريرة أتمَّ منه[٥]. وليس هذا موضعَ نسخ، وإنما نَبَّهَ الله تعالى نبيَّه على أنَّ الأمرَ ليس إليه، وأنه لا يَعلَمُ من الغيب شيئاً إلا ما أعلمَه، وأنَّ الأمرَ كلَّه لله، يتوب على من يشاء، ويعجِّل العقوبةَ لمن يشاء. والتقديرُ: ليس لك من الأمر شيءٌ، ولله ما في السماوات وما في الأرض دونَك ودونَهم، يغفرُ لمن يشاء، ويتوبُ على مَن يشاء. فلا نسخَ، والله أعلَمُ[٦].

وبَيَّن بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أنَّ الأمورَ بقضاء الله وقدره؛ رَدّاً على القدريَّةِ وغيرِهم.

الثالثة: واختلفَ العلماءُ في القُنُوت في صلاة الفجر وغيرِها؛ فمنع الكوفيون منه

---

(١) الشفاء ص٢٢١ ، قال السيوطي في تخريج أحاديث الشفا ص٦٠ : لا يعرف.

(٢) أخرجه أحمد (٨٢١٣)، والبخاري (٤٠٧٣)، ومسلم (١٧٩٣) بنحوه من حديث أبي هريرة ﷺ، واللفظ الذي ذكره المصنف هو في المفهم ٣/ ٦٥١ .

(٣) ص٢٨٧ من هذا الجزء.

(٤) صحيح البخاري (٧٣٤٦)، وهو عند أحمد (٦٣٤٩).

(٥) صحيح مسلم (٦٧٥): (٢٩٤)، وهو عند البخاري (٤٥٦٠).

(٦) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ١٣٢ - ١٣٣ و ١٣٦ .

في الفجر وغيرِها. وهو مذهب الليثِ، ويحيى بنِ يحيى اللَّيثيّ الأندلسيّ صاحبِ مالك، وأنكره الشعبي[(١)]. وفي الموطّأ[(٢)] عن ابن عمرَ: أنه كان لا يَقْنُتُ في شيءٍ من الصلاة. ورَوَى النَّسائيُّ: أنبأنا قتيبةُ، عن خَلَفٍ، عن أبي مالكٍ الأشجعيّ، عن أبيه قال: صليتُ خلْفَ النبيّ ﷺ، فلم يقْنُتْ، وصليتُ خلفَ أبي بكرٍ، فلم يقْنُت، وصليتُ خلفَ عمرَ، فلم يَقْنُت، وصليتُ خلفَ عثمانَ، فلم يقْنُت، وصليت خلف عليّ، فلم يقْنُت. ثم قال: يا بُنَيَّ، إنها بِدْعة[(٣)].

وقيل: يقنتُ في الفجر دائماً وفي سائر الصلوات إذا نزَل بالمسلمين نازلةٌ؛ قاله الشافعيُّ والطبريُّ.

وقيل: هو مسْتَحَبٌّ في صلاة الفجر، ورويَ عن الشافعي.

وقال الحسنُ وسُحْنون: إنه سُنَّة. وهو مُقتضَى رواية عليّ بنِ زيادٍ عن مالك بإعادة تاركه للصلاة عمداً.

وحكى الطبريُّ الإجماعَ على أنَّ تركَه غيرُ مُفْسِدٍ للصلاة. وعن الحسن: في تركه سجودُ السَّهو[(٤)]؛ وهو أحدُ قولي الشافعي. وذكر الدارقطنِي[(٥)] عن سعيدِ بنِ عبد العزيز فيمن نسِيَ القنوتَ في صلاة الصبح قال: يسجد سجدَتَي السَّهوِ.

واختار مالكٌ قبلَ الركوع؛ وهو قولُ إسحاقَ. ورُويَ أيضاً عن مالكٍ بعدَ الركوع، ورُويَ عن الخلفاء الأربعة، وهو قولُ الشافعيّ وأحمدَ وإسحاقَ أيضاً. ورُوي عن جماعةٍ من الصحابة التخييرُ في ذلك[(٦)].

وروى الدارقطني[(٧)] بإسنادٍ صحيحٍ عن أنسٍ أنه قال: ما زال رسولُ الله ﷺ يقنُتُ

---

(١) إكمال المعلم ٢/ ٦٥٧، والمفهم ٢/ ٣٠١، وخبر الشعبي أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (٦٦٠) و (٦٩١).

(٢) ١/ ١٥٩.

(٣) سنن النسائي (المجتبى) ٢/ ٢٠٤، وأخرجه الترمذي بنحوه (٤٠٢) وقال: حسن صحيح.

(٤) إكمال المعلم ٢/ ٦٥٨، والمفهم ٢/ ٣٠٢، وكلام الطبري في تهذيب الآثار ١/ ٢٨٥ - ٢٨٦.

(٥) سنن الدارقطني ٢/ ٤١.

(٦) إكمال المعلم ٢/ ٦٥٨، والمفهم ٢/ ٣٠٢.

(٧) سنن الدارقطني ٢/ ٣٩، وهو في مسند أحمد (١٢٦٥٧).

في صلاةِ الغداةِ حتى فارق الدنيا. وذكر أبو داودَ في المراسيل[(١)] عن خالد بنِ أبي عِمرانَ قال: بينا رسولُ الله ﷺ يدعو على مُضَرَ؛ إذْ جاءه جبريلُ، فأَوْمَأ إليه أن اسكت، فسكت، فقال: «يا محمدُ، إنَّ الله لم يبعثْكَ سَبَّاباً ولا لعَّاناً، وإنَّما بعثَكَ رحمةً، ولم يبعثْكَ عذاباً» ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾. قال: ثم علَّمه هذا القُنُوتَ[(٢)]: «اللَّهمَّ إنا نستعِينُك ونستغْفِرُك، ونؤمِنُ بك، ونَخْضَع[(٣)] لك، ونَخْلَع ونتْرُكُ من يكْفُركَ، اللّهم إياك نَعْبُد، ولك نصلِّي ونَسْجُدُ، وإليك نسْعَى ونَحْفِدُ، نرجُو[(٤)] رحمتَك ونخافُ عذابَك الجِدَّ، إن عذابك بالكافرين مُلْحِق»[(٥)].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ هذا النهيُ عن أكل الربا اعتراضٌ بينَ أثناء قصةِ أُحد. قال ابن عطية[(٦)]: ولا أحفظُ في ذلك شيئاً مَرْوِيّاً.

قلت: قال مجاهد: كانوا يبيعون البيعَ إلى أجل، فإذا حلَّ الأجلُ زادوا في الثَّمن على أن يؤخِّروا؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾[(٧)].

---

(١) برقم (٨٩).

(٢) بعدها في (خ) و (د) و (م): فقال، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في المراسيل.

(٣) في (خ) و (د) و(م): ونخنع، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في المراسيل.

(٤) في (م): ونرجو.

(٥) الرواية بكسر الحاء، أي: من نزل به عذابك ألحقه بالكفار، وقيل: هو بمعنى: لاحق، لغة في: لحق، ويروى بفتح الحاء على المفعول، أي: إن عذابك يلحق بالكفار ويصابون به. النهاية (لحق).

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٦ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٧٤ ، وأخرجه ابن أبي حاتم مختصراً (٤١٣٨).

قلت: وإنما خصَّ الرِّبا من بين سائر المعاصي؛ لأنه الذي أَذِنَ الله فيه بالحرب في قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧٩]، والحربُ يؤذِنُ بالقتل، فكأنه يقول: إن لم تتقوا الرِّبا هُزِمتُم وقُتلتم. فأمرَهم بتركِ الربا؛ لأنه كان معمولاً به عندَهم. والله أعلمُ.

و﴿أَضْعَـٰفًا﴾ نصب على الحال، و﴿مُّضَـٰعَفَةً﴾ نعتُه. وقرئ: «مُضَعَّفَةً»(١) ومعناه: الربا الذي كانتِ العربُ تُضْعِفُ فيه الدَّيْن، فكان الطالبُ يقول: أَتَقْضي أم تُرْبي؟ كما تقدَّم في «البقرة»(٢). و﴿مُّضَـٰعَفَةً﴾ إشارةٌ إلى تكرار التضعيف عاماً بعدَ عام كما كانوا يصنعون، فدلَّت هذه العبارةُ المؤكِّدةُ على شُنعةِ فعلهم وقُبحه؛ ولذلك ذُكِرتْ حالُ التضعيف خاصةً(٣).

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: في أموال الربا فلا تأكلوها. ثم خوَّفهم فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ قال كثيرٌ من المفسرين: وهذا الوعيد لمن استَحَلَّ الرِّبا، ومَن استحلَّ الرِّبا فإنه يكْفُر ويصير(٤) [إلى النار]. وقيل: معناه: اتقوا العمل الذي ينزِعُ منكم الإيمانَ فتستوجبون النار؛ لأن من الذنوب ما يستوجِبُ به صاحبُه نزْعَ الإيمانِ ويُخافُ عليه؛ من ذلك عقوقُ الوالدين. وقد جاء في ذلك أثرٌ: أنّ رجلاً كان عاقّاً لوالديه يقال له: عَلْقَمَة، فقيل له عند الموت: قل لا إله إلا الله، فلم يقدر على ذلك حتى جاءته أمُّه، فرضيتْ عنه(٥). ومن ذلك قطيعةُ الرحم، وأكلُ الربا، والخيانةُ في الأمانة.

---

(١) هي قراءة ابن كثير وابن عامر من السبعة، وقرأ الباقون: مضاعفة. السبعة ص١٨٤ - ١٨٥، والتيسير ص٨١.

(٢) ٤/ ٣٨١ - ٣٨٢.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٧.

(٤) في (خ): ويضر، وفي (م): ويكفِّر، وليست في (د) و (ظ)، والمثبت من تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٨، والكلام منه، وما بين حاصرتين منه.

(٥) أورده أبو الليث في تنبيه الغافلين ص٦٤ عن أنس ﷺ. وأخرجه دون ذكر اسم علقمة العقيليُّ في الضعفاء ٣/ ٤٦١، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٢٥١)، وابن الجوزي في الموضوعات (١٣٨٣) من طريق فائد بن عبد الرحمن العطار قال: سمعت عبدالله بن أبي أوفى يقول: إن شاباً حضرته الوفاة... ونقل العقيلي عن الإمام أحمد قوله عن فائد: متروك الحديث، ونقل عن البخاري قوله: منكر الحديث. وينظر تنزيه الشريعة ٢/ ٢٩٦ - ٢٩٧.

وذكرَ أبو بكر الورّاقُ[١] عن أبي حنيفةَ أنه قال: أكثر ما يُنزعُ الإيمان من العبد عند الموت[٢]. ثم قال أبو بكر: فنظرنا في الذنوب التي تَنزِع الإيمانَ، فلم نجد شيئاً أسرعَ نزعاً للإيمان من ظلم العباد.

وفي هذه الآية دليلٌ على أنّ النارَ مخلوقةٌ؛ ردّاً على الجَهْمِيّة؛ لأن المعدومَ لا يكونُ مُعَدّاً.

ثم قال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ يعني أطيعوا الله في الفرائض، والرَّسُولَ في السُّنن. وقيل: أطِيعُوا اللهَ في تحريم الربا، والرسول فيما بلَّغكم من التحريم[٣]. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: كي يرحمكم الله. وقد تقدم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قول تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟﴾ قرأ نافعٌ وابنُ عامر: «سَارِعُوا» بغير واو، وكذلك هي في مصاحفِ أهلِ المدينةِ وأهلِ الشام. وقرأ باقي السبعةِ: «وَسَارِعُوا» بالواو[٥]. قال أبو عليّ[٦]: كِلا الأمرين سائغٌ[٧] مستقيمٌ، فمن قرأ بالواو فلأنه عَطَفَ الجملةَ على الجملة، ومن ترك الواوَ فلأن الجملة الثانيةَ ملتبسةٌ بالأولى، مستغنيةٌ بذلك عن العطف بالواو.

والمسارعةُ: المبادرةُ، وهي مُفاعَلَة. وفي الآية حذفٌ، أي: سارعوا إلى ما

---

(١) محمد بن عمر الحكيم، أصله من ترمذ، وأقام ببلخ، له الكتب المشهورة في أنواع الرياضيات والمعاملات والآداب. طبقات الصوفية ص٢٢١ .

(٢) العبارة كما وقعت في تفسير أبي الليث: أكبر ما في الذنوب الذي يَنزع الإيمانَ من العبد عند الموت.

(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٨ .

(٤) ١/ ٣٤٢ .

(٥) السبعة ص٢١٦ ، والتيسير ص٩٠ .

(٦) الحجة ٣/ ٧٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٠٧ .

(٧) في (د) و (م): شائع.

يُوجِبُ المغفرة(١)، وهي الطاعةُ. قال أنس بنُ مالكٍ ومَكْحُولٌ في تفسير ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: معناه: إلى تكبيرة الإحرام [مع الإمام](٢). وقال عليُّ بنُ أبي طالبٍ: إلى أداء الفرائض. عثمانُ بن عفانَ: إلى الإخلاص(٣). الكلبي: إلى التوبة من الربا. وقيل: إلى الثبات في القتال. وقيل غيرُ هذا. والآية عامَّةٌ في الجميع، ومعناها معنى: ﴿فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة:١٤٨]، وقد تقدَّم(٤).

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ تقديره: كعرض، فحذف المضاف؛ كقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الزمر:٦] أي: إلا كخلق نفسٍ واحدةٍ وَبعْثِها(٥). قال الشاعر:

حَسِبْتَ بُغَامَ رَاحِلَتي عَنَاقاً ... وما هي وَيْبَ غيرِكَ بالعَنَاقِ(٦)

يريد صوتَ عَنَاقٍ.

نظيرُه في سورة الحديد: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية:٢١].

واختلف العلماءُ في تأويله، فقال ابن عباس: تُقرَنُ السماواتُ والأرضُ بعضُها إلى بعضٍ كما تُبْسَطُ الثيابُ، ويوصَلُ بعضُها ببعض؛ فذلك عَرْضُ الجنة، ولا يعلَمُ طولَها إلَّا الله(٧). وهذا قولُ الجمهور، وذلك لا يُنْكَر، فإنَّ في حديث أبي ذرٍّ عن النبيِّ ﷺ: «ما السماوات السبعُ والأَرَضونَ السبعُ في الكرسيِّ إلا كدراهمَ أُلقِيتْ في

---

(١) تفسير الرازي ٩/ ٤ .

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٨ ، وما بين حاصرتين منه، وقول أنس أورده البغوي ١/ ٣٥١ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٧٢ لابن المنذر.

(٣) تفسير البغوي ١/ ٣٥١ ، وتفسير الرازي ٩/ ٥ .

(٤) ٢/ ٤٥٠ .

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٨ .

(٦) نسبه أبو زيد في النوادر ص١١٦ وابن بري كما في اللسان (ويب) لذي الخِرَق الطُّهَويِّ، ونسبه ابن الأعرابي كما في اللسان (عنق) لقُرَيْط بن أُنَيْف، وهو دون نسبة في مجالس ثعلب ١/ ٦١ ، ودلائل الإعجاز ص٣٠١ ، والإنصاف ١/ ٣٧٢ .

وبُغام الناقة: صوت لا تُفصح به، والعَناق: الأنثى من المعز، والوَيب كلمة مثل الوَيل، تقول: ويبَك، وويب زيد، كما تقول: ويلك؛ يخاطب الشاعر ذئباً تبعه في طريقه. اللسان (عنق) و(بغم) و(ويب).

(٧) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٨، وأخرجه الطبري ٦/ ٥٣ .

فلاةٍ من الأرض، وما الكرسيُّ في العرش إلا كحلْقةٍ[١] أُلقيتْ في فلاةٍ من الأرض»[٢]. فهذه مخلوقاتٌ أعظمُ بكثيرٍ جِدّاً من السماوات والأرض، وقدرةُ الله أعظَمُ من ذلك كلِّه.

وقال الكلبيُّ: الجِنَانُ أربعةٌ: جنةُ عدْنٍ، [وهي الجنة العليا]، وجنة المأوى، وجنةُ الفِردوس، وجنةُ النعيم، وكلُّ جنةٍ منها كعرضِ السماءِ والأرض لو وُصِلَ بعضُها ببعض. وقال إسماعيلُ السُّدّيّ: لو كُسِرَتِ السماواتُ والأرضُ وصِرْنَ خَرْدلاً، فبِكلِّ خَرْدلةٍ جَنةٌ عَرْضُها كعرض السماء والأرض[٣].

وفي الصحيحِ: «إن أدنى أهلِ الجنّةِ منزلةً مَن يتمنّى ويتمنّى حتى إذا انقطعتْ به الأمانيُّ قال الله تعالى: لك ذلك وعَشَرةُ أمثالِه». رواه أبو سعيد الخدري، خرَّجه مسلم وغيره[٤].

وقال يعلى بن مُرّةَ[٥]: لقِيتُ التَّنُوخِيَّ[٦] رسولَ هِرَقْلَ إلى النبيِّ ﷺ بحِمْصَ شيخاً كبيراً قال: قدِمتُ على رسول الله ﷺ بكتاب هرقلَ، فناول الصحيفةَ رجلاً عن يساره؛ قال: فقلتُ: من صاحبُكم الذي يقرأ؟ قالوا: معاويةُ، فإذا كتابُ صاحبي: إنك كتبتَ

(١) بعدها في (خ) و(ظ): من حديد.

(٢) كذا أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٠٨ ولم يذكر صحابيَّه. وأخرج نحوه ابن حبان (٣٦١) عن أبي ذرّ مطولاً وفي إسناده إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، كذبه أبو حاتم وابن الجوزي، كما في ميزان الاعتدال ١/ ٧٢ - ٧٣ . وأخرج القسم الأول منه الطبري ٤/ ٥٣٩ ، وأبو الشيخ في العظمة (٢٢٢) من طريق ابن زيد عن أبيه زيد بن أسلم عن النبي ﷺ قال: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس». وقوله: «وما الكرسي في العرش...» أخرجه الطبري وأبو الشيخ مع الحديث الأول من طريق ابن زيد عن أبي ذر عن النبي ﷺ. قال ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٢٤ : أول الحديث مرسل، والثاني عن أبي ذر منقطع.

(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٨ وما بين حاصرتين منه.

(٤) صحيح مسلم (١٨٨) مطولاً، وهو عند أحمد (١١٢١٦).

(٥) وقع في النسخ والمحرر الوجيز ١/ ٥٠٨ والكلام منه: يعلى بن أبي مرة، ووقع كذلك في بعض نسخ الطبري ٦/ ٥٤ كما ذكر محققوه، والصواب ما أثبتناه، كما هو في المصادر، وهو يعلى بن مرة بن وهب الثقفي أبو المَرَازِم، قال أبو عمر: كان من أفضل الصحابة، قال ابن سعد: أمره النبي ﷺ أن يقطع أعناب ثقيف فقطعها. الإصابة ١٠/ ٣٧٣ .

(٦) سمع من النبي ﷺ وهو كافر، ثم أسلم بعد موته، فهو تابعي اتفاقاً، وحديثه ليس بمرسل، بل موصول. ينظر تدريب الراوي ١/ ٢٢٠ .

تدعوني إلى جنةٍ عَرْضُها السماواتُ والأرض، فأين النارُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «سبحانَ الله! فأين الليلُ إذا جاءَ النهار»[١].

وبمثل هذه الحُجة استدلَّ الفاروقُ على اليهود حين قالوا له: أرأيتَ قولَكم: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، فأين النار؟ فقالوا له: لقد نزعتَ بما في التوراة[٢].

ونبَّه تعالى بالعَرْضِ على الطول لأنَّ الغالبَ أنَّ الطولَ يكون أكثرَ من العرض، والطولُ إذا ذُكر لا يدلُّ على قَدْر العرض. قال الزُّهْريُّ: إنَّما وصَف عرضَها، فأمَّا طولُها فلا يعلمُه إلا الله[٣]؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] فوصف البِطَانَة[٤] بأحسنِ ما يُعلَمُ مِن الزينة، إذْ معلومٌ أنَّ الظواهرَ تكونُ أحسنَ وأتقنَ من البطائن[٥].

وتقول العرب: بلادٌ عريضة وفلاةٌ عريضة، أي: واسعةٌ[٦]؛ قال الشاعر:

كأنّ بلادَ الله وهْيَ عَرِيضَةٌ ... على الخائف المطلوب كُفَّةُ حَابِلِ[٧]

وقال قومٌ: الكلامُ جارٍ على مَقْطَعِ العرب من الاستعارة؛ فلمّا كانت الجنةُ من

(١) أخرجه الطبري ٦/ ٥٤ من طريق مسلم بن خالد الزنجي، عن عبدالله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد ابن أبي راشد، عن يعلى بن مرة، قال: لقيت التنوخي، ورجح الشيخ أحمد شاكر رحمه الله(الطبري ٦/ ٢٠٩ - ٢١١ دار المعارف) أن ذكر يعلى بن مرة في الإسناد وهم من مسلم بن خالد الزنجي، فقد أخرجه أحمد (١٥٦٥٥) من طريق يحيى بن سليم الطائفي، عن عبدالله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد ابن أبي راشد قال: لقيت التنوخي، ويحيى بن سليم الطائفي أحفظ من مسلم بن خالد الزنجي. وأورد ابن كثير في البداية والنهاية ٧/ ١٧٤ رواية الإمام أحمد وقال: حديث غريب، وإسناده لا بأس به.

(٢) أخرجه الطبري ٦/ ٥٥ .

(٣) تفسير البغوي ١/ ٥٣١ ، والمحرر الوجيز ١/ ٥٠٩ .

(٤) في (ظ): البطائن.

(٥) تفسير الرازي ٩/ ٦ .

(٦) قال ابن قتيبة في تفسير الغريب ص١١١ قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ يريد سعتها، ولم يُرِد العرض الذي هو خلاف الطول، والعرب تقول...

(٧) البيت للبيد؛ كما في ملحق ديوانه ص٣٦٥ ، ونسبه البصري في الحماسة البصرية ١/ ٢٩ لعبيد بن أيوب العنبري، وهو بلا نسبة في تفسير غريب القرآن ص١١١ ، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٤٧٧ ، وذكره أيضاً المبرد في الكامل ٢/ ١٠٣٦ براوية: كأن فجاج الأرض... وقوله: كُفَّة حابل، قال المبرد: الحِبَالة التي ينصبها للصيد.

الاتساع والانفساح في غايةٍ قصوى؛ حَسُنَتِ العبارةُ عنها بعرض السماوات والأرض، كما تقول للرجل: هذا بَحْرٌ، ولشخصٍ كبيرٍ من الحيوان: هذا جبلٌ. ولم تقصِد الآيةُ تحديدَ العرض[١]، ولكنْ أراد بذلك أنها أوسعُ شيءٍ رأيتموه.

وعامّةُ العلماءِ على أن الجنةَ مخلوقةٌ موجودة؛ لقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وهو نصُّ حديث الإسراء وغيرِه في الصحيحين وغيرِهما[٢].

وقالتِ المعتزلةُ: إنهما غيرُ مخلوقتين في وقتنا، وإن الله تعالى إذا طوى السماواتِ والأرضَ ابتدأ خلْقَ الجنةِ والنارِ حيثُ شاء؛ لأنهما دارا جزاءٍ بالثواب والعقاب، فخُلِقَتا بعد التكليف في وقت الجزاء؛ لئلّا تجتمعَ دارُ التكليف ودارُ الجزاء في الدنيا، كما لم يجتمعا في الآخرة[٣].

وقال ابن فورك: الجنةُ يزادُ فيها يومَ القيامة. قال ابن عطية[٤]: وفي هذا متعلَّقٌ لمنذرِ بن سعيد وغيرِه ممن قال: إنَّ الجنةَ لم تُخلَقْ بعدُ. قال ابنُ عطيةَ: وقولُ ابنِ فورك «يزاد فيها» إشارةٌ إلى موجود، لكنه يحتاجُ إلى سنَد يقطعُ العذرَ في الزيادة.

قلت: صدق ابنُ عطيةَ رضيَ الله عنه فيما قال، وإذا كانت السماواتُ السبْعُ والأَرَضونَ السبْعُ بالنسبة إلى الكرسيِّ كدراهمَ أُلقيتْ في فلاة من الأرض، والكرسيُّ بالنسبة إلى العرش كحلْقةٍ ملقاةٍ بأرضِ فلاة[٥]؛ فالجنة الآنَ على ما هي عليه في الآخرة عرْضُها كعرض السماوات والأرض؛ إذِ العرشُ سقفُها، حَسْبَ ما ورد في صحيح الحديث[٦]. ومعلومٌ أنَّ السقفَ يحتوي على ما تحتَه ويزيد. وإذا كانتِ

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٩.

(٢) صحيح البخاري (٣٣٤٢)، وصحيح مسلم (١٦٣) من حديث أبي ذرّ ﷺ والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٥٠٩.

(٣) الإرشاد ص٣١٩.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٩.

(٥) يشير إلى حديث أبي ذر السالف أول هذه المسألة.

(٦) في (د) و (ز) و (م): مسلم، بدل: الحديث. ولم نقف عليه عند مسلم، والخبر أخرجه الديلمي في الفردوس (٣٥٢٧) عن أنس بن مالك ﷺ، بلفظ: «سقف الجنة عرشُ الرحمن عزَّ وجلَّ». ولم نقف على إسناده، وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ عند أحمد (٨٤١٩) وفيه: فإذا سألتم الله، فسلوه الفردوس، فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرشُ الرحمن... وهو حديث صحيح، وعن عبادة بن الصامت عند أحمد أيضاً (٢٢٦٩٥) نحوه.

المخلوقات كلُّها بالنسبة إليه كالحلْقة، فمن ذا الذي يقدِّره ويعلَم طولَه وعرضَه إلا الله خالقُه الذي لا نهايةَ لقدرته[١]، ولا غايةَ لسَعَة مملكته! سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

فيه أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ هذا من صفة المتقينَ الذين أُعِدَّتْ لهم الجنة، وظاهرُ الآيةِ أنها مدحٌ بفعلِ المندوب إليه. و﴿ٱلسَّرَّآءِ﴾: اليُسر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: العسر؛ قاله ابن عباسٍ والكلبيُّ ومقاتل. وقال عبيدُ بنُ عميرٍ والضحَّاكُ: السرَّاء والضرَّاء: الرخاءُ والشدَّة[٢].

ويقال: في حال الصِّحَّةِ والمرض. وقيل: في السرَّاء: في الحياة، وفي الضرَّاء: يعني يُوصي بعد الموت. وقيل: في السرَّاء: في العرس والولائم، وفي الضرَّاء: في النوائبِ والمآتم. وقيل: في السراء: النفقة التي تسرُّكم، مثل النفقة على الأولاد والقرابات، والضرَّاء: على الأعداء. ويقال: في السرَّاء: ما يُضِيفُ به الغنيَّ[٣] ويُهدي إليه. والضرَّاء: ما ينفقُه على أهل الضرِّ ويتصدَّقُ به عليهم.

قلت: والآيةُ تَعُمّ.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ وهي المسألةُ:

الثانية: وكَظْمُ الغيظِ: ردُّه في الجوف؛ يقال: كَظَمَ غيظَه، أي: سكتَ عليه ولم يُظهرْه معَ قدرته على إيقاعه بعدوِّه، وكظمتُ السِّقاء، أي: ملأْتُه وسدَدْتُ عليه،

---

(١) في (خ) و (ظ): لمقدوراته.

(٢) أثر ابن عباس أخرجه الطبري ٦/ ٥٧ ، وابن أبي حاتم (٤١٦٢). وينظر تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٩ عن الكلبي والضحاك، وتفسير ابن أبي حاتم (٤١٦٣) عن مقاتل، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٦ عن عبيد بن عمير.

(٣) في (د) و (م): الفتى، والمثبت من (خ) و (ظ) وهو الموافق لما في تفسير أبي الليث جزء ٢/ لوحة ١٤٣ والكلام منه، وقد ذكرت فيه بصيغة الجمع، وتحرفت في المطبوع ١/ ٢٩٩ إلى: الأنبياء.

والكِظامةُ ما يُسدُّ به مجرى الماء[١]؛ ومنه الكِظام للسَّير الذي يُشدُّ[٢] به فَمُ الزِّقِّ والقِربة. وكظَمَ البعيرُ جِرَّته[٣]: إذا ردَّها في جَوْفه؛ وقد يقالُ لحبسه الجِرَّة قبل أن يرسلَها إلى فِيه: كظم؛ حكاه الزجَّاج[٤]. يقال: كظم البعيرُ والناقةُ إذا لم يَجْتَرَّا؛ ومنه قول الراعي[٥]:

فأفَضْنَ بعد كُظومِهِنَّ بجِرَّةٍ ... مِن ذي الأبارِق إذ رَعَيْن حَقِيلا[٦]

الحَقِيلُ: موضع. والحَقِيل: نبت. وقد قيل: إنها تفعل ذلك عند الفزَع والجُهد فلا تَجترُّ؛ قال أعشى باهِلةَ يصف رجلاً نحَّاراً للإبل فهي تفْزَعُ منه:

قد تكْظِم البُزْلُ منه حين تُبْصِرهُ ... حتى تَقَطَّعَ في أجوافها الجِرَرُ[٧]

ومنه: رجل كظِيمٌ ومكظوم: إذا كان ممتلئاً غمّاً وحُزناً. وفي التنزيل: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤][٨]، ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨، والزخرف: ١٦] ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

والغيظُ: أصلُ الغضب، وكثيراً ما يتلازمان، لكنْ فُرْقانُ ما بينَهما أنَّ الغيظَ لا يَظْهَرُ على الجوارح، بخلاف الغضب، فإنه يظهر في الجوارح مع فعلٍ مَّا ولابدَّ؛ ولهذا جاز[٩] إسنادُ الغضبِ إلى الله تعالى؛ إذ هو عبارةٌ عن أفعاله في المغضوب عليهم. وقد فسَّر بعض الناس الغيظَ بالغضب، وليس بجيد. والله أعلم.

---

(١) كتاب الأفعال للسرقسطي ٢/ ١٧١ .

(٢) المثبت من (خ). وفي باقي النسخ: يُسدّ.

(٣) الجِرَّة، بالكسر: ما يفيض به البعير، فيأكله ثانية. القاموس (جرر).

(٤) معاني القرآن ١/ ٤٦٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٠٩ .

(٥) ديوانه ص٢٢٤ .

(٦) في (د) و (خ): الأباطح بدل: الأبارق، وهي رواية السرقسطي في كتاب الأفعال ٢/ ١٧١ . وحَقِيل: واد في ديار بني عكل بين جبال من الحلة، وحقيل وذو الأبارق موضع واحد. معجم البلدان ٢/ ٢٧٩ .

(٧) هو في جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ٢/ ٧١٦ ، برواية: قد تكظم البَرْكُ منها حين يفجؤها. وفي خزانة الأدب ١/ ١٩٤ . قال البغدادي: البُزل، جمع بازل، وهو الداخل في السنة التاسعة.

(٨) تفسير الطبري ٦/ ٥٨ .

(٩) في النسخ: جاء، والمثبت من المحرر الوجيز ١/ ٥٠٩ ، والكلام منه.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ العفو عن الناس [من] أجَلِّ ضُرُوبِ فِعْلِ الخير؛ [وهذا] حيثُ يجوز للإنسان أن [لا] يعفوَ، وحيث يتَّجِه حقُّه[١]. وكلُّ مَنِ استحق عقوبةً، فتُرِكتْ له، فقد عُفِيَ عنه.

واخْتُلِفَ في معنى: ﴿عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾؛ فقال أبو العاليةِ والكلبيُّ والزجَّاجُ: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ يريد: عن المماليك[٢]. قال ابن عطية[٣]: وهذا حسَنٌ على جهة المثال؛ إذ هُم الخَدَمَة، فهم يذنبون كثيراً، والقدرةُ عليهم متيسرة، وإنفاذُ العقوبة سهْلٌ؛ فلذلك مثَّل هذا المفسِّر به.

ورُوِيَ عن ميمون بنِ مهران أن جاريتَه جاءتْ ذاتَ يوم بصَحْفةٍ فيها مَرَقَةٌ حارَّة، وعنده أضيافٌ، فعثَرتْ، فصبَّت المَرقَة عليه، فأراد ميمونٌ أن يَضْرِبَها، فقالت الجارية: يا مولاي، استعملْ قولَ الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ قال لها: قد فعلتُ. فقالت: اعمل بما بعدَه: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ قال: قد عفوتُ عنك. فقالت الجارية: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. قال ميمون: قد أحسنتُ إليكِ، فأنتِ حرَّةٌ لوجه الله تعالى[٤]. ورُوِيَ عن الأحنف بنِ قيسٍ مثلُه[٥].

وقال زيدُ بن أسلم[٦]: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾: عمن ظلمهم وأساءَ إليهم[٧]. وهذا عامٌّ، وهو ظاهرُ الآيةِ. وقال مقاتل بنُ حيَّانَ في هذه الآية: بلَغنا أنَّ رسولَ الله ﷺ قال عند ذلك: «إنَّ هؤلاء من أمَّتي قليلٌ إلَّا مَن عصَمَه الله، وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضَتْ»[٨].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥١٠ ، وما بين حاصرتين منه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٧ عن أبي العالية، وتفسير أبي الليث ١/ ٢٩٩ عن الكلبي، وأورده الواحدي ١/ ٤٩٣ عن ابن عباس، ولم نقف على قول الزجاج في معاني القرآن له.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥١٠ .

(٤) تنبيه الغافلين لأبي الليث السمرقندي ص١٠٢ ، وميمون بن مهران هو أبو أيوب الجزري الرَّقِّي، عالم الجزيرة ومفتيها، توفي سنة (١١٧هـ). السير ٥/ ٧١ .

(٥) في (خ) و (ظ): بنحوه. وقد أخرجه البيهقي في الشعب (٨٣١٧).

(٦) في النسخ: سلم وهو خطأ، وقد ذكره الواحدي ١/ ٤٩٣ ، والبغوي ١/ ٣٥٢ عن زيد بن أسلم ومقاتل.

(٧) في (د) و (م): عن ظلمهم وإساءتهم.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٤١٦٨).

فمدح الله تعالى الذين يغفرون عند الغضب، وأثنى عليهم، فقال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وأثنى على الكاظمين الغيظ بقوله: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، وأخبرَ أنه يحبُّهم بإحسانهم في ذلك.

ووردتْ في كظْمِ الغيظ، والعفوِ عن الناس، ومُلْكِ النفس عندَ الغضب أحاديثُ، وذلك من أعظم العبادة وجِهادِ النفس؛ فقال ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرَعَةِ، ولكنَّ الشديدَ الذي يملكُ نفسَه عند الغضب»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما من جرعةٍ يتجرَّعها العبدُ خيرٌ له وأعظمُ أجراً من جرعةِ غيظٍ في الله»(٢).

وروى أنسٌ أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، ما أشدُّ من كل شيء؟ قال: «غضبُ الله». قال: فما ينجي من غضب الله؟ قال: «لا تغضبْ»(٣). قال العَرْجِيّ(٤):

وإذا غضبتَ فكن وَقُوراً كاظِماً ... للغيظ تَبْصُر ما تقولُ وتسمعُ

فكفى به شرفاً تَصَبُّرُ ساعةٍ ... يرضى بها عنك الإله وتُرفَعُ(٥)

وقال عروةُ بن الزبير في العفو:

لن يبلغَ المجدَ أقوامٌ وإن شَرُفوا ... حتى يَذِلُّوا وإن عَزُّوا لِأقوامِ

ويُشْتَمُوا فترى الألوانَ مُشرِقَةً ... لا عَفْوَ ذُلٌّ ولكنْ عَفْوَ إكرامِ(٦)

---

(١) أخرجه أحمد (٧٢١٩)، والبخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٦١١٤)، وابن ماجه (٤١٨٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) لم نقف عليه من حديث أنس، وأخرج أحمد في المسند (٦٦٣٥) نحوه من حديث عبدالله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما، قال الهيثمي في المجمع ٨/ ٦٩ : وفيه ابن لهيعة وهو لين الحديث، وبقية رجاله ثقات.

(٤) عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان، لقب بالعرجي لأنه كان يسكن عرج الطائف، وهو من شعراء قريش الذين شُهروا بالغزل، وكان مشغوفاً باللهو والصيد. الأغاني ١/ ٣٨٣ .

(٥) في (خ) و (ظ): ويدفع، والبيتان في البحر ٣/ ٥٨ .

(٦) جمهرة الأمثال ١/ ٣٤٦ ، والمستطرف ١/ ٤١٩ ، وشعب الإيمان (٨٤٨٣)، وأدب الدين والدنيا للماوردي ص٢٢٩ .

وروى أبو داودَ وأبو عيسى الترمذيُّ[(١)] عن سهل بن معاذ بن أنسٍ الجُهَنيِّ، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «من كَظَم غيظاً وهو يستطيع أن يُنْفِذَه؛ دعاه الله يومَ القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيِّره في أيِّ الحورِ شاء». قال: هذا حديثٌ حسنٌ غريب.

وروى أنسٌ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ: مَن كان أجرُه على الله فليدخلِ الجنَة، فيقال: مَن ذا الذي أَجْرُه على الله؟ فيقوم العافون عن الناس يدخلون الجنةَ بغير حساب». ذكره الماوردي[(٢)]. وقال مبارك بن فضالة[(٣)]: كنتُ عندَ المنصور جالساً، فأمَرَ بقتل رجلٍ؛ فقلت: يا أميرَ المؤمنين، قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ بينَ يديِ الله عزَّ وجل: من كانت له يدٌ عند الله فليتقدَّمْ[(٤)]، فلا يتقدَّمُ إلا من عفا عن ذنب»؛ فأمر بإطلاقه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: يُثيبهم على إحسانهم. قال سَريٌّ السَّقَطِي: الإحسان أن تُحسِن وقتَ الإمكانِ، فليس كلَّ وقتٍ يمكنك الإحسانُ، قال الشاعر:

بـادِرْ بِـخَـيْـرٍ إذا مـا كـنـتَ مُـقْـتَـدِرا   فـلـيـس فـي كـلِّ وقـتٍ أنـتَ مُـقـتـدِرُ[(٥)]

وقال أبو العباس الجُمَّانِيُّ فأحسن:

لـيـس فـي كـلِّ سـاعـةٍ وأَوَانِ   تـتـهـيّـا صـنـائـعُ الإحـسـانِ

---

(١) سنن أبي داود (٤٧٧٧)، وسنن الترمذي (٢٠٢١) و (٢٤٩٣)، وهو عند أحمد (١٥٦٣٧).

(٢) بنحوه في أدب الدنيا والدين ص٢٣٦، وأخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/ ٤٤٧، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١٨٧، والبيهقي في الشعب (٤٣١٣)، من طريق الفضل بن يسار، عن غالب القطان، عن الحسن، عن أنس، به، قال أبو نعيم: غريب من حديث الحسن، تفرد به الفضل عن غالب. وقال العقيلي: الفضل بن يسار عن غالب القطان، لا يتابع من وجه يثبت.

(٣) وقع في النسخ: ابن المبارك، والصواب ما أثبتناه، فقد أخرج الخطيب في تاريخ بغداد ١٣/ ٢١٢ القصة مطولة في ترجمة مبارك بن فضالة، فذكر فيها الحديث بنحوه من رواية مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن النبي ﷺ، وأخرجه أيضاً ٦/ ١٤٥ من طريق مبارك، عن الحسن، عن عمران بن الحصين عن النبي ﷺ.

(٤) في (د): فليقم.

(٥) لم نقف عليه.

وإذا أمْكَنَتْ فبادِرْ إليها حذراً من تعذُّرِ الإمكانِ[١]

وقد مضى في «البقرة» القولُ في المحسن والإحسان[٢]، فلا معنى للإعادة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

فيه سبعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآية صِنْفاً؛ هم دون الصِّنْفِ الأول، فألحقَهم به برحمته ومَنِّه؛ فهؤلاء هم التوَّابون[٣].

قال ابن عباس في رواية عطاء: نزلَتْ هذه الآيةُ في نَبْهانَ التَّمَّارِ ـ وكُنْيته أبو مُقْبِل ـ أتَتْه امرأة حَسْناءُ باع منها تمراً، فضمَّها إلى نفسه وقبَّلَها، ثم ندم[٤] على ذلك، فأتى النبيَّ ﷺ، فذكر ذلك له؛ فنزلتْ هذه الآية.

وذكر أبو داودَ الطيالسِيُّ في مسنده عن عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: حدَّثني أبو بكر ـ وصَدَق أبو بكر ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ما مِن عبدٍ يُذْنبُ ذنباً، ثم يتوضَّأُ ويصلي رَكعتين، ثم يستغفرُ الله، إلا غَفَرَ له». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية، والآيةَ الأخرى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ [النساء: ١١٠]. وخرَّجه الترمذيُّ وقال: حديث حسن[٥].

---

(١) ذكرهما البيهقي في الشعب (٧٦٩٠) ونسبهما لعبدالله بن طاهر، وذكرهما أيضاً الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤١٩ وعزا إنشادها لمحمد بن طاهر الرقي، ووردت دون نسبة في المستطرف ٢/ ١١٠ برواية: ليس في كل وهلة وأوان...

(٢) ٢/ ١٣١.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥١٠.

(٤) في (د) و (م): فندم، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق لما في أسباب النزول للواحدي ص١١٨، وهذا الحديث أخرجه ابن بشكوال مطولاً في غوامض الأسماء المبهمة ١/ ٢٩٥ - ٢٩٦ من طريق عبد الغني بن سعيد الثقفي، عن موسى بن عبد الرحمن، عن ابن جريج، عن عطاء، به. وذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة ١٠/ ١٤٠، وذكر له طريقاً آخر عن مقاتل بن سليمان، عن الضحاك، عن ابن عباس، ثم قال: ومقاتل متروك، والضحاك لم يسمع من ابن عباس، وعبد الغني وموسى هالكان.

(٥) مسند الطيالسي ص٢، وسنن الترمذي (٤٠٦) و (٣٠٠٦)، وهو عند أحمد (٢).

وهذا عامٌّ. وقد تنزل الآية بسبب خاصٍّ، ثم تتناول جميعَ مَن فَعَل ذلك أو أكثرَ منه.

وقد قيل: إن سبب نزولها أن ثَقَفِيّاً خرجَ في غزاة، وخلَّفَ صاحباً له أنصارِيّاً على أهله، فخَانَه فيها بأن اقتحم عليها، فدفعتْ عن نفسها، فقبَّل يدها، فندم[١] على ذلك، فخرج يَسِيحُ في الأرض نادماً تائباً؛ فجاء الثقفيُّ، فأخبرتْه زوجتُه بفعل صاحبه، فخرجَ في طلبه، فأتى به إلى أبي بكر وعمرَ رَجاءَ أن يجدَ عندهما فرجاً فوَبَّخاه؛ فأتى النبيَّ ﷺ، فأخبره بفعله؛ فنزلت هذه الآية[٢]. والعمومُ أولى للحديث.

ورُوِيَ عن ابن مسعود أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، كانت بنو إسرائيل أكرَمَ على الله مِنَّا، حيثُ كان المذْنِبُ منهم تُصْبحُ عقوبتُه [مكتوبةً] على باب داره، وفي رواية: كفارةُ ذنْبِه مكتوبةً على عَتَبة داره: اجْدَعْ أنفَك، اقْطَع أُذُنَك، افعل كذا. فأنزل الله تعالى هذه الآية تَوْسِعةً ورحمةً وعِوَضاً من ذلك الفعل ببني إسرائيل[٣].

ويُروى أنَّ إبليس بكى حين نزلت هذه الآية[٤].

والفاحشةُ تطلَقُ على كلِّ معصية، وقد كَثُر اختصاصُها بالزنا، حتى فسَّرَ جابرُ بنُ عبدالله والسُّدِّي هذه الآيةَ بالزنا[٥].

و«أَوْ» في قوله: ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ قِيل: هي بمعنى الواو؛ والمرادُ: ما دونَ الكبائر.

﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ معناه: بالخوف من عقابه والحَيَاءِ منه[٦]. الضحاك: ذكروا العَرْضَ

---

(١) في (خ) و (ظ): ثم ندم.

(٢) ذكره مطولاً الواحدي في أسباب النزول ص١١٨، والبغوي في التفسير ١/ ٣٥٢، وهو من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس كما ذكر الحافظ ابن حجر في العجاب ٢/ ٧٥٧.

(٣) تفسير البغوي ١/ ٣٥٢، والمحرر الوجيز ١/ ٥١٠، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه الطبري ٦/ ٦٢ عن عطاء مرسلاً، وأخرجه ٦/ ٦٣ من طريق علي بن زيد بن جدعان عن ابن مسعود بلفظ: كانت بنو إسرائيل إذا أذنبوا، أصبح مكتوباً على بابه الذنب وكفارته، فأعطينا خيراً من ذلك هذه الآية. وعلي بن زيد بن جدعان ضعيف، ولم يدرك ابن مسعود.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ١٣٣، والطبري ٦/ ٦٣ عن ثابت البُناني.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٥١٠، وأخرج الأثرين عن جابر والسدِّي الطبريُّ ٦/ ٦١.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥١٠.

الأكبرَ على الله[١]. وقيل: تفكَّروا في أنفسهم أنَّ الله سائلُهم عنه؛ قاله الكلبيُّ ومقاتل[٢]. وعن مقاتل أيضاً: ذكروا الله باللسان عند الذنوب[٣].

﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: طلبوا الغفرانَ لأجل ذنوبهم. وكلُّ دعاءٍ فيه هذا المعنى، أو لفظُه، فهو استغفار. وقد تقدَّمَ في صدر هذه السورة سيدُ الاستغفار، وأن وقتَه الأسحارُ[٤]. فالاستغفارُ عظيمٌ، وثوابُه جسيمٌ، حتى لقد رَوى الترمذيُّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَن قال: أستغفر الله العظيم[٥] الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيومُ وأتوبُ إليه، غُفرَ له وإن كان قد فرَّ من الزحف».

وروى مَكْحُولٌ، عن أبي هريرةَ قال: ما رأيتُ أكثرَ استغفاراً من رسول الله ﷺ. وقال مكحول: ما رأيتُ أكثرَ استغفاراً من أبي هريرةَ[٦]. وكان مكحولٌ كثيرَ الاستغفار.

قال علماؤنا: الاستغفارُ المطلوبُ هو الذي يَحُلُّ عَقْدَ الإصرارِ، ويَثْبُتُ معناه في الجَنَان، لا التلفُّظُ باللسان. فأمَّا من قال بلسانه: أستغفر اللهَ، وقلبُه مُصِرٌّ على معصيته، فاستغفارُه ذلك يحتاجُ إلى استغفار، وصغيرتُه لاحقةٌ بالكبائر[٧].

ورُويَ عن الحسنِ البصريِّ أنه قال: استغفارُنا يحتاجُ إلى استغفار[٨].

قلت: هذا يقوله في زمانه، فكيف في زماننا هذا الذي يُرى فيه الإنسانُ مُكِبّاً على

(١) الوسيط ١/ ٤٩٤.

(٢) أورده الواحدي في الوسيط ١/ ٤٩٤، والرازي في التفسير ٩/ ١٠ عن مقاتل والواقدي.

(٣) تفسير البغوي ١/ ٣٥٣.

(٤) ص٥٩ - ٦٠ من هذا الجزء.

(٥) قوله: العظيم، من (خ) وليس في باقي النسخ، وهو الموافق لما في سنن الترمذي (٣٥٧٧)، وهو عند أبي داود (١٥١٧)، وهو من حديث بلال بن يسار بن زيد، عن أبيه، عن جده سمع النبي ﷺ يقول، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. قلنا: وله شاهد من حديث ابن مسعود ﷺ أخرجه الحاكم ٢/ ١١٨ وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٦) الزهد لأحمد ص٥٠، وفيه بين مكحول وأبي هريرة رجل لم يُسَمَّ، وهو الذي يروي الحديث عن أبي هريرة. ومكحول لم يلق أبا هريرة كما في العلل لابن أبي حاتم ص١٦٥ - ١٦٦.

(٧) المفهم ٧/ ٨٥ - ٨٦.

(٨) تفسير أبي الليث ١/ ٣٠٠.

الظلم؟! حريصاً عليه لا يُقلِع، والسُّبْحَةُ في يده، زاعماً أنه يستغفرُ اللهَ من ذنبه! وذلك استهزاءٌ منه واستخفاف. وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقد تقدَّم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: ليس أحدٌ يغفِرُ المعصيةَ ولا يُزيلُ عقوبتَها إلا الله.

﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ﴾ أي: ولم يَثبُتُوا ويعزِمُوا على ما فعلوا. وقال مجاهد: أي: ولم يَمضُوا[١]. وقال معبد بن صبيحة[٢]: صليتُ خلفَ عثمانَ، وعليٌّ إلى جانبي، فأقبل علينا فقال: صلَّيتُ بغير وضوء ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. ثم ذهب فتوضأ وصلّى[٣].

والإصرار هو العزم بالقلب على الأمر، وتركُ الإقلاعِ عنه. ومنه صَرُّ الدنانيرِ، أي: الرَّبطُ عليها[٤]؛ قال الحطيئةُ يصِفُ الخيل:

عوابسُ بالشُّعْثِ الكُماةِ إذا ابتغَوا عُلالَتَها بالمُحْصَدَاتِ أصَرَّتِ[٥]

أي: ثَبَتَتْ على عَدْوِها.

وقال قتادة: الإصرارُ: الثبوتُ على المعاصي[٦]؛ قال الشاعر:

---

(١) تفسير مجاهد: ١٣٦، وأخرجه ابن أبي حاتم (٤١٨٥).

(٢) في (م): صبيح، قال ابن حبان في الثقات ٥/ ٤٣٢ - ٤٣٣: معبد بن صبيحة القرشي التيمي، من رهط طلحة بن عبيد الله، ويقال: ابن صبيح، رأى علياً وعثمان، وليست له صحبة. وذكره البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٣٩٩، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٨/ ٢٧٩ ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً.

(٣) قوله: ثم ذهب فتوضأ وصلى، وقع في (م) قبل: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وسقط من (خ) و(ظ)، والمثبت من (د)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٧٩ والكلام منه. والأثر أخرجه محمد بن الحسن الشيباني في الحجة ١/ ٧٠ عن رجل من الصحابة أنه صلى خلف عثمان، فأحدث الرجل...

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥١٠.

(٥) ديوان الحطيئة ص٣٤١، وجاء في شرحه: العوابس: الخيل القاطبة الوجوه. والكُماة جمع كَمِيّ، وإنما سمي كمياً لأنه يَتكمَّى الأقران، أي: يتعمدهم ويقصد إليهم. والعُلَالَه: الجري يُطلب منها بعد ما يذهب جريها، ومحصدات: سياط شديدة الفتل. وذكر في الديوان رواية أخرى للبيت وهي: أَضَرَّتِ، قال الشارح ص٣٤٥: ويقال: ناقة ذات ضرير: أي: ذات صبر على السير، أي: أجهدت نفسها.

(٦) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٤٦٣، وأخرجه الطبري بنحوه ٦/ ٦٦.

يا ويحَ كلِّ مُصِرِّ القلبِ خَتَّارِ ... يُصِرُّ بالليل ما تُخفِي شَوَاكِلُه[١]

قال سهل بن عبدالله: الجاهلُ ميِّتٌ، والناسي نائمٌ، والعاصي سَكْران، والمُصِرُّ هالكٌ، والإصرار هو التسويفُ، والتسويفُ أن يقولَ: أتوبُ غداً. وهذا دعوى النفس، كيف يتوب غداً، وغداً لا يملِكه!.

وقال غيرُ سهل: الإصرارُ هو أن ينويَ ألَّا يتوبَ، فإذا نوى التوبةَ النصوح خرج عن الإصرار.

وقولُ سهلٍ أحسنُ. ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا توبة مع إصرار»[٢].

الثالثة: قال علماؤنا: الباعثُ على التَّوبة وحلِّ الإصرار: إدامةُ الفِكْر في كتاب الله العزيز الغفَّار، وما ذكره الله سبحانَه من تفاصيلِ الجنة، ووَعَدَ به المطِيعين، وما وصفَهُ من عذابِ النار، وتهدَّدَ به العاصِين، ودام على ذلك حتى قَوِيَ خوفُه ورجاؤُه، فدعا الله رَغَبا ورَهَباً؛ والرَّغْبَةُ والرّهبةُ ثمرةُ الخوفِ والرجاء، يخافُ من العِقاب، ويرجو الثوابَ، والله الموفق للصواب.

وقد قيل: إن الباعثَ على ذلك تنبيهٌ إلهِيٌّ؛ ينبِّه به من أراد سعادتَه؛ لِقُبْح الذنوبِ وضررِها، إذ هي سُمومٌ مُهْلِكَة[٣].

قلت: وهذا خلافٌ في اللفظ لا في المعنى، فإن الإنسانَ لا يتفكَّر في وعد الله ووعِيده إلا بتَنْبيهه؛ فإذا نظر العبدُ ـ بتوفيق الله تعالى ـ إلى نفسه، فوجدَها مشْحُونةً بذنوبٍ اكتَسبَها، وسيِّئاتٍ اقترفَها، وانبعثَ منه الندمُ على ما فرَّط، وتَركَ مثلَ ما سبق، مخافةَ عقوبةِ الله تعالى، صَدَق عليه أنه تائب، فإن لم يكن كذلك؛ كان مُصِرّاً على المعصية، وملازِماً لأسباب الهَلَكة.

---

(١) في (ظ): جبار، والبيت أنشده ابن عباس عندما سأله نافع بن الأزرق عن قوله تعالى: ﴿كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩] ذكره السيوطي في الدر ٤/ ٧٣ وعزاه للطستي، ورواية البيت عنده: مصر على الحنث لا تخفى شواكله...

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج الطبري ٦/ ٦٥١ عن ابن عباس أنه قال: لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار. وفي إسناده أبو حذيفة موسى بن مسعود النهدي، قال عنه الحافظ في التقريب: صدوق سيىء الحفظ.

(٣) المفهم ٧/ ٧٠.

قال سهل بن عبدالله: علامة التَّائب أنْ يَشغلَه الذَّنبُ عن[1] الطعام والشراب؛ كالثلاثة الذين خُلِّفوا[2].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فيه أقوال؛ فقيل: أي: يَذكرون ذنوبَهم، فيتوبون منها. قال النحاس[3]: وهذا قول حسن.

وقيل: «وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أني أعاقب على الإصرار.

وقال عبدالله بن عُبيد بن عُمير: «وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أنهم إن تابوا تاب الله عليهم[4].

وقيل: «يَعْلَمُونَ» أنهم إن استغفروا غفر لهم[5].

وقيل: «يَعْلَمُونَ» بما حرَّمتُ عليهم؛ قاله ابن إسحاق[6].

وقال ابن عباس والحسن ومقاتل والكلبي: «وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أن الإصرار ضارّ، وأنَّ تركَه خيرٌ من التَّمادي.

وقال الحسين[7] بن الفضل: «وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أن لهم ربّاً يغفر الذَّنب[8].

قلت: وهذا أخذه من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ فيما يَحكي عن ربِّه عزَّ وجلَّ قال: «أذنبَ عبدٌ ذنباً، فقال: اللّهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعَلِمَ أن له ربّاً يَغفِرُ الذَّنب، ويأخذ بالذَّنْب، ثم عاد فأذنبَ، فقال: أيْ ربِّ، اغفر لي ذنبي». فذكر مثلَه مرتين، وفي آخره: «اعمل ما شئتَ، فقد غفرتُ لك» أخرجه مسلم[9].

---

(١) في (د) و (م): على.

(٢) وهم كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، انظر خبرهم في مسند أحمد (١٥٧٨٦)، وصحيح البخاري (٤٤١٨)، وصحيح مسلم (٢٧٦٩).

(٣) في إعراب القرآن ١/ ٤٠٧ وما قبله منه.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٨٠.

(٥) تفسير البغوي ١/ ٣٥٣.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥١١، وأخرجه الطبري ٦/ ٦٩.

(٧) في (د) و (ظ) و (م): الحسن، وهو خطأ، وهو أبو علي البَجَلي، الكوفي، المفسِّر، اللغوي، المحدِّث، توفي سنة (٢٨٢ هـ). السير ١٣/ ٤١٤.

(٨) تفسير البغوي ١/ ٣٥٣، وما قبله منه.

(٩) برقم (٢٧٥٨): (٢٩)، وأخرجه أيضاً البخاري (٧٥٠٧)، وهو في مسند أحمد (١٠٣٧٩).

وفيه دليلٌ على صِحَّة التوبةِ بعد نَقْضِها بمُعاوَدة الذَّنْب؛ لأنَّ التوبةَ الأولى طاعةٌ، وقد انقضت وصحَّتْ، وهو محتاجٌ بعد مواقعةِ الذَّنْبِ الثاني إلى توبةٍ أخرى مستأنَفَة.

والعَوْدُ إلى الذَّنْب؛ وإن كان أقبَحَ من ابتدائه؛ لأنه انْضافَ إلى الذَّنب نَقْضُ التوبة، فالعودُ إلى التوبةِ أحسنُ من ابتدائها؛ لأنه انْضاف[1] إليها ملازمةُ الإِلْحَاح بباب الكريم، وأنه لا غافرَ للذُّنوب سواه.

وقولُه في آخرِ الحديث: «اعملْ ما شئت»؛ أمرٌ معناه الإكرامُ في أحد الأقوال؛ فيكون من باب قوله: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [الحجر: ٤٦]. وآخرُ الكلام خَبرٌ عن حال المخاطَبِ بأنه مغفورٌ له ما سلَفَ من ذنبه، ومحفوظٌ إن شاء الله تعالى فيما يستقبل من شأنه[2].

ودلّتِ الآيةُ والحديثُ على عظيم فائدةِ الاعترافِ بالذنب، والاستغفار منه، قال ﷺ: «إنَّ العبد إذا اعترفَ بذنبه، ثم تاب إلى الله، تاب الله عليه». أخرجاه في الصحيحين[3].

وقال:

يستوجبُ العفوَ الفتى إذا اعتَرفْ ... بما جَنَى من الذنوب واقترفْ[4]

وقال آخر:

أقرِرْ بذنبك ثم اطلُبْ تَجاوُزَه ... إن الجُحُودَ جُحُودَ الذَّنْب ذنبان[5]

وفي صحيح مسلم[6] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو لم تُذْنِبوا، لذهب الله بكم، ولَجَاء بقوم يُذنبون، فيستغفرون، فيغفر لهم».

---

(١) في (د) و (م): أضاف، في الموضعين.

(٢) المفهم ٧/ ٨٦ .

(٣) صحيح البخاري (٢٦٦١)، وصحيح مسلم (٢٧٧٠) (٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك، وهو في مسند أحمد (٢٥٦٢٣).

(٤) نسبه المصنف في تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنفال لأبي سعيد أحمد بن محمد الزبيري، وهو دون نسبة في قرى الضيف ١/ ٣٦٨ وروايته فيه: وتاب مما قد جناه واقترف.

(٥) البيت في الأغاني ١٣/ ١١٥ دون نسبة.

(٦) برقم (٢٧٤٩): (١١)، وهو في مسند أحمد (٨٠٨٢).

وهذه فائدة اسم الله تعالى الغفَّار والتوَّاب، على ما بيّناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[١].

الخامسة: الذنوب التي يُتاب منها إمَّا كُفرٌ أو غيرُه، فتوبةُ الكافر إيمانُه مع ندمِه على ما سلفَ من كفره، وليس مجردُ الإيمانِ نفسَ توبةٍ. وغيرُ الكفْر إمَّا حقٌّ لله تعالى، وإمَّا حقٌّ لغيره، فحقُّ الله تعالى يكفي في التوبة منه التَّركُ؛ غيرَ أن منها ما لم يَكْتفِ الشرعُ فيها بمجرَّد الترك، بل أضافَ إلى ذلك في بعضها قضاءً، كالصلاة والصوم، ومنها ما أضاف إليها كفارةً؛ كالحِنْث في الأَيْمان والظِّهار وغيرِ ذلك، وأمَّا حقوقُ الآدميِّيْنَ فلابدَّ من إيصالها إلى مستحقيها[٢]، فإن لم يوجَدوا تُصُدِّقَ عنهم، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعسارٍ؛ فعفو الله مأمولٌ، وفضلُه مبذولٌ، فكم ضَمِنَ من التَّبِعاتِ، وبدَّل من السيِّئات بالحسنات[٣]. وستأتي زيادةُ بيانٍ لهذا المعنى[٤].

السادسة: ليسَ على الإنسان إذا لم يذكُرْ ذَنْبه ويعلَمْه أن يتوبَ منه بعينه، ولكن يعتقد[٥] إذا ذكر ذنباً تاب منه[٦].

وقد تأوَّل كثيرٌ من الناس ـ فيما ذكر شيخُنا أبو محمد عبدُ المعطي الإسكندرانيُّ[٧] ﷺ ـ أن الإمام المحاسبيَّ رحمه الله يرى أن التوبةَ من أجناس المعاصي لا تصحُّ، وأن الندمَ على جملتها لا يكفي، بل لابدَّ أن يتوبَ من كل فعلٍ

---

(١) لم نقف عليه في المطبوع منه.

(٢) في النسخ: مستحقها، والمثبت من (م).

(٣) المفهم ٧/ ٧١ .

(٤) في الآية (٧٠) من سورة الفرقان.

(٥) في (م): يلزم.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٧ وفيه: ولكن يعتقد أنه كلما ذكر...

(٧) ابن أبي الثناء محمود بن عبد المعطي، اللخمي، المالكي، الضرير، كان مشهوراً بالزهد والصلاح، وله معرفة بأصول الدين ومذهب مالك، صنّف شرح الرعاية للمحاسبي، وشرح الرسالة القشيرية، توفي بمكة سنة (٦٣٨ هـ). التكملة لوفيات النقلة للمنذري ٣/ ٥٦٦ ، والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسي ٥/ ٤٩٧ .

بجارحته، وكلِّ عَقْدٍ بقلبه على التعيين. ظنُّوا ذلك من قوله، وليس هذا مرادَه، ولا يقتضيه كلامُه، بل حُكْمُ المكلَّفِ إذا عرَف حُكْم أفعالِه، وعرَفَ المعصيةَ من غيرها، صحَّتْ منه التوبةُ من جملةِ ما عرف؛ فإنه إن لم يعرفْ كونَ فعلِه الماضي معصيةً؛ لا يمكنه أن يتوبَ منه، لا على الجملة ولا على التفصيل.

ومثالُه رجلٌ كان يتعاطى باباً[1] من أبواب الرّبا، ولا يعرفُ أنه رِباً، فإذا سمع كلام الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩]، عَظُمَ عليه هذا التهديدُ، وظنَّ أنه سالمٌ من الرِّبا، فإذا عَلِمَ حقيقةَ الرِّبا الآن، ثم تفكَّر فيما مضى من أيامه، وعلم أنه لابَسَ منه شيئاً كثيراً في أوقات متقدِّمة، صحَّ أن يندَمَ عليه الآن جُملةً، ولا يلزمُه تعيينُ أوقاته.

وهكذا كلُّ ما واقعَ من الذنوب والسيئات، كالغيبة والنَّميمة، وغيرِ ذلك من المحرَّماتِ التي لم يعرِفْ كونَها مُحرَّمةً، فإذا فَقُهَ العبدُ وتفقَّد ما مضى من كلامه، تاب من ذلك جملةً، ونَدِم على ما فرَّط فيه من حق الله تعالى، وإذا استحلَّ مَن كان ظلَمه، فحالَلَهُ على الجملة، وطابتْ نفسُه بترك حقِّه، جاز؛ لأنه من باب هبةِ المجهول[2]، هذا مع شُحِّ العبد، وحرصِه على طلب حقِّه، فكيف بأكرمِ الأكرَمِين، المتفضِّلِ بالطاعات وأسبابِها، والعفوِ عن المعاصي صغارِها وكبارِها.

قال شيخنا رحمه الله تعالى: هذا مرادُ الإمام، والذي يدلُّ عليه كلامُه لمن تفقَّده، وما ظنَّهُ به الظانُّ من أنه لا يصحُّ الندمُ إلا على فِعلٍ فِعلٍ، وحركةٍ حركةٍ، وسكَنَةٍ سكَنَةٍ على التعيين، هو من باب تكْليف ما لا يُطاق، الذي لم يقع شرعاً وإن جاز عقلاً، ويلزم عنه أن يعرِفَ كم جرعةً جرعها في شربِ الخمر، وكم حركةً تحرَّكَها في الزنا، وكم خَطْوةً مَشاها إلى مُحرَّم، وهذا ما لا يطيقُه أحدٌ، ولا تتأتَّى منه توبةٌ على التفصيل.

وسيأتي لهذا الباب مزيدُ بيان من أحكام التوبة وشروطِها في «النساء» وغيرها إن

---

(١) في النسخ: أبواباً، والمثبت من (م).

(٢) في (د): لأنه باب من جهة المجهول.

شاء الله تعالى[١].

السابعة: في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ حُجَّةٌ واضحةٌ، ودلالةٌ قاطعةٌ لِمَا قاله سيفُ السنة، ولسانُ الأمة القاضي أبو بكر بن الطيب: إن الإنسان يؤاخَذُ بما وطَّنَ عليه بضميره، وعزَمَ عليه بقلبه من المعصية[٢].

قلت: وفي التنزيل: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وقال: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ٢٠]. فعوقبُوا قبلَ فِعْلهم بعزمهم. وسيأتي بيانُه.

وفي البخاري[٣]: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما[٤]، فالقاتلُ والمقتول في النار»، قالوا: يا رسولَ الله، هذا القاتلُ، فما بالُ المقتولِ؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبِه». فعلَّق الوعيدَ على الحرص، وهو العزمُ، وألغى إظهارَ السِّلاح.

وأنَصُّ من هذا ما خرَّجه الترمذيُّ[٥] من حديث أبي كبشةَ الأنماري، وصحّحه مرفوعاً: «إنما الدنيا لأربعةِ نفرٍ: رجل أعطاه الله مالاً وعِلْماً، فهو يتَّقي فيه ربَّه، ويصِلُ فيه رَحِمَه، ويعلم لله فيه حقّاً، فهذا بأفضلِ المنازل. ورجل آتاه الله علماً ولم يؤتِه مالاً، فهو [صادقُ النيَّة] يقول: لو أنَّ لي مالاً لعملتُ فيه بعمل فلان، فهو نيَّتُه، فأجرهما سواءٌ. ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته عِلماً، فهو [يخبِطُ في ماله بغير علم]، لا يتَّقي فيه ربَّه، ولا يصِلُ به رَحِمَه ولا يعلمُ لله فيه حقّاً، فهذا بأخبثِ المنازل. ورجل لم يؤتِه الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعمِلْتُ فيه بعمل فلانٍ، فهو نيتُه، فوِزرُهما سواء».

وهذا الذي صارَ إليه القاضي هو الذي عليه عامَّةُ السَّلَفِ، وأهلُ العلم من الفقهاء والمحدِّثين والمتكلِّمين، ولا يُلتَفتُ إلى خلافِ مَنْ زعَمَ أنَّ ما يَهُمُّ الإنسانُ به وإن وَطَّن [نفسَه] عليه لا يؤاخَذُ به[٦].

---

(١) في تفسير الآيتين (١٧-١٨) من سورة النساء، وتفسير الآية (٨٢) من سورة طه.

(٢) انظر المفهم ١/ ٣٤٠.

(٣) برقم (٣١) من حديث أبي بكرة ﷺ. وأخرجه أيضاً مسلم (٢٨٨٨)، وهو في مسند أحمد (٢٠٤٣٩).

(٤) في (خ) و (م): بسيفهما.

(٥) في سننه برقم (٢٣٢٥) وما سيرد بين حاصرتين منه، وهو في مسند أحمد (١٨٠٣١).

(٦) المفهم ١/ ٣٤١ وما بين حاصرتين منه.

ولا حجَّةَ له في قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ هَمَّ بسيِّئةٍ، فلم يعملْها، لم تُكتَبْ عليه، فإنْ عَمِلَها، كُتبتْ سيِّئةً واحدة»[1]؛ لأن معنى «فلم يعملها»: فلم يعزِمْ على عملها بدليلِ ما ذكرنا، ومعنى «فإن عمِلَها»؛ أي: أظهرَها، أو عزم عليها، بدليل ما وصفنا. وبالله توفيقُنا.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾

رَتَّبَ تعالى بفضله وكرمه غُفرانَ الذُّنوب لمن أخلَصَ في توبتِه، ولم يُصِرَّ على ذنبه. ويمكنُ أن يتَّصلَ هذا بقصَّة أُحُد، أي: من فرَّ ثم تاب ولم يُصِرَّ، فله مغفرةٌ الله.

قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾

هذا تسليةٌ من الله تعالى للمؤمنين، والسُّنَنُ جمع سُنَّة، وهي الطريقُ المستقيم، وفلانٌ على السنَّة؛ أي: على طريق الاسْتِوَاء، لا يَميل إلى شيء من الأهْواء[2]، قال الهُذَلِيُّ[3]:

فلا تَجْزَعَنْ من سُنَّةٍ أنت سِرْتَها فأوَّلُ راضٍ سُنَّةً مَن يَسيرُها

والسنَّة: الإمامُ المتَّبَعُ المؤتَمُّ به، يقال: سَنَّ فلانٌ سنَّةً حسنةً وسيئةً: إذا عَمِلَ عملاً اقتُدِيَ به فيه من خيرٍ أو شر[4]، قال لَبيد:

من مَعشرٍ سَنَّتْ لهم آباؤهم ولكلِّ قومٍ سُنَّةٌ وإمامُها[5]

والسنَّةُ: الأمَّةُ، والسُّنَنُ: الأُمَمُ؛ عن المفضل. وأنشد:

---

(١) أخرجه أحمد (٧١٩٦)، ومسلم (١٢٨) و(١٣٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٧.

(٣) هو خالد بن زهير الهذلي، والبيت في شرح أشعار الهذليين ص٢١٣، والأغاني ٦/ ٢٧٧، ومجمع الأمثال ٢/ ٢٤٨، والمحرر الوجيز ١/ ٥١١.

(٤) تفسير الطبري ٦/ ٧٣، وتفسير البغوي ١/ ٣٥٤.

(٥) ديوان لبيد ص ٣٢٠، وتفسير الطبري ٦/ ٧٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥١١، والنكت والعيون ١/ ٤٢٥.

ما عايَنَ الناسُ من فَضْلٍ كفضلِهِمُ ولا رَأوا مِثلَهم في سالِفِ السُّنَنِ[١]

وقال الزجاج[٢]: والمعنى: أهل سنن، فحذف المضاف.

وقال ابن زيد[٣]: أمثال. عطاء: شرائع. مجاهد: المعنى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ يعني بالهلاك فيمن كذَّب قبلَكم، كعادٍ وثمودَ.

والعاقبةُ: آخرُ الأمر، وهذا في يوم أُحُد. يقول: فأنا أُمهِلُهم، وأُمْلي لهم، وأستَدْرِجُهم حتى يبلُغَ الكتابُ أجلَه، يعني بنصرةِ النبيِّ ﷺ والمؤمنين، وهلاكِ أعدائهم الكافرين[٤].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

يعني القرآنَ، عن الحسن وغيره. وقيل: هذا إشارةٌ إلى قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾[٥].

والموعظةُ: الوَعْظُ. وقد تقدَّم[٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

عزَّاهم وسَلَّاهم بما نالَهم يوم أُحُد من القتل والجراح، وحثَّهم على قتال عدوِّهم، ونهاهم عن العجز والفشل، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أي: لا تضعُفُوا، ولا تجبُنوا يا أصحابَ محمدٍ عن جهادِ أعدائِكم لِمَا أصابكم. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ظُهورهم، ولا على ما أَصابكم من الهَزيمةِ والمُصيبة، فأَنْتُم الأَعْلَوْنَ، أي: لكم تكون العاقبةُ بالنَّصر والظَّفَر ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: بصِدْق وَعْدِي. وقيل: «إنْ» بمعنى «إذ»[٧].

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٥٤ ، وما قبله منه دون نسبة إلى المفضل.

(٢) في معاني القرآن له ١/ ٤٧٠ .

(٣) في النسخ: أبو زيد، والمثبت من تفسير الطبري ٦/ ٧٣ .

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٥٤ ، وعنه نقل المصنف كلام عطاء ومجاهد .

(٥) النكت والعيون ١/ ٤٢٦ ، والمحرر الوجيز ١/ ٥١٢، وأخرج القولين الطبري ٦/ ٧٤ - ٧٥ .

(٦) ٤/ ٣٩٧ .

(٧) انظر تفسير الطبري ١/ ٧٦ - ٧٧ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٥٥ .

قال ابن عباس: انهزمَ أصحابُ رسول الله ﷺ يومَ أُحُد، فَبَيْنا هم كذلك إذ أقبلَ خالدُ بن الوليد بخيلٍ من المشركين يريدُ أن يَعلُوَ عليهم الجبلَ، فقال النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ لا يَعْلُنَّ علينا، اللهمَّ لا قوةَ لنا إلا بك، اللهمَّ ليس يعبدُك بهذه البلدة غيرُ هؤلاء النَّفر». فأنزل اللهُ هذه الآياتِ، وثابَ نَفَرٌ من المسلمين رُماةٌ، فصَعِدُوا الجبلَ، ورَمَوْا خيلَ المشركين حتى هزمُوهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾[1] يعني: الغالبين على الأعداء بعد أُحد. فلم يُخرِجوا بعد ذلك عسكراً إلّا ظَفِروا في كلِّ عسكر كان في عهدِ رسول الله ﷺ، وفي كلِّ عسكر كان بعدَ رسول الله ﷺ، وكان فيه واحدٌ من الصحابة، كان الظَّفَرُ لهم، وهذه البلدانُ كلُّها إنما افْتُتِحَتْ على عهد أصحاب رسول الله ﷺ، ثم بعد انقراضِهم ما افتُتِحتْ بلدةٌ على الوجه كما كانوا يفتتحون في ذلك الوقت.

وفي هذه الآيةِ بيانُ فضلِ هذه الأمة؛ لأنه خاطَبهم بما خاطَبَ به أنبياءه؛ لأنه قال لموسى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه:٦٨]، وقال لهذه الأمة: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾. وهذه اللَّفظةُ مشتقةٌ من اسمه الأعلى، فهو سبحانه العَليّ، وقال للمؤمنين: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ القَرْح: الجُرح. والضمُّ والفتح فيه لغتان عن الكسائيّ والأخفش[3]، مثل فَقْر وفُقْر[4]. الفرّاء: هو بالفتح: الجُرْح، وبالضم:

(١) أسباب النزول للواحدي ص١٢٠، وأخرجه الطبري ٦/ ٧٩ مختصراً، وأخرجه بتمامه ٦/ ٧٨ لكن من قول ابن جريج.

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٣٠١.

(٣) وقد قرأ بضم القاف أبو بكر وحمزة والكسائي، كما في السبعة ص٢١٦، والتيسير ص٩٠.

(٤) في (خ) و (د): قفر وقفر، وفي (ظ): نقر وفقر، وفي (م): غَفْر وغُفْر: والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٨. قال في مختار الصحاح: الفُقر بالضم لغة في الفقر، كالضُّعف والضَّعف.

أَلَمُه[١].

والمعنى: إن يَمسَسْكُم يومَ أُحد قَرْحٌ فقد مَسَّ القومَ يومَ بدر قَرْحٌ مثلُه.

وقرأ محمد بنُ السَّمَيْفَع: «قَرَح» بفتح القاف والراء على المصدر[٢].

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ قيل: هذا في الحرب، تكون مرةً للمؤمنين لِينصُرَ الله عزَّ وجلَّ دينَه، ومرةً للكافرين إذا عصَى المؤمنون، لِيبتليَهم ويُمَحِّصَ ذنوبَهم، فأما إذا لم يَعْصُوا؛ فإنّ حزبَ الله هم الغالبون. وقيل: «نُدَاوِلُها بين النّاس» من فَرَحٍ وَغَمٍّ، وصحّةٍ وسُقْم، وغِنًى وفَقْر[٣]. والدَّولَةُ: الكَرَّة، قال الشاعر:

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ويومٌ نُساءُ ويومٌ نُسَرّ[٤]

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ معناه: وإنما كانت هذه المُداولةُ لِيرى المؤمنَ مِنَ المنافق، فَيميزَ بعضَهم من بعض[٥]، كما قال: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٧]. وقيل: لِيعلمَ صبر المؤمنين، العلمَ الذي يقع عليه الجَزاءُ كما عَلِمَه غَيْباً قبل أن كَلَّفَهم[٦]. وقد تقدم[٧] في «البقرة» هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي: يُكرِمَكم بالشهادة؛ أي: لِيُقتلَ

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٤ ، ومعاني القرآن للأخفش ١/ ٤٢١ ، والمحرر الوجيز ١/ ٥١١ .

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥١٣ و ٥١٤ ، وقراءة ابن السَّميفع ذكرها ابن جني في المحتسب ١/ ١٦٦ ، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٢ لأبي السمّال.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٨ ، ومعاني القرآن له ١/ ٤٨١ .

(٤) وقع في النسخ: فيوم لنا ويوم علينا، وهو خطأ رواية ووزناً، والبيت للنَّمِر بن تَوْلب، وهو في (شعراء إسلاميون) ص٣٤٧ ، وأورده سيبويه في الكتاب ١/ ٨٦ .

(٥) انظر تفسير البغوي ١/ ٣٥٦ .

(٦) انظر معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٨١ .

(٧) ٢/ ٤٣٧ - ٤٣٨ .

قومٌ فيكونوا[(١)] شهداءَ على الناس بأعمالهم. وقيل: لهذا قيل: شهيد: وقيل: سُمِّي شهيداً لأنه مشهودٌ له بالجنة[(٢)]. وقيل: سُمِّي شهيداً لأن أرواحَهم احتضرتْ[(٣)] دارَ السلام؛ لأنهم أحياءٌ عند ربِّهم، وأرواحُ غيرهم لا تصل إلى الجنة[(٤)]، فالشهيد بمعنى الشاهد، أي: الحاضر للجنة، وهذا هو الصحيح على ما يأتي، والشهادةُ فَضْلُها عظيم، ويَكفيك في فَضْلها قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١] الآية، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠-١٢].

وفي «صحيح» البُسْتيّ[(٥)]: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يَجِد الشهيدُ مَسَّ[(٦)] القتل إلا كما يَجِدُ أحدُكم مسَّ القَرْصة»[(٧)].

وروى النسائي عن راشد بن سعد، عن رجل من أصحاب النبيِّ ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يُفتنون في قبورهم إلا الشهيدَ؟ قال: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنةً»[(٨)].

وفي البخاري: مَنْ قُتلَ من المسلمين يومَ أُحد؛ منهم حمزةُ، واليَمان، والنَّضر[(٩)] بن أنس، ومصعب بن عُمير. حدثني عمرو بن علي حدثنا[(١٠)] معاذ بن

(١) في النسخ: فيكونون، والمثبت من (م).
(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٨.
(٣) في (خ) و (ظ): أحضرت.
(٤) ذكره الرازي في تفسيره ٩/ ١٧ بنحوه، ونسبه للنَّضر بن شُميل.
(٥) هو ابن حبان، والحديث في صحيحه برقم (٤٦٥٥)، ومسند أحمد (٧٩٥٣).
(٦) في (د) و (م) في الموضعين: «من»، والمثبت من (ظ) (خ) وهو موافق لما في صحيح ابن حبان.
(٧) في (د) و (م): «القرحة»، والمثبت من (ظ) (خ)، وهو موافق لما في صحيح ابن حبان.
(٨) السنن الكبرى (٢١٩١).
(٩) كذا في النسخ غير (ظ): النضر بن أنس، قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٧/ ٣٧٥: كذا وقع لأبي ذر (أحد رواة صحيح البخاري) عن شيوخه، وكذا وقع عند النسفي، وهو خطأ، والصواب: أنس بن النضر.. فأما النضر بن أنس فهو ولده، وكان إذ ذاك صغيراً، وعاش بعد ذلك زماناً. اهـ. ووقع في (ظ): النضر بن شميل، وهو تحريف. وسيذكر المصنف قصة استشهاد أنس بن النضر في تفسير الآية (١٤٣) من هذه السورة.
(١٠) في (د) و (م): أن، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق لما في صحيح البخاري.

هشام قال: حدثني أبي عن قتادة قال: ما نَعلَمُ حيّاً من أحياء العرب أكثَرَ شهيداً أعزَّ[١] يوم القيامة من الأنصار. قال قتادة: وحدثنا أنس بنُ مالك أنه قُتل منهم يوم أُحد سبعون، ويوم بِئْر مَعُونَةَ سبعون، ويوم اليَمامَةِ سبعون. قال: وكان بئر معونةَ على عهد النبي ﷺ، ويومُ اليَمامةِ على عهد أبي بكر يومَ مُسَيْلِمة الكذّاب[٢].

وقال أنس: أُتِيَ النبيُّ ﷺ بعليٍّ بن أبي طالب، وبه نَيِّفٌ وسِتون جِراحةً من طَعْنَةٍ وضَرْبَةٍ ورَمْيَة، فجعلَ النبيُّ ﷺ يمسحُها وهي تَلْتَئم بإذن الله تعالى كأنْ لم تكن[٣].

الثانية: في قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ دليلٌ على أن الإرادةَ غيرُ الأمر كما يقوله أهلُ السنة، فإنّ الله تعالى نهى الكفارَ عن قتل المؤمنين؛ حمزةَ وأصحابِه، وأراد قَتْلَهم، ونهى آدمَ عن أكل الشجرة وأراده، فَواقَعَه آدمُ. وعكسُه أنه أمرَ إبليسَ بالسجود ولم يُرِدْه[٤]، فامتنع منه، وعنه وقعت الإشارةُ بقوله الحقّ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]. وإنْ كان قد أمرَ جميعَهم بالجهاد، ولكنه خلَق الكَسَل والأسبابَ القاطعةَ عن المسِير، فقعدوا.

الثالثة: رُوِيَ عن عليٍّ بن أبي طالب ﷺ قال: جاء جبريلُ إلى النبي ﷺ يومَ بدر فقال له: «خَيِّرْ أصحابَك في الأُسارى؛ إنْ شاؤوا القتلَ، وإن شاؤوا الفِداءَ، على أن يُقتَل منهم العام[٥] المُقبِل مِثْلُهم، فقالوا: الفِداء، ويُقتَل منّا». أخرجه الترمذي[٦]، وقال: حديث حسن. فأنجزَ الله وَعْدَه بشهادة أوليائه بعد أن خَيَّرَهم، فاختاروا القتلَ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المشركين، أي: وإن أنالَ الكفارَ من المؤمنين، فهو لا يُحِبُّهم، وإن أحلَّ ألَماً بالمؤمنين؛ فإنه يُحِبُّ المؤمنين.

---

(١) في مطبوع البخاري: أغر، قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٧/ ٣٧٥: كذا للكشميهني، بغين معجمة وراء، ولغيره بالمهملة و الزاي.

(٢) صحيح البخاري (٤٠٧٨).

(٣) أورد نحوه الطبرسي في مجمع البيان ٢/ ٢٢٠ عن أبي جعفر الباقر ﷺ.

(٤) في النسخ: ولم يرد، والمثبت من (م).

(٥) في (خ) و (د) و (م): عام.

(٦) في السنن (١٥٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾

فيه ثلاثةُ أقوال:

يُمَحِّص: يختبر.

الثاني: يُطَهِّر، أي: من ذنوبهم، فهو على حذف مضاف. المعنى: ولِيُمَحِّصَ الله ذنوبَ الذين آمنوا، قاله الفرّاء(١).

الثالث: يُمَحِّص: يُخَلِّص، فهذا أغْرَبُها(٢).

قال الخليل: يقال: مَحِصَ الحبلُ يَمْحَص مَحْصاً: إذا انقطع وَبَرُه، ومنه: اللّهم مَحِّصْ عنَّا ذنوبَنا، أي: خَلِّصْنا من عقوبتها.

وقال أبو إسحاق الزَّجَّاج(٣): قرأتُ على محمد بن يزيد، عن الخليل: التمحيص(٤): التخليص. يقال: مَحَصَه يَمْحَصُه مَحْصاً: إذا خلَّصه، فالمعنى عليه: ليبتليَ المؤمنين، لِيُثيبَهم ويُخَلِّصَهم من ذنوبهم. ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يستأصلَهم بالهلاك.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

«أم» بمعنى بل. وقيل: الميم زائدة، والمعنى: أَحَسِبتُم يا مَنْ انهزمَ يومَ أُحد أن تدخلوا الجنةَ كما دخل الذين قُتلوا وصبروا على أَلَم الجِراح والقتل من غير أن تَسْلُكوا طريقَهم وتصبِروا صبرَهم؟ لا، حتى ﴿يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ أي: عِلْمَ شهادة حتى يقعَ عليه الجزاء.

والمعنى: ولم تُجاهدوا فيعلمَ ذلك منكم؛ فـ«لما» بمعنى «لم».

---

(١) انظر معاني القرآن له ١/ ٢٣٥.

(٢) في إعراب القرآن للنحاس ١/٤٠٨ -٤٠٩ (والكلام منه): وهذا أعرفها.

(٣) في معاني القرآن ١/ ٤٧٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ١/ ٤٨٣ - ٤٨٤.

(٤) في معاني القرآن للزجاج: المَحْص.

وفرَّق سيبويه بين «لم» و«لما»[١]، فزعمَ أن «لم يفعلْ» نَفْي فَعَل، وأن «لَمّا يفعلْ» نَفْي قد فَعَل.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ منصوب بإضمار أنْ، عن الخليل. وقرأ الحسن ويحيى بن يَعْمَر: «يَعْلَمِ الصَّابرين» بالجزم على النَّسق[٢]. وقُرئ بالرفع على القطع، أي: وهو يعلم. ورَوَى هذه القراءةَ عبدُ الوارث عن أبي عمرو[٣]. وقال الزَّجَّاج[٤]: الواو هنا بمعنى «حتى»، أي: ولمَّا يعلمِ الله الذين جاهدوا منكم حتى يعلمَ صبرَهم، كما تقدَّم آنفاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: الشهادةَ من قبل أن تَلْقَوه. وقرأ الأعمش: «مِنْ قبلِ أنْ تُلاقُوهُ»[٥] أي: من قبل القتل. وقيل: من قبل أن تَلْقَوا أسبابَ الموت؛ وذلك أن كثيراً ممن لم يحضر[٦] بدراً كانوا يَتَمنَّون يوماً يكون فيه قِتال، فلما كان يومُ أُحُد انهزموا، وكان منهم مَن تجلَّد حتى قُتل[٧]، ومنهم أنس بن النَّضْر عمُّ أنس بن مالك، فإنه قال لما انكشفَ المسلمون: اللهم إني أبرأُ إليك مما جاء به هؤلاء، وباشرَ القتال وقال: إيهاً، إنها ريح الجنة! إني لأَجدُها. ومضى حتى استُشهد. قال أنس: فما عَرَفناه إلا بِبَنَانه، ووجدنا فيه بِضعاً وثمانين جِراحة. وفيه وفي

---

(١) انظر الكتاب ٤/ ٢٢٠ و ٢٢٣ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٩ . ونقل المصنف عنه قول سيبويه السالف. وقراءة الحسن أوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٢ .

(٣) القراءات الشاذة ص٢٢ .

(٤) ينظر معاني القرآن له ١/ ٤٧٢ .

(٥) لم نقف على من نسب هذه القراءة للأعمش غير المصنف، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٢ ليحيى وإبراهيم والزهري، ونسبها ابن جني في المحتسب ١/ ١٦٧ لإبراهيم وحده .

(٦) في (م): يحضروا.

(٧) انظر تفسير الطبري ٦/ ٩٣ .

أمثاله نزل: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾[١] [الأحزاب:٢٣].

فالآية عِتابٌ في حقِّ من انهزمَ، لاسيَّما وكان منهم حَمْلٌ للنبيِّ ﷺ على الخروج من المدينة، وسيأتي.

وتَمنِّي الموتِ يرجِعُ من المسلمين إلى تَمنِّي الشهادة المبنيَّة على الثَّبات والصَّبر على الجهاد، لا إلى قتل الكفار لهم[٢]؛ لأنه معصيةٌ وكفرٌ، ولا يجوزُ إرادةُ المعصية، وعلى هذا يُحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقَهم الشهادةَ، فيسألون الصبر على الجهاد، وإن أدَّى إلى القتل.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ قال الأخفش[٣]: هو تكريرٌ بمعنى التأكيد لقوله: «فقد رَأَيْتُمُوهُ»، مثل: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام:٣٨]. وقيل: معناه: وأنتم بُصَرَاءُ ليس في أعينكم عِلَلٌ، كما تقول: قد رأيتَ كذا وكذا، وليس في عينيك عِلّة[٤]، أي: فقد رأيته رؤية حقيقة، وهذا راجعٌ إلى معنى التوكيد. وقال بعضهم: «وأنتم تنظرون» إلى محمد ﷺ. وفي الآية إضمارٌ، أي: فقد رأيتموه وأنتم تنظرون، فلِمَ انهزمتم[٥]؟.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: رُوِيَ أنه نزلت بسبب انهزام المسلمين يومَ أُحُد حين صاح الشيطان: قد

(١) أخرجه أحمد (١٣٠١٥)، والبخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣) بنحوه. وقوله: إيهاً، لم يرد في (د) و(ظ)، وعند أحمد والبخاري ومسلم: واهاً، وهي كلمة تحنُّن وتَلَهُّف ينظر شرح النووي على مسلم ١٣/ ٤٨.

(٢) لفظة: لهم، ليست في (ظ).

(٣) انظر معاني القرآن له ١/ ٤٢١-٤٢٢.

(٤) في (ظ): وجع.

(٥) انظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٧٣، وزاد المسير ١/ ٤٦٨ - ٤٦٩.

قُتل محمد(١).

قال عطية العَوْفي: فقال بعض الناس: قد أُصيبَ محمد فأعطوهم بأيديكم، فإنما هم إخوانكم. وقال بعضهم: إن كان محمدٌ قد أُصيب؛ ألا تَمْضُون على ما مضَى عليه نبيُّكم حتى تلحقوا به؟ فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ إلى قوله: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾(٢).

وما نافية، وما بعدها ابتداءٌ وخبر، وبطَل عمل «ما».

وقرأ ابن عباس: «قد خَلَتْ مِن قبله رُسُلٌ» بغير ألف ولام(٣). فأَعْلَمَ الله تعالى في هذه الآية أن الرسل ليست بباقيةٍ في قومها أبداً، وأنه يجب التمسُّكُ بما أَتَتْ به الرُّسل؛ وإن فُقِد الرسول بموتٍ أو قتلٍ.

وأكرمَ نبيَّه ﷺ وصفيَّه باسمَيْن مشتقَّيْن من اسمه: محمد وأحمد(٤)، تقول العرب: رجل مَحْمُودٌ ومُحَمَّد: إذا كثُرت خِصاله المَحْمودة، قال الشاعر:

إلى الماجِدِ القَرْمِ الجَوَادِ المحَمَّدِ

وقد مضى هذا في الفاتحة(٥).

وقال عباس بن مِرْداس:

يا خاتَمَ النُّبَآءِ إنَّك مُرْسَلٌ ... بالحقّ(٦) كلُّ هُدَى السَّبيلِ هُداكا

إن الإلهَ بَنَى عليك مَحبَّةً ... في خَلْقِه ومُحَمّداً سَمَّاكا(٧)

---

(١) أخرجه الطبري ٦/ ١٠٣ من قول الضحاك بنحوه، و ٦/ ١١٦ من قول ابن زيد، وسيأتي ص٣٦٤ من هذا الجزء ضمن حديث طويل لابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص١٢٠ .

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٩ ، وذكر القراءة ابن جني في المحتسب ١/ ١٦٨ ، ونسبها لحِطَّان ابن عبدالله، وقال: وكذلك هي في مصحف ابن مسعود.

(٤) انظر تفسير البغوي ١/ ٣٥٨ .

(٥) ١/ ٢٠٥ ، والشاعر هو الأعشى ميمون بن قيس.

(٦) في (م) : بالخير.

(٧) ذكر هذين البيتين السُّهيلي في الروض الأنف ٤/ ١٣١ ، ضمن قصيدة قالها عبَّاس بن مِرْداس ﷺ يوم حنين.

فهذه الآيةُ من تَتِمَّة العِتاب مع المُنهزمين، أي: لم يكن لهم الانهزام وإن قُتلَ محمدٌ، والنبوَّة لا تَدْرَأُ الموتَ، والأديانُ لا تزول بموت الأنبياء. والله أعلم.

الثانية: هذه الآية أدلُّ دليلٍ على شجاعة الصدِّيق وجَرَاءَتِه[١]، فإن الشجاعة الجُرأة، وحدُّها[٢] ثُبوتُ القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبةَ أعظم من موت النبيّ ﷺ - كما تقدَّم بيانُه في «البقرة»[٣] - فظهرتْ عنده شجاعتُه وعلمُه؛ قال الناس: لم يَمُتْ رسول الله ﷺ، منهم عمر، وخَرِسَ عثمان، واستخفى عليٌّ، واضطرب الأمر، فكشَفَه الصدِّيق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسُّنْح، الحديث. كذا في البخاري[٤].

وفي «سنن» ابن ماجه عن عائشة قالت: لما قُبض رسولُ الله ﷺ وأبو بكر عند امرأته ابنةِ خارجةَ بالعَوَالي، فجعلوا يقولون: لم يَمُتِ النبيُّ ﷺ، إنما هو بعضُ ما كان يأخذُه عند الوَحْي، فجاء أبو بكر، فكشفَ عن وجهه، وقَبَّلَ بين عينيه، وقال: أنتَ أكرمُ على الله من أن يُميتَك مرتين، قد - واللهِ - مات رسولُ الله ﷺ. وعمرُ في ناحية المسجد[٥] يقول: واللهِ ما ماتَ رسولُ الله ﷺ، ولا يموت حتى يقطعَ أيديَ أُناس من المنافقين كثيرٍ وأرجلَهم. فقام أبو بكر، فَصَعِدَ المنبرَ فقال: مَنْ كان يعبدُ الله؛ فإنَّ الله حيٌّ لم يمتْ، ومَن كان يعبدُ محمداً؛ فإنَّ محمداً قد مات، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾. قال عمر: فَلَكَأَنِّي[٦] لم أقرأْها إلا يومئذ[٧].

---

(١) في (خ): وجرأته، وهما بمعنى.

(٢) في (د) و (خ): حدها، وفي (م): فإن الشجاعة والجرأة حدهما...، والمثبت من (ظ).

(٣) ٢/٤٦٦ - ٤٦٧ .

(٤) صحيح البخاري (١٢٤١) و (١٢٤٢)، وهو من حديث عائشة رضي الله عنها، وانظر مسند أحمد (٢٥٨٤١) وقوله: بالسُّنْح؛ قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٣/ ١١٥ : هي منازل بني الحارث بن الخزرج، وكان أبو بكر متزوجاً فيهم.

(٥) قوله: المسجد، ليس في النسخ، وأثبتناه من (م) وسنن ابن ماجه.

(٦) في النسخ الخطية، فكأني، والمثبت من (م) وسنن ابن ماجه.

(٧) سنن ابن ماجه (١٦٢٧) .

ورجَع عن مَقَالته التي قالها فيما ذكر الوَائلي أبو نَصْر عُبيد الله[١] في كتابه «الإبانة»: عن أنس بن مالك، أنه سمع عمرَ بنَ الخطاب ـ حين بُويع أبو بكر في مسجد رسول الله ﷺ واستوى على مِنبر رسول الله ﷺ ـ تشهَّد قبل أبي بكر، فقال: أمّا بعد، فإني قلتُ لكم أمسِ مَقَالةً، وإنها لم تكن كما قلتُ، وإني ـ والله ـ ما وجدتُ المقالةَ التي قلتُ لكم في كتاب أنزله الله، ولا في عَهْدٍ عَهِدهُ إليَّ رسولُ الله ﷺ، ولكني كنتُ أرجو أن يعيشَ رسول الله ﷺ حتى يَدْبُرَنا ـ يريد أن يقول: حتى يكونَ آخِرَنا موتاً ـ فاختار الله عزَّ وجلَّ لرسوله الذي عندَه على الذي عندكم، وهذا الكتابُ الذي هَدَى اللهُ به رسولَه، فخُذُوا به تَهتدوا لِمَا هدى له رسولَ الله ﷺ[٢].

قال الوَائلي أبو نصر: المَقالةُ التي قالها ثم رَجَع عنها هي: أن النبيَّ ﷺ لم يَمُتْ، ولن يموتَ حتى يقطعَ أيديَ رجال وأرجلَهم. وكان قال ذلك لِعظيم ما وَرَد عليه، وخشيَ[٣] الفتنة وظُهور المنافقين، فلما شاهدَ قوَّة يقينِ الصدّيق الأكبر أبي بكر، وتفوُّهه بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقولِه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وما قاله ذلك اليوم، تَنَبَّهَ وتثبَّتَ وقال: كأنّي لم أسمَعْ بالآية إلا من أبي بكر. وخرجَ الناسُ يتلونَها في سِكَك المدينة، كأنها لم تنزِلْ قطُّ إلا ذلك اليوم[٤].

ومات ﷺ يومَ الاثنين بلا اختلاف ـ في وقت دخوله المدينة في هجرته ـ حين اشتدَّ الضحاء[٥]، ودُفِنَ يومَ الثلاثاء، وقيل: ليلة الأربعاء[٦].

وقالت صفيةُ بنت عبد المُطَّلب ترثي رسولَ الله ﷺ:

---

(١) عبيد الله بن سعيد بن حاتم البكري، السِّجْزي، شيخ الحرم، وكتابه الإبانة الكبرى في أن القرآن غير مخلوق، وهو مجلد كبير دالّ على سَعَة علمه بفنِّ الأثر. توفي سنة (٤٤٤ هـ). السير ١٧/ ٦٥٤ .

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن حبان (٦٦٢٠) ضمن حديث طويل، وهو عند البخاري (٧٢١٩) بنحوه مختصر.

(٣) في (خ) و (ظ) : ويخشى.

(٤) ينظر صحيح البخاري (١٢٤٢) .

(٥) في (د) و (ظ): الضحى .

(٦) انظر التمهيد ٢٤/ ٣٩٥ - ٣٩٦، وقوله: مات رسول الله ﷺ يوم الاثنين أخرجه البخاري (١٣٨٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ألا يا رسولَ الله كنتَ رجاءَنا ... وكنتَ بِنا بَرّاً ولم تَكُ جافِيا
وكنتَ رحيماً هادياً ومُعلِّماً ... لِيَبْكِ عليك اليومَ من كان باكِيا
لعمرُكَ ما أبكِي النبيَّ لِفَقْدِهِ ... ولكنْ لِما أخشَى من الهَرْجِ آتيا
كأنَّ على قلبي لِذِكرِ محمدٍ ... وما خِفتُ من بعد النبيِّ المكاوِيا
أفاطِمُ صلى الله ربُّ محمدٍ ... على جَدَثٍ أمسَى بيَثْربَ ثاوِيا
فِدًى لرسول الله أُمِّي وخالتي ... وعمِّي وآبائي ونفسي ومالِيا
صَدَقْتَ وبلَّغتَ الرسالةَ صادقاً ... ومُتَّ صَلِيبَ العودِ أبْلَجَ صافِيا
فلو أنَّ ربَّ الناس أبقَى نبيَّنا ... سَعِدْنا، ولكنْ أمرُه كان ماضِيا
عليك من الله السلامُ تحيةً ... وأُدْخِلتَ جناتٍ من العَدْن راضِيا
أرى حَسَناً أيْتَمتَه وتركتَه ... يُبَكِّي ويدعو جدَّه اليوم ناعِيا(١)

فإن قيل ـ وهي:

الثالثة ـ: فَلِمَ أُخِّر دَفْنُ رسول الله ﷺ وقد قال لأهل بيت أخَّروا دفنَ ميتهم: «عَجِّلُوا دفْنَ جِيفَتِكم، ولا تُؤَخِّروها»(٢). فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأوّل: ما ذكرناه من عَدَمِ اتِّفاقهم على موته.

الثاني: لأنهم لا يعلمون حيث يَدْفِنُونه؛ قال قوم: في البَقِيع، وقال آخرون: في المسجد، وقال قوم: يُحبَس حتى يُحمَل إلى أبيه إبراهيم، حتى قال العالم الأكبر:

---

(١) أخرج هذه الأبيات الطبراني في الكبير ٢٤/(٨٠٦)، وأوردها الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/٣٩ ، ووقع البيت الأخير: «أرى حسناً..» فيهما بعد البيت الخامس: «أفاطم...».

(٢) ذكره بهذا اللفظ ابن العربي في القبس ٢/٤٤٨ ، ونقله المصنف عنه.

وأخرج أبو داود (٣١٥٩) عن الحصين بن وَحْوَح أن طلحة بن البراء مرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقال: «إني لا أرى طلحة إلا قد حدث فيه الموت، فآذنوني به وعجِّلوا، فإنه لا ينبغي لجيفة مسلمٍ أن تُحبس بين ظهراني أهله».

وأخرج الترمذي (١٠٧٥) وابن ماجه (١٤٨٦) عن علي بن أبي طالب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تؤخِّروا الجنازة إذا حضرت». واللفظ لابن ماجه.

سمعتُه يقول: «ما دُفِنَ نبيٌّ إلا حيث يموت» ذكره ابن ماجه و«الموطأ»[١] وغيرهما.

الثالث: أنهم اشتغلوا بالخِلاف الذي وقع بين المهاجرين والأنصار في البيعة، فنظروا فيها حتى استتبَّ الأمرُ، وانتظمَ الشَّمْل، واستوثقت الحال، واستقرَّت الخلافةُ في نصابها، فبايَعوا أبا بكر، ثم بايعوه من الغد بيعةً أخرى عن ملأ منهم ورِضاً، فكشفَ الله به الكُرْبَةَ من أهل الرِّدَّة، وقام به الدِّين، والحمد لله رب العالمين. ثم رجَعوا بعد ذلك إلى النبيِّ ﷺ، فنظروا في دَفْنه وغسَّلوه وكفَّنوه. والله أعلم[٢].

الرابعة: واختُلف هل صُلِّيَ عليه أم لا، فمنهم من قال: لم يصلِّ عليه أحدٌ، وإنما وقفَ كلُّ واحد يدعو؛ لأنه كان أشرفَ من أن يُصَلَّى عليه. قال ابن العربيِّ: وهذا كلام ضعيفٌ؛ لأن السُّنة تُقام بالصلاة عليه في الجِنازة، كما تُقام بالصلاة عليه في الدعاء، فيقول: اللَّهمَّ صَلِّ على محمد، إلى يوم القيامة، وذلك منفعةٌ لنا.

وقيل: لم يُصَلَّ عليه؛ لأنه لم يكن هناك إمام. وهذا ضعيفٌ؛ فإنَّ[٣] الذي كان يُقيم بهم الصلاةَ الفريضة هو الذي كان يَؤُمُّ بهم في الصلاة عليه[٤]. وقيل: صلَّى عليه الناسُ أفذاذاً؛ لأنه كان آخرَ العهد به، فأرادوا أنْ يأخذَ كلُّ أحدٍ بَركتَه مخصوصاً؛ دون أن يكون فيها تابعاً لغيره. والله أعلم بصحة ذلك[٥].

قلت: قد خرَّج ابن ماجه بإسناد حسن - بل صحيح[٦] - من حديث ابن عباس، وفيه: فلما فرَغوا من جَهازه ﷺ يومَ الثلاثاء، وُضِعَ على سريره في بيته، ثم دخل الناسُ على رسول الله ﷺ أَرْسالاً يُصلُّون عليه، حتى إذا فرَغوا أدخلَوا النساء، حتى

---

(١) سنن ابن ماجه (١٦٢٨)، والموطأ ١/ ٢٣١ (وهو من بلاغات مالك). وقوله: العالم الأكبر: يعني أبا بكر الصديق ﷺ.

(٢) ينظر القبس ٢/ ٤٤٨ .

(٣) في (ظ) و (م): لأن.

(٤) قوله: عليه، زيادة من (ظ).

(٥) القبس ٢/ ٤٤٨-٤٤٩ .

(٦) في هذا الكلام نظر، وانظر التعليق التالي،

إذا فرغْنَ أدخلوا الصبيان، ولم يَؤُمَّ الناسَ على رسول الله ﷺ أحدٌ. خرَّجه عن نَصْر ابن علي الجَهْضَميّ، أنبأنا وَهْب بنُ جرير، حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق قال: حدثني حسين بن عبدالله، عن عكرمة، عن ابن عباس، الحديثَ بطوله[1].

الخامسة: في تغيير الحال بعد موت النبيِّ ﷺ، عن أنس قال: لمَّا كان اليومُ الذي دخل فيه رسولُ الله ﷺ المدينةَ؛ أضاءَ منها كلُّ شيء، فلما كان اليومُ الذي مات فيه؛ أظلَم منها كلُّ شيء، وما نَفَضْنا عن النبيِّ ﷺ الأيديَ حتى أنْكرنا قلوبَنا. أخرجه ابن ماجه[2]، وقال: حدثنا محمد بن بشّار، حدثنا عبد الرحمن بن مهديّ، حدثنا سفيان، عن عبدالله بن دينار، عن ابن عمر قال: كنَّا نتَّقِي الكلامَ والانبساطَ إلى نسائنا على عهد رسول الله ﷺ مخافةَ أن يُنزَلَ فينا القرآن، فلما مات رسولُ الله ﷺ تكلَّمنا[3].

وأَسند عن أُمِّ سلَمةَ بنتِ أبي أُميَّةَ زوجِ النبيِّ ﷺ [أنها قالت]: كان الناسُ على[4] عهد رسول الله ﷺ إذا قام المُصلِّي [يصلي] لم يَعْدُ بَصَرُ أحدِهم موضعَ قَدَمَيه، فتوفي[5] رسولُ الله ﷺ وكان أبو بكر، فكان الناسُ إذا قام أحدُهم يُصلِّي لم يَعْدُ بَصَرُ أحدِهم موضعَ جبينه، فتُوفِّي أبو بكر وكان عمر، فكان الناس إذا قام أحدُهم يصلِّي لم يَعْدُ بَصَرُ أحدهم موضعَ القِبْلة، وكان[6] عثمانُ بن عفان، فكانت الفتنةُ، فتلفَّتَ الناسُ في الصلاة يميناً وشمالاً[7].

قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ «أفإنْ مات» شرط، «أو

---

(١) سنن ابن ماجه (١٦٢٨). قال البوصيري في مصباح الزجاجة ١/ ٢٩١: هذا إسناد فيه الحسين بن عبدالله بن عبيد الله بن عباس الهاشمي، تركه الإمام أحمد وعلي بن المديني والنسائي، وقال البخاري: يقال: إنه يُتَّهم بالزندقة، وقواه ابن عديٍّ، وباقي رجال الإسناد ثقات.

(٢) في سننه (١٦٣١).

(٣) سنن ابن ماجه (١٦٣٢).

(٤) في (م) وسنن ابن ماجه: في.

(٥) في (م) وسنن ابن ماجه: فلما توفي.

(٦) في (خ) و (د) و (م): فكان.

(٧) سنن ابن ماجه (١٦٣٢) و (١٦٣٤)، وما بين حاصرتين منه.

قُتل» عطف عليه، والجواب: «انقلَبتُم». ودخل ألف[١] الاستفهام على حرف الجزَاء؛ لأن الشرط قد انعقدَ به وصار جملةً واحدةً وخبراً واحداً. والمعنى: أفتنقَلِبون على أعقابكم إنْ مات أو قُتِل؟! وكذلك كلُّ استفهام دَخل على حرف الجزاء، فإنه في غير موضعه، وموضعُه أن يكون قبل جواب الشرط[٢].

وقوله: «انقلَبْتُم على أعْقابِكم» تمثيلٌ، ومعناه: ارتدَدْتُم كُفَّاراً بعد إيمانكم، قاله قتادةُ وغيره. ويقال لمن عاد إلى ما كان عليه: انقلب على عَقِبَيْه. ومنه: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾[٣] [الأنفال:٤٨]. وقيل: المرادُ بالانقلاب هنا الانهزام، فهو حقيقةٌ لا مجاز. وقيل: المعنى: فعلتُم فعلَ المرتدِّين وإنْ لم تكن رِدَّةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ﴾ بل يضرُّ نفسَه، ويُعرِّضُها للعِقاب بسبب المُخالفة، والله تعالى لا تنفعُه الطاعةُ، ولا تضرُّه المعصية[٤]؛ لِغناه.

﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، أي: الذين صَبرُوا وجاهدوا واستُشهدوا.

وجاء ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ بعد قوله: ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ فهو اتِّصالُ وَعْد بوعيد[٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾ هذا حَضٌّ على الجهاد، وإعلامٌ بأنَّ[٦] الموتَ لابدَّ منه، وأنَّ كلَّ إنسانٍ مقتولٍ أو غير مقتولٍ مَيِّتٌ إذا بلغَ أجلَه المكتوبَ له؛ لأن معنى «مُؤَجَّلاً»: إلى أجل. ومعنى «بإذن الله»:

(١) في (م): حرف.

(٢) انظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٦، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٧٤، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٩ - ٤١٠.

(٣) انظر تفسير الرازي ٩/ ٢٢، وقول قتادة أخرجه الطبري ٦/ ٩٨ - ٩٩.

(٤) في (خ) و (ظ): ولا يتضرَّر بالمعصية.

(٥) انظر مجمع البيان ٢/ ٢١٨.

(٦) في (خ) و (د) و (م): أن.

بقضاء الله وقَدَره. و«كتاباً» نصب على المصدر، أي: كتبَ الله كتاباً مُؤَجَّلاً.

وأجلُ الموت: هو الوقتُ الذي في معلومه سبحانه، أنّ روح الحيِّ تُفارق جسدَه، ومتى قُتل العبدُ علمنا أن ذلك أجلُه. ولا يصحُّ أن يقال: لو لم يُقتَلْ لَعَاش. والدليل عليه[١] قوله: ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ﴾، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍۚ﴾ [العنكبوت: ٥]، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]. والمعتزِليُّ يقول: يتقدَّم الأجل ويتأخَّر، وأنَّ من قُتل فإنما يَهْلِك قبل أجلِه، وكذلك كلُّ ما ذُبح من الحيوان كان هلاكُه قبل أجله؛ لأنه يجب على القاتل الضَّمَانُ والدِّيَةُ. وقد بيَّن الله تعالى في هذه الآية أنه لا تَهْلِكُ نفسٌ قبل أجلها[٢]. وسيأتي لهذا مزيد بيان في «الأعراف» إن شاء الله تعالى[٣].

وفيه دليلٌ على كَتْب العلم وتدوينه. وسيأتي بيانه في «طه» عند قوله: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ﴾ [الآية: ٥٢] إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ يعني: الغنيمة؛ نزلت في الذين تركوا المَرْكَزَ طلباً للغنيمة. وقيل: هي عامَّة في كلِّ من أرادَ الدنيا دون الآخرة، والمعنى: نُؤْتِهِ مِنها ما قُسم له. وفي التنزيل: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ﴾ أي: نُؤتِه جزاءَ عملِه، على ما وصفَ الله تعالى مِن تضعيف الحسنات لمن يشاء. وقيل: المراد بهذا[٤] عبدُ الله بن جُبير ومن لَزِمَ المَرْكَزَ معه حتى قُتِلوا[٥].

﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: نُؤتيهم الثوابَ الأبَديَّ جزاءً لهم على ترك الانهزام، فهو تأكيدٌ لما تقدَّم من إيتاء مَزيد الآخرة. وقيل: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ من الرزق في

(١) في (م): على.

(٢) انظر تفسير أبي الليث ١/ ٣٠٥.

(٣) في تفسير الآية (٣٤) منها.

(٤) في (م): المراد منها.

(٥) انظر الوسيط ١/ ٥٠٠، وتفسير البغوي ١/ ٣٥٩.

الدنيا لئلا يُتَوَهَّمَ أن الشاكر يُحرم ما قُسِم له مما يَناله الكافر[١].

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ قال الزُّهريُّ: صاح الشيطان يوم أُحُد: قتِل محمد، فانهزم جماعةٌ من المسلمين. قال كعب بن مالك: فكنتُ أوَّلَ من عَرَفَ رسول الله ﷺ، رأيتُ عَيْنَيْه من تحت المِغْفَر تَزْهَران، فناديتُ بأعلى صوتي: هذا رسولُ الله ﷺ، فأَوْمأ إليَّ أن اسكُتْ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا﴾ الآية[٢].

و«كَأيِّن» بمعنى: كم. قال الخليل وسيبويه: هي «أيّ» دخلَتْ عليها كافُ التشبيه وبُنيت معها، فصار في[٣] الكلام معنى «كم»، وصُوِّرت في المصحف نوناً؛ لأنها كلمة نُقِلتْ عن أصلها، فَغُيِّر لفظُها لِتغيُّرِ معناها، ثم كَثُر استعمالها، فتلعَّبَت بها العرب. وتصرَّفتْ فيها بالقلب والحذف، فَحدَثَ[٤] فيها لُغاتٌ أربعٌ قُرِئ بها.

وقرأ ابن كثير: «وكَائِنْ» مثل: وكَاعِنْ، على وزن فاعل، وأصله: كَيْءٍ، فَقُلبت الياءُ ألفاً، كما قُلبت في يَيْأس، فقيل: ياءَسُ[٥]، قال الشاعر:

وكَـائِـنْ بـالأبَـاطِـحِ مِـن صـديـقٍ يَـرانـي لـو أُصِبْتُ هـو الـمُـصَـابَـا[٦]

(١) انظر مجمع البيان ٢/ ٢٢٠.

(٢) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٨٩-٤٩٠، وقول الزهري سلف ٤/ ٢٢١ ولم ينسبه المصنف هناك لأحد، وقول كعب بن مالك ﷺ أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٩٧٣٥)، والطبري ٦/ ١٥٤ مطولاً.

(٣) لفظة «في» من (م).

(٤) في (م): فحصل.

(٥) انظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٠، والسبعة ص٢١٦، والتيسير ص٩٠.

(٦) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ٢٤٤.

وقال آخر:

وكَائِنْ رَدَدْنا عنكُمُ مِن مُدَجَّجٍ يَجيءُ أمامَ الرَّكْبِ يَرْدِي مُقَنَّعَا[١]

وقال آخر:

وكَائِنْ في المَعاشِرِ من أُنَاس أخوهم فَوْقَهم وهُمُ كِرامُ[٢]

وقرأ ابن مُحَيصِن: «وكَئِنْ» مهموزاً مقصوراً، مثل: وكَعِنْ، وهو من كَائِنْ، حُذفتْ ألفه. وعنه أيضاً: «وكَأْيِن» مثل: وكَعْيِنْ، وهو مقلوب كَيْءٍ المُخفَّف[٣]. وقرأ الباقون: «كَأَيِّنْ» بالتشديد مثل: كَعَيِّن، وهو الأصل[٤]، قال الشاعر:

كَأَيِّنْ من أُناسٍ لم يزالوا أخوهم فوقَهم وهُمُ كرامُ[٥]

وقال آخر:

كأَيِّنْ أَبَدْنا من عدوٍّ بِعزِّنا وكائِنْ أَجَرْنا من ضَعِيف وخائف[٦]

فجمعَ بين لُغتين: كأَيِّنْ وكَائِنْ.

ولغة خامسة: كَيْئِنْ مثل: كَيْعِنْ، وكأنه مخفَّف من كَيِّء، مقلوب كَأْيِنْ. ولم يذكر الجوهري[٧] غير لغتين: كائِنْ مثل كاعِنْ، وكأَيِّنْ مثل كَعَيِّنْ، تقول: كأَيِّنْ رجلاً لَقِيتُ، بنصب ما بعد كأَيِّنْ على التمييز. وتقول أيضاً: كأَيِّنْ مِن رجل لَقِيتُ، وإدخال «مِنْ» بعد «كأيِّنْ» أكثرُ من النَّصب بها وأجودُ. وبكأَيِّنْ تبيعُ هذا الثوبَ؟ أي: بكم

---

(١) قائله عمر بن شاس كما في منتهى الطلب من أشعار العرب ٨/ ٥١، وفيه: متوِّج، بدل: مدجَّج، والألف بدل: الركب، وأورده سيبويه في الكتاب ٢/ ١٧٠، وأبو علي الفارسي في الحجة ٣/ ٨٠، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥١٨.

وقوله: يردي، من ردت الخيلَ رَدْياً ورَدَياناً: إذا رجمت الأرض بحوافرها في سيرها وعدوها. اللسان (ردى).

(٢) لم نهتد إلى قائله: وأورده ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥١٨، وفيه: كأيِّن.

(٣) القراءات الشاذة ص٢٢، والمحتسب ١/ ١٧٠، والمحرر الوجيز ١/ ٥١٩.

(٤) السبعة ص ٢١٦، والتيسير ص٩٠.

(٥) لم نقف عليه، وانظر البيت السالف قبله.

(٦) لم نقف عليه.

(٧) في الصحاح (كين).

تبيع، قال ذو الرمّة:

وكَـائِـنْ ذَعَـرْنـا مـن مَـهَـاةٍ ورامِـحٍ بـلادُ الـعِـدا لـيـسـت لـه بِـبِـلادِ[1]

قال النحاس: ووقف أبو عمرو: «وكَأيّ» بغير نون؛ لأنه تنوين. وروى ذلك سَوْرَةُ بن المبارك[2] عن الكسائيّ. ووقف الباقون بالنون اتباعاً لخطِّ المصحف[3].

ومعنى الآية تشجيعُ المؤمنين، والأمرُ بالاقتداءِ بمن تقدَّم من خِيار أَتْباع الأنبياء، أي: كثيرٌ من الأنبياء قُتِل معه رِبِّيون كثير، أو كثيرٌ من الأنبياء قُتِلوا، فما ارتدَّ أُمَمهم؛ قولان:

الأوّل: للحسن وسعيد بنِ جُبير؛ قال الحسن: ما قُتِلَ نبيٌّ في حرب قطُّ. وقال ابن جُبير: ما سَمِعنا أنّ نبيّاً قُتِلَ في القتال[4].

والثاني: عن قتادة وعكرمة، والوقف ـ على هذا القول ـ على «قُتِل» جائز، وهي قراءةُ نافع وابن كثير[5] وأبي عمرو ويعقوب[6]. وهي قراءة ابن عباس، واختارها أبو حاتم.

وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون «قُتِل» واقعاً على النبيّ وحدَه، وحينئذ يكون تمامُ الكلام عند قوله: «قُتِلَ»، ويكون في الكلام إضمارٌ، أي: ومعه رِبِّيُّون كثيرٌ، كما يقال: قُتِل الأمير؛ معه جيشٌ عظيمٌ، أي: ومعه جيش. وخَرجْتُ معي تجارة، أي: ومعي.

---

(١) ديوان ذي الرمة ٢/ ٦٨٨، وفيه: الورى، بدل: العِدا. وقال شارح الديوان: المها: بقر الوحش؛ الواحدة، مَهَاة، ورامح: ثور له قَرْن.

(٢) الخراساني، الدينوري، روى القراءة عن الكسائي، وهو من المكثرين عنه. طبقات القراء ١/ ٣٢١.

(٣) الكلام في المحرر الوجيز ١/ ٥١٩، ولم نقف عليه للنحاس. وقراءة أبي عمرو وقفاً ذكرها الداني في التيسير ص٦٠ - ٦١، وأما قراءة الكسائي وقفاً فهي في قولة تعالى: ﴿ويكأن الله﴾ و﴿ويكأنه﴾ [القصص: ٨٢] لا غير.

(٤) ذكرهما ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٠.

(٥) في (د) و (م): ابن جبير، وهو خطأ، والمثبت من (د) و (ظ)، وهو الموافق لما في كتب القراءات.

(٦) السبعة ص٢١٧، والتيسير ص٩٠، والنشر ٢/ ٢٤٢.

الوجه الثاني: أن يكون القَتْلُ نالَ النبيَّ ومَنْ معه من الرِّبِّيِّين، ويكون وجهُ الكلام: قُتِل بعضُ مَن كان معه؛ تقول العرب: قَتلنا بَني تميم وبَني سُليم، وإنما قتلوا بعضَهم. ويكون قوله: «فما وَهَنُوا» راجعاً إلى مَن بقيَ منهم[(١)].

قلت: وهذا القول أشبهُ بنزول الآية وأنسبُ، فإنّ النبيَّ ﷺ لم يُقتل، وقُتِل معه جماعةٌ من أصحابه.

وقرأ الكوفيون وابن عامر: «قَاتَلَ»[(٢)]، وهي قراءة ابن مسعود[(٣)]؛ واختارها أبو عُبيد، وقال: إن الله إذا حَمِدَ مَن قاتَل، كان مَن قُتِل داخلاً فيه، وإذا حَمِدَ مَن قُتِل لم يدخُلْ فيه غيرهم؛ فـ«قاتَلَ» أعمُّ وأمدحُ[(٤)].

و«الرِّبِّيُّون» بكسر الراء قراءة الجمهور. وقرأ[(٥)] عليٌّ ﷺ بضمِّها، وابنُ عباس بفتحها[(٦)]؛ ثلاث لغات.

والرِّبِّيُّون: الجماعاتُ الكثيرة؛ عن مجاهد وقتادة والضحَّاك وعِكرمة، واحدهم رُبِّيّ؛ بضم الراء وكسرها؛ منسوب إلى الرِّبَّة؛ بكسر الراء أيضاً وضَمِّها، وهي الجماعة. وقال عبدالله بن مسعود: الرِّبِّيُّون: الألوفُ الكثيرة. وقال ابن زيد: الرِّبِّيُّون: الأتباع. والأوّل أعرفُ في اللغة؛ ومنه يقال للخِرقة التي تُجمع فيها القِدَاح: رِبَّةٌ ورُبَّة. والرِّبَاب: قبائل تجَمَّعَت. وقال أَبَان بن ثعلب: الرِّبِّي: عشرة آلاف. وقال الحسن: هم العلماء الصُّبُر. ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع والسّدي: الجمْعُ الكثير[(٧)]؛ قال حسّان:

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٦٠، وينظر معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٨٨ - ٤٨٩.

(٢) السبعة ص٢١٧، والتيسير ص٩٠. والمراد بالكوفيين: عاصم وحمزة والكسائي من السبعة.

(٣) أخرجها سعيد بن منصور في سننه (التفسير) (٥٢٨).

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٦٠، ووقع في مطبوعه: أبو عبيدة.

(٥) في (خ) و (م): وقراءة.

(٦) القراءات الشاذة ص٢٢، والمحتسب ١/ ١٧٣. وزاد ابن جني نسبة قراءة الرفع لابن مسعود وابن عباس وعكرمة والحسن وأبي رجاء وعمرو بن عبيد وعطاء بن السائب.

(٧) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٩٠ - ٤٩١، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٠ - ٥٢١، وانظر تفسير الطبري ٦/ ١١٢ - ١١٦.

وإذا مَـعْـشَـرٌ تَـجَـافَـوْا عـن الـحَـ ـقِّ حَـمـلْـنَـا عـلـيـهـمُ رِبِّـيَّـا[١]

وقال الزجاج[٢]: هاهنا قراءتان: «رُبِّيُّون» بضم الراء، و«رِبِّيُّون» بكسر الراء؛ أما الرُّبيون، بالضم: الجماعاتُ الكثيرة. ويقال: عشرةُ آلاف.

قلت: وقد رُوي عن ابن عباس: «رَبِّيُّون» بفتح الراء، منسوبٌ إلى الرَّبِّ[٣]. قال الخليل: الرِّبِّيّ: الواحدُ من العُبَّاد الذين صبروا مع الأنبياء، وهم الرَّبَّانيُّون؛ نُسبوا إلى التَّألُّه والعبادة ومعرِفةِ الرُّبُوبيّة لله تعالى. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ «وَهَنُوا»: أي: ضَعُفوا، وقد تقدَّم. والوَهْن: انكسار الجدّ[٤] بالخوف.

وقرأ الحسن وأبو السَّمَّال: «وَهِنُوا» بكسر الهاء وضمها[٥]، لغتان عن أبي زيد.

وهَنَ الشيءُ يَهِنُ وَهْنا. وأَوْهَنْته أنا ووَهَّنته: ضعَّفته. والوَاهِنة: أسفلُ الأضلاع وقِصَارُها[٦]. والوَهَن من الإبل: الكثيف. والوَهْن: ساعةٌ تمضي من الليل، وكذلك المَوْهِن. وأَوْهَنَّا: صِرْنا في تلك الساعة[٧]، أي: ما وَهَنوا لِقَتْل نبيِّهم، أو لِقتل مَنْ قُتِل منهم، أي: ما وَهَن باقيهم، فحذفَ المضاف.

﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ أي: عن عدوِّهم .﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أي: لِمَا أصابهم في الجهاد. والاستكانة: الذِّلَّة والخُضوع، وأصلُها: «اسْتَكَنُوا» على: افتعلوا، فأُشبِعتْ فتحةُ

---

(١) لم نقف عليه في ديوان حسان، ونسبه إليه ابن الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٧٨ ضمن أجوبة سيدنا علي ﷺ على أسئلة نافع بن الأزرق.

(٢) في معاني القرآن له ١/ ٤٧٦ .

(٣) انظر المحرر الوجيز ١/ ٥٢١ .

(٤) في (خ) و (ظ): الحدّ.

(٥) لم نقف على من ذكر قراءة: وَهُنوا (بضم الهاء)، والذي في المصادر: أن الحسن وأبا السّمال قرأا: وَهِنوا (بكسر الهاء)، ورُوي عن أبي السَّمال وعكرمه: وَهْنوا (بإسكان الهاء)، وسيذكرها المصنف. ينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١١ ، والقراءات الشاذة ص٢٢ ، والمحتسب ١/ ١٧٤ ، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢١ ، والبحر المحيط ٣/ ٧٤ .

(٦) في (خ) و (ظ): قصراها.

(٧) الصحاح (وهن)، وفيه: الواهنة: القُصَيْرَى، وهي أسفل الأضلاع.

الكاف، فتولَّدتْ منها ألفٌ. ومَنْ جعلَها من الكَوْن، فهي: استفعلوا، والأوَّل أشبهُ بمعنى الآية[١].

وقُرئ: «فما وَهْنُوا ومَا ضَعْفُوا» بإسكان الهاء والعين. وحكَى الكِسائيّ: «ضَعَفُوا» بفتح العين[٢].

ثم أخبر تعالى عنهم بعد أن قُتل منهم، أو قُتل نبيُّهم، بأنهم صبروا ولم يَفِرُّوا، ووطَّنوا أنفسَهم على الموت، واستغفَروا ليكون موتُهم على التوبة من الذنوب إنْ رُزِقوا الشهادة، ودَعَوْا في الثَّبات حتى لا ينهزموا، وبالنَّصر على أعدائهم. وخَصُّوا الأَقْدَام بالثَّبات دون غيرها من الجوارح؛ لأنَّ الاعتمادَ عليها.

يقول: فهلّا فعلتُم وقلتُم مثلَ ذلك يا أصحابَ محمد؟ فأجاب دعاءَهم وأعطاهم النَّصر والظَّفَر والغنيمةَ في الدنيا، والمغفرةَ في الآخرة إذا صاروا إليها.

وهكذا يفعلُ الله مع عبادِه المُخلصين التائبين الصادقين الناصرين لدينه، الثابتين عند لقاء عدوِّه بوعده الحقّ، وقوله الصِّدق. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ يعني الصابرين على الجهاد.

وقرأ بعضهم: «ومَا كان قَوْلُهُمْ» بالرفع؛ جعل القولَ اسماً لِـ«كان»، فيكون معناه: وما كان قولُهم إلّا قولَهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾. ومَن قرأ بالنصب جعلَ القولَ خبر «كان»، واسمها «إلّا أنْ قَالُوا»[٣].

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ يعني الصغائر ﴿وَإِسْرَافَنَا﴾ يعني الكبائر. والإسراف: الإفراطُ في الشيء ومجاوزةُ الحَدّ[٤]. وفي «صحيح» مسلم: عن أبي موسى الأشعريّ، عن النبيّ ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «اللهم اغفِرْ لي خطيئتي وجَهْلي،

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٢١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١١ ، ونسب قراءة: «وَهْنوا» لأبي السمَّال، ثم قال: ويجوز: «ضَعْفوا» بإسكان العين. وقراءة الكسائي كقراءة الجماعة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١١ ، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٢ ، والقراءات الشاذة ص٢٣ . وقراءة النصب هي قراءة الجمهور.

(٤) تفسير الطبري ٦/ ١١٩ - ١٢٠ .

وإسرافي في أمري، وما أنتَ أعلمُ به منّي» وذكر الحديث[١].

فعلى الإنسان أن يستعملَ ما في كتاب الله وصحيحِ السُّنة من الدعاء ويَدَعَ ما سواه، ولا يقول: أختارُ كذا؛ فإنَّ الله تعالى قد اختار لِنبيِّه وأوليائه، وعَلَّمَهم كيف يَدْعون.

قـولـه تـعـالـى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أعطاهم ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني النَّصر والظَّفر على عدوِّهم. ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَخِرَةِۗ﴾ يعني الجنة. وقرأ الجَحْدَري: «فَأَثَابَهُمُ اللهُ» من الثواب[٢]. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تقدَّم[٣].

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

لما أمرَ اللهُ تعالى بالاقتداء بمن تقدَّم من أنصار الأنبياء حَذَّرَ طاعةَ الكافرين، يعني مُشْركي العرب: أبا سفيان وأصحابَه. وقيل: اليهود والنَّصارى. وقال عليّ ﷺ: يعني المنافقين في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة: إرْجِعوا إلى دين آبائكم.

﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ أي: إلى الكفر. ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ﴾ أي: ترجعوا مَغْبونين. ثم قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ﴾ أي: مُتولِّي نصْرِكم وحِفظِكم إنْ أطعتموه[٤]. وقُرِئ: «بَلِ اللهَ» بالنصب[٥]، على تقدير: بل أطيعوا[٦] اللهَ مولاكم.

---

(١) صحيح مسلم (٢٧١٩)، وهو عند أحمد (١٩٧٣٨) والبخاري (٦٣٩٨).

(٢) البحر المحيط ٣/ ٧٦.

(٣) ٢/ ١٣١ وص٣٢١ من هذا الجزء.

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٦٠.

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٢ لعيسى النصر وابن ميسرة.

(٦) في (د) و (م): وأطيعوا.

قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

نظيره ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢]. وقرأ ابن عامر والكِسائي: «الرُّعُب» بضم العين[(١)]، وهما لغتان. والرُّعْب: الخوف، يقال: رَعَبْتُه رُعْباً ورُعُباً، فهو مَرْعُوب. ويجوز أن يكون الرُّعْب مصدراً، والرُّعُب الاسم. وأصلُه من المَلْء، يقال: سَيْل راعب، أي[(٢)]: يملأ الوادي. ورعبتُ الحوضَ: ملأتُه[(٣)]. فالمعنى: سَنَمْلأُ قلوبَ المشركين[(٤)] خوفاً وفَزَعاً.

وقرأ السَّخْتِياني: «سَيُلْقِي» بالياء، والباقون بنون العظمة[(٥)].

قال السُّدّي وغيره: لمَّا ارتحل أبو سفيان والمشركون يومَ أُحُد متوجِّهين إلى مكة، انطلقوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق نَدِموا وقالوا: بئس ما صنعنا، قتلناهم حتى إذا لم يبقَ منهم إلا الشَّرِيد، تركناهم، اِرْجِعوا فاستأصلوهم. فلمَّا عَزَموا على ذلك، ألقى الله في قلوبهم الرُّعبَ حتى رَجَعوا عما هَمُّوا به[(٦)].

والإلقاء يُستعمل حقيقةً في الأجسام[(٧)]، قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ [الشعراء: ٤٤]، ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ﴾ [الشعراء: ٤٥]. وقال الشاعر:

فألقَتْ عصاها واسْتَقَرَّ بها النَّوَى[(٨)]

ثم قد يستعمل مجازاً كما في هذه الآية، وقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾

---

(١) السبعة ص٢١٧ ، والتيسير ص٩١ .

(٢) لفظ: أي، زيادة من (ظ).

(٣) تهذيب اللغة ٢/ ٣٦٨ .

(٤) في (خ) و (ظ): الكافرين.

(٥) القراءات الشاذة ص٢٢ ، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٣ ، وقراءة: «سنلقي» بالنون، هي قراءة الجماعة.

(٦) أخرجه الطبري ٦/ ١٢٨ .

(٧) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٢ .

(٨) قائله مُعَقِّر بن حمار. ينظر البيان والتبيين ٣/ ٤٠ ، ومعجم الشعراء ص٩ ، وشطره الثاني: كما قرَّ عيناً بالإياب المسافرُ.

[طه: ٣٩]. وألقى عليك مسألةً.

قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ تعليل؛ أي: كان سببَ إلقاء الرُّعب في قلوبهم إشراكُهم؛ فـ«ما» للمصدر. ويقال: أشرك به، أي: عَدَل به غيرَه لِيجعلَه شريكاً.

قوله تعالى: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ﴾: حُجَّةً وبياناً، وعُذْراً وبرهاناً، ومن هذا قيل للوالي: سلطان؛ لأنه حُجَّةُ الله عزَّ وجلَّ في الأرض. ويقال: إنه مأخوذٌ من السَّلِيط، وهو ما يُضاء به السِّراج، وهو دُهْنُ السِّمْسِم، قال امرؤ القيس:

أهان[1] السَّلِيطَ بالذُّبَالِ المُفَتَّلِ[2]

فالسلطانُ يُستضاءُ به في إظهار الحقّ وقَمْعِ الباطل. وقيل: السَّلِيط: الحديد. والسَّلاطَة: الحِدَّة. والسَّلاطة من التَّسليط[3]، وهو القهر؛ والسلطان مِن ذلك، فالنون زائدة. فأصلُ السلطان القوَّة، فإنه يُقهر بها كما يُقهر بالسلطان. والسَّليطة: المرأة الصَّخَّابة. والسَّلِيط: الرجلُ الفَصيح اللسان[4].

ومعنى هذا أنه لم تثبتْ[5] عبادةُ الأوثان في شيء من المِلَل، ولم يَدلَّ عقلٌ على جواز ذلك.

ثم أخبر تعالى عن مصيرهم ومَرْجِعهم، فقال: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ ثم ذَمَّه فقال: ﴿وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. والمَثْوَى: المكان الذي يُقام فيه، يقال: ثَوَى يَثْوِي ثَوَاءً. والمأوى: كلُّ مكان يرجع إليه شيءٌ ليلاً أو نهاراً[6].

---

(١) في (م) وشرح القصائدُ السبع ص٨٠٠: أمال، قال الأصمعي فيما نقله عنه ابن الأنباري: وليس قوله أمال السليط بشيء، ولا معنى له.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٢٤ وفيه: في الذُّبال. وصدره: يضيءُ سناه أو مصابيح راهب. قوله: الذبال يعني الفتائل.

(٣) في (خ): التسلط.

(٤) ينظر تهذيب اللغة ١٢/ ٣٣٥-٣٣٦، والصحاح (سلط).

(٥) في النسخ: يثبت، والمثبت من (م).

(٦) ينظر تفسير الرازي ٩/ ٢٢.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

قال محمد بن كعب القُرَظِيّ: لما رَجَع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أُحُد وقد أُصيبوا قال بعضُهم لبعض: مِن أين أصابَنا هذا وقد وعدَنا الله النَّصر؟! فنزلت هذه الآية[١]. وذلك أنهم قتلوا صاحبَ لِوَاء المشركين وسبعةَ نَفَرٍ منهم بعدَه على اللِّواء، وكان الظَّفَرُ ابتداءً للمسلمين؛ غير أنهم اشتغلوا بالغنيمة، وتركَ بعضُ الرُّماة أيضاً مَرْكزَهم طلباً للغنيمة، فكان ذلك سببَ الهزيمة[٢].

روى البخاريُّ عن البَراء بن عازب قال: لمَّا كان يوم أُحُد ولَقِينا المشركين، أَجْلسَ رسولُ الله ﷺ أُناساً[٣] من الرُّماة وأَمَّرَ عليهم عبدَ الله بنَ جُبير، وقال لهم: «لا تَبْرَحوا من مَكَانِكم، [إنْ رأيتمونا ظَهَرْنا عليهم فلا تبرحوا] وإنْ رأيتُموهم قد ظَهَروا علينا فلا تُعينونا عليهم». قال: فلما التقى القومُ وهزمَهم المسلمون حتى نظرنا إلى النساء يَشْتَدِدْن في الجبل، وقد رَفَعن عن سُوقِهنَّ قد بدتْ خلاخلُهنَّ[٤]. فجعلوا يقولون: الغنيمةَ الغنيمةَ. فقال لهم عبدُ الله: أَمْهلوا، أما عَهِدَ إليكم رسولُ الله ﷺ ألَّا تبرحوا؟ فانطَلَقوا، فلما أَتَوْهم صَرَفَ اللهُ وجوهَهم[٥]، وقُتِل من المسلمين سبعون رجلاً. ثم إنَّ أبا سفيان بنَ حرب أَشْرفَ علينا وهو في نَشْزٍ[٦]، فقال: أفي القوم محمدٌ؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تُجيبوه». حتى قالها ثلاثاً. ثم قال: أفي القوم ابنُ

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص١٢١، وتفسير البغوي ١/ ٣٦١.

(٢) في (ظ) سبباً للهزيمة.

(٣) في (خ) و (ظ): ما شاء.

(٤) قوله: يَشْتَدِدْن، أي: يُسرِعْن المشيَ. وقوله: رفَعْن عن سُوقهن: جمع ساق، أي: لِيُعينهنَّ ذلك على سرعة الهرب. فتح الباري ٧/ ٣٥٠.

(٥) عند البخاري (٤٠٤٣): فلما أَبَوْ صُرِفت وجوهُهم، ولفظ المصنف عند ابن حبان (٤٧٣٨)، قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٧/ ٣٥١: أي: تحيَّروا، فلم يدروا أين يتوجَّهون.

(٦) النَّشز: المرتفع من الأرض. النهاية (نشز).

أبي قُحافة؟ ثلاثاً، فقال النبيُّ ﷺ: «لا تُجيبوه». ثم قال: أفي القوم عمر بن الخطاب؟ ثلاثاً، فقال النبيُّ ﷺ: «لا تُجيبوه». ثم التفتَ إلى أصحابه، فقال: أما هؤلاء فقد قُتِلوا. فلم يملكْ عمرُ ﷺ نفسَه أن قال[1]: كذبتَ يا عدوَّ الله، قد أبقى الله لك من يُخزِيك به. فقال: أُعْلُ هُبَل. مرتين. فقال النبيُّ ﷺ: «أجيبوه»، فقالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهُ أعلى وأجَلّ». قال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم. فقال رسول الله ﷺ: «أجيبوه». قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا: «الله مولانا، ولا مَوْلَى لكم». قال أبو سفيان: يومٌ بِيَوْم بَدْر، والحربُ سِجَال، أمَا إنكم ستجدون في القوم مُثْلةً؛ لم آمُرْ بها ولم تَسُؤْني[2].

وفي البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وَقَّاص قال: رأيتُ عن يمين رسول الله ﷺ وعن شِماله يومَ أُحُد رجلين عليهما ثيابٌ بيض؛ يُقاتلان عن رسول الله ﷺ أشدَّ القتال. وفي رواية عن سعد: عليهما ثيابٌ بيض؛ ما رأيتُهما قبلُ ولا بعدُ. يعني جِبريلَ ومِيكائيل[3].

وفي رواية أخرى: يُقاتلان عن رسول الله ﷺ أشدَّ القتال ما رأيتُهما قبلَ ذلك اليوم ولا بعدَه[4].

وعن مجاهد قال: لم تُقاتل الملائكةُ معهم يومئذ، ولا قبلَه ولا بعدَه إلا يومَ بدر.

قال البيهقي[5]: إنما أراد مجاهدٌ أنهم لم يُقاتلوا يومَ أُحُد عن القوم حين عَصَوا الرسولَ، ولم يَصْبِروا على ما أمرهم به.

وعن عروةَ بن الزبير قال: وكان اللهُ عزَّ وجلَّ وعدَهم على الصبر والتقوى أن يُمِدَّهم بخمسة آلافٍ من الملائكة مُسوِّمين: وكان قد فعل؛ فلما عَصَوْا أَمْرَ الرسولِ

---

(١) في (د) و (م): دون أن قال.

(٢) صحيح البخاري (٤٠٤٣)، باختلاف يسير في الألفاظ. وما بين حاصرتين منه، والحديث في مسند أحمد (١٨٥٩٣).

(٣) صحيح البخاري (٤٠٥٤)، وصحيح مسلم (٢٣٠٦): (٤٦) و (٤٧)، وهو في مسند أحمد (١٤٦٨).

(٤) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢٥٤ .

(٥) المصدر السابق ٣/ ٢٥٥ - ٢٥٦ . وقد أخرج قول مجاهد السابق وقولي عروة بن الزبير وعمير بن اسحاق الآتيين.

وتركوا مَصَافَّهم، وتركت[(١)] الرُّماةُ عَهْدَ رسول الله ﷺ إليهم ألَّا يبرحوا من منازلهم، وأرادوا الدنيا، رُفع عنهم مَدَدُ الملائكة، وأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾. فصَدَقَ اللهُ وعدَه، وأراهم الفَتْحَ، فلما عَصَوْا، أعقبهم البلاء.

وعن عُمير بن إسحاق[(٢)] قال: لمَّا كان يوم أُحُد انكشفوا عن رسول الله ﷺ وسَعْدٌ يَرمي بين يَدَيه، وفَتًى يُنَبِّل له، كلما ذهبتْ نَبْلَةٌ أتاه بها. قال: اِرْمِ أبا إسحاق. فلما فَرَغُوا نظروا مَنِ الشابُّ، فلم يَرَوْه ولم يعرفوه. وقال[(٣)] محمد بن كعب: ولمَّا قُتِل صاحبُ لواءِ المشركين وسقطَ لواؤهم، رَفعَتْه عَمْرَةُ بنت علقمةَ الحارِثيةُ؛ وفي ذلك يقول حَسَّان:

فلولا لِواءُ الحارثيةِ أصبحوا ... يُباعُون في الأسواق بيعَ الجلائب[(٤)]

و﴿تَحُسُّونَهُم﴾ معناه: تقتلونهم وتَسْتأصِلونهم، قال الشاعر:

حَسَسْناهُمُ بالسَّيْف حَسّاً فأصبحتْ ... بَقِيَّتُهم قد شُرِّدُوا وتَبَدَّدُوا[(٥)]

وقال جرير:

تَحُسُّهُمُ السيوفُ كما تَسامَى ... حَريقُ النارِ في الأَجمِ الحَصِيدِ[(٦)]

قال أبو عُبيد: الحَسُّ: الاستئصال بالقتل[(٧)]؛ يقال: جرادٌ مَحْسوسٌ إذا قَتَله البَرْدُ. والبردُ مَحَسَّةٌ للنَّبت. أي: مُحْرِقَةٌ له ذاهِبةٌ به[(٨)]. وسَنَةٌ حَسُوس، أي: جَدْبة

---

(١) في (د) و (م): وترك.

(٢) أبي محمد القرشي، مولى بني هاشم، قال النسائي: ليس به بأس، وذكره ابن حبان في الثقات، والعقيلي في الضعفاء، لأنه لم يرو عنه غير واحد هو عبدالله بن عون. تهذيب التهذيب ٣/ ٣٢٥.

(٣) في (ظ): نقله.

(٤) ديوان حسان ص٨٢. وذكر قصة عمرة والبيت ابنُ هشام في سيرته ٢/ ٧٨ - ٧٩.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) ديوان جرير ٢/ ٧٢٨، وفيه: أجم، بدل: الأجم.

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ١/ ٣٦١، ونسبه لأبي عبيدة. وانظر كتابه مجاز القرآن ١/ ١٠٤ - ١٠٥، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٧٨.

(٨) لفظة (به) من (م).

تأكلُ كلَّ شيء[١]، قال رؤبة:

إذا شكَونا سَنةً حَسُوسا تأكلُ بعدَ الأخضر اليَبِيسا[٢]

وأَصْلُه من الحِسّ الذي هو الإدراك بالحاسَّة. فمعنى حَسَّه: أذهب حِسَّه بالقتل[٣].

﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: بعلمه، أو بقضائه وأمْره. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي: جَبُنتم وضَعُفتم. يقال: فَشِلَ يَفْشَل، فهو فَشِل وفَشْل[٤].

وجواب «حتى» محذوفٌ، أي: حتى إذا فَشِلتم امْتُحِنتم. ومثلُ هذا جائزٌ، كقوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ٣٥] فافعل. وقال الفرّاء[٥]: جوابُ «حتى»: «وتنازعتم»، والواوُ مقْحَمة زائدةٌ، كقوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٤] أي: ناديناه. وقال امرؤ القيس:

فلما أجَزْنا ساحَةَ الحَيِّ وانْتَحَى[٦]

أي: انتحَى. وعند هؤلاء يجوزُ إقحامُ الواو من «وعَصَيْتُم». أي: حتى إذا فَشِلتم وتنازعتم، عَصَيْتم. وعلى هذا فيه تقديمٌ وتأخير، أي: حتى إذا تنازعتُم وعَصَيْتُم فَشِلتم.

وقال أبو علي: يجوزُ أن يكون الجوابُ: «صَرَفَكُم عنهم»، و«ثم» زائدة، والتقدير: حتى إذا فَشِلتم وتنازَعْتُم وَعَصيْتم، صَرَفَكُم عنهم[٧]. وقد أنشد بعضُ النحويين في زيادتها قولَ الشاعر:

---

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١١٣-١١٤ ، والصحاح (حسس).

(٢) ديوان رؤبة ص٧٢ ، وهو في مجاز القرآن ١/ ١٠٥ ، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٤ ، واللسان (حسس).

(٣) ذكر نحو هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٤ ، وضعَّفه.

(٤) الوسيط ١/ ٥٠٤ ، وزاد المسير ١/ ٤٧٥ - ٤٧٦ ، وانظر تهذيب اللغة ١١/ ٣٦٨ .

(٥) في معاني القرآن ١/ ٢٣٨ .

(٦) ديوان امرئ القيس ص١٥ ، وهو من معلقته المشهورة، وشطره الثاني:

بنا بطنُ حِقْفٍ ذي رُكام عَقَنْقَلِ.

(٧) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٢٤ ، وتفسير الرازي ٩/ ٣٥ - ٣٦ .

أُرانِــي إِذا مــا بِــتُّ بِــتُّ عــلــى هَــوًى فــثُــمَّ إذا أصبحتُ أصبحتُ غــادِيــا[١]

وجوّز الأخفشُ أن تكون زائدةً، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾[٢] [التوبة: ١١٨].

وقيل: «حتى» بمعنى «إلى» وحينئذ لا جوابَ له، أي: صَدَقكم اللهُ وَعْدَه إلى أن فَشِلتُم، أي: كان ذلك الوعدُ بشرط الثَّبات. ومعنى «تنازعتُم»: اختلفتُم، يعني الرُّمَاة حين قال بعضُهم لبعض: نلحقُ الغنائم. وقال بعضهم: بل نثبتُ في مكاننا الذي أمرنا النبيُّ ﷺ بالثُّبوت فيه[٣].

﴿وَعَصَيْتُم﴾ أي: خالفتم أمرَ الرسول في الثُّبوت. ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ يعني من الغَلَبةِ التي كانت للمسلمين يومَ أُحُد أوّلَ أمرهم، وذلك حين صُرِعَ صاحبُ لواء المشركين على ما تقدَّم. وذلك أنه لمَّا صُرِعَ؛ انتشرَ النبيُّ ﷺ وأصحابه، وصاروا كتائبَ متفرِّقةً، فحاسُوا[٤] العدوَّ ضَرْباً حتى أجْهَضُوهُم عن أثقالهم. وحملتْ خيلُ المشركين على المسلمين ثلاثَ مرات، كل ذلك تُنْضَحُ بالنَّبْل، فترجِعُ مغلوبة[٥]، وحَمَلَ المسلمون، فنَهَكُوهُم قتلاً. فلما أبصر الرُّماةُ الخمسون أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد فَتَحَ لإخوانهم؛ قالوا: والله، ما نَجْلِسُ هاهنا لشيء، قد أهلكَ اللهُ العدوَّ، وإخوانُنا في عسكر المشركين. وقال طوائفُ منهم: عَلامَ نَقِفُ وقد هزمَ اللهُ العدوَّ؟ فتركوا منازِلَهم التي عَهِدَ إليهم النبيُّ ﷺ ألَّا يتركوها، وتنازعوا وفشِلوا، وعَصَوُا الرسولَ، فأَوْجَفتِ الخيلُ فيهم قتلاً.

---

(١) في (خ) و (م): عاديا، وهي رواية ذكرها الصبان في شرحه على الأشموني ٣/ ٨٢ ، والبيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص ٢٨٥ ، واستشهد بهذا البيت على أنَّ «ثم» زائدة ابنُ الشَّجري في أماليه ٣/ ٩٠ ، أما ابن جني فذكره في سر صناعة الإعراب ١/ ٢٦٤ شاهداً على أن الفاء زائدة.

(٢) مغني اللبيب ص١٥٨-١٥٩ ، وشرح الصبان على الأشموني ٣/ ٨٢ .

(٣) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٢٤ - ٥٢٥ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٢ .

(٤) في (خ): فجاشوا، وفي (ظ): فجاسوا. وقوله: فحاسوا العدو: أي: بالغوا النكاية فيهم، وأصل الحوس: شدة الاختلاط ومداركة الضرب. النهاية (حوس).

(٥) في (خ) و (ظ) : مغلولة.

وألفاظُ الآية تقتضي التوبيخَ لهم، ووجهُ التوبيخ لهم أنهم رَأَوا مبادئ النَّصر، فكان الواجبُ أن يعلموا أن تمامَ النَّصر في الثَّبات، لا في الانهزام. ثم بَيَّنَ سببَ التنازع، فقال: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني الغنيمة.

قال ابن مسعود: ما شَعَرْنا أنَّ أحداً من أصحابِ النبيِّ ﷺ يريدُ الدنيا وعَرَضَها حتى كان يومُ أُحُد.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وهم الذين ثبتوا في مَرْكزهم، ولم يُخالفوا أمرَ نبيِّهم ﷺ مع أميرهم عبدِ الله بن جُبير، فحمَلَ خالدُ بن الوليد وعِكرمةُ بن أبي جهل عليه ـ وكانا يومئذ كافرين ـ فقتلوه مع مَنْ بَقِيَ، رحمهم الله[١].

والعِتابُ مع مَن انهزمَ، لا مع مَن ثبتَ، فإنَّ من ثبتَ فاز بالثواب، وهذا كما أنه إذا حَلَّ بقوم عقوبةٌ عامّةٌ؛ فأهلُ الصَّلاح والصِّبيان يَهْلِكون، ولكن لا يكون ما حَلَّ بهم عقوبةً، بل هو سببُ المَثُوبة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي: بعد أن استَوْلَيتُم عليهم ردَّكم عنهم بالانهزام، ودَلَّ هذا على أنّ المعصيةَ مخلوقةٌ لله تعالى. وقالت المعتزلة: المعنى: ثم انصرفتُم، فإضافتُه إلى الله تعالى بإخراجه الرُّعب من قلوب الكافرين من المسلمين ابتلاءً لهم.

قال القشيري: وهذا لا يُغنيهم؛ لأن إخراجَ الرُّعب من[٢] قلوب الكافرين حتى يستخِفُّوا بالمسلمين قبيحٌ، ولا يجوز عندهم أنْ يَقَعَ من الله قبيحٌ، فلا يبقى لقوله: «ثم صَرَفَكُمْ عنهم» معنًى. وقيل: معنى «صَرَفَكم عنهم» أي: لم يُكَلِّفكم طَلَبَهم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لم يَستأصِلْكم بعد المعصية والمُخالفة[٤]. والخِطاب قيل: هو للجميع. وقيل: هو لِلرُّماة

---

(١) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٣٠٨، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٥، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٢. وقول ابن مسعود ﷺ أخرجه أحمد (٤٤١٤) مطولاً، والطبري ٦/ ١٤٠ - ١٤١.

(٢) في النسخ: عن، والمثبت من (م).

(٣) ذكر هذه المسألة الرازي في تفسيره ٩/ ٣٧-٣٨.

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٦٢.

الذين خالفوا ما أُمروا به، واختاره النحاس[(١)].

وقال أكثرُ المفسرين: ونظيرُ هذه الآية قولُه: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾[(٢)] [البقرة: ٥٢].

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالعفو والمغفرة.

وعن ابن عباس قال: ما نُصِرَ النبيُّ ﷺ في مَوْطن كما نُصِرَ يومَ أُحد، قال: وأنْكرنا ذلك، فقال ابنُ عباس: بيني وبين مَنْ أنكر ذلك كتابُ الله عزَّ وجلَّ، إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول في يوم أُحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ - يقول ابن عباس: والحَسُّ: القتل - ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وإنما عنى بهذا الرُّماة. وذلك أن النبيَّ ﷺ أقامهم في موضع، ثم قال: «احموا ظُهورنا، فإنْ رأيتُمونا نُقْتَل، فلا تَنْصرونا، وإنْ رأيتُمونا قد غَنِمنا، فلا تَشْرَكُونا».

فلما غَنِمَ رسولُ الله ﷺ وأباحوا عسكرَ المشركين، انْكفأتِ الرماةُ جميعاً، فدخلوا في العسكر يَنْتهبون، وقد التقَتْ صفوفُ أصحابِ النبيِّ ﷺ، فهم هكذا - وشبَّك أصابعَ يَدَيْه - والتبسوا.

فلما أخلَّ الرُّماةُ تلك الخَلَّةَ التي كانوا فيها، دخلَتِ الخيلُ من ذلك الموضع على أصحابِ رسول الله ﷺ، فضربَ بعضُهم بعضاً، والتبسوا، وقُتِلَ من المسلمين ناسٌ كثير، وقد كان لرسول الله ﷺ وأصحابِه أوَّلُ النهار، حتى قُتِلَ من أصحاب لواءِ المشركين سبعةٌ أو تسعةٌ. وجالَ المسلمون نحوَ الجبل، ولم يبلُغوا حيث يقول الناس: الغارَ، إنما كانوا تحت المِهْراس، وصاحَ الشيطان: قُتِلَ محمد. فلم يُشَكَّ فيه أنه حقٌّ، فما زلنا كذلك ما نَشُكُّ أنه قُتِل حتى طَلَع علينا رسولُ الله ﷺ بين السَّعْدَيْن، نعرِفُه بتكفُّئِهِ إذا مشَى. قال: فَفَرِحنا حتى كأنّا لم يُصِبْنا ما أصابنا. قال: فَرَقِيَ نحونا وهو يقول: «اشتدَّ غضبُ الله على قوم دَمَّوْا وجهَ رسوله»[(٣)].

---

(١) في إعراب القرآن ١/ ٤١٢. وانظر مجمع البيان ٢/ ٢٣١.

(٢) ذكر نحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٥ ونسبه لابن جريج وابن اسحاق وجماعة من المفسرين.

(٣) في (د): «رسول الله ﷺ»، وفي (م): «نبيّهم»، والحديث أخرجه أحمد (٢٦٠٩)، وأورده ابن كثير =

وقال كعبُ بن مالك: أنا كنتُ أوَّلَ من عَرَفَ رسولَ الله ﷺ من المسلمين، عَرَفْتُه بعينيه من تحت المِغْفَر تَزْهَران، فناديتُ بأعلى صوتي: يا مَعْشرَ المسلمين، أبْشِروا، هذا رسولُ الله ﷺ قد أقْبلَ. فأشار إليَّ أنِ اسكُتْ[١].

قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

«إذ» متعلِّق بقوله: «وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ». وقراءة العامة: «تُصْعِدُونَ» بضمِّ التاء وكسر العين.

وقرأ أبو رجاء العُطارِدِيُّ وأبو عبد الرحمن السُّلميُّ والحسن وقتادة بفتح التاء والعين، يعني: تَصعَدون الجبل[٢].

وقرأ ابن مُحَيْصِن وشِبْل: «إذ يَصعدون ولا يَلْوون» بالياء فيهما. وقرأ الحسن «تَلُونَ» بواو واحدة[٣].

وروى أبو بكر بنُ عيَّاش عن عاصم: «ولا تُلوون»، بضم التاء، وهي لغةٌ شاذَّة

= في تفسيره ٢/ ١٣٣ - ١٣٤ ، وقال: هذا حديث غريب، وسياق عجيب، وهو من مرسلات ابن عباس، فإنه لم يشهد أحداً، ولا أبوه. اهـ. قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على المسند: الظاهر عندي أنه حكاه عن واحد من الصحابة ممن شهد أحداً، ونسي بعض الرواة أن يذكر من حدَّث ابن عباس به؛ حتى يقول في حديثه: «فما زلنا كذلك ما نشك أنه قتل...» وأما سياق القصة في ذاتها فصحيح، له شواهد كثيرة في الصحاح؛ أشار إلى بعضها ابن كثير في التفسير وفي التاريخ.

قال السندي كما في حاشية المسند: قوله: وجال المسلمون، أي: انكشفوا.

وقوله: تحت المِهْراس، بكسر الميم: صخرة منقورة تسع كثيراً من الماء وقيل: اسم ماء بأحد. والتكفُّؤ: التمايل إلى قُدَّام. ودمَّوْا: أسالوا دَمَه.

وقوله: السَّعدين: يعني سعد بن معاذ وسعد بن عُبادة. انظر السير ١/ ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(١) سلف ٤/ ٢٢٨ .

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٩ ، وتفسير الطبري ٦/ ١٤٥ ، والكشاف ١/ ٤٧١ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٢ ، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٦ .

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٦، وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٣ قراءة ابن محيصن والحسن، وذكر الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٧١ قراءة الحسن. وقراءة ابن محيصن: «يَصْعَدون» هي بفتح الياء والعين، كما قيّدها البنّا في إتحاف فضلاء البشر ص٢٣٠ ، ولم تضبط على الصواب في مطبوع ابن خالويه، وبعض المطبوعات الأخرى.

ذكرها النحاس[١].

وقال أبو حاتم: أَصْعَدْت؛ إذا مضيتَ حِيالَ وجهك، وصَعِدت؛ إذا ارتقيتَ في جبل أو غيره[٢]. فالإصعادُ: السَّيرُ في مُستوي الأرض[٣] وبطونِ الأودية والشِّعاب. والصُّعودُ: الارتفاعُ على الجبال والسُّطوح والسَّلاليم والدَّرج. فيحتمل أن يكون صعودُهم في الجبل بعد إصعادِهم في الوادي، فيصحُّ المعنى على قراءة: «تُصْعِدون» و«تَصْعَدون».

قال قتادة والرَّبيع: أَصعَدوا يومَ أحدٍ في الوادي[٤]. وقراءة أُبَيٍّ: «إذ تُصعِدُون في الوادي»[٥]. قال ابن عباس: صَعِدُوا في أُحُدٍ فراراً[٦]. فكلتا القراءتين صواب، كان يومئذٍ من المنهزمين مُصْعِدٌ وصاعد. والله أعلم.

قال القُتَبيُّ[٧] والمبرِّد: أَصعَد إذا أبعدَ في الذَّهاب وأمعنَ فيه[٨]، فكأنَّ الإصعادَ إبعادٌ في الأرض كإبعاد الارتفاع، قال الشاعر:

ألا أيُّهذا السائلي أيْنَ أصْعدَتْ ... فإنّ لها من بطن يَثْرِبَ موعِدا[٩]

وقال الفرَّاء[١٠]: الإصعادُ: الابتداءُ في السفر، والانحدارُ: الرجوعُ منه، يقال: أَصْعَدْنا من بغداد إلى مكة وإلى خراسان وأشباهِ ذلك: إذا خَرَجْنا إليها وأَخَذْنا في

---

(١) في إعراب القرآن ١/ ٤١٢ . وقراءة ابن عياش المشهورة عنه كقراءة الجماعة: «تُصْعِدُون».

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٦٢ .

(٣) في (د) و (م): مستو من الأرض، والمثبت من (خ) و (ز) و (ظ)، وهو الموافق لما في تفسير الطبري ١٤٦/٦ .

(٤) أخرجه الطبري ١٤٦/٦-١٤٧ .

(٥) ذكرها الطبري ١٤٦/٦ ، وابن خالويه ص٢٣ ، والزمخشري ١/ ٤٧١ .

(٦) أخرجه الطبري ١٤٨/٦ .

(٧) في غريب القرآن ص ١١٤ .

(٨) تفسير البغوي ١/ ٣٦٢ .

(٩) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ١٨٥ ، وروايته فيه: أين يممت، فإن لها في أهل يثرب موعداً .

(١٠) في معاني القرآن ١/ ٢٣٩ .

السفر، وانحدَرْنا: إذا رجَعْنا. وأنشد أبو عبيدة[١]:

قد كنتِ تَبكِين على الإصعاد فاليوم سُرِّحْتِ وصاحَ الحادي

وقال المفضّل: صَعِدَ وأصْعَد وصَعَّد بمعنى واحد. ومعنى «تَلْوُونَ»: تُعَرِّجون وتُقيمون، أي: لا يلتفتُ بعضُكم إلى بعضٍ هَرَباً[٢]؛ فإن المُعرِّجَ على الشيء يَلوي إليه عُنقَه أو عِنانَ دابَّته.

﴿عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ يريد محمداً ﷺ؛ قاله الكلبي.

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أي: في آخركم، يقال: جاء فلانٌ في آخر الناس، وأُخْرَةِ الناس، وأُخْرَى الناس، وأُخْرَيَات الناس.

وفي البخاري[٣]: «أُخْرَاكُمْ» تأنيثُ آخِرِكم: حدثنا عمرو بن خالد، حدثنا زهير، حدثنا أبو إسحاق قال: سمعت البراء بن عازب قال: جعلَ النبيُّ ﷺ على الرَّجَّالة يومَ أُحُد عبدَ الله بنَ جبير، وأقبلوا مُنهزمين، فذاك إذ يَدعوهم الرسولُ في أُخراهم، ولم يبق مع النبيِّ ﷺ غيرُ اثني عَشَرَ رجلاً.

قال ابن عباس وغيره: كان دعاءُ النبيِّ ﷺ: «أيْ عبادَ الله، ارْجِعُوا»[٤]. وكان دعاؤه تغييراً للمنكَر، ومحالٌ أن يرى عليه الصلاة والسلام المنكَر وهو الانهزامُ، ثم لا يَنهى عنه.

قلت: هذا على أن يكون الانهزامُ معصيةً، وليس كذلك، على ما يأتي بيانُه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾ الغمُّ في اللغة: التَّغطِية، غَمَمْتُ الشيءَ: غَطَّيتُه. ويومٌ غَمٌّ وليلةٌ غَمَّةٌ: إذا كانا مُظلِمَيْن. ومنه: غُمَّ الهلالُ: إذا لم يُرَ، وغَمَّني الأمرُ يَغُمُّني.

---

(١) في مجاز القرآن ١/ ١٠٥.

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٦٢.

(٣) برقم (٤٥٦١)، وأخرجه أحمد (١٨٥٩٣) مطولاً.

(٤) أخرجه الطبري ٦/ ١٤٨ - ١٤٩ عن ابن عباس وقتادة والربيع.

قال مجاهد وقتادة وغيرُهما: الغَمُّ الأوَّلُ: القتلُ والجراح، والغمُّ الثاني: الإرجافُ بقتلِ النبيِّ ﷺ، إذ صاح به الشيطانُ[١].

وقيل: الغمُّ الأوَّلُ: ما فَاتهم من الظَّفَرِ والغنيمة، والثاني: ما أصابهم من القتلِ والهزيمة.

وقيل: الغَمُّ الأوَّلُ: الهزيمةُ، والثاني: إشرافُ أبي سفيان وخالدٍ عليهم في الجبل، فلما نظر إليهم المسلمون غَمَّهم ذلك، وظنُّوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم، فأنساهم هذا ما نالهم، فعند ذلك قال النبيُّ ﷺ: «اللّهم لا يَعْلُنَّ علينا» كما تقدَّم[٢].

والباء في «بِغَمٍّ» على هذا بمعنى «على»، وقيل: هي على بابها، والمعنى أنهم غَمُّوا النبيَّ ﷺ بمخالفتِهم إياه، فأثابهم بذلك غَمّهم بمن أُصيب منهم[٣].

وقال الحسن: «فَأَثَابَكُمْ غَمّاً» يومَ أحد «بِغَمٍّ» يوم بدر للمشركين[٤]. وسمَّى الغَمَّ ثواباً كما سَمَّى جزاءَ الذَّنب ذنباً. وقيل: وقفهم الله على ذنبهم، فشُغلوا بذلك عمَّا أصابهم[٥].

قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ اللام متعلِّقةٌ بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ وقيل: هي متعلِّقةٌ بقوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ أي: كان هذا الغمُّ بعد الغمِّ لكيلا تحزنوا على ما فات من الغنيمة، ولا ما أصابكم من الهزيمة. والأوَّلُ أحسن.

و«ما» في قوله: ﴿مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ في موضع خَفْض، وقيل: «لا» صلة. أي: لكي تحزنوا على ما فاتكم وما أصابكم عقوبةً لكم في[٦] مخالفتكم رسولَ الله ﷺ. وهو

---

(١) أخرجه الطبري ٦/ ١٥٠ - ١٥١ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٦٢ - ٣٦٣ ، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٦ - ٥٢٧ ، وذكر هذه الأقوال الطبري ٦/ ١٥١ - ١٥٨ . وسلف الكلام ص٣٣٤ من هذا الجزء .

(٣) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٩٦ .

(٤) النكت والعيون ١/ ٤٣٠ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٢ .

(٦) في (م): على.

مثل قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، أي: أن تَسجُدَ، وقوله ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩]، أي: ليعلَم، وهذا قولُ المفضَّل(١).

وقيل: أراد بقوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ أي: توالت عليكم الغُمومُ؛ لكيلا تَشتَغِلوا بعد هذا بالغنائم.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيه معنى التحذير والوعيد.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ الأَمَنَة والأَمْن سواءٌ، وقيل: الأَمَنَة إنما تكون مع أسباب الخوف، والأَمْن مع عدمه(٢). وهي منصوبة بـ «أَنْزَلَ» و«نُعاساً» بدلٌ منها. وقيل: نصب على المفعول له؛ كأنه قال: أنزل عليكم(٣) للأمنة نُعاساً. وقرأ ابن محيصن: «أمْنَةً» بسكون الميم(٤). تفضَّل الله تعالى على المؤمنين بعد هذه الغُموم في يوم أُحُد بالنُّعاس حتى نام أكثرُهم؛ وإنما يَنعُسُ مَن يأمن، والخائف لا ينام.

روى البخاريُّ(٥) عن أنس أن أبا طلحة قال: غَشِيَنا النعاسُ ونحن في مَصافِّنا يومَ أُحُد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخُذُه، ويسقطُ وآخُذُه.

---

(١) ينظر زاد المسير ١/ ٤٧٩ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٦٣ .

(٣) في النسخ الخطية: عليهم، والمثبت من (م).

(٤) المحتسب لابن جني ١/ ١٧٤، والقراءات الشاذة لابن خالويه ص٢٣ .

(٥) برقم (٤٥٦٢)، وهو في مسند أحمد (١٦٣٥٧) .

﴿يَغْشَىٰ﴾ قُرئ بالياء والتاء[١]، الياء للنعاس، والتاء للأَمَنَة.

والطائفةُ تُطلَق على الواحد والجماعة.

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني المنافقين: مُعَتِّب بن قُشير وأصحابه، وكانوا خرجوا طمعاً في الغنيمة، وخوفَ المؤمنين، فلم يَغْشَهم النُّعاسُ، وجعلوا يتأسَّفون على الحضور، ويقولون الأقاويل.

ومعنى «قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ»: حملتهم على الهمِّ، والهمُّ: ما هَمَمْتَ به؛ يقال: أَهَمَّني الشيءُ، أي: كان من همِّي. وأمرٌ مُهِمٌّ: شديد. وأَهَمَّني الأمرُ: أقلقَني، وهَمَّني: أذابَني[٢].

والواو في قوله: «وطائفةٌ» واو الحال، بمعنى إذْ، أي: إذ طائفةٌ يَظُنُّونَ أَنَّ أمر محمد ﷺ باطلٌ، وأنه لا يُنصر.

﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي: ظنَّ أهلِ الجاهليَّة، فحذف.

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ لفظُه استفهام، ومعناه الجحد، أي: ما لنا شيءٌ من الأمر[٣]، أي: من أمر الخُروج، وإنما خَرَجْنا كَرْهاً؛ يدلُّ عليه قولُه تعالى إخباراً عنهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾.

قال الزُّبير: أُرسِل علينا النومُ ذلك اليوم، وإني لأسمع قولَ مُعَتِّبِ بن قُشير والنعاسُ يغشاني يقول: لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قُتلنا هاهنا[٤].

وقيل: المعنى: يقولون[٥]: ليس لنا من الظَّفَر الذي وَعَدَنا به محمدٌ شيءٌ. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب: «كُلُّه»، بالرَّفع على

---

(١) قرأ حمزة والكسائي من السبعة بالتاء، والباقون بالياء. السبعة ص٢١٧، والتيسير ص٩١.

(٢) ينظر الصحاح (همم).

(٣) انظر زاد المسير ١/ ٤٨١.

(٤) أخرجه الطبري ٦/ ١٦٨.

(٥) في (م): يقول.

الابتداء، وخبرُه: «لله»، والجملة خبر «إن»، وهو كقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]. والباقون بالنصب[١]، كما تقول: إن الأمر أجمعَ لله. فهو توكيدٌ، وهو بمعنى أجمع في الإحاطة والعموم، و«أجمع» لا يكون إلا توكيداً. وقيل: نعتٌ للأمر[٢].

وقال الأخفش[٣]: بدل، أي: النَّصرُ بيد الله ينصرُ من يشاء، ويخذُلُ من يشاء.

وقال جويبر عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ يعني التكذيبَ بالقَدَر[٤]. وذلك أنهم تكلَّموا فيه، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ يعني القَدَر؛ خيرُه وشرُّه من الله.

﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم﴾ أي: من الشِّرك والكُفرِ والتَّكذيب ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾: يُظهرون لك.

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أي: ما قُتِل عشائرُنا. فقيل: إن المنافقين قالوا: لو كان لنا عقلٌ ما خَرَجْنا إلى قتال أهل مكة، ولَمَا قُتِل رؤساؤنا، فردَّ الله عليهم، فقال: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ﴾ أي: لخرج ﴿الَّذِينَ كُتِبَ﴾ أي: فُرِض ﴿عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ يعني في اللَّوح المحفوظ. ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: مصارِعِهم.

وقيل: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ أي: فُرِض عليهم القتال[٥]، فعبَّر عنه بالقَتْل؛ لأنه قد يؤول إليه.

وقرأ أبو حَيْوَة: «لَبُرِّزَ» بضمِّ الباء وشدِّ الراء[٦]، بمعنى يُجعل[٧] يَخرج.

وقيل: لو تخلَّفتم أيُّها المنافقون؛ لبرزتُم إلى موطن آخرَ غيرِه تُصرعون فيه، حتى

(١) السبعة ص٢١٧، والتيسير ص٩١، والنشر ٢/ ٢٤٢.

(٢) انظر الحجة لأبي علي الفارسي ٣/ ٩٠.

(٣) في معاني القرآن له ١/ ٤٢٥.

(٤) ذكره البغوي ١/ ٣٦٤، وابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٤٨١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٣.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٩، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٣.

(٧) في (ظ): فجعل.

يَبتليَ الله ما في الصدور ويُظهرَه للمؤمنين.

والواو في قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾ مُقحمة، كقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥]. أي: ليكون، وحُذف الفعل الذي مع لام كي، والتقدير: وليبتليَ الله ما في صدوركم وليمحِّصَ ما في قلوبكم فرض الله عليكم القتالَ والحربَ، ولم يَنصرْكُم يومَ أُحُد ليختبرَ صبرَكُم، وليُمحِّصَ عنكم سيئاتِكم إن تُبتم وأخلصتم[١].

وقيل: معنى «ليبتلي»: ليُعامِلَكم معاملَة المختبِر. وقيل: ليقعَ منكم مُشاهدةً ما علمَه غَيْباً. وقيل: هو على حذف مضاف، والتقدير: ليبتليَ أولياءُ الله تعالى[٢]. وقد تقدَّم معنى التَّمحيص[٣].

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: ما فيها من خيرٍ وشرٍّ. وقيل: ذات الصُّدور هي الصُّدور؛ لأن ذات الشيء نفسُه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ هذه الجملة هي خبرُ «إنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا». والمراد مَن تولَّى عن المشركين يوم أُحُد. عن عمر ﷺ وغيره.

السُّدِّيّ: يعني مَن هرب إلى المدينة في وقت الهزيمة؛ دون مَن صَعِدَ الجبل.

وقيل: هي في قوم بأعيانهم؛ تخلَّفُوا عن النبيِّ ﷺ في وقت هزيمتهم ثلاثة أيامٍ، ثمَّ انصرفوا[٤].

ومعنى «استزلَّهمُ الشَّيطانُ»: استدعى زَلَلَهم بأن ذكَّرهم خطايا سلفت منهم، فكرهوا الثُّبوت لئلَّا يُقتلوا[٥]. وهو معنى قوله[٦]: «ببعضِ ما كسبوا».

---

(١) إعراب القرآن للنحاس١/ ٤١٣ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٨٠ ، والنكت والعيون ١/ ٤٣١ .

(٣) ص٣٣٨ - ٣٣٩ من هذا الجزء.

(٤) أخرج الأقوال الطبري ٦/ ١٧٢ - ١٧٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٤ .

(٦) لفظ: قوله، من (ظ).

وقيل: «استزلَّهم»: حملَهم على الزَّلَل، وهو استفعل، من الزَّلَّة، وهي الخَطيئة. وقيل: زَلَّ وأزَلَّ بمعنًى واحد. ثم قيل: كرهوا القتالَ قبل إخلاص التوبة، فإنما تولَّوْا لهذا، هذا على القول الأوَّل. وعلى الثاني بمعصيتهم النبيَّ ﷺ في تركهم المركز ومَيْلِهم إلى الغنيمة.

وقال الحسن: «مَا كَسَبوا»: قَبُولهم من إبليس ما وَسوس إليهم[١].

وقال الكلبيُّ: زيَّن لهم الشيطانُ أعمالهم[٢].

وقيل: لم يكن الانهزامُ معصيةً؛ لأنهم أرادوا التحصُّنَ بالمدينة، ليقطعَ[٣] العدوُّ طمعَه فيهم لمَّا سمعوا أن النبيَّ ﷺ قُتِل.

ويجوز أن يُقال: لم يسمعوا دعاءَ النبيِّ ﷺ للهَوْل الذي كانوا فيه.

ويجوز أن يُقال: زاد عددُ العدوِّ على الضِّعف؛ لأنهم كانوا سبعَ مئة، والعدوُّ ثلاثة آلاف، وعند هذا يجوز الانهزام، ولكن الانهزام عن النبيِّ ﷺ خطأٌ لا يجوز، ولعلَّهم توهَّموا أن النبيَّ ﷺ انحاز إلى الجبل أيضاً. وأحسنُها الأوَّل.

وعلى الجملة؛ فإنْ حُمِلَ الأمرُ على ذنبٍ مُحَقَّق؛ فقد عفا الله عنه، وإن حُمِل على انهزامٍ مُسَوَّغ؛ فالآية فيمن أبْعَدَ في الهزيمة، وزاد على القَدْر المُسَوَّغ.

وذكر أبو الليث السَّمرقنديُّ نصرُ بن محمد بن إبراهيم[٤] قال: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا السرَّاج، قال: حدثنا قتيبة، قال: حدثنا أبو بكر، عن غَيْلان بن جرير[٥]: أن عثمان كان بينه وبين عبد الرحمن بن عوف كلامٌ، فقال له عبد الرحمن: أَتَسُبُّني وقد شهدتُ بَدْراً ولم تَشهد، وقد بايعتُ تحت الشجرة ولم تبايع، وقد كنتَ

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٦٤.

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٣٠٩ دون نسبة.

(٣) في (د) و (ز) و (م): فيقطع.

(٤) في تفسيره ١/ ٣١٠، وأخرج أحمد نحوه (٤٩٠) من حديث عثمان ﷺ.

(٥) في النسخ: حدثنا أبو بكر بن غيلان، عن جرير، والمثبت من تفسير أبي الليث، وغيلان بن جرير من رجال التهذيب، روى له الجماعة، وهو ثقة وليس له رواية عن عثمان ﷺ. وأبو بكر: لعله ابنُ شعيب بن الحبحاب، روى له مسلم والترمذي، وروى عنه قتيبة بن سعيد.

تولَّيتَ[١] فيمن[٢] تَولَّى يوم الجَمْع. يعني يومَ أُحُد.

فردَّ عليه عثمان، فقال: أمَّا قولُك: أنا شهدتُ بدراً ولم تشهد، فإني لم أَغِب عن شيءٍ شهده رسول الله ﷺ، إلا أنَّ بنتَ رسولِ الله ﷺ كانت مريضةً، وكنتُ معها أُمَرِّضُها، فضربَ لي رسول الله ﷺ سهماً في سهام المسلمين. وأما بيعةُ الشجرة، فإن رسول الله ﷺ بعثَني رَبيئةً على المشركين بمكة ـ الرَّبيئةُ هو النَّاظِرُ ـ فضربَ رسول الله ﷺ يمينَه على شماله، فقال: «هذه لعثمان». فيمينُ رسول الله ﷺ وشمالُه خيرٌ لي من يميني وشمالي، وأما يوم الجَمْع؛ فقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾، فكنتُ فيمن عفا الله عنهم، فَخَصَمَ[٣] عثمانُ عبدَ الرحمن.

قلت: وهذا المعنى صحيحٌ أيضاً عن ابن عمر ـ كما في «صحيح» البخاري[٤] ـ قال: حدثنا عَبْدان، أخبرنا أبو حمزة، عن عثمان بن مَوْهَب قال: جاء رجلٌ حَجَّ البيتَ، فرأى قوماً جلوساً، فقال: مَن هؤلاء القُعود؟ قالوا: هؤلاء قريشٌ، قال: مَن الشيخ؟ قالوا: ابنُ عمر، فأتاه فقال: إني سائلُك عن شيءٍ أتُحدِّثُني؟ قال: أَنْشُدُكَ بحُرْمة هذا البيت، أتعلم أن عثمانَ بنَ عفَّان فَرَّ يوم أُحد؟ قال: نعم. قال: فتعْلَمُه تَغيَّبَ عن بَدْرٍ، فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال: فتعلم أنه تخلَّفَ عن بيعة الرِّضوان، فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال: فكَبَّر. قال ابن عمر: تعالَ لِأُخبرك، ولأبيِّنَ لك عمَّا سألتَني عنه. أمَّا فِرارُه يوم أُحُد؛ فأشهَدُ أن الله عفا عنه، وأما تغيُّبُه عن بَدْرٍ؛ فإنه كان تحتَه بنتُ رسولِ الله ﷺ وكانت مريضةً، فقال له النبيُّ ﷺ: «إن لكَ أجرَ رجلٍ ممن شَهِد بَدْراً وسهْمَه»، وأما تغيُّبُه عن بيعة الرِّضوان؛ فإنه لو كان أَحَدٌ أعزَّ ببطن مكة من عثمان بن عفان لبعثه مكانَه، فبعث عثمانَ، وكانت بيعةُ الرِّضوان؛ بعد ما ذهب عثمانُ إلى مكة، فقال النبيُّ ﷺ بيده اليُمنى: «هذه يدُ عثمان». فضرب بها على يده، فقال: «هذه لعثمان». اذهب بهذا الآن معك.

---

(١) في (خ) و (د) و (ز) و (م): تولى، والمثبت من (ظ) وتفسير أبي الليث.

(٢) في (د) و (م): مع من.

(٣) في (خ) و (ز) و (ف): فخاصم، وفي (د): فحاجّ، وفي (م): فحج، والمثبت من (ظ) وتفسير أبي الليث، ومعنى خَصَمَهُ، أي: غلبه في الخصام.

(٤) برقم (٤٠٦٦).

قلت: ونظيرُ هذه الآية توبةُ الله على آدمَ عليه السلام، وقولُه عليه الصلاة والسلام: «فحجَّ آدمُ موسى». أي: غلبه بالحُجَّة، وذلك أن موسى عليه السلام أرادَ توبيخَ آدمَ ولومَه في إخراج نفسِه وذريَّتِه من الجنة بسبب أكلِه من الشجرة، فقال له آدم: «أفتلومُني على أمرٍ قدَّرَه الله تعالى عليَّ قبلَ أن أُخلَق بأربعين سنة، تاب عليَّ منه»[١]، ومَن تاب عليه فلا ذنبَ له، ومَن لا ذنبَ له لا يتوجَّه عليه لومٌ، وكذلك مَنْ عفا الله عنه. وإنما كان هذا لإخباره تعالى بذلك، وخبرُه صِدْقٌ، وغيرُهما من المذنبين التائبين يرجون رحمتَه، ويخافون عذابَه، فهم على وَجَلٍ وخوفٍ ألَّا تُقْبَلَ توبتُهم، وإن قُبِلت؛ فالخوفُ أغلبُ عليهم؛ إذ لا علمَ لهم بذلك. فاعلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني المنافقين.

﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ يعني في النِّفاق، أو في النَّسَب في السرايا التي بعث النبيُّ ﷺ إلى بئر مَعُونَة[٢].

﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ فنُهِيَ المسلمون أن يقولوا مثلَ قولهم.

وقوله: ﴿إِذَا ضَرَبُواْ﴾ هو لِما مضى، أي: إذ ضَربوا؛ لأن في الكلام معنى الشَّرط من حيث كان «الذين» مُبهَماً غيرَ موقَّت[٣]، فوقع «إذا» موقِعَ «إذْ» كما يقع الماضي في الجزاء موضع المستقبَل.

ومعنى ﴿ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: سافروا فيها، وساروا لتجارة أو غيرها، فماتوا. ﴿أَوْ

---

(١) أخرجه دون قوله: تاب علي منه، أحمد (٧٣٨٧)، والبخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٢/ ٢١٥. وأما هذه الزيادة فلم نقف على من أخرجها، لكن معناها صحيح في صريح الكتاب العزيز.

(٢) الوسيط للواحدي ١/ ٥١٠، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٤.

(٣) يعني أن اسم الموصول: «الذين»، فيه إبهام يعمُّ من قال في الماضي ومن يقول في المستقبل. المحرر الوجيز ١/ ٥٣١.

كَانُوا۟ غُزًّى﴾: غزاةً، فقُتِلوا[١]. والغُزَّى جمعٌ منقوصٌ لا يتغيَّر لفظُها في رفعٍ وخَفْضٍ، واحدُهم غازٍ، كراكع ورُكَّع، وصائم وصُوَّم، ونائم ونُوَّم، وشاهِد وشُهَّد، وغائب وغُيَّب. ويجوز في الجمع: غُزاة، مثل: قُضاة، وغُزَّاء، بالمدّ، مثل: ضُرَّاب وصُوَّام. ويقال: غَزِيّ جمع الغُزاة، قال الشاعر:

قُـلْ لـلـقـوافـلِ والـغَـزِيِّ إذا غَـزَوْا[٢]

ورُوِيَ عن الزُّهري أنه قرأه: «غُزَى» بالتخفيف[٣].

والمُغْزِيَة: المرأة التي غزا زوجُها. وأتانٌ مُغزِيَة: متأخِّرة النَّتاج، ثم تُنتَج. وأَغْزَت الناقةُ: إذا عَسُرَ لِقاحُها. والغَزْوُ: قَصْدُ الشيء. والمَغْزَى: المَقْصِدُ. ويُقال في النَّسب إلى الغَزْوِ: غَزَوِيّ[٤].

قوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ يعني ظَنَّهم وقولَهم. واللام متعلِّقةٌ بقوله: «قالوا» أي: ليجعلَ ظَنَّهم أنهم لو لم يخرجوا ما قُتلوا حَسْرَةً، أي: ندامةً في قلوبهم. والحَسْرةُ: الاهتمامُ على فائتٍ لم يُقْدَر بلوغُه، قال الشاعر:

فـوَاحسـرَتي لـم أقـضِ منـهـا لُـبـانـتي ... ولـم أتـمـتَّـعْ بـالـجِـوارِ وبـالـقُـرْبِ[٥]

وقيل: هي متعلِّقة بمحذوف، والمعنى: لا تكونوا مثلَهم، ليجعل الله ذلك القولَ حسرةً في قلوبهم؛ لأنهم ظهر نفاقُهم.

وقيل: المعنى: لا تُصدِّقُوهم، ولا تلتفتوا إليهم، فكان ذلك حسرةً في قلوبهم.

وقيل: لِيَجْعلَ اللهُ ذلك حسرةً في قلوبهم يومَ القيامة؛ لِما هم فيه من الخِزْيِ والنَّدامة، ولِما فيه المسلمون من النَّعيم والكرامة.

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٦٤.

(٢) صدر بيت لزياد الأعجم، وعجزه: والباكِرين وللمُجِدِّ الرَّائح، وهو في ديوانه ص٨٦.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٤، والقراءة في المحتسب ١/ ١٥٧، والقراءات الشاذة ص٢٣.

(٤) الصحاح (غزا).

(٥) البيت للصِّمَّة بن عبدالله القشيري، وهو في الأغاني ٧/ ٢٩٤ و ٢٩٥، والوحشيات ص١٨٧، وديوانه ص٢٨ (نقلاً عنهما). واللُّبانة: الحاجة من غير فاقة، ولكن من همَّة، يقال: قضى فلان لُبانته، والجمع: لُبان. اللسان (لبن).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يَقْدِرُ على أن يُحْيِيَ مَنْ يَخْرُجُ إلى القتال، ويميتَ مَن أقام في أهله[١].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قُرئ بالياء والتاء[٢].

ثم أخبر تعالى أن القتلَ في سبيل الله والموتَ فيه خيرٌ من جميع الدُّنيا:

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

جوابُ الجزاءِ محذوفٌ، استُغْنِيَ عنه بجواب القسم في قوله: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾، وكان الاستغناءُ بجواب القسم أولى؛ لأنَّ له صدرَ الكلام، ومعناه: لَيغفِرنَّ لكم.

وأهل الحجاز يقولون: مِتُّم، بكسر الميم، مثل: نِمتم، من: مات يَمات، مثل: خِفتُ يَخاف. وسُفْلى مُضر يقولون: مُتّم، بضمِّ الميم، مثل: صُمْتُم، من مات يَموت، كقولك: كان يكون، وقال يقول. هذا قولُ الكوفيين، وهو حسن.

وقوله: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ وَعظٌ؛ وَعظَهم الله بهذا القول، أي: لا تَفِرُّوا من القتال وممَّا أمركم به، بل فِرُّوا من عِقابه وأليمِ عذابه، فإنَّ مَردَّكم إليه، لا يملك لكم أحدٌ ضرّاً ولا نفعاً غيره[٣]. والله سبحانه وتعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

«ما» صلةٌ فيها معنى التأكيد، أي: فبرحمة، كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠]،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٤.

(٢) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي من السبعة بالياء، والباقون بالتاء، السبعة ص٢١٧، والتيسير ص٩١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٥. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم بضم الميم، والباقون بكسر الميم. السبعة ص٢١٨، والتيسير ص٩١.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ﴾ [ص: ١١][١]. وليست بزائدة على الإطلاق، وإنما أَطلَقَ عليها سيبويه معنى الزيادة من حيث زال عملها[٢].

ابن كَيْسان: «ما» نكرة في موضع جرٍّ بالباء، و«رحمةٍ» بَدلٌ منها[٣].

ومعنى الآية: أنه عليه الصلاة والسلام لمَّا رَفَقَ بمَن تولَّى يومَ أحدٍ ولم يُعنِّفْهم، بيَّن الرَّبُّ تعالى أنه إنما فَعَل ذلك بتوفيق الله تعالى إياه.

وقيل: «ما» استِفهامٌ، والمعنى: فبِأيِّ رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم؟ فهو تعجيب. وفيه بُعد؛ لأنه لو كان كذلك لكان «فبم» بغير ألف.

﴿لِنتَ﴾ من لَانَ يَلِينُ لِيْناً ولَيَاناً، بالفتح.

والفَظُّ: الغليظُ الجافي. فَظِظْتَ تَفَظُّ فَظَاظَةً وفِظاظاً، فأنت فَظٌّ، والأنثى فَظَّةٌ، والجمع أَفظاظ. وفي صفة النبيِّ عليه الصلاة والسلام: ليس بفَظٍّ ولا غليظٍ، ولا صَخَّابٍ في الأسواق[٤].

وأنشد المُفَضَّل في المذكَّر:

وليس بفَظٍّ في الأدَانِيِّ والأُلَى ... يَؤمُّون جَدواه ولكنَّه سَهْلُ

وفَظٌّ على أعدائه يَحذرونه[٥] ... فسطوتُه حَتْفٌ ونائلُه جَزْلُ

وقال آخر في المؤنَّث:

أموتُ من الضُّرِّ في منزلي ... وغيري يموتُ من الكِظَّه

ودُنيا تجودُ على الجاهليـ ... ـنَ وهْي على ذي النُّهَى فَظَّه[٦]

وغِلَظُ القلب عبارةٌ عن تجهُّمِ الوجه، وقلَّةِ الانفعال في الرَّغائب، وقِلَّةِ الإشفاقِ

---

(١) الوسيط للواحدي ١/ ٥١٢.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٣، وذكر سيبويه ٣/ ٧٦ أنها لَغْو.

(٣) مشكل إعراب القرآن ١/ ١٧٨.

(٤) أخرجه البخاري (٢١٢٥) و (٤٨٣٨) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٥) في (ظ): يحرزونه.

(٦) ذكرهما أبو موسى المديني في المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث ٣/ ٤٩ دون نسبة.

والرَّحمة، ومن ذلك قولُ الشاعر:

يُبْكَى علينا ولا نَبكي على أحدٍ لَنحنُ أغلظُ أكباداً من الإبلِ[١]

ومعنى ﴿لَٱنفَضُّواْ﴾: لتفرَّقوا، فضَضْتَهم فانفضُّوا، أي: فرَّقتَهم فتفرَّقوا، ومن ذلك قول أبي النَّجم يصف إبلاً:

مُستعجلات القيض[٢] غير جُرْدِ ينفضُّ عنهنَّ الحصى بالصَّمْدِ[٣]

وأصلُ الفضِّ: الكسرُ، ومنه قولهم: لا يَفضُضِ اللهُ فاك.

والمعنى: يا محمَّد، لولا رِفْقُك لَمنَعَهم الاحتشامُ والهيبةُ من القُربِ منك بعد ما كان من تَولِّيهم.

قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قال العلماء: أمرَ الله تعالى نبيَّه ﷺ بهذه الأوامر التي هي بتدريج بليغ، وذلك أنه أمرَه بأنْ يعفوَ عنهم ما له في خاصَّته عليهم من تَبِعَة، فلما صاروا في هذه الدَّرجة، أمرَه أن يستغفرَ فيما لله عليهم من تَبِعةٍ أيضاً، فإذا صاروا في هذه الدَّرجة، صاروا أهلاً للاستشارة في الأمور[٤].

قال أهل اللغة: الاستشارةُ مأخوذةٌ من قول العرب: شُرْتُ الدابَّةَ وشَوَّرتُها: إذا علمتَ خَبَرَها بجَرْيٍ أو غيره. ويقال للموضع الذي تركُضُ فيه: مِشوار. وقد يكون من قولهم: شُرْتُ العسلَ واشْتَرْتُه فهو مَشُورٌ ومُشَار: إذا أخذتَه من موضعه؛ قال عديُّ بن زيد:

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٣ ، ونسب المرزوقي البيت في شرح حماسة أبي تمام ص٥٩١ ، والبغدادي في الخزانة ٦/ ٣٧ إلى المهلهل، ونسبه ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢/ ١٩٢ إلى المخبَّل، ونسبه الثعالبي في ثمار القلوب ص٣٤٨ ، والزمخشري في المستقصى ١/ ٦٩ إلى بلعاء بن قيس الكناني.

(٢) في (د): الغيض، وفي (ز) و(ف): القميض، وفي (ظ): الغيظ، والمثبت من (خ) و(م).

(٣) لم نقف عليه.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٣ - ٥٣٤ .

فـي سَـمـاعٍ يـأذَنُ الـشَّـيـخُ لـه   وحَـديـثٍ مـثـلِ مَـاذيٍّ مُـشـارِ[(١)]

الثانية: قال ابن عطية[(٢)]: والشُّورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، مَن لا يستشيرُ أهلَ العلم والدِّين فعزلُه واجبٌ، هذا ما لا خلاف فيه. وقد مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقال أعرابيٌّ: ما غُبِنْتُ قطّ حتى يُغبَنَ قومي، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا أَفْعَلُ شيئاً حتى أشَاوِرَهُم[(٣)].

وقال ابن خُوَيْزمنداد: واجبٌ على الوُلاة مشاورةُ العلماءِ فيما لا يعلمون، وفيما أشكَلَ عليهم من أمور الدِّين[(٤)]، ووجوهِ الجيش فيما يتعلَّقُ بالحرب[(٥)]، ووجوهِ الناس فيما يتعلَّقُ بالمصالح، ووجوهِ الكُتَّاب والوزراء والعمال فيما يتعلَّق بمصالح البلاد وعِمارتها.

وكان يُقال: ما نَدم من استشار[(٦)]. وكان يُقال: مَن أُعجِبَ برأيه ضَلَّ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ يدلُّ على جواز الاجتهاد في الأمور والأخذِ بالظُّنون مع إمكان الوحي، فإن الله أذِنَ لرسوله ﷺ في ذلك[(٧)].

واختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي أَمر الله نبيَّهُ عليه الصلاة والسلام أن يشاورَ فيه أصحابَه، فقالت طائفةٌ: ذلك في مَكايد الحروب، وعند لقاء العدوّ، وتطييباً لنفوسهم، ورفعاً لأقدارهم، وتألُّفاً على دينهم، وإن كان الله تعالى قد أغناه

---

(١) تهذيب اللغة ١١/ ٤٠٤، ومجمل اللغة ١/ ٥١٦ ، والصحاح (شور).

(٢) في المحرر الوجيز ١/ ٥٣٤ .

(٣) أورده ابن قتيبة في عيون الأخبار ١/ ٣٢ .

(٤) في (ظ): الدنيا.

(٥) في (د): بمصالح العباد.

(٦) قطعة من حديث أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٦٢٣)، وفي الصغير (٩٨٠)، وعنه القضاعي (٧٧٤) من طريق عبد السلام بن عبد القدوس بن حبيب، عن أبيه، عن الحسن، عن أنس ﷺ مرفوعاً. قال الطبراني: لم يروه عن الحسن إلا عبد القدوس، تفرد به ولده عنه. اهـ. وعبد القدوس هذا قال فيه الذهبي في الميزان ٢/ ٦٤٣ : قال الفلاّس: أجمعوا على ترك حديثه، وقال ابن عدي: أحاديثه منكرة الإسناد والمتن.

(٧) أحكام القرآن للكيا الطبري ١/ ٣٠٥ .

عن رأيهم بوحيه. رُوي هذا عن قتادة والربيع وابن إسحاق والشافعي[١]. قال الشافعيُّ: هو كقوله: «والبِكر تُستأمَر»[٢] تطييباً لقلبها، لا أنَّه واجبٌ[٣].

وقال مقاتل وقتادة والربيع: كانت ساداتُ العرب إذا لم يُشاوَروا في الأمر شقَّ عليهم، فأمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يشاورَهم في الأمر؛ فإن ذلك أعطفُ لهم عليه، وأذهبُ لأضغانِهم، وأطيبُ لنفوسهم، فإذا شاورهم عرفوا إكرامَه لهم[٤].

وقال آخرون: ذلك فيما لم يأته فيه وَحيٌ، رُوي ذلك عن الحسن البصريِّ والضحاك قالا: ما أمر الله تعالى نبيَّه بالمشاورة لحاجةٍ منه إلى رأيهم، وإنما أرادَ أن يعلِّمَهم ما في المشاورة من الفضل، ولتقتديَ به أمتُه من بعده[٥].

وفي قراءة ابن عباس: «وشاوِرْهُمْ في بعض الأمر»[٦].

ولقد أحسن القائل:

شاوِرْ صديقَك في الخَفيِّ المُشكِلِ ... واقْبَلْ نصيحةَ ناصحٍ مُتفضِّلِ
فاللهُ قد أوصى بذاك نبيَّه ... في قوله: شاوِرْهُمُ وتَوَكَّلِ

الرابعة: جاء في مصنَّفِ أبي داود[٧] عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَن».

قال العلماء: وصِفةُ المستشار إن كان في الأحكام أن يكونَ عالماً دَيِّناً، وقلَّما

---

(١) أخرج أقوالهم الطبري ٦/ ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) في (ظ) و (م): تطيباً.

(٣) زاد المسير ١/ ٤٨٨ ، وأخرج الحديث الشافعي في مسنده ٢/ ١٢ (بترتيب السندي)، وأحمد (١٨٨٨)، ومسلم (١٤٢١) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٦٥ .

(٥) أخرجهما الطبري ٦/ ١٨٩ - ١٩٠ ، وابن أبي حاتم ٣/ ٨٠١ .

(٦) المحتسب ١/ ١٧٥ ، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٥٧) .

(٧) برقم (٥١٢٨)، وأخرجه أيضاً البخاري في الأدب المفرد (٢٥٦)، والترمذي (٢٨٢٢)، وابن ماجه (٣٧٤٥)، وصححه ابن حبان (١٩٩١) (زوائد).

يكونُ ذلك إلا في عاقل. قال الحسن: ما كَمُل دِينُ امرئٍ ما لم يكملْ عقلُه[١]. فإذا استُشيرَ مَن هذه صفتُه، واجتَهدَ في الصَّلاح، وبذلَ جهدَه، فوقعت الإشارةُ خطأً، فلا غرامةَ عليه، قاله الخطَّابيُّ وغيرُه[٢].

الخامسة: وصِفةُ المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلاً مُجرَّباً[٣] وادّاً في المُستَشير[٤]. قال:

شاوِرْ صديقَك في الخفيِّ المُشْكِلِ

وقد تقدَّم.

وقال آخر:

وإنْ بَابُ أمرٍ عليك الْتَوَى فشاوِرْ لبيباً ولا تَعْصِهِ

في أبيات[٥].

والشُّورى بركةٌ، وقال عليه الصلاة والسلام: «ما نَدِمَ مَن اسْتَشار، ولا خاب من اسْتخار»[٦].

وروى سهلُ بنُ سعد السَّاعديّ عن رسول الله ﷺ: «ما شَقِيَ قطُّ عبدٌ بمشورة، وما سَعِدَ باستغناء رأي»[٧].

وقال بعضهم: شاوِرْ من جرَّب الأمور؛ فإنه يُعطيك من رأيه ما وقع عليه غالياً

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٤ .

(٢) معالم السنن ٤/١٤٩ .

(٣) في (ظ): وكذا.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٤ .

(٥) أوّلها:

إذا كنت في حاجة مُرسِلاً فأرسِلْ حكيماً ولا توصِهِ

وتنسب لعبدالله بن معاوية كما في ديوانه ص٥١ ، وللزبير بن عبد المطلب كما في طبقات فحول الشعراء ص٢٤٦ ، ولصالح بن عبد القدوس كما في بهجة المجالس ١/ ٤٥٦.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٤ ، وسلف الحديث في المسألة الثانية.

(٧) أخرجه الشهاب القضاعي في مسنده (٧٧٣)، وفيه سليمان بن عمرو أبو داود النخعي، قال أحمد بن حنبل: كان يضع الحديث، وقال البخاري: متروك. ميزان الاعتدال ٢/ ٢١٦ .

وأنت تأخذه مجَّاناً. وقد جعل عمر بن الخطاب ﷺ الخلافةَ ـ وهي أعظمُ النَّوازل ـ شورى[١].

قال البخاريُّ[٢]: وكانت الأئمةُ بعد النبيِّ ﷺ يستشيرون الأمناءَ من أهل العلم في الأمور المُباحة ليأخذوا بأسهلها.

وقال سفيان الثوريُّ: ليكن أهلُ مشورتك أهلَ التَّقوى والأمانة، ومَن يخشى الله تعالى.

وقال الحسن: والله ما تَشَاور قومٌ بينهم إلا هَدَاهم لأفضلِ ما بحضرتهم[٣].

ورُوي عن عليِّ بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قومٍ كانت لهم مشورةٌ، فحضر معهم من اسمه أحمد أو محمد، فأدخلوه في مشورتهم إلا خِيرَ لهم»[٤].

السادسة: والشُّورى مبنيَّةٌ على اختلاف الآراء، والمستشيرُ ينظرُ في ذلك الخلاف، وينظرُ أقربَها قولاً إلى الكتاب والسنة إن أمكنَه، فإذا أرشدَه الله تعالى إلى ما شاء منه، عَزَمَ عليه وأنفذه متوكِّلاً عليه، إذْ هذه غايةُ الاجتهاد المطلوب، وبهذا أمر الله تعالى نبيَّه في هذه الآية[٥].

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ قال قتادة: أمرَ الله تعالى نبيَّه

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٤ .

(٢) في باب قوله تعالى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فتح الباري ١٣/ ٣٣٩ .

(٣) في (د) و (م): يحضر بهم، وفي (ظ): يحضرهم، والمثبت من (خ) و (ز) و(ف) وأخرج الأثر البخاري في الأدب المفرد (٢٥٨)، والطبري ٦/ ١٩٠، وابن أبي حاتم ٣/ ٨٠١ .

(٤) أخرجه ابن النجار في تاريخه ـ كما في اللآلئ المصنوعة للسيوطي ١/ ٩٦ ـ وفيه أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد المفيد، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٤٦٠ : روى مناكير عن مجاهيل، وهومتَّهم. وأخرج نحوه ابن عدي في الكامل ١/ ١٧٢ - ١٧٣ ، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات (٩٢) ، وفيه: فلم يحضروه معهم إلا لم يبارك لهم فيه. قال ابن عدي: هذا حديث غير محفوظ، [فيه] أحمد الشامي هو عندي ابن كنانة، وهو منكر الحديث. وعثمان الطرائفي عنده عجائب يروي عن المجهولين، وأورده الذهبي في الميزان في ترجمة أحمد الشامي ١/ ١٢٩ في جملة أحاديث ثم قال: وهذه أحاديث مكذوبة.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٤ .

عليه الصلاة والسلام إذا عزمَ على أمرٍ أن يَمضيَ فيه، ويتوكَّلَ على الله، لا على مشاورتهم[١].

والعزم: هو الأمر المُروَّى المُنَقَّح، وليس ركوبُ الرأي دون رويَّةٍ عَزْماً، إلا على مَقطع المُشيحين[٢] من فُتَّاك العرب، كما قال:

إذا هَمَّ ألقَى بين عينَيه عَزْمَهُ ... ونكَّبَ عن ذكرِ العواقبِ جانبا
ولم يَستَشِرْ في رأيه غيرَ نفسِه ... ولم يَرْضَ إلا قائم السَّيفِ صاحبا[٣]

وقال النقَّاش: العزمُ والحزم واحد، والحاءُ مبدَلةٌ من العين.

قال ابن عطية[٤]: وهذا خطأ، والحزم جَودةُ النظرِ في الأمر وتنقيحُه، والحذرُ من الخطأ فيه. والعزمُ قَصْدُ الإمضاء، والله تعالى يقول: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ﴾، فالمشاوَرةُ وما كان في معناها هو الحزمُ. والعرب تقول: قد أحزِمُ لو أعزِمُ[٥].

وقرأ جعفر الصَّادق وجابرُ بن زيد: «فَإِذَا عَزَمْتُ» بضم التاء[٦]. نسب العزمَ إلى نفسه سبحانه؛ إذ هو بهدايته وتوفيقه، كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]، ومعنى الكلام أي: عزمتُ لك ووفَّقتُك وأرشدتُك، فتوكَّل على الله. والباقون بفتح التاء[٧].

قال المهلَّب: وامتثل هذا النبيُّ ﷺ من أمرِ ربِّه، فقال: «لا ينبغي لنبيٍّ يلبَسُ لأْمتَه

---

(١) أخرجه الطبري ٦/ ١٩٢ .

(٢) المشيح: الحَذِر الجادُّ في الأمر المانعُ لما وراء ظهره. اللسان (شيح).

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٥١ ، والبيتان لسعد بن ناشب المازني، من كلمة له في ديوان الحماسة ١/ ٧٣-٧٤ (بشرح المرزوقي)، والكامل للمبرد ١/ ٢٦٨ ، والشعر والشعراء ص٦٩٦ ، وخزانة الأدب ٨/ ١٤١ .

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٥١ وعنه نقل المصنف قول النقاش.

(٥) الكامل للمبرد ١/ ١١٧ ، ومجمع الأمثال ٢/ ١٠٤ ، والمستقصى ٢/ ١٨٩ . قال الميداني: إن عزمتُ الرأيَ وأمضيتُه فأنا حازم، وإن تركتُ الصواب وأنا أراه وضيَّعتُ العزم لم ينفعني حزمي.

(٦) المحتسب ١ /١٧٦ ، والقراءات الشاذة ص٢٣ ، وإعراب القرآن ١/ ٤١٦ للنحاس، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٤ .

(٧) هي قراءة الجمهور، وكان من الأنسب أن يعبّر بذلك، وليس كما قال: الباقون.

أن يضعَها حتى يَحكُم الله»(١). أي: ليس ينبغي له إذا عَزَمَ أن ينصرفَ؛ لأنه نَقْضٌ للتوكُّل الذي شَرَطَه الله عزَّ وجلَّ مع العزيمة. فلُبسُه لَأُمتَه ﷺ - حين أشار عليه بالخروج يوم أُحد مَنْ أكرمَه الله بالشهادة فيه، وهم صُلحاءُ المؤمنين ممَّن كان فاتته بدرٌ: يا رسول الله اخرج بنا إلى عدوِّنا - دالٌّ على العزيمة.

وكان ﷺ أشار بالقُعود، وكذلك عبدُ الله بن أُبيّ أشار بذلك وقال: أقم يا رسول الله، ولا تَخرُجْ إليهم بالناس، فإنْ هم أقاموا، أقاموا بشرِّ مجلس(٢)، وإن جاؤوا إلى المدينة قاتلناهم في الأفنية وأفواه السِّكك، ورماهم النساءُ والصبيانُ بالحجارة من الآطام(٣)، فوالله ما حارَبَنا قطُّ عدوٌّ في هذه المدينة إلا غَلَبْناه، ولا خرجْنا منها إلى عدوٍّ إلا غَلَبَنا. وأبى هذا الرأيَ مَن ذكرنا، وشجَّعوا الناسَ، ودَعَوْا إلى الحرب. فصلَّى رسول الله ﷺ الجمعة، ودخل إثْر صلاتِه بيتَه، ولبس سلاحَه، فندِمَ أولئك القوم وقالوا: أكْرَهْنا رسولَ الله ﷺ. فلما خرج عليهم في سلاحه قالوا: يا رسول الله، أقِمْ إن شئتَ، فإنَّا لا نريد أن نُكْرِهَك، فقال النبيُّ ﷺ: «لا ينبغي لنبيٍّ إذا لبسَ سلاحَه أن يضعَها حتى يقاتل»(٤).

الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ التَّوكُّلُ: الاعتمادُ على الله مع إظهار العجز، والاسم: التُّكْلان. يقال منه: اتَّكلْتُ عليه في أمري، وأصلُه: اِوْتَكَلْتُ؛ قُلبت الواوُ ياءً لانكسار ما قبلَها، ثم أُبدلت منها التاء وأدغمت في تاء الافتعال. ويقال: وَكَّلْتُه بأمري تَوكيلاً، والاسم: الوِكالة، بكسر الواو وفتحِها(٥).

واختلف العلماء في التوكُّل، فقالت طائفة من المتصوِّفة: لا يستحقُّه إلا مَن لم يُخالِط قلبَه خوفُ غير الله من سَبُعٍ أو غيره، وحتى يتركَ السعيَ في طلب الرِّزق

---

(١) علَّقه البخاري في صحيحه، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فتح الباري ١٣/ ٣٣٩، وسترد القصة في نهاية الخبر. واللأْمة: الدِّرْع، وقيل: سلاحُ الحرب وأداتُه. النهاية (لأم).

(٢) في سيرة ابن هشام ٢/ ٦٣ (والخبر فيه بنحوه): محبِس.

(٣) هي الأبنية المرتفعة، كالحصون. النهاية (أطم).

(٤) أخرج الخبر أحمد (١٤٧٨٧) من حديث جابر بن عبدالله ﷺ، وأخرجه الحاكم ٢/ ١٢٩، والبيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢٠٤-٢٠٥ من حديث ابن عباس ﷺ، وينظر الفتح ١٣/ ٣٤١، وسيرة ابن هشام ٢/ ٦٣.

(٥) الصحاح (وكل).

لضمان الله تعالى.

وقال عامَّةُ الفقهاء ما تقدَّم ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، وهو الصحيح كما بيَّناه(١).

وقد خاف موسى وهارون بإخبار الله تعالى عنهما في قوله: ﴿لَا تَخَافَآ﴾ [طه: ٤٦]، وقال: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ [طه: ٦٧-٦٨]، وأخبر عن إبراهيم بقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ [هود: ٧٠]. فإذا كان الخليلُ وموسى الكليمُ قد خافا ـ وحسبُك بهما ـ فغيرُهما أولى. وسيأتي بيانُ هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ أي: عليه توكَّلوا، فإنه إن يُعِنْكم ويمنعْكم من عدوِّكم لن تُغلبوا. ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾: يترككُم من معونته، ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: لا ينصرُكم أحدٌ من بعده، أي: من بعد خِذْلانه إيَّاكم؛ لأنه قال: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾. والخِذلانُ: تركُ العَوْن، والمخذُول: المتروكُ لا يُعْبأ به، وخَذَلت الوحْشِيَّة: أقامت على ولدها في المرعى، وتركت صواحباتِها، فهي خَذُول. قال طَرَفة:

خَـذُولٌ تُـراعـي رَبْـرَبـاً بِـخَـمـيـلـةٍ تَـنـاولُ أطرافَ الـبَـرِيـرِ وتَـرْتَـدي(٢)

وقال أيضاً:

نَـظَـرَتْ إلـيـك بـعـيـنِ جـاريـة خَـذَلَـتْ صـواحِـبَـهـا عـلـى طِـفْـلِ(٣)

وقيل: هذا من المقلوب؛ لأنها هي المخذولة إذا تُرِكَتْ.

وتخاذلت رجلاه: ضَعُفَتا. قال:

(١) ص٢٩١ من هذا الجزء.

(٢) ديوانه ص٢١ . قال شارحه: الربرب: القطيع من الظِّباء وبقر الوحش، والخَمِيلة: أرضٌ ذات شجر، والبرير: ثمر الأراك المدرك البالغ.

(٣) لم نقف عليه.

وخَـذُولِ الـرِّجْـلِ مِـنْ غـيـرِ كَـسَـحْ[١]

ورجل خُذَلَة: للذي لا يزال يَخْذُل[٢]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: لمَّا أخلَّ الرُّماةُ يومَ أُحُدٍ بمراكزهم ـ على ما تقدَّم[٣] ـ خوفاً من أن يستوليَ المسلمون على الغنيمة، فلا يُصرفَ إليهم شيءٌ، بيَّنَ الله سبحانه أنَّ النبيَّ ﷺ لا يجورُ في القِسْمة، فما كان من حقِّكم أن تتَّهموه[٤].

وقال الضحَّاك: بل السببُ أن رسول الله ﷺ بعَثَ طلائعَ في بعض غزواته، ثم غَنِمَ قبل مجيئهم، فقسَمَ للناس، ولم يقسِمْ للطَّلائع، فأنزل الله عليه عِتاباً: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أي: يقسمَ لبعض ويتركَ بعضاً. ورُوي نحو هذا القول عن ابن عباس[٥].

وقال ابنُ عباس أيضاً وعِكْرمةُ وابن جُبير وغيرهم: نزلت بسبب قطيفةٍ حمراءَ فُقِدت من المَغانم يومَ بدر، فقال بعضُ مَنْ كان مع النبيِّ ﷺ: لعلَّ رسولَ الله ﷺ[٦] أخَذَها، فنزلت الآيةُ. أخرجه أبو داود والتِّرمذِيُّ، وقال: هذا حديثٌ حسن غريب[٧].

قال ابنُ عطية[٨]: قيل: كانت هذه المقالةُ من مؤمنين لم يظنُّوا أن في ذلك حَرَجاً. وقيل: كانت من المنافقين، وقد رُويَ أن المفقودَ كان سيفاً. وهذه الأقوال

---

(١) عجز بيت للأعشى، وصدره: بينَ مغلوبٍ تَلِيلٍ خَدُّهُ. وهو في ديوانه ص٢٩٣ .

(٢) مجمل اللغة ١/ ٢٨١ ، ومقاييس اللغة ٢/ ١٦٥ .

(٣) ص٣٥٨ من هذا الجزء .

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٦٦ .

(٥) تفسير الطبري ٦/ ١٩٦ - ١٩٧ .

(٦) في (د) و (م): لعل أن يكون رسول الله ﷺ.

(٧) سنن أبي داود (٣٩٧١)، وسنن الترمذي (٣٠٠٩) وهو من طريق خُصيف، عن مقسم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب... وروى بعضهم هذا الحديث عن خُصيف، عن مقسم، ولم يذكر فيه عن ابن عباس.

(٨) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٥ .

تُخَرَّج على قراءة: «يَغُلَّ» بفتح الياء وضمِّ الغين(١).

وروى أبو صخرٍ عن محمد بن كعب: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ قال: يقولُ: وما كان لنبيٍّ أن يكتُمَ شيئاً من كتاب الله.

وقيل: اللامُ فيه منقولةٌ، أي: وما كان نبيٌّ لِيَغُلَّ، كقوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ [مريم: ٣٥] أي: ما كان الله ليتَّخِذَ ولداً(٢).

وقُرئ: «يُغَلَّ»، بضمِّ الياء وفتح الغين(٣).

قال ابن السِّكِّيت(٤): [وأما المَغْنم فلم نسمَعْ فيه إلا: غَلَّ يَغُلُّ غُلولاً، وقُرئ في كتاب الله عز وجل]: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ و«يُغَلّ». قال: فمعنى(٥) «يَغُل»: يَخُون، ومعنى «يُغَلّ»: يُخَوَّن، ويحتمل معنيين: أحدُهما يُخان، أي: يُؤخَذ من غنيمته، والآخر يُخَوَّن، أي: يُنسب إلى الغُلُول(٦). ثم قيل: إنَّ كلَّ من غَلَّ شيئاً في خفاءٍ، فقد غَلَّ يَغُلُّ غُلولاً.

قال ابنُ عَرَفة: سُمِّيت غُلولاً؛ لأن الأيديَ مَغلولةٌ منها، أي: ممنوعة.

وقال أبو عُبيد(٧): الغُلُول من المَغْنم خاصَّةً، ولا نراه من الخيانة ولا من الحِقْد، ومما يُبيِّن ذلك أنه يقال من الخيانة: أَغَلَّ يُغِلُّ، ومن الحِقْد: غَلَّ يَغِلُّ؛ بالكسر، ومن الغُلول: غَلَّ يَغُلُّ بالضم. وغَلَّ البعيرُ أيضاً: إذا لم يَقْضِ رِيَّه، وأَغَلَّ الرجلُ: خان، قال النَّمِرُ:

جزى الله عنَّا حمزة ابنةَ نَوْفَلٍ ... جزاءَ مُغِلٍّ بالأمانة كاذبِ(٨)

---

(١) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم. السبعة ص٢١٨، والتيسير ص٩١.

(٢) معاني القرآن للنحاس ١/ ٥٠٣، وتفسير البغوي ١/ ٣١٢.

(٣) وهي قراءة نافع وحمزة الكسائي وابن عامر. السبعة ص٢١٨، والتيسير ص٩١.

(٤) إصلاح المنطق ص٢٩٦، وما بين حاصرتين منه.

(٥) في (د): قال: يجور، وقيل: معنى.

(٦) معاني القرآن للنحاس ١/ ٥٠٤، وردّ المعنى الثاني وقال: لا يصحّ.

(٧) غريب الحديث ١/ ٢٠٠.

(٨) الصحاح، واللسان (غلل)، ووقع في الأغاني ٢٢/ ٢٧٦: جمرة، وذكر أبو الفَرَج فيه أنها امرأة =

وفي الحديث: «لا إغْلالَ ولا إسْلال»[١] أي: لا خيانةَ ولا سرقة، ويقال: لا رِشْوة. وقال شُرَيح: ليس على المُسْتعير غير المُغِلِّ ضمانٌ[٢].

وقال ﷺ: «ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ مؤمن»[٣]. من رواه بالفتح فهو من الضِّغْن[٤].

وغَلَّ [أيضاً: دخل] يتعدَّى ولا يتعدَّى، يقال: غَلَّ فلان المفاوز، أي: دخلَها وتوسَّطَها، وغَلَّ من المغنم غُلولاً، أي: خان، وغَلَّ الماءُ بين الأشجار: إذا جرى فيها، يَغُلُّ، بالضمِّ في جميع ذلك.

وقيل: الغُلُول في اللغة: أن يأخذَ من المَغْنَم شيئاً يستُره عن أصحابه، ومنه تَغَلْغل الماءُ في الشجر: إذا تخلَّلها، والغَلَل: الماء الجاري في أصول الشجر؛ لأنه مستترٌ بالأشجار، كما قال:

لَعِبَ السُّيُولُ به فأصبحَ ماؤه غَلَلًا تَقَطَّعَ في أصولِ الخِرْوَعِ[٥]

ومنه الغِلَالة: للثوب الذي يُلبس تحت الثياب، والغالُّ: أرضٌ مطمئنةٌ ذاتُ شجر. ومنابتُ السَّلْم[٦] والطَّلْح يقال لها: غالٌّ. والغالُّ أيضاً: نَبْت، والجمع غُلَّان بالضم[٧].

وقال بعض الناس: إن معنى «يُغَلّ» يوجد غالّاً، كما تقول: أحمدتُ الرجلَ: وجدتُه محموداً، فهذه القراءة على هذا التأويل ترجع إلى معنى «يَغُلّ» بفتح الياء وضم

= أسرَها الحارث من بني أسد (أخو النمر)، ووهبها له، فكرهته، فحبسها عنده وولدت له، ثم طلبت أن تزور أهلها وواثقته لترجعنَّ إليه، فنقضت عهدها ولم ترجع إليه.

(١) هو قطعة من حديث صلح الحديبية، أخرجه أحمد (١٨٩١٠) وأبو داود (٢٧٦٦) من حديث المسور ابن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ١٩٨ .

(٣) أخرجه أحمد (٢١٥٩٠)، والترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣٠) من حديث زيد بن ثابت ﷺ.

(٤) غريب الحديث لأبي عبيد ١/ ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٥) البيت للحادرة، وهو في ديوانه ص٥٠ ، والخِرْوَع: نبت لا يُرعى. القاموس (خرع).

(٦) في (خ): الساح، وفي (ظ): الساج، والسَّلْم: شجر، كما في القاموس.

(٧) الصحاح: (غلل): وما سلف بين حاصرتين منه.

الغين.

ومعنى «يُغَلّ» عند جمهور أهل العلم أي: ليس لأحدٍ أن يَغُلَّه، : أي: يخونَه في الغنيمة.

فالآية في معنى نَهْي الناس عن الغُلول في الغنائم، والتَّوَعُّد عليه. وكما لا يجوزُ أن يُخان النبيُّ ﷺ؛ لا يجوز أن يُخان غيرُه، ولكن خصَّه بالذِّكر؛ لأن الخيانة معه أشدُّ وقْعاً وأعظمُ وِزْراً؛ لأن المعاصيَ تَعظُم بحضرته؛ لِتعيُّنِ توقيره. والوُلاة إنما هم على أمر النبيِّ ﷺ، فلهم حظُّهم من التَّوقير[(١)].

وقيل: معنى ﴿يَغُلَّ﴾ أي: ما غَلّ نبيٌّ قطُّ، وليس الغرضُ النَّهْيَ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: يأتي به حاملاً له على ظهره ورقبته، مُعذَّباً بحمله وثِقَله، ومَرعُوباً بصوته، ومُوَبَّخاً بإظهار خيانته على رؤوس الأشهاد؛ على ما يأتي[(٢)].

وهذه الفضيحة التي يُوقِعُها الله تعالى بالغالّ نظيرُ الفضيحة التي تُوقَع[(٣)] بالغادر، في أنْ يُنصَبَ له لواءٌ عند استِه بقدر غَدْرَته[(٤)].وجعل الله تعالى هذه المعاقباتِ حَسْبَما يَعْهَدُه البشر ويَفْهَمُونه، ألا ترى إلى قول الشاعر[(٥)]:

أَسُمَيَّ ويحَكِ هل سمعتِ بِغَدْرةٍ ... رُفِعَ اللواءُ لنا بها في المَجْمَعِ

وكانت العرب ترفعُ للغادِر لِواءً، وكذلك يُطافُ بالجاني مع جِنايته[(٦)].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٦ .

(٢) في حديث مسلم الذي سيذكره قريباً.

(٣) في (ظ): يوقعها.

(٤) في المحرر الوجيز ١/ ٥٣٦ - والكلام منه -: ينصب له لواء بغدرته حسب قوله عليه الصلاة والسلام. وأخرج أحمد (١١٣٠٣)، ومسلم (١٧٣٨): (١٥) من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به عند اسْتِهِ». وأخرجه البخاري (٣١٨٨) ومسلم (١٧٣٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما دون قوله: «عند اسْتِهِ».

(٥) هو الحادرة، والبيت في ديوانه ص٥١ .

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٦ .

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قامَ فينا رسولُ الله ﷺ ذاتَ يومٍ، فذكر الغُلُول، فعظَّمه، وعظَّمَ أمره، ثم قال: «لا أُلفِيَنَّ أحدَكم يجيءُ يومَ القيامة؛ على رقبته بَعِيرٌ له رُغاء، يقول: يا رسول اللهِ، أغثني، فأقولُ: لا أملكُ لك شيئاً، قد أبلغتُك.

لا أُلْفِيَنَّ أحدَكم يجيءُ يوم القيامة؛ على رقبته فرسٌ له حَمْحَمَة، فيقول: يا رسول الله، أغِثني، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً، قد أبلغتُك.

لا أُلْفِيَنَّ أحدَكم يجيءُ يوم القيامة على رقبته شاةٌ لها ثُغاء، يقول: يا رسول الله أغِثني، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً، قد أبلغتُك.

لا أُلْفِيَنَّ أحدَكم يجيءُ يوم القيامة؛ على رقبته نَفْسٌ لها صِياحٌ، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً، قد أبلغتُك.

لا أُلْفِيَنَّ أحدَكم يجيءُ يوم القيامة؛ على رقبته رِقاعٌ تَخْفِقُ، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً، قد أبلغتُك.

لا أُلْفِيَنَّ أحدَكم يجيءُ يوم القيامة؛ على رقبته صامِتٌ، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً، قد أبلغتُكَ»[(١)].

وروى أبو داود[(٢)] عن سَمُرة بن جُنْدُب[(٣)] قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصابَ غَنِيمةً؛ أمر بلالاً، فنادى في الناس، فيجيئون بغنائمهم، فَيَخْمُسُه ويَقسِمُه، فجاء رجلٌ يوماً بعد النداء بزِمامٍ من الشَّعر، فقال: يا رسول الله، هذا كان فيما أصبناه من الغنيمة. فقال: «أسمعتَ بلالاً ينادي ثلاثاً»؟ قال: نعم. قال: «فما منعك أن تجيءَ

---

(١) صحيح مسلم (١٨٣١)، وأخرجه أيضاً البخاري (٣٠٧٣)، وهو في المسند (٩٥٠٣). قوله: «رِقاع تخفق»، أي: تحركها الرياح فتضطرب، وأراد بالرِّقاع: ما عليه من الحقوق المكتوبة في الرِّقاع، و«الصامت»: الذهب والفضة. المفهم ٤/ ٢٩، والنهاية (رقع).

(٢) في سننه (٢٧١٢).

(٣) كذا أورده المصنف عن سمرة بن جندب، وكذا أورده ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وهو وهم، فقد أخرجه أبو داود من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (٢٧١٢)، وذكره المزي في تحفة الأشراف ٦/ ٣٤٧. أما حديث سمرة بن جندب فهو عند أبي داود (٢٧١٦) بلفظ: أما بعد، وكان رسول الله ﷺ يقول: «من كتم غالاً فهو مثله». وحديث ابن عمرو في المسند رقم (٦٩٩٦).

به»؟ فاعتذر إليه، فقال: «كُنْ[١] أنت تجيءُ به يومَ القيامة، فلن أقْبَلَه منك».

قال بعض العلماء: أراد: يُوافَى بوزر ذلك يومَ القيامة، كما قال في آية أخرى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقيل: الخبر محمولٌ على شهرة الأمر، أي: يأتي يوم القيامة قد شَهَّر الله أمرَه، كما يُشَهَّر لو حملَ بَعِيراً له رُغاء، أو فرساً له حَمْحَمَةٌ.

قلت: وهذا عُدولٌ عن الحقيقة إلى المجاز والتَّشبيه، وإذا دَار الكلامُ بين الحقيقة والمجاز؛ فالحقيقةُ الأصلُ؛ كما في كُتُب الأصول[٢]. وقد أخبر النبيُّ ﷺ بالحقيقة، ولا عِطْرَ بعد عَرُوس[٣].

ويُقال: إنَّ مَنْ غَلَّ شيئاً في الدنيا يُمَثَّلُ له يومَ القيامة في النار، ثم يُقَالُ له: انْزِلْ إليه فَخُذْه، فيَهبِطُ إليه، فإذا انتهى إليه حَمَلَه، حتى إذا انتهى إلى الباب، سَقَط عنه إلى أسفل جَهَنَّم، فيرجعُ إليه فيأخُذُه، لا يزالُ هكذا إلى ما شاء الله.

ويقال: ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾: يعني تَشْهَدُ عليه يومَ القيامة تلك الخيانةُ والغُلولُ.

الثالثة: قال العلماء: والغُلولُ كبيرةٌ من الكَبائر؛ بدليل هذه الآية، وما ذكرناه من حديث أبي هُرَيرةَ أنَّه يحمِلُه على عُنُقِه. وقد قال ﷺ في مِدْعَم: «والذي نفسي بيده، إن الشَّمْلَةَ التي أخَذَ يومَ خيبرَ[٤] من المغانم لم تُصِبْها المَقاسِمُ، لَتشتعلُ عليه ناراً». قال: فلمَّا سمع الناسُ ذلك جاء رجلٌ بِشِراكٍ أو شِراكَيْنِ إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «شِراكٌ أو شِراكانِ من نار». أخرجه «الموطَّأ»[٥].

فقوله عليه الصلاة والسَّلام: «والذي نفسي بيده»، وامتناعُه من الصَّلاة على مَنْ غَلَّ[٦]، دليلٌ على تعظيم الغُلول وتعظيمِ الذَّنب فيه، وأنه من الكبائر، وهو من حقوق

---

(١) في النسخ: كلا، والمثبت من سنن أبي داود.

(٢) ينظر المستصفى ١/ ٢٣ وما بعدها، والمحصول ١/ ٣٣٩ .

(٣) من أمثال العرب، ويروى: ولا مخبأ لعطر بعد عروس. مجمع الأمثال ٢/ ٢١١ .

(٤) في (ظ): أُحد، وهو خطأ.

(٥) ٢/ ٤٥٩ ، وأخرجه أيضاً البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم (١١٥). ومدعم: عبد أسود أهداه رفاعة بن زيد للنبي ﷺ يوم خيبر. الفتح ٧/ ٤٨٩ .

(٦) سيرد ذكره في المسألة التالية.

الآدميِّين، ولابدَّ فيه من القِصاص بالحسنات والسيِّئات، ثم صاحِبُه في المشيئة.

وقوله: «شِراكٌ أو شِراكانِ من نار» مثل قوله: «أدُّوا الخِياطَ والمِخْيَط»[1]. وهذا يدلُّ على أنَّ القليلَ والكثيرَ لا يحلُّ أخذُه في الغَزْوِ قبل المَقَاسم، إلا ما أجمعوا عليه من أكل المطاعم في أرض الغزو، ومن الاحتطاب، والاصطياد.

وقد رُوِيَ عن الزُّهْرِيِّ أنه قال: لا يؤخَذُ الطعام في أرض العدوِّ إلا بإذن الإمام. وهذا لا أصلَ له؛ لأنَّ الآثار تُخالفه[2]، على ما يأتي:

قال الحسن: كان أصحابُ رسول الله ﷺ إذا افتتحوا المدينةَ أو الحِصْنَ، أكلوا من السَّوِيق والدقيق والسَّمْن والعسل.

وقال إبراهيم: كانوا يأكلون من أرض العدوِّ الطعامَ في أرض الحرب ويَعْلِفُون قبل أن يُخَمِّسُوا.

وقال عطاء في الغزاة يكونون في السَّرِيَّة، فيصيبون أَنْحاء السمن والعسل والطعام؛ قال: يأكلون[3]، وما بقي ردُّوه إلى إمامهم[4]. وعلى هذا جماعةُ العلماء.

الرابعة: وفي هذا الحديث دليلٌ على أنَّ الغالَّ لا يُحرَقُ متاعُه؛ لأنَّ رسول الله ﷺ لم يُحْرِق رَحْل[5] الذي أخذَ الشَّمْلة ولا متاعَه[6]، ولا أَحْرَقَ متاعَ صاحبِ الخَرَزات الذي ترك الصلاةَ عليه، ولو كان حَرْقُ متاعِه واجباً لَفعلَه ﷺ، ولو فعلَه لَنُقل ذلك في الحديث[7].

---

(١) أخرجه مطولاً أحمد (٦٧٢٩)، وأبو داود (٢٦٩٤) والنسائي في المجتبى ٦/ ٢٦٢ - ٢٦٤ من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما. قوله: الخياط: الخيط، والمِخْيَط، بالكسر: الإبرة. النهاية (خيط).

(٢) التمهيد ٢/ ١٨ - ١٩ .

(٣) في (د) و (م): فيأكلون، دون لفظ: قال.

(٤) الآثار الثلاثة عن الحسن وإبراهيم وعطاء أخرجها ابن أبي شيبة ١٢/ ٤٤٠. قوله: أنحاء السمن، واحده: نِحْي، وهو زِقُّ السمن. الصحاح: (نحى).

(٥) في (د) و (م): متاع الرجل، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لما في التمهيد ٢/ ٢١.

(٦) قوله: ولا متاعه: ليس في (د) و (م).

(٧) التمهيد ٢/ ٢١ . وحديث صاحب الخرزات أخرجه أحمد (١٧٠٣١)، وأبو داود (٢٧١٠) والنسائي ٤/ ٦٤ ، وابن ماجه (٢٨٤٨) من حديث زيد بن خالد الجهني أن رجلاً من المسلمين توفي بخيبر، =

وأما ما رُوي عن عمر بن الخطَّاب ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا وجدتُم الرجلَ قد غَلَّ؛ فأحرقوا متاعَه واضْرِبوه». فرواه أبو داود والترمذيُّ[١] من حديث صالح بن محمد بن زائدة، وهو ضعيفٌ لا يُحتجُّ به. قال التِّرمذيُّ: سألت محمداً ـ يعني البخاريَّ ـ عن هذا الحديث، فقال: إنما روى هذا صالح بنُ محمد، وهو أبو واقدٍ الليثيُّ، وهو منكَر الحديث.

وروى أبو داود[٢] أيضاً عنه قال: غَزَوْنا مع الوليد بن هشام، ومعنا سالم بنُ عبدالله بن عمر، وعمر بنُ عبد العزيز، فغَلَّ رجلٌ متاعاً، فأمرَ الوليد بمتاعه فأُحرق، وطِيْفَ به، ولم يُعطِه سهمَه. قال أبو داود: وهذا أصحُّ الحديثين.

وروى[٣] من حديث عَمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جدِّه، أنَّ رسول الله ﷺ وأبا بكرٍ وعمر حَرَّقوا متاعَ الغالِّ وضربوه. قال أبو داود: وزاد فيه عليُّ بنُ بَحْر عن الوليد ـ ولم أسمَعْه منه ـ: ومَنَعُوه سهمَه.

قال أبو عمر[٤]: قال بعضُ رواة هذا الحديث: فاضْرِبوا عنقَه، وأحْرِقوا متاعَه. وهذا الحديثُ يدور على صالح بن محمد، وليس ممن يُحتجُّ به.

وقد ثبتَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا يَحِلُّ دَمُ امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث»[٥]. وهو ينفي القتلَ في الغُلول.

وروى ابن جُرَيْج، عن أبي الزبير، عن جابر، عن النبيِّ ﷺ قال: «ليس على الخائن، ولا على المُنْتَهِب، ولا على المختلس قَطْعٌ»[٦]. وهذا يعارِضُ حديثَ صالح

= وأنه ذُكر لرسول الله ﷺ فقال: «صلوا على صاحبكم» قال: فتغيرت وجوه القوم لذلك، فلما رأى الذي بهم قال: «إن صاحبكم غلَّ في سبيل الله» ففتشنا متاعه، فوجدنا فيه خرزاً من خرز اليهود ما يساوي درهمين.

(١) سنن أبي داود (٢٧١٣)، وسنن الترمذي (١٤٦١).

(٢) في سننه (٢٧١٤).

(٣) سنن أبي داود (٢٧١٥)، وضعفه البيهقي في السنن ٩/ ١٠٢ .

(٤) التمهيد ٢/ ٢٢ .

(٥) أخرجه أحمد (٣٦٢١)، والبخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (١٥٠٧٠)، وأبو داود (٤٣٩١) و (٤٣٩٢) و (٤٣٩٣)، والترمذي (١٤٤٨)، والنسائي ٨/ ٨٨ ، وابن ماجه (٢٥٩١). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم.

ابن محمد، وهو أقوى من جهة الإسناد. والغالُّ خائنٌ في اللغة والشَّريعة، وإذا انتفى عنه القطعُ فأحرى القتلُ[١].

وقال الطَّحاويُّ[٢]: لو صحَّ حديثُ صالحٍ المذكورُ، احتمَلَ أن يكون حين كانت العقوباتُ في الأموال، كما قال في مانع الزكاة: «إنا آخِذُوها وشَطْرَ مالِهِ، عَزْمةً من عزماتِ الله تعالى»[٣]، وكما روى[٤] أبو هريرة في ضالَّةِ الإبل المكتومة: «فيها غَرامتُها ومِثْلُها معها»[٥]، وكما روى عبدالله بنُ عَمرو بنِ العاص في الثَّمر المعلَّق: «غَرامةُ مِثْلَيْه، وجَلَداتُ نَكالٍ»[٦]. وهذا كلُّه منسوخ[٧]، والله أعلم.

الخامسة: فإذا غلَّ الرجلُ في المَغنم ووُجِد، أُخِذ منه وأُدِّب، وعُوقب بالتعزير. وعند مالك والشافعيِّ وأبي حنيفة وأصحابهم واللَّيث: لا يُحرق متاعُه، وقال الشافعيُّ واللَّيث وداود: إن كان عالماً بالنَّهي عُوقب، وقال الأوزاعيُّ: يُحرق متاعُ الغالِّ كلُّه إلا سلاحَه وثيابَه التي عليه وسَرْجَه، ولا تُنزع منه دابتُه، ولا يُحرق الشيءُ الذي غلَّ. وهذا قول أحمد وإسحاق. وقال[٨] الحسن: إلا أن يكونَ حيواناً أو مصحفاً.

وقال ابن خُوَيْزمَنداد: ورُوي أن أبا بكرٍ وعمر رضي الله عنهما ضربا الغالَّ وأحرقا متاعَه[٩].

---

(١) في (ظ): فالحرق أحرى. وينظر التمهيد ٢/ ٢٣ .

(٢) ينظر مختصر اختلاف العلماء ٣/ ٤٧٦ .

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٠١٦)، وأبو داود (١٥٧٥)، والنسائي ٥/ ٢٥ من حديث معاوية بن حَيْدة ﷺ.

(٤) في النسخ: قال: والمثبت من التمهيد ٢/ ٢٣ .

(٥) أخرجه أبو داود (١٧١٨). قوله: المكتومة: أي التي كتمها الواجد، ولم يعرّفها، ولم يُشهد عليها. عون المعبود ٥/ ١٠٧ .

(٦) أخرجه أحمد (٦٦٨٣)، وأبو داود (١٧١٠)، والنسائي في المجتبى ٨/ ٨٦ .

(٧) التمهيد ٢/ ٢٣ ، وقد نقل المصنف عنه كلام الطحاوي.

(٨) في (د) و (م): وقاله، والمثبت من (خ) و (ظ)، وينظر الأوسط لابن المنذر ١١/ ٥٥ .

(٩) أثر أبي بكر وعمر أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٤٩٦ من طريق عمرو بن شعيب بلاغاً. وقد سلف في المسألة السابقة ضمن حديث عبدالله بن عمرو.

قال ابن عبد البر(١): وممن قال يُحرق رَحْل الغالِّ ومتاعُه: مكحولٌ وسعيدُ بن عبد العزيز، وحُجَّة من ذهب إلى هذا حديثُ صالحِ المذكورُ، وهو عندنا حديثٌ لا يجبُ به انتهاكُ حُرْمة، ولا إنفاذُ حُكْم؛ لما يعارِضُه من الآثار التي هي أقوى منه. وما ذهب إليه مالكٌ ومن تابعه في هذه المسألة أصحُّ من جهة النَّظَر وصحيحِ الأثر. والله أعلم.

السادسة: لم يختلف مذهب مالك في العقوبة على البَدَن، فأما في المال؛ فقال في الذِّمِّي يبيعُ الخمرَ من المسلم: تُراقُ الخمر على المسلم، ويُنزع الثمنُ من الذِّمِّي عقوبةً له؛ لئلّا يبيعَ الخمر من المسلمين. فعلى هذا يجوز أن يقال: تجوزُ العقوبة في المال، وقد أراقَ عمرُ ﷺ لَبَناً شِيْبَ بماء(٢).

السابعة: أجمع العلماء على أن الغالَّ يجب أنْ يردَّ(٣) جميعَ ما غَلَّ إلى صاحب المَقاسِم قبل أن يَفترِقَ الناسُ إن وجَدَ السبيلَ إلى ذلك(٤)، وأنه إذا فعل ذلك؛ فهي توبةٌ له، وخروجٌ عن ذنبه. واختلفوا فيما يفعلُ به إذا افترقَ أهلُ العسكر ولم يَصِلْ إليه، فقال جماعةٌ من أهل العلم: يدفع إلى الإمام خُمُسَه، ويتصدَّقُ بالباقي. هذا مذهبُ الزُّهريِّ ومالكٍ والأوزاعيِّ واللَّيث والثوريّ، ورُوِيَ عن عُبادةَ بنِ الصَّامت ومعاويةَ والحسنِ البصريِّ، وهو يُشْبه مذهبَ ابن مسعود وابن عباس؛ لأنهما كانا يَريان أن يُتَصَدَّقَ بالمال الذي لا يُعرف صاحبُه(٥)، وهو مذهبُ أحمدَ بنِ حنبل. وقال الشافعيُّ: ليس له الصَّدقة بمال غيره.

قال أبو عمر(٦): فهذا عندي فيما يمكن وجودُ صاحبه والوصولُ إليه، أو إلى ورثتِه، وأمَّا إن لم يكن شيءٌ من ذلك؛ فإن الشافعيَّ لا يكره الصَّدقةَ حينئذٍ إن شاء

(١) التمهيد ٢/ ٢٣، وما قبله منه دون قول ابن خويز منداد.

(٢) أورده ابن عبد البر في التمهيد ٦/ ١٥٥.

(٣) في (د) و (م): للغالّ أن يردّ.

(٤) حكى الإجماع ابن المنذر في الأوسط ١١/ ٦٠.

(٥) ذكر هذه الآثار غير قول عبادة ابنُ المنذر في الأوسط ١١/ ٦٠ - ٦١.

(٦) التمهيد ٢/ ٢٣ - ٢٤، وما قبله منه.

الله. وقد أجمعوا في اللُّقَطة على جواز الصَّدقة بها بعد التعريف لها وانقطاع صاحبها، وجعلوه ـ إذا جاء ـ مخيَّراً بين الأجر والضَّمان[١]، وكذلك المغصوب. وبالله التوفيق.

وفي تحريم الغُلُول دليلٌ على اشتراك الغانمين في الغنيمة، فلا يحلُّ لأحدٍ أن يستأثر بشيء منها دون الآخر، فمن غَصَب شيئاً منها أُدِّب اتفاقاً على ما تقدَّم.

الثامنة: وإن وطئ جاريةً، أو سرَقَ نِصاباً، فاختلف العلماء في إقامة الحدِّ عليه، فرأى جماعةٌ أنه لا قَطْعَ عليه.

التاسعة: ومن الغُلُول هدايا العمال، وحُكْمُه في الفضيحة في الآخرة حُكْم الغالِّ؛ روى أبو داود في «سُننه»، ومُسْلمٌ في «صحيحه»[٢] عن أبي حُميد الساعِديِّ، أن النبيَّ ﷺ استعمَلَ رجلاً من الأَزْد يقال له: ابن اللُّتْبِيَّة ـ قال ابن السَّرْح[٣]: ابن الأُتْبِيَّة ـ على الصَّدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أُهديَ لي، فقام النبيُّ ﷺ على المنبر، فحمِدَ الله وأثنى عليه وقال: «ما بالُ العامل نبعثُه، فيجيءُ فيقول: هذا لكم وهذا أُهْديَ لي؟ ألَا جلَسَ في بيت أمِّه أو أبيه، فينظرَ أيُهدَى إليه أم لا؟ لا يأتي أحدٌ منكم بشيء من ذلك إلا جاء به يوم القيامة؛ إن كان بعيراً فله رُغاء، وإن كانت بقرةً فلها خُوار، أو شاةً تَيْعَر». ثم رفَعَ يديه حتى رأينا عُفْرَتَي إبْطَيه، ثم قال: «اللهمَّ هل بلَّغتُ، اللهمَّ هل بلَّغتُ».

وروى أبو داود[٤] عن بُريدةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنِ استعملناه على عملٍ، فرزَقْناه رِزْقاً، فما أخَذَ بعد ذلك فهو غُلُول».

وروى أيضاً[٥] عن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ قال: بعثني رسولُ الله ﷺ ساعياً ثم

---

(١) ما نقله ابن عبد البر من الإجماع فيه نظر، فقد قال ابن المنذر في الإجماع ص١١٨ في كتاب اللقطة: لم يثبت فيها إجماع. وحكى فيها الخلاف في الإشراف ١/ ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٢) صحيح مسلم (١٨٣٢)، وسنن أبي داود (٢٩٤٦)، وأخرجه أيضاً البخاري (٧١٧٤). وهو في المسند (٢٣٥٩٨) .

(٣) هو أحمد بن عمرو بن عبدالله، أحد شيخَي أبي داود الذي روى عنه هذا الحديث.

(٤) في سننه (٢٩٤٣).

(٥) في سننه (٢٩٤٧).

قال: «انْطَلِقْ أبا مسعود، ولا أُلْفِينَّكَ يومَ القيامة تجيءُ[١]؛ على ظهرك بعيرٌ من إبل الصَّدَقة له رُغاءٌ قد غَلَلْتَه»، قال: إذاً لا أنطلِقُ، قال: «إذاً لا أُكرِهُكَ».

وقد قيَّد هذه الأحاديثَ ما رواه أبو داود أيضاً[٢] عن المُسْتورِد بن شَدَّاد قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «مَنْ كان لنا عاملاً، فلْيكْتَسِبْ زوجةً، فإن لم يكنْ له خادمٌ، فلْيَكْتَسِبْ خادماً، فإن لم يكن له مسكنٌ، فلْيكتَسِبْ مَسْكَناً». قال: فقال أبو بكر: أُخبِرتُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَنِ اتَّخذَ غيرَ ذلك، فهو غالٌ [أو] سارق». والله أعلم.

العاشرة: ومن الغُلُول حبسُ الكُتُب عن أصحابها، ويدخُلُ غيرها في معناها. قال الزُّهريُّ: إيَّاك وغُلولَ الكُتب، فقيل له: وما غُلُولُ الكتب؟ قال: حبسُها عن أصحابها[٣].

وقد قيل في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾: أن يكتُمَ شيئاً من الوحي رَغْبةً أو رَهْبة أو مُداهنةً؛ وذلك أنهم كانوا يكرهون ما في القرآن من عَيْبِ دينِهم وسَبِّ آلهتم، فسألوه أنْ يَطوِيَ ذلك، فأنزل الله هذه الآية، قاله محمد بن بشار[٤]، وما بدأنا به قولُ الجمهور.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ تقدّم القول فيه.[٥]

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ يُريد: بتَركِ الغُلول، والصَّبر على الجهاد. ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يُريد: بكُفْرٍ، أو غُلولٍ، أو تَولٍّ عن النبيِّ ﷺ في الحرب.

---

(١) في (د) و (م): تأتي، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق لسنن أبي داود.

(٢) في سننه (٢٩٤٥)، وما سيرد بين حاصرتين منه، وهو في مسند أحمد (١٨٠١٥).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٣٧٣.

(٤) في (خ) و (ظ): يسار. ولم نعرفه، وذكر القولَ الألوسيُّ في روح المعاني ٤/ ١٠٩ - ١١٠ وقال: ولا يخفى أنه بعيد جداً، ولا أدري سند هذه الرواية، ولا أظن الخبر إلا موضوعاً.

(٥) ٤/ ٤٢١.

﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ﴾ أي: مَثْوَاهُ النار إن[١] لم يَتُب أو يعفُ الله عنه. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجِع. وقرئ: رِضْوانُ، بكسر الراء وضَمّها[٢]، كالعُدوان والعِدوان.

ثم قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾، أي: ليس من اتّبَع رِضْوانَ الله كَمَن باءَ بسَخَطٍ منه، بل درجاتُهم[٣] مُتفاوِتةٌ، أي: هم مُختلفُو المنازلِ عند الله؛ فَلِمنِ اتَّبعَ رضوانَه الكَرامةُ والثَّوابُ العظيمُ، ولِمن بَاءَ بِسَخَطٍ منه المَهانةُ والعذابُ الأليم.[٤]

ومعنى «هُمْ دَرَجَاتٌ»، أي: ذَوُو[٥] دَرَجات، أو: على دَرَجات، أو: في دَرَجاتٍ، أو: لهم دَرَجاتٌ. وأهلُ النارِ أيضاً ذوو درجات[٦]؛ كما قال: «وجدتُه في غَمَراتٍ من النار، فأخرجتُه إلى ضَحْضَاح».[٧]

فالمؤمن والكافرُ لا يستويان في الدَّرجة، ثمَّ المؤمنون يختلفون أيضاً، فبعضُهم أرفعُ درجةً من بعض، وكذلك الكفار. والدرجةُ: الرُّتْبة، ومنه الدَّرَج؛ لأنه يُطْوَى رُتْبةً بعد رُتْبة. والأشهرُ في منازل جهنَّم: دَرَكات؛ كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، فلمن لم يَغُلَّ دَرَجاتٌ في الجنة، ولمن غَلَّ دَرَكاتٌ في النار.

قال أبو عبيدة[٨]: جهنّمُ أدْرَاكٌ، أي: منازل؛ يقال لكلِّ منزلٍ منها: دَرَك ودَرْك. والدَّرَكُ إلى أسفل، والدَّرَجُ إلى أعلى.

---

(١) في (م): أي إن.

(٢) قرأ بضم الراء عاصم في رواية شعبة، وقرأ الباقون بكسرها. السبعة ص٢٠٢، والتيسير ص٨٦.

(٣) في (د) و(م): قيل: هم درجات، وفي (ظ): بل درجات، والمثبت من (خ) و(ز).

(٤) الوسيط ١/ ٥١٦ .

(٥) في النسخ: ذو (في الموضعين)، والمثبت من (م).

(٦) في (د): دركات.

(٧) أخرجه أحمد (١٧٦٣)، والبخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩) من حديث العبَّاس بن عبد المطلب ﷺ، وقوله: ضَحْضَاح: هو ما رقَّ من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين، فاستعاره للنار. النهاية (ضحضح).

(٨) في النسخ: أبو عبيد، والمثبت من (م)، ولسان العرب (درك)، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ١٠٧ - ١٠٨ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

بيَّنَ الله تعالى عظيمَ مِنَّته عليهم ببعثه محمداً ﷺ.

والمعنى في المِنَّة فيه أقوال:

منها: أن يكونَ معنى ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أنه بشرٌ مِثلُهم(١). فلمَّا أظهر البراهينَ وهو بشرٌ مثلُهم، عُلِم أنَّ ذلك من عند الله.

وقيل: «مِن أنفُسِهم»: منهم، فشَرُفُوا به ﷺ، فكانت تلك المنَّة.

وقيل: «مِن أنفُسِهم» ليعرفوا حالَه، ولا تخفى عليهم طريقتُه. وإذا كان محلُّه فيهم هذا؛ كانوا أحقَّ بأن يقاتلوا عنه، ولا يَنهزِموا دونه.

وقُرِئ في الشَّواذ: «من أنْفَسِهم» بفتح الفاء(٢)، يعني من أشرفهم؛ لأنه من بني هاشم، وبنو هاشم أفضلُ قريش، وقريشٌ أفضلُ العرب(٣)، والعربُ أفضلُ من غيرهم.

ثم قيل: لفظ المؤمنين عامٌّ، ومعناه خاصٌّ في العرب؛ لأنه ليس حيٌّ من أحياء العرب إلا وقد ولَدَه ﷺ ولهم فيه نسبٌ إلا بني تَغْلِب، فإنهم كانوا نصارى، فطهَّره الله من دَنَسِ النَّصرانية(٤). وبيانُ هذا التأويلِ قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

---

(١) في (د) و(م): أيْ: بَشَر، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٧، والكلام منه.

(٢) القراءات الشاذة ص٢٣، وتفسير أبي الليث ١/ ٣١٣، والكشاف ١/ ٤٧٦. قال ابن خالويه: رُوي عن النبي ﷺ وعن فاطمة رضي الله عنها.

(٣) في النسخ: وبنو هاشم أفضل من قريش وقريش أفضل من العرب، والصواب ما أثبتناه، وينظر تفسير أبي الليث ١/ ٣١٣، وفتح القدير ١/ ٣٩٥.

(٤) الوسيط ١/ ٥١٦.

وذكر أبو محمد عبد الغني قال: حدَّثنا أبو أحمد المصريُّ[1]، حدّثنا أحمد بنُ عليِّ بنِ سعيد القاضي أبو بكر المَرْوَزِيُّ، حدّثنا يحيى بنُ مَعِين، حدَّثنا هشام بنُ يوسفَ، عن عبدالله بن سُلَيمان النَّوفَلِيّ، عن الزُّهريّ، عن عُرْوَةَ، عن عائشة رضي الله عنها: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، قالت: هذه للعرب خاصَّةً[2]. وقال آخرون[3]: أرادَ به المؤمنين كلَّهم.

ومعنى «مِنْ أَنْفُسِهِمْ» أنَّه واحدٌ منهم، وبَشَرٌ مِثْلُهُم، وإنما امتازَ عنهم بالوحي؛ وهو معنى قولِهِ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وخَصَّ المؤمنين بالذِّكْر، لأنهم المُنْتَفِعون به، فالمِنَّةُ عليهم أعْظَم.

وقولُه تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ﴾؛ «يتلو» في موضِع نَصْب نَعْتٌ لرسُول[4]، ومعناه: يَقْرأُ. والتِّلاوةُ: القِراءةُ. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ تقدَّم في «البقرة».[5]

ومعنى ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ﴾، أي: ولقد كانوا من قبل، أي: من قبل محمد ﷺ.

وقيل: «إنْ» بمعنى ما، واللام في الخبر بِمعنى إلا، أي: وما كانوا من قبلُ إلاَّ في ضلال مبين، ومثلهُ: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨]، أي: وما كنتم من قبله إلا من الضَّالين[6]، وهذا مذهبُ الكوفيين، وقد تقدَّم في «البقرة» معنى هذه الآية.[7]

---

(١) في (د) و(م): البصري، وهو خطأ، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو عبدالله بن محمد بن عبدالله بن الناصح الدمشقي الفقيه الشافعي المعروف بابن المفسِّر، نزيل مصر، توفي سنة (٣٦٥ هـ). ينظر السير ١٦/ ٢٨٢.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٦١٥) من طريق يحيى بن معين به، وأورده الواحدي في الوسيط ١/ ٥١٦.

(٣) ينظر تفسير البغوي ١/ ٣٦٨.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٧.

(٥) ٢/ ٤٠٣.

(٦) ينظر الوسيط ١/ ٥١٧.

(٧) ٣/ ٣٤٩.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾.

الألف للاستفهام، والواو للعطف. ﴿مُّصِيبَةٞ﴾ أي: غَلَبة. ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ يومَ بَدْر بأن قَتلتُم منهم سبعين، وأَسَرتُم سبعين[1]. والأسير في حكم المقتول؛ لأنَّ الآسرَ يقتل أسيره إن أراد، أي: فهزمتُموهم يوم بَدْرٍ ويومَ أُحُدٍ أيضاً في الابتداء، وقَتلتُم فيه قريباً من عشرين، قتلتُم[2] منهم في يومين، ونالوا منكم في يوم أُحُد.

﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾، أي: من أين أصابَنا هذا الانهزامُ والقتل، ونحن نقاتلُ في سبيل الله، ونحن مسلمون، وفينا النبيُّ والوحي، وهم مشركون؟!

﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ يعني مخالفةَ الرُّماة، وما من قوم أطاعوا نبيَّهم في حرب إلا نُصِروا؛ لأنهم إذا أطاعوا فهم حزبُ الله، وحزبُ الله هم الغالبون.[3]

وقال قتادة والرَّبيع بن أنس: يعني[4] سؤالَهم النبيَّ ﷺ أنْ يخرج بعد ما أراد الإقامة بالمدينة، وتأوَّلَها في الرؤيا التي رآها دِرْعاً حَصِينة.[5]

عليُّ بن أبي طالب ﷺ: هو اختيارُهم الفِداءَ يومَ بَدْرٍ على القتل، وقد قيل لهم: إنْ فاديتم الأُسارى قُتل منكم على عِدَّتهم.[6] روى البَيْهَقِيُّ عن عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ في الأُسارى يومَ بدر: «إنْ شئتُم قَتلتُموهم، وإن شئتُم فاديتُموهم، واستمتعتُم بالفِداء، واستُشهد منكم بعدَّتهم»، فكان آخرَ السبعين ثابتُ بنُ قيس؛ قُتِلَ يومَ اليمامة.[7]

فمعنى «مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ» على القولين الأوَّلَين: بذنوبكم. وعلى القول الأخير: باختياركم.

---

(١) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٣١٣، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٨، وتفسير الرازي ٩/ ٨١.

(٢) قوله: قتلتم، من (د) و(م).

(٣) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٨٨، وينظر تفسير البغوي ١/ ٣٦٩، والوسيط ١/ ٥١٧.

(٤) في النسخ: معنى، والمثبت من (م).

(٥) تفسير الطبري ٥/ ٢١٥ - ٢١٦.

(٦) أورده الماوردي في النكت والعيون ١/ ٤٣٥.

(٧) سنن البيهقي ٦/ ٣٢١، وأخرجه أيضاً الترمذي (١٥٦٧)، والنسائي في الكبرى (٨٦٠٨) بنحوه مختصراً.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾.

يعني يومَ أُحُد من القتل والجَرْح والهزيمة. ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، أي: بعِلْمه، وقيل: بقضائه وقَدَرِه.

قال القَفَّال[(١)]: أي: فبِتَخْلِيتهِ بينكم وبينهم، لا أنه أراد ذلك. وهذا تأويلُ المعتزلة. ودخلت الفاء في «فبإذن الله»؛ لأن «ما» بمعنى الذي. أي: والذي أصابكم يومَ التقى الجمعانِ فبإذن الله، فأشبه الكلامُ معنى الشَّرط، كما قال سيبويه: الذي قام فله درهم.[(٢)]

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾، أي: ليُميِّز. وقيل: ليَرَى. وقيل: ليُظهِرَ إيمانَ المؤمنين بثبوتهم في القتال[(٣)]، وليُظهِر كفرَ المنافقين بإظهارهم الشَّماتةَ، فيعلمون ذلك. والإشارة بقوله: ﴿نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ﴾ هي إلى عبدالله بنِ أُبَيٍّ وأصحابِه الذين انصرفوا معه عن نُصرة النبيِّ ﷺ، وكانوا ثلاث مئة، فمشى في أثرهم عبدُ الله بنُ عمرو بنِ حرام الأنصاريُّ، أبو جابر بن عبدالله، فقال لهم: اتَّقوا الله، ولا تتركوا نبيَّكم، وقاتِلوا في سبيل الله أو ادفعوا، ونحو هذا من القول. فقال له ابنُ أُبَيٍّ: ما أرى أنْ يكون قِتال، ولو علمنا أنْ يكون قِتالٌ لكنَّا معكم. فلما يئس منهم عبدُ الله قال: اذهبوا أعداءَ الله، فسيُغني اللهُ رسولَه عنكم. ومضى مع النبيِّ ﷺ، واستُشهد رحمه الله تعالى.[(٤)]

---

(١) محمد بن علي بن إسماعيل أبو بكر الشاشي الشافعي، القفال الكبير، عنه انتشر فقه الشافعي بما وراء النهر، توفي (٣٦٥ هـ). السير ١٦/ ٢٨٣ .

(٢) ينظر الكتاب ٣/ ٦٩ ، ومجمع البيان ٢/ ٢٥٧، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٨ .

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٨٨ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٩ .

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٤ ، وتفسير الطبري ٥/ ٢٢٢ ، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٩، وعبدالله بن عمرو ابن حرام أبو جابر أحد النقباء ليلة العقبة، شهد بدراً. السير ١/ ٣٢٤ .

واختلف الناس في معنى قولِه: ﴿أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾ فقال السُّدِّيُّ وابنُ جُريج وغيرُهما: كَثِّرُوا سَوادَنا وإن لم تقاتلوا معنا، فيكون ذلك دَفْعاً وقَمْعاً للعدوّ، فإنَّ السَّوادَ إذا كثُر حصل دفْعُ العدوّ.[١]

وقال أنس بنُ مالك: رأيت يومَ القادِسِيَّةِ عبدالله بنَ أمِّ مَكْتُوم الأعمى وعليه دِرْعٌ يجرُّ أطرافها، وبيده رايةٌ سوداء، فقيل له: أليس[٢] قد أنزل الله عُذْرَك؟ قال: بلى! ولكني أُكثِّرُ المسلمين بنفسي. ورويَ عنه أنه قال: فكيف بسوادِي في سبيل الله![٣]

وقال أبو عونٍ الأنصاريُّ: معنى «أو ادفعوا»: رابِطوا[٤]. وهذا قريبٌ من الأوّل. ولا محالةَ أنَّ المرابِطَ مدافع؛ لأنه لولا مكانُ المرابطين في الثُّغور لجاءها العدوّ.

وذهب قومٌ من المفسّرين إلى أنَّ قولَ عبدِ الله بنِ عَمرو[٥]: أو ادفعوا، إنما هو استدعاءٌ إلى القتال حَمِيَّةً؛ لأنه استدعاهم إلى القتال في سبيل الله، وهي أنْ تكون كلمةُ الله هي العليا، فلما رأى أنهم ليسوا على ذلك؛ عَرَضَ عليهم الوجهَ الذي يَحْشِمُهم، ويبعثُ الأَنَفَة، أي: أو قاتِلوا دِفاعاً عن الحَوْزة، ألا ترى أنَّ قُزْمانَ[٦] قال: واللهِ ما قاتلتُ إلا عن أحساب قومي. وألا ترى أنَّ بعضَ الأنصارِ قال يومَ أُحدٍ لمَّا رأى قريشاً قد أرسلت الظَّهْرَ[٧] في زروع قناة[٨]: أتُرعَى زروعُ بني قَيْلَةَ[٩] ولمَّا

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٢٢٤ .

(٢) قوله: أليس، من (م)، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٩ .

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٩ .

(٤) تفسير الطبري ٥/ ٢٢٤ .

(٥) هو أبو جابر رضي الله عنهما السالف ذكره.

(٦) هو ابن الحارث المنافق، كان شجاعاً، قاتل بشدة يوم أحد حَميةً، ثم جُرحَ جرحاً شديداً، فقتل نفسه، فشهد له النبي ﷺ بالنار، وقال: «إن الله يؤيد هذا الدينَ بالرجل الفاجر». ينظر الإصابة ٨/ ١٥٩-١٦٠ .

وفي صحيح البخاري (٢٨٩٨) عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا ... الحديث، وفيه: وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجلٌ لا يدع لهم شاذَّة ولا فاذَّة إلا اتبعها يضربها بسيفه ... فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه من أهل النار» ... إلى آخر الحديث، وفيه أنه قتل نفسه.

(٧) قوله: الظهر، أي: الإبل التي يحمل عليها وتركب. النهاية (ظهر).

(٨) قوله: قناة هو أحد أودية المدينة الثلاثة، عليه حرث ومال. وقد يقال: وادي قناة. معجم البلدان ٤/ ٤٠١ .

(٩) قوله: بني قَيْلَة: هم الأوس والخزرج؛ قبيلتا الأنصار، وقيلة: اسم أمٍّ لهم قديمة، وهي قَيْلة بنت كاهل. النهاية (قيل).

نُضارِبْ؟[١]

فالمعنى: إنْ لم تقاتلوا في سبيل الله، فقاتلوا دَفْعاً عن أنفسكم وحَرِيمكم.[٢]

قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾، أي: بَيَّنوا حالَهم، وهَتَكوا أسْتارَهم، وكَشَفُوا عن نِفاقِهم لمن كان يَظُنُّ أنهم مسلمون، فصارُوا أقربَ إلى الكفر في ظاهر الحال، وإن كانوا كافرين على التَّحقيق.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: أظْهَرُوا الإيمان، وأَضْمَرُوا الكفر. وذِكْرُ الأفواه تأكيدٌ، مثلُ قوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾.[٣]

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ معناه: لأجل إخوانهم، وهم الشهداءُ المقتولون من الخَزْرَج؛ وهم إخوةُ نسبٍ ومجاورة، لا إخوةُ الدِّين. أي: قالوا لهؤلاء الشهداء: لو قعَدوا، أي: بالمدينة ما قُتِلوا.[٤]

وقيل: قال عبدالله بنُ أُبَيٍّ وأصحابُه لإخوانهم، أي: لأشكالهم من المنافقين: لو أطاعونا هؤلاء الذين قُتِلوا، لَمَا قُتِلوا. وقوله: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ يريد في ألاَّ يخرجوا إلى قريش. وقوله: ﴿وَقَعَدُوا﴾، أي: قالوا هذا القولَ، وقعدوا بأنفسهم عن الجهاد، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا﴾، أي: قل لهم يا محمد: إن صدَقتم فادفعوا الموتَ عن أنفسكم، والدَّرْء: الدفعُ.[٥]

بيَّنَ بهذا أنَّ الحَذَرَ لا ينفعُ من القَدَر، وأنَّ المقتولَ يُقتلُ بأجله، وما عَلِم الله وأخبر به كائنٌ لا محالَة.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٩ .

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٣١٤ ، والوسيط ١/ ٥١٨ .

(٣) ينظر مجمع البيان ١/ ٢٥٨ ، والوسيط ١/ ٥١٨ ، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٩ .

(٤) ينظر تفسير البغوي ١/ ٣٦٩ ، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٩ - ٥٤٠ .

(٥) ينظر تفسير الطبري ٦/ ٢٢٦ - ٢٢٧ ، والوسيط ١/ ٥١٨ - ٥١٩ .

وقيل: مات يومَ قيل هذا سبعون منافقاً. وقال أبو الليث السَّمَرْقَنْديُّ[١]: سمعت بعضَ المفسِّرين بسَمَرْقَنْد يقول: لما نزلت الآية: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ مات يومئذ سبعون نَفْساً من المنافقين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

فيه ثمان مسائل:

الأولى: لما بيَّنَ الله تعالى أنَّ ما جَرَى يومَ أُحُدٍ كان امتحاناً يُميِّز المنافق من الصادق؛ بيَّنَ أنَّ مَنْ لم يَنْهَزِمْ فقُتل؛ له الكرامةُ والحياةُ عنده.

والآية في شُهداءِ أُحد[٢]. وقيل: نزلت في شهداء بئرِ مَعُونة[٣]. وقيل: بل هي عامَّةٌ في جميع الشهداء.[٤]

وفي مصنَّف أبي داودَ بإسناد صحيحٍ عن ابن عباسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا أُصيبَ إخوانُكم بأُحُد جعَلَ الله أرواحَهم في جَوْفِ طَيرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أنهارَ الجنةِ، تأكُل من ثمارها، وتأوِي إلى قناديلَ من ذهبٍ معلَّقةٍ في ظلِّ العَرْش، فلمَّا وجدوا طِيبَ مأكَلِهم ومَشْرَبِهم ومَقِيلِهم، قالوا: مَنْ يُبلِّغُ إخوانَنا عنَّا أنَّا أحياءٌ في الجنَّة نُرْزَقُ؛ لئلا يَزْهَدُوا في الجهاد ولا يَنْكُلوا عن الحربِ؟[٥] فقال الله سبحانه: أنا أبلِّغُهم عنكم، قال: فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ إلى آخر الآيات.[٦]

---

(١) في تفسيره ١/ ٣١٤، وينظر الكشاف ١/ ٤٧٨.

(٢) أخرجه الطبري ٦/ ٢٢٨، والواحدي في أسباب النزول ص١٢٣-١٢٤ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وسيورده المصنف لاحقاً.

(٣) أخرجه الطبري ٦/ ٢٣٤ - ٢٣٥، وأورده ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٥٠٠، وقصة شهداء بئر معونة أخرجها أحمد (١٣١٩٥)، والبخاري (٤٠٩١)، ومسلم (٦٧٧) من حديث أنس ﷺ، دون ذكر أن الآية نزلت في ذلك.

(٤) أسباب النزول للواحدي ص١٢٥.

(٥) في (م): عند الحرب.

(٦) سنن أبي داود (٢٥٢٠)، وهو عند أحمد (٢٣٨٨).

وروى بَقِيُّ بنُ مَخْلَد عن جابر قال: لَقِيَني رسولُ الله ﷺ، فقال: «يا جابر، مالي أراك مُنكَساً مُهتَماً»؟ قلت: يا رسولَ الله، اسْتُشْهِد أبِي، وتركَ عِيالاً وعليه دَيْنٌ، فقال: «ألا أبَشِّرُك بما لَقِيَ اللهُ عزَّ وجلَّ به أباك»؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: «إنَّ اللهَ أحْيَا أباكَ وكلَّمه كِفاحاً، وما كلم أحداً[1] قطُّ إلا من وراء حجاب، فقال له: يا عبدي، تَمنَّ أُعطِك[2]، قال: يا ربِّ، فرُدَّني إلى الدنيا فأُقْتَلَ فيك ثانيةً، فقال الربُّ تبارك وتعالى: إنه قد سبقَ مِني أنهم إليها لا يرجعون، قال: يا ربُّ، فأَبلِغْ مَنْ ورائي، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية. أخرجه ابن ماجه في سُنَنه، والتِّرمذِيُّ في جامعه، وقال: هذا حديثٌ حسن غريب[3].

وروى وكيع، عن سالم بن الأفطَس، عن سعيد بن جبير: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ قال: لما أُصيبَ حمزةُ بنُ عبدِ المطَّلب ومُصْعَبُ بنُ عُمير ورأَوا ما رُزقوا من الخير، قالوا: ليتَ إخوانَنا يَعلَمون ما أصابَنا من الخير كي يزدادوا في الجهاد رَغْبَةً، فقال الله تعالى: أنا أُبلِّغُهم عنكم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

وقال أبو الضُّحى: نزلت هذه الآيةُ في أهل أُحدٍ خاصَّةً[5]، والحديثُ الأوَّلُ يقتضي صحةَ[6] هذا القول.

وقال بعضهم: نزلت في شهداء بَدْرٍ وكانوا أربعةَ عشرَ رجلاً؛ ثمانية من الأنصار، وستة من المهاجرين.[7]

وقيل: نزلت في شهداء بئرِ مَعُونة، وقصَّتُهم مشهورةٌ، ذكرها محمد بنُ إسحاق[8]

(١) في (م): أحد.

(٢) في النسخ: أعطيك، والمثبت من (م)، ومصادر الحديث.

(٣) سنن ابن ماجه (١٩٠)، (٢٨٠٠)، وسنن الترمذي (٣٠١٠)، وهو عند أحمد (١٤٨٨١) بنحوه مختصراً، وقوله: كفاحاً، أي: مواجهة، ليس بينهما حجاب ولا رسول. النهاية (كفح).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٨١٤ من طريق عطاء عن سعيد بن جبير به.

(٥) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٨٩٤)، وفي التفسير (٥٣٨)، وابن أبي حاتم ٣/ ٨١٢ .

(٦) في (خ) و(ظ): يقضي بصحة، والمثبت من (د) و (م).

(٧) تفسير البغوي ١/ ٣٦٩ .

(٨) نقلها عنه ابن هشام في السيرة ٢/ ١٨٣ ، وسلف الكلام عليها قريباً ص٢٦٨ .

وغيره.

وقال آخرون: إنَّ أولياءَ الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمةٌ أو سرورٌ[١] تحسَّروا، وقالوا: نحن في النِّعمة والسرور، وآباؤنا وأبناؤنا وإخواننا في القبور، فأنزل الله تعالى هذه الآيةَ تَنْفِيساً عنهم وإخباراً عن حال قتلاهم[٢].

قلت: وبالجملة؛ وإنْ كان يَحتملُ أنْ يكونَ النُّزولُ بسبب المجموع، فقد أخبرَ الله تعالى فيها عن الشُّهداء أنهم أحياءٌ في الجنة يُرزقون، ولا مَحالةَ أنهم ماتوا وأنَّ أجسادَهم في التراب، وأرواحَهم حيَّةٌ كأرواح سائرِ المؤمنين، وفُضِّلوا بالرزق في الجنَّة من وقت القَتْلِ حتى كأنَّ حياةَ الدنيا دائمةٌ لهم[٣].

وقد اختلف العلماءُ في هذا المعنى، فالذي عليه المعظمُ ما ذكرناه[٤]، وأنَّ حياةَ الشُّهداءِ محقَّقة. ثم منهم من يقول: تُردُّ إليهم الأرواحُ في قبورهم فيُنعَّمون، كما يحيا الكفار في قبورهم فيُعذَّبون.

وقال مجاهد[٥]: يُرزقون من ثَمَر الجنة، أي: يجدون ريحَها وليسوا فيها. وصار قومٌ إلى أنَّ هذا مجازٌ، والمعنى أنهم في حكم اللهِ مستحقُّون للتنعُّم في الجنة، وهو كما يقال: ما مات فلان، أي: ذِكْرُه حيٌّ، كما قيل:

مَـوْتُ الـتَّـقِـيِّ حـيـاةٌ لا فـنـاءَ لـهـا ... قَدْ مات قومٌ وهُمْ في الناس أحْيَاءُ[٦]

فالمعنى: أنهم يرزقون الثَّناءَ الجميل.

---

(١) في (د) و(م): وسرور، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لزاد المسير ١/ ٥٠١.

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٧٢، وزاد المسير ١/ ٥٠١.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٠.

(٤) في (م): هو ما ذكرناه.

(٥) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٥٠١.

(٦) أخرج أبو نعيم في الحلية ٨/ ٣٠، والخطيب في تاريخ بغداد ١٣/ ٢٠٧ أن معروفاً الكرخيّ رُئي في المنام، فسئل: ما صنع الله بك، فأنشأ يقول، وذكر البيت، وفيه: لا نفاد، بدل: لا فناء، وأخرجه القزويني في تاريخ قزوين ٣/ ٥٧، و ٣/ ٣٨٣ عن سُويد بن سعيد الأنباري وسفيان الثوري، وفيه: لا انقطاع بدل: لا فناء.

وقال آخرون: أرواحُهم في أجوافِ طَيْرٍ خُضْرٍ، وأنهم يُرزقون في الجنة، ويأكلون ويتنعَّمون. وهذا هو الصحيحُ من الأقوال؛ لأن ما صحَّ به النقلُ فهو الواقع. وحديثُ ابنِ عباس نصٌّ يرفع الخلاف[١]، وكذلك حديثُ ابنِ مسعود خرَّجه مسلم[٢]. وقد أتينا على هذا المعنى مبيَّناً في كتاب «التَّذكِرة بأحوال الموتى وأمورِ الآخرة»[٣]. والحمد لله. وقد ذكرنا هناك كم الشُّهداء، وأنهم مختلفو الحال.

وأما مَنْ تأوَّلَ في الشهداء أنهم أحياءٌ بمعنى أنهم سيَحْيَوْن؛ فبعيدٌ يَرُدُّه القرآنُ والسُّنَّة؛ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ دليلٌ على حياتهم، وأنهم يُرزقون، ولا يُرزق إلا حيٌّ.

وقد قيل: إنه يُكتبُ لهم في كلِّ سَنَةٍ ثوابُ غزوة، ويُشرَكون في ثواب كلِّ جهادٍ كان بعدَهم إلى يوم القيامة؛ لأنهم سَنُّوا أمرَ الجهاد.

نَظِيرُه قولُه تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا﴾ [المائدة: ٣٢] على ما يأتي بيانه هناك إنْ شاء الله تعالى.

وقيل: لأنَّ أرواحَهم تَركَع وتسجُد تحت العرشِ إلى يوم القيامةِ، كأرواح الأحياءِ المؤمنين الذين باتُوا على وُضُوء.

وقيل: لأنَّ الشَّهيدَ لا يَبْلَى في القبر، ولا تأكُلُه الأرض، وقد ذكرنا هذا المعنى في «التّذكِرة»[٤] وأنَّ الأرضَ لا تأكل الأنبياءَ والشهداءَ والعلماءَ والمؤذِّنين المحتَسِبين وحَمَلَةَ القرآن.

الثانية: إذا كان الشَّهيد حيّاً حُكماً فلا يُصلَّى عليه، كالحيِّ حِسّاً. وقد اختَلف العلماء في غسل الشُّهداءِ والصَّلاة عليهم؛ فذهب مالك والشافعيُّ وأبو حنيفة والثَّوريُّ إلى غُسل جميعِ الشُّهداء والصلاةِ عليهم[٥]؛ إلاَّ قتيلَ المُعتَركِ في قتال العدوِّ

(١) سلف أول المسألة.

(٢) برقم (١٨٨٧).

(٣) ص١٥٤-١٥٩.

(٤) ص١٦٣-١٦٤.

(٥) قوله: والصلاة عليهم، من (م).

خاصَّة؛ لحديث جابر قال: قال النبيُّ ﷺ: «ادفنوهم في دمائهم»[١] يعني: يومَ أُحُد، ولم يُغسِّلْهم. رواه البخاري.[٢]

وروى أبو داود عن ابن عباس قال: أمرَ رسولُ اللهِ ﷺ بقتلى أُحُدٍ أنْ يُنزَعَ عنهم الحديدُ والجلودُ، وأنْ يُدْفَنُوا بِدمائهم وثيابهم[٣]. وبهذا قال أحمدُ، وإسحاقُ، والأوزاعيُّ، وداود بنُ عليّ، وجماعةُ فُقَهاءِ الأمصارِ، وأهلُ الحديثِ، وابن عُلَيَّة.

وقال سعيد بنُ المُسَيِّب والحَسَن: يُغسَّلون. قال أحدهما: إنما لم يُغسَّل[٤] شهداءُ أُحُدٍ لكثرتهم والشُّغلِ عن ذلك.

قال أبو عُمَر[٥]: ولم يقل بقول سعيدٍ والحسنِ هذا أحدٌ من فقهاء الأمصارِ إلا عُبيدَ الله بنَ الحسن العَنْبَرِيَّ، وليس ما ذكروا من الشُّغل عن غُسل شهداءِ أُحُدٍ علَّةً؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم كان له وليٌّ يشتَغلُ به، ويقومُ بأمره. والعلةُ في ذلك ـ والله أعلم ـ ما جاء في الحديث في دمائهم أنها تأتي يوم القيامة كريح المِسْك[٦]، فَبانَ أنَّ العلَّة ليست الشُّغلَ كما قال من قال ذلك[٧]، وليس لهذه المسألةِ مدخلٌ في القياس والنظر، وإنما هي مسألةُ اتِّباعٍ للأثر الذي نقله الكافَّة في قتلى أُحُدٍ لم يُغسَّلوا.

وقد احتجَّ بعضُ المتأخِّرين ممن ذهب مذهبَ الحسنِ بقوله عليه الصلاة والسلام في شهداء أُحُد: «أنا شهيدٌ على هؤلاء يومَ القيامة»[٨]. قال: وهذا يدلُّ على خصوصهم، وأنه لا يَشْرَكهم في ذلك غيرُهم.

قال أبو عمر: وهذا يشبه الشُّذوذ، والقولُ بترك غُسلِهم أولى؛ لثبوت ذلك عن

---

(١) في (د) و(م): بدمائهم، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٢) هو قطعة من حديث جابر ﷺ عند البخاري (١٣٤٣) (١٣٤٧)، وهو عند أحمد (١٤١٨٩) بنحوه.

(٣) سنن أبي داود (٣١٣٤)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (١٥١٥)، وهو عند أحمد (٢٢١٧).

(٤) في (د) نغسل، وفي (م): تغسل، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق للتمهيد ٢٤/ ٢٤٣.

(٥) في التمهيد ٢٤/ ٢٤٣ - ٢٤٤، وما قبله منه.

(٦) أخرجه أحمد (٩٠٨٧)، والبخاري (٢٨٠٣)، ومسلم (١٨٧٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) في (م): من قال في ذلك.

(٨) قطعة من حديث جابر ﷺ أخرجه البخاري (١٣٤٣) و (١٣٤٧).

النبيِّ ﷺ في قَتلى أُحدٍ وغيرِهم. ورَوى أبو داودَ عن جابر قال: رُميَ رجلٌ بسهم في صدره ـ أو في حلْقِه ـ فمات، فأُدرِجَ في ثيابه كما هو، قال: ونحن مع رسولِ الله ﷺ.(١)

الثالثة: وأمّا الصّلاةُ عليهم فاختَلف العلماءُ في ذلك أيضاً؛ فذهب مالكٌ واللّيثُ والشافعيُّ وأحمدُ وداودُ إلى أنه لا يُصلّى عليهم؛ لحديث جابر قال: كان النبيُّ ﷺ يجمع بين الرجلينِ من قتلى أُحُدٍ في ثوبٍ واحدٍ، ثم يقول: «أيُّهما أكثرُ أخْذاً للقرآن؟» فإذا أُشيرَ له إلى أحدِهما قدَّمَه في اللّحد، وقال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء يومَ القيامة» وأَمر بدفنهم بدمائهم، ولم يُغسَّلوا، ولم يُصلِّ عليهم.(٢)

وقال فقهاء الكوفة والبصرةِ والشّام: يُصلَّى عليهم، ورَوَوْا آثاراً كثيرةً؛ أكثرُها مراسيلُ؛ أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى على حمزةَ وعلى سائرِ شهداءِ أُحُد.(٣)

الرابعة: وأجمع العلماء على أنَّ الشَّهيدَ إذا حُمل حَيّاً ولم يَمت في الْمعتَرَك، وعاش وأكَل، فإنه يُصلَّى عليه؛ كما قد صُنع بعمرَ ﷺ.(٤)

واختلفوا فيمن قُتل مظلوماً؛ كقتيل الخوارجِ وقُطّاعِ الطَّريق وشبهِ ذلك، فقال أبو حنيفة والثَّوريُّ: كلُّ من قُتل مظلوماً لم يُغسَّل، ولكنه يُصلَّى عليه وعلى كلِّ شهيد، وهو قولُ سائرِ أهلِ العِراق، ورَوَوْا من طُرق كثيرة صحاحٍ عن زيد بن صُوحان ـ وكان قُتل يومَ الجَمَل ـ: لا تَنزِعوا عنِّي ثوباً، ولا تَغسِلوا عني دَماً.(٥)

---

(١) التمهيد ٢٤/ ٢٤٤، والحديث في سنن أبي داود (٣١٣٣)، وعند أحمد (١٤٩٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٤٣) (١٣٤٧) من حديث جابر ﷺ، وسلف قطعة منه: «ادفنوهم في دمائهم» في المسألة قبلها.

(٣) التمهيد ٢٤/ ٢٤٤، وحديث الصلاة على حمزة وشهداء أحد أخرجه أبو داود في المراسيل (٤٢٧)، وابن أبي شيبة ٣/ ٣٠٤، والدارقطني ٢/ ٧٨ عن أبي مالك غزوان الغفاري مرسلاً، وأخرجه أيضاً أبو داود (٤٢٨)، ومن طريقه البيهقي ٤/ ١٢ عن الشعبي مرسلاً.

وروى أحمد (١٧٣٤٤)، والبخاري (١٣٤٤)، ومسلم (٢٢٩٦) عن عقبة بن عامر ﷺ أن النبي ﷺ خرج يوماً، فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف...

(٤) التمهيد ٢٤/ ٢٤٤؛ والحديث أخرجه البيهقي ٤/ ١٦.

(٥) أخرجه عبد الرزاق (٦٦٤٠)، وابن أبي شيبة ١٢/ ٢٨٨، والخطيب في تاريخ بغداد ٨/ ٤٣٩، والبيهقي ٤/ ١٧. وزيد بن صوحان أبو سليمان ذكر الكلبي أنه صحب النبي ﷺ، وتعقبه ابن عبد البر، فقال: لا أعلم له صحبة، وإنما أدرك، وكان فاضلاً سيداً في قومه، جعله علي ﷺ يوم الجمل أميراً على عبد القيس. انظر الإصابة ٤/ ٨٨ - ٨٩.

وثبت عن عمار بنِ ياسر أنه قال مثلَ قولِ زيد بن صُوحان[١]. وقُتل عمار بنُ ياسِر بِصفِّين، ولم يغسِّله عليّ.[٢]

وللشافعيّ قولان:

أحدهما: يُغسَّل جميعُ[٣] الموتى إلا من قتله أهلُ الحرب، وهذا قولُ مالك. قال مالك: لا يُغسَّل من قتَلَه الكفار، ومات في المُعترك. وكلُّ مقتولٍ غيرِ قتيلِ المُعترَكِ ـ قتيلِ الكفار ـ فإنه يُغسّل ويُصلَّى عليه. وهذا قولُ أحمد بن حنبل ﷺ.

والقول الآخر للشافعيّ: لا يُغسَّل قتيلُ البُغاة.

وقول مالك أصحُّ؛ فإنَّ غُسْلَ الموتى قد ثبت بالإجماع ونَقْلِ الكافَّةِ، فواجبٌ غُسلُ كلِّ ميتٍ إلا من أخرجه إجماعٌ أو سُنَّةٌ ثابتة، وبالله التوفيق.[٤]

الخامسة: العدوُّ إذا صبَّح قوماً في منزلهم[٥]، ولم يَعلموا به، فقتَلَ منهم، فهل يكون حكمُه حكمَ قتيلِ المعترَك، أو حكمَ سائرِ الموتى؟ وهذه مسألة[٦] نزلت عندنا بقُرطُبَةَ أعادها الله: أغَارَ العدوُّ ـ قصَمه الله ـ صَبيحَةَ الثَّالثِ من رَمضانَ المُعظَّمِ سنةَ سَبعٍ وعشرين وستِّ مئة والناسُ في أجْرانهم[٧] على غَفلةٍ، فقتَل وأسَر، وكان من جُملَةِ من قُتل والدي رحمه الله؛ فسألتُ شيخَنا المقرئَ الأستاذَ أبا جعفر أحمدَ المعروفَ بأبي حجة[٨]، فقال: غَسِّله وصَلِّ عليه؛ فإنَّ أباك لم يُقتَل في المُعْتَرك بينَ

---

(١) أخرجه ابن سعد ٣/ ٢٦٨، وابن أبي شيبة ١٢/ ٢٨٨ ، وأورده البيهقي ٤/ ١٧ .

(٢) أخرجه ابن سعد ٣/ ٢٦٢، والخطيب في تاريخ بغداد ١/ ١٥٣. وعبارة التمهيد (والكلام منه): وصلى الله عليه علي ولم يغسّله.

(٣) في (د) و(م): كجميع، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق للتمهيد ٢٤/ ٢٤٥ .

(٤) التمهيد ٢٤/ ٢٤٤ - ٢٤٦ .

(٥) في (خ) و(ظ): موضعهم.

(٦) في (م): المسألة.

(٧) جمع جرين، وهو موضع تجفيف التمر، وهو له كالبيدر للحنطة، ويجمع على جُرُن. النهاية (جرن).

(٨) كذا في النسخ. وجاء في بغية الوعاة ١/ ٣٨٣ ، وشجرة النور ص١٨٢ : ابن أبي حجة، وفي إيضاح المكنون ١/ ٢٨٦ : ابن حجة، وهو أحمد بن محمد القيسي المقرئ النحوي المحدث، ولي القضاء والخطابة بإشبيلية، صنف تسديد اللسان في النحو، والجمع بين الصحيحين، مات مأسوراً سنة (٦٤٣ هـ) . انظر طبقات القراء ١/ ١٣٦ ، وبغية الوعاة ١/ ٣٨٣ .

الصَّفَّيْن، ثم سألتُ شيخَنا ربيعَ بنَ عبد الرحمن بنِ أحمدَ بنِ ربيع بن أُبيّ[١] فقال: إنَّ حكمَه حكمُ القتلى في المعترك، ثم سألتُ قاضيَ الجماعةِ أبا الحسن عليَّ بن قُطْرال[٢] وحولَه جماعةٌ من الفقهاء، فقالوا: غَسِّلْه وكفِّنْه، وصلِّ عليه، ففعلت. ثم بعد ذلك وقَفتُ على المسألة في «التَّبصرة» لأبي الحسن اللَّخميّ وغيرِها، ولو كان ذلك قبلَ ذلك ما غسَّلته، وكنت دفنتُه بدمه في ثيابه.

السادسة: هذه الآيةُ تدلُّ على عظيم ثوابِ القتلِ في سبيل اللهِ والشَّهادةِ فيه حتى إنه يُكفِّر الذنوب؛ كما قال ﷺ: «القتلُ في سبيل اللهِ يُكفِّر كلَّ شيءٍ إلا الدَّيْنَ[٣]، كذلك قال لي جبريلُ عليه السلام آنفاً».

قال علماؤنا: ذِكْرُ الدَّيْنِ تنبيهٌ على ما في معناه من الحقوقِ المتعلِّقَة بالذِّمم، كالغَصْب وأخْذِ المالِ بالباطل، وقتلِ العَمْدِ، وجراحِه، وغيرِ ذلك من التَّبِعات، فإنَّ كلَّ هذا أوْلى بأن لا[٤] يُغفَر بالجهاد من الدَّيْن، فإنه أشدّ، والقِصاصُ في هذا كلِّه بالحسنات والسيئاتِ حسبما وردت به السُّنَّةُ الثابتة:

روى عبدالله بنُ أُنَيس قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «يَحشُر اللهُ العبادَ ـ أو قال: الناسَ، شكَّ همّام[٥]، وأوْمَأ بيده إلى الشَّام ـ عُراةً غُرْلاً بُهْماً». قلنا: ما بُهْماً؟[٦] قال: «ليس معهم شيءٌ، فيناديهم بصوتٍ يسمَعُه مَن قَرُب ومَن بَعُد: أنا المَلِكُ، أنا الدَّيَّانُ، لا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنَّةِ أن يدخلَ الجنةَ وأحدٌ من أهل النار

---

(١) هو أبو سليمان الأشعري، قاضي قرطبة، كان رجلاً صالحاً عدلاً في أحكامه، له مشاركة في علم الحديث، مات بإشبيلية سنة (٦٣٣هـ). تكملة الصلة ١/ ٣٢٣.

(٢) هو علي بن عبدالله بن محمد الأنصاري القرطبيُّ، يعرف بابن قُطرال الفقيه، سمع ابن أبي زمنين، وأخذ عنه ابن الأبَّار، امتُحن بالأسر وهو قاضٍ بأُبَّدَة إثر وقيعة العقاب، ثم افتُكَّ، وقُدم للقضاء بمواضع نبيهة، مات بمراكش سنة (٦٥١هـ). الإحاطة بأخبار غرناطة ٤/ ١٩٠ - ١٩١، والسير ٢٣/ ٣٠٤.

(٣) أخرجه أحمد (٧٠٥١)، ومسلم (١٨٨٦) ( ) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما. وأخرجه أيضاً (١٨٨٥) (١١٧) من حديث أبي قتادة ﷺ.

(٤) في (د) و(خ) و(م): ألا، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمفهم ٣/ ٧١٣، والكلام منه.

(٥) هو همام بن يحيى أحد رجال سند هذا الحديث.

(٦) في (د) و(م): بهم، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لمصادر الحديث.

يَطلُبه بمَظلِمة، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل النارِ أنْ يدخلَ النارَ وأحدٌ من أهل الجنةِ يَطلُبه بمَظلِمة، حتَّى اللَّطْمة». قال: قلنا: كيف وإنما نأتي اللهَ حفاةً عُراةً غُرلاً؟ قال: «بالحسنات والسَّيئات». أخرجه الحارث بنُ أبي أُسامة.(١)

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أتدرونَ مَنِ المُفْلِسُ؟». قالوا: المفلِسُ فينا من لا دِرْهَمَ له ولا متاعَ، فقال: «إنَّ المُفْلِسَ من أمتي من يأتي يومَ القيامةِ بصلاة وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شَتَم هذا، وقَذَفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضرَب هذا، فيُعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإنْ فَنِيَتْ حسناتُه قَبْلَ انقضاءِ(٢) ما عليه؛ أُخِذ من خطاياهم، فطُرِحت عليه، ثم طُرِح في النار».(٣)

وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده؛ لو أنَّ رجلاً قُتل في سبيل اللهِ، ثم أُحْيِيَ، ثم قُتل، ثم أُحْيِيَ، ثم قُتِلَ وعليه دَيْنٌ، ما دخلَ الجنةَ حتى يُقْضى عنه».(٤)

وروى أبو هريرة قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «نفسُ المؤمنِ معلَّقةٌ ما كان عليه دَيْن»(٥). وقال أحمد بنُ زُهَير: سُئل يحيى بنُ مَعِين عن هذا الحديثِ، فقال: هو صحيحٌ.

فإن قيل: فهذا يدلُّ على أنَّ بعضَ الشهداءِ لا يدخلون الجنةَ من حينِ القتلِ، ولا تكون أرواحُهُم في جَوف طيرٍ كما ذكرتُم، ولا يكونون في قبورهم، فأيْنَ يكونون؟ قلنا: قد وَرَدَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أرواحُ الشهداءِ على نهرٍ بباب الجنةِ يقال له: بَارِقٌ يخرجُ عليهم رزقُهم من الجنة بُكْرَةً وعَشِيًّا»(٦). فلعلَّهم هؤلاء. والله أعلم. ولهذا

---

(١) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (٤٤)، وهو عند أحمد (١٦٠٤٢)، وعلَّق البخاري طرفاً منه قبل الحديث (٧٤٨١)، وحسنه الحافظ في الفتح ١/ ١٧٤، وقوله: غُرْلاً؛ مِن الغُرْل جمع الأغرل، وهو الأقلف، والغُرلة: القلفة. النهاية (غرل).

(٢) في (م): أن يقضى.

(٣) صحيح مسلم (٢٥٨١)، وهو عند أحمد (٨٠٢٩).

(٤) أخرجه النسائي في المجتبى ٧/ ٣١٤-٣١٥، والكبرى (٦٢٣٧) من حديث محمد بن جحش ﷺ.

(٥) سلف ٤/ ٤٨٠.

(٦) أخرجه أحمد (٢٣٩٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وجوَّد إسناده الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية (١٧٠) من آل عمران.

قال الإمام أبو محمد بنُ عطية[١]: وهؤلاء طبقاتٌ وأحوالٌ مختلفةٌ يجمعُها أنهم: «يُرْزَقُونَ».

وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بنُ يزيدَ بنِ ماجه القزوينيُّ في «سننه» عن سُلَيم بنِ عامر قال: سمعت أبا أُمامةَ يقول: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «شهيدُ البحرِ مثلُ شهيدَي[٢] البرِّ، والمائدُ في البحر كالمُتَشَحِّط في دَمِه في البرّ، وما بين المَوْجَتين كقاطع الدُّنيا في طاعة الله، وإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وكَّلَ ملَكَ الموتِ بقبض الأرواح إلا شهيدَ[٣] البحرِ، فإنه سبحانه يتولَّى قَبْضَ أرواحِهم، ويَغْفِرُ لشهيد البرِّ الذنوبَ كلَّها إلا الدَّيْنَ، ويَغفرُ لشهيد البحرِ الذنوبَ كلَّها والدَّيْنَ».[٤]

السابعة: الدَّيْن الذي يُحْبَسُ به صاحبُه عن الجنة ـ والله أعلم ـ هو الذي قد ترك له وفاءً ولم يُوصِ به. أو قَدَر على الأداء فلم يؤدِّه، أو ادَّانَه في سَرَفٍ أو في سَفَهٍ، ومات ولم يُوَفِّه.

وأما من ادَّانَ في حقٍّ واجبٍ لِفاقةٍ وعُسْرٍ، ومات ولم يَتْرُك وفاءً، فإنَّ الله لا يحبِسُه عن الجنة إن شاء الله؛ لأنَّ على السلطان فرضاً أن يؤدِّيَ عنه دينَه، إما من جملة الصدقات، أو من سهم الغارمين، أو من الفَيْء الراجع على المسلمين؛ قال ﷺ: «مَنْ تركَ دَيْناً أو ضَياعاً فعلى الله ورسولِه، ومَنْ تركَ مالاً فلورثته».[٥] وقد زدنا هذا البابَ بياناً في كتاب «التذكرة»[٦]، والحمد لله.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فيه حذف مضاف، تقديرُه: عند كرامةِ ربِّهم. و «عِند» هنا تقتضي غايةَ القُرْب، فهي كـ: «لدى»، ولذلك لم تصغَّر فيقال:

---

(١) في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٠ .

(٢) في النسخ: شهيد، والمثبت من (م)، وسنن ابن ماجه.

(٣) في (د) و(م): شهداء، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو الموافق لسنن ابن ماجه.

(٤) سنن ابن ماجه (٢٧٧٨) ، وضعَّفه البوصيري في الزوائد ٣/ ١٥٩ .

(٥) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أحمد (٧٨٦١) و(٧٨٩٩)، والبخاري (٢٢٩٨) و(٢٣٩٨)، ومسلم (١٦١٩) مختصراً ومطولاً، وأخرجه أيضاً أحمد (١٣٢٥١) من حديث أنس ﷺ.

(٦) ص١٥٦-١٥٧ .

عُنَيد؛ قاله سيبويه[١]. فهذه عِنْدِيَّةُ الكرامةِ، لا عِنْدِيةُ المسافةِ والقُرْب.

و«يرزقون»: هو الرِّزقُ المعروفُ في العادات. ومن قال: هي حياةُ الذِّكرِ، قال: يرزقون الثناءَ الجميل. والأَوْلى[٢] الحقيقة.

وقد قيل: إنَّ الأرواحَ تُدرِك في تلك الحالِ التي يسرحون فيها من روائح الجنةِ وطِيبها ونعيمِها وسرورِها ما يَليق بالأرواح؛ مما تَرتزق وتَنتعش به، وأما اللَّذاتُ الجسمانيَّةُ؛ فإذا أُعيدت تلك الأرواحُ إلى أجسادها استَوْفت من النعيم جميعَ ما أعدَّ الله لها[٣]. وهذا قولٌ حسن، وإن كان فيه نوعٌ من المجاز، فهو الموافقُ لما اخترناه، والموَفق الإله.

و﴿فَرِحِينَ﴾ نصب في موضع الحالِ من المضمر في «يُرْزَقُونَ». ويجوز في الكلام «فَرِحُون» على النعت لـ «أحياء». وهو من الفرح بمعنى السرور، والفَضْلُ في هذه الآيةِ هو النَّعيمُ المذكور.[٤]

وقرأ ابن السَّمَيْفَع: «فَارِحِين» بالألف[٥]، وهما لغتان، كالفَرِه، والفارِه، والحَذِر والحاذِر، والطَّمِع والطَّامِع، والبَخِل والباخِل. قال النحاس[٦]: ويجوز في غير القرآنِ رَفعُه، يكون نعتاً لـ «أحياء».

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ المعنى: لم يلحقوا بهم في الفضل، وإن كان لهم فضلٌ. وأصلُه من البَشَرة؛ لأنَّ الإنسانَ إذا فَرِح ظهرَ أثر السُّرورِ في وجهه.[٧]

وقال السُّدّي: يؤتى الشَّهيدُ بِكتابٍ فيه ذكرُ مَن يَقْدَمُ عليه من إخوانه، فيستَبشِرُ كما يستبشرُ أهلُ الغائبِ بقُدومِه في الدُّنيا.

---

(١) الكتاب ٣/ ٤٨٠ ، والمحرر الوجيز ١/ ٥٤١ ، وعنه نقل المصنف.

(٢) في (خ) و(د) و(م): الأول، والمثبت من (ظ).

(٣) المفهم٣/ ٧١٥ .

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٤١.

(٥) لم نقف على من ذكر هذه القراءة، وذكرها الشوكاني في فتح القدير ١/ ٣٩٩ .

(٦) في إعراب القرآن ١/ ٤١٩ ، وسلف ذكر ذلك.

(٧) ينظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٨٩ ، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٥٠٨ .

وقال قَتادةُ وابنُ جُرَيْج والرَّبيعُ وغيرُهم: استبشارُهم بأنهم يقولون: إخوانُنا الذين تركنا خلْفَنا في الدنيا يقاتلون في سبيل اللهِ مع نبيِّهم، فيُستشهدون، فينالون من الكرامة مثلَ ما نحن فيه؛ فيُسرُّون ويفرحون لهم بذلك.(١)

وقيل: إنَّ الإشارةَ بالاستبشار للذين لم يَلحَقوا بهم إلى جميع المؤمنين وإن لم يُقتلوا، ولكنهم لمَّا عاينوا ثوابَ اللهِ؛ وقع اليقينُ بأنَّ دِينَ الإسلامِ هو الحقُّ الذي يُثيبُ الله عليه؛ فهم فَرِحون لأنفسهم بما آتاهم الله من فضله، مستبشرون للمؤمنين بأنْ لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون. ذهب إلى هذا المعنى الزجَّاج(٢) وابن فُورَك.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

أي: بجَنَّةٍ من الله، ويقال: بمغفرةٍ من الله .﴿وَفَضْلٍ﴾ هذا لزيادة البيان. والفضلُ داخلٌ في النعمة، وفيه دليلٌ على اتِّساعها، وأنها ليست كنِعَم الدنيا.

وقيل: جاء الفضلُ بعد النعمةِ على وجه التأكيد(٣)؛ روى التِّرمذيُّ عن المِقْدام بنِ مَعْدِ يكرِب قال: قال رسول الله ﷺ: «للشَّهيد عند اللهِ ستُّ خِصالٍ ـ كذا في الترمذيّ وابن ماجة: «سِتٌّ»، وهي في العدد سبعٌ ـ(٤): يغفر له في أوَّل دُفعة،(٥) ويُرى مَقعدَه من الجنة، ويُجارُ من عذاب القبرِ، ويَأْمن من الفزع الأكبر، ويُوضَعُ على رأسه تاجُ الوَقار؛ الياقوتةُ منها خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، ويُزوَّجُ اثنتين وسبعين زوجةً من الحور العِين، ويُشَفَّعُ في سبعين من أقاربه» قال: هذا حديثٌ حسن صحيح غريب.(٦) وهذا تفسيرٌ للنِّعمة والفضل. والآثارُ في هذا المعنى كثيرة.

---

(١) أخرج الأقوال الطبري ٦/ ٢٣٧ - ٢٣٨ . وينظر النكت والعيون ١/ ٤٣٧ .

(٢) في معاني القرآن ١/ ٤٨٩ .

(٣) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٣١٥ .

(٤) قال السندي في حاشية سنن ابن ماجه ٢/ ١٨٤ : المذكورات سبع إلا أن يجعل الإجارة والأمن من الفزع واحدة.

(٥) قال السندي: قوله: دُفعة، ضبطناه في جامع الترمذي بضم الدال، ولذلك قال أهل اللغة: الدُّفعة بالضم ما دفع من إناء أو سقاء فانصبَّ بمرة، وأما الدَّفعة بالفتح، فهي المرة الواحدة من الدفع والإزالة بقوة، فلا يصلح هنا.

(٦) سنن الترمذي (١٦٦٣)، وسنن ابن ماجه (٢٧٩٩)، وهو عند أحمد (١٧١٨٢)، ورواه أحمد أيضاً (١٧١٨٣) من حديث عبادة بن الصامت، وحسن إسناده المنذري في الترغيب ٢/ ٢٩٤ .

ورُوي عن مجاهد أنه قال: السُّيوف مفاتيحُ الجنة.[١]

ورُوي عن رسول اللهِ ﷺ أنه قال: «أكرمَ الله تعالى الشهداءَ بخمس كراماتٍ؛ لم يُكرِمْ بها أحداً من الأنبياء ولا أنا: أحدُها: أنَّ جميعَ الأنبياءِ قبضَ أرواحَهم مَلَكُ الموت، وهو الذي سيَقبِضُ رُوحي، وأما الشُّهداءُ فاللهُ هو الذي يقبضُ أرواحَهم بقدرته كيف يشاء، ولا يُسلَّط على أرواحهم مَلَكُ الموت، والثاني: أنّ جميعَ الأنبياءِ قد غُسِّلوا بعد الموتِ، وأنا أُغسَّل بعد الموت، والشهداءُ لا يُغسَّلُون ولا حاجةَ لهم إلى ماء الدُّنيا، والثالثُ: أنَّ جميعَ الأنبياءِ قد كُفِّنوا وأنا أُكَفَّن، والشهداءُ لا يُكَفَّنون بل يُدفنون في ثيابهم، والرابع: أنَّ الأنبياءَ لما ماتوا سُمُّوا أمواتاً، وإذا مِتُّ يقال: قد مات، والشُّهداءُ لا يُسَمَّوْن مَوْتى، والخامسُ: أنَّ الأنبياءَ تُعطى لهم الشفاعةُ يومَ القيامة وشفاعتي أيضاً يومَ القيامة، وأما الشهداءُ فإنهم يشفعون في كلِّ يومٍ فيمن يشفعون».[٢]

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ قرأه الكِسائيُّ بكسر الألف، والباقون بالنصب؛ فمن قرأ بالنصب فمعناه: يستبشرون بنعمة من الله، ويستبشرون بأنَّ الله لا يُضيع أجرَ المؤمنين. ومن قرأ بالكسر فعلى الابتداء.[٣] ودليله قراءةُ ابنِ مسعود: «واللهُ لا يضيع أجر المؤمِنين».[٤]

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضع رفعٍ على الابتداء، وخبره: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾[٥].

---

(١) أورده أبو الليث في تفسيره ١/ ٣١٥ وأخرج الطبراني في الكبير ٢٢/ ٢٤٦ عن مجاهد عن يزيد بن شجرة قال: أُنبئت أن السيوف مفاتيح الجنة.

(٢) لم نقف على من أخرجه وذكره أبو الليث في تفسيره ١/ ٣١٥ - ٣١٦، وقال: أروي هذا الحديث بمعناه لا بلفظه.

(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٣١٦، وانظر القراءة في السبعة ص٢١٩، والتيسير ص٩١، والحجة ٣/ ٩٨.

(٤) ذكر القراءة الطبري ٦/ ٢٣٩، وابن أبي داود في المصاحف ١/ ٣١١، وابن زنجلة في حجة القراءات ص١٨١، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٤١.

(٥) كذا قال المصنف رحمه الله، وكذا قال مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ١٧٨ - ١٧٩، وتعقبه السمين =

ويجوز أنْ يكونَ في موضع خفض، بدل من المؤمنين، أو من «الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا».

﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾ بمعنى أجابوا، والسين والتاءُ زائدتان. ومنه قوله:

فلم يَسْتَجِبْهُ عند ذاك مُجِيبُ[(١)]

وفي الصحيحين عن عروةَ بنِ الزبير قال: قالت لي عائشةُ رضي الله عنها: كان أبوك[(٢)] من الذين استجابوا لله والرسولِ من بعد ما أصابهم القَرْح. لفظ مسلم[(٣)].

وعنه عن عائشة: يا ابنَ أختي، كان أبواك ـ تعني الزبيرَ وأبا بكر ـ من الذين استجابوا لله والرسولِ من بعد ما أصابهم القَرْح.

وقالت: لما انصرف المشركون من أُحُد، وأصابَ النبيَّ ﷺ وأصحابَه ما أصابهم، خاف أن يرجعوا، فقال: «من يَنتدبُ لهؤلاء حتى يعلموا أنَّ بنا قوَّةً؟» قال: فانتَدَب أبو بكر والزُّبير في سبعين؛ فخرجوا في آثار القوم، فسمعوا بهم، وانصرفوا بنعمةٍ من الله وفضل[(٤)].

وأشارت عائشةُ رضي الله عنها إلى ما جرى في غزوة حَمْراء الأسد، وهي على نحو ثمانيةِ أميالٍ من المدينة، وذلك أنه لما كان في يوم الأحد، وهو الثاني من يوم أُحُد، نادى رسولُ الله ﷺ في الناس باتّباع المشركين، وقال: «لا يخرجْ معنا إلا من شهدها بالأمس»[(٥)]، فنهض معه مئتا رجلٍ من المؤمنين ـ في البخاري[(٦)]: فقال: «من يذهبُ في إثرهم؟»، فانتدب منهم سبعون رجلاً. قال: كان فيهم أبو بكر والزبير على

= الحلبي في الدر المصون ٣/ ٤٨٧، فقال: وهذا غلط؛ لأن هذا ليس بمفيد البتة، بل «من بعد» متعلق باستجابوا. اهـ. يعني أن الخبر: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. وينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٩.

(١) قائله كعب بن سعد الغنوي، والبيت في تأويل مشكل القرآن ص١٧٧، وأمالي القالي ٢/ ١٥١، وأمالي ابن الشجري ١/ ٩٥، والخزانة ١٠/ ٤٣٦، وصدره: وداعٍ دعا يا من يجيب إلى النَّدى.

(٢) كذا في النسخ، وتلخيص مسلم لأبي العباس القرطبي وشرحه المفهم ٦/ ٢٩١، وأما لفظ مسلم: كان أبواك.

(٣) صحيح البخاري (٤٠٧٧)، وصحيح مسلم (٢٤١٨): (٥٢) وفيهما: كان أبواك.

(٤) انظر تفسير الطبري ٦/ ٢٤١ - ٢٤٢، وأسباب النزول للواحدي ص١٢٦-١٢٧.

(٥) المفهم ٦/ ٢٩١ - ٢٩٢، وانظر سيرة ابن هشام ٢/ ١٠١.

(٦) هو حديث البخاري (٤٠٧٧) المذكور آنفاً.

ما تقدَّم ـ حتى بلغ حمراءَ الأسد، مُرْهِباً للعدوّ؛ فرُبَّما كان فيهم المُثْقَلُ بالجراح، لا يستطيع المشيَ، ولا يجد مركُوباً، فرُبَّما يُحمل على الأعناق؛ وكلُّ ذلك امتثالٌ لأمر رسولِ الله ﷺ، ورغبةٌ في الجهاد.(١)

وقيل: إنَّ الآيةَ نزلت في رجلين من بني عبدِ الأشهَلِ؛ كانا مُثْخَنَين بالجراح، فتوكّأ(٢) أحدُهما على صاحبه، وخرجا مع النبيِّ ﷺ(٣)؛ فلما وصلوا حمراءَ الأسد، لقيَهم نُعيم بنُ مسعود، فأخبرهم أنَّ أبا سفيان بنَ حرب ومن معه من قريشٍ قد جَمَعُوا جُموعَهم، وأجمعوا رأيَهم على أن يرجعوا(٤) إلى المدينة، فيستأصلوا أهلَها؛ فقالوا ما أخبرنا الله عنهم: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

وبينا قريشٌ قد أجمعوا على ذلك؛ إذ جاءهم مَعْبدٌ الخُزاعيُّ، وكانت خُزاعةُ حُلفاءَ النبيِّ ﷺ وعَيْبَةَ نُصْحِه(٥)، وكان قد رأى حالَ أصحابِ النبيِّ ﷺ وما هم عليه؛ ولمَّا رأى عزمَ قريشٍ على الرجوع ليستأصلوا أهلَ المدينةِ، احتمله خوفُ ذلك، وخالِصُ نصحِه للنبيِّ ﷺ وأصحابه على أنْ خَوَّفَ قريشاً بأنْ قال لهم: قد تركت محمداً وأصحابه بحمراء الأسدِ في جيشٍ عظيم، قد اجتمع له من كان تخلَّف عنه، وهم قد تحرَّقوا عليكم ، [وكأنهم قد أدركوكم]، فالنَّجاءَ النَّجاء!(٦) فإني أنهاك عن ذلك(٧)، فواللهِ لقد حملني ما رأيتُ أنْ قلتُ فيه أبياتاً من الشِّعر. قال: وما قلتَ؟ قال: قلت:

كادت تُهَدُّ من الأصوات راحِلَتي إذ سالت الأرضُ بالجُرْد الأبابيلِ(٨)

---

(١) ينظر المفهم ٦/ ٢٩٢ .

(٢) في (م): يتوكأ.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠١ ، وتفسير الطبري ٦/ ٢٤٠ - ٢٤١ ، ودلائل البيهقي ٣/ ٣١٤ ، وليس عندهم أن الآية نزلت فيهما.

(٤) في (م): يأتوا.

(٥) قوله: عَيْبة نُصحِه، أي: موضع سرِّه، القاموس (عيب).

(٦) المفهم ٦/ ٢٩٢، وما بين حاصرتين منه.

(٧) هو من كلام معبد الجهني يخاطب أبا سفيان بنَ حرب، وانظر سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٢ .

(٨) قوله: الجُرد جمع أجرد، وهو القصير الشعر من الخيل، وقيل: الخيل العتاق. ينظر الإملاء المختصر في شرح غريب السِّير لأبي ذر الخشني ٢/ ١١٨ ، واللسان (جرد). والأبابيل: الجماعات المتفرقة. =

تُـرْدِي بـأُسْـدٍ كـرامٍ لا تَـنـابـلـةٍ عـنـد اللِّقـاء ولا مِـيـلٍ مَـعـازيـلِ[(١)]
فَـظَـلْـتُ عَـدْواً أظـنُّ الأرضَ مـائِـلـةً لـمَّـا سَـمَـوْا بـرئـيـسٍ غـيـرِ مَـخْـذُولِ
فقـلـتُ: وَيْلَ ابنِ حَرْبٍ من لقائِكُمُ إذا تَـغَـطْـمَـطَتِ[(٢)] البَطْحاءُ بالخَيْلِ[(٣)]
إنـي نـذيـرٌ لأهـل الـبَـسْـلِ ضـاحـيـةً لـكـلِّ ذي إِرْبـةٍ مـنـهـم ومـعـقـولِ[(٤)]
من جيش أحْمَدَ لا وَخْشٌ[(٥)] تَناتلة[(٦)] ولـيـس يُـوصَـفُ ما أنـذرتُ بـالـقِـيـلِ[(٧)]

قال: فَثَنى ذلك أبا سُفيانَ ومن معه، وقذَف الله في قلوبهم الرُّعبَ، ورجعوا إلى مكةَ خائفين مسرعين، ورجع النبيُّ ﷺ في أصحابه إلى المدينة منصوراً، كما قال الله تعالى: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾[(٨)]، أي: قتالٌ ورُعب.

واستأذن جابر بنُ عبداللهِ إلى النبيِّ ﷺ في الخروج معه، فأذن له. وأخبرهم تعالى أنَّ الأجرَ العظيمَ قد تَحصَّل لهم بهذه القَفْلة. وقال رسول الله ﷺ: «إنها غَزْوة». هذا تفسيرُ الجمهور لهذه الآية.[(٩)]

= ينظر اللسان والقاموس (أبل).

(١) قوله: تُردي، أي: ترجم الأرضَ بحوافرها، اللسان (ردى). وتنابلة: قصار، ومِيل جمع أَمْيَل، وهو الذي لا رمح معه، وقيل: الذي لا يثبت على السَّرج. الإملاء المختصر ٢/ ١١٨ .

(٢) قوله: تغطمطت أي: اهتزت وارتجَّت. الإملاء المختصر ٢/ ١١٨ .

(٣) في (خ) والسيرة ٢/ ١٠٣ وتفسير الطبري ٦/ ٢٤٧ : بالجيل، والمثبت من (د) و(ظ) و(م). قال السهيلي في الروض الأنف: ٣/ ١٨٠ : قوله: بالخيل: جعل الرِّدف حرفَ لين، والأبيات كلها مردفة الرويّ بحرف مد ولين، وهذا هو السِّناد.

(٤) البَسْلُ: الحرام، وأراد بأهل البَسْل قريشاً، لأنهم أهل مكة، ومكة حرام. وضاحية: بارزة، وإربة: الإملاء المختصر ٢/ ١١٨ .

(٥) في النسخ: وحش، والمثبت من (م)، ومصادر التخريج، والوخش: رذالة الناس وأخسَّاؤهم. اللسان (وخش).

(٦) في (م): قَنابلُه، وهو جمع قَنْبَلَة، وهي الطائفة من الناس ومن الخيل. القاموس (قنبل)، وفي (د): ينائله، والمثبت من (خ) و (ظ)، وهو من تَنْتَل الرجل إذا تقذَّر بعد تنظيف. اللسان (تنتل). ووقع في سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٣ ، وتفسير الطبري ٦/ ٢٤٧ : تنابلة.

(٧) وردت هذه الأبيات في السيرة النبوية ٢/ ١٠٣، وتفسير الطبري ٦/ ٢٤٧ ، والروض الأُنُف ٣/ ١٧٤ .

(٨) المفهم ٦/ ٢٩١ - ٢٩٢ ، وينظر السيرة النبوية ٢/ ١٠٢ - ١٠٣ .وتفسير الطبري ٦/ ٢٤٦ - ٢٤٨ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٧٣ - ٣٧٤ .

(٩) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٢ ، وينظر السيرة النبوية ٢/ ١٠١ ، وتفسير الطبري ٦/ ٢٤٠ .

وشذَّ مجاهد وعِكرمةُ رحمهما الله تعالى فقالا[١]: إنَّ هذه الآيةَ من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ إنما نزلت في خروج النَّبيِّ ﷺ إلى بَدْرِ الصُّغرى. وذلك أنه خرج لميعاد أبي سفيان في أُحُد، إذ قال: مَوْعِدُنا بَدْرٌ من العام المُقبِل. فقال النبيُّ ﷺ: «قولوا: نعم». فخرج النبيُّ ﷺ قِبَل بَدْرٍ، وكان بها سُوقٌ عظيم، فأعطى رسولُ الله ﷺ أصحابَه دراهِم، وقَرُب من بَدْرٍ، فجاءه نُعيم بنُ مسعود الأشجَعِيُّ، فأخبره أنَّ قريشاً قد اجتمعت، وأقبلت لحربه هي ومن انضاف إليها، فأشفق المسلمون من ذلك، لكنهم قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، فصَمَّموا حتى أَتَوا بدراً، فلم يجدوا أحداً، ووجدوا السُّوق، فاشتَرَوْا بدراهمهم أُدْماً وتجارة، وانقلبوا ولم يَلقَوا كَيْداً، ورَبِحُوا في تجارتهم، فذلك قولُه تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾، أي: وفضلٍ في تلك التجارات[٢]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾.

واختلفوا[٣] في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾، فقال مُجاهد ومُقاتِلٌ وعِكرمةُ والكَلْبيّ: هو نُعيم بنُ مسعود الأشجعيُّ، واللَّفظ عامٌّ ومعناه خاصٌّ، كقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ٥٤]، يعني محمداً ﷺ.[٤]

السُّدِّيّ: هو أعرابيٌّ جُعِل له جُعْلٌ على ذلك.[٥]

وقال ابن إسحاقَ وجماعةٌ: يريد بالناس رَكْبَ عبدِ القيس، مرُّوا بأبي سفيانَ،

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٢٥٠ - ٢٥١، وتفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٨١٨ - ٨١٩.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٣، وينظر تفسير البغوي ١/ ٣٧٤، والوسيط ١/ ٥٢٢.

(٣) في (د): اختلفوا، وفي (م): اختلف، والمثبت من (خ) و (ظ).

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٧٥، وينظر تفسير أبي الليث ١/ ٣١٦.

(٥) في الكلام اختصار، وتفصيله ـ كما في تفسير الطبري ٦/ ٢٤٨ - ٢٤٩ ـ أن أبا سفيانَ وأصحابَه جعلوا له جُعْلاً، وقالوا له: إن لقيت محمداً وأصحابه فأخبرهم أنَّا قد جمعنا لهم، فأخبر الله تعالى رسوله ﷺ، فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد، فلقوا الأعرابي في الطريق، فأخبرهم الخبر، فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل ...

فدسَّهم إلى المسلمين ليثبِّطوهم.[١]

وقيل: الناسُ هنا المنافقون؛ قال السُّدِّيّ: لما تجهَّز النبيُّ ﷺ وأصحابُه للمسير إلى بَدْرٍ الصغرى لميعاد أبي سفيان، أتاهم المنافقون، وقالوا: نحن أصحابُكم الذين نهيناكم عن الخروج إليهم وعصيتُمونا، وقد قاتلوكم في دياركم وظَفِرُوا؛ فإنْ أتيتُموهم في ديارهم فلا يرجعُ منكم أحدٌ، فقالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.[٢]

وقال أبو مَعْشر: دخل ناسٌ من هُذيل من أهل تِهامةَ المدينةَ، فسألهم أصحابُ رسولِ الله ﷺ عن أبي سفيانَ، فقالوا: قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ جموعاً كثيرة، فَاخْشَوْهُمْ، أي: فخافوهم واحذروهم؛ فإنه لا طاقةَ لكم بهم[٣].

فالناسُ على هذه الأقوالِ على بابه من الجمع. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾، أي: فزادهم قولُ الناسِ إيماناً، أي: تصديقاً ويقيناً في دينهم، وإقامةً على نُصرته[٤]، وقوَّةً وجَراءةً واستعداداً. فزيادةُ الإيمانِ على هذا هي في الأعمال.

وقد اختلف العلماء في زيادة الإيمانِ ونقصانِه على أقوال. والعقيدةُ في هذا على أنَّ نَفْسَ الإيمانِ الذي هو تاجٌ واحدٌ، وتصديقٌ واحدٌ بشيءٍ مّا، إنما هو معنًى فَرْدٌ، لا يدخل معه زيادةٌ إذا حصل. ولا يبقى منه شيءٌ إذا زال؛ فلم يبق إلا أنْ تكون الزيادةُ والنقصانُ في متعلقاته دون ذاتِه.

فذهب جمعٌ من العلماء إلى أنه يزيد وينقص من حيث الأعمالُ الصادرةُ عنه، لا سيما أنَّ كثيراً من العلماء يوقعون اسمَ الإيمانِ على الطاعات[٥]؛ لقوله ﷺ: «الإيمان بضعٌ وسبعون باباً، فأعلاها قولُ: لا إله إلا اللهُ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق».

---

(١) السيرة النبوية ١/ ١٠٣، وتفسير الطبري ٦/ ٢٤٨.

(٢) تفسير الرازي ٩/ ١٠٠، وينظر الوسيط ١/ ٥٢٢.

(٣) أورده ابن حجر في العجاب ٢/ ٧٩٤، ونسبه للثعلبي.

(٤) في (م): نصرتهم.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٢.

أخرجه الترمذيّ، وزاد مسلم: «والحياءُ شُعْبَةٌ من الإيمان»[١]. وفي حديث عليٍّ ﷺ: إنَّ الإيمانَ يبدو[٢] لُمْظَةً بيضاءَ في القلب، كلما ازداد الإيمانُ ازدادت اللُّمْظَة[٣]، وقولُه: «لُمظة» قال الأصمعيّ: اللُّمظةُ مثلُ النُّكْتةِ ونحوِها من البياض؛ ومنه قيل: فرسٌ ألْمَظ، إذا كان بجَحْفَلَتِه شيءٌ من بياض. والمحدّثون يقولون: «لَمظة» بالفتح. وأما كلامُ العربِ فبالضم، مثلُ شُبهة ودُهمة وحُمرة[٤].

وفيه حُجّةٌ على من أنكر أنْ يكونَ الإيمانُ يزيد وينقص، ألا تراه يقول: كلما ازداد الإيمانُ ازدادت اللُّمظةُ، حتى يبيضَّ القلبُ كلُّه. وكذلك النفاقُ؛ يبدو لُمْظَةً سوداءَ في القلب، كلما ازداد النفاقُ اسودَّ، حتى[٥] يسودَّ القلب كلُّه.

ومنهم من قال: إنَّ الإيمانَ عَرَضٌ، وهو لا يَثْبتُ زمانين؛ فهو للنبيِّ ﷺ وللصُّلحاء متعاقِب، فيزيد باعتبار توالي أمثاله على قلب المؤمن، وباعتبار دوامِ حضوره، وينقص بتوالي الغَفَلاتِ على قلب المؤمن[٦]. أشار إلى هذا أبو المعالي[٧]. وهذا المعنى موجودٌ في حديث الشفاعة، حديثِ أبي سعيد الخُدْرِيِّ أخرجه مسلم[٨]. وفيه: «فيقول المؤمنون: يا ربَّنا، إخوانُنا كانوا يصومون ويُصلُّون ويَحجُّون، فيُقال لهم: أخْرِجوا من عرفتُم، فتُحَرَّم صُورهُم على النار، فيُخرِجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نِصفِ ساقَيْه وإلى رُكبتيه. ثم يقولون[٩]: ربَّنا ما بَقِيَ فيها أحدٌ ممن أمرتَنا به، فيقول: ارْجعوا فمن وجدتم في قلبه مِثقالَ دِينارٍ من خير

---

(١) صحيح مسلم (٣٥) وسنن الترمذي (٢٦١٤)، وقد سلف ص٦٨ من هذا الجزء.

(٢) في (د) و(م): ليبدو، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لغريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٤٦٠.

(٣) غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٤٦٠ - ٤٦١، وأخرجه ابن أبي شيبة في الإيمان (٨)، وأورده أبو عبيد في الإيمان ص٦٤ (وعندهما: إن الإيمان يبدأ) والزمخشري في الفائق ٣/ ٣٣١.

(٤) في (خ) و(م): خمرة، وفي (د) حجرة. والجحفلة بمنزلة الشفة للخيل والبغال والحمير. القاموس (جحفل).

(٥) في (م): اسودَّ القلبُ حتى.

(٦) المفهم ١/ ٤٤٢.

(٧) في الإرشاد ص٣٣٣-٣٣٦، وينظر المحرر الوجيز ١/ ٤٥٣.

(٨) برقم (١٨٣)، وأخرجه أيضاً البخاري (٧٤٣٩)، وقد سلفت قطعة منه ص٢١٣ من هذا الجزء.

(٩) لفظة «ثم» ليست في النسخ الخطية، وفي (د): فيقولون، والمثبت من (م)، وصحيح مسلم.

فأخرجوه، فيُخرِجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: رَبَّنا لم نَذَرْ فيها أحداً ممن أمرتنا به[١]، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتُم في قلبه مِثقَالَ نِصفِ دِينارٍ من خير فأخرجوه، فيُخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: رَبَّنا لم نَذَرْ فيها ممن أمرتنا[٢] أحداً، ثم يقول: ارجِعوا فمن وجدتُم في قلبه مِثقَالَ ذَرَّةٍ من خير فأخرجوه»[٣]، وذكر الحديث.

وقد قيل: إنّ المرادَ بالإيمان في هذا الحديثِ أعمالُ القلوب؛ كالنيّة، والإخلاصِ، والخوف، والنصيحةِ، وشبه ذلك. وسمَّاها إيماناً لكونها في محلِّ الإيمانِ، أو عن الإيمان[٤]، على عادة العربِ في تسمية الشيءِ باسم الشيءِ إذا جاوره، أو كان منه بسبب.

دليلُ هذا التأويلِ قولُ الشافعين بعد إخراجِ من كان في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من خير: «لم نَذَرْ فيها خيراً»[٥]، مع أنه تعالى يُخرج بعد ذلك جموعاً كثيرةً ممن يقول: لا إله إلا الله، وهم مؤمنون قطعاً؛ ولو لم يكونوا مؤمنين لما أخرجهم.

ثم إن عُدِم الوجودُ الأوّل الذي يُرَكَّب عليه المِثْلُ لم تكن زيادةٌ ولا نقصان. وقُدِّر ذلك في الحركة؛ فإنَّ الله سبحانه إذا خَلق عِلْماً فَرْداً، وخلق معه مِثْلَه، أو أمثالَه، بمعلومات، فقد زاد علمُه؛ فإنْ أعدم الله الأمثالَ فقد نقص، أي: زالت الزيادة. وكذلك إذا خلق حركةً وخلق معها مثلَها أو أمثالَها.

وذهب قومٌ من العلماء إلى أنَّ زيادةَ الإيمان ونَقْصَه إنما هو من طريق الأدلة، فتزيد الأدلَّة عند واحدٍ، فيقال في ذلك: إنها زيادةٌ في الإيمان، وبهذا المعنى ـ على أحد الأقوال ـ فُضِّل الأنبياءُ على الخلق، فإنهم عَلِموه من وجوه كثيرةٍ أكثرَ من الوجوه التي علمه الخلقُ بها. وهذا القولُ خارجٌ عن مقتضى الآية؛ إذ لا يُتصوَّر أنْ

---

(١) لفظة: به، ليست في (م).

(٢) في (د) و(ظ): أمرتنا به.

(٣) بعدها في (ظ): «فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربَّنا لم نذر فيها خيراً».

(٤) في (ظ) و(م): عنى بالإيمان، وفي (خ): عنى الإيمان، والمثبت من (د)، وهو الموافق للمفهم ١/ ٤٤٢، والكلام منه.

(٥) قطعة من حديث أبي سعيد الخدري السابق.

تكونَ الزيادةُ فيها من جهة الأدلة[١]. وذهب قوم: إلى أنَّ الزيادةَ في الإيمان إنما هي بنزول الفرائضِ والأخبارِ في مدَّة النبيِّ ﷺ، وفي المعرفة بها بعد الجهلِ غابرَ الدَّهر.

وهذا إنما هو زيادةُ إيمان؛ فالقول فيه: إنَّ الإيمان يزيد قولٌ مَجازِيٌّ، ولا يُتصوَّر فيه النقصُ على هذا الحدِّ، وإنما يُتصوَّر بالإضافة إلى من عَلِم[٢]. فاعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، أي: كافينا الله. وحَسْبُ مأخوذٌ من الإحساب، وهو الكفاية[٣]. قال الشاعر:

فتملأ بيتَنا أقِطًا وسَمْناً وحَسْبُكَ من غِنًى شِبَعٌ ورِيُّ[٤]

روى البخاريُّ[٥] عن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم الخليلُ عليه السلام حين أُلْقِيَ في النار. وقالها محمد ﷺ حينَ قال لهم الناس: إنَّ الناسَ قد جمعوا لكم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾.

قال علماؤنا: لما فَوَّضوا أمورَهم إليه، واعتمدوا بقلوبهم عليه، أعطاهم من الجزاء أربعةَ معانٍ: النِّعمة، والفضل، وصرف السُّوء، واتِّباع الرِّضا. فرضَّاهم عنه، ورضِيَ عنهم.

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٤٣ .

(٢) في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٢ (والكلام منه): وإنما يتصور الأنقص بالإضافة إلى الأعلم.

(٣) انظر الكشاف ١/ ٤٨١ .

(٤) قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص١٣٧ ، وفيه: فتُوسع أهلَها، بدل: فتملأ بيتنا، وأورده أبو الفرج في الأغاني ٩/ ٩٥ ، والزمخشري في المستقصى ٢/ ٦٣ ، والميداني في مجمع الأمثال ١/ ١٩٦ بمثل رواية المصنف، وقوله: الأقط؛ مثلثة، ويحرك، وككتف، ورجُل، وإبل: شيءٌ يتخذ من المخيض الغنمي، ج: أقطان. القاموس (أقط).

(٥) برقم (٤٥٦٣) .

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

قال ابن عباس[1] وغيره: المعنى: يخوِّفُكم أولياءَه؛ أي: بأوليائه، أو: من أوليائه، فحذف حرف الجرِّ، ووصل الفعل إلى الاسم، فنصب. كما قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف: ٢] أي: لينذركم ببأس شديد، أي: يخوّف المؤمن بالكافر[2].

وقال الحسن والسُّدِّيّ: المعنى: يخوّف أولياءَه المنافقين؛ ليقعدوا عن قتال المشركين، فأما أولياءُ اللهِ فإنهم لا يخافونه إذا خوَّفهم[3].

وقد قيل: إنَّ المرادَ: هذا الذي يُخوّفكم بجمع الكفارِ شيطانٌ من شياطين الإنس؛ إمّا نُعيم بنُ مسعود أو غيرُه[4]، على الخلاف في ذلك كما تقدَّم. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾، أي: لا تخافوا الكافرين المذكورين في قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾. أو يرجعُ إلى الأولياء إن قلت: إنَّ المعنى يخوّفُ بأوليائه، أي: يخوّفكم أولياءَه[5].

قوله تعالى: ﴿وَخَافُونِ﴾، أي: خافونِ في ترك أمري إن كنتم مصدِّقين بوعدي[6]. والخوفُ في كلام العربِ الذُّعْر. وخَاوَفَني فلانٌ فَخُفْتُه: أي: كنتُ أشدَّ خوفاً منه. والخَوْقاءُ[7] المَفَازَةُ لا ماءَ بها. ويقال: ناقةٌ خَوْقَاء[8] وهي الجَرْبَاء. والخافة: الخريطة[9] من الأَدَم يُشْتَارُ فيها العَسَل.

---

(١) أخرجه الطبري ٦/ ٢٥٥ .

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٤٨ ، وتفسير الرازي ٩/ ١٠٢ .

(٣) قول الحسن أخرجه ابن أبي حاتم ٣/ ٨٢١ ، وأورده الماوردي في النكت والعيون ١/ ٤٣٨ ، وقول السّدّيّ أخرجه الطبري ٦/ ٢٥٦ .

(٤) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٣١٧ ، وتفسير الرازي ٩/ ١٠٢ .

(٥) ينظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٦٠ ، والكشاف ١/ ٤٨١ ، والوسيط ١/ ٥٢٣ .

(٦) تفسير البغوي ١/ ٣٧٦ .

(٧) في النسخ: والخوفاء (بالفاء)، وهو خطأ، والمثبت من مجمل اللغة لابن فارس ١/ ٣٠٧ ، والكلام منه، ولعل المصنف ذكر ذلك استطراداً أو وهماً، وينظر الصحاح واللسان (خوق).

(٨) في النسخ: خوفاء، بالفاء، وهو خطأ أيضاً.

(٩) في النسخ: كالخريطة، والمثبت من الصحاح (خوف).

قال سَهلُ بنُ عبدالله: اجتمع بعضُ الصدّيقين إلى إبراهيم الخَليلِ، فقالوا: ما الخوفُ؟ فقال: لا تأمنْ حتى تبلغَ المأمنَ.

قال سهل: وكان الربيع بنُ خُثَيْم إذا مرَّ بِكِيرٍ[١] يُغْشَى عليه؛ فقيل لعليّ بنِ أبي طالب ذلك، فقال: إذا أصابه ذلك فأعْلِموني. فأصابه، فأعلَموه، فجاءه، فأدخل يده في قميصه، فوجد حركتَه عالية، فقال: أشهَدُ أنَّ هذا أخوفُ أهلِ[٢] زمانِكم[٣].

فالخائف من الله تعالى هو أنْ يخَافَ أن يُعاقِبَه إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة، ولهذا قيل: ليس الخائفُ الذي يبكي ويمسحُ عينيه، بل الخائفُ الذي يترك ما يَخافُ أنْ يُعذَّب عليه.[٤]

ففرض الله تعالى على العباد أنْ يخافوه، فقال: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾. ومدح المؤمنين بالخوف، فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[٥]. ولأرباب الإشاراتِ في الخوف عباراتٌ مرجعُها إلى ما ذكرنا.

قال الأستاذ أبو عليّ الدَّقّاق: دخلت على أبي بكر بنِ فُورَك رحمه الله عائداً، فلما رآني دَمعتْ عيناه، فقلت له: إنَّ الله يعافيك ويَشفِيك، فقال لي: أترى أنِّي أخاف من الموت؟ إنما أخاف مما وراء الموت.[٦]

وفي سُنن ابنِ ماجه عن أبي ذَرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّي أرى ما لا تَرَوْن، وأسمع ما لا تسمعون، إنَّ السماءَ أطّت[٧]، وحُقَّ لها أنْ تَئِطّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلّا وملَكٌ واضعٌ جبهتَه ساجداً لله. واللهِ لو تعلمون ما أعلم؛ لَضَحِكتم قليلاً ولبَكَيْتُم كثيراً، وما تلذَّذْتُم بالنساء على الفُرُشَات، ولَخرجتُم إلى الصُّعُدات تَجْأَرُون إلى الله». واللهِ لوَدِدْتُ أني كنت شجرةً تُعْضَد. خرّجه التِّرمذيُّ وقال: حديث حسَنٌ

---

(١) قوله: الكِيرُ، بالكسر: زِقٌّ يَنفخ فيه الحداد، وأما المبني من الطين فكور. القاموس (كير).

(٢) قوله: أهل، من (م).

(٣) ينظر حلية الأولياء ٢/ ١١٠، وصفة الصفوة ٣/ ٦٦.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/ ١٩٣.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/ ١٨٩.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/ ١٩٦.

(٧) في (د) و(م): أطت السماء، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لمصادر التخريج.

غريب، ويُروى من غير هذا الوجهِ أنَّ أبا ذرٍّ قال: لوَدِدْتُ أنِّي كنت شجرةً تُعْضَد.[١] والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ هؤلاء قومٌ أسلموا ثم ارتدُّوا خوفاً من المشركين؛ فاغْتمَّ النبيُّ ﷺ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾.[٢]

وقال الكَلْبيّ: يعني به المنافقين ورؤساءَ اليهود؛ كَتَموا صفةَ محمدٍ[٣] ﷺ في الكتاب، فنَزلت.

ويقال: إنَّ أهلَ الكتابِ لمَّا لم يُؤمنوا؛ شَقَّ ذلك على رسول اللهِ ﷺ؛ لأنَّ الناسَ ينظرون إليهم، ويقولون: إنهم أهلُ كتاب؛ فلو كان قولُه حقًّا لاتَّبعوه، فنزلت: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾.

قراءةُ نافع بضم الياءِ وكسرِ الزَّاي حيثُ وقع إلا في «الأنبياء»: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الآية:١٠٣]، فإنه بفتح الياءِ وبضم الزاي. وضِدُّه أبو جعفر. وقرأ ابن مُحَيْصِن كلّها بضم الياءِ وكسرِ الزاي.[٤] والباقون كلّها بفتح الياءِ وضمِّ الزاي.[٥]

---

(١) سنن الترمذي (٢٣١٢)، وسنن ابن ماجه (٤١٩٠)، وهو عند أحمد (٢١٥٦)، وعنده بعد قوله: «تجأرون إلى الله»: قال: فقال أبو ذرٍّ: والله لوددتُ ... وهذا تصريح بأن الكلام بإثر الحديث من قول أبي ذرّ ﷺ. وقوله: أطَّت: الأطيط صوت الأقتاب، أي: إن كثرة الملائكة أثقلتها حتى أطَّت، وهذا مَثَلٌ وإيذان بكثرة الملائكة وإن لم يكن ثمَّ أطيط، فإنما هو تقريب أُريدَ به تقرير عظمة الله تعالى. النهاية (أطط). وقوله: الصُّعُدات: هي الطرق. النهاية (صعد). وقوله: تجأرون؛ الجؤار: رفع الصوت والاستغاثة. النهاية (جأر) وقوله: تُعضَد، أي: تُقطع، يقال: عَضَدتُ الشجر أعضِده عضداً. النهاية (عضد)

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٠.

(٣) في (د) و(م): النبي، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لتفسير أبي الليث١/ ٣١٧، والكلام منه.

(٤) في النسخ: بضم الياء والزاي، وكذلك ذكر الشوكاني في فتح القدير ١/ ٤٠٣، وهو خطأ، والتصويب من إتحاف فضلاء البشر ص٢٣٢، وسيذكرها المصنف على الصواب عند الآية (١٠٣) من سورة الأنبياء.

(٥) السبعة ١/ ٢١٩، والتيسير ص٩١ - ٩٢، والنشر ٢/ ٢٤٤.

وهما لغتان: حَزَنني الأمرُ يَحْزُنني، وأحْزَنَنِي أيضاً، وهي لغة قليلة؛ والأولى أفصحُ اللغتين. قاله النَّحاس[(١)]. وقال الشاعر في «أحزنَ»:

مَضى صَحْبي وأحْزَنَني الدِّيارُ[(٢)]

وقراءةُ العامَّة: «يُسَارِعُونَ». وقرأ طلحةُ: «يُسْرِعون في الكفر».[(٣)]

قال الضحَّاكُ: هم كفارُ قريش. وقال غيرُه: هم المنافقون[(٤)]. وقيل ما[(٥)] ذكرناه قبلُ. وقيل: هو عامٌّ في جميع الكفار. ومُسارعتُهم في الكفر: المظاهرةُ على محمد ﷺ.

قال القُشَيريُّ: والحُزنُ على كُفرِ الكافر طاعةٌ، ولكنَّ النبيَّ ﷺ كان يُفرِطُ في الحُزْنِ على كُفرِ قومِه، فنُهيَ عن ذلك، كما قال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يَنقُصونَ من مُلْك الله وسلطانه شيئاً، يعني: لا يَنقُصُ بكفرهم[(٦)]، وكما رُوي عن أبي ذَرٍّ، عن النَّبيِّ ﷺ فيما رَوى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي، إني حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم مُحرَّماً، فلا تَظالَموا. يا عبادِي، كلُّكم ضالٌّ إلَّا من هَدَيْتُه، فاستهدوني أَهْدِكم. يا عبادي، كلُّكم جائعٌ إلَّا مَنْ أطْعمتُه، فاستطعِموني أُطْعِمْكم. يا عبادي، كلُّكم عارٍ إلَّا من كَسَوْتُه، فاسْتكْسُوني أَكْسُكم. يا عبادِي، إنَّكم تُخطِئون بالليل والنَّهار، وأنا أغفِرُ الذنوبَ جميعاً، فاستغفروني أغفرْ لكُم. يا عبادي، إنَّكم لن تَبلغوا ضَرِّي فَتَضُرُّوني، ولن تَبْلُغوا نَفعي فَتَنْفَعُوني. يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم، وإنْسَكم وجِنَّكم، كانوا على

---

(١) إعراب القرآن ١/ ٤١٩ .

(٢) لم نقف عليه.

(٣) نسب قراءة يسرعون ابن جني في المحتسب ١/ ١٧٧ (في كل القرآن)، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٤ ، وأبو حيان في البحر ٣/ ١٢١ إلى الحرّ النحوي، ونسبها إليه ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٣٣ (موضع سورة المائدة) وص٩٨ (موضع سورة المؤمنون) قال ابن عطية: وقراءة العامة أبلغ.

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٧٦ . وأخرج القول الثاني الطبري ٦/ ٢٥٨ عن مجاهد وابن إسحاق.

(٥) في (م): وقيل هو ما.

(٦) تفسير أبي الليث ١/ ٣١٧ .

أَتْقَى قلبِ رجُلٍ واحدٍ منكم ما زادَ ذلك في مُلْكي شيئاً. يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكُم وآخِرَكُم، وإنْسَكُم وجِنَّكُم، كانوا على أفْجَرِ قلبِ رجُلٍ واحدٍ ما نَقَصَ ذلك من مُلْكي شيئاً. يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكُم وآخِرَكُم، وإنْسَكُم وجِنَّكم، قاموا في صَعيدٍ واحدٍ، فسألُوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مَسْألَته، ما نقَصَ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البحرَ. يا عبادي، إنما هي أعمالُكُم أُحْصِيها لكُم، ثمَّ أُوَفِّيكُم إيّاها، فمن وَجدَ خيراً فليَحْمَدِ اللهَ، ومَنْ وجدَ غير ذلكَ فلا يلُومَنَّ إلَّا نَفْسَه». خرَّجه مسلم في صحيحه، والتِّرمذيُّ، وغيرُهما[(١)]، وهو حديثٌ عظيم فيه طول، يكتبُ كلُّه.

وقيل: معنى «لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً»، أي: لن يَضُرُّوا أولياءَ الله حينَ تركوا نصرَهم؛ إذ كان الله عزَّ وجلَّ ناصِرَهم.[(٢)]

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: نصيباً. والحظُّ النَّصيبُ والجَدُّ. يقالُ: فلان أحظُّ من فلان، وهو مَحظوظٌ. وجمعُ الحَظِّ أَحاظٍ، على غير قياس. قال أبو زيد: يقال: رجل حَظِيظٌ جديدٌ[(٣)]، إذا كان ذا حظٍّ من الرِّزق. وحَظِظْتُ في الأمر أحَظّ. وربَّما جُمع الحظُّ أُحُظّاً[(٤)]. أي: لا يَجعلُ لَهم نَصيباً في الجنَّةِ. وهو نَصٌّ في أنَّ الخيرَ والشَّر بإرادةِ الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ تقدَّم في البقرة[(٥)].

﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ كرّر للتَّأكيد. وقيل: أي من سوءِ تدبيره استبدالُ الإيمانِ بالكفر، وبيعُه به؛ فلا يخاف جانبَه ولا تدبيره.

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٧٧) وسنن الترمذي (٢٤٩٥) وهو في مسند أحمد (٢١٤٢٠).

(٢) إعراب القرآن ١/ ٤٢٠.

(٣) في (د) و(م): حظيظ، أي جديد.

(٤) مجمل اللغة ١/ ٢١٥.

(٥) ١/ ٣١٨.

وانتصب «شيئاً» في الموضعين لوقوعه موقعَ المصدرِ، كأنَّه قال: لن يَضُروا اللهَ ضرراً قليلاً ولا كثيراً. ويجوزُ انتصابُه على تقدير حذفِ الباءِ، كأنه قال: لن يَضرُّوا الله بشيء.(١)

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ﴾ الإملاء: طولُ العُمُرِ، ورغَدُ العَيشِ. والمعنى: لا يَحسبنَّ هؤلاءِ الَّذين يُخَوِّفون المسلِمينَ، فإنَّ اللهَ قادرٌ على إهلاكهم، وإنَّما يُطوِّلُ أعمارَهم لِيعملوا بالمعاصي، لا لأنَّه خيرٌ لهم.

ويقالُ: «أنَّما نُملي لَهم» بما أصابوا من الظَّفر يومَ أُحُدٍ، لم يكن ذلكَ خيراً لأنفُسِهم، وإنَّما كان ذلك ليزدادوا عقوبةً.(٢)

ورُوي عن ابن مسعود أنَّه قال: ما مِنْ أحدٍ بَرٍّ ولا فاجرٍ إلَّا والموتُ خيرٌ له؛ لأنَّه إن كان بَرّاً فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٨]، وإنْ كانَ فاجراً فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾.(٣)

وقرأ ابنُ عامرٍ وعاصم: «لا يَحْسَبنَّ» بالياءِ ونَصْبِ السِّين. وقرأ حمزةُ: بالتاء ونَصْبِ السِّين. والباقون: بالياء وكسر السِّين.(٤)

فمن قرأ بالياء فالذين فاعلون. أي: فلا يحسبنَّ الكفارُ. و«أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ» تسدُّ مَسَدَّ المفعولين. و«ما» بمعنى الذي، والعائد محذوفٌ، و«خيرٌ» خبر «أنَّ». ويجوزُ أنْ تقدِّر «ما» والفعلَ مصدراً، والتقدير: ولا يحسبنَّ الذين كفروا أنَّ إملاءَنا لهم خيرٌ لأنفسهم.

ومن قَرأَ بالتاء فالفاعلُ هو المخاطبُ، وهو محمدٌ ﷺ. و«الَّذِين» نصب على المفعول الأوَّل لتحسبُ. وأنَّ وما بعدَها بدل من الَّذين، وهي تسدُّ مَسدَّ المفعولين،

(١) ينظر مجمع البيان ٢/ ٢٧٥، والكشاف ١/ ٤٨٢.

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٣١٨.

(٣) أخرجه الطبري ٦/ ٢٦٢.

(٤) السبعة ص٢٢٠، والتيسير ص٨٤ و٩٢.

كما تسدُّ لو لم تكن بدلاً.[١]

ولا يصلحُ أن تكونَ «أنَّ» وما بعدَها مفعولاً ثانياً لتحسب؛ لأنَّ المفعولَ الثاني في هذا الباب هو الأوَّلُ في المعنى؛ لأنَّ حسِبَ وأخواتِها داخلةٌ على المبتدأ والخبرِ، فيكونُ التقديرُ: ولا تحسبنَّ أنَّما نُملي لهم خيرٌ. هذا قول الزَّجاج.[٢]

وقال أبو عليٍّ[٣]: لو صحَّ هذا لقالَ: «خيراً»؛ بالنَّصبِ؛ لأنَّ «أنَّ» تصيرُ بدلاً من «الذين كفروا»؛ فكأنَّه قال: لا تحسبنَّ إملاءَ الذين كفروا خيراً، فقولُه «خيراً» هو المفعولُ الثاني لحسبَ. فإذاً لا يجوزُ أنْ يُقرأَ «لا تحسَبنَّ» بالتاء إلاَّ أنْ تكسرَ «إنَّ» في «أنَّما» وتَنصبَ خيراً، ولم يُرْوَ ذلك عن حمزة، والقراءَةُ عن حمزة بالتاء؛ فلا تصحُّ هذه القراءةُ إذاً.

وقال الفرَّاءُ والكسائيُّ[٤]: قراءةُ حمزةَ جائزةٌ على التكرير، تقديرُه: ولا تحسبنَّ الذين كفروا لا[٥] تحسبنَّ أنَّما نُملي لهم خيرٌ؛ فسدَّتْ «أنَّ» مَسدَّ المفعولين لتحسب الثاني، وهي وما عمِلَت مفعول ثانٍ لتحسب الأولُ.

قال القُشيريُّ: وهذا قريبٌ مما ذكَره الزَّجاجُ في دعوى البَدَلِ، والقراءةُ صحيحةٌ. فإذاً غرضُ أبي عليٍّ تغليطُ الزَّجاجِ.

قال النَّحاس[٦]: وزعَمَ أبو حاتم أنَّ قراءةَ حمزةَ بالتاء هنا، وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ لحنٌ لا يجوزُ، وتابعه[٧] على ذلك جماعةٌ.

قلت: وهذا ليس بشيءٍ، لِمَا تقدَّمَ بيانُه من الإعراب، ولصِحَّة القراءةِ وثبوتِها نقلاً.

---

(١) الكشف عن وجوه القراءات لمكي ١/ ٣٦٥ - ٣٦٦ .

(٢) معاني القرآن له ١/ ٤٩١، ومشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ١٧٩ - ١٨٠ وعنه نقل المصنف.

(٣) انظر الحجة له ٣/ ١٠٧ - ١٠٨ .

(٤) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٤٨ ، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢١ وعنه نقل المصنف قول الفراء والكسائي.

(٥) في النسخ: ولا، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢١ ، والكلام منه.

(٦) المصدر السابق.

(٧) في (د) و(م): وتبعه.

وقرأ يحيى بنُ وثَّاب: «إنّمَا نُمْلِي لَهُمْ» بكسر «إنَّ» فيهما جميعاً.

قال أبو جعفر[(١)]: وقراءةُ يحيى حسنة، كما تقول: حسبتُ عمراً أبوه خارج.[(٢)]

قال أبو حاتم: وسمعتُ الأخفشَ يَذكُر كسرَ «إنَّ»؛ يحتجُّ به لأهل القَدَر؛ لأنَّه كانَ منهم، ويجعله[(٣)] على التَّقديم والتَّأخير: «ولا يحسبنَّ الذين كفروا إنما نُملي لهم ليزدادوا إثماً إنما نُملي لهم خيرٌ لأنفسهم». قال: ورأيتُ في مصحفٍ في المسجد الجامع قد زادوا فيه حرفاً فصار: «إنَّما نُملي لهم [ليزدادوا] إيماناً» فنظرَ إليه يَعقوبُ القارئ فتبين اللَّحنَ فحكَّه.[(٤)]

والآيةُ نصٌّ في بطلان مَذهبِ القَدَريَّة؛ لأنَّه أخبرَ أنه يطيلُ أعمارَهم ليزدادوا الكفرَ بعمل المعاصي، وتوالي أمثالِهِ على القلب. كما تقدَّم بيانُه في ضدِّه، وهو الإيمان.

وعن ابن عباس قال: ما من برٍّ ولا فاجرٍ إلَّا والموتُ خيرٌ له، ثمَّ تلا: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا﴾، وتلا: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، أخرجه رزين.[(٥)]

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

قال أبو العالية: سألَ المؤمنون أن يُعطَوا علامةً يفرِّقون بها بينَ المؤمن

---

(١) هو النحاس، وكلامه في إعراب القرآن ١/ ٤٢١، وعنه نقل المصنف قراءة يحيى، وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٣ أن قراءة يحيى بن وثاب بكسر الهمزة في الأولى، وبفتحها في الثانية.

(٢) في (د) و(ز) و(م): خالد، وفي (ظ): خارجاً، والمثبت من (خ) و(ف)، وهو الموافق لما في إعراب القرآن.

(٣) في (د) و(م): ويجعل.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢١ وما بين حاصرتين منه.

(٥) لم نقف عليه من قول ابن عباس، وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (٥٤٧) (قسم التفسير)، والطبري في تفسيره ٦/ ٣٢٧ من قول أبي الدرداء، وأخرجه سعيد بن منصور (٥٤٦) أيضاً من قول محمد بن كعب القرظي. وسلف ذكره قريباً عن ابن مسعود.

والمنافق، فأنزلَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية.(١)

واختلفوا مَن المخاطبُ بالآية على أقوال:

فقال ابنُ عباسٍ والضَّحَّاكُ ومقاتِلٌ والكلبيُّ وأكثرُ المفسرين: الخطابُ للكفارِ والمنافقين، أي: ما كانَ الله ليذرَ المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر والنِّفاق وعداوة النبيِّ ﷺ.(٢)

قال الكلبيُّ: إنَّ قريشاً من أهل مكَّةَ قالوا للنبيِّ ﷺ: الرجلُ منَّا تزعمُ أنَّه في النَّار، وأنَّه إذا ترك دِيننا واتَّبع دِينَكَ قُلتَ: هو من أهل الجنَّة، فأخبرْنا عن هذا؛ من أين هو؟ وأخبرنا مَنْ يأتيكَ منَّا، ومَنْ لم يأتِك؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من الكفر والنِّفاق ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.(٣)

وقيل: هو خطابٌ للمشركين. والمرادُ بالمؤمنين في قوله: «لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ» مَن في الأصْلابِ والأرحامِ ممن يؤمن، أي: ما كان الله ليَذرَ أولادكم الذين حَكَمَ لهم بالإيمان على ما أنتم عليه من الشِّرك، حتى يفرِّقَ بينَكم وبينَهم(٤)؛ وعلى هذا ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ﴾ كلامٌ مستأنفٌ. وهو قول ابن عباس وأكثرِ المفسِّرين.

وقيل: الخطابُ للمؤمنين. أي: وما كانَ اللهُ ليذرَكم يا معشرَ المؤمنين على ما أنتم عليه من اختلاطِ المؤمن بالمنافق، حتى يميِّز بينكم بالمِحْنَة والتَّكليفِ؛ فتَعرِفوا المنافقَ الخَبيثَ، والمؤمنَ الطَّيِّبَ. وقد مَيَّز يوم أُحُد بينَ الفريقين(٥). وهذا قول أكثر أهلِ المعاني.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ يا معشرَ المؤمنين، أي: ما كانَ اللهُ ليعيِّن لكم المنافقين حتَّى تَعرِفوهم، ولكنْ يظهرُ ذلك لكم بالتَّكليف والمِحْنةِ، وقد ظهرَ ذلك في يومِ أُحُد؛ فإنَّ المنافقين تخلَّفوا وأظهروا الشَّماتةَ، فما كُنتم تَعرفونَ هذا الغيبَ قبلَ

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص١٢٧.

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٧٧، وأخرجه ابن أبي حاتم ٣/ ٨٢٤ عن ابن عباس.

(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٣١٨، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص١٢٧، والبغوي ١/ ٣٧٧.

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٧٨، ونسبه للضحاك.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٠، والمحرر الوجيز ١/ ٥٤٦.

هذا، فالآنَ قد أطلعَ اللهُ محمداً عليه الصلاة والسَّلام وصحبَه على ذلك.

وقيل: معنى «ليطلعَكم» أي: وما كانَ اللهُ ليُعلمَكم ما يكونُ منهم[١]. فقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ على هذا متَّصلٌ، وعلى القولين الأوَّلين منقطع. وذلك أنَّ الكفَّارَ لَمَّا قالوا: لِمَ لَمْ يوح إلينا؟ قال: «وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ»[٢] أي: على مَنْ يَستحقُّ النُّبوَّةَ، حتَّى يكونَ الوحيُ باختياركم.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى﴾ أي: يختارُ ﴿مِن رُّسُلِهِۦ﴾ لإطلاع غيبه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ يقالُ: طَلَعْتُ على كذا، واطَّلعْتُ عليه، وأطلَعْتُ عليه غيري، فهو لازمٌ ومتعدٍّ.

وقُرِئَ: «حَتَّى يُمَيِّزَ»، بالتَّشديد، مِن مَيَّزَ، وكذا في «الأنفال» وهي قراءةُ حمزةَ[٣]. والباقون: «يَمِيزَ»، بالتَّخفيفِ، من مَازَ يَميزُ.

يقالُ: مِزْتُ الشَّيءَ بعضَه من بَعضٍ أمِيزُه مَيْزاً، ومَيَّزتُه تمييزاً. قال أبو معاذ: مِزْتُ الشَّيء أمِيزُه مَيزاً: إذا فَرقتَ بين شيئينِ. فإنْ كانت أشياء قلتَ: مَيَّزتُها تمييزاً. ومثلُه إذا جعلتَ الواحدَ شيئين قلتَ: فَرَقْتُ بينَهما، مخففاً؛ ومنه فَرَق الشَّعر. فإنْ جعلتَه أشياء قلتَ: فرَّقتُه تَفريقاً.[٤]

قلتُ: ومنه: امتازَ القومُ؛ تميَّز بعضُهم عن بعض. ويكادُ يَتميَّزُ: يَتَقطَّعُ، وبهذا فُسِّرَ قولُه تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك:٨][٥]. وفي الخبر: «من مَازَ أذًى عن الطريق فهو له صدقة».[٦]

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ يقالُ: إنَّ الكفَّارَ لَمَّا سألوا رسولَ الله ﷺ أن

---

(١) إعراب القرآن ١/ ٤٢٠.

(٢) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٩٢.

(٣) وقراءة الكسائي أيضاً. السبعة ص٢٢٠، والتيسير ص٩٢.

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٧٧.

(٥) مجمل اللغة ٢/ ٨٢٠.

(٦) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج أحمد (١٦٩٠) من حديث أبي عبيدة بن الجراح ﷺ مطولاً ضمن قصة أن النبي ﷺ قال: «من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فبسبع مئة، ومن أنفق على نفسه وأهله، أو عاد مريضاً، أو ماز أذى، فالحسنة بعشر أمثالها ...».

يبيِّنَ لهم مَنْ يؤمِنُ منهم، فأنزلَ اللهُ: «فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ» يعني: لا تَشتَغِلوا بما لا يَعنِيكُم، واشتغلوا بما يَعنِيكم، وهو الإيمان.[١]

﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ أي: صَدِّقوا، أي: عليكُم التَّصديقَ، لا التَّشوُّفَ إلى اطِّلاع الغيب.

﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أي: الجنَّة.

ويُذكَرُ أنَّ رجلاً كان عند الحجَّاجِ بن يوسُفَ الثَّقَفِيِّ مُنَجِّماً، فأخذ الحجَّاجُ حَصَياتٍ بيده قد عَرف عددَها، فقال للمُنَجِّم: كم في يدي؟ فحسَبَ، فأصابَ المنَجِّمُ. فأغفلَه الحجَّاجُ، وأخذَ حَصَياتٍ لم يعُدَّهُنَّ، فقال للمنجم: كم في يدي؟ فحسَبَ، فأخطأ، ثمَّ حسَبَ أيضاً، فأخطأ، فقال: أيُّها الأميرُ، أظنُّكَ لا تعرف عدد ما في يدك؟ قال: لا. قال: فما الفرقُ بينهما؟ فقال: إنَّ ذاك أحْصَيتَه، فخرجَ عن حدِّ الغَيْبِ، فحسَبتُ فأصبتُ، وإنَّ هذه[٢] لم تَعرف عددَها، فصار غَيْباً، ولا يعلمُ الغيبَ إلَّا اللهُ تعالى. وسيأتي هذا البابُ في «الأنعام»[٣] إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٨٠﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ «الذين» في موضع رفع، والمفعولُ الأول محذوفٌ. قال الخليلُ وسيبويه والفرَّاءُ[٤]: المعنى: البخل [هو] خيراً لهم، أي: لا يَحسبَنَّ الباخلون البخلَ خيراً لهم. وإنَّما حُذفَ لدلالة يَبخَلون على البُخل؛ وهو كقوله: من صدقَ كان خيراً له، أي: كان الصِّدقُ خيراً له. ومن هذا قولُ الشاعر:

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٣١٩.

(٢) في (م) هذا.

(٣) في تفسير الآية (٥٩) منها.

(٤) الكتاب ٢/ ٣٩١، ومعاني القرآن للفراء ١/ ٢٤٨.

إذا نُـهِـيَ الـسَّـفـيـهُ جَـرَى إلـيـه وخـالَـفَ والـسَّـفـيـهُ إلـى خِـلافِ[١]

فالمعنى: جَرَى إلى السَّفَه، فالسَّفيه دَلَّ على السَّفَه.

وأما قراءة حمزة بالتاءِ فبعيدةٌ جدّاً؛ قاله النَّحاسُ[٢]. وجوازها أن يكونَ التقديرُ: لا تحسبنَّ بُخل الذين يَبخلون هو خيراً لهم.

قال الزجاج[٣]: وهي مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

و«هو» في قوله «هُوَ خَيْراً لَهُمْ» فاصلة عند البَصريّين، وهي العماد عندَ الكوفيين.

قال النَّحاسُ[٤]: ويجوزُ في العربية: «هو خير لهم» ابتداء وخبر.

الثانية: قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ ابتداءٌ وخبر، أي: البخلُ شرٌّ لهم. والسين في «سَيُطَوَّقُون» سينُ الوعيد، أي: سوفَ يُطوَّقون. قاله المبرِّدُ.

وهذه الآية نزلت في البُخل بالمال، والإنفاق في سبيل اللهِ، وأداءِ الزكاةِ المفروضةِ. وهذه كقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] الآية. ذهبَ إلى هذا جماعةٌ من المتأوِّلين، منهم ابنُ مسعود، وابنُ عباس، وأبو وائل، وأبو مالك، والسُّدِّيُّ، والشَّعْبيُّ[٥]؛ قالوا: ومعنى ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ هو الذي وردَ في الحديث عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنْ آتاهُ اللهُ مالاً، فلم يُؤَدِّ زكاتَه، مُثِّلَ له يومَ القيامة شُجاعاً أَقْرَعَ له زَبِيبتان، يُطَوَّقُه يومَ القيامة، ثم يأخذ بِلِهْزِمَتَيه، ثم يقول: أنا مالُك، أنا كَنزُكَ» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الآية. أخرجه النَّسائيُّ.[٦]

---

(١) البيت دون نسبة في معاني القرآن للفراء ١/ ١٠٤ و ٢٤٩، ومجالس ثعلب ص٦٠، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص١٧٦، وتفسير الطبري ٦/ ٢٦٨، والخصائص ٣/ ٤٩، والمحتسب ١/ ١٧٠ لابن جني، وأمالي ابن الشجري ١/ ٢٧٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥٤٩، وخزانة الأدب ٥/ ٢٦٦.

(٢) في إعراب القرآن ١/ ٤٢٢ وما قبله وما بعده وما سلف بين حاصرتين منه، وسلف تخريج قراءة حمزة قبل آيتين.

(٣) معاني القرآن ١/ ٤٩٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥٤٧ وعنه نقل المصنف.

(٤) في إعراب القرآن ١/ ٤٢٢.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٧، وتفسير البغوي ١/ ٣٧٨. وأخرج الآثار الطبري ٦/ ٢٦٩ - ٢٧٤.

(٦) في سننه ٥/ ٣٩، وأخرجه أحمد (٨٦٦١)، والبخاري (١٤٠٣). قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري=

وخرَّجه ابنُ ماجه[١] عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحدٍ لا يُؤدِّي زكاةَ مالِه إلا مُثِّلَ له يومَ القيامة شُجاعٌ أقْرَعُ، حتى يُطَوَّقَ به في عُنقه». ثم قرأ علينا النبيُّ ﷺ مِصداقَه من كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ الآية.

وجاء عنه ﷺ أنه قال: «ما من ذي رَحِمٍ يأتي ذَا رَحِمه، فيسأله من فَضْلِ ما عنده، فيبخلُ به عليه، إلا أُخرِجَ له يومَ القيامة شُجاعٌ من النَّار، يَتلمَّظُ حتى يُطَوِّقَه».[٢]

وقال ابنُ عباس أيضاً: إنما نزلَتْ في أهل الكتاب وبُخلِهم، ببيانِ ما عَلِموهُ من أمر محمدٍ ﷺ.

وقال ذلك مُجاهد وجماعةٌ من أهل العلم.

ومعنى «سَيُطَوَّقُونَ» على هذا التأويل: سيحملون عقابَ ما بخلوا به؛ فهو من الطَّاقة كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ [البقرة: ١٨٤]، وليسَ من التَّطويقِ.

وقال إبراهيم النَّخَعِيُّ: معنى «سَيُطَوَّقون»: سيُجعلُ لهم يومَ القيامة طَوْقٌ من نار[٣]. وهذا يَجري مع التَّأويل الأوَّل [أي]: قول السُّدي [وغيره].[٤]

وقيل يُلزَمون أعمالَهم كما يَلزَمُ الطَّوقُ العُنقَ؛ يقال: طُوِّق فلانٌ عملَه طَوْقَ الحمامة، أي: أُلزِمَ عملَه، وقد قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]. ومن هذا المعنى قولُ عبدِ الله بن جَحْش لأبي سفيان:[٥]

أبلِغْ أبا سفيانَ عن ... أمرٍ عواقبُه ندامَهْ

= ٣/ ٢٧٠: الشجاع: الحية الذكر، والأقرع: الذي تقرَّع رأسه، أي: تمعَّط لكثرة سُمِّه، وبلهزمتيه: هي بكسر اللام وسكون الهاء وزاي مكسورة، أي: بشدقيه.

(١) في سننه (١٧٨٤)، وهو عند أحمد (٣٥٧٧).

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٧، وأخرجه الطبري ٦/ ٢٧١ مرفوعاً وموقوفاً ومرسلاً، ونقل ابن حجر في الإصابة ٢/ ٢٢٠ عن ابن منده قوله: لا يصح.

(٣) في (م) النار.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٧، وما بين حاصرتين منه، وأخرج الطبري ٦/ ٢٧٥-٢٧٦ قول ابن عباس ومجاهد والنخعي.

(٥) سيرة ابن هشام ١/ ٥٠٠.

دارُ ابـنِ عـمِّـكَ بِـعـتَـهـا تَـقـضـي بـهـا عـنـك الـغَـرامَـهْ

وحَـلـيـفُـكـم بـالـلـه ر بُّ الـنَّـاسِ مُـجـتـهِـدُ الـقَـسَـامَـهْ

اِذْهـبْ بـهـا اِذْهـب بـهـا طُـوِّقـتَـهـا طَـوْقَ الـحـمَـامَـهْ

وهذا يجري مع التأويل الثاني.

والبُخْل والبَخَل في اللغة: أن يَمنع الإنسانُ الحقَّ الواجبَ عليه، فأمَّا مَنْ مَنع ما لا يجبُ عليه؛ فليسَ ببخيل؛ لأنَّه لا يُذَمُّ بذلك. وأهل الحجاز يقولون: يَبْخُلُون وقد بَخُلُوا، وسائر العرب يقولون: بَخِلوا يَبْخَلون؛ حكاه النَّحاس[1]. وبَخِل يَبْخَل بُخْلاً وَبَخَلاً، عن ابن فارس.[2]

الثالثة: في ثمرة البُخل وفائدته: وهو ما رُويَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال للأنصار: «مَنْ سَيِّدُكم؟» قالوا: الجَدُّ بنُ قيس على بُخْلٍ فيه. فقال ﷺ: «وأيُّ داءٍ أَدْوَى من البُخل؟» قالوا: وكيف ذاك يا رسولَ الله؟ قال: «إنَّ قوماً نَزلوا بساحل البَحر، فكَرِهوا لبُخلهم نُزولَ الأضيافِ بهم، فقالوا: لِيَبعُدِ الرِّجالُ منَّا عن النِّساء، حتَّى يَعتذرَ الرجالُ إلى الأضياف بِبُعْدِ النِّساءِ، وتَعتذِرَ النِّساء بِبُعْدِ الرِّجالِ، ففعلوا، وطالَ ذلك بهم، فاشتغلَ الرِّجالُ بالرِّجال، والنِّساءُ بالنِّساءِ». ذكره الماوردي في كتاب «أدب الدُّنيا والدِّين»[3]

(١) إعراب القرآن ١/ ٤٢٢ .

(٢) ينظر مجمل اللغة ١/ ١١٨ ومقاييس اللغة ١/ ٢٠٧ .

(٣) ص٣٣٠ طبعة منهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين، ولم نقف لهذا الخبر بتمامه على إسناد.

وأخرج منه صدره، يعني إلى قوله: «وأيُّ داءٍ أدْوَى من البخل»، ودون ذكر القصة: وكيع في الزهد (٣٧٤)، وهناد في الزهد (٦١٤) عن المسعودي عن حبيب بن أبي ثابت، مرسلاً. وفيه: «بل سيِّدُكم الجَعْد الأبيض، عمرو بن الجَموح».

وأخرجه عبد الرزاق (٢٠٧٠٥) عن معمر، والطبراني في الكبير ١٩/(١٦٤) من طريق يونس، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٨٥٨) من طريق شعيب، ثلاثتهم عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، مرسلاً، وفيه: قالوا: فَمَنْ سيِّدُنا يا رسول الله؟ قال: «بِشْرُ بنُ البَراء بن مَعْرور».

وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٩٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٨٥٩) و(١٠٨٦٠) من طريق أبي الزبير، والطبراني في الأوسط (٨٩٠٨)، من طريق عمرو بن دينار، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ٣١٧ من طريق محمد بن المنكدر، ثلاثتهم عن جابر، مرفوعاً. وللحديث طرق أخرى، ذكرها الحافظ في الإصابة ١/ ٢٤٧ - ٢٤٨ و٧/ ٩٤ - ٩٥ (ترجمة بشر بن البراء بن معرور، وترجمة عمرو بن الجموح).

والله أعلم.

الرابعة: واختُلِفَ في البُخْل والشُّحِّ، هل هُما بمعنًى واحدٍ أو بمعنيين؟

فقيل: البُخلُ: الامتناعُ من إخراج ما حصَلَ عندَك. والشُّحُّ: الحِرصُ على تحصيل ما لَيسَ عندَك.

وقيل: إن الشُّحَّ هو البُخلُ مع حِرصٍ[١]. وهو الصَّحيحُ؛ لما رواهُ مسلمٌ[٢] عن جابر بنِ عبدالله أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «اتَّقوا الظُّلم، فإن الظلم ظُلماتٌ يوم القيامة، واتَّقوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أهلكَ مَنْ كانَ قبلَكم؛ حملَهم على أنْ سفَكُوا دماءَهم، واستحلُّوا محارِمَهم».

وهذا يردُّ قولَ من قال: إنَّ البُخلَ منعُ الواجبِ، والشُّحَّ منعُ المستحبِّ[٣]، إذ لو كان الشُّحُّ منعَ المستحبِّ لما دخلَ تحتَ هذا الوعيدِ العظيمِ، والذَّمِّ الشَّديدِ، الذي فيه هلاكُ الدُّنيا والآخرَةِ.

ويؤيِّدُ هذا المعنى ما رواه النَّسائيُّ[٤] عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ: «لا يَجتمعُ غُبارٌ في سبيل اللهِ ودخانُ جهنَّمَ في مِنخَرَيْ رجلٍ مسلمٍ أبداً، ولا يَجتمعُ شحٌّ وإيمانٌ في قلبِ رجلٍ مسلم أبداً».

وهذا يدلُّ على أنَّ الشُّحَّ أشدُّ في الذَّمِّ من البخل، إلاَّ أنَّه قد جاءَ ما يدُلُّ على مساواتِهما وهو قوله ـ وقد سئل ـ: أيكونُ المؤمنُ بخيلاً؟ قال: «لا».[٥]

وذكر الماورديُّ في كتاب «أدب الدُّنيا والدِّين» أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال للأنصار: «مَنْ

---

(١) المفهم ٦/ ٥٥٧ .

(٢) في صحيحه (٢٥٧٨)، وهو في مسند أحمد (١٤٤٦١) .

(٣) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن ١/ ٣٠٣ .

(٤) في سننه ٦/ ١٣ ، وهو في مسند أحمد (٧٤٨٠) .

(٥) لم نقف على هذا السياق الذي ذكره المصنف، إنما أخرج مالك في الموطأ ٢/ ٩٩٠ ، عن صفوان بن سليم أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جباناً؟ فقال: «نعم»، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ فقال: «نعم»، فقيل له: أيكون المؤمن كذاباً؟ فقال: «لا». قال ابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٥٣ : مرسل مقطوع، لا أحفظ هذا الحديث مسنداً بهذا اللفظ من وجه ثابت، وهو حديث حسن.

سيِّدُكم؟» قالوا: الجدُّ بنُ قيسٍ على بُخْلٍ فيه، الحديثَ. وقد تقدَّم[١].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أخبر تعالى ببقائه ودوامِ مُلكه، وأنه في الأبد كهو في الأزل، غنيٌّ عن العالمين، فيَرِثُ الأرضَ بعد فناء خلقِه وزوالِ أملاكِهم، فتبقى الأملاكُ والأموالُ لا مُدَّعى فيها. فجرى هذا مجرى الوِراثةِ في عادة الخلْقِ، وليس هذا بميراثٍ في الحقيقة؛ لأنَّ الوارِثَ[٢] في الحقيقة هو الذي يَرِثُ شيئاً لم يكن مَلَكه من قبلُ، واللهُ سبحانَه وتعالى مالكُ السَّمواتِ والأرضِ وما بينهما، وكانت السَّمواتُ وما فيها والأرض وما فيها له، وإنما كانت الأموال عارِيَّةً عند أربابها، فإذا ماتوا رجعت[٣] العارِيَّةُ إلى صاحبها الذي كانت له في الأصل. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] الآية. والمعنى في الآيتين أنَّ الله تعالى أمرَ عبادَه بأنْ يُنفِقوا ولا يَبْخلوا، قبل أنْ يموتوا ويَتركوا ذلك ميراثاً لله تعالى، ولا يَنفعُهم إلَّا ما أنفقوا.[٤]

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (١٨١) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ ذكر تعالى قبيحَ قولِ الكفَّار ولا سيَّما اليهود.

وقال أهلُ التفسير: لمَّا أنزلَ اللهُ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال قومٌ من اليهود ـ منهم حُيَيُّ بنُ أخطبَ، في قول الحسن. وقال عكرمةُ وغيرُه: هو فِنْحاصُ بنُ عازورا ـ: إنَّ الله فَقِيرٌ ونَحْنُ أغنياءُ يقترض منَّا. وإنما قالوا هذا تَمويهاً على ضعفائهم، لا أنَّهم يعتقدونَ هذا؛ لأنَّهم أهلُ كتاب. ولكنَّهم كفروا بهذا القول؛

---

(١) في المسألة الثالثة. وقوله: وذكر الماوردي. . . . إلى هذا الموضع، ليس في (ظ).

(٢) في النسخ: الميراث، والمثبت من تفسير أبي الليث ١/ ٣١٩ وعنه نقل المصنف.

(٣) في (د) و(م): وإن الأموال كانت عاريّة عند أربابها، فإذا ماتوا ردَّت.

(٤) تفسير أبي الليث ١/ ٣٢٠.

لأنَّهم أرادوا تشكيكَ الضُّعفاء منهم ومن المؤمنين، وتكذيبَ النبيِّ ﷺ. أي: إنَّه فقير على قول محمد ﷺ، لأنَّه اقترضَ منَّا.(١)

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ سنجازيهم عليه. وقيل: سَنَكتبُه في صحائف أعمالهم، أي: نأمرُ الحَفَظةَ بإثباتِ قولهم حتَّى يَقرؤوه يومَ القيامةِ في كتبُهم التي يُؤتَونَها؛ حتى يكونَ أَوْكدَ للحجَّة عليهم، وهذا كقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَـٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤](٢). وقيل: مقصود الكتابة الحفظُ، أي: سنحفظُ ما قالوا لنجازيَهم. «وما» في قوله «ما قالوا» في موضع نَصْب بـ«سنكتبُ». وقرأ الأعمشُ وحمزة: «سيُكتب»، بالياء؛ فيكون «ما» اسم ما لم يُسمَّ فاعلُه، واعتبَر حمزةُ ذلك بقراءة ابنِ مسعودٍ: «ويقال ذوقوا عذاب الحريق».(٣)

قوله تعالى: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: ونكتب قتلَهم الأنبياءَ، أي: رضاءهم بالقتل. والمرادُ قتلُ أسلافِهم الأنبياءَ، لكنْ لمَّا رَضُوا بذلك صحَّت الإضافةُ إليهم.

وحسَّن رجلٌ عِند الشَّعبيِّ قتْلَ عثمانَ ﷺ، فقال له الشَّعبيُّ: شَرِكتَ في دَمِه. فجعلَ الرِّضا بالقتل قَتْلاً، ﷺ.

قلت: وهذه مسألة عُظمَى، حيثُ يكونُ الرِّضا بالمعصية معصيةً.

وقد روى أبو داود(٤) عن العُرْس بن عَميرة الكِندِي(٥)، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إذا عُمِلت الخطيئةُ في الأرض كانَ من شَهِدَها فكرِهَها ـ وقال مرَّةً: فأنكرَها ـ كان(٦) كمن غابَ عنها، ومَنْ غابَ عنها فَرضِيَها؛ كان كمن شَهِدَها». وهذا نصٌّ.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٣ . وأخرجه الطبري ٦/ ٢٧٩-٢٨١ .

(٢) الوسيط للواحدي ١/ ٥٢٨ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٧٩ .

(٣) إعراب القرآن ١/ ٤٢٣ ، وقراءة حمزة في السبعة ص٢٢١، والتيسير ص٩٢ ، وقراءة ابن مسعود ذكرها الفراء في معاني القرآن ١/ ٢٤٩ ، والطبري ٦/ ٢٨١ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٨ . وابن أبي داود في المصاحف ١/ ٣١٢ وعنده: ويقال لهم ذوقوا.

(٤) في سننه (٤٣٤٥) .

(٥) العُرْسُ بضم أوله وسكون الراء ـ بن عَميرةَ ، بفتح أوله الكندي أخو عَديٍّ، صحابي مُقِلٌ. الإصابة ٦/ ٤١١ .

(٦) لفظة (كان) من (ظ).

قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ تقدَّم معناه في البقرة.[١]

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: يُقالُ لهم في جهنَّم، أو عند الموتِ، أو عند الحسابِ هذا. ثمَّ هذا القولُ من الله تعالى، أو من الملائكة؛ قولان. وقراءة ابن مسعود: «ويقال»[٢]. والحريق: اسمٌ للملتهبة من النَّار، والنَّار تشمَلُ المُلتهبةَ وغيرَ الملتَهبة.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: ذلك العذابُ بما سلَف من الذنوبِ. وخصَّ الأيْدي بالذِّكر ليدُلَّ على تولِّي الفِعلِ ومباشرته، إذ قد يُضافُ الفعلُ إلى الإنسان بمعنى أنَّه أمرَ به؛ كقوله: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤].

وأصلُ «أَيْدِيكُمْ»: أيديُكم، فحُذِفَت الضَّمَّةُ لثِقَلِها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ﴾ في مَوضعِ خفضٍ بدلاً من «الَّذِينَ» في قَوله عزَّ وجلَّ[٣]: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾، أو نعت «للعبيد»[٤]، أو خبر ابتداء، أي: هم الذين قالوا.

وقال الكلبيُّ وغيرُه: نزلَت في كعب بن الأشرَفِ، ومالك بن الصَّيْف، ووَهْب بن يَهوذا، وفِنْحاص بن عازورا وجماعةٍ، أتَوا النَّبيَّ ﷺ، فقالوا له: أتزعُمُ أنَّ الله أرسلَك إلينا، وأنَّه أنزلَ علينا كتاباً عَهِد إلينا فيه ألا نُؤمِنَ لرسول يزعمُ أنَّه من عند اللهِ

(١) ٢/ ١٥٧.

(٢) سلف تخريجها قريباً.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٤.

(٤) كذا وقع في معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٩٤؛ والأرجح أنه خطأ ناسخ، فقد ذكر محققه في حاشيته أنه وقع في نسخة أخرى للكتاب أنه نعت اليهود، والظاهر أنه لم تقع هذه النسخة لابن عطية فقال في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٩: هذا مفسد للمعنى والرصف.

حتَّى يَأتِيَنا بِقُربانٍ تأكلُه النَّارُ، فإنْ جئتَنا به صدَّقناك؟ فأنزل الله هذه الآية.(١)

فقيل: كان هذا في التَّوراة، ولكن كان تمامُ الكلام: حتَّى يأتيَكم المسيحُ ومحمدٌ، فإذا أتَياكُم فآمِنوا بهما من غير قُربانٍ.(٢)

وقيل: كانَ أمرُ القَرابِين ثابتاً إلى أن نُسِخت على لسان عيسى ابنِ مريمَ. وكان النَّبيُّ منهم يَذْبحُ ويَدعو، فتنزِلُ نارٌ بيضاءُ لها دَوِي وحفِيف، لا دخانَ لها، فتأكلُ القُرْبانَ. فكان هذا القولُ دعْوَى من اليهود؛ إذ كان ثَمَّ استثناءٌ فأخفَوه، أو نسخٌ، فكانوا في تمسُّكِهم بذلك مُتعنِّتين، ومعجزاتُ النَّبيِّ ﷺ دليلٌ قاطعٌ في إبطال دَعواهم، وكذلك معجزاتُ عيسى، ومن وجبَ صدقُه وجبَ تَصديقُه.

ثم قال تعالى إقامةً للحجَّة عليهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ﴾ يا معشرَ اليهودِ ﴿رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ من القُربان ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يعني زكريا ويحيى وشَعْيا، وسائرَ من قُتِلوا من الأنبياء عليهم السلام ولم تؤمنوا بهم. أرادَ بذلك أسلافَهم.(٣)

وهذه الآيةُ هي التي تلاها عامر الشَّعبيّ ﷺ، فاحتجَّ بها على الذي حسَّن قتلَ عثمانَ ﷺ كما بيَّناه. وأنَّ اللهَ تعالى سمَّى اليهودَ قَتَلةً لرضاهم بفعل أسلافهم، وإن كانَ بينَهم نحوٌ من سبع مئة سنة.

والقُرْبان ما يُتقرَّب به إلى الله تعالى من نَسيكة(٤)، وصدَقةٍ، وعملٍ صالح، وهو فُعلان؛ من القُرْبة(٥). ويكون اسماً ومصدراً؛ فمثال الاسم: السلطان والبُرْهان. والمصدر: العُدْوان والخُسْران.(٦)

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص١٢٩، وتفسير البغوي ١/ ٣٨٠.

(٢) مجمع البيان ٢/ ٢٨٨-٢٨٩، وينظر العجاب للحافظ ابن حجر ٢/ ٨٠٩.

(٣) تفسير البغوي ١/ ٣٨٠.

(٤) في (د) و(م): نسك، والنّسيكة: الذبيحة.

(٥) تفسير البغوي ١/ ٣٨٠.

(٦) مجمع البيان ٢/ ٢٨٨.

وكان عيسى بن عمر يقرأ: «بِقُرُبانٍ» بضم الراء إتباعاً لضمة القاف(١)، كما قيل في جمع ظُلْمة: ظُلُمات، وفي حُجْرة: حُجُرات.

ثمَّ قالَ تعالى معزِّياً لنبِّيه ومؤنساً له: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالدَّلالات. ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المزبورة، يعني المكتوبة.(٢)

والزُّبُر جمع زَبُور، وهو الكتاب. وأصلُه من زَبرتُ، أي: كتبتُ. وكلُّ زَبورٍ فهو كتاب، قال امرؤ القيس:

لِمَنْ طَلَلٌ أَبْصَرتُهُ فشَجاني كخطِّ زَبورٍ في عَسيبِ يَماني(٣)

وأنا أعرف تَزْبِرَتي، أي: كتابتي. وقيل: الزَّبُور من الزَّبْر، بمعنى الزَّجْر. وزَبَرتُ الرَّجلَ: انتهَرْتُه. وزَبَرْتُ البئرَ: طويتُها بالحجارة.(٤)

وقرأ ابنُ عامرٍ: «وبالزُّبُر وبالكِتاب» بزيادة باء في الحرفين(٥)، وكذلك هو في مصاحف أهلِ الشَّام.(٦)

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أي: الواضح المُضِيء، من قولك: أَنَرْتُ الشيءَ أُنِيرُه، أي: أوضحتُه: يُقال: نارَ الشيءَ وأناره ونَوَّره واستناره بمعنًى، وكلُّ واحدٍ منهما

---

(١) المحرر الوجيز ١/٥٤٩ . وذكرها النحاس في إعراب القرآن ١/ ٤٢٤ ، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٣، وابن جني في المحتسب ١/ ١٧٧ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٨٠ .

(٣) ديوانه ص٨٥، قال شارحه: كان أهل اليمن يكتبون في عسيب النخلة عهودَهم وصكاكهم. ويُروى: في عسيبِ يمانٍ، على الإضافة أي: أراد في عسيب رجل يماني.

(٤) مجمل اللغة لابن فارس ٢/٤٤٧ .

(٥) في (د) و(م): الكلمتين. وقراءة ابن عامر هي من رواية هشام عنه، أما رواية ابن ذكوان عنه فبزيادة الباء في «الزبر» وحده، وقرأ الباقون بغير باء فيهما. السبعة ٢٢١ ، والتيسير ٩٢ .

(٦) ذكره ابن أبي داود في المصاحف ١/ ٢٦٧ ، وزاد نسبتها لأهل الحجاز. وقال الداني في المقنع ص١٠٢ : وفيها [أي: سورة آل عمران] في مصاحف أهل الشام: «وبالزبر وبالكتاب» بزيادة باء في الكلمتين. كذا رواه لي خَلَف بن إبراهيم. . . اهـ. وذكر إسناده إلى أم الدرداء، عن أبي الدرداء، عن مصاحف أهل الشام. وقال: وكذلك حكى أبو حاتم أنهما مرسومان بالباء في مصحف أهل حمص الذي بعث عثمان إلى الشام. اهـ. ونقل كلام أبي حاتم أيضاً ابن الجزري في النشر ٢/ ٢٤٥ ، وقال: وكذا رأيتُه أنا في المصحف الشامي في الجامع الأموي.

لازمٌ ومتَعدٍّ. وجَمَعَ بين الزُّبُر والكتابِ ـ وهُما بمعنًى ـ لاختلاف لفظهما، وأصلهما[١] كما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾.

فيه سبع مسائل:

الأولى: لمَّا أخبرَ جلَّ وتعالى عن الباخلين وكُفرِهم في قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾، وأمرَ المؤمنين بالصَّبر على أذاهم في قوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ الآية، بين أنَّ ذلك مما يَنقضي ولا يدومُ، فإنَّ أمدَ الدُّنيا قريبٌ، ويوم القيامةِ يومُ الجزاء.

﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ من الذَّوق، وهذا ممَّا لا مَحيصَ عنه للإنسان، ولا مَحِيد عنه لحيوان. وقد قال أميةُ بنُ أبي الصَّلْت:

مَنْ لم يَمُتْ عَبْطةً يمُتْ هَرِماً ... لِلموتِ كأسٌ والمَرْءُ ذائِقُها[٢]

وقال آخرُ:[٣]

الموتُ بابٌ وكلُّ الناس داخلُه ... فليتَ شِعْرِيَ بعد البابِ ما الدَّارُ

الثانية: قراءةُ العامَّة: «ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» بالإضافة. وقرأ الأعمشُ ويحيى وابنُ أبي إسحاقَ: «ذائقةٌ الموتَ» بالتنوين ونَصْبِ الموتِ[٤]. قالوا: لأنَّها لم تذق بعدُ. وذلك أن اسم الفاعل على ضربين: أحدُهما أنْ يكون بمعنى المُضِيِّ، والثاني بمعنى الاستقبال؛ فإن أردْتَ الأوَّلَ لم يكن فيه إلَّا الإضافةُ إلى ما بعده، كقولك: هذا

---

(١) في (د) و(م): وأصلها.

(٢) ديوانه ص١٧٢ . وقوله: عَبْطة، أي: شاباً صحيحاً. القاموس (عبط).

(٣) هو أبو العتاهية، والبيت في ديوانه ص١٤١ .

(٤) ذكر قراءة الأعمش ابنُ عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٠، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٣، والزمخشري في الكشاف ١/ ٤٨٥ لليزيدي، وذكرا أن قراءة الأعمش بغير تنوين ذائقة وبنصب الموت، وينظر البحر ٣/ ١٣٣ .

ضاربُ زيدٍ أمسِ، وقاتلُ بَكْرٍ أمسِ؛ لأنَّه يجري مجرى الاسم الجامد، وهو العلم، نحوُ: غلامُ زيدٍ، وصاحبُ بَكْرٍ. قال الشاعر:

الحافِظُو عَوْرَةِ العَشِيرة لا يَأتيهِمُ مِن وَرَائِهِمْ وَكَفُ[(١)]

وإن أردتَ الثاني جاز الجرُّ، والنَّصبُ والتَّنوينُ فيما هذا سبيلُه هو الأصل؛ لأنَّه يَجري مجرى الفعل المضارع. فإن كان الفعل غيرَ متعدٍّ، لم يتعدَّ، نحو: قائمٌ زيدٌ. وإن كان متعدِّياً عدَّيته ونصبتَ به، فتقولُ: زيدٌ ضاربٌ عَمْراً، بمعنى يَضرب عَمْراً. ويجوزُ حذفُ التَّنوين، والإضافةُ تخفيفاً، كما قال المرَّارُ:[(٢)]

سَلِّ الهُمُومَ بكلِّ مُعطِي رأسِه ناجٍ مُخالِطِ صُهْبةٍ مُتَعَيِّسِ
مُغْتَالِ أَحْبُلِه مُبِينٍ عُنْقُه في مَنْكَبٍ زَبَنَ المَطِيَّ عَرَنْدَسِ[(٣)]

فحذَفَ التَّنوينَ تخفيفاً، والأصلُ: مُعْطٍ رأسَه، بالتنوين والنَّصبِ، ومثل هذا أيضاً في التَّنزيل قولُه تعالى: ﴿هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ﴾ [الزمر:٣٨][(٤)] وما كان مثله.

الثالثة: ثم أعلم أنَّ للموتِ أسباباً وأماراتٍ؛ فمن علامات موتِ المؤمن عَرَقُ الجبينِ. أخرجه النَّسائي[(٥)] من حديث بُريدةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «المؤمنُ يموتُ بعَرَق الجَبين». وقد بيَّناه في «التَّذكرة».[(٦)]

---

(١) البيت لعمرو بن امرئ القيس من قصيدة له في الخزانة ٤/ ٢٧٥، وأورده سيبويه ١/ ١٨٦، وروايته: من ورائنا نَطَف، وينظر ديوان قيس بن الخطيم ص١١٥ و ٢٣٨. قوله: الوَكَف، بفتح الواو والكاف: العيب والإثم. قاله البغدادي في الخزانة.

(٢) بفتح الميم وتشديد الراء الأولى، ابن سعيد الفَقْعَسي، من شعراء الدولة الأموية، وقد أدرك العباسية. خزانة الأدب ٤/ ٢٨٨ - ٢٨٩، وينظر الشعر والشعراء ٢/ ٦٩٩، والأغاني ١٠/ ٣٧٢.

(٣) البيتان في الكتاب ١/ ٤٢٦، قال الشنتمري في شرحهما ١/ ١٤٠ و ٢/ ٢٤١: المعنى: سلِّ همومَك اللازمة لك بفراق مَن تهواه ونأيِه عنك بكل بعير ترتحلُه للسفر، مُعْطي رأسه، أي: ذلول منقاد، ناجٍ، أي: سريع، والصُّهبة: أن يضرب بياضُه إلى الحمرة، والمتعيِّس: الأبيض، وهو أفضل أنواع الإبل، ثم وصفه بعِظَم الجوف، فإذا شُدَّ رحلُه عليه اغتال أحبُلَه - والاغتيال: الذهاب بالشيء - واستوفاها لعِظَم جوفه، والمبين: البَيِّنُ الطولِ. ومعنى زَبَنَ المطيَّ: زاحم ودافع، والعَرَنْدَسُ: الشديد.

(٤) هي قراءة أبي عمرو، وقرأ باقي السبعة بغير تنوين وخفض «ضرّه». السبعة ص٥٦٢، والتيسير ص١٩٠.

(٥) في سننه ٤/ ٦، وهو في مسند أحمد (٢٢٩٦٤).

(٦) ص١٦.

فإذا احتُضِرَ لُقِّن الشَّهادةَ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لَقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله»(١) لتكونَ آخرَ كلامِه، فيُختمَ له بالشَّهادة، ولا يعادُ عليه منها لئلا يضجَرَ.

ويُستحبُّ قراءةُ «يس» ذلك الوقتِ؛ لقوله عليه الصلاة والسَّلام: «اقرَؤوا يس على مَوْتاكم». أخرجَه أبو داودَ(٢). وذكر الآجُرِّي في كتاب «النَّصيحة» من حديث أمِّ الدرداء عن النبيِّ ﷺ قال: «ما من ميِّت يُقرأُ عنده سورةُ يس إلا هُوِّن عليه الموتُ».(٣)

فإذا قضى وتَبِع البصرُ الروحَ ـ كما أخبرَ ﷺ في صحيح مسلم ـ(٤) وارتفعت العباداتُ، وزالَ التَّكليفُ، توجَّهت على الأحياء أحكامٌ؛ منها: تغميضُه، وإعلامُ إخوانه الصُّلحَاءِ بموته، وكَرِهه قومٌ وقالوا: هو من النَّعي. والأوَّلُ أصحُّ، وقد بيَّنَّاه في غير هذا الموضع. ومنها الأخذُ في تجهيزه بالغسل والدَّفن؛ لئلا يُسرعَ إليه التغيُّر، قال ﷺ لقوم أخَّروا دفنَ ميِّتهم: «عجِّلوا بدفنِ جِيفَتِكم»(٥)، وقال: «أسرعوا بالجنازة» الحديثَ، وسيأتي.(٦)

فأما غسلُه وهي:

الرابعة(٧): فهو سُنَّةٌ لجميع المسلمين حاشا الشَّهيد على ما تقدَّم(٨). وقيل: غسلُه

(١) أخرجه أحمد (١٠٩٩٣)، ومسلم (٩١٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، ومسلم (٩١٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) في سننه (٣١٢١) من حديث معقل بن يسار، وهو في مسند أحمد (٢٠٣٠١)، ونقل الحافظ في التلخيص الحبير ٢/ ١٠٤ عن ابن القطان أنه أعلّه، وعن الدارقطني أنه قال: هذا حديث ضعيف الإسناد مجهول المتن، ولا يصح في الباب حديث.

(٣) وأخرجه أبو نعيم في أخبار أصبهان ١/ ١٨٨ من طريق مروان بن سالم، عن صفوان بن عمرو، عن شريح بن عبيد، عن أبي الدرداء، وشريح لم يسمع من أبي الدرداء كما في تهذيب الكمال ١٢/ ٤٤٧ وتهذيب التهذيب ٢/ ١٦٢ ، ومروان بن سالم؛ قال الدارقطني: متروك، وقال البخاري ومسلم وأبو حاتم: منكر الحديث، وقال الحراني: يضع الحديث. انظر ميزان الاعتدال ٤/ ٩٠ .

(٤) برقم (٩٢٠) من حديث أم سلمة، و (٩٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنهما، وحديث أم سلمة في مسند أحمد (٢٦٥٤٣).

(٥) سلف تخريجه ص٣٤٤ من هذا الجزء .

(٦) في المسألة الخامسة.

(٧) في (ز) و(ظ): وهي الرابعة وفي (م): الثالثة فأما غسله. وكذلك في التعداد التالي إلى نهاية المسائل.

(٨) ٤/ ٢٧٠ .

واجبٌ. قالَه القاضي عبد الوهَّاب[١]. والأوَّل مذهبُ الكتاب[٢]، وعلى هذين القولَين العلماءُ.

وسببُ الخلافِ قولُه عليه الصلاة والسَّلام لأمِّ عطيةَ في غَسلها ابنَته زينَب، على ما في كتاب مسلم[٣]، وقيل: هي أمُّ كلثوم، على ما في كتاب أبي داود[٤]: «اغْسِلْنَها ثلاثاً، أو خمساً، أو أكثرَ من ذلك إن رأيتُنَّ ذلك». الحديث، وهو الأصلُ عند العلماء في غَسلِ الموتى.

فقيل: المرادُ بهذا الأمرِ بيانُ حكمِ الغُسلِ، فيكونُ واجباً.

وقيل: المقصودُ منه تعليمُ كيفيةِ الغُسلِ، فلا يكونُ فيه ما يدُلُّ على الوجوب.

قالوا: ويدُلُّ عليه قوله: «إن رأيتُنَّ ذلك». وهذا يقتضي إخراجَ ظاهرِ الأمر [بالغُسل] عن الوجوب؛ لأنَّه فوَّضه إلى نَظَرِهنَّ.

قيل لهم: هذا فيه بُعدٌ؛ لأن ردَّك «إن رأيتُنَّ» إلى الأمر، ليس السَّابقَ إلى الفَهم؛ بل السَّابقُ رجوعُ هذا الشَّرط إلى أقرب مذكورٍ، وهو: «أكثرَ من ذلك»، أو إلى التَّخيير في الأعداد.

وعلى الجملة؛ فلا خلافَ في أن غُسلَ الميِّتِ مشروعٌ معمولٌ به في الشَّريعة لا يُتركُ. وصفتُه كصِفَة غُسلِ الجنابَةِ على ما هو معروف.

ولا يجاوِزُ السَّبعَ؛ غسلات في غُسل الميِّت بإجماع؛ على ما حكاه أبو عمر[٥]. فإنْ خرجَ منه شيء بعدَ السَّبع؛ غُسِلَ الموضعُ وحدَه، وحكمُه حكم الجُنب إذا أحدَثَ بعدَ غسلِه.[٦]

فإذا فَرَغَ من غسله كفَّنه في ثيابه، وهي:

الرابعة: والتَّكفينُ واجبٌ عند عامَّة العلماء، فإن كان له مالٌ؛ فمن رأس مالِه عند

(١) ينظر شرح التلقين ٣/ ١١١٣ .
(٢) هو المدونة، والكلام فيه ١/ ١٨٤ - ١٨٥ .
(٣) برقم (٩٣٩). وهو في مسند أحمد (٢٠٧٩٠)، وصحيح البخاري (١٢٥٣).
(٤) في سننه (٣١٥٧) من حديث ليلى بنت قانف، وهو في مسند أحمد (٢٧١٣٥).
(٥) في الكافي ١/ ٢٧٠ .
(٦) المفهم ٢/ ٥٩٢ - ٥٩٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

عامَّة العلماء، إلاَّ ما حُكي عن طاوس أنَّه قال: من الثلث؛ سواء[١] كان المالُ قليلاً أو كثيراً.

فإن كان الميِّت ممن تلزمُ غيرَه نفقتُه في حياته من سيِّدٍ - إن كان عبداً - أو أبٍ، أو زوجٍ، أو ابنٍ، فعلى السيِّد باتفاق، وعلى الزَّوج والأب والابن باختلاف. ثمَّ على بيت المالِ أو على جماعة المسلمين على الكفاية. والذي يتعيَّن منه بتعيين الفرض سَترُ العورةِ، فإن كان فيه فضلٌ؛ غير أنَّه لا يعمُّ جميعَ الجسدِ؛ غطَّى رأسَه ووجهَه؛ إكراماً لوجهه، وستراً لما يَظهرُ من تغيُّر محاسنه.[٢]

والأصلُ في هذا قصَّةُ مُصعب بنِ عُمير، فإنَّه تَرك يوم أحدٍ نَمِرةً[٣]؛ كان إذا غُطِّيَ رأسُه خرجَت رِجلاهُ، وإذا غُطِّي رِجلاه خرجَ رأسُه، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «ضَعوها ممَّا يلي رأسَه، واجْعلُوا على رِجلَيه من الإذْخِرِ» أخرجَ الحديثَ مسلمٌ.[٤]

والوتر مستحبٌّ عند كافَّة العلماء في الكَفن، وكلُّهم مُجمعون على أنَّه ليس فيه حَدٌّ، والمستحبُّ منه البياضُ، قال ﷺ: «اِلبَسوا من ثيابكم البَياضَ، فإنَّها من خير ثيابكم، وكفِّنوا فيها موتاكم». أخرجه أبو داود.[٥]

وكُفِّن ﷺ في ثلاثة أثوابٍ بيضٍ سَحُوليَّة من كُرسُف[٦]. والكَفَنُ في غير البياض جائزٌ إلاَّ أن يكون حريراً أو خَزّاً.[٧]

فإن تشاحَّ الورثةُ في الكَفَن[٨]؛ قُضي عليهم في مثل لباسِه في جُمعتِه وأعيادِه،

---

(١) لفظة: سواء، من (ظ).

(٢) المفهم ٢/ ٥٩٨.

(٣) النَّمِرة: بُردة من صوف تلبسها الأعراب. مختار الصحاح.

(٤) في صحيحه (٩٤٠) من حديث خبّاب بن الأرت ﷺ، وأخرجه البخاري (١٢٧٦).

(٥) في سننه (٣٨٧٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (٢٢١٩)، وسلف ص٣٠٣ من هذا الجزء.

(٦) أخرجه أحمد (٢٤١٢٢)، والبخاري (١٢٦٤)، ومسلم (٩٤١) من حديث عائشة رضي الله عنها. قوله: سَحولية، نسبة إلى سحول قرية باليمن، والكرسف: بضم الكاف والمهملة بينهما راء ساكنة، هو القطن. فتح الباري ٣/ ١٤٠.

(٧) المفهم ٢/ ٥٩٨ - ٥٩٩.

(٨) في (ظ): الوراثة.

قال ﷺ: «إذا كَفَّن أحدُكم أخاه؛ فَلْيُحسِّن كفنَه». أخرجه مسلم[١]. إلاَّ أنْ يُوصيَ بأقلَّ من ذلك. فإنْ أوصى بسَرفٍ قيل: يَبطلُ الزائدُ. وقيل: يكونُ في الثُّلث. والأوَّلُ أصحُّ، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال أبو بكر: إنَّه للمُهْلَة.[٢]

فإذا فرَغَ من غَسلهِ وتكفينه، ووُضع على سريره، واحتملَه الرجالُ على أعناقهم، وهي:

الخامسة: فالحكمُ الإسراعُ في المشي؛ لقوله عليه الصلاة والسَّلام: «أسرعوا بالجِنازة، فإن تَكُ صالحةً، فخيرٌ تُقدِّمونها إليه، وإن تكن غيرَ ذلك، فشرٌّ تضعونه عن رقابكم»[٣]. لا كما يفعلُه اليومَ الجهَّالُ في المشي رُويداً، والوقوفِ بها المرَّة بعد المرَّة، وقراءةِ القرآنِ بالألحان إلى ما لا يَحِلُّ ولا يجوز، حسب ما يفعلُه أهلُ الدِّيار المصريَّة بموتاهم.

روى النسائي[٤]: أخبرنا محمد بنُ عبد الأعلى قال: حدثنا خالد قال: أنبأنا عُيينةُ بن عبد الرحمن قال: حدثني أبي قال: شَهِدْتُ جِنازةَ عبد الرحمن بن سَمُرة، وخرج زياد يمشي بين يدي السَّرير، فجعل رجالٌ من أهل عبد الرحمن ومواليهم يستقبلون السَّرير، ويمشون على أعقابهم، ويقولون: رُويداً رويداً، بارك الله فيكم. فكانوا يَدِبُّون دَبيباً، حتى إذا كنا ببعض طريق المِرْبَد؛ لَحقَنا أبو بكرة ﷺ على بغلة، فلما رأى الذين يصنعون؛ حمل عليهم ببغلته، وأهوى إليهم بالسَّوْط، فقال: خَلُّوا! فوالذي أكرمَ وجهَ أبي القاسم ﷺ لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ وإنا[٥] لنكادُ نرمُلُ بها

---

(١) في صحيحه (٩٤٣) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (١٤١٤٥).

(٢) المنتقى للباجي ٢/ ٨ ، وأخرج أحمد (٢٤١٨٦)، والبخاري (١٣٨٧) من حديث عائشة رضي الله عنها أنها دخلت على أبي بكر ﷺ فقال: في كم كفَّنتم رسول الله ﷺ؟ ... فقال: اغسلوا ثوبيَّ هذين، وزيدوا عليه ثوبين، فكفنوني فيها، قلت: إن هذا خَلَق، قال: إن الحيَّ أحقُّ بالجديد من الميت، إنما هو للمُهلة.

قال السندي في شرحه على المسند: المهلة، بضم ميم وكسرها: هي القيح والصديد الذي يذوب ويسيل من الجسد.

(٣) أخرجه أحمد (٧٢٦٧)، والبخاري (١٣١٥)، ومسلم (٩٤٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) في المجتبى ٤/ ٤٢ - ٤٣ ، وهو في مسند أحمد (٢٠٤٠٠).

(٥) في (م): وإنها.

رَمَلاً. فانبسط القومُ.

وروى أبو ماجدة[١] عن ابن مسعودٍ قال: سألْنا نبيَّنا ﷺ عن المشي مع الجِنازة فقال: «دون الخَبَب، إن يكن خيراً يعجَّلْ إليه، وإن يكن غيرَ ذلك فبعداً لأهل النَّار». الحديث.[٢]

قال أبو عمر[٣]: والذي عليه جماعةُ العلماء في ذلك الإسراعُ فوقَ السَّجية قليلاً، والعَجَلة أحبُّ إليهم من الإبطاء. ويُكره الإسراعُ الذي يَشقُّ على ضَعَفة النَّاس ممن يتبعها. وقال إبراهيمُ النَّخعي: بَطِّئوا بها قليلاً، ولا تَدِبُّوا دبيبَ اليَهود والنَّصارى. وقد تأوَّل قومٌ الإسراعَ في حديث أبي هريرةَ تعجيلَ الدَّفنِ لا المشي، وليس بشيء لما ذكرنا. وبالله التوفيق.

السادسة: وأما الصَّلاةُ عليه فهي واجبَةٌ على الكفاية، كالجهاد. هذا هو المشهورُ من مذاهب العلماء، مالك وغيره؛ لقوله ﷺ في النَّجاشي: «قوموا فصلُّوا عليه»[٤]. وقال أصْبغ: إنها سُنَّة. ورُوي عن مالك[٥]. وسيأتي لهذا المعنى زيادةُ بيانٍ في «براءة».[٦]

السابعة: وأما دفنُه في التراب ودسُّه وسَتْرُه، فذلك واجبٌ؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١]. وهناك يُذكر حكم بنيانِ القبر وما يُستحبُّ منه، وكيفيَّةُ جعلِ الميِّت فيه. ويأتي في «الكهف»[٧] حكمُ بناءِ المسجدِ عليه، إن شاء الله تعالى.

---

(١) ويقال: أبو ماجد، الحنفي العجلي الكوفي، قال الترمذي: مجهول، وقال النسائي: منكر الحديث، وقال الدارقطني: مجهول متروك. تهذيب الكمال ٣٤/ ٢٤١.

(٢) أخرجه أحمد (٤١١٠)، وأبو داود (٣١٨٤)، والترمذي (١٠١١)، وابن ماجه (١٤٨٤).

(٣) التمهيد ١٦/ ٣٣ - ٣٤، والاستذكار ٨/ ٤١٧ - ٤١٨.

(٤) المفهم ٢/ ٦٠٩، وأخرجه أحمد (١٤١٥٠)، والبخاري (١٣٢٠)، ومسلم (٩٥٢) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

(٥) المنتقى للباجي ٢/ ١١.

(٦) في نفسير الآية (٨٤) منها.

(٧) في تفسير الآية (٢١) منها.

فهذه جملةٌ من أحكام الموتى وما يجبُ لهم على الأحياء.

وعن عائشةَ قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تَسبُّوا الأمواتَ، فإنهم قد أفضَوْا إلى ما قدَّموا». أخرجه مسلم.[١]

وفي سُنن النَّسائي[٢] عنها أيضاً قالت: ذُكر عند النبيِّ ﷺ هالكٌ بسوءٍ، فقال: «لا تذكروا هَلْكاكُم إلا بخير».

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فأجْرُ المؤمن ثوابٌ، وأجرُ الكافرِ عقابٌ، ولم يعتدَّ بالنِّعمة والبليَّة في الدنيا أجراً وجزاءً؛ لأنَّها عُرضةٌ للفناء.

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾ أي: أُبعِدَ. ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾: ظَفِر بما يَرجو، ونجا مما يخافُ.

وروى الأعمش، عن زيد بن وَهْب، عن عبد الرحمن بن عبدِ ربِّ الكعبة، عن عبدالله بن عمرو، عن النَّبي ﷺ قال: «من سَرَّه أن يُزحزَح عن النَّار، وأنْ يدخل الجنَّة، فلْتأتِه منيَّتهُ وهو يشهد أن لا إله إلَّا الله، وأن محمداً رسول الله، ويأتي إلى النَّاس الذي يُحبُّ أنْ يُؤتى إليه».[٣]

وعن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «موضِعُ سَوْطٍ في الجنَّة خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، اقرؤوا إنْ شِئْتم: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾».[٤]

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أي: تَغُرُّ المؤمنَ وتَخدعُه، فيَظُنُّ طولَ البقاءِ وهي فانيةٌ. والمتاعُ ما يُتمتَّع به ويُنتفَعُ، كالفأس والقِدْر والقَصْعَة، ثم يزول ولا يبقى مُلكُه، قالَه أكثرُ المفسِّرين.

قال الحسنُ: كخُضرةِ النَّبات، ولُعبِ البنَات، لا حاصلَ له[٥].

---

(١) لم يخرجه مسلم، وإنما أخرجه البخاري (١٣٩٣)، وهو في مسند أحمد (٢٥٤٧٠)، وينظر الجمع بين الصحيحين لعبد الحق الإشبيلي ٢/ ٣٦.

(٢) المجتبى ٤/ ٥٢، والكبرى (٢٠٧٣).

(٣) أخرجه أحمد (٦٧٩٣)، ومسلم (١٨٤٤) مطولاً.

(٤) أخرجه أحمد (٩٦٥١)، والترمذي (٣٠١٣) وقال: حسن صحيح.

(٥) في (ظ): به.

وقال قتادة: هي متاعٌ متروكٌ، يوشِكُ أنْ تَضمحِلَّ بأهلها، فينبغي للإنسان أنْ يأخذَ من هذا المتاع بطاعةِ الله سبحانه ما استطاع.(١)

ولقد أحسن مَنْ قال:(٢)

هي الدَّارُ دارُ الأذى والقَذَى ... ودارُ الفَناءِ ودارُ الغِيَر(٣)
فلو نِلْتَها بحَذافيرِها ... لَمُتَّ ولم تَقْضِ منها الوَطَرْ
أيا مَنْ يؤمِّلُ طُولَ الخُلودِ ... وطُولُ الخلودِ عليه ضَرَرْ
إذا أنت شِبْتَ وبانَ الشَّبابُ ... فلا خيرَ في العيشِ بعد الكِبَرْ

والغَرورُ، بفتح الغَين: الشيطان؛ يَغُرُّ الناسَ بالتَّمنيةِ والمواعيد الكاذبةِ. قال ابن عرفةَ: الغُرور: ما رأيتَ له ظاهراً تُحِبُّه، وفيه باطنٌ مكروهٌ أو مجهول. والشَّيطانُ غَرورٌ، لأنه يَحملُ على مَحابِّ النَّفسِ، ووراءَ ذلك ما يَسوءُ. قال: ومن هذا بيعُ الغَرَر، وهو ما كان له ظاهرُ بيعٍ يَغُرُّ، وباطنٌ مجهول.

قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

هذا الخطابُ للنبيِّ ﷺ وأمَّتِه، والمعنى: لَتُخْتَبَرُنَّ ولَتُمْتَحَنُنَّ في أموالكم بالمصائب والأرزاء، وبالإنفاق في سبيل الله، وسائِر تكاليفِ الشَّرعِ، والابتلاءِ في الأنفس بالموت والأمراضِ وفقدِ الأحبابِ(٤). وبدأ بذكر الأموالِ لكثرةِ المصائبِ بها.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ إن قيل: لِم ثبتتِ الواوُ في «لَتُبلَوُنَّ»، وحُذفت من «وَلَتَسْمَعُنَّ»؟

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٨١، وأخرج قول قتادة ابن أبي حاتم ٣/ ٨٣٣.

(٢) هو أبو العتاهية، والأبيات في ديوانه ص١٦١-١٦٢ على اختلاف في بعض ألفاظه، وأدب الدنيا والدين للماوردي ص١٠٢.

(٣) في (ظ): العبر.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٠.

فالجوابُ: أن الواو في «لَتبلونَّ» قبلها فتحةٌ، فحُركت لالتقاءِ السَّاكنين، وخُصَّت بالضَّمة لأنها واوُ الجمعِ، ولم يَجُز حذفُها؛ لأنه[1] ليس قبلها ما يَدلُّ عليها، وحُذفت من «ولَتَسمعُنَّ» لأنَّ قبلها ما يدلُّ عليها. ولا يجوزُ همزُ الواوِ في «لَتبلوُنَّ»؛ لأنَّ حركتَها عارضَةٌ. قاله النَّحَّاسُ[2] وغيرُه.

ويقالُ للواحد من المذكر: لَتُبْلَيَنَّ يا رجلُ، وللاثنين: لتبليانِّ يا رجلانِ. ولجماعة الرجال: لتُبلَوُنَّ.[3]

ونزلت بسبب أنَّ أبا بكر ﷺ سمع يهودياً يقول: إنَّ الله فقيرٌ ونحنُ أغنياءُ، ردّاً على القرآن، واستخفافاً به حين أنزل اللهُ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فلطمه، فشكاه إلى النبيِّ ﷺ، فنزلت. قيل: إن قائلها فِنْحاص اليَهوديُّ، عن عكرمة.[4]

الزُّهريُّ: هو كعبُ بنُ الأشرف؛ نزلت بسببِه؛ وكان شاعراً، وكان يهجو النبيَّ ﷺ وأصحابَه، ويُؤَلِّب عليه كفارَ قريشٍ، ويُشبِّب بنساء المسلمين، حتى بعث إليه رسولُ الله ﷺ محمد بنَ مَسْلمةَ وأصحابَه، فقتله القِتْلة المشهورة في السِّيَر وصحيحِ الخَبر[5]. وقيل غير هذا. وكان ﷺ لما قَدِمَ المدينةَ كان بها اليهودُ والمشركون، فكان هو وأصحابُه يَسمعون أذًى كثيراً.

وفي الصحيحين[6] أنه عليه الصلاة والسَّلامُ مرَّ بابنِ أُبَيٍّ وهو عليه الصلاة والسَّلام على حمارٍ، فدعاهُ إلى الله تعالى، فقال ابنُ أُبَيٍّ: إنْ كان ما تقول حقّاً فلا تؤذِنَا به في مجالسنا، ارجعْ إلى رَحلك، فمن جاءَك فاقصُصْ عليه. وقبض على أنفه

---

(١) في (م) لأنها.

(٢) في إعراب القرآن ١/ ٤٢٤ - ٤٢٥ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ١/٤٩٦ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ١/٥١٩ ، والمحرر الوجيز ١/٥٥١ . وأخرجه الطبري ٦/ ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٥) المحرر الوجيز ١/٥٥١ . والخبر في صحيح البخاري (٤٠٣٧)، وصحيح مسلم (١٨٠١)، وينظر تفسير الطبري ٦/ ٢٩١ - ٢٩٣ .

(٦) صحيح البخاري (٤٥٦٦)، وصحيح مسلم (١٧٩٨) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (٢١٧٦٧).

لئلاّ يُصيبَه غبارُ الحمارِ، فقالَ ابن رَوَاحة: نعم يا رسول الله، فاغْشَنا في مجالسنا، فإنا نُحبُّ ذلك. واستَبَّ المشركونَ الذين كانوا حول ابنِ أُبَيٍّ والمسلمون، وما زال النبيُّ ﷺ يُسكِّنُهم حتَّى سَكنوا[١].

ثم دخل على سعد بنِ عُبادةَ يَعودُه وهو مريض، فقال: «ألم تسمعْ ما قال فلان؟» فقال سعدٌ: اعفُ عنه واصفح، فوالَّذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاءك اللهُ بالحقِّ الذي نَزل، وقد اصطلح أهلُ هذه البُحَيْرة[٢] على أنْ يُتوِّجوه ويُعصِّبوه بالعِصابة، فلما ردَّ اللهُ ذلك بالحقِّ الذي أعطاكَهُ، شَرِقَ[٣] به، فذلك فَعَل به ما رأيت. فعفا عنه رسولُ الله ﷺ، ونزلَت هذه الآيةُ. قيل: هذا كان قبل نُزولِ القتال، ونَدَب اللهُ عبادَه إلى الصَّبْر والتَّقوى، وأخبر أنَّه من عَزم الأمور. وكذا في البخاريِّ في سياق الحديث، أنَّ ذلك كان قبل نُزولِ القتالِ.

والأظهرُ أنَّه ليس بمنسوخ؛ فإنَّ الجدال بالأحسنِ والمُداراةَ أبداً مندوبٌ إليها، وكان عليه الصلاة والسَّلام مع الأمر بالقتال يوادِعُ اليهودَ ويُدَارِيهم، ويَصفحُ عن المنافقين، وهذا بيِّنٌ.

ومعنى ﴿عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾: شدُّها وصَلابتُها. وقد تقدَّم.[٤]

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هذا متَّصلٌ بذكر اليهود، فإنَّهم أُمِروا بالإيمان بمحمد عليه الصلاة والسَّلام وبيانِ أمرِه، فكتموا نعتَه.

---

(١) في (خ): يسكّتهم حتى يسكتوا.

(٢) في صحيح البخاري: البحرةُ، وفي رواية له: البحيرة، كما ذكرَ الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٢٣٢ ، وقال: هذا اللفظ يطلق على القرية وعلى البلد، والمراد به هنا المدينة النبوية.

(٣) بفتح المعجمة وكسر الراء، أي: غصَّ به، وهو كناية عن الحسد. فتح الباري ٨/ ٢٣٢ .

(٤) ص٣٨٤ من هذا الجزء.

فالآيةُ توبيخٌ لهم، ثمَّ مع ذلك هو خبرٌ عامٌّ لهم ولغيرهم.(١)

قال الحسن وقتادة: هي في كلِّ من أوتيَ عِلْمَ شيء من الكتاب. فمن عَلِمَ شيئاً فليُعلِّمه، وإيَّاكم وكِتمانَ العلم فإنه هَلَكَةٌ.(٢)

وقال محمد بنُ كعبٍ: لا يَحلُّ للعالم أنْ يسكتَ على علمه، ولا للجاهل أن يَسكُتَ على جهله، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية، وقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].(٣)

وقالَ أبو هريرة: لولا ما أخذَ اللهُ على أهل الكتابِ؛ ما حدَّثتُكم بشيءٍ، ثمَّ تلا هذه الآيةَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾.(٤)

وقال الحسن بنُ عمارة: أتيتُ الزُّهريَّ بعدما ترك الحديث، فألفيتُه على بابه، فقلتُ: إنْ رأيتَ أنْ تُحدِّثني. فقال: أما علمتَ أني تركتُ الحديث؟ فقلت: إما أن تُحدِّثني، وإما أنْ أحدِّثَك. قال: حدِّثْني. قلتُ: حدَّثني الحَكَم بنُ عُتَيبة، عن يحيى بن الجزار قال: سمعتُ عليَّ بنَ أبي طالب يقول: ما أخذ اللهُ على الجاهلين أنْ يتعلَّموا حتَّى أخذ على العلماء أنْ يُعلِّموا. قال: فحدَّثني أربعين حديثاً.(٥)

الثانية: الهاء في قوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ ترجع إلى محمَّدٍ ﷺ وإنْ لم يَجْرِ له ذِكرٌ. وقيل: ترجعُ إلى الكتاب، ويدخل فيه بيان أمر النَّبي ﷺ؛ لأنَّه في الكتاب(٦). وقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ ولم يقل: تَكْتُمُنَّهُ؛ لأنَّه في معنى الحال، أي: لتُبيننَّه غيرَ كاتمين.(٧)

وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر وأهل مكَّة: «لَتُبَيِّنُنَّهُ» بالتاء على حكاية

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٥١ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٨٣ ، وأخرج الطبري ٦/ ٢٩٦ قول قتادة.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٨٦ .

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٨٣، وأخرجه الحاكم ١/ ١٠٨ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولا أعلم له علة، ولم يخرجاه. وسلف نحوه ٢/ ٤٨٠ .

(٥) تفسير البغوي ١/ ٣٨٣ ، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٥٢١ ، والزمخشري في الكشاف ١/ ٤٨٦ قول علي ﷺ دون القصة.

(٦) ينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٥ ، ومجمع البيان ٤/ ٢٩٢ ، وزاد المسير ١/ ٥٢١ .

(٧) ينظر تفسير الفخر الرازي ٩/ ١٣١ .

الخطاب، والباقون بالياء لأنَّهم غُيَّب.[١]

وقرأ ابنُ عباس: «وَإذْ أَخَذَ اللهُ ميثاقَ النَّبِيِّينَ لَتُبَيِّنُنَّهُ»[٢]، فيجيءُ قولُه: ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ عائداً على النَّاس الَّذين بيَّنَ لهم الأنبياءُ.[٣]

وفي قراءة ابنِ مسعود «لَيُبَيِّنُونَه»[٤] دونَ النُّونِ الثقيلة.

والنَّبْذ: الطَّرحُ. وقد تقدَّم بيانُه في «البقرة».[٥]

﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾: مبالغة في الاطِّراح، ومنه ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود: ٩٢]. وقد تقدَّم في «البقرة» بيانُه أيضاً[٦]. وتقدَّم معنى قولِه: ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ في «البقرة» فلا معنى لإعادته. ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ تقدَّم أيضاً[٧]. والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾.

أي: بما فعلوا من القُعود في التَّخلُّفِ عن الغَزْوِ، وجاؤوا به من العُذرِ.

ثبت في الصحيحين[٨] عن أبي سعيد الخُدريِّ: أنَّ رجالاً من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج النَّبيُّ ﷺ إلى الغزو تخلَّفوا عنه، وفرحوا بمَقْعَدِهم خِلافَ رسول الله ﷺ، فإذا قَدم النَّبيُّ ﷺ اعتذروا إليه وحلَفوا، وأحبُّوا أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ الآية.

---

(١) كذا قال المصنف رحمه الله، وهو وهم منه، فإن ابن كثير وأبا عمرو وعاصماً في رواية أبي بكر شعبة عنه قرؤوا: «لَيُبَيِّنُنَّه للناس» بالياء من أسفل، وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وحفص بالتاء للخطاب. السبعة ص٢٢١ والتيسير ص٩٣ .

(٢) في (خ) و (م): ليبيننه (بالياء).

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٥١ . وأخرج الطبري ٦/ ٢٩٧ قراءة ابن عباس، ونقل عنه معناها بقوله: أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم.

(٤) في (د): ليبينوه، وفي (ظ): ليبيننه، وفي المحرر الوجيز ١/ ٥٥١ (وعنه نقل المصنف)، والدر المصون ٣/ ٥٢٤: لتبينونه. وينظر البحر المحيط ٣/ ١٣٦ .

(٥) ٢/ ٢٦٧ .

(٦) ٢/ ٢٦٨ .

(٧) ١/ ٣١٨ .

(٨) صحيح البخاري (٤٥٦٧)، وصحيح مسلم (٢٧٧٧) .

وفي الصحيحين أيضاً[١] أن مَرْوان قال لبوَّابه: اذهب يا رافعُ إلى ابن عباس، فقل له: لئن كان كلُّ امرئٍ منّا فرح بما أوتي[٢]، وأحبَّ أن يُحمد بما لم يفعل؛ معذَّباً لنعذَّبنَّ أجمعون. فقال ابن عباس: ما لَكم ولهذه الآية؟ إنما أنزلت هذه الآيةُ في أهل الكتاب. ثم تلا ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ و ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾. وقال ابن عباس: سألهم النبيُّ ﷺ عن شيءٍ، فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فخرجوا وقد أروه أنْ قد أخبروه بما سألهم عنه، واستَحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتَوْا من كتمانهم إيَّاه ما سألَهم عنه.

وقال محمد بنُ كعبٍ القُرَظِيّ: نزلت في علماء بني إسرائيل الذين كتموا الحقَّ، وأتَوا ملوكَهم من العلم ما يوافقهم في باطلهم، ﴿وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: بما أَعطوهم الملوكُ[٣] من الدُّنيا، فقال الله لنبيِّه ﷺ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فأخبر أنَّ لهم عذاباً أليماً بما أفسدوا من الدِّين على عبادِ الله.[٤]

وقال الضَّحاك: إن اليهودَ كانوا يقولون للملوك: إنا نجدُ في كتابنا أن الله يبعثُ نبيّاً في آخر الزمان يَخْتمُ به النُّبوَّة؛ فلمَّا بعثه اللهُ سألهم الملوك: أهو هذا الذي تجدونه في كتابكم؟ فقالت اليهود طمعاً في أموال الملوك: هو غيرُ هذا، فأعطاهم الملوك الخزائنَ، فقال الله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ الملوكَ من الكذب حتى يأخذوا عَرَض الدُّنيا[٥].

والحديث الأولُ خلافُ مقتضى الحديث الثاني. ويحتمل أنْ يكون نزولُها على السببين لاجتماعهما في زمن واحدٍ، فكانت جواباً للفريقين. والله أعلم.

وقوله: واستحمدوا بذلك إليه، أي: طلبوا أنْ يُحمَدوا. وقول مروان: لئن كان

---

(١) صحيح البخاري (٤٥٦٨)، وصحيح مسلم (٢٧٧٨)، وهو في مسند أحمد (٢٧١٢).

(٢) في (خ) و(د): أتى، وهي كذلك في صحيح مسلم.

(٣) كذا في النسخ، وهي لغة، وفي (م): أعطاهم الملوك.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٨٣٨.

(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٣٢٣.

كلُّ امرئٍ منَّا .. إلخ، دليلٌ على أنَّ للعموم صِيَغاً مَخصوصةً، وأنَّ «الذين» منها. وهذا مقطوعٌ به من تَفهُّمِ ذلك من القرآن والسُّنَّة.

وقولُه تعالى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ قيل:(١) كانت الآيةُ في أهلِ الكتاب، لا في المنافقين المتخلِّفين؛ لأنَّهم كانوا يقولون: نحن على دين إبراهيمَ، ولم يكونوا على دينه، وكانوا يقولون: نحن أهل الصلاة والصوم والكتاب، يريدون أن يُحمَدوا بذلك.(٢)

و «الذين» فاعل لـ «يحسبن»(٣) بالياء، وهي قراءة نافع وابن عَامر وابن كَثير وأبي عمرو(٤)، أي: لا يَحسبَنَّ الفارحون فرحَهم مُنجياً لهم من العذاب. وقيل: المفعول الأوَّلُ محذوفٌ، وهو أنفسهم. والثَّاني «بمفازة»(٥). وقرأ الكوفيون: «تَحسبَنَّ» بالتاء على الخطاب للنَّبيِّ ﷺ(٦)؛ أي: لا تحسبَنَّ يا محمدُ الفارحين بمفازةٍ من العذاب.

وقولُه: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ بالتَّاء وفتح الباء، إعادةُ تأكيدٍ، ومفعولُه الأوَّل الهاء والميم، والمفعول الثاني محذوفٌ، أي: كذلك، والفاء عاطفةٌ، أو زائدة على بدل الفعل الثَّاني من الأول.

وقرأ الضحاك وعيسى بن عمر بالتاء وضمِّ الباء: «فلا تَحْسبُنَّهم»(٧)، أراد محمداً ﷺ وأصحابه. وقرأ مجاهد وابن كثيرٍ وأبو عمرو ويحيى بن يعمر بالياء وضمِّ الباءِ خبراً عن الفارحين(٨)، أي: فلا يَحسبُنَّ أنفسهم، «بِمَفَازَةٍ» المفعول الثاني. ويكون «فلا يحسبُنَّهم» تأكيداً.

---

(١) في (خ) و(د) و(ز) و(ف) و(م): إذا، والمثبت من (ظ).

(٢) أخرجه الطبري ٦/ ٣٠٢ عن السدي.

(٣) في (خ) و(د) و(ز) و(ف) و(م): بيحسبن، والمثبت من (ظ).

(٤) مع كسر السين لنافع وابن كثير وأبي عمرو، وفتحها لابن عامر السبعة ص٢١٩-٢٢٠ ، والتيسير ص٨٤ و٩٢ .

(٥) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ١٨٢ - ١٨٣ .

(٦) مع فتح السين لعاصم وحمزة، وكسرها للكسائي، وهؤلاء هم الكوفيون. السبعة ص٢١٩-٢٢٠ ، والتيسير ص٨٤ و٩٢ .

(٧) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٣ قراءة الضحاك.

(٨) السبعة ص٢١٩-٢٢٠، والتيسير ص٩٣، وابن كثير وأبو عمرو من السبعة.

وقيل: «الذين» فاعل لـ«يحسبنَّ» ومفعولاها محذوفان لدلالة «يَحسبُنَّهم» عليه، كما قال الشاعر:

بأيِّ كتابٍ أمْ بأيَّةِ آيةٍ ... تَرى حبَّهم عاراً عليَّ وتَحسَبُ[1]

استغنى بذكر مفعولي الواحد عن ذكر مفعولي[2] الثاني، و«بمفازة» الثاني، وهو بدل من الفعل الأول، فأغنى لإبدالِهِ منه عن ذكر مفعولَيْه، والفاء زائدةٌ[3].

وقيل: قد تجيء هذه الأفعال مُلْغاةً لا في حكم الجمل المفيدة، نحو قولِ الشاعر:

وما خِلْتُ أبقى بيننا من مَودَّةٍ ... عِراض المَذَاكِي المُسْنِفاتِ القلائِصَا[4]

المَذَاكي: الخيلُ التي قد أتى عليها بعد قُروحها سَنةٌ أو سَنتان، الواحد مُذَكٍّ، مثل المُخْلِف من الإبل، وفي المَثَل: جَرْيُ المُذكِّيات غِلاء[5]، والمُسْنَفاتُ اسم مفعول، يقال: سَنَفْتُ البعيرَ أسنُفهُ سَنْفاً: إذا كَفَفْتَه بزمامه وأنت راكبُه، وأسنف البعيرَ لغةٌ في سنَفَه، وأَسْنَفَ البعيرُ بنفسه: إذا رفع رأسَه؛ يَتعدَّى ولا يَتعدَّى. وكانت العربُ تركبُ الإبلَ وتَجْنُب الخيلَ، تقول: الحربُ لا تُبقي مودَّة[6]. وقال كعبُ بنُ أبي سُلْمَى:

أرجو وآملُ أن تَدْنُو مَودَّتُها ... وما إخالُ لَدَيْنا منكِ تَنوِيلُ[7]

---

(١) البيت للكميت، وهو في ديوانه ص٥١٦ ، والحجة للفارسي ٣/ ١٠٥، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٣، وعندهم: أم بأية سنة.

(٢) في (م): مفعول، في الموضعين.

(٣) ينظر بسط الكلام في هذه المسألة في الدر المصون ٣/ ٥٢٥ - ٥٣١ .

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٣ ، ولم يجود البيت في النسخ، وهو للأعشى في ديوانه ص٢٠١ .

(٥) في (د) و(م): غلاب، وهي رواية في المثل، والمثبت موافق للصحاح (ذكا) وعنه نقل المصنف، والمثل برواية غلاب في الأمثال لأبي عبيد ص٩١ و ١٠٧ ، والكامل للمبرد ص٥٠١ ، وجمهرة الأمثال للعسكري ١/ ٢٩٩ ، وفصل المقال للبكري ص١٢٧، ومجمع الأمثال للميداني ١/ ١٥٨. قال الميداني: والغِلاب: المغالبة، ويروى: غلاء جمع غلوة، يعني أن جريها يكون غَلْوات، يضرب لمن يوصف بالتَّبريز على أقرانه في حَلْبة الفضل.

(٦) الصحاح (سنف).

(٧) البيت في ديوانه ص٨٥ برواية:

أرجو وآمل أن يعجلن في أبد ... وما لهنَّ طوال الدهر تعجيل

وهو في شرح قصيدة بانت سعاد لابن هشام ص٤١ برواية المصنف.

وقرأ جمهورُ القرّاء السبعة وغيرُهم: «أتوا» بقصر الألف، أي: بما جاؤوا به من الكذب والكتمان.

وقرأ مروانُ بنُ الحَكَم والأعمشُ وإبراهيم النَّخَعِيّ: «آتوا»، بالمدِّ، بمعنى: أعْطَوا. وقرأ سعيد بن جبير: «أُوتُوا» على ما لم يُسمَّ فاعلُه، أي: أُعْطُوا.[١]

والمَفازة: المَنْجاةُ، مَفْعَلَة، من فاز يفوز إذا نجا، أي: ليسوا بفائزين. وسُمِّي موضعُ المخاف[٢] مَفازةً على جهة التَّفاؤل، قاله الأصمعي. وقيل: لأنَّها موضعُ تَفويز ومَظِنَّة هلاكٍ، تقول العرب: فَوَّز الرَّجلُ إذا مات. قال ثعلب[٣]: حكيتُ لابن الأعرابي قولَ الأصمعي، فقال: أخطأ، قال لي أبو المكارم: إنما سُمِّيت مَفازةً، لأنَّ مَن قطعها فاز.

وقال الأصمعيُّ: سُمِّي اللَّدِيغ سليماً تفاؤلاً. قال ابن الأعرابي: لأنه مُسْتَسْلِم لما أصابه.[٤]

وقيل: لا تحسبنهم بمكان بعيد من العذاب؛ لأن الفوز التباعدُ عن المكروه. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

هذا احتجاجٌ على الذين قالوا إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء، وتكذيب لهم[٥]. وقيل: المعنى: لا تَظُنَّنَّ الفرحين يَنجُون من العذاب؛ فإن لله كلَّ شيءٍ، وهم في قبضة

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٣، وذكر قراءة الأعمش النحاس في إعراب القرآن ١/ ٤٢٥ ، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٣ - ٢٤ . وأما قراءة سعيد بن جبير فقد نسبها ابن خالويه ص٢٣ للسلمي عن علي ابن أبي طالب ﷺ.

(٢) في (م): المخاوف .

(٣) ينظر مجالسه ص١٧٠ .

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٣ وعنه نقل المصنف قول الأصمعي وثعلب، وينظر الصحاح (فوز)، وتهذيب اللغة ١٣/ ٢٦٤. وأبو المكارم: أحد الأعراب الذين أخذ عنهم ابن الأعرابي. ينظر مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص٩٢ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ١/ ٥٢٣ ، والوسيط للواحدي ١/ ٥٣٢ .

القدير[١]؛ فيكون معطوفاً على الكلام الأوّل، أي: إنهم لا يَنجُون من عذابه، يأخذهم متى شاء.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مُمْكن ﴿قَدِيرٌ﴾ وقد مضى في «البقرة».[٢]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

فيه خمس وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدّم معنى هذه الآية في

---

(١) في النسخ: التقدير، والمثبت من (م).

(٢) ١/ ٣٣٨ - ٣٣٩.

«البقرة» في غير موضع[١]. فختم تعالى هذه السورة بالأمر بالنَّظر والاستدلال في آياته؛ إذ لا تصدر إلا عن حيٍّ قيوم، قدير، قُدُّوس، سلام، غنيٍّ عن العالمين؛ حتى يكونَ إيمانُهم مُستنداً إلى اليقين، لا إلى التقليد.

﴿لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: الذين يستعملون عقولهم في تأمُّلِ الدلائل.

ورُوي عن عائشةَ رضي الله عنها أنها قالت: لمَّا نزلتْ هذه الآيةُ على النبيِّ ﷺ قام يُصلِّي، فأتاه بلالٌ يُؤْذِنُه بالصلاة، فرآه يبكي، فقال: يا رسول الله، أتبكي وقد غَفَر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟! فقال: «يا بلالُ، أفلا أكون عبداً شكوراً! ولقد أنزلَ اللهُ عليَّ الليلةَ آيةً: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾» ثم قال: «ويلٌ لمَنْ قرأها ولم يَتفكَّر فيها».[٢]

الثانية: قال العلماء: يُستحبُّ لمَنِ انتبه من نومه أن يمسحَ على وجهه، ويستفتحَ قِيامَه بقراءة هذه العشر الآياتِ[٣] اقتداءً بالنبيِّ ﷺ، ثبت ذلك في «الصحيحين» وغيرهما وسيأتي[٤]، ثم يُصلِّي ما كُتب له، فيجمع بين التفكُّر والعمل، وهو أفضلُ العمل على ما يأتي بيانُه في هذه الآية بعد هذا.

ورُوي عن أبي هريرةَ أنَّ رسول الله ﷺ كان يقرأُ عشرَ آياتٍ من آخر سورة آل عمران كلَّ ليلة. خرَّجه أبو نصر الوائلي السِّجِسْتاني الحافظ[٥] في كتاب «الإبانة» من

---

(١) ٢/ ٤٩٠ .

(٢) أخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص/ ١٨٦ ، وابن حبان (٦٢٠). وأخرج أحمد (٢٤٨٤٤)، والبخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠). عن عائشة رضي الله عنها أن نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطَّر قدماه، فقالت عائشة: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحبُّ أن أكون عبداً شكوراً».

(٣) في (د) و(ظ): العشر آيات.

(٤) مسند أحمد (٢١٦٤)، وصحيح البخاري (٤٥٧٠)، وصحيح مسلم (٧٦٣): (١٨٢). من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وسيذكره المصنف في المسألة الثامنة.

(٥) هو عُبيد الله بن سعيد بن حاتم بن أحمد، شيخ الحرم، وهو راوي الحديث المسلسل بالأولية: «الراحمون يرحمهم الرحمن...»، وكتابه المذكور هو «الإبانة الكبرى» في أن القرآن غير مخلوق، وتوفي سنة (٤٤٤هـ). السير ١٧/ ٦٥٤ .

حديث سليمانَ بن موسى، عن مظاهر بن أسلم المخزومي، عن المَقْبُري، عن أبي هريرة[١]. وقد تقدَّم أولَ السورة عن عثمان قال: مَنْ قرأ آخرَ آل عمران في ليلة كُتب له قيامُ ليلة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ ذكَر تعالى ثلاثَ هيئات لا يخلو ابنُ آدمَ منها في غالب أمره، فكأنها تَحصر زمانه، ومن هذا المعنى قولُ عائشةَ رضي الله عنها: كان رسولُ الله ﷺ يذكُر الله على كلِّ أحيانه. أخرجه مسلم[٢]. فدخل في ذلك كونُه على الخلاء وغيرُ ذلك.[٣]

وقد اختلف العلماءُ في هذا، فأجاز ذلك عبدُ الله بن عمرو[٤] وابن سيرين والنَّخَعي، وكره ذلك ابنُ عباس وعطاء والشعبي. والأول أصحُّ لعموم الآية والحديث. قال النَّخَعي: لا بأس بذكر الله في الخلاء، فإنه يَصْعَد[٥]. المعنى: تصعد به الملائكةُ مكتوباً في صُحُفهم، فحذف المُضاف. دليلُه قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١]. ولأن الله عزَّ وجلَّ أمرَ عبادَه بالذِّكر على كلِّ حال ولم يستثنِ فقال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، فعمَّ. فذاكرُ الله تعالى على كلِّ حالاته مُثابٌ مأجورٌ إن شاء الله تعالى.

وذكر أبو نُعيم قال: حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل، قال: حدثني أبي قال: حدثنا وكيعٌ قال: حدثنا سفيان، عن عطاء بن أبي مروان، عن

---

(١) وأخرجه أيضاً العقيلي في الضعفاء ٢/ ١٤١ ، والطبراني في الأوسط (٦٧٧٣) . قال العقيلي: مظاهر منكر الحديث، قاله البخاري.

(٢) رقم (٣٧٣)، وعلقه البخاري بصيغة الجزم في كتاب الحيض (فتح الباري ١/ ٤٠٧) وهو في مسند أحمد (٢٤٤١٠) .

(٣) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٥٤ .

(٤) في النسخ الخطية: عبدالله بن عمر، والمثبت من (م) وإكمال المعلم ٢/ ٢٣٠ حيث ذكر القاضي عياض هذه الأقوال وصرَّح ثمة أنه عبدالله بن عمرو بن العاص.

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٤/ ٢٣٠ .

أبيه، عن كعب الأحبار قال: قال موسى عليه السلام: يا ربِّ، أقريبٌ أنت فأُناجيَك، أم بعيد فأُناديَك؟ قال: يا موسى، أنا جليسُ مَن ذكرني. قال: يا ربِّ، فإنَّا نكون من الحال على حال نُجِلُّك ونُعظِّمك أن نَذْكُرَك. قال: وما هي؟ قال: الجنابة والغائط. قال: يا موسى، أذْكُرني على كلِّ حال.(١)

وكراهيةُ من كَرِه ذلك إمَّا لِتنزيه ذِكْر الله تعالى في المواضع المَرْغوبِ عن ذِكْره فيها، ككراهيةِ قراءة القرآن في الحمَّام، وإما إبقاء على الكرام الكاتبين على أنْ يُحِلَّهم موضعَ الأقذار والأنجاس لِكتابة ما يَلفِظُ به. والله أعلم.

و﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا﴾ نصب على الحال. ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ في موضع الحال، أي: ومضطجعين، ومثله قولُه تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يونس:١٢] على العكس، أي: دعانا مضطجعاً على جَنبه.

وذهب جماعةٌ من المفسرين ـ منهم الحسنُ وغيره ـ إلى أن قوله: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ إلى آخره، إنما هو عبارةٌ عن الصلاة، أي: لا يُضيِّعونها، ففي حال العذر يُصلُّونها قعوداً أو على جُنوبهم. وهي مثلُ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣](٢) في قول ابن مسعود(٣) على ما يأتي بيانُه.

وإذا كانت الآيةُ في الصلاة فَفِقْهُها أنَّ الإنسان يُصلِّي قائماً، فإن لم يستطِعْ فقاعداً، فإنْ لم يستطِعْ فعلى جَنْبه، كما ثبتَ عن عِمرانَ بن حُصين قال: كان بي

---

(٣) حلية الأولياء ٦/ ٤٢ . وهو من الإسرائيليات. وفي معنى قوله: «أقريب أنت فأناجيَك...» عن معاوية ابن حيدة أن سائلاً قال للنبي ﷺ: يا محمد، أقريب ربُّنا فنناجيَه، أم بعيدٌ فنناديَه، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾. أخرجه الطبري في التفسير ٣/ ٢٢٢ - ٢٢٣ ، وفي إسناده الصُّلب بن حكيم، ذكره الحافظ ابن حجر في لسان الميزان ٣/ ١٩٥ وسمَّاه الصلت، وقال: مجهول، وذكر الحديث. وقوله: أنا جليس من ذكرني، . ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة ص٩٥ ، وقال: رواه الديلمي بلا سند عن عائشة مرفوعاً. وقال ص٩٦ : وعند البيهقي [في شعب الإيمان (٥١٠)] معناه في المرفوع من حديث أبي هريرة: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه». وانتهى كلام السخاوي. وفي حديث أبي هريرة أيضاً يرفعه: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بيُ وأنا معه إذا ذكرني...» أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٤ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٨٤١ .

البَواسِيرُ، فسألتُ النبيَّ ﷺ عن الصلاة، فقال: «صَلِّ قائماً، فإنْ لم تستطِعْ فقاعداً، فإنْ لم تَستطِعْ فعلى جَنب» رواه الأئمة.[١]

وقد كان ﷺ يُصلِّي قاعداً قبل موته بعام في النافلة، على ما في «صحيح مسلم»[٢]. وروى النسائيُّ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يُصلِّي متربِّعاً. قال أبو عبد الرحمن: لا أَعلمُ أحداً روى هذا الحديثَ غيرَ أبي داود الحَفَرِيّ، وهو ثقةٌ، ولا أحسَب هذا الحديثَ إلا خطأً. والله أعلم.[٣]

الرابعة: واختلف العلماءُ في كيفية صلاة المريض والقاعد وهيئتها، فذكر ابنُ عبد الحكم عن مالك أنه يتربَّع في قيامه[٤] ـ وقاله البُوَيْطيُّ عن الشافعيّ ـ فإذا أراد السجودَ تهيَّأ للسجود على قدر ما يُطيق، قال: وكذلك المُتنفِّل. ونحوه قولُ الثوري، وكذلك قال اللَّيث وأحمد وإسحاق وأبو يوسف ومحمد. وقال الشافعيّ ـ في رواية المُزَنيّ ـ: يَجلِسُ في صلاته كلِّها كجلوس التشهد. ورُوي هذا عن مالك وأصحابه، والأوَّلُ المشهور، وهو ظاهر «المدوّنة»[٥]. وقال أبو حنيفة وزُفَر: يجلسُ كجلوس التشهد، وكذلك يركع ويَسْجد.[٦]

الخامسة[٧]: فإنْ لم يستطع القعودَ، صلَّى على جَنْبه أو ظَهْره على التخيير، هذا مذهب «المدوَّنة»[٨]. وحكى ابنُ حبيب عن ابن القاسم: يُصلِّي على ظهره، فإنْ لم

---

(١) مسند أحمد (١٩٨١٩) ، وصحيح البخاري (١١١٧)، وسنن أبي داود (٩٥٢)، وسنن الترمذي (٣٧٢)، وسنن ابن ماجه (١٢٢٣).

(٢) رقم (٧٣٣) من حديث حفصة رضي الله عنها، وهو في مسند أحمد (٢٦٤٤٢) .

(٣) المجتبى ٣/ ٢٢٤ . أبو عبد الرحمن: هو النسائي، وأبو داود الحَفَري هو عمر بن سعد بن عبيد، مات سنة (٢٠٣ هـ). تقريب التهذيب.

(٤) رواية ابن عبد الحكم عن مالك ـ كما في التمهيد ١/ ١٣٧ ، والاستذكار ٥/ ٤١٣ ـ أنه يتربَّع في قيامه وركوعه.

(٥) ١/ ٧٦ - ٧٧ .

(٦) التمهيد ١/ ١٣٧ ، والاستذكار ٥/ ٤١٤ .

(٧) بعدها في (م): قال.

(٨) ١/ ٧٧ .

يستطِعْ فعلى جَنْبه الأيمن، ثم على جَنْبه الأَيْسر. وفي كتاب ابن الموَّاز عَكْسُه؛ يُصلِّي على جَنْبه الأيمن، وإلا فعلى الأيسر، وإلا فعلى الظَّهر. وقال سحنون: يُصلِّي على الأيمن كما يُجعل في لَحْده، وإلا فعلى ظَهْره، وإلا فعلى الأيسر(١). وقال مالك وأبو حنيفة[وأصحابُهما] إذا صلَّى مضطجعاً تكون رجلاه مما يَلي القِبلة [مستقبل القبلة]. [وقال:] الشافعيّ والثوريّ: يُصلِّي على جَنْبه، ووجهُه إلى القِبلة.(٢)

السادسة: فإنْ قَوِيَ لخِفَّة المرض وهو في الصلاة، قال ابن القاسم: إنه يقومُ فيما بَقِيَ من صلاته ويَبني على ما مضَى، وهو قول الشافعيّ وزُفَر والطبري. وقال أبو حنيفة وصاحباه يعقوبُ ومحمد فيمن صلَّى مضطجعاً ركعةً ثم صحَّ: إنه يستقبلُ الصلاةَ من أوَّلها، ولو كان قاعداً يركع ويسجد، ثم صحَّ، بنَى في قول أبي حنيفة، ولم يَبْنِ في قول محمد. وقال أبو حنيفة وأصحابه: إذا افتتحَ الصلاةَ قائماً، ثم صار إلى حَدّ(٣) الإيماء فَلْيَبْنِ، ورُوي عن أبي يوسف [أنه يستقبل]. وقال مالك في المريض الذي لا يستطيعُ الركوعَ ولا السجودَ وهو يستطيعُ القيامَ والجُلوس: إنه يُصلِّي قائماً ويُومئ إلى الركوع، فإذا أراد السجودَ جلَس وأَوْمأ إلى السجود؛ وهو قولُ أبي يوسف، وقياسُ قول الشافعيّ. وقال أبو حنيفة وأصحابه: يُصلِّي قاعداً.(٤)

السابعة: وأما صلاةُ الراقد الصحيح، فرُوِيَ من حديث عِمران بن حُصين زيادةٌ ليست موجودةً في غيره، وهي: «صلاةُ الراقدِ مِثْلُ نصف صلاةِ القاعد». قال أبو عمر(٥): وجمهور أهل العلم لا يُجيزُون النافلةَ مضطجعاً، وهو حديثٌ لم يَرْوِهِ إلا حسينٌ المعلِّم ـ وهو حسين بن ذَكْوان ـ عن عبدالله بن بُرَيْدة، عن عِمران بن حُصين.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٤ ، وينظر النوادر والزيادات ١/ ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٢) التمهيد ٢٢/ ١٢٣ . وما بين حاصرتين منه.

(٣) في التمهيد والاستذكار: حال.

(٤) التمهيد ٢٢/ ١٢٢، والاستذكار ٥/ ٤١٢ - ٤١٣ ، وما بين حاصرتين منهما.

(٥) في التمهيد ١/ ١٣٤ ، والكلام الذي قبله منه، وحديث عمران بن حصين ﷺ أخرجه بنحوه أحمد (١٩٨٨٧)، والبخاري (١١١٥)، والترمذي (٣٧١)، والنسائي ٣/ ٢٢٣ - ٢٢٤ . ولفظه «إنْ صلى قائماً فهو أفضل، ومن صلّى قاعداً فله نصف أجر القائم، ومن صلى نائماً فله نصف أجر القاعد». لفظ البخاري.

وقد اختُلف على حسين في إسناده ومَتْنه اختلافاً يُوجب التوقّف عنه، وإن صحَّ فلا أدري ما وجهه؛ فإنْ كان أحدٌ من أهل العلم قد أجاز النافلةَ مضطجعاً لمن قدر على القُعود أو على القيام فوجهه هذه الزيادة في هذا الخبر، وهي حُجّةٌ لمن ذهب إلى ذلك. وإنْ أجمعوا على كراهة النافلة راقداً لمن قدر على القعود أو القيام، فحديثُ حسين هذا إمّا غلطٌ، وإما منسوخ.

وقيل: المرادُ بالآية الذين يستدلُّون بخلق السماوات والأرض على أن المتغيِّر لابدَّ له من مُغيِّر، وذلك المُغيِّر يجب أن يكون قادراً على الكمال، وله أن يبعثَ الرُّسل، فإذا[1] بعث رسولاً ودلَّ على صِدْقه بمعجزة واحدةٍ لم يَبْقَ لأحد عذرٌ، فهؤلاء هم الذين يذكرون اللهَ على كلِّ حال. والله أعلم.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قد بيَّنّا معنى[2] «يذكرون»، وهو إما الذِّكر[3] باللسان، وإما الصلاةُ فَرْضُها ونَفْلُها؛ فعطفَ تعالى عبادةً أُخرى على إحداهما بعبادة[4] أخرى، وهي التفكّر في قُدرة الله تعالى ومخلوقاته والعِبَرِ التي بثَّ[5]؛ ليكون ذلك أَزْيدَ في بصائرهم:

وفي كلِّ شيء له آيةٌ تَدُلُّ على أنه واحدُ[6]

وقيل: «يتفكرون» عطفٌ على الحال. وقيل: يكون منقطعاً[7]؛ والأوّل أشبهُ.

والفكرةُ: تردُّد القلب في الشيء، يقال: تفكّر، ورجل فِكِّير: كثيرُ الفِكْر[8].

---

(١) في (م): فإن.

(٢) في النسخ: أن معنى، والمثبت من (م).

(٣) في (د) و(م): ذكر.

(٤) في (خ): لعبادة.

(٥) في (خ) و(م): الذي بث، وفي (د): الذي نبه به، وفي (ظ): التي أتت، والمثبت من المحرر الوجيز ١/ ٥٥٥ والكلام منه.

(٦) البيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص١٠٤ .

(٧) ينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٦ .

(٨) مجمل اللغة ٣/ ٧٠٤ .

ومرَّ النبيُّ ﷺ على قوم يتفكَّرون في الله، فقال: «تفكَّروا في الخَلْق، ولا تتفكَّروا في الخالق، فإنَّكم لا تقدرون قدره»[١].

وإنما التفكُّر والاعتبار وانبساطُ الذِّهن في المخلوقات كما قال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢].

ويُحكى[٣] أن سفيانَ الثوريّ ﷺ صلَّى خلفَ المقام ركعتين، ثم رفع رأسَه إلى السماء، فلما رأى الكواكب غُشِيَ عليه[٤]، وكان يبولُ الدَّم من طول حُزنه وفِكرته.[٥]

وروي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بينما رجلٌ مُستلقٍ على فراشِه إذْ رَفَع رأسَه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال: أشهدُ أن لكِ ربّاً وخالقاً، اللهم اغفِرْ لي، فنظر اللهُ إليه، فغفَرَ له»[٦] وقال ﷺ: « لا عبادةَ كتفكُّر ».[٧]

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وسنده ضعيف لجهالة الراوي عن ابن عباس. وبرقم (٤) من حديث أبي ذر ﷺ بالمرفوع منه، وفي إسناده سيف بن محمد الكوفي قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: كذَّبوه.

وأخرج المرفوع أيضاً الطبراني في الأوسط (٦٣١٥) وأبو الشيخ (١)، والبيهقي في الشعب (١٢٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ٤/ ٣٢٧، ولفظه: «تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله». وفي إسناده الوازع بن نافع العُقيلي. قال الذهبي في ميزان الاعتدال ٤/ ٣٢٧ : قال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك الحديث، وقال أحمد وابن معين: ليس بثقة.

وأخرجه بنحوه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٦٦ - ٦٧ من حديث عبدالله بن سلام ﷺ. وفي إسناده عبد الجليل ابن عطية، وهو صدوق يهم، وشهر بن حوشب، وهو صدوق كثير الإرسال والأوهام.

وذكر صاحب كشف الخفاء ١/ ٣٧٢ طرقاً أخرى ضعيفة للحديث، وقال: لكن اجتماعها يكسبه قوة، ومعناه صحيح، وفي صحيح مسلم (١٣٤) عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا، خلقَ اللهُ الخلقَ، فمن خلقَ الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً، فليقل: آمنتُ بالله».

(٢) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٥٥ .

(٣) في (م): وحكي.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/ ١٧ ، وفي إسناده أبو عِصمة نوح بن أبي مريم المروزي قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يَضَع.

(٥) أخرجه أبو نعيم ٧/ ٢٣ ، والبيهقي في الشعب ١/ ٥٣٥ .

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (١٠٦)، وفي إسناده عبدالله بن جعفر بن نَجيح السَّعدي أبو علي بن المديني. قال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب ٢/ ٣١٥ : قال ابن معين: ليس بشيء، وقال أبو حاتم: منكر الحديث جداً، وقال النسائي: متروك الحديث. قال علي بن المديني: أبي صدوق، وهو أحب إلي من الدراوردي.

(٧) أورده الزمخشري في كشافه ١/ ٤٨٨ ـ مع الأخبار السابقة ـ وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٥ =

ورُوي عنه عليه الصلاة والسلام[١]: «تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سنة»[٢]. وروى ابنُ القاسم عن مالك قال: قيل لأمّ الدرداء: ما كان أكثرُ شأن أبي الدرداء؟ قالت: كان أكثرُ شأنه التفكُّر. قيل له: أفترى التفكُّرَ عملاً[٣] من الأعمال؟ قال: نعم، هو اليقين[٤]. وقيل لابن المسيّب في الصلاة بين الظهر والعصر، قال: ليست هذه عبادةً، إنما العبادةُ الوَرَع عمّا حرَّم الله، والتفكُّر في أمر الله[٥].

وقال الحسن: تفكُّر ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلة، وقاله ابنُ عباس وأبو الدرداء[٦]. وقال الحسن: الفِكْرةُ مرآةُ المؤمن ينظرُ فيها إلى حسناته وسيئاته.[٧]

ومما يُتفكَّر[٨] فيه مخاوفُ الآخرة من الحَشْر والنَّشْر، والجنة ونعيمِها، والنار وعذابها.

يُروى أن أبا سليمان الدارانيّ ﷺ أخذَ قَدَحَ الماء ليتوضأ لصلاة الليل وعنده ضيفٌ، فرآه لمّا أدخل أصبعه في أُذن القَدَح أقام لذلك متفكِّراً حتى طلع الفجر، فقال له: ما هذا يا أبا سليمان؟! قال: إني لمّا طرحتُ أصبعي في أُذن القدح تفكَّرتُ في قول الله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١]، ففكرت[٩] في حالي، وكيف أتلقَّى الغُلَّ إنْ طُرح في عُنقي يوم القيامة، فما زِلتُ في ذلك حتى

= ولم نقف عليه بهذا اللفظ، ولا على إسناده. وانظر ما بعده.

(١) بعدها في (م): قال.

(٢) أورده أبو الليث في تفسيره ١/ ٣٢٤، ونسبه ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٥ لِسَرِيّ السَّقَطي، وقالَ مُلَّا علي القاري في المصنوع (٩٤): ليس بحديث، إنما هو من كلام السَّري السقطي رحمه الله تعالى.

(٣) في (م): عمل، وهو خطأ.

(٤) أورده ابن رشد في البيان والتحصيل ١٧/ ٥٨٠، وقوله: قيل له: افترى التفكر.. يعني لمالك. وأخرجه من غير طريق مالك أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٠٨، والبيهقي في الشعب (١١٩).

(٥) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٨٣٠).

(٦) أخرج قول الحسن أبو نعيم في الحلية ٦/ ٢٧١، وأخرج قول ابن عباس رضي الله عنهما أبو الشيخ في العظمة (٤٣)، وأخرج قول أبي الدرداء أبو نعيم ١/ ٢٠٨-٢٠٩، والبيهقي في الشعب (١١٨).

(٧) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٥، وإتحاف السادة المتقين ١٠/ ١٦٣.

(٨) في النسخ: ومن التفكر، والمثبت من (م).

(٩) في (د) و(م): تفكرت.

أصبحتُ. قال ابن عطية[١]: وهذا نهايةُ الخوف، وخيرُ الأمور أوساطها، وليس علماءُ الأمة ـ الذين هم الحُجّة ـ على هذا المِنْهاج، وقراءةُ علم كتاب الله تعالى ومعاني سنة رسوله[٢] ﷺ لمن يَفْهم ويُرجَى نفعُه أفضلُ من هذا.

قال ابن العربيّ: اختلف الناس أيُّ العملين أفضل: التفكُّر أم الصلاة؛ فذهب الصوفية إلى أن التفكُّر أفضلُ؛ فإنه يُثمِّر المعرفةَ، وهو أفضلُ المقامات الشرعية. وذهب الفقهاءُ إلى أن الصلاة أفضلُ؛ لما وردَ في الحديث من الحَثِّ عليها، والدُّعاء إليها، والترغيبِ فيها.

وفي «الصحيحين»: عن ابن عباس أنه باتَ عند خالته ميمونةَ، وفيه: فقام رسولُ الله ﷺ، فمسحَ النومَ عن وَجْهه، ثم قرأَ العَشْرَ الآياتِ[٣] الخواتِمَ من سورة آل عمران، وقام إلى شَنٍّ معلَّق، فتوضأ وضوءاً خفيفاً، ثم صلَّى ثلاثَ عشرة ركعةً، الحديث.[٤]

فانظروا رحمكم الله إلى جَمْعه بين التفكُّر في المخلوقات ثم إقباله على صلاته بعدَه؛ وهذه السُّنة هي التي يُعتَمدُ عليها. فأما طريقةُ الصوفية أن يكون الشيخُ منهم يوماً وليلة وشهراً مُفكِّراً[٥] لا يَفْتُر؛ فطريقةٌ بعيدةٌ عن الصواب، غيرُ لائقة بالبشر، ولا مُستمِرَّة على السنن.

قال ابن عطية[٦]: وحدثني أبي عن بعض علماء الشرق[٧] قال: كنتُ بائتاً في مسجد الأقدام بمصر، فصلَّيت العَتَمةَ، فرأيتُ رجلاً قد اضطجع في كِساءٍ له مسجًّى بكسائه حتى أصبح، وصلَّينا نحن تلك الليلةَ؛ فلما أُقيمتْ صلاةُ الصبح، قام ذلك

---

(١) في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٥، وما قبله منه.

(٢) في (م) والمحرر الوجيز: رسول الله.

(٣) في (د) و(م): الآيات العشر، وفي (ظ): العشر آيات، والمثبت من (خ).

(٤) صحيح البخاري (١٨٣)، وصحيح مسلم (٧٦٣). وهو في مسند أحمد (٢١٦٤). وقوله: شن، أي قِربة. النهاية ٢/ ٥٠٧.

(٥) في (د): يومه وليله وشهره متفكراً.

(٦) في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٥.

(٧) في (م) والمحرر الوجيز: المشرق.

الرجل، فاستقبلَ القبلة، وصلَّى مع الناس، فاستعظمتُ جُرأته في الصلاة بغير وضوء، فلما فَرغتِ الصلاةُ، خرج فتبِعتُه لأَعِظَه، فلما دنوتُ منه سمعتُه يُنشد شعراً:

مُنسجن[١] الجسمِ غائبٌ حاضر ... مُنْتَبِه القلبِ صامتٌ ذاكِر
مُنقبِضٌ في الغُيوب مُنبسِط ... كذاكَ من كان عارفاً ذاكِر[٢]
يَبيتُ في ليلهِ أخا فِكَرٍ ... فهو مَدَى الليلِ نائمٌ ساهر

قال: فعلمتُ أنه ممن يعبدُ بالفكرة، فانصرفتُ عنه.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أي: يقولون: ما خلقتَه عَبَثاً وهَزْلاً، بل خلقتَه دليلاً على قُدرتك وحِكمتك. والباطلُ: الزائِل الذاهب؛ ومنه قول لَبيد:

ألا كلُّ شيءٍ ما خَلاَ اللهَ باطِلُ[٣]

أي: زائل.

و«باطِلاً» نُصِب لأنه نعتُ مصدرٍ محذوف؛ أي: خلقاً باطلاً. وقيل: انتصَب على نَزْع الخافض، أي: ما خلقتَها للباطل. وقيل: على المفعول الثاني، ويكون خَلَق بمعنى جعل.[٤]

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أسند النحاسُ عن موسى بن طلحة قال: سُئل رسول الله ﷺ عن معنى «سبحان الله» فقال: «تنزِيهُ الله عن السُّوء»[٥] وقد تقدَّم في «البقرة» معناه مستوفًى.

---

(١) كذا في (خ) و(ظ): منسجن وتفسير الثعالبي ١/ ٣٤١، وفي (م): مسجَّى، وفي (د): سجي، وفي المحرر الوجيز: منسحق.

(٢) في المحرر الوجيز: ذاكرا.

(٣) سلف ٢/ ٢١.

(٤) ينظر البحر المحيط ٣/ ١٤٠.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٦، وهو مرسل؛ موسى بن طلحة ليس له رواية عن النبي ﷺ، وله رؤية مات سنة ست ومئة. الإصابة ٩/ ٣٢٧. وذكر الخبر الدارقطني في العلل ٤/ ٢٠٨ وأورد له طريقاً آخر موصولاً، ثم قال: والمرسل أصح.
وسلف ١/ ٤١٢ من حديث طلحة بن عبيد الله ﷺ والد موسى، وسلف الكلام عليه ثمة.

﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾: أجِرْنا من عذابها، وقد تقدَّم.[١]

العاشرة: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ أي: أذْللتَه وأهنتَه. وقال المُفضَّل: أهْلكتَه[٢]، وأنشد:

أخْزَى الإلهُ من الصّلِيب عَبِيدَه   واللّابسين قَلانِسَ الرُّهبانِ[٣]

وقيل: فضحتَه وأبعدتَه؛ يقال: أخزاه الله: أبعده ومَقَتَه. والاسم الخِزْيُ. قال ابن السِّكِّيت: خَزِيَ يَخْزَى خِزْياً: إذا وقع في بَلِيّة.[٤]

وقد تمسَّك بهذه الآيةِ أصحابُ الوعيد وقالوا: مَن أُدخِل النار ينبغي ألا يكون مؤمناً، لقوله تعالى: ﴿فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾، فإن الله يقول: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [التحريم:٨]. وما قالوه مردودٌ؛ لِقيام الأدلة على أن من ارتكبَ كبيرةً لا يزولُ عنه اسمُ الإيمان[٥]، كما تقدّم ويأتي.

والمراد من قوله: ﴿مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ﴾ مَن تُخلِّد في النار، قاله أنس بن مالك. وقال قتادة: تُدخِل مقلوبُ تُخلد، ولا نقول كما قال أهل حروراء.

وقال سعيد بن المسيّب: الآية خاصةٌ في قوم لا يخرجُون من النار، ولهذا قال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ أي: الكفار.[٦]

وقال أهل المعاني: الخِزْي يَحتمل أن يكون بمعنى الحَيَاء؛ يقال: خَزِيَ يَخْزَى خَزَايةً، إذا استحيا، فهو خَزيان. قال ذو الرُّمة:

خَزَايةٌ أدركَتْه عند جَوْلَتِه   من جانب الحَبْلِ مخلوطاً بها الغضبُ[٧]

---

(١) ٣/ ٣٥٧ .

(٢) في (م): أي: أهلكته.

(٣) أورده الطبرسي في مجمع البيان ٢/ ٣٠٢. وفيه: إلهه، بدل: عبيده. وملابس، بدل: قلانس.

(٤) ينظر تهذيب اللغة ٧/ ٤٩٢ .

(٥) ينظر تفسير الرازي ٩/ ١٤١ - ١٤٢ .

(٦) ينظر تفسير البغوي ١/ ٣٨٦ وأخرج قولي أنس وسعيد بن المسيب الطبري ٦/ ٣١٢ . وقول قتادة أخرجه الطبري ١٢/ ٥٨٠ ، والطحاوي في شرح مشكل الآثار ١٤/ ٣٤٧ دون قوله: تدخل مقلوب تخلد.

(٧) ديوان ذي الرمة ١/ ١٠٣ . قال شارحه: الحبل: الكثيب. وينظر مجمع البيان للطبرسي ٢/ ٣٠٢ .

فخِزْيُ المؤمِنين يومئذ استحياؤهم في دخول النار من سائر أهل الأديان إلى أن يخرجوا منها. والخِزْيُ للكافرين هو إهلاكُهم فيها من غيرِ موت، والمؤمنون يموتون، فافترقوا. كذا ثبتَ في «صحيح» السنة من حديث أبي سعيد الخُدريّ، أخرجه مسلم، وقد تقدَّم ويأتي.(١)

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ أي: محمداً ﷺ؛ قاله ابنُ مسعود وابن عباس وأكثرُ المفسرين.

وقال قتادة ومحمد بن كعب القُرَظيّ: هو القرآن، وليس كلُّهم سمع رسولَ الله ﷺ. دليلُ هذا القول ما أخبر الله تعالى عن مؤمِني الجِنّ إذ قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١و٢].(٢)

وأجاب الأوّلون فقالوا: مَن سمع القرآنَ فكأنما لقي النبيَّ ﷺ، وهذا صحيح معنًى.

و«أَنْ» مِنْ ﴿أَنْ ءَامِنُوا﴾ في موضع نصب على حَذْف حرف الخَفْض، أي: بأنْ آمنوا(٣). وفي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: سمعنا منادياً للإيمان يُنادي. عن أبي عُبيدة.(٤)

وقيل: اللام بمعنى إلى، أي: إلى الإيمان؛ كقوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٨]، وقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]، وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]. أي: إلى هذا، ومِثْلُه كثير(٥). وقيل: هي لام أجل، أي: لأجل الإيمان.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ تأكيدٌ ومبالغة في الدعاء. ومعنى اللفظين واحدٌ، فإنّ الغفْر والكَفْر: السّتر.

---

(١) تقدم ١/ ٣٧٥ ، وسيأتي في تفسير الآية (١٠) من سورة النساء. المسألة الثالثة.

(٢) ينظر تفسير الطبري ٦/ ٣١٤ - ٣١٥ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٨٦ .

(٣) مشكل إعراب القرآن ١/ ١٨٤ .

(٤) مجاز القرآن ١/ ١١١ .

(٥) ينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٥٠ .

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ أي: أبراراً مع الأنبياء، أي: في جُملتهم. واحدُهم بَرٌّ وبَارٌّ، وأصلُه من الاتّساع، فكأن البَرَّ مُتَّسِعٌ في طاعة الله، ومُتَّسِعةٌ له رحمةُ الله.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي: على ألسِنة رُسُلك؛ مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾(١) [يوسف: ٨٢].

وقرأ الأعمش والزهريّ: «رُسْلِكَ» بالتخفيف(٢). و[يقال:] هو ما ذكر من استغفار الأنبياء والملائكة للمؤمنين، والملائكة يستغفِرون لمن في الأرض. وما ذكر من دعاء نوح للمؤمنين ودعاءِ إبراهيم، واستِغفارِ النبيِّ ﷺ لأُمّته.(٣)

﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾ أي: لا تُعذِّبنا، ولا تُهلِكنا، ولا تَفْضحنا، ولا تُهِنَّا، ولا تُبعِدنا، ولا تَمقُتنا يومَ القيامة ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.(٤)

إن قيل: ما وجهُ قولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ وقد علموا أنه لا يُخلف المِيعاد؛ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أنّ الله سبحانه وَعَدَ مَن آمن بالجنة، فسألوا أن يكونوا ممن وُعِد بذلك دون الخِزْيِ والعِقاب.

الثاني: أنهم دَعَوا بهذا الدعاء على جِهة العبادة والخُضوع؛ والدُّعاءُ مُخُّ العبادة. وهذا كقوله: ﴿قُلْ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾(٥) [الأنبياء: ١١٢]. وإنْ كان(٦) لا يقضي إلّا بالحقّ.

الثالث: سألوا أن يُعْطَوا ما وُعِدوا به من النَّصر على عدوّهم مُعَجَّلاً؛ لأنها حكايةٌ عن أصحاب النبيِّ ﷺ، فسألوه ذلك إعزازاً للدِّين. والله أعلم.(٧)

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٧، وينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٥٦.

(٢) ذكر قراءة الأعمش ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٦، وأبو حيان في البحر ٣/ ١٤٣، ولم نقف عن من نسب القراءة للزهري.

(٣) ينظر تفسير أبي الليث ١/ ٣٢٤. وما بين حاصرتين منه.

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٨٦.

(٥) قرأ عاصم: «قال ربّ احكم بالحق»، وقرأ الباقون: «قُلْ ربّ ...». السبعة ص٤٣١.

(٦) بعدها في (م): هو.

(٧) ينظر تفسير الطبري ٦/ ٣١٧ - ٣١٨، وتفسير البغوي ١/ ٣٨٦، وزاد المسير ١/ ٥٢٩.

وروى أنس بن مالك أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ وَعَدَه الله عزَّ وجلَّ على عملٍ ثواباً، فهو مُنْجِزٌ له رحمة، ومَن وَعَدَه على عمل عِقاباً فهو فيه بالخِيار»[١]. والعرب تذمُّ بالمُخالفة في الوَعْد، وتمدحُ بذلك في الوعيد؛ حتى قال قائلهم:

ولا يرهَبُ ابنُ العمِّ ما عِشتُ صَوْلَتي ... ولا أَخْتَفِي من خَشْيةِ المُتَهَدِّدِ
وإنِّي متى أَوْعَدتُه أو وَعَدتُه ... لَمُخْلِفُ إِيْعادِي ومُنْجِزُ مَوْعِدِي[٢]

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: أجابهم. قال الحسن: مازالوا يقولون: ربَّنا ربَّنا، حتى استجابَ لهم[٣]. وقال جعفرٌ الصادق: مَن حَزَبَه أمرٌ فقال خمسَ مرات: ربَّنا، أنجاه الله مما يخاف، وأعطاه ما أراد. قيل: وكيف ذلك؟ قال: اقرؤوا إنْ شئتم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.[٤]

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿أَنِّي﴾ أي: بأنِّي. وقرأ عيسى بن عمر: «إني» بكسر الهمزة[٥]، أي: فقال: إني.

وروى الحاكم أبو عبدالله في «صحيحه»[٦] عن أُمِّ سلمة أنها قالت: يا رسول

---

(١) أخرجه البزار (٣٣١٦) (زوائد)، وأبو يعلى (٣٣١٦)، ومن طريقه ابن عدي في الكامل ٣/ ١٢٨٨، وليس فيه لفظة: «رحمة»، وفي إسناده سهيل بن أبي حزم القطعي البصري، قال ابن حجر في تهذيب التهذيب ٢/ ١٢٨: قال البخاري: لا يتابع في حديثه، يتكلّمون فيه، قال أحمد: له أحاديث منكرة، قال ابن معين: صالح، ووثّقه العجلي.

(٢) القائل هو عامر بن الطُّفيل، والبيتان في ديوانه ص٥٨، وروايتهما فيه:

ولا يُرهِبُ ابنَ العمّ منيَ صَوْلةٌ ... ولا أختتي من صولة المتهدِّد
وإنـيَ إن أوعدته أو وعدته ... لَأخلف إيعادي وأنجز موعدي

ويروى: لمخلف ميعادي ومنجز موعدي.

وقوله: ولا أختتي من: اخْتَتَأ، يختتئ، أي: لا أستتر خوفاً أو حياءً، إنما ترك هَمْزَه ضرورةً. اللسان (ختأ).

(٣) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٦ ونسبه لأبي الدرداء ﷺ.

(٤) أورده الرازي في تفسيره ٩/ ١٥١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٧، والقراءات الشاذة ص٢٤.

(٦) الصواب أن اسمه: «المستدرك على الصحيحين» كما ذكر الأئمة، وفي تسميته بالصحيح تساهل كبير، فإن فيه الضعيف والموضوع. انظر سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٧٥.

الله، لا أسمع[١] اللهَ ذكرَ النساءَ في الهجرة بشيء؟ فأنزل الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ الآية. وأخرجه الترمذي.[٢]

ودخلت «مِن» للتأكيد؛ لأنّ قبلَها حرفَ نفي. وقال الكوفيون: هي للتفسير ولا يجوز حذفُها؛ لأنها دخلت لمعنًى لا يصلح الكلامُ إلا به. وإنما تُحذَفُ إذا كانت تأكيداً للجَحْد.[٣]

﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ ابتداءٌ وخبر، أي: دينكم واحد.

وقيل: بعضُكم من بعض في الثواب والأحكام والنُّصرة وشِبْهِ ذلك. وقال الضحَّاك: رجالُكم شَكْل نسائكم في الطاعة، ونساؤكم شَكْل رجالكم في الطاعة، نظيرُها قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[٤]. ويقال: فلان مِنّي، أي: على مذهبي وخُلقي.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ ابتداءٌ وخبر[٥]، أي: هَجروا أوطانَهم، وساروا إلى المدينة. ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ في طاعة الله عزَّ وجلَّ. ﴿وَقَاتَلُوا﴾ أي: وقاتلوا أعدائي. ﴿وَقُتِلُوا﴾ أي: في سبيلي.

وقرأ ابنُ كثير وابنُ عامر: «وقاتلوا وقُتِّلوا» على التكثير[٦]. وقرأ الأعمش: «وقُتِلوا وقاتلوا» لأن الواو لا تدلُّ على أن الثاني بعد الأوّل[٧].

---

(١) في (د) و(م): ألا أسمع.

(٢) المستدرك ٢/ ٣٠٠ ، وسنن الترمذي (٣٠٢٣). قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) ينظر تفسير الطبري ٦/ ٣٢١ .

(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٨٧ .

(٥) كذا قال المصنف رحمه الله، وهو سبق قلم، فـ«الذين هاجروا» مبتدأ، وقوله: «لأكفِّرنَّ» جواب قسم محذوف، تقديره: والله لأكفرنَّ، وهذا القسم وجوابه خبر لهذا المبتدأ. الدر المصون ٣/ ٥٤١ - ٥٤٢ ، وانظر البحر المحيط ٣/ ١٤٥ .

(٦) السبعة ص٢٢١ ، والتيسير ص٩٣ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٧ . وقراءة الأعمش هي قراءة حمزة والكسائي من السبعة . وقال أبو حيان في البحر ٣/ ١٤٥ : لأن الواو لا تدل على الترتيب؛ فيكون الثاني وقع أولاً. ويجوز أن يكون ذلك على التوزيع؛ فالمعنى: قُتل بعضهمُ، وقاتل باقيهم.

وقيل: في الكلام إضمارُ «قد» أي: قُتِلوا وقد قاتلوا؛ ومنه قول الشاعر:

تَـصَـابَـى وأَمْـسَـى عَـلَاهُ الـكِـبَـرْ[1]

أي: وقد علاه الكِبَر.

وقيل: أي: وقد قاتلَ من بَقِيَ منهم، تقول العرب: قتلنا بَني تميم، وإنما قُتل بعضهم. وقال امرؤ القيس:

فـإنْ تَـقْـتُـلُـونَـا نُـقَـتِّـلْـكُـمُ[2]

وقرأ عمرُ بن عبد العزيز: «وقَتَلُوا وقُتِلُوا» خفيفةً بغير ألف[3].

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: لأَسْتُرَنَّها عليهم في الآخرة، فلا أُوَبِّخُهم بها، ولا أُعاقِبهم عليها.

﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ مؤكَّد عند البصريين؛ لأن معنى ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: لأُثيبنَّهم ثواباً. الكسائي: انتصبَ على القَطْع. الفرّاء: على التفسير[4].

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ أي: حُسْن الجزاء، وهو ما يَرْجِعُ على العامِل من جزاء[5] عمله، مِن ثابَ يثوبُ.

السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ قيل: الخِطاب للنبيِّ ﷺ، والمرادُ الأُمّة. وقيل: للجميع. وذلك أن المسلمين قالوا: هؤلاء الكفارُ لهم تجائرُ وأموالٌ واضطرابٌ في البلاد، وقد هَلَكْنا نحن من الجُوع، فنزلتْ هذه الآية. أي: لا يَغرَّنَّكم سلامتُهم بتقلُّبهم في أسفارهم[6].

---

(١) القائل هو النمر بن تولب، والبيت في ديوانه ص٥٥، وشطره الثاني: وأمسى لجمرة حبل غرر.

(٢) ديوان امرئ القيس ص١٨٦، والشطر الثاني هو: وإن تقعدوا لدم نقعد.

(٣) القراءات الشاذة ص٢٤. قال أبو حيان في البحر ٣/ ١٤٥: ببناء الأول للفاعل، وبناء الثاني للمفعول، وهي قراءة حسنة في المعنى، مستوفية للحالين على الترتيب المتعارف.

(٤) ينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٨، وقول الفراء في معاني القرآن له ١/ ٢٥١.

(٥) في (د) و(م): جراء.

(٦) ينظر أسباب النزول للواحدي ص١٣٤، وتفسير الرازي ٩/ ١٥٢.

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ أي: تقلُّبهم متاعٌ قليل.

وقرأ يعقوب: «يَغُرَّنْكَ» ساكنة النون[(١)]، وأنشد:

لا يَغُرَّنْكَ عِشاءٌ ساكنٌ قد يُوَافي بالمَنِيَّاتِ السَّحَرْ[(٢)]

ونظيرُ هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]. والمَتَاع: ما يُعجَّل الانتفاع به، وسمَّاه قليلاً لأنه فَانٍ، وكلُّ فانٍ وإنْ كان كثيراً فهو قليل. وفي «صحيح» مسلم[(٣)] والترمذي عن المُستورِد الفِهْري قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «ما الدنيا في الآخرة إلا مِثْلُ ما يجعلُ أحدُكم إصبعَه في اليَمِّ، فَلْينظُرْ بم[(٤)] يَرْجِعُ». قيل: «يَرْجع» بالياء والتاء[(٥)].

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ أي: بئس ما مَهَّدوا لأنفسهم بكفرهم، وما مَهَّد اللهُ لهم من النار.

الثامنة عشرة: في هذه الآيةِ وأمثالها، كقوله: ﴿أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٨]، ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ﴾ [المؤمنون: ٥٥]، ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] دليلٌ على أنَّ الكفارَ غيرُ مُنْعَم عليهم في الدنيا؛ لأنَّ حقيقةَ النِّعمة الخُلوصُ من شَوائب[(٦)] الضَّررِ العاجلةِ والآجلة، ونِعَمُ الكفار مَشُوبةٌ بالآلام والعقوبات، فصار كمن قدَّم بين يدي غيرِه حلاوةً من عسل فيها السُّمُّ، فهو وإن استلذَّ آكلُه لا يقال: أُنعِم عليه؛ لأنَّ فيه هلاكَ روحه. ذهب إلى هذا جماعةٌ من العلماء، وهو قول الشيخ أبي الحسن الأشعرِي. وذهب جماعةٌ منهم سيفُ السنة ولِسانُ الأُمَّة القاضي أبو بكر[(٧)] إلى أن

---

(١) هي من رواية رُويس عن يعقوب من العشرة، كما ذكر ابن الجزري في النشر ٢/ ٢٤٦، وأوردها النحاس في إعراب القرآن ١/ ٤٢٨، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٨، ونسباها أيضاً لابن أبي إسحاق.

(٢) أورده الجاحظ في البيان والتبيين ٣/ ١٩٤، وأخرج البيهقي في شعب الإيمان (١٠٦٠٣) عن سفيان الثوري قال: بلغني أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يتمثل هذا البيت، وذكره.

(٣) قوله: مسلم، زيادة من (ظ).

(٤) في (م) وسنن الترمذي: بماذا.

(٥) صحيح مسلم (٢٨٥٨)، وسنن الترمذي (٢٣٢٣)، وهو في مسند أحمد (١٨٠٠٨).

(٦) في النسخ: مشائب، والمثبت من (م).

(٧) هو ابن الطيب الباقلاني، وانظر ١/ ٩٠.

الله أنعمَ عليهم في الدنيا. قالوا: وأصلُ النِّعمة من النَّعمة بفتح النون، وهي لِيْنُ العيش، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٧]. يقال: دقيقٌ ناعم، إذا بُولِغ في طحنهِ، وأُجيد سَحْقُه.

وهذا هو الصحيح، والدليل عليه أنَّ اللهَ تعالى أوجبَ على الكفار أن يشكروه وعلى جميع المُكلَّفين فقال: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٦٩]، ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢].

والشكر لا يكون إلا على نعمة. وقال: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]. وهذا خِطابٌ لقارون. وقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ الآية [النحل: ١١٢]. فنبَّه سبحانه أنه قد أنعم عليهم نِعمةً دُنْياوِيَّةً، فجحدوها. وقال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [فاطر: ٣].

وهذا عامٌّ في الكفار وغيرهم. فأما إذا قدَّم لغيره طعاماً فيه سُمٌّ فقد رَفَق به في الحال؛ إذْ لم يُجَرِّعْه السُّمَّ بحتاً، بل دَسَّه في الحلاوة، فلا يُستبعد أن يقال: قد أنعم عليه، وإذا ثبتَ هذا فالنِّعَم ضربان: نِعَمُ نَفْع ونِعَمُ دَفْع؛ فنِعم النَّفعِ ما وَصَل إليهم من فنون اللذَّات، ونِعَمُ الدَّفْع ما صُرِفَ عنهم من أنواع الآفات(١). فعلى هذا قد أنعم على الكفار نِعَمَ الدَّفْع قولاً واحداً، وهو ما زُوِيَ عنهم من الآلامِ والأسقام، ولا خِلافَ بينهم في أنه لم يُنعِمْ عليهم نِعمةً دِينيّةً. والحمد لله.

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ استدراكٌ بعد كلام تقدَّم فيه معنى النَّفي؛ لأن معنى ما تقدَّم: ليس لهم في تقلُّبِهم في البلاد كبيرُ الانتفاع، لكن المُتَّقون لهم الانتفاعُ الكبير(٢) والخُلْدُ الدائِم.

فموضع «لكِن» رَفْعٌ بالابتداء. وقرأ يزيدُ بن القعقاع: «لكِنَّ» بتشديد النون(٣).

الموفية عشرين: قوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ نُزُلاً مِثْلُ ثواباً عند البصريين،

---

(١) في (ظ): البليات.

(٢) في (ظ): الكثير.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٨ ، يزيد بن القعقاع ـ وهو أبو جعفر ـ من العشرة، انظر النشر ٢/ ٢٤٧ .

وعند الكِسائي يكون مصدراً. الفراء[١]: هو مفسَّر.

وقرأ الحسن والنَّخَعي: «نُزْلاً» بتخفيف الزاي[٢] استِثقالاً لِضمتين، وثقَّله الباقون.

والنُّزُلُ: ما يُهيَّأ للنَّزيل، والنَّزيلُ: الضَّيف. قال الشاعر:

نَـزيـلُ الـقَـوْم أعـظَـمُـهـم حـقـوقـاً وحَـقُّ الـلـهِ فـي حـقِّ الـنَّـزيـلِ

والجمع الأنزال[٣]. وحظٌّ[٤] نزِيل[٥]: مُجتمِعٌ. والنُّزْل أيضاً: الرَّيْع؛ يقال: طعامٌ كثيرُ النُّزْل والنَّزَل.

الحادية والعشرون: قلت: ولعلَّ النُّزُل ـ والله أعلم ـ ما جاء في «صحيح» مسلم[٦] من حديث ثَوْبَان مولى رسولِ الله ﷺ في قصة الحِبْر الذي سأل النبيَّ ﷺ: أين يكون الناسُ يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماواتُ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «هم في الظُّلمة دون الجِسْر». قال: فمن أوَّل الناسِ إجازة؟ قال: «فقراء المهاجِرين». قال اليهودي: فما تُحْفَتُهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادةُ كَبِدِ النون». قال: فما غَذَاؤهم على إثْرها؟ فقال: «يُنْحَرُ لهم ثورُ الجَنَّةِ الذي كان يأكلُ من أطرافها». قال: فما شرابُهم عليه؟ قال: «مِنْ عينٍ فيها تُسَمَّى سلسبِيلاً». وذكر الحديث.

قال أهلُ اللغة[٧]: والتُّحفة: ما يُتحَفُ به الإنسان من الفواكه والطُّرَف؛ مُحاسَنةً

---

(١) في معاني القرآن له ١/ ٢٥١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ٤٢٨ والكلام الذي قبله منه.

(٢) أي: بسكونها كما في اتحاف فضلاء البشر ص٢٣٥ . وذكر قراءةَ الحسن النحاسُ في إعراب القرآن ١/ ٤٢٨، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٨، وذكر قراءة النخعي أبو حيان في البحر ٣/ ١٤٧، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٤ لمسلمة بن محارب والأعمش.

(٣) يعني جمع النُّزل، كما في الصحاح (نزل) والكلام منه.

(٤) في (د) و(ظ): وخطّ.

(٥) في الصحاح: نَزِلٌ.

(٦) الحديث (٣١٥).

(٧) المفهم ١/ ٥٧٤، وقال أبو العباس القرطبي أيضاً: «الجِسْر» ـ بفتح الجيم وكسرها ـ: ما يعبر عليه، وهو الصراط هنا. و«دون» بمعنى فوق. و«النون»: الحوت.

ومُلاطَفةٌ[١]، وهذا مُطابِق لما ذكرناه في النُّزل، والله أعلم. وزِيادة الكَبِد: قطعةٌ منه كالأصبع. قال الهروِيّ: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: ثواباً. وقيل: رِزقاً[٢].

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ أي: مما يتقلَّب به الكفار في الدنيا. والله أعلم.

الثانية والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ الآية. قال جابر بن عبد الله وأنس وابن عباس وقتادة والحسن: نزلَتْ في النجاشِيّ، وذلك أنه لمَّا مات، نعاه جبريلُ عليه السلام لرسول الله ﷺ؛ فقال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «قوموا فَصَلُّوا على أخيكم النجاشي»، فقال بعضهم لبعض: يأمرنا[٣] أنْ نُصلِّيَ على عِلْج من عُلُوج الحبشَة! فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾[٤].

قال الضحاك: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾: القرآن، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾: التوراة والإنجيل[٥].

وفي التنزيل: ﴿أُولَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤]. وفي «صحيح» مسلم: «ثلاثة يُؤْتَون أجْرَهم مرَّتين ـ فذكَر ـ رجلٌ من أهل الكتاب آمنَ بِنبيِّه، ثم أدركَ النبيَّ ﷺ، فآمنَ به، واتَّبعه وصدَّقه، فله أجران». وذكر الحديث[٦].

وقد تقدَّم في «البقرة» الصلاة عليه[٧]، وما للعلماء في الصلاة على الميت الغائب، فلا معنى للإعادة.

---

(١) في (م): محاسنه وملاطفه.

(٢) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١١٧ ، وتهذيب اللغة ١٣/ ٢١١ .

(٣) في (ظ) و(خ): تأمرنا.

(٤) ينظر أسباب النزول للواحدي ص١٣٤-١٣٥ ، وتفسير البغوي ١/ ٣٨٨ ، وزاد المسير ١/ ٥٣٢ - ٥٣٣ ، وقولا جابر وقتادة أخرجهما الطبري ٦/ ٣٢٧ - ٣٢٨ ، وقول أنس ﷺ أخرجه ابن أبي حاتم (٤٦٨٢)، وقول الحسن أخرجه عبد بن حُميد كما في الدر المنثور ٢/ ١١٣.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٩ .

(٦) صحيح مسلم (١٥٤) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، وأخرجه أحمد (١٩٥٣٢) والبخاري (٩٧) .

(٧) ٢/ ٣٢٧ - ٣٢٨ ، وذكرنا أن خبر صلاة النبي ﷺ على النجاشي في الصحيحين، وذكرنا تخريجه ثمّة.

وقال مجاهد وابن جُريج وابن زيد: نزلَتْ في مؤمِنِي أهل الكتاب[١]، وهذا عامٌّ والنجاشِيُّ واحدٌ منهم. واسمه أَصْحَمَة، وهو بالعربية عطِية[٢].

و﴿خَٰشِعِينَ﴾: أذِلَّة، ونُصِبَ على الحال من المُضْمَر الذي في «يؤمِن». وقيل: من الضمير في «إليهم» أو في «إليكم»[٣]. وما في الآية بيِّنٌ، وقد تقدَّم.

الثالثة والعشرون: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ﴾ الآية. خَتَمَ تعالى السُّورةَ بما تَضمَّنته هذه الآيةُ العاشرة من الوَصَاة[٤] التي جمعت الظُّهور في الدنيا على الأعداء والفَوْزَ بنعيم الآخرة، فحضَّ على الصَّبر على الطاعات وعن الشَّهوات. والصَّبر: الحَبْس، وقد تقدَّم في «البقرة» بيانُه[٥].

وأمر بالمُصابرة، فقيل: معناه: مُصابرةُ الأعداء، قاله زيدُ بن أسلم[٦]. وقال الحسن: على الصَّلوات الخمس[٧]. وقيل: إدامةُ مُخالفةِ النفس عن شَهَواتها، فهي تدعو وهو يَنْزَع[٨]. وقال عطاء والقُرَظي: صابروا الوَعْدَ الذي وُعِدتم[٩]. أي: لا تَيْأَسُوا، وانتظروا الفَرَجَ، قال ﷺ: «انتظارُ الفَرَجِ بالصَّبر عبادةٌ»[١٠]. واختارَ هذا

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص١٣٥ .

(٢) انظر المحرر الوجيز ١/ ٥٥٩ ، وقد سلف تفسير أصحمة ٢/ ٣٢٧ - ٣٢٨ .

(٣) انظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٩ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ١٨٦ ، والبحر المحيط ٣/ ١٤٨ .

(٤) في (ظ): الوصايا.

(٥) ١/ ٣٧١ و ٢/ ١٧٤ .

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٩ . وأخرج قول زيد بن أسلم الطبريُّ ٦/ ٣٣٤ .

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٤٦٩٣) .

(٨) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٣٠٥ .

(٩) أخرجه الطبري ٦/ ٣٣٣ ، وابن أبي حاتم (٤٦٩٧) عن محمد بن كعب القرظي. وقول عطاء ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٥٣٤ .

(١٠) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٥٩ ، وحديث: انتظار الفرج ... رُوي عن ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وأنس وعلي ﷺ. أما حديث ابن مسعود، فقد رواه الترمذي، بلفظ: «سَلوا الله من فضله، فإن الله عزَّ وجلَّ يحبُّ أن يسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج». وفي إسناده حماد بن واقد، قال الترمذي: ليس بالحافظ. . . وروى أبو نعيم هذا الحديث. . . مرسل، وحديث أبي نعيم أشبه أن يكون أصح.

وأما حديث ابن عمر رضي الله عنهما، فأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٤٦) وفي إسناده عمرو بن حُميد قاضي الدينور، قال الذهبي في ميزانه ٣/ ٢٥٦ : هالك، أتى بخبر موضوع اتُّهم به، وقد ذكره =

القولَ أبو عمر[١] رحمه الله. والأوّلُ قولُ الجمهور؛ ومنه قول عنترة:

فلم أرَ حَيّاً صابروا مِثْلَ صَبْرنا ... ولا كافحوا مِثْلَ الذين نُكافِحُ[٢]

فقوله: صابروا مِثْل صبرنا، أي: صابروا العدوَّ في الحرب، ولم يَبْدُ منهم جُبْنٌ ولا خَوَرٌ.

والمكافحة: المواجهةُ والمُقابلة في الحرب، ولذلك اختلفوا في معنى قوله: ﴿وَرَابِطُواْ﴾، فقال جمهورُ الأُمَّة: رابِطوا أعداءَكم بالخيل، أي: ارتبطوها كما يرتَبِطُها أعداؤكم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

وفي «الموطأ»[٣]: عن مالك، عن زيد بن أسلم قال: كتبَ أبو عُبيدة بن الجرَّاح إلى عمر بن الخطاب يذكُر له جُموعاً من الروم وما يتخوَّف منهم، فكتب إليه عمرُ: أما بعد، فإنه مهما يَنْزِلْ بعبدٍ مؤمن من مُنْزَلِ شدّةٍ يجعلِ الله له بعدَها فَرَجاً، وإنه لن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرين، وإنّ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

= السليماني في عداد من يضع الحديث. وأما حديث ابن عباس رضي الله عنهما، فأخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٨٩٩، والقضاعي (٤٧) وفي إسناده عيسى بن مهران المستعطف أبو موسى، قال ابن عدي: حدّث بأحاديث موضوعة مناكير، محترق في الرفض، وقال الذهبي في الميزان ٣/ ٣٢٤: كذاب جَبَل. وأما حديث أنس ﷺ، فأخرجه ابن عدي ٢/ ٥٠٨ و٣/ ١١٤١ والبيهقي في الشعب (١٠٠٠٦) وفي إسناده سليمان بن سلمة الخبائري أبو أيوب الحمصي، قال الذهبي في الميزان ٢/ ٢٠٩: قال أبو حاتم: متروك، وقال ابن الجنيد: كان يكذب. وسمع منه الباغندي حديثاً فأنكره عليه، ثم ساق له هذا الحديث.

وأخرجه البزار (٣١٣٨) (زوائد)، والبيهقي في الشعب (١٠٠٠٥)، وفي إسناده بقية بن الوليد، وهو كثير التدليس عن الضعفاء، قال البيهقي: هذا مرسل.

أما حديث علي ﷺ، فأخرجه البيهقي في الشعب (١٠٠٠٣) من طريقين، وفيهما إسحاق بن محمد بن إسماعيل الفروي، قال الذهبي في الميزان ١/ ١٩٨-١٩٩: صدوق في الجملة، وقال العقيلي: جاء عن مالك بأحاديث كثيرة لا يتابع عليها، ووهَّاه أبو داود. ثم إن في الطريق الأول عبد الرحمن بن الحسن الهمذَاني، كذَّبه القاسم بن أبي صالح، كما في الميزان ٢/ ٥٥٦. وفي الطريق الثاني عبدالله بن شعيب، قال فيه الذهبي في الميزان ٢/ ٤٣٨: واهٍ، وقال الحاكم: ذاهب الحديث، وقال ابن حبان: يُقَلِّب الأخبار ويسرقها.

(١) الاستذكار ١٤/ ٤٧ - ٤٨.

(٢) ديوان عنترة ص٣٨.

(٣) ٢/ ٤٤٦.

وقال أبو سلمة بنُ عبد الرحمن: هذه الآيةُ في انتظار الصلاة بعد الصلاة، ولم يكن في زمان رسول الله ﷺ غَزْوٌ يُرابَطُ فيه، رواه الحاكم أبو عبدالله في «صحيحه»[(١)]. واحتجَّ أبو سلمة بقوله عليه الصلاة والسلام: «ألا أدلُّكم على ما يمحو اللهُ به الخَطايا، ويرفعُ به الدَّرجاتِ: إسباغ الوضوء على المكاره، وكَثْرةُ الخُطا إلى المساجد، وانتظارُ الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرِّباط» ثلاثاً، رواه مالك[(٢)].

قال ابن عطية[(٣)]: والقولُ الصحيح هو أن الرِّباط هو الملازمةُ في سبيل الله. أصلُها من ربط الخيل، ثم سُمِّيَ كلُّ ملازم لِثَغْرٍ من ثُغُور الإسلام[(٤)] مُرابِطاً؛ فارِساً كان أو راجلاً. واللفظةُ مأخوذةٌ من الرَّبط. وقولُ النبيِّ ﷺ: «فذلكم الرِّباط» إنما هو تَشْبِيهٌ بالرِّباط في سبيل الله. والرِّباط اللُّغويُّ هو الأوّل، وهذا كقوله: «ليس الشَّديدُ بالصُّرَعة، إنما الشديدُ الذي يَملِكُ نَفْسَه عند الغَضَب»[(٥)]، وقوله: «ليس المِسْكينُ بهذا الطَّوَّاف»[(٦)] إلى غير ذلك.

قلت: قوله: والرِّباط اللُّغويُّ هو الأوّل ليس بمسلَّم، فإنَّ الخليلَ بن أحمد أحَدَ أئمة اللغة وثِقاتها قد قال: الرِّبَاط: ملازمةُ الثغور، ومواظبةُ الصلاة أيضاً[(٧)]، فقد حصل أن انتظارَ الصلاة رِباطٌ لُغويٌّ حقيقةً، كما قال ﷺ. وأكثرُ من هذا ما قاله الشَّيْباني[(٨)] أنه يقال: ماءٌ مترابِطٌ، أي: دائمٌ لا يُنْزَحُ[(٩)]؛ حكاه ابن فارس. وهو

---

(١) ٢/ ٣٠١. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

(٢) الموطأ ١/ ١٦١ من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو في مسند أحمد (٧٧٢٩) وصحيح مسلم (٢٥١). وفي الباب عن جابر ﷺ أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٠٣٩)، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أخرجه أحمد (١٠٩٩٤)، وعن علي ﷺ أخرجه البزار (٤٤٧) (زوائد)، والحاكم ١/ ١٣٢. وليس في حديث أبي سعيد وعلي رضي الله عنهما ذكر الرِّباط.

(٣) في المحرر الوجيز ١/ ٥٦٠، والكلام الذي قبله منه.

(٤) في (خ): المسلمين.

(٥) سلف تخريجه ٣/ ٣٤٢، ومن قوله: «إنما الشديد ...» إلى آخر الحديث زيادة من (ظ).

(٦) سلف تخريجه ٤/ ٢٠٨.

(٧) العين ٧/ ٤٢٢ - ٤٢٣.

(٨) هو أبو عمرو، إسحاق بن مرار.

(٩) في النسخ: لا يبرح، والمثبت من مجمل اللغة ٢/ ٤١٤، والصحاح (ربط).

يقتضي تعدِيةَ الرِّباط لغةً إلى غير ما ذكرناه. فإنَّ المُرابطةَ عند العرب: العَقْدُ على الشيء حتى لا يَنْحلَّ، فيعودَ إلى ما كان صَبَرَ عنه، فيحبس القلبَ على النيةِ الحسنة والجسمَ على فِعْل الطاعة؛ ومن أعظمِها وأهمِّها ارتباطُ الخيل في سبيل الله كما نصَّ عليه في التنزيل في قوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] على ما يأتي، وارتباطُ النفس على الصلوات، كما قاله النبيُّ ﷺ، رواه أبو هريرة وجابر وعليّ[١]، ولا عِطْرَ بعد عَرُوس[٢].

الرابعة والعشرون: المُرابِطُ في سبيل الله عند الفقهاء هو الذي يَشْخَصُ إلى ثَغْرٍ من الثُّغور لِيُرابطَ فيه مُدَّةً مّا؛ قاله محمد بن الموَّاز ورواه[٣]. وأما سُكّانُ الثُّغور دائماً بأهليهم الذين يَعْمُرون ويكتسبون هنالك، فهم وإن كانوا حُماةً فليسوا بمرابطين. قاله ابن عطية[٤].

وقال ابن خُوَيْزمَنْداد: وللرِّباط حالتان: حالةٌ يكون الثَّغْرُ مأموناً مَنيعاً يجوز سُكناه بالأهل والولد، وإن كان غيرَ مأمونٍ جاز أن يُرابِطَ فيه بنفسه إذا كان من أهل القتال، ولا ينقلُ إليه الأهلَ والولدَ لئلا يظهرَ العدوُّ، فيَسبيَ ويَسترِقَّ. والله أعلم.

الخامسة والعشرون: جاء في فَضْل الرِّباط أحاديثُ كثيرةٌ، منها ما رواه البخاريُّ عن سَهْل بن سعد السَّاعِديّ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «رِباطُ يومٍ في سبيل الله خيرٌ[٥] مِن الدنيا وما فيها»[٦].

وفي «صحيح» مسلم: عن سلمانَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «رِباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيام شهر وقيامِه، وإنْ ماتَ جَرَى عليه عملُه الذي كان يَعْملُه، وأُجْرِيَ

---

(١) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٣٠٥ - ٣٠٦، والحديث الذي أشار إليه المصنف سلف قريباً.

(٢) قوله: لا عطر بعد عروس، من أمثال العرب، وقد سلف ٤/ ٢٥٨.

(٣) في (د): وداود، والمثبت موافق للمحرر الوجيز، فالكلام منه كما سيأتي.

(٤) في المحرر الوجيز ١/ ٥٦٠.

(٥) بعدها في (د) و (م): عند الله، والمثبت من (خ) و(ظ) وهو موافق لصحيح البخاري.

(٦) صحيح البخاري (٢٨٩٢)، وهو في مسند أحمد (٢٢٨٧٢).

عليه رِزْقُه، وأَمِنَ الفُتَّان»[١].

وروى أبو داود في «سُننه» عن فَضَالةَ بن عُبيد أن رسولَ الله ﷺ قال: كلُّ مَيِّت يُخْتَم على عَمَله إلا المُرابطَ، فإنه يَنْمو له عملُه إلى يوم القيامة، ويُؤمن من فتَّان القبر»[٢].

وفي هذين الحديثين دليلٌ على أن الرِّباطَ أفضلُ الأعمال التي يبقى ثوابُها بعد الموت، كما جاء في حديثِ العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إذا ماتَ الإنسانُ انقطعَ عنه عملُه إلا من ثلاث: صدقةٍ[٣] جاريةٍ، أو علم يُنتفَعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يَدْعو له». وهو حديثٌ صحيح؛ انفردَ بإخراجه مسلم[٤]؛ فإنَّ الصدقةَ الجاريةَ، والعلمَ المُنتفَعَ به، والولدَ الصالح الذي يدعو لأبويه ينقطعُ ذلك بنفَاد الصَّدقات وذهابِ العلم وموتِ الولد.

والرِّباط يُضاعَفُ أجرهُ إلى يوم القيامة؛ لأنه لا معنى للنَّماء إلا المُضاعفة، وهي غير موقوفةٍ على سبب فتنقطع بانقطاعه، بل هي فَضْلٌ دائمٌ من الله تعالى إلى يوم القيامة.

وهذا لأنَّ أعمالَ البِرِّ كلَّها لا يُتمكَّنُ منها إلا بالسلامة من العدوِّ والتحرُّزِ منه[٥] بحراسة بَيْضَةِ الدِّين وإقامةِ شعائر الإسلام. وهذا العملُ الذي يجري عليه ثوابُه هو ما كان يعملُه من الأعمال الصالحة، خرَّجه ابن ماجه[٦] بإسناد صحيح عن أبي هريرة،

---

(١) صحيح مسلم (١٩١٣)، وهو في مسند أحمد (٢٣٧٢٨). قوله: «الفتّان» قال أبو العباس القرطبي في المفهم ٧٥٦/٣ : يُروى على الأكثر من الرواة بضم الفاء، جمع فاتن، ويكون للجنس .. ورواه الطبري بفتح الفاء، يعني به فتّان القبر.

(٢) سنن أبي داود (٢٥٠٠)، وهو في مسند أحمد (٢٣٩٥١)، وسنن الترمذي (١٦٢١)، وفي الباب عن عقبة بن عامر ﷺ أخرجه أحمد (١٧٣٥٩).

(٣) في (م) وصحيح مسلم: إلا من ثلاثة إلا من صدقة. . . وسلف ٨/١.

(٤) برقم (١٦٣١)، وهو في مسند أحمد (٨٨٤٤).

(٥) في النسخ الخطية: منهم، والمثبت من (م).

(٦) الحديث (٢٧٦٧).

عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ مات مُرابطاً في سبيل الله أَجْرى الله(١) عليه أَجْرَ عملِه الصالحِ الذي كان يعملُ، وأَجْرَى عليه رِزْقَه، وأَمِنَ من الفُتّان، وبَعَثَه اللهُ يومَ القيامة آمناً من الفَزَع». وفي هذا الحديث قيدٌ ثانٍ، وهو الموتُ حالةَ الرِّباط. والله أعلم.

ورَوى عن عثمانَ بن عفّان قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رابطَ ليلةً في سبيل الله كانت له كألف ليلةٍ صيامِها وقيامِها»(٢).

ورَوى عن أُبَيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «لَرِباط يوم في سبيل الله مِنْ وراءِ عَوْرةِ المسلمين مُحتسِباً من غير شهر رمضانَ أعظمُ أجراً من عبادةِ مئةِ سنةٍ صيامِها وقيامِها، ورباطُ يومٍ في سبيل الله من وراء عَوْرةِ المسلمين مُحتسِباً من شهر رمضانَ أفضلُ عند الله وأعظمُ أجراً ـ أُراه قال: ـ من عبادةِ ألفِ سنةٍ صيامِها وقيامِها، فإنْ ردَّه اللهُ إلى أهلِهِ سالماً، لم تُكتَبْ عليه سيئةٌ ألفَ سنةٍ، ويُكْتَبُ(٣) له من(٤) الحسناتُ، ويُجرَى له أجرُ الرِّباط إلى يوم القيامة»(٥). ودلَّ هذا الحديثُ على أن رِباطَ يوم في شهر رمضان يحصلُ له من(٦) الثوابِ الدَّائم وإنْ لم يَمُتْ مُرابطاً. والله أعلم.

---

(١) لفظ الجلالة: «الله» ليس في (م) وسنن ابن ماجه.

(٢) سنن ابن ماجه (٢٧٦٦)، وفي إسناده عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعفه أحمد وابن معين وابن المديني والنسائي، وقال الحاكم وأبو نعيم: روى عن أبيه أحاديث موضوعة. انظر تهذيب التهذيب ٢/ ٥٠٧، ومصباح الزجاجة ٢/ ١٠٨ - ١٠٩. قلنا: وأخرجه من طريق أخرى أحمد (٤٧٠) والترمذي (١٦٦٧) والنسائي ٦/ ٣٩ - ٤٠ بلفظ: «رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل»، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣) في (م): وتكتبُ.

(٤) لفظة «من»، من (ظ) و(خ).

(٥) سنن ابن ماجه (٢٧٦٨)، في إسناده عمر بن صبيح الخراساني، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٢٠٦: ليس بثقة ولا مأمون، قال ابن حبان: كان ممن يضع الحديث. قال الدارقطني: متروك، وقال الأزدي: كذاب. والراوي عنه محمد بن يعلى السلمي، قال الذهبي في الميزان ٤/ ٧٠: قال البخاري: ذاهب الحديث، وقال أبو حاتم: متروك. وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٢٠٣: وآثار الوضع ظاهرة عليه، ولولا أنه في الأصول لما ذكرته.

(٦) قوله: من، ليست في النسخ، وأثبتناها من (م).

وعن أنس بن مالك قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «حَرْسُ ليلةٍ في سبيل الله أفضلُ من صيامِ رجلٍ وقيامِهِ في أهله ألفَ سنةٍ؛ السّنة ثلاث مئة يوم [وستون يوماً]، واليومُ كألف سنة»[١].

قلت: وجاء في انتظار الصلاةِ بعد الصلاة أنه رِباطٌ؛ فقد يحصلُ لِمُنْتَظِرِ الصلواتِ ذلك الفَضْلُ إن شاء الله تعالى. وقد روى أبو نُعيم الحافظُ قال: حدثنا سليمانُ بن أحمد قال: حدثنا علي بن عبد العزيز قال: حدثنا حَجَّاجُ بن المِنْهال (ح) وحدثنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبي قال: الحسنُ بن موسى قال: حدثنا حمادُ بن سلمة، عن ثابتٍ البُنَانِيّ، عن أبي أيوب الأزدي، عن نَوْفٍ البِكَاليّ، عن عبدالله بن عمرو، أن النبيَّ ﷺ صلَّى ذاتَ ليلةٍ المغربَ، فصلَّينا معه فعقَّب مَنْ عَقَّب، ورَجَع من رَجَع، فجاء رسولُ الله ﷺ قبلَ أن يثوبَ[٢] الناسُ لصلاة العشاء، فجاء وقد حَفَزه النَّفَس[٣] رافعاً أصبعَه وقد عَقَدَ تِسعاً وعشرين؛ يُشير بالسَّبَّابة إلى السماء، فَحَسَر ثوبَه عن رُكبتيه وهو يقول: «أَبْشِروا مَعْشَرَ المسلمين، هذا ربُّكم قد فتحَ باباً من أبواب السماء؛ يُباهي بكم الملائكةَ يقول: يا ملائكتي، انظُروا إلى عبادي هؤلاء، قَضَوْا فريضةً وهم ينتظرون أُخرى». ورواه حَمَّاد بن سلمة، عن عليِّ بن زيد، عن مُطَرِّف بن عبدالله: أن نَوْفاً وعبدَ الله بن عمرو اجتمعا، فحدَّث نَوْفٌ عن التوراة، وحدَّث عبدُ الله بن عمرو بهذا الحديث عن النبيِّ ﷺ[٤].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: لم تُؤمَروا بالجهاد من غير تقوى.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لتكونوا على رجاءٍ من الفَلاح. وقيل: «لعلَّ» بمعنى لِكي.

---

(١) سنن ابن ماجه (٢٧٧٠) وما بين حاصرتين منه وفي إسناده سعيد بن خالد بن أبي الطويل، قال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب ٢/ ١٣: قال البخاري: فيه نظر، وقال الحاكم: روى عن أنس أحاديث موضوعة، وقال أبو حاتم: أحاديثه عن أنس لا تُعرَف.

(٢) في (خ): يتوجه.

(٣) في (خ): حفزه الناس، وفي (ظ): جهره الناس، و (د) و(م): حضره الناس، والمثبت من حلية الأولياء ومسند أحمد.

(٤) حلية الأولياء ٦/ ٥٤، وهو في مسند أحمد (٦٧٥٠) من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت البُناني، به، و(٦٧٥١) من طريق حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، به.

والفَلاح: البقاء[١]، وقد مضَى هذا كلُّه في «البقرة»[٢] مستوفًى، والحمد لله.

نَجِزَ تفسيرُ سورة آل عمران من «جامع أحكام القرآن والمُبيِّن لما تضمَّنَ من السُّنَّة وآي الفُرقان» بحمد الله وعونه.

(١) ينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٩ .

(٢) ١/ ١٦١ و١٨٢ و٢٢٧ .

سُورَةُ آلِ عِمرَان

مدنيَّةٌ وآيُها مئتانِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إنَّما تُفْتَحُ الميمُ في المَشهورِ ـ وكانَ حَقَّهَا أن يُوقَفَ عليها ـ لإلقاءِ حَرَكةِ الهمزةِ عليها؛ لتَدُلَّ على أنَّها في حُكْمِ الثَّابتِ؛ لأنَّها أُسقِطَتْ للتَّخفيفِ لا للدَّرْجِ، فإنَّ الميمَ في حُكْمِ الوقفِ كقولِهم: «واحِدْ اثنانْ» لا لالتقاءِ السَّاكنينِ، فإنَّه غَيرُ مَحذورٍ في بابِ الوَقفِ، ولذلك لم تُحرَّكْ في «لامْ».

وقُرِئَ بكَسرِها[1] على توهُّمِ التَّحريكِ لالتقاءِ السَّاكنَيْنِ.

وقَرَأَ أبو بكرٍ بسُكونِها والابتداءِ بما بعدَها على الأَصْلِ[2].

﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ رُوِيَ أنَّهُ عَليه السَّلامُ قالَ: «إنَّ اسمَ اللهِ الأَعْظَمَ في ثلاثِ سُوَرٍ: في البقَرةِ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفي آلِ عِمرانَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وفي طه: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]»[3].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٥)، و«الكشاف» (١/ ٩)، عن عمرو بن عبيد.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٠)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٥)، وقراءة عاصم المشهورة عنه كقراءة الجماعة، وهي بفتح الميم وإسقاط الهمزة حالة الوصل.

(٣) رواه يحيى بن معين في «تاريخه» (٥٠٧٢)، وابن ماجه (٣٨٥٦)، وجعفر بن محمَّد الفريابي في «فضائل القرآن» (٤٧) (٤٨) (٤٩)، والدولابي في «الكنى» (٢/ ٥٦٩)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١٧٧)، والطبراني في «الكبير» (٧٧٥٨)، والحاكم في «المستدرك» (١٨٦٦)، من =

(٣) - ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: القرآنَ نُجومًا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالعَدْلِ، أو: بالصِّدقِ في أَخبارِهِ، أو: بالحُجَجِ المُحَقَّقَةِ أنَّه مِن عندِ اللهِ، وهو في مَوضِعِ الحالِ.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِن الكتُبِ.

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ جُملةً على مُوسى وعيسَى.

واشتقاقُهُما مِن «الوَرْيِ» و«النَّجْلِ»، ووَزنُهُما بـ«تَفْعِلَةٍ» و«إِفْعِيلٍ» تعسُّفٌ لأنَّهما أعجمِيَّان، ويؤيِّدُ ذلك أنَّه قُرِئَ: «والأَنْجيل» بفَتحِ الهمزةِ[1]، وهو ليسَ مِن أَبنيَةِ العَرَبِ.

وقرأَ أبو عمرٍو وابنُ ذَكوانَ والكِسائيُّ: ﴿التورية﴾ بالإمالةِ في جميعِ القرآنِ، ونافعٌ وحمزةُ بين اللَّفظَينِ، إلا قالونَ فإنَّه قرأَ بالفتحِ كقراءةِ الباقينَ[2].

(٤) - ﴿مِن قَبْلُ﴾: مِن قَبْلِ تَنزيلِ القُرآنِ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ على العُمُومِ إنْ قُلْنَا: إنَّا متَعبَّدُونَ بشَرْعِ مَن قبلَنا، وإلَّا فالمُرادُ بِهِ قَوْمُهُما.

= حديث أبي أمامة رضي الله عنه عَنِ النبيِّ ﷺ قال: «اسمُ الله الأعظمُ في ثلاثِ سورٍ: البقرةِ وآلِ عمران وطه»، وتعيين الآيات في السور الثلاث ليس من المرفوع، لكنه من أحد الرواة كما صرحت به رواية الطحاوي وغيره، وقد خالفه فيه الطحاوي.

وروى أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها مرفوعاً: «اسمُ الله الأعْظَمُ في هاتين الآيتين ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وفاتحة سورة آل عمران ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾». وهو في «مسند أحمد» (٢٧٦١١)، لكن جاء في روايته أن الآية الأولى هي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وعلى كل فإسناده ضعيف لضعف عبيد الله بن أبي زياد، وشهر بن حوشب. ومع ذلك قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح!

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٥)، و«المحتسب» (١/ ١٥٢)، عن الحسن.

(٢) انظر: «التيسير» (ص: ٨٦).

﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ يريدُ به: جِنْسَ الكُتُبِ الإلهيَّةِ فإنَّها فارِقَةٌ بين الحقِّ والباطِلِ، ذَكَرَ ذلكَ بعد ذِكْرِ الكُتُبِ الثَّلاثةِ ليَعُمَّ ما عَدَاها؛ كأَنَّهُ قالَ: وأنزلَ سائِرَ ما يَفرُقُ بين الحقِّ والباطلِ، أو الزَّبُورَ، أو القرآنَ، وكرَّرَ ذِكرَهُ بما هو نَعْتٌ لهُ مَدْحًا وتَعْظِيمًا وإظهارًا لفَضلِهِ مِن حَيْثُ إنَّه يُشارِكُهُما في كونِهِ وَحْيًا مُنزَّلًا، ويَتميَّزُ بأَنَّهُ مُعجِزٌ يُفَرِّقُ به بين المُحِقِّ والمُبطِلِ[1]، أو المُعجِزاتِ[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مِن كُتبِه المُنزلَةِ وغيرِها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بسبَبِ كُفرِهِم.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾: غالبٌ لا يُمْنَعُ من التَّعذيبِ ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لا يَقدِرُ على مثلِه مُنتَقِمٌ.

و«النِّقْمَةُ»: عُقوبةُ المُجرمِ، والفِعْلُ مِنه «نَقِمَ» بالفَتحِ والكَسرِ.

وهو وَعيدٌ جيءَ به بعدَ تَقريرِ التَّوحيدِ، والإشارةِ إلى ما هوَ العُمْدَةُ في إثباتِ النُّبُوَّةِ؛ تعظيمًا للأمرِ وزَجْرًا عن الإعراضِ عنه.

(٥ ـ ٦) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: أيُّ شَيْءٍ كائِنٍ في العَالمِ، كُلِّيًّا كانَ أو جُزئيًّا، إيمانًا أو كُفرًا، فعُبِّرَ عنهُ بالأرضِ والسَّماءِ إذ الحِسُّ لا يَتجَاوَزُهما، وإنَّما قدَّمَ الأرضَ ترقِّيًا مِن الأدنى إلى الأعلى، ولأنَّ المَقصودَ بالذِّكرِ ما اقْتُرِفَ فيها، وهو كالدَّليلِ على كونِهِ حَيًّا، وقولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ـ أي: مِن الصُّوَرِ المُختَلِفَةِ ـ كالدَّليلِ على القَيُّوميَّةِ، والاستِدْلالِ على أنَّهُ عالمٌ بإتقانِ فِعلِه في خَلقِ الجَنينِ وتَصويرِه.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «يفرق بين الحق والباطل».

(٢) قوله: «أو الزبور أو القرآن... أو المعجزات» كلها معطوفة على قوله: «جنسَ الكتب...».

وقُرِئَ: «تَصَوَّرَكُم»[1]؛ أي: صَوَّرَكُم لنفسِهِ وعِبادَتِه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يَعْلَمُ غيرُه جُملةَ ما يَعلَمُهُ، ولا يقدِرُ على مِثلِ ما يفعَلُه ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ إشارةٌ إلى كمالِ قُدْرَتِه وتَناهي حِكمَتِه.

قيل: هذا حِجَاجٌ على مَن زعَمَ أنَّ عيسى كان رَبًّا، فإنَّ وَفْدَ نجرانَ لَمَّا حاجُّوا فيه رسولَ اللهِ ﷺ نزلَت السُّورَةُ مِن أولِهَا إلى نَيِّفٍ وثمانينَ آيَةً تقريرًا لِمَا احتجَّ به عليهم وأجابَ عَن شُبْهَتِهِم[2].

(٧) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾: أُحكِمَتْ عِبارَتُها بأَنْ حُفِظَت عن الإجمَالِ[3].

﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أصلُه يُرَدُّ إليها غيرُهَا، والقياسُ: «أُمَّهَاتُ» فأُفرِدَ على تَأويلِ كلِّ واحدَةٍ، أو على أنَّ الكلَّ بمنزلَةِ آيةٍ واحدَةٍ.

﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾: مُحتمِلاتٌ لا يتَّضِحُ مَقصودُهَا ـ لإجمالٍ، أو مُخالفَةِ ظاهرٍ ـ إلَّا بالفَحْصِ والنَّظَرِ؛ ليظهرَ فيها فَضْلُ العُلماءِ، ويَزدادَ حِرصُهُم على أَنْ يَجتَهِدُوا في تَدبُّرِها وتَحصيلِ العُلُومِ المُترتِّبِ عليها استِنبَاطُ المُرادِ بها، فينالُوا بها وبإتعابِ القَرائِحِ في استِخراجِ مَعانيها والتَّوفيقِ بينها وبين المُحكَماتِ مَعاليَ الدَّرَجاتِ.

وأمَّا قولُهُ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] فمعناهُ: أنهَا حُفِظَت مِن فَسادِ المعنى ورَكاكَةِ اللَّفظِ، وقولُه: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] فمَعناه: أنَّه يُشبِهُ بَعضُهُ بَعضًا في صِحَّةِ المعنى وجَزالَةِ اللَّفظِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٥ ـ ٢٦)، و«الكشاف» (٢/ ١١)، عن طاوس.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ١٧١ ـ ١٧٤ و١٨٦) عن محمد بن جعفر بن الزبير.

(٣) في نسخة الخيالي: «الإهمال»، وفي هامشها: «في نسخة: الاحتمال».

و﴿أُخَرُ﴾: جَمعُ أُخرى، وإنَّما لَمْ يَنْصَرِف لأنَّهُ وَصفٌ مَعدُولٌ عَن «الآخَرِ»(١)، ولا يَلزَمُ مِنهُ مَعرِفَتُه؛ لأنَّ مَعْناهُ: أنَّ القِياسَ أن يُعرَّفَ ولَم يعرَّفْ، إلَّا أنَّه(٢) في معنى المُعرَّفِ، أو عَن «آخَرَ مِن»(٣).

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾: عُدولٌ عَن الحقِّ كالمُبتَدِعَةِ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ فيتعَلَّقونَ بظاهِرِه أو بتأْويلٍ باطِلٍ ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾: طَلَبَ أن يَفْتِنُوا النَّاسَ عَن دِينِهِم بالتَّشكيكِ والتَّلبيسِ ومُناقَضةِ المُحكَمِ بالمُتشابِهِ ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾: وطَلَبَ أَنْ يُؤَوِّلوهُ على ما يَشتهونَ.

ويحتَمِلُ أن يكونَ الدَّاعي إلى الاتِّباعِ مَجمُوعُ الطَّلِبَتينِ، أو كلُّ وَاحدَةٍ مِنهما على التَّعاقُبِ، والأوَّلُ يُناسِبُ المعَانِدَ والثَّاني يُلائِمُ الجاهِلَ.

---

(١) قوله: «وأخر جمع أخرى...» أخرى هي مؤنث آخر، ومعناه في الأصل: أشد تأخراً، فمعنى (جاءني زيد ورجل آخر): جاءني زيد ورجلٌ أشدُّ تأخراً منه في معنًى من المعاني، ثم نقل إلى معنى (غير)، فمعنى (رجل آخر): رجلٌ غير زيد، ولما خرج عن معنى التفضيل استعمل من دون لوازم أفعل التفضيل وهي: (من) والإضافة واللام، وطوبق بالمجرد عن اللام والإضافة ما هو له نحو: رجلان آخران، ورجال آخرون، وامرأة أخرى، وامرأتان أخريان، ونسوة أُخر. وذهب أكثر النحويين إلى أنه غير منصرف لأنه وصف معدول عن الآخَر. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٣/ ١٣)، و«روح المعاني» (٤/ ٢١).

(٢) في نسخة الخيالي والتفتازاني: «لا أنه»، والمثبت من نسخة الطبلاوي وفي هامش الخيالي. وهو الصواب. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٣/ ١٣)، و«حاشية ابن التمجيد» و«حاشية القونوي» (٦/ ٢١). قال ابن التمجيد: قوله: «أن القياس أن يعرف» لأنه معدول عن المعرف وهو «الآخر» والمعدول عن المعرف قياسه أن يعرف، فمعنى قوله: «إلا أنه في معنى المعرف» أن حكم المعدول عن ذي اللام في حكم ذي اللام.

(٣) قوله: «أو عن آخر من» عطف على «عن الآخر»، وهذا مذهب ابن جني، وقال ابن مالك وغيره: إنه التحقيق، والأول مذهب الجمهور. «حاشية الخفاجي».

﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ﴾ الذي يَجِبُ أن يُحمَلَ عليهِ ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾؛ أي: الذين ثَبَتوا وتمكَّنُوا فيهِ.

ومَن وَقَفَ على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فسَّرَ المتشابِهَ بما استأثَرَ اللهُ بعِلمِهِ كمُدَّةِ بقاءِ الدُّنيا ووقتِ قِيامِ الساعةِ وخواصِّ الأَعدادِ كعَدَدِ الزَّبانيةِ، أو بما دلَّ القاطِعُ على أن ظاهِرَهُ غيرُ مُرادٍ ولم يدلَّ على ما هوَ المُرادُ.

﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ استئنافٌ مُوضِّحٌ لحالِ الرَّاسخينَ، أو حالٌ مِنهم، أو خَبرٌ إنْ جَعَلتَه مُبتدأً.

﴿كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾؛ أي: كلٌّ مِن المُحكَمِ والمتَشَابِهِ مِن عندِه.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ مَدحٌ للرَّاسخينَ بجَودةِ الذِّهنِ وحُسنِ النَّظرِ، وإشارةٌ إلى ما استعدُّوا به للاهتداءِ إلى تأويلِه، وهو تجرُّدُ العَقْلِ عن غواشِي الحسِّ.

واتِّصالُ الآيةِ بما قبلَها مِن حَيْثُ إنَّها في تَصويرِ الرُّوحِ بالعِلْمِ وتَربيتِه، وما قبلَها في تَصويرِ الجَسَدِ وتَسويَتِه، أو أنَّها جوابٌ عن تَشبُّثِ النَّصارَى بنحوِ قولِه: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء: ١٧١] كما أنَّه جوابُ قَولِهم: «لا أَبَ له غيرُ اللهِ فتعيَّنَ أن يكونَ هو أباه» بأنَّهُ مُصوِّرُ الأجنَّةِ كيفَ يَشاءُ، فيصوِّرُ مِن نُطفَةِ أَبٍ ومِن غَيرِها، وبأنَّهُ صوَّرَه في الرَّحِمِ، والمصوِّرُ لا يكونُ أبَ المُصوَّرِ.

(٨) ـ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا﴾ مِن مَقالِ الرَّاسِخينَ، وقيل: استئنافٌ، والمعنى: لا تُزغْ قُلوبَنا عَن نَهجِ الحَقِّ إلى اتِّباعِ المُتشابهِ بتأويلٍ لا تَرتَضِيه، قالَ عليه السَّلامُ: «قلبُ ابنِ آدمَ بين إِصْبَعَيْنِ مِن أَصابعِ الرَّحمنِ، إن شاءَ أَقامَهُ على الحَقِّ، وإنْ شاءَ أزاغَهُ عنه»[1].

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٢) وقال: هذا حديث حسن، وأحمد في «مسنده» (٤٤/ ٢٧٨) رقم (٢٦٦٧٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠٤٠٧)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها، بلفظ: «يا أم سلمة، إنه =

وقيلَ: لا تَبْلُنا ببَلايا تَزيغُ فيها قلُوبُنَا.

﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ إلى الحقِّ، والإيمانِ بالقِسمَيْنِ[1].

و﴿بَعۡدَ﴾ نَصبٌ على الظَّرفِ، و﴿إِذۡ﴾ في موضِعِ الجرِّ بإضافَتِه إليهِ، وقيلَ: لأنَّهُ[2] بمعنى «أنْ».

﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً﴾ تُزْلِفُنا إليكَ ونفوزُ بها عِندكَ، أو: تَوفِيقًا للثَّباتِ على الحَقِّ، أو: مَغفرةً للذُّنوبِ.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ لكلِّ سُؤْلٍ، وفيه دَليلٌ على أنَّ الهُدَى والضَّلالَ مِن اللهِ، وأنَّه مُتفضِّلٌ بما يُنعِمُ على عبادِهِ لا يَجِبُ عليهِ شَيءٌ.

(٩) ـ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ﴾؛ أي: لِحِسَابِ يَومٍ، أو: لجَزائِه.

﴿لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾: في وُقوعِ اليَومِ وما فيه مِنَ الحَشْرِ والجَزاءِ، نبَّهُوا به على أنَّ مُعظَمَ غَرَضِهم من الطَّلِبتَيْنِ ما يتعلَّقُ بالآخرةِ فإنَّها المَقصِدُ والمآلُ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ فإنَّ الإلهيَّةَ تُنافيهِ، وللإشعارِ به وتَعظيمِ الموعودِ به لُوِّنَ الخِطابُ.

= ليس آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ». ورواه مسلم (٢٦٥٤)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بلفظ: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء».

(١) في نسخة الخيالي: «أو الإيمان بالقسمين»، والمراد بهما: المحكم والمتشابه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ١٢).

(٢) في نسخة الخيالي: «وقيل إذ».

واستدَلَّ به الوَعِيدِيَّةُ[١]، وأُجيبَ بأنَّ وَعِيدَ الفُسَّاقِ مَشروطٌ بعَدمِ العَفوِ لدَلائل مُنفصلةٍ، كما هو مَشْروطٌ بعدمِ التوبَة وِفاقًا.

(١٠) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عامٌّ في الكَفَرةِ، وقيلَ: المرادُ به وَفدُ نَجرانَ، أو اليهُودُ، أو مُشركو العَربِ.

﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ أي: مِن رَحمَتِه أو طَاعَتِه على معنى البدَليَّةِ[٢]، أو: مِن عَذابِه.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾: حَطَبُها، وقُرِئَ بالضَّمِّ[٣] بمَعنى: «أَهلُ وُقودِها».

---

(١) قوله: «فإن الإلهية تنافيه»؛ أي: خُلْفَ الميعاد «وللإشعار به»؛ أي: بالتنافي «وتعظيم»؛ أي: ولتعظيم «الموعود لوِّن الخطاب» حيث قال أولاً: ﴿إِنَّكَ﴾، وثانياً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾، «واستدل»؛ أي: على القطع بوقوع وعيد الفسَّاق «به»؛ أي: بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ الوعيديَّة. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ١٣).

والوعيدية: هم المعتزلة والخوارج، سموا بذلك لتمسكهم بظاهر الآيات والأحاديث المشعرة بخلود الفساق من الموحدين في النار، ولقب «الوعيدية» أطلق في الأصل على فرقة من الخوارج، ووجه استدلالهم: أن الله سبحانه أوعدهم بالعذاب وهو لا يخلف الميعاد. انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٢٨)، و«التسعينية» لابن تيمية (٣/ ١٠٣٢)، و«حاشية القونوي» (٦/ ٣٥ ـ ٣٦).

(٢) قوله: «أي: من رحمته أو طاعته على معنى البدلية»؛ أي: على معنى أن ﴿مِّنَ﴾ للبدل؛ أي: لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم بدل رحمة الله أو طاعته شيئاً من الإغناء. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (٦/ ٣٧)، و«حاشية الأنصاري» (٢/ ١٣).

(٣) أي: (وُقودها) بضم الواو، ونسبت للحسن ومجاهد وطلحة بن مصرف. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٦)، و«تفسير القرطبي» (٤/ ٣٤). وهي على هذا مصدر، والوَقودَ على القراءةِ المشهورةِ بفتح الواو هو اسمٌ لما يُوْقَدُ به، وهو الأظهرُ، والمصدريةُ مُحْتَمَلَةٌ فيه أيضاً. انظر: «الدر المصون» للسمين الحلبي (٣/ ٣٧).

(١١) ـ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ مُتَّصِلٌ[1] بما قبلهُ؛ أي: لَن تُغنِيَ عَنهم كمَا لم تُغْنِ عَن أولئكَ، أو توقَّدُ بهم كما توقَّدُ بأولئكَ، أو استئنافٌ مَرفوعُ المحَلِّ وتقديرُهُ: دَأْبُ هَؤلاءِ كدَأْبِهم في الكُفْرِ والعَذابِ، وهو مَصدَرُ «دَأَبَ في العَمَلِ»: إذا كَدَحَ فيه، فنُقِلَ إلى مَعنى الشَّأنِ.

﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ عَطفٌ على ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، وقيلَ: استِئنافٌ.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ حالٌ بإِضمَارِ «قَدْ»، أو استئنافٌ بتفسِيرِ حَالهم، أو خَبَرٌ إنِ ابتدأْتَ بـ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تَهويلٌ للمُؤاخَذَةِ وزيادةُ تَخويفٍ للكَفَرةِ.

(١٢) ـ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: قُلْ لِمُشركي مَكَّةَ: سَتُغْلَبُونَ؛ يعني: يومَ بَدرٍ.

وقيلَ: لليَهود، فإنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ جَمَعَهم بعد بدرٍ في سُوقِ بني قينقاع، فحَذَّرَهُم أن ينزلَ بهم ما نَزَلَ بقُريشٍ، فقالوا: لا يغرَّنَّكَ أنك أَصَبتَ أَغمارًا لا عِلْمَ لهم بالحربِ، لَئِنْ قاتَلْتَنا لعَلِمْتَ أنا نحنُ الناسُ، فنزَلَتْ[2].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «متعلق».

(٢) رواه أبو داود (٣٠٠١)، والطبري في «تفسيره» (٥/ ٢٣٩) من طريق محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد، عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس. ومثله في «المغازي» لابن إسحاق كما ذكر الحافظ في «العجاب في بيان الأسباب» (٢/ ٦٦٥). ومحمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت مجهول. ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٦٠٤) من طريق محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة.

ورواه ابن المنذر في «تفسيره» (٢٧٢) عن محمد بن إسحاق قوله. وكذا جاء في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٥٢)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٩٩).

وقد صَدقَ اللهُ وعدَهُ[1] بقتلِ قُرَيظَةَ، وإجلاءِ بَني النَّضيرِ، وفَتْحِ خَيبَرَ، وضَربِ الجِزيَةِ على مَن عَدَاهُم، وهو مِن دَلائلِ النُّبوَّةِ.

وقرأ حمزةُ والكِسَائيُّ بالياءِ فيهمَا[2] على أنَّ الأَمْرَ بأَنْ يَحكيَ لَهُم ما أخبَرَه بهِ مِن وَعيدِهِم بلَفظِه.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ تمامُ ما يُقالُ لهُم، أو استِئنافٌ، وتَقديرُهُ: بئسَ المهَاد جهنَّمُ، أو ما مَهَدوهُ لأَنفُسِهِم.

(١٣) ـ ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ﴾ الخطابُ لقُرَيشٍ أو لليهُودِ، وقيلَ: للمُؤمنينَ.

﴿فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ﴾ يومَ بَدرٍ ﴿فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ﴾ يَرى المشركونَ المؤمنينَ مِثلَيْ عَددِ المُشركينَ وكانَ قَريبَ ألفٍ، أو: مِثْلَيْ عددِ المُسلمينَ وكانُوا ثلاثَ مئةٍ وبضعةَ عشرَ، وذلك كانَ بعدما قلَّلَهُم في أعيُنِهم حتَّى اجترَؤُوا علَيهِم وتوجَّهُوا إليهم، فلمَّا لاقَوهُم[3] كَثُرُوا في أعيُنِهم حتَّى غَلبُوا مَدَدًا مِن اللهِ للمؤمنينَ.

أو: يَرى المُؤمنونَ المُشركينَ مثلَي المؤمنينَ ـ وكانوا ثلاثةَ أمثالِهم ـ ليَثْبُتُوا لهم ويَتيقَّنُوا بالنَّصرِ الَّذي وعَدَهم اللهُ به في قولِه: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ [الأنفال: ٦٦]، ويؤيِّدُهُ قراءةُ نافعٍ ويعقوبَ بالتَّاءِ[4].

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «وعده لهم».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٠١)، و«التيسير» (ص: ٨٦).

(٣) في نسخة الخيالي: «لافُوهم»؛ ومعناها: خالطوهم والتفُّوا عليهم، يقال: أرسلتُ الصقر على الصيد فلافَّه؛ أي: التفَّ عليه، وجعلَه تحت رجليه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ١٦).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٠١ ـ ٢٠٢)، و«التيسير» (ص: ٨٦)، و«النشر» (٢/ ٢٣٨).

وقُرِئَ بِهما على البناءِ للمَفعولِ[١]؛ أي: يُريهم اللهُ ـ أو: يريكُم ـ ذلك بقدرتِهِ.

و: «فئةٍ» بالجرِّ[٢] على البَدَلِ مِن ﴿فِئَتَيۡنِ﴾، والنَّصبِ[٣] على الاختصاصِ، أو الحالِ مِن فاعِلِ ﴿ٱلۡتَقَتَا﴾.

﴿رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِ﴾ رؤيةً ظاهرَةً مُعايَنَةً.

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ نَصْرَهُ؛ كما أيَّدَ أهلَ بَدرٍ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: التَّقليلِ والتَّكثيرِ، أو غلبةِ القليلِ عَديمِ العُدَّةِ على الكثيرِ شاكِي السِّلاحِ، وكونُ الوَقعَةِ آيةً أيضًا يحتَمِلُهما[٤]، ويحتَمِلُ وُقوعَ الأمرِ على ما أخبرَ بِهِ الرَّسُولُ.

﴿لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾: لَعِظَةً لذَوِي البَصَائرِ، وقيلَ: لِمَن أبصرَهُم.

(١٤) ـ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾؛ أي: المُشْتَهيَاتِ، سَمَّاها شَهواتٍ مُبالغةً وإيماءً إلى أنَّهم انهمَكُوا في محَبَّتِها حتَّى أحبُّوا شَهْواتِها؛ كقولِه تعالى: ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [ص: ٣٢].

---

(١) عزاهما الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٢٠) لابن مصرِّف، وكذا فعل ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٦) لكنه اقتصر على قراءة الياء. وفي «البحر المحيط» (٥/ ٢١٦): قرأ ابن عباس وطلحة: (تُرَونَهم) بتاء مضمومة للخطاب، وقرأ السلمي: (يُرَونهم) بياء الغيبة. وعكسهما في «المحرر الوجيز» (١/ ٤٠٦).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٦)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٤٠٨) و«البحر المحيط» (٥/ ٢١٥). عن مجاهد والحسن والزهري.

(٣) نسبت لابن أبي عبلة وابن السَّمَيْفَع. كما في المصادر السابقة.

(٤) «الوقعة»؛ أي: وقعة بدر، «آية»؛ أي: معجزة للنبيّ ﷺ؛ لما فيها من إراءة القليل كثيراً، أو غلبةِ القليل الكثير، أو لمطابقتها للغيب الذي أخبر به النبيّ ﷺ من نصرهم. انظر: «حاشية الخفاجي».
وقال الأنصاري: «وكون الوقعة آية أيضاً»؛ أي: كما أن ذلك المفسَّر بأحد الأمرين آيةٌ، «يحتملهما» الأمرين. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ١٧).

والمزيِّنُ هو اللهُ تعالى؛ لأنَّه الخالِقُ للأفعالِ والدَّواعِي، ولَعلَّهُ زَيَّنَه ابتلاءً، أو لأنَّه يكونُ وَسيلَةً إلى السَّعادَةِ الأُخروِيَّةِ إذا كانَ على وَجْهٍ يرتَضيهِ اللهُ، أو لأنَّهُ مِن أَسبَابِ التَّعيُّشِ وبقاءِ النَّوعِ.

وقيلَ: الشَّيْطانُ، فإنَّ الآيَةَ في مَعرِضِ الذَّمِّ[1]. وفرَّقَ الجُبَّائِيُّ بينَ المباحِ والمُحرَّمِ[2].

﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ بيانٌ للشَّهواتِ، والقِنْطارُ: المالُ الكثيرُ، وقيلَ: مئةُ ألفِ دينارٍ، وقيلَ: ملءُ مَسْكِ ثورٍ.

واختُلفَ في أنَّهُ «فِعْلَالٌ» أو «فِنْعَالٌ».

و«المُقَنْطَرَةُ» مَأخوذَةٌ منه للتَّأكيدِ؛ كقولِهم: بَدْرَةٌ مُبَدَّرَةٌ.

و«المُسَوَّمَةُ»: المُعْلَمَةُ، من «السُّوْمَةِ» وهي العلامةُ، أو: المَرْعيَّةُ، مِن «أَسَامَ الدَّابَّةَ» و«سَوَّمَها»، أو: المُطَهَّمَةُ.

و«الأَنعامُ»: الإبلُ والبقرُ والغَنَمُ.

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾؛ أي: المَرجِعِ، وهو تَحريضٌ على استبدالِ ما عِندَهُ مِن اللَّذَّاتِ الحَقيقيَّةِ الأَبديَّةِ بالشَّهواتِ المُخدجَةِ الفَانِيَةِ.

(١٥) - ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ يريدُ بهِ تَقريرَ أنَّ ثوابَ اللهِ خيرٌ مِن مُستلذَّاتِ الدُّنيا.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٦٠٧) عن الحسن.

(٢) فقال: تزيين المباح من الله، وتزيين المحرم من الشيطان. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (٦/ ٥١).

﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ استئنافٌ لبَيَانِ ما هوَ خَيرٌ.

ويجوزُ أن يتعلَّقَ اللَّامُ بـ«خيرٍ» ويرتفعَ ﴿جَنَّٰتٌ﴾ على: هو جنَّاتٌ، ويؤيِّدُهُ قراءةُ مَن جَرَّها بدلًا مِن «خيرٍ»[1].

﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ ممَّا يُستَقْذَرُ من النِّسَاءِ.

﴿ورُضْوانٌ مِنَ اللهِ﴾ قراءةُ عاصِمٍ في رواية أبي بكر في جميع القرآن بضَمِّ الرَّاءِ[2]، وهما لُغتانِ.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾؛ أي: بأعمَالِهم، فيثيبُ المُحسِنَ ويعَاقِبُ المُسيءَ، أو: بأحوالِ الَّذينَ اتَّقوا، فلذلكَ أعدَّ لَهُم جنَّاتٍ.

وقد نبَّهَ بهذهِ الآيَةِ على نِعَمِه؛ فأدناها: مَتاعُ الدُّنيَا، وأَعلَاها: رضوانُ اللهِ؛ لقَوْلِه: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وأوسَطُها: الجنَّةُ ونَعيمُها.

(١٦) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ صِفَةٌ للمتَّقينَ أو للعبَادِ، أو مَدحٌ مَنْصُوبٌ أو مَرْفوعٌ[3]، وفي ترتيبِ السُّؤالِ على مجرَّدِ الإيمانِ دَليلٌ على أنَّهُ كافٍ في استِحْقَاقِ المغفِرَةِ أو الاستعدَادِ لها.

---

(١) هي رواية عن يعقوب كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٦)، و«البحر» (٥/ ٢٣١). ولم ترد في «النشر».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٢)، و«التيسير» (ص: ٨٦)، وقرأ حفص بكسر الراء كباقي السبعة.
وقوله: «في رواية أبي بكر في جميع القرآن» من نسخة الطبلاوي.

(٣) قوله: «منصوب»؛ أي: بأعني أو أمدح «أو مرفوع»؛ أي: بأنه خبر مبتدأ محذوف. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ١٩).

(١٧) - ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ حَصْرٌ لِمَقاماتِ السَّالكِ على أحسَنِ تَرتيبٍ، فإنَّ مُعَامَلَتَه معَ اللهِ تعالى إمَّا توسُّلٌ وإمَّا طلبٌ، والتَّوسُّلُ:

إمَّا بالنَّفسِ: وهو مَنعُها عن الرَّذائلِ وحَبسُها على الفَضائِلِ، والصَّبرُ يَشمَلُهما.

وإمَّا بالبَدَن: وهو إما قوليٌّ وهو الصِّدقُ، وإما فِعْلِيٌّ وهو القُنوتُ الَّذي هو مُلازمَةُ الطَّاعةِ.

وإمَّا بالمالِ: وهو الإنفاقُ في سبيلِ الخيرِ.

وأمَّا الطلَبُ: فبالاستغفارِ[1]؛ لأنَّ المَغفِرَةَ أعظَمُ المَطالبِ، بل الجامِعُ لها.

وتَوسِيطُ الواوِ بَينَها للدَّلالةِ على استِقلالِ كلِّ واحدَةٍ مِنها وكَمالِهِم فيها، أو لتغايُرِ المَوْصُوفينَ بها.

وتخصيصُ الأسحَارِ لأنَّ الدُّعاءَ فيها أقرَبُ إلى الإجابَةِ؛ لأنَّ العِبادةَ حينئذٍ أشَقُّ والنَّفسُ أَصْفَى والرُّوعُ[2] أجمَعُ سِيَّما للمُتهجِّدينَ.

قيلَ: إنَّهم كانُوا يُصلُّونَ إلى السَّحَرِ ثمَّ يَستَغْفِرونَ ويَدْعونَ.

(١٨) - ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بيَّنَ وَحدانيَّتَه بنَصبِ الدَّلائلِ الدَّالَّةِ علَيها، وإنزالِ الآياتِ النَّاطِقَةِ بها ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ بالإقرارِ ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ بالإيمانِ بها والاحتِجاجِ عليها، شَبَّهَ ذلكَ في البَيَانِ والكَشْفِ بشهادَةِ الشَّاهِدِ.

﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾: مُقيمًا للعَدلِ في قَسْمِهِ وحُكمِه، وانتِصابُهُ على الحالِ مِن ﴿ٱللَّهُ﴾، وإنَّما جَازَ إفرادُه بها ولم يَجُز: «جاءَ زيدٌ وعمرٌو راكبًا» لعَدَمِ اللَّبْسِ؛ كقولِه:

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «فالاستغفار».

(٢) «الرُّوع» بضم الراء: القلب.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الأنبياء: ٧٢]، أو مِن ﴿هُوَ﴾، والعامِلُ فيها مَعنى الجملَةِ؛ أي: تفرَّدَ قائِمًا، أو: أَحُقُّه[١]؛ لأنَّها حَالٌ مُؤكِّدَةٌ، أو على المدحِ أو الصِّفَةِ للمنفِيِّ، وفيه ضَعفٌ للفَصلِ، وهو[٢] مُندَرِجٌ في المَشهودِ به إذا جَعلتَهُ صِفَةً أو حالًا عن الضَّميرِ.

وقُرِئَ: «القائمُ بالقسطِ»[٣] على البَدَلِ مِن ﴿هُوَ﴾، أو الخبَرِ لمحذوفٍ.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كـرَّرَهُ للتَّأكيدِ، ومَزيـدِ الاعتناءِ بمَعرفَةِ أدلَّـةِ التَّوحيدِ، والحُكمِ بـه[٤] بعـدَ إقامَـةِ الحُجَّـةِ، وليُبْنَـى عليـهِ قولُـه: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فيُعلَـمَ أنَّـهُ المَوصـوفُ بهما.

وقُدِّمَ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ لتقدُّمِ العِلْمِ بقُدرَته على العِلْمِ بحِكمَتِه، ورَفعُهما على البَدَلِ مِن الضَّميرِ، أو الصِّفةِ لفاعِلِ ﴿ شَهِدَ ﴾.

وقد رُوِيَ في فَضْلِهَا أنَّه عليه السَّلام قالَ: «يُجَاءُ بصَاحِبِهَا يومَ القيامَةِ فيَقولُ اللهُ: إنَّ لعَبْدي هذا عِندي عهْدًا، وأنا أَحَقُّ مَن وَفَى بالعَهدِ، أَدخِلُوا عَبدي الجنَّةَ»[٥].

---

(١) قولـه: «أو أحقـه» عطـف على «معنـى الجملـة»؛ أي: أو العامل أحقـه. انظر: «حاشـية الأنصاري» (٢/ ٢١).

(٢) أي: قوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٢١).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٠٠)، و«إعراب القرآن» للنحاس (١/ ١٤٨)، و«الكشاف» (١/ ٢٦)، و«البحر» (٥/ ٢٤٩)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) قولُه: «والحُكمِ بِه»؛ أي: بوحدانيَّتِهِ بعدما ذكرَ الحججَ إجمالاً بقولِه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾... إلخ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٥) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٤٥٣)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٣/ ٣٢٥)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٦٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٨٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢١٩٠)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وقال البيهقي: عمار بن المختار عن أبيه =

وهي دليلٌ على فَضْلِ علمِ أصولِ الدِّينِ وشَرفِ أَهلِه.

(١٩) ـ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ جُملَةٌ مُستَأنفَةٌ مؤكِّدَةٌ للأُولى؛ أي: لا دينَ مَرضيَّ عندَ الله سِوَى الإسلامِ، وهو التَّوحيدُ والتَّدَرُّعُ بالشَّرعِ الَّذي جاءَ بِهِ مُحمَّدٌ عليه السَّلامُ.

وقرأَ الكسَائيُّ بالفتحِ[1] على أنَّه بدَلٌ مِن ﴿أَنَّهُۥ﴾ بَدَلَ الكلِّ إنْ فُسِّرَ الإسلامُ بالإيمانِ أو بما يتضمَّنُه، وبَدَلَ الاشتمالِ إن فُسِّرَ بالشَّريعةِ.

وقُرِئَ: «إنَّ» بالكسرِ و«أَنَّ» بالفتحِ[2] على وقوعِ الفعلِ على الثَّاني واعتراضِ ما بَيْنَهما، أو إجراءِ ﴿شَهِدَ﴾ مُجرى «قالَ» تارةً و«علمَ» أُخرى[3]؛ لتضمُّنِهِ مَعناهما.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ـ مِن اليَهودِ والنَّصارى، أو مِن أربَابِ الكتُبِ المتقدِّمَةِ ـ في دينِ الإسلامِ[4]؛ فقالَ قومٌ: إنَّه حَقٌّ، وقالَ قومٌ: إنَّه مَخصوصٌ بالعَرَبِ، ونفاهُ آخرونَ مُطلقًا، أو في التَّوحيدِ[5]؛ فثلَّثَتِ النَّصارى، وقالَت اليهُودُ: عُزيرٌ ابنُ اللهِ.

= ضعيفان، وهذا لم يأت به غيرهما. وانظر: «مدارك التنزيل» للنسفي (١/ ٣٦٨).

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٢)، و«التيسير» (ص: ٨٧).

(٢) حكاها الفراء عن ابن عباس أنه قرأ بهاتين مجتمعتين، أي: (إنه) بالكسر و(أن) بالفتح، وكذا حكاه الكسائي أيضاً عن ابن عباس. انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٠٠)، و«معاني القرآن» للنحاس (١/ ٣٧٠ـ٣٧١)، و«تفسير القرطبي» (٥/ ١٦). وقراءة الكسر في (إنه) ذكرها عن ابن عباس أيضاً ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٦). وقراءة (أنَّ) بالفتح قراءة الكسائي، كما تقدم.

(٣) قوله: «أو إجراء ﴿شَهِدَ﴾ مُجْرى قال تارة» فتكسر (إنَّ)، «وعلم أخرى» فتفتح (أنَّ)، فهو من باب استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، أو في مجازيه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٢٣).

(٤) قوله: «في دين الإسلام» متعلق بـ﴿ٱخْتَلَفَ﴾. انظر: «حاشية القونوي» (٦/ ٦٨).

(٥) قوله: «أو في التوحيد» عطف على «في دين الإسلام». انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٢٣).

وقيلَ: هُم قَومُ مُوسَى اختلفُوا بعدَهُ.

وقيلَ: هُم النَّصَارى اختلَفُوا في أَمرِ عِيسَى.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾؛ أي: بعدَمَا عَلِمُوا حقيقَةَ الأَمْرِ، وتمكَّنوا مِن العِلْمِ بها بالآياتِ والحُجَجِ.

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾: حَسَدًا بينَهُم وطلبًا للرِّئَاسَةِ، لا شُبهَةً وخفاءً في الأَمرِ.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وَعيدٌ لِمَن كفرَ مِنهُم.

(٢٠) ـ ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ في الدِّينِ وجَادَلوكَ فيه بعدَما أقمْتَ الحُجَجَ[١] ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾: أخلَصْتُ نَفسِي وجُملَتِي للهِ لا أُشرِكُ فيها غيرَهُ، وهوَ الدِّينُ القَيِّمُ[٢] الذي قامَت عليهِ الحُجَجُ، ودَعَت إليه الآياتُ والرُّسُلُ.

وإنَّما عَبَّرَ بالوَجْهِ عن النَّفسِ لأنَّهُ أَشرَفُ الأَعضاءِ الظَّاهرَةِ ومَظهَرُ[٣] القُوَى والحواسِّ.

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ عَطفٌ على التَّاءِ وحَسُنَ للفَصلِ، أو مَفعُولٌ معه.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾ الَّذينَ لا كِتابَ لهم كمُشرِكِي العَرَبِ: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ كما أَسْلَمتُ؛ لِمَا أَوضَحْتُ لكم من الحُجَّةِ، أَم أَنتم بَعدُ على كُفرِكُم؟ ونظيرُه قولُه: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، وفيه تَعييرٌ لهم بالبَلَادةِ والمُعَانَدةِ.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾: فقد نفعُوا أنفُسَهُم بأن أخرجُوها من الضَّلالِ،

---

(١) في نسخة التفتازاني: «أُقيمَت الحُجَجُ».

(٢) في نسخة التفتازاني: «القويم».

(٣) قوله: «ومظهر» بفتح الميم؛ أي: محلُّ ظهورها. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٢٤).

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾؛ أي: فلَم يَضُرُّوكَ إذ ما عليك إلا أَنْ تُبلِّغَ وقد بلَّغْتَ، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ وَعْدٌ ووَعِيدٌ.

(٢١ ـ ٢٢) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هُم أهلُ الكتابِ الَّذينَ في عصرِهِ، قَتلَ أَوَّلُوهُم الأنبياءَ ومُتابعيهم، وهُم رَضُوا به وقصَدُوا قتلَ النَّبيِّ عليه السَّلامِ والمؤمنينَ ولكنَّ اللهَ عَصَمَهم، وقَد سَبَقَ مثلُهُ في سُورةِ البَقَرةِ.

وقرأَ حَمزةُ: ﴿ويُقاتِلُونَ الَّذينَ يَأْمُرونَ﴾[١].

ومنعَ سِيبَويهِ إدخَالَ الفاءِ في خبَرِ «إنَّ» كـ«لَيْتَ» و«لعَلَّ»، ولذلكَ قيلَ: الخبَرُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[٢] كقولِكَ: «زَيدٌ ـ فافهَمْ ـ رَجلٌ صَالحٌ»، والفرقُ: أنَّه لا يغيِّرُ مَعنى الابتداءِ بخِلافِهِما[٣].

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يَدفَعُ عنهُمُ العَذابَ[٤].

(٢٣) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: التَّوراةِ، أو جِنسِ الكُتُبِ السَّماويَّةِ، و﴿مِّنَ﴾ للتَّبعيضِ أو للبيانِ، وتَنكيرُ النَّصيبِ يحتَمِلُ التَّعظيمَ والتَّحقيرَ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٣)، و«التيسير» (ص: ٨٧).

(٢) والمشهور أن جملة ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، ودخول الفاء لا يمنع ذلك؛ لأن الموصولَ متضمِّن معنى الشرط، فدخلت الفاء في خبره. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٢٦).

(٣) قوله: «والفرق أنه»؛ أي: دخول (إنَّ) على الجملة «لا يغير معنى الابتداء»، «بخلافهما»؛ أي: بخلاف (ليت) و(لعل). انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٢٦).

(٤) هذا ما أثبته أصحاب الحواشي في ضبط هذا الموضع، وقد ضبط في بعض النسخ: «بدَفْعِ العَذابِ عَنهُم»، وهو في «حاشية الأنصاري» (٢/ ٢٦): «يدفعونَ عنهم العذابَ». وانظر: «حاشية الخفاجي»، و«حاشية القونوي» (٦/ ٧٧).

﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الدَّاعي: محَمَّدٌ عليه السَّلامُ، وكتابُ اللهِ: القرآنُ، أو التَّوراةُ؛ لِمَا رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ دخلَ مِدرَاسَهُم فقالَ له نعيمُ بن عمرٍو والحارثُ بن زيدٍ: على أيِّ دينٍ أنتَ؟ فقالَ: «على دينِ إبراهيمَ» فقالَ له: إنَّ إبراهيمَ كانَ يهُوديًّا! فقالَ: «هَلمُّوا إلى التَّوراةِ فإنَّها بيننَا وبينكم»، فأَبَيَا، فنزلَتْ[1].

وقيلَ: نزلَتْ في الرَّجمِ[2].

وقُرِئَ: ﴿لِيُحْكَمَ﴾ على البناءِ للمفعُولِ[3]، فيكُونُ الاختلافُ فيما بينَهُم، وفيه دليلٌ على أنَّ الأدلَّةَ السَّمعيَّةَ حُجَّةٌ في الأصُولِ.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ استبعادٌ لِتَوليهم معَ علمِهِم بأنَّ الرجُوعَ إلى كتابِ اللهِ واجبٌ.

﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾: وهُم قومٌ عادَتُهم الإعراضُ، والجملَةُ حَالٌ مِن ﴿فَرِيقٌ﴾، وإنَّما سَاغَ لتخصُّصِه بالصِّفةِ.

(٢٤) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارَةٌ إلى التَّولِّي والإعراضِ ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾: بسَببِ تَسهيلِهم أمرَ العِقابِ على أنفُسهمْ لهذا الاعتِقادِ الزَّائغِ والطَّمعِ الفَارغِ.

﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ مِن أنَّ النَّارَ لا[4] تَمسُّهُم إلَّا أيَّامًا قلائِلَ، أو

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٢٩٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره أبو الليث في «تفسيره» (١/ ٢٠٣) عن الكلبي. وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ١٨٣ ـ ١٨٤) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. في قصة الزانيين من بني إسرائيل، وأصلها في البخاري (٤٥٥٦)، ومسلم (١٦٩٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما دون ذكر نزول هذه الآية.

(٣) هي قراءة أبي جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٢٧).

(٤) في نسخة التفتازاني: «لن».

أنَّ آباءَهُم الأنبياءَ يَشفَعُونَ لهم، أو أنَّه تعالى وَعَدَ يَعقوبَ عليه السَّلامُ أن لا يُعذِّبَ أولادَهُ إلَّا تَحِلَّةَ القسمِ.

(٢٥) ـ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ استِعظامٌ لِمَا يَحيقُ بهم في الآخِرةِ، وتَكذيبٌ لقولِهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾.

رُوِيَ: أنَّ أوَّلَ رَايةٍ تُرفَعُ يومَ القِيامةِ من راياتِ الكفَّارِ رايةُ اليهودِ، فيَفضَحُهُم اللهُ على رؤوسِ الأَشهادِ ثمَّ يأمُرُ بهم إلى النَّارِ[١].

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾: جَزاءَ ما كسَبَت، وفيه دليلٌ على أنَّ العِبَادةَ لا تحبَطُ بالمعاصي[٢]، وأنَّ المؤمِنَ لا يُخلَّدُ في النَّارِ؛ لأَنَّ تَوفيَةَ إيمانهِ وعَملِهِ لا تكونُ في النَّارِ ولا قبلَ دُخولِها، فإذًا هي بعدَ الخلاصِ مِنْها.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الضَّميرُ لـ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ على المعنى؛ لأنَّه في معنى: كلِّ إنسَانٍ.

(٢٦) ـ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ الميمُ عِوَضٌ عَن «يا»، ولذلكَ لا يَجتَمِعَان، وهو مِن خَصَائصِ هذا الاسمِ؛ كدُخولِها[٣] عليه معَ لامِ التَّعريفِ، وقطعِ همزتِهِ، وتاءِ القَسَمِ.

وقيلَ: أصلُهُ: يا الله أُمَّنَا بالخَيرِ، فخُفِّفَ بِحذفِ حرفِ النِّداءِ ومُتعلِّقاتِ الفعلِ وهَمزَتِه.

﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ يتصرَّفُ فيما يمكِنُ التَّصرُّفُ فيه تصرُّفَ المُلَّاكِ، وهو نِداءٌ ثانٍ عندَ سيبويهِ[٤]، فإنَّ الميمَ عندَه تمنَعُ الوَصفيَّةَ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ١٨٦) من طريق الضحاك عن ابن عباس. والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٢) «بالمعاصي» من نسخة التفتازاني مستدركة في الهامش وعليها علامة التصحيح.

(٣) قوله: «كدخولها»؛ أي: كدخول (يا). انظر: «حاشية شيخ زاده» (٣/ ٣٧).

(٤) انظر: «الكتاب» (٢/ ١٩٦ ـ ١٩٧).

﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾: تُعطي منه ما تَشاءُ لِمَن تشاءُ وتَستَرِدُّ، فالملكُ الأوَّلُ عامٌّ والآخرانِ بعضانِ منه.

وقيلَ: المرادُ بالمُلْكِ: النُّبُوَّةُ، ونَزعُها: نَقلُها مِن قومٍ إلى قَومٍ.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ في الدُّنيا والآخِرةِ ـ أو فيهما ـ بالنَّصرِ والإدبارِ، والتَّوفيقِ والخِذلانِ.

﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ذكـرَ الخيـرَ وَحـدَه لأنَّـه المقضيُّ بالذَّاتِ والشَّرُّ مقضيٌّ[١] بالعَرَضِ؛ إذ لا يوجَدُ شرٌّ جُزئيٌّ ما لم يتضمَّن خيرًا كُلِّيًّا، أو لِمُراعاةِ الأَدَبِ في الخِطابِ، أو لأنَّ الكلامَ وقعَ فيه؛ إذ رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ لمَّا خطَّ الخَنْدَقَ وقطعَ لكلِّ عشرةٍ أربعينَ ذِرَاعًا وأخذُوا يحفرونَ، فظهرَ فيه صَخرةٌ عَظيمَةٌ لم تَعمَلْ فيها المعَاوِلُ، فوَجَّهُوا سَلمانَ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ يخبرهُ، فجاءَ فأخذَ المِعْوَلَ مِنه فضربَهَا ضربَةً صدَعَتْها، وبرقَ مِنْهَا بَرقٌ أضاءَ ما بَينَ لابَتَيْهَا لَكأنَّ مِصباحًا في جوفِ بَيتٍ مُظلِمٍ، فكبَّرَ وكبَّرَ المُسلمونَ معه فقالَ: «أضاءَتْ لي مِنها قُصورُ الحِيرَةِ كأنَّها أَنيابُ الكِلابِ»، ثمَّ ضربَ الثَّانيةَ فقالَ: «أضاءَتْ لي مِنها القصُورُ الحُمْرُ مِن أَرضِ الرُّومِ»، ثم ضربَ الثَّالثَةَ فقالَ: «أَضاءَتْ لي مِنها قُصورُ صَنعاءَ، وأخبرَني جبريلُ عليه السَّلامُ أنَّ أُمَّتي ظاهرَةٌ على كلِّها، فأبشِرُوا»، فقالَ المنافقونَ: ألَا تَعجَبونَ! يُمنِّيكم ويَعِدُكُم الباطلَ ويُخبِرُكُم أنَّه يُبصِرُ مِن يَثْرِبَ قصورَ الحِيرَةِ، وأنَّها تُفْتَحُ لكُمْ، وأنتُم إنَّما تحفرونَ الخَنْدَقَ من الفَرَقِ، فنَزَلَتْ[٢].

---

(١) في نسخة الخيالي: «لأنَّه المقصُودُ بالذَّاتِ، والشرُّ مَقصُودٌ».

(٢) هو حديث عمرو بن عوف الطويل في قصة الخندق، رواه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ١٩١ ـ ١٩٦)، وعنه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١٠٠ ـ ١٠٢)، من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن =

ونبَّهَ أيضًا على أنَّ الشَّرَّ بيدِهِ بقولِه: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٢٧) ـ ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ عقَّبَ ذلكَ ببيَانِ قُدرَتِه على مُعاقَبةِ الليلِ والنَّهارِ والمَوتِ والحياةِ وسَعَةِ فَضلِه؛ دلالةً على أنَّ مَن قَدرَ على ذلك قَدَرَ على مُعَاقبةِ الذُّلِّ والعِزِّ وإيتاءِ المُلكِ ونَزعِهِ.

و«الوُلُوجُ»: الدُّخولُ في مَضيقٍ، وإيلاجُ اللَّيلِ والنَّهارِ: إدخالُ أحَدِهِما في الآخرِ بالتَّعقيبِ، أو الزِّيادَةِ والنَّقصِ.

وإخراجُ الحيِّ من الميتِ وبالعكسِ: إنشاءُ الحَيَوَاناتِ مِن موادِّهَا وإمَاتَتُها، أو إنشاءُ الحيوانِ مِن النُّطفةِ والنُّطفةِ منه.

وقيلَ: إخراجُ المؤمِنِ مِن الكافرِ والكافرِ مِن المؤمِنِ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبُو عمرٍو وابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ: ﴿المَيْت﴾ بالتَّخفيفِ[1].

= عوف عن أبيه عن جده، وفي آخره قرن في النزول مع آية آل عمران آية الأحزاب: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٤٠) من طريق آخر عن كثير، لكن في نزول آية الأحزاب فقط. وعلى كل فالحديث ضعيف بسبب كثير بن عبد الله.

وروى نحو هذه القصة أيضاً ـ لكن دون كلام المنافقين ولا ذكر النزول ـ النسائي (٣١٧٦) من طريق أبي سُكَيْنَةَ رجلٍ من المحرَّرينَ، عن رجلٍ من أصحابِ النَّبيِّ ﷺ. وفي «السنن الكبرى» (٨٨٠٧) من حديث البراء رضي الله عنه.

وقصة حفر الخندق وعروض الكدية وضرب النبي ﷺ إياها بالمعول رواها البخاري (٤١٠١) من حديث جابر رضي الله عنه.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٣)، و«التيسير» (ص: ٨٧).

(٢٨) ـ ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ نُهُوا عن موَالاتِهِم لِقرابَةٍ أو صَداقةٍ جاهليَّةٍ ونحوِهما حتَّى لا يكونَ حبُّهُم وبُغْضُهُم إلَّا في اللهِ، أو عن الاستعَانَةِ بهم في الغَزْوِ وسائرِ الأمُورِ الدِّينيَّةِ.

﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم الأَحِقَّاءُ[1] بالموالاةِ، وأنَّ في حُبِّهم وموَالاتِهم مَندوحَةً عن موَالاةِ الكَفَرَةِ.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: اتِّخاذَهُم أولياءَ ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾: مِن ولايتِه في شيءٍ يَصِحُّ أن يُسمَّى ولايةً، فإنَّ مُوالاةَ المتَعَادِيَيْنِ لا يجتمعانِ، قالَ:

تَوَدُّ عَدوِّي ثمَّ تَزْعُمُ أنَّني صَديقُكَ ليسَ النُّوْكُ عنكَ بعَازِبِ[2]

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾: إلَّا أنْ تخافُوا مِن جِهَتِهم ما يجبُ اتِّقاؤُهُ، أو: اتِّقاءً، والفعلُ مُعدًّى بـ«مِن» لأنَّه في مَعنى: تحذَرُوا وتَخافُوا.

قرأَ يعقوبُ: ﴿تَقِيَّةً﴾[3].

مَنَعَ عن موالاتِهم ظاهرًا وباطنًا في الأوقاتِ كلِّها، إلَّا وقتَ المَخافَةِ، فإنَّ إظهارَ المُوالاةِ حينئذٍ جائزٌ؛ كما قالَ عيسى عليه السَّلامُ: كُنْ وَسَطًا وامشِ جَانبًا[4].

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلا تتعرَّضوا لسَخطِه بمُخالفَةِ أحكامِه

---

(١) في نسخة التفتازاني: «الحقيق».

(٢) البيت لبشار بن برد، وهو في «ديوانه» (١/ ٣٦٤). النُّوك بضم النون: الحمق. بعازب: ببعيد.

(٣) انظر: «المبسوط في القراءات العشر» للنيسابوري (ص: ١٦٢)، و«النشر» (٢/ ٢٣٩).

(٤) رواه الدينوري في «المجالسة» (١٠٨٦) عن سفيان الثوري، وأورده أبو عبيد في «الأمثال» (ص: ١٥٨)، والعسكري في «جمهرة الأمثال» (٢/ ١٤٤)

ومُوالاةِ أعدائِهِ، وهو تهديدٌ عَظيمٌ مُشعِرٌ بتَناهي المنهيِّ في القُبحِ، وذكرُ النَّفسِ ليُعلَمَ أنَّ المحذَّرَ مِنه عقابٌ يَصدُرُ عنه، فلا يُؤْبَهُ دونَهُ بما يُحذَرُ من الكفَرَةِ.

(٢٩) ـ ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أنَّهُ يَعلَمُ ضَمائِرَكُم مِن ولايةِ الكفَّارِ وغيرِها إنْ تُخفوهَا أو تُبدُوها، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيعلَمُ سِرَّكُم وعَلَنكُم.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدرُ على عُقوبَتِكُم إن لم تَنْتَهوا عمَّا نُهِيتُم عنه.

والآيَةُ بيَانٌ لقولِه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، وكأنَّهُ قالَ: ويحذِّرُكُم اللهُ نفسَهُ لأنَّها متَّصِفَةٌ بعلمٍ ذاتيٍّ يحيطُ بالمعلومَاتِ كلِّها، وقدرةٍ ذاتيَّةٍ تعمُّ المقدورَاتِ بأسرِها، فلا تجسُرُوا على عِصيانِهِ؛ إذ ما مِن مَعصِيَةٍ إلَّا وهوَ مُطَّلِعٌ عليها قادرٌ على العِقابِ بها.

(٣٠) ـ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ مَنصُوبٌ بـ﴿تَوَدُّ﴾؛ أي: تتمنَّى كلُّ نَفْسٍ يومَ تَجِدُ صحَائفَ أَعمَالِهَا ـ أو جزاءَ أَعمالِهَا ـ من الخيرِ والشَّرِّ حاضرَةً لو أنَّ بينَهَا وبينَ ذلكَ اليومِ وهَوْلِهِ ﴿أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾.

أو بمضمَرٍ نحو: اذكُرْ، و﴿تَوَدُّ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿عَمِلَتْ﴾ أو خبرٌ لِـ﴿مَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾، و﴿تَجِدُ﴾ مقصورٌ على ﴿مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ﴾.

ولا تكونُ ﴿مَا﴾ شرطيَّةً لارتفاعِ ﴿تَوَدُّ﴾.

وقُرِئَ: «ودَّتْ» وعلى هذا يَصِحُّ أَنْ تكونَ شَرطيَّةً، ولكنَّ الحملَ على الخَبَرِ أوقَعُ مَعنًى؛ لأَنَّهُ حِكايَةُ كائنٍ، وأوفَقُ للقراءَةِ المَشهُورَةِ.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ كرَّرَهُ للتَّأكيدِ والتَّذكيرِ.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهُ تعالى إنَّما نَهاهُم وحذَّرَهُم رَأفةً بهم ومُراعَاةً لِمَصالحِهم.

أو: إنَّه لذُو مَغفِرَةٍ وذُو عِقَابٍ، فترُجَى رَحمَتُه ويُخشَى عَذابُه.

(٣١) ـ ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ المَحَبَّةُ: مَيلُ النَّفسِ إلى الشَّيءِ لكَمالٍ أُدرِكَ فيهِ بحَيث يَحمِلُها إلى ما يُقرِّبُها إليهِ، والعَبدُ إذا عَلم أنَّ الكمالَ الحَقيقيَّ ليسَ إلَّا للهِ، وأنَّ كلَّ ما يراهُ كمالًا مِن نَفسِهِ أو غَيرِهِ فهوَ مِن اللهِ وباللهِ وإلى اللهِ، لَم يَكُن حُبُّهُ إلا للهِ وفي اللهِ، وذلكَ يقتضي إرادةَ طاعَتِه والرَّغبةَ فيما يُقرِّبُهُ إليه، فلذلك فُسِّرَت المحبَّةُ بإرادةِ الطَّاعةِ، وجُعِلَت مُستَلزِمَةً لاتِّباعِ الرَّسُولِ في عبَادتِهِ والحرصِ على مُطَاوعَتِهِ.

﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ جوابٌ للأمرِ؛ أي: يـرضَ عنكُـم ويَكشِفِ الحُجُبَ عن قلوبِكُم بالتَّجاوُزِ عمَّا فَرَطَ مِنكم، فيقرِّبَكُم مِن جنابِ عِزِّهِ، ويُبوِّئَكُم في جوارِ قُدسِهِ، عبَّرَ عن ذلك بالمحبَّةِ على طَريقِ الاستعارَةِ أو المُقابَلَةِ.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لِمَن تحبَّبَ إليهِ بطَاعَتِه واتِّباعِ نَبيِّه.

رُوِيَ أنَّها نزلَتْ لَمَّا قالَت اليَهودُ: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[1].

وقيلَ: نزلَتْ في وَفْدِ نَجرانَ لَمَّا قالوا: إنَّما نعبُدُ المسيحَ حُبًّا للهِ[2].

وقيلَ: في أقوامٍ زَعمُوا على عَهدِه عليه السَّلامُ أنَّهم يُحبُّونَ اللهَ، فأُمِروا أن يجعَلوا لقَولِهم تَصديقًا مِن العَمَلِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٣٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١٠٣)، من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. والكلبي متروك وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٣٩)، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٣٢٦)، كلاهما عن محمد بن جعفر بن الزبير مرسلاً، ورجَّحه الطبري، وقال معلِّلاً: لأنه لم يجرِ لغير وفد نجران في هذه السورة ـ ولا قبل هذه الآية ـ ذكرُ قومٍ ادعوا أنهم يحبون الله، ولا أنهم يعظمونه.

(٣٢) ـ ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يحتمِلُ المُضِيَّ، والمُضارعَةَ بمَعنى: فإنْ تتولَّوْا.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾: لا يَرضى عَنهم ولا يُثني عَلَيهم، وإنَّما لم يَقُل: لا يُحِبُّهم؛ لقَصْدِ العمُومِ والدَّلالةِ على أنَّ التَّولِّيَ كُفرٌ، وأنَّهُ مِن هذهِ الجهَةِ يَنفي محبَّةَ اللهِ، وأنَّ محَبَّتَهُ مخصُوصَةٌ بالمؤمنينَ.

(٣٣) ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالرِّسالَةِ والخَصائصِ الرُّوحَانيَّةِ والجِسمانيَّةِ، ولذلك قَوُوا على ما لم يَقْوَ عليه غيرُهُم[١]، لَمَّا أَوجَبَ طاعةَ الرُّسُلِ، وبيَّنَ أنَّها الجالبَةُ لِمَحبَّةِ اللهِ، عقَّبَ ذلك ببَيَانِ مناَقِبِهم تحريضًا عليهَا، وبه استُدِلَّ على فَضلِهم على الملائكَةِ.

و«آلُ إبرَاهيمَ»: إسماعِيلُ وإسحاقُ وأولادُهُما، وقد دخلَ فيهم الرَّسُولُ عليهم السَّلامُ.

و«آلُ عِمرانَ»: موسى وهارونُ ابنا عِمرانَ بنِ يَصْهَرَ بنِ يافثَ بنِ لاوِي بنِ يعقوبَ، أو عيسَى وأمُّه مَريمُ بنتُ عِمرانَ بنِ ماثانَ بنِ إسعَازارَ بنِ أبي يوذَ بنِ رب بابل بنِ ساليانَ بنِ يوحنَّا بنِ أوشى بنِ أموذن بنِ منشك بنِ حَازقا بنِ أخاد بنِ يُوثام بنِ عزريا بنِ يورام بنِ سَاقط بنِ إيشى بنِ راجعيم بنِ سُليمَان بنِ داوُد بنِ إيشى بنِ عويل بنِ سلمون بنِ يَاعز بنِ نحشون بنِ عميَاد بنِ رَام بنِ حَضروم بنِ فارض بنِ يهُوذَا بنِ يَعقوبَ، وكانَ بين العِمرانَين ألفٌ وثماني مئةِ سنةٍ.

(٣٤) ـ ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ حالٌ، أو بَدَلٌ مِن الآلَيْنِ، أو مِنهُما ومِن نوحٍ، أي: إنَّهم ذرِّيَّةٌ واحدَةٌ مُتشعِّبَةٌ بَعضُها مِن بَعضٍ.

---

(١) قوله: «بالرسالة والخصائص الروحانية والجسمانية، ولذلك قووا على ما لم يقو عليه غيرهم» وقع في نسخة التفتازاني بعد قوله الآتي: «تحريضاً عليها».

وقيلَ: بَعضُها من بعضٍ في الدِّينِ.

و«الذُّرِّيَّةُ»: الوَلدُ؛ يقعُ على الواحِدِ والجمعِ، «فُعْلِيَّةٌ» من «الذَّرِّ»، أو «فعُّولَةٌ» من «الذَّرءِ» أُبدلَتْ همزتُها ياءً ثمَّ قُلِبَت الواوُ ياءً وأُدغِمَت.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بأقوالِ النَّاسِ وأعمالِهِم، فيَصطَفِي مَن كانَ مُستقيمَ القَوْلِ والعَمَلِ.

(٣٥) ـ أو: سَميعٌ بقولِ امرأةِ عِمرانَ عليمٌ بنيَّتِها ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾، فينتَصِبُ بهِ[١] ﴿إِذْ﴾.

وقيلَ: نصبُهُ بإضمارِ «اذكُرْ».

وهذهِ المرأةُ هيَ حَنَّةُ بنتُ فاقوذَ جدَّةُ عيسى، وكانَت لعِمرانَ بنِ يَصْهَرَ بنتٌ اسمُها مَريَمُ أكبَرُ مِن موسى وهَارونَ[٢]، فظُنَّ أنَّ المرادَ زَوْجَتُه[٣]، وهذا القول مطعون ضعيف[٤]، ويردُّهُ كفالَةُ زكريَّا فإنَّه كانَ معَاصرًا لابنِ ماثانَ، وتزوَّجَ بنتَهُ إيشاعَ أختَ مريم[٥]، وكانَ يحيَى وعيسَى ابني خالةٍ مِن الأَبِ[٦].

---

(١) في هامش نسخة الطبلاوي: «بسميع وعليم على التنازع».

(٢) في نسخة التفتازاني والخيالي: «أكبر من هارون»، وهكذا وقع عند الأنصاري فعلق بقوله: «أكبر من هارون»؛ أي: وموسى المفهوم بالأَولى؛ إذ هارون أسنُّ منه بثلاث سنين كما ذكره المصنف في الأعراف. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٣٨).

(٣) في نسخة التفتازاني: «فظُن أنه المرادُ وزوجتُه»، وهكذا جاء عند الأنصاري، وقال: «فظُن أنه»؛ أي: عمرانَ بن يصهر «المراد وزوجته»؛ أي: لا عمران بن ماثان وزوجته، وليس كما ظُنَّ، ولذلك قال: «ويرده»؛ أي: الظنَّ المذكور «كفالةُ زكريا»؛ أي: لمريم؛ «فإنه»؛ أي: زكريا «كان معاصراً لابن ماثان»؛ أي: لا لابن يصهر؛ لمَا قاله قبلُ أن بينهما ألفاً وثماني مئة سنة. المصدر السابق.

(٤) «وهذا القول مطعون ضعيف» من هامش نسخة الطبلاوي وعليه علامة التصحيح.

(٥) «أخت مريم» من هامش نسخة الطبلاوي وعليه علامة التصحيح. وانظر التعليق الآتي.

(٦) كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢)، عن أنس رضي الله عنه. =

رُوِيَ أنَّها كانَتْ عَاقِرًا عجوزًا، فبينا هي في ظلِّ شَجَرةٍ إذ رأَت طَائرًا يُطعمُ فرخَهُ، فحنَّتْ إلى الوَلدِ وتمنَّتْهُ فقالَت: اللَّهُمَّ إنَّ لك عَليَّ نَذْرًا إن رَزَقْتَني ولدًا أن أتصدَّقَ به على بيتِ المقدِسِ فيكونَ مِن خَدَمِهِ، فحمَلَتْ بمريَمَ وهَلكَ عِمرانُ(١).

وكانَ هذا النَّذرُ مَشروعًا عِندَهُم في الغِلْمَانِ، فلعَلَّها بَنَتِ الأمرَ على التَّقديرِ أو طَلَبَتْ ذَكَرًا.

﴿مُحَرَّرًا﴾: مُعْتَقًا لخدمَتِه لا أشغَلُهُ بشَيءٍ، أو: مُخلَصًا للعِبادةِ، ونصبُهُ على الحالِ.

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ ما نَذَرْتُه ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لقَولي ونيَّتي.

(٣٦) ـ ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ الضَّميرُ لِمَا في بَطنِها، وتأنيثُهُ لأنَّه كانَ أنثى، وجازَ انتصابُ ﴿أُنثَىٰ﴾ حَالًا عنه لأنَّ تأنيثَها عُلِمَ منهُ، فإنَّ الحالَ وصَاحبَها بالذَّاتِ واحِدٌ، أو على تأويلِ مؤنَّثٍ كـ«النَّفسِ» و«الحَبلَةِ»، وإنَّما قالَتْهُ تحَسُّرًا وتحزُّنًا إلى رَبِّهَا لأنَّها كانَتْ تَرجُو أن تَلِدَ ذَكرًا، ولذلكَ نَذرَتْ تحريرَهُ.

= قال الخفاجي: «وإنَّما كانتا لأبٍ لأنَّهما بنتا عمرانَ، لكنْ مريمُ مِن حنَّةَ، وإيشاعُ من غيرِها، لِما ذُكرَ أنَّ حنَّةَ كانَت عاقرًا حتَّى صارَت عجوزًا، ثمَّ حملَت بمريمَ، وإيشاعُ كانَت أكبرَ سنًّا من مريمَ، لكنْ ما سيأتي من أنَّ زكريَّا قالَ: «أنا أحقُّ بها؛ عندي خالتُها» يدلُّ على أنَّها خالتُها لا أختُها، فمنهم مَن وفَّقَ بينهما بأنَّ حنَّةَ وإيشاعَ بنتا فاقوذَ؛ فمريمُ بنتُ أختِ إيشاعَ، وبنتُ الأختِ يُطلقُ عليها أختٌ إطلاقًا مُتعارفًا، فتكونانِ ابنتي خالَةٍ مجازًا..». انظر: «حاشية الخفاجي».

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٢٣٢) عن ابن إسحاق قال: تزوج زكريا وعمران أختين، فكانت أمّ يحيى عند زكريا، وكانت أم مَريم عند عمرانَ، فهلك عمران وأم مريم حاملٌ بمريم، فهي جنينٌ في بطنها، قال: وكانت فيما يزعمون قد أُمسك عنها الولد حتى أسنَّت، وكانوا أهل بيت من الله جل ثناؤه بمكان، فبينا هي في ظلّ شجرة نظرت إلى طائر يُطعم فرخًا له...، وهكذا ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٥٣)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٢٩). ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٣٣٢) عن عكرمة.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾؛ أي: بالشَّيءِ الَّذي وَضَعَت، وهو استئنافٌ مِن اللهِ تَعظيمًا لموضُوعِها وتَجهيلًا لها بشأنِها.

وقرأ ابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ عن عاصمٍ ويعقوبُ: ﴿وَضَعْتُ﴾[1] على أنَّه مِن كلامِها تَسليةً لنفسِهَا؛ أي: ولعَلَّ للهِ فيه سِرًّا وحكمةً، أو الأنثى كانَ خيرًا.

وقُرِئَ: «وضعتِ» على خطابِ اللهِ تعالى لها[2].

﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ﴾ بيانٌ لقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾؛ أي: وليسَ الذَّكرُ الَّذي طَلَبَتْ كالأُنثى الَّتي وُهِبَتْ، واللَّامُ فيهما للعَهدِ.

ويجوزُ أن يكونَ مِن قولِها بمعنى: وليسَ الذَّكرُ والأُنثى سيَّانِ فيما نذرتُ، فتكونُ اللَّامُ للجِنْسِ.

﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ﴾ عَطفٌ على ما قبلَها مِن مَقَالِها، ومَا بينَهُما اعتراضٌ، وإنَّما ذَكَرَتْ ذلك لربِّهَا تقرُّبًا إليه وطلبًا لأَنْ يَعصِمَهَا ويُصلِحَها حتى يكونَ فعلُها مُطابِقًا لاسمِها، فإنَّ مَرْيَمَ في لغتِهم بمَعنى: العَابدَةِ، وفيه دَليلٌ على أنَّ الاسمَ والمسَمَّى والتَّسمِيَةَ أمُورٌ مُتغايِرَةٌ.

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾: أُجيرُها بحِفظِكَ ﴿وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾: المَطرودِ، وأصلُ الرَّجمِ: الرَّميُ بالحِجارَةِ.

وعن النَّبيِّ ﷺ: «ما مِن مَولودٍ يُولَدُ إلَّا والشَّيطَانُ يمسُّهُ حينَ يولَدُ فيسْتهِلُّ مِن مسِّهِ إلَّا مريمَ وابنَها»[3].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٤)، و«التيسير» (ص: ٨٧)، و«المبسوط في القراءات العشر» للنيسابوري (ص: ١٦٢)، و«النشر» (٢/ ٢٣٩).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٦)، و«الكشاف» (٢/ ٥١).

(٣) رواه البخاري (٤٥٤٨)، ومسلم (٢٣٦٦)، بألفاظ متقاربة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ومَعناه: أنَّ الشَّيطانَ يطمَعُ في إغواءِ كلِّ مَولُودٍ بحيثُ يتأثَّرُ منهُ إلَّا مَريمَ وابنَها فإنَّ اللهَ تعالى عصمَهما ببركَةِ هذه الاستعَاذةِ.

(٣٧) ـ ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾: فرَضِيَ بها في النَّذْرِ مَكانَ الذَّكَرِ ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾: بوَجهٍ حَسَنٍ يَقبَلُ به النَّذائرَ، وهو إقامَتُها مقامَ الذَّكَرِ، أو تَسَلُّمُهَا عقيبَ ولادَتِها قبل أن تكبرَ وتصلُحَ للسَّدانَةِ.

رُوِيَ أنَّ حنَّةَ لمَّا وَلَدَتْها لفَّتْها في خرقَةٍ وحَملَتْها إلى المسجِدِ ووضَعَتْها عندَ الأَحبَارِ، وقالَت: دونَكُم هذه النَّذيرةَ، فتَنافسُوا فيها لأنَّها كانَت بنتَ إمامِهِم وصَاحبِ قُربانِهِم، فإنَّ بني ماثانَ كانَتْ رؤوسَ بني إسرائيلَ ومُلوكَهُم، فقالَ زكريَّا: أنا أحَقُّ بها عِندي خالتُها، فأبَوْا إلَّا القُرعَةَ وكانوا سَبعةً وعِشرينَ، فانطلقُوا إلى نَهرٍ فألقَوا فيه أَقلامَهُم فطفَا قلَمُ زكريَّا ورسَبَتْ أقلامُهُم، فتكفَّلَها[1].

ويجوزُ أن يكونَ مَصدرًا على تقديرِ مُضافٍ؛ أي: بذِي قَبُولٍ حَسَنٍ، وأن يكونَ «تقبَّلَ» بمَعنى: استقبَلَ كـ«تقصَّى» و«تعجَّلَ»؛ أي: فأخذَها في أوَّلِ أمرِها حينَ وُلِدَت بقبولٍ حَسَنٍ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٣٤٩ و٣٥٠) عن السديِّ وعكرمةَ، وابنُ عساكر في «تاريخه» (٧٠/ ٧٨ ـ ٧٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي إسناده إسحاق بن بشر وهو متروك.
ورواه البيهقي في «السنن» (١٠/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧) من طريق السدي عن أشياخه عن ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة، وهذا السند قال عنه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٧٥): ولست أعلمه صحيحًا، إذ كنت بإسناده مرتابًا.
وذكره ابن أبي زمنين في «تفسيره» (١/ ٢٨٦) عن الكلبي.
وعلق البخاري بالجزم عن ابن عباس: «اقترعوا فجرت الأقلام مع الجِرْيَة، وعال قلم زكرياء الجرية فكفلها زكرياء». عال: ارتفع. انظر: «فتح الباري» (٥/ ٢٩٢ ـ ٢٩٤).

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾ مجازٌ عَن تَربيَتِها بما يُصْلِحُهَا في جَميعِ أَحوالِها.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ شدَّدَ الفاءَ حـمزةُ والكِسَائيُّ وعاصِمٌ، وقَصرُوا ﴿زَكَرِيَّا﴾ غير عاصمٍ في روايةِ ابنِ عيَّاشٍ؛ على أنَّ الفاعلَ هوَ اللهُ و﴿زَكَرِيَّا﴾ مفعولٌ؛ أي: جعلَهُ كافِلًا لها وضامنًا لِمَصالِحِها، وخَفَّفَ البَاقونَ ومَدُّوا ﴿زَكريَّاءُ﴾ مرفوعًا[1].

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ﴾؛ أي: الغُرفَةَ الَّتي بناها، أو المَسجِدَ، أو أشرفَ مواضعِهِ ومقدَّمَها، سُمِّيَ به لأنَّه محَلُّ مُحَاربَةِ الشَّيطانِ، كأَنَّها وُضِعَت في أَشرَفِ مَوضِعٍ مِن بَيتِ المقدِسِ.

﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗا﴾ جَوابُ ﴿كُلَّمَا﴾ وناصبُه.

رُوِيَ أَنَّهُ كانَ لا يَدخُلُ عليها غيرُهُ، وإذا خرجَ أغلقَ عليها سَبعَةَ أَبوابٍ، وكان يَجِدُ عندَها فاكهةَ الشِّتاءِ في الصَّيفِ وبالعكسِ.

﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾: مِن أينَ لكِ هذا الرِّزقُ الآتي في غيرِ أوانِه والأبوابُ مُغلَّقَةٌ عليكِ؟

وهـو دليلُ جـوَازِ الكرامَـةِ للأوليـاءِ، وجَعْلُ ذلك مُعجـزَةَ زكريَّا يدفَعُهُ اشـتباهُ الأَمْـرِ عليه.

﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فلا يُستَبْعَدُ، قيلَ: تكلَّمَتْ صَغيرَةً، ولم ترضَعْ ثَديًا قطُّ، وكان رِزقُها ينزِلُ عليها مِن الجنَّةِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾: بغيـرِ تَقديـرٍ لكَثرَتـِهِ، أو: بغَيـرِ اسـتِحقاقٍ تَفضُّـلًا به[2].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٤ ـ ٢٠٥)، و«التيسير» (ص: ٨٧).

(٢) في نسخة الخيالي: «تفضلاً منه».

وهو يحتملُ أن يكُونَ مِن كلامِهَا وأن يكونَ مِن كلامِ اللهِ.

رُوِيَ أنَّ فاطمَةَ رضيَ الله عنها أهدَتْ لِرسُولِ اللهِ ﷺ رَغيفَيْنِ وبَضْعَةَ لحمٍ، فرجعَ بها إليها وقالَ: «هلمِّي يا بُنيَّةُ»، فقالَت: بسمِ اللهِ، وكشفَتْ عن الطَّبَقِ فإذا هو مملوءٌ خبزًا ولحمًا فقالَ لها: «أنَّى لكِ هذا؟» فقالَت: هوَ مِن عندِ اللهِ؛ إنَّ اللهَ يرزقُ مَن يشاءُ بغَير حسَابٍ، فقالَ: «الحمدُ لله الذي جعلَكِ شَبيهَةَ سَيِّدةِ نسَاءِ بني إسرائيلَ»، ثمَّ جمعَ عليًّا والحسنَ والحسَينَ وجَميعَ أهلِ بيتِه عليه حتَّى شبعُوا وبقيَ الطَّعامُ كمَا هوَ، وأَوسَعَتْ على جِيرانِها(١).

(٣٨) ـ ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ في ذلك المكانِ، أو الوقتِ إذ يُستعارُ «هُنا» و«ثَمَّ» و«ثَمَّة» و«حيثُ» للزَّمَانِ.

لَمَّا رأى كرامَةَ مريمَ ومنزِلَتَها مِن اللهِ ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كَمَا وهَبْتَها لحنَّةَ العجُوزِ العَاقِرِ.

وقيلَ: لَمَّا رأى الفواكِهَ في غيرِ أوانِهـا انتبهَ على جَوازِ وِلادةِ العَاقِرِ مِن الشَّيخِ، فسأَلَ وقالَ: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ لأنَّه لم يَكُن على الوجُوهِ المُعتَادَةِ وبالأسبَابِ المعهُودَةِ.

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: مُجيبُه.

(٣٩) ـ ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: مِن جِنْسِهِم؛ كقولِهم: «زَيدٌ يركَبُ الخَيْلَ»، فإنَّ المناديَ كانَ جِبريلَ وحدَهُ.

---

(١) رواه أبو يعلى كما في «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (١/ ١٨٤)، و«الكافي الشاف» (ص: ٢٥)، ولم نقف عليه في «مسند أبي يعلى» المطبوع، فلعله في مسنده الكبير. وقال الحافظ: وهو من رواية ابن لهيعة عن ابن المنكدر عن جابر، والمتن ظاهر النكارة.

وقرأَ حمزةُ والكِسائِيُّ: ﴿فناداهُ﴾ بالإمالةِ والتَّذكيرِ[1].

﴿وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾؛ أي: قائمًا في الصَّلاةِ، و﴿يُصَلِّي﴾ صِفَةُ ﴿قَآئِمٞ﴾، أو خَبرٌ، أو حالٌ آخرُ، أو حالٌ عن ضَميرِ ﴿قَآئِمٞ﴾[2].

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ﴾؛ أي: بأنَّ اللهَ. وقرأَ حمزة وابنُ عامرٍ بالكَسرِ[3] على إرادةِ القَوْلِ، أو لأنَّ النِّداءَ نوعٌ مِنهُ.

وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿يَبْشُرُكَ﴾[4].

و«يحيى» اسمٌ أعجمِيٌّ، وإن جُعِلَ عربيًّا فمَنْعُ صَرفِهِ للتَّعريفِ ووَزنِ الفِعلِ.

﴿مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بعِيسَى، سُمِّيَ بذلكَ لأنَّه وُجِدَ بأمرِه تعالى دونَ أبٍ فشابَهَ البدعيَّاتِ[5] الَّتي هي عَالَمُ الأمرِ، أو: بكتابٍ مِن اللهِ، سُمِّي كلمَةً كما قيلَ: «كَلِمَةُ الحُوَيدِرَةِ» لقَصيدَتِه[6].

﴿وَسَيِّدٗا﴾ يَسُودُ قومَه ويَفوقُهُم، وكانَ فائِقًا للنَّاسِ كلِّهِم في أنَّه مَا هَمَّ بمعْصيَةٍ.

﴿وَحَصُورٗا﴾ مُبَالِغًا في حبسِ النَّفسِ عن الشَّهواتِ والملاهي.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٥)، و«التيسير» (ص: ٨٧).

(٢) في نسخة التفتازاني: «عن الضمير في قائم».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٥)، و«التيسير» (ص: ٨٧).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٥ ـ ٢٠٦)، و«التيسير» (ص: ٨٧).

(٥) «البدعيات»: المخترعات لا على مثال. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٤٦).

(٦) قوله: «كلمة الحويدرة» قال الطيبي في «فتوح الغيب» (٢/ ٣٠٦): الحويدرة: اسم شاعر، تصغير حادرة، واسمه قطبة بن محصن، روي أن حساناً كان إذا قيل له: أنشدنا، قال: هل أنشدكم كلمة الحويدرة؟ أي: قصيدته العينية التي مستهلها:

بَكَرَتْ سُميَّةُ بكرةً فتمتَّعِ وغدَتْ غُدُوَّ مُفارِقٍ لمْ يَرْبَعِ

رُويَ أنَّهُ مرَّ في صباهُ بصِبيانٍ، فدعَوهُ إلى اللَّعبِ فقالَ: ما لهذا خُلِقتُ[1].

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: ناشِئًا مِنهم، أو: كائنًا مِن عدادِ مَن لم يَأتِ كبيرةً ولا صغيرَةً.

(٤٠) - ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ استبعَادًا مِـن حَيثُ العَادةُ، أو استعظامًا وتعجُّبًا، أو استفهامًا عن كيفيَّةِ حُدوثِهِ.

﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾: أدركَني كِبَرُ السِّنِّ وأثَّرَ فِيَّ، وكانَ لهُ تِسعٌ وتِسعونَ سنةً ولامرأتِه ثمانٍ وتسعُونَ.

﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ لا تَلِدُ، مِن «العُقْرِ» وهو القَطعُ؛ لأنَّها ذاتُ عُقرٍ من الأولادِ.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾؛ أي: يفعَلُ ما يشاءُ مِن العَجائِبِ مثلَ ذلك الفِعلِ، وهو إنشاءُ الوَلَدِ مِن شَيخٍ فانٍ وعَجوزٍ عَاقرٍ، أو: كما أنتَ عليه وزوجتُكَ من الكِبَرِ والعُقرِ يفعَلُ ما يَشاءُ مِن خَلقِ الوَلَدِ.

أو ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ﴾ مبتـدأٌ وخبـرٌ؛ أي: اللهُ علـى مثـلِ هذهِ الصِّفَـةِ، و﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ بيـانٌ له.

أو ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبرُ مُبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: الأمرُ كذلكَ، و﴿ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ بَيانٌ.

(٤١) - ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾: علامةً أعرِفُ بها الحَبَلَ لأَستقبِلَهُ بالبَشاشةِ[2] والشُّكرِ، وتُزيحُ مشقَّةَ الانتظارِ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٣٩١) برقم (٣٩٦)، وابن المبارك في «الزهد» (٨٢٣)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٧٤)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (٧٠٥)، عن معمر. وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٤٨٥)، وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد من طريق معمر عن قتادة.

(٢) في نسخة الخيالي: «بالبشارة».

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾: أنْ لا تقدِرَ على تكليمِ النَّاسِ ثلاثًا، وإنَّما حُبِسَ لسَانُه عن مكالَمَتِهم خاصَّةً لتُخلَصَ المدَّةُ لذكرِ اللهِ وشُكرِهِ قضاءً لحقِّ النِّعمَةِ، وكأنَّهُ قالَ: آيتُك أن يُحبَسَ لسَانُكَ[1] إلَّا عن الشُّكرِ، وأحسنُ الجوَابِ ما اشتُقَّ مِن السُّؤالِ.

﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ إشارةً بنحوِ يدٍ أو رَأسٍ، وأصلُه: التَّحرُّكُ، ومنه: «الرَّامُوزُ» للبَحرِ.

والاستثناءُ مُنقطِعٌ، وقيلَ: مُتَّصلٌ والمرادُ بالكلامِ: ما دلَّ على الضَّميرِ.

وقُرِئَ: «رَمَزًا» كـ«خَدَمٍ»: جَمْع رَامِزٍ، و: «رُمُزًا» كـ«رُسُلٍ»[2]: جمع رَموزٍ، على أنَّه حَالٌ منه ومن ﴿النَّاسَ﴾ بمعنى مُترامِزَينِ؛ كقولِهِ:

متى ما تَلْقَني فردَيْنِ تَرْجُفْ   رَوَانِفُ أَلْيَتَيْكَ وتُستَطارَا[3]

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ في أيَّامِ الحُبْسَةِ، وهو مؤكِّدٌ لِمَا قبلَهُ، مبيِّنٌ للغرضِ مِنه، وتقييدُ الأَمرِ بالكثرةِ يدلُّ على أنَّهُ لا يفيدُ التَّكرارَ[4].

﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ﴾: مِن الزَّوالِ إلى الغروبِ. وقيلَ: من العَصرِ أو الغُرُوبِ إلى ذَهابِ صَدرِ اللَّيلِ.

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «أن تَحبِس لسانَك».

(٢) انظر القراءتين في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٧)، الأولى عن الأعمش والثانية عن يحيى بن وثاب.

(٣) البيت لعنترة، وهو في «ديوانه» (ص: ٤٣).

(٤) قوله: «وتقييد الأمر بالكثرة يدل على أنه»؛ أي: الأمر «لا يفيد التكرار»؛ أي: لا يقتضيه كما لا يقتضي الفَوْرَ كما هو مقدَّر في الأصول. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٤٩).

﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ مِن طُلوعِ الفَجْرِ إلى الضُّحَى، وقُرِئَ بفَتحِ الهَمزَةِ[(١)]؛ جمعُ «بَكَرٍ» كـ«سَحَرٍ» و«أسحَارٍ».

(٤٢) - ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كلَّمُوها شِفاهًا كرامةً لها، ومَن أنكرَ الكَرامَةَ زعمَ أنَّ تلك كانَت مُعجِزَةَ زكريَّا، أو إرهاصًا لنبوَّةِ عيسَى، فإنَّ الإجماعَ على أنَّه تعالى لم يَستنبِئ امرأةً؛ لقولِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقيلَ: أُلْهِمُوهَا.

والاصطفاءُ الأوَّلُ: تَقَبُّلُها من أمِّها ولم تُقْبَلْ قَبْلَها أُنثى، وتَفريغُها للعبَادَةِ، وإيتاؤُها برزقِ الجنَّةِ عَن غيرِ كَسْبٍ[(٢)]، وتَطهيرُها عمَّا يُسْتقذَرُ مِن النِّسَاءِ.

والثَّاني: هدَايتُها، وإرسَالُ الملائِكَةِ إليها، وتخصيْصُها بالكراماتِ السَّنِيَّةِ؛ كالولدِ مِن غيرِ أبٍ، وتَبرئتِها عمَّا قَذَفَتها[(٣)] اليهُودُ بإنطاقِ الطِّفلِ وجعلِها وابنَها آيةً للعالمينَ.

(٤٣) - ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أُمِرَت بالصَّلاةِ في الجماعةِ بذكرِ أركانِها مبالغةً في المحافظةِ عليها، وقُدِّمَ السُّجودِ على الرُّكوعِ: إمَّا لكَونِه كذلك في شَريعَتِهم، وإمَّا للتَّنبيهِ على أنَّ الواوَ لا توجِبُ التَّرتيبَ، أو ليقترنَ

---

(١) انظر: «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ١١٢) عن الحسن، ودون نسبة في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٧)، و«الكشاف» (٢/ ٤٦)، و«البحر» (٥/ ٣٦١).

(٢) في نسخة التفتازاني: «وإغناؤها برزق الجنة عن الكسب».

(٣) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «قذفته». ووقع هذا الاختلاف في الضمير في بعض النسخ لكن بلفظ القاف والراء؛ أي: «قرفتها» و«قرفته» ذكر الأولى السيوطي في «الحاشية» (٤/ ١١٨)، والثانية الشهاب في «الحاشية».

﴿وَٱرۡكَعِي﴾ بـ﴿ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ للإيذانِ بأنَّ مَن ليسَ في صَلاتِهم ركوعٌ ليسُوا مُصَلِّينَ.

وقيلَ: المرادُ بالقُنوتِ: إدامةُ الطَّاعةِ، كقولِهِ: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ [الزمر: ٩]، وبالسُّجُودِ: الصَّلاةُ كقولِهِ: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾، وبالرُّكوعِ: الإخباتُ والخُشوعُ.

(٤٤) ـ ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ﴾؛ أي: مَا ذَكَرْنا مِن القصصِ من الغُيوبِ الَّتي لم تَعرِفْها إلَّا بالوَحْيِ.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾: أقداحَهُم للاقتراعِ، وقيلَ: اقترَعُوا بأقلامِهِم التي كانُوا يكتبونَ بها التَّوراةَ تبرُّكًا، والمرادُ: تقريرُ كونِه وَحيًا على سَبيلِ التَّهكُّمِ بمنكريهِ، فإنَّ طَريقَ مَعرفَةِ الوَقائعِ المشاهدَةُ أو السَّماعُ، وعَدَمُ السَّماعِ مَعلُومٌ لا شُبهةَ فيه عندَهُم، فبقيَ أن يكونَ الاتِّهامُ باحتمالِ العِيَانِ، ولا يظنُّ به عَاقلٌ.

﴿أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ متعَلِّقٌ بمحذوفٍ دلَّ عليه ﴿يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾؛ أي: يُلقونَها ليعلَمُوا أو يقولونَ[1]: أيُّهُم يكفلُ مَريَمَ.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ تنافُسًا في كفالَتِها.

(٤٥) ـ ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بدَلٌ من ﴿إِذۡ قَالَتِ﴾ الأُولَى، وما بَينَهُما

---

(١) قوله: «أو يقولون» هكذا قدرها الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٦٦)، والتقدير: يلقونها قائلين، فجملة «يقولون» حال، والمراد بالقول المقدر القولُ للبيان؛ أي: ليبيِّنوا ويعيِّنوا الكافل. ووقع في نسخة التفتازاني: «أو يقولوا»، بالنصب عطفاً على «يعلموا»، ووجه التعليل فيه خفاءٌ إلا أن يؤوَّل بما مرّ من التأويل وهو: «ليبيِّنوا ويعيِّنوا الكافل»، فلا يَرِدُ عليه ما قيل: إنه سهو من الناسخ. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٣/ ٦٤)، و«حاشية الخفاجي».

اعتراضٌ، أو من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ على أنَّ وُقوعَ الاختصَامِ والبشارةِ في زمَانٍ مُتَّسعٍ كقَولِكَ: لقِيتُه سَنةَ كذا.

﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ المسيحُ لقبُهُ، وهـوَ من الألقَابِ المشرِّفَةِ[1] كـ«الصِّدِّيقِ»، وأصلُهُ بالعِبريَّةِ: مَشِيحَا، ومَعناهُ: المبَاركُ.

و«عيسى» معرَّبُ إيشُوعَ.

واشتقاقُهما[2] مِـن «المسحِ» لأنَّه مُسِحَ بالبرَكةِ أو بما طهَّره من الذُّنُوبِ، أو مَسحَ الأرضِ ولم يُقِمْ في مَوضعٍ، أو مسحَه جبريلُ، ومِـن «العَيَسِ» وهو بيَاضٌ يعلوهُ حُمرةٌ= تكلُّفٌ لا طائلَ تحتَهُ.

و﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ لَمَّا كانَت صفةً تميِّزُ الأسمَاءَ نُظِمتْ في سِلكِهَا، ولا يُنافي تعدُّدُ الخبرِ إفرادَ المبتدَإ[3]، فإنَّهُ اسمُ جِنسٍ مضافٌ.

ويَحتمِلُ أن يرادَ: أنَّ الذي يُعْرَفُ به ويتميَّزُ عَن غيرِهِ هَذهِ الثَّلاثَةُ، فإنَّ الاسمَ علامةُ المسَمَّى والممَيِّزُ له عمَّن سِواهُ.

ويجوزُ أن يكُونَ ﴿عِيسَى﴾ خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ و﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ صِفتَه.

وإنَّمـا قيـلَ: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ والخطـابُ لهـا تنبيهًـا على أنَّـه يُولَدُ مِن غيـرِ أبٍ؛ إذ الأَولادُ تُنسَـبُ إلـى الآباءِ، ولا تُنسَـبُ إلـى الأُمِّ إلَّا إذا فُقِدَ الأَبُ.

---

(١) بكسر الراء المشددة؛ أي: المفيدة للمدح، ويجوز فتحها. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) قولـه: «واشـتقاقهما»؛ أي: المسـيح وعيسـى، مبتـدأ خبـره قولـه بَعْـدُ: «تكلُّـف». انظر: «حاشـية الأنصـاري» (٢/ ٥٣).

(٣) قوله: «ولا ينافي تعددُ الخبر»؛ أي: وهو ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ و﴿عِيسَى﴾ و﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ «إفرادَ المبتدأ»؛ أي: وهو ﴿اسمُهُ﴾. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٣/ ٦٥)، و«حاشية الأنصاري» (٢/ ٥٣).

﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾ حَالٌ مُقدَّرَةٌ من «كلمةٍ»، وهي وإنْ كانَت نكرةً لكنَّها مَوصوفةٌ، وتذكيرُه للمَعنى، والوجَاهَةُ في الدُّنيا: النُّبُوَّةُ، وفي الآخِرَةِ: الشَّفاعَةُ.

﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ مِن اللهِ، وقيلَ: إشارةٌ إلى عُلوِّ دَرَجَتِه في الجنَّةِ أو رَفعِه إلى السَّماءِ وصُحبتِه الملائكَةَ.

(٤٦) ـ ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾؛ أي: يكلِّمُهم حَالَ كونِهِ طِفلًا وكَهلًا كلامَ الأنبياءِ مِن غيرِ تَفاوُتٍ، و«المَهدُ» مَصدَرٌ سُمِّيَ به مَا يُمهَدُ للصَّبيِ من مَضجَعِه.

وقيلَ: إنَّه رُفعَ شابًّا، والمرادُ: وكَهلًا بعدَ نُزولِه.

وذكرُ أحوالِه المختلفةِ المتنافيَةِ إرشادٌ إلى أنَّه بمَعزلٍ مِن الأُلوهيَّةِ.

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حَالٌ ثالثٌ[1] مِن «كَلِمَة»، أو ضَميرِها الَّذي في «يكلِّمُ».

(٤٧) ـ ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ تَعجُّبٌ، أو استبعادٌ عاديٌّ، أو استفهامٌ عن أنَّه يكونُ بزَوْجٍ أو غيرِهِ؟

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ القائِلُ جِبريلُ، أو اللهُ وجبريلُ حَكَى لها قولَهُ.

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه تَعالى كما يقدِرُ أنْ يَخلُقَ الأشياءَ تدرُّجًا بأسبَابٍ ومَوادَّ يقدرُ أن يخلقَها دفعةً مِن غيرِ ذلك.

(٤٨) ـ ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ كلامٌ مُبتدأٌ ذُكرَ تَطييبًا لقَلْبِهَا وإزاحَةً لِمَا همَّهَا مِن خَوفِ اللَّومِ لَمَّا عَلِمَت أنَّها تَلِدُ مِن غيرِ زوجٍ[2]، ولا محل لها من الإعراب، أو عَطفٌ على ﴿يُبَشِّرُكِ﴾ أو ﴿وَجِيهًا﴾ أو ﴿يَخْلُقُ﴾[3].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «ثالثة».

(٢) في نسخة الطبلاوي: «زواج»، وفي الخيالي: «تزوج». وجملة: «ولا محل لها من الإعراب» بعدها من الطبلاوي.

(٣) «أو يخلق» من نسخة التفتازاني، وهو موافق لما في «الكشاف» (٢/ ٦٨). قالوا: إنَّما يَحسُنُ هذا =

و«الكِتابُ»: الكَتْبَةُ، أو جِنسُ الكُتُبِ المُنزلةِ، وخُصَّ الكتابانِ لفَضلِهِما.

وقرأ نافعٌ وعاصمٌ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ بالياءِ[1].

(٤٩) ـ ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ منصُوبٌ بمضمَرٍ علـى إرَادةِ القولِ تَقديرُهُ: ويقولُ: أُرسِلْتُ رسُولًا بـأَنِّي قـد جِئتُكُم، أو بالعَطفِ على الأَحوالِ المُتقدِّمَةِ مُضَمَّنًا مَعنى النُّطقِ وكأنَّه قالَ: وناطقًا بأنِّي قد جِئتُكم.

وتخصيصُ بني إسرائيلَ لخُصُوصِ بعثَتِه، أو للرَّدِّ على مَن زعمَ أنَّه مَبعُوثٌ إلى غيرِهم.

﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ نَصبٌ بَـدَلٌ مـن ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم﴾، أو جرٌّ بَدلٌ من ﴿آيةٍ﴾ أو رفعٌ على: هـي أَنِّي أَخلقُ لكم، والمعنى: أقدِّرُ لَكُم وأُصوِّرُ شيئًا مِثلَ صُورةِ الطَّيرِ.

وقرأ نافعٌ: ﴿إِنِّي﴾ بالكسرِ[2].

﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ الضَّميرُ للكافِ؛ أي: في ذلك المُماثِلِ ﴿فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾: فيَصيرُ حيًّا طائرًا بأمرِ اللهِ، نبَّهَ به على أنَّ إحياءَهُ مِن اللهِ لا منه.

وقرأ نافعٌ هاهنا وفي المائدةِ: ﴿طائِرًا﴾ بألفٍ وهمزةٍ[3].

﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾؛ أي: الَّذي وُلِدَ أعمى، أو الممسوحَ العَينِ.

= العطف بعضَ الحُسنِ على قراءَةِ الياءِ (وهي سبعية وستأتي)، وأمَّا على قراءَةِ النُّونِ فلا يحسنُ إلَّا بتقديرِ القولِ؛ أي: إنَّ اللهَ يبشِّركِ بعيسى عليه السَّلامُ ـ أو: يخلق ما يشاء ـ ويقولُ: نعلِّمُه، أو وجيهًا ومقولًا فيهِ نعلِّمُه. انظر: «حاشية الكشاف» للتفتازاني (١٤٨/ ب)، وعنه الشهاب في «الحاشية».

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٦)، و«التيسير» (ص: ٨٨).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

رُوِيَ أنَّه ربَّما كانَ يجتمِعُ عليه أُلوفٌ مِن المرضى؛ مَن أطاقَ مِنهم أتاهُ، ومَن لم يُطِق أتاهُ عِيسَى، وما يُداوِي إلَّا بالدُّعاءِ[1].

﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ كرَّرَ ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ دفعًا لوَهمِ الأُلوهيَّةِ، فإنَّ الإحياءَ ليسَ من جنسِ الأفعَالِ البَشريَّةِ.

﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾: بالمغيَّباتِ مِن أحوَالِكم الَّتي لا تشكُّونَ فيها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: موفَّقِينَ للإيمانِ[2] فإنَّ غيرَهُم لا ينتفِعُ بالمُعجزاتِ، أو: مصدِّقينَ للحَقِّ غيرَ معَانِدينَ.

(٥٠ ـ ٥١) ـ ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ عَطفٌ على ﴿رَسُولًا﴾ على الوَجْهَينِ، أو منصُوبٌ بإضمارِ فعلٍ دَلَّ عليه ﴿قَدْ جِئْتُكُم﴾؛ أي: وَجِئتكم مُصَدِّقًا.

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾ مُقدَّرٌ بإضمارِه[3]، أو مَردودٌ على قولِه: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ﴾، أو مَعْطُوفٌ على معنى ﴿مُصَدِّقًا﴾ كقَولك: جئتُكَ مُعتذِرًا ولأطيِّبَ قلبَكَ.

﴿بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: في شَريعَةِ مُوسَى كالشُّحومِ والثُّرُوبِ والسَّمكِ ولحُومِ الإبلِ والعَملِ في السَّبتِ، وهو يدلُّ على أنَّ شَرعَهُ كانَ ناسخًا[4] لشَرعِ مُوسَى، ولا يُخِلُّ ذلك بكونِه مُصدِّقًا للتَّوراةِ، كما لا يعودُ نَسْخُ القُرآنِ بعضِه ببَعضٍ عليه بتناقُضٍ وتكاذُبٍ، فإنَّ النَّسخَ في الحقيقةِ بَيانٌ وتخصيصٌ في الأزمَانِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٤٢٥) عن وهب بن منبه.

(٢) في نسخة الخيالي: «مُصَدِّقينَ للأنبياءِ».

(٣) قوله: «مقدر بإضماره»؛ أي بإضمار فعل دلَّ عليه ﴿قَدْ جِئْتُكُم﴾، أي: وجئتكم لأحلَّ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٥٧).

(٤) في نسخة التفتازاني: «شرعه ناسخ».

﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: وجِئتُكُم بآيةٍ أُخرى أَلهَمَنيها ربُّكُم، وهيَ قولي[1]: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾، فإنَّهُ دَعوَةُ الحقِّ المُجمَعُ عليها فيما بينَ الرُّسُلِ، الفارقُ بينَ النَّبيِّ والسَّاحِرِ، أو: جئتُكُم بآيةٍ على أنَّ اللهَ ربِّي وربُّكُم، وقولُه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ اعتراضٌ.

والظَّاهرُ أنَّهُ تكريرٌ[2] لقولِه: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: جئتُكُم بآيةٍ بعدَ أُخرى ممَّا ذكرتُ لكم، والأوَّلُ لتمهيدِ الحجَّةِ والثَّاني لتَقريبِهَا إلى الحكمِ[3]، ولذلك رتَّبَ عليه بالفاءِ قولَه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: لَمَّا جِئتُكُم بالمعجزاتِ الباهرةِ والآياتِ الظَّاهرةِ[4] فاتَّقُوا اللهَ في المخالفَةِ وأطيعُونِ فيما أدعوكُم إليه، ثمَّ شَرَعَ في الدَّعوةِ وأشارَ إليها بالقولِ المُجمَلِ فقالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ إشارةً إلى استكمالِ القوَّةِ النظريَّةِ بالاعتقادِ الحقِّ الَّذي غايَتُه التَّوحيدُ، وقالَ: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ إشارةً إلى استكمالِ القوَّةِ العَمليَّةِ، فإنَّه بملازمَةِ الطَّاعةِ الَّتي هي الإتيانُ بالأوامِرِ والانتهاءُ

---

(١) في نسخة التفتازاني: «وهي قوله»، وفي نسخة الطبلاوي: «وهو قولي».

(٢) في نسخة الخيالي: «تقرير».

(٣) قوله: «والظاهر أنه»؛ أي: قوله: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ «تكرير لقوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾»: لكنه ليس تكريراً لمجرَّد التأكيد، بل لمعنى آخر ذكره بقوله: «والأول»؛ أي: وهو ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ «لتمهيد الحجة» عليهم، «والثاني»؛ أي: وهو ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ «لتقريبها إلى الحكم»؛ أي: وهو إيجابُ تقوى الله وطاعته. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٥٧).

(٤) في نسخة التفتازاني: «بالمعجزات الفاهرة والآيات الباهرة». و«الفاهرة» بالفاء؛ أي: المتسعة؛ قال الجوهري: تفهَّر الرجل في المال: اتَّسع فيه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٥٧)، وانظر: «الصحاح» (مادة: فهر).

عن النَّواهي، ثمَّ قرَّرَ ذلك بأنْ بَيَّنَ أنَّ الجَمعَ بين الأمرَينِ هو الصِّراطُ المشهُودُ لهُ بالاستقامَةِ، ونظيرُه قولُه عليه السَّلامُ: «قُلْ: آمنْتُ باللهِ، ثمَّ استَقِمْ»(١).

(٥٢) ـ ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾: تحقَّقَ كُفْرُهُم عندَه تحقُّقَ ما يُدْرَكُ بالحواسِّ ﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مُلتجِئًا إلى اللهِ، أو ذاهبًا أو ضَامًّا إليه، ويجوزُ أن يتعلَّقَ الجارُّ بـ﴿أَنصَارِيٓ﴾ مُضمَّنًا مَعنى الإضافةِ؛ أي: مَن الَّذينَ يُضيفونَ أَنفُسَهُم إلى اللهِ في نَصرِي.

وقيلَ: ﴿إِلَى﴾ هاهُنا بمَعنى: «مع» أو «في» أو «اللَّام».

﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾ حَواريُّ الرَّجُلِ: خالِصُهُ، مِن «الحَوَرِ» وهوَ البَياضُ الخالِصُ، ومنهُ: «الحوَاريَّاتُ» للحَضَريَّاتِ؛ لخلُوصِ ألوانِهنَّ، سُمِّيَ به أصحابُ عِيسى عليه السَّلامُ لخلُوصِ نِيَّتِهم ونقاءِ سَريرَتِهم.

وقيلَ: كانُوا مُلوكًا يلبسُونَ البيضَ استنَصَرَ بهم عيسَى من اليَهُودِ(٢).

وقيلَ: قصَّارونَ يُحوِّرونَ الثِّيابَ؛ أي: يبيِّضُونها(٣).

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٧٤)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٢٥) و(١١٤٢٦) و(١١٧٧٦ ـ ١١٧٧٨)، وابن ماجه (٣٩٧٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٧٠٠)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٢٩٠)، من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقد رُوي من غير وجه عن سفيان الثقفي.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٤١٧).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٦٥٩) من طريق جويبر عن الضحاك قال: مَرَّ عيسى بقومٍ غَسَّالين فدعاهم إلى الله فأجابوه، فلذلك سماهم الحواريون، قال: وبالنبطية: هواري، وبالعربية: المحوِّر.

﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أَنصارُ دينِهِ ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ لتَشهدَ لنا يومَ القيامَةِ حينَ تشهَدُ الرُّسُلُ لقومِهِم وعَليهم.

(٥٣) ـ ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ أي: مَعَ الشَّاهدينَ بوَحدانيَّتِكَ، أو: مع الأنبياءِ الَّذينَ يشهدونَ لأتباعِهم، أو: أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ فإنَّهُم شهداءُ على النَّاسِ.

(٥٤) ـ ﴿وَمَكَرُواْ﴾ أي: الَّذينَ أحَسَّ مِنهم الكُفرَ مِن اليهُودِ بأنْ وكَّلُوا عليه مَن يقتلُهُ غِيْلَةً.

﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ حين رَفَعَ عِيسَى وألقَى شَبَهَهُ على مَن قَصَدَ اغتيالَه حتَّى قُتِلَ.

والمكرُ ـ مِن حَيثُ إنَّه في الأصلِ حِيلَةٌ يَجلبُ بها غيرَهُ إلى مَضَرَّةٍ ـ لا يُسنَدُ إلى اللهِ تعالى إلَّا علَى سَبيلِ المُقابلَةِ والازدواجِ.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾: أقواهُم مَكرًا، وأقدَرُهُم على إيصالِ الضَّرَرِ مِن حَيثُ لا يُحتَسَبُ.

(٥٥) ـ ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ ظرفٌ لـ﴿مَكَرَ اللهُ﴾ أو ﴿خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أو لمُضمَرٍ مثل: وقعَ ذلك.

﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾؛ أي: مُستَوْفي أجَلِكَ ومُؤخِّرُكَ إلى أجلِكَ المسَمَّى، عاصِمًا إيَّاكَ مِن قَتلِهِم.

أو: قابِضُكَ مِن الأَرضِ، من «تَوَفَّيتُ مالي».

أو: مُتوفِّيكَ نائِمًا؛ إذ رُوِيَ أنَّه رُفِعَ نائمًا.

أو: مُمِيتُكَ عن الشَّهوَاتِ العَائقَةِ عن العُروجِ إلى عَالمِ الملكوتِ.

وقيلَ: أَماتَهُ اللهُ سَبعَ سَاعَاتٍ، ثمَّ رَفعَه إلى السَّماءِ، وإليه ذهبَت النَّصارى.

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: إلى محلِّ كرامتي ومقرِّ ملائكتي.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: مِن سُوءِ جِوارِهِم أو قَصدِهِم.

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: يَعْلونَهم بالحجَّةِ أو السَّيفِ في غالبِ الأمرِ(١)، ومتَّبعُوهُ مَن آمَنَ بنبُوَّتِهِ من المُسلمينَ والنَّصارى، وإلى الآنَ لم تُسمَعْ غلبةٌ لليهودِ عليهم، ولم يبقَ لهُم شوكةٌ ومُلكٌ(٢).

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ الضَّميرُ لعيسى ومَن تَبِعَه ومَن كفرَ به، وغُلِّبَ المخاطَبُ على الغائبينَ.

﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ مِن أَمْرِ الدِّينِ.

(٥٦ ـ ٥٧) ـ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَنُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ تفسيرٌ للحُكْمِ وتَفصيلٌ له.

وقرأَ حَفصٌ: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ بالياءِ(٣).

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ تَقريرٌ لذلكَ.

(٥٨) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما سَبَقَ مِن نبأِ عِيسَى وغيرِه، وهوَ مُبتدأٌ خبرُه: ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾، وقولُه: ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ حالٌ مِن الهاءِ، ويجُوزُ أن يكونَ الخبرَ و﴿نَتْلُوهُ﴾ حالًا على أنَّ العامِلَ مَعنى الإشارةِ، وأن يكونا خبرَينِ، وأن يَنتَصِبَ بمضمَرٍ يفسِّرُه ﴿نَتْلُوهُ﴾(٤).

---

(١) في نسخة التفتازاني: «يعلونهم بالحجة والسيف...». وعبارة الزمخشري أوضح وأكمل حيث قال: «يَعْلُونهم بالحجة، وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف».

(٢) في نسخة التفتازاني: «لهم ملك ودولة».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٦)، و«التيسير» (ص: ٨٨).

(٤) قوله: «وأن ينتصب» يعني: ﴿ذَٰلِكَ﴾. انظر: «حاشية الخفاجي». ووهم الأنصاري فقال: «وأن ينتصب»؛ أي: ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٦٢ ـ ٦٣).

﴿وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾: المُشتَمِلِ على الحِكَمِ، أو: المُحكَمِ الممنُوعِ عن تطرُّقِ الخلَلِ إليه، يريدُ به القرآنَ، وقيلَ: اللَّوحَ.

(٥٩) ـ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾؛ أي: شأنُه الغريبُ كشأنِ آدمَ ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ جُملةٌ مفسِّرةٌ للتَّمثيلِ مبيِّنةٌ لِمَا لهُ الشَّبهُ، وهوَ[1] أنَّه خُلِقَ بلا أبٍ كما خُلقَ آدمُ مِن التُّرابِ بلا أبٍ وأمٍّ، شَبَّهَ حَالَه بما هو أغربُ إفحامًا للخَصمِ وقَطْعًا لموادِّ الشُّبهِ، والمعنى: خَلَقَ قالبَه مِن التُّرابِ ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ أي: أَنشَأهُ بشرًا؛ كقولِهِ: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، أو: قدَّرَ تكوينَهُ مِن التُّرابِ ثمَّ كوَّنَهُ[2].

ويجوزُ أن يكونَ ﴿ثُمَّ﴾ لتراخي الخبرِ لا المخبَرِ[3]، فيكونُ حِكايةَ حَالٍ ماضِيَةٍ.

(٦٠) ـ ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ خبرُ مُبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: هو الحقُّ، وقيلَ: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ مُبتدأٌ و﴿مِن رَّبِّكَ﴾ خبرُه؛ أي: الحقُّ المذكورُ من اللهِ.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ خِطابٌ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ على طَريقِ التَّهييجِ لِزيادةِ الثَّباتِ، أو لكلِّ سَامعٍ.

(٦١) ـ ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ﴾ مِن النَّصارى ﴿فِيهِ﴾: في عيسَى ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾؛ أي: من البيِّناتِ الموجِبَةِ للعِلمِ ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ﴾: هَلمُّوا بالرَّأيِ والعزمِ ﴿نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ﴾؛ أي: يدعُ كلٌّ منَّا ومنكم نفسَهُ

---

(١) قوله: «لما له الشَّبه»؛ أي: ما لأجله الشَّبه «وهو»: وجه الشَّبه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٦٢ ـ ٦٣).

(٢) قوله: «خلق قالبه» بفتح اللام؛ أي: صوَّر جسدَه من التراب، وقوله: «أنشأه بشراً»؛ أي: نفخ فيه الروح «أو قدر تكوينه من التراب» فارق القولَ الأول بأن معنى (خلق) فيه: صوَّر، وفي هذا معناه: قدَّر، وكلٌّ منهما ذكر لصحة ترتُّب التكوين على الخلق. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٦٣).

(٣) قوله: «لا المخبر»؛ أي: لا لتراخي المخبَرِ عنه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٦٣).

وأعزَّةَ أهلِه وألْصقَهم بقلبِهِ إلى المبَاهَلَةِ، ويحمِلْ عليها، وإنَّما قدَّمَهُم على النَّفسِ لأنَّ الرَّجُلَ يُخاطِرُ بنفسِه لهُمْ ويحَارِبُ دونَهُم.

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾؛ أي: نتبَاهَلْ بأنْ نلعَنَ الكاذبَ مِنَّا.

و«البُهْلَةُ» بالضَّمِّ والفَتحِ: اللَّعنَةُ، وأصلهُ: التَّركُ، مِن قَولِهِم: «أَبْهَلْتُ[1] النَّاقةَ» إذا تركتَها بلا صِرَارٍ.

﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ عطفٌ فيه بَيانٌ.

رُوِيَ أنَّهُم لمَّا دُعُوا إلى المبَاهَلةِ قالُوا: حتَّى ننظرَ، فلمَّا تَخالَوا قالُوا للعَاقبِ وكانَ ذا رَأيهم: ما ترى؟ فقالَ: واللهِ لقد عَرفتُم نبوَّتَه، ولقد جاءَكُم بالفَصلِ في أَمرِ صَاحبِكُم، واللهِ ما باهَلَ قومٌ نبيًّا إلا هلكُوا، فإن أبيتُم إلَّا إلفَ دينِكُم، فوادِعُوا الرَّجُلَ وانصَرِفوا. فأتَوا رسُولَ اللهِ وقد غدا مُحتَضِنًا الحسَنَ آخِذًا بيدِ الحُسَينِ وفاطمةُ تَمشي خلْفَه وعَليٌّ خلفَها وهو يقولُ: «إذا أنا دَعوتُ فأمِّنُوا»[2]، فقالَ أُسقُفُّهم: يا مَعشَرَ النَّصَارى، إنِّي لأَرَى وُجُوهًا لو سَألُوا اللهَ أن يزيلَ جَبلًا مِن مَكانِه لأزالَهُ، فلا تباهِلُوا فتَهْلِكُوا، فأَذْعَنُوا لرسُولِ اللهِ وبذلُوا له الجزيةَ أَلْفَيْ حلَّةٍ حمراءَ وثلاثينَ

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «بهلت»، والمثبت من نسخة التفتازاني وكلاهما في المصادر. لكن قال المعافري في «الأفعال» (٤/ ٦٨): الصواب في هذا: بَهَلتِ الناقةُ بُهولاً، وأبهَلْتُها أنا، فهي باهل ومبهلة: إذا تركها بلا صرار. والصِرَار بكسر الصاد: خيطٌ يُشَدُّ على خِلْفِ النَّاقَةِ لئلَّا يَرضعَها ولدها. انظر: «الصحاح» (مادة: صرر).

(٢) رواه إلى هنا مطولًا أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢٤٥) من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وزاد: «فأبوا أن يلاعنوه وصالحوه على الجزية».
ورواه بنحوه مطولاً أيضاً ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير، كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٨٣ ـ ٥٨٤). وانظر ما سيأتي من تخريج لباقيه.

دِرعًا من حديدٍ[١]، فقالَ عليه السَّلامُ: «والَّذي نَفسي بيدِهِ لو تباهَلُوا لَمُسِخُوا قردةً وخَنازيرَ، ولاضطرَمَ عليهم الوَادي، ولاستأصَلَ اللهُ نجرانَ وأهلَهُ حتَّى الطَّيرَ على الشَّجرِ»[٢]. وهو دليلٌ على نبوَّتِه وفضلِ مَن أَتى بهم مِن أهلِ بَيتِهِ.

---

(١) روى نحو هذه القطعة سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (٥٠٠)، والطبري في «تفسيره» (٥/ ٤٦٩)، عن الشعبي. ومصالحة النبي ﷺ لهم على ما ذكر من الحلل والدروع والأفراس وغيرها رواه أبو داود (٣٠٤١) من طريق السدي عن ابن عباس، وفي سماع السدي من ابن عباس نظر كما قال المنذري ونقله عنه الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٤٤٥)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٤٧١) عن السدي، وأبو عبيد في «الأموال» (٥٠٢) عن أبي المليح الهذلي.

(٢) ذكر الخبر بتمامه دون سند ولا عزوٍ الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٨٨ ـ ٣٩٠)، والواحدي في «البسيط» (٥/ ٣٢١)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٤٨)، والمرفوع في آخره لم أقف عليه بهذا اللفظ وهذا التمام لكن روي في معناه أحاديث:

منها ما رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٢٥)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٤١١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٩٩٥)، والطبري في «تفسيره» (٥/ ٤٧٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٦٦٨) عن ابن عباس قال: لو خرج الذين يُباهلون النبيَّ ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً.

ومنها ما رواه الآجري في «الشريعة» (١٦٩٠) عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً، وفيه: «والذي بعَثني بالحقِّ لو فَعَلَا لأَمطَرَ عليهم الوادي نارًا».

ومنها ما رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٤٧١) عن قتادة قال: وذُكر لنا أن نبيَّ الله ﷺ كان يقول: «والذي نفس محمد بيده، إن كان العذاب لقد تَدَلَّى على أهل نجران، ولو فعلوا لاستُؤصلوا عن جديد الأرض».

وعن ابن جريج قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو لاعنوني ما حال الحول وبحضرتهم منهم أحدٌ إلا أهلك الله الكاذبين».

وفي «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٤٢٣): وقيل: إن بعضهم قال لبعض: إن باهلتُموه اضطرم الوادي عليكم ناراً ولم يبق نصراني ولا نصرانية إلى يوم القيامة.

وحديث امتناع وفد نجران عن الملاعنة رواه البخاري (٤٣٨٠)، ومسلم (٢٤٢٠)، عن حذيفة رضي الله عنه.

(٦٢) ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾؛ أي: ما قُصَّ مِن نبأ عيسَى ومريمَ ﴿لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّ﴾ بجُمْلَتِها خبرُ ﴿إِنَّ﴾، أو «هو» فصلٌ يُفيدُ أنَّ ما ذُكرَ في شأنِ عيسَى ومريمَ حقٌّ دونَ ما ذكرُوه، وما بَعدَه خبرٌ، واللَّامُ دَخلَت فيه لأنَّه أقرَبُ إلى المبتدَإِ من الخبرِ، وأصلُها أَن تدخلَ المبتدَأَ.

﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ صرَّحَ فيهِ بـ﴿مِنۡ﴾ المزيدةِ للاستغراقِ تأكيدًا للرَّدِّ على النَّصارى في تَثليثِهم، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ لا أحدَ سواهُ يُساويهِ في القُدرَةِ التَّامَّةِ والحكمةِ البَالغةِ ليُشاركَهُ في الأُلوهيَّةِ.

(٦٣) ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ وعيدٌ لهم، ووُضِعَ المظهَرُ مقامَ المضمَرِ ليَدُلَّ على أنَّ التَّوَلِّيَ عن الحُججِ والإعرَاضَ عن التَّوحيدِ إفسَادٌ للدِّينِ والاعتقادِ المؤدِّي إلى فسَادِ النَّفسِ، بَل وإلى فسَادِ العَالَمِ.

(٦٤) ـ ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعمُّ أهلَ الكتابَينِ، وقيلَ: يُريدُ وَفدَ نجرانَ، أو يَهُودَ المَدينةِ.

﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ لا تختَلِفُ فيها الرُّسُلُ والكُتُبُ، ويُفسِّرُها ما بعدَها:

﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: أن نوحِّدَه بالعبادةِ ونُخْلِصَ فيها ﴿وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾: ولا نجعلَ غيرَهُ شَريكًا له في استحقاقِ العِبَادَةِ، ولا نراهُ أهلًا لأَنْ يُعْبَدَ.

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾: ولا نقولَ: عُزَيرٌ ابنُ اللهِ، ولا: المَسيحُ ابنُ اللهِ، ولا نطيعَ الأحبَارَ فيما أحدَثوا من التَّحريمِ والتَّحليلِ لأنَّ كُلًّا منهم بعضُنا؛ بَشَرٌ مثلُنا؛ لِمَا[٣] رُوِيَ: أنَّه لمَّا نزلَت: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ

(٣) قوله: «لما» وقع مكانه بياض في نسخة الطبلاوي. ولم يرد في حواشي الأنصاري والقونوي والخفاجي.

﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، قالَ عَدِيُّ بن حاتمٍ: ما كنَّا نَعبُدُهم يا رسُولَ اللهِ، قالَ: «أليسَ كانُوا يُحِلُّون لكم ويحرِّمُونَ فتأخذونَ بقولِهم؟» قالَ: نعم، قالَ: «هُوَ ذاكَ»[١].

﴿فَإِن تَوَلَّوۡا﴾ عَنِ التَّوحيدِ ﴿فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾؛ أي: لَزِمَتْكم الحُجَّةُ فاعترِفُوا بأنَّا مُسلمونَ دونَكُم، أو: اعترَفِوا بأنَّكُم كافرونَ بما نطقَت به الكتبُ وتطابقَتْ عليه الرُّسُلُ.

تنبيهٌ: انظُرْ إلى ما رَاعَى في هذهِ القِصَّةِ مِن المبَالغَةِ في الإرشادِ وحُسنِ التَّدرُّجِ في الحِجاجِ، بَيَّنَ أوَّلًا أحوالَ عيسى وما تعاوَرَ عليه مِن الأطوارِ المُنافِيَةِ للإلهيَّةِ، ثمَّ ذكرَ ما يَحُلُّ عُقدَتَهم ويزيحُ شُبهَتَهُم، فلمَّا رأى عِنادَهُم ولجاجهُم دعاهُم إلى المباهَلةِ بنوعٍ من الإعجازِ، ثمَّ لَمَّا أعرضُوا عنها وانقادُوا بعضَ الانقيادِ عادَ عَليهم بالإرشادِ، وسَلكَ طريقًا أسهَلَ وألزمَ بأنْ دَعاهُم إلى ما وافقَ عليه عِيسى والإِنجيلُ وسائرُ الأَنبياءِ والكُتبِ، ثمَّ لَمَّا لَم يُجْدِ ذلكَ أيضًا عليهم، وعَلِمَ أنَّ الآياتِ والنُّذُرَ لا تُغني عَنْهُم، أعرضَ عَن ذلكَ وقالَ: ﴿ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾.

(٦٥) - ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ تنازعَت اليهُودُ والنَّصارى في إبراهيمَ فزعمَ كلُّ فَريقٍ أنَّهُ مِنهُم، فترافعُوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ فنزَلَت[٢].

والمعنَى: أنَّ اليهُوديَّةَ والنَّصرانيَّةَ حَدثَت بنُزولِ[٣] التَّوراةِ والإنجيلِ على

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥) وقال: حديث غريب.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٤٨١) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في نسخة الخيالي: «بعد نزول».

موسَى وعيسَى، وكانَ إبراهيمُ قبلَ موسَى بألفِ سنةٍ وقبلَ عيسَى بألفينِ، فكيفَ يَكُونُ عليهما[(١)]؟

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتدَّعونَ المُحَالَ.

(٦٦) - ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ «هـا» حـرفُ تنبيهٍ، نُبِّهُوا بـهـا على حَالِهم الَّتي غَفلُوا عنها، و﴿أنتُم﴾ مُبتَدأٌ و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ خبرُهُ، و﴿حَٰجَجْتُمْ﴾ جُملةٌ أخرى مبيِّنَةٌ للأُولى؛ أي: أنتُم هؤلاءِ الحَمْقَى وبَيَانُ حَمَاقتِكم أنَّكم جَادَلتُم فيما لكم به عِلمٌ ممَّا وَجَدتُمُوه في التَّوراةِ والإنجيلِ عِنادًا أو تدَّعُونَ وُرودَهُ فيه، فلِمَ تجادلونَ فيمَا لا علمَ لكم به ولا ذُكرَ في كِتابِكُم مِن دينِ إبرَاهيمَ؟

وقيلَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بمَعنى: الَّذينَ، و﴿حَٰجَجْتُمْ﴾ صِلَتُه.

وقيلَ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ أَصلُه: أأنْتُم؟ على الاستِفهامِ للتَّعجُّبِ مِن حَماقَتِهم، فقُلِبَت الهمزَةُ هاءً.

وقرأَ نافِعٌ وأبُو عمرٍو: ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ حَيث وقعَ بالمدِّ، وقُنْبُلٌ بالهمزِ من غَيرِ ألفٍ بعدَ الهاءِ، والبَاقونَ بالمدِّ والهَمزِ، والبزِّيُّ بقَصرِ المدِّ على أَصلِهِ[(٢)].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ مَا حَاجَجْتُم فيه ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: وأنتم جَاهِلونَ به.

(٦٧) - ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ تَصريحٌ بمُقتَضى ما قرَّرَهُ من البُرهانِ ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾: مائلًا عَن العَقائِدِ الزَّائغَةِ ﴿مُّسْلِمًا﴾: مُنْقادًا للهِ، وليسَ المرادُ به أنَّه كانَ على ملَّةِ الإسلامِ وإلَّا لاشتركَ الإِلْزَامُ.

---

(١) «فكيف يكون عليهما»؛ أي: فكيف يكون إبراهيم على دين اليهودية والنصرانية مع تطاول المدة بينه وبين حدوثهما؟! انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٦٨).

(٢) انظر: «التيسير» (ص: ٨٨).

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تعريضٌ بأنَّهم مُشركُونَ؛ لإشراكِهِم به عُزَيرًا والمسيحَ، وردٌّ لادِّعاءِ المشركينَ أنَّهم على مِلَّةِ إبرَاهيمَ.

(٦٨) ـ ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾: إنَّ أخصَّهُم به وأقربَهم منهُ، مِن «الوَلْيِ» وهو القُرْبُ، ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ مِن أمَّتِه ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لِمُوَافقَتِهم لهُ في أكثَرِ ما شُرِعَ لهُم على الأصَالةِ.

وقُـرِئَ: «وهذا النَّبـيَّ» بالنَّصبِ[١] عَطفًـا على الهاءِ فـي ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾، وبالجرِّ[٢] عطفًا علـى ﴿إبراهيمَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَنصُرُهم ويجَازيهِم الحُسنَى لإيمانِهم.

(٦٩) ـ ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ نزلَتْ فـي اليهُودِ لمَّا دَعَوا حذيفةَ وعمارًا ومُعَاذًا إلى اليَهُوديَّةِ[٣].

و﴿لَوْ﴾ بمعنى «أنْ».

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾: ومَا يتخطَّاهُم الإضلالُ ولا يَعودُ وبَالُه إلَّا عَلَيهِم إذ يضاعَفُ به عذابُهُم، أو: ما يُضِلُّونَ إلا أمثالَهُم.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وِزرَهُ واختصَاصَ ضَررِهِ بهم.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٧) عن أبي السمال.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٧) عن بعضهم.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٢٨٣)، و«تفسير الثعلبي» (٨/ ٤٠٨)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ١٠٩)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٥٣). وجمعه الثعلبي والواحدي مع سبب نزول الآية (١٠٩) من سورة البقرة. وهذا الخبر قال عنه أبو حيَّان في «البحر المحيط» (٥/ ٤٥٤): «أجمع المفسرون أنها نزلت في معاذ بن جبل وحذيفة وعمّار دعوهم يهود بني النضير وقريظة وقينقاع إلى دينهم». لكن قال ابن حجر في «العجاب في بيان الأسباب» (١/ ٣٥٦): لم أجده مسندًا.

(٧٠) ـ ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾: بـمـا نَطَقَـت بـه الـتَّـورَاةُ والإنجيـلُ ودلَّـتْ علـى نبـوَّةِ مُحمَّـدٍ ﷺ ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾ أنَّهـا آيـاتُ اللهِ.

أو: بالقرآنِ وأنتُم تَشهدُون نَعْتَه في الكِتابَينِ، أو تعلمونَ بالمعجزاتِ أنَّهُ حَقٌّ.

(٧١) ـ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾: بالتَّحريفِ وإبرازِ الباطلِ في صُورتِهِ، أو: بالتَّقصيرِ في المَيْزِ بينهُما.

وقُرِئَ: «تُلَبِّسون» بالتَّشديدِ[١]، و: «تَلْبَسون» بفتحِ الباءِ[٢]؛ أي: تَلْبَسُونَ[٣] الحقَّ مع الباطلِ كقولِهِ عليه السَّلامُ: «كلابسِ ثَوْبَي زُورٍ»[٤].

﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾ نبوَّةَ محمَّد ونعتَهُ ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾: عَالِمِينَ بما تكتُمُونَه.

(٧٢) ـ ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ ﴾؛ أي: أظهِرُوا الإيمانَ بالقرآنِ أوَّلَ النَّهارِ ﴿وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾؛ أي: واكفُرُوا به آخِرَهُ لعَلَّهُم يَشُكُّونَ في دِينِهِم ظنًّا بأنَّكُم رَجَعْتُم لخلَلٍ ظهرَ لَكُم.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ٤٠٨)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٦٠)، عن أبي مجلز.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القرآن» (ص: ٢٧)، و«الكشاف» (٢/ ٩٠)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٦٠)، عن يحيى بن وثاب. وتحرفت في مطبوع «المختصر في شواذ القراءات» إلى: (يلبسون) بالياء.

(٣) قوله: «تلبسون» كذا في النسخ، ومثله في بعض نسخ «الكشاف» (٢/ ٩٠)، وفي نسخ أخرى من «الكشاف»: (تكتسون)، ومثله في «تفسير ابن كمال باشا» عند هذه الآية، وهو كذلك في «حاشية عصام الدين الإسفراييني على البيضاوي» (١٨٢/ أ)، وعليه شرح الجاربردي، وهو الذي صححه الخفاجيُّ. انظر: «حاشية الجاربردي على الكشاف» (ج١/ و٢٥٩ب)، و«حاشية الخفاجي على البيضاوي».

(٤) رواه البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٣٠)، من حديث أسماء رضي الله عنها، ورواه مسلم (٢١٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

والمرادُ بالطَّائفَةِ: كَعبُ بنُ الأَشرَفِ ومالكُ بنُ الصَّيفِ قالا لأصحَابِهِمَا لمَّا حُوِّلَت القبلةُ: آمِنُوا بما أُنزِلَ عليهم من الصَّلاةِ إلى الكَعْبَةِ، وصَلُّوا إليها أوَّلَ النَّهارِ، ثمَّ صَلُّوا إلى الصَّخرَةِ آخرَهُ، لعَلَّهُم يقولونَ: هُم أعلَمُ مِنَّا وقد رجعُوا، فيَرجعُونَ(١).

وقيلَ: اثنا عَشرَ من أحْبارِ خَيبَرَ تقاوَلُوا بأن يَدخُلُوا في الإسلامِ أوَّلَ النَّهارِ ويقولُوا آخرَهُ: نظرْنَا في كتابِنا وشاوَرْنا عُلماءَنا فلَمْ نَجِدْ محمَّدًا بالنَّعتِ الذي وردَ في التَّوراةِ، لعَلَّ أصحابَهُ يَشُكُّونَ فيه(٢).

(٧٣ ـ ٧٤) ـ ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾: ولا تُقِرُّوا عَـن تَصديقِ قَلْبٍ إلَّا لأهلِ دِينِكُم، أو: ولا تُظهِرُوا إيمانَكُم وَجْهَ النَّهارِ إلَّا لِمَن كانَ على دِينِكُم؛ فإنَّ رُجوعَهُم أرجَى وأهمُّ.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ يَهدِي مَن يشاءُ إلى الإيمانِ ويُثبِّتُه عليه.

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ متعلِّقٌ بمَحذوفٍ؛ أي: دَبَّرتُم ذلك وقلتُـم لِأَنْ يُؤتَى أحَدٌ، والمعنى: أنَّ الحَسَدَ حَمَلَكم على ذلك.

أو: بـ﴿لا تؤمنوا﴾؛ أي: ولا تُظْهِرُوا إيمانَكُم بأنْ يُؤتى أحدٌ مثلَما أُوتيتُم إلَّا لِأَشيَاعكم، ولا تُفشُوهُ إلى المسلمينَ لئلَّا يَزيدَ ثَباتُهُم، ولا إلى المشركينَ لئلَّا يَدعُوهم إلى الإسلامِ.

وقولُه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ اعتراضٌ يَدُلُّ على أنَّ كيدَهُم لا يَحْلَى بطائِلٍ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٤١١)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١٠٩)، عن مجاهد ومقاتل والكلبي.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٤٩٦) عن السدي. ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٤١٠ ـ ٤١١)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١٠٩)، عن الحسن والسدي.

أو خبرُ ﴿إِنَّ﴾ على أنَّ ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ بدلٌ عن ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾(١).

وقراءةُ ابنِ كَثيرٍ: ﴿أَأَنْ يُؤتى﴾(٢) على الاستفهامِ للتَّقريعِ تُؤيِّدُ الوجهَ الأوَّلَ؛ أي: ألِأَن يُؤتَى أَحدٌ دبَّرتُم.

وقُرِئَ: «إنْ» عَلَى أنَّها النَّافيةُ(٣)، فيكونُ مِن كلامِ الطَّائفَةِ؛ أي: ولا تُؤمنُوا إلَّا لِمَن تبعَ دينكُم وقولُوا لهُم: ما يُؤتى أحَدٌ مثلَ ما أُوتيتُم.

﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ عَطفٌ على ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ﴾ على الوَجهَينِ الأوَّلَينِ، وعلى الثَّالثِ مَعناهُ: حتَّى يُحاجُّوكُم عندَ ربِّكُم فيَدْحَضُوا حجَّتَكُم، والواوُ ضَميرُ ﴿أَحَدٌ﴾ لأنَّه في معنى الجَمعِ، إذ المرادُ به غيرُ أَتباعِهِم.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ رَدٌّ وإبطالٌ لِمَا زعمُوهُ بالحجَّةِ الواضِحَةِ.

(٧٥) ـ ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ كعَبدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ،

---

(١) قوله: «أو خبر ﴿إِنَّ﴾»: عطف على «متعلّق بمحذوف». انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٧١).
قلت: فملخص ما ذكره المؤلف في قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ ثلاثة أقوال: الأول: أن يتعلق بمحذوف على التقدير المذكور، والثاني: أن يتعلق بـ(لا تؤمنوا)، والثالث: أن يكون خبر ﴿إن﴾ شريطة الإبدال المذكور على ما ذكر المصنف، أو على أن ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ خبر أول لـ﴿إِنَّ﴾ على ما زاد الأنصاري. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٧١).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٧)، و«التيسير» (ص: ٨٩). قال الداني في «جامع البيان» (٣/ ٤٧٩): قرأ ابن كثير على الاستفهام بهمزة محقَّقة بعدها مسهَّلةٌ بينَ بينَ من غيرِ ألفٍ فاصلة بينهما على مذهبه في جميع الاستفهام، وقرأ الباقون على الخبر بهمزة واحدة محقّقة من غير مدّ.

(٣) نسبت لسعيد بن جبير والأعمش وطلحة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٧)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ١١٥).

استَوْدَعَه قُرشيٌّ أَلْفًا ومئتي أُوقيَّةٍ ذهبًا فأدَّاه إليه، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ كفِنْحَاصَ بنِ عازوراءَ، استَوْدَعَه قُرشيٌّ آخرُ دينارًا فجَحَدَه[١].

وقيلَ: المَأمونونَ على الكَثيرِ النَّصارى إذ الغالبُ فيهم الأَمانَةُ، والخائِنونَ في القَليلِ اليَهودُ إذ الغالِبُ عليهم الخِيانَةُ.

وقرأَ حمزةُ وأبو عمرٍو: ﴿يؤدِّهْ إليكَ﴾ و﴿لا يُؤَدِّهْ إليك﴾ بإسكانِ الهاءِ، وقالُونُ باختلاسِ كَسْرَةِ الهاءِ، وكذا رُوِيَ عن هشامٍ، والباقونَ بإشباعِ الكَسرةِ[٢].

﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾: إلَّا مُدَّةَ دوامِكَ قائمًا على رَأسِهِ مُبالغًا في مُطالبتِهِ بالتَّقاضِي والتَّرافُعِ وإقامَةِ البيِّنَةِ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى تَرْكِ الأَداءِ المَدلولِ عليه بقَولِه: ﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ﴾، ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُواْ﴾: بسَبَبِ قولِهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾؛ أي: ليسَ علينا في شأنِ مَن ليسُوا مِن أهلِ الكِتابِ ولم يكونُوا على دِينِنا ذمٌّ وعِتابٌ.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بادِّعائِهم ذلكَ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّهم كاذبونَ، وذلكَ لأنَّهم استحلُّوا ظُلْمَ مَن خالفَهُم وقالُوا: لم يَجعَلْ لهُم في التَّوراةِ حُرمَةً.

وقيلَ: عامَلَ اليَهودُ رجَالًا من قريشٍ، فلمَّا أسلمُوا تقاضَوهُم، فقالُوا: سقَطَ حقُّكُم حيثُ تَرَكتُم دينكُم، وزعَمُوا أنَّه كذلكَ في كِتابِهم[٣].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٤٢٢)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٥٦)، من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس. وجويبر متروك.

(٢) وقرأ أبو بكر مثل أبي عمرو وحمزة، والمذكور عن هشام هو من رواية الحلواني عنه، والوقف للجميع بالإسكان. انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٧) وما بعدها، و«التيسير» (ص: ٨٩).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٥١٢)، وابن المنذر في «تفسيره» (٦٢٨)، عن ابن جريج. وانظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٢٨٥).

وعن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ عندَ نزولِها: «كَذَبَ أعداءُ اللهِ ما مِن شيءٍ في الجاهِليَّةِ إلَّا وهو تحتَ قدميَّ، إلَّا الأمَانةَ فإنَّها مؤدَّاةٌ إلى البَرِّ والفاجِرِ»(١).

(٧٦) - ﴿بَلَىٰ﴾ إثباتٌ لِمَا نَفوهُ؛ أي: بلَى عليهم فيهِم سَبيلٌ.

﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ للجُملَةِ التي سَدَّتْ ﴿بَلَىٰ﴾ مَسدَّها، والضَّميرُ المَجرورُ لِـ﴿مَنْ﴾ أو لـ﴿ٱللَّهَ﴾، وعُمومُ ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ نابَ منابَ الرَّاجعِ مِن الجزاءِ إلى ﴿مَنْ﴾، وأشعرَ بأنَّ التَّقوى مِلاكُ الأمرِ، وهو يعمُّ الوفاءَ وغيرَهُ؛ مِن أداءِ الواجباتِ والاجتنابِ عن المناهي.

(٧٧) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾: يَستَبدلونَ ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: بما عاهَدُوا عليه مِن الإيمانِ بالرَّسُولِ والوَفاءِ بالأَماناتِ ﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾ وبما حَلَفوا بهِ مِن قولِهم: واللهِ لنُؤمِننَّ به ولنَنْصُرَنَّه.

﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: متاعَ الدُّنيا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما يَسُرُّهم، أو: بشيءٍ أصلًا وأنَّ الملائكةَ يَسألونَهُم يومَ القيامةِ(٢)، أو: لا يَنتفِعونَ بكَلماتِ اللهِ وآياتِه، والظَّاهِرُ أنَّهُ كِنايةٌ عَن غَضبِهِ عَلَيهِم؛ لقولِهِ: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، فإنَّ مَن سَخِطَ على غيرِهِ واستهانَ به أعرَضَ عنه وعن التَّكلُّمِ مَعهُ والالتفاتِ نحوَهُ كما أنَّ مَن اعتدَّ بغيرِهِ يُقاوِلُهُ ويكثِرُ النَّظَرَ إليهِ.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾: ولا يُثْني عَلَيهم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٥١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٦٨٤)، عن سعيد بن جبير مرسلاً.

(٢) قوله: «وأن الملائكة يسألونهم يوم القيامة» أشار به إلى أنه لا يكلِّمهم أصلًا حتى في السؤال عما فعلوا، وإنما تسألهم عنه الملائكة. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٧١).

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ما فعلوهُ.

قيلَ: إنَّها نزلَتْ في أحبَارٍ حَرَّفُوا التَّوراةَ وبدَّلُوا نَعْتَ محمَّدٍ ﷺ وحُكْمَ الأماناتِ وغيرَهما، وأخذُوا على ذلك رِشوَةً(١).

وقيلَ: نَزلَتْ في رَجُلٍ أقامَ سِلعةً في السُّوقِ فحَلَفَ لقد اشتراهَا بما لم يَشترِها بهِ(٢).

وقيلَ: في ترافُعٍ كانَ بين أشعَثَ بنِ قيسٍ وبين يهوديٍّ في بئرٍ أو أَرضٍ وتوجَّهَ الحَلِفُ على اليَهُوديِّ(٣).

(٧٨) ـ ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ يعني: المحرِّفينَ ككَعبٍ ومالكٍ وحُيَيِّ بنِ أخطَبَ ﴿يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾: يَفتِلُونَها بقراءَتِه فيُميلونَها عن المنزَّلِ إلى المحرَّفِ، أو يَعطِفُونَها بشَبهِ(٤) الكتابِ.

وقُرِئَ: «يَلُونَ» على قلبِ الواوِ المضمومةِ همزةً ثُمَّ تخفيفِها بحَذفِها وإلقاءِ حَركتِها على السَّاكنِ قبلَهَا(٥).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٥١٦) عن عكرمة، وكذا ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١١٢).

(٢) رواه البخاري (٢٠٨٨) من حديث عبدِ اللهِ بنِ أبي أَوْفَى رضي اللهُ عنه: أنَّ رجلاً أَقام سِلعةً وهو في السُّوقِ، فحلفَ باللهِ لقد أَعْطَى بها ما لم يُعْطِ ليُوقِعَ فيها رجلًا مِن المسلِمِين، فنزلتْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآيةَ.

(٣) رواه البخاري (٢٥١٦)، ومسلم (١٣٨)، من حديث الأشعث بن قيس رضي الله عنه.
قال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٢١٣) توفيقاً بين الروايات: «لا منافاةَ بينها، ويُحمَلُ على أنَّ النُّزول كان بالسَّببين جميعًا، ولفظُ الآية أعمُّ من ذلك». قلت: ويمكن أن يقال: إنها نزلت في واحدة من القصص المذكورة، وتلاها النبي ﷺ في باقي الحوادث تلاوة فقط تحذيراً من الحَلِف الكاذب.

(٤) في نسخة الطبلاوي: «بشبيه»، وفي نسخة التفتازاني: «بشبهة».

(٥) نسبت لمجاهد وابن كثير. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٧)، و«إعراب القرآن» =

﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الضَّميرُ للمُحَرَّفِ المدلولِ عليه بقولِه: ﴿يَلْوُونَ﴾.

وقُرِئَ: «ليَحْسبوهُ» بالياءِ[1]، والضَّميرُ أيضًا للمُسلمينَ.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ تأكيدٌ لقولِه: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وتشنيعٌ عليهم، وبَيَانٌ لأنَّهم يزعمُونَ ذلك تَصريحًا لا تعرِيضًا؛ أي: ليسَ هو نازلًا مِن عندِهِ، وهذا لا يقتضي أنْ لا يكُونَ فعلُ العَبدِ فعلَ اللهِ.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأكيدٌ وتَسجيلٌ عَليهم بالكَذِبِ على اللهِ والتَّعمُّدِ فيهِ.

(٧٩) ـ ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تكذيبٌ وردٌّ على عَبَدةِ عيسى.

وقيلَ: إنَّ أبا رافعٍ القُرظيَّ والسَّيِّدَ النَّجرانيَّ قالا: يا محمدُ! أتريدُ أن نعبُدَكَ ونتَّخذَكَ رَبًّا؟ فقالَ: «مَعاذَ اللهِ أن نَعبُدَ غيرَ اللهِ أو أن نأمُرَ بغيرِ عبادةِ اللهِ، فما بذلك بَعَثني ولا بذلك أمَرَني» فنزلَت[2].

= للنحاس (١/ ١٦٧)، و«تفسير الثعلبي» (٨/ ٤٥٣)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٥١٦)، و«الكشاف» (٢/ ١٠٠)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٤٦٠).

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٧ ـ ٢٨) عن بعضهم.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٥٢٤)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٨٤) من طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، ومحمد بن أبي محمد مجهول.

ورواه ابن المنذر في «تفسيره» (٦٤٢) عن ابن إسحاق، وهو كذلك في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٥٤).

وقيلَ: قالَ رَجُلٌ: يا رسُولَ اللهِ، نسَلِّمُ عليك كما يسَلِّمُ بَعضُنا على بَعضٍ، أفلا نسجُدُ لك؟ قالَ: «لا ينبغي أن يُسجَدَ لأحدٍ مِن دونِ اللهِ، ولكن أكرمُوا نبيَّكُم واعرِفُوا الحقَّ لأهلِهِ»[1].

﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾: ﴿وَلَٰكِن﴾ يقولُ: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾، و«الرَّبَّانيُّ» مَنسوبٌ إلى «الرَّبِّ» بزيادةِ الألفِ والنُّونِ كـ«اللِّحْيَانيِّ» و«الرَّقَبَانيِّ»[2]، وهو الكامِلُ في العِلمِ والعَمَلِ.

﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾: بسَبَبِ كونِكُم مُعلِّمينَ الكتابَ وبسَبَبِ كونِكُم دَارسينَ له، فإنَّ فائدةَ التَّعليمِ والتَّعلُّمِ معرفةُ الحقِّ والخيرِ للاعتقَادِ والعَملِ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرٍو ويعقوبُ: ﴿تَعْلَمُون﴾[3] بمعنى: عالِمِينَ.

وقُرِئَ: «تُدَرِّسُون» من التَّدريسِ[4]، و: «تُدْرِسُون» مِن «أَدْرَسَ»[5] بمعنى: دَرَّسَ؛ كـ«أكرَمَ وكرَّمَ»، ويجُوزُ أن تكونَ القراءةُ المشهورةُ أيضًا بهذا المعنى على تقديرِ: وبما تَدْرُسُونَه على النَّاسِ.

---

(١) رواه عبد بن حميد عن الحسن كما في «الدر المنثور» (٢/ ٢٥٠)، و«العجاب في بيان الأسباب» (٢/ ٧٠٥).

(٢) «اللِّحْياني»: عظيم اللحية، و«الرَّقَباني»: عظيم الرقبة.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٣)، و«التيسير» (ص: ٨٩)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ١٦٧)، و«النشر» (٢/ ٢٤٠).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٨) عن أبي حيوة، و«المحرر الوجيز» (١/ ٤٦٣) عن الحسن.

(٥) انظر: «المحتسب» (١/ ١٦٣) عن أبي حيوة.

(٨٠) ـ ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًا﴾ نَصَبَهُ ابنُ عامرٍ وحمزةُ وعَاصمٌ ويَعقوبُ[١] عَطفًا على ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾، وتكونُ «لا» مزيدَةً لتأكيدِ مَعنَى النَّفيِ في قولِهِ: ﴿مَا كَانَ﴾؛ أي: ما كانَ لِبَشَرٍ أن يَسْتَنبِئَهُ اللهُ ثُمَّ يأمرَ النَّاسَ بعبادةِ نَفْسِهِ ويأمُرَ باتِّخَاذِ الملائكةِ والنَّبيِّينَ أربابًا، أو غيرَ مَزيدَةٍ على معنى: أنَّه لَيسَ له أن يأمرَ بعبَادتِهِ ولا يأمرَ باتِّخاذِ أكفَائِهِ أربابًا بَل يَنهَى عنه، وهوَ أدنى من العِبَادةِ.

ورفعَه الباقونَ على الاستئنافِ، ويحتمِلُ الحالَ.

وقرأَ أبو عمرٍو على أصلِهِ بروايةِ الدُّوريِّ باختلاسِ الضَّمِّ[٢].

﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ﴾ إنكارٌ، والضَّميرُ فيه للبشَرِ، وقيلَ: لـ﴿ٱللَّهُ﴾.

﴿بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ الخطابَ للمُسْلمينَ وهمُ المستَأذِنُونَ لأنْ يَسجُدُوا له[٣].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٣)، و«التيسير» (ص: ٨٩)، و«النشر» (٢/ ٢٤٠).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٣)، و«التيسير» (ص: ٨٩)، و«النشر» (٢/ ٢٤٠ ـ ٢٤١).

(٣) كذا قال متابعاً للزمخشري في «الكشاف» (٢/ ١٠٥)، والخبر الوارد بهذا من مرسل الحسن كما تقدم، فهو ضعيف ولا يصح الجزم بتفسير الآية عليه، وإن صح فهو قول رجل منهم فلا يصح نسبة ذلك إلى جميعهم، كما أن ذلك القائل ـ على فرض صحة الخبر ـ قد يكون حديث عهد بالإسلام، فكيف يقرن به علماء الصحابة ومن أحاطوا بأصول العقيدة علماً وفهماً؟ ولم أجد للزمخشري سلفاً في حمل الآية على ذلك الخبر، أما مَن بعده فقد تابعه في ذلك كثر منهم المصنف والنسفي أبو البركات وابن كمال باشا وأبو السعود، وغيرهم.

ولعل أحسن ما قيل في الآية هو قول أبي حيان في «البحر» (٥/ ٥٠٠): ﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ هذا استفهام إنكار، وكونه بعد كونهم مسلمين أفحشُ وأقبحُ، إذ الأمر بالكفر على كلِّ حال منكر، ومعناه: أنه لا يأمر بكفرٍ لا بعد الإسلام ولا قبله...». متجنباً ذكر الخبر أو تفسير الآية عليه، أو حتى التعرضَ لكلام الزمخشري، مع أنه من المتعمقين في دراسة «الكشاف» كما لا يخفى على من طالع «بحره».

(٨١) ـ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ قيلَ: إنَّه على ظاهِرِه، وإذا كانَ هذا حُكمَ الأنبياءِ كانَ الأُممُ به أولَى.

وقيلَ: مَعناهُ: أنَّه تعالى أخذَ الميثاقَ من النَّبيِّينَ وأُمَمِهم واستَغْنى بذكرِهم عن ذكرِ الأُمَمِ.

وقيلَ: إضافةُ الميثاقِ إلى النَّبيِّينَ إضَافَتُه إلى الفاعلِ، والمعنَى: وإذ أخذَ اللهُ الميثاقَ الَّذي وثَّقَهُ الأنبياءُ على أُمَمِهم.

وقيلَ: المرادُ: أولادُ النَّبيِّينَ، على حَذفِ المضافِ وهم بنو إسرائيلَ، أو سمَّاهُم نبيِّينَ تهكُّمًا بهم؛ لِأَنَّهُم كانُوا يقولونَ: نحنُ أولَى بالنُّبوَّةِ من محمَّدٍ لأنَّا أهلُ الكتابِ والنَّبيُّونَ كانُوا مِنَّا.

واللَّامُ في ﴿لَمَآ﴾ مُوَطِّئَةٌ للقسَمِ؛ لأنَّ أخذَ الميثاقِ بمعنى الاستحلافِ، و«ما» تحتمِلُ الشَّرطيَّةَ و﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ سَادٌّ مَسَدَّ جوابِ القسَمِ والشَّرطِ، وتحتمِلُ الخبريَّةَ.

وقرأ حمزةُ: ﴿لِمَا﴾ بالكَسرِ[1] على أنَّ «ما» مَصدَريَّةٌ؛ أي: لأَجلِ إيتائي إيَّاكُم بعضَ الكتابِ ثمَّ مجيءِ رسُولٍ مُصدِّقٍ أخذَ اللهُ الميثاقَ لتؤمِنُنَّ به ولتنصرنَّه، أو مَوصُولَةٌ، والمعنَى: أَخذَه للَّذي آتيتكُمُوهُ وجاءَكم رسُولٌ مصدِّقٌ له.

وقُرِئَ: «لَمَّا»[2] بمعنى: حينَ آتيتُكُم، أو: لَمِن أجلِ ما آتيتُكُم، على أنَّ أَصلَهُ: «لَمِن ما» بالإدغامِ، فحُذِفَت إِحدَى الميماتِ الثَّلاثِ استثقالًا.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٣ ـ ٢١٤)، و«التيسير» (ص: ٨٩).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ٤٦٩)، و«الكشاف» (٢/ ١٠٨)، عن سعيد بن جبير، ونسبها ابن جني في «المحتسب» (١/ ١٦٤) للأعرج برواية: (لمَّا آتيناكم).

وقَرأَ نافِعٌ: ﴿لَمَا آتيناكم﴾ بالنُّونِ والألفِ جميعًا[١].

﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أي: عَهدِي، سُمِّيَ بهِ لأنَّه ممَّا يُؤصَرُ؛ أي: يُشَدُّ.

وقُرِئَ بالضَّمِّ[٢]، وهو إمَّا لغةٌ فيه كـ«عِبْرٍ» و«عُبْرٍ»[٣]، أو جَمعُ «إِصَارٍ»، وهُو ما يُشَدُّ بهِ.

﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟﴾؛ أي: فليشهَدْ بَعضُكُم على بعضٍ بالإقرارِ.

وقيلَ: الخطابُ فيه للملائكةِ.

﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: وأنا أيْضًا على إقرارِكُم وتشَاهُدِكم شاهِدٌ، وهوَ توكيدٌ وتحذيرٌ عَظيمٌ.

(٨٢) ـ ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: بعدَ الميثاقِ والتَّوكيدِ بالإقرارِ والشَّهادَةِ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: المتمرِّدُونَ منَ الكفرَةِ.

(٨٣) ـ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ عطفٌ على الجُملةِ المتقدِّمَةِ، والهمزَةُ مُتوسِّطَةٌ بينَهُما للإنكارِ، أو محذوفٍ[٤] تقديرُه: أَيَتوَلَّوْنَ فغيرَ دينِ اللهِ يبغونَ؟ وتقديمُ المفعُولِ لأنَّه المقصُودُ بالإنكارِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٣ ـ ٢١٤)، و«التيسير» (ص: ٨٩).

(٢) أي: (أُصْري)، وهو روايةٌ عن عاصم مخالفةٌ للمشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٨).

(٣) قوله: (كـ«عِبر» و«عُبر»)، يقال: جملٌ عُبْرُ أسفارٍ، وجمالٌ عُبْرُ أسفارٍ، وناقةٌ عُبْرُ أسفارٍ، يستوي فيه الواحد والجمع والمؤنث؛ أي: لا يزال يُسافَر عليها، وكذلك «عِبْرُ أسفارٍ» بالكسر. انظر: «الصحاح» (مادة: عبر).

(٤) قوله: «أو محذوفٍ»؛ أي: أو عطفٌ على محذوف.

والفعلُ بلفظِ الغيبَةِ عندَ أبي عمرٍو وعَاصمٍ في روايةِ حفصٍ ويعقوبَ، وبالتَّاءِ عند الباقينَ(١) على تقديرِ: وقلْ لهُم.

﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾؛ أي: طائعينَ بالنَّظرِ واتِّباعِ الحُجَّةِ، وكارهِينَ بالسَّيفِ ومعايَنةِ ما يُلجئُ إلى الإسلامِ كنَتقِ الجبلِ وإدراكِ الغرقِ والإشرافِ على الموتِ.

أو: مُختارينَ كالملائكةِ والمؤمنينَ، ومُسخَّرينَ كالكفرةِ فإنَّهُم لا يقدرونَ أن يمتَنِعُوا عمَّا قضَى عليهم.

﴿وإليه تُرْجعُون﴾ وقُرِئَ بالياءِ(٢) على أنَّ الضَّميرَ لِـ﴿مَن﴾.

(٨٤) ـ ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ أمرٌ للرَّسُولِ صلواتُ اللهِ عليه بأن يُخبرَ عن نَفسِهِ ومتابعيهِ بالإيمانِ، والقرآنُ كما هُو مُنزَلٌ عليه مُنزَلٌ عليهم بتوسُّطِ تَبليغِهِ إليهم، وأيضًا المنسُوبُ إلى واحدٍ من الجَمعِ قد يُنسَبُ إليهم، أو بأنْ يتكلَّمَ عن نفسِهِ على طريقةِ الملوكِ إجلالًا له.

والنُّزولُ كما يُعدَّى بـ«إلى» لأنَّه ينتهي إلى الرُّسلِ يُعدَّى بـ«على» لأنَّه من فوقُ، وإنَّما قُدِّمَ المنزَلُ عليه على المنزَلِ على سَائرِ الرُّسلِ لأنَّه المعرِّفُ له والعِيَارُ عليه.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ بالتَّصديقِ والتَّكذيبِ ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾: مُنقادونَ، أو مُخلصُونَ في عبَادتِه.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٤)، و«التيسير» (ص: ٨٩).

(٢) قرأ حفص: ﴿يُرْجَعُون﴾ بضم الياء، ويعقوب: ﴿يَرْجِعُون﴾ بفتحها، وقرأ الباقي ﴿تُرْجعون﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٢١٤)، و«التيسير» (ص: ٨٩)، و«المبسوط» (ص: ١٦٧)، و«النشر» (٢/ ٢٠٨، ٢٤١).

(٨٥) - ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا ﴾؛ أي: غيرَ التَّوحيدِ والانقيادِ لحكمِ اللهِ ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾: الواقعينَ في الخُسرانِ، والمعنى: أنَّ المُعرِضَ عن الإسلامِ والطَّالِبَ لغيرِه فاقدٌ للنَّفعِ واقعٌ في الخُسرانِ بإبطالِ الفطرَةِ السَّليمةِ الَّتي فطَرَ اللهُ النَّاسَ عليها.

واستُدلَّ به على أنَّ الإيمانَ هو الإسلامُ؛ إذ لو كانَ غيرَه لم يُقبَل.

والجوابُ: أنَّه يَنفي قَبولَ كلِّ دينٍ يُغايرُه لا قَبولَ كلِّ ما يُغايرُه، ولعلَّ ﴿ٱلدِّينَ ﴾ أيضًا للأعمالِ.

(٨٦) - ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ استبعادٌ لأنْ يَهدِيَهم اللهُ، فإنَّ الحائدَ عن الحقِّ بعدَ ما وضحَ له منهمِكٌ في الضَّلالِ بعيدٌ عن الرَّشادِ.

وقيلَ: نفيٌ وإنكارٌ له، وذلك يقتضِي أن لا تُقبلَ توبَةُ المرتدِّ.

﴿وَشَهِدُوٓاْ﴾ عطفٌ على ما في ﴿إِيمَٰنِهِمْ ﴾ مِن معنى الفِعلِ، ونَظِيرُهُ: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ [المنافقون: ١٠]، أو حالٌ بإضمارِ «قد» مِن ﴿كَفَرُواْ ﴾[1]، وهو على الوَجهَينِ دليلٌ على أنَّ الإقرارَ باللِّسانِ خارجٌ عن حقيقةِ الإيمانِ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾: الَّذينَ ظلمُوا أنفسَهُم بالإخلالِ بالنَّظَرِ، ووضعِ الكفرِ موضِعَ الإيمانِ، فكيفَ مَن جَاءَهُ الحقُّ وعرفَه ثمَّ أعرَضَ عنه؟

(٨٧) - ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ يدلُّ بمَنطوقِه على جوازِ لَعْنِهم، وبمفهومِه ينفي جوازَ لَعنِ غيرِهم، ولعَلَّ الفرقَ: أَنَّهم مَطبوعُونَ على الكُفرِ ممنوعونَ عَن الهُدى، مأْيُوسُونَ عن الرَّحمةِ رأسًا، بخلافِ غيرِهم.

---

(١) أي: من ضميره، وهو الواو.

والمرَادُ بالنَّاسِ: المؤمِنُون، أو العُمُومُ، فإنَّ الكافرَ أيضًا يلعَنُ منكِرَ الحقِّ والمرتَدَّ عنه ولكنْ لا يعرفُ الحقَّ بعينِه.

(٨٨ ـ ٨٩) ـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: في اللَّعنَةِ، أو العقوبةِ، أو النَّارِ، وإن لم يجرِ ذكرُهما لدلالةِ الكَلامِ عليهِما.

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من بَعدِ الارتدادِ ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ مَا أفسَدُوا، ويجُوزُ أن لا يقدَّرَ له مفعُولٌ بمعنَى: ودَخلُوا في الصَّلاحِ.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يقبلُ توبتَهُ ﴿رَّحِيمٌ﴾ يتفضَّلُ عليه.

قيلَ: إنَّها نزلَتْ في الحارثِ بن سُوَيدٍ حينَ ندِمَ على ردَّتِه، فأرسَلَ إلى قومِه: أنْ سَلُوا: هَل لي مِن توبَةٍ؟ فأرسَلَ إليهِ أخُوهُ الجُلَاسُ بالآيةِ، فرجعَ إلى المدينَةِ فتابَ[1].

(٩٠) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾: كاليهُودِ كفرُوا بعيسَى والإنجيلِ بعدَ الإيمانِ بموسى والتَّوراةِ ثمَّ ازدادُوا كفرًا بمحمَّدٍ والقرآنِ، أو كفرُوا بمحمَّدٍ بعدَما آمَنُوا به قبل مَبْعثِه ثمَّ ازدادُوا كفرًا بالإصرارِ والعِنادِ والطَّعنِ فيه والصَّدِّ عن الإيمانِ ونقضِ الميثاقِ.

أو كقومٍ ارتدُّوا ولحِقُوا بمكَّةَ ثمَّ ازدادُوا كفرًا بقولِهم: نتَرَبَّصُ بمحمَّدٍ رَيْبَ المنُونِ أو نرجعُ إليه وننافقُه بإظهارِه[2].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٢٨٩). ورواه بنحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (٤٢٦)، والطبري في «تفسيره» (٥/ ٥٥٨ و٥٥٩)، عن مجاهد. ورواه النسائي (٤٠٦٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٤٧٧)، والطبري (٥/ ٥٥٧)، عن ابن عباس رضي الله عنهما دون تسمية الحارث وأخيه.

(٢) ذكره بنحوه مقاتل والكلبي. انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٢٨٩)، و«تفسير الثعلبي» (٨/ ٤٩).

﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ لأنَّهم لا يتوبُونَ، أو لا يَتوبُونَ إلَّا إذا أَشْفَوا[1] على الهلاكِ، فكُنيَ عن عدمِ تَوبَتِهم بعدَمِ قَبُولِها تغليظًا في شأنِهم، وإبرازِ حالِهم في صُورةِ حالِ الآيِسِينَ من الرَّحمَةِ، أو لأنَّ توبتَهُم لا تكونُ إلَّا نِفاقًا، لا لارتدادِهم[2] وزيادَةِ كُفرِهم، ولذلكَ لم تَدْخلِ الفاءُ فيه[3].

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾: الثَّابتُونَ على الضَّلالِ.

(٩١) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ لَمَّا كانَ الموتُ على الكُفرِ سببًا لامتناعِ قَبولِ الفِديَةِ أدخلَ الفاءَ هاهنا للإشعَارِ به، ومِلءُ الشَّيءِ: ما يملؤُه[4]، و﴿ذَهَبًا﴾ نَصبٌ على التَّمييزِ.

وقُرِئَ بالرَّفعِ[5] على البدَلِ مِن ﴿مِّلْءُ﴾ أو الخبرِ لمحذوفٍ.

﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ محمُولٌ على المعنى؛ كأنَّه قيلَ: فلَن يُقبَلَ مِن أحَدِهم فِديَةٌ ولو افتدَى بمِلءِ الأرضِ ذَهبًا، أو معطوفٌ على مُضمَرٍ تقديرُه: فلن يُقبَلَ

---

(١) في نسخة التفتازاني: «أشرفوا».

(٢) قوله: «أو لأن توبتهم» عطف على «لأنهم لا يتوبون»، وكذا قوله: «لا لارتدادهم وزيادة كفرهم»، وإنما نفى ذلك؛ لأنه عُلِم مما قبله، ولأنه لا يلزم من الردَّة والازدياد عدمُ قَبول التوبة. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٨٤).

(٣) قوله: «ولذلكَ لم تَدْخل الفاءُ فيه» اختصارٌ لكلام الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ١١٤) حيث قال: فإن قلتَ: فلم قيل في إحدى الآيتين: ﴿لَّن تُقْبَلَ﴾ بغير فاء، وفي الأخرى ﴿فَلَن يُقْبَلَ﴾؟ قلت: قد أُوذن بالفاء أن الكلام بُني على الشرط والجزاء، وأن سببَ امتناع قبولِ الفدية هو الموتُ على الكفر، وبتركِ الفاء أن الكلام مبتدأ وخبرٌ، ولا دليل فيه على التسبُّب، كما تقول: الذي جاءني له درهم، لم تجعل المجيءَ سبباً في استحقاقِ الدرهم، بخلاف قولك: فله درهمٌ.

(٤) في نسخة الخيالي: «وملء الأرض ما يملؤها».

(٥) نسبها الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ١١٥) للأعمش، وانظر: «البحر» (٥/ ٥٣٠).

مِـن أَحدِهـم مِـلءُ الأَرضِ ذَهبًـا لو تقـرَّبَ به فـي الدُّنيَا ولو افتـدَى به مـن العَذابِ فـي الآخرةِ.

أو المرادُ: ولو افتدَى بمِثلِه؛ كقولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ [الزمر: ٤٧]، والمِثلُ يُحذَفُ ويُرادُ كثيرًا لأنَّ المِثلَينِ في حُكْمِ شَيءٍ واحِدٍ.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مبالغةٌ في التَّحذيرِ وإقناطٌ؛ لأنَّ مَن لا يُقبَلُ منه الفِداءُ رُبَّما يُعفَى عنه تكرُّمًا.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ في دَفعِ العَذابِ، و«مِن» مَزيدَةٌ للاستغراقِ.

(٩٢) ـ ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾؛ أي: لَن تبلُغوا حقيقةَ البِرِّ الَّذي هو كمالُ الخيرِ، أو: لَن تنالُوا برَّ اللهِ الَّذي هوَ الرَّحمَةُ والرِّضا والجنَّةُ.

﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾؛ أي: منَ المالِ، أو مَا يعمُّهُ وغيرَه كبَذْلِ الجاهِ في مُعَاونةِ النَّاسِ، والبدَنِ في طاعةِ اللهِ، والمهجَةِ في سَبيلِهِ.

رُويَ أنَّها لَمَّا نزلَتْ جاءَ أبُو طلحَةَ فقالَ: يا رسُولَ اللهِ، إنَّ أحبَّ أَموالي إليَّ بَيرَحَاءَ فضَعْها حيثُ أرادَ اللهُ، فقالَ: «بَخْ بَخْ ذاكَ مالٌ رابحٌ ـ أو: رائِحٌ ـ وإنِّي أرى أن تجعلَها في الأقرَبينَ»[1].

وجَاءَ زيدُ بنُ حَارثةَ بفرسٍ كانَ يحبُّها، فقالَ: هذه في سَبيلِ اللهِ، فحملَ عليها[2] رسُولُ اللهِ ﷺ أُسَامَةَ بنَ زيدٍ، فقالَ زَيدٌ: إنَّما أردتُ أن أتصدَّقَ به! فقالَ عليه السَّلامُ:

---

(١) رواه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨)، من حديث أنس رضي الله عنه. ورواية «رائح» عند البخاري (٢٣١٨).

(٢) في نسخة الخيالي: «بفرس كان يحبه، فقال: هذا في سبيل الله، فحمل عليه». وكذا في نسخة الطبلاوي لكن فيها: «تحته» بدل «يحبه».

«إنَّ اللهَ تعالى قد قَبِلَها منك»(١). وذلكَ يَدلُّ على أنَّ إنفاقَ أحبِّ الأموالِ على أقربِ الأَقاربِ أفضَلُ، وأنَّ الآيَةَ تعمُّ الإنفاقَ الواجبَ والمستحَبَّ.

وقُـرِئَ: «بعـضَ ما تحبُّـونَ»(٢)، وهو يـدُلُّ على أنَّ «مِـنْ» للتَّبعِيـضِ، ويحتمِلُ التَّبيينَ.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ﴾: مِن أيِّ شَيءٍ مَحبوبٍ أو غيرِه و﴿مِن﴾ لبيَانِ ﴿مَا﴾.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ فيُجازِيكُم بحسَبِه.

(٩٣) ـ ﴿كُلُّ الطَّعَامِ﴾؛ أي: المطعُومَاتِ، والمرادُ: أَكْلُها ﴿كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: حَلالًا لهُم، وهو مَصْدَرٌ نُعِتَ به، ولذلك يَستوي فـيه الواحدُ والجمعُ والمذكَّرُ والمؤنَّثُ، قالَ تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠].

﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ﴾ يعقوبُ ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ كلحُومِ الإبلِ وألبانِهَا، قيلَ: كانَ به عِرقُ النَّسا، فنذرَ إن شُفِيَ لم يأكُلْ أَحبَّ الطَّعَامِ إليه، وكان ذلكَ أحبَّهُ إليهِ(٣).

وقيلَ: فَعَلَ ذلك للتَّداوي بإشارةِ الأطبَّاءِ، واحتجَّ به مَن جوَّزَ للنَّبيِّ أن يجتهِدَ، وللمَانعِ أن يقولَ: ذلكَ بإذنٍ منَ اللهِ، فهو كتحريمِهِ ابتداءً.

﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَىٰةُ﴾؛ أي: مِن قبلِ إنزالِها مُشتمِلَةً عـلى تحريمِ ما حُرِّمَ

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٤٢٨)، والطبري فـي «تفسيره» (٥/ ٥٧٧)، عن أيوب. ورواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٥٧٦) عن عمرو بن دينار، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٧٠٤) عن محمد بن المنكدر، وكلها مرسلات.

(٢) انظر: «الكشاف» (٢/ ١١٧)، و«البحر» (٦/ ٨)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٤٨٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣١٥٢)، بسند صحيح كما في «حاشية السيوطي» (٤/ ١٩٥).

عليهم لظُلْمِهم وبَغْيِهم عُقوبَةً وتشدِيدًا، وذلك ردٌّ على اليَهودِ في دَعوَى البَراءةِ عمَّا نُعِيَ عليهم في قولِهِ تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ﴾ [النساء: ١٦٠] وقولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] الآيتانِ بأن قالُوا: لسنَا أوَّلَ مَن حُرِّمَتْ عليه، وإنَّما كانَت محرَّمَةً على نوحٍ وإبرَاهيمَ ومَن بعدَه، حتَّى انتهَى الأمرُ إلينا، فحرِّمَت علينا كما حُرِّمَت على مَن قبلنا، وفي منعِ النَّسخِ، والطَّعنِ[1] في دَعوَى الرَّسُولِ موافقةَ إبراهيمَ بتَحليلِهِ لحُومَ الإبلِ وألبانَها.

﴿قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أمرٌ بمحاجَّتِهم بكتابِهم وتَبْكِيتِهم بما فيه من أنَّه قد حُرِّمَ عليهم بسبَبِ ظُلْمِهم ما لم يكن محرَّمًا.

رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ لمَّا قالَ لهُم بُهِتُوا ولم يَجسُروا أن يُخرِجُوا التَّوراةَ، وفيه دليلٌ على نبوَّتِه.

(٩٤) - ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: ابتدَعَه على اللهِ بزَعْمِه أنَّه حرَّمَ ذلك قبلَ نُزولِ التَّوراةِ على بني إسرائيلَ ومَن قبلَهُم ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ مِن بعدِ ما لزِمتْهُم الحُجَّةُ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الَّذينَ لا يُنصِفُونَ مِن أنفُسِهم، ويُكابرونَ الحقَّ بعدَ ما وَضحَ.

(٩٥) - ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ تعريضٌ بكَذِبهم؛ أي: ثبَتَ أنَّ اللهَ صَادقٌ فيما أنزلَ وأنتم الكاذبُونَ ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ أي: مِلَّةَ الإسلامِ الَّتي هي في الأصلِ مِلَّةُ إبراهيمَ أو مِثلُ ملَّتِه، حتَّى تتخلَّصُوا من اليَهوديَّةِ الَّتي اضطَرَّتْكُم إلى التَّحريفِ والمكابرَةِ لتَسويةِ الأغراضِ الدُّنيويَّةِ، وألزَمَتْكُم تحريمَ طيِّباتٍ أحَلَّها لإبراهيمَ ومَن تبعَهُ.

---

(١) قوله: «في منع النسخ» معطوف على قوله: «في دعوى البَراءةِ»، و«الطعنِ» معطوف على قوله: «النسخ». انظر: «حاشية الخفاجي»، و«حاشية القونوي» (٦/ ٢٣٢).

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فيه إشارَةٌ إلى أنَّ اتِّباعَه واجـبٌ فـي التَّوحيدِ الصِّرفِ والاستقَامَةِ في الدِّينِ، والتَّجنُّبِ عن الإفراطِ والتَّفريطِ، وتعريضٌ بشِركِ اليَهُودِ.

(٩٦) ـ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: وُضِـعَ للعبادةِ وجُـعِـلَ متعبَّدًا لهُم، والواضعُ هو اللهُ تعالى، ويدلُّ عليه أنَّه قُرِئَ على البناءِ للفاعلِ[1].

﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾: لَلبَيتُ الَّذي ببكَّةَ، وهي لغةٌ في «مَكَّةَ» كـ«النُّبَيطِ» و«النُّمَيطِ»، و«أمرٌ رَاتبٌ» و«راتمٌ»، و«لازبٌ» و«لازمٌ».

وقيلَ: هيَ مَوضعُ المسجدِ، ومكَّةُ البلدُ.

مِن «بكَّهُ»: إذا زحَمَه، أو مِن «بَكَّهُ»: إذا دقَّهُ، فإنَّها تبكُّ أعناقَ الجبَابرةِ.

رُويَ: أنَّه عليه السَّلامُ سُئِلَ عن أوَّلِ بيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ فقالَ: «المسجدُ الحرامُ، ثمَّ بَيتُ المقدسِ» وسُئِلَ: كَم بينَهما؟ فقالَ: «أربعُونَ سنَةً»[2].

وقيلَ: أَوَّلُ مَن بناهُ إبراهيمُ، ثمَّ هُدمَ فبَناهُ قومٌ من جُرْهُمَ، ثمَّ العمالقَةُ، ثمَّ قريشٌ.

وقيلَ: هو أوَّلُ بيتٍ بناهُ آدمُ، فانطمسَ في الطُّوفانِ، ثمَّ بناهُ إبراهيمُ.

وقيلَ: كانَ في مَوضعِه قبلَ آدمَ بيتٌ يقالُ له: الضُّرَاحُ[3]، تطوفُ به الملائكةُ، فلمَّا أُهبِطَ أُمِرَ بأن يحجَّهُ ويَطوفَ حَولَه، ورُفِعَ في الطُّوفَانِ إلى السَّماءِ الرَّابعَةِ تطوفُ به ملائكةُ السَّماواتِ[4]. وهو لا يلائمُ ظاهرَ الآيةِ.

---

(١) انظر «تفسير الثعلبي» (٩/ ٧) عن ابن السميفع، و«المحرر الوجيز» (١/ ٤٧٤) عن عكرمة.

(٢) رواه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) رواه إلى هنا عبد الرزاق في «المصنف» (٨٨٧٤)، والأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ٤٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٧٠٩).

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٠٨)، و«تفسير البغوي» (١/ ١٥٠)، و«الكشاف» (٢/ ١٢١ ـ ١٢٢).

وقيلَ: المرادُ أنَّه أوَّلُ بالشَّرفِ لا بالزَّمَانِ.

﴿مُبَارَكًا﴾: كثيرَ الخيرِ والنَّفعِ لِمَن حَجَّه واعتمرَهُ واعتكَفَ دونَهُ وطافَ حَولَهُ، حالٌ مِن المستكنِّ في الظَّرفِ.

﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ لأنَّهُ قِبلَتُهُم ومُتعَبَّدُهم، ولأنَّ فيه آياتٍ عجيبةً كما قالَ:

(٩٧) ـ ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ كانحرافِ الطيُورِ عَن مُوازاةِ البَيْتِ على مدَى الأَعصَارِ، وأنَّ ضواريَ السِّبَاعِ تُخالِطُ الصُّيودَ في الحرَمِ ولا تتعرَّضُ لها، وأنَّ كلَّ جَبَّارٍ قصَدَهَا بسُوءٍ قَهَرَهُ كأصحابِ الفِيلِ.

والجملةُ مفسِّرةٌ للهُدى أو حالٌ أخرى.

﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ مُبتدأٌ محذوفٌ خبرُه؛ أي: منها مقامُ إبراهيمَ، أو بدَلٌ من ﴿ءَايَٰتُۢ﴾ بدَلَ البَعضِ من الكلِّ، وقيلَ: عَطفُ بيانٍ على أنَّ المرادَ بالآياتِ أثرُ القدَمِ في الصَّخرةِ الصَّمَّاءِ، وغَوصُها فيها إلى الكعبَينِ، وتخصِيصُها بهذِهِ الإلانَةِ من بين الصِّخارِ، وإبقاؤُه دونَ سَائرِ آثارِ الأنبياءِ، وحفظُه معَ كثرةِ أعدائهِ أُلُوفَ سنةٍ، ويؤيِّدُهُ أنَّه قرِئَ: «آيَةٌ بيِّنةٌ» على التَّوحيدِ[1].

وسَبَبُ هذا الأثَرِ: أنَّه لمَّا ارتفعَ بنيَانُ الكَعبَةِ قامَ على هذا الحجرِ ليتمكَّنَ من رَفعِ الحجارةِ، فغَاصَتْ فيه قَدماهُ[2].

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ جُملةٌ ابتدائيَّةٌ أو شرطيَّةٌ معطُوفةٌ مِن حَيثُ المعنَى

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٨)، و«الكشاف» (٢/ ١٢٥)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٤٧٥)، عن ابن عباس وأبيٍّ ومجاهد وغيرهم.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٢٦) عن سعيد بن جبير، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (١/ ٢٩١)، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

على ﴿مَقَامُ﴾ لأنَّه في معنى: أَمْنُ مَن دخلَهُ؛ أي: ومنها أَمْنُ مَن دَخَلَهُ، أو: فيه آياتٌ بيناتٌ مَقامُ إبرَاهيمَ وأمْنُ مَن دَخَلَه، اقتصَرَ بذكرِهما منَ الآياتِ الكثيرةِ وطَوَى ذكرَ غَيرِهما، كقولِهِ عليه السَّلامُ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِن دُنيَاكم ثلاثٌ: الطِّيبُ، والنِّساءُ، وقرَّةُ عيني في الصَّلاةِ»[1]، لأنَّ فيهما غُنيَةٌ عَن غيرِهما في الدَّارينِ: بقاءِ الأثرِ مدَى الدَّهرِ، والأمنِ منَ العذابِ يومَ القيَامَةِ، قالَ عليهِ السَّلامُ: «مَن مَاتَ في أَحَدِ الحَرَمَيْنِ بُعِثَ يَومَ القيَامَةِ آمِنًا»[2].

---

(١) رواه النسائي (٣٩٣٩) و(٣٩٤٠)، والإمام أحمد في «المسند» (١٢٢٩٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٤٨٢)، من حديث أنس. ولفظ «ثلاث» تابع فيه المصنف الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ١٢٤) ولم يرد في مصادر التخريج، وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ٢٧) بعد أن استوفى تخريجه: ليس في شيء من طرقه لفظ «ثلاث» بل أوله عند الجميع: «حبب إلى من دنياكم النساء...» الحديثَ، وزيادة «ثلاث» تفسد المعنى، على أن الإمام أبا بكر بن فورك شرحه في جزء مفرد بإثباتها، وكذلك أورده الغزالي في «الإحياء»، واشتهر على الألسنة. وانظر: «الإحياء» (٣/ ٢١٩).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٥٨٨٣)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٣٦)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ١٢٩)، من حديث جابر رضي الله عنه. قال ابن الجوزي: فيه عبد الله بن المؤمل، قال أحمد: أحاديثه مناكير، وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج بخبره إذا انفرد. وفيه موسى بن عبد الرحمن، قال ابن حبان: دجال يضع الحديث.

ورواه الطبراني في «الكبير» (٦١٠٤)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ١٢٩)، من حديث سلمان رضي الله عنه. وقال ابن الجوزي: فيه ضعفاء، والمتهم به عبد الغفور [هو ابن سعيد الأنصاري]، قال يحيى بن معين: ليس بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث تركوه، وقال ابن حبان: كان يضع الحديث على الثقات، لا يحل كَتْبُ حديثه إلا على التعجب.

وروي أيضا من حديث أنس وعمر وحاطب رضي الله عنهم، وكلها ضعيفة. انظر: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (١/ ١٩٧). قلت: ومع ذلك فقد حسن متنه السيوطي فقال: والذي أستخير الله فيه الحكم لمتن الحديث بالحسن لكثرة شواهده. انظر: «اللآلئ المصنوعة» (٢/ ١٠٩).

وعندَ أبي حنيفةَ رحمَهُ الله: من لزمَهُ القتلُ بردَّةٍ أو قصَاصٍ أو غيرِهما لم يُتعرَّضْ له، ولكنْ أُلجِئَ إلى الخُرُوجِ.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾: قصدُه للزِّيارَةِ على الوَجهِ المخصُوصِ.

وقـرأَ حمزةُ والكسَائيُّ وعاصِمٌ في روايةِ حفصٍ: ﴿حِجُّ﴾ بالكَسرِ[1]، وهي لغةُ نَجْدٍ.

﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ بدَلٌ مِن ﴿ٱلنَّاسِ﴾ مخصِّصٌ له، وقد فسَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الاستطاعَةَ بالزَّادِ والرَّاحلةِ[2]، وهو يؤيِّدُ قولَ الشَّافعيِّ رضي الله عنه أنَّها بالمالِ، ولذلك أوجَبَ الاستِنابَةَ على الزَّمِنِ إذا وَجَدَ أُجرَةَ مَن يَنوبُ عنه.

وقالَ مَالكٌ: إنَّها بالبدَنِ، فيجبُ على مَن قدَرَ على المشيِ والكَسْبِ في الطَّريقِ.

وقال أبُو حنيفةَ: إنَّها بمَجْمُوعِ الأمرَينِ.

والضَّميرُ في ﴿إِلَيْهِ﴾ للبيتِ أو الحجِّ، وكلُّ مأتًى إلى الشَّيءِ فهو سَبيلُه.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٤)، و«التيسير» (ص: ٩٠).

(٢) رواه الدارقطني في «سننه» الأحاديث (٢٤١٣ ـ ٢٤٢٧) من حديث جابر وعبد الله بن عمرو وابن مسعود وأنس وعائشة وابن عمر وابن عباس. وضعف أسانيدها الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ٢٨). وقال الطبري في «تفسيره» (٥/ ٦١٧): في أسانيدها نظر لا يجوز الاحتجاج بمثلها في الدِّين.

وروى حديث ابن عمر أيضاً الترمذي (٨١٣) وابن ماجه (٢٨٩٦). وأشار الترمذي لتضعيفه بقوله: لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن يزيد الخوزي المكي، وقد تكلم بعض أهل العلم في إبراهيم بن يزيد من قبل حفظه.

ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٤٣٦)، والإمام أحمد في «مسائله برواية ابنه عبد الله» (ص: ١٩٧)، عن الحسن مرسلاً. وهذا هو الصحيح من روايات هذا الحديث كما قال ابن المنذر. انظر: «التلخيص الحبير» (٢/ ٢٢١).

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وَضعَ ﴿كَفَرَ﴾ مَوضِعَ «لم يحجَّ» تأكيدًا لوُجُوبِهِ، وتغليظًا على تاركِهِ، ولذلكَ قالَ عليهِ السَّلامُ: «مَن مَاتَ ولم يحجَّ فليَمُت إن شاءَ يهُوْدِيًّا وإن شاءَ نَصرانيًّا[١]»[٢].

وقد أكَّدَ أمرَ الحجِّ في هذِه الآيةِ مِن وجوهٍ: الدَّلالةُ على وجُوبه بصيغةِ الخبرِ، وإبرازُه في الصُّورةِ الاسميَّةِ، وإيرادُه على وجهٍ يُفيدُ أنَّه حقٌّ واجبٌ للهِ في رقابِ النَّاسِ، وتعميمُ الحُكمِ أوَّلًا وتخصِيْصُه ثانيًا؛ فإنَّه كإيضاحٍ بعدَ إبهَامٍ وتَثنِيَةٍ وتكريرٍ للمرادِ، وتسميةُ تركِ الحَجِّ كُفرًا مِن حيثُ إنَّهُ فِعلُ الكفرَةِ، وذكرُ الاستغناءِ، فإنَّه في هذا الموضعِ ممَّا يَدلُّ على المقتِ والخذلانِ، وقولُه: ﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَدلُّ عليه؛ لِمَا فيه من مبالغةِ التَّعميمِ والدَّلالةِ على الاستغناءِ عنه بالبُرهَانِ والإشعارِ بعِظمِ السَّخطِ؛ لأَنَّهُ تكليفٌ شاقٌّ جامعٌ بين كَسْرِ النَّفسِ، وإتعابِ البدَنِ، وصرفِ المالِ، والتَّجرُّدِ عن الشَّهَواتِ، والإقبالِ على اللهِ.

رُوِيَ أنَّه لمَّا نزَل صَدرُ الآيةِ جمعَ رَسولُ اللهِ ﷺ أربابَ المِلَلِ فخَطَبَهم وقال: «إنَّ اللهَ كتبَ عليكُم الحجَّ فحُجُّوا» فآمَنَتْ به مِلَّة واحِدَةٌ وكفرَتْ به خمسُ مِللٍ، فنزلَ: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾[٣].

---

(١) في نسخة الخيالي: «يهودياً أو نصرانياً»، وهو موافق لما في «الكشاف»، والمثبت من باقي النسخ والمصادر.

(٢) رواه «الدارمي» في «سننه» (١٨٢٦)، والبيهقي في «الشعب» (٣٦٩٣)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه بلفظ: «مَن لمْ يَحْبِسْه حاجةٌ ظاهرةٌ أو مرضٌ حابسٌ أو سلطانٌ جائرٌ ولم يَحُجَّ فلْيمُتْ إنْ شاء يهوديًّا وإن شاء نصرانيًّا». وفي إسناده ليث بن أبي سليم وهو ضعيف. وروى نحوه الترمذي (٨١٢) من حديث علي رضي الله عنه وقال: في إسناده مقال. وروي عن عمر رضي الله عنه موقوفا، وصحح إسناده ابن كثير في «مسند الفاروق» (١/ ٢٩٢).

(٣) رواه سعيد بن منصور في «التفسير من سننه» (٥١٥)، والطبري في «تفسيره» (٥/ ٦٢١) من طريق =

(٩٨) ـ ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بآياتِهِ السَّمعيَّةِ والعَقليّةِ الدَّالَّةِ على صدقِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ فيما يدَّعيهِ مِن وجُوبِ الحجِّ وغيرِه، وتخصيصُ أهلِ الكِتابِ بالخطابِ دَليلٌ على أنَّ كُفرَهُم أقبَحُ، وأنَّهم وإن زعمُوا أنَّهُم يؤمِنونَ بالتَّوراةِ والإنجيلِ فهم كافرونَ بهما.

﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ والحالُ أنَّه شَهِيدٌ مُطَّلِعٌ على أعمالِكُم فيُجازِيكُم عليها لا يَنفعُكُم التَّحريفُ والاستِسْرارُ.

(٩٩) ـ ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ﴾ كـرَّرَ الخـطابَ والاستفهامَ مبالغةً في التَّقريعِ ونَفْيِ العُذرِ عنهم، وإشعَارًا بأنَّ كلَّ وَاحِدٍ من الأمرَينِ مُسْتقبَحٌ في نَفسِهِ مُستقِلٌّ باستجلابِ العَذابِ.

و«سَبيلُ اللهِ»: دينُه الحقُّ المأمُورُ بسُلوكِه وهوَ الإسلامُ.

قيلَ: كانُوا يفتنونَ المؤمنينَ ويحرِّشُونَ بينهم، حتَّى أتَوا الأوسَ والخزرَجَ فذكَّرُوهم ما بينَهُم في الجاهِليَّةِ من التَّعادي والتَّحارُبِ ليعُودُوا لمثلِهِ، ويحتالُونَ لصَدِّهم عنه[1].

﴿تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ حـالٌ مِن الواوِ؛ أي: باغينَ طالبينَ لها اعوِجَاجًا بأن تُلبِّسُوا على النَّاسِ وتُوْهِمُوا أنَّ فيه عِوَجًا عن الحقِّ بمنعِ النَّسخِ وتَغييرِ صِفةِ رَسولِ اللهِ ونَحوِهما، أو بأنْ تحرِّشُوا بين المؤمنينَ لتختلِفَ كَلِمَتُهم ويختلَّ أمرُ دِينِهم.

﴿وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُ﴾ أنَّها سَبيلُ اللهِ والصَّدُّ عنها ضَلالٌ وإضلالٌ، أو: وأنتُم عدُولٌ عندَ أهلِ ملَّتِكم يثقُونَ بأقوالِكُم ويَستشهِدُونكُم في القَضايا.

= جويبر عن الضحاك، قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ٢٩): وهو معضل، وجويبر متروك الحديث ساقط.

(١) سيأتي الخبر مطولًا في قصة شاس بن قيس.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ وَعيدٌ لهم.

ولَمَّا كانَ المنكَرُ في الآيةِ الأولى كفرَهُم ـ وهم يجهرونَ به ـ ختَمَها بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾، ولَمَّا كانَ[1] في هذه الآيةِ صدَّهُم المؤمنينَ عَن الإسلامِ وكانُوا يُخْفُونه ويحتالونَ فيه قالَ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

(١٠٠) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ نزلَتْ في نفرٍ مِن الأَوْسِ والخَزْرَجِ كانُوا جُلُوسًا يتحدَّثونَ، فمرَّ بهم شاسُ بنُ قيسٍ اليهوديُّ فغَاظَهُ تآلُفُهم واجتماعُهُم، فأمرَ شابًّا من اليَهودِ أن يجلِسَ إليهم ويذكِّرَهُم يومَ بُعَاثٍ، وينشدَهُم بعضَ ما قيلَ فيه، وكانَ الظَّفَرُ في ذلك اليومِ للأَوْسِ، ففعَلَ فتنَازَعَ القَوْمُ وتفاخَرُوا وتغاضبُوا وقالُوا: السِّلاحَ السِّلاحَ، واجتمعَ منَ القَبيْلَينِ خلقٌ عظيمٌ، فتوَجَّهَ إليهم رَسُولُ اللهِ ﷺ وأصحَابُه وقالَ: «أتَدْعُونَ[2] الجاهليَّةَ وأنا بينَ أظهُرِكم بعدَ إذ أكرمَكُم اللهُ بالإسلامِ وقَطَع عَنكُم أمرَ الجاهليَّةِ وألَّفَ بينكم؟»

(١) في نسخة الخيالي زيادة: «المنكر».

(٢) بعدها في نسخة الخيالي: «بدعوى»، والمثبت من باقي النسخ، ومثله في رواية الثعلبي، وتابعه فيها الزمخشري، ثم متابعوه كالمصنف وابن كمال باشا وأبي السعود في تفاسيرهم، وما نقله السيوطي في «الحاشية» (٤/ ٢١٦) عن الشيخ ولي الدين العراقي من أن «أتدعون الجاهلية» تحريف، وأن لفظ الحديث: «أبدعوى الجاهلية»، رده الشهاب في «الحاشية» بأنه ليس هذا اللفظ تحريفاً، بل هو إمَّا رواية أخرى، أو نقل بالمعنى، ومثله سهل كما قال.

قلت: وقد اتفقت نسخ «الكشاف» على ضبطها بتشديد الدال، وكذا ضبطت في نسخة «حاشية الجاربردي على الكشاف» (ج١/ و٢٦٥ب) بالتشديد، وقال في شرحها: «أراد: تدَّعون دعوة الجاهلية، وهي قوله: يا لفلان، عند الاستصراخ». لكن خالف الشهاب في ذلك فقال: هو بالتخفيف، لا بالتشديد من الدعوى كما تُوُهِّم؛ أي: تَدعون دعوى الجاهلية، وهي قولهم: يا لكذا يا لثارات كذا.

قلت: وكذا ما جاء في نسخة الخيالي لعل الأولى فيه التخفيف؛ أي: «أتَدْعون بدعوى الجاهلية».

فعَلِمُوا أَنَّها نزغةٌ مِن الشَّيطانِ وكيدٌ مِن عَدوِّهِم، فألقَوا السِّلاحَ واستَغفَرُوا وعانقَ بعضُهم بعضًا، وانصَرفوا معَ الرسُولِ صلواتُ الله عليه(١).

وإنَّما خاطَبَهم اللهُ بنَفسِهِ بعدَما أمرَ الرَّسُولَ بأَنْ يخاطِبَ أهلَ الكتابِ إظهارًا لجَلالةِ قَدرِهم وإشعارًا بأنَّهم هُم الأحِقَّاءُ بأن يخاطِبَهُم اللهُ ويكلِّمَهُم.

(١٠١) ـ ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ إنكارٌ وتَعجِيبٌ لِكُفْرِهم في حالٍ اجتمعَ لهم الأسبَابُ الدَّاعيةُ إلى الإيمانِ الصَّارِفَةُ عن الكُفرِ.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾: ومَن يتمسَّكْ بدِينِه، أو يلتجِئْ إليهِ في مَجَامِعِ أُمورِه ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: فقد اهتدَى لا مَحالةَ.

(١٠٢) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: حَقَّ تَقواهُ وما يجبُ مِنهَا، وهوَ استفراغُ الوُسْعِ في القيامِ بالمَوَاجبِ والاجتنابِ عَن المحارِمِ، كقولِه: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وعَن ابنِ مَسعودٍ: هو أن يُطاعَ فلا يُعصَى، ويُشكَرَ فلا يُكفَرَ، ويُذكَرَ فلا يُنسَى(٢).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٦٢٧) من طريق محمد بن إسحاق، قال: حدثني الثقة عن زيد بن أسلم، وهو مرسل، وفيه راو مبهم. ولفظه: «أبدعوى الجاهلية»، وبهذا اللفظ ذكره ابن هشام في «السيرة النبوية» (١/ ٥٥٥) عن ابن إسحاق. وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٦٢ ـ ٦٥) عن زيد بن أسلم باللفظ أعلاه كما تقدم في التعليق السابق.

(٢) روي موقوفاً ومرفوعاً من حديث ابن مسعود، والصحيح وقفه:

فالذي في غالب كتب الحديث والتفسير وغيرها روايته عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفا، كما رواه ابن المبارك في «الزهد» (٢٢)، وعبد الرزاق في «التفسير» (٤٤١)، وأبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (٤٧٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٥٥٣)، وأبو داود في «الزهد» (١٤٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٨٤٧)، والطبري في «تفسيره» (٥/ ٦٣٧)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٢٨١)، والطبراني في «الكبير» (٨٥٠١)، والحاكم في «المستدرك» =

وقيلَ: هو أن تُنزَّهَ الطَّاعةُ عن الالتفاتِ إليها، وعن توقُّعِ المجازاةِ عليها.

وفي هذا الأمرِ تأكيدٌ للنَّهيِ عَن طاعةِ أَهلِ الكِتابِ.

وأَصْلُ «تُقَاة»: «وُقَيَة»، فقُلِبَتْ واوُهَا المضمومَةُ تَاءً كما في «تُؤَدَة» و«تُخَمَة»، والياءُ أَلِفًا.

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾؛ أي: ولا تكونُنَّ على حالٍ سوَى حالِ الإسلامِ إذا أدركَكُم الموتُ، فإنَّ النَّهيَ عن المقيَّدِ بحالٍ أو غيرِها قد يتوجَّهُ بالذَّاتِ نحوَ الفِعلِ تارةً والقيدِ أخرى، وقد يتوجَّهُ نحوَ المجمُوعِ دونهما، وكذلك النَّفيُ.

(١٠٣) ـ ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾: بدينِهِ الإسلامِ، أو: بكتابِهِ؛ لقولِهِ عليه السَّلامُ: «القرآنُ حَبلُ اللهِ المتينُ»[1]، استعارَ له الحبلَ من حَيثُ إنَّ التَّمسُّكَ به سببٌ

= (٣١٥٩) وصححه، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٣٨)، والبيهقي في «القضاء والقدر» (٢٩٢) و(٢٩٣). وقال ابن كثير عند تفسير الآية (١٠٢) من آل عمران: هذا إسناد صحيح موقوف.

أما المرفوع عن ابن مسعود فقد قال أبو نعيم: رواه الناس عن زبيد موقوفاً، ورفعه أبو النضر عن محمد بن طلحة عن زبيد. ثم رواه من الطريق المذكور مرفوعاً. وقال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص: ١٦٠): والموقوف أصح.

وروي أيضاً من حديث ابن عباس: فقد رواه البيهقي في «الزهد» (٨٧٨) وفي «القضاء والقدر» (٢٩٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا، دون قوله: «وأن يشكر فلا يكفر»، وفي إسناده بكر بن سهل، وهو ضعيف.

قلت: ويكفي في الاحتجاج به وقبوله صحة الموقوف مضافاً إليها صحة معناه وعدم ما يخالفه، وعدم حصر المعنى فيه.

(١) قطعة من حديث رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠٠٠٧)، والدارمي في «سننه» (٣٣٧٤)، والترمذي (٢٩٠٦)، والبزار في «مسنده» (٨٣٦)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٤)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٨٨)، عن علي رضي الله عنه، ومداره على الحارث الأعور. قال الترمذي: هذا =

للنَّجاةِ عن الرَّدى كما أنَّ التَّمسُّكَ بالحَبلِ سبَبٌ للسَّلامةِ عن التَّردِّي، وللوُثوقِ بهِ والاعتمادِ عليه الاعتِصَامَ[1] ترشيحًا للمجَازِ.

﴿جَمِيعًا﴾: مُجتَمِعينَ عليه ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾: ولا تتفرَّقُوا عن الحقِّ بوقوعِ الاختِلافِ بينكُم كأهلِ الكِتابِ، أو: لا تتفرَّقوا تفرُّقَكُم الجاهليَّ يحاربُ بَعضُكُم بعضًا، أو: لا تذكرُوا ما يُوجِبُ التَّفرُّقَ ويُزيلُ الأُلفَةَ.

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الَّتي مِن جُملتِهَا الهدايَةُ والتَّوفيقُ للإسلامِ المؤدِّي إلى التَّألُّفِ وزوالِ الغِلِّ ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾ في الجاهليَّةِ مُتقاتلينَ ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بالإسلامِ ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾: متحابِّينَ مجتَمِعينَ على الأخوَّةِ في اللهِ.

وقيلَ: كانَ الأوسُ والخزرَجُ أخوَينِ لأبوَينِ، فوقعَ بين أولادِهِما العَداوَةُ وتطاوَلَت الحروبُ مئةً وعِشرينَ سَنَةً، حتَّى أطفأَهَا اللهُ بالإسلامِ، وألَّفَ بينَهُم برَسُولِه عليه السَّلام.

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾: مُشْفِينَ على الوُقوعِ في نارِ جهَنَّمَ لكُفرِكُم؛ إذ لَو أدركَكُم الموتُ في تلك الحالِ[2] لوَقَعْتُم في النَّارِ.

= حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال.

وروي من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٦٠١٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠٦٣٠)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ١٠٠)، ترجمة إبراهيم بن مسلم الهجري أحد رواته، وابن الجوزي في «العلل» (١٤٥)، وقال: لا يصح عن رسول الله ﷺ، ويشبه أن يكون من كلام ابن مسعود، قال ابن معين: إبراهيم الهجري ليس حديثه بشيء.

(١) قوله: «وللوثوق» عطف على «له»، «الاعتصام» بالنصب مفعول (استعار) المقدَّر، وفي العبارة تقديم وتأخير، والتقدير: واستعار الاعتصامَ للوثوق به والاعتماد عليه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ٩٨).

(٢) في نسخة التفتازاني: «الموت في الحال». وفي نسخة: «على تلك الحالة». انظر: «حاشية الخفاجي».

﴿فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَا﴾ بالإسلامِ، والضَّميرُ للحُفرَةِ، أو للنَّارِ، أو للشَّفا، وتأنيثُه لتأنيثِ ما أُضيفَ إليه، أو لأنَّه بمعنى: الشَّفَةِ، فإنَّ «شفا البئرِ» و«شفتَها»: طرفُهَا كـ«الجانب» و«الجانبَةِ»، وأصلُه: شَفوٌ، فقُلبَت الواوُ في المذكَّرِ وحُذِفَت في المؤنَّثِ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: مِثْلَ ذلكَ التَّبيينِ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾: دلائلَه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾: إرادةَ ثباتِكُم على الهُدَى وازديادِكُم فيه.

(١٠٤) - ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾: «مِن» للتَّبعِيضِ؛ لأنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المنكرِ مِن فُروضِ الكِفايةِ، ولأنَّهُ لا يَصْلُحُ لهُ كلُّ أحَدٍ؛ إذ للمتصَدِّي له شروطٌ لا يشتركُ فيها جميعُ الأمَّةِ؛ كالعلمِ بالأحكامِ ومراتبِ الاحتسابِ، وكيفيَّةِ إقامَتِهَا، والتَّمكُّنِ مِن القيامِ بها، خَاطبَ الجمعَ وطلبَ فعلَ بعضِهم ليَدُلَّ على أنَّه واجبٌ على الكلِّ، حتَّى لو تركُوه رأسًا أثمُوا جميعًا، ولكن يسقطُ بفِعل بعضِهم، وهكذا كلُّ ما هو فرضُ كِفايَةٍ.

أو للتَّبيينِ بمعنَى: وكُونُوا أمَّةً يـأمـرونَ؛ كقولِه: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والدُّعاءُ إلى الخيرِ يعمُّ الدُّعاءَ إلى ما فيه صَلاحٌ دينيٌّ أو دنيَوِيٌّ، وعُطِفَ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكرِ عليه عطفَ الخاصِّ على العَامِّ للإيذانِ بفَضْلِهِ.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: المَخصُوصُونَ بكمالِ الفَلاحِ.

رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ سُئلَ: مَن خيرُ النَّاسِ؟ فقالَ: «آمَرُهُم بالمعروفِ، وأَنهَاهُم عن المنكَرِ، وأتقَاهُم للهِ وأوصَلُهُم»[1].

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٧٤٣٤)، وأبو يعلى كما في «الكافي الشاف» (ص: ٢٩)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٢٥٧)، من حديث درة بنت أبي لهب رضي الله عنها. وقال الهيثمي =

والأمرُ بالمعروفِ يكُونُ واجبًا ومَنْدُوبًا على حسَبِ ما يُؤمَرُ به، والنَّهيُ عن المنكَرِ واجبٌ كلُّه لأنَّ جميعَ مَا أنكرَهُ الشَّرعُ حرامٌ.

والأظهَرُ أنَّ العاصِيَ يجبُ أن يَنهَى عمَّا يرتكبُه لأنَّه يجبُ عليه تركُه وإنكارُهُ فلا يَسقُطُ بتركِ أَحَدِهما وجوبُ الآخرِ.

(١٠٥) ـ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾: كاليهُودِ والنَّصارى؛ اختلفُوا في التَّوحِيدِ والتَّنزِيهِ وأحوالِ الآخرةِ على ما عرفتَ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: الآياتُ والحُجَجُ المبيِّنَةُ[١] للحَقِّ المُوجِبَةُ للاتِّفاقِ عليه.

والأظهَرُ أنَّ النَّهيَ فيه مخصُوصٌ بالتَّفرُّقِ في الأصُولِ دُونَ الفروعِ؛ لقولِه عليه السَّلامُ: «اختلافُ أُمَّتي رَحمَةٌ»[٢]، ولقولِه: «مَن اجتَهدَ فأصابَ فله أجرانِ، ومَن أخطَأَ فله أجرٌ واحِدٌ»[٣].

= في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٦٢): رجال أحمد ثقات، وفي بعضهم كلام لا يضر. وحسَّن إسناده العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٥٢٥).

(١) في نسخة التفتازاني: «المثبتة».

(٢) قال السيوطي في «الحاشية» (٤/ ٢٢٧): «عزاهُ الزَّركَشيُّ في «الأحاديثِ المشتهرَةِ» إلى كتابِ «الحجَّةِ» للشيخ نصرِ المقدسيِّ ولم يذكر سنده ولا صحابيه». وانظر: «التذكرة في الأحاديث المشتهرة» للزركشي (ص: ٦٤).

وروى البيهقيُّ في «المدخل إلى السنن الكبرى» (١٢٤٨) (ط: عوامة) من طريق جُوَيبِرٍ عن الضَّحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «واختلافُ أصحابي لكم رحمةٌ»، وجويبر متروك، والضحاك عن ابن عباس منقطع. ونقل السيوطي عن تقي الدين السبكي في «الحلبيات» قوله: «هذا الحديث ليس معروفا عند المحدثين، ولم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع، ولا أظن له أصلاً، إلا أن يكون من كلام الناس بأن يكون أحد قال: «اختلاف الأمة رحمة» فأخذه بعض الناس فظنه حديثاً فجعله من كلام النبوة».

(٣) رواه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦)، من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وَعِيدٌ للَّذينَ تفرَّقُوا، وتهديدٌ على التَّشبُّهِ بهم.

(١٠٦) ـ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ نَصبٌ بما في ﴿لَهُمْ﴾ من مَعنى الفِعلِ، أو بإضمارِ «اذكُرْ».

وبَيَاضُ الوَجهِ وسَوادُهُ كنايَتانِ عن ظهُورِ بَهجةِ السُّرورِ وكآبةِ الخوفِ فيه.

وقيلَ: يُوسَمُ أهلُ الحقِّ ببيَاضِ الوَجهِ والصَّحيفةِ، وإِشرَاقِ البشرَةِ، وسَعيِ النُّورِ بين يدَيْه وبيمينِه، وأهلُ الباطلِ بأضدَادِ ذلكَ[1].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ على إرادةِ القَوْلِ؛ أي: فيقالُ لهُم: أكفَرْتُم؟ والهَمزَةُ للتَّوبيخِ والتَّعجُّبِ مِن حَالهِم، وهم المرتدُّونَ، أو أهلُ الكتابِ كفرُوا برَسُولِ اللهِ ﷺ بعدَ إيمانِهم به قبلَ مَبْعَثِه، أو جميعُ الكفَّارِ كفرُوا بعدَ ما أقرُّوا حينَ أشهَدَهم على أنفسِهم، أو تمكَّنُوا من الإيمانِ بالنَّظرِ في الدَّلائلِ والآياتِ.

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ أمرُ إهَانـةٍ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: بسـبَبِ كُفرِكُـم، أو: جَـزاءً لكُفـرِكُـم.

(١٠٧) ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ يعـني: الـجنَّـةَ والثَّوابَ المخلَّدَ، عبَّرَ عن ذلك بالرَّحمَةِ تنبيهًا على أنَّ المؤمنَ وإن استغرقَ عمرَهُ في طاعَةِ اللهِ تعالى لا يَدخلُ الجنَّةَ إلَّا برَحمَتِهِ وفضلِهِ، وكانَ حقَّ التَّرتيبِ أن يُقدَّمَ ذكرُهُم لكنْ قُصِدَ أن يكُونَ مَطْلَعُ الكلامِ ومقطَعُهُ حليَةَ المؤمنينَ وثوابَهُم.

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أخرَجَهُ مُخرَجَ الاستئنَافِ للتَّأكيدِ؛ كأنَّه قيلَ: كيفَ يَكونونَ فيها؟ فقَال: هُم فيها خالِدونَ.

---

(١) وهذا القيل ـ والتقديم له بهذا اللفظ مع تأخيره إشارة إلى تضعيف المصنف له كما هي عادته ـ أولى من الحمل على المجاز الواقع في الوجه الأول.

(١٠٨) ـ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الواردةُ في وَعْدِه ووعيدِه ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ مُلْتَبِسَةً بالحقِّ لا شُبهةَ فيها.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ إذ يَستحيلُ الظُّلمُ منه؛ لأنَّه لا يحقُّ عليه شيءٌ فيَظْلِمَ بنقصِهِ، ولا يُمنعُ عن شيءٍ فيَظْلِمَ بفعلِهِ؛ لأنَّه المالكُ على الإطلاقِ كما قالَ:

(١٠٩) ـ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فيُجازي كلًّا بما وَعدَ له وأَوعَدَ.

(١١٠) ـ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ دَلَّ على خَيريَّتِهم فيما مَضى ولم يدُلَّ على انقطاعٍ طَرَأَ؛ أي: كقولِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦].

وقيلَ: كُنتُم في علمِ اللهِ، أو في اللَّوحِ المحفوظِ، أو فيما بينَ الأُمَمِ المتقدِّمينَ.

﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: أُظهِرت لهم.

﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ استِئنافٌ بيَّنَ به كونَهم خيرَ أمَّةٍ، أو خبرٌ ثانٍ لـ﴿كُنتُمْ﴾.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ يتضمَّنُ الإيمانَ بكلِّ ما يَجِبُ أن يُؤمَنَ به؛ لأنَّ الإيمانَ به إنَّما يَحقُّ ويُعتدُّ به إذا حصَلَ الإيمانُ بكلِّ ما أُمِرَ أن يُؤمَنَ به، وإنَّما أخَّرَهُ ـ وحَقُّه أن يُقدَّمَ ـ لأنَّه قصَدَ بذكرِهِ الدَّلالةَ على أنَّهم أمَرُوا بالمَعروفِ ونَهَوا عَن المنكرِ إيمانًا باللهِ وتَصديقًا به وإظهارًا لدِينِهِ.

واستُدِلَّ بهذه الآيةِ على أنَّ الإجماعَ حجَّةٌ؛ لأنَّها تَقتَضي كونَهُم آمِرِينَ بكلِّ مَعرُوفٍ ناهينَ عن كلِّ مُنكَرٍ؛ إذ اللَّامُ فيهما للاستغراقِ، فلو أجمعُوا على باطلٍ كانَ أمرُهم على خلافِ ذلك.

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إيمانًا كما يَنبَغِي ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ لكانَ الإيمانُ خيرًا لهم مِمَّا هُم عليه.

﴿مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ كعَبدِ اللهِ بن سَلَامٍ وأصحَابِهِ ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾: المتمرِّدُونَ في الكفرِ، وهذه الجملَةُ والَّتي بعدَهَا(1) واردَتانِ على سَبيلِ الاستِطرادِ.

(١١١) ـ ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ﴾: ضَرَرًا يَسيرًا كطَعنٍ وتَهدِيدٍ.

﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾: ينهزمُوا ولا يضرُّوكم بقتلٍ وأسرٍ ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾: ثمَّ لا يكونُ أحَدٌ ينصرُهم عليكُم أو يَدفَعُ بأسَكم عنهم، نَفى إضرارَهُم سِوَى ما يَكونُ بقولٍ، وقرَّرَ ذلك بأنَّهم لو قامُوا إلى القتَالِ كانَت الدَّبْرةُ عليهم، ثمَّ أخبرَ بأنَّه تكونُ عاقِبتُهم العَجزَ والخُذلانَ.

وقُرِئَ: «لا يُنْصَروا» عَطفًا على «يُوَلُّوا»(2) على أنَّ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخِي في الرُّتبَةِ، فيكُونُ عدمُ النَّصرِ مُقيَّدًا بقتالِهِم.

وهذه الآيَةُ مِن المغيَّباتِ الَّتي وافقَها الواقعُ، إذ كانَ كذلك حالُ قُرِيظَةَ والنَّضيرِ وبني قَينُقَاعَ ويهُودِ خيبَرَ.

(١١٢) ـ ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾: هَدرُ النَّفسِ والمالِ والأَهلِ، أو ذُلُّ التَّمسُّكِ بالباطِلِ والجزيَةِ ﴿أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾: وُجِدُوا ﴿إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ استثناءٌ مِن أعمِّ عامِّ الأحوالِ؛ أي: ضُرِبَت عليهم الذِّلَّةُ في عامَّةِ الأَحوالِ إلَّا مُعتَصِمينَ أو مُلْتَبِسينَ بذمَّةِ اللهِ، أو بكتابِهِ الَّذي آتاهُم، وذِمَّةِ المسلمينَ أو بدِينِ الإسلامِ واتِّباعِ سَبيلِ المُؤمنينَ.

---

(1) قوله: «وهذه الجملة» يعني: جملةَ ﴿مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، وما عُطِف عليها «والتي بعدها»؛ يعني: جملة ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ﴾، وما عُطِف عليها «واردتان على سبيل الاستطراد»؛ أي: بدليلِ أنهما لم يُعطَفا على الجملة الشرطية قبلَهما؛ أعني: ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ﴾؛ لأنها معطوفةٌ على ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾ مرتبطةٌ بها بمعنى: لو آمنَ أهلُ الكتاب كما آمنوا، وأمروا بالمعروف كما أمروا، ونهَوا عن المنكَرِ كما نهَوا، لكانَ خيراً لهم. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/١٠٣).

(2) هي قراءة زيد بن علي. انظر: «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ١١٩).

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: رَجَعُوا به مُستوجِبينَ له.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ فهي مُحيطَةٌ بهم إحاطَةَ البيتِ المَضروبِ على أهلِهِ، واليهودُ في غالبِ الأَمرِ فُقَراءُ مَساكينُ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ مِن ضَربِ الذِّلَّةِ والمَسْكنَةِ والبَوْءِ بالغَضَبِ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: بسَبَب كُفْرِهم بالآياتِ وقَتلِهِم الأنبياءَ، والتَّقييدُ بـ«غيرِ حقٍّ» ـ مع أنَّه كذلك في نفسِ الأمرِ ـ للدَّلالةِ على أنَّه لم يكنْ حقًّا بحَسَبِ اعتقادِهم أيضًا.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الكُفرُ والقَتلُ ﴿بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾: بسبَبِ عِصيَانِهم واعتِدائِهم حُدُودَ اللهِ؛ فإنَّ الإصرارَ على الصَّغائرِ يُفضي إلى الكَبائرِ، والاستمرارَ عليها يؤدِّي إلى الكُفرِ.

وقيلَ: مَعناهُ: أنَّ ضَربَ الذِّلَّةِ في الدُّنيا واستيجَابَ الغضَبِ في الآخرةِ كما هو معلَّلٌ بكُفرِهم وقَتلِهِمْ فهو مُسَبَّبٌ عن عِصيَانِهم واعتِدائِهم مِن حَيثُ إنَّهُم مخاطَبُونَ بالفُروعِ أيضًا.

(١١٣) ـ ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ في المَساوِئ، والضَّميرُ لأهلِ الكِتابِ.

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ استئنافٌ لبيَان نَفيِ الاستواءِ، و«القائِمَةُ»: المُستقيمَةُ العادِلَةُ، مِن «أَقمْتُ العُودَ فقامَ»، وهُم الَّذينَ أَسلَمُوا مِنهُم.

﴿يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾: يَتلونَ القُرآنَ في تهجُّدِهم، عبَّرَ عنه بالتِّلاوَةِ في ساعاتِ اللَّيلِ مع السُّجُودِ ليكونَ أبيَنَ وأبلغَ في المدحِ.

وقيلَ: المرادُ صَلاةُ العِشاءِ؛ لأنَّ أهلَ الكِتابِ لا يُصلُّونَها؛ لِمَا رُوِيَ: أنَّه عليه

السَّلامُ أَخَّرَهَا ثمَّ خرجَ فإذا النَّاسُ ينتظرونَ الصَّلاةَ، فقالَ: «أمَا إنَّه ليسَ مِن أهلِ الأديانِ أَحَدٌ يذكرُ اللهَ هذه السَّاعةَ غيرَكُم»(١).

(١١٤) - ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ صِفاتٌ أُخرُ لـ﴿أُمَّةٌ﴾، وصَفَهم بخصَائصَ ما كانَت في اليَهُودِ، فإنَّهُم مُنحَرِفونَ عَن الحقِّ، غيرُ مُتعبِّدينَ باللَّيلِ، مُشرِكُونَ باللهِ، مُلحِدُونَ في صِفاتِه، واصفُونَ اليومَ الآخِرَ بخلافِ صِفَتِه، مُداهنُونَ في الاحتسَابِ(٢)، مُتباطِئُونَ عن الخَيْراتِ.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: الموصُوفونَ بتِلكَ الصِّفَاتِ ممَّنْ صَلحَت أحوَالُهُم عندَ اللهِ واستحقُّوا رِضاءَهُ وثناءَه.

(١١٥) - ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾: فلَن يَضيعَ، ولن يُنقَصَ ثوابُه أَلبتَّةَ، سمِّيَ ذلك كفرانًا كما سمِّيَ توفيَةُ الثَّوابِ شُكْرًا، وتَعدِيَتُه إلى مفعولَينِ لتضمُّنِه مَعنى الحِرمانِ.

وقرأَ حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ بالياءِ، والباقونَ بالتَّاءِ(٣).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ بِشارَةٌ لهُم وإشعارٌ بأنَّ التَّقوى مبدَأُ الخيرِ وحُسنِ العَمَلِ، فإنَّ الفائزَ عندَ اللهِ هوَ أَهلُ التَّقوَى.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣٧٦٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٠٠٧)، وابن حبان في «صحيحه» (١٥٣٠)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وزادوا: وأُنزلت هذه الآيةُ.

(٢) قوله: «مداهنون في الاحتساب» في مقابلة قوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، والمداهنة قبيحة أما الموادة فحسنة. انظر: «حاشيتي ابن التمجيد والقونوي» (٦/ ٢٨١).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٥)، و«التيسير» (ص: ٩٠).

(١١٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ مِنَ العذابِ، أو: مِن الغناءِ، فيكونُ مَصْدَرًا ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾: مُلازِمُوها ﴿هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

(١١٧) ـ ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾: ما ينفِقُ الكفرةُ قربةً أو مُفاخرةً وسُمعةً[1]، أو المنافِقُونَ رياءً وخوفًا.

﴿فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾: بردٌ شَديدٌ، والشَّائعُ إطلاقُه للرِّيحِ البارِدِ كـ«الصَّرصَرِ»، فهو في الأَصْلِ مَصدرٌ نُعِتَ به، أو نَعتٌ وُصِفَ بِهِ البَردُ للمُبالغَةِ كقولِكَ: بَرْدٌ بارِدٌ.

﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفرِ والمعاصِي ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ عقوبةً لهم؛ لأنَّ الإهلاكَ عَن سَخَطٍ أشدُّ، والمرادُ: تَشبيهُ ما أنفقُوا في ضَياعِهِ بحَرثِ كفَّارٍ ضَرَبَتْهُ صِرٌّ فاستأصَلَتْه ولم يَبْقَ لهم فيه مَنفَعَةٌ مّا في الدُّنيا والآخرةِ، وهو من التَّشبيهِ المُركَّبِ ولذلك لم يُبَالَ بإيلاءِ كلمَةِ التَّشبيهِ الرِّيحَ دونَ الحرثِ، ويجوزُ أن يقدَّرَ: كمَثَلِ مُهلَكِ ريحٍ، وهو الحَرثُ.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ أي: ما ظَلَمَ المنفِقِينَ بضَياعِ نَفقاتِهِم ولكنْ ظَلَموا أنفُسَهم لمَّا لم يُنفِقُوها بحيثُ يُعتدُّ بها، أو: ما ظلَمَ أصحابَ الحرثِ بإهلاكِهِ ولكنَّهُم ظلمُوا أنفسَهُم بارتكابِ ما استحقُّوا به العقوبةَ.

وقُرِئَ: «ولكنَّ»[2]؛ أي: ولكنَّ أنفسَهم يظلِمُونَها، ولا يجُوزُ أن يقدَّرَ ضميرُ الشَّأنِ لأنَّه لا يُحذَفُ إلَّا في الشِّعرِ كقولِهِ:

وما كنتُ ممَّن يدخُلُ العشقُ قلبَه ... ولكِنَّ مَن يُبْصِرْ جُفُونَكِ يعشَقِ[3]

---

(١) في نسخة التفتازاني: «أو سمعة».

(٢) انظر: «الكشاف» (٢/ ١٥٧)، و«البحر المحيط» (٦/ ٩٨).

(٣) البيت للمتنبي وهو في «ديوانه» (٣/ ٤٨).

(١١٨) ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً ﴾: وَليجَةً، وهو الَّذي يُعرِّفُه الرَّجُلُ أسرارَه ثِقةً به، شُبِّهَ ببطانةِ الثَّوبِ كما شُبِّهَ بالشِّعَارِ، قالَ عليه السَّلامُ: «الأنصارُ شِعَارٌ والنَّاسُ دِثارٌ»[١].

﴿مِّن دُونِكُمۡ ﴾: من دُونِ المُسلمِينَ، وهو مُتعلِّقٌ بـ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ﴾ أو بمحذوفٍ هو صِفةُ ﴿بِطَانَةً ﴾؛ أي: بطانةً كائنةً من دُونِكم.

﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾: لا يُقصِّرونَ لكُم في الفسَادِ، و«الألْوُ»: التَّقصيرُ، وأصلُه: أنْ يُعدَّى بالحرفِ ثمَّ عُدِّيَ إلى مفعُولَينِ؛ كقولِهم: «لا آلُوكَ نُصحًا» على تَضمينِ معنى المنعِ أو النَّقصِ.

﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ ﴾: تمنَّوا عنتَكُم، وهو شِدَّةُ الضَّررِ والمشقَّةِ، و«ما» مَصدَريَّةٌ.

﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾؛ أي: في كلامِهم؛ لأنَّهم لا يَتمالَكُونَ أنفسَهُم لفَرطِ بُغضِهم.

﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُ﴾ مِمَّا بدَا؛ لأنَّ بُدُوَّهُ ليسَ عن رَويَّةٍ واختيارٍ.

﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الدَّالَّةَ على وُجوبِ الإخلاصِ ومُوالاةِ المؤمنينَ ومُعاداةِ الكافرينَ ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ ما بُيِّنَ لكم.

والجملُ الأربعُ جاءَت مُستأْنفاتٍ على التَّعليلِ[٢]، ويجوزُ أن تكونَ الثَّلاثُ الأُوَلُ صِفاتٍ لـ﴿بِطَانَةً ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١)، من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه.

(٢) «والجمل الأربع»؛ أي: ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ﴾، و﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ﴾، و﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ﴾، و﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، دونَ ﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُ﴾؛ لظهور أنه حالٌ «جاءت مستأنفات على التعليل» ليس معناه أن الكلَّ علَّةٌ واحدة بالاجتماع، بل بمعنى أن كلاً علَّةٌ للنهي بالاستقلال، تركَ تعاطفها تنبيهاً على الاستقلال. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ١١٠).

(١١٩) ـ ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾؛ أي: أنتُم أولاءِ الخاطئونَ في موالاةِ الكفَّارِ و﴿تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ بيانٌ لخطئِهم في مُوالاتِهم، وهو خَبرٌ ثانٍ، أو خبرٌ لـ﴿أُوْلَآءِ﴾ والجُملةُ خبرُ ﴿أَنتُمۡ﴾ كقَولِكَ: «أنتَ زَيدٌ تُحبُّه»، أو صِلَتُه[1]، أو حالٌ والعامِلُ فيه[2] معنى الإشارةِ.

ويجوزُ أن يُنصبَ ﴿أُوْلَآءِ﴾ بِفعلٍ يُفسِّرُهُ ما بَعدَه وتكونُ الجملةُ خبرًا.

﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾: بجنسِ الكِتابِ كلِّه، وهُو حالٌ مِن «لا يحبُّونكم»، والمعنَى: إنَّهم لا يحبُّونكُم والحالُ أنَّكم تؤمِنُونَ بكتابِهم أيضًا، فما بالُكُم تحبُّونَهُم وهُم لا يؤمِنُونَ بكتابِكم؟ وفيه توبيخٌ بأنَّهُم في باطِلِهم أصلَبُ مِنكُم في حقِّكُم.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ نِفاقًا وتَغريرًا ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾: من أجلِه تأسُّفًا وتحسُّرًا حيثُ لم يَجدُوا إلى التَّشَفِّي سَبيلًا.

﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡ﴾ دعاءٌ عليهم بدَوامِ الغَيْظِ وزيادَتِه بتَضاعُفِ قوَّةِ الإسلامِ وأَهلِه حتَّى يَهلِكُوا به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيعلَمُ ما في صُدورِهم مِن البَغضاءِ والحنَقِ، وهو يحتمِلُ أن يكونَ من المقولِ؛ أي: وقُلْ لهُم: إنَّ الله عَليمٌ بمَا هو أخفَى ممَّا تخفُونَه من عضِّ الأناملِ غيظًا، وأن يكونَ خارجًا عنه بمعنى: قُل لهم ذلكَ، ولا تتعجَّبْ من إطْلاعي إيَّاكَ على أسرَارِهم فإنِّي عليمٌ بالأَخفَى مِن ضَمائِرِهم.

(١٢٠) ـ ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَا﴾ بيَانٌ لتَناهِي عَداوَتِهم إلى حَدٍّ حَسَدُوا ما نالَهُم مِن خيرٍ ومَنفعَةٍ وشَمِتُوا بما أَصابَهُم من ضرٍّ وشدَّةٍ، والمسُّ مُستعارٌ للإصابةِ.

---

(١) يعني: ﴿أُوْلَآءِ﴾ موصولٌ ﴿تُحِبُّونَهُمۡ﴾ صلتُهُ. انظر: «الكشاف» (٢/ ١٦٠).

(٢) في نسخة الخيالي والتفتازاني: «فيها». والحال تذكر وتؤنث.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ على عَداوَتِهم، أو على مشاقِّ التَّكاليفِ ﴿وَتَتَّقُوا﴾ مُوالاتَهم، أو ما حَرَّمَ اللهُ عليكُم ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ بفضلِ اللهِ وحِفظِه الموعُودِ للصَّابرينَ والمتَّقينَ، ولأنَّ المُجِدَّ في الأمرِ المتدرِّبَ بالاتِّقاءِ والصَّبرِ يكُون قليلَ الانفعَالِ جَرِيئًا على الخصمِ، وضمَّةُ الرَّاءِ للإتباعِ كضمَّةِ «مُدُّ»(١).

وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافِعٌ وأبُو عمرٍو ويَعقُوبُ ﴿لا يَضِرْكم﴾ من «ضَارَه يَضيرُه»(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تعملونَ﴾(٣) مَـن الصَّبرَ والتَّقوى وغيرِهما ﴿مُحِيطٌ﴾: مُحيطٌ عِلمُه فيجازيكُم(٤) بما أنتم أهلُهُ.

وقُرِئَ بالياءِ؛ أي: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ في عَداوَتِكُم عليمٌ فيُعاقبُهُم عليه.

(١٢١) ـ ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾؛ أي: واذكُرْ إذ غـدَوتَ ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾: مِـن حُجـرَةِ عائشـةَ رضـيَ اللهُ عنهـا ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: تُنزلُهـم، أو تُسـوِّي وتُهيِّئُ لهُـم، ويُؤيِّدُه القراءةُ باللَّامِ(٥).

﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾: مواقِفَ وأماكِنَ له، وقد يُستعمَلُ «المقعَدُ» و«المقامُ» بمعنى المكانِ على الاتِّساعِ كقولِه تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: ٥٥] وقولِه تعالى: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩].

---

(١) يعني: كضمة الأمر المضاعف، وكلِّ مجزومٍ من المضاعف المضموم العين، فإنه يجوز ضمُّه للإتباع كما يجوز فتحُه للخفَّة، وكسرُه لأصل تحريك الساكن. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ١١٣).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٥)، و«التيسير» (ص: ٩٠)، و«والمبسوط في القراءات العشر» (ص: ١٦٨)، و«النشر» (٢/ ٢٤٢).

(٣) عزاها الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ١٩٨) إلى الحسن ـ وهي كذلك في «مختصر شواذ القراءات» (ص ٢٢٠) ـ والأعمش وسهل وقراءة العشرة بالياء.

(٤) في نسخة الخيالي: «فمجازيكم».

(٥) نسبت لابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٣٣)، و«الكشاف» (٢/ ١٦٥)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٥٠١).

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِأقوالِكُم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيَّاتِكُم.

رُوِيَ أنَّ المشركينَ نَزَلُوا بأُحُدٍ يومَ الأربعاءِ ثاني عشرَ شوَّالٍ سنةَ ثلاثٍ من الهجرَةِ، فاستشارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أصحابَه ودَعَا[1] عبدَ اللهِ بن أُبيٍّ ولم يَدْعُهُ قبلُ، فقالَ هو وأكثَرُ الأنصَارِ: أَقِمْ يا رَسُولَ اللهِ بالمدينَةِ ولا تخرُجْ إليهم، فواللهِ ما خرَجْنَا مِنها إلى عَدُوٍّ إلَّا أصَابَ منَّا، ولا دَخلَها علينا إلَّا أصَبْنَا مِنهُ، فكيفَ وأنتَ فينا؟ فَدَعهم فإِنْ أقامُوا أقامُوا بشَرِّ مَحْبِسٍ[2] وإن دخلوا قاتَلَهُم الرِّجالُ ورَمَاهُم النِّساءُ والصِّبيَانُ بالحجارَةِ، وإن رَجَعُوا رجعُوا خائبينَ، وأشَارَ بعضُهُم إلى الخروجِ فقالَ عليه السَّلامُ: «رأيتُ في مَنامِي بقرًا مَذبُوحَةً حَولي فأوَّلتُها خيرًا، ورَأَيتُ في ذُبابِ سَيفي ثَلْمًا فأوَّلتُهُ هزِيمةً، ورَأَيْتُ كأنِّي أدخلتُ يدي في درعٍ حصينةٍ فأوَّلتُها المدِينَةَ، فإن رأيتُمْ أَن تُقيموا بالمدينَةِ وتَدَعُوهم»، فقالَ رِجالٌ فاتتهُم بَدرٌ ـ وأكرَمهُم بالشَّهادةِ يومَ أُحُدٍ ـ: اخرُج بنا إلى أعدائِنا، وبالَغُوا حتَّى دخَل عليه السَّلامُ فلبسَ لأمَتَه، فلمَّا رَأَوا ذلك نَدِمُوا على مُبالَغتِهم فقالوا: اصنَعْ يا رَسُولَ اللهِ ما رأيتَ، فقالَ: «لا ينبغي لنَبيٍّ أن يلبسَ لَأمَتَهُ فيضعَها حتَّى يُقاتِلَ» فخرَجَ بعدَ صَلاةِ الجمعَةِ وأصبحَ بشِعبِ أُحُدٍ يومَ السَّبتِ، ونزلَ في عُدْوَةِ الوادي وجعَلَ ظهرَهُ وعَسكرَهُ إلى أُحُدٍ، وسَوَّى صَفَّهم وأمَّرَ عبدَ اللهِ بن جُبيرٍ على الرُّماةِ وقال: «انضَحُوا عنَّا بالنَّبلِ لا يأتونا مِن وَرائِنا»[3].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «وقد دعا».

(٢) قولـه: «بشرِّ مَحبِس» بكسر الباء؛ أي: بمكانٍ لا ماءَ فيه ولا طعامَ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ١١٤).

(٣) انظر هذه القصة مطولة في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٦٢ ـ ٦٦) عن ابن إسحاق، وكذا رواها البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٢٠٦ ـ ٢٠٨) عن موسى بن عقبة. ورواها عبد الرزاق في «مصنفه» (٩٧٣٥) عن معمرٍ عن الزُّهريِّ عن عروة. وقصة الرماة رواها البخاري (٣٠٣٩) عن البراء بن عازبٍ رضي الله عنهما، قال: جعَل النبيُّ ﷺ على الرَّجَّالة يومَ أُحُدٍ ـ وكانوا خمسين رجلًا ـ عبدَ الله بن =

(١٢٢) ـ ﴿إِذْ هَمَّت﴾ مُتعَلِّقٌ بقولِه: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أو بدَلٌ مِن ﴿إِذ غَدَوْتَ﴾.

﴿طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ بنو سَلِمَةَ مِن الخزرجِ وبنو حَارثةَ مِن الأوسِ، وكانا جَنَاحَي العَسكرِ.

﴿أَن تَفْشَلَا﴾: أن تَجْبُنا وتَضْعُفا.

رُويَ أنَّه عليه السَّلامُ خرجَ في زُهاءِ ألفِ رَجلٍ ووَعَدَ لهُم النَّصرَ إن صَبَروا، فلمَّا بلَغُوا الشَّوطَ انْخزَلَ ابنُ أُبيٍّ في ثلاثِ مئةٍ وقال: عَلامَ نَقتلُ أنفسَنا وأولادَنا؟! فتَبِعَهُم [عبد الله بنُ] عمرِو بنِ حرامٍ[1] الأنصَاريُّ وقال: أَنْشُدُكم اللهَ في نبيِّكُم وأنفسِكُم، فقالَ ابنُ أُبيٍّ: لو نعلَمُ قتالًا لاتَّبعناكُم، فهَمَّ الحيَّانِ باتِّبَاعِه، فعصَمَهم اللهُ فمَضَوا مع رَسُوله[2].

والظَّاهِرُ أنَّه ما كانَت عزيمةً؛ لقولِه: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾؛ أي: عَاصِمُهُما عن اتِّباعِ تلك الخَطْرَةِ.

ويجوزُ أن يرادَ: واللهُ ناصِرُهما فما لهما تَفشَلانِ ولا تتوكَّلانِ على الله؟

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: فليتوكَّلُوا عليه ولا يتوكَّلوا على غيرِه؛ لينصُرَهم كما نصَرَهم ببَدرٍ.

= جُبير، فقال: «إن رأيْتُمونا تَخْطَفُنا الطيرُ فلا تَبْرَحوا مكانكم هذا حتى أرسلَ إليكم، وإن رأيْتُمونا هَزَمْنا القوم وأوطَأْناهم فلا تبرحوا حتى أرسلَ إليكم»... الحديث.

(١) في النسخ: «حزم»، والمثبت من المصادر وستأتي.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٢٢)، وابن المنذر في «تفسيره» (١١٦٦)، من طريق ابن إسحاق عن جمع من أشياخه، وهو في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٦٤). وما بين معكوفتين من هذه المصادر.

(١٢٣) ـ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ تذكيرٌ ببعضِ ما أفادَهُم التَّوكُّل. و«بَدْرٌ»: ماءٌ بين مكَّةَ والمدينةِ كانَ لِرَجُلٍ يُسمَّى بَدْرًا فسُمِّيَ به.

﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ حالٌ من الضَّميرِ، وإنَّما قالَ: ﴿أَذِلَّةٌ﴾، ولم يقل: «ذَلائِل» ليدلَّ على قِلَّتِهم مع ذِلَّتِهم لضعفِ الحالِ وقِلَّةِ المراكبِ والسِّلاحِ.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الثَّباتِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ما أَنْعَمَ عَليكُم بتقواكُم مِن نَصْرِهِ، أو: لعَلَّكم يُنعِمُ اللهُ عليكُم فتشكرونَ، فوُضعَ الشُّكرُ مَوضِعَ الإنعَامِ لأنَّهُ سببُه.

(١٢٤) ـ ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظرفٌ لـ﴿نَصَرَكُمُ﴾، وقيلَ: بدَلٌ ثانٍ من ﴿إِذ غَدَوْتَ﴾ على أَنَّ قولَهُ لهم يَومَ أحدٍ، وكانَ مع اشتراطِ الصَّبرِ والتَّقوى عن المخالفَةِ، فلمَّا لم يَصبِرُوا عن الغنائمِ وخالَفُوا أمرَ الرَّسُولِ لم تَنزلِ الملائكَةُ.

﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ إنكارٌ أنَّه لا يكفيهِم ذلك، وإنَّما جيءَ بـ«لن» إشعَارًا بأنَّهُم كانُوا كالآيِسينَ من النَّصرِ لضَعفِهِم وقلَّتِهم وقوَّةِ العَدوِّ وكثرَتِهم.

قيلَ: أمَدَّهم اللهُ يومَ بَدرٍ أوَّلًا بألفٍ من الملائِكَةِ، ثمَّ صَارُوا ثلاثةَ آلافٍ ثمَّ صَارُوا خمسةً.

وقرأَ ابنُ عَامرٍ: ﴿مُنَزَّلِينَ﴾ بالتَّشديدِ[1] للتَّكثيرِ أو للتَّدريجِ.

(١٢٥) ـ ﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجابٌ لِمَا بعدَ «لن»؛ أي: بلى يَكفِيكُم، ثمَّ وَعدَ لهم الزِّيادَةَ على الصَّبرِ والتَّقوى حَثًّا عليهما وتقويَةً لِقُلوبِهم فقالَ:

﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم﴾؛ أي: المشركونَ ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾: من سَاعتِهم

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٥)، و«التيسير» (ص: ٩٠).

هذه، وهو في الأَصلِ مَصْدَرُ «فارَت القِدْرُ»: إذا غَلَتْ، فاستُعيرَ للسُّرعَةِ، ثمَّ أُطلقَ للحالِ الَّتي لا رَيْثَ فيها ولا تَراخيَ.

والمعنَى: إن يأتوكم في الحالِ ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ في حالِ إِتيانِهِم بلا تراخٍ وتأخيرٍ ﴿مُسَوِّمين﴾ مُعْلَمِينَ، من «التَّسوِيمِ» الَّذي هو إظهَارُ سِيْما الشَّيءِ؛ لقولِهِ عليه السَّلامِ لأصحَابِهِ: «تسَوَّموا؛ فإنَّ الملائكةَ قد تَسوَّمَت»[(١)].

أو: مُرسَلينَ، من «التَّسْويمِ» بمعنى الإِسَامَةِ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وعاصمٌ ويعقوبُ بكَسرِ الواوِ[(٢)].

(١٢٦) ـ ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾: وما جعلَ إمدادَكم بالملائِكَةِ ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾: إلَّا بِشارةً لكم بالنَّصرِ ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾: ولتسكُنَ إليه من الخَوْفِ ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا مِن العُدَّةِ والعَدَدِ، وهو تنبيهٌ على أَنَّهُ لا حَاجَةَ في نصرِهم إلى مَدَدٍ، وإنَّما أمدَّهُم ووَعَدَ لهُم به بِشارةً لهم وربطًا على قُلوبِهم مِن حَيثُ إنَّ نظرَ العَامَّةِ إلى الأَسبابِ أكثَرُ، وحثٌّ[(٣)] على أن لا يُبالُوا بمَن تأَخَّرَ عنهم.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الَّذي لا يُغالَبُ في أقضيَتِه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الَّذي يَنصرُ ويَخذلُ بوسَطٍ أو بغيرِ وسَطٍ على مُقتضى الحِكمَةِ والمصلحَةِ.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٢٧٢٢)، والطبري في «التفسير» (٦/ ٣٤)، عن عمير بن إسحاق مرسلاً.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٦)، و«التيسير» (ص: ٩٠)، و«المبسوط» (ص: ١٦٩)، و«النشر» (٢/ ٢٤٢).

(٣) قوله: «وحثٌّ» عطف على (تنبيهٌ). انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ١١٨).

(١٢٧) ـ ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿نَصَرَكُمُ﴾، أو ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ﴾ إن كانَ اللَّامُ فيه للعَهدِ، والمعنى: ليَنْقُصَ مِنهم بقتلِ بَعضٍ وأَسرِ آخرينَ، وهو ما كانَ يومَ بدرٍ مِن قَتلِ سبعينَ وأَسرِ سبعينَ من صَناديدِهِم.

﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾: أو يخزيَهُم، و«الكَبْتُ»: شِدَّةُ غيظٍ أو وَهْنٍ يقعُ في القلبِ، و﴿أَوْ﴾ للتَّنويعِ دون التَّرديدِ[١].

﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾: فينهزِمُوا مُنقطِعِي الآمالِ.

(١٢٨) ـ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ اعتراضٌ ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ عطفٌ على قولهِ: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ والمعنَى: أنَّ الله مَالكُ أمرِهِم: فإمَّا أن يُهلِكَهُم، أو يكبِتَهُم، أو يتوبَ عليهم إنْ أسلَمُوا، أو يُعذِّبَهم إن أصَرُّوا، وليسَ لكَ مِن أَمرِهِم شيءٌ، وإنَّما أنتَ عبدٌ مَأمُورٌ بإنذارِهِم وجهادِهِم.

ويَحتمِلُ أن يكونَ مَعطوفًا على ﴿ٱلْأَمْرِ﴾ أو ﴿شَىْءٌ﴾ بإضمارِ «أن»؛ أي: ليسَ لك مِن أَمرِهِم أو مِن التَّوبَةِ عليهم أو مِن تَعذيبِهِم شَيءٌ، أو: ليسَ لك مِن أمرِهم شيءٌ أو التَّوبَةُ عليهم أو تعذيبُهُم.

وأن تكونَ ﴿أَوْ﴾ بمعنى: إلَّا أنْ؛ أي: ليسَ لك مِن أَمرِهِم شيءٌ إلَّا أن يتُوبَ اللهُ عليهم فتُسرَّ به، أو يعذِّبَهم فتَشتَفِيَ مِنهم.

رُوِيَ أنَّ عُتبَةَ بنَ أبي وقَّاصٍ شَجَّه يومَ أُحُدٍ وكسرَ رَبَاعيَتَه، فجعَل يمسَحُ الدَّمَ عن وَجهِه ويقولُ: «كيفَ يُفلِحُ قومٌ خضَبُوا وَجهَ نبيِّهم بالدَّمِ؟» فنزلَت[٢].

---

(١) ولم يحمل ﴿أو﴾ على التَّرديد، وإنما حملها على التَّنويع، لأنَّ القطع والكبت وقعا معًا، فلا يناسب الترديد الذي يكفي فيه أحدهما. انظر: «حاشية القونوي» (٦/ ٣٠٨).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٤٥٢)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٦)، وابن المنذر في «تفسيره» (٩٠٨)، عن قتادة وفيه: «كيف يفلحُ قومٌ صنعُوا هذا بنبيِّهم؟». =

وقيلَ: همَّ أن يَدعوَ علَيهِم، فنهَاهُ اللهُ لعِلْمِه بأنَّ فيهم مَن يؤمِنُ[1].

﴿فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ قد استحقُّوا التَّعذيبَ بظلمِهم.

(١٢٩) ـ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ خلقًا ومُلكًا، فلهُ الأمرُ كلُّهُ ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ صَريحٌ في نفيِ وجُوبِ التَّعذِيبِ، والتَّقييدُ بالتَّوبَةِ وعَدَمِها كالمنافي له.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لعِبادِه، فلا تُبادِرْ إلى الدُّعاءِ علَيهِم.

(١٣٠) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾: لا تزيدُوا زيـاداتٍ مُكرَّرَةً، ولعَلَّ التَّخصيصَ بحسَبِ الواقعِ؛ إذ كانَ الرَّجُلُ منهم يُرْبي إلى أجَلٍ ثمَّ يَزيدُ فيهِ زيادَةً أُخرى حتَّى يستغرقَ بالشَّيءِ الطَّفيفِ مَالَ المديونِ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ ويَعقوبُ: ﴿مُضعَّفَة﴾[2].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما نُهيتُمْ عَنهُ ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾: راجينَ الفلاحَ.

= ورواه بنحوه مسلم (١٧٩١)، والإمام أحمد في «المسند» (١٢٣١)، والنسائي في «الكبرى» (١١٠١١)، وابن ماجه (٤٠٢٧)، من حديث أنس: أن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشج في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله تعالى؟» فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ الآية. لفظ مسلم، وذكره البخاري معلقاً قبل الحديث (٤٠٦٩).

(١) كذا ذكر تبعاً للزمخشري في «الكشاف» (٢/ ١٧٤)، والذي رواه البخاري (٤٠٦٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ النبي ﷺ دعا عليهم في صلاة الفجر بقوله: «اللهم العن فلانًا وفلانًا» فنزلت الآية. وليس فيه أن ذلك كان في أحد أو غيرها، لكن ظاهر الآثار يدل أنها نزلت في أحد كما قال الحافظ في «العجاب في بيان الأسباب» (٢/ ٧٥٠).

(٢) انظر: «المبسوط» (ص: ١٤٨)، و«النشر» (٢/ ٢٢٨).

(١٣١) - ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بالتَّحرُّزِ عَن مُتابَعَتِهِم وتَعاطِي أَفعالِهِم، وفيه تَنبيهٌ على أنَّ النَّارَ بالذَّاتِ مُعدَّةٌ للكفَّارِ وبالعَرَضِ للعُصَاةِ.

(١٣٢) - ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أتبعَ الوَعيدَ بالوَعدِ تَرْهِيبًا عن المخالفَةِ وتَرغيبًا في الطَّاعةِ.

و«لعَلَّ» و«عَسَى» في أمثالِ ذلكَ دَليلُ عزَّةِ التَّوصُّلِ إلى ما جُعلَ خبرًا له.

(١٣٣) - ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾: بادرُوا، أو أقبلُوا ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى ما تُستَحَقُّ به المغفرةُ كالإسلامِ والتَّوبَةِ والإخلاصِ.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿سَارِعُوا﴾ بلا واوٍ[1].

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: عَرضُها كعَرضِهِما، وذكرَ العَرَضَ للمُبالغَةِ في وَصفِها بالسَّعَةِ على طريقَةِ التَّمثيلِ لأنَّه دُونَ الطُّولِ.

وعن ابنِ عبَّاسٍ: كسَبعِ سَماواتٍ وسَبعِ أَرَضِينَ لو وُصِلَ بَعضُها ببَعضٍ[2].

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾: هُيِّئَتْ لهُم، وفيه دليلٌ على أنَّ الجنَّةَ مخلوقَةٌ وأنَّها خارجَةٌ عَن هذا العالمِ.

(١٣٤) - ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ صِفَةٌ مادِحَةٌ للمتَّقينَ، أو مَدحٌ مَنصُوبٌ أو مَرفُوعٌ.

﴿فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ في حالِ الرَّخاءِ والشِّدَّةِ، أو الأحوالِ كلِّها، إذ الإنسَانُ لا يَخلو عن مسَرَّةٍ أو مضرَّةٍ؛ أي: لا يُخِلُّونَ في حالٍ مّا بإنفاقِ ما قدرُوا عليه من قليلٍ أو كَثيرٍ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٦)، و«التيسير» (ص: ٩٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٥٣).

﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾: الممسِكينَ عليه، الكافِّينَ عن إمضَائهِ معَ القُدرَةِ، مِن «كظَمْتُ القِربَةَ»: إذا ملأتَها وشَدَدتَ رأسَهَا.

وعن النَّبيِّ ﷺ: «مَن كظَمَ غيظًا وهو يَقدِرُ على إنفاذِهِ مَلأَ اللهُ قلبَه أمْنًا وإيمَانًا»[1].

﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾: التَّاركينَ عُقُوبَةَ مَن استحَقُّوا مؤاخذَتَهُ.

وعن النَّبيِّ عليه السَّلامُ: «إنَّ هَؤلاءِ في أُمَّتي قليلٌ إلَّا مَن عَصَمَ اللهُ، وقد كانُوا كثيرًا في الأُمَمِ الَّتي مَضَت»[2].

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يحتمِلُ الجنسَ ويدخُلُ تحتَهُ هؤلاءِ، والعهدَ فتكونُ الإشارةُ إليهِم.

(١٣٥) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾: فعلةً بالغةً في القُبحِ كالزِّنى ﴿أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بأنْ أذنبُوا أيَّ ذنبٍ كانَ.

وقيلَ: الفاحشةُ الكبيرَةُ، وظلمُ النَّفسِ الصَّغيرَةُ.

ولعلَّ الفاحشةَ ما يتعدَّى وظلمَ النَّفسِ ما ليسَ كذلك.

﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾: تذكَّرُوا وعيدَه، أو حُكمَه، أو حَقَّهُ العَظِيمَ ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٧٨)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٤٥٨)، والطبري في «تفسيره» (٦/ ٥٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وروى أبو داود (٤٧٧٧)، والترمذي ـ وحسنه ـ (٢٤٩٣)، من حديث معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه: «من كظمَ غيظاً، وهو قادِرٌ على أن يُنفِذَهُ، دعاهُ الله عَزَّ وَجَلَّ على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ حتى يُخيِّره مِنْ أيِّ الحُورِ شَاءَ».

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٧٦٣) عن مقاتل بن حيان عن النبي ﷺ بلاغاً. وورد بنحوه في «مسند الفردوس» (٨١٢٠) من حديث أنس.

بالنَّدَم والتَّوبَةِ ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ استفهامٌ بمعنَى النَّفي مُعترِضٌ بين المعطُوفَين، والمرادُ به: وَصْفُه تعالى بسَعَةِ الرَّحمةِ وعمُومِ المغفرَةِ، والحثُّ على الاستغفارِ، والوَعدُ بقَبولِ التَّوبَةِ.

﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾: ولم يُقيمُوا على ذنُوبِهم غيرَ مُستَغْفِرين؛ لقولِه عليه السَّلامُ: «ما أصرَّ مَن استغفرَ وإنْ عادَ في اليَومِ سَبعينَ مرَّةً»(١).

﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ حَالٌ من ﴿يُصِرُّواْ﴾؛ أي: ولم يُصرُّوا على قبيحِ فعلِهم عَالِمِينَ به.

(١٣٦) - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ خبرٌ لـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ إن ابتَدأتَ به، وجملةٌ مُستأنفَةٌ مُبيِّنةٌ لِمَا قبلَها إنْ عطَفْتَه على «المتَّقينَ» أو على ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾، ولا يَلزَمُ مِن إعدادِ الجنَّةِ للمتَّقينَ والتَّائِبينَ جزاءً لَهُم أن لا يَدخُلَها المُصِرُّونَ، كما لا يلزمُ مِن إعدادِ النَّارِ للكافرينَ جَزاءً لهُم أنْ لا يدخلَها غيرُهُم.

وتنكيرُ ﴿جنَّات﴾ على الأوَّلِ يدُلُّ على أنَّ ما لهُم أدونُ ممَّا للمتَّقينَ الموصُوفينَ بتلك الصِّفاتِ المذكورةِ في الآيةِ المتقدِّمةِ، وكفَاكَ فارقًا بين القَبيلَيْنِ أنَّه فصَلَ آيَتَهم بأن بيَّنَ أنَّهُم مُحسِنُونَ مُستَوجبُونَ لمحبَّةِ اللهِ، وذلك لأنَّهم حافظُوا على حدودِ الشَّرعِ، وتخطَّوا إلى التَّخصُّصِ بمكارمِهِ، وفصَلَ آيَةَ هؤلاءِ بقولِهِ: ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ لأنَّ المتدارِكَ لتَقصيرِهِ كالعَامِلِ لتَحصيلِ بعضِ ما فوَّتَ على نفسِهِ، وكم بين المحسِنِ والمتدارِكِ، والمحبُوبِ والأجيرِ، ولعلَّ تبدِيلَ لفظِ الجزاءِ بالأَجرِ لهذهِ النُّكتَةِ.

---

(١) رواه أبو داود (١٥١٤)، والترمذي (٣٥٥٩)، من حديث أبي بكر رضي الله عنه. قال الترمذي: هذا حديثٌ غريبٌ إنَّما نَعرِفُه من حديث أبي نُصَيْرَةَ، وليس إسنادُه بالقويِّ.

والمخصُوصُ بـالمدحِ مَحذوفٌ تقديرُه: ونِعمَ أَجـرُ العَاملينَ ذلكَ؛ يعـني: المغفرةَ والجنَّاتِ.

(١٣٧) ـ ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾: وَقائعُ سنَّها اللهُ في الأُمَمِ المكذِّبَةِ كقولِهِ: ﴿وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ٦١ ـ ٦٢].

وقيلَ: أُمَمٌ، قالَ:

ما عايَنَ النَّاسُ من فضلٍ كفَضْلِكـم ... ولا أرَى مثلَـه فـي سَالفِ السُّنَنِ[١]

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ لتعتَبرُوا بما تَرونَ من آثارِ إهلاكِهم.

(١٣٨) ـ ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إشارةٌ إلى قولِه: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أو مَفهومِ قولِهِ: ﴿فَانظُرُوا﴾؛ أي: أنَّه مع كونِه بيانًا للمُكذِّبينَ فهو زيادةُ بَصيرةٍ ومَوعظةٍ للمتَّقينَ، أو إلى ما لُخِّصَ من أمرِ المتَّقينَ والتَّائبينَ.

وقولُه: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ اعتراضٌ للبَعثِ على الإيمانِ والتَّوبةِ، وقيلَ: إلى القُرآنِ.

(١٣٩) ـ ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ تَسليَةٌ لهُم عمَّا أصابَهم يومَ أُحُدٍ، والمعنى: لا تَضْعُفوا عن الجهَادِ بما أَصابَكم ولا تحزَنُوا على مَن قُتِلَ مِنكم.

﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾: وحَالُكُم أنَّكم أَعْلَى مِنهُم شأنًا فإنَّكُم على الحقِّ وقِتالُكُم للهِ وقَتلاكُم في الجنَّةِ، وأنَّهُم على الباطِلِ وقتالُهم للشَّيطانِ وقَتلاهُم في النَّارِ، أو لأنَّكُم أَصَبتُم مِنهم يومَ بَدرٍ أكثرَ ممَّا أصابُوا منكم اليَومَ.

---

(١) البيت دون نسبة في «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٨٢)، و«تفسير البغوي» (٢/ ١٠٩)، و«تفسير القرطبي» (٤/ ٢١٦)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري (١٧/ ١١٣)، وذكره كثيرون، ولم أقف على من نسبه.

أو: وأنتم الأعلَونَ في العَاقبَةِ، فتكُونُ بِشَارةً لهم بالنَّصرِ والغَلبَةِ.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مُتعلِّقٌ بالنَّهيِ؛ أي: لا تَهِنُوا إنْ صَحَّ إيمانُكُم فإنَّه يَقتضِي قوَّةَ القَلبِ بالوُثُوقِ على اللهِ، أو بـ﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾.

(١٤٠) - ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ قرأ حمزةُ والكِسَائيُّ وابنُ عيَّاشٍ عن عَاصِمٍ بضمِّ القافِ، والبَاقونَ بالفتحِ[١]، وهما لُغتانِ كـ«الضَّعفِ» و«الضُّعْفِ»، وقيلَ: هُو بالفتحِ: الجِراحُ، وبالضَّمِّ: أَلَمُها.

والمعنَى: إن أصابُوا مِنْكم يَومَ أحُدٍ فقَدْ أَصَبْتُم مِنهم يَومَ بَدرٍ مثلَه، ثمَّ إنَّهم لم يَضْعُفوا ولم يَجْبنُوا، فأنتم أولَى بأن لا تَضْعُفوا فإنَّكم تَرجُونَ مِن اللهِ مَا لا يَرجُونَ.

وقيلَ: كلا المَسَّينِ كانَ يومَ أُحُدٍ، فإنَّ المُسلمينَ نَالُوا مِنْهُم قبلَ أن يُخالِفُوا أمرَ الرَّسُولِ عليه السَّلامُ.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: نُصرِّفُها بينَهم نُدِيلُ لهؤلاءِ تارةً ولهؤلاءِ أُخرى؛ كقولِهِ:

فيَومًا عَلَينا ويَوْمًا لنا ... ويومًا نُسَاءُ ويومًا نُسَرّْ[٢]

و«المداوَلَةُ» كـ«المعَاورَةِ»، يقالُ: داوَلْتُ الشَّيءَ بينَهُم فتداوَلُوه.

و﴿ٱلْأَيَّامُ﴾ تحتَمِلُ الوصفَ والخبرَ، و﴿نُدَاوِلُهَا﴾ يحتمِلُ الخبرَ والحالَ، والمرَادُ بها: أَوقاتُ النَّصرِ والغلبَةِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٦)، و«التيسير» (ص: ٩٠).

(٢) انظر: «ديوان النمر بن تولب» (ص: ٦٤ ـ ٦٥)، و«الجمل في النحو» للخليل (ص: ٦٦)، و«الكتاب» (١/ ٨٦)، و«التمثيل والمحاضرة» للثعالبي (ص: ٥٦)، و«المقاصد النحوية» للعيني (١/ ٥٤٤)، والرواية عندهم: (فيوم علينا ويوم...) كلها بالرفع. وهو برواية المصنف في «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٩٢)، و«الكشاف» (٢/ ١٨٨).

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عطفٌ على عِلَّةٍ مَحذوفَةٍ؛ أي: نُداوِلُها ليكونَ كَيْتَ وكَيْتَ وليَعلَمَ اللهُ، إيذانًا بأنَّ العلَّةَ فيه غيرُ واحدَةٍ، وأنَّ ما يُصيبُ المؤمِنَ فيه من المَصَالحِ ما لا يَعلَمُه.

أو الفعلُ المعلَّلُ به محذوفٌ تَقديرُهُ: وليتميَّزَ الثَّابتونَ على الإيمانِ مِن الَّذينَ على حَرفٍ فعَلنَا ذلك، والقصدُ في أمثالِه ونَقائِضِه ليسَ إلى إثباتِ عِلْمِه تعالى ونَفيِهِ بلْ إلى إثباتِ المَعْلُومِ ونَفيِهِ على طريقةِ البُرهانِ.

وقيلَ: مَعناه: ليَعْلَمَهُم عِلْمًا يتعلَّقُ به الجزاءُ، وهو العِلْمُ بالشَّيءِ مَوجودًا.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَ﴾ ويكرِمَ نـاسًا مِنكم بالشَّهادَةِ، يُريدُ شهداءَ أُحُدٍ، أو: يتَّخذَ منكم شهُودًا معدَّلينَ بما صُودِفَ مِنهم من الثَّباتِ والصَّبرِ على الشَّدائدِ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الَّذينَ يُضمِرونَ خِلافَ ما يُظهرونَ، أو الكافرينَ، وهو اعتراضٌ، وفيه تنبيهٌ على أنَّهُ تعالى لا يَنصُرُ الكافرينَ على الحقيقَةِ وإنَّما يُغَلِّبُهُمْ أحيَانًا استدراجًا لهم وابتلاءً للمُؤمنينَ.

(١٤١) ـ ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: ليُطهِّرَهُم ويُصفِّيَهم من الذُّنوبِ إن كانَت الدَّولَةُ عَلَيْهِم ﴿وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: ويُهلِكَهُم إن كانَت عَلَيهم، و«المَحْقُ»: نَقْصُ الشَّيءِ قَليلًا قليلًا.

(١٤٢) ـ ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾: بل أحَسِبْتم، ومَعنَاهُ: الإنكارُ ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾: ولَمَّا تُجاهِدُوا؛ أي: بعضكم، وفيه دليلٌ على أنه فرض على الكفاية[1]، والفرقُ بينَ «لمَّا» و«لم» أنَّ فيهِ توقُّعَ الفِعلِ فيما يُستَقْبَلُ.

---

(١) قوله: «أي: بعضكم، وفيه دليلٌ على أنه فرض على الكفاية» من هامش نسخة الطبلاوي وعليه علامة التصحيح.

وقُرِئَ: «يعلمَ» بفتحِ الميمِ[1] على أنَّ أصلَهُ: يَعلمَنْ، فحُذِفَت النُّونُ.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ نصبٌ بإضمارِ «أنْ» على أنَّ الواوَ للجَمعِ، وقُرِئَ بالرَّفعِ[2] على أنَّ الواوَ للحالِ كأنَّه قالَ: ولمَّا تجاهدُوا وأنتم صَابرُونَ[3].

(١٤٣) ـ ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾؛ أي: الحَربَ فإنَّها مِن أسبَابِ الموتِ، أو: الموتَ بالشَّهَادَةِ، والخطابُ للَّذينَ لم يشهَدُوا بدرًا وتمنَّوا أن يَشهَدُوا معَ رسُولِ اللهِ ﷺ مَشهَدًا لينَالُوا ما نالَ شهَداءُ بَدرٍ من الكرامَةِ، فألَحُّوا يَومَ أُحُدٍ على الخروجِ.

﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾: مِن قبلِ أنْ تُشاهِدُوه وتَعرِفُوا شِدَّتَهُ ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾؛ أي: فقد رأيتُموه مُعَايِنينَ له حينَ قُتِلَ دُونكُم مَن قُتِلَ مِن إخوانِكم، وهو توبيخٌ لهم على أنَّهم تمنَّوا الحَربَ وتسبَّبُوا لها ثمَّ جَبُنُوا وانهزَمُوا عنها، أو على تمنِّي الشَّهَادَةِ فإنَّ في تَمَنِّيها تمنِّيَ غلبةِ الكُفَّارِ.

(١٤٤) ـ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ فَسَيَخلُو كما خَلَوا بالموتِ أو القَتْلِ ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ إنكارٌ لارتِدادِهِم وانقلابِهِم على أَعقابِهِم عـن الدِّينِ لخُلوِّه بمَوتٍ أو قَتلٍ بعدَ عِلْمِهم بخلوِّ الرُّسُلِ قبلَهُ وبقاءِ دِينِهم مُتمَسَّكًا به.

---

(١) نسبت لابن وثاب والنخعي. انظر: «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ١٢٠)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٥١٥)، و«البحر المحيط» (٦/ ١٦٨).

(٢) هـي رواية عن أبي عمرو في غير المشهور عنه. «المختصر فـي شـواذ القراءات» (ص: ٢٩)، و«الكشاف» (٢/ ١٩١).

(٣) أي: وهوَ يعلمُ الصَّابِرينَ، وما ذكره المصنف هو حاصل معناه. انظر: «حاشية القونوي» (٦/ ٣٣٩)، وقال الشهاب: «وعلى قراءَةِ الرَّفعِ قيلَ: هوَ مُستأنَفٌ، وقيلَ: حالٌ بتقديرِ مبتدإٍ؛ أي: وهو يعلمُ الصَّابِرينَ، وإليه أشارَ بتأويلِها بالاسميَّةِ». انظر: «حاشية الخفاجي».

وقيلَ: الفاءُ للسَّببيَّةِ والهمزةُ لإنكارِ أن يَجعَلُوا خُلوَّ الرُّسُلِ قَبلهُ سببًا لانقِلابهِم على أعقابِهم بعدَ وَفاتِه.

رُوِيَ أنَّه لَمَّا رَمَى عَبدُ الله بنُ قَمِئَةَ الحارثيُّ رَسُولَ اللهِ بحجرٍ فكَسَرَ رَباعيَتَهُ وشَجَّ وجهَه، [أَقبلَ يريدُ قتلَه] فذبَّ عنه مُصعَبُ بنُ عُمَيرٍ رضي الله عنه وكانَ صَاحبَ الرَّايةِ حتى قَتَلَهُ ابنُ قَمِئة وهو يرى أنَّه قتلَ النَّبِيَّ، فقالَ: قد قَتَلْتُ محمَّدًا، وصَرَخَ صَارخٌ: ألا إنَّ محمَّدًا قد قُتِلَ، فانكفأَ النَّاسُ وجَعَلَ الرَّسُولُ يَدعُو: «إليَّ عبادَ الله» فانحازَ إليهِ ثلاثونَ مِن أَصحابِه وحَمَوهُ حتَّى كشفُوا عنه المشركينَ، وتفرَّقَ البَاقونَ وقالَ بَعضُهُم: ليتَ ابنَ أُبَيٍّ يأخذُ لنا أمَانًا مِن أبي سفيَانَ، وقالَ ناسٌ من المنافقينَ: لو كانَ نبيًّا لَمَا قُتِلَ، ارجعُوا إلى إخوانِكُم ودينِكُم، فقالَ أنسُ بنُ النَّضرِ عمُّ أنسِ بنِ مالكٍ: يا قومِ، إن كانَ قُتِلَ محمَّدٌ فإنَّ ربَّ مُحمَّدٍ لا يمُوتُ، وما تَصنعونَ بالحياةِ بَعْدَه؟! فقاتِلُوا على ما قاتَلَ عليه، ثمَّ قالَ: اللَّهمَّ إنِّي أعتَذِرُ إليكَ ممَّا يقُولونَ وأبرأُ منه، وشَدَّ بسَيفِه فقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فنزلَت(١).

---

(١) انظر: «الكشاف» (٢/ ١٩٢) وما بين معكوفتين منه. وهذه قطعة من خبر طويل رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٩٩) عن السدي. وما جاء فيه من قصة أنس بن النضر له شاهد عند البخاري (٢٨٠٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

قال الطيبي في «فتوح الغيب» (٤/ ٢٨٥): «قوله: «لما رمى عبد الله بن قمئة» مخالف لما سبق عند قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾، فإنه ذكر أنه عتبة بن أبي وقاص، وهذا الذي ذكره ها هنا أصح».

قلت: ولعل الفصل في المسألة في قول الواقدي في «المغازي» (١/ ٢٤٤): والثبت عندنا أن الذي رمى وجنتي النبي ﷺ عبد الله بن قمئة، والذي رمى شفته وأصاب رباعيته عتبة بن أبي وقاص.

ويؤيده ما جاء في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٨٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن عتبة بن أبي وقاص رمى رسول الله ﷺ يومئذ فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى، =

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بارتِدادِه، بل يضرُّ نفسَه ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ على نعمةِ الإسلامِ بالثَّباتِ عليه كأنَسٍ وأضرابِه.

(١٤٥) - ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: إلَّا بمشيئتِهِ تعالى، أو بإذنِهِ لمَلَكِ الموتِ في قَبضِ رُوحِهِ، والمعنَى: أنَّ لكلِّ نَفْسٍ أجَلًا مُسَمًّى في عِلمِه تعالى وقَضائِه لا يَستأخِرونَ سَاعَةً ولا يَستقدِمونَ بالإحجامِ عن القتالِ والإقدامِ عليه، وفيه تحريضٌ وتَشجيعٌ على القتالِ، ووَعدٌ للرَّسُولِ عليه السَّلامُ بالحِفظِ وتَأخيرِ الأَجَلِ.

﴿كِتَـٰبًا﴾ مَصدَرٌ مؤَكِّدٌ إذ المعنى: كتبَ المَوتَ كِتابًا ﴿مُّؤَجَّلًا﴾ صفَةٌ له؛ أي: مُؤَقَّتًا لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ تَعريضٌ بمَن شغَلَتْهُم الغَنائِمُ يومَ أُحُدٍ، فإنَّ المُسلِمينَ حَمَلوا على المشركينَ وهزَمُوهُم وأخَذوا ينهبُونَ، فلمَّا رأى الرُّمَاةُ ذلكَ أقبلُوا على النَّهبِ وخلَّوْا مكانَهُم، فانتهَزَ المشركونَ وحَمَلوا عليهم مِن وَرَائِهم فهزَمُوهُم.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾؛ أي: مِن ثَوابِها ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ الَّذينَ شَكَروا نِعمةَ اللهِ فلَمْ يَشْغَلْهُم شيءٌ عن الجهَادِ.

(١٤٦) - ﴿وَكَأَيِّن﴾ أصْلُه: أَيٌّ، دَخلَت الكافُ عليها وصارَتْ بمَعنى «كم»، والنُّونُ تنوينٌ أُثبِتَ في الخطِّ على غيرِ قياسٍ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿وكائن﴾ كـ«كاعِنٍ»[1]، ووَجهُه أنَّه قُلِبَ قَلْبَ الكلمةِ الواحِدَةِ

= وأن عبد الله بن شهاب الزهري شجه في وجهه، وأن ابن قمئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته... الحديث.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٦)، و«التيسير» (ص: ٩٠).

كقولِهم: «رَعَمْلي» في «لَعَمْري»، فصَارَ «كَيِّئِنْ»[١]، ثمَّ حُذفَت الياءُ الثَّانيَةُ للتَّخفيفِ، ثمَّ أُبدِلَت الياءُ الأخرى ألِفًا كما أُبدِلَت مِن «طَائيّ»[٢].

﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ بيانٌ له ﴿قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾: رَبَّانيُّونَ عُلماءُ أَتقِياءُ، أو: عَابدونَ لرَبِّهم.

وقيلَ: جماعاتٌ، و«الرِّبِّيُّ» مَنسوبٌ إلى «الرِّبَّةِ» ـ وهي الجماعةُ ـ للمُبالغةِ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ ونافِعٌ وأبو عَمرٍو ويَعقُوبُ: ﴿قُتِلَ﴾[٣] وإسنادُه إلى ﴿رِبِّيُّونَ﴾، أو ضميرِ النَّبيِّ و﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ حَالٌ عنه، ويؤيِّدُ الأوَّلَ أنَّه قُرِئَ بالتَّشديدِ[٤].

وقُرِئَ: «رَبِّيُّونَ» بالفتحِ على الأَصلِ، وبالضَّمِّ[٥] وهو مِن تغييراتِ النَّسَبِ كالكَسرِ.

﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: فمَا فتَرُوا، ولم ينكَسِر جِدُّهم لِمَا أصَابَهم مِن قتلِ النَّبيِّ أو بعضِهم ﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾ عَنِ العَدُوِّ أو في الدِّينِ ﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْ﴾: ومَا خضَعُوا للعَدوِّ، وأصلُه: «استكَنَ» من السُّكُونِ؛ لأنَّ الخاضِعَ يَسكنُ لصَاحبِه لِيَفعَلَ بهِ ما يُريدُه، والألفُ مِن إشبَاعِ الفَتحَةِ، أو: «استكْوَنَ» من الكَونِ؛ لأنَّه

---

(١) بكاف وياء مفتوحتين وهمزة مكسورة ثم نون. انظر: «روح المعاني» (٥/ ٤٢).

(٢) وأصله: (طيِّئيّ) بياءين مشددتين بينهما همزة، فحذفت إحدى الياءين وقلبت الأخرى ألفاً. المصدر السابق.

(٣) هي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو، وقرأ باقي السبعة: ﴿قَـٰتَلَ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٢١٧)، و«التيسير» (ص: ٩٠).

(٤) وهي قراءة قتادة كما في «المحتسب» (١/ ١٧٣).

(٥) نسب لعلي وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم القراءة بضم الراء، ولابن عباس بفتحها. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٩)، و«المحتسب» (١/ ١٧٣).

يطلبُ من نَفْسِه أن يكونَ لِمَن يخضَعُ لهُ، وهذا تَعريضٌ بما أصابَهُم عند الإرجَافِ بقَتلِهِ عليه السَّلامُ.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فينْصُرُهم ويُعْظِمُ قَدْرَهُم.

(١٤٧) ـ ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: وما كانَ قولَهم مع ثَباتِهم وقوَّتِهم في الدِّينِ وكونِهم رَبَّانيِّينَ إلَّا هذا القولُ، وهو إضافةُ الذُّنوبِ والإسرافِ إلى أنفُسِهم هضمًا لها وإضافةً لِمَا أصَابَهم إلى سُوءِ أعمالِها، والاستغفارُ عنها، ثمَّ طلبُ التَّثبيتِ في مواطنِ الحَرْبِ والنَّصْرِ على العَدُوِّ؛ ليكونَ عن خضُوعٍ وطَهَارةٍ فيكونَ أقربَ إلى الإجابةِ، وإنَّما جعلَ ﴿قولَهم﴾ خبرًا لأنَّ ﴿أَن قَالُواْ﴾ أعرَفُ؛ لدَلالتِهِ على جهةِ النِّسبَةِ وزمانِ الحدثِ.

(١٤٨) ـ ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فآتاهُم اللهُ بسبَبِ الاستغفارِ واللَّجأِ إلى اللهِ النَّصرَ والغنيمَةَ والعِزَّ وحُسنَ الذِّكرِ في الدُّنيا، والجنَّةَ والنَّعيمَ في الآخرَةِ، وخُصَّ ثوابُها بالحسنِ إشعارًا بفَضْلِهِ وأنَّه المعتدُّ به عِندَه.

(١٤٩) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ نزلَتْ في قولِ المنافقينَ للمُؤْمِنينَ عندَ الهزيمةِ: ارجعُوا إلى دينِكم وإخوانِكُم، و: لو كانَ مُحَمَّدٌ نبيًّا لَمَا قُتِلَ.

وقيلَ: إن تَستكينُوا لأَبِي[1] سُفيانَ وأشيَاعِه وتستَأمِنُوهُم يردُّوكم إلى دينِهِم.

وقيلَ: عامٌّ في مطاوعَةِ الكفَّارِ والنُّزولِ على حُكْمِهِم، فإنَّه يستجرُّ إلى مُوافقَتِهم.

(١٥٠) ـ ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾: ناصِرُكُم، وقرِئَ بالنَّصبِ[2] على تَقديرِ: بل أطيعُوا اللهَ مَولاكُم.

---

(١) في نسخة الخيالي: «إلى أبي».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٩) عن ابن ميسرة وعيسى النصر (كذا، ولعله: عيسى البصرة).

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ فاستغنُوا بهِ عَن وِلايةِ غَيرِهِ ونَصرِهِ.

(١٥١) ـ ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ يريدُ: ما قُذِفَ في قلوبِهم مِن الخَوْفِ يومَ أُحُدٍ حتَّى تركوا القتالَ ورَجَعُوا مِن غيرِ سبَبٍ، ونادَى أبو سفيَانَ: يا محمَّدُ، مَوعِدُنا مَوسمَ بَدرٍ القابلَ[١] إنْ شِئتَ، فقالَ عليه السَّلامُ: «إنْ شاءَ اللهُ»[٢].

وقيلَ: لمَّا رَجعُوا وكانوا ببَعضِ الطَّريقِ نَدِموا وعَزَموا أن يَعُودوا عليهم ليَسْتأصِلوهُم، فألقَى اللهُ الرُّعبَ في قلوبِهم.

وقرأ ابنُ عامرٍ والكسَائيُّ ويعقوبُ بالضَّمِّ على الأصلِ في كلِّ القُرآنِ[٣].

﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾: بسبَبِ إشراكِهِم به ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾؛ أي: آلهةً ليسَ على إشراكِها حُجَّةٌ ولم يُنَزِّلْ عَلَيهِم به سُلطانًا، وهو كقولِه:

ولا تَرَى الضَّبَّ بها يَنْجَحِر[٤]

---

(١) قوله: «القابل» صفة «موسم». وعند الشهاب: «لقابل» قال: يعني: للعامِ القابلِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) أورده الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٤٠) عن مجاهد وعكرمة. ورواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٩٤) من طريق عكرمة عن ابن عباس دون قول النبي ﷺ: إن شاء الله.

(٣) وقرأ باقي السبعة: ﴿ٱلرُّعْبَ﴾ بسكون العين. انظر: «السبعة» (ص: ٢١٧)، و«التيسير» (ص: ٩١)، و«النشر» (٢/ ٢١٦).

(٤) عجز بيت لعمرو بن أحمر، كما في «المنتخب من كلام العرب» لكراع النمل (ص: ٦٥٧)، و«أمالي المرتضى» (١/ ٢٢٩)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (١٠/ ٢١٠)، ودون نسبة في «الخصائص» لابن جني (٣/ ١٦٧)، و«شرح أدب الكاتب» للجواليقي (ص: ١٥٠)، وصدره:

لا تفزعُ الأرنبَ أهوالُها

وليس المراد إثبات ضب ونفي انجحاره، بل نفيُ الضبِّ وانجحارِه، كما أن المرادَ من الآية نفيُ النزول والسلطان؛ أي: لا ضبَّ بها حتَّى يَنجحِرَ، ولا حجَّةَ حتَّى يُنزِّلَها، فالمُرادُ نفيُهما جميعًا.

وأصلُ «السَّلطنَةِ»: القُوَّةُ، ومنه: «السَّليطُ»؛ لقوَّةِ اشتعالِه، و«السَّلاطَةُ» لِحِدَّةِ اللِّسانِ.

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: مَثْواهم، فوَضعَ الظَّاهِرَ مَوضِعَ المضمَرِ للتَّغليظِ والتَّعليلِ.

(١٥٢) - ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾؛ أي: وَعْدَهُ إيَّاكم بالنَّصرِ بشرطِ التَّقوى والصَّبرِ، وكان كذلكَ حتَّى خالفَ الرُّماةُ، فإنَّ المشركينَ لَمَّا أَقبَلُوا جعَلَ الرُّماةُ يرشُقُونَهم والباقُونَ يَضرِبونَهُم بالسَّيفِ حتى انهزَمُوا والمسلمُونَ على آثارِهِم.

﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾: تَقْتُلونَهُم، مِن «حَسَّهُ»: إذا أبطَلَ حِسَّهُ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾: جبُنْتُم وضَعُفَ رَأْيُكم، أو: مِلْتُم إلى الغَنيمَةِ فإنَّ الحِرْصَ من ضعفِ العَقْلِ.

﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ يعني: اختلافَ الرُّماةِ حينَ انهزَمَ المُشرِكُونَ فقالَ بعضُهُم: فما مَوقِفُنا هاهنا؟ وقالَ آخرونَ: لا نخالِفُ أمرَ الرَّسُولِ عليه السَّلامُ، فثبتَ مكانَه أميرُهُم في نَفرٍ دونَ العشرةِ ونفرَ الباقونَ للنَّهْبِ، وهوَ المعنيُّ بقولِهِ:

﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ مِن الظَّفَرِ والغَنيمَةِ وانهزامِ العَدوِّ.

وجوابُ ﴿إِذَا﴾ مَحذوفٌ، وهو: امتَحَنَكُم.

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ وهُم التَّاركونَ المركزَ للغَنيمَةِ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وهم الثَّابتونَ محافظَةً على أمرِ الرَّسولِ ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾: ثُمَّ كفَّكُم عنهم حتَّى حالَت الحالُ فغَلَبُوكم ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ على المصَائبِ، ويَمتَحِنَ ثباتَكُم على الإيمانِ عِندَها.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ تفضُّلًا، ولِمَا عَلِمَ مِن نَدَمِهم على المُخالَفَة.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يتفضَّلُ عليهِم بالعَفوِ، أو في الأَحوالِ كلِّها سَواءٌ أُديلَ لهم أو عليهم إذِ الابتلاءُ أيضًا رَحمةٌ.

(١٥٣) ـ ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿صَرَفَكُمۡ﴾، أو ﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡ﴾، أو بمُقدَّرٍ كـ«اذكُرْ»(١).

و«الإِصعادُ»: الذَّهابُ والإِبعادُ في الأرضِ، يقالُ: أَصْعَدنا مِن مكَّةَ إلى المدينَةِ.

﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾: لا يقفُ أَحَدٌ لأحَدٍ ولا يَنتَظِرُه.

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ﴾ كانَ يقولُ: «إليَّ عبادَ اللهِ، إليَّ عبادَ اللهِ، أنا رسُولُ الله، مَن يكرُّ فلهُ الجنَّةُ»(٢).

﴿فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾: في سَاقَتِكُم وجَماعَتِكُم الأخرى.

﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ عطفٌ على ﴿صَرَفَكُمۡ﴾ والمعنى: فجازاكُم اللهُ عَن فَشَلِكُم وعِصْيانِكُم غمًّا متَّصِلًا بغَمٍّ مِن الاغتِمامِ بالقَتْلِ والجَرحِ وظَفَرِ المشركينَ والإرجافِ بقَتْلِ الرَّسولِ.

أو: فجَازاكُم غمًّا بسَبَبِ غمٍّ أذقتمُوه رسُولَ الله بعصيانِكم له؛ لتتمرَّنُوا على الصَّبرِ في الشَّدائِدِ، فلا تحزَنُوا فيما بَعدُ على نفعٍ فائتٍ وضرٍّ لاحقٍ.

وقيلَ: «لا» مَزيدةٌ، والمعنى: لِتأسَفُوا على ما فاتَكُم مِن الظَّفرِ والغَنيمَةِ وعلى ما أَصَابَكُم من الجَرحِ والهزيمَةِ عُقوبةً لَكُم.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «كاذكروا».

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٦/ ١٤٦ ـ ١٤٨) عن ابن عباس وقتادة والربيع، دون قوله: «أنا رسولُ اللهِ، مَن يَكرُّ فلهُ الجنةُ».

وقيلَ: الضَّميرُ في ﴿فَأَثَبَكُمْ﴾ للرَّسُولِ؛ أي: فآساكُم(١) في الاغتمامِ فاغتمَّ بما نزلَ عليكُمْ كما اغتمَمتُم بما نَزَلَ عليه، ولم يُثرِّبْكُم على عصيَانِكم تَسليَةً لكم لكيلا تحزَنوا على ما فاتَكُم مِن النَّصرِ ولا على ما أصَابكُم مِن الهزيمَةِ.

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: عالِمٌ بأعمالِكُم وبما قَصَدتُم بها.

(١٥٤) ـ ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ أنزلَ اللهُ عَلَيكُم الأَمنَ حتَّى أخذَكُم النُّعاسُ، وعن أبي طلحَةَ: غَشِيَنَا النُّعَاسُ في المصَافِّ حتَّى كانَ السَّيفُ يَسقطُ مِن يدِ أَحدِنا فيَأخذُهُ، ثمَّ يَسقُطُ فيأخذُهُ(٢).

و«الأَمَنَةُ»: الأَمْنُ، نَصْبٌ على المفعُولِ، و﴿نُّعَاسًا﴾ بدَلٌ منها، أو هو المفعُولُ و﴿أَمَنَةً﴾ حالٌ منه متقدِّمَةٌ، أو مفعُولٌ له، أو حالٌ مِن المخاطبينَ بمَعنى: ذَوِي أَمَنَةٍ، أو على أنَّه جَمعُ «آمِنٍ» كـ: «بَارٍّ وبرَرَةٍ».

وقُرِئَ: «أَمْنَةً» بسُكونِ الميمِ(٣)، كأنَّها المرَّةُ من الأَمْنِ.

﴿يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾؛ أي: النُّعَاسُ، وقرأَ حمزةُ والكِسَائيُّ بالتَّاءِ رَدًّا على الأَمَنَةِ(٤).

والطَّائفَةُ: المؤمنُونَ حَقًّا ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ هم المنافقونَ ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾: أوقعَتْهُم أنفسُهُم في الهمُومِ، أو: ما يُهِمُّهم إلَّا هَمُّ(٥) أنفسِهم وطلبُ خَلاصِها.

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «أي: واساكم». والمثبت من باقي النسخ، قال الشهاب: (آسَاكُم) بالهمزِ والمدِّ؛ أي: جعلكم أُسوَةً لهُ متساوينَ في الحزنِ، واللُّغَةُ الفصيحَةُ فيهِ: آسى، وأمَّا «واسَى»، فقيل: مُولَّدَةٌ، وقيل: رديئَةٌ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) رواه البخاري من رواية أنس عن أبي طلحة (٤٥٦٢).

(٣) قراءة ابن محيصن. انظر: «المحتسب» (١/ ١٧٤)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٩).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٧)، و«التيسير» (ص: ٩١).

(٥) «هم» ليست في نسخة الخيالي.

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ صِفَةٌ أخرى لـ﴿طَائفةٌ﴾، أو حَالٌ، أو استئنافٌ على وَجهِ البيَانِ لِمَا قبلَه، و﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ نَصْبٌ على المصدرِ؛ أي: يظنُّونَ باللهِ غيرَ الظَّنِّ الحقِّ الَّذي يحقُّ أن يُظنَّ به، و﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ بدلُهُ، وهو الظَّنُّ المُختَصُّ بالملَّةِ الجاهِليَّةِ وأهلِها.

﴿يَقُولُونَ﴾؛ أي: لرَسُولِ اللهِ، وهو بدَلٌ من ﴿يَظُنُّونَ﴾:

﴿هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾: هل لنا ممَّا أمرَ اللهُ ووَعَدَ مِن النَّصرِ والظَّفرِ نَصيبٌ قطُّ؟

وقيلَ: أُخبرَ ابنُ أبيٍّ بقتلِ بني الخزرَجِ فقالَ ذلكَ، والمعنى: إنَّا مُنِعْنا تدبيرَ أنفُسِنا وتصريفَها باختيَارِنا فلم يبقَ لنا من الأمرِ شَيءٌ، أو: هل يَزولُ عنَّا هذا القَهْرُ فيكونَ لنا من الأَمرِ شَيءٌ؟

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾؛ أي: الغلبَةَ الحقيقيَّةَ للهِ تعالى ولأوليائِه فإنَّ حِزبَ اللهِ هُم الغَالبُونَ، أو: القضَاءَ له يفعَلُ ما يَشاءُ ويحكُمُ ما يُريدُ، وهوَ اعتراضٌ.

وقرأَ أبو عمرٍو ويعقوبُ: ﴿كلُّه﴾ بالرَّفعِ على الابتداءِ[1].

﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿يَقُولُونَ﴾؛ أي: يقولونَ مُظهِرينَ أنَّهم مُسترشِدُونَ طالبُونَ للنَّصر مُبطِنينَ الإنكارَ والتَّكذيبَ.

﴿يَقُولُونَ﴾؛ أي: في أنفسِهِم، أو إذا خَلا بَعضُهُم إلى بعضٍ، وهو بدلٌ مِن ﴿يُخْفُونَ﴾، أو استئنافٌ على وَجهِ البيَانِ له.

﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ كما وَعَدَ محمَّدٌ وزَعَمَ أنَّ الأمرَ كلَّهُ للهِ ولأوليائِهِ، أو: لو كانَ لنا اختيَارٌ وتدبيرٌ لم نبرَح كما كانَ رأيُ ابنِ أُبيٍّ وغيرِه.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٧)، و«التيسير» (ص: ٩١)، و«النشر» (٢/ ٢٤٢).

﴿مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾: لَما غُلِبْنا، ولَمَا[1] قُتِلَ مَن قُتِلَ منَّا في هذهِ المعركَةِ.

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾؛ أي: لخَرَجَ الَّذينَ قدَّرَ اللهُ عليهم القَتلَ وكتبَ في اللَّوحِ المحفُوظِ إلى مصارِعِهِم ولم تَنفَع الإقامَةُ بالمَدينةِ ولم يَنجُ مِنْهُم أحَدٌ، فإنَّه قدَّرَ الأمُورَ ودبَّرَها في سَابقِ قَضائِهِ ولا مُعقِّبَ لحُكمِه.

﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾: وليَمتَحِنَ ما في صُدورِكُم ويُظهِرَ سَرائِرَها مِن الإخلاصِ والنِّفاقِ، وهو عِلَّةُ فعلٍ مَحذوفٍ؛ أي: وفَعَلَ ذلك ليَبتليَ، أو عَطفٌ على مَحذوفٍ؛ أي: لبرزَ لنَفاذِ القَضاءِ أو لمصَالِحَ جمَّةٍ وللابتلاءِ، أو على قولِه: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا﴾.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾: وليَكشفَهُ ويميِّزَه أو يخلِّصَه مِن الوسَاوسِ.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: بخفيَّاتها قبلَ إظهارِها، وفيه وَعدٌ ووَعِيدٌ وتنبيهٌ على أنَّه تعالى غنيٌّ عن الابتلاءِ، وإنَّما فعَل ذلك لتمرينِ المؤمنينَ وإظهارِ حَالِ المنافقينَ.

(١٥٥) ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ يعني: إنَّ الَّذينَ انهزَموا يومَ أُحُدٍ إنَّما كانَ السَّببُ في انهزامِهِم أنَّ الشَّيطانَ طلبَ مِنهم الزَّللَ فأطاعُوهُ واقترَفوا ذُنوبًا بتَرْكِ المركزِ، والحِرصِ على الغَنيمَةِ أو الحياةِ، ومُخالَفَةِ النَّبيِّ ﷺ، فمُنِعُوا التَّأييدَ وقوَّةَ القلبِ.

وقيلَ: استزلالُ الشَّيطانِ تولِّيهم، وذلك بسَبَبِ ذُنُوبٍ تقدَّمَتْ لهُم فإنَّ المعاصِيَ يَجُرُّ بَعضُها بَعضًا كالطَّاعَةِ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «أو لما».

وقيلَ: استزلَّهُم بذكرِ ذُنوبٍ سَلَفَتْ مِنهم وكرهُوا القتلَ قبلَ إخلاصِ التَّوبَةِ والخروجِ مِن المَظلَمَةِ.

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لِتَوبَتِهم واعتذارِهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذُّنوبِ ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجِلُ بعقوبَةِ المذنبِ كَي يَتوبَ.

(١٥٦) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني: المنافِقينَ ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ لأَجْلِهم وفِيهِم، ومعنَى أُخوَّتِهم: اتِّفاقُهُم في النَّسَبِ أو المذهَبِ ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: إذا سَافرُوا فيها وأبعَدوا للتِّجارَةِ أو غيرِها، وكانَ حَقُّه «إذ»؛ لقولِهِ: ﴿قَالُواْ﴾، لكنَّه جاءَ على حكايةِ الحالِ الماضيَةِ.

﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾: جمعُ «غازٍ» كـ«عَافٍ وعُفًّى».

﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ مفعُولُ ﴿قَالُواْ﴾ وهو يدُلُّ على أنَّ إخوانَهُم لم يكونوا مخاطَبينَ به.

﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿قَالُواْ﴾ على أنَّ اللَّامَ لامُ العَاقبَةِ مثلُها في: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

أو: ﴿لَا تَكُونُواْ﴾؛ أي: لا تكونُوا مثلَهُم في النُّطقِ بذلك القولِ والاعتقادِ ليجعَلَه حَسْرَةً في قلوبِهم خاصَّةً، فـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما دَلَّ عليه قولهُم من الاعتقادِ، وقيلَ: إلى ما دَلَّ عليه النَّهيُ؛ أي: لا تكونُوا مِثلَهُم ليجعَلَ اللهُ انتفاءَ كونِكُم مِثلَهُم حَسرَةً في قلُوبِهم، فإنَّ مُخالَفَتَهُم ومُضَادَّتَهُم ممَّا يُغِمُّهُم.

﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ ردٌّ لقولِهم؛ أي: هُو المؤثِّرُ في الحيَاةِ والمماتِ، لا الإقامَةُ والسَّفرُ فإنَّه تعالى قد يُحيِي المسَافِرَ والغازِيَ ويُميتُ المقيمَ والقاعِدَ.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تهديدٌ للمُؤمنينَ على أَنْ يُمَاثلُوهُم.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكِسَائيُّ بالياءِ[١] على أنَّه وعيدٌ للَّذينَ كفرُوا.

(١٥٧) ـ ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾؛ أي: مُتُّمْ في سَبيلِه، وقرأَ نافعٌ وحمزَةُ والكِسَائيُّ بكَسرِ الميمِ مِن «مَاتَ يَمَاتُ»[٢].

﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ جوابُ القسَمِ، وهـو سَادٌّ مَسَدَّ الجزاءِ، والمعنى: إنَّ السَّفَرَ والغزاءَ ليسَ ممَّا يَجلِبُ الموتَ ويُقَدِّمُ الأجَلَ وإنْ وَقعَ ذلك في سَبيلِ اللهِ، فما تنالُونَ مِن المغفرَةِ والرَّحمَةِ بالموتِ خَيرٌ ممَّا تجمَعُونَ مِن الدُّنيَا ومَنافعِهَا لو لم تَمُوتوا.

(١٥٨) ـ ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ على أيِّ وَجْهٍ اتَّفَقَ هلاكُكُم ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾: لَإِلَى معبُودِكم الَّذي توجَّهْتُم إليه وبَذَلتُم مُهَجَكُم لِوَجهِهِ لا إلـى غيرِهِ لا محالَةَ تُحْشَرونَ، فيُوفِّي جزاءَكُم ويُعْظِمُ ثوابَكُم.

وقرأَ نافعٌ وحَمزةُ والكِسَائيُّ: ﴿مِتُّم﴾ بالكَسرِ[٣].

(١٥٩) ـ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾؛ أي: فبِرَحْمَةٍ، و«مَا» مَزيدةٌ للتَّأكيدِ والدَّلالةِ على أنَّ لِينَهُ لهُم ما كانَ إلَّا برَحمَةٍ منَ اللهِ، وهو رَبطُه على جَأشِهِ وتوفيقُه للرِّفقِ بهم حتَّى اغتمَّ لهُم بعدَ أن خالفُوه.

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾: سيِّئَ الخُلُقِ جافيًا ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾: قاسِيَه ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾: لتفرَّقُوا عنكَ ولم يَسكنُوا إليكَ.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يَختصُّ بك ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما للهِ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾؛

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٧)، و«التيسير» (ص: ٩١).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

أي: في أَمرِ الحَربِ، إذِ الكلامُ فيه، أو: فيما يصحُّ أن يُشاوَرَ فيه؛ استظهَارًا برَأيِهم، وتَطييبًا لنفُوسِهِم، وتمهيدًا لسُنَّةِ المشاورةِ للأمَّةِ.

﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ﴾: فإذا وطَّنتَ نفسَكَ على شيءٍ بعدَ الشُّورَى ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في إمضاءِ أَمرِكَ على ما هُو أصلَحُ لك فإنَّه لا يعلمُهُ سِواهُ.

وقرِئَ: «فإذا عَزَمتُ» على التَّكلُّمِ(١)؛ أي: فإذا عزَمتُ لكَ على شَيءٍ وعيَّنتُه لكَ فتوَكَّلْ عليَّ ولا تشاوِرْ فيهِ أَحَدًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ فينصُرُهم ويَهْدِيهم إلى الصَّلاحِ.

(١٦٠) - ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ كما نصَرَكُم يومَ بَدرٍ ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾: فلا أحَدَ يغلِبُكم ﴿وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ﴾ كما خَذَلكم يوم أُحُدٍ ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾: مِن بَعدِ خذلانِه، أو: من بَعدِ اللهِ، بمعنَى: إذا جَاوزتُموهُ فلا ناصرَ لكُم، وهذا تنبيهٌ على المقتضِي للتَّوكُّلِ، وتحرِيضٌ على ما يُستحَقُّ به النَّصرُ مِن اللهِ، وتحذيرٌ عمَّا يَستجلبُ خذلانَه.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: فليخُصُّوهُ بالتَّوكُّلِ عليه لِمَا علمُوا أنْ لا ناصرَ سواهُ وآمَنُوا به.

(١٦١) - ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾: وما صَحَّ لنبيٍّ أنْ يخُونَ في الغنائمِ فإنَّ النُّبوَّةَ تُنافي الخيَانةَ، يقال: غلَّ شَيئًا مِن المغنَمِ يَغُلُّ غلُولًا، وأغَلَّ إغلالًا: إذا أخَذَه في خُفيَةٍ، والمُرَادُ منهُ:

إمَّا براءَةُ الرَّسُولِ عليه السَّلامُ عمَّا اتُّهِمَ به؛ إذ رُوِيَ أنَّ قطيفةً حمراءَ فُقِدَت يومَ

---

(١) نسبت لجعفر الصادق وغيره. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٩)، و«المحتسب» (١/ ١٧٦).

بدرٍ فقالَ بعضُ المنافقين: لعَلَّ رسُولَ اللهِ ﷺ أخذَها[١]، أو ظنَّ[٢] به الرُّماةُ يومَ أحُدٍ حينَ تركُوا المركزَ للغنيمَةِ، وقالُوا: نخشى أن يقولَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَن أخذَ شيئًا فهوَ لهُ، ولا يَقسِمَ الغنائمَ[٣].

وإمَّا المبالغةُ في النَّهيِ للرَّسُولِ على ما رُوِيَ أنَّهُ بعثَ طلائعَ، فغنِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فقسَمَ على مَن معَهُ ولم يقسِم للطَّلائعِ، فنزلَتْ[٤].

---

(١) رواه أبو داود (٣٩٧١)، والترمذي (٣٠٠٩)، والطبري في «التفسير» (٦/ ١٩٤)، من طريق خصيف عن مقسم عن ابن عباس. قال الترمذي: حسن غريب. وروى بعضهم هذا الحديث عن خصيف عن مقسم ولم يذكر فيه: عن ابن عباس.

ورواه أبو يعلى في «مسنده» (٢٤٣٨)، والطبري في «تفسيره» (٦/ ١٩٥)، وابن المنذر في «تفسيره» (١١٢٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٠٣)، والطبراني في «الكبير» (١٢٠٢٨) و(١٢٠٢٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١٢٦) من طريق خصيف عن عكرمة عن ابن عباس. وخصيف هذا هو ابن عبد الرحمن، وهو مضطرب الحديث سيئ الحفظ كثير الأوهام وفيه ضعف من قبل حفظه، فهذا الاضطراب في سند الحديث منه والله أعلم، كما أنه ليس في هذا الحديث تصريح بأن قائل ذلك من المنافقين، لكن للحديث طريق أخرى يتقوى بها وتبين أن القائل كان من المنافقين؛ وهو ما رواه الطبراني في «الكبير» (١١١٧٤)، وفي «الأوسط» (٥٣١٣)، وفي «الصغير» (٨٠٣)، ومن طريقه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١٢٧)، والخطيب البغدادي في «تاريخه» (١/ ٣٧٢)، من طريق أبي عمرو بن العلاء، عن مجاهد، عن ابن عباس أنه كان يُنكِرُ على مَن يقرأُ: (ومَا كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُغَلَّ) ويقول: وكيف لا يكون له أن يُغَلَّ وله أن يُقتَل، قال الله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ [آل عمران: ١١٢] ولكن المنافقين اتهموا النبي ﷺ في شيء، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾.

(٢) قوله: «ظنَّ» معطوفٌ على «اتُّهِمَ».

(٣) روي هذا عن الكلبي ومقاتل. انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٣١٠)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٧٨)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ١٢٧)، و«تفسير البغوي» (٢/ ١٢٦).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٤٩٤)، والطبري في «تفسيره» (٦/ ١٩٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١٢٧)، عن الضحاك مرسلاً.

فيَكونُ تسمِيَةُ حِرمَانِ بعضِ المستحقِّينَ غلُولًا تغليظًا ومبالغةً ثانيَةً.

وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ وحمزَةُ والكسائيُّ ويَعقُوبُ: ﴿أن يُغَلَّ﴾ على البناءِ للمفعُولِ(١)، والمعنَى: وما صَحَّ له أن يُوجَدَ غالًّا أو أن يُنسَبَ إلى الغُلُولِ.

﴿وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: يَأتِ بالَّذي غلَّهُ يحمِلُهُ على عُنقِهِ كما جاءَ في الحديثِ(٢)، أو بما احتمَلَ مِن وبالِهِ وإثمِهِ.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾: تُعطَى جَزاءَ ما كسَبَت وافيًا، وكانَ اللَّائقُ بما قبلَهُ أَن يقالَ: ثمَّ يُوفَّى ما كسَبَ، لكنَّه عمَّمَ الحكمَ لِيكُونَ كالبرهَانِ على المقصُودِ والمبالغَةِ فيه، فإنَّه إذا كانَ كلُّ كاسِبٍ مَجزيًّا بعملِهِ فالغالُّ مع عِظَمِ جُرمِهِ بذلكَ أولَى.

﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ فلا يُنقَصُ ثوابُ مُطيعِهِم ولا يُزادُ في عِقابِ عاصِيهِم.

(١٦٢) ـ ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بالطَّاعةِ ﴿كَمَنۢ بَآءَ﴾: رَجَعَ ﴿بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بسَبَبِ المَعاصِي ﴿وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ الفَرقُ بينَه وبينَ «المَرجِعِ»: أَنَّ «المَصيرَ» يجبُ أن يُخالِفَ الحالةَ الأولَى، ولا كذلكَ «المَرجِعُ».

(١٦٣) ـ ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ شُبِّهُوا بالدَّرجاتِ لِمَا بينَهُم من التَّفاوُتِ في الثَّوابِ والعِقابِ، أو: هُم ذَوُو دَرَجاتٍ.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾: عَالمٌ بأَعمَالِهِم ودَرَجاتِها صَادرةً عَنهُم، فيجازِيهِم على حَسَبِها.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٨)، و«التيسير» (ص: ٩١)، و«المبسوط» (ص: ١٧٠ ـ ١٧١)، و«النشر» (٢/ ٢٤٣).

(٢) رواه البخاري (٦٦٣٦)، ومسلم (١٨٣٢)، من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

(١٦٤) ـ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أنعَمَ على مَن آمَنَ معَ الرَّسُولِ عليه السَّلامُ مِن قومِهِ، وتخصيصُهم مع أنَّ نِعمةَ البِعثةِ عامَّةٌ لزيادَةِ انتفاعِهم بها.

وقُرِئَ «لَمِنْ مَنِّ اللهِ»[1] على أنَّه خبرُ مُبتدَأٍ مَحذوفٍ مثل: منُّهُ، أو: بَعْثُه.

﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾: مِن نَسَبِهم، أو: مِن جِنسِهم عَرَبيًّا مِثلَهُم؛ ليفهمُوا كلامَه بسهُولةٍ، ويكونوا واقفينَ على حَالِه في الصِّدقِ والأمَانةِ مُفتخِرينَ به.

وقُرِئَ: «مِن أَنْفَسِهِم»[2]؛ أي: مِن أَشرَفِهم؛ لأنَّه عليه السَّلامُ كانَ من أشرَفِ قبائلِ العَربِ وبطُونِهم.

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: القرآنَ بعدما كانوا جُهَّالًا لم يسمَعُوا الوَحيَ.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: يطهِّرُهُم مِن دنسِ الطَّبائعِ وسُوءِ العَقائدِ والأعمالِ.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: القرآنَ والسُّنَّةَ.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ «إنْ» هيَ المخفَّفَةُ واللَّامُ هي الفارِقةُ، والمعنَى: وإنَّ الشَّأنَ كانوا مِن قبلِ بعثةِ الرسُولِ عليه السَّلامُ في ضلالٍ ظاهِرٍ.

(١٦٥) ـ ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ الهمزةُ للتَّقريرِ والتَّقريعِ، والواوُ عاطفةٌ للجُملَةِ على ما سَبَقَ مِن قصَّةِ أُحُدٍ، أو عَلى محذوفٍ مثلَ: أفعلْتُم كذا وقُلتُم، و«لَمَّا» ظرفُه المضافُ إلى ﴿أَصَٰبَتْكُم﴾؛ أي: حينَ أَصابتكُم مُصيبَةٌ، وهي قتلُ سَبعينَ مِنكُم يومَ أُحُدٍ، والحالُ أنَّكم نِلتُم ضِعفَها يومَ بَدرٍ مِن قتلِ سَبعينَ وأسرِ سَبعِينَ: من أينَ هذا أَصَابَنَا وقَد وَعَدَنا اللهُ النَّصرَ؟

---

(١) نسبت لعيسى بن سليمان. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٣٠).

(٢) روي هذا عن النبي ﷺ وعن فاطمة رضي الله عنها. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٣٠)، و«الكشاف» (٢/ ٢٢٣).

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: مِمَّا اقترَفتْه أنفسُكُم من مخالفةِ الأمرِ بتَرك المركزِ فإنَّ الوَعْدَ كانَ مَشْرُوطًا بالثباتِ والمطاوَعَةِ، أو اختيَارِ الخروجِ من المدينةِ.

وعن عليٍّ رضيَ اللهُ عنه: باختيَارِكم الفداءَ يومَ بَدرٍ[1].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدرُ على النَّصرِ ومنعِه، وعلى أَنْ يُصيبَ بِكُم ويُصِيبَ مِنْكُم.

(١٦٦ ـ ١٦٧) ـ ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ جَمعُ المسلِمينَ وجمعُ المشركينَ، يُريدُ: يومَ أُحُدٍ ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾: فهو كائنٌ بقضَائِه وتخلِيَتِه الكفَّارَ، سَمَّاها إذنًا لأنَّها مِن لَوازمِهِ.

﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾: وليتميَّزَ المؤمِنُونَ والمنافِقونَ فيظهَرَ إيمانُ هَؤلاءِ وكُفرُ هؤلاءِ.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ عَطفٌ على ﴿نَافَقُوا﴾ داخِلٌ في الصِّلةِ، أو كلامٌ مُبتَدأٌ:

﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ تَقسيمٌ للأَمرِ عليهم، وتخييرٌ بينَ أن يُقاتِلوا للآخِرَةِ، أو للدَّفعِ عَن الأنفسِ والأموالِ.

وقيلَ: مَعناهُ: قاتلُوا الكفَرةَ أو ادفعُوهُم بتكثيرِكُم سَوادَ المجاهِدينَ، فإنَّ كثرةَ السَّوادِ ممَّا يَرُوعُ العَدُوَّ ويَكسِرُ منهُ.

﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾: لو نعلَمُ ما يصحُّ أن يُسمَّى قتالًا لاتَّبعْناكم فيه، لكنْ ما أنتُم عليه ليسَ بقتالٍ بل إلقاءٌ بالأنفُسِ إلى التَّهلُكَةِ.

---

(١) روى معناه عن علي الترمذي (١٥٦٧)، والنسائي (٨٦٠٨)، ولفظ الترمذي: «عن عليٍّ أن رسول الله ﷺ قال: إن جبرائيل هبط عليه، فقال له: خيرهم ـ يعني أصحابك ـ في أسارى بدر القتل أو الفداء على أن يقتل منهم قابلاً مثلهم، قالوا: الفداء ويقتل منا».
وأقرب منه للذي ذكره المصنف ما رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٠٨) في خبر طويل عن عمر رضي الله عنه، وأصله عند مسلم (١٧٦٣).

أو: لو نُحسِنُ قِتالًا لاتَّبعناكُم، وإنَّما قالُوه دَغَلًا واستهزاءً.

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ لانخِزالِهم وكلامِهم هذا، فإنَّهما أوَّلُ أَمَاراتٍ ظهَرَتْ مِنهم مؤذِنَةً بكفرِهم.

وقيلَ: هم لأهلِ الكُفْرِ أقرَبُ نصرةً مِنْهُم لأهلِ الإيمانِ؛ إذ كانَ انخِزالُهم ومَقالُهم تقويَةً للمشركينَ وتخذِيلًا للمؤمنينَ.

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾: يُظهِرونَ خِلافَ ما يُضمِرُونَ، لا تُواطِئُ قُلوبُهُم ألسِنَتِهم بالإيمانِ، وإضافةُ القَوْلِ إلى الأَفْواهِ تأكيدٌ وتَصْويرٌ[1].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ مِن النِّفاقِ، وما يخلو به بعضُهُم إلى بَعضٍ، فإنَّه يَعلَمُه مُفَصَّلًا بعِلمٍ واجِبٍ وأنتم تعلمُونه مجمَلًا بأَمَاراتٍ.

(١٦٨) - ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ رفعٌ بَدَلًا مِن واوِ ﴿يَكْتُمُونَ﴾، أو نصبٌ على الذَّمِّ أو الوَصفِ لـ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾، أو جرٌّ بدَلًا من الضَّميرِ في ﴿بِأَفْوَٰهِهِم﴾ أو ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ كقولِهِ:

على جُودِه لضَنَّ بالماءِ حَاتِمِ[2]

---

(١) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «وتصغير». وقال الشهاب: وفسَّرَ بعضُهم التَّصويرَ بالتَّحقير؛ لأنَّهُ بمُجرَّدِ اللِّسانِ؛ لأنَّهُ وقعَ في نسختِهِ: (تصغير)، وكأنَّه غلطٌ من النَّاسخِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) عجز بيت للفرزدق. انظر: «ديوانه» (ص: ٦٠٣) ت: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت: ط١، ١٤٠٧، و«الجمل» للخليل (ص: ٢٠٧)، و«المذكر والمؤنث» لابن الأنباري (١/ ٤٠٨) و(٢/ ٧)، و«اللمع» لابن جني (ص: ٨٨ و١٩٢)، و«المخصص» (٥/ ١٣٩)، و«البديع» لابن الأثير (١/ ٣٤٧). وصدره:

عَلَى حالَةٍ لو أنَّ فِي القومِ حاتمًا

وروي في «طبقات الفحول» (٢/ ٣١٦) وغيره:

﴿لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾؛ أي: لأَجْلِهِم، يُرِيدُ مَن قُتِلَ يومَ أُحُدٍ مِن أقارِبهم أو مِن جِنسِهِم[١].

﴿وَقَعَدُواْ﴾ حالٌ مقدَّرةٌ بـ«قَد»؛ أي: قالُوا قاعدينَ عن القِتالِ: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا﴾ في القُعُودِ ﴿مَا قُتِلُواْ﴾ كما لم نُقتَل. وقرأ هشامٌ: ﴿ما قُتِّلُوا﴾ بتشديدِ التَّاءِ[٢].

﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ أي: إن كُنتُم صادِقينَ أنَّكُم تقدِرُونَ على دفعِ القتلِ عمَّن كُتِبَ عليه فادفَعُوا عن أنفسِكم الموتَ وأسبابَه فإنَّه أَحرَى بكم.

والمعنى: أنَّ القعُودَ غيرُ مُغْنٍ فإنَّ أسبَابَ المَوتِ كثيرَةٌ، وكما أنَّ القتالَ يكونُ سَبَبًا للهَلاكِ والقعُودَ[٣] سببًا للنَّجاةِ قد يكونُ الأمرُ بالعَكسِ.

(١٦٩) - ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢا﴾ نَزَلَتْ في شُهَداءِ أُحُدٍ[٤]، وقيلَ: في شهَداءِ بَدْرٍ[٥]، والخطابُ لرَسولِ اللهِ ﷺ، أو لكلِّ أحدٍ.

وقُرِئَ باليَاءِ[٦] على إسنادِهِ إلى ضميرِ الرَّسولِ عليه السَّلامُ، أو مَن يَحسبُ، أو

= على سَاعَةَ لَو أن فِي القَوْم حاتماً ... على جوده ضنت بِهِ نفسُ حَاتِمِ

ولا شاهد فيه على هذا.

(١) أي: من جنس المنافقين.

(٢) انظر: «التيسير» (ص: ٩١).

(٣) بعدها في نسخة التفتازاني: «يكون».

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢٤٤٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) قال السيوطي في «حاشيته على البيضاوي» (٤/ ٣٥٣): «وهو غلطٌ، إنَّما تلك آيةُ البقرةِ». قال الشهاب: ولذا مرَّضه المصنف. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٦) وهي قراءة هشام بخلف عنه، وقرأ الباقون بالتاء. انظر: «التيسير» (ص: ٩٢).

إلى ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾ والمفعولُ الأوَّلُ محذُوفٌ؛ لأنَّه في الأصلِ مُبتدأٌ جائزُ الحذفِ عندَ القَرينَةِ[١].

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿قُتِّلُوا﴾ بالتَّشديدِ[٢] لِكَثْرَةِ المقتولينَ.

﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ أي: بَلْ هُم أحياءٌ، وقُرِئَ بالنَّصبِ[٣] على: بل احسَبْهم أحياءً.

﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾: ذَوُو زُلْفَى مِنه ﴿يُرۡزَقُونَ﴾ من الجنَّةِ، وهو تأكيدٌ لكونِهِم أحياءً.

(١٧٠) ـ ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ وهو شَرَفُ الشَّهادَةِ، والفوزُ بالحياةِ الأبديَّةِ، والقُربُ مِن اللهِ، والتَّمتُّعُ بنعيمِ الجنَّةِ.

﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ يُسَرُّونَ بالبشارةِ ﴿بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم﴾؛ أي: بإخوانِهم المؤمنينَ الذين لم يُقْتَلوا فيلحَقُوا بهم ﴿مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾؛ أي: الَّذينَ مِن خلفِهم زمانًا أو رُتبَةً ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ بدَلٌ مِن «الَّذينَ»، والمعنَى: أنَّهُم يَستبشرونَ بما تبيَّنَ لهُم من أَمرِ الآخرةِ وحالِ مَن تَركُوا خَلفَهُم من المؤمنينَ، وهوَ أنَّهم إذا مَاتوا أو قُتِلوا كانُوا أحياءً حَياةً لا يُكدِّرُها خَوفُ وقوعِ مَحذورٍ وحُزْنُ فواتِ مَحْبُوبٍ.

والآيَةُ تدُلُّ على أنَّ الإنسَانَ غيرُ الهَيكَلِ المحسُوسِ، بل هوَ جَوهَرٌ مُدرَكٌ بذاتِه لا يَفْنَى بخرابِ البدَنِ، ولا يتوقَّفُ عليه إدراكُهُ وتألُّمُه والتذاذُهُ، ويُؤيِّدُ ذلك قولُه تعالى في آلِ فرعونَ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ الآيَةَ [غافر: ٤٦]، وما رَوى ابنُ عبَّاسٍ

---

(١) ويكونُ التقدير: ولا يَحسبنَّهم الذين قُتلوا أمواتاً؛ أي: ولا يحسبن الذين قُتلوا أنفسَهم أمواتاً. هكذا قدره الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٢٣١)، وتعقبه أبو حيان في «البحر» (٦/ ٢٨١) وذكر في جواز مثل هذا التقدير كلاما طويلاً، وناقشه بعضُهم في هذا الاعتراض، وينظر تفصيل ذلك في «روح المعاني» (٥/ ١٢٨).

(٢) انظر: «التيسير» (ص: ٩١).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٤١٦)، و«البحر المحيط» (٦/ ٢٨٣)، عن ابن أبي عبلة.

رضي الله عنه أنَّه عليهِ السَّلامُ قالَ: «أرواحُ الشُّهَداءِ في أجوَافِ طَيرٍ خُضرٍ تَرِدُ أنهَارَ الجنَّةِ وتأكُلُ مِن ثِمارِها وتأوي إلى قَنادِيلَ مُعلَّقَةٍ في ظلِّ العَرْشِ»(١).

ومَن أنكرَ ذلك ولم يرَ الرُّوحَ إلَّا ريحًا وعَرَضًا قالَ: هُم أحياءٌ يومَ القيامَةِ، وإنَّما وُصِفُوا به في الحالِ لتَحقُّقِه ودُنوِّه، أو أحيَاءٌ بالذِّكرِ، أو بالإيمانِ.

وفيها حَثٌّ على الجهَادِ، وتَرغِيبٌ في الشَّهادةِ، وبَعثٌ على ازديادِ الطَّاعةِ، وإِحمادٌ لِمَن يتمنَّى لإخوانِه مثلَ ما أُنْعِمَ عليه، وبشرى للمُؤمِنينَ بالفلاحِ.

(١٧١) - ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ كرَّرَه للتَّوكيدِ، وليُعلَّقَ به ما هو بيانٌ لقولِه: ﴿أَلَّا خَوْفٌ﴾، ويجوزُ أن يكونَ الأوَّلُ بحالِ إخوانِهم وهذا بحالِ أنفُسِهم.

﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ثوابًا لِأَعمالهم ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادَةً عليهِ؛ كقولِه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وتنكيرُهمَا للتَّعظيمِ.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مِن جُملةِ المستبشَرِ به، عطفٌ على ﴿فَضْلٍ﴾.

وقرأ الكِسَائيُّ بالكسرِ(٢) على أنَّه استئنافٌ مُعترِضٌ دالٌّ على أنَّ ذلكَ أجرٌ لهم على إيمانِهم، مُشعِرٌ بأنَّ مَن لا إيمانَ له أعمالُهُ مُحبطَةٌ وأجورُه مُضيَّعةٌ.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٨٨)، وأبو داود (٢٥٢٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢٤٤٤) وصححه، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وإسناده صحيح كما قال القرطبي في «تفسيره» (٥/ ٤٠٦).

وروى مسلم (١٨٨٧) نحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه، ولفظه: عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾؟ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت...».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٩)، و«التيسير» (ص: ٩١).

(١٧٢) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ صِفَةٌ للمُؤمنينَ، أو نَصبٌ على المدحِ، أو مُبتدأٌ خبرُه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بجملَتِه و﴿مِنْ﴾ للبيَانِ، والمقصُودُ مِن ذكرِ الوَصفَيْنِ المدحُ والتَّعليلُ لا التَّقييدُ؛ لأنَّ المُستَجِيبينَ كلَّهم مُحسِنُونَ متَّقُونَ.

رُوِيَ أنَّ أبا سُفيانَ وأصحَابَه لمَّا رَجعُوا فبلَغُوا الرَّوحاءَ نَدِمُوا وهَمُّوا بالرُّجوعِ، فبلغَ ذلك رسولَ اللهِ ﷺ فندَبَ أصحَابَه للخرُوجِ في طلبِهِ، وقالَ: «لا يَخرجَنَّ مَعَنا إلَّا مَن حضَرَ يومَنا بالأمسِ» فخرجَ ﷺ مع جماعَةٍ حتَّى بلَغُوا حَمراءَ الأسَدِ، وهي على ثمانيةِ أَميَالٍ مِن المدينةِ، وكانَ بأصحابِهِ القرحُ فتحامَلُوا على أنفسِهِم حتَّى لا يَفوتَهُم الأجرُ، وألقى اللهُ الرُّعبَ في قلوبِ المشركينَ فذهَبُوا، فنَزلَت[١].

(١٧٣) ـ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ يعني بالنَّاسِ: الرَّكبَ الذي استقبَلَهم مِن عبدِ قَيْسٍ، أو نُعَيمَ بنَ مَسْعُودٍ الأشجعيَّ[٢]، وأطلقَ عليه النَّاسَ لأنَّه من جنسِهِ، كما يقالُ: فلانٌ يركبُ الخيلَ، ومَا له إلَّا فرسٌ واحدٌ، أو لأنَّه انضمَّ إليه ناسٌ من المدينةِ وأذاعُوا كلامَه.

﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ يَعني: أبا سُفيَانَ وأصحَابَه.

---

(١) رواه بنحوه النسائي في «الكبرى» (١١٠١٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١٦٣٢) من طريق عكرمة عن ابن عباس. ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨١٦) عن عكرمة مرسلاً، وهو المحفوظ كما في «الفتح» (٨/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩)؛ وإن كان المتصل رجاله رجال الصحيح كما فيه أيضاً. وروى البخاري (٤٠٧٧) بعضه من حديث عائشة، ولفظه: لمَّا أصابَ رسولَ اللهِ ﷺ ما أصابَ يومَ أحدٍ وانصرَفَ عنه المشركون، خاف أنْ يَرجِعوا، قال: «مَن يَذهبُ في إثْرِهم» فانْتَدَب منهم سبعون رجلًا، قال: كان فيهم أبو بكر والزُّبير.

(٢) سيأتي قريباً.

رُوِيَ أَنَّه نادى عندَ انصرافِه مِن أُحُدٍ: يا محمَّدُ، مَوْعِدُنا مَوسِمُ بَدرٍ لِقابلٍ إن شئتَ، فقالَ عليه السَّلامُ: «إن شاءَ اللهُ»، فلمَّا كانَ القابلُ خرَجَ في أهلِ مَكَّةَ حتَّى نزلَ مَرَّ الظَّهْرَانِ، فأنزلَ اللهُ الرُّعبَ في قلبِه وبَدَا له أن يَرجِعَ، فمرَّ به رَكبٌ من عَبدِ قيسٍ يُريدونَ المدينةَ للمِيرَةِ، فشرطَ لهم حِملَ بَعيرٍ مِن زبيبٍ إن ثَبَّطُوا المسلمين[1].

وقيلَ: لقيَ نُعَيمَ بنَ مَسعودٍ وقد قَدِمَ مُعتمِرًا، فسأَلهُ ذلك، والتزَمَ له عَشرًا من الإبلِ، فخرجَ نُعَيمٌ فوجَدَ المسلِمين يتجهَّزُون فقالَ لهُم: أَتَوكم في ديَارِكم فلم يُفلِت مِنكم أحَدٌ إلَّا شريدٌ، أفترَونَ أن تخرجُوا وقد جمَعوا لكم؟ ففتَرُوا، فقالَ عليه السَّلامُ: «والذي نَفسِي بيَده لأخرُجَنَّ ولو لم يخرُجْ معي أحَدٌ» فخرَجَ في سَبعينَ راكبًا وهُم يقولونَ: حَسْبُنا اللهُ[2].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٥٠) عن مجاهد، ورواه بنحوه دون أوله الطبري (٦/ ٢٤٦) عن ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وانظر رواية ابن إسحاق في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٠٢)، و«تفسير ابن المنذر» (١١٩٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣١٥).

(٢) ذكره في خبر طويل الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٤٠)، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ١٣٧)، عن مجاهد وعكرمة، لم يذكرا له سنداً، وقد رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٥٠ ـ ٢٥١) مختصراً دون ذكر نعيم. وقال ابن حجر: وقد وقع لي أصل القصة بإسناد قوي، والمبلِّغ فيها مبهم. انظر: «موسوعة الحافظ ابن حجر الحديثية» (٤/ ٢١٤)، و«حاشية الخفاجي على البيضاوي»، و«روح المعاني» (٥/ ١٣٨).

قلت: وانحصر ذكرُ نعيم بن مسعود في هذه القصة ـ فيما وقفت عليه ـ في رواية مقاتل والكلبي وهما متروكان لا يحتج بروايتهما. انظر: «تفسير السمرقندي» (١/ ٢٩٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (١/ ٣٣٥)، كلاهما عن الكلبي. وانظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٣١٥ ـ ٣١٦).

وكذا ما جاء في الخبر من قوله: «ففتروا» مردود بما في التنزيل من قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾.

﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ الضَّميرُ المستكِنُّ للمقُولِ، أو لمَصدَرِ ﴿قَالَ﴾، أو لفاعلِه إن أُريدَ به نُعَيمٌ وحدَه، والبارزُ للمقولِ لهم، والمعنَى: أنَّهُم لم يلتفِتُوا إليه ولم يَضْعُفُوا، بل ثبَتَ به يقينهُم باللهِ وازدادَ إيمانُهم، وأظهَروا حَميَّةَ الإسلامِ، وأخلَصُوا النيَّةَ عندَهُ.

وهوَ دليلٌ على أنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقُصُ، ويَعضدُه قولُ ابنِ عمرَ: قلنا: يا رسولَ اللهِ، الإيمانُ يَزيدُ وينقصُ؟ قالَ: «نعم، يزيدُ حتَّى يُدْخلَ صاحبَهُ الجنَّةَ، ويَنقصُ حتَّى يُدخِلَ صَاحبَه النَّارَ»(١).

وهذا ظاهرٌ إن جُعِلَت الطَّاعةُ من جملةِ الإيمانِ، وكذا إن لم تُجْعَل فإنَّ اليقينَ يزدادُ بالإلفِ وكثرةِ التَّأمُّلِ وتناصُرِ الحُجَجِ.

﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾: مُحسِبُنَا وكافينا، مِن «أحسَبَه»: إذا كفاهُ، ويدُلُّ على أنَّه بمعنى المُحْسِبِ أنَّه لا يستفيدُ بالإضافةِ تعريفًا في قولك: هذا رَجُلٌ حَسْبُكَ.

﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾: ونِعمَ الموكولُ إليهِ هوَ.

(١٧٤) - ﴿فَٱنقَلَبُوا۟﴾: فرَجَعُوا مِن بَدْرٍ ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: عافيةٍ وثباتٍ على الإيمانِ وزيادَةٍ فيه.

﴿وَفَضْلٍ﴾: ربحٍ في التِّجارةِ؛ فإنَّهم لمَّا أتَوا بَدْرًا وافَوْا بها سُوقًا فاتَّجَروا وربِحُوا.

﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ مِن جراحَةٍ وكيدِ عَدُوٍّ ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الذي هو مَناطُ الفوزِ بخَيرِ الدَّارَيْنِ بجُرأَتِهِمْ وخرُوجِهِم ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تَفَضَّلَ عليهم بالتَّثبيتِ، وزيادَةِ الإيمانِ، والتَّوفيقِ للمُبادرةِ إلى الجهادِ، والتَّصلُّبِ في الدِّينِ، وإظهَارِ الجراءةِ على العَدوِّ، وبالحفظِ عن كلِّ ما يَسُوؤهُم، وإصَابةِ النَّفعِ مع ضَمانِ الأَجرِ، حتَّى انقلبُوا بنعمةٍ منه وفضلٍ، وفيه تَحسيرٌ للمُتخلِّفِ وتخطِئَةُ رأيِهِ حيثُ حرَمَ نفسَه ما فازُوا به.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٤٦ - ٤٤٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(١٧٥) ـ ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يريدُ به: المثبِّطَ نُعَيمًا أو أبـا سفيَان، و﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ خبرُ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ وما بعدَه بيانٌ لشَيْطَنَتِه، أو صِفَةٌ وما بَعدَه خبرٌ.

ويجوزُ أن تكونَ الإشارةُ إلـى قـولِهِ على تَقديرِ مُضافٍ؛ أي: إنَّما ذلكم قولُ الشَّيطانِ، يعني: إبليسَ.

﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ القاعِدينَ عن الخروجِ مـع الرَّسُـولِ، أو: يخوِّفُكم أولياءَهُ الذينَ هم أبُو سفيانَ وأصحابُه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ الضَّميرُ للنَّاسِ الثَّاني على الأوَّلِ، وللأولياءِ على الثَّاني.

﴿وَخَافُونِ﴾ فـي مخـالـفـةِ أمـري فجاهِدُوا معَ رَسُولي ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإنَّ الإيمانَ يقتضِي إيثارَ خَوفِ اللهِ على خوفِ النَّاسِ.

(١٧٦) ـ ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾: يقعُونَ فيه سَـريعًا حِرْصًا عليه، وهـم المنافقـونَ مِن المتخلِّفينَ، أو قَـومٌ ارتدُّوا عن الإسـلامِ، والمعنى: لا يَحزُنكَ خَوفُ أَنْ يَضـرُّوك ويُعِينُوا عليكَ؛ لقولِهِ: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لَن يَضرُّوا أوليـاءَ اللهِ بمُسـارَعَتِهم فـي الكُفـرِ، وإنَّما يَضرُّونَ بهـا أنفُسَـهم، و﴿شَيْـًٔا﴾ يحتَمِلُ المفعُـولَ والمصدَرَ.

وقـرأَ نافعٌ ﴿يُحْزِنْكَ﴾ بضمِّ الياءِ وكسرِ الزَّايِ حيثُ وقَـعَ مـا خلا قولَه فـي الأنبياءِ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، فإنَّه فتَح الياءَ وضمَّ الزَّايَ فيه، والباقونَ كذلكَ في الكلِّ[١].

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: نَصيبًا مـن الثَّوابِ فـي الآخرَةِ، وهو يَدلُّ على تمادي طُغيانِهم، ومَوتِهم على الكُفرِ، وفي ذكرِ الإرادةِ إشعَارٌ بأنَّ كفرَهُم

---

(١) انظر: «التيسير» (ص: ٩١ ـ ٩٢).

بلغَ الغايةَ حتَّى أرادَ أرحَمُ الرَّاحمينَ أن لا يكونَ لهم حَظٌّ من رَحمَتِه، وأنَّ مُسارعتَهم إلى الكفرِ لأنَّه تعالى لم يُرِدْ لهُم أن يكونَ لهم حَظٌّ في الآخِرةِ.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مع الحِرمَانِ عن الثَّوابِ.

(١٧٧) ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ، أو تعميمٌ للكفرةِ بعدَ تخصيصِ مَن نافقَ مِن المتخلِّفينَ أو ارتدَّ من الأعرابِ.

(١٧٨) ـ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ خطابٌ للرَّسُولِ أو لكلِّ مَن يحسَبُ، و﴿الَّذِينَ﴾ مفعُولٌ و﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ بدَلٌ منه، وإنَّما اقتصرَ على مَفعولٍ واحدٍ لأنَّ التَّعويلَ على البدَلِ، وهو ينوبُ عَن المفعُولينَ كقولهِ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ [الفرقان: ٤٤]، أو المفعُولُ[١] الثَّاني على تقديرِ مُضافٍ مثل: ولا تحسَبنَّ الَّذينَ كفرُوا أصحابَ أنَّ الإملاءَ خيرٌ لأنفُسِهم، أو: ولا تحسَبَنَّ حالَ الَّذينَ كفَرُوا أنَّ الإملاءَ خيرٌ لأنفُسِهم، و«ما» مَصدَريَّةٌ فكانَ حَقُّها أن تُفصَلَ في الخطِّ ولكنَّها وقعَت متَّصِلةً في «الإمامِ» فاتُّبِعَ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وعاصمٌ والكسَائيُّ ويعقوبُ بالياءِ[٢] على أنَّ ﴿الَّذِينَ﴾ فاعِلٌ و«أنَّ» مع ما في حيِّزِهِ مفعُولٌ، وفتَحَ سِينَه[٣] في جَميعِ القُرآنِ ابنُ عامرٍ وعاصِمٌ وحمزةُ[٤].

---

(١) معطوفٌ على قولِه: «بدلٌ».

(٢) الذي قرأ بالتاء من العشرة هو حمزة وحده، والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٢٢٠)، و«التيسير» (ص: ٩٢)، و«النشر» (٢/ ٢٤٤).

(٣) في نسخة التفتازاني: «وفتح السين».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٢٠)، و«التيسير» (ص: ٨٤).

و«الإمـلاءُ»: الإمهـالُ وإطالـةُ العُمرِ، وقيلَ: تَخليَتُهُم وشـأنَهم، مِـن «أمْـلَى لفرسِـه»: إذا أَرْخـى لـه الطِّـوَلَ(١) ليَرعَى كيفَ شـاءَ.

﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْـمًا﴾ استئنافٌ بما هـو العِلَّةُ للحُكمِ قبلَها، و«ما» كافَّةٌ، واللَّامُ لامُ الإرادةِ، وعندَ المعتزلَةِ لامُ العاقبةِ(٢).

وقُرِئَ: «أنَّما» بالفتحِ وبكَسرِ الأُولى، «ولا يحسبنَّ» باليَاءِ(٣)، على مَعنى: ولا يحسبنَّ الَّذينَ كفرُوا أنَّ إملاءَنا لهُم لازديادِ الإثمِ بل للتَّوبَةِ والدُّخولِ في الإيمانِ، و«إنَّما نُملي لهم خيرٌ» اعتراضٌ مَعناه: إنَّ إملاءَنا لهُم خيرٌ(٤) إن انتبهُوا وتدارَكُوا فيه ما فَرَطَ مِنهُم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ على هذا يجوزُ أنْ يكونَ حالًا من الواوِ؛ أي: ليزدادُوا إثمًا مُعَدًّا لهُم عذابٌ مُهينٌ.

(١٧٩) - ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ الخطَـابُ لعَامَّـةِ المُخلصِينَ والمنافقينَ في عَصـرِه، والمعنـى: لا يَترُكُكم مُختلِطينَ لا يُعـرَفُ مُخلِصُكـم مـن مُنافِقِكم حتَّـى يَميزَ المنافقَ مـن المخـلِصِ بالوَحيِ إلى نبيِّـهِ بأحوالِكُـم، أو بالتَّكاليفِ الشَّـاقَّةِ التـي لا يصبرُ عليها ولا يُذعِنُ لهـا إلَّا الخلَّصُ المخلِصُـونَ منكـم؛ كبَـذلِ الأَمـوالِ والأنفُسِ في سـبيلِ اللهِ ليَختبـرَ بـهِ(٥) بواطنَكُم ويَسـتدلَّ بهِ علـى عَقائِدِكُم.

---

(١) قوله: «الطِّوَل» بكسرِ الطَّاءِ: الحبلُ الذي يُطوَّلُ للدابَّة لتَرعَى. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) قولُه: «وعند المُعتزلَةِ لامُ العاقبَةِ» مُخالفٌ لمذهبِهم كما شرح الشهاب. انظر كلامه في «الحاشية».

(٣) هي قراءة يحيى بن وثاب. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٣٠)، و«الكشاف» للزمخشري (٢/ ٢٤٤)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (٣/ ٤٤٤).

(٤) في نسخة الخيالي: «خير لهم».

(٥) في نسخة الخيالي: «ليختبر النبي».

وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿حتَّى يُميِّزَ﴾ فيها وفي الأنفالِ بضمِّ الياءِ وفتحِ الميمِ وكسرِ الياءِ وتشديدِها، والباقونَ بفتحِ الياءِ وكسرِ الميمِ وسكونِ الياءِ(١).

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: وما كانَ اللهُ ليؤتيَ أحدَكُم عِلمَ الغَيْبِ فيَطَّلِعَ على ما في القلوبِ مِن كفرٍ وإيمانٍ، ولكنَّهُ يَجتَبِي لرسَالتِهِ مَن يشاءُ فيُوحيْ إليه ويخبرُه ببعضِ المغيَّباتِ أو ينصبُ لهُ ما يدلُّ عليها.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ بصِفَةِ الإخلاصِ، أو بأَنْ تَعلَمُوه وَحدَه مُطَّلِعًا على الغيبِ وتَعلَموهُم عبَادًا مُجْتَبَيْنَ لا يَعلمونَ إلَّا ما علَّمهُم اللهُ، ولا يقولونَ إلَّا ما أُوحِيَ إليهم.

رُويَ أنَّ الكَفَرَةَ قالوا: إن كانَ محمَّدٌ صَادقًا فليُخبِرْنا مَن يؤمِنُ منَّا ومَن يكفُرُ، فنزلَت(٢).

وعن السُّدِّيِّ أنَّه عليه السَّلامُ قالَ: «عُرِضَت عليَّ أُمَّتي وأُعلِمتُ مَن يُؤمنُ بي ومَن يكفُرُ» فقالَ المنافِقونَ: إنَّه يَزعُمُ أنَّه يَعلمُ مَن يؤمِنُ به ومَن يَكفُرُ ونحنُ معَه ولا يَعرفُنا! فنزلَت(٣).

﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟﴾ حقَّ الإيمانِ ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ النِّفاقَ ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادَرُ قَدْرُه.

(١٨٠) - ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ القِراءاتُ فيه مَا سَبَقَ، ومَن قرأَ بالتَّاءِ قدَّرَ مُضَافًا ليتطابقَ مفعولاهُ؛ أي: ولا تحسَبنَّ بُخلَ الَّذينَ يَبْخلونَ هو خيرًا لهم، وكذا مَن قرأَ بالياءِ إن جَعَلَ الفاعِلَ ضَميرَ الرَّسُولِ عليه

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٢٠)، و«التيسير» (ص: ٩٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٢٤)، عن السدي.

(٣) ذكره دون سند الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١٣٢).

السَّلامُ أو مَن يحسبُ، وإن جعلَه الموصُولَ كانَ المفعُولُ الأوَّلُ محذوفًا لدلالةِ ﴿يَبْخَلُونَ﴾ عليه؛ أي: ولا يحسبنَّ البخلاءُ بخلَهُم هو خيرًا لهم.

﴿بَلْ هُوَ﴾؛ أي: البخلُ ﴿شَرٌّ لَّهُمْ﴾ لاستجلابِ العِقابِ عليهم.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بيانٌ لذلكَ، والمعنى: سَيُلْزَمونَ وبالَ ما بَخِلُوا به إلزامَ الطَّوقِ، وعنهُ عليه السَّلامُ: «ما مِن رَجُلٍ لا يُؤدِّي زكاةَ مَالِهِ إلَّا جَعَلَ اللهُ له شُجاعًا في عنقِهِ يومَ القيامَةِ»[1].

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: ولهُ ما فيهما ممَّا يُتوارَثُ، فما لهؤلاءِ يَبخلونَ عليه بمالِه؟

أو: أنَّه يرثُ ما يُمسكونَه ولا ينفقُونَه في سبيلِهِ بهلاكِهِم وتبقَى عليهم الحَسرَةُ والعُقُوبةُ.

﴿واللهُ بِمَا يَعْمَلونَ﴾ مِن المنعِ والإعطاءِ ﴿خَبِيرٌ﴾ فيجَازيكم[2].

وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ وعاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ بالتَّاءِ على الالتفاتِ[3]، وهو أبلَغُ في الوَعيدِ.

---

(١) رواه البخاري (١٤٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَن آتاه الله مالًا فلمْ يُؤَدِّ زكاتَه مُثِّلَ له مالُه شجاعًا أَقرعَ له زَبيبتان يُطوَّقُه يومَ القيامة، ثُم يأخذُ بلِهْزِمَتَيه ـ يعني: بشِدْقَيه ـ ثُم يقولُ: أنا مالُكَ أنا كنزُك»، ثُم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إلى آخِرِ الآية.

ورواه بنحو هذا الترمذي (٣٠١٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٢٢٣٣)، وابن ماجه (١٧٨٤)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) الأظهر: «فيجازيهم»؛ لأن الكلام عن القراءة بالغيبة، بدليل ما بعده. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٢٠)، و«التيسير» (ص: ٩٢).

(١٨١) ـ ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قَالَهُ اليَهُودُ لَمَّا سَمِعُوا: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

ورُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ كتبَ مع أبي بكرٍ رضي الله عنه إلى يهودِ بني قَينُقَاعَ يَدعُوهم إلى الإسلامِ وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكَاةِ، وأن يُقرِضُوا الله قرضًا حَسَنًا، فقالَ فنحَاصُ بنُ عازُوراءَ: إنَّ اللهَ فقيرٌ حتى سَألَ القرضَ، فلَطَمَهُ أَبُو بكرٍ وقالَ: لولا مَا بَيْنَنا من العَهدِ لضَربتُ عُنقَكَ، فشكاهُ إلى رسُولِ اللهِ وجحدَ ما قالهُ، فنزلَتْ[1]. والمعنى: أنَّه لم يَخْفَ عليه، وأنَّه أعدَّ لهُم العقابَ عليه.

﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾؛ أي: سَنكتبُه في صَحائفِ الكتبَةِ، أو: سَنحفَظُهُ في عِلْمِنا ولا نهمِلُه؛ لأنَّه كلمةٌ عظيمةٌ إذ هو كفرٌ باللهِ أو استِهزاءٌ بالقرآنِ والرَّسُولِ، ولذلك نَظَمَهُ مع قتلِ الأنبياءِ، وفيه تنبيهٌ على أنَّه ليسَ أوَّلَ جريمةٍ ارتكبُوها، وأنَّ مَن اجترَأ على قتلِ الأنبياءِ لم يُستَبعَد منه أمثالُ هذا القولِ.

وقرأ حمزةُ: ﴿سيُكْتَبُ﴾ بالياءِ وضمِّها وفتحِ التَّاءِ، ﴿وقَتْلُهم﴾ بالرَّفعِ، ﴿ويَقولُ﴾ بالياءِ[2].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٥٠٥) فقال: وقال عكرمة والسدي ومقاتل ومحمد بن إسحاق: كتب النبي ﷺ مع أبي بكر رضي الله عنه إلى يهود بني قينقاع... الحديث. ورواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٨٢٨ ـ ٨٢٩)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١٨٣٠)، من طريق ابن إسحاق قال: حدثنا محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت عن عكرمة عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه بيت المِدْراس.. فذكره. ومحمد بن أبي محمد مجهول. وهو في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٥٨ ـ ٥٥٩) عن ابن إسحاق، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٧٩) عن السدي.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٢١)، و«التيسير» (ص: ٩٢).

﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾؛ أي: وننتَقِمُ مِنهم بأن نقُولَ لَهُم: ذوقُوا العذابَ المُحرِقَ، وفيه مُبالغاتٌ في الوَعيدِ.

و«الذَّوقُ»: إدرَاكُ الطُّعُومِ، وعلى الاتِّسَاعِ يُستعملُ لإدراكِ سَائرِ المحسُوسَاتِ والحالاتِ، وذكرُهُ هاهنا لأنَّ العذابَ مرتَّبٌ على قولِهم النَّاشئِ عن البُخلِ والتَّهالُكِ على المالِ، وغالبُ حَاجَةِ الإنسانِ إليه لتَحصيلِ المَطاعِمِ، ومُعظَمُ بُخلِه للخَوفِ مِن فَقدانِه، ولذلكَ كَثُرَ ذكرُ الأكلِ مع المالِ.

(١٨٢) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى العذابِ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ مِن قَتلِ الأنبيَاءِ، وقَولِهم هذا، وسَائرِ معَاصِيهم، عبَّرَ بالأيدي عَن الأنفُسِ لأنَّ أكثَرَ أعمالِها بهنَّ.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ عطفٌ على «ما قدَّمَت»، وسَبَبيَّتُه للعذابِ مِن حيثُ إنَّ نفيَ الظُّلمِ يَستَلزِمُ العدلَ المُقتضِيَ إثابةَ المحسِنِ ومُعَاقبةَ المسيءِ.

(١٨٣) ـ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ هُم كعبُ بنُ الأشرفِ ومَالِكٌ وحُيَيٌّ وفنحاصٌ ووهبُ بنُ يهوذَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾: أمَرَنا في التَّوراةِ وأوْصَانا ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ بأنْ لا نُؤمِنَ لرَسُولٍ حتَّى يأتينا بهذهِ المعجزَةِ الخاصَّةِ الَّتي كانَت لأنبياءِ بني إسرائيلَ، وهو أن يقرِّبَ بقربانٍ فيقُومَ النَّبيُّ فيدعو فتَنزلَ نارٌ سَماوِيَّةٌ فتأكلَهُ؛ أي: تحيلَهُ إلى طَبْعِهَا بالإحراقِ، وهذا مِن مُفْتَرياتِهم وأباطيلِهم؛ لأنَّ أكلَ النَّارِ القربانَ لم يُوجبِ الإيمانَ إلَّا لكونِه مُعجِزَةً، فهو وسَائرُ المعجزاتِ شَرَعٌ في ذلك[1].

﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تكذيبٌ وإلزامٌ بأنَّ رُسُلًا جَاؤوهُم قبلهُ كزكريَّاءَ ويحيَى بمعجزاتٍ أُخرَ

(١) قوله: «شرع في ذلك»؛ أي: سواءٌ فيه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ١٦٣).

مُوجبةٍ للتَّصديقِ وبما اقترحُوه فقتلُوهم، فلو كانَ الموجِبُ للتَّصديقِ هو الإتيانُ به، وكانَ توقُّفُهم وامتناعُهم عن الإيمانِ لأجلِهِ، فما لهُم لم يؤمِنُوا بمَن جاءَ به في مُعجِزاتٍ أُخَرَ واجترَؤُوا على قَتْلِه؟

(١٨٤) ـ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ تسليَةٌ للرَّسُولِ عليه السَّلامُ مِن تَكذيبِ قومِهِ واليَهودِ.

و«الزُّبُر»: جمعُ زَبُورٍ، وهو الكتابُ المقصُورُ على الحِكَمِ، من «زبَرْتُ الشَّيءَ»: إذا حَبَسْتَهُ[1].

و«الكتابُ» في عُرفِ القرآنِ: ما يتضمَّنُ الشَّرائعَ والأحكامَ، ولذلكَ جاءَ الكتابُ والحِكمَةُ متعَاطفَينِ في عَامَّةِ القرآنِ.

وقيلَ: «الزُّبُرُ»: المواعظُ والزَّواجِرُ، من «زَبَرْتُهُ»: إذا زجَرْتَه.

وقرأَ ابنُ عامرٍ: ﴿وبالزُّبُر﴾ بإعادَةِ الجارِّ[2] للدَّلالةِ على أنَّها مُغايِرَةٌ للبيِّناتِ بالذَّاتِ.

(١٨٥) ـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وعدٌ ووَعيدٌ للمُصدِّقِ والمكذِّبِ.

وقرِئَ: «ذائقةٌ الموتَ» بالنَّصبِ مع التَّنوينِ وعَدمِهِ[3]؛ كقولِهِ:

ولا ذاكـرَ اللهَ إلَّا قَليـلا[4]

---

(١) في الطبلاوي: «أحسنته»، وفي هامشها كالمثبت نسخة.

(٢) هي قراءة ابن عامر برواية ابن ذكوان عنه، أما رواية هشام عنه فهي: ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ﴾ بزيادة الباء في الزبر والكتاب، وقرأ الباقون بغير باء فيهما. انظر: «السبعة» (ص: ٢٢١)، و«التيسير» (ص: ٩٢).

(٣) قرأ اليَزيديُّ: (ذائقةٌ الموتَ) على الأصل، وقرأ الأعمشُ: (ذائقةُ الموتَ) بطرح التنوين مع النصب. انظر: «المختصر في شواذ القرآن» (ص: ٣٠)، و«الكشاف» (٢/ ٢٥٣).

(٤) عجز بيت لأبي الأسود الدؤلي كما في «ديوانه» (ص: ٥٤)، و«العين» (٢/ ٧٧)، و«الكتاب» =

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾: تُعطَوْنَ جزاءَ أعمالِكم خيرًا كانَ أو شرًّا تامًّا وافيًا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: يومَ قِيامِكُم عن القبورِ، ولَفظُ التَّوفِيَةِ يُشعِرُ بأَنَّهُ قد يكونُ قبلها بعضُ الأجورِ، ويؤيِّدُه قولُه عليه السَّلامُ: «القبرُ روضةٌ مِن رياضِ الجنَّةِ أو حُفرةٌ مِن حُفَرِ النِّيرانِ»(١).

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾: بُعِّدَ عنها، و«الزَّحزحَةُ» في الأصلِ: تكريرُ الزَّحِّ، وهو الجَذبُ بعجلةٍ.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ بالنَّجاةِ ونَيلِ المرادِ، و«الفوزُ»: الظَّفَرُ بالبُغيَةِ، وعن النَّبيِّ ﷺ: «مَن أحَبَّ أن يُزَحْزَحَ عن النَّارِ ويُدخَلَ الجنَّةَ فلتُدْرِكهُ مَنِيَّتُهُ وهو يؤمنُ باللهِ واليَومِ الآخرِ ويأتي إلى النَّاسِ ما يُحِبُّ أن يُؤتَى إليهِ»(٢).

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾؛ أي: لذَّاتُها وزخارفُها ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ شبَّهها بالمتاعِ الَّذي يُدَلَّسُ به على المُسْتامِ ويُغَرُّ حتَّى يشتريَه، وهذا لِمَن آثرَها على الآخرةِ، فأمَّا مَن طَلَبَ بها الآخرَةَ فهي له مَتاعُ بلاغٍ، و«الغرُورُ» مَصدرٌ أو جَمعُ «غارٍّ».

= (١/ ١٦٩)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٠٢)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣٠٧)، و«معاني القرآن» للأخفش (١/ ٩١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٠٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (١/ ١٤٥). وصدره:

فألفيتُه غيرَ مستعتِبٍ

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٠) وحسَّنَه من حديثِ أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه.

(٢) قطعة من حديث طويل رواه مسلم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وفيه: «.. فلتأتِه مَنِيَّته وهو يؤمِنُ بالله واليومِ الآخِرِ، وليأتِ إلى النَّاس الذي يُحِبُّ أن يؤتى إليه».

(١٨٦) ـ ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾؛ أي: واللهِ لتُختَبرُنَّ ﴿فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بتكليفِ الإنفاقِ، وما يُصيبُه من الآفاتِ، ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالجهادِ والقَتْلِ والأَسرِ والجراحِ، وما يَرِدُ عليها من المخاوفِ والأمراضِ والمتاعِبِ.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا﴾ مِن هجاءِ[1] الرَّسُولِ، والطَّعنِ في الدِّينِ، وإغراءِ الكَفَرةِ على المسلمينَ، أخبرَهُم بذلكَ قبلَ وُقوعِهِ ليُوطِّنُوا أنفسَهم على الصَّبرِ والاحتمالِ ويستعِدُّوا للقَائها حتَّى لا يَرْهَقَهُم نُزولُها.

﴿وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ على ذلك ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ مخالفةَ أمرِ اللهِ ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ يعني: الصَّبرَ والتَّقوى ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾: مِن مَعزوماتِ الأمورِ الَّتي يجبُ العَزمُ عليها، أو: ممَّا عزمَ اللهُ عليه؛ أي: أمرَ به وبالغَ فيه، و«العزمُ» في الأَصلِ: ثَباتُ الرَّأيِ على الشَّيءِ نحوَ إِمضَائِه.

(١٨٧) ـ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: اذكُرْ وَقْتَ أَخْذِهِ ﴿مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريدُ: العُلماءَ به: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ حكايةٌ لمُخاطَبَتِهِم.

وقراءةُ ابنِ كثيرٍ وأبي عمرٍو وعَاصمٍ في روايةِ ابنِ عيَّاشٍ بالياءِ[2]؛ لأنَّهم غيبٌ.

واللَّامُ جوابُ القَسَمِ الَّذي نابَ عنه قولُه: ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ﴾.

والضَّميرُ[3] للكتابِ.

﴿فَنَبَذُوهُ﴾؛ أي: الميثاقَ ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فلم يُراعُوه ولم يَلتفِتُوا إليه، والنَّبْذُ وراءَ الظَّهرِ مَثَلٌ في تركِ الاعتدادِ وعَدمِ الالتفاتِ، ونَقيضُه: جَعْلُهُ نُصْبَ عَينَيهِ، وإلقاؤُهُ بينَ عَينَيهِ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «من أذى».

(٢) وقرأ باقي السبعة بالتاء للخطاب. انظر: «السبعة» (ص: ٢٢١)، و«التيسير» (ص: ٩٣).

(٣) أي: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾.

﴿وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ﴾: وأَخَذوا بدلَه ﴿ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ مِن حُطامِ الدُّنيا وأعرَاضِها ﴿فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾: يختارونَ لأنفسِهم.

وعن النَّبيِّ ﷺ: «مَن كَتَمَ عِلمًا عن أهلِه أُلجِمَ بلِجامٍ مِن نارٍ»(١).

وعن عليٍّ كرَّمَ اللهُ وَجهَهُ: مَا أَخَذَ اللهُ على أهلِ الجَهلِ أن يتعلَّمُوا حتَّى أخذَ على أهلِ العِلْمِ أن يُعَلِّمُوا(٢).

(١٨٨) - ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾ الخطابُ للرَّسولِ عليه السَّلامُ، ومَن ضمَّ الباءَ جعَل

---

(١) رواه بهذا اللفظ ابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٦١)، و(٧/ ٣٦١) من حديث ابن مسعود، وأعله بمحمد بن الفضل، وبحمزة الجزري وغيرهما.
ورواه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «مَن سُئِل عن علمٍ يعلمه فكتمه أُلْجِم يومَ القيامة بلِجامٍ مِن نارٍ». قال الترمذي: حديث حسن.
ورواه ابن ماجه (٢٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه.
ورواه الحاكم في «المستدرك» (٣٤٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وصححه، وقال الذهبي: على شرطهما ولا علة له.
ورواه الطبراني في «الكبير» (١٠٨٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
قلت: وبرواية ابن عدي على ضعفها يردُّ على ولي الدين العراقي كما في «حاشية السيوطي» (٤/ ٣٩٤) وابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ٣٥) في قولهما: إنه ليس في شيء من طرقه: «عن أهله».

(٢) رواه الحارث بن أبي أسامة كما في «الكافي الشاف» (ص: ٣٥)، ومن طريقه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٥٣٥)، والمعافى بن زكريا في «الجليس الصالح» (ص: ٢٣١)، وفي إسناده الحسن بن عمارة وهو متروك كما قال الحافظ.
وذكره الديلمي في «مسند الفردوس» (٤/ ٨٤) مرفوعاً.

الخِطابَ له وللمؤمنينَ، والمفعُولُ الأوَّلُ ﴿ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾، والثَّاني ﴿بِمَفَازَةٍ﴾، وقولُه: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ تأكيدٌ، والمعنى: لا تحسبنَّ الذين يَفرَحُونَ بما فعَلوا من التَّدليسِ وكتمانِ الحقِّ ويحبُّون أن يُحمَدُوا بما لم يفعَلوا مِن الوفاءِ بالميثاقِ وإظهارِ الحقِّ والإخبارِ بالصِّدْقِ ﴿بِمَفَازَةٍ﴾: بمنجاةٍ مِن العذابِ؛ أي: الفائزينَ بالنَّجاةِ منه.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو بالياءِ وفتحِ الباءِ في الأوَّلِ وضمِّها في الثَّاني[١] على أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعِلٌ، ومَفعولا ﴿يَحْسِبَنّ﴾ محذوفانِ يدلُّ عليهما مفعُولا مؤكِّدِه، وكأنَّه قيلَ: ولا يَحْسبَنَّ الَّذينَ يفرحُون بما أَتَوْا فلا يَحْسِبُنَّ أنفسَهم بمفازةٍ، أو المفعُولُ الأوَّلُ محذوفٌ[٢]، وقولُه: فلا يحسبُنَّهم تأكيدٌ للفعلِ وفاعِلِه ومَفعولِه الأوَّلِ.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكُفرِهم وتَدليسِهم.

رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ سألَ اليَهودَ عَن شيءٍ ممَّا في التَّوراةِ، فأخبرُوه بخلافِ ما كانَ فيها، وأَرَوهُ أنَّهُم قد صَدَقوهُ، وفرِحُوا بما فعَلوا، فنزلَتْ[٣].

وقيلَ: نزلَتْ في قومٍ تخلَّفُوا عن الغَزوِ ثمَّ اعتذَرُوا بأنَّهم رأَوْا المصلَحَةَ في التَّخَلُّفِ واستَحمَدُوا به[٤].

---

(١) يعني والثاني بالياء مع ضم الباء، والسين فيهما مكسورة؛ أي: ﴿يَحْسِبَن... فلا يَحْسِبُنَّهم﴾.
وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ... فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ بالتاء وفتح الباء فيهما، وكسَر الكسائي السين وفتحها حمزة وعاصم. وقرأ نافع وابن عامر: ﴿لا يَحْسَبَنَّ... فلا تَحْسَبَنَّهم﴾ بالياء في الأول والتاء في الثاني، والباء مفتوحة فيهما، وكسر السين نافع وفتحها ابن عامر. انظر: «السبعة» (ص: ٢١٩ ـ ٢٢٠)، و«التيسير» (ص: ٩٢ ـ ٩٣).

(٢) والمفعول الثاني: ﴿بِمَفَازَةٍ﴾، والتقدير: لا يَحسِبَنَّ الذين يفرحون أنفسَهم بمفازة؛ أي: فائزين. انظر: «الكشاف» (٢/ ٢٥٨)، و«روح المعاني» (٥/ ١٩٣).

(٣) رواه البخاري (٤٥٦٨)، ومسلم (٢٧٧٨)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رواه البخاري (٤٥٦٧)، ومسلم (٢٧٧٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وفيه أنهم كانوا من المنافقين.

وقيلَ: نزلَتْ في المنافقينَ، فإنَّهم يفرحُونَ بمنافقَتِهم ويَستحمِدونَ إلى المسلمينَ بالإيمانِ الَّذي لم يَفْعلوهُ على الحَقيقَةِ.

(١٨٩) ـ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو يملكُ أَمْرَهُم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدرُ على عِقابِهِم.

وقيلَ: هو رَدٌّ لقولِهِم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١].

(١٩٠) ـ ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: لدَلائلَ واضحَةً على وجُودِ الصَّانعِ ووَحْدَتِه، وكمالِ عِلمِه وقُدرَتِه، لذَوي العقولِ المجلوَّةِ الخالصَةِ عن شوائبِ الحسِّ والوَهمِ كما سَبقَ في سُورةِ البقرةِ، ولعَلَّ الاقتصَارَ على هذه الثَّلاثةِ(١) في هذه الآيةِ لأنَّ مَناطَ الاستِدلالِ هُو التَّغيُّرُ، وهذه متعرِّضةٌ(٢) لجملةِ أنواعِهِ(٣) فإنَّه: إمَّا أنْ يكونَ في ذاتِ الشَّيءِ كتغيُّرِ اللَّيلِ والنَّهارِ، أو جزئِهِ كتغيُّرِ العناصرِ بتبدُّلِ صُوَرِها، أو الخارجِ عنه كتغيُّرِ الأَفلاكِ بتبدُّلِ أوضاعِها.

وعَن النَّبيِّ ﷺ: «ويلٌ لِمَن قرأَهَا ولم يتفكَّرْ فيها»(٤).

(١٩١) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: يَذكُرُونَه دائمًا على الحالاتِ كلِّها قائمِينَ وقاعِدِينَ ومُضطَجِعِينَ، وعنه عليه السَّلامُ: «مَن أَحَبَّ أن يَرتعَ في رِيَاضِ الجنَّةِ فليُكثِر ذكرَ اللهِ»(٥).

---

(١) قوله: «على هذه الثلاثة» يعني: السماوات، والأرض، واختلاف الليل والنهار. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ١٦٩).

(٢) في نسخة الطبلاوي: «معرضة».

(٣) قوله: «وهذه»؛ أي: الثلاثة، «أنواعه»؛ أي: التغير. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ١٦٩).

(٤) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٥) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٤٥٧)، وإسحاق بن راهويه كما في «المطالب العالية» =

وقيلَ: معناهُ: يُصَلُّونَ على الهيئاتِ الثَّلاثِ حسبَ طاقَتِهِم، لقولِه عليه السَّلامُ لعمرانَ بنِ حُصينٍ: «صَلِّ قائمًا، فإنْ لم تَستَطِع فقاعِدًا، فإن لم تستطِعْ فعَلى جَنبٍ تُومِئُ إيماءً»(١).

وهو حجَّةٌ للشَّافعيِّ رضيَ اللهُ عنه في أنَّ المريضَ يصلِّي مُضطَجِعًا على جنبِه الأيمنِ مُستقبِلًا بمَقَادِيمِ بدَنِه.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استدلالًا واعتبارًا، وهو أفضلُ العِبَادَاتِ كما قالَ عليه السَّلامُ: «لا عبَادَةَ كالتَّفكُّرِ»(٢) لأنَّه المخصُوصُ بالقَلْبِ والمقصُودُ مِن الخَلْقِ.

وعنه عليه السَّلامُ: «بينما رجلٌ مُسْتلقٍ على فِراشِهِ إذ رَفَعَ رأسَهُ فنَظَرَ إلى السَّماءِ والنُّجُومِ فقالَ: أشهَدُ أنَّ لكِ رَبًّا وخالِقًا، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي، فنظرَ اللهُ إليه فغفَرَ لَهُ»(٣)، وهذا دليلٌ واضِحٌ على شرفِ عِلْمِ الأصُولِ وفَضْلِ أهلِهِ.

= (٣٣٩٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ١٠٧)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٥٥٠)، من حديث معاذ رضي الله عنه. قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ٣٦): في إسناده موسى بن عبيدة وهو ضعيف. قلت: فلا وجه لقول الشهاب في «الحاشية»: حديثٌ مخرَّجٌ صحيحٌ.

(١) رواه البخاري (١١١٧)، وأبو داود (٩٥٢)، والترمذي (٣٧٢)، وابن ماجه (١٢٢٣). قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ٣٦): أخرجه البخاري وأصحاب السنن من حديث عمران بن حصين، وليس في آخره: (تومئ إيماء) وأورده صاحب «الهداية» كما أورده الزمخشري. اهـ.

(٢) قطعة من حديث رواه ابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٣٠٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤٦٤٧)، عن علي رضى اللّه عنه مرفوعاً، وهو حديث تفرد به أبو رجاء محمد بن عبد الله الحبطي، وليس بالقوي كما قال البيهقي. وقال ابن حبان: يروي عن الثقات ما ليس من حديث الأثبات.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (١٠٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٥٥٤) من حديث أبي هريرة ضي الله عنه. وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ٣٦): في إسناده من لا يعرف.

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ على إرادةِ القَوْلِ؛ أي: يتفكَّرُونَ قائلينَ ذلك، و﴿هذا﴾ إشارةٌ إلى المتفكَّرِ فيه، أو الخلقِ على أنَّه أُريدَ به المخلُوقُ من السَّمَاواتِ والأرضِ، أو إليهما لأنَّهما في مَعنى المخلوقِ، والمعنى: ما خلَقْتَه عَبَثًا ضَائعًا من غيرِ حكمةٍ بل خلَقْتَه لِحكَمٍ عظيمةٍ من جُملتِها أن يكونَ مَبْدأً لوجُودِ الإنسَانِ وسَببًا لمعَاشهِ، ودَليلًا يدُلُّه على مَعرفتِكَ ويحثُّه على طَاعتِكَ؛ ليَنَالَ الحيَاةَ الأبديَّة والسَّعَادةَ السَّرمديَّةَ في جوارِكَ.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: تنزيهًا لكَ مِن العبَثِ وخَلْقِ الباطلِ، وهو اعتراضٌ.

﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ للإخلالِ بالنَّظَرِ فيه والقيامِ بما يَقتَضيهِ، وفائدةُ الفاءِ هي الدَّلالَةُ على أنَّ علمَهُم بما لأجلِه خُلِقَت السَّماواتُ والأرضُ حَملَهُم على الاستعَاذَةِ.

(١٩٢) ـ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾: فقَد أخزَيتَه غايةَ الإخزاءِ، ونَظيرُه قولهُم: «مَن أدركَ مرعَى الصَّمَّانِ فقد أدرَكَ»، والمرادُ به: تهويلُ المستعَاذِ منه تنبيهًا على شِدَّةِ خَوفِهم وطلبِهم الوِقايةَ مِنه، وفيه إشعَارٌ بأنَّ العذابَ الرُّوحانيَّ أفظَعُ.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أرادَ بهم المُدْخَلِينَ، ووضعَ المُظهَرَ مَوضِعَ المضمَرِ للدَّلالةِ على أنَّ ظُلْمَهم سَبَبٌ[1] لإدخالِهم النَّارَ وانقطاعِ النُّصرَةِ عَنهم في الخلاصِ مِنها، ولا يلزَمُ مِن نفيِ النُّصرَةِ نفيُ الشَّفاعةِ؛ لأنَّ النُّصرَةَ دفعٌ بقَهْرٍ.

(١٩٣) ـ ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ﴾ أوقَعَ الفعلَ على المُسمِعِ وحذفَ المسمُوعَ لدلالةِ وَصفِه عليه[2]، وفيه مُبالغَةٌ ليسَتْ في إيقاعِه على نفسِ المسمُوعِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «تَسبَّب».

(٢) وبيان المسألة: أنك تقول: سمعتُ رجلًا يقول كذا، و: سمعتُ زيداً يتكلَّمُ، فتُوقِعُ الفعلَ على =

وفي تَنكيرِ المنادِي وإطلاقِهِ ثمَّ تَقييدِهِ تَعظيمٌ بشَأنِه، والمرادُ به الرَّسولُ عليه السَّلامُ، وقيلَ: القرآنُ.

والنِّداءُ والدُّعاءُ ونحوُهما يُعدَّى بـ«إلى» واللَّامِ لتَضَمُّنهما معنى الانتهاءِ والاختِصاصِ.

﴿أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾؛ أي: بأَنْ آمِنوا فامتَثَلْنا.

﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: كبائِرَنا فإنَّها ذاتُ تبعَةٍ ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾: صَغائرَنا فإنَّها مُستَقبَحةٌ ولكنْ مكفَّرةٌ عن مُجتَنِبِ الكبائرِ.

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ مَخصُوصينَ بصُحبَتِهم مَعدودينَ في زُمْرَتِهم، وفيه تنبيهٌ على أنَّهم يحبُّونَ لقاءَ اللهِ، و«مَن أحَبَّ لقاءَ اللهِ أحَبَّ اللهُ لِقاءَهُ»(١).

و«الأبرارُ»: جمعُ «بَرٍّ» أو «بارٍّ» كـ«أَربَابٍ» و«أَصحَابٍ».

(١٩٤) ـ ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾؛ أي: ما وَعَدتَنا على تَصديقِ رسُلِك مِن الثَّوابِ، لَمَّا أظهَرَ امتثالَه لِمَا أُمِرَ به سَأَلَ ما وُعِدَ عليه، لا خَوفًا من إخلافِ الوَعْدِ بل مخافةَ أن لا يكونَ مِن المَوعُودينَ لسُوءِ عاقبةٍ(٢)، أو قصُورٍ في الامتِثال، أو تعبُّدًا واستكانةً(٣).

= (الرجل) وتحذفُ المسموعَ؛ لأنك وصفتَه بما يُسمع أو جعلتَه حالاً عنه فأغناك عن ذكره، ولولا الوصفُ أو الحالُ لم يكن منه بدٌّ، وأن يقال: سمعتُ كلامَ فلان، أو: قوله. انظر: «الكشاف» (٢/ ٢٦٥).

(١) رواه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣)، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) في نسخة الخيالي: «الخاتمة».

(٣) قوله: «أو تعبُّداً واستكانة» عطف على «مخافةَ». انظر: «حاشية شيخ زاده» (٣/ ٣٣٨)، و«حاشية الأنصاري» (٢/ ١٧٢).

ويجوزُ أن تُعلَّقَ ﴿على﴾ بمحذوفٍ تَقديرُهُ: ما وَعَدْتَنا مُنزَّلًا على رسُلِكَ أو مَحمولًا عليهم.

وقيلَ: معناه: على ألسنةِ رسلِكَ(١).

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بأن تَعصِمَنا عمَّا يقتضيهِ ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ بإثابةِ المؤمِنِ وإجابَةِ الدَّاعي، وعن ابنِ عبَّاسٍ: الميعادُ: المبعَثُ بعدَ الموتِ(٢).

وتَكريرُ ﴿رَبَّنَآ﴾ للمبَالغةِ في الابتهالِ، والدَّلالةِ على استقلالِ المطالبِ وعُلوِّ شأنِها، وفي الآثارِ: مَن حَزَبَه أمرٌ فقالَ خمسَ مرَّاتٍ: رَبَّنا، أنجاهُ الله ممَّا يَخافُ(٣).

(١٩٥) ـ ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ إلى طَلِبَتِهِم، وهو أخصُّ مِن «أجابَ»، ويُعدَّى بنفسِه وباللَّامِ.

﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾؛ أي: بأنِّـي لا أضيعُ. وقُرِئَ بالكَسرِ على إرادَة القولِ(٤).

﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيانُ ﴿عَٰمِلٍ﴾.

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ لأنَّ الذَّكرَ مِن الأُنثى والأُنثى مِن الذَّكرِ، أو لأنَّهما مِن أصلٍ واحدٍ، أو لفرطِ الاتِّصَالِ والاتِّحَادِ، أو للاجتماعِ والاتِّفاقِ في الدِّينِ، وهي جُملَةٌ مُعترِضَةٌ بيَّنَ بها شركةَ النِّساءِ مع الرِّجَالِ فيما وُعِدَ للعمَّال.

---

(١) قوله: «على ألسنة رسلك» مقابلٌ لقوله: «على تصديق رُسُلك».

(٢) لم أجده.

(٣) قالَ السُّيوطيُّ: لم أقفْ عليه. انظر: «حاشية السيوطي» (٤/ ٤٠٦). وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٥٦٩) من قول جعفرٍ الصادق.

(٤) نسبت لعيسى بن عمر. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٣٠)، و«البحر» (٦/ ٣٦١).

رُويَ أنَّ أمَّ سَلمةَ قالَت: يا رسُولَ اللهِ، إنِّي أسمعُ اللهَ يذكرُ الرِّجالَ في الهجرَةِ ولا يذكرُ النِّساءَ! فنزلَت[1].

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ إلى آخرِهِ تفصيلٌ لِأعمالِ العُمَّالِ وما أُعدَّ لهُم من الثَّوابِ على سَبيلِ المدحِ والتَّعظيمِ، والمعنَى: فالَّذينَ هاجرُوا الشِّركَ أو الأَوطَانَ والعَشائرَ للدِّينِ ﴿وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ بسَببِ إيمَانِهم باللهِ ومِن أجلِه ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ الكفَّارَ ﴿وَقُتِلُواْ﴾ في الجهَادِ.

وقرأَ حمزَةُ والكسَائيُّ بالعكسِ[2]؛ لأنَّ الواوَ لا تُوجبُ ترتيبًا، والثَّاني أفضَلُ[3]، أو لأنَّ[4] المرادَ: لمَّا قُتِلَ منهم قَومٌ قاتلَ الباقُونَ ولم يَضعُفُوا.

وشدَّدَ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ ﴿قتِّلُوا﴾ للتَّكثيرِ[5].

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾: لأمحُوَنَّها ﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أُثيبُهم بذلك إثابةً ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾: تفضُّلًا منه، فهو مصدرٌ مُؤَكِّدٌ.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ على الطَّاعاتِ قادرٌ عليه.

(١٩٦) - ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ الخِطابُ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٢٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣١٧٤) وصححه، وفيهما: فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٢١)، و«التيسير» (ص: ٩٣).

(٣) قوله: «والثاني»؛ أي: من القراءتين «أفضلُ»؛ لما فيه من تقديم الأفضل - وهو الشهيدُ - على غيره. انظر: «حاشية الأنصاري» (٢/ ١٧٤).

(٤) قوله: «أو لأن» عطف على «لأن الواو لا توجب ترتيباً».

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٢٢١)، و«التيسير» (ص: ٩٣).

والمرادُ أمَّتُه أو تثبيتُهُ على ما كانَ عليهِ، كقولهِ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨] أو لكلِّ أحدٍ، والنَّهْيُ في المعنى للمخاطَبِ، وإنَّما جُعلَ للتَّقلُّبِ تنزيلًا للسَّبَبِ مَنزِلَةَ المسَبَّبِ للمبَالغةِ، والمعنى: لا تنظُرْ إلى ما الكفَرةُ عليه من السَّعَةِ والحظِّ، ولا تغترَّ بظاهِرِ ما ترى من تبسُّطِهم في مَكاسِبِهم ومتَاجِرِهم ومَزارِعِهم.

رُوِيَ أنَّ بعضَ المُؤمنينَ كانُوا يَرونَ المشركينَ في رخاءٍ ولينِ عَيشٍ فيقُولونَ: إنَّ أعداءَ اللهِ فيما نرى مِن الخيرِ وقد هَلَكنا مِن الجُوعِ والجَهدِ، فنزَلَتْ[1].

(١٩٧) ـ ﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ﴾ خبرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ؛ أي: ذلك التَّقلُّبُ متاعٌ قَليلٌ؛ لِقِصَرِ مُدَّتِه في جَنبِ ما أعَدَّ اللهُ للمؤمنينَ، قالَ عليه السَّلامُ: «ما الدُّنيا في الآخِرَةِ إلَّا مِثلُ ما يجعَلُ أحدُكُم أصبعَهُ في اليمِّ فلينْظُرْ بمَ يَرجعُ»[2].

﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾؛ أي: ما مهَّدُوا لأنفسِهم.

(١٩٦) ـ ﴿لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ «النُّـزُلُ» و«النُّـزْلُ»: مـا يُعَـدُّ للنَّـازلِ مِـن طعـامٍ وشـرابٍ وصِلةٍ، قـالَ أبـو الشِّـعرِ الضَّبِّيُّ:

وكُنَّـا إذا الجبَّـارُ بالجَيـشِ ضَـافَنـا جَعَلْنَا القَنَـا والمرهَفـاتِ لـهُ نُـزْلَا[3]

وانتِصابُه على الحالِ من ﴿جَنَّـٰتٌ﴾ والعَامِلُ فيه الظَّرفُ[4].

---

(١) انظـر: «تفسـير مقاتـل» (١/ ٣٢٣)، و«تفسـير الثعلبي» (٩/ ٥٧٦)، و«أسـباب النـزول» للواحدي (ص: ١٣٩).

(٢) رواه مسلم (٢٨٥٨)، من حديث المستورد بن شداد رضي الله عنه.

(٣) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٢٧٣)، والمنتجب الهمذاني في «الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد» (٢/ ١٩٥)، والقرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٢٠٦).

(٤) أي: ﴿لَهُمْ﴾؛ لأنه قَوِيَ بالاعتماد على المبتدأ، فعمل في ﴿جَنَّـٰتٌ﴾ على أنها فاعلة فتعمل في =

وقيلَ: إنَّه مَصدَرٌ مؤكِّدٌ، والتَّقديرُ: أُنزِلُوها نُزُلًا.

﴿وَمَاعِندَ ٱللَّهِ﴾ لكَثرتِهِ ودوَامِه ﴿خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ ممَّا يتقلَّبُ فيه الفجَّارُ؛ لِقِلَّتِه وسُرعةِ زوالِهِ.

(١٩٩) - ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ نزلَتْ في عبدِ الله بنِ سَلَامٍ وأصحَابِه[١].

وقيلَ: في أربَعينَ مِن نجرانَ، واثنَيْن وثلاثينَ مِن الحبشَةِ، وثمانيَةٍ مِن الرُّومِ، كانوا نَصارى فأسلَمُوا[٢].

وقيلَ: في أَصْحَمَةَ النَّجاشِي لمَّا نَعاهُ جبريلُ إلى رَسُولِ الله ﷺ، فخَرجَ فصَلَّى عليه، فقالَ المنافِقُونَ: انظُروا إلى هذا يُصلِّي على عِلْجٍ نَصرانيٍّ لم يرَهُ قطُّ[٣].

وإنَّما دخَلَت اللَّامُ على الاسمِ للفَصْلِ بينَهُ وبينَ «إنَّ» بالظَّرفِ.

= الحال؛ لأن العامل في الحال هو العامل في ذي الحال، أو ارتفاع ﴿جَنَّٰتٌ﴾ بالابتداء، و﴿لَهُمْ﴾ الخبر، و﴿نُزُلًا﴾ حال مما في الظرف من الضمير. انظر: «فتوح الغيب» (٤/ ٣٩٥).

(١) نزولها في عبد الله بن سلام في «تفسير الثعلبي» (٩/ ٥٨٧)، و«الوسيط» للواحدي (١/ ٥٣٧)، و«تفسير البغوي» (٢/ ١٥٦)، عن مجاهد. ورواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٣٢٩) عن ابن جريج.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٥٨٧)، و«تفسير البغوي» (٢/ ١٥٥)، عن عطاء.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٣٢٧) من حديث جابر رضي الله عنه، وقال: في إسناده نظر. ورواه الطبراني في «الأوسط» (٤٦٤٥) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وبنحوه في «السنن الكبرى» للنسائي (١١٠٢٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ٨٤٦)، عن أنس، وذكره الثعلبي (٩/ ٥٨٥ - ٥٨٦) عن ابن عباس، ولا يخلو شيء منها من مقال، وعن قتادة في «تفسير عبد الرزاق» (٤٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢/ ٤٥٥) و(٦/ ٣٢٨)، وعن الحسن في «السنن الكبرى» للنسائي (١١٠٢٣). وأصل القصة من نعي النبي ﷺ النجاشي يوم موته، وصلاته عليه في المصلى أربع تكبيرات، رواها البخاري (١٢٤٥)، ومسلم (٩٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ مِن القرآنِ ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ من الكتابَيْنِ[1] ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ حالٌ من فاعِلِ ﴿يُؤۡمِنُ﴾ وجمعُه باعتبَارِ المعنَى.

﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ كما يفعَلُه المحرِّفُونَ مِن أحبَارِهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ ما خُصَّ بهم من الأجرِ ووُعدُوه في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ [القصص: ٥٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ لعِلْمِه بالأعمالِ وما تَسْتوجِبُهُ منَ الجزاءِ، واستغنَائِه عَن التَّأمُّلِ والاحتياطِ، والمرادُ: أنَّ الأجرَ الموعودَ سَريعُ الوصولِ، فإنَّ سُرعةَ الحِسَابِ تَستَدْعِي سُرعَةَ الجَزاءِ.

(٢٠٠) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ﴾ على مَشاقِّ الطَّاعاتِ وما يُصيبُكُمْ مِن الشَّدائدِ ﴿وَصَابِرُواْ﴾: وغالبُوا أعداءَ اللهِ بالصَّبرِ على شَدائدِ الحَرْبِ، وأَعْدَى عَدُوِّكم في الصَّبرِ مُخالفَةُ الهوَى، وتخصِيصُه بعد الأمرِ بالصَّبْرِ مُطلقًا لشِدَّتِه.

﴿وَرَابِطُواْ﴾ أبدانَكم وخيولَكُم في الثُّغورِ مُترَصِّدينَ للغَزوِ، وأنفسَكُم على الطَّاعَةِ كما قالَ عليه السَّلامُ: «منَ الرِّباطِ انتظارُ الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ»[2]، وعنه عليه السَّلامُ: «مَن رابَطَ يومًا ولَيْلَةً في سَبيلِ اللهِ كانَ كعَدلِ صِيَامِ شَهرِ رَمَضَانَ وقيامِهِ لا يفطرُ ولا ينفَتِلُ عَن صلاتِه إلَّا لحاجَةٍ»[3].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «من التوراة والإنجيل».

(٢) رواه مسلم (٢٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم (١٩١٣) من حديث سلمان رضي الله عنه بلفظ: «رباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيامِ شهرٍ وقيامه، وإن مات جَرَى عليه عملُه الذي كان يعملُه، وأُجرِيَ عليه رزقُه، وأَمِن الفَتَّان»، وبنحو هذا اللفظ رواه النسائي (٣١٦٧) و(٣١٦٨)، والحاكم في «المستدرك» (٢٤٢٢).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: فاتَّقُوهُ بالتَّبرُّؤِ عمَّا سِوَاهُ لكي تفلِحُوا غايةَ الفلاحِ، أو: اتَّقُوا القبائِحَ لعَلَّكُم تُفلِحُون بنَيْلِ المقامَاتِ الثَّلاثةِ المترتِّبَةِ الَّتي هي: الصَّبرُ على مَضضِ الطَّاعاتِ، ومصَابرةُ النَّفسِ في رفضِ العاداتِ، ومرابَطَةُ السِّرِّ على جنَابِ الحقِّ لترصُّدِ الوارِدَاتِ، المعبَّرِ عَنْها بالشَّريعَةِ والطَّريقَةِ والحَقيقَةِ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأ سورةَ آلِ عمرانَ أُعطِيَ بكلِّ آيةٍ مِنها أمَانًا على جسرِ جَهنَّم»(١).

وعنه عليه السَّلامُ: «مَن قرأ السُّورةَ الَّتي يُذكَرُ فيها آلُ عِمرانَ يومَ الجمعَةِ صلَّى الله عليهِ ومَلائِكَتُه حتَّى تَجِبَ الشَّمسُ»(٢).

***

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٩ ـ ١٠)، والواحدي في «الوسيط» (١/ ٤١١)، من حديث أبيٍّ رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (١١٠٠٢)، و«الأوسط» (٦١٥٧)، من حديث ابن عباس، وإسناده ضعيف كما في «الكافي الشاف» (ص: ٣٧)، و«الدر المنثور» (٢/ ١٤٠). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٦٨): رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وفيه طلحة بن زيد الرقي، وهو ضعيف.

سورة آل عمران[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ ﴾ .

﴿ الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ وَفَدَ ناسٌ من نصارى نجران يناظرون في عيسى بن مريم عليه السلام، تارةً يقولون هو الله وتارة يقولون ابن الله [٧٢/ ب] وتارة ثالث ثلاثة، فنزلَ صدرُ هذه السورةِ إلى نيف وثمانين آية فيهم، قصَّ فيها أحوالهم وأحوال عيسى عليه السلام.

وقرأ الجمهور: آلم الله، بفتح الميم وإسقاط ألف الوصل، وقرىء بسكونها وقطع الألف، وقرىء بكسر الميم، قال الأخفش: لالتقاء الساكنين. ومن قرأ بفتح الميم فالفتحة[2] لالتقائهما وكانت أَوْلى لأجل الياء كأين[3]. وقيل هي فتحة همزة «الله» نقلت إلى الميم وحذفت الهمزة. واختار الزمخشريُّ مذهبَ الفراء في أن الفتحة في الميم من «أَلَم الله» هي حركة

(١) مدنية وآياتها مئتان.

(٢) ق: والفتحة.

(٣) أي كان الفتح أولى من الكسر لأجل الياء كما قالوا: أين وكيف، ولزيادة الكسرة قبل الياء فزال الثقل. انظر البحر ٢: ٣٧٤.

الهمزة ألقيت حين[١] أسقطت للتخفيف وأوردَ أسئلةً وأجابَ عنها.

قال[٢]: فإن قلت: كيف جاز إلقاء حركتها عليها وهي همزة وصل لا تثبت في درجِ الكلامِ فلا تثبت حركتها لأنَّ إثباتَ حركتها كثباتها؟ قلت: ليس بدرج لأنَّ «ميم» في حكم الوقف والسكون والهمزة في حكم الثابت، وإنما حُذفت تخفيفاً وأُلقيت حركتها على الساكن قبلها لتدلَّ عليها. ونظيره قولهم: واحد اثنان بإلقاء حركة الهمزة على الدال انتهى.

ليس هذا الجواب بشيءٍ لأنه ادَّعى أنَّ الميمَ حين حرّكت موقوف عليها وأن ذلك ليس بدرج بل هو وقفٌ. وهذا خلافٌ لما أجمعتْ [عليه] العربُ والنحاة من أنه لا يُوقَفُ على متحركٍ ألبتة، سواء أكانت حركته إعرابية أم بنائيّة أم نقلية، أو لالتقاء الساكنين أو للحكاية أو للإتباع. فلا يجوز في ﴿قَدْ أَفْلَحَ ۝١﴾ [المؤمنون] إذا حذفت الهمزة ونقلت حركتها إلى دال قد، أن تقف على دال قد بالفتحة[٣] بل تسكنها قولاً واحداً. وأما قوله: ونظير ذلك قولهم: واحد اثنان بإلقاء حركة الهمزة على الدال، فإنَّ سيبويه ذكر أنهم يشمون آخر «واحد» لتمكّنه، ولم يَحْكِ الكسر لغة [فإذا صحَّ الكسر] فليس واحد[٤] موقوفاً عليه كما زعم الزمخشري، ولا حركته حركة نقل من همزة الوصل، ولكنه موصول بقولهم «اثنان» فالتقى ساكنان دال «واحد» وثاء «اثنين» فكسرت الدال لالتقائهما[٥]، وحُذفت الهمزة لأنها لا تثبتُ وصلاً.

---

(١) ق: حتى.

(٢) الكشاف ١: ٤١٠.

(٣) ق: بل لفتحة.

(٤) ق: أحد.

(٥) ق: لالتقائها.

وأما الذي استدل به الفراء من قولهم: ثلاثة أربعة بإلقاء حركة[١] الهمزة على الهاء، فلا دلالةَ فيه، لأنَّ همزة «أربعة» همزة قطعٍ في حال الوصل بما قبلها وابتدائها. وليس كذلك همزة الوصل نحو ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران]. وأيضاً فقولهم «ثلاثة أربعة» بالنقل ليس فيه وقف على ثلاثة، إذْ لو وقف عليها لم تكن تقبل الحركة، ولكن أقرّت في الوصل اعتباراً بما آلتْ إليه في حالٍ ما لا أنها موقوف عليها.

قال الزمخشري[٢]: فإنْ قلت: هَلاَّ زعمت أنها حُرِّكت لالتقاء الساكنين؟ [قلت: لأنَّ التقاء الساكنين] لا يُبالى به في باب الوقف، وذلك قولك: هذا إبراهيم وداود وإسحاق، ولو كان التقاء الساكنين في حال الوقف يوجب التحريكَ لحُرِّكَ الميمان في «ألَم» لالتقاء الساكنين ولما انتظر ساكن آخر انتهى. هذا السؤال وجوابه صحيحان. لكن الذي قال إن الحركة هي لالتقاء الساكنين لا يتوهم أنه أراد التقاء الياء والميم من «ألَم» في الوقف، وإنما عنى التقاء الساكنين اللذين هما ميم الأخيرة ولام التعريف، كالتقاء نون «مَن» ولام «الرجل» إذا قلت: مَن الرجل.

قال الزمخشري[٣]: فإن قلت: إنما لم يحركوا لالتقاء الساكنين في «ميم» لأنهم أرادوا الوقفَ وأمكنهم النطق بساكنين فإذا جاء ساكن ثالث لم يمكن إلا التحريـك فحركوا - قلت: الدليلُ على أنَّ الحركةَ ليست لملاقاة الساكنِ[٤] أنهم كان يمكنهم أن يقولوا: واحد اثنان بسكون الدال مع طرح

(١) مكررة في ق.

(٢) الكشاف ١: ٤١٠.

(٣) الكشاف ١: ٤١٠.

(٤) ق: الساكنين.

الهمزة فجمعوا بين ساكنين كما قالوا: أصيم[١] ومديق، فلما حرّكوا الدّال علم أن حركتها هي حركة الهمزة الساقطة لا غير وليست لالتقاء الساكنين انتهى.

في سؤاله تعمية في قوله: فإن قلت إنما لم يحركوا لالتقاء الساكنين، ويعني بالساكنين الياء والميم [في «ميم»] وحينئذ يجيء التعليل بقوله: لأنهم أرادوا الوقفَ وأمكنهم النطق بساكنين، يعني الياء والميم، ثم قال: فإذا جاء ساكن ثالث، يعني لام التعريف، لم يمكن إلا التحريك، يعني في الميم، فحرّكوا، يعني الميم لالتقائها[٢] ساكنة مع لام التعريف، إذْ لو لم يحركوا لاجتمع ثلاث سواكن وهو لا يمكن. هذا شرح سؤاله.

وأما الجواب عن سؤاله فلا يطابق لأنه استدل على أن الحركة ليست [٧٣/ أ] لملاقاة ساكن بإمكانية الجمع بين ساكنين في قولهم: واحد اثنان بأن يسكنوا الدال والثاء ساكنة وتسقط الهمزة، فَعَدَلُوا عن هذا الإمكانِ إلى نقلِ حركة الهمزة إلى الدال، وهذه مكابرةٌ في المحسوس [إذ] لا يمكن ذلك أصلاً ولا هو في قدرة البشرِ أنْ يجمعوا في النطق بين سكونِ الدال وسكونِ الثاء وطرح الهمزة. وأما قوله: فجمعوا بين ساكنين، فلا يمكن الجمع لما قلناه. وأما قوله: كما قالوا أصيم[٣] ومديق فهذا ممكنٌ كما هو في راد ومياد لأنه في ذلك التقاء ساكنين[٤] على حدِّهما المشروط في النحو فأمكن النطق

(١) ق: صميم.

(٢) ق: لالتقاء.

(٣) ق: صميم.

(٤) ق: ساكنان.

به، وليس مثل واحد اثنان لأنَّ الساكنَ الأول ليس[١] حرف علة، ولا الثاني مدغم فلا يمكن الجمع بينهما. وأما قوله: فلما حركوا الدالَ علم أنَّ حركتها هي حركة الهمزة الساقطة لا غير وليست لالتقاء الساكنين لما بني على انَّ الجمع بين الساكنين في: واحد اثنان ممكن، وحركة التقاء الساكنين إنما هي في باب ما لا يمكن أن يجتمعا فيه في اللفظ. ادعى أن حركة الدال الهمزة الساقطة لالتقاء الساكنين، وقد ذكرنا عدمَ إمكان ذلك فإنْ صحَّ كسر الدال كما نقل هذا الرجل فتكون حركتها لالتقاء الساكنين لا للنقل. وقد ردّ قول الفراء واختيار الزمخشري إياه بأن قيل: لا يجوز أنْ تكونَ حركة الميم حركة الهمزة أُلقيتْ عليها لما في ذلك من الفساد والتدافع، وذلك أنَّ سكون آخر الميم إنما هو على نِيَّةِ الوقف عليها، وإلقاء حركة الهمزة عليها إنما هو على نية الوصل، ونية الوصل توجب حذف الهمزة، ونية الوقف على ما قبلها توجب ثباتها، وثباتها وقطعها متناقض وهو ردٌّ صحيح.

والذي تَحرَّرَ في هذه الكلمات أنَّ العربَ متى سردت أسماء[٢] من غير تركيبٍ ما، كانت تلك الأسماء مسكنة الآخر وصلاً[٣] ووقفاً، فلو التقى آخر مسكن منها بساكن[٤] آخر حرّك لالتقاء الساكنين، فهذه الحركة التي في «ألّم» هي حركة التقاء الساكنين.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ كلام مبتدأ جملة رادّة على نصارى نجران. فالجلالة مبتدأ خبره ما بعده. وقرىء: القيَّام والقيّم.

---

(١) مكررة في ق.

(٢) ق: متى سودت اسماً.

(٣) ق: ووصلاً.

(٤) ق: لساكن.

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ خاطبَ المُنزَّلَ عليه تشريفاً لهُ[١]، ولم يذكر المنزل عليه التوراة والإنجيل. والباء في ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ للسبب أو للحال. ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي: من الكتب الإلهية. و«نزّل» استئناف إخبار، ومَنْ أجاز تَعدادَ الأخبار أجازَ أنْ يكون خبراً بعد خبر. و«مصدقاً» حال مؤكدة لازمة. و«ما بين يديه» المتقدم في الزمان، يقال: هو بين يديه إذا كان قدَّامه غير بعيد.
﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ قال الزمخشري[٢]: التوراةُ والإنجيلُ اسمان أعجميان، وتكلُّفُ اشتقاقهما من الورى والنّجل ووزنهما[٣] بتفعلة وإفعيل إنما يصحُّ بعد كونهما عربيين انتهى. ونقول[٤] إنهما اسمان عبرانيّان فلا يدخلهما اشتقاقٌ عربيٌّ بنصِّ النحاة. ثم تكلَّمُوا فيهما على تقدير أنهما عربيان؛ فالتوراةُ فوعلة والتاء بدل من واو، أو تفعِلة بكسرِ عين الكلمةِ قلبت الياء ألفاً وانفتح ما قبلها كالناصاة في الناصية، أو تفعَلة بفتح العين أقوال. واشتقاقها من مصدر: وري الزند أو مصدر وريت. والإنجيلُ إفعيل من النجل وهو الماء الذي ينزُّ من الأرض، أو من النجل وهو الولد، أو من النجل وهو الأصل أقوال. ونَزَّلَ وأنزلَ بمعنى.

﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي: من قبل إنزال الكتاب عليك. و﴿ هُدًى ﴾ مصدر في موضع الحال، أو مفعول من أجله. ولا يلزم وقوعُ الهداية بالفعلِ لجميعِ الناس.
﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ جنس الكتب السماوية لأنها تفرق بين الحق والباطل، أو

(١) ق: بشيء بدا له.
(٢) الكشاف ١ : ٤١٠.
(٣) ق: وزنهما.
(٤) ق: وتقول.

القرآن. وكرر بما فيه من الوصف تعظيماً[١] لشأنه، وهو مصدر في الأصل، فالظاهر أنه أُريدَ به الفارق، ويجوز أنْ يراد به المفروق كما قال ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء]. ولما ذكر إنزالَ الكتبِ الإلهية توعَّد مَنْ كفر بها [بقوله] ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الدنيا بالقتلِ والأسرِ والغلبة، وفي الآخرةِ بالنارِ. و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عام يدخلُ فيه مَنْ نزلت الآيات بسببه وغيره. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي: ذو عقوبة وسطوة على الكافر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾.

ولما ذكر تعالى انفرادَهُ بالألوهية [٧٣/ ب] وذكر الحياة والقيّومية وإنزالَ[٢] الكتب وإعدادَ العذابِ للكافر، ذكرَ صِفةَ العلم فقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ﴾ وشيء: نكرة يعمُّ ويشملُ الجزئيات والكليات. وذكر مقرَّ الشيء وهو: في الأرض والسماء، إذْ هُما أعظم ما نشاهده.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي: على ما يشاء من الهيئات. ودلَّ على كمالِ العلم [والقدرة]، ودلَّ على كينونةِ[٣] عيسى عليه السلام من الذين صوّرهم في الأرحام، فانتفت عنه الإلهيّة. وفيه ردٌّ على الطبيعيين إذْ يجعلون الطبيعةَ فاعلةً مستبدة. ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ مفعول «يشاء» محذوف. و«كيف» جزاء وفِعْلُ الشرطِ محذوفٌ والتقدير: على أيِّ هيئةٍ شاء أنْ يُصوِّركم صَوَّركم. و«كيف» منصوب على الحال. وحذف «صوّركم» هنا

(١) ق: وتعظيماً.

(٢) ق: وأنزل.

(٣) عبارة ق: ودلّ ذلك على كينون.

كحذف الجزاء في نحو: أنتَ ظالمٌ إنْ فعلتَ، أي: إن فعلت فأنت ظالم. ولا محلّ للجملة في مثل هذا وإنْ كان لها تعلق بما قبلها من حيث المعنى. وتفكيكُ مثل هذا التركيب لا يُهتدى إليه إلا بعد تَمرُّنٍ في الإعراب واستحضارٍ للطائفِ النحو. وقد خبطوا في إعرابِ هذه الجملة بما ذكرناه في «البحر»[1].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تأكيدٌ لما قبلها من الانفرادِ بالإلهيّةِ والغلبة والحكمة. وفي ذكر «الحكيم» إشارةٌ إلى التصوير ووضع الأشياء على ما اقتضت الحكمة.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾.

ولما كان أولئك الوفد قد ذكروا لرسولِ[2] الله ﷺ أن في كتابه ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴿١٧١﴾﴾ [النساء] أي: في حَقِّ عيسى عليه السلام، أخبر تعالى أنَّ آياتِ الكتاب محكمةٌ ومتشابهة. والمُحْكَمُ ما لم يتشابه كآياتِ الحلالِ والحرام ولا يحتملُ إلا وجهاً واحداً. والمتشابهُ ما احتملَ من التأويلِ وجوهاً. ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: الأصل الذي يُرجع إليه. ﴿وَأُخَرُ﴾ أي: وآيات أخر غير تلك

(١) انظر ٢: ٣٨٠.

(٢) ق: الرسول.

متشابهات. وقد اختلف المفسرون في المحكم والمتشابه اختلافاً كثيراً. وارتفع «آيات» على الفاعلية إذ المجرور معتمد، أو على الابتداء.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ أي: ميلٌ عن الحقِّ كالنصارى واليهود ومَنْ حَرَّفَ كلامَ اللهِ ممّن ينتمي إلى ملّةِ الإسلام كالإباحيةِ والقائلينَ بالتناسخِ وعلمِ الحروفِ والمُجَسِّمة وغُلاة الباطنية والقائلينَ بالحلول[1] والوحدة من المتظاهرين بذلك في كتبهم، وكلّ من زاغ عن الحق بالتعلق بشيءٍ من المتشابهات. وعلّل ابتغاء أهلِ الزّيغ المتشابه بعلّتين إحداهما: ابتغاء الفتنة أي فتنة أهل الإسلام بالاضطراب والثانية: ابتغاء التأويل وكلاهما مذموم. ثم ذكر أنَّ تأويلَ المتشابه لا يعلَمُه إلا الله، وهذا هو الظاهرُ من قوله.

﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ ابتداء كلام وخبره قوله ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾. ومن عطف «والراسخون» على الجلالة فجعلهم يعلمون التأويلَ فليس بظاهرٍ، وعلى قولهم يكون «يقولون» جملة في موضع الحال من الراسخين، والضمير في قوله «به» عائد في الظاهرِ على التأويل، ويجوز أنْ يعود على الكتابِ مُحْكَمِه ومُتَشَابِهِه، لأنَّ الإيمان بهما حاصل.

وقوله ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ أي: كُلٌّ من المحكم والمتشابه. ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ ﴾ أي: ما يتّعظ بالمحكم والمتشابه إلا ذَوُو العقولِ الناظرون في وجوه التأويلات والاحتمالات، والحاملون[2] ذلك على ما اقتضاه لسانُ العرب من الحقيقةِ والمجازِ والنظر فيما يجوزُ وما يجبُ وما يستحيل. وانتصاب «ربنا» على النداء، فجاز أنْ يكونَ من قولِ الراسخين، وجازَ أنْ يكون من إضمار

---

(١) ق: بالحول.

(٢) ق: الناظرين. . والحاملين.

[قولوا] ربنا.

وقوله: ﴿لَا تُزِغۡ[قُلُوبَنَا]﴾ أي: لا تجعلنا من الذين في قلوبهم زيغٌ[1] بعد إذْ هديتنا. وأضاف «بعد» إلى إذ وإذ إلى الجملة بعدها، والمعنى: بعدَ وقتِ هدايتكَ إيَّانا. وختم بقوله ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ إشعاراً[2] بأنَّ جميعَ ما يحصلُ من الخيرات هو هبةٌ من الله لهم. وجاء بصيغة[3] المبالغة ليدلَّ على كثرةِ هباته، وناسب الفواصل [في قوله] قبلُ «الألباب». وقرىء: لا تَزِغ قلوبنا مبنياً للفاعل بتاء المضارعة ويائها.

لما سألوه تعالى أنْ لا يزيغَ [٧٤/أ] قلوبَهم بعد الهدايةِ وكانت ثمرة [انتفاء] الزيغ والهداية إنما تظهرُ في يوم القيامة، أخبروا أنهم موقنون بيوم القيامة والبعث فيه للمجازاة، وأنَّ اعتقادَ صحة الوعدِ به هو الذي حملهم على سؤالِ أنْ لا تزيغَ قلوبُهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ عَدَلَ عن ضميرِ الخطابِ إلى الاسم الظاهر وهو الله، ولم يأتِ بالتركيب: إنك لا تُخلف، دلالة على الاستئناف وأنه من كلامِ الله تعالى لا من كلامِ الراسخين. وقد يكون قوله «إن الله» من بابِ الالتفاتِ عَدَلُوا من الخطاب إلى الغيبة لما في ذِكْرِه باسمِهِ الأعظم من التفخيمِ والتعظيمِ والهيبة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ

(١) ق: في قلوبهم مرض زيغ.
(٢) ق: إشعار.
(٣) ق: بصفة.

وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا
فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ
وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عام في الكفار من وفد نجران وغيرهم. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من عذاب الله، وكانوا يَتكثَّرُونَ بأموالِهم وأولادهم. ثم ذكر مآلَهم في قوله ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ جعلهم كالوقودِ الذي تُضرمُ به النارُ. قال الزمخشري[(١)]: «من الله شيئاً» مثله في قوله ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم] والمعنى: لن تغنيَ عنهم من رحمةِ الله أو من طاعةِ الله شيئاً، أي بدل رحمة الله وطاعته وبدل الحق، ومنه: «ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدُّ»[(٢)] أي: لا ينفعه جدُّه وحَظُّه[(٣)] من الدنيا بدلك أي: بدلَ طاعتكَ وعبادتكَ وما عندكَ. وفي معناه قوله تعالى ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ] انتهى. إثبات البدلية «بمِن» فيه خلاف: أصحابُنا[(٤)] يُنكِرُونَهُ وغيرهم قد أَثْبَته وزعم أنها تأتي بمعنى البدل واستدل بقوله تعالى ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة] ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً ﴿٦٠﴾﴾ [الزخرف] أي: بدل الآخرة وبدلكم، وقال الشاعر[(٥)]: [من الكامل]

أخذ المخاض من الفصيل غُلُبّةً ظُلماً ويُكتب للأمير أفيلا

---

(١) الكشاف ١: ٤١٤.

(٢) صحيح مسلم ١: ٣٤٣.

(٣) ق: وحفظه.

(٤) ق: لأصحابنا.

(٥) البيت للراعي في ديوانه ص١٤٢. والأفيل من الإبل: الصغير، والجمع إفال. والبيت في وصف عامل الزكاة بالجور.

أي: بدل الفصيل. وانتصاب «شيئاً» على المصدر أي شيئاً من الإغناء. وقرىء: لن تغني بسكون الياء وهي لغة[١] كثيرة في الشعر. وقرىء: لن يغني[٢]. وانتقل من الأموالِ إلى الأولاد لأنَّ الأولادَ بهم التناصرُ والكثرةُ والعزة. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ معطوفٌ على خبر «إنَّ» وهو «لن تغني»، أو مستأنف. وقرىء: وُقود بضم الواو مصدر[٣] وقد يقد، وقد نقل أن الوَقود بفتح الواو مصدر كالوُقود بضمِّها.

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: كدأبِ الكفارِ المتقدم ذكرهم في مآلهم إلى النار مثل مآلِ آلِ فرعون إلى النار، فهو خبر مبتدأ محذوف أي: دأبُهم كدأبِ آل فرعون والمكذبين. ونصَّ على آلِ فرعونَ لعظم مرتكبه في دعوى الإلهيّة ولمعرفةِ بني إسرائيلَ بما جَرى له. ﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ كأمةِ شُعيب وصالح وهود ونوح. ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تفسيرٌ لدأبهم كتكذيبِ[٤] كُفَّارِ معاصري رسولِ الله ﷺ. ويقال دأْب ودأَب ومعناه العادة.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هم مُعَاصِرُو رسولِ الله ﷺ. وفي سببِ نزولها اختلافٌ؛ قيل إنَّ يهودَ بني قينقاع قالوا بعد وقعةِ بدر إنَّ قريشاً كانوا أغماراً، ولو حاربتنا لرأتْ رجالاً!. وناسب ما سبق من الوعدِ الصادقِ في قوله تعالى فيما آلَ إليه الكفارُ السابق ذِكْرُهم[٥] في أخذِ الله إياهم ومآلهم إلى النار، هذا

(١) ق: لغية.

(٢) ق: تغني.

(٣) ق: ومصدر.

(٤) ق: تكذيب.

(٥) ق: ذكر.

الوعد الصادق[١] في قوله ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾. وقرئ بالتاء والياء فيهما. والمخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ أي: وبئس المِهادُ جهنم.

والخطابُ في قوله تعالى ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ للمؤمنين. والآيةُ: العلامةُ التي قد ظهرت في وقعة بدر وهي غَلَبَةُ المؤمنين الكافرين حَسْبَ الوعدِ السابقِ[٢] في قوله «ستغلبون». والفئةُ: الجماعة من فاءَ يَفيءُ أي: رجع. و﴿ٱلْتَقَتَا﴾ جملة في موضع الصفة للفئتين. ثم فصل الفئتين في قوله ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. وصحَّ الابتداءُ [بالنكرة] لأنه في موضع تفصيل. وثَمّ صفة محذوفة تقديرها[٣]: [فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله. ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ معطوف على «فئة» وثَمَّ صفة محذوفة تقديرها]: وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت، كما قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ [٧٤/ ب] وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴿٧٦﴾﴾ [النساء] فحذف من الجملة الأولى ما أثبت مقابله في الجملة الثانية، ومن الثانية ما أثبت مقابله في الأولى.

وقرئ: فئةٍ بالجرِّ على البدل من «فئتين» وهو بدل تفصيل. وقرئ: فئةً بالنصب على المدح أي: أمدح فئة، وأخرى كافرةً بالنصب على الذم أي: وأذمُّ أخرى[٤]. وزعم الزمخشريُّ[٥] أنَّ نصب «فئة» على الاختصاص [وليس بجيد لأنَّ المنصوبَ على الاختصاص] لا يكونُ نكرةً ولا مبهماً. وأجاز هو وغيره قبله كالزجاج أن ينتصب «فئة» على الحال من الضمير،

---

(١) ق: السابق.

(٢) ط: الصادق.

(٣) ق: تقديره.

(٤) ق: وأذم أي أخرى.

(٥) الكشاف ١: ٤١٥.

وهي[١] حال موطّئة. وقرىء: يقاتل بالياء على تذكير الفئة لأنه معناها[٢].

وقرىء: يرونهم بالتاء وبالياء مفتوحتين ومضمومتين، وضمير الواو للمؤمنين وضمير النصب للكافرين، وكذلك ضمير الجر في «مثليهم» أي: يرى المؤمنون الكافرين[٣] مثلي الكافرين، فالمؤمنون أقل من الكافرين ومع ذلك وقع النصر كما قال تعالى ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة] ويدل على هذا قوله «والله يؤيد بنصره من يشاء». والرؤيةُ هنا من رؤية البصر يدل عليه قوله «رأي العين». والتأييدُ: التقوية، وكان المسلمون في وقعة بدر ثلاث مئة وثلاثة عشر والكفار[٤] نحو الألف. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في تلك الآية من غلبةِ المؤمنينَ على قِلَّتهم الكافرينَ على كثرتهم. ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: لاتّعاظاً. و«الأبصار» قد يكونُ من بَصَرِ العين أو من بصيرةِ القلب. ومفعول «يشاء» محذوف أي: من يشاء نصره.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) ق: وهو.

(٢) ط: لأن معناها القوم.

(٣) ق: للكافرين.

(٤) ق: الكفار.

وقُرِىء: زَيَّنَ مبنياً للفاعل وهو عائد على الله تعالى. ذكر تعالى ما جبل عليه طباع الناس من حُبِّ الدنيا وما فيها من متاعها. وأضاف «حب» وهو مصدر إلى المفعول وهو «الشهوات»، والفاعلُ محذوفٌ أي: حبّهم للشهوات. والشهوةُ مُسترذلةٌ يُذَمُّ مُتَّبِعُهَا، و«الشهوات» عامةٌ بُيِّنَتْ بما بعدها فَبُدِىءَ بالنساء ولا شيء أعظم منهن في الشهوة ثم بما يتولَّد منهن وهم البنون ثم بما يتم به حال المشتهى من الذهب والفضة ثم بالخيل لأنَّ فيها عزّة وقدرة على الامتناع، ثم بالأنعام لأنها كانت أكثر مراكِبهم وأكثر مشروبهم منها، ثم بالحرثِ إذ فيه تحصيلُ أقواتهم. والقِنطارُ مُختلَفٌ في عدده والظاهر المبالغة فيما يملكهُ الإنسانُ من العينين. و«المقنطرة» صفة للقناطير ويُرادُ به الكثرة. وجاء هذا الترتيب في أحسن أسلوب من تعلّق النفس بما ذكر. والإشارة بقوله «ذلك» إلى ما تقدم ذِكْرُه من المحبوبات. و«متاع» أي: ما يتمتع به ثم يزول[١]. و«المآب»: المرجعُ وهو الجنةُ للمؤمنين.

﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ ﴾ أي: بخيرٍ مما تقدمَ ذِكْرُه من متاع الدنيا لأنَّ ذلك فانٍ وهذا باقٍ. لَمَّا أَبْهَمَ في قوله «بخير من ذلكم» عَيَّنَ جهةَ الخيرية بقوله ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ ﴾. وقرىء بخفض: جناتٍ فجاز أنْ يكونَ بدلاً من قوله «بخير» ويكون قوله [«للذين»] متعلقاً بقوله «بخير» فلا يكون استئناف كلام بخلاف رفع «جنات» فإنه مبتدأ و«للذين» خبره، والكلام مستأنف جواب كلام مقدر كأنه قيل: ما الخير؟ فقيل: لِلَّذين اتَّقَوْا عند رَبِّهم[٢] جنات. ونبَّأ هنا تَعدَّتْ إلى اثنين أحدهما بنفسه والآخر بحرف

---

(١) عبارة ق: أي يمتع بها ثم تزول.

(٢) «عند ربهم» كتبت في الحاشية.

الجر، وبدأ بمقرِّ المتقين وهي الجنات، وذكر من صِفاتها أنها تجري من تحتها الأنهار، ثم بدأَ بالأزواجِ اللاتي هُنَّ من أعظم الشهوات، إذ ذكرَ في الآية قبلها حُبَّ الشهوات من النساء، ووصفهن بالتطهير من دمِ الحيضِ وغيره، وأتبع ذلك بأعظمِ الأشياء وهو رضى الله تعالى عنهم، فانتقل من عالٍ إلى أعلى منه[1]. و«بصير بالعباد» أي: مُطَّلع على أعمالهم فيجازي كلاًّ بعمله.

ولما ذكر المتقين ذكرَ شيئاً من صفاتهم فبدأ بالإيمانِ الذي هو رأس التقوى ورَتَّبَ سؤالَ المغفرةِ عليه والوقاية من النار. ولمّا ذكر الإيمان بالقول أخبر بالوصف الدَّال على حبسِ النفس على ما هو شاقٌّ عليها من التكاليف وهو الصبر[2]. ثم ذكر صِدْقهم فيما أخبروا به من قولهم «ربنا إننا آمنا». وتقدم ذكر القنوت. وقوله «والمنفقين» أموالَهم في الطاعات «والمستغفرين» اللهَ لذنوبِهم في الأسحار، وهي أوقاتُ الإجابة. ألا ترى إلى قوله تعالى[3]: مَنْ يدعوني [٧٥/أ] فأستجيب له في حديث النزول. وقال الزمخشري[4] والواو المتوسطة بين الصفات للدلالةِ على كمالهم في كُلٍّ واحدة منها انتهى. ولا نعلم العطف في الصفة بالواو يدل على الكمال!.

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ

---

(١) بعده في ق: وهو رضى الله تعالى.

(٢) ق: البصر.

(٣) لم أجده بنصّه وانظر في معناه رياض الصالحين ص٣٠٧، ٣١٩.

(٤) الكشاف ١: ٤١٧.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ الآية. سبب نزولها أنَّ حَبْرين من الشام قَدِمَا المدينةَ فقال أحدهما للآخر: ما أشبه هذه بمدينة النبيِّ الخارج في آخرِ الزمان، ثم عرفا رسولَ الله ﷺ بالنعت فقالا: أنتَ محمد؟ قال: نعم. قالا: أنت أحمد؟ فقال: نعم. فقالا: نسألكَ عن شهادةٍ إنْ أخبرتنا بها آمَنَّا. فقال: سَلاَني. فقال أحدهما: أخبرنا عن أعظم الشهادة في كتابِ الله فنزلت فأسلما. و«شهد» هنا بمعنى أَعْلَمَ بانفرادهِ بالوحدانية وعطف عليه الملائكة وهم من العالم العلوي ثم أُولي العلم ويشمل الملائكة وغيرهم من الثقلين. وانتصبَ «قائماً» على الحالِ من الله وحده. قال الزمخشري[1]: وانتصابه على أنه حال مؤكدة منه، أي: من الله، كقوله ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا ﴿٩١﴾﴾ [البقرة] انتهى. ليس هذا من الحال المؤكدة لأنه ليس من باب ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم] ولا من باب: أنا عبد الله شجاعاً، فليس «قائماً بالقسط» بمعنى «شهد» وليس مؤكداً مضمونَ الجملة السابقة في نحو: أنا عبد الله شجاعاً وهو زيد شجاعاً، وفي كونه حالاً من اسم الله قلق في التركيب إذْ يصير كقولك: أكل زيد طعاماً وعائشة وفاطمة جائعاً[2]، فتفصل بين المعطوف عليه والمعطوف بالمفعول، وبين الحال وذي الحال بالمفعول والمعطوف، لكن بمشيئة[3] كونها كلها معمولة لعاملٍ واحد.

(١) الكشاف ١ : ٤١٧.

(٢) ق: جاء معاً.

(٣) ق: يمشيه.

وقال الزمخشري: فإنْ قلت: قد جعلته حالاً من فاعل «شهد» فهل يصح أنْ ينتصبَ حالاً عن «هو» في «لا إله إلا هو»؟ قلت: نعم لأنها حالٌ مؤكدة، والحالُ المؤكدة لا تستدعي أنْ يكونَ في الجملة التي [هي] زيادة في فائدتها عامل فيها كقولك: أنا عبد الله شجاعاً انتهى. يعني أنَّ الحالَ المؤكدة لا يكون العامل فيها النصب شيئاً من الجملة السابقة، وإنما تنتصب بعامل مُضْمَر تقديره: أحق أو نحوه مُضمراً بعد الجملة، وهذا قولُ الجمهور. والحال المؤكدة لمضمون الجملة هي الدالةُ على معنى ملازم للمسند إليه الحكم أو شبيه بالملازم، فإنْ كان المتكلمُ بالجملة مُخْبِراً عن نفسه فيقدر الفعل «أحق» مبنياً للمفعول نحو: أنا عبد الله شجاعاً أي: أحق شجاعاً، وإنْ كان مُخْبِراً عن غيره نحو: هو زيد شجاعاً فتقديره: أحقه شجاعاً.

وذهب الزجاج إلى أنَّ العاملَ في هذه الحال هو الخبر بما ضُمِّنَ من معنى المسمّى. وذهب ابن خروف إلى أنه المبتدأ بما ضُمِّنَ من معنى التنبيه. وجعله بعضهم حالاً من الجميع على اعتبار كل واحد واحد. ورُدَّ بأنه لو جاز ذلك لجاز: جاء القوم راكباً أي: كُلُّ واحدٍ منهم، وهذا لا تقولهُ العربُ.

ومعنى «بالقسط» بالعدل، و«أنه لا إله إلا هو» مفعول «شهد» وفصل به بين المعطوف عليه والمعطوف ليدل على الاعتناء بذكر المفعول وليدل على [تفاوتِ] درجةِ المتعاطفين بحيث لا ينسقان متجاورين[1]. وقرىء: شُهد مبنياً للمفعول، والمصدر المنسبك من «أنَّ» وما بعدها بدلٌ من لفظِ الجلالة أي: شُهد انفرادُه بالألوهية. وارتفع «والملائكة» على إضمار فِعْل أي: وشهد الملائكة، أو على الابتداء والخبر محذوف تقديره: والملائكة وأولو

---

(١) ق: متجاوزين.

العلم يشهدون.

وقرىء: شهداءَ[1] الله جمعاً منصوباً مُضافاً إلى الله تعالى، وجوّز أنْ يكون حالاً من «المستغفرين»[2] أو على المدح وهو جمع شهيد أو شاهد. وقرىء: شهداءُ الله بالرفع على إضمار مبتدأ [محذوف] أي: هم شهداء[3]. [وقرىء: شُهُداً] اللهَ بضم الشين والهاء ونصب الدال منوناً ونصب «الله». وقرىء: شُهد بضم الدال وبفتحها مضافاً لاسمِ الله، فالرفع على خبر مبتدأ أي: هم شُهُدُ الله، والنصب على الحال، وهو جمع شهيد كنذير[4] ونذر. وقرىء: شُهدٌ لله[5] بضم الدال ونصبها وبلام الجر، ووجه رفع «الملائكة» في هاتين القراءتين بالعطف على الضمير المستكن في «شهداء».

وتقدم[6] توجيه رفع «الملائكة» على إضمار الفعل أو على إضمار [٧٥/ب] الخبر. وقرىء: إنه بكسر الهمزة. وقرىء: أنْ لا إله بحذف الضمير، وخُرِّجَ نَصْب «قائماً» على أنه حال من «هو» أو صفة للمنفي[7]، وهو بعيدٌ جداً، أو من الجميع على اعتبار كل واحد واحد، وهو أبعدُ مما قبله. وأجاز الزمخشري انتصاب «قائماً» على المدح وقال[8]: فإن قلت:

---

(١) ق: شهد.

(٢) الآية السابقة.

(٣) ق: شهد.

(٤) ق: أي كنذير.

(٥) ق: الله.

(٦) ق: أو تقدم.

(٧) ق: من المنفي.

(٨) الكشاف ١: ٤١٧.

أليس من حق المنتصب على المدح أنْ يكون معرفةً كقولك: الحمد لله الحميد، «إنَّا معشرَ الأنبياء لا نورث»[١]،

إنا بني نهشل لا ندّعي لأب[٢] [من البسيط]

قلت: قد جاء نكرة في قول الهذلي[٣]: [من المتقارب]

ونـأوي إلـى نسـوةٍ عُطَّـلٍ وشعثاً مراضيعَ مِثْلَ السّعالي

انتهى سؤاله وجوابه. وفي ذلك تخليطٌ وذلك أنه لم يفرق بين المنصوبِ على المدح أو الذم أو الترحُّم، وبين المنصوبِ على الاختصاص وجعل حكمها واحداً وأورد مثالاً من المنصوب على المدح وهو: الحمد لله الحميد، ومثالين من المنصوب على الاختصاص وهما: إنا معشر الأنبياء لا نورث،

إنّا بني نهشل لا ندّعي لأب

والذي ذكره النحويون أنَّ المنصوبَ على المدح أو الذم أو الترحُّم قد يكونُ معرفةً وقبله معرفة يصلح أنْ يكون تابعاً لها وقد لا يصلح، وقد يكون نكرةً كذلك، وقد يكون نكرة وقبلها معرفة فلا يصلح أنْ يكونَ نعتاً لها نحو

---

(١) في صحيح الجامع الصغير ٦: ٣٧ «النبي لا يورث».

(٢) البيت لبشامة بن حزن النهشلي في شرح حماسة المرزوقي ١: ١٠٢، وعجزه:
عنه ولا هو بالآباء يشرينا

(٣) أصل عبارة الكشاف ١: ٤١٧: قد جاء نكرة كما جاء معرفة وأنشد سيبويه فيما جاء منه نكرة قول الهذلي. والبيت لأمية بن أبي عائذ، شرح ديوان الهذليين ٢: ٥٠٧، وانظر الكتاب ١: ٣٩٩.

قول النابغة[١]: [من الطويل]

أقارِعُ عوفٍ لا أُحاول غيرها وجوهُ قرودٍ تبتغي مَنْ تُجادع

فانتصب «وجوه قرود» على الذم وقبله معرفة وهو قوله «أقارع عوف».

وأما المنصوب على الاختصاص فَنَصُّوا على أنه لا يكون نكرةً ولا مُبْهَماً ولا يكون إلا مُعَرَّفاً بالألفِ واللام أو بالإضافة أو بالعلمية أو بأي، ولا يكون إلا بعد ضمير متكلم مختصّ به أو مشارك فيه، وربما أتى بعد ضمير مخاطب. وأما انتصابه على أنه صفة للمنفي فقال الزمخشري[٢]: فإن قلت: هل يجوز أن يكون صفة للمنفي كأنه قيل: لا إله قائماً بالقسطِ إلا هو؟ قلت: لا يبعدُ، فقد رأيناهم يتّسعون في الفصلِ بين الصفةِ والموصوف. ثم قال: وهو أوجه من انتصابه عن فاعل «شهد» وكذلك انتصابه على المدح انتهى.

وكان قد مثّل في الفصل بين الصفة والموصوف بقوله: لا رجل إلا عبدالله شجاعاً. ويعني أن انتصاب[٣] «قائماً» على أنه صفة لقوله «إله»، وكونه[٤] انتصب على المدح أوجه من انتصابه على الحال من فاعل «شهد» وهو «الله». وهذا الذي ذكره لا يجوز لأنه فصل بين الصفة والموصوف بأجنبي وهو المعطوفان اللذان هما «والملائكة وأولو العلم» وليسا معمولين لشيءٍ من جملة «لا إله إلا هو» بل هما معمولان لـ«شهد» وهو نظير: عرف

(١) ديوانه ص٥٠. وفي ق: تخادع.
(٢) الكشاف ١: ٤١٧.
(٣) ق: انتصابه.
(٤) ق: أو لكونه.

زيد أن هنداً خارجة وعمرو وجعفر التميمية، فتفصل بين هند والتميمية بأجنبي ليس داخلاً في حَيِّز ما عمل فيها وفي خبره وهما عمرو[١] وجعفر المرفوعان «يعرف» المعطوفان على «زيد». وأما المثال الذي مثّل به وهو: لا رجل إلا عبدالله شجاعاً فليس نظير تخريجه في الآية، لأن قولك: إلا عبدالله بدل على الموضع من «لا رجل» فهو تابع على الموضع فليس بأجنبي. على أنَّ في جواز هذا التركيب نظراً لأنه بدل «وشجاعا»[٢] وصف.

والقاعدةُ أنه إذا اجتمع البدلُ والوصفُ قُدِّمَ الوصفُ على البدل، وسبب ذلك أنه على نية تكرار العامل على المذهب الصحيح فصار من جملة أخرى على هذا المذهب. وأما انتصابه على القطع فلا يجيء إلا على مذهبِ الكوفيين وقد أبطله البصريون. والأوْلى من هذه الأقوالِ كُلِّها أن يكون منصوباً على الحال من اسم الله والعامل فيه «شهد» وهو قول الجمهور. وأما قراءة عبدالله: القائم بالقسط فَرَفْعُه على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو القائم بالقسط. وقال الزمخشري[٣] وغيره إنه بدل من «هو». ولا يجوز ذلك لأن فيه فصلاً بين البدل والمبدل منه بأجنبيٍ وهو المعطوفان لأنهما معمولان لغيرِ العاملِ في المبدل منه. ولو كان العامل في المعطوف هو [٧٦/أ] العامل في المبدل منه لم يجز ذلك أيضاً لأنه إذا اجتمع العطف والبدل قدّم البدل على العطف لو قلت: جاء زيد وعائشة أخوك لم يجز، إنما الكلام: جاء زيد أخوك وعائشة.

(١) ق: وعمرو.

(٢) ق: وشجاع.

(٣) الكشاف ١: ٤١٧.

وقال الزمخشري[1]: فإن قلت: [لِمَ] جازَ إفرادُه بنصبِ الحال دون المعطوفين عليه، ولو قلت: جاءني زيد وعمرو راكباً لم يجز؟ قلت: إنما جاز هذا لعدم الإلباس كما جاز في قوله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الأنبياء] إن انتصب «نافلة» حالاً عن «يعقوب»، ولو قلت: جاءني زيد وهند راكباً، جاز لتمييزه بالذكورة انتهى كلامه. وما ذكر من قوله في: جاءني زيد وعمرو راكباً أنه لا يجوز ليس كما ذكر، بل هذا جائزٌ لأنَّ الحالَ قَيْدٌ فيمن وقع منه أو به الفعل أو ما أشبهه، وإذا كان قيداً فإنه يُحملُ على أقربِ مذكورٍ ويكون «راكباً» حالاً مما يليه، ولا فرقَ في ذلك بين الحال والصفة. لو قلت: جاءني زيد وعمرو الطويل، لكان «الطويل» صفة لعمرو، ولا تقول: لا تجوز هذه المسألة لأنه يلبس، بل لا لبس في هذا وهو جائز فكذلك الحال.

وأما قوله في «نافلة» إنه انتصب حالاً عن «يعقوب» فلا يتعين أنْ يكون حالاً عن «يعقوب» إذ يحتمل أن يكون «نافلة» مصدراً كالعافية والعاقبة ومعناه زيادة فيكون ذلك شاملاً لإسحاق ويعقوب لأنهما زِيْدَا لإبراهيمَ بعد ابنهِ إسماعيل وغيره، إذْ كان إنما جاء له إسحاق على الكبر وبعد أن عجزت سارة فأيست من الولادة. ولما ذكر شهادة الله والملائكة وأولي[2] العلم بانحصار الألوهية فيه تعالى، أخبر بتقرير ذلك بقوله «لا إلا إلا هو» وفيه ضربٌ من التأكيد لما سبق. ثم ذكر «العزيز» وهو الذي لا يُغَالَبُ أو الذي [هو] عديم النظير. و«الحكيم» هو الذي يضع الأشياء بحكمته مواضعها. وارتفع «العزيز» على إضمار: هو.

---

(١) الكشاف ١: ٤١٧.

(٢) ق: وأولو.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ﴾ أي: إنَّ الشرعَ المقبولَ عند الله هو الإسلام أي: الانقياد لأمرِ الله تعالى ونهيه واعتقاد ما جاءتْ به الرُّسُلُ من صفاتِ الله تعالى والبعث والجزاء. وقرىء: أن الدين، ولهم في إعرابه اضطرابات، وقد اخترنا أنه متعلق بـ«الحكيم» وهي صفة مبالغة، ويكون على إضمارِ حرفِ الجر أي: الحاكم بأن الدين عند الله الإسلام. وأشبه ما قالوه أن يكون «أن الدين» بدل من قوله «أنه لا إله إلا هو»، وفيه بُعْدٌ لطولِ الفصلِ بين البدل والمبدل منه.

ولما شهد تعالى لنفسِه بالوحدانية وشهد له الملائكة وأولو العلم، حكم أنَّ الدين المقبول عنده هو الإسلام، فلا ينبغي لأحدٍ أنْ يعدل عنه ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ٨٥﴾ [آل عمران]. وعدل عن صيغة الحاكم إلى[1] «الحكيم» لأجلِ المبالغةِ ولمناسبة «العزيز». ومعنى المبالغة تكرار حكمه بالنسبة إلى الشرائع أنَّ الدين عنده هو الإسلام إذْ حكم في كل شريعة بذلك. وفي «البحر» الذي هذا «النهر» مُلَخَّصٌ منه ما نصُّه[2] «وأما قراءة الكسائي ومَنْ وافقه في نصب «أنه» «وأنّ»[3] فقال أبو علي الفارسي: إنْ شئت جعلته من بدل الشيء من الشيء وهو هو، ألا ترى أنَّ الدينَ الذي هو الإسلام يتضمنُ التوحيدَ والعدلَ وهو هو في المعنى، وإنْ شئت جعلته من بدل الاشتمال لأنَّ الإسلامَ يشتملُ على التوحيد والعدل، وإنْ شئت جعلته بدلاً من القسط لأن الدين الذي هو الإسلام قِسْطٌ وعدل فيكون أيضاً من بدل الشيء من الشيء وهما لعينٍ واحدة». انتهت تخريجاتُ الفارسي وهو معتزليٌّ

---

(١) ق: أي.

(٢) البحر المحيط ٢: ٤٠٧ وما بعدها.

(٣) في قوله «شهد الله أنه» وقوله «إنّ الدين عند الله الإسلام».

فلذلك يشتمل[1] كلامه على ألفاظِ المعتزلةِ من التوحيدِ والعدلِ، وعلى البدل من «أنه لا إله إلا هو» خرّجه غيره أيضاً. وليس بجيدٍ لأنه يؤدي إلى تركيبٍ بعيد أنْ يأتي مثله في كلام[2] العرب وهو: عرف زيد أنه لا شجاع إلا هو وبنو تميم وبنو دارم ملاقياً للحروب لا شجاع إلا هو البطل المحامي، وأنَّ الخصلةَ الحميدة هي البسالة. وتقريب[3] [٧٦/ب] هذا المثال: ضرب زيد عائشة والعمران حنقاً أختك. «فحنقاً»[4] حالٌ من «زيد» و«أختك» بدل من «عائشة» ففصل بين البدل والمبدل منه بالعطفِ وهو لا يجوزُ، وبالحال لغير المبدل منه وهو لا يجوز لأنه فصلٌ بأجنبي بين المبدل منه والبدل. وخرّجه الطبريُّ على حذف حرف العطف والتقدير: وأنَّ الدين.

قال ابن عطية: وهذا ضعيف انتهى. ولم يبين وجه ضعفه. ووجه ضعفه أنه متنافرُ التركيبِ مع إضمار حرف العطف فيفصل بين المتعاطفين المرفوعين بالمنصوب المفعول، وبين المتعاطفين المنصوبين بالمرفوع المشارك الفاعل في الفاعلية، وبجملتي الاعتراض، وصار في التركيب دون مراعاة الفصل نحو: أكل زيد خبزاً وعمروٌ سمكاً، وأصل التركيب: أكل زيد وعمرو خبزاً وسمكاً، فإنْ فصلنا[5] بين قولك «وعمرو» وبين قولك «وسمكاً» شنع التركيب، وإضمار حرف العطف لا يجوز على الأصح. وقرأ ابن عباس: إنه بالكسر، أن الدين بالفتح، وخرّج على أن الدين عند الله هو

(١) ق: يشمل.

(٢) ق: الكلام.

(٣) مكررة في ق.

(٤) ق في الموضعين: خنقاً.

(٥) ق: فصلها.

معمول[1] «شهد». ويكونُ في الكلامِ اعتراضانِ أحدهما بين المعطوف عليه والمعطوف وهو «أنه[2] لا إله إلا هو» والثاني بين المعطوف والحال وبين المفعول لـ«شهد» وهو «لا إله هو العزيز الحكيم». وإذا أعربنا «العزيز» خبر مبتدأ محذوف كان ذلك ثلاثة[3] اعتراضات انتهى ما خرّجت عليه قراءة ابن عباس أيضاً. فانظر إلى هذه التوجيهاتِ البعيدة التي لا يقدر أحدٌ أنْ يأتي لها بنظيرٍ من كلامِ العرب وإنما حَملَ على ذلك العجمةُ وعدمُ الإمعانِ في تراكيبِ كلامِ العربِ وحفظ أشعارها.

وقد أشرنا في خطبة هذا الكتاب إلى أنه لن يكفي النحو وحده في علم الفصيح من كلام العرب بل لا بُدَّ من الاطلاع على كلامِ العربِ والتَّطَبُّع بطباعِها والاستكثار من ذلك. والذي خرّجت عليه قراءة: أن الدين بالفتح هو أنْ يكون الكلام في موضع المعمول «للحكيم» على إسقاطِ حرفِ الجر أي: بأنَّ، لأن «الحكيم» فعيل للمبالغة كالعليم والسميع والخبير كما قال تعالى ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود] وقال ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل]. والتقدير: لا إله إلا هو العزيز الحاكم أن الدين عند الله الإسلام.

ولما شهدَ تعالى لنفسِه بالوحدانية وشهدَ له بذلك الملائكةُ وأولو العلم، حكم أنَّ الدين المقبول عنده هو الإسلام فلا ينبغي لأحدٍ أنْ يعدل عنه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ۝٨٥﴾ [آل عمران]. فإن قلت: لِمَ حملت «الحكيم» على أنه محوّل من فاعل إلى فعيل للمبالغة، وهَلاَّ جعلته فعيلاً

---

(١) ق: محمول.

(٢) مكررة في ق.

(٣) ق: ثلاث.

بمعنى مُفْعِل فيكون معناه المُحكِم[١] كما قالوا في أليم إنه بمعنى مؤلم، وفي سميع من قول الشاعر[٢]: [من الوافر]

أمِن ريحانةَ الداعي السميعُ

أي: المسمع؟. فالجوابُ أنه لا نُسَلِّمُ أنَّ فعيلاً يأتي بمعنى مُفعِل، وقد يُؤوّل سميع وأليم على غير مُفعِل، ولئن سلَّمنا ذلك فهو من الندور والشذوذ بحيث لا ينقاس. وأما فعيل المحوّل من فاعل للمبالغة فهو منقاس كثير جداً خارج عن الحصر كعليم وسميع وقدير وخبير وحفيظ في ألفاظ لا تحصر.

وأيضاً فإن العربيَّ القحَّ الباقي على سليقته لم يفهم من حكيم إلا أنه محوّل للمبالغةِ من حاكم، ألا ترى أنه لما سمع قارئاً يقرأ: والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما جزاءاً بما كسبا نكالاً من الله واللهُ غفورٌ رحيم، أنكرَ أنْ تكونَ فاصلةُ هذا التركيب السابقة «والله غفور رحيم» فقيل له: التلاوة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾ [المائدة] فقال: هكذا[٣] يكونُ، عَزَّ فَحَكَمَ. ففهم من «حكيم» أنه محوّل للمبالغة من حاكم، وفَهْم هذا العربي حجة قاطعة بما قلناه. وكذا نقول على قراءة ابن عباس ولا نجعل «أن الدين» معمولاً «لشهد» كما زعموا [وأنَّ] «أنه لا إله إلا هو» اعتراض، وأنه بين المعطوف والحال وبين «أن الدين» اعتراض آخر أو اعتراضان، بل نقول: معمول «شهد» هو «إنه» بالكسر على تخريج من خرّج أن «شهد» لما كان بمعنى القول كسر ما بعدها إجراءً لها [٧٧/ أ] مجرى القول، أو نقول: «إنه»

---

(١) ق: الحكم.

(٢) هو عمرو بن معد يكرب، والبيت في اللسان (سمع) وتمامه:

يؤرّقني وأصحابي هجوعُ

(٣) ق: هذا.

معمول لها وعلّقت، ولم تدخل اللام في الخبر لأنه منفي بخلافِ أنْ لو كان مثبتاً فإنك تقول: شهدت إنَّ زيداً لمنطلق، فتعلق بإنَّ مع وجود اللام، لأنه لو لم تكن اللام لفتحت أنّ فقلت: شهدت أن زيداً منطلق. فمن قرأ بفتح «أنه» فإنه لم ينْوِ التعليق، ومن كسر فإنه نوى التعليق، ولم تدخل اللام في الخبر لأنه منفي كما ذكرنا.

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ عام في أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وأن المختلف فيه هو الإسلام وقد تنكّبوا إلى غيرِه من الأديان فانقسمت اليهودُ إلى قرائي وربّاني [وسمرة] وانقسمت النصارى إلى ملكي ويعقوبي ونسطوري، وكل طائفةٍ تكفِّرُ مَنْ خالفها بعد أن كانت اليهودُ أمةً واحدة والنصارى كذلك. والعِلْمُ الذي جاءهم هو كتب الله المنزلة من التوراةِ والزبورِ والإنجيل، والحامل على اختلافهم هو البغي وهو الظلم الواقع من بعضهم لبعض. وتقدم إعراب «بغياً» بعد الاستثناء في سورة البقرة[1].

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ عام في كُلِّ كافرٍ فلا يخصُّ المختلفين ولا غيرهم. و﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ كناية عن المجازاة في الآخرة. والجملة جواب الشرط، والضمير العائد على اسم الشرط محذوف تقديره: سريع الحساب له.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ الظاهرُ عَوْدُ الضمير على أهلِ الكتاب ويحتمل العموم. ومعنى ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ انقدتُ وأطعتُ وخضعتُ لله تعالى. وعبّر بالوجه عن جميع ذاته لأنه أشرف الأعضاء. ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ معطوف على الضمير في

(١) انظر تفسير الآية ٢١٣ من البقرة.

«أسلمت» قاله الزمخشري وابن عطية[١]، وبدأ به ولا يجوز لأنه يلزم منه المشاركة في المفعول الذي هو «وجهي» وهو لا يجوز بل المعنى: وأَسْلَمَ مَن اتَّبعني وجهَهُ لله. فالأحسن أن يكون «من» في موضع رفع على الابتداء والخبر محذوف لدلالةِ ما قبله عليه، التقدير: ومَن اتبعني أسلم وجهه لله. فيكون إخباراً[٢] منه عليه السلام لأنه وإياهم أسلموا وجوههم لله. وأجاز الزمخشري[٣] أن تكون الواو واو مع، وهو لا يجوز لأنه يلزم منه المشاركة في المفعول، ألا ترى أنك إذا قلت: أكلتُ رغيفاً وعَمْراً، أي: مع عمرو، ودلَّ ذلك على أنه مشارك لكَ في أكلِ الرغيف. والمراد بالأميين مَنْ ليس من أهلِ الكتاب من مشركي العرب وغيرهم.

﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾ تقريرٌ في ضمنه الأمرُ أي: أسلموا فقد أتاكم من البيِّناتِ ما يُوجبُ الإسلامَ. ﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ﴾ أي: دخلوا في شريعة الإسلام ﴿فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ أي: حصلت لهم الهداية. ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي: لا يضرونك بتولِّيهم عن الإسلام ولا يلزمك[٤] إلا تنبيههم للهدايةِ بما تبلّغ عن ربك.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ فيه وعيدٌ وتهديدٌ شديد لمن تولَّى عن الإسلام، ووعدٌ[٥] بالخير لمن أسلم إذْ معناه أنَّ الله مُطَّلعٌ على أحوالِ عبيدهِ فيجازيهم بما تقتضي حكمته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ

(١) الكشاف ١: ٤١٩، والمحرر الوجيز ٢: ٣٦٨.
(٢) ق: إخبار.
(٣) انظر الكشاف ١: ٤١٩.
(٤) ق: يلزم.
(٥) ق: ووعيد.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ ذكر أولاً أعظم الأوصاف المذكورة في هذه الآية وهو الكفر بآياتِ الله ثم قَتْل الأنبياء الذين أظهروا آيات الله وهي المعجزات الدالّة على صدقهم، ثم قَتْل من أمر بالقسط وهو العدل. وهذه أوصافُ أسلافهم وهم عالمون بها، فنعى على أهل الكتاب المعاصرين لرسول الله ﷺ فعل أسلافهم ذلك، وجعلوا كمن باشر ذلك. وجاء هنا «بغير حق» بالتنكير، وفي البقرة بالتعريف[1] لأن الجملة هنا أُخرجت مخرجَ الشرطِ وهو عام لا يتخصص، فناسبَ أنْ يكون المنفي بصيغة التنكير حتى يكون عاماً، وهناك جاء في صورةِ الخبرِ عن ناسٍ معهودين وذلك قوله «ذلك بأنهم كانوا يكفرون» الآية. و«بغير حق» حال مؤكدة كالتي في البقرة لأنَّ قتلَ نبيٍّ لا يكونُ بحقٍّ.

﴿فَبَشِّرْهُم﴾ الخطابُ للنبيِّ ﷺ. وضمير المفعول عائد على أسلافهم وهو في المعنى لهم لأنهم راضون بفعل أسلافهم. ودخول الفاء دليلٌ على أنه أُريد بـ«الذين» العموم.

وقُرىء: [حبطت] بفتح الباء. و﴿نَّـٰصِرِينَ﴾ جمع ناصر، وهو أَوْلى من الإفراد لأنه رأس آية وبإزاء [٧٧/ب] شفعاء المؤمنين[2]. وإذا انتفى النفع من جمع فانتفاؤه من واحدٍ أَوْلى.

---

(١) في قوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة].

(٢) أي بإزاء من للمؤمنين من الشفعاء الذين هم الملائكة والأنبياء وصالحو المؤمنين.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿أُوتُواْ﴾ الضميرُ لليهود. والنصيبُ: الحظُّ. و«مِن» للتبعيض. و«الكتاب»: التوراة. و«يدعون» حال. و﴿إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ التوراة أو القرآن. والضمير في «ليحكم» عائدٌ على كتاب الله. وقرىء: ليُحكم مبنياً للمفعول. ونسب[1] التولِّي إلى فريقٍ منهم لأنَّ منهم مَنْ أسلم كعبد الله بن سلام. ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ جملة حالية مؤكدة، ولأن[2] التولّي كان بالأبدان والإعراض بالقلوبِ فثبت التغاير بينهما.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارةُ إلى التولِّي والإعراض بسبب هذه الأقوال الباطلة وتسهيلهم على أنفسهم العذاب وطمعهم في الخروج من النار بعد أيام قلائل. وجاء هنا «معدودات» بالجمع وهناك «معدودة»[3] بالصفة التي لا تصلح للواحدة من المؤنث، وهما فصيحان.

﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي: ما كانوا يختلقون من الكذب كقولهم هذا وقولهم ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة] وغير ذلك.

﴿فَكَيْفَ﴾ يجوز أنْ يكونَ في موضعِ نصبٍ والتقدير: فكيف يصنعون، وفي موضع رفع خبراً لمبتدأ محذوفٍ والتقديرُ: فكيف حالهم. و«إذا»

(١) ق: والنسب.
(٢) ق: أو لأن.
(٣) في قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة].

معمول لذلك المحذوف. ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو يوم القيامة، أي: لجزاءِ يومٍ.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ سبب نزولها ما أخبر عليه السلام من ظهورِ مُلْكِ أمته على قصورِ العجمِ وعلى قصورِ الروم وقصورِ اليمن من الضرباتِ التي ضربها على الصخرةِ يومَ الخندقِ فبرقت ثلاث مرات. رأى عليه السلام تلكَ القصور فَعَيَّرَهُ المنافقون بأنه يحفرُ الخندق ويضربُ بالمعول[1] ويخبر أنَّ مُلْكَ أمته يكونُ بالمواضع المذكورة. و«اللهم» منادى و«ما» زائدة، ولا يجمع بينها وبين حرف النداء في مذهب البصريين. قال ابن عطية[2]: اجتمعوا على أنها - يعني «اللهم» - مضمومة الهاء مشدّدة الميم المفتوحة وأنها منادى انتهى. ما ذكره من الإجماع على تشديد ميمها قد نقل الفراء تخفيف ميمها في بعض اللغات، قال[3]: وأنشدني بعضهم:

[من المخلّع البسيط]

كحلفـةٍ مـن أبـي ريـاح يسمعهـا اللهـمَ الكبـار

(١) ق: بالمعمول.

(٢) المحرر الوجيز ٢: ٣٧٤.

(٣) معاني القرآن ١: ٢٠٤. والبيت للأعشى في ديوانه ص٣١٩، وروايته:

يسمعها لاهُه الكُبار

كما سيأتي بعد.

قال الرادّ عليه: تخفيفُ الميم خطأٌ فاحش خصوصاً عند الفراء لأن عنده أن الميم هي التي في أمّنا[1] إذ لا يحتمل التخفيف أن الميم فيه بقية أمّنا قال: والرواية الصحيحة:

يسمعها لاهُه الكُبارُ

انتهى. وإنْ صحَّ هذا البيت الذي أنشده الفراء عن العرب فإن فيه شذوذاً[2] آخر من حيث استعماله في غير النداء، ألا ترى أن جعله في هذا البيت فاعلاً بالفعل الذي قبله. و«مالك» منصوب على أنه منادى ثانٍ فلا يجوز عند سيبويه نصبه على أن يكون صفة لقوله «اللهم».

ومعنى «مالك الملك» أي: يتصرفُ كما يريد ولذلك جاء تبيين التصرف بعد قوله ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ الآية، وجاء فيها مقابلة الإيتاءِ بالنَّزْعِ[3] والإذلال بالإعزاز، ثم ختم بقدرته العامة الناشىء عنها ما ذكر.

وقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ اقتصر عليه لأنَّ الآيةَ في معنى المدح وإنْ كان عزّ وجلّ بيده الخيرُ والشرُّ على مذهبِ أهل السنّة. قال الزمخشري[4]: فإن قلت: كيف قال «بيدك الخير» [فذكر الخير] دون الشر؟ قلت: لأنَّ الكلامَ إنما وقع في الخير الذي يسوقُه إلى المؤمنينَ وهو الذي أنكرته الكَفَرةُ وقال: بيدك الخير تؤتيه أولياءكَ على رغم من أعدائك، ولأنَّ أفعالَ الله تعالى كلها

---

(١) الميم في «اللهم» عند الفراء هي من قوله: يا الله أمّنا بخير، وانظر خزانة الأدب ١ : ٣٤٥.

(٢) ق: شذوذ.

(٣) ق: لنزع.

(٤) الكشاف ١ : ٤٢٢.

من نافعٍ وضارّ صادر عن الحكمة والمصلحة فهو خير كله انتهى كلامه. وهذا يدافع آخره أوله لأنه ذكر السؤال ثم اقتصر على ذِكْرِ الخيرِ دون الشر وأجاب بالجوابِ الأول وذلك يدل على أنَّ بيده تعالى الخير والشر وإنما كان اقتصاره على الخير لأنَّ [٧٨/ أ] الكلام إنما وقع فيما يسوقُه تعالى من الخير للمؤمنين فناسبَ الاقتصار على ذِكرِ الخير فقط، وأجاب بالجواب الثاني وذلك يدل على أنه تعالى جميع أفعاله خير ليس فيها شرّ، وهذا الجواب ينافي الأول.

﴿تُولِجُ﴾ الولوجُ: الدخولُ، وهو هنا كناية عن أنَّ ما نقصَ من الليل زِيْدَ في النهار، وما نقص من النهار زيد في الليل. وذكروا اختلافاً كثيراً في الحي والميت، والذي نختاره أنه أُريدَ به التوالد فيخرج الذي قامت به حياة من الميت وهو الذي يأتي عليه الموتُ ويؤولُ إليه، فيكون هذا مجازاً باعتبار المآل، ويخرج الميت الذي هو سيموت - وهذا مجاز - من الحَيِّ الذي قامت به حياة. وظاهره التوالدُ الإنسانيُّ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ﴾ فأتى بـ«من» التي تطلق على العقلاء؟.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (٢٨)﴾.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: بالمعاملة الحسنة في الأفعال لقرابةٍ أو صداقة، وأما بالقلب فمنهيٌّ عنه ولا يصدرُ ذلك عن مؤمنٍ؛ بل المؤمنُ يوالي المؤمنَ بالمودَّةِ في الأفعالِ وبالقلب. ثم توعّد تعالى بقوله ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: موالاة الكفار ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي: هو بريء من الله

تعالى. قال ابن عطية[١]: «فليس من الله في شيء» معناه في شيء مرضيٍّ على الكمالِ والصواب، وهذا كما قال النبي ﷺ: «من غشنا فليس منّا»[٢]. وفي الكلامِ حذفُ مضافٍ تقديرهُ: فليس من القرب إلى الله والتزلُّف ونحو هذا. وقوله «في شيء» هو في موضعِ نصبٍ على الحال من الضمير الذي في قوله «ليس من الله» انتهى.

هذا الكلام مضطرب لأن تقديره: فليس من التقرب إلى الله، يقتضي انْ لا يكون [«في شيء»] خبراً فيبقى «ليس» على قوله لا يكون لها خبر وذلك لا يجوز. وتشبيهه بقوله صلى الله عليه وسلم: «من غشنا فليس منّا» ليس بجيّدٍ لأن «منا» خبر «ليس» وتستدل به الفائدة، وفي الآية ليس كذلك بل الخبر «في شيء» فليس الحديث كالآية، وكذلك قوله[٣]: **[من الوافر]**

إذا حاولتَ في أَسَدٍ فجوراً ... فإني لستُ منك ولستَ منّي

وقرىء: لا يتخذ بالرفع في الذال على النفي والمراد به النهي. وفي قوله: «فليس من الله» محذوف تقديره: مِنْ ولايةِ اللهِ في شيء.

و﴿ **مِن دُونِ** ﴾ متعلق بقوله «لا يتخذ» والمعنى: من مكان دون مكان المؤمنين.

﴿ **إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ** ﴾ استثناء مفرغ من المفعول [له] والمعنى: لا يتخذ مؤمنٌ كافراً لشيءٍ من الأشياء إلا لسبب التقيّة فيجوز إظهار الموالاةِ باللفظِ والفِعل دونَ ما ينعقد عليه القلب. وقال ابن عباس: التقيةُ هنا المداراةُ ظاهراً،

(١) المحرر الوجيز ٢: ٣٨٠.
(٢) صحيح الجامع الصغير ٥: ٣٢٥.
(٣) البيت للنابغة في ديوانه ص١٩٩.

وقال: يكون مع الكفار أو بين أظهرهم فيتَّقيهم بلسانِه ولا مودَّة لهم في قلبِه. و«تتقوا» خطابٌ وهو التفات لأنه خرج من الغيبة إلى الخطاب ولو جاء على نظم الأول لكان: إلا أنْ يتقوا، بالياء المعجمة من أسفل. وهذا النوعُ في غايةِ الفصاحة لأنه لما كان المؤمنون نُهوا عن فِعْلِ ما لا يجوز جعل ذلك في اسم غائب فلم يواجهوا بالنهي، ولما وقعت المسامحةُ والإذنُ في بعضِ ذلك وُجِهُوا بذلك إيذاناً بِلُطْفِ الله بهم وتشريفاً بخطابه إياهم.

وقرىء: تقاة وتقية. وأصل «تقاة» وقية أبدلت الواو فيها تاءً. وهما مصدران جاءا على غيرِ المصدرِ، لأنه لو جاء على «تتقوا» لكان اتّقاءً. وتجويز أبي علي أن يكون «تقاة» جمعاً لتقيّ فيكون نصبه على الحال المؤكدة بعيدٌ لأنه يكون مثل كميّ وكماة وهو شاذ، وقياس تقيّ أن يقال أتقياء كغني وأغنياء. وقال الزمخشري[1]: إلاَّ أنْ تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتّقاؤه. فنصب «تقاة» على أنه مفعول به ويدل على المصدرية قوله تعالى ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران].

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ[٧٨/ب] ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ قال ابن عباس: بَطْشَهُ.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: الصيرورة والمرجع فيجازيكم إن ارتكبتم موالاتهم بعد النهي.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ

---

(١) الكشاف ١: ٤٢٢.

لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا﴾ الآية، تقدم تفسيرُ نظيرها في البقرة[1]. والمعنى أنه تعالى مُطَّلع على خفايا الأمور وجلاياها ومرتب عليها الثواب والعقاب. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ذكر عموماً بعد خصوص وختمها بسعةِ قدرته تعالى.

«يوم تجد» يضعف نصبه بقوله «ويحذركم» لطول الفصل، هذا من جهة اللفظ وأما من جهة المعنى فلأنَّ التحذيرَ موجود واليوم فلا يصحّ له العمل فيه. ويضعف انتصابه بـ«المصير» للفصل بين المصدر ومعموله. ويضعف نصبه بـ«قدير» لأن قدرته على كل شيء لا تختص[2] بيوم [دون يوم] بل هو تعالى متصف بالقدرة دائماً. وأما نصبه بإضمارِ فعلٍ فالإضمار على خلاف الأصل، وهذه أقوال للمعربين.

وقال الزمخشري[3]: «يوم تجد» منصوب بـ«تود» والضمير في «بينه» [لليوم] أي: يوم القيامة حين تجدُ كُلُّ نفس خيرها وشرّها حاضرين تتمنى لو أن بينها وبين ذلك اليوم وهو له أمداً بعيداً انتهى هذا التخريج. والظاهر في بادىء النظر حسنه وترجيحه إذْ يظهر أنه ليس فيه شيء من مضعفات الأقوال السابقة لكن في جواز هذه المسألة ونظائرها خلاف مذكور في النحو.

وأجاز الزمخشري وابن عطية أن تكون «ما» موصولة مبتدأة وخبرها «تود» وبدأ بذلك [أبو البقاء] واتفقا على أنه لا يجوز أن يكون «وما عملت من

---

(١) انظر تفسير الآية ٢٨٤ من البقرة.

(٢) ق: تخص.

(٣) الكشاف ١ : ٤٢٣.

سوء» شرطاً، قال الزمخشري[١]: لارتفاع [«تود»]، وقال ابن عطية[٢]: لأن الفعل مستقبل مرفوع [والشرط] يقتضي جزمه اللهم إلا أن يقدر في الكلام محذوف أي: فهي تودّ وفي ذلك ضعف انتهى كلامه.

وظهر من كلامهما امتناع الشرط لأجل رفع «تود» وهو في الكلام جائز مسموع من العرب، لكن امتناعه هنا لغير ذلك وهو أن ارتفاعه على مذهب سيبويه من أن النية بالمرفوع التقديم، ويكون إذ ذاك دليلاً على الجواب لا نفس الجواب فنقول: إذا كان «تود» منوياً به التقديم أدّى إلى تقديم المضمر على ظاهره في غير الأبواب المستثناة في العربية، ألا ترى أنَّ الضمير في قوله «وبينه» عائد على اسم الشرط الذي هو «ما» فيصير التقدير: تود كل نفس لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ما عملت من سوء، فيلزم من هذا التقدير[٣] تقدم المضمر على الظاهر وذلك لا يجوز. فإن قلت: لِمَ لا يجوز ذلك والضمير قد تأخّر عن اسم الشرط وإن كانت نيته[٤] التقديم فقد حصل عود الضمير على الاسم الظاهر قبله، وذلك نظير: ضرب زيداً غلامه، فالفاعل رتبته التقديم ووجب تأخيره لصحة عود الضمير؟.

فالجواب أن اشتمال الدليل على ضمير اسم الشرط يوجب تأخره عنه لعود الضمير، فيلزم من ذلك اقتضاء جملة الشرط لجملة الدليل، وجملة الشرط إنما تقتضي جملة الجزاء لا جملة دليله، ألا ترى أنها ليست بعاملة في جملة الدليل بل إنما تعمل في جملة الجزاء، وجملة الدليل لا موضع لها من

---

(١) انظر الكشاف ١: ٤٢٣.

(٢) المحرر الوجيز ٢: ٣٨٤.

(٣) ق: التقديم.

(٤) ق: بنيّة.

الإعراب. وإذا كان هذا تدافع الأمر لأنها من حيث هي جملة دليل لا يقتضيها فعل الشرط، ومن حيث عود الضمير على اسم الشرط اقتضتها فتدافعا، وهذا بخلاف: ضرب زيداً غلامُه وهي[1] جملة واحدة والفعل عامل في الفاعل والمفعول معاً فكل واحد منهما يقتضي صاحبه ولذلك جاز عند بعضهم: ضرب غلامها هنداً لاشتراك[2] الفاعل المضاف للضمير والمفعول الذي عاد عليه الضمير في العامل، وامتنع: ضرب غلامها جار هند لعدم الاشتراك في العامل، فهذا فرق ما بين المسألتين ولا يحفظ من لسان العرب: أود لو أني أكرمه أياً ضربتْ [٧٩/أ] هندٌ، لأنه يلزم منه تقديم الضمير على مفسّره في غير المواضع التي ذكرها النحويون فلذلك لا يجوز تأخيره.

وقرىء: من سوء ودّت، فعلى هذا يجوز أن تكون «ما» شرطية مفعولة بـ«عملت» ومبتدأ على مذهب الفراء والضمير العائد محذوف أي عملَتْه لأنه يجيز ذلك في فصيح الكلام. وفي الكلام حذف تقديره: محضراً تسرّ به ومن سوء محضراً، حذف «تسرّ به» من الأول و«محضراً» من الثاني والمعنى: من سوء محضراً تكرهه.

وعبّر عن فرط الكراهة بقوله: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾. و«لو» على قول الجمهور حرف لما كان سيقع لوقوع غيره وجوابها محذوف تقديره: لسرّت به. ومفعول «تود» محذوف تقديره: تودّ تباعد ما بينهما. ومن ذهب إلى أن «لو» مصدرية بمعنى أنّ فيبعد لأن «أنّ» ومعموليها[3] في

---

(١) ق: هي.

(٢) ق: لاشتراكها.

(٣) ق: ومعمولها.

تقدير مصدر فيكون حرف مصدري دخل على حرف مصدري. وقوله «أمداً بعيداً» أي: غاية طويلة «ويحذركم الله نفسه»[١] كرر التحذير للتوكيد والتحريض على الخوف من الله بحيث يكونون ممتثلي أمره ونهيه. «والله رؤوف بالعباد» لما ذكر صفة التخويف وكررها كان ذلك مزعجاً للقلوب ومنبّهاً على إيقاع المحذور مع ما قرن بذلك من اطلاعه على خفايا الأعمال وإحضاره لها يوم الحساب، وهذا هو الاتصاف بالعلم والقدرة اللذين يجب أن يحذر لأجلهما[٢]. وذكر صفة الرحمة ليطمع في إحسانه وليبسط الرجاء في إفضاله فيكون ذلك من باب ما إذا ما ذكر يدل على شدة الأمر ذكر ما يدل على سعة الرحمة كقوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ١٦٧﴾ [الأعراف] وتكون هذا الجملة أبلغ في الوصف من جملة التخويف لأن جملة التخويف جاءت بالفعل الذي يقتضي المطلق ولم يتكرر فيها اسم الله تعالى إذ الوصف متحمل ضميره تعالى، وجاء المحكوم به على وزن فعول المقتضي للمبالغة والتكثير، وجاء بأخص ألفاظ الرحمة وهو «رؤوف» وجاء متعلّقه عاماً ليشمل المخاطب وغيره، وبلفظ «العباد» ليدل على الإحسان التام لأن المالك محسن لعبده وناظر له أحسن نظر إذ هو ملكه.

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ خطاب لمن ادعى محبة الله تعالى، ومحبتهم له تعالى هو بامتثال [أمره] واجتناب نهيه. ومعنى «فاتبعوني» أي: اتبعوا ما جئتُ به من عنده تعالى. ومعنى «يحببكم» أي: يعاملكم بالإحسانِ على طاعته، ويغفر لكم ما سلف من ذنوبكم. وقرىء: تحبون ويحببكم بفتح التاء

---

(١) سبقت العبارة في الآية ٢٨.

(٢) ق: لأجلها.

والياء وهما من حبّ. وقرىء: يحبكم[1] الله بفتح الياء والإدغام. وقرىء: فاتبعونّي بشدّ النون، ألحق فعل الأمر نون التوكيد وأدغمها في نون الوقاية ولم يحذف الواو وشبّهها «بأتحاجّونّي»[2] وهذا توجيه شذوذ.

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ جعل طاعةَ الرسول طاعةً لله[3] كما قال ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴿٨٠﴾﴾ [النساء]. و«تولّوا» يجوز أن يكون مضارعاً حذفت منه التاء أي فإن تتولوا، وهو خطاب مناسب لقوله «أطيعوا». ويجوز أن يكون ماضياً والمراد به الاستقبال فيكون انتقالاً من خطاب في «أطيعوا» إلى غيبة في «تولّوا» إهانة لهم. ونفى محبته تعالى للكافرين وهو إشعار بالعليّة فلا يندرج فيه المؤمنُ العاصي.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ ﴾ الآية. مناسبتها لما قبلها أنه لما ذكر أنه لا يحب الكافرين ذكر من اصطفاه تعالى فبدأ بآدم وهو أبو البشر وأولهم وأتْبَعَهُ بنوحٍ

---

(١) ق: يحبيكم.

(٢) ق: بأتحاجّون.

(٣) ق: الله.

عليه السلام [وهو اسم أعجمي] وهو آدم الثاني إذ البشر كلهم من ولده[١] سام وحام ويافث، ثم ذكر آل إبراهيم فاندرج فيهم مَنْ كان منهم من الأنبياء وخصوصاً محمد ﷺ، ثم آل عمران، وعمران اسم أعجمي. واستطرد إلى قصة مريم وعيسى ابنها عليهما السلام. وعمران هذا هو ابن ماثان من ذرية سليمان وهو[٢] أبو مريم ويدل عليه تكراره في قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَتِ [٧٩/ ب] ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ وصار نظير تكرار الاسم في جملتين فيسبق الذهن إلى أن الثاني هو الأول نحو: أكرم زيداً إن زيداً رجل صالح.

وانتصب «ذرية» على أنه بدل مما قبله، وقيل على الحال. ومعنى «من بعض» منشعبة ترجع إلى أصل واحد. وقرىء: ذرية بكسر الذال. والظاهر أن الختم بقوله «سميع عليم» مناسب لآل إبراهيم وآل عمران، لأن إبراهيم دعا بدعوات كثيرة تقبلها الله منه وكذلك امرأة عمران في قصة مريم.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ اسمها حنّة بالحاء المهملة وشدّ النون، وهي بنت فاقود وقبرها بظاهر دمشق. قيل: ولم يُسمّ بحنة في العرب. وقال الحافظ عبد الغني بن سعيد: حنة أم عمرو يروي حديثها ابن جريج ﴿لَكَ﴾ أي: لعبادتك ولخدمتك ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ ما: مبهمة يحتمل أن يكون ذكراً أو أنثى[٣]، وإن كان الغالب أن يكون المنذور ذكراً ولذلك قالت «محرراً» بصيغة الذكر ومعناه مخلصاً للعبادة والخدمة.

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ والتقبُّل أخذُ الشيء على الرضى به، إنك أنتَ السميع آل

---

(١) ق: ولد.

(٢) كتبت في الحاشية.

(٣) ق: وأنثى.

لدعائي العليمُ بنيّتي. و«إذ» منصوبة باذكر، وقيل بقوله «وآل عمران» على تقدير: واصطفى آل عمران، فيكون من عطف الجمل لا من عطف المفردات. وقال الزمخشري تابعاً للطبري[١]: «سميع عليم» لقول امرأة عمران ونيّتها، و«إذ» منصوب [به] انتهى. ولا يصح ذلك لأن قوله «عليم» إما أن يكون خبراً بعد خبر أو وصفاً لقوله «سميع»، فإن كان خبراً فلا يجوز الفصل به بين العامل والمعمول لأنه أجنبي منهما، وإن كان وصفاً فلا يجوز أن يعمل «سميع» في الظرف لأنه قد وصف [واسم الفاعل وما جرى مجراه إذا وصف] قبل أخذ معموله لا يجوز له إذ ذاك أن يعمل على خلاف لبعض الكوفيين في ذلك، ولأن اتصافه تعالى بـ«سميع عليم» لا يختص ولا يتقيد بذلك الوقت. وانتصب «محرراً» على أنه حال من «ما» والعامل فيه «نذرت» ويكون حالاً تقديرية، ويبعد نصبه على الحال ويكون العامل فيه العامل في «بطني»[٢] وهو الاستقرار، وكذلك يبعد انتصابه [انتصاب المصدر] على أن معنى «نذرتُ» حررّتُ.

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾ أي: النسمة، وأنَّث على معنى «ما». «قالت رب» على معنى التحسُّر على ما فاتها من أن يكون المولود ذكراً يصلح للخدمة. «وضعتها» أي: وضعت النسمة. «أنثى» نصب على الحال. وقال الزمخشري[٣]: فإن قلت: كيف جاز انتصاب «أنثى» حالاً من الضمير في «وضعتها» وهو كقولك: وضعت الأنثى أنثى؟ قلت: الأصل: وضعتُه أنثى،

---

(١) الكشاف ١ : ٤٢٤.

(٢) ق: بطنها.

(٣) الكشاف ١ : ٤٢٥.

وإنما أنّث لتأنيث الحال لأن الحال وذا[(١)] الحال لشيء واحد، كما أنَّث الاسم في ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ ﴿٢٨﴾﴾ [مريم] لتأنيث الخبر. ونظيره قوله تعالى ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء] انتهى. وآل قوله إلى أن «أنثى» تكون حالاً مؤكدة ولا يخرجه تأنيثه لتأنيث الحال عن أن تكون الحال مؤكدة. وأما تشبيهه ذلك بقوله: من كانت [أمك]، حيث عاد الضمير على معنى «من» فليس ذلك نظير «وضعتها أنثى» لأن ذلك حمل على معنى «من» إذ المعنى: أية امرأة كانت أمك أي كانت هي أي المرأة أمك، فالتأنيث ليس لتأنيث الخبر[(٢)] وإنما هو من باب الحمل على معنى «من». ولو فرضنا أنه تأنيث للاسم لتأنيث الخبر لم يكن نظير «وضعتها أنثى» لأن الخبر تخصص بالإضافة إلى الضمير، وقد استفيد من الخبر ما لا يستفاد من الاسم بخلاف «أنثى» فإنه لمجرد التأكيد. وأما تنظيره بقوله «فإن كانتا اثنتين» فيعني أنه ثنّى الاسمَ لتثنيةِ الخبر وتخريجه مشكل وسيأتي الكلام عليه في موضعه.

وقرىء: وضعتُ بضم التاء وهو من كلامها وكأنها خاطبت نفسها. وقرىء بإسكان التاء. وليس الذكر الذي طلبته ورجوته مثل الأنثى التي علمها وأرادها وقضى بها. ولعل هذه الأنثى تكون خيراً من الذكر إذ أرادها الله تعالى، سَلَّتْ نفسَها بذلك. قال ابن عطية[(٣)]: كالأنثى في امتناع نذره [٨٠/ أ] إذ الأنثى تحيضُ ولا تصلح لصحبةِ الرهبان وقاله بعض التابعين[(٤)]. وبدأت بذكر الأهم في نفسها وإلاّ فسياقُ الكلام أن تقول: وليست الأنثى

(١) ق: وذو.

(٢) ق: لتأنيث أهلها الخبر.

(٣) المحرر الوجيز ٢ : ٣٩٣.

(٤) مثل قتادة والربيع والسدي وعكرمة، انظر المرجع السابق.

كالذكر، فتضع[١] حرف النفي مع الشيء الذي عندها وانتفت عنه صفات الكمال للغرض المراد انتهى. وعلى هذا الاحتمال تكون الألف واللام في «الذكر» للجنس.

وقرىء: وضعتِ بكسر التاء خاطبها الله تعالى بذلك أي: أنك لا تعلمين قدر هذه الموهوبة وما علمه الله تعالى من عِظَمِ شأنها وعُلُوِّ قَدْرها. ومعنى «مريم» في كلامهم: العابدة، تفاءلت بذلك لتكون عابدة لله تعالى مطيعة له، وخاطبت الله تعالى لترتب الاستعاذة بالله لها ولذرّيتها.

وقال الزمخشري[٢]: وهي - يعني[٣] «وإني سميتها مريم» [على قراءة من قرأ: وضعت بسكون التاء أو بكسرها] - معطوفة على «إني وضعتها أنثى» وما بينهما جملتان معترضتان كقوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة] انتهى كلامه. ولا يتعين ما ذكر من أنهما جملتان معترضتان[٤] لأنه لا يحتمل أن يكون «وليس الذكر كالأنثى» في هذه القراءة من كلامها ويكون المعترض جملة واحدة، كما كان من كلامها في قراءة من قرأ: وضعتُ بضم التاء. وتشبيه الزمخشري هاتين الجملتين اللتين اعترض بهما بين المعطوف والمعطوف عليه على زعمه بقوله[٥] «وإنه لقسم لو تعلمون عظيم» [ليس] تشبيهاً مطابقاً للآية لأنه لم يعترض جملتان بين طالب ومطلوب، بل اعترض بين القَسَم الذي هو ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ [الواقعة] وجوابه

(١) ق: فيضع.
(٢) الكشاف ١: ٤٢٥.
(٣) ق: تعني.
(٤) ق: معترضان.
(٥) ق: لقوله.

الذي هو ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة] بجملة واحدة وهي قوله «وإنه لقسم لو تعلمون عظيم» لكنه جاء في جملة الاعتراض بين بعض أجزائه وبعض اعتراض بجملة وهو قوله «لو تعلمون» اعترض به بين المنعوت الذي هو «لقسم»[1] وبين نعته الذي هو «عظيم» فهذا اعتراض في اعتراض وليس فصلاً بجملتي اعتراض كقوله «والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى».

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ القبول مصدر بفتح القاف وهو مصدر قبل. جعل تقبّل بمعنى قبل كعجب وتعجّب. والباء الظاهر أنها زائدة أي فقبلها قبولاً حسناً، وقيل: الباء ليست بزائدة فالقبول اسم لما يقبل به الشيء كالسعوط. «وأنبتها نباتاً حسناً» عبارة عن حسن النشأة والجودة في خَلْق وخُلُق وإنشائها[2] على الطاعة والعبادة. قال ابن عباس: لما بلغت تسع سنين صامت النهار وقامت الليل حتى أربت على الأحبار[3]. وقيل: لم تجر عليها خطيئة. وانتصب «نباتاً» على أنه مصدر على غير المصدر أو مصدر لفعل محذوف أي فنبتت نباتاً حسناً.

وقرىء: وكفِلها زكريا أي ضمّها إليه حالة التربية. وقرىء: وكفّلها زكريا أي كفّلها الله تعالى. ويقال كفِل يكفَل كعلم يعلم، وكفَل يكفُل كقتل يقتل. وقرىء: فتقبَّلْها وأنبِتْها وكفِّلْها على الأمر، وربَّها على النصب نداء منها فتكون الجمل إذ ذاك من كلام أم مريم، دعت ربها بهذه الدعوات. وقرىء: زكريا بالمد والقصر. وسيأتي الكلام في سبب تكفيل زكريا مريم.

---

(١) ق: أقسم.

(٢) ق: وأنشأها.

(٣) ق: الأخيار.

قال ابن إسحاق: كان زكريا تزوج خالتها لأنه وعمران كانا سلفين على اختين فولدت امرأة زكريا يحيى، وولدت امرأة عمران مريم. وزكريا نبي معصوم وهو ابن أذن بن مسلم من ولد سليمان عليهما السلام. قال ابن إسحاق: ضمّها إلى خالتها أم يحيى حتى إذا شبّت وبلغت مبلغ النساء بنى لها محراباً في المسجد وجعل بابه في وسطه لا يُرقى إليه إلا بسلّم مثل باب الكعبة ولا يصعد إليها غيره. «كلما» تدل على التكرار، وتقدم الكلام عليها في البقرة[1]، والعامل فيها فعل ماضٍ وقد جاء مضارعاً قليلاً في قول الشاعر[2]: [من الطويل]

علاه بسيفٍ كلما هزّ يقطع

أي قطع. وقبل هذا الكلام محذوف تقديره: فلما صلحت للعبادة احتجبت عن أهلها في مكان بعيد منفردة للعبادة، وكان زكريا ينتابها[3] [٨٠/ب] إذ كان هو كافلها. والرزق هنا قيل: هو فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ولم يعين في القرآن ولا صحَّ تعيينه في السنّة. ولما استغرب زكريا ذلك قال ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أي: من أين لك هذا فأجابته بقولها: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: هو مسبّب الأشياء ومُوجدها. وجوابُها سؤالَه ظاهره أنه لم يأتِ به آدميٌّ ألبتّة بل هو رزقٌ يتعهّدُني به الله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ ظاهره أنه من كلام مريم عليها السلام.

---

(١) انظر تفسير الآية ٨٧ من البقرة.

(٢) البيت للفرزدق في ديوانه ١ : ٤١٧، وصدره:

إذا حارب الحجاج أي منافقٍ

(٣) غير مقروءة في ق.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ
الدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا
بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ
وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ
اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا
وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿هُنَالِكَ﴾ اسم إشارة للمكان البعيد وقيل: وقد يستعمل للزمان. ولما كان المحرابُ مكان عبادة وكرامة دعا زكريا فيه بأنْ يهبَ اللهُ له ذريةً طيبة، ولما كان دعاؤه على سبيل ما لا تسبّب فيه لكبر سنّه وعقر امرأته فكان وجوده كالوجود بغير سبب أي هبة محضة منسوبة إلى الله تعالى بقوله ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من جهتك بمحض[1] قدرتك من غير توسُّط سبب. وختم بقوله ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾ أي: مُجِيبُه كما ختمتْ أمُّ مريم دعاءها في قولها «فتقبل[2] مني إنك أنت السميع العليم». وطيب الذرية كونها صالحة خالصة لعبادة الله كما جاءت مريم كذلك.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ظاهره[3] أنها باشرته بالنداء ليلقي سمعه إلى ما تكلّمه الملائكة وتخبره من تبشير الله تعالى له بالهبة، وأنه تعالى قبل دعاءه في ذلك. ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ﴾ جملة حالية، نادته حالة التباسه بهذه العبادة العظيمة وهي الصلاة في المكان المخصوص بالعبادة «بيحيى» أي: بولادة يحيى

---

(١) ق: لمحض.

(٢) ق: في قوله فقبل. الآية ٣٥ السابقة.

(٣) ق: ظاهر.

منك[١]. و«يحيى» علم والظاهر أنه أعجمي لأنه ليس من لسانهم. وقرىء: فناداه ونادته. وقرىء: إن الله بكسر الهمزة على تقدير قولٍ محذوف في مذهب أهل البصرة، وفي[٢] إجراء النداء مجرى القول في مذهب الكوفيين، وبفتحها على تقدير الباء أي بأن الله.

وقرىء: يَبْشُرك [مخفف الشين، ويبشّرك] مضارع بشّر بتشديد الشين، ويُبْشِر مضارع أبشر بالهمزة. ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ﴾ هي عيسى عليه السلام. وأطلق عليه كلمة لأنه ناشىء عن لفظ كن المستعار لسرعة التكوين. وقرىء: [بكِلْمة] بكسر الكاف وسكون اللام في جميع القرآن. «وسيداً» السيد المطاع الفائق أقرانه. والحَصُور: الذي لا يأتي النساء مع القدرة على ذلك.

وترتّبت هذه الأوصاف أحسنَ ترتيبٍ فذكر التصديقَ أولاً وهو الإيمان [ثم السيادة] وهو كونه فاق الناس في الخصال الحميدة، ثم الحصر عن النساء اللاتي هنّ ملاذ الرجال، ثم النبوة التي هي أشرف الأوصاف. وتقدم الكلام في الصلاح ما هو في البقرة في قوله ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة]. وصفات يحيى هذه مقابلة لصفات مريم: اشتركا في التصديق وفي السيادة [إذ] كان سيد بني إسرائيل وكانت سيدة نساء العالمين، وكان لا يأتي النساء وكانت هي عذراء، وقيل إنها كانت نبيّة لقوله تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴿١٧﴾﴾ [مريم].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ تقدم أنَّ الملائكة بشَّرته بيحيى فسأل عن كيفية ذلك أي: أيكون ذلك مع كونِنا في سنّ مَنْ لا يولد له [الكبر] عمره، أم ذلك

(١) ق: منكر.

(٢) ق: وهي.

على رجوعنا إلى الشبيبة، فأخبره تعالى أنه يولد لهما على علوٍّ سنّهما من الكبر حتى قيل إن عمره كان مئة سنة وعشرين سنة وعمرها ثماني وتسعين[١] سنة. وقال الزمخشري[٢]: استبعاد من حيث العـادة كما قالت مريم انتهى[٣]. وعلى ما قاله لو كان استبعاداً لما سأله بقوله ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ لأنه لا يسأل إلا ما كان ممكناً لا سيّما الأنبياء عليهم السلام لأن خرق العادة في حقّهم كثير الوقوع.

﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ جملتان حاليتان صُدِّرَت الأولى بالفعل الماضي والثانية [اسمية] لأن بلوغ الكبر مما يتجدد والعقر لا يتجدد. وبلوغه تأثيره فيه، وهو على سبيل المجاز، وفي سورة مريم ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: مثل ذلك الفعل وهو تكوّن الولد من الفاني والعاقر، يفعل الله ما يشاء من الأفعال الغريبة فيكون إخباراً عن الله أنه يفعل الأشياء التي تتعلق بها مشيئته فعلاً مثل ذلك الفعل لا [٨١/أ] يعجزه شيء، بل سبب إيجاده هو تعلق الإرادة سواء كان من الأفعال الجارية على العادة أم من التي لا تجري على العادة، فتكون الكاف في موضع نصب والعامل «يفعل»، وقيل «كذلك الله» مبتدأ وخبر فتكون في موضع رفع، وعلى حذف [مضاف] أي: كذلك صنع الله أو فعله. و«يفعل ما يشاء» جملة مفسّرة للإبهام الذي في اسم الإشارة.

---

(١) ق: ثمانماية وتسعين.

(٢) الكشاف ١: ٤٢٨.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ [مريم].

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ﴾ سؤال عن الجهة التي بها يكون الولد وتتم البشارة. فلما قيل له «كذلك الله يفعل ما يشاء» سألَ علامةً على وقتِ الحمل ليعرف متى يكون العلوق بيحيى.

﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ﴾ الظاهر أنه سأل آية تدلُّ على أنه يُولَدُ له، فأجابه بأنَّ آيته انتفاء الكلام منه مع الناس ﴿ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾. وانتفاء الكلام قد يكون لتكليف به أو بملزومه في شريعتهم وهو الصوم، أو لمنع قهري مدة معينة لآفةٍ تعرضُ في الجارحة أو لغيرِ آفةٍ، قالوا: مع قدرته على الكلام بذكر الله تعالى. قال الزمخشري[1]: ولذلك قال «واذكر ربك» إلى آخره، يعني في أيامِ عجزكَ عن تكليمِ الناسِ وهي من الآياتِ الباهرة انتهى. ولا يتعين ما قاله، لما ذكرناه من احتمالات وجوه الانتفاء، ولأنَّ الأمرَ بالذكر والتسبيح ليس مقيداً بالزمان الذي لا يكلم الناس [فيه] وعلى تقدير تقييد ذلك لا يتعين أن يكون الذكر والتسبيح بالنطق والكلام. وانتصب «ثلاثة أيام» على الظرف لا على المفعول به خلافاً للكوفيين لانتفاء الفعل في جميعها. ودخل في الأيام الليالي، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ ﴾ [مريم].

﴿ إِلَّا رَمْزًا ﴾ ظاهره أنه استثناء منقطع وقيل متصل. والرمز[2] الإشارة بالشفتين أو العين أو الحاجب أو اليد. وقرىء: رُمُزاً[3] بضمتين وهو مصدر جاء على فُعُل. وقرىء: رَمَزاً بفتحتين وهو مصدر كقوله: غلب غَلَباً.

---

(١) الكشاف ١: ٤٢٩.

(٢) ق: وألزموا.

(٣) ق: زمر.

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ الظاهر أنه باللسان. ﴿وَسَبِّحۡ﴾ مفعوله محذوف أي: وسبِّحه. والظاهر أنه أريد بالعشيّ آخر النهار والإبكار أوّله، إذ العشي وقت ارتفاع الأعمال والإبكار وقت ابتدائها. وقرىء: والأبكار بفتح الهمزة جمع [بكر، تقول: آتيك] بكراً أي: بكرة.

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ لما فرغ من قصة زكريا وكان قد استطرد من قصة مريم إليها، رجع إلى قصة مريم. والمقصود تبرئة مريم عليها السلام مما[1] رمتها بها اليهودُ. وفي نداء الملائكة لها باسمها تأنيسٌ لها وتوطئة لما تلقيه إليها. قال الزمخشري[2]: روي أنهم[3] كلّموها شفاهاً معجزة لزكريا عليه السلام وإرهاصاً لنبوة عيسى [عليه] السلام انتهى. [يعني بالإرهاص التقدم والدلالة على نبوته] وهذا مذهبُ المعتزلة لأنَّ الخارقَ للعادةِ عندهم لا يكون على يدِ غير نبيٍّ إلا إن كان في وقت نبي أو انتظار[4] بَعْثِ نبي، فيكون ذلك الخارق مقدمة بين يدي بعثةِ ذلك النبيِّ.

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ قال ابن عباس: طهّرك من دم الحيض. وقال

(١) ق: عمّا.

(٢) الكشاف ١: ٤٢٩.

(٣) ق: أنها.

(٤) ق: انتظر.

الزمخشري[١]: اصطفاكِ أولاً حين تقبّلك من أمّك وربّاكِ واختصك بالكرامة السنيّةِ وطَهّرك مما يستقذر من الأفعال ومما قرفك به اليهود. واصطفاك آخراً على نساءِ العالمين بأنْ وهبَ لك عيسى من غيرِ أبٍ ولم يكن ذلك لأحد من النساء انتهى. وهو كلام حسن.

﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى ﴾ أُمرت بالصلاة فذكر من أركانها القنوت وهو القيام، والسجود وهو وضعُ الجبين على الأرض، والركوع وهو انحناء الظهر. وقدم السجود على الركوع لأنه أقرب ما يكون العبدُ من رَبّه وهو ساجد، والعطفُ بالواو لا يدلُّ على الترتيب الزماني. وقد يكون الركوع في مِلّتهم متأخراً عن السجود.

وقال ابن عطية[٢]: هذه الآيةُ أشَدُّ إشكالاً من قولنا: قام زيد وعمرو، لأن قيام زيد وعمرو ليس له رتبة معلومة، وهذه الآية قد علم أن السجود بعد الركوع فكيف جاءت الواو بعكس ذلك انتهى.

وهذا [٨١/ب] كلام مَنْ لم يمعن النظر في كلام سيبويه! فإنَّ سيبويه [ذكر] أنَّ الواو تكون معها في العطف المعيّة، وتقديم السابق وتقديم اللاحق يحتمل ذلك احتمالات سواء، ولا يترجّح أحد الاحتمالات على الآخر. و«مع» في قوله تعالى «مع الراكعين» تقتضي الصحبة والاجتماع في إيقاع الركوع مع مَنْ يركع. والظاهر التجوز في لفظة «مع» فتكون للموافقة في الفعل فقط لأنها كانت في عبادتها تنفرد من أهلها كما قال تعالى ﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا ﴿١٧﴾ ﴾ [مريم]. وجاء «الراكعين» جمع سلامةويعمُّ المذكرين

---

(١) الكشاف ١ : ٤٢٩.

(٢) المحرر الوجيز ٢ : ٤١٧.

والمؤنثات بالتغليب.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى إخبار الله تعالى باصطفائه آدم وما بعد ذلك من القصص. «ذلك» مبتدأ و«من أنباء» الخبر. و«نوحيه إليك» الضمير المنصوب عائد على الغيب، أي: من شأننا أنْ نُوحيَ إليك بالمغيبات. ولو كان الضمير عائداً على «ذلك» لكان بصيغة الماضي فكان التركيب: أوحيناه إليك لأنَّ الإيحاءَ به قد وقع.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ[1] يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ وروي أن حنّة لما ولدت مريم كَفَّتها في خرقةٍ وحملتها إلى المسجد فوضعتها عند الأحبار أبناء هارون وهم في بيت المقدس كالحَجَبة في الكعبة فقالت لهم: دونكم هذه النذيرةُ فتنافسوا فيها لأنها كانت بنتَ إمامهم وصاحبَ قربانهم. وكان[2] بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم. فقال لهم زكريا: [أنا] أحقُّ بها عندي خالتها، فقالوا: لا حتى نقترع عليها فانطلقوا وكانوا سبعة[3] وعشرين إلى نهر قيل هو نهر الأردن وهو قول الجمهور، وقيل في عين ماء كانت هناك فألقوا فيها أقلامهم فارتفع قلم زكريا ورسبت أقلامهم فكفلها[4] زكريا.

والخطابُ في قوله: «وما كنت» لرسولِ الله ﷺ وهو تقريرٌ وتثبيتٌ أن ما علم من ذلك إنما هو بوحي من الله تعالى. والمعلم[5] به قصتان قصة مريم وقصة زكريا فنبّه على قصة مريم إذ هي المقصودة بالإخبار أولاً، وإنما

---

(١) ق: إن.

(٢) ق: وكانت.

(٣) ق: سبع.

(٤) ق: فتكفَّلها.

(٥) ق: والعلم.

جاءت قصة زكريا على سبيل الاستطراد. ولاندراج [بعض] قصة زكريا في ذكر من يكفل فما[1] خلت من تنبيه على قصته.

ومعنى ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: ما كنت معهم بحضرتهم إذْ يُلقون أقلامهم. ونفى المشاهدة وإنْ كانت منتفية بالعلم ولم يَنْفِ القراءة والتلقّي من حفّاظ الأنباء على سبيل التهكّم بالمنكرين للوحي وقد علموا أنه ليس ممّن يقرأ ولا ممّن[2] ينقل عن الحفّاظ للأخبار، فتعيَّن أن يكون علمه بذلك بوحي من الله تعالى إليه. ونظيره في قصة موسى ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص] ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ[3] ﴿٤٦﴾﴾ [القصص] وفي قصة يوسف ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف] والضمير في «لديهم» عائد على غير مذكور بل على ما دلّ عليه المعنى أي: وما كنت لدى المتنازعين كقوله ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾﴾ [العاديات] أي: بالمكان - والعامل في «إذ» العامل في «لديهم». وقال أبو علي الفارسي: العامل في «إذ»: «كنت» انتهى. ولا يناسب ذلك[4] مذهبه في كان الناقصة لأنه يزعم أنها سلبت الدلالة على الحدث وتجردت للزمان، وما سبيله هذا فكيف يعمل في الظرف لأن الظرف وعاء للحدث، ولا حدث فلا تعمل فيه. والمضارع بعد «إذ» في معنى الماضي أي: إذْ ألقوا أقلامَهم للاستهامِ على مريم.

والظاهر أنها الأقلام التي للكتابة، قيل: كانوا يكتبون بها التوراة فاختاروها للقرعة تبركاً بها. ومعنى الإلقاء الرمي والطرح، ولم يذكر في

---

(١) ق: فلما.

(٢) ق في الموضعين: مما.

(٣) ق: الطهور.

(٤) كتبت في الحاشية.

الآية ما الذي ألقوها فيه ولا كيفيةَ حالِ الإلقاء وكيف خرج قلمُ زكريا.
و«أيهم» مبتدأ وما بعده خبره والجملة في موضع نصب إما على الحكاية بقولٍ محذوف أي: يقولون أيهم يكفل مريم، وإما بعلّةٍ محذوفة أي: ليعلموا أيهم يكفل مريم، وإما بحالٍ محذوفة أي: ينظرون أيهم يكفل مريم، ودلَّ على المحذوف «يلقون أقلامهم».

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ العامل في «إذ» اذْكُرْ، ويبعد أن يكون بدلاً من «إذ» ويكون العامل فيه «يختصمون».

﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ هو عيسى، وتقدم المراد بكلمة في قصة زكريا[1].

﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [٨٢/ أ] الضمير في «اسمه» عائد على الكلمة

(١) انظر تفسير الآية ٣٩ من آل عمران.

على معنى: يبشرك بمكوّن منه أو بموجود من الله. وسمّي[1] المسيح لأنه مسح بالبركة، وأل في «المسيح» للغلبة كهي في الدبران. و«اسمه المسيح» مبتدأ وخبر، وذكر الضمير في «اسمه» على معنى الكلمة ولم يؤنث على اللفظ. و«عيسى» اسم أعجمي بدل من «المسيح» و«ابن مريم» صفة لعيسى. وفي كلام الزمخشري ما[2] يدل على أن اسمه المجموع من قوله «المسيح عيسى ابن مريم» وفيه بُعْدٌ. والمسيح لقب بدىء به لأنه أشهر من عيسى إذْ لا ينطلق على غيره، و«عيسى» قد يقع على غيره. وامتنع «عيسى» من الصرف للعجمة والعلمية وليست ألفه للتأنيث خلافاً لمن قال ذلك. قالوا: وأصله في لسانهم أيسوع.

﴿ وَجِيهًا﴾ فعيل من وَجَهَ أي عظم قدره وجاهه في الدنيا بنبوته وفي الآخرة بعلو درجته.

﴿ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ قال الماوردي: معناه المبالغ في تقريبهم لأن فعّل من صيغ المبالغة يقال: قرّبه يقرّبه إذا بالغ في تقريبه انتهى. وليس «فعّل» هنا من صيغ المبالغة لأن التضعيف هنا للتعدية، إنما يكون للمبالغة في نحو: خرّجت زيداً وموّت الناس. و«من المقربين» معطوف[3] على قوله «وجيها» تقديره: ومقرباً من جملة المقربين، والتقريب بالمكانة والشرف لا بالمكان.

﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ وعطف «ويكلم» وهو حال أيضاً على «وجيها»، ونظيره ﴿ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ ١٩ ﴾ [الملك] أي: وقابضات. وجاء

---

(١) ق: ويسمى.

(٢) ق: بما. وانظر الكشاف ١ : ٤٣٠.

(٣) ق: معطوفاً.

بالمضارع الذي يقتضي التجدد و«وجيها» بالاسم الذي يقتضي الثبوت. و«كهلاً» معطوف على «في المهد» أي كائناً في المهد وكهلاً، يشير [إلى] أنَّ تكليمه في المهد يكون كتكليمه كهلاً، وفيه إشارةٌ إلى أنه يعيش إلى حدّ الكهولة.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ استفهام معناه التعجب لأن وجود ولد من غير ذكر لم يعهد وهو أغرب من قصة زكريا. ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ جملة في موضع الحال. وقد فهمت في نسبته لها من قوله «ابن مريم» أنه لا والد[1] له فاستغربت ذلك وتعجبت منه. ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ تقدم إعرابه في قصة زكريا[2]، وهناك «يفعل» لأنه ممكن إذ هو بين ذكر وأنثى مسنّين، وهنا «يخلق» لأنه لم يعهد مولود من غير ذكر فجاء بلفظ «يخلق» الدال على الاختراع الصرف من غير مادة ذكر.

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ تقدم الكلام عليه في سورة البقرة[3].

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ الكتاب هنا مصدر [كتب] قال ابن عباس: الخطّ باليد. و«التوراة» هي المنزلة على موسى. و«الإنجيل» على عيسى. وقرىء: ونعلّمه بالنون والياء.

﴿وَرَسُولًا﴾ منصوب بإضمار فعل أي ونجعله رسولاً. وأجاز الزمخشريُّ وابنُ عطية أن يكون معطوفاً على «وجيهاً» و«يعلّمه» فيكون حالاً، التقدير: ومعلماً الكتاب، فهذا كله عطف بالمعنى على قوله: «وجيهاً» وهو ضعيف

---

(١) ق: ولد.

(٢) في قوله ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران].

(٣) انظر تفسير الآية ١١٧ من البقرة.

لطول الفصل بين المتعاطفين. وأجاز ابن عطية أن يكون منصوباً على الحال من الضمير المستكن في «ويكلّم» فيكون معطوفا على قوله «وكهلاً» أي: ويكلم الناس طفلاً وكهلاً ورسولاً إلى بني إسرائيل. وهو بعيدٌ جداً لطولِ الفصل بين المتعاطفين. وقوله وقول الزمخشري عُجمةٌ قبيحةٌ لا تصدر من متمكّنٍ في الفصاحة.

وأجاز الزمخشري أن يكون منصوباً على إضمار فعل من لفظ رسول ويكون ذلك الفعل معمولاً لقول عيسى، التقدير: ويقول أرسلت رسولاً إلى بني إسرائيل. واحتاج إلى هذا التقدير كله لقوله[1]: «أني قد جئتكم بآية» وقوله: «ومصدقاً لما بين يدي» إذ لا يصحّ في الظاهر حَمْلُه على ما قبله من المنصوباتِ لاختلاف الضمائر، لأنَّ ما قبله من ضمير غائب وهذان ضميرا متكلم فاحتاج إلى هذا الإضمار لتصحيح المعنى. قال[2]: وهو من المضائق التي فيها إشكال.

وهذا [٨٢/ب] الوجهُ ضعيفٌ إذْ فيه إضمارُ شيئين: القول ومعموله الذي هو: أرسلت، والاستغناء عنهما باسم منصوب على الحال المؤكدة. إذ يفهم من قوله: وأرسلت، أنه رسول، فهي على هذا التقدير حال مؤكدة.

وقرأ اليزيدي: ورسولٍ بالجرِّ، وخرّجه الزمخشري على أنه معطوف على «بكلمة منه». وهي قراءة شاذة في القياس لطول البُعْدِ بين المعطوف والمعطوف عليه.

وقرىء: أني بفتح الهمزة معمولاً لقوله «ورسولا» أي: ناطقاً بأني قد

(١) ق: كقوله.

(٢) الكشاف ١ : ٤٣١.

جئتكم، وبكسر الهمزة أي قائلاً إني قد جئتكم بآية من ربكم وهي العلامة. ثم أخذ في تفسيرها فقال «أني أخلق لكم من الطين» أي: أُصَوِّرُ «كهيئة الطير» أي: مثل صورته. وقرىء: أني أخلق بفتح الهمزة وكسرها. وقوله: «من الطين» تقييد بأنه لا يوجد من العدم الصرف بل ذكر المادة التي تشكل[1] منها صورة الطير. وقرىء: كهيّة بكسر الهاء وياء مشددة. وتواطأ النقل عن المفسرين أنَّ الطائر الذي خلقه عيسى كان يطيرُ ما دام الناسُ ينظرون إليه فإذا غابَ عنهم سقط ميتاً ليتميز فِعْلُ المخلوقِ عن فعل الخالق.

والظاهر أن هذه الخوارق كلها تفسير للآية التي جاء بها دالّة على صحة رسالته وأن ذلك ليس باقتراح منهم. و«الطير» قيل: هو الخفاش وهو غريب الشكل والوصف. و«الأكمه» المولود أعمى يقال منه: كمه يكمه. والبرص داء معروف وهو بياض يعتري الجلد يقال منه: برص فهو أبرص.

﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ لم يذكر تعيين مَنْ أحياه وذكر المفسرون ناساً الله أعلم بصحة ذلك.

﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ﴾ كان عليه السلام ينبئهم بتعيينِ ما أكلوا وتعيين ما ادَّخَرُوا. وأتى بهذه الخوارق الأربعة مصدَّرةً بالمضارع الدَّال على التجدد والحالة الدائمة، وبدأ بالخلق إذْ هو أعظم في الإعجاز وثنّى بإبراء الأكمه والأبرص وأتى ثالثاً بإحياء الموتى وهو خارق شاركه فيه غيره. وكَرَّرَ «بإذن الله» دَفْعاً لمن توهَّم فيه الإلهية، وكان «بإذن الله» عقب قوله «أني أخلق» وعطف عليه «وأبرىء الأكمه والأبرص»، ولم يذكر «بإذن الله» اكتفاء به في الخارقِ الأعظم. وعقب قوله «وأحيي الموتى» بقوله «بإذن الله» وعطف عليه

---

(١) ق: يشكل.

«وأنبئكم» ولم يذكر فيه «بإذن الله» لأنَّ إحياءَ الأمواتِ أعظم من الإخبار بالمغيبات فاكتفى به في الخارق الأعظم أيضاً. فكلُّ واحدٍ من الخارقين الأعظمين قُيِّد بقوله «بإذن الله» ولم يحتج إلى ذلك فيما عطف عليهما اكتفاء بالأول إذْ كل هذه الخوارق لا تكونُ إلا بإذنِ الله. وقرىء: وما تذدخرون[1] بفك الذال عن الدال. ﴿إِنَّ فِي ذَالِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من هذه الخوارق.

﴿وَمُصَدِّقًا﴾ انتصب على أنه معطوف على قوله «بآية» على أن «بآية» في موضع الحال تقديره: جِئتُكم مصحوباً بآيةٍ ومصدقاً.

﴿وَلِأُحِلَّ﴾ اللام لام كي وهو معطوف على علة محذوفة [والتقدير] لأُخَفِّفَ عنكم ولأحلَّ، أو على فعل متأخر التقدير: ولأحل لكم جئت. وقال الزمخشري[2]: «ولأحل» ردّ على قوله «بآية من ربكم» أي: جئتكم بآية من ربكم ولأحل لكم انتهى كلامه. ولا يستقيم أن يكون «ولأحل» رداً على «بآية» لأن «بآية» في موضع حال «ولأحلّ» تعليل، ولا يصح عطف التعليل على الحال لأن العطف بالحرف المشرك في الحكم يوجب التشريك في جنس المعطوف عليه. والذي أحلّه لحوم الإبل والشحوم وأشياء من السمك وما لا ضئضئة[3] له من الطير. وقرىء: حُرّم مبنياً للمفعول الذي لم يُسمّ فاعله، وحَرّم مبنياً للفاعل.

﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الظاهر أنها للتوكيد في قوله «قد جئتكم بآية

(١) ق: تدخرون.

(٢) الكشاف ١: ٤٣١.

(٣) ق: خصيصية. والضئضئة: النسل.

من ربكم﴾[١] لَمَّا طالَ ما بينهما أكَّدَ[٢]. وإن كانت للتأنيس فيختلف مدلول الآيتين وتكون الثانية مخصوصة بالكتاب الذي جاء به وهو الإنجيل، فاتفق ظهور تلك الخوارق وظهور هذا الكتاب الإلهي.

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ﴾ الإحساس الإدراك بالحاسة. ولما كان كفرهم واضحاً مصرّحاً به جعل كأنه مُبْصَر مسموع. ويقال: أحسّ متعدياً لمفعول به، وحسست [٨٣/أ] متعدياً بالباء، وقد أبدلت سين حسست الثانية ياء[٣] إذا اتصل بها بعض الضمائر وقد حذفت فقالوا حَسْتُ[٤]، وكذلك سين أحسّ مع بعض الضمائر تقول: أَحَسْتُ.

والكفرُ كفرهم بنبوته وطلب قتله ولذلك قال: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي: أنصاري مضافين إلى نصر الله إياي. والحواريون أصفياء عيسى عليه السلام قاله ابن عباس. وقال مصعب: الحواريون كانوا اثني عشر رجلاً يسيحون[٥] معه يُخرجُ لهم ما احتاجوا إليه من الأرض.

(١) في الآية السابقة.
(٢) ق: أحد.
(٣) ق: تاء.
(٤) ق: أحست.
(٥) ق: يسبّحون.

﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: أنصار نبي الله ودينه، ثم أخبروا بما حملهم على النصرة وهو الإيمان بالله وأكّدوا ذلك بقولهم ﴿وَٱشْهَدْ﴾ فجاز أن يكون الضمير عائداً على عيسى أو عائداً على الله أي واشهدْ يا ربّنا. وأكّدوا ذلك بقولهم ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ إلى آخر الآية.

﴿وَمَكَرُوا۟﴾ الضمير عائد على الذين أحسّ منهم الكفر. ومكرهم احتيالهم على قتله وقتل أصحابه. ومكر الله مجازاتهم على مكرهم، سمّى ذلك مكراً لأن المجازاة لهم ناشئة عن المكر كقوله ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى].

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ﴾ القولُ بوساطة ملكٍ لأنه عليه السلام لم يكن مُكلَّماً كموسى عليه السلام.

﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ الظاهر أنَّ معناه مميتك ورافعك إليّ. والواو لا تقتضي ترتيباً، أي: مُميتُكَ بعد رفعكَ إليَّ. وبدأ بقوله «متوفيك» إخباراً بأنه مخلوقٌ من مخلوقاته ليس بإله. وقيل: معنى «متوفيك» أي: بالنومِ أو قابضك من الأرض. وأجمعت الأمةُ على أنَّ عيسى عليه السلام حيٌّ في السماء وسينزلُ إلى الأرض، إلى آخرِ الحديثِ الذي صَحَّ عن رسولِ الله ﷺ

في أمره[١].

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ الرفع النقل من سفل إلى علوّ. ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ أي: مُخلِّصكَ، جعلهم نجساً.

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ[اتَّبَعُوكَ﴾ أي:] اتّبعوا دينك وما جئت به عن الله من الدين والتبشير بمحمد ﷺ وإلزام الناس شريعته.

﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم اليهود، وشردهم الله أي تشريد بأنه ليس لهم ملك ولا مدينة يتحصنون بها بل هم مفرقون في أقطار الأرض تحت قهر المسلمين وتحت[٢] قهر النصارى وتحت قهر المجوس.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ هذا إخبار بالحشر والبعث. والمعنى: ثم إلى حكمي. وهذا من الالتفاتِ لأنه سبق ذكر مكذبيه وهم اليهود وذكر مَنْ آمنَ به وهم الحواريون، وأعقب ذلك قوله «وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا» فذكر مُتَّبعيه والكافرين، فلو جاء على نمط هذا السياق[٣] لكان التركيب: ثم إليَّ مرجعهم، ولكنه التفت على سبيلِ الخطاب للجميع ليكون الإخبارُ أبلغ في التهديدِ وأشد زجراً لمن يزدجر. ثم ذكر لفظة «إلي» ولفظة «فأحكم» بضمير التكلم ليُعْلَم أن الحاكم هناك من لا تخفى عليه خافية. وذكر أنه يحكم فيما اختلفوا فيه من أمر الأنبياء واتباع شرائعهم، وأتى

---

(١) في سنن الترمذي ٤ : ٥٠٦ «والذي نفسي بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد».

(٢) مكررة في ق.

(٣) ق: السابق.

بالحكم مبهماً ثم فصّل المحكوم بينهم إلى كافر ومؤمن وذكر جزاء كل واحد منهم.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بدأ في التفصيل بالكفار، لأن ما قبله من ذكر حكمه تعالى بينهم هو على سبيل التهديد والوعيد للكفار والإخبار بجزائهم، فناسب البداءة بهم ولأنهم أقرب في الذكر بقوله «فوق الذين كفروا»، ولكون الكلام مع اليهود الذين كفروا بعيسى وراموا قتله. ثم أتى ثانياً بذكر المؤمنين، وعلَّقَ هناك العذابَ على مجرد الكفر، وهنا عَلَّقَ توفيةَ الأجرِ على الإيمان وعمل الصالحات تنبيهاً على درجةِ الكمال في الإيمان ودعاءً إليها.

﴿فَأُعَذِّبُهُمْ﴾ أسند الفعل إلى ضمير المتكلم وحده وذلك ليطابق قوله «فأحكم بينكم»، وفي هذه الآية قال «فيوفيهم» بالياء على قراءة حفص ورويس، وذلك على سبيل الالتفات والخروج من ضمير التكلم إلى ضمير الغيبة للتنوع في الفصاحة. وقرأ الجمهور: فنوفيهم بالنون الدالّة على المتكلم المعظم شأنه. ولم يأت بالهمزة كما في تلك [٨٣/ب] الآية ليخالف في الإخبار بين النسبة الإسنادية فيما يفعله بالكافر وبالمؤمن كما خالف في الفعل، ولأن المؤمن العامل للصالحات عظيم عند الله تعالى فناسب الإخبار[1] عن المجازى بنون العظمة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من خبر عيسى وزكريا وغيرهما. و﴿نَتْلُوهُ﴾ نسرده ونذكره شيئاً بعد شيء. وأضاف التلاوة إلى نفسه وإن كان المَلَك هو التالي تشريفاً له، وجعل تلاوة المأمور تلاوة الآمر. وفي «نتلوه» التفات لأن قبله ضمير غائب في قوله: «لا يحب». و«نتلوه» معناه: تَلَوْنَاهُ كقوله

(١) «الإخبار» مكررة في ق، و«المجازى» غير ظاهرة فيها.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝١٠٢﴾ [البقرة]. ويجوز أن يراد به ظاهره من الحال لأن قصة عيسى لم يفرغ منها ويكون «ذلك» بمعنى هذا.

قال الزمخشري[1]: يجوز أن يكون «ذلك» - من [قوله] «ذلك نتلوه عليك» - بمعنى الذي و«نتلوه» صلته و«من الآيات» الخبر انتهى. هذه نزعة كوفية يُجيزون في أسماء الإشارة أنْ تكون موصولة ولا يجوز ذلك عند البصريين إلا في ذا وحدها إذا سبقها ما الاستفهامية[2] باتفاق أو مَن الاستفهامية باختلاف. وقد قال بقول الزمخشري الزجاج قبله وتبعه هو وتقريره في النحو.

و«الآيات» هنا الظاهر أنه يُراد بها آيات القرآن، ويحتمل أنْ يُراد بها المعجزات والمستغربات، أي: يأتيهم بهذه الغيوب من قبلنا وبسبب تلاوتنا وأنت أميٌّ لا تقرأُ ولا تصحبُ أهلَ الكتاب فهي آياتٌ لنبوتك، قاله ابن عباس والجمهور.

«والذكر الحكيم» أي: الحاكم أتى بصيغة المبالغة فيه ووصف بصفة من هو سببه وهو الله تعالى، أو كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٢ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ

(١) الكشاف ١: ٤٣٣.

(٢) ق: إذا استفهاماً الاستفهامية.

﴿بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ قال ابن عباس وغيره: جادل وفد نجران النبي ﷺ في أمر عيسى وقالوا: بلغنا أنك تشتم صاحبنا وتقول هو عبد، فقال النبي ﷺ: وما يضر ذلك عيسى؟ أجل هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. فقالوا: فهل رأيت بشراً قط جاء من غير فحل أو سمعت به؟ وخرجوا فنزلت. والمَثَل ها هنا بمعنى الصفة أي صفة عيسى في ولادته من غير أب على خلاف المعهود مثل صفة آدم في الغرابة والإنشاء من غير أب وأم. ولا يلزم التشبيه بالشيء أن يكون من جميع وجوهه، وأنكر بعض الناس أن يكون المَثَل بمعنى الصفة، وتقدم نوع من هذا التركيب والكلام عليه في قوله ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا ١٧﴾ [البقرة] فأغنى عن إعادته.

ومعنى ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ [أي] عند من يعلم حقيقة الأمر وكيف هو.

﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ ذكر أصل نشئه[1] أي: صوّره شكلاً من تراب ﴿ثُمَّ قَالَ [لَهُۥ] كُن﴾ أي: كن بشراً سوياً ذا روح وعقل. ﴿فَيَكُونُ﴾ أي فهو يكون. وهذه كنايةٌ عن سرعة الإيجاد، نزّل قابلية الشيء لما أراده الله منزلة الموجود المأمور القابل لامتثال الأمر. والجملة من قوله «خلقه» تفسيرية لـ«مثل آدم» فلا موضع لها من الإعراب، وقد أجيز أن تكون حالاً ومنعه بعضهم.

﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ أي: جادلك فيه، أي: في أمر عيسى لأنه المحدَّث عنه أولاً في قوله «إن مثل عيسى عند الله». والمحاجّةُ مفاعلةٌ وهي من اثنين وقعت بين رسول الله ﷺ وبين وفد نجران.

---

(١) ق: تشبيه.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ وهو إخباره عليه السلام بولادة عيسى من غير أب وقصته إلى أن ذكر رفع الله تعالى إياه.

﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ﴾ قرئ بفتح اللام وهو الأصل، وبضمّها شاذاً، ووجهه أنه كان أصله: تعاليوا فنقلت الضمة إلى اللام فحذفت الياء لالتقاء الساكنين. «ندع» أي يدع كل مني ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة. وفي صحيح مسلم[1] لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ فاطمة وحسيناً وحسناً [٨٤/أ] فقال: اللهم هؤلاء أهلي.

﴿ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ﴾ نتضرع قاله ابن عباس.

﴿فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أي: يقول كل منا: لعن الله الكاذب منا في أمر عيسى. وقد طول المفسرون في قصة المباهلة، ومضمّنها أنه لما دعاهم إلى المباهلة وخرج بالحسن والحسين وفاطمة وعلي عليهما السلام إلى الميعاد كفّوا[2] عن ذلك. ومعلوم أن الكاذب هم النصارى وهو نظير قوله ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢٤﴾ [سبأ] ومعلوم أنَّ الذي على الهدى هو محمدٌ ﷺ وأنَّ الذين في ضلالٍ مبين هم الكفارُ المخاطَبُونَ بقوله «أو إياكم» وأبرز ذلك إبراز الاحتمال كما قال الشاعر[3]:

آأنتِ أَمْ أُمُّ سالمِ

وخصَّ الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب وربما فداهم

---

(١) ٤: ١٨٧١.

(٢) ق: وأنهم كفّوا.

(٣) البيت لذي الرمّة في ديوانه ص٦٢٢ وتمامه: [من الطويل]

أيا ظبية الوعساء بين جلاجلٍ ... وبين النقا آأنت أم أمّ سالم

الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل، ومن ثم كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن في الحروب لتمنعهم من الهرب ويسمون المدافع عنها[١] بأرواحهم حماة الحقائق. وقدَّمهم في الذكر على الأنفسِ لينبِّه على لُطْفِ مكانِهم وقربِ منزلتهم وليؤذن بأنهم مقدّمون على الأنفس مفدون بها. وفيه دليلٌ لا شيء أقوى منه على صحة نبوة محمد ﷺ.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ الإشارة بـ«هذا» إلى قصة عيسى عليه السلام وكونه مخلوقاً من غير أب، إلى سائر ما قصَّ الله تعالى في أمرِه فليس بإلٰهٍ ولا ابن إلٰه بل هو عبدٌ مَن عبيد الله كما قال تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف] ولذلك جاء بعده «وما من إله إلا الله» فحصر الإلهية له تعالى.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ إشارة إلى وصفي الألوهية وهما القدرةُ الناشئة عن الغَلَبة فلا يمتنع عليه شيء، والعلمُ المعبَّرُ عنه بالحكمةِ فيما صنع والإتقان لما اخترع فلا يَخْفى عليه شيء. وهاتان الصفتان منفيتان[٢] عن عيسى عليه السلام.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يجوز أن يكون مضارعاً حذفت منه التاء أصله تتولّوا، ويجوز أن يكون ماضياً. وتولّيهم عن ما جئت به في أمر عيسى وفي صحة نبوتّك. ومعنى علمه تعالى اطلاعه على أحوالهم فيعاقبهم على تولّيهم. و«بالمفسدين» جاء باسم الفاعل الدالّ على الثبوت، وجاء جمعاً ليعمّهم وغيرهم من أهل الإفساد.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ

(١) ق: ليمنعهم.. الدافع عنهما.

(٢) غير مقروءة في ق.

وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟
ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ
أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ
فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ
وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ .

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ قال ابن عباس: نزلت في القِسِّيسينَ والرهبان، بعث بها النبي ﷺ [إلى جعفر] وأصحابه بالحبشة فقرأها جعفر والنجاشي جالس وأشراف الحبشة. وقيل: نزلت في وفد نجران واللفظُ عام فيهم وفي غيرهم. «سواء» صفة لـ«كلمة» وهو مصدر وصف به أي: مستوية[1] بيننا وبينكم، وهذا دعاء إنصاف. وقرىء: سواءً بالنصب وخرّج على أنه منصوب على المصدر بفعل محذوف تقديره: استوتْ استواءً، ويجوز انتصابه على الحال من النكرة وإنْ لم توصف، نصَّ على ذلك سيبويه.

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ في موضع جر على البدل من «كلمة».

﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ توكيد للجملة التي قبلها لأنَّ مَنْ أفردَ العبادةَ لله تعالى وحصرها فيه لا يشرك بالله شيئاً. وانتصب «شيئاً» على أنه مفعول به أو مصدر.

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا﴾ أي: لا نتخذهم[2] أرباباً فنعتقد فيهم الإلهية ونعبدهم على ذلك كعزير وعيسى.

---

(١) ق: متسوية.

(٢) ق: تتخذوهم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإقرار بالكلمة. ﴿فَقُولُواْ اشْهَدُواْ﴾ أي: اعلموا أنّا مُبايِنُونَ لكم منقادون لها. وهذه الآية في الكتاب الذي وجّهه رسول الله ﷺ مع دِحْيَةَ إلى عظيمِ بصرى فدفعه إلى هرقل.

﴿لِمَ تُحَآجُّونَ﴾ ادّعت اليهودُ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام كان يهودياً والنصارى كان نصرانياً وحاجّوا في ذلك. و«ما» في «لِمَ» استفهامية حذفت ألفها. أنكر عليهم دعواهم وبيّن أنَّ اليهوديةَ إنما هي منتسبة [٨٤/ب] لمن أنزل عليهم التوراة، والنصرانية لمن أنزل عليهم الإنجيل، وهما إنما أنزلا بعد إبراهيمَ عليه السلام وهذا إلزام واضح.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ تنبيه على عدم عقلهم إذْ نسبوا شيئاً متأخراً لمن كان متقدماً[(١)].

﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: على دعواكم في قضية عيسى عليه السلام إذ كانوا قد شاهدوه وإن كانوا قد نسبوه إلى ما لا يليق بما لا يكون له من ادّعاء الإلهية فيه كما ادّعت النصارى، أو قرفه بما هو باطل كادّعاء اليهود فيه.

﴿فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ هي دعواهم في إبراهيم. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أي: يعلم دين إبراهيم الذي حاججتم فيه.

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ أعلم تعالى ببراءةِ إبراهيمَ من هذه الأديان وبدأ[(٢)] بانتفاء اليهودية لأنَّ شريعةَ اليهود أقدم من شريعة النصارى. وكرر «لا» لتأكيد النفي عن كل واحد من الدينين، ثم استدرك ما كان عليه بقوله

---

(١) ق: متقدماً.. متأخراً.

(٢) ق: وابدأ.

﴿ وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾. ووقعت «لكن» هنا أحسن مواقعها[١] إذْ هي واقعة بين النقيضين بالنسبة إلى اعتقاد الحق والباطل.

ولما كان الكلام مع اليهود والنصارى كان الاستدراك بعد ذكر الانتفاء عن شريعتيهما، ثم نفى على سبيل التكميل للتبرؤ من سائرِ الأديان كونه من المشركين وهم عَبَدَةُ الأصنامِ كالعربِ الذين كانوا يدَّعُونَ أنهم على دينِ إبراهيم، وكالمجوسِ عَبَدَةِ النار، وكالصابئةِ عَبَدَةِ الكواكبِ، ولم ينصّ[٢] على تفصيلهم لأنَ الإشراك يجمعهم.

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ ﴾ قال ابن عباس: قالت رؤساء اليهود: يا محمد لقد علمت أنَّا أوْلى الناس بدين إبراهيم منك ومن غيرك وأنه كان يهودياً وما بك إلا الحسد فنزلت. أوْلى [الناس] أخصّهم به وأقربهم منه، من الوَلْي وهو القُرْب. و«أولى» أفعل تفضيل والمفضل عليه محذوف وتقديره: منكم أهل الكتاب.

﴿ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ أي: اتبعوا شريعته في زمانه وفي الفترات بعده.

﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ يعني به محمداً ﷺ. وخُصَّ بالذكر من سائر مَن اتبعه لتخصيصهِ بالشرفِ والفضيلة كقوله تعالى ﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ وَٱلَّذِينَ[٣] ءَامَنُوا۟ ﴾ قيل: آمنوا بمحمد ﷺ. وقرىء: وهذا النبيَّ عطفاً على الضمير المنصوب في «اتبعوه» أي اتبعوا إبراهيم وهذا النبي. وقرىء: وهذا النبيِّ بالجر عطفاً على «إبراهيم».

---

(١) ق: موقعها.

(٢) ق: ينقص.

(٣) ق: الذين.

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا
يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت
طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟
ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن
يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ
وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ ﴾ أجمع المفسرون أنها نزلت في يهودِ بني النضير وقريظة وقينقاع، قالوا لمعاذ وعمار وحذيفة: تركتم دينكم واتَّبعتم دِينَ محمد فنزلت.

﴿ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ يردُّونكم إلى كفرهم. ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي: بجحد نبوة محمد ﷺ. ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ مبالغة في ذمّهم حيث فقدوا المنفعة بحواسّهم.

﴿ يَٰٓأَهْلَ[1] ٱلْكِتَٰبِ ﴾ قال ابن عباس: هي التوراةُ والإنجيل وكفرهم بها من جهة تغيير الأحكام وتحريف الكلام أو الآيات التي في التوراة والإنجيل من وصف النبي ﷺ والإيمان به كما بيّن بقوله ﴿ يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف].

﴿ لِمَ تَلْبِسُونَ ﴾ تقدم الكلام على النهي عن لبسهم وكتمهم في البقرة[2]،

(١) ق: قل يا أهل.
(٢) انظر تفسير الآية ٤٢ من البقرة.

وهنا الإنكار عليهم في قوله «لِمَ». وفي «البحر»[١] أجاز الزجاج والفراء في «ويكتمـون» من قوله تعالى «لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق» النصب فتسقط النون من حيث العربية على قولك: لم تجمعون ذا وذا فيكون نصباً على الصرف في قول الكوفيين وبإضمار [أن] في قول البصريين. وأنكر ذلك أبو علي وقال: الاستفهام وقع على اللبس فحسب وأما «تكتمون» فخبرٌ حتم لا يجوزُ فيه إلا الرفع، يعني أنه ليس معطوفاً على «تلبسون» بل هو استئنافُ خبرٍ عنهـم أنهم يكتمـونَ الحقَّ مع علمهم أنه حق. قال ابن عطية[٢]: قال أبو علي: الصرف ها هنا يقبح وكذلك إضمار أنْ، لأنَّ «تكتمون» معطوف على موجب مقرر [٨٥/أ] وليس بمستفهم عنه وإنما استفهم عن السبب في اللبس واللبس موجب، فليست الآية بمنزلة قولهم: أتأكل السمك وتشرب اللبن، وبمنزلة قولك: أتقوم فأقوم. والعطف على الموجب المقرر قبيحٌ متى نصب إلا في ضرورةِ شعرٍ كما رُوي[٣]:

وألحقُ بالحجاز فأستريحا ٠ [من الوافر]

وقد قال سيبويه في قولك: أَسِرْتَ حتى تدخلها[٤]، لا يجوز إلا النصب في تدخل، لأن السير مستفهم عنه غير موجب. وإذا قلنا: أيهم سار حتى يدخلها، رفعت لأن السير موجب والاستفهام إنما وقع عن غيره انتهى ما نقله ابن عطية عن أبي علي. وظاهرهُ تعارُض ما نقلَ مع ما قبله لأنَّ ما قبله فيه

---

(١) ٢: ٤٩١.

(٢) المحرر الوجيز ٢: ٤٦٣.

(٣) البيت للمغيرة بن حبناء، وهو في الكتاب ٣: ٣٩، وصدره:

سأترك منزلي لبني تميم

(٤) في ابن عطية: تدخل المدينة.

أن الاستفهام وقع على اللبس فحسب وأما «تكتمون» فخبر حتم لا يجوز فيه إلا الرفع.

وفي ما نقله ابن عطية أن «تكتمون» معطوف على موجبٍ مقرر وليس بمستفهم عنه، فيدل العطف على اشتراكهما في الاستفهامِ عن سببِ اللبسِ وسببِ الكتم الموجبين. وفرق بين هذا المعنى وبين أن يكون «وتكتمون» إخباراً محضاً لم يشترك مع اللبس في السؤال عن السبب.

وهذا الذي ذكره أبو علي من أنَّ الاستفهام إذا تضمَّنَ وقوعَ الفعل لا ينتصب الفعل بإضمار أن في جوابه، تبعه في ذلك ابن مالك في «التسهيل»[(١)] حين عدَّ ما يضمر أن لزوماً في الجواب فقال: أو لاستفهام[(٢)] لا يتضمن وقوع الفعل، وإنْ تضمن وقوع الفعل لم يجز النصب عنده نحو: لِمَ ضربت زيداً فيجازيك، لأنَّ الضرب[(٣)] قد وقع.

ولم نر أحداً من أصحابنا يشترط هذا الشرط الذي ذكره أبو علي وتبعه فيه ابن مالك في الاستفهام، بل إذا تعذّر سبك مصدر مما قبله إما لكونه ليس ثم فعل ولا ما في معناه ينسبك منه، وإما لاستحالة سبك مصدر مراد استقباله [لأجل مضي الفعل فإنما يقدر فيه مصدر مقدّر استقباله] مما يدل عليه المعنى، فإذا قال: لم ضربت زيداً فأضربك أي: ليكن منك تعريف بضرب زيد فضربٌ منّا. وما ردَّ به أبو علي على أبي إسحاق ليس بمتَّجهٍ لأنَّ قوله «لم تلبسون» ليس نصّاً على أنَّ المضارع أُريدَ به الماضي حقيقة، إذ قد ينكر

---

(١) انظر ص٢٣١.

(٢) ق: كاستفهام. وأصل العبارة في التسهيل «جواباً.. لاستفهام».

(٣) ق: النصب.

المستقبل لتحقق صدورهِ[1] لا سيّما على الشخص الذي تقدَّمَ منه وجود أمثاله. ولو فرضنا أنّه ماضٍ حقيقةً فلا ردّ فيه على أبي إسحاق لأنَّه كما قرّرنا قبلُ أنّه إذا لم يمكن سبك مصدر مستقبل من الجملةِ سبكناهُ من لازم الجملة. وقد حكى أبو الحسن بن كيسان نصب الفعل في جواب الاستفهام حيث الفعلُ المستفهمُ عنه محقَّقُ الوقوع نحو: أين ذهب زيد فنتبعه وكذلك في: [كم] مالُك فنعرفه، ومَنْ أبوك فنكرمه. لكنه يتخرّج على ما سبق ذكره من أن التقدير: ليكن منك إعلام بذهاب زيد فاتّباع منا، وليكن منك إعلام بقدر مالِك فمعرفة منا، وليكن منك إعلام بأبيك فإكرام منّا له، انتهى.

وقرأ[2] عبيد بن عمير: لِمَ تلبسوا وتكتموا بحذف النون فيهما. قالوا: وذلك جزم لا وجه له سوى ما ذهب إليه شذوذ من النحاة في إلحاق لِمَ بلَمْ في عمل الجزم.

قال السجاوندي: ولا وجه له إلاّ أنّ لِمَ تجزم الفعل عند قوم كلَمْ انتهى.

والثابتُ في لسان العرب أنّ لِمَ لا ينجزم ما بعدها، ولم أر أحداً من النحويين ذكر أنّ لِمَ تجري مجرى لَمْ في الجزم إلا ما ذكره أهل التفسير هنا. وإنّما هذا عندي من باب حذف النون حالة الرفع، وقد جاء ذلك في النثر قليلاً جداً وذلك في قراءة أبي عمرو من بعض طرقه «قالوا ساحران تَظّاهرا» [القصص: ٤٨] بتشديد الظاء أي: أنتما ساحران تتظاهران فأدغم التاء في الظاء

---

(١) ق: ضرورة.

(٢) ق: قرأ.

وحذف النون. وأمّا في النظم فنحو قول الراجز[١]:

أبِيْتُ أَسْرِي وتَبِيتي تَدْلكي

يريد: تبيتين تدلكين. وقال آخر[٢]: [من الطويل]

فإنْ يك قومٌ سَرَّهم ما صنعتُمُ سيحتلبوها لاقحاً غير ناهلِ

[٨٥/ب] ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة حالية، نعى عليهم اللبس والكتمة مع علمهم بما يترتبُ على ذلك من عقاب الله تعالى إياهم.

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟﴾ الآية، قال الحسن والسُدّي: تواطأ اثنا عشر حبراً من يهود خيبر وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دينِ محمدٍ أولَ النهار باللسانِ دونَ الاعتقاد واكفروا به في آخرِ النهار وقولوا إنَّا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا[٣] محمداً ليس كذلك فظهر لنا كَذبُه وبطلانُ دينه، فإذا فعلتم ذلك شَكَّ أصحابُه في دينهم وقالوا: هم أهلُ الكتاب وهم أعلمُ منّا فيرجعون عن دينهم إلى دينكم فنزلت. وقال ابن عباس ومجاهد: صلَّوْا مع النبيِّ ﷺ صلاةَ الصبح ثم رجعوا آخر النهار فصلَّوْا صلاتَهم ليرى الناسُ أنّه بَدَتْ لهم منه ضلالةٌ بعد أنْ كانوا اتبعوه فنزلت.

﴿ءَامِنُوا۟﴾ أظهروا الإيمانَ باللسان. ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لم يصدقوا بأنه أنزل على المؤمنين وإنما معناه: أنزل على زعمهم. ﴿وَجْهَ

---

(١) اللسان (دلك)، وتمامه:

وجهك بالعنبر والمسك الذكي

والبيت من شواهد الهمع ١: ١٧٦.

(٢) انظر البحر ٢: ٤٩٢.

(٣) ق: وجدنا.

﴿ٱلنَّهَارِ﴾ أوّله، وانتصب على الظرف الزماني. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: لعلَّ الذين آمنوا يرجعون عن دينهم إذ رأونا مضطربينَ في دينهم بفعلنا ذلك.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ أي: لا تُخْلِصُوا الإيمانَ باللسانِ والاعتقاد.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ ظاهره أنها جملة مستقلة، أمرَ اللهُ تعالى نبيه ﷺ أنْ يقولَ هذا. و«هدى الله» خبر إنّ، وقيل بدل من «الهدى». و«أن يؤتى» على قراءة من قرأ: أن يؤتى بهمزة واحدة، خبر إنّ أي: إنَّ هدى الله إيتاء واحد منكم مثلما أُوتيتم من العلم. والخطاب بـ«أوتيتم» للكفّار ويكون «أو يحاجّوكم» منصوباً بإضمار أنْ بعد «أو» بمعنى حتى أي: حتى يحاجّوكم عند ربكم فيغلبوكم ويدحضوا حجتكم عند الله. ولا يكون «أو يحاجّوكم» معطوفاً على «أن يؤتى»، وعلى أن يكون «هدى الله» خبر إنَّ يكون المعنى: مخافةَ أنْ يُؤتى تعليلاً لقوله «ولا تؤمنوا إلاّ لمن تبع دينكم» وتكون الجملة من قوله «قل إن الهدى هدى الله» اعتراضاً بين العلّة والمعلول.

وقرأ ابن كثير: أن يؤتى على الاستفهام الذي معناه الإنكار عليهم والتقرير والتوبيخ، وهو مثبت من حيث المعنى قلتم ذلك وفعلتموه، ويكون «أو يحاجّوكم» معطوفاً على «يؤتى» و«أو» للتنويع.

قال ابن عطية[1]: ويحتمل أن يكون قوله «أن يؤتى» بدلاً من قوله «هدى الله» ويكون المعنى: قل إنَّ الهدى هدى الله وهو أنْ يؤتى أحدٌ كالذي جاءنا نحن، ويكون قوله «أو يحاجّوكم» بمعنى أو فليحاجُّوكم لأنهم يغلبونكم[2] انتهى هذا القول. وفيه الجزم بلام الأمر وهي محذوفة ولا يجوز ذلك على

(١) المحرر الوجيز ٢: ٤٧١.

(٢) «لأنهم يغلبونكم» زيادة في ق.

مذهب البصريين إلا في الضرورة.

وقال الزمخشري[١]: ويجوز أن ينتصب «أن يؤتى» بفعل مضمر يدل عليه قوله «ولا تؤمنوا إلاّ لمن تبع دينكم» [كأنه قيل:] قُلْ إنَّ الهدى هدى الله فلا تُنكروا أنْ يؤتى أحدٌ مثلما أوتيتم، لأن قولهم «ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم» إنكارٌ لأنْ يُؤتى أحدٌ مثلما أُوتُوا انتهى كلامه. وهو بعيد لأن فيه حذف حرف النهي[٢] ومعموله، ولم يحفظ ذلك من لسانهم، وكون أن نافية بمعنى لا قولٌ مرغوب عنه.

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ ﴾ وهذه كناية عن قدرة التصرف والتمكن فيها، والبارىءُ تعالى مُنَزَّهٌ عن الجارحة.

﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ ﴾ الآية، ظاهره أنَّ أهلَ الكتاب منهم أمينٌ ومنهم خائن. قال ابن عباس: «من إن تأمنه بقنطار» هو عبد الله بن سلاّم استودعه رجلٌ من قريش ألفاً ومئتي أوقيّة ذهباً فأدّاهُ إليه و«من إن تأمنه بدينار» [هو] فنحاص بن عازوراء استودعه رجلٌ من قريش ديناراً فجحده

---

(١) الكشاف ١ : ٤٣٧.

(٢) ق: النفي.

وخانه انتهى. ولا ينحصر الشرط في ذَيْنِكَ المُعَيَّنين بل كلٌّ منهما[١] فردٌ ممّن يندرج تحت «من» ألا ترى كيف جمع في قوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا﴾ [٨٦/ أ] الآية.

وفي قصّة السموأل بن عادياء اليهودي ووديعة امرىء القيس عنده وطلب الحارث بن [أبي] شَمِر الغسّاني ذلك منه دليلٌ على الوفاء التامّ منه وإن كان يهوديّاً حتى ضرب به المثل فقيل: أوفى من السّموأل[٢]. والخطاب في «تأمنه» ظاهره أنه خطاب للنبيِّ ﷺ. و«بقنطار» كناية عن المال الكثير و«بدينار» كناية عن المال القليل. وقرأ أُبيّ: تِيْمَنْه في الحرفين بتاءٍ مكسورة وياء ساكنة، قال ابن عطية[٣]: وما أراها إلاّ لغة قرشيّة وهي كسر النون التي للجماعة كـ«نِستَعين»، وألف المتكلم كقول ابن عمر: لا إخالُه، وتاء المخاطب كهٰذه الآية، ولا يكسرون الياء في الغائب انتهى. لم يبيّن ما تكسر فيه حروف المضارعة بقانون كلّي، وما ظَنَّهُ من أنها لغةٌ قرشيّة فليس كما ظَنَّ وقد بيّنا ذلك في «نستعين» في كتابنا «البحر»[٤]. وقرىء: يؤدّه بالواو وبالهمزة ووصل الهاء بياءٍ وباختلاس الحركة وبسكون الهاء. و﴿قَآئِمًا﴾ ظاهره القيام وكنّى به عن قيامِ الإنسانِ على أشغاله واجتهاده والحزم فيها بأن لا تضيع فكأنّه قائم على رأس المؤتمن على الدينار.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ﴾ الآية، روي أن بني إسرائيل كانوا يعتقدون استحلالَ أموالِ العرب لكونهم أهل أوثان فلما جاء الإسلامُ وأسلم مَنْ أسلم من

(١) ق: منها.
(٢) مجمع الأمثال ٢: ٣٣٦.
(٣) المحرر الوجيز ٢: ٤٧٣.
(٤) أنظر ١: ٢٣.

العرب بقي اليهود فيهم على ذلك المعتقد فنزلت. وذلك إشارةٌ إلى عدم أداء ما أؤتمن عليه والخيانة فيه. ﴿فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ في أخذِ أموالِ الأميّين وخيانتهم. ﴿سَبِيلٌ﴾ أي: اعتراض. ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ أي: القول الكذب يفترونه على الله بادعائهم أن ذلك في كتابهم.

قال السُدّي وابن جريج وغيرهما: ادّعت طائفة من أهل الكتاب أن في التوراة إحلال الله لهم أموال الأمّيين كذباً منهم وهي عالمة بكذبها، فيكون الكذبُ المقولُ هنا هو هذا الكذب المخصوص في هذا الفصل. والظاهر أنه أعمُّ من هذا فيندرج هذا فيه أي: هم يكذبون على الله في غيرِ ما شيءٍ وهم علماءُ بموضع الصدق.

﴿بَلَىٰ﴾ جوابٌ لقولهم «ليس علينا في الأميين سبيل» والمعنى بلى عليهم في الأميين سبيل. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ جواب ﴿مَنۡ أَوۡفَىٰ﴾ فيحتمل أن يكون «المتقين» عامّاً فيندرج فيه «من أوفى» أو كنّى بالمتقين عمّن أوفى فكأنه قال: يحبهم، ونبّه على الصفة التي يحبّهم لأجلها وهي التقوى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ﴾ نزلت في اليهود ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ أضاف المصدر إلى الفاعل أي: بعهدِ الله إيّاهم وهو ما أخذه عليهم من الإيمان بالرسول ﷺ، أو مضافاً إلى المفعول أي: بعهده اللهَ، وتقدّم تفسيرُ شبيهٍ بهٰذه الآية في سورة البقرة[1].

﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقًا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

---

(١) وهو قوله ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ أي: من أهل الكتاب. ﴿لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ [أَلْسِنَتَهُم]﴾ أي: يفتلونها بقراءته عن الصّحيح إلى المُحرَّفِ قاله الزمخشري[١]. وعن ابن عباس أيضاً: هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف، غَيَّروا التوراةَ وكتبوا كتاباً بَدَّلوا فيه صفةَ رسولِ الله ﷺ ثم أخذت قريظةُ ما كتبوه فخلطوه بالكتابِ الذي عندهم.

وقال ابن عطيّة[٢]: يُحرِّفون ويتحيَّلون لتبديلِ المعاني من جهة اشتباهِ الألفاظ واشتراكها وتشعُّبِ التأويلات فيهـا ومثال ذلك قولهم ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا﴿٤٦﴾﴾ [النساء][٣] ونحو ذلك وليس التبديل المحض [بليّ] انتهى.

والذي يظهر أن اللَّيَّ وقع بالكتابِ أي: بألفاظهِ لا بمعانيه وحدها كما يزعمُ بعضُ الناس، بل التحريفُ والتبديل وقع في الألفاظِ والمعاني تبعٌ للألفاظ، ومَنْ طالع التوراة علم يقيناً أنَّ التبديل في الألفاظ والمعاني لأنها تضمنت أشياء يجزم العاقلُ أنها ليست من عند الله، ولا أنَّ ذلك يقع في كتابِ إلٰهي من كثرة التناقض في الأخبار والأعداد ونِسْبة أشياء إلى الله تعالى من الأكلِ والمصارعةِ وغير ذلك، ونسبة أشياء إلى الأنبياء من الكذب والسكر من الخمر [٨٦/ب] والزّنى ببناتهم وغير ذلك من القبائحِ التي ينزّه العاقل نفسه عن أنْ يَتَّصف بشيءٍ منها فضلاً عن منصب النبوّة.

وقد صنّف الشيخ علاء الدين علي بن محمد بن خطّاب الباجي[٤] كتاباً في السؤالات على ألفاظِ التوراة، ومَنْ طالع ذلك رأى فيه عجائب وغرائب

---

(١) الكشاف ١: ٤٣٩.

(٢) المحرر الوجيز ٢: ٤٧٩.

(٣) وهو كذلك في ابن عطية، وفي ق: راعنا واسمع غير مسمع.

(٤) لعله كتابه الموسوم بـ«غاية السول في علم الأصول»، وانظر الأعلام ٤: ٣٣٤.

وجزم بالتبديلِ في ألفاظِ التوراة ومعانيها، هذا مع خلوّها من ذكر الآخرة والبعث والحشر والنشر والعذاب والنّعيم الأخرويّين[1] والتبشير برسولِ الله ﷺ، وأين هٰذا من قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۝١٥٧﴾ [الأعراف] وقوله تعالى وقد ذكر رسوله ﷺ وصحابته ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۝٢٩﴾ [الفتح].

وقد نَصَّ القرآنُ على ما يقتضي إخفاءهم لكثيرٍ من التوراة قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۝٩١﴾ [الأنعام][2] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ۝١٥﴾ [المائدة] فدلّت هاتان الآيتان على أنَّ الذي أخفوه من الكتابِ كثيرٌ ودلَّ بمفهوم الصفة أنَّ الذي أبدوه من الكتاب قليل.

وقد صَنَّفَ الشيخُ العالم أبو النصر السموأل بن يحيى بن عبّاس المغربي وكان من الذين هداهم الله إلى الإسلام كتاباً جليلاً في الردِّ على شيعته سمّاه «إفحام اليهود» وفرغ من تصنيفه في يوم عرفة سنة ثمان وخمسين وخمس مئة، وأمعن في الردِّ على اليهود وذكر مخازيهم وألزمهم اتّباع شريعةِ الإسلامِ حسب ما تضمنته التوراة وبين وجود النص في التوراة، ويسرد فيه ألفاظ التوراة باللسان العبراني ثم يفسره بالعربيّ. وكان الباجي طالع كلامَ هذا الرجل وقد كتبنا كتابَ هذا الرجل وكتاب الباجي بخطِّنا نفعَ اللهُ بذٰلك.

(١) ق: الأخراوين.

(٢) ق: يجعلونه.. يبدونها ويخفون.

وقرىء: تلوون مضارع لوى وتلوّون مضارع لوّى مشدداً، ويلُون بضم اللّام. وقرىء: لتحسبوه بالتاء خطاباً للمسلمين، وقرىء بياء الغيبة، والضمير المنصوب عائد على ما دلّ عليه ما قبله من المحرّف. ويحتمل أن يكون قوله «بالكتاب» على حذف مضاف أي: يلوون ألسنتهم بشبيه الكتاب فيعود الضمير على ذلك المضاف المحذوف.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لم يكتفوا بالحسبان حتى صرحوا أنَّ المحرف هو من عند الله جرأة منهم على الله. ثم أخبر أن شأنهم وعادتهم قول الكذب على الله وهم يعلمون ما في ذلك من الذنب العظيم.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ الآية، روي أن أبا رافع القُرَظي قال للنبيّ ﷺ[1] حين اجتمعت الأحبار من يهود والوفد من نصارى نجران: [يا محمد تريد أن نعبدك ونتخذك ربّاً] أو ذاك تريد يا محمد وإليه تدعون؟. فقال النبيُّ ﷺ: معاذ الله ما بذلك أُمِرْتُ ولا إليه دَعَوْتُ فنزلت. ومعنى «ما[2] كان لبشر» وما أشبه هذا التركيب النفي للكون والمراد نفي الخبر، وذلك على قسمين أحدهما أن يكون الانتفاء من حيث الفعل[3] ويعبر عنه بالنفي التام

(١) بعده في ق: معاذ الله ما بذلك أمرت. وشطبت.

(٢) ق: وما.

(٣) ق: العقل.

كقوله تعالى ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ﴾ [النمل]. والثاني أن يكون الانتفاء فيه على سبيل الابتغاء ويعبّر عنه بالنفي غير التام كقول الصدّيق رضي الله عنه: ما كان لابن أبي قحافة أنْ يتقدم ليصلّي بين يدي رسولِ الله ﷺ. ومُدرَك القسمين إنما يُعرف بسياق الكلام الذي النَّفْيُ فيه. ونفي الكون هنا من القسم الأول. والبشر هنا قال ابن عباس: هو محمد ﷺ. وهٰذا [٨٧/أ] الترتيبُ في غاية الفصاحة ذكر أوّلاً الكتابَ وهو جنس، وترقّى منه إلى الحكم وهو الفصل بين الناس بالكتاب ثمّ إلى النبوّة وهي المرتبة العليا.

﴿ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ ﴾ أتى بِثُمّ التي للمهلة تعظيماً لهذا القول، وإذا انتفى هذا القولُ بعد المهلةِ كان انتفاؤه بدونها أوْلى وأحرى أي: أنَّ هذا الإيتاءَ العظيمَ لا يجامع هذا القولُ وإنْ كان بعد مهلة من هذا الإنعام العظيم. وعباد: جمع عبد، وقال ابن عطيّة[١]: «عِبِدَّى وعبيد من جموع عبد». أمّا عبّدى فهو اسم جمع وألفه للتأنيث. وأمّا عبيد فقيل اسم جمع وقيل جمع تكسير. قال ابن عطية[٢]: والذي استقرأت أنّ «عباداً» جمع عبد يجيءُ في موضعِ الترفيع كقوله ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [البقرة] و﴿ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴾ [الأنبياء] و﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ ﴾ [الزمر]. والعبيد يستعمل في معنى التحقير كقول حمزة: وهل أنتم إلا عبيدٌ لأبي، وقول امرىء القيس[٣]: [من السريع]

---

(١) المحرر الوجيز ٢: ٤٨١.

(٢) المصدر نفسه، والنص فيه بمعناه.

(٣) ديوانه ص١١٩، وعجزه فيه:

ما غرّكم بالأسد الباسل

قولا لدودانَ عبيد العصا

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت] لأنّه مكان تشفيق وإعلام بقلة انتصارهم ومقدرتهم وأنّه تعالى ليس بظلّام لهم مع ذلك، انتهى ملخصاً. وإنما كثر استعمالُ عباد دون عبيد لأن فِعالاً في جمعِ فَعْل قياس مطّرد، وجمع فَعْل على فعيل لا يطّرد فكثر لفظُ عباد وقَلَّ لفظُ عبيد. وأما الآية التي فيها لفظ العبيد فجاء[1] ذلك لتآخي الفواصل لا للتحقير. وأما بيتُ امرىء القيس فالتحقيرُ إنما فُهِمَ من إضافة عبيد إلى العصا، وكذلك قول حمزة فهم التحقير من الحالة التي كان عليها. وعبيد وعباد بمعنى واحد لكن الفرق بين مجيء عباد كثيراً وعبيدٍ قليلاً هو[2] القياس وعدم القياس. وقرىء: ثم يقول بالرفع للّام أي: ثم هو يقول.

﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ أي: ولكن يقول كونوا. والربانيُّ قال ابن عباس: الفقيه. ولما مات ابن عباس قال محمد بن الحنفية: اليوم مات رَبَّانيُّ هذه الأمة. وقرىء: تُعَلِّمون وتَعْلَمون.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ قُرىء برفع الراء على القطع وبالنصب عطفاً على «أن يؤتيه» والتقدير: ولا أن يأمرَكم. وهذه الجملةُ على سبيلِ التوكيد لأنه نفى أنْ يتخذ لنفسه عباداً من دون الله فنهى أنْ يتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً من دون الله يعني من كان معظماً من العالم العلوي وهم الملائكة ومن العالم الأرضي وهم النبيّون.

ويجوز أنْ يكون «ولا يأمركم» بالنصب عطفاً على «ثم يقول» ويكون

(١) ق: في ذلك.

(٢) ق: وهو.

التقدير: ولا له أنْ يقول. ودخلت لا لتأكيد معنى النفي السابق كما تقول: ما كان لزيد قيام ولا قعود على انتفاء كل منهما. وقال ابن عطية في قراءة نصب الراء: هذا خطأ لا يَلتئم به المعنى انتهى. لأنه قدّر «أنْ» قبل «لا» فصار: وأن لا يأمركم. ونحن قدّرناه بعد لا فَصَحَّ المعنى. ﴿أَيَأْمُرُكُم﴾ استفهام إنكار وكونه بعد كونهم مسلمين أفحش وأقبح وهو لا يأمركم بالكفر لا بعد الإسلام ولا قبله. وجعل قول ذلك البشر وأمره كفراً فسوّى بين عبادته وبين عبادة الملائكة وهم الذين عبدتهم الصابئة، وبين عبادة النبيّين وهم من عَبَدةِ اليهود والنصارى.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ هو على حذفِ مضافٍ تقديرُه: ميثاق أتباع النبيين لقوله تعالى ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ وهو محمد ﷺ ولم يكن في زمانه نبيُّون فتعيَّن أنْ يكون التقدير: ميثاق أتباع النبيين. وجاء بالخطاب على سبيلِ الالتفات. وقرىء: لَما بفتح اللام، ووجهه أنَّ اللام هي اللام الموطّئة. و«ما» شرطية مفعولة بآتيناكم[1]. و﴿مِّن كِتَٰبٍ﴾ تفسيرٌ لِما. و«آتيناكم» ماض أُريد به المستقبل. ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ[2]﴾ معطوف عليه، وجواب القسم ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ وما بعده. وجواب الشرط محذوف. والآيةُ مما اجتمع فيه القَسَمُ والشرطُ فجاء الجوابُ للسابق منهما وهو القسم.

---

(١) كذا في ق في هذا الموضع والمواضع التالية.

(٢) ق: جاء.

وفي «البحر»[١]: قال ابن عطية [والزمخشري]: «ما» من «لما آتيناكم» شرطية إلى آخر كلامهما انتهى. قال مثل ذلك المازنيُّ والزجّاجُ والفارسيُّ، وفيه خدش لطيف [٨٧/ب] جداً وذلك أنه إذا كانت شرطية كان الجواب محذوفاً لدلالةِ جوابِ القسم عليه، وإذا كان كذلك فالمحذوف من جنس المثبت ومتعلقاته متعلقاته. فإذا قلت: والله لَمَن جاءني لأُكْرِمَنَّهُ، فجواب «من» محذوف التقدير: من جاءني أكرمه، وفي الآية اسم الشرط «ما» وجوابه محذوف من جنس جواب القسم وهو الفعل المقسم عليه، ومتعلق الفعل هو ضمير الرسول بوساطة حرف الجر لا ضمير «ما» فجواب «ما» المقدّر[٢] إن كان من جنسِ جواب القسم فلا يجوز ذلك لأنه تعرو[٣] الجملةُ الجوابية إذ ذاك من ضميرٍ يعودُ على اسم الشرط، وإنْ كان من غير جنس جواب القسم فكيف يدل عليه جواب القسم وهو من غير جنسه وهو [لا يحذف إلا إذا كان من] جنس جواب القسم؟ ألا ترى أنك لو قلت: والله لئن ضربني زيد لأضربنّه، كيف تقدّره: إنْ ضربني زيد أضربْه، ولا يجوز أنْ يكون التقدير: والله إن ضربني زيد أشكُه لأضربنه، لأن «لأضربنّه» لا يدلّ على «أشكه»، فهذا ما يرد على قولِ مَنْ خَرَّجَ «ما» على أنها شرطية.

قال الزمخشري[٤]: و«لتؤمننّ» سادٌّ مَسدَّ جواب القسم والشرط جميعاً انتهى. هذا قولٌ ظاهرهُ مخالفٌ لقولِ من جعل «ما» شرطية لأنهم نصوا على أنَّ جوابَ الشرطِ محذوفٌ لدلالةِ جواب القَسَمِ عليه، إلا إنْ عنى أنه من

(١) انظر ٢: ٥١٠ وما بعدها.

(٢) ق: المقدّرة.

(٣) أي تخلو.

(٤) الكشاف ١: ٤٤١.

حيث تفسير المعنى لا تفسير الإعراب يسدُّ مَسدَّهما فيمكن أن يقال: وأما من حيث تفسير الإعراب فلا يصح لأنَّ كلاًّ[١] منهما أعني الشرط والقسم يطلب جواباً على حدة، ولا يمكن أن يكون هذا محمولاً عليهما لأنَّ الشرط يقتضيه على جهة العمل فيه فيكون في موضع جزم، والقَسَمُ يطلبه على جهة التعلُّق المعنوي به بغير عمل فيه فلا موضعَ له من الإعراب، ومُحالٌ أنْ يكون الشيءُ الواحد له موضع من الإعراب ولا موضع له من الإعراب.

وقرىء: لِما بكسر اللام، ووجهه أن اللام للتعليل و«ما» موصولة بمعنى الذي والعائد عليها محذوف من صلتها، أي: أتيناكموه، وعطف على الصلة «ثم جاءكم» والعائد فيه محذوف تقديره: ثم جاءكم به أي: بنظيره.

وأجاز الزمخشري أن تكون «ما» مصدرية قال[٢]: «ما» في قراءة حمزة «لما آتيتكم» مصدرية ومعناه: لأجلِ إيتائي إياكم بعضَ الكتابِ والحكمة ثم لمجيءِ[٣] رسولٍ مصدقٍ لما معكم لتؤمنن به، على أن «ما» مصدرية، والفعلان معها أعني «آتيتكم» و«جاءكم» في معنى المصدرين، واللام داخلةٌ للتعليل على معنى: أخذَ اللهُ ميثاقهم ليؤمنن بالرسولِ ولينصرنّه لأجل [أني] آتيتُكم الحكمةَ، وأنَّ الرسول الذي أمرتُكم بالإيمانِ به ونصرته موافقٌ لكم غير مخالفٍ انتهى.

هذا التعليل والتقدير الذي قدَّره ظاهِرُهُ أنه تعليلٌ للفعل المُقْسَمِ عليه، فإنْ

---

(١) ق: كل.

(٢) في العبارة تكرار واضطراب في الأصل. والنص في الكشاف ١: ٤٤١.

(٣) ق: بمجيء.

عنى هذا الظاهر فهو مخالفٌ لظاهر الآية لأنَّ ظاهر الآية يقتضي أنْ يكون تعليلاً لأخذِ الميثاق لا لمتعلّقه وهو الإيمان، فاللام متعلقة بأخذ، وعلى ظاهر تقدير الزمخشري تكون متعلقة بقوله «لتؤمنن به» ويمتنع ذلك من حيث إنَّ اللامَ المتلقّى بها القَسَم لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، تقول: والله لأضربن زيداً، ولا يجوز: والله زيداً لأضربنّ. فعلى هذا لا يجوز أن تتعلق اللام في «لما» بقوله «لتؤمنن به».

وقد أجاز بعض النحويين في معمول الجواب إذا كان ظرفاً أو مجروراً تقدُّمه، وجعل من ذلك: عوض لا نتفرق، وقوله تعالى ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝﴾ [المؤمنون]، فعلى هذا يجوز أن تتعلق بقوله «لتؤمنن به» وفي هذه المسألة تفصيل يذكر في علم النحو.

وقرىء: لَمّا بفتح اللام وتشديد الميم وخرّج على أن [٨٨/أ] «لما» هي الطالبة للجواب وتقديره: أخذ عليكم الميثاق. و«لما» المقتضية للجواب حرفٌ عند سيبويه، وظرف بمعنى حين عند المبرد وتبعه الزمخشري وابن عطية في «لما» هذه، وهو مذهب فاسد. ومن ادّعى أن أصلها لمن ما، فحذفت منه [ميم] واحدة فصار لمّا فقوله في غاية التمحُّلِ ويُنَزَّهُ كلامُ الله عنه ويلزم انْ تكون اللام الموطئة دخلت على حرف الجر نحو: أقسم بالله لمن أجلك لأضربن عمراً، لم يجز[1] لأن الموطئة لا تدخل إلا على أداة شرط.

وقرىء: آتيناكم بنون العظمة وبالتاء، ويناسب قوله «إصري». وقدم الإيمان بالله لأنه الأصل ثم النصر لأنه من ثمرة الإيمان.

﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ الضمير عائد على الله في «قال». و«أأقررتم»استفهام معناه

---

(١) ق: لمن يجسر.

الإثبات بعد أخذ الميثاق.

﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: على الإيمان والنصرة.

﴿إِصْرِي﴾ عهدي. وقرىء: أصري بضم الهمزة وكسرها.

﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾ [معناه أقررنا] بالإيمان به وبنصرته وقبلنا ذلك والتزمناه. وثَمّ جملة محذوفة اي: أقررنا وأخذنا على ذلك الإصر.

﴿قَالَ فَٱشْهَدُوا۟﴾ أي: يشهد بعضكم على بعض والتقدير: أقررتم فاشهدوا، أتى بالفاء رابطة بين الجملتين. ونظير ذلك قوله: أَلَقِيْتَ[1] زيداً؟ قال: لَقِيْتُه. قال: فَأَحْسِنْ إليه. التقدير: لقيت زيداً فأحسنْ إليه. ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ استئناف معناه التوكيد.

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الإشارةُ إلى الإقرارِ وأخذِ الإصرِ المذكورين بعد الإيمانِ والنصرة.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ الهمزة للإنكار والتنبيه على الخطأ في التولي والإعراض. وأُضيفَ الدينُ إلى الله لأنه تعالى هو الذي شرعه وتعبَّد به خَلْقَهُ. وقرىء: يبغون بالتاء وبالياء.

---

(١) ق: لقيت.

﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ﴾ أي: انقاد. وانتصب «طوعاً» على المصدرية أو على الحال. وقسم الإسلام إلى[1] نوعين أحدهما طوعٌ كانقيادِ الملائكةِ والأنبياء ومَنْ أجاب إلى الدين بغيرِ تَلَبُّثٍ ولا فكر كانقيادِ[2] أبي بكر الصديق رضي الله عنه، والآخر: كرهٌ وهو مَن انقاد لأجلِ السيف، وكثير من هؤلاء مَنْ حَسُنَ حالُه في الإسلامِ فانقاد إليه طوعاً. ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ[3]﴾ أي: إلى جزائه، وفي ذلك تهديد.

﴿قُلۡ ءَامَنَّا﴾ الآية، تقدم الكلام على نظيرها في سورة البقرة[4]. وهنا «قل» خطابٌ للنبيِّ ﷺ. وإذا أُمر هو بالقول فأُمَّتُه مأمورون به من حيث المعنى، ولذلك قال في البقرة «قولوا» خطاباً للجمع، ولذلك جاء الكلام بلفظ الجمع في «آمنا» وفي «علينا» وفي «نحن له»، وهنا جاء بلفظ «على» وفي البقرة بلفظ[5] «إلى» فعبَّر مرةً بالنزولِ من علوٍّ ومرة بالانتهاء. وقال الراغب[6]: إنما قال هنا «على» لأنَّ ذلك لما كان خطاباً للنبيِّ ﷺ وكان واصلاً إليه من الملأ الأعلى بلا واسطةٍ بشرية كان لفظ «على» المختص بالعلّوّ أَوْلى به، وهناك لما كان خطاباً للأمة وقد وصل إليهم بوساطةِ النبيِّ ﷺ كان لفظ «إلى» المختص بالاتصال أَوْلى انتهى.

---

(١) ق: على.

(٢) ق: كانقياد الرسل أبي بكر.

(٣) ق: ترجعون.

(٤) الآية ١٣٦.

(٥) ق: لفظ.

(٦) لعل أبا حيان ينقل عن «جامع التفاسير» للراغب الأصفهاني، وهو تفسير كبير طبعت مقدمته كما يقول صاحب الأعلام، انظر ٢: ٢٥٥.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ قرىء بإدغام الغين في الغين، وبالفك. والإسلامُ هنا شريعةُ محمدٍ ﷺ. وانتصب «ديناً» على التمييز لأنه يأتي بعد «غير» كقول العرب: إنَّ لنا غيرها إبلاً، كما ينتصب بعد «مثل» في قوله: يكفيكه مِثْلَهُ صبراً، ولذلك يجوز دخول «من» عليه. ويتعلق «في الآخرة» بمحذوف يدل عليه «الخاسرين» أي: خاسر في الآخرة وهذا أحسن التخريج.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿كَيْفَ﴾ سؤال معناه التعجب والتعظيم[1] وهي منصوبة بـ«يهدي»[2]، وجاء «قوماً» غير معيّنين، ونقل أهل التفسير تعيينهم واختلافاً فيهم، ولفظ «قوم» [يدل] على أنهم أكثر من اثنين لأنه اسم جمع، فعدَّ منهم طعمة بن أبيرق والحارث بن سويد بن الصامت ورجوح[3] بن الأسلت وأبو عامر الراهب. وبعض هؤلاء رجع إلى الإسلام وحسن حاله. «وشهدوا» معطوف على «كفروا» والواو لا ترتب، أو معطوف على «إيمانهم» مراعى فيه الانسباك لِأَنْ [٨٨/ب] والفعل أي [بعد] أنْ آمنوا وشهدوا. وأجيز أن يكون حالاً تقديره: وقد شهدوا. والرسولُ هنا هو محمدٌ ﷺ. [و«البينات» ما أُوتيَ عليه

---

(١) كتبت في الحاشية.

(٢) ق: بأهدي.

(٣) في تفسير الطبري ٣: ٢٤٢: وحوح.

السلام] من الكتابِ المعجز والمعجزاتِ الخارقة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ﴾ تَقدَّمَ تفسيرُ نظيرها في البقرة[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ قيل: نزلت في اليهود كفروا بعيسى وبالإنجيل بعد إيمانهم بأنبيائهم. ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ بكفرهم بمحمدٍ ﷺ بعد أنْ آمنوا بِنَعْتِهِ في التوراة.

﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ المعنى: لا توبةَ لهم فتقبل، فنفى القبول والمراد نفي التوبة، ويكون ذلك في قومٍ بأعيانِهم ختم الله عليهم بالكفر فيموتون عليه، ولذلك لم تدخل الفاء في قوله «لن تقبل» إذ قوله «الذين» لا عموم فيه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ﴾ لفظ «الذين» هنا عام فيمَنْ كفرَ وماتَ على الكفر، فلذلك دخلت الفاء في قوله «فلن يقبل» تشبيهاً للموصول باسم الشرط. وقرىء: نقبل بالنون ونصب «ملء». وقرىء: مِلَ بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام. وانتصب «ذهباً» على التمييز ولذلك يجوز دخول «مِن» عليه في غير القرآن.

﴿وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ قال الزمخشري[٢]: فإن قلت: كيف موقع قوله «ولو

(١) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [البقرة].

(٢) الكشاف ١ : ٤٤٣.

افتدى به»؟ قلت: هو كلامٌ محمولٌ على المعنى كأنه قيل: فلن تُقبلَ من أحدهم فديةٌ ولو افتدى بملءِ الأرضِ ذهباً انتهى.

وهذا المعنى ينبو عنه هذا التركيب ولا يحتمله. والذي يقتضيه هذا التركيب وينبغي أنْ يُحملَ عليه أنَّ الله أخبر أنَّ مَنْ مات كافراً لا يقبل منه ما يملأ الأرض من ذهب على كل حال يقصدها ولو في حال افتدائه من العذاب، لأن حالة الافتداء هي حالة لا يمتن فيها المفتدي على المفتدى منه إذْ هي حالة قهر من المفتدى منه للمفتدي. وقد قررنا في نحو هذا التركيب أن «لو» تأتي منبّهة على أنَّ ما قبلَها جاء على سبيلِ الاستقصاء، وما بعدَها جاء تنصيصاً على الحالة التي يظن أنها لا تندرج فيما قبلها، كقوله: أعطوا السائل ولو جاء على فرس، [فكونه جاء على فرس] مُشْعِرٌ بغناه فلا يناسب أنْ يُعطى. و«لو» في قوله «ولو افتدى به» وفيما قبله على سبيل الفرض لأنه لا يمكنه أن يأتي بملء الأرض ذهباً.

قال الزمخشري(1): ويجوز أنْ يُراد: ولو افتدى بمثله كقوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الزمر] والمِثْل يحذف كثيراً في كلامهم كقولك: ضربت ضرب زيد، تريد: مثل ضربه، وأبو يوسف أبو حنيفة، تريد: مِثْله، ولا هيثم الليلة للمطي، وقضية ولا أبو حَسَنٍ لها(2)، تريد: ولا مثل هيثم ولا مثل أبي حسن، كما أنه يُراد في نحو قولهم: مثلك لا يفعل كذا، تريد: أنت. وذلك أن المِثْلين يسدُّ أحدهما مكانَ الآخر فكانا في حُكْمِ شيءٍ واحد انتهى.

---

(1) الكشاف ١ : ٤٤٤.

(2) المقصود الإمام علي بن أبي طالب.

لا حاجة إلى تقدير «مِثْل» في قوله «ولو افتدى به» وكان الزمخشري تخيّل أن ما نَفَى أن يقبل لا يمكن أن يفتدي به فاحتاج إلى إضمار «مِثْل» حتى يغايرَ بين ما نفى قبوله وبين ما يفتدي به. وليس كذلك لأنَّ ذلك كما ذكرناه على سبيلِ الفرض والتقدير، إذْ لا يمكن عادةً أن أحداً يملكُ مِلْءَ الأرضِ ذهباً بحيث لو بذله لم يقبل منه، بل لو كان ذلك ممكنا لم يُحْتَجْ إلى تقدير «مِثْل» لأنه نفى قبوله حتى في حالة الافتداء. وليس[1] ما قدّر في الآية نظير ما مثّل به لأن هذا التقدير لا يحتاج إليه ولا معنى له، ولا في اللفظ ولا المعنى ما يدلُّ [عليه] فلا يقدّر.

وأما فيما مثّل به من: ضربت ضرب زيد وأبو يوسف أبو حنيفة، فبضرورة العقل يعلم أنه لا بدّ من تقدير «مثل» إذ ضربك يستحيل أن يكون ضرب زيد، وذات أبي يوسف يستحيل أن تكون ذات أبي حنيفة.

وأما: لا هيثم الليلة للمطي، فدلَّ على حذف «مثل» ما تقرر في اللغة العربية أن لا التي لنفي الجنس لا تدخل على الأعلام فتؤثر فيها واحتيج إلى إضمار «مثل» لتبقى على ما تقرر [٨٩/ أ] فيها، إذ تقرر أنها لا تعمل إلا في الجنس لأن العلمية تنافي عموم الجنس.

وأما قوله: كما أنه يزاد في: مثلك لا يفعل كذا، تريد أنت، فهذا قول مقول ولكن المختار عند حُذّاقِ النحويين أنَّ الأسماء لا تزاد. ولتقرير أن: مثلك لا يفعل كذا، ليست فيه «مثل» زائدة مكانٌ غير هذا.

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ (٩٢)﴾.

---

(١) ق: أوليس.

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما أخبر تعالى عَمَّنْ ماتَ كافراً أنه لا يُقبلُ منه ملء الأرض ذهباً على سبيل الفرض لو أتى به، حَضَّ المؤمنَ على الصدقة التي تنفعه في الآخرة. و«البر» ما تقرب به إلى الله تعالى من أعمالِ الخير، وغيّا[1] ذلك بلفظة «حتى»، والإنفاق مما يحبه المؤمن. ولما سمع الصحابة هذه الآية تصدقوا مما كانوا يحبون، فتصدق أبو طلحة ببَيْرُحَاء، وزيد بن حارثة بفرسٍ له كان يحبها وأبو ذرٍّ بفحل خير إبله. ﴿بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ مُجازٍ عليه.

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه تعالى أخبر أنه لا يُنال البر إلا بالإنفاق من المحبوب، فروي أنَّ إسرائيل مرض مرضاً شديداً فنذر لله أنه إنْ شفاهُ أن يحرّم أحب الطعام والشراب إليه، فحرّم لحوم الإبل وألبانها وكان ذلك أحبَّ المأكولِ والمشروب إليه تقرباً إلى الله تعالى. وروي أن هذه الآية نزلت حين قال النبيُّ ﷺ: أنا على ملّة إبراهيم. فقالت اليهود: كيف وأنتَ تأكلُ لحومَ الإبل وألبانها؟ فقال النبيُّ ﷺ: كان ذلك حلالاً لأبي إبراهيم ونحن نُحِلُّه. فقالت اليهود: بل كان حراماً على نوح وإبراهيم عليهما السلام حتى انتهى إلينا. فأنزل اللهُ ذلك تكذيباً لهم وأنَّ إسرائيل حرّم ذلك على نفسه قبل نزول التوراة.

---

(١) غيّا الغاية: نَصَبها وأقامها.

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ «قل» خطاب للنبيِّ ﷺ. وقبلَ «فائتوا» محذوفٌ تقديره: هذا الحق لا زعمكم معشر اليهود «فائتوا». وهذه محاجَّةٌ أنْ يؤمروا بإحضارِ كتابهم الذي فيه[١] شريعتهم فإنه ليس فيه ما ادَّعوه بل هو مُصَدِّقٌ لما أخبر صلى الله عليه وسلّم من أن[٢] تلك المطاعم كانت حلالاً لهم من قديم وأنَّ التحريم حادث. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ خرّج مخرج الممكن وهو معلوم كذبهم وذلك على سبيل الهزء بهم.

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الإشارة بـ«ذلك» إلى التلاوة إذ مضمّنها بيان مذهبهم وقيام الحجّة القاطعة عليهم. ويكون افتراء الكذب أنْ ينسبَ إلى كُتبِ الله ما ليس فيها.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ فيما أخبر به تعالى في كتبه المنزلة حتى في قصة إسرائيل وأنّ ما قالوه كذب. وانتصب «حنيفاً» على الحال وتقدّم تبيينُ ذلك في البقرة في قوله ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة].

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ الآية، مناسبتها لما قبْلَها أنّه لما أمر باتباع ملة إبراهيم وهو الذي كان من ملّته حج هذا البيت أخذ في ابتداء أمره من بنائه إلى منتهاه. وظاهر قوله «أول بيت وضع للناس» هو في بنائِه لعبادةِ الله تعالى، فذكرَ

(١) ق: في.

(٢) ق: أنت.

الشريفُ أبو البركات النسَّابة أنَّ[١] شيث بن آدم عليهما السلام هو الذي بنى الكعبة بالطين والحجارة على موضع الخيمة التي كان الله تعالى وضعها لآدم من الجنّة. و«أول» نكرة تخصصت بالإضافة وبالصفة فحسن الإخبار عنها بالموصول وهو معرفة وتقديره: للبيت الذي ببكة، وأُكدت النسبةُ بإنّ وباللام. وبكة: قيل مكة والباء والميم قد يتعاقبان، وقيل اسم لبطن مكة، والباء ظرفية. و«مباركاً» حالٌ من الضمير الذي هو في الحقيقة صلة للموصول تقديره: للذي استقرّ في بكّة مباركاً.

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ أي: علاماتٌ واضحات منها مقامُ إبراهيمَ والحجر الذي قام عليه والحجر الأسود والحطيم وزمزم، وأمنُ الخائف وهيبته وتعظيمه في قلوب الناس، وأمر الفيل ورمي طير الله [٨٩/ب] بحجارة السجيل، وكفُّ الجبابرة عنه على وجه الدهر، وإذعانُ نفوس العرب لتوقير[٢] هذه البقعة دون ناهٍ ولا زاجرٍ، وجبايةُ الأرزاق إليه وهو بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ، وحمايتهُ من السيول ودلالة عموم المطر إياه من جميع جوانبه على خصب آفاق الأرض، فإن كان المطر من جانب أخصب الذي يليه.

وارتفع «آيات» على الفاعلية بالجارّ والمجرور، التقدير: [كائنا] فيه آيات. والضمير في «فيه» عائد على البيت وذلك على سبيل الاتساع إذِ الآياتُ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها كائنةٌ في البيت وفي الحرم الذي فيه البيت.

قال الزمخشري[٣]: فإن قلت: كيف أجزت أن يكون «مقام إبراهيم»

(١) ق: فإن.

(٢) ق: لتوقيره.

(٣) الكشاف ١: ٤٤٧.

والأمن عطف بيان لـ«آيات» وقوله «ومن دخله كان آمنا» جملة مستأنفة إما ابتدائية وإما شرطية؟ قلت: أجزت ذلك من حيث المعنى لأنَّ قوله «ومَنْ دخله كان آمنا» دلَّ على أمنِ داخلِه فكأنه قيل: فيه آياتٌ بيناتٌ مقام إبراهيم وأمن داخله، ألا ترى أنك لو قلت: فيه آية بيّنة من دخله كان آمناً، صَحَّ لأنه في معنى: فيه آية بيّنة: أمن من دخله انتهى.

ليس ما ذكره بواضح لأنَّ تقديره: وأمن الداخل هو مرفوع عطفاً على «مقام إبراهيم» وفسّر بهما الآيات، والجملة من قوله «ومن دخله كان آمناً» لا موضع لها من الإعراب فتدافعا إلاّ إن اعتقد أن ذلك معطوف على محذوف يدلُّ عليه ما بعده فيمكن التوجيه فلا يجعل قوله «ومن دخله كان آمنا» في معنى: وأمن داخله إلا من حيث تفسير المعنى لا تفسير اللفظ والإعراب.

ولم يذكر الزمخشري في إعراب «مقام إبراهيم» إلا أنه عطف بيان لقوله «آيات بينات». وردّ عليه ذلك لأن «آيات» نكرة و«مقام إبراهيم» معرفة ولا يجوز التخالفُ في عطف البيان، وقولُه مخالفٌ لإجماعِ الكوفيين والبصريين فلا يلتفت إليه.

وحكم عطف البيان عند الكوفيين حكم النعت فتتبع النكرة النكرة والمعرفة المعرفة. وقد تبعهم في ذلك أبو علي الفارسيّ. وأما عند البصريين فلا يجوز إلا أنْ يكونا معرفتين ولا يجوز أن يكونا نكرتين، وما أعربه الكوفيون ومَنْ وافقهم عطف بيان وهو نكرة على النكرة قبله أعربه البصريون بدلاً ولم يقم لهم دليل على تعيين عطف البيان في النكرة، وكلُّ مَنْ وقفنا على كلامه جعل «مقام إبراهيم» تابعاً «لآيات» على توضيح

كثرتها[١] في المقام منها تأثير قدميه في حجر صلد وغوصه فيه إلى الكعبين، وإلانة بعض الحجر دون بعض، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياءعليهم السلام، وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين ألوفَ سنين، والذي اخترناه في إعرابه في الكتاب الذي اختصرنا هذا منه[٢] أنْ يكون ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: إحداها مقام إبراهيم، أو يكون ارتفاعه على أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره: منها مقام إبراهيم.

والذي أختاره الآن أنه ليس متعلقاً بقوله «آيات بينات» ولا تفسير لها لا من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى، بل هو عندي بدل أو عطف بيان من الموصول الذي هو خبر إنّ فكأنه قيل: إنَّ أوّلَ بيتٍ وضع للناس لمقام إبراهيم. «ومن دخله كان آمنا» مَن شرطية أو موصولة، وتكلفوا عطف هذه الجملة على قوله «مقام إبراهيم» تكلفاً بعيداً.

والذي أذهبُ إليه أنه إخبارٌ من الله تعالى بفضل هذا البيت والحرم وأمن من دخله كما قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت] فذكر تعالى امتنانه عليهم بأنَّ مَنْ دخل هذا الحرم آمن. وظاهر الآية أنها مذكرة[٣] للعرب بما كانوا عليه في الجاهلية من احترامِ [٩٠/أ] هذا البيت وأمنِ مَنْ دخله من ذوي الجرائم. وكانت العرب يُغيرُ بعضَها على بعض ويتخطف الناس بالقتل وأخذ الأموال وأنواع الظلم إلاّ في الحرمِ.

(١) ق: على توضيح آية كثيرة.
(٢) انظر البحر ٣: ٩.
(٣) ق: كره.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ هذه الآية دليلٌ على فرض الحج وجاء بـ«على» الدالة على الاستعلاء وجاء متعلقاً بـ«الناس» بلفظ العموم ثم جاء بلفظ الخصوص بقوله «من استطاع». وقرىء: حج بكسر الحاء وفتحها. و«مَن» بدل مِن «الناس» وقيل: شرطية والجواب محذوف تقديره: فعليه الحج. وإعرابُ «مَن» فاعلة بالمصدر تقديره: أن يحج البيت المستطيع إعرابٌ فاسد. ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ عام في كُلِّ كافرٍ باعتقاد عدم فرض الحج وغيره. و«من» شرطية وجوابه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فاندرج هو في لفظ «العالمين» كأنه قيل: غنيٌّ عنه وعن سائر العالم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية، لما فرغ من ذِكْرِ البيتِ وحجه وكان أهلُ الكتاب لا يحجون عادَ إلى الكلام مع أهل الكتاب الذين تقدّم ذكرهم، فنعى عليهم أولاً أعظم مساوئهم وهي الكفر بآيات الله مع شهادتهم إياها، ثم ثانياً صدّهم مَنْ آمن عن سبيل الله. وسبب نزول هذه الآية وما بعدها أنَّ رجلاً من اليهود حاول الإغراء بين الأوس والخزرج واسمه شاس بن قيس وكان أعمى شديد الضغن والحسد للمسلمين، فرأى ائتلاف الأوس والخزرج فقال: ما لنا من قرار بهذه البلاد مع اجتماع ملأ بني قيلة، فأمر شاباً من اليهود أنْ يُذَكّرهم يومَ بُعاث وما جرى فيه من الحرب وما قالوه من الشعر، ففعل فتكلّموا حتى ثاروا إلى السلاح بالحرّة، فقال رسولُ الله ﷺ: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟» ووعظهم فرجعوا وعانق بعضهم بعضاً. هذا

ملخصه وذكروه مطوّلاً[١].

﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي في التوراة دالّة على نبوّةِ محمدٍ ﷺ ورسالته للناس جميعا.

﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ جملة في موضع الحال دالّة على تأبّيهم وكفرهم بآيات الله مع شهادة الله على أعمالهم. وأتى بلفظ[٢] «شهيد» الدالّ على المبالغة.

و﴿تَصُدُّونَ﴾ هنا متعدٍّ ومفعوله «من آمن» والسبيل يذكر ويؤنث. والضمير في «تبغونها»[٣] عائدٌ على السبيل وأصله: تَبغون لها عِوَجاً فاتسع في الفعل وحذف اللام، والجملة حالية أي: باغِينَ لها عِوجاً، وذو الحال الضميرُ في «تصدون» وقيل: حال من «سبيل الله». وقرىء: تُصِدّون مضارع أَصَدّ والهمزة فيه من: صدّ عن كذا اللازم. قال ذو الرمة[٤]: [من الطويل]

أُناسٌ أَصَدُّوا الناسَ بالسَّيفِ عنهمُ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ
إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ
وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ
تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ
وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا

---

(١) انظر مثلاً تفسير الطبري ٤: ١٦.

(٢) ق: بلفظة.

(٣) ق: يبغونها.

(٤) ديوانه ص٦٢٣، وعجزه فيه:

صدود السواقي من أنوف المخارم

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ الآية، لما أنكر تعالى على أهلِ الكتاب صدّهم المؤمنينَ عن الإسلامِ حذَّرَ المؤمنين من إغواءِ الكافرين وإضلالهم وناداهم بوصف الإيمان تنبيهاً على تباين ما بينهم وبين الكفّار. ولم يأتِ بلفظ «قل» ليكون ذلك خطاباً منه تعالى لهم وتأنيساً لهم. وأبرز نهيه عن موافقتهم وطواعيتهم في صورة شرطية لأنه لم تقع طاعتهم له. والإشارة بـ«يا أيها الذين آمنوا» إلى الأوس والخزرج بسبب نائرة[1] شاس بن قيس. وأطلق الطواعية ليدلَّ على عموم البدل أي أنْ يصدر منكم طواعية ما في أي شيء يحاولونه من إضلالكم. ولم يقيّد الطاعة بقصة الأوس والخزرج على ما ذكر في سبب النزول. والردّ هنا التصيير أي: يصيّرونكم، فتعدّت إلى اثنين والثاني «كافرين»، قال الشاعر: [من الوافر]

فَـردَّ شعـورهـن السُّـودَ بِيْضًـا[2] ... وردَّ وجـوهـهـنَّ البِيْـضَ سُـودا

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ استفهامُ استبعادٍ. ووقوع الجملتين بعده حالاً[3] يقتضي انتفاء الكفر عمّن يتلى عليه[4] كتاب [٩٠/ب] الله، وفيهم رسول الله وهو محمد ﷺ الآتي بالآيات[5] المعجزات على يديه. ﴿وَمَن يَعْتَصِم﴾ يستمسك ﴿بِٱللَّهِ﴾ أي: بآياتِ الله ورسوله.

---

(١) أي: فتنته.

(٢) ق: البيضاء. والبيت لفضالة بن شريك في عيون الأخبار ٣: ٦٧.

(٣) ق: حال.

(٤) كتبت في الحاشية.

(٥) عبارة ق: الآتي ذكره بالآيات.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الآية، لما حذّرهم تعالى من إضلال من يريد إضلالهم أمرهم بمجامع الطاعات فرهَّبهم أولاً بقوله «اتقوا الله» إذِ التقوى إشارة إلى التخويفِ من عذاب الله، ثم جعلها سبباً للأمر بالاعتصام بدين الله، ثم أردف الرهبة بالرغبة وهي قوله «واذكروا نعمة الله عليكم» وأعقبَ الأمرَ بالتقوى بنهيٍ هو من تمام التقوى، والأمرَ بالاعتصام بنهيٍ آخر وهو من تمام الاعتصام. وانتصب «حقَّ» على أنه مصدر لإضافته إلى المصدر والمعنى: حقّ اتّقائه.

وقال ابن عطيّة: ويصحّ أنْ يكون التّقاة في هذه الآية جمعَ فاعل وإن كان لم يتصرف منه فيكون كرماةٍ ورامٍ، أو يكون جمع تقيّ إذ فعيل وفاعل بمنزلة. والمعنى على هذا: اتقوا الله كما يحق أن يكون متّقوه المختصُّون به، ولذلك أُضيفوا إلى ضمير الله تعالى انتهى كلامه.

وهذا المعنى ينبو عنه هذا اللفظ إذ الظاهر أن قوله «حق تقاته» من بابِ إضافة الصفة إلى موصوفها كما تقول: ضربت زيداً شديدَ الضرب، تريد: الضرب الشديد، فكذلك هذا أي: اتقوا الله الاتقاء الحق أي: الواجب الثابت. أما إذا جعلت التقاة جمعاً فإنَّ التركيبَ يصير مثل: اضرب زيداً حق ضرابه، فلا يدل هذا التركيب على معنى: اضرب زيداً كما يحق أن يكون ضرابه، بل لو صرّح بهذا التركيب لاحتيج في فهم معناه إلى تقدير أشياء يصحّ بها المعنى والتقدير: اضرب زيداً ضرباً حقاً كما يحقّ أن يكون ضرب ضرابه، ولا حاجة تدعو إلى تحميل اللفظ غير ظاهره وتكلّف تقادير يصح بها معنى لا يدلّ عليه ظاهر اللفظ. ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾ تَقدَّمَ الكلامُ على هذه الجملة في سورة البقرة[1]. ﴿وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ جملة حاليّة.

---

(١) انظر تفسير الآية ١٣٢.

﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ هو كتاب الله. رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «القرآن حبل الله المتين»[١].

﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ نهى عن التفرق في الدين كتفرق اليهود والنّصارى.

﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ أي: صرتم. ولا يراد اتصاف الموصوف بالأخوّة[٢] وقت الصباح، وقال ابن عطية: «فأصبحتم» عبارة عن الاستمرار وإن كانت اللفظة مخصوصة بوقت، وإنما خصّت هذه اللفظة بهذا المعنى من حيث هي مبدأ النهار وفيها مبدأ الأعمال، والحال التي يحسُّ بها المؤمنُ في نفسه هي الحال[٣] التي يستمر عليها يومه في الأغلب، ومنه قول الربيع بن ضبع[٤]:

أصبحتُ لا أحمل السلاح ولا أملِكُ رأسَ البعير إنْ نفرا

انتهى. وهذا الذي ذكره من أن «أصبح» للاستمرار وعَلَّله بما ذكره لا أعلمُ أحداً من النحويين ذهب إليه، إنما ذكروا أن «أصبح» المقتضية للخبر تكون بمعنى الصيرورة وبمعنى تقييد الخبر بوقت الصباح.

والباء في «بنعمته» للسبب أي: بسببِ نعمةِ الله التي أنعم بها عليكم من التآلف بعد التفرق والمودّة بعد العداوة.

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ﴾ جملة مستأنفة أخبر تعالى بما كانوا عليه من

(١) انظر مختار الأحاديث النبوية ص١٠٩، رواية البيهقي بألفاظ أخر.
(٢) ق: به لأخوّة.
(٣) عبارة ق: والحال التي يحسبها المؤمن نفسه فيها هي الحال.
(٤) ق: ابن الأصبع. والبيت في النوادر ص١٥٩. وهو من المنسرح.

الإشرافِ على الهلاكِ، ويجوز أن تكون حالاً أي: وقد كنتم. والشفا: الطرف. والضمير في «منها» عائد على النار ويجوز أن يعود على الشفا لإضافته إلى المؤنّث لأنَّ طرفَ الشيء من الشيء كما أنّث في قوله[1]:

كما شَرِقَتْ صدرُ القناة من الدّم [من الطويل]

وقال ابن عطية رادًّا على من أجاز عود الضمير على الشفا: لأنّه ليس لنا لفظ مؤنث يعود الضمير عليه، انتهى. وأقول: لا يحسن إلاّ على الشفا لأنَّ كينونتهم على الشفا هو أحد جزأي الإسناد فالضمير لا يعود إلا عليه.

وأما ذكر الحفرة [٩١/أ] فإنما جاءت على سبيل الإضافة إليها، ألا ترى أنك إذا قلت: كان زيدٌ غلامَ جعفر، لم يكن جعفر محدَّثاً عنه وليس أحد جزأي الإسناد، وكذلك لو قلت: ضرب زيدٌ غلامَ هند، لم تحدّث عن هند بشيء، وإنما ذكرت جعفراً وهنداً مخصّصاً للمحدَّث عنه. وأمّا ذكر النار فإنما جيء بها لتخصيص الحفرة [وليست أيضاً أحد جزأي الإسناد ولا محدَّثاً عنها، وأيضاً فالإنقاذُ من الشفا أبلغُ من الإنقاذ من الحفرة] ومن النار لأن الإنقاذ منه يستلزم الإنقاذ من الحفرة ومن النار، والإنقاذ منهما لا يستلزم الإنقاذَ من الشفا فَعَوْدُه على الشفا هو الظاهر من حيث اللفظ ومن حيث المعنى. ومثّلت حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالقعودِ على جرفها مُشْفينَ على الوقوعِ فيها.

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ

---

(١) البيت للأعشى في ديوانه ص١٥٩، وصدره:

وتشرقَ بالقول الذي قد أذعْتَه

﴿ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا
عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ
وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ﴾ الظاهر أنه خطاب للمخاطبين قبل. و«منكم» يقتضي التبعيض ويندرج في الخطاب جميع المؤمنين. والمرادُ بالأمّةِ الآمرةِ والناهية مَنْ يتعيّن لصلاحيةِ ذلك، إذ الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكون إلّا لمن علم المعروف والمنكر، وكيف يترتب الأمر في إقامته وكيف يباشره فإنَّ الجاهلَ ربما أمر بمنكرٍ ونهى عن معروف.

وقد رأينا مَنْ ينتمي للصلاح يأمرُ أصحابه بالاجتماع لمغنٍّ شابٍّ يغنّي بالتغزّلات والمجون، وينافخ في قصبة يخرج منها أصوات فيتلذذون بذلك ويرقصون ويدور أحدهم مئة دورة وأكثر من ذلك، ويجعل أذنه عند القصبة والمغني ويتفتل(١) في رقصهِ ويمشي على جنبه ملاصقاً إلى الأرض من أول الإيوان إلى آخره ويشهد ذلك الجمّاء الغفير ممّن ينتمي إلى الإسلام فلا ينكر شيئاً(٢) من ذلك وهو من أعظم المنكرات.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ﴾ قال ابن عباس: هم الأمم السالفة التي تفرقت في الدين. و«البيّنات» قال ابن عبّاس: آيات الله التي أنزلت على أهل كل ملّة. و«أولئك» إشارة إلى الذين تفرقوا.

---

(١) ق: وينتقل.

(٢) ق: شيء.

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ البياض عبارة عن إشراقها ونورها وبشرها برحمة الله. والسّواد عبارة عن ظلمتها وكمدها. وخصّ الوجه لأنه أشرف ما في الإنسان وإنْ كان البياض والسواد يعمّان جميع البدن. ويجوز أن يراد بالبياض والسواد حقيقتهما. و«يوم» ظرف والعامل فيه العامل في «لهم» أي: كائن لهم عذاب عظيم يوم تبيضّ.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ هذا تفصيل لأحكام من تبيض وجوههم وتسودّ. وابتدأ بالذين اسودّت للاهتمام بالتحذير من حالهم ولمجاورة قوله «وتسودّ وجوه»، والابتداء بالمؤمنين والاختتام بحكمهم. وللعرب في مثل هذا طريقان أحدهما أنه إذا فُصِّلَ شيءٌ أو حُكم بحكم وإنْ لم يكن تفصيلياً يجعل الآخر للأول كهذا، والآخر أن يجعل الأول من السابقَيْن للأول والثاني للثاني كقوله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود] ثم قال ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ ﴿١٠٦﴾﴾ [هود] وقال بعده ﴿ ۞وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود][1].

﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ تقديره: فيقال لهم أكفرتم. وفي «البحر»[2] «فأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم» الخبر محذوف للعلم به والتقدير: فيقال لهم أكفرتم، كما حذف القول في مواضع كثيرة كقوله تعالى ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد]. ولما حذف الخبر حُذفت الفاء وإن كان حذفها في غير هذا لا يكون إلا في الشعر.

وقال الشيخ كمال الدين عبد الواحد بن عبد الله بن خلف الأنصاري في كتابه الموسوم بـ«نهاية التأميل في أسرار التنزيل»: قد اعتُرض على النحاة في

(١) سقطت «الذين» في ق.

(٢) ٣: ٢٢.

قولهم لما حذف «يقال»: حذفت الفاء بقوله[١] تعالى ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [الجاثية] تقديره: فيقال لهم: أفلم تكن آياتي [٩١/ب] تتلى عليكم، فحذف «فيقال» ولم تحذف الفاء. فلما بطل هذا تعيّن أنْ يكون الجواب «فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» فوقع ذلك جواباً [له] ولقوله «أكفرتم». ومن نظم العرب إذا ذكروا حرفاً يقتضي جواباً [له أن يكتفوا عن جوابه حتى يذكروا حرفاً آخر يقتضي جواباً] ثم يجعلون لهما[٢] جواباً واحداً كما في قوله تعالى ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة] فقوله ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ جواب الشرطين. وليس «أفلم» جواب أمّا بل الفاء عاطفة على مقدّر والتقدير: أهملتكم فلم أتل عليكم آياتي. انتهى ما نقل عن هذا الرجل وهو كلام أديب [لا كلام نحوي].

أما قوله: قد اعتُرض على النحاة، فيكفي في بطلان هذا الاعتراض أنه اعتراض على جميع النحاة، لأنه ما من نحوي إلا خرّج الآية على إضمار: فيقال لهم أكفرتم، وقالوا: هذا هو فحوى الخطاب، وهو أن يكون شيء في الكلام مقدّر لا يستغني المعنى عنه، والقول بخلافه مخالف للإجماع فلا التفات إليه.

فأمّا ما اعترض به من قوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [الجاثية] وأنَّ تقديره[٣]: فيقال لهم: أفلم تكن آياتي، فحذف «فيقال لهم» ولم تحذف الفاء، فدلّ على بطلان هذا التقدير - فليس بصحيح، بل هذه

---

(١) ق: لقوله.

(٢) ق: له.

(٣) ق: وأن قدره.

الفاء التي بعد الهمزة في «أفلم» ليست فاء «فيقال» التي هي جواب أمّا [حتى يقال: حذف «فيقال» وبقيت الفاء، بل الفاء هي جواب أما] و«يقال» بعدها محذوف. وفاء «أفلم» تحتمل وجهين: أحدهما أن تكون زائدة، وأنشد النحويون على زيادة الفاء قول الشاعر(١): **[من الطويل]**

يموتُ أناسٌ أو يشيبُ فتاهمُ ويحدثُ ناسٌ والصغيرُ فيكبرُ

وقول الآخر(٢): **[من الكامل]**

لما اتّقى بيدٍ عظيمٍ جُرمُها فتركتُ ضاحي جلدها يتذبذب

يريد: تركت. وقال زهير(٣): **[من الطويل]**

أراني إذا ما بتُّ بتُّ على هوى فثَمّ إذا أصبحتُ أصبحتُ غاديا

يريد: ثم.

وقال الأخفش: وزعموا أنهم يقولون: أخوك فوجد، يريدون: أخوك وجد. والثاني أن تكون الفاء تفسيرية، وتقدير الكلام: فيقال لهم ما يسوؤهم فألم(٤) تكن آياتي، ثم اعتنى بهمزة الاستفهام فقدمت على الفاء التفسيرية كما تقدم على الفاء التي للتعقيب في نحو قوله ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف] وهذا على مذهب مَنْ يثبت أن الفاء تكون تفسيرية نحو: توضأ زيد فغسل وجهه ويديه إلى آخر أفعال الوضوء. فالفاء هنا ليست مرتبة وإنما هي

---

(١) في الهمع ٢: ١٣١ غير منسوب.
(٢) من شواهد مغني اللبيب ١: ١٦٦.
(٣) ديوانه ص٢٨٥.
(٤) ق: وألم.

مفسّرة للوضوء، كذلك تكون في «أفلم تكن آياتي تتلى عليكم» مفسرة للقول الذي يسوؤهم وقول هذا الرجل، فلما بطل هذا تعيّن[١] أن يكون الجواب: فذوقوا، أي تعيّن بطلان ما قدّره النحويون من قوله: فيقال لهم، لوجود هذه الفاء في «أفلم تكن».

وقد بيّنّا أن ذلك التقدير لم يبطل وأنه سواء في الآيتين، وإذا كان كذلك فجواب أمّا هو[٢] «فيقال»، ومعنى الكلام [عليه]. وأما تقديره: أهملتكم فلم تكن آياتي، فهذه نزعة زمخشرية وذلك أن الزمخشري يقدر بين همزة الاستفهام وبين الفاء فعلاً يصحّ عطف ما بعده عليه، ولا يعتقد أن الفاء والواو وثمّ إذا دخلت عليها الهمزة أصلهن التقديم على الهمزة، لكن اعتنى بالاستفهام فقدّم على حروف العطف كما ذهب إليه سيبويه وغيره من النحويين. وقد رجع الزمخشري أخيراً إلى مذهب الجماعة في ذلك.

وعلى تقدير قول هذا الرجل: أأهملتكم فلا بد من إضمار القول وتقديره: فيقال أأهملتكم، لأن هذا المقدّر هو خبر المبتدأ والفاء جواب أما وهو الذي يدل عليه الكلام ويقتضيه ضرورة. وقول هذا الرجل: فوقع ذلك جواباً له ولقوله «أكفرتم» يعني أن «فذوقوا العذاب» [٩٢/أ] جواب[٣] لأمّا ولقوله «أكفرتم»، والاستفهام هنا لا جواب له إنما هو استفهام على طريق التوبيخ والإرذال بهم.

وأما قول هذا الرجل: ومن نظم العرب إلخ، فليس كلام العرب على ما

---

(١) ق: يعني. وهي كذلك في العبارة التالية.

(٢) كتبت في الحاشية.

(٣) ق: جواباً.

زعم بل يُجعل لكلٍّ جواب إن لا يكن ظاهراً فمقدّر، ولا يجعلون لهما جواباً واحداً، وأما دعواه ذلك في قوله تعالى «فإما يأتينكم منّي هدى» الآية وزعمه أن قوله تعالى «فلا خوف عليهم» جواب للشرطين - فقولٌ رُويَ عن الكسائي، وذهب بعض الناس إلى أن جواب الشرط الاول محذوف تقديره: فاتبعوه. والصحيح أن الشرط الثاني وجوابه هو جواب الشرط الأول. وتقدمت هذه الأقوال الثلاثة عند الكلام على قوله تعالى ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة]، وهو سؤال توبيخ وتعنيف بعد إيمانكم ظاهره أن كفرهم كان بعد حصول إيمانهم وليس كل كافر كذلك[١]. والمراد والله أعلم: بعد أن ولدتم على الفطرة المتهيئة لقبول الإيمان، أو [الإيمان] المراد به في قوله ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف].

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ انظر تفاوت ما بين القسمين: هناك جمع لمن اسودّت وجوههم بين التعنيف بالقول والعذاب، وهنا جعلهم مستقرين في الرحمة، فالرحمة ظرف لهم وهي شاملتهم. ولما أخبر تعالى أنهم مستقرون[٢] في رحمة الله بيّن أن ذلك الاستقرار هو على سبيل الخلود لا زوال منه ولا انتقال. وأشار بلفظ الرحمة إلى سابق عنايته بهم وأنَّ العبدَ وإنْ كثرت طاعته لا يدخل الجنةَ إلا برحمةِ الله تعالى. وقال ابن عباس: المراد بالرحمة هنا الجنة، وذكر[٣] الخلود للمؤمن ولم يذكر ذلك للكافر إشعاراً بأنَّ جانبَ الرحمة أغلب. وأضاف الرحمةَ هنا إليه ولم يضف العذاب إلى نفسه بل قال «فذوقوا العذاب». ولما ذكر العذاب علّله بفعلهم، ولم ينصّ

(١) ق: لذلك.

(٢) ق: مستقرين.

(٣) ق: وذلك.

هنا على سبب كونهم في الرحمة وهو[١] توكيد لقوله «الذين» وفيها توكيد لقوله «ففي رحمة الله». وقرىء: اسوادّتْ وابياضّتْ بألف.

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الآية التي نزلت في أمر الأوس والخزرج وما قبلها. و﴿نَتْلُوهَا﴾ خبر ثانٍ أو جملة في موضع الحال. وقرىء: يتلوها بالياء.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ[٢] ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ فما وقع منه تعالى من تنعيم قوم وتعذيب آخرين ليس من باب الظلم، والظلم وضع الشيء في غير موضعه. ونكّر «ظلماً» وهو في سياق النفي يعمّ، وهو مصدر حذف فاعله تقديره: ظلمه للعالمين. و«للعالمين» في موضع المفعول.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ هي من تمام الخطاب الأول في قوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران]، وتوالت بعد هذا مخاطبات المؤمنين من أوامر ونواهٍ وكان قد استطرد من ذلك لذكر من يبيض وجهه ويسودّ، وشيء من أحوالهم في الآخرة. ثم عاد إلى الخطاب الأول فقال تعالى «كنتم خير أمة»

---

(١) ق: وهم.

(٢) ق: لا يريد.

تحريضاً بهذا الإخبار على الانقياد والطواعية. والظاهر أن الخطاب هو لمن وقع الخطاب له أولاً وهم أصحاب رسول الله ﷺ ويتناول مَنْ يجيء بعدهم ممّن يتصف بأوصافهم. واللام في «للناس» متعلقة بـ «أخرجت» وقيل بـ «خير» وهو الأحسن. و«تأمرون» وما بعده تفسير للخيرية التي في قوله «خير أمة».

قال الزمخشري[1]: «كان» عبارة عن وجود الشيء في زمن ماض على سبيل الإبهام، وليس فيه دليل على عدم سابق ولا على انقطاع طارىء ومنه قوله [تعالى] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا ۝٩٦﴾ [النساء] ومنه قوله «كنتم خير أمة» كأنه قال: وجدتم خير أمة انتهى كلامه.

فقوله: إنها لا تدل على عدم سابق، هذا إذا لم تكن بمعنى صار، فإذا كانت بمعنى صار، دلّت على عدمٍ سابق، فإذا قلت: كان زيد عالماً بمعنى صار، دلّت على أنه انتقل من حالة الجهل إلى حالة العلم. وقوله[2]: ولا على انقطاع طارىء، الصحيح [٩٢/ ب] أنها كسائر الأفعال ثم قد تستعمل حيث لا يرادُ [الانقطاع، وفرق بين الدلالة والاستعمال، ألا ترى أنك تقول: هذا اللفظ يدل على العموم ثم يستعمل حيث لا يراد] العموم بل المراد الخصوص. وقول الزمخشري: كأنه قال: وجدتم خير أمة، هذا يعارض أنها مثل قوله «وكان الله غفوراً» لأن تقديره: وجدتم خير أمة يدل على أنها تامة وأن «خير أمة» حال، وقوله «وكان الله غفوراً» لا شك أنها هنا الناقصة فتعارضا. و«خير» مضاف للنكرة وهي أفعل تفضيل فيجب إفرادها وتذكيرها وإن كانت جارية على جمع.

---

(١) الكشاف ١ : ٤٥٤.

(٢) ق: قوله.

والمعنى أنَّ الأمم إذا فضّلوا أمةً أمة كانت هذه الأمة خيرها. وحكم عليهم بأنهم خير أمة ولم يبيّن[١] جهة الخيرية في اللفظ وهي سَبْقُهم إلى الإيمان برسول الله ﷺ وبِدَارُهُم إلى نصرته ونقلهم عنه علم الشريعة وافتتاحهم البلاد، وهذه فضائل اختصوا بها مع مالَهُم من الفضائل. وكُلُّ مَنْ عمل بعدهم حسنة فلهم مثل أجرها لأنهم[٢] سبب في إيجادها إذ هم الذين سنوها وأوضحوا طريقها «من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجرهم شيئاً»[٣].

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ أي: ولو آمن عامتهم وسائرهم. ويعني الإيمان التام النافع. واسم كان ضمير يعود على المصدر المفهوم من «آمن» كما تقول: من صدق كان خيراً له أي لكان هو أي الإيمان. وعلّق كينونةَ الإيمان خيراً لهم على تقدير حصوله توبيخاً لهم مقروناً بنُصْحِه تعالى لهم، إذْ لو آمنوا لَنَجَّوْا أنفسهم من عذاب الله. و«خيراً»[٤] هنا أفعل التفضيل، والمعنى: لكان خيراً لهم مما هم عليه لأنهم آثروا دينهم على دين الإسلام حبّاً في الرئاسة واستتباع العوام فلهم في هذا حظ دنيويّ[٥]. وإيمانهم يحصل به الحظ الدنيوي من كونهم يصيرون رؤساء في الإسلام. والحظ الأخروي الجزيل بما وُعِدوه على الإيمان من إيتائهم[٦] أجرهم مرّتين.

---

(١) ق: يتبيّن.

(٢) ق: لأنه.

(٣) الحديث في صحيح مسلم ٢: ٧٠٥، ٤: ٢٠٥٩ بألفاظ مقاربة.

(٤) ق: وخير.

(٥) ق: دنياوي، وكذا في العبارة التالية.

(٦) ق: إتيانهم.

﴿ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ كعبد الله بن سلام وأخيه وثعلبة بن سعيد[١] ومَنْ أسلم من اليهود، وكالنجاشي وبحيرا ومَنْ أسلم من النصارى إذ كانوا مصدّقين برسول الله ﷺ قبل أن بُعِثَ وبعده. وعلى هذا يكون «أهل الكتاب» ليس عاماً إذ قد وجد الإيمان من بعضهم.

﴿ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ ﴾ هاتان الجملتان تضمنتا الإخبار بغيبين مستقبلين وهو أن ضررهم إياكم لا يكون إلا أذى أي: شيئاً تتأذون منه لا ضرراً يكون فيه غلبة واستئصال[٢]، وكذلك إن تقاتلوهم خُذِلوا ونُصِرْتُم. وكلا هذين الأمرين وقع[٣] لأصحاب رسول الله ﷺ، ما ضرهم أحد من أهل الكتاب ضرراً يبالون به، ولا قصدوا جهة كافر إلاّ كان[٤] النصر لهم والغلبة عليهم.

﴿ إِلَّآ أَذٗىۖ ﴾ استثناء متصل وهو استثناء مفرّغ من المصدر المحذوف، والتقدير: لن يضروكم ضرراً إلا ضرراً يسيراً لا نكاية فيه ولا إجحاف.

﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ هذا استئناف إخبار أنهم لا ينصرون أبداً. ولم يشرك في الجزاء فيجزم لأنه [ليس] مترتباً على الشرط بل التولية مترتبة على المقاتلة، والنصر منفي عنهم أبداً سواءٌ قاتلوا أم لم يقاتلوا إذ مَنْعُ النصر سببه[٥] الكفر، فهي جملة معطوفة على جملة الشرط والجزاء، كما أن جملة الشرط والجزاء معطوفة على «لن يضروكم إلا أذى». وليس امتناع الجزم لأجل «ثم» كما

---

(١) ق: بن شعبة، وما أثبتّه في ط، والبحر ٣: ٣٠، والطبري ٤: ٣١.

(٢) ق: والاستئصال.

(٣) ق: وقعا.

(٤) ق: أن كان.

(٥) ق: سبب.

زعم بعضهم، زعم أن جواب الشرط يقع عقيب المشروط قال: و«ثم» للتراخي فلذلك لم تصلح لجواب الشرط والمعطوف على الجواب. وما ذهب إليه هذا الذاهب خطأ لأن ما زعم أنه لا يجوز قد جاء في أفصح كلام قال تعالى ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد] فجزم المعطوف بثمّ على جواب الشرط. و«ثم» هنا ليست للمهلة(١) في الزمان وإنما هي للتراخي في الإخبار، فالإخبار بتوليهم في القتال وخذلانهم والظفر بهم أبهج وأسرّ للنفس، ثم أخبر تعالى بعد ذلك بانتفاء النصر عنهم مطلقا.

﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ عام في الأمكنة [٩٣/أ] وهو شرط وجوابه محذوف يدل [عليه] ما قبله. ومَنْ أجاز تقديم جواب الشرط قال: «ضربت» جواب الشرط. ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ ظاهرهُ أنه استثناءٌ منقطع قاله الفرّاء والزجاج واختاره ابن عطية وقال: لأن بادي الرأي أنَّ الحبلَ من الله ومن الناس يزيل ضرب الذلة. وليس الأمر كذلك وإنما في الكلامِ محذوفٌ يدركه فَهْمُ السامعِ الناظِرِ في الأمور وتقديره في آيتنا: فلا نجاة من الموت إلا بحبل انتهى كلامه. وعلى ما ذكره لا يكون استثناءً منقطعاً لأنه مستثنى من جملةٍ مُقدَّرة وهي قوله: فلا نجاةَ من الموت، وهو متصل على هذا التقدير فلا يكون استثناءً منقطعاً من الأول ضرورة أن الاستثناء الواحد لا يكون منقطعاً متصلاً.

وذهب الزمخشري وغيره إلى أنه استثناء متصل قال(٢): وهو استثناء من أعمّ عامّ الأحوال، والمعنى: ضربت عليهم الذلّة في عامّة الأحوال إلا في

(١) ق: للمهملة.

(٢) الكشاف ١: ٤٥٥.

حالِ اعتصامهم بحبلٍ من الله وحبل من الناس يعني ذمة الله وذمة المسلمين، يعني لا عزَّ لهم قط إلا بهذه الواحدة وهي التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية انتهى كلامه. وهو متجه، وشُبِّه العهدُ بالحبلِ، لأنه يصل قوماً بقومٍ كما يفعل الحبل في الأجرام.

والظاهر في تكرار الحبل أنه أُريد حبلان، وفسّر حبل الله بالإسلام وحبل الناس بالعهد والذمة، وقيل: حبل الله هو الذي نص الله عليه من أخذ الجزية والثاني هو الذي فوّض إلى رأي الإمام فيزيد فيه وينقص بحسب الاجتهاد.

وفي هذه الآية توكيد بعموم الظرف في قوله «أينما ثقفوا» وبتكرار «ضربت». «وباؤوا» تقدم تفسير نظيرها في البقرة[1]. وهنا «الأنبياء» جمع تكسير وهناك جمع سلامة، وهنا «بغير حق» نكرة وهناك «بغير الحق» معرفة وذلك من التفنّن في الكلام.

﴿ ۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ ﴾ سبب نزولها إسلام عبد الله بن سلام وغيره من اليهود

(١) انظر تفسير الآية ٦١ من البقرة.

وقول الكفار من أحبارهم: ما آمنَ بمحمدٍ إلا أشرارنا ولو كانوا أخياراً ما تركوا دِينَ آبائهم قاله ابن عباس. والضمير في «ليسوا» عائد على أهل الكتاب، و«سواء» خبر ليس يُخْبَر به عن اثنين وعن الجمع وقد سُمع تثنيته قالوا: هما سواءان. ثم بيّن تعالى عدم التسوية بقوله تعالى «من أهل الكتاب» إلى ما وصفهم به. و«قائمة» أي مستقيمة.

و﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ ساعاتُه واحدها إنَى كمِعًى وأنىً كفتىً وأَنْي كظبي وأَنْو كجروٍ. ووصف «أمة» بقوله «قائمة» وهو اسم فاعل يدل على الثبوت، ثم بالمضارعات من قوله «يتلون ويؤمنون ويأمرون وينهون ويسارعون»، وهي تدل على التجدد والتكرر والمسارعة والمبادرة. و«الخيرات» عامة تشمل هذه الأوصاف السابقة وغيرها.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى مَن اتَّصفَ بهذه الأوصاف السابقة. فانظر إلى حُسْن مساق هذه الصفات حيث توسط الإيمان وتقدمت عليه الصفة المختصّة بالإنسان في ذاته وهي الصلاة بالليل، وتأخرت عنه الصفتان المتعدّيتان والصفة المشتركة وكلها نتائج عن الإيمان.

﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ﴾ قرىء بالياء فيهما جرياً على نسق الغيبة، وبالتاء فيهما الظاهر أنه التفات إلى قوله «أمة قائمة». لما وصفهم بأوصاف جليلة أقبل عليهم تأنيساً لهم واستعطافاً عليهم فخاطبهم بأن ما يفعلونه من الخير فلا يمنعون ثوابه ولذلك اقتصر على قوله «من خير» لأنه موضع عطف عليهم وترحّم، ولم يتعرض لذكر الشر. ومعلوم أن كل ما يفعل من خير وشر يترتب عليه موعوده. ويؤيد هذا الالتفات أنه راجع إلى

«أمة قائمة» قراءة الياء[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية، لما ذكر شيئاً من أحوال المؤمنين ذكر شيئاً من أحوال الكافرين ليتّضح الفرق بين القبيلين.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال [٩٣/ب] الزمخشري[٢]: شبّه ما كانوا ينفقونه من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس، لا يبتغون به وجه الله تعالى - بالزرع الذي حسّه البرد[٣] فذهب حطاماً. وقيل: هو ما يتقربون به إلى الله تعالى مع كفرهم. وقيل: ما أنفقوا في عداوة رسول الله ﷺ [فضاع عنهم][٤] لأنهم لم يبلغوا في إنفاقه ما أنفقوه لأجله انتهى.

وقال ابن عطية: معناه المثال القائم في النفس من إنفاقهم الذي يعدّونه قربة وحسبة وتحنثاً ومن حَبْطه يوم القيامة وكونه هباءً منثوراً وذهابه كالمثال القائم في النفس من زرع قومٍ نَبَتَ واخضَرَّ وقوي الأمل فيه فهبّت عليه ريح فيها صرّ محرق فأهلكته [انتهى].

والظاهر أن «ما» في قوله «مثل ما ينفقون» موصولة والعائد محذوف أي: ينفقونه. والظاهر تشبيه ما ينفقونه بالريح والمعنى على تشبيهه بالحرث فقيل هو من التشبيه المركب وهو اختيار الزمخشري، وقيل[٥]: وقع التشبيه بين

---

(١) ق: وأنه راجع.. قراءة التاء.

(٢) الكشاف ١: ٤٥٧.

(٣) أي أحرقه.

(٤) زيادة من الكشاف.

(٥) هذا قول ابن عطية، انظر المحرر الوجيز ٣: ٢٠٤.

شيئين وشيئين، ذكر أحد المشبّهين وترك ذكر الآخر ثم ذكر [أحد] الشيئين المشبّه بهما وليس الذي يوازن المذكور الأول وترك الآخر، ودلّ المذكوران[١] على المتروكَيْن وهذا اختيار ابن عطية قال: وهذه غاية البلاغة والإعجاز انتهى.

ويجوز أن يكون على حذف مضاف من الأول تقديره: مثل مهلك ما ينفقون، أو من الثاني تقديره: كمثل[٢] مهلك [ريح]. وقيل: يجوز أن تكون «ما» مصدرية أي: مثل إنفاقهم فيكون قد شبّه المعقول بالمحسوس إذ شبّه الريح بالإنفاق. وظاهر قوله «ينفقون» أنه من نفقة المال.

وأفردَ الريح لأنه أكثر ما يأتي في العذاب، والجمع في الرحمة كقوله ﴿رِيحًا صَرْصَرًا ﴿١٦﴾﴾ [فصلت] وقوله ﴿ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴿٤٦﴾﴾ [الروم]. والصرّ: البردُ الشديد المحرقُ وقيل البارد بمعنى الصرصر، وقد استعملته العرب صفة كقول الشاعر[٣]: [من البسيط]

نكباءُ صِرٌّ بأصحاب المُحِلاّتِ

وقوله: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ هو على حذف مضاف، التقدير: زرع حرث قوم، أو أطلق الحرث على الزرع مجازاً. والضمير في «ظلموا» عائد على «قوم» وأبعد الزمخشري[٤] في تجويز جعله عائداً على الذين ينفقون.

---

(١) ق: المذكور.

(٢) ق: لمثل.

(٣) البيت في البيان والتبيين غير منسوب ٣: ٤٣، وصدره:

لا تعدلنّ أتاويّين تضربهم

(٤) انظر الكشاف ١: ٤٥٧.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ الآية، نزلت في رجال من المؤمنين يواصلون رجالاً من يهود للجوارِ والحلفِ والرضاع قاله ابن عباس. وقال أيضاً هو وقتادة والسدّي والربيع: نزلت في المنافقين نهى الله المؤمنين عنهم. البطانة في الثوب بإزاء الظهارة ويستعار لمن يختصه الإنسان كالشعار والدثار. ألوت في الأمر قصّرت فيه. الخبال والخبل الفساد، والعَنَت[١] المشقّة.

وقوله ﴿ مِّن دُونِكُمْ ﴾ في موضع الصفة «لبطانة» أو متعلقاً بـ«لا تتخذوا». ودون: أصله ظرف مكان ثم اتسع فيه حتى صار بمعنى غير فكأنه قيل: من غيركم. ودلَّ هذا النهي على المنع من استكتاب أهل الذمة وتصريفهم في البيع والشراء والاستنامة إليهم. وقد عتب عمر بن الخطاب أبا موسى على استكتابه ذمياً وتلا عليه هذه الآية. وقد قيل لعمر في كاتبٍ مُجيدٍ من نصارى الحيرة: ألا يكتب عنك؟ فقال: إذاً أتَّخذُ بطانة. والجملة من قوله «لا يألونكم خبالاً» لا موضعَ لها من الإعراب إذْ جاءت بياناً لحال البطانة الكافرة هي والجمل[٢] التي بعدها لينفّر المؤمنين عن اتخاذهم بطانة. ومَنْ ذهب إلى

(١) ق: والعند.

(٢) ق: والجملة.

أنها صفة للبطانة أو حال مما تعلقت به فبعيد عن فهم الكلام الفصيح، لأنهم نُهوا عن اتخاذِ بطانةٍ[١] كافرة. ثم نبّه على أشياء مما هم عليه من ابتغاء الغوائل للمؤمنين وودادة مشقتهم وظهور بغضهم. والتقييد بالوصف أو بالحال يؤذن بجواز الاتخاذ عند انتفائهما.

ويألو: فعل لازم، وهنا جاء بعده[٢] منصوبان فخرج على أن «خبالا» حال منقول من[٣] المفعول أي: لا يألونَ خبالكم، أو على أنه مصدر في موضع الحال، أو على أنه تعدّى [٩٤/أ] للضمير على إسقاط اللام والخبال على إسقاط في. والأحسن تخريجه على التضمين أي لا يمنعونكم فساداً كقولك: ما آلُوكَ نُصحاً [أي ما أمنعك نصحاً].

و«ما» في قوله ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ مصدرية تقديره: وَدُّوا عَنَتَكُم أي: مَشَقَّتكم.

﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: لا يكتفون ببغضكم بقلوبهم حتى يصرحوا بذلك بأفواههم. وذكر الأفواه دون الألسنة إشعاراً بأن ما يلفظون به يملأ أفواههم كما يقال: قال كلمة تملأُ الفم[٤] إذا تَشدَّقَ بها.

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ﴾ تقدمَ الكلامُ على نظيرها في قوله ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ ﴿٦٦﴾﴾ [آل عمران] قال الزمخشري[٥]: «وتؤمنون بالكتاب كله» والواو في «وتؤمنون» للحال وانتصابها مِنْ «لا يحبونكم» [أي لا يحبونكم] والحال

(١) ق: البطانة.

(٢) ق: بعد.

(٣) ق: في.

(٤) ق: الفهم.

(٥) الكشاف ١: ٤٥٩.

أنكم تؤمنون بكتابهم كله وهم مع ذلك يبغضونكم فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيءٍ من كتابكم؟. وفيه توبيخٌ شديد بأنهم في باطلهم أصلبُ[١] منكم في حقكم، ونحوه ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء] انتهى كلامه.

وهو حسن إلا أنَّ في صناعة النحو ما يخدشه وهو أنه جعل الواو في «وتؤمنون» للحال وأنها منتصبة من «لا يحبونكم». والمضارع المثبت إذا وقع حالاً لا تدخل عليه واو الحال تقول: جاء زيد يضحك، ولا يجوز: ويضحك، وأما قولهم: قمت وأصكّ عينه ففي غاية الشذوذ، وقد أوّل[٢] على إضمار مبتدأ أي: قمت وأنا أصك عينه فتصير الجملة اسمية. ويحتمل هذا التأويل هنا أي: ولا يحبونكم وأنتم تؤمنون بالكتاب كله، لكن الأَوْلى ما ذكرناه من كونها للعطف.

قال ابن عطية: «وتؤمنون بالكتاب كله» يقتضي أنَّ الآيةَ في منافقي اليهود لا منافقي العرب ويعترضها أنَّ منافقي اليهود لم يُحفَظْ أنهم كانوا يؤمنون في الظاهر إيماناً مطلقاً ويكفرونَ في الباطن كما كان المنافقون من العرب إلا ما رُوي عن زيد بن الصيف القينقاعي، فلم يبق إلا أن قولهم «آمنا» معناه صدّقنا أنه نبيٌّ مبعوثٌ إليكم أي: فكونوا على دِينكم ونحن أولياؤكم وإخوانكم لا نُضمر لكم إلا المودَّةَ، ولهذا كان بعض المؤمنين يتخذهم بطانة. وهذا منزع قد حفظ أن كثيراً من اليهود كان يذهب إليه، ويدل على هذا التأويل أن المعادل لقولهم «آمنا» عضّ الأنامل من الغيظ وليس فيه ما يقتضي الارتداد كما في قوله ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة] بل هو ما

(١) ق: أطلب.
(٢) ق: الأول.

يقتضي البغض وعدم المودة. وكان أبوالجوزاء إذ تلا هذه الآية قال: هم الإباضية. وهذه الصفة قد ترتبت[1] في أهل البدع من الناس إلى يوم القيامة انتهى.

وما ذكر من أن منافقي اليهود لم يُحفَظْ عنهم أنهم كانوا يؤمنون في الظاهر إيماناً مطلقاً ويكفرون في الباطن إلا ما روي من أمر زيد فيه نَظَرٌ: فإنه قد رُوي أنَّ جماعة منهم كانوا يعتمدون ذلك، ذكره البيهقي وغيره، ولو لم يُرْوَ ذلك إلا عن زيد القينقاعي لكان في ذلك مَذَمَّةٌ لهم بذلك إذ وجد ذلك في جنسهم، وكثيراً ما تُمدح العربُ أو تُذَمُّ بفعلِ الواحدِ من القبيلة، ويؤيد صدور ذلك من اليهود قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ الظاهر فِعْلُ ذلك وأنه يقعُ منهم عَضُّ الأناملِ لشدة الغيظ مع عدم القدرة على إنفاذ ما يريدون. ويحتمل أن لا يكون ثَمّ عض الأنامل ويكون ذلك من مجاز التمثيل، عبّر بذلك عن شدة الغيظ والتأسف على ما يفوتهم من إذايتكم.

﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾ إنه صلى الله عليه وسلم أُمِرَ أَنْ يواجههم بهذا الأمر على سبيل الدعاء والمباينة لهم. والباء في «بغيظكم» للحال أي [٩٤/ب] ملتبسين بغيظكم.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ ذكر تعالى المَسَّ في الحسنة ليبيِّنَ أنَّ بأدنى مَسِّ الحسنة تحصلُ المساءةُ لهؤلاء المبغضين، ثم عادل ذلك في السيئة بلفظِ الإصابة وهي عبارة عن التمكن لأن الشيء المصيب شيئاً[2] هو متمكنٌ منه أو

(١) ق: ترتب.

(٢) ق: بسيء.

فيه، فدلَّ هذا النوع البليغ على شدة العداوة إذ هو حقدٌ لا يذهبُ عند الشدائدِ بل يفرحون بنزولِ الشدائد بالمؤمنين. وقابل الحسنة بالسيئة والمساءة بالفرح وهي مقابلة بديعة. وقرىء: لا يَضِرْكم مِن ضار يضير، وقرىء بضم الضاد والراء مرفوعة ومشددة من ضرّ يضرّ، وخُرّج على أن حركة الراء إتباع لحركة الضاد، وقيل هي حركة إعراب وذلك على أن النيّة به التقديم لا على أنه جواب الشرط وهذا ضعيف.

والذي نختاره أنه أجرى حركة الكاف مجرى حركة الهاء فضم ما قبل الكاف كما قالت العرب: يردُه. وهذا توجيه شذوذ في هذه القراءة، وقرأ[(١)] الضحاك «لا يضركم كيدهم» بضم الضاد وكسر الراء المشددة على أصل التقاء الساكنين. قال ابن عطية: فأما الكسر - يعني في الراء - فلا أعرفها قراءة، وعبارة الزجاج في ذلك متجوَّز فيها إذ يظهر من درج كلامه أنها قراءة [انتهى. وهي قراءة] كما ذكرنا عن الضحاك.

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾
إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾
وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ
لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ
إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ
إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا
خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾

---

(١) ق: قال.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه لما نهاهم عن اتخاذ بطانة من الكفار ووعَدَهُم أنهم إنْ صبروا واتقوا فلا يضرهم كيدهم ذكَّرهم بحالة اتفق فيها بعض طواعية وأتباع لبعض المنافقين وهو ما جرى يوم أُحد لعبد الله بن أبي بن سلول حين انخذلَ عن رسولِ الله ﷺ واتبعه في الانخذال ثلاث مئة رجل من منافق وغيرهم من المؤمنين، وأن ذلك كله كان في غزوة أحد وفيها نزلت هذه الآيات كلها. ومعنى غدوّه خروجه من عند أهله وفسّر ذلك بخروجِه من حجرةِ عائشة يوم الجمعة غدوة.

﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي: مواطن للقتال. وعبر بالقعود لأنه عبارة عن الثبوت للشيء.

قال الزمخشري[(١)]: وقد اتُّسِعَ في قعد وقام حتى أجريا مجرى صار انتهى. أما إجراء قعد مجرى صار فقال أصحابنا إنها جاءت في لفظةٍ واحدة وهي شاذةٌ لا تتعدى وهي في قولهم: شحذ شفرته حتى قَعَدَتْ كأنها حربة أي: صارت. وقد نقد على الزمخشري تخريج قوله تعالى ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء] على أنَّ معناه فتصير، لأن ذلك عند النحويين لا يطّرد. وفي اليواقيت لأبي عمر الزاهد: قال ابن الأعرابي: القعد الصيرورة، والعرب تقول: قعد فلان أميراً بعدما كان مأموراً أي: صار.

وأما إجراء قام مجرى صار فلا أعلمُ أحداً عَدَّها في أخوات كان ولا ذكر أنها تأتي بمعنى صار ولا ذكر لها خبراً إلا أبا عبد الله بن هشام الخضراوي

---

(١) الكشاف ١: ٤٦٠.

فإنه قال في قول الشاعر[١]: [من الوافر]

على ما قام يَشْتُمُني لئيمٌ

أنها من أفعال المقاربة. قال الزمخشري[٢]: أو عمل فيه معنى «سميع عليم» انتهى، يعني في «إذ همّت» وهذا غير محرر لأنَّ العامل لا يكون مركباً من وصفين فتحريره أن يقول: أو عمل فيه معنى سميع أو عليم، وتكون المسألة من باب التنازع، وجوّز أن يكون معمولاً لِتبوِّىء ولِغَدَوْتَ.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ الطائفتان بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس وهما الجناحان قاله ابن عباس. وكان خروجه صلى الله عليه وسلم في ألف، والمشركون في ثلاثةِ آلافٍ فانخذل عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الناس.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ فيه ثناء عليهما إذ لم ينفذا الهمّ بل حضرا القتال. وقرىء: وليّهم على الجمع.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ لما أمرهم بالتوكل [٩٥/أ] عليه ذكّرهم بما يوجب التوكل عليه وهو ما يسّر من الفتح والنصر يوم بدر وهم في حالةِ ذِلَّةٍ وقلّة إذْ كان ذاك النصر ثمرة التوكل عليه والثقة به، وأنتم أذلّةٌ في أعينِ أعدائكم من القلة، وإنْ كانوا أعزاء في نفوسهم. والنصر ببدر هو المشهور الذي قُتلَ فيه صناديدُ قريش، وعلى يوم بدر ابْتُنِيَ الإسلامُ وكان يوم الجمعة السابع عشر من رمضان لثمانية عشر شهراً من الهجرة.

---

(١) لم أجده في غير البحر ٣: ٤٥، وعجزه فيه ٨: ٤١٠:

كخنزير تمرّغ في رماد

(٢) الكشاف ١: ٤٦٠.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، ظاهرها اتصالها بما قبلها وأنها من قصة بدر وهو قول الجمهور فتكون «إذ» معمولاً لـ«نصركم». وقيل هذا من تمام قصة أحد فيكون قوله «ولقد نصركم الله ببدر» معترضاً بين الكلامين لما فيه من التحريضِ على التوكل والثبات للقتال. وحجة هذا القول أنَّ يومَ بدرٍ كان المدد فيه من الملائكة بألفٍ وهنا بثلاثةِ آلاف، وكان الكفار يوم بدر ألفاً والمسلمون على الثلث، فكان عدد الكفار مقابلاً لعدد الملائكة. ويوم أحد كان المسلمون ألفاً والكفار ثلاثة آلاف فَوُعِدُوا بثلاثةِ آلافٍ من الملائكة. وقال «ويأتوكم من فورهم» أي: الأعداء، ويوم بدر ذهب المسلمون إليهم.

قال الزمخشري[1]: فإن قلت: كيف يصح أن يقوله لهم يوم أحد ولم تنزل فيه الملائكةُ؟ قلتُ: قاله لهم مع اشتراطِ الصبرِ والتقوى عليهم فلم يصبروا عن الغنائم ولم يتقوا حيثُ خالفوا أمرَ رسولِ الله ﷺ فلم تنزل الملائكة، ولو تمّوا على ما شرط عليهم لنزلت. وإنما قدّم الوعد بنزول الملائكة ليقوي قلوبهم ويعزموا على الثبات ويثقوا بنصر الله انتهى كلامه.

وقوله: لم تنزل فيه الملائكةُ، ليس مُجْمَعاً عليه بل قال مجاهد: حضرت فيه الملائكةُ ولم تقاتل. فعلى قول مجاهد يسقط السؤال.

وقوله: قاله لهم مع اشتراطِ الصبرِ والتقوى عليهم فلم يصبروا عن الغنائم ولم يتقوا إلى آخره، المشروط بالصبر والتقوى هو الإمداد بخمسة آلاف، أما الإمداد الأول وهو بثلاثة آلاف فليس بمشروط. ولا يلزم من عدم إنزال[2] خمسة آلاف لفوات شرطه أنْ لا تنزل ثلاثة آلاف ولا شيء منها.

(١) الكشاف ١: ٤٦١.

(٢) ق: من أنزل عدم خمسة آلاف.

قال ابن عطية: وقرأ الحسن: بثلاثه آلاف، يقف على الهاء، وكذلك: بخمسه آلاف. ووجه هذه القراءة ضعيف لأنَّ المضافَ والمضافَ إليه يقتضيان الاتصالَ [إذ هما] كالاسم الواحد وإنما الثاني كمال الأول، والهاء إنما هي أمارة وقف فيقلَق[1] الوقف في موضع إنما هو للاتصال. لكن قد جاء نحو هذا للعرب في مواضع فمن ذلك ما حكاه الفراء أنهم يقولون: أكلت لحماشاة، يريدون لحم شاة، فمطلوا الفتحة حتى نشأت عنها ألف كما قالوا في الوقف: قالا، يريدون قال. ثم مطلوا الفتحة في القوافي ونحوها من مواضع الروية والتثبت ومن ذلك في الشعر قوله[2]: **[من الكامل]**

لولا تسلّي الهمّ عنك بجسرةٍ ... عيرانةٍ مثلِ الفنيق المُكْدَمِ

يريد: ينبع فمطل. [ومنه قول الآخر[3]: **[من الرجز]**

أقول إذ خرّت على الكلكالِ ... يا ناقتا ما جُلْتِ من مجالِ

يريد: الكلكل]. ومنه قول الآخر: **[من الوافر]**

فأنت من الغوائل حين تُرمى ... ومن ذم الرجال بمنتزاح[4]

يريد: بمنتزح.

---

(١) ق: فتعلق.. هو الاتصال.

(٢) البيت لبشر بن أبي خازم في ديوانه ص١٧٩. ووقع فيه اضطراب في ق وروايته: ينباع من دفري غضوب حسرة بانة مثل العقيق. وما أثبتّه رواية الديوان، ولا شاهد فيه، وانظر أيضاً المفضليات ص٣٤٦.

(٣) البيت في اللسان (كلل) غير منسوب، والمحتسب ١: ١٦٦.

(٤) ق: بمستراح، يريد: بمستريح. والبيت لابن هرمة في ديوانه ص٩٢.

قال أبو الفتح[١]: فإذا جاز أن يعترض هذا التمادي بين أثناء الكلمة الواحدة، جاز التمادي والتأني[٢] بين المضاف والمضاف إليه إذ هما في الحقيقة اثنان انتهى كلامه. هذا تكثير وتنظير بغير ما يناسب، والذي يناسب توجيه هذه القراءة الشاذة أنها من إجراء الوصل [٩٥/ب] مجرى الوقف أبدلها هاءً في الوصل كما أبدلوها في الوقف [وموجود في كلامهم إجراء الوصل مجرى الوقف وإجراء الوقف] مجرى الوصل.

وأما قوله: لكن قد جاء نحو هذا للعرب في مواضع، وجميع ما ذكر إنما هو من إشباع الحركة [وإشباع الحركة] ليس نحو إبدال التاء هاءً في الوصل، وإنما هذا نظير قولهم: ثلاثه أربعه، أبدل التاءَ هاءً ثم نقل حركة [همزة] أربعة إليها وحذف الهمزة وأجرى الوصل مجرى الوقف في الإبدال، ولأجل الوصل نقل إذ لا يكون هذا النقل إلا في الوصل.

قال أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي: «ألن يكفيكم» جواب الصحابة حين قالوا: هلاّ أَعْلَمْتَنا بالقتال لنتأهب؟ فقال لهم النبي ﷺ: ألن يكفيكم. قال ابن عيسى: والكفايةُ مقدار سَدِّ الخلّة، والإمداد إعطاء الشيء حالاً بعد حال انتهى.

ومعنى ﴿ مِّن فَوۡرِهِمۡ﴾ من سفرهم هذا قاله ابن عباس، أو مِنْ وَجْهِهم هذا قاله الحسن وقتادة والسدّي، قيل: وهي لغةُ هذيل وقيس عيلان وكنانة، أو منْ غَضَبِهم[٣] هذا قاله مجاهد وعكرمة والضحاك وأبو صالح مولى أم هانىء،

---

(١) انظر المحتسب ١ : ١٦٦.

(٢) ق: والثاني.

(٣) ق: عصيهم. ومن غضبهم: فقد كانوا غضبوا يوم أحد ليوم بدر مما لقوا. انظر القرطبي ٤ : ١٩٦.

أو معناه في نهضتهم هذه قاله ابن عطية، أو مِنْ ساعتهم هذه قاله الزمخشري. ولفظةُ الفَوْرِ تدل على السرعةِ والعجلة تقول: افعل هذا على الفور لا على التراخي، ومنه الفور في الحج والوضوء. وفي إسناد الإمداد إلى لفظة «ربكم» دون غيره من أسماء الله تعالى إشعار بحسن النظر لهم واللطف بهم. وقرىء: مسومين بفتح الواو وكسرها، واشتقاقه من السومة وهي العلامة، وفي تعيين الأعلام خلافٌ الله أعلم بالصحيح من ذلك.

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ ﴾ الضمير عائد على المصدر المفهوم من «يمددكم» وهو الإمداد. و«بشرى» مصدر، وهو مفعول من أجله، ولما وجدت فيه الشروط من اتحاد[1] الفاعل والزمان لم تدخل عليه اللام، ولما اختلّ فيما بعده شرط[2] وهو عدم اتحاد الفاعل أتى باللام في قوله «ولتطمئن».

ولام ﴿ لِيَقْطَعَ ﴾ هي لام كي متعلقة بمحذوف تقديره: نصركم ليقطع، يدل عليه ما قبله من قوله تعالى «وما النصر إلا من عند الله».

﴿ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟[3] ﴾ أي: جانباً بقتلٍ أو أسرٍ أو فرار.

﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ أي: يهزمهم قاله ابن عباس، وقرىء بالدال مكان التاء أي يصيب كبدهم بالحزن وعدم الظفر يقال: كبده [أي] أصاب كبده.

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ جملة اعتراض بين المعطوفين منبهة على [أن] الأمر لله وحده لا يشركه في ذلك أحد.

---

(١) ق: اتخاذ.

(٢) اشترط.

(٣) ق: طرفاً من الكفار.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ
وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾
وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن
يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ
جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ
أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ مناسبتها لما قبلها ومجيئها بين أثناء القصة أنه لما نهى[1] المؤمنين عن اتخاذِ بطانةٍ من غيرهم واستطرد لذكر قصة أحد وكان الكفار أكثر معاملتهم بالربا مع أمثالهم ومع المؤمنين وهذه المعاملةُ مؤدية إلى مخالطة الكفار - نُهوا عن هذه المعاملةِ التي هي الربا قطعاً لمخالطةِ الكفار وموادتهم واتخاذ أخلاء منهم، لا سيما والمؤمنون في أولِ حالِ الإسلام ذَوُو إعسارٍ والكفار من اليهود وغيرهم ذوو[2] إيسار. وكان أيضاً أكل الحرام له مدخل عظيم في عدم قبول الأعمال الصالحة والأدعية كما جاء في الحديث[3]: «أن الله لا يستجيب لمن مَطْعمُه حرامٌ ومَشْرَبُه حرام إذا دعا، وأنَّ آكل الحرام يقول إذ حج لبيك وسعديك فيقول [اللهُ] له: لا لَبَيْكَ ولا سَعْديكَ وحَجُّك مردودٌ عليك» فناسب ذكر هذه الآية

(١) «القصة أنه لما نهى» كتبت في الحاشية.

(٢) ق في الموضعين: ذوا.

(٣) بعضه في مختار الأحاديث النبوية ص١٧.

هنا. وقيل: ناسب اعتراض هذه الجملة هنا أنه تعالى وعد المؤمنين بالنصر والإمداد مقروناً بالصبر والتقوى [فبدأ بالأهم منها وهو ما كانوا يتعاطونه من أكل الأموال بالباطل وأمر بالتقوى] ثم بالطاعة.

وقيل: لما قال «ولله ما في السماوات وما في الأرض» وبيّنَ أنَّ ما فيهما من الموجودات مُلكٌ له ولا يجوز أن يُتصرف في شيءٍ منها إلا بإذنه على الوجه [٩٦/أ] الذي شرعه، وآكل الربا متصرفٌ في مالِه بغير الوجه الذي أمر، نبّه تعالى على ذلك[١] ونهى عما كانوا في الإسلام مستمرين عليه من حكم الجاهلية: التضعيف عاماً بعد عام.

والربا مُحَرَّمٌ جميع أنواعه فهذه الحال لا مفهوم لها وليست قيداً في النهي إذْ ما لا يقعُ أضعافاً مضاعفة مساوٍ في التحريم لما كان أضعافاً مضاعفة، وقد تقدم الكلام في نسبةِ الأكلِ إلى الربا في البقرة[٢].

وقيل: المضاعفة منصرفة إلى الأموال، فإنْ كان الربا في السن يرفعونها ابنة مخاض بابنة لبون ثم حقّة ثم جذعة ثم رباع وهكذا إلى فوق، وإنْ كان في النقود فمئة إلى قابل بمئتين فإنْ لم يوفّها فأربع مئة. والأضعاف جمع ضعف وهو من جموع القلّة فلذلك أردفه بالمضاعفة.

وقرىء: «سارعوا» بغير واو، وسارعوا بالواو. و﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فيه حذفان: كاف التشبيه ومضاف تقديره: كعرض السماوات، يدل على ذلك قوله [تعالى في الحديد ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد]. والسماء يراد به الجنس لا الإفراد، يدل على ذلك قوله] «عرضها السماوات»

---

(١) ق: به تعالى عن ذلك.

(٢) في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة].

جمعاً. والعرض يستعمل في السّعة وبالمعنى الذي يقابل الطول. وقد فسّر العرض هنا بهذين الوجهين.

﴿فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ قال ابن عباس: السرّاء اليسر والضراء العسر.

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ أي: الممسكين ما في أنفسهم من الغيظ بالصبر فلا يظهر له تأثير في الخارج.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ الآية، نزلت بسبب نبهان التمّار أتته امرأةٌ تشتري منه تمراً فقبّلها وضَمَّها ثم ندم، وقيل: ضرب على عجزها. قال ابن عباس: الفاحشةُ الزنى وظلم النفس ما دونه من النظر واللمسة.

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟﴾ معطوف على «فاستغفروا لذنوبهم» والإصرار على الذنب المداومة عليه.

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جملة اعتراض بين المتعاطفين، وتقدم إعراب نظيرها في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة]. وهذه الجملة الاعتراضية فيها ترقيق للنفس وداعية إلى رجاء الله وسعة عفوه واختصاصه بغفران الذنب.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا
تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ
ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ

فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ لما انهزمَ مَن انهزم من المؤمنين أقبل خالد يريد أنْ يعلو الجبل فقال رسول الله ﷺ: لا يعلُنّ علينا، اللهم لا قوةَ لنا إلا بك، فنزلت، قاله ابن عباس. ولا تَهِنُوا: أي: لا تضعفوا عن الحرب ولا تحزنوا على ما فاتكم من الظفر بالكفار.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ الآية، المعنى: إنْ نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر ثم لم يضعفوا أن قاتلوكم بعد ذلك فلا تضعفوا أنتم، أو فقد مسَّ القومَ في غزوة أحد قبل مخالفة أمر رسول الله ﷺ ونحوه. وهذه تسليةٌ منه تعالى للمؤمنين، والتأسي فيه أعظم مسلاة. وقرىء: إن يمسسكم بالتاء وبالياء، فبالتاء على تأنيث القرح بمعنى الجراحة. وقرىء: قرح بفتح القاف وضمّها مع سكون الراء، وقرىء: قرح بفتح القاف والراء وهما لغتان كالطّرْد والطّرَد.

﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ التمحيص: التطهير من الذنوب، وقيل: الابتلاء والاختبار.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ هذه الآية وما بعدها عتب شديد لمن وقعت منهم الهفوات يوم أحد. واستفهم على سبيل الإنكار أن يظن أحد [أنه] يدخل الجنة وهو مخلّ بما افترض عليه من الجهاد والصبر عليه.

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ جملة حالية والمعنى: ولما يكن جهاد يعلمه الله.

وقال الزمخشري(١): «ولما» بمعنى لم، إلا أن فيها ضرباً من التوقع فدلّ على نفي الجهاد فيما مضى وعلى توقّعه فيما يُستقبل، وتقول: وعدني أن يفعل كذا ولمّا، تريد: ولم يفعل وأنا أتوقع فعله انتهى كلامه.

---

(١) الكشاف ١ : ٤٦٧.

وهذا الذي قاله في لمّا أنها تدل على توقع الفعل المنفيِّ[١] بها فيما يُستقبلُ، لا أعلم أحداً من النحويين ذكره بل ذكروا أنك إذا قلت: لما يخرج زيد، دلَّ ذلك على انتفاء الخروج فيما مضى متصلاً نفيهُ إلى وقتِ الإخبار، أما أنها تدل على توقُّعِه في المستقبل [٩٦/ب] فلا.

[وقرىء]: ولما يعلم الله بفتح الميم وخرّج على أنه إتباع لفتحة اللام، أو على أنه دخلته النون الخفيفة وحذفت كما حذفت في قوله: لا تهين الفقير، وأصله يعلمنّ وتهينَنّ، أو على أنه نصب بالجازم وهي لغيّة كما جزموا بالناصب في قوله[٢]: [من المنسرح]

لن يَخِبِ الآن من رجائك مَن حَرَّكَ [مِن] دونِ بابك الحَلَقَهْ

وقرأ الجمهور: ويعلم بفتح الميم[٣] فقيل هو مجزوم وأتبع الميم اللام في الفتح كقراءة من قرأ: ولما يعلم بفتح الميم على أحد التخاريج. وقيل هو منصوب فعلى مذهب البصريين بإضمار أنْ بعد واو مع نحو: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، وعلى مذهب الكوفيين بواو الصرف. وقرىء: ويعلم بكسر الميم عطفاً على «ولما يعلم». وقرىء: ويعلم برفع الميم قال الزمخشري[٤]: على أن الواو للحال كأنه قيل: ولما تجاهدوا وأنتم صابرون انتهى.

ولا يصحُّ ما قالَ لأنَّ واو الحال لا تدخلُ على المضارع [المثبت] فلا[٥]

---

(١) ق: توقع النفي بها.

(٢) من شواهد مغني اللبيب ١: ٢٨٥.

(٣) ق: اللام.

(٤) الكشاف ١: ٤٦٧.

(٥) ق: لا.

يجوز: جاء زيد ويضحك، وأنت تريد: جاء زيد يضحك، لأنَّ المضارعَ واقعٌ موقعَ اسم الفاعل، فكما لا يجوز: جاء زيد وضاحكاً، كذلك لا يجوز: جاء زيد ويضحك. فإن أُوِّل على أن المضارع خبر مبتدأ محذوف أمكن ذلك، التقدير: وهو يعلم الصابرين.

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ الآية، الخطابُ للمؤمنين وظاهره العموم والمراد الخصوص، وذلك أنَّ جماعة من المؤمنين لم يحضروا غزوة بدر إذْ كان رسولُ الله ﷺ إنما خرج مبادراً يريد [عِيراً] لقريش[١] فلم يظنوا حرباً وفاز أهلُ بدر بما فازوا به من الكرامة في الدنيا والآخرة فتمنّوا لقاء العدو ليكون لهم يوم كيوم بدر وهم الذين حرَّضوا على الخروج لأحد، فلما كان في يوم أحد ما كان من قَتْلِ عبد الله بن قميئة مصعبَ بن عمير الذابّ عن رسول الله ﷺ [ظانّاً أنه رسول الله] وقال: قتلتُ محمداً وصرخ بذلك صارخٌ وفَشَا ذلك في الناس، انكفؤوا فارِّينَ فدعاهُمْ رسولُ الله ﷺ: إليَّ عبادَ الله، حتى انحازتْ إليه طائفة واستعذروا في انكفائهم بأنه أتى خبرُ قَتْلِكَ فرعبتْ قُلوبُنَا فولَّينا مُدْبرينَ، فنزلت هذه الآية يلومهم على ما صَدَرَ منهم مع ما كانوا قرّروا مع أنفسهم من تمنّي الموت. وقرأ البزّي: كنتم تمنّون بشدّ التّاء في حروف محصورة ذكرها القراء في كتبهم.

﴿ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ هو على حذفِ مضافٍ تقديرُه: أنْ تلقوا[٢] أسبابَهُ.

﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أي: رأيتم أسبابه.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ

(١) ق: يريد القريش، والتصويب من ط.

(٢) ق: يلقون.

عَلَىٰٓ أَعۡقَـٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ
ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن
يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي
ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ
رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

وقرأ الجمهور: الرُسُل، وقرىء: رُسُلٌ بالتنكير.

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَـٰبِكُمۡۚ﴾ لما صرخ بأن محمداً قد قتل تزلزلت أقدامُ المؤمنين ورعبت قلوبهم وأمعنوا في الفرار، وكانوا ثلاث فرق: فرقة قالوا: ما نصنع بالحياة بعد رسولِ الله ﷺ، قاتلوا على ما قاتل عليه، فقاتلوا حتى قتلوا منهم أنس بن النضر. وفرقة قالوا: نلقي إليهم بأيدينا فإنهم قومنا وبنو عمّنا. وفرقة أظهرت النفاق وقالوا: ارجعوا إلى دينكم الأول فلو كان محمد نبياً ما قُتل. وقد اجتمع الاستفهام والشرط ومذهب سيبويه أن «انقلبتم» جواب للشرط، ومذهب يونس أن الاستفهام داخل على «انقلبتم» وجواب الشرط محذوف، وهذه مسألة ذكرت في النحو.

و﴿عَلَىٰٓ أَعۡقَـٰبِكُمۡۚ﴾ معناه الارتداد وقيل الفرار، وتقدم في البقرة تفسير نظيره(١).

قال ابن عطية: «كتاباً مؤجلاً» كتاباً: نصب على التمييز انتهى. هذا لا

(١) في قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة].

يظهر فإن التمييزَ كما قسمه النحاة ينقسم إلى منقول وغير منقول وأقسامه في النوعين محصورة وليس هذا واحداً منها. قرأ الأعمش: ومَنْ يُرِدْ ثوابَ الدنيا يُؤْتِه منها ومن يرد ثواب الآخرة يؤته منها، بالياء فيهما. قال ابن عطية: وذلك على [٩٧/أ] حذف الفاعل لدلالة الكلام عليه انتهى. هذا وهم وصوابه: وذلك على إضمار الفاعل والضمير عائد على الله تعالى.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ الآية، لمّا كان من المؤمنين ما كان يوم أحد وعتب الله عليهم ما صدر منهم في الآيات التي تقدّمت أخبرهم بأنَّ الأمم السالفة قتلت أنبياء كثيرين[١] أو قُتِلَ رِبِّيُّون كثيرون معهم[٢] فلم يَلْحقهم ما لحقكم من الوهنِ والضعفِ ولا ثَناهم عن القتالِ فجعهم بقتلِ أنبيائهم أو قتل رِبِّيِّهم، بل مضوا قُدُماً في نُصرةِ دينهم صابرينَ على ما حلَّ بهم إذْ قَتْل نبي أو أتباعه من أعظم المصاب، فكذلك[٣] كان ينبغي لكم التأسِّي بمن مضى من صالحي الأمم السابقة، هذا وأنتم خيرُ الأمم ونبيكم خير الأنبياء. وفي هذه الآية من العتب لمن فرّ عن رسول الله ﷺ ما لا يخفى.

و﴿وَكَأَيِّن﴾ بمعنى كم للتكثير وهي مركبة من كاف التشبيه ومن أي. وبعض القرّاء وقف على الياء وبعضهم على التنوين لثبوتها في رسم المصحف، وفيها لغات منها: وكائن. وقرىء وَكَإِنْ وكأْيِنْ[٤] وقرىء بهذه الثلاث في الشواذ. و«كأيْن» مبتدأ خبره «قُتِلَ» و«من نبي» تمييز وتكثر زيادة

(١) ق: كثيرون.

(٢) ق: معه.

(٣) ق: فلذلك.

(٤) انظر القرطبي ٤: ٢٢٨.

«مِن» فيه، وزعم ابن عصفور أنها لازمة فيه والصحيح أنه يجوز حذف مِن ونصب التمييز نص على ذلك سيبويه وغيره. والضمير في «قُتِل» عائد على «كأيِّن» والجملة من قوله «معه ربيون» في موضع الحال، وجوّزوا أن يكون المرفوع بـ«قُتِل» «ربّيّون». والرِّبيّ منسوبٌ إلى الرَّبّ وكسر الراء فيه شذوذ كما نسبوا إلى أمس إمْسيّ، وهو عابدُ الرب.

﴿ لِمَآ أَصَابَهُمْ ﴾ من قتل نبيهم إن كان الضمير في «قُتِل» يراد به النبيّ، وإن كان المقتول الربّيين فالضمير في «وهنوا» لا يعود على الربّيين بل يعود على من بقي.

وقرىء: وهنوا بفتح الهاء وبكسرها وبسكونها، قال ابن عطية: قراءة من قرأ «قاتل» أعَمُّ في المدحِ لأنه يدخلُ فيها مَنْ قُتلَ ومَنْ بقي، ويحسن عندي على هذه القراءة استناد الفعل [إلى] الربّيين، وعلى قراءة «قُتِلَ» استناده[1] إلى نبيّ.انتهى.

ويظهر أن قُتِل أمدح وهي أبلغ في مقصود الخطاب لأنها نص في وقوع القتل ويستلزم المقاتلة، و«قاتل» لا يدل على القتل إذ لا يلزم من المقاتلة وجود القتل إذ قد تكون مقاتلة ولا يقع قتل. وما ذكر من أنه يَحْسُنُ عنده ما ذكر لا يَظهرُ حُسْنُه بل القراءتان تحتملان الوجهين، قرأ قتادة «وكأيّن من نبي قُتِّل معه ربّيون كثير» قال أبو الفتح ابن جني[2]: لا يحسن في هذه القراءة أن يستند الفعل إلاّ إلى الربّيين لما فيه من معنى التكثير الذي لا يجوز أن يستعمل في قتلِ شخص واحد. فإن قيل: يستند إلى «نبي» مراعاة لمعنى

(١) ق: استناد، في الموضعين.

(٢) انظر المحتسب ١ : ١٧٣ .

كم فالجواب أن اللفظ قد مشى على جهة الإفراد «من نبيّ» ودلّ الضمير المفرد في «معه» على أنَّ المراد إنما هو التمثيل بواحد واحد فخرج الكلام عن معنى كم.

قال أبو الفتح[١]: وهذه القراءة تُقَوِّي قولَ مَنْ قال لمن قُتل وقاتل إنما يستند إلى الربّيين انتهى كلامه. وليس بظاهر لأنّ كأيّن هي مثل كم، وأنت إذا قلت: كم من عانٍ فَكَكْتُه، فأفردتَ راعيتَ لفظ كم ومعناها الجمع. فإذا قلت [كم] من عانٍ فككتهم، راعيت[٢] معنى كم لا لفظَها. وليس معنى مراعاة اللفظ إلاّ أنك أفردت الضمير والمراد به الجمع فلا فرق من حيث المعنى بين فككته وفككتهم، كذلك لا فرق بين: قتلوا معهم ربّيون وقُتل معه ربّيون. وإنما جاز مراعاة اللفظ تارة ومراعاة المعنى تارة لأن مدلول كم وكأيّن كثير والمعنى جمعٌ كثير، وإذا أخبرت عن جمع كثير فتارة تفرد مراعاة للّفظ وتارة تجمع مراعاة للمعنى كما قال تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] فقال: منتصر وقال: ويولّون.

وقول أبي الفتح في جواب السؤال الّذي فرضه أن اللفظ قد جرى على جهة الإفراد في قوله «من نبي» أي رُوعيَ لفظ كأيّن لكون تمييزها [٩٧/ب] جاء مفرداً فناسب لما ميّزت بمفرد أن يراعى لفظها والمعنى على الجمع.

وقوله: ودَلَّ الضمير المفرد في «معه» على أنَّ المراد إنما هو التمثيل بواحد واحد، هذا المراد مشترك بين أن يفرد الضمير أو يجمع، لأن الضمير المفرد ليس معناه هنا إفراد مدلوله بَلْ لا فرق بينه مفرداً أو مجموعاً من حيث

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) ق: رأيت.

المعنى فإذ لا فرق، فدلالته عامة وهي[1] دلالته على كل فرد فرد.

وقوله: فخرج الكلام عن معنى كم. [لم يخرج الكلام عن معنى كم] إنما خرجَ عن جمع الضمير على معنىٰ كم دونَ لفظها لأنه إذا أفرد لفظاً لم يكن مدلوله مفرداً إنما يكون جمعاً كما قالوا: هو أحسن الفتيان وأجمله، معناه: وأجملهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ظاهره العموم، وقال علي وابن عباس: هم المنافقون قالوا للمؤمنين لما رجعوا من أحد: لو كان نبيّاً ما أصابه الذي أصابه فارجعوا إلى إخوانكم.

﴿سَنُلْقِى﴾ أتى بالسين التي هي أقرب في الاستقبال من سوف. وقرىء: الرعب بسكون العين وضمّها. والباء في «بما» للسبب. و«ما» مصدريّة أي بإشراكهم بالله. وقرىء: سيلقي بالياء وهو ضمير الله تعالى.

(١) ق: فدلالته عليه هي.

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [يريد إلهاً أو معبوداً لم ينزّل به سلطاناً. وليس المعنى أن ثم سلطاناً] لم ينزّله الله، وإنما المعنى على نفي السلطان فينتفي الإنزال كما قال[1]: [من الطويل]

على لا حِبٍ لا يُهتدى بمناره

أي: لا منارَ له فيهتدى به، فانتفى السلطان والإنزال كما انتفى المنار والهداية.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ هذا جوابٌ لمن رجع إلى المدينة من المؤمنين، قالوا: وعدنا اللهُ بالنصر والإمداد بالملائكة فمن أي وجه أُتِينا؟ فنزلت إعلاماً أنه تعالى صَدَقهم الوعدَ ونصرهم على أعدائهم أولاً، وكان الإمداد مشروطاً بالصبر والتقوى فاتفق من بعضهم من المخالفة ما نص الله تعالى في كتابه، وجاءت المخاطبةُ بجمع ضمير المؤمنين في هذه الآيات وإنْ كانوا لم يصدر ما يعاتب عليه من جميعهم وذلك على طريقة العرب في نسبةِ ما يقعُ من بعضِهم للجميع على سبيل التجوُّزِ، وفي ذلك إبقاءٌ على مَنْ فعل وسترٌ إذْ لم يُعيَّن، وزجرٌ لمن لم يفعل [أن يفعل]. وصِدْق الوعد هو أنهم هزموا المشركين أولا وكان لعلي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب والزبير وأبي[2] دجانة وعاصم بن أبي الأفلح بلاءٌ عظيمٌ في ذلك اليوم رضي الله عنهم وهو مذكور في السير. وكان المشركون في ثلاثة آلاف ومعهم مئتا فرس والمسلمون في سبع مئة رجل. وتعدّت «صدق» هنا إلى اثنين ويجوز أن

(١) صدر بيت لامرىء القيس في ديوانه ص٦٦، وعجزه:

إذا سافه العَود النباطيّ جرجرا

(٢) ق: وابن.

تتعدى إلى الثاني بحرف جر تقول: صدقت زيداً[١] الحديث وصدقت زيداً في الحديث، وذكرها بعض النحويين في باب ما يتعدى إلى اثنين وأصلها أن يكون الثاني بحرف الجر [فيكون] من باب استغفر واختار. والعامل في «إذ» «صدقكم».

ومعنى ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ تقتلونهم، وكانوا قتلوا من المشركين اثنين وعشرين رجلاً. وقرأ أبو عبيد بن عمير: تُحِسُّونهم رباعياً من الإحساس أي: تذهبون بحسّهم بالقتل. وغيّا القتل بوقت الفشل[٢] وهو الجبن والضعف. والتنازع هو التجاذب [في الأمر] والتنازع صدر من الرماة، كان رسول الله ﷺ قد رَتَّبَ الرُّماةَ على فم الوادي وقال: اثبتوا مكانكم وإنْ رأيتمونا هُزمنا فإنا لا نزالُ غالبين ما ثَبَتُّمْ مكانكم، ووعدهم بالنصر إن انتهوا إلى أمره. فلما انهزم المشركون قال بعض الرماة: انهزموا فما موقفنا هنا؟ الغنيمةَ الغنيمةَ، الحقوا بنا بالمسلمين. وقال بعضهم: بل نَثْبُتُ مكانَنا كما أمرنا. وقيل: التنازعُ هو ما صدر من المسلمين من الاختلافِ حين صِيْحَ إنَّ محمداً قد قُتلَ، والعصيانُ هو ذهابُ مَنْ ذهب من الرماة عن مكانه طلباً للنهب والغنيمة. وكان خالد حين رأى قلة الرماة صاح في خيله وحمل[٣] على مَنْ بقيَ من الرماة فقتلهم وحمل على عسكر المسلمين فتراجع المشركون فأصيب من المسلمين يؤمئذ سبعون رجلاً.

و﴿إِذَا﴾ بعد «حتى» في موضع [٩٨/أ] جر بحتّى مُزالاً عنها معنى الشرط، قاله الأخفش وغيره. وقيل: تدخل حتى على إذا الشرطية، وجواب

---

(١) ق: بزيد.

(٢) أي ربطه به.

(٣) ق: وعمل.

إذا المختار أنه محذوف لا «عصيتم» على زيادة الواو ولا على زيادة ثم، وقدّره ابن عطية: انهزمتم، والزمخشري: مَنَعكم نَصْرَهُ، وغيرهما: امتُحِنْتُمْ. ويظهر لي أنَّ الجواب المحذوف غير ما قدّروه وهو: انقسمتم إلى قسمين، ويدل عليه ما بعده. وهو نظير ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان] التقدير: انقسموا قسمين فمنهم مقتصد. لا يقال: كيف يقال انقسموا فيمن فشل[1] وتنازع وعصى، لأنَّ هذه الأفعال لم تصدر من كلّهم بل من بعضهم كما ذكرناه في أول الكلام على هذه الآية.

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس: هي الغنيمة كالرماة الذين خالفوا أمره صلى الله عليه وسلم في الثبات في مكانهم.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: ثواب الآخرة كالرماة الذين ثبتوا وقاتلوا حتى قُتلوا في نفر دون العشرة منهم أنس بن النضر.

﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ

---

(١) ق: قتل.

ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ .

﴿ ۞إِذۡ تُصۡعِدُونَ ﴾ قرىء رباعياً من أصعد، والإصعادُ ابتداءُ السفر. وقرىء: تَصْعدون مضارع صعد، مِنْ صَعِد الجبل: ارتقى فيه[١]. وقرىء: تَصَّعَّدون بشد الصاد وأصله تتصعدون وماضيه تصعّد أي ارتقى في السلّم.

وقرأ الحسن: ولا تَلُون على أحد، وخرّجوها على قراءة همزة الواو ونقل الحركة إلى اللام وحذف الهمزة، ويحتمل أن يكون مضارع وَلِيَ، وعدّي بعلى على التضمين أي ولا تعطفون على أحد.

قال ابن عطية: وحذفت إحدى الواوين الساكنتين، وكان قد قال في هذه القراءة: هي قراءة متركبة على لغة من همز الواو المضمومة ثم نقلت حركة الهمزة إلى اللام انتهى.

هذا الكلام عجيب، تخيّل هذا الرجل أنه نقلت[٢] الحركة إلى اللام فاجتمع واوان ساكنتان[٣] إحداهما الواو التي هي عين الكلمة والأخرى واو الضمير، فحذفت إحدى الواوين لأنهما ساكنتان. وهذا قول من لم يمعن [النظر] في صناعة النحو؛ لأنها إذا كانت متركبة على لغة مَنْ همز الواو ثم نقل حركتها إلى اللام، فإن الهمزة إذ ذاك تحذف ولا يلتقي واوان ساكنتان. ولو قال: استثقلت الضمة على الواو لأن الضمة كأنها واو فصار ذلك كأنه جمع بين ثلاث واوات فنقلت الضمة إلى اللام[٤]، فالتقى ساكنان فحذفت

---

(١) ق: من صعد: ارتقى في الجبل.

(٢) ق: تقلب.

(٣) ق: ساكنان.

(٤) ق: إلى الواو.

الأولى منهما ولم يبهم في قوله: إحدى الواوين - لأمكن ذلك في توجيه هذه القراءة الشاذة. أما أن يبيّن ذلك على لغة مَن هَمَز على زعمه فلا يُتصور ذلك.

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ أي: يقول: إليَّ عبادَ الله.

﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ كنّى به عن المعاقبة على فرارهم عن الرسول ﷺ كما قال[1]: [من الوافر]

تحيةُ بينِهم ضربٌ وجيعُ

قال الزمخشري[2]: ويجوز أن يكون الضمير في «فأثابكم» للرسول أي: فآساكم في الاغتمام[3]، وكما غَمَّكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجّة وغيرها، غَمَّه ما نزلَ بكم فأثابكم غمّاً اغتمّه لأجلكم بسبب غمٍّ اغتَمَمْتُموه لأجله ولم يُثْبِكُمْ على عصيانِكم ومخالفتكم، وإنما فعل ذلك ليسلِّيكم وينفس عنكم، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من نصرِ الله ولا على ما أصابكم من غَلَبةِ العدو. انتهى كلامه.

هذا خلاف الظاهر لأن المسند إليه الأفعال السابقة هو الله تعالى وذلك في قوله: «ولقد صَدَقكم الله وَعْدَهُ» وقوله: «ثم صَرَفَكُمْ عنهم ليبتَلِيَكُمْ ولقد عفا عنكم» فيكون قوله: «فأثابكم» مسنداً إلى الله تعالى، وذكر الرسول إنما جاء في جملة حالية. نعى عليهم فرارهم مع كون من اهتدوا على يده يدعوهم

---

(١) البيت في شرح ديوان الحماسة ٣: ١٤٨١ لعمرو بن معد يكرب وصدره:

وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيلٍ

(٢) الكشاف ١: ٤٧١.

(٣) ق: الاغتنام.

فلم يجيء مقصوداً لأن يحدث عنه، إنما الجملة التي ذكر فيها في تقدير المفرد إنما[١] هي حال.

قال الزمخشري[٢]: «فأثابكم»[٣] عطف على «صرفكم» انتهى. وفيه بُعْدٌ لطولِ الفصل بين المتعاطفين. والذي يظهر أنه معطوف على «تصعدون ولا تلوون» لأنه مضارع في معنى الماضي [لأن «إذ» تصرف المضارع إلى الماضي] إذ هي ظرف [٩٨/ب] لما مضى. والمعنى: إذ صعدتم وما لويتم على أحد فأثابكم.

﴿غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ أي: ملتبساً بغم، ويُريدُ بذلك كثرةَ الغم الذي حصلَ لهم. وقال ابن عباس: هما غمّان الأول: هو ما أصابهم من الهزيمةِ والقتل، والثاني: هو إشرافُ خالد بخيل المشركين عليهم.

﴿لِّكَيۡلَا[٤] تَحۡزَنُواْ﴾ ليست «لا» زائدة وتقديره: لكي تحزنوا كما ذهب إليه أبو البقاء[٥].

وقيل: «لا» باقية على النفي فقال الزمخشري[٦]: «لكيلا تحزنوا» لتتمرنوا على تَجَرُّعِ الغُمومِ وتَضْرَوْا باحتمال الشدائد فلا تحزنوا فيما بَعْدُ على فائتٍ من المنافعِ ولا على مصيبٍ من المضار انتهى. فجعل العلّة في الحقيقة

---

(١) ق: إذ.

(٢) الكشاف ١: ٤٧١.

(٣) ق: فأصابكم.

(٤) ق: كيلا.

(٥) انظر إملاء ما منّ به الرحمن ١: ١٥٤.

(٦) الكشاف ١: ٤٧١.

والواو للحال وهي من مسوغات الابتداء بالنكرة. «قد أهَمتهم» يقال قد أهَمَّني الشيءُ أي: كان من همّي وقصدي أي: مما أهمُّ به وأقصده، وأهمَّني الأمرُ أقلقني وأدخلني في الهم. و«يظنون» لم يتعدّ إلى اثنين. والباء في «بالله» ظرفية بمعنى في كما قال[1]: [من الطويل]

فقلت لهم ظُنّوا بألفَيْ مدججٍ

والمعنى: يُوقِعُونَ ظنَّهم في الله أي: في حُكْمِ الله وما قدّره ظناً غير الحق[2]، فـ«غير» صفة لمصدر محذوف و«ظن الجاهلية» بدل منه. ومعنى الجاهلية الملّة التي كانت قبل ملّة الإسلام كما قال ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ۝٢٦﴾ [الفتح].

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ معناه النفي. ومعنى «من الأمر» أي: من الخروجِ إلى القتال.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: إنَّ تصاريف الوجود وما يجري فيه لله لا لغيره. وقرىء: كلَّه توكيداً[3] لقوله «الأمر»، و«لله» خبر إنّ. وقرىء: كلُّه بالرفع مبتدأ وخبره «لله» والجملة في موضع خبر إنّ.

﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ قال الزبير رضي الله عنه: والله لكأني أسمعُ قولَ معتب بن قشير والنعاس يغشاني ما أسمعه إلا كالحلم حين قال: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلْنَا ها هنا. ومعتب هذا شهد بدراً وكان مغموصاً

---

(١) البيت في شرح المفصل ٧: ٨١ غير منسوب، وعجزه:

سراتُهمُ في الفارسيّ المُسَرّدِ

(٢) ق: الله.

(٣) ق: توكيد.

ثبوتية وهي التمرّن على تجرّع الغموم والاعتياد لاحتمال الشدائد، ورتّب على ذلك انتفاء الحزن، وجعل ظرف الحزن هو مستقبل لا تعلّق له بقصة أحد بل لينتفي الحزن عنكم بعد هذه القصة.

وقال ابن عطية: المعنى: لتعلموا أنَّ ما وقع بكم إنما هو بجنايتكم فأنتم آذيتم أنفسكم، وعادةُ البشر أنَّ جاني الذنب يصبرُ للعقوبة، وأكثرُ قَلَقِ المعاقَبِ وحزنه إنما هو مع ظنّه البراءة بنفسه انتهى. والذي يظهر أن الغَمَّ الكثير الذي عاقبهم الله به غَلَبَ على قلوبهم حتى لم يقع منهم حزن على ما فاتهم ولا ما أصابهم فشغلهم الغم عن ذلك.

الأمنة: الأمن، وقرىء بسكون الميم. والظاهر أن «أمنة» مفعول «أنزل» و«نعاساً» بدل منه. ويجوز أن يكون «أمنة» مفعولاً[(١)] من أجله و«نعاساً» مفعول «أنزل»[(٢)] أي: أنزل النعاس لأجل أمنكم لأنَّ النعاس لا يكون مع خوف، ولهذا قال في الأنفال ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال][(٣)] أي: ليؤمنكم به.

﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ هم المؤمنون. و﴿عَلَيْكُم﴾ عام مخصوص، والنعاسُ الذي غَشِيهم كان حين ارتحلَ أبو سفيان وتركوا ركوب الخيل وجنبوها وركبوا الإبلَ تاركينَ للقتال.

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ هم المنافقون، لم يُلْق الله تعالى عليهم النعاس. «وطائفة» [مبتدأ] وجاز الابتداء به لأنه نكرة والمكان مكان تفصيل.

---

(١) ق: مفعول.

(٢) ق: مفعول من أجله أنزل.

(٣) وفي ق: يغشاكم.

عليه بالنفاق.

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قارّين وأراد الله قَتْل مَنْ قُتلَ منكم لبرز. والمضجع مكان قتله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ قرأها عمر على المنبر فقال: لما كان يوم أحد وهُزمنا فررتُ حتى صعدت الجبل فلقد رأيتني أنزو كأنني أروى[1] والناسُ يقولون: قُتل محمد فقلت: لا أجدُ أحداً يقول قُتِلَ محمدٌ إلا قتلتُه، حتى اجتمعنا على الجبل فنزلت هذه الآية كلها.

﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ﴾ أي: طلب [٩٩/أ] منهم الزّلل ودعاهم إليه لأنَّ ذلك هو مقتضى وسوسته وتخويفه، هكذا قالوه. ولا يلزم من طلب الشيء واستدعائه حصوله، فالأولى أن يكون استفعل هنا بمعنى أفعل فيكون المعنى أزّلهم الشيطان، فيدل على حصول الزلل، ويكون استزلّ وأزلّ بمعنى واحد كاستبان وأبان واستبلّ وأبلّ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: قال بعضهم لبعض. ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي: لأجل إخوانهم إذا ضربوا في الأرض. والإخوانُ هنا إخوانُ النسب أو إخوان التألف. و﴿إِذَا﴾

(١) الأروى: ضأن الجبل.

ظرف مستقبل لا يمكن أن يعمل فيه، قالوا: لمضيّه.

وقال الزمخشري[١]: فإن قلت: كيف قيل «إذا ضربوا» مع «قالوا»؟ قلتُ: هو حكاية الحال الماضية كقولك: حين يضربون في الأرض انتهى.

وقال ابن عطية: دخلت إذا وهي حرف استقبال من حيث «الذين»[٢] اسم فيه إبهام يعمّ من قال في الماضي ومن يقول في المستقبل، ومن حيث هذه النازلة تُتصور[٣] في مستقبل الزمان.

وهذان القولان ضعيفان والذي يظهر أن العامل في «إذا» مضاف محذوف يدل عليه المعنى تقديره: لأجل فراق إخوانهم إذا ضربوا في الأرض لتجارة وغيرها فماتوا أو كانوا[٤] غُزّاً فقُتلوا، ويدل على المحذوف قوله «لو كانوا عندنا» أي لو كانوا مقيمين عندنا ولم يضربوا في الأرض ولم يغزوا. جعلوا الضرب في الأرض سبباً للموت، والغزو سبباً للقتل. و﴿غُزًّى﴾ جمع غازٍ جمع على فُعّل شذوذاً وأصله غُزو كما قالوا عافٍ وعُفًّا والقياس غُزاة وعفاة. وقرىء: غُزاً بتخفيف الزاي ووجّه على حذف أحد المضعفين تخفيفاً. وقيل: حذفت التاء وأصلهُ: غُزاة.

وقال ابن عطية: هذا الحذف كثير في كلامهم وأورد من ذلك الأبوّ والبنوّ جمع أبٍ وابن كما قالوا عم وعمومة ثم حذفوا التاء فقالوا عموم انتهى ملخصاً. وليس أبوّ وبنوّ مما حذف منه التاء لأنهما مصدران لا جمعان،

---

(١) الكشاف ١: ٤٧٣.

(٢) ق: الذي.

(٣) ق: فتصور.

(٤) ق: وكانوا.

وأبوّ وبنوّ جمعان على وزن فُعول كما قالوا: بَهو وبُهوّ وكان القياس الاعتلال فيقال: أبيّ وبنيّ وبهيّ كما قالوا: عصا وعِصيّ. وأما الحذف الذي ادعاه في «عموم» من أن أصله عمومة فقول لم يذهب إليه نحوي، وكذا ما ادّعاه في غُزا وأن أصله غُزاة، فلا يجوز أن يقال في رُماة رُمى ولا في قُضاة قُضى ولا في مشاة[١] مُشى.

﴿لِيَجْعَلَ﴾ لا يصح أن يكون ذلك تعليلاً لقولهم وإنما قالوا ذلك تثبيطاً[٢] للمؤمنين عن الجهاد. ولا يصح أن يتعلق بالنهي وهو «لا تكونوا كالذين كفروا» لأنّ جَعْل الله ذلك حسرةً في قلوبهم لا يكون سبباً لنهي الله المؤمنين عن مماثلة الكفار، قاله الزمخشري[٣]، وقد أورد سؤالاً عما تتعلق به «ليجعل» قال[٤]: «لا تكونوا» بمعنى: ولا تكونوا مثلهم في النطق بذلك القول واعتقاده ليجعله الله حسرة في قلوبهم خاصة ويصون منها قلوبكم، انتهى كلامه.

وهو كلام شيخ لا تحقيقَ فيه لأنَّ جَعْلَ الحسرة لا يكون سبباً للنهي كما قلنا، إنما يكون سبباً لحصول امتثال النهي وهو انتفاء المماثلة، فحصول ذلك الانتفاء والمخالفة فيما يقولون ويعتقدون يحصل عنه[٥] ما يغيظهم ويغمّهم إذ لم يوافقوهم فيما قالوا واعتقدوه فلا يضربوا في الأرض ولا يغزوا. فالتبس على الزمخشري استدعاء انتفاء المماثلة بحصول الانتفاء،

---

(١) ق: ماشٍ.

(٢) ق: تنشيطاً.

(٣) انظر الكشاف ١ : ٤٧٤.

(٤) الكشاف ١ : ٤٧٤.

(٥) ق: عنهم.

وفَهْمُ هذا فيه خفاء ودقّة.

وقال ابن عيسى وغيره: اللام متعلقة بالكون أي لا تكونوا كهؤلاء ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم دونكم انتهى. ومنه أخذ الزمخشري قوله، لكن ابن عيسى نصّ على ما تتعلق به اللام وذلك لم ينصّ، وقد بيّنّا فساد هذا القول، وإذا كانت لام الصيرورة [٩٩/ب] والعاقبة تعلقت بـ«قالوا» والمعنى أنهم لم يقولوا لجَعْل حسرةٍ إنما قالوا ذلك لعلّةٍ فصار مآل ذلك إلى الحسرة والندامة. ونُظر بقوله ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۝٨﴾ [القصص] ولم يلتقطوه لذلك إنما آلَ أمرُه إلى ذلك. والإشارة بـ«ذلك» فيه اختلاف كثير مذكور في «البحر»[1]. والذي يقتضيه ظاهر الآية أن الإشارة إلى المصدر المفهوم من «قالوا» وأن اللام للصيرورة.

والمعنى أنهم قالوا هذه المقالةَ قاصدين التثبيط عن الجهاد والإبعاد في الأرض سواء كانوا معتقدين صحتها أم لم يكونوا معتقديها إذ كثير من الكفار قائل بأجل واحد فخاب هذا القصد، وجعلَ اللهُ ذلك القولَ حسرةً في قلوبهم أي غمّاً على ما فاتهم إذ لم يبلغوا مقصدهم من التثبيط عن الجهاد. والحسرة: الغَمُّ الذي يلحق على ما فات من بلوغ المقصد. وقرىء: بما تعملون بالتاء والياء.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ﴾ قَدَّمَ القتلَ على الموت لقرب قوله «وما قتلوا». وقرىء: مِتّم بكسر الميم مِن مات يَمات كخاف يخاف، وبضمّها من مات يموت. ووزن الأول فَعِل والثاني فَعَل. واللام في قوله «لمغفرة» جواب القسم المحذوف قبل لام التوطئة أي: والله لئن قتلتم. و«مغفرة» نكرة وصفت بقوله

---

(١) انظر ٣: ٩٥.

«من الله» و«خير» خبر، والمعنى: خير لكم[١] مما تجمعون من حطام الدنيا، والخطاب للمؤمنين.

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ﴾ قدم الموت لمقاربة قوله «أو متّم». والخطاب عام للمؤمن والكافر. واللام في «لإلى الله» جواب القسم المحذوف. و«إلى الله» متعلق بقوله «تحشرون». ولا تدخل نون التوكيد فيه للفصل بينه وبين اللام، ولو لم يفصل لكان الكلام: لتحشرُنّ[٢] إلى الله. وقيل: هو خطاب للمؤمنين كالخطاب السابق، ولذلك قدّره الزمخشري: لإلى الرحيمِ الواسعِ الرحمةِ المثيب العظيم الثوابِ تُحشرون، قال[٣]: ولوقوع اسم الله هذا الموقع مع تقديمه وإدخال اللام على الحرف المتصل به شأن ليس بالخفي انتهى. يشير بذلك إلى مذهبه من أنَّ التقديم يُؤذن بالاختصاص فكان المعنى عنده: فإلى الله لا غيره تحشرون. وهو عندنا لا يدل بالوضع على ذلك، وإنما يدل التقديم على الاعتناء بالشيء والاهتمام بذكره كما قال سيبويه. وزاده حسناً هنا أن تأخير الفعل هنا فاصلة، فلو تأخر المجرور لفات هذا الغرض.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ
فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى
يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن
يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ

---

(١) عبارة ق: وخير خير ومعنى لكم.

(٢) عبارة ق: لكان في اللام لتحشرون.

(٣) الكشاف ١ : ٤٧٤.

ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ .

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ ﴾ ما زائدة والمجرور متعلق بـ«لِنْتَ». قال الرازي[(١)]: قال المحققون: دخول اللفظ المهمل الضائع[(٢)] في كلام أحكم الحاكمين غير جائز، وهنا يجوز أن تكون «ما» استفهاماً للتعجب تقديره: فبأي رحمة من الله لِنْتَ لهم؟. وذلك بأنَّ جنايتهم لما كانت عظيمة ثم إنه ما أظهر ألبتة تغليظاً في القول ولا خشونة في الكلام، علموا أن هذا لا يتأتّى إلا بتأييد ربّاني قبل ذلك انتهى كلامه. وما قال المحققون صحيح، لكن زيادة «ما» للتوكيد لا ينكره في أماكنه مَنْ له أدنى تعلق بالعربية، فضلاً عمّن[(٣)] يتعاطى تفسير كلام الله. وليس «ما» في هذا المكان مما يتوهمه أحدٌ مُهمَلاً فلا يحتاج ذلك إلى تأويلها بأنْ تكون استفهاماً للتعجب. ثم إن تقديره ذلك: فبأي رحمة، دليل على أنه جعل «ما» مضافة للرحمة.

وما ذهب إليه خطأ من وجهين: أحدهما: أنه لا تضاف ما الاستفهامية ولا أسماء الاستفهام غير «أي» بلا خلاف، و«كمْ» على مذهب أبي إسحاق. والثاني: أنه إذا لم تصح الإضافة فيكون إعرابه بدلاً، وإذا كان بدلاً من اسم الاستفهام فلا بد من إعادة همزة الاستفهام في البدل. وهذا الرجل لحظ المعنى ولم يلتفت إلى ما [تَقَرَّرَ في علم النحو من أحكامِ الألفاظ، وكان يُغنيه عن هذا الارتباكِ والتسلق إلى ما] لا يُحْسِنُه والتسوّر عليه

---

(١) انظر تفسيره ٣: ٨٠.

(٢) ق: الوضع، والتصويب في الرازي.

(٣) ق: عمّا.

قول[1] الزجاج في «ما» هذه إنها صلة فيها معنى التوكيد بإجماع النحويين.

والرحمة هي لين القلب ودماثته وتحننه على المرحوم. والفظاظةُ: الجفوة [١٠٠/أ] قولاً وفعلاً. وغلظ القلب: صلابتهُ وشدته بحيث لا يلين. والانفضاض التفرق.

﴿مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ من جهتك. ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ أي: عمّا اجترحوه من العصيان لك حيث فرّوا. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: اطلب الغفران لهم من الله. ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِۖ﴾ تنبيه على رضاه صلى الله عليه وسلم عنهم وجعلهم أهلاً للمشاورة.

وهذا الترتيب في غاية الحسن: أمره تعالى بعفوه عنهم[2] [وذلك فيما كان خاصاً به من تبعة له عليهم فيما هو مختص بحق الله تعالى ثم بالمشاورة وفيها فوائد تطييب نفوسهم والرفع من مقدارهم بصفاء قلبه لهم حيث أهَّلهم للمشاورةِ واختار عقولهم واجتهادهم فيما فيه وجه الصلاح، وجرى على مناهج العرب وعادتها في الاستشارة في الأمور، وإذا لم يشاور أحداً منهم حصل في نفسه شيء، ولذلك عزَّ على عليٍّ وأهل البيت كونهم استبدّ عليهم في المشورة في خلافة أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين.

قال ابن عطية: أمر بتدريج بليغ: أمر بالعفو عنهم فيما يخصّه، وإذا صاروا في هذه الدرجة أمر بالاستغفار فيما لله تعالى، فإذا صاروا في هذه

(١) ق: قال.

(٢) عبارة ق: بعفوه عنهم ثم باستغفاره لهم ثم بالمشاورة. وبعده سقط طويل أكمل من ط.

الدرجة أمر بالاستشارة في الأمور إذ صاروا أهلاً لها انتهى. وفيه بعض تلخيص ولا يظهر هذا التدريج من اللفظ ولكن هذه حكمة تقديم هذه الأوامر بعضها على بعض: أمر أولاً بالعفو عنهم إذ عَفْوهُ عنهم مُسْقِطٌ لحقّه ودليل على رضاه عليه السلام. ولما سقط حقّه بعفوه استغفر لهم الله ليكمل لهم صَفْحه وصفح الله عنهم ويحصل لهم رضاه عليه السلام ورضى الله تعالى عنهم. فلما زالت عنهم التبعات من الجانبين شاورهم إيذاناً بأنّهم أهلٌ للمحبة الصادقة والخلة الناصحة إذْ لا يستشير الإنسان إلا مَنْ كان معتقداً فيه المودة والعقل والتجربة.

ومن غريبِ النُّقُولِ والمَقُولِ وضعيفه الذي يُنَزَّهُ عنه القرآنُ قول بعضهم إن قوله تعالى «وشاورهم في الأمر» من المقلوب أي: وَلْيُشاوروك في الأمر.

وذكر ابن عطية أنَّ الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومَنْ لا يستشير أهلَ العلم والدين فعزلُه واجب، هذا مما لا خلافَ فيه، والمستشار في الدين عالم دين وقلّما يكون إلا في عاقل.انتهى ملخصاً.

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ ﴾ أي: فإذا عقدتَ قلبكَ على أمرٍ بعد الاستشارة فاجعلْ تفويضكَ فيه إلى الله فإنه العالم بالأصلحِ لكَ والأرشد لأمرك لا يعلمه مَن أشار عليك. وفي هذه الآية دليل على المشاورة وتخمير الرأي وتنقيحه والفكر فيه وأن ذلك مطلوب شرعاً.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ حث على التوكل على الله إذ أخبر أنه يحب مَنْ يتوكل عليه، والمرء ساعٍ فيما يحصل له محبة الله تعالى.

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ هذا التفات إذ هو خروج من غيبة إلى خطاب. ولما أمره تعالى بمشاورتهم وبالتوكل عليه أوضح أنَّ ما صدر من

النصر أو الخذلان إنما هو راجع إلى ما يشاء وأنه متى نصركم لا يمكن أن يغلبكم أحد، ومتى خذلكم فلا ناصرَ لكم. فما وقع لكم من النصر كيوم بدر أو من الخذلان كيومِ أحدٍ بمشيئته سبحانه وتعالى. ثم أمرهم بالتوكل وناطَ الأمرَ بالمؤمنين فنبّه على الوصف الذي يناسب معه التوكل وهو الإيمان، لأنَّ المؤمنَ مصدقٌ بأنَّ الله هو الفاعل المختار بيده النصر والخذلان. والتوكلُ على الله من فروض الإيمان ولكنه يقترنُ بالتشميرِ في الطاعة والحزامة بغاية الجهد ومعاطاة أسباب التحرز، وليس الإلقاء باليد والإهمال لما تجب مراعاته بتوكل، وإنما هو كما قال عليه السلام[١] «قيدها وتوكّل».

والضمير في ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ عائد على الله تعالى إما على حذف مضاف أي: من بعد خذلانه، وإما أن لا يُحتاج إلى تقدير هذا المحذوف بل يكون المعنى: إذا جاوزته إلى غيره وقد خذلك فمن ذا الذي تجاوزه إليه فينصرك؟. وجاء[٢] جواب «إن ينصركم الله» بصريح النفي العام، وجواب «إن يخذلكم» يتضمن[٣] النفي وهو الاستفهام. وهو من تنويع الكلام في الفصاحة والتلطف بالمؤمنين حتى لا يصرّح لهم بأنه لا ناصر لهم، بل أبرز ذلك في صورة الاستفهام الذي يقتضي السؤال عن الناصر وإن كان المعنى على نفي الناصر، لكن فرّق بين الصريح والمتضمن فلم يُجْرِ المؤمنين في ذلك مجرى الكفار الذين نصّ عليهم أنه لا ناصرَ لهم كقوله تعالى ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣﴾ [محمد].

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ﴾ قال ابن عباس: فُقدت قطيفةٌ حمراء من الغنائم يومِ

(١) صحيح الجامع الصغير ١: ٣٥٢.
(٢) ط: وما.
(٣) ط: بمتضمن.

بدر، فقال[١] بعض مَنْ كان مع النبي ﷺ: لعل رسول الله أخذها فنزلت. وقائلُ[٢] ذلك مؤمنٌ لم يظن في ذلك حرجاً وقيل منافق. والغلول أخذ المال من الغنيمة في خفاء. وقرىء: أن يغل مبنياً للفاعل، ويكون على حذف مضاف تقديره: وما كان لتابع نبيٍّ أن يغل. وقرىء: أن يُغَلَّ مبنياً للمفعول من غلّ أو من أغلّ.

﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾ ظاهره أنه يأتي بعين الشيء الذي غلّه كما جاء في ظاهر الحديث[٣] أنه إن كان بعيراً جاء له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر. وقيل: يأتي حاملاً إثم ما غلّ.

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ الآية، هذه استعارةٌ بديعة جعل ما شرعه الله تعالى كالدليل الذي يتبعه من يهتدي به، وجعل العاصي كالشخص الذي أمر أن يتبع شيئاً فنكصَ عن اتباعه ورجع مصحوباً بما يخالف الاتباع. وفي الآيةِ من حيث المعنى حذفٌ والتقدير: أفمن اتَّبعَ ما يؤولُ به إلى رضى الله عنه فباء برضاه كمن لم يتبع[٤] ذلك فباء بسخطه.

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ﴾ الضمير في «هم» عائد على «من اتبع» على المعنى لأنه المحدّث عنه والتقدير: هم ذَوُو درجاتٍ. والدرجة ما يتوصل به إلى مكان علو، وأكثر ما يستعمل في الشيء الذي يتوصل منه إلى العلو الحسّي ولذلك جاء ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام] وقوله: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة] لا يكاد يكون هذا إلا عند التشريف كقوله تعالى ﴿فَأُولَٰئِكَ عِندَ

---

(١) ق: فكان.

(٢) ق: وقال.

(٣) انظر صحيح مسلم ٣: ١٤٦١.

(٤) عبارة ق: لمن يتبع.

ٱللَّهِ ﴿١٣﴾ ﴾ [النور].

ولما ذكر مآلَ مَنْ باء بسخطٍ من الله ذكر مآل من اتبع رضوان الله. ويبعد قول مَنْ قال إن لفظ «هم» عائد على «من اتبع» و«من باء» وإن الدرجات مشتركة بينهما ويبعد أن يقال إن للكافر درجة عند الله. وقرىء: درجة، بالتوحيد.

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه لما ذكر مَن اتبع رضوان الله ومَنْ باء بسخطه، فصّل في هذه الآية وما بعدها. وقوله «على المؤمنين» لم يكونوا حالة البعث مؤمنين، فاحتمل أنْ سُمّوا مؤمنين باعتبار مآلِ أمرهم إليه من الإيمان، أو سمّاهم مؤمنين بالنسبة إلى علم الله تعالى.

و﴿ إِذْ ﴾ ظرفٌ العامل فيه «منّ». والمنّةُ هنا[1] الإنعام. ﴿ رَسُولًا ﴾ هو محمد ﷺ. ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ قالوا: أي: من جنس بني آدم لأن تلقّي الوحي منه[2] إليهم يسهل، ولم يكن من الملائكة لتفاوت ما بين الجنسين وصعوبة التلقي عنهم، ولأن إعجاز القرآن إنما يظهر عند بني آدم حجّة عليهم وإلاّ ظهر أنه أراد بقوله «من أنفسهم» من العرب كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة] وقال تعالى حكاية عن إبراهيم[3] عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة] ولذلك قال عليه السلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم»[4].

---

(١) ق: هو.

(٢) ق: منهم.

(٣) «حكاية عن إبراهيم» كتبت في الحاشية.

(٤) صحيح الجامع الصغير ٢: ١٧.

وشرف العرب تمّ بظهوره عليه السلام، وليس في العرب قبيلة إلا وله نَسَبٌ فيها من جهة الأمهات إلا نصارى بني تغلب.

وقرىء شاذاً: لَمِنْ مَنِّ الله، بِمِن الجارّة ومَنّ مجرور بها بدل: قد منّ.

قال الزمخشري[(١)]: وفيه وجهان: أن يراد: لَمِن مَنِّ الله على المؤمنين منه أو بعثه إذ بعث فيهم، فحذف لقيام الدلالة، أو تكون «إذ» في محل الرفع [١٠٠/ب] كإذا في قولك: أخطب ما يكون الأمير إذا كان قائماً، بمعنى لَمِنْ مَنّ الله على المؤمنين وقت بعثه انتهى.

أما الوجه الأول فهو سائغ وقد حذف المبتدأ مع مِنْ في مواضع منها ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء] ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [الصافات] ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴿١١﴾﴾ [الجن] على قول.

وأما الوجه الثاني فهو فاسد لأنه جعل «إذ» مبتدأة، ولم تستعملها العرب متصرفة البتّة إنما تكون ظرفاً أو مضافاً إليها اسم زمان، ومفعولة بـ«اذكر»[(٢)] على قول. أما أن تستعمل مبتدأة فلم يثبت ذلك في لسان العرب، ليس في كلامهم نحو: إذا قام زيد طويل، وأنت تريد: وقت قيام زيد طويل.

وقد قال أبو علي الفارسي: لم ترد إذ وإذا في كلام العرب إلا ظرفين، ولا يكونان فاعلين ولا مفعولين ولا مبتدأين انتهى كلامه.

وأما قوله: في محل الرفع كإذا، فهذا التشبيه فاسد لأن المشبه مرفوع بالابتداء والمشبّه به ليس مبتدأ إنما هو ظرف في موضع الخبر على زعم من

---

(١) الكشاف ١ : ٤٧٧.

(٢) ق: وما مفعوله ما ذكر.

يرى ذلك. وليس في الحقيقة في موضع رفع بل هو في موضع نصب بالعامل المحذوف وذلك العامل هو مرفوع. فإذا قال النحاة: هذا الظرف الواقع خبراً في محل الرفع، فيعنون أنه لما قام مقام المرفوع صار في محلّه [وهو في التحقيق] في موضع نصب كما ذكرنا.

وأما قوله: في قولك: أخطب ما يكون الأَميرُ إذا كان قائماً، فهذا في غاية الفساد لأنَّ هذا الظرف على مذهب مَنْ يجعله في موضع خبر المبتدأ الذي هو «أخطب» لا يجيز أن ينطق به إنما هو أمر تقديري. ونصّ أرباب هذا المذهب وهم القائلون بإعراب «أخطب» مبتدأ، أنَّ هذه[1] الحال سَدَّتْ مَسَدَّ الخبر وأنه مما يجب حذف الخبر فيه لسدِّ هذه الحال مَسَدَّهُ. وفي تقدير هذا الخبر أربعة[2] مذاهب ذُكرت في مبسوطات النحو.

وقرىء: من أَنْفَسهم، بفتح الفاء من النفاسة. وعن عليٍّ كَرَّم الله وجهه عنه صلى الله عليه وسلم[3] «أنا أنفسكم نسباً وحسباً وصهراً ولا في آبائي مذ آدم إلى يوم ولدت سفاح كلها نكاح والحمد لله».

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بعثه ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾ جعل الضلال ظرفاً لهم وهم فيه، لأنَّ العرب لم يكونوا أهل كتاب وهم عبّاد أصنام مشركون. وتقدم الكلام على إنْ وهذه اللام في قوله ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً ۝١٤٣﴾ [البقرة].

(١) ق: هذا.

(٢) ق: أربع.

(٣) حديث حسن. صحيح الجامع الصغير ٣: ١٠٩، ومشكاة المصابيح ٣:١٦٠٤ بمعنى وألفاظ مقاربة.

وقال الزمخشري[١]: إنْ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية وتقديره: وإن الشأن والحديث انتهى.

وقال مكي: قال سيبويه: إنْ مخففة من الثقيلة واسمها مضمر والتقدير على قوله: وإنّهم كانوا.

فظهر من كلام الزمخشري أنه حين خففت حذف اسمها وهو ضميرُ الشأن والحديث، ومن كلام مكي أنه حين خففت حذف اسمها وهو ضميرٌ عائد على المؤمنين. وكلا هذين الوجهين لا نعرف نحوياً ذهب إليه.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم﴾ الآية، الهمزة للاستفهام الذي معناه الإنكار، قال الزمخشري[٢]: «ولما» نصب بـ«قلتم» و«أصابتكم» في محل الجر بإضافة «لما» إليه وتقديره: أقلتم حين أصابتكم. و«أنى هذا» نصب لأنه مقول والهمزة للتقرير والتقريع. فإن قلت: علام عطفت الواو هذه الجملة؟ قلت: على ما مضى من قصة أحد من قوله ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ

(١) الكشاف ١: ٤٧٧.
(٢) الكشاف ١: ٤٧٧.

وَعۡدَهُۥٓ﴿١٥٢﴾ [آل عمران]. ويجوز أن تكون معطوفة على محذوف كأنه قال: أفعلتم كذا وقلتم حينئذ كذا انتهى.

أما العطف على ما مضى من قصة أحد من قوله «ولقد صدقكم الله وعده» ففيه بُعْدٌ، وبعيد أن يقع مثله في القرآن. وأما العطف على محذوفٍ فهو جارٍ على ما تقرر في غير موضعٍ من مذهبه وقد رددناه عليه. وأما على مذهب الجمهور سيبويه وغيره قالوا: وأصلها التقديم وعطف الجملة الاستفهامية على ما قبلها. وأما [١٠١/أ] قوله: ولما نصب إلى آخره، وتقدير: وقلتم حينئذ كذا، فجعل لَمّا بمعنى حين فهذا ليس مذهب سيبويه وإنما هو مذهب أبي علي. وأما مذهب سيبويه فلما حرف لا ظرف، وهو حرفُ وجوبٍ لوجوب، ومذهبُ سيبويه هو الصحيح، وقد بيّنا فساد مذهب أبي علي من وجوهٍ في كتابنا المسمّى بالتكميل.

والمصيبة هنا هي ما نزل بالمؤمنين يوم أحد من قتل سبعين منهم. والمِثْلان: قال ابن عباس: قتلهم يوم بدر سبعين وأسرهم سبعين. والمِثْليّة وقعت [في العدد] من إصابة الرجال.

﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ هو استفهام على جهة الإنكار والتعجب. والمعنى: كيف أصابنا هذا ونحنُ نقاتلُ أعداءَ الله وقد وعدنا بالنصر وإمداد الملائكة. و«أنىٰ» سؤال عن الحال ولا يناسب أن تكون هنا بمعنى أين أو متى، لأن الاستفهام لم يقع عن المكان[١] ولا عن الزمان هنا، إنما الاستفهامُ وقع عن الحالةِ التي اقتضت لهم ذلك، سألوا عنها على سبيل التعجب.

---

(١) عبارة ق: والمناسب أن تكون.. لم يقع عن الكافر.

وقال الزمخشري[١]: «أنى هذا» من أين هذا، كقوله ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۝٣٧﴾ [آل عمران] لقوله «من عند أنفسكم» وقوله ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۝٣٧﴾ [آل عمران] انتهى كلامه. والظرف إذا وقع خبراً للمبتدأ لا يقدر داخلاً عليه حرف جر غير في، أما أن يقدّر داخلاً عليه مِن فلا، لأنه إنما انتصب على إسقاط في، ولذلك إذا أضمر الظرف تعدّى إليه الفعل بوساطة في، إلا أن يُتّسع في الفعل فينصبه نصب التشبيه بالمفعول به.

فتقدير الزمخشري «أنى هذا»: من أين هذا تقدير غير سائغ، واستدلاله على هذا التقدير بقوله «من عند أنفسكم» وقوله «من عند الله» وقوف على مطابقة الجواب للسؤال في اللفظ وذهول[٢] عن هذه القاعدة التي ذكرناها. وأما على ما قررناه فإن الجواب جاء على مراعاة المعنى لا على مطابقة الجواب للسؤال في اللفظ.

وقد تقرر في علم العربية أن الجواب يأتي على حسب السؤال مطابقاً له في اللفظ ومُراعى فيه المعنى لا اللفظ.

والسؤال «بأنى» سؤال عن تعيين كيفية حصول هذا الأمر، والجواب بقوله «من عند أنفسكم» يتضمن تعيين الكيفية، لأنه بتعيين السبب تتعين الكيفية من حيث المعنى، لو قيل على سبيل التعجب والإنكار: كيف لا يحجّ زيد الصالح؟ وأجيب [عن] ذلك بأن يقال: لعدم استطاعته، حصل الجواب وانتظم من المعنى أنه لا يحجّ وهو غير مستطيع.

---

(١) الكشاف ١ : ٤٧٧.

(٢) ق: وذهل.

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ قال الزمخشري[١]: المعنى أنتم السبب فيما أصابكم لاختياركم الخروج من المدينة أو لتخليتكم المركز، وعن عليّ: لأخذكم الفداء من أسارى بدر قبل أن يُؤْذَنَ لكم انتهى. وهو كلامٌ مُلَفَّقٌ من أقوالِ المفسرين.

﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ ما شرطية أو موصولة، وجواب الشرط أو خبر المبتدأ قوله «فبإذن الله» وهو على إضمارٍ أي: فهو بإذن الله. ونصُّوا على أنَّ فعل الشرطِ وصلة الموصول لا تكون ماضية هنا[٢] وفي قوله تعالى ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ ۝٦﴾[٣] [الحشر] معلوم أن هذه الإصابةَ وتلك الإفاءة معلوم مُضِيُّهما، فتأويلهما[٤] على معنى التبيين أي: [أن] تتبين إصابتكم أو أن تتبين الإفاءة.

﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ قالوا: متعلق بمحذوف أي: وفعل ذلك ليعلم. والمختار أن يكون معطوفاً على «بإذن الله»، والباء واللام كلاهما للسبب. تقدم الكلام في تفسير علم الله المسند إليه في هذا التركيب في قوله ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ۝١٤٣﴾[٥] [البقرة]. و﴿ٱلَّذِينَ[٦] نَافَقُوا۟﴾ هنا هم عبد الله بن أبيّ وأصحابُه.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ القائلُ هو رسول الله ﷺ وقيل عبد الله أبو جابر بن عبد الله،

---

(١) الكشاف ١ : ٤٧٧.

(٢) ق: وهنا.

(٣) ق: ما.

(٤) ق: فتأويلها.

(٥) ق: ليعلم.

(٦) ق: فالذين.

تبعهم لما انخذلوا عن المسلمين ووعظهم وذكَّرهم فلمّا لم يجيبوه لِمَا سألهم[(١)] قال: اذهبوا أعداء الله ثم رجع عنهم وقاتل حتى قُتِلَ شهيداً [١٠١/ب] رضي الله عنه.

﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾ وجه الأقربية التي هي الزيادة في القرب أنهم كانوا يظهرون [الإيمان] ولم يكن لهم أمارة تدل على الكفر، فلما انخذلوا عن المؤمنين وقالوا ما قالوا ازدادوا قرباً للكفر وتباعدوا عن الإيمان. واللامان يتعلقان بـ«أقرب». و«يومئذ» منصوب بأقرب. والتنوين في إذ للعوض من الجملة المحذوفة تقديره: يومَ إذْ قالوا ذلك لإخوانهم كما تقدم في قوله: ﴿كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴿١٥٦﴾﴾ [آل عمران] قال ابن عطية: «بأفواههم» توكيد مثل ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام] انتهى. لا يظهر أنه توكيد إذ القول ينطلق على اللساني والنفساني فهو مخصص لأحد الانطلاقين إلا إنْ قلنا إنَّ إطلاقه على النفساني مجاز فيكون إذْ ذاك توكيداً لحقيقة القول.

﴿وَقَعَدُوا﴾ جملة حالية. ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ يعني في القعود. وقرىء: ما قتلوا، بتشديد التاء وتخفيفها. ﴿قُلْ فَادْرَءُوا﴾ أي: ادفعوا، ومنه ﴿فَادَّارَأْتُمْ ﴿٧٢﴾﴾ [البقرة] ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ ﴿٨﴾﴾ [النور].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾
فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ
لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ
الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ

(١) ق: سأل منهم.

جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾
فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ
عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاء خطاباً للسامع، وبالياء أي: ولا يحسبن هو أيْ حاسبٌ. قال الزمخشري[1]: ويجوز أن يكون «الذين قتلوا» فاعلاً ويكون التقدير: ولا يحسبنّهم[2] الذين قتلوا أمواتاً، أي: لا يحسبنَّ الذين قُتلوا أنفسهم أمواتاً. فإن قلت: كيف جاز حذف المفعول الأول؟ قلت: هو في الأصل مبتدأ فحذف كما حذف المبتدأ في قوله «أحياء»، والمعنى هم أحياء، لدلالة الكلام عليهما انتهى كلامه. أما تقديره: فلا يحسبنهم الذين قتلوا، ففيه تفسير الضمير بالفاعل على الظاهر وهو لا يجوز فلا تقول: حسبه زيد منطلقاً، تريد: حسب نفسه، ولا: ضربه زيد، تريد: ضرب نفسه زيد.

وقد ذكرنا في «البحر»[3] المواضعَ التي يفسّر الضمير الاسم المتأخر أو الجملة اتفاقاً واختلافاً، وليس منها الضمير الذي يفسّره الظاهر الفاعل. وأما تجويزه حذف المفعول الأول في باب حسب فقال الفارسي: حَذْفه اختصاراً عزيز جداً. وقال بعض أصحابنا: لا يجوز حذفه ألبتة. وما كان هكذا فلا ينبغي أن يحمل كلام الله عليه. وأما من حيث المعنى فيبعد ما قاله جداً، لأن من كان حيّاً عند ربه مرزوقاً مستبشراً لا يُنهى أنْ يحسب نفسه ميتة، فيجب أن تحمل قراءة الياء على أن الحاسب مضمر كما قررناه لتتفق

(١) الكشاف ١: ٤٧٩.

(٢) ق: تحسبنهم.

(٣) انظر ٣: ١١٢.

القراءتان في كون «الذين» مفعولاً وإن اختلفتا من جهة الخطاب والغيبة.

و﴿أَحْيَآءٌ﴾ بالرفع على تقدير: بل هم أحياء. وقرىء: أحياءً بالنصب على تقدير: بل تحسبهم[١] أحياء. والظاهر أن «فرحين» حال من الضمير في «يرزقون».

﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم﴾ هم الشهداء الذين يأتون[٢] بعدُ من إخوانهم المؤمنين الذين تركوهم يجاهدون فيستشهدون. فرحوا لأنفسهم ولمن[٣] يلحق بهم من الشهداء إذْ يصيرون إلى ما صاروا إليه من كرامةِ الله تعالى. وجعل ابن عطية «استبشر» بمعنى الفعل المجرد لأنه يقال بشر كما يقال: استمجد المَرخ والعَفار[٤] بمعنى مجد. والأحسن أن يكون استبشر مطاوع أبشر كقولهم: أكانه فاستكان، ومطاوعة استفعل لأفعل كثير، لأنه من حيث المطاوعة يكون منفعلاً عن غيره فحصلت له البشرى بإبشار الله له بذلك. و«أنْ» هي المخففة من الثقيلة واسمها محذوف ضمير الشأن وخبرها الجملة المنفية بلا، وأنْ وما بعدها في تأويل مصدر مجرور على أنه بدل اشتمال من «الذين» فيكون هو المستبشَر به على الحقيقة، أو منصوب على أنه مفعول لأجله فيكون علة للاستبشار والمبشّر به غيره[٥]، التقدير: لأنه لا خوف عليهم. والذوات لا يُستبشر بها فلا بد من تقدير مضاف مناسب.

والظاهر أن قوله «يستبشرون» [١٠٢/أ] استئناف إخبار وليس بتوكيد

---

(١) ق: يحسبهم.

(٢) ق: يأتوا.

(٣) ق: ولما.

(٤) مجمع الأمثال ٢: ٢١.

(٥) ق: غير.

للأول لاختلاف متعلق الفعلين، الأول بانتفاء الخوف والحزن عن الذين لم يلحقوا بهم، والثاني قوله «بنعمة من الله وفضل». وذهب الزمخشري وابن عطية إلى أنه توكيد للأول، قال الزمخشري[(١)]: وكرر «يستبشرون» ليعلق به ما هو بيان لقوله «أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» من ذكر النعمة والفضل وأنَّ ذلك أجر لهم على إيمانهم يجب في عدلِ الله وحكمته أنْ يحصلَ لهم ولا يضيع انتهى.

وهو على طريقةِ الاعتزالِ في ذِكْرِه وجوب الأجر وتحصيله على إيمانهم.

وسلك ابنُ عطية طريقَ أهل السنة فقال: أكَّدَ استبشارهم بقوله «يستبشرون» ثم بيّن بقوله: وفضل إدخالهم الجنةَ الذي هو فضل منه لا بعمل أحد. وأما النعمة في الجنة والدرجات فقد أخبر أنها على قدر الأعمالِ انتهى. وقرىء: وإنّ بكسر الهمزة وفتحها.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الاستجابة كانت إثر الانصراف من أحد، استنفر الرسول ﷺ لطلب الكفار فاستجاب له تسعون. وقيل: لما كان الثاني من أحد [وهو] يوم الأحد نادى رسول الله ﷺ في الناس باتباع المشركين وقال: لا يخرجنَّ معنا إلا من شاهدنا بالأمس، وكانت بالناس جراحةٌ[(٢)] وقَرْحٌ عظيم ولكن تَجلَّدُوا ونهض معه مئتا رجلٍ من المؤمنين حتى بلغ حمراء الأسد وهي على ثمانية أميال من المدينة وأقام بها ثلاثة أيام.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ الظاهر أن القائل هم ناس وليس بواحد كما قال بعضهم إنه نعيم بن مسعود الأشجعي. وقيل: «الناس» رَكْب من عبد القيس

---

(١) الكشاف ١: ٤٨٠.

(٢) ق: حراجة.

مرّوا على أبي سفيان يريدون المدينة للميرة فجعل لهم جُعلاً وهو حمل إبلهم زبيباً على أنْ يخبروا أنه جمع ليستأصل بقية المؤمنين، فقال رسول الله ﷺ وأصحابه وهم بحمراء الأسد «حسبنا الله ونعم الوكيل». و«الناس» الثاني قريش.

﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ الآية، أي: فرجعوا من بدر مصحوبين بنعمة من الله وهي السلامة وحذر العدو إياهم. ﴿وَفَضْلٍ﴾ وهو الربح في التجارة كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴿١٩٨﴾﴾ [البقرة] هذا الذي اختاره الزمخشري[1] في تفسير هذا الانقلاب ولم يذكر غيره وهو قول مجاهد. قال ابن عطية: والجمهور على أن معنى[2] هذه الآية «فانقلبوا بنعمة» يريد: في السلامة والظهور وفي اتباع العدوِّ وحمايةِ الحَوْزةِ، وبفضلٍ في الأجرِ الذي حازوه[3] والفخر الذي تجلّلوه، وأنها في غزوة أحد في الخرجة إلى حمراء الأسد. والجملة من قوله «لم يمسسهم سوء» في موضع الحال. و«بنعمة» في موضع الحال.

﴿ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ ظاهره الإشارة إلى مفرد ويكون على حذف مضاف أي: فعل الشيطان. وإنما نُسبَ إليه وأُضيفَ لأنه ناشيءٌ عن وسوسته وإغوائه وإلقائه. ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ فيه محذوفان مفعول وحرف جر والتقدير: يخوفكم بأوليائه كما جاء ذانك المحذوفان مصرحاً بهما في قوله تعالى ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر].

---

(١) انظر الكشاف ١: ٤٨١.

(٢) ق: على أنه بمعنى.

(٣) ق: جاوزه.

قال الزمخشري[١]: «الشيطان» خبر «ذلكم» بمعنى: إنما ذلكم المثبط[٢] هو الشيطان، و«يخوف أولياءه» جملة مستأنفة بيان لشيطنته، أو «الشيطان» صفة لاسم الإشارة و«يخوف» الخبر، والمراد بالشيطان نعيم أو أبو سفيان انتهى. فعلى تقدير القول تكون الجملة لا موضع لها من الإعراب. وإنما قال: والمراد بالشيطان نعيم أو أبو سفيان لأنه لا يكون صفة، والمراد به إبليس لأنه إذا أُريد به إبليس كان إذ ذاك علماً بالغلبة إذ أصله صفة كالعيوق ثم غلب على إبليس كما غلب العيوق على النجم [١٠٢/ب] الذي ينطلق عليه. قال ابن عطية: و«ذلكم» في الإعراب ابتداء و«الشيطان» مبتدأ آخر و«يخوّف أولياءه» خبر عن «الشيطان»، والجملة خبر الابتداء الأول، وهذا الإعراب خير في تناسق المعنى من أن يكون «الشيطان» خبر «ذلكم» لأنه يجيء في المعنى استعارة بعيدة انتهى.

وهذا الذي اختاره إعرابٌ لا يجوز إن كان الضمير من «أولياءَه» عائداً على الشيطان، لأن الجملة الواقعة خبراً[٣] عن «ذلكم» ليس فيها رابطة تربطها بقوله «ذلكم» وليست[٤] نفس المبتدأ في المعنى نحو قولهم: هِجّيرى[٥] أبي بكر لا إله إلا الله. وإن كان عائداً على «ذلكم» ويكون «ذلكم» خبراً عن «الشيطان» جاز وصار نظير: إنما هند زيد يضرب غلامها، والمعنى إذ ذاك: إنما ذلكم الركب أو أبو سفيان الشيطان، يخوفكم أولياءه أي: أولياءَ الركبِ

(١) الكشاف ١: ٤٨١.

(٢) ق: أن ذلكم التثبيط.

(٣) ق: خبر.

(٤) ق: وليس.

(٥) أي دأبه وشأنه.

أو أبي سفيان.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا
يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ
لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ
خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى
ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟
فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا
لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ قرىء: يَحْزنك مضارع حزن، ويُحْزنك مضارع أحزن. والذين كفروا عامٌّ في كُلِّ مَنْ يسارع في الكفر. وقرىء: يُسرعون مضارع أسرع.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ الآية، احتملت [«ما»] أن تكون موصولة اسم «أن» والخبر [«خير»]. واحتمل أن تكون «ما» مصدرية فيكون ذلك المصدر اسم أن، وخبر أن «خير». فعلى التقدير الأول يكون معناه أن الذي نمليه خير، وحذف الضمير من نمليه وهو عائد على الذي. وعلى التقدير الثاني يكون: أن إملاءنا خير، وسدّت أنّ مسدّ مفعولي «يحسبنّ».

ومعنى «نملي» نمهل ونمدُّ في العمر، والملاوة: المدة من الدهر، والملوان الليل والنهار.

وقرأ الجمهور: ولا يحسبنّ بالياء، فيكون «الذين كفروا» فاعلاً، وعلى

هذه القراءة يخرّج ذانك الإعرابان. وقرأ حمزة: ولا تحسبنّ[1] بالتاء، و«الذين كفروا» مفعول أول ولا يكون ما بعده مفعولاً ثانياً، لأن المعنى لا يكون الذات[2] فخرّج على أن يكون «الذين» على حذف مضاف تقديره: ولا تحسبن شأن الذين كفروا، إن كان الحذف في الأول، وعلى حذفٍ بعد «الذين كفروا» تقديره: أصحابُ أنما نملي لهم. وخرّج ابن الباذش هذه القراءة على «أنما نملي» بدل من «الذين» ويكون المفعول الثاني محذوفاً وتقديره: ولا تحسبن الذين كفروا خيريّة إملائنا لهم كائنة أو واقعة. وعلى البدل خرّجه الزمخشري وتقدّمهما[3] إلى ذلك الكسائي والفراء. وقرىء: خيراً بالنصب، فيكون «أنما نملي لهم» بدلاً من «الذين» والتقدير: ولا تحسبن إملاءنا للكفار خيراً لأنفسهم.

وقرأ يحيى بن وثاب: ولا يحسبن بالياء، وإنما نملي بالكسر. فإن كان الفعل مسنداً للنبي ﷺ فيكون المفعول الأول «الذين كفروا» ويكون «إنما نملي لهم» جملة في موضع المفعول الثاني. وإن كان مسنداً للذين كفروا فيحتاج «يحسبن» إلى مفعولين، فلو كانت «إنما» مفتوحة سدت مسدّ المفعولين، ولكن يحيى قرأ بالكسر فخرّج ذلك على التعليق فكسرت إنّ وإن لم تكن اللام في خبرها، والجملة المعلق عنها الفعل في موضع مفعولي «يحسبن» وهو بعيد لحذف اللام. ونظير تعليق الفعل عن العمل مع حذف

---

(١) ق: ولا يحسبن بالياء.

(٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب: لأن المصدر لا يكون الذات. وانظر البحر: ١٢٢:٣.

(٣) ق: وتقدمها.

اللام من المبتدأ قول الشاعر[١]: [من البسيط]

أنّي وَجَدْتُ مِلاكَ الشّيمةِ الأدبا

أي: لملاك.

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ ليس عاماً بل خاص فيمن علم الله أنه لا يؤمن، ألا ترى إلى قوله ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ اللام في «ليذر» لام الجحود وهي تأتي بعد كونٍ ماضٍ لفظاً أو معنى بحرف نفي وهو ما أو لم، وخبر كان محذوف عند البصريين تتعلق به اللام، وأنْ مضمرة بعد اللام والتقدير عندهم: ما كان الله مريداً لأن يذر. ومذهب الكوفيين أن اللام زائدة ناصبة [١٠٣/أ] للفعل والخبر هو نفس «يذر»، ولولا اللام لكان الفعل «يذر» والخطاب في قوله «على ما أنتم عليه» للمؤمنين وغيرهم من الكفار، أي: لا يترك الله تعالى أمر الجميع مشتبهاً حتى يَميزَ الخبيثَ من الطيب بامتثالِ تكاليفه تعالى فيمتثله الطيب وهو المؤمن ويجتنبه الخبيث وهو الكافر، وهو العليم بالأحوال وما ينتهي [إليه] كل واحد منهما، ولذلك قال «وما كان الله ليطلعكم على الغيب». والغيب هنا ما غاب عن البشر مما هو في علم الله تعالى من الحوادث التي تحدث، ومن الأسرار التي في قلوب المنافقين، ومن الأقوال التي يقولونها[٢] إذا غابوا عن الناس. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى﴾ أي: يصطفي من رسله من يشاء فيطلعه على ما يشاء من غيبه.

---

(١) هو بعض الفزاريين كما في شرح ديوان الحماسة ٣: ١١٤٦، وصدر البيت:

كذاك أُدِّبت حتى صار من خُلقي

(٢) ق: التي قال يقولونها.

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ[1] ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما بالغ في التحريضِ على بذلِ الأرواحِ في الجهاد في الآيات السابقة، شرع في التحريض هنا على بذلِ الأموالِ في الجهاد وغيره، وبيَّنَ الوعيدَ الشديد لمن يبخل. والبخلُ الشرعي عبارةٌ عن مَنْعِ بَذْلِ الواجب.

وقرىء: ولا تحسبنّ بالتاء فيكون «الذين» أول مفعولين لتحسبنّ، وهو على حذف مضاف أي: بخل الذين. وقرىء بالياء، والفعل مسند إلى ضمير أحد، فيكون «الذين» هو المفعول الأول على ذلك التقدير، وإن كان «الذين» هو الفاعل فيكون المفعول الأول محذوفاً تقديره: بخلهم، وحذف لدلالة «يبخلون» عليه، وحذفه عزيز جداً عند الجمهور، فلذلك [كان] الأولى تخريج هذه القراءة على قراءة التاء من كون «الذين» هو المفعول الأول على حذف مضاف و«هو» فصل، و«خيراً» المفعول الثاني لتحسبن.

ويظهر لي تخريج غريب في الآية تقتضيه قواعد العربية، وهو أن تكون المسألة من باب الإعمال إذا جعلنا الفعل مسنداً للذين. وذلك أن «يحسبن» يطلب مفعولين و«يبخلون» يطلب مفعولاً بحرف جر. فقوله «ما آتاهم» يطلبه «يحسبن» على أن يكون المفعول الأول ويكون «هو» فصلاً، و«خيراً» المفعول الثاني، ويطلبه «يبخلون» بتوسط حرف الجر، فأعمل الثاني على الأفصح في لسان العرب وعلى ما جاء في القرآن وهو «يبخلون» فعدّي بحرف الجر وأخذ معموله، وحذف معمول «يحسبن» الأول وبقي معموله الثاني لأنه لم يتنازع فيه إنما جاء التنازع بالنسبة إلى المفعول الأول وساغ حذفه وحده كما ساغ حذف المفعولين في مسألة سيبويه: متى رأيت أو قلت زيد منطلق، لأن «رأيت وقلت» في هذه المسألة تنازعا «زيد منطلق»، وفي

(١) ق: تحسبن.

الآية لم يتنازعا إلا في المفعول الواحد، وتقدير المعنى: ولا يحسبن ما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم الناس الذين يبخلون به. فعلى هذا التقدير والتخريج يكون «هو» فصلاً لـ«ما آتاهم» المحذوف لا لتقديرهم بخلهم. ونظير هذا التركيب: ظن الذي مرّ بهند هي المنطلقة، المعنى: ظن هذا الشخص الذي مرّ بها هي المنطلقة. والذي تنازعه الفعلان هو الاسم الأول، فأعمل الثاني وبقي الأول يطلبه محذوفاً، ويطلب المفعول الثاني مثبتاً إذ لم يقع فيه التنازع. ولما تضمّن النّهي انتفاء كون البخل أو المبخول به خيراً لهم، وكان تحت الانتفاء قسمان أحدهما أن لا خير ولا شر، والآخر إثبات الشر - أتى بالجملة التي تعيّن أحد القسمين وهو إثبات كونه شراً لهم.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ هذا تفسير لقوله «بل هو شر لهم». والظاهر حَمْلُه على المَجاز أي: سَيُلْزمون عقابه إلزامَ الطوق.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ الآية، نزلت في [١٠٣/ب] فنحاص بن عازوراء حاوره أبو بكر في الإسلام وأنْ يقرض الله قرضاً حسناً فقال هذه المقالة فضربه أبو بكر رضي الله عنه ومنعه من قِبَله[1] العهد، فشكاهُ إلى رسولِ الله ﷺ فأنكر ما

---

(١) ق: قتله.

قال، فنزلت تكذيباً لفنحاص وتصديقاً للصدِّيق قاله ابن عباس. وشمل قوله «الذين قالوا» فنحاصاً ومَنْ قال بمقالته كحيّي بن أخطب وإلياس بن عمرو[١].

﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ﴾ الظاهر إجراء الكتابة على أنها حقيقة فتكتب الأعمال في صحف وأنَّ تلك الصحف هي التي تُوزن ويحدث الله فيها الخفة والثقل. وقيل: الكتابة مجاز ومعناها الإحصاء للشيء وضبطه وعدم إهماله وكينونته في علم الله مثبتاً محفوظاً لا ينسى كما يثبت[٢] المكتوب. وقرىء: سنكتب بالنون، وقتلَهم نصباً، ونقول بالنون. وقرىء: سيُكتب مبنياً للمفعول، وقتلُهم رفعاً، ويقول بالياء.

ولما كان الصادر منهم قولاً وفعلاً ناسب أن يكون الجزاء قولاً وفعلاً، فتضمّن القول والفعل قوله «ونقول ذوقوا عذاب الحريق». وفي الجمع لهم بين القول والفعل أعظم انتقام، ويقال للمنتقم منه: أَحِسَّ[٣] وَذُقْ.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من عقابهم. ونسب ما قدّموه من المعاصي القولية والفعلية والاعتقادية إلى الأيدي على سبيل التغليب، لأن الأيدي تزاول[٤] أكثرَ الأعمالِ فكان كل عمل واقع بها. وهذه الجملة داخلة في القول وُبّخوا بذلك وذكر لهم السبب الذي أوجب لهم العقاب.

---

(١) ق: عزو. والتصويب من ط والبحر ٣: ١٣٠.
(٢) ق: ثبت.
(٣) ق: أحسن.
(٤) ق: تناول.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ هذا معطوف على قوله «بما قدمت أيديكم» أي: ذلك العقاب حاصل بسبب معاصيكم وعدل الله فيكم. وجاء لفظ «ظلّام» الموضوع للتكثير، وهذا تكثير بسبب المتعلّق.

﴿ٱلَّذِينَ[1] قَالُوٓاْ﴾ أنزلت في جماعة من اليهود منهم كعب [بن] الأشرف. و«عهد» بمعنى أوصى. والظاهر أن القربان هو ما يُتقرّب به إلى الله تعالى. قال ابن عطية: وقرأ عيسى بن عمر: بقربان بضم الراء إتباعاً لضم القاف. وليس بلغة، لأنه ليس في الكلام فُعُلان بضم الفاء والعين، وحكى سيبويه: السلطان بضم اللام وقال إن ذلك على الإتباع انتهى. لم يقل سيبويه إن ذلك على الإتباع بل قال: ولا نعلم في الكلام فَعَلان ولا فُعُلان ولا شيئاً من [هذا] النحو لم نذكره، ولكنه جاء فُعُلان وهو قليل قالوا: السّلُطان وهو اسم انتهى. وقال الشارح: صاحب هذه اللغة لا يسكّن ولا يُتبع انتهى. وزعموا أن هذا العهد في التوراة، وقيل هو من كذبهم على الله تعالى.

والظاهر من هذه الآية والتي قبلها أنَّ ذلك من فِعْلِ أسلافهم، ألا ترى إلى قوله «وقتلهم الأنبياء» وقوله «قل قد جاءكم رسل» إلى آخر الآية. والمعاصرون لرسولِ الله ﷺ من اليهود لم يقتلوا الأنبياء ولا جاءتهم رسلٌ غير محمدٍ ﷺ. ويظهر ما قلناه في قوله تعالى «لم قتلتموهم». وإنما هذا كله من فعل أسلافهم فوُبّخوا بذلك لرضاهم بما صدر من أسلافهم.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ[2]﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، وجواب الشرط محذوف

---

(١) ق: الذي.

(٢) ق: يكذبوك.

تقديره: فتسلَّ بما صدر للرسل من مكذّبيهم[١] قبلك. وما وجد من كلام المعربين أن جواب الشرط قوله «فقد كُذّب» إنما هو على سبيل المجاز، لأن الماضي حقيقة لا يكون جواباً للشرط المستقبل. ومعنى «بالبيّنات» بالمعجزات الواضحة.

﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ جمع زبور وهو الكتاب، يقال: زبره أي: كتبه. وقد يكون مشتقاً من الزَّبْر وهو الزجر. والجمع يدل على الكثرة ويعني به الكتب الإلهية.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ الظاهر أنه التوراة إذ هو أكبر الكتب المنزلة على بني إسرائيل وفيه تبيين شريعتهم. وقرىء: بالزبر وبالكتاب[١٠٤/أ] بالباء فيهما، وقرىء بتركهما.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ﴾ تضمنت هذه الجملة وما بعدها الوعظ والتسلية

(١) ق: صدر للرسول صلى مكذبيهم.

لرسول الله ﷺ عن الدنيا وأهلها والوعد بالنجاة في الآخرة، إذ بذكر[1] الموت والفكرة فيه يهونُ ما يصدرُ من الكفار من تكذيبٍ وغيره[2]. ولما تقدم ذِكْرُ المكذبين الكاذبين على الله تعالى من اليهود والمنافقين وذِكْرُ المؤمنين - نُبّهوا كلهم على أنهم ميتون ومآلهم إلى الآخرة ففيها يظهر الناجي والهالك وأن ما تعلقوا به في الدنيا من مالٍ وأهل وعشيرة إنما هو على سبيل التمتع المغرور به[3]، كلها يضمحلّ ويزول ولا يبقى إلا ما عمله الإنسان فهو يُوفّاه في الآخرة، يوفى على طاعته ومعصيته.

وقال محمد بن عمر الفخر الرازي[4]: في هذه الآية دلالةٌ على أنَّ النفسَ لا تموت بموت البدن [وعلى أن النفس غير البدن] انتهى.

وهذه مكابرة في الدلالة فإن ظاهر الآية يدل على أن النفس تموت. وقال أيضاً[5]: لفظ النفس مختصّ بالأجسام انتهى. وقرىء: ذائقةٌ[6] منوناً، الموتَ نصباً. وقرىء بغير تنوين والموتَ نصباً، ونظيره قول الشاعر[7]:

ولا ذاكرَ اللهَ إلا قليلا [من المتقارب]

حذف التنوين لالتقاء الساكنين. وقراءة الجمهور على الإضافة. و«كل» إذا

---

(١) ق: بكر.
(٢) ق: غيره.
(٣) ق: المغروبة.
(٤) انظر تفسيره ٣: ١١٣، وتصرف أبو حيان في النص.
(٥) الموضع نفسه.
(٦) ق: ذائق.
(٧) البيت لأبي الأسود الدؤلي في ديوانه ص١٢٣، وصدره:
فألفيتُه غير مستعتبٍ

اضيفت إلى نكرةٍ كان الحكم في الخبر والإضمار لتلك النكرة كقوله «ذائقة الموت» وقوله ﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور] وكل رجلين قاما، وكل امرأتين قامتا، وقوله تعالى ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ ﴿٧١﴾ ﴾ [الإسراء] وقول الشاعر[1]: [من الطويل]

وكل أناسٍ سوف تدخلُ بينهم دويهيـة تصفـرُّ منهـا الأنـامـلُ

فالتذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع بحسب النكرة التي أضيف إليها كلّ.

﴿ فَمَن زُحْزِحَ ﴾ الزحزحة التنحية والإبعاد.

﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ ﴾ قيل: نزلت في قصة عبد الله بن أبيّ حين قال لرسولِ الله ﷺ وقد قرأ عليهم الرسولُ القرآنَ: إنْ كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا. وردّ عليه ابن رواحة فقال: اغْشَنَا به في مجالسنا يا رسول الله. والابتلاء الاختبار، والضمير في «لتبلونّ» للمؤمنين خاطبهم بذلك ليستعدّوا لما يرد عليهم من الابتلاء فيصبروا، بخلاف مَنْ يأتيه الأمر فجأة فيشقّ عليه ما يرد، بخلاف من استعدّ للشيء فإنه يوطن نفسه على وقوعه. وقدّم الأموال على الأنفس على سبيل الترقي إلى الأشرف أو على سبيل الكثرة، لأنَّ الرزايا في الأموال أكثر من الرزايا في الأنفس. والأذى اسم جامع في معنى الضرر يشمل أقوالهم في الرسول وأصحابه وفي الله تعالى وأنبيائه والمطاعن في الدين وتخطئة مَنْ آمنَ وهجاء كعب وتشبيبه[2] بنساء المؤمنين.

﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ الإشارة إلى الصبر والتقوى الدالّ عليهما فعلهما. وعبر

---

(١) البيت للبيد في ديوانه ص٢٥٦.

(٢) ق: لعب وتشبيه.

بالمفرد عن المثنى كما قال الشاعر[١]: [من الرمل]

إنَّ للخيـر وللشّـرِّ مـدًى وكـلا ذلـك وجـهٌ وقِبَـلْ

يريد: وكلا ذينك. ﴿مِنْ[٢] عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ العزم الإمضاء للأمر المروَّى المنقح.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ الآية، هم اليهود أخذ عليهم الميثاق في أمر رسول الله ﷺ فكتموه ونبذوه، قاله ابن عباس وغيره.

﴿وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ﴾ الضمير عائد على الميثاق، وكذا في قوله «فنبذوه». والثمن القليل هو ما أخذوه من الرُّشا على تبيين الميثاق [وكتمه].

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ تقدم الكلام فيما بعد بئس [١٠٤/ب] في قوله تعالى في البقرة ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ الآية، نزلت في المنافقين كانوا يتخلفون عن رسول الله ﷺ في الغزو، فإذا جاء استعذروا له فيظهر القبولَ ويستغفر لهم، ففضحهم اللهُ بهذه الآية، قاله أبو سعيد الخدري وغيره. وقرىء: لا يحسبن بياء الغيبة، فلا يحسبُنّهم بالياء وضم الباء، و«الذين» فاعل، ومفعولا «يحسبن» محذوفان لدلالة مفعولي «يحسبنّهم» عليهما والتقدير: أنفسهم ناجين، و«فلا يحسبنهم» توكيد لما سبق ولا يصح أن يكون بدلاً كما قال ابن عطية لوجود الفاء فإنها تمنع من البدل.

وقول الفارسي في أن «لا يحسبن» لغو لم يقع على شيء، قولٌ ضعيف

---

(١) البيت لابن الزبعرى، وهو في شرح المفصل ٣: ٣.

(٢) ق: لمن.

جداً. وتقدير الزمخشري: لا يحسبنهم الذين، فيفسّر الضمير الفاعل قد رددناه عليه في تقديره: لا يحسبنهم الذين كفروا أنما نملي لهم فيطالع هناك[١]. وتعدى «يحسبُنّهم» المضموم الباء إلى الضمير المنصوب، والفعل مسند إلى الضمير المرفوع وهو الواو المحذوفة، وذلك مختص بباب ظن وفقه وعلم، و«بمفازة» هو المفعول الثاني. وقرىء: لا تحسبن وفلا[٢] تحسبنهم، والخطاب للرسول ﷺ و«الذين»[٣] المفعول الأول، والثاني محذوف تقديره: ناجين. وقرىء: لا يحسبن بياء الغيبة و«الذين» فاعل، والمفعولان ليحسبنّ محذوفان، وفلا تحسبنّهم بتاء الخطاب وفتح الباء.

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ روي عن ابن عباس أنَّ قريشاً قالوا

(١) انظر تفسير الآية ١٧٨، والبحر ٣: ١٢٣.

(٢) ق: ولا.

(٣) ق: والذي.

لرسول الله ﷺ: ادعُ ربك يجعل لنا الصفا ذهباً، حين ذكرت اليهود والنصارى لهم بعض ما جاء به من المعجزات موسى وعيسى عليهما السلام، فنزلت هذه الآية.

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ[هَٰذَا بَٰطِلًا﴾] منصوب بحال محذوفة تقديره: يقولون ربنا. والإشارة بقوله «هذا» إلى الخلق بمعنى المخلوق، أو إلى السماوات والأرض بما فيهما من عجائب الصنعة. وانتصب «باطلاً» على أنه نعت لمصدر محذوف أي خلقاً باطلاً، قال بعضهم: هو منصوب على أنه مفعول ثانٍ لخَلَق وهي بمعنى جعل التي تتعدى إلى مفعولين انتهى. وهذا عكس المنقول في النحو وهو أنّ جَعَل تكون بمعنى خَلَق فتُعدّى لواحد، أما أن خلق تكون بمعنى جعل فتتعدى لاثنين فلا أعلم أحداً ممّن له معرفة ذهب إلى ذلك.

﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ أي: فضحته، من خَزِيَ الرجلُ يَخْزَى خزياً إذا افتضح وخزاية إذا استحى. الفعل واحد واختلف في المصدر فمن الافتضاح خزي ومن الاستحياء خزاية، ومن ذلك ﴿وَلَا تُخْزُونِ[1] فِى ضَيْفِىٓ ۝٧٨﴾ [هود] أي: لا تفتضحوني.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا﴾ سمع هنا تَعَدَّتْ إلى واحد، و﴿يُنَادِى﴾ صفة له و﴿أَنْ ءَامِنُوا۟﴾ تفسير، التقدير: أي آمنوا. وقيل مصدرية على تقدير إسقاط حرف الجر تقديره: بأن آمنوا. وعَطْف «فآمنا» بالفاء مُؤْذِنٌ بتعجيل القبول وتسبيب الإيمان عن السماع من غير تراخٍ والمعنى فآمنا بك أو بربنا. و«الأبرار» جمع برّ أو جمع بارّ.

---

(١) ق: تخزوني.

﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ على ألسنةِ رُسُلِكَ.

وانظر إلى حسن محاورة هؤلاء الذاكرين المتفكرين، فإنهم خاطبوا الله تعالى بلفظة «ربنا» وهي إشارة إلى أنه ربّهم أصلحهم[1] وهيّأهم للعبادة، فأخبروا أولاً بنتيجة الفكر وهو قولهم «ربنا ما خلقت هذا باطلا»، ثم سألوه أنْ يقيهم النارَ بعد تنزيهه عن النقائص، وأخبروا عن حال مَن يدخل النار وهم الظالمون الذين لا يذكرون الله تعالى ولا يتفكرون في مصنوعاته. ثم ذكروا أيضاً [أنَّ] ما أنتج لهم الفكر من إجابة الداعي إلى الإيمان إذْ ذاك مترتب على أنه تعالى ما خلقَ هذا الخَلْقَ العجيب [١٠٥/أ] باطلاً، ثم سألوا غفران ذنوبهم ووفاتهم على الإيمان الذي أخبروا به في قولهم «فآمنا»، ثم سألوا الله تعالى الجنة وأنْ لا يفضحهم يوم القيامة وذلك هو غاية ما سألوه.

وتكرر لفظ «ربنا» خمس مرات كل ذلك على سبيل الاستعطاف وتطلّب رحمة الله بندائه بهذا الاسمِ الشريفِ الدالِّ على التربية والملك والإصلاح، ولذلك تكرر هذا الاسم في قصة آدم ونوح وغيرهما. وفي تكرار «ربنا» دلالةٌ على جواز الإلحاح في المسألة واعتماد كثرة الطلب من الله سبحانه وتعالى. وفي الحديث[2]: «أَلِظّوا بياذا الجلال [والإكرام]». وقال الحسن: ما زالوا يقولون ربّنا حتى استجاب لهم.

و﴿فَٱسْتَجَابَ﴾ بمعنى أجاب، تقدم الكلام عليه في البقرة عند قوله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ [البقرة: ١٨٦]. ولما كان تقدم قولهم «ربنا» جاء هنا «ربهم»

(١) ق: وأصلحهم.

(٢) صحيح الجامع الصغير ١: ٣٩٥. وألظّوا به: ألزموه وأثبتوا عليه وأكثروا من قوله. وأخرجه أحمد ٤: ١٧٧، والترمذي ٩: ١٨٦.

ولم يأت اسم غيره ليكون المدعوّ هو المستجيب لهم.

﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ﴾ أي: بأني لا أضيع. وقرىء: بأني بالباء. وقرىء: إني بكسر الهمزة على إضمار القول: قائلاً[١] إني على مذهب البصريين، أو على تضمين «استجاب» معنى قال على مذهب الكوفيين. وقرىء: أُضيّع مضارع ضيّع. و«منكم» في موضع الصفة لعامل.

و﴿مِّن ذَكَرٍ﴾ بدل من الضمير بدل بعضٍ من كُلٍّ. وقوله: ﴿أَوْ أُنثَىٰ﴾ معطوف عليه، ولا يجوز أن يكون بدلاً تفصيلياً لوجود «أو» لأنه لا يعطف فيه إلا بالواو كقوله[٢]: [من الطويل]

وكنت كذي رِجْلين رِجْلٍ صحيحةٍ ورجلٍ [رمى فيها الزمان فَشَلّتِ]

فإن جعلت (أو) بمعنى الواو جاز.

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ معناه تبيّن شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله به عباده العاملين.

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ رُوي أنَّ أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، قد ذكر الله الرجال في الهجرة ولم يذكر النساء في شيء من ذلك فنزلت هذه الآية[٣]. و«الذين» مبتدأ خبره جملة القسم المحذوفة التي جوابها «لأكفرنّ». وفي هذا حجة على إبطال مذهب ثعلب، في زعمه أنَّ جملة القسم لا تكون خبراً للمبتدأ.

---

(١) ق: كان قائلاً.

(٢) البيت لكثير عزة في ديوانه ص٩٩.

(٣) ق: الآيات.

وبدأ أولاً بالخاص وهي الهجرة وهي أشق شيء على النفس، إذ فيها مفارقة الوطن الذي نشأ فيه حيث لم يمكنه إقامة دين الله، فهاجر إلى المكان الذي يمكن فيه ذلك وهو المدينة. وثنّى بما ينشأ عنه ما هو أعمّ من الهجرة وهو الإخراج من الديار، فقد يخرج إلى الهجرة إلى المدينة أو إلى غيرها كخروج من خرج إلى الحبشة، وكخروج أبي جندل إذ لم يُترك يقيم بالمدينة. وأتى ثالثاً بذكر الإذاية وهي(١) أعمّ من أنْ يكون بإخراج من الديار أو غير ذلك من أنواع الأذى. وارتقى بعد هذه الأوصاف السنيّة إلى رتبة جهاد من أخرجه ومقاومته واستشهاده في دين الله، فجمع بين رتب هذه الأعمال من تنغيص أحواله في الحياة لأجل دين الله تعالى بالمهاجرة وإخراجه من داره وإذايته في الله تعالى ومآله أخيراً إلى إفنائه بالقتل في سبيل الله.

والظاهر الإخبار عمّن جمع هذه الأوصاف كلها بالخبر الذي بعد، ويجوز أن يكون ذلك من باب عطف الصلات والمعنى اختلاف الموصول لا اتّحاده فكأنه قيل: فالذين هاجروا [والذين أخرجوا] والذين أوذوا والذين قاتلوا والذين قُتلوا، ويكون الخبر عن كل من هؤلاء. وقرىء: وقاتلوا مبنياً للفاعل، وقُتلوا مبنياً للمفعول. وقرىء بالعكس.

﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ انتصب «ثواباً» على المصدر المؤكد، وإنْ كان الثواب هو المثاب به كما كان العطاء هو المُعطَى. واستعمل في بعض المواضع بمعنى المصدر الذي هو الإعطاء، فوضع «ثواباً» موضع إثابة أو موضع تثويباً، لأن ما قبله في معنى لأثيبنّهم. ونظيره ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل] و﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء]. وفي قوله: «من عند [١٠٥/ب] الله» التفاتٌ وهو

(١) ق: وهو.

خروج من ضمير المتكلم إلى الاسم الغائب.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ
وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا
يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ الخطاب للسامع. و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عام. وتَقَلُّبهم في البلاد سَعْيُهم فيها لكسبِ الأموال والجاه والرتب. وقرىء بتشديد النون وتخفيفها.

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف أي: ذلك متاعٌ قليل، أو مبتدأ محذوف [الخبر] تقديره: متاع قليل تقلّبهم وتصرّفهم. والمأوى مَفْعَل يراد به المكان الذي يُؤوَى إليه ويُرْجَع يعني في الآخرة. والمخصوص بالذم محذوف تقديره: وبئس المهاد جهنم. قيل: ونزلت هذه الآية في اليهود كانوا يضربون في الأرض فيصيبون الأموال، قاله ابن عباس.

﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ قابل جهنم بالجنات، وقابل قلة متاعهم بالخلود[1] الذي هو الديمومة في النعيم، فوقعت «لكن» أحسنَ مواقعها لأنه آلَ معنى الجملتين اا تعذب الكفار وإلى تنعيم المتّقين فهي واقعة بين الضدين.

النّزل: ما يُعدُّ للنازل من الضيافة والقِرى. ويجوز ، كين زائه وقرىء به.

---

(١) ق: للخلود.

وانتصب «نزلاً» على أنه حال من «جنات» وهي موصوفة بقوله «تجري». و«خير» أفعل تفضيل أي: خيرٌ لهم مما كانوا فيه في الدنيا. وفي قوله ﴿وَمَا[1] عِندَ ٱللَّهِ﴾ حوالة على ما أعدّ لهم في الآخرة.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية، لما مات أصحمة النجاشي ملك الحبشة صلَّى عليه رسولُ الله ﷺ، فقال قائل: يصلّي على هذا العلج النصراني وهو في أرضه فنزلت، قاله جابر وابن عباس. و«من أهل الكتاب» عام فيمن آمن منهم كعبد الله بن سلام، ومن آمن من نصارى نجران ونصارى الحبشة. ﴿لَمَن﴾ موصولة وهي اسم إنّ دخلت عليها اللام كما دخلت في قوله ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا ۝٣﴾ [القلم] وحملَ على لفظ مَن فأفرد الضمير في قوله «يؤمن» ثم حمل على المعنى فجمع في قوله «وما أنزل إليهم» وفي «خاشعين» وما بعده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾ أمر أولاً بمطلق الصبر ثم بخاصٍّ من الصبر وهو المصابرةُ على الجهادِ في سبيلِ الله وقتال أعدائه، ثم بالرباطِ وهو الإقامةُ في الثغور رابطينَ الخيلَ مستعدّين للغزو. وفي البخاري[2] قال رسول الله ﷺ «رِباطُ يومٍ في سبيلِ الله خيرٌ من الدنيا وما فيها». وفي مسلم[3] «رِباط يومٍ وليلة خيرٌ من صيام شهر وقيامه وإنْ مات جرى عليه رزقه وأمن الفتّان» وفي سنن أبي داود[4] «كل ميت يُختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتّاني القبر» والله الموفق.

---

(١) ق: ومن.

(٢) انظر ٤: ٤٣.

(٣) ٣: ١٥٢٠ بألفاظ مقاربة.

(٤) انظر ٣: ٩.

سورة آل عمران

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥
هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ
عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ
فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ
يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا
وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ
ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١١﴾.

المفردات التَّوْرَاةُ اسمٌ عِبْرانيّ، وقد تكلَّفَ النُّحاةُ في اشتقاقِها وفي وزنها، وذلك بعد تقرير النُّحاة أنَّ الأسماء الأعجميَّة لا يدخلُها اشتقاق، وأنَّها لا تُوزَن، ويعنُون اشتقاقاً عربيًّا.

فأمَّا اشتقاقُ التَّوراة، ففيه قولان:

أحدُهما: أنَّها من: وَرَى الزَّنْدُ يَرِي[1]: إذا قَدَحَ وظَهَرَ منه النَّار، فكأنَّ التوراةَ ضياءٌ من الضَّلال، وهذا الاشتقاق قولُ الجمهور.

---

(١) في القاموس: وَرَى الزَّنْدُ: كوَعَى ووَلِيَ.

وذهبَ أبو فَيْد مُؤرِّج السَّدُوسيّ[١] إلى أنَّها مشتقة من: وَرَّى: إذا عَرَّضَ[٢]، كما رُويَ أنَّه ﷺ كان إذا أرادَ سَفَراً وَرَّى بغيره[٣]. لأنَّ أكثر التوراة تلويح.

وأمَّا وزنُها فذهب الخليل وسيبويه وسائرُ البصريِّين إلى أنَّ وزنَها فَوْعَلَة، والتاء بدلٌ من الواو، كما أُبدِلَتْ في تَوْلَج[٤]، فالأصلُ فيها: وَوْرَيَة، وَوَوْلَج؛ لأنَّهما من «وَرَى»، ومن «وَلَج»، فهي كحَوْقَلَة.

وذهب الفرَّاء إلى أنَّ وزنها تَفْعِلَة، كتَوْصِيَة، ثم أُبدلت كسرةُ العين فتحةً، والياءُ ألفاً، كما قالوا في ناصية وجارية: ناصاة وجاراة.

وقال الزَّجَّاج[٥]: كأنَّه يُجيز في تَوْصِية: تَوْصَاة، وهذا غيرُ مسموع.

وذهب بعض الكوفيِّين إلى أنَّ وزنَها تَفْعَلَة، بفتح العين، من: وَرَيْتُ بك زِنادِي[٦].

ويجوزُ إمالة التوراة، وقد قُرِئَ بذلك على ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

الإنجيل: اسمٌ عِبْرانيّ أيضاً، وينبغي أنْ لا يدخلَه اشتقاق، وأنه لا يُوزن، وقد قالوا: وزنُه إفْعِيل، كإجْفِيل[٧]. وهو مشتقٌ من النَّجْل، وهو الماء الذي يَنِزُّ من الأرض.

قال الخليل: اسْتَنْجَلَتِ الأرضُ[٨]، وبها نُجَال: إذا خرجَ منها الماء.

---

(١) هو مُؤرِّج بن عَمرو، شيخ العربية، روى عن أبي عَمرو بن العلاء. وكان يُعدُّ مع سيبويه، وكان من أصحاب الخليل بن أحمد الفراهيدي. توفي سنة (١٩٥هـ)، ويقال: بعد المئتين. سير أعلام النبلاء ٩/ ٣١٠.

(٢) قوله: إذا عَرَّض، ليس في (أ) و(د١) والمطبوع.

(٣) هو قطعة من حديث كعب بن مالك ﷺ؛ أخرجه البخاري (٢٩٤٨)، ومسلم (٢٧٦٩): (٥٤) ص٢١٢٨، ولفظه: كان رسولُ الله ﷺ قلَّما يريدُ غزوة يغزوها إلا ورَّى بغيرها.

(٤) التَّوْلَجُ: كِناسُ الوَحْش (مُسْتَتَرُهُ في الشجر). القاموس (ولج).

(٥) معاني القرآن ١/ ٣٧٤.

(٦) يعني أن الثلاثي «وَرَى» - وهو لازم - استُعمل متعدِّيا. «الدر المصون» ٣/ ١٧.

(٧) الإجفيل: الجَبَان. القاموس (جفل). وتحرَّفت اللفظة في (أ) و(ع) إلى: إجبيل.

(٨) في (أ) والمطبوع: استنجلت الأرض نجالاً.

والنَّجْلُ أيضاً: الولَدُ والنَّسْلُ. قاله الخليل وغيرُه. ونَجَلَه أبوه أي: وَلَدَهُ. وحكى أبو القاسم الزَّجَّاجيُّ في «نوادره» أنَّ الوالدَ[١] يقال له: نَجْل، وأنَّ اللفظَةَ من الأضداد، والنَّجْلُ أيضاً: الرَّمْيُ[٢] بالشيء.

وقال الزَّجَّاج: الإنجيل مأخوذ من النَّجْل، وهو الأصل. فهذا ينحو إلى ما حكاه الزَّجَّاجيّ.

قال أبو الفتح: فهو من نَجَلَ: إذا ظهرَ ولدُه، أو من ظهور الماء[٣]، فهو مستخرجٌ إمَّا من اللوح المحفوظ، وإمَّا من التوراة[٤].

وقيل: هو مشتقٌّ من التَّنَاجُل، وهو التَّنازُع؛ سُمِّيَ بذلك لتنازع الناسِ فيه.

وقال الزمخشريُّ[٥]: التوراة والإنجيل اسمان أعجميان، وتكلُّفُ اشتقاقِهما من الوَرْي والنَّجْل ووزنُهما بِتَفْعِلَة وإفعيل إنَّما يصحُّ بعد كونهما عَرَبِيَّيْن. انتهى.

وكلامُه صحيح، إلا أنَّ في كلامه استدراكاً في قوله: بتَفْعِلَة، ولم يذكر مذهب البصريِّين في أنَّ وَزْنَها فَوْعَلَة، ولم يُنبِّه في تَفْعِلَة على أنها مكسورةُ العين أو مفتوحتُها[٦].

وقيل: هو مشتقٌّ من نَجَل العين[٧]، كأنه وُسِّعَ فيه ما ضُيِّقَ في التوراة[٨].

الانتقام: افتعال من النَّقْمَة، وهي السَّطْوَة والانتصار، وقيل: هي المعاقبة على

(١) في المطبوع: الولد، وهو خطأ. وتحرفت اللفظة في (أ) و(ع) و(يه) إلى: الوارد.
(٢) في (ع): من الرمي.
(٣) في المطبوع: ظهور الماء من الأرض.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٣٩٨-٣٩٩، وكلامُ أبي القاسم الزجَّاجي فيه.
(٥) الكشاف ١/ ٤١٠.
(٦) قال السمين الحلبي في الدرّ المصون ٣/ ١٦: لم يحتَجْ إلى التنبيه لشهرتهما، وإنما ذكر المستغرب. قال: ويؤيِّد ما قاله الزمخشريّ من كونها أعجمية ما نقله الواحدي، وهو أن التوراة والإنجيل سريانيّة، فعرَّبوها.
(٧) أي: اتِّساعها.
(٨) شاهدُه قولُه تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام في الآية (٥٠) من هذه السورة: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

الذنب بمبالغة في ذلك، ويقال: نَقَمَ، ونَقِمَ: إذا أنكرَ، وانتقمَ: عاقَبَ.

صَوَّرَ: جعلَ له صورة. قيل: وهو بناء للمبالغة، من: صارَ يَصُورُ: إذا أمالَ[١] وثَنَى إلى حالٍ مّا. ولما كان التصويرُ إمالةً إلى حالٍ وإثباتاً فيها جاء بناؤه على المبالغة. والصورةُ: الهيئةُ يكونُ عليها الشيء بالتأليف.

وقال المَرْوَزِيّ: التصوير أيضاً ابتداءُ مثالٍ من غير أن يسبقَهُ مِثلُه.

الزَّيْغ: المَيْل، ومنه: زاغتِ الشمسُ وزاغت الأبصار. وقال الراغب: الزَّيْغُ: الميلُ عن الاستقامة إلى أحد الجانبين. و«زاغَ» و«زالَ» و«مالَ» تتقارب، لكن «زاغَ» لا يُقالُ إلا فيما كان عن حقٍّ إلى باطل.

التأويل: مصدر أَوَّلَ، ومعناه آخِرُ الشيء ومآلُه. قاله الراغب[٢]. وقال غيره: التأويلُ: المَرَدُّ والمَرْجِع. قال:

أُؤَوِّلُ الحُكْمَ على وَجْهِهِ ليسَ قَضَائي بالهَوَى الجائرِ[٣]

الرُّسُوخ: الثُّبوت، قال:

لَقَدْ رَسَخَتْ في القلب منِّي مَوَدَّةٌ لِلَيْلَى أَبَتْ آياتُها أن تَغَيَّرا[٤]

الهِبَة: العطيَّة المتبرَّع بها؛ يقال: وَهَبَ يَهَبُ هِبَةً، وأصلُه أن يأتيَ المضارع على يَفْعِلُ، بكسر العين، ولذلك حُذفت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة، لكن لمَّا كانت العينُ حرفَ حلق؛ فُتحت مع مراعاة الكسرة المقدَّرة، وهو نحو: وَضَع يَضَعُ، إلا أنَّ هذا فُتح لكون لامِهِ حرفَ حلق، والأصل فيهما: يَوْهَبُ، ويَوْضَعُ.

ويكون وَهَبَ بمعنى جعلَ، ويتعدَّى إذ ذاك إلى مفعولين، تقول العرب: وَهَبَني اللهُ فِداك، أي: جعلَني اللهُ فِداك، وهي في هذا الوجه لا تتصرَّف،

---

(١) في (ع) و(يه): مال.
(٢) تفسيره (قطعة منه فيها تفسير آل عمران) ص٤١٣.
(٣) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٩٣.
(٤) لم أقف على قائله، وهو في تفسير الثعلبي ٢/ ١٢، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٩ (وفيه: الصدر، بدل: القلب).

فلا يُستعمل منها بهذا المعنى إلا الفعل الماضي خاصّة[١].

لَدُن: ظرف، وقلَّ أن تُفارقَها «مِنْ». قاله ابنُ جنِّي، ومعناها ابتداءُ الغاية في زمان أو مكان، أو غيره من الذَّوات غير المكانيَّة.

وهي مبنيَّة عند أكثر العرب، وإعرابُها لغةٌ قيسيَّة، وذلك إذا كانت مفتوحةَ اللام مضمومةَ الدَّال، بعدها النون، فمَنْ بَناها قيل: فلِشبهها[٢] بالحروف في لزوم استعمالٍ واحد وامتناعِ الإخبار بها، بخلاف «عندَ» و«لَدَى»، فإنهما لا يلزمان استعمالاً واحداً، فإنهما يكونان لابتداء الغاية وغيرِ ذلك.

ويستعملان فَضْلةً وعُمْدةً، فالفَضْلة كثير، ومن العمدة: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩]. و﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ [المؤمنون: ٦٢].

وأوضحَ بعضُهم علَّة البناء فقال: علَّةُ البناء كونُها تدلّ على الملاصقة للشيء وتختصُّ بها، بخلاف «عندَ»، فإنها لا تختصُّ بالملاصقة، فصارَ فيها معنًى لا يدلُّ عليه الظرف، بل هو من قبيل ما يدلُّ عليه الحرف، فهي كأنَّها متضمِّنة للحرف الذي كان ينبغي أن يُوضعَ دليلاً على القُرب، ومثلُه: ثَمَّ، وهُنا؛ لأنَّهما بُنيا لمَّا تضمَّنا، معنى الحرف الذي كان ينبغي أن يُوضع ليدلَّ على الإشارة، ومَنْ أعْرَبَها ـ وهُم قيس ـ فتشبيهاً بـ «عند»؛ لكون موضعها صالحاً لـ «عند».

وفيها تسعُ لغات غير الأولى: لَدَنْ ولَدِنْ، ولَدْنِ ولُدْنِ، ولُدْنَ، ولَدْ ولُدْ، ولَدُ، ولَتِ[٣]، بإبدال الدَّال تاءً[٤].

---

(١) زاد السمين الحلبي في الدرّ المصون ٣/ ٣١: «هَبْ» فعل أمر بمعنى: ظُنَّ، كقوله: وإلَّا فَهَبْني امْرَءاً هَالِكا.

(٢) في (أ) و(ع): فيشبّهها.

(٣) ضبطُ التاء بالكسر من (ح). وضبطُ لغات «لَدُن» منها أيضاً. وينظر التعليق التالي.

(٤) ذكرَ السمين الحلبي اللغات في «لَدُن» في الدّرّ المصون ٣/ ٣٤ وقيَّدها فقال: وفيها عشر لغات: الأولى [لَدُنْ] وهي المشهورة، ولَدَنْ ولَدِنْ: بفتح الدال وكسرها، ولَدْنِ ولُدْنِ: بفتح اللام وضمّها مع سكون الدال وكسر النون. ولُدْنَ: بالضم والسكون وفتح النون، ولَدْ ولُدْ: بفتح اللام وضمّها مع سكون الدال، ولَدُ: بفتح اللام وضمّ الدال، ولَتْ: بإبدال الدال تاءً ساكنة. قال: ومتى أُضيفت المحذوفةُ النون إلى ضمير؛ وجب ردُّ النون. انتهى كلامه. وذكر ابن الشجري في «آماليه» ١/ ٣٤٠ أيضاً: لُدُ: بضم اللام والدال.

وتضاف إلى المفرد لفظاً كثيراً، وإلى الجملة قليلاً، فمن إضافتها إلى الجملة الفعلية قولُ الشاعر:

صَرِيعُ غَوَانٍ رَاقَهنَّ ورُقْنَهُ   لَدُنْ شَبَّ حتى شابَ سُودُ الذَّوائبِ[١]

وقال الآخر:

لَزِمْنا لَدُنْ سألْتُمونا وِفاقَكُم   فلا يكُ منكُمْ للخِلافِ جُنُوحُ[٢]

ومن إضافتها إلى الجملة الاسمية قولُ الشاعر:

وتَذْكُرُ نُعْمَاهُ[٣] لَدُنْ أنتَ يافعٌ   إلى أنتَ ذُو فَوْدَيْنِ[٤] أبيضَ كالنَّسْرِ

وجاء إضافتُها إلى «أنْ» والفعل، قال:

وَلِيتَ فلم تقطَعْ لَدُنْ أنْ وَلِيتَنَا[٥]   قَرابةَ ذي قُربى ولا حقَّ مُسْلِمِ[٦]

وأحكام «لَدُن» كثيرة، ذُكرت في علم النحو.

الإغناء: الدَّفْع والنَّفْع، وفلانٌ عظيمُ الغَنَاء، أي: الدَّفْع[٧].

الدَّأبُ: العادة، دأَبَ على كذا: واظبَ عليه وأدْمَنَ؛ قال زهير:

لأرْتَحِلَنْ بالفَجْرِ ثمَّ لأدْأَبَنْ   إلى الليلِ إلّا أنْ يُعَرِّجَني طِفْلُ[٨]

---

(١) البيت للقَطامي، وهو في ديوانه ص٤٤، وأمالي ابن الشجري ١/ ٣٤٠.

(٢) الارتشاف ٣/ ١٤٥٤، والمغني ص٥٥٠، وشرحُه للبغدادي ٦/ ٢٨٦، والدر المصون ٣/ ٣٢. وفيها: سالمتمونا، بدل: سألتمونا. وجاءت هذه الكلمة في (ح) ضمن سواد بسبب رطوبة.

(٣) في (أ) و(ع): معناه.

(٤) في (ح) ذا تدين، وفي النسخ الأخرى: ذا قدين، ولم يتبيَّن لي. والمثبت من مطبوع البحر، وهو كذلك في ارتشاف الضَّرَب ٣/ ١٤٥٣ (للمصنِّف)، والدّرّ المصون ٣/ ٣٠. قوله: فَوْدَين، هو مثنى فَوْد، وهو معظم شعر الرأس مما يلي الأذن. ينظر القاموس (فود).

(٥) في (أ) و(ع): وليتها.

(٦) الدّرّ المصون ٣/ ٣٢، وهمع الهوامع ٢/ ٢٢١، وخزانة الأدب ٧/ ١١١.

(٧) في (د١): النفع. وفي مطبوع البحر: الدفع والنفع.

(٨) ديوان زهير ص٩٩. قال ثعلب في شرحه: يُعرِّجُني طِفْل: تُجهض ناقتي فتحبسني أقوم عليها، أو أقدح النار فتحبسني. ويقال: الطِّفل: الليل، والطِّفل: غيبوبة الشمس.

الذَّنْبُ: التِّلْوُ، لأنَّ العِقاب يتلوه، ومنه الذَّنَب والذَّنُوب، لأنَّه يتبعُ الجاذب[١].

* * *

التفسير ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾.

هذه السورة سورةُ آل عمران، وتُسمَّى الزَّهْراء، والأمان، والكنز، والمُغنية[٢] والمجادِلة، وسورة الاستغفار، وطَيْبَة[٣]. وهي مدنيةٌ إلا آياتٍ ستُبَيَّن[٤].

وسبب نزولها فيما ذكره الجمهور أنه وَفَدَ على رسول الله ﷺ وَفْدُ نصارى نَجْرَان[٥]، وكانوا ستين راكباً، فيهم أربعةَ عشرَ من أشرافهم، منهم ثلاثةٌ إليهم يؤولُ أمرُهم، أميرُهم العاقِب عبدُ المسيح، وصاحبُ رَحْلِهِمْ السيِّد الأَيْهم، وعالِمُهم أبو حارثة بنُ علقمة أحدُ بني بكر بن وائل، وذُكر من جلالتهم وحُسنِ شارتِهم[٦] وهيبتهم[٧]، وأقاموا بالمدينة أياماً يُناظِرُون رسولَ الله ﷺ في عيسى، ويزعمون تارةً أنه الله[٨]، وتارةً ولدُ الإله، وتارةً ثالثُ ثلاثة، ورسولُ الله ﷺ يذكرُ لهم أشياءَ من صفات الباري تعالى وانتفاءَها[٩] عن عيسى، وهم يُوافقونه على

(١) بعدها في (يه) وسط الصفحة عنوان: سورة آل عمران مائتا آية وهي مدنية.
(٢) في (أ) و(ب) و(ت) و(د٢) و(ع) و(يه): الغنية، وفي مطبوع البحر: المعينة. ومكانها سواد في (ح) والمثبت من (د١) و(ز٢).
(٣) نقل ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٣١٦ عن النقاش أن اسمها في التوراة طيبة. اهـ. قلت: وبعض الأسماء الأخرى المذكورة متضمَّن في الآثار الواردة في فضلها. ينظر تفسير القرطبي ٥/ ٧-٨.
(٤) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٣٩٦: مدنية بإجماع فيما علمت. وقال القرطبي ٥/ ٥: مدنية بإجماع. اهـ. وتحرف لفظ «ستبيَّن» في (أ) إلى: ستين، وتحرف الكلام في مطبوع البحر إلى: مدنية الآيات ستين.
(٥) ينظر الخبر في تفسير الطبري ٥/ ١٧١-١٧٤، وسيرة ابن هشام ١/ ٥٧٣-٥٧٦.
(٦) أي: هيئتهم.
(٧) في (د١) و(ع) والمطبوع: وهيئتهم. وفي موضعها سواد في (ح).
(٨) في (ع): إله.
(٩) في (أ) و(ع): وانتفائها.

ذلك، ثم أبَوْا إلا جُحُوداً، ثم قالوا: يا محمد، ألستَ تزعُم أنه كلمةُ الله ورُوحٌ منه؟ قال: بلى. قالوا: فحَسْبُنا. فأنزل اللهُ فيهم صَدْرَ هذه السورة إلى نيِّف وثمانين آية منها، إلى أن دعاهم رسولُ الله ﷺ إلى الابتهال.

وقال مقاتل: نزلت في اليهود المُبغضين لعيسى القاذفين لأمِّهِ، المُنكرين لِما أنزل اللهُ عليه من الإنجيل.

ومناسبة هذه السورة لما قبلَها واضحة؛ لأنه لمَّا ذكرَ آخِرَ البقرة: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ناسبَ أن يذكرَ نصرَه تعالى على الكافرين حيث ناظرَهم رسولُ الله ﷺ، وردَّ عليهم بالبراهين الساطعة، والحُجَج القاطعة، فقصَّ تعالى أحوالَهم، وردّ عليهم في اعتقادهم، وذكرَ تنزيهَه تعالى عمَّا يقولون، وبَدْأَةَ[1] خلق مريم وابنها المسيح. إلى آخر ما ردَّ عليهم.

ولما كان مفتتح آية آخر البقرة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ فكان في ذلك الإيمان بالله وبالكتب، ناسب ذِكر أوصاف الله تعالى وذِكر ما أنزل على رسوله وذِكر المنزَّل على غيره صلى الله عليهم.

قرأ السبعة: «الَمَ الله» بفتح الميم، وألفُ الوصل ساقطة. ورَوَى أبو بكر في بعض طُرقه عن عاصم سكونَ الميم وقطعَ الألف، وذكرَها الفرَّاء عن عاصم[2]، ورُويت هذه القراءة عن الحسن وعَمرِو بن عُبيد، والرُّؤاسيّ[3]، والأعمش والبُرْجُميّ وابن القعقاع، وقفوا على الميم كما وقفوا على ألف ولام، وحقُّها ذلك، وأن يُبدأ بما بعدَها، كما تقول: واحدْ إثنان[4].

وقرأ أبو حَيْوة بكسر الميم، ونسبَها ابنُ عطية إلى الرُّؤاسيّ[5]، ونسبَها الزَّمخشريُّ إلى عَمرو بنِ عُبيد وقال: توهَّم التحريك لالتقاء الساكنين، وما هي

(١) في (دا) والمطبوع: بداءة، وتحرف في (أ) و(ع) إلى: براءة.
(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٩. وينظر: السبعة ص٢٠٠، والحجة ٣/ ٩، والمحرر الوجيز ١/ ٣٩٧.
(٣) تفسير القرطبي ٥/ ٥. والرُّؤاسيّ: هو أبو جعفر محمد بن أبي أسامة.
(٤) الكشاف ١/ ٤١٠.
(٥) المحرر الوجيز ١/ ٣٩٧. ونسبها ابنُ عطية فيه أيضاً لأبي حَيْوة، وهو شُريح بن يزيد.

بمقبولة. يعني هذه القراءة. انتهى. وقال غيره[١]: ذلك رديء؛ لأنَّ الياء تمنعُ من ذلك، والصوابُ الفتحُ قراءةُ جمهور الناس. انتهى.

وقال الأخفش: يجوز: «الم اللهُ» بكسر الميم لالتقاء الساكنين. قال الزَّجَّاج: هذا خطأ، ولا تقولُه العرب لثقله[٢].

واختلفوا في فتحة الميم، فذهب سيبويه إلى أنها حُرِّكت[٣] لالتقاء الساكنين كما حرَّكُوا: منَ الله، وهمزةُ الوصل ساقطة للدَّرج، كما سقطت في نحو: منَ الرَّجلِ، وكان الفتحُ أولى من الكسر لأجل الياء، كما قالوا: أينَ وكيفَ، ولزيادة الكسرة قبل الياء، فزادَ الثِّقَل[٤].

وذهبَ الفرَّاء[٥] إلى أنَّها حركةُ نقلٍ من همزة الوصل؛ لأنَّ حروف الهجاء يُنْوَى بها الوقف، فيُنَوى بما بعدَها الاستئناف، فكأنَّ الهمزة في حكم الثبات كما في أنصاف الأبيات، نحو:

لَتَسْمَعُنَّ وَشِيكاً في دِيارِكُمُ اللهُ أكبرُ يا ثاراتِ عُثْمَانَا[٦]

وضُعِّفَ هذا المذهبُ بإجماعهم على أنَّ الألف الموصولة في التعريف تسقطُ في الوصل، وما يسقطُ لا تُلْقَى حركتُه. قاله أبو عليّ[٧].

وقد اختار مذهبَ الفرَّاء في أنَّ الفتحة في الميم هي حركة الهمزة حين أُسقطَتْ للتخفيف الزَّمخشريُّ[٨]، وأوردَ أسئلةً وأجابَ عنها، فقال:

---

(١) هو ابنُ عطية، وكلامه في المحرر الوجيز ١/ ٣٩٧، وكلام الزمخشري في الكشاف ١/ ٤١٠.

(٢) معاني القرآن للأخفش ١/ ١٧٢، وللزجاج ١/ ٣٧٣. وينظر تفسير القرطبي ٥/ ٥.

(٣) المثبت من (أ) و(ت) والمطبوع، وفي النسخ الأخرى: حركة.

(٤) ينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٥٣، والدر المصون ٣/ ٦-٧. وتحرَّف لفظ: «فزاد» في مطبوع البحر إلى: «فزال».

(٥) معاني القرآن ١/ ٩.

(٦) البيت لحسان، وهو في ديوانه ص٢٤٨، وفيه: ديارهم.

(٧) الحجة للقراء السبعة ٣/ ٩.

(٨) الكشاف ١/ ٤١٠.

«فإنْ قلتَ: كيفَ جازَ إلقاءُ حركتِها عليها، وهي همزةُ وصل لا تثبتُ في دَرْج الكلام، فلا تثبتُ حركتُها، لأنَّ ثباتَ حركتِها كثَباتِها؟

قلت: هذا ليس بدَرْج؛ لأنَّ «ميم» في حكم الوقف والسكون، والهمزة في حكم الثابت، وإنما حُذفت تخفيفاً، وأُلقيت حركتُها على الساكن قبلَها لتدلَّ عليها، ونظيرُه قولُهم: واحدِ اثْنَان، بإلقاء حركة الهمزة على الدال». انتهى هذا السؤالُ وجوابُه.

وليس جوابُه بشيء؛ لأنه ادَّعَى أنَّ الميم حين حُرِّكت موقوف(١) عليها، وأنَّ ذلك ليس بدَرْج، بل هو وَقْف، وهذا خلافٌ لما أجمعَتِ العربُ والنُّحاة عليه من أنه لا يُوقفُ على متحرِّك البتّة، سواءٌ كانت حركتُه إعرابية، أو بنائيَّة، أو نقليَّة، أو لالتقاء الساكنَيْن، أو للحكاية، أو للإتباع، فلا يجوزُ في ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ إذا حُذفت الهمزة ونُقلت حركتُها إلى دال «قد» أن تقفَ على دال «قد» بالفتحة، بل تُسكِّنُها قولاً واحداً(٢).

وأمّا قولُه: «ونظيرُ ذلك قولُهم: واحدِ اثْنان بإلقاء حركة الهمزة على الدَّال» فإنَّ سيبويه ذكرَ أنَّهم يُشِمُّون آخِر «واحد» لتمكّنه، ولم يَحْكِ الكسر لغةً، فإنْ صحَّ الكسر(٣) فليس «واحد» موقوفاً عليه كما زعم الزَّمخشريُّ، ولا حركتُه حركة نَقل من همزة الوصل، ولكنه موصولٌ بقولهم: اثنان، فالتقى ساكنان دالُ «واحد» وثاءُ «اثنين»، فكُسرت الدال لالتقائهما، وحُذفت الهمزة لأنها لا تثبت في الوصل.

وأما ما استُدِلَّ به للفرَّاء من قولهم: ثلاثَهَ ارْبَعَه بإلقاء [حركة] الهمزة على الهاء؛ فلا دلالة فيه، لأنَّ همزة «أربعة» همزةُ قطع في حال الوَصْل بما قبلَها وابتدائها، وليس كذلك همزةُ الوَصْل، نحو: منَ الله، وأيضًا فقولهم: ثلاثَهَ ارْبَعَه

(١) المثبت من (ت)، وهو كذلك في الدرّ المصون ٣/ ٩ (عن البحر) والنهر المادّ والدر اللقيط (كلاهما بهامش مطبوع البحر ٢/ ٣٧٢ و٣٧٤). وفي النسخ الأخرى: موقوفة.

(٢) تعقَّب السمين الحلبي أبا حيَّان بأن الزمخشريَّ لم يدَّعِ الوقف على الميم من «الم» وهي متحركة حتى يُلزم بمخالفة العرب والنحاة. ينظر الدّرّ المصون ٣/ ٩.

(٣) في (أ) و(ع): فإن صحَّ الكسر لغة.

بالنقل ليس فيه وقف على ثلاثة، إذْ لو وُقف عليها لم تكن تقبلُ الحركة، ولكن أُقرّت في الوصل هاءً اعتباراً بما آلَتْ إليه في حالٍ مّا، لا أنها موقوفٌ عليها.

ثم أورد الزمخشري[(١)] سؤالاً ثانياً، فقال:

«فإن قلتَ: هلّا زعمتَ أنّها حركةٌ لالتقاء الساكنين؟

قلت: لأنَّ التقاء الساكنين لا يُبالَى به في باب الوقف، وذلك قولُك: هذا إبراهيمْ وداودْ وإسحاقْ[(٢)]. ولو كان التقاء الساكنين في حال الوقف يُوجب التحريك لحرِّك الميمان في «ألفْ لامْ ميمْ» لالتقاء الساكنين، ولَمَا انتُظر ساكن آخر». انتهى هذا السؤال وجوابُه.

وهو سؤال صحيح، وجوابٌ صحيح، لكن الذي قال: إنَّ الحركةَ هي لالتقاء الساكنين لا يُتَوَهَّم أنه أراد التقاء الياء والميم من «ألف لام ميم» في الوقف، وإنما عنَى التقاء الساكنين اللذين هما ميمُ «ميم» الأخيرة ولامُ التعريف، كالتقاء نون «مِنْ» ولام الرَّجُل، إذا قلت: مِنَ الرَّجُل[(٣)].

ثم أورد الزمخشريُّ سؤالاً ثالثاً فقال: «فإنْ قلتَ: إنَّما لم يُحرِّكوا لالتقاء الساكنين في «ميم» لأنهم أرادوا الوقفَ، وأمكنَهم النطقُ بساكنَيْن، فإذا جاء ساكن ثالث لم يمكن إلا التحريك، فحرَّكوا.

قلت: الدليلُ على أنَّ الحرَكة ليست لملاقاة الساكن أنهم[(٤)] كان يمكنهم أن يقولوا: واحدْ اثنان؛ بسكون الدال مع طرح الهمزة، فجمعوا بين ساكنَيْن، كما قالوا: أُصَيْمٌّ، ومُدَيْقٌّ[(٥)]، فلمَّا حرَّكوا الدَّال عُلم أنَّ حركتَها هي حركةُ الهمزة

---

(١) الكشاف ١/ ٤١٠.

(٢) يعني بإسكان الأواخر، حث يجوزُ الجمع في هذه الحالة بين ساكنين، لأن الأول في كلٍّ من الساكنَيْن في الكلمات الثلاثة حرف مدّ.

(٣) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ١٤٨، وروح المعاني ٤/ ٨.

(٤) في الكشاف ١/ ٤١٠: أنه، وسقط مقدار سطر في هذا الموضع من (أ) و(ب) و(ت) و(ع).

(٥) أُصَيْمّ: تصغير أَصَمّ، ومُدَيْقّ: تصغير مُدُقّ، (وهو ما يُدَقُّ به). وينظر الكتاب ٣/ ٤١٨، وشرح الشافية ٣/ ٢٤٦ و٢٥٠. ومثلُ هاتين اللفظتين: خُوَيْصَّة (تصغير خاصَّة) وفي الحديث: «عليك بِخُوَيْصَّةِ نفسِك». ينظر «تاج العروس» (خصص).

الساقطة لا غير، وليست لالتقاء الساكنَيْن». انتهى هذا السؤال وجوابُه.

وفي سؤاله تعمية في قوله: «فإن قلتَ: إنَّما لم يحرِّكُوا لالتقاء الساكنَيْن» ويعني بالساكنَيْن الياء والميم في «ميم»، وحينئذٍ يجيء التعليل بقوله: «لأنهم أرادوا الوقفَ وأمكنَهم النطق بساكنَيْن يعني الياء والميم».

ثم قال: فإذا جاء ساكن ثالث - يعني لام التعريف - لم يمكن إلا التحريك - يعني في الميم - فحرَّكوا - يعني الميم - لالتقائها ساكنةً مع لام التعريف، إذْ لو لم يحرِّكوا لاجتمع ثلاثةُ سواكن، وهو لا يمكن. هذا شرحُ السُّؤال.

وأمَّا جوابُ الزَّمخشريّ عن سؤاله فلا يُطابق، لأنه استدلَّ على أنَّ الحركةَ ليست لملاقاة ساكن بإمكانيَّة الجمع بين ساكنَيْن في قولهم: واحدْ اثنان، بأن يُسكّنوا الدال، والثاءُ ساكنةٌ، وتسقطُ الهمزة، فعَدلُوا عن هذا الإمكان إلى نقل حركة الهمزة إلى الدال، وهذه مكابرةٌ في المحسوس، لا يمكن ذلك أصلاً، ولا هو في قدرة البشر أن يجمعوا في النطق بين سكون الدال وسكون الثاء وطرح الهمزة.

وأمَّا قوله: «فجمعوا بين ساكنَيْن» فلا يمكن الجمعُ كما قلناه.

وأما قوله: كما قالوا: «أُصَيْمٌ ومُدَيْقٌ» فهذا ممكن كما هو في: رادّ، وضالّ، لأنه في ذلك التقاءُ الساكنَيْن على حدِّهما المشروط في النحو، فأمكنَ النطقُ به، وليس مثل: واحدْ اثنان، لأنَّ الساكن الأول ليس حرفَ علّة، ولا الثاني مدغَم، فلا يُمكن الجمعُ بينَهما.

وأمَّا قولُه: «فلمَّا حَرَّكوا الدَّال عُلم أنَّ حركتَها هي حركةُ الهمزة الساقطة لا غير، وليست لالتقاء الساكنَيْن» لمَّا بَنَى على أنَّ الجمعَ بين الساكنَيْن في: واحدْ اثنان، ممكن، وحركةُ التقاء الساكنين إنما هي فيما لا يمكن أن يجتمعا فيه في اللفظ؛ ادَّعَى أنَّ حركةَ الدال هي حركةُ الهمزة الساقطة لالتقاء الساكنين. وقد ذكرنا عدم إمكان ذلك، فإن صحَّ كسرُ الدال كما نقلَ هذا الرجل؛ فتكونُ حركتها لالتقاء الساكنين لا للنقل.

وقد رُدَّ قولُ الفرَّاء واختيارُ الزمخشريّ إيَّاه بأنْ قيل: لا يجوز أن تكون حركة الميم حركة الهمزة أُلقيت عليها؛ لما في ذلك من الفساد والتدافع، وذلك أنَّ

سكون آخر «ميم» إنما هو على نيَّة الوقف عليها، وإلقاء حركة الهمزة عليها إنما هو على نيَّة الوصل، ونيَّةُ الوصل تُوجِبُ حذف الهمزة، ونيَّةُ الوقف على ما قبلَها تُوجبُ ثَباتَها وقَطْعَها. وهذا متناقض. انتهى. وهو ردٌّ صحيح.

والذي تحرَّر في هذه الكلمات أنَّ العرب متى سردت أسماءً من غير تركيبٍ مّا؛ كانت تلك الأسماء مُسَكَّنةَ الآخِرِ وصلاً ووقفاً، فلو التقى آخِرُ مُسكَّن منها بساكنٍ آخَر؛ حُرِّكَ لالتقاء الساكنَيْن، فهذه الحركةُ التي في ميم «الم الله» هي حركة التقاء الساكنين.

والكلام على تفسير «الم» تقدَّم في أول البقرة، واختلفَ الناسُ في ذلك الاختلافَ المنتشر الذي لا يُوقَفُ منه على شيء يُعتمد عليه في تفسيره وتفسيرِ أمثاله من الحروف المقطَّعة.

والكلام على ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ تقدّم في آية: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣] وفي أوّل آية الكُرسيّ، فأغْنَى ذلك عن إعادته هنا.

وذكر ابنُ عطيَّة[١] عن القاضي الجُرْجانيّ أنه ذهبَ في «النظم»[٢] إلى أنَّ أحسنَ الأقوال هنا أن يكون «الم» إشارةً إلى حروف المعجم؛ كأنّه يقول: هذه الحروفُ كتابُك[٣]، أو نحو هذا. ويدلُّ قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على ما تُرِكَ ذِكرُه ممَّا هو خبرٌ عن الحروف. قال: وذلك في نظمه مثلُ قولِه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٢٢] وتُركَ الجواب لدلالة قوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ عليه، تقديره: كمَنْ قسا قلبُه؟ ومنه قول الشاعر:

فَلَا تَدْفِنُونِي إنَّ دَفْنِي مُحَرَّمٌ عليكُم ولكنْ خَامِرِي أمَّ عامِرِ[٤]

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٣٩٦.
(٢) ذكر حاجّي خليفة في كشف الظنون ٢/ ١٤٦٧: كتاب النظم، وسماه البقاعي في نظم الدرر ١٧/ ٤١٥: بيان نظم القرآن. ومؤلِّفه الجُرْجاني هو أبو علي الحسن بن يحيى بن نصر الجماجمي من علماء القرن الرابع، فلعله هو. ينظر تاريخ جرجان ص١٨٨، والأنساب ٣/ ٢٨٩.
(٣) وعليه يكون «الم» في موضع رفع مبتدأ؛ والخبر محذوف كما سيرد.
(٤) البيت للشَّنْفَرَى كما في الشعر والشعراء ١/ ٨٠، والصناعتين ص١٨٩، والعقد الفريد ١/ ١٠١. وأمُّ عامر: يعني الضَّبُع.

أي: ولكن اترُكوني للتي يقال لها: خامِري أمَّ عامر[١].

قال ابن عطية: يَحْسُنُ في هذا القول أن يكون «نزَّل» خبرَ قوله: [الله][٢] حتى يرتبط الكلام إلى هذا المعنى. وهذا الذي ذكره الجُرجانيّ فيه نظر؛ لأنَّ مُثُلَهُ ليست[٣] صحيحة الشَّبَه بالمعنى الذي نحا إليه، وما قاله في الآية مُحْتَمِل، ولكنَّ الأبرع في نظم الآية أن يكون «الم» لا يضمُّ ما بعدَها إلى نفسها في المعنى، وأن يكون «الله لا إله إلا هو الحيُّ القيوم» كلاماً مبتدأً جزماً جملةً رادَّةً على نصارى نَجْرَان الذين وفدُوا على رسول الله ﷺ، فحاجُّوه في عيسى بن مريم وقالوا: إنه الله. انتهى كلامه[٤].

قال ابنُ كَيْسان: موضع «الم» نصبٌ والتقدير: اقرؤوا الم، وعليكم الم. ويجوز أن يكون في موضع رفع بمعنى: هذا الم، وهو الم، وذلك الم.

وتقدَّم من قول الجُرْجانيّ أن يكون مبتدأ، والخبرُ محذوف، أي: هذه الحروف كتابُك.

وقرأ عمر بن الخطاب وعبد الله بنُ مسعود وعلقمة بنُ قيس: «القيَّام».

وقال خارجة: في مصحف عبد الله: «القيِّم». ورُوِيَ هذا أيضاً عن علقمة[٥].

«الله» رفعٌ على الابتداء، وخبرُه «لا إله إلا هو» و«نَزَّلَ عليك الكتابَ» خبرٌ بعد خبر. ويَحتمل أن يكون «نَزَّل» هو الخبر، و«لا إله إلا هو» جملة اعتراض.

وتقدَّم في آية الكرسيّ استقصاء إعراب «لا إله إلا هو الحيُّ القيوم» فأغنى عن إعادته هنا.

---

(١) يقال لها ذلك عند الصَّيد، وخامِري، أي: استتري واثبتي في خَمَرِكِ، أي: جُحْرِك. وهو مَثَلٌ يُضرب للأحمق. ينظر جمهرة الأمثال ١/ ٤١٦، ومجمع الأمثال ١/ ٢٣٨.

(٢) لفظة الجلالة بين حاصرتين من «المحرر الوجيز» ١/ ٣٩٦ (والكلام منه).

(٣) لفظة «ليست» من (د١). وهو كذلك في المصدر السالف. وسقطت من النسخ الأخرى.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٣٩٦. ووهم السمين الحلبي في الدّرّ المصون ١/ ٦، فجعل قولَه: وهذا الذي ذكره الجرجاني... الخ، من كلام أبي حيَّان، ولم ينبِّه عليه محقِّقُه.

(٥) ينظر المصاحف ١/ ٣٠٩، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٥٤، والقراءات الشاذة ص١٩، والمحتسب ١/ ١٥١.

وقال الرازيّ[١]: مطلع هذه السورة عجيب؛ لأنَّهم لمَّا نازعوا؛ كأنه قيل: إمَّا أن تُنازِعُوا في معرفة الله أو في النبوَّة، فإن كان الأوَّل فهو باطل؛ لأنَّ الأدلة العقليَّة دلَّت على أنه حيٌّ قيُّوم، والحيُّ القيُّوم يستحيلُ أن يكون له ولد، وإنْ كانَ في الثاني فهو باطلٌ؛ لأنَّ الطريق الذي عرفتُم أنَّ الله تعالى أنزل التوراة والإنجيل هو بعينه قائمٌ هنا، وذلك هو المعجزة.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ الكتابُ هنا[٢]: القرآن باتفاق المفسِّرين، وتكرَّر كثيراً، والمرادُ به القرآنُ، فصار عَلَماً بالغَلَبة.

وقرأ الجمهور: «نزَّل» مشدَّداً، و«الكتابَ» بالنصب.

وقرأ النَّخَعيّ والأعمش وابنُ أبي عَبْلَة: «نَزَلَ» مخفَّفاً، و«الكتاب» بالرفع[٣].

وفي هذه القراءة تحتمل الآيةُ وجهَيْن: أحدُهما: أن تكون منقطعة. والثاني: أن تكون متصلة بما قبلَها، أي: نَزَلَ عليك الكتاب من عنده، وأتى هنا بذِكْر المُنْزَل عليه - وهو قوله: «عليك» - ولم يأت بذِكْر المُنْزَلِ عليه التوراةُ ولا المُنْزَلِ عليه الإنجيل؛ تخصيصاً له وتشريفاً بالذِّكْر، وجاء بذِكْر الخطاب لِما في الخطاب من المؤانسة، وأتى بلفظة «على» لِما فيها من الاستعلاء، كأنَّ الكتاب تَجَلَّلَهُ وتَغَشَّاه ﷺ.

ومعنى: «بالحقّ»: بالعدل. قاله ابنُ عباس[٤]. وفيه وجهان: أحدُهما: العدلُ فيما استحقَّه عليك من حمل أثقال النبوَّة. الثاني: بالعدل فيما اختصَّك به من شرف النبوة.

وقيل: بالصِّدق فيما اختُلف فيه. قاله محمد بنُ جرير[٥].

وقيل: بالصِّدق فيما تضمَّنَه من الأخبار عن القرون الخالية.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ١٦٧ بنحوه أطول منه.
(٢) في (أ) و(ع): هو.
(٣) القراءات الشاذة ص١٩.
(٤) ينظر زاد المسير ١/ ١٧٧ (الآية ١٧٦ من البقرة) و١/ ٣٤٩.
(٥) هو الطبري، وكلامه في تفسيره ٥/ ١٨٠ بأطول منه.

وقيل: بالصِّدق فيما تضمَّنه من الوعد بالثواب على الطاعة، ومن الوعيد بالعقاب على المعصية.

وقيل: معنى «بالحقّ»: بالحُجَج والبراهين القاطعة.

والباء تحتمل السببيَّة، أي: بسبب إثبات الحقّ، وتَحتَمِلُ الحال، أي: مُحِقًّا، نحو: خرجَ زيدٌ بسلاحه، أي: مُتَسلِّحاً.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من كتب الأنبياء، وتصديقُه إيَّاها أنها أخبرَتْ بمجيئه، ووقوعُ المُخبَرِ به يجعلُ المُخبِرَ صادقاً، وهو يدلُّ على صحَّة القرآن؛ لأنه لو كان من عند غير الله لم يوافقها. قاله أبو مسلم(١).

وقيل: المرادُ منه أنه لم يَبعثْ نبيًّا قطُّ إلا بالدُّعاء إلى توحيده والإيمان [به] وتنزيهِهِ عمَّا لا يليقُ به، والأمرِ بالعَدْل والإحسان والشرائع التي هي صلاحُ أهلِ كلِّ زمان، فالقرآنُ مصدِّقٌ لتلك الكتب في كلِّ ذلك(٢).

والقرآنُ وإن كان ناسخاً لشرائع أكثرِ الكتب؛ فهي مبشِّرةٌ بالقرآن وبالرسول، ودالَّةٌ على أنَّ أحكامَها تثبُتُ(٣) إلى حين بَعْثِ(٤) الله تعالى رسولَه ﷺ، وأنَّها تصيرُ منسوخةً عند نزول القرآن، فقد وافقت القرآن، وكان مصدِّقاً لها؛ لأنَّ الدلائلَ الدالَّةَ على ثبوت الإلهية لا تختلف.

وانتصاب «مصدِّقاً» على الحال من الكتاب، وهي حالٌ مؤكِّدة، وهي لازمة؛ لأنه لا يمكن أن يكون غيرَ مصدِّقٍ لِما بين يديه، فهو كما قال:

أنا ابنُ دارة معروفاً بها نَسَبي ... وهَلْ بدارَةَ يا لَلنَّاسِ مِنْ عارِ(٥)

وقيل: انتصاب «مصدِّقاً» على أنه بدل من موضع «بالحقّ».

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ١٦٩/١ ، وقول أبي مسلم فيه هو القول الآتي بعده. ولفظة «به» الآتية بين حاصرتين منه.

(٢) ينتهي في هذا الموضع كلام أبي مسلم كما في المصدر السالف.

(٣) في (ع) و(يه): ثبتت.

(٤) في (يه) والمطبوع: بعثة.

(٥) البيت لسالم بن دارة، ودارةُ أمُّه. وهو في الكتاب ٧٩/٢ ، والخصائص ٢٦٨/٢ و٦٠/٣، والمحرر الوجيز ٣٩٨/١، وخزانة الأدب ٣/ ٢٦٥ (الشاهد ٢٠٧).

وقيل: حال من الضمير في المجرور[١].

و«لِمَا» متعلّق بـ «مُصَدِّقاً». واللامُ لتقوية التعدية، إذ «مُصَدِّقاً» يتعدَّى بنفسه؛ لأنَّ فِعْلَهُ يتعدَّى بنفسه.

والمَعْنيُّ هنا بقوله: «لِما بين يديه» المتقدِّمُ في الزَّمان، وأصلُ هذا أن يُقال لِما يتمكَّن الإنسان من التصرُّف فيه، كالشيء الذي يحتوي عليه، ويقال: هو بين يديه إذا كان قُدَّامَهُ غيرَ بعيد.

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۞ مِن قَبْلُ﴾ فخَّم راءَ التوراة ابنُ كثير وعاصمٌ وابنُ عامر، وأضجَعَها أبو عَمرو، والكِسائيُّ، وقرأها بين اللفظَيْن حمزةُ ونافع، ورَوَى المُسَيَّبيّ عن نافع فَتْحَها[٢].

وقرأ الحسن: «والأنجيل» بفتح الهمزة[٣]، وهذا يدلُّ على أنه أعجميٌّ؛ لأنَّ أفعيلاً ليس من أبنية كلام العرب، بخلاف إفعيل، فإنه موجودٌ في أبنيتهم، كإخْرِيط، وإصْلِيت[٤].

وتعلَّق «من قَبْلُ» بقوله: «وأنزَلَ»، والمضاف إليه المحذوفُ هو الكتاب المذكور، أي: من قبلِ الكتاب المنزَّل عليك. وقيل: التقدير: من قبلك، فيكون المحذوف ضمير الرسول.

وغايَرَ بين «نَزّل» و«أنزلَ» وإن كانا بمعنًى واحدٍ، إذ التضعيفُ للتعدية، كما أن الهمزة للتعدية.

---

(١) أي: حال من الضمير المستكنّ في «بالحقّ». وذلك إذا كان «بالحقّ» حالاً (أي متعلّق بمحذوف حال). قال السمين: لأنه حينئذ يتحمَّلُ ضميراً لقيامه مقام الحال التي تتحمَّله. ينظر الدّرّ المصون ٣/ ١٥. وقد أثبتُّ لفظة «في» من (د١). ولم ترد في النسخ الأخرى.

(٢) السبعة ص٢٠١ . وذكر أبو عمرو الداني في التيسير ص٨٦ . أن ابن ذكوان قرأها (يعني عن ابن عامر) بالإمالة، وذكر الداني أنه قرأها هو لقالون (يعني عن نافع) بالفتح.

(٣) المحتسب ١/ ١٥٢، والقراءات الشاذة ص١٩ .

(٤) الإخريط: نبات من الحمض، والإصليت: الرجل الماضي في الحوائج. ينظر «القاموس» (خرط ـ صلت).

وقال الزمخشري[1]: فإن قلتَ: لم قيل: نزَّل الكتاب، وأنزلَ التوراة والإنجيل؟ قلت: لأنَّ القرآنَ نزلَ مُنَجَّماً، ونزلَ الكتابانِ جملةً. انتهى.

وقد تقدَّم الردُّ على هذا القول، وأنَّ التعدية بالتضعيف لا تدلُّ على التكثير ولا التنجيم، وقد جاء في القرآن «نَزَّلَ» و«أنزل» قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ [النحل: ٤٤] و﴿أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ٧].

ويدلُّ على أنهما بمعنًى واحدٍ قراءةُ من قرأ ما كان من «نَزَلَ»[2] مشدَّداً بالتخفيف إلا ما استَثْنَى، فلو كان أحدُهما يدلُّ على التنجيم، والآخرُ يدلُّ على النزول دفعة واحدة لَتناقَضَ الإخبار، وهو مُحال.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ قيل: هو قَيْدٌ في الكتاب والتوراة والإنجيل، والظاهرُ أنه قَيْدٌ في التوراة والإنجيل، ولم يُثَنَّ لأنه مصدر.

وقيل: هو قَيْدٌ في الإنجيل وحدَه، وحُذف من التوراة، ودلَّ عليه هذا القيد[3] الذي للإنجيل.

وقيل: تمَّ الكلام عند قوله: «من قَبْلُ» ثمَّ استأنفَ فقال: «هدًى للناس وأنزل الفُرقان» فيكون الهدى للفرقان فحسب، ويكون على هذا الفرقانُ: القرآن.

وهذا لا يجوزُ؛ لأنَّ «هدًى» إذ ذاك يكون معمولاً لقوله: وأنزل الفرقان[4]. وما بعد حرف العطف لا يتقدَّم عليه؛ لو قلتَ: ضربتُ زيداً مجرَّدةً وضربتُ هنداً، تريد: وضربتُ هنداً مجرَّدةً؛ لم يَجُزْ.

وانتصابُه على الحال، وقيل: هو مفعول من أجله.

والهُدَى هو البيان، فيحتمل أنْ يُرادَ أنَّ التوراة والإنجيل هدًى بالفعل، فيكون «الناس» هنا مخصوصاً، إذْ لم تقع الهداية لكلِّ الناس.

(١) الكشاف ١/ ٤١١ .
(٢) في (د١) ومطبوع البحر: ينزل.
(٣) في (د١) والمطبوع: القول.
(٤) المثبت من (أ) و(ب) و(ت) و(ع). وفي (ح) و(د١) و(د٢) و(يه): وأنزل الفرقان هدى.

ويحتمل أن يكون أراد أنهما هدًى في ذاتهما، وأنهما داعيان للهدى، فيكون «الناس» عامًّا، أي: هما منصوبان وداعيانِ لمن اهتدَى بهما، ولا يلزم من ذلك وقوعُ الهداية بالفعل لجميع الناس.

وقيل: الناس قوم موسى وعيسى.

وقيل: نحن متعبَّدون بشرائع مَنْ قَبْلَنا، فالناسُ عامّ.

قال الكعبيّ[1]: هذا يُبطلُ قولَ مَنْ زعمَ أنَّ القرآن عَمًى على الكافر وليس هدًى له، ويدلُّ على أنَّ معنى ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] أنهم عند نزوله اختارُوا العَمَى، على وجه المجاز، كقول نوح صلوات الله على نبيِّنا وعليه: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦] انتهى.

قيل: وخُصَّ الهدى بالتوراة والإنجيل هنا ـ وإن كان القرآنُ هدًى ـ لأنَّ المناظرة كانت مع النصارى، وهم لا يهتدون بالقرآن، بل وُصف بأنه حقٌّ في نفسه؛ قبلُوه أو لم يقبلُوه، وأمَّا التوراة والإنجيل فهم يعتقدون صحَّتَهما، فلذلك اختُصَّا في الذِّكر بالهدى.

قال ابن عطية[2]: قال هنا: «للناس»، وقال في القرآن: «هدًى للمتقين»؛ لأنَّ هذا خبرٌ مجرَّد، و«هدًى للمتقين» خبرٌ مقترِنٌ به الاستدعاء والصَّرفُ إلى الإيمان، فحسُنت الصفة ليقع من السامع النشاط والبِدار، وذَكرَ الهدى الذي هو إيجاد الهداية في القلب، وهنا إنما ذَكَرَ الهدى الذي هو الدُّعاء أو الهدى[3] الذي هو في نفسه مُعَدّ أن يهتديَ به الناس، فسُمِّيَ هدًى بذلك.

قال ابن فُورك: التقدير هنا: هدًى للناس المتقين، ويُرَدُّ هذا العامّ إلى ذلك الخاصّ. وفي هذا نظر. انتهى كلام ابن عطيَّة.

وملخَّصُه أنه غايَرَ بين مدلُولَي الهدى، فحيثُ كان بالفعل ذُكر المتقون، وحيث كان بمعنى الدُّعاء، أو بمعنى أنه هُدًى في ذاته ذُكر العامّ، وأمَّا الموضعان

---

(١) تفسير الرازي ٧/ ١٧٢ .
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٣٩٩ .
(٣) في (ب) و(ت) والمحرر الوجيز ١/ ٣٩٩: والهدى.

فكلاهما خَبَرٌ، لا فرقَ في الخبريَّة بين قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وبين قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾.

﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾: الفُرْقان جنس الكتب السماويَّة؛ لأنَّها كلَّها فُرقانٌ يُفرِّقُ بها بين الحقِّ والباطل [أو الكتبُ التي ذكرَها، كأنه قال بعد ذكر الكتب الثلاثة: وأنزلَ ما يَفْرُقُ بين الحقِّ والباطل] من كتبه، أو من هذه الكتب، أو أراد الكتابَ الرابع - وهو الزَّبُور - كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣] أو الفرقان[١]: القرآن، وكرَّر ذكرَه بما هو نعتٌ له ومدحٌ من كونه فارقاً بين الحقِّ والباطل بعد ما ذكرَه باسم الجنس تعظيماً لشأنه وإظهاراً لفضلِه[٢].

واختارَ هذا القولَ الأخير ابنُ عطيَّة[٣].

قال محمد بن جعفر: فَرَقَ بين الحقّ والباطل في أمر عيسى عليه السلام الذي جادلَ فيه الوفد.

وقال قتادة والربيع وغيرُهما: فَرَق بين الحقِّ والباطل في أحكام الشرائع، وفي الحلال والحرام ونحوه.

وقيل: الفُرْقان: كلُّ أمرٍ فَرَقَ بين الحقِّ والباطل فيما قَدُمَ وحَدُثَ، فدخل في هذا التأويل طُوفان نوح، وفَرْقُ البحر لغَرَق فرعون، ويومُ بدر، وسائرُ أفعال الله المفرِّقةِ بين الحقِّ والباطل[٤].

وقيل: الفُرْقان: النَّصر.

وقال الرازيّ[٥]: المختارُ أن يكون المرادُ بالفُرْقان هنا المعجزاتُ التي قَرنَها الله بإنزال هذه الكتب؛ لأنَّهم إذا ادَّعَوْا أنها نازلةٌ من عند الله افتقرُوا إلى تصحيح دعواهم بالمعجزات، وكانت هي الفرقانَ، لأنها تَفْرُقُ بين دعوى الصادق

(١) قوله: الفرقان، ليس في (ح) و(يه).
(٢) الكشاف ١/ ٤١١. وما سلف بين حاصرتين منه.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٣٩٩.
(٤) الأقوال السالفة كلها في المصدر السابق.
(٥) بنحوه في تفسيره ٧/ ١٧٣.

والكاذب، فلمَّا ذكرَ أنَّه أنزلَها؛ أنزلَ معها ما هو الفُرْقَان.

وقال ابنُ جرير[١]: أنزل بإنزال القرآن الفصلَ بين الحقِّ والباطل فيما اختَلَفَ فيه الأحزابُ وأهلُ المِلَل.

وقيل: الفُرقان هنا الأحكام التي بَيَّنَها الله ليفرِّق بها بين الحقِّ والباطل.

فهذه ثمانيةُ أقوال في تفسير الفُرْقَان.

والفُرْقَان مصدر في الأصل، وهذه التفاسير تدلُّ على أنه أُريد به اسمُ الفاعل، أي: الفارق، ويجوز أن يُرادَ به المفعول، أي: المفروق. قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لما قرَّر تعالى أمْرَ الإلهيَّة وأمْرَ النبوَّة بذكر الكتب المنزّلة؛ تَوَعَّد مَنْ كفرَ بآيات الله من كتبه المنزلة وغيرِها بالعذاب الشديد من عذاب الدنيا؛ كالقتل والأسر والغَلَبة وعذاب الآخرة؛ كالنار.

و«الذين كفروا» عامٌّ داخلٌ فيه مَنْ نزلَتْ الآيات بسببهم، وهم نصارى وفد نَجْرَان.

وقال النَّقَّاش: إشارة إلى كعب بن الأشرف، وكعب بن أسد، وبني أخطب، وغيرهم[٢].

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي: ممتنع، أو غالبٌ لا يُغْلَب، أو منتصرٌ ذو عُقوبة.

وقد تقدَّم أنَّ الوصف بـ «ذو» أبلغُ من الوصف بـ «صاحب»، ولذلك لم يجيء في صفات الله: صاحب.

وأشار بالعزَّة إلى القدرة التامَّة التي هي من صفات الذات، وأشار بذي انتقام إلى كونه فاعلاً للعقاب، وهي من صفات الفعل.

قال الزمخشريّ[٣]: «ذو انتقام»: له انتقام شديدٌ لا يقدر على مثله منتقم. انتهى.

---

(١) هو الطبري، والكلام في تفسيره ٥/ ١٨٢.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٣٩٩.
(٣) الكشاف ١/ ٤١١.

ولا يدلُّ على هذا الوصفِ لفظُ «ذو انتقام» إنما يدلُّ على ذلك من خارج اللفظ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ «شيءٌ»: نكرة في سياق النفي، فيعمُّ، وهي دالَّة على كمال العلم بالكلِّيات والجزئيَّات، وعبَّر عن جميع العالَم بالأرض والسماء، إذْ هما أعظمُ ما نشاهدُه، والتصويرُ على ما شاء من الهيئات دالٌّ على كمال القُدرة، وبالعلم والقُدرة يتمُّ معنى القيُّوميَّة، إذ هو القائم بمصالح الخلق ومُهمَّاتِهم، وفي ذلك رَدٌّ على النصارى، إذْ شُبْهَتُهُمْ في ادِّعاء إلهيَّة عيسى كونُه يُخبِرُ بالغيوب، وهذا راجعٌ إلى العلم، وكونُه يحيي الموتى، وهذا راجع إلى القدرة، فنبَّهَتِ الآية على أنَّ الإله هو العالِمُ بجميع الأشياء، فلا يَخْفَى عليه شيء، ولا يلزم من كون عيسى عالماً ببعض المغيَّبات أن يكون إلهاً، ومن المعلوم بالضرورة أنَّ عيسى لم يكن عالماً بجميع المعلومات.

ونبَّهتْ على أنَّ الإله هو ذو القدرة التامَّة، فلا يمتنعُ عليه شيء، ولا يلزم من كون عيسى قادراً على الإحياء في بعض الصُّوَر أن يكونَ إلهاً، ومن المعلوم بالضرورة أنَّ عيسى لم يكن قادراً على تركيب الصُّور وإحيائها، بل إنباؤه ببعض المغيَّبات، وخلقُه وإحياؤه بعضَ الصُّوَر إنما كان ذلك بإنباء الله له على سبيل الوَحْي، وإقدارِه تعالى له على ذلك، وكلُّها على سبيل المعجزة التي أجراها وأمثالَها على أيدي رُسُله.

وفي ذِكْر التصوير في الرَّحِم رَدٌّ على مَنْ زعمَ أنَّ عيسى إله، إذْ من المعلوم بالضرورة أنه صُوِّر في الرَّحِم.

وقيل: في قوله: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ تحذيرٌ من مخالفته سِرًّا وجَهْراً، ووعيدٌ بالمجازاة.

وقيل: المعنى: شيء ممَّا تقولونه[١] في أمر عيسى عليه السلام.

---

(١) في (أ) و(يه) ومطبوع البحر: يقولونه.

وقال الزمخشري[1]: مُطَّلعٌ على كُفر مَنْ كَفَرَ، وإيمانِ مَنْ آمن، وهو مجازيهم عليه.

وقال الماتُريدي[2]: لا يخفى عليه شيءٌ من الأمور الخفيَّة عن الخلق، فكيف تَخْفَى عليه أعمالُكم التي هي ظاهرةٌ عندَكم؟!

وكلُّ هذه تخصيصات، واللفظ عامٌّ، فيندرجُ فيه هذا كلُّه.

وقال الراغب[3]: «لا يخفى عليه شيء» أبلغُ من «يعلم» في الأصل، وإن كان استعمال اللفظين فيه يُفيدان معنًى واحدًا.

وقال محمد بن جعفر بن الزبير والربيع في قوله: «هو الذي يُصَوِّرُكم» ردٌّ على أهل الطبيعة، إذ يجعلونَها فاعلة مستبِدَّة[4].

«كيف يشاء» قال الماتُريديّ[5]: فيه إبطالُ قولِ من يجعلُ قولَ القائفِ حجَّةً في دعوى النَّسَب؛ لأنه جعلَ عِلْمَ التصوير في الأرحام لنفسه، فكيف يعرفُ القائفُ أنه صوَّره من مائهِ عند قيام التشابه في الصُّوَر. انتهى.

والأحسنُ أن تكون هذه الجمل مستقلة، فتكون الأولى إخباراً عنه تعالى بالعلم التامّ، والثانية إخباراً بالقدرة التامَّة وبالإرادة، والثالثة بالانفراد بالإلهيَّة، ويحتمل أن تكون خبراً عن «إنَّ».

وقال الراغب: هنا «يُصَوِّرُكُم» بلفظ الحال، وفي موضع آخر: «وصَوَّرَكم»[6]؛ لأنه لا اعتبارَ بالأزمنة في أفعاله، وإنما استُعملت الألفاظ فيه للدلالة على الأزمنة بحسب اللغات، وأيضاً؛ فـ «صَوَّرَكُم»؛ إنَّما هو على نسبة التقدير وأنَّ فِعْلَه تعالى

---

(١) الكشاف ١/ ٤١١ .

(٢) تأويلات أهل السنة ١/ ٢٤٦ .

(٣) تفسيره ص٤١٢ (جزء فيه تفسير سورة آل عمران).

(٤) هذا كلام ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٠ . وأمَّا قولُ محمد بن جعفر بن الزبير والرَّبيع فهو في تفسير قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ وجاء فيه قبل كلام ابن عطية. والله أعلم.

(٥) بنحوه في تأويلات أهل السنة ١/ ٢٤٦ .

(٦) في قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣].

في حكم ما قد فُرِغ منه، و«يُصَوِّرُكُمْ» على حسب ما يظهرُ لنا حالاً فحالاً. انتهى.

وقرأ طاوس: «تَصَوَّرَكُمْ»، أي: صَوَّرَكُم لنفسه ولِتَعَبُّدِه، كقولك: أَثَّلْتُ مالاً، أي: جعلتُه أَثْلَةً، أي: أَصْلاً، وتَأَثَّلْتُهُ: إذا أَثَّلتَهُ لنفسك[١]. وتأتي تَفَعَّلَ بمعنى فَعَّلَ، نحو: تَوَلَّى؛ بمعنى وَلَّى.

ومعنى «كيف يشاء» أي: من الطُّول والقِصَر واللون والذُّكورة والأُنوثة وغيرِ ذلك من الاختلافات[٢]. وفي قوله: «كيف يشاء» إشارة إلى أنَّ ذلك يكون بسبب وبغير سبب، لأنَّ ذلك مَعْذُوق[٣] بمشيئته فقط.

و«كيف» هنا للجزاء، لكنَّها لا تجزم[٤]، ومفعول «يشاء» محذوف؛ لفهم المعنى، التقدير: كيف يشاءُ أن يُصَوِّرَكُمْ، كقوله: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤] أي: كيف يشاء أن ينفق. و«كيف» منصوب بـ «يشاء»، والمعنى: على أيِّ حالٍ شاءَ أن يُصَوِّرَكم صَوَّرَكم، ونصبُه على الحال، وحُذف فعلُ الجزاء لدلالة ما قبلَه عليه، نحو قولهم: أنت ظالم إن فعلتَ، التقدير: أنت ظالم إنْ فعلتَ فأنتَ ظالم. ولا موضع لهذه الجملة من الإعراب وإن كانت متعلِّقةً بما قبلَها في المعنى، فتعلُّقها كتعلُّقِ «إن فعلتَ» بقوله[٥]: أنت ظالم.

وتفكيكُ هذا الكلام وإعرابُه على ما ذكرناه لا يُهْتَدَى له إلا بعد تمرُّنٍ في الإعراب، واستحضار لِلَطائف النَّحْو.

وقال بعضهم: «كيف يشاء» في موضع الحال معمول «يُصَوِّرُكُم». ومعنى الحال، أي: يُصَوِّرُكم في الأرحام قادراً على تصويركم مالِكاً ذلك.

---

(١) الكشاف ١/ ٤١١.
(٢) بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٠.
(٣) أي: مختصٌّ. ووقع في مطبوع البحر: متعلّق، بدل: معذوق.
(٤) البصريُّون لا يُجازُون بها، فيقولون: كيف تصنعُ أصنعُ، وكيف تكون أكون. وأمَّا الكوفيُّون فيُجازُون بها. ينظر الكتاب ٣/ ٦٠، والإنصاف ٢/ ٦٤٣-٦٤٤.
(٥) في (يه): لقوله، وغير واضحة في (ب)، وفي النسخ الأخرى: كقوله. وأثبتُّ اللفظة على الجادة.

وقيل: التقدير في هذه الحال: يُصَوِّرُكُم على مشيئته، أي: مُرِيدًا، فيكون حالاً من ضمير اسم الله. ذكره أبو البقاء(١)، وجَوَّزَ أن يكون حالاً من المفعول، أي: يصوِّركم متقلِّبين على مشيئته.

وقال الحَوفي: يجوز أن تكون الجملة في موضع المصدر، المعنى: يُصَوِّرُكم في الأرحام تصوير المشيئة وكما يشاء(٢).

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ كرَّر هذه الجملةَ الدالَّة على نفي الإلهيَّة عن غيره تعالى وانحصارِها فيه توكيداً لِما قبلَها من قوله: «الله لا إله إلا هو» وردًّا على من ادعَّى ألوهية عيسى، وناسبَ مجيئَها بعد الوصفين السابقين من العلم والقدرة؛ إذْ مَنْ هذانِ الوصفانِ له هو المتَّصفُ بالإلهية لا غيرُه.

ثم أتى بوصف العزَّة الدالَّةِ على عدم النَّظير، والحكمةِ الموجِبةِ لتصوير الأشياء على الإتقان التَّام.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾.

مناسبة هذا لما قبلَه أنه لـمَّا ذَكَرَ تعديلَ البِنْيَةِ وتصويرَها على ما يشاء من الأشكال الحسنة - وهذا أمرٌ جسمانيّ - استطرد إلى العلم، وهو أمرٌ رُوحاني.

وكان قد جرى لوفد نجران أنَّ مِن شُبَهِهِمْ قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] فبيَّنَ أنَّ القرآن منه مُحْكَمُ العبارة قد صِينت من الاحتمال، ومنه متشابهٌ، وهو ما احتملَ وجوهاً. ونذكر أقاويلَ المفسّرين في المُحكم والمُتشابه.

وقد جاء وصفُ القرآن بأنَّ آياتِهِ محكَمةٌ؛ بمعنى كونه كاملاً، ولفظَه أفصحُ، ومعناه أصحُّ، لا يساويه في هذين الوصفين كلام.

وجاء وصفُه بالتشابه بقوله: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] معناه: يُشبِهُ بعضُه

---

(١) الإملاء ١/ ١٢٣ .

(٢) قال السمين الحلبي في الدر المصون ٣/ ٢٤ : في قوله «الجملة في موضع المصدر» تسامح لأن الجمل لا تقوم مقام المصادر، ومرادُه أن «كيف» دالة على ذلك، ولكن لما كانت في ضمن الجملة نسبَ ذلك إلى الجملة.

بعضاً في الحُسْن[١] والتصديق. وأمَّا هنا فالتَّشابُهُ ما احتملَ وعَجَزَ الذِّهنُ عن التمييز بينهما، نحو: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٧٠]، و﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] أي: مُختلِفَ الطعوم، متَّفِقَ المنظر، ومنه: اشتبه الأمْرَانِ: إذا لم يُفرَّقْ بينَهما، ويقال لأصحاب المَخَاريق: أصحاب الشُّبَه[٢].

ونقول: الكلمة الموضوعة لمعنًى لا تحتملُ غيرَه نصٌّ، أو تحتملُ راجحاً أحدَ الاحتمالين[٣] على الآخر؛ فبالنسبة إلى الراجح ظاهرٌ، وإلى المرجُوح مُؤَوَّل، أو تحتملُ من غير رُجْحَان؛ فمشترَك بالنسبة إليهما، ومُجْمَلٌ بالنسبة إلى كلِّ واحدٍ منهما، فالقَدْرُ المشترك بين النصّ والظاهر هو المُحْكَم، والمشترَكُ بين المُجمل والمؤوَّل هو المُتشابه؛ لأنَّ عدم الفهم حاصلٌ في القسمين[٤].

قال ابنُ عبَّاس وابنُ مسعود وقتادة والرَّبيع والضحَّاك: المُحْكَمُ: الناسخ، والمُتشابه: المنسوخ.

وقال مجاهد وعكرمة: المُحْكَم: ما بيَّنَ تعالى حلالَه وحرامَه فلم تشتبه معانيه، والمتشابه: ما اشتبهت[٥].

وقال جعفر بن محمد ومحمد بن جعفر بن الزبير والشافعي: المُحْكَم: ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه: ما احتملَ من التأويل أوجُهاً.

وقال ابنُ زيد: المُحْكَم: ما لم تتكرَّر ألفاظُه، والمتشابه: ما تكَرَّرَتْ.

وقال جابر بنُ عبد الله وابن رِئاب[٦] ـ وهو مقتضى قول الشعبيّ والثوريّ وغيرِهما ـ المُحْكَمُ: ما فهم العلماءُ تفسيرَه، والمتشابِهُ: ما استأثرَ اللهُ بعلمه، كقيام الساعة، وطلوعِ الشمس من مغربها، وخروجِ عيسى.

(١) في (أ) والمطبوع: الجنس.
(٢) تفسير الرازي ٧/ ١٧٩ .
(٣) في (أ) و(ع): لعدم الاحتمالين.
(٤) تفصيل الكلام في تفسير الرازي ٧/ ١٧٩-١٨٠ .
(٥) في (أ) والمطبوع: ما اشتبهت معانيه.
(٦) كذا في النسخ. وفي المحرر الوجيز ١/ ٤٠١ (والكلام فيه): جابر بن عبد الله بن رئاب.

وقال أبو عثمان: المُحْكَم: الفاتحة. وقال محمد بن الفضل: سورة الإخلاص؛ لأنه ليس فيها إلا التوحيد فقط. وقال محمد بن إسحاق: المُحْكَمَاتُ: ما ليس لها تصريفٌ ولا تحريف(١).

وقال مقاتل: المُحْكَمَات: خمس مئة آية(٢)؛ لأنها تُبسط معانيها، فكانت أمَّ فروع قيست عليها وتولَّدت منها، كالأمّ يحدُث منها الولد، ولذلك سمَّاها أُمَّ الكتاب، والمتشابِهُ القَصَصُ والأمثال.

وقال يحيى بن يَعْمَر: المُحْكَمُ الفرائضُ والوَعْدُ والوعيد، والمتشابِهُ القَصَصُ والأمثال.

وقيل: المُحْكَم ما قام بنفسه ولم يَحْتَجْ إلى استدلال، والمُتشابهُ ما كانت معاني أحكامه غيرَ معقولة، كأعداد الصَّلوات، واختصاص الصوم بشهر رمضان دون شعبان.

وقيل: المُحْكَمُ ما تقرَّر من القَصَص بلفظ واحد، والمتشابهُ: ما اختلَف لفظُه، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠]، ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧]، و﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ﴾ [هود: ٤٠]، و﴿فَٱسْلُكْ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

وقال أبو فاختة: المُحْكَمَات فواتح السُّوَر المستخرج منها السور، كـ «الم» و«المر».

وقيل: المتشابهُ فواتحُ السُّوَر، بعكس الأول.

وقيل: المُحْكَمات التي في سورة الأنعام [قُلْ تَعَالَوْا](٣) إلى آخر الآيات الثلاث، والمتشابهات: «الم» و«المر»، وما اشتبه على اليهود من هذه ونحوها حين سمعوا «الم»، فقالوا: هذه بالجُمَّل أحدٌ وسبعون(٤)، فهو غاية أجَلِ هذه الأمَّة،

---

(١) تفسير القرطبي ٥/ ١٧ .
(٢) ذكر الغزالي في «المستصفى» ٢/ ٣٨٣ أن الآيات التي تتعلّق بالأحكام مقدار خمس مئة آية.
(٣) ما بين حاصرتين من «تفسير» الرازي ٧/ ١٨٢ ، والكلام فيه، وهذا القول لابن عباس.
(٤) حساب الجُمَّل: هو حسابٌ مبناهُ على حروف «أبجد»؛ كلُّ حرف يدلُّ على رقم من الأعداد. وترتيبُ الأبجدية عند المشارقة: أبجد، هوّز، حطّي، كلمن، سعفص، قرشت، ثخذ، ضظغ. وتدلُّ الحروف في الكلمات الثلاثة الأولى - يعني من الألف إلى الياء - على

فلما سمعوا «الر» وغيرَها اشتبهت عليهم[١].

أو ما اشتبه على النصارى من قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

وقيل: المتشابهاتُ ما لا سبيلَ إلى معرفته، كصفة الوَجْه واليدَين واليد والاستواء.

وقيل: المُحْكَم ما أمرَ الله تعالى به في كلِّ كتاب أنزلَه، نحو قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ﴾ الآيات ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ الآيات. وما سوى المُحْكَم متشابهٌ[٢].

وقال أكثر الفقهاء: المُحْكَمَات التي أُحكمت بالإبانة، فإذا سمعَها السامع لم يَحْتَجْ إلى تأويلها؛ لأنها ظاهرة بيِّنة، والمتشابهات ما خالفَتْ ذلك.

وقال ابنُ أبي نَجِيح[٣]: المُحْكَم: ما فيه الحلال والحرام.

وقال ابنُ خُوَيْزمَنْداد[٤]: المتشابهُ ماله وجوهٌ واختلف فيه العلماء، كالآيتين في الحامل المتوَفَّى عنها زوجُها؛ عليٌّ وابنُ عباس يقولان: تعتدُّ أقصى الأجلَيْن، وعُمر وزيدٌ وابنُ مسعود يقولون: وَضْع الحمل، وخلافُهم في النَّسْخ، وكاختلافهم في الوصيَّة للوارث؛ هل نُسخت أم لا، ونحو تعارض الآيتين أيُّهما أولى أنْ يُقدَّم إذا لم يُعرف النَّسْخ، نحو: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] تقتضي الجمعَ بين الأقارب بمِلْك اليمين ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣] يمنع من ذلك.

= الأرقام معدودةً بالآحاد من واحد إلى عشرة، ثم من الكاف إلى القاف بالعشرات من عشرين إلى مئة، ثم من الراء إلى الغين بالمئات من مئتين إلى ألف. فيكون حساب حروف «الم»: ١+٣٠+٤٠=٧١.

(١) ضعَّف ابنُ كثير في تفسيره هذا الخبر. وقد استوفَى الشيخ أحمد شاكر رحمه الله الكلامَ عليه في تفسير الطبري ١/ ٢١٨-٢٢٠، وضعَّف طُرقَه كلَّها.

(٢) الأقوال السابقة (بعضُها دون بعض) في المصادر التالية: تفسير الطبري ٥/ ١٩٢-٢٠١، وتفسير الثعلبي ٢/ ٧-٩، والنكت والعيون ١/ ٣٦٩-٣٧٠، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٠-٤٠١، وتفسير الرازي ٧/ ١٧٩-١٨٢، وزاد المسير ١/ ٣٥٠-٣٥١، وتفسير القرطبي ٥/ ١٧-١٩.

(٣) في تفسير الطبري ٥/ ١٩٦: ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) قوله في تفسير القرطبي ٥/ ١٩.

ومعنى «أُمّ الكتاب»: مُعظم الكتاب، إذِ المُحْكَمُ في آيات الله كثير قد فُصِّل.

وقال يحيى بن يَعْمَر: هذا كما يقال لمكة: أُمُّ القُرى، ولمَرْو: أُمُّ خُراسان، وأُمُّ الرأس لمجتمع الشؤون، إذ هو أخطرُ مكان[١].

وقال ابنُ زيد: جِماع الكتاب[٢].

ولم يقل: أمّهات؛ لأنه جعلَ المُحكمات في تقدير شيء واحد، ومجموع المتشابهات في تقدير شيء آخر[٣]، وأحدُهما أمٌّ للآخَر. ونظيرُه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠] ولم يقل: آيتَيْن.

ويحتمل أن يكون «هُنَّ» أي: كلُّ واحدةٍ منهنَّ، نحو: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤] أي: كلَّ واحدٍ منهم.

قيل: ويحتمل أنه أفرد في موضع الجمع، نحو: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧].

وقال الزمخشري[٤]: «أُمُّ الكتاب» أي: أصلُ الكتاب، تُحمَلُ المتشابهاتُ عليها وتُردُّ إليها، ومثالُ ذلك: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]، ﴿لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]. انتهى.

وهذا على مذهبه الاعتزالي في أنَّ الله لا يُرَى، فجعل[٥] المُحْكم: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ والمتشابه قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ٢٣﴾ وأهلُ السُّنَّة يعكسون هذا ويُفرِّقون بين الإدراك والرُّؤية.

وذُكر من المُحْكَم: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] ومتشابهُه: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] ظاهرُ النسيان ضد العلم، ومرجوحُهُ التَّرك.

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٠١. وينظر تفسير الطبري ٥/ ٢٠١.
(٢) تفسير الطبري ٥/ ٢٠١-٢٠٢.
(٣) في (أ) و(ع): واحد. والكلام في تفسير الرازي ٧/ ١٨٥.
(٤) الكشاف ١/ ٤١٢.
(٥) في النسخ الخطية: فجعله. والمثبت من مطبوع البحر.

وأربابُ المذاهب مختلفون في المُحْكَم والمتشابه، فما وافقَ المذهبَ فهو عندَهم مُحْكَم، وما خالفَ فهو متشابه، فقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ عند المعتزليّ مُحْكَم، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ متشابه، وغيرُهم بالعكس، وصَرْفُ اللفظ عن الرَّاجح إلى المرجوح لا بدَّ فيه من دليل منفصل، فإنْ كان لفظيًا فلا يتمُّ إلا بحصول التعارض، وليس الحملُ على أحدهما أولى من العكس، ولا قطعَ في الدليل اللفظيّ سواءٌ أكان نصًّا أو أرجحَ لتوقُّفه على أمور ظنِّية، وذلك لا يجوز في المسائل الأصولية، فإذَنْ المصيرُ إلى المرجوح لا يكون إلا[1] بواسطة الدلالة العقلية القاطعة، وإذا عُلم صَرْفُه عن ظاهره فلا يحتاج إلى تعيين المراد؛ لأن ذلك يكون ترجيحَ مجاز على مجاز، وتأويلٍ على تأويل.

ومن الملاحدة مَنْ طَعَنَ في القرآن لاشتماله على المتشابه وقال: يقولون: إن تكاليف الخلق مرتبطة بهذا القرآن إلى يوم القيامة، ثم إنَّا نراه يتمسَّكُ به صاحبُ كلِّ مذهبٍ على مذهبِه، فالجَبْرِيُّ يتمسَّك بآيات الجَبْر [كقوله تعالى:][2] ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦]. والقَدَرِيُّ يقول: هذا مذهبُ الكفار في معرض الذمّ لهم في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] وفي موضع آخر: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨]. ومثبتو الرؤية تمسَّكُوا بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ والآخر بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾. ومثبتو الجهة بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وبقوله: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] والآخر بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فكيف يليق بالمحكم أن يرجع إلى المرجوح إليه هكذا[3]؟ انتهى كلام الفخر الرازيّ، وبعضُه ملخّص.

وقد ذكر العلماء لمجيء المتشابه فوائد، وأحسنُ ذلك ما ذكرَه الزمخشريّ؛ قال: فإن قلتَ: فهلَّا كان القرآنُ كلُّهُ مُحْكَماً؟ قلت: لو كان كلُّه مُحْكَماً لتعلَّق الناسُ به لسهولة مأخذِه، ولأعرضُوا عمَّا يحتاجون فيه إلى الفَحْص والتأمُّل من

---

(١) سقطت لفظة «إلا» من (د١) والمطبوع. وينظر تفسير الرازي ٧/ ١٨١.

(٢) ما بين حاصرتين من تفسير الرازي ٧/ ١٨٣.

(٣) عبارة تفسير الرازي ٧/ ١٨٤: فكيف يليق بالحكيم أن يجعل الكتابَ الذي هو المرجوعُ إليه في كل الدِّين إلى قيام الساعة هكذا.

النظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك لَعَطَّلُوا الطريقَ الذي لا يُتَوَصَّلُ إلى معرفة الله وتوحيدِهِ إلا به، ولِما في المتشابه من الابتلاء، والتمييز بين الثابت على الحقِّ والمُتزلزِل فيه، ولِما في تقادح العلماء وإتعابهم[١] القرائحَ في استخراج معانيه وردِّه إلى المُحْكَم من الفوائد الجليلة، والعلوم الجَمَّة، ونَيْلِ الدرجات عند الله، ولأنَّ المؤمنَ المعتقِدَ أنْ لا مناقضةَ في كلام الله ولا اختلاف؛ إذا رأى فيه ما يتناقضُ في ظاهره، وأهمَّه طلبُ ما يوفِّقُ بينَه، ويُجريه على سَنَنٍ واحد، ففكَّرَ وراجعَ نفسَه وغيرَه، ففتحَ اللهُ عليه، وتبيَّن مطابقةُ المتشابهِ المُحْكَمَ = ازدادَ طُمَأْنينةً إلى مُعتقدِه، وقوَّةً في إيقانه. انتهى كلام الزمخشريّ[٢].

وهو مؤلَّف ممَّا قالَه الناس في فائدة المجيء بالمتشابه في القرآن.

ولـمَّا ذكَرَ تعالى أوَّلَ السورة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ذكرَ هنا كيفيَّةَ الكتاب، وأتى بالموصول، إذْ في صلته حَوالة على التنزيل السابق وعهدٌ فيه، وقولُه: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ إلى آخره، في موضع الحال، أي: نَزَّلَه[٣] على هذين الوجهين مُحْكَماً ومتشابِهاً. وارتفع «آيات» على الفاعليَّة بالمجرور؛ لأنه قد اعتُمد، ويجوز ارتفاعُه على الابتداء، والجملة حالية، ويحتمل أن تكون جملة مستأنفة، ووَصْفُ الآيات بالإحكام صادقٌ على أنَّ كلَّ آيةٍ مُحْكَمَةٌ.

وأما قولُه: «وأُخَرُ مُتَشابِهات» فـ «أُخَر» صفة لـ «آيات» محذوفة، والوَصْفُ بالتشابه لا يصحُّ في مفرد «أُخَر»، لو قلت: وأُخرى متشابِهة؛ لم يصحَّ إلا بمعنى أنَّ بعضَها يُشبهُ بعضاً[٤]، وليس المراد هنا هذا المعنى، وذلك أن التشابه المقصود هنا لا يكون إلا بين اثنين فصاعداً، فلذلك صحَّ هذا الوصف مع الجمع؛ لأنَّ كلَّ واحد من مفرداته يُشابهُ الباقي، وإنْ كان الواحد لا يصحُّ فيه ذلك، فهو نظير: ﴿رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ [القصص: ١٥] وإن كان لا يقال: رجل يقتتل[٥].

---

(١) في (أ) والمطبوع: وإتقانهم.
(٢) الكشاف ١/ ٤١٢-٤١٣ .
(٣) في المطبوع: تركه. وهو تحريف.
(٤) أي: بعض الواحدة يُشبه بعضاً. ينظر الإملاء ١/ ١٢٤ .
(٥) المصدر السابق. قال السمين: يعني أنه ليس من شرط صحة الوصف في التثنية أو الجمع صحة انبساط مفردات الأوصاف على مفردات الموصوفات، وإن كان الأصل ذلك، كما أنه

وتقدَّم الكلام على «أُخَر» في قوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤] فأغنى عن إعادته هنا.

وذكر ابن عطيَّة[١] أن المَهْدَويَّ خَلَّطَ في مسألة «أُخَر» وأفسدَ كلامَ سيبويه، فيُوقفُ على ذلك من كلام المهدويّ.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾: هم نصارى نَجْرَان؛ لتعرُّضِهم للقرآن في أمر عيسى. قالَه الربيع. أو اليهود؛ قاله ابنُ عبَّاس والكلبيّ، لأنهم طلبُوا بقاء هذه الأمة[٢] من الحروف المقطَّعة، والزَّيغُ عِنادُهم.

وقال الطبريّ: هو الأشبه[٣]، وذكرَ محاورةَ حُيَيّ بن أخطب وأصحابِه لرسول الله ﷺ في مدة ملّته[٤]، واستخراج ذلك من الفواتح، وانتقالهم من عدد إلى عدد إلى أن قالوا: خَلَّطْتَ علينا، فلا ندري أبكثيرٍ نأخذُ أم بقليل، ونحن لا نؤمن بهذا. فأنزل الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية.

وفسَّر الزَّيْغَ بالميل عن الهُدى ابنُ مسعود، وجماعةٌ من الصحابة، ومجاهد ومحمد بن جعفر بن الزُّبير، وغيرُهم[٥].

وقال قتادة: هم منكرو البعث، لأنه قال في آخرها: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وما ذاك إلا يوم القيامة، فإنه أخفاه عن جميع الخلق.

وقال قتادة أيضاً: هم الحَرُورِيَّة، وهم الخَوَارج، ومَنْ تأوَّلَ آية لا في محلِّها. وقال أيضاً: إن لم تكن الحَرُوريةَ والسبائيةَ فلا أدري مَنْ هم. وقال ابن جُريج: هم المنافقون. وقيل: هم جميع المبتدعة.

= لا يُشترط في إسناد الفعل إلى المثنى والمجموع صحةُ إسنادِه إلى كلّ واحد على حِدَته. ينظر الدر المصون ٣/ ٢٦.

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٢. وينظر تفسير القرطبي ٥/ ٢١-٢٢.

(٢) في (د١) ومطبوع البحر: الآية. وهو تحريف.

(٣) أي بأن تكون الآية نزلت في الذين جادلوا رسول الله ﷺ في مدَّته ومدَّةِ أمَّتِه. ينظر تفسيره ٥/ ٢١٢.

(٤) كذا. ولعلها: مكثه. وفي تفسير الطبري ١/ ٢٢١: مُلْكِه.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٢.

وظاهر اللفظ العمومُ في الزائغين عن الحقّ، وكلُّ طائفة ممَّن ذُكر زائغةٌ عن الحقّ، فاللفظُ يشملُهم وإنْ كانَ نزلَ على سبب خاص، فالعبرة لعموم[١] اللفظ.

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ قال القرطبي[٢]: متَّبِعُو المتشابه إمَّا طالِبُو تشكيك وتناقض وتكرير، وإمَّا طالِبُو ظواهرِ المتشابه؛ كالمجسِّمة؛ إذْ أيقنوا أنه جسم ذو صورة[٣] ذات وجهٍ وعين ويدٍ وجَنْبٍ ورِجْل وإصبع، وإمَّا متَّبعو إبداءِ تأويل، وإيضاح معانيه، كما سأل رجلٌ ابنَ عبَّاس عن أشياء اختلفت عليه في القرآن ممَّا ظاهرُها التعارضُ، نحو: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ونحو ذلك، وأجابه ابنُ عباس بما أزالَ عنه التعارض، وإمَّا متبعوه وسائلون عنه سؤال تعنُّت؛ كما جرى لأَصَبيغ[٤] مع عُمر، فضرب عُمرُ رأسَه حتى جَرى دمُه على وجهه. انتهى كلامه ملخَّصاً.

﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ﴾ علّل اتباعهم للمتشابه بعلّتين:

إحداهما: ابتغاء الفتنة؛ قال السُّدِّيّ والرَّبيع ومقاتل وابنُ قُتيبة: هي الكفر.

وقال مجاهد: الشُّبُهات واللَّبْس.

وقال الزَّجَّاج: إفسادُ ذاتِ البَيْن. وقيل: الشُّبُهات التي[٥] حاجَّ بها وفدُ نَجْران.

والعلّة الثانية: ابتغاء التأويل؛ قال ابن عباس: ابتَغَوْا معرفةَ مدَّةِ النبيِّ ﷺ وأمَّتِه[٦].

---

(١) في (ع) و(يه): بعموم.

(٢) هو أبو العباس القرطبي، وكلامُه بنحوه في المفهم ٦/٦٩٧-٦٩٨، ونقله عنه أبو عبد الله القرطبي في التفسير ٥/٢٢-٢٣.

(٣) في (د١) والمطبوع: جسم وصورة.

(٤) كذا في النسخ الخطية، وهو خطأ. والصواب: صَبِيغ، وزن عظيم، ويقال بالتصغير. ينظر الإصابة ٥/١٦٨ (القسم الثالث من حرف الصاد).

(٥) لفظة «التي» من (د١) والمطبوع.

(٦) ينظر: تفسير الطبري ٥/٢١٢-٢١٤، والنكت والعيون ١/٣٧١، وزاد المسير ١/٣٥٤.

وقيل: التأويل: التفسير، نحو: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨].

وقال ابن عباس أيضاً: طلبُوا مرجع أمر المؤمنين ومآل كتابِهم ودينهم وشريعتهم، والعاقبة المنتظرة[(١)].

وقال الزَّجّاج: طلبُوا تأويلَ بعثهم وإحيائهم، فأعلمَ تعالى أنَّ تأويلَ ذلك ووقتَه [لا يعلمُه إلا الله. قال: والدليلُ على ذلك قولُه تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾] أي: يومَ يرون ما يُوعدون من البعث والعذاب ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾ أي: تركوه: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣] أي: قد رَأينا تأويلَ ما أنبأتْنا به الرُّسُل[(٢)].

وقال السُّدِّي: أرادوا أن يعلموا عواقبَ القرآن، وهو تأويلُه، متى يُنسخ منه شيء[(٣)].

وقيل: تأويلُه طلبُ كُنْهِ حقيقته وعمقِ معانيه.

وقال الفخر الرازيّ[(٤)] كلامًا ملخَّصُه أنَّ المراد بالتأويل ما ليس في الكتاب دليلٌ عليه، مثل: متى الساعة؟ ومقادير الثواب والعقاب لكلِّ مكلَّف.

وقال الزمخشريّ[(٥)]: «الذين في قلوبهم زَيْغ»: هم أهلُ البدع «فيتَّبعون ما تشابه منه»: فيتعلَّقون بالمتشابه الذي يحتمل ما يذهبُ إليه المبتدع ممَّا لا يُطابق المُحكَم، ويحتمل ما يُطابقُه من قول أهل الحقِّ «ابتغاءَ الفتنة»: طلبَ أن يفتنوا الناس عن دينهم ويُضِلُّوهم «وابتغاءَ تأويله»: طلبَ أن يُؤَوِّلُوه التأويلَ الذي يشتهونه. انتهى كلامه. وهو كلام حسن.

---

(١) في النكت والعيون ١/ ٣٧١، وزاد المسير ١/ ٣٥٤ : في التأويل وجهان: أحدُهما: التفسير، والثاني: العاقبة المنتظرة.

(٢) معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٧٨، ونقله عنه القرطبي في «تفسيره» ٥/ ٢٤ وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) تفسير الطبري ٥/ ٢١٥-٢١٦ .

(٤) في تفسيره ٧/ ١٨٨ .

(٥) الكشاف ١/ ٤١٣ .

﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

تمَّ الكلام عند قوله: إلا الله، ومعناه أنَّ الله استأثرَ بعلم تأويلِ المتشابه، وهو قول ابن مسعود، وأُبيّ، وابن عباس، وعائشة، والحسن، وعُروة، وعمر بن عبد العزيز، وأبي نَهيك الأسدي، ومالك بنِ أنس، والكسائي، والفرَّاء، والجُبَّائيّ، والأخفش، وأبي عُبيد، واختاره الخطَّابي والفخر الرازيّ، ويكون قوله: «والراسخون» مبتدأ و«يقولون» خبرٌ عنه.

وقيل: «والراسخون» معطوف على «الله»: وهم يعلمون تأويلَه، و«يقولون» حالٌ منهم، أي: قائلين[1]. ورُويَ هذا عن ابن عباس أيضاً، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن جعفر بن الزُّبير، وأكثرِ المتكلّمين.

ورُجِّحَ الأوّل بأنَّ الدليل إذا دلَّ على غير الظاهر عُلم أنَّ المراد بعضُ المَجَازات، وليس الترجيحُ لبعضٍ إلا بالأدلَّة اللفظية، وهي ظنّيَّة، والظنُّ لا يكفي في القطعيَّات.

ولأنَّ ما قبلَ الآية يدلُّ على ذمِّ طالب المتشابه، ولو كان جائزاً لما ذُمَّ بأنَّ طلب وقت الساعة تخصيص بعض المتشابهات، وهو تركٌ للظاهر، ولا يجوز[2].

ولأنه مُدِحَ الراسخون[3] في العلم بأنهم قالوا: آمنَّا به، ولو كانوا عالِمين بتأويل المتشابه على التفصيل؛ لَمَا كان في الإيمان به مدحٌ؛ لأنَّ مَنْ علمَ شيئاً على التفصيل لا بدَّ أن يؤمن به، وإنَّما الراسخون يعلمون بالدليل العقلي أنَّ المراد غيرُ الظاهر، ويفوِّضون تعيين المراد إلى علمه تعالى، وقطعوا أنه الحقّ، ولم يحملهم عدم التعيين على ترك الإيمان.

---

(١) ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، وسيذكره المصنف لاحقاً.

(٢) في الكلام اختصار وغموض، وتفصيلُه كما في تفسير الرازي ٧/ ١٨٩ ، قال: فإن قيل: لِمَ لا يجوزُ أن يكون المرادُ منه طلبَ وقت الساعة، كما في قوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾ وأيضاً مقادير الثواب والعقاب... الخ. فذكرَ الرازيّ أن تخصيص ذلك ببعض المتشابهات دون بعض ترك للظاهر ولا يجوز.

(٣) المثبت من (أ) و(ب) و(ع). وفي (ت) و(د١) و(د٢) و(يه): مَدَحَ الراسخين. وعبارة الرازي ١/ ١٨٩ : أن الله مدح الراسخين.

ولأنه لو كان «الراسخون» معطوفاً على «الله» للزمَ أن يكون «يقولون» خبر مبتدأ، وتقديرُه: هؤلاء، أو: هم، فيلزم الإضمارُ، أو حال، والمتقدِّم «الله» و«الراسخون»، فيكون حالاً من الراسخين فقط، وفيه تركٌ للظاهر.

ولأنَّ قولَه: «كلٌّ من عند ربِّنا» يقتضي فائدة، وهو أنهم آمنوا بما عرفوا بتفصيله وما لم يعرفوه، ولو كانوا عالمين بالتفصيل في الكلِّ؛ عَرِيَ عن الفائدة، ولِما نُقل عن ابن عبَّاس أنَّ تفسير القرآن على أربعة أوجه: تفسيرٌ لا يقع جَهْلُه[1]، وتفسيرٌ تعرفُه العربُ بألسنتها، وتفسيرٌ يعلمُه العلماء، وتفسيرٌ لا يعلمُه إلا الله تعالى.

وسئل مالك [عن الاستواء][2] فقال: الاستواء معلوم، والكيفيَّة مجهولة، والإيمانُ به واجب، والسؤال عنه بدعة. انتهى ما رُجِّح به القول الأول.

وفي ذلك نظر، ويؤيِّد هذا القولَ قراءةُ أُبيّ، وابنِ عبَّاس فيما رواه طاوس عنه: «إلا الله ويقول الراسخون في العلم: آمنا به» وقراءةُ عبد الله: «وابتغاء تأويله إنْ تأويلُه إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون»[3].

ورجَّح ابنُ فُورك القولَ الثاني، وأطنبَ في ذلك[4]. وفي قوله ﷺ لابن عباس: «اللهمَّ فَقِّهْهُ في الدِّين وعَلِّمْهُ التأويل» ما يُبيِّن ذلك، أي: عَلِّمْهُ معانيَ كتابِك[5].

وكان عمر إذا وقعَ مُشكِلٌ في كتاب الله يستدعيه ويقول له: غُصْ يا غوَّاصُ[6]. ويجمعُ أبناءَ المهاجرين والأنصار ويأمُرُهم بالنظر في معاني الكتاب.

وقال ابنُ عطية: إذا تأمَّلْتَ؛ قَرُبَ الخلافُ من الاتفاق، وذلك أنَّ الكتاب

---

(١) في «تفسير» الرازي ١/ ١٩٠ : لا يَسَعُ أحداً جهلُه.

(٢) ما بين حاصرتين من المصدر السابق.

(٣) تفسير البغوي ١/ ٢٨٠ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٤ .

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٤ ، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٨ .

(٥) تفسير القرطبي ٥/ ٢٨ . والحديث أخرجه أحمد بهذا اللفظ في «المسند» (٣١٠٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه البخاري (١٤٣) بلفظ: «اللهم فقِّهه في الدين»، ومسلم (٢٤٧٧) بلفظ: «اللهم فقِّهه».

(٦) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٩٤٠). ولفظة «يا» ليست في (د١) ومطبوع البحر.

مُحكَمٌ ومُتشابِه، فالمُحْكَمُ: المتَّضِحُ لمن يَفهم كلامَ العرب من غير نظر، ولا لَبْسَ فيه، ويستوي فيه الراسخُ وغيرُه، والمتشابهُ: منه ما لا يعلمُه إلا الله، كأمرِ الرُّوح وآمادِ المغيَّبات المُخبَرِ بوقوعها، وغيرِ ذلك، ومنه ما يُحمل على وجوهٍ في اللغة، فيُتَأَوَّلُ على الاستقامة، كقوله في عيسى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]. إلى غير ذلك، ولا يسمَّى راسخاً إلا مَنْ يعلمُ من هذا النوع كثيراً بحسب ما قُدِّرَ له، وإلا فمَنْ لا يعلمُ سوى المُحكم فليس براسخ، فقوله: «إلا الله» مقتضٍ ببديهة العقل أنه تعالى يعلمُه على استيفاء نَوْعَيْهِ جميعاً، والراسخون يعلمون النوع الثاني، والكلام مستقيمٌ على فصاحة العرب، ودخلوا بالعطف في علم التأويل كما تقول: ما قام لنصري إلا فلان وفلان، وأحدُهما نَصَرَك بأنْ جاوبَ[١] معك، والآخر أعانَك بكلام فقط.

وإن جعلنا «والراسخون» مبتدأ مقطوعاً ممَّا قبلَه فتسميتُهم راسخين يقتضي أنهم يعلمون أكثر من المُحكم الذي استوى في علمه جميعُ من يفهم كلامَ العرب، وفي أيِّ شيء رسوخُهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميعُ؟ وما الرُّسوخُ إلا المعرفة بتصاريف الكلام، وموارِدِ الأحكام، ومواقعِ المواعظ.

وإعراب الراسخين يحتمل الوجهين، ولذلك قال ابن عباس بهما.

ومن فسَّر المتشابه بأنَّه ما استأثر اللهُ بعلمه فقط؛ فتفسيرُه غيرُ صحيح؛ لأنه تخصيصٌ لبعض المتشابه. انتهى. وفيه بعضُ تلخيص، وفيه اختيارُه أنه معطوف على «الله»[٢]، وإيَّاه اختار الزمخشريّ؛ قال: لا يهتدي إلى تأويله الحقِّ الذي يجبُ أن يُحمل عليه إلا اللهُ وعبادُهُ الذين رَسَخُوا في العلم، أي: ثبتوا فيه وتمكّنوا وعَضُّوا فيه بضِرْسٍ قاطع، و«يقولون» كلامٌ مستأنفٌ مُوضِحٌ لحال الراسخين، بمعنى: هؤلاء العالِمُون بالتأويل يقولون: آمنَّا به، أي: بالمتشابه. انتهى كلامه[٣].

---

(١) في (د١) ومطبوع البحر: ضارب. وفي المحرر الوجيز ١/٤٠٣ (والكلام فيه بنحوه): حارب.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ١/٤٠٣-٤٠٤ .

(٣) الكشاف ١/٤١٣ .

وتلخَّص في إعراب «والراسخون» وجهان: أحدُهما: أنه معطوف على قوله: «الله»، ويكون في إعراب «يقولون» وجهان: أحدُهما أنه خبر مبتدأ محذوف، والثاني أنه في موضع نصب على الحال من «الراسخون»، كما تقول: ما قامَ إلا زيدٌ وهند ضاحكة.

والثاني من إعراب «والراسخون»: أن يكون مبتدأ، ويتعيَّن أن يكون «يقولون» خبراً عنه، ويكون من عطف الجُمل.

وقيل: «الراسخون في العلم» مؤمنو أهلِ الكتاب، كعبد الله بنِ سَلام وأصحابِه، بدليل: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ١٦٢] يعني الراسخين في علم التوراة. وهذا فيه بُعْد.

وقد فُسِّرَ الرُّسوخ في العلم بما لا تدلُّ عليه اللغة، وإنما هي أشياءُ نشأت عن الرُّسوخ في العلم، كقول نافع: الراسخ: المتواضع لله، وكقول مالك: الراسخ في العلم العاملُ بما يعلم، المتَّبع[١].

﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ هذا من المقول، ومفعول «يقولون» قولُه: «آمنا به كلٌّ من عند ربِّنا» وجُعلت كلُّ جملة كأنَّها مستقلَّة بالقول، ولذلك لم يُشْرَك بينهما بحرف العطف، أو جُعلا ممتزجَين في القول امتزاج الجملة الواحدة، نحو قوله:

كيفَ أصبحتَ كيفَ أَمْسَيْتَ ممَّا ... يــزرعُ الــوُدَّ فــي فــؤادِ الــكــريــمِ[٢]

كأنَّه قال: هذا الكلامُ ممَّا يزرعُ الوُدَّ.

والضمير في «به» يحتمل أن يعود على المتشابه، وهو الظاهر، ويحتمل أن يعود على الكتاب.

والتنوين في «كلٌّ» للعِوَض من المحذوف، فيحتمل أن يكون ضمير الكتاب، أي: كلُّه من عند ربِّنا، ويحتمل أن يكون التقدير: كلُّ واحدٍ من المُحْكَم والمُتشابه من عند الله، وإذا كان من عند الله فلا تناقضَ ولا اختلافَ، وهو حقٌّ يجب أن يُؤمَنَ به.

---

(١) بنحوه في تفسير البغوي ١/ ٢٨٠.

(٢) خصائص ابن جني ١/ ٢٩٠ و٢/ ٢٨٠، وهمع الهوامع ٣/ ٢٢٦.

وأضاف العِنْديَّة إلى قوله: «ربِّنا» لا إلى غيره من أسمائه تعالى؛ لِما في الإشعار بلفظة «الرّبّ» من النظر في مصلحة عبيدِه، فلولا أنَّ في المتشابه مصلحةً ما أنزله تعالى، ولجعلَ[١] كتابَه كلَّه مُحْكَماً.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: وما يتَّعظ بنزول المُحْكَم والمتشابه إلا أصحابُ العقول، إذْ هُم المُدْرِكون لحقائق الأشياء وَوَضْعِ الكلامِ مواضعَه.

ونبَّه بذلك على أنَّ ما اشتبهَ من القرآن فلا بدَّ من النَّظَر فيه بالعقل الذي جُعلَ مميِّزًا لإدراك الواجب والجائز والمستحيل، فلا يُوقَفُ مع دلالة ظاهر اللفظ، بل يُستعمل في ذلك الفِكْرُ حتى لا يُنسبَ إلى البارئ تعالى ولا إلى ما شَرَعَ من أحكامه ما لا يجوزُ في العقل.

وقال ابنُ عطية: أي: ما يقول هذا ويؤمِنُ به ويقفُ حيث وقع[٢] ويدع اتِّباعَ المتشابه إلا ذُو لبّ.

وقال الزمخشريّ: مدحٌ للرَّاسخين بإلقاء الذهن وحُسن التأمُّل[٣].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ يحتمل أن يكون هذا من جملة المَقُول، أي: يقولون ربَّنا، وكأنَّهم لمَّا رأَوا انقسامَ الناس إلى زائغٍ ومتذكِّر مؤمن؛ دَعَوُا الله تعالى بلفظ الرَّبّ أن لا يُزيغَ قلوبَهم بعد هدايتهم فيَلْحَقُوا بمَن في قلبه زَيْغ. ويحتمل أن يكون تعالى علَّمَهم هذا الدعاء، والتقدير: قُولُوا: ربَّنا.

ومعنى الإزاغة هنا: الضلالة. وفي نسبة ذلك إليه تعالى رَدٌّ على المعتزلة في قولهم: إنَّ الله لا يُضِلّ؛ إذْ لو لم تكن الإزاغةُ مِن قِبَله تعالى لَمَا جازَ أن يُدْعَى في دفع ما لا يجوز عليه فعلُه.

وقال الزَّجّاج: المعنى لا تُكَلِّفْنَا عبادةً ثقيلةً تَزيغُ بها قلوبُنا[٤]. وهذا القول فيه

(١) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع) و(يه): يجعل. والمثبت من (ح) و(د١) و(د٢).
(٢) في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٤: وقف، بدل: وقع. وفي (أ) و(ب) و(ت) و(يه): ويوقف، بدل: ويقف.
(٣) الكشاف ١/ ٤١٣. ووقع في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): التأويل، بدل: التأمل.
(٤) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٧٩. ونقله المصنف بواسطة المحرر الوجيز ١/ ٤٠٤.

التحفُّظ من خلق الله الزَّيغَ والضلالةَ في قلب أحدٍ من العباد.

وقال ابنُ كَيْسان: سألُوا أن لا يَزِيغُوا، فيُزيغَ اللهُ قلوبَهم نحو: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥] أي: ثَبِّتْنَا على هدايتك، وأن لا نَزِيغَ فنستحقَّ أن تُزيغَ قلوبَنا(١).

وهذه نزعةٌ اعتزالية، كما قال الجُبَّائيّ: لا تَمْنَعْنا(٢) الألطافَ التي معها يستمرُّ القلبُ على صفة الإيمان، لمَّا منَعَهم الألطافَ لاستحقاقهم مَنْعَ ذلك؛ جازَ أن يُقال: أزاغَهُم، ويدلّ عليه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ وقال الجُبَّائيّ أيضاً: لا تُزِغْنا عن جنَّتك وثوابك.

وقال أبو مسلم: أَحْرُسْنا من الشيطان وشرِّ أنفسِنا حتى لا نَزِيغَ(٣).

وقال الزمخشري(٤): لا تَبْلُنا ببلايا تَزيغُ فيها قلوبُنا، أو: لا تَمْنَعْنَا ألطافَك بعد إذْ لَطَفْتَ بنا. انتهى.

وهذه مسألةٌ كلاميَّة؛ هل الله تعالى خالقُ الشرِّ كما هو خالقُ الخير، أو لا يخلقُ الشرّ؟ فالأوّلُ قولُ أهلِ السُّنَّة، والثاني قولُ المعتزلة. وكلٌّ يُفسِّرُ على مذهبه.

وقرأ الصِّدِّيق وأبو فايد(٥) والجرَّاح: «لا تَزِغْ قلوبُنا» بفتح التاء ورفع الباء. وقرأ بعضُهم: «لا يَزِغْ» بالياء مفتوحةً، ورفع باء القلوب(٦)، جعلَه من: زاغَ، وأسندَه إلى القلوب. وظاهرُه نهيُ القلوب عن الزَّيْغ، وإنما هو من باب: لا أَرَيَنَّكَ ها هنا(٧).

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٥٦.
(٢) في (د١) ومطبوع البحر: تمنعها. وهو أيضاً في «تفسير» الرازي ٧/ ١٩٣.
(٣) تفسير الرازي ٧/ ٩٣.
(٤) الكشاف ١/ ٤١٣.
(٥) في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٤ وتفسير القرطبي ٥/ ٣٢: أبو واقد. وفي القراءات الشاذة ص١٩: عمرو بن فايد والجحدري.
(٦) نسبت في القراءات الشاذة ص١٩ للسُّلمي.
(٧) أي: وقوع النهي على غير المنهيّ عنه، وهو نهيٌ محوَّل. ينظر الأصول في النحو ١/ ٧٤.

وقوله:

لا أَعْـرِفَـنْ رَبْـرَبـاً حُـوراً مَـدَامِـعُـهُ(١)

أي: لا تُزِغْنا، فَتَزِيغَ قلوبُنا.

«بعد إذ هديتَنا» ظاهرُه الهداية التي هي مقابلة الضلال. وقيل: بعد إذْ هديتَنا للعلم بالمُحْكَم، والتسليمِ للمتشابه من كتابك.

و«إذْ» أصلُها أن تكونَ ظرفاً، وهنا أضيف إليها «بعد»، فصارت اسماً غيرَ ظرف، وهي كانت قبل أن تخرجَ عن الظرفيَّة تُضاف إلى الجملة، واستُصحب فيها حالُها من الإضافة إلى الجملة، وليست الإضافة إليها تُخرجُها عن هذا الحكم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٩] «يومُ لا تملكُ» [الانفطار: ١٩] في قراءة من رفع «يوم»(٢).

وقول الشاعر:

على حينِ عاتبتُ المَشِيبَ على الصِّبا(٣)

عـلـى حـيـنِ مَـنْ تَـلْـبَـثْ عـلـيـه ذَنُـوبُـهُ(٤)

عـلـى حـيـنِ الـكـرامُ قـلـيـلُ(٥)

---

(١) هو صدر بيت للنابغة الذبياني، وعجزُه: كأنَّ أبكارها نِعاجُ دُوَّار. وهو في ديوانه ص٥٥. والرَّبْرَب: قطيعٌ من الظِّباء أو البقر، شبَّه النساء به. والدُّوَّار: مُستدار من الرمل تدورُ حوله الوحوش.

(٢) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب. ينظر السبعة ٦٧٤ والنشر ٢/ ٣٩٩.

(٣) هو صدر بيت للنابغة الذُّبيانيّ، وعجزُه: وقلتُ ألَمَّا أصْحُ والشيبُ وازعُ. وهو في ديوانه ص٧٩ والإنصاف ١/ ٢٩٢.

(٤) هو صدرُ بيت للبيد بن ربيعة، وعجزُه: يَجِدْ فَقْدَها وفي الذِّناب تَدَاثُرُ. وهو في ديوانه ص٦٤ والإنصاف ١/ ٢٩١. الذَّنُوب: الدَّلْوُ، والجمع ذِناب.

(٥) هو قطعة من بيت لمبشّر بن هذيل كما في ديوان المعاني ١/ ٨١، وشرح أبيات المغني للبغدادي ٧/ ١٢٨، ونسبه السيوطي في شرح شواهد المغني ٢/ ٨٨٤ لموبال بن جهم. والبيت بتمامه:

ألـم تـعـلـمـي يـا عَـمْـرَكِ اللهُ أنـنـي كـريـمٌ عـلـى حـيـن الـكـرامُ قـلـيـلُ

وينظر الحماسة البصرية ٢/ ٥٤.

ألا ليتَ أيامَ الصَّفاء جديدُ[(١)]

كيف خرج الظرفُ هنا عن بابه، واستُعمل خبراً ومجروراً بحرف الجرّ واسم ليتَ، وهو مع ذلك مضافٌ إلى الجملة؟

﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ سألوا بلفظ الهبة المشعرة بالتفضّل والإحسان إليهم من غير سبب ولا عمل ولا معاوضة؛ لأنَّ الهبة كذلك تكون، وخَصُّوها بأنها من عنده، والرحمةُ إنْ كانت من صفات الذَّات فلا يمكن فيها الهبة، بل يكون المعنى: نعيماً، أو: ثواباً صادراً عن الرحمة. ولمَّا كان المسؤول صادراً عن الرحمة؛ صحَّ أن يسألوا الرحمة إجراءً للسبب مُجرى المسبَّب.

وقيل: معنى «رحمةً» توفيقاً وسَدَاداً وتثبيتاً لِما نحن عليه من الإيمان والهدى.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ هذا كالتعليل لقولهم: «وهَبْ لنا» كقولك: حُلَّ هذا المُشكل، إنك أنت العالم بالمشكلات. وأتى بصيغة المبالغة التي على «فَعَّال» وإن كانوا قد قالوا: وَهُوب، لمناسبة رؤوس الآي.

ويجوز في «أنت» التوكيد للضمير، والفصلُ، والابتداء.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ لمّا سألوه تعالى أن لا يُزيغَ قُلوبَهم بعد الهداية، وكانت ثمرةُ انتفاء الزَّيغ والهداية إنما تظهرُ في يوم القيامة؛ أخبرُوا أنهم موقنون بيوم القيامة والبعث فيه للمجازاة، وأنَّ اعتقاد صحةِ الوعد به هو الذي حَدَاهم[(٢)] إلى سؤال أنْ لا يُزيغَ قلوبَهم.

ومعنى «ليوم لا ريب فيه»: أي: لجزاء يوم. ومعنى «لا ريب فيه»: لا شكَّ في وجودِه لصدقِ مَنْ أخبرَ به، وإنْ كان يقعُ للمكذِّب به رَيْبٌ؛ فهو بحال ما لا ينبغي أنْ يُرتاب فيه.

وقيل: اللام بمعنى «في» أي: في يوم، ويكون المجموع لأجله لم يُذكر، وظاهرُ هذا الجمع أنه الحشرُ من القبور للمجازاة، فهو اسم فاعل بمعنى

---

(١) هو صدر بيت لجميل، وعجزُه: ودهراً تولَّى يا بُثَيْنَ يعودُ. وهو في ديوانه ص٦١ .

(٢) في (أ) و(ع): حملهم. وفي مطبوع البحر: هداهم.

الاستقبال، ويدلُّ على أنه مستقبَل قراءةُ أبي حاتم: «جامعٌ الناسَ» بالتنوين ونصبِ الناس[١].

وقيل: معنى الجمع هنا أنه يجمعُهم في القبور، وكأنَّ اللام تكون بمعنى «إلى» للغاية، أي: جامعُهم في القبور إلى يوم القيامة، ويكون اسم الفاعل هنا لم يُلحظ فيه الزمان إذ من الناس من مات، ومنهم من لم يمت، فنُسب الجمعُ إلى الله من غير اعتبار الزمان.

والضمير في «فيه» عائد على اليوم؛ إذ الجملة صفة له، ومن أعاده على الجمع المفهوم من «جامع» أو على الجزاء الدالّ عليه المعنى فقد أبعد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ ظاهرُ العدول من ضمير الخطاب إلى الاسم الغائب يدلُّ على الاستئناف، وأنه من كلام الله تعالى، لا من كلام الراسخين الداعين.

قال الزمخشري[٢]: معناه أنَّ الإلهيَّة تُنافي خُلْفَ الميعاد، كقولك: إنَّ الجواد لا يَخِيبُ سائلُه، و«الميعاد»: الموعد. انتهى كلامُه. وفيه دَسِيسةُ الاعتزال بقوله: إن الإلهيَّة تُنافي خُلْفَ الميعاد.

وقد استدلَّ الجُبَّائي بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ على القطع بوعيد الفُسَّاق مطلقاً، وهو عندنا مشروطٌ بعدم العفو، كما اتَّفَقْنا نحن وهم على أنه مشروط بعدم التوبة، والشرطانِ يَثْبُتانِ بدليل منفصل، ولئن سلَّمنا ما يقولونه، فلا نُسلِّم أنَّ الوعيد يدخلُ تحت الوعد.

وقال الواحديّ[٣]: يجوز حملُه على ميعاد الأولياء دونَ وعيد الأعداء؛ لأن خُلْفَ الوعيد كرمٌ عند العرب، ولذلك يمدحون به، قال الشاعر[٤]:

إذا وَعَدَ السَّرَّاءَ أَنْجَزَ وَعْدَهُ وإنْ وَعَدَ الضَّرَّاءَ فالعَفْوُ مانِعُهْ

---

(١) القراءات الشاذة ص١٩، ونسبت القراءة فيه لمسلم بن جندب والحسن.
(٢) الكشاف ١/ ٤١٤ .
(٣) في البسيط، كما ذكر الرازي في تفسيره ٧/ ١٩٦ .
(٤) هو السّريّ الرَّفَّاء، كما في يتيمة الدهر ٢/ ١٥٦ .

ويحتمل أن تكون هذه الجملة من كلام الدَّاعين، ويكون ذلك من باب الالتفات، إذ هو خروجٌ من خطاب إلى غَيْبَة لِما في ذكره باسمه الأعظم من التفخيم والتعظيم والهيبة، وكأنَّهم لمَّا والَوْا الدعاء بقولهم: «ربَّنا»، أخبروا عن الله تعالى بأنه الوفيُّ بالعَهْدِ والوَعْد(١).

وتضمَّن هذا الكلام الإيمانَ بالبعث والمجازاةَ والإيفاءَ بما وعد تعالى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ قيل: المرادُ وَفْدُ نجران(٢)؛ لأنه رُوِيَ أنَّ أبا حارثة بنَ علقمة قال لأخيه: إنِّي أعلمُ أنه رسولُ الله، ولكنِّي إنْ أظهرتُ ذلك أخذَ ملوكُ الرُّوم مني ما أعطَوْني من المال(٣).

وقيل: الإشارة إلى معاصري رسول الله ﷺ؛ قال ابنُ عباس: قُريظةُ والنَّضِير(٤)، وكانوا يفخرون بأموالهم وأبنائهم، وهي عامَّةٌ تتناول كلَّ كافر(٥).

ومعنى «من الله» أي: من عذابه الدُّنياويّ والأُخراويّ.

ومعنى أغنى عنه: دفعَ عنه ومنعَه، ولمَّا كان المالُ في باب المُدافعة والتقرُّب والفتنة أبلغَ من الأولاد؛ قُدِّم في هذه الآية، وفي قوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧]، وفي قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وفي قوله: ﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وفي قوله: ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨] بخلاف قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤] إلى آخرها، فإنه ذَكَرَ هُنا حُبَّ الشهوات، فقدَّم فيه النساء والبنين على ذكر الأموال. وسيأتي الكلامُ على ذلك إن شاء الله.

وقرأ أبو عبد الرحمن: «لن يُغنيَ» بالياء على تذكير العلامة.

---

(١) في (د١) والمطبوع: بأنه الوفي بالوعد.
(٢) سلف الخبر أوائل تفسير السورة.
(٣) تفسير الرازي ٧/ ١٩٧-١٩٨.
(٤) الكشاف ١/ ٤١٤.
(٥) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٤٠٥.

وقرأ عليّ: «لن تغنيْ»[١] بسكون الياء.

وقرأ الحسن: «لن يُغنيْ» بالياء أوّلاً، وبالياء الساكنة آخِراً[٢]، وذلك لاستثقال الحركة في حرف اللِّين، وإجراء المنصوب مُجرى المرفوع. وبعضُ النحويين يخصُّ هذا بالضرورة، وينبغي أن لا يُخَصَّ بها، إذ كَثُرَ ذلك في كلامهم.

و«من» لابتداء الغاية عند المبرِّد، وبمعنى «عند» قاله أبو عُبيدة[٣]، وجعله كقوله تعالى: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ قال: معناه: عند جوعٍ وعند خوف. وكون «من» بمعنى «عند» ضعيف جدًّا.

وقال الزمخشري[٤]: قوله: «من الله» مثلُه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦] والمعنى: لن تُغنيَ عنهم من رحمة الله، أو: من طاعة الله شيئاً، أي: بَدَلَ رحمتِه وطاعتِه وبَدَلَ الحقّ، ومنه: «ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجَدّ»[٥] أي: لا ينفعُه جَدُّه وحَظُّه من الدنيا بَدَلك، أي: بَدَلَ طاعتِك وعبادتِك وما عندَك. وفي معناه قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧]. انتهى كلامه.

وإثبات البَدَليَّة لـ «مِنْ» فيه خلافٌ، أصحابُنا يُنكرونه، وغيرُهم قد أثبته وزعمَ أنها تأتي بمعنى البَدَل، واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨]، ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً﴾ [الزخرف: ٦٠] أي: بَدَلَ الآخرة، وبَدَلَكُم. وقال الشاعر:

أَخَذُوا المخاضَ مِنَ الفَصِيلِ غُلُبَّةً ... ظُلْماً ويُكتَبُ للأميرِ إفالا[٦]

---

(١) في النسخ الخطية: يغني. (بالياء). وهو خطأ. والمثبت من القراءات الشاذة ص١٩، والكشاف ١/ ٤١٤.

(٢) تفسير القرطبي ٥/ ٣٣. ووقع في أصوله الخطية (كما في حواشيه): تغني. والله أعلم.

(٣) مجاز القرآن ١/ ٨٧.

(٤) الكشاف ١/ ٤١٤.

(٥) هو قطعة من حديث المغيرة بن شعبة في الذكر بعد الصلاة؛ أخرجه أحمد (١٨١٣٩)، والبخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣). وأخرجه أيضاً أحمد (١١٨٢٧) و(١١٨٢٨)، ومسلم (٤٧٧) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع.

(٦) البيت للراعي النُّميري، وهو في ديوانه ص٢٤٢، وفيه: أفيلا، بدل: إفالا. والإفال جمع

أي: بَدَلَ الفصيل.

و«شيئاً» ينتصبُ على أنه مصدر، كما تقول: ضربتُ شيئاً من الضرب.

ويحتمل أن ينتصب على المفعول به؛ لأنَّ معنى «لن تُغنيَ»: لن تدفع، أو تمنع، فعلى هذا يجوزُ أن يكون «مِنْ» في موضع الحال من «شيئاً» لأنه لو تأخَّر لكان في موضع النعت لها، فلمَّا تقدَّم انتصبَ على الحال، وتكون «مِن» إذ ذاك للتبعيض[١].

فتَلخَّص في «مِن» أربعةُ أقوال: ابتداء الغاية وهو قولُ المبرِّد والكلبيّ، وكونُها بمعنى «عندَ» وهو قول أبي عُبيدة، والبَدَليَّة وهو قول الزمخشريّ، والتبعيض وهو الذي قرَّرناه.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ لمَّا قدَّم أنَّ الذين كفروا لن تغنيَ عنهم كثرةُ أموالهم ولا تناصُرُ أولادِهم؛ أخبرَ بمآلهم، وأنَّ غايةَ مَنْ كَفَرَ ومنتهى مَنْ كذَّبَ بآيات الله النارُ، فاحتملَت هذه الجملةُ أن تكونَ معطوفةً على خبر «إنَّ»، واحتملَ أن تكون مستأنفةً عُطفت على الجملة الأولى.

وأشار بـ «أولئك» إلى بُعدهم، وأتَى بلفظ «هم» المُشعرة بالاختصاص، وجَعَلَهم نفسَ الوَقود مبالغةً في الاحتراق، كأنَّ النارَ ليس لها ما يُضرِمُها إلا هُم.

وتقدَّم الكلامُ في الوَقود في قوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤].

وقرأ الحسنُ ومجاهدٌ وغيرُهما: «وُقُود» بضمّ الواو[٢]، وهو مصدر وَقَدَتِ النارُ تَقِدُ وُقُوداً، ويكون على حذف مضاف، أي: أهلُ وُقودِ النار، أو حَطَبُ وُقود، أو جَعَلَهم نَفسَ الوُقُود مبالغةً في الاحتراق[٣]، كما تقولُ: زيدٌ رِضاً. وقد قيل في

= أفيل، وهو الصغير من الإبل والغنم. والبيت في ذمّ عمّال الصدقات. قال ابن الشجري في أماليه ٢/ ٢٧٢: أراد: أخذوا النُّوقَ الحواملَ بدلاً من الفِصَال، ويكتبونها للأمير إفالاً.

(١) ذكر السمين أنه لا يجوز أن تكون «من» للتبعيض مع جعل قوله: «من الله» حالاً من «شيئاً». ينظر كلامُه بتمامه في الدّرّ المصون ٣/ ٢٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٥٨، والقراءات الشاذة ص١٩، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٥، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٤.

(٣) قوله: في الاحتراق، من (أ) و(ع).

المصدر أيضاً: وَقُود؛ بفتح الواو، وهو من المصادر التي جاءت على فَعُول، بفتح الواو، وتقدَّمَ ذكر ذلك.

و«هم» يحتمل أن يكون مبتدأً، ويحتمل أن يكون فَصْلاً.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ لمَّا ذكرَ أنَّ مَنْ كفرَ وكذَّبَ بالله مآلُهُ إلى النَّار، ولن يُغنيَ عنه مالُه ولا ولدُه، ذكرَ أنَّ شأنَ هؤلاء في تكذيبهم لرسول الله ﷺ وترتُّبِ العذابِ على كفرِهم كشأنِ مَنْ تقدَّمَ مِنْ كفَّار الأمم، أُخِذُوا بذنوبهم وعُذِّبُوا عليها.

ونبَّه على آل فرعون؛ لأنَّ الكلام مع بني إسرائيل، وهم يعرفون ما جرى لهم حين كذَّبوا بموسى من إغراقهم، وتصييرهم آخِراً إلى النار، وظهورِ بني إسرائيل عليهم وتوريثهم أماكن ملكهم، ففي هذا كلِّه بِشارة لرسول الله ﷺ ولمن آمنَ به أنَّ الكفارَ مآلُهم في الدنيا إلى الاستئصال، وفي الآخرة إلى النار، كما جرى لآل فرعون؛ أُهلكوا في الدنيا وصاروا إلى النار.

واختلفوا في إعراب «كدَأب»، فقيل: هو خبر مبتدأ محذوف، فهو في موضع رفع، التقدير: دَأْبُهُمْ كَدَأْبِ. وبه بدأ الزمخشريُّ وابنُ عطية[(١)].

وقيل: هو في موضع نصب بـ «وَقُود»، أي: تُوقدُ النارُ بهم كما تُوقدُ بآل فرعون، كما تقول: إنك لتظلمُ الناسَ كَدأْبِ أبيك. تريد: كظُلم أبيك. قاله الزمخشريّ[(٢)].

وقيل: بفعلٍ مقدَّر من لفظ الوَقود، ويكون التشبيهُ في نفس الاحتراق. قاله ابنُ عطيَّة[(٣)].

وقيل: من معناه: أي: عُذِّبُوا تعذيباً كدأبِ آلِ فرعون. ويدلُّ عليه: «وَقودُ النار».

---

(١) الكشاف ١/ ٤١٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٥.

(٢) الكشاف ١/ ٤١٤. وتعقَّبه السمين في الدرّ المصون ٣/ ٣٨ فقال: وفيه نظر، لأن الوَقود على القراءة المشهورة الأظهر فيه أنه اسم لما يُوقد به، وإذا كان اسماً فلا عمل له، فإن قيل: إنه مصدر أو على قراءة الحسن (يعني بضم الواو) صحَّ.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٥. والتقدير: يُوقَدُ بهم كعادة آل فرعون. قاله السمين في الدّرّ المصون ٣/ ٣٨.

وقيل: بـ «لن تُغنيَ»، أي: لن تُغنيَ عنهم مثلَ ما لم تُغْنِ عن أولئك. قاله الزمخشري(١). وهو ضعيف للفصل بين العامل والمعمول بالجملة التي هي: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ على أيِّ التقديرَيْن اللَّذَيْن قدَّرْنَاهما فيها من أن تكون معطوفة على خبر «إنّ» أو على الجملة المؤكَّدة بإنَّ، فإنْ قدَّرْتَها اعتراضية ـ وهو بعيد ـ جاز ما قاله الزمخشريّ.

وقيل: بفعل منصوب من معنى «لن تغنيَ» أي: بطلَ انتفاعُهم بالأموال والأولاد بُطلاناً كعادة آلِ فرعون.

وقيل: هو نعتٌ لمصدر محذوف تقديره: كفراً كدأب، والعاملُ فيه: «كفروا». قاله الفرَّاء(٢).

وهو خطأ؛ لأنَّه إذا كان معمولاً للصِّلة كان من الصِّلة، ولا يجوز أن يُخبَرَ عن الموصول حتى يستوفيَ صلتَه ومتعلِّقاتِها، وهنا قد أخبر، فلا يجوزُ أن يكون معمولاً لما في الصِّلة(٣).

وقيل: بفعل محذوف يدلُّ عليه: «كفروا» التقدير: كفروا كُفْراً كعادة آل فرعون.

وقيل: العامل في الكاف: «كذَّبوا بآياتنا»، والضمير في «كذَّبوا» على هذا لكفَّار مكَّة وغيرِهم من معاصري رسول الله ﷺ، أي: كذَّبوا تكذيباً كعادة آلِ فرعون.

وقيل: يتعلَّقُ بقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أخذَهم أخذاً كما أخذَ آلَ فرعون. وهذا ضعيف؛ لأنَّ ما بعد الفاء العاطفة لا يعملُ فيما قبلَها.

وحكى بعضُ أصحابنا عن الكوفيِّين أنهم أجازُوا: زيداً قمتُ فضربتُ. فعلى هذا يجوزُ هذا القول.

فهذه عشرة أقوال في العامل في الكاف.

---

(١) الكشاف ١/ ٤١٤.

(٢) معاني القرآن ١/ ١٩١.

(٣) هذا كلام الزجاج في معاني القرآن ١/ ٣٨٠، ردَّ به قول الفراء. ونقله أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٥.

قال ابنُ عطيّة: والدَّأْبُ بسكون الهمزة وفتحها مصدر دَأَبَ يَدْأَبُ: إذا لازَمَ فعل شيء ودامَ عليه مجتهداً فيه، ويقال للعادة: دَأْبٌ.

وقال أبو حاتم: وسمعتُ يعقوبَ[(١)] يذكرُ: كَدَأَب؛ بفتح الهمزة. وقال لي وأنا غُلَيِّمٌ: على أيّ شيءٍ يجوز: «كدَأَب»، فقلت له: أظنُّه من دَئِبَ يَدْأَب دَأَباً. فقَبِلَ ذلك منّي وتعجَّبَ من جَودة تقديري على صِغري، ولا أدري أيقالُ أمْ لا.

قال النحّاس[(٢)]: لا يُقال: دَئِبَ البتَّة، وإنما يُقال: دَأَبَ يَدْأَبُ دُؤُوباً [ودَأْباً] هكذا حكى النحويُّون؛ منهم الفرَّاء؛ حكاه في كتاب «المصادر».

وآلُ فرعون: أشياعُه وأتباعُه.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾: هم كفَّار الأمم السالفة، كقوم نوح وقوم هود وقوم شعيب وغيرهم، فالضمير على هذا عائدٌ على آل فرعون.

ويحتمل أن يعود الضمير على «الذين كفروا» وهم معاصِرُو[(٣)] رسولِ الله ﷺ، وموضع «والذين» جرٌّ عطفاً على «آل فرعون».

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هذه الجملة تفسير للدَّأْب، كأنه قيل: ما فعلوا وما فُعل بهم؟ فقيل: كذَّبوا بآياتنا، فهي كأنَّها جوابُ سؤالٍ مقدَّر. وجَوَّزُوا أن تكون في موضع الحال، أي: مكذِّبين، وجَوَّزُوا أن يكون الكلامُ تمَّ عند قوله: «كدَأْب آلِ فرعون»، ثمَّ ابتدأ فقال: «والذين من قبلهم كذَّبوا». فيكون «الذين» مبتدأً، و«كذبوا» خبرُه.

وفي قوله: «بآياتنا» التفاتٌ، إذْ قبلَه: «من الله» فهو اسم غَيبة، فانتقلَ منه إلى التكلُّم.

والآيات يحتمل أن تكون المتلوَّةَ في كتب الله، ويحتمل أن تكونَ العلاماتِ الدالَّةَ على توحيد الله وصدقِ أنبيائه.

---

(١) أبو حاتم هو سهل بن محمد السِّجستاني المقرئ النحوي اللغوي، توفي سنة (٢٥٥). ويعقوب: هو ابن السكِّيت، النحوي المؤدِّب، صاحب إصلاح المنطق توفي سنة (٢٤٤). ينظر سير أعلام النبلاء ١٢/ ١٦ و٢٦٨.

(٢) في إعراب القرآن ١/ ٣٥٩، والخبر السابق فيه، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) المثبت من (د١). وفي النسخ الأخرى: معاصرون.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ رجع من التكلّم إلى الغَيْبة، ومعنى الأخذِ بالذنب العقابُ عليه، والباء في «بذنوبهم» للسبب.

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تقدَّم تفسيرُ مثل هذا، وفيه إشارةٌ إلى سطوة الله على مَنْ كفرَ بآياته وكذَّبَ بها.

قيل: وتضمَّنت هذه الآياتُ من ضُروب الفصاحة حُسْنَ الإبهام، وهو فيما افتتحت به ليُنبِّهَ الفِكْر إلى النظر فيما بعدَه من الكلام.

ومجازَ التشبيه في مواضع، منها: «نزَّلَ عليك الكتاب» وحقيقةُ النزولِ طَرْحُ جِرْمٍ من عُلْوٍ إلى سُفْل[١]، والقرآنُ مُثبَت في اللَّوح المحفوظ، فلمَّا أُثبت في القلب صار بمنزلة جِرْمٍ أُلقيَ من عُلْوٍ إلى سُفْل، فشُبِّه به، وأطلقَ عليه لفظ الإنزال.

وفي قوله: «لما بين يَدَيْه» القرآنُ مصدِّقٌ لما تقدَّمَه من الكتب، شُبِّه بالإنسان الذي بين يديه شيء ينالُه شيئاً فشيئاً.

وفي قوله: «وأنزلَ التوراةَ والإنجيلَ من قبلُ هدًى للناس وأنزلَ الفرقان» أقامَ المصدرَ فيه مقامَ اسم الفاعل، فجعلَ التوراةَ كالرَّجل الذي يُوَرِّي عنك أمراً - أي: يستُرُه - لِما فيها من المعاني الغامضة، والإنجيلُ شُبِّه لِما فيه من اتِّساع الترغيب والترهيب والمواعظ والخضوع بالعين النَّجلاء، وجعلَ ذلك هدًى لما فيه[٢] من الإرشاد، كالطريق الذي يهديك إلى المكان الذي ترومُه، وشُبِّه الفُرقان بالجِرْم الفارقِ بين جِرْمَيْن.

وفي قوله: «عذابٌ شديد» شُبِّه ما يحصلُ للنفس من ضيق العذاب وألمِه بالمشدود المُوثَق المُضَيَّق عليه.

وفي قوله: «يصوِّرُكم» شُبِّه أمرُه بقوله: «كُنْ»، أو تعلُّق إرادتِه بكونه جاء على غاية من الإحكام والصُّنْع بمصوِّرٍ يُمثِّلُ شيئاً، فيضمُّ جِرْماً إلى جِرْم ويصوِّرُ منه صورةً.

وفي قوله: «منه آياتٌ محكَمات» جعلَ ما اتَّضحَ من معاني كتابه وظهرَتْ آثارُ

(١) في (أ) و(ع) والمطبوع: أسفل. وكذا في الموضع التالي.
(٢) في (د١): فيها.

الحكمةِ عليه مُحْكَماً، وشُبّه المُحكَمُ لما فيه من أصول المعاني التي تتفرَّع منها فروعٌ متعدِّدة ترجعُ إليها بالأمّ التي يرجعُ إليها ما تفرَّعَ من نَسْلها ويؤمُّونها.

وشبّه ما خفيت معانيه لاختلاف أنحائه كالفواتح والألفاظِ المحتملة معانيَ شيء والآياتِ الدالةِ على أمر المَعَاد والحساب بالشيء المشتبِه المُلبِس أمرُه الذي وَجَمَ العقلُ عن تكييفه.

وفي قوله: «في قلوبهم زَيْغ» شبّه القلب المائل عن القصد بالشيء الزائغ عن مكانه.

وفي قوله: «وهَبْ لنا من لدنك رحمة» شُبِّه المعقول من الرحمة عن إرادة الخير بالمحسوس من الأجرام من العِوَض والمعوَّض في الهبة.

وفي قوله: «وَقود النار» شبَّههم بالحطب الذي لا يُنتفع به إلا في الوُقود، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، والحَصَب: الحطب بلغة الحبشة.

وفي قوله: «فأخذهم الله بذنوبهم» شبَّه إحاطة عذابِه بهم بالمأخوذ باليد المتصرَّف فيه بحكم إرادة الآخِذ.

وقيل: هذه كلُّها استعارات، ولا تشبيهَ فيها إلا «كدأب آل فرعون» فإنّه صُرِّح فيه بذكر أداة التشبيه.

والاختصاص في مواضع، منها في قوله: «نزَّل عليك الكتاب» إلى «وأنزل الفرقان» على مَنْ فسّره بالزَّبُور، اختصَّ الأربعة دون بقية ما أنزل لأنَّ أصحاب الكتب إذ ذاك المؤمنون واليهود والنصارى.

وفي قوله: «لا يَخْفَى عليه شيء في الأرض ولا في السماء» خصَّهما لأنَّهما أكبرُ مخلوقاته الظاهرةِ لنا، ولأنَّهما محلَّان للعقلاء، ولأنَّ منهما أكثرَ المنافع المختصَّة بعباده.

وفي قوله: «والراسخون» اختصَّهم بخصوصيَّة الرُّسوخ في العلم بهم.

وفي قوله: «أولو الألباب» لأنَّ العقلاء لهم خصوصيَّة التمييز والنظر والاعتبار.

وفي قوله: «لا تُزِغْ قلوبَنا» اختصَّ القلوب لأنَّ بها صلاحَ الجسد وفسادَه، وليس كذلك بقيةُ الأعضاء، ولأنَّها محلُّ الإيمان ومحلُّ العقل على قول من يقول ذلك.

وفي قوله: «إنك جامع الناس ليوم» وهو جامعُهم في الدنيا على وجه الأرض أحياءً، وفي بطنها أمواتاً؛ لأنَّ في ذلك اليوم الجمعَ الأكبرَ، وهو الحشرُ[(١)]، ولا يكون إلا في ذلك اليوم، ولا جامعَ إلا هو تعالى.

وفي قوله: إن الذين كفروا لن تغنيَ عنهم أموالهم ولا أولادهم اختصَّ الكفَّارَ؛ لأنَّ المؤمنين تُغني عنهم أموالُهم التي ينفقونها في وجوه البِرّ، فهم يَجْنُون ثمرتَها في الآخرة، وتنفعُهم أولادُهم في الآخرة؛ يسقونهم، ويكونون لهم حِجاباً من النار، ويُشَفَّعُون فيهم إذا ماتُوا صغاراً، وينفعونهم بالدعاء الصالح كباراً، وكلُّ هذا وردَ به الحديث الصحيح[(٢)].

وفي قوله: «كدأْبِ آلِ فرعون» خصَّهم بالذِّكر وقدَّمَهم لأنهم أكثرُ الأمم طغياناً وأعظمُهم تعنُّتاً على أنبيائهم، فكانوا أشدَّ الناس عذاباً.

والحذف في مواضع: في قوله: «لما بين يدَيْه» أي: من الكُتُب. «وأنزل التوراة والإنجيل» أي: وأنزل الإنجيل؛ لأنَّ الإنزالَيْن في زمانَيْن. «هدًى للناس» أي: الذين أرادَ هُدَاهم. «عذابٌ شديد» أي: يومَ القيامة. «ذُو انتقام» أي: ممَّن أرادَ عقوبتَه. «في الأرض ولا في السماء» أي: ولا في غيرِهما. «العزيز» أي: في مُلْكه. «الحكيم» أي: في صُنْعِه. «وأُخَرُ» أي: آياتٌ أُخر. «زَيْغ» أي: عن الحقّ. «ابتغاء الفتنة» أي: لكم. «وابتغاءَ تأويله» أي: على غير الوجه المُراد منه. «وما يعلم تأويلَه» أي: على الحقيقة المطلوبة. «ربَّنا» أي: يا ربَّنا «لا تُزِغ قلوبَنا»

---

(١) المعنى أنه جامعُهم للحساب. ولا يرد على الآية معنى أنه جامعهم في الدنيا أحياءً، وفي بطنها أمواتاً.

(٢) ورد أحاديث في فضل من مات له ولد فاحتسبه. ينظر صحيح البخاري (١٢٤٨)... (١٢٥١)، وصحيح مسلم (٢٦٣٢)... (٢٦٣٤). وفي الحديث الصحيح: «إذا ماتَ الإنسان انقطعَ عملُه إلا من ثلاث...» وفيه: «أو ولدٍ صالحٍ يدعو له» أخرجه مسلم (١٦٣١) عن أبي هريرة.

أي: عن الحقّ «بعدَ إذْ هديتَنا» أي: إليه. «كذَّبوا بآياتنا» أي: المنزَّلة على الرُّسل، أو المنصوبات عَلَماً على التوحيد. «بذنوبهم» أي: السالفة.

والتكرار: «نَزَّلَ عليك الكتاب» «وأنزلَ التوراة» «وأنزل الفرقان» كُرِّر لاختلاف الإنزال وكيفيته وزمانِه. «بآيات الله» و«اللهُ» كَرَّرَ اسمه تعالى تفخيماً؛ لأنَّ في ذكر المظهر من التفخيم ما ليس في المضمر.

«لا إله إلا هو الحيُّ القيُّوم» «لا إله إلا هو العزيز» كرَّر الجملة تنبيهاً على استقرار ذلك في النفوس، وردّاً على من زَعَمَ أنَّ معه إلهاً غيرَه.

«ابتغاء تأويلِه وما يعلم تأويلَه» كرّر لاختلاف التأويلين، أو للتفخيم[1] لشأن التأويل، «رَبَّنا لا تُزِغْ» «رَبَّنا إنَّك» كرّر الدعاء تنبيهاً على ملازمته، وتحذيراً من الغفلة عنه لما فيه من إظهار الافتقار.

والتقديم والتأخير، وذلك في ذكر إنزال الكتب؛ لم يجئ الإخبار عن ذلك على حسب الزمان، إذ التوراة أوّل، ثم الزَّبُور، ثمَّ الإنجيل، ثم القرآن.

وقدّم القرآنُ لشرفِه وعِظم ثوابِه، ونَسْخِه لِما تقدَّم وبقائه، واستمرار حُكمه إلى آخر الدُّنيا، وثنَّى بالتوراة لِما فيها من الأحكام الكثيرة والقَصَص وخَفايا الاستنباط.

ورَوَى المفضَّل أنَّ التوراة حين نزلت كانت سبعين وَسْقاً[2].

ثم ثلَّث بالإنجيل لأنه كتابٌ فيه من المواعظ والحِكَم ما لا يُحصى، ثمَّ تلاه بالزَّبور لأنَّ فيه مواعظَ وحِكَماً لم تبلغْ مبلغَ الإنجيل. وهذا إذا قلنا إن الفرقان هو الزَّبور.

وفي قوله: «في الأرض ولا في السماء» قَدَّمَ الأرضَ على السماء، وإن كانت السماء أكثرَ في العوالم، وأكبرَ في الأجرام، وأكبرَ في الدلائل والآيات، وأجزلَ

---

(١) في (أ) و(ت): لاختلاف التأويل والتفخيم. وفي (ب) و(ع): لاختلاف التأويل أو التفخيم.

(٢) أخرج الطبري في تفسيره ١٠/ ٤٥٥ عن الربيع بن أنس قال: أُنزلت التوراة وهي سبعون وِقْر بعير، يُقرأ منها الجزء في سنة، لم يقرأها إلا أربعة نفر؛ موسى وعيسى وعُزير ويوشع.

في الفضائل، لطهارة سُكّانها؛ بخلاف سكّان الأرض، ليُعْلِمَهم اطّلاعه على خفايا أمورِهم، فاهتمَّ بتقديم محلِّهم عسى أن يزدجروا عن قبيح أفعالهم؛ لأنه إذا نبَّه على أنَّ الله لا يخفى عليه شيء من أمره استحيا منه.

والالتفات «ربَّنا إنك جامع» ثم قال: «إن الله»، وفي قوله: «كذَّبوا بآياتنا» ثم قال: «والله شديد العقاب».

والتأكيد بقوله: «وأولئك هم وَقود النار»، فأكَّد بلفظة «هم»، وأكَّد بقوله: «هو الذي يُصَوِّرُكم» قولَه: «لا إله إلا الله»، وأكَّدَ بقوله: «هو الذي أنزلَ عليك الكتاب» قولَه: «نَزَّلَ عليك الكتاب».

والتوسُّع بإقامة المصدر مقام اسم الفاعل في قوله: «هدًى» و«الفرقان» أي: هاديًا والفارق.

وبإقامة الحرف مقام الظرف في قوله: «من الله» أي: عندَ الله على قول من أوَّل «مِنْ» بمعنى «عندَ».

والتجنيس المغاير في قوله: «وهَبْ» و«الوهَّاب».

❁ ❁ ❁

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾.

المفردات
العِبْرة: الاتِّعاظ، يقال منه: اعتبرَ، وهو الاستدلال بشيء على شيء يُشْبِهُهُ، واشتقاقُها من العُبور، وهو مجاوزةُ الشيء إلى الشيء، ومنه عُبْرُ النَّهر، وهو شَطُّهُ، والمِعْبَرُ: السفينةُ، والعِبارةُ يُعبَّرُ بها إلى المخاطَب بالمعاني، وعَبَرْتَ الرُّؤيا؛ مخفَّفًا ومثقَّلًا: نقلتَ ما عندكَ من علمها إلى الرائي أو غيره ممَّن يجهل،

وكأنَّ الاعتبارَ انتقالٌ عن منزلة الجهل إلى منزلة العلم، ومنه العَبْرَةُ، وهي الدَّمع؛ لأنَّها تُجاوزُ العين.

الشهوة: ما تدعُو النفسُ إليه، والفعلُ منه: اشتهى، ويجمع بالألف والتاء، فيقال: شَهَوَات.

ووجدتُ أنا في شعر العرب جَمْعَها على شُهًى، نحو: نَزْوَة ونُزًى، وكَوَّة وكُوًى على قول من زعم أن كُوًى جمع كَوَّة بفتح الكاف، وهذا مع قَرْيَة وقُرًى. ذكرها النحويُّون ممَّا جاء على وزن فَعْلَة معتلَّ اللام وجُمع على فُعَل، واستدركتُ أنا شُهًى.

وقالت امرأةٌ من بني نصر بن معاوية:

فلولا الشُّهَى واللهِ كنتُ جديرةً   بأنْ أتركَ اللَّذَّاتِ في كلِّ مَشْهَدِ[1]

القِنْطَارُ فِنْعال، نُونُه زائدة. قاله ابنُ دريد[2]، فيكون وزنُه فِنْعالاً، من: قَطَرَ يَقْطُر. وقيل: أصل، ووزنُه فِعْلال[3].

وفيه خلاف، أهو واقع على عدد مخصوص، أم هو وزن لا يُحَدُّ ولا يُحْصَر؟

والقائلون بأنه عددٌ مخصوص اختلفوا في ذلك العدد، ويأتي ذلك في التفسير إن شاء الله تعالى.

ويقال منه: قَنْطَر الرجل: إذا كان عنده قناطير، أو قنطارٌ من المال.

وقال الزَّجَّاج: هو مأخوذٌ من: قَنْطَرْتُ الشيء: عَقَدْتُه وأحكمتُه، ومنه سُمِّيت القَنْطَرَة؛ لإحكامها[4].

وقيل: قَنْطَرْتُه: عَبَّيْتُه شيئاً على شيء، ومنه سمِّي القَنْطَرَة. فشُبِّه المالُ الكثير الذي يُعَبَّى بعضُه على بعض بالقَنْطَرَة.

---

(١) ذكره المصنف أيضاً في شرح التسهيل فيما نقله عنه الزَّبِيدي في تاج العروس (شهى).
(٢) نقله أيضاً عن ابن دريد: الزَّبِيديُّ في تاج العروس (قنطر).
(٣) قال السمين: هو قول الجماعة. ينظر الدّرّ المصون ٣/ ٥٨.
(٤) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٨٣. ونقله القرطبي في تفسيره ٥/ ٤٦.

الذهب معروفٌ، وهو مؤنَّث يُجمع على ذِهاب وذُهوب[١]، وقيل: الذَّهب جمع ذَهَبَة، والفِضَّة معروفة، وجمعُها فِضَض، فالذَّهَب مشتقٌّ من الذَّهاب، والفضَّة من: انفضَّ الشيء: تفرَّق، ومنه فَضَضْتُ القومَ[٢].

الخيل جمعٌ لا واحدَ له من لفظه، بل واحدُه فرس. وقيل: واحدُه خائل، كراكب ورَكْب، قاله أبو عُبيدة[٣]، سُمِّيَتْ بذلك لاختيالها في مَشْيِها.

وقيل: اشتقاقُه من التَّخَيُّل؛ لأنه يَتَخَيَّل في صورة مَنْ هو أعظمُ منه. وقيل: الاختيال مأخوذ من التخيُّل.

النَّعَم: الإبل فقط. قال الفرَّاء: وهو مذكَّر ولا يؤنَّث، يقولون: هذا نَعَم وارد[٤].

وقال الهَرَويّ: النَّعَم يُذكَّر ويُؤنَّث، وإذا جُمع انطلق على الإبل والبقر والغنم[٥].

وقال ابن قُتيبة[٦]: الأنعام: الإبل والبقر والغنم، واحدُها نَعَمٌ، وهو جمعٌ لا واحدَ له من لفظه، وسمِّيت بذلك لنُعومة مَسِّها، وهو لِينُها، ومنه الناعمُ والنَّعَامة.

والنُّعامَى[٧]: الجنوب؛ سُمِّيتْ بذلك لِلِين هُبُوبِها.

المآبُ: مَفْعَل، من: آبَ يؤوبُ إياباً، أي: رَجَعَ، يكون للمصدر والمكان والزمان.

* * *

(١) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٠. وقال الفرَّاء في المذكر والمؤنَّث ص١٩: الذهب أنثى... وربَّما ذُكِّر. وجاء في المعاجم أن جمع الذهب: أذهاب وذُهوب وذُهبان.

(٢) تفسير القرطبي ٥/ ٤٩-٥٠.

(٣) نقله عنه النحاس في إعرابه ١/ ٣٦٠، والقرطبي في تفسيره ٥/ ٥٠.

(٤) المذكر والمؤنث للفراء ص٢٢، والصحاح (نعم)، وتفسير القرطبي ٥/ ٥٣.

(٥) ينظر تهذيب اللغة ٣/ ١٣، وتفسير القرطبي ٥/ ٥٣.

(٦) في تفسير غريب القرآن ص١٠٢.

(٧) بضم النون، كما في المعاجم.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ سببُ نزولها أنَّ يهودَ بني قينقاع قالوا بعد وقعة بدر: إنَّ قريشاً كانوا أغْماراً، ولو حارَبْتَنا لرأيتَ رِجالاً[١]. التفسير

وقيل: نزلت في قريش قبل بدر بسنتين[٢]، فحقَّقَ الله تعالى ذلك.

وقيل: لما غلبَ قريشاً ببدرٍ؛ قالت اليهود: هو النبيُّ المبعوث الذي في كتابنا؛ لا تُهزم له راية، فقالت لهم شياطينُهم: لا تعجلوا حتى نرى أمرَه في وقعة أخرى، فلما كانت أُحُد؛ كفروا جميعُهم وقالوا: ليس بالنبيّ المنصور[٣].

وقيل: في أبي سفيان وقومه؛ جمعُوا لرسولِ الله ﷺ بعد بدر، فنزلت.

ولمَّا أخبرَ تعالى قبلُ أنَّ الذين كفروا لن تُغنِيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم وأنهم وَقُودُ النار؛ ناسبَ ذلك الوعدَ الصادقَ إتْباعُه بهذا الوعدِ الصادق، وهو كالتوكيد لما قبلَه، فالغَلَبَةُ تحصُلُ بعدم انتفاعِهم بالأموال والأولاد، والحشرُ لجهنم مبدأُ كونهم يكونون لها وَقُوداً.

وقرأ حمزة والكسائي: «سيُغلبون ويُحشرون» بالياء على الغَيبة، وقرأ باقي السبعة بالتاء خطاباً[٤]، فتكون الجملة معمولاً للقول، ومن قرأ بالياء فالظاهر أنَّ الضمير للذين كفروا، وتكون الجملة إذ ذاك ليست محكيَّة بـ«قُلْ»، بل محكية بقول آخر، التقدير: قُل لهم قَوْلي: سيُغلبون، وإخباري أنه تقعُ عليهم الغَلَبةُ والهزيمة، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فبالتاء

(١) ينظر تفسير الطبري ٥/ ٢٣٩، وتفسير البغوي ١/ ٢٨٢، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٦، وتفسير الرازي ٧/ ٢٠١، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٧. وهذا القول مرويّ عن ابن عباس، وسيشير المصنف إليه عندما يذكر قراءة من قرأ: «ستغلبون» بالتاء.

(٢) في (أ) و(ب) و(ت): بسنين.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ١٩١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٦، وتفسير الرازي ٧/ ٢٠١. قال الفراء وابن عطية (والكلام له): أي قل لهؤلاء اليهود: سيُغلبون، يعني قريشاً. وهذا التأويل إنما يستقيم على قراءة: «سيُغلبون ويحشرون» بالياء من تحت. وسيذكره المصنف عن الفراء وثعلب (أحمد بن يحيى).

(٤) ينظر السبعة ص٢٠١، والتيسير ص٨٦.

أخبرَهم بمعنى ما أُخبر به من أنهم سيُغلبون، وبالياء أخبرَهم باللفظ الذي أُخبر به أنهم سيُغلبون[١].

وأجاز بعضهم ـ وهو الفرَّاء وأحمد بن يحيى، وأورده ابنُ عطيَّة احتمالاً ـ أن يعود الضمير في «سيغلبون» في قراءة الياء[٢] على قريش، أي: قُلْ لليهود: ستُغلب قريش[٣]. وفيه بُعد، والظاهر أنَّ الذين كفروا يعمُّ الفريقَيْنِ المشركين واليهود، وكلٌّ قد غُلب بالسَّيف والجِزية والذِّلَّة وظهورِ الدلائلِ والحُجج.

و«إلى»: معناها الغاية، وأنَّ جهنم منتهى حَشْرِهم، وأبعدَ مَنْ ذهبَ إلى أنَّ «إلى» في معنى «في»، فيكون المعنى: إنهم يُجمعون في جهنم.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢﴾ يحتمل أن يكون من جملة المَقُول، ويحتمل أن يكون استئنافَ كلام منه تعالى. قاله الراغب[٤]. والمخصوص بالذَّمِّ محذوف لدلالة ما قبلَه عليه، التقدير: وبئس المهادُ جهنمُ، وكثيراً ما يُحذف لفهم المعنى، وهذا ممَّا يُستدَلُّ به لمذهب سيبويه أنه مبتدأ، والجملة التي قبلَه في موضع الخبر، إذْ لو كان خبرَ مبتدأ محذوف، أو مبتدأً محذوفَ الخبر، للزمَ من ذلك حذفُ الجملة برأسها من غير أن يبقى ما يدلُّ عليها، وذلك لا يجوز؛ لأنَّ حذف المفرد أسهلُ من حذف الجملة.

وأمّا مَنْ جعلَ «المهاد» ما مَهَّدُوا لأنفسهم، أي: بئسما مَهَّدُوا لأنفسهم، وكان المعنى عندَه: وبئس فعلُهم الذي أدَّاهم إلى جهنم؛ ففيه بُعد، ويُرْوَى عن مجاهد[٥].

---

(١) بنحوه في الكشاف ١/ ٤١٥. وبعكسه في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٦. وينظر حاشية الشهاب الخفاجي ٣/ ٩ حول هذين القولين.

(٢) في المطبوع: التاء. وهو خطأ.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ١٩١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٦ ووقع فيه: قراءة التاء. وهو خطأ. وينظر الكلام قبل أربع حواش.

(٤) تفسيره ص٤٤٢ (جزء فيه تفسير آل عمران).

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٦.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ قال في «رِيّ الظمآن»(١): أجمعَ المفسِّرون على أنها وقعة بدر(٢)، والخطابُ للمؤمنين. قاله ابنُ مسعود والحسن، فعلى هذا معنى الآية تثبيتُ النفوس وتشجيعُها؛ لأنه لمَّا أُمِرَ أن يقول للكفار ما قال، أمكنَ أن يستبعدَ ذلك المنافقون وبعضُ ضَعَفَة المؤمنين، كما قال مَنْ قالَ يومَ الخندق: يَعِدُنا محمدٌ أموالَ كسرى وقيصر ونحن لا نأمنُ على النساء(٣) في المذهب، وكما قال عَدِيُّ بنُ حاتم حين أخبرَه النبيُّ ﷺ بالأَمَنَة التي تأتي: فقلتُ في نفسي: أين دُعَّارُ طَيِّئ الذين سَعَّرُوا البلاد. الحديث بكماله(٤).

وقيل: الخطابُ للكافرين، وهو ظاهر ولا سيما على قراءة من قرأ: «ستُغْلَبون» بالتاء، ويخرجُ ذلك من قول ابن عباس(٥)، وعلى هذا يكون ذلك تخويفاً لهم وإعلاماً بأنَّ الله سينصُرُ دينَه، وقد أراكم في ذلك مثالاً بما جرى لمشركي قريش من الخُذلان والقتل والأسر.

وقيل: الخطاب لليهود. قاله الفرَّاء وابنُ الأنباريّ وابنُ جَرير(٦)، وعلى هذا يكون ذلك تخويفاً لهم، كأنه قيل: لا تغترُّوا بدُرْبَتِكم في الحرب ومَنَعَةِ حصونِكم ومُحالفتِكم(٧) لمشركي قريش، فإنَّ الله غالبُكم، وقد علمتُم ما حلَّ بأهل بدر.

---

(١) هو تفسير كبير يتميز بارتباط الآيات بعضها ببعض. ومؤلِّفُه محمد بن عبد الله بن أبي الفضل، أبو عبد الله المُرْسيّ، أديب مفسّر محدِّث فقيه. توفي سنة (٦٥٥هـ). ينظر معجم الأدباء ١٨/ ٢٠٩-٢١٢، وبغية الوعاة ١/ ١٤٤-١٤٦، ونفح الطيب ٢/ ٢٤١-٢٤٢.

(٢) ونقل الإجماع على هذا أيضاً الرازي في تفسيره ٧/ ٢٠٢، وبنحوه قال القرطبي ٥/ ٣٩.

(٣) في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٦-٤٠٧: أنفسنا.

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٩٥) من حديث عديّ بن حاتم ﷺ.
وينظر المحرر الوجيز ١/ ٤٠٦-٤٠٧. دُعَّار: جمع داعر، وهو الشاطر الخبيث المفسد، والمراد قطَّاع الطرق. وسَعَّروا، أي: أوقدوا نار الفتنة. قاله ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٦١٣.

(٥) وهو أن يهود بني قينقاع قالوا بعد وقعة بدر: إن قريشاً كانوا أغماراً... الخ. وسلف في تفسير الآية قبلها، ولم ينسبه لابن عباس ثمة.

(٦) معاني القرآن للفراء ١/ ١٩٥، وتفسير الطبري ٥/ ٢٤١.

(٧) بالحاء المهملة. وتحرفت اللفظة في (أ) و(ب) و(د٢) و(ع) و(يه) إلى: مخالفتكم، وفي المطبوع إلى: مجالبتكم.

ولم تلحق التاءُ «كانَ» وإن كان قد أُسند إلى مؤنث ـ وهو الآية ـ لأجل أنه تأنيث مجازيّ، وازداد حُسْناً بالفصل، وإذا كان الفصل محسَّناً في المؤنَّث الحقيقيّ، فهو أولى في المؤنَّث المجازي.

ومن كلامهم: حضرَ القاضيَ امرأةٌ(١).

وقال الشاعر:

إن امْـرَأً غَـرَّهُ مـنـكـنَّ واحـدةٌ بَعْدِي وبَعْدَكِ في الدُّنيا لَمَغْرُورُ(٢)

وقيل: ذكَّر، لأنَّ معنى الآية البيانُ، فهو كما قال:

بَـرَهْـرَهَـةٌ رُؤْدَةٌ رَخْـصَـةٌ كخُرْعُوبةِ البَانَةِ المُنْفَطِرْ(٣)

ذهب إلى القضيب.

وفي قوله: «في فئتين» محذوف تقديره: في قصَّة فئتين. ومعنى «التقتا» أي: للحرب والقتال.

﴿فِئَةٌ تُقَتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ أي: فئة مؤمنةٌ تُقاتلُ في سبيل الله، وفئةٌ أخرى كافرةٌ تُقاتلُ في سبيل الشيطان، فحُذف من الأولى ما أُثبت مقابلُهُ في الثانية، ومن الثانية ما أُثبت نظيرُه في الأولى، فذُكر في الأولى لازمُ الإيمان، وهو القتالُ في سبيل الله، وذُكر في الثانية ملزومُ القتال في سبيل الشيطان، وهو الكفر.

والجمهور برفع «فئة» على القطع، التقدير: إحداهما، فيكون «فئة» على هذا خبرَ مبتدأ محذوف، أو التقدير: منهما، فيكون مبتدأ محذوفَ الخبر. وقيل: الرفع على البدل من الضمير في «الْتَقَتَا».

---

(١) ينظر الكتاب ٢/ ٣٨، والإنصاف ١/ ١٧٤.

(٢) ينظر الخصائص ٢/ ٤١٤، والإنصاف ١/ ١٧٤، واللسان ٥/ ١١ (غرر).

(٣) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٥٧، ومجالس ثعلب ص٤٢٢، والصحاح (بره)، وأمالي المرتضى ١/ ٧١. قال الأصمعي (في شرح الديوان): البَرَهْرَهَة: الرقيقة الجلد، والرُّؤْدَة: الرَّخْصَة الناعمة السريعة الشباب، والرَّخصة: الليِّنة الخُلُق، والخُرعُوبة: القضيب الغضُّ الطريّ، والبانَة: يريد شجر البان، والمُنفطر: المتشقِّق.

وقرأ مجاهد والحسن والزُّهريّ وحُميد: «فئةٍ» بالجرِّ على البدل التفصيلي[١]، وهو بدلُ كلّ من كلّ[٢]، كما قال الشاعر[٣]:

وكنتُ كَذِي رِجْلَيْنِ رِجْلٍ صحيحةٍ ورِجْلٍ[٤] رَمَى فيها الزَّمانُ فشَلَّتِ

ومنهم مَنْ رفع «كافرة» ومنهم من خَفَضَها على العطف، فعلى هذه القراءة تكون «فئة» الأولى بدلَ بعضٍ من كلّ، فيحتاجُ إلى تقدير ضمير[٥]، أي: فئةٍ منهما تقاتلُ في سبيل الله، وترتفع «أخرى» على وجهي القطع إمَّا على الابتداء، وإمَّا على الخبر.

وقرأ ابنُ السَّمَيْفَع وابنُ أبي عَبْلَة: «فئةً» بالنصب[٦]؛ قالوا: على المدح. وتمامُ هذا القول أنه انتصبَ الأوَّل على المدح، والثاني على الذَّمّ، كأنه قيل: أمدحُ فئةً تقاتلُ في سبيل الله، وأذُمُّ أخرى كافرةً.

وقال الزمخشريّ: النصب في «فئةً» على الاختصاص[٧]. وليس بجيّد؛ لأن المنصوب على الاختصاص لا يكون نكرةً ولا مبهماً.

وأجاز هو وغيرُه قبلَه ـ كالزَّجّاج[٨] ـ أن ينتصب على الحال من الضمير في «التقتا». وذكر «فئةً» على سبيل التوطئة.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٩، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٨.
(٢) كذا وقع في النسخ الخطية، وسيرد الكلام على الجادة، وهو أنه بدل بعض من كل، وكذا ذكره السمين الحلبي في الدّر المصون ٣/ ٤٥.
(٣) هو كُثَيِّر عزَّة، والبيت في ديوانه ص٧٨، وهو من شواهد سيبويه ١/ ٤٣٣، والشاهد (٣٧٣) في خزانة الأدب.
(٤) في (أ) و(ع): وأخرى.
(٥) أي: ضمير يعود على المبدَل منه. ينظر الدر المصون ٣/ ٤٥.
(٦) القراءات الشاذة ص١٩، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٧ (ووقع فيه تصحيف)، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٨، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٨.
(٧) الكشاف ١/ ٤١٥. قال السمين في الدر المصون ٣/ ٤٦: لا يعني الزمخشري الاختصاص المبوَّب له في النحو، نحو: «نحن معاشرَ الأنبياء لا نُورَث» إنما على النصب بإضمار فعل لائق.
(٨) معاني القرآن له ١/ ٢٨٢.

وقرأ الجمهور: «تُقاتل» بالتاء على تأنيث الفئة، وقرأ مجاهد ومقاتل: «يقاتل» بالياء، على التذكير(١).

قالوا: لأنَّ معنى الفئة القوم، فرُدَّ إليه وجَرى على لفظه.

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ قرأ نافع ويعقوب وسهل: «تَرَوْنَهُمْ» بالتاء على الخطاب، وقرأ باقي السبعة بالياء على الغَيْبَة(٢).

وقرأ ابنُ عبَّاس وطلحة: «تُرَوْنَهُمْ»، بضمّ التاء على الخطاب، وقرأ السُّلَميُّ بضمّ الياء على الغَيْبة(٣).

فأمَّا من قرأ بالتاء المفتوحة؛ فهو جارٍ على ما قبلَه من الخطاب، فيكون الضمير في «لكم» للمؤمنين، والضمير المرفوع في «تَرَوْنَهُم» للمؤمنين أيضاً، وضمير النصب في «تَرَوْنَهم» وضمير الجرّ في «مِثْلَيْهم» عائد على الكافرين، والتقدير: ترون أيُّها المؤمنون الكافرين مِثْلَيْ أنفسِهم في العدد، فيكون ذلك أبلغ في الآية أنَّهم رأوا الكفار في مِثْلَي عددِهم، ومع ذلك نصرَهم الله عليهم، وأوقعَ المسلمون بهم. وهذه حقيقةُ التأييد بالنصر، كقوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

واستُبعد هذا المعنى؛ لأنهم جعلوا هذه الآية وآيَةَ الأنفال قصةً واحدة، وهناك نَصَّ على أنه تعالى قلَّلَ المشركين في أعين المؤمنين، فلا يجامعُ هذا التكثيرُ في هذه الآية على هذا التأويل(٤).

ويحتمل على من قرأ بتاء الخطاب أن يكون الخطاب للمؤمنين، والضمير

---

(١) نسبها الثعلبي في تفسيره ٢/ ١٧ لمجاهد.

(٢) ينظر السبعة ص٢٠١، والتيسير ص٨٦، والنشر. وقرأ بالتاء على الخطاب أيضاً أبو جعفر من العشرة.

(٣) وكذا وقع في الدّرّ المصون ٣/ ٥٣، ونُسب عكسُ ذلك في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٦. والله أعلم.

(٤) أجاب السمين في الدّرّ ٣/ ٤٨ على ما استبعده المصنف بأن يكون ذلك باختلاف حالين، ففي وقتٍ أراهم إيَّاهم مثلي عددِهم ليمتحنَهم ويبتليهم، ثم قلَّلَهم في أعينهم ليُقدمُوا عليهم.

المنصوب في «ترونهم» للكافرين، والمجرور للمؤمنين[١]، والتقدير: ترون أيها المؤمنون الكافرين مثلَي المؤمنين.

واستُبعد هذا، إذْ كان التركيبُ يقتضي أن يكون: تَرْونَهم مثلَيْكُم. وأُجيب بأنه من الالتفات من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]. ويحتمل أن يعود الضمير في «مثليهم» على الفئة المقاتلة في سبيل الله[٢]، أي: تَرَوْنَ أيُّها المؤمنون الفئةَ الكافرة مثلَي الفئة المقاتلة في سبيل الله، وهم أنفسُهم، والمعنى: ترونَهُم مثلَيْكُم. وهذا تقليل، إذْ كانوا نَيِّفاً على ألف، والمسلمون في تقدير ثلث منهم، فأَرَى اللهُ المسلمين الكافرين في ضعفَي المسلمين على ما قرّر في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦] ليجترؤوا عليهم.

وإذا[٣] كان الضمير في «لكم» للكافرين، وفي «ترونهم» الخطاب لهم، والمنصوب والمجرور[٤] للمؤمنين، فالتقدير[٥]: تَرَوْن أيُّها الكافرون المؤمنين مِثْلَيْ أنفسِهم.

ويحتمل أن يكون الضمير المجرور عائداً على الفئة الكافرة[٦]، أي: مثلَي الفئة الكافرة، وهم أنفسُهم، فيكون الله تعالى قد أرى المشركين المؤمنين أضعافَ أنفسِ المؤمنين، أو أضعافَ الكافرين على قلّة المؤمنين؛ ليَهابُوهم ويَجْبُنُوا عنهم.

وكانت تلك الرؤية مَدَداً من الله للمؤمنين؛ كما أمدَّهم تعالى بالملائكة، فإنْ كانت هذه وآيةُ الأنفال في قصة واحدة؛ فالجمع بين هذا التكثيرِ وذاك التقليلِ باعتبار

---

(١) يعني في قوله: «مِثْلَيهِم».
(٢) هذه إجابة أخرى على الاحتمال قبله بعد الإجابة قبلها أنه من الالتفات. ينظر الدر المصون ٣/ ٤٩.
(٣) في المطبوع: وإذن. وهو خطأ.
(٤) يعني في قوله: ترونهم مثليهم.
(٥) في (ح) و(د١) و(د٢) و(يه): والتقدير: وأثبتُّ اللفظة على الجادَّة. وسقط من (أ) و(ب) و(ت) و(ع) حوالي ثلاثة أسطر في هذا الموضع.
(٦) يعني أن الضمائر في هذا الاحتمال مثل الذي قبله إلا في ضمير الجرّ في قوله: «مثليهم» فهو عائد على الفئة الكافرة. ينظر الدر المصون ٣/ ٥٠.

حالَيْن: قُلِّلُوا أوّلاً في أعين الكفَّار حتى يجترؤوا على ملاقاة المؤمنين، وكُثِّرُوا حالة الملاقاة حتى قَهَرُوا وغَلَبُوا؛ كقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩].

وأمَّا من قرأ بالياء المفتوحة؛ فالظاهرُ أنَّ الجملة تكون صفة لقوله: «وأخرى كافرة» وضميرُ الرفع عائدٌ عليها على المعنى، إذْ لو عادَ على اللفظ لكان: تراهم، وضمير النصب عائد على: «فئة تُقاتلُ في سبيل الله» وضمير الجرّ في «مثليهم» عائد على «فئة» أيضاً، وذلك على معنى الفئة، إذ لو عادَ على اللفظ لكان التركيب: تراها مثليها، أي: ترى الفئةُ الكافرةُ الفئةَ المؤمنةَ في مثلَيْ عددِ نفسِها أي: ستَّ مئة ونيِّفاً وعشرين، أو مثلَيْ أنفس الفئة الكافرة، أي: ألفين، أو قريباً من ألفين.

ويحتمل أن يكون ضميرُ الفاعل عائداً على الفئة المؤمنة على المعنى، والضمير المنصوب والمجرور عائداً على الفئة الكافرة على المعنى، أي: ترى الفئةُ المؤمنةُ الفئةَ الكافرةَ مثلَيْ نَفْسِها.

ويحتمل أن يعود الضمير المجرور على الفئة الكافرة، أي: مثلَيْ الفئة الكافرة، والجملة إذ ذاك صفة لقوله: «وأخرى كافرة» ففي الوجه الأوَّل الرابط الواو، وفي هذا الوجه الرابط ضميرُ النصب.

وإذا كان الضمير في «لكم» لليهود، فالآية ممَّا أمر الله نبيَّه ﷺ أن يقولَه لهم احتجاجاً عليهم، وتبييناً[1] لصورة الوعد السابق من أنَّ الكفار سيُغلبون؛ فمن قرأ بالتاء؛ كان معناه: لو حضرتُم، أو: إن كنتُم حضرتُم. وساغَ هذا الخطاب لوضوح الأمر في نفسه، ووقوع اليقين به لكلِّ إنسان في ذلك العصر.

ومن قرأ بالياء فضميرُ الفاعل يحتمل أن يكون للفئة المؤمنة، ويحتمل أن يكون للفئة الكافرة على ما تقرَّر قبل.

والرؤية في هاتين القراءتين بَصَرِيَّة تتعدَّى لواحد، وانتصبَ «مثْلَيْهم» على

(١) في مطبوع البحر: وتثبيتاً.

الحال. قاله أبو عليٍّ ومكّيّ والمهدويّ ويقوّي ذلك ظاهرُ قوله: «رَأْيَ العين»[١] وانتصابُه على هذا انتصاب المصدر المؤكَّد.

قال الزَّمخشريّ[٢]: رؤية ظاهرة مكشوفة لا لَبْسَ فيها، معايَنة كسائر المعايَنات.

وقيل: الرؤية هنا من رؤية القلب، فيتعدَّى لاثنين، والثاني هو: «مثلَيْهِم».

ورُدَّ هذا بوجهين: أحدُهما قولُه تعالى: ﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ والثاني: أنَّ رؤية القلب عِلْم، ومُحالٌ أن يُعلم الشيء شيئين.

وأجيبَ عن الأول بأنَّ انتصابه انتصاب المصدر التشبيهي، أي: رأياً مثلَ رَأْيِ العين، أي يُشبهُ رَأْيَ العين، وليس في التحقيق به.

وعن الثاني بأنّ معنى الرؤية هنا الاعتقاد، فلا يكون ذلك مُحالاً، وإذا كانوا قد أطلقوا العلم في اللغة على الاعتقاد دون اليقين، فَلَأَنْ يُطلقوا الرَّأْيَ عليه أولى؛ قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠] أي: فإن اعتقدتُم إيمانهنّ.

ويدلُّ على هذا قراءة من قرأ: «تُرْوَنَهم» بضم التاء أو الياء، قالوا: فكان المعنى أنَّ اعتقاد التضعيف في جمع الكفار أو المؤمنين كان تخميناً وظنًّا؛ لا يقيناً، فلذلك تُرك في العبارة ضربٌ من الشَّكِّ، وذلك أنّ «أُرَى» بضمّ الهمزة تقولُها فيما عندك فيه نظر، وإذا كان كذلك؛ فكما استحالَ أن يُحمل الرَّأْيُ هنا على العلم يستحيلُ أن يُحمل على النظر بالعين، لأنه كما لا يقع العلمُ غيرَ مطابق للمعلوم؛ كذلك لا يقع النظر البَصَرِيّ مخالفاً للمنظور إليه، فالظاهر أنَّ ذلك إنما هو على سبيل التخمين والظنّ، وأنه لتمكّن ذلك في اعتقادهم شُبِّه برؤية العين[٣].

والرأي مصدر رَأَى يقال: رَأَى رَأْياً ورُؤية ورُؤيا، ويغلب «رؤيا» في المنام، و«رؤية» في البصريّة يقظة، ورأياً في الاعتقاد، يقال: هذا رَأْيُ فلان. قال:

---

(١) الحجة للقراء السبعة ٣/ ١٩، والكشف عن وجوه القراءات ١/ ٣٣٧، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٧، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٩.

(٢) الكشاف ١/ ٤١٥-٤١٦.

(٣) في (أ) و(ع): شبها برؤية البصر.

رأى الـنـاسَ إلا مَـنْ رَأى مِـثْـلَ رَأْيِـهِ خَـوَارِجَ تَـرَّاكِـيـنَ قَـصْـدَ الـمـخـارِجِ[١]

ومعنى «مِثْلَيْهِم»: قَدْرَهُم مرَّتين، وزعم الفرَّاء أنَّ معنى «يَرَوْنَهُم مِثْلَيْهِم»: ثلاثة أمثالِهم، كقول القائل: عندي ألفٌ وأنا محتاجٌ إلى مِثْلَيْها. وغَلَّطَه الزَّجَّاج وقال[٢]: إنما مِثْلُ الشيء مساوٍ له، ومثلاه مساويهِ مرَّتين.

وقال ابنُ كَيْسَان: أوقعَ الفرَّاءَ في هذا التأويل أنَّ المشركين كانوا ثلاثة أمثال المسلمين يومَ بدر، فتوهَّم أنه لا يجوزُ أن يكونوا يرونهم إلا على عِدَّتهم، وهذا بعيد، وليس المعنى عليه، وإنما المعنى: أراهم الله على غير عِدَّتهم لجهتين: إحداهما: أنه رأى الصَّلاحَ في ذلك، لأنَّ المؤمنين تقوى قلوبُهم بذلك. والأخرى أنه آيةٌ للنبيّ ﷺ. انتهى كلام ابن كَيْسَان[٣].

وتظاهرت الروايات أنَّ جمع الكفار ببدر كانوا نحو الألف، أو تسع مئة[٤]، والمسلمين ثلاث مئة وأربعةَ عشر، وقيل: وثلاثةَ عشر. لكن رجع بنو زُهْرة مع الأخنس بنِ شَرِيق، ورجع طالب بنُ أبي طالب وأتباعٌ وناسٌ كثير حتى بقيَ للقتال من يقرُبُ من الثلثين، فذكر الله تعالى المِثْلَين إذْ أمْرُهُما متيقَّن لم يدفعه أحد.

وحُكي عن ابن عبَّاس أنَّ المشركين كانوا في قتال بدر ستَّ مئة وستةً وعشرين. وقد ذهب الزَّجَّاج وغيرُه إلى أنَّهم كانوا نحو الألف[٥].

ورَوَى عليٌّ أنَّ النبيَّ ﷺ[٦] قال يومَ بدر: «القومُ ألف»[٧].

---

(١) البيت لسميرة بن الجَعْد (من الخوارج) ضمن أبيات كتبها للحجَّاج لمَّا تركَه ولحقَ بقَطَريّ بن فُجاءة. ينظر مروج الذهب ٥/ ٣١٣-٣١٧ وفيه: ملاعين، بدل: خوارج. وينظر الوافي بالوفيات/ (وفيه: سمرة)، وشعر الخوارج ص١٢٢.

(٢) معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٨١، وكلام الفراء في معانيه ١/ ١٩٤.

(٣) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٦٤-٣٦٥، وتفسير القرطبي ٥/ ٤١.

(٤) عبارة المحرر الوجيز ١/ ٤٠٧ (والكلام فيه): نحو الألف فوق التسع مئة.

(٥) المصدر السابق. وقولُ ابن عباس أخرجه الطبري في التفسير ٥/ ٢٤٧.

(٦) في (أ) و(د١) والمطبوع: ورُويَ عن النبي ﷺ.

(٧) أخرجه الطبري ٥/ ٢٤٨ مطولاً. والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٧.

وقال ابن مسعود[١]: نظرنا إلى المشركين، فرأيناهم يُضْعِفُون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يَزِيدُون علينا رجلاً واحداً.

وقال في رواية[٢]: لقد قُلِّلُوا في أعيننا حتى لقد قلتُ لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة. فأسَرْنا منهم رجلاً، فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً.

ونُقل أنَّ المشركين لما أُسِرُوا قالوا للمسلمين: كم كنتُم؟ قالوا: كنَّا ثلاثَ مئة وثلاثةَ عشرَ. قالوا: ما كنَّا نراكم إلا تُضْعِفُون علينا.

وتكثيرُ كلِّ طائفة في عين الأخرى وتقليلُها بالنسبة إلى وقتين جائز لا يمتنع.

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يُقوِّيه بعونه. وقيل: النصرُ الحُجَّة، ونسبةُ التأييد إليه يدلُّ على أنَّ المؤيَّد هم المؤمنون، ومفعول «يشاء» محذوف، أي: مَنْ يشاءُ نَصْرَهُ.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: النصر، وقيل: رؤية الجيش مثلَيْهم.

﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: اتِّعاظاً ودلالة.

﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ إنْ كانت الرؤية بَصَرِيَّة؛ فالمعنى: للذين أبصروا الجَمعَيْن، وإنْ كانت اعتقاديةً؛ فالمعنى: لذوي العقول السليمة القابلة للاعتبار.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ قرأ الجمهور: «زُيِّن» مبنيًّا للمفعول، والفاعل محذوف، فقيل: هو الله تعالى. قاله عمر، لأنه قال حين نزلت: الآنَ يا ربّ حين زَيَّنْتَها. فنزلت: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم﴾ الآية[٣].

ومعنى التزيين خلقُها وإنشاءُ الجِبلَّة على الميل إليها، وهذا كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ [الكهف: ٧] فزَيَّنَها تعالى للابتلاء، ويدلُّ عليه قراءة:

---

(١) في (د١) والمطبوع: ابن عباس. وهو خطأ. والقول في تفسير الطبري ٥/ ٢٤٥، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٧.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٢٥١.

(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٥٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٨، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٢-٤٣. وقد علَّق البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه (باب قول النبي ﷺ: «هذا المالُ خَضِرة حُلْوَة») عن عمر قوله: اللهمَّ إنا لا نستطيع إلا أن نَفْرَحَ بما زَيَّنْتَهُ لنا.

«زَيَّنَ للناس حُبَّ» مبنيًا للفاعل[١]، وهو الضمير العائد على الله في قوله: «والله يُؤيِّدُ».

وقيل: المُزيِّنُ الشيطانُ، وهو ظاهر قولِ الحسن؛ قال: مَنْ زَيَّنَها؟ ما أحدٌ أشدَّ ذمًّا لها من خالقها[٢].

ويصحُّ إسنادُ التزيين إلى الله تعالى بالإيجاد والتهيئة للانتفاع، ونسبتُه إلى الشيطان بالوسوسةِ وتحصيلِها من غير وجهِها.

وأشارت الآية إلى توبيخ معاصري رسولِ الله ﷺ من اليهود وغيرِهم المفتونين[٣] بالدُّنيا، وأضافَ المصدرَ إلى المفعول ـ وهو الكثير في القرآن ـ وعبَّر عن المُشتهيات بالشهوات مبالغةً؛ إذ جعلَها نفسَ الأعيان، ومنبِّهاً على تخسيسها؛ لأنَّ الشهوة مسترذلة عند العقلاء يُذَمُّ مُتَّبِعُها، ويُشهد له بالانتظام في البهائم، وناهيك بها[٤] ذمًّا قولُه ﷺ: «حُفَّتِ النارُ بالشهوات، وحُفَّتِ الجنةُ بالمكاره»[٥].

وأتى بذكر الشهوات أوَّلاً مجموعةً على سبيل الإجمال، ثم أخذَ في تفسيرها شهوةً شهوةً ليدلَّ على أنَّ المُزَيَّن ما هو إلا شهواتٌ دُنياوية لا غير، فيكونُ في ذلك تنفيرٌ عنها، وذمٌّ لطالبها وللذي يختارها على ما عند الله تعالى.

وبدأ في تفصيلها بالأهمّ فالأهمّ؛ بدأ بالنساء لأنهنَّ حبائلُ الشيطان، وأقربُ وأكثرُ امتزاجاً: «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرِّجال من النساء»[٦]. «ما رأيتُ من ناقصاتِ عقلٍ ودينٍ أذهبَ لِلُبِّ الرجل الحازم منكنَّ»[٧]، وفيهنَّ على ما يقال:

---

(١) القراءات الشاذة ص١٩، والمحتسب ١/ ١٥٥، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٨.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٨، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٢.

(٣) في (أ) و(ع): المفتتنين.

(٤) في (د١) والمطبوع: لها.

(٥) أخرجه أحمد (٧٥٣٠)، والبخاري (٦٤٨٧)، ومسلم (٢٨٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولفظ البخاري: «حُجِبَتْ». وأخرجه أيضاً أحمد (١٢٥٥٩)، ومسلم (٢٨٢٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٦) أخرجه أحمد (٢١٧٤٦)، والبخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٧) هو قطعة من حديث أبي سعيد الخدري أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٨٠)، وأخرجه مسلم أيضاً (٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فتنتان: قَطْعُ الرَّحِم، وجمعُ المال من الحلال والحرام، وفي البنين فتنةٌ واحدة، وهي جمع المال[١] وثنّى بالبنين؛ لأنَّهم من ثمرات النساء وفروع عنهنّ وشقائقُ النساء في الفِتن: «الولد مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَة»[٢]. قال:

وإنَّمـــا أولادُنـــا بـيـنَـنَـا أكـبـادُنـا تـمـشـي عـلـى الأرْضِ
لـو هَـبَّـتِ الـرِّيـحُ عـلـى بعضِـهِـمْ لامْـتَـنَـعَـتْ عـيـنـي من الـغَـمْـضِ[٣]

المرءُ مفتونٌ بابنِهِ وبشِعرِهِ[٤].

وقُدِّمُوا على الأموال، لأنَّ حُبَّ الإنسان ولدَه أكثرُ من حبِّه مالَه، وحيثُ ذُكِر الامتنانُ والإنعام أو الاستعانة والغَلَبة؛ قُدِّمت الأموال على الأولاد.

وظاهر قوله: «والبنين»: الذُّكْرَان، وقيل: يشمل الإناث وغُلِّب التذكير.

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ ثَلَّثَ بالأموال لما في المال من الفتنة، ولأنه يحصُلُ به غالبُ الشهوات، ولأنَّ الإنسان يرتكبُ الأخطارَ في تحصيله للولد.

واختُلف في القنطار؛ أهو عددٌ مخصوصٌ، أم ليس كذلك؟ فقيل: ألفٌ ومئتا أُوقِيَّة. وقيل: اثنا عشر ألف أوقيَّة. وقيل: ألف ومئتا دينار.

وكلُّ هذه رُويت عن النبيّ ﷺ؛ الأوَّل رواه أُبيٌّ، وقال به معاذٌ وابنُ عمر وعاصمُ بنُ أبي النَّجُود والحسن في رواية[٥]، والثاني: رواه أبو هريرة وقال به[٦]،

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٢٥٠-٢٥١، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٤.
(٢) أخرجه أحمد (١٧٥٦٢)، وابن ماجه (٣٦٦٦) من حديث يعلى العامري ﷺ.
(٣) البيتان لِحِطَّان بن المُعَلَّى. ينظر العقد الفريد ٢/ ٤٣٨، وبهجة المجالس ٢/ ٧٦٩-٧٧٠.
(٤) ضمَّنه أبو تمّام بقوله:

ويُـسـيءُ بـالإحـسـان ظَـنًّـا لا كَـمَـنْ هـو بـابْـنِـهِ وبِـشِـعْـرِهِ مَـفْـتُـونُ

وهو في «ديوانه» ٣/ ٣٣١. وينظر «الأغاني» ١٦/ ٣٨٤. ووقع في (أ): مقتول، بدل: مفتون.
(٥) أخرج الطبري في التفسير ٥/ ٢٥٤-٢٥٥ رواياتهم، وأوردها ابن كثير (عند تفسير هذه الآية) وقال في حديث أُبيّ: هذا حديث منكر (يعني رَفْعَه) والأقرب أن يكون موقوفاً على أُبيّ بن كعب كغيره من الصحابة. وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٨ أنه أصح الأقوال في مقدار القنطار. وسيذكره المصنف.
(٦) أخرج أحمد حديث أبي هريرة مرفوعاً (٨٧٥٨) وصححه ابن حبان (٢٥٧٣) قال الدارقطني =

والثالثُ: رواه الحسن، ورواه العَوْفيّ عن ابن عباس[(١)].

وقيل: اثنا عشر ألف درهم، أو ألف دينار ذهباً، ورُوِيَ عن ابن عبَّاس وعن الحسن والضحَّاك.

وقال ابن المسيِّب: ثمانون ألفاً.

وقال مجاهد - ورُوِيَ عن ابن عمر - سبعون ألف دينار.

وقال السُّدِّيّ[(٢)]: ثمانية آلاف مثقال، وهي مئة رطل.

وقال الكلبيّ: ألفُ مثقال ذهب أو فضة.

وقال قتادة: مئة رِطْل من الذهب، أو ثمانون ألف درهم من الفضة.

وقال سعيد بن جُبير وعكرمة[(٣)]: مئة ألف ومئة مَنّ ومئة رِطْل ومئة مثقال ومئة درهم، ولقد جاء الإسلامُ يومَ جاء وبمكة مئة رجل قد قنطروا.

وقيل: أربعون أوقية من ذهب أو فضة. ذكره مكّيّ، وقاله[(٤)] ابن سِيده في «المحكم». وقيل: ثمانية آلاف مثقال وهي مئة رِطْل[(٥)].

وقال ابن سِيده في «المحكم»: القنطار بلغة بَرْبَر ألفُ مثقال. ورُوي عن أنس عن النبي ﷺ في تفسير ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠] قال: «ألف دينار».

= في العلل ٨/ ١٦٩: الموقوف أشبه، وقال ابن كثير: الموقوف أصحّ. وقد ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٩ من قول أبي هريرة.

(١) يعني موقوفاً على ابن عباس، وأما خبر الحسن فهو عن النبيّ ﷺ مرسل، أخرجهما الطبري في التفسير ٥/ ٢٥٥-٢٥٦. وإسناد الطبري فيه إلى ابن عباس مسلسل بالضعفاء.

(٢) المثبت من (د١) والمطبوع، وهو كذلك في تفسير الطبري ٥/ ٢٥٦، وتفسير الثعلبي ٢/ ٢٠، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٨، وزاد المسير ١/ . وفي النسخ الأخرى: الزهري. وتنظر الأقوال الأخرى في هذه المصادر.

(٣) في تفسير الثعلبي ٢/ ٢٠: سعيد بن جبير عن عكرمة.

(٤) المثبت من (د١) والمطبوع، وهو كذلك في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٩ (والأقوال كلها فيه) ووقع في (د٢) و(ح) و(يه): وقال، بدل: وقاله. وسقط هذا القول والذي بعده من (أ) و(ب) و(ت) و(ع).

(٥) سلف من قول السدي.

وحكى الزجَّاج أنه قيل: إنَّ القنطار هو رِطْل ذهباً أو فضة. قال ابن عطية[١]: وأظنُّه وهماً، وإنَّ القول: مئة رِطْل، فسقطت «مئة» للناقل. انتهى.

وقال أبو حمزة الثُّمالي: القنطار بلسان أفريقية والأندلس ثمانية آلاف مثقال، وهذا يكون في الزمان الأول، وأما الآن فهو عندنا مئة رِطْل، والرِّطْل عندنا ستة عشر أوقية.

وقال أبو نَضْرَة[٢] وأبو عبيدة: مِلْءُ مَسْكِ ثَوْرٍ ذَهَباً. قال ابنُ سِيده: وكذا هو بالسريانية. وقال ابن الكلبيّ: وكذا هو بلغة الرُّوم[٣].

وقال الرَّبيع بن أنس: المال الكثير بعضُه على بعض[٤].

وقال ابن كَيْسان: المال العظيم.

وقال أبو عبيدة: القنطار عند العرب وزن لا يُحَدّ[٥].

وقال الحَكَم: القنطارُ ما بين السماء والأرض من مال.

وقال ابن عطية: القنطار معيارٌ يُوزَنُ به كما أنَّ الرِّطل معيار. ويقال لِما بلغَ ذلك الوزن: قنطار، أي: يعدل القنطار[٦]. وأصحُّ الأقوال الأوَّل[٧]، والقنطارُ يختلف باختلاف البلاد في قدر الأوقيَّة انتهى.

والمقنطرة مُفَعْلَلَة أو مُفَنْعَلَة، من القنطار، ومعناه: المجتمعة، كما تقول:

---

(١) في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٩. والكلام السالف فيه.

(٢) هو المنذر بن مالك العبدي، توفي سنة (١٠٨). السير ٤/ ٥٢٩. ووقع في النسخ الخطية: أبو بصرة وهو تحريف.

(٣) ينظر تفسير الثعلبي ٢/ ٢٠، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٨-٤٠٩. وأخرج الطبري ٥/ ٢٥٩ قول أبي نضرة.

(٤) أورده الطبري ٥/ ٢٥٩ وابن عطية ١/ ٤٠٩ في معنى القنطار، ثم أورداه أيضاً في معنى القناطير المقنطرة، وسيعيده المصنف أيضاً بنحوه في المقنطرة.

(٥) قولا ابن كيسان وأبي عبيدة عند الثعلبي ٢/ ١٩.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٩.

(٧) يعني القولَ المرويّ عن أُبيّ ﷺ، والكلام في المصدر السابق ١/ ٤٠٨.

الأُلُوفُ المؤلَّفة، والبِدَرُ المُبَدَّرَة[١]، اشتقُّوا منها وصفاً للتوكيد[٢].

وقيل: المقنطرة: المضعَّفة. قاله قتادة والطبري[٣].

وقيل: المقنطرة تسعة قناطير؛ لأنه جَمْعُ جَمْعٍ. قاله النقَّاش[٤]، وهذا غير صحيح.

وقال ابنُ كَيْسان: لا تكون المقنطرة أقلَّ من تسعة. وقال الفرَّاء: لا تكون أكثر من تسعة. وهذا كلُّه تحكُّم[٥].

وقال السُّدِّيّ: المقنطرة: المضروبة دنانير، أو دراهم. وقال الربيع والضَّحّاك: المنضَّد الذي بعضُه فوقَ بعض.

وقيل: المخزونة المدخُورة.

وقال يمان: المدفونة المكنوزة.

وقيل: الحاضرة العتيدة. قاله ابن عطية.

وقال مروان بن الحكم: ما المالُ إلا ما حازَتْه العِيان[٦].

﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ تبيينٌ للقناطير، وهو في موضع الحال منها، أي: كائناً من الذهب.

﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ أي: الراعية في المُرُوج. سامَتْ: سَرَحَتْ وأخذَتْ سَوْمَها من الرَّعي، أي: غايةَ جُهدها، ولم تُقصَر على حال دون حال، فيكون قد عُدِّيَ الفعلُ بالتضعيف، كما عُدِّيَ بالهمزة في قولهم: أَسَمْتُها. قاله ابنُ عباس وابنُ جبير

---

(١) البِدَر جمع البَدْرَة، وهي كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم، أو سبعة آلاف دينار. ينظر القاموس. ووقع في (د١) والمطبوع: البدرة المبدَّرة.

(٢) قال الجاحظ في الحيوان ٦/ ٢٣٠: يقال: إبلٌ مُؤَبَّلة، ودراهمُ مُدَرْهَمة، وبِدَرٌ مُبَدَّرَة. وقال الزمخشري ١/ ٤١٦: ألفٌ مؤلَّفة، وبَدْرَةٌ مُبَدَّرة.

(٣) تفسير الطبري ٥/ ٢٦٠، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٩.

(٤) لفظُه في المحرر الوجيز ١/ ٤٠٩: «القناطير ثلاثة، والمقنطرة تسعة، لأنه جمع الجمع» وهو أكثر وضوحاً. وينظر تفسير القرطبي ٥/ ٤٨.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٩، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٩.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٠٩.

والحسن وعبد الله بن عبد الرحمن بن أَبْزَى ومجاهد والرّبيع[(١)].

ورُوِيَ عن مجاهد أنها المُطَهَّمَة الحِسان. وقال السُّدِّي: هي الرائقة من سِيما الحُسْن.

وقال عكرمة: سَوَّمَها الحُسْن. واختارَه النَّحّاس، من قولهم: رجل وسيم[(٢)]. ولا يكون ذلك لاختلاف المادَّتين[(٣)] إلا إنِ ادُّعِيَ القَلْبُ.

وقال أبو عُبيدة والكسائي: المُعْلَمَة بالشِّيَات. ورُوِيَ عن ابن عباس، وهو من السُّومَة، وهي العلامة[(٤)].

قال أبو طالب[(٥)]:

أمينٌ مُحَبٌّ للعبادِ مُسَوَّمٌ بخاتَمِ رَبٍّ طاهرٍ[(٦)] للخَواتِمِ

قال أبو زيد: أصلُ ذلك أن تُجعلَ عليها صُوفة أو علامة تُخالفُ سائرَ جسدِها لتَبِينَ من غيرها في المَرْعَى[(٧)].

وقال ابنُ فارس في «المُجمل»[(٨)]: المُسَوَّمة هي المُرسَل عليها رُكبانُها.

وقال ابنُ زيد: المُعَدَّة للجهاد. وقال المبرِّد: المعروفة في البلدان. وقال ابنُ كَيْسان: البُلْق. وقيل: ذوات الأوضاح من الغُرَّة والتحجيل. وقيل: هي الهماليج[(٩)].

---

(١) قولهم هو: الراعيةُ في المروج. وما بعده استطراد. ينظر المحرر الوجيز ١/ ٤٠٩، وبنحوه في تفسير الثعلبي ٢/ ٢٠.
(٢) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٦٧، والكلام في تفسير القرطبي ٥/ ٥٢-٥٣.
(٣) سوم، وسم.
(٤) ينظر تفسير الطبري ٥/ ٢٦١-٢٦٦، والمحرر الوجيز ١/ ٤٠٩، وتفسير القرطبي ٥/ ٥٢-٥٣.
(٥) نسبَ ابنُ الأنباري البيتَ في الزاهر ١/ ٢٤٥ لكعب بن مالك.
(٦) في «الزاهر»: مُحَبٌّ في العباد... قاهر للخواتم.
(٧) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٦٧-٣٦٨، وتفسير القرطبي ٥/ ٥٣. أبو زيد: هو سعيد بن أوس بن ثابت، صاحب النوادر.
(٨) ١/ ٤٧٩.
(٩) ينظر تفسير الثعلبي ٢/ ٢١، وزاد المسير ١/ ٣٦٠، وتفسير القرطبي ٥/ ٥٣. الهماليج: جمع هِمْلاج، وهو الحَسَنُ السَّيْر في سُرعة وبخترة.

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾ يحتمل أن يكون المعاطيف من قوله: «والقناطير» إلى آخرها غير ما أتى[1] تبييناً معطوفاً على «الشهوات» أي: وحُبُّ القناطير وكذا وكذا. ويحتمل أن يكون معطوفاً على قوله: «من النساء» فيكون مندرجاً في الشهوات.

ولم يُجمع الحرث لأنه مصدر في الأصل، وقيل: يُراد به المفعول، وتقدَّم الكلام فيه عند قوله: ﴿وَلَا تَسۡقِى ٱلۡحَرۡثَ﴾ [البقرة: ٧١].

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أشار بذلك وهو مفرد إلى الأشياء السابقة وهي كثيرة، لأنه أرادَ ذلك المذكور، أو المقدَّم ذِكرُه. والمعنى تحقيرُ أمرِ الدنيا والإشارةُ إلى فَنائها وفَناء ما يُستمتع به فيها.

وأدغم أبو عَمرو في الإدغام الكبير ثاء «والحَرْث» في ذال «ذلك»، واستُضعف لصحة الساكن قبل الثاء.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ أي: المَرْجع، وهو إشارة إلى نعيم الآخرة الذي لا يَفْنَى ولا ينقطع.

ومن غريب ما استُنبط من الأحكام في هذه الآية أنَّ فيها دلالةً على إيجاب الصدقة في الخيل السائمة لِذِكْرها مع ما تجبُ فيه الصدقة أو النفقة، فالنساء والبنون فيهم النفقة، وباقيها فيها الصدقة. قاله الماتريديّ[2].

وذكروا في هذه الآية أنواعاً من الفصاحة والبلاغة:

الخطاب العامّ ويُراد به الخاصّ في قوله: «للذين كفروا» على قول عامَّة المفسِّرين: هم اليهودُ. وهذا من تلوين الخطاب.

والتجنيس المغاير في «تَرَوْنَهم مِثْلَيْهم رَأْيَ العين» والاحتراس في «رَأْيَ العين» قالوا: لئلا يُعتقد أنه من رؤية القلب، فهو من باب الحَزْر وغَلَبة الظَّنّ.

والإبهام في «زُيِّن للناس».

---

(١) في (أ) و(ع): أتى به.
(٢) ينظر تفسيره ١/ ٢٥٢.

والتجنيس المماثل في «والقناطير المقنطرة».

والحذف في مواضع، وهي كلُّ موضع يُضطر فيه إلى تصحيح المعنى بتقدير محذوف.

❁ ❁ ❁

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ
وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ
وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ
وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ
بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل
لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ
وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ
الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

المفردات الرِّضوان مصدر: رَضِيَ، وكَسْرُ رائه لغةُ الحجاز، وضمُّها لغةُ تميم وبكر وقيس عَيْلان. وقيل: الكسر للاسم، ومنه: رِضوان خازن الجنة، والضم للمصدر.

السَّحَر؛ بفتح الحاء وسكونها؛ قال قوم منهم الزجَّاج: الوقت قبل طلوع الفجر[١]، ومنه يقال: تسحَّرَ: أكلَ في ذلك الوقت، واسْتَحَرَ: صار فيه[٢]. قال:

بَكَرْنَ بُكوراً واسْتَحَرْنَ بسُحْرَةٍ   فهُنَّ لوادي الرَّسِّ كاليَدِ للفَمِ[٣]

واسْتَحَرَ الطائر: صاحَ وتحرَّك فيه. قال:

---

(١) معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٨٥. والكلام أيضاً في المحرر الوجيز ١/ ٤١١.
(٢) في (د١) والمطبوع: سار فيه. وهو صحيح أيضاً.
(٣) البيت لزهير، وهو في ديوانه (بشرح ثعلب) ص١٠، وفيه: فهنَّ ووادي الرَّسِّ كاليدِ في الفمِ.

يُـعَــلُّ بــه بَــرْدُ أنــيــابِــهــا إذا غَــرَّدَ الـطـائـرُ الـمُـسْـتَـحِـرْ[١]

وأسْحَرَ الرَّجُلُ واسْتَحَرَ: دخلَ في السَّحَر. قال:

وأدْلَـجَ مــن طَـيْـبَـةٍ مـسـرعـاً فـجـاء إلـيـنـا وقـد أسْـحَـرَا[٢]

وقال بعض اللغويِّين: السَّحَر من ثلث الليل الآخِرِ إلى الفجر، وجاء في بعض الأشعار عن العرب أنَّ السَّحَر يستمرُّ حكمُه فيما بعد الفجر[٣].

وقيل: السَّحَر عند العرب يكون من آخر الليل، ثم يستمرّ إلى الإسْفار. وأصل السَّحَر: الخَفاء؛ للطفه، ومنه السِّحْر، والسَّحْر[٤].

* * *

التفسير ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ نزلت حين قال عمر عندما نزل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾: يا ربّ، الآن حين زَيَّنْتَها[٥].

ولمَّا ذكر تعالى أنَّ عندَه حُسْنَ المآب؛ ذكر ذلك المآبَ، وأنَّه خيرٌ من متاع الدنيا؛ لأنه خيرٌ خالٍ من شَوْب المضارّ، وباقٍ لا ينقطع.

والهمزة في «أؤنبِّئُكم» الأولى همزة الاستفهام دخلت على همزة المضارعة.

وقُرِئ في السبعة بتحقيق الهمزتين من غير إدخال ألف بينَهما، وبتحقيقهما وإدخال ألف بينهما، وبتسهيل الثانية من غير إدخال ألف بينهما[٦] ـ ونقلَ ورش الحركة إلى اللام وحذفَ الهمزة ـ وبتسهيلها وإدخال ألف بينهما[٧].

---

(١) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٥٨، وفيه: إذا صوَّت الطائر. قوله: يُعَلُّ به؛ قال شارحه: أي: يُسقى به. وهذا من الشُّرب وهو الثاني، والأول النَّهَل.
(٢) لم أقف عليه، وذكره السمين في الدر المصون ٣/ ٧٠.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤١٢، واستشهد فيه على هذا المعنى ببيت امرئ القيس السالف.
(٤) في «القاموس»: السَّحْرُ ـ ويُحرك ويضمّ ـ: الرِّئة. قال السمين في «الدّرّ» ٣/ ٧١: ومنه قول عائشة ﵂: مات بين سَحْرِي ونَحْري. تعني النبي ﷺ.
(٥) سلف الخبر في تفسير الآية التي قبلها.
(٦) قولُه: وبتحقيقهما وإدخال ألف بينهما... إلى هذا الموضع من (د١) والمطبوع.
(٧) ينظر جامع البيان ١/ ٢٤٠-٢٤٣.

وفي هذه الآية تسليةٌ عن زخارف الدنيا، وتقويةٌ لنفوس تاركيها، وتشريفٌ بالالتفات من الغَيْبَة إلى الخطاب.

ولما قال: ﴿ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ﴾ فأفرد، جاء ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ فأفردَ اسم الإشارة، وإن كان هناك مشاراً به إلى ما تقدَّم ذكرُه[1]، وهو كثير، فهذا مشار به إلى ما أشير بـ «ذلك».

و«خير» هنا أفْعَل التفضيل، ولا يجوز أن يُرادَ به خيرٌ من الخُيُور ويكونَ «من ذلكم» صفة؛ لما يلزمُ في ذلك من أن يكون ما رَغِبُوا فيه بعضاً ممَّا زَهِدُوا فيه.

﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ يحتمل أن يكون «للذين» متعلّقاً بقوله: «بخيرٍ من ذلكم»، و«جنَّاتٌ» خبر مبتدأ محذوف، أي: هو جناتٌ، فيكون ذلك تبييناً لما أُبهمَ في قوله: ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ ويؤيِّد ذلك قراءةُ يعقوب: «جناتٍ» بالجرّ بدلاً من «بخير»[2] كما تقول: مَرَرْتُ برجلٍ زيدٌ بالرفع، وزيدٍ بالجرّ.

وجُوِّز في قراءة يعقوب أن يكون «جنَّاتٍ» منصوباً على إضمار: أعني، ومنصوباً على البدَل على موضع «بخير» لأنه نصبٌ.

ويحتمل أن يكون «للذين» خبراً لـ «جَنَّات» على أن تكون مرتفعةً على الابتداء، ويكون الكلام تمَّ عند قوله: ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ ثم بيَّن ذلك الخير لمن هو، فعلى هذا العاملُ في «عندَ ربِّهم» العاملُ في «للذين»، وعلى القول الأول العاملُ فيه قوله: بخير.

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ تقدّم تفسير هذا وما قبله.

﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بدأ أوّلاً بذكر المَقَرّ، وهو الجنَّات التي قال فيها: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، «فيها ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَر»[3].

---

(١) يعني من الشهوات، فأشير بالمفرد إلى الجمع.

(٢) ذكرها ابن خالويه عن يعقوب في القراءات الشاذَّة ص١٩، ولم يذكرها ابن الجزري في النشر، فلعلها ليست مشهورة عنه، وهو من العشرة.

(٣) أخرجه أحمد (٨١٤٣)، والبخاري (٤٧٧٩)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة =

ثم انتقلَ من ذكرها إلى ذكر ما يحصل به الأُنس التامّ من الأزواج المطهَّرة، ثم انتقلَ من ذلك إلى ما هو أعظمُ الأشياء وهو رضا الله عنهم، فحصل بمجموع ذلك اللذةُ الجسمانية، والفرحُ الرُّوحانيُّ حيث عُلم برضا الله عنهم[١] كما جاء في الحديث «أنه تعالى يسألُ أهلَ الجنة: هل رضيتُم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضى يا ربِّ وقد أعْطَيْتَنَا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك؟! فيقول: ألا أُعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولون: يا ربّ، وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟! قال: أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أسخطُ عليكم أبداً»[٢] ففي هذه الآية الانتقالُ من عالٍ إلى أعلى منه.

ولذلك جاء في سورة براءة وقد ذكر تعالى الجناتِ والمساكنَ الطيِّبة، فقال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] يعني أكبر ممَّا ذُكر من الجنَّات والمساكن.

قال الماتُريدي: أهلُ الجنة مطهَّرون[٣]؛ لأن العيوب في الأشياء عَلَم الفَناء، وهم خُلقوا للبقاء، وخصَّ النساء بالطُّهر لما فيهنَّ في الدُّنيا من فضل المعايب والأذى.

وقرأ أبو بكر: «ورُضوان» بالضمّ حيث وقع إلا في ثاني العقود[٤]، فعنه خلاف، وباقي السبعة بالكسر[٥]. وقد ذكرنا أنهما لغتان.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: بصيرٌ بأعمالهم مطَّلعٌ عليها، فيُجازي كلًّا بعمله، فتضمَّنت الوَعْدَ والوعيد. ولمَّا ذكرَ المتقين أفهم مقابلَهم، فختم الآية بهذا.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾﴾ لمَّا ذكر أنَّ الجنة للمتقين؛ ذكر شيئاً من صفاتهم، فبدأ بالإيمان الذي هو رأسُ التقوى،

= مرفوعاً، وأوَّلُه: «قال الله تبارك وتعالى: أعدَدْتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت...».

(١) المثبت من (ب) و(ت) و(ع) و(به). وفي (أ) و(ح) و(د١) و(د٢): عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١١٨٣٥)، والبخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) في تفسير الماتريدي ١/ ٢٥٢: مطهَّرون من جميع المعايب.

(٤) يعني في الموضع الثاني من المائدة، وهو قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ الآية (١٦).

(٥) السبعة ص٢٠٢، والتيسير ص٨٦.

وذكرَ دعاءَهم ربَّهم عند الإخبار عن أنفسهم بالإيمان، وأكّد الجملة بـ «إنَّ» مبالغةً في الإخبار، ثم سألوا الغفرانَ ووقايتَهم من العذاب مرتّباً ذلك على مجرَّد الإيمان، فدلَّ على أنَّ الإيمان يترتَّب عليه المغفرة، ولا يكون الإيمانُ عبارةً عن سائر الطاعات كما يذهب إليه بعضُهم؛ لأنَّ مَن تابَ وأطاع الله لا يُدخلُه النارَ بوعدِه الصادق، فكان يكون السؤال في أنْ لا يفعلَه مما لا ينبغي، ونظيرُها: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا﴾ الآية [١٩٣: آل عمران] والصفات الآتية بعد هذا ليست شرائطَ، بل هي صفاتٌ تقتضي كمالَ الدرجات(١).

وقال الماتُريدي: مَدَحَهم تعالى بهذا القول، وفيه تزكيةُ أنفسِهم بالإيمان، والله تعالى نهى عن تزكية الأنفس بالطاعات، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [النجم: ٣٢]، فلو كان الإيمان اسماً لجميع الطاعات؛ لم يَرْضَ من التزكيةَ بالإيمان كما لم يَرْضَها بسائر الطاعات، فالآيةُ حُجَّةٌ على من جعلَ الطاعاتِ من الإيمان، وفيها دلالة على أنَّ إدخال الاستثناء في الإيمان باطل، لأنه رضيَه منهم دون استثناء. انتهى(٢).

قيل: ولا تدلُّ على شيء من التزكية ولا من الاستثناء؛ لأنَّ قولهم: «آمنَّا» هو اعتراف بما أُمِرُوا به، فلا يكون ذلك تزكيةً منهم لأنفسهم، ولأن الاستثناء إنَّما هو فيما يموتُ عليه المرءُ، لا فيما هو متَّصف به، ولا قائل بأنّ الإيمان الذي يتصف به العبد يجوز الاستثناء فيه، فإنَّ ذلك محالٌ عقلاً(٣).

---

(١) ينظر الكلام مفصَّلاً في تفسير الرازي ٧/ ٢١٥.

(٢) ينظر تفسير الماتريدي ١/ ٢٥٣ و٢/ ٣٣١-٣٣٢ و٤/ ٦١٢، (عند تفسير هذه الآية، والآية (٢) من الأنفال، والآية (٣٢) من النجم). والمراد بالاستثناء قول: أنا مؤمن إن شاء الله. وينظر التعليق التالي.

(٣) قال ابن أبي العزّ في شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٤٩٨ في قول: أنا مؤمن إن شاء الله: «إنْ أرادَ المستثني الشكَّ في أصل إيمانه؛ مُنع من الاستثناء، وهذا مما لا خلاف فيه، وإن أراد أنه مؤمن من المؤمنين الذين وصفَهم الله في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ الآيات (٢-٤) من الأنفال، وفي قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ الآية (١٥) من الحجرات؛ فالاستثناء حينئذ جائز، وكذلك من استثنَى وأراد عدمَ علمه بالعاقبة، وكذلك من استثنى تعليقاً للأمر بمشيئة الله، لا شكًّا في إيمانه، وهذا القول في القوَّة كما ترى».

وأُعرِب «الذين يقولون» صفةً وبدلاً، ومقطوعاً لرفعٍ أو لنصب[١]، ويكون ذلك من توابع «الذين اتقوا» أو من توابع العباد، والأوَّل أظهر.

﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ لـمَّـا ذكـرَ الإيمان بالقول؛ أخبر بالوصف الدَّالِّ على حَبْس النَّفْسِ على ما هو شاقٌّ عليها من التكاليف، فصبروا على أداء الطاعة، وعن اجتناب المحارم.

ثمَّ بالوصفِ الدَّالِّ على مطابقة الاعتقادِ في القلب للَّفظ الناطقِ به اللسانُ، فهم صادقون فيما أخبَرُوا به من قولهم: «ربَّنا إنَّنا آمنا». وفي جميع ما يُخبِرُون.

وقيل: هم الذين صدقت نيَّاتُهم واستقامت قلوبُهم وألسنتهم في السِّرِّ والعلانية، وهذا راجعٌ للقول الذي قبله.

ثمَّ بوصفِ القُنوت، وتقدَّم تفسيرُه في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾ فأغنى عن إعادته.

ثمَّ بوصفِ الإنفاق لأنَّ ما تقدَّم هو من الأوصاف التي نَفْعُها مقتصرٌ على المتَّصف بها لا يتعدَّى، فأتى في هذا بالوصف المتعدِّي إلى غيره، وهو الإنفاق.

وحُذِفت متعلَّقاتُ هذه الأوصافِ للعلم بها، إذ المعنى: الصابرين على تكاليف ربِّهم، والصادقين في أقوالهم، والقانتين لربِّهم، والمنفقين أموالَهم في طاعته، والمستغفرين اللهَ لذنوبهم في الأسحار.

ولمَّا ذكر أنهم رتَّبوا طلبَ المغفرة على الإيمان الذي هو أصلُ التقوى؛ أخبرَ أيضاً عنهم أنهم عند اتِّصافهم بهذه الأوصاف الشريفة هم مستغفرون بالأسحار، فليسوا يرون اتِّصافهم بهذه الأوصاف الشريفة ممَا يُسقِطُ عنهم طلبَ المغفرة.

وخصَّ السَّحَر بالذِّكر ـ وإن كانوا مستغفرين دائماً ـ لأنه مَظِنَّة الإجابة، كما صحَّ في الحديث أنه تعالى وتَنَزَّهَ عن سِمَات[٢] الحدوث «ينزلُ حين يبقى ثُلُثُ الليلِ

(١) يعني على الرفع، يكون خبراً لمبتدأ محذوف، أو مبتدأً محذوفَ الخبر، وعلى النصب يكون بإضمار فعل: أعني أو أمدح. ينظر الدر المصون ٣/ ٦٩.
(٢) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع) و(يه): صفات.

الآخِرِ يقول: مَنْ يَدْعُوني فأستَجِيبَ له، مَنْ يسألُني فأُعْطِيَه، مَنْ يستغفرُني فأغفرَ له، فلا يزال كذلك حتى يَطْلُعَ الفجر»[١].

وكان الصحابة؛ ابنُ مسعود وابنُ عُمر وغيرُهم يَتَحَيَّنُون[٢] الأسحارَ ليستغفروا فيها، وكان السَّحَرُ مَظِنَّةَ استغفار[٣]؛ لأنَّ العبادة فيه أشقُّ، ألا تراهم يقولون: إنَّ إغفاءَةَ الفجر من ألذِّ النوم؟ ولأنَّ النَّفْسَ تكونُ إذْ ذاك أصفى، والبَدَنَ أقلُّ تعباً، والذِّهْنَ أرَقُّ وأحَدُّ، إذ قد أجَمَّ عن الأشياء الشاقَّة الجسمانية والقلبيَّة بسكون بَدَنِه وتركِ فِكْرِه بانغمارِه في وارد النوم.

وقال الزَّمخشريّ: إنهم كانوا يُقدِّمُون قيامَ الليل فيحسُنُ طلبُ الحاجة[٤] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] انتهى، ومعناه عن الحسن[٥].

وهذه الأوصاف الخمسة هي لموصوفٍ واحد، وهم المؤمنون، وعُطفت بالواو ولم تتبع دون عطف لتباين كلِّ صفةٍ من صفة، إذ ليست في معنًى واحد، فينزلُ تغايرُ الصفات وتباينُها منزلةَ تغاير الذَّوَات، فعُطفت.

وقال الزَّمخشريّ: والواو المتوسّطة بين الصفات للدلالة على كمالهم في كلِّ واحدة منها. انتهى. ولا نعلمُ العطفَ في الصفة بالواو يدلُّ على الكمال.

وقال المفسِّرون في «الصابرين» صبروا عن المعاصي. وقيل: على المصائب. وقيل: ثبتُوا على العهد الأوَّل. وقيل: هم الصائمون.

وقالوا في «الصادقين»: في الأقوال. وقيل: في القول والفعل والنيَّة. وقيل: في السِّرِّ والعلانية[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٩٤٣٦)، والبخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) في (أ) و(ع): يحيون، وفي مطبوع البحر: يتخيرون.
(٣) في المطبوع: مستحبًّا فيه الاستغفار.
(٤) في الكشاف ١/ ٤١٧: طلب الحاجة بعده. وفي مطبوع البحر: طلب الحاجة فيه.
(٥) المصدر السابق. وفيه كلام الحسن بمعناه.
(٦) ينظر تفسير الثعلبي ١/ ٢٥، والنكت والعيون ١/ ٣٧٧-٣٧٨، والمحرر الوجيز ١/ ٤١١، وتفسير القرطبي ٥/ ٥٩.

وقالوا في «القانتين»: الحافظين للغيب. وقال الزَّجّاج: القائمين على العبادة[١]. وقيل: القائمين بالحقّ. وقيل: الدَّاعين المتضرِّعين. وقيل: الخاشعين. وقيل: المُصَلِّين.

وقالوا في «المنفقين»: المخرِجين المالَ على وجهٍ مشروع. وقيل: في الجهاد. وقيل: في جميع أنواع البِرّ. وقال ابنُ قتيبة[٢]: في الصدقات.

وقالوا في «المستغفرين»: السائلين المغفرة. قاله ابنُ عباس. وقال ابنُ مسعود وابنُ عُمر وأنس وقتادة: السائلين المغفرة وقتَ فراغ البال وخفَّةِ الأشغال. وقال قتادة أيضاً: المصلِّين بالأسحار. وقال زيد بن أسلم: المُصَلِّين الصبح في جماعة[٣].

وهذا الذي فسَّرُوه كلُّه متقارب.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ سبب نزولها أنَّ حَبْرَيْنِ من الشام قَدِما المدينة، فقال أحدهما للآخر: ما أشبهَ هذه بمدينة النبيِّ الخارج في آخر الزمان. ثمَّ عَرَفا رسولَ الله ﷺ بالنَّعْت، فقالا: أنت محمد؟ قال: نعم. فقالا: أنت أحمد؟ فقال: نعم. فقالا: نسألُك عن شهادةٍ إن أخبرتَنا بها آمنَّا. فقال: سلاني. فقال أحدُهما: أخبِرْنا عن أعظم الشهادة في كتاب الله. فنزلت. وأسلما[٤].

وقال ابنُ جُبير: كان حولَ البيت ثلاثُ مئة وستون صنماً، فلمَّا نزلت هذه الآية خرَّت سُجَّداً[٥].

(١) معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٨٥.
(٢) في تفسير غريب القرآن ص١٠٣.
(٣) ينظر تفسير الطبري ٥/ ٢٧٤-٢٧٥، وتفسير الثعلبي ١/ ٢٥، والنكت والعيون ١/ ٣٧٨، وتفسير القرطبي ٥/ ٥٩. والأقوال فيها بنحوها. ومن قوله: قاله ابن عباس... إلى قوله: السائلين المغفرة، من (د١) وليس في النسخ الأخرى.
(٤) أسباب النزول للواحدي ص٩٢، وزاد المسير ١/ ٣٦١-٣٦٢، وتفسير القرطبي ٥/ ٦٣.
(٥) تفسير الثعلبي ١/ ٢٧، وزاد المسير ١/ ٣٦٢، وتفسير القرطبي ٥/ ٦٣. والله أعلم بصحة الخبر.

وقيل: نزلت في نصارى نَجْران لمَّا حاجُّوا في أمر عيسى(١).

وقيل: في اليهود والنَّصارى لمَّا تركوا اسم الإسلام وتَسَمَّوْا باليهودية والنصرانية.

وقيل: إنهم قالوا: دينُنا أفضلُ من دينك. فنزلت.

وأصل «شَهِدَ»: حَضَرَ، ثم صُرفت الكلمة في أداء ما تقرَّر علمُه في النفس بأيّ(٢) وجهٍ تقرَّر من حضورٍ أو غيره، فقيل: معنى «شَهِدَ» هنا: أَعْلَمَ. قاله المفضَّل وغيرُه. وقال الفرَّاء وأبو عبيدة: قضى. وقال مجاهد: حَكَمَ. وقيل: بَيَّنَ. وقال ابن كَيْسان: شَهِدَ بإظهار صُنعِهِ(٣):

وفـي كـلِّ شـيءٍ لـه آيـةٌ تَـدُلُّ عـلـى أنَّـهُ واحِـدُ(٤)

قال الزَّمخشري(٥): شُبِّهت: دلالتُه على وحدانيَّته بأفعاله الخاصَّة التي لا يقدرُ عليها غيرُه، وبما أوحَى من آياته الناطقة بالتوحيد؛ كسُورةِ الإخلاص وآيةِ الكرسيّ وغيرِهما بشهادةِ الشاهد في البيان والكشف، وكذلك إقرارُ الملائكة وأولي العلم بذلك واحتجاجُهم عليه. انتهى. وهو حسن.

وقال المروزيّ: ذِكرُ شهادتِه سبحانه وتعالى على سبيل التعظيم لشهادةِ مَن ذُكر بعدَه، كقوله: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١] انتهى.

ومشاركةُ الملائكة وأولي العلم لله تعالى في الشهادة من حيث عُطِفَا عليه لصحَّة نِسبة الإعلام، أو صحَّة نِسبة الإظهار والبيان وإن اختلفت كيفية الإظهار والبيان من حيث إنَّ إظهارَه تعالى لخلقِ الدَّلائل، وإظهارَ الملائكة بتقريرِها للرسل، والرسل لأولي العلم.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٥/ ٢٨٠ عن محمد بن جعفر بن الزبير.

(٢) في (د١) ومطبوع البحر: فأيّ. وهو خطأ. والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٤١٢.

(٣) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٨٩. وأورد الثعلبي هذه الأقوال في تفسيره ١/ ٢٧، وقد ردَّ ابنُ عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤١٢ قول أبي عبيدة.

(٤) البيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص١٠٤.

(٥) في الكشاف ١/ ٤١٧.

وقال الواحديّ: شهادةُ الله بيانُه وإظهارُه، والشاهِدُ هو العالِمُ الذي بيَّن ما علمَه، واللهُ تعالى بَيَّنَ دلالاتِ التوحيد بجميع ما خَلَق، وشهادةُ الملائكة بمعنى الإقرار، كقوله: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] أي: أقْرَرْنا. فنَسَقَ شهادةَ الملائكة على شهادة الله ـ وإن اختلفت معنًى ـ لتماثلهما لفظاً، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] لأنَّها من الله الرحمةُ، ومن الملائكة الاستغفارُ والدعاء، وشهادةُ أولي العلم تحتمل الإقرارَ وتحتمل التبيين؛ لأنَّهم أقرُّوا وبيَّنُوا. انتهى[١].

وقال المؤرِّج: «شَهِدَ الله» بمعنى: قال الله، بلغة قيس بن عيلان.

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ قيل: هم الأنبياء. وقيل: العلماء. وقيل: مؤمنو أهل الكتاب. وقيل: المهاجرون والأنصار. وقيل: علماء المؤمنين. وقال الحسن: المؤمنون[٢].

والمراد بأولي العلم مَنْ كان مِن البشر عالمًا؛ لأنهم ينقسمون إلى عالم وجاهل؛ بخلاف الملائكة؛ فإنَّهم في العلم سواء.

و«أنه لا إله إلا هو» مفعول «شَهِدَ». وفَصَلَ به بين المعطوف عليه والمعطوف ليدُلَّ على الاعتناء بذكر المفعول، وليدلَّ على تفاوت درجة المتعاطِفَيْن بحيث لا يُنسقان متجاوِرَيْن، وقدَّم الملائكة على أولي العلم من البشر لأنهم الملأ الأعلى، وعلمُهم كلُّه ضروريّ، بخلاف البشر، فإنَّ عِلْمَهُم ضروريٌّ واكتسابيّ.

وقرأ أبو الشعثاء: «شُهِدَ» بضمّ الشين مبنيًّا للمفعول[٣]، فيكون «أنَّه» في موضع البَدَل، أي: شُهِدَ وحدانيَّةُ الله وألوهيَّتُه. وارتفاعُ «الملائكة» على هذه القراءة على الابتداء، والخبر محذوف تقديرُه: والملائكة وأولو العلم يشهدون، وحُذف الخبر لدلالة المعنى عليه.

ويحتمل أن يكون فاعلاً بإضمار فعل محذوف لدلالة «شُهد» عليه؛ لأنه إذا بُنيَ

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير الثعلبي ١/ ٢٨ عن المفضَّل، وبنحوه أيضاً في تفسير الرازي ٧/ ٢١٩، وبعضه في تفسير الواحدي ١/ ٤٢٠.

(٢) ينظر تفسير الثعلبي ١/ ٢٨. ولم أقف على قول الحسن.

(٣) لم أقف عليها عند غير أبي حيَّان، وأوردها تلميذُه السمين في الدرّ ٣/ ٧٢.

الفعل للمفعول؛ فإنه قبل ذلك كان مبنيًّا للفاعل، والتقدير: وشَهِدَ بذلك الملائكةُ وأولو العلم.

وقرأ أبو المهلَّب عمُّ محارب بنِ دِثار: «شُهداءَ الله» على وزن: فُعَلاء، جمعاً منصوباً؛ قال ابن جنِّي[(١)]: على الحال من الضمير في «المستغفرين». وقيل: نصب على المدح، وهو جمع شهيد[(٢)] أو جمع شاهد، كظُرفاء وعُلماء.

ورُوِيَ عنه وعن أبي نَهِيك: «شُهداءُ الله» بالرفع[(٣)]، أي: هم شهداءُ الله. وفي القراءتين «شُهداء» مضاف إلى اسم الله.

ورُوِيَ عن أبي المهلَّب: «شُهُداً» بضمّ الشين والهاء، جمع شهيد؛ كنذير ونُذُر، وهو منصوب على الحال، واسمُ الله منصوب[(٤)].

وذكر النقَّاش أنه قُرئ كذلك بضمّ الدال وبفتحها مضافاً لاسم الله في القراءتين[(٥)].

وذكر الزمخشريُّ[(٦)] أنه قُرئ: «شُهَداء لِله» برفع الهمزة ونصبها، وبلام الجرِّ داخلةً على اسم الله، فوجهُ النصب على الحال من المذكورين، والرفع على إضمارِ «هم»، ووَجَّهَ رفع «الملائكة» على هاتين[(٧)] القراءتين عطفاً على الضمير المستكنّ في «شُهَداء»، وجاز ذلك لوقوع الفاصل بينهما، وتقدَّم توجيه رفع «الملائكة» إمَّا على الفاعلية وإمَّا على الابتداء.

وقرأ أبو عَمرو بخلاف عنه بإدغام واو «هو» في واو «والملائكة».

---

(١) في المحتسب ١/ ١٥٥-١٥٦، ونقله عنه أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤١٢.
(٢) في (د١) ومطبوع البحر: شهداء. وهو خطأ.
(٣) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤١٢ عن أبي المهلَّب (ولم تُقيَّد اللفظة في مطبوعه على الصواب) وهي في الكشاف ١/ ٤١٩ دون نسبة. أبو نَهِيك (وزن عظيم) هو عثمان بن نَهِيك الأزدي الفراهيدي البصري، من رجال تهذيب الكمال.
(٤) منصوب على التعظيم، أي: يشهدون الله، أي: وحدانيته. الدر المصون ٣/ ٧٣.
(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤١٢-٤١٣.
(٦) الكشاف ١/ ٤١٩.
(٧) في النسخ: الخطية: هذه. والمثبت من مطبوع البحر. ووجهُ رفع «الملائكة» المذكور هو على القراءات المذكورة كلها. ينظر الدر ٣/ ٧٤.

وقرأ ابن عباس: «إنه لا إله إلا هو» بكسر همزة «إنه»(١) وخُرِّجَ ذلك على أنه أَجْرَى «شَهِدَ» مُجرى «قال»؛ لأنَّ الشهادة في معنى القول(٢)، فلذلك كسرَ «إنَّ»، أو على أنَّ معمول «شَهِدَ» هو «أنَّ الدِّينَ عند الله الإسلام»(٣) ويكون قوله: «إنَّه لا إله إلا هو» جملة اعتراض بين المعطوف عليه والمعطوف، إذْ فيها تسديدٌ لمعنى الكلام وتقوية. هكذا خرَّجوه(٤).

والضمير في «أنه» يحتمل أن يكون عائداً على «الله»، ويحتمل أن يكون ضميرَ الشأن، ويؤيِّدُ هذا قراءةُ عبد الله: «شَهِدَ اللهُ أنْ لا إله إلا هو» ففي هذه القراءة يتعيَّن أن يكون المحذوف إذا خُفِّفَتْ ضميرَ الشأن؛ لأنها إذا خُفِّفَتْ لم تعمل في غيره إلا ضرورة، وإذا عملت فيه لَزِمَ حذفُه.

قالوا: وانتصب «قائماً بالقسط» على الحال من اسم الله تعالى، أو من «هو»، أو من الجميع على اعتبار كلِّ واحدٍ واحدٍ، أو على المدح، أو صفة للمنفيّ، كأنه قيل: لا إلهَ قائماً بالقسط إلا هو، أو على القطع؛ لأنَّ أصلَه: القائم(٥). وكذا قرأ ابنُ مسعود، فيكون كقوله: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢] أي: الواصب. وقرأ أبو حنيفة: «قَيِّماً» وانتصابُه على ما ذُكر(٦).

وذكر السَّجاونديّ أنَّ قراءة عبد الله: «قائم».

---

(١) القراءات الشاذة ص١٩.
(٢) هو قول المؤرِّج، وسلف قريباً.
(٣) قال السمين الحلبي في الدر المصون ٣/ ٧٤: هذا إنما يتجه على قراءة فتح «أنَّ» من «أن الدِّين» وأما على قراءة الكسر فلا يجوز. انتهى كلامُه. وقد قرأ: «أن الدين» (بفتح الهمزة) ابنُ عباس والكسائي. وسيرد.
(٤) تأوَّل السُّدِّيّ قراءة ابن عباس ـ كما ذكر ابنُ عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤١٢ ـ قال: اللهُ وملائكتُه والعلماء يشهدون أن الدِّين عند الله الإسلام. وأخرجه الطبري في تفسيره ٥/ ٢٧٧ عن السُّدّيّ.
(٥) أي: قُطع عن النعت وصار حالاً. قال السمين في الدّرّ المصون ٣/ ٨٠: كان من حقِّه أن يرتفع نعتاً للهِ تعالى بعد تعريفه بأل، والأصل: شهد الله القائم بالقسط، فلما نُكِّر امتنع إتباعُه، فقُطع إلى النصب، وهذا مذهب الكوفيين.
(٦) القراءتان في الكشاف ١/ ٤١٧، وذكر ابن عطية ١/ ٤١٣ قراءة ابن مسعود.

فأمَّا انتصابُه على الحال من اسم الله فعاملُها «شَهِدَ» إذ هو العامل في الحال، وهي في هذا الوجه حالٌ لازمة؛ لأنَّ القيام بالقسط وصفٌ ثابتٌ لله تعالى.

وقال الزمخشريّ: وانتصابُه على أنه حال مؤكِّدة منه، أي: من الله، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١] انتهى.

وليس من الحال المؤكِّدة؛ لأنه ليس من باب: ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥] ولا من باب: أنا عبدُ الله شجاعاً(١)، فليس «قائماً بالقسط» بمعنى «شَهِدَ» وليس مؤكِّداً مضمونَ الجملة السابقة في نحو: أنا عبدُ الله شجاعاً، وهو زيدٌ شجاعاً، لكن في هذا التخريج قلقٌ في التركيب، إذ يصير كقولك: أكلَ زيدٌ طعاماً وعائشةُ وفاطمةُ جائعاً، فيفصل بين المعطوف عليه والمعطوف بالمفعول، وبين الحال وذي الحال بالمفعول والمعطوف، لكن يُمَشِّيهِ(٢) كونُها كلِّها معمولةً لعامل واحد.

وأمَّا انتصابُه على الحال من الضمير الذي هو «هو» فجوَّزه الزمخشريَّ وابنُ عطيَّة(٣)؛ قال الزَّمخشريّ: فإنْ قلتَ: قد جعلتَه حالاً من فاعل «شَهِدَ»، فهل يصحُّ أن ينتصبَ حالاً عن «هو» في «لا إله إلا هو»؟ قلت: نعم، لأنها حالٌ مؤكِّدة، والحالُ المؤكِّدة لا تستدعي أن يكون في الجملة التي هي زيادة في فائدتها عاملٌ فيها، كقوله: أنا عبد الله شجاعاً. انتهى.

ويعني أنَّ الحالَ المؤكِّدة لا يكون العاملُ فيها النصب شيئاً من الجملة السابقة قبلَها، وإنما ينتصب بعامل مضمر تقديره: أُحُقُّ أو نحوه، مضمراً بعد الجملة، وهذا قول الجمهور، والحال المؤكِّدة لمضمون الجملة هي الدالَّة على معنى ملازم للمسند إليه الحكمُ، أو شبيهٍ بالملازم، فإن كان المتكلّم بالجملة مخبِراً عن نفسه فيقدِّر الفعل: «أُحَقُّ» مبنيًّا للمفعول، نحو: أنا عبدُ الله شجاعاً، أي: أُحَقُّ شجاعاً، وإنْ كان مخبِراً عن غيره، نحو: هو زيد شجاعاً، فتقديره: أَحُقُّهُ شجاعاً.

---

(١) أي حال مؤكِّدة لما قبلَها، وسيرد الكلام عليها. وينظر الكتاب ٢/ ٨٠، والمقتضب ٤/ ٣١٠-٣١١.

(٢) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع) والدر المصون ٣/ ٧٥: بمشيئة. وهو تحريف. ووقع في هذه النسخ أيضاً سقط في هذا الموضع.

(٣) الكشاف ١/ ٤١٧، والمحرر الوجيز ١/ ٤١٣.

وذهب الزَّجّاج إلى أنَّ العامل في هذه الحال هو الخبر بما ضمِّن من معنى المسمَّى(١)، وذهب ابنُ خروف إلى أنه المبتدأ بما ضمِّن من معنى التنبيه.

وأمَّا من جعله حالاً من الجميع على ما ذكر؛ فرُدَّ بأنه لو جاز ذلك لجاز: جاء القومُ راكباً، أي: كلُّ واحد منهم. وهذا لا تقولُه العرب.

وأمَّا انتصابه على المدح؛ فقال الزّمخشريّ(٢): فإن قلتَ: أليس من حقّ المنتصب على المدح أن يكون معرفةً كقولك: الحمد لله الحميدَ: «إنَّا مَعْشَرَ الأنبياء لا نُورَثُ»(٣).

إنَّـا بـنـي نَـهْـشَـلٍ لا نَـدَّعـي لأبٍ(٤)

قلت: قد جاء نكرة في قول الهُذَليّ:

ويَـأْوِي إلـى نِـسْـوَةٍ عُـطَّـلٍ وشُـعْـثاً مَرَاضِيعَ مثلَ السَّعالي(٥)

انتهى سؤالُه وجوابُه.

وفي ذلك تخليطٌ، وذلك أنَّه لم يُفَرِّق بين المنصوب على المدح أو الذَّمّ أو الترحّم، وبين المنصوب على الاختصاص، وجعل حُكمَهُما واحداً. وأورَدَ مثالاً من المنصوب على المدح، وهو: الحمد لله الحميدَ، ومثالين من المنصوب على

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٨٧-٣٨٨.

(٢) في الكشاف ١/ ٤١٧.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ النسائي في السنن الكبرى (٦٢٧٥)، وبنحوه مطوَّلاً أخرجه البخاري (٥٣٥٨)، ومسلم (١٧٥٧) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، وأخرجه أحمد (٩٩٧٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) هو صدر بيت، وعَجُزُه: عنه ولا هو بالأبناء يشرينا، أورده المبرِّد في الكامل ١/ ١٤٥ مع عدة أبيات، ونسبها لأبي مخزوم من بني نهشل. ونسبها البغدادي في خزانة الأدب ٨/ ٣٠٢ لبشامة بن حَزْن النهشلي، وذكر في ٨/ ٣١١-٣١٣ الاختلاف في قائليها وقال: الصحيح أنها لبشامة بن حَزْن.

(٥) البيت لأمية بن أبي عائذ، وهو في الكتاب ٢/ ٦٦ بهذه الرواية، ونقل عن الخليل قوله: كأنه قال: وأذكرهنَّ شُعْثاً. وأورده سيبويه أيضاً ١/ ٣٩٩ برواية: وشعثٍ. وعندئذ لا شاهد فيه هنا. قوله: عُطَّل، هو جمع عاطل، وهي التي خلت من الحُليّ، والشُّعْث: جمع شعثاء، وهي التي تَغَيَّر شعرُها وتَلَبَّد، والسَّعالي: جمع سَعْلاة، وهي الغُول.

الاختصاص، وهما: «إنَّا مَعْشَرَ الأنبياء لا نُورَث». إنَّا بني نَهْشَلٍ لا نَدَّعي لأبِ.

والذي ذكر النحويون أنَّ المنصوب على المدح أو الذّمّ أو التَّرحُّم قد يكون معرفة وقبله معرفة يصلح أن يكون تابعاً لها وقد لا يصلح، وقد يكون نكرةً كذلك، وقد يكون نكرةً وقبلَها معرفة، فلا يصلح أن يكون نعتاً لها، نحو قول النَّابغة[1]:

أَقـارِعُ عَـوْفٍ لا أُحـاولُ غَـيْـرَهـا   وجـوهَ قُـرُودٍ تـبـتـغـي مَـنْ تُـجـادِعُ[2]

فانتصب «وجوهَ قُرود» على الذَّمّ، وقبلَه معرفة، وهو قولُه: أَقارعُ عَوْفٍ.

وأمَّا المنصوب على الاختصاص فنَصُّوا على أنه لا يكون نكرةً ولا مبهماً، ولا يكون إلا مُعرَّفاً بالألف واللام، أو بالإضافة، أو بالعَلَميَّة، أو «بأيٍّ»[3]؛ ولا يكون إلا بعد ضمير متكلِّم مختصٍّ به، أو مشارَك فيه، وربَّما أتى بعد ضمير مخاطب.

وأمَّا انتصابُه على أنه صفة للمنفيّ، فقال الزَّمخشريّ[4]: فإن قلتَ: هل يجوزُ أن يكون صفة للمنفيّ؛ كأنه قيل: لا إله قائماً بالقسط إلا هو؟ قلت: لا يبعُد، فقد رأيناهم يتَّسعون في الفصل بين الصفة والموصوف.

ثم قال: وهو أوجَهُ من انتصابه عن فاعل «شَهِدَ» وكذلك انتصابُه على المدح. انتهى.

---

(١) من قوله: قد جاء نكرة في قول الهذلي... إلى هذا الموضع، سقط من (أ) و(ع).

(٢) الكتاب ٢/ ٧١، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٠٢، وخزانة الأدب ٢/ ٤٤٦. والبيت في ديوان النابغة ص٨٠، وهو من قصيدة يعتذر بها إلى النعمان بن المنذر ممَّا وَشَتْ به بنو قُريع. قوله: أَقارِعُ عَوْفٍ: هم بنو قُريع بن عوف بن كعب الذين كانوا سَعَوْا بالنابغة إلى النعمان حتى تغيَّر له. والمجادعة ـ بالجيم والدال المهملة ـ هو أن يقول كلٌّ من شخصين: جَدْعاً لك، أي: قطعَ اللهُ أنفَك، وهي كلمة سبّ، من الجَدْع، وهو قطع الأذن والأنف. ووقع في بعض النسخ: تخادع، وفي أخرى يخادع، وهو تحريف.

(٣) وأمثلتُها على الترتيب: نحن العَرَبَ أقرى الناسِ لِضَيْف، نحن معاشرَ الأنبياء لا نُورَث، بنا تميماً يُكشَفُ الضَّبابُ (من رجز لرؤبة)، اللهم اغفر لنا أيَّتُها العصابة. ينظر الكتاب ٢/ ٢٣٣-٢٣٦.

(٤) الكشاف ١/ ٤١٧.

وكان قد مثَّل في الفصل بين الصفة والموصوف بقوله: لا رجلَ إلا عبدُ الله شجاعاً، ويعني أنَّ انتصابَ «قائماً» على أنه صفة لقوله: «إلهَ» أو لكونه انتصبَ على المدح أوجَهُ من انتصابه على الحال من فاعل «شَهِدَ»، وهو «الله».

وهذا الذي ذكره لا يجوز لأنَّه فصلَ بين الصفة والموصوف بأجنبيّ وهو المعطوفان اللذان هما: «والملائكة وأولو العلم» وليسا معمولين لشيءٍ[١] من جملة «لا إله إلا هو»، بل هما معمولان لـ «شَهِدَ»، وهو نظير: عرفَ زيدٌ أنَّ هنداً خارجة وعَمرٌو وجعفرٌ التميميةَ، فيفصل بين هند والتميمية بأجنبيّ ليس داخلاً فيما عملَ فيها وفي خبرها[٢] بأجنبي[٣]، وهما عَمرو وجعفر المرفوعان[٤] بـ «عرف» المعطوفان على «زيد».

وأمَّا المثال الذي مَثَّلَ به، وهو: «لا رجلَ إلا عبدُ الله شجاعاً»، فليس نظيرَ تخريجه في الآية؛ لأنَّ قولك: «إلا عبدُ الله» بَدَلٌ على الموضع من «لا رجل» فهو تابع على الموضع، فليس بأجنبيّ، على أنَّ في جواز هذا التركيب نظراً؛ لأنه بَدَل، و«شجاعاً» وصف، والقاعدة أنه إذا اجتمع البَدَل والوصف قُدِّمَ الوصفُ على البدل، وسببُ ذلك أنه على نيَّة تكرار العامل على المذهب الصحيح، فصار من جملة أخرى على هذا المذهب.

وأمَّا انتصابُه على القطع، فلا يجيء إلا على مذهب الكوفيِّين، وقد أبطلَه البصريُّون.

والأولى من هذه الأقوال كلِّها أن يكونَ منصوباً على الحال من اسم الله، والعاملُ فيه «شَهِدَ»، وهو قول الجمهور.

---

(١) لفظة «الشيء» ليست في (د١) والمطبوع.

(٢) المثبت من (د١) ومطبوع البحر. وقوله: «فيما عمل» لم يرد في النسخ الأخرى. وفي الدُّرّ المصون ٣/ ٧٨: ليس داخلاً في حيِّز ما عمل فيها. وفي النهر المادّ بهامش مطبوع البحر ٢/ ٤٠٢: ليس داخلاً في حيِّز ما عمل فيها وفي خبره. وفي الدر اللقيط بهامش المطبوع: ليس داخلاً فيما عمل فيها.

(٣) كذا وقع في النسخ الخطية، وقد سلفت هذه اللفظة، وهي مقحمة في هذا الموضع.

(٤) المثبت من (د١) والمطبوع. وفي النسخ الأخرى: المعروفان، وهو تحريف.

وأمَّا قراءة عبد الله: «القائمُ بالقسط» فرفعُه على أنه خبرُ مبتدأ محذوف تقديرُه: هو القائم بالقسط. وقال الزمخشريّ وغيرُه: إنه بدَل من «هو»[١]. ولا يجوزُ ذلك لأنَّ فيه فصلاً بين البَدَل والمُبْدَل منه بأجنبيّ، وهو المعطوفان، لأنهما معمولان لغير العامل في المبدَل منه، ولو كان العاملُ في المعطوف هو العامل في المبدَل منه لم يَجُز ذلك أيضاً؛ لأنه إذا اجتمع العطف والبَدَل قُدِّمَ البَدَلُ على العطف، لو قلتَ: جاء زيد وعائشة أخوك، لم يَجُزْ، إنَّما الكلام: جاء زيد أخوك وعائشة.

وقال الزمخشري[٢]: فإن قلتَ: لِمَ جاز إفرادُه بنصب الحال دون المعطوفَيْنِ عليه، ولو قلت: جاءني زيد وعَمرو راكباً، لم يَجُزْ؟ قلت: إنما جاز هذا لعدم الإلباس، كما جاز في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] إن انتصب «نافلة» حالاً عن «يعقوب» ولو قلت: جاءني زيد وهند راكباً؛ جاز؛ لتميّزه بالذكورة. انتهى كلامُه.

وما ذكر من قوله في «جاءني زيد وعَمرو راكباً» أنه لا يجوز، ليس كما ذكر، بل هذا جائز؛ لأن الحال قيد فيمن وقع منه أو به الفعل، أو ما أشبه ذلك، وإذا كان قيداً فإنَّه يُحمل على أقرب مذكور، ويكون «راكباً» حالاً مما يليه، ولا فرقَ في ذلك بين الحال والصفة، لو قلت: جاءني زيد وعَمرو الطويل؛ لكان «الطويل» صفة لعَمرو، ولا نقول: لا تجوز هذه المسألة لأنه يُلْبِس، بل لا لَبْسَ في هذا، وهو جائز، فكذلك الحال.

وأما قوله في «نافلة» إنه انتصب حالاً عن «يعقوب»، فلا يتعيَّن أن يكون حالاً عن «يعقوب» إذ يحتمل أن يكون «نافلة» مصدراً، كالعافية والعاقبة، ومعناه: زيادة، فيكون ذلك شاملاً لإسحاق ويعقوب لأنهما زِيدا لإبراهيم عليه السلام بعد ابنِه إسماعيل وغيره، إذ كان إنما جاء له إسحاق على الكِبَر، وبعد أن عَجَزَتْ سارة وأَيِسَتْ من الولادة[٣].

(١) ذكر الزمخشري ١/ ٤١٧ القولين فقال: بدل من «هو» أو خبر مبتدأ محذوف.
(٢) الكشاف ١/ ٤١٧.
(٣) في (أ) و(ع): الأولاد.

وأولادُ إبراهيم غير إسماعيل وإسحاق: مِدْيان ويقال: مَدْين، ويشناق[١]، وشواح وهو خاضع، ودمران[٢] وهو محدان، ومَدن، ويقشان وهو مصعب[٣].

فهؤلاء ولد إبراهيم عليه السلام لصلبه، والعَقِبُ الباقي منهم لإسماعيل وإسحاق لا غير.

قال الزّمخشري[٤]: فإن قلت: ما المرادُ بأولي العلم الذين عظَّمهم هذا التعظيم حيث جمعَهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعدله؟ قلت: هم الذين يُثبتون وحدانيتَه وعَدْلَه بالحُجج القاطعة، والبراهين الساطعة، وهم علماءُ العدل والتوحيد. انتهى.

ويعني بعلماء العدل والتوحيد المعتزلة، وهم يسمُّون أنفسهم بهذا الاسم، كما أنشدنا شيخنا الإمام الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدِّمياطيّ رحمه الله[٥] بقراءتي عليه؛ قال: أنشدنا الصاحب أبو حامد عبد الحميد بنُ هبة بن محمد بن أبي الحديد المعتزليّ[٦] ببغداد لنفسه:

لولا ثلاثٌ لم أخَفْ صَرْعَتي ... ليست كما قال فَتَى العَبْدِ[٧]

أنْ أنصرَ التوحيدَ والعَدْلَ في ... كلِّ مَقَامٍ باذلاً جُهْدي

---

(١) في (أ) و(ع): شناق.

(٢) في (ت) و(د١) والمطبوع: رمران، وهي غير ظاهرة في (ب) و(ح)، وفي (د٢): رضوان. والمثبت من (أ) و(ع) و(يه).

(٣) وقع اختلاف في المصادر في ألفاظ هذه الأسماء. ينظر المحبَّر ص٣٩٤، وتاريخ الطبري ١/ ٣٠٩-٣١١، والكامل في التاريخ ١/ ١٢٣، وتاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٨. والضبط الذي وقع أعلاه في بعض هذه الأسماء من النسخة (ح).

(٤) الكشاف ١/ ٤١٨.

(٥) هو نحويّ لغويّ مقرئ، نشأ بدمياط، وارتحل في طلب العلم، وصنَّف وحدَّث، توفي سنة ٧٠٥، ودفن بمقبرة باب النصر خارج القاهرة. ينظر فوات الوفيات ٢/ ٤٠٩-٤١٠.

(٦) هو عزّ الدين بن أبي الحديد المدائني، فقيه شاعر، معدود من أعيان الشعراء. قال ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات ٢/ ٢٥٩: نظم فصيح ثعلب في يوم وليلة. توفي سنة (٦٥٥هـ).

(٧) يعني بفتى العبد طَرَفَة بن العبد، وقد سئل عن لذَّات الدنيا فقال: مركب وطيّ، وثوب بَهِيّ، ومطعم شَهِيّ. المصدر السابق ٢/ ٢٦١.

وأنْ أناجي الله مستمتعاً بخلوةٍ أحلى من الشَّهْدِ
وأنْ أَتِيْهَ الدَّهرَ كِبْراً على كلِّ لئيمٍ أصْعَرِ الخَدِّ
لذاك أهْوَى لا فتاةٍ[1] ولا خمرٍ ولا ذي مَيْعةٍ[2] نَهْدِ

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ كرّر التهليل[3] توكيداً. وقيل: الأول شهادةُ الله، والثاني شهادةُ الملائكة وأولي العلم. وهذا بعيد جدًّا، لأنه يؤدِّي إلى قطع الملائكة عن العطف على الله تعالى وعلى إضمار فعل رافع، أو على جعلهم مبتدأً، وعلى الفصل بين ما يتعلَّق بهم وبين التهليل بأجنبي وهو قوله: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾.

وقيل: الأول جارٍ مَجرى الشهادة، والثاني جارٍ مَجرى الحُكم.

وقيل: هذا الكلام ينطوي على مقدِّمتين، وهذا هو نتيجتُهما، فكأنَّه قال: شهد الله والملائكةُ وأولو العلم، وما شهدوا به حقّ، ولا[4] إله إلا هو حقّ، فحذف إحدى المقدِّمتين للدَّلالة عليها، وهذا التقدير كلُّه لا يساعد عليه اللفظ.

وقال الراغب[5]: إنما كرَّر «لا إله إلا هو» لأنَّ صفات التنزيه أشرف من صفات التمجيد[6]، لأنَّ أكثرها مشارك في ألفاظها العبيد، فيصحُّ وصفُهم بها، ولذلك وردت ألفاظُ التنزيه في حقّه أكثر، وأبلغُ ما وُصف به من التنزيه «لا إله إلا الله» فتكريرُه هنا لأمرين:

---

(١) بالجرّ، مضاف إليه، على أن «لا» اسم مضاف، كما في قول الشاعر: أبى جُودُهُ لا البخلِ... الخ، رُوي بالنصب والجرّ. ينظر مغني اللبيب ص٣٢٧، وستتكرر الأبيات في سورة الزخرف. ووقع في مطبوع كل من فوات الوفيات ٢/ ٢٦١، والوافي بالوفيات ١٨/ ٧٨ وغيرهما: لذاك لا أهوى فتاة ولا خمراً ولا ذا... الخ، ولعله مغيّر عن أصل روايته، لا سيما وقد جاء في حواشي «الفوات» ما يُشير إلى رواية الأصل.

(٢) مَيْعَةُ الشيء: أوَّلُهُ.

(٣) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): التوحيد.

(٤) في (يه): فلا.

(٥) تفسيره ص٤٦٦ (جزء من آل عمران).

(٦) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): التحميد. وهو خطأ.

أحدُهما: لكون الثاني قطعاً للحكم، كقولك: أشهدُ أنَّ زيداً خارج وهو خارج.

والثاني: لئلا يسبق بذكر العزيز الحكيم إلى قلب السامع تشبيه، إذ قد يوصف بهما المخلوق. انتهى.

وقال الزمخشريّ[1]: [العزيز الحكيم] صفتان مقرِّرتان لما وَصَفَ به ذاتَه من الوحدانية والعدل، يعني أنه العزيزُ الذي لا يُغالِبُه إلهٌ آخَر، الحكيمُ الذي لا يَعْدِلُ عن العدل في أفعاله. انتهى. وهو تحويمٌ على مذهب المعتزلة.

وارتفع «العزيز» على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو العزيز، على الاستئناف. وقيل: وليس بوصف[2]؛ لأنَّ الضمير لا يُوصف، وليس هذا بالمجمع[3] عليه، بل ذهب الكسائيّ إلى أنَّ ضمير الغائب كهذا يوصف.

وجوَّزُوا في إعراب «العزيز» أن يكون بدلاً من «هو».

ورُوِيَ في حديثٍ عن الأعمش أنه قام يتهجَّد، فقرأ هذه الآية، ثم قال: وأنا أشهدُ بما شَهِدَ الله به، وأستودعُ اللهَ هذه الشهادة، وهي لي عند الله وديعة «إن الدِّين عند الله الإسلام» قالها مراراً، فسُئل، فقال: حدَّثني أبو وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجاءُ بصاحبها يومَ القيامة، فيقول اللهُ: عبدي عَهِدَ إليَّ، وأنا أَحَقُّ مَنْ وَفَى، أَدْخِلُوا عبدي الجنة»[4].

وقال أبو عبد الله محمد بن عُمر الرازيّ: «العزيز» إشارة إلى كمال القُدرة، و«الحكيم» إشارة إلى كمال العلم، وهما الصفتان اللتان يمتنعُ حصول الإلهية إلا معهما، لأنَّ كونه قائماً بالقسط لا يتمُّ إلا إذا كان عالماً بمقادير الحاجات، فكان قادراً على تحصيل المهمَّات. وقدَّم «العزيز» في الذِّكر لأنَّ العلم بكونه تعالى

---

(١) الكشاف ١/ ٤١٧، وما بين حاصرتين زيادة منه للإيضاح.

(٢) يعني لـ «هو».

(٣) في (أ) والمطبوع: بالجمع، وهو تحريف.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠٤٥٣) من طريق عمر بن المختار، عن غالب القطان، عن الأعمش. قال ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ١١١: هذا حديث لا يصحّ عن رسول الله ﷺ، تفرَّد به عمر بن المختار، وعمر يُحدِّث بالأباطيل.

قادراً متقدِّمٌ على العلم بكونه عالماً في طريق المعرفة الاستدلالية. وهذا الخطاب مع المستدلّ. انتهى كلامه[١].

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ أي: الملَّة والشرع، والمعنى: إن الدِّين المقبول أو النافع أو المقرَّر.

قرأ الجمهور: «إنَّ» بكسر الهمزة، وقرأ ابن عباس والكسائيّ ومحمد بن عيسى الأصبهاني «أنَّ» بالفتح، وتقدَّمت قراءةُ ابن عباس: «شَهِدَ اللهُ إنَّه» بكسر الهمزة، فأمَّا قراءة الجمهور فعلى الاستئناف، وهي مؤكِّدة للجملة الأولى.

قال الزمخشريّ: فإن قلتَ: ما فائدةُ هذا التوكيد؟ قلت: فائدتُه أنَّ قوله: «لا إله إلا هو» توحيد، وقوله: «قائماً بالقسط» تعديل، فإذا أردفَه قوله: «إن الدِّين عند الله الإسلام» فقد آذَنَ أنَّ الإسلام هو العَدْلُ والتوحيد، وهو الدِّينُ عند الله، وما عداه فليس عنده شيء[٢] من الدين، وفيه أنَّ مَنْ ذهبَ إلى تشبيهٍ أو ما يُؤدِّي إليه، كإجازة الرؤية، أو ذهب إلى الجَبْر الذي هو محضُ الجَوْر، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام، وهذا بيِّنٌ جَليّ كما ترى. انتهى كلامه.

وهو على طريقة المعتزلة من إنكار الرؤية وقولِهم: إنَّ أفعال العبد مخلوقةٌ له لا للهِ تعالى.

وأما قراءةُ الكسائيّ ومن وافقَه في نصب «أنَّه» و«أنَّ»[٣]، فقال أبو عليّ الفارسيّ: إنْ شئتَ جعلتَه من بَدَل الشيء من الشيء، وهو هو، ألا ترى أنَّ الدِّين الذي هو الإسلام يتضمَّنُ التوحيدَ والعَدْل، وهو هو في المعنى؟ وإنْ شئتَ جعلتَه من بَدَل الاشتمال؛ لأنَّ الإسلام يشتملُ على التوحيد والعَدْل.

وقال: وإنْ شئتَ جعلتَه بَدَلاً من القِسْط؛ لأنَّ الدِّين الذي هو الإسلام قِسْطٌ وعَدْل، فيكون أيضاً من بَدَل الشيء من الشيء، وهما لعينٍ واحدة. انتهت

---

(١) تفسير الرازي ٧/ ٢٢١. والجملة الأخيرة ليست بحروفها منه، إنما هي مختصرة.

(٢) في الكشاف ١/ ٤١٨: في شيء. وفي مطبوع البحر: بشيء.

(٣) قرأ الجمهور (كما سلف): «أنَّه لا إله إلا هو» بفتح همزة «أنَّه». وقرأ الكسائي وحدَه من السبعة: «أنَّ الدِّين» بفتح همزة «أنَّ». ينظر التيسير ص٨٧.

تخريجات أبي عليّ[1]، وهو معتزليّ، فلذلك يشتملُ كلامُه على لفظ المعتزلة من التوحيد والعدل[2].

وعلى البَدَل من «أنه لا إله إلا هو» خرَّجه غيرُه أيضاً، وليس بجيّد؛ لأنه يؤدّي إلى تركيب بعيد أن يأتيَ مثلُه في كلام العرب وهو: عَرَفَ زيد أنه لا شجاعَ إلا هو وبنو تميم وبنو دارم ملاقياً للحروب لا شجاع إلا هو البطلُ المحامي أنَّ الخصلة الحميدة هي البَسَالة.

وتقريب هذا المثال: ضرب زيدٌ عائشةَ والعَمْرانِ حَنِقاً أختَك، فـ «حَنِقاً» حال من «زيد» و«أختَك» بدل من «عائشة»، ففَصَلَ بين البَدَل والمُبْدَل منه بالعطف، وهو لا يجوز، وبالحال لغير المبدَل منه، وهو لا يجوز، لأنه فصلٌ بأجنبيّ بين المبدَل منه والبدَل[3].

وخرَّجها الطبريّ على حذف حرف العطف، التقدير: وأنَّ الدِّين؛ قال ابنُ عطيَّة: وهذا ضعيف[4]. ولم يبيِّن وجهَ ضعفِه، ووَجْهُ ضعفِهِ أنَّه متنافرُ التركيب مع إضمار حرف العطف، فيفصلُ بين المتعاطِفَيْنِ المرفوعَين بالمنصوب المفعول، وبين المتعاطِفَيْنِ المنصوبَيْن بالمرفوع المشارك الفاعل في الفاعليَّة، وبجملتي الاعتراض، وصار في التركيب دون مراعاة الفصل نحو: أكلَ زيدٌ خُبزاً وعَمرٌو وسَمَكاً، وأصل التركيب: أكل زيدٌ وعَمرٌو خُبزاً وسمكاً، فإن فصلنا بين قولك: وعَمرو، وبين قولك: وسمكاً بِجُمَلٍ شَنُعَ التركيب، وإضمارُ حرفِ العطف لا يجوزُ على الأصحّ.

وقال الزمخشريّ: وقُرِئتا مفتوحتَيْن[5] على أنَّ الثاني بدلٌ من الأول، كأنه قيل شَهِدَ الله أنَّ الدِّينَ عندَ الله الإسلام، والبدَل هو المبدَل منه في المعنى، فكان بياناً

(١) بنحوه في الحجَّة ٣/ ٢٣، وتبعه الزمخشري ١/ ٤١٨ في بعضها.

(٢) تعقَّب السمين الحلبي شيخَه أبا حيان في الدّرّ المصون ٣/ ٨٤ بقوله: ومن يرغبُ عن التوحيد والعدل من أهل السنَّة حتى يَخُصَّ به المعتزلة؟! وإنما رأى في كلام الزمخشري هذه الألفاظ كثيراً، وهو عنده معتزليّ، فمن تكلَّم بالتوحيد والعدل كان عنده معتزليًّا!.

(٣) ينظر استدراك السمين على المصنف على كلامه هذا في المصدر السابق.

(٤) ينظر تفسير الطبري ٥/ ٢٧٦، والمحرر الوجيز ١/ ٤١٢.

(٥) المثبت من (د١)، واللفظة غير موجودة في (ت)، ولم تجوَّد في (ع)، وفي النسخ الأخرى: وقُرئا. وعبارة الكشاف ١/ ٤١٨: وقُرئا مفتوحين.

صريحاً، لأنَّ دينَ الإسلام هو التوحيد والعدل. انتهى. وهذا نقلُ كلام أبي عليّ دون استيفاء[١].

وأما قراءةُ ابنِ عبَّاس[٢]، فخُرِّجَ على «أنَّ الدِّين عند الله الإسلام» هو معمول «شَهِدَ»، ويكون في الكلام اعتراضان: أحدهما: بين المعطوف عليه والمعطوف، وهو: «إنه[٣] لا إله إلا هو»، والثاني: بين المعطوف والحال وبين المفعول لـ: «شَهِدَ» وهو: «لا إله إلا هو العزيز الحكيم».

وإذا أعربنا «العزيز» خبر مبتدأ محذوف؛ كان ذلك ثلاث اعتراضات، فانظر إلى هذه التوجيهات البعيدة التي لا يقدر أحدٌ على أن يأتيَ لها بنظيرٍ من كلام العرب، وإنَّما حمل على ذلك العُجمةُ وعدمُ الإمعان في تراكيب كلام العرب وحفظِ أشعارها، وكما أشرنا إليه في خطبة هذا الكتاب أنه لن يكفيَ النحوُ وحدَه في علم الفصيح من كلام العرب، بل لا بدَّ من الاطِّلاع على كلام العرب، والتطبُّع بطِباعها، والاستكثارِ من ذلك[٤].

والذي خرَّجتُ عليه قراءة «أنَّ الدِّين» بالفتح هو أن يكون الكلامُ في موضع المعمول للحكيم على إسقاط حرف الجرّ، أي: بأنَّ، لأنَّ «الحكيم» فعيل للمبالغة، كالعليم والسميع والخبير، كما قال تعالى: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] وقال: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[٥] [النمل: ٦] والتقدير: لا إله إلا هو العزيزُ الحاكم أنَّ الدِّينَ عندَ الله الإسلام[٦].

---

(١) ينظر المصدر السابق. وسلف كلام أبي علي قريباً.

(٢) يعني بفتح الهمزة من قوله: «أنّ الدِّين»، وهي أيضاً قراءة الكسائي من السبعة.

(٣) بكسر همزة «إنه» وهي قراءة ابن عباس، وسلف ذكرها.

(٤) تعقَّب السمين الحلبي في الدّرّ المصون ٣/ ٨٩ شيخَه أبا حيان بأن تلك الاعتراضات أثناء كلمات الآية الكريمة موجودٌ نظيرُها في كلام العرب. وقال: وكيف يجهلُ الفارسيّ والزمخشريّ والفرَّاء وأضرابُهم ذلك؟! وكيف يَتَبَجَّحُ باطّلاعه على ما لم يطّلع عليه مثلُ هؤلاء؟... وينظر تتمة كلامه.

(٥) بعد الآية الأولى: أنْ لا تَعْبُدُوا إلا الله... وبعد الثانية: إذْ قال موسى لقومه...

(٦) لم يوافق السمين الحلبي شيخَه أبا حيَّان على أن هذا الوجه سهل واضح، وقال: المتبادِر إلى الذهن ما نقله الناس. ينظر الدر ٣/ ٨٩.

ولما شهد تعالى لنفسه بالوحدانية وشهد له بذلك الملائكةُ وأولو العلم؛ حكمَ أنَّ الدِّينَ المقبولَ عندَه هو الإسلام، فلا ينبغي لأحدٍ أن يعدل عنه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ وعُدِلَ عن صيغة الحاكم إلى الحكيم لأجل المبالغة ولمناسبة العزيز، ومعنى المبالغة تكرارُ حُكْمِهِ بالنسبة إلى الشرائع أنَّ الدين عندَه هو الإسلام، إذ حَكَمَ في كلِّ شريعة بذلك.

فإن قلتَ: لِمَ حملتَ «الحكيم» على أنه مُحوَّل من فاعل إلى فَعِيل للمبالغة، وهلَّا جعلتَه فَعِيلاً بمعنى مُفْعِل، فيكون معناه: المُحْكِم، كما قالوا في «أليم»: إنه بمعنى مؤلم، وفي «سميع» من قوله:

أمِنْ رَيْحانَةَ الدَّاعي السَّميعُ[1]

أي: المُسْمِع.

فالجواب: أنَّا لا نُسلِّم أنَّ فَعِيلاً يأتي بمعنى مُفْعِل، وقد يؤوَّل «أليم» و«سميع» على غير مُفْعِل، ولئن سلَّمنا ذلك فهو من النُّدور والشُّذوذ والقلَّة بحيث لا ينقاس.

وأما فعيل المحوَّل من فاعل للمبالغة فهو منقاسٌ كثيرٌ جدًّا خارج عن الحصر، كعليم وسميع وقدير وخبير وحفيظ، في ألفاظٍ لا تُحصى.

وأيضاً فإنَّ العربيَّ القُحَّ الباقي على سليقته لم يفهم من «حكيم» إلا أنه محوَّل للمبالغة من حاكم، ألا ترى أنه لمَّا سمعَ قارئاً يقرأ: «والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهما جزاءً بما كَسَبَا نَكَالاً من الله والله غفورٌ رحيم» أنكرَ أن تكونَ فاصلةُ هذا التركيب السابق: «والله غفورٌ رحيم» فقيل له: التلاوة: «والله عزيزٌ حكيم» فقال: هكذا يكون: عَزَّ فحَكَمَ[2]. ففهِمَ من «حكيم» أنه مُحوَّل للمبالغة من «حاكم» وفَهْمُ هذا العربيّ حُجَّةٌ قاطعة بما قلناه، وهذا تخريجٌ سهلٌ سائغٌ جدًّا يُزيل تلك التَّكلُّفاتِ والتَّركيباتِ العَقِدَة التي يُنَزَّهُ كتاب الله عنها.

---

(١) هو صدر بيت لعمرو بن معديكرب، وعَجُزه: يُؤرِّقُني وأصحابي هُجوعُ. ينظر الأصمعيات ص١٧٢، وأمالي ابن الشجري ١/ ٩٨، وخزانة الأدب ٨/ ١٧٨.

(٢) ذكره أبو الفرج في الأغاني ٢١/ ٣٦٢ عن الأصمعي قال: سمع الفرزدق رجلاً يقرأ... الخ والآية من سورة المائدة (٣٨).

وأمَّا على قراءة ابن عباس فكذلك نقول، ولا نجعلُ «أن الدِّين» معمولاً لـ «شَهِدَ» كما زعموا[١]، وأنَّ «إنَّه لا إله إلا هو» اعتراض وأنه بين المعطوف والحال وبين «أنَّ الدِّين» اعتراض آخر أو اعتراضان، بل نقول: معمول «شَهِدَ»: «إنه» بالكسر، على تخريج مَنْ خَرَّجَ أنَّ «شَهِدَ» لمَّا كان بمعنى القول كُسر ما بعدَها إجراءً لها مُجرى القول، أو نقول: إنه معمولُها وعُلِّقَتْ، ولم تدخل اللام في الخبر لأنَّه منفيّ، بخلاف أنْ لو كان مُثْبَتاً، فإنك تقول: شهدتُ إنَّ زيداً لَمنطلقٌ، فيعلَّق بـ «إنَّ» مع وجود اللام، لأنَّه لو لم تكن اللام لفُتحت «إنَّ» فقلتَ: شهدتُ أنَّ زيداً منطلق، فمن قرأ بفتح «أنه»، فإنَّه لم ينو التعليق، ومَنْ كسرَ فإنه نوى التعليق، ولم تدخل اللام في الخبر لأنه منفيّ كما ذكرنا.

والإسلام هنا الإيمان والطاعات. قاله أبو العالية، وعليه جمهورُ المتكلِّمين، وعبَّر عنه قتادة ومحمد بن جعفر بن الزُّبير بالإيمان[٢]، ومرادُهما أنه مع الأعمال.

وقرأ عبد الله: «إن الدِّين عند الله الحنيفيَّة»؛ قال ابن الأنباريّ: ولا يخفى على ذي تمييز أنَّ هذا كلامٌ من النبيِّ ﷺ على جهة التفسير أدخلَه بعضُ من ينقلُ الحديثَ في القراءات[٣].

وقد تقدّم الكلام في الإسلام والإيمان أهُما شيءٌ واحد، أم هما مختلفان، والفرقُ ظاهرٌ في حديث سؤال جبريل[٤].

---

(١) في (دا) والمطبوع: فهموا.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٢٨١-٢٨٢، والمحرر الوجيز ١/ ٤١٣، والكلام منه.

(٣) الكلام في تفسير القرطبي ٥/ ٦٧، وفيه: أُبيّ بن كعب، بدل: عبد الله ـ وهو ابنُ مسعود ـ ﷺ، ولم أقف على من ذكرَ هذه القراءةَ عن عبد الله، وذكر ابنُ عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤١٣ عنه أنه قرأ: «إن الدِّين عند الله لَلإسلام». باللام. وقراءة أُبيّ بن كعب المذكورة هي قطعة من حديثه، أخرجه عنه أحمد في المسند (٢١٢٠٢)، والترمذي (٣٧٩٣) و(٣٨٩٨) وأوّلُه أن النبي ﷺ قال له: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن»...

(٤) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر ﷺ، وهو في سؤال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: ما الإيمان؟... ما الإسلام؟ ... ما الإحسان؟

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: اليهود أو النصارى، أو هما والمجوس[١]، أقوال ثلاثة.

فعلى أنهم اليهود ـ وهو قولُ الربيع بن أنس ـ الذي[٢] اختلفوا فيه التوراة؛ قال: لما حَضَرَتْ موسى عليه السلام الوفاةُ استودعَ سبعين من أحبار بني إسرائيل التوراةَ؛ عند كلِّ حَبْرٍ جُزء، واستخلفَ يُوشَعَ، فلما مضى ثلاثةُ قرون؛ وقعت الفُرْقة بينهم[٣].

وقيل: الذي اختلفوا فيه نُبوَّة نبيِّنا ﷺ، فقال بعضهم: بُعث إلى العرب خاصَّة، وقال بعضهم: ليس بالنبيِّ المبعوث؛ لأن ذلك هو من[٤] بني إسحاق.

وعلى أنهم النَّصارى ـ وهو قول محمد بن جعفر بن الزُّبير ـ فالذي اختلفوا فيه دينُهم، أو أمرُ عيسى، أو دينُ الإسلام. ثلاثةُ أقوال[٥].

وقال الزمخشريّ[٦]: هم أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى، واختلافُهم أنهم تركوا الإسلام، وهو التوحيدُ والعدلُ «من بعد ما جاءهم العلم» أنَّه الحقُّ الذي لا مَحِيدَ عنه، فثلَّثَتِ النَّصارى، وقالت اليهود: عُزيرٌ ابنُ الله، وقالوا: كُنَّا أحقَّ بأن تكون النبوةُ فينا من قريش، لأنَّهم أمِّيُّون ونحن أهل كتاب. وهذا تجويرٌ لله تعالى. انتهى.

ثم قال: وقيل: اختلافُهم في نبوَّة محمد ﷺ حيث آمن به بعض وكفر بعض،

---

(١) لم أقف على من ذكر المجوس في هذه الأقوال، والقول الثالث المذكور في التفاسير: اليهود والنصارى.

(٢) في النسخ الخطية: الذين. وأثبتُّ اللفظة على الجادَّة، وكذا وقع «الذين» بدل «الذي» في الموضع التالي في (د١) وحدها.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ٥/ ٢٨٣-٢٨٤. وأورده الثعلبي في تفسيره ٢/ ٢٩، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤١٣.

(٤) في (د١): حقق من، وفي مطبوع البحر: حقق في. وهو تحريف.

(٥) ينظر تفسير الطبري ٥/ ٢٨٤، وتفسير الثعلبي ٢/ ٣٠، وتفسير ابن عطية (المحرر الوجيز) ١/ ٤١٣، وتفسير الرازي ٧/ ٢٢٤.

(٦) الكشاف ١/ ٤١٩.

وقيل: اختلافُهم في الإيمان بالأنبياء، فمنهم مَنْ آمنَ بموسى، ومنهم مَنْ آمن بعيسى. انتهى.

والذي يظهر أنَّ اللفظ عامّ في «الذين أوتوا الكتاب» وأنَّ المختلفَ فيه هو الإسلام، لأنه تعالى قرَّر أنَّ الدِّين هو الإسلام[1].

ثم قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: في الإسلام حتى تنكَّبوه إلى غيره من الأديان ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ الذي هو سببٌ لاتِّباع الإسلام والاتفاقِ على اعتقادِه والعملِ به، لكن عَمُوا عن طريق العلم وسلوكه بالبغي الواقع بينهم من الحسد والاستئثار بالرِّياسة، وذهابِ كلٍّ منهم مذهباً يُخالفُ الإسلام حتى يصير رأساً يُتَّبعُ فيه، فكانوا ممَّن ضلَّ على علم.

وقد تقدَّم ما يُشبه هذا من قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣] وإعرابُ «بغياً»، وأنَّه أتى بعد «إلا» شيئان ظاهرُهما أنهما مستثنيان وتخريجُ ذلك، فأغنى عن إعادته هنا.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ هذا عامٌّ في كلِّ كافرٍ بآيات الله، فلا يُخَصُّ بالمختلفين من أهل الكتاب وإنْ جاءت الجملة الشرطية بعد ذكرهم.

وآياتُه هنا؛ قيل: حُجَجُه[2]، وقيل: التوراة والإنجيل وما فيهما من وصف نبيِّنا ﷺ، وقيل: القرآن.

وقال الماتريديّ[3]: أي: من المختلفين.

وتقدّم تفسير «سريع الحساب» فأغنى عن إعادته، وهذه الجملة جوابُ الشرط، والعائد منها على اسم الشرط محذوف، تقديره: سريع الحساب له.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ الضمير في «حاجُّوك» الظاهر أنه يعود على «الذين أوتوا الكتاب». وقال أبو مسلم: يعود على جميع الناس لقوله بعد: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾.

(١) في (أ) و(ب) و(ع) و(يه): الدين عند الله الإسلام. وسقط الكلام من (ت).
(٢) تفسير الطبري ٥/ ٢٨٥.
(٣) تفسيره ١/ ٢٥٤.

وقيل: يعود على نصارى نجران، قَدِمُوا المدينةَ للمُحاجَّة، وظاهرُ المُحاجِّ فيه أنه دينُ الإسلام، لأنّه السابق، وجوابُ الشرط هو: «فقُلْ أسلَمْتُ وَجْهِيَ لله» والمعنى: إنْقَدْتُ وأطَعْتُ وخَضَعْتُ للهِ وحدَه.

وعبَّر بالوجه عن جميع ذاته؛ لأنَّ الوجهَ أشرفُ الأعضاء، وإذا خضع الوجه فما سواه أخضع.

وقال المروزيّ ـ وسبقَه الفرَّاء إلى معناه ـ معنى «أسلمتُ وجهيَ أي: ديني[١]؛ لأنَّ الإيمان كالوجه بين الأعمال، إذْ هو الأصل.

وجاء في التفسير: أقولُ لكم كما قال إبراهيم وقد أجمعتُم على أنه محقّ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۞ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[٢] [الأنعام: ٧٨-٧٩].

وقال الزمخشريّ: «أسلمتُ وجهيَ» أي: أخلصتُ نفسي وعملي لله وحدَه، لم أجعل له شريكاً بأنْ أعبدَه وأدعُوَ[٣] إلهاً معه، يعني أنَّ ديني التوحيدُ، وهو الدينُ القيِّم[٤] الذي ثبتَ عندكم صحتُه كما ثبتَ عندي، وما جئتُ بشيء بديع حتى تجادلوني فيه، ونحوُه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية، فهو دفع للمجادلة. انتهى.

وفي تفسيره أطلق الوَجْهَ على النفس والعملِ معاً إلا إن كان أراد تفسير المعنى لا تفسير اللفظ، فيسوغُ له ذلك.

وقال الرازي[٥]: في كيفية إيراد هذا الكلام طريقان:

الأول: إنه إعراضٌ عن المُحاجَّة، إذ قد أظهرَ لهم الحُجَّةَ على صدقِه قبل نُزول

---

(١) في تفسير كلٍّ من الثعلبي ٢/ ٣٠ والرازي ٧/ ٢٢٧ عن الفرَّاء: معناه أخلصتُ عملي لله.

(٢) بنحوه في تفسير الرازي ٧/ ٢٢٦. وقوله: أقول لكم كما قال إبراهيم، تحرَّف في (د١) ومطبوع البحر إلى: أقوال لكم كما قال ابن نعيم!

(٣) في الكشاف ١/ ٤١٩ (والكلام منه): وأدعوه. وهو الأشبه.

(٤) في (د١) و(د٢) و(ح) و(يه): القديم. وفي (ت): القويم. والمثبت من (أ) و(ب) و(ع)، وهو موافق لما في المصدر السابق.

(٥) في تفسيره ٧/ ٢٢٥، والكلام ملخَّص منه كما سيذكر المصنف.

هذه الآية، فإنَّ هذه السورة مدنيَّة، وذلك بإظهار المعجزات بالقرآن وغيره، وقد ذكرَ قبل هذه الآية الحجَّة بقوله: ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ على فساد قول النصارى في إلهية عيسى، وبقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ على صحة نبوّته، وذكر شُبَهَ القوم وأجاب عنها، وذكر معجزةً أخرى، وهي ما شاهدوه يومَ بدر، وبيَّن القول بالتوحيد بقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾.

والطريق الثاني: أنه إظهارٌ للدليل، وذلك أنهم كانوا مُقِرِّين بالصانع واستحقاقِه للعبادة، فكأنَّه قال: أنا متمسِّكٌ بهذا القَدْر المتَّفَق عليه، والخلاف[1] فيما وراءَه، وعلى المدَّعي الإثبات.

وأيضاً كانوا معظِّمين إبراهيمَ عليه السلام، وأنه كان مُحِقًّا، وقد أُمِرَ أن يتَّبع ملَّتَه، وهنا أُمِرَ أن يقول كقوله، فيكون هذا من باب الإلزام، أي: أنا متمسِّك بطريقِ مَنْ هو عندَكم مُحِقٌّ. وهذا قاله أبو مسلم[2].

وأيضاً لَمَّا تقدَّم أنَّ الدِّين هو الإسلام، قيل له: إنْ نازَعُوك فقل: الدليلُ عليه أنِّي أسلمتُ وجهيَ لله. هذا تمامُ الوفاء بلزوم الرُّبُوبيَّة والعبوديَّة، فصحَّ أنَّ الدِّينَ الكاملَ الإسلامُ.

وأيضاً فالآية مناسِبة لقول إبراهيم: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ [مريم: ٤٢] أي: لا تجوز العبادة إلا لمن يكونُ نافعاً وضارّاً وقادراً على جميع الأشياء، وعيسى ليس كذلك.

وأيضاً فهذه إشارة إلى طريقة إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] ورُوِيَ هذا عن ابن عباس. انتهى ما لُخِّصَ من كلام الرازيّ: وليس أواخر كلامه بظاهرة من مراد الآية ومدلولها.

وفتحَ الياء من «وجهيَ» هنا وفي «الأنعام» نافع وابنُ عامر وحفص، وسكَّنَها الباقون[3].

---

(١) في (د١) ومطبوع البحر: والخلف.

(٢) هو أبو مسلم الأصفهاني كما في تفسير الرازي ٧/ ٢٢٦.

(٣) السبعة ص٢٢٢ و٢٧٥-٢٧٦، والتيسير ص٩٣ و١٠٨.

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ قيل «مَنْ» في موضع رفع، وقيل: في موضع نصب على أنه مفعول معه، وقيل: في موضع خفض عطفاً على اسم الله، ومعناه: جَعَلْتُ مَقْصِدي لله[(١)] بالإيمان به والطاعةِ له ولمن اتَّبعني بالحفظ له، والتَّحفِّي بتعليمه[(٢)] وصحبته[(٣)].

فأمَّا الرَّفع؛ فعطفاً على الفاعل في «أسلمتُ» قاله الزمخشريّ، وبدأ به[(٤)].

قال: وحَسُنَ للفاصل، يعني أنه عطفٌ على الضمير المتصل، ولا يجوز العطف على الضمير المتصل المرفوع إلا في الشِّعر على رأي البصريِّين إلا إن فُصل بين الضمير والمعطوف فيحسُن. وقالَه ابنُ عطيَّة أيضاً وبدأ به[(٥)].

ولا يمكن حملُه على ظاهره لأنه إذا عُطف على الضمير في نحو: أكلتُ رغيفاً وزيدٌ؛ لزمَ من ذلك أن يكونا شريكين في أكل الرغيف، وهنا لا يسوغُ ذلك؛ لأنَّ المعنى ليس على أنهم أسلمُوا هم وهو ﷺ وجهَه لله، وإنما المعنى أنه ﷺ أسلم وجهَه لله، وهم أسلمُوا وجوهَهم لله[(٦)]، فالذي يَقْوَى في الإعراب أنه معطوفٌ على الضمير محذوفٌ منه المفعول، لا مشاركٌ في مفعول أسلمتُ، التقديرُ: ومن اتبعني وجهَه. أو أنه مبتدأ محذوف الخبر لدلالة المعنى عليه [التقدير:][(٧)] ومَن اتَّبَعني كذلك، أي: أسلمُوا وجوهَهم للهِ، كما تقول: قضى زيدٌ نَحْبَهُ وعَمرٌو، أي: وعَمرٌو كذلك، أي: قضى نحبَه.

ومن الجهة التي امتنع عطف «ومَنْ» على الضمير إذا حُمل الكلامُ على ظاهره دون تأويل يمتنعُ كون «مَنْ» منصوباً على أنه مفعول معه؛ لأنك إذا قلتَ: أكلتُ رغيفاً وعَمْراً، أي: مع عَمرٍو دَلَّ ذلك على أنه مشارِك لك في أكل الرغيف، وقد

(١) لفظة: «لله» لم ترد في (د١) والمطبوع. والكلام بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٤١٤.
(٢) في النسخ الخطية: بتعلمه. والمثبت من المحرر الوجيز ١/ ٤١٤ والكلام فيه بنحوه.
(٣) في (د١) ومطبوع البحر: وصحته.
(٤) الكشاف ١/ ٤١٩.
(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤١٤.
(٦) قال السمين: إنما صحَّ في نحو: أكلتُ رغيفاً وزيدٌ المشاركةُ لإمكان ذلك، وأما نحو الآية الكريمة فلا يَتَوهَّم أحدٌ فيه المشاركةَ. ينظر الدر المصون ٣/ ٩١.
(٧) زدتُ هذه اللفظة بين حاصرتين من أجل السياق.

أجاز هذا الوجهَ الزمخشريّ، وهو لا يجوز لما ذكرنا على كلّ حال، لأنه لا يمكن تأويلُ حذف المفعول مع كون الواو واو «مع» البتَّة.

وأثبت ياء «اتَّبعني» في الوصل أبو عَمْرو ونافع، وحذفَها الباقون[1]، وحَذْفُها أحسنُ لموافقة خطّ المصحف، ولأنَّها رأسُ آية، كقوله: أكْرَمَنِ، وأهانَنِ[2] [الفجر: ١٥-١٦] فيُشْبِهُ قوافيَ الشِّعر، كقول الشاعر:

وهَـلْ يَـمْـنَـعَـنِّـي ارْتِـيـادُ[3] الـبِـلا ... دِ مِـنْ حَـذَرِ الـمـوتِ أنْ يَـأْتِـيَـنْ

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: هم اليهود والنصارى باتفاق.

﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾: هم مشركو العرب، ودخل في ذلك كلُّ من لا كتابَ له.

﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ تقرير في ضمنه الأمر[4].

وقال الزَّجَّاج: تهدُّد؛ قال ابن عطيّة[5]: وهذا حَسَنٌ؛ لأنَّ المعنى: أأسلمتُم له أم لا؟

وقال الزمخشريّ[6]: يعني أنه قد أتاكم من البيِّنات ما يُوجب الإسلام ويقتضي حصولَه لا محالة، فهل أسلمتُم، أم أنتم بعدُ على كفركم؟ وهذا كقولك لمن لخَّصْتَ له المسألة ولم تُبْقِ من طرق البيان والكشف طريقاً إلا سلكتَه: هل

---

(١) السبعة ص٢٢٢-٢٢٣، والتيسير ص٩٣.

(٢) موضع كلمة «اتَّبَعَنِ» ليس رأسَ آية، ولعله أراد الوقفَ عليها. وعبارة المحرر الوجيز ١/ ٤١٤: وهذه النون إنما هي لتسلم فتحة لام الفعل، فهي مع الكسرة تغني عن الياء لاسيما إذا كانت رأس آية. . . فمن ذلك قوله تعالى: (ربي أكرمن). وينظر الدر المصون ٣/ ٩٢.

(٣) كذا في النسخ الخطية والمحرر الوجيز ١/ ٤١٤. وفي «ديوان» الأعشى ص٦٥ (والبيت له)، و«الكتاب» ٤/ ١٨٧ (والبيت من شواهده): ارتيادي.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤١٤. وتفصيل الكلام في تفسير الطبري ٥/ ٢٨٧. وقوله: تقرير، يعني استفهام تقرير، وينظر أيضاً تفسير الطبري ٥/ ٢٨٦-٢٨٧، وتحرَّفت اللفظة في (د١) والمطبوع إلى تقدير.

(٥) في المحرر الوجيز ١/ ٤١٤، وكلام الزجاج الذي قبله فيه، وهو في معاني القرآن له ١/ ٣٩٠.

(٦) الكشاف ١/ ٤١٩-٤٢٠.

فهمتَها؟! لا أمَّ لك! ومنه قولُه عزَّ وعلا: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] بعدَ ما ذكر الصوارفَ عن الخمر والميسر. وفي هذا الاستفهام استقصارٌ وتعيير بالمعاندة وقلَّة الإنصاف؛ لأنَّ المُنصف إذا تجلَّت له الحُجَّة؛ لم يتوقَّف إذْعانُه للحقّ، وللمعاند بعدَ تجلّي الحُجَّة ما يضربُ أسداداً بينه وبين الإذعان، وكذلك في «هل فهمتَها» توبيخٌ بالبَلادة وكِلَّةِ القَريحة، وفي «فهل أنتم منتهون» بالتقاعد عن الانتهاء والحرص الشديد على تعاطي المنهيِّ عنه. انتهى كلامُه. وهو حسن وأكثرُه من باب الخَطابة.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ أي: إنْ دخلُوا في الإسلام فقد حصلت لهم الهداية، وعُبِّر بصيغة الماضي المصحوب بـ «قد» الدالَّة على التحقيق مبالغةً في الإخبار بوقوع الهدى وحصوله لهم.

وقال الزمخشريّ: فقد نفعُوا أنفسَهم حيث خرجُوا من الضّلالة إلى الهدى[١] ومن الظلمة إلى النور. انتهى.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أي: هم لا يَضُرُّونك بتولِّيهم، وما عليك أنت إلا تنبيهُهُم بما تُبَلِّغُهُ إليهم من طلب إسلامهم وانتظامهم في عبادة الله وحدَه.

وقيل: إنها آيةُ موادعة منسوخةٌ بآية السيف، ولا تحتاج إلى معرفة تاريخ النزول[٢] وإذا نظرتَ إلى سبب نزول هذه الآيات ـ وهو وفود وفد نجران ـ فيكون المعنى: فإنما عليك البلاغ بقتالٍ وغيره.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فيه وعيدٌ وتهديدٌ شديد لمن تولَّى عن الإسلام، ووَعْدٌ بالخير لمن أسلم، إذْ معناه أنَّ الله مطَّلع على أحوال عبيدِه، فيُجازيهم بما تقتضي حكمتُه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية هي في اليهود والنصارى. قاله محمد بنُ جعفر بن الزُّبير وغيرُه، وصَفَ مَنْ تولَّى عن الإسلام وكفرَ بثلاث صفات.

---

(١) من قوله: وحصوله لهم.. إلى هذا الموضع، سقط من مطبوع البحر.

(٢) وقال ابن عطية خلافَ هذا، قال: وهذا يحتاج أن يقترن به معرفةُ تاريخ نزولها. ينظر المحرر الوجيز ١/ ٤١٤.

إحداها: كفره بآيات الله، وهم وإن كانوا مُقِرِّين[١] بالصانع جُعل كُفْرُهم ببعضٍ مِثْلَ كفرِهم بالجميع، أو بجعلِ «بآيات الله» مخصوصاً بما يسبق إليه الفهم من القرآن والرسولِ ﷺ.

الثانية: قتلهم الأنبياء وقد تقدَّمت كيفيةُ قتلِهم في البقرة [٦١] في قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ والألف واللام في «النبيِّين» للعهد.

والثالثة: قتلُ مَنْ أَمَرَ بالعدل[٢].

فهذه ثلاثة أوصاف بُدِئَ فيها بالأعظم فالأعظم، وبما هو سببٌ للآخَر.

فأوَّلُها: الكُفر بآيات الله، وهو أقوى الأسباب في عدم المبالاة بما يقع من الأفعال القبيحة.

وثانيها: قتلُ مَنْ أظهرَ آياتِ الله واستدلَّ بها.

والثالث: قتلُ أتباعِهم ممَّن يأمرُ بالمعروف وينهى عن المنكر.

وهذه الآية جاءت وعيداً لمن كان في زمانه ﷺ، ولذلك جاءت الصِّلة بالمستقبل. ودخلت الفاء في خبر «إنَّ» لأنَّ الموصول ضُمِّنَ معنى اسم الشرط. ولمَّا كانوا على طريقة أسلافِهم في ذلك نُسب إليهم ذلك، ولأنهم أرادوا قَتْلَهُ ﷺ وقَتْلَ أتْباعِه، فأُطلق ذلك عليهم مجازاً، أي: مِن شأنهم وإرادتِهم ذلك ويُحتمل أن تكون الفاءُ زائدة على مذهب مَنْ يرى ذلك، وتكون هذه الجملة حكايةً عن حال آبائهم وما فعلوه في غابر الدَّهر من هذه الأوصاف القبيحة، ويكونُ في ذلك إرذالٌ لمن انتصبَ لعداوة رسول الله ﷺ، إذ هم سالكون في ذلك طريقةَ آبائهم.

والمعنى: إنَّ آباءكم الذين أنتم مستمسكون بدينهم كانوا على الحالة التي أنتم عالمون بها من الاتِّصاف بهذه الأوصاف، فينبغي لكم أن تسلكوا غيرَ طريقهم، فإنَّهم لم يكونوا على حقّ. فذِكْرُ تقبيح الأوصاف والتوعُّدُ عليها بالعقاب ممَّا يُنفِّرُ عنها، ويحملُ على التحلِّي بنقائضها من الإيمان بآيات الله وإجلالِ رسله واتِّباعهم.

(١) في (د١): وهم مُقِرِّين، سقط منها لفظ «وإن كانوا»، وفي مطبوع البحر: وهم مقرُّون.
(٢) الكلام بنحوه مفصَّل في تفسير الرازي ٧/ ٢٢٩-٢٣٠.

وقرأ الحسن[١]: «ويُقَتِّلُونَ النبيِّين» بالتشديد، والتشديد هنا للتكثير بحسب المحلّ.

وقرأ حمزة وجماعة من غير السبعة: «ويقاتلون» الثاني[٢].

وقرأها الأعمش: «وقاتَلوا الذين» وكذا هي في مصحف عبد الله[٣].

وقرأ أُبيّ: «يقتلون النبيين والذين يأمرون»[٤].

ومَنْ غايرَ بين الفعلين فمعناه واضح، إذ[٥] لم يذكر أحدَهما على سبيل التوكيد، ومن حذفَ اكتفى بذكر فعلٍ واحد لاشتراكهم في القتل، ومن كرَّر الفعل فذلك على سبيل عطف الجمل وإبراز كلِّ جملة في صورة التشنيع والتفظيع؛ لأنَّ كلَّ جملة مستقلةٌ بنفسها، أو لاختلاف ترتُّب العذاب بالنسبة على مَنْ وقع به الفعل، فقَتْلُ الأنبياء أعظمُ من قَتْلِ مَنْ يأمرُ بالمعروف من غير الأنبياء، فجُعلَ القتلُ بسبب اختلاف مُترتِّبهِ[٦] كأنَّهما فعلان مختلفان.

وقيل: يحتمل أن يراد بأحد القتلين تفويتُ الرُّوح، وبالآخر الإهانةُ وإماتةُ الذِّكر، فيكونان إذ ذاك مختلفين.

وجاء في هذه السورة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بصيغة التنكير، وفي البقرة [٦١] «بغير الحقِّ» بصيغة التعريف لأنَّ الجملة هنا أُخرجت مخرجَ الشرط، وهو عامّ لا يتخصَّص، فناسب أن يكون المنفيّ بصيغة التنكير حتى يكونَ عامًّا، وفي البقرة جاء ذلك في صورة الخبر عن ناس معهودين، وذلك قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فناسبَ أن يأتيَ بصيغة التعريف، لأنَّ الحقَّ الذي كان يُستباح به قتلُ الأنفس عندهم كان معروفاً، كقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ

(١) تفسير الثعلبي ٢/ ٣١، والكشاف ١/ ٤٢٠، وتفسير الرازي ٧/ ٢٢٩.
(٢) يعني قوله: ويقاتلون الذين... وهي في السبعة ص٢٠٣، والتيسير ص٨٧.
(٣) تفسير الثعلبي ١/ ٣١، والكشاف ١/ ٤٢٠، والمحرر الوجيز ١/ ٤١٥.
(٤) الكشاف ١/ ٤٢٠، وتفسير الرازي ٧/ ٢٣١.
(٥) في (د١) والمطبوع: إذا. وفي (أ) و(ب) و(ت) و(ع): وإذا. وهي غير واضحة في (ح). والمثبت من (د٢) و(يه).
(٦) في (ت) و(ع): مرتبة، وفي مطبوع البحر: مرتبته.

﴿فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] فالحقُّ هذا الذي تُقتل به الأنفس معهودٌ معروف، بخلاف ما في هذه السورة.

وقد تقدّم في البقرة أنَّ قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ هي حالٌ مؤكِّدة، إذْ لا يقعُ قتلُ نبيٍّ إلا بغير الحق، وأوضحنا ذلك، فأغنَى عن إعادته وإيضاحِه هنا.

ومعنى «من الناس» أي: غير الأنبياء، إذ لو قال: «ويقتلون الذين يأمرون بالقسط» لكان مندرجاً في ذلك الأنبياءُ لصدق اللفظ عليهم، فجاء: «من الناس» بمعنى: من غير الأنبياء.

قال الحسن: تدلُّ الآية على أنَّ القائم بالأمر بالمعروف تلي منزلتُه في العِظَم منزلةَ الأنبياء.

وعن أبي عُبيدة بن الجرَّاح: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ الناسِ أشدُّ عذاباً يومَ القيامة؟ قال: «رجلٌ قتلَ نبيًّا أو رجلاً أمرَ بمعروف ونهى عن منكر» ثم قرأها. ثمَّ قال: «يا أبا عُبيدة، قَتَلَتْ بنو إسرائيل ثلاثةً وأربعين نبيًّا من أوَّل النهار في ساعة واحدة، فقام مئةٌ واثنا عَشَرَ رجلاً من عُبَّاد بني إسرائيل، فأَمَرُوا قَتَلَتَهُم بالمعروف، ونَهَوْهُم عن المنكر، فقُتلوا جميعاً من آخِر النهار»[1].

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الخطابُ للنبيِّ ﷺ، وهو يدلُّ على أنَّ المرادَ معاصِرُوه، لا آباؤهم، فيكون إطلاقُ قَتْلِ الأنبياء مجازاً لأنَّهم لم يَقتلوا أنبياءَ، لكنَّهم رضُوا ذلك وراموه، وهذه الجملة هي خبر «إنَّ»، ودخلت الفاء لما تَضَمَّن الموصولُ من معنى اسم الشرط كما قدَّمناه، ولم يُعْبَ بهذا الناسخ لأنه لم يُغَيِّر معنى الابتداء، أعني «إنَّ»، ومع ذلك في المسألة خلاف، الصحيحُ جوازُ دخول الفاء في خبر «إنَّ» إذا كان اسمُها مضمَّناً معنى الشرط.

وقد تقدَّمت شروطُ جواز دخول الفاء في خبر المبتدأ، وتلك الشروط معتبرة

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٢٩١، وتفسير الثعلبي ٢/ ٣١، والكشاف ١/ ٤٢٠، وتفسير القرطبي ٥/ ٧٢.

هنا، ونظيرُ هذه الآية في دخول الفاء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٣]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البروج: ١٠]. ومَنْ منعَ ذلك جعل الفاء زائدة، ولم يقس زيادتها.

وتقدَّم أنَّ البِشارة هي أوَّلُ خبر سارّ، فإذا استُعملت مع ما ليس بسارٍّ؛ فقيل: ذلك هو على سبيل التَّهكُّم والاستهزاء كقوله:

تَحِيَّةُ بينِهم ضَرْبٌ وَجِيعُ[1]

أي: القائمُ لهم مَقام الخبر السارّ هو العذابُ الأليم.

وقيل: هو على معنى تأثّر البَشَرة من ذلك، فلم يؤخذ فيه قيد السرور، بل لُوحِظَ معنى الاشتقاق.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ تقدَّم تفسير هذه الجملة عند قوله: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ [البقرة: ٢١٧] فأغنى عن إعادته.

وقرأ ابنُ عبَّاس وأبو السَّمَّال: «حَبَطَتْ» بفتح الباء، وهي لغة[2].

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ مجيءُ الجمع هنا أحسنُ من مجيء الإفراد؛ لأنَّه رأسُ آية، ولأنه بإزاء مَنْ للمؤمنين من الشُّفعاء الذين هم الملائكة والأنبياء وصالحو المؤمنين، أي: ليس لهم كأمثال هؤلاء.

والمعنى بانتفاء الناصرين انتفاءُ ما يترتَّب على النصر من المنافع والفوائد، وإذا انتفَتْ من جمعٍ فانتفاؤها من واحد أوْلَى، وإذا كان جمعٌ لا يَنْصُر؛ فأحرى أن لا يَنْصُرَ واحدٌ.

---

(١) هو عَجزُ بيت، وصدرُه: وخَيْلٍ قد دَلَفْتُ لها بِخَيْلٍ. وهو من شواهد الكتاب ٢/ ٣٢٣ و٣/ ٥٠، ونُسب فيه لعمرو بن معديكرب. وينظر الخصائص ١/ ٣٦٨، وخزانة الأدب ٩/ ٢٥٧. وسلف في تفسير الآية (٢٠٧) من سورة البقرة.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤١٥. ونُسبت في القراءات الشاذة ص١٩ لأبي واقد وأبي الجرَّاح.

ولمَّا تقدَّم ذكرُ معصيتهم بثلاثة أوصاف؛ ناسبَ أن يكونَ جزاؤهم بثلاثة ليُقابَلَ كلُّ وصف بمناسِبِه، ولمَّا كان الكُفر بآيات الله أعظمَ؛ كان التبشيرُ بالعذاب الأليم أعظم، وقابلَ قتلَ الأنبياء بحُبوطِ العمل في الدنيا والآخرة، ففي الدُّنيا بالقتل والسبْي وأخذِ المال والاسترقاق، وفي الآخرة بالعقاب الدائم، وقابلَ قتلَ الآمرين بالقسط بانتفاء الناصرين عنهم إذا حلَّ بهم العذاب؛ كما لم يكن للآمرين بالقسط مَنْ ينصرُهم حين حلَّ بهم قتلُ المعتدين؛ كذلك المعتدون لا ناصِرَ لهم إذا حلَّ بهم العذاب.

وفي قوله: «أولئك» إشارةٌ إلى مَنْ تقدَّم موصوفاً بتلك الأوصاف الذميمة، وأخبر عنه بـ «الذين» إذْ هو أبلغُ من الخبر بالفعل، ولأنَّ فيه نوعَ انحصار، ولأنَّ جَعْلَ الفعل صلةً يدلُّ على كونها معلومةً للسامع معهودةً عنده، فإذا أخبرتَ بالموصول عن اسم استفاد المخاطَبُ أنَّ ذلك الفعل المعلوم عنده المعهود[١] هو منسوبٌ للمخبَر عنه بالموصول؛ بخلاف الإخبار بالفعل، فإنك تخبر المخاطَبَ بصدوره عمَّن أخبرتَ به عنه، ولا يكون ذلك الفعل معلوماً عنده، فإنْ كان معلوماً عنده جعلتَه صلةً وأخبرتَ بالموصول عن الاسم.

قيل: وجمعَتْ هذه الآيات ضُروباً من الفَصاحة والبلاغة:

أحدُها: التقديم والتأخير في ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ قال ابنُ عبَّاس: التقديرُ: شَهِدَ الله أنَّ الدِّين عند الله الإسلام إنه لا إله إلا هو. ولذلك قرأ: «إنَّه» بالكسر، و«أنَّ الدِّين» بالفتح.

وإطلاق اسم السبب على المسبَّب في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ عبَّر بالعلم عن التوراة والإنجيل، أو النبيِّ ﷺ؛ على الخلاف الذي سبق.

وإسناد الفعل إلى غير فاعله في «حَبِطَتْ أعمالُهم» و«أصحاب النار».

والإيماء في قوله: «بَغْياً بينهم» فيه إيماءٌ إلى أنَّ البغي[٢] دائرٌ بينهم[٣]، شائع فيهم، وكلُّ فِرْقة منهم تُجاذبُ منه طرفاً.

---

(١) في (د١) والمطبوع: أن ذلك الفعل المعهود المعلوم عنده المعهود.. وفي (أ) و(ع): أن ذلك المخاطب بالمعلوم عنده المعهود... الخ.

(٢) في (د١) و(د٢) و(ح) و(يه) ومطبوع البحر: النفي. وهو تحريف.

(٣) لم ترد لفظة «بينهم» في (د١) والمطبوع.

والتعبير بـ «بعض» عن «كلّ» في «أسلمتُ وجهي».

والاستفهام الذي يُرادُ به التقريرُ أو التوبيخ والتقريع في قوله: «أأسلمتم».

والطِّباق المقدّر في قوله: «فإن أسلموا فقد اهتَدَوْا وإنْ تَوَلَّوا فإنما عليك البلاغ». ووجهُه أنَّ الإسلام الانقيادُ إلى الإسلام والإقبالُ عليه، والتولّي ضدُّ الإقبال، والتقدير: وإن تَوَلَّوْا فقد ضلُّوا، والضلالة ضدُّ الهداية.

والحشو الحسن في قوله: «بغير حقّ» فإنه لم يُقتل قطّ نبيّ بحقّ، وإنما أتى بهذه الحشوة ليتأكّدَ قبحُ قتلِ الأنبياء ويعظُمَ أمرُه في قلب العازم عليه.

والتكرار في: «ويقتلون الذين» تأكيداً لقُبح ذلك الفعل.

والزيادة في «فبشّرهم» زاد الفاء إيذاناً بأنَّ الموصول ضُمّن معنى الشرط.

والحذف في مواضع قد تكلَّمنا عليها فيما سبق.

* * *

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ
فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى
دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا
كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ
مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ
فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن
تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ
فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾
قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ
تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ
تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ
وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

غَرَّ يَغُرُّ غروراً: خَدَعَ، والغِرُّ الصغير، والغَرِيرَة الصغيرة، سُمِّيَا بذلك لأنهما ينخدعان بالعَجَلة، والغِرَّة منه، يُقال: أخذَه على غِرَّة، أي: تغفُّل وخِداع، والغُرَّة بَياضٌ في الوجه، يقال منه: وَجْهٌ أغَرُّ، ورجلٌ أغَرُّ، وامرأةٌ غَرَّاءُ، والجمع على القياس فيهما غُرّ، قالوا: وليس بقياس، وغُرَّان[1]، قال[2]: المفردات

ثِيابُ بني عَوْفٍ طَهارَى نَقِيَّةٌ ... وأَوْجُهُهُم عند المشاهِدِ غُرَّانُ

نَزَعَ يَنزِعُ: جَذَبَ، وتَنازَعْنا الحديث: تَجاذَبْناه، ومنه نزاعُ الميِّت، ونَزَعَ إلى كذا: مالَ إليه وانجذب، ثم يُعبَّر به عن الزَّوال، يقال: نَزَعَ الله عنه الشَّرَّ: أزَالَه.

وَلَجَ يَلِجُ وُلوجاً ولِجَةً ووَلْجاً[3]، وتَوَلَّج تَوَلُّجا، واتَّلَجَ اتِّلاجاً. قال[4]:

فإنَّ القَوافي يَتَّلِجْنَ مَوالِجاً ... تَضايَقُ عنها أنْ تَوَلَّجَها الإِبَرْ

الأَمَدُ: غايةُ الشيء ومنتهاه، وجمعه آماد.

اللهمَّ: هو الله، إلا أنه مختصٌّ بالنداء، فلا يستعمل في غيره، وهذه الميم التي لحقَتْه عند البصريين هي عِوَضٌ من حرف النِّداء، ولذلك لا تدخلُ عليه إلا في الضرورة، وعند الفرَّاء هي من قوله: يا الله أُمَّنَا بخير. وقد أبطلُوا هذا المذهب في علم النحو. وكثرت هذه اللفظة حتى حذفُوا منها «أل» فقالوا: لاهمَّ، بمعنى «اللهمَّ» قال الرَّاجز:

لاهُمَّ إنَّ عامِرَ[5] بنَ جَهْمِ ... أحْرَمَ حَجًّا في ثِيابٍ دُسْمِ[6]

وخُفِّفَتْ ميمُها في بعض اللغات؛ قال:

---

(١) في الدُّرّ المصون ٣/ ٩٦: الجمع القياسي: غُرّ، وغير القياسي: غُرَّان.

(٢) هو امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص٨٣.

(٣) ضُبطت في (ح) بفتح اللام، وقُيِّدت في الدُّر المصون ٣/ ١٠٢ على وزن وَعْد.

(٤) هو طرفة بن العبد، والبيت في البيان والتبيين ١/ ١٥٨، والخصائص ١/ ١٤، وشرح المفصل ١٠/ ٣٧.

(٥) في (د١) و(د٢) و(ح) و(يه): إني عامر - والمثبت من (أ) و(ب) و(ت) و(ع).

(٦) هو في اللسان (وذم) برواية: أوْذَمَ حجًّا. وهما بمعنى. وقوله: ثيابٍ دُسْم، أي: متلطّخة بالذنوب.

كَحَلْفَةٍ من أبي رياحٍ يَسْمَعُها اللَّهُمُ الكُبَارُ[(١)]

الصَّدْر معروف، وجمعه صُدُور.

* * *

التفسير ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال السُّدِّيّ: دعا النبيُّ ﷺ اليهودَ إلى الإسلام، فقال له النُّعمان بن أبي أوفى: هَلُمَّ نُخاصِمْك إلى الأحبار، فقال: «بل إلى كتاب الله» فقال: بل إلى الأحبار. فنزلت[(٢)].

وقال ابن عباس: دخلَ ﷺ إلى المِدْراس على اليهود، فدعاهم إلى الله، فقال نُعيم بنُ عَمرو والحارثُ بنُ زيد: على أيِّ دِينٍ أنتَ يا محمد؟ فقال: «على مِلَّة إبراهيم» قالا: إنَّ إبراهيم كان يهوديًّا. فقال ﷺ: «فهلمُّوا إلى التوراة» فأَبَيا عليه. فنزلت[(٣)].

وقال الكلبي: زنى رجلٌ منهم بامرأة، ولم يكن بعدُ في ديننا الرَّجْم، فتحاكموا إلى رسول الله ﷺ تخفيفاً للزانيَيْن لشرفهما، فقال ﷺ: «إنَّما أحكم بكتابكم» فأنكروا الرَّجْم، فجيء بالتوراة، فوَضَعَ حَبْرُهُم ابنُ صُوريا يدَهُ على آية الرَّجْم، فقال عبدُ الله بنُ سَلَام: جاوزَها يا رسول الله، فأظهرَها فرُجِما[(٤)].

---

(١) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص٣٣٣ برواية: لاهُمُ الكُبارُ. وسلف أوائل تفسير سورة الفاتحة. وينظر شرح ألفاظه ثمة. قال البغدادي في خزانة الأدب ٢/ ٢٦٩: أورده جماعة من النحويين؛ منهم المرادي في شرح ألفيته: يسمعها لاهُمُ الكُبارُ. على أن فيه شذوذَيْن: أحدُهما: استعمالُه في غير النداء، لأنه فاعل يسمعها، والثاني: تخفيفُ ميمه، وأصلُها التشديد. ثم نقل عن الأصمعي رواية: يسمعها الواحدُ الكُبَار. اهـ. وسيكرر المصنف البيت في شرح الآيات قريباً، ويذكر فيه هذين الشذوذين. وينظر أيضاً الدّرّ المصون ٣/ ٩٨.

(٢) تفسير الثعلبي ٢/ ٣٢، وزاد المسير ١/ ٣٦١-٣٦٧.

(٣) تفسير الثعلبي ٢/ ٣٢-٣٣، وتفسير الطبري ٥/ ٢٩٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤١٥، وزاد المسير ١/ ٣٦٦، وتفسير القرطبي ٥/ ٧٧.

(٤) تفسير الثعلبي ٢/ ٣٣، وزاد المسير ١/ ٣٦٦.

وقال النقاش: نزلت في جماعة من اليهود أنكروا نبوَّته، فقال لهم: «هلمُّوا إلى التوراة، ففيها صفتي» [فأبَوْا][(١)].

وقال مقاتل: دعا جماعةً من اليهود إلى الإسلام، فقالوا: نحن أحقُّ بالهدى منك، وما أرسلَ الله نبيًّا إلا من بني إسرائيل. قال: «فأَخْرِجُوا التوراةَ، فإني مكتوبٌ فيها أني نبيّ» فأبَوْا، فنزلت[(٢)].

و«الذين أوتوا نصيباً من الكتاب» هم اليهود، و«الكتاب» التوراة. وقال مكيّ وغيرُه: اللوح المحفوظ[(٣)].

وقيل: «من الكتاب» جنس للكتب المنزلة. قاله ابنُ عطية وبدأ به، والزمخشريّ[(٤)]. و«من» تبعيض.

وفي قوله: «نصيباً» - أي: طرفاً وحظّاً - هو[(٥)] بعضُ الكتاب، وفي ذلك تحقيرٌ لهم[(٦)]؛ إذْ هُم لم يحفظوه ولم يعلموا جميعَ ما فيه.

﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ هو التوراة. وقال الحسن وقتادة وابنُ جُريج: القرآن. و«يُدْعَوْن» في موضع الحال من «الذين» والعامل: «تَرَ»، والمعنى: ألا تعجبُ من هؤلاء مَدْعُوِّين إلى كتاب الله، أي: في حال أن يُدْعَوْا إلى كتاب الله.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليحكم الكتاب بينهم[(٧)].

وقرأ الحسن وأبو جعفر وعاصم الجحدريّ: «لِيُحْكَمَ» مبنياً للمفعول[(٨)]، والمحكومُ فيه هو ما ذُكر في سبب النزول.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤١٥-٤١٦، وتفسير القرطبي ٥/ ٧٧. وما بين حاصرتين منهما. وهو بنحو قول مقاتل الآتي.
(٢) زاد المسير ١/ ٣٦٧.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤١٦. ولفظ قول مكي فيه: الكتاب الأول اللوح المحفوظ، والثاني التوراة.
(٤) الكشاف ١/ ٤٢٠، والمحرر الوجيز ١/ ٤١٦.
(٥) في (د١) والمطبوع: وظاهر، بدل: وحظاً هو.
(٦) قوله: وتحقيرٌ لهم، من (أ) و(ب) و(ت) و(ع).
(٧) لفظة «بينهم» من (يه).
(٨) المحرر الوجيز ١/ ٤١٦. وأبو جعفر من العشرة، وقراءتُه في النشر ٢/ ٢٢٧، وهي في الكشاف ١/ ٤٢٠ دون نسبة.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ هذا استبعاد لتولِّيهم بعد علمهم بأنَّ الرُّجوع إلى كتاب الله واجب[(١)]، ونَسبَ التولِّي إلى فريق منهم لا إلى جميع المَدْعُوِّين[(٢)] لأنَّ منهم من أسلم ولم يتولَّ، كابن سلَام وغيره[(٣)].

﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ جملة حاليّة مؤكِّدة، لأنَّ التولِّي هو الإعراض، أو مُبيِّنة لكون التولِّي عن الداعي والإعراض عمَّا دعا إليه، فيكون المتعلَّق مختلفاً، أو لكون التولِّي بالبَدَن والإعراض بالقلب، أو لكون التولِّي من علمائهم والإعراض من أتباعهم. قاله ابنُ الأنباريّ. أو جملة مستأنَفة؛ أخبر عنهم بأنهم قومٌ لا يزالُ الإعراضُ عن الحقّ واتِّباعِه من شأنهم وعادتهم.

وفي قوله: «بينهم» دليلٌ على أنَّ المتنازَعَ فيه كان بينَهم واقعاً، لا بينهم وبين رسول الله ﷺ، وهو خلاف ما ذُكر في أسباب النزول، فإنْ صحَّ سببٌ منها كان المعنى: ليحكمَ بينهم وبين رسول الله ﷺ، وإن لم يصحَّ حُمل على الاختلاف الواقع بين مَنْ أسلم من أحبارهم وبين مَنْ لم يُسْلم، فدُعُوا إلى التوراة التي لا اختلافَ في صحتها عندهم[(٤)] ليحكم بين المُحِقّ والمُبْطِل، فتولَّى مَنْ لم يُسْلم.

قيل: وفي هذه الآية دليلٌ على صحَّة نبوَّة رسول الله ﷺ؛ لأنَّهم لولا علمُهم

---

(١) الكشاف ١/ ٤٢٠. وقوله: استبعاد يعني به استبعاد مضمون الجملة الواقعة بعد «ثُمَّ» عن مضمون الجملة الواقعة قبلها. وتكون «ثُمَّ» هنا للتراخي الرُّتَبي لا الحقيقي، وهو الذي ليس فيه معنى «ثُمَّ» المعروف في اللغة من الترتيب والتراخي، إنما يطلق عليه «ثُمَّ» مجازاً، كما في قوله تعالى أيضاً: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾. وقد يجيء بمعنى التقريع، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾، وقد يجيءُ بمعنى التعجُّب نحو قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾. وقد يجيء بمعانٍ أُخر، وفي هذه المعاني كلها لا تكون «ثُمَّ» لترتيب الزمان، بل لبُعْدِ ما بين الحالين. ينظر الكليات ص٣٢٥-٣٢٦، وشرح الكافية ٤/ ٣٩٧، وحاشية الشهاب ٣/ ١٥.

(٢) في (د١) والمطبوع: المبعَّدين. وهي غير واضحة في (ب).

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤١٣.

(٤) في (د١) و(د٢) و(ح) و(يه) ومطبوع البحر: عندكم، وسقط الكلام من (ت) في هذا الموضع، والمثبت من (أ) و(ب) و(ع). والكلام بنحوه في الكشاف ١/ ٤٢٠.

بما ادَّعاه في كتبهم من نعته وصحة نبوَّته لَمَا أعرضُوا، ولَسَارَعُوا إلى موافقةِ ما في كتبهم حتى يُنبئوا عن بطلان دعواه[١].

وفيها دليل على أنَّ مَنْ دَعاه خصمُه إلى الحُكم الحقِّ لزمَتْه إجابتُه؛ لأنه دعاه إلى كتاب الله، ويعضُدُه: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [النور: ٤٨].

قال القرطبيّ: وإذا دُعيَ إلى كتاب الله وخالفَ، تعيَّن زجرُه بالأدب على قدر المخالِف والمخالَف، وهذا الحكم جارٍ عندنا بالأندلس وبلادِ المغرب وليس بالديار المصرية[٢].

قال ابنُ خُويزمَنْداد المالكيّ: واجبٌ على مَنْ دُعِيَ إلى مجلس الحاكم[٣] أن يُجيب ما لم يعلم أنَّ الحاكم فاسق.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ﴾ الإشارة بـ «ذلك» إلى التولِّي، أي: ذلك التولِّي بسبب هذه الأقوال الباطلة، وتسهيلِهم على أنفسهم العذاب، وطمعِهم في الخروج من النار بعد أيام قلائل؛ قال الزمخشريّ[٤]: كما طمعت المجبِّرة[٥] والحَشَويَّة ﴿وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ من أنَّ آباءهم الأنبياء يشفعون لهم كما غَرِيَ أولئك بشفاعة رسول الله ﷺ في كبائرهم. انتهى كلامه. وهو على عادته من اللَّهَج بسبِّ أهل السُّنَّة والجماعة، ورميهم بالتشبيه، والخروج إلى الطعن عليهم بأيِّ طريق أمكنه.

وتقدّم تفسير هذه الأيام المعدودات في سورة البقرة [٨٠] فأغنى عن إعادته هنا إلا أنه جاء هناك «معدودة» وهنا «معدودات» وهما طريقان فصيحان، تقول: جبال شامخة، وجبال شامخات، فتجعل صفة جمع التكسير للمذكر الذي لا يعقل تارة

---

(١) الكلام بنحوه في أحكام القرآن للجصاص ٢/٨.

(٢) تفسير القرطبي ٥/٧٧. وصدر الكلام لابن العربي في أحكام القرآن ١/٢٦٧.

(٣) في (د١) والمطبوع: الحكم. وهذا القول في تفسير القرطبي ٥/٧٨.

(٤) الكشاف ١/٤٢١.

(٥) في (أ) و(ع) والمطبوع: الجبريَّة. وهما بمعنى. وهم الذين ينفُون الفعل عن العبد ويُضيفونه إلى الله تعالى. ينظر المِلل والنِّحل ١/١٠٨.

لصفة الواحدة المؤنثة، وتارة لصفة المؤنَّثات، فكما تقول: نساء قائمات؛ كذلك تقول: جبال راسيات، وذلك مَقيس مطَّرد فيه.

﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ قال مجاهد: الذي افترَوْه هو قولُهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ وقال قتادة: قولُهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ وقيل: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾. وقيل: مجموع هذه الأقوال[١].

وارتفع «ذلك» بالابتداء، و«بأنهم» هو الخبر، أي: ذلك الإعراض والتولّي كائنٌ لهم وحاصلٌ بسبب هذا القول، وهو قولهم: إنهم لا تمسُّهم النار إلا أياماً قلائلَ يحصُرُها العدّ. وقيل: خبر مبتدأ محذوف، أي: شأنُهم ذلك، أي: التولِّي والإعراض. قاله الزَّجّاج[٢]. وعلى هذا يكون «بأنَّهم» في موضع الحال، أي: مصحوباً بهذا القول، و«ما» في «ما كانوا» موصولة أو مصدرية.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذا تعجيبٌ من حالهم واستعظامٌ لِعِظَم مقالتهم حين أُخلفت[٣] مطامعُهم وظَهَرَ كذبُ دعواهم، إذْ صاروا إلى عذابٍ ما لهم حيلةٌ في دفعه، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١] وهذا الكلام يقال عند التعظيم لحال الشيء: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [محمد: ٢٧].

وقال:

فكيف بنفسٍ كلَّما قلتُ أشرفَتْ ... على البُرْءِ من دَهْماءَ هِيضَ انْدِمالُها[٤]

وقال:

فكيفَ وكلٌّ ليس يَعْدُو حِمَامَهُ ... وما لامْرِئٍ عمَّا قَضَى اللهُ مَزْحَلُ[٥]

---

(١) ينظر تفسير الطبري ٥/ ٢٩٧-٢٩٨، والمحرر الوجيز ١/ ٤١٦، وتفسير الرازي ٧/ ٢٣٤.
(٢) معاني القرآن ١/ ٣٩٢.
(٣) في المطبوع و(ت): اختلفت.
(٤) البيت للفرزدق، وهو في ديوانه ٢/ ٧١ برواية: حوصاء، بدل: دهماء. وهو في اللسان (دمل)، وخزانة الأدب ١١/ ٧٨.
(٥) البيت ضمن قصيدة نُسبت لإبراهيم بن كنف الصنعاني في الوافي بالوفيات ٦/ ٩٤-٩٥، وهي دون نسبة في أمالي القالي ١/ ١٧٠-١٧١ في سياق قصة، وبعضُها في شرح الحماسة للمرزوقي ١/ ٢٥٨-٢٦٠ دون ذكر البيت أعلاه، وفيه إبراهيم بن كنيف النبهاني، وهو شاعر إسلامي كما ذكر البكري في شرح الأمالي ١/ ٤٣٠.

وانتصاب «كَيْفَ» قيل: على الحال، والتقدير: كيف يصنعون؟ وقدَّرَهُ الحَوفيّ: كيف يكونُ حالُهم؟ فإنْ أراد «كان» التامَّة؛ كانت في موضع نصب على الحال، وإن كانت الناقصة كانت في موضع نصب على خبر «كان»، والأجودُ أن تكون في موضع رفع خبراً لمبتدأ محذوف يدلُّ عليه المعنى، التقدير: كيف حالُهم؟

والعاملُ في «إذا» ذلك الفعلُ الذي قدَّرُوه[1]، أو العاملُ في «كيف» إذا كانت خبراً عن المبتدأ إنْ قلنا إنَّ انتصابَها انتصابَ الظروف[2]، وإنْ قلنا إنها اسمٌ غير ظرف فيكون العامل في «إذا» المبتدأ الذي قدَّرناه، أي: فكيفَ حالُهم في ذلك الوقت.

وهذا الاستفهام لا يحتاج إلى جواب، وكذا أكثر استفهامات القرآن لأنها من عالِم الشهادة، فإنَّما استفهامُه تعالى تقريع.

واللام تتعلَّق بـ «جَمَعْنَاهُم» والمعنى: لقضاء يوم وجزائه، كقوله: ﴿إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ [آل عمران: ٩] قال النقّاش: اليوم هنا الوقت؛ وكذلك: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ و﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ٩-١٠] إنما هي عبارة عن أوقات، فإنَّما الأيام والليالي عندنا في الدنيا.

وقال ابن عطية[3]: الصحيح في يوم القيامة أنه يوم؛ لأنَّ قبله ليلة، وفيه شمس.

ومعنى «لا ريب فيه» أي: في نفس الأمر، أو عند المؤمن، أو عند المخبَر عنه، أو حين يجمعُهم فيه، أو معناه الأمر، خمسة أقوال.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ تقدَّم تفسير مثل هذا في البقرة آخر آيات الرِّبا.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ قال الكلبيّ: ظهرَتْ صخرةٌ في الخندق فضربَها ﷺ،

---

(١) في (د٢): قُدِّر، وفي (ح) و(د١) و(ع) و(يه): قدَّره.
(٢) يعني أنَّ العامل في «إذا» في هذه الحالة هو الاستقرارُ العاملُ في «كيف». وقوله: «أو العامل» من (ز٢)، وفي النسخ الأخرى: «والعامل». وينظر الدُّرّ المصون ٣/ ٩٧.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤١٦. وفيه أيضاً قول النَّقَّاش السالف.

فبَرَقَ بَرْقٌ، فكبَّر، وكذا في الثانية والثالثة، فقال ﷺ: «رأيتُ[1] في الأولى قصورَ العجم، وفي الثانية قصورَ الروم، وفي الثالثة قصورَ اليمن. فأخبرَني جِبريلُ عليه السلام أن أمتي ظاهرةٌ على الكلّ» فعيَّره المنافقون بأنه يضربُ المِعْوَلَ ويحفر الخندق فَرَقاً ويتمنّى مُلكَ فارسَ والرُّوم! فنزلت. اختصره السجاونديّ هكذا، وهو سببٌ مطوّلٌ جدًّا[2].

وقال ابن عباس: لما فُتحت مكة كَبُرَ على المشركين وخافوا فَتْحَ العجم، فقال عبد الله بن أُبيّ: هم أعزّ وأمنع. فنزلت.

وقال ابن عبَّاس أيضاً وأنس: لمَّا فتح ﷺ مكةَ وَعَدَ أمّتَه مُلْكَ فارسَ والرُّوم. فنزلت[3].

وقيل: بلغ ذلك اليهودَ، فقالوا: هيهات هيهات. فنزلت. فذلُّوا وطلبوا الموادعة[4].

وقال الحسن: سأل ﷺ مُلْكَ فارسَ والرُّوم لأمَّته، فنزلت على لفظ الدعاء[5]. ورُوِيَ نحوُه عن قتادة أنه ذُكر له ذلك[6].

وقال أبو مسلم[7] الدمشقي: قالت اليهود: واللهِ لا نُطيعُ رجلاً جاء بنقل النُّبوَّة من بني إسرائيل إلى غيرهم. فنزلت.

وقيل: نزلت ردًّا على نصارى نجران في قولهم: إن عيسى هو الله، وليس فيه شيء من هذه الأوصاف[8].

---

(١) كلمة «رأيتُ» لم ترد في (د١) والمطبوع.
(٢) ينظر تفسير الثعلبي ٢/ ٣٥-٣٦، والكشاف ١/ ٤٢١-٤٢٣، وتفسير الرازي ٨/ ٤.
(٣) ينظر أسباب النزول للواحدي ص٩٣، وتفسير البغوي ١/ ٢٨٩-٢٩٠، وزاد المسير ١/ ٣٦٨.
(٤) في (أ) و(د١) والمطبوع: المواضحة. وهو تحريف.
(٥) تفسير الرازي ٨/ ٤. ووقع في (د١) والمطبوع: النهي، بدل: الدعاء!
(٦) تفسير البغوي ١/ ٢٨٩، والمحرر الوجيز ١/ ٤١٦، وزاد المسير ١/ ٣٦٨.
(٧) كذا في النسخ الخطية. وفي زاد المسير ١/ ٣٦٨: أبو سليمان. وهو الأشبه.
(٨) المحرر الوجيز ١/ ٤١٦، وتفسير القرطبي ٥/ ٨٠.

والمُلْك هنا ظاهرُه السلطان والغَلَبة، وعلى هذا التفسير جاءت أسبابُ النزول.

وقال مجاهد: المُلك النبوَّة. وهذا يتنزَّل على نقل أبي مسلم في سبب النزول. وقيل: المال والعبيد. وقيل: الدنيا والآخرة[١].

وقال الزَّجَّاج: مالك العباد وما ملكوا[٢].

وقال الزمخشريّ: أي تملكُ جنس المُلك، فتتصرَّف فيه تَصَرُّف المُلَّاك فيما يملكون. وقال معناه ابن عطية[٣]، وقد تكلَّم على لفظة «اللهمَّ» من جهة النحو، فقال: أجمعوا على أنَّها مضمومةُ الهاء مشدَّدةُ الميم المفتوحة، وأنها منادى. انتهى.

وما ذكر من الإجماع على تشديد الميم قد نقلَ الفرَّاء تخفيفَ ميمها في بعض اللغات؛ قال وأنشدني بعضُهم:

كَحَلْفَةٍ من أبي رِياحِ يسمعُها اللَّهُمُ الكُبارُ[٤]

قال الرَّادُّ عليه: تخفيفُ الميم خطأ فاحش خصوصاً عند الفرَّاء؛ لأنَّ عنده هي التي في «أُمَّنا»[٥] إذْ لا يحتمل التخفيف أنْ تكون الميم فيه بقية «أُمَّنا» قال: والرواية الصحيحة: يسمعُها[٦] لَاهُهُ الكُبار. انتهى.

وإنْ صحَّ هذا البيتُ عن العرب كان فيه شذوذٌ آخرُ من حيثُ استعمالُه في غير النِّداء، ألا تَرَى أنه جعلَه في هذا البيت فاعلاً بالفعل الذي قبلَه؟

قال أبو رجاء العُطارِديّ: هذه الميم تجمع سبعين اسماً من أسمائه[٧].

---

(١) ينظر تفسير الطبري ٥/ ٣٠٢-٣٠٤، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٣٧٨، والنكت والعيون ١/ ٣٨٣.

(٢) معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٩٢.

(٣) في المحرر الوجيز ١/ ٤١٧. وكلام الزمخشري السالف في الكشاف ١/ ٤٢١.

(٤) سلف قريباً في تفسير مفردات هذه الآيات. وينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٠٤.

(٥) يعني في قوله: يا الله أُمَّنا بخير. وسلف في المفردات.

(٦) المثبت من (د١). وفي النسخ الأخرى: يسمعه.

(٧) تفسير الثعلبي ٢/ ٣٧.

وقال النَّضْرُ بنُ شُميل: من قال: اللهمَّ، فقد دعا الله بجميع أسمائه كلِّها. وقال الحسن: «اللهمَّ» مجمعُ الدعاء(١).

ومعنى قول النَّضْر أنَّ «اللهمَّ» هو «الله» زيدت فيه الميم، فهو الاسم العَلَم المتضمِّنُ لجميع أوصاف الذَّات، لأنَّك إذا قلت: جاء زيد، فقد ذكرتَ الاسم الخاصّ، فهو متضمِّن جميعَ أوصافِه التي هي فيه من شُهْلَةٍ أو طُول أو جُود أو شجاعة، أو أضدادِها، وما أشبهَ ذلك.

وانتصاب «مالكَ الملك» على أنَّه منادى ثانٍ، أي: يا مالكَ الملك.

ولا يوصف «اللهمَّ» عند سيبويه، وأجاز أبو العباس وأبو إسحاق وَصْفَه، فهو عندهما صفة للاهمَّ، وهي مسألة خلافية يُبحث عنها في علم النحو(٢).

﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ الظاهر أنَّ المُلك هو السُّلطان والغَلَبة كما ظاهرُ «المُلْك» الأوَّل كذلك، فيكون الأوَّلُ عامًّا وهذان خاصَّيْن. والمعنى: إنك تُعطي مَنْ شئتَ قسماً من الملك وتَنْزِعُ ممَّن شئتَ قسماً من الملك.

وقد فُسِّر المُلكُ هنا بالنبوَّة أيضاً(٣)، ولا يتأتَّى هذا التفسير في «تنزعُ الملك» لأنَّ الله لم يُؤتِ النبوَّة لأحد ثم نزعَها منه، إلا أن يكونَ «تنزع» مجازاً بمعنى: تمنعُ النبوَّةَ ممَّن تشاء، فيمكن(٤).

وقال أبو بكر الورَّاق: هو مُلكُ النَّفسِ ومنعُها من اتِّباع الهوى. وقيل: العافية، وقيل: القناعة، وقيل: الغَلَبة بالدِّين والطاعة، وقيل: قيام الليل.

وقال الشِّبْلي: هو الاستغناء بالمُكوِّن عن الكَوْنَيْن.

---

(١) القولان في المحرر الوجيز ١/ ٤١٧.

(٢) أبو العبَّاس هو المُبَرِّد، وأبو إسحاق هو الزَّجَّاج وينظر الكتاب ٢/ ١٩٦-١٩٧، والمقتضب ٤/ ٢٣٩، ومعاني القرآن للزَّجَّاج ١/ ٣٩٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤١٧، وارتشاف الضَرَب (للمؤلف) ٤/ ٢١٩٢.

(٣) سلف قريباً من قول مجاهد.

(٤) أوَّلَ الرازي ٨/ ٥ هذا القولَ بأنَّ الله تعالى إذا جعل النبوَّة في نسل رجل ثم أخرجها من نسله صحَّ أن يقال: إنه تعالى نَزَعَها منهم، كما هو حال اليهود.

وقال عبد العزيز بن يحيى: هو قهرُ إبليس كما كان يفرُّ من ظلّ عُمر، وعكسُه مَنْ كان يَجري الشيطانُ منه مَجْرَى الدَّم.

وقيل: مُلك المعرفة بلا علّة كما آتى سَحَرَةَ فرعون، ونَزَعَ من بَلْعَام.

وقال أبو عثمان: هو توفيق الإيمان.

وإذا حملناه على الأظهر ـ وهو السلطنة والغَلَبة وكونُ المؤتَى هو الآمِر المتَّبَع ـ فالذي آتاه الملك هو محمدٌ ﷺ وأمَّتُه، والمنزوعُ منهم فارسُ والروم.

وقيل: المنزوع منه أبو جهل وصناديدُ قريش. وقيل: العرب وخلفاءُ الإسلام وملوكُه، والمنزوع منه فارس والروم.

وقال السُّدِّيّ: الأنبياء؛ أُمِرَ الناسُ بطاعتهم، والمنزوعُ منه الجبَّارون، أُمِرَ الناس بخلافهم.

وقيل: آدم وولدُه، والمنزوعُ منه إبليس وجنودُه. وقيل: داود عليه السلام، والمنزوعُ منه طالوت. وقيل: صخر، والمنزوعُ منه سليمان أيامَ محنته. وقيل: المعنى تؤتي المُلك في الجنة من تشاء، وتنزعُ المُلْكَ من ملوك الدنيا في الآخرة ممَّن تشاء. وقيل: المُلك العُزلة والانقطاع، وسمَّوه المُلك المجهول[1].

وهذه أقوال مضطربة وتخصيصاتٌ ليس في الكلام ما يدلُّ عليها، والأَوْلَى أن يُحمل على جهة التمثيل لا الحصر في المراد.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ قيل: محمدٌ ﷺ وأصحابُه حين دخلُوا مكة في اثني عشرَ ألفاً ظاهرين عليها، وأَذَلَّ أبا جهل وصناديدَ قُريش حتى حُزَّت رؤوسُهم وأُلْقُوا في القَلِيب.

وقيل: بالتوفيق والعِرْفان، وتُذِلُّ بالخِذْلان.

وقال عطاء: المهاجِرين والأنصار، وتُذِلُّ فارسَ والرُّوم.

وقيل: بالطاعة، وتُذِلُّ بالمعصية. وقيل: بالظَّفَر والغنيمة، وتُذِلُّ بالقتل

(١) تنظر الأقوال السابقة في تفسير الثعلبي ٢/ ٣٧-٣٨.

والجِزْية. وقيل: بالإخلاص، وتُذلُّ بالرِّياء. وقيل: بالغِنى، وتُذِلُّ بالفقر. وقيل: بالجنة والرؤية، وتُذِلُّ بالحجاب والنار. قاله الحسن[١] بن الفضل. وقيل: بقهر النفس وتُذِلُّ باتّباع الخِزْي. قاله الورَّاق. وقيل: بقَهْر الشيطان وتُذِلُّ بقهر الشيطان إياه. قاله الكِنانيّ[٢]. وقيل: بالقناعة والرِّضا وتُذِلُّ بالحرص والطمع[٣].

وينبغي حملُ هذه الأقاويل على التمثيل؛ لأنه لا مخصِّص في الآية، بل الذي يقع به العزُّ والذُّلُّ مسكوتٌ عنه.

وللمعتزلة هنا كلام مخالف لكلام أهل السُّنَّة؛ قال الكعبيّ: تؤتي الملك على سبيل الاستحقاق مَنْ يقومُ به، ولا تنزعه إلا ممَّن فسقَ، يدلُّ عليه: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٧] جعل الاصطفاء سبباً للمُلك[٤]، فلا يجوز أن يكون مُلك الظالمين بإيتائه، وكيف[٥] وقد ألزمَهم أن لَا يتملَّكوه[٦]؟ فصحَّ أنَّ الملوك العادلين هم المخصوصون بإيتاء الله الملك، وأما الظالمون فلا. وأمَّا النَّزْعُ فبخلافه، فكما يَنْزِعُه من العادل لمصلحة، فقد يَنْزِعُه من الظالم.

وقال القاضي عبد الجبَّار: الإعزاز المضاف إليه تعالى يكون في الدِّين بالإمداد بالألطاف ومدحهم وتغلّبهم[٧] على الأعداء، ويكون في الدنيا بالمال وإعطاء

---

(١) كذا في النسخ الخطية وتفسير الثعلبي ٢/ ٤٠. ولعل الصواب: الحُسين. وينظر سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤١٤.

(٢) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): الكسائي. والمثبت من (د٢) و(يه) وهي مهملة من النقط في (ح) و(د١). وفي تفسير الثعلبي ٢/ ٣٩: الكياني. ولم أعرفه.

(٣) ينظر تفسير الثعلبي ٢/ ٣٩-٤٠، وزاد المسير ١/ ٣٦٩.

(٤) إلى هذا الموضع من كلام الكعبي، كما في تفسير الرازي ٨/ ٦، والكلام بعده فيه للجُبَّائي.

(٥) المثبت من (أ) و(ب) و(ت) و(ع). ووقع في (ح) و(د١) و(د٢) و(يه): وقد يكون، بدل: وكيف، وهو خطأ. وعبارة الرازي: وكيف يصحُّ أن يكون ذلك بإيتاء الله وقد ألزمَهم... إلخ.

(٦) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): التزمهم أن لا يملكوه. وينظر تفسير الرازي ٨/ ٦.

(٧) في (ع): وغلبهم، وفي (د٢): وتعلِّيهم، وفي تفسير الرازي (وكلام القاضي فيه بنحوه) ٨/ ٧-٨: ويُعليهم.

الهيبة، وأشرفُ أنواع العزَّة في الدِّين هو الإيمان، وأذلُّ الأشياء الموجبة للذِّلَّة هو الكفر، فلو كان حصولُ الإيمان والكفر من العبد لكان إعزازُ العبد نفسَه بالإيمان وإذلالُه نفسه بالكفر أعظمَ من إعزاز الله إياه وإذلاله، ولو كان كذلك كان حظُّه من هذا الوصف أتمَّ من حظِّه سبحانه، وهو باطل قطعاً.

وقال الجُبَّائيُّ(١): يُذِلُّ أعداءَه في الدنيا والآخرة، ولا يُذِلُّ أولياءَه وإن أفقرَهم وأمرَضَهم وأخافَهم وأحوجَهم إلى غير ذلك، لأنَّ ذلك لِعِزِّهم في الآخرة بالثواب أو العِوَض، فصار كالفَصْد، يُؤلم في الحال ويُعقِبُ نفعاً.

قال: ووَصْفُ الفقر بكونه ذُلًّا مجاز، كقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وإذلالُ الله المبطلَ بوجوه: بالذَّمِّ واللعن، ويخذُلُهم بالحجَّة والنُّصرة، ويجعلُهم لأهل دينه غنيمة، ويعقوبتهم في الآخرة.

﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾: أي: بقدرتك وتصريفك(٢) وقوعُ الخير، ويستحيلُ وجودُ اليد بمعنى الجارحة لله تعالى. قيل: المعنى: والشَّرُّ، فحذف، نحو: ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: والبردَ، وحذفُ المعطوف جائز لفهم المعنى، إذ أحدُ الضِّدَّين يُفهم منه الآخر، وهو تعالى قد ذكرَ إيتاء المُلك ونَزْعَه والإعزازَ والإذلال، وذلك خيرٌ لناسٍ وشرٌّ لآخرين، فلذلك كان التقدير: بيدك الخيرُ والشرُّ.

ثم ختمَها بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فجاء بهذا العامِّ المندرِج تحتَه الأوصافُ السابقة وجميعُ الخُيور والشُّرور، وفي الاقتصار على ذكر الخير تعليمٌ لنا كيف نَمدحُ بأنْ نذكرَ أفضلَ الخِصال.

وقال الزمخشريّ(٣): فإنْ قلتَ: كيف قال: «بيدك الخير» فذكرَ الخيرَ دون الشَّرّ؟ قلتُ: لأنَّ الكلام إنَّما وقعَ في الخير الذي يسوقُه إلى المؤمنين، وهو الذي أنكرَتْه الكفرة، فقال: بيدك الخير، تؤتيه أولياءَك على رَغْم من أعدائك، ولأنَّ كلَّ أفعالِ الله من نافع وضارٍّ صادرٌ عن الحكمة والمصلحة، فهو خيرٌ كلُّه. انتهى

---

(١) بنحوه في المصدر السابق ٨/٨.
(٢) في (د١) والمطبوع: وتصديقك. وهو تحريف.
(٣) الكشاف ١/ ٤٢٢.

كلامه. وهو يدافعُ آخِرُه أوَّلَه، لأنه ذكرَ في السؤال لِمَ اقتصرَ على ذكر الخير دون الشَّرِّ، وأجابَ بالجواب الأوَّل، وذلك يدلُّ على أنَّ بيده تعالى الخيرَ والشَّرَّ، وإنَّما كان اقتصارُه على الخير لأنَّ الكلام إنَّما وقع فيما يسوقُه تعالى من الخير للمؤمنين، فناسبَ الاقتصارُ على ذكر الخير فقط. وأجاب بالجواب الثاني، وذلك يدلُّ على أنه تعالى جميعُ أفعالِه خيرٌ ليس فيها شرّ، وهذا الجوابُ يُناقضُ الأوَّل.

وقال ابن عطيَّة[1]: خصَّ الخيرَ بالذِّكر - وهو تعالى بيده كلُّ شيء - إذِ الآيةُ في معنى دعاء ورغبة، فكأنَّ المعنى: بيدك الخيرُ، فأجْزِلْ حَظِّي منه.

وقال الراغب[2]: لمَّا كانت في الحمد والشكر لا للحُكم ذكَرَ الخير، إذْ هو المشكورُ عليه.

وقال الرازيّ[3]: «الخَيْر» فيه الألفُ واللام الدالَّةُ على العموم، وتقديم «بيدك» يدلُّ على الحَصْر، فدَلَّ على أنْ لا خَيْرَ إلا بيده، وأفضلُ الخيرات الإيمان، فوجبَ أن يكون بخلق الله، ولأنَّ فاعل الأشرف أشرف، والإيمان أشرف.

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾ قال ابن عبَّاس ومجاهد والحسن وقتادة والسُّدِّيّ وابنُ زيد: المعنى ما ينتقصُ من النهار يزيد في الليل، وما ينتقصُ من الليل يزيد في النهار دَأْباً كلَّ فصل من السنة؛ قيل: حتى يصير الناقصُ تسعَ ساعات والزائد خمس عشرة ساعة[4].

وقال بعض معاصرينا: أجمعَ أربابُ علم الهيئة على أنَّ الذي تحصُلُ به الزيادة من الليل والنهار بأخذِ كل واحدٍ منهما من صاحبه ثلاثين درجة، فتنتهي زيادة الليل على النهار إلى أربعَ عشرةَ ساعة، وكذلك العكس.

وذكر الماورديّ أنَّ المعنى في الوُلوج هنا تغطيةُ الليل بالنهار إذا أقبل، وتغطيةُ

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤١٧.

(٢) تفسيره ص٤٩٦ (جزء تفسير آل عمران).

(٣) بنحوه في تفسيره ٨/ ٩.

(٤) ينظر تفسير كل من الطبري ٥/ ٣٠٥، والثعلبي ٢/ ٤٠، والماوردي ١/ ٣٨٤، وابن عطية ١/ ٤١٧، والقرطبي ٥/ ٨٥-٨٦.

النهار بالليل إذا أقبل، فصيرورةُ كلٍّ واحد منهما في زمان الآخر كالولوج فيه[١].

وأورد هذا القولَ احتمالاً ابنُ عطيَّة، فقال: ويحتمل لفظ الآية أن يدخلَ فيها تعاقُبُ الليل والنهار، وكأنَّ زوال أحدِهما ولوجٌ في الآخر[٢].

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ معنى الإخراج التكوين هنا، والإخراجُ حقيقةً هو إخراجُ الشيء من الظرف.

قال ابن مسعود وابنُ جبير ومجاهد وقتادة وإبراهيم والسُّدِّيّ وإسماعيل بن أبي خالد[٣] وعبد الرحمن بن زيد: تُخرجُ الحيوان من النُّطفة وهي ميّتة إذا انفصلت النُّطفة من الحيوان، وتُخرج النُّطفة وهي ميّتة من الرجل وهو حيّ[٤].

فعلى هذا يكون الموت مجازاً، إذِ النطفةُ لم يسبق لها حياة، ويكون المعنى: وتُخرِجُ الحيَّ من ما لا تَحُلُّهُ الحياة، وتُخرج ما لا تَحُلُّه الحياة من الحيّ. والإخراجُ عبارة عن تغيُّر الحال.

وقال عكرمة والكلبيّ: أي: الفَرْخَ من البيضة، والبيضةَ من الطير. والموتُ أيضاً هنا مجاز، والإخراجُ حقيقة.

وقال أبو مالك: النخلةَ من النواة، والسُّنبلةَ من الحبَّة، والنواةَ من النخلة، والحبَّةَ من السُّنبلة. والموتُ والحياةُ في هذا مجاز.

وقال الحسن ـ ورُويَ نحوُه عن سلمان الفارسيّ ـ: تُخرجُ المؤمنَ من الكافر، والكافر من المؤمن. وهما أيضاً مجاز[٥].

---

(١) في النكت والعيون ١/ ٣٨٤: تُدخل نقصان الليل في زيادة النهار، ونقصان النهار في زيادة الليل.

(٢) المثبت من (أ) و(ب) و(ت) و(ع)، وهو موافق لما في المحرر الوجيز ١/ ٤٧١، ولم ترد لفظة «في» في النسخ الأخرى.

(٣) تحرفت في (د١) و(يه) إلى خالة، وجاء فيهما وفي (ح) و(د٢) بعدها: وإبراهيم. وهو تكرار. وتنظر أقوالهم عند الطبري ٥/ ٣٠٧-٣٠٩، والثعلبي ٢/ ٤٠.

(٤) بعدها في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): والإخراج حقيقة. وسترد هاتان اللفظتان في قول عكرمة.

(٥) تنظر الأقوال السالفة في تفسير الثعلبي ٢/ ٤٠.

وفي الحديث أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «سبحان الله الذي يُخرج الحيَّ من الميِّت» وقد رأى امرأةً صالحة مات أبوها كافراً، وهي خالدة بنتُ الأسود بن عبد يغوث[١].

وقال الزجَّاج: يُخرج النباتَ الغَضَّ الطَّريّ من الحَبِّ، ويُخرج الحَبَّ اليابسَ من النبات الحيّ[٢].

وقيل: الطيِّبَ من الخبيث، والخبيثَ من الطيِّب.

وقال الماورديّ: ويحتمل: يُخرج الجَلْد الفَطِنَ من البليد العاجز، والعكس، لأنَّ الفِطْنةَ حياة الحسّ، والبَلادَة مَوْتُه.

وقيل: يُخرج الحكمة من قلب الفاجر لأنها لا تستقرُّ فيه، والسَّقْطةَ من لسان العارف[٣].

وهذه كلها مجازات بعيدة، والأظهر في قوله: «الحيَّ من الميِّت» تصوُّر اثنين.

وقيل: عَنَى بذلك شيئاً واحداً يتغيَّر به الحال، فيكون ميِّتاً ثم يحيا، وحيًّا ثم يموت، نحو قولك: جاء من فلان أسدٌ.

وقال ابنُ عطية[٤]: ذهب جمهورٌ من العلماء إلى أنَّ الحياةَ والموتَ هنا حقيقتان لا استعارة، ثمَّ اختلفوا في المَثَل الذي فسَّروا به. وذكرَ قولَ ابنِ مسعود وقولَ عكرمة المتقدِّمَيْن، ولا يمكن الحمل إذ ذاك في الحياة على الحقيقة أصلاً[٥]، وكذلك في الموت.

وشدَّد حفص ونافع وحمزة والكسائيّ «الميِّت» في هذه الآية، وفي الأنعام [٩٥]

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ١١٧-١١٨، وابن سعد في الطبقات ١٠/ ٢٣٦، والطبري في التفسير ٥/ ٣١١ عن الزُّهريّ مرسلاً.

(٢) هو في زاد المسير ١/ ٣٧٠ عن الزَّجّاج، وليس في معانيه، وفيه قوله ١/ ٣٩٥: تخرجُ للناس الحَبَّ الذي يعيشون به من الأرض الميتة.

(٣) تفسير الثعلبي ٢/ ٤٠.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤١٨.

(٥) قوله: في الحياة، من (أ) و(ب) و(ع). وفي (ت): في الحقيقة على الحياة.

والأعراف [٥٧] ويونس [٣١] والروم [١٩] وفاطر [٩]. زاد نافع تشديد الياء في «أوَمَنْ كان ميِّتاً» في الأنعام [١٢٢]، و«الأرضُ الميِّتة» في يس [٣٣]، و«لَحْمَ أخيه ميِّتاً» في الحجرات [١٢]، وقرأ الباقون بتخفيف ذلك(١).

ولا فرق بين التشديد والتخفيف في الاستعمال، كما تقول: لَيِّن ولَيْن، وهَيِّن وهَيْن، ومن زعمَ أن المخفَّف لِمَا قد مات، والمشدَّدَ لِما قد مات ولِمَا لم يمت، فيحتاج إلى دليل(٢).

﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تقدَّم تفسيرُ نظيره في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۞ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٢] فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقال الزمخشري(٣): ذكرَ قدرتَه الباهرة، فذكرَ حالَ الليل والنهار في المُعاقَبة بينَهما، وحالَ الحيِّ والميِّت في إخراج أحدِهما من الآخر، وعطفَ عليه رزقَه بغير حساب دلالةً على أنَّ مَنْ قَدَرَ على تلك الأفعال العظيمة المحيِّرة للأفهام، ثمَّ قَدَرَ أن يرزقَ بغير حسابٍ مَن يشاءُ من عبادِه، فهو قادرٌ على أنْ يَنْزِعَ المُلك من العَجَم ويُذِلَّهم، ويُؤتِيَهُ العربَ ويُعِزَّهم. انتهى، وهو حسن.

قيل: وتضمَّنت هذه الآياتُ أنواعاً من الفصاحة والبلاغة والبديع:

الاستفهام الذي معناه التعجُّب في «ألم تَرَ إلى الذين».

والإشارة في «نصيباً من الكتاب» فإدخالُ «مِنْ» يدلُّ على أنهم لم يُحيطوا بالتوراة علماً ولا حفظاً، وذلك إشارةٌ إلى الإزراء بهم، وتنقيصِ قدرِهم وذمِّهم، إذ يزعمون أنهم أحبارٌ وهم بخلاف ذلك، وفي قوله: «ذلك بأنهم» إشارة إلى تولِّيهم وإعراضهم اللَّذَيْنِ سببُهما افتراؤهم. وفي «ووُفِّيَتْ كلُّ نفس» إشارة إلى أنَّ جزاءَ أعمالهم لا ينقص منه شيء.

(١) ينظر السبعة ص٢٠٣، والتيسير ص٨٧.
(٢) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٤١٨.
(٣) في الكشاف ١/ ٤٢٢.

والتكرار في «نصيباً من الكتاب يُدْعَوْن إلى كتاب الله» إمَّا في اللفظ والمعنى إن كان المدلولُ واحداً، وإمَّا في اللفظ إن كان مختلفاً، وفي التولِّي والإعراض إن كانا بمعنًى واحدٍ، وفي «مالكَ الملك تؤتي المُلك» «وتَنْزِعُ المُلك» وتكراره في جُمل للتفخيم والتعظيم إن كان المراد واحداً، وإن اختلف كان من تكرار اللفظ فقط، وتكرار «مَنْ تشاء»، وفي «تُولج» وفي «تُخرج» وفي متعلَّقيهما.

والاتساع في جَعْل «في» بمعنى «على» على قول من زعم ذلك في قوله: «تُولج الليلَ في النهار» أي: على النهار، «وتُولج النهارَ في الليل» أي: على الليل، وعبَّر بالإيلاج عن العُلوّ والتغشية.

والنفي المتضمّن الأمر في «لا ريب فيه» على قول الزَّجَّاج، أي: لا ترتابوا فيه.

والتجنيس المماثل في «مالكَ الملك»، والطِّباق في «تؤتي» و«تَنْزِع»، و«تُعِزُّ» و«تُذِلُّ»، وفي الليل والنهار، وفي الحيِّ والميِّت.

وردّ العَجُز على الصدر في «تُولج» وما بعده.

والحذف، وهو في مواضع مما يتوقَّف فهمُ الكلام على تقديرها، كقوله: «تؤتي المُلك مَنْ تشاء» أي: مَنْ تشاءُ أن تُؤتيَه.

والإسناد المجازيّ في «ليحكم بينهم» أسند الحكم إلى الكتاب لأنَّه يبيِّن الأحكام، فهو سببُ الحكم.

ورُوِيَ في الحديث أنَّ من أراد قضاء دَيْنِه قرأ كلَّ يوم: «قل اللهم مالك الملك» إلى: «بغير حساب»، ويقول: رَحْمَنَ الدنيا والآخرةِ ورَحِيمَهُمَا تُعطي منهما مَنْ تشاء، اقضِ عنِّي دَيْني، فلو كان مِلْءَ الأرضِ ذهباً لأدَّاه الله[1].

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: نزلت في عُبادة بن الصَّامت؛ كان له حلفاءُ من اليهود، فأرادَ أن يستظهرَ بهم على العدوّ.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٠/(٣٢٣) و(٣٣٢) عن معاذ بن جبل ﷺ وفيه قصة. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٨٦: فيه من لم أعرفه.

وقيل: في عبد الله بن أُبيّ وأصحابه؛ كانوا يتَوَلّون[(١)] اليهود. وقيل: في قوم من اليهود - وهم الحجّاج بن عَمرو وكَهْمَس بن أبي الحَقِيق وقيس بن زيد[(٢)] - كانوا يُباطِنُون نفراً من الأنصار يفتنونهم عن دينهم، فنهاهم قومٌ من المسلمين وقالوا: اجتنبوا هؤلاء اليهود، فأبَوْا. فنزلت.

وهذه الأقوال مرويَّة عن ابن عباس[(٣)].

وقيل: في حاطب بن أبي بلتعة وغيره؛ كانوا يُظهرون المودَّة لكفار قريش، فنزلت[(٤)].

ومعنى اتّخاذهم أولياء: اللُّطفُ بهم في المعاشرة، وذلك لقرابةٍ، أو صَدَاقةٍ قبلَ الإسلام، أو يدٍ سابقةٍ، أو غير ذلك؛ وهذا فيما يظهر نُهُوا عن ذلك، وأمَّا أن يتَّخذ ذلك بقلبه ونيَّته فلا يفعل ذلك مؤمن، والمنهيُّون هنا قد قرّرَ لهم الإيمان، فالنَّهيُ هنا إنّما معناه النهيُ عن اللُّطف بهم والميلِ إليهم، واللفظُ عامٌّ في جميع الأعصار[(٥)]. وقد تكرَّر هذا في القرآن، ويكفيك من ذلك قولُه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية، والمحبةُ في الله والبُغْضُ في الله أصلٌ عظيم من أصول الدين.

وقرأ الجمهور: «لا يَتَّخِذِ» على النهي، وقرأ الضَّبِّيّ برفع الذال على النفي، والمراد به النهي[(٦)]، وقد أجازَ الكسائيُّ فيه الرفع كقراءة الضَّبيّ[(٧)].

ومناسبةُ هذه الآية لما قبلَها أنه تعالى لمَّا ذكرَ ما يجبُ أن يكونَ المؤمنُ عليه من تعظيم الله تعالى والثناء عليه بالأفعال التي يختصُّ بها؛ ذكرَ ما يجبُ على

---

(١) في (د١) والمطبوع: يتوالون.

(٢) في النسخ: يزيد، والمثبت من المصادر.

(٣) تفسير الطبري ٥/ ٣١٦، وأسباب النزول للواحدي ص٩٦، وتفسير الثعلبي ٢/ ٤١، والمحرر الوجيز ١/ ٤١٩، وزاد المسير ١/ ٣٧١.

(٤) تفسير الثعلبي ٢/ ٤١، والمحرر الوجيز ١/ ٤١٩، وزاد المسير ١/ ٣٧١.

(٥) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٤١٩.

(٦) هي في تفسير الثعلبي ٢/ ٤١ للضَّبِّي عن بعضهم.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٥. وينظر معاني القرآن للزَّجاج ١/ ٣٩٥-٣٩٦.

المؤمن من معاملة الخلق، وكانت الآيات السابقة في الكفار، فنُهوا عن موالاتهم، وأُمِرُوا بالرغبة فيما عندَه وعند أوليائه دون أعدائه، إذْ هو تعالى مالكُ المُلْكِ.

وظاهرُ الآية يقتضي النهيَ عن موالاتهم إلا ما فُسح لنا فيه من اتخاذهم عبيداً، والاستعانةِ بهم استعانةَ العزيز بالذليل، والأرفعِ بالأوضع، والنكاحِ فيهم، فهذا كلُّه ضربٌ من الموالاة أُذِنَ لنا فيه، ولسنا ممنوعين منه، فالنهيُ ليس على عمومه.

﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدَّم تفسير «من دُون» في قوله: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣] فأغنى عن إعادته. و«يتخذ» هنا متعدّية إلى اثنين، و«من دون» متعلّق بقوله: «لا يتَّخِذِ» و«مِنْ» لابتداء الغاية.

قال عليّ بن عيسى: أي: لا تجعلوا ابتداءَ الولاية من مكانٍ دونَ مكان المؤمنين.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ «ذلك» إشارة إلى اتِّخاذهم أولياء، وهذا يدلُّ على المبالغة في ترك الموالاة، إذْ نَفَى عن متولِّيهم أن يكون في شيء من الله.

وفي الكلام مضافٌ محذوف، أي: فليس من ولاية الله في شيء. وقيل: من دينه. وقيل: من عبادته. وقيل: من حزبه.

وخبر «ليس» هو ما استقلَّت به الفائدة، وهي «في شيء». و«من الله» في موضع نصب على الحال، لأنه لو تأخَّر لكان صفة لشيء، والتقدير: فليس في شيء من ولاية الله. و«من» تبعيضية، نَفَى ولايةَ الله عمَّن اتَّخذَ عدوَّه وليًّا؛ لأنَّ الولايتين متنافيتان. قال:

تَـوَدُّ عَـدُوِّي ثُـمَّ تَـزعُـمُ أنَّـنـي ... صديقُكَ ليس النَّوْكُ عنك بعازبِ[1]

وتشبيه من شبَّه الآية ببيت النابغة[2]:

إذا حَـاوَلْـتَ فـي أَسَـدٍ فُـجـوراً ... فـإنـي لـسـتُ مـنـكَ ولَـسْـتَ مـنِّـي

---

(١) البيت لبشار بن بُرد، وهو في ديوانه ١/ ٣٦٤. وذكره الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٢٢. قوله: النَّوْك، يعني: الحمق، وعازب، يعني: بعيد.

(٢) ديوانه ص١٢٣.

ليس بجيِّد لأنَّ «منك» و«منِّي» خَبَرُ «ليس»، وتستقلُّ به الفائدة، وفي الآية الخبرُ قولُه: «في شيء» فليس البيت كالآية.

قال ابنُ عطية[١]: «فليس من الله في شيء» معناه: في شيء مَرْضِيٍّ على الكمال والصواب، وهذا كما قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ غَشَّنا فليس منَّا»[٢]. وفي الكلام حذفُ مضاف، تقديرُه: فليس من التقرُّب إلى الله والتزلُّف، ونحو هذا، وقولُه: «في شيء» هو في موضع نصب على الحال من الضمير الذي في قوله: «ليس من الله في شيء». انتهى كلامه.

وهو كلام مضطرب، لأن تقديرَه: فليس من التقرُّب إلى الله، يقتضي أن لا يكون «من الله» خبراً لليس، إذْ لا يستقلُّ، وقوله: «في شيء» هو في موضع نصب على الحال يقتضي أن لا يكون خبراً، فيبقى «ليس» على قوله لا يكون لها خبر، وذلك لا يجوز، وتشبيهُه بقوله عليه السلام: «من غَشَّنا فليس منَّا» ليس بجيِّد، لِمَا بيَّنَّاه من الفرق في بيت النَّابغة بينه وبين الآية.

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ هذا استثناء مُفَرَّغ من المفعول له، والمعنى: لا يتَّخذُوا كافراً وليًّا لشيء من الأشياء إلا لسبب التَّقِيَّة فيجوزُ إظهارُ الموالاة باللفظ والفعل دون ما ينعقدُ عليه القلبُ والضمير، ولذلك قال ابن عباس: التقيَّةُ المشارُ إليها مداراةٌ ظاهرة. وقال: يكون مع الكفار أو بينَ أظهرهم فيتَّقِيهم بلسانه، ولا مودَّةَ لهم في قلبه.

وقال قتادة: إذا كان الكفار غالبين، أو يكون المؤمنون في قوم كفَّار فيخافونهم فلهم أن يُحالفوهم ويُدارُوهم دَفْعاً للشَّرّ وقلبُهم مطمئنّ بالإيمان.

وقال ابن مسعود: خالِطوا الناسَ وزَايِلُوهم وعامِلُوهم بما يشتهون، ودينَكم فلا تَثْلِمُوه.

وقال صعصعة بنُ صُوحان لأسامة بن زيد: خالِصِ المؤمن، وخالِق الكافر، إنَّ الكافر يرضى منك بالخُلُق الحسن.

---

(١) في المحرر الوجيز ١/ ٤١٩.

(٢) أخرجه أحمد (٧٢٩٢)، ومسلم (١٠٢)، وأبو داود (٣٤٥٢)، والترمذي (١٣١٥)، وابن ماجه (٢٢٢٤) وغيرُهم من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقال الصادق: التَّقيَّة واجبة، إني لأسمعُ الرجلَ في المسجد يشتِمُني فأستترُ منه بالسارية لئلا يراني. وقال: الرِّياءُ مع المؤمن شِرك، ومع المنافق عبادة.

وقال معاذ بنُ جبل ومجاهد: كانت التَّقِيَّة في جِدَّة الإسلام قبلَ استحكام الدِّين وقوَّة المسلمين، فأمَّا اليوم فقد أعزَّ الله المسلمين أن يتَّقوهم بأن يتَّقوا من عدوّهم(١).

وقال الحسنُ: التَّقيَّة جائزةٌ إلى يوم القيامة، ولا تقيَّةَ في القتل.

وقال مجاهد: إلا أن تتَّقوا قطيعة الرَّحِم؛ فخالِطُوهم في الدنيا(٢).

وفي قوله: «إلا أن تتقوا» التفاتٌ لأنه خرج من الغَيْبَة إلى الخطاب، ولو جاء على نظم الأول لكان: إلا أن يتقوا، بالياء المعجمة من أسفل، وهذا النوع في غاية الفصاحة، لأنه لمَّا كان المؤمنون نُهوا عن فعل ما لا يجوز، جُعلَ ذلك في اسم غائب، فلم يُواجَهُوا بالنهي، ولما وقعتِ المسامحة والإذْنُ في بعض ذلك، وُوجِهُوا بذلك إيذاناً بلُطف اللهِ بهم، وتشريفاً بخطابِه إيَّاهم.

وقرأ الجمهور: «تُقَاة» وأصلُهُ: وُقَيَة، فأبدلت الواو تاءً كما أبدلوها في تُجاه وتُكَأة، وانقلبت الياء ألفاً لتحرُّكها وانفتاح ما قبلَها، وهو مصدر على فُعَلَة، كالتُّؤَدَة والتُّخَمَة، والمصدر على فُعَل أو فُعَلَة جاء قليلاً، وجاء مصدراً على غير الصَّدر، إذ لو جاء على المقيس لكان اتِّقاء، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمّل: ٨] وقول الشاعر:

ولاحَ بجانبِ الجبلَيْنِ منهُ رُكامٌ يَحْفِرُ الأرضَ احتِفَارا(٣)

والمعنى: إلا أنْ تخافُوا منهم خوفاً.

---

(١) المثبت من (ح) و(د١) و(د٢) و(يه). وفي (أ) و(ب) و(ت) و(ع): فقد أعزَّ الله المسلمين أن يتَّقوا من عدوِّهم. وفي تفسيري الثعلبي والبغوي: فقد أعز الله المسلمين فليس ينبغي لأهل الإسلام أن يتقوا من عدوهم.

(٢) وردت بعض الأقوال السابقة دون بعض في تفسير الطبري ٥/٣١٦، ومعاني القرآن للنحاس ١/٣٨٣، وتفسير الثعلبي ٢/٤٢، وتفسير البغوي ١/٢٩٢، وتفسير القرطبي ٥/٨٧-٨٨.

(٣) تفسير الثعلبي ٢/٤١-٤٢.

وأمالَ الكسائيّ «تُقاة» و«حَقَّ تُقاتِهِ»، ووافقَه حمزة هنا، وقرأ ورش بين اللفظين، وفتح الباقون[١].

وقال الزمخشريّ[٢]: إلا أن تخافوا من جِهتِهم أمراً يجبُ اتّقاؤه، وقُرئ: تَقِيَّة، وقيل للمتَّقَى: تُقاة وتَقِيَّة، كقولهم: ضَرْب الأمير؛ لمضروبه. انتهى. فجعلَ «تُقاة» مصدراً في موضع اسم المفعول، فانتصابُه على أنه مفعول به لا على أنه مصدر، ولذلك قدَّره: إلا أن تخافوا أمراً.

وقال أبو عليّ: يجوز أن يكون «تُقاة» مثل «رُماة» حالاً من «تتقوا» وهو جمع فاعل وإن كان لم يُستعمل منه فاعل، ويجوز أن يكون جمع تقيّ. انتهى كلامه، وتكون الحال مؤكِّدة؛ لأنه قد فُهم معناها من قوله: «إلا أن تتقوا منهم». وتجويزُ كونه جمعاً ضعيف جدًّا، ولو كان جمعَ «تقيّ» لكان «أتقياء»، كغنيّ وأغنياء، وقولُهم: كَمِيّ[٣] وكُماة، شاذّ، فلا يخرَّج عليه، والذي يدلُّ على تحقُّق المصدريَّة فيه قوله تعالى: ﴿اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] المعنى: حقَّ اتّقائه، وحسَّنَ مجيءَ المصدر هكذا ثلاثيًّا أنهم قد حذفوا «اتَّقَى» حتى صار: تَقَى يَتَقِي[٤]، تَقِ الله[٥]، فصار كأنَّه مصدر لثلاثيّ.

وقرأ ابنُ عبّاس ومجاهد وأبو رجاء وقتادة والضَّحّاك وأبو حَيْوَة ويعقوب وسهل

---

(١) السبعة ص٢٠٤، والتيسير ص٤٨.
(٢) الكشاف ١/ ٤٢٢.
(٣) الكَمِيّ: الشجاع.
(٤) قوله: يَتَقي؛ قُيِّد بفتح التاء في سرّ صناعة الإعراب ١/ ١٩٨، والمخصَّص ١٤/ ١٦٠. وقد ذكر ابنُ جنّي أن أصل: تَقَى يَتَقِي: اتَّقَى يَتَّقِي، فحُذفت التاء الأولى التي هي فاء الفعل. وذكر نحوه ابنُ سِيدَه، وردَّ على من قيَّدها بوزن: رَمَى يَرْمي، حيث قيَّده الجوهري كذلك في الصحاح ٦/ ٢٥٢٧ (وقى).
(٥) قوله: تَقِ الله، جاء في بيت لعبد الله بن همَّام السَّلُولي:
زيادتَنا نُعمانُ لا تَنْسَيَنَّها   تَقِ اللهَ فينا والكتابَ الذي تَتْلُو
وهو في إصلاح المنطق ص٢٨، وأمالي القالي ٢/ ٢٧٩، والخصائص ٢/ ٢٨٦، وأمالي ابن الشجري ١/ ٣١٥، ومجمع الأمثال ١/ ٨٢، واللسان (تخذ - وَقَى)، والمصادر المذكورة في التعليق السالف، وفي بعضها: لا تَحْرِمَنّنا، لا تَقْطَعَنَّها.

وحُميد بن قيس والمفضَّل عن عاصم: «تَقيَّة»[1] على وزن: مَطِيَّة وجَنِيَّة، وهو مصدر على وزن فَعِيلة، وهو قليل، نحو النميمة، وكونُه من افتعل نادر.

وظاهر الآية يقتضي جوازَ موالاتهم عند الخوف منهم، وقد تكلَّم المفسِّرون هنا في التَّقِيَّة، إذْ لها تعلُّق بالآية، فقالوا: أمَّا الموالاةُ بالقلب فلا خلاف بين المسلمين في تحريمها، وكذلك الموالاة بالقول والفعل من غير تقيَّة، ونصوصُ القرآن والسُّنَّة تدلُّ على ذلك، والنظرُ في التقيَّة يكون فيمن يُتَّقى منه، وفيما يُبيحها وبأيّ شيء تكون من الأقوال والأفعال.

فأمَّا مَنْ يُتَّقَّى منه فكلُّ قادرٍ غالبٍ يُكرِهُ بجَوْرٍ منه، فيَدخل في ذلك الكفَّارُ وجَوَرَةُ الرؤساء والسَّلَّابة، وأهلُ الجاه في الحواضر؛ قال مالك: وزوجُ المرأة قد يُكرِه.

وأمَّا ما يُبيحُها فالقتلُ، والخوفُ على الجوارح، والضربُ بالسَّوط، وسائرُ التعذيب، بحيث يغلبُ عليه إيقاع الفعل به، ومن ذلك السجنُ، والتقييدُ، والتهديد[2]، والوعيدُ، وعداوةُ أهلِ الجاهِ الجَوَرَة.

وأمَّا بأيِّ شيء تكون من الأقوال فبالكفر فما دونه من بيع وهبة وطلاق[3] وغير ذلك. وأمَّا من الأفعال فكلُّ محرَّم.

وقال مسروق: إن لم يفعل حتى مات دخل النار. وهذا شاذّ.

وقال جماعة من أهل العلم: التقيَّة تكونُ في الأقوال دون الأفعال: رُوِيَ ذلك عن ابن عبَّاس والرَّبيع والضَّحَّاك[4].

وقال أصحابُ أبي حنيفة: التقيَّة رُخصَةٌ من الله تعالى وتركُها أفضل، فلو أُكْرِهَ على الكفر فلم يفعل حتى قُتل فهو أفضل ممَّن أظهر، وكذلك كلُّ أمرٍ فيه إعزازُ

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٨٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤١٩، وتفسير القرطبي ٥/ ٨٨، والنشر ٢/ ٢٣٩، وهذه القراءة من العشرة.

(٢) من قوله: وسائر التعذيب... إلى هذا الموضع، من (أ) و(ب) و(ع).

(٣) قوله: وطلاق، من (أ) و(ب) و(ت) و(ع).

(٤) ينظر ما سلف في المحرر الوجيز ١/ ٤٢٠.

الدين، فالإقدام عليه حتى يُقتل أفضلُ من الأخذ بالرُّخصة.

قال أحمد بن حنبل وقد قيل له: إن عُرضتَ على السيف تُجيب؟ قال: لا، وقال: إذا أجابَ العالمُ تَقِيَّةً والجاهلُ يجهلُ، فمتى يتبيَّن الحقّ[١].

والذي نُقل إلينا خَلَفاً عن سَلَف أنَّ الصحابة وتابعيهم وتابعي تابعيهم بَذَلُوا أنفسَهم في ذات الله، وأنَّهم لا تأخذُهم في الله لَوْمَةُ لائم، ولا سَطْوَةُ جبَّارٍ ظالم.

وقال الرازي: إنما تجوزُ التقيَّة فيما يتعلَّق بإظهار الحقّ والدِّين، وأمَّا ما يرجعُ ضررُه إلى الغير كالقتل والزنى، وغَصْبِ الأموال، والشهادة بالزُّور، وقذفِ المحصنات[٢] واطّلاع الكفار على عورات المسلمين؛ فغيرُ جائز البتَّة. وظاهرُ الآية يدلُّ على أنها مع الكفار الغالبين، إلا أنَّ مذهب الشافعيّ أنَّ الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحال بين المشركين[٣]، جازت التقيَّة محاماةً عن النفس، وهي جائزة لصَوْن النفس والمال. انتهى.

قيل: وفي الآية دلالةٌ على أنه لا ولاية لكافر على مسلم في شيء، فإذا كان له ابن صغير مسلم بإسلام أمِّه فلا ولايةَ له عليه في تصرُّف ولا تزوُّج ولا غيرِه. قيل: وفيها دلالة على أنَّ الذِّمِّيَّ لا يعقلُ جناية المسلم، وكذلك المسلم لا يعقل جنايته؛ لأنَّ ذلك من الموالاة[٤] والنُّصرة والمعونة.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ قال ابن عباس: بطشَه. وقال الزَّجَّاج: «نفسَه» أي: إيَّاه تعالى، كما قال الأعشى:

يوماً بأجودَ نائلاً منهُ إذا نفسُ الجبانِ[٥] تَجَهَّمَتْ سُؤَّالَها

أراد: إذا البخيلُ تَجَهَّمَ سُؤَّالَه.

---

(١) زاد المسير ١/ ٣٧٢. وينظر فيه أيضاً ٤/ ٤٩٦-٤٩٧.

(٢) بعدها في (أ) و(ع): الغافلات.

(٣) في تفسير الرازي ٨/ ١٤: بين المسلمين والمشركين.

(٤) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): الولاية. والكلام في أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٠.

(٥) كذا وقع في النسخ، وفي الدّرّ المصون ٣/ ١١٣ (وهو ينقل عن البحر) وهو وهم غالباً، صوابه: البخيل، فقد شرحَ عليه بعده بقوله: أراد: إذا البخيلُ تجهَّمَ سؤَّالَه. وهو بلفظ: البخيل أيضاً في ديوان الأعشى ص٧٩، وتفسير الثعلبي ٢/ ٤٣، وفقه اللغة للصاحبي ص٢٤٨.

قال ابنُ عطيّة[(١)]: وهذه مخاطبةٌ على معهود ما يفهَمُه البشر، والنفسُ في مثل هذا راجعٌ إلى الذات، وفي الكلام حذفُ مضاف لأنَّ التحذير إنَّما هو من عقابٍ وتنكيلٍ ونحوِه، فقال ابن عباس والحسن: ويحذِّرُكم الله عقابَه. انتهى كلامه.

ولمَّا نهاهم تعالى عن اتِّخاذ الكافرين أولياءَ؛ حَذَّرَهم من مخالفته بموالاة أعدائه، ثم قال:

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: صَيْرُورَتُكم ورجوعُكم، فيجازيكم إنِ ارتكبتُم موالاتَهم بعد النهي. وفي ذلك تهديدٌ ووعيدٌ شديد.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ تقدَّم تفسيرُ نظيرِ هذه الآية في أواخر آي البقرة، وهناك قدَّم الإبداء على الإخفاء وجعل محلّ الإخفاء والإبداء ما في النفوس، وأتى جواب الشرط قوله: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[(٢)]، وهنا قدَّم الإخفاء على الإبداء، وجعلَ محلَّهما ما في الصدور، وأتى جوابُ الشرط قوله: «يَعْلَمْهُ الله»، وذلك من التفنّن في الفصاحة، والمفهومُ أنَّ الباري تعالى مطَّلع على ما في الضمائر، لا يتفاوتُ علمُه تعالى بخفاياها، وهو يُرتِّبُ[(٣)] على ما فيها الثواب[(٤)] والعقاب، إن خيراً فخير، وإنْ شرًّا فشرّ. وفي ذلك تأكيدٌ لعدم الموالاة وتحذيرٌ من ذلك.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾هذا دليلٌ على سَعَة علمه، وذِكْرُ عُمومٍ بعد خصوص، فصار علمُه بما في صدورهم مذكوراً مرَّتين على سبيل التوكيد، أحدُهما بالخصوص، والآخر بالعموم، إذ هم ممَّن في الأرض.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيه تحذيرٌ ممَّا يترتَّب على علمه تعالى بأحوالهم من المجازاة على ما أكَنَّته صدورُهم.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٢٠.

(٢) من قوله: وجعل محلّ الإخفاء والإبداء... إلى هذا الموضع، سقط من المطبوع.

(٣) في (ب) و(ت): ترتّب، وفي (د٢) والمطبوع: مرتّب.

(٤) في (يه): من الثواب، وفي (أ) و(ع): ترتُّب ما فيها على الثواب. والمثبت من (ح) و(د١).

وقال الزمخشري[١]: وهذا بيان لقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ لأنَّ نفسَه - وهي ذاتُه المتميِّزَةُ من سائر الذَّوات - متَّصفة بعلم ذاتيّ لا يختصُّ بمعلوم دون معلوم، فهي متعلقة بالمعلومات كلِّها، وبقدرة ذاتيَّة لا تختصُّ بمقدورٍ دون مقدور، فهي قادرة على المقدورات كلِّها، فكان حقُّها أن تُحذَر وتُتَّقى، فلا يَجْسُرُ أحدٌ على قبيح، ولا يقصِّر عن واجب، فإنَّ ذلك مطَّلعٌ عليه لا محالة، فلَاحِقٌ به العذاب. انتهى.

وهو كلام حسن: وفيه التصريحُ بإثبات صفة العلم والقدرة لله تعالى، وهو خلاف ما عليه أشياخُه من المعتزلة، وموافَقةٌ لأهل السُّنَّة في إثبات الصفات.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ اختلف في العامل في «يوم» فقال الزَّجَّاج: العامل فيه: «ويُحذِّرُكم» ورجَّحه، وقال أيضاً: العامل فيه «المصير»[٢].

وقال مكّيّ بنُ أبي طالب: العاملُ فيه: «قدير». وقال أيضاً: العامل فيه مضمر، تقديرُه: اذْكُر[٣]. وقال ابنُ جرير: تقديرُه: اتَّقُوا[٤].

ويضعُف نصبُه بقوله: «ويُحذِّرُكم» لطول الفصل، هذا من جهة اللفظ، وأمَّا من جهة المعنى: فلأنَّ التحذير موجود، واليوم موعود، فلا يصحُّ له العمل فيه. ويضعُف انتصابُه بـ «المصير»، للفصل بين المصدر ومعموله. ويضعُف نصبُه بـ «قدير» لأنَّ قدرته على كل شيء، لا تختصُّ بيوم دون يوم، بل هو تعالى متّصف بالقدرة دائماً. وأمَّا نصبُه بإضمار فعل؛ فالإضمار على خلاف الأصل.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٢٣.

(٢) معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٩٧. وقوله: العامل فيه «ويحذِّرُكم» يعني الأُولى، لا الثانية.

(٣) مشكل إعراب القرآن ١/ ١٥٥. وفيه أيضاً القولان السالفان.

(٤) تفسير الطبري ٥/ ٣٢٢، ونقله عن بعض أهل العربية، وذكر أيضاً وَجْهَ أن العامل «ويُحذِّرُكم».

وقال الزّمخشريّ: «يومَ تجدُ» منصوب بـ «تودُّ»، والضمير في «بينَه» [لليوم][١] أي: يوم القيامة حين تجدُ كلُّ نفسٍ خيرَها وشرَّها حاضرَيْن؛ تتمنَّى لو أنَّ بينَها وبينَ ذلك اليوم وهَوْلِهِ أمَدًا بعيدًا. انتهى هذا التخريج، والظاهرُ في بادئ النظر حُسْنُه وترجيحُه، إذْ يظهرُ أنّه ليس فيه شيء من مضعفات الأقوال السابقة، لكن في جواز هذه المسألة ونظائرها خلافٌ بين النحويِّين، وهي إذا كان الفاعل ضميراً عائداً على شيء اتصل بالمعمول للفعل، نحو: غلامَ هندٍ ضَرَبَتْ، وثَوْبَيْ أخَوَيْك يلبسانِ، ومالَ زيدٍ أخذَ؛ فذهب الكسائيُّ وهشام وجمهورُ البصريين إلى جواز هذه المسائل، ومنها الآية على تخريج الزمخشريّ لأنَّ الفاعل بـ «تودُّ» هو ضمير عائد على شيء اتصل بمعمول «تودُّ» وهو «يومَ»، لأنَّ «يومَ» مضاف إلى «تجدُ كلُّ نفس»، والتقدير: يومَ وِجْدانِ كلِّ نفسٍ ما عملَتْ من خير محضَرًا وما عملت من سوء تَوَدُّ.

وذهب الفرَّاء وأبو الحسن الأخفش وغيرُه من البصريِّين إلى أنَّ هذه المسائل وأمثالَها لا تجوز؛ لأنَّ هذا المعمولَ فضلة، فيجوزُ الاستغناءُ عنه، وعَوْدُ الضمير على ما اتصل به في هذه المسائل يُخرجُه عن ذلك؛ لأنه يلزمُ ذكرُ المعمول ليعود الضمير الفاعل على ما اتَّصل به، ولهذه العلة امتنع: زيداً ضربَ، وزيداً ظنَّ قائماً. والصحيحُ جوازُ ذلك، قال الشاعر:

أَجَلَ المرءِ يَسْتَحِثُّ ولا يَدْ ... رِي إذا يبتغي حصولَ الأماني[٢]

أي: المرءُ في وقت ابتغائه حصولَ الأماني يستحثُّ أجلَه ولا يشعر.

و«تجد» الظاهرُ أنها متعدِّية إلى واحد، وهو «ما عملت» فيكون بمعنى تصيب، ويكون «مُحْضَراً» منصوباً على الحال.

وقيل: «تجد» هنا بمعنى «تعلم»، فتتعدَّى إلى اثنين وينتصب «مُحْضَراً» على أنه مفعول ثانٍ لها، و«ما» في «ما عَمِلَتْ» موصولة، والعائد عليها من الصلة محذوف[٣]، ويجوز أن تكون مصدرية، أي: عملَها، ويُراد به إذ ذاك اسمُ

(١) لفظة «لليوم» بين حاصرتين من الكشاف ١/ ٤٢٣، والكلام منه.
(٢) شرح التسهيل ٢/ ٩٣.
(٣) التقدير: ما عملته.

المفعول، أي: معمولَها. وقوله: «ما عملَتْ» هو على حذف مضاف، أي: جزاءَ ما عملَتْ وثوابَه.

قيل: ومعنى «مُحْضَراً» على هذا: مُوَفَّراً غيرَ مَبْخُوس.

وقيل: ترى ما عملت مكتوباً في الصحف مُحْضَراً إليها تبشيراً لها ليكون الثوابُ بعد مشاهدة العمل.

وقرأ الجمهور: مُحْضَراً، بفتح الضاد، اسم مفعول. وقرأ عُبيد بنُ عُمير: مُحْضِراً، بكسر الضاد[1]، أي: مُحْضِراً الجنَّةَ، أو محضِرًا: مُسرِعًا به إلى الجنَّة، من قولهم: أَحْضَرَ الفرسُ: إذا جرى وأسرع.

«وما عملت من سوء» يجوز أن يكون في موضع نصب معطوفاً على «ما عملت من خير» فيكون المفعولُ الثاني إن كان «تجد» متعدّية إليهما أو الحالُ إن كان يتعدَّى إلى واحد محذوفاً، أي: وما عملَتْ من سوء مُحْضَراً، وذلك نحو: ظننتُ زيداً قائماً وعَمْرًا، أو: ضربتُ زيداً قائماً وعَمْراً؛ إذا أردتَ: وعمراً قائماً، وعلى هذا الوجه يجوزُ أن يكون «تودُّ» مستأنَفاً، ويجوزُ أن يكون «تودُّ» في موضع الحال، أي: وادَّةً تباعدَ ما بينَها وبينَ ما عملَتْ من سوء، فيكون الضمير في «بينه» عائداً على «ما عملت من سوء».

وأبعد الزَّمخشريّ في عَوْده على اليوم؛ لأنَّ أحدَ القسمين اللَّذَيْنِ أُحضِرا له في ذلك اليوم هو الخير الذي عملَه، ولا يُطلبُ تباعدُ وقتِ إحضارِ الخير إلا بتجوُّز، إذ[2] كان يشتملُ على إحضار الخير والشَّرّ، فتودُّ تباعدَه لتسلم من الشَّرِّ، ودَعْهُ لا يحصل له الخير، والأولى عَوْدُه على «ما عَمِلَتْ من سُوء» لأنَّه أقربُ مذكور، لأنَّ المعنى أنَّ السوءَ يُتَمَنَّى في ذلك اليوم التباعدُ منه.

وإلى عطف «ما عَمِلَتْ من سُوء» على «ما عَمِلَتْ من خير» وكون «تَوَدُّ» في موضع الحال ذهب الطبريّ[3].

---

(١) تفسير الثعلبي ٢/ ٤٣.

(٢) في (ت) و(د١): إذا.

(٣) تفسيره ٥/ ٣٢٢، ولم يصرّح فيه أنَّ «تودُّ» حال، إنما هذا كلام ابن عطية في المحرر الوجيز =

ويجوز أن يكون «وما عملت من سوء» موصولةً في موضع رفع بالابتداء، و«تودُّ» جملة في موضع الخبر لـ «ما» التقدير: والذي عملته من سوء تودُّ هي لو تباعدَ ما بينها وبينه. وبهذا الوجه بدأ الزمخشريّ؛ وثنَّى به ابنُ عطيَّة[١]، واتَّفقا على أنه لا يجوز أن يكون «وما عَمِلَتْ من سوء» شرطاً؛ قال الزمخشريّ: لارتفاع «تَوَدُّ». وقال ابنُ عطيَّة: لأنَّ الفعل مستقبَل مرفوع [والشَّرْطُ] يقتضي جَزْمَهُ؛ اللهمَّ إلا أن يقدَّر في الكلام محذوف، أي: فهي تودُّ، وفي ذلك ضعف. انتهى كلامه.

وظهر من كلاميهما امتناعُ الشرط لأجل رفع «تَوَدُّ»، وهذه المسألة كان سألني عنها قاضي القضاة أبو العباس أحمدُ بنُ إبراهيم بن عبد الغنيّ السُّروجيّ الحنفيّ، رحمه الله[٢]، واستشكلَ قولَ الزمخشريّ وقال: ينبغي أن يجوز؛ غايةُ ما في هذا أن يكون مثلَ قول زهير:

وإنْ أتاهُ خليلٌ يومَ مسألةٍ يقولُ لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ[٣]

وكتبتُ جوابَ ما سألني عنه بما هو مذكور[٤] في كتابي الكبير المسمَّى بـ «التذكرة»[٥] ونذكرُ هنا ما تَمَسُّ إليه الحاجة من ذلك بعد أن نقدّم ما ينبغي تقديمه في هذه المسألة، فنقول:

إذا كان فعلُ الشرط ماضياً وما بعدَه مضارع تتمُّ به جملة الشرط والجزاء، جاز في ذلك المضارع الجزم، وجاز فيه الرفع، مثال ذلك: إن قام زيد يقوم عَمرو، وإن قام زيد يقُم عَمرو.

فأما الجزمُ فعلى أنه جوابُ الشرط، ولا نعلم في جواز ذلك خلافاً وأنه فصيحٌ

= ١/ ٤٢١، قاله بعد نقلِه كلامَ الطبري. وقد ذكر الزمخشري أيضاً ١/ ٤٢٣ عطف «وما عملت» وأن «تودُّ» حال.

(١) الكشاف ١/ ٤٢٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢١، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) توفي سنة (٧١٠) كما في الدُّرر الكامنة ١/ ١٠٤.

(٣) ديوان زهير ص١٥٣، قال ثعلب في شرحه: الخليل ـ من الخَلَّة ـ الفقير، والحَرِمُ: المَنْعُ، يقول: ليس لمالي منعٌ عنك.

(٤) قوله: بما هو مذكور. من (أ) و(ب) و(ت) و(ع).

(٥) واسمُه تذكرة النُّحاة، نَشَرت مؤسسة الرسالة قسماً منه.

إلا ما ذكره صاحب كتاب «الإعراب»(١) عن بعض النحويين أنه لا يجيءُ في الكلام الفصيح، وإنما يجيءُ مع «كان» كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ [هود: ١٥] لأنها أصلُ الأفعال، ولا يجوز ذلك مع غيرها، وظاهرُ كلام سيبويه ونصِّ الجماعة أنه لا يختصُّ ذلك بـ «كان»، بل سائرُ الأفعال في ذلك مثل «كان»، وأنشد سيبويه للفرزدق:

دَسَّتْ رسولاً بأنَّ القومَ إنْ قَدَرُوا ... عليك يَشْفُوا صدورًا ذاتَ تَوْغِيرِ(٢)

وقال أيضاً:

تعالَ فإنْ عاهَدْتَني لا تَخُونُني ... نكنْ مثلَ مَنْ يا ذئبُ يصطحبانِ(٣)

وأمَّا الرفعُ؛ فإنه مسموعٌ من كلام للعرب كثير، وقال بعضُ أصحابنا: وهو أحسنُ من الجزم، ومنه بيت زهير السابق إنشادُه، وقولُه أيضاً:

وإنْ شُلَّ رَيْعانُ الجميعِ مخافةً ... يقولُ جهارًا وَيْلَكُم لا تُنَفِّرُوا(٤)

وقال أبو صخر(٥):

ولا بالذي إنْ بانَ عنه حَبيبُهُ ... يقولُ ويُخْفِي الصَّبْرَ إني لَجَازِعُ

وقال آخر:

وإنْ بَعُدُوا لا يأمَنُونَ اقترابَهُ ... تَشَوُّفَ أهلِ الغائبِ المُتَنَظَّرِ(٦)

---

(١) كذا، ولعله «الإغراب»، وصاحبُه أبو الحكم بن عُذْرَة الخضراوي كما صرَّح به المصنّف عند تفسير الآية (١٨٥) من سورة البقرة، والآية (٢٠) من سورة الشورى، واسمُه الحسن بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم الأنصاري الأوسي، ذكره السيوطي في «بغية الوعاة» ١/ ٥١٠، وقال: كان نحوياً نبيلاً حاذقاً، وسمَّى كتابه: «الإغراب في أسرار الحركات في الإعراب». وقال: كان حيّاً سنة (٦٤٤).

(٢) ديوان الفرزدق ١/ ٢١٣، وفيه: دسَّت إليَّ بأنَّ. . .، وهو في الكتاب ٣/ ٦٩.

(٣) الديوان ٢/ ٣٢٩، وفيه: تعشَّ، بدل: تعال، وبرواية «تعال» هو في فقه اللغة للصاحبي ص١٧٨.

(٤) ديوان زهير ص٢١٦، وفيه: نقول، بدل: يقول.

(٥) هو أبو صخر الهُذلي عبد الله بن سَلْم، ويقال: سلمة، من شعراء الدولة الأموية. ينظر الأغاني ٢٤/ ١١٠. والبيت في الحماسة البصرية ٢/ ١٢٠ دون نسبة.

(٦) البيت لعروة بن الورد، وهو في ديوانه ص٧٣، وفي الحماسة ١/ ٤٢٤ (بشرح المرزوقي). وفيهما: إذا بعدوا. . .

وقال آخر:

فإنْ كانَ لا يُرْضِيكَ حتى تَرُدَّني إلى قَطَرِيٍّ لا إخالُكَ رَاضِيا[(١)]

وقال آخر:

إنْ يُسْأَلُوا الخيرَ يُعْطُوه وإنْ خُبِرُوا في الجَهْدِ أُدْرِكُ منهم طِيبَ أخبارِ[(٢)]

فهذا الرفع كما رأيتَ كثيرٌ، ونصوصُ الأئمة على جوازه في الكلام وإن اختلفت تأويلاتُهم كما سنذكره.

وقال صاحبنا أبو جعفر أحمد بن عبد النُّور بن رُشَيْد المالقي، وهو مصنف كتاب «رَصْف المباني» رحمه الله[(٣)]: لا أعلمُ منه شيئاً جاء في الكلام، وإذا جاء فقياسُه الجزم، لأنه أصلُ العمل في المضارع؛ تقدَّمَ الماضي أو تأخَّر. وتأوّلَ هذا المسموعَ على إضمار الفاء، وجعلَه مثلَ قولِ الشاعر:

إنكَ إن يُصْرَعْ أخوك تُصْرَعُ[(٤)]

على مذهب من جعل الفاء منه محذوفة. وأمَّا المتقدِّمون فاختلفوا في تخريج

---

(١) البيت لسوَّار بن المُضَرَّب، وكان أحدَ من هربَ من الحجَّاج، وقال هذا البيت ضمن أربعة أبيات، وهي في نوادر أبي زيد ص٤٥، والكامل ٢/ ٦٢٨، والبيت وحده في أمالي ابن الشجري ١/ ٢٨٥، والخصائص ٢/ ٤٣٣. ولم يرد هذا البيت في (أ) و(ب) و(ت) و(ع).

(٢) البيت لعُبَيْد بن العَرَنْدس الكلابي، شاعر جاهلي، كما في الحماسة البصرية ١/ ١٥١، وسمَّاه القالي في أماليه ١/ ٢٣٩: العَرَنْدَس. وقد استدرك السمين ٣/ ١٢٠ على المصنف أنه أورد البيت مثالاً على الرفع، مع أن مضارعه «يُعطوه» مجزوم، فتعقَّبه الشهاب في حاشيته ٣/ ١٨ بأن الشاهدَ فيه الشرط الثاني، لأن جوابه «أُدرِكُ» مرفوع، لا في الأول. والبيت في ديوان المعاني ص٢٣ و٤١ برواية: وإن جهدوا فالجهدُ يُخرج منهم... ولا شاهد فيه على هذه الرواية.

(٣) له ترجمة في الدرر الكامنة ١/ ٢٢٨. وفيه: راشد، بدل: رشيد. مات بالمَرِيَّة سنة (٧٠٢هـ). وكلامُه أعلاه في رصف المباني ص١٠٤-١٠٥.

(٤) الرَّجَز لجرير بن عبد الله البَجَلي كما في الكتاب ٣/ ٦٧. ونُسب في خزانة الأدب ٨/ ٢٠ و٩/ ٤٩ لعمرو بن الخُثارم. وقبلَه: يا أَقْرَعُ بنَ حابسٍ يا أَقْرَعُ. وهو كثير الدوران في كتب اللغة.

الرفع، فذهب سيبويه إلى أنَّ ذلك على سبيل التقديم، وأمَّا جوابُ الشرط فهو محذوف عنده[١]، وذهب الكوفيُّون وأبو العباس[٢] إلى أنه هو الجواب حُذفت منه الفاء.

وذهب غيرُهما إلى أنه لمَّا لم يظهر لأداة الشرط تأثيرٌ في فعل الشرط لكونه ماضياً ضعُف عن العمل في فعل الجواب، وهو عنده جوابٌ لا على إضمار الفاء، ولا على نيَّة التقديم، وهذا والمذهبُ الذي قبلَه ضعيفان.

وتلخَّص من هذا الذي قلناه أنَّ رفع المضارع لا يمنعُ أن يكون ما قبله شرطاً، لكن امتنع أن يكون «وما عَمِلَتْ» شرطاً لعلّة أخرى لا لكون «تَوَدُّ» مرفوعاً، وذلك على ما نُقرِّره[٣] على مذهب سيبويه من أنَّ النيَّة بالمرفوع التقديمُ، ويكون إذ ذاك دليلاً على الجواب لا نفسَ الجواب، فنقول:

إذا كان «تَوَدُّ» مَنْوِيّاً به التقديم؛ أدَّى إلى تقدُّم المضمر على ظاهره في غير الأبواب المستثناة في العربية، ألا ترى أنَّ الضمير في قوله: «وبينَهُ» عائدٌ على اسم الشرط الذي هو «ما»، فيصير التقدير: تَوَدُّ كلُّ نفسٍ لو أنَّ بينها وبينَه أمداً بعيداً ما عَمِلَتْ من سوء، فيلزمُ من هذا التقدير تقدُّم المضمر على الظاهر، وذلك لا يجوز.

فإن قلتَ: لِمَ لا يجوزُ ذلك؛ والضمير قد تأخَّر عن اسم الشرط، فإن كانت نيتُه التقديم؛ فقد حصل عَوْدُ الضمير على الاسم الظاهر قبلَه، وذلك نظير: ضربَ زيداً غلامُه، فالفاعل رتبتُه التقديم، ووجبَ تأخيرُه لصحة عَوْد الضمير؟

فالجواب: أن اشتمال الدليل على ضمير اسم الشرط يُوجب تأخيرَه عنه لعَوْدِ الضمير، فيلزمُ من ذلك اقتضاءُ جملة الشرط لجملة الدليل، وجملةُ الشرط إنما تقتضي جملةَ الجزاء لا جملةَ دليلِه، ألا ترى أنها ليست بعاملة في جملة الدليل، بل إنما تعمل في جملة الجزاء، وجملةُ الدليل لا موضعَ لها من الإعراب؟

---

(١) التقدير: إنك تُضرَعُ إنْ يُضرَعْ أخوك. ينظر الكتاب ٣/ ٦٧.

(٢) هو المبرِّد، وينظر الكامل ١/ ١٧٥، والمقتضب ٢/ ٧٢، والأصول في النحو ٢/ ١٩٢ و٣/ ٤٦٢.

(٣) في (أ) و(ع): تقرَّر.

وإذا كان كذلك تدافع الأمر؛ لأنَّها من حيث هي جملةٌ دليل لا يقتضيها فعلُ الشرط، ومن حيث عَوْدُ الضمير على اسم الشرط اقتَضَتْها، فتَدَافعا، وهذا بخلاف: ضربَ زيداً غلامُه؛ هي جملة واحدة، والفعل عاملٌ في الفاعل والمفعول معًا، وكلٌّ واحدٍ منهما يقتضي صاحبَه، ولذلك جاز عند بعضهم: ضربَ غلامُها هنداً لاشتراك الفاعل المضاف للضمير والمفعول الذي عاد عليه الضمير في العامل، وامتنع: ضرب غلامُها جارَ هندٍ؛ لعدم الاشتراك في العامل، فهذا فرقُ ما بين المسألتين، ولا يُحفظ من لسان العرب: أَوَدُّ لو أنّي أُكرمُه أيًّا ضربَتْ هندٌ؛ لأنه يلزم منه تقديمُ المضمر على مفسَّره في غير المواضع التي ذكرها النحويون، فلذلك لا يجوز تأخيرُه.

وقرأ عبد الله وابنُ أبي عَبْلة: «من سوء وَدَّتْ لو أنَّ»[١] وعلى هذه القراءة يجوزُ أن تكون «ما» شرطية في موضع نصب بـ «عَمِلَتْ»، أو في موضع رفع على إضمار الهاء في «عملت» على مذهب الفرَّاء، إذ يُجيزُ ذلك في اسم الشرط في فصيح الكلام، وتكون «وَدَّتْ» جزاءَ الشرط.

قال الزمخشريّ[٢]: لكن الحمل على الابتداءِ والخبرِ أوقعُ في المعنى؛ لأنه حكاية الكائن في ذلك اليوم، وأثبتُ لموافقة قراءة العامَّة. انتهى.

و«لَوْ» هنا حرف لما كان سيقع لوقوع غيره، وجوابُها محذوف، ومفعول «تودُّ» محذوف، والتقدير: تودُّ تباعدَ ما بينَهما لو أنَّ بينها وبينه أمداً بعيداً لسُرَّتْ بذلك، وهذا الإعراب والتقدير هو على المشهور في «لو»، و«أنَّ» وما بعدها في موضع مبتدأ [والخبر] محذوف[٣] على مذهب سيبويه، وفي موضع فاعل على مذهب أبي العباس[٤].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٢١. عبد الله: هو ابن مسعود ﷺ. ونسب القراءة إليه أيضاً الفَرَّاء في معاني القرآن ١/ ٢٠٧، والزمخشري في الكشاف ١/ ٤٢٣.

(٢) الكشاف ١/ ٤٢٣.

(٣) كلمة «محذوف» من (أ) و(ب) و(ت) و(ع). وكلمة «والخبر» (قبلها بين حاصرتين) مستفادة من الدر المصون ٣/ ١٢٥.

(٤) أي: لو ثبت أنَّ بينها. المصدر السابق.

وأمّا على قول من يذهب إلى أنَّ «لو» بمعنى «أنَّ» وأنَّها مصدرية؛ فهو بعيدٌ هنا لولايتها «أنّ» و«أنَّ» مصدرية، ولا يُباشرُ حرفٌ مصدريٌّ حرفاً مصدريًّا إلا قليلاً، كقوله تعالى: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[1] [الذاريات: ٢٣]. والذي يقتضيه المعنى أنَّ «لو أنَّ» وما يليها هو معمول لـ «تودُّ» في موضع المفعول به.

قال الحسن: يَسُرُّ أحدَهم أن لا يلقَى عملَه ذلك أبداً، ذلك مُناهُ[2].

ومعنى «أمداً بعيداً»: غاية طويلة. وقيل: مقدار أجله. وقيل: قَدْرُ ما بين المشرق والمغرب.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ كرّر التحذير للتوكيد والتحريض على الخوف من الله، بحيث يكونون ممتثلي أمرِه ونهيِه.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ لمّا ذكرَ صفة التخويف وكرَّرَها كان ذلك مزعجاً للقلوب، ومنبّهاً على إيقاع المحذور مع ما قُرن بذلك من اطّلاعه على خفايا الأعمال وإحضارِه لها يومَ الحساب، وهذا هو الاتصاف بالعلم والقدرة اللذين يجب أن يُحذَر لأجلهما، فذكرَ صفة الرحمة ليُطمع في إحسانه، وليبسطَ الرجاء في إفضاله، فيكون ذلك من باب ما إذا ذُكر ما يدلُّ على شدَّة الأمر ذُكر ما يدلُّ على سَعَة الرحمة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧] وتكون هذه الجملة أبلغَ في الوصف من جملة التخويف؛ لأنَّ جملة التخويف جاءت بالفعل الذي يقتضي المطلق، ولم يتكرَّر فيها اسم الله، وجاء المُحَذَّرُ مخصوصاً بالمخاطَب فقط، وهذه الجملة جاءت اسميَّة، فتكرَّر فيها اسم الله إذ الوصفُ متحمّلٌ ضميرَه تعالى، وجاء المحكومُ به على وزن فَعُول[3] المقتضي للمبالغة والتكثير، وجاء بأخصِّ ألفاظ الرحمة، وهو

(١) ذكر السمين الحلبي في «الدّرّ المصون» ٣/ ١٢٤ أن النُّحاة نصُّوا على أن «ما» زائدة في قوله تعالى: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾. فقول المصنف: «إلا قليلاً» يُشعر بجوازه، وهو لا يجوز البتة.

(٢) المثبت من (أ) و(ب) و(ت) و(ع)، وفي النسخ الأخرى والمطبوع: معناه، وهو تحريف، والقول في تفسير الطبري ٥/ ٣٢٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢١.

(٣) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): فَعُل (دون ضبط)، وهما لغتان، لكن فَعُول أكثر استعمالاً كما ذكر مكّي في الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٢٦٦.

«رؤوف»[١]، وجاء متعلَّقُهُ عامًّا ليشمل المخاطب وغيرَه، وبلفظ «العباد» ليدلَّ على الإحسان التامّ؛ لأنَّ المالك محسنٌ لعبده وناظرٌ له أحسنَ نظر؛ إذ هو مِلْكُه.

قالوا: ويحتمل أن يكون إشارة إلى التحذير، أي: إنَّ تحذيرَه نفسَه وتعريفَه حالَها من العلم والقُدرة من الرأفة العظيمة بالعباد، لأنَّهم إذا عرفوه[٢] حقَّ المعرفة وَحِذِرُوا[٣]؛ دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه.

وعن الحسن: من رأفته بهم أنْ حَذَّرَهم نفسَه.

وقال الحَوْفيّ: جعل تحذيرَه إياهم نفسَهُ[٤] وتخويفَهم عقابَه رأفةً بهم، ولم يجعلهم في عمًى من أمرهم.

ورُوي عن ابن عباس هذا المعنى أيضاً، والكلام محتمِل لذلك، لكن الأظهر الأول، وهو أن يكون ابتداءُ إعلامه بهذه الصفة على سبيل التأنيس والإطماع لئلا يفرط الوعيد على قلب المؤمن.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ نزلت في اليهود قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] أو في قول المشركين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] قالوا ذلك وقد نصبت قريش أصنامَها يسجدون لها، فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش، لقد خالفتُم ملَّةَ أبيكم إبراهيم» وكلا هذين القولين عن ابن عباس[٥].

وقال الحسن وابنُ جُريج: في قوم قالوا: إنّا لَنُحِبُّ ربَّنا حبًّا شديداً[٦].

(١) في النسخ الأربع السالفة: رؤف، وهي قراءة أبي عمرو وشعبة وحمزة والكسائي من السبعة، وقرأ الباقون: رؤوف. وينظر التعليق السالف.
(٢) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): عرفوا. وينظر التعليق التالي.
(٣) عبارة الكشاف ١/ ٤٢٣ (والكلام منه): لأنهم إذا عرفوه حقَّ المعرفة وحذروه... الخ.
(٤) المثبت من (أ) و(ب) و(ت) و(ع). وفي (ح) و(د١) و(د٢) و(يه): تحذيرهم إياه نفسه.
(٥) تفسير الثعلبي ٢/ ٤٤، وأسباب النزول للواحدي ص٩٧، وزاد المسير ١/ ٣٧٣.
(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٢٢، وزاد المسير ١/ ٣٧٣، وتفسير القرطبي ٥/ ٩٢، وبنحوه في الكشاف ١/ ٤٢٣.

وقال محمد بنُ جعفر بنِ الزُّبير: في وفد نجران حيث قالوا: إنَّا نُعظِّم المسيحَ حبًّا لله[١]. انتهى.

ولفظ الآية يعمُّ كلَّ من ادَّعى محبَّةَ الله، فمحبةُ العبدِ للهِ عبارةٌ عن ميلِ قلبِه إلى ما حدَّه له تعالى وأمرَه به والعملِ به واختصاصِه إيَّاه بالعبادة، ومحبتُه تعالى للعبد تقدَّمَ الكلام عليها، وهل هي من صفات الذات أم من صفات الفِعل، فأغنى عن إعادته.

رتَّبَ[٢] تعالى على محبَّتهم له اتِّباعَ رسولِه، ورتَّبَ على اتِّباع رسوله[٣] محبَّته لهم، وذلك أنَّ الطريقَ الموصِلَ إلى رضاه تعالى إنَّما هو مستفادٌ من نبيِّه، فإنَّه هو المُبيِّن عن الله، إذْ لا يهتدي العقلُ إلى معرفة أحكام الله في العبادات ولا في غيرها، بل رسولُه ﷺ هو المُوضِحُ لذلك، فكان اتّباعُه فيما أتى به حتماً لمن يُحبُّ أن يعمل بطاعة الله تعالى.

وقرأ الجمهور: «تُحِبُّون» و«يُحْبِبْكُم»، من: أحبَّ، وقرأ أبو رجاء العُطارديّ «تَحِبُّون» و«يَحْبِبْكُم»، بفتح التاء والياء من: حَبَّ[٤]، وهما لغتان، وقد تقدَّم ذكرُهما.

وذكر الزمخشريُّ: أنه قُرئ: «يَحبّكم» بفتح الياء والإدغام.

وقرأ الزُّهريُّ: «فاتَّبعونّي» بشدِّ النون[٥]، ألحقَ فعلَ الأمر نونَ التوكيد وأدغمَها في نون الوقاية ولم يحذف الواو[٦]؛ شَبَّهَهَا بـ ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ [الأنعام: ٨٠]، وهذا توجيهُ شذوذ.

قال الزمخشريّ: أراد أن يجعل[٧] لقولهم تصديقاً من عمل، فمن ادَّعَى محبَّته وخالفَ سنَّةَ رسولِه فهو كذَّاب، وكتابُ الله يُكذِّبُه. ثم ذكرَ من يذكُرُ محبَّةَ الله

(١) زاد المسير ١/ ٣٧٣. وبنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٤٢٢.
(٢) في (أ) و(ع): ورتَّب.
(٣) قوله: ورتَّب على اتباع رسوله، سقط من المطبوع.
(٤) ينظر القراءات الشاذة ص٢٠، والكشاف ١/ ٤٢٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٢.
(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٢٢.
(٦) يعني لالتقاء الساكنين.
(٧) في الكشاف ١/ ٤٢٣: وعن الحسن: زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبُّون الله، فأراد أن يجعل... الخ. وينظر قول الحسن وابن جريج السالف قريباً.

ويُصفِّقُ بيديه مع ذكرها، ويطربُ[١] ويَنْعَرُ ويصعق، وقَبّح من فعلِه هذا، وزرَى على فاعل ذلك بما يُوقَف عليه في كتابه.

ورُوِيَ عن أبي عَمرو إدغام راء «ويَغْفِرْ لكم» في لام «لكم»، وذكرَ ابنُ عطيَّة عن الزَّجّاج أنَّ ذلك خطأٌ وغلطٌ ممَّن رواها عن أبي عَمرو[٢].

وقد تقدَّم لنا الكلامُ على ذلك، وذكرنا أنَّ رؤساء الكوفة أبا جعفر الرؤاسي والكسائيَّ والفرَّاءَ رَوَوْا ذلك عن العرب، ورأسانِ من البصريِّين ـ وهما أبو عَمرو ويعقوب ـ قرأا بذلك وروياه، فلا التفاتَ لمن خالفَ في ذلك.

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ هذا توكيد لقوله: «فاتَّبعوني» ورُوِيَ عن ابن عباس أنه لمَّا نزل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ قال عبدُ الله بنُ أُبيّ لأصحابه: إنَّ محمداً يجعلُ طاعتَه كطاعة الله، ويأمرُ بأَنْ نُحبَّه كما أحبَّت النصارى عيسى بنَ مريم. فنزل: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾[٣].

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يحتمل أن يكون «تَوَلَّوْا» ماضياً، ويحتمل أن يكون مضارعاً حُذفت منه التاء، أي: فإن تَتَوَلَّوا، والمعنى: فإنْ تَوَلَّوا عمَّا أُمِرُوا به من اتِّباعه وطاعته، فإنَّ الله لا يحبُّ من كان كافراً، وجعل من لم يتَّبعه ولم يطعه كافراً، وتقييدُ انتفاء محبَّة الله بهذا الوصف الذي هو الكفر مشعرٌ بالعِلِّيَّة[٤]، فالمؤمنُ العاصي لا يندرجُ في ذلك.

قيل: وفي هذه الآيات من ضُروب الفصاحة وفنون البلاغة الخطابُ العامُّ الذي سببُه خاصٌّ في قوله: «لا يتخذ المؤمنون الكافرين».

والتكرار في قوله: «المؤمنون» «من دون المؤمنين»، وفي قوله: «من الله» «ويُحَذِّرُكم اللهُ نفسَه» «وإلى الله»، وفي «يَعْلَمْهُ الله ويعلم»، وفي قوله: «يعلمه الله» «والله على»، وفي قوله: «ما عملت» «وما عملت»، وفي قوله: «الله نَفْسَهُ» «والله»،

---

(١) في (ب) و(يه): ويضطرب.

(٢) ينظر معاني القرآن للزجَّاج ١/٣٩٨، والمحرر الوجيز ١/٤٢٢.

(٣) تفسير الثعلبي ٢/٤٥، وزاد المسير ١/٣٧٣-٣٧٤.

(٤) أي: علَّة انتفاء محبَّته تعالى.

وفي قوله: «ويحذِّرُكم الله» «والله رؤوف»، وفي قوله: «تُحبُّون الله»، «يُحبِبْكُمُ الله»، «والله غفور»، «قل أطيعوا الله» «فإنَّ الله».

والتجنيس المماثل في «تُحبُّون» و«يُحْبِبْكُم». والتجنيس المغاير في «تتقوا منهم تقاة»، وفي «يغفر لكم» و«غفور».

والطّباق في «تُخفوا» و«تُبدُوه»، وفي «من خَير» و«من سُوء»، وفي «مُحضَرًا» و«بعيدًا».

والتعبير بالمحلِّ عن الشيء في قوله: «ما في صدوركم» عَبَّرَ بها عن القلوب، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

والإشارة في قوله: «ومن يفعل ذلك» الآية، أشارَ إلى انسلاخهم من ولاية الله.

والاختصاص في قوله: «ما في صدوركم» وفي قوله: «ما في السموات وما في الأرض».

والتأنيس بعد الإيحاش في قوله: «والله رؤوفٌ بالعباد».

والحذف في عدَّة مواضع تقدَّم ذكرُها في التفسير.

❁ ❁ ❁

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ
بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ
مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ
وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾
فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ
وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ
﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ
وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ
وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾.

المفردات

«نوح» اسمٌ أعجميٌّ مصروف عند الجمهور وإن كان فيه ما كان يقتضي مَنْعَ صرفِهِ ـ وهو العَلَميَّة والعُجْمَة الشخصية ـ وذلك لخفَّة البناء بكونه ثلاثيًّا ساكنَ الوسط لم ينضف إليه سببٌ آخر، ومن جَوَّزَ فيه الوجهين فبالقياس على «هند»[١]، لا بالسماع، ومن ذهبَ إلى أنه مشتقّ من النُّواح؛ فقولُه ضعيف؛ لأنَّ العُجمة لا يدخلُ فيها الاشتقاق العربيّ إلا إنِ ادَّعى أنه ممَّا اتفقت فيه لغةُ العرب ولغةُ العجم، فيمكن ذلك.

ويُسمَّى آدم الثاني، واسمُه السَّكَن، قاله غيرُ واحد، وهو: ابنُ لَمَك بن مُتَوَشْلِخ بن أَخْنُوخ بن يارد[٢] بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم.

«عمران»: اسمٌ أعجمي ممنوع الصرف للعلميَّة والعُجْمة، ولو كان عربيًّا لامتنع أيضاً للعلمية وزيادة الألف والنون، إذ كان يكون اشتقاقُه من العَمْر واضحاً.

«مُحَرَّراً» اسمُ مفعول، من حَرَّرَ، ويأتي اختلاف المفسِّرين في مدلوله في الآية. والتَّحْرِير: العِتْق، وهو تصييرُ المملوك حُرًّا.

الوَضْع: الحَطُّ والإلقاء، تقول: وَضَعَ يضَعُ وَضْعاً وضَعَةً، ومنه المَوْضِع.

الأنثى والذَّكَر معروفان، وألف «أنثى» للتأنيث، وجُمعت على إناث كرُبَّى ورِباب[٣] وقياس الجمع: أَنَاثَى، كحُبْلَى وحَبَالَى، وجمع الذَّكَر ذُكور وذُكران.

«مرْيَم» اسم عِبْرَانيّ، وقيل: عربيّ جاء شاذاً، كمَدْيَنَ، وقياسُه: مَرَام كمَنَال، ومعناه في العربية التي تُغازل الفتيان[٤]؛ قال الراجز:

---

(١) المثبت من (أ) و(ب) و(ع)، وتحرَّف اللفظ في النسخ الأخرى إلى: هذا. وينظر الدّرّ المصون ٣/ ١٢٧.

(٢) في القاموس: يَرْد (دون ألف)، وتحرَّف في بعض النسخ إلى: سارد. وأَخْنُوخ: هو إدريس عليه السلام.

(٣) في اللسان (ربب) ١/ ٤٠٤: الرُّبَّى؛ على فُعْلَى: الشاة التي وضَعَتْ حديثاً، والجمع رُباب بالضمّ نادر، والمصدر رِباب، بالكسر. قال ابن منظور: وحكى اللِّحياني: غنمٌ رِباب.

(٤) في القاموس: المريم التي تُحِبُّ حديثَ الرِّجال ولا تفجُر. ووقع في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): تعادل الفتيا. (كذا). وينظر التعليق التالي.

قــلــتُ لِــزِيــرٍ لَــمْ تَــصِــلْــهُ مَــرْيَــمُــهْ[(١)]

عاذ بكذا: اعتصم به عَوْذاً وعِياذاً ومَعاذاً ومَعاذةً، ومعناه: التجأ واعتصم. وقيل: اشتقاقُه من العَوَذ، وهو عَوَذٌ يلجأ إليه الحشيش في مَهبّ الرِّيح.

رَجَم: رَمَى وقذفَ، ومنه: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [الكهف: ٢٢] أي: رَمْياً به من غير تيقُّن، والحديثُ المُرَجَّم: هو المظنون ليس فيه يقين. والرَّجيم: يحتمل أن يكون للمبالغة من فاعل، أي: إنه يرمي ويقذف بالشَّرّ والعصيان في قلب ابنِ آدم، ويحتمل أن يكون بمعنى مَرْجُوم، أي: يُرجَم بالشُّهب، أو يُبْعَد ويُطْرَد.

الكَفالة: الضَّمان، يقال: كَفَلَ يكفُل، فهو كافل وكَفِيل. هذا أصلُه، ثم يُستعار للضمّ والقيام على الشيء.

«زكريَّا» أعجميّ، شُبِّهَ بما فيه الألف الممدودة والألف المقصورة، فهو ممدودٌ ومقصور، ولذلك يمتنعُ صرفُه نكرة، وهاتان اللغتان فيه عند أهل الحجاز، ولو كان امتناعُه للعلمية والعُجمة انصرفَ نكرةً[(٢)]، وقد ذهب إلى ذلك أبو حاتم، وهو غلط منه.

ويقال: زَكَرِيّ، بحذف الألف وفي آخره ياء كياء بُخْتِيّ، منوَّنة، فهو منصرف، وهي لغة نجد، ووجهُه فيما قال أبو علي أنه حذفَ ياءي الممدود والمقصور، وألحقَه ياءي النسب، يدلُّ على ذلك صرفُه، ولو كانت الياءان هما اللتين كانتا في زكريَّا؛ لَوجبَ أن لا يُصرف للعُجمة والتعريف. انتهى كلامه.

وقد حُكيَ زَكْر على وزن عَمْرو، حكاها الأخفش.

---

(١) الرَّجَز لرُؤبة بن العجّاج، وهو في ديوانه ص١٤٦، وهو مطلع قصيدة له يمدحُ فيها أبا العبَّاس السفَّاح، وسلف عند تفسير الآية (٨٧) من سورة البقرة، وقال المصنف ثمة: مريم باللسان السرياني معناه الخادم... ومريم باللسان العربي من النساء كالزِّير من الرجال... والزِّير: الذي يُكثِرُ خلطة النساء وزيارتهنّ.

(٢) يعني لزوالِ أحدِ سَبَبَي المنع، وهو العلميَّة. قال السمين: لكنَّ العرب منعَتْه نكرةً، فعلمنا أن المانع غيرُ ذلك، وليس معنا هنا ما يصلحُ مانعاً من صرفه إلا ألف التأنيث، يعنون التشبيه بألف التأنيث. ينظر الدر المصون ٣/ ١٤٣.

المحراب؛ قال أبو عبيدة: سيِّدُ المجالس وأشرفُها ومُقَدَّمُها، وكذلك هو من المسجد[١].

وقال الأصمعي: الغُرفة. وقال:

ومـاذا عـلـيـه أنْ ذَكَـرْتُ أَوَانِـسـاً كغِزْلانِ رَمْلٍ في محاريبِ أقيالِ[٢]

شرحَه الشُّرَّاح: في غُرف أقيال.

وقال الزَّجّاج: الموضع العالي الشريف[٣].

وقال أبو عَمرو بنُ العلاء: القصر؛ لشرفه وعلوِّه. وقيل: المسجد. وقيل: محرابُه المعهود؛ سُمِّي بذلك لتحاربِ الناس عليه وتنافسِهم فيه، وهو مَقام الإمام من المسجد.

«هنا» اسم إشارة للمكان القريب، والتزم فيه الظرفية، إلا أنه يجرّ بحرف الجرّ، فإنْ ألحقتَه كاف الخطاب دلَّ على المكان المتوسط، أو زدْتَ اللام دلَّ على المكان البعيد، وبنو تميم تقول: هناك، ويصحُّ دخول هاء التنبيه[٤] عليه إذا لم تكن فيه اللام، وقد يُراد بها ظرف الزمان.

النّداء: رفعُ الصوت، وفلانٌ أندى صوتاً، أي: أرفع[٥]، ودار النَّدوة لأنهم كانوا ترتفعُ أصواتُهم بها، والمُنتدى والنادي مجتمع القوم منه، ويقال: نادى مناداة ونِداءً ونُداء؛ بكسر النون وضمِّها؛ قيل: فبالكسر المصدر، وبالضم اسم، وأكثرُ ما جاءت الأصوات على الضمّ، كالدُّعاء والرُّغاء والصُّراخ.

وقال يعقوب: يمدّ مع كسر النون ويُقصر مع ضمِّها.

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٩١.

(٢) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٣٤. قوله: الأقيال، أي: الملوك؛ قال شارح الديوان: هم يتخذون الغزلان ويربُّونها.

(٣) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٠٣.

(٤) نحو: ههنا. وفي (ح) و(د١) و(د٢) و(ز٢) و(يه): حرف التنبيه. والمثبت من (أ) و(ب) و(ت) و(ع).

(٥) قال السمين في الدرّ المصون ٣/ ١٥٦: هذا أصلُه في اللغة، وفي العُرف صارَ ذلك لأحسنهما صوتاً ونغماً.

والنَّدَى: المطر؛ يقال منه: نَدِيَ يَنْدَى نَدًى.

«يحيى» اسم أعجمي امتنع الصَّرْف للعُجْمة والعلميَّة، وقيل: هو عربيّ، وهو فعل مضارع من: حَيِيَ، سُمِّيَ به فامتنع الصرف للعلمية ووزن الفعل، وعلى القولين يجمع على يَحْيَوْن، بحذف الألف وفتح ما قبلَها على مذهب الخليل وسيبويه، ونُقل عن الكوفيين إن كان عربيًا فُتحت الياء، وإن كان أعجميًا ضُمَّت الياء.

سَيِّد: فَيْعِل من: سادَ، أي: فاقَ في الشَّرف، وتقدَّم الكلام في نظير هذا، وجمعُه على فَعَلَة، فقالوا: سادَة، شاذّ[١].

وقال الراغب[٢]: هو السايس لسَوَاد الناس، أي: معظمِهم، ولهذا يقال: سيِّد العبد، ولا يقال: سيِّد الثوب. انتهى.

الحَصُور: فَعُول من الحَصْر، وهو للمبالغة، من حاصر. وقيل: فَعُول بمعنى مفعول، أي: محصور، وهو في الآية بمعنى الذي لا يأتي النساء.

الغلام: الشابّ من الناس، وهو الذي طَرَّ شاربُه، ويطلق على الطفل على سبيل التفاؤل، وعلى الكهل. ومنه قول ليلى الأخيليَّة:

شَفَاهَا من الدَّاءِ العُضالِ الذي بها غُلامٌ إذا هَزَّ القَناةَ سَقَاهَا[٣]

تسميةً بما كان عليه قبل الكهولة، وهو من الغُلْمة والاغتلام، وذلك شدَّةُ طلب النِّكاح، ويقال: اغْتَلَمَ الفحل: هاجَ من شدّة شهوة الضِّراب، واغْتَلَم البحر: هاج وتلاطمَتْ أمواجُه، وجمعُه على غِلْمَة شاذّ، وقياسُه في القلّة: أغْلِمَة، وجمع في الكثرة على غِلْمَان، وهو قياسُه.

الكِبَرُ: مصدر كَبِرَ يَكْبَرُ، من السِّنّ؛ قال:

---

(١) أي: شاذّ قياساً، لكنه فصيح استعمالاً، والأصل سَوَدَة. المصدر السابق.

(٢) تفسيره ص٥٣٨-٥٣٩ (جزء آل عمران).

(٣) البيت من قصيدة لها أنشدتها للحَجاج. وهي في الأغاني ١١/ ٢٤٨. قولها: سقاها، يُفسِّره البيتُ بعده: سقاها دماءَ المارقين... وذكر أبو الفَرَج أنها لمَّا قالت: غلام إذا هزَّ... قال لها الحجَّاج: لا تقولي غلام، قولي: هُمام.

صَغِيرَيْنِ نَرْعَى البَهْمَ يا ليتَ أنّنا إلى اليومِ لم نَكْبَرْ ولم تَكْبَرِ البَهْمُ[(١)]

العاقر: مَنْ لا يُولَدُ له من رجل أو امرأة، وفعلُه لازم، والعاقر اسم فاعل من: عَقَرَ، أي: قتلَ، وهو متعدّ.

الرَّمْز: الإشارة باليد أو بالرأس أو بغيرهما، وأصلُه التحرُّك، يقال: ارْتَمَزَ: تحرَّك، ومنه قيل للبحر: الرَّامُوز.

العَشِيّ: مفردُه عَشِيَّة، كرَكِيّ ورَكِيَّة، والعَشِيَّة: أواخِرُ النهار؛ ولامُها واو، فهي كمَطِيّ.

الإبكار: مصدر: أبْكَرَ، يقال: أبْكَرَ: خَرجَ بُكْرَةً.

* * *

التفسير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ قال ابن عباس: قالت اليهود: نحن أبناءُ إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ونحن على دينهم، فنزلت[(٢)].

وقيل: في نصارى نَجْران؛ لما غَلَوْا في عيسى وجعلوه ابنَ الله تعالى واتخذوه إلهاً؛ نزلت ردًّا عليهم وإعلاماً أن عيسى من ذُرِّية البشر المتنقِّلين في الأطوار المستحيلة على الإله، واستطردَ من ذلك إلى ولادة أمِّه، ثم إلى ولادته هو. وهذه مناسبةُ هذه الآيات لما قبلَها.

وأيضاً لما قدَّم قبلُ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ وليَه: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ وختمها بأنه لا يحبُّ الكافرين؛ ذكرَ المُصْطَفَيْنَ الذين يجبُ اتِّباعُهم، فبدأ أوّلاً بأوَّلِهم وُجوداً وأصلِهم، وثنَّى بنوح عليه السلام إذْ هو آدمُ الأصغر، ليس أحدٌ على وجه الأرض إلا من نسله، ثم أتى ثالثاً بآل إبراهيم، فاندرج فيهم رسولُ الله ﷺ المأمورُ باتِّباعه وطاعته، وموسى عليه السلام، ثم أتى رابعاً بآل عِمْران، فاندرجَ في آله مريمُ وعيسى عليهما السلام، ونصَّ على آل

(١) البيت لمجنون ليلى، وهو في ديوانه ص٢٣٨.
(٢) تفسير الثعلبي ٢/ ٤٦، وزاد المسير ١/ ٣٧٤.

إبراهيم لخصوصية اليهود بهم، وعلى آل عمران لخصوصية النصارى بهم. فذكرَ تعالى جَعْلَ هؤلاء صفوة، أي: مختارين نقاوةً، والمعنى أنه نقَّاهم من الكَدَر، وهذا من تمثيل المعلوم بالمحسوس.

واصطفاءُ آدم بوجوه: منها خلقُه أوَّلَ هذا الجنس الشريف، وجعلُه خليفةً في الأرض وإسجادُ الملائكة له، وإسكانُه جنَّته، إلى غير ذلك ممَّا شرَّفه به.

واصطفاءُ نوحٍ عليه السلام بأشياء، منها أنه أوَّلُ رسولٍ بُعث إلى أهل الأرض بتحريم البنات والأخوات والعمَّات والخالات وسائرِ ذوي المحارم، وأنَّه أبُ الناسِ بعد آدم، وغير ذلك.

واصطفاءُ آلِ إبراهيم عليه السلام بأنْ جعلَ فيهم النبوَّة والكتاب. قال ابنُ عباس والحسن: آلُ إبراهيم مَنْ كان على دينه. وقال مقاتل: آلُهُ: إسماعيلُ وإسحاقُ ويعقوبُ والأسباط. وقيل: المراد بآل إبراهيمَ إبراهيمُ نفسُه.

وتقدَّم لنا شيء من الكلام على ذلك في قوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

و«عِمْران» هذا المضافُ إليه «آل»؛ قيل: هو عِمْرانُ بنُ ماثان، من ولد سليمان بن داود، وهو أبو مريم البَتُول أمِّ عيسى عليه السلام. قاله الحسن ووَهْب.

وقيل: هو عِمْران أبو موسى وهارون، وهو عِمْران بن يصهر. قاله مقاتل. فعلى الأول آلُهُ عيسى. قاله الحسن، وعلى الثاني آلُهُ موسى وهارون. قاله مقاتل[1].

وقيل: المراد بآل عِمْرانَ عمرانُ نفسُه، والظاهرُ في «عِمْران» أنه أبو مريم؛ لقوله بعد: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾. فذكر قصةَ مريم وابنِها عيسى، ونصَّ على أنَّ الله اصطفاها بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ فقولُه: «إذ قالت امرأة عمران» كالشرح لكيفية الاصطفاء لقوله: «وآلَ عمران» وصار نظيرَ تكرار الاسم في جملتين، فيسبق الذِّهنُ إلى أنَّ الثانيَ هو الأوَّل، نحو: أكْرِمْ زيداً إنَّ زيداً رجلٌ صالح، وإذا كان المراد بالثاني غير الأول كان في ذلك إلباس على السامع.

(١) ينظر زاد المسير ١/ ٣٧٥.

وقد رُجِّح القولُ الآخَرُ بأنَّ موسى يُقرنُ بإبراهيم كثيراً في الذِّكر.

ولا يتطرَّق الوهم إلى أنَّ عمران الثاني هو أبو موسى وهارون وإن كانت له بنتٌ تسمَّى مريم وكانت أكبرَ من موسى وهارون سِنًّا؛ للنّصِّ على أنَّ مريم بنت عمران بن ماثان ولدَتْ عيسى، وأنَّ زكريَّا كَفَلَ مريم أمَّ عيسى، وكان زكريَّا قد تزوَّجَ أختَ مريم إيشاعَ ابنةَ عمران بن ماثان، فكان يحيى وعيسى ابْنَيْ خالة[1]، وبين العِمْرانَيْن والمَرْيَمَيْن أعصارٌ كثيرة؛ قيل: بين العِمْرانَيْن ألفُ سنة وثمان مئة سنة.

والظاهر أن الآل مَنْ يؤول إلى الشخص في قرابة أو مذهب، والظاهر أنه نصَّ على هؤلاء هنا في الاصطفاء للمزايا التي جعلها الله تعالى فيهم.

وذهب قاضي القضاة بالأندلس أبو الحَكَم منذر بنُ سعيد البلّوطيّ رحمه الله ورضيَ عنه[2] إلى أنَّ ذِكْرَ آدمَ ونوحٍ تضمَّنَ الإشارة إلى المؤمنين به من بَنِيهما، وأنَّ الآل الأتْباع، فالمعنى: إنَّ اللّه اصطفى المؤمنين على الكافرين، وخصَّ هؤلاء بالذِّكر تشريفاً لهم، ولأنَّ الكلام في قصة بعضهم. انتهى ما قال ملخَّصاً[3].

وقولُه شبيهٌ في المعنى بقول مَن تأوَّلَ قولَه: «آدمَ» وما بعده على حذف مضاف، أي: إنَّ الله اصطفى دينَ آدم. ورُوِيَ معناه عن ابن عبَّاس؛ قال: المرادُ: اصطفى دينَهم على سائر الأديان. واختاره الفرَّاء[4].

وقال التبريزيّ: هذا ضعيف؛ لأنه لو كان ثَمَّ مضافٌ محذوفٌ لكان: ونوحٍ، مجروراً؛ لأنَّ «آدم» محلُّه الجرّ بالإضافة.

وهذا الذي قاله التبريزيّ ليس بشيء، ولولا تسطيرُه في الكتب ما ذكرتُه؛ لأنه لا يلزمُ أنْ يُجرَّ المضافُ إليه إذا حُذف المضاف فيلزمَ جرُّ ما عُطف عليه، بل يُعرب

---

(١) الكلام بنحوه في الكشاف ١/ ٤٢٤-٤٢٥.

(٢) هو فقيهٌ محقِّق، وخطيب مُفَوَّه، كان كثيرَ الصيام والتهجُّد، استسقى غير مرَّة فسُقي. مات سنة (٣٥٥هـ). سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٧٣-١٧٤.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٢٣.

(٤) معاني القرآن ١/ ٢٠٧. وينظر زاد المسير ١/ ٣٧٥.

المضافُ إليه بإعراب المضاف المحذوف، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. وأما إقرارُه مجروراً، فلا يجوز إلا بشرط ذُكر في علم النحو[١].

«على العالَمين» متعلّق بـ «اصطفى» ضَمَّنَهُ معنى «فَضَّلَ»، فعدَّاه بـ «على» ولو لم يُضَمِّنْه معنى «فَضَّلَ» لعُدِّيَ بـ «مِنْ».

قيل: والمعنى: على عالَمِي زمانِهم، فاللفظ عامٌّ، والمراد به الخُصوص، كما قال جرير:

ويُضحي العالَمونَ له عِيالا[٢]

والحُطيئة:

أراحَ اللهُ منكِ العالَمينا[٣]

وكما تؤوِّل في ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقال القُتَبيّ: لكل دهر عالَم.

ويمكن أن يخصَّ بمن سوى هؤلاء، ويكون قد اندرج في قوله: «وآلَ إبراهيم» محمدٌ ﷺ، فيكون المعنى: إنَّ هؤلاء فُضِّلُوا على مَنْ سواهم من العالَمين.

واشتراكُهم في القَدْر المشترك من التفضيل لا يدلُّ على التساوي في مراتب التفضيل، كما تقول: زيد وعَمْرو وخالد أغنياء، فاشتراكُهم في القَدْر المشترك من الغِنَى لا يدلُّ على التساوي في مراتب الغِنَى، وإذا حملنا «العالَمين» على مَنْ سوى هؤلاء؛ كان في ذلك دلالةٌ على تفضيل البشر على الملائكة؛ لأنهم من سوى هؤلاء المُصْطَفَيْنَ، وقد استُدِلَّ بالآية على ذلك.

---

(١) قال المصنف في ارتشاف الضَّرَب ١٨٣٩/٤: يجوز الجرّ بالمضاف محذوفاً إثر عاطف متصل مسبوقٍ بمضاف مثلِ المحذوف لفظاً ومعنًى، نحو: ما كلُّ سوداءَ تمرة، ولا بيضاءَ شحمة. أي: ولا كلُّ بيضاءَ.

(٢) هو عجز بيت، وصدرُه: تَنَصَّفَهُ البَرِيَّةُ وهو سام. وهو في ديوانه ٢/ ٧٥٠. وفيه: ويمسي، بدل: ويُضحي. ومعنى تَنَصَّفَهُ، أي: تطلبُ فضلَه.

(٣) هو عجز بيت له في هجاء أمِّه، وصدرُه: تَنَحَّي فاجْلِسِي منَّا بعيداً. وهو في «ديوانه» ص٢٧٧. وينظر «الأغاني» ٢/ ١٦٣.

ولا يمكن حملُ «العالَمين» على عمومه لأجل التناقض، لأن الجمع الكثير إذا وُصفوا بأنَّ كلَّ واحد منهم أفضلُ من كلِّ العالَمين يلزم كلُّ واحد منهم أن يكون أفضلَ من الآخر، وهو محال.

وقرأ عبد الله: «وآلَ محمد على العالمين».

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ﴾ أجازوا في نصب «ذُرِّيةً» وجهين: أحدُهما: أن يكون بَدَلاً؛ قال الزمخشري: من «آلَ إبراهيم وآلَ عمران» يعني أنَّ الآلَيْن ذرّيةٌ واحدة[١].

وقال غيرُه: بَدَل من «نوح» ومَن عُطف عليه من الأسماء.

قال أبو البقاء: ولا يجوز أن يكون بَدَلاً من «آدم» لأنه ليس بذرّية. انتهى[٢].

وقال ابن عطية[٣]: لا يسوغ أن تقول في والد: هذا ذُرِّيةٌ لولدِه.

وقال الراغب: الذُّرِّيَّة يقال للواحد والجمع والأصل والنَّسْل، كقوله: «حَمَلْنَا ذُرِّيَّاتِهِمْ»[٤] أي: آباءَهم، ويقال للنساء: الذَّرارِي.

وقال صاحب «النَّظْم»[٥]: الآيةُ تُوجبُ أن تكون الآباء ذُرِّيَّة للأبناء، والأبناء ذرِّية للآباء، وجاز ذلك لأنه من: ذَرَأَ اللهُ الخلقَ، فالأبُ ذُرِئَ منه الولدُ، والولدُ ذُرِئَ من الأب. وقال معناه النقّاش[٦].

فعلى قول الراغب وصاحب «النَّظْم» يجوزُ أن يكون «ذُرِّيَّة» بَدَلاً من «آدم» ومَن عُطف عليه.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٢٤. وكذا أعربَه الزَّجّاج في معاني القرآن ١/ ٣٩٩ ثم قال: وجائز أن ينصب على الحال.

(٢) الإملاء ٢/ ٥٢. وقال: نصبُها على البَدَل من نوح.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٢٣.

(٤) على الجمع، وقرأ بها نافع وابن عامر من السبعة، وقرأ الباقون: ذُرِّيَّتَهُمْ. وهي من الآية (٤١) من سورة يس.

(٥) هو أبو علي الحسن بن يحيى بن نصر الجماجمي الجرجاني، وسلف ذكرُه أوائل هذه السورة في الكلام على «الم».

(٦) ينظر زاد المسير ١/ ٣٧٥.

وأجازُوا أيضاً نصب «ذُرِّيَّة» على الحال، وهو الوجه الثاني من الوجهين، ولم يذكره الزمخشريّ، وذكره ابن عطيَّة، وقال: وهو أظهر من البَدَل[١].

وتقدَّم الكلامُ على «ذُرِّيَّة» دلالةً واشتقاقاً ووزناً، فأغنى عن إعادته.

وقرأ زيد بن ثابت والضَّحَّاك: «ذِرِّية» بكسر الذال[٢]، والجمهورُ بالضم.

«بعضُها من بعض» جملة في موضع الصفة لـ «ذُرِّيَّة»، و«من» للتبعيض حقيقةً، أي: متشعِّبةٌ بعضُها من بعض في التناسل، فإنْ فُسِّر عمران بوالد موسى وهارون فهما منه، وهو من يصهر، ويصهر من قاهث، وقاهث من لاوي، ولاوي من يعقوب، ويعقوب من إسحاق، وإسحاق من إبراهيم عليه السلام.

وإن فُسِّر عمران بوالد مريم أمِّ عيسى؛ فعيسى من مريم، ومريم من عمران بن ماثان، وهو من ولد سليمان بن داود، وسليمان من ولد يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم[٣].

وقد دخل في آل إبراهيم رسولُ الله ﷺ.

وقيل: «من» للتبعيض مجازاً أي: من بعض في الإيمان والطاعة والإنعام عليهم بالنبوَّة. وإلى نحو من هذا ذهب الحسن؛ قال: «من بعض» في تناصر الدِّين[٤].

وقال أبو رَوْق: بعضُها على دين بعض[٥].

وقال قتادة: في النيَّة والعمل والإخلاص والتوحيد.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميعٌ لِما يقولُه الخلق عليمٌ بما يُضمرونه، أو سميعٌ لما تقوله امرأة عمران، عليمٌ بما تقصد، أو سميعٌ لما تقوله الذُّرِّيَّة، عليمٌ بما تُضمرُه، ثلاثة أقوال.

---

(١) ينظر الكشاف ١/ ٤٢٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٣. وقد نصبَه على الحال الأخفش في معاني القرآن ١/ ٤٠٢ ثم قال: ويكون على البدل.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٢٣.

(٣) ينظر الكشاف ١/ ٤٢٤.

(٤) النكت والعيون ١/ ٣٨٦، وتفسير القرطبي ٥/ ٩٨.

(٥) تفسير الثعلبي ٢/ ٤٦.

وقال الزمخشري[١]: عليمٌ بمن يصلح للاصطفاء، أو يعلمُ أنَّ بعضَهم من بعض في الدين. انتهى.

والذي يظهرُ أنَّ ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ مناسبٌ لقوله: ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ لأن إبراهيم عليه السلام دعا لآله في قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ بقوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وحمِدَ ربَّه تعالى فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ وقال مُخبِراً عن ربِّه: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ ثم دعا ربَّه بأنْ يجعلَه مقيمَ الصلاة وذُرِّيَّته، وقال حين بنَى هو وإسماعيلُ الكعبة: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾إلى سائر ما دعا به حتى قوله: ﴿وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ [البقرة: ١٢٩] ولذلك قال رسول الله ﷺ: «أنا دَعْوَةُ إبراهيم»[٢].

فلما تقدَّمت من إبراهيم تضرُّعات وأدعية لربِّه تعالى في آله وذُرِّيته؛ ناسَبَ أن يختم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وكذلك آل عمران؛ دعتِ امرأةُ عمران بقبول ما كانت نَذَرَتْه لله تعالى[٣]، فناسبَ أيضاً ذكر الوصفين، ولذلك حين ذكرَت النَّذر ودَعَتْ بتقبُّله؛ أخبرَتْ عن ربِّها بأنه السميع العليم، أي: السميعُ لدعائها، العليم بصدق نيَّتها بنذرها ما في بطنها للهِ تعالى.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ﴾الآية. لما ذكر أنه تعالى اصطفى آل عمران[٤]، وكان معظم صدر هذه السورة في أمر النصارى وفدِ نجران، ذكرَ ابتداءَ حالِ آل عمران.

وامرأةُ عمران اسمُها حَنَّة، بالحاء المهملة والنون المشدَّدة مفتوحتين، وآخرها تاء تأنيث، وهو اسم عِبْرانيّ، وهي حَنَّة بنت فاقُود، ودَيْر حَنَّة بالشام معروف، وثَمَّ

---

(١) الكشاف ١/ ٤٢٤.

(٢) قطعة من حديث أبي أُمامة الباهلي أخرجه أحمد (٢٢٢٦١)، وأخرجه أيضاً من حديث العرباض بن سارية (١٧١٥٠).

(٣) بعدَها في (أ) و(ب) و(ت) و(ز٢): وهو آل عمران. ولم تتبيَّن لي.

(٤) في (ت): لما ذكر تعالى اصطفاء آل عمران... الخ. ولم تجوَّد العبارة في (أ) و(ب) و(ع). والمثبت من باقي النسخ.

دَيْرٌ آخر يُعرف بدَيْر حَنَّة. وقد ذكر أبو نُواس دَيْر حَنَّة في شعره، فقال:

يـا دَيْـرَ حَـنَّـةَ مِـنْ ذاتِ الأُكَـيْـرَاحِ مَنْ يَصْحُ عنكَ فإني لستُ بالصَّاحي[(١)]

وقبرُ حَنَّةَ جدَّةِ عيسى بظاهر دمشق.

وقال القرطبي: لا يُعرف في العربية اسم امرأة حنَّة[(٢)].

وذكر عبد الغني بن سعيد الحافظ حَنَّة أمَّ عَمْرو يروي حديثَها ابنُ جُريج[(٣)].

ويستفاد حَنَّة مع حَبَّة، بالحاء المهملة وباء بواحدة من أسفل، وحَيَّة بالحاء المهملة وياء باثنتين من أسفل، وهما اسمان لناس.

ومع خَبَّة؛ بالخاء المعجمة والباء بواحدة من أسفل، وهي خَبَّة بنت يحيى بن أكثم القاضي أمُّ محمد بن نصر[(٤)].

ومع جَنَّة؛ بجيم ونون، وهو أبو جَنَّة خال ذي الرُّمَّة الشاعر، لا نعرف سواه[(٥)].

---

(١) ديوان أبي نواس ص١٦٤. قولُه: الأُكَيْراح؛ قال ياقوت في «معجم البلدان» ١/ ٢٤٣: هي بيوت صغار تسكنُها الرُّهبان الذين لا قَلالي لهم (أي لا صوامع لهم) يقال لواحدها: كَرْح، بالقرب منها دَيْران، يقال لأحدهما: دير مرعبدا، وللآخر دير حَنَّة، وهو موضع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياض. وفيه يقول أبو نُواس... وذكر البيت. وينظر تفسير القرطبي ٥/ ٩٩.

(٢) تفسير القرطبي ٥/ ٩٩، ونقله القرطبي عن السُّهيلي، قاله في التعريف والإعلام ص٣٣. وذكر الفيروز آبادي في القاموس (حنن) بعضَ مَن اسمُه حنَّه من الرجال.

(٣) لم أقف عليه. وجاء في مصنف عبد الرزاق (١٠٧٠٩) خبر في زواج امرأة رواه ابنُ جُريج، واسم المرأة أمّ عَمرو، فلينظر.

(٤) كذا وقع هنا وفي التعريف والإعلام للسُّهيليّ ص٣٣. وفيه وهم في أمرين: الأوَّل: قولُه: خَبَّة، فقد قيَّده السُّهيليّ بالخاء المعجمة، ولم يقيِّد الحرف الثاني، وكذا قيَّده بالخاء فقط في الرَّوْض الأُنُف ٣/ ١٩٧، لكن جاء فيه: خَنَّة، بالخاء المعجمة والنون، وهو كذلك في الإكمال ٢/ ٣٣٠، والمشتبه (توضيحه ٣/ ٨٨) وتبصير المنتبه ١/ ٤٠٢. الأمر الثاني: قوله: بنت يحيى بن أكثم أمّ محمد... الخ. كذا ذكره السُّهيليّ، ونقله عنه القرطبي ٥/ ٩٥ دون أن يصرِّح به، وذكر السُّهيليّ أنه نقله عن ابن ماكولا. والذي ذكره ابنُ ماكولا في الإكمال أن خنَّة هي أخت يحيى بن أكثم، وهي زوجة محمد بن نصر المروزي الفقيه. وكذا هو في المشتبه والتبصير. والله أعلم.

(٥) واسمُه حكيم بن عُبيد الأسدي، ويقال: حكيم بن مصعب، كما في المؤتلف والمختلف للآمدي ص١٤٦.

ولم تكتفِ حَنَّةُ بنيَّة النَّذر حتى أظهَرَتْه باللفظ، وخاطبَتْ به الله تعالى، وقدَّمَتْ قبلَ التلفُّظ بذلك نداءَها له تعالى بلفظ الرَّبِّ الذي هو مالكُها ومالكُ كلِّ شيء.

وتقدَّم معنى النَّذر، وهو استدفاع المَخُوف[١] بما يعقدُه الإنسان على نفسه من أعمال البِرّ. وقيل: ما أوجبَه الإنسان على نفسه بشريطة وبغير شريطة؛ قال الشاعر:

فليتَ رجالاً فيكِ قد نَذَرُوا دمي   وهَمُّوا بقتلي يا بُثَيْنَ لَقُوني[٢]

و«لك» اللام فيه لام السبب، وهو على حذف، التقدير: لخدمةِ بيتِك، أو للاحتباس على طاعتك.

﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ جزمتِ[٣] النذرَ على تقدير أن يكون ذَكَراً، أو لرجاء منها أن يكونَ ذَكَراً.

﴿مُحَرَّرًا﴾ معناه عتيقاً من كلِّ شُغل من أشغال الدنيا، فهو من لفظ الحرِّيَة؛ قاله[٤] محمد بن جعفر بن الزبير، أو خادماً للبِيعة؛ قاله مجاهد، أو مخلصاً للعبادة؛ قاله الشعبي، ورواه خُصَيْف عن عكرمة ومجاهد[٥].

وأتى بلفظ «ما» دون «مَنْ» لأنَّ الحَمْلَ إذ ذاك لم يتَّصف بالعقل، أو لأنَّ «ما» مبهمة تقع على كل شيء، فيجوز أن تقع موقع «مَنْ»، ونُسب هذا إلى سيبويه[٦].

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ دَعَتِ الله تعالى بأنْ يقبلَ منها ما نذرَتْه له، والتقبُّل أخْذُ الشيء على الرِّضا به، وأصلُه المقابلةُ بالجزاء.

---

(١) في (أ) و(ب) و(ع): الخوف.

(٢) البيت لجميل، وهو في ديوانه ص٢١٠. وينظر تفسير الثعلبي ٢/ ٤٧.

(٣) في (أ) و(ع): حرَّرت.

(٤) في (ح) و(د١) و(د٢) و(ز٢) و(ع) و(يه) والمطبوع: قال. وهو خطأ. والمثبت من (أ) و(ب) و(ت). والقول المذكور في المحرر الوجيز ١/ ٤٢٤ بتقديم وتأخير دون نسبة.

(٥) الأقوال السالفة بنحوها في تفسير الطبري ٥/ ٣٣٢-٣٣٣، وأحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٠، والنكت والعيون ١/ ٣٨٧، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٤، وتفسير القرطبي ٥/ ١٠١.

(٦) الكتاب ٤/ ٢٢٨ (باب عدّة ما يكون عليه الكلم).

و«تقبَّلَ» هنا بمعنى «قَبِلَ» فهو مما تفعَّل فيه بمعنى الفعل المجرَّد(١)، كقولهم: تعدَّى الشيءَ وعَدَّاه، وهو أحدُ المعاني التي جاءت لها «تفعَّل»(٢).

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ختَمَتْ بهذين الوصفين؛ لأنها اعتقدت النَّذر وعَقَدَتْه بنيَّتها، وتلفَّظت به، ودَعَتْ بقَبوله، فناسبَ ذلك ذكرَ هذين الوصفين.

والعاملُ في «إذْ» مضمر، تقديرُه: اذكر، قاله الأخفش والمبرِّد، أو معنى الاصطفاء، التقدير: واصطفى آل عمران [إذْ]؛ قاله الزجَّاج(٣). وعلى هذا يُجعل «وآلَ عمران» من باب عطف الجمل، لا من باب عطف المفردات؛ لأنَّه إن جُعل من باب عطف المفردات لزم أن يكونَ العاملُ فيه: «اصطفى آدم»، ولا يسوغُ ذلك لتغايرِ زمانِ هذا الاصطفاء وزمانِ قول امرأة عمران، فلا يصحُّ عملُه فيه.

وقال الطبريّ ما معناه: إن العامل فيه: «سميع». وهو ظاهر قول الزمخشريّ(٤): أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيَّتها، و«إذ» منصوب به. انتهى.

ولا يصحُّ ذلك؛ لأنَّ قوله: «عليم» إمَّا أنْ يكون خبراً بعد خبر، أو وصفاً لقوله: «سميع»؛ فإن كان خبراً فلا يجوز الفصلُ به بين العامل والمعمول لأنه أجنبي منهما، وإن كان وصفاً فلا يجوز أن يعمل «سميع» في الظرف؛ لأنه قد وُصف، واسم الفاعل وما جرى مجراه إذا وُصف قبل أخذِ معموله لا يجوزُ له إذ ذاك أن يعمل؛ على خلافٍ لبعض الكوفيين في ذلك، ولأنَّ اتِّصافَه تعالى بسميع عليم لا يتقيَّد بذلك الوقت.

وذهب أبو عبيدة إلى أنَّ «إذ» زائدة(٥)، المعنى: قالت امرأة عمران، وتقدَّم له نظيرُ هذا القول في مواضع، وكان أبو عبيدة يضعَّف في النحو.

---

(١) وتأتي «تَقَبَّلَ» أيضاً بمعنى «استقبلَ» كما سيرد عند قوله: «فتَقَبَّلَها ربُّها» بعد آية. وينظر التعليق التالي.

(٢) تَعَدَّى الشيءَ وعَدَّاه، أي: تجاوزَه. وقد ذكرَ المصنف سبعة عشر معنًى يأتي لها وزن «تَفَعَّلَ» عند تفسير قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧].

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٠٠، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٩، وتفسير القرطبي ٥/ ٩٩. والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٤٢٤ وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) الكشاف ١/ ٤٢٤، وكلام الطبري في تفسيره ٥/ ٣٣٠.

(٥) مجاز القرآن ١/ ٩٠. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٢٤: هذا قول مردود.

وانتصبَ «محرَّراً» على الحال؛ قيل: من «ما» فالعامل: «نَذَرْتُ»، وقيل: من الضمير[١] الذي في استقرَّ العاملِ في الجار والمجرور، فالعامل في هذا استقرَّ.

وقال مكّيّ: فمن نصبَه على النعت لمفعول محذوف يقدِّرُه غلاماً محرَّراً[٢].

قال ابن عطية: وفي هذا نظر. يعني أنَّ «نذرَ» قد أخذ مفعوله، وهو «ما في بطني» فلا يتعدَّى إلى آخر.

ويحتمل أن ينتصب «محرَّراً» على أن يكون مصدراً في معنى: تحريراً؛ لأنَّ المصدر يجوزُ أن يكون على زنة المفعول من كل فعل زائدٍ على الثلاثة كما قال الشاعر:

أَلَمْ تَعْلَمْ مُسَرَّحِيَ القَوافي فلا عِيًّا بِهِنَّ ولا اجْتِلابا[٣]

التقدير: تسريحي القوافي، ويكون إذ ذاك على حذف مضاف، أي: نَذْرَ تحرير، أو على أنه مصدر من معنى «نذرتُ» لأنَّ معنى «نذرتُ لك ما في بطني» حَرَّرْتُ لكَ بالنذر ما في بطني.

والظاهرُ القولُ الأول وهو أن يكون حالاً من «ما»، ويكون إذ ذاك حالاً مقدَّرة إنْ كان المرادُ بقوله: «محرَّراً» خادماً للكنيسة، وحالاً مصاحِبة إن كان المراد عتيقاً؛ لأنَّ عتق ما في البطن يجوز.

وكتبوا «امرأة عمران» بالتاء لا بالهاء، وكذلك امرأة العزيز في موضعين، وامرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة فرعون، سبعة مواضع[٤].

فأهلُ المدينة يقفون بالتاء اتّباعاً لرسم المصحف، مع أنها لغةٌ لبعض العرب

---

(١) في (يه): الفاعل، بدل: الضمير.

(٢) بنحوه في مشكل إعراب القرآن ١/١٥٦. والكلام في المحرر الوجيز ١/٤٢٤.

(٣) البيت لجرير، وهو في ديوانه ص٦٥١، وفيه: ألم تُخْبَرْ بِمَسْرَحِيَ...

(٤) أربعة مواضع في: آل عمران (٣٥) ويوسف (٣٠) و(٥١) والقصص (٩)، وثلاثة في التحريم (١٠) و(١١).

يقفون على طلحة: طلحَتْ، بالتاء، ووقف أبو عَمرو والكسائيّ بالهاء[١]، ولم يتّبعوا رسم المصحف في ذلك، وهي لغة أكثر العرب.

وذكرَ المفسِّرون سببَ هذا الحمل الذي اتَّفقَ لامرأة عمران، فرُوِيَ أنَّها كانت عاقراً، وكانوا أهلَ بيت لهم عند الله مكانة، فبينا هي يوماً في ظلّ شجرة؛ نظرَتْ إلى طائر يَزُقُّ فَرْخاً له[٢]، فتحرَّكَتْ به نفسُها للولد، فدَعَتِ الله تعالى أنْ يَهَبَ لها ولداً، فحملَتْ، وماتَ عِمْرانُ زوجُها وهي حامل، فحَسِبَتْ الحملَ ذَكَراً فنذرَتْه لله حبيساً لخدمة الكنيسة، أو بيت المقدس، وكان من عادتهم التقرُّب بهبةِ أولادِهم لبيوت عباداتهم، وكان بنو ماثان رؤوسَ بني إسرائيل وملوكَهم وأحبارَهم، ولم يكن أحدٌ منهم إلا ومن نسله مُحَرَّرٌ لبيت المقدس من الغِلمان، وكانت الجاريةُ لا تصلحُ لذلك، وكان ذلك[٣] جائزاً في شريعتهم، وكان على أولادهم أن يُطيعوهم، فإذا حُرِّرَ، خَدَمَ الكنيسةَ بالكَنْس والإسراج حتى يبلغ، فيُخيَّر، فإنْ أحبَّ أنْ يقيمَ في الكنيسة؛ أقام فيها وليس له الخروج بعد ذلك، وإنْ أحبَّ أن يذهبَ ذهبَ حيث شاء، ولم يكن أحدٌ من الأنبياء والعلماء إلا ومن نَسْلِهِ مُحَرَّرٌ لبيت المقدس[٤].

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ أنَّثَ الضمير في «وضَعَتْها» حملاً على المعنى في «ما» لأنَّ ما في بطنها كان أنثى في علم الله تعالى.

وقال ابنُ عطية[٥]: حملاً على الموجودة، ورفعاً[٦] للفظ «ما» في قولها: «ما في بطني».

وقال الزمخشريّ: أو على تأويل الحَبَلَة، أو النَّفس، أو النَّسَمة[٧].

---

(١) ووقفَ عليها بالهاء أيضاً ابنُ كثير المكّي من السبعة، ويعقوب من العشرة. ينظر التيسير ص٦٠، والنشر ٢/ ١٢٩-١٣٠.

(٢) أي: يُطعمُه بفمه.

(٣) لفظة «ذلك» من (أ) و(ب) و(ت) و(ع).

(٤) ينظر تفسير الطبري ٥/ ٣٣٢-٣٣٥، وتفسير الثعلبي ٢/ ٤٧-٤٨، وتفسير القرطبي ٥/ ١٠٠.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٢٤. والكلام الذي قبله للزمخشري في الكشاف ١/ ٤٢٥.

(٦) في (أ) و(ع): ودفعاً.

(٧) الكشاف ١/ ٤٢٥. وقوله: الحَبَلَة، يعني: النَّتاج. ينظر حاشية الشهاب ٣/ ٢١.

وجواب «لمَّا» هو «قالت»، وخاطبَتْ ربَّها على سبيل التحسُّر على ما فاتَها من رجائها وخلافِ ما قدَّرَتْ[١]؛ لأنَّها كانت ترجو أن تلد ذَكَراً يصلحُ للخدمة، ولذلك نذَرَتْه محرَّراً.

وجاء في قوله: «إني وضَعْتُها» الضميرُ مؤنَّثاً، فإن كان على معنى النَّسَمَة أو النفس، فظاهر، إذْ تكونُ الحال في قوله: «أنثى» مبيِّنة، إذِ النَّسَمَة والنفس تنطلق على المذكّر والمؤنث.

وقال الزمخشري: فإن قلتَ: كيف جاز انتصابُ «أنثى» حالاً من الضمير في «وضَعْتُها»، وهو كقولك: وضعت الأنثى أنثى؟ قلت: الأصلُ وضَعْتُهُ أنثى، وإنَّما أنَّثَ لتأنيث الحال، لأنَّ الحال وذا الحالِ لشيء واحد، كما أنَّثَ الاسم في: مَنْ كانت أمَّك[٢]، لتأنيث الخبر، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [النساء: ١٧٦]. انتهى.

وآلَ قولُه إلى أنَّ «أنثى» تكون حالاً مؤكِّدة، ولا يُخرجُه تأنيثُه لتأنيث[٣] الحال عن أن تكون الحالُ مؤكِّدة.

وأما تشبيهُه ذلك بقوله: مَنْ كانت أمَّك، حيث عاد الضمير على معنى «مَنْ» فليس ذلك نظيرَ «وَضَعْتُها أنثى» لأنَّ ذلك حُمل على معنى «مَنْ»، إذ المعنى: أيَّةُ امرأةٍ كانت أمَّك، أي: كانت هي ـ أي المرأة ـ أمَّك، فالتأنيث ليس لتأنيث الخبر، وإنما هو من باب الحمل على معنى «مَنْ»، ولو فرضنا أنه تأنيث للاسم لتأنيث الخبر لم يكن نظير «وَضَعْتُها أنثى» لأنَّ الخبر مخصَّص بالإضافة إلى الضمير، فقد استُفيد من الخبر ما لا يستفاد من الاسم، بخلاف «أنثى» فإنه لمجرّد التأكيد.

وأما تنظيرُه بقوله: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ فيعني أنه ثنَّى الاسم لتثنية الخبر، والكلام عليه يأتي في مكانه، فإنه من المشكلات؛ فالأحسنُ أن يُجعل الضمير في «وَضَعْتُها أنثى» عائداً على النَّسَمة أو النفس، فتكون الحالُ مبيِّنة لا مؤكِّدة.

---

(١) في (ز٢) و(يه): نذرَتْ.
(٢) في الكشاف: ما كانت أمَّك.
(٣) في (أ) و(ع): تأنيث، بدل: تأنيثه لتأنيث.

وقيل: خاطبتِ الله تعالى بذلك على سبيل الاعتذار والتنصُّل[١] من نذرِ ما لا يصلح لسَدَانة البيت، إذْ كانت الأنثى لا تصلح لذلك في شريعتهم.

وقيل: كانت مريم أجملَ نساء زمانها وأكملَهنَّ.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ قرأ ابنُ عامر وأبو بكر ويعقوب بضم التاء[٢]، ويكون ذلك وما بعدَه من كلام أمِّ مريم، وكأنَّها خاطبَتْ نفسَها بقولها: «والله أعلم» ولم تأتِ على لفظ «رَبّ» إذْ لو أتَتْ على لفظِه لقالت: وأنتَ أعلم بما وضعتُ، ولكن خاطبَتْ نفسها على سبيل التسلية عن الذَّكَر، وأنَّ عِلْمَ الله وسابِقَ قُدرته وحِكمته يحملُ ذلك على عدم التحسُّر والتَّحَزُّن على ما فاتني من المقصد، إذ مرادُه ينبغي أن يكون المرادَ، وليس الذَّكَر الذي طلبتُه ورجوتُه مثلَ الأنثى التي عَلِمَهَا وأرادَها وقضى بها، ولعلَّ هذه الأنثى تكون خيراً من الذَّكَر، إذْ أرادَها الله، سلَّت بذلك نفسَها.

وتكون الألِفُ واللام في «الذَّكَر» للعهد، فيكون مقصودُها ترجيحَ هذه الأنثى التي هي موهوبةُ الله على ما كان قد رَجَتْ من أنه يكون ذكَراً، ويحتمل أن يكون مقصودُها أنه ليس كالأنثى في الفضل والدرجة والمزيَّة؛ لأن الذَّكَر يصلحُ للتحرير والاستمرار على خدمة موضع العبادة، ولأنَّه أقوى على الخدمة، ولا يلحقه عَيْب في الخدمة والاختلاط بالناس ولا تُهمة.

قال ابنُ عطية[٣]: كالأنثى في امتناع نذره، إذِ الأنثى تحيضُ ولا تصلح لصحبة الرُّهبان، قاله قتادة والربيع والسُّدِّيّ وعكرمة وغيرُهم، وبدأتْ بذكر الأهمّ في نفسها، وإلا فسياقُ الكلام أن تقولَ: وليست الأنثى كالذَّكَر، فتضعُ حرفَ النَّفي مع الشيء الذي عندها وانتفت عنه صفاتُ الكمال للغرض المراد. انتهى. وعلى هذا الاحتمال تكون الألف واللام في الذَّكَر للجنس.

وقرأ باقي السبعة: «بما وَضَعَتْ» بتاء التأنيث الساكنة على أنه إخبارٌ من الله بأنه أعلَمُ بالذي وضَعَتْه، أي: بحالِهِ وما يؤولُ إليه أمرُ هذه الأنثى، فإنَّ قولها:

---

(١) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): التبطل.

(٢) السبعة ٢٠٤، والتيسير ص٨٧، والنشر ٢/ ٢٣٩.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٢٥.

«وَضَعْتُها أنثى» يدلُّ على أنَّها لم تعلم من حالها إلا هذا[١] القدر من كون هذه النَّسَمة جاءت أنثى لا تصلح للتحرير، فأخبرَ تعالى أنه أعلمُ بهذه الموضوعة، فأتى بصيغة التفضيل المقتضية للعلم بتفاصيل الأحوال، وذلك على سبيل التعظيم لهذه الموضوعة، والإعلام بما علّق بها وبابنها من عظيم الأمور، إذْ جعلَها وابنَها آيةً للعالَمين، ووالدتُها جاهلةٌ بذلك[٢] لا تعلم منه شيئاً.

وقرأ ابنُ عبَّاس: «بما وَضَعْتِ» بكسر تاء الخطاب[٣]؛ خاطبَها اللهُ بذلك، أي: إنكِ لا تعلمين قَدْرَ هذه الموهوبةِ وما عَلِمَهُ الله تعالى من عِظَم شأنها وعُلوِّ قدرِها.

و«ما» موصولة بمعنى الذي، أو التي، وأتى بلفظ «ما» كما في قوله: «نَذَرْتُ لك ما في بطني» والعائدُ عليها محذوف على كلِّ قراءة.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ «مريم» في لغتهم معناه العابدة، أرادت بهذه التسمية التفاؤلَ لها[٤] بالخير والتقرُّبَ إلى الله تعالى والتضرُّعَ إليه بأن يكون فعلُها مطابقاً لاسمها، وأن يَصْدُقَ فيها ظنُّها بها، ألا ترى إلى إعاذتها بالله وإعاذةِ ذُرِّيَّتِها من الشيطان[٥]، وخاطبتِ الله بهذا الكلام لترتّب الاستعاذة عليه.

واستبدادُها بالتسمية يدلُّ على أنَّ أباها عمران كان قد مات، كما نُقل أنه مات وهي حاملٌ، على أنه يحتمل من حيث هي أنثى أن تستبدَّ الأمُّ بالتسمية لكراهة الرجال البنات.

وفي الآية تسمية الطفل قُرْبَ الولادة، وفي الحديث: «وُلدَ لي الليلةَ مولودٌ، فسمَّيْتُه باسم أبي إبراهيم»[٦].

وفي الحديث: أنه يُعَقُّ عن المولود في السابع ويُسَمَّى[٧].

---

(١) في (د١) والمطبوع: إلا على هذا.
(٢) في (د٢) و(ز٢) و(يه): ذاهلة عن ذلك.
(٣) القراءات الشاذة ص٢٠، والكشاف ١/ ٤٢٥، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٥.
(٤) لفظة «لها» ليست في (ح) و(د٢) و(يه).
(٥) في (أ) و(ع): الشيطان الرجيم.
(٦) قطعة من حديث أنس ﷺ أخرجه أحمد (١٣٠١٤)، ومسلم (٢٣١٥)، وأبو داود (٣١٢٦).
(٧) أخرجه أحمد (٢٠٠٨٣)، وأبو داود (٢٨٣٧)، والترمذي (١٥٢٢) من حديث سمرة بن =

وهذه الجملة معطوفة على ما قبلَها من كلامها، وهي كلُّها داخلةٌ تحت القول على قراءة من قرأ: «بما وضعتُ» بضم التاء. وأمَّا مَنْ قرأ: «بما وضَعَتْ» بسكون التاء، أو بالكسر؛ فقال الزَّمخشريّ: هي معطوفة على: «إني وضعتُها أنثى»(١) وما بينهما جملتان معترضتان، كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦] انتهى كلامه.

ولا يتعيَّنُ ما ذَكَرَ من أنهما جملتان معترضتان؛ لأنه يحتمل أن يكون: «وليس الذكر كالأنثى» في هذه القراءة من كلامها، ويكون المعترِضُ جملةً واحدة كما كان من كلامها في قراءة مَنْ قرأ: «وضعتُ» بضمّ التاء، بل ينبغي أن يكون هذا المتعيَّنَ لثبوت كونه من كلامها في هذه القراءة، ولأن في اعتراض جملتين خلافاً، مذهبُ أبي عليّ أنه لا يعترض جملتان، وقد تقدَّم لنا الكلام على ذلك.

وأيضاً تشبيهُهُ هاتين الجملتين اللتين اعتُرض بهما بين المعطوف والمعطوف عليه على زعمه بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ ليس تشبيهاً مطابقاً للآية؛ لأنه لم يعترض جملتان بين طالب ومطلوب، بل اعتُرض بين القَسَم الذي هو: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ وجوابِه الذي هو: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ بجملة واحدة وهي قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ لكنه جاء في جملة الاعتراض بين بعض أجزائه وبعضٍ اعتراضٌ بجملةٍ، وهي قولُه: «لو تعلمون» اعتُرضَ به بين المنعوت الذي هو: «لَقَسَمٌ» وبين نعته الذي هو: «عظيم». فهذا اعتراضٌ في اعتراض، فليس فصلاً بجملتي اعتراض كقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾.

و«سمَّى» من الأفعال التي تتعدَّى إلى واحد بنفسها، وإلى آخر بحرف الجرّ، ويجوزُ حذفُه، وإثباتُه هو الأصل: تقول: سَمَّيتُ ابني بزيدٍ، وسمَّيتُه زيداً؛ قال:

وسُمِّيتَ كعباً بشَرِّ العِظام ... وكان أبوك يُسَمَّى الجُعَلْ(٢)

أي: وسُمِّيتَ بكعبٍ، ويُسَمَّى بالجُعَل. وهو باب مقصور على السماع، وفيه خلاف عن الأخفش الصغير، وتحريرُ ذلك في علم النحو.

= جندب. وذكر البيهقي في السنن ٩/ ٣٠٥ أنَّ الأصحّ تسميةُ المولود حين يولد، وأورد في ذلك حديثين في الصحيح، وينظر: تحفة المودود ص٦٦.

(١) الكشاف ١/ ٤٢٥-٤٢٦.

(٢) البيت للأخطل، وهو في الأغاني ٨/ ٢٨١، وملحق ديوانه ص٣٣٥.

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾:

أتى خبرُ «إنَّ» مضارعاً، وهو «أُعِيذُها» لأن مقصودَها ديمومةُ الاستعاذةِ والتكرار، بخلاف «وضعتُها» و«سمَّيْتُها»، فإنَّهما ماضيان قد انقطعا، وقَدَّمَتْ ذِكْرَ المُعاذِ به على المعطوف على الضمير للاهتمام به، ثم استدركت بعد ذلك ذِكْرَ ذرِّيَّتها.

ومناجاتُها اللهَ بالخطاب السابق إنما هو وسيلةٌ إلى هذه الاستعاذة، كما يُقدِّمُ الإنسان بين يدي مقصودِه ما يستنزلُ به إحسانَ مَن يَقصِدُه، ثم يأتي بعد ذلك بالمقصود.

وورد في الحديث من رواية أبي هريرة: «كلُّ مَوْلُودٍ من بني آدم له طَعْنَةٌ من الشيطان وبها يستهلُّ الصبيُّ، إلا ما كان من مريمَ ابنةِ عمران وابنِها، فإنَّ أمَّها قالت حين وضَعَتْها: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ فضُرِبَ بينهما حِجاب، فطَعَنَ الشيطانُ في الحجاب»[1].

وقد اختلفت ألفاظ هذا الحديث من طرق، والمعنى واحد.

وطعنَ القاضي عبد الجبَّار في هذا الحديث؛ قال: لأنه خبرُ واحدٍ على خلاف الدليل، فوجبَ ردُّه، وإنَّما كان على خلاف الدليل لأنَّ الشيطان إنَّما يدعو إلى الشرِّ مَنْ يعرفُ الشَّرَّ والخيرَ، والصَّبيُّ ليس كذلك؛ ولأنَّه لو تمكَّنَ من هذا المَسِّ لفعلَ أكثرَ من ذلك من إهلاك الصالحين وغيرِ ذلك، ولأنَّه خصَّ فيه مريمَ وابنَها عيسى دون سائرِ الأنبياء، ولأنه لو وُجد المَسُّ لبَقِيَ أثرُه، ولو بَقِيَ لدامَ الصُّراخ والبكاء، فلمَّا لم يكن كذلك علمنا بطلانَ هذا الحديث.

وقال الزمخشريّ: وما يُرْوَى في الحديث: «ما مِنْ مولودٍ يُولد إلا والشيطانُ يَمَسُّهُ حين يُولد، فيستهلُّ صارخاً من مسِّ الشيطان إياه إلا مريمَ وابنَها» فالله أعلم بصحَّته، فإنْ صحَّ فمعناه: أنَّ كلَّ مولود يطمعُ الشيطانُ في إغوائه إلا مريمَ وابنَها، فإنهما كانا معصومَيْن، وكذلك كلُّ مَنْ كان في صفتهما لقوله: ﴿لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]. واستهلالُه صارخاً من مَسِّه تخييلٌ

(١) أخرجه الطبري ٥/ ٣٣٩-٣٤٠، وهو بنحوه مختصر عند أحمد (٧١٨٢)، والبخاري (٣٤٣١)، ومسلم (٢٣٦٦).

وتصوير لطمعه[١] فيه، كأنَّه يَمَسُّه ويضربُ بيده عليه ويقول: هذا ممَّن أُغويه.
ونحوُه من التخييل قولُ ابن الرُّوميّ:

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيا بِهِ مِن صُرُوفِها ... يكونُ بكاءُ الطِّفْلِ ساعةَ يُولَدُ
إذا ذكَرَ الدُّنيا اسْتَهلَّ كأنَّه ... بما سوفَ يَلْقَى من أذاها يُهَدَّدُ[٢]

وأمَّا حقيقةُ المَسِّ والنَّخس كما يتوهَّم أهل الحشو؛ فكلَّا، ولو سُلِّطَ إبليسُ على الناس ينخسُهم لامتلأت الدنيا صُراخاً وعياطاً ممَّا يبلُونا به من نَخْسِهِ. انتهى كلامه.

وهو جارٍ على طريقة أهل الاعتزال. وقد مرَّ لنا شيءٌ من الكلام على هذا في قوله: ﴿ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ قال الزجَّاج[٣]: الأصل: فتَقَبَّلَها بتَقَبُّلٍ حَسَن، ولكن «قَبُول» محمول على: قَبِلَها قَبُولاً، يقال: قَبِلَ الشيءَ قَبُولاً: إذا رَضِيَهُ.

والقياسُ فيه الضَّمّ، كالدُّخول والخروج، ولكنه جاء بالفتح، وأجاز الفرَّاء والزجَّاج ضمَّ القاف[٤]، ونقلَها ابنُ الأعرابيّ، فقال: قبلتُه قَبَولاً وقُبُولاً.

قال ابن عباس: معناه: سلكَ بها طريقَ السُّعداء.

وقال قوم: تكفَّل بتربيتها والقيام بشأنها.

وقال الحسن: معناه لم يُعَذِّبْها ساعةً قطُّ من ليل ولا نهار[٥].

وعلى هذه الأقوال يكون «تَقَبَّلَ» بمعنى: «استقبلَ»، فيكون «تفعَّل» بمعنى: «استفعل»، أي: استقبلَها ربُّها، نحو: تَعَجَّلْتُ الشيءَ واستَعْجَلْتُه، وتقصَّيْتُ الشيءَ

---

(١) في (أ) و(ت) و(ع): لطعنه. والكلام في الكشاف ١/ ٤٢٦.
(٢) ديوان ابن الرُّومي ١/ ٥٨٦. والبيت الثاني من (ح) و(د٢) و(يه)، وفي الديوان: أَبْصَرَ، بدل: ذكرَ.
(٣) معاني القرآن ١/ ٤٠١.
(٤) المصدر السابق. ولم أقف عليه عند الفراء. وينظر تفسير الطبري ٥/ ٣٤٤.
(٥) الأقوال السابقة في تفسير الثعلبي ٢/ ٤٩.

واستَقْصَيْتُه، من قولهم: استقبلَ الأمرَ: أخَذَهُ بأوّله[(١)]؛ قال:

وخَيْرُ الأمرِ ما استَقْبَلْتَ مِنْهُ وليس بأنْ تَتَبَّعَهُ اتِّباعا[(٢)]

أي: فأخَذَها في أوَّل أمرِها حين ولدَتْ.

وقيل: المعنى: فقبِلَها، أي: رَضِيَ بها في النذر مكانَ الذَّكَر في النَّذْر كما نذرَتْ أمُّها، وسَنَّى لها الأملَ في ذلك، وقَبِلَ دعاءَها في قولها: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ولم يقبل أنثى قَبْلَ مريمَ في ذلك، ويكون «تفعَّل» بمعنى الفعلِ المجرَّد، نحو: تعجَّبَ وعَجِبَ، وتبرَّأ وبَرِئَ.

والباء في «بقَبُول» قيل: زائدة، ويكون إذْ ذاك ينتصبُ انتصابَ المصدر على غير الصَّدر.

وقيل: ليست بزائدة.

والقَبُول اسمٌ لما يُقبَلُ به الشيء، كالسَّعُوط واللَّدُود لِما يُسْعَطُ به ويُلَدّ[(٣)]، وهو اختصاصُه لها بإقامتها مقامَ الذَّكر في النَّذْر، أو مصدر على تقدير حذف مضاف، أي: بذي قَبُولٍ حسن، أي: بأمرٍ ذي قَبولٍ حسن، وهو الاختصاص.

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ عبارةٌ عن حُسن النشأة والجُودة في خَلْقٍ وخُلُق، فأنشأها على الطاعة والعبادة. قال ابن عبَّاس: لمَّا بلغت تسعَ سنين صامت النهار وقامت الليل حتى أرْبَت على الأحبار[(٤)].

وقيل: لم تجر عليها خطيئة؛ قال قتادة: حُدِّثْنا[(٥)] أنَّها كانت لا تُصيب الذنوب كما يصيب بنو آدم.

وقيل: معنى «أنبتَها نباتاً حسناً» أي جعلَ ثمرتَها مِثْلَ عيسى[(٦)].

---

(١) في (يه): من أوله.

(٢) البيت للقطامي، وهو في ديوانه ص٣٥، وهو من شواهد سيبويه ٤/ ٨٢.

(٣) السَّعُوط: الدواء يُدخَلُ في الأنف. واللَّدُود: ما يُصبّ بالمُسْعُط من الدواء في أحدِ شِقَّي الفم. (المُسْعُط: ما يُجعل فيه السَّعُوط). القاموس (سعط - لدد).

(٤) في (د١): الأخيار.

(٥) في (ح) و(د٢) و(يه): رويتُ حديثاً، بدل: حُدِّثْنا.

(٦) ينظر لطائف الإشارات ١/ ٢٣٨، وزاد المسير ١/ ٣٧٧.

وانتصب «نباتاً» على أنه مصدر على غير الصَّدر، أو مصدر لفعل محذوف، أي: فنبتَتْ نباتاً حسناً، ويقال: القَبُولُ الحَسَنُ: تربيتُها على نعت العصمة حتى قالت: ﴿أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨].

والنبات الحَسَن: الاستقامةُ على الطاعة وإيثارُ رضا الله في جميع الأوقات.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ قال قتادة: ضمَّها إليه. وقال أبو عبيدة: ضمنَ القيامَ بها، ومن القبول الحَسَن والنباتِ الحَسَن أنْ جعلَ تعالى كافلَها والقَيِّمَ[(١)] بأمرها وحِفْظِها نبيًّا. أوحى الله إلى داود عليه السلام: إذا رأيتَ لي طالباً فكن له خادماً[(٢)].

وقرأ الكوفيون: «وكَفَّلَها» بتشديد الفاء، وباقي السبعة بتخفيفها[(٣)]. وأُبيّ: «وأَكْفَلَها»[(٤)].

ومجاهد: «فتَقَبَّلْهَا» بسكون اللام «ربَّها» بالنصب على النِّداء «وأَنْبِتْها» بكسر الباء وسكون التاء، «وكَفِّلْها» بكسر الفاء مشدَّدةً وسكون اللام، على الدُّعاء من أمِّ مريم لمريم[(٥)].

وقرأ عبد الله المُزنيّ: «وكَفِلَها» بكسر الفاء[(٦)]، وهي لغة، يقال: كَفَلَ يَكْفُلُ، وكَفِلَ يَكْفَلُ، كعَلِمَ يَعْلَمُ.

وقرأ حمزة والكسائيّ وحفص: «زكريا» مقصوراً، وباقي السبعة ممدوداً. وتقدَّم ذكر اللغات فيه[(٧)].

رُوِيَ أنَّ حنَّةَ حين ولدَتْ مريم لَفَّتْها في خِرْقة، وحملَتْها إلى المسجد،

---

(١) في (أ) و(ع): والقيَّام.
(٢) لطائف الإشارات ١/ ٢٣٨.
(٣) السبعة ص٢٠٥، والتيسير ص٨٧.
(٤) الكشاف ١/ ٤٢٧، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٦.
(٥) القراءات الشاذة ص٢٠، والكشاف ١/ ٤٢٧، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٦.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٢، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٦، وفيهما: أبو عبد الله المزني، ونُسبت القراءة فيهما أيضاً وفي القراءات الشاذة ص٢٠ لابن كثير، لكن القراءة المتواترة عنه: وكَفَلَها، بفتح الفاء.
(٧) عند تفسير مفردات هذه الآيات.

فوضَعَتْها عند الأحبار أبناءِ هارون، وهم في بيت المقدس كالحَجَبة في الكعبة، فقالت لهم: دونَكم هذه النَّذِيرة. فتَنافَسُوا فيها لأنَّها كانت بنتَ إمامهم وصاحبِ قُربانهم، وكانت بنو ماثان رؤوسَ بني إسرائيل وأحبارَهم وملوكَهم، فقال لهم زكريا: أنا أحَقُّ بها، عندي خالتُها، فقالوا: لا، حتى نقترع عليها. فانطلقوا - وكانوا سبعة وعشرين - إلى نهر؛ قيل: هو نهر الأردنّ، وهو قول الجمهور، وقيل: في عين ماء كانت هناك، فألْقَوْا فيه أقلامَهم، فارتفعَ قلمُ زكريا، ورسبت[1] أقلامُهم، فتكَفَّلَها[2]، قيل: واسترضعَ لها، وقال الحسن: لم تلتقم ثدياً قطّ.

وقال عكرمة: ألقَوْا أقلامَهم، فجرى قلم زكريا عكسَ جِرْية الماء، ومضَتْ أقلامُهم مع جِرْية الماء.

وقيل: عامَتْ مع الماء معروضة وبقيَ قلمُ زكريا واقفاً كأنّما رُكِزَ في طين.

قال ابنُ إسحاق: إنَّ زكريَّا كان تزوَّج خالتَها لأنه وعمران كانا سِلفَيْنِ على أختين، ولدتِ امرأةُ زكريا يحيى، وولدتِ امرأةُ عِمران مريمَ.

وقال السُّدِّي وغيره: كان زكريا تزوَّجَ ابنةً أخرى لعمران، ويعضُد هذا القولَ قولُ النبيِّ ﷺ في يحيى وعيسى: «ابنا الخالة»[3].

وقيل: إنما كَفَلَها لأنَّ أمَّها هلكت وكان أبوها قد هلك وهي في بطن أمّها.

وقيل: كان زكريا ابنَ عمِّها وكانت أختُها تحتَه.

وقال ابن إسحاق: ترعرعت وأصابَ بني إسرائيل مجاعةٌ فقال لهم زكريا: إني قد عَجَزْتُ عن إنفاق مريم، فاقترِعُوا على من يكفُلُها، ففعلوا، فخرج السهمُ على رجل يقال له: جُريج، فجعل يُنفقُ عليها.

وهذا استهامٌ غير الأول، هذا المرادُ منه دفعُها للإنفاق عليها، والأول المرادُ منه أخذُها، فعلى هذا القول يكونُ زكريا قد كَفَلَها من لدن الطفولة دون استهام

---

(١) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): ورست.

(٢) تفسير الثعلبي ٢/ ٤٩-٥٠، والكشاف ١/ ٤٢٦-٤٢٧، وزاد المسير ١/ ٣٧٩، وتفسير الرازي ٨/ ٣٠. وينظر تفسير الطبري ٥/ ٣٤٩-٣٥١.

(٣) وردَ هذا اللفظ في أكثر من حديث، منها حديث الإسراء. ينظر صحيح مسلم (١٦٣).

والذي عليه الناس أنَّ زكريا إنما كَفَلَها بالاستهام، ولم يدلَّ القرآن على أنَّ غير زكريا كَفَلَها(١).

وكان زكريا أولى بكفالتها لأنه من أقربائها من جهة أبيها، ولأنَّ خالتَها ـ أو أختها ـ تحته على اختلاف القولين، ولأنه كان نبيًّا، فهو أولى بها لعصمته.

وزكريا هو ابنُ آذن بن مسلم من ولد سليمان بن داود عليهم السلام.

وذكر النقيب أبو البركات الجَوَّاني النَّسَّابة(٢) أن يحيى بن زكريا، واليسع وإلياس والعُزَيْر من ولد هارون أخي موسى، فلا يكون على هذا زكريا من ولد سليمان، ولا يكون ابنَ عم مريم، لأن مريم من ذُرِّية سليمان عليه السلام، وسليمانُ من يهوذا بن يعقوب، وموسى وهارون من لاوي بن يعقوب.

قال ابن إسحاق: ضمَّها إلى خالتها أمِّ يحيى حتى إذا شبَّت(٣) وبلغت مبلغ النساء بَنَى لها محراباً في المسجد، وجعلَ بابَه في وسطه لا يُرْقَى إليه إلا بسلَّم مثل باب الكعبة، ولا يَصعد إليها غيرُه.

وقيل: كان يُغلق عليها سبعة أبواب إذا خرج.

قال مقاتل: كان يُغلق عليها البابَ ومعه المفتاح لا يأمنُ عليه(٤) أحداً، فإذا

---

(١) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٤٢٥-٤٢٦. وينظر تفسير الطبري ٥/ ٣٤٨-٣٥١، وتفسير الثعلبي ٢/ ٥٠، وتفسير البغوي ١/ ٢٩٦، وزاد المسير ١/ ٣٧٩.

(٢) كذا كنَّاه المصنِّف في هذا الموضع ومواضع أخرى من كتابه، والذي في المصادر أن النسَّابة هو ابنُه، وكنيتُه أبو عليّ، واسمُه محمد بن أسعد بن علي بن مَعْمَر، توفي سنة (٥٨٨هـ) كما في المحمَّدون من الشعراء ص٢٠٦، وخريدة القصر ١/ ١١٧ (قسم شعراء مصر) والتكملة لوفيات النقلة ١/ ١٧٧، وتكملة الإكمال ص١٠٠-١٠١. وأما أبو البركات (الأب) فاسمُه أسعد بنُ علي، نحويّ، كما في الخريدة ١/ ١١٩، وإنباه الرواة ١/ ٢٣٠، وبغية الوعاة ١/ ٤٤١. والجَوَّانيّ، نسبة إلى الجَوَّانيَّة، قرية قرب المدينة، كما في معجم البلدان ٢/ ١٧٥. وسلف ذكر أبي البركات عند تفسير الآيتين (٥١) و(١٣٢) من سورة البقرة، ويقارن بما ورد في كشف الظنون ١/ ٦٢٠، وهدية العارفين ٥/ ٢٨٦.

(٣) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): حتى اشتدت.

(٤) في (د٢) و(ع) و(يه): عليها.

حاضت أخرجَها إلى منزله تكونُ مع خالتها أمِّ يحيى ـ أو أختها ـ فإذا طَهَرَتْ ردَّها إلى بيت المقدس.

وقيل: كانت مُطَهَّرةً من الحيض[١].

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ قال مجاهد والضحَّاك وقتادة والسُّدِّيّ: وجدَ عندَها فاكهةَ الشتاء في الصَّيف، وفاكهةَ الصَّيف في الشتاء.

وقال الحسن: تكلَّمت في المهد، ولم تَلْقَم ثَدْياً قطُّ، وإنما كانت يأتيها رزقُها من الجنة. والذي وردَ في الصحيح أنَّ الذي تكلَّم في المهد ثلاثة: عيسى، وصاحبُ جُريج، وابنُ المرأة[٢]. ووردَ من طريق شاذّ: صاحبُ الأُخدود، والأغربُ أنَّ مريم منهم.

وقيل: كان جُريج النجَّار ـ واسمُه يوسف بنُ يعقوب، وكان ابنَ عمّ مريم ـ حين كَفَلَها بالقُرعة وقد ضعُف زكريا عن القيام بها يأتيها من كسبه بشيء لطيف على قدر وُسْعِه، فيَزْكُو ذلك الطعام ويكثر، فيدخلُ زكريا عليها، فيتحقَّق أنه ليس من وُسع جُريج، فيسألُها[٣].

وهذا يدلُّ على أنَّ ذلك كان بعد أن كَبِرَتْ، وهو الأقرب للصواب.

وقيل: كانت تُرزق من غير رزق بلادهم؛ قال ابن عباس: كان عنباً في مِكْتَل، ولم يكن في تلك البلاد عِنَب، وقاله ابنُ جبير ومجاهد[٤].

وقيل: كان بعضُ الصالحين يأتيها بالرزق[٥].

والذي يدلُّ عليه ظاهرُ الآية أنَّ الذي كَفَلَها بالتربية هو زكريَّا لا غيرُه، فإنَّ الله تعالى كفاه لَمَّا كَفَلَها مؤونة رزقها، ووضع عنه بحُسن التكفُّل مشقَّةَ التكلُّف.

---

(١) ينظر ما سبق في تفسير الثعلبي ٢/ ٥٠، وتفسير البغوي ١/ ٢٩٦، والكشاف ١/ ٤٢٧، وزاد المسير ١/ ٣٨٠، وتفسير الرازي ٨/ ٣٠.
(٢) الحديث مطول في صحيح البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠) عن أبي هريرة ﵁.
(٣) تفسير البغوي ١/ ٢٩٧. وينظر «زاد المسير» ١/ ٣٨١.
(٤) بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٤٢٦-٤٢٧، وينظر زاد المسير ١/ ٣٨١.
(٥) النكت والعيون ١/ ٣٨٨.

و«كلَّما» تقتضي التكرار، فيدلُّ على كثرة تعهُّدِه وتفقُّدِه لأحوالها. ودلَّت الآية على وجود الرِّزق عندها كلَّ وقت يدخلُ عليها، والمعنى أنه غذاء يُتغذَّى به لم يعهده عندها ولم يوجِّهه هو.

وأبعدَ من فسَّر الرزق هنا بأنه فيضٌ كان يأتيها من الله من العلم والحكمة من غير تعليم آدميّ، فسمَّاه رزقاً. قال الراغب[1]: واللفظ محتمل. انتهى. وهذا شبيهٌ بتفسير الباطنية.

﴿قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ استغرب زكريا وجودَ الرزقِ عندَها وهو لم يكن أتى به، وتكرَّر وجودُه عندها[2] كلَّما دخل عليها، فسألَ على سبيل التعجُّب من وصول الرِّزق إليها وكيف أتى هذا الرِّزق.

و«أنَّى» سؤال عن الكيفية وعن المكان وعن الزمان، والأظهر أنه سؤال عن الجهة، فكأنَّه قال: من أيِّ جهةٍ لك هذا الرزق؟ ولذلك قال أبو عبيدة: معناه: مِنْ أين[3]؟ ولا يبعد أن يكون سؤالاً عن الكيفية، أي: كيف تهيَّأ وصولُ هذا الرِّزق إليك؟

وقال الكُمَيْت:

أنَّى ومِنْ أينَ آبكَ[4] الطَّرَبُ ... من حيثُ لا صَبْوةٌ ولا رِيَبُ[5]

وجوابُها سؤالَه بأنَّه من عند الله ظاهرُه أنه لم يأتِ به آدميٌّ البتَّة، بل هو رزقٌ يتعهدُني به اللهُ تعالى، وظاهرُه أنه كان يسألُ كلَّما وجدَ عندها رزقاً، لأنَّ من الجائز في العقل[6] أن يكون هذا الثاني من جهةٍ غيرِ الجهة التي تقدَّمَتْ، فتجيبُه بأنه من عند الله؛ وتُحيلُه على مسبِّب الأسباب ومُبرزِ الأشياء من العَدَم الصِّرْفِ إلى الوجود

---

(١) تفسيره ص٥٣٤ (جزء آل عمران).
(٢) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): ولم يكن أتى به ولكن وجده عندها.
(٣) مجاز القرآن ١/ ٩١.
(٤) في (ز٢): جاءك. ووقع في بعض النسخ: أنك.
(٥) شرح هاشميات الكميت ص١٠٠. قال الشارح: آبك: أتاك ليلاً. يقول: إنما طَرَبُك إلى بني هاشم، لا صبوةٌ في صِبا.
(٦) في (د١) والمطبوع: الفعل.

المَحْض، فعند ذلك يستريح قلبُ زكريا بكونه لم يسبقه أحدٌ إلى تعهُّد مريم، وبكونه يشهدُ مقاماً شريفاً، واعتناءً لطيفاً بمن اختارها اللهُ تعالى بأن جعلَها في كفالتِهِ.

وهذا الخارق العظيم؛ قيل: هو بدعوة زكريا لها بالرِّزق، فيكون من خصائص زكريا. وقيل: كان ذلك تأسيساً لنبوَّة ولدِها عيسى.

وهذان القولان شبيهان بأقوال المعتزلة حيث ينفُون وجود الخارق على يدِ غير النبيّ إلا إنْ كان ذلك في زمان نبيّ، فيكون ذلك معجزة لذلك النبيّ.

والظاهر أنها كرامةٌ خصَّ اللهُ بها مريمَ، ولو كان خارقاً لأجل زكريا لم يَسْأَلْ عنه زكريا، وأمَّا كونُ ذلك لأجل نبوَّة عيسى فهو كان لم يُخلق بعد.

قال الزَّجَّاج: وهذا الخارقُ من الآية التي قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[1] [الأنبياء: ٩١].

وقال الجُبَّائي: يجوز أن يكون من معجزات زكريا؛ دعا لها على الإجمال أنْ يُوصَل لها رزقُها، وربَّما غَفَلَ عن تفاصيل ذلك، فلما رأى شيئاً معيَّناً في وقتٍ معيَّن سأل عنه، فعلم أنه معجزةٌ بدعائه[2]. أو سأل عن ذلك خشيةَ أن يكون الآتي به إنسان، فأخبرَتْه بأنه من عند الله.

ويحتمل أن يكون على أيدي المؤمنين، وسأل لئلا يكون على وجهٍ لا ينبغي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تقدَّم تفسيرُ هذه الجملة، والظاهر أنها من كلام مريم.

وقال الطبريّ: ليس من كلام مريم، وإنه خبرٌ من الله تعالى لمحمد ﷺ[3].

وروى جابر حديثاً مطوَّلاً فيه تكثيرُ الخبزِ واللحم على سبيل خرق العادة

(١) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٠٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٧.

(٢) المثبت من (أ) و(ب) و(ت) و(ع)، وفي النسخ الأخرى: فدعا به. والكلام بنحوه أطول منه في تفسير الرازي ٨/ ٣٢-٣٣.

(٣) الكلام من المحرر الوجيز ١/ ٤٢٧، ولفظُه فيه: «ذهب الطبري إلى أن ذلك ليس من قول مريم وأنه خبر من الله تعالى لمحمد ﷺ». وهو بمعناه في تفسير الطبري ٥/ ٣٥٩.

لفاطمة بنت رسول الله ﷺ، فسألَها: «مِنْ أينَ لك هذا؟» فقالت: هو من عند الله. فحَمِدَ اللهَ وقال: «الحمد لله الذي جعلكِ شبيهةً بسيِّدةِ نساءِ بني إسرائيل»[١].

قيل: وفي هذه الآيات أنواع من الفَصاحة:

العموم الذي يُراد به الخُصوص في قوله: «على العالمين».

والاختصاص في قوله: «آدمَ ونوحاً وآلَ إبراهيمَ وآلَ عمران».

وإطلاق اسم الفرع على الأصل، والمسبَّب على السَّبَب في قوله: «ذُرِّيَّةً» فيمن قال: المرادُ الآباء.

والإبهام في قوله: «ما في بطني» لمَّا تَعذَّرَ عليها الاطِّلاعُ على ما في بطنها أتَتْ بلفظ «ما» الذي يَصْدُق على الذَّكر والأنثى.

والتأكيد في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

والخبر الذي يُراد به الاعتذار لا الإعلام في قولها: «وضعتُها أنثى».

والاعتراض في قوله: «واللهُ أعلمُ بما وضَعَتْ» في قراءة مَنْ سَكَّنَ التاء أو كَسَرَها.

وتلوين الخطاب بعدوله[٢] في قوله: «والله أعلم بما وضَعْتِ» في قراءة مَن كسَرَ التاء؛ خرجَ من خطاب الغَيْبة في قوله: «فلما وضَعَتْها» إلى خطاب المواجهة في قوله: «بما وَضَعْتِ».

والتكرار في «وإني» و«أنثى» وفي «زكريا»[٣] وفي «مِن عندِ الله» «إنَّ الله».

والتجنيس المغايِر في «فتَقَبَّلَها ربُّها بقَبُول» وفي «وأنبتَها نَباتاً» وفي «رِزْقاً» و«يَرْزُقُ».

---

(١) تفسير الثعلبي ٢/٥١، والكشاف ١/٤٢٧. قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٢٥: هو من رواية ابن لهيعة عن ابن المنكدر عن جابر، والمتن ظاهر النكارة.

(٢) المثبت من (أ) و(ب) و(ع). وفي (د١) و(د٢) و(ز٢) و(يه): ومعدوله. وهي غير واضحة في (ح)، وسقط الكلام من (ت) في هذا الموضع.

(٣) المثبت من (أ) و(ب) و(ت) و(ع). وفي النسخ الأخرى: في وإني وإني وفي زكريا وزكريا.

والإشارة، وهو أن يعبِّر باللفظ الظاهر عن المعنى الخفيّ في قوله: «هو من عند الله» أي: هو رِزْقٌ لا يقدرُ على الإتيان به في ذلك الوقت إلا الله، وفي قوله: «رِزْقاً» أتى به منكّراً مشيراً إلى أنه ليس من جنس واحد، بل من أجناس كثيرة، لأن النكرة تقتضي الشُّيوع والكثرة.

والحذف في عدَّة مواضع لا يصحُّ المعنى إلا باعتبارها.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ أصل «هنالك» أن يكون إشارةً للمكان، وقد يستعمل للزمان. وقيل بهما في هذه الآية، أي: في ذلك المكان دعا زكريا، أو: في ذلك الوقت؛ لمَّا رأى هذا الخارقَ العظيم لمريم، وأنَّها ممَّن اصطفاها الله؛ ارتاح إلى طلب الولد، واحتاجَ إليه لِكبَرِ سنِّه، ولِأَنْ يرثَ منه ومن آل يعقوب كما قصَّه تعالى في سورة مريم، ولم يمنعه من الطلب كونُ امرأتِه عاقراً، إذْ رأى من حال مريم أمراً خارجاً عن العادة، فلا يبعُدُ أنْ يرزقَه الله ولداً مع كونِ امرأته كانت عاقراً، إذْ كانت حَنَّةُ قد رُزِقَتْ مريمَ بعدما أيِسَتْ من الولد.

وانتصاب «هنالك» بقوله: «دعا» ووقع في تفسير السَّجاونديّ أنَّ «هناك» في المكان و«هنالك» في الزمان، وهو وهم، بل الأصلُ أن يكون للمكان سواءٌ اتَّصلتْ به اللام والكاف، أو الكاف فقط، أو لم يتصلا. وقد يُتجوَّزُ بها عن المكان إلى الزمان، كما أن أصل «عند» أن تكون للمكان، ثمَّ يُتجوَّز بها للزمان، كما تقول: آتيك عندَ طلوع الشمس.

قيل: واللام في «هنالك» دلالة على بعد المسافة بين الدعاء والإجابة، فإنه نقل المفسرون أنه كان بين دعائه وإجابته أربعون سنة. وقيل: دخلت اللام لبعد منال هذا الأمر لكونه خارقاً للعادة، كما أدخل اللام في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ لبعد مناله وعِظَمِ ارتفاعه وشرفِه.

وقال الماتريدي[١]: كانت نفسُه تحدِّثُه بأنْ يهبَ اللهُ له ولداً يبقى به الذِّكْرُ إلى يوم القيامة، لكنَّه لم يكن يدعو مراعاةً للأدب، إذ الأدبُ أن لا يدعوَ بمرادٍ[٢]

(١) بنحوه في تأويلات أهل السنة ١/ ٢٦٥.

(٢) في (د١) و(ز١) والمطبوع: لمراد. والمثبت من (ح) و(د٢) و(يه). ولم يجوِّد الكلام في باقي النسخ.

إلا فيما هو معتادُ الوجود، وإن كان الله قادراً على كل شيء، فلمَّا رأى عندها ما هو ناقضٌ للعادة؛ حَمَلَه ذلك على الدعاء في طلب الولد غيرِ المعتاد. انتهى. وقوله: «كانت تُحدِّثُه نفسُه بذلك» يحتاجُ إلى نقل.

وفي قوله: «هنالك دعا» دلالةٌ على أن يَتَوَخَّى العبدُ بدعائه الأمكنةَ المباركةَ والأزمنةَ المشرَّفة.

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ هذه الجملة شرحٌ للدعاء وتفسيرٌ له. وناداه بلفظ «رَبِّ»[١] إذْ هو مُربِّيهِ ومُصْلِحُ حالِهِ.

وجاء الطلب بلفظ: «هَبْ» لأنَّ الهِبةَ إحسانٌ مَحْضٌ ليس في مقابلتها شيءٌ يكون عِوَضاً للواهب، ولمَّا كان ذلك يكادُ يكونُ على سبيلِ ما لا تسبُّب فيه؛ لا من الوالد لِكِبَرِ سنِّه، ولا من الوالدة لكونها عاقراً لا تلد، فكان وجودُه كالوجود بغير سبب = أتى هِبةً محضةً منسوبةً إلى الله تعالى بقوله: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من جهتك بمحض قُدرتِك من غير توسُّطِ سبب.

وتقدَّمَ أنَّ «لَدُن» لِما قَرُب، و«عند» لما قَرُب ولِما بَعُد، وهي أقلُّ إبهاماً من «لَدُن»، ألا ترى أنَّ «عند» تقعُ جواباً لـ «أين»، ولا تقعُ له جواباً «لَدُن».

و«من لدنك» متعلق بـ «هَبْ»، وقيل: في موضع الحال من «ذُرِّيَّة» لأنَّه لو تأخَّر لكان صفةً، فعلى هذا يتعلَّق بمحذوف.

والذُّرِّيةُ جنسٌ[٢] يقع على واحدٍ[٣] فأكثر.

وقال الطبريّ: أراد بالذُّرِّيَّة هنا واحداً، دليلُ ذلك طلبُه وليًّا، ولم يطلبْ أولياء؛ قال ابنُ عطية: وفيما قاله الطبريُّ تعقُّب[٤]، وإنما الذُّرِّيَّة والوليّ اسما جنسٍ يقعان للواحد فما زاد، وهكذا كان طلبُ زكريا. انتهى.

---

(١) في (ح) و(د٢) و(يه): الرَّبّ. وفي (أ) و(ب) و(ت) و(ع): ربِّ هب لي من لدنك. والمثبت من (د١) و(ز٢).
(٢) لفظة «جنس» ليست في (أ) و(ب) و(ت) و(ع).
(٣) في (ح) و(د٢) و(يه): كل واحد.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٢٧. وكلام الطبري في تفسيره ٥/ ٣٦٢.

وفَسَّرَ «طيِّبة» بأن تكونَ سليمةً في الخَلْق وفي الدين، تقيَّةً.

وقال الراغب[1]: صالحةً، واستعمال الطيِّب في الصّالح كاستعمال الخبيث في ضدِّه، على أنَّ في الطَّيِّب زيادةَ معنًى على الصَّالح.

وقيل: أراد بـ «طيِّبة» أنَّها تبلغُ في الدِّين رُتبةَ النُّبوَّة. فإنْ كان أراد بالذُّرِّيَّة مدلُولَها من كونها اسمَ جنس ولم يقيِّد بالوَحْدَة؛ فوصفُها بـ «طيِّبة» واضحٌ، وإنْ كان أرادَ ذَكَراً واحداً فأنَّثَ لتأنيث اللفظ، كما قال الشاعر:

فَمَا تَزْدَرِي مِنْ حَيَّةٍ جَبَلِيَّةٍ ... سُكاتٍ إذا ما عَضَّ ليس بأَدْرَدَا[2]

وكما قال الآخر:

أبوكَ خليفةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرَى ... وأنتَ خليفةٌ، ذاك الكَمالُ[3]

وفي قوله: «هَبْ لي» دلالةٌ على طلب الولد الصالح والدُّعاء بحصوله، وهي سُنَّةُ المرسَلين والصِّدِّيقين والصالحين.

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾ لمَّا دَعَا ربَّه بأنْ يهبَ له ولداً صالحاً أخبرَ بأنَّه تعالى مُجيبُ الدُّعاء، وليس المعنى على السَّماع المعهود، بل مثل قوله: سَمِعَ اللهُ لمن حمدَه؛ عبَّر بالسَّماع عن الإجابة إلى المَقْصِد، واقتفَى في ذلك جدَّه الأعلى إبراهيم صلوات الله على نبينا وعليه إذ قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] فأجابَ الله دعاءَه، ورزَقَه على الكِبَر كما رزقَ إبراهيمَ على الكِبَر، وكان قد تَعوَّدَ من الله إجابةَ دعائِه، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

---

(١) تفسيره ص٥٣٥ (قسم آل عمران).

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٠٨، وتفسير الطبري ٥/ ٣٦٣، وتفسير الثعلبي ٢/ ٥٢، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٧. قوله: تَزْدَرِي، أي: تحتقر، وحيَّةٌ سُكات: التي لا يُشْعَر بها حتى تلسع. والأدْرَد: الذي سقطت أسنانُه. قال الفراء: قال: جبليَّة، فأنَّثَ لتأنيث اسم الحيَّة، ثم ذكَّر إذ قال: عضَّ، فذهب إلى تذكير المعنى. اهـ. ووقع صدر البيت في (د١) والمطبوع بلفظ صدر البيت الذي يليه. وهو سهو من ناسخ (د١).

(٣) المصادر السابقة. ونسبَه ابنُ الأنباريّ في المذكر والمؤنث ٢/ ١٦٣ لنُصيب. قال الفرَّاء: قال: أخرى؛ لتأنيث اسم الخليفة، والوجه أن تقول: وَلَدَه آخر.

قيل: وذكرَ تعالى في كيفية دعائه ثلاث صيغ: أحدها هذا، والثاني: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤] إلى آخره. والثالث: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]. فدلَّ على أنَّ الدُّعاء تكرَّر منه ثلاث مرات بهذه الثلاث الصيغ، ودلَّ على أنَّ بين الدُّعاء والإجابة زماناً. انتهى[١]. ولا يدلُّ ذلك على تكرير الدعاء كما قيل، لأنه حالةُ الحكاية؛ قد يكونُ حكى في قوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ على سبيل الإيجاز، وفي سورة مريم على سبيل الإسهاب، وفي هذه السورة على سبيل التوسُّط، وهذه الحكاية في هذه الصِّيغ إنَّما هي بالمعنى، إذ لم يكن لسانُهم عربيًّا، ويدلُّ على أنه دعاءٌ واحدٌ متعقَّبٌ بالتبشير العطفُ بالفاء في قوله: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وفي قوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾، وظاهرُ قوله في «مريم»: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ اعتقابُ التبشيرِ الدعاءَ، لا تأخُّره عنه.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قيل: النداء يُستعمل في التبشير وفيما ينبغي أن يُسْرَع به ويُنهَى إلى نفس السامع ليُسَرَّ به، فلم يكن هذا إخباراً من الملائكة على عُرْف الوحي، بل نداءٌ كما نادى الرجل الأنصاريُّ كعبَ بنَ مالك من أعلى الجبل. قاله ابنُ عطية وغيرُه[٢].

ولا يظهر ذلك، بل المناداة تكون لتبشيرٍ ولتحزين[٣] ولغير ذلك كما جاء: «يا أهلَ النَّار، خُلُودٌ لا مَوْت»[٤]. وجاء ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ [غافر: ٣٦] وإنما فُهمت البِشارةُ في الآية من قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ لا أنَّ لفظ «نَادَتْهُ» يدلُّ على ذلك، لا بالوضع ولا بالاستعمال.

ويحتمل أن يكون نداؤهم إياه على سبيل الوحي، أي: أُوحِيَ إليهم بأن يُنادُوه، أو يكون نادَوْه من تلقاء أنفسهم، كما يُقال لك: بَلِّغْ زيداً كذا وكذا، فتقول له: يا زيد، جرى كذا وكذا، وهما قولان للمفسِّرين.

وفي الكلام حذفٌ تقديرُه: فقَبِلَ اللهُ دعاءَه، ووَهَبَ له يحيى، وبعثَ إليه الملائكة بذلك، فنادَتْه.

---

(١) ينظر تفسير الطبري ٥/ ٣٦٠-٣٦١.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٢٨. وينظر خبر كعب في صحيح البخاري (٤٦٧٧) وصحيح مسلم (٢٧٦٩).
(٣) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): لتحذير.
(٤) قطعة من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري (٦٥٤٥). ووقع في (أ) و(ع): بلا موت.

وذُكر أنه كان بين دعائه والاستجابة له أربعون سنة[١]، والظاهر خلاف ذلك.

والظاهر أنَّ مُنادِيَه جماعةٌ من الملائكة لصيغة اللفظ، وقد بعثَ تعالى ملائكةً إلى قوم لوط وإلى إبراهيم وفي غير ما قصَّةٍ. وذهب الجمهور أنَّ المُنادِيَ هو جبريلُ وحدَه، ويؤيِّدُه قراءةُ عبد الله ومصحفُه: «فناداه جبريل وهو قائم»[٢].

وقال الزَّمخشريّ[٣]: وإنما قيل: الملائكة، على قولهم: فلان يركبُ الخيل. يعني أنَّ الذي ناداه هو من جنس الملائكة، لا يريد خصوصية الجمع؛ كما أن قولهم: فلان يركبُ الخيل لا يريد خصوصية الجمع إنما يريد مركوبَه من هذا الجنس. وخُرِّجَ عليه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وهو نُعيم بن مسعود[٤].

وقال المُفَضَّل[٥]: الرئيسُ يُخْبَرُ عنه إخبارَ الجمع لاجتماع أصحابه معه، أو لاجتماع الصفات الجميلة فيه المتفرِّقةِ في غيره، فعُبِّر عنه بالكثرة لذلك؛ قيل: وجبريلُ رئيس الملائكة.

وقرأ حمزة والكسائيّ: «فناداه» مُمالةً، وباقي السبعة: «فنادَتْه» بتاء التأنيث[٦]، والملائكةُ جمع تكسير، فيجوز أن تلحق العلامة وأن لا تلحق، تقول: قام الرجال، وقامت الرجال، وإلحاقُ العلامة قيل: أحسن، ألا ترى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾ ومحسِّنُ الحذفِ هنا الفصلُ بالمفعول.

﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ ذكر البغويُّ[٧] أن زكريًّا كان الحَبْرَ الكبير الذي يُقرِّبُ القُربان ويفتح باب المَذْبح، فلا يدخلون حتى يأذنَ. فبينا هو قائم يصلِّي في

(١) سلف قريباً عند الكلام على لفظة «هنالك».
(٢) تفسير الطبري ٥/ ٣٦٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٧-٤٢٨، وتفسير القرطبي ٥/ ١١٣.
(٣) الكشاف ١/ ٤٢٨.
(٤) خرَّجَ القولَ على الآية المذكورة الثعلبيُّ ٢/ ٥٣، والبغويُّ ١/ ٢٩٨، وابنُ عطيَّة ١/ ٤٢٨.
(٥) في (أ) و(ت) و(ع): الفاضل. وفي النسخ الأخرى: الفضل. والتصويب من تفسير الثعلبي ٢/ ٥٣ وتفسير البغوي ١/ ٢٩٨، وتفسير الرازي ٨/ ٣٧، وقوله فيها. وهو المفضَّل بن سلمة، لغوي أديب، له تصانيف في معاني القرآن. ينظر سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٦٢.
(٦) السبعة ص٢٠٥، والتيسير ص٨٧.
(٧) تفسير البغوي ١/ ٢٩٧، وذكره قبله الثعلبي في تفسيره ٢/ ٥٣.

المحراب ـ يعني المسجد عند المَذْبح ـ والناسُ ينتظرون أنْ يُؤذَنَ لهم في الدُّخول إذا هو برجلٍ عليه ثيابٌ بِيض، ففَزِعَ منه، فناداه ـ وهو جبريل ـ يا زكريا إنَّ الله يُبَشِّرُك.

وقيل: المحرابُ موقفُ الإمام من المسجد، وهو قول جمهور المفسرين. وقيل: القِبْلة. والظاهر أنَّ هذا المحرابَ هو المحرابُ الذي قبلَه في قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ ففي المكان الذي رأى فيه خرقَ العادة فيه دعا، وفيه جاءته البِشارة. وهذا يدلُّ على مشروعية الصلاة في شريعتهم. وقيل: الصلاة هنا الدعاء.

وفي الآية دليلٌ على جواز نداء المتلبِّس بالصلاة وتكليمه، وإن كان في ذلك شغلٌ له عن صلاته.

وهذه الجملة في موضع نصب على الحال من ضمير المفعول أو من الملائكة، و«يصلّي» يحتمل أن يكون صفة لـ «قائم»، ويحتمل أن يكون حالاً من الضمير المستكنّ في «قائم» أو من ضمير المفعول على مذهب من جوَّز حالين من ذي حال واحد، ويحتمل أن يكون خبراً ثانياً لـ «هو» على مذهب من يُجيز تعداد الأخبار لمبتدأ واحد وإن لم تكن في معنى خبر واحد.

ويتعلق «في المحراب» بقوله: «يُصلِّي» ولا يجوز أن يتعلق بـ «قائم» في وجه من احتمالات إعراب «يصلّي» إلا في وجه واحد وهو أن يكون «يُصلِّي» حالاً من الضمير الذي استكنَّ في «قائم» فيجوز؛ لأنه إذْ ذاك يتَّحد العاملُ فيه وفي «يصلي» وهو «قائم»، لأنَّ العامل إذْ ذاك في الحال هو «قائم»، إذ هو العاملُ في ذي الحال، وبه يتعلق المجرور[1].

وفي قوله: «قائم يصلي في المحراب» قالوا: دلالةٌ على جواز قيام الإمام في محرابه، وقد كَرِهَه أبو حنيفة وقال: كان ذلك شرعاً لمن قبلَنا.

---

(١) جَوَّزَ السمين الحلبي في الدّرّ المصون ٣/ ١٥٢: أن تكون المسألة من باب التنازع؛ قال: إن كلًّا من «قائم» و«يصلّي» يصحُّ أن يتسلَّط على «في المحراب»، وذلك جائز على أيِّ وجهٍ تقدَّم من وجوه الإعراب.

ورقّق ورش راء المحراب، وأمال الراء ابنُ ذكوان إذا كان المحراب مجروراً، ونسبَ ذلك أبو عليّ إلى ابن عامر، ولم يُقيِّد بالجرّ[١].

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ قرأ ابنُ عامر وحمزة: «إنّ الله» بكسر الهمزة، فعند البصريين الكسر على إضمار القول، أي: وقالت. وعند الكوفيين لا إضمار؛ لأنّ غير القول ممّا هو في معناه كالنِّداء والدُّعاء يجري مَجْرَى القول في الحكاية، فكُسرت بـ «نادَتْه» لأن معناه: قالت له.

وقرأ الباقون بفتح الهمزة[٢]: وهو معمول لباء محذوفة في الأصل، أي: بتبشير، وحين حُذفت فالموضع نصبٌ بالفعل أو جرٌّ بالباء المحذوفة، قولان قد تقدّما في غير ما موضعٍ من هذا الكتاب.

وقرأ عبد الله: «يا زكريا إنّ الله»[٣] فقولُه: يا زكريا، هو معمول النِّداء، فهو في موضع نصب، ولا يجوزُ فتح «إنّ» على هذه القراءة؛ لأنّ الفعل قد استوفَى مفعوليه، وهما الضمير والمنادى.

وتبليغ البِشارة على لسان الرسول إلى المُرسَل إليه ليست بِشارةً من الرسول، بل من المُرْسِل، ألا ترى إضافة ذلك إليه في قوله: «يُبَشِّرُكَ»، وقد قال في سورة مريم: «يا زكريَّا إنا نُبشِّرك»، فأسندَ ذلك إليه تعالى.

وقرأ حمزة والكسائيّ: «يَبْشُرُكَ» في الموضعين في قصة زكريّا وقصة مريم، وفي «الإسراء» وفي «الكهف» وفي «الشورى» من «بَشَرَ» مخفَّفاً وافقهما ابنُ كثير وأبو عَمْرو في الشُّورى[٤]، زاد حمزة في «الحِجْر» - إلا: «فبم تبشرون» - ومريم[٥]. وقرأ الباقون: «يُبَشِّر» من «بَشَّرَ» المضعَّف العين.

---

(١) الحجّة للقراء السبعة ٣/ ٣٩، والسبعة ص٢٠٥ وينظر المحرر الوجيز ١/ ٤٢٨.

(٢) السبعة ص٢٠٥، والتيسير ص٨٧، ونُسبت قراءة «إن الله» (بكسر الهمزة) في الدّرّ المصون ٣/ ١٥٢ لنافع أيضاً، وهو خطأ.

(٣) الحجة لأبي علي ٣/ ٣٩، وتفسير الثعلبي ٢/ ٥٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٨.

(٤) ومواضعُها كالتالي: «يَبْشُرُكَ» في هذه الآية (٣٩)، و«يَبْشُرُكِ» في الآية الآتية (٤٥)، و«يَبْشُرُ المؤمنين» في الإسراء (٩)، ومثلُها في الكهف (٢)، و«يَبْشُرُ الله عبادَه» في الشورى (٢٣).

(٥) قرأ حمزة وحدَه بالتخفيف: «إنَّا نَبْشُرُكَ بغلام» في كلٍّ من الحِجْر (٥٣) ومريم (٧)، و«لِتَبْشُرَ به» =

وقرأ عبدُ الله: «يُبْشِرُ» في جميع القرآن من «أَبْشَرَ»[(١)]، وهي لُغَى ثلاثٌ، ذكرَها غيرُ واحد من اللغويين.

وقال الشاعر:

بَشَرْتُ عِيالي إذْ رأيتُ صَحِيفةً أَتَتْكَ من الحَجَّاجِ يُتْلَى كتابُها[(٢)]

وقال آخر:

يا بِشْرُ حُقَّ لِوَجْهِكَ التَّبْشِيرُ هلَّا غَضِبْتَ لنا وأنتَ أميرُ[(٣)]

«بيحيى» متعلق بقوله: «يُبَشِّرُك»، والمعنى: بولادة يحيى منك ومِن امرأتِك، فإنْ كان أعجمياً فمنعُ صرفِه للعلميَّة والعُجْمة، وإن كان عربيًّا فللعلميَّة ووزن الفعل، كَيَعْمَرَ، وقد ذكرنا هذا، وهذا الثاني[(٤)] عليه كثيرٌ من المفسِّرين، لاحَظُوا فيه معنى الاشتقاق من الحياة.

قال قتادة: سمَّاه الله يحيى لأنَّه أحياه بالإيمان[(٥)].

وقال الحسن بن الفَضْل[(٦)]: حَيِيَ بالعصمة والطاعة.

وقال أبو القاسم بن حبيب: سُمِّيَ يحيى لأنَّه استُشهد، والشهداء أحياءٌ[(٧)].

رُوِيَ في الحديث: «مِن هَوَانِ الدُّنيا على الله أنَّ يحيى بنَ زكريا قتلَتْهُ امرأةٌ»[(٨)].

= في مريم (٩٧)، ووافقَ الجماعةَ بالتشديد في آية الحِجْر (٥٤): «فبم تُبَشِّرُون». وفاتَ المصنفَ أن يذكر لحمزة التخفيف في قوله: «يَبْشُرُهم ربُّهم» في التوبة (٢١). ينظر السبعة ص٢٠٥ و٢٠٦، والتيسير ص٨٧، وينظر أيضاً تفسير الثعلبي ٢/ ٥٥، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٨-٤٢٩.

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٢٩.

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٢١٢، وتفسير الطبري ٥/ ٣٦٨، والزاهر ٢/ ١٢٨.

(٣) البيت لجرير. وهو في ديوانه ١/ ٣٦٦. وينظر الأغاني ٨/ ١٩، وطبقات فحول الشعراء ٢/ ٤٤٢. وبِشْر المذكور: هو ابنُ مروان.

(٤) في (د١) والمطبوع: الذي. وينظر الكشاف ١/ ٤٢٨.

(٥) تفسير الطبري ٥/ ٣٧٠، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٩.

(٦) المثبت من (ب) و(ت). وفي النسخ الأخرى: بن المفضَّل. ولعل الصواب: الحسين بن الفضل، والقول في تفسير الثعلبي ٢/ ٥٤، وزاد المسير ١/ ٣٧٣ بنحوه.

(٧) تفسير الثعلبي ٢/ ٥٤.

(٨) المصدر السابق. وأخرجه البيهقي في شُعب الإيمان (٩٩٩١) وضعَّف إسنادَه.

وقال مقاتل: سُمِّيَ يحيى لأنه أحياه بين شيخ وعجوز. وقال الزَّجّاج: حَيِيَ بالعلم والحكمة التي أوتِيَها. وقال ابنُ عباس: إنَّ الله أحيا به عَقْر أمّه. وقيل: معناه: يموت، فسُمِّيَ يحيى تفاؤلاً؛ كالمَفَازة والسَّلِيم. وقيل: لأنَّ الله أحيا به الناسَ بالهدى(١).

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الجمهور على أن الكلمة هو عيسى، وسيأتي لِمَ سُمِّيَ كلمةً. قاله ابنُ عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسُّدِّيّ وغيرهم(٢).

قال الربيعُ وغيرُه: كان يحيى أوَّلَ من صدَّق بعيسى وشهدَ أنه كلمةٌ من الله، وكان يحيى أكبرَ من عيسى بستة أشهر. قاله الأكثرون. وقيل: بثلاث سنين، وقُتل قبل رفع عيسى(٣).

وكانت أمُّ يحيى تقول لمريم: إنِّي أجِدُ الذي في بطني يتحرَّك - وفي رواية: يسجد، وفي رواية: يُومئ برأسه - لما في بطنِك. فذلك تصديقُه به، وهو أوَّلُ التصديق(٤).

وقال أبو عبيدة وغيرُه: «بكلمة من الله» أي: بكتاب من الله؛ التوراة، والإنجيل وغيرِهما، أوقعَ المفردَ موقعَ الجمع، فالكلمةُ اسمُ جنس، وقد سمَّت العرب القصيدة كلمةً(٥). رُوِيَ أنَّ الحُوَيْدِرَة ذُكر لحسَّان، فقال: لعنَ اللهُ كلمتَه، أي: قصيدتَه(٦).

وفي الحديث: «أصْدَقُ كلمةٍ قالها شاعر كلمةُ لَبِيد(٧):

(١) ينظر تفسير الثعلبي ٢/ ٥٤، وزاد المسير ١/ ٣٨٢.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٢٩.
(٣) تفسير الثعلبي ٢/ ٥٥، وزاد المسير ١/ ٣٨٣.
(٤) تفسير الطبري ٥/ ٣٧٢، وتفسير الثعلبي ٢/ ٥٥، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٩، وتفسير القرطبي ٥/ ١١٥.
(٥) مجاز القرآن ١/ ٩١. وقد ردَّ الطبري ٥/ ٣٧٣-٣٧٤ هذا القول، وذكر أنه جهلٌ من صاحبه بتأويل الكلمة، واجتراء على ترجمة القرآن بالرأي.
(٦) معاني القرآن للنحاس ١/ ٣٩٢. والحُويدرة - أو الحادرة - هو قطبة بن أوس بن محصن، شاعر، تنظر أخباره في الأغاني ٣/ ٢٧٠-٢٧٥.
(٧) صحيح البخاري (٦١٤٧) وصحيح مسلم (٢٢٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، ولم يرد فيه الشطر الثاني للبيت، ولم يرد أيضاً في (ح) و(د٢) و(يه).

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ وكلُّ نعيمٍ لا مَحالةَ زائلُ

وقيل: معنى «بكلمة من الله» هنا أي: بوعد من الله.

وقرأ أبو السَّمّال العَدَويّ: «بِكِلْمَةٍ» بكسر الكاف وسكون اللام في جميع القرآن، وهي لغة فصيحة مثل: كَتِف وكِتْف[1]، ووجهُه أنه أَتْبَعَ فاء الكلمة لعينها، فثَقُلَ اجتماعُ كسرتين فسكَّن العين، ومنهم من يُسكِّنها مع فتح الفاء استثقالاً للكسرة في العين.

وانتصب «مصدِّقاً» على الحال؛ قال ابنُ عطيَّة[2]: وهي حال مؤكِّدة بحسب حال هؤلاء الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَسَيِّدًا﴾: قال ابنُ عبَّاس: السيِّد: الكريم. وقال قتادة: الحليم، ومنه قول الشاعر:

مِنْ[3] سيِّدٍ لا تَحُلُّ حَبْوَتَهُ بَوادِرُ الجاهلين إنْ جَهِلُوا

وقال عكرمة: مَنْ لا يغلبُه الغضب. وقال الضحَّاك: الحَسَنُ الخُلُق. وقال سالم: التَّقيّ. وقال ابنُ زيد: الشريف. وقال ابنُ المسيِّب: الفقيه العالم. وقال أحمد بن عاصم: الراضي بقضاء الله. وقال الخليل: المُطاعُ الفائقُ أقرانَه. وقال أبو بكر الورَّاق: المتوكِّل. وقال الترمذيّ: العظيمُ الهِمَّة. وقال الثوريّ: السيِّدُ من لا يحسُد، من قولهم: الحَسُود لا يَسُود[4].

وقال أبو إسحاق[5]: السَّيِّدُ الذي يفوقُ في الخير قومَه.

وقال بعضُ أهل اللغة: السيِّدُ: المالكُ الذي تجبُ طاعتُه، ولهذا قيل للزوج: سيِّد[6]، وقيل: سيِّد الغلام. وقال سَلَمةُ عن الفرَّاء: السيِّد: المالك، والسيِّد:

(١) تفسير القرطبي ٥/ ١١٥.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٢٩.
(٣) لفظة «من» من (ح) و(د٢) و(يه).
(٤) ينظر تفسير الثعلبي ٢/ ٥٤-٥٥، وزاد المسير ١/ ٣٨٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٢٩.
(٥) هو الزجاج، وكلامه في معاني القرآن ١/ ٤٠٦. ولم يرد هذا القول في (ح) و(د٢) و(يه).
(٦) قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥].

الرئيس، والسيِّد: الحكيم[١]، والسيِّد: السَّخِيّ.

وجاء في الحديث: «السيِّد من أعطِي مالاً، ورُزِقَ سَماحاً، فأدنَى الفقراءَ، وقَلَّت شِكايتُه في الناس»[٢].

وفي معناه: مَنْ بذلَ معروفَه وكفَّ أذاه.

وقال في الحديث لبني سلمة وقد سألهم مَنْ سَيِّدُكُمْ؟ فقالوا: الجَدُّ بنُ قَيْس على بُخله. فقال عليه الصلاة والسلام: «وأيُّ داءٍ أدْوَى من البُخْل؟! سَيِّدُكم عَمْرُو بنُ الجَمُوح»[٣].

وسمَّى أيضاً سعدَ بنَ معاذ[٤] سيِّداً في قوله: «قوموا إلى سيِّدكم»[٥] أي: رئيسِكم، والمُطاعِ فيكم.

وسَمَّى الحسنَ بنَ عليّ سيِّداً في قوله: «إنَّ ابني هذا سَيِّد، ولعلَّ اللهَ يُصْلِحُ به بين فئتَيْنِ عظيمتين من المسلمين»[٦].

وقال الزمخشريّ[٧]: السيِّدُ الذي يَسُودُ قومَه، أي: يفوقُهم في الشَّرف، وكان يحيى فائقاً لقومه فائقاً للنَّاس كلِّهم في أنه لم يركب سيئةً قطُّ، ويا لها من سيادة! انتهى كلامه.

---

(١) في (ح) و(د٢) و(يه): الحليم، بدل: والسيد الحكيم. وينظر تهذيب الأسماء واللغات ٣/ ٢٧٩.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني (٧٠٠٢) عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، وفيه قصة، وتفسير الثعلبي ٢/ ٥٧.

(٣) أخرجه البيهقي في شُعب الإيمان (١٠٣٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه. وفي رواية: «سيِّدُكم بِشْر بن البراء بن معرور» أخرجها عبد الرزاق (٢٠٧٠٥) والطبراني في الكبير ١٩/ (١٦٤) والبيهقي أيضاً (١٠٣٥٩) وقال: والأول أولى.

(٤) في (أ) و(ب) و(ت) و(د١) و(ز٢) و(ع): عبادة. وهو خطأ. والمثبت من (ح) و(د٢) و(يه).

(٥) أخرجه أحمد (١١١٦٨) والبخاري (٤١٢١) و(مسلم) (١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وهو في خبر مجيء سعد بن معاذ رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ ليحكم في بني قريظة عندما نزلوا على حكمه. ولم ترد لفظة «قوموا» في (أ) و(ب) و(ت) و(ع).

(٦) أخرجه أحمد (٢٠٣٩٢) والبخاري (٢٧٠٤) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٧) الكشاف ١/ ٤٢٨.

وقال ابنُ عطيَّة ما ملخَّصه: خَصَّهُ اللهُ بذكر السُّؤدَد، وهو الاعتمال[1] في رضا الناس على أشرف الوجوه دون أن يُوقِع في باطل، وتفصيلُه: بَذْلُ النَّدى، وهو الكَرَم، وكفُّ الأذى، وهي العِفَّة في الفَرْج واليد واللسان، واحتمالُ العظائم، وهنا هو الحلم[2]؛ مِن تحمُّلِ الغرامات، وجَبْر الكسير، والإنقاذ من الهَلَكات. وقد يُوجدُ من الثقات العلماءِ مَنْ لا يُبْرزُ في هذه الخصال، وقد يُوجد مَنْ يُبْرِزُ فيها، فيسمَّى سيِّداً وإنْ قَصَّرَ في مندوب ومكافحة في حقّ وقلَّةِ مبالاة باللائمة.

وقال ابنُ عُمر: ما رأيتُ أسودَ من معاوية. قيل له: وأبو بكر وعُمر؟ قال: هما خيرٌ منه ومعاويةُ أسودُ منهما. انتهى كلامه.

وهذه الأقوالُ التي ذُكرت في تفسير السيِّد كلُّها يصلحُ أن يكون تفسيراً في وصف يحيى عليه السلام، وأحقُّ الناس بصفات الكمال هم النبيُّون.

وفي قوله: «وسيِّداً» دلالةٌ على إطلاق هذا الاسم على مَنْ فيه سِيادة، وهو من أوصاف المدح، ولا يقال ذلك للظالم والمنافق والكافر، ووردَ النهيُ: «لا تقولوا للمنافق سيِّداً»[3]، وما جاء من قوله: ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧] فعلى ما في اعتقادهم وزعمهم.

قيل: وما جاء في حديث وفدِ بني عامر من قولهم لرسول الله ﷺ: أنت سيِّدُنا وذو الطَّوْل علينا، فقال ﷺ: «السيِّد هو الله، تكلَّمُوا بكلامكم» فمحمولٌ على أنه رآهم متكلِّفين لذلك[4]، أو كان ذلك قبل أن يعلم أنه سيدُ البشر، وقد سمَّى هو الحسنَ بنَ عليّ سيِّداً، وكذلك سعدَ بنَ معاذ، وعَمْرَو بنَ الجَمُوح.

﴿وَحَصُورًا﴾ هو الذي لا يأتي النساءَ مع القدرة على ذلك. قاله ابنُ مسعود،

---

(١) في (أ) و(ع): الاعتماد. وفي المحرر الوجيز ١/ ٤٢٩ (والكلام منه): الاحتمال.

(٢) في (ب) و(ت): الحكمة. وفي (أ) و(ع): وهذا هو الحكمة.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٩٣٩) وأبو داود (٤٩٧٧) والنسائي في الكبرى (١٠٠٠٢) من حديث بُريدة.

(٤) بنحوه في أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٢.

وابنُ عباس، وابنُ جُبير، وقتادة، وعطاء، وأبو الشعثاء، والحَسَن، والسُّدِّيّ، وابنُ زيد[(١)]. قال الشاعر:

وحَصُوراً فما يريدُ نِكاحَا لا ولا يبتغي النِّساءَ الصِّبَاحَا

وقد رُوِيَ أنه تزوَّجَ مع ذلك ليكونَ أغضَّ لبصرِه.

وقيل: الحاصِرُ نفسَه عن الشهوات.

وقيل: عن معاصي الله. وقيل: الحَصُور الهَيُوب. وقال ابنُ مسعود أيضاً وابنُ عباس أيضاً والضحَّاك وابنُ المسيِّب[(٢)]: هو العِنِّينُ الذي لا ذَكَرَ له يتأتَّى به النكاح ولا يُنْزِل.

وإيرادُ الحَصُور وَصْفاً في معرض الثَّناء الجميل إنَّما يكون عن الفعل المكتسب دون الجِبِلَّة في الغالب، والذي يقتضيه مقامُ يحيى عليه السلام أنه كان يمنعُ نفسَه من شهوات الدنيا من النِّساء وغيرِهنّ، ولعلَّ تَركَ النِّساءِ زَهادةً فيهنَّ كان شرعَهم إذ ذاك.

قال مجاهد: كان طعامُ يحيى العُشب، وكان يبكي من خشية الله حتى لو كان القَارُ على عينيه لخَرَقَهُ، وكان الدمعُ اتَّخذَ مجرًى في وجهه[(٣)]؛ قيل: ومَنْ هذه الحالةُ حالُه فهو في شُغْلٍ عن النساء وغيرِهنَّ من شهوات الدنيا.

وقيل: الحَصُور الذي لا يدخُلُ مع القوم في الميسر، قال الأخطل:

وشاربٍ مُربحٍ بالكأس نادَمَني لا بالحَصُورِ ولا فيها بِسَأَّارِ

فاستُعير لمن لا يدخلُ في اللعب واللهو[(٤)].

---

(١) تفسير البغوي ١/٢٩٩، وتفسير القرطبي ٥/١١٩.

(٢) المثبت من (أ) و(ب) و(ع) (ووقع فيها سقط قبل هذا الكلام). وفي (د١) و(د٢) و(ز٢) و(ح) و(يه): والمسيّب. والكلام بنحوه في المحرر الوجيز ١/٤٣٠ وتفسير القرطبي ٥/١١٩.

(٣) الزهد لأحمد ص١١٤. وينظر المحرر الوجيز ٤/٨، وتفسير القرطبي ١٣/٤٢٤.

(٤) الكشاف ١/٤٢٨، وبنحوه في المحرر الوجيز ١/٤٣٠. والبيت في ديوان الأخطل ص١١٦، وفيه: بسوَّار. قوله: سأَّار؛ من سَأَرَ يَسْأَرُ سَأْراً (يعني أبقى بقيَّةً من طعام أو شراب) فهو سأَّار.

وقد رُوِيَ أنه مرَّ وهو طفل بصبيان، فدَعَوْه إلى اللعب، فقال: ما لِلَّعِبِ خُلِقْتُ[(١)].

والحَصُور والحَصِرُ: كاتمُ السِّرِّ، قال جرير:

ولقد تَسَاقَطَنِي الوُشاةُ فصَادَفُوا   حَصِراً بِسِرِّكِ يا أُمَيْمَ ضَنِينَا[(٢)]

وجاء في الحديث عن ابن العاصي[(٣)] ما معناه أنَّ يحيى لم يكن له ما للرِّجال إلا مثل هذا العُود. يُشير إلى عُوَيْدٍ صغير.

وفي رواية أبي هريرة: كان ذَكَرُه مثلَ هذه القَذَاة. يشير إلى قَذَاةٍ من الأرض أخذَها[(٤)].

وقد استدلَّ بقوله: «وحَصُوراً» مَنْ ذهبَ إلى أنَّ التَّبتُّل لنوافل العبادات أفضلُ من الاشتغال بالنِّكاح، وهو مذهب الجمهور، خلافاً لمذهب أبي حنيفة، فإنه بالعكس.

﴿وَنَبِيًّا﴾ هذا الوصفُ الأشرفُ، وهو أعلى الأوصاف، فذكرَ أوَّلاً الوصفَ الذي تَنبني عليه الأوصاف بعدَه، وهو التصديق الذي هو الإيمان، ثم ذكر السِّيادة، وهي الوصفُ الذي يفوقُ به قومَه، ثم ذكر الزَّهادة وخصوصاً فيما لا يكادُ يُزْهَد فيه، وذلك النساء، ثم ذكرَ الرُّتبةَ العليا وهي رتبةُ النبوَّة.

وفي هذه الأوصاف مَشَابِهُ[(٥)] من أوصاف مريم عليها السلام، وذلك أنَّ زكريا لَمَّا رأى ما اشتملت عليه مريمُ من الأوصاف الجميلة وما خَصَّها به اللهُ تعالى من الخوارق للعادة؛ دعا ربَّه أن يهبَ له ذُرِّيةً طيِّبة، فأجابَه إلى ذلك، ووَهَبَ له يحيى على وَفْق ما طَلب، فالتصديقُ مشترَكٌ بين مريم ويحيى، وكانت مريمُ سيِّدةَ بني

---

(١) تفسير عبد الرزاق ١/ ١٢٠ و٢/ ٤، والزهد لأحمد ص١١٤ عن معمر قولَه.

(٢) ديوان جرير ص٣٨٧، وفيه: ولقد تَسَقَّطَني. والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٤٣٠.

(٣) في المحرر الوجيز ١/ ٤٣٠ عن ابن العاصي إمَّا عبدُ الله وإمَّا أبوه. وأخرجه الطبري ٥/ ٣٧٧-٣٧٨ بنحوه عن ابن المسيب قال: حدثني ابنُ العاص.

(٤) نسبه السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢٢ لابن أبي حاتم وابن عساكر.

(٥) أي: أشباه، جمع شَبَهٍ (على غير قياس). ووقع في (ت) والمطبوع: تشابه، وفي (د٢) و(ع): مشابهة.

إسرائيل بنصِّ الرسول ﷺ في حديث فاطمة[١]، وكان يحيى سيِّداً، فاشتركا في هذا الوصف، وكانت مريمُ عذراءَ بَتُولاً لم يَمَسَّها بشر، وكان يحيى لا يَقْرَبُ النساء، وكانت مريمُ أتاها المَلَكُ رسولاً من عند الله وحاورَها عن الله بمحاورات، حتى زعمَ قومٌ أنها كانت نبيَّة، وكان يحيى نبيًّا، وحقيقةُ النبوَّة هو أن يُوحِيَ اللهُ إليه، فقد اشتركا في هذا الوصف.

﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أنْ يكونَ المعنى: من أصلاب الأنبياء، كما قال: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖ﴾.

ويحتمل أنْ يكونَ المعنى: وصالحاً من جملة الصالحين، كما قال تعالى في وصف إبراهيم: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٢] [البقرة: ١٣٠].

قال ابنُ الأنباريّ: معناه: من صالحي الحال عند الله[٣].

قال الكِرْمانيّ[٤]: خَصَّ الأنبياءَ بذكر الصَّلاح لأنه لا يتخلَّل صلاحَهم خلافُ ذلك.

وقال الزَّجَّاج: الصالحُ هو الذي يؤدِّي ما افتُرِضَ عليه وإلى الناسِ حقوقَهم[٥]. انتهى.

وقد قال سليمان بعد حصول النبوَّة له: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]؛ قيل: وتحقيقُ ذلك أنَّ للأنبياء قدراً من الصَّلاح لو انتقصَ لانتفت النبوَّة، ثم بعد اشتراكهم في ذلك القَدْر تتفاوتُ درجاتُهم في الزيادة على ذلك القَدْر، فمن كان أكثرَ نصيباً من الصلاح كان أعلى قدراً[٦].

---

(١) سلف عند تفسير قوله: «إن الله يرزقُ من يشاء بغير حساب»، ونقلتُ ثمة قول الحافظ ابن حجر فيه.

(٢) الكشاف ١/ ٤٢٨.

(٣) زاد المسير ١/ ٣٨٤.

(٤) هو محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم، المعروف بتاج القُرَّاء، قال ابن الجزري في غاية النهاية ٢/ ٢٩١: إمام كبير محقق ثقة، وحذَّر السيوطي في الإتقان ٢/ ١٢٢٥ من كتابه العجائب والغرائب (في غرائب القرآن) وقال: لا يحلُّ ذِكْرُها إلا للتحذير منها.

(٥) معاني القرآن للزجَّاج ١/ ٤٠٧، ونقله أيضاً القرطبي ٥/ ١٢٠.

(٦) تفسير الرازي ٨/ ٤٠.

وقال الماتُريديّ[١]: الصلاحُ يتحقَّق في كلِّ نبيٍّ من جميع الوجوه، وفي غيرهم لا يتحقَّقُ إلا بعضُها وإنْ كان الاسمُ ينطلق على الكلّ، لكن سببُ استحقاق الاسم في الأنبياء هو تحقيقُ الصَّلاح من جميع الوجوه، وفي غيرهم من بعضها، فخصَّه بالذِّكْر حتى ينقطعَ احتمال جواز النبوَّة في مطلق المؤمنين، فكان تقييدُه باسم الصلاح مفيداً.

وقيل: «من الصالحين» في الدنيا والآخرة، فيكون إشارةً إلى الدَّوام على الإيمان والأمْنِ من خوف الخاتمة.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ كان قد تقدَّمَ سؤالُه ربَّه: «ربِّ هَبْ لي من لدنك ذُرِّيَّةً طيِّبة» فلا شكَّ في إمكانية ذلك وجوازِه، وإذا كان ذلك ممكناً وبَشَّرتْه به الملائكة، فما وجهُ هذا الاستفهام؟

وأجيب بوجوه:

أحدُها: أنه سؤال عن الكيفيَّة، والمعنى: أيُولَدُ لي على سنِّ الشيخوخة وكونِ امرأتي عاقراً، أي: بلغَتْ سنَّ مَنْ لا تلد ـ وكان قد بلغَ تسعاً وتسعين سنةً وامرأتُه بلغَتْ ثمانياً وتسعين سنة، وقال ابنُ عباس: كان يوم بُشِّرَ ابنَ عشرينَ ومئة سنة، وقال الكلبيّ: ابن اثنتين وتسعين سنة ـ أم أُعادُ أنا وامرأتي إلى سنِّ الشبيبة وهيئةِ مَنْ يُولَدُ له؟! فأجيبَ بأنَّه يُولَدُ له على هذه الحال. قال معناه الحسنُ والأصمّ[٢].

الثاني: أنه لما بُشِّر بالولد استعلم أيكونُ ذلك الولدُ من صُلبِه نفسِه أمْ من بَنيه.

الثالث: أنه كان نسيَ السؤالَ، وكان بين السؤال والتبشير أربعون سنة[٣]. ونُقل عن سفيان أنه كان بينهما ستون سنة[٤].

الرابع: أنَّ هذا الاستعلام هو على سبيل الاستعظام لقدرة الله تعالى، يحدثُ

---

(١) بنحوه في تفسيره (تأويلات أهل السنة) ١/ ٢٦٦.

(٢) ينظر تفسير كل من الثعلبي ٢/ ٥٨، والرازي ٨/ ٤١، وزاد المسير ١/ ٣٨٤. والأَصَمّ: هو أبو بكر عبد الرحمن بن كيسان المعتزلي ـ ينظر لسان الميزان ٥/ ١٢١.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٣١.

(٤) تفسير الرازي ٨/ ٤١ وفيه: سفيان بن عُيينة.

ذلك عند معاينة الآيات، وهو يرجعُ معناه إلى ما قاله بعضُهم إنَّ ذلك من شدَّة الفَرَح لكونه كالمَدْهُوش عند حصول ما كان مستبعداً له عادةً.

الخامس: إنما سأل لأنه كان عاجزاً عن الجِماع لكِبَر سنّه، فسأل ربَّه هَلْ يُقَوِّيه على الجِماع، وامرأتَه على القبول على حال الكِبَر.

السادس: سألَ هل يُرزقُ الولَدَ من امرأتِهِ العاقرِ، أم من غيرها؟

السابع: أنَّه لما بُشِّر بالولد أتاه الشيطان ليكدِّر عليه نعمةَ ربِّه، فقال له: هل تدري مَنْ ناداك؟ قال: ملائكة ربِّي. قال له: بل ذلك الشيطان، ولو كان هذا من عند ربِّك لأخفاه لك كما أخفيتَ نداءَك. فخالطَتْ قلبَه وسوسةٌ، فقال: أنَّى يكونُ لي غلام، ليبيِّن اللهُ له أنه من الوَحْي. قاله عكرمة والسُّدِّيّ[1].

قال القاضي: لو اشتبه على الرُّسل كلامُ المَلَك بكلام الشيطان لم يبقَ الوُثوق بجميع الشرائع.

وأُجيب بأنَّ ما قاله لا يلزم، لاحتمال أن تقوم المعجزة على الوحي بما يتعلّق بالدِّين، وأما ما يتعلَّق بمصالح الدنيا فربَّما لا يؤكِّد بالمعجزة، فيبقى الاحتمال، فيُطلب زوالُه[2].

وقال الزمخشريّ[3]: استبعادٌ من حيث العادة، كما قالت مريم. انتهى.

وعلى ما قاله لو كان استبعاداً لما سألَهُ بقوله: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ لأنه لا يسأل إلا ما كان ممكناً لاسيما الأنبياءُ، لأنَّ خَرْقَ العادة في حقِّهم كثيرُ الوقوع.

و«يكون» يجوز أن تكون تامَّة وفاعلُها «غلام» أي: أنَّى يحدثُ لي غلام! ويجوزُ أن تكون ناقصة، ولا يتعيَّن إذ ذاك تقديمُ الخبر على الاسم؛ لأنه قبلَ دخول «كان» مُصَحِّحٌ لجوازِ الابتداء بالنكرة، إذْ تقدُّم أداة الاستفهام مسوِّغٌ لجواز الابتداء

---

(١) تفسير الثعلبي ٢/ ٥٩، والمحرر الوجيز ١/ ٤٣١، وتفسير الرازي ٨/ ٤١.
(٢) ينظر تفسير الرازي ٨/ ٤١. وكلام القاضي ـ وهو عبد الجبَّار ـ فيه.
(٣) الكشاف ١/ ٤٢٨.

بالنكرة، والجملتان بعدَ كلٍّ منهما حال، والعاملُ فيهما «يكون» إنْ كانت تامّة، أو العامل في «لي» إن كانت ناقصة.

وقيل: «وامرأتي عاقر» حال من المفعول في «بلغني» والعامل «بلغني».

وكانت الجملة الأولى فعليَّة لأنَّ الكِبَرَ يتجدَّدُ شيئاً فشيئاً، فلم يكن وصفاً لازماً، وكانت الثانية اسميَّة، والخبر «عاقر» لأنَّ كونها عاقراً أمرٌ لازمٌ لها لم يكن وصفاً طارئاً عليها، فناسبَ لذلك أن تكون الأولى جملة فعليَّة، وناسبَ أن تكون الثانية جملة اسميَّة.

ومعنى «بلغني الكِبَرُ»: أثَّر فيَّ، وحقيقةُ البلوغ في الأجرام، وهو أن ينتقل البالغ إلى المبلوغ إليه[١].

وأسندَ البلوغَ إلى الكِبَر توسُّعاً في الكلام، كأنَّ الكِبَرَ طالبٌ له؛ لأنَّ الحوادثَ طارئةٌ على الإنسان، فكأنَّها طالبةٌ له وهو المطلوب.

وقيل: هو من المقلوب، كما جاء: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] وكما قال:

مِثْلُ القنافذِ هَدَّاجُونَ قَدْ بَلَغَتْ ... نَجْرانَ أو بُلِّغَتْ سَوْآتِهِمْ هَجَرُ[٢]

وقال الراغب: إذا بلغتَ الكِبَرَ فقد بلغَكَ الكِبَرُ. انتهى[٣].

وهنا قدَّمَ حالَ نفسِه وأخَّر حالَ امرأتِه، وفي «مريم» عكسَ؛ فقال الماتُريدي[٤]: لا تُراعَى الألفاظ في الحكاية، إنما تُراعى المعاني المُدرجة في الألفاظ.

وقال غيره: صدرُ الآيات في «مريم» مطابق لهذا الترتيب هنا لأنه قدَّم أنه وَهَنَ

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٣١.

(٢) البيت للأخطل، وهو بهذه الرواية في معاني القرآن للأخفش ١/ ٣١٨، والمحتسب ٢/ ١١٨، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٣٦. وفي الديوان: على العيارات هَدَّاجون... قال الأخفش: يريد أن السوءات بلغت هجر، و«هَجَر» رفع، لأن القصيدة مرفوعة.

(٣) تفسيره ص٥٤٤ (تفسير آل عمران).

(٤) بنحوه في تفسيره (تأويلات أهل السنة) ١/ ٢٦٧.

العظمُ منه واشتعلَ الرأسُ شيباً، وقال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ فلما أعادَ ذِكْرَهما في الاستعلام أخَّرَ ذِكْر الكِبَر ليوافقَ «عِتِيًّا» رؤوسَ الآي، وهو باب مقصودٌ في الفصاحة يترجَّحُ إذا لم يُخِلَّ بالمعنى. والعطفُ هنا بالواو، فليس التقديمُ والتأخيرُ مشعراً بتقدُّم زمان، وإنما هذا من باب تقديم المناسب في فصاحة الكلام.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ الكاف للتشبيه و«ذلك» إشارةٌ إلى الفعل، أي: مثلَ ذلك الفعل ـ وهو تكوُّن الولدِ بين الفاني والعاقر ـ يفعلُ الله ما يشاءُ من الأفعال الغريبة، فيكون إخباراً عن الله تعالى أنه يفعلُ الأشياء التي تتعلَّقُ بها مشيئتُه فعلاً مثلَ ذلك الفعل لا يُعجزه شيء، بل سببُ إيجاده هو تعلُّق الإرادة، سواءٌ أكانَ من الأفعال الجارية على العادة، أم من التي لا تجري على العادة، وإذا كان تعالى يُوجِدُ الأشياءَ من العدم الصِّرْف بلا مادة ولا سبب، فكيف بالأشياء التي لها مادَّة وسبب؟ وإن كان ذلك على خلاف العادة.

وتكون الكاف على هذا الوجه في موضع نصب على أنَّها صفة لمصدر محذوف، أي: فعلاً مثلَ ذلك الفعل، أو على أنها في موضع الحال من ضمير المصدر المحذوف من «يفعلُ» وذلك على مذهب سيبويه. وقد تقدَّمَ لنا مثلُ هذا.

ويحتمل أن يكون «كذلك اللهُ» مبتدأً وخبراً، وذلك على حذف مضاف، أي: صُنعُ الله الغريبُ مثلُ ذلك الصُّنع، ويكون «يفعلُ ما يشاءُ» شرحاً للإبهام الذي في اسم الإشارة.

وقدَّره الزمخشريُّ(١): على نحو هذه الصفةِ اللهُ. قال: و«يفعلُ ما يشاء» بيانٌ له، أي: يفعلُ ما يشاء من الأفاعيل الخارقة للعادات. انتهى.

وقال ابن عطية(٢): أي: كهذه القدرةِ المستغربةِ هي قدرةُ الله. انتهى. وعلى هذا الاحتمال تكون الكاف في موضع رفع، لأنَّ الجارَّ والمجرور في موضع خبر المبتدأ، والكلام جملتان، وعلى التفسير الأول الكلام جملة واحدة.

---

(١) الكشاف ١/٤٢٨.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٣١.

قال ابنُ عطيَّة وغيرُه ـ واللفظ لابن عطية ـ ويحتمل أن تكون الإشارة بـ «ذلك» إلى حالِ زكريا وحالِ امرأته، كأنَّه قال: ربِّ على أيِّ وجهٍ يكونُ لنا غلام ونحن بحالِ كذا؟ فقال له: كما أنتما يكونُ لكما الغلام. والكلامُ تامٌّ على هذا التأويل في قوله: «كذلك»، وقولُه: «اللهُ يفعلُ ما يشاء» جملة مبيِّنة مقرِّرةٌ في النفس وقوعَ هذا الأمر المستغرب. انتهى كلامه. فيكون «كذلك» متعلِّقاً بمحذوف.

وشرحَ الراغبُ[1] المعنى فقال: يَهَبُ لكَ الولدَ وأنتَ بحالتك.

والظاهر من هذه الأقوال الثلاثةِ هو الأوّل.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ قال الرَّبيع والسُّدِّيُّ وغيرُهما: إنَّ زكريَّا قال: يا ربِّ إن كان ذلك الكلام من قِبَلِكَ والبِشارة حقّ فاجعلْ لي علامةً أعرفُ بها صحّة ذلك. فعُوقبَ على هذا الشكّ في أمر الله بأن مُنع الكلامَ ثلاثةَ أيام مع الناس.

وقالت فرقة من المفسِّرين: لم يشكَّ قطُّ زكريا، وإنَّما سألَ عن الجهة التي بها يكون الولدُ وتتمُّ به البِشارة، فلما قيل له: «كذلك اللهُ يفعلُ ما يشاء» سألَ علامةً على وقت الحمل ليَعْرفَ متى يكونُ العُلوقُ بيحيى.

واختلفوا في منعه الكلامَ، هل كان لآفةٍ نزلَتْ به، أم لغيرِ آفة؟ فقال جُبير بنُ نُفير: رَبَا لسانُه في فيه حتى ملأه، ثم أطلقَه اللهُ بعد ثلاث.

وقال الربيعُ وغيرُه أخذَ اللهُ عليه لسانَه، فجعلَ لا يقدرُ على الكلام معاقبةً على سؤالِ آيةٍ بعدَ مشافهةِ الملائكةِ له بالبِشارة.

وقالت طائفة: لم تكن آفة، ولكنه مُنِعَ محاورةَ الناس، فلم يقدر عليها، وكان يقدر على ذكر الله. قاله الطبريّ، وذكرَ نحوه عن محمد بن كعب[2].

وكانت الآيةُ حبسَ اللسان لِتَخلُصَ المدَّةُ لذكر الله، لا يشغلُ لسانَه بغيره توفُّراً منه على قضاء حقِّ تلك النعمة الجسيمة وشكرها، كأنَّه لمَّا طلبَ الآيةَ من أجل

(١) تفسير سورة آل عمران ص٥٤٧.
(٢) تفسير الطبري ٥/ ٣٩٠-٣٩١. والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٤٣٢.

الشكر قيل له: آيتُك أن يُحْبَسَ لسانُك إلا عن الشكر.

وأحسنُ الجوابِ وأوقعُه ما كان مشتقًّا من السؤال ومنتزعاً منه[١].

وكان الإعجازُ في هذه الآية من جهة قدرته على ذكر الله، وعَجْزِه عن تكليم الناس، مع سلامة البِنْيَة واعتدالِ المِزاج، ومن جهة وقوع العُلوق وحصولِه على وفق الأخبار.

وقيل: أُمِرَ أن يصومَ ثلاثةَ أيام، وكانوا لا يتكلّمون في صومهم.

وقال أبو مسلم: يحتمل أن يكون معناه: آيتُك أن تصير مأموراً بأنْ لا تُكلِّم الخلق، وأن تشتغلَ بالذكر شكراً على إعطاء هذه الموهبة، وإذا أُمِرْتَ بذلك فقد حصل المطلوب[٢].

قيل: فسألَ اللهَ أن يفرضَ عليه فرضاً يجعلُه شكراً لذلك، والذي يدلُّ عليه ظاهرُ الآية أنه سألَه آيةً تدلُّ على أنه يُولدُ له، فأجابَه بأنَّ آيتَه انتفاءُ الكلام منه مع الناسِ ثلاثةَ أيام إلا رَمْزاً، وأُمِرَ بالذِّكرِ والتسبيح.

وانتفاءُ الكلام قد يكون لتكليفٍ به، أو بملزومِه في شريعتهم، وهو الصوم، وقد يكون لمنع قهريّ مدَّةً معينةً لآفةٍ تعرضُ في الجارحة، أو لغير آفة. قالوا: مع قدرته على الكلام بذكر الله تعالى.

قال الزمخشريّ[٣]: ولذلك قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ إلى آخره، يعني في أيام عجزك عن تكليم الناس، وهي من الآيات الباهرة. انتهى. ولا يتعيَّن ما قالَه لِما ذكرناه من احتمالات وجوه الانتفاء، ولأنَّ الأمرَ بالذكر والتسبيح ليس مقيَّداً بالزمان الذي لا يكلِّم الناس فيه[٤]، وعلى تقدير تقييد ذلك لا يتعيَّن أن يكون الذِّكْرُ والتسبيح بالنطق بالكلام.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٢٩.

(٢) تفسير الرازي ٨/ ٤٣.

(٣) الكشاف ١/ ٤٢٩.

(٤) لفظة «فيه» من (ت)، وهي أيضاً في النهر المادّ (بهامش البحر) ٢/ ٤٥١.

وظاهر: «اجْعَلْ» هنا أنها بمعنى: «صَيِّرْ»، فتتعدَّى لمفعولين، الأول: «آية» والثاني: المجرورُ قبلَه، وهو «لي»، وهو يتعيَّن تقديمُه لأنه قبل دخول «اجْعَلْ» هو مصحِّحٌ لجواز الابتداء بالنكرة.

وقرأ ابنُ أبي عَبْلة: «أنْ لا تُكَلِّمُ» برفع الميم(١)، على أنَّ «أنْ» هي المخفَّفة من الثقيلة، أي أنَّه لا تُكَلِّمُ، واسمُها محذوف ضميرُ الشأن، أو على إجراء «أنْ» مُجرى «ما» المصدرية.

وانتصاب «ثلاثةَ أيام» على الظرف، خلافاً للكوفيّين، إذ زعموا أنه إذا كان اسمُ الزمان يستغرقُه الفعلُ فليس بظرف، وإنما ينتصبُ انتصابَ المفعول به، نحو: صُمْتُ يوماً، فانتصابُ «ثلاثة أيام» عندهم على أنه مفعول به؛ لأن انتفاء الكلام منه للناس كان واقعاً في جميع الثلاثة، لم يخلُ جزءٌ منها من انتفائه فيه.

والمرادُ ثلاثةُ أيام بلياليها، يدلُّ على ذلك قولُه في سورة مريم [١٠] ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ وهذا يُضعِفُ تأويلَ من قال: أُمِرَ بالصوم ثلاثةَ أيام وكانوا لا يتكلَّمون في صومهم، والليالي يبعدُ مشروعيةُ صومها(٢).

ولم يعيِّن ابتداءَ ثلاثةِ الأيام، بل أطلق فقال: «ثلاثةَ أيام»، فإنْ كان ذلك بتكليف فيمكن أن يكونَ ذلك موكولاً إلى اختياره؛ يمتنعُ من تكليم الناس ثلاثةَ أيام متى شاء، ويمكن أن يكون ذلك من حين الخطاب، وإن كان بمَنْعٍ قهريّ فيظهر أنه من حين الخطاب.

قيل: وفي ذلك دلالة على نسخ القرآن بالسُّنَّة، وهذا على تقدير قُدْرَةِ زكريا على الكلام في تلك الأيام الثلاثة، وأنَّ شَرْعَهُ شَرْعٌ لنا، وأنَّه نَسَخَهُ قولُه ﷺ: «لا صَمْتَ يومٍ إلى الليل»(٣).

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٢.

(٢) ينظر تفسير البغوي ١/ ٣٠٠، وتفسير القرطبي ٥/ ١٢٤.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٨٧٣) من حديث علي ﷺ. قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٤/ ١٥٣: رُويَ هذا الحديث من رواية جابر بن عبد الله وأنس بن مالك، وليس فيها شيء يثبت. وينظر المحرر الوجيز ١/ ٤٣٢، وتفسير القرطبي ٥/ ١٢٤.

وقد ذهبَ كثيرٌ من العلماء إلى أنَّ معناه: لا صَمْتَ يومٍ، أي: عن ذِكْرِ الله، وأمَّا الصمتُ عمَّا لا منفعةَ فيه؛ فحَسَنٌ.

واستثناء الرَّمْز؛ قيل: هو استثناء منقطع، إذِ الرَّمزُ لا يدخل تحت التكليم، ومن أطلقَ الكلامَ في اللغة على الإشارة الدالةِ على ما في نفس المُشير؛ فلا يبعُدُ أن يكون هذا[1] استثناءً متصلاً على مذهبه، ولذلك أنشد النحويُّون:

أرادَتْ كلاماً فاتَّقَتْ من رَقِيبِها فلم يَكُ إلا وَمْؤُها بالحواجِبِ[2]

وقال:

إذا كَلَّمَتْني بالعيونِ الفَوَاتِرِ رَدَدْتُ عليها بالدُّمُوعِ البَوادِرِ[3]

واستعمل المولَّدُون هذا المعنى؛ قال حبيب[4]:

كَلَّمْتُهُ بجُفونٍ غيرِ ناطقةٍ فكانَ من رَدِّهِ ما قالَ حاجِبُهُ

وكونُه استثناءً متصلاً بدأ به الزمخشريُّ؛ قال[5]: لمَّا أدَّى مؤدَّى الكلام وفُهم منه ما يُفهم منه؛ سُمِّيَ كلاماً.

وأمَّا ابنُ عطيَّة[6] فاختارَ أنْ يكون منقطعاً؛ قال: والكلامُ المرادُ به في الآية إنما هو النُّطقُ باللسان، لا الإعلامُ بما في النفس، فحقيقةُ هذا الاستثناءِ أنه منقطع. وبدأ به أوَّلاً، فقال: استثنى الرَّمز، وهو استثناءٌ منقطع. ثم قال: وذهبَ الفقهاء في الإشارة ونحوها إلى أنها في حكم الكلام في الإيمان ونحوِها، فعلى هذا يجيءُ الاستثناء متصلاً.

---

(١) في (ح) و(د٢) و(يه): هنا.
(٢) هو في معاني القرآن للفراء ١/ ٤٠ و٢/ ٢١ و٣/ ١٢٤، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣٠ برواية: فقلنا السلام فاتَّقتْ من أميرها... فما كان إلا... وفي الزاهر ١/ ٦٥ واللسان (ومأ): فقلت السلام فاتقت من أميرها... وفي العُباب الزاخر (ومأ): وقفنا فقلنا إيهِ سِلْمٌ فسلَّمَتْ... وما كان إلا... ونسبه للقَنَانيّ قال: ويُروَى: فقلنا السلام... الخ.
(٣) أمالي القالي ١/ ٢١٨، ونسبَ إنشاده لإبراهيم بن مهدي.
(٤) هو أبو تمَّام، والبيت في ديوانه (بشرح التبريزي) ٤/ ١٥٩ (باب الغزل)، وفي العقد الفريد ٦/ ٣٩.
(٥) الكشاف ١/ ٤٢٩.
(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٢.

والرَّمزُ هنا تحريكٌ بالشفتين. قاله مجاهد، أو إشارة باليد والرأس. قاله الضَّحَّاك والسُّدِّيّ وعبدُ الله بنُ كثير، أو إشارة باليد. قاله الحسن، أو إيماءٌ. قاله قتادة(١).

والإيماء هو الإشارة، لكنه لم يعيِّن بماذا أشار. ورُوِيَ عن قتادة: إشارة باليد، أو إشارة بالعين، رُويَ ذلك عن الحسن.

وقيل: رمزُه الكتابةُ على الأرض. وقيل: الإشارة بالإصبع المُسَبِّحة. وقيل: باللسان. ومنه قول الشاعر:

ظَلَّ أيّاماً له من دَهْرِهِ يَرْمُزُ الأقوالَ من غيرِ خَرَسْ(٢)

وقيل: الرَّمْز: الصوتُ الخفيّ؛ لأنه كان ممنوعاً من رفع الصوت(٣).

وقرأ علقمةُ بنُ قيس ويحيى بن وثَّاب: رُمُزاً، بضمّ الراء والميم(٤)، وخُرِّجَ على أنه جمع رَمُوز، كرُسُل ورَسُول، وعلى أنه مصدر كـ «رُمْز» جاء على فُعْل، وأُتبعت العينُ الفاءَ، كاليُسْر واليُسُر.

وقرأ الأعمش: «رَمَزاً» بفتح الراء والميم(٥)، وخُرِّجَ على أنه جمع رامز، كخادم وخَدَم، وانتصابُه إذا كان جمعاً على الحال من الفاعل، وهو الضمير في «تُكَلِّم»، ومن المفعول وهو «الناس» كما قال الشاعر:

فَلَئِنْ لَقِيتُكَ خالِيَيْنِ لَتَعْلَمَنْ أيّي وأيُّكَ فارِسُ الأحزابِ(٦)

أي: إلا مُتَرَامِزِين، كما يكلِّم الأخرسُ الناسَ ويكلِّمُونَه.

(١) تفسير الطبري ٥/ ٣٨٩-٣٩٠، وتفسير البغوي ١/ ٣٠٠، والمحرر الوجيز ١/ ٤٣٢.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) قوله: لأنه كان ممنوعاً من رفع الصوت، من (أ) و(ب) و(ت) و(ع). والكلام بنحوه في تفسير الرازي ٨/ ٤٤.

(٤) الكشاف ١/ ٤٢٩ (دون نسبة)، والمحرر الوجيز ١/ ٤٣٢.

(٥) القراءات الشاذة ص٢٠.

(٦) المحتسب ١/ ٢٥٤، والإنصاف للبطليوسي ص١٨٥، وشرح الشواهد الكبرى للعيني ٣/ ٤٢٢ (بهامش الخزانة) وفي المحتسب: فارسا الأحزاب. قال ابن جني: ويجوز: فارس الأحزاب، أي: أيُّنا فارسُ الأحزاب. وأورد السيوطي عجز البيت في همع الهوامع ٢/ ٥١٧.

وفي قوله: «إلا رَمْزًا» دلالةٌ على أنَّ الإشارة تتنزَّلُ منزلةَ الكلام، وذلك موجود في كثير من السُّنَّة. وفي الحديث: «أينَ الله» فأشارَتْ برأسها إلى السماء، فقال: «أَعْتِقْها فإنَّها مؤمنة»[١]. فأجازَ الإسلامَ بالإشارة، وهو أصلُ الدِّيانة التي تحقنُ الدَّمَ، وتحفظُ المالَ، وتُدخِلُ الجنةَ، فتكون الإشارة عامَّةً في جميع الدِّيانات، وهو قولُ عامَّة الفقهاء.

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾ قيل: الذِّكر هنا هو بالقلب لأنه مُنِعَ من الكلام.

وقيل: باللسان لأنه مُنع من الكلام مع الناس، ولم يُمنع من الذِّكْر.

وقيل: هو على حذف مضاف، أي: واذكُرْ عطاءَ ربِّك وإجابتَه لدعائك.

وقال محمد بنُ كعب القُرَظيّ: لو رُخِّصَ لأحد في ترك الذِّكر لرُخِّص لزكريَّا وللرَّجل في الحرب، وقد قال تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾[٢] [الأنفال: ٤٥].

وأُمِرَ بكثرة الذِّكر ليكثُرَ ذِكْرُ اللهِ له بنعمِهِ وألطافِه كما قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وانتصاب «كثيرًا» على أنه نعت لمصدر محذوف، أو منصوب على الحال من ضمير المصدر المحذوف الدالّ عليه «اذْكُروا»[٣] على مذهب سيبويه.

﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ أي: نزِّهِ اللهَ عن سِماتِ النَّقْص بالنُّطق باللسان بقولك: سبحان الله.

وقيل: معنى «وسَبِّحْ»: وصَلِّ، ومنه: كان يصلِّي سُبْحَةَ الضُّحى أربعاً[٤]، و﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣] على أحد الوجهين.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٩٠٦)، وأبو داود (٣٢٨٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) تفسير الطبري ٥/ ٣٩١، وحلية الأولياء ٣/ ٢١٥، وتفسير القرطبي ٥/ ١٢٥.
(٣) هذه اللفظةُ لآيةِ الأنفال المذكورة، ولفظةُ الآيةِ المفسَّرة: «اذكر» والمرادُ نفسُه.
(٤) صحيح مسلم (٧١٩) ولفظُه فيه: كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى أربعاً، وأما لفظ «سُبْحَة الضُّحى» فهو فيه (٧١٨) بلفظ: ما رأيت رسول الله ﷺ يصلي سُبْحَة الضُّحى قط. كلاهما عن عائشة ﷺ.

والظاهر أنه أُمِرَ بتسبيح الله في هذين الوقتين أوّلَ الفجر، ووقتَ ميل الشمس للغروب. قاله مجاهد[(١)].

وقال غيره: يحتمل أن يكون أرادَ بالعشيّ: الليل، وبالإبكار: النهار، فعبَّرَ بجزء كلٍّ واحدٍ منهما عن جملته، وهو مجازٌ حَسَن.

ومفعول «وسَبِّحْ» محذوف للعلم به؛ لأنَّ قبلَه: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ أي: وسَبِّحْ ربَّك. والباء في «بالعَشِيِّ» ظرفيَّة، أي: في العشيّ.

وقُرئ شاذًّا: و«الأَبْكار» بفتح الهمزة، وهو جمعُ بَكَر، بفتح الباء والكاف، تقول: أتيتُك بَكَراً، وهو ممَّا يلتزم فيه الظرفيَّة إذا كان من يوم معيَّن[(٢)]، ونظيرُه: سَحَر وأَسْحار، وجَبَل وأَجْبَال. وهذه القراءةُ مناسبةٌ للعشيّ على قول مَنْ جعلَه جمع عَشيَّة، إذ يكون فيها تقابل من حيث الجمعيَّة، وكذلك هي مناسبة إذا كان العشيّ مفرداً، وكانت الألف واللام فيه للعموم كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، وأهلكَ الناسَ الدينارُ الصُّفْرُ.

وأما على قراءة الجمهور: «والإبكار» بكسر الهمزة، فهو مصدر، فيكون قد قابل العشيّ الذي هو وقت بالمصدر، فيحتاج إلى حذف، أي: بالعشيِّ ووقتِ الإبكار.

والظاهر في «بالعشيّ والإبكار» أنَّ الألِفَ واللام فيهما للعموم، ولا يُراد به عشيُّ تلك الثلاثة الأيام، ولا وقتَ الإبكار فيها.

وقال الراغب[(٣)]: لم يَعْنِ التسبيحَ طَرَفَيِ النهار فقط، بل إدامةَ العبادة في هذه الأيام.

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٣٩٢، والمحرر الوجيز ١/ ٤٣٠.

(٢) قال السمين الحلبي في الدرّ المصون ٣/ ١٦٨: إن أُريد به هذا الوقتُ من يوم بعينه امتنع من الصرف والتصرّف، فلا يستعمل غير ظرف، تقول: أتيتُك يومَ الجمعةِ بَكَرَ، وإن أُريد به وقتٌ مبهم، انصرف، نحو: أتيتُك بَكَراً من الأبكار.

(٣) تفسيره ص٥٥٠ (سورة آل عمران).

وقال غيره: يدلُّ على أنَّ المرادَ بالتسبيح الصلاةُ ذِكْرُه العشيَّ والإبكار، فكأنه قال: اذْكُرْ ربَّك في جميع هذه الأيام والليالي، وصَلِّ طرفي النهار. انتهى.

ويتعلَّق «بالعشيّ» بقوله: «وسَبِّحْ»، ويكون على إعمال الثاني، وهو الأَولى، إذ لو كان متعلِّقاً بقوله: «واذْكُرْ ربَّك» لأُضمر في الثاني، إذ لا يجوز حذفُه إلا في ضرورة، قيل: أو في قليل من الكلام. ويحتمل أن لا يكون من باب الإعمال، فيكون الأمر بالذكر غير مقيَّد بهذين الزمانين.

قيل: وتضمَّنَتْ هذه الآيةُ من فنون الفصاحة أنواعاً:

الزيادة في[1] البناء في قوله: «هنالك» وقد ذكرتُ فائدتَه.

والتكرار في «ربَّه» «قال ربِّ»، وفي: «إن الله يبشرك» و«بكلمة من الله»[2]، وفي آية «قال آيتك»، وفي «يكون لي غلام»، «وكانت»[3].

وتأنيث المذكَّر حملاً على اللفظ في «ذُرِّيَّة طيبة».

والإسناد المجازيّ في «وقد بلغنيَ الكِبَرُ».

والسؤال والجواب: «قال ربِّ أنَّى»، «قال كذلك»، «قال ربِّ اجْعَلْ لي آية قال آيتُك».

قال أرباب الصناعة: أحسنُ هذا النوع ما كثُرت فيه القلقلة[4].

والحذف في مواضع[5].

❁ ❁ ❁

(١) في (ح) و(د٢) و(يه): على.
(٢) في الموضع الأول «بكلمة من الله»، وفي الموضع الثاني: «بكلمة منه».
(٣) قوله: «أنى يكون لي غلام وكانت» هو من سورة مريم، وليس في هذه السورة، والله أعلم.
(٤) كذا في (ح) و(د١) و(ز٢) و(يه). وفي (أ) و(ب) و(ت) و(ع): القلة. وفي (د٢): القلقة، ولم تتبين لي.
(٥) بعدها في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): قد ثبتت.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

المفردات

القلمُ معروفٌ، وهو الذي يُكتبُ به، وجمعُه أقلام، ويقع على السَّهم الذي يُقترعُ به، وهو فَعَل بمعنى مفعول، لأنه يُقلم أي: يُبرى ويُسوَّى، وقيل: هو مشتقّ من القُلامة ـ وهي نبتٌ ضعيف ـ لترقيقه[(١)]، والقُلامة أيضاً ما سقط من الظُّفر إذا قُلم، وقلَّمتُ أظفارَه: أخذتُ منها وسوَّيتُها. قال زهير:

لَدَى أسدٍ شاكي السلاحِ مُقَذَّفٍ   له لِبَدٌ أظفارُه لم تُقَلَّمِ[(٢)]

وقال بعضُ المولَّدين:

يُشَبَّهُ بالهلالِ وذاكَ نَقْصٌ   قُلامَةُ ظُفْرِهِ شِبْهُ الهلالِ[(٣)]

الوَحْيُ: إلقاءُ المعنى في النَّفس في خَفاء، فقد يكون بالمَلَك للرسل، وبالإلهام، كقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨]. وبالإشارة كقوله:

---

(١) في (دا): لترفيعه.

(٢) ديوان زهير ص٢٣ بشرح ثعلب، قال: شاكي السلاح، أي: سلاحه ذو شوكة، يريد: شائك.

(٣) لم أقف عليه.

لأوْحَتْ إليـنـا والأنـامـلُ رُسْـلُـهـا[١]

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟﴾ [مريم: ١١].

وبالكتابة؛ قال زهير[٢]:

أتـى الـعُـجْـمَ والآفـاقَ مـنـه قـصـائـدٌ ... بَقِينَ بقاءَ الوَحْيِ في الحَجَرِ الأَصَمّ[٣]

والوَحْيُ: الكتاب قال:

فـمَـدَافِـعُ الـرَّيَّـانِ عُـرِّيَ رَسْـمُـهـا ... خَلَقاً كما ضَمِنَ الوُحِيَّ سِلامُها[٤]

وقيل: الوُحِيّ جمع وَحْي. وأمَّا الفعل؛ فيقال: أَوْحَى، ووَحَى.

«المسيح» عِبرانيّ معرَّب، وأصله بالعبرانيّ مشيحا بالشين، عُرِّب بالسين، كما عُرِّب[٥] في موشى، فقيل: موسى. قاله أبو عبيد[٦].

وقال الزمخشريّ[٧]: ومعناه المبارك، لقوله: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١] وهو من الألقاب المشرِّفة، كالصدِّيق والفاروق. انتهى.

وقيل: المسيح عربيّ، واختُلف؛ أهو مشتقٌّ من السِّياحة؛ فيكون وزنُه مَفْعِلاً، أو من المَسْح فيكون وزنُه فَعِيلاً، وهل يكون بمعنى مفعول أو فاعل؟ خلاف. ونُبيِّنُ في التفسير لِم سُمِّيَ بذلك.

الكَهْل: الذي بلغ سنَّ الكُهولة، وآخرُها ستُّون، وقيل: خمسون، وقيل: اثنان وخمسون سنة، ثم يدخلُ سنُّ الشيخوخة. واختُلف في أولها؛ فقيل: ثلاثون،

(١) العين ٣/ ٣٢٠ (وفيه: فأَوْحَتْ إليها)، واللسان ١٥/ ٣٨٠ (وحى). ولم أقف على الشطر الآخر للبيت ولا على قائله.

(٢) البيت لكعب بن زهير وليس لزهير، وهو في ديوانه ص٩٨، وتفسير الطبري ٥/ ٤٠٢.

(٣) في النسخ الخطية: الصمّ. والمثبت من المصدرين السابقين.

(٤) البيت للبيد بن ربيعة، وهو في شرح ديوانه ص٢٩٧. والزاهر ١/ ٦٦ و٢/ ١٦٨، والأغاني ١٥/ ٣٦٠. قال أبو الفَرَج: الرَّيَّان: واد، ومَدَافعُه: مجاري الماء فيه، وعُرِّيَ رسمُها، أي: تُرِك وارتُحل عنه، يقول: عُرِّيَ من أهله، وسِلامُها: صخورُها، واحدتُها سَلِمَة. اهـ.

(٥) في (د١): غيرت، ووقعت كذلك في (ب) و(ز٢) في الموضعين، ولم تجود في (أ) و(ع) فوقع فيهما: عبرت.

(٦) نقله عنه القرطبي في تفسيره ٥/ ١٣٦.

(٧) الكشاف ١/ ٤٣٠.

وقيل: اثنان وثلاثون، وقيل: ثلاثة وثلاثون، وقيل: خمسة وثلاثون، وقيل: أربعون عاماً. وهو من اكتهلَ النباتُ: إذا قَوِيَ وعَلَا، ومنه: الكاهل.

وقال ابنُ فارس[١]: اكتهل الرجل: وَخَطَهُ الشَّيْب، من قولهم: اكتهلت الروضة: إذا عمَّها النَّوْر، ويقال للمرأة: كهلة. انتهى.

ونُقل عن الأئمة في ترتيب سنّ المولود وتَنَقُّلِ أحوالِه أنه في الرَّحِم جَنِين، فإذا وُلد فوليد، فإذا لم يستتمَّ الأسبوعَ فصَدِيغ، وإذا دام يرضع فرَضِيع، فإذا فُطم ففَطِيم، وإذا لم يرضع فجَحْوَش، فإذا دَبَّ ونما فدَارِج، فإذا سقطت رَوَاضعُه فمَثْغُور، فإذا نبتَتْ بعد السُّقوط فمُثَّغِر، بالثاء والتاء[٢]، فإذا كان تجاوزَ العشر فمُتَرَعْرِع وناشئ، فإذا كان[٣] يبلغُ الحلم فيَافِع ومُرَاهِق، فإذا احْتَلَم فحَزَوَّر، وهو في جميع هذه الأحوال غلام، فإذا اخْضَرَّ شاربُه وسالَ عِذارُه فباقل، فإذا صار ذَاقِناً ففَتًى وشارِخ، فإذا كَمُلَتْ لحيتُه فمجتمِع، ثم ما دام بين الثلاثين والأربعين فهو شابّ، ثم هو كَهْلٌ إلى أن يستوفيَ الستّين. هذا هو المشهور عند أهل اللغة[٤].

الطين معروف ويقال: طانَهُ الله على كذا وطامَهُ؛ بإبدال النون ميماً: جَبَلَه وخَلَقَه على كذا. ومُطَيَّن لقب لمحدِّث معروف[٥].

الهيئة: الشكل والصورة، وأصلُه مصدر، يقال: هاءَ الشيءُ يَهاءُ هَيْئاً وهيئةً: إذا ترتَّب واستقرَّ على حالٍ مّا، وتُعَدِّيهِ بالتضعيف، تقول: هيَّأتُه. قال: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾ [الكهف: ١٦].

النَّفْخ معروف.

---

(١) مجمل اللغة ص٧٧٣ (كهل).

(٢) اثَّغَرَ، فهو مُثَّغِر، بتشديد الثاء، واتَّغَرَ، فهو مُتَّغِر، بتشديد التاء. ووقع في (أ) و(ع): «فمثتغر، بالمثلثة والتاء». وهو صوابٌ أيضاً، جاءت فيهما اللفظة على الأصل من غير إبدال.

(٣) في فقه اللغة للثعالبي ص٩٣: كاد. (وكذا في الموضع قبله).

(٤) ينظر المصدر السابق ص٩٢-٩٣.

(٥) هو محمد بن عبد الله بن سليمان، محدِّث الكوفة، توفي سنة (٢٩٧هـ).

الإبراء: إزالة العلَّة والمرض، يقال: بَرِئَ الرجلُ وبَرَأ من المرض، وأمَّا من الذنب ومن الدَّيْن؛ فبَرِئَ.

الكَمَهُ: العَمَى يُولدُ به الإنسان، وقد يَعْرِض، يقال: كَمِهَ يَكْمَهُ كَمَهاً، فهو أَكْمَهُ، وكَمَهْتُها أنا: أعميتُها؛ قال سُويد:

كَمِهتْ عَيْناهُ حتَّى ابْيَضَّتا[١]

وقال رؤبة:

فارْتَدَّ عنها كارتدادِ الأكْمهِ[٢]

البَرَص: داءٌ معروف، وهو بياضٌ يعتري الجِلد، يُقال منه: بَرِصَ فهو أبرص، ويسمَّى القمرُ أبرصَ لبياضه، والوَزَغُ سامَّ أبرصَ للبياض الذي يعلو جِلْدَه.

ذَخَرَ الشيء يَذْخُره: خَبأَه، والذُّخْرُ: المذخُور؛ قال:

لها أشارِيرُ من لَحْمٍ تُتَمِّرُهُ ... من الثَّعالي وذُخْرٌ من أرانِيها[٣]

* * *

التفسير ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ لمَّا فرغ من قصَّة زكريا وكان قد استطردَ من قصة مريم إليها رجعَ إلى قصَّة مريم، وهكذا عادةُ أساليب العرب؛ متى ذكروا شيئاً

(١) وعجزُه: فَهْوَ يَلْحَى نَفْسَهُ لمَّا نَزَعْ. وهو في المفضَّليات ص٢٠٠، والأضداد لابن الأنباري ص٣٧٨، وهو في تفسير الطبري ٥/ ٤٢٣ برواية: كَمَّهَتْ عينيه... الخ. وسويد: هو ابنُ أبي كاهل، من الشعراء المخضرمين، تنظر أخباره في الأغاني ١٣/ ١٠٢.

(٢) رواية الرَّجَز في ديوان رؤبة ص١٦٦ والمصادر: هَرَّجْتُ فارتدَّ ارتداد الأكمه. ينظر المصدران السالفان (الطبري وابن الأنباري) ومعاني القرآن لكل من الزجاج ١/ ٤١٤ وللنحاس ١/ ٤٠٣.

(٣) الكتاب ٢/ ٢٧٣، ومجالس ثعلب ص١٩٠، والعقد الفريد ٥/ ٣٥٥، وسرّ صناعة الإعراب ٢/ ٧٤٢، ونسبه ابن منظور في اللسان (شرر) لأبي كاهل اليشكري. قوله: أشارير، أي: قطع قَديد (لحم مجفَّف) الواحدة: إشرارة. قال ثعلب: أراد بالثَّعالي: الثعالب، وأرانيها، أرانبَها. وتُتَمِّرُهُ: تُقَدِّدُه. قال ابن جنّي: أراد الثعالب والأرانب، فلم يمكنه أن يقف على الباء، فأبدل منها حرفاً يمكن أن يقفَه في موضع الجرّ، وهو الياء.

استطردوا منه إلى غيره، ثم عادُوا إلى الأوّل إن كان لهم غرضٌ في العَوْد إليه.

والمقصودُ تبرئةُ مريمَ عن ما رَمَتْها به اليهود، وإظهارُ استحالة أن يكون عيسى إلهاً، فذكرَ ولادتَه.

وظاهرُ قوله: «الملائكة» أنه جمعٌ من الملائكة. وقيل: المرادُ جبريلُ ومن معه من الملائكة؛ لأنه نُقل أنه لا ينزلُ لأمرٍ إلا ومعه جماعة من الملائكة. وقيل: جبريلُ وحدَه.

وقرأ ابنُ مسعود وعبد الله بنُ عُمر: «وإذ قال الملائكة»(١).

وفي نداء الملائكة لها باسمها تأنيسٌ لها وتوطئةٌ لما تُلقيه إليها. ومعمولُ القول الجملةُ المؤكَّدة بـ «إنّ».

والظاهرُ مشافهةُ الملائكةِ لها بالقول؛ قال الزمخشريّ: رُوِيَ أنهم كلّموها شِفاهاً معجزةً لزكريا عليه السلام، أو إرْهاصاً لنبوَّة عيسى عليه السلام. انتهى. يعني بالإرهاص التقدُّم والدّلالة على نبوَّة عيسى، وهذا مذهبُ المعتزلة لأنَّ الخارقَ للعادة عندهم لا يكون على يد غيرِ نبيّ إلا إنْ كان في وقته نبيّ أو انتظر بعث نبيّ، فيكون ذلك الخارقَ مقدِّمةً بين يدي بِعثةِ ذلك النبيّ.

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ التطهير(٢) هنا من الحيض. قاله ابن عباس. قال السُّدِّيّ: وكانت مريم لا تحيض. وقال قوم: من الحيض والنِّفاس(٣).

ورُوِيَ عن ابن عباس: مِنْ مَسِّ الرِّجال(٤).

وعن مجاهد: عمَّا يَصِمُ النساءَ(٥) في خَلْق وخُلُق ودين. وعنه أيضاً: من الرِّيَب والشكوك.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٣. ووقع في مطبوع «البحر»: بن عمرو، وهو خطأ.
(٢) في (ب) و(ت) و(يه): التطهُّر، وهي غير واضحة في (ح). والمثبت من النسخ الأخرى.
(٣) تفسير الثعلبي ٢/ ٥٨، وزاد المسير ١/ ٣٨٧.
(٤) زاد المسير ١/ ٣٨٧.
(٥) المثبت من (ح) و(د١) و(د٢) و(ز٢) و(يه)، وهو موافق لما في المحرر الوجيز ١/ ٤٣٣، والقول فيه. ووقع في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): الرجال.

﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قيل: كُرِّرَ على سبيل التوكيد والمبالغة. وقيل: لا توكيد، إذ المرادُ بالاصطفاء الأوّلِ اصطفاءُ الولاية، وبالثاني اصطفاءُ ولادة عيسى؛ لأنّها بولادته حصلَ لها زيادةُ اصطفاء وعلوُّ منزلةٍ على الأكفاء.

وقيل: الاصطفاء الأول: اختيارٌ وعُموم يدخلُ فيه صوالحُ من النساء، والثاني: اصطفاء على نساء العالمين.

وقيل: لمَّا أطلق الاصطفاء الأوّل بيَّن بالثاني أنها مصطفاةٌ على النساء دون الرجال(١).

وقال الزمخشريّ(٢): اصطفاكِ أوّلاً حين تقبَّلكِ من أمّك، وربَّاكِ، واختصَّكِ بالكرامة السَّنِيَّة، وطهَّركِ مما يُستقذَرُ من الأفعال وممَّا قذفكِ(٣) به اليهود، واصطفاكِ آخِراً على نساء العالمين بأنْ وهبَ لكِ عيسى من غير أبٍ، ولم يكن ذلك لأحدٍ من النساءِ انتهى. وهو كلامٌ حسن، ويكون «نساء العالمين» على قوله عامًّا، ويكون الأمر الذي اصطُفِيَتْ به من أجله هو اختصاصُها بولادة عيسى.

وقيل: هو خدمة البيت. وقيل: التحرير، ولم تُحَرَّرْ أنثى غيرُ مريم، وقيل: سلامتها من نَخس الشيطان، وقيل: نبوَّتُها، فإنه قيل: إنها نُبِّئت، وكانت الملائكةُ تَظْهَرُ لها وتُخاطبُها برسالة الله لها، وكان زكريا يسمعُ ذلك، فيقول: إنَّ لمريمَ لَشأناً.

والجمهور على أنه لم تنبأ امرأة قطّ(٤)، فالمعنى الذي اصطُفِيَتْ لأجله مريم على نساء العالمين هو شيءٌ يخصُّها، فهو اصطفاءٌ خاصٌّ إذْ سببُه خاصّ.

وقيل: «نساء العالمين» خاصّ بنساء عالَم زمانِها. فيكون الاصطفاء إذ ذاك عامًّا. قاله ابنُ جُريج(٥).

---

(١) زاد المسير ١/ ٣٨٧. وينظر تفسير القرطبي ٥/ ١٢٦.
(٢) الكشاف ١/ ٤٢٩.
(٣) في (د١) و(ز٢): قرفك.
(٤) لفظة «قط» من (أ) و(ع).
(٥) تنظر غالب الأقوال السالفة متفرّقة في: تفسير الثعلبي ٢/ ٥٨، والكشاف ١/ ٤٢٩، والمحرر الوجيز ١/ ٤٣٣، وزاد المسير ١/ ٣٨٧.

ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خَيْرُ نساءِ الجنة مريمُ بنتُ عمران»[١].

ورُوِيَ: «خَيْرُ نسائها مريمُ بنتُ عمران»[٢].

ورُوِيَ: «خَيْرُ نساءِ العالَمين أربعٌ: مريمُ بنتُ عمران، وآسيةُ بنتُ مُزاحم امرأةُ فرعون، وخديجةُ بنتُ خُويلد، وفاطمة بنتُ محمد»[٣].

ورُوِيَ: «فُضِّلَتْ خديجةُ على نساء أمتي كما فُضِّلتْ مريمُ على نساء العالمين»[٤].

ورُوِيَ أنَّها من الكاملات من النساء[٥].

وقد رُوِيَ في الأحاديث الصِّحاح تفضيلُ مريمَ على نساء العالمين، فذهب جماعةٌ من المفسِّرين إلى ظاهر هذا التفضيل؛ قال بعضُ شيوخِنا: والذي رأيتُ

---

(١) أخرجه الطبري ٥/ ٣٩٣ عن عبد الله بن جعفر مرفوعاً: بلفظ «خيرُ نساء الجنة مريم بنتُ عمران، وخير نساء الجنة خديجة بنت خويلد». وأورده ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٣٣.

(٢) أخرجه أحمد (٦٤١)، والبخاري (٣٨١٥)، ومسلم (٢٤٣٠)، والطبري ٥/ ٣٩٣ عن علي ﷺ بلفظ: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنتُ خُويلد». وأورده ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٣٣ وقال: ذهب الطبريّ وغيره إلى أن الضمير في قوله: «نسائها» يُراد به الجنة، وذهب قوم إلى أنه يُرادُ به الدنيا، أي: كل امرأة في زمانها.

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٩٦١) عن أنس بن مالك ﷺ، وصحَّحه ابنُ حبان (٦٩٥١). وأخرجه الطبري في تفسيره ٥/ ٣٩٤-٣٩٥ عن أبي هريرة قال: حُدِّثْتُ عن عمَّار...

(٤) أخرجه البزار (١٤٢٧) من طريق ابن لهيعة، عن عَمرو بن الحارث، عن أبي يزيد الحميري، عن عمار بن ياسر ﷺ مرفوعاً. وأبو يزيد الحميري هو نوف بن فَضَالة البِكالي ابنُ امرأة كعب الأحبار؛ قال فيه ابن حجر في تقريب التهذيب: مستور. وأخرجه الطبري في تفسيره ٥/ ٣٩٦ من طريق ابن لهيعة المذكور غير أنه قال: عن أبي زياد الحميري، عن عمار بن سعد. ولعل «أبو زياد» فيه محرَّف عن «أبي يزيد» المذكور، وقد شكَّكَ فيه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على تفسير الطبري ٦/ ٤٠٠ وقال: الغالب أنه محرَّف عن شيء لا ندريه.

(٥) أخرج أحمد (١٩٥٢٣)، والبخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١) عن أبي موسى الأشعري ﷺ مرفوعاً: «كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمُل من النساء غير مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وإنَّ فَضْلَ عائشة على النساء كفضل الثَّرِيد على سائر الطعام».

ممَّن اجتمعتُ عليه من العلماء أنهم ينقلون عن أشياخهم أنَّ فاطمةَ أفضلُ النساء المتقدِّمات والمتأخِّرات لأنَّها بَضْعةٌ من رسول الله ﷺ.

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ لا خلاف بين المفسِّرين أنَّ المناديَ لها بذلك الملائكةُ الذين تقدَّم ذِكْرُهم على الخلاف المذكور[١].

والمرادُ بالقنوت هنا العبادةُ. قاله الحسن وقتادةُ، أو طُول القيام في الصلاة. قاله مجاهد وابنُ جُريج والرَّبيع، أو الطاعة أو الإخلاص. قاله ابن جُبير[٢].

وفي قوله: «لربِّك» إشارة إلى أنْ تُفْرِدَهُ بالعبادة وتَخُصَّهُ بها. والجمهورُ على ما قاله مجاهد، وهو المناسبُ في المعنى لقوله: «واسْجُدي وارْكَعي»[٣].

ورَوَى مجاهد أنَّها لمَّا خُوطِبَتْ بهذا قامَتْ حتى وَرِمَتْ قدماها[٤].

وقال الأوزاعيّ: قامَتْ حتى سالَ الدَّمُ والقيحُ من قدمَيْها[٥].

ورُوِيَ أنَّ الطيرَ كانت تنزلُ على رأسها تظنُّها جماداً لسُكونِها في طُول قيامها[٦].

﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أمَرَتْها الملائكةُ بفعل ثلاثةِ أشياء من هيئات الصلاة، فإنْ أُرِيدَ ظاهرُ الهيئات فهي معطوفة بالواو، والواو لا تُرَتِّب، فلا يُسأَلُ لِمَ قُدِّمَ السجودُ على الركوع إلا من جهة علم البيان.

والجوابُ أنَّ السجودَ لمَّا كان الهيئةَ التي هي أقربُ ما يكون العبدُ فيها إلى الله، قُدِّمَ وإنْ كان متأخِّراً في الفعل على الركوع، فيكون إذ ذاك التقديمُ بالشَّرف.

وقيل: كان السجودُ مقدَّماً على الركوع في شرع زكريَّا وغيره منهم[٧]. ذكره

---

(١) في (ح) و(د٢) و(يه): المشهور.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٤، وزاد المسير ١/ ٣٨٧-٣٨٨.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٤.
(٤) تفسير الطبري ٥/ ٣٩٩، والمحرر الوجيز ١/ ٤٣٤.
(٥) تفسير الطبري ٥/ ٣٩٩، وتفسير الثعلبي ٢/ ٥٨، والمحرر الوجيز ١/ ٤٣٤.
(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٤. وفي (أ) و(ب) و(ت) و(ع): من طول قيامها.
(٧) المصدر السابق.

أبو موسى الدمشقيّ(١). وقيل: في كلِّ الملل إلا ملَّة الإسلام(٢)، فجاء التقديم من حيث الوقوعُ في ذلك الشرع، فيكون إذ ذاك التقديم زمانيّاً من حيث الوقوع. وهذا التقديم أحد أنواع الخمسة التي ذكرها البيانيون، وكذلك التقديم الذي قبله.

وتواردَ الزمخشريُّ وابنُ عطيَّة على أنه لا يُراد ظاهرُ الهيئات، فقال الزمخشريّ(٣): أُمِرَتْ بالصلاة بذكر القُنوت والسجود لكونهما من هيئات الصلاة وأركانها، ثم قيل لها: «وارْكعي مع الرَّاكعين» المعنى: ولتكن صلاتُك مع المصلِّين، أي: في الجماعة، أو: وانْظِمي نفسَكِ في جملة المصلِّين، وكوني معهم في عِدادهم، ولا تكوني في عِداد غيرِهم.

وقال ابنُ عطيَّة(٤): القول عندي في ذلك أنَّ مريم أُمِرَتْ بفَصْلَين(٥) ومَعْلَمَيْنِ من معالم الصلاة، وهما طُولُ القيام والسجود، وخُصَّا بالذكر لشرفهما في أركان الصلاة، وهذان يختصَّان بصلاتها منفردةً، وإلَّا؛ فمن يُصلِّي وراء إمام لا يُقال له: أطِلْ قيامَك. ثم أُمِرَتْ بعدُ بالصلاة في الجماعة، فقيل لها: «واركعي مع الراكعين» وقُصد هنا مَعْلَمٌ آخرُ من معالم الصلاة لئلا يتكرَّر لفظ، ولم يُرَد بالآية السجود والركوع الذي هو منتظمٌ في ركعة واحدة. انتهى كلامُه. ولا ضرورة بنا تُخرج اللفظ عن ظاهره، وقد ذكرنا مناسبة لتقديم السجود على الركوع.

وقد استشكل ابنُ عطيَّة هذا فقال: وهذه الآيةُ أشدُّ إشكالاً من قولنا: قام زيد وعَمرو؛ لأنَّ قيام زيد وعَمرو ليس له رتبةٌ معلومة، وهذه الآيةُ قد عُلم أنَّ السجود بعد الركوع، فكيف جاءت الواو بعكس ذلك؟ انتهى.

وهذا كلامُ من لم يُمْعِنِ النظر في كتاب سيبويه، فإنَّ سيبويه ذكرَ أنَّ الواو يكون معها في العطف المعيَّةُ، وتقديمُ السابق، وتقديمُ اللاحق، يحتملُ ذلك احتمالاتٍ سواء، فلا يترجَّحُ أحدُ الاحتمالات على الآخر؛ ولا التفاتَ لقول بعض أصحابنا

(١) في زاد المسير ١/ ٣٨٨: أبو سليمان الدمشقي. وهو الأشبه.
(٢) في (أ) و(ت) و(ع): لا في ملة الإسلام، وفي (ز٢): إلا الإسلام.
(٣) الكشاف ١/ ٤٢٩ .
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٤ .
(٥) في (أ) و(ع): بفعلين.

المتأخِّرين في ترجيح المعيَّة على تقديم السابق وعلى تقديم اللاحق، ولا في ترجيح تقديم السابق على تقديم اللاحق.

وذكر الزمخشريّ توجيهاً آخر في تأخّر الركوع عن السجود فقال: ويحتمل أن يكون في زمانها مَنْ كان يقومُ ويسجدُ في صلاته ولا يركع، وفيه مَنْ يركع، فأُمِرَتْ بأنْ تركعَ مع الراكعين ولا تكونَ مع من لا يركع. انتهى. فكأنَّه قيل: لا تقتصري على القيام والسجود، بل أضيفي إلى ذلك الركوعَ.

وقيل: المراد بـ «اقنتي»: أطيعي، وبـ «اسجدي»: صلّي، ومنه: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠] أي الصلوات، وبـ «اركعي»: اشكري مع الشاكرين، ومنه ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] ويقوى هذا المعنى ويرد على مَنْ زعمَ[١] أنَّه لم تُشرع صلاة إلا والرُّكوع فيها مقدَّم على السجود، إذ[٢] المشاهَدُ من صلاة اليهود والنصارى خلوُّها من الركوع، ويبعُد أن يراد بالركوع الانحناء الذي يُتوصَّل منه إلى السجود. ويحتمل أن يكون ترك الركوع مما غَيَّرَتْه اليهودُ والنصارى من معالم شريعتهم.

و«مَعَ» في قوله: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ تقتضي الصُّحبةَ والاجتماع في إيقاع الرُّكوع مع مَنْ يركع، فتكون مأمورةً بالصلاة في جماعة. ويحتمل أن يُتجوَّز في «مع» فتكون للموافقة في الفعل فقط دون اجتماع، أي: افعلي كفعلهم وإنْ لم تُوقعي الصلاةَ معهم، فإنَّها كانت تصلّي في محرابها.

وجاء: «مع الراكعين» دون: الراكعات، لأنَّ هذا الجمع أعمُّ إذْ يشمل الرِّجال والنساء على سبيل التغليب، ولمناسبة أواخر الآيات قبلُ وبعدُ، ولأنَّ الاقتداء بالرجال أفضل إن قلنا: إنها مأمورةٌ بصلاة الجماعة[٣].

قال الماتريدي[٤]: ولم تُكره لها الصلاةُ في الجماعة وإن كانت شابَّةً لأنَّهم كانوا ذَوي قَرابة منها ورَحِم، ولذلك اختصموا[٥] في ضمِّها وإمساكها. انتهى.

---

(١) قوله: من زعم، ليس في (أ) و(ع).
(٢) في (ح) و(د١) و(ز٢) و(يه): أنَّ، وفي (د٢): وأنَّ.
(٣) تفسير الرازي ٨/ ٤٧.
(٤) بنحوه في تفسيره ١/ ٢٦٨.
(٥) في (د١) و(ع): اختصوا. وفي (ز٢): اجتمعوا.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ الإشارة إلى ما تقدَّم من قَصَص امرأة عمران وبنتها مريم وزكريا ويحيى. والمعنى أنَّ هذه القَصَصَ وصولُها إليك من جهة الوحي، إذ لستَ ممَّن دارسَ الكتب، ولا صَحِبَ من يَعرفُ ذلك، وهو من قوم أمِّيِّين، فَمَدْرَكُ ذلك إنما هو الوَحْيُ من عند الله كما قال في الآية الأخرى وقد ذكر قصةَ أبعدِ الناسِ زماناً من زمانه ﷺ، وهو نوحٌ عليه السلام، واستوفاها في سورة هود [٤٩] أكثر ممّا استوفاها في غيرها: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾.

وفي هذا دليل على نبوَّة رسول الله ﷺ، إذْ أَخْبَرَ بغيوب لا يطَّلع عليها إلا مَنْ شاهدَها، أو مَنْ قرأها في الكتب السابقة، أو مَنْ أوْحَى اللهُ إليه بها، وقد انتفى العِيان والقراءة، فتعيَّن الثالثُ، وهو الوحيُ من الله تعالى[1].

والكاف في «ذلك» و«إليك» خطابٌ للنبيّ ﷺ، والأحسنُ في الإعراب أن يكون «ذلك» مبتدأً، و«من أنباء الغيب» خبرُه، وأن يكون «نُوحِيه» جملة مستأنفة، ويكون الضمير في «نُوحيه» عائداً على الغيب، أي: شأنُنا أنَّا نُوحي إليك الغيبَ ونُعْلِمُكَ به، ولذلك أتى بالمضارع، ويكون أكثرَ فائدةً من عَوْدِه على «ذلك» إذْ يشملُ ما تقدَّم من القَصَص وغيرِها التي يُوحيها إليه في المستقبل، إذْ يصيرُ نظيرَ: زيدٌ يُطعم المساكين، فيكون إخباراً بالحالة الدائمة. والمستعملُ في هذا المعنى إنما هو المضارع، وإذ يلزمُ من عَوْدِه على «ذلك» أن يكون «نُوحيه» بمعنى: أوْحَيْناه إليك؛ لأنَّ الوحيَ به قد وقع وانفصل، فيكون أبعدَ في المجاز منه إذا كان شاملاً لهذه القَصَصِ وغيرِها ممَّا سيأتي.

وجوَّزُوا أن يكون «ذلك» خبراً لمبتدأ محذوف، أي: الأمرُ ذلك، و«من أنباء» حال من اسم الإشارة. وجوَّزُوا أن يكون «نُوحيه» خبراً لـ «ذلك» و«من أنباء» حال من الهاء في «نُوحيه» أو متعلقاً بـ «نوحيه».

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ هذا تقريرٌ وتثبيتٌ أنَّ ما عَلِمَه من ذلك إنَّما هو بوحي من الله تعالى، والمُعْلَمُ به قصتان: قصةُ مريم،

(١) ينظر الكشاف ١/ ٤٢٩.

وقصةُ زكريا، فنبّه على قصة مريم إذ هي المقصودةُ بالإخبار أوّلاً، وإنما جاءت قصةُ زكريا على سبيل الاستطراد، ولاندراج بعضِ قصة زكريا في ذكرِ من يكفُل مريم[١]، فما خلت من تنبيه على قصته.

ومعنى «وما كنتَ لديهم» أي: ما كنتَ معهم بحضرتهم إذ يُلقون أقلامَهم. ونفى المشاهدة - وإن كانت منتفيةً بالعلم، ولم ينفِ القراءة والتلقّيَ من حُفّاظ الأنباء - على سبيل التهكّم بالمنكرين للوحي وقد علمُوا أنه ليس ممّن يقرأُ ولا ممّن ينقل عن الحُفّاظ للأخبار، فتعيَّن أن يكون علمُه بذلك بوحيٍ من الله تعالى إليه.

ونظيرُه في قصة موسى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ [القصص: ٤٦] وفي قصة يوسف: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾[٢] [يوسف: ١٠٢].

والضمير في «لَدَيْهم» عائد على غير مذكور، بل على ما دلَّ عليه المعنى[٣]، أي: وما كنتَ لدى المتنازِعينَ، كقوله: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ أي: بالمكان[٤].

والعامل في «إذ» العامل في «لديهم». وقال أبو عليّ الفارسيّ: العامل في «إذ»: «كنتَ». انتهى. ولا يناسبُ ذلك مذهبَه في «كان» الناقصة، لأنه يزعُم أنها سُلبت الدلالةَ على الحَدَث وتجرَّدت للزمان، وما سبيلُه هكذا فكيف يعمل في ظرف؟ لأن الظرف وعاءٌ للحَدَث، ولا حَدَث، فلا يعمل فيه[٥].

والمضارع بعد «إذْ» في معنى الماضي، أي: إذْ ألقَوْا أقلامَهم للاستهام على مريم. والظاهر أنها الأقلام التي للكتابة، قيل: كانوا يكتبون بها التوراة،

---

(١) لفظة «مريم» من (يه).

(٢) ينظر تفسير الرازي ٨/ ٤٨.

(٣) كذا في النسخ غير (يه) ففيها: بل دلَّ على ما دلَّ عليه المعنى. ولعل الأنسب أن يكون لفظ العبارة: «عائد على غير مذكور دلَّ عليه المعنى». وينظر روح المعاني ٤/ ١٨٩.

(٤) قال الطبري في تفسيره ٢٤/ ٥٨٠: الهاء في قوله: «به» كناية اسم موضع، وكَنَى عنه ولم يَجْرِ له ذكر، لأنه معلومٌ أن الغُبار لا يُثار إلا من موضع، فاستغنى بفهم السامعين بمعناه عن ذكره.

(٥) قال السمين الحلبي في الدر المصون ٣/ ١٧١: الذي يظهر أن الفارسي إنما جوَّز ذلك بناءً منه على ما يجوز أن يكون مراداً في الآية، وهو أن تكون «كان» تامَّة، بمعنى: وما وُجد في ذلك الوقت.

فاختاروها للقُرعة تبرّكاً بها[١]، وقيل: الأقلام هنا: الأزلام، وهي القِداح.

ومعنى الإلقاء هنا: الرَّمْيُ والطَّرح، ولم يُذكر في الآية ما الذي ألقَوْها فيه، ولا كيفيةُ حال الإلقاء وكيف خرجَ قلمُ زكريا.

وقد ذكرنا فيما سبق شيئاً من ذلك عن المفسّرين، اللهُ أعلم بالصحيح منها.

وقال أبو مسلم[٢]: كانت الأمم يكتبون أسماءهم على سهام عند المنازعة، فمن خرجَ له السهم سُلِّم له الأمر، وهو شبيهٌ بأمر القِداح التي يُتقاسَمُ بها الجَزُور.

وارتفع «أيُّهم يكفُل مريم» على الابتداء والخبر، وهو في موضع نصب إمَّا على الحكاية بقول محذوف، أي: يقولون أيُّهم يكفُل مريم، وإمَّا بعلَّة محذوفة، أي: ليعلموا أيُّهم يكفُلُ، وإما بحالٍ محذوفة، أي: ينظرون أيُّهم يكفُل. ودلَّ على المحذوف: «يُلْقُون أقلامَهم»[٣].

وقد استُدلَّ بهذه الآية على إثبات القُرْعة، وهي مسألة فقهية تُذكر في علم الفقه.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: بسبب مريم، ويحتمل أن يكون هذا الاختصام هو الاقتراع، وأن يكون اختصاماً آخر بعده، والمقصودُ شدَّةُ رغبتهم في التكفُّل بشأنها.

والعامل في «إذ» العاملُ في «لديهم» أو «كنتَ» على قول أبي عليّ في «إذ يُلقون».

وتضمَّنت هذه الآية من ضروب الفصاحة: التكرار في «اصطفاكِ» وفي «يا مريم» وفي «ما كنتَ لديهم»، قيل: والتقديم والتأخير في «واسجدي واركعي» على بعض الأقوال، والاستعارة فيمن جعل القُنوتَ والسجودَ والرُّكوع ليس كنايةً عن الهيئات

---

(١) الكشاف ١/ ٤٢٩-٤٣٠.
(٢) تفسير الرازي ٨/ ٤٨.
(٣) ينظر الكشاف ١/ ٤٣٠.

التي في الصلاة، والإشارة بـ «ذلك من أنباء الغيب»، والعموم المرادُ به الخُصوص في «نساء العالمين» على أحد التفسيرَيْن، والتشبيه في «أقلامهم» إذا قلنا: إنه أراد القِداح، والحذف في عدّة مواضع.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ العامل في «إذْ»: «اذْكُرْ»، أو: «يختصمون». أو «إذْ» بدلٌ من «إذْ» في قوله: «إِذْ يَخْتَصِمُونَ» أو من «وإذْ قالتِ الملائكة» أقوال يلزمُ في القولين المتوسطين اتحادُ زمانِ الاختصام وزمانِ قول الملائكة، وهو بعيد، وهو قول الزجّاج[١]، ويبعُدُ الرابع لطُول الفصل بين البَدَل والمُبْدَل منه، والرابع اختيارُ الزمخشريّ، وبه بدأ[٢].

والخلافُ في الملائكة؛ أهُمْ جمعٌ من الملائكة، أو جبريل وحدَه على ما سبق قبلُ في خطابهم لزكريًا ولمريم.

وتقدُّمُ تكليم الملائكة قبل هذا التبشير بذكر الاصطفاء والتطهير من الله وبالأمر بالعبادة له على سبيل التأنيس واللطف ليكون ذلك مقدّمةً لهذا التبشير بهذا الأمر العجيب الخارق الذي لم يجرِ لامرأةٍ قبلَها، ولا يجري لامرأةٍ بعدَها، وهو أنها تحملُ من غير مسٍّ ذَكَرٍ لها، وكان جَرْيُ ذلك الخارق من رزق الله لها أيضاً تأنيساً لهذا الخارق.

وقرأ ابنُ مسعود وابنُ عُمر: «وإذ قال الملائكة»[٣].

والكلمة من الله هو عيسى عليه السلام؛ سُمِّيَ كلمةً لصدوره بكلمة: «كُنْ» بلا أب. قاله قتادة[٤].

وقيل: لتسميته المسيح، وهو كلمةٌ من الله، أي: من كلام الله.

وقيل: لوعد الله به في كتابه التوراة والكتب السابقة، وفي التوراة[٥]: أتانا الله

---

(١) ينظر معاني القرآن له ١/ ٤١١.

(٢) الكشاف ١/ ٤٣٠.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٥. وسلفت القراءة كذلك عنهما في الموضع الأول.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٥، وزاد المسير ١/ ٣٨٩.

(٥) في الفصل العشرين من السِّفر الخامس، كما ذكر الآلوسي في روح المعاني ٤/ ١٩٣.

من سِيناء، وأشرقَ من سَاعِير واستعلنَ من جبال فَارَان. وسَاعِير هو الموضع الذي بُعثَ منه المسيح[١].

وقيل: لأنَّ الله يهدي بكلمته.

وقيل: لأنه جاء على وَفْقِ كلمة جبريل: وهو: «إنَّما أنا رسولُ رَبِّكِ لِيَهَبَ[٢] لكِ غُلاماً زَكِيًّا» [مريم: ١٩] فجاء على الصفة التي وَصف.

وقيل: سمَّاه الله بذلك كما سمَّى مَنْ شاءَ مِنْ سائر خلقِهِ بما شاء من الأسماء، فيكون على هذا عَلَماً موضوعاً له لم تلحظ فيه جهة مناسبة.

وقيل: الكلمة هنا لا يُراد بها عيسى، بل الكلمة بِشارةُ الملائكة لمريم بعيسى[٣]. وقيل: بشارة النبيِّ لها.

﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ الضمير في «اسمُه» عائد على الكلمة على معنى: يبشِّرُكِ بمكوَّن منه، أو بموجود من الله.

وسُمِّيَ المسيحَ لأنه مُسِحَ بالبركة. قاله الحسن وسعيد وشِمْر[٤]، أو بالدُّهْن الذي يُمسح به الأنبياء؛ خرجَ من بطن أمّه ممسوحاً به، وهو دُهْنُ طيِّبُ الرائحة، إذا مُسح به شخص عُلم أنه نبيّ، أو بالتطهير من الذنوب، أو بمَسْح جبريلَ له بجناحه، أو لِمَسْح رجليه، فليس فيهما خَمَص، والأخْمَصُ: ما تَجافَى عن الأرض من باطن الرِّجْل، وكان عيسى أمْسَحَ القدَم لا أَخْمَصَ له[٥]. قال الراجز:

---

(١) سَاعِير في التوراة اسم لجبال فلسطين، وفاران كلمة عبرانية معرَّبة هي من أسماء مكة، أو اسم لجبال مكة، وذُكرت في التوراة. فقوله: أتانا الله من سيناء: يريد مناجاته لموسى على طور سيناء، وأشرقَ من ساعير: إشارة إلى ظهور عيسى من الناصرة، واستعلنَ من جبال فاران: يريد النبي ﷺ. ينظر معجم البلدان ٣/ ١٧١ و٥/ ٢٢٥.

(٢) قرأ بها قالون بخُلف عنه وورش وأبو عَمرو. وقرأ باقي السبعة: لأهب، وهو الوجهُ الثاني لقالون.

(٣) زاد المسير ١/ ٣٨٩.

(٤) قوله: وشمر، ليس في (ت). ولم تجوّد اللفظة في (أ) و(ع) ولم أقف على مَنْ نسبَ القول لشمر.

(٥) ينظر تفسير الثعلبي ٢/ ٦٠، وزاد المسير ١/ ٣٨٩.

بَاتَ يُقَاسِيهَا غُلامٌ كَالزَّلَمْ خَدَلَّجُ السَّاقَيْنِ مَمْسُوحُ القَدَمْ(١)

أو لِمَسْح الجمالِ إيَّاه، وهو ظهورُه عليه، كما قال الشاعر:

عَلَى وَجْهِ مَيٍّ مَسْحَةٌ مِنْ مَلَاحَةٍ(٢)

أو لِمَسْحِهِ من الأقذار التي تنالُ المولودين، لأنَّ أُمَّهُ كانت لا تحيض، ولم تَدْنَسْ بدم نِفاس. أقوالٌ سبعة. ويكون فَعِيل فيها بمعنى مفعول.

والألف واللام في «المسيح» للغَلَبة مثلُها في «الدَّبران» و«العَيُّوق»(٣).

وقال ابن عبَّاس: سُمِّيَ بذلك لأنه كان لا يمسحُ بيده ذا عاهة إلا بَرِئ، فعلى هذا يكون فَعِيل مبنيًّا للمبالغة، كعليم، ويكون من الأمثلة التي حُوِّلت من فاعل إلى فَعِيل للمبالغة.

وقيل: من المساحة، وكان يُجَوِّلُ في الأرض، فكأنَّه كان يمسحُها. وقيل: هو مَفْعِل، من ساحَ يسيحُ من السِّياحة.

وقال مجاهد والنَّخعيّ: المسيح: الصِّدِّيق. وقال ابنُ عبَّاس وابنُ جُبير: المسيح: المَلِك، سُمِّي بذلك لأنه مَلَكَ إحياءَ الموتى وغيرَ ذلك من الآيات(٤).

---

(١) الرَّجَز لشُريح بن ضُبيعة البكري، ويلقَّب بالحُطَم، قاله حين نَهَبَ سَرْحَ المدينة وكان قد قَدِمَها ووعدَ رسولَ الله ﷺ أن يُسْلم بعد أن يَعرِضَ الإسلام على قومه. ينظر خبرُه في تفسير الطبري ٨/ ٣١-٣٢، وزاد المسير ٢/ ٢٧٠، وتفسير القرطبي ٧/ ٢٦٢-٢٦٣. وينظر أيضاً الأغاني ١٥/ ٢٥٤-٢٥٥، وفيه وفي تفسير القرطبي: خَفَّاقُ القدم. قوله: الزَّلَم (بضم الزاي وفتحها): هي سِهامٌ كانوا يستقسمون بها في الجاهلية، والخَدَلَّج: الممتلئ. ينظر القاموس (خدج - زلم).

(٢) صدر بيت لذي الرُّمَّة، وقيل: لأَمَةٍ مولَّدة لآل قيس بن عاصم قالَتْه ونَحَلَتْه ذا الرُّمَّة وعَجُزُه: وتحتَ الثيابِ الخِزْيُ لو كانَ بادِيَا. ينظر طبقات فحول الشعراء ٢/ ٥٥٩-٥٦٠، والأغاني ١٨/ ٢٦-٢٩، وتتمة ديوان ذي الرُّمَّة ٣/ ١٩٢١.

(٣) الدَّبَران: خمسة كواكب من الثَّور، وهو من منازل القمر، والعَيُّوق: كوكب أحمرُ مضيء بحيال الثُّريَّا في ناحية الشَّمال ويطلع قبل الجوزاء، سُمِّي بذلك لأنه يعوق الدَّبَران عن لقاء الثريَّا. ينظر اللسان (دبر - عوق).

(٤) تنظر الأقوال السابقة مفرَّقة في تفسير الطبري ٥/ ٤٠٩، وتفسير الثعلبي ٢/ ٦٠، والمحرر الوجيز ١/ ٤٣٦، وزاد المسير ١/ ٣٨٩، وتفسير القرطبي ٥/ ١٣٦. وضعَّف ابنُ عطية القول الأخير.

وقال أبو عُبيد[١]: أصلُه بالعبرانية مشيحا، فغُيِّر، فعلى هذا يكون اسماً مرتَجَلاً ليس هو مشتقًّا من المَسْح ولا من السِّياحة.

«عيسى بنُ مريم» الأبناء يُنسبون إلى الآباء، ونُسب إليها وإن كان الخطاب لها إعلاماً أنه يُولدُ من غير أبٍ، فلا يُنسب إلا إليها، والظاهر أنَّ اسْمَهُ المسيحُ، فيكون: «اسْمُهُ المسيحُ» مبتدأً وخبراً. و«عيسى» جَوَّزُوا فيه أن يكونَ خبراً بعد خبر، وأن يكونَ بَدَلاً، وأن يكونَ عطفَ بيان.

ومَنَعَ بعضُ النحويّين أن يكونَ خبراً بعد خبر وقال: كان يلزمُ أن يكون: إِسْمَاهُ؛ على المعنى، أو: إِسْمَاها؛ على لفظ الكلمة[٢].

ويجوز أن يكون «عيسى» خبراً لمبتدأ محذوف، أي: هو عيسى بنُ مريم.

قال ابنُ عطية[٣]: ويدعو إلى هذا كون قوله: «ابنُ مريم» صفة لعيسى، إذ قد أجمع الناس على كَتْبِهِ دون الألف، وأمّا على البَدَل أو عطف البيان، فلا يجوز أن يكون «ابن مريم» صفةً لـ «عيسى» لأنّ الاسم هنا لم يُرد به الشخص. هذه النَّزعة لأبي عليّ. وفي صدر الكلام نظر. انتهى كلامه.

وقال الزمخشريّ[٤]: فإنْ قلتَ: لم قيل: «اسمُه المسيحُ عيسى بنُ مريم» وهذه ثلاثةُ أشياءَ الاسم منها عيسى، وأمّا المسيحُ والابنُ فلقبٌ وصِفة؟ قلت: الاسم للمسمَّى علامة يُعرف بها ويتميَّز من غيره، فكأنه قيل: الذي يُعرف به ويتميَّز ممَّن سواه مجموعُ هذه الثلاثة. انتهى كلامه.

ويظهر من كلامه أنَّ اسمَه مجموعُ هذه الثلاثة، فتكون الثلاثة أخباراً عن قوله: «اسمُه»، ويكون من باب: هذا حلوٌ حامضٌ، وهذا أعْسَرُ يَسَر[٥]، فلا يكونُ أحدُها على هذا مستقلًّا بالخبريَّة.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٧، وزاد المسير ١/ ٣٨٩، وتفسير القرطبي ٥/ ١٣٦.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٦، والإملاء ١/ ١٣٤. ووقع فيهما: أسماؤه ـ أسماؤها، بدل: اسماه ـ اسماها. وهو خطأ.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٦.

(٤) الكشاف ١/ ٤٣٠.

(٥) يقال لمن يعمل بيديه: أعْسَرُ يَسَرٌ، فإن عمل بالشِّمال فهو أعْسَر. اللسان (عسر).

ونظيرُه في كون الشيئين أو الأشياء في حكم شيء واحد قولُ الشاعر:

كيفَ أصبحتَ كيفَ أمسيتَ ممَّا يَـزْرَعُ الـوُدَّ فـي فـؤادِ الـكـريـمِ[١]

أي: مجموعُ هذا ممَّا يزرعُ الوُدَّ، فكما جازَ في المبتدأ أن يتعدَّدَ دون حرف عطف إذا كان المعنى على المجموع؛ كذلك يجوزُ في الخبر.

وأجاز أبو البقاء[٢] أن يكون «ابنُ مريم» خبرَ مبتدأ محذوف، أي: هو ابنُ مريم، ولا يجوز أن يكون بدلاً ممَّا قبله ولا صفة، لأنَّ ابنَ مريم ليس باسم، ألا ترى أنك لا تقول: اسمُ هذا الرجل ابنُ عَمرو إلا إذا كان عَلَماً عليه. انتهى.

قال بعضُهم: ومَنْ قال: إنَّ المسيح صفة لعيسى، فيكون في الكلام تقديمٌ وتأخير، تقديره: اسمُه عيسى المسيحُ؛ لأنَّ الصفة تابعة لموصوفها. انتهى.

ولا يصحُّ أن يكون «المسيحُ» في هذا التركيب صفة، لأنَّ المُخْبَرَ به على هذا لَفْظٌ، والمسيحُ من صفة المدلُول لا من صفة الدَّالّ، إذ لفظُ عيسى ليس المسيح. ومن قال: إنهما اسمان فقَدَّمَ[٣] «المسيح» على «عيسى» لشهرته. قال ابنُ الأنباريّ[٤]: وإنَّما بدأ بلقبه لأنَّ المسيح أشهرُ من عيسى لأنه قلَّ أن يقع على مُسَمَّى[٥] يشتبه به، وعيسى قد يقع على عدد كثير، فقدَّمه لشهرته، ألا ترى أنَّ ألقابَ الخلفاء أشهرُ من أسمائهم.

وهذا يدلُّ على أنَّ المسيح عند ابنِ الأنباريّ لقبٌ لا اسم.

قال الزجَّاج: وعيسى معرَّب من أيسُوع[٦]، وإن جعلتَه عربيًّا لم ينصرف في

---

(١) الخصائص ١/ ٢٩٠ و٢/ ٢٨٠، وديوان المعاني ٢/ ٢٢٥، والأزمنة والأمكنة ١/ ١٥١. وهو فيها شاهد على حذف حرف العطف. ووقع في الديوان والأزمنة: يُثبتُ، بدل: يزرع.

(٢) الإملاء ٢/ ٦٥.

(٣) في (ب) و(ح) و(ز٢): يقدِّم، وفي (د٢) و(يه): تقدم، والمثبت من (أ) و(ت) و(د١) و(ع). وفي الدر المصون ٣/ ١٧٧: قال: فقدّم.

(٤) نقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٣٨٩.

(٥) في (د١) و(ز٢) و(يه): سمي.

(٦) في الكشاف ١/ ٤٣٠: أيشوع. ولم أقف عليه عند الزجاج.

معرفة ولا نكرة، لأنَّ فيه ألفَ تأنيث. ويكون مشتقًّا من عاسَه يَعُوسُه: إذا ساسَه وقامَ عليه[(١)].

وقال الزمخشريّ: مشتق من العَيْس، كالرَّقْم في الماء[(٢)].

﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ قال ابن قُتيبة[(٣)]: الوَجِيهُ ذوُ الجاه، يقال: وَجُهَ الرجلُ يَوْجُهُ وَجَاهةً.

وقال ابن زيد[(٤)]: الوجِيهُ: المُحَبُّ المقبول.

وقال الأخفش: الشريفُ ذو القَدْرِ والجاه[(٥)].

وقيل: الكريم على من يسألُه[(٦)]؛ لأنه لا يردُّه لكَرَم وجهه. ومعناه في حقِّ عيسى أنَّ وَجَاهتَه في الدنيا بنبوَّته، وفي الآخرة بعلوِّ درجته.

وقيل: في الدنيا بالطاعة، وفي الآخرة بالشفاعة.

وقيل: في الدنيا بإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وفي الآخرة برفعه حيًّا إلى السماء[(٧)].

وقيل: في الدنيا كريماً لا يُردّ وجهُه، وفي الآخرة في عِلْيَةِ المرسلين.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٧.

(٢) الكشاف ١/ ٤٣٠ وفيه: كالراقم في الماء. قال الآلوسي في روح المعاني ٤/ ١٩٦: المعوَّل عليه فيه أنه لا اشتقاق له، وأن القائل به كالراقم على الماء.

(٣) غريب القرآن ص١٠٥، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٣٩٠.

(٤) في النسخ الخطية: ابن دريد، والمثبت من تفسير الطبري ١٩/ ١٩١-١٩٢ (تفسير قوله تعالى: وكان عند الله وجيها، من سورة الأحزاب، الآية ٦٩) وزاد المسير ١/ ٣٩٠.

(٥) القول في تفسير القرطبي ٥/ ١٣٨ دون نسبة، وجاء بعده عن الأخفش قولُه في انتصاب وجيهاً على الحال، والله أعلم. وينظر معاني الأخفش ١/ ٤٠٧.

(٦) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): يسأل.

(٧) لم أقف على قوله: «وفي الآخرة برفعه حيًّا إلى السماء». وفيه غرابة، وهو أولى بتفسير قوله: «وجيهاً في الدنيا» كما هو ظاهر كلام ابن عطية الآتي. ووقع بدله في المطبوع: «وفي الآخرة بالشفاعة» وسلف قبله.

وقال الزمخشريّ(١): الوَجاهة في الدنيا النبوّة، والتقدُّمُ على الناس، وفي الآخرة الشفاعةُ وعلوُّ الدرجة في الجنة.

وقال ابن عطية: وَجاهةُ(٢) عيسى عليه السلام في الدنيا نبوَّتُه وذكْرُه ورَفْعُه، وفي الآخرة مكانتُه ونعيمُه وشفاعتُه.

﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ معناه: من الله تعالى(٣).

وقال الزمخشريّ(٤): وكونُه من المقرَّبين رَفْعُه إلى السماء وصحبتُه الملائكةَ.

وقال قتادة: «ومن المقرَّبين» عندَ الله يومَ القيامة. وقيل: من الناس بالقَبول والإجابة. قاله الماورديّ(٥). وقيل: معناه المبالَغ في تقريبهم، لأنَّ «فَعَّلَ» من صيغ المبالغة، يقال: قَرَّبَهُ يُقَرِّبُهُ: إذا بالغَ في تقريبه. انتهى. وليس «فعَّل» هنا من صيغ المبالغة، لأنَّ التضعيف هنا للتعدية، إنما يكون للمبالغة في نحو: جرَّحْتُ زيداً، ومَوَّت الناسُ(٦).

«ومن المقرَّبين» معطوف على قوله: «وجيهاً» وتقديرُه: ومقرَّباً من جملة المقرَّبين، أعلمَ تعالى أنَّ ثَمَّ مقرَّبين، وأنّ عيسى منهم، ونظيرُ هذا العطفِ قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨] فقوله: «وبالليل» جارّ ومجرور في موضع الحال، وهو معطوفٌ على «مُصبحين».

وجاءت هذه الحال هكذا لأنها من الفواصل، فلو جاء: ومقرَّباً، لم تكن فاصلة. وأيضاً فأعلمَ تعالى أن عيسى مقرَّبٌ من جملة المقرَّبين، والتقريب صفةٌ جليلة عظيمة، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] وقوله:

---

(١) الكشاف ١/ ٤٣٠.

(٢) في (د١): وجاهُ. وهي كذلك في المحرر الوجيز ١/ ٤٣٦، والكلام منه (والواو في اللفظة عاطفة على ما قبلَها فيه).

(٣) المصدر السابق.

(٤) الكشاف ١/ ٤٣٠.

(٥) في النهر المادّ بهامش البحر ٢/ ٤٦١: قال الماوردي: معناه المبالغ... الخ. (القول الآتي بعده).

(٦) أي: كثُرَ فيهم الموت.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوۡحٞ﴾ [الواقعة: ٨٨-٨٩] وهو تقريبٌ من الله تعالى بالمكانة والشرف وعلوّ المنزلة.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا﴾ وعطفَ «ويكلِّم» - وهو حالٌ أيضاً - على «وجيهاً» ونظيرُه: «إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن» [الملك: ١٩] أي: وقابضاتٍ، وكذلك: «ويكلِّم» أي: ومُكَلِّماً.

وأتى في الحال الأولى بالاسم لأنَّ الاسم هو للثبوت، وجاءت الحال الثانية جارًّا ومجروراً لأنه مقدَّر بالاسم، وجاءت الحال الثالثة جملةً لأنها في الرتبة الثالثة، ألا ترى أنَّ الحالَ وصفٌ في المعنى، فكما أنَّ الأحسنَ والأكثرَ في لسان العرب أنه إذا اجتمع أوصاف متغايرة بُدِئَ بالاسم، ثم بالجارّ والمجرور، ثم بالجملة، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٨] فكذلك الحال، بُدِئَ بالاسم، ثم بالجارّ والمجرور، ثم بالجملة، وكانت هذه الجملة مضارعاً لأنَّ الفعل يُشعر بالتجدُّد، كما أنَّ الاسم يُشعر بالثبوت.

ويتعلَّق «في المهد» بمحذوف، إذْ هو في موضع الحال، التقدير: كائناً في المَهْد.

«وكهلاً» معطوف على هذه الحال، كأنه قيل: طفلاً وكهلاً، فعطف صريحَ الحال على الجارّ والمجرور الذي في موضع الحال، ونظيرُه عكساً: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ﴾ ومن زعم أنَّ «وكَهْلاً» معطوف على «وجيهاً» فقد أبعد.

والمَهْدُ مَقَرُّ الصبيّ في رَضاعه، وأصلُه مصدرٌ سُمِّيَ به، يقال: مَهَدْتُ لنفسي، بتخفيف الهاء وتشديدِها، أي: وَطَّأْتُ، ويقال: امْتَهَدَ[1] الشيءُ: ارتفع.

وتقدَّم تفسير الكَهْل لغةً. وقال مجاهد: الكهل الحليم[2] وهذا تفسيرٌ باللازم غالباً لأنَّ الكهل يقوَى عقلُه وإدراكُه وتجربتُه، فلا يكون في ذلك كالشَّارخ[3]، والعربُ تتمدَّح بالكهولة؛ قال:

---

(١) في النسخ الخطية: امهد. والمثبت من معجم مقاييس اللغة ٥/ ٢٨١، ومجمل اللغة ٣/ ٨١٨، وتفسير القرطبي ٥/ ١٣٨.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٧، وزاد المسير ١/ ٣٩٠. وعلقه البخاري قبل الحديث (٣٤٣٣).

(٣) أي: الشابّ، والجمع شَرْخ، مثل صاحب وصَحْب. مختار الصحاح.

وما ضَرَّ مَنْ كانَتْ بقاياه مِثْلَنا شبابٌ تَسامَى للعُلَى وكُهولُ[(١)]

ولذلك خُصَّ هذا السِّنُّ في الآية دونَ سائر العُمر لأنها الحالةُ الوسطى في استحكام العقلِ وجَوْدَةِ الرأي.

وفي قوله: «وكَهْلاً» تبشيرٌ بأنه يعيشُ إلى سنّ الكُهولة. قاله الربيع[(٢)].

ويقال: إنَّ مريم ولدته لثمانية أشهر، ومن وُلد لذلك لم يعش[(٣)]، فكأنَّ ذلك بِشارةٌ لها بعيشه إلى هذا السنّ.

وقيل: كانت العادة أنَّ مَنْ تكلَّم في المهد مات.

وفي قوله: «في المهد وكهلاً» إشارة إلى تقلُّب الأحوال عليه، وردٌّ على النصارى في دعواهم إلهيَّته.

وقال ابنُ كَيْسان: ذكرَ ذلك قبل أن يخلقَه إعلاماً به أنه يكتهل[(٤)]، فإذا أَخبَرَتْ به مريم عُلم أنه من علم الغيب.

واختُلف في كلامه في المهد؛ أكان ساعةً واحدةً ثم لم يتكلَّم حتى بلغَ مبلغَ النُّطق، أو كان يتكلَّم دائماً في المهد حتى بلغ إبَّان الكلام؟ قولان، الأول عن ابن عباس[(٥)].

ونقل الثعالبيُّ أشياءَ من كلامه لأمِّه وهو مُرْضَع، والظاهرُ أنه كان حين كلَّم الناسَ في المهد نبيًّا، لقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] ولظهورِ هذه المعجزةِ منه والتحدِّي بها.

وقيل: لم يكن نبيًّا في ذلك الوقت، وإنما كان الكلام تأسيساً لنبوَّته، فيكون قولُه: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إخباراً عما يؤولُ إليه، بدليل قوله: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ

---

(١) البيت من قصيدة للسموأل. ينظر: البيان والتبيين ٣/ ١٨٥، وأمالي القالي ١/ ٢٦٩، وديوان المعاني ١/ ٨٣.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٧.
(٣) المصدر السابق.
(٤) بنحوه في تفسير الثعلبي ٢/ ٦٠.
(٥) زاد المسير ١/ ٣٩٠.

﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ ولم يتعرَّض لوقت كلامه إذا كان كهلاً، فقيل: كلامُه قبل رفعه إلى السماء، كلَّمهم بالوحي والرِّسالة.

وقيل: ينزلُ من السماء كهلاً ابنَ ثلاث وثلاثين سنة، فيقول لهم: إني عبدُ الله، كما قال في المهد. وهذه فائدة قوله: وكهلاً، أخبر أنه ينزلُ عند قتلِه الدَّجَّالَ كهلاً. قاله ابنُ زيد(١).

وقال الزمخشريّ(٢): معناه ويكلِّمُ الناسَ في هاتين الحالتين كلامَ الأنبياء من غير تفاوتٍ بين حالِ الطفولةِ وحالِ الكهولةِ التي يستحكم فيها العقل، ويُستنبأ فيها الأنبياء. انتهى.

قيل: وتكلَّم في المهد سبعة: عيسى ويحيى وشاهدُ يوسف، وصاحِبُ جرَيْج، وصبيُّ ماشطةِ امرأةِ فرعون، وصاحبُ الجبَّار، وصاحبُ الأخدود. وقَصَصُ هؤلاء مرويَّة، ولا يُعارضُ هذا ما جاء من حَصْر مَنْ تكلَّم رضيعاً في ثلاثة؛ لأنَّ ذلك كان إخباراً قبل أن يُعلَم بالباقين، فأخبر على سبيل ما أُعلِم به أوَّلاً، ثم أُعلِمَ بالباقين(٣).

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: وصالحاً من جملة الصالحين. وتقدَّم تفسير الصلاح الموصوف به الأنبياء.

وانتصاب «وجيهاً» وما عُطف عليه على الحال من قوله: «بكلمةٍ منه» وحَسَّنَ ذلك - وإن كان نكرة - كونُه وُصف بقوله: «منه» وبقوله: «اسمُهُ المسيح».

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ لمَّا أخبرَتْها الملائكةُ أنَّ الله بَشَّرَها بالمسيح نادَتْ ربَّها - وهو الله - مستفهمةً على طريق التعجُّب من حدوث الولد من غير أب، إذْ ذاكَ من الأمور الموجبة للتعجُّب، وهذه القضيَّة أعجبُ من قضية زكريا، لأنَّ قضية زكريا حدثَ فيها الولد بين رجل وامرأة، وهنا حدثَ من امرأةٍ بغير واسطة بَشَر، ولذلك قالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾.

(١) تفسير الطبري ٥/ ٤١٤.
(٢) الكشاف ١/ ٤٣٠-٤٣١.
(٣) المفهم ٦/ ٥١٢، وتفسير القرطبي ٥/ ١٤٠. والأثر المذكور مرويّ عن الضحَّاك.

وقيل: استفهمت عن الكيفية كما سألَ زكريا عن الكيفية، تقديرُه: هل يكونُ ذلك على جاري العادة بتقدّم وَطْءٍ، أمْ بأمرٍ من قدرة الله؟

وقال ابنُ الأنباري: لما خاطبَها جبريلُ ظنَّتْه آدَمِيًّا يريدُ بها سوءاً، ولهذا قالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ فلما بَشَّرَها لم تتيقَّن صحةَ قولِه، لأنَّها لم تعلم أنه ملك، فقالت: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ﴾ ومن ذهبَ إلى أنَّ قولَها: «ربِّ» وقولَ زكريا: «ربِّ» إنما هو نداءٌ لجبريل لمَّا بَشَّرَهما، ومعناه: يا سيدي، فقد أبْعَدَ[1].

وقال الزمخشريّ[2]: هو من بِدَعِ التفاسير.

و«يكون» يحتمل أن تكون الناقصة والتامَّة كما سبق في قصة زكريا.

«ولم يمسسني بشر» جملة حالية، والمَسِيس هنا كنايةٌ عن الوَطْء، وهذا نفيٌ عامّ أن يكونَ باشَرَها أحدٌ بأيّ نوع كان من تزوج أو غيرِه.

والبَشَرُ يُطلقُ على الواحد والجمع، والمرادُ هنا النَّفيُ العامّ، وسُمِّيَ بَشَراً لظهور بَشَرَته، وهو جِلْدُه، وبَشَرْتُ الأديمَ: قشرتُ وجهَه، وأبْشَرَتِ الأرضُ: أخرجَتْ نباتَها، وتَباشِيرُ الصُّبح: أولُ ما يبدُو من نُوره.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ تقدَّم الكلامُ في نظيرها في قصة زكريا، إلا أن في قصَّتهِ: «يفعلُ ما يشاء» من حيث إنَّ أمْرَ زكريَّا داخلٌ في الإمكان العادي الذي يُتعارف وإنْ قلَّ، وفي قصة مريم: «يَخْلُق» لأنه لا يُتعارف مثلُه، وهو وجودُ ولدٍ من غير والد، فهو إيجادٌ واختراع من غير سببٍ عادي، فلذلك جاء بلفظ «يَخْلُق» الدالُّ على هذا المعنى.

وقد ألغزَ به بعضُ العرب المستشهدِ بكلامهم فقال:

أَلَا رُبَّ مَوْلُودٍ ولَيْسَ لَهُ أبٌ ... وذِي وَلَدٍ لم يَلْدَهُ أبَوانِ[3]

يريد عيسى وآدم عليهما السلام.

---

(١) ذهب إلى ذلك الثعلبي ٢/ ٦١، والقرطبي ٥/ ١٤١.

(٢) الكشاف ١/ ٤٣١.

(٣) البيت لرجل من أزد السَّراة، وهو في الكتاب ٢/ ٢٦٦ و٤/ ١١٥، والأصول في النحو ١/ ٣٦٤ و٣/ ١٥٨، وروايتُه في الموضع الثاني في الكتاب: عجبتُ لمولود وليس لهِ =

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ تقدَّم الكلامُ على هذه الجملة في «البقرة» لغةً وتفسيراً وقراءةً وإعراباً، فأغنى ذلك عن إعادته.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ «الكتاب» هنا مصدر، أي: نُعلِّمُهُ الخطَّ باليد. قاله ابنُ عباس وابنُ جُريج وجماعة[١].

وقيل: «الكتاب»: هو كتابٌ غيرُ معلوم، علَّمه اللهُ عيسى مع التوراة والإنجيل[٢].

وقيل: كُتبُ الله المنزلةُ، والألف واللام للجنس.

وقيل: هو التوراة والإنجيل. قالوا: وتكون الواو في «والتوراة» مُقحمة[٣].

و«الكتاب» عبارةٌ عن المكتوب. وتعليمُه إيَّاها قيل: بالإلهام، وقيل: بالوحي، وقيل: بالتوفيق والهداية للتعلّم.

«والحكمةُ» تقدَّم تفسيرُها، وفُسِّرت هنا بسنن الأنبياء، وبما شَرعه من الدِّين، وبالنبوة، وبالصواب في القول والعمل، وبالعقل، وبأنواع العلم، وبمجموع ما تقدَّم، أقوال سبعة.

رُويَ أنَّ عيسى عليه السلام كان يستظهرُ التوراة، ويقال: لم يحفظها عن ظهر قلب غير موسى ويوشع وعُزَيْر وعيسى.

وذكرُ الإنجيل لمريم وهو لم ينزل بعد؛ لأنه كان كتاباً مذكوراً عند الأنبياء والعلماء، وأنه سينزل.

= أبٌ. وأورد ابن جني عجزه في الخصائص ٢/ ٣٣٣ وقال: أراد: لم يَلِدْهُ، فأسكنَ اللام استثقالاً للكسرة، وكانت الدال ساكنةً فحرَّكها لالتقاء الساكنين. وينظر خزانة الأدب ٢/ ٣٨١، وسلف عجزه في تفسير الآية (٨٣) من سورة البقرة.

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٨، وتفسير القرطبي ٥/ ١٤٢-١٤٣ عن ابن جُريج.

(٢) بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٤٣٨، قال ابن عطية: وهذه دعوى لا حجة عليها. اهـ. ووقع في (ب): كتاب معلوم، ووقع في (أ) و(ت): كناية عن، بدل: كتاب غير.

(٣) اعتبر الآلوسي هذا القول من الهذيان. ينظر روح المعاني ٤/ ٢٠٦.

وقرأ نافع وعاصم ويعقوب وسهل «ويعلِّمه» بالياء[١]، وقرأ الباقون بالنون، وعلى كلتا القراءتين هو معطوف على الجملة المَقُولة، وذلك أنَّ قوله: «قال كذلك» الضمير في «قال» عائد على الرَّبّ، والجملة بعده هي المَقُولة، وسواءٌ أكان لفظ «الله» مبتدأً وخبرُه فيما قبله، أم مبتدأً وخبرُه «يخلقُ» على ما مرَّ إعرابه في «قال كذلكَ اللهُ يفعلُ ما يشاء» فيكون هذا من المَقُول لمريم على سبيل الاغتباط والتبشير بهذا الولد الذي يُوجِدُه الله منها. ويجوزُ أن يكون معطوفاً على «يخلق» سواءٌ أكانت خبراً عن الله، أم تفسيراً لما قبلها إذا أعربت لفظ «الله» مبتدأً وما قبله الخبر. وهذا ظاهر كلُّه على قراءة الياء، وأمَّا على قراءة النون، فيكون من باب الالتفات؛ خرجَ من ضمير الغَيْبَة إلى ضمير التكلُّم لما في ذلك من الفَخَامة.

وقال أبو علي ـ وجوَّزَه الزمخشريّ[٢] وغيره ـ: عطفَ «ويُعلِّمه» على «يُبشِّرك». وهذا بعيد جدًّا لطول الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه.

وأجاز ابنُ عطية[٣] وغيرُه أن يكون معطوفاً على «ويكلّم»، وأجاز الزمخشريّ أن يكون معطوفاً على «وجيهاً» فيكون على هذين القولين في موضع نصب على الحال، وفيما أجازه أبو عليّ والزمخشريُّ في موضع رفع لأنه معطوف على خبر «إنَّ»: وهذان القولانِ بعيدانِ أيضاً لطُول الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه، ولا يقع مثلُه في لسان العرب.

وقال بعضُهم: «ونُعلِّمُه» بالنون حملُه على قوله: «نُوحيه إليك». فإن عَنَى بالحمل العطفَ، فلا شيء أبعدَ من هذا التقدير، وإن عَنَى بالحمل أنه من باب الالتفات، فهو صحيح.

وقال الزمخشريّ: أو هو كلامٌ مبتدأ، يعني قوله: «ونعلِّمه»، وذلك أنه أجازَ أن يكون معطوفاً على «يُبَشِّركِ» وعلى «وجيهاً» وعلى «يخلق» ثم قال: أو هو كلام مبتدأ. يعني أنه لا يكون معطوفاً على شيء من هذه التي ذكر، فإنْ عَنَى أنه استئنافُ

---

(١) السبعة ص٢٠٦، والتيسير ص٨٨، وقرأ بالياء أيضاً أبو جعفر من العشرة. ينظر النشر ٢/ ٢٤٠. وسهل: هو ابن شعيب الكوفي.

(٢) الحجة للقراء السبعة ٣/ ٤٣، والكشاف ١/ ٤٣١.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٧.

إخبارٍ عن الله أو من الله على اختلاف القراءتين؛ فمن حيث ثبوتُ الواو لا بدّ أن يكون معطوفاً على شيء قبله، فلا يكون ابتداء كلام، إلا إنْ كان يدَّعي زيادةَ الواو في «ويعلّمه»، فحينئذٍ يصحُّ أن يكون ابتداءَ كلام، وإنْ عَنَى أنه ليس معطوفاً على ما ذكر؛ فكان ينبغي أن يبيِّن ما عطف عليه، وأن يكون الذي عطف عليه ابتداءَ كلام حتى يكون المعطوف كذلك.

وقال الطبريّ[1]: قراءة الياء عطفٌ على قوله: «يخلقُ ما يشاء»، وقراءةُ النون عطفٌ على قوله: «نُوحيه إليك» قال ابنُ عطية: وهذا القولُ الذي قاله في الوجهين مفسدٌ للمعنى. انتهى.

ولم يبيِّن ابنُ عطية جهة إفساد المعنى، أمَّا قراءة النون فظاهرٌ فسادُ عَطْفِه على «نُوحيه» من حيث اللفظُ ومن حيث المعنى. أمَّا من حيث اللفظُ فمثلُه لا يقع في لسان العرب لبُعدِ الفصل المُفْرِط، وتعقيدِ التركيب، وتنافرِ الكلام. وأمّا من حيث المعنى فإنَّ المعطوف بالواو شريكُ المعطوف عليه، فيصير المعنى بقوله: ذلك من أنباء الغيب، أي: إخبارُك يا محمد بقصَّةِ امرأةِ عمرانَ وولادتِها لمريم، وكفالةِ زكريا، وقصتِه في ولادة يحيى له، وتبشيرِ الملائكة لمريم بالاصطفاء والتطهير كلُّ ذلك من أنباء الغيب نعلِّمُه، أي: نُعلِّم عيسى الكتابَ. فهذا كلامٌ لا ينتظمُ معناه مع معنى ما قبلَه.

وأمَّا قراءةُ الياء وعطفُ «ويعلِّمه» على «يخلق» فليست مُفسدةً للمعنى، بل هو أولى وأصحُّ ما يُحمل عليه عطف «ويُعلِّمه» لقُرب لفظه وصحَّةِ معناه. وقد ذكرنا جوازَه قبلُ، ويكون اللهُ قد أخبرَ مريمَ بأنه تعالى يخلق الأشياءَ الغريبة التي لم تَجْرِ بها عادةٌ مثل ما خلقَ لكِ ولدًا من غير أبٍ، وأنه تعالى يُعلِّم هذا الولدَ الذي يخلُقُه لكِ ما لم يُعلِّمْه مَنْ قبلَه من الكتابِ والحكمةِ والتوراةِ والإنجيل، فيكون في هذا الإخبار[2] أعظمُ تبشيرٍ لها بهذا الولد وإظهارِ بَرَكتِه، وأنه ليس مُشْبِهاً أولادَ الناس من بني إسرائيل، بل هو مخالفٌ لهم في أصل النشأة وفيما يُعلِّمُه الله تعالى من العلم.

---

(١) تفسيره ٥/ ٤١٥. ونقله عنه ابنُ عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٣٧-٤٣٨ ثم تعقَّبه كما سيرد.
(٢) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): فيكون هذا الإخبار.

وهذا يظهرُ لي أنَّه أحسنُ ما يُحمَلُ عليه عطفُ، «ويُعلِّمُه».

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ اختلفوا في «رسول» هنا؛ فقيل: هو وصف بمعنى المُرْسَل على ظاهر ما يُفهم منه. وقيل: هو مصدر بمعنى: رسالة، إذ قد ثبتَ أن «رسولاً» يكون بمعنى رسالة[(١)]، وممَّن جوَّز ذلك فيه هنا الحَوْفي وأبو البقاء[(٢)] وقالا: هو معطوف على «الكتاب» أي: ويُعلِّمُه رسالةً إلى بني إسرائيل، فتكون «رسالة» داخلاً في ما يُعلِّمُه اللهُ عيسى.

وأجاز أبو البقاء في هذا الوجه أن يكون مصدراً في موضع الحال.

وأمَّا الوجهُ الأوَّل، فقالوا في إعرابه وجوهاً:

أحدُها: أن يكون منصوباً بإضمار فعل تقديره: ويجعلُه رسولاً إلى بني إسرائيل؛ قالوا: فيكون مثلَ قوله:

يا ليتَ زوجَكِ قد غدا … متقلِّداً سيفاً ورُمْحا[(٣)]

أي: ومعتقِلاً رُمْحًا[(٤)]؛ لمَّا لم يمكن تشريكُه مع المنصوبات قَبْلَه في العامل الذي هو «يُعلِّمُه» أُضْمِر له فعل ناصب يصحُّ به المعنى. قاله ابنُ عطيَّة وغيرُه[(٥)].

الثاني: أن يكون معطوفاً على «ويُعَلِّمُه» فيكون حالاً، إذ التقدير: ومُعَلِّماً الكتابَ. فهذا كلُّه عطفٌ بالمعنى على قوله: «وجيهاً» قاله الزمخشريّ وثنَّى به، وابنُ عطية وبدأ به، وهو مبنيٌّ على إعراب «ويُعَلِّمه».

وقد بَيَّنَّا ضَعف إعراب من يقول: إنَّ «ويُعلِّمُه» معطوف على «وجيهاً» للفصل المفرط بين المتعاطفَين.

---

(١) قوله: إذ قد ثبتَ أن رسولاً يكون بمعنى رسالة، من (د١) و(ز٢).

(٢) الإملاء ٢/ ١٣٥.

(٣) البيت لعبد الله بن الزِّبَعْرى، وهو في الكامل ١/ ٤٣٢ و٤٧٧ و٢/ ٨٣٦، وتفسير الطبري ٥/ ٤١٨، والخصائص ٢/ ٤٣١، وغيرها، ووقع في (ح): يا ليت زوجك في الوغى. وهو يُروى كذلك، ويروى أيضاً: ورأيتُ زوجكِ في الوغى. ووقع في (أ) و(ب) و(ع): متعلِّقاً، بدل: متقلِّداً.

(٤) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): ومتعلِّقاً رمحاً.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٧.

الثالث: أن يكون منصوباً على الحال من الضمير المستكنّ في «ويكلّم» فيكون معطوفاً على قوله: «وكهلاً» أي: ويكلِّم الناسَ طفلاً وكهلاً ورسولاً إلى بني إسرائيل. قاله ابنُ عطية: وهو بعيد جدًّا لطول الفصل بين المتعاطفَين.

الرابع: أن تكونَ الواو زائدةً ويكون حالاً من ضمير «ويُعَلِّمُه». قاله الأخفش[1]، وهو ضعيف لزيادة الواو، لا يوجد في كلامهم: جاء زيدٌ وضاحكاً، أي: ضاحكاً.

الخامس: أن يكون منصوباً على إضمار فعلٍ من لفظ رسول، ويكون ذلك الفعل معمولاً لقولٍ من عيسى، التقدير: ويقول: أُرْسِلْتُ رسولاً إلى بني إسرائيل. واحتاجَ إلى هذا التقدير كلّه لقوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم﴾ وقوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾ إذ لا يصحُّ في الظاهر حملُه على ما قبلَه من المنصوبات لاختلاف الضمائر لأنَّ ما قبلَه ضمير غائب، وهذان ضميرا متكلِّم، فاحتاجَ إلى هذا الإضمار لتصحيح المعنى. قاله الزمخشري[2]، وقال: هو من المضايق. يعني من المواضع التي فيها إشكال، وهذا الوجه ضعيف، إذ فيه إضمارُ شيئين؛ القول ومعمولِه الذي هو: أُرْسِلْتُ، والاستغناء عنهما[3] باسم منصوب على الحال المؤكِّدة؛ إذ يُفهم من قوله: وأُرْسِلْتُ، أنه رسول، فهي على هذا التقدير حالٌ مؤكِّدة.

فهذه خمسة أوجه في إعراب «ورسولاً» أَوْلَاها الأوّل، إذ ليس فيه إلا إضمارُ فعلٍ يدلُّ عليه المعنى، أي: ويجعلُه[4] رسولاً، ويكون قولُه: «أني قد جئتُكم» معمولاً لرسول، أي: ناطقاً بأنّي قد جئتُكم، على قراءة الجمهور، ومعمولاً لقولٍ محذوف على قراءة مَنْ كسرَ الهمزة. وهي قراءة شاذَّة، أي: قائلاً: إني قد جئتُكم، ويحتمل أن يكون محكيًّا بقوله: «ورسولاً» لأنه في معنى القول، وذلك على مذهب الكوفيِّين.

---

(١) نقله عنه في تفسيره كل من الثعلبي ٢/ ٦٢ (ووقع في مطبوعه تصحيف) والرازي ٨/ ٥٧-٥٨، والقرطبي ٢/ ١٤٣، ولم أقف عليه في معاني الأخفش.

(٢) الكشاف ١/ ٤٣١.

(٣) في (ح) و(د١) و(د٢) و(ز٢) و(يه): منهما. وفي (أ) و(ب) و(ت) و(ع): فيهما. والمثبت من المطبوع والدر المصون ٣/ ١٨٩ عن البحر.

(٤) في (ح) و(د٢) و(ز٢) و(يه): ونجعله. وهي غير منقوطة في (د١).

وقرأ اليزيديّ: «ورسولٍ»[1] بالجرّ، وخرَّجه الزمخشريّ على أنه معطوف على «بكلمةٍ منه»، وهي قراءة شاذَّة في القياس لطول البعد بين المعطوف عليه والمعطوف.

وأُرسِلَ عيسى إلى بني إسرائيل مبيِّناً حكم التوراة، ونادباً[2] إلى العمل بها، ومحلِّلاً أشياءَ ممَّا حُرِّم فيها، كالثُّرُوب[3] ولحومِ الإبل وأشياءَ من الحيتان والطير[4].

وكان عيسى قد هربَتْ به أمُّه من قومها إلى مِصْر حين عَزَلُوا أولادَهم ونَهَوْهم عن مخالطته وحبسُوهم في بيت، فجاء عيسى يطلُبُهم، فقالوا: ليسوا هاهنا، فقال: ما في هذا البيت؟ قالوا: خنازير. قال عيسى: كذلك يكونون. ففتحوا عنهم فإذا هم خنازير[5]. ففشا ذلك في بني إسرائيل، فهمُّوا به، فهربَتْ به أمُّه إلى أرض مصر، فلمَّا بلغَ اثنتي عشرة سنة أوحى اللهُ تعالى إليها أنِ انطلقي إلى الشام، ففعلَتْ، حتى إذا بلغ ثلاثين سنةً جاءه الوحيُ على رأس الثلاثين، فكانت نبوَّتُه ثلاثَ سنين، ثم رفعَه الله إليه[6].

وكان أوَّلَ أنبياء بني إسرائيل يوسفُ ـ وقيل: موسى ـ وآخِرُهم عيسى.

والظاهر أنَ قوله: «أني قد جئتُكم بآية» إلى قوله: «مستقيم» متعلقٌ بقوله: «ورسولاً إلى بني إسرائيل» ومعمولٌ له، فيكون ذلك مندرجاً تحت القول السابق والخطابِ لمريم بقوله: «قال كذلكِ الله»، فتكون مريم قد بُشِّرَتْ بأشياءَ ممَّا يفعلُها الله تعالى لولدها عيسى من تعليمه ما ذَكر، ومِن جعلِه رسولاً ناطقاً بما يكون منه إذا أُرسلَ؛ من مجيئه بالآيات، وإظهار الخوارق على يديه، وغيرِ ذلك ممَّا ذَكر إلى قوله: «مستقيم». فيكون بعدَ قوله: «مستقيم» وقَبْلَ قوله: «فلمَّا أحسَّ» محذوفٌ

(١) القراءات الشاذة ص٢٠، والكشاف ١/ ٤٣١.
(٢) في (أ) و(ت) و(د١) وناديا، وهو تحريف، وفي المطبوع: وداعياً.
(٣) جمع ثَرْب، وهو شحم رقيق يغشى الكَرِش والأمعاء.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٨ .
(٥) تفسير الطبري ٥/ ٤٢٨ .
(٦) تفسير الطبري ٥/ ٤٢٤-٤٢٥ .

يدلُّ عليه ويضطرُّ إلى تقديره المعنى، تقديرُه: فجاء عيسى بني إسرائيل رسولاً فقال لهم ما تقدَّم ذكرُه، وأتى بالخوارق التي قالها، فكفروا به وتمالؤوا على قتله وإذايته، فلما أحسَّ عيسى منهم الكفر. . .

وقيل: يحتمل أن يكون الكلامُ تمَّ عند قوله: «ورسولاً إلى بني إسرائيل»، ولا يكون «أنِّي قد جئتُكم» متعلِّقاً بما قبلَه ولا داخلاً تحت القولِ والخطابِ لمريم، ويكون المحذوفُ هنا، لا بعدَ قوله: «مستقيم»، والتقدير: فجاء عيسى كما بَشَّرَ اللهُ رسولاً إلى بني إسرائيل بأني قد جئتُكم بآيةٍ من ربِّكم[١].

وقرأ الجمهور: «بآية» على الإفراد، وكذلك في: «وجئتُكم بآيةٍ من ربكم» وفي مصحف عبد الله: «بآيات» على الجمع في الموضعين[٢].

ويجوز أن يكون «من ربِّكم» في موضع الصفة لأنه يتعلق بمحذوف، ويجوز أن يتعلق بـ «جئتُكم» أي: جئتُكم من ربكم بآية.

﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ قرأ الجمهور: «أني أخلق» بفتح الهمزة[٣] على أن يكون بدلاً من: «آيةٍ»، فيكون في موضع جرّ، أو بدلاً من قوله: «أني قد جئتُكم» فيكون في موضع نصب أو جرّ على الخلاف، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هي، أي: الآيةُ أني أخلقُ، فيكون في موضع رفع.

وقرأ نافع بالكسر على الاستئناف، أو على إضمار القول، أو على التفسير للآية كما فسّر المَثَل في قوله: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَۖ﴾ بقوله: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ [آل عمران: ٥٩].

ومعنى «أخلقُ»: أُقدِّرُ وأُهَيِّئُ. والخَلْقُ يكون بمعنى الإنشاء وإبراز العين من العدم الصِّرْف إلى الوجود، وهذا لا يكون إلا للهِ تعالى.

---

(١) بعده في المحرر الوجيز ١/ ٤٣٨ (والكلام منه): ويكون قوله: «إني قد جئتكم» ليس بخطاب لمريم. قال ابن عطية: والأول أظهر.
(٢) القراءات الشاذة ص٢٠-٢١ ، والمحرر الوجيز ١/ ٤٣٨ . وذكر فيه ابن عطية قراءة ابن مسعود على الجمع في المواضع الثلاثة.
(٣) السبعة ص٢٠٦، والتيسير ص٨٨.

ويكون بمعنى التقدير والتصوير، ولذلك يسمُّون صانعَ الأديم ونحوِه: الخالق؛ لأنه يُقَدِّر. وأصلُه في الأجرام وقد نقلُوه إلى المعاني. قال تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] وممَّا جاء الخَلْقُ فيه بمعنى التقديرِ قولُه تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] أي: المُقَدِّرين.

وقال الشاعر[(١)]:

ولأنتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وبَعْـ ـضُ القومِ يَخْلُقُ ثمَّ لا يَفْرِي

واللام في «لكم» معناها التعليل. و«من الطين» تقييد بأنه لا يُوجد من العدم الصِّرْف، بل ذكرَ المادَّةَ التي يشكِّل منها صورةَ الطير.

وقرأ الجمهور: «كَهيْئَة» على وزن جَيْئة. وقرأ الزُّهْريّ: «كهِيَّة» بكسر الهاء وياء مشدَّدة مفتوحة بعدها تاء التأنيث[(٢)].

والكاف من «كهيئة» اسم على مذهب أبي الحسن[(٣)]، فهي مفعولة بـ «أخلُق»، وعلى قول الجمهور تكون صفةً لمفعول محذوف تقديره: هيئةً مثل هيئة. وتكون «هيئة» مصدراً في معنى المفعول، أي: مثالاً مهيَّأً مثلَ.

وقرأ الجمهور: «الطير»، وقرأ أبو جعفر بنُ القعقاع: كهيئة الطائر[(٤)] والمراد به الجنس.

«فأنفخُ فيه» الضمير في «فيه» يعود على الكاف، أو على موصوفها على القولين المذكورَيْن.

---

(١) هو زهير بن أبي سُلمى، والبيت في «ديوانه» بشرح ثعلب ص٩٤، وفي تفسير الطبري ١٧/ ٢٦، وتفسير القرطبي ١/ ٣٤١، وغيرها: قوله: تَفْرِي، أي: تقطع. والبيت من قصيدة في مدح هَرِم بن سِنان، قال ثعلب: يقول: أنتَ إذا تهيَّأتَ لأمرٍ مضيتَ له.

(٢) وكذا قيَّدها ابنُ عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٣٩. بينما ذكر الثعلبيّ في تفسيره ٢/ ٦٢ أنَّ الزهريَّ قرأ: كهَيَّة (بفتح الهاء كما يُفيد سياق كلامه) وذكرها أيضاً عن أبي جعفر المدني (وهو من العشرة). وينظر الكلام بعد تعليق.

(٣) هو الأخفش (الأوسط) سعيد بن مَسْعَدَة، صاحب معاني القرآن.

(٤) في (أ) و(ع): كهيَّة الطائر. وهو صوابٌ أيضاً، فقد ذكرهما عنه ابن الجزريّ في النشر ١/ ٤٠٥.

وقرأ بعضُ القرَّاء: «فأنفخُها»[١] أعاد الضمير على الهيئة المحذوفة، إذ يكون التقدير: هيئةً كهيئة الطير، أو على الكاف على المعنى، إذ هي بمعنى: مُماثِلةً هيئة الطير، فيكون التأنيث هنا كما هو في المائدة [١١٠] في قوله: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾. ويكون في هذه القراءة قد حُذف حرف الجرّ كما قال:

ما شُقَّ جيبٌ ولا قامَتْكَ نائحةٌ ... ولا بَكَتْكَ جِيادٌ عند أسْلابِ[٢]

يريد: ولا قامَتْ عليك. وهي قراءة شاذَّة نقلَها الفرَّاء[٣].

وقال النابغة؛ فعدَّى «نَفَخَ» لمنصوب:

كالهِبْرِقيِّ تَنَحَّى يَنْفُخُ الفَحَمَا[٤]

فيمكن أن يكون على إسقاط حرف الجرّ، ويمكن أن يكون على التضمين، أي: يُضرم بالنّفخ الفحم[٥].

«فيكون» هنا ناقصة على بابها، أو بمعنى: يصير.

وقرأ نافع ويعقوب هنا وفي «المائدة»: «طائراً»[٦]، وقرأ الباقون: «طيراً» وانتصابُه على أنه خبر «يكون»، ومن جعل «يكون» هنا تامَّة و«طائراً» حالاً فقد أبعد[٧].

---

(١) معاني القرآن للفرَّاء ١/ ٢١٤، وتفسير الطبري ٥/ ٤٢٠، والكشاف ١/ ٤٣١، ونسب الفراء والزمخشري القراءة لابن مسعود ﷺ.

(٢) البيت ليزيد بن مُفَرِّغ، وهو ضمن قصيدة في هجاء عُبيد الله بن زياد لما قُتل، ذكرَها أبو الفرج في الأغاني ١٨/ ٢٨٦-٢٨٧. والبيت أيضاً في جمهرة اللغة ٣/ ٤٩٦ والمصدرين المذكورين في التعليق السابق. قوله: أسلاب، هو جمع سَلَب، وهو ما يُسلب من القتيل.

(٣) في معاني القرآن له، كما سلف قبل تعليق.

(٤) هو عجز بيت، وصدرُه: مُوَلّيَ الرِّيحِ رَوْقَيْهِ وجَبْهَتَهُ. وهو في ديوان النابغة الذُّبياني ص١٠٤، والمعاني الكبير ٢/ ٧٤٨، وجمهرة اللغة ١/ ١٧٧، والكشاف ١/ ٤٣١. والهِبْرِقيّ: الحداد.

(٥) من قوله: فيمكن أن يكون على إسقاط... إلى هذا الموضع، ليس في (أ) و(ب) و(ت) و(ع).

(٦) السبعة ص٢٠٦، والتيسير ص٨٨، والنشر ٢/ ٢٤٠. وهي أيضاً قراءة أبي جعفر (وهو من العشرة) هنا وفي المائدة (١١٠).

(٧) هو أبو البقاء العكبري في الإملاء ٢/ ٧١.

وتعلّق «بإذن الله» قيل بـ «يكون» وقيل: بـ «طائر»[١]. ومعنى «بإذن الله» أي: بتمكينه وعلمه بأني أفعلُ.

وتعاطي عيسى التصويرَ بيده والنفخَ في تلك الصورة تبيينٌ لتلبُّسه بالمعجزة، وتوضيحٌ أنها من قِبَلِه، وأمَّا خلقُ الحياة في تلك الصورة الطينية فمن الله وحدَه.

وظاهرُ الآية يدلُّ على أنَّ خَلْقَه لذلك لم يكن باقتراحِ منهم، بل هذه الخوارق جاءت تفسيراً لقوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

وقيل: كان ذلك باقتراح منهم، طلبوا منه أن يخلق لهم خُفَّاشاً على سبيل التَّعنُّت جَرْياً على عاداتهم مع أنبيائهم، وخَصُّوا الخُفَّاشَ لأنه عجيبُ الخلق[٢]، وهو أكملُ الطير خلقاً، له ثَدْيٌ وأسنانٌ وآذانٌ وضَرْعٌ يخرجُ منه اللبن، ولا يُبصر في ضوء النهار، ولا في ظُلمة الليل، إنما يرى في ساعتين، بعد غروب الشمس ساعة، وبعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يُسفر جدًّا، ويضحك كما يضحك الإنسان، ويطيرُ بغير ريش، وتحيضُ أنثاه وتلد[٣].

رُوِيَ عن أبي سعيد الخدري أنه قال لهم: ماذا تريدون؟ قالوا: الخُفَّاش. فسألوه أشدَّ الطير خلقاً لأنه يطيرُ بغير ريش[٤].

ويقال: ما صنع غيرَ الخُفَّاش. ويقال: فعلَ ذلك أولاً وهو مع غِلْمةٍ في الكُتَّاب.

وتواطأ النقل عن المفسِّرين أنَّ الطائر الذي خلقَه عيسى كان يطيرُ ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غابَ عن أعينهم سقطَ ميّتاً ليتميَّز فعلُ المخلوق من فعل الخالق[٥].

---

(١) وهذا على قراءة نافع، وأمَّا على قراءة غيره فلا يتعلق به، لأن «طيراً» اسم جنس، فيتعلق بمحذوف على أنه صفة لطير. ينظر «الدُّرُّ المصون» ٣/ ١٩٧.

(٢) في (يه): لأنه أعظم خلقة عجيب الخلق.

(٣) ينظر تفسير القرطبي ٥/ ١٤٣-١٤٤.

(٤) زاد المسير ١/ ٣٩٢.

(٥) هو قولُ وَهْب، نقله عنه الطبري ٥/ ٤٢٤-٤٢٥، والثعلبي ٢/ ٦٢، وابنُ الجوزي ٢/ ٣٩٢، والقرطبي ١/ ١٤٣.

وكان بنو إسرائيل مع معاينتهم لذلك الطائر يطيرُ يقولون في عيسى عليه السلام: هذا ساحر.

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ تقدَّم تفسيرُهما في المفردات.

وقال مجاهد: الأكْمَهُ: هو الأعشى. وقال عكرمة: هو الأعمش[(١)].

وقال الزمخشري[(٢)]: هو الذي وُلد أعمى، وقيل: هو الممسوح العين. ولم يكن في هذه الأمَّة أكمهُ غيرُ قتادة بن دِعَامة السَّدُوسيّ صاحب التفسير.

وقال ابنُ عبَّاس والحسنُ والسُّدِّيّ: هو الأعمى على الإطلاق. وحكى النقَّاش أنَّ الأكمه هو الأبكم الذي لا يَفْهم ولا يُفهِم، الميِّتُ الفؤاد. وقال ابنُ عباس أيضاً وقتادة: هو الذي يُولد أعمى مضمومَ العينين[(٣)].

قيل[(٤)]: وقد كان عيسى يُبرئ بدعائه والمسح بيده كلَّ علَّة، ولكن لا تقومُ الحجَّةُ على بني إسرائيلَ في معنى النبوَّة إلا بالإبراء من العلل التي تعجز عن إبرائها الأطبَّاء حتى يكون فعلُه ذلك خارقاً للعادات. والإبراءُ من العَشَى والعَمَش ليس بخارق، وأمَّا العَمَى فالأبلغ الإبراءُ من عَمَى الممسوحِ العين.

رُويَ أنه ربَّما اجتمعَ عليه خمسون ألفاً من المرضى، من أطاقَ منهم أتاه، ومن لم يُطِقْ أتاه عيسى عليه السلام، وما كانت مداواتُه إلا بالدُّعاء وحده[(٥)].

وخصَّ بالذكر الكَمَهَ والبَرَصَ لأنهما داءان مُعْضِلان لا يقدرُ على الإبراء منهما إلا اللهُ تعالى، وكان الغالب على زمان عيسى الطِّبَّ، فأراهم اللهُ المعجزةَ في جنس علمهم كما أرى قومَ موسى ـ إذ كان الغالب عليهم السِّحْر ـ المعجزةَ بالعصا واليدِ البيضاء، وكما أرى العربَ ـ إذ كان الغالب عليهم البلاغة ـ المعجزةَ بالقرآن.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٩، وزاد المسير ١/ ٣٩٢.
(٢) الكشاف ١/ ٤٣١.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٩-٤٤٠.
(٤) هو كلام ابن عطية في المصدر السابق.
(٥) تفسير الطبري ٥/ ٤٢٤-٤٢٥، وتفسير الثعلبي ٢/ ٦٣، والكشاف ١/ ٤٣١، وزاد المسير ١/ ٣٩٢، ونسب الثعلبي وابن الجوزي القول لوهب، ولفظ العبارة الأخيرة عند الثعلبي: إنما كان يُداويهم بالدعاء على شرط الإيمان.

رُوِيَ أن جالينوس كان في زمان عيسى، وأنه رحل إليه من رومية إلى الشام ليلقاه، فمات في طريقه(١).

﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ نقل أئمة التفسير أنه أحيا أربعة: عازَر ـ وكان صديقاً له ـ بعد ثلاثة أيام، فقام من قبره يَقْطُرُ وَدَكُه، وبقيَ إلى أن وُلد له.

وابنَ العجوز حَيِيَ على سريره، فنزلَ عن أعناق الرجال وحملَ سريرَهُ وبقيَ إلى أنْ وُلدَ له.

وبنتَ العاشر، مُتِّعت بولدها بعد ما حَيِيَتْ.

وسألوه أن يُحْيِيَ سامَ بنَ نوح ليُخبرَهم عن حال السفينة، فخرجَ من قبره فقال: أقد قامت الساعة(٢)؟ وقد شابَ نصفُ رأسه ـ وكان شابًا ابنَ خمس مئة ـ فقال: شيَّبني هَوْلُ يوم القيامة(٣).

ورويَ أنه في إحيائه الموتى كان يضربُ بعصاه الميِّتَ أو القبرَ أو الجُمْجُمَةَ، فيَحْيَى الإنسانُ ويكلّمه ويعيش، وقيل: يموتُ سريعاً.

ورُوِيَ عن الزُّهْريِّ أنه قال: بلغني أن عيسى خرج هو ومَنْ معَه من حواريِّيه حتى بلغَ الأندلس، وذكر قصة فيها طُول؛ مضمَّنُها أنه أحيا بها ميِّتاً وسألوه، فإذا هو من قوم عاد.

ووردت قصص في إحياء خلقٍ كثير على يد عيسى، وذكروا أشياءَ ممَّا كان يدعُو بها إذا أحيا، اللهُ أعلم بصحتها.

﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ﴾ قال السُّدِّيّ وابنُ جُبير ومجاهد وعطاء(٤) وابن إسحاق: كان عيسى من لَدُن طُفولتِهِ وهو في الكُتَّاب يُخبر الصبيان

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٤٠. وجالينوس حكيم فيلسوف يوناني، إمام الأطباء في عصره، له تآليف في الطب وعلم الطبيعة وغيرها ما يزيد على المئة. ينظر إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص٨٥-٩٠.

(٢) في (ح) و(د٢) و(يه): القيامة.

(٣) ينظر تفسير الثعلبي ٢/ ٦٣-٦٤، وتفسير القرطبي ٥/ ١٤٥.

(٤) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): ابن عطية، بدل: عطاء، وهو خطأ. والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٤٤٠.

بما يفعلُ آباؤهم وبما يُؤكلُ من الطعام ويُدَّخَرُ إلى أنْ نُبِّئ، ويقول لمن سأله: أكلتَ البارحةَ كذا وادَّخَرْتَ كذا.

وقيل: كان ذلك بعد النبوة، لمَّا أحيا لهم الموتى طلبوا منه آيةً أخرى وقالوا: أخْبِرْنا بما نأكلُ في بيوتنا وما نَدَّخِرُ للغد. فأخبرَهم[1].

وقال قتادة: كان ذلك في نزول المائدة؛ عَهِدَ إليهم أن يأكلوا منها ولا يَخْبَؤُوا ولا يَدَّخِرُوا، فخالَفُوا، فكان عيسى عليه السلام يُخْبِرُهم بما أكلُوا وما ادَّخروا في بيوتهم، وعُوقبوا على ذلك[2].

وأتى بهذه الخوارق الأربع مصدَّرةً بالمضارع الدالِّ على التجدُّد والحالةِ الدائمة، وبدأ بالخَلْق إذ هو أعظم في الإعجاز، وثَنَّى بإبراء الأكمه والأبرص، وأتى ثالثاً بإحياء الموتى ـ وهو خارق شاركه فيه غيرُه ـ بإذْنِ الله تعالى، وكرّر «بإذن الله» دفعاً لمن توهَّم فيه الإلهية.

وكان «بإذن الله» عقب قوله: «أنّي أخلقُ» وعطف عليه: «وأُبْرِئ الأكمه والأبرص»، ولم يذكر «بإذن الله» اكتفاءً به في الخارق الأعظم، وعقَّبَ قوله: «وأُحْيِي الموتى» بقوله: «بإذن الله» وعطفَ عليه: «وأنبِّئكم» ولم يذكر فيه «بإذن الله» لأنَّ إحياء الأموات أعظمُ من الإخبار بالمغيَّبات، فاكتفَى به في الخارق الأعظم أيضاً، فكلُّ واحدٍ من الخارقَيْن الأعظَمَيْن قُيِّد بقوله: «بإذن الله»، ولم يحتج إلى ذلك فيما عَطفَ عليهما اكتفاءً بالأوّل، إذ كلُّ هذه الخوارق لا تكون إلا بإذن الله.

و«ما» في «ما تأكلون وما تدَّخِرُون» موصولة اسميَّة، وهو الظاهر، وقيل: مصدرية.

وقرأ الجمهور: «تَدَّخِرُون» بدال مشدَّدة، وأصلُه: اذْتَخَرَ، من الذُّخر، أُبدلت التاء دالاً، فصار: اذْدَخَرَ، ثم أُدغمت الذال في الدال فقيل: ادَّخَر، كما قيل: ادَّكَرَ.

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٩-٢٧٠، وتفسير القرطبي ٥/ ١٤٦.
(٢) تفسير الثعلبي ٢/ ٦٤.

وقرأ مجاهد والزُّهريُّ وأيُّوب السَّخْتِيانيّ وأبو السَّمَّال: «تَذْخَرُون»، بذال ساكنة وخاء مفتوحة[١].

وقرأ أبو شعيب السُّوسيّ في رواية عنه: «وما تَذْدَخِرُون» بذال ساكنة ودال مفتوحة من غير إدغام[٢]، وهذا الفكّ جائز، وقراءةُ الجمهور بالإدغام أجود.

ويجوز جعل الدال ذالاً والإدغام، فتقول: اذَّخَرَ، بالذال المعجمة المشدَّدة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ظاهرُ هذه الجملة أنها من كلام عيسى لاحتفافها بكلامه من قبلها ومن بعدها، حكاها[٣] الله عنه.

وقيل: هو من كلام الله تعالى، استئنافٌ صيغتُه صيغةُ الخبر، ومعناه التوبيخ والتقريع، وأُشير بـ«ذلك» إلى ما تقدَّم مِن جَعْلِ الطينِ طائراً، والإبراءِ والإحياءِ والإنباء.

وتقدَّم أنَّ في مصحف ابن مسعود: «لآيات» على الجمع[٤]، فمن أفردَ أراد الجنس، وهو صالح للقليل والكثير، ويعيِّن المرادَ القرائنُ اللفظية والمعنوية والحاليَّة، ومَنْ جَمَعَ فعلى الأصل، إذ هي آيات، وهي آية في نفسها آمنوا أو كفروا، فيحتمل أن يكون ثَمَّ صفةٌ محذوفة حتى يتّجه التعليقُ بهذا الشرط، أي: لآيةً نافعةً هاديةً لكم إنْ آمنتم[٥].

ويكون خطاباً لمن لم يؤمن بعد، وإن[٦] كان خطاباً لمن آمن؛ فذلك على سبيل التثبيت وتطمين النفس وهزِّها، كما تقول لابنك: أطِعْني إن كنتَ ابني. ومعلومٌ أنه ابنُك، ولكن تريد أن تَهُزَّه بذِكْر ما هو محقَّق، ذكَرَ ما جعلَ معلَّقاً به ما قبلَه على سبيل أن يحصل.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٧٩، والقراءات الشاذة ص٢٠ (ووقع في مطبوعه بالدال المهملة)، وتفسير الثعلبي ٢/ ٦٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٤٠، وتفسير القرطبي ٥/ ١٤٦.

(٢) الرواية المشهورة عن السُّوسي (وهو راوي أبي عمرو البصري) كقراءة الجمهور: تدَّخرون.

(٣) في (د١): حكاه، وفي (أ) و(ب) و(ت) و(ع): أو حكاه.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٤٠-٤٤١. وتقدّم ذكر قراءة ابن مسعود ﷺ لهذه اللفظة في قوله: «أني قد جئتكم بآية».

(٥) قال السمين الحلبي في الدر المصون ٣/ ٢٠١: فيه نظر، إذْ يصحُّ التعلُّق بالشرط دون تقدير هذه الصفة.

(٦) في (أ): بعد أن، ولم ترد لفظة «بعد» في (ت).

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ عطف «ومُصدِّقاً» على قوله: «بآية» إذ الباء فيه للحال، ولا تكون للتعدية لفساد المعنى، فالمعنى: وجئتُكم[١] مصحوباً بآيةٍ من ربكم ومُصَدِّقاً لما بين يديَّ.

ومنعوا أن يكون «ومُصَدِّقاً» معطوفاً على «رسولاً إلى بني إسرائيل» ولا على «وجيهاً» لما يلزمُ من كون الضمير في قوله: «لما بين يديَّ» غائباً، فكان يكون: لِمَا بينَ يدَيه.

وقد ذكرنا أنه يجوز في قوله: «ورسولاً» أن يكون منصوباً بإضمار فعل، أي: وأُرْسِلتُ رسولاً. فعلى هذا التقدير يكون: «ومُصَدِّقاً» معطوفاً على «ورسولاً».

ومعنى تصديقه للتوراة: الإيمانُ بها، وإن كانت شريعتُه تخالفُ في أشياء؛ قال وَهْبُ بنُ مُنَبِّه: كان يَسْبِتُ ويستقبلُ بيتَ المقدس[٢].

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ قال ابنُ جُرَيْج: أَحَلَّ لهم لحومَ الإبل والشحوم. وقال الربيع: وأشياء من السَّمَك، وما لا صِيصِيَةَ له من الطَّير[٣]، وكان ذلك في التوراة محرَّماً.

وقال بعض المفسِّرين: «حُرِّمَ عليكم» إشارة إلى ما حرَّمه الأحبارُ بعد موسى وشَرَعُوه، فكأنَّ عيسى ردَّ أحكامَ التوراة إلى حقائقها التي نزلت من عند الله. انتهى كلامه[٤].

واختلفوا في إحلاله لهم السبت.

وقرأ عكرمة: «ما حَرَّم عليكم» مبيَّنًا للفاعل[٥]، والفاعل ضمير يعود على «ما»

---

(١) الأَوْلى أن تكون اللفظة دون واو، ليوافق لفظها من الآية في هذا الموضع: «قد جئتكم».
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٤١.
(٣) الصِّيصِيَة من الطير هي مثلُ مِخْلب الدِّيك. وتحرفت اللفظة في (د١) والمطبوع إلى: ضنضئة.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٤١، وفيه أيضاً القولان السالفان لابن جريج والربيع، وأخرجهما الطبري في تفسيره ٥/ ٤٣٢.
(٥) كذا وقع في النسخ الخطية: «ما حَرَّم عليكم» وهو سهوٌ غالباً، فلم تذكر المصادر أن عكرمة =

من قوله: «لما بين يديَّ» أو يعود على «الله» منزل التوراة، أو على «موسى» صاحب التوراة. والظاهرُ الأول لأنه مذكور.

وقرأ «حَرُمَ» بوزن: كَرُمَ إبراهيم النَّخَعيّ(١).

والمراد بـ «بعض» مدلولُها المتعارفُ، وزَعْمُ أبي عبيدة أنَّ المراد به هنا معنى «كلّ» خطأ، لأنه كان يلزمُ أن يُحِلّ لهم القتل والزنا والسرقة؛ لأن ذلك محرَّم عليهم، واستدلالُه على أنَّ «بعضاً» تأتي بمعنى «كلّ» بقول لبيد:

تَـرَّاكُ أمْـكِـنـةٍ إذا لـم أرْضَـهَـا   أو يَرْتَبِطْ بعضَ النفوسِ حِمَامُها(٢)

ليس بصحيح، لأن «بعضاً» على مدلوله، إذْ يُريدُ نفسَه، فهو تبعيضٌ صحيح، وكذلك استدلالُ من استدلَّ بقوله:

إنَّ الأمـورَ إذا الأحـداثُ دَبَّـرَهـا   دونَ الشيوخ تَرَى في بعضِها خَلَلا(٣)

لصحَّة التبعيض، إذْ ليس كلُّ ما دبَّره الأحداثُ يكون فيه الخَلَل.

وقال بعضهم: لا تقوم «بعض» مَقام «كلّ» إلا إذا دَلَّت قرينة على ذلك، نحو قوله:

أبـا مـنذرٍ أفـنـيـتَ فـاسْـتَبْقِ بَـعْـضَـنَـا   حَنَانَيْكَ بعضُ الشَّرِّ أهْوَنُ من بَعْضِ(٤)

يريد: بعضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ من كلِّه. انتهى. وفي ذلك نظر(٥).

واللام في «ولأُحِلَّ لكم» لام «كي» ولم يتقدَّم ما يسوغُ عطفُه عليه من جهة اللفظ، فقيل: هو معطوف على المعنى، إذِ المعنى في «ومُصَدِّقاً» أي: لأُصَدِّقَ

= قرأها بلفظة «ما» إنما ذكروا عنه أنه قرأ «حَرَّمَ» مبنياً للفاعل، وهو مرادُ المصنف من إيرادها، ولفظ الآية: «الذي حُرِّم» ينظر المحرر الوجيز ١/ ٤٤١، والدّرّ المصون ٣/ ٢٠٥، واللباب ٥/ ٢٥٤، وهي في الكشاف ١/ ٤٣١ دون نسبة.

(١) القراءات الشاذة ص٢٠، وتفسير القرطبي ١٤٧/٥، وهي في الكشاف ١/ ٤٣٢ دون نسبة.

(٢) شرح ديوان لبيد ص٣١٣. وكلام أبي عُبيدة في مجاز القرآن له ١/ ٩٤.

(٣) الإنصاف ٧٦٧/٢. ونُسب البيت في طبقات ابن المعتزّ ص٤٤٣ (زيادات) لأبي يعقوب الخُريمي.

(٤) البيت لطَرَفَة، وهو في ديوانه ص٦٦. والكلام في تفسير القرطبي ١٤٨/٥.

(٥) يريد أنَّ المعنى: بعضُ الشَّرِّ أهونُ من بعضٍ آخر، لا من كلِّه. ينظر الدر المصون ٣/ ٢٠٤.

ما بين يديَّ من التوراة ولأُحِلَّ لكم. وهذا هو العطفُ على التَّوَهُّم وليس هذا منه؛ لأنَّ معقولية الحال مخالفةٌ لمعقولية التعليل، والعطفُ على التَّوَهُّم لا بدَّ أن يكونَ المعنى متَّحداً في المعطوف والمعطوف عليه، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ [المنافقون: ١٠] كيف اتَّحدَ المعنى من حيث الصَّلاحيَّة لجواب التحضيض، وكذلك قولُه:

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لم يُكَثِّرْ غَنِيمةً بِنَهْكَةِ ذي قُرْبَى ولا بِحَقَلَّدِ[١]

كيف اتَّحَدَ معنى النَّفْي في قوله: لم يُكَثِّرْ وفي قوله: ولا بحَقَلَّدِ، أي: ليس بمكثِّرٍ ولا بحَقَلَّد، وكذلك ما جاء من هذا النوع.

وقيل: اللام تتعلق بفعل مضمر بعد الواو يُفَسِّرُهُ المعنى[٢]: أي: وجئتُكم لأُحِلَّ لكم.

وقيل: تتعلّق اللام بقوله: وأطيعون. المعنى: اتَّبعونِ لأُحِلَّ لكم. وهذا بعيدٌ جدًّا.

وقال أبو البقاء[٣]: هو معطوف على محذوف، تقديره: لأُخفِّفَ عنكم، أو نحو ذلك.

وقال الزمخشريُّ[٤]: «ولأُحِلَّ» ردٌّ على قوله: «بآيةٍ من ربّكم» أي: جئتُكم بآيةٍ من ربّكم ولأُحِلَّ لكم. انتهى كلامه. ولا يستقيم أن يكون «ولأُحِلَّ» ردًّا على «بآيةٍ من ربكم»[٥]؛ لأنَّ «بآية» في موضع حال، و«لأُحِلَّ» تعليل، ولا يصحُّ عطف

---

(١) البيت لزهير بن أبي سُلْمَى، وهو في ديوانه ٢٣٤. قال ثعلب في شرحه: أي: لم يُكَثِّر مالَه بظلم قَرابتِه وأخْذِ مالِهم. والنَّهْكَةُ: النَّقْص والإضرار... والحَقَلَّد: الضيِّق البخيل السيِّئ الخُلُق. وينظر الصناعتين ص٣٦، وسرّ الفصاحة ص٦٦.

(٢) في (أ) و(ع): ويفسر بالمعنى، وفي (ح) و(د١) و(د٢) و(ز٢) و(يه): تفسيره المعنى، ووقع في (ب) و(ت) سقط وتحريف. والمثبت من المطبوع.

(٣) الإملاء ١/ ١٣٦.

(٤) الكشاف ١/ ٤٣١.

(٥) المثبت من (ح) و(يه). ومن قوله: ولأُحل لكم انتهى كلامه... إلى هذا الموضع سقط من (د١) والمطبوع، وسقط بعضُه من النسخ الأخرى.

التعليل على الحال، لأن العطف بالحرف المُشَرِّك في الحكم يوجب التشريك في جنس المعطوف عليه، فإن عطفتَ على مصدر أو مفعول به أو ظرف أو حال أو تعليل أو غير ذلك، شاركه في ذلك المعطوف.

﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ ظاهرُ اللفظ أن يكون قوله: «وجئتُكم بآية من ربكم» للتأسيس، لا للتوكيد لقوله: «قد جئتُكم بآيةٍ من ربكم». وتكون هذه الآيةُ قولَه: «إنَّ الله ربي وربُّكم فاعبدوه»، لأنَّ هذا القولَ شاهدٌ على صحة رسالتِه، إذ جميعُ الرسل كانوا عليه لم يختلفوا فيه، وجعلَ هذا القولَ آيةً وعلامةً لأنه رسولٌ كسائر الرسل حيث هداه للنظر في أدلَّة العقل والاستدلال[١]. وكسرُ «إنَّ» على هذا القول، لأنَّ قولاً قبلَها محذوفاً، وذلك القولُ بدلٌ من الآية، فهو معمول للبدل[٢]. ومن قرأ بفتح «أنَّ» فعلى جهة البدل من «آية»[٣] ولا تكون الجملة من قوله: «إنَّ» بالكسر مستأنفةً على هذا التقدير من إضمار القول، ويكون قولُه: «فاتقوا الله وأطيعون» جملةً اعتراضية بين البدل والمبدل منه.

وقيل: الآية الأولى في قوله: «قد جئتُكم بآية» هي معجزة، وفي قوله: «وجئتُكم بآية» هي الآية من الإنجيل، فاختلَفَ متعلَّق المجيء.

ويجوز أن يكون «وجئتُكم بآية من ربكم» كُرِّرَتْ على سبيل التوكيد، أي: جئتُكم بآيةٍ بعد أخرى ممَّا ذكرتُ لكم من خلق الطير والإبراء والإحياء والإنباء بالخفيَّات، وبغيره؛ من ولادتي من غير أب، ومن كلامي في المهد وسائرِ الآيات. فعلى هذا مَنْ كسرَ «إنَّ» فعلى الاستئناف، ومن فتحَ فقيل: التقدير: لأنَّ الله ربِّي وربُّكم فاعبدوه، فيكون متعلِّقاً بقوله: «فاعبدوه» كقوله: «لإيلاف قريش» ثم قال «فليعبدوا». فقدَّم «أنَّ» على عاملها. ومَنْ جوَّز أن تتقدم «أنَّ»

---

(١) الكشاف ١/ ٤٣٢، وجاء الكلامُ فيه بأسلوب سؤال وجواب.

(٢) قال السمين الحلبي في الدّرّ المصون ٣/ ٢٠٥: كأنَّ التقدير: وجئتُكم بآية من ربكم قولي: إن الله ربي وربكم. ف «قَوْلي» بدل من «آية»، و«إنّ» وما في حيّزها معمولة ل «قولي».

(٣) كأنَّ التقدير ـ كما ذكر السمين ٣/ ٢٠٦ ـ: وجئتكم بأنَّ الله ربِّي وربُّكم.

ويتأخّر عنها العامل في نحو هذا غيرُ مصيب، لا يجوز: أنَّ زيداً منطلقٌ عرفتُ. نصَّ على ذلك سيبويه وغيرُه.

ويجوز أن يكون المعنى: وجئتكم بآية على أنَّ اللهَ ربي وربُّكم، وما بينهما اعتراض(١).

وقال ابن عطية(٢): التقدير: أطيعونِ لأنَّ اللهَ ربِّي وربُّكم. انتهى. وليس قوله بظاهر.

والأمر بالتقوى والطاعة تحذيرٌ ودعاء، والمعنى أنه تظاهرت الحُجَجُ والخوارقُ في صدقِهِ، فاتقوا الله في خلافي وأطيعوني في أمري ونهيي.

وقيل: اتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه في كتابه الذي أنزله على موسى، وأطيعوني فيما دعوتُكم إليه من تصديقي فيما أرسلني به إليكم.

وتكرار «ربِّي وربُّكم» أبلغُ في التزام العبوديّة من قوله: ربّنا، وأدلُّ على التبرِّي من الرُّبوبيّة.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾ أي: طريقٌ واضح لمن يسلُكُه لا اعوجاجَ فيه، والإشارةُ بـ «هذا» إلى قوله: «إنَّ اللهَ ربِّي وربُّكم فاعبُدوه» أي: إفرادُ اللهِ وحدَه بالعبادة هو الطريقُ المستقيمُ. ولفظُ العبادة يجمع الإيمان والطاعات.

وفي هذه الآيات من ضروب الفَصَاحة والبديع: إسنادُ الفعل للآمر بهِ لا لفاعله في قوله: «إنَّ الله يبشِّرُك» إذ هم المشافهون بالبِشارة، واللهُ الآمرُ بها، ومثلُه: نادى السلطانُ في البلد بكذا.

وإطلاق اسم السبب على المسبَّب في قوله: «بكلمةٍ منه» على الخلاف الذي في تفسير «كلمة».

والاحتراسُ في قوله: «وكَهْلًا» ممَّا جَرَتْ به العادة أنَّ مَنْ تكلَّم في حال الطفولة لا يعيش.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٣٢. والقول السالف فيه أيضاً.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٤١.

والكنايةُ في قوله: «ولم يَمْسَسْني بشر» كَنَتْ بالمَسِّ عن الوَطْء، كما كَنَى عنه بالحَرْث واللباس والمباشَرة[1].

والسؤال والجواب في «قالت الملائكة»، وفي «أنَّى يكونُ».

والتكرار في «جئتُكم بآية» وفي «أنِّي أخلُقُ لكم»، وفي «الطير»، وفي «بإذن الله» وفي «ربِّي وربُّكم»، وفي «ما» في قوله: «بما تأكلون وما تدَّخرون».

والتعبيرُ عن الجمع بالمفرد في «الآية» وفي «الأكمه والأبرص» وفي «إذا قضى أمراً».

والطِّباق في «وأُحْيِي الموتى»، وفي «ولأُحِلَّ» و«حُرِّمَ».

والالتفاتُ في «ونُعلِّمه» فيمن قرأ بالنون.

والتفسيرُ بعد الإبهام[2] فيمن قال: الكتاب مبهم غيرُ معيَّن والتوراةُ والإنجيل تفسيرٌ له.

والحذفُ في عدَّة مواضع.

❁ ❁ ❁

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ

(١) يعني في قوله: «نساؤكم حرثٌ لكم» وقوله: «هنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنَّ» وقوله: «فالآن باشروهنَّ» الآيتان (٢٢٣) و(١٨٧) من سورة البقرة.

(٢) في (أ) و(ب) و(ت): والتفسير والإبهام.

مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ
فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا
وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا
مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ
شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ
﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم
بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا
مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ
أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ
أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

المفردات الإحساسُ: الإدراك ببعض الحواسّ الخمس، وهي السمعُ والبصرُ والشَّمُّ والذَّوقُ واللَّمسُ، يقال: أَحْسَسْتُ الشيءَ وحَسَسْت به[1]، وتُبدل سينُه ياءً فيقال: حَسَيْت به، أو تحذف أُولى سينَيْه في أَحْسَسْت، فيقال: أَحَسْتُ. قال الشاعر:

سِوَى أنَّ العِتاقَ من المَطايا ... أَحَسْنَ به فهُنَّ إليه شُوسُ[2]

---

(١) بفتح السين الأولى وكسرها.

(٢) البيت لأبي زُبيد الطائي، وهو في طبقات فحول الشعراء ٢/ ٦٠٠، والمقتضب ١/ ٢٤٥، والأمالي ١/ ١٧٦، والخصائص ٢/ ٤٣٨، والأفعال ١/ ٢٤٦. وفيها: خلا أن العتاق، وفي بعضها: حَسِينَ به. وكذا هي في (أ) و(ع). وأورده الطبري والقرطبي عند تفسير الآية: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧]، وسيرد عجزه عند تفسير الآية: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]. العِتاق: جمع عتيق، وهو الكريم من كل شيء=

وقال سيبويه: وما شَذَّ من المضاعف - يعني في الحذف - فشبيهٌ بباب أَقَمْتُ، وليس بمُتْلَئِبٍّ[(١)]. وذلك قولهم: أَحَسْتُ وأَحَسْنَ، يريدون: أَحْسَسْتُ وأَحْسَسْنَ. وكذلك تَفعلُ بكلِّ بناء تَبني اللامَ [من] الفعل فيه على السكون ولا تصل إليه الحركة، فإذا قلتَ: لم أُحِسَّ، لم تَحذِفْ.

الحَوَارِيّ: صفوةُ الرجل وخاصَّتُه، ومنه قيل للنساء[(٢)] الحَضَرِيَّات: الحَوَارِيَّات؛ لخلوص ألوانهنَّ ونظافتهنَّ. قال أبو جِلْدة[(٣)] اليَشْكريّ:

فقُلْ للحَوَارِيَّات يَبْكِين[(٤)] غيرَنا ولا تَبْكِنا إلا الكلابُ النَّوَابحُ[(٥)]

ومثلُه في الوزن: الحَوَاليّ؛ للكثير الحِيلة[(٦)]. وليست الياء فيهما للنَّسَب. وهو مشتقٌّ من الحَوَر، وهو البَيَاض؛ حَوَّرْتُ الثوبَ: بيَّضْتُهُ.

المَكْرُ: الخِداع والخُبْث، وأصلُه السَّتْر؛ يقال: مَكَرَ الليلُ: إذا أظلم، واشتقاقه من المَكْر، وهو شجرٌ ملتفٌ، فكأنَّ الممكور به يلتفُّ به المكرُ ويشتملُ عليه. ويقال: امرأة ممكورة: إذا كانت ملتفَّةَ الخَلْق، والمَكْرُ: ضربٌ من النبات.

تعالَ: تفاعل، من العُلوّ، وهو فعل لاتِّصالِ الضمائر المرفوعة به. ومعناه استدعاء المدعوّ من مكانه إلى مكان داعِيهِ، وهي كلمةٌ قُصِدَ بها أوَّلاً تحسينُ الأدب مع المدعوّ، ثم اطَّردت حتى يقولها الإنسان لعدوِّه وللبهيمة، ونحو ذلك.

الابتهال: قولُ: بَهْلَةُ اللهِ على الكاذب، والبَهْلَةُ بالفتح والضمّ: اللعنة، ويقال:

= والمطايا جمع مطيَّة، وهي الناقة، وشُوس: جمع شَوْساء، من الشَّوَس، وهو النظر بمُؤْخر العين. والضمير في «به» و«إليه» عائد على الأسد، والبيت من قصيدة في وصفه.

(١) أي: ليس بمطَّرد. وكلام سيبويه في الكتاب ٤/ ٤٢١، ولفظة «من» الآتية بين حاصرتين منه.

(٢) قوله: للنساء، من (أ) و(ب) و(ت) و(ع).

(٣) في بعض النسخ: أبو خلدة، وفي الأخرى: أبو حلّزة، وكلاهما خطأ.

(٤) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): يبكون.

(٥) تفسير الطبري ٥/ ٤٤٤، والزاهر ١/ ٢٨، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٤٠٧، والأغاني ١١/ ٣١١، والمؤتلف والمختلف ص١٠٧ (وروايته فيه: فقل لنساء المصر)، والكشاف ١/ ٤٣٢، والمحرر الوجيز ١/ ٤٤٢.

(٦) الكشاف ١/ ٤٣٢.

بَهَلَهُ الله: لَعَنَهُ وأبْعَدَه، من قولك: أبْهَلَهُ: إذا أهملَه. وناقةٌ باهِل: لا صِرَارَ عليها[(١)]. وأصل الابتهال هذا، ثم استُعمل في كلِّ دعاء يُجتهد فيه وإن لم يكن التعاناً.

وقال لبيد:

مـن قُـرُومٍ سَـادَةٍ مـن قـوْمِـهِـمْ   نَـظَـرَ الـدَّهْـرُ إلـيـهِـمْ فـابْـتَـهَـلْ[(٢)]

* * *

التفسير

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ تقدَّم ترتيبُ هذه الجملة على ما قبلَها من الكلام، وهل الحذفُ بعد قوله: «صراط مستقيم» أو بعد قوله: «ورسولاً إلى بني إسرائيل» وذلك عند تفسير: «ورسولاً إلى بني إسرائيل».

قال مقاتل: «أحَسَّ» هنا: رأى، من رؤية العين أو القلب. وقال الفرَّاء: أحَسَّ: وَجَدَ. وقال أبو عبيدة: عَرَفَ. وقيل: عَلِمَ، وقيل: خاف[(٣)].

والكفرُ هنا جُحودُ نبوَّتِه وإنكارُ معجزاتِه.

و«منهم» متعلِّق بـ «أَحَسَّ». قيل: ويجوز أن يكون حالاً من الكفر.

﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لمَّا أرادُوا قَتْلَه استنصرَ عليهم. قاله مجاهد. وقال غيره: إنَّه استنصرَ لمَّا كفروا به وأخرجوه من قريتهم. وقيل: استنصرهم لإقامة الحق[(٤)].

قال المغربي[(٥)]: إنما قال عيسى: «مَنْ أنصارِي إلى الله» بعد رَفْعه إلى السماء وعَوْدِه إلى الأرض وجَمْع الحوارِيِّين الاثني عشر وبثِّهم في الآفاق يدعُون إلى الحق.

---

(١) الصِّرار: خيطٌ يُشدّ فوق الضَّرع.

(٢) شرح ديوان لبيد ص١٩٧. وصدرُه فيه: في قُرومٍ سادةٍ من قومه. قوله: قُروم، هو جمع قَرْم، يعني: السيِّد المعظَّم.

(٣) ينظر معاني القرآن للفراء ١/٢١٦، ومجاز القرآن ١/ ٩٤، ومعاني القرآن للزجاج ١/٤١٦، وتفسير الثعلبي ٢/ ٦٥، وتفسير القرطبي ٥/١٤٨.

(٤) زاد المسير ٢/ ٣٩٤.

(٥) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): العربي. ولم أعرفه.

وما قاله من أن ذلك القول كان بعدما ذكر بعيدٌ جدًا لم يذكره غيرُه بل المنقولُ والظاهرُ أنه قال ذلك قبل رفعه إلى السماء.

قال السُّدِّي: مَنْ أعواني مع الله. وقال الحسن: مَنْ أنصارِي في السبيل إلى الله. وقال أبو عليّ الفارسيّ: معنى «إلى اللهِ»: للهِ، كقوله: ﴿يَهْدِيَ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥] أي: للحقّ.

وقيل: مَنْ ينصرُني إلى نصر الله.

وقيل: مَنْ ينقطعُ معي إلى الله. قاله ابن بحر(١). وقيل: مَنْ ينصرُني إلى أنْ أُبيِّنَ أمرَ الله. وقال أبو عبيدة: مَنْ أعواني في ذات الله.

وقال ابنُ عطية(٢): «مَنْ أنصارِي إلى الله» عبارةٌ عن حال عيسى في طلبِهِ مَنْ يقومُ بالدِّين ويؤمِنُ بالشرع ويحميه كما كان محمد ﷺ يعرضُ نفسَه على القبائل ويتعرَّض للأحياء في المواسم. انتهى.

وقال الزمخشريّ(٣): و«إلى الله»: من صلة «أنصارِي» مضمَّناً معنى الإضافة، كأنَّه قيل: مَن الذين يُضِيفُون أنفسَهم إلى الله ينصُرونني كما ينصُرُني؟ أو يتعلق بمحذوف حالاً من الياء، أي: مَنْ أنصاري ذاهباً إلى الله ملتجئاً إليه. انتهى.

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ أي: أصفياءُ عيسى، قاله ابن عبَّاس. أو خواصُّه، قاله الفرَّاء. أو البِيضُ الثِّياب، رواه ابنُ جُبير عن ابن عباس، أو القَصَّارون؛ سُمُّوا بذلك لأنهم يُحوِّرُونَ الثياب، أي: يُبيِّضُونها. قاله الضحَّاك ومقاتل. أو المجاهدون، أو الصَّيَّادون؛ قال لهم عيسى على نبيِّنا وعليه أفضل الصلاة والسلام: ألا تمشونَ معي تصطادون الناسَ للهِ؟ فأجابوا(٤).

(١) هو محمد بن بحر الأصبهاني، أبو مسلم، ذكره ابن حجر في اللسان ٧/ ٦ وقال: كان على مذهب المعتزلة ووجيهاً عندهم، وصنف لهم التفسير على مذهبهم. مات سنة (٣٢٢).

(٢) في المحرر الوجيز ١/ ٤٤٢. وتنظر بعض الأقوال السابقة فيه وفي تفسير الطبري ٥/ ٤٣٧، وتفسير الرازي ٨/ ٦٦، وتفسير القرطبي ٥/ ١٤٨-١٤٩.

(٣) الكشاف ١/ ٤٣٢.

(٤) ينظر ما سبق مفرّقاً في: معاني القرآن للفراء ١/ ٢١٨، وتفسير الثعلبي ٢/ ٦٦-٦٧، وزاد المسير ١/ ٣٩٤، وتفسير القرطبي ٥/ ١٤٩-١٥٠.

قال مصعب: كانوا اثني عشر رجلاً يَسِيحُون معه يُخْرِجُ لهم ما احتاجوا إليه من الأرض. فقالوا: مَنْ أفضلُ منَّا؟ نأكلُ مِنْ أينَ شئنا! فقال عيسى: مَنْ يعملُ بيده ويأكلُ من كَسْبِه. فصارُوا قَصَّارِين[١].

وحكى ابنُ الأنباريّ: الحواريُّون الملوك. وقال الضحَّاك وأبو أَرْطاة: الغسَّالون. وقال ابنُ المبارك: الحَوَار: النُّور، ونُسبوا إليه لِما كان في وجوههم من سيما العبادة ونُورِها[٢].

وقال تاج القُرَّاء[٣]: الحَوَارِيّ: الصِّدِّيق؛ قيل: لمَّا أراهم الآياتِ وصنعَ[٤] لهم ألواناً شتَّى من حُبٍّ واحد[٥] آمنوا به واتَّبعوه.

وقرأ الجمهور: «الحَوَارِيُّون»، بتشديد الياء. وقرأ إبراهيم النَّخَعيّ وأبو بكر الثقفيّ بتخفيف الياء في جميع القرآن[٦]، والعربُ تستثقلُ ضمة الياء المكسورِ ما قبلَها في مثل: القاضِيُون، فتنقل الضمة إلى ما قبلَها، وتحذف الياء لالتقائها ساكنةً مع الساكن بعدَها، فكان القياس على هذا أن يُقال: الحَوَارُون، لكن أُقِرَّت الضمة ولم تنقل دلالةً على أن التشديد مرادٌ، إذ التشديد يحتمل الضمة، كما ذهب إليه الأخفش في «يستهزيون» إذ أبدلَ الهمزة ياءً وحُمِّلَت الضمةَ تذكُّراً لحال الهمزة المرادةِ فيها[٧].

﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: أنصارُ دينِه وشرعِه والداعي إليه.

---

(١) هو بنحوه أطولُ منه في تفسير الثعلبي ٢/ ٦٧. وينظر تفسير الرازي ٨/ ٦٧.

(٢) ينظر تفسير الثعلبي ٢/ ٦٧، وزاد المسير ١/ ٣٩٥، وتفسير القرطبي ٥/ ١٤٩.

(٣) هو محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم الكِرْماني المعروف بتاج القرَّاء، ذكره ابن الجزري في طبقات القراء ٢/ ٢٩١ وقال: إمام كبير محقق ثقة. وذكره السيوطي في الإتقان ٢/ ١٢٢٥ وحذَّر من كتابه «العجائب والغرائب» (في غرائب التفسير) وقال: لا يحلُّ الاعتماد عليها ولا ذكرها إلا للتحذير منها.

(٤) المثبت من (ح) و(د٢) و(يه). وفي النسخ الأخرى: وضع. وفي المحرر الوجيز ١/ ٤٤٢ (والخبر فيه بنحوه): وصبغ. وهو الأشبه.

(٥) الحُبُّ بضم الحاء: الخابية (وعاءٌ يُحفظ فيه الماء). والخبر مطول في تفسير الثعلبي ٢/ ٦٧.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٤٣. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢١ رواية عن ابن عامر.

(٧) الكلام بنحوه أطول منه في المحرر الوجيز ١/ ٤٤٣.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ لما ذكروا أنهم أنصارُ الله؛ ذكروا مستندَ هذه النسبة، وهو الإيمانُ بالله، واستدعَوْا من عيسى أن يشهد بإسلامهم، وذلك على سبيل التثبيت لإيمانهم لأنَّ انقياد الجوارح تابعة لانقياد القلب وتصديقه، والرسلُ تشهدُ يوم القيامة لقومهم وعليهم، ودلَّ ذلك على أنَّ عيسى عليه السلام كان على دين الإسلام، برَّأه الله تعالى من سائر الأديان كما برَّأ إبراهيمَ عليه السلام بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ الآية [آل عمران: ٦٧].

ويحتمل أن يكون «واشْهَدْ» خطاباً لله تعالى، أي: واشْهَدْ يا ربَّنا. وفي هذا توبيخ لنصارى نجران، إذ حكى الله تعالى مقالةَ أسلافهم المؤمنين لعيسى عليه السلام، فليس كمقالهم فيه ودعوى الإلهيَّة له(١).

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ أي: من الآيات الدالَّة على صدق أنبيائك، أو بما أنزلتَ من كلامك على الرُّسل أو بالإنجيل.

﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ هو عيسى على قول الجمهور.

﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ هو محمدٌ ﷺ وأمَّتُه؛ لأنهم يشهدون للرُّسل بالتبليغ، ومحمدٌ ﷺ يشهدُ لهم بالصِّدْق؛ روى ذلك عكرمةُ عن ابن عبَّاس. أو مَنْ آمَنَ قبلَهم؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس. أو الأنبياء؛ لأنَّ كلَّ نبيٍّ شاهدٌ على أمته [قاله عطاء]. أو الصادقون؛ قاله مقاتل. أو الشاهدون للأنبياء بالتصديق. قاله الزجَّاج(٢).

أو الشاهدون لنُصْرَة رسلِك، أو الشاهدون بالحقِّ عندك. رغبوا في أن يكونوا عنده في عداد الشاهدين بالحقِّ من مؤمني الأمم. وعبَّرُوا عن فعل الله ذلك بهم بلفظ: «فاكتُبْنا» إذْ كانت الكتابة تقيِّد وتضبط ما يُحتاج إلى تحقُّقه(٣) وعِلْمِهِ في ثاني حال.

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ الضمير في «مكروا» عائد على مَنْ(٤) عادَ عليه

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٤٤٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٤٣.
(٢) زاد المسير ١/ ٣٩٥. وما سلف بين حاصرتين منه. وكلام الزجاج في معانيه ١/ ٤١٨.
(٣) في المطبوع: وتحقيقه. وكذا هو في المحرر الوجيز ١/ ٤٤٣ والكلام فيه بنحوه.
(٤) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): ما.

الضميرُ في «فلما أحسَّ عيسى منهم الكفر» وهم بنو إسرائيل، ومكرُهم هو احتيالُهم في قتل عيسى بأنْ وكَّلوا به مَنْ يقتلُه غِيلةً.

وسيأتي ذكرُ كيفيةِ حَصْرِه وحَصْرِ أصحابِه في مكانٍ ورَوْمِهم قَتْلَه، وإلقاءِ الشَّبَه على رجل وقتلِ ذلك الرجل وصَلْبِهِ في مكانه إن شاء الله.

ومَكْرُ الله: مجازاتُهم على مكرهم، سمَّى ذلك مكراً لأن المجازاة لهم ناشئة عن المكر، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقوله: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: ١٩٤] وكثيراً ما تسمَّى العقوبة باسم الذنب وإن لم تكن في معناه[١].

وقيل: مَكْرُ الله بهم هو ردُّهم عمَّا أرادُوا برفع عيسى إلى السماء وإلقاءِ شَبَهِهِ على مَنْ أرادَ اغتيالَه حتى قُتل.

وقال الأصمّ: مَكْرُ الله بهم أنْ سَلَّطَ عليهم أهلَ فارس فقتلوهم وسَبَوْا ذَرَارِيَهم.

وذكر ابنُ إسحاق أنَّ اليهود غَزَوا[٢] الحواريِّين بعد رَفْع عيسى، فأخذُوهم وعذَّبُوهم، فسمع بذلك ملك الروم ـ وكان ملك اليهود من رعيَّته ـ فأنقذَهم، ثم غزا بني إسرائيل وصارَ نصرانياً ولم يُظهر ذلك، ثم وليَ ملك آخر بعدُ، وغزا بيتَ المقدس بعد رفع عيسى بنحو من أربعين سنة، فلم يترك فيه حجراً على آخر، وخرج عند ذلك قريظةُ والنضيرُ إلى الحجاز[٣].

وقال المفضَّل: ودبَّروا ودبَّر اللهُ، والمكر لطفُ التدبير.

وقال ابن عيسى[٤]: المكرُ قبيح، وإنما جاز في صفة الله تعالى على مزاوجة الكلام.

وقيل: مكرُ الله بهم إعلاءُ دينه وقهرُهم بالذلّ، ومكرُهم لزومُهم إبطال دينه،

---

(١) الكشاف ١/ ٤٣٢.
(٢) في (أ) و(ب) و(ع): عدوا، وفي (ز٢): غزوا.
(٣) تفسير الرازي ٨/ ٧٠.
(٤) هو علي بن عيسى الرُّمَّاني.

والمكرُ عبارة عن الاحتيال في إيصال الشرّ في خُفية، وهو محالٌ على الله تعالى، فهو متشابه... [(١)] وقيل: ليس بمتشابه؛ لأن المكر عبارة عن التدبير المحكم الكامل، ثم اختصَّ بالتدبير في إيصال الشَّر في خُفية [(٢)] وذلك غير ممتنع.

وقيل: المكرُ الأخذُ بالغفلة لمن استحقَّه.

وسأل رجل الجنيد فقال: كيف رضيَ سبحانه وتعالى لنفسه المكرَ وقد عابَ به غيرَه؟ فقال: لا أدري ما تقول، ولكن أنشدني فلان الظهرانيّ:

ويَقْبُحُ من سِواكَ الفعلُ عندي ... فتفعلُه فيحسُنُ منكَ ذاكا

ثم قال: قد أجبتُك إن كنت تعقل [(٣)].

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ معناه: المُجازِين أهلَ الخيرِ بالفضل وأهلَ الجَوْرِ بالعدل، لأنه فاعلُ حقّ في ذلك، والماكرُ من البشر فاعلُ باطل في الأغلب. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤].

وقيل: «خير» هنا ليست للتفضيل، بل هي كهي في قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤] وقول حسان:

فشَرُّكُما لخيرِكُما الفِداءُ [(٤)]

وفي هذه الآية من ضروب البلاغة: الاستعارة في «أَحَسَّ» إذ لا يُحَسُّ إلا ما كان مُتَجسّداً، والكفرُ ليس بمحسوس، وإنَّما يُعلم ويُفطن به ولا يُدرَك بالحِسّ إلا إن كان «أَحَسَّ» بمعنى: رأى، أو بمعنى: سمعَ منهم كلمة الكفر، فيكون «أَحَسَّ» لا استعارةَ فيه، إذ يكون أدركَ ذلك منهم بحاسَّة البصر أو بحاسَّة الأذن.

---

(١) جاء في هذا الموضع في (أ) و(ب) و(ت) و(ع) (والكلام منها) ما صورتُه: «فبأولى نأخذ وجوه ما سبق»، ولعل صوابه: فيؤوَّل بأحد وجوه ما سبق. وينظر تفسير الرازي ٨/ ٧٠-٧١.

(٢) من قوله: وهو محالٌ على الله تعالى... إلى هذا الموضع من النسخ السالفة، وسقط من باقي النسخ والمطبوع.

(٣) الخبر في تفسير الثعلبي ٢/ ٦٩ بأطول منه.

(٤) هو عجز بيت، وصدرُه: أتهجوه ولستَ لهُ بكُفْءٍ. وهو من قصيدة له في مدح رسول الله ﷺ وهجاء أبي سفيان قبل إسلامه. ينظر ديوان حسان ص٦٤.

وتسميةُ الشيء باسم ثمرته؛ قال الجمهور: أحسَّ منهم القتلَ، وقتلُ نبيٍّ من أعظم ثمرات الكفر.

والسؤال والجواب في: «قال مَنْ أَنْصارِي إلى الله قال الحواريُّون».

والتكرار في: «مَنْ أَنْصَارِي إلى الله» و«أنصارُ الله» و«آمنَّا بالله» و«آمنَّا بما أنزلتَ» و«مكرُوا ومكرَ الله»، و«الماكرين». وفي هذا التجنيس المماثل والمغاير.

والحذف في مواضع.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ العامل في «إذْ»: «ومَكَرَ الله». قاله الطبريّ، أو: «اذكر» قاله بعضُ النحاة، أو: «خير الماكرين» قاله الزمخشريّ[١].

وهذا القول هو بواسطة المَلَك؛ لأنَّ عيسى ليس بمُكَلَّم. قاله ابنُ عطيَّة[٢].

«ومتوفِّيك» هي وفاةُ نوم، رفعَه الله في منامه؛ قاله الرَّبيع، من قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] أي: ورافعُك وأنت نائمٌ حتى لا يلحَقَك خوف، وتستيقظُ وأنت في السماء آمنٌ مقرَّب. أو وفاةُ موت؛ قاله ابنُ عباس. وقال وَهْب: مات ثلاثَ ساعات ورفعَه فيها، ثم أحياه الله بعد ذلك في السماء. وفي بعض الكتب: سبع ساعات.

وقال الفرَّاء: هي وفاةُ موت، ولكن المعنى: متوفِّيك في آخرِ أمرِك عند نزولِك وقتلِك الدجَّالَ، وفي الكلام تقديم وتأخير[٣].

وقال الزمخشريّ[٤]: مستوفي أجلِك، ومعناه: إني عاصِمُك من أن يقتلَك الكفَّار ومؤخِّرُك إلى أجلٍ كتبتُه لك، ومميتُك حَتْفَ أنفِك، لا قتلاً بأيديهم.

وقيل: «متوفِّيك»: قابضُك من الأرض من غير موت. قاله الحسن والضحَّاك

---

(١) ينظر تفسير الطبري ٥/ ٤٤٧، والكشاف ١/ ٤٣٠، والمحرر الوجيز ١/ ٤٤٤.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٤٤.
(٣) الكلام من المصدر السابق. وينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢١٩، وتفسير الثعلبي ٢/ ٧١-٧٢.
(٤) الكشاف ١/ ٤٣٢.

وابنُ زيد وابنُ جُريج ومطر الورَّاق ومحمد بن جعفر بن الزبير، من توفَّيتُ مالي على فلان: إذا استوفيتُه[(١)].

وقيل: أجعلُك كالمتوفَّى، لأنه بالرفع يُشبهُه.

وقيل: آخذُك وافياً بروحك وبَدَنِك.

وقيل: «متوفِّيك»: متقبِّلٌ عملَك. ويضعُفُ هذا من جهة اللفظ.

وقال أبو بكر الواسطيّ: متوفِّيك عن شهواتك[(٢)].

وقال ابنُ عطية: وأجمعتِ الأمَّة على ما تضمَّنَه الحديث المتواتر من أنَّ عيسى عليه السلام في السماء حيٌّ، وأنه ينزلُ في آخر الزمان، فيقتلُ الخنزير، ويكسرُ الصليب ويقتلُ الدَّجَّال، ويفيض العدل، ويظهر بهذه[(٣)] الملَّة ملَّةِ محمد ﷺ، ويحجُّ البيت ويعتمر، ويبقى في الأرض أربعاً وعشرين سنة. وقيل: أربعين سنة. انتهى[(٤)].

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ الرَّفْعُ نقلٌ من سُفْلٍ إلى عُلْوٍ. و«إليَّ» إضافة تشريف[(٥)]. والمعنى: إلى سمائي ومقرِّ ملائكتي[(٦)].

وقد عُلم أنَّ الباري سبحانه وتعالى ليس بمتحيِّزٍ في جهة، وقد تعلَّقَ بهذا المشبِّهةُ في ثبوت المكان له تعالى.

وقيل: إلى مكان لا يملكُ الحُكم فيه في الحقيقة ولا في الظاهر إلا أنا، بخلاف الأرض، فإنه قد يتولَّى المخلوقون فيها الأحكام ظاهراً.

وقيل: إلى محلِّ ثوابك.

---

(١) ينظر تفسير الثعلبي ٢/ ٧١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٤٤، وتفسير القرطبي ٥/ ١٥٣.
(٢) تفسير الثعلبي ٢/ ٧١.
(٣) في (ت) والمحرر الوجيز ١/ ٤٤٤: ويُظهر هذه. وفي المطبوع: وتظهر به.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٤٤. وينظر مسند أحمد (١٠٤٠٤)، وصحيح البخاري (٣٤٤٨)، وصحيح مسلم (١٥٥)، وتفسير الطبري ٥/ ٤٥١-٤٥٢.
(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٤٤.
(٦) الكشاف ١/ ٤٣٢.

قال ابن عبَّاس: رفعَه إلى السماء سماء الدنيا، فهو فيها يُسَبِّحُ مع الملائكة، ثم يُهبِطُه الله عند ظهور الدجَّال على صخرة بيت المقدس.

قيل: كان عيسى على طُور زَيْتا[١] وهَبَّتْ ريح، فهرولَ عيسى، فرفعَه الله في هرولته وعليه مِدْرَعَةٌ من شعر.

وقال الزجَّاج[٢]: كان عيسى في بيتٍ له كَوَّة، فدخل رجلٌ ليقتلَه فرُفع عيسى من البيت، وخرج الرجل في شَبَه عيسى يُخبرُهم أنَّ عيسى ليس في البيت، فقتلوه.

وروى أبو بكر بنُ أبي شيبة عن ابن عباس قال: رفعَ اللهُ عيسى من رَوْزَنَة كانت في البيت[٣].

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ جعلَ الذين كفروا دَنَساً ونَجَساً، فطَهَّرَهُ منهم، لأنَّ صُحبة الأشرار وخِلْطَةَ الفجّار تتنزَّلُ منزلةَ الدَّنَس في الثوب. والمعنى أنه تعالى يُخلِّصُه منهم، فكَنَى عن إخراجه منهم وتخليصِه بالتطهير، وأتى بلفظ الظاهر لا بالضمير - وهو: «الذين كفروا» - إشارةً إلى علّة الدَّنَس والنَّجَس، وهو الكفر، كما قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] وكما جاء في الحديث: «المؤمنُ لا يَنْجُسُ»[٤]. فجعل علّة تطهيره الإيمان.

وقيل: مُطَهِّرُك من أذى الكَفَرة. وقيل: من الكفر والفواحش. وقيل: ممَّا قالوه فيك وفي أمِّك. وقيل: ومطهِّرُك، أي: مطهِّرٌ بك وَجْهَ الناس من نجاسة الكفر والعصيان.

وقال الراغب: متوفِّيك: آخِذُك عن هواك ورافعُك إليَّ عن شهواتك، ولم يكن

---

(١) بنحوه في تفسير ابن أبي حاتم ٤/١١١٢ (الآية ١٥٨ - النساء). وطور زَيْتا هو بيت المقدس كما في تفسير الثعلبي، والدر المنثور ٦/٣٦٦ عن سعيد بن منصور، كلاهما في تفسير سورة التين، ووقع في (أ) و(ت) و(ع): والمطبوع: طور سيناء، ومكانها بياض في (ت).
(٢) معاني القرآن ١/٤١٩.
(٣) الخبر في «مصنفه» (٣٢٥٣٧) مطوّل. وينظر «تفسير» الرازي ٨/٦٩-٧٠. والرَّوزنة: الكَوَّة.
(٤) أخرجه أحمد (٧٢١١)، والبخاري (٢٨٥)، ومسلم (٨٣٤) بأطول منه من حديث أبي هريرة ﷺ، وفيه قصة.

ذلك رفعًا مكانيًا، وإنما هو رِفعة المحلّ وإن كان قد رُفع إلى السماء.

وتطهيرُه من الكافرين: إخراجُه من بينهم. وقيل: تخليصُه من قتلهم[1]، لأن ذلك نَجَسٌ طهَّره الله منه[2].

قال أبو مسلم: التخليص والتطهير واحد، إلا أن لفظ التطهير فيه رِفعةٌ للمخاطَب كما أنَّ الشهود والحضور واحد، وفي الشهود رفعة، ولهذا ذكرَه الله تعالى في المؤمنين، وذكر الحضور والإحضار في الكافرين.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ الكاف ضمير عيسى كالكاف السابقة. وقيل: هو خطاب للنبيّ ﷺ، وهو من تلوين الخطاب. انتهى هذا القول، ولا يظهر.

ومعنى «اتّبعوك» أي: في الدِّين والشريعة، وهم المسلمون، لأنهم متَّبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع.

﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يَعلُونَهم بالحُجَّة، وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف، و«الذين كفروا» هم الذين كذَّبوه وكَذَبُوا عليه من اليهود والنصارى. قاله الزمخشري بتقديم وتأخير في كلامه[3].

فالفوقيَّة هنا بالحُجَّة والبُرهان؛ قاله الحسن. أو بالعِزِّ والمَنَعة؛ قاله ابنُ زيد. فهُم فوق اليهود، فلا تكون لهم مملكةٌ كما للنصارى، فالآية على قوله مُخبِرَةٌ عن إذلال اليهود وعقوبتِهم بأنَّ النصارى فوقَهم في جميع أقطار الأرض إلى يوم القيامة، فخصَّصَ ابنُ زيد المتَّبعين والكافرين، وجعلَه حُكماً دنياويًا لا فضيلةَ فيه للمتَّبعين الكفار، بل كونُهم فوقَ اليهود عقوبةٌ لليهود[4].

وقال الجمهور بعموم المتَّبعين، فيدخلُ في ذلك أمَّةُ محمد ﷺ، نصَّ عليه قتادة، وبعموم الكافرين، والآية تقتضي إعلام عيسى أنَّ أهل الإيمان به كما يجبُ هم فوقَ الذين كفروا بالحُجَّة والبرهان والعزَّة والمَنَعة والغَلَبة.

---

(١) في (أ) و(ت) و(ع): قِبلهم.

(٢) في تفسير الراغب ص٥٩٢-٥٩٣: لأن ذلك طُهرة منه. وينظر تفسير الرازي ٨/ ٧٣.

(٣) الكشاف ١/ ٤٣٣.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٤٥.

ويظهرُ من عبارة ابن جريج[١] أنَّ المتبعين له هم في وقت استنصاره ـ وهم الحواريون ـ جعلَهم اللهُ فوق الكافرين لأنه شَرَّفَهُم، وأبقى لهم في الصالحين ذكراً، فهم فوقَهم بالحجَّة والبرهان وما ظهر عليهم من رضوان الله تعالى.

وقيل: فوقَ الذين كفروا يومَ القيامة في الجنة، إذْ هم في الغُرُفات، والذين كفروا في أسفل سافلين في الدَّرَكات.

وتلخَّصَ من أقوال هؤلاء المفسِّرين أنَّ متَّبِعيهِ هم متَّبعوه في أصل الإسلام، فيكونُ عامًّا في المسلمين وعامًّا في الكافرين، أو هُم متَّبعوه في الانتماء إلى شريعته وإن لم يتَّبعوها حقيقة، ويكون الكافرون خاصًّا باليهود، أو متَّبعوه هم الحواريُّون، والكافرون مَنْ كفرَ به.

وأمَّا الفوقيَّة فإمَّا حقيقةٌ، وذلك بالجنَّة والنَّار، وإمَّا مجازًا، أي: بالحُجَّة والبُرهان فيكون ذلك دينيًّا، وإمَّا بالعزَّة والغَلَبة فيكون ذلك دنياويًّا وإمَّا بهما.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ الظاهر أنَّ «إلى» تتعلَّق بمحذوف، وهو العامل في «فوق»، وهو المفعول الثاني لـ «جاعل»، إذ معنى «جاعل» هنا: مُصَيِّر، فالمعنى: كائنين فوقَهم إلى يوم القيامة. وهذا على أنَّ الفوقيَّة مجاز. وأمَّا إنْ كانت الفوقيَّة حقيقةً ـ وهي الفوقيَّة بالجنة ـ فلا تتعلَّق «إلى» بذلك المحذوف، بل بما تقدَّم من «متوفِّيك»، أو من «رافعُك» أو من «مُطَهِّرُك»، إذْ يصحُّ تعلُّقُه بكلٍّ واحد منها. أمَّا بـ «رافعُك» أو «مطهِّرُك» فظاهر، وأمَّا بـ «متوفيك» فعلى بعض الأقوال[٢].

وهذه الأخبار الأربعة ترتيبُها في غاية الفَصاحة، بدأ أوّلاً بإخباره تعالى لعيسى أنه متوفّيه، فليس للماكرين به تسلُّطٌ عليه ولا تَوصُّلٌ إليه، ثم بشَّرَه ثانياً برفعه إلى سمائه وسُكناه مع ملائكته وعبادته فيها، وطول عمره في عبادة ربِّه، ثم ثالثاً بتطهيره من الكفار، فعَمَّ بذلك جميعَ زمانِه حين رفعَه وحينَ يُنزلُه في آخر الدنيا، فهي بِشارة عظيمة له أنه مُطَهَّرٌ من الكفّار أوّلاً وآخِراً.

---

(١) كذا في المصدر السابق (والكلام منه) ولعل الصواب: ابن زيد، فإنه لم يسبق لابن جُريج قول.

(٢) مثل ما سلف في معناها من قول الحسن وغيره: قابضُك من الأرض من غير موت. وينظر الدر المصون ٣/ ٢١٤.

ولمَّا كان التَّوفِّي والرفعُ كلٌّ منهما خاصٌّ بزمان بُدئَ بهما، ولمَّا كان التطهيرُ عامًّا يشملُ سائرَ الأزمان أُخِّر عنهما.

ولمَّا بشَّره بهذه البشائر الثلاث ـ وهي أوصافٌ له في نفسه ـ بشَّره بِرِفْعَةِ أتباعِه فوق كل كافر لِتَقَرَّ بذلك عينُه ويُسَرَّ قلبُه.

ولمَّا كان هذا الوصفُ من اعتلاء تابعيه على الكفَّار من أوصاف تابعيه تأخَّر عن الأوصاف الثلاثة التي لنفسه، إذ البُداءة بالأوصافِ التي للنفس أهمُّ، ثم أتبعَ بهذا الوصف الرابع على سبيل التبشير بحال تابعيه في الدنيا لِيَكْمُلَ بذلك سرورُه بما أُوتِيَه وأوتِيَ تابعوه من الخير.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ هذا إخبارٌ بالحشر والبعث، والمعنى: ثم إليَّ حكْمي. وهذا عندي من الالتفات؛ لأنه سبقَ ذِكْرُ مكذِّبيه، وهم اليهود، وذِكْرُ من آمن به، وهم الحواريُّون، وأعقبَ ذلك قولُه: «وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا» فذكرَ متَّبعيه والكافرين، فلو جاء على نمط هذا السابق[1] لكان التركيب: ثم إليَّ مرجعهم، ولكنه التفتَ على سبيل الخطاب للجميع ليكون الإخبارُ أبلغَ في التهديد وأشدَّ زجراً لمن يزدجر، ثم ذكرَ لفظة «إليَّ» ولفظة «فأحكم» بضمير المتكلِّم ليُعلم أنَّ الحاكم هناك مَنْ لا تخفى عليه خافية، وذكرَ أنه يحكم فيما اختلفوا فيه من أمر الأنبياء وأتباع شرائعهم، وأتى بالحُكم مبهماً، ثم فصَّلَ المحكوم بينهم إلى كافر ومؤمن، وذكرَ جزاء كلّ واحد منهم.

وقال ابنُ عطيَّة[2]: «مرجعُكم»: الخطابُ لعيسى، والمرادُ الإخبار بالقيامة والحشر، فلذلك جاء اللفظُ عامًّا من حيث الأمرُ في نفسه لا يخصُّ عيسى وحدَه، فخاطبَه كما يخاطبُ الجماعة، إذ هو أحدُها، وإذْ هي مرادة في المعنى. انتهى كلامه. والأولى عندي أن يكونَ من الالتفات كما ذكرتُه.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قيل: يحتمل أن يكونَ خاصًّا، أي: كفروا بك وجَحَدُوا

(١) في النهر الماد (بهامش البحر ٢/ ٤٧٤): السياق.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٧٥.

نُبوَّتك، والظاهرُ العموم، ويجوزُ أن يكون «الذين» مبتدأ، ويجوزُ أن يكون منصوباً بفعل محذوف يفسِّره ما بعدَه، فيكون من باب الاشتغال.

﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وصفَ العذابَ بالشدَّة لتضاعفه وازدياده. وقيل: لاختلاف أجناسه ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالأسر والقتل والجِزْية والذُّلّ، ومن لم ينَلْه شيء من هذا فهو على وَجَل، إذ يعلم أنَّ الإسلام يطلبُه ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بعذاب النار. وهذا إخبارٌ منه تعالى بما يفعل بالكافر من أوّل أمره في دنياه إلى آخر أمره في عقباه.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ تقدَّم تفسير هذه الجملة في هذه السورة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ بدأ أوّلاً بقِسم الكفار لأنَّ ما قبلَه من ذكر حُكمه تعالى بينهم هو على سبيل التهديد والوعيد للكفار والإخبار بجزائهم، فناسبت البُداءة بهم، ولأنهم أقربُ في الذِّكْر بقوله: «فوق الذين كفروا» ولكون الكلام مع اليهود الذين كفروا بعيسى وراموا قتلَه. ثم أتى ثانياً بذكر المؤمنين، وعَلَّقَ هناك العذابَ على مجرَّد الكفر، وهنا علَّق توفيةَ الأجر على الإيمان وعملِ الصالحات تنبيهاً على درجة الكمال في الإيمان ودُعاءً إليها.

والتوفيةُ: دفعُ الشيء وافِياً من غير نقص، والأجورُ ثوابُ الأعمال، شبَّهه بالعامل الذي يُوفَّى أجرَه عند تمام عملِه. وتوفيةُ الأُجور هي قِسَمُ(١) المنازل في الجنة بحسب الأعمال على ما رَتَّبَها تعالى.

وفي الآية قبلَها قال: «فأعذِّبُهم»، أسندَ الفعل إلى ضمير المتكلِّم وحدَه، وذلك ليطابق قولَه: «فأحكم بينكم»، وفي هذه الآية قال: «فيوفِّيهم» بالياء على قراءة حفص ورُوَيْس، وذلك على سبيل الالتفات والخروج من ضمير المتكلِّم إلى ضمير الغَيْبة للتنوُّع في الفَصاحة، وقرأ الجمهورُ: «فنُوَفِّيهم» بالنون الدالَّة على المتكلِّم المعظَّم شأنه(٢)، ولم يأت بالهمزة كما في تلك الآية ليُخالفَ في الإخبارِ بين النسبة

---

(١) جمع قِسْمَة، مثل: سِدْرة وسِدَر. ووقع في (ح): وهي قِسَم...

(٢) ينظر السبعة ص٢٠٦، والتيسير ص٨٨، والنشر ٢/ ٢٤٠. ورُوَيس: راوي يعقوب من العشرة.

الإسناديَّة فيما يفعلُه بالكافر وبالمؤمن، كما خالفَ في الفعل، ولأنَّ المؤمن العاملَ للصالحات عظيمٌ عند الله، فناسبَه الإخبار عن المجازي بنون العظمة.

ويجوزُ أن يكون «الذين آمنوا» مبتدأً، ويجوزُ انتصابُه على إضمار فعل يُفسِّرُه ما بعدَه، ويكون ذلك من باب الاشتغال، كقوله: «وأمّا ثمودَ فهديناهم» [فصلت: ١٧] فيمن نصبَ الدَّال.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تقدم تفسيرُ ما يشبه هذا، وهو قوله: «فإنْ تَوَلَّوْا فإنَّ الله لا يُحبُّ الكافرين» واحتجَّ المعتزلةُ بهذا على أنه تعالى لا يُريد الكفر والمعاصي؛ لأنَّ مريدَ الشيء مُحِبٌّ له إذا كان ذلك الشيء من الأفعال، وإنَّما تُخالفُ المحبَّةُ الإرادةَ إذا عُلِّقتا بالأشخاص، فيقال: أُحِبُّ زيداً، ولا يقال: أُريدُه. وأمَّا الأفعال فهما فيها واحد، فقوله: لا يحب [الظالمين بمنزلة قوله:] لا يريدُ ظلم الظالمين. هكذا قرَّره عبدُ الجبَّار. وعند أصحابنا المحبَّةُ عبارة عن إرادة إيصال الخير له، فهو تعالى وإن أراد كفر الكافر لا يريد إيصال الثواب إليه(١).

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨﴾ «ذلك» إشارةٌ إلى ما تقدَّم من خبر عيسى وزكريا وغيرِهما. و«نتلوه»: نَسْرُدُهُ ونذكُره شيئاً بعد شيء. وأضافَ التلاوةَ إلى نفسه ـ وإن كان المَلَكُ هو التالي ـ تشريفاً له؛ جعلَ تلاوةَ المأمورِ تلاوةَ الآمر.

وفي «نتلُوه» التفات؛ لأنَّ قبلَه ضمير غائب في قوله: «لا يُحبّ» و«نَتْلُوه» معناه: تَلَوْناه، كقوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢] ويجوزُ أن يُراد به ظاهرُه من الحال لأنَّ قصة عيسى لم يفرغ منها، ويكون «ذلك» بمعنى «هذا».

و«الآيات» هنا الظاهر أنه يُراد بها آياتُ القرآن، ويحتمل أن يُراد بها المعجزات والمستغربات، أي: نأتيهم بهذه الغُيوب من قِبَلنا وبسبب تلاوتنا وأنتَ أُمِّيٌّ لا تقرأ ولا تصحبُ أهلَ الكتاب، فهي آياتٌ لنبوَّتك(٢).

---

(١) تفسير الرازي ٨/ ٧٧. وما سلف بين حاصرتين منه.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٤٦.

قال ابن عبَّاس والجمهور: «الذِّكْرُ»: القرآنُ[١]، و«الحكيم» أي: الحاكم، أتى بصيغة المبالغة فيه، ووُصِفَ بصفةِ مَنْ هو مِن سببه، وهو الله تعالى، أو كأنَّه ينطق بالحكمة لكثرة حِكَمِه[٢].

قال الزَّجَّاج[٣]: ولأنه ذو حِكمةٍ في تأليفه ونظمه.

ويجوز أن يكون بمعنى المُحْكَم[٤]. قاله الجمهور، أُحْكِمَ عن طُرق الخلل، ومنه قوله: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] ويكون فَعِيل بمعنى مُفْعَل، وهو قليل، ومنه: أعقدتُ العَسَلَ فهو مُعْقَدٌ وعَقِيد، وأحْبَسْتُ فرساً في سبيل الله فهو مُحْبَسٌ وحَبِيس[٥].

وقيل: المرادُ بالذِّكر هنا اللوحُ المحفوظ الذي منه نُقلت جميعُ كتب الله المنزلةُ على الأنبياء، أخبرَ أنه أنزل هذه القَصَصَ ممَّا كُتب هناك.

و«ذلك» مبتدأ، و«نتلوه» خبر، و«من الآيات» متعلّق بمحذوف؛ لأنه في موضع الحال، أي: كائناً من الآيات، و«من» للتبعيض، لأنَّ هذا المتلوّ بعضُ الآيات والذِّكر.

وجوَّزُوا أن يكون «من الآيات» خبراً بعدَ خبر، وذلك على رأي من يُجيزُ تعدادَ الأخبار بغير حرف عطف إذا كانت لمبتدأ واحد ولم تكن في معنى خبر واحد.

وجوَّزوا أنْ تكونَ «مِنْ» لبيان الجنس، وذلك على رأي من يُجيز أن تكون «مِن» لبيان الجنس، ولا يتأتَّى ذلك هنا من جهة المعنى إلا بمجاز؛ لأنَّ تقدير «مِن» البيانية بالموصول [ليس بظاهر][٦]. ولو قلت: ذلك نتلُوه عليك الذي هو الآياتُ

(١) تفسير الطبري ٥/٤٥٩، والمحرر الوجيز ١/٤٤٦، وزاد المسير ١/٣٩٨.
(٢) الكشاف ١/٤٣٣.
(٣) معاني القرآن ١/٤٢١. وهو أيضاً في زاد المسير ١/٣٩٨.
(٤) ينظر المحرر الوجيز ١/٤٤٦.
(٥) أورد ابن منظور في اللسان (سخن) ألفاظاً كثيرة في هذا الباب، فانظرها إن شئت.
(٦) ما بين حاصرتين من الدر المصون ٣/٢١٧. والكلام فيه عن أبي حيَّان. وينظر نحو هذا الكلام للمصنف في تفسير قوله: ﴿يحسبهم الجاهلُ أغنياء من التعفُّف﴾ (البقرة: ٢٧٣).

والذِّكْرُ الحكيم، لاحتيجَ إلى تأويل، لأنَّ هذا المُشارَ إليه مِن نبأ مَنْ تقدَّم ذكرُه ليس هو جميعَ الآياتِ والذِّكرِ الحكيم، إنما هو بعضُ الآيات، فيحتاجُ إلى تأويل أنه جعلَ بعضَ الآيات والذِّكرِ هو الآياتِ والذِّكرَ على سبيل المجاز.

وممَّن ذهب إلى أنها لبيان الجنس أبو محمد بنُ عطية[1]، وبدأ به، ثم قال: ويجوز أن تكون للتبعيض.

وجوَّزوا أن يكون «ذلك» منصوباً بفعل محذوف يُفسِّرُه ما بعدَه، فيكون من باب الاشتغال، أي: نتلو ذلك نتلوه عليك. والرفعُ على الابتداء أفصح، لأنه عَرِيَ من مرجِّح النصب على الاشتغال، فزيدٌ ضربتُه أفصحُ من: زيداً ضربتُه، وإن كان عربيًّا، وعلى هذا الإعراب يكون «نتلوه» لا موضعَ له من الإعراب لأنه مفسِّر لذلك الفعل المحذوف، ويكون «من الآيات» حالاً من ضمير النصب في «نتلوه».

وأجاز الزمخشريُّ أن يكون «ذلك» بمعنى الذي، و«نتلوه» صلتُه، و«من الآيات» الخبر، وقالَه الزَّجَّاج قبلَه، وهذه نزعة كوفية[2]، يُجيزون في أسماء الإشارة أن تكون موصولة، ولا يجوز ذلك عند البصريِّين إلا في «ذا» وحدَها إذا سبقَها «ما» الاستفهامية باتفاق، أو «مَنْ» الاستفهامية باختلاف، وتقريرُ هذا في علم النحو.

وجوَّزوا أيضاً أن يكون «ذلك» مبتدأً، و«من الآيات» خبر، و«نتلوه» حال. وأن يكون «ذلك» خبرَ مبتدأ محذوف، أي: الأمرُ ذلك: و«نتلوه» حال.

والظاهر في قوله: «والذِّكرِ الحكيم» أنه معطوف على «الآيات»، ومن جعلَها للقَسَم وجوابَ القَسَم: «إنَّ مَثَلَ عيسى» فقد أبعد.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ قال ابن عباس وعكرمة وقتادة والسُّدِّيّ وغيرُهم: جادلَ وفدُ نجرانَ النبيَّ ﷺ في أمر عيسى عليه السلام، وقالوا: بلَغَنا أنك تشتِمُ صاحبَنا وتقول: هو عبد. فقال النبيُّ ﷺ: «وما يضرُّ ذلك

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٤٥.
(٢) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٢١، والكشاف ١/ ٤٣٣.

عيسى؟ أجَلْ، هو عبدُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروحٌ منه». فقالوا: فهل رأيتَ بَشَراً قطّ جاء من غير فحل أو سمعتَ به؟ فخرجوا، فنزلت[١].

وفي بعض الروايات أنهم قالوا: فإن كنتَ صادقاً فأرِنا مثلَه. فنزلت[٢].

وروى وكيع عن مبارك عن الحسن قال: جاء راهبا نجران[٣]، فعرضَ عليهما الإسلامَ، فقال أحدُهما: قد أسلَمْنا قبلَك. فقال: «كذبتُما، يمنعُكما من الإسلام ثلاث: عبادتُكما الصليبَ، وأكلُكُما الخنزيرَ، وقولُكما للهِ ولد». قالا: مَنْ أبو عيسى؟ وكان لا يعجلُ حتى يأمرَه ربُّه. فأنزل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾[٤].

وتقدَّم الكلام في تفسير نحوِ هذا التركيب في قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧].

وقال الزمخشريّ[٥]: إنَّ شأن عيسى وحالَهُ الغريبةَ كشأن آدم، فجعل المَثَل بمعنى الشأن والحال، وهو راجعٌ لقول من قال: المَثَل هنا الصفة، كقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الرعد: ٣٥]. وفي هذا إقرارُ الكاف في قوله: «كمثل آدم» على معناها التشبيهي.

وقال ابن عطية في قول من قال إنَّ المَثَل هنا بمعنى الصفة ما نصُّه: وهذا عندي خطأ وضعفٌ في فهم الكلام، وإنما المعنى أنَّ المَثَل الذي تتصوَّرُه النفوسُ والعقولُ من عيسى هو[٦] كالمتصوَّر من آدم؛ إذِ الناسُ كلُّهم مجمعون على أنَّ الله تعالى خلقَه من تراب من غيرِ فحل، وكذلك «مَثَلُ الجنة» عبارة عن المتصوَّر منها، وفي هذه الآية صحةُ القياس، أي إذا تُصُوِّر[٧] أمرُ آدم قيس[٨] عليه جوازُ أمر عيسى

(١) تفسير الطبري ٥/ ٤٦٠-٤٦٢، وتفسير الثعلبي ٢/ ٧٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٤٦.
(٢) قوله: وفي بعض الروايات أنهم قالوا. . . الخ. ليس في (أ) و(ب) و(ت) و(ع).
(٣) في (أ) و(ع): راهبان من نجران.
(٤) أسباب النزول للواحدي ص٩٨.
(٥) الكشاف ١/ ٤٣٣.
(٦) المثبت من (ح) و(د٢) و(يه)، وهو موافق لما في المحرر الوجيز ١/ ٤٤٦ والكلام منه، وسقط الكلام من (ب). وفي النسخ الأخرى والمطبوع: فهو. وهو خطأ.
(٧) في المحرر الوجيز: تصوروا.
(٨) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): يسر، وفي (ز٢): فقس.

عليه السلام. والكاف في «كَمَثَل» اسم على ما ذكرناه من المعنى. انتهى كلامه.

ولا يظهر لي فرق بين كلامه هذا وكلامِ مَنْ جعلَ المَثَلَ بمعنى الشأن والحال أو بمعنى الصفة.

وفي «ريّ الظمآن»[(١)]: قيل: المَثَل بمعنى الصفة، وقولك: صفةُ عيسى كصفة آدم كلام مطَّرد، على هذا جُلّ اللغويِّين والمفسِّرين. وخالفَ أبو عليّ الفارسيّ الجميع وقال: المَثَل بمعنى الصفة لا يمكن تصحيحُه في اللغة، إنما المَثَل الشَّبَه، على هذا تدور تصاريفُ الكلمة، ولا معنى للوصفيّة في التشابه، والمَثَل كلمةٌ يُرسِلُها قائلُها لحكمةٍ يُشَبَّهُ بها الأمور، ويقابِلُ بها الأحوال. انتهى.

ومَنْ جعلَ المَثَلَ هنا مرادفاً للمِثْل كالشَّبَه والشِّبْه قال: جمع بين أداتي تشبيه على طريق التأكيد للشَّبَه، والتنبيه على عِظَم خطرِه وقَدْرِه. وقال بعض هؤلاء: الكافُ زائدة. وقال بعضُهم: «مَثَل» زائدة. وجعل بعضُهم المَثَلَ هنا من ضرب الأمثال. وقال: العربُ تضربُ الأمثالَ لبيان ما خفيَ معناه ودقَّ إيضاحُه، لمَّا خَفِيَ سِرُّ ولادة عيسى من غير أب لأنه خالف المعروفَ؛ ضربَ اللهُ له المَثَلَ بآدم الذي استقرَّ في الأذهان وعُلم أنه أُوجِدَ من غير أب ولا أمّ، كذلك خلقَ عيسى بلا أب، ولا بدَّ من مشاركةٍ معنوية بين مَنْ ضُرب به المَثَل ومَنْ ضُرب له المَثَل من وجه واحد أو من وجوه، ولا يُشترط الاشتراك في سائر الصفات، والمعنى الذي وقعت فيه المشاركة بين آدم وعيسى كونُ كلّ واحدٍ منهما خُلق من غير أب.

وقال بعض أهل العلم: المشاركةُ بين عيسى وآدم عليهما السلام في خمسةَ عشرَ وصفاً: في التكوين، وفي الخَلْق من العناصر التي رَكَّبَ اللهُ منها الدُّنيا، وفي العبوديَّة، وفي النبوَّة، وفي المحنة؛ عيسى باليهود وآدم بإبليس، وفي أكلهما الطعامَ والشراب، وفي الفقر إلى الله، وفي الصورة، وفي الرفع إلى السماء والإنزال منها إلى الأرض، وفي الإلهام؛ عطسَ آدمُ فأُلْهِمَ فقال: الحمد لله، وأُلْهِمَ عيسى حين خرج من بطن أمّه فقال: إني عبد الله، وفي العلم قال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾

---

(١) هو لأبي عبد الله شرف الدين محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل المُرْسي الأندلسي، مفسّر محدّث نحويّ. توفي سنة (٦٥٥هـ). ينظر سير أعلام النبلاء ٢٣/٣١٨.

وقال: ﴿ونُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، وفي نفخ الروح فيهما ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] وفي الموت، وفي فقد الأب.

ومعنى «عند الله» أي: عند من يعرفُ حقيقة الأمر[١] وكيف هو، أي: هكذا هو الأمر فيما غابَ عنكم ولم تطَّلعوا على كنهه.

والعاملُ في «عند» العاملُ في كاف التشبيه، وهذا التشبيه هو من أحد الطرفين كما تقدَّم، وهو الوجود من غير أب، وهما نظيرانِ في أنَّ كلًّا منهما أوجده الله خارجاً عمَّا استقرَّ واستمرَّ في العادة من خلق الإنسان متولِّداً من ذكر وأنثى كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣] والوجودُ من غير أبٍ وأمّ أغربُ في العادة من وجودٍ من غير أب، فشبَّهَ الغريبَ بالأغرب ليكون أقطعَ للخصم وأحسمَ لمادة شُبهتِه إذا نظرَ فيما هو أغربُ ممَّا استغربَه[٢].

وأُسِرَ بعضُ العلماء بالروم فقال لهم: لِمَ تعبدون عيسى؟ قالوا: لأنه لا أبَ له. قال: فآدمُ أَوْلَى، لأنه لا أبَوَيْنِ له. قالوا: كان يُحيي الموتى. قال: فحِزْقِيلُ أَوْلَى؛ لأن عيسى أحيا أربعةَ نَفَر، وأحيا حِزْقيلُ ثمانيةَ آلاف. فقالوا: كان يُبرِئُ الأكمه والأبرص. قال: فجرجيس أولى لأنه طُبِخَ وأُحرق، ثم قام سالماً[٣]. انتهى.

وصَحَّ أن رسول الله ﷺ رَدَّ عينَ قتادة بعد ما قُلعت، ورَدَّ الله نورَها[٤].

وصحَّ أنَّ أعمى دعا له فرَدَّ الله له بصرَه[٥].

وفي حديث الشابّ الذي أُتيَ به ليتعلَّم من سحر الساحر، فتركَ الساحرَ ودخلَ

---

(١) في (ح) و(د٢) و(يه): عند من يعلم الأمر.

(٢) الكشاف ١/ ٤٣٣.

(٣) المصدر السابق. وسلف خبر حزقيل عند تفسير الآية (٢٤٣) من سورة البقرة.

(٤) وذلك يوم أحد، وهو قتادة بن النعمان أخو أبي سعيد الخدري ﷺ لأمّه. ينظر الاستيعاب ص٦١٦.

(٥) أخرجه الترمذي (٣٨٩٥)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٤١٩) (١٠٤٢٠)، وابن ماجه (١٣٨٥) من حديث عثمان بن حُنيف ﷺ.

في دين عيسى وتعبَّد به، فصار يُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأبرص، وفيه أنه دعا لجليسِ الملك وابنِ عمه وكان أعمى، فردَّ الله عليه بصرَه[١].

﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ هي من تسمية الشيء باسم أصله كقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [فاطر: ١١] كان تراباً ثم صار طيناً وخلق منه آدم كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] وقال تعالى: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١] وقال: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

والضمير المنصوب في «خلقه» عائدٌ على آدم، وهذه الجملة تفسيرية لِمَثَلِ آدم، فلا موضع لها من الإعراب. وقيل: هي في موضع الحال، و«قَدْ» مع «خَلَقَه» مقدَّرة، والعاملُ فيها معنى التشبيه.

قال ابن عطيَّة: ولا يجوزُ أن يكون «خَلَقَهُ» صِلةً لآدم[٢] ولا حالاً منه، قال الزجَّاج: إذ الماضي لا يكون حالاً أنتَ فيها، بل هو كلامٌ مقطوع منه مُضمَّنُه تفسير المَثَل. انتهى كلامه[٣]. وفيه نظر.

والمعنى: قَدَّرَه جَسَدًا من طين، ثم قال له: كُنْ، أي: أنشأه بَشَرًا. قاله الزمخشريّ، وسبقَه إلى معناه أبو مسلم[٤].

قلنا: ولو كان الخَلْقُ بمعنى الإنشاء لا بمعنى التقدير؛ لم يأت بقوله: «ثم قال له كُنْ»؛ لأنَّ ما خُلق لا يقال له: «كُنْ» ولا ينشأ إلا إن كان معنى «ثم قال له كن» عبارةً عن نفخ الرُّوح فيه، وقاله عبد الجبَّار، فيمكن أن يكون «خلقَهُ» بمعنى: أنشأه، لا بمعنى قَدَّرَه. قيل: أو يكون «كُنْ» عبارة عن كونه لحماً ودماً.

وقوله: «فيكون» حكاية حال ماضية، ولا قول هناك حقيقة، وإنما ذلك على

---

(١) هو قطعة من خبر أصحاب الأخدود والساحر والراهب، أخرجه مسلم (٣٠٠٥) وابنُ حبان (٨٧٣) من حديث صُهيب رضي الله عنه.

(٢) في المطبوع: صفة، بدل: صلة. والكلام صحيح أيضاً. وينظر كلام الواحدي الذي نقله عنه السمين في الدّرّ ٣/ ٢١٩.

(٣) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٢٢، والمحرر الوجيز ١/ ٤٤٦.

(٤) الكشاف ١/ ٤٣٣، وتفسير الرازي ٨/ ٨٠.

سبيل التمثيل وكنايةٌ عن سرعة الخلق والتمكّن من إيجاد ما يريد تعالى إيجادَه، إذِ المعدوم لا يمكن أنْ يُؤمر.

و«ثم» قيل: لترتيب الخبر، لأنَّ قوله: «كُنْ» لم يتأخَّر عن خلقه، وإنما هو في المعنى تفسيرٌ للخلق، ويجوز أن يكون للترتيب الزمانيّ، أي: أنشأه أولاً من طين، ثم بعد زمان أوجدَ فيه الرُّوح، أو صَيَّرَهُ لحماً ودماً على من قال ذلك.

وقال الراغب[1]: ومعنى «كُنْ» بعد خلقِه من تراب: كُنْ إنساناً حيًّا ناطقاً، وهو لم يكن كذلك، بل كان دهراً مُلقًى لا رُوح فيه، ثم جعل له الرُّوح، وقوله: «كُنْ» عبارة عن إيجاد الصورة التي صارَ بها الإنسان إنساناً. انتهى.

والضمير في «له» عائد على آدم، وأبعدَ مَنْ زعمَ أنه عائد على عيسى، وأبعدُ من هذا قولُ مَنْ زعمَ أنه يجوزُ أن يعودَ على كل مخلوق خُلق بـ «كُنْ» وهو قول الحَوْفي.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ جملة من مبتدأ وخبر، أخبرَ تعالى أنَّ الحقَّ ـ وهو الشيءُ الثابت الذي لا شكَّ فيه ـ هو واردٌ إليك من ربِّك، فجميعُ ما أنبأك به حقٌّ، فيدخلُ فيه قصةُ عيسى وآدم وجميع أنبيائه[2] تعالى، ويجوز أن يكون «الحقُّ» خبرَ مبتدأ محذوف، أي: هو، أي: خبرُ عيسى في كونه خُلق من أمّ فقط هو الحقّ، و«من ربِّك» حال، أو خبر ثان، أخبر عن قصة عيسى بأنها حقّ، ومع كونها حقًّا فهي إخبارٌ صادرٌ عن الله.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ قيل: الخطابُ بهذا لكلِّ سامعٍ قصةَ عيسى والأخبارَ الواردةَ من الله تعالى.

وقيل: المرادُ به أُمةُ مَنْ ظاهرُ الخطاب له.

قال الزمخشريّ[3]: ونهيُه عن الامتراء ـ وجلَّ رسولُ الله ﷺ أن يكونَ مُمترِياً ـ من باب التهييج لزيادة الثبات والطمأنينة، وأن يكون لُطْفاً لغيره[4].

---

(١) تفسيره ص٦٠٠-٦٠١ (جزء آل عمران)، والكلام فيه بسؤال وجواب.
(٢) المثبت من (ت) و(د٢) و(يه)، وفي النسخ الأخرى: أنبائه.
(٣) الكشاف ١/ ٤٣٣.
(٤) أي: لكل سامع يقف عليه ويصلح للخطاب. ينظر حاشية الشهاب ٣/ ٣٢.

وقال الراغب[١]: الامتراءُ استخراجُ الرأي للشكِّ العارض، ويُجعل عبارةً عن الشكّ، وقال: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ ولم يكن مُمترياً ليكون فيه ذمُّ مَنْ شكَّ في عيسى.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: مَن نازعَكَ وجادَلَك، وهو من باب المفاعلة التي تكون بين اثنين، وكان الأمرُ كذلك بينَه ﷺ وبينَ وفدِ نجران.

والضمير في «فيه» عائد على عيسى، لأنَّ المنازعة كانت فيه، ولأنَّ تصدير الآية السابقة به في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ وما بعده جاء من تمام أمرِه. وقيل: يعود على «الحقّ».

وظاهر «مَنْ» العموم في كل مَنْ يُحاجُّ في أمر عيسى. وقيل: المرادُ وفدُ نجران. و«مَنْ» يصحُّ أن تكون موصولةً ويصحُّ أن تكون شرطية.

و«العِلْم» هنا الوحيُ الذي جاء به جبريل، وقيل: القرآن، وقيل: الآياتُ المتقدِّمةُ في أمر عيسى الموجِبةُ للعلم. و«ما» في «ما جاءك» موصولة بمعنى «الذي» وفي «جاءك» ضمير الفاعل يعود عليها، و«من العلم» متعلِّق بمحذوف في موضع الحال، أي: كائناً من العلم، وتكون «مِنْ» تبعيضية، ويجوز أن تكون لبيان الجنس على مذهب من يرى ذلك. قال بعضُهم: ويُخرَّج على قول الأخفش أن تكون «ما» مصدرية و«من» زائدة، والتقدير: مِنْ بعدِ مجيء العلم إيَّاك.

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا﴾ قرأ الجمهور بفتح اللام، وهو الأصلُ والقياس. إذ التقدير: تفاعل، وألفُه منقلبة عن ياء وأصلُها واو[٢]، فإذا أمرتَ الواحد قلت: تَعَالَ، كما تقول: اِخْشَ واسْعَ.

وقرأ الحسن وأبو واقد وأبو السَّمَّال بضم اللام[٣]، ووجهُه أنَّ أصله: تَعَالَيُوا، كما تقول: تَجَادَلُوا، نقل الضمة من الياء إلى اللام بعد حذف فتحتها، فبقيت الياء ساكنة، وواوُ الضمير ساكنة فحُذفت الياء لالتقاء الساكنين، وهذا تعليل شذوذ.

---

(١) تفسيره ص٦٠٣ (جزء آل عمران).

(٢) يعني أنه فعل أمر من: تَعَالَى يَتَعَالَى، مثل: تَرَامَى يَتَرَامَى، وأصلُ ألفه ياء، وأصلُ هذه الياء واو، وذلك أنه مشتقّ من العلوّ، وهو الارتفاع. ينظر الدّرّ المصون ٣/ ٢٢٤.

(٣) نُسبت في القراءات الشاذة ص٢١ لأبي واقد ونبيح.

﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي: يَدْعُ كلٌّ منِّي ومنكم أبناءَه ونساءَه ونفسَه إلى المُباهَلة. وظاهرُ هذا أنَّ الدعاءَ والمُباهَلةَ بين المخاطَب بـ «قُلْ» وبين مَنْ حاجَّهُ، وفُسِّرَ على هذا الوجهِ الأبناءُ بالحَسَن والحُسين، وبنسائه فاطمة، والأنفس بعليّ. قاله الشعبيّ[1].

ويدلُّ على أنَّ ذلك مختصٌّ بالنبيِّ ﷺ مع مَنْ حاجَّهُ ما ثبت في «صحيح مسلم»[2] من حديث سعد بن أبي وقَّاص قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ دعا رسولُ الله ﷺ فاطمةَ وحَسَناً وحُسيناً فقال: «اللهمَّ هؤلاء أهلي».

وقال قوم: المُباهَلةُ كانت عليه وعلى المسلمين بدليل ظاهر قوله: ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ على الجمع، ولما دعاهم دعا بأهلِه الذين في حَوْزَتِهِ، ولو عزمَ نصارى نَجْرَان على المُباهَلَة وجاؤوا لها أَمَرَ[3] النبيُّ ﷺ المسلمين أن يخرجوا بأهاليهم لمباهلته.

وقيل: المراد بأنفسنا الإخوان، قاله ابنُ قتيبة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] أي: إخوانكم. وقيل: أهل دينه. قاله أبو سليمان الدمشقي.

وقيل: الأزواج، وقيل: أراد القرابة القريبة. ذكرهما عليّ بن أحمد النيسابوري[4].

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي: نَدْعُ بالالتعان، وقيل: نتضرَّعْ إلى الله. قاله ابنُ عباس. وقال مقاتل: نُخلص في الدعاء. وقال الكلبيّ: نجهَد في الدعاء. وقيل: نتداعى بالهلاك[5].

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣١٠، وزاد المسير ١/ ٣٩٩. ووقع في مطبوع البحر: قال الشعبي. وهو خطأ. وأخرج الطبري ٥/ ٤٦٩ خبر الشعبي مطولاً، وأورده ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٤٧.

(٢) رقم (٢٤٠٤): (٣٢).

(٣) في المطبوع: لأمرَ. وكلاهما فصيح.

(٤) زاد المسير ١/ ٣٩٩. وكلام ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن ص١٠٦. وعلي بن أحمد النيسابوري هو الواحدي. ولعل كلامه في تفسيره البسيط.

(٥) تفسير الثعلبي ٢/ ٧٤، وزاد المسير ١/ ٣٩٩، وتفسير القرطبي ٥/ ١٥٨-١٥٩.

﴿فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أي يقول كلٌّ منَّا: لعنَ اللهُ الكاذبَ منَّا في أمر عيسى. وفي هذا دليلٌ على جواز اللَّعن لمن أقامَ على كُفره، وقد لعنَ ﷺ اليهودَ.

قال أبو بكر الرازيّ[١]: وفي الآية دليلٌ على أنَّ الحسن والحُسين ابنا رسول الله ﷺ.

وقال أبو أحمد بنُ [أبي] علَّان[٢]: كانا إذ ذاك مكلَّفَيْن؛ لأنَّ المُباهَلَة لا تصحُّ عنده إلا من مكلَّف.

وقد طَوَّلَ المفسِّرون بما رَوَوْا في قصة المُباهَلَة، ومُضَمَّنُها أنه دعاهم إلى المُباهَلة، وخرجَ بالحسن والحُسين وفاطمةَ وعليّ إلى الميعاد، وأنهم كَفُّوا عن ذلك، ورَضُوا بالإقامة على دينهم، وأن يؤدُّوا الجِزْية، وأخبرَهم أحبارُهم أنهم إنْ باهلُوا عُذِّبُوا، وأَخْبَرَ هو ﷺ أنهم إن باهلُوا عُذِّبُوا. وفي ترك النصارى الملاعنةَ لعلمهم بنبوَّته شاهدٌ عظيم على صحَّة نبوَّته.

قال الزمخشريّ[٣]: فإن قلت: ما كان دعاؤه إلى المُباهَلَة إلا لِيتبيَّنَ الكاذب منه ومن خصمه، وذلك أمرٌ يختصُّ به وبمن يُكاذِبُه، فما معنى ضمِّ الأبناء والنساء؟

قلت: ذلك آكدُ في الدَّلالة على ثقته بحالِه واستيقانِه بصِدقِه حيث استجرأ على تعريض [أعزَّتِه وأفلاذِ كبدِه وأحبِّ الناسِ إليه لذلك، ولم يقتصر على تعريض] نفسِه له، وعلى ثقتِه بكذبِ خصمِه حتى يهلَكَ خصمُه مع أحبَّتِه وأعزَّتِه هلاكَ الاستئصالِ إنْ تمَّت المُباهَلَة. وخصَّ الأبناءَ والنساءَ لأنَّهم أعزُّ الأهل وألصقُهم بالقلوب، وربَّما فَدَاهم الرجلُ بنفسه، وحارَبَ دونَهم حتى يُقتل، ومن ثَمَّ كانوا يسوقون مع

---

(١) هو الجصَّاص، وكلامه في أحكام القرآن ٢/ ١٤. ونقله أيضاً الطبرسي في مجمع البيان ٣/ ١٠١.

(٢) هو عبدُ الله بنُ محمد بن أبي علَّان، قاضي الأهواز، من كبار شيوخ المعتزلة، ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ١٢/ ٧ في وفيات سنة (٤٠٩). وكنَّاه ابنُ تغري بردي في النجوم الزاهرة ٤/ ٢٤٣ أبا محمد. وكذا وقعت كنيتُه في النسخة (د٢). وكلامُه في مجمع البيان ٣/ ١٠١. ولفظة «أبي» بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٣) الكشاف ١/ ٤٣٤، وما سيرد بين حاصرتين منه.

أنفسهم الظعائنَ في الحروب لتمنعَهم من الهرب، ويسمُّون الذَّادةَ عنها بأرواحهم حُماةَ الحقائق، وقدَّمَهم في الذِّكر على الأنفس لِيُنَبِّهَ على لُطف مكانِهم وقُرْبِ منزلتِهم، وليُؤذِن بأنهم مُقَدَّمون على الأنفس مُفَدَّوْن بها، وفيه دليلٌ لا شيءَ أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام(١)، وفيه بُرهانٌ واضحٌ على صحَّة نبوَّة النبيِّ ﷺ؛ لأنه لم يَرْوِ أحدٌ من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك. انتهى كلامه.

وقال ابن عطية(٢): وما رواه الرواة(٣) من أنهم تركوا الملاعنة لعلمهم بنبوَّته أحجُّ لنا على سائر الكفرة وأليقُ بحال محمد ﷺ، ودعاءُ النساء والأبناء للملاعنة أهزُّ للنفوس وأدعى لرحمة الله أو لغضبه على المبطلين، وظاهرُ الأمر أنَّ النبيَّ ﷺ جاءهم بما يخصُّه(٤)، ولو عزموا استدعى المؤمنين بأبنائهم ونسائهم، ويحتمل أنه كان يكتفي بنفسه وخاصته فقط. انتهى.

وفي الآية دليلٌ على المظاهرة بطريق الإعجاز على من يدَّعي الباطل بعد وضوح البرهان بطريق القياس.

ومن أغرب الاستدلال ما استدلَّ به من الآية محمد(٥) بن عليّ الحمصيّ - وكان متكلِّماً على طريق الاثني عشرية - على أنَّ عليًّا أفضلُ من جميع الأنبياء عليهم السلام. سوى محمد ﷺ؛ قال: وذلك أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ ليس المرادُ نفسَ محمد ﷺ لأنَّ الإنسان لا يدعو نفسَه، بل المرادُ غيرُه، وأجمعوا على أنَّ الذي هو غيرُه عليٌّ، فدلَّتِ الآية على أنَّ نَفْسَه نَفْسُ الرسول، ولا يمكن أن يكون عينَها، فالمرادُ: مثلُها، وذلك يقتضي العموم، إلا أنه تُرك في حقِّ النبوَّة

(١) هم عليٌّ وفاطمة وحَسَنٌ وحُسين، ﷺ. والحديث في فضل أصحاب الكساء أخرجه أحمد (١٦٩٨٨) والطبريّ في التفسير ١٩/١٠٣-١٠٤ عن واثلة بن الأسقع، وصحَّحه ابنُ حبَّان (٦٩٧٦).

(٢) في المحرر الوجيز ١/٤٤٨.

(٣) في (ح) و(د٢) و(يه): الناس والرواة.

(٤) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): خصَّه.

(٥) في تفسير الرازي ٨/٨٧: محمود.

الفضلُ لقيام الدليل، ودلَّ الإجماع على أنَّه كان ﷺ أفضلَ من سائر الأنبياء، فلزمَ أن يكون عليّ كذلك. قال: ويؤكِّد ذلك الحديثُ المنقول عنه من[1] الموافق والمخالف: «مَنْ أرادَ أن يرى آدمَ في علمه، ونوحاً في طاعته، وإبراهيمَ في حِلْمِه، وموسى في قومه[2]، وعيسى في صفوته، فلينظرُ إلى عليِّ بن أبي طالب» فيدلُّ ذلك على أنه اجتمعَ فيه ما كان متفرِّقاً فيهم. قال: وذلك يدلُّ على أنه أفضلُ من جميع الأنبياء والصحابة.

وأجابَ الرازيّ بأنَّ الإجماع منعقدٌ على أنَّ النبيَّ ﷺ أفضلُ ممَّن ليس بنبيّ، وعليٌّ لم يكن نبيًّا، فلزمَ القطعُ بأنه مخصوص في حقّ جميع الأنبياء.

وقال غير[3] الرازي: استدلال الحمصيّ فاسدٌ من وجوه:

منها قولُه: إنَّ الإنسان لا يدعُو نفسَه، بل يجوز للإنسان أن يدعوَ نفسَه، تقول العرب: دعوتُ نفسي إلى كذا، فلم تُجِبْني. وهذا يسمِّيه أبو عليّ بالتجريد.

ومنها قولُه: وأجمعوا على أنَّ الذي هو غيرُه هو عليٌّ، ليس بصحيح، بدليل الأقوال التي سَبَقَت في المَغْنِيّ بقوله: «وأنفسَنا».

ومنها قولُه: فتكون نفسُه مثلَ نفسِه. ولا يلزمُ من المماثلة أن تكون في جميع الأشياء، بل تكفي المماثلة في شيء مّا، هذا الذي عليه أهلُ اللغة، لا الذي يقولُه المتكلِّمون من أنَّ المماثلةَ تكون في جميع صفات النفس. هذا اصطلاحٌ منهم، لا لغةً، فعلى هذا تكفي المماثلةُ في صفةٍ واحدة، وهي كونُه من بني هاشم، والعربُ تقول: هذا من أنفُسنا، أي: من قبيلتنا.

وأمَّا الحديث الذي استدلَّ به فموضوعٌ لا أصلَ له، وهذه النزغةُ[4] التي ذهبَ إليها هذا الحمصيّ من كون عليّ أفضلَ من الأنبياء عليهم السلام سوى محمدٍ ﷺ تَلَقَّفَها بعضُ من ينتحلُ كلامَ الصوفيَّة، ووسَّع المجالَ فيها، فزعَمَ أنَّ الوليَّ أفضلُ من

---

(١) في (ح) و(د٢) و(يه): عن. بدل: عنه من. وفي تفسير الرازي ٨/ ٨٦: المقبول عند.

(٢) في تفسير الرازي ٨/ ٨٦: وإبراهيم في خُلَّته، وموسى في هيبته.

(٣) سقطت لفظة «غير» من المطبوع. وسقط بعض الكلام من (ت).

(٤) المثبت من (ت) و(ز٢) و(يه). وفي النسخ الأخرى: النزعة.

النبيّ، ولم يَقْصُر ذلك على وليٍّ واحد كما قَصَرَ ذلك الحمصيّ، بل زعمَ أنَّ رُتبة الولاية التي لا نبوَّةَ معها أفضلُ من رُتبة النبوَّة. قال: لأنَّ الوليَّ يأخذُ عن الله بغير واسطة، والنبيّ يأخذُ عن الله بواسطة، ومَنْ أخذَ بلا واسطة أفضلُ ممَّن أخذَ بواسطة. وهذه المقالةُ مخالفةٌ لمقالات أهلِ الإسلام، نعوذُ بالله من ذلك، ولا أحدَ أكذبُ ممَّن يدَّعي أنَّ الوليّ يأخذُ عن الله بغير واسطة، لقد يقشعرُّ المؤمن من سماع هذا الافتراء!

وحكى لي مَنْ لا أتَّهمُه عن بعض المنتمين إلى أنَّه من أهل الصَّلاح أنه رُئيَ في يده كتاب ينظر فيه، فسُئل عنه فقال: فيه ما أخذتُه عن رسول الله، وفيه ما أخذتُه عن الله شِفاهاً، أو شافَهني به، الشكُّ من السامع.

فانظر إلى جَرَاءة هذا الكاذب على الله، حيث ادَّعى مقامَ مَنْ كلَّمه الله؛ كموسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء.

قيل: وفي هذه الآية ضروبٌ من البلاغة

منها:

إسنادُ الفعل إلى غير فاعله، وهو: «إذْ قالَ اللهُ يا عيسى»، واللهُ لم يُشافهه بذلك، بل بإخبار جبريلَ أو غيرِه من الملائكة.

والاستعارةُ في «مُتَوَفِّيك»، وفي «فوقَ الذين كفروا»، والتفصيلُ لما أُجمل في «إليَّ مَرْجِعُكم فأحْكُمُ» بقوله: «فأمَّا» «وأمَّا».

والزيادة لزيادة المعنى في «مِنْ ناصرين». والمَثَل في قوله: «إنَّ مَثَلَ عيسى».

والتجوُّز بوضع المضارع موضع الماضي في قوله: «نتلوه»، وفي «فيكون». وبالجمع بين أداتي تشبيه على قولٍ في «كَمَثَلِ آدم».

وبالتجوُّز بتسمية الشيء باسم أصله في «خلقَه من تراب». وخطابُ العين والمرادُ به غيرُه في: «فلا تكن من الممترين».

والعامُّ يُراد به الخاصُّ في «نَدْعُ أبناءَنا» الآية. والتجوُّز بإقامة ابنِ العمّ مقامَ النفسِ على أشهر الأقوال.

والحذفُ في مواضعَ كثيرة.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ هذا خبرٌ من الله جزمٌ مؤكَّد فُصِلَ به بين المختصمين[١]، والإشارةُ إلى القرآن[٢] على قول الجمهور، والظاهر أنه إشارة إلى ما تقدَّم من أخبار عيسى وكونهِ مخلوقاً من غير أب. قاله ابنُ عبَّاس وابنُ جُريج وابنُ زيد وغيرُهم[٣]، أي: هذا هو الحقُّ، لا ما تدَّعيه النصارى فيه من كونه إلهاً أو ابنَ الله، ولا ما تدَّعيه اليهودُ فيه.

وقيل: «هذا» إشارةٌ إلى ما بعدَه من قوله: «وما مِنْ إله إلا الله» ويضعُف بأنَّ هذه الجملة ليست بقَصَص، وبوجود حرف العطف في قوله: «وما»؛ قال بعضُهم: إلا إن أرادَ بالقَصَص الخبرَ، فيصحُّ على هذا، ويكون التقدير: إنَّ الخبَرَ الحقَّ أنَّه ما منْ إلهٍ إلا الله. انتهى. لكن يمنعُ من هذا التقدير وجودُ[٤] واو العطف. واللامُ في «لَهُوَ» دخلت على الفَصْل، و«القَصَصُ» خبر «إنَّ»، و«الحقُّ» صفةٌ له.

و«القَصَصُ» مصدر أو فَعَل بمعنى مفعول، أي: المقصُوص، كالقَبَضِ بمعنى المقبوض، ويجوز أن يكون «هو» مبتدأً، و«القَصَصُ» خبرُه، والجملةُ في موضع خبر «إنَّ» ووَصْفُ القَصَص بالحقِّ إشارةٌ إلى القَصَص المكذوب الذي أتى به نصارى نَجْران وغيرُهم في أمر عيسى وإلاهِيَّتِهِ.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: المختصُّ بالإلهيَّة هو اللهُ وحدَه. وفيه ردٌّ على الثَّنَوِيَّة[٥] والنَّصارى وكلِّ مَنْ يدَّعي غيرَ الله إلهاً.

و«مِنْ» زائدة لاستغراق الجنس، و«إله» مبتدأ محذوف الخبر، و«الله» بدل منه على الموضع، ولا يجوز البدل على اللفظ؛ لأنه يلزم منه زيادة «من» في الواجب، ويجوز في العربية في نحو هذا التركيب نصبُ ما بعد «إلا» نحو ما من شجاعٍ

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٤٨.
(٢) تفسير القرطبي ٥/ ١٦٠.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٤٨. وأخرج الطبري ٥/ ٤٦٧-٤٦٨ القول عن ابن عباس وابن جُريج وابن زيد ومحمد بن جعفر بن الزبير.
(٤) في (أ). لكن يمتنع من هذا وجود... الخ. وسقط الكلام من (ب) و(ت).
(٥) هي فرقة تزعم بوجود إلهين أزليَّيْن، ويزعمون أن النور والظُّلْمة أزليَّان. ينظر الملل والنحل للشهرستاني ٢/ ٨٠ (بهامش الملل لابن حزم).

إلا زيداً، ولم يُقرأ بالنصب في هذه الآية، وإن كان جائزاً في العربية النصبُ على الاستثناء.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ إشارةٌ إلى وصفَي الإلهيَّة، وهما القدرة الناشئة عن الغَلَبة، فلا يمتنعُ عليه شيء، والعِلْمُ المعبَّرُ عنه بالحكمة فيما صَنَع والإتقانِ لما اخترع، فلا يخفَى عنه[١] شيء، وهاتان الصفتان منفيَّتان[٢] عن عيسى.

ويجوز في «لَهُوَ» من الإعراب ما جاز في «لَهُوَ القَصَصُ»، وتقدَّم ذكرُ فائدة الفصل.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ قال مقاتل: فإنْ تولَّوْا عند المُلاعَنة. وقال الزجَّاج: عن البيان الذي أتى به[٣] رسولُ الله ﷺ.

وقال أبو سليمان الدمشقيّ: عن الإقرار بالوحدانية والتنزيه عن الصاحبة والولد[٤].

وقال المَرْسِيّ[٥]: عن هذا الذِّكر. وقيل: عن الإيمان.

و«تَوَلَّوْا» ماضٍ، أو مضارعٌ حُذفت تاؤه، وجوابُ الشرط في الظاهر الجملة من قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾. والمعنى: ما يترتَّبُ على علمه بالمفسدين من معاقبته لهم، فعبَّر عن العقاب بالعِلم الذي ينشأ عنه عقابُهم، ونبَّه على العِلَّة التي تُوجب العقاب، وهي الإفساد، ولذلك أتى بالاسم الظاهر دون الضمير، وأتى به جمعاً ليدلَّ على العموم الشامل لهؤلاء الذين تولَّوا ولغيرهم، ولكونه رأسَ آية، ودلَّ على أنَّ تَوَلِّيَهُم إفسادٌ أيُّ إفساد.

---

(١) في (د٢) و(به): عليه. ومكانها سواد في (ح).

(٢) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): منتفيتان.

(٣) المثبت من هامش (د١) وعليه علامة الصحة، وهو موافق لما في زاد المسير ١/ ٤٠٠ وفيه قول الزجَّاج، ولفظُه في معانيه ١/ ٤٢٤: إن أعرضوا عما أتيتَ به من البيان... الخ. وفي (د١): جاء به. وفي النسخ الأخرى: أبانه.

(٤) الأقوال الثلاثة في زاد المسير ١/ ٤٠٠.

(٥) الضبط من (د١)، وهو نسبة إلى مَرْسِية، مدينة في بلاد الأندلس، ذكر السمعاني أن المغاربة يذكرونها بفتح الميم، وقيَّدها هو في الأنساب ١١/ ٢٤٥ بضمها. والمرسيّ: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي الفضل، له كتاب «ريّ الظمآن» في تفسير القرآن. وسلف ذكره.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ نزلت في وفد نَجْران. قاله الحسن والسُّدِّيُّ ومحمد بن جعفر بن الزُّبير[١].

قال ابن زيد: لما أَبَى أهلُ نجران ما دُعُوا إليه من الملاعنة؛ دُعُوا إلى أيسرَ من ذلك، وهي الكلمة السَّوَاء[٢].

وقال ابن عبَّاس: نزلت في القِسِّيسِين والرُّهْبان؛ بعثَ بها النبيُّ ﷺ إلى جعفر وأصحابِه بالحبشة، فقرأها جعفر والنجاشيُّ جالسٌ وأشرافُ الحبشة[٣].

وقال قتادة والرَّبيع وابنُ جُريج: في يهود المدينة، وهم الذين حاجُّوا في إبراهيم[٤].

وقيل: نزلت في اليهود والنصارى، قالوا: يا محمد، ما تريد إلا أنْ نقولَ فيك ما قالت اليهود في عُزير[٥].

ولفظ: «يا أهل الكتاب» يعمُّ كلَّ مَنْ أوتي كتاباً، ولذلك دعا رسولُ الله ﷺ اليهودَ بالآية[٦]، والأقربُ حَمْلُه على النصارى لأنَّ الدَّلالة[٧] وردت عليهم والمُباهَلَة معهم، وخاطبهم بـ «يا أهل الكتاب» هَزًّا لهم في استماع ما يُلقى إليهم، وتنبيهاً على أنَّ مَنْ كان أهلَ كتابٍ من الله ينبغي أن يتَّبع كتابَ الله.

ولما قطعهم بالدلائل الواضحة فلم يُذْعِنُوا، ودعاهم إلى المُباهَلَة فامتنعوا؛ عَدَلَ إلى نوعٍ من التلطُّف وهو دعاؤهم إلى كلمةٍ فيها إنصافٌ بينَهم.

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ١/ ٣٩٩ عن الحسن والسُّدِّيّ وابن زيد، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٤٨ عن محمد بن جعفر بن الزبير والسُّدِّي، وأخرجه عنهما الطبري في تفسيره ٥/ ٤٧٥. وينظر تفسير القرطبي ٥/ ١٦٠.

(٢) أخرجه الطبري ٥/ ٤٧٥-٤٧٦ بنحوه، ولفظُه لابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٤٨.

(٣) زاد المسير ١/ ٤٠٠.

(٤) النكت والعيون ١/ ٣٩٩، والمحرر الوجيز ١/ ٤٤٨، والمصدر السابق. وينظر تفسير الثعلبي ٢/ ٧٥-٧٦.

(٥) ينظر تفسير الثعلبي ٢/ ٧٥-٧٦.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٤٨.

(٧) في (ح) و(يه): الدلة.

وقرأ أبو السَّمَّال: «كَلْمَة»، كضَرْبَة، و«كِلْمَة»، كسِدْرَة. وتقدَّم هذا عند قوله: «مُصَدِّقاً بكلمة»[(١)].

والكلمة هي[(٢)] ما فُسِّرت به بعدُ، وقال أبو العالية: لا إله إلا الله[(٣)]. وهذا تفسيرُ المعنى، وعبَّر بالكلمة عن الكلمات؛ لأنَّ الكلمة قد تُطلِقُها العربُ على الكلام، وإلى هذا ذهبَ الزَّجّاج[(٤)]؛ إمَّا لوضع المفرد موضعَ الجمع كما قال:

بها جِيَفُ الحَسْرَى فأمَّا عِظامُها فبِيضٌ وأمَّا جِلْدُهَا فصَلِيبُ[(٥)]

وإمَّا لكونِ الكلمات مرتبطةً بعضُها ببعض، فصارت في قوة الكلمة الواحدة؛ إذا اختلَّ جزءٌ منها اختلَّت الكلمة، لأن كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» هي كلماتٌ لا تتمُّ النسبةُ المقصودة فيها من حصر الإلهيّة في الله إلا بمجموعها.

وقرأ الجمهور: «سواءٍ» بالجرّ على الصفة، وقرأ الحسن: «سواءً» بالنصب، وخرَّجه الحَوْفيُّ والزمخشريُّ على أنه مصدر، قال الزمخشريّ: بمعنى استوت استواءً[(٦)]. فيكون «سواء» بمعنى استواء.

ويجوزُ أن ينتصبَ على الحال من «كلمة» وإن كان نكرةً ذو الحال، وقد أجاز ذلك سيبويه وقاسَه، والحالُ والصفة متلاقيان من حيث المعنى، والمصدرُ يحتاج إلى إضمار عامل وإلى تأويل «سَواء» بمعنى استواء، والأشهر استعمال «سَواء»

---

(١) الآية (٣٩) في قصة زكريا، والكلام في المصدر السابق.
(٢) في (د٢) و(به): هنا.
(٣) تفسير الطبري ٥/ ٤٧٨، والمحرر الوجيز ١/ ٤٤٩.
(٤) معاني القرآن ١/ ٤٢٤.
(٥) البيت لعلقمة بن عَبَدة الفحل، وهو في ديوانه (بشرح الشنتمري) ص٤٠، والمفضَّليات ص٣٩٤. وهو من شواهد سيبويه ١/ ٢٠٩، وذكره المبرِّد في المقتضب ٢/ ١٧٣. قال الشنتمري: بها، أي: الطريق التي ذكر، والحَسْرَى: المُعْيِيَة (أي: الإبل التي أعْيَتْ وكَلَّتْ). وجعلَ عظامَها بِيضاً لقدم عهدها، أو لأنَّ السِّباع والطير أكَلَتْ ما عليها من اللحم، فبدا وَضَحُها، والصَّليب: الوَدَك الذي يخرج من الجلد، أو اليابس الذي لم يُدبغ. وكان وجه الكلام أن يقول: وأمَّا جلودُها. فلم يمكنه، فاجتزأ بالواحد عن الجمع لأنه لا يُشكل.
(٦) الكشاف ١/ ٤٣٥. وفيه قراءة الحسن، وهي أيضاً في القراءات الشاذة ص٢١.

بمعنى اسم الفاعل، أي: مستوٍ. وقد تقدَّم الكلام على «سَواء» في أول البقرة [٦].

وقال قتادة والرَّبيع والزجَّاج هنا يعني بالسَّواء العَدْل، وهو من استواء الشيء[١].

وقال زهير:

أَرُونـي خُـطَّـةً لا ضَـيْـمَ فـيـهـا يُـسَـوِّي بـيـنَـنـا فـيـهـا الـسَّـوَاءُ[٢]

والمعنى: إلى كلمة عادلةٍ بينَنا وبينَكم. وقال أبو عبيدة[٣]: تقولُ العرب: قد دعاك فلان إلى سَوَاءٍ فاقْبَلْ منه.

وفي مصحف عبد الله: «إلى كلمةٍ عَدْلٍ بينَنا وبينكم»[٤].

وقال ابن عباس: إلى كلمة مستوية[٥]، أي: مستقيمة.

وقيل: إلى كلمةٍ قَصْد. قال ابنُ عطيَّة[٦]: والذي أقولُه في لفظة «سَوَاء» أنَّها ينبغي أن تُفَسَّر بتفسير خاصٍّ بها في هذا الموضع، وهو أنه دعاهم إلى معانٍ جميعُ الناسِ فيها مستوون؛ صغيرهم وكبيرهم، وقد كانت سيرةُ المدعوِّين أن يتَّخذَ بعضُهم بعضاً أرباباً، فلم يكونوا على استواء حالٍ، فدعاهم بهذه الآية إلى ما تألفُه النفوس من حقّ لا يتفاضلُ الناسُ فيه، فـ «سَوَاء» على هذا التأويل بمنزلة قولك لآخَر: هذا

---

(١) المثبت من (ت)، وهو موافق لما في معاني القرآن للزجَّاج ١/ ٤٢٥، ونقله صاحب زاد المسير ١/ ٤٠١. وفي النسخ الأخرى: وهو من استوى الشيء. وقول قتادة والربيع أخرجه الطبري ٥/ ٤٧٨، وهو في المحرر الوجيز ١/ ٤٤٩.

(٢) ديوان زهير بن أبي سُلمى بشرح ثعلب ص٨٤، وهو في معاني القرآن لكلّ من الزجَّاج ١/ ٤٢٥، والنحاس ١/ ٤١٨. ورواية الديوان: أرونا سُنَّةً لا عَيْبَ فيها. والخُطَّة: الخَصلة (كما في شرحه)، وفي القاموس: الخُطَّة: العدل.

(٣) مجاز القرآن ١/ ٩٦.

(٤) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٢٠، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٣، والقراءات الشاذة ص٢٣ (وضبطت «كلمة» فيه بكسر الكاف وسكون اللام)، والمحرر الوجيز ١/ ٤٤٩.

(٥) الكشاف ١/ ٤٣٥ دون نسبة، ولم أقف على من نسبه لابن عبَّاس قبل أبي حيَّان.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٤٩. والقول السابق فيه. وتأخر كلام ابن عطية في النسخ (أ) و(ب) و(ت) و(ع) عن هذا الموضع بحوالي صفحة. ووقع فيها أيضاً اختلاف في سياق بعض الأقوال. والمثبت من النسخ الأخرى.

شريكي في مالٍ سَوَاءٍ بيني وبينَه، والفرقُ بين هذا التفسير وبين تفسير لفظة العَدْل[١] أنك لو دعوتَ أسيرًا عندك إلى أن يُسلم أو تضربَ عنقَه؛ لكنتَ قد دعوتَه إلى السَّوَاء الذي هو العَدْل، على[٢] هذا الحدِّ جاءت لفظة «سَوَاء» في قوله تعالى: ﴿فَانۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] على بعض التأويلات. وإن دعوتَ أسيرَك إلى أن يُؤمنَ فيكونَ حرًّا مقاسِماً لك في عيشك لكنتَ قد دعوتَه إلى السَّوَاء الذي هو استواءُ الحال على ما فسَّرتُه، واللفظةُ على كلِّ تأويل فيها معنى العَدْل، ولكنِّي لم أرَ لمتقدِّم أن يكون في اللفظة معنى قصد استواء الحال، وهو عندي حَسَن، لأنَّ النفوس تألفُه، والله الموفِّق للصواب. انتهى كلامه. وهو تكثيرٌ لا طائل تحتَه.

والظاهر انتصابُ الظرف بـ «سَوَاء».

﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ موضع «أنْ» جرّ على البَدَل من «كلمة» بدل شيء من شيء، ويجوزُ أن يكونَ في موضع رفع خبراً لمبتدأ محذوف، أي: هي أنْ لا نعبدَ إلا الله.

وجوَّزُوا أن يكون الكلام تمَّ عند قوله: «سَوَاء»، وارتفاعُ «أنْ لا نعبدَ» على الابتداء والخبرُ قوله: «بينَنا وبينَكم». قالوا: والجملة صفة للكلمة، وهذا وهم لِعِرْوِ[٣] الجملة من رابط يربطُها بالموصوف.

وجوَّزُوا أيضاً ارتفاع «أنْ لا نعبدَ» بالظرف، ولا يصحُّ إلا على مذهب الأخفش والكوفيِّين حيث أجازُوا إعمالَ الظرف من غير اعتماد، والبصريُّون يمنعون ذلك[٤].

وجوَّزَ عليُّ بن عيسى[٥] أن يكون التقدير: إلى كلمةٍ مُسْتَوٍ بينَنا وبينكم فيها الامتناعُ من عبادة غيرِ الله، فعلى هذا يكون «أنْ لا نعبدَ» في موضع رفع على الفاعل بـ «سَوَاء»، إلا أنَّ فيه إضمارَ الرابط وهو «فيها»، وهو ضعيف، والمعنى: أنْ نُفرِدَ اللهَ تعالى وحدَه بالعبادة ولا نُشركَ به شيئاً، أي: لا نجعلَ له شريكاً.

---

(١) عبارة المحرر الوجيز: وبين تفسير اللفظة بعدل. وهي أنسب.
(٢) في المصدر السابق: وعلى.
(٣) أي: خِلْوِ.
(٤) ذكر هذه الأوجه العكبري في الإملاء ١/ ١٣٨، وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٤٩ الوجهين الأوَّلَيْن.
(٥) هو أبو الحسن الرُّمَّانيّ النحوي، وفاته سنة (٣٨٤هـ).

و«شيئاً» يحتمل أن يكون مفعولاً به، ويحتمل أن يكون مصدراً، أي: شيئاً من الإشراك، والفعلُ في سياق النفي، فيعمُّ متعلَّقاتِه من مفعول به ومصدر وزمان[(١)] ومكان وهيئة.

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: لا نتَّخذَهُم أرباباً فنعتقدَ فيهم الإلهيَّةَ ونعبدَهم على ذلك، كعُزَيْرٍ وعيسى. قاله مقاتل والزجَّاج وعكرمة[(٢)]، وقيل عنه: إنَّه سجودُ بعضِهم لبعض[(٣)]. أو: لا نُطيعُ الأساقفةَ والرؤساء فيما أَمَرُوا به من الكفر والمعاصي ونجعلُ طاعتَهم شرعاً. قاله ابنُ جُرَيْج، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾[(٤)] [التوبة: ٣١].

وعن عديّ بن حاتم: ما كنَّا نعبدُهم يا رسول الله. قال: «أليس كانوا يُحِلُّون لكم ويُحرِّمُون فتأخذون بقولهم؟» قال: نعم قال: «هو ذاك»[(٥)].

وفي قوله: «بعضُنا بعضاً» إشارة لطيفة، وهي أنَّ البعضيَّة تُنافي الإلهيَّة، إذْ هي تَماثلٌ في البشريَّة، وما كان مثلك استحالَ أن يكون إلهاً لك[(٦)]، وإذا كانوا قد استبعدُوا اتِّباعَ مَنْ شاركهم في البشريَّة للاختصاص بالنبوَّة في قولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[(٧)] [المؤمنون: ٢٤ و٣٣] ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧] فادّعاء الإلهيَّة فيهم ينبغي أن يكونوا فيه أشدَّ استبعادًا.

وهذه الأفعال الداخلُ عليها أداة النفي متقاربة في المعنى يؤكّد بعضُها بعضاً، إذ اختصاصُ الله تعالى بالعبادة يتضمَّن نَفْيَ الإشراك[(٨)] ونَفْيَ اتّخاذِ الأرباب من دون الله، ولكنَّ الموضع موضعُ تأكيد وإسهاب ونشر كلام، لأنهم كانوا مبالغين في

---

(١) قوله: وزمان، ليس في (ح) و(د٢) و(يه).
(٢) زاد المسير ١/ ٤٠٢ عن مقاتل والزجَّاج - وهو بنحوه في معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٢٦ - والمحرر الوجيز ١/ ٤٤٩ عن عكرمة.
(٣) تفسير الطبري ٥/ ٤٧٩-٤٨٠، والنكت والعيون ١/ ٣٩٩، وزاد المسير ١/ ٤٠٢.
(٤) المصادر السابقة، والمحرر الوجيز ١/ ٤٤٩.
(٥) أخرجه بنحوه الترمذي (٣٣٥٢)، والطبري في التفسير ١١/ ٤١٨، والطبراني في المعجم الكبير ١٧/ (٢١٨)، ولفظُه أعلاه هو لفظُ الكشاف ١/ ٤٣٥.
(٦) في (ح) و(يه): إلهك. وسقط بعض الكلام في هذا الموضع من (ت).
(٧) في النسخ الخطية والمطبوع: إن هو إلا بشر مثلكم. وهو خطأ.
(٨) في (أ) و(ت) و(ع) والمطبوع: الاشتراك.

التمسُّك بعبادة غير الله، فناسبَ ذلك التوكيد في انتفاء ذلك، والنصارى جمعوا بين الأفعال الثلاثة: عبدُوا عيسى، وأشركُوا بقولهم: ثالثُ ثلاثة، واتَّخذوا أحبارَهم أرباباً في الطاعة لهم في تحليل وتحريم، وفي السجود لهم.

قال الطبري[١] في قوله «أرباباً من دون الله»: أنزلُوهم منزلةَ ربِّهم في قبول التحريم والتحليل لِما لم يُحرِّمْه الله تعالى ولم يُحلَّه، وهذا يدلُّ على بطلان القول بالاستحسان المجرَّد الذي لا يستندُ إلى دليلٍ شرعيّ، كتقديراتٍ دون مستند، والقولِ بوجوب قبولِ قولِ الإمام دون إبانة مستندٍ شرعيّ كما ذهب إليه الرَّوافض. انتهى، وفيه بعض اختصار.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: فإن تولَّوا عن الكلمة السَّواء فأشْهِدُوهم أنكم منقادون إليها. وهذا مبالغةٌ في المباينة لهم، أي: إذا كنتم متولِّين عن هذه الكلمة، فإنَّا قابلون لها ومطيعون. وعُبِّر عن العلم بالشهادة على سبيل المبالغة؛ إذْ خرجَ ذلك من حيِّز المعقول إلى حيِّز المشهود، وهو المُحضر في الحسّ.

قال ابن عطيَّة: هذا أمرٌ بإعلامٍ لمخالفتهم ومواجهتهم بذلك[٢]، وإشهادِهم على معنى التوبيخ والتهديد، أي: سترون أنتم أيُّها المتولُّون عاقبةَ تولِّيكم كيف تكون. انتهى.

وقال الزمخشريّ[٣]: أي: لزمَتْكم الحُجَّة، فوجبَ عليكم أن تعترفوا وتُسلِّموا بأنَّا مسلمون دونكم، كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع أو غيرهما: اعترف[٤] بأنِّي أنا الغالب وسلِّم لي الغَلَبة. ويجوز أن يكون من باب التعريض، ومعناه: اشهدُوا واعترِفُوا بأنكم كافرون حيث تولَّيتُم عن الحقّ بعد ظهوره. انتهى.

وهذه الآية في الكتاب الذي وجَّه به رسولُ الله ﷺ دِحْيَةَ إلى عظيم بُصرى، فدفَعَه إلى هِرَقْل[٥].

---

(١) هو الكيا الهرَّاسي: وكلامه في كتابه أحكام القرآن ص٢٨٨.

(٢) في المحرر الوجيز ١/ ٤٤٩: أمر بتصريح مخالفتهم بمخاطبتهم ومواجهتهم بذلك.

(٣) الكشاف ١/ ٤٣٥.

(٤) في (ح) و(د٢) و(يه): اعرف.

(٥) أخرج الخبر مطولاً أحمد (٢٣٧٠)، والبخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس ﵄، وأخرجه مختصراً في تفسيره كلٌّ من ابن المنذر ١/ ٢٣٥، والبغوي ١/ ٣١٢.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

عن ابن عباس وغيره أنَّ اليهود قالوا: كان إبراهيم يهوديًا، وأنَّ النّصارى قالوا: كان نصرانيًا، فأنزلها الله منكرًا عليهم[(١)].

وقال ابنُ عباس والحسن: كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام سأل الله تعالى أنْ يجعلَ له لسانَ صِدْقٍ في الآخِرين، فاستجابَ اللهُ دعاءَه حتى ادَّعَتْهُ كلُّ فِرْقَة.

و«ما» في قوله: «لِمَ» استفهامية[(٢)]، حُذفت ألفُها مع حرف الجرّ، ولذلك علّة ذُكرت في النَّحو، وتتعلّق اللام بـ «تُحاجُّون»، ومعنى هذا الاستفهام الإنكارُ.

ومعنى «في إبراهيم» في شَرْعِهِ ودينِه وما كان عليه، ومعنى المُحاجَّةِ ادِّعاءُ كلٍّ من الطائفتين أنه منها وجِدالُهم في ذلك، فردَّ الله عليهم ذلك بأنَّ شريعة اليهود والنصارى متأخِّرةٌ عن إبراهيم، وهو متقدِّم عليهما، ومحالٌ أن يُنسب المتقدِّم إلى المتأخِّر.

ولظهور فساد هذه الدَّعوى قال: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي: هذا كلامُ مَنْ لا يعقل، إذ العقلُ يمنعُ من ذلك، ولا يناسبُ أن يكون موافقاً لهم لا في العقائد ولا في الأحكام، أمَّا في العقائد فعبادتُهم عيسى وادِّعاؤهم أنه الله أو ابنُ الله أو ثالثُ ثلاثة، وادِّعاءُ اليهود أنَّ عُزَيْراً ابنُ الله، ولم يكونا موجودَيْنِ في زمان إبراهيم، وأمَّا الأحكام فإنَّ التوراة والإنجيل فيهما أحكامٌ مخالِفةٌ للأحكام التي كانت عليها شريعةُ إبراهيم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النساء: ١٦٠] وقولُه: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ [النحل: ١٢٤] وغيرُ ذلك، فلا يمكن أن يكون إبراهيمُ على دِينٍ حَدَثَ بعدَه بأزمنة متطاولة، ذكرَ المؤرِّخون أنَّ بين إبراهيم وموسى ألفَ سنة، وبينَه وبين عيسى ألفان[(٣)].

ورَوَى أبو صالح عن ابن عباس أنَّه كان بين إبراهيم وموسى خمسُ مئة سنة

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٤٨١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٥٠، وزاد المسير ١/ ٤٠٢.
(٢) في (ح) و(د٢) و(يه): ولِمَ، بدل قوله: وما في قوله لِمَ.
(٣) الكشاف ١/ ٤٣٥.

وخمسٌ وسبعون سنة، وبين موسى وعيسى ألفُ سنة وستُّ مئة واثنتان وثلاثون سنة.

وقال ابنُ إسحاق: كان بين إبراهيم وموسى خمسُ مئة سنة وخمس وستون سنة، وبين موسى وعيسى ألفٌ وتسع مئة سنة وخمس وعشرون[1].

والواو في «وما أُنزلت التوراة» لعطف جملة على جملة، هكذا ذكروا، والذي يظهرُ أنَّها للحال، كهي في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠] وقوله: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١] وقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. أنكرَ عليهم ادِّعاءَ أنَّ إبراهيم كان على شريعة اليهود أو النصارى والحال أنَّ شريعتَيهما متأخرتان عنه في الوجود، فكيف يكون عليها مع تقدُّمه عليهما؟!

وأمَّا الحنيفيَّة والإسلام فمن الأوصاف التي يختصُّ بها كلُّ ذي دين حقّ، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. إذ الحَنيف هو المائل للحقّ، والمسلمُ هو المستسلِمُ للحقّ، وقد أخبرَ القرآن بأنَّ إبراهيم كان حنيفاً مسلماً.

وفي قوله: «أفلا تعقلون» توبيخٌ على استحالة مقالتهم، وتنبيهٌ على ما يظهر به غلطُهم ومكابرتُهم.

﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ الذي لهم به علمٌ هو دينُهم الذي وجدُوه في كتبهم وثبتَ عندَهم صحَّتُه، والذي ليس لهم به علم هو أمرُ إبراهيم ودينُه، ليس موجوداً في كتبهم، ولا أَتَتْهُم به أنبياؤهم، ولا شاهدُوه فيعلموه. قاله قتادة والسُّدِّيّ والربيع وغيرُهم. وهو الظاهرُ لِمَا حَفَّ به من قبلِه ومن بعدِه من الحديث في إبراهيم. ونسبَ هذا القولَ إلى الطبريِّ[2] ابنُ عطيَّة وقال[3]: ذهبَ عنه أنَّ ما كان هكذا فلا يحتاجُ معهم فيه إلى مُحاجَّة؛ لأنهم يجدونه عند محمد ﷺ كما كان هنالك على حقيقته.

---

(١) هذا القول والذي قبله في «زاد المسير» ١/ ٤٠٣.

(٢) بنحوه في تفسير الطبري ٥/ ٤٨٣-٤٨٤.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٥١.

وقيل: الذي لهم به علم هو أمرُ محمد ﷺ؛ لأنهم وجدوا نَعْتَه في كتبهم، فجادلُوا بالباطل، والذي ليس لهم به علم هو أمرُ إبراهيم، والظاهرُ في قوله: «فيما لكم به علم» إثباتُ العلم لهم.

وقال ابنُ عطيَّة: «فيما لكم به علم»: على زعمكم، وإنما المعنى فيما يُشبهُ دعواكم، ويكون الدليلُ العقليُّ يردُّ عليكم(١).

وقال قتادة أيضاً: حاجَجْتُم فيما شهدتُم ورأيتُم، فلم تُحاجُّون فيما لم تشاهدوا ولم تعلموا(٢)؟

وقال الرازيّ(٣): «هاأنتم هؤلاء» الآية، أي: زعمتُم أنَّ شريعة التوراة والإنجيل مخالفةٌ لشريعة القرآن، فكيف تُحاجُّون فيما لا علم لكم به؟ وهو ادِّعاؤُهم أنَّ شريعة إبراهيم مخالفةٌ لشريعة محمد صلى الله عليهما وسَلَّم، ويحتمل أن يكون قولُه: «لكم به علم» أي: تدَّعُون علمه، لا أنه وصفَهم بالعلم حقيقة، فكيف تُحاجُّونه فيما لا علم لكم به(٤) البتَّة.

وقرأ الكوفيُّون وابنُ عامر والبَزِّيُّ: «هاأنتم» بألف بعد الهاء، بعدَها همزة «أنتم» محقَّقة(٥)، وقرأ قُنبل: «هأَنْتُمْ» بهاء بعدها همزة «أنتم» محقَّقة. وقرأ نافع وأبو عَمرو ويعقوب بهاء بعدَها ألف، بعدَها همزة مسهَّلة بَيْنَ بَيْن(٦)، وأبدلَ أُناس هذه الهمزة ألفاً محضة لورش.

و«ها» للتنبيه لأنه يكثر وجودُها مع المضمرات المرفوعة مفصولاً بينها وبينَ اسم الإشارة حيث لا استفهام، وأصلُها أن تُباشرَ اسمَ الإشارة، لكن اعتُنِيَ بحرف

---

(١) المصدر السابق، ووقع في مطبوعه: لا يردُّ عليكم!

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٤٨٤، وسلف ذكره بنحوه عنه.

(٣) تفسيره ٨/ ٩٥.

(٤) في (د١): فكيف يحاجُّونه فيما لا علم لهم به.

(٥) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع) والدر المصون ٣/ ٢٣٥: مخففة، وهو خطأ.

(٦) نسب ابنُ الجزري هذه القراءة في النشر ١/ ٤٠٠ لأبي جعفر المدني بدل يعقوب، وذكر أن يعقوب قرأ بألف بعد الهاء، وتحقيق الهمزة، مثل قراءة الكوفيين وابن عامر والبَزِّي. والكوفيون من السبعة: عاصم وحمزة والكسائي. وينظر السبعة ص٢٠٧، والتيسير ص٨٨، والبدور الزاهرة ص٦٥.

التنبيه فقُدِّم، وذلك نحو قول العرب: هاأنا ذا قائماً، وهاأنت ذا تصنعُ كذا، وهاهو ذا قائماً، ولم يُنبَّه المخاطَب هنا على وجود ذاتِه، بل نُبِّهَ على حالٍ غَفَلَ عنها لشغَفِه بما التبسَ به، وتلك الحالةُ هي أنهم حاجُّوا فيما لا يعلمون، ولم تَرِد به التوراة والإنجيل، فتقول لهم: هَبْ أنكم تحتجُّون فيما تدَّعون أنْ قد وردَ به كتبُ الله المتقدِّمةُ، فلِمَ تحتجُّون فيما ليس كذلك؟

وتكون الجملة خبرية وهو الأصل؛ لأنه قد صدرَتْ منهم المُحاجَّةُ فيما يعلمون، ولذاك أنكرَ عليهم بعدُ المُحاجَّةَ فيما ليس لهم به علم، وعلى هذا تكون «ها» قد أُعيدَتْ مع اسم الإشارة توكيداً، وتكون في قراءة قُنبل قد حذف ألف «ها» كما حذفَها مَن وقفَ على ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَ﴾ [الزُّخرف: ٤٩][1] بالسكون، وليس الحذف فيها بقويٍّ في القياس.

وقال أبو عَمرو بنُ العلاء وأبو الحسن الأخفش: الأصلُ في «هاأنتم»: آأنتم، فأبدلَ من الهمزة الأولى التي للاستفهام هاءً، لأنها أختُها، واستحسنَه النَّحاس[2]، وإبدال الهمزة هاءً مسموعٌ في كلمات، ولاتنقاس، ولم يُسمع ذلك في همزة الاستفهام، لا يُحفظ من كلامهم: هَتَضْربُ زيداً، بمعنى: أتضربُ، إلا في بيتٍ نادر جاءت فيه «ها» بدل همزة الاستفهام، وهو:

وأتَتْ صواحِبُها وقُلْنَ هذا الذي[3] مَنَحَ المودَّةَ غيرَنا وجَفانا[4]

ثم الفصلُ بين الهاء المبدَلة من همزة الاستفهام وهمزة «أنتَ» لا يُناسب، لأنه إنَّما يُفصل لاستثقال اجتماع الهمزتين، وهنا قد زال الاستثقال بإبدال الأولى هاءً، ألا ترى أنهم حذفوا الهمزة في نحو: أُرِيقُهُ، إذ أصلُه: أُأَرِيقُه، فلمَّا أبدلوها هاءً لم

(١) وكذا: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]. وينظر الدر المصون ٣/ ٢٣٧.
(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٤، والكشاف ١/ ٤٣٦، وتفسير القرطبي ١/ ١٦٤.
(٣) يريد: أذا الذي. وينظر الدر المصون ٣/ ٢٣٧.
(٤) سرّ صناعة الإعراب ٢/ ٥٥٤، والمفصَّل ١٠/ ٤٢، واللسان ١٥/ ٤٥٠. وتاج العروس (ذا). وفيها: وأتى صواحبُها فقلن... ونقل ابن يعيش في شرح المفصَّل ١٠/ ٤٣ عن الأزهري رواية: وأتت صواحبها (وهي رواية المصنف)، وذكر ابن منظور والزَّبيدي أن اللحياني أنشده عن الكسائي لجميل.

يحذفوا، بل قالوا: أُهَرِيقُهُ. وقد وجَّهوا قراءة قُنبل على أنَّ الهاء بدل من همزة الاستفهام لكونها هاءً لا ألفَ بعدها، وعلى هذا مَنْ أثبتَ الألف فتكون عنده فاصلة بين الهاء المبدلة من همزة الاستفهام وبين همزة «أنتم»، أجرى البدل في الفصل مُجرى المبدل منه. والاستفهامُ على هذا معناه التعجُّبُ من حماقتهم.

وأمّا من سهَّل فلأنها همزة بعد ألف على حدّ تسهيلِهم إيَّاها في «هَبَاءَة»[1]، وأمَّا تحقيقُها فهو الأصل، وأمّا إبدالُها ألفاً فقد تقدَّم الكلام في ذلك في قوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦].

و«أنتم» مبتدأ، و«هؤلاء» الخبر، و«حاججتُم» جملة حالية، كقول العرب: هاأنتَ ذا قائماً، وهي من الأحوال التي ليست يُستغنى عنها كقوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥] على أحسن الوجوه في إعرابه.

وقال الزمخشريّ[2]: «أنتم» مبتدأ، و«هؤلاء» خبرُه، و«حاجَجْتُم» جملة مستأنفة مُبيِّنة للجملة الأولى، يعني: أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقَى، وبيانُ حماقَتِكم وقلَّةُ عقولِكم أنكم حاجَجْتُم فيما لكم به علم ممَّا نطق به التوراة والإنجيل، فلِمَ تُحاجُّون فيما ليس لكم به علم ولا له ذكر في كتابيكم من دين إبراهيم عليه السلام. انتهى.

وأجازُوا أن يكون «هؤلاء» بدلاً وعطفَ بيان، والخبر «حاجَجْتُم» وأجازُوا أن يكون «هؤلاء» موصولاً بمعنى الذين[3]، وهو خبر المبتدأ، و«حاجَجْتُم» صلتُه، وهذا على رأي الكوفيِّين، وأجازُوا أيضاً أن يكون منادى، أي: يا هؤلاء، وحُذف منه حرف النّداء، ولا يجوز حذف حرف النّداء من المشار على مذهب البصريِّين، ويجوز على مذهب الكوفيِّين، وقد جاء في الشِّعر حذفُه، وهو قليل، نحو قول رجل من طيِّئ:

---

(١) ينظر الكتاب ٣/٥٤٧، والأصول في النحو ٢/٣٩٩-٤٠٠. قال سيبويه: «الألِفُ تحتمل أن يكون الحرف المهموز بعدها بين بين، لأنها مدّ». وهَبَاءة واحدة الهَبَاء، وهو ما يكون من شعاع الشمس، وهو شبيه بالغبار. ينظر معاني القرآن للنحاس ٥/١٨.

(٢) الكشاف ١/٤٣٥.

(٣) في (ب) و(ت) و(د١) و(ز٢): الذي. وسقط الكلام من (أ) و(ع) في هذا الموضع، والمثبت من (ح) و(د٢) و(يه).

إنَّ الأُلى وُصِفُوا قَومي لهم فَبِهِمْ   هذا اعْتَصِمْ تلقَ مَنْ عاداك مخذُولا[(١)]

وقال:

لا يَـغُـرَّنَّـكُـم أُولاءِ مِـن الـقَـوْ   مِ جُنُوحٌ لـلـسِّـلْـم فَـهْـوَ خِـداعُ[(٢)]

يريد: يا هذا اعتصم، ويا أولاء.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمُ دينَ إبراهيمَ الذي حاجَجْتُم فيه وكيف حالُ الشرائع في الموافقة والمخالفة، وأنتم لا تعلمون ذلك، وهو تأكيدٌ لِما قبلَه من نفي العلم عنهم في شأن إبراهيم.

وفي قوله: «والله يعلم» استدعاءٌ لهم أن يسمعوا، كما تقول لمن تُخبرُه بشيء لا يعلمه: اسمع، فإني أعلمُ ما لا تعلم.

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أعْلَم تعالى براءةَ إبراهيم عليه السلام من هذه الأديان، وبدأ بانتفاء اليهوديَّة؛ لأنَّ شريعة اليهود أقدمُ من شريعة النَّصارى، وكرَّر «لا» لتأكيد النَّفي عن كلِّ واحد من الدِّينَيْن، ثم استدرك ما كان عليه بقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ ووقعت «لكنْ» هنا أحْسَنَ موقعِها، إذْ هي واقعة بين النَّقيضَيْن بالنسبة إلى اعتقاد الحقّ والباطل.

ولمَّا كان الكلام مع اليهود والنصارى كان الاستدراك بعد ذِكرِ الانتفاء عن شريعَتَيْهما[(٣)]، ثم نَفَى على سبيل التكميل للتبرِّي[(٤)] من سائر الأديان كونَه من المشركين، وهم عَبَدَةُ الأصنام، كالعرب الذين كانوا يدَّعون أنهم على دين إبراهيم، وكالمجوس عَبَدَةِ النار وكالصَّابئة عَبَدَةِ الكواكب، ولم ينصَّ على تفصيلهم، لأنَّ الإشراك يجمعُهم.

---

(١) شرح التسهيل ٣/ ٢٧٩. قوله: «قَوْمي» خبر «إنَّ»، و«لهم» متعلِّق بصلة الموصول، وهي «وُصفوا»، فيكون قد فَصَلَ بين العامل والمعمول بأجنبيّ للضرورة. قاله الصبَّان في حاشيته على الأشموني ١/ ١١٨. وسلف البيت عند تفسير الآية (٨٥) من البقرة.

(٢) شرح التسهيل ٣/ ٢٧٩.

(٣) في (أ) و(ب) و(ع) والمطبوع: شريعتهما، وفي (ت): شريعتهم.

(٤) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): على سبيل التبرِّي.

وقيل: أراد بالمشركين اليهود والنصارى لإشراكهم به عُزيراً والمسيحَ، فتكون هذه الجملة توكيداً لما قبلَها من قوله: «ما كان إبراهيمُ يهوديًّا ولا نصرانيًّا».

وجاء: «من المشركين»، ولم يجئ: وما كان مشركاً، فيناسبَ النفيَ قبلَه؛ لأنَّها رأسُ آية.

وقال ابن عطيّة[1]: نَفَى عنه اليهوديَّةَ والنصرانيَّةَ والإشراكَ الذي هو عبادةُ الأوثان، ودخلَ في ذلك الإشراكُ الذي تتضمَّنُه اليهوديَّة والنصرانيَّة، وجاء ترتيبُ النَّفْي على غاية الفصاحة، نَفَى نفس المِلَل، وقرَّر الحالَ الحسنة، ثم نَفَى نَفْياً بَيَّنَ به أنَّ تلك المِللَ فيها هذا الفساد الذي هو الشِّرك، وهذا كما تقول: ما أخذتُ لك مالاً، بل حفظتُه، وما كنتُ سارقاً. فنفيتَ أقبحَ ما يكون في الأخذ. انتهى كلامه.

وتلخّص بما تقدَّم أنَّ قولَه: «وما كان من المشركين» فيه ثلاثة أقوال:

أحدُها: أنَّ المشركين عَبَدَةُ الأصنام والنار والكواكب.

والثاني: أنهم اليهودُ والنصارى.

والثالث: عَبَدَة الأوثان واليهود والنَّصارى.

وقال عبد الجبَّار: معنى: «ما كان يهوديًّا ولا نصرانيًّا»: لم يكن على الدِّين الذي يَدِينُ به هؤلاء المُحاجُّون، ولكن كان على جهة الدِّين الذي يدينُ به المسلمون، وليس المرادُ أنَّ شريعة موسى وعيسى لم تكن صحيحة.

وقال عليّ بنُ عيسى[2]: لا يُوصفُ إبراهيمُ بأنَّه كان يهوديًّا ولا نصرانيًّا، لأنهما صفتا ذَمٍّ لاختصاصِهما بفرقتين ضالّتَيْن، وهما طريقان محرَّفان عن دين موسى وعيسى، وكونُه مسلماً لا يُوجبُ أن يكونَ على شريعة محمد ﷺ، بل كان على جهة الإسلام. والحنيفُ اسمٌ لمن يَستقبلُ في صلاته الكعبة، ويحجُّ إليها، ويُضَحّي ويختتن. ثم سُمِّيَ من كان على دين إبراهيم حنيفاً. انتهى.

وفي حديث زيد بن عَمْرو بن نُفيل أنه خرج إلى الشام يسألُ عن الدِّين، وأنه

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٥١.
(٢) هو أبو الحسن الرُّمَّاني. ولم أقف على قوله، ولا على القول الذي قبله.

لقيَ عالماً من اليهود، ثم عالماً من النَّصارى، فقال له اليهوديّ: لن تكون على ديننا حتى تأخذَ بنصيبك من غضب الله. وقال له النصرانيّ: لن تكونَ على ديننا حتى تأخذَ بنصيبك من لعنة الله. فقال زيد: ما أَفِرُّ إلا من غضب الله ومن لعنتِه، فهل تدلَّاني على دين ليس فيه هذا[١]؟ قالا: ما نعلمه إلا أن تكون حَنِيفاً. قال: وما الحَنِيف؟ قال: دينُ إبراهيم، لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا، وكان لا يعبدُ إلا الله وحدَه. فلم يزل رافعاً يديه إلى السماء وقال: اللهم إني أُشهِدُكَ أنّي على دين إبراهيم[٢].

وقال الرازيّ ما ملخَّصُه[٣]: إنَّ النَّفْيَ إنْ كان في الأصول، فيكون في الموافقة ليهود زمان رسول الله ﷺ ونصاراه، لأنهم غَيَّرُوا، فقالوا: المسيح ابنُ الله وعُزير ابنُ الله، لا في الأصول التي كان عليها اليهودُ والنصارى الذين كانوا على ما جاء به موسى وعيسى، إذْ جميع الأنبياء متوافقون في الأصول، وإن كان في الفروع فلأنَّ الله نسخَ شريعةَ إبراهيم بشريعة موسى وعيسى، وأمَّا موافقتُه لشريعة محمد ﷺ فإن كان في الأصول فظاهر، وإن كان في الفروع فتكون الموافقة في الأكثر، وإن خالفَ في الأقلّ لم[٤] يقدح في الموافقة.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ قال ابنُ عباس: قالت رؤساء اليهود: واللهِ يا محمد، لقد علمتَ أنّا أولى الناسِ بدين إبراهيم منك ومن غيرك، وإنه كان يهوديًا، وما بك إلا الحسد. فنزلت[٥].

ورُويَ حديثٌ طويلٌ في اجتماع جعفرٍ وأصحابه وعَمرو بنِ العاص وأصحابه بالنجاشيّ، وفيه أنَّ النجاشيَّ قال: لا دَهْوَرَةَ اليوم على حزب إبراهيم، أي: لا خوفَ ولا تَبِعة. فقال عَمْرو: ومَنْ حزبُ إبراهيم؟ فقال النجاشيّ: هؤلاء الرَّهْطُ

---

(١) في (يه): غير هذا.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري في التفسير ٥/٤٨٦-٤٨٧، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١/٤٥١-٤٥٢.

(٣) تفسير الرازي ٨/٩٥.

(٤) في (أ): لا. وفي (د١) والمطبوع: فلم.

(٥) تفسير الثعلبي ٢/٧٨، وأسباب النزول للواحدي ص١٠٠، وتفسير القرطبي ٥/١٦٦.

وصاحبُهم. يعني جعفراً وأصحابَه ورسولَ الله ﷺ. فقال عَمْرو: نحن حِزْبُ إبراهيم. فنزلت[١]. ورَوَى عبدُ الله بنُ مسعود عن النبيِّ ﷺ[٢] أنه قال: «لكلِّ نبيٍّ وُلاةٌ من النَّبيِّين، وإنَّ وَلِيِّيَ منهم أبي وخليلُ ربِّي إبراهيم» ثم قرأ هذه الآية[٣].

ومعنى «أَوْلَى النَّاس» أخصّهم به وأقربهم منه، من الوَلْي، وهو القُرْب[٤].

والذين اتَّبعوه يشملُ كلَّ مَن اتَّبَعَه في زمانه وغيرِ زمانه، فيدخلُ فيه متَّبِعُوه في زمان الفَتَرات. وعَنَى بالأتْباع أتْباعَه في شريعته.

وقال عليّ بن عيسى: أي: أحقّهم بنصرته، أي: بالمعونة وبالحُجَّة، فمن تَبِعه في زمانه نصرَه بمعونته على مخالفيه، ومحمدٌ والمؤمنون نصرُوه بالحُجَّة له أنه كان مُحِقًّا سالماً من المطاعن.

«وهذا النبيّ»: يعني به محمداً ﷺ، وخُصَّ بالذِّكر مِنْ سائر مَنِ اتَّبعه لتخصيصِه بالشَّرف والفضيلة، كقوله: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨].

«والذين آمنوا» قيل: آمنوا من أمة محمد، وخُصُّوا أيضاً بالذِّكر تشريفاً لهم، إذْ هم أفضلُ الأتباع للرُّسل، كما أنَّ رسولَهم أفضلُ الرُّسل. وقيل: المؤمنون في كلِّ زمان.

وعطف «وهذا النبيُّ» على خبر «إنَّ». ومَنْ أعربَ «وهذا النبيُّ والذين آمنوا» مبتدأً، وقَدَّرَ الخبر: هم المتَّبعون له، فقد تكلَّفَ إضماراً لا ضرورة تدعو إليه.

وقُرِئ: «وهذا النبيَّ» بالنصب[٥] عطفاً على الهاء في «اتَّبعوه»، فيكون مُتَّبَعاً لا مُتَّبِعاً، أي: أحقُّ الناسِ بإبراهيمَ مَن اتَّبعَ إبراهيمَ ومحمداً صلى الله عليهما وسلم، ويكون «والذين آمنوا» عطفاً على خبر «إنّ» فهو في موضع رفع.

---

(١) الخبر مطول في تفسير الثعلبي ٢/٧٨-٨٠، وأسباب النزول للواحدي ص١٠٠-١٠٣، وتفسير البغوي ١/٣١٣-٣١٤.

(٢) من قوله: فقال عمرو، نحن حزب إبراهيم. . . إلى هذا الموضع، سقط من المطبوع.

(٣) أخرجه أحمد (٣٨٠٠)، والترمذي (٢٩٩٥)، والطبري في تفسيره ٥/٤٨٨، وفي إسناده ضعف لانقطاع فيه كما ذكر محققو المسند.

(٤) الكشاف ١/٤٣٦.

(٥) القراءات الشاذة ص٢١، والكشاف ١/٤٣٦، وفيهما أيضاً القراءة على الجرّ (وسترد).

وقرئ: «وهذا النبيِّ» بالجرِّ، ووُجِّهَ على أنه عطف على «إبراهيم»، أي: إنَّ أولى الناس بإبراهيم وبهذا النبيِّ للَّذين اتبعوا إبراهيم. و«النبيُّ» قالوا: بدل من «هذا» أو نعت أو عطف بيان[(١)].

ونبّه على الوصف الذي يكون به اللهُ وليًّا لعباده، وهو الإيمان، فقال: «وليُّ المؤمنين»، ولم يقل: وليُّهم، وهذا وعدٌ لهم بالنصر في الدُّنيا، وبالفوز في الآخرة، وهذا كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧].

قيل: وجمعت هذه الآياتُ من البلاغة التنبيه والإشارة، والجمع بين حرفي التأكيدِ، والفَصْل في قوله: «إنَّ هذا لهو القَصَصُ الحقّ»، وفي «وإنَّ الله لهو العزيز الحكيم»، والاختصاص في «عليم بالمفسدين» وفي «وليُّ المؤمنين»، والتجوُّز بإطلاق اسم الواحد على الجمع في «إلى كلمةٍ سَوَاءٍ»، وبإطلاق اسم الجنس على نوعه في «يا أهل الكتاب» إذا فُسّر باليهود، والتّكرار في «إلا الله» «وإنَّ الله»، وفي «يا أهل الكتاب تَعَالَوْا» «يا أهل الكتاب لِمَ»، وفي «في إبراهيم» «وما كان إبراهيم» «وإنّ أَوْلَى الناس بإبراهيم»، والتشبيه في «أرباباً»؛ لمَّا أطاعوهم في التحليل والتحريم وأذعنوا إليهم؛ أطلق عليهم أرباباً تشبيهاً بالرَّبّ المستحقّ للعبادة والرُّبُوبية، والإجمال في الخطاب في «يا أهل الكتاب تَعَالَوْا» «يا أهل الكتاب لِمَ تُحاجُّون» كقول إبراهيم: «يا أبَتِ، يا أبَتِ»[(٢)]، وكقول الشاعر[(٣)]:

مَـهْلاً بـنـي عَـمِّـنـا مَـهْـلاً مَـوَالِـيـنـا لا تَـنْـبِـشُـوا بـيـنَـنـا مـا كـانَ مَـدْفُـونـا

وقول الآخر:

بـنـي عـمِّـنـا لا تَـنْـبِـشُـوا الـشَّـرَّ بَـيْـنَـنـا فـكـم مـن رَمـادٍ صـارَ مـنـه لَـهِـيـبُ[(٤)]

والتجنيس المماثل في «أولى» و«وليُّ».

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٥١. وجاء فيه بعده: وفي كونه بدلاً نظر.

(٢) الآيات (٤٢-٤٥) من سورة مريم.

(٣) البيت للفضل بن عباس بن عُتبة بن أبي لهب، ويلقَّب بالأخضر اللهبي، والبيت في الكامل للمبرِّد ٣/ ١٤١٠، والمؤتلف والمختلف للآمدي ص٤١، وشرح الحماسة للمرزوقي ١/ ٢٢٤. ويعني بالموالي: بني العمّ. قال المرزوقي: هذا التكرار يريد به التأكيد.

(٤) لم أقف عليه.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ أجمع المفسّرون على أنها نزلت في معاذ وحُذيفة وعمّار؛ دعاهم يهود من بني النَّضِير وقُريظة وقينقاع إلى دينهم[(١)].

وقيل: دعاهم جماعة من أهل نجران ومن يهود، قال ابن عباس: هم اليهود قالوا لمعاذ وعمّار: تركتُما دينَكما واتَّبعتُما دينَ محمد. فنزلت[(٢)]. وقيل: عَيَّرتْهم اليهود بوقعة أُحُد.

قال أبو مسلم الأصفهاني: وَدَّ، بمعنى تَمنَّى، فيستعمل معها «لَوْ» و«أَنْ»، وربَّما جُمع بينهما، فيقال: وَدِدْتُ أنْ لو فعل[(٣)]. ومصدرُه: الوَدَادَة، والاسم منه: وَدّ؛ بوَدِّي لو كان كذا، وبمعنى أَحَبَّ؛ فيتعدَّى كتعدّي أَحَبَّ، والمصدر مودَّة، والاسم منه: وُدّ[(٤)]. وقد يتداخلان في المصدر والاسم.

وقال الراغب[(٥)]: إذا كان بمعنى «أَحَبَّ» لا يجوزُ إدخالُ «لو» فيه أبداً.

وقال عليُّ بنُ عيسى: إذا كان «وَدَّ» بمعنى «تمنَّى» صلح للماضي والحال والمستقبل، وإذا كان بمعنى المحبَّة والإرادة لم يصلح للماضي[(٦)]: لأنَّ الإرادة كاستدعاء الفعل، وإذا كان للحال والمستقبل جاز «أنْ» و«لو»، وإذا كان للماضي لم يجز «أنْ» لأنَّ «أنْ» للمستقبل. وما قال فيه نظر، ألا ترى أنَّ «أنْ» تُوصَل بالفعل الماضي، نحو: سَرَّني أنْ قمت[(٧)]؟

«من أهل الكتاب» في موضع الصفة لـ «طائفة»، والطائفة رؤساؤهم وأحبارُهم.

---

(١) تفسير الثعلبي ٢/ ٨٠، وأسباب النزول للواحدي ص١٠٤، وتفسير البغوي ١/ ٣١٥، والكشاف ١/ ٤٣٦، وتفسير القرطبي ٥/ ١٦٧.
(٢) زاد المسير ١/ ٤٠٤.
(٣) في (ت): وددتُ أن لو أفعل، وفي (ع) والدر المصون ٣/ ٢٤٤: وددت أن لو فعلت.
(٤) من قوله: بودّي لو كان... إلى هذا الموضع، سقط من المطبوع.
(٥) تفسيره ١/ ٦٢٧.
(٦) خالفَه الراغب ١/ ٦٢٧ فقال: إذا كان بمعنى المحبة يتعلق بالأزمنة الثلاثة، وإذا كان للتمنّي، فليس إلا للاستقبال.
(٧) من قوله: قال أبو مسلم الأصفهاني... إلى هذا الموضع، نقله الزركشي في البرهان ٤/ ١٦٧ عن أبي حيَّان ولم يسمِّه. وينظر الدر المصون ٣/ ٢٤٤.

وقال ابنُ عطيَّة: ويحتمل «مِنْ» أنْ تكون لبيان الجنس[١]، وتكون الطائفة جميعَ أهل الكتاب. وما قاله يبعُد من دلالة اللفظ.

و«لو» هنا؛ قالوا: بمعنى «أَنْ» فتكون مصدريَّة، ولا يقولُ بذلك جمهورُ البصريِّين والأَوْلَى إقرارُها على وضعها.

ومفعول «وَدَّ» محذوف، وجوابُ «لَوْ» محذوف، حُذف من كلٍّ من الجملتين ما يدل المعنى عليه، التقدير: ودُّوا إضلالَكم لو يُضِلُّونكم لَسُرُّوا بذلك. وقد تقدَّم لنا الكلام في نظير هذا مشبعاً في قوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]. فيُطالع هناك.

ومعنى «يُضِلُّونكم» يردُّونكم إلى كفرهم. قاله ابنُ عباس.

وقيل: يُهلكونكم. قاله ابنُ جرير والدمشقيّ[٢]. قال ابنُ عطيَّة: واستدلَّ - يعني ابنَ جرير الطبريَّ - ببيت جرير[٣]:

كنتَ القَذَى في مَوْجِ أخضرَ[٤] مُزبدٍ قَذَفَ الأتِيُّ[٥] به فَضَلَّ ضَلَالا

وبقول النابغة:

فآبَ مُضِلُّوهُ بعَيْنٍ جَلِيَّةٍ[٦] وغُودِرَ بالجَوْلانِ حَزْمٌ ونائلُ[٧]

(١) وذكر ابن عطية قبلَه احتمالَ كونها للتبعيض. قال السمين الحلبي: وهو الظاهر. ينظر: المحرر الوجيز ١/ ٤٥٢، والدر المصون ٣/ ٢٤٤.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٥٢ عن الطبري، وابنُ الجوزي في زاد المسير ١/ ٤٠٤ عن الدمشقي (وهو أبو سليمان). وقولُ الطبري في تفسيره ٥/ ٤٩٠ مطوّل.

(٣) كذا نقل أبو حيّان عن ابن عطية في المحرر الوجيز، وإنَّما البيت للأخطل في هجاء جرير. وينظر تفسير الطبري ٥/ ٤٩٠.

(٤) كذا في المحرر الوجيز. وفي تفسير الطبري وديوان الأخطل ص٥٠: أكدر.

(٥) هو السيل الذي يأتي من بلد مُطِرَ فيه إلى بلد لم يُمطر فيه. «اللسان» (أتى).

(٦) في (ح) و(د٢) و(به): جليلة.

(٧) ديوان النابغة الذُّبياني ص٩٠، وفيه: مُصَلُّوه، بدل: مُضِلُّوه. وعندئذ لا شاهد فيه. والبيت من قصيدة في رثاء النُّعمان بن الحارث الغسَّاني. وقوله: مُضِلُّوه؛ قال الطبريّ: يعني مهلكوه. اهـ. وقولُه: بعينٍ جَلِيَّة. أي: بخبرٍ صادقٍ أنه مات، والجَوْلان موضعٌ بالشام.

وهذا تفسيرٌ غير مُخلَص ولا خاصّ باللفظة، وإنّما اطّردَ له؛ لأنَّ هذا الضلال في الآية[١] وفي البيتين اقترنَ به هلاك، وأمّا أن يُفَسَّرَ[٢] لفظة الضلال بالهلاك؛ فغيرُ قويم. انتهى.

وقال غيرُ ابنِ عطيّة: أصْلُ الضّلالِ في اللغة الهلاكُ، من قولهم: ضَلَّ اللبنُ في الماء: إذا صارَ مُسْتَهلَكاً فيه[٣].

وقيل: معناه: يوقعونكم في الضلال، ويُلقون إليكم ما يُشَكِّكُونكم به في دينكم. قاله أبو عليّ.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ إنْ كان معناه الإهلاك؛ فالمعنى أنَّهم يُهلكون أنفسَهم وأشياعَهم لاستحقاقهم بإيثارِهم إهلاكَ المؤمنين سَخَط اللهِ وغَضَبَه، وإنْ كان المعنى الإخراج عن الدِّين؛ فذلك حاصلٌ لهم بجَحْدِ نبوّة رسول الله ﷺ وتغيير[٤] صفته، صاروا بذلك كفاراً وخرجوا عن ملّة موسى وعيسى، وإن كان المعنى الإيقاع في الضلال؛ فذلك حاصلٌ لهم مع تمكّنهم من اتّباع الهدى بإيضاح الحُجَج وإنزال الكتب وإرسال الرُّسُل.

وقال ابن عطيّة[٥]: إعلامٌ أنَّ سوءَ فعلِهم عائدٌ عليهم، وأنه يُبعِدُهم عن الإسلام.

وقال الزمخشري[٦]: وما يعودُ وبالُ الإضلال[٧] إلا عليهم؛ لأنَّ العذابَ يُضاعَفُ لهم بضلالهم وإضلالهم، أو: وما يقدرون على إضلال المسلمين، وإنما يُضِلُّون أمثالَهم من أشياعهم. انتهى.

= قاله ابن منظور في اللسان (ضلل) وفسَّر مضلّيه بدافنيه. ومعنى البيت ـ كما ذكر ـ أنه دُفِنَ بدفنِ النُّعمان الحَزْمُ والعطاء. وسيتكرَّر البيت عند الآية (١٨) من سورة السجدة.

(١) يعني آية السجدة (١٨): ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أوردها الطبري ٥/ ٤٩٠ مع البيتين المذكورين في تفسير الآية أعلاه وفسَّر الضلال في البيتين والآيتين بالهلاك.

(٢) في المحرر الوجيز ١/ ٤٥٢: تُفَسَّر.

(٣) بنحوه في معجم مقاييس اللغة ٣/ ٣٥٦، وجاء فيه بعده بيت النابغة السالف.

(٤) في (أ) و(ت): وبتغيير.

(٥) في المحرر الوجيز ١/ ٤٥٢.

(٦) الكشاف ١/ ٤٣٦.

(٧) في (أ) و(ت) و(ع) والمطبوع: الضلال.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّ ذلك الإضلالَ هو مختصٌّ بهم، أي: لا يفطَنُون لذلك لما دَقَّ[١] أمرُه وخَفِيَ عليهم لِما اعتَرَى قلوبَهم من القَساوة، فهم لا يعلمون أنهم يُضِلُّون أنفسَهم. ودلَّ ذلك على أنَّ مَنْ أخطأ الحقَّ جاهلاً كان ضالّاً.

أو: وما يشعرون أنهم لا يَصِلُون إلى إضلالكم، أو لا يَفْطَنون بصحَّة الإسلام، وواجبٌ عليهم أن يعلموا لظهور البراهين والحُجَج. ذكره القرطبي[٢].

أو ما يشعرون أنَّ الله يَدُلُّ المسلمين على حالهم ويُطلعهم على مكرهم وضلالتهم. ذكره ابن الجوزيّ[٣].

وفي قوله: «وما يشعرون» مبالغةٌ في ذمِّهم حيث فقدُوا المنفعة بحواسِّهم.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عبَّاس: هي التوراةُ والإنجيل[٤]. وكفرُهم بها من جهة تغييرِ الأحكام وتحريفِ الكلام.

أو الآياتُ التي في التوراة والإنجيل من وصف النبيِّ ﷺ والإيمان به كما بُيِّن في قوله: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. قاله قتادة والسُّدِّيُّ والربيع وابنُ جُريج[٥].

أو القرآن من جهة قولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ [الفرقان: ٤]، ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

أو الآيات التي أظهرَها على يديه من انشقاق القمر، وحَنِين الجِذْع، وتسبيح الحصى، وغير ذلك.

أو محمدٌ والإسلام. قاله قتادة[٦].

---

(١) في (ت): إذ، بدل: أي. وفي (أ) و(ع): إذ لا يفطنون لما دقَّ...
(٢) تفسيره ٥/ ١٦٧-١٦٨.
(٣) زاد المسير ١/ ٤٠٤ دون قوله: ويطلعهم على مكرهم وضلالتهم.
(٤) تفسير النيسابوري ٣/ ٢٢٠ دون نسبة القول لابن عباس.
(٥) بنحوه في تفسير الطبري ٥/ ٤٩١-٤٩٢.
(٦) زاد المسير ١/ ٤٠٢، وبنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٤٥٢. وخبر انشقاق القمر عند البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠) من حديث ابن مسعود ﷺ، وخبر حنين الجذع عند البخاري

أو ما تلاه من أسرار كتبهم وغريب أخبارهم. قاله ابن بحر[(١)].

أو كتبُ الله أو الآياتُ التي بَيَّنَ[(٢)] لهم فيها صِدْقَ محمد ﷺ وصحةَ نبوّتِه، وأُمروا فيها باتّباعه. قاله أبو عليّ.

﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ جملة حالية، أنكرَ عليهم كفرَهم بآياتِ الله وهم يشهدون أنها آياتُ الله، ومتعلَّق الشهادة محذوف يقدَّر على حسب تفسير الآيات، فيقدَّر بما يُناسب ما فُسِّرتْ به، فلذلك قال قتادة والسُّدِّيّ والربيع: «وأنتم تشهدون» ما[(٣)] يدلُّ على صحَّتها من كتابكم الذي فيه البِشارةُ.

وقيل: تشهدون بمثلها من آيات الأنبياء التي تُقِرُّون بها.

وقيل: بما عليكم فيه من الحُجَّة[(٤)].

وقيل: أنَّ[(٥)] كتبكم حقّ، ولا تتّبعون ما أُنزلَ فيها.

وقيل: بصحَّتها إذا خلوتُم. فيكون «تشهدون» بمعنى: تُقِرُّون وتعترفون.

وقال الراغب[(٦)]: أو عَنَى ما يكون من شهادتهم يومَ تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم.

وقيل: «تكفرون بآيات الله» تُنكرون كونَ القرآن مُعجِزاً ثم تشهدون بقلوبكم وعقولكم أنه مُعجِز[(٧)].

= (٩١٨) من حديث جابر رضي الله عنه، وخبر تسبيح الحصى عند البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٦٤، وابن الجوزي في العلل (٣٢٧). وينظر فتح الباري ٦/ ٥٩٢.

(١) هو محمد بن بحر، أبو مسلم الأصبهاني، معتزلي. توفي سنة (٣٢٢). وسلف ذكره في تفسير الآية (٥٢).

(٢) في (د١) و(ز٢): تبين، وفي المطبوع: يبين.

(٣) في المطبوع: بما، وفي (ت): أنَّ ما.

(٤) الأقوال الثلاثة في النكت والعيون ١/ ٤٠٠. والأولان في تفسير القرطبي ٥/ ١٦٨.

(٥) بفتح الهمزة. يعني تشهدون أن. . .

(٦) تفسيره ١/ ٦٣٠.

(٧) في (ح) و(د٢) و(يه): يكفرون بآيات الله: ينكرون كون القرآن معجزاً ثم يشهدون بقلوبهم وعقولهم أنه معجز.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ تقدَّم تفسير مثل هذا في قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢]. وفُسِّر اللَّبس بالخَلْط والتغطية، وتكلَّم المفسِّرون هنا، ففسَّروا الحقَّ بما يجدونه في كتبهم من صفة الرسول، والباطلَ الذي يكتُبونه بأيديهم ويحرِّفُونه. قال معناه الحسن وابنُ زيد[١].

وقيل: إظهارُ الإسلام وإبطان[٢] اليهوديَّة والنصرانية. قاله قتادة وابنُ جرير والثعلبي[٣].

وقيل: الإيمانُ بموسى وعيسى، والكفرُ بالرسول[٤].

وقال أبو علي: يتأوَّلون[٥] الآياتِ التي فيها الدَّلالة على نبوَّة محمد ﷺ على خلاف تأويلِها لِيظهرَ منها للعَوَامّ خلافُ ما هي عليه. «وأنتم تعلمون» بطلانَ ما تقولون.

وقيل: هو ما ذكرَه تعالى بعد ذلك من قوله: «آمِنُوا بالذي أُنزل». وقيل: إقرارُهم ببعضِ أمرِ النبيِّ ﷺ، والباطلُ كتمانُهم لبعض أمرِه. وهذانِ القولانِ عن ابن عبَّاس[٦].

وقيل: إقرارُهم بنبوَّته ورسالتِه، والباطلُ قولُ أحبارِهم: ليس رسولاً إلينا، بل شريعتُنا مؤبَّدة[٧].

---

(١) تفسير كل من الطبري ٥/ ٤٩٤، والثعلبي ٢/ ٨١ عن ابن زيد. والنكت والعيون ١/ ٤٠١ وزاد المسير ١/ ٤٠٥ عن الحسن وابن زيد.

(٢) في (أ) و(د١) و(د٢) و(ع) ومطبوع البحر: وإبطال. وهو تحريف. وعبارة (ز٢): أظهروا الإسلام وأبطنوا. . . الخ.

(٣) بنحوه من كلام الطبري ٥/ ٤٩٢-٤٩٣. وقال الثعلبي ٢/ ٨١: تخلطون الإسلام باليهودية والنصرانية، وهو بمعناه عن قتادة وابنِ جُريج في تفسير الطبري ٥/ ٤٩٣-٤٩٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٥٣.

(٤) النكت والعيون ١/ ٤٠١.

(٥) كذا. والجادَّة: تتأوَّلون. . . إلخ؛ لِما سيرد آخر القول. وأبو عليّ: هو الجُبَّائيّ المعتزليّ، وكلامُه بنحوه في تفسير الرازي ٨/ ٩٨.

(٦) زاد المسير ١/ ٤٠٥، والقول الأول بنحوه أطول منه عند الطبري ٥/ ٤٩٣.

(٧) المحرر الوجيز ١/ ٤٥٣.

وقرأ يحيى بن وثّاب: «تَلْبَسُون» بفتح الباء، مضارع لَبِسَ[(١)]، جعلَ الحقَّ كأنَّه ثوبٌ لبسوه، والباء في: «بالباطل» للحال، أي: مصحوباً بالباطل.

وقرأ أبو مجلز: «تُلَبِّسُونَ» بضمّ التاء وكسر الباء المشدَّدة[(٢)]، والتشديدُ هنا للتكثير، كقولهم: جرَّحت وقتَّلت.

وأجاز الفرَّاء والزَّجَّاج في «وتكتمون» النصب[(٣)]، فتسقط النون من حيث العربية؛ على قولك: لِمَ تجمعون ذا وذا؟ فيكون نصباً على الصَّرف في قول الكوفيِّين، وبإضمار «أن» في قول البصريِّين، وأنكر ذلك أبو عليّ وقال: الاستفهامُ وقعَ على اللَّبْس فحسب، وأمَّا «تكتمون» فخبرٌ حَتْمٌ لا يجوزُ فيه إلا الرفع، بمعنى أنه ليس معطوفاً على «تَلْبِسون»، بل هو استئنافُ خبرٍ عنهم أنهم يكتمون الحقَّ مع علمهم أنه حقّ.

وقال ابن عطية[(٤)]: قال أبو عليّ: الصَّرفُ هاهنا يقبحُ، وكذلك إضمار «أنْ» لأنَّ «تكتمون» معطوف على موجَب مقرَّر، وليس بمستفهم عنه، وإنما استُفهم عن السبب في اللَّبْس، واللَّبْسُ موجَب، فليست الآية بمنزلة قولهم: لا تأكلِ السمكَ وتشربَ اللبن، وبمنزلة قولك: أتقومُ فأقومَ. والعطفُ على الموجَب المقرَّر قبيح متى نُصب إلا في ضرورة شعر، كما رُوي:

وألحقُ بالحجاز فأستريحا[(٥)]

وقد قال سيبويه[(٦)] في قولك: أسِرْتَ حتى تدخلَها: لا يجوز إلا النصبُ في «تدخل» لأنَّ السَّيْرَ مستفهمٌ عنه غيرُ موجَب، وإذا قلتَ: أيُّهم سارَ حتى يدخلُها؟

---

(١) الكشاف ١/ ٤٣٦، وتفسير الرازي ٨/ ٩٨. وذكرها ابن خالويه في «الشاذة» ص٢١، لكن تحرفت في مطبوعه إلى: يَلبسون بفتح الياء.

(٢) الكشاف وتفسير الرازي. دون نسبة.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٢١، وللزجاج ١/ ٤٢٨. قال الفراء: لو أنك قلتَ في الكلام: لِمَ تقومُ وتقعدَ يا رجل - على الصرف - لجاز. وقال الزَّجَّاج: الذي في القرآن أجود في الإعراب.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٥٣.

(٥) الكتاب ٣/ ٣٩، والمقتضب ٢/ ٢٤ (وفيه: بالعراق، بدل: بالحجاز)، والأصول في النحو ٢/ ١٨٢، وخزانة الأدب ٨/ ٥٢٢.

(٦) ينظر الكتاب ٣/ ٢٤-٢٥.

رفعتَ؛ لأنَّ السَّير موجَب، والاستفهام إنَّما وقع عن غيره. انتهى ما نقلَه ابنُ عطيَّة عن أبي عليّ.

وظاهرُه يعارضُ ما نقل مع ما قبله لأنَّ ما قبلَه فيه أن الاستفهام وقع على اللَّبْس فحسب، وأما «تكتمون» فخبرٌ حَتْم، لا يجوزُ فيه إلا الرفع، وفيما نقلَه ابنُ عطيَّة أنَّ «تكتمون» معطوف على مُوجَب مقرَّر، وليس بمستفهم عنه، فيدلُّ العطف على اشتراكهما في الاستفهام عن سبب اللَّبْس وسببِ الكَتْم الموجَبَيْن، وفرقٌ بين هذا المعنى وبين أن يكون «وتكتمون» إخباراً مَحْضاً لم يشترك مع اللَّبْس في السؤال عن السبب.

وهذا الذي ذهبَ إليه أبو عليّ من أنَّ الاستفهام إذا تضمَّنَ وقوعَ الفعل لا ينتصب الفعل بإضمار «أنْ» في جوابه تبعه في ذلك ابنُ مالك، فقال في «التسهيل» حين عدَّ ما يُضمر «أنْ» لزوماً في الجواب، فقال: «أوْ لاستفهامٍ لا يتضمَّن وقوعَ الفعل»[1] فإنْ تضمَّن وقوعَ الفعل لم يجز النصب عنده، نحو: لِمَ ضربتَ زيداً فيُجازِيك؛ لأنَّ الضربَ قد وقع، ولم نَرَ أحداً من أصحابنا يشترطُ هذا الشرط الذي ذكره أبو عليّ وتبعَه فيه ابنُ مالك في الاستفهام، بل إذا تعذَّر سَبْكُ مصدرٍ ممَّا قبلَه؛ إمَّا لكونه ليس ثَمَّ فعلٌ ولا ما في معناه يَنسَبِكُ منه، وإمَّا لاستحالة سَبْكِ مصدرٍ مرادٍ استقبالُه لأجل مضيّ الفعل، فإنَّما يقدَّر فيه مصدرٌ مقدَّرٌ استقبالُه ممَّا يدلُّ عليه المعنى. فإذا قال: لِمَ ضربتَ زيداً فأضربك، أي: ليكن منك تعريفٌ بضرب زيد فضَرْبٌ منَّا.

وما ردَّ به أبو عليّ على أبي إسحاق[2] ليس بمتَّجه؛ لأنَّ قوله: «لِمَ تَلْبِسُون» ليس نصًّا على أنَّ المضارع أُريدَ به الماضي حقيقةً، إذ قد ينكر[3] المستقبل لتحقّق صدوره لا سيما على الشخص الذي تقدَّم منه وجودُ أمثالِه. ولو فرضنا أنه ماضٍ حقيقةً فلا رَدَّ فيه على أبي إسحاق لأنه كما قرَّرنا قبلُ أنه[4] إذا لم يمكن سَبْكُ مصدر مستقبل من الجملة سبكناه من لازم الجملة.

---

(١) التسهيل ص٢٣١، وينظر شرحه ٣/٣٩٩.

(٢) هو الزجَّاج، وسلف كلامه وكلام أبي عليّ.

(٣) في الدر المصون ٣/٢٤٦: يمكن.

(٤) لفظة «أنه» من (أ) و(ب) و(ت) و(ع).

وقد حكى أبو الحسن بنُ كَيْسان نصبَ الفعل في جواب الاستفهام حيث الفعلُ المستفهَم عنه محقَّق الوقوع، نحو: أين ذهب زيد فنتبعَه؟ وكذلك في: كم مالُك فنعرفَه؟ ومَنْ أبوك فنكرمَه؟ لكنه يتخرَّج على ما سبق ذكرُه من أنَّ التقدير: ليكن منك إعلامٌ بذهاب زيد فاتّباعٌ منَّا، وليكن منك إعلام بقَدْرِ مالِك فمعرفةٌ منَّا، وليكن منك إعلام بأبيك فإكرامٌ منَّا له[1].

وقرأ عُبيد بن عُمير: «لم تلبسوا» «وتكتموا» بحذف النون فيهما، قالوا: وذلك جزم قالوا: ولا وَجْهَ له سوى ما ذهب إليه شذوذ من النُّحاة في إلحاق «لِمَ» بـ «لَمْ» في عمل الجزم.

وقال السجاوندي: ولا وَجْهَ له إلا أنَّ «لِمَ» تجزم الفعل عند قوم كـ: «لَمْ». انتهى. والثابت في لسان العرب أنَّ «لِمَ» لا ينجزمُ ما بعدَها، ولم أرَ أحداً من النحويِّين ذكرَ أنَّ «لِمَ» تجري مَجْرى «لَمْ» في الجزم إلا ما ذكره أهل التفسير هنا، وإنما هذا عندي من باب حذف النون حالة الرفع، وقد جاء ذلك في النثر قليلاً جدًّا، وذلك في قراءة أبي عَمرو من بعض طرقه: «قالوا ساحران تَظَّاهرا»[2] بتشديد الظاء، أي: أنتما ساحران تتظاهران، فأدغمَ التاء في الظاء وحذفَ النون، وأمَّا في النظم؛ فنحو قول الرَّاجز:

أبيتُ أَسْرِي وتَبِيتي تدلُكي[3]

يريد: وتبيتين تدلكين.

وقال:

---

(١) قال السمين في الدرّ المصون ٣/ ٢٤٧: هذا البحث الطويل على تقدير شيء لم يقع، فإنه لم يُقرأ لا في الشاذّ ولا في غيره إلا ثابت النون، ولكن للعلماء غرض في تطويل البحث تنقيحاً للذهن.

(٢) نسبها ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص١١٣ ليحيى الذِّماري، وهي من الآية (٤٨) من سورة القصص، وسيذكرها المصنف عن يحيى وغيره في موضعها من التفسير. وقراءة أبي عمرو المتواترة عنه: «تَظَاهرا»، بتخفيف الظاء، كقراءة الجماعة.

(٣) الخصائص ١/ ٣٨٨، وشرح التسهيل ١/ ٦٣، واللسان (دلك)، وخزانة الأدب ٨/ ٣٣٩.

فإنْ يَكُ قومٌ سَرَّهم ما صَنَعْتُمُ سَيَحْتَلِبُوها لاقِحاً غيرَ باهلِ[(١)]

والظاهر أنه أنكر عليهم لَبْسَ الحق بالباطل وكَتْمَ الحقّ، وكأنّ الحقَّ منقسم إلى قسمين: قسم خلطوا فيه الباطل حتى لا يتميَّز، وقسمٍ كتموه بالكلّية حتى لا يظهر.

«وأنتم تعلمون» جملة حالية تَنْعَى عليهم ما التبسوا به من لَبْس الحقّ بالباطل وكتمانه، أي: لا يناسبُ من عَلِمَ الحقَّ أن يكتمه ولا أن يخلطَه بالباطل. والسؤال عن السبب سؤال عن المُسَبَّب، فإذا أنكر السبب فبالأَوْلى أن يُنكر المُسَبَّب.

وختمت الآية قبل هذه بقوله: «وأنتم تشهدون» وهذه بقوله: «وأنتم تعلمون» لأنَّ المنكَرَ عليهم في تلك هو الكفر بآيات الله، وهي أخصُّ من الحقّ؛ لأنَّ آياتِ الله بعضُ الحقّ، والشهادةُ أخصُّ من العلم، فناسبَ الأخصُّ الأخصَّ، وهنا الحقُّ أعمُّ من الآيات وغيرها، والعلمُ أعمُّ من الشهادة، فناسبَ الأعمُّ الأعمَّ.

وقالوا في قوله: «وأنتم تعلمون» أي: أنه نبيٌّ حقٌّ، وأنَّ ما جاء به من عند الله حقّ.

وقيل: قال: «وأنتم تعلمون» ليتبيَّن[(٢)] لهم الأمر الذي يصحُّ به التكليف وتقومَ عليهم به الحجَّة.

وقيل: «وأنتم تعلمون» الحق بما عرفتُموه من كتبكم، وما سمعتُموه من ألسنة أنبيائكم.

وفي هذه الآيات من أنواع البديع: الطِّباق في قوله: «الحقّ بالباطل»، والطِّباق المعنويّ في «لِمَ تكفرون» «وأنتم تشهدون» لأنَّ الشهادة إقرار وإظهار، والكفر سَتْر، والتجنيس المماثل في «يُضِلُّونكم» «وما يُضِلُّون»، والتكرار في «أهل الكتاب»، والحذف في مواضع قد بُيِّنت.

---

(١) البيت لأبي طالب كما في شرح التسهيل ١/ ٦٣. ووقع في (د١): سيحتلبونا. وفي (يه): سيجتلبوها، وفي مطبوع البحر ٢/ ٤٩٢، والدُّرّ المصون ٣/ ٢٤٨: ستحتلبوها.

(٢) في (أ) و(ب) و(ت) و(ز٢) و(ع): ليبيِّن.

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

قال الحسن والسُّدِّي: تواطأ اثنا عَشَرَ حَبْراً من يهود خيبر وقُرى عُرَيْنة[1] وقال بعضهم لبعض: ادْخُلوا في دين محمد أوّلَ النَّهار باللسان دون الاعتقاد، واكفُرُوا به في آخِر النهار وقولوا: إنّا نظرنا في كتبنا وشاوَرْنا علماءَنا، فوجدنا محمداً ليس كذلك[2]، وظهرَ لنا كذبُه وبُطلانُ دينِه. فإذا فعلتُم ذلك شكَّ أصحابُه في دينهم وقالوا: هم أهلُ الكتاب، فهم أعلمُ منّا، فيرجعون عن دينهم إلى دينكم. فنزلت[3].

وقال مجاهد ومقاتل والكلبيُّ: هذا في شأن القبلة، لمّا صُرفت إلى الكعبة شقَّ ذلك على اليهود، فقال كعب بنُ الأشرف وأصحابُه[4]: صلُّوا إليها أوّلَ النهار، وارجعوا إلى كعبتكم الصخرة[5] آخِرَه. فنزلت.

وقال ابن عباس ومجاهد: صلَّوْا مع النبيِّ ﷺ صلاةَ الصُّبح، ثم رجَعُوا آخِرَ النهار فصلَّوْا صلاتَهم ليرى الناسُ أنه قد بَدَتْ لهم منه ضلالة بعد أن كانوا اتَّبعوه فنزلت[6].

وقال السُّدِّيّ: قالت اليهود لسَفِلَتِهم: آمِنُوا بمحمد أوّلَ النهار، فإذا كان بالعشيّ قُولُوا قد عَرَّفَنا علماؤنا أنكم لستُم على شيء. فنزلت[7].

---

(١) كذا في النسخ الخطية، وأسباب النزول للواحدي ص١٠٤، وتفسير البغوي ١/ ٣١٥، وتفسير النيسابوري ٣/ ٢٢٣، وجاء في قول في معجم البلدان ١/ ١١٥ أنها قرًى بالمدينة. وجاء في تفسير الطبري ٥/ ٤٩٦، وتفسير الثعلبي ٢/ ٨١: قرًى عربيَّة؛ قال البكري في معجم ما استعجم ٣/ ٩٢٩-٩٣٠: هي قرًى بالحجاز معروفة.

(٢) عند الثعلبي والواحدي والبغوي: بذلك.

(٣) ينظر إضافة إلى ما سبق: الكشاف ١/ ٤٣٦، والمحرر الوجيز ١/ ٤٥٣، وزاد المسير ١/ ٤٠٥.

(٤) كذا في أسباب النزول للواحدي ص١٠٤. وفي تفسير الثعلبي ٢/ ٨١، والكشاف ١/ ٤٣٦: لأصحابه.

(٥) عند الثعلبي والواحدي: قبلتكم الصخرة. وهو الأشبه.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٥٤. وأخرجه الطبري ٥/ ٤٩٧ عن مجاهد بنحوه.

(٧) أخرجه ابن المنذر بنحوه أطول منه في تفسيره ١/ ٢٥٤ من طريق السُّدِّي عن أبي مالك.

وحكى ابنُ عطيّة[١] عن الحسن أنَّ يهود خيبر قالت ذلك ليهود المدينة. انتهى.

جعلت اليهود هذا سبباً إلى خديعة المسلمين، والمَقُول لهم محذوف، فيحتمل أن يكون بعض هذه الطائفة لبعض، ويحتمل أن يكون المَقُول لهم ليسوا من هذه الطائفة.

والمراد بـ «آمِنُوا»: أظْهِرُوا الإيمان، ولا يمكن أن يُراد به التصديق. وفي قوله: «بالذي أُنزِلَ على الذين آمنوا» حذف، أي: على زعمهم، وإلّا فهم يكذبون ولا يُصَدِّقون أنَّ الله أنزلَ شيئاً على المؤمنين.

وانتصبَ «وَجْهَ النهار» على الظرف، ومعناه: أوّلَ النهار، شُبِّهَ بوجه الإنسان، إذ هو أوّلُ ما يُواجَهُ منه.

وقال الربيع بن زياد العبسيّ في مالك بن زهير بن جَذِيمةَ العبسيّ:

مَنْ كان مسروراً بمقتلِ مالكٍ فليأتِ نِسْوتَنا بوَجْهِ نهارِ[٢]

والضمير في «آخِرَه» عائدٌ على «النهار» أي: آخِرَ النهار، والناصب للظرف الأول: «آمِنُوا» وللآخر: «اكفُروا».

وقيل: الناصب لقوله: «وَجْهَ النهار»: «أُنزِلَ» أي: بالذي أُنزل على الذين آمَنُوا في أوّل النهار، والضمير في «آخِرَه» يعود على «الذي أُنزِلَ» أي: واكفُرُوا آخِرَ المُنزَل. وهذا فيه بُعد ومخالَفةٌ لأسباب النزول.

---

(١) في المحرر الوجيز ١/ ٤٥٣. وذكره أيضاً الماوردي في النكت والعيون ١/ ٤١٠.

(٢) وبعده:

يَجِدِ النساءَ حَوَاسِراً يَنْدُبْنَهُ قَدْ قُمْنَ قبلَ تَبَلُّجِ الأسحارِ

قال ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٥٤: يقول الربيع بن زياد هذا في مالك بن زهير بن جَذِيمة العبسي وكانوا قد أخذوا بثأره، وكان القتيلُ عندهم لا يُناح عليه ولا يُندب إلا بعد أخذِ ثأره. فالمعنى: مَنْ سَرَّه مصابُنا فيه فلينظر إلى ما يدلّه على أنّا قد أدرَكْنا ثأرَه فيكمد لذلك ويغتمّ. اهـ. وينظر مجاز القرآن ١/ ٩٧، وتفسير الطبري ٥/ ٤٩٨، ومعاني القرآن للزجّاج ١/ ٤٢٩، واللسان (وجه)، وخزانة الأدب ٨/ ٣٧١. ومالك بن زهير بن جَذِيمة هو أخو الشاعر الجاهلي قيس بن زهير صاحبِ حرب داحِس وغبراء. ينظر معجم الشعراء للمرزباني ص١٩٧، وجمهرة أنساب العرب ص٢٥١.

ومتعلّق الرُّجوع محذوف، أي: يرجعون عن دينهم. وظاهرُ الآية الدلالةُ على هذا القول، وأمَّا امتثالُ الأمر ممَّن أَمَرَ به فمسكوتٌ عن وقوعه، وأسبابُ النزول تدلُّ على وقوعه. وهذا القولُ طمعوا أن تنخدع العرب به، إذ[1] يقول قائلُهم: هؤلاء أهلُ الكتاب القديم وجُودة النظر والاطِّلاع دخلُوا في هذا الأمر ورجعوا عنه، وفيه تثبيتٌ أيضاً لضعفائهم على دينهم.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ اللام في «لِمَنْ» قيل: زائدة للتأكيد، كقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢] أي: رَدِفكم.

وقال الشاعر:

ما كنتُ أَخْدَعُ للخليلِ بخُلَّةٍ حتى يكونَ ليَ الخليلُ خَدُوعا[2]

أراد: ما كنتُ أَخْدَعُ الخليلَ.

والأجود أن لا تكون اللام زائدة، بل ضُمِّن «آمنَ» معنى أقَرَّ واعترفَ، فعُدِّيَ باللام.

وقال أبو علي[3]: وقد تَعدَّى «آمَنَ» باللام في قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ [يونس: ٨٣] و﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ [طه: ٧١] و﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١] انتهى.

والأجود ما ذكرناه من أنه ضُمِّنَ معنى الاعتراف، والمُؤْمَنُ به محذوف.

وظاهر قوله: «ولا تؤمنوا إلا لمن تَبِعَ دينكم» أنه من جملة قول طائفة اليهود لأنه معطوف على كلامهم، ولذلك قال ابن عطية[4]: لا خلافَ بين أهل التأويل أنَّ هذا القول هو من كلام الطائفة. انتهى.

وليس كذلك، بل من المفسِّرين[5] من ذهبَ إلى أنَّ ذلك من كلام الله، يُثبِّتُ به

(١) في (ح) و(د١) و(د٢) و(يه): أو.
(٢) زاد المسير ١/ ٤٠٧، والدر المصون ٣/ ٢٥٠.
(٣) الحجة للقراء السبعة ٣/ ٥٤.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٥٤.
(٥) مثل البغوي في تفسيره ١/ ٣١٧.

قلوبَ المؤمنين لئلا يشكُّوا عند تلبيس اليهود وتزويرهم، فأمَّا إذا كان من كلام طائفة اليهود فالظاهر أنه انقطع كلامهم، إذْ لا خلاف ولا شكَّ أنَّ قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ من كلام الله تعالى مخاطباً لنبيِّه ﷺ، وما بعده يظهر أنه من كلام الله، وأنه من جملة قوله لنبيِّه.

و«أن يُؤتَى» مفعول من أجله، وتقديرُ الكلام: قل يا محمد لأولئك اليهود الذين قالوا ما قالوا: إنَّ الهدى هدى الله، لا ما رُمْتُم من الخِداع بتلك المقالة وذاك الفِعال[١] لمخافة «أنْ يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتُم أو يُحاجُّوكم عند ربِّكم» قلتُم ذلك القولَ ودبَّرتُم تلك المكيدَة، أي: فعلتُم ذلك حسداً وخوفاً من أنْ تذهبَ رئاستُكم ويُشاركَكم أحدٌ فيما أُوتيتُم من فضل العلم، أو يُحاجُّوكم عند ربكم، أي: يقيمون[٢] الحجَّةَ عليكم عند الله، إذْ كتابُكم طافحٌ بنبوَّة رسولِ الله ﷺ ومُلزمٌ لكم أن تؤمنوا به وتتَّبعوه ويؤيِّد هذا المعنى قولُه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ إلى آخره، ويؤيِّد هذا المعنى أيضاً قراءةُ ابنِ كثير: «أَأَنْ يُؤْتَى» على الاستفهام[٣] الذي معناه الإنكارُ عليهم والتقريرُ والتوبيخ، والاستفهامُ الذي معناه الإنكار هو مثبت من حيث المعنى، أي: أَلِمخافةِ أَنْ يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتُم أَوْ يُحاجُّوكم عند ربِّكم قلتُم ذلك وفعلتُموه؟ ويكون «أَوْ يُحاجُّوكم» معطوفاً على «يُؤتَى» و«أو» للتنويع.

وأجازوا أن يكون «هدى الله» بدلاً من الهدى لا خبراً لـ «إنَّ»، والخبرُ قوله: «أنْ يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتُم[٤]» أي: إنَّ هدى اللهِ إيتاءُ أحدٍ مثلَ ما أوتيتُم من العلم، ويكون «أو يُحاجُّوكم» منصوباً بإضمار «أَنْ» بعد «أَوْ» بمعنى «حتى» أي: حتى يُحاجُّوكم عند ربِّكم، فيغلبوكم ويدحضوا حجَّتَكم عند الله؛ لأنَّكم تعلمون صحةَ دين الإسلام، وأنه يلزمُكم اتِّباعُ هذا النبيِّ، ولا يكون «أو يُحاجُّوكم» معطوفاً على «يُؤتَى» وداخلاً في خبر «إنَّ».

---

(١) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): وذلك الفعل.

(٢) في (ح) و(د٢) و(يه): ليقيمون.

(٣) السبعة ص٢٠٧، والتيسير ص٨٩. وقال أبو عَمرو الداني في «جامع البيان» ٢/ ٨١: قرأ ابن كثير على الاستفهام بهمزة محقَّقة بعدها همزة مسهَّلة بين بين من غير ألف فاصلة بينهما على مذهبه في جميع الاستفهام. وقرأ الباقون على الخبر بهمزة واحدة محقَّقة من غير مدّ.

(٤) الكشاف ١/ ٤٣٧.

و«أَحَد» في هذين القولين ليس الذي يأتي في العموم مختصًا به؛ لأنَّ ذلك شرطُه أن يكون في نفي، أو في خبر نفي، بل «أَحَد» هنا بمعنى «واحد»، وهو مفرد، إذْ عَنَى به الرسول ﷺ، وإنما جمع الضمير في «يُحاجُّوكم» لأنه عائد على الرسول وأتباعه، لأنَّ الرسالة تدلُّ على الاتِّباع.

وقال بعض النحويين: «أنْ» هنا للنَّفي بمعنى «لا» التقدير: لا يُؤْتَى أحدٌ مثل ما أُوتيتُم، ونَقلَ ذلك نَصًّا عن الفراء[1]، وتكون «أو» بمعنى «إلا»، والمعنى إذْ ذاك: لا يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتُم إلا أن يُحاجُّوكم، فإنَّ إيتاءَه ما أوتيتُم مقرُونٌ بمغالبتكم ومحاجَّتكم عند ربِّكم، لأنَّ من آتاه الله الوحيَ لا بدَّ أن يُحاجَّهم عند ربِّهم في كونهم لا يتَّبعونه، فقولُه: «أو يُحاجُّوكم» حالٌ من جهة المعنى لازمة، إذ لا يُوحي الله إلى رسول إلا وهو محاجٌّ مخالفيه.

وفي هذا القول يكون «أحد» هو الذي للعموم لتقدُّم النفي عليه، وجُمع الضمير في «يُحاجُّوكم» حملاً على معنى «أحد»، كقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧] جمع «حاجزين» حملاً على معنى «أحد» لا على لفظِهِ، إذْ لو حُمل على لفظِهِ لأفردَ، لكنْ في هذا القول القولُ بأنْ «أنْ» المفتوحة تأتي للنفي بمعنى «لا»، ولم يقم على ذلك دليلٌ من كلام العرب.

والخطابُ في «أُوتيتُم» وفي «يُحاجُّوكم» على هذه الأقوال الثلاثة للطائفة السابقة القائلة: «آمِنُوا بالذي أُنزِلَ».

وأجاز بعض النحويِّين أن يكون المعنى: أنْ لا يُؤْتَى أحدٌ، وحُذفت «لا» لأنَّ في الكلام دليلاً على الحذف؛ قال: كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦] أي: أن لا تَضِلُّوا. وردَّ ذلك أبو العباس[2] وقال: لا تُحذف «لا» وإنما المعنى: كراهةَ أنْ تَضِلُّوا، وكذلك هنا: كراهةَ أنْ يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتم، أي: ممَّن خالفَ دينَ الإسلام، لأنَّ الله لا يهدي مَنْ هو كاذبٌ كفَّار، فهُدى اللهِ بعيدٌ من غير المؤمنين[3].

(١) معاني القرآن ١/٢٢٣.

(٢) هو المبرِّد، ونقل كلامه الزجَّاج.

(٣) معاني القرآن للزجاج ١/٤٣١، والمحرر الوجيز ١/٤٥٦ والكلام منه.

والخطاب في «أوتيتُم» و«يُحاجُّوكم» لأمّة محمد ﷺ، فعلى هذا: «أنْ يُؤْتَى» مفعول من أجله على حذف «كراهة». ويحتاجُ إلى تقدير عامل فيه، ويصعبُ تقديرُه إذ قبلَه جملة لا يظهر تعليل النسبة فيها بكراهة الإيتاء المذكور.

وقال ابن عطية[1]: ويحتمل أن يكون قولُه: «أنْ يُؤْتى» بدلاً من قوله: «هُدى الله»، ويكون المعنى: قُل إنَّ الهدى هُدى الله، وهو أنْ يُؤتَى أحدٌ كالذي جاءنا نحن، ويكون قولُه: «أو يُحاجُّوكم» بمعنى: أو فليُحاجُّوكم فإنهم يغلبونكم. انتهى هذا القول، وفيه الجزم بلام الأمر، وهي محذوفة، ولا يجوز ذلك على مذهب البصريِّين إلا في الضرورة.

وقال الزمخشري[2]: ويجوز أن ينتصبَ «أنْ يُؤْتَى» بفعل مضمر يدلُّ عليه قولُه: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ كأنه قيل: قل إن الهدى هدى الله فلا تُنكروا أن يُؤْتَى أحَدٌ مثلَ ما أوتيتُم. لأن قولهم: «ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم» إنكار لأنْ يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتوا. انتهى كلامه. وهو بعيد، لأنَّ فيه حذفَ حرف النَّهي ومعمولِه، ولم يحفظ ذلك من لسانهم.

وأجازُوا أن يكون قولُه: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ ليس داخلاً تحت قوله: «قُلْ» بل هو من تمام قول الطائفة متصل بقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ ويكون قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ جملة اعتراضية بين ما قبلَها وما بعدَها، ويحتمل هذا القول وجوهًا:

أحدها: أن يكون المعنى: ولا تصدِّقوا تصديقاً صحيحاً وتؤمنوا إلا لمن جاء بمثل دينِكم مخافةَ أنْ يُؤتَى أحدٌ من النبوة والكرامة مثلَ ما أُوتيتم، ومخافةَ أن يُحاجُّوكم بتصديقكم إيّاهم عند ربِّكم إذا لم تستمرُّوا عليه. وهذا القول على هذا المعنى ثمرةُ الحسد والكفر مع المعرفة بصحَّة نبوَّة محمد ﷺ.

الثاني: أن يكون التقدير: أنْ لا يُؤْتَى، فُحذفت «لا» لدلالة الكلام، ويكون ذلك منتفياً داخلاً في حيِّز «إلا»[3] لا مقدَّرًا دخولُه قبلَها. والمعنى: ولا تؤمنوا

---

(١) المحرر الوجيز ١/٤٥٦.

(٢) الكشاف ١/٤٣٧.

(٣) في (ح) و(د٢) و(يه): لا.

لأحد بشيء إلا لمن تَبِعَ دينكم بانتفاءِ أن يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتُم وانتفاءِ أن يُحاجُّوكم عند ربكم، أي: إلا بانتفاء كذا.

الثالث: أن يكون التقدير: بأن يُؤتَى، ويكون متعلِّقًا بـ «تؤمنوا»، ولا يكون داخلاً في حيّز «إلا»، والمعنى: ولا تؤمنوا بأن يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم إلا لمن تَبعَ دينَكم وجاء بمثله وعاضداً له، فإنَّ ذلك لا يُؤتاه غيرُكم. ويكون معنى «أو يُحاجُّوكم عند ربّكم» بمعنى: إلا أنْ يُحاجُّوكم، كما تقول: أنا لا أتركُك أو تقضيَني حقّي. وهذا القول على هذا المعنى ثمرةُ التكذيب بمحمدٍ ﷺ على اعتقادِ منهم أنَّ النبوّة لا تكون إلا في بني إسرائيل.

الرابع: أن يكون المعنى: لا تؤمنوا بمحمدٍ وتُقِرُّوا[١] بنبوّته - إذ قد علمتُم صحَّتَها - إلا لليهود الذين هم منكم، و«أنْ يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم» صفة لحال محمد ﷺ، فالمعنى: تستَّروا بإقراركم أنْ قد أُوتيَ أحدٌ مثلَ ما أوتيتُم، أو فإنَّهم - يعنون العرب - يحاجُّونكم بالإقرار عند ربكم[٢].

وقال الزمخشري[٣] في هذا الوجه وبدأ به ما نصُّه: «ولا تؤمنوا» متعلِّق بقوله: «أنْ يُؤْتَى أحد» وما بينهما اعتراض، أي: ولا تُظهروا إيمانكم بأنْ يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتُم إلا لأهل دينِكم دون غيرهم، أرادوا: أَسِرُّوا تصديقَكم بأنَّ المسلمين قد أُوتوا مثلَ ما أوتيتُم ولا تُفشوه إلا إلى أشياعكم وحدَهم دون المسلمين لئلا يزيدَهم ثباتاً، ودون المشركين لئلا يدعوَهم إلى الإسلام.

«أو يُحاجُّوكم عند ربكم» عطفٌ على «أنْ يُؤْتَى»، والضمير في «يُحاجُّوكم» لـ «أحد» لأنه في معنى الجميع[٤]، بمعنى: ولا تؤمنوا لغير أتباعكم أنَّ المسلمين يُحاجُّونكم يومَ القيامة بالحقّ ويغالبونكم عند الله بالحجة. انتهى كلامه.

وأمَّا «أَحَد» على هذه الأقوال، فإنْ كان الذي للعموم وكان ما قبلَه مقدَّراً

---

(١) في (ز٢) و(يه): ولا تقرُّوا.

(٢) الأقوال الأربعة في المحرر الوجيز ١/ ٤٥٤-٤٥٥، والثاني منها فيه مختصر.

(٣) الكشاف ١/ ٤٣٧.

(٤) في (ح) و(د٢) و(يه): الجمع.

بالنفي كقول بعضهم: إنّ المعنى: لا يُؤْتَى، أو أنَّ المعنى: أنْ لا يُؤْتَى أحد، فهو جارٍ على المألوف في لسان العرب من أنه لا يأتي إلا في النَّفي أو ما أشبهَ النَّفيَ، كالنَّهي، وإن كان الفعلُ مثبتاً يدخل هنا؛ لأنه تقدَّم النَّفي في أوَّل الكلام، كما دخلت «مِنْ» في قوله: ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ للنفي قبلَه في قوله: ﴿مَّا يَوَدُّ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ومعنى الاعتراض على هذه الأوجه أنه أخبرَ تعالى بأنَّ ما راموا من الكيد والخداع بقولهم: «آمِنُوا بالذي أُنزل» الآية لا يُجدِي شيئاً، ولا يصدُّ عن الإيمان مَنْ أرادَ اللهُ إيمانَه، لأنَّ الهدى هدى الله، فليس لأحدٍ أنْ يُحصِّلَه[1] لأحد، ولا أن ينفيَه عن أحد.

وقرأ ابن كثير: «آنْ[2] يُؤْتَى أحد» بالمدِّ على الاستفهام[3]. وخرَّجه أبو عليّ على أنه من قول الطائفة[4]، ولا يمكن أن يُحمل على ما قبلَه من الفعل؛ لأنَّ الاستفهام قاطع، فيكون في موضع رفع على الابتداء، وخبرُه محذوف تقديره: تُصدِّقون به أو تعترفون، أو تذكرونه لغيركم، ونحوُه مما يدلُّ عليه الكلام، و«يُحاجُّوكم» معطوف على «أنْ يُؤْتَى».

قال أبو علي: ويجوز أن يكون موضع «أنْ» نصباً، فيكون المعنى: أتُشِيعُون أو أتذكرون أنْ يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتُم؟ ويكون بمعنى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٧٦] فعلى كلا الوجهين معنى الآية توبيخ من الأحبار للأتباع على تصديقهم بأنَّ محمداً نبيٌّ مبعوث، ويكون «أو يُحَاجُّوكم» في تأويل نصب «أنْ» بمعنى: أو تريدون أنْ يُحاجُّوكم.

قال أبو عليّ: و«أَحَد» على قراءة ابن كثير هو الذي لا يدلُّ على الكثرة، وقد

---

(١) في النسخ السالفة: يجعله.
(٢) رسمت في (ح) و(د١): اان. وينظر التعليق التالي.
(٣) السبعة ص٢٠٧، والتيسير ص٨٩: وسلف ذكرها أول تفسير الآية، وينظر ما نقلتُه عن أبي عمرو الداني ثمة.
(٤) يعني فسَّر أبو عليّ قراءة ابن كثير على أنَّ الكلام كلَّه من قول الطائفة إلا الاعتراض الذي هو «قل إنَّ الهدى هدى الله». والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٤٥٥.

منع الاستفهامُ القاطعُ من أن يشيع لامتناع دخوله في النَّفي الذي في أوَّل الكلام، فلم يبق إلا أنه «أحد» الذي في قولك: «أحدٌ وعشرون» وهو يقع في الإيجاب، لأنه في معنى «واحد» وجُمع ضميرُه في قوله: «أو يُحاجُّوكم» حملاً على المعنى، إذ لأحد المراد بمثل النبوَّة أتباع، فهو في المعنى للكثرة.

قال أبو عليّ: وهذا موضع ينبغي أن تُرجَّح فيه قراءة غير ابنِ كثير على قراءة ابن كثير؛ لأنَّ الأسماء المفردة ليس بالمستمر أن يدل على الكثرة. انتهى تخريج أبي علي لقراءة ابن كثير[1]، وقد تقدَّم تخريجُ قراءته على أن يكون قوله: «أَنْ يُؤْتَى» مفعولاً من أجله على أن يكون داخلاً تحت القول لا من قول الطائفة، وهو أظهرُ مِن جعلِه من قول الطائفة.

وقد اختلف السَّلَف في هذه الآية، فذهب السُّدِّيُّ وغيرُه إلى أنَّ الكلام كلَّه من قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية ممَّا أَمَر الله به محمداً ﷺ أن يقوله لأُمَّته.

وذهب قتادة والربيع إلى أن هذا كلَّه من قول الله، أمرَه أن يقولَه للطائفة التي قالت: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.

وذهب مجاهد وغيره إلى أنَّ قوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ كلَّه من قول الطائفة لأتباعهم، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ اعتراض بين ما قبلَه وما بعدَه من قول الطائفة لأتباعهم.

وذهب ابن جُرَيج إلى أنَّ قوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ داخل تحت الأمر الذي هو «قُلْ»، يقولُه الرسولُ لليهود، وتمَّ مقولُه في قوله: «أُوتيتُم» وأما قوله: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ فهو متصل بقول الطائفة: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ وعلى هذه الأنحاء ترتيب الأوجه السابقة[2].

---

(١) ينظر الحُجة لأبي علي ٣/ ٥٥-٥٧. ونقل المصنف كلامه بواسطة المحرر الوجيز ١/ ٤٥٥-٤٥٦.

(٢) تنظر الأقوال في المحرر الوجيز ١/ ٤٥٤ و٤٥٦ و٤٥٧. وقد أوردها ابن عطية أثناء شرحه الأوجه السالفة.

وقرأ الأعمش وشُعيب بن أبي حمزة: «إنْ يُؤْتَى» بكسر الهمزة، يعني: لم يُعْطَ أحدٌ مثلَ ما أُعطيتُم من الكرامة. وهذه القراءة تحتمل أن يكون الكلامُ خطاباً من الطائفة القائلة، ويكون قولُها: «أَوْ يُحَاجُّوكم» بمعنى: أو فليُحاجُّوكم، وهذا على التصميم على أنه لا يُؤتَى أحدٌ مثل ما أُوتي، أو يكون بمعنى: إلا أنْ يُحاجُّوكم. وهذا على تجويز أنْ يُؤتَى أحدٌ ذلك إذا قامت الحجَّة له. هذا تفسيرُ ابنِ عطية لهذه القراءة[1]. وهذا على أن يكون من قول الطائفة.

وقال أيضاً في تفسيرها: كأنّه ﷺ يُخبر أمَّتَه أنَّ الله لا يُعطي أحداً ولا أعطى فيما سلف مثلَ ما أعطَى أمَّةَ محمد ﷺ من كونه وَسَطاً، فهذا التفسير على أنه من كلام محمد ﷺ لأمّتِهِ ومندرجٌ تحت «قُلْ».

وعلى التفسير الأوَّل فسَّرها الزمخشريّ[2]؛ قال: وقُرئ: «إنْ يُؤْتَى أحد» على «إنْ» النافية، وهو متصل بكلام أهل الكتاب، أي: ولا تؤمنوا إلا لمن تَبع دينَكم وقولوا لهم: ما يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتُم حتى يُحاجُّوكم عند ربّكم. أي: ما يُؤتَوْن مثلَه فلا يُحاجُّوكم[3].

قال ابن عطية: وقرأ الحسن: «أنْ يُؤْتِيَ أحدٌ» بكسر التاء[4] على إسناد الفعل إلى «أحد»، والمعنى أنّ إنعام الله لا يُشبِهُهُ إنعامُ أحدٍ من خلقه. وأظهرُ ما في هذه القراءة أن يكون خطاباً من محمد ﷺ لأمّته، والمفعولُ محذوف، تقديرُه: أنْ يُؤْتِيَ أحدٌ أحداً. انتهى. ولم يتعرَّض ابنُ عطية للفظ «أنْ» في هذه القراءة أهي بالكسر أم بالفتح[5].

وقال السجاوندي: وقرأ الأعمش: إنْ يُؤْتَى، والحسن: إنْ يُؤْتِي أحداً؛

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٥٦.

(٢) الكشاف ١/ ٤٣٧.

(٣) كذا في النسخ. والجادَّة: فلا يحاجُّونكم. كما في المصدر السابق.

(٤) المحتسب ١/ ١٦٣، وتفسير القرطبي ٥/ ١٧٤. وينظر التعليق التالي.

(٥) جاء في المحرر الوجيز ١/ ٤٥٧ أن قراءة الحسن بكسر الهمزة والتاء. ولعلَّ ما وقع للمصنف عنه راجع إلى اختلاف النسخ.

جعلا «إنْ» نافية، وإن لم تكن بَعْدُ «إلا»، كقوله تعالى: ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦] و«أو» بمعنى: إلا أنْ، وهذا يحتمل قولَ الله عز وجل، ومع[١] اعتراض «قُلْ» قولَ اليهود. انتهى[٢].

وفي معنى الهدى هنا قولان:

أحدهما: ما أُوتِيَهُ المؤمنون من التصديق برسول الله ﷺ.

والثاني: التوفيق والدلالة إلى الخير حتى يُسلم، أو يثبتَ على الإسلام.

ويحتمل «عند ربكم» وجهين:

أحدُهما: أن ذلك في الآخرة.

والثاني: عند كُتُب ربِّكم الشاهدةِ عليكم ولكم. وأضافَ ذلك إلى الرّبِّ تشريفاً، وكأنَّ المعنى: أو يُحاجُّوكم عند الحقّ[٣].

وعلى هذين المعنيين تدورُ تفاسير الآية، فيحمل كلٌّ منها على ما يناسب من هذين المعنيين.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ هذا توكيدٌ لمعنى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ وفي ذلك تكذيبٌ لليهود حيث قالوا: شريعةُ موسى مؤبَّدة، ولن يُؤتِيَ الله أحداً مثلَ ما أُوتيَ بنو إسرائيل من النبوّة[٤]، فالفضلُ هو بيد الله، أي: متصرّف فيه كالشيء في اليد، وهذه كنايةٌ عن قدرة التصرُّف والتمكُّن فيها، والباري تعالى منزَّه عن الجارحة.

ثم أخبرَ بأنه يعطيه من أراد، فاختصاصُه بالفضل مَنْ شاء إنما سببه الإرادة فقط. وفُسِّرَ الفضلُ هنا بالنبوَّة، وهو أعمّ، والنبوّةُ أشرفُ أفراده.

---

(١) في (ح) و(د٢) و(يه): وقعَ.
(٢) لم أقف عليه. وجاء في تفسير الثعلبي ٢/ ٨٢ عن الحسن والأعمش: إنْ يُؤْتَى، بكسر الهمزة. وقد نقل السمين الحلبي في الدّرّ المصون ٣/ ٢٦٠ عن الواحدي قوله: هذه الآية من مشكلات القرآن وأصعبه تفسيراً، ولقد تدبَّرتُ أقوال أهل التفسير والمعاني في هذه الآية، فلم أجد قولاً يطَّردُ في هذه الآية من أولها إلى آخرها مع بيان المعنى وصحة النَّظم.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٥٧.
(٤) المصدر السابق.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ تقدّم تفسيره.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ قال الحسن ومجاهد والربيع: يُفرد بنبوّته من يشاء. وقال ابنُ جُرَيْج: بالإسلام والقرآن. وقال ابن عبَّاس ومقاتل: الإسلام. وقيل: كثرة الذكر للهِ تعالى(١).

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تقدَّم تفسير هذا وتفسير ما قبلَه في آخر آية ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وتضمّنت هذه الآيات من البديع التجنيسَ المماثل، والتكرارَ في «آمَنُوا» و«آمِنُوا» وفي «الهُدى هُدى الله» وفي «يُؤْتَى» و«أوتيتُم» وفي «إنَّ الفضل» و«ذو الفضل»، والتكرارَ أيضاً في اسم الله في أربعة مواضع، والطِّباقَ في «آمِنُوا» و«اكْفُروا» وفي «وَجْهَ النّهار» وفي «آخِرَه»، والاختصاصَ في «وَجْهَ النَّهار» لأنه وقتُ اجتماعهم بالمؤمنين يُراؤونهم، و«آخِرَه» لأنه وقتُ خَلْوَتِهم بأمثالهم من الكفار، والحذفَ في مواضع.

❁ ❁ ❁

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ

(١) ينظر تفسير الطبري ٥/ ٥٠٧، والنكت والعيون ١/ ٤٠٢، وزاد المسير ١/ ٤٠٨. والقول الأخير ذكره الآلوسي في روح المعاني ٤/ ٢٨٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

المفردات

الدينار معروف، وهو أربعةٌ وعشرون قِيراطاً، والقِيراط ثلاثُ حَبَّات من وَسَط الشعير، فمجموعُه اثنانِ وسبعون حبَّة، وهو مجمع عليه، وياؤه بدل من نون، يدلُّ على ذلك الجمعُ قالوا: دنانير، وأصله: دِنَّار؛ أُبدِلَ من أوَّل المِثلين كما أبدلوا من النون في ثالث الأمثال ياءً في «تَظَنَّيْتُ» أصلُه: تَظَنَّنْتُ لأنه من الظَّنّ، وهو بدل مسموع، والدينار لفظ أعجمي تصرَّفَتْ فيه العرب، وألحقَتْه بمفردات كلامها[1].

«دام» ثبتَ، والمضارع: يدوم، فوزنُه فَعَلَ، نحو: قال يقول. قال الفرَّاء[2]: هذه لغة الحجاز، وتميم تقول: دِمْتُ، بكسر الدال، قال: ويجتمعون في المضارع يقولون: يدوم.

وقال أبو إسحاق[3]: تقول: دِمتَ تَدَامُ، مثل: نِمتَ تَنَامُ، وهي لغة، فعلى هذا يكون وزن «دام»: فَعِلَ، بكسر العين، نحو: خاف يخاف.

والتدويم: الاستدارة حول الشيء، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

والشَّمسُ حَيْرَى لها في الجَوِّ تَدْوِيمُ[4]

وقال علقمة في وصف خمر:

تَشْفِي الصُّدَاعَ ولا يُؤْذِيك صَالِبُها ... ولا يُخالِطُها في الرأس تَدْوِيمُ[5]

والدُّوَام: الدُّوَار يأخذُ في رأس الإنسان فيرى الأشياء تدورُ به، وتدويمُ

(١) ينظر المعرَّب للجواليقي ص١٨٧.
(٢) نقله ابن الجوزي في زاد المسير ١/٤٠٩ عن الفراء.
(٣) هو الزجَّاج، وكلامُه في معانيه ١/٤٣٣، ونقله أيضاً ابن عطية ١/٤٥٨.
(٤) ديوان ذي الرُّمَّة ١/٤١٨، وصدرُ البيت: مُعْرَوْرِياً رَمَضَ الرَّضْراضِ يَرْكُضُهُ.
(٥) ديوان علقمة (بشرح الشنتمري) ص٦٩، والمفضَّليات ص٤٠٢. قال الشنتمري: صالبُها: ما صَلُبَ منها وقويَ، وقيل: الصالب الصُّداع، أي: لا يُصيبُك منها صُداع فيؤذيَك.

الطائر في السماء ثبوتُه إذا صَفَّ واستدارَ، ومنه الماء الدائم، كأنه يستدير حول مركزه.

لَوَى الحبلَ والثوبَ[١]: فَتَلَه. ثم استُعمل في الإراغة في الحُجَج والخصومات، ومنه لِيَّانُ الغريم، وهو دَفْعُه ومَطْلُه، ومنه خَصْمٌ أَلْوَى: شديدُ الخُصومة، شُبِّهت المعاني بالأجرام.

اللسان: الجارحة المعروفة. قال أبو عَمرو: اللسان يذكَّر ويؤنَّث، فمن ذكَّر جمعَه: ألسنة، ومن أنَّث جمعَه ألسنًا[٢].

وقال الفرَّاء: اللسان بعينه لم نسمعه من العرب إلا مذكّراً. انتهى[٣].

ويُعبَّر باللسان عن الكلام، وهو أيضاً يذكَّر ويؤنَّث إذا أريد به ذلك[٤].

الرَّبَّانيّ منسوبٌ إلى الرّبّ، وزِيدت الألف والنون مبالغة كما قالوا: لِحْيانيّ وشَعْرانيّ ورَقَبانيّ[٥]، فلا يُفردون هذه الزيادة عن ياء النسبة.

وقال قوم: هو منسوب إلى رَبَّان، وهو معلِّمُ الناس وسائسُهم[٦]، والألف والنون فيه كهي في غضبان وعطشان، ثم نُسب إليه فقالوا: رَبَّانيّ. فعلى هذا يكون من النَّسَب في الوصف كما قالوا: أَحْمَريّ في أحمر، ودَوَّارِيّ في دوَّار، وكلا القولين شاذٌ لا يُقاس عليه.

دَرَسَ الكتابَ يَدْرُسُه: أدْمَنَ قراءتَه وتكريرَه، ودرَسَ المنزلُ: عَفَا، وطَلَلٌ دارسٌ: عافٍ.

---

(١) في (د١) والمطبوع: والتوى. وهو تحريف.

(٢) نقله ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٤١٢ عن أبي عمرو (وهو ابنُ العلاء).

(٣) المذكَّر والمؤنَّث للفرَّاء ص٧٤. ونقلَه عنه ابنُ الجوزي في زاد المسير.

(٤) قال ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٤١٢: تقول العرب: سبقَ من فلان لسان. يعنُون به الكلام. فيذكِّرونه.

(٥) يعني (على الترتيب): طويل اللِّحية، وكثير الشعر، وغليظ الرقبة.

(٦) مأخوذ من: رَبَّ يَرُبُّ: إذا أصلحَ وربَّى. قاله (والكلامَ قبلَه) ابنُ عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٦٢.

التفسير ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾:

الجمهور على أنَّ أهلَ الكتاب هم اليهودُ والنَّصارى، أخبر الله تعالى بذَمّ الخَوَنةِ منهم، فظاهرُه أنَّ في اليهود والنصارى مَنْ يُؤتَمنُ فيَفي، ومَنْ يُؤتَمنُ فيخُون.

وقيل: أهلُ الكتاب عَنَى به أهلَ القرآن. قاله ابنُ جُرَيْج(١). وهذا ضعيف جدًّا لما يأتي بعدَه من قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾.

وقيل: المراد بأهل الكتاب اليهود لأنّ هذا القول: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾، لم يقله ولا يعتقده إلا اليهود.

وقيل: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ هم النصارى لغلبة الأمانة عليهم، و﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾ هم اليهود لغلبة الخيانة عليهم. وعُيِّن منهم كعب بنُ الأشرف وأصحابه.

وقيل: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ هم مَنْ أسلم من أهل الكتاب، و﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾ هم مَنْ لم يسلم منهم(٢).

ورُوِيَ أنه بايعَ بعضُ العرب بعضَ اليهود وأودعُوهم، فخانُوا مَنْ أسلم وقالوا: قد خرجتُم عن(٣) دينكم الذي عليه بايعناكم، وفي كتابنا لا حُرمةَ لأموالكم. فكذّبهم الله تعالى؛ قيل: وهذا سببُ نزولِ هذه الآية(٤).

وعن ابن عباس: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ هو عبد الله بنُ سَلَام، استودَعه رجلٌ من قريش ألفاً ومئتي أوقيةٍ ذهباً، فأدّاه إليه، و﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾ فنحاص بن عازُوراء؛ استودَعه رجل من قريش ديناراً، فجَحَده وخانَه. انتهى(٥).

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ينظر تفسير الثعلبي ٢/ ٨٥، وزاد المسير ١/ ٤٠٩، وتفسير الرازي ٨/ ١٠٦-١٠٧.

(٣) المثبت من (ح) و(د٢) و(يه). وفي النسخ الأخرى: من.

(٤) ينظر تفسير الطبري ٥/ ٥١٢، وتفسير البغوي ١/ ٣١٨، والمحرر الوجيز ١/ ٤٥٩، وتفسير القرطبي ٥/ ١٨٠.

(٥) تفسير البغوي ١/ ٣١٧. وهو عند الثعلبي ٢/ ٨٥ عن مقاتل، وعند القرطبي ٥/ ١٧٥ دون نسبة.

ولا ينحصر الشرط في ذينك المُعَيَّنَيْن، بل كلٌّ منهما فردٌ ممَّن يندرجُ تحت «مَنْ»، ألا ترى كيف جمع في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾؟

قالوا: والمخاطَبُ بقوله: «تَأْمَنْهُ» هو النبيُّ ﷺ بلا خلاف، ويحتمل أن يكون السامع من أهل الإسلام وبيَّنه قولُهم: «ليس علينا في الأُمِّيِّين سبيل» فجمع الأُمِّيِّين، وهم أتْباعُ النبيِّ الأمِّيّ.

وقرأ أُبيُّ بنُ كعب: «تِئْمَنْه» في الحرفين، و«تِئْمَنَّا» في يوسف[1]. وقرأ ابنُ مسعود والأشهب العقيليُّ وابنُ وثَّاب: «تِيمَنْهُ» بتاء مكسورة وياء ساكنة بعدها. قال الدانيّ: وهي لغة تميم[2]. وأمَّا إبدالُ الهمزة ياءً في «تِيمَنْهُ» فلكسرة ما قبلَها كما أبدلُوها في «بِير».

وقد ذكرنا الكلام على حروف المضارعة من «فَعِلَ» ومِن ما أوَّلُه همزة وصل عند الكلام على قوله: «نستعين» فأغنى عن إعادته.

وقال ابن عطيَّة حين ذكرَ قراءةَ أُبيّ: وما أراها إلا لغة قرشيَّة، وهي كسرُ نونِ الجماعة كـ: «نستعين» وألفِ المتكلِّم، كقول ابن عُمر: لا إخالُه[3]، وتاء المخاطب كهذه الآية، ولا يكسرون الياء في الغائب، وبها قرأ أُبيّ في «تِئْمَنْهُ». انتهى. ولم يبيِّن ما يكسر فيه حروف المضارعة بقانون كلِّي، وما ظنَّه من أنَّها لغة قرشية ليس كما ظنَّ، وقد بيَّنَّا ذلك في «نستعين».

وتقدَّم تفسير «القِنْطَار» في قوله: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾.

وقرأ الجمهور: «يُؤَدِّهِ» بكسر الهاء ووصلِها بياء، وقرأ قالون باختلاسِ الحركة، وقرأ أبو عَمرو وأبو بكر وحمزة والأعمش بالسكون.

---

(١) في المحرر الوجيز ١/ ٤٥٧ عن أُبيّ: تِيمَنْهُ، في الحرفين، وكذلك: تِيمَنَّا، في سورة يوسف، بالتاء والياء، مثل قراءة ابن مسعود وغيره الآتية بعده.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٥٧. ونُسبت قراءة «تِيمَنْهُ» في القراءات الشاذة ص٢١ لابن وثَّاب، ونُسبت في تفسير القرطبي ٥/ ١٧٥ إليه وإلى الأشهب العُقيلي.

(٣) جاء قوله هذا ﷺ عندما سأله مُوَرِّق العِجْليّ عن صلاة الضُّحى: أصَلَّاها النبيُّ ﷺ؟ فقال ابنُ عمر ﷺ: لا إخالُه. وهو في صحيح البخاري (١١٧٥) قال السندي كما في حاشية المسند (٤٧٥٨): لا إخالُه، بكسر الهمزة أفصحُ لغة، والفتح أحسن.

قال أبو إسحاق: وهذا الإسكان الذي رُوِيَ عن هؤلاء غلطٌ بيِّن؛ لأنَّ الهاء لا ينبغي أن تُجزم وإذا لم تُجزم فلا يجوز أن تسكَّن في الوصل، وأمَّا أبو عَمرو فأُراه كان يختلسُ الكسرة، فغُلِطَ عليه كما غُلِطَ عليه في «بارئكم» وقد حكى عنه سيبويه ـ وهو ضابط لمثل هذا ـ أنه كان يكسر كسراً خفيفاً. انتهى كلام أبي إسحاق[١].

وما ذهب إليه أبو إسحاق من أنَّ الإسكان غلط ليس بشيء، إذْ هي قراءةٌ في السبعة وهي متواترة، وكفى أنها منقولةٌ عن إمام البصريِّين أبي عَمرو بنِ العلاء، فإنَّه عربيٌّ صريح، وسامعُ لغة، وإمامٌ في النحو، ولم يكن ليذهبَ عنه جوازُ مثلِ هذا.

وقد أجاز ذلك الفرَّاء، وهو إمام في النحو واللغة، وحكى ذلك لغةً لبعض العرب؛ يجزم في الوصل والقطع[٢].

وقد رَوَى الكسائيُّ أنَّ لغة عُقيل وكلاب أنهم يختلسون الحركة في هذه الهاء إذا كانت بعد متحرِّك، وأنهم يسكّنون أيضاً. قال الكسائيّ: سمعتُ أعراب عُقيل وكلاب يقولون: «لربِّهْ لَكَنُود» بالجزم، و«لربِّهِ لكنود» بغير تمام، ولَهْ مَالٌ ولَهُ مال، وغيرُ عُقيل وكلاب لا يوجد في كلامهم اختلاس ولا سكون في «له» وشِبهه إلا في ضرورة، نحو قوله:

لـــهُ زَجَـــلٌ كـــأنَّـــهُ صَـــوْتُ حـــادٍ[٣]

وقال:

إلا لأنَّ عُـــيـــونَـــهْ سَـــيْـــلُ واديـــهـــا[٤]

---

(١) هو الزجَّاج، وكلامه في معاني القرآن ١/ ٤٣٢ بتقديم وتأخير، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ١/ ٤٥٧-٤٥٨.

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٢٣، وتفسير القرطبي ٥/ ١٧٦-١٧٧.

(٣) هو صدرُ بيت للشمَّاخ، وعجزُه: إذا طلبَ الوَسِيقةَ أو زميرُ. وهو في الكتاب ١/ ٣٠، والمقتضب ١/ ٢٦٧، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٢١٥، وسرّ صناعة الإعراب ٢/ ٧٢٦، والخصائص ١/ ١٢٧ و٣٧١، والإنصاف ٢/ ٥١٦، ولسان العرب (ها) (وفيه كلام الكسائي السالف)، وخزانة الأدب ٥/ ٢٧٠. والبيت في وصف حمار الوحش، والوسيقةُ أنثاه، والزَّمير صوتُ المزمار. والشاهد في البيت اختلاس ضمة الهاء في «كأنه».

(٤) سرّ صناعة الإعراب ٢/ ٧٢٧، والخصائص ١/ ٣٧١، والمحتسب ١/ ٢٤٤، وخزانة الأدب

ونصَّ بعضُ أصحابنا على أنَّ حركة هذه الهاء بعد الفعل الذاهب منه حرف لوقف أو جزم يجوزُ فيها الإشباع، ويجوز الاختلاس، ويجوزُ السكون، وأبو إسحاق الزَّجَّاجُ يقال عنه: إنه لم يكن إماماً في اللغة، ولذلك أنكرَ على ثعلب في كتابه «الفصيح» مواضعَ زعم أنَّ العربَ لا تقولُها، ورَدَّ الناسُ على أبي إسحاق في إنكاره ونقلُوها من لغة العرب، وممَّن رَدَّ عليه أبو منصور الجواليقي، وكان ثعلب إماماً في اللغة، وإماماً في النحو على مذهب الكوفيِّين.

ونقلُوا أيضاً قراءتين إحداهما ضمُّ الهاء ووصلُها بواو، وهي قراءة الزُّهريّ، والأخرى ضمُّها دون وصل، وبها قرأ سلَّام[1].

والباء في «بقنطار» وفي «بدينار» قيل: للإلصاق، وقيل: بمعنى «على»، إذ الأصل أن يتعدَّى بـ «على» كما قال: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ١١] وقال: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٦٤] وقيل: بمعنى «في» أي: في حِفْظِ قنطار، وفي حِفْظ دينار، والذي يظهرُ أنَّ القنطار والدينار مثالان للكثير والقليل[2]، فيدخل أكثرُ من القنطار وأقلُّ[3]، وفي الدينار أقلُّ منه.

قال ابن عطيَّة: ويحتمل أن يريد طبقة يعني في الدينار لا يخون إلا في دينار فما زاد[4]، ولم يُعْنَ بذكر الخائنين في أقلَّ، إذ هم طَغَامٌ حُثالة. انتهى.

ومعنى: «إلا ما دُمتَ عليه قائماً» قال قتادة ومجاهد والزَّجَّاج والفرَّاء وابنُ

= ٥/ ٢٧٠ و٦/ ٤٥٠. وصدرُ البيت: وأشربُ الماءَ ما بي نحوه عطشٌ. والشاهد فيه إسكان الهاء في «عيونه».

(١) ينظر إعراب القرآن للزجَّاج ١/ ٤٣٢، وللنحاس ١/ ٣٨٨، والإملاء ١/ ١٤٠، ونُسبت قراءة ضم الهاء دون واو في تفسير القرطبي ٥/ ١٧٧ للزهريّ وسلَّام (وهو ابنُ سليمان أبو المنذر المزني) ونُسبت فيه قراءة ضم الهاء مع وصلها بواو لقتادة وحُميد ومجاهد.

(٢) في (ح) و(د٢) و(يه): يقالان للتكثير والتقليل.

(٣) لفظة «وأقل» ليست في (ح) و(د٢) و(يه).

(٤) عبارة المحرر الوجيز ١/ ٤٥٨: طبقة لا تخون إلا في دينار فما زاد.

قُتيبة: متقاضياً بأنواع التقاضي[(١)] من الخَفْر[(٢)] والمرافعة إلى الحكام[(٣)]. فليس المرادُ هيئةَ القيام، إنَّما هو من قيام المرء على أشغاله، أي: اجتهادِه فيها.

وقال السُّدِّيّ: وغيرُه: قائماً على رأسه[(٤)]. وهي الهيئةُ المعروفة، وذلك نهايةُ الخفر، لأنَّ معنى ذلك أنه في صَدَدِ شُغلٍ آخرَ يريد أن يستقبلَه.

وذهب إلى هذا التأويل جماعةٌ من الفقهاء، وانتزعوا من الآية جوازَ السَّجْن، لأنَّ الذي يقوم عليه غريمُه هو يمنعُه من تصرفاته في غير القضاء، ولا فرق بين المنع من التصرفات وبين السَّجْن[(٥)].

وقيل: قائماً بوجهك، فيهَابُك ويستحيي منك. وقيل: معنى «دُمْتَ عليه قائماً» أي: مستعلياً، فإنِ استلانَ جانبُك لم يُؤدِّ إليك أمانتَك.

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي ويحيى بن وثَّاب والأعمش وابنُ أبي ليلى والفيَّاض بن غزوان وطلحة وغيرُهم: «دِمْتَ» بكسر الدَّال[(٦)]. وتقدَّم أنها لغة تميم، وتقدَّم الخلاف في مضارعه.

و«ما» في «ما دُمْتَ» مصدريَّة ظرفيَّة، و«دُمْتَ» ناقصة، فخبرُها «قائماً»، وأجازَ أبو البقاء[(٧)] أن تكون «ما» مصدريَّة فقط لا ظرفيَّة، فتتقدَّر بمصدر،

---

(١) لعل من الأنسب أن تكون العبارة: أي بأنواع التقاضي... الخ، فقول قتادة وغيره المنقول في المصادر الآتية مقتصر بمعناه على اللفظة الأولى: «متقاضياً»، والكلام بعدَه هو لابن عطيَّة في المحرر الوجيز ١/ ٤٥٨.

(٢) في المصدر السابق والكلام منه: الحفز. (وكذا في الموضع التالي).

(٣) ينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٢٤، وتأويل مشكل القرآن ص١٣٨، وتفسير الطبري ٥/ ٥٠٩، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٣٣، والنكت والعيون ١/ ٤٠٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٥٨، وزاد المسير ١/ ٤٠٩.

(٤) تفسير الطبري ٥/ ٥١٠، والنكت والعيون ١/ ٤٠٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٥٨، وزاد المسير ١/ ٤٠٩.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٥٨.

(٦) ينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٨، والقراءات الشاذة ص٢١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٥٨، وتفسير القرطبي ٥/ ١٧٨.

(٧) الإملاء ١/ ١٤٠.

وذلك المصدر ينتصب على الحال، فيكون ذلك استثناءً من الأحوال لا من الأزمان. قال: والتقدير: إلا في حال ملازمتِك له. فعلى هذا يكون «قائماً» منصوباً على الحال لا خبراً لـ «دامَ» لأن شرط نَقْص «دام» أن يكون صلةً لـ «ما» المصدرية الظرفية.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ رُوِيَ أنَّ بني إسرائيل كانوا يعتقدون استحلالَ أموالِ العرب لكونهم أهلَ أوثان، فلمَّا جاء الإسلام وأسلمَ مَنْ أسلمَ من العرب بقيَ اليهود فيهم على ذلك المعتقد، فنزلت الآية مانعةً من ذلك، وقال رسول الله ﷺ: «كلُّ شيء من أمر الجاهلية فهو تحت قدمي إلا الأمانةَ، فإنَّها مؤدَّاة إلى البَرِّ والفاجر»[(١)].

والإشارة بـ «ذلك» إلى ترك الأداء الذي دلَّ عليه «لا يُؤَدِّه» أي: كونُهم لا يُؤَدُّون الأمانة كائنٌ بسبب قولهم.

والضمير في «بأنَّهم»؛ قيل: عائد على اليهود، وقيل: عائد على لفيف بني إسرائيل. والأظهر أنه عائد على «مَنْ» في قوله: «مَنْ إنْ تَأمَنْه بدينار لا يُؤَدِّه إليك»، وجُمع حملاً على المعنى، أي: تَرْكُ الأداء في الدينار فما دونَه وما فوقَه كائنٌ بسبب قول المانع للأداء الخائن: «ليس علينا في الأُمِّيِّين»، وهم الذين ليسوا من أهل الكتاب، وهم العرب، وتقدَّم كونُهم سُمُّوا أُمِّيِّين في سورة البقرة [٧٨].

والسبيل؛ قيل: العِتابُ والذَّمُّ. وقيل: الحُجَّة، على نحو قول حُمَيْد بن ثَوْر:

وهَلْ أنا إنْ عَلَّلْتُ نفسي بسَرْحَةٍ ... مِنَ السَّرْحِ موجودٌ عليَّ طَريقُ[(٢)]

وقوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١] من هذا المعنى، وهو كثيرٌ في القرآن وكلامِ العرب[(٣)].

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير ٥/ ٥١١ بنحوه عن سعيد بن جبير مرسلاً. والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٤٥٨.

(٢) الأغاني ٢/ ٣٥٧، والحماسة البصرية ٢/ ٢٢٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٥٩، وخزانة الأدب ٢/ ١٩٤. ورواية الخزانة: مسدود، ورواية الحماسة: تراني إن علَّلت... مسدودا.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٥٩.

وقيل: السبيل هنا الفعلُ المؤدِّي إلى الإثم، والمعنى: ليس عليهم طريقٌ فيما يستحلُّون من أموال المؤمنين[١] الأمِّيِّين.

قيل: وسببُ استباحتِهم لأموال الأمِّيِّين أنهم عندهم مشركون، وهم بعد إسلامهم باقون على ما كانوا عليه، وذلك لتكذيب اليهود للقرآن وللنبيِّ ﷺ.

وقيل: لأنهم انتقضَ[٢] العهدُ الذي كان بينهم بسبب إسلامهم، فصاروا كالمحاربين فاستحلُّوا أموالهم. وقيل: لأنَّ ذلك مباحٌ في كتابهم أخذُ مالِ مَن خالفهم[٣].

وقال الكلبيّ: قالت اليهود الأموالُ كلُّها كانت لنا، فما في أيدي العرب منها فهو لنا، وإنهم ظلمونا وغصبونا، فلا سبيل علينا في أخذ أموالِنا منهم.

وروى عبد الرزاق عن مَعْمَر، عن أبي إسحاق الهَمْدَانيّ، عن صعصعة أنَّ رجلاً قال لابن عباس: إنَّا نُصيبُ في الغَزْو من أموال[٤] أهلِ الذِّمَّةِ الشاةَ والدَّجاجةَ ويقولون[٥] ليس علينا بذلك بأس. فقال له: هذا كما قال أهل الكتاب: «ليس علينا في الأُمِّيِّين سبيل» إنَّهم إذا أدَّوا الجِزْيَة لم تَحِلَّ لكم أموالُهم إلا عن طِيبِ أنفسِهم.

وذكر هذا الأثرَ الزمخشريُّ وابنُ عطيَّة، وفيه بَعْدَ ذِكر الشاةِ والدَّجاجة: قال: فتقولون ماذا؟ قال: نقول: ليس علينا في ذلك بأس[٦].

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: القولَ الكذبَ، يفترونه على الله بادِّعائهم أنَّ ذلك في كتابهم. قال السُّدِّيُّ وابنُ جُرَيْج وغيرُهما: ادَّعَتْ طائفة من أهل الكتاب

---

(١) لفظة «المؤمنين» من (ح) و(د٢) و(يه).
(٢) في (أ) و(ع): انتقضوا.
(٣) ينظر تفسير الطبري ٥/ ٥١٠-٥١٢، وتفسير البغوي ١/ ٣١٧، وتفسير القرطبي ٥/ ١٨٠.
(٤) في (ح) و(د٢) و(يه): مال.
(٥) في تفسير عبد الرزاق ١/ ١٢٤، وتفسير القرطبي ٥/ ١٨٠ (واللفظ منه): ونقول. وهو الأشبه.
(٦) الكشاف ١/ ٤٣٨، والمحرر الوجيز ١/ ٤٥٩. وما استدركه المصنف منهما هو عند عبد الرزاق في تفسيره ١/ ١٢٤، فكان العزو إليه أولى. والظاهر أن المصنف نقله عن القرطبي. وقد أخرجه الطبري ٥/ ٥١٣ بتمامه من طريق عبد الرزاق.

أنَّ في التوراة إحلالَ اللهِ لهم أموالَ الأُمِّيين؛ كذباً منها وهي عالمة بكذبها، فيكون «الكذب» المَقُولُ هنا هو هذا الكذبَ المخصوصَ في هذا الفصل. والظاهر أنه أعمُّ من هذا، فيندرجُ هذا فيه، أي: هم يكذبون على الله في غير ما شيء وهم علماء بموضع الصدق[١].

وجوَّزُوا أن يكون «علينا» خبرَ «ليس»، وأن يكون الخبر «في الأمِّيِّين»، وذهبَ قوم إلى عمل «ليس» في الجارّ، فيجوزُ على هذا أن يتعلَّق بها.

قيل: ويجوز أن يرتفع «سبيل» بـ «علينا» وفي «ليس» ضمير الأمر[٢].

ويتعلق «على الله» بـ «يقولون» بمعنى يفترون. قيل: ويجوز أن يكون حالاً من «الكذب» مقدَّماً عليه. ولا يتعلق بالكذب؛ قيل: لأنَّ الصِّلة لا تتقدَّم على الموصول[٣].

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جملة حالية تَنْعَى عليهم قبيحَ ما يرتكبون من الكذب، أي إنَّ العلم بالشيء يبعُدُ ويقبُح أن يُكذب فيه، فكذبُهم ليس عن غفلة ولا جهل، إنما هو عن علم.

﴿بَلَىٰ﴾ جواب لقولهم: «ليس علينا في الأمِّيِّين سبيل». وهذا مناقض لدعواهم، والمعنى: بلى عليهم في الأمِّيِّين سبيل.

وقد تقدم القول في «بلى» في قوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ [البقرة: ٨١] فأغنى عن إعادته هنا.

---

(١) بعدها في المحرر الوجيز ١/ ٤٥٩: لو قصدوها. (والكلام منه بتقديم وتأخير) وأخرج الطبري ٥/ ٥١٣-٥١٤ قول السُّدِّيّ وابن جُريج بنحوه.

(٢) والتقدير: ليس الشأن استقرَّ علينا في الأميِّين سبيل. فارتفع «سبيل» بـ «علينا» لأنَّ الجارَّ والمجرور (علينا) اعتمد على ذي خبر، فعملَ عملَ الفعل. وينظر تفصيل الكلام في هذا في الدُّرّ المصون ١/ ١٧١ عند الآية (١٩) من سورة البقرة.
ووَجْهٌ آخر في حالة كونِ اسم «ليس» ضميرَ الأمر (الشأن): هو أن يكون «سبيل» مبتدأ، و«علينا» الخبرَ، والجملة خبر «ليس». ذكره السمين في الدُّرّ المصون ٣/ ٢٦٨ وبدأ به.

(٣) قاله أبو البقاء في الإملاء ١/ ١٤٠. وأجازه غيره ـ كما ذكر الآلوسي في روح المعاني ٤/ ٢٨٣ ـ لأنه كالظرف يُتوسَّع فيه ما لا يُتوسَّع في غيره. وينظر الدر المصون ٣/ ٢٦٩.

﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أخبر تعالى بأنَّ من أوفى بالعهد واتَّقى اللهَ في نقضه فهو محبوبٌ عند الله. وقال ابنُ عبَّاس: «اتَّقى» هنا معناه: اتَّقى الشِّرك[1].

وهذه الجملة مقرِّرة للجملة المحذوفة بعد «بلى».

و«مَنْ» يحتمل أن تكون موصولة، والأظهر أنها شرطيَّة، و«أَوْفَى» لغةُ الحجاز، و«وَفَى» خفيفةً لغةُ نَجْد، و«وَفَّى» مشدَّدةً لغةٌ أيضاً، وتقدَّم ذكر هذه اللغات.

والظاهر في «بعهده» أنَّ الضمير عائد[2] على «مَنْ»، وقيل: يعودُ على الله تعالى، ويدخل في الوفاء بالعهدِ العهدُ الأعظم من ما أُخذ عليهم في كتابهم من الإيمان برسول الله ﷺ؛ سواءٌ أُضيف العهدُ إلى «مَنْ» أو إلى الله. والرابط[3] للجملة الخبرية أو الجزائية بـ «مَنْ» هو العموم الذي في «المتقين»، إذْ ما قبلَه فَرْدٌ من أفراده، ويحتمل أن يكون الخبرُ محذوفاً لدلالة المعنى عليه، التقدير: يُحبُّه الله، ثم قال: «فإنَّ الله يُحبُّ المتقين». وأتى بلفظ «المتقين» عامًّا تشريفاً للتقوى وحَضًّا عليها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ نزلت في أحبار اليهود أبي رافع وكنانةَ بنِ أبي الحَقيق وكعبِ بنِ الأشرف وحُيَيّ بن أخطب. قاله عكرمة[4]. أو فيمن حرَّفَ نَعْتَهُ ﷺ من اليهود. قاله الحسن. أو في خُصومة الأشعث بن قيس مع يهوديّ، أو مع بعض قرابتِه[5].

أو في رجلٍ حلفَ على سِلْعةٍ مساءً: لَأُعْطِيَ بها أوّلَ النهار كذا؛ يميناً كاذبة[6]. قاله مجاهد والشعبيّ[7].

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٥١٥.
(٢) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): والضمير في «بعهده» الظاهر أنه عائد...
(٣) المثبت من النسخ السالفة، وفي الأخرى: الشرائط. وهو تحريف.
(٤) تفسير الطبري ٥/ ٥١٠، والمحرر الوجيز ١/ ٤٥٩.
(٥) خبرُه عند البخاري (٢٥١٦)، ومسلم (١٣٨) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.
(٦) في (ح) و(د) و(يه): يميناً فاجرة كاذبة.
(٧) أخرجه الطبري ٥/ ٥١٩-٥٢٠ عن الشعبي ومجاهد، وقد ذكره المصنِّف بمعناه. والخبر =

والإضافة في «بعهد الله» إمَّا للفاعل وإمَّا للمفعول، أي: بعهد الله إيَّاه من الإيمان بالرسول الذي بُعِثَ مُصَدِّقاً لِما معهم، وبأيمانهم التي حلفُوها لَيُؤْمِنُنَّ به ولَيَنْصُرُنَّه[(١)]، أو: بعهدِهِ اللهَ[(٢)].

والاشتراءُ هنا مجاز، والثمنُ القليل متاعُ الدنيا من الرُّشَا والتراؤس[(٣)] ونحوِ ذلك، والظاهر أنها في أهل الكتاب لِما احتفَّ بها من الآياتِ التي قبلها والآياتِ التي بعدها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: لا نَصيبَ لهم في الآخرة، اعتاضوا بالقليل الفاني عن النعيم الباقي. ويعني لا نصيبَ لهم في الآخرة من الخير، نَفَى نصيبَ الخير عنهم[(٤)].

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال الطبريّ: أي: بما يَسُرُّهم[(٥)]. وقال غيره: لا يُكلِّمُهم جملة، وإنَّما تُحاسبهُم الملائكة. قاله الزَّجَّاج[(٦)].

وقال قوم: هو عبارة عن الغضب، أي لا يَحْفِلُ بهم ولا يرضى عنهم[(٧)]. وقاله ابنُ بحر. وقد تقدَّم في البقرة شرح «ولا يُكلِّمُهم الله».

﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ قال الزمخشري: «ولا ينظر إليهم» مجازٌ عن

= بنحوه من حديث ابن أبي أوفى عند البخاري (٢٠٨٨)، وبأطول منه من حديث أبي هريرة عند البخاري (٧٢١٢) ومسلم (١٠٨).

(١) في (أ) و(ع): لَتُؤْمِنُنَّ به ولَتَنْصُرُنَّهُ. وهو لفظ الآية (٨١) من هذه السورة.

(٢) المثبت من (د١) و(ز٢)، وهو كذلك في «النهر الماد» بهامش البحر ٢/ ٥٠١. ووقع في النسخ الأخرى: بعهد الله.

(٣) في الكشاف ١/ ٤٣٩ (والكلام فيه بنحوه): الترؤس.

(٤) لفظ «في الآخرة» من (أ) و(ع). ووقع في النسخ الأخرى (ما عدا: ت): له... عنه، بدل: لهم... عنهم.

(٥) تفسير الطبري ٥/ ٥١٦، ونقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٦٠. وقاله أيضاً مكي في الهداية ٢/ ١٠٥٣، والماوردي في النكت والعيون ١/ ٤٠٤.

(٦) لم أقف عليه عند الزجَّاج. وقوله: «لا يكلمهم جملة» في المحرر الوجيز ١/ ٤٦٠، وقوله: «إنما تحاسبهم الملائكة» بمعناه في تفسير الرازي ٨/ ١١٢.

(٧) المحرر الوجيز ١/ ٤٦٠. وبنحوه في معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٣٤.

الاستهانة بهم والسُّخط عليهم، تقول: فلان لا ينظرُ إلى فلان؛ تريد: نفيَ اعتدادِه به وإحسانِه إليه.

فإن قلت: أيُّ فرقٍ بين استعمالِه فيمن يجوزُ عليه النظر وفيمن لا يجوز عليه؟

قلت: أصلُه فيمن يجوزُ عليه النظر الكنايةُ؛ لأنَّ من اعتدَّ بالإنسان التفتَ إليه، وأعارَه نظَرَ عينيه، ثم كَثُرَ حتى صارَ عبارةً عن الاعتداد والإحسان وإنْ لم يكنْ ثمَّ نَظَرٌ، ثم جاء فيمن لا يجوزُ عليه النَّظَر مجرداً بمعنى[1] الإحسان مجازاً عمَّا وقع كنايةً عنه فيمن يجوز عليه النَّظَر. انتهى كلامه.

وقال غيره: «لا ينظُرُ» أي: لا يرحم. قال:

فقلتُ انظري يا أحسنَ الناسِ كلِّهِمْ لِذي غُلَّةٍ صَدْيانَ قد شَفَّهُ الوَجْدُ[2]

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾: ولا يُثني عليهم، أو لا يُنْمِي أعمالَهم، فهي تنميةٌ لهم، أو لا يُطَهِّرُهم من الذنوب. أقوال ثلاثة[3]. وتقدَّم شرحُه في البقرة [١٧٤].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تقدَّم شرحه أيضاً.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ أي: من اليهود؛ قاله الحسن. أو من أهل الكتابَيْن؛ قاله ابنُ عباس[4].

وعن ابن عباس أيضاً: هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف غيَّروا التوراة وكتبوا كتاباً بدَّلوا فيه صفة رسول الله ﷺ، ثمَّ أخذت قريظةُ ما كتبوه، فخلطُوه بالكتاب الذي عندهم[5].

﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: يفتلُونها بقراءته عن الصحيح إلى المحرَّف. قاله الزمخشريّ.

(١) في الكشاف ١/ ٤٣٩ (والكلام منه): لمعنى.
(٢) تفسير الثعلبي ٢/ ٨٩. قوله: غُلَّة، أي: شدة العطش وحرارتُه. وصَدْيان: من صَدِيَ يَصْدَى صدًى: اشتدَّ عطشُه. وشَفَّهُ الوَجْدُ، أي: أَرَقَّهُ الحبّ.
(٣) تفسير البغوي ١/ ٣١٩، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٠، وزاد المسير ١/ ٤١١.
(٤) ينظر تفسير البغوي ١/ ٣٢٠، وزاد المسير ١/ ٤١١.
(٥) الكشاف ١/ ٤٣٩، وتفسير النيسابوري (غرائب القرآن) ٣/ ٢٣١.

وقال ابن عطية: يُحرِّفون ويتحيَّلون لتبديل المعاني[١] من جهة اشتباه الألفاظ واشتراكها وتشعُّبِ التأويلات فيها، ومثال ذلك قولهم: «رَاعِنا، واسْمَعْ غيرَ مُسْمَعٍ»[٢] ونحو ذلك، وليس التبديل المحض[٣]. انتهى.

والذي يظهر أنَّ اللَّيَّ وقع بالكتاب، أي: بألفاظه لا بمعانيه وحدَها كما يزعم بعضُ الناس، بل التحريفُ والتبديلُ وقع في الألفاظ، والمعاني تَبَعٌ للألفاظ، ومن طالعَ التوراة علم يقيناً أنَّ التبديل في الألفاظ والمعاني، لأنها تضمَّنت أشياءَ يجزم العاقلُ أنَّها ليست من عند الله، ولا أنَّ ذلك يقعُ في كتاب إلهيّ من كثرة التناقض في الأخبار والأعداد، ونسبةِ أشياءَ إلى الله تعالى من الأكل والمصارعة وغير ذلك، ونسبةِ أشياءَ إلى الأنبياء من الكذب والسُّكْرِ من الخمر والزِّنى ببناتهم وغير ذلك من القبائح التي يُنَزِّهُ العاقلُ نفسَه عن أنْ يتَّصف بشيء منها فضلاً عن منصب النبوَّة.

وقد صنَّف الشيخ علاء الدين عليُّ بن محمد بن خطَّاب الباجيُّ رحمه الله تعالى[٤] كتاباً في السؤالات على ألفاظ التوراة، ومَن طالعَ ذلك الكتابَ رأى فيه عجائبَ وغرائبَ، وجزمَ بالتبديل لألفاظ التوراة ومعانيها، هذا مع خُلُوِّها من ذكر الآخرة والبعثِ والحشرِ والنَّشرِ والعذابِ والنعيم الأُخراوِيَّيْن والتبشيرِ برسول الله ﷺ؛ وأين هذا من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقوله تعالى وقد ذكر رسولَه وصحابتَه: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [الفتح: ٢٩]. وقد نصَّ القرآنُ على ما يقتضي إخفاءَهم لكثير من التوراة، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ

---

(١) في المحرر الوجيز ١/ ٤٦٠ (والكلام منه)؛ بتبديل المعاني.
(٢) هذه الألفاظ من الآية (٤٦) من سورة النساء: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾.
(٣) في المحرر الوجيز: وليس التبديل المحض بِلَيّ.
(٤) هو إمام مشهور، توفي بالقاهرة سنة (٧١٤هـ) ودُفن بالقرافة. وكان ابن دقيق العيد كثير التعظيم له. ينظر شذرات الذهب ٨/ ٦٢-٦٣.

رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المائدة: ١٥]، فدلَّت هاتان الآيتان على أنَّ الذي أخفَوْه من الكتاب كثيرٌ، ودلَّ بمفهوم الصِّفة أنَّ الذي أبدَوْه من الكتاب قليل[١].

وقرأ الجمهور: «يَلْوُون» مضارع «لَوَى»، وقرأ أبو جعفر بنُ القعقاع وشيبة بنُ نِصَاح وأبو حاتم عن نافع: «يُلَوُّون» بالتشديد، مضارع «لَوَّى» مشدّداً[٢]، ونسبَها الزمخشريّ[٣] لأهل المدينة. والتضعيفُ للمبالغة والتكثيرِ في الفعل لا للتعدية.

وقرأ حُميد: «يَلُون» بضمِّ اللام[٤]، ونسبَها الزمخشريُّ إلى أنها رواية عن مجاهد وابن كثير[٥]، ووُجِّهَتْ على أنَّ الأصلَ: «يَلْوُون» ثم أُبدلت الواو همزةً، ثم نُقلت حركتُها إلى الساكن قبلَها، وحُذفت هي[٦].

و«الكتاب» هنا التوراة، والمخاطَب في «لِتَحْسَبُوه» المسلمون. وقُرئ: «لِيَحْسَبُوه» بالياء[٧]، وهو يعود على الذين يَلْوُون ألسنتَهم لهم، أي: لِيحسبَه المسلمون.

والضمير المفعول في «لِيَحْسَبُوه» عائدٌ على ما دلَّ عليه ما قبلَه من المحرَّف،

---

(١) ذكر المصنف هذا الكلام في «النهر المادّ» (بهامش مطبوع البحر ٢/ ٥٠٢) وزاد بعده ما نصُّه: «وقد صنَّف الشيخ العلّامة أبو النصر السموأل بن يحيى بن عباس المغربي ـ وكان من الذين هداهم الله إلى الإسلام ـ كتاباً جليلاً في الرّدّ على شيعته سمَّاه «إفحام اليهود»، وفرغَ من تصنيفه في يوم عرفة سنة ثمان وخمسين وخمس مئة، وأمعنَ في الرّدّ على اليهود، وذكر مخازيهم، وألزمَهم اتِّباعَ شريعة الإسلام حسب ما تضمَّنته التوراة، وبيَّنَ وجود النص في التوراة، ويسردُ فيه ألفاظَ التوراة باللسان العبراني، ثم يفسِّرُه بالعربي، وكان الباجي طالعَ كلام هذا الرجل، وقد كتبنا كتاب هذا الرجل وكتاب الباجي بخطِّنا، نفع الله بذلك».

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٩-٣٩٠، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٠. وقراءة أبي جعفر المشهورة عنه (وهو من العشرة) كقراءة الجماعة.

(٣) الكشاف ١/ ٤٣٩.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٠، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٠.

(٥) القراءات الشاذة ص٢١، والكشاف ١/ ٤٣٩. وقراءة ابن كثير المشهورة عنه (وهو من السبعة) كقراءة الجماعة.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٠، والكشاف ١/ ٤٣٩، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٠.

(٧) القراءات الشاذة ص٢١، والكشاف ١/ ٤٣٩ .

أي: ليحسبوا المُحَّرفَ من الكتاب. ويحتمل أن يكون قوله: «بالكتاب» على حذف مضاف، أي: يَلْوُون ألسنتَهم بشَبَهِ الكتاب، فيعود الضمير على ذلك المضاف المحذوف، كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ [النور: ٤٠] أي: أو كذي ظُلُمات، فأعادَ المفعول في: «يغشاه» على «ذي» المحذوف.

﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: وما المحرَّف والمبدَّل الذي لَوَوْه بألسنتهم من التوراة، فلا تظنُّوا ذلك أنه من التوراة[١].

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تأكيدٌ لما قصدوه من حِسْبان المسلمين أنه من الكتاب، وافتراءٌ عظيمٌ على الله إذْ لم يكتفوا بهذا الفعل القبيح من التبديل والتحريف حتى عضدوا ذلك بالقول ليطابق الفعلَ القولُ، ودلَّ ذلك على أنهم لا يُعَرِّضُونَ ولا يُوَرُّونَ في ذلك، بل يُصَرِّحُونَ بأنه في التوراة هكذا، وقد أنزله الله على موسى كذلك، وذلك لفرط[٢] جرأتهم على الله، ويأسهم من الآخرة[٣].

﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ رَدٌّ عليهم في إخبارهم بالكذب، وهذا تأكيدٌ لقوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ نَفى أوّلاً أخَصَّ، إذ التعليلُ كان لأخصَّ، ونَفَى هنا أعمَّ؛ لأنَّ الدَّعوى منهم كانت لأعمَّ، لأنَّ كونَه من عند الله أعمُّ من أن يكون في التوراة أو غيرها.

قال أبو بكر الرازيّ[٤]: هذه الآية فيها دلالة على أنَّ المعاصيَ ليست من عند الله ولا من فِعْلِهِ، لأنَّها لو كانت من فِعْلِهِ كانت من عنده، وقد نَفَى الله تعالى نفياً عامّاً كونَ المعاصي من عنده. انتهى. وهذا مذهب المعتزلة، وكان الرازيّ يجنحُ إلى مذهبهم.

وقال ابنُ عطيَّة: «وما هو من عند الله» نَفْيٌ أن يكون منزَّلاً كما ادَّعَوْا، وهو من عند الله بالخلق والاختراع والإيجاد، ومنهم بالتكسُّب، ولم تَعِنَّ[٥] الآية إلا لمعنى التنزيل، فبطل تعلُّق القَدَريَّة بظاهر قوله: «وما هو من عند الله».

---

(١) في (أ) و(ب) و(ع): فلا يظنوا ذلك أنه من الكتاب. وفي (ت): فلا يظنون...

(٢) في (ح) و(د٢) و(يه): لكثرة.

(٣) الكشاف ١/ ٤٣٩.

(٤) هو الجصَّاص، وكلامُه في أحكام القرآن ٢/ ١٧.

(٥) أي: تَعْرِض. والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٤٦١.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تقدَّم تفسيرُ مثل هذا آنفاً.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

رُوِيَ أنَّ أبا رافع القُرَظيَّ قال للنبيِّ ﷺ حين اجتمعت الأحبارُ من يهودَ والوفدُ من نَصارى نجران: يا محمد، إنما تريد أنْ نعبدَك ونتَّخذَك إلهاً كما عَبَدَتِ النصارى عيسى! فقال الرئيس[1] من نصارى نجران: أَوَذاك تريد يا محمد وإليه تدعونا؟! فقال النبيُّ ﷺ: «معاذ الله، ما بذلك أُمرت، ولا إليه دعوتُ». فنزلت[2].

وقيل: قال رجل: يا رسول الله، نُسَلِّمُ عليك كما يُسَلِّمُ بعضُنا على بعض، أفلا نسجدُ لك؟ قال: «لا ينبغي أن يُسْجَدَ لأحدٍ من دون الله، ولكن أَكْرِمُوا نبيَّكم واعْرِفُوا الحقَّ لأهله»[3].

واختلف المفسِّرون إلى مَنْ هي الإشارة بقوله: «ما كان لبشر»، فقال ابن عباس والرَّبيع وابنُ جُريج وجماعة: الإشارة إلى محمد ﷺ. وذكروا سببَ النزول المذكور.

وقال النقَّاش وغيرُه: الإشارةُ إلى عيسى والآية رادَّة على النصارى الذين قالوا: عيسى إله، وادَّعَوْا أنَّ عبادته هي شرعة مستندة إلى أوامره[4].

ومعنى «ما كان لبشر أنْ يُؤتِيَهُ الله» وما جاء نحوه أنه يُنْفَى فيه الكون، والمرادُ نَفْيُ الخبر، وذلك على قسمين:

أحدُهما: أن يكون الانتفاء من حيث العقل، ويعبَّر عنه بالنفي التَّام، ومثالُه

---

(١) عند ابن هشام والطبري: الرَّبِّيس. قال ابن هشام: «ويُروى: الرِّبِّيس والرئيس». اهـ. وفي «الكشاف»: السيد.

(٢) أخرجه الطبري ٥/ ٥٢٤، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٣٨٤، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأورده ابن هشام في السيرة ١/ ٥٥٤، والبغوي في التفسير ١/ ٣٢٠، والزمخشري في الكشاف ١/ ٤٣٩-٤٤٠، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٦٢.

(٣) الكشاف ١/ ٤٤٠. وأورده الواحدي في أسباب النزول ص١٠٨، وابن الجوزي في «زاد المسير» ١/ ٤١٣ (مختصر) عن الحسن البصري رضي الله عنه.

(٤) الكلام في المحرر الوجيز ١/ ٤٦١-٤٦٢ بتقديم وتأخير.

قولُه تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النمل: ٦٠]، ﴿وما كان لنفس أن تموت[١] إلا بإذن الله﴾ [آل عمران: ١٤٥].

والثاني: أن يكون الانتفاءُ فيه على سبيل الابتغاء، ويُعبَّر عنه بالنفي غيرِ التامّ، ومثالُه قولُ أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه: ما كان لابن أبي قُحافةَ أنْ يُصَلِّيَ[٢] بين يَدَيْ رسول الله ﷺ[٣]. ومَدْرَكُ القسمين إنما يُعرفُ بسياق الكلام الذي النَّفيُ فيه، وهذه الآية من القسم الأول؛ لأنَّا نعلم أنَّ الله لا يعطي الكَذَبَةَ والمدَّعينَ النُّبُوَّةَ، وفي هذه الآية دلالة على عِصمة الأنبياء عليهم السلام.

و«الكتاب» هنا اسم جنس، و«الحُكْم» قيل: بمعنى الحكمة، ومنه: «إنَّ مِنَ الشِّعر لَحُكْماً[٤]».

وقيل: الحُكْم هنا السُّنَّة[٥] يعنون لمقابلته[٦] الكتاب، والظاهر أنَّ الحُكْم هنا القضاء والفَصْل بين الناس، وهذا من باب الترقّي، بدأ أوّلاً بالكتاب، وهو العلم، ثمَّ ترقَّى إلى التمكين، وهو الفَصْل بين الناس، ثم ترقَّى إلى الرُّتبة العليا، وهي النبوَّة، وهي مجمع الخير.

﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾ أتى بلفظ «ثُمَّ» التي هي للمُهْلَة تعظيماً لهذا القول، وإذا

---

(١) في (أ) و(ع): تؤمن. وهي في الآية (١٠٠) من سورة يونس.

(٢) المثبت من (ت)، وهو موافق لرواية مسلم (٤٢١) ولما في المحرر الوجيز ١/ ٤٦١، والكلام فيه بنحوه. ووقع في (أ) و(ع): أن يتقدم يصلي، وفي باقي النسخ: أن يتقدم أن يصلي. وغالب الظن أن أحد اللفظين: «أن يتقدم»، «أن يصلي» إشارة إلى نسخة، فزيدت في المتن، فقد وقع في بعض المصادر اللفظ الأول، وفي بعضها اللفظ الثاني ولم يجتمعا معاً.

(٣) قطعة من حديث سهل بن سعد الساعديّ أخرجه أحمد (٢٢٨٠٧)، والبخاري (٦٨٤)، ومسلم (٤٢١) وساقه المصنف بنحوه.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ الحاكم في المستدرك ٣/ ٦١٣ من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (٢٤٢٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «إن من الشعر حُكْماً». وأخرجه البخاري (٦١٤٥) من حديث أُبيّ بن كعب بلفظ: «إنَّ من الشعر حكمة». وينظر المحرر الوجيز ١/ ٤٦١ فالكلام فيه بنحوه.

(٥) الكشاف ١/ ٤٤٠.

(٦) في (ح) و(يه): لمقابلة.

انتفى هذا القول بعد المُهْلة؛ كان انتفاؤه بدونها أولى وأحرى، أي: إنَّ هذا الإيتاءَ العظيمَ لا يُجامع هذا القول وإن كان بعدَ مُهْلة من هذا الإنعام العظيم.

﴿كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ «عباد» جمعُ عَبْد؛ قال ابن عطية[1]: ومن جموعه عَبِيد، وعِبِدَّى، قال بعض اللغويين: هذه الجموعُ كلُّها بمعنى. وقال قوم: العباد لله، والعَبِيدُ والعِبِدَّى للبَشَر، وقال قوم: العِبِدَّى إنما يقال في العبيد بني العبيد، كأنه مبالغة تقتضي الاستغراق في العبودية.

والذي استقرَيْت في لفظة «العباد» أنه جمع «عَبْد» متى سِيقت اللفظة في مضمار الترفيع والدلالة على الطاعة؛ دون أن يقترنَ بها معنى التحقير وتصغير الشأن، فانظر قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، و﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، و﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزُّمَر: ٥٣]، وقول عيسى في معنى الشفاعة والتعريض: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]. وأمَّا العبيد فيستعمل في التحقير ومنه قول امرئ القيس:

قُولا لِدُودَانَ عَبِيدِ العَصَا ... ما غَرَّكُمْ بالأَسَدِ الباسِلِ[2]

ومنه قولُ حمزةَ بنِ عبد المطلب: وهَلْ أنتُم إلا عبيدٌ لأبي[3]. ومنه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصّلت: ٤٦] لأنه مكان تشفيق وإعلام بقلَّة انتصارهم ومقدرتهم، وأنه تعالى ليس بظلَّام لهم مع ذلك، ولمَّا كانت لفظة «العباد» تقتضي الطاعة لم تقع هنا، ولذلك آنس بها في قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزُّمر: ٥٣] فهذا النوع من النظر يسلك بك سبيل العجائب في مَيْزِ[4] فَصَاحة القرآن العزيز على الطريقة العربية السليمة.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٦١.

(٢) ديوان امرىء القيس ص١١٩، قال شارحُه (الأعلم الشنتمري): دُودان: قبيلة من بني أسد، وكانت بنو أسد قتلت أبا امرىء القيس، فيصف أنه أوقع بهم وأدرك ثأر أبيه فيهم. وقوله: عبيد العصا، أي: لا يُعطون إلا على الضرب والإذلال، وأراد بالأسد الباسل أباه أو نفسه. وينظر خزانة الأدب ٨/ ٣٥٥.

(٣) جاء قول حمزة في خبر له مطوّل في شُربهِ الخمر قبل تحريمها وعقره شارفَين لعليّ ﷺ. أخرجه أحمد (١٢٠١)، والبخاري (٣٠٩١)، ومسلم (١٩٧٩).

(٤) في (أ) و(ب) و(ع): سرّ. وفي المطبوع: حيّز.

ومعنى قوله: ﴿كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ اعبدوني واجعلوني إلهاً. انتهى كلام ابن عطية. وفيه بعض مناقشة.

أمَّا قولُه: ومن جموعه عَبِيد وعِبِدَّى، أمَّا عَبِيد؛ فالأصحُّ أنه جمع، وقيل: اسم جمع. وأمَّا عِبِدَّى؛ فاسمُ جمع، وألفُه للتأنيث.

وأمَّا ما استقرأه من أنَّ «عباداً» يُساق في مضمار الترفيع[1] والدلالة على الطاعة دون أن يقترن بها معنى التحقير والتصغير وإيرادُه ألفاظاً في القرآن بلفظ العباد، وقوله: وأمَّا العبيد فيستعمل في تحقير، وأنشدَ بيتَ امرئ القيس، وقولَ حمزة، وقولَه تعالى: ﴿بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فليس باستقراء صحيح، وإنما كثُر استعمال «عباد» دون عَبِيد، لأنَّ فِعالاً في جمع فَعْل غير اليائي العين قياس مطَّرد، وجمع فَعْل على فَعِيل لا يطَّرد. قال سيبويه: وربَّما جاء فَعِيلاً ـ وهو قليل ـ نحو الكَلِيب[2] والعَبِيد. انتهى. فلمَّا كان فِعال هو المَقِيسَ في جمع «عَبْد» جاء «عباد» كثيراً.

وأمَّا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فحسَّنَ مجيئه هنا ـ وإن لم يكن مقيساً ـ أنَّه جاء لتواخي الفواصل، ألا ترى أنَّ قبلَه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾، وبعده: ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾؟ فحسَّنَ مجيئه بلفظ العبيد مواخاةُ هاتين الفاصلتين، ونظيرُ هذا قولُه في سورة «ق»: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ لأنَّ قبلَه: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾ وبعده: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾، وأمَّا مدلولُه فمدلول «عباد» سواء.

وأمَّا بيت امرئ القيس فلم يُفهم التحقير من لفظ «عبيد» إنما فُهم من إضافتهم إلى العصا ومن مجموع البيت، وكذلك قولُ حمزة؛ إنَّما فُهم معنى التحقير من قرينة الحال التي كان عليها، وأتى في البيت وفي قول حمزة على أحد الجائزين.

وقرأ الجمهور: «ثُمَّ يقولَ» بالنصب عطفاً على: «أنْ يُؤْتِيَهُ». وقرأ شِبْل عن ابنِ كثير ومحبوبٌ عن أبي عَمرو بالرفع على القطع، أي: ثُمَّ هو يقولُ[3]. وقرأ

(١) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): الرفع.

(٢) جمع كلب. وينظر الكتاب ٣/ ٥٦٧.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٦٢. وذكرها النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٦٠ عن محبوب.

الجمهور: «عِباداً لي» بتسكين ياء الإضافة، وقرأ عيسى بنُ عمر بفتحها[١].

﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ هذا على إضمار القول، تقديره: ولكن يقولُ كونوا ربَّانيِّين. والرَّبَّانيُّ: الحكيم العالم، قاله قتادة وأبو رَزِين، أو الفقيه، قاله عليّ وابنُ عبَّاس والحسن ومجاهد، أو العالم الحليم[٢]، قاله قتادة وغيرُه، أو الحكيم الفقيه، قاله ابنُ عبَّاس[٣]، أو الفقيه العالم، قاله الحسن والضَّحَّاك، أو والي الأمر يَرُبُّهُمْ ويُصْلِحُهم، قاله ابنُ زيد، أو الحكيم التقيّ، قاله ابنُ جُبير، أو المعلِّم، قاله الزَّجَّاج، أو العالم، قاله المبرِّد، أو التائب[٤] لربِّه، قاله المؤرِّج، أو الشديد التمسك بدين الله وطاعته، قاله الزمخشري، أو العالم الحكيم الناصح لله في خلقه، قاله عطاء، أو العالم العامل بعلمه، قاله ابنُ جُبير، أو العالم المعلِّم، قاله بعضُهم. وهذه أقوالٌ متقاربة[٥].

وللصوفيّة في تفسير الربَّاني أقوال كثيرة غير هذه.

وقال مجاهد: الرَّبَّانيُّ فوق الحَبْر، لأنَّ الحَبْر هو العالم، والرَّبَّانيُّ الذي جمع إلى العلم والفقه البَصَرَ بالسياسة[٦]، والتدبيرَ والقيامَ بأمور الرعيَّة وما يُصلحهم في دينهم ودنياهم.

وفي «البخاريّ» الرَّبَّانيُّ الذي يُرَبِّي الناسَ بصغار العلم قبل كباره[٧].

قال ابنُ عطيَّة[٨]: فجملة ما يقال في الرَّبَّانيّ أنَّه العالِم المصيب في التقدير من

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٦٢. والكلام منه.

(٢) في (ز٢): الحكيم.

(٣) في صحيح البخاري (باب العلم قبل القول والعمل) عن ابن عباس: علماء فقهاء. وفي هامش النسخة اليونينية: حكماء فقهاء. (نسخة).

(٤) في (د٢) و(يه): القانت. وتحتمل اللفظتين في (ح).

(٥) ينظر تفسير الطبري ٥/ ٥٤٠-٥٤٣، وتفسير الثعلبي ٢/ ٩٢، وتفسير البغوي ١/ ٣٢٠، والكشاف ١/ ٤٤٠، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٢، وتفسير القرطبي ٥/ ١٨٥.

(٦) في (ح) و(د٢) و(يه): جمع إلى العلم الفقهَ البصيرُ بالسياسة. . .

(٧) صحيح البخاري، باب العلم قبل القول والعمل، وجاء القول فيه بصيغة التضعيف: ويقال.

(٨) المحرر الوجيز ١/ ٤٦٢. والكلام السالف منه بنحوه.

الأقوال والأفعال التي يحاولُها في الناس. انتهى.

ولما مات ابنُ عباس قال محمد بنُ الحنفيَّة: اليوم ماتَ رَبَّانيُّ هذه الأمّة(١).

﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ الباء للسبب، و«ما» الظاهر أنَّها مصدريَّة، و«تَعْلَمونَ» متعدٍّ لواحد على قراءة الحِرْمِيَّيْنِ وأبي عَمرو؛ إذْ قرؤوا بالتخفيف، مضارع «عَلِمَ»(٢)، فأمَّا قراءةُ باقي السبعة ـ بضمّ التاء وفتح العين وتشديد اللام المكسورة ـ فيتعدَّى إلى اثنين، إذْ هي منقولة بالتضعيف من المتعدّية إلى واحد، وأوَّلُ المفعولَيْن محذوف، تقديرُه: تُعَلِّمون الناسَ الكتابَ.

وتكلَّموا في ترجيح إحدى القراءتين على الأخرى(٣)، وقد تقدَّم أني لا أرى شيئاً من هذه التراجيح؛ لأنَّها كلَّها منقولة متواترة قرآناً، فلا ترجيحَ في إحدى القراءتين على الأخرى.

وقرأ مجاهد والحسن: «تَعَلَّمُون» بفتح التاء والعين واللام المشدَّدة، وهو مضارع حُذفت منه التاء، التقدير: تَتَعلَّمون، وقد تقدَّم الخلاف في المحذوف منهما.

وقرأ أبو حَيْوَة: «تَدْرِسُون» بكسر الراء، ورُوِيَ عنه: «تُدَرِّسُون» بضم التاء وفتح الدال وكسر الراء المشددة، أي: تُدَرِّسونَ غيرَكم العلمَ. ويحتمل أن يكون التضعيف للتكثير(٤) لا للتعدية(٥). وقُرِئ: «تُدْرِسُون» من: أدْرَسَ، بمعنى دَرَّسَ، نحو: أكرم وكَرَّم، وأنزل ونَزَّل.

وقال الزمخشريّ(٦): أوجبَ أن تكون الربَّانيَّة(٧) التي هي قوَّة التمسُّك بطاعة الله

---

(١) تفسير الثعلبي ٢/ ٩٢، والكشاف ١/ ٤٤٠.

(٢) السبعة ص٢١٣، والتيسير ص٨٩. والحِرْمِيَّان: نافع المدني، وابن كثير المكي.

(٣) تكلَّم في هذا ابنُ عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٦٢ ورجَّح قراءة التخفيف.

(٤) في (ز٢): للتكرير.

(٥) قراءة مجاهد والحسن وأبي حيوة (بروايتيه) في المصدر السابق. وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢١: تَعَلَّمُون، عن سعيد بن جبير، وذكر عن أبي حيوة: تَدَرَّسُون.

(٦) الكشاف ١/ ٤٤٠. والقراءة السالفة فيه.

(٧) المثبت من (ز٢) وهو موافق لما في الكشاف ١/ ٤٤٠ والكلام منه. وتحرفت اللفظة في (ح) و(د١) و(د٢) و(يه) إلى: الرياسة، ولم ترد هذه اللفظة في (أ) و(ب) و(ت) و(ع).

مسبَّبةً عن العلم والدراسة، وكفى به دليلاً على خيبة سَعْيِ مَنْ جَهَدَ نفسَه وكَدَّ رُوحَه في جمع العلم، ثم لم يجعله ذريعةً إلى العمل، فكان مَثَلُهُ مَثَلَ مَنْ غَرَسَ شجرةً حسناءَ تُونِقُه بمنظرها، ولا تنفعُه بثمرها[١].

ثم قال أيضاً بعد أسطر: وفيه أنَّ مَنْ عَلِمَ ودَرَسَ العلمَ ولم يعمل به؛ فليس من الله في شيء، وأنَّ السببَ بينه وبين ربِّه منقطعٌ، حيث لم يُثبت النسبةَ إليه إلا للمتمسّكين بطاعته. انتهى كلامه. وفيه دسيسةُ الاعتزال، وهو أنه لا يكون مؤمناً عالماً إلا بالعمل، وأنَّ العمل شرطٌ في صحَّة الإيمان.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ قرأ الحِرْمِيَّان والنَّحويَّان والأعشى والبُرجُميّ[٢] برفع الراء على القطع، ويختلسُ أبو عَمرو الحركة على أصله[٣]، والفاعل ضمير مستكنّ في «يأمر» عائد على «الله» قاله سيبويه والزجَّاج[٤]، وقال ابنُ جُريج: عائد على «بَشَر» الموصوف بما سبق، وهو محمد ﷺ[٥]، والمعنى على هذه القراءة: أنه لا يقع من بَشَرٍ موصوفٍ بما وُصف به أن يجعل نفسَه ربًّا فيُعبَد، ولا هو أيضاً يأمرُ باتّخاذ غيره من ملائكة وأنبياء أرباباً، فانتفى أن يدعوَ لنفسه ولغيره، وإن كان الضمير عائداً على «الله» فيكون إخباراً من الله أنه لم يأمر بذلك، فانتفى أمرُ الله بذلك وأمرُ أنبيائه.

وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة: «ولا يأمرَكم»[٦] بنصب الراء، وخرَّجه أبو عليّ وغيرُه على أن يكون المعنى: ولا له أن يأمرَكم[٧]، فقدَّرُوا «أنْ» مضمرة بعد «لا»

---

(١) في (ز٢): مونقة بمنظرها ولا منفعة بثمرها. وفي (ح) و(د٢) و(يه): حسنة مونقة بمنظرها...
(٢) الحِرْمِيَّان: نافع المدني وابنُ كثير المكّيّ، والنَّحْويَّان: الكسائيّ وأبو عَمرو البصري، والأعشى: يعقوب بن محمد أبو يوسف الكوفي، والبُرْجُمي: عبد الحميد بن صالح أبو صالح الكوفي.
(٣) الحجة للفارسي ٣/ ٥٧، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٣.
(٤) الكتاب ٣/ ٥٢، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٣٦.
(٥) تفسير الطبري ٦/ ٥٤٦، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٣، وتفسير القرطبي ٥/ ١٨٧.
(٦) السبعة ص٢١٣، والتيسير ص٨٩.
(٧) الحجة ٣/ ٥٨. ونقله المصنف عن أبي علي بواسطة المحرر الوجيز ١/ ٤٦٣. وكذلك أوَّلَ الطبري ٥/ ٥٣٤ قراءة النصب قبل أبي علي.

وتكون «لا» مؤكِّدة معنى النفي السابق، كما تقول: ما كان من زيد إتيانٌ ولا قيام، وأنت تريد انتفاءَ كلٍّ واحد منهما عن زيد، فـ «لا» للتوكيد في النفي السابق، وصار المعنى: ما كان من زيد إتيان ولا منه قيام.

وقال الطبري[1]: قولُه «ولا يأمرَكم» بالنصب معطوف على قوله: «ثم يقول». قال ابنُ عطية: وهذا خطأ لا يلتئم به المعنى. انتهى كلامه.

ولم يبيّن جهةَ[2] الخطأ ولا عدم التئام المعنى به، ووجهُ الخطأ أنه إذا كان معطوفاً على «ثم يقول» وكانت «لا» لتأسيس النفي، فلا يمكن إلا أن يقدَّر العامل قبل «لا» وهو «أنْ»، فينسبكُ من «أنْ» والفعل المنفيّ مصدرٌ منتفٍ، فيصير المعنى: ما كان لبشر موصوف بما وُصف به انتفاءُ أمره باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً، وإذا لم يكن له الانتفاء كان له الثبوت، فصار آمراً باتّخاذهم أرباباً، وهو خطأ، فإذا جعلتَ «لا» لتأكيد النفي السابق كان النفيُ مُنْسَحباً على المصدرين المقدَّر ثبوتُهما، فينتفي قولُه: «كونوا عباداً لي» وأمرُه باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً.

ويوضّحُ هذا المعنى وضعُ «غير» موضع «لا»، فإذا قلتَ: ما لزيدٍ فقهٌ ولا نحوٌ، كانت «لا» لتأكيد النفي، وانتفى عنه الوصفان، ولو جعلتَ «لا» لتأسيس النفي؛ كانت بمعنى «غير»، فيصير المعنى انتفاء الفقه عنه وثبوت النحو له، إذ لو قلتَ: ما لزيد فقهٌ وغيرُ نحو، كان في ذلك إثباتُ النَّحوِ له، كأنك قلت: ما له غيرُ نحو، ألا ترى أنك إذا قلتَ: جئتُ بلا زاد، كان المعنى: جئتُ بغير زاد، وإذا قلت: ما جئتُ بغير زاد، كان المعنى أنك جئتَ بزاد، لأنَّ «لا» هنا لتأسيس النفي، فإطلاق ابن عطية الخطأ وعدم التئام المعنى إنما يكون على أحد التقديرَيْن في «لا»، وهي أن يكون لتأسيس النفي، وأن يكون من عطف المنفيّ بـ «لا» على المثبت الداخل عليه النفي نحو: ما أريد أن تجهل وأن لا تتعلَّم، تريد: ما أريد أن لا تتعلَّم.

---

(١) تفسيره ٥/ ٥٣٤، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ١/ ٤٦٣.

(٢) في (ح) و(د٢) و(يه): وجه.

وأجاز الزمخشريّ[١] أن تكون «لا» لتأسيس النفي، فذكر أولاً كونها زائدة لتأكيد معنى النفي، ثم قال: والثاني: أن تجعل «لا» غير مزيدة، والمعنى أنَّ رسولَ الله ﷺ كان ينهى قريشاً عن عبادة الملائكة، واليهودَ والنصارى عن عبادة عُزَيرٍ والمسيح، فلما قالوا له: أنتَّخذُك رَبًّا قيل لهم: ما كان لبشرٍ أنْ يَستنبئَه الله ثم يأمرَ الناس بعبادته وينهاكم عن عبادة الملائكة والأنبياء. قال: والقراءة بالرفع على ابتداء الكلام أظهر، وينصرُها قراءةُ عبد الله: «ولن يأمركم». انتهى كلام الزمخشريّ.

﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ هذا استفهامُ إنكار، وكونُه بعد كونهم مسلمين أفحشُ وأقبح، إذِ الأمْرُ بالكفر على كلِّ حال منكَر، ومعناه أنه لا يأمرُ بكفرٍ؛ لا بعد الإسلام ولا قبلَه، سواءٌ كان الآمر الله تعالى أم الذي استنبأه الله.

وفي هذه الآية دلالةٌ على أنَّ المخاطبين كانوا مسلمين، ودلالةٌ على أنَّ الكفر ملَّة واحدة، إذِ الذين اتخذوا الملائكة أرباباً هم الصابئة وعَبَدةُ الأوثان، والذين اتخذوا النبيِّين أرباباً هم اليهود والنصارى والمجوس، ومع هذا الاختلاف سمَّى الله الجميعَ كفراً.

و«بعدَ» ينتصبُ بـ «الكُفر» أو بـ «يأمرَكم». و«إذْ» مضافةٌ للجملة الاسمية، كقوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال: ٢٦]، وأُضيفَ إليها «بعد»، ولا يُضاف إليها إلا ظرف زمان.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾.

مناسبة هذه الآية لِمَا قبلَها أنه تعالى لَمَّا نَعَى على[٢] أهل الكتاب قبائحَ أقوالِهم وأفعالِهم ـ وكان ممَّا ذكرَ أخيراً اشتراءَهم بآيات الله ثمناً قليلاً وما يؤول أمرُهم إليه في الآخرة؛ وأنَّ منهم مَنْ بدَّلَ في كتابه وغيَّرَ وَصْفَ رسولِ الله ﷺ ـ ونَزَّهَ رسولَه عن الأمر بأنْ يُعبد هو أو غيرُه؛ بل يُفرِدُ اللهَ تعالى بالعبادة، أخذَ تعالى يُقيم الحُجَّة

(١) الكشاف ١/ ٤٤٠.

(٢) تحرفت اللفظة في (أ) و(ب) و(ت) والمطبوع إلى: نفى، وفي (د١) و(ع) إلى: نفى عن.

على أهل الكتاب وغيرِهم ممَّن أنكرَ نبوَّتَه ودينَه، فذكرَ أَخْذَ الميثاقِ على أنبيائهم[(١)] بالإيمان برسول الله ﷺ والتصديقِ له والقيامِ بنُصْرَته، وإقرارِهم بذلك وشهادتِهم على أنفسهم وشهادتِه تعالى عليهم بذلك، وهذا العهدُ مذكورٌ في كتبهم، وشاهدٌ بذلك أنبياؤهم.

وقرأ أُبيّ وعبدُ الله: «ميثاقَ الذين أوتوا الكتاب»، بدل: «النَّبِيِّين». وكذا هو في مصحفيهما. ورُويَ عن مجاهد أنه قال: هكذا هو القرآن، وإثباتُ «النَّبِيِّين» خطأ من الكاتب[(٢)]. وهذا لا يصحُّ عنه لأنَّ الرواة الثقات نقلُوا عنه أنه قرأ «النَّبِيِّين» كعبد الله بن كثير وغيره، وإنْ صحَّ ذلك عن غيره فهو خطأ مردودٌ بإجماع الصحابة على مصحف عثمان.

والخطابُ بقوله: «وإذْ أَخَذَ» يجوزُ أن يكون للنبيِّ ﷺ؛ أمَرَه أن يُذَكِّرَ أهلَ الكتاب بما هو في كتبهم من أَخْذِ الميثاق على النَّبِيِّين، ويجوزُ أن يَتوجَّهَ إلى أهل الكتاب؛ أُمِرُوا أنْ يَذْكُرُوا ذلك. وعلى هذَيْن التقديرَيْن يكون العامل: «اذْكُرْ» أو «اَذْكُرُوا». ويجوزُ أن يكون العاملُ في «إذْ»: «قال» من قوله: «قالَ أَأَقْرَرْتُم»، وهو حَسَن؛ إذْ لا تَكَلُّفَ فيه.

قيل: ويجوزُ أن يكون معطوفاً على ما تَقَدَّمَ من لفظ «إذْ»، والعاملُ فيها: «اصطفى». وهذا بعيدٌ جدًّا.

وظاهرُ الكلام يدلُّ على أنَّ الله هو الآخِذُ ميثاقَ النَّبِيِّين. فرُوِيَ عن عليٍّ وابنِ عبَّاس وطاوس والحَسَن والسُّدِّيّ أنَّ الذين أَخَذَ ميثاقَهم هم الأنبياءُ دون أممهم؛ أَخَذَ عليهم أنْ يُصَدِّقَ بعضُهم بعضاً، وأنْ ينصُرَ بعضُهم بعضاً[(٣)]. ونُصرةُ كلِّ نبيٍّ لمن بعدَه توصيةُ مَنْ آمنَ به أن ينصرَه إذا أدركَ زمانَه. وينبو عن هذا المعنى لفظ: «ثم جاءكم رسول» إلى آخر الكلام.

وقال ابن عباس أيضاً فيما رُوِيَ عنه: أَخذَ ميثاقَ النَّبِيِّين وأممِهم على الإيمان

---

(١) في (ح) و(د٢) و(يه): أنبيائه.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٥٣٨-٥٣٩، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٤. وينظر الكشاف ١/ ٤٤١.

(٣) ينظر تفسير الطبري ٥/ ٥٣٩-٥٤١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٤.

بمحمد ﷺ ونصره، واجتزأ بذِكْرِ النَّبيِّين عن ذكرِ أممِها لأنَّ الأمَمَ أتباعٌ للأنبياء[١].
ويدلُّ عليه قولُ عليٍّ كرَّمَ الله وجهَه: ما بعثَ الله نبيًّا إلا أَخذَ عليه العهدَ في محمد ﷺ وأمرَه بأخذِ العهدِ على قومه فيه بأن يؤمنوا به وينصُروه إن أدركوا زمانه[٢].

ورُوِيَ عن ابن عبَّاس أيضاً أنه تعالى لمَّا أخرجَ ذُرِّيَّةَ آدمَ من صُلْبِه أخذَ الميثاقَ على جميع المرسلين أن يُقِرُّوا بمحمد ﷺ[٣].

وعلى هذين القولين يكون قولُه: «ثم جاءكم رسول» عُنِيَ به واحد، وهو محمدٌ ﷺ، ولا يكون جنساً. ويُبعِدُ قولَ ابنِ عبَّاس: إنَّ الميثاق كان حين أخرجَهم من ظهر آدم كالذَّرِّ قراءةُ حمزة[٤]: «لما آتيناكم»، لأنَّ الظاهرَ أنَّ ذلك كان بعد إيتاء الكتاب والحكمة.

و«ميثاق» مضاف إلى «النَّبيِّين» فيحتملُ أن يكون النبيون هم المُوثِقُون للعهد على أممهم، ويحتمل أن يكونوا هم الموثَق عليهم.

والذي يدلُّ عليه ما قبل الآية من قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ﴾ الآية، وما بعدَها من قوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ أنَّ المرادَ بقوله: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ هو محمد ﷺ، ولذلك جاء: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾. وكثيراً ما وُصف بهذا الوصفِ في القرآن رسولُنا محمدٌ ﷺ، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ﴾ [البقرة: ١٠١] وكذلك وصفَ كتابَه بأنه مصدِّق لما في كتبهم.

وإذا تقرَّرَ هذا كان المجاز في صدر الآية، فيكون على حذف مضاف، أي: وإذ أخذ الله ميثاقَ أتباعِ النبيِّين من أهل الكتاب، أو ميثاقَ أولادِ النبيين، فيوافق صدرُ الآية ما بعدها، وجعل ذلك ميثاقاً للنبيِّين على سبيل التعظيم لهذا الميثاق، أو

---

(١) هذا معنى قول ابن عباس ﭬ، والكلام للطبري في تفسيره ٥/ ٥٤١-٥٤٢، وأخرج بعده قول ابن عبَّاس. وينظر تفسير البغوي ١/ ٣٢٢.
(٢) بنحوه في تفسير الطبري ٥/ ٥٤٠، وتفسير البغوي ١/ ٣٢٢، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٤.
(٣) تفسير البغوي ١/ ٣٢٢، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٣ دون نسبة.
(٤) المثبت من (د١) و(ز٢) و(يه)، وفي النسخ الأخرى: قرأ حمزة. وسيرد ذكر القراءة.

يكون المأخوذُ عليهم الميثاق مقدَّراً بعد النبيِّين، التقدير: وإذ أخذَ الله ميثاقَ النبيين على أممهم[(١)].

ويُبيِّن هذا التأويلَ قراءةُ أُبيّ وعبدِ الله: «ميثاقَ الذين أوتوا الكتاب»، ويُبيِّن أيضاً أنَّ الميثاق كان على الأمم قولُه: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ومُحالٌ هذا الفَرَض في حقِّ النبيِّين، وإنما ذلك في حقّ الأتباع.

وقرأ جمهورُ السبعة: «لَمَا» بفتح اللام وتخفيف الميم، وقرأ حمزة: «لِمَا» بكسر اللام[(٢)]، وقرأ سعيد بن جبير والحسن: «لَمَّا» بتشديد الميم[(٣)].

فأمَّا توجيه قراءة الجمهور؛ ففيه أربعة أقوال:

أحدُها: أنَّ «ما» شرطيَّة منصوبة على المفعول بالفعل بعدَها، واللام قبلَها موطِّئة لمجيء ما بعدَها جواباً للقَسَم، وهو «أخَذَ اللهُ ميثاقَ».

و«مِنْ» في قوله: «من كتاب» كهي في قوله: «ما نَنْسَخْ من آية». والفعلُ بعد «ما» ماضٍ معناه الاستقبال؛ لتقدُّم «ما» الشرطيَّة عليه.

وقوله: «ثم جاءكم» معطوف على الفعل بعد «ما» فهو في حيِّز الشرط، ويلزمُ أن يكون في قوله: «ثم جاءكم» رابط يربطُها بما عُطفت عليه؛ لأنَّ «جاءكم» معطوف على الفعل بعد «ما»، و«لَتُؤْمِنُنَّ به» جواب لقوله: «أخَذَ اللهُ ميثاقَ النَّبيِّين».

ونظيرُه من الكلام في التركيب: أُقسِمُ لَأَيَّهم صحبتُ ثم أَحْسَنَ إليه رجلٌ تميميٌّ لَأُحْسِنَنَّ إليه. تريد: لَأُحْسِنَنَّ إلى الرجل التميميّ. فـ «لَأُحْسِنَنَّ» جوابُ القَسَم، وجوابُ الشرط محذوف لدلالة جواب القَسَم عليه، وكذلك في الآية جوابُ الشرط محذوف لدلالة جواب القَسَم عليه، والضميرُ في «به» عائد على «رسول»، وهذا القول ـ وهو أنَّ «ما» شرطيَّة ـ هو قولُ الكِسائيّ.

---

(١) هو بنحو قول ابن عباس ﵄ أخرجه عنه الطبري ٥/ ٥٣٩.
(٢) السبعة ص٢١٣، والتيسير ص٨٩.
(٣) تفسير الثعلبي ٢/ ٩٣، والكشاف ١/ ٤٤١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٥، ونسبَها ابن جني في المحتسب ١/ ١٦٤ إلى الأعرج.

وسأل سيبويه[١] الخليل عن هذه الآية، فقال ما نصُّه: «ما» ههنا بمنزلة «الذي»، ودخلت اللام كما دخلت على «إنْ» حين قلت: واللهِ لَئِن فَعَلتَ لَأفعلنَّ، فاللام التي في «ما» كهذه التي في «إنْ» واللامُ التي في الفعل كهذه التي في الفعل هنا. انتهى.

ثم قال سيبويه: ومثلُ ذلك: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨] إنما دخلت اللام على نية اليمين. انتهى.

وقال أبو عليّ[٢]: لم يُردِ الخليل بقوله: بمنزلة «الذي» أنّها موصولة، بل أنّها اسمٌ كما أنَّ «الذي» اسم، وفرَّ أنْ تكون حرفاً[٣] كما جاءت حرفاً في: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾[٤] وفي قوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَا مَتَٰعُ﴾[٥] انتهى.

وتحصَّل من كلام الخليل وسيبويه أنَّ «ما» في «لَمَا أتيتُكم» شرطيّة، وقد خَرَّجها على الشرطيَّة غيرُ هؤلاء، كالمازنيّ والزَّجَّاج وأبي عليّ والزمخشريّ وابن عطيّة[٦]، وفيه خدش لطيف جدًا، وهو أنه إذا كانت شرطيَّة؛ كان الجواب محذوفاً لدلالة جواب القَسَم عليه، وإذا كان كذلك؛ فالمحذوفُ من جنس المُثبت، ومتعلَّقاته متعلَّقاتُه، فإذا قلتَ: واللهِ لَمَنْ جاءني لَأُكرِمَنَّهُ، فجوابُ «مَنْ» محذوف، التقدير: مَنْ جاءني أُكْرِمْهُ، وفي الآية اسم الشرط «ما»، وجوابُه محذوف من جنس جواب القَسَم، وهو الفعل المُقسَم عليه، ومتعلَّق الفعل هو ضميرُ الرسول بوساطة حرف الجرّ، لا ضمير «ما» المقدَّر، فجواب «ما» المقدَّر إنْ كان من جنس جواب القَسَم فلا يجوزُ ذلك؛ لأنه تَعْرُو الجملة الجوابيَّة إذ ذاك من ضمير يعود على اسم

(١) الكتاب ٣/ ١٠٧.

(٢) بنحوه في «الحجة» ٣/ ٦٦، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٥.

(٣) في المحرر الوجيز: وفرَّ من أن تكون حرفاً. ووقع في الدر المصون ٣/ ٢٨٧: وقرَّر أن، بدل: وفرَّ أن، وهو خطأ.

(٤) بتخفيف الميم من «لَمَا». وقرأ بها أبو عمرو والكسائي من السبعة (مع تشديد «إنَّ»)، وهي من الآية (١١١) من سورة هود.

(٥) بتخفيف الميم أيضاً، وقرأ بها من السبعة نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي، وابن عامر من رواية لهشام. وهي من الآية (٣٥) من سورة الزخرف.

(٦) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٣٦، والكشاف ١/ ٤٤١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٥.

الشرط، وإن كان من غير جنس جوابِ القَسَم؛ فكيف يدلُّ عليه جوابُ القَسَم وهو من غير جنسه، وهو لا يُحذف إلا إذا كان من جنس جواب القَسَم، ألا ترى أنك لو قلت: واللهِ لئن ضربَني زيد لأضربنَّه؛ كيف تقدِّره: إنْ ضرَبَني زيدٌ أضربْه؟ ولا يجوز أن يكون التقدير: واللهِ إن ضربَني زيد أَشْكُهُ لَأضربنَّه، لأنَّ «لَأَضربنَّه» لا يدلُّ على «أَشْكُهُ». فهذا ما يَرِدُ على قول من خرَّج «ما» على أنها شرطيَّة.

وأما قولُ الزَّمخشريِّ: و«لَتُؤْمِنُنَّ» سادٌّ مسدَّ جوابِ القَسَم والشرط جميعاً؛ فقولٌ ظاهرُه مخالفٌ لقول مَنْ جعلَ «ما» شرطيَّة؛ لأنهم نصُّوا على أنَّ جواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه[1]، اللهمَّ إلا إنْ عُنِيَ أنه من حيث تفسيرُ المعنى لا تفسير الإعراب يسدُّ مسدَّهما فيمكن أن يُقال، وأمَّا من حيث تفسيرُ الإعراب فلا يصحُّ، لأنَّ كلًّا منهما ـ أعني الشرطَ والقَسَم ـ يطلبُ جواباً على حِدَة، ولا يمكن أن يكون هذا محمولاً عليهما لأنَّ الشرط يقتضيه على جهة العمل فيه، فيكون في موضع جزم، والقَسَم يطلبُه على جهة التعلُّق المعنويّ به بغير عمل فيه؛ فلا موضعَ له من الإعراب، ومُحالٌ أن يكون الشيء الواحدُ له موضعٌ من الإعراب ولا موضعَ له من الإعراب.

والقول الثاني: قاله أبو عليّ الفارسيّ[2] وغيرُه، وهو أن تكون «ما» موصولة مبتدأة، وصلتُها «آتيناكم»[3] والعائد محذوف، تقديره: آتيناكموه، و«ثم جاءكم» معطوف على الصِّلة، والعائد منها على الموصول محذوف، تقديره: ثم جاءكم رسولٌ به. فحُذف لدلالة المعنى عليه. هكذا خرَّجوه، وزعموا أنَّ ذلك على مذهب سيبويه.

وخرَّجوه على مذهب الأخفش أنَّ الرَّبط لهذه الجملة العارية عن الضمير حصل بقوله: «لِما معكم» لأنه هو الموصول، فكأنَّه قيل: ثم جاءكم رسولٌ مصدِّقٌ له.

وقد جاء الرَّبط في الصِّلة بغير الضمير إلا أنه قليل؛ رُوِيَ من كلامهم: أبو سعيد الذي رَوَيتُ عن الخُدريّ؛ يريدون: رَوَيْتُ عنه. وقال:

---

(١) من قوله: كان الجواب محذوفاً لدلالة جواب القسم عليه (في الصفحة قبلها) إلى هذا الموضع، لم يرد في (أ) و(ب) و(ت) و(ع).

(٢) الحجة للقراء السبعة ٣/ ٦٤-٦٥.

(٣) هي قراءة نافع من السبعة، وقراءة الباقين: آتيتُكم.

فيَا رَبَّ ليلى أنتَ في كلِّ موطنٍ وأنتَ الذي في رحمةِ اللهِ أَطْمَعُ[١]

يريد: في رحمته أطمع.

وخبر المبتدأ - الذي هو «ما» - الجملةُ من القَسَم المحذوف وجوابِه، وهو: «لَتُؤْمِنُنَّ به»، والضمير في «به» عائدٌ على الموصول المبتدأ، ولا يعود على «رسول»؛ لئلا تخلو الجملة التي وقعت خبراً عن المبتدأ من رابط يربطُها به، والجملةُ الابتدائية التي هي «لَمَا آتيناكم»[٢] إلى آخره، هي الجملة المُتَلَّقى به ما أُجرِيَ مجرى القَسَم، وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

والقول الثالث: قاله بعض أهل العلم، وهو أن تكون «ما» موصولة مفعولة بفعل جواب القَسَم، التقدير: لَتُبَلِّغُنَّ ما آتيناكم من كتاب وحكمة. قال: إلا أنه حُذف «لَتُبَلِّغُنَّ» للدلالة عليه؛ لأنَّ لام القَسَم إنما تقع على الفعل، فلمَّا دلَّت هذه اللام على هذا الفعل حُذف، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ وهو محمدٌ ﷺ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾. وعلى هذا التقدير يستقيم النظم. انتهى.

ويعني يكون «لَتُؤْمِنُنَّ به» جوابَ قَسَم محذوف، وهذا بعيدٌ جدًّا، لا يُحفظ من كلامهم: واللهِ لَزيداً، تريد لَتضربنَّ زيداً.

والقول الرابع؛ قاله ابنُ أبي إسحاق، وهو أن يكون «لَمَا» تخفيف «لَمَّا»، والتقدير: حين آتيناكم، ويأتي توجيه قراءة التشديد.

وأمَّا توجيه قراءة حمزة؛ فاللام هي للتعليل، و«ما» موصولة بـ «آتيناكم»، والعائد محذوف، و«ثم جاءكم» معطوف على الصِّلة، والرَّابط لها بالموصول إمَّا إضمار «به» على ما نُسِبَ إلى سيبويه، وإمَّا هذا الظاهر الذي هو «لِمَا معكم» لأنه

---

(١) زاد المسير ٣/ ٢٨٣ «في تفسير الآية (١٧١) من سورة الأعراف»، ومغني اللبيب ص٦٥٥ (الشاهد ٨٨٩). وشطره الثاني (وهو موضع الشاهد) في «شرح التسهيل» ١/ ٢٠٤، وارتشاف الضَّرَب ٢/ ٩٩٨، وهمع الهوامع ١/ ٣٣٩. ويقال: إن البيت للمجنون كما ذكر السيوطي في شرح شواهد المغني ٢/ ٥٥٩، وجزم بنسبته إليه الشنقيطي في الدرر اللوامع ١/ ٢٨٦. وليس هو في المطبوع من ديوانه.

(٢) هي قراءة نافع كما سلف. وسترد كذلك في سياق الكلام. ووقع في (أ) و(ع): آتيتُكم، وهي قراءة الباقين من السبعة.

في المعنى هو الموصول على مذهب أبي الحسن وقولِ الزمخشريّ[١]. وجوابُ «أخَذَ اللهُ ميثاقَ النبيِّين» هو «لَتُؤمِنُنَّ به»، والضمير في «به» عائد على «رسول»، ويجوز الفصلُ بين القَسَم والمُقْسَم عليه بمثل هذا الجارِّ والمجرور؛ لو قلت: أقسمتُ لِلخَبَرِ الذي بلغني عن عَمرو لَأُحْسِنَنَّ إليه؛ جاز.

وأجاز الزمخشريّ في قراءة حمزة أن تكون «ما» مصدرية، وبَدَأ به في توجيه هذه القراءة؛ قال: ومعناه: لأجْلِ إيتائي إيَّاكم بعضَ الكتاب والحكمة، ثم لمجيء رسولٍ مصدِّقٍ لِما معكم لَتُؤمِنُنَّ به، على أنَّ «ما» مصدرية، والفعلان معها ـ أعني «آتيناكم» و«جاءكم» ـ في معنى المصدرَيْن، واللام داخلة للتعليل على معنى: أخذَ اللهُ ميثاقَهم لَتُؤمِنُنَّ بالرسول ولَتَنْصُرُنَّه لأجْلِ أن آتيتُكم الحكمة، وأنَّ الرسول الذي آمُرُكم بالإيمان به ونُصرتهِ موافقٌ لكم غيرُ مخالف. انتهى كلامه.

إلا أنَّ ظاهر هذا التعليل الذي ذكرَه وهذا التقدير الذي قَدَّرَه أنه تعليلٌ للفعل المُقْسَمِ عليه، فإنْ عَنَى هذا الظاهرَ؛ فهو مخالف لظاهر الآية؛ لأنَّ ظاهر الآية يقتضي أن يكون تعليلاً لأخذ الميثاق لا لمتعلَّقِهِ، وهو الإيمان، فاللام متعلِّقة بـ «أخَذَ»، وعلى ظاهر تقدير الزمخشريّ تكون متعلِّقة بقوله: «لَتُؤمِنُنَّ به»، ويمتنعُ ذلك من حيث إنَّ اللام المُتَلَقَّى بها القَسَمُ لا يعملُ ما بعدَها فيما قبلَها؛ تقول: واللهِ لَأضربَنَّ زيداً. فلا يجوز: واللهِ زيداً لأضربنَّ. فعلى هذا لا يجوزُ أنْ تتعلَّق اللام في «لِما» بقوله: «لَتُؤمِنُنَّ به».

وقد أجاز بعض النَّحْويِّين في معمول الجواب إذا كان ظرفاً أو مجروراً تقدُّمَه، وجعلَ من ذلك: عَوْضُ لا نتفرَّقُ[٢]، وقولَه تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾

(١) الكشاف ١/ ٤٤١. وينظر «المحرر الوجيز» ١/ ٤٦٤.

(٢) هو قطعة من بيت للأعشى، وهو:

رَضِيعَيْ لِبَانٍ ثَدْيَ أُمٍّ تَحالَفَا ... بأسْحَمَ داجٍ عَوْضُ لا نتفرَّقُ

وهو في ديوانه ص٢٧٥ من قصيدة يمدح بها المحلَّق بن حَنْتَم. قال الزَّبيدي في تاج العروس (عوض): أراد بأَسْحَمَ دَاجٍ: الليل: وقيل: سواد حَلَمَة ثدي أمِّه، وقيل: أراد بالأسْحَم هنا الرَّحِم. اهـ. وقوله: عَوْضُ، أي: أبداً، وهي مثلَّثة الآخِر مبنيَّة، تختصُّ بالنفي، وتُعرب إن أُضيفت. ينظر القاموس (عوض). وهذا البيت هو الشاهد (٥٢١) من خزانة الأدب.

[المؤمنون: ٤٠] فعلى هذا يجوز أن تتعلَّق بقوله: «لَتُؤْمِنُنَّ به». وفي هذه المسألة تفصيل يُذكر في علم النَّحو.

وذكر السجاونديّ عن صاحب «النَّظْم» أنَّ هذه اللام في قراءة حمزة هي بمعنى «بَعْدَ» كقول النابغة[1]:

تَوَهَّمْتُ آياتٍ لها فعرَفْتُها لستةِ أعوامٍ وذا العامُ سابعُ

فعلى هذا لا تكون اللام في «لِمَا» للتعليل[2].

وأمَّا توجيه قراءة سعيد بنِ جُبير والحسن: «لَمَّا»؛ فقال أبو إسحاق: أي: لمَّا آتاكم الكتابَ والحكمةَ أخَذَ الميثاقَ، وتكون «لمَّا» تؤول إلى الجزاء، كما تقول: لمَّا جئتَني أكرمتُك. انتهى كلامه. قال ابن عطية[3]: ويظهر أنَّ «لمَّا» هذه هي الظرفية، أي: لمَّا كنتم بهذه الحال رؤساءَ الناسِ وأماثلَهم؛ أخذَ عليكم الميثاق، إذ على القادة يُؤخذ، فيجيء على هذا المعنى كالمعنى في قراءة حمزة.

وقال الزمخشريّ[4]: «لمَّا» بالتشديد؛ بمعنى: حين آتيتُكم بعضَ الكتاب والحكمة ثم جاءكم رسول مصدِّق؛ وجبَ عليكم الإيمانُ ونُصرتُه. انتهى.

فاتَّفق ابنُ عطية والزمخشريّ على أنَّ «لمَّا» ظرفية، واختلفا في تقدير الجواب العامل في «لمَّا» على زعمهما، فقدَّره ابنُ عطية من القَسَم، وقدَّره الزمخشريّ من جواب القَسَم، وكلا قوليهما مخالفٌ لمذهب سيبويه في «لَمَّا» المقتضية جواباً، فإنَّها عند سيبويه حرفُ وجوب لوجوب، وليست ظرفاً بمعنى «حين» ولا بمعنى غيرِه، وإنما ذهبَ إلى ظرفيَّتها أبو عليّ الفارسيّ، وقد تكلَّمنا على ذلك كلاماً مشبعاً في كتاب «التكميل لشرح التسهيل»، وبيَّنَّا أنَّ الصحيح مذهبُ سيبويه.

---

(١) ديوانه ص٧٩.

(٢) استغرب السمين الحلبي في الدُّرّ المصون ٣/ ٢٨٧-٢٨٨ هذا التوجيه وقال: كيف ينتظم هذا كلاماً؟ إذ يصير تقديرُه: وإذ أخذ الله ميثاق النبيِّين بعد ما آتيناكم. ومَن المخاطَبُ بذلك؟!

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٦٥، وقول أبي إسحاق (وهو الزجَّاج) السالف فيه، وهو في معانيه ١/ ٤٣٧.

(٤) الكشاف ١/ ٤٤١.

وذهب ابنُ جنّي في تخريج هذه القراءة إلى أنَّ أصلها «لَمِنْ ما»، وزِيدت «مِنْ» في الواجب على مذهب الأخفش، ثم أُدغمت كما يجب في مثل هذا، فجاء: «لَمِمَّا» فثقُل اجتماع ثلاث ميمات، فحُذفت الميم الأولى، فبقي «لَمَّا».

قال ابن عطية(١): وتتفسَّر هذه القراءة على هذا التوجيه المحلّق تفسيرَ «لَمَا» بفتح الميم مخفَّفة. وقد تقدَّم. انتهى.

وظاهر كلامه أنَّ «مِنْ» في قوله: «لمِنْ ما» زائدة في الواجب على مذهب الأخفش، وقد ذَكرَ هذا التقديرَ في توجيه قراءة «لَمَّا» بالتشديد الزمخشريّ، ولم ينسُبه إلى أحد، فقال: وقيل: أصلُه «لَمِنْ ما»، فاستثقلُوا اجتماع ثلاث ميمات، وهي الميمان والنون المنقلبة ميماً بإدغامها في الميم، فحذفوا إحداها، فصارت: «لَمَّا»، ومعناه: لَمِنْ أجل ما آتيناكم لَتُؤمِنُنَّ به، وهذا نحوٌ من قراءة حمزة في المعنى. انتهى كلامه. وهو مخالف لكلام ابنِ جنّي في «مِنْ» المقدَّر دخولُها على «ما»، فإنَّ ظاهر كلام ابن جنّي أنها زائدة، وظاهر كلام الزمخشريّ أنها ليست بزائدة؛ لأنه جَعَلَها للتعليل، وفي قول الزمخشري: «فحذفوا إحداها» إبهامٌ في المحذوف، وقد عَيَّنَها ابنُ جنّي بأنَّ المحذوفة هي الأُولى.

وهذا التوجيه في قراءة التشديد في غاية البُعد ويُنزَّه كلامُ العرب أن يأتيَ فيه مثلُه، فكيف كلامُ الله تعالى؟! وكان ابنُ جنّي كثيرَ التَّمحُّل في كلام العرب.

ويلزم في «لَمَّا» هذه على ما قرَّره الزمخشريّ أن تكون اللام في «لَمِنْ ما آتيناكم» زائدة، ولا تكون اللامَ الموطِّئة؛ لأنَّ اللام الموطِّئة إنما تدخل على أدوات الشرط، لا على حرف الجرّ، لو قلتَ: أُقسمُ بالله لَمِنْ أجلِك لأضربَنَّ عمراً؛ لم يجز، وإنَّما سُمِّيت موطِّئة لأنها تُوطِّئُ ما يصلُح أن يكون جواباً للشرط للقَسَم، فيصيرُ جواب الشرط إذ ذاك محذوفاً لدلالة جواب القَسَم عليه.

وقرأ نافع: «آتيناكم» على التعظيم وتنزيلِ الواحدِ منزلةَ الجمع، وقرأ الجمهور: «آتيتُكم» على الإفراد(٢)، وهو الموافق لما قبلَه وما بعدَه، إذْ تقدَّمَهُ: «وإذْ أخَذَ الله»،

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٦٥. وكلام ابن جني السالف فيه.

(٢) السبعة ص٢١٤، والتيسير ص٨٩.

وجاء بعدَه: «إصْرِي». وقرأ عبد الله: «رسولٌ مصدِّقاً[1]»؛ نصَبَه على الحال، وهو جائز من النكرة وإن تقدَّمت النكرة، وقد ذكرنا أنَّ سيبويهِ قاسَه، ويُحسِّنُ هذه القراءةَ أنه نكرة في اللفظ معرفةٌ من حيث المعنى؛ لأنَّ المعنيَّ به محمدٌ ﷺ على قول الجمهور.

وقوله: «لَمَا آتيتُكم» إن أُريد به جميعُ الأنبياء وهو ظاهر اللفظ؛ فإن أُريدَ بالإيتاء الإنزالُ، فليس كلُّهم أُنزلَ عليهم، فيكون من خطاب الكلِّ بخطاب أشرف أنواعه، ويكون التعميم في الأنبياء مجازاً، وإنْ أُريدَ بالإيتاء كونُه مهتدًى به وداعياً إلى العمل به؛ صحَّ ذلك في جميع الأنبياء، ويكون التعميم حقيقةً، وكذلك إن أُريد بالأنبياء المجاز ـ وهو أممهم ـ يكون إيتاؤهم الكتاب كونَه تعالى جعلَه هاديًا لهم وداعياً.

﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي: ثم جاء في زمانكم. ومعنى التصديق كونُه موافقاً في التوحيد والنُّبوَّات وأصولِ الشرائع، وجميعُهم متفقون على أنَّ الحقَّ في زمان كلِّ نبيٍّ شرعُه.

وفي قوله: «رسولٌ» دلالةٌ على أنَّ الميثاق المأخوذ هو ما قرَّر في العقول من الدلائل التي تُوجب الانقيادَ لأمر الله.

وفي قوله: «مصدِّقٌ لِمَا معكم» دلالة على أنَّ الميثاق هو شرحُه لصفات الرسول في كتب الأنبياء، فهذانِ الوجهانِ محتملان، وأوجبَ الإيمانَ أوّلاً والنُّصرةَ ثانياً، وهو ترتيب ظاهر.

﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيۖ﴾ ظاهرُه أنَّ الضمير في «قال» عائدٌ على الله تعالى، وفي «أأقْرَرْتُم» خُوطبَ به الأنبياءُ المأخوذُ عليهم الميثاقُ على الخلاف؛ أهو على ظاهره أم هو على حذف مضاف، أم هو ممَّا حُذف بعد النبيِّين، وتقديرُه: ميثاقَ النبيِّين على أممهم؛ لم يكتف بأخذِ الميثاق حتى استنطقَهم بالإقرار بالإيمان به والنُّصرة له.

---

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٥٥، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٥.

قيل: ويحتمل أن يكون الضمير في «قال» عائداً[١] على كلِّ فرد فرد من النبيِّين، أي: قال كلُّ نبيّ لأمَّتِه: «أأقررتُم». ومعنى هذا القول على هذا الاحتمال الإثباتُ والتأكيد؛ لم يقتصروا على أخذ الميثاق على الأمم، بل طالبوهم بالإقرار بالقبول، ويكون «إصْرِي» على الظاهر مضافاً إلى الله تعالى، وعلى هذا القول الثاني يكون مضافاً إلى النبيّ.

والإصْرُ: العهد؛ لأنه ممَّا يُؤْصَرُ، أي: يُشَدُّ ويُعْقَد.

وقُرِئَ بضمِّ الهمزة، وهي مرويَّة عن أبي بكر عن عاصم[٢]، فيحتمل أن يكون ذلك لغةً في «إصْر» كما قالوا: ناقة عِبْرُ أَسْفارٍ، وعُبْرُ أَسْفَار[٣]، وهي المُعَدَّةُ للأَسْفار. ويحتمل أن يكون جمعاً لـ «إصار» كإزار وأُزُر[٤]. ومعنى الأخذ هنا القبول.

﴿قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ﴾ معناه: أقررنا بالإيمان به وبنُصرته، وقَبِلْنا ذلك والتزَمْناه. وثَمَّ جملةٌ محذوفة، أي: أقرَرْنا وأخَذْنا على ذلك الإصْرَ، وحُذفت لدلالة ما تقدَّم عليها.

﴿قَالَ فَٱشۡهَدُواْ﴾ الظاهرُ أنه تعالى قال للنبيينَ المأخوذِ عليهم الميثاقُ: «فاشْهَدُوا». ومعناه من الشهادة، أي: لِيَشهَدْ بعضُكم على بعض بالإقرار وأخْذِ الإصْر. قاله مقاتل. وقيل: «فاشْهَدُوا» هو خطاب للملائكة. قاله ابنُ المسيِّب[٥]. وقيل: معنى «فاشْهَدُوا»: بَيِّنُوا هذا الميثاقَ للخاصِّ والعامِّ لكيلا يبقى لأحدٍ عُذرٌ في الجهل به. وأصلُه أنَّ الشاهد هو الذي يُبيِّن صدقَ الدَّعوى. قاله الزَّجَّاج[٦]. ويكون «اشْهَدُوا» بمعنى أدُّوا، لا بمعنى تَحمَّلُوا.

---

(١) لفظة «عائداً» من (أ) و(ب) و(ت) و(ع). لكن جاء فيها: «عائد» وأثبتُّ اللفظة على الجادَّة.
(٢) السبعة ص٢١٤، والحجة ٣/ ٧٠، وزاد المسير ١/ ٤١٦.
(٣) «عُبْرُ» مثلثة العين، كما في القاموس. وعبارة (أ) و(ب) و(ت) و(ع): ناقةٌ عِبْرٌ وعُبْرُ أسفار.
(٤) في القاموس جمع إزار: آزِرَة، وأُزُر، وأُزْر. ونقل الزَّبيدي في التاج عن شيخه أن أُزْر تخفيف من أُزُر.
(٥) زاد المسير ١/ ٤١٦، وينظر تفسير الرازي ٨/ ١٢٨.
(٦) الكلام في تفسير الرازي ٨/ ١٢٨. ولم أقف عليه عند الزجاج.

وقيل: معناه: استَيْقِنُوا ما قرَّرْتُه عليكم من هذا الميثاق، وكونوا فيه كالمشاهِد للشيء المعايِن له. قاله ابنُ عبَّاس[١].

وقيل: «فاشْهَدُوا» خطابٌ للأنبياء إذا قلنا: إنَّ أخْذَ الميثاق كان على أتباعهم، أُمِرُوا بأن يكونوا شاهدين على أممهم. ورُوِيَ هذا عن عليّ بن أبي طالب[٢].

وعلى القول بأنَّ المعنى في «قال أأقررتم» أي: قال كلُّ نبيّ، يكون المعنى: قال[٣] كلُّ نبيّ لأمّته: فاشْهَدُوا، أي: ليشْهَدْ بعضُكم على بعض.

وقوله: «فاشْهَدُوا» معطوف على محذوف، التقدير: قال: أأَقْرَرْتُم فاشهدوا، فالفاء دخلت للعطف، ونظيرُ ذلك قولُه: أَلَقِيتَ زيداً؟ قال: لَقِيتُه. قال: فأحْسِنْ إليه. التقديرُ: لَقِيتَ زيداً فأحْسِنْ إليه. فما فيه الفاءُ بعضُ المقول، ولا يجوز أن يكون كلَّ المقول؛ لأجل الفاء، ألا ترى «قال أأَقْرَرْتُم» وقولَه: «قالوا أقررنا» لمَّا كان كلَّ المقول لم تدخلِ الفاء؟

﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ يحتمل الاستئناف على سبيل التوكيد، ويحتمل أن يكون جملة حالية.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: مَنْ أعرض عن الإيمان بهذا الرسول وعن نُصرته بعدَ أخذِ الميثاق والإقرارِ والتزامِ العهد. قاله عليُّ بن أبي طالب وغيرُه[٤].

وقال ابن عطيّة[٥]: ويحتمل أن يريد بعد الشهادة عند الأمم بهذا الميثاق، على أنَّ قوله تعالى: «فاشهدوا» أمْرٌ بالأداء.

و«مَنْ» الظاهرُ أنها شرط، والجملة من «فأولئك» وما بعدَه جزاء، ويحتمل أن تكون موصولة، وأعاد الضميرَ في «تَوَلَّى» مفرداً على لفظ «مَنْ»، وجمعَ في

---

(١) تفسير الرازي ١/١٢٨ دون نسبة.
(٢) بنحوه في «تفسير» الطبري ٥/٥٤٦. وينظر المصدر السابق.
(٣) في (د١) والمطبوع: على، بدل: قال. وقوله: «يكون المعنى قال كل نبي» سقط من (أ) و(ب) و(ت) و(ز٢) و(ع).
(٤) تفسير الطبري ٥/٥٤٧، والمحرر الوجيز ١/٤٦٦.
(٥) المحرر الوجيز ١/٤٦٦.

«فأولئك» حملاً على المعنى. وهذه الجملة تدلُّ على أنَّ الذين أُخِذَ منهم الميثاق هم أتباعُ الأنبياء؛ لأنه حكم تعالى بالفسق على مَنْ تولَّى بعد ذلك، وهذا الحُكمُ لا يليقُ إلا بأمم الأنبياء، وأيضاً فالأنبياء عليهم السلام كانوا أمواتاً عند مبعثه ﷺ، فعلمنا أنَّ المأخوذ عليهم الميثاق هم أممهم.

وذكروا في هذه الآية أنواعاً من الفصاحة:

منها الطِّباق في «بقنطار» و«بدينار» إذْ[1] أُرِيدَ بهما القليلُ والكثير، وفي «يُؤَدِّه» و«لا يُؤَدِّه» لأنَّ الأداء معناه الدَّفع، وعدمُه معناه المنعُ، وهما ضدَّان، وفي قوله: «بالكفر» و«مسلمون».

والتجنيس المغاير في «اتَّقى» و«المتَّقين»، وفي «فاشهَدُوا» و«الشاهدين». والتجنيس المماثل في «ولا يأمرَكم» «أيأمرُكم»، وفي «أأقْرَرْتُم» و«أقْرَرْنا».

والإشارة في قوله: «ذلك بأنَّهم»، وفي «أولئك لا خَلاقَ لهم».

والسؤالُ والجوابُ، وهو في «قال أأقْرَرْتُم» «قالوا أقْرَرْنا».

والاختصاص في «يُحبُّ المتقين»، وفي «يوم القيامة»؛ اختصَّه بالذِّكْر لأنه اليوم الذي تظهرُ فيه مجازاة الأعمال.

والتكرار في «يؤدِّه» و«لا يؤدِّه»، وفي اسم الله في مواضع، وفي «من الكتاب وما هو من الكتاب».

والاستعارة في «يشترون بعهد الله».

والالتفات في «لَما آتيتُكم»، وهو خطاب بعد قوله: «النَّبيِّين»، وهو لفظ غائب.

والحذف في عدَّة مواضع تقدَّمت.

❁ ❁ ❁

(١) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع) و(يه): إذا.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا
وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ
وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ
مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ
وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ
ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا
لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

المفردات المِلْءُ: مقدارُ ما يُملأ، وهو اسم يُثنّى ويُجمع، يقال: مِلْءُ القَدَح ومِلْآهُ وثلاثةُ أمْلائِه، وبفتح الميم المصدر، يقال: مَلأْتُ الشيءَ أمْلَؤُه مَلأً، والمُلَاءَةُ: التي تُلبَس ـ وهي المِلْحَفة ـ بضمّ الميم والهمز. وتقدّمت هذه المادّة في شرح «الملأ».

* * *

التفسير ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ رُوِيَ عن ابن عبّاس: اختصمَ أهلُ الكتاب، فزعمت كلُّ فرقة أنها أوْلَى بدين إبراهيم، فقال النبيُّ ﷺ: «كلا الفريقين بَرِيءٌ من دين إبراهيم». فغضبوا وقالوا: واللهِ ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك. فنزلت هذه الآية[(١)].

ومناسبةُ هذه الآية لما قبلها ظاهرةٌ جدًّا. والهمزة في «أفغير» للإنكار والتنبيه على الخطأ في التولّي والإعراض، وأُضيف الدِّين إلى الله لأنه تعالى هو الذي شَرَعَه وتعبَّد به الخلق.

ومعنى «يبغون»: يطلبون، وهو هنا بمعنى يدينون[(٢)]؛ لأنهم ملتبسون بدينٍ غيرِ

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص١٠٨. وبنحوه في تفسير القرطبي ٥/ ١٩٢.

(٢) في (د١) و(د٢) و(ز٢): «تبغون... تطلبون.. تدينون». و«تبغون» بالتاء من السبعة وسترد.

دين الله، لا طالبوه، وعبَّر بالطلب إشعاراً بأنهم في كلِّ وقت باحثون عنه ومستخرجوه ومتَّبعوه.

وقال الماتُريديّ[١]: فإن قيل: كلُّ عاقل يبتغي دينَ الله، ويدَّعي أنَّ الذي هو عليه دينُ الله. قيل: الجواب من وجهين: أحدُهما: أنَّه لمَّا قَصَّرَ في الطلب جُعل في المعنى كأنه باغٍ غيرَ دينِ الله، إذْ لو كان باغياً لبالغَ في الطَّلب من الوجه الذي يُوصَلُ إليه منه، فكأنه ليس باغياً من حيث المعنى، ولكنه من حيث الصورة. والثاني: أنه قد بانَ للبعض في الابتغاء ما هو الحقُّ لظهور الحُجَج والآيات، ولكن أَبَى إلا العِناد، فهو باغٍ غيرَ دينِ الله، فتكون الآية في المعاندين. انتهى كلامه.

وقرأ أبو عَمرو وحفص وعبَّاس ويعقوب وسهل: «يبغون» بالياء على الغَيْبَة، ونسبَها ابنُ عطية لأبي عَمرو وعاصم بكماله. وقرأ الباقون: بالتاء على الخطاب[٢]، فالياء على نسق «فأولئك هم الفاسقون» والتاء على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.

والفاء لعطف هذه الجملة على ما قبلَها، وقُدِّمت الهمزة اعتناءً بالاستفهام، والتقدير: فَأَغَيْرَ. وجوَّزَ هذا الوجهَ الزمخشريُّ[٣]، وهو قولُ جميع النُّحاة قبلَه؛ قال: ويجوزُ أن يُعطف على محذوف، تقديرُه: أيتولَّون فغيرَ دينِ الله يبغون. انتهى.

وقد تقدم ذكر هذا والكلامُ على مذهبه في ذلك، وأمعنَّا الكلام عليه في كتاب «التكميل» من تأليفنا.

وانتصب «غير» على أنه مفعول «يبغون» وقُدِّم على فعله لأنه أهمُّ من حيث إنَّ الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجِّهٌ إلى المعبود بالباطل. قاله الزمخشريّ. ولا تحقيقَ فيه؛ لأنَّ الإنكار الذي هو معنى الهمزة لا يتوجَّه إلى الذوات،

(١) بنحوه في تأويلات أهل السنة ١/ ٢٨٦.
(٢) السبعة ص٢١٤، والتيسير ص٨٩، والحجة ٣/ ٦٩-٧٠، والكشف ١/ ٣٥٣، والنشر ٢/ ٢٤١. وينظر المحرر الوجيز ١/ ٤٦٦.
(٣) عبارة الكشاف ١/ ٤٤١: المعنى: فأولئك هم الفاسقون فغير دين الله يبغون. ثم توسَّطت الهمزة بينهما.

إنَّما يتوجَّه إلى الأفعال التي تتعلق بالذوات، فالذي أُنكر إنما هو الابتغاء الذي متعلَّقُه غيرُ دينِ الله، وإنما جاء تقديمُ المفعول هنا من باب الاتِّساع وشَبَهِ[1] «يبغون» بالفاصلة بآخر الفعل[2].

﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ «أَسْلَمَ» عند الجمهور: استسلمَ وانقاد. قال ابن عباس: أَسْلَمَ طَوْعاً بحالته الناطقة عند أخذ الميثاق عليه، وكَرْهًا عند دعاء الأنبياء لهم إلى الإسلام.

وقال مجاهد: سجودُ ظلِّ المؤمن طائعاً، وسجودُ ظلِّ الكافر كارهاً؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وقال مجاهد أيضاً وأبو العالية والشعبيّ ما يقاربُ معناه: أسلم؛ أقرَّ بالخالقيَّة والعبوديَّة وإن كان فيهم من أشرك في العبادة، فمن أشرك أسلمَ كَرْهاً، ومن أخلصَ أسلمَ طوعاً.

وقال الحسن: أسلم قومٌ طوعاً، وقومٌ خوفَ السيف. وقال مطر الورَّاق: أسلمَ مَنْ في السماوات طَوْعاً، وكذلك الأنصار وبنو سُليم وعبد القيس، وأسلم سائرُ الناس كَرْهاً حذرَ القتالِ والسيفِ و«أسْلَمَ» على هذا القول في ضمنه الإيمان.

وقال قتادة: الإسلامُ كَرْهاً هو إسلامُ الكافر عند الموت والمعاينةِ حيث لا ينفعُه. وقال ابنُ عطية[3]: ويلزمُ على هذا أنَّ كلَّ كافر يفعلُ ذلك، وهذا غيرُ موجود إلا في أفراد. انتهى.

وقال عكرمة: طوعاً باضطرار الحُجَّة.

وقال الزَّمخشريّ[4]: طوعاً بالنَّظر في الأدلّة والإنصاف من نفسه، وكَرْهاً بالسيف، أو بمعاينة ما يُلجئُ إلى الإسلام، كنَتْقِ الجبل على بني إسرائيل،

---

(١) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): وأشبه.

(٢) من قوله: وقرأ أبو عمرو وحفص (في الصفحة قبلها) إلى هذا الموضع ليس في (ح) و(د٢) و(يه).

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٦٧. والكلام السالف قبله فيه.

(٤) الكشاف ١/ ٤٤٢.

وإدراكِ الغَرَقِ فرعونَ، والإشفاء على الموت ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤]. انتهى.

فلفَّقَ الزمخشريُّ تفسيرَ «طَوْعاً» من قول عكرمة، وتفسيرَ قوله: «وكَرْهاً» من قول مطر الورَّاق وقولِ قتادة.

وقال الكلبيّ: طَوْعاً بالولادة على الإسلام، وكَرْهاً بالسيف.

وقال ابن كَيْسان: المعنى: وله خضعَ مَنْ في السماوات والأرض فيما صوَّرهم فيه ودبَّرهم عليه وما يحدُثُ فيهم، فهُم لا يمتنعون عليه؛ كرهوا ذلك أو أحبُّوه، رَضُوا بذلك أو سخطوه.

وهذا معنى قول الزَّجَّاج[(١)] إن الإسلام هنا الخضوع لِنَفَاذ[(٢)] أمرِه في جِبِلَّتِهم، لا يقدرُ أحدٌ أن يمتنعَ ممَّا جُبِلَ عليه، ولا أن يُغيِّره.

والذي يظهر عمومُ مَنْ في السماوات، وخصوصُ مَنْ في الأرض، والطَّوْعُ هو الذي لا تكلُّفَ فيه، والكَرْه ما فيه مشقَّة، فإسلام مَنْ في السماوات طَوْعٌ صِرْف، إذ هم خالُون من الشهوات الداعية إلى المخالفة، وإسلامُ مَنْ في الأرض مَنْ كان منهم معصوماً كان طَوْعاً، ومن كان غيرَ معصوم كان كَرْهاً، بمعنى أنَّ فيه مشقَّة؛ لأنَّ التكاليف جاءت على مخالفة الشهوات النفسانيَّة، فلو لم يأت رسولٌ من الله مبشِّرٌ بالثواب ومنذرٌ بالعقاب لم يلتزم الإنسانُ شيئاً من التكاليف. وهذه الأقوالُ لا يخرج «أَسْلَمَ» فيها عن أن يُحمل على الاستسلام وعلى الاعتقاد، وعلى الإقرار باللسان، وعلى التزام الأحكام. وقد قيل بهذا كلِّه.

والجملة من قوله: «وله أَسْلَمَ» حاليَّة، و«طَوْعاً وكَرْهاً» مصدران في موضع الحال، أي: طائعين وكارهين. وقيل: هما مصدران على خلاف الصدر[(٣)].

---

(١) معاني القرآن ١/ ٤٣٨-٤٣٩. وتنظر الأقوال السابقة بنحوها (بعضها دون بعض) في تفسير الطبري ٥/ ٥٤٩-٥٥٢، وتفسير الثعلبي ٢/ ٩٥-٩٦، وتفسير البغوي ١/ ٣٢٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٦-٤٦٧، وزاد المسير ١/ ٤١٧، وتفسير القرطبي ٥/ ١٩٣-١٩٤.

(٢) في (د١) والمطبوع: لنفوذ.

(٣) قاله أبو البقاء في «الإملاء» ١/ ١٤٢. وتعقَّبه السمينُ الحلبي في الدُّرّ المصون ٣/ ٢٩٦ بأن =

وقرأ الأعمش: «كُرْهاً» بضم الكاف، والجمهور بفتحها.

﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ تهديد عظيم لمن اتَّبعَ وابتغَى غير دين الله[(١)]. وتقدَّم معنى الرُّجوع إليه، ويحتمل أن يكون قد عُطف على قوله: «وله أسْلَم»، فيكون مشاركاً له في الحاليَّة. وكأنَّه نَعَى عليهم ابتغاءَ غيرِ دينِ مَن انقادَ إليه المكلَّفون كلُّهم، ومَن إليه مرجعُهم، فيجازيهم على أعمالهم. والمعنى أنَّ مَنْ كان بهاتين الصفتين لا يبتغي ديناً غيرَ دينه، ويحتمل أن يكون استئنافَ إخبار بأنه تعالى إليه مصيرُهم ومُنْقَلَبُهُمْ فيجازيهم بأعمالهم.

وقرأ حفص وعبَّاس ويعقوب وسهل: «يرجعون» بالياء على الغَيْبة[(٢)]، فيحتمل أن يكون عائداً على مَنْ أسلم، ويحتمل أن يعود[(٣)] على ضمير[(٤)] «يَبْغُون»، فيكون على سبيل الالتفات على قراءة من قرأ: «تَبْغُون» بالتاء، إذ يكون قد انتقل من خطاب إلى غَيْبة.

وقرأ الباقون بالتاء، فإن عاد الضمير على: «مَنْ» كان التفاتاً، أو على ضمير «يبغون» كان التفاتاً على قراءة من قرأ «يبغون» بالياء، إذ يكون قد انتقل من غَيْبة إلى خطاب.

﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

هذه الآية موافقةٌ لما في البقرة [١٣٦] إلا في «قُلْ» وفي «علينا» وفي «عيسى

= هذا ماشٍ في «طوعاً» لموافقته معنى الفعل قبله. وأمَّا «كَرْهاً» فكيف يقال فيه ذلك؟. وقال الآلوسي في رُوح المعاني ٣٠٦/٤: قد يُدفع بأنَّ الكُره فيه انقياد أيضاً.

(١) في (ح) و(د٢) و(يه): غير دين الإسلام.

(٢) قرأ حفص بضم الياء، وقرأ يعقوب بفتحها. ينظر السبعة ص٢١٤، والتيسير ص٨٩، والنشر ٢٤١/٢.

(٣) المثبت من (ت). وفي النسخ الأخرى: يكون.

(٤) في (د١) والمطبوع: غير ضمير. وهو خطأ.

والنَّبيون»[١]. وقد تقدَّم شرحُ ما في «البقرة» فأغنَى عن إعادته هنا إلا ما وقع فيه الخلاف، فنقول:

الظاهر في «قُلْ» أنه خطابٌ للنبيّ ﷺ، أُمِرَ أن يُخبِرَ عن نفسه وعن أمَّته بقوله: آمنَّا به[٢]. ويقوِّي أنه إخبارٌ عنه وعن أمته قولُه آخراً: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ وأفردَه بالخطاب بقوله: «قُلْ» لأنه تقدَّم ذكرُه في أَخْذِ الميثاق في قوله: «ثم جاءكم رسول» فعيَّنه[٣] في هذا التكليف ليظهر فيه كونُه مصدِّقاً لِمَا مع الأنبياء الذين أَخَذَ عليهم الميثاق.

وقال: «آمنَّا» تنبيهاً على أنَّ هذا التكليفَ ليس من خواصِّه، بل هو لازم لكلِّ المؤمنين، قال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ بعد قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

قال الزمخشريّ[٤]: ويجوزُ أن يُؤمر بأن يتكلَّم عن نفسه كما يتكلَّم الملوك إجلالاً من الله لِقَدْرِ نبيِّه.

وقال ابن عطية[٥]: المعنى: قُلْ يا محمد أنت وأمَّتُك: آمنَّا بالله. فيظهرُ من كلام ابن عطية أنَّ ثَمَّ معطوفاً حُذف، وأنَّ الأمرَ متوجِّهٌ إلى النبيّ ﷺ وأمَّتِه.

وأمَّا تعدية «أُنزل» هنا بـ «على» وفي «البقرة» بـ «إلى»؛ فقال ابنُ عطيَّة: الإنزالُ على نبيّ الأمَّة إنزالٌ عليها.

وقال الزمخشريّ: فإنْ قلت: لِمَ عُدِّيَ «أُنزل» في هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدَّم من مثلها بحرف الانتهاء؟ قلت: لوجود المعنيين جميعاً؛ لأنَّ الوَحْيَ ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل، فجاء تارةً بأحد المعنيين، وأُخرى بالآخر.

---

(١) لفظة «عيسى» من (د١) و(ز٢)، وسقط الكلام في (أ) و(ب) و(ت) و(ع) من قوله: «وعيسى والنبيون» (في الآية) إلى هذا الموضع.
(٢) لفظ الآية: آمنَّا بالله.
(٣) في (ح) و(د٢) و(يه): فبيَّنه.
(٤) الكشاف ١/ ٤٤٢.
(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٦٧.

وقال الراغب[١]: إنَّما قال هنا: «على»؛ لأنَّ ذلك لمَّا كان خِطاباً للنبيِّ ﷺ وكان واصلاً إليه من الملأ الأعلى بلا واسطةٍ بشريَّة؛ كان لفظ «على» المختصُّ بالعلوّ أَوْلَى به، وهناك لمَّا كان خِطاباً للأمَّة وقد وصلَ إليهم بواسطة النبيِّ ﷺ كان لفظ «إلى» المختصُّ بالاتصال أَوْلَى. ويجوزُ أن يقال: «أُنزل عليه» إنَّما يُحمل على ما أُمِرَ المنزَّلُ عليه أن يبلِّغ غيرَه، وأُنزل إليه على ما خُصَّ به في نفسه، وإليه نهاية الإنزالِ، وعلى ذلك قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] خُصَّ هنا بـ«إلى» لمَّا كان مخصوصاً بالذِّكْر الذي هو بيانُ المنزَّل، وهذا كلام في الأَولى لا في الوجوب. انتهى كلامه.

وذكر الزمخشريُّ أنَّ من قال هذا الفرق فقد تعسَّف؛ قال[٢]: ألا ترى إلى قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٤]، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٤٨] وإلى قوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ٧٢]؟ انتهى.

وأما إعادة لفظ «وما أُوتي»[٣] فلأنَّه لمَّا كان لفظ الخطاب عامًّا، ومِن حُكمِ خطابِ العامّ البَسْطُ دون الإيجاز، ولمَّا كان الخطابُ هنا خاصًّا؛ اكتفى فيه بالإيجاز.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ الإسلام هنا قيل[٤] هو الاستسلامُ إلى الله والتفويضُ إليه، وهو مطلوبٌ في كلِّ زمان ومكان وشريعة، ولذلك فسَّره الزمخشريُّ بالتوحيد وإسلام الوجه لله.

وقيل: المراد بالإسلام شريعةُ محمد ﷺ؛ بيَّن تعالى أنَّ مَنْ تَحرَّى بعد مبعثه شريعةً غيرَ شريعتِه فغيرُ مقبول منه، وهو الدِّينُ الذي وافقَ في معتقداتِه دينَ مَنْ ذُكرَ من الأنبياء قبلُ.

(١) تفسيره ص٦٨٩-٦٩٠ (جزء فيه تفسير آل عمران).
(٢) الكشاف ١/ ٤٤٢.
(٣) يعني في آية البقرة (١٣٦).
(٤) لفظة «قيل» ليست في (أ) و(ب) و(ت) و(ع).

وعن ابن عبَّاس: لـمَّا نزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ الآية أنزلَ اللهُ بعدها ﴿وَمَن يَبْتَغِ﴾ الآية. وهذا إشارة إلى نسخ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وعن عكرمة: لمَّا نزلت؛ قالوا للنبيِّ ﷺ: قد أسلَمْنا قبلَك، ونحن المسلمون، فقال الله له: حُجَّهُمْ يا محمد، وأنزل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ فحجَّ المسلمون وقعد الكفار[1].

وقيل: نزلت في الحارث بن سويد، وستأتي قصته بعد هذا.

وقبولُ العمل هو رضاه وإثابةُ فاعله عليه.

وانتصبَ «ديناً» على التمييز لـ «غير» لأنَّ غيراً مبهمة، ففُسِّرت بدِين، كما أنَّ مَثَلاً مبهمة، فتفسَّر أيضاً، وهذا كقولهم: لنا غيرُها إبلاً وشاءً. ومفعول «يبتغ» هو «غير».

وقيل: «ديناً» مفعول، و«غير» منصوب على الحال؛ لأنه لو تأخَّر كان نعتاً.

وقيل: «ديناً» بدل من «غير».

والجمهور على إظهار الغَيْنَيْن، ورُوِيَ عن أبي عَمرو الإدغام.

﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الخُسْرانُ في الآخرة هو حِرْمانُ الثواب وحُصولُ العقاب، شُبِّهَ في تضييع زمانِه في الدنيا باتِّباع غيرِ الإسلام بالذي خَسِرَ في بضاعته.

ويحتمل هذه الجملة أن تكون قد عُطفت على جواب الشرط، فيكون قد تَرتَّبَ على ابتغاء غيرِ الإسلام ديناً عدمُ القبول والخُسرانُ. ويحتمل أن لا تكون معطوفةً عليه، بل هي استئنافُ إخبارٍ عن حالِه في الآخرة.

«وفي الآخرة» متعلِّق بمحذوف يدلُّ عليه ما بعدَه، أي: وهو خاسرٌ في الآخرة، أو بإضمار: أعني، أو بـ «الخاسرين» على أنَّ الألف واللام ليست موصولة بل للتعريف كهي في الرجل، أو به على أنها موصولة، وتُسُومح في الظرف

(١) ينظر الخبران في تفسير الطبري ٥/٥٥٦-٥٥٧، والمحرر الوجيز ١/٤٦٧. وسيرد عند تفسير قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾. وقوله: حُجَّهم يا محمد، أي: اخصمهم فقل لهم: حُجُّوا. ينظر «أخبار مكة» للفاكهي ١/٣٧٤.

والمجرور لأنه يُتَّسع فيهما ما لا يُتَّسع في غيرهما، وكلٌّ منقول، وقد تقدَّم لنا نظيرُه.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾:

نزلت في أهل الكتاب، آمَنُوا بالتوراة والإنجيل وفيهما ذِكْرُ محمد ﷺ، فغيَّرُوه وكفرُوا بعد إيمانهم بنبوَّته. قاله الحسن. ورَوَى عطيَّة قريباً منه عن ابن عباس[١].

وقال مقاتل: في عَشَرَةِ رَهْط ارتدُّوا، فيهم الحارث بنُ سويد الأنصاريّ، فندمَ ورجَع. ورواه أبو صالح عن ابن عباس[٢].

وذكر مجاهد والسُّدِّيّ أنَّ الحارث كان يُظهرُ الإسلام؛ فلمَّا كان يومُ أُحُد قَتَلَ المجذَّرَ بنَ ذِياد[٣] بدم كان له عليه، وقَتَلَ قيسَ بنَ زيد، وارتدَّ ولحقَ بالمشركين، فأمرَ رسولُ الله ﷺ عُمرَ أنْ يقتلَه إنْ ظَفِرَ به، ففاتَه، ثم بعثَ إلى أخيه من مكة يطلبُ التوبة، فنزلَتْ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ فكتبَ بها قومُه إليه، فرجع تائباً[٤]. ورواه عكرمة عن ابن عباس ولم يسمِّه، ولم يذكر سوى أنه رجل من الأنصار ارتدَّ فلحقَ بالمشركين[٥]. وخرَّجه النسائي عن ابن عبَّاس مطوَّلاً[٦]. وقيل: لَحِقَ بالرُّوم.

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٥٦٠-٥٦١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٨، وزاد المسير ١/ ٤١٨.

(٢) زاد المسير ١/ ٤١٨.

(٣) بالذال المعجمة في الاسمين. ووقع في النسخ الخطية والمطبوع: المجدر بن زياد، والمثبت من سيرة ابن هشام ٢/ ٨٩. وذكره الفيروز آبادي في القاموس. في موضعين: (ذود - جذر). وذكره ابنُ ناصر الدين في توضيح المشتبه ٨/ ٥٥.

(٤) أخرجه ابن المنذر ص٢٧٩ عن ابن إسحاق قال: بلغني عن ابن عباس. وهو في سيرة ابن هشام ٢/ ٨٩. ولم أقف عليه عن مجاهد والسُّدِّيّ بهذا السياق، وسيرد بنحوه عن مجاهد. وقال ابنُ هشام بإثر الخبر: حدثني من أثقُ به من أهل العلم أن الحارث بن سويد قتلَ المجذَّر بنَ ذياد ولم يقتل قيس بن زيد... وانظر تتمة كلامه. وقال ابن حجر في الإصابة (القسم الأول من حرف الميم) ٩/ ٩٠: يقال: اسمُه عبد الله، والمجذَّر لقب، وهو بالذال المعجمة، ومعناه: الغليظ الضخم. اهـ. وذكر روايات أخرى في هذا الخبر.

(٥) زاد المسير ١/ ٤١٧-٤١٨.

(٦) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٣٥١٧) و(١٠٩٩٩) - والطبري أيضاً في التفسير ٥/ ٥٥٧ - عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: ارتدَّ الحارثُ في أحدَ عَشَرَ رجلاً، وسمَّى منهم الزمخشريُّ[١] طُعْمَةَ بنَ أُبَيْرِق والحارِثَ بنَ سُويد بن الصامت، ووَحْوَحَ بنَ الأَسْلَتْ.

وذكر عكرمة أنهم كانوا اثني عَشَرَ، وسمَّى منهم أبا عامر الراهبَ، والحارثَ، ووَحْوَحاً[٢].

وقال النقَّاش: نزلت في طُعمة بنِ أُبَيْرِق. وألفاظُ الآية تعمُّ كلَّ مَنْ ذُكر وغيرَهم. وقيل: هي في عامَّة المشركين.

وقال مجاهد: حملَ الآياتِ إلى الحارث رجلٌ من قومه، فقرأها عليه، فقال له الحارث: إنك واللهِ ما علمتُ لَصدوقٌ، وإنَّ رسولَ الله لأَصْدَقُ منك، وإنَّ الله تعالى لَأصْدَقُ الثلاثة. قال: فرجع الحارثُ فأسلم وحَسُنَ إسلامُه[٣].

«كيف» سؤال عن الأحوال، وهي هنا للتعجيب والتعظيم لكفرهم بعدَ الإيمان، أي: كيف يستحقُّ الهدايةَ مَنْ أتى بما يُنافيها بعد التباسِهِ بها ووضوحِها له؟! فاستبعدَ حصولَها لهم مع شدَّة الجرائم، كما قال ﷺ «كيف تُفلحُ أمَّةٌ أَدْمَتْ وجهَ نبيِّها؟!»[٤].

وقال الزمخشريُّ[٥]: كيف يَلْطُفُ بهم وليسوا من أهل اللُّطف لِمَا علمَ اللهُ من تصميمهم على كفرهم. انتهى. وهذه نزعةٌ اعتزالية، إذ ليس المعنى عنده أنَّ الله يخلقُ الهداية فيهم كما لا يخلقُ الضلال فيهم، بل هما مخلوقان[٦] للعبد.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٤٢.
(٢) تفسير الطبري ٥/ ٥٦٠.
(٣) المصدر السابق ٥/ ٥٥٨.
(٤) أخرجه أحمد (١١٩٥٦)، والترمذي (٣٠٠٢)، والطبري في التفسير ٦/ ٤٤، وابن حبان (٦٥٧٤) بنحوه من حديث أنس ﷺ. وعلَّقه البخاري عنه بإثر الحديث (٤٠٦٨). وأخرج الطبري أيضاً نحوه من طرق أخرى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة آل عمران. واللفظ الذي ذكره المصنف هو لابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٦٨.
(٥) الكشاف ١/ ٤٤٢.
(٦) في (أ) و(ب) و(ت) و(ع): إذ ليس المعنى عنده أن الله يخلق الهداية كما يخلق الضلال، بل هما مخلوقان.

وقيل: الاستفهام هنا يُراد به الجَحْد، والمعنى: ليس يَهْدي[١]، ونظيرُه قول الشاعر:

فهذي سيوفٌ يا صُدَيُّ بنَ مالكٍ كثيرٌ ولكن أين بالسيفِ ضاربُ[٢]

وقول الآخر:

كيف نَوْمي على الفراشِ ولمَّا يَشْمَلِ[٣] الشَّامَ غارةٌ شَعْوَاءُ[٤]

والهدايةُ هنا هي إلى الإيمان واتِّباع الحقّ، وأبعدَ مَنْ زعمَ أنَّ المعنى لا يهديهم إلى الجنة، إلا إن تجوَّز فأطلقَ المسبَّب على السبب؛ لأنَّ دخول الجنة مسبَّبٌ عن الإيمان، فيعود إلى القول الأوّل.

و«شهدُوا» ظاهرُه أنه معطوف على قوله: «كفرُوا»، وبه قال الحَوْفيّ وابنُ عطيَّة، وردَّه مكّي وقال[٥]: لا يجوز عطف «شَهِدُوا» على «كفروا» لفساد المعنى. ولم يُبيِّن من أيِّ جهة فساد المعنى، وكأنَّه تَوَهَّم الترتيب، فلذلك فَسَدَ المعنى عنده.

وقال ابنُ عطيَّة: المعنى مفهومٌ أنَّ الشهادةَ قبلَ الكفر، والواو لا تُرتِّب.

وأجاز قوم ـ منهم مكّيّ والزمخشريّ ـ أن يكون معطوفاً على ما في «إيمانهم» من معنى الفعل؛ إذِ المعنى: بعد أن آمنوا وشهدوا[٦].

وأجاز الزمخشريُّ وغيرُه أن تكون الواو للحال لا للعطف، التقدير: كفروا بعد إيمانهم وقد شهدوا، والعاملُ فيه «كفرُوا».

---

(١) في (ح) و(د٢) و(يه): بهدًى.
(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ١٦٤، وأمالي ابن الشجري ١/ ٤٠٨ وفيه: حِداد، بدل: كثير، والدر المصون ٣/ ١٠٣ وفيه: كيف، بدل: أين.
(٣) في (ح) و(د٢) و(يه): تشمل. وينظر التعليق التالي.
(٤) البيت لعبيد الله بن قيس الرقيات، وهو في ديوانه ص٩٥. وهو أيضاً في تفسير الثعلبي ٢/ ٩٧، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٦٣، وأمالي القالي ١/ ٩٥، وفيها: تشمل، بدل: يشمل.
(٥) الهداية ٢/ ١٠٦٨. وكلام ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٦٨.
(٦) كقوله تعالى في سورة الحديد (١٨): ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾. الدر المصون ٣/ ٣٠٢.

والرسول هنا محمدٌ ﷺ. قاله الجمهور: وجُوِّزَ أن يكون الرسولُ هنا بمعنى الرِّسالة، وفيه بُعد. و«البيِّنات» هي شواهد القرآن والمعجزاتُ التي تأتي بمثلها الأنبياء.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يخلقُ في قلوبهم الهدايةَ، و«الظالمين» عامٌّ معناه الخُصوص، أي: لا يهدي مَنْ قَضى عليه بأنَّه يموتُ على الكفر.

قال ابن عطية: ويحتمل أن يريد الإخبارَ عن أنَّ الظالم في ظُلمِه ليس على هدًى من الله، فتجيء الآية عامَّةً تامَّةَ العموم. انتهى. وهذا المعنى الذي ذكره ينبو عنه لفظ الآية.

وقال الزمخشري[1]: «الظالمين» المعاندين الذين علم الله أنَّ اللطف لا ينفعهم. انتهى. وتفسيرُه على طريقته الاعتزالية.

﴿أُولَٰئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

تقدَّم تفسير مثلِ هذه الجملة وتوجيهُ قراءة الحسن: «والناسُ أجمعون» في سورة البقرة [١٦١]، فأغنى عن إعادته، إلا أنَّ هنا «أولئك جزاؤهم» أي: جزاءُ كفرِهم، وهناك: «أولئك عليهم لعنةُ الله» لأنَّ هناك جاء الإخبار عمَّن مات[2] كافراً، فلذلك تحتَّمت اللعنةُ عليهم، وهنا ليس كذلك، ألا ترى إلى سبب النزول، وأنَّ أكثر الأقوال أنَّها نزلت في قوم ارتدُّوا ثم راجعوا الإسلام؟ ولذلك جاء الاستثناء، وهو قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ وهو استثناء متصل، ولذلك قال: «من بعد ذلك» أي: من بعد ذلك الكفرِ العظيم.

﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أي: ما أفسدوا، أو: دخلوا في الصَّلاح، كما تقول: أمسى زيد، أي: دخلَ في المساء.

وقيل: معنى «أصلحوا»: أظهروا أنهم كانوا على ضلال، وتقدَّم تفسير هذه اللفظة في البقرة [١٦٠] في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٤٣.
(٢) في (ح) و(د٢) و(يه): كان.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «غفور» أي: لكفرهم «رحيم» لقبول توبتهم، وهما صيغتا مبالغة دالَّتان على سَعة رحمتِه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ نزلت في اليهود؛ كفروا بعيسى وبالإنجيل بعد إيمانهم بأنبيائهم، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بنعته. قاله قتادة والحسن[١].

وقيل: في اليهود؛ كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بصفاته وإقرارهم أنَّها في التوراة، ثم ازدادوا كفراً بالذنوب التي أصابوها في خلاف النبي ﷺ من الافتراء والبَهْت والسَّعْي على الإسلام. قاله أبو العالية[٢].

أو معنى «ثم ازدادوا كفراً» تمُّوا على كفرهم وبلغوا الموتَ به. فيدخل فيه اليهود والمرتدُّون. قاله مجاهد. وقال نحوه السُّدِّي[٣].

وقيل: نزلت فيمن مات على الكفر من أصحاب الحارث بن سويد، فإنَّهم قالوا: نُقِيمُ بمكة ونتربَّص بمحمد رَيْبَ المَنُون. قاله الكلبيّ[٤].

ويفسَّر بهذه الأقوال معنى ازدياد الكفر، وهو بحسب متعلقاته؛ إذِ الإيمان والكفر في التحقيق لا يزيدان ولا ينقُصان وإنَّما تحصُل الزيادة والنقصان للمتعلَّقات، فيُنسب ذلك إليهما على سبيل المجاز.

و«ازدادوا»: افتعلوا، من الزيادة.

وانتصاب «كفراً» على التمييز المنقول من الفاعل، المعنى: ثم ازداد كفرُهم[٥]،

(١) تفسير الثعلبي ٢/ ٩٧، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٩. وقال ابن عطية بإثره: «في هذا القول اضطراب؛ لأن الذي كفر بعيسى بعد الإيمان بموسى ليس بالذي كفر بمحمد ﷺ، فالآية على هذا التأويل تخلط الأسلاف بالمخاطبين». وينظر تفسير الطبري ٥/ ٥٦٠-٥٦١.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٧٠. وقوله: «فيدخل فيه اليهود والمرتدُّون» هو من قول ابن عطية، وليس من قول مجاهد.

(٤) زاد المسير ١/ ٤١٩ عن ابن عباس.

(٥) ذكر السمين في الدر المصون ٣/ ٣٠٥ أن المعنى على أنه مفعول به، والأصل: زادهم الله كفراً فازدادوه.

والدال الأولى بدل من تاء الافتعال.

ويحتمل قوله: «لن تُقْبَلَ توبتُهم» وجهين:

أحدهما: أنه تكون منهم توبة ولا تُقبل، وقد عُلم أنَّ توبة كلِّ كافر تُقبل، سواءٌ كفرَ بعد إيمان وازداد كفراً، أم كان كافراً أوَّلَ مرَّة، فاحتيجَ في ذلك إلى تخصيص، فقال الحسن وقتادة ومجاهد والسُّدِّيّ: نَفْيُ توبتِهم مختصٌّ بالحَشْرَجة والغَرْغَرَة والمعاينة؛ قال النحاس: وهذا قولٌ حسن، لقوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1] الآية [١٨: النساء].

وقال أبو العالية: لن تُقبل توبتُهم من الذنوب التي أصابوها مع إقامتهم على الكفر بمحمد ﷺ[2].

وقال ابن عباس: لن تُقبل توبتُهم لأنها توبةٌ غيرُ خالصة، إذْ هم مرتدُّون وعزموا على إظهار التوبة لستر أحوالهم وفي ضمائرهم الكفر.

وقال مجاهد: لن تُقبل توبتُهم بعد الموت إذا ماتوا على الكفر[3].

وقيل: لن تُقبل توبتُهم التي تابوها قبلَ أن يكفروا[4]؛ لأنَّ الكفر قد أحبطَها.

وقيل: لن تُقبل توبتُهم إذا تابوا من كفرٍ إلى كفر، وإنما تُقبل إذا تابوا إلى الإسلام[5].

وحاصلُ هذا التخصيص أنَّه تخصيصٌ بالزمان، أو بوصفٍ في التوبة.

والوجه الثاني: أن يكون المعنى: لا توبةَ لهم فتُقبل، فنَفَى القبولَ، والمرادُ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٤. والقول في تفسير الطبري ٥/ ٥٦٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٧٠.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٧٠ . وينظر تفسير الطبري ٥/ ٥٦٥ .
(٣) هذا القول والذي قبله في زاد المسير ١/ ٤١٩. وسلف قول مجاهد بنحوه. ورُمزَ إليه في (ح) أنه مكرر.
(٤) المثبت من (أ). وهو موافق لما في إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٤، وتفسير القرطبي ٥/ ١٩٧، وفي النسخ الأخرى: قبلُ إن كفروا.
(٥) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٣٦، وتفسير القرطبي ٥/ ١٩٨.

نفيُ التوبة، فيكون من باب قوله:

عــلــى لاحِــبٍ لا يُــهْــتَــدَى بِــمَــنَــارِهِ[(١)]

أي: لا منارَ له فيُهْتَدَى به، ويكون ذلك في قوم بأعيانهم حتمَ الله عليهم بالكفر، أي: ليست لهم توبة، فهم لا محالةَ يموتون على الكفر، وقد أشار إلى هذا المنحى الزمخشري وابنُ عطيَّة[(٢)].

ولم تدخل الفاء في «لن تُقبل» هنا، ودخلت في «فلن يُقبل»[(٣)] لأن الفاء مؤذنة بالاستحقاق بالوصف السابق، وهناك قال: ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ وهنا لم يصرِّح بهذا القيد[(٤)].

وقال الزمخشريّ: فإن قلتَ: فحين كان معنى «لن تُقبل توبتُهم» بمعنى الموت على الكفر، فهلَّا جعلَ الموت على الكفر مسبَّباً عن ارتدادهم وازديادِهم الكفر لِما في ذلك من قساوة القلوب وركوبِ الرَّيْنِ وجرِّه إلى الموت على الكفر؟

قلت: لأنه كم من مُرْتدٍّ مُزدادٍ للكفرِ يرجعُ إلى الإسلام ولا يموتُ على الكفر.

فإن قلتَ: فأيُّ فائدة في هذه الكناية؟ أعني أنْ كَنَى عن الموت على الكفر بامتناع قبول التوبة.

قلت: الفائدةُ فيها جليلة، وهي التغليظُ في شأن أولئك الفريق من الكفار، وإبرازُ حالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة التي هي أغلظُ الأحوال وأشدُها، ألا ترى أنَّ الموت على الكفر إنما يُخافُ من أجل اليأس من الرحمة. انتهى كلامه.

---

(١) هو صدر بيت لامرئ القيس، وعجزُه: إذا سافَهُ العَودُ النُّباطيُّ جَرْجَرَا. وهو في ديوانه ص٦٦. قوله: اللاحب، أي: الطريق الواضح.

(٢) الكشاف ١/ ٤٣٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٧٠. والكلام السالف منه.

(٣) في الآية بعدها.

(٤) قال الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٤٣: أُوذِنَ بالفاء أن الكلام بُنِيَ على الشرط والجزاء، وأن سبب امتناع قبول الفِدْية هو الموت على الكفر، وبترك الفاء أن الكلام مبتدأ وخبر، ولا دليل فيه على التسبُّب، كما تقول: الذي جاءني له درهم، لم تجعل المجيء سبباً في استحقاق الدرهم. بخلاف قولك: فله درهم. وينظر روح المعاني ٤/ ٣١٧.

وقرأ عكرمة: «لن نَقْبَلَ» بالنون «توبتَهم» بالنصب[١].

و«الضالُّون»: المخطئون طريقَ الحقِّ والنجاةِ في الآخرة، أو: الهالكون، من: ضَلَّ اللبنُ في الماء: إذا صار هالكاً، والواو في «وأولئك» للعطف؛ إمَّا على خبر «إنَّ» فتكون الجملة في موضع رفع، وإمَّا على الجملة من «إنَّ» ومطلوبها فلا يكون لها موضع من الإعراب. وذكر الراغبُ[٢] قولاً أنَّ الواو في «وأولئك» واو الحال. والمعنى: لن تُقبلَ توبتُهم من الذنوب في حال أنهم ضالُّون، فالتوبةُ والضلالُ متنافيان لا يجتمعان. انتهى هذا القول، وينبو عن هذا المعنى هذا التركيب، إذ لو أُريد هذا المعنى لم يؤت باسم الإشارة.

ويجوز في «هم» الفَصْلُ، والابتداء، والبدل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ قرأ عكرمة: «فلن نَقْبَلَ» بالنون و«مِلْءَ» بالنصب[٣]. وقُرئ: «فلن يَقْبَلَ» بالياء مبنيًّا للفاعل[٤]، أي: فلن يَقْبَلَ اللهُ، و«مِلْءَ» بالنصب.

وقرأ أبو جعفر وأبو السَّمَّال: «مِلُ الأرض» دونَ همز، ورُويت عن نافع، ووجهُه أنه نقلَ حركةَ الهمزة إلى الساكن قبل، وهو اللام، وحُذفت الهمزة، وهو قياس في كلِّ ما كان نحو هذا.

وأتى بلفظ «أحَدِهِم» ولم يأت بلفظ: «منهم» لأن ذلك أبلغُ وأنصُّ في المقصود، إذْ كان «منهم» يحتمل أن يكون بقيد الجمع[٥].

وانتصاب «ذهباً» على التمييز، وفي ناصب التمييز خلاف، وسمَّاه الفرَّاء تفسيراً؛ لأنَّ المقدار معلوم والمقدَّر به مجمل. وقال الكسائيّ: نصب على إضمار «مِنْ» أي: مِنْ ذهب، كقوله: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥] أي: من صيام.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٧٠.
(٢) تفسيره ص٧٠٨.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٧٠.
(٤) القراءات الشاذة ص٢١ (ونسبت فيه لعيسى بن سليمان)، والكشاف ١/ ٤٤٤.
(٥) في (د١) والمطبوع: الجميع.

وقرأ الأعمش: «ذَهَبٌ» بالرفع؛ قال الزمخشريّ[١]: ردٌّ على «مِلءُ» كما يقال: عندي عشرون نفساً رجالٌ. انتهى. ويعني بالردِّ البَدَل، ويكون من بدل النكرة من المعرفة، لأنَّ «مِلْءُ الأرض» معرفة، ولذلك ضبط الحُذَّاق قولَه: «لك الحمدُ مِلْءُ السماواتِ والأرضِ» بالرفع على الصفة لـ «الحمد»، واستضعفوا نصبَه على الحال لكونه معرفة.

﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ قرأ ابنُ أبي عَبْلة: «لو افْتَدَى به» دون واو، و«لو» هنا هي بمعنى «إنْ» الشرطيَّة، لا «لو» التي هي لِما كان سيقع لوقوع غيرِه، لأنَّ «لو» هنا معلَّقة بالمستقبل وهو «فلَنْ يُقْبَلَ»، وتلك معلَّقة بالماضي، فأمَا قراءةُ ابنِ أبي عَبْلة فإنه جعلَ الافتداءَ شرطاً في عدم القبول، فلم يتعمَّم نفيُ وجود القبول. وأمَّا قراءة الجمهور بالواو؛ فقيل: الواو زائدة، وهو ضعيف، ويكون المعنى إذ ذاك معنى قراءة ابن أبي عبلة. وقيل: ليست بزائدة.

قال الزمخشري: فإن قلتَ: كيف موقعُ قوله: «ولو افْتَدَى به»؟ قلت: هو كلام محمول على المعنى، كأنَّه قيل: فلن يُقْبَلَ من أحدهم فِدْيةٌ ولو افتدى بملء الأرض ذهباً. انتهى.

وهذا المعنى ينبو عنه هذا التركيب ولا يحتملُه، والذي يقتضيه هذا التركيب وينبغي أن يُحمل عليه أنَّ الله تعالى أخبر أنَّ من ماتَ كافراً لا يُقبل منه ما يملأُ الأرضَ من ذهبٍ على كلِّ حالٍ يقصدُها ولو في حالة افتدائه من العذاب؛ لأنَّ حالة الافتداء هي حالةٌ لا يمتنُّ فيها المفتدِي على المفتدَى منه، إذْ هي حالةُ قهرٍ من المفتدَى منه للمفتدِي.

وقد قَرَّرْنا في نحو هذا التركيب أنَّ «لَوْ» تأتي مَنْبَهَةً على أنَّ ما قبلَها جاء على سبيل الاستقصاء، وما بعدَها جاء تنصيصاً على الحالة التي يُظَنُّ أنها لا تندرجُ فيما قبلَها، كقوله: «أَعْطُوا السائلَ ولو جاء على فرس»[٢] و«رُدُّوا السائلَ ولو بظِلْفٍ

---

(١) الكشاف ١/٤٤٣.

(٢) حديث أخرجه مالك ٢/٩٩٦، وعبد الرزاق (٢٠٠١٧) عن زيد بن أسلم مرسلاً. وعندهما: وإنْ، بدل: ولو. وأخرجه أحمد (١٧٣٠) عن علي، أو حسين بن علي ﷺ بلفظ: «للسائل حقٌّ وإن جاء على فرس». وأخرجه تمَّام (٥٣٥) (الروض البسام) عن علي بلفظ: «للسائل حق ولو جاء على فرس».

مُحَرَّق»[1] كأنَّ هذه الأشياء ممَّا كان لا ينبغي أن يُؤتَى به؛ لأنَّ كون السائل على فرس يُشعر بغناه، فلا يُناسب أن يُعطَى، وكذلك الظِّلْف المُحَرَّق لا غَناء فيه، فكان يُناسب أن لا يُردَّ السائلُ به، وكذلك حالةُ الفِداء؛ يُناسب أنْ يُقبل منه مِلْءُ الأرض ذهباً، لكنه لا يُقبل، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] لأنهم نَفَوْا أن يُصدِّقَهم على كلّ حال حتى في حالة صدقهم، وهي الحالة التي ينبغي أن يُصَدَّقوا فيها، فلفظ: «ولو» هنا لتعميم النَّفي والتأكيدِ له، وقد ذكرنا فائدة مجيئها.

وذهب الزجَّاج إلى أنَّ المعنى: لن يُقبل من أحدهم إنفاقُهُ وتَقَرُّباته في الدنيا ولو أنفقَ مِلْءَ الأرضِ ذهباً، ولو افتدى به أيضاً في الآخرة لم يُقبل منه. قال[2]: فأعلَمَ اللهُ أنه لا يُثيبُهم على أعمالهم من الخير، ولا يَقبل منهم الافتداء من العذاب. قال ابنُ عطيَّة: وهذا قول حسن. انتهى.

وقال الزمخشريّ[3]: ويجوزُ أن يُراد: فلن يُقْبَلَ من أحدهم مِلْءُ الأرضِ ذهباً كانَ قد تَصدَّقَ به، ولو افتدى به أيضاً لم يُقبل منه. انتهى. وهذا معنى قول الزجَّاج إلا أنَّه لم يقيِّد الافتداءَ بالآخرة.

وحكى صاحبُ «ريِّ الظمآن» وغيرُه عن الزجَّاج أنه قال: معنى الآية: لو افتدى به في الدُّنيا مع إقامته على الكفر لن يُقبل منه. والذي يظهر أنَّ انتفاء القبول ولو على سبيل الفدية إنَّما يكون ذلك في الآخرة، وبيَّنه ما ثبتَ في «صحيح» البخاريّ من حديث أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يُحاسَبُ الكافرُ[4] يومَ القيامة، فيقال له: أرأيتَ لو كان لك مِلْءُ الأرضِ ذهباً؛ أكنتَ تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد كنتَ سُئلتَ ما هو أيسرُ من ذلك».

وهذا الحديث يُبيِّنُ أنَّ قوله: «فلن يُقْبَلَ من أحدِهم مِلْءُ الأرضِ ذهباً ولو افتدى

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٦٤٨)، وابن حبان (٣٣٧٤) من حديث جَدَّةِ ابنِ بُجَيْد.
(٢) معاني القرآن ١/ ٤٤١. ونقله ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٧٠.
(٣) الكشاف ١/ ٤٤٤.
(٤) في صحيح البخاري (٦٥٣٨) ومسند أحمد (١٣٢٨٨): يُجاء بالكافر... وفي صحيح مسلم (٢٨٠٥): (٥٢): يقال للكافر... ولم أقف على لفظ المصنف.

به» هو على سبيل الفَرْض والتقدير، أي: لو أنَّ الكافرَ قَدَرَ على أعزِّ الأشياء، ثم قَدَرَ على بذلِه؛ لعجزَ أن يتوسَّل[١] بذلك إلى تخليص نفسِه من عذاب الله. والمعنى أنهم آيسون من تخليص أنفسِهم من العذاب، فهو نظيرُ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٧] ونظيرُ ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى﴾ [المعارج: ١١] الآيتين. وعلى هذا يبعُدُ ما قاله الزجَّاج من أن يكون المعنى أنهم لو أنفقوا في الدنيا مِلْءَ الأرضِ ذهباً لم يُقبل ذلك، لأنَّ الطاعة مع الكفر لا تكون مقبولة.

و«افتدى» افتعل من الفِدْية، قيل: وهو بمعنى فَعَلَ، كـ «شَوَى» و«اشْتَوَى»، ومفعولُه محذوف[٢]، ويحتاج في تعدية «افتدى» إلى سماع من العرب.

والضمير في «به» عائد على «مِلْءُ الأرضِ»، وهو مقدار ما يملؤُها. ويوجدُ في بعض التفاسير[٣] أنه عائد على المِلْء، أو على الذهب، فقولُه: على الذهب، غلط.

وقال الزمخشريّ[٤]: ويجوزُ أن يُراد: ولو افْتَدَى بمثله، لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾. والمِثْلُ يُحذف كثيراً في كلامهم، كقولك: ضربتُ ضَرْبَ زيد. تريدُ: مِثْلَ ضَرْبِهِ، وأبو يوسفَ أبو حنيفة، تريد: مِثْلَه. و«لا هيثمَ الليلةَ للمَطِيِّ»[٥] و«قَضِيةٌ ولا أبا حسن لها»[٦]. تريد: ولا مِثْلَ

---

(١) في (به): يتوصَّل.

(٢) وتقديره: افتدى نفسَه. ينظر الدر المصون ٣/ ٣٠٧.

(٣) الإملاء ١/ ١٤٣.

(٤) الكشاف ١/ ٤٤٤.

(٥) هذا الرَّجَز من شواهد سيبويه ٢/ ٢٩٦، وهو في المقتضب ٤/ ٣٦٢ والأصول في النحو ١/ ٣١٦، والمفصل ٢/ ١٠٢ (شرح ابن يعيش) وخزانة الأدب ٤/ ٥٧-٥٩ (الشاهد ٢٦١). قال البغدادي: «هيثم اسم رجل كان حَسَنَ الحُداء للإبل، وقيل: كان جيِّد الرِّعْيَة... وهذا الشاهد من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يُعَيَّن قائلُها». اهـ. وهو شاهد على أن «لا» النافية للجنس لا تدخل على العَلَم، وهو مؤوَّل إمَّا بتقدير مضاف، وهو «مثل» وإمَّا بتأويل العَلَم باسم الجنس. قاله البغدادي.

(٦) الكتاب ٢/ ٢٩٧، والمقتضب ٤/ ٣٦٣، وشرح المفصَّل ٢/ ١٠٤، وخزانة الأدب ٤/ ٥٧-٥٨. والمراد بأبي حسن عليٌّ ﷺ. وذكر الخطَّابي في غريب الحديث ٢/ ١٩٩ أن معاوية ﷺ إذا أُتِيَ بقضية شديدة قال: مُعْضِلةٌ ولا أبا حسن لها. قال الرضيّ في شرح الكافية ٢/ ١٩٩ =

هيثم، ولا مِثْلَ أبي حَسَن، كما أنه يُراد في نحو قولهم: مثلُك لا يفعل كذا؛ تريد: أنتَ. وذلك أنّ المِثْلَين يسدُّ أحدُهما مَسَدَّ الآخر، فكانا في حكم شيء واحد. انتهى كلامه.

ولا حاجة إلى تقدير «مِثْل» في قوله: «ولو افتدى به»، وكأنَّ الزمخشريَّ تخيَّلَ أنَّ ما نُفِيَ أن يُقبل لا يمكن أن يُفْتَدَى به، فاحتاجَ إلى إضمار «مِثْل» حتى يُغاير بين ما نُفيَ قَبُولُه وبين ما يُفْتَدَى به، وليس كذلك، لأنَّ ذلك كما ذكرناه هو على سبيل الفَرْض والتقدير، إذ لا يمكن عادةً أنَّ أحداً يملكُ مِلءَ الأرضِ ذهباً بحيث لو بذَلَهُ على أيّ جهةٍ بَذَلَه لم يُقبل منه، بل لو كان ذلك ممكناً لم يحتج إلى تقدير «مِثْل» لأنه نُفِيَ قَبولُه حتى في حالة الافتداء، وليس ما قَدَّرَ في الآية نظيرَ ما مثّل به، لأنَّ هذا التقدير لا يُحتاج إليه ولا معنى له، ولا في اللفظ ولا المعنى ما يدلُّ عليه، فلا يُقَدَّر.

وأمَّا فيما مَثَّلَ به من: ضَرَبْتُ ضَرْبَ زيد، وأبو يوسف أبو حنيفة؛ فبضرورة العقل نعلمُ أنه لا بدَّ من تقدير «مِثْل»، إذْ ضَرْبُكَ يستحيلُ أن يكون ضَرْبَ زيد، وذاتُ أبي يوسف يستحيلُ أن تكونَ ذاتَ أبي حنيفة.

وأمَّا «لا هيثم الليلةَ للمَطِيّ»؛ فدلَّ على حذف «مِثْل» ما تقرَّر في اللغة العربية أنَّ «لا» التي لنفي الجنس لا تدخلُ على الأعلام فتؤثِّرَ فيها، فاحتيج إلى إضمار «مِثْل» لتبقى على ما تقرَّرَ فيها، إذْ تقرَّرَ أنها لا تعمل إلا في الجنس؛ لأنَّ العلميَّة تُنافي عموم الجنس.

وأمَّا قوله: كما أنه يُزاد في: مثلُك لا يفعل كذا، تريد، أنت. فهذا قولٌ قد قيل، ولكنَّ المختار عند حُذَّاق النَّحْويِّين أنَّ الأسماء لا تُزاد. ولتقرير أنَّ «مثلُك لا يفعل كذا» ليست فيه «مثْل» زائدة مكان غير هذا.

= أي: لا فَيْصَلَ لها. وذكر في تأويلها أن اسمه ﷺ صار كالجنس المفيد لمعنى الفصل والقطع كلفظ الفيصل... وينظر تتمة كلامه، وينظر: النهاية لابن الأثير (عضل)، وتفسير القرطبي ٤/ ١٠٥ عند تفسير قوله تعالى: «فلا تَعْضُلُوهنَّ»، واللسان (عضل).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذا إخبار ثانٍ عمَّن مات وهو كافر. لمَّا بيَّن تعالى في الإخبار الأوَّل أنه لا يُقبل منه شيءٌ حتى يُخلِّصَ به نفسَه؛ بيَّن في هذا الإخبار ما لَه من العذاب الموصوف بالمبالغة في الآلام له، إذ الافتداءُ وبذلُ الأموال إنَّما يكون لِما يلحقُ المفتدِيَ من الآلام حتى يبذلَ في الخلاص من ذلك أعزَّ الأشياء؛ كما قال: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ﴾ [المعارج: ١١] الآية.

وارتفاع «عذاب» على أنه فاعل بالجار والمجرور قبلَه؛ لأنه قد اعتمدَ على «أولئك» لكونه خبراً عنه، ويجوز ارتفاعُه على الابتداء.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ تقدَّم تفسير مثل هذه الجملة، وهذا إخبار ثالث؛ لمَّا بَيَّنَ أنه لا خَلاصَ له من العذاب ببذل المال بيَّن أيضاً أنه لا خَلاصَ له منه بسبب النُّصرة، واندرج فيها النُّصرة بالمغالبة، والنُّصرة بالشفاعة.

وتضمَّنت هذه الآية من أصناف البديع الطباقَ في قوله: «طَوْعاً وكَرْهاً»، وفي «كفروا بعد إيمانهم» في موضعين.

والتكرارَ في «يهدي» و«لا يهدي»، وفي «كفروا بعد إيمانهم».

والتجنيسَ المغايرَ في «كفروا» و«كفراً»، والتأكيدَ بلفظ «هم» في قوله: «وأولئك هم الضالون». قيل: والتشبيهَ في «ثم ازدادوا كفراً» شَبَّه تماديَهم على كفرهم وإجرامهم بالأجرام التي يُزاد بعضُها على بعض، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس.

والعدولَ من «مُفْعِل» إلى «فَعِيل» في «عذابٌ أليم» لما في «فَعِيل» من المبالغة.

والحذفَ في مواضع.

* * *

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ
الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ
قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾
إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ
وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ
عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ
بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم
بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾*.

المفردات

النَّيْلُ: لُحوقُ الشيء وإدراكُه، والفعلُ منه: نال ينال. قيل: والنَّيْلُ العَطِيَّة.

الوَضْع: الإلقاء، وَضَعَ الشيءَ: ألقاه، ووَضَعَتْ ما في بطنها: ألقَتْه، والفعل: وَضَعَ يَضَعُ وَضْعاً وضَعَةً، والمَوْضِعُ: محلُّ إلقاء الشيء، وفلان يضعُ الحديث، أي: يُلقيه من قِبَلِ نفسِه من غير نَقْلٍ، بل يختَلِقُه.

«بَكَّة» مرادف لـ «مكَّة». قاله مجاهد والزَّجّاج[1]، والعرب تُعاقِب بين الباء

* تفسير تتمة آل عمران من تحقيق: محمد رضوان عرقسوسي، وتفسير ما عداها من تحقيق: فادي المغربي.

(١) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٤٥. وذكره القرطبي ٥/ ٢٠٨ عن مجاهد. وهو في تفسير الطبري ٥/ ٥٩٧ عن الضحاك.

والميم؛ قالوا: لازم، وراتم[١]، والنُّمَيْط[٢]. وبالباء فيها. وقيل: اسمٌ لبطن مكة؛ قاله أبو عبيدة[٣]. وقيل: اسمٌ لمكان البيت. قاله النَّخَعيّ. وقيل: اسم للمسجد خاصَّة. قاله ابنُ شهاب[٤].

قيل: ويدلُّ عليه أنَّ البَكَّ هو دفعُ الناسِ بعضَهم بعضاً وازدحامُهم، وهذا إنما يحصُل في المسجد عند الطواف لا في سائر المواضع، وسيأتي الكلام على لفظ «مكة» إن شاء الله.

البَرَكَة: الزيادة، والفعل منه: بارَكَ، وهو متعدّ، ومنه: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ [النمل: ٨] ويُضمَّن معنى ما يعدَّى بـ «على»[٥]، كقوله: «وبارك على محمد». و«تبارك» لازم.

العِوَج: المَيْلُ. قال أبو عُبيدة: في الدِّين والكلام والعملِ، وبالفتح: في الحائط والجِذْع[٦]. وقال الزجَّاج بمعناه؛ قال: فيما لا نرى له شخصاً، وبالفتح فيما له شخص[٧]. وقال ابن فارس: بالفتح: في كلّ مُنتصب؛ كالحائط، والعِوَج ما كان في بساط، أو دِين، أو أرض، أو معاش[٨].

---

(١) قال السمين في الدُّرّ المصون ٣/ ٣١٤: قالوا: هذا عليَّ ضَرْبَةُ لازم ولازِب. وهذا أمرٌ راتبٌ وراتم. والكلام بنحوه في الكشاف ١/ ٤٤٦، وزاد فيه الزمخشري قولهم: حُمَّى مُغْمِطَة ومُغْبِطَة. والكلام بنحوه في تفسير الثعلبي ٢/ ١٠٤ .

(٢) ذكر الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٦٦ أنه اسمُ موضع بالدَّهناء. وفي اللسان وتاج العروس (نبط - نمط) عن الأزهري في تهذيب اللغة ١٣/ ٣٧٢ و٣٧٨: وَغساء النُّمَيْط والنُّبَيْط: وادٍ بالدَّهْناء يُنبتُ ضروباً من النبات، ذكره ذو الرُّمَّة في قوله:

فأضحتْ بوَغساءِ النُّمَيْطِ كأنَّها ... ذُرَا الأَثْلِ من وادي القُرى أو نخيلُها

(٣) مجاز القرآن ١/ ٩٧ .

(٤) القولان في تفسير الطبري ٥/ ٥٩٥-٥٩٧ .

(٥) في (ح) و(ز٢): وتضمن معنى ما تعدَّى بـ «على».

(٦) بنحوه في «مجاز القرآن» ١/ ٩٨. ونقله المصنف عنه بواسطة ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٤٣٠.

(٧) هو في زاد المسير ١/ ٤٣٠ عن الزجاج، ولم أقف عليه في معاني الزجاج.

(٨) مجمل اللغة ٣/ ٦٣٥. والكلام في المصدر السابق.

العَصْمُ: المَنْعُ، واعتصم واستعصم: امتنع، واعتصَمْتُ فلاناً: هيَّأتُ له ما يعتصمُ به، وكلُّ متمسِّك بشيءٍ معتصِمٌ به[١]، وكلُّ مانعِ شيءٍ عاصمٌ. ويرجع لهذا المعنى الأعصم[٢]، والمِعْصَم، والعِصام. ويسمَّى الخبزُ عاصماً لأنه يمنع من الجوع[٣].

* * *

التفسير

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ مناسبةُ هذه الآية لِما قبلَها هو أنه لمَّا أخبرَ عمَّن ماتَ كافراً أنه لا يُقبل ما أنفق في الدنيا، أو ما أحضرَه لتخليصِ نفسِه في الآخرة على الاختلاف الذي سبق، حَضَّ المؤمنَ على الصدقة، وبَيَّنَ أنه لن يُدرك البِرَّ حتى ينفقَ ممَّا يحبُّ.

والبِرُّ هنا؛ قال ابنُ مسعود وابنُ عبَّاس ومجاهد والسُّدِّيّ وعَمرو بنُ ميمون: البِرُّ الجنة[٤].

وقال الحسن والضحَّاك: الصدقة المفروضة.

وقال أبو رَوْق: الخيرُ كلُّه. وقيل: الصِّدق. وقيل: أشرفُ الدِّين[٥]. قاله عطاء.

وقال عطيةُ[٦]: الطاعة. وقال مقاتل بن حيَّان: التقوَى.

---

(١) لفظة «به» من (ح) و(د٢) و(يه). وفي مجمل اللغة ١/ ٦٧١: وكلُّ متمسّك بالشيء مُعْصِمٌ.

(٢) في القاموس (عصم): الأعصم من الظِّباء والوعول: ما في ذراعيه أو أحدهما بياض، وسائره أسود أو أحمر.

(٣) في هذا الموضع نهاية الجزء الثالث من النسخة البريطانية، ونهاية جزء من التونسية وهو ما عندنا منها. وتضاف هنا نسخة دار الكتب المصرية، ورمزها (د٣).

(٤) ينظر تفسير كل من الطبري ٥/ ٢٧٣، والبغوي ١/ ٣٢٥، وابن عطية ١/ ٤٧١، والقرطبي ٥/ ٢٠١.

(٥) في تفسير كلٍّ من الثعلبي ٢/ ٩٩، والبغوي ١/ ٣٢٥، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٠١: شرف الدين.

(٦) في المطبوع: ابن عطية، وهو خطأ. وقول عطيَّة (وهو العَوْفي) في تفسير الثعلبي ٢/ ٩٨، وزاد المسير ١/ ٤٢٠، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٠١.

وقال الزَّجَّاج: كلُّ ما تُقُرِّب به إلى الله من عمل خير. وقال معناه ابنُ عطية[١].

قال أبو مسلم: وله مواضع، فيقال: الصِّدق البِرُّ، ومنه: صَدَقْتَ وبَرِرْتَ، و﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٦] والإحسانُ، ومنه: بَرِرْتُ والدي، واللُّطفُ، والتعاهدُ، ومنه: يَبَرُّ أصحابَه: إذا كان يَزُورُهم ويتعاهدُهم، والهبةُ والصدقةُ، بَرَّه بكذا: إذا وهبَه له.

وقال: ويحتمل: لن تنالوا برَّ الله بكم، أي: رحمتَه ولطفَه. انتهى. وهو قول أبي بكر الورَّاق؛ قال: معنى الآية: لن تنالوا برِّي بكم إلا بِبِرِّكم بإخوانِكم والإنفاقِ عليهم من أموالكم وَجَاهِكم[٢]. ورُوِيَ مثلُه عن ابن جرير[٣].

ويحتمل أن يريد: لن تنالوا درجةَ الكمال من فعل البِرِّ حتى تكونوا أبراراً إلا بالإنفاق[٤] المضاف إلى سائر أعمالكم. قاله ابنُ عطيَّة.

وقد تقدَّم شرح البِرِّ في قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ [البقرة: ٤٤] ولكن نقلنا ما قال الناس في خصوصية هذا الموضع.

و«مِنْ» في «ممَّا تُحِبُّون» للتبعيض، ويدلُّ على ذلك قراءة عبد الله: «حتى تنفقوا بعضَ ما تُحبُّون»[٥]، و«ما» موصولة، والعائد محذوف.

والظاهر أنَّ المحبَّةَ هنا هو ميلُ النفس وتعلُّقُها التعلُّقَ التامَّ بالمنفَق، فيكون إخراجُه على النفس أشقَّ وأصعبَ من إخراج ما لا تتعلَّقُ به النفس ذلك التَّعلُّق، ولذلك فسَّره الحسن والضحَّاك بأنه محبوب المال، كقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨].

لذلك ما رُويَ عن جماعة أنهم لهذه الآية تصدَّقوا بأحبِّ شيء إليهم، فتصدَّقَ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٤٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٧١.
(٢) تفسير الثعلبي ٢/ ١٠٠، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٠٢.
(٣) تفسير الطبري ٥/ ٥٧٣. وعبارة (د) والمطبوع: ورُوي نحوه عن ابن جرير.
(٤) في (ح) و(د٢) و(يه): بإنفاق. والمثبت من النسخ الأخرى، وهو موافق لما في المحرر الوجيز ١/ ٤٧١. والكلام منه.
(٥) الكشاف ١/ ٤٤٥.

أبو طلحة ببَيْرَحَاء[١]، وتصدَّق زيد بنُ حارثة بفرسٍ له كان يُحبُّها[٢]، وابنُ عُمر بالسُّكَّر واللَّوز لأنه كان يُحبُّه[٣]، وأبو ذرّ بفَحْلٍ خيرِ إبله[٤]، وببُرْنُسٍ على مَقْرُور[٥]، وتلا الآية، والربيعُ بنُ خُثَيْم بالسُّكَّر لحبِّه له، وأعتقَ عُمر جاريةً أعجبَتْه، وابنُه عبدُ الله جاريةً كانت أعجبَ شيءٍ إليه[٦].

وقيل: معنى «ممَّا تحبُّون» نفائس المال وطيِّبه، لا رديئه وخبيثه. وقيل: ما يكون محتاجاً إليه. وقيل: كلُّ شيءٍ يُنفقُه المسلم من ماله يطلبُ به وجهَ الله. ولفظة «تحبُّون» تنبو عن هذه الأقوال.

والذي يظهر أنَّ هذا الإنفاق هو في النَّدْب؛ لأنَّ المزكِّي لا يجبُ عليه أن يُخرِجَ أشرفَ أموالِه ولا أحبَّها إليه. وأبعدَ مَنْ ذهبَ إلى أن هذه الآية منسوخة[٧]؛ لأنَّ الترغيب في النَّدب لوجه الله لا يُنافي الزكاة.

قال بعضهم: وتدلُّ هذه الآية على أنَّ الكلام يصير شعراً بأشياء، منها قصد المتكلِّم إلى أن يكون شعراً، لأنَّ هذه الآية على وزن بيت من الرَّمل يسمَّى المجزوء المُسَبَّغ، وهو:

يا خليليَّ اربَعا واسْـ ـتَخْبِرَا رَسْماً بعُسْفَانْ[٨]

---

(١) هو موضع بالمدينة، يقال بفتح الباء وكسرها، وبفتح الراء وضمها، والمدّ فيهما، وبفتحهما والقصر. ينظر النهاية (برح). وقال الزمخشري في الفائق ١/ ٩٣ (برا): كأنها فَيْعَلَى، من البَراح، وهي الأرض المنكشفة الظاهرة. وينظر خبر أبي طلحة ﷺ في الموطأ ٢/ ٩٩٥-٩٩٦، ومسند أحمد (١٤٠٣٦)، وصحيح البخاري (١٤٦١)، وصحيح مسلم (٩٩٨)، وتفسير الطبري ٥/ ٥٧٥، وتفسير الثعلبي ٢/ ٩٩، وتفسير البغوي ١/ ٣٢٥.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٥٧٦-٥٧٧، وتفسير الثعلبي ٢/ ٩٩.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٧١.

(٤) تفسير الثعلبي ٢/ ١٠٠، والكشاف ١/ ٤٤٥.

(٥) في تفسير الثعلبي ٢/ ١٠٠ أن الذي تصدَّق ببُرْنُس على مقرور هو الربيع بن خُثَيْم. وقوله: مقرور، أي: أصابه القَرّ، وهو البرد.

(٦) تنظر الأخبار الثلاثة في المصدر السابق وينظر أيضاً تفسير الطبري ٥/ ٥٧٤-٥٧٥، وتفسير البغوي ١/ ٣٢٦، والمحرر الوجيز ١/ ٤٧١، وزاد المسير ١/ ٤٢١.

(٧) نقله الثعلبي ٢/ ٩٩ عن مجاهد والكلبي.

(٨) العقد الفريد ٥/ ٤٨٧، والكافي للتبريزي ص٨٦ (وفيه: رَبْعاً، بدل: رَسْماً)، ومفتاح العلوم

ولا يجوز أن يقال: إنَّ في القرآن شعراً.

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ تقدّم تفسيرُ مثل هذا.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَىٰةُ﴾.

قال أبو رَوْق وابنُ السائب: نزلت حين قال النبيُّ ﷺ: «أنا على مِلَّة إبراهيم». فقالت اليهود: فكيف وأنت تأكل لحومَ الإبل وألبانَها؟ فقال ﷺ: «كان ذلك حلالاً لأبي إبراهيم، ونحن نُحِلُّهُ». فقالت اليهود: كلُّ شيء أصبحنا اليومَ نُحرِّمُهُ فإنه كان مُحرَّماً على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا. فأنزل الله ذلك تكذيباً لهم[١].

ومناسبةُ هذه الآية لِما قبلَها والجامعُ بينَهما أنه تعالى أخبرَ أنه لا ينالُ المرءُ البِرَّ إلا بالإنفاق مما يُحِبُّ، ونبيُّ الله إسرائيلُ رُوِيَ في الحديث أنه مَرِضَ مَرَضاً شديداً، فطالَ سُقْمُه منه، فنذَرَ لله نذراً إنْ عافاه الله من سُقْمِهِ أنْ يُحَرِّمَ - أو ليُحرِّمَنَّ - أحَبَّ الطعام والشراب إليه. وكان أحَبَّ الطعام إليه لحومُ الإبل، وأحَبَّ الشراب[٢] ألبانُها، ففعلَ ذلك تقرُّباً إلى الله[٣].

فقد اجتمعت هذه الآية وما قبلَها في أنَّ كُلًّا منهما فيها تَرْكُ ما يُحبُّه الإنسانُ وما يُؤثره على سبيل التقرُّب به لله تعالى.

و«كلُّ» من صيغ العموم، و«الطَّعام» أصلُه مصدر أُقيم مقام المفعول، وهو اسمٌ لكلِّ ما يُطعم ويُؤكل. وزعم بعض أصحاب أبي حنيفة أنه اسمٌ للبُرِّ خاصَّة؛ قال

= للسَّكّاكي ص٥٤٦، واللسان (سبغ) (وفيه: فاستنطِقا، بدل: واستخبِرا) وذكر ابنُ منظور أن المُسَبَّغَ من الرَّمَل ما زِيد على جزئه حرف، نحو فاعلاتان من البيت المذكور، فقولُه: مَنْبِعُسْفانْ: فاعلاتان. (أو: فاعليَّان). وتفعيل البيت: فاعلاتن فاعلاتن - فاعلاتن فاعلاتان. ولم تنسب هذه المصادر البيت لقائل. وتَوافَقَ صدرُ هذا البيت مع صدر بيت لعَبِيد بن الأبْرص، فأُقحم في مطبوع البحر عَجُزُ بيت عَبِيد ضمن البيت أعلاه. فصار الكلام دون معنى، وخرج عن مراد المصنف.

(١) تفسير الثعلبي ٢/ ١٠١، والوسيط للواحدي ١/ ٤٦٤ (بنحوه)، وزاد المسير ١/ ٤٢٢.

(٢) في (أ) و(ع): وأحَبَّ الشراب إليه.

(٣) تفسير الطبري ٥/ ٥٨٦، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٠٢، وتفسير الواحدي ١/ ٤٦٤.

الرازيّ[١]: والآية تُبطِلُه لأنه استثنى منه ما حرَّم إسرائيلُ على نفسه، واتفقوا[٢] على أنه شيء سوى الحنطة، وسوى ما يُتَّخَذُ منها، ومما يؤكِّد ذلك قولُه في الماء: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وقال: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥] وأراد الذبائح انتهى.

ويُجابُ عن الاستثناء أنه منقطع، فلا يندرجُ تحت الطعام[٣].

وقال القفّال[٤]: لم يبلغنا أنَّ الميتة والخنزير كانا مُباحَيْنِ لهم مع أنهما طعام، فيحتمل أن يكون ذلك[٥] على الأطعمة التي كانت اليهود في وقت الرسول ﷺ تدَّعي أنها كانت محرَّمةً على إبراهيم، فيزول الإشكال، يعني إشكال العموم.

والحِلُّ: الحلال، وهو مصدر: حَلَّ، نحو: عَزَّ عِزًّا، ومنه: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ٢] أي: حَلالٌ به.

وفي الحديث عن عائشة: كنتُ أُطَيِّبُ رسولَ الله ﷺ لحِلِّهِ ولِحُرْمِه[٦]. ولذلك استوى فيه الواحد والجمع، والمذكَّر والمؤنَّث. قال: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠] وهي كالحِرْم، أي: الحرام[٧]، واللِّبْس، أي: اللِّباس.

وإسرائيل هو يعقوب، وتقدَّم الكلام عليه، وتقدَّم أنَّ الذي حرَّمه إسرائيلُ هو لحومُ الإبل وألبانُها. ورواه أبو صالح عن ابن عباس، وهو قول الحسن وعطاء وأبي العالية ومجاهد وعبد الله بن كثير في آخرين[٨].

---

(١) تفسيره ٨/ ١٤٧.

(٢) يعني المفسِّرين كما في المصدر السابق.

(٣) قاله أيضاً النيسابوري في غرائب القرآن ٤/ ٧.

(٤) المصدران السابقان.

(٥) في (أ) و(ح) و(د٢) و(يه): فيُحمل أنَّ ذلك.

(٦) أخرجه أحمد (٢٥٨١٧)، والبخاري (١٥٣٩ و٥٩٢١ بنحوه)، ومسلم (١١٨٩). قوله: لِحُرْمِه، بضم الحاء وكسرها، لغتان، والضمّ أكثر. ينظر شرح صحيح مسلم ١/ ١٣٤ و٨/ ٩٨.

(٧) شاهدُه قراءة عاصم من رواية شعبة وحمزة والكسائي: «وحِرْمٌ على قرية أهلكناها» وقرأ الباقون: وحَرامٌ. (الأنبياء: ٩٥). وقوله: أي الحرام، من (ب) و(د١) و(د٣) و(ز٢).

(٨) المحرر الوجيز ١/ ٤٧٣، وزاد المسير ١/ ٤٢٢-٤٢٣.

وقيل: العروق؛ رواه سعيد بنُ جبير عن ابن عباس، وهو قول مجاهد أيضاً وقتادة والضحَّاك والسُّدِّيّ وأبي مِجْلَز في آخرين[١].

قال ابن عباس: عرضَتْ له الأنساء[٢] فأضْنَتْهُ، فجعلَ للهِ إنْ شفاهُ من ذلك أن لا يَطْعَمَ عِرْقاً. قال: فلذلك اليهودُ تَنْزِعُ العُروقَ من اللحم[٣]. وليس في تحريم العروق قُرْبةٌ فيما يظهر.

ورُوِي عن ابن عباس أنه حرَّم العروق ولحومَ الإبل[٤]. وقيل: زيادتا[٥] الكبد والكليتان والشحم إلا ما على الظَّهر. قاله عكرمة، وتقدَّم سببُ تحريمه لِما حَرَّم.

قال ابن عطيَّة[٦]: ولم يُختلف ـ فيما علمتُ ـ أنَّ سببَ التحريم هو بمرضٍ[٧] أصابَه، فجعلَ تحريمَ ذلك شكراً للهِ تعالى إنْ شُفِيَ. وقيل: هو وَجَعُ عِرْق النَّسَا.

وهذا الاستثناء يحتملُ الاتصال والانقطاع، فإن كان متصلاً كان التقدير: إلا ما حرَّم إسرائيلُ على نفسه، فحُرِّمَ عليهم في التوراة، فليست فيها الزوائد التي افترَوْها وادَّعَوْا تحريمَها.

وإنْ كان منقطعاً كان التقدير: لكنْ إسرائيلُ حَرَّمَ على نفسه خاصَّة، ولم يُحرِّمْهُ الله على بني إسرائيل. والاتصالُ أظهر.

وظاهرُ قوله: «على نفسه» أنَّ ذلك باجتهادٍ منه، لا بتحريمٍ من الله تعالى. واستُدلَّ بذلك على أنَّ للأنبياء أنْ يُحرِّمُوا بالاجتهاد.

وقيل: كان تحريمُه بإذن الله تعالى. وقيل: يحتمل أن يكون التحريم في شَرْعِهِ كالنَّذْر في شَرْعِنا.

---

(١) تفسير الثعلبي ٢/ ١٠١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٧٣، وزاد المسير ١/ ٤٢٣.
(٢) جمع نَسَا، وهو العَصَب الوَركي.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٧٣، وينظر تفسير الطبري ٥/ ٥٨٢-٥٨٣.
(٤) تفسير الطبري ٥/ ٥٨٦، والمحرر الوجيز ١/ ٤٧٣.
(٥) في (أ) و(ح) و(د٢) و(ع) و(يه): زيادة. وفي زاد المسير ١/ ٤٢٣ (والخبر فيه): زائدتا. وينظر تفسير الثعلبي ٢/ ١٠٢.
(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٧٣.
(٧) في (أ) و(ع): لمرض.

وَقال الأصم[1]: لعلَّ نفسَه كانت مائلةً إلى تلك الأنواع، فامتنعَ من أكلها قهراً للنفس وطَلَباً لمَرْضَاةِ الله كما يفعلُه كثيرٌ من الزُّهَّاد، فَعبَّرَ عن ذلك الامتناع بالتحريم.

واختلفوا في سبب التحريم للطعام الذي حرَّمه إسرائيل على بنيه ومَنْ بعدَهم من اليهود، وهذا إذا قلنا بأنَّ الاستثناء متصل، أمَّا إذا كان منقطعاً فلم يُحرَّم عليهم. فقال عطية[2]: حرَّمَها عليهم بتحريم إسرائيل، ولم يكن محرَّماً في التوراة.

ورُوِيَ عن ابن عباس أنَّ يعقوب قال: إن عافاني الله لا يأكلْه لي ولد.

وقال الضحَّاك: وافقوا أباهم في تحريمه، لا أنه حُرِّم عليهم بالشَّرع، ثم أضافوا تحريمَه إلى الشَّرع فأكذبَهم الله تعالى[3].

وقال ابنُ السائب: حَرَّمَه اللهُ عليهم بعدَ التوراة، لا فيها، وكانوا إذا أصابُوا ذنباً عظيماً حُرِّمَ به عليهم طعامٌ طيِّب، أو صُبَّ عليهم عذابٌ، ويُؤكِّدُه: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ [النساء: ١٦٠] الآية.

وقيل: لم يُحرَّم عليهم قبلَ نزول التوراة ولا بعدَها، ولا بتحريم إسرائيلَ عليهم ولا لموافقته، بل قالوا ذلك تخرُّصاً وافتراءً.

وقال السُّدِّيُّ: لمَّا أنزلَ الله التوراةَ حرَّمَ عليهم ما كانوا يُحَرِّمون قبل نزولها[4].

قال الزمخشريّ[5]: والمعنى أنَّ المطاعم كلَّها لم تزل حلالاً لبني إسرائيل من قبل إنزالِ التوراة، وتحريمُ ما حُرِّمَ عليهم منها لظلمهم وبغيهم لم يُحرَّم منها شيء قبل ذلك غيرُ المطعوم الواحد الذي حرَّمه أبوهم إسرائيل على نفسه، فتبعُوه على تحريمه، وهو رَدٌّ على اليهود وتكذيبٌ لهم حيث أرادوا براءةَ ساحتِهم مما نَعَى

(١) تفسير الرازي ٨/١٤٩، والكلام الذي قبله فيه مطوَّل.
(٢) هو العَوْفي، وقوله في زاد المسير ١/٤٢٣، وذكره القرطبي ٥/٢٠٥ بنحوه أطول منه.
(٣) أي: بقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ والقول في زاد المسير ١/٤٢٣. وكذا القول الذي قبله والآتي بعده.
(٤) تفسير الثعلبي ٢/١٠٣. ووقع في المطبوع: يحرّمون على أنفسهم قبل نزولها.
(٥) الكشاف ١/٤٤٥.

عليهم في قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ﴾ الآية. وجحودَ ما غاظَهم واشمأزُّوا منه وامتعضُوا ممَّا نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم، فقالوا: لسنا بأوَّلِ مَنْ حُرِّمَتْ عليه، وما هو إلا تحريمٌ قديم، كانت محرَّمةً على نوح وعلى إبراهيم ومَنْ بعدَه من بني إسرائيل وهلمَّ جَرًّا إلى أن انتهى التحريم إلينا، فحُرِّمت علينا كما حُرِّمت على مَنْ قبلَنا. وغرضُهم تكذيبُ شهادةِ الله عليهم بالبغي والظلم والصدِّ عن سبيل الله، وأكلِ الرِّبا، وأخذِ أموالِ الناسِ بالباطل، وما عدَّدَ من مَساوِيهم التي كلّما ارتكبوا منها كبيرة حُرِّمَ عليهم نوعٌ من الطَّيِّبات عقوبةً لهم. انتهى كلامه.

﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ قال أبو البقاء[1]: «مِنْ» متعلِّقة بـ «حَرَّمَ». يعني في قوله: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ ويبعدُ ذلك إذْ هو من الإخبار بالواضح؛ لأنه معلومٌ أنَّ ما حَرَّمَ إسرائيلُ على نفسه هو من قَبلِ إنزال التوراة ضرورةً لتباعدِ ما بين وجود إسرائيل وإنزالِ التوراة.

ويظهرُ أنه متعلِّقٌ بقوله: «كان حِلًّا لبني إسرائيل» أي: من قبلِ أن تُنزَّلَ التوراة، وفصلَ بالاستثناء؛ إذْ هو فَصْلٌ جائز، وذلك على مذهب الكسائيّ وأبي الحسن في جواز أن يعمل ما قبل «إلا» فيما بعدَها إذا كان ظرفاً أو مجروراً أو حالاً، نحو: ما جلسَ[2] إلا زيدٌ عندك، وما أوى إلا عَمرٌو إليك، وما جاء إلا زيدٌ ضاحكاً. وأجاز الكسائيُّ ذلك في منصوبٍ مطلقاً، نحو: ما ضربَ إلا زيدٌ عَمراً، وأجاز هو وابنُ الأنباريّ ذلك في مرفوعٍ: نحو: ما ضرب إلا زيداً عَمرٌو.

وأما تخريجه على مذهب غيرِ الكسائيِّ وأبي الحسن فيقدَّر له عاملٌ من جنس ما قبلَه، تقديرُه هنا: حَلَّ من قبلِ أنْ تُنزَّلَ التوراة.

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ «قُلْ»[3] خطابُ للنبيِّ ﷺ، وقَبْلَ[4] «فأْتُوا» محذوف، تقديره: هذا الحقُّ لا زَعْمُكم معشرَ اليهود فَأْتُوا. وهذه

---

(١) الإملاء ١/ ١٤٣. وينظر روح المعاني ٤/ ٣٣٠.
(٢) في (د١) و(ز٢): حُبس.
(٣) في (أ) و(ح) و(د٢) و(ح): قيل.
(٤) تحرَّف في بعض النسخ والمطبوع إلى: وقيل.

أعظمُ مُحاجَّة أن يُؤمَرُوا بإحضار كتابِهم الذي فيه شريعتُهم، فإنه ليس فيه ما ادَّعَوْه، بل هو مصدِّق لِما أخبرَ به ﷺ من أنَّ تلك المطاعمَ كانت حَلالاً لهم من قديم، وأنَّ التحريم هو حادث.

ورُوِيَ أنهم لم يتجاسرُوا على الإتيان بالتوراة لظهور افتضاحهم بإتيانها، بل بُهتوا، وذلك كعادتهم في كثير من أحوالهم، وفي استدعاء التوراة منهم وتلاوتها الحجَّةُ الواضحة على صدق رسول الله ﷺ، إذ كان عليه الصلاة والسلام النبيَّ الأميَّ الذي لم يقرأ الكتبَ، ولا عرف أخبارَ الأمم السالفة. ثم أخذ يُحاجُّهم ويَستشهدُ عليهم بما في كتبهم ولا يجدون من إنكاره محيصاً.

وفي الآية دليلٌ على جواز النسخ في الشرائع، وهم ينكرون ذلك[1].

وخرجَ قولُه: «إن كنتم صادقين» مخرجَ الممكن، وهم معلوم كذبُهم، وذلك على سبيل الهزء بهم، كقولك: إنْ كنتَ شجاعاً فالقَنِي. ومعلومٌ عندَك أنه ليس بشجاع، لكن هَزَأتَ به، إذْ جعلتَ هذا الوصفَ ممَّا يمكن أن يتَّصفَ به.

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ يحتمل أن يكون مندرجاً تحت القول، ويحتمل أن يكون ابتداءَ إخبارٍ من الله بذلك. وافتراؤه الكذبَ هو زعمُه أنَّ ذلك كان محرَّماً على بني إسرائيل قبلَ إنزالِ التوراة.

والإشارةُ بـ «ذلك» قيل: تحتملُ ثلاثة أوجه:

أحدُها: أن يكون إلى التلاوة، إذ مُضمَّنُها بيانُ مذهبهم وقيامُ الحجَّةِ البالغةِ القاطعة، ويكون افتراءُ الكذب أن ينسب إلى كتب الله ما ليس فيها.

والثاني: أن يكون إلى استقرار التحريم في التوراة، إذِ المعنى: إلا ما حرَّم إسرائيلُ على نفسه، ثم حَرَّمَتْهُ التوراة عليهم عقوبةً لهم. وافتراءُ الكذب أن يزيدَ في المحرَّمات ما ليس فيها.

والثالث: أن يكون إلى الحال بعد تحريم إسرائيل على نفسه وقبلَ نزولِ

(١) الكلام السالف بنحوه في الكشاف ١/ ٤٤٦ مختصر.

التوراة، أي: مِنْ تَسَنُّنٍ بيعقوب[١] وشرعِ ذلك دون إذنٍ من الله. ويؤيّد هذا الاحتمالَ قولُه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [النساء: ١٦٠] الآية. فنصَّ على أنه كان لهم ظلم في معنى التحليل والتحريم، وكانوا يُشدِّدُون، فيُشَدِّدُ اللهُ عليهم كما فعلوا في أمر البقرة، وجاءت شريعتُنا بخلاف هذا: «دينُ الله يُسْرٌ»[٢]، «يَسِّرُوا ولا تُعسِّرُوا»[٣]، «بُعثتُ بالحَنيفيَّةِ السَّمْحَة»[٤]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج: ٧٨].

والأظهر في «مَنْ» أنها شرطيّة، ويجوز أن تكون موصولة، وجُمع في «فأولئك» حملاً على المعنى.

و«هم» يحتمل أن تكون فصلاً ومبتدأ وبدلاً. والظُّلم: وضعُ الشيء في غير موضعه. وقيل: هو هنا الكفر.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ﴾ أمرَ تعالى نبيَّه أنْ يَصْدَعَ بخلافهم، أي: الأمرُ الصِّدْقُ هو ما أخبرَ الله به، لا ما افترَوْهُ من الكذب، ونَبَّهَ بذلك على أنَّ ما أخبرَ به من قوله: «كلُّ الطعام» وسائرِ ما تقدَّم صِدْقٌ، وأنَّه ملَّةُ إبراهيم.

والأحسنُ أن يكون قوله: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ﴾ أي: في جميع ما أخبرَ به في كتبه المنزَّلة.

وقيل: في أنَّ محمداً ﷺ هو على ملَّة إبراهيم، وإبراهيم عليه السلام كان مسلماً. وقيل: في قوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ الآية. قاله ابنُ السائب. وقيل: في أنه ما كان يهوديًا ولا نصرانيًا. قاله مقاتل وأبو سليمان الدمشقي[٥].

---

(١) في المطبوع: من سنن يعقوب. وليس فيه لفظة «أي» قبلها. والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٤٧٣-٤٧٤.

(٢) هو قطعة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه البخاري (٣٩) بلفظ: «إن هذا الدين يُسْرٌ...» وأخرجه أحمد (٢٠٦٦٩) من حديث عروة الفقيمي بلفظ: «إن دين الله في يُسْر».

(٣) أخرجه أحمد (١٢٣٣٣)، والبخاري (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤) بأطول منه من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٢٩١) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، وفيه قصة.

(٥) زاد المسير ١/ ٤٢٤.

ثم أمرهم باتباع ملَّة إبراهيم فقال: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهي ملَّة الإسلام التي عليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، فيخلُصون من ملّة اليهوديَّة.

وعرَّض بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إلى أنهم مشركون في اتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً[١] وتقدَّم الكلام على نظير هذه الجملة في سورة البقرة [١٣٥] تفسيراً وإعراباً، فأغنى عن إعادته.

وقرأ أبانُ بنُ تغلب: «قُلْ صَدَقَ» بإدغام اللام في الصاد، و«قُلْ سِيروا» بإدغام اللام في السين، وأدغم حمزة والكسائيّ وهشامٌ: «بل سَوَّلَتْ»؛ قال ابن جنّي: علَّة ذلك[٢] فُشُوُّ هذين الحرفين في الفم، وانتشارُ الصوت[٣] المنبثّ[٤] عنهما، فقارَبَتا بذلك مخرج اللام فجازَ إدغامُها فيهما. انتهى[٥].

وهو راجعٌ لمعنى كلام سيبويه؛ قال سيبويه[٦]: والإدغام - يعني إدغام اللام مع الطاء والصاد وأخواتهما[٧] - جائز، وليس ككثرته مع الراء، لأنَّ هذه الحروف تراخَين عنها، وهي من الثَّنايا. قال: وجوازُ الإدغام لأنَّ آخِرَ مخرج اللام قريبٌ من مخرجها. انتهى كلامه.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ رُويَ عن مجاهد أنَّه تفاخرَ المسلمون واليهود، فقالت اليهود: بيتُ المقدس أفضلُ وأعظمُ من الكعبة؛ لأنها مُهاجَر الأنبياء، وفي الأرض المقدَّسة. وقال المسلمون: بل الكعبةُ أفضل. فنزلت[٨].

---

(١) في (د١) والمطبوع: أرباباً من دون الله.
(٢) في المحتسب ١/ ١٦٥ (ونقله ابن عطية ١/ ٤٧٤): علة جواز ذلك.
(٣) في المصدرين السابقين: الصدى.
(٤) في (ز٢) و(يه) والمطبوع: المثبت، وهو تحريف، وفي (أ) و(ع): المنبعث.
(٥) المحتسب ١/ ١٦٥. ومن قوله: وقرأ أبان... إلى هذا الموضع في المحرر الوجيز ١/ ٤٧٤ دون قوله: وأدغم حمزة والكسائي وهشام: «بل سوَّلت» وينظر حكم لام «هل» و«بل» للقراء السبعة في «تحبير التيسير» ص٦٤.
(٦) ينظر الكتاب ٤/ ٤٥٧-٤٥٨.
(٧) وهي: الدال والتاء والزاي والسين. كما في المصدر السابق.
(٨) تفسير الثعلبي ٢/ ١٠٣، وزاد المسير ١/ ٤٢٤.

ومناسبة هذه الآية لِما قبلَها ظاهرة، وهو أنه لمَّا أمرَ تعالى باتّباع ملّة إبراهيم، وكان حجُّ البيت من أعظم شعائر ملَّة إبراهيم، ومن خُصوصيَّات دينِه، أخذَ في ذكر البيت وفضائلِه ليبنيَ على ذلك ذكرَ الحجّ ووجوبه.

وأيضاً فإنَّ اليهود حين حُوّلَتْ القبلة إلى الكعبة طعنُوا في نبوَّة رسول الله ﷺ وقالوا: بيتُ المقدس أفضلُ وأحقُّ بالاستقبال لأنه وُضع قبل الكعبة، وهو أرضُ المحشر، وقِبلةُ جميع الأنبياء، فأكذبَهم الله في ذلك بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ كما أكذبَهم في دعواهم قبلُ أنَّ ما حرَّم عليهم كان محرَّماً على يعقوب من قبل أن تنزَّل التوراة.

وأيضاً فإنَّ كلَّ فرقة من اليهود والنصارى زعمَتْ أنَّها على ملَّة إبراهيم، ومن شعائر ملَّته حَجُّ الكعبة، وهم لا يَحُجُّونها، فأكذبَهم الله في دعواهم تلك.

والأوَّلُ: هو الفرد السابقُ غيرَه، وتقدَّم الكلام على لفظ «أوَّل» في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٤١]. و«وُضع» جملة في موضع الصفة.

واختلف في معنى كونِه أولَ بيتٍ وُضع للناس، فقيل: هو أوَّلُ بيت ظهر على وجه الماء حين خُلقت السماواتُ والأرض، خلقَه قبل الأرض بألفي عام، وكان زُبْدَةً بيضاءَ على الماء، فدُحِيَت الأرض تحتَه.

وقيل: هو أوَّلُ بيتٍ بناه آدم في الأرض.

وقيل: لمَّا أُهبط آدم قالت له الملائكة: طُفْ حَوْلَ هذا البيت، فلقد طُفْنا قبلَك بألفَي عام. وكان في موضعِهِ قبلَ آدمَ بيتٌ يقال له: الضُّرَاح، فرُفع في الطُّوفان إلى السماء الرابعة تطوفُ به ملائكة السماوات(١).

وذكر الشريف أبو البركات أسعد بنُ علي بن أبي الغنائم الحسيني الجَوَّاني النسَّابة أن شيث بنَ آدم هو الذي بَنَى الكعبة بالطين والحجارة على موضع الخيمة التي كان الله وضَعَها لآدم من الجنَّة.

فعلى هذه الأقاويل يكون أوَّلَ بيت وُضع للناس على ظاهره.

---

(١) الكلام في الكشاف ١/٤٤٦. وقوله: الضُّراح، بضم الضاد، كما في القاموس، وينظر تفسير كلّ من الثعلبي ٢/١٠٤، والبغوي ١/٣٠٨.

ورُوِيَ عن ابن عبَّاس أنه أوّلُ بيتٍ حجَّ بعد الطوفان[١]، فتكون الأوّلية باعتبار هذا الوصف من الحجّ، إذ كان قبلَه بيوت.

ورُوِيَ عن عليّ أنه سَأله رجل: أهو أوّلُ بيت؟ فقال عليّ: لا، قد كان قبلَه بيوت، ولكنه أوّلُ بيت وُضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة[٢]. فأخذَ الأوَّلية بقيد هذه الحال.

وقيل: أوّلُ من بناه إبراهيم، ثم قومٌ من العرب من جُرْهُم، ثم هُدم فبنَتْه العمالقة، ثم هُدم فبَنَتْهُ قريش[٣].

وقال أبو ذرّ: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ مسجدٍ وُضِعَ أوّل؟ قال: «المسجدُ الحرام». قلتُ: ثم أيّ؟ قال: «المسجد الأقصى». قلتُ: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون سنة»[٤].

فظاهر هذا الحديث أنه من وَضْع إبراهيم، وهو معارِض لما ذُكر في الأقوال السابقة، إلّا إنْ حُمل الوَضْع على التجديد، فيمكن الجمعُ بينهما.

وظاهر حديث أبي ذرّ يضعِّف قولَ الزَّجَّاج أنَّ بيت المقدس هو من بناء سليمان بن داود عليهما السلام، بل يظهر منه أنه من وضع إبراهيم، فكما وَضَعَ الكعبة وَضَعَ بيتَ المقدس، وقد بين ﷺ أنَّ بين الوضعين أربعين سنة، وأين زمانُ إبراهيم من زمان سليمان[٥].

ومعنى «وُضع للناس» أي: متعبَّداً يستوي في التعبُّد فيه الناس، إذ غيرُه من البيوت يختصُّ بأصحابها، والمشترك فيه الناس هو محلُّ طاعتهم وعبادتهم وقبلتهم.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٤٦، وتفسير النسفي ١/ ٢٣٥.
(٢) تفسير الثعلبي ٢/ ١٠٤، والكشاف ١/ ٤٤٦.
(٣) الكشاف ١/ ٤٤٦، وتفسير الرازي ٨/ ١٥٤، والخبر فيهما متصل بقول علي رضي الله عنه السابق قبله.
(٤) أخرجه أحمد (٢١٣٣٣)، والبخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).
(٥) الكلام بنحوه أوضحُ منه في المحرر الوجيز ١/ ٤٧٤. وينظر كلام الزجاج في معانيه ١/ ٤٤٥.

وقرأ الجمهور: «وُضِعَ» مبنيًا للمفعول. وقرأ عكرمة وابنُ السَّمَيْفَع: «وَضَعَ» مبنيًا للفاعل[(١)]، فاحتملَ أن يعود على الله، واحتمل أن يعود على إبراهيم، وهو أقربُ في الذِّكر وأليقُ وأوفقُ لحديث أبي ذرّ.

و«للناس» متعلّق بـ «وُضِعَ»، واللام فيه للتعليل، و«للذي بِبَكَّة» خبر «إنّ»، والمعنى: لَلْبَيْتُ الذي ببكّة، وأُكِّدَتْ النسبة بتأكيدَيْن «إنّ»، واللام.

وأخبر هنا عن النكرة وهو «أوَّل بيت» لتخصُّصها بالإضافة وبالصفة التي هي «وُضِعَ» إمَّا لها وإمَّا لِما أُضيفت إليه، إذْ تخصيصُه تخصيصٌ لها بالمعرفة، وهو «لَلَّذي ببكَّة»، لأن المقصود الإخبار عن أوَّل بيت وُضع للناس، ويحسُنُ الإخبارَ عن النكرة بالمعرفة دخولُ «إنّ». ومن أمثلة سيبويه[(٢)]. إنَّ قريباً منك زيدٌ، تخصَّصَ «قريب» بلفظ «منك» فحسُن الإخبارُ عنه، وقد جاء بغير تخصيص، وهو جائز في الاختيار، قال:

وإنَّ حَـرامـاً أَنْ أَسُـبَّ مُـجـاشـعـاً بـآبـائـيَ الـشُّـمِّ الـكِـرامِ الـخَـضَـارِمِ[(٣)]

والباء في: «ببكة» ظرفية، كقولك: زيد بالبصرة، ويضعف أن يكون «بكّة» هي المسجد لأنَّه يلزم أن يكون الشيء ظرفاً لنفسه، وهو لا يصحّ.

﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أمَّا بركتُه فلِما يحصل فيه من الثواب وتكفيرِ السيئات لمن حَجَّهُ واعتمَرَه وطافَ به وعكَفَ عنده.

وقال القفَّال[(٤)]: يجوز أن تكون بركتُه ما ذُكر في قوله: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: ٥٧].

---

(١) تفسير الثعلبي ٢/ ١٠٣ (عن ابن السميفع)، والمحرر الوجيز ١/ ٤٧٤ (عن عكرمة). وهي في الكشاف ١/ ٤٤٦ دون نسبة.

(٢) الكتاب ٢/ ١٤٢.

(٣) البيت للفرزدق، وهو بهذه الرواية في خزانة الأدب ٩/ ٢٨٥. وهو في المقتضب ٤/ ٧٤، وفصل المقال ص٣٨١، والحماسة البصرية ٢/ ٢٦٢ (وجاء فيه: لعله لجرير)، والحلل ص١٤٢ برواية: مُقاعِساً، بدل: مجاشعاً. وجاء في ديوان الفرزدق ٢/ ٣٠٠ برواية: وليس بِعَدْلٍ إن سَبَبْتُ مُقاعِساً، وفي جمهرة الأمثال ١/ ٥١٢ برواية: وليس بنَصْفٍ أن أَسُبَّ مُقاعِساً.

(٤) تفسير الرازي ٨/ ١٥٨.

وقيل: بَرَكَتُه دوامُ العبادة فيه ولزومُها لأنَّ البَرَكة لها معنيان: أحدُهما النموّ، والآخر الثبوت، ومنه البِرْكةُ لثبوت الماء فيها، والبَرْكُ: الصَّدْرُ؛ لثبوت الحفظ فيه. والبَرَاكاء[1]: الثبوتُ في القتال، وتبارك الله: ثَبَتَ ولم يزل.

وقيل: بَرَكَتُه تضعيف الثواب فيه؛ رَوَى ابنُ عمر عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَنْ طاف بالبيت؛ لم يَرْفَعْ قدماً ولم يَضَعْ أُخرى إلا كتبَ الله له بها حسنة، ورَفَعَ له بها درجة»[2].

وقال الفرَّاء: سُمِّيَ مباركاً لأنه مغفرة للذنوب[3].

وقال ابن جرير: بركتُه: تطهيرُه[4] من الذنوب[5].

وقيل: بَرَكتُه أنَّ مَنْ دخلَه أمِنَ، حتى الوَحْش، فيجتمع فيه الظَّبْيُ والكلب[6].

وأمَّا كونه هدًى؛ فلأنَّه لمَّا كان مقوِّماً مُصلحاً كان فيه إرشاد، وبُولغ بجعله هدًى، أو هو على حذف مضاف، أي: وذا هدًى. قيل: ومعنى «هدًى» أي: قِبْلَة، وقيل: رحمة، وقيل: صلاح، وقيل: بيانٌ ودَلالة على الله تعالى بما فيه من الآيات التي لا يقدر عليها غيرُه تعالى[7].

وقال ابن عطيَّة[8]: يحتمل هنا «هدًى» أن يكون بمعنى الدُّعاء، أي: من حيث دُعِيَ العالَمون إليه.

وانتصاب «مباركاً» على الحال، وجوَّزُوا أن يكون حالاً من الضمير الذي استكنَّ في «وُضِعَ»، والعاملُ فيها «وُضِعَ»[9] أي: إنَّ أوَّل بيتٍ وُضِعَ مباركاً ـ أي في هذه

---

(١) بفتح الباء وضمها، كما في تاج العروس (برك).
(٢) صحيح ابن حبان (٣٦٩٧)، وزاد المسير ١/ ٤٢٦، وفيهما زيادة: وحطَّ عنه بها خطيئة.
(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٢٧.
(٤) في (ح) و(د٢) و(يه): تطهّره.
(٥) تفسير الطبري ٥/ ٥٩٧، ولفظه فيه: لأن الطواف به مغفرةٌ للذنوب.
(٦) بنحوه في زاد المسير ١/ ٤٢٦. وينظر التعليق التالي.
(٧) زاد المسير ١/ ٤٢٦، وجاء بعده قوله: حتى يجتمع الكلب والظبيُ في الحرم، فلا الكلب يهيج الظبي، ولا الظبي يستوحش منه. قاله القاضي أبو يعلى.
(٨) المحرر الوجيز ١/ ٤٧٥.
(٩) الإملاء ١/ ١٤٤.

الحال - للَّذي ببكَّة. وهذا التقدير ليس بجائز، لأنك فصلتَ بين العامل في الحال وبين الحال بأجنبيّ، وهو الخبر، لأنه معمول لـ «إنَّ» خبرٌ لها، فإنْ أضمرتَ «وُضِعَ» بعد الخبر أمكن أن يعمل في الحال، وكان تقديرُه: للَّذي ببكَّةَ وُضِعَ مباركاً. وعلى هذا التقدير ينبغي أن يُحمل تفسير عليّ بن أبي طالب السابقُ ذكرُه عند ذكر كون هذا البيت أوَّلاً، إذ كان قد لاحظ في هذا البيت كونه وُضع أوَّل بقيد هذه الحال.

وجوَّزُوا أيضاً أن يكون العاملُ في الحال العاملَ في «ببكَّة»، أي: استقرَّ ببكَّة في حال بركته. وهو وجهٌ ظاهر الجواز، ولم يذكر الزمخشريُّ غيره[١].

وأمَّا «هُدًى» فظاهرُه أنه معطوف على «مباركاً»، والمعطوفُ على الحال حال، وجوَّزَ بعضُهم أن يكون مرفوعاً على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: وهو هدًى، ولا حاجَة إلى تكلُّف هذا الإضمار.

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ أي: علاماتٌ واضحات، منها مقامُ إبراهيم والحَجَر الذي قام عليه، والحَجَر الأسود، وهو من حجارة الكعبة، وهو يمين الله في الأرض[٢] يشهدُ لمن مسَّه[٣]، والحَطِيم[٤]، وزمزم، وأمنُ الخائف، وهيبتُه وتعظيمُه في قلوب الناس، وأمرُ الفِيل ورَمْيُ طيرِ الله عنه بحجارة السِّجِّيل، وكفُّ الجبابرة عنه على وجه الدَّهر، وإذعانُ نفوس العرب لتوقير هذه البقعة دون ناهٍ ولا زاجر، وجِبايةُ الأرزاق إليه وهو بوادٍ غيرِ ذي زَرْع، وحمايتُه من السُّيول، ودلالةُ عموم المطر إيَّاه من جميع جوانبه على خِصْب آفاقِ الأرض، فإن كان المطر من جانب أخصبَ الأُفُق الذي يليه.

(١) الكشاف ١/ ٤٤٧.

(٢) يشير إلى حديث جابر ﷺ مرفوعاً: «الحَجَر يمينُ الله في الأرض يصافحُ به عباده» أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٧/ ٣٣٩، وفي إسناده إسحاق بن بشر الكاهلي، كذَّبه غير واحد من الأئمة.

(٣) أخرج أحمد (٢٢١٥)، والترمذي (٩٦١) عن ابن عباس ﷺ مرفوعاً: «يأتي هذا الحَجَرُ يوم القيامة له عينانِ يُبصِرُ بهما، ولسانٌ ينطقُ به، يشهدُ لمن استلمه بحقّ». وصحَّحه ابنُ خزيمة (٢٧٣٥)، وابن حبان (٣٧١٢).

(٤) الحَطِيم: حِجْرُ الكعبة، أو جدارُه، أو ما بين الرُّكن وزمزم والمقام، أو من المقام إلى الباب، أو ما بين الرُّكن الأسود إلى الباب إلى المقام. كذا في القاموس (حطم).

وذكرَ مكّيّ وغيرُه أنَّ من آياته كونَ الطير لا يعلو عليه. قال ابنُ عطيَّة[١]: وهذا ضعيف، والطيرُ تُعايَنُ تعلُوه، وقد عَلَتْهُ العُقاب التي أخذتِ الحيَّةَ المُشرفةَ على جداره[٢]، وتلك كانت من آياته. انتهى.

وأيُّ عبدٍ عَلَا عليه عَتَقَ، وتعجيلُ العقوبة لمن عتا فيه، وإجابةُ دعاء من دعا تحت المِيزاب، ومضاعفةُ أجرِ المصلِّي، وغيرُ ذلك من الآيات.

وقوله: «فيه آياتٌ بيِّنات» الضمير في «فيه» عائد على البيت، فينبغي أن لا يُذكر من الآيات إلا ما كان في البيت، لكنهم توسَّعوا في الظرفية، إذ لا يمكن حملُها على الحقيقة، لأنه كان يلزمُ أنَّ الآيات تكون داخلَ الجدران. ووجهُ التوسُّع أنَّ البيت وُضع بحَرَمِهِ وجميعِ فضائله، فهي فيه على سبيل المجاز، ولذلك عدَّ المفسِّرون آياتٍ في الحَرَم وأشياءَ ممَّا التزمت في شريعتنا من تحريم قطعِ شجرِهِ، ومنعِ الاصطياد فيه.

والذي تعرَّضت له الآية هو مقامُ إبراهيم، لأنه آيةٌ باقية[٣] على مرِّ الأعصار، وذلك أنه لمَا قام إبراهيم على حَجَر المَقام وَقْتَ رَفْعِه القواعدَ من البيت؛ طالَ له البناء، فكلَّما علا الجدارُ ارتفعَ الحَجَرُ به في الهواء، فما زالَ يبني وهو قائم عليه وإسماعيلُ يُناوِلُه الحجارةَ والطِّينَ حتى كَمُلَ الجدارُ، ثم [لمَّا] أراد الله إبقاء ذلك آيةً للعالمين؛ ليَّن الحَجَر، فغرقت فيه قَدَما إبراهيمَ كأنَّها في طين، فذلك الأثرُ باقٍ إلى اليوم، وقد نقلت كافَّةُ العرب ذلك في الجاهلية على مرور الأعصار. وقال في ذلك أبو طالب:

وَمَوْطِئِ إبراهيمَ في الصَّخْرِ رَطْبَةً عـلى قَدَمَيْهِ حافياً غيرَ ناعِلِ

فما حُفظ أنَّ أحداً من الناس نازعَ في هذا القول[٤].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٧٦، والكلام السالف فيه مع قول مكي، وقوله في الهداية ٢/ ١٠٧٨. وينظر زاد المسير ١/ ٤٢٧.

(٢) ينظر خبرها في قصة بناء قريش للكعبة قبل بعثة النبيِّ ﷺ بخمس سنين، في سيرة ابن هشام ١/ ١٩٢-١٩٣.

(٣) في (أ) و(ح) و(د٢) و(يه): ثابتة.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٧٥-٤٧٦. ولفظة «لما» السالفة بين حاصرتين منه. والبيت أيضاً في =

وقيل: سببُ أثرِ قدميه في هذا الحَجَر أنه وافَى مكة زائراً من الشام، فقالت له زوجة إسماعيل: انزل حتى أغسلَ رأسَك. فأبى أن ينزل، فجاءت بهذا الحَجَر من جهة شِقِّهِ الأيمن، فوضع قدمَهُ عليه حتى غسلَتْ شِقَّ رأسِه، ثم حَوَّلَتْهُ إلى شِقِّهِ الأيسر حتى غسلَتْ الشِّقَّ الآخر، فبقيَ أثرُ قدميه فيه[١].

وارتفاع «آيات» على الفاعلية بالمجرور قبلَه، فيكون المجرور في موضع الحال، والعاملُ فيها محذوف، وذلك المحذوف هو الحالُ حقيقةً، ونسبةُ الحاليَّة إلى الظرف والمجرور مجازٌ كنسبة الخبر إليها إذا قلتَ: زيدٌ في الدار، أو: عندَك، ولذلك قال بعض أصحابنا: وما يُعزى للظرف من خبريَّة وعمل؛ فالأصحُّ كونُه لعامله، وكونُ «فيه» في موضع حال مقدَّرة سواءٌ أكان العاملُ فيها هو العامل في «ببكَّة» أم كان العامل فيها هو «وُضِعَ» على ما أعربوه أو على ما أعربناه. ويجوزُ أن تكون جملةً مستأنفة، أخبر الله تعالى أنَّ فيه آياتٍ بيِّنات.

﴿مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ «مقام» مَفْعَل من القيام. وقرأ الجمهور: «آياتٌ بينات» على الجمع. وقرأ أُبيّ وعُمر وابنُ عباس ومجاهد وأبو جعفر في رواية قُتيبة: «آيةٌ بينة» على التوحيد[٢]، فعلى قراءة الجمهور أعربوا «مقامُ إبراهيم» بدلاً، وهو بدل كلّ من كلّ من قوله: «آيات». وأعربوه خبرَ مبتدأ محذوف أي: هنَّ مقامُ إبراهيم، وعلى ما أعربوه فكيف يُبدَلُ المفرد من الجمع، أو يُخبَر به عن الجمع؟ وأجيب بوجهين:

أحدُهما: أن يُجعل وحدَه بمنزلة آياتٍ كثيرةٍ لظهورِ شأنِه وقوَّةِ دلالته على قدرة الله ونبوَّةِ إبراهيم عليه السلام من تأثير قدمِه في حَجَرٍ صَلْد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل: ١٢٠].

= سيرة ابن هشام ١/ ٢٧٣ (ضمن قصيدة لأبي طالب) وخزانة الأدب ٢/ ٦٢. قوله: ومَوْطِئِ معطوف على ما قبله في القصيدة.

(١) الكشاف ١/ ٤٤٨، والروض الأُنُف ٢/ ٢٥، وتفسير الرازي ٨/ ١٦٠، وفيه: أمّ إسماعيل، بدل: زوجة إسماعيل. وذكر الرازي قولاً ثالثاً، وهو أنه الحجر الذي قام إبراهيم عليه عند الأذان بالحج. ثم نقل عن القفَّال قوله: ويجوز أن يكون إبراهيم قام على ذلك الحجر في هذه المواضع كلِّها.

(٢) القراءات الشاذة ص٢٢، والكشاف ١/ ٤٤٧، والمحرر الوجيز ١/ ٤٧٥. وقراءة أبي جعفر المشهورة عنه كقراءة الجماعة.

والثاني: اشتمالُه على آيات؛ لأنَّ أثرَ القدم في الصخرة الصَّمَّاء آية، وغَوْصَهُ فيها إلى الكعبين آية، وإلانةَ بعض الصخرة دون بعض آية، وإبقاءَه دون سائر آيات الأنبياء آيةٌ لإبراهيم خاصَّة، وحفظَه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوفَ سنين آية.

قال الزمخشري[١]: ويجوزُ أن يُراد: فيه آياتٌ بيِّنات؛ مقامُ إبراهيم، وأَمْنُ مَنْ دَخَلَه، لأنَّ الاثنين[٢] نوعٌ من الجمع، كالثلاثة والأربعة.

وقال ابنُ عطيَّة[٣]: والمترجح عندي أنَّ المَقامَ وأَمْنَ الداخل جُعلا مثالاً ممَّا في حَرَمِ الله من الآيات، وخُصَّا بالذِّكر لعِظَمِهما، وأنهما تقومُ بهما الحجَّة على الكفار، إذ هم مدركون لهاتين الآيتين بحَوَاسِّهم.

فظاهرُ كلامِه وكلام الزمخشريّ قبلَه أنَّ مَقَامَ إبراهيم وأمْنَ الداخل تفسيرٌ للآيات، وهي جمع، ولكن لم يُذكر أمْنُ الداخل في الآية تفسيراً صناعياً، إنما جاء: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ جملة من شرط وجزاء، أو مبتدأ وخبر، لا على سبيل أن يكون اسماً مفرداً يُعطف على قوله: «مقامُ إبراهيم» فيكون ذلك تفسيراً صناعيًّا، بل لم يأت بعد قوله: «آياتٌ بيِّنات» سوى مفرد، وهو: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾. فقال[٤]:

فإن قلتَ: كيف أجَزْتَ أن يكون «مَقَامُ إبراهيم» والأمْنُ عطفَ بيان؟ وقولُه: «ومَنْ دَخَلَه كانَ آمِناً» جملة مستأنفة؛ إما ابتدائية وإما شرطيَّة؟ قلتُ: أجزتُ ذلك من حيث المعنى، لأنَّ قوله: «ومَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» دلَّ على أَمْنِ داخلِه، فكأنَّه قيل: فيه آياتٌ بيِّناتٌ: مقامُ إبراهيم وأمْنُ داخلِهِ. ألا ترى أنك لو قلتَ: فيه آيةٌ بيِّنة؛ مَنْ دخلَهُ كان آمِناً؛ صحَّ؛ لأنه في معنى: فيه آية بيِّنةٌ: أَمْنُ مَنْ دَخَلَه؟ انتهى سؤالُه وجوابُه، وليس بواضح؛ لأنَّ تقديره: وأَمْنُ الداخل، هو مرفوعٌ عطفاً على «مقام إبراهيم»، وفَسَّر بهما الآيات، والجملة من قوله: «ومَنْ دَخَلَه كان آمِناً»

(١) الكشاف ١/ ٤٤٧. والكلام السالف فيه.
(٢) في (ب) و(د١) و(د٢) و(ز٢): الآيتين.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٧٥.
(٤) أي: الزمخشري، وكلامه في الكشاف ١/ ٤٤٧-٤٤٨.

لا موضعَ لها من الإعراب، فتدافعا، إلا إن اعتُقد أنَّ ذلك معطوف محذوف يدلُّ عليه ما بعدَه، فيمكن التوجيه، فلا يُجعل قوله: «ومَنْ دَخَلَه كانَ آمِناً» في معنى: وأَمْن داخلِه، إلا من حيث تفسيرُ المعنى، لا تفسيرُ الإعراب(١).

قال الزمخشريّ: ويجوز أن تُذكر هاتان الآيتان ويُطوى(٢) ذكرُ غيرهما دلالةً على تكاثر الآيات، كأنه قيل: فيه آياتٌ بيِّنات: مقامُ إبراهيم، وأَمْنُ مَنْ دخلَه، وكثيرٌ سواهما، ونحوُه في طيِّ الذِّكر قولُ جرير(٣):

كانَتْ حنيفةُ أثلاثاً فَثُلْثُهُمُ مِنَ العبيدِ وثُلْثٌ مِن مَوَالِيها

ومنه قولُه ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث: الطِّيبُ، والنِّساء، وقُرَّةُ عيني في الصلاة»(٤). انتهى كلامه، وفيه حذف معطوفين.

ولم يذكر الزمخشري في إعراب «مقام إبراهيم» إلا أنه عطفُ بيان لقوله: «آياتٌ بينات». ورُدَّ عليه ذلك؛ لأنَّ «آيات» نكرة، و«مَقام إبراهيم» معرفة، ولا يجوز التخالف في عطف البيان. وقولُه مخالف لإجماع الكوفيِّين والبصريِّين، فلا يُلتفت إليه. وحُكم عطف البيان عند الكوفيِّين حكم النعت، فتتبعُ النكرةُ النكرةَ، والمعرفةُ المعرفةَ، وقد تبعَهم في ذلك أبو علي الفارسيُّ. وأمَّا عند البصريِّين فلا يجوز إلا أن يكونا معرفتَيْن، ولا يجوز أن يكونا نكرتَيْن، وما أعربَه الكوفيُّون ومَنْ وافقَهم عطفَ

(١) ينظر تعقُّب السمين الحلبي للمصنف في الدُّرّ المصون ٣/ ٣٢٠.
(٢) في المطبوع: يذكر هاتين الآيتين. وفي (أ) و(ح): ويكون، بدل: ويطوى. والكلام في «الكشاف» ١/ ٤٤٧.
(٣) ديوانه ٢/ ٥٤٥.
(٤) قال السمين الحلبي في الدر المصون ٣/ ٣١٩: «ذكرَ اثنين وهما الطِّيبُ والنساء، وطَوَى ذِكْرَ الثالثة؛ لا يقال: إن الثالثة قولُه: «وقُرَّةُ عيني في الصلاة» لأنها ليست من دنياهم». اهـ. وهذا تخريج حسن للفظة «ثلاث» في الحديث لو صحَّت، فقد أخرجه أحمد (١٢٢٩٣-١٢٢٩٤) وغيره عن أنس ﷺ، دون لفظة «ثلاث». وقال ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١١٦: اشتهرَ على الألسنة بزيادة «ثلاث» وشرحَه الإمام أبو بكر بن فورك في جزء مفرد على ذلك، وكذلك ذكره الغزالي في الإحياء، ولم نجد لفظ «ثلاث» في شيء من طرقه المسنَدة. انتهى. وقال نحوه أيضاً في تخريج أحاديث الكشاف ص٢٧، وأشار الآلوسي أيضاً في روح المعاني ٤/ ٣٣٧-٣٣٨ إلى ضعف هذه اللفظة في الحديث. وينظر أيضاً فيض القدير ٣/ ٣٧٠.

بيان وهو نكرةٌ على النكرة قبلَه أعربَه البصريُّون بدلاً، ولم يقُم لهم دليلٌ على تعيين عطف البيان في النكرة، فينبغي أن لا يجوز.

والأولى والأصوبُ في إعراب «مقامُ إبراهيم» أن يكون خبرَ مبتدأ محذوف تقديرُه: أحدُها: أي: أحدُ تلك الآيات البيِّنات مقامُ إبراهيم، أو مبتدأً محذوفَ الخبر تقديرُه: منها، أي: من الآيات البيِّنات مقامُ إبراهيم، ويكون ذكر المقام لعِظَمه ولشُهرته عندهم، ولكونه مُشاهَداً لهم لم يتغيَّر، ولإذكاره إيَّاهم[١] دينَ أبيهم إبراهيم.

وأمَّا على قراءة من قرأ «آيةٌ بيِّنة» بالتوحيد فإعرابُه بدل، وهو بدل معرفة من نكرة موصوفة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣]. ويكون الله تعالى قد أخبر عن هذه الآية العظيمة وحدَها وهي «مقام إبراهيم» لما ذكرناه، وإن كان في البيت آياتٌ كثيرة.

واختلفوا في تفسير «مقام إبراهيم»؛ فقال الجمهور: هو الحَجَر المعروف. وقال قوم: البيتُ كلُّه مقام إبراهيم؛ لأنه بناه وقام في جميع أقطاره. وقال قوم: مكةُ كلُّها مقامُ إبراهيم. وقال قوم: الحَرَمُ كلُّه[٢].

والحَرَمُ ممَّا يلي المدينة نحواً من أربعة أميال إلى منتهى التنعيم، وممَّا يلي العراق نحوًا من ثمانية أميال إلى مكان يقال له: المَقْطَع، وممَّا يلي عرفة تسعة أميال، وممَّا يلي طريق اليمن سبعة أميال إلى موضع يقال له: أضاة، وممَّا يلي جُدَّة عشرة أميال[٣] إلى منتهى الحديبية.

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ الضمير في «ومَنْ دَخَلَه» عائد على البيت، إذ هو المحدَّثُ عنه والمقيَّدُ بتلك القيود من البركة والهدى والآياتِ البينات من مقام إبراهيم وغيرِه، ولا يمكن أن يعود على «مقام إبراهيم» إذا فسَّرناه بالحَجَر.

---

(١) في (ح) و(د٢) و(يه): ولإذكارهم. بدل: ولإذكاره إياهم.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٧٦.
(٣) من قوله: ومما يلي طريق اليمن... إلى هذا الموضع من (ب) و(د٣). والكلام في المصدر السالف.

وظاهرُ الآية وسياقُ الكلام أنَّ هذه الجملة هي مفسِّرة لبعض آيات البيت ومذكِّرة للعرب بما كانوا عليه في الجاهلية من احترام هذا البيت وأَمْنِ مَنْ دَخَلَه من ذوي الجرائر، وكانت العرب يُغير بعضُها على بعض ويُتَخَطَّفُ الناسُ بالقتل وأخذ الأموال وأنواع الظلم إلا في الحَرَم، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] وذلك بدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]. فأمَّا في الإسلام؛ فمن أصاب حدًّا فإنَّ الحَرَمَ لا يُعيذُه، وإلى هذا ذهب عطاء ومجاهد والحسَن وقتادة وغيرهم، فمن زنى أو سرقَ، أو قتلَ؛ أُقيمَ عليه الحدُّ. واستحسنَ كثيرٌ ممَّن قال هذا القولَ أن يُخرَج مَنْ وجبَ عليه القتل إلى الحِلّ فيُقتلَ فيه.

وقال ابن عبَّاس: مَنْ أحدَثَ حَدَثاً واستجارَ بالبيت فهو آمِن، والأمرُ في الإسلام على ما كان في الجاهلية، فلا يَعرِضُ أحدٌ لقاتِلِ وليِّه، إلا أنه يجبُ على المسلمين أن لا يُبايعوه ولا يكلِّموه ولا يُؤْوُه حتى يتبرَّمَ فيخرجَ من الحَرَم، فيُقامَ عليه الحدّ.

وقال بمثل هذا عطاء أيضاً والشعبيّ وعُبيد بن عُمير والسُّدِّي وابنُ جبير وغيرُهم، إلا أنَّ أكثرهم قالوا هذا فيمن يَقْتُلُ خارجَ الحَرَم ثم يعوذُ بالحَرَم، أمَّا مَنْ قَتَلَ فيه؛ فيقامُ عليه الحدُّ فيه(١).

واختلف فقهاءُ الأمصار إذا جَنَى في غير الحَرَم ثم التجأ إليه، فقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد وزُفَر والحَسَنُ بنُ زياد وأحمد في رواية حنبل عنه: إن كانت الجِناية في النفس لم يُقتصَّ منه ولا يخالَط، أو فيما دون النفسِ اقتُصَّ منه في الحَرَم(٢).

وقال مالك في رواية: لا يُقتصُّ منه فيه لا بقتلٍ ولا فيما دونَ النفس، ولا يُخالَط.

قالوا: وانعقدَ الإجماعُ على أنَّ مَنْ جَنَى فيه لا يؤمَّن؛ لأنه هَتَكَ حُرمةَ الحَرَم

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٧٧. وأخرج الطبري الأقوال في تفسيره ٥/ ٦٠١-٦٠٦.
(٢) أحكام القرآن للجصَّاص ٢/ ٢١، وزاد المسير ١/ ٣٢٧.

وردَّ الأمان، فبقيَ حُكم الآية فيمن جَنَى خارجاً منه ثم لجأ إليه، وقالوا: هذا خبر معناه الأمر، أي: ومَنْ دخلَه فأمِّنوه، وهو عامٌّ فيمن جَنَى فيه، أو في غيره ثمَّ دخَلَه[1]، لكن صدَّ الإجماعُ عن العمل به فيمن جَنَى فيه[2]، وبقيَ حُكم الآية مختصًّا بمن جَنَى خارجاً منه ثم دَخلَه.

وقال يحيى بنُ جَعْدَة في آخرين: آمناً من النار[3].

ولا بدَّ من قَيْد في «ومَنْ دَخلَه كان آمِناً» أي: ومَنْ دَخَلَهُ حاجًّا، أو مَنْ دخله مُخْلِصاً في دخوله.

وقيل: المعنى: ومَنْ دخلَه عامَ عُمرة القضاء مع النبيِّ ﷺ لقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وقال جعفر الصادق: مَنْ دخَلَه ورَقِيَ على الصَّفا أمِنَ أمْنَ الأنبياء[4].

وظاهرُ الآية ما بدأنا به أوَّلاً، وكلُّ هذه الأقوال سواه متكلَّفات؛ وينبو اللفظُ عنها، ويُخالف بعضُها ظواهرَ الآيات وقواعدَ الشريعة.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ روى عكرمة أنه لمَّا نزلت: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ قالت اليهود: نحن على الإسلام، فنزلت: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ الآية؛ قيل له: حُجَّهُمْ يا محمد[5]، إن كانوا على ملّة إبراهيم التي هي الإسلام فليحجُّوا إن كانوا مسلمين. فقالت اليهود: لا نحجُّه أبداً[6].

---

(١) الكلام في زاد المسير ١/ ٤٢٧ بتقديم وتأخير، ونُسب فيه للقاضي أبي يعلى.

(٢) أي لا تعلُّق لحكم الآية بالجاني فيه، فلا يؤمَّنُ بالإجماع كما سلف، ووقع في (ب) و(د٣): صدرَ، بدل: صدَّ. وهو تحريف.

(٣) تفسير الطبري ٥/ ٦٠٦، والمحرر الوجيز ١/ ٤٧٧، وتفسير القرطبي ٥/ ٢١٣.

(٤) كذا وقع، وفيه وهم، ولفظهُ في تفسير الثعلبي ٢/ ١٠٦، وتفسير القرطبي ٥/ ٢١٣: من دخله على الصَّفاء كما دخلَه الأنبياء والأولياء كان آمناً من عذابه.

(٥) أي: اخْصِمْهُمْ فقل لهم: حُجُّوا. ينظر أخبار مكة للفاكهي ١/ ٣٧٤.

(٦) الخبر بنحوه في أخبار مكة ١/ ٣٧٣-٣٧٤، وتفسير الثعلبي ١/ ١٠٧، والمحرر الوجيز ١/ ٤٧٤، والعُجاب ٢/ ٧١٨. وسلف عند تفسير قوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾. وجاء في زاد المسير ١/ ٤٢٧-٤٢٨ نحوه عن مجاهد.

ودلَّت هذه الآية على تأكيد فرض الحجّ، إذْ جاء ذلك بقوله: «ولله»، فيُشعر بأنَّ ذلك له تعالى، وجاء بـ «على» الدالةِ على الاستعلاء، وجاء متعلِّقاً بالناس بلفظ العموم وإن كان المرادُ منه الخصوص ليكون مَن وجبَ عليه ذُكر مرَّتين.

قال الزمخشريّ[1]: وفي هذا الكلام أنواعٌ من التأكيد والتشديد؛ فمنها قولُه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ يعني أنه حَقٌّ واجبٌ للهِ في رقاب الناس لا ينفكُّون عن أدائه والخروج عن عُهدته.

ومنها أنه ذكر «الناس» ثم أبدلَ عنه «مَن استطاع إليه سبيلا» وفيه ضربان من التأكيد:

أحدُهما: أنَّ الإبدال تثنية[2] للمراد وتكريرٌ له.

والثاني: أن الإيضاحَ بعد الإبهام والتفصيلَ بعد الإجمال إيرادٌ له في صورتين مختلفتين. انتهى كلامه، وهو حسن.

وقرأ حمزة والكسائيُّ وحفص: «حِجُّ» بكسر الحاء، والباقون بفتحها[3]، وهما لغتان، الكسر لغة نجد، والفتح لغة أهل العالية، وجعل سيبويه الحِجَّ بالكسر مصدراً نحو: ذكرَ ذِكْراً، وجعلَه الزَّجَّاج اسم العمل، ولم يختلفوا في الفتح أنه مصدر[4].

و«حِجُّ» مبتدأ، وخبرُه في المجرور الذي هو «ولله»، و«على الناس» متعلّق بالعامل في الجارّ والمجرور الذي هو خبر، وجُوِّز أن يكون «على الناس» حالاً، وأن يكونَ خبراً لـ «حِجُّ»، ولا يجوز أن يكون «ولله» حالاً لما يلزم في ذلك من تقدُّمها على العامل المعنويّ.

و«حِجُّ» مصدر أُضيف إلى المفعول الذي هو «البيت»، والألف واللام فيه للعهد، إذ قد تقدَّم أنَّ أوّلَ بيت وُضع للناس لَلَّذي ببكَّة، هذا الأصل، ثم صار

(١) الكشاف ١/٤٤٨.
(٢) المثبت من (ز٢). وهو كذلك في المصدر السالف. وتحرَّف في باقي النسخ إلى: «تنبيه».
(٣) السبعة ص٢١٤، والتيسير ص٩٠.
(٤) ينظر الكتاب ٤/ ١٠، ومعاني القرآن للزجَّاج ١/ ٤٤٧.

عَلماً بالغَلَبة، فمتى ذُكر البيت؛ لا يتبادل إلى الذهن إلا أنه الكعبة، وكأنه صار كالنَّجم للثُّريَّا.

وقال الشاعر:

لَعَمْرِي لأنتَ البيتُ أُكْرِمُ أَهْلَهُ[١] وأَقْعُدُ في أَفْيَائِهِ بالأصائلِ[٢]

ولم يشترط في هذه الآية في وجوبه إلا الاستطاعةَ، وذكروا أنَّ شروطَه العقلُ والبلوغُ والحرِّيَّة والإسلام والاستطاعة.

وظاهر قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وجوبُه على العبد، وهو مخاطَبٌ به، وقال بذلك داود، وقال الجمهور: ليس مخاطَباً به، لأنه غيرُ مستطيع، إذِ السيِّد يمنعُه عن هذه العبادة لحقوقه. قالوا: وكذلك الصغير، فلو حَجَّ العبدُ في حال رِقِّهِ أو الصبيُّ قبلَ بلوغِهِ، ثم عَتَقَ وبلغَ، فعليهما حَجَّةُ الإسلام، وظاهرُه الاكتفاء بحَجَّة واحدة، وعليه انعقدَ إجماع الجمهور؛ خلافاً لبعض أهل الظاهر إذ قال: يجبُ في كلِّ خمسةِ أعوام مرَّة. والحديثُ الصحيحُ يردُّ عليه.

والظاهر أنَّ شرطَه القُدرة على الوصول إليه بأيِّ طريق قَدَرَ عليه؛ من مَشْيٍ وتكفُّفٍ وركوب بحرٍ وإيجارِ نفسِه للخدمة، الرِّجالُ والنساءُ في ذلك سواء، والمشروطُ مطلقُ الاستطاعة، وليست في الآية من المُجمَلات فتحتاجَ إلى تفسير.

ولم تتعرَّض الآية لوجوب الحجّ على الفَوْر، ولا على التراخي، بل الظاهرُ أنه يجبُ في وقت حصولِ الاستطاعة، والقولان عن الحنفيَّة والمالكيَّة.

وقال أبو عمر بنُ عبد البَرّ[٣]: ويدلُّ على التراخي إجماعُ العلماء على تركِ

---

(١) ذكر السمين في الدر المصون ٣/ ٣٢٤ أنَّ في إنشاد هذا البيت في هذا المعرض نظراً، إذ ليس في الظاهر الكعبة.

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهُذلي، وهو في ديوان الهُذليين ص١٢١، ومجاز القرآن ١/ ٣٢٨، والإنصاف ٢/ ٧٢٣، واللسان (فيأ، أصل)، وهو الشاهد (٤١٨) في خزانة الأدب ٥/ ٤٨٤ على أن الكوفيين جوَّزوا أن يكون الاسم الجامد المعرَّف باللام موصولاً. وتحرَّف في مطبوع البحر: «أفيائِهِ» إلى: «أفنائه».

(٣) التمهيد ١٦/ ١٦٤، ونقله أيضاً القرطبي في «تفسيره» ٥/ ٢١٨.

تفسيقِ القادرِ على الحجّ إذا أخَّرَهُ العامَ الواجبَ عليه في وقته؛ بخلاف مَنْ فوَّتَ صلاةً حتى خرجَ وقتُها فقضاها، وأجمعوا على أنه لا يقال لمن حجَّ بعد أعوام من وقت استطاعته: أنتَ قاضٍ. وكلُّ مَنْ قال بالتراخي لا يَحُدُّ في ذلك حدًّا إلا ما رُوِيَ عن سُحْنُون أنه إذا زادَ على السِّتِّين وهو قادر وتركَ؛ فُسِّقَ. ورُوِيَ قريبٌ من هذا عن ابن القاسم.

وفي إعراب «مَنْ» خلاف، ذهب الأكثرون إلى أنه بدلُ بعضٍ من كلّ، فتكونُ «مَنْ» موصولة في موضع جرّ، وبدل بعض من كلّ لا بدَّ فيه من الضمير، فهو محذوف تقديره: مَنِ استطاعَ إليه سبيلاً منهم.

وقال الكسائيُّ وغيرُه: «مَنْ» شرطيَّة، فتكونُ في موضع رفع بالابتداء، ويلزمُ حذفُ الضمير الرابط لهذه الجملة بما قبلَها وحذفُ جواب الشرط، إذ التقدير: مَنِ استطاعَ إليه سبيلاً منهم فعليه الحجُّ، أو فعليه ذلك. والوجه الأوّل أولى لقلَّة الحذف فيه، وكثرتِه في هذا. ويُناسبُ الشرطَ مجيءُ الشرط بعدَه في قوله: «ومَنْ كفرَ».

وقيل: «مَنْ» موصولة في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم مَنِ استطاعَ إليه سبيلاً.

وقال بعض البصريِّين: «مَنْ» موصولة في موضع رفع على أنه فاعل بالمصدر الذي هو «حِجُّ» فيكون المصدر قد أُضيف إلى المفعول، ورُفع به الفاعل، نحو: عجبتُ من شُرْبِ العَسَلِ زيدٌ. وهذا القول ضعيف من حيث اللفظ والمعنى، أمَّا من حيث اللفظُ، فإنَّ إضافة المصدر للمفعول ورفعَ الفاعلِ به قليلٌ في الكلام، ولا يكاد يُحفظ في كلام العرب إلا في الشعر، حتى زعمَ بعضُهم أنه لا يجوزُ إلا في الشِّعر[1].

وأمَّا من حيث المعنى، فإنه لا يصحُّ، لأنه يكون المعنى: إن الله أوجبَ على

(١) وأنشدوا على ذلك بيتَ الأُقَيْشِر الأسديّ:

أفنَى تِلادي وما جَمَّعْتُ من نَشَبٍ ... قَرْعُ القَواقيزِ أفواهُ الأباريقِ

على رواية رفع «أفواه». ينظر الإنصاف ١/ ٢٣٣.

الناس مستطيعِهم وغيرِ مستطيعِهم أن يحجَّ البيتَ المستطيعُ، ومتعلَّق الوجوب إنما هو المستطيعُ، لا الناسُ على العموم.

والضمير في «إليه» يعود على «البيت»، وقيل: على الحجّ، و«إليه» متعلّق بـ «استطاع»، و«سبيلاً» مفعول بقوله: «استطاع» لأنه فعل متعدّ، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٧] وكلُّ مُوصلٍ إلى شيء فهو سبيلٌ إليه.

وظاهرُ الآية يدلّ على وجوب الحجّ على من استطاع إلى البيت سبيلا، وليست الاستطاعة من باب المجْمَلات كما قدّمْناه.

وقال عُمر وابنُه وابنُ عبّاس وعطاء وابنُ جُبير: هي حالُ الذي يجدُ زاداً وراحلةً، وعلى هذا أكثرُ العلماء[١].

وقال ابنُ الزُّبير والضحّاك: إذا كان مستطيعاً غيرَ شاقّ على نفسه وجبَ عليه[٢].

قال الضحّاك: إذا قَدَرَ أن يُؤجِّرَ نفسَه فهو مستطيع. وقيل له في ذلك، فقال: إن كان لبعضهم ميراثٌ بمكة؛ أكان يتركه؟! بل كان ينطلقُ إليه ولو حَبْوًا. فكذلك يجبُ عليه الحجُّ[٣].

وقال الحسن: مَنْ وجدَ شيئاً يُبلغُه فقد وجَبَ عليه. وقال عكرمة: استطاعةُ السبيل الصحّة، ومذهبُ مالك أنَّ الرجلَ إذا وثق بقوّته لزمَه، وعنه: ذلك على قدر الطاقة، وقد يجد الزّادَ والراحلةَ مَنْ لا يقدرُ على السفر وقد يقدرُ عليه مَنْ لا راحلة له ولا زاد.

وقال ابن عباس: من ملَكَ ثلاث مئة درهم فهو السبيل إليه.

وقال الشافعي: الاستطاعةُ على وجهين: بنفسه أوّلاً، فمن منعَه مرضٌ أو عُذرٌ وله مالٌ فعليه أن يجعلَ مَنْ يحجُّ عنه وهو مستطيعٌ لذلك.

---

(١) ينظر تفسير كل من الثعلبي ٢/ ١٠٩، والقرطبي ٥/ ٢٢٢-٢٢٣.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٧٨.
(٣) تفسير الطبري ٥/ ٦١٥، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٢٤.

واختلف قولُ مالك فيمن سألَ ذاهباً وآيباً[١] ممّن ليست عادتُه ذلك في إقامته، فرَوَى عنه ابنُ وهب: لا بأس بذلك، وروى عنه ابنُ القاسم: لا أرى ذلك، ولا يخرج إلى الحجّ والغزوِ سائلاً.

وكره مالك أن تحجَّ النساء في البحر، واختُلف عنه في حجِّ النساء ماشياتٍ إذا قَدَرْنَ على ذلك.

ولا حَجَّ على المرأة إلا إذا كان معها ذو مَحْرَم، واختُلف إذا عَدِمَتْه، فقال الحسنُ والنَّخَعيُّ وأبو حنيفة وأصحابُه وأحمد وإسحاق: المَحْرَمُ من السَّبِيل، ولا حجَّ عليها إلا مع ذي مَحرَم. قال أبو حنيفة: إذا كان بينها وبين مكة مسيرةُ ثلاثة أيام فصاعداً.

وإذا وجدَتْ مَحْرَماً فهل لزوجها أن يمنعَها في الفرض؟ قال الشافعي: له أن يمنعَها، وعن مالك روايتان: المنعُ وعدمُه. والمَحْرَمُ مَنْ لا يجوزُ له نكاحُها على التأبيد بقَرابةٍ أو رَضاعٍ أو صِهر، والحرُّ والعبدُ والمسلمُ والذِّمِّيُّ في ذلك سواء، إلا أن يكون مجوسيًّا يعتقد إباحة نكاحها، أو مسلماً غيرَ مأمون، فلا تخرجُ ولا تسافرُ معه.

وقال مالك: تخرج مع جماعة نساء. وقال الشافعي: مع حُرَّةٍ ثقةٍ مسلمة. وقال ابنُ سِيرِين: مع رجل ثقةٍ من المسلمين. وقال الأوزاعيّ: مع قوم عُدُول، وتتخذُ سلَّماً تصعدُ عليه، وتنزلُ ولا يقربها رجل.

واختلفوا في وجوب الحجِّ مع وجود المُكُوس[٢] والغَرَامة، فقال سفيان الثوريُّ: إذا كان المَكْسُ ولو درهماً سقط فرضُ الحجّ عن الناس. وقال عبد الوهَّاب: إذا كانت الغرامة كثيرةً مُجْحِفةً سقط الفرض. فظاهرُ كلامه هذا أنها إذا كانت كثيرةً غير مُجْحِفةٍ به لِسَعَةِ مالِه فلا يسقط. وعلى هذا جماعةُ أهل العلم، وعليه مضت الأعصار[٣].

---

(١) في (أ) و(ح) و(ع) و(يه): وآتياً.

(٢) يعني الضرائب، وهي جمع مَكْس.

(٣) ينظر ما سبق من أقوال في المحرر الوجيز ١/٤٧٨-٤٨٠. وينظر أيضاً تفسير القرطبي ٥/٢٢٤-٢٢٥.

وأجمعوا على أنَّ المريضَ والمَعْضُوب[١] لا يلزمُهما المسيرُ إلى الحجّ، فقال مالك: يسقطُ عن المعضُوب فرضُ الحجّ ولا يُحَجُّ عنه في حال حياتِه، فإنْ وَصَّى أن يُحَجَّ عنه بعد موته؛ حُجَّ من الثُّلُث، وكان تطوُّعاً[٢].

وقال الثوريُّ وأبو حنيفة وأصحابُه وابنُ المبارك وأحمدُ وإسحاق: إذا كان قادراً على مال يستأجرُ به لزمه ذلك[٣].

وإنْ بَذَلَ أحدٌ له الطاعةَ والنِّيابةَ لزمَه ذلك[٤] ببذلِ الطاعة عند الشافعيِّ وأحمدَ وإسحاق، وقال أبو حنيفة: لا يلزمُهُ الحجُّ ببذل الطاعة.

ولو بذل له مالاً فالصحيح أنه لا يلزمُه قبولُه. ومسائلُ فروع الاستطاعة كثيرةٌ مذكورة في كتب الفقه.

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال ابن عبَّاس: بوجوب الحجّ، فمن زعمَ أنه ليس بفرضٍ عليه فقد كفر. وقال مثلَه الضحَّاك، وعطاء، والحسن، ومجاهد، وعمران القطان[٥].

وقال ابنُ عمر وغيرُه: ومَنْ كفرَ بالله واليوم الآخر.

وقال ابنُ زيد: ومَنْ كفرَ بهذه الآيات التي في البيت.

وقال السُّدِّيُّ وجماعة: ومَنْ كفرَ بأنْ وَجَدَ ما يحجُّ به فلم يحجَّ[٦]. فهذا كُفْرُ معصية، بخلاف القول الأوَّل، فإنه كُفْرُ جُحود، ويصيرُ على قول السُّدِّيّ كقوله: «مَنْ تركَ الصلاةَ فقد كفر»[٧]، «لا تَرْجِعُوا بعدي كفَّاراً يضربُ بعضُكم رقابَ

(١) هو الضعيف والزَّمِنُ الذي لا حِراك به. ينظر القاموس (عضب).
(٢) تفسير الثعلبي ٢/ ١١١، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٢٧.
(٣) تفسير القرطبي ٥/ ٢٢٨.
(٤) أي لزمه الحجُّ عنه. والكلام في المصدر السابق.
(٥) تفسير الطبري ٥/ ٦١٨-٦٢٠، والمحرر الوجيز ١/ ٤٨٠.
(٦) تنظر الأقوال السابقة في تفسير كل من الطبري ٥/ ٦٢١-٦٢٤، وابن عطية (المحرر الوجيز) ١/ ٤٨٠. وينظر أيضاً «زاد المسير» ١/ ٤٢٨-٤٢٩.
(٧) أخرجه بهذا اللفظ ابن حبان (١٤٦٣) من حديث بُريدة ﷺ مرفوعاً. وأخرجه أحمد (٢٣٠٥٥) بلفظ آخر، وينظر التعليق عليه ثمة.

بعض»[١] على أحد التأويلين.

وقال الزمخشريّ[٢]: ومنها ـ يعني من أنواع التأكيد والتشديد ـ قولُه: «ومَنْ كفرَ» مكان: ومَنْ لم يحجّ، تغليظاً على تارك الحجّ، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ماتَ ولم يَحُجَّ، فلْيَمُتْ إن شاء يهوديًا أو نصرانيًا»[٣] ونحوُه من التغليظ: «مَنْ تركَ الصلاةَ متعمِّداً فقد كفر»[٤]. انتهى كلامه. وهو من معنى كلام السُّدِّيّ.

وقال سعيد بنُ المسيِّب: ومَنْ كفرَ بكونِ البيت قِبلةَ الحقِّ[٥]. فعلى هذا يكون راجعاً إلى اليهود الذين قالوا حين حُوِّلت القبلة: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢] وكفروا بها وقالوا: لا نحجُّ إليها أبداً.

و«مَنْ» شَرْطيّة، وجوابُ الشرط الجملةُ المصدَّرة بالفاء، والرابطُ لها بجملة الشرط هو العموم الذي في قوله: «عن العالمين»، إذْ مَنْ كفر هو مندرجٌ تحت هذا العموم. وفي هذا اللفظ وعيدٌ شديد لمن كفر.

قال ابن عطيّة[٦]: والقصدُ بالكلام: فإنَّ الله غنيٌّ عنهم، ولكن عَمَّمَ اللفظَ ليَبْرُعَ المعنى ويتنبَّه الفِكْر على قدرة الله تعالى وسلطانه، واستغنائه من جميع الوجوه؛ حتى ليس به افتقارٌ إلى شيء، لا ربَّ سواه. انتهى.

وقال الزمخشريّ[٧]: ومنها ـ يعني من أنواع التأكيد ـ ذِكرُ الاستغناء عنه،

---

(١) قاله ﷺ في حَجَّة الوَدَاع، وأخرجه أحمد (٥٥٧٨)، والبخاري (٦١٦٦)، ومسلم (٦٦) وغيرهم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ورُوي من حديث غيره.

(٢) الكشاف ١/ ٤٤٩-٤٥٠.

(٣) أخرجه الترمذي (٨٢٣) من حديث عليّ رضي الله عنه مرفوعاً، بنحوه. وقال: حديث غريب، وفي إسناده مقال.

(٤) سلف نحوه قريباً. وذكر ابنُ حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٢٨ أن هذا الحديث رُوِيَ عن الرَّبيع بن أنس مرسلاً، ثم قال: «وهو أشبه بالصواب». قلت: وأخرج عبد الرزاق (٥٠٠٨) عن مكحول مرسلاً: «مَنْ تركَ الصلاةَ متعمِّداً فقد بَرِئَتْ منه ذِمَّة الله». وأخرج بإثره عن مكحول قولَه: مَنْ بَرِئَتْ منه ذمَّةُ الله فقد كفر.

(٥) قولُ ابن المسيب في تفسير البغوي ١/ ٣٣٠ و«الكشاف» ١/ ٤٤٩ بلفظ: نزلت في اليهود حيث قالوا: الحجُّ إلى مكة غير واجب.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٠.

(٧) الكشاف ١/ ٤٤٩.

وذلك ممَّا يدلُّ على المَقْتِ والسُّخط والخِذْلان. ومنها: قولُه: «عن العالمين» وإنْ لم يقل: عنه، وما فيه من الدَّلالة على الاستغناء عنه ببرهان، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناولَه الاستغناء[١] لا محالة، ولأنه يدلُّ على الاستغناء الكامل، فكان أدلَّ على عِظَم السُّخط الذي وقع عبارة عنه.

وقيل: في الكلام محذوف، تقديره: فإنَّ الله غنيٌّ عن حَجِّ العالَمين.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ قال الطبريّ[٢]: سببُ نزولها ونزولِ ما بعدَها إلى قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أن رجلاً من اليهود حاولَ الإغراء بين الأوس والخزرج، واسمُه شاسُ بنُ قيس، وكان أعمى[٣] شديدَ الضِّغْن والحسد للمسلمين، فرأى ائتلافَ الأوس والخزرج، فقال: ما لنا من قَرار بهذه البلاد مع اجتماع مَلأ بني قَيْلَة[٤]، فأمرَ شابًّا من اليهود أن يُذكّرهم يومَ بُعاث[٥] وما جرى فيه من الحرب، وما قالوه من الشِّعر، ففعل، فتكلَّموا حتى ثارُوا إلى السلاح بالحَرَّة[٦]، فقال رسول الله ﷺ: «أبِدَعْوَى الجاهليَّةِ وأنا بينَ أَظْهُرِكم؟!». ووعظَهم فرجَعُوا وعانقَ بعضُهم بعضاً. هذا ملخَّصُه، وذكرُوه مطوَّلاً.

وقال الحسن وقتادة والسُّدِّيّ: نزلت في أحبار اليهود الذين كانوا يصدُّون المسلمين عن الإسلام بأن يقولوا لهم: إنَّ محمداً ليس بالموصوف في كتابنا[٧].

---

(١) في (أ) و(ح) و(د٢) و(ع) و(يه): الاستغناء عنه.
(٢) تفسيره ٥/ ٦٢٦-٦٢٧. والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٤٨٠-٤٨١. وينظر تفسير الثعلبي ٢/ ١١٣-١١٤، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٣٤-٢٣٥.
(٣) كذا وقع في النسخ الخطية، وكذا هو في النهر المادّ للمصنف بهامش البحر ٣/ ١٣: وهو تصحيف. وفي المصادر: «وكان شيخاً قد عَسَا» أي: كَبِرَ وأسَنَّ. ينظر إضافة لما سلف في التعليق السابق: سيرة ابن هشام ١/ ٥٥٥، والرَّوض الأُنف ٢/ ٢٧٦، والاكتفاء ١/ ٤٧٤.
(٤) قَيْلَة: اسم أمّ الأوس والخزرج.
(٥) يوم بُعاث (بالعين المهملة) يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظَّفَر فيه يومئذ للأوس على الخزرج. ينظر سيرة ابن هشام ١/ ٥٥٥-٥٥٦.
(٦) موضع ظاهر المدينة. وعبارة ابن هشام: «موعدُكم الظاهرة، والظاهرة: الحَرَّة».
(٧) المحرر الوجيز ١/ ٤٨١. وأخرج الطبري أقوالهم ٥/ ٦٢٩-٦٣٠.

والظاهر نداءُ أهلِ الكتاب عموماً، والعامَّة وإن لم يعلموا فالحُجَّة قائمةٌ عليهم كقيامها على الخاصَّة، وكأنَّهم بتركِ الاستدلالِ والعدولِ إلى التقليد بمنزلة مَنْ علمَ ثم أنكر.

وقيل: المرادُ علماء أهل الكتاب الذين علموا صحَّة نبوَّته، واستدلَّ بقوله: ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ انتهى هذا القول.

وخُصَّ أهلُ الكتاب بالذِّكر دون سائر الكفار لأنهم هم المخاطَبون في صدر هذه الآية المُورَدُ الدلائلُ عليهم من التوراة والإنجيل على صحَّة نبوّةِ محمد ﷺ، والمجابُون عن شُبَهِهِمْ في ذلك، ولأنَّ معرفتهم بآيات الله أقوى لتقدُّم اعترافهم بالتوحيد وأصلِ النبوَّة، ولمعرفتِهم بما في كتبهم من الشهادة للرسولِ والبِشارةِ به.

ولمَّا ذكر تعالى أنَّ في البيت آياتٍ بيِّنات، وأوجبَ حَجَّهُ ثم قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ناسبَ أنْ يُنكر على الكفار كُفرَهم بآيات الله، فناداهم بـ «يا أَهْلَ الكتاب» لِيُنَبِّهَهُمْ على أنهم أهلُ الكتاب، فلا يناسبُ من يَعْتَزي إلى كتاب الله أن يكفر بآياته، بل ينبغي طواعيتُه وإيمانُه بها، إذْ له مرجع من العلم يصير إليه إذا اعترَتْه شُبهة.

والآيات هي العلامات التي نصبها الله تعالى دلالةً على الحقّ. وقيل: «آياتُ الله» هي آياتٌ من التوراة فيها صفةُ محمد ﷺ، ويحتمل القرآنَ ومعجزةَ رسولِ الله ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ جملة حاليَّة فيها تهديدٌ ووعيد، أي: إنَّ مَنْ كان اللهُ مطَّلعاً على أعماله مشاهِداً له في جميع أحواله لا يناسبُه أن يكفر بآياته، فلا يُجامع العلمَ بأنَّ الله مطَّلعٌ على جميع الأعمالِ الكُفرُ بآيات الله، لأنَّ مَنْ تيقَّن أنَّ الله مجازِيه لا يكاد يقعُ منه الكفرُ الذي هو أعظمُ الكبائر.

وأتت صيغة «شهيد» لتدلَّ على المبالغة بحسب المتعلَّق؛ لأن الشهادة يُرادُ بها العلم في حقّ الله تعالى، وصفاتُ الله من حيث هي هي لا تقبلُ التفاوتَ بالزيادة والنقصان، فإذا جاءت الصفة من أوصافه للمبالغة فذلك بحسب متعلَّقاتِها.

وتقدَّمَ الكلامُ على «لِمَ» وحذفِ الألف من «ما» الاستفهامية إذا دخل عليها الجارّ.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ متعلِّق بقوله: «شهيد»، و«ما» موصولة، وجوَّزُوا أن تكون مصدريَّة، أي: على عملكم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

لمَّا أنكرَ عليهم كفرَهم في أنفسهم وضلالهم ولم يكتفُوا حتى سَعَوْا في إضلال مَنْ آمَنَ؛ أنكرَ تعالى ذلك عليهم، فجمعوا بين الضلال والإضلال «مَنْ سنَّ سُنَّةً سيِّئةً فعليه وِزْرُها ووِزْرُ مَنْ عَمِلَ بها»[(١)].

و«صَدَّ» لازم ومتعدٍّ، يقال: صَدَّ عن كذا، وصَدَّ غيرَه عن كذا.

وقراءةُ الجمهور: «تَصُدُّون» ثلاثياً، وهو متعدٍّ، ومفعولُه: «مَنْ آمَنَ». وقرأ الحسن: «تُصِدُّون»[(٢)]، من «أَصَدَّ» عُدِّيَ «صَدَّ» اللازم بالهمزة، وهما لغتان.

وقال ذو الرُّمَّة:

أُناسٌ أَصَدُّوا الناسَ بالسيف عنهمُ[(٣)]

ومعنى «صَدَّ» هنا: صَرَفَ. و«سبيل الله» هو دينُ الله وطريقُ شرعه[(٤)]. وقد تقدَّم أنها تذكَّر وتؤنَّث، ومن التأنيث قولُه:

فلا تَبْعَدْ فكُلُّ فتى أناسٍ سيُصْبِحُ سالكاً تلك السَّبيلا[(٥)]

قال الراغب[(٦)]: وقد جاء «يا أهل الكتاب» دون «قُلْ»، وجاء هنا «قُلْ»،

---

(١) قطعة من حديث جرير بن عبد الله ﷺ أخرجه أحمد (١٩١٥٦)، ومسلم (١٠١٧) وغيرهما. وعبارة (د١): ووزرُ من عَمِلَها.

(٢) القراءات الشاذة ص٢٢، وتفسير الثعلبي ٢/ ١١٣، والكشاف ١/ ٤٤٩، والمحرر الوجيز ١/ ٤٨١.

(٣) هو صدرُ بيت له، وهو في ديوانه ٢/ ٧٧١، وفيه: بالضرب، بدل: بالسيف. وعجزُه فيه: صُدودَ السواقي عن رؤوس المخارم.

(٤) في (أ) و(ع): وطريقته، بدل: وطريق شرعه، وفي (د١): وطريق شرطه.

(٥) مجاز القرآن ١/ ٣١٩، والمذكر والمؤنث لابن الأنباري ١/ ٣٩٤، والزاهر ٢/ ١٩٧، وزاد المسير ١/ ٤٢٩.

(٦) تفسيره ص٧٤٦-٧٤٧ (جزء فيه تفسير آل عمران).

فبدون «قُلْ» هو استدعاء منه تعالى لهم إلى الحقّ، فجعلَ خطابَهم منه استلانةً للقوم ليكونوا أقربَ إلى الانقياد. ولما قصدَ الغَضَّ منهم ذكر «قُلْ» تنبيهاً على أنهم غيرُ مستأهلين[١] أن يُخاطبهم بنفسه وإنْ كان كلا الخطابَيْن وصلَ على لسان النبيّ ﷺ.

وأطلق «أهل الكتاب» تارة على المدح، وعلى الذمّ أخرى، وأهلُ القرآنِ والسُّنَّة لا ينطلق إلا على المدح، لأنَّ الكتابَ قد يُرادُ به ما افتعلوه دون ما أنزل الله، نحو ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩]، وقد يُراد به ما أنزل الله، وأيضاً فقد يصحُّ أن يقال على سبيل الذمّ والتهكّم، كما لو قيل: يا أهلَ القرآن! لمن لا يعملُ بمقتضاه. انتهى ما لُخِّص من كلامه.

والهاء في «تبغونها» عائدة على السبيل؛ قال الزجّاج والطبريّ: تطلبون لها اعوجاجاً[٢]، تقول العرب: ابْغِني كذا ـ بوصل الألف ـ أي: اطلبه لي[٣]، وأَبْغِني ـ بقطع الألف ـ أي: أَعِنِّي على طَلَبه.

قال الزمخشريّ: فإنْ قلت: كيف «تَبْغُونَها عِوَجاً» وهو محال؟

قلت: فيه معنيان: أحدُهما: أنكم تُلبِّسون على الناس حتى توهموهم أنَّ فيها عِوَجاً بقولكم: إنَّ شريعة موسى لا تُنْسَخُ، وبتغييركم صفةَ رسولِ الله ﷺ عن وجهها، ونحوِ ذلك.

والثاني: أنكم تُتعبون أنفسَكم في إخفاء الحقّ وابتغاءِ ما لا يتأتّى لكم من وجوه[٤] العِوَج فيما هو أقوم من كل مستقيم. انتهى.

وقيل: «تبغون» هنا من البَغْي، وهو التعدّي، أي: تَتَعَدَّوْنَ عليها، أو فيها،

---

(١) في (أ) و(ب) و(د٣) و(ع) والمطبوع: متساهلين. وهو تحريف.
(٢) بنحوه عند الزجاج ١/ ٤٤٧، والطبري ٥/ ٦٢٥، ونقله ابن عطية ١/ ٤٨١ أيضاً بنحوه.
(٣) لفظة «لي» من (ب) و(د٣)، وتحرفت في (د١) والمطبوع إلى: أي، ولم ترد في باقي النسخ. والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٤٨١ بنحوه.
(٤) المثبت من (ب) و(د٣)، وهو موافق لما في الكشاف ١/ ٤٤٩، والكلام منه، وفي باقي النسخ: وجود.

ويكون «عِوَجاً» على هذا التأويل نصبُه على الحال من الضمير في «تبغون» أي: عِوَجاً منكم وعدمَ استقامة. انتهى[١].

وعلى التأويل الأول يكون «عِوَجاً» مفعولاً به.

والجملة من قوله: «تبغونها عِوَجاً» تحتمل الاستئناف، وتحتمل أن تكون حالاً من الضمير في «تصدُّون»، أو من «سبيل الله» لأن فيها ضميرَيْن يرجعان إليهما.

﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أي: بالعقل نحو: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] أي: عارف بعقله، وتارة بالفعل[٢]. نحو: ﴿قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، وتارة بإقامة ذلك، أي: شهدتُم بنبوَّة محمد ﷺ قبل بَعْثِهِ على ما في التوراة من صفتِه وصدقِه.

وقال الزمخشريّ: «وأنتم شهداءُ» أنها سبيلُ الله التي لا يصدُّ عنها إلا ضالٌّ مُضِلّ، أو «وأنتم شهداء» بينَ أهل دينِكم، عُدولٌ يثقون بأقوالكم ويستشهدون[٣] في عظائم أمورِهم، وهم الأحبار. انتهى.

قيل: وفي قوله: «وأنتم شهداء» دلالة على أنَّ شهادة بعضهم على بعض جائزة لأنه تعالى سمَّاهم «شهداء»، ولا يصدُق هذا الاسم إلا على من تكون له شهادة، وشهادتُهم على المسلمين لا تجوزُ بإجماع، فتعيَّن وصفُهم بأن تجوز شهادةُ بعضِهم على بعض، وهو قول أبي حنيفة وجماعة، والأكثرون على أنَّ شهادتهم لا تُقبل بحال؛ وأنهم ليسوا من أهل الشهادة[٤].

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيدٌ شديدٌ لهم. وتقدَّم تفسير هذه الجملة، فأغنى عن إعادته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ لما أنكر تعالى عليهم صدَّهم عن الإسلام المؤمنين؛ حذَّر المؤمنين من إغواء الكفار

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٨١.
(٢) في تفسير الراغب ص٧٥٠ (والكلام فيه): بالعقد.
(٣) في الكشاف ١/ ٤٤٩ (والكلام فيه): ويستشهدونكم.
(٤) ينظر: التحقيق في أحاديث الخلاف ٢/ ٣٩١، وتفسير القرطبي ٨/ ٢٥٩-٢٦٣ (تفسير قوله تعالى في سورة المائدة ١٠٦: ذوا عَدْلٍ منكم أو آخرانِ من غيركم).

وإضلالهم، وناداهم بوصف الإيمان تنبيهاً على تباين ما بينَهم وبينَ الكفار، ولم يأتِ بلفظ «قل» ليكون ذلك خطاباً منه تعالى لهم وتأنيساً لهم. وأبرزَ نهيَه عن موافقتهم وطواعِيتِهم في صورة شرطيَّة لأنه لم تقع طاعتُهم لهم.

والإشارة بـ «يا أيها الذين آمنوا» إلى الأوس والخزرج بسبب نائرةِ[1] شاس بن قيس، وأطلقَ الطَّواعية ليدلَّ على عموم البدل، أي: إن تصدر منكم طواعيةٌ مّا في أيِّ شيء كان ممَّا يحاولونه من إضلالكم. ولم يقيِّد الطاعةَ بقصة الأوس والخزرج على ما ذُكر في سبب النزول.

والرَّدُّ هنا التصيير، أي: يُصَيِّرونكم، والكفر المشار إليه هنا ليس بكفرٍ حقيقةً؛ لأنَّ سبب النزول هو في إلقاء العداوة بين الأوس والخزرج، ولو وقعت لكانت معصيةً لا كفراً، إلا أن يفعلوا ذلك مستبيحين له، وقد يكون ذلك بتحسين أهلِ الكتاب لهم منهيًّا بعد منهيّ، واستدراجِهم شيئاً فشيئاً إلى أن يخرجوا عن الإسلام ويصيروا كافرين حقيقةً.

وانتصاب «كافرين» على أنه مفعول ثانٍ لـ «يَرُدُّ» لأنها هنا بمعنى «صَيَّر» كقوله:

فَرَدَّ شُعُورَهنَّ السُّودَ بِيضاً ... وردَّ وُجُوهَهُنَّ البِيضَ سُودَا[2]

وقيل: انتصب على الحال، والقولُ الأوّل أظهر.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ هذا سؤالُ استبعاد وقوع الكفر منهم مع هاتين الحالتين، وهما تلاوةُ كتاب الله عليهم، وهو القرآن الظاهرُ الإعجاز، وكينونةُ الرسول فيهم الظاهر على يديه الخوارقُ. ووجودُ هاتين الحالتين يُنافي الكفر، ولا يُجامعُه، فلا يتطرَّق إليهم كفرٌ مع ذلك، وليس المعنى أنه وقع منهم الكفر فوُبِّخُوا على وقوعه لأنهم مؤمنون، ولذلك نُودوا بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾. فليس نظير قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ [البقرة: ٢٨].

(١) النائرة، بالنون: الهائجة.

(٢) نُسب البيت في الحلل شرح أبيات الجمل ص٧٠، وشرح الحماسة للمرزوقي ٢/ ٩٤١، وخزانة الأدب ٢/ ٢٦٤ لعبد الله بن الزَّبِير الأسدي، ونُسب في عيون الأخبار ٣/ ٦٧ ومعجم الشعراء ص١٧٧ لفَضالة بن شريك. ونُسب في ذيل الأمالي ص١١٥ للكُميت بن معروف الأسدي.

والرسولُ هنا محمدٌ ﷺ بلا خلاف. والخطاب؛ قال الزجّاج: لأصحاب النبيّ ﷺ خاصّة؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ كان فيهم وهم يشاهدونه. وقيل: لجميع الأمّة لأن آثارَه وسنَّته فيهم وإنْ لم يشاهدوه[١].

قال قتادة: في هذه الآية عَلَمان بيِّنان: كتابُ الله ونبيُّ الله، فأمَّا نبيُّ الله فقد مضى، وأمَّا كتابُ الله فأبقاه الله بين أظهرهم رحمةً منه ونعمة، فيه حلالُه وحرامُه، وطاعتُه ومعصيتُه[٢].

وقيل: الخطاب للأوس والخزرج[٣] الذين نزلت هذه الآية فيما شجرَ بينهم على ما ذكره الجمهور.

وقرأ الجمهور: «تُتْلَى» بالتاء، وقرأ الحسن والأعمش: «يُتلى»، بالياء لأجل الفصل، ولأنَّ التأنيث غيرُ حقيقيّ، ولأنَّ الآيات هي القرآن.

قال ابن عطيّة[٤]: «وفيكم رسوله» هي ظرفيّة الحضورِ والمشاهدةِ لشخصِهِ ﷺ، وهو في أمَّته إلى يوم القيامة بأقواله وآثارِه.

وقال الزمخشريّ[٥]: «وكيف تكفرون» معنى الاستفهام فيه الإنكارُ والتعجيب، والمعنى: من أينَ يتطرَّقُ إليكم الكفرُ والحالُ أنَّ آياتِ الله ـ وهي القرآنُ المعجز ـ تُتْلَى عليكم على لسان الرسول غضَّةً طريَّة، وبين أظهُرِكم رسولُ الله يُنَبِّهكم ويعظُكم ويُزِيحُ شُبَهَكُم؟ انتهى.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال ابن جُرَيْج: ومَنْ يؤمنْ بالله[٦].

---

(١) الكلام بمعناه في معاني القرآن للزجّاج ١/٤٤٨، وتفسير أبي الليث ١/ ٢٨٧، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٣٦.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٦٣٤، وتفسير الثعلبي ٢/ ١١٤، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٣٦ (واللفظ له).

(٣) تفسير الثعلبي ٢/ ١١٤، والنكت والعيون ١/ ٤١٢. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٨٢: «الخطابُ بقوله: (يا أيها الذين آمنوا) عامٌّ في المؤمنين، والإشارةُ بذلك وقتَ نزولِه إلى الأوس والخزرج بسبب نائرة شاس بن قيس».. وسلف بعض هذا الكلام أول تفسير الآية.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٢. وفيه قراءة الحسن السالفة «يُتْلى» بالياء.

(٥) الكشاف ١/ ٤٥٠.

(٦) تفسير الطبري ٥/ ٦٣٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٨٢.

ويناسبُ هذا القولُ قولَه: «وكيف تكفرون». وقيل: يتمسَّكْ بالقرآن. وقيل: يلتجئ إليه. فيكون على هذا القول حَثًّا على الالتجاء إلى الله تعالى في دفع شرور الكفار.

وجواب «مَنْ»: «فقد هُدِيَ»، وهو ماضي اللفظ، مستقبَل المعنى. ودخلت «قد» للتوقّع، لأن المعتصِم بالله متوقِّع للهدى.

وذكروا في هذه الآيات من فنون البلاغة والفصاحة الاستفهامَ الذي يُراد به الإنكار في «لِمَ تكفرون»، «لِمَ تَصُدُّون»، «وكيف تكفرون».

والتكرارَ في «يا أهل الكتاب»، وفي اسم «الله» في مواضع، وفي «ما تعملون».

والطِّباق في الإيمان والكفر، وفي الكفر ـ إذ هو ضلال ـ والهداية. وفي العِوَج والاستقامة.

والتجوُّزَ بإطلاق اسم الجمع في ﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ فقيل: هو يهوديٌّ غيرُ معيَّن، وقيل: هو شاس(١) بن قيس اليهودي.

وإطلاقَ العموم والمرادُ الخصوص في «يا أيها الذين آمنوا» على قول الجمهور أنه خطاب للأوس والخزرج.

والحذفَ في مواضع.

* * *

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ
ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم
بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ

(١) في النسخ الخطية: شماس. وهو خطأ. وسلف اسمه قريباً.

إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾».

المفردات

«أصبح» من الأفعال الناقصة لاتِّصافِ الموصوف بالصفة وقتَ الصباح، وقد تأتي بمعنى «صار»، وهي ناقصة أيضاً، وتأتي أيضاً لازمة، تقول: أصبحتُ، أي: دخلتُ في الصباح. وتقول: أصبح زيد، أي: أقامَ في الصباح، ومنه: إذا سمعتَ بسُرَى القَيْنِ فاعلم أنه مُصْبح[1]، أي: مقيم في الصَّباح[2].

شفا الشيء: طَرَفُه وحَرْفُه، وهو من ذوات الواو، وتثنيتُه شَفَوان، وهو حَرْفُ كلّ جِرْم له مَهْوًى، كالحُفرة، والبئر والجُرُف[3]، والسَّقف، والجدار. ويُضاف في الاستعمال إلى الأعلى، نحو: «شَفَا جُرُف»، وإلى الأسفل، نحو: «شَفَا حُفرة»[4] ويقال: أشْفَى على كذا، أي: أشْرَفَ، ومنه: أشْفَى المريضُ على الموت، قال

---

(١) جمهرة الأمثال ١/ ٢٣، وفصل المقال ص٣٥، والمستقصى ١/ ١٢٤، ومجمع الأمثال ١/ ٤١. السُّرَى: سيرُ عامّة الليل، والقَيْن: الحدّاد. وأصلُ المثل ـ كما نقل الميداني في «مجمع الأمثال» عن الأصمعي ـ أن القَيْن بالبادية يتنقَّل في مياههم، فيُقيم بالموضع أياماً، فيكسَدُ عليه عملُه، ثم يقول لأهل الماء: إني راحلٌ عنكم الليلة؛ وإن لم يُرد ذلك، ولكنه يُشِيعُه ليستعملَه مَنْ يريد استعمالَه، فكثُر ذلك من قوله حتى صار لا يُصدَّق. يُضرب للرجل يعرفُه الناس بالكذب، فلا يُقبل قولُه وإن كان صادقاً.

(٢) قال الزمخشري في «المستقصى»: مُصْبِح، أي: مُصْبِحٌ عندك غير سارٍ عنك، ويُروى مُصَبِّح، أي: آتيك صباحاً.

(٣) الجُرُف (بضم الراء وسكونها): شِقُّ الوادي إذا حفرَ الماء من أسفله.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٥. وقولُه: «شَفَا حُفرة» في الآيات السالفة، وقولُه: «شَفَا جُرُف» في آية التوبة (١٠٩).

يعقوب: يقال للرجل عند موته، وللقمر عند مُحَاقِهِ[١]، وللشمس عند غروبها: ما بقي منه - أو منها - إلا شَفاً، أي: قليل.

الحُفْرَة معروفة، وهي واحدة الحُفَر، فُعْلَة بمعنى مفعولة، كغُرْفَة من الماء.

أنقذ: خلّص.

الابْيِضاضُ والاسْوِدادُ معروفان، ويقال: بَيِضَ فهو أبيض، وسَوِدَ فهو أسود، ويقال: هما أصل الألوان.

ذاقَ الشيءَ: استطعمَه، وأصلُه بالفم، ثم استُعير لكلّ ما يُحَسُّ ويُدْرَك على وجه التشبيه بالذي يُعرف عند التطعّم[٢]، تقول العرب: قد ذُقْتُ من إكرام فلان ما يُرغِّبُني في قصده، ويقولون: ذُقِ الفرسَ[٣] واعْرِفْ ما عندَه.

وقال تميم بن مُقبل:

أو كاهتزازِ رُدَيْنيٍّ تَذاوَقَهُ أيدي التِّجارِ فزادُوا مَتْنَهُ لِينَا[٤]

وقال آخر:

وإنَّ اللهَ ذاقَ حُلُومَ قيسٍ فلمَّا راءَ خِفَّتَها قَلاها[٥]

يعنون بالذَّوْق العِلْمَ إمَّا بالحاسّة وإمَّا بغيرها.

---

(١) المُحاق من الشهر ثلاثُ ليالٍ من آخره. وفي إصلاح المنطق ص٤٥٢ وتفسير القرطبي ٥/ ٢٥٢ (واللفظ أعلاه مثله): امّحاقه.

(٢) في (ب) و(د١) و(د٣): الطعم.

(٣) في (د١) والمطبوع: الفرق. وهو تحريف. والكلام في زاد المسير ١/ ٤٣٦. وجاء في اللسان (ذوق): ذُقتُ القَوْسَ: إذا جَذَبْتَ وَتَرَها لتنظر ما شدَّتُها.

(٤) ديوان تميم ص٣٢٨، وفيه: تَداوَلَه، بدل: تَذاوَقَه. وهو في الشعر والشعراء ص٤٥٨، والحماسة البصرية ٢/ ٩١ (وفيه: تَجاذَبَه)، وخزانة الأدب ٣/ ٨٦ (وفيه: تَعاوَرَهُ)، واللسان (ذوق). وقال ابن منظور: «المعروف تَداوَلَه». اهـ.

قوله: رُدَيْنيّ، أي: رُمح رُدَيْنيّ. والتِّجار، جمع تاجر. قال شارح الديوان: شَبَّهَ تثنّي النساء في مشيهنّ باهتزاز الرُّمح اللَّدْن.

(٥) جمهرة الأمثال ١/ ٢٤، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥ (وفيه: عقولَ تَيْم)، وزاد المسير ١/ ٤٣٧. قال العسكري في جمهرة الأمثال: ذُقْتُ الشيءَ: جَرَّبْتُه، وراءَ، بمعنى رأى.

ثَقِفْتُ الرَّجُلَ: غلبتُه وظَفِرْتُ به.

* * *

التفسير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ لما حذَّرهم تعالى من إضلال من يُريد إضلالَهم، أمَرَهم بمجامع الطاعات، فرهَّبهم أولاً بقوله: «اتقوا الله»، إذ التقوى إشارةٌ إلى التخويف من عذاب الله، ثم جعلَها سبباً للأمر بالاعتصام[١] بدين الله، ثم أردفَ الرَّهبة بالرغبة، وهي قولُه: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، وأعقبَ الأمرَ بالتقوى بنهيٍ هو من تمام التقوى[٢]، والأمرَ بالاعتصام بنهيٍ آخرَ هو من تمام الاعتصام.

قال ابن مسعود والرَّبيع وقتادة والحسن: «حقَّ تقاتِه» هو أن يُطاعَ فلا يُعصى، ويُذكَرَ فلا يُنْسَى، ويُشْكَرَ فلا يُكْفَر[٣]. ورُوِي مرفوعاً[٤].

وقيل: «حقَّ تقاته» اتِّقاء جميع معاصيه[٥].

وقال قتادة والسُّدِّيُّ وابنُ زيد والرَّبيع: هي منسوخة بقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] أُمِرُوا أوَّلاً بغاية التقوى حتى لا يقعَ إخلالٌ بشيء، ثم نُسِخ[٦].

وقال ابن عبَّاس وطاوس: هي مُحكمة، و«اتقوا الله ما استطعتُم» بيان لقوله: «اتقوا الله حقَّ تقاته»[٧].

---

(١) في (أ) و(ب) و(ع): سبباً للاعتصام.
(٢) قوله: بنهي هو من تمام التقوى، سقط من المطبوع.
(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١١٨٤٧)، والطبري ٥/ ٦٣٧ وغيرهما عن ابن مسعود موقوفاً. وذكره ابن عطية ١/ ٤٨٣ ثم قال: وكذلك عبَّر الرَّبيع بن خُثيم وقتادة والحسن.
(٤) ذكره مرفوعاً ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٤٣١، والقرطبي في تفسيره ٥/ ٢٣٨، وأشار إليه الزمخشري ١/ ٤٥٠. وصحَّح الحاكم الموقوفَ في المستدرك ٢/ ٢٩٤، وذكر النحاس في الناسخ والمنسوخ ١/ ١٢٨ أن الموقوف أجلُّ ما رُوِيَ في تفسير الآية وأصحُّه، وقال ابن كثير: إسناد صحيح موقوف.
(٥) النكت والعيون ١/ ٤١٣، وفيه بعدَه: وهو قولُ بعض المتصوِّفين.
(٦) تفسير الطبري ٥/ ٦٤٢-٦٤٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٨٢-٤٨٣.
(٧) ينظر تفسير الطبري ٥/ ٦٤١، والناسخ والمنسوخ للنحاس ١/ ١٣٠، والنكت والعيون ١/ ٤١٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٨٣.

وقيل: هو أن لا تأخذه في الله لومةُ لائم، ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه(١).

وقيل: لا يتَّقي اللهَ عبدٌ حقَّ تقاتِهِ حتى يَخْزُنَ لسانَه(٢).

وقال ابن عباس: المعنى: جاهِدُوا في الله حَقَّ جهادِه(٣).

وقال الماتريدي: وفي حرف حفصة: اعبُدُوا الله حقَّ عبادته. و«تُقاة» هنا مصدر، وتقدم الكلام عليه في ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال ابنُ عطيَّة(٤): ويصحُّ أن تكون التقاة في هذه الآية جمع فاعل وإن كان لم يتصرَّف منه، فيكون كـ «رُماة» و«رام»، أو يكون جمع «تقيّ»، إذ فعيل وفاعل بمنزلة، والمعنى على هذا: اتقوا الله كما يَحِقُّ أن يكون متَّقُوه المختصُّون به، ولذلك أضيفوا إلى ضمير الله تعالى. انتهى كلامه.

وهذا المعنى ينبو عنه هذا اللفظ، إذ الظاهر أن قوله: «حَقَّ تُقاتِه» من باب إضافة الصفة إلى موصوفها كما تقول: ضربتُ زيداً شديدَ الضَّرْب، أي: الضَّرْبَ الشديد، فكذلك هذا، أي: اتقوا الله الاتِّقاءَ الحقّ، أي: الواجبَ الثابت. أمَّا إذا جعلتَ التّقاة جمعاً فإنَّ التركيب يصير مثل: اضربْ زيداً حقَّ ضُرَّابه، فلا يدلّ هذا التركيب على معنى: اضربْ زيداً كما يَحِقُّ أن يكون ضُرَّابُه، بل لو صُرِّح بهذا التركيب لاحتيج في فهم معناه إلى تقدير أشياءَ يصحُّ بها المعنى، والتقدير: اضربْ زيداً ضرباً حقًّا كما يَحِقُّ أن يكون ضربُ ضُرَّابِه، ولا حاجةَ تدعو إلى تحميل اللفظ غيرَ ظاهرِهِ وتكلُّفِ تقاديرَ يصحُّ بها معنًى لا يدلُّ عليه ظاهرُ اللفظ.

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ظاهرُه النهيُ عن أن يموتوا إلا وهم متلبِّسون بالإسلام، والمعنى: دُومُوا على الإسلام حتى يُوافِيَكم الموت وأنتم عليه. ونظيرُه ما حكى سيبويه من قولهم: لا أُرَيَنَّك ههنا(٥)، وإنما المرادُ: لا تكن هنا فتكونَ

---

(١) أخرجه الطبري ٥/ ٦٤٠ بنحوه عن ابن عباس، ولفظه من الكشاف ١/ ٤٥٠.
(٢) أي: يحفظه. والقول في الكشاف ١/ ٤٥٠.
(٣) تفسير الطبري ٥/ ٦٤٠، وهو قطعة من الخبر المحال عليه قبل تعليق.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٢.
(٥) الكتاب ٣/ ١٠١. وينظر الأصول في النحو ١/ ٧٤.

رؤيتي لك. وقد تقدَّم لنا الكلام على هذا المعنى مستوفًى في سورة البقرة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ الآية [١٣٢].

والجملة من قوله: «وأنتم مسلمون» حاليَّة، والاستثناء مفرَّغ من الأحوال، التقدير: ولا تموتنَّ في حالٍ من الأحوال إلا على حالة الإسلام، ومجيئُها اسميَّة أبلغُ لتكرّر الضمير، وللمواجهة فيها بالخطاب وزعم بعضُهم أنَّ الأظهر في الجملة أن تكون الحال حاصلة قبل ومستصحبة. وأمَّا لو قيل: مسلمين؛ لدلَّ على الاقتران بالموت لا متقدّماً ولا متأخّراً.

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: استمسكوا وتحصَّنُوا. وحبلُ الله: العهدُ، أو القرآنُ، أو الدِّينُ، أو الطاعةُ، أو إخلاصُ التوبة، أو الجماعةُ، أو إخلاصُ التوحيد، أو الإسلام. أقوال للسلف يقرُب بعضها من بعض[(١)].

وروى أبو سعيد الخُدريُّ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «كتابُ الله هو حَبْلُ الله الممدودُ[(٢)] من السماء إلى الأرض»[(٣)].

ورُوِيَ عنه ﷺ أنه قال: «القرآن حَبْلُ الله المتينُ، لا تنقضي عجائبُه، ولا يَخْلُقُ على كثرة الرَّدّ، مَنْ قال به صَدَقَ، ومَنْ عَمِلَ به رَشَد، ومن اعتصمَ به هُدِيَ إلى صراط مستقيم»[(٤)].

وقولهم: اعتصمتُ بحبل فلان؛ يحتمل أن يكون من باب التمثيل، مَثَّلَ استظهارَه به ووثوقَه بامتساك[(٥)] المتدلّي من مكان مرتفع بحبلٍ وثيق يأمنُ انقطاعَه. ويحتمل أن يكون من باب الاستعارة، استعارَ الحبلَ للعهد، والاعتصامَ للوثوق بالعهد.

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٦٤٤-٦٤٦، والنكت والعيون ١/ ٤١٣-٤١٤، وتفسير البغوي ١/ ٣٣٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٨٣.
(٢) في (أ) و(ح) و(د٢) و(ع) و(يه): هو الحبل الممدود.
(٣) أخرجه الطبري ٥/ ٦٤٦. وبنحوه أطول منه أخرجه أحمد (١١١٠٤).
(٤) أخرجه الترمذي (٢٩٠٦) مطولاً من حديث علي ﷺ، وفيه ضعف، واللفظ الذي أورده المصنف هو لفظ الكشاف ١/ ٤٥٠-٤٥١. وينظر الكلام عليه في مسند أحمد (٧٠٤). وينظر أيضاً تفسير القرطبي ١/ ١٠.
(٥) في (أ) و(ع): باستمساك. وهما بمعنى، يقال: امتسكَ بالشيء واستمسكَ به.

وانتصاب «جميعاً» على الحال من الضمير في «واعْتَصِمُوا».

﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ نُهُوا عن التفرُّق في الدِّين والاختلافِ فيه كما اختلفت اليهود والنصارى.

وقيل: عن المخاصمة والمعاداة التي كانوا عليها في الجاهلية.

وقيل: عن أحداث ما يُوجب التفرُّق ويزولُ معه الاجتماع.

وقد تعلَّق بهذه الآية فريقان: نُفاة القياس والاجتهاد، كالنظَّام[١] وأمثالِه من الشيعة، ومثبتو القياس والاجتهاد، قال الأوّلون: غير جائز أن يكون التفرُّق والاختلاف ديناً لله تعالى مع نهي الله تعالى عنه. وقال الآخرون: التفرُّق المنهيُّ عنه هو في أصول الدين والإسلام[٢].

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾.

الخطاب لمشركي العرب. قاله الحسن وقتادة. يعني مَنْ آمنَ منهم، إذْ كان القويُّ يستبيحُ الضعيف[٣].

وقيل: للأوسِ والخزرجِ، ورُجِّحَ هذا بأنَّ العرب وقتَ نزول هذه الآية لم تكن مجتمعةً على الإسلام ولا مؤتلفة القلوب عليه، وكانت الأوس والخزرج قد اجتمعت على الإسلام وتألَّفت عليه بعد العداوة المُفْرِطة، والحروب التي كانت بينهم.

ولما تقدَّم أنه أمرَهم بالاعتصام بحبلِ الله ـ وهو الدين ـ ونهاهم عن التفرُّق، وهو أمرٌ ونهيٌ بديمومة ما هم عليه؛ إذْ كانوا معتصمين ومؤتلفين، ذكَّرَهم بأنَّ ما هم عليه من الاعتصام بدين الإسلام وائتلاف القلوب إنما كان سببُه إنعامَ الله عليهم بذلك، إذْ حصل منه تعالى خلقُ تلك الداعية في قلوبهم المستلزمة بحصول الفعل، فذكَّر بالنعمة الدنيوية والأخروية.

---

(١) هو إبراهيم بن سيَّار، أبو إسحاق البصري، رأس المعتزلة. مات سنة بضع وعشرين ومئتين. ينظر سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٤١-٥٤٢.

(٢) ينظر أحكام القرآن للجصَّاص ٢/ ٢٨.

(٣) ينظر النكت والعيون ١/ ٤١٤، وزاد المسير ١/ ٤٣٣.

أمَّا الدنيوية فتأليفُ قلوبِهم وصيرورتُهم إخوةً في الله[١] متراحمين بعدما أقاموا متحاربين متقاتلين نحواً من مئة وعشرين سنة إلى أن ألَّف الله بينهم بالإسلام.

وكانوا[٢] ـ أعني الأوسَ والخزرج ـ جدَّاهُم أخَوَانِ لأبٍ وأمّ.

وأمَّا الأخروية فإنقاذُهم من النار بعد أن كانوا أشْفَوْا على دخولها.

وبدأ أولاً بذكر النعمة الدُّنيوية لأنها أسبق بالفعل ولاتّصالها بقوله: «ولا تفرَّقُوا»، وصار نظير ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ﴾.

ومعنى «فأصبحتُم» أي: صِرْتُم، و«أصبح» كما ذكرنا في المفردات تستعمل لاتّصاف الموصوف بصفته وقتَ الصباح، وتستعمل بمعنى «صار»، فلا يُلحظُ فيها وقتُ الصباح، بل مطلقُ الانتقالِ والصيرورةِ من حالٍ إلى حال، وعليه قوله:

أصبحتُ لا أحملُ السِّلاحَ ولا أمْلِكُ رأسَ البعيرِ إنْ نَفَرَا[٣]

قال ابن عطيّة[٤]: «فأصبحتُم» عبارة عن الاستمرار وإن كانت اللفظةُ مخصوصةً بوقت مّا، وإنما خُصّت هذه اللفظة بهذا المعنى من حيث هي مبدأ النهار، وفيها مبدأ الأعمال، فالحال التي يُحِسُّها المرءُ من نفسه فيها هي الحال التي يستمرُّ عليها يومَه في الأغلب، ومنه قول الرَّبيع بن ضَبُع:

أصبحتُ لا أحملُ السلاحَ ولا

البيت. انتهى.

وهذا الذي ذكرَه من أنَّ «أصْبَحَ» للاستمرار وعلَّله بما ذكرَه، لا أعلم أحداً من النّحويِّين ذهبَ إليه، إنما ذكروا أنها تُستعمل على الوجهين اللذين ذكرتُهما[٥].

---

(١) في (أ) و(ح) و(د٢) و(ع) و(يه): إخوة في الدين.

(٢) في (د١) والمطبوع: وكان.

(٣) البيت للرَّبيع بن ضَبُع (كما سيرد) وقاله حين كَبِرَ وعَجَزَ. وهو في الكتاب ١/ ٨٩، وجمهرة الأمثال ١/ ٢٣٧، والحلل ١/ ٤٢ (ضمن قصيدة في خبر له)، والمحرر الوجيز ١/ ٤٨٤. ونُسب البيت في المستقصى ١/ ١٩٤ لشُرَيْح بن هانئ.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٤.

(٥) قال السمين في الدر المصون ٣/ ٣٣٥: هذا الذي ذكره ابنُ عطية معنًى حسنٌ، وإذا لم ينصّ =

وجوّزَ الحَوْفيُّ في «إذْ» أن ينتصبَ بـ «اذكُروا»، وجوَّزَ غيرُه أن ينتصب بـ «نعمة»، أي: إنعامَ الله، وبالعامل في «عليكم» إذْ جوَّزُوا أن يكون حالاً من «نعمة»، وجوَّزُوا أيضاً تعلُّق «عليكم» بـ «نعمة».

وجوَّزُوا في «أصبحتُم» أن تكون ناقصة، والخبر «بنعمته» والباء ظرفيَّة، و«إخواناً» حال يعمل فيها «أصبح»، أو ما تعلَّق به الجارُّ والمجرور. وأن يكون «إخواناً» خبر «أصبح»، والجارّ حالٌ يعمل فيه «أصبح»، أو حال من «إخواناً» لأنه صفة له تقدَّمت عليه، أو العامل فيه ما فيه من معنى: تآخيتُم بنعمته، وأن يكون «أصبحتُم» تامَّة، و«بنعمته» متعلّق به، أو في موضع الحال من فاعل «أصبحتُم» أو من «إخواناً»، و«إخواناً» حال.

والذي يظهر أنَّ «أصبح» ناقصة، و«إخواناً» خبر، و«بنعمته» متعلِّق بـ «أصبحتُم» والباء للسبب لا ظرفيَّة.

وقال بعض الناس: الأخُ في الدِّين يُجمعُ: إخواناً، ومن النَّسَب: إخوة. هكذا أكثر استعمالهم. وفي كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ والصحيح أنهما يقالان من النَّسب وفي الدِّين. وجَمعُ: «أخ» على «إخوة» لا يراه سيبويه[(١)]، بل «إخوة» عنده اسمُ جمع، لأنَّ فَعَلاً لا يُجمعُ على فِعْلَة، وابنُ السَّرَّاج يرى فِعْلَة[(٢)] إذا فُهم منه الجمعُ اسمَ جمع، لأنَّ فِعْلَة لم يطَّرِدْ جمعاً لشيء.

والضمير في «منها» عائد على النار، وهو أقربُ مذكور، أو على الحفرة. وحكى الطبريُّ[(٣)] أنَّ بعض الناس قال: يعود على الشَّفَا، وأنَّث من حيث كان الشَّفَا مضافاً إلى مؤنَّث كما قال جرير:

= عليه النحويُّون، لا يُدفع، لأنَّ النُّحاة غالباً إنما يتحدَّثون بما يتعلَّق بالألفاظ، وأما المعاني المفهومة من فحوى الكلام فلا حاجة لهم بالكلام عليها غالباً.

(١) الكتاب ٣/ ٦٢٥.

(٢) قوله: وابن السَّراج يرى فِعْلة، من (ب) و(د١) و(د٣) و(ز٢). وسقط من باقي النسخ. والكلام بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٤٨٥ دون هذا القول.

(٣) الكلام بمعناه في تفسير الطبري ٥/٦٥٨، ونقله المصنف عن ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٨٥ بنحوه.

أَرَى مَرَّ السِّنِينَ أَخَذْنَ مِنِّي كَمَا أَخَذَ السِّرَارُ مِنَ الهِلالِ[(١)]

قال ابنُ عطيَّة[(٢)]: وليس الأمر كما ذكروا، لأنه لا يُحتاجُ في الآية إلى هذه الصناعة، إلا لو لم يجد معاداً للضمير إلا الشَّفا. وأمَّا ومَعَنا لفظٌ مؤنَّث يعودُ الضميرُ عليه ويعضُده المعنى المتكلَّم فيه؛ فلا يُحتاج إلى تلك الصناعة. انتهى.

وأقول: لا يحسُنُ عودُه إلا على الشَّفا؛ لأنَّ كينونتَهم على الشَّفا هو أحدُ جزأي الإسناد، فالضميرُ لا يعود إلا عليه، وأمَّا ذِكْر الحُفرة فإنَّما جاءت على سبيل الإضافة إليها، ألا ترى أنك إذا قلت: كان زيدٌ غلامَ جعفر، لم يكن جعفر محدَّثاً عنه، وليس أحدَ جزأي الإسناد، وكذلك لو قلت: ضربَ زيدٌ غلامَ هند، لم تحدِّث عن هند بشيء، وإنما ذكرتَ جعفراً وهنداً مخصِّصاً للمحدَّث عنه. وأمَّا ذِكْرُ النار فإنما جيء بها لتخصيص الحفرة، وليست أيضاً أحدَ جزأي الإسناد، ولا محدَّثاً عنها، وأيضاً فالإنقاذ من الشَّفا أبلغُ من الإنقاذ من الحفرة ومن النار؛ لأنَّ الإنقاذ منه يستلزمُ الإنقاذَ من الحفرة ومن النار، والإنقاذُ منهما لا يستلزم الإنقاذَ من الشَّفا، فعَوْدُه على الشَّفا هو الظاهر من حيث اللفظُ ومن حيث المعنى. ومُثِّلَتْ حياتُهم التي يُتوقَّع بعدَها الوقوعُ في النار بالقعود على حَرْفها مُشْفِين على الوقوع فيها[(٣)].

وقيل: شبَّه تعالى كُفرَهم الذي كانوا عليه وحَرْبَهم المُدْنِيةَ من الموت بالشَّفا؛ لأنهم كانوا يسقطون في جهنم دَأَباً، فأنقذَهم الله بالإسلام[(٤)].

وقال السُّدِّيُّ: بمحمد ﷺ[(٥)].

وقال أعرابي لابن عباس وهو يفسِّر هذه الآية: واللهِ ما أنقذَهم منها وهو يريدُ

(١) ديوان جرير (شرحه) ص٥٤٦. وفيه وفي المصدرين السابقين: رأت، بدل: أرى. قوله: السِّرار (بكسر السين وفتحها أيضاً): آخر ليلة من الشهر.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٥.

(٣) الكشاف ١/ ٤٥١-٤٥٢.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٥. والكلام بمعناه أطول منه في تفسير الطبري ٥/ ٦٥٧. ويعني بحربهم: حرب الأوس والخزرج.

(٥) تفسير الطبري ٥/ ٦٥٩، وزاد المسير ١/ ٤٣٤.

أن يُوقعهم فيها. فقال ابن عباس: خُذُوها من غير فقيه[1].

وذكر المفسِّرون هنا قصة ابتداء إسلام الأنصار وما شَجَرَ بينهم بعد الإسلام وزوالَ ذلك ببركات رسول الله ﷺ[2].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ تقدَّم الكلام على مثل هذه الجملة إلا أنَّ آخِر هذه مختتم بالهداية لمناسبة ما قبلَها.

وقال الزمخشري[3]: «لعلكم تهتدون»: إرادةَ أن تزدادوا هدًى.

وقال ابن عطيّة[4]: وقوله: «لعلكم تهتدون» [تَرَجٍّ] في حقّ البشر، أي: مَنْ تأمَّلَ منكم الحالَ رجاءَ الاهتداء. فالزمخشريُّ جعلَ التَّرجِّيَ مجازاً عن إرادة اللهِ زيادةَ الهدى، وابنُ عطية أبقى التَّرجِّيَ على حقيقته، لكنه جعلَ ذلك بالنسبة إلى البشر لا إلى الله تعالى؛ إذ يستحيلُ الترجِّي من الله تعالى.

وفي كلا القولين المجاز؛ أمّا في قول الزمخشريّ فحيث جعلَ الترجِّيَ بمعنى إرادة الله، وأمّا في قول ابن عطيّة فحيث أسندَ ما ظاهرُه الإسناد إليه تعالى إلى البشر.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

الأمر متوجِّهٌ لمن تَوَجَّهَ الخطابُ عليهم قبلُ[5]، وهم الأوس والخزرج على ما ذكره الجمهور، وأمرُه لهم بذلك أمرٌ لجميع المؤمنين ومَن تابعَهم إلى يوم القيامة، فهو من الخطاب الخاصّ الذي يُرادُ به العموم، ويحتمل أن يكون الخطابُ عامًّا فيدخلُ فيه الأوس والخزرج.

والظاهرُ أن قوله: «منكم» يدلُّ على التبعيض ـ وقاله الضحّاك والطبريّ[6] ـ لأنَّ

---

(١) تفسير الثعلبي ٢/ ١٢٤.
(٢) ينظر تفسير كل من الطبري ٥/ ٦٥١-٦٥٦، والثعلبي ٢/ ١١٨-١٢٣، والبغوي ١/ ٣٣٤-٣٣٨.
(٣) الكشاف ١/ ٤٥٢.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٥٨. وما سيرد بين حاصرتين منه.
(٥) المثبت من (د١)، ولم ترد اللفظة في (ز٢) و(يه)، وتحرفت في باقي النسخ إلى: قيل.
(٦) قالاه بمعناه، والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٤٨٥ ولفظُه: قال الضحاك والطبري وغيرهما:
=

الدعاء إلى الخير والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر لا يصلُح إلا لمن عَلِمَ المعروفَ والمنكر وكيف يُرتِّبُ الأمرَ في إقامته وكيف يُباشرُ، فإنَّ الجاهلَ ربَّما أمرَ بمنكر ونَهَى عن معروف، وربَّما عرفَ حُكماً في مذهبه مخالفاً لمذهب غيره، فينهى عن غير منكر، ويأمرُ بغير معروف، وقد يُغلِظ في موضع اللِّين، وبالعكس[١].

فعلى هذا تكون «من» للتبعيض، ويكون متعلَّق الأمر بعضَ الأمة، وهم الذين يَصْلُحون لذلك.

وذهب الزجَّاج إلى أنَّ «من» لبيان الجنس، وأتى على زعمه بنظائرَ من القرآن[٢] وكلامِ العرب، ويكون متعلَّق الأمر جميعَ الأمة، يكونون يدعون جميعَ العالَم إلى الخير: الكفارَ إلى الإسلام، والعصاةَ إلى الطاعة.

وظاهرُ هذا الأمر الفَرْضِيَّةُ، فالجمهورُ على أنه فرضُ كفاية، فإذا قام به البعض سقط عن الباقين.

وذهب جماعة من العلماء إلى أنه فرضُ عَيْن، فيتعيَّن على كلِّ مسلم الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر متى قَدَرَ على ذلك وتمكَّن منه.

واختلفوا في الذي يُسقط الوجوب، فقال قوم: الخشية على النفس، وما عدا ذلك لا يُسقطُه.

وقال قوم: إذا تحقَّق ضرباً أو حَبْساً أو إهانةً، سقط عنه الفرض، وانتقل إلى النَّدْب، والأمرُ والنهيُ وإنْ كانا مطلقَيْن في القرآن فقد تقيَّد ذلك بالسُّنَّة بقوله ﷺ: «مَنْ رأى منكم منكراً فَلْيُغَيِّرْهُ بيدِه، فإنْ لم يَسْتَطِعْ فبلسانه، فإنْ لم يَسْتَطِعْ فبقلبِه، وذلك أضعفُ الإيمان»[٣].

= أُمِرَ المؤمنون أن تكون منهم جماعة بهذه الصفة... قال ابنُ عطية: فعلى هذا القول «من» للتبعيض.

(١) الكشاف ١/ ٤٥٢.

(٢) مثل قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٤٨٥-٤٨٦ بأطول منه، وهو بمعناه في معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٥٢.

(٣) أخرجه أحمد (١١٠٧٣)، ومسلم (٤٩) وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفيه قصة.

ولم يدفع أحدٌ من علماء الأمة سلفِها وخَلَفِها وجوبَ ذلك إلا قومٌ من الحَشَويَّة وجُهَّالِ أهلِ الحديث، فإنَّهم أنكروا قتالَ[١] الفئة الباغية والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر بالسلاح مع ما سمعوا من قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] وزعموا أن السلطان لا يُنكَرُ عليه الظلمُ والجَوْر وقتلُ النفس التي حرَّم الله، وإنما يُنكَر على غير السلطان بالقول، أو باليد بغير سلاح.

وقد ذكر أبو بكر الرازيّ[٢] في «أحكامه» فصلاً مشبعاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ذكر فيه أنَّ دماء أصحاب الضرائب والمُكُوس مباحة، وأنه يجب على المسلمين قتلُهم، ولكلِّ واحدٍ من الناس أن يقتلَ من قَدَرَ عليه منهم من غير إنذار ولا تقدُّم بالقول.

﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ هو الإسلام؛ قاله مقاتل. أو العمل بطاعة الله؛ قاله أبو سليمان الدمشقي. أو الجهاد والإسلام[٣].

وقرأ الجمهور: «وَلْتَكُنْ» بسكون اللام. وقرأ أبو عبد الرحمن والحسن والزُّهريُّ وعيسى بن عُمر وأبو حَيْوَة بكسرها[٤]. وعلة بنائها على الكسر مذكورة في النحو.

وجوَّزُوا في «وَلْتَكُنْ» أن تكون تامَّة، فيكون «منكم» متعلّقاً بها أو بمحذوف على أنه حال، إذ لو تأخَّرَ لكان صفة لـ «أمَّة»، وأن تكون ناقصة، و«يَدْعُون» الخبر، وتعلق «مِنْ» على الوجهين السابقين، وجوّزُوا أيضاً أن يكون «منكم» الخبر، و«يَدْعُون» صفة.

ومحطّ الفائدة إنما هو في «يَدْعُون» فهو الخبر، و«يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» ذكرَ أوّلاً الدعاءَ إلى الخير، وهو عامٌّ في التكاليف من الأفعال والتروك، ثم جيء بالخاصّ إعلاماً بفضله وشرفه، كقوله: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

---

(١) في (د١) والمطبوع: فعال.
(٢) هو الجصّاص، وكلامه في أحكام القرآن ٢/ ٣٢.
(٣) القولان الأولان في زاد المسير ١/ ٤٣٥. ولم أقف على الثالث، لكن لفظة «الإسلام» فيه سلفت في القول الأول عن مقاتل.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٥.

وفسَّر بعضُهم المعروف بالتوحيد، والمنكر بالكفر، ولا شكَّ أن التوحيدَ رأسُ المعروف، والكفرَ رأسُ المنكر، ولكنَّ الظاهر العموم في كلِّ معروف مأمورٍ به في الشرع، وفي كلِّ منهيٍّ نُهيَ عنه في الشرع.

وذكر المفسِّرون أحاديثَ مرويَّةً في فضل مَنْ يأمرُ بالمعروف وينهى عن المنكر، وفي إثم من تركَ ذلك، وآثاراً عن الصحابة وغيرِهم في ذلك.

وما طريقُ الوجوب؛ هل السمعُ وحدَه كما ذهبَ إليه أبو هاشم، أم السمع والعقل كما ذهب إليه أبوه أبو علي[1]؟ وهذا على آراء المعتزلة[2].

وما[3] شرائطُ النهي والوجوبِ ومَنْ يُباشرُ وكيفيةُ المباشرة؛ وهل يَنْهَى عمَّا يرتكبُه[4]؟ ولم تتعرَّض الآية لشيء من ذلك، وموضوعُ هذا كله علمُ الفقه.

وقرأ عثمان وعبدُ الله وابنُ الزُّبير: «ويَنهَوْن عن المنكر ويستعينون اللهَ على ما أصابهم»[5]. ولم تثبت هذه الزيادة في سواد المصحف، فلا تكون قرآناً. وفيها إشارةٌ إلى ما يُصيب الآمرَ بالمعروف والناهيَ عن المنكر من الأذى كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧].

---

(١) أبو علي: هو محمد بن عبد الوهَّاب الجُبَّائي شيخ المعتزلة، توفي بالبصرة سنة (٣٠٣)، وابنُه أبو هاشم هو عبد السلام بن محمد، توفي سنة (٣١١) ينظر سير أعلام النبلاء ١٤/ ١٨٣، و١٥/ ٦٣.

(٢) الكشاف ١/ ٤٥٢. وينظر مجمع البيان ٤/ ١٦١.

(٣) في (أ) و(ح) و(د٢) و(ع) و(يه): وأمَّا.

(٤) أي: يَنهَى مرتكبُ المنكرِ غيرَه عن المنكَر نفسِه. قال الزمخشريّ في الكشاف ١/ ٤٥٣: يجب عليه (أي النَّهيُ)؛ لأن تركَ ارتكابه وإنكارَه واجبان عليه، فبتركه أحدَ الواجبين لا يَسقط عنه الواجبُ الآخر.

(٥) أخرجها الطبري في تفسيره ٥/ ٦٦١ عن عثمان وابن الزبير ﷺ. وأوردها الثعلبي ٢/ ١٢٥ عنهما، وأوردها أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٨٦ عنهما وعن ابن مسعود ﷺ. وذكر القرطبيُّ ٥/ ٢٥٣ عن أبي بكر ابن الأنباري أن هذه الزيادة تفسيرٌ من ابن الزُّبير ومن كلامِه، غلطَ فيه بعضُ الناقلين فألحقَه بألفاظ القرآن. وذكر أيضاً أنَّ عثمان ﷺ لم يُثبت هذه الزيادة في مصحفه ـ وإنْ كانت قد رُويت عنه ـ لأنه إنما ذكرها واعظاً بها، ومؤكِّداً ما تقدَّمَها من كلام ربِّ العالمين جلَّ وعلا.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ تقدَّم الكلام على هذه الجملة في أول البقرة. وهو تبشيرٌ عظيمٌ ووَعْدٌ كريمٌ لمن اتّصفَ بما قَبلَ هذه الجملة.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَـٰتُۚ﴾ هذه والآيةُ قبلَها كالشرح لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ فشرحَ الاعتصامَ بحبلِ الله بقوله: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٌ﴾ ولا سيما على قول الزجَّاج، وشرحَ ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ﴾.

قال ابن عباس: هم الأممُ السالفة التي افترقت في الدين. وقال الحسن: هم اليهود والنَّصارى؛ اختلفوا وصارُوا فِرَقاً. وقال قتادة: هم أصحابُ البِدَعِ من هذه الأمَّة[١]. زاد الزمخشريّ[٢]: وهم المُشبِّهة والمُجبِّرة والحَشَويَّة وأشباهُهم.

وقال أبو أُمامة: هم الحَرُوريَّة. ورُوي في ذلك حديث[٣].

قال بعض معاصرِينا: في قول قتادة وأبي أُمامة نظر، فإنَّ مبتدعة هذه الأمة والحَرُوريَّة لم يكونوا إلا بعد موت النبيّ ﷺ بزمان، وكيف نهى الله المؤمنين أن يكونوا كمَثَلِ قوم ما ظهرَ تفرُّقهم ولا بِدَعُهم إلا بعد انقطاع الوحي وموتِ النبيّ ﷺ؟! فإنك لا تنهى زيداً أن يكون مثل عَمرو إلا بعد تقدُّم أمر مكروه جرى من عَمرو، وليس لقوليهما وجهٌ إلا أن يكون «تفرَّقُوا واختلفوا» من الماضي الذي أُريدَ به المستقبل، فيكون المعنى: ولا تكونوا كالذين يتفرَّقون ويختلفون، فيكون ذلك من إعجاز القرآن وإخباره بما لم يقع، ثم وقع. انتهى كلامه.

و«البينات» على قول ابن عباس آياتُ الله التي أُنزلت على أهل كلِّ ملَّة، وعلى قول الحسن التوراة، وعلى قول قتادة وأبي أُمامة القرآن.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يتّصفُ عذابُ الله بالعِظَم إذ هو أمرٌ نسبيّ تتفاوتُ فيه رُتب المعذَّبين، كعذاب أبي طالب، وعذابِ العُصاة من أمة محمد ﷺ.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٦. وينظر زاد المسير ١/ ٤٣٥، وتفسير البغوي ١/ ٣٣٩.
(٢) الكشاف ١/ ٤٥٣.
(٣) رواه الترمذي (٣٠٠٠)، وفيه أن أبا أمامة رأى رؤوساً منصوبة على درج دمشق فقال: كلاب النار، شرُّ قتلى تحت أديم السماء. . . ورفع الحديث. وينظر تفسير البغوي ١/ ٣٣٩.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ الجمهور على أن ابيضاضَ الوجوه واسودادَها على حقيقة اللون، والبياضُ من النور، والسوادُ من الظُّلمة؛ قال الزمخشريّ: فمن كان من أهل نور الدين[1] وُسِمَ ببياض اللون وإسفارِه وإشراقِه، وابيضَّت صحيفتُه، وأشرقت، وسعى النورُ بين يديه وبيمينه؛ ومن كان من أهل ظُلمةِ الباطلِ وُسِمَ بسواد اللون وكُسوفِه وكَمَدِه، واسودَّت صحيفتُه وأظلمت، وأحاطت به الظُّلمة من كل جانب. انتهى كلامه.

وقال ابن عطية: وبياضُ الوجوه عبارةٌ عن إشراقها واستنارتها وبِشْرِها برحمة الله. قاله الزجَّاج[2] وغيره. ويحتمل عندي أن تكون من آثار الوضوء كما قال النبيُّ ﷺ: «أنتم الغُرُّ المُحَجَّلُون من آثار الوضوء»[3]. وأما سَواد الوجوه؛ فقال المفسرون: هو عبارة عن ارتدادها وإظلامِها بغُمَم العذاب، ويحتمل أن يكون ذلك تسويداً يُنزلُه الله تعالى بهم على جهة التشويه والتمثيلِ بهم؛ على نحو حَشْرِهِم زُرْقاً[4]، وهذه أقبحُ طلعة، ومن ذلك قول بشار:

وللبخيلِ على أموالِهِ عِلَلٌ زُرْقُ العيونِ عليها أوْجُهٌ سُودُ[5]

انتهى كلامه.

وقال قوم: البياضُ والسَّوادُ مَثَلان عُبِّرَ بهما عن السرور والحُزن، كقوله تعالى: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ [النحل: ٥٨]، وكقول العرب لمن نال أُمنيَّته: ابيضَّ وجهُه، ولمن جاء خائباً: جاء مسودَّ الوجه.

(١) في الكشاف ١/ ٤٥٣: نور الحق.
(٢) معاني القرآن له ١/ ٤٥٣. والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٤٨٧، وفيه قال، بدل: قاله، وهو خطأ.
(٣) أخرجه بنحوه أحمد (٨٤١٣) والبخاري (١٣٦) ومسلم (٢٤٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. ولفظُه لابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٨٧ والكلام منه.
(٤) قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢].
(٥) ديوان بشار ٢/ ١٩٢، والأغاني ٣/ ١٩٥، والبيت فيهما مع خمسة أبيات أخرى في هجاء العبّاس أخي أبي جعفر المنصور. ونُسب البيت في الشعر والشعراء ٢/ ٧٧٩ لحمَّاد عَجْرَد، ونُسب في الأمالي ٢/ ١٣٥ وجمهرة الأمثال ٢/ ٢٥٠ (وفيهما قصة) والحماسة البصرية ٢/ ٦٣ لكلثوم بن عَمرو العَتَّابي. وينظر التنبيه على أوهام أبي علي ص١٠٦-١٠٧.

وقال أبو طالب:

وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغمامُ بوَجْهِهِ[(١)]

وقال امرؤ القيس:

وأوْجُهُهُمْ عندَ المشاهدِ غُرَّانُ[(٢)]

وقال زهير:

وأبيضَ فيَّاضٍ يَدَاهُ غمامةٌ[(٣)]

وبدأ بالبياض لشرفه، وأنه الحالةُ المُثلى، وأسندَ الابيضاض والاسوداد إلى الوجوه ـ وإن كان جميع الجسد أبيض أو أسود ـ لأنَّ الوجه أوَّل ما يلقاك من الشخص وتراه، وهو أشرفُ أعضائه.

والمرادُ وجوهُ المؤمنين ووجوهُ الكافرين. قاله أُبيُّ بنُ كعب. وقيل: وجوهُ المهاجرين والأنصار ووجوهُ بني قُريظة والنَّضِير. وقيل: وجوهُ أهلِ السُّنَّة ووجوهُ أهلِ البدعة. وقال عطاء: وجوهُ المخلصين ووجوه المنافقين. وقيل: وجوهُ المؤمنين ووجوهُ أهلِ الكتاب والمنافقين. وقيل: وجوهُ المجاهدين ووجوه الفُرَّارِ من الزَّحف. وقيل: تبيضُّ بالقناعة وتسودُّ بالطَّمع. وقال الكلبيّ: تُسْفِرُ وُجوهُ مَن قَدَرَ على السُّجود إذا دُعوا إليه، وتسودُّ وُجوهُ مَنْ لم يقدر عليه[(٤)].

---

(١) وعَجُزُه: ثِمالُ اليتامى عصمةٌ للأراملِ. وهو من قصيدة مطوَّلة لأبي طالب، أوردها ابنُ هشام في السيرة ١/ ٢٧٢-٢٨٠.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٨٣. وصدر البيت: ثيابُ بني عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ. قوله: غُرَّان، هو جمع أغرّ، أي: الأبيض.

(٣) هو صدر بيت له، وعَجُزُه: على مُعْتَفِيه ما تُغِبُّ نَوافِلُهْ. وهو في ديوانه (بشرح ثعلب) ص١٣٩. قال ثعلب: يداه غمامة، أي: تُمطر يداه بالإعطاء كما تُمطر الغمامة... والمُعْتَفُون: الذي يأتونه يطلبون ما عنده.

(٤) ينظر تفسير كل من الطبري ٥/ ٦٦٥-٦٦٦، والثعلبي ٢/ ١٢٧، والبغوي ١/ ٣٣٩-٣٤٠، والزمخشري ١/ ٤٥٣-٤٥٤، وابن عطية ١/ ٤٨٧، والقرطبي ٥/ ٢٥٥-٢٥٦. ولفظ قول عطاء في المصادر: «تبيضُّ وجوه المهاجرين والأنصار، وتسودُّ وجوه بني قريظة والنَّضير» وليس القول الذي أورده عنه المصنف. وفيها بعض الأقوال بالمعنى، ولم أقف على بعضها. ولفظة «عليه» أعلاه (آخر قول الكلبي) من (أ) و(ع).

واختلفوا في وقت ابيضاض الوجوه واسودادها؛ فقيل: وقت البعث من القبور. وقيل: وقت قراءة الصُّحُف. وقيل: وقت رُجحان الحسنات والسَّيِّئات في الميزان. وقيل: عند قوله تعالى: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] وقيل: وقت أن يُؤمرَ كلُّ فريق بأن يتبع معبودَه[١].

والعامل في «يومَ تبيضُّ» ما يتعلَّق به «ولهم عذابٌ عظيم» أي: وعذابٌ عظيمٌ كائنٌ لهم يومَ تبيضُّ وجوهٌ.

وقال الحَوْفيّ: العاملُ فيه محذوف تدلُّ عليه الجملة السابقة، أي: يُعذَّبون يومَ تبيضُّ وجوهٌ.

وقال الزمخشريّ: بإضمار: اذكروا[٢]، أو بالظرف، وهو «لهم».

وقال قوم: العاملُ «عظيم»[٣]، وضُعّف من جهة المعنى لأنه يقتضي أنَّ عِظَم العذاب في ذلك اليوم[٤]. ولا يجوز أن يعمل فيه «عذاب» لأنه مصدر قد وُصف.

وقرأ يحيى بن وثّاب وأبو رَزِين العُقيليّ وأبو نَهِيك: «تِبْيَضُّ» و«تِسْوَدُّ»، بكسر التاء فيهما[٥]، وهي لغةُ تميم.

وقرأ الحَسَن والزُّهْريّ وابنُ مُحصين وأبو الجوزاء: «تَبياضُّ» و«تَسوادُّ» بألفٍ فيهما[٦]. ويجوزُ كسرُ التاء في «تبياضُّ» و«تسوادُّ»، ولم يُنقل أنه قُرِئ بذلك.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ هذا تفصيلٌ لأحكام مَنْ تبيضُّ وجوهُهم وتسودُّ، وابتُدئ بالذين اسودَّت للاهتمام

---

(١) ينظر تفسير القرطبي ٥/ ٢٥٤.

(٢) في (أ) و(ع) والكشاف ١/ ٤٥٣: اذكر.

(٣) الإملاء ١/ ١٤٥.

(٤) قال السمين في الدرّ المصون ٣/ ٣٣٩: هذا التضعيف ضعيف، لأنه إذا عظُم في هذا اليوم ففي غيره أولى. وينظر روح المعاني ٤/ ٣٧٧.

(٥) تفسير الثعلبي ٢/ ١٢٦، والمحرر الوجيز ١/ ٤٨٧، وزاد المسير ١/ ٤٣٥، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٥٤-٢٥٥.

(٦) القراءات الشاذة ص٢٢، والمصادر السابقة.

بالتحذير من حالهم ولمجاورة قوله: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، وللابتداء بالمؤمنين والاختتام بحكمهم، فيكون مطلع الكلام ومَقطعُه[١] شيئاً يَسُرُّ الطبع، ويشرحُ الصدر.

وقد تقدَّم الكلام على «أمَّا» في أول البقرة[٢]، وأنها حرفُ شرط يقتضي جواباً، ولذلك دخلت الفاء في خبر المبتدأ بعدَها. والخبرُ هنا محذوف للعلم به، والتقدير: فيقال لهم: أكفرتُم. كما حُذف القول في مواضعَ كثيرة، كقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] أي: يقولون: سلام عليكم. ولما حُذف الخبر حُذفت الفاء، وإن كان حذفُها في غير هذا لا يكون إلا في الشِّعر، نحو قوله:

فأمَّا القتالُ لا قتالَ لديكُمُ ... ولكنَّ سَيْراً في عِراضِ المَوَاكبِ[٣]

يريد: فلا قتال.

وقال الشيخ كمال الدين عبد الواحد بن عبد الله[٤] بن خلف الأنصاري في كتابه الموسوم بـ «نهاية التأميل[٥] في أسرار التنزيل»: قد اعتُرِضَ على النُّحاة في قولهم: لَمَّا حُذف «يُقال» حُذفت الفاء بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [الجاثية: ٣١] تقديرُه: فيقال لهم: أفلم تكن آياتي تُتلى عليكم، فحُذف: «فيقال» ولم تُحذف الفاء. فلما بطلَ هذا تعيَّن أن يكون الجوابُ: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فوقع ذلك جواباً له ولقوله: ﴿أَكَفَرْتُم﴾. ومن نظم العرب[٦] إذا

---

(١) أي: آخره.
(٢) الآية (٢٦): ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.
(٣) البيت للحارث بن خالد المخزومي كما ذكر البغدادي في خزانة الأدب ١/ ٤٥٣، وصدرُه هو الشاهد (٧٦) فيه. وهو أيضاً في المقتضب ٢/ ٧١، وسرّ صناعة الإعراب ١/ ٢٦٥، وأسرار العربية ص١١٠.
(٤) في مصادر ترجمته: عبد الواحد بن عبد الكريم. ينظر العبر ٥/ ٢٠٨-٢٠٩، وطبقات الشافعية للسبكي ٨/ ٣١٦، وشذرات الذهب ٥/ ٢٥٤، وكشف الظنون ٢/ ١٩٨٧. ويُعرف بابن الزَّمَلْكاني، وتوفي سنة (٦٥١هـ).
(٥) في (أ) و(ع): التأويل.
(٦) في (ح) و(د٢) و(يه): نظم القرآن ونظم العرب.

ذكروا حرفاً يقتضي جواباً له أن يكتفوا[(١)] عن جوابه حتى يذكروا حرفاً آخر يقتضي جواباً، ثم يجعلون لهما جواباً واحداً، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، فقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ جوابٌ للشرطين، وليس «أفَلَمْ» جوابَ «أمّا»، بل الفاء عاطفة على مقدَّر، والتقدير: أأَهْمَلْتُكُمْ فلم أتلُ عليكم آياتي. انتهى ما نُقل عن هذا الرجل.

وهو كلامُ أديبٍ لا كلامُ نَحويّ. أمَّا قولُه: «قد اعترَض على النحاة» فيكفي في بطلان هذا الاعتراض أنه اعتراضٌ على جميع النُّحاة، لأنه ما من نحويٌّ إلا خرَّج الآية على إضمار: فيقال لهم: أكفرتُم. وقالوا: هذا هو فحوى الخطاب، وهو أن يكون في الكلام شيء مقدَّر لا يستغني المعنى عنه، فالقولُ بخلافه مخالفٌ للإجماع، فلا التفات إليه.

وأمَّا ما اعترضَ به من قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى﴾ وأنَّه قدَّرُوه: فيقال لهم: أفلم تكن آياتي، فحُذف «فيقال» ولم تُحذف الفاء فدلَّ على بطلان هذا التقدير، فليس بصحيح، بل هذه الفاء التي بعد الهمزة في «أفلم» ليست فاء «فيقال» التي هي جواب «أمَّا» حتى يقال حذف «فيقال» وبقيت الفاء، بل الفاء التي هي جواب «أمَّا» و«يقال» بعدها محذوف. وفاء «أفلم» تحتمل وجهين: أحدُهما أن تكون زائدة، وقد أنشدَ النَّحْويُّون على زيادة الفاء قولَ الشاعر:

يـمـوتُ أُنـاسٌ أو يـشـيـبُ فـتـاهُـمُ ... ويَحْدُثُ ناشٍ[(٢)] والصغيرُ فيَكْبُرُ[(٣)]

يريد: يكبر. وقولَ الآخر:

لـمَّـا اتَّـقَـى بـيـدٍ عـظـيـمٍ جِـرْمُـهـا ... فتركْتُ ضَاحِيَ جلدِها يَتَذَبْذَبُ[(٤)]

يريد: تركتُ.

(١) في الدر اللقيط بهامش مطبوع البحر ٣/ ٢٣: يكفُوا.
(٢) المثبت من (أ) و(ح) و(د١) و(د٣) و(ز٢). وفي النسخ الأخرى: ناس. وينظر التعليق التالي.
(٣) الضرائر لابن عصفور ص٧٣، وهمع الهوامع ٣/ ١٩٤، وخزانة الأدب ٨/ ٤٩١ (في شرح الشاهد ٦٥٥)، و١١/ ٦١. وفيها: ويحدثُ ناسٌ. وهو بالرواية أعلاه في شرح التسهيل ٣/ ٢٤٤.
(٤) سرّ صناعة الإعراب ١/ ٢٦٩، والأُزهيَّة ص٢٤٨، وفيهما: كفّه، بدل: جلدها. وهو برواية =

وقال زهير:

أراني إذا ما بِتُّ بِتُّ على هوًى فثُمَّ إذا أصبحتُ أصبحتُ غاديا[١]

يريد: ثُمَّ.

وقال الأخفش: وزعموا أنهم يقولون: أخوك فوُجِدَ[٢]. يريدون: أخوك وُجِدَ.

والوجه الثاني: أن تكون الفاء تفسيرية. وتقدير الكلام: فيقال لهم ما يسوؤهم: ألَمْ تكن آياتي. ثمَّ اعتُني بهمزة الاستفهام فتقدَّمت على الفاء التفسيرية، كما تُقدَّم على الفاء التي للتعقيب في نحو قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾. وهذا على مذهب من يُثبت أنَّ الفاء تكون تفسيريَّة، نحو: توضأ زيد فغسلَ وجهَه ويدَيْه؛ إلى آخرِ أفعال الوضوء. فالفاء هنا ليست مرتِّبةً، وإنما هي مفسِّرةٌ للوضوء، كذلك تكون في ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ مفسِّرة للقول الذي يسوؤهم.

وقول هذا الرجل: «فلما بطل هذا تعيَّن أن يكون الجواب فذوقوا» أي: تعيَّن بطلانُ حذف ما قدَّره النحويون من قوله: «فيقال لهم» لوجود هذه الفاء في «أفلم تكن» وقد بَيَّنَّا أنَّ ذلك التقدير لم يبطل، وأنه سَواء في الآيتين، وإذا كان كذلك؛ فجوابُ «أمَّا» هو: «فيُقال» في الموضعين، ومعنى الكلام عليه.

وأمَّا تقديره: «أأهملتُكم فلم تكن آياتي»[٣] فهذه نزعةٌ زمخشرية، وذلك أنَّ الزمخشريَّ يُقدِّرُ بين همزة الاستفهام وبين الفاء فعلاً يصحُّ عطفُ ما بعدَها عليه، ولا يعتقد أنَّ الفاء والواو و«ثُمّ» إذا دخلت عليها الهمزة أصلُهنَّ التقديم على الهمزة، لكن اعتُني بالاستفهام، فقُدِّم على حروف العطف كما ذهب إليه سيبويه

= المصنف في مغني اللبيب ص٢٢٠. قوله: جِرْمُها، أي: جسمها، وضاحي، أي: بارز.

(١) ديوان زهير (بشرح ثعلب) ص٢٨٥، وسرّ صناعة الإعراب ١/ ٢٦٤، وهمع الهوامع ٣/ ١٩٤، وخزانة الأدب ٨/ ٤٩١ (الشاهد ٦٥٥). قال ثعلب: بتُّ على هوًى: على أمر أريدُه، فإذا أصبحتُ جاء أمر غير ما بتُّ عليه من موت وغير ذلك. يريد أنَّ حاجتي لا تنقضي.

(٢) معاني القرآن للأخفش ص٣٠٦، وسرّ صناعة الإعراب ١/ ٢٦٠.

(٣) لفظ تقديره السالف: أأهملتكم فلم أتل عليكم آياتي. والتقدير هنا أقرب للفظ الآية.

وغيرُه من النحويِّين. وقد رجع الزَّمخشريُّ أخيراً إلى مذهب الجماعة في ذلك[١]، وبطلانُ قوله الأول مذكور في النَّحو. وقد تقدَّم في هذا الكتاب حكايةُ مذهبه في ذلك.

وعلى تقدير قول هذا الرجل: «أأهملتُكم» فلا بدَّ من إضمار القول، وتقديره: فيقال: أأهملتُكم؛ لأنَّ هذا المقدَّر هو خبر المبتدأ، والفاء جواب «أمَّا»، وهو الذي يدلُّ عليه الكلام ويقتضيه ضرورةً.

وقول هذا الرَّجل: «فوقع ذلك جواباً له» ولقوله: «أكفرتُم» يعني: أنَّ ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ جوابٌ لـ «أمَّا» ولقوله: «أكفرتُم»، والاستفهام هنا لا جواب له، إنما هو استفهام على طريق التوبيخ والإرذال بهم.

وأمَّا قول هذا الرجل: «ومن نظم العرب» إلى آخره، فليس كلام العرب على ما زعم، بل يُجعل لكلِّ جوابٌ؛ إنْ لا يكن ظاهراً فمُقدَّرٌ، ولا يجعلون لهما جواباً واحداً.

وأمَّا دعواه ذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ الآية، وزَعْمُه أنَّ قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ جوابٌ للشرطين؛ فقولٌ رُوِيَ عن الكسائيّ، وذهب بعض الناس إلى أنَّ جواب الشرط الأوّل محذوف، تقديره: فاتبعوه، والصحيح أنَّ الشرط الثانيَ وجوابَه هو جوابُ الشرط الأول.

وتقدَّمت هذه الأقوال الثلاثة عند الكلام على قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ الآية.

والهمزة في «أكفرتُم» للتقرير والتوبيخ والتعجيب من حالهم[٢]. والخطابُ في «أكفرتُم» إلى آخره يتفرَّعُ على الاختلاف في الذين اسودَّت وجوهُهم، فإن كانوا الكفَّارَ؛ فالتقدير: بعد أن آمنتُم حين أُخذ عليكم الميثاق وأنتم في صُلْب آدم

---

(١) ذكر المصنف عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف: ٩٧] أن الزمخشري رجع إلى مذهب الجماعة في تفسيرها حيث جعل فاء العطف عاطفة ما بعدها على ما قبل همزة الاستفهام من الجُمل. وذكر ابن هشام في مغني اللبيب ص٢٣ أن الزمخشريَّ جزم في مواضع بما يقوله الجماعة، منها قوله في ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، وقوله: ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ ءَابَآؤُنَا﴾. وجوَّز الوجهين في قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾.

(٢) الكشاف ١/٤٥٣، وزاد المسير ١/٤٣٦. والكلام الآتي بعده فيه بنحوه.

كالذَّرّ، وإن كانوا أهلَ البِدَع؛ فتكون البِدعَ المُخرِجةَ عن الإيمان، وإن كانوا قريظةَ والنَّضِير؛ فيكون إيمانَهم به قبل بَعْثِه وكفرَهم به بعد بَعثِهِ، أو إيمانهم بالتوراة وما جاء فيها من نبوَّتِه ووصفِه والأمرِ باتِّباعِه، وإن كانوا المنافقين؛ فالمرادُ بالكفر كفرُهم بقلوبهم، وبالإيمان الإيمانُ بألسنتهم، وإن كانوا الحَرُورِيَّةَ أو المرتدِّين؛ فقد كان حصلَ منهم الإيمان حقيقةً.

وفي قوله: «أكفرتُم» قالوا: تلوين الخطاب، وهو أحدُ أنواع الالتفات، لأن قوله: «فأمَّا الذين اسودَّت» غَيبة، و«أكفرتُم» مواجهة.

«بما كنتم» الباء سببية، و«ما» مصدريَّة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ انظر تفاوت ما بين التقسيمين! هناك جمعَ لمن اسودَّت وجوهُهم بين التعنيف بالقول والعذاب، وهنا جعلهم مستقرِّين في الرحمة، فالرَّحمة ظرفٌ لهم، وهي شاملتُهم.

ولمَّا أخبرَ تعالى أنهم مستقرُّون في رحمة الله، بيَّن أنَّ ذلك الاستقرار هو على سبيل الخلود لا زوالَ منه ولا انتقال. وأشارَ بلفظ الرَّحمة إلى سابق عنايته بهم، وأنَّ العبد ـ وإنْ كثُرت طاعتُه ـ لا يدخلُ الجنةَ إلا برحمة الله تعالى[١].

وقال ابن عباس: المرادُ بالرحمة هنا الجنة[٢].

وذكرَ الخلود للمؤمن ولم يذكر ذلك للكافر إشعاراً بأنَّ جانب الرحمة أغلبُ. وأضافَ الرحمة هنا إليه ولم يُضف العذاب إلى نفسه، بل قال: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾.

ولمَّا ذكرَ العذابَ علَّله بفعلهم، ولم ينصَّ هنا على سبب كونهم في الرحمة.

وقرأ أبو الجوزاء وابنُ يَعْمَر: «فأمَّا الذين اسوادَّتْ»، «وأمَّا الذين ابياضَّت» بألف[٣].

---

(١) يشير المصنف إلى قوله ﷺ: «لن يُدخِلَ أحداً منكم عملُه الجنةَ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله منه بفضل ورحمة». أخرجه أحمد (٧٤٧٩) والبخاري (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦): (٧٥) (واللفظ له) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) زاد المسير ١/ ٤٣٧.

(٣) زاد المسير ١/ ٤٣٥-٤٣٦.

وأصلُ افعَلَّ هذا: افْعلَلَ، يدلُّ على ذلك اسوَدَدْت واحمرَرْت[١]، وأن يكون للون أو عيبٍ حسّيّ، كاسْوَدَّ واعْوَجَّ واعْوَرَّ، وأن لا يكون من مُضعَّف كأحمّ[٢]، ولا معتلّ لام كألْمَى[٣]، وأن لا يكون للمُطاوعة، وندرَ نحو: انقضَّ الحائط، وابهارَّ الليل[٤]، واشعانَّ[٥] الرجل: تفرَّق شَعْرُه. وشَذَّ: ارْعَوَى، لكونه معتلَّ اللام بغير لون ولا عيب مطاوعاً لرَعَوْتُه، بمعنى: كفَفْتُه.

وأمَّا دخول الألف فالأكثرُ أن يُقصد عُروضُ المعنى إذا جيءَ بها، ولزومُه إذا لم يُجَأْ بها. وقد يكون العكس، فمنْ قصدِ اللزوم مع ثبوت الألف قولُه تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤] ومِنْ قصدِ العُروض مع عدم الألف قوله تعالى: ﴿تَزْوَرُّ[٦] عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف: ١٧] واحمرَّ خجلاً[٧].

وجوابُ «أمَّا»: «ففي الجنة»[٨]، والمجرور خبر المبتدأ، أي: فمستقرُّون في الجنة، و«هم فيها خالدون» جملة مستقلة من مبتدأ وخبر، لم تدخل في حيّز «أمَّا» ولا في إعراب ما بعدَه، دلَّتْ على أنَّ ذلك الاستقرار هو على سبيل الخلود.

وقال الزمخشريّ[٩]: فإن قلتَ: كيف موقع قوله: «هم فيها خالدون» بعد قوله: «ففي رحمة الله؟».

قلت: موقع الاستئناف، كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: هم فيها خالدون لا يظعَنُون عنها ولا يموتون. انتهى. وهو حسن.

---

(١) في (أ) و(ح) و(ز٢) و(ع): اسودَدْنَ واحمرَرْنَ. ومُثِّل له في شرح التسهيل ٣/ ٣٥٩ مع تاء الضمير ونونَيه: احمرَرْتُ واحمرَرْنَ واحمرَرْنا.

(٢) كذا في النسخ، بالحاء، لكن دون علامة إهمال تحت الحاء فيها. وفي همع الهوامع ٣/ ٣٠٧: لا يقال في رجل أجمّ ـ بالجيم، أي لا رُمْحَ معه في الحرب ـ: إجممَّ؛ لما فيه من الثقل.

(٣) في المصدر السابق: لا يُقال في رجل ألْمَى ـ وهو الأسمر الشفتين ـ الْمَيَّ.

(٤) أي: انتصف. ووقع في شرح التسهيل ٣/ ٣٥٩، والدرّ المصون ٣/ ٣٤٥: انهارّ (بالنون) وهو خطأ.

(٥) تحرفت اللفظة في (ب) و(د٣) ومطبوع البحر وشرح التسهيل والدُّرّ المصون إلى: اشعارَّ. ووقع في ارتشاف الضَّرَب ١/ ١٧٧: اشعالّ، وهو بمعنى اشعانَّ، وسيذكر المصنف معناه.

(٦) «تَزْوَرُّ» قراءة ابن عامر من السبعة ويعقوب من العشرة.

(٧) ينظر شرح التسهيل ٣/ ٣٥٩.

(٨) كذا في النسخ. وإنما لفظ الآية: «ففي رحمة الله».

(٩) الكشاف ١/ ٤٥٤.

وقيل: جواب «أمَّا»: «ففي الجنة[١] هم فيها خالدون»، و«هم فيها خالدون» ابتداءٌ وخبر، و«خالدون» العامل في الظرفَيْن[٢]، وكُرِّر على طريق التوكيد لِما يدلُّ عليه من الاستدعاء والتشويق إلى النعيم المقيم.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ الإشارة بـ «تلك» قيل: إلى القرآن كلِّه. وقيل: إلى ما أُنزل من الآيات في أمر الأوس والخزرج واليهود الذين مكروا بهم، والتقدُّم إليهم بتجنب الافتراق. وكشفَ تعالى للمؤمنين عن حالهم وحال أعدائهم بقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

وقيل: «تلك» بمعنى «هذه»، لَمَّا انقضَتْ صارت كأنها بَعُدَتْ[٣].

وقال الزمخشريّ: «تلك آياتُ الله» الواردةُ في الوعد والوعيد. وكذا قال ابن عطية[٤]؛ قال: الإشارة بـ «تلك» إلى هذه الآيات المتقدّمة المتضمّنة تعذيبَ الكفار وتنعيمَ المؤمنين.

وقرأ الجمهور: «نتلوها» بالنون على سبيل الالتفات، لما في إسناد التلاوة للمعظِّم ذاتَه من الفخامة والشرف. وقرأ أبو نَهيك بالياء. والأحسن أن يكون الضمير المرفوع في «يتلوها» في هذه القراءة عائداً على الله ليتَّحد الضمير، وليس فيه التفات لأنه ضمير غائب عاد على اسم غائب.

ومعنى التلاوة القراءة شيئاً بعد شيء، وإسنادُ ذلك إلى الله على سبيل المجاز، إذِ التالي هو جبريل؛ لَمَّا أمرَهُ بالتلاوة كان كأنَّه هو التالي تعالى.

وقيل: يجوز أن يكون معنى «نتلوها»: نُنزِّلُها متواليةً شيئاً بعد شيء.

وجوَّزُوا في قراءة أبي نَهيك أن يكون ضميرُ الفاعل عائداً على جبريل وإنْ لم يجرِ له ذِكر للعلم به.

ومعنى «بالحقّ»: أي: بإخبار الصِّدْق. وقيل: المعنى متضمِّنة الأفاعيل التي

---

(١) لفظ الآية: «ففي رحمة الله». وسلف هذا الخطأ قريباً.

(٢) والتقدير: فهم خالدون في رحمة الله فيها. ينظر الدر المصون ٣/ ٣٤٤.

(٣) تفسير القرطبي ٥/ ٢٥٨.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٨، وكلام الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٥٤.

هي أنفسُها حقٌّ؛ من كرامة قومٍ وتعذيب آخرين[١].

و«تلك» مبتدأ، و«آياتُ الله» خبرُه، و«نَتْلُوها» جملة حاليَّة. قالوا: والعاملُ فيها اسمُ الإشارة. وجوَّزوا أن يكون «آياتُ الله» بدلاً، والخبر «نَتْلُوها».

وقال الزجّاج[٢]: في الكلام حذف، تقديرُه: تلك آياتُ القرآن المذكورةُ حُجَجُ الله ودلائلُه. انتهى. فعلى هذا الذي قدَّره يكونُ خبرُ المبتدأ محذوفاً، لأنه عنده بهذا التقدير يتمُّ معنى الآية. ولا حاجةَ إلى تقدير هذا المحذوف، إذِ الكلامُ مستغنٍ عنه تامٌّ بنفسه.

والباء في «بالحق» باء المصاحبة، فهي في موضع الحال من ضمير المفعول، أي: ملتبسةً بالحق. قال الزمخشريّ: ملتبسةً بالحق والعدل من جزاء المحسن والمسيء بما يستوجبانِه. انتهى. فدَسَّ في قوله: «بما يستوجِبانِه» دسيستَهُ[٣] الاعتزالية.

ثم أخبرَ تعالى أنه لا يُريد الظلم، وإذا لم يُرده لم يقع منه لأحد، فما وقعَ منه تعالى من تنعيم قوم وتعذيبِ آخرين ليس من باب الظلم.

والظلمُ وضعُ الشيء في غير موضعِه، ورَوَى أبو ذرٍّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال فيما يروي عن ربِّه عزَّ وجل: «يا عبادي إني حَرَّمْتُ الظُّلم على نفسي، وجعلتُه بينكم مُحَرَّماً، فلا تَظالَموا»[٤].

وفي الحديث الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله لا يظلمُ المؤمنَ حسنةً، يُعْطَى بها في الدُّنيا، ويُجْزَى بها في الآخرة، وأمَّا الكافرُ فيُطْعَمُ بحسناتِه في الدنيا ما عملَ للهِ بها، فإذا أَفْضَى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يُجْزَى بها»[٥].

وقيل: المعنى لا يزيد في إساءة المسيء، ولا ينقُص من إحسان المحسن. وفيه تنبيه على أن تسويد الوجوه عدل. انتهى.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٨.

(٢) بنحوه في معاني القرآن له ١/ ٤٦٤.

(٣) المثبت من (ح) و(د١). وفي باقي النسخ: دسيسة. والكلام في الكشاف ١/ ٤٥٤.

(٤) قطعة من حديثه، أخرجه أحمد (٢١٤٢٠)، ومسلم (٢٥٧٧).

(٥) أخرجه أحمد (١٢٢٣٧)، ومسلم (٢٨٠٨) من حديث أنس ﷺ.

و«للعالمين» في موضع المفعول للمصدر الذي هو «ظُلْم»، والفاعل محذوف مع المصدر، التقدير: ظُلْمَهُ. والعائد هو ضمير الله تعالى، أي: ليس اللهُ مريداً أن يظلم أحداً من العالَمين. ونكَّرَ «ظُلماً» لأنه في سياق النفي، فهو يَعُمّ.

وقيل: المعنى أنه تعالى لا يريدُ ظُلْمَ العالَمين بعضَهم لبعض. واللفظ ينبُو عن هذا المعنى، إذْ لو كان هذا المعنى مراداً لكان «مِنْ» أحقَّ به من اللام، فكان يكون التركيب: وما الله يريد ظُلماً من العالمين.

وقال الزمخشريّ: «وما الله يريد ظُلماً» فيأخذَ أحداً بغير جُرْم، أو يزيدَ في عقاب مُجرم، أو ينقصَ من ثواب محسن. ثم قال: فسبحان مَنْ يَحْلُمُ[1] عمَّن يصفُه بإرادة القبائح والرِّضا بها. انتهى كلامُه جارياً على مذهبه الاعتزالي.

ونقول: فسبحان مَنْ يَحْلُمُ عمَّن يصفُه بأنه يكون في ملكه ما لا يريد، وأنَّ إرادة العبد تغلبُ إرادة الربِّ، تعالى الله عن ذلك.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾ لـمَّا ذكر أحوالَ الكافرين والمؤمنين وأنه يختصُّ بعمل مَن آمنَ فيرحمُهم به، ويختصُّ بعمل من كفرَ فيعذِّبُهم؛ نبَّه على أنَّ هذا التصرُّف هو فيما يملكه، فلا اعتراضَ عليه تعالى. ودلَّت الآية على اتساع مُلكه ومرجعِ الأمور كلِّها إليه، فهو غنيٌّ عن الظُّلم لأنَّ الظُّلم إنما يكون فيما كان مختصاً به عن الظالم[2]. وتقدَّم شرح هاتين الجملتين، فأغنى ذلك عن إعادته.

قالوا: وتضمَّنت هذه الآياتُ الطِّباقَ في «تبيضُ» و«تسودُّ»، وفي «اسودَّت» و«ابيضَّت» وفي «أكفرتُم بعدَ إيمانكم»، وفي «بالحقّ» و«ظُلماً». والتفصيل في «فأمّا» و«أمّا». والتجنيسَ المماثل في «أكفرتُم» و«تكفرون». وتأكيد المُظْهَر بالمُضْمَر في «ففي رحمة الله هم فيها خالدون».

والتكرارَ في لفظ «الله»، ومُحسِّنُه أنه في جُمل متغايرة المعنى. والمعروف في

(١) في (أ) و(ح) و(د٢) و(ع) و(يه): نُجِلُّه (في الموضعين). والمثبت من باقي النسخ، وهو كذلك في الكشاف ١/ ٤٥٤. والكلام منه.
(٢) في (ب) و(د٣): غير الظالم. ولم تتبين لي العبارة.

لسان العرب إذا اختلفت الجمل أعادت المُظْهَر لا المُضْمَر، لأنَّ في ذكره دلالةً على تفخيم الأمر وتعظيمِه، وليس ذلك نظير:

لا أرى الموتَ يسبقُ الموتَ شيءٌ[١]

لاتّحاد الجملة، لكنَّه قد يُؤتَى في الجملة الواحدة بالمُظْهَر قصداً للتفخيم.

والإشارةَ في قوله: «تلك»، وتلوينَ الخطاب في «فأمَّا الذين اسودَّت وجوهُهم أكفرتُم». والتشبيهَ والتمثيل في «تبيضُّ» و«تسودُّ» إذا كان ذلك عبارة عن الطلاقة والكآبة. والحذفَ في مواضع.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ قال عكرمة ومقاتل: نزلت في ابن مسعود وأُبيّ بن كعب وسالم مولى أبي حُذيفة ومعاذ بنِ جبل وقد قال لهم بعضُ اليهود: دينُنا خيرٌ ممَّا تدعوننا إليه، ونحن خير وأفضل[٢].

وقيل: نزلت في المهاجرين[٣].

والذي يظهر أنها من تمام الخطاب الأوّل في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ وتوالت بعد هذا مخاطبات المؤمنين من أوامرَ ونواهٍ، وكان قد استطردَ من ذلك لذكر من يبيضُّ وجهُه ويسودُّ، وشيءٍ من أحوالهم في الآخرة، ثم عاد إلى الخطاب الأوَّل، فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ تحريضاً بهذا الإخبار على الانقياد والطواعية.

والظاهر أنَّ الخطاب هو لمن وقع الخطابُ له أوَّلاً وهم أصحابُ رسول الله ﷺ، فتكونُ الإشارة بقوله «أمَّة» إلى أمَّةٍ معينة، وهي أمَّةُ محمد ﷺ، فالصحابةُ هم خَيْرُها.

---

(١) هو صدر بيت لعديّ بن زيد (وقيل لغيره)، وعجُزه: نَغَّصَ الموتُ ذا الغنى والفقيرا. وهو في معاني القرآن للأخفش ١/ ٤١٧، وللزجاج ١/ ٤٥٦، وتفسير الطبري ٥/ ٦٧٠، والهداية ٢/ ١٠٩٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٨٨، وفصل المقال ص٢٣٢، وخزانة الأدب ١/ ٣٧٩.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٦٧٢، والثعلبي ٢/ ١٢٨، وتفسير البغوي ١/ ٣٤١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٨٨-٤٨٩، وزاد المسير ١/ ٤٣٨.

(٣) المصادر السابقة، وهو قول ابن عبَّاس ﵄، وسيذكره المصنف لاحقاً.

وقال الحسن ومجاهد وجماعة: الخطابُ لجميع الأمة بأنهم خيرُ الأمم ويؤيِّد هذا التأويلَ كونُهم شهداءَ على الناس[١]، وقولُه: «نحن الآخِرُون السابقون» الحديث[٢]. وقولُه: «نحن نُكملُ يومَ القيامة سبعين أمةً نحن آخِرُها وخَيْرُها»[٣].

وظاهر «كان» هنا أنها الناقصة، و«خَيْرَ أمَّة» هي الخبر، ولا يُرادُ بها هنا الدِّلالة على مضيّ الزمان وانقطاعِ النِّسبة نحو قولك: كان زيدٌ قائماً، بل المرادُ دوامُ النسبة، كقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢].

وكونُ «كان» تدلُّ على الدوام ومرادفِه «لم يزل» قولٌ مرجوح، بل الأصحُّ أنَّها كسائر الأفعال تدلُّ على الانقطاع، ثم قد تُستعملُ حيث لا يُراد الانقطاع. وقيل: «كان» هنا بمعنى «صار» أي: صِرْتُم خَيْرَ أمَّة.

وقيل: «كان» هنا تامَّة، و«خَيْرَ أمَّة» حال. وأبعدَ مَنْ ذهبَ إلى أنها زائدة، لأنَّ الزائدة لا تكون أول كلام ولا عملَ لها.

وقال الزمخشريّ[٤]: «كانَ» عبارة عن وجود الشيء في زمن ماضٍ على سبيل الإبهام، وليس فيه دليلٌ على عدم سابق، ولا على انقطاعٍ طارئ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ومنه قولُه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ كأنَّه قيل: وُجِدْتُم خيرَ أمة. انتهى كلامه. فقوله: إنها لا تدلُّ على عدمٍ سابق؛ هذا إذا لم تكن بمعنى «صارَ»، فإذا كانت بمعنى «صارَ» دلَّتْ على عدمٍ سابق، فإذا قلتَ: كان زيدٌ عالماً، بمعنى: صار، دلَّت على أنه انتقل من حالة الجهل إلى حالة العلم.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٤٨٩.

(٢) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ، أخرجه أحمد (٧٣٩٩)، والبخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ الطبريّ في التفسير ٥/ ٦٧٦ عن قتادة مرسلاً، وأورده مكي في الهداية ٢/ ١٠٩٤، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٨٩. وأخرجه بنحوه أحمد (٢٠٠١٥)، والترمذي (٣٠٠١)، والطبري ٥/ ٦٧٦ من حديث معاوية بن حَيْدَة، ولفظه عند الترمذي: «إنكم تُتِمُّون سبعين أمةً أنتم خيرُها وأكرمُها على الله». وقال: حديث حسن.

(٤) الكشاف ١/ ٤٥٤.

وقولُه: ولا على انقطاع طارئ؛ قد ذكرنا قبلُ أنَّ الصحيح أنها كسائر الأفعال يدلُّ لفظ المُضيّ منها على الانقطاع، ثم قد تُستعمل حيث لا يكون انقطاع، وفرقٌ بين الدَّلالة والاستعمال ألا ترى أنك تقول: هذا اللفظ يدلُّ على العموم، ثم يُستعمل حيثُ لا يُرادُ العموم، بل المرادُ الخُصوص؟

وقوله: كأنه قال: «وُجِدْتُم خَيْرَ أمة»؛ هذا يُعارض أنها مثلُ قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لأنَّ تقديرَه: «وُجدتُم خَيْرَ أمة»؛ يدلُّ على أنَّها تامَّة وأنَّ «خَيْرَ أمة» حال. وقوله: «وكان الله غفوراً رحيماً» لا شكَّ أنها هنا الناقصة، فتعارضا[(١)].

وقيل: المعنى: كنتُم في علم الله، وقيل: في اللوح المحفوظ، وقيل: فيما أُخْبِرَ به الأممُ قديماً عنكم[(٢)].

وقيل: هو على الحكاية، وهو متصل بقوله: ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: فيُقال لهم في القيامة: كنتُم في الدُّنيا خَيْر أمة. وهذا قول بعيدٌ من سياق الكلام.

و«خير» مضاف للنكرة، وهي أفعل تفضيل، فيجبُ إفرادُها وتذكيرُها وإن كانت جاريةً على جمع، والمعنى أنَّ الأمم إذا فُضِّلوا أمَّةً أمَّة؛ كانت هذه الأمةُ خيرَها، وحكمَ عليهم بأنهم خيرُ أمة، ولم يبيِّن جهة الخيريّة في اللفظ، وهي سَبْقُهُم إلى الإيمان برسول الله ﷺ، وبِدارُهم إلى نُصرته، ونَقْلُهم عنه علمَ الشريعة، وافتتاحُهم البلاد.

وهذه فضائلُ اختُصُّوا بها مع ما لَهم من الفضائل، وكلُّ مَنْ عملَ بعدَهم حسنةً فلهم مثلُ أجرِها؛ لأنهم سببٌ في إيجادها، إذْ هم الذين سَنُّوها وأوضَحُوا طريقَها «مَنْ سَنَّ سُنةً حسنةً فله أجْرُها وأجْرُ مَنْ عَمِلَ بها إلى يوم القيامة لا يَنقُصُ ذلك من أجرهم شيئاً»[(٣)].

---

(١) قال السمين: لا تعارض، لأن هذا تفسير معنى لا تفسير إعراب. الدرّ المصون ٣/ ٣٤٨.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٩.

(٣) أخرجه أحمد (١٩١٥٦)، ومسلم (١٠١٧)، وغيرهما من حديث جرير بن عبد الله البَجَليّ ﷺ بنحوه أطول منه.

ومعنى «أُخرِجَتْ» أُظهِرَتْ وأُبرِزَتْ، ومُخرِجُها هو الله تعالى، وحُذف للعلم به. وقال ابن عباس: أُخرِجَتْ من مكة إلى المدينة[١].

وهي جملة في موضع الصفة لـ «أُمَّة» أي: خَيْرَ أمَّةٍ مُخْرَجَةٍ، ويجوزُ أن تكون في موضع الصفة لـ «خَيْرَ أمة»، فتكون في موضع نصب، أي: مُخْرَجةً. وعلى هذا الوجه يكون قد رُوعِيَ هنا لفظُ الغَيْبة، ولم يُراعَ لفظُ الخطاب. وهما طريقان للعرب؛ إذا تقدَّم ضميرٌ حاضرٌ لمتكلِّم أو مخاطَب؛ ثم جاء بعدَه خبرُه اسماً، ثم جاء بعد ذلك ما يصلح أن يكون وصفاً؛ فتارةً يُراعَى حالُ ذلك الضمير، فيكون ذلك الصالح للوصف على حسب الضمير، فتقول: أنا رجلٌ آمُرُ بالمعروف، وأنت رجلٌ تأمُرُ بالمعروف، ومنه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧]، و«وإنك امرؤ فيك جاهلية»[٢]،

وأنتَ امرؤٌ قد كَثَّأَتْ لكَ لِحْيَةٌ كأنَّكَ منها قاعدٌ في جُوَالِقِ[٣]

وتارةً يُراعَى حالُ ذلك الاسم، فيكون ذلك الصالح للوصف على حَسَبه من الغَيْبة فتقول: أنا رجلٌ يأمر بالمعروف، وأنتَ امرؤٌ يأمر بالمعروف. ومنه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾، ولو جاء «أُخرِجْتُم» فيُراعَى ضمير الخطاب في «كنتُم» لكان عربيًّا فصيحاً. والأَوْلَى جَعْلُ «أُخرِجَتْ للناس» صفة لـ «أُمَّة» لا لـ «خَيْر» لتناسب الخطاب في «كنتُم خَيْرَ أمَّة» مع الخطاب في «تأمرون» وما بعدَه.

وظاهرُ قوله: «للناس» أنه متعلّق بـ «أُخْرِجَتْ». وقيل: متعلّق بـ «خَيْر»، ولا يلزم على هذا التأويل أنها أفضلُ الأمم من نفس هذا اللفظ، بل من موضع آخر[٤].

---

(١) سلف نحوه دون نسبة أول تفسير هذه الآية.

(٢) قطعة من حديث أبي ذرّ رضي الله عنه في خبرٍ له عيَّر رجلاً بأمِّهِ، أخرجه أحمد (٢١٤٣٢)، والبخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١) وغيرهم.

(٣) الأمالي ٢/ ٧٩، واللسان، وتاج العروس (كثأ). قوله: جُوالق: هي لفظة معرَّبة يعني الغِرارة (كيس الخيش).

(٤) بمعناه في المحرر الوجيز ١/ ٤٨٩. وقال أبو السعود في تفسيره ٢/ ٧٠: أي: كنتم خيرَ الناسِ للناس، فهو صريح في أن الخيريَّة بمعنى النفع للناس وإن فُهم ذلك من الإخراج لهم أيضاً.

وقيل بـ «تأمرون»، والتقدير: تأمرون الناسَ بالمعروف، فلما قُدّم المفعول جُرّ باللام، كقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣] أي: تَعْبُرُون الرُّؤيا. وهذا فيه بُعد.

﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ كلامٌ خرج مخرجَ الثناء من الله. قاله الرَّبيع، أو مخرجَ الشرط في الخَيْريَّة؛ رُوِيَ هذا المعنى عن عُمر، ومجاهد، والزَّجَّاج[(١)]، فقيل: هو مستأنَف، بَيَّنَ به كونَهم خَيْرَ أمَّة، كما تقول: زيد كريم؛ يُطعم الناسَ ويكسُوهم ويقومُ بمصالحهم[(٢)].

وقال ابن عطيّة[(٣)]: «تأمرون» وما بعدَه أحوال في موضع نصب. انتهى. وقاله الراغب[(٤)]. والاستئنافُ أمكنُ وأمدح.

وأجاز الحَوْفي أن يكون «تأمرون» خبراً بعد خبر، وأن يكون نعتاً لـ «خير أمَّة».

قيل: وقُدّم الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر على الإيمان لأنَّ الإيمان مشترك بين جميع الأمم، فليس المؤثّر لحصول هذه الزيادة، بل المؤثّرُ كونُهم أقوى حالاً في الأمر والنهي، وإنما الإيمان شرطٌ للتأثير؛ لأنه ما لم يُوجَدْ؛ لم يَصِرْ شيءٌ من الطاعات مؤثّراً في صفة الخيريَّة، والمؤثّر ألصقُ بالأثر من شرط التأثير. وإنما اكتفى بذكر الإيمان بالله عن الإيمان بالنبوَّة لأنه مستلزم له. انتهى، وهو من كلام محمد بن عمر الرازيّ[(٥)].

وقال الزمخشريّ[(٦)]: جعل الإيمان بكلِّ ما يجبُ الإيمان به إيماناً بالله: لأن مَنْ آمنَ ببعض ما يجبُ الإيمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك، لم يُعتدَّ بإيمانه، فكأنّه غيرُ مؤمن بالله ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠] الآية. انتهى.

(١) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٥٦. والكلام في زاد المسير ١/ ٤٤٠.
(٢) الكشاف ١/ ٤٥٤، وتفسير الرازي ٨/ ١٩١.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٩.
(٤) تفسيره ص٧٩٣ (جزء فيه تفسير آل عمران).
(٥) تفسيره ٨/ ١٩٢.
(٦) الكشاف ١/ ٤٥٤.

وقيل: هو على حذف مضاف أي: وتؤمنون برسول الله.

والظاهر في المعروف والمنكر العموم. وقال ابن عباس: المعروف الرسول[١]، والمنكر عبادةُ الأصنام. وقال أبو العالية: المعروف: التوحيدُ، والمنكر: الشِّرك[٢].

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ أي: ولو آمنَ عامَّتُهم وسائرُهم. ويعني الإيمانَ التامَّ النافع. واسم «كان» ضمير يعودُ على المصدر المفهوم من «آمَنَ» كما تقول: مَنْ صَدَقَ كان خيراً له، أي: لكان هو، أي: الإيمان. وعلَّق كينونة الإيمان خيراً لهم على تقدير حصولِه توبيخاً لهم مقروناً بنُصحه تعالى لهم، إذْ لو آمنوا لنَجَّوْا أنفسَهم من عذاب الله.

و«خَيْر» هنا أفعل التفضيل. والمعنى: لكان خيراً لهم ممَّا هم عليه؛ لأنهم إنَّما آثَروا دينَهم على دين الإسلام حُبًّا في الرئاسة واستتباعِ العوامّ، فلهم في هذا حظ دُنياويّ، وإيمانُهم يحصُل به الحظُّ الدُّنياويّ من كونهم يصيرون رؤساءَ في الإسلام، والحظُّ الأُخراويُّ الجزيلُ بما وُعدوه على الإيمان من إيتائهم أجرَهم مرَّتين[٣].

وقال ابنُ عطيَّة[٤]: ولفظة «خَيْر» صيغة تفضيل، ولا مشاركةَ بين كفرهم وإيمانهم في الخير، وإنما جازَ ذلك لِما في لفظة «خَيْر» من الشِّياع وتشعُّبِ الوجوه، وكذلك هي لفظة «أفضل»، و«أَحَبّ»، وما جرى مجراها. انتهى كلامه. وإبقاؤها على موضوعها الأصلي أولى إذا أمكن ذلك، وقد أمكن، إذِ الخيريَّةُ مطلقة، فتحصُل بأدنى مشاركة.

﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ظاهرُ اسم الفاعل التلبُّسُ بالفعل، فأخبرَ تعالى أنَّ مِن أهل الكتاب مَنْ هو ملتبس بالإيمان، كعبد الله بن سَلَام وأخيه،

(١) كذا في النسخ. ولعله على حذف مضاف، أي: اتباع الرسول.
(٢) زاد المسير ١/ ٤٤٠.
(٣) بنحوه في «الكشاف» ١/ ٤٥٤.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٩.

وثعلبة بن سَعْيَة ومَن أسلمَ مِن اليهود، وكالنجاشيّ وبَحِيرا ومَن أسلمَ مِن النصارى، إذْ كانوا مصدِّقين رسولَ الله ﷺ قَبلَ أن بُعِثَ وبعدَه، وهذا يدلُّ على أنَّ المراد بقوله: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ الخصوص، أي: باقي أهلِ الكتاب، إذ كانت طائفة منهم قد حصل لها الإيمان.

وقيل: المرادُ باسم الفاعل هنا الاستقبال، أي: منهم مَنْ يؤمن، فعلى هذا يكون المرادُ بأهل الكتاب العموم، ويكون قوله: «منهم المؤمنون» إخباراً بمغيَّب، وأنه سيقعُ من بعضِهم الإيمانُ، ولا يستمرُّون كلُّهم على الكفر. وأخبر تعالى أنَّ أكثرهم الفاسقون، فدلَّ على أنَّ المؤمنين منهم قليل.

والألِف واللام في «المؤمنون» وفي «الفاسقون» يدلُّ على المبالغة والكمال في الوصفين، وذلك ظاهرٌ؛ لأنَّ مَنْ آمنَ بكتابه وبالقرآنِ فهو كاملٌ في إيمانه، ومَنْ كذَّب بكتابه ـ إذْ لم يتَّبع ما تضمَّنه من الإيمان برسول الله، وكذَّب بالقرآن، ـ فهو أيضاً كاملٌ في فسقه، متمرِّدٌ في كفره.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ هاتان الجملتان تضمَّنتا الإخبارَ بمغيَّبَيْنِ مستقبَلَيْن، وهو أنَّ ضَررَهُم إيَّاكم لا يكون إلا أذًى، أي: شيئاً تتأذَّوْنَ به، لا ضرراً يكون فيه غَلَبةٌ واستئصال، وكذلك إن قاتلوكم خُذِلُوا ونُصرتُم، وكلا هذين الأمرَيْنِ وقَعا لأصحاب رسول الله ﷺ؛ ما ضرَّهم أحدٌ من أهل الكتاب ضرراً يُبالُون به، ولا قصدوا جهةَ كافر إلا كان لهم النصرُ عليهم والغَلَبةُ لهم. والظاهرُ أنَّ قولَه: «إلا أذًى» استثناءٌ متَّصل، وهو استثناءٌ مفرَّغٌ من المصدر المحذوف، التقدير: لن يضرُّوكم ضَرَراً إلا ضَرَراً يسيراً لا نِكايةَ فيه، ولا إجحاف لكم.

وقال الفَرَّاء والزجَّاج والطبريّ وغيرُهم[(١)]: هو استثناء منقطع، والتقدير: لن يضرُّوكم لكن أذًى باللسان. فقيل: هو سماعُ كلمة الكفر، وقيل: هو بَهْتُهُمْ وتحريفُهم، وقيل: توعُّد وطعن، وقيل: كذبٌ يتقوَّلُونه على الله تعالى. قاله الحسن وقتادة[(٢)].

---

(١) تفسير الطبري ٥/٦٧٨-٦٧٩، وبمعناه في معاني القرآن للزجاج ١/٤٥٧، ولم أقف عليه في معاني الفرّاء.

(٢) ينظر تفسير الثعلبي ٢/١٣١، والمحرر الوجيز ١/٤٩٠.

ودلَّت هذه الجملة على ترغيب المؤمنين في تصلُّبهم في دينهم وتثبيتهم عليه، وعلى تحقير شأن الكفار إذْ صارُوا ليس لهم من ضرر المسلمين شيء إلا ما يَصِلُون إليه من إسماع كلمة تسوء[١].

﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ هذه مبالغة في عدم مكافحة الكفّار للمؤمنين إذا أرادوا قتالَهم، بل بنفس ما تقع المقاتلة[٢] ولّوا الأدبار، فليسوا ممَّن يُغلب ويُقتل وهو مقبلٌ على قِرْنِهِ[٣] غيرَ مُدْبِرٍ عنه.

وهذه الجملة جاءت كالمؤكِّدة للجملة قبلَها إذْ تضمَّنت الإخبارَ أنهم لا تكون لهم غَلَبة ولا قهر ولا دَوْلة على المؤمنين؛ لأنَّ حصول ذلك إنما يكون سببُه صِدْقُ القتال والثباتُ فيه، أو النصرُ المستمدُّ من الله، وكلاهما ليس لهم.

وأتى بلفظ: «الأدبار» لا بلفظ الظُّهور؛ لِما في ذكر الأدبار من الإهانة دون ما في الظُّهور، ولأنَّ ذلك أبلغُ في الانهزام والهرب، ولذلك ورد في القرآن مستعملاً دون لفظ الظُّهور، كقوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ [الأنفال: ١٦].

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ هذا استئنافُ إخبارٍ أنهم لا يُنصرون أبداً، ولم يُشرك في الجزاء فيجزمَ، لأنه ليس مترتِّباً على الشرط، بل التوليةُ مترتّبةٌ على المقاتَلَة، والنَّصْرُ منفيٌّ عنهم أبداً سواءٌ قاتلوا أم لم يُقاتِلُوا، إذْ مَنْعُ النصر سببُه الكفر، فهي جملةٌ معطوفة على جملة الشرط والجزاء، كما أنَّ جملة الشرط والجزاء معطوفةٌ على «لن يَضُرُّوكم إلا أذًى»، وليس امتناعُ الجزم لأجل «ثمَّ» كما زعمَ بعضُهم؛ زعمَ أنَّ جواب الشرط يقع عقيب المشروط؛ قال: و«ثمَّ» للتراخي، فلذلك لم تصلح في جواب الشرط، والمعطوف على الجواب كالجواب.

وما ذهب إليه هذا الذاهب خطأ؛ لأن ما زعم أنه لا يجوز قد جاء في أفصح كلام؛ قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨

(١) في (أ) و(ع): سوء.
(٢) في (ب) و(د٣): المقابلة.
(٣) القِرْنُ (بكسر القاف): الكفؤ في الشجاعة.

فجزمَ المعطوف بـ «ثمّ» على جواب الشرط، و«ثمَّ» هنا ليست للمهلة في الزمان، وإنما هي للتراخي في الإخبار، فالإخبار بتولّيهم في القتال وخِذْلانهم والظَّفَرِ بهم أبهجُ وأسرُّ للنفس، ثم أخبرَ بعد ذلك بانتفاء النَّصر عنهم مطلقاً.

وقال الزمخشريّ(١): التراخي في المرتبة، لأن الإخبار بتسليط الخِذْلان عليهم أعظمُ من الإخبار بتولّيهم الأدبار. فإنْ قلت: ما موقعُ الجملتين أعني «منهم المؤمنون» و«لن يضروكم»؟ قلت: هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب، كما يقول القائل: وعلى ذكر فلان فإنَّ من شأنه كيت وكيت، ولذلك جاءا من غير عاطف.

﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ تقدَّم شرحُ هذه الجملة، وهي وصفُ حالٍ تقرَّرت على اليهود في أقطار الأرض قبلَ مجيء الإسلام، قال الحسن: جاء الإسلامُ والمجوسُ تجبي اليهودَ الجزيةَ، وما كانت لهم عِزَّةٌ(٢) ومَنَعة إلا بيثرب وخيبر وتلك الأرض، فأزالها الله بالإسلام، ولم تبقَ لهم راية في الأرض(٣).

﴿أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ عامّ في الأمكنة، وهي شرط، و«ما» زائدة بعدَها، و«ثُقِفُوا» في موضع جزم، وجوابُ الشرط محذوف يدلُّ عليه ما قبلَه، ومَنْ أجازَ تقديمَ جواب الشرط قال: «ضُرِبَتْ» هو الجواب، ويلزمُ على هذا أن يكون ضَرْبُ الذِّلةِ مستقبَلاً، وعلى الوجه الأول هو ماضٍ يدلُّ على المستقبل، أي: ضُرِبَتْ عليهم الذِّلَّةُ، وحيثما ظُفِرَ بهم ووُجدوا تُضرب عليهم، ودَلَّ ذِكرُ الماضي على المستقبل كما دَلَّ في قول الشاعر:

وندمانٍ يَزِيدُ الكأسَ طِيباً سَقَيْتُ إذا تَغَوَّرَتِ النُّجومُ(٤)

التقدير: سَقَيْتُ وأَسْقِيه إذا تَغَوَّرَتِ النُّجوم.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٥٥.

(٢) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: غيرة. وهو تصحيف.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٠-٤٩١، وزاد المسير ١/ ٤٤١.

(٤) البيت لبُرْج بن مُسْهر بن الجُلاس، وهو في الحماسة ٣/ ١٢٧٢ (شرح المرزوقي)، والأغاني ١٤/ ١١، والمؤتلف والمختلف للآمدي ص٨٠، والصاحبي في فقه اللغة ص٢٢٣.

﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ هذا استثناء ظاهرُه الانقطاع، وهو قولُ الفرَّاء والزَّجَّاج واختيارُ ابن عطية[1]؛ لأنَّ الذّلّة لا تُفارقُهم، وقدَّره الفرَّاء: إلا أن يعتصموا بحبلٍ من الله، فحذف ما يتعلّق به الجارّ كما قال حُميد بن ثور الهلاليّ:

رَأَتْني بحَبْلَيْها فصَدَّتْ مخافةً[2]

ونظَّره ابنُ عطية بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء: ٩٢] قال: لأنَّ باديَ الرأي يُعطي أنَّ له أنْ يقتلَ خطأً، وأنَّ الحَبْلَ من الله ومن الناس يُزيل ضربَ الذِّلَّة، وليس الأمر كذلك، وإنما في الكلام محذوف يدركُه فهمُ السامع الناظر في الأمر، وتقديره في آيتنا: فلا نجاةَ من الموت إلا بحبل. انتهى كلامه.

وعلى ما قدَّره لا يكون استثناءً منقطعاً؛ لأنه مستثنًى من جملة مقدَّرة، وهي قولُه: فلا نجاةَ من الموت، وهو متصل على هذا التقدير، فلا يكون استثناءً منقطعًا من الأول ضرورةَ أن الاستثناء الواحد لا يكون منقطعاً متصلاً، والاستثناء المنقطعُ كما قرّر في علم النحو على قسمين: منه ما يمكن أن يتسلّط عليه العامل، ومنه ما لا يمكن فيه ذلك، ومنه هذه الآية على تقدير الانقطاع، إذِ التقدير: لكن اعتصامهم بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس يُنجيهم من القتل والأسر وسبي الذّراري واستئصالِ أموالهم. ويدلُّ على أنه منقطع الإخبارُ بذلك في قوله تعالى في سورة البقرة [٦١] ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فلم يستثن هناك.

وذهب الزمخشريُّ وغيرُه إلى أنه استثناء متصل؛ قال: وهو استثناء من أعمِّ عامِّ الأحوال، والمعنى: ضُربت عليهم الذِّلَّةُ في عامَّة الأحوال إلا في حال اعتصامهم بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس، يعني ذِمَّة الله وذِمَّة المسلمين، أي: لا عِزَّ لهم قطّ

---

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٠، وللزجاج ١/ ٤٥٧، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩١.

(٢) هو صدر بيت في وصف ناقته، وعَجُزُه: وفي الحَبْلِ رَوْعاءُ الفؤادِ فَرُوقُ. قوله: رَوْعاء، أي: ذكية، وفَرُوق، أي: فَزِعة. والبيت في معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٠، وتفسير الطبري ٥/ ٦٨٤، وتهذيب اللغة ٥/ ٨٠، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٣١. واللسان (حبل ـ نطح). وجاء البيت بروايات مختلفة في ديوان حُميد ص٣٥، اللسان (فرق ـ نسع).

إلا هذه[١] الواحدة، وهي التجاؤهم إلى الذِّمَّة لِما قبلُوه من الجزية. انتهى كلامه. وهو متّجه.

وشُبّه العهدُ بالحَبْل لأنه يصلُ قوماً بقوم كما يفعلُ الحَبْلُ في الأجرام[٢].

والظاهر في تكرار الحَبْل أنه أُريد حَبْلان، وفُسِّرَ حَبْلُ الله بالإسلام، وحَبْلُ الناس بالعهد والذِّمَّة.

وقيل: حَبْلُ الله هو الذي نصَّ الله عليه من أخذِ الجزية، والثاني هو الذي فُوِّض إلى رأي الإمام، فيَزيدُ فيه ويَنقُص بحسَب الاجتهاد.

وقيل: المرادُ حَبْلٌ واحدٌ، إذْ حبلُ المؤمنين هو حبلُ الله، وهو العهد.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ تقدَّم تفسير نظائر هذه الجمل، فأغنَى ذلك عن إعادته هنا.

* * *

﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ
﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى
ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ
بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ
رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ
قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ
﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟
عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ

---

(١) في الكشاف ١/ ٤٥٥ (والكلام منه): بهذه.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٩١.

حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾.

المفردات

الآناء: الساعات، وفي مفردها لغات: «إِنَى» كـ «مِعًى»، و«أَنَى» كـ «فَتَى»، و«إِنْيٌ» كـ «نِحْيٍ»[١]، و«أَنْيٌ» كـ «ظَبْيٍ»، و«إِنْوٌ» كـ «جِرْوٍ».

الصِّرُّ: البردُ الشديدُ المُحرِق. وقيل: البارد بمعنى الصَّرْصَر كما قال:

لا تَعْدِلَنَّ أتاوِيِّينَ تَضرِبُهُمْ   نَكْباءُ صِرٌّ بأصحابِ المُحِلَّاتِ[٢]

وقالت ليلى الأخيلية:

ولم يغلبِ الخَصْمَ الألَدَّ ويملأ الـ   ـجفانَ سَدِيفاً يومَ نكباءَ صَرْصَرِ[٣]

وقال ابن كَيْسان: هو صوتُ لهيبِ[٤] النار. وهو اختيارُ الزَّجَّاج[٥]، من الصَّرِير، وهو الصوت، من قولهم: صَرَّ الشيءُ، ومنه الرِّيح الصَّرْصَر، قال الزجاج: والصِّرُّ صوتُ النار التي في الرِّيح[٦].

البِطانة من الثوب[٧] بإزاء الظِّهارَة[٨]، وتستعارُ لمن يختصُّه الإنسان، كالشِّعار

(١) النِّحْيُ: زِقُّ السَّمْن. (الزِّقُّ: وعاءٌ من جلد يُجزُّ شَعرُه).

(٢) إصلاح المنطق ص٤٤٠، والبيان والتبيين ٣/ ٤٣، والمعاني الكبير ١/ ٣٧٤، والكشاف ١/ ٤٥١. وهو في اللسان (حلل) برواية: لا يَعْدلَنَّ أتاوِيُّون... قال ابن منظور: ويُروى: لا يُعْدَلَنَّ، على ما لم يُسَمَّ فاعله. وقال ابن قتيبة: الأتاوِيُّون: الغرباء، والمُحِلَّات: القِدْر، والقِرْبَة، والفأس، والقدَّاحة، والدَّلْو، والرَّحَى. وإنما قيل لها: مُحِلَّات؛ لأنَّ مَنْ كانت معه حلَّ حيث شاء، وإلا فلا بدَّ له من أن ينزل مع الناس. يقول: لا تَعْدِلَنَّ الغرباء بهؤلاء.

(٣) الكامل ٢/ ٩٥٣، و٣/ ١٤٠٥، والتعازي والمراثي ص٧٥، والأغاني ١١/ ٢٣٢، والكشاف ١/ ٤٥٧، وفيه: ولم تغلب... وتملأ. وفي كتابَي المبرّد: يقدع، بدل: يغلب. وفي الأغاني: «الضِّجاج» بدل: الألدّ. قوله: سَدِيف: هو شِقَق السَّنام.

(٤) في (د١) والمطبوع: لهب. والقول بنحوه في تفسير الثعلبي ٢/ ١٣٥.

(٥) معاني القرآن له ١/ ٤٦١.

(٦) قول الزجاج في معانيه: هو السالف، وهذا اللفظ نقله المصنف بواسطة المحرر الوجيز ١/ ٤٩٥.

(٧) في (د١) والمطبوع: في الثوب.

(٨) الظِّهارة: نقيض البطانة. القاموس (ظهر). وفي المعجم الوسيط: الظِّهارة من الثوب: ما يظهر للعين منه، ولا يلي الجسد.

والدِّثار، يقال: بَطَنَ فلانٌ بفلان(١) بُطوناً وبِطانةً: إذا كان خاصًّا به داخلاً في أمره.

وقال الشاعر:

أولئك خُلْصاني نَعَمْ وبِطانَتي وهُم عَيْبَتي من دون كلِّ قريبِ(٢)

ألوتُ في الأمر: قصَّرتُ فيه؛ قال زهير:

سَعَى بعدَهُمْ قومٌ لكي يُدرِكُوهُمُ فلم يفعلُوا ولم يُلِيمُوا ولم يَأْلُوا(٣)

أي: لم يُقَصِّرُوا.

الخَبال والخَبْل: الفساد الذي يلحق الحيوان، يقال: في قوائم الفرس خَبْلٌ وخَبَال، أي: فسادٌ من جهة الاضطراب. والخَبْلُ: الجُنون ويقال: خَبَلَهُ الحُبُّ؛ أفْسَدَه.

البغضاء مصدر كالسَّرَّاء والبأساء، يقال: بَغُضَ الرجلُ فهو بغيض، وأبْغَضْتُه أنا: اشتدَّتْ كراهتي له.

الأفواه معروفة، والواحد منها في الأصل: فَوَهٌ(٤)، ولم تنطق به العرب، بل قالوا: فَمٌ، وفي الفم لغات تسع ذُكرت في بعض كتب النحو(٥).

العَضُّ: وضع الأسنان على الشيء بقوَّة، والفعل منه على فَعِلَ، بكسر العين، وهو بالضاد، فأمَّا عظَّ الزمان، وعظَّت الحرب، فهو بالظاء أخت الطاء، قال:

---

(١) في (د١) والمطبوع: من فلان.

(٢) البيت في تفسير الثعلبي ٢/١٣٦، ومجمع البيان ٢/١٧٦، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٧٢ دون نسبة.

(٣) ديوان زهير (بشرح ثعلب) ص١١٤، وفيه: ولم يُلاموا. وذكر ثعلب أن رواية الأصمعي: ولم يُليموا. قال: أي لم يأتوا ما يلامون عليه.

(٤) بالتحريك، كما ذكر الفيُّومي في المصباح المنير، وذكر غيره تسكين الواو. ينظر تاج العروس، وشرح الكافية ٢/ ٢٩٥.

(٥) قال صاحب الصحاح: يقال: هذا فَمٌ ورأيتُ فَماً ومررتُ بفَمٍ، بفتح الفاء على كل حال، ومنهم من يضمُّ الفاء على كل حال، ومنهم من يكسر عليَّ كل حال، ومنهم من يُعربُه من مكانين، يقول: رأيتُ فَماً وهذا فُمٌ ومررتُ بِفِمٍ.

وَعَـظُّ زمـانٍ يـا ابـنَ مـروانَ لـم يَـدَعْ مـن الـمـالِ إلا مُـسْـحَـتاً أو مُـجَـلَّـفُ[١]

والـعُـضُّ؛ بـضـم الـعـيـن: عَـلَـفُ أهـلِ الأمـصـار، مـثـل الـكُـسْـب[٢] والـنَّـوَى المرضُوض، يقال منه: أعَضَّ القومُ: إذا أكلَ إبلُهم العُضَّ. وبعيرٌ عُضَاضِيّ، أي: سمين، كأنه منسوب إليه، والعِضُّ؛ بالكسر: الدَّاهية من الرجال[٣].

الأنامل جمع أَنْمَلَة، ويقال بفتح الميم وضمِّها[٤]، وهي أطرافُ الأصابع، قال ابنُ عيسى: أصلُها النَّمل المعروف، وهي مشبَّهة به في الدِّقَّة والتصرُّف بالحركة، ومنه رجل نَمِل، أي: نمَّام.

الغَيْظُ مصدر غاظَه. وغَيْظ[٥]: اسم عَلَم.

الفَرَح معروف، يقال منه: فَرِحَ؛ بكسر العين.

الكَيْد: المَكْر، كادَه يكيدُه: مكَرَ به، وهو الاحتيال بالباطل، قال ابنُ قُتيبة: وأصلُه المشقَّة، من قولهم: فلانٌ يكيدُ بنفسه[٦]، أي: يُعالجُ مشقَّاتِ النَّزْع وسَكَراتِ الموت.

* * *

(١) البيت للفرزدق، وهو في ديوانه ٢/ ٢٦ (وفيه: مُجرَّف، بدل: مُجلَّف)، وهو في طبقات فحول الشعراء ٢/ ٣٦٨، والجُمل في النحو ص٢٠٤، والإنصاف ١/ ١٨٨، وخزانة الأدب ٥/ ١٤٤، وفيها كلها: وعضُّ، بدل: وعظُّ. ونقل البغدادي في الخزانة ٥/ ١٥٢ عن الخليل بن أحمد قوله: العَضُّ كله بالضاد، إلا عظَّ الزمانِ والحرب. وقال ابن منظور في اللسان (عظظ): عظَّه الزمانُ لغة في عضَّه. اهـ. قوله: مُسْحَت، أي: مُهْلَك، ومجلَّف، أي: الذي بَقِيَتْ منه بقيَّة، أو الذي جلَّفَتْهُ السِّنون، أي: ذهبت أموالُه.

(٢) الكُسْب (وزان قُفل): ثُفْل الدُّهْن، وهو معرَّب، وأصله بالشين المعجمة. (المصباح المنير).

(٣) ينظر تفسير القرطبي ٥/ ٢٧٩.

(٤) في القاموس (نمل): الأنملة بتثليث الميم والهمزة، تسعُ لغات، قال الزَّبيدي في التاج: وزاد بعضهم: أنمولة، بالواو.

(٥) في (أ) و(ح) و(د١) و(د٢) والمطبوع: الغيض مصدر غاضه وغيض... الخ وهو تحريف.

(٦) جاء هذا الحرف في حديث أنس ﷺ قال: لقد رأيتُه (يعني إبراهيمَ ابنَ رسولِ الله ﷺ) وهو يكيدُ بنفسه بين يدي رسول الله ﷺ. أخرجه مسلم (٢٣١٥)، ورواه البخاري (١٣٠٣) بلفظ: يجودُ بنفسه.

التفسير ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ سببُ النزول إسلامُ عبد الله بنِ سَلَام وغيرِه من اليهود وقولُ الكفَّار من أحْبارهم: ما آمنَ بمحمد إلا شِرارُنا، ولو كانوا خِياراً ما تركوا دينَ آبائهم. قاله ابنُ عباس وقتادة وابنُ جُريج[1].

والواو في «ليسوا» هي لأهل الكتاب السابقِ ذكرُهم في قوله: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

والأصحُّ أنَّ الواو ضميرٌ عائد على أهل الكتاب، و«سَوَاءً» خبرُ «ليس»، والمعنى: ليس أهلُ الكتاب مستوين، بل منهم مَنْ آمنَ بكتابه وبالقرآن ممَّن أدرك شريعة الإسلام، أو كان على استقامة فمات قبل أن يُدركَها. و«من أهل الكتاب أمةٌ قائمةٌ» مبتدأ وخبر.

وقال الفرَّاء[2]: «أُمَّة» مرتفعة بـ «سَوَاء»، أي: ليس أهلُ الكتاب مستوياً، من أهل الكتاب أمَّةٌ قائمةٌ موصوفةٌ بما ذُكر وأمةٌ كافرة، فحُذفت هذه الجملة المعادِلة، ودلَّ عليها القسم الأول، كقوله:

عصيتُ إليها القلبَ إني لِأمْرِها سميعٌ فما أدْري أرُشْدٌ طِلابُها[3]

التقدير: أم غَيٌّ، فحذف لدلالة «أرُشْدٌ» وقال:

أراكَ فما أدري أهَمٌّ هَمَمْتُهُ وذُو الهَمِّ قِدْماً خاشعٌ متضائلُ[4]

التقدير: أم غيرُه. قال الفرَّاء: لأنَّ المساواة تقتضي شيئين [كقوله:] ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥]، [وقوله:][5] ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية: ٢١]

(١) تفسير الطبري ٥/ ٦٩١-٦٩٢، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٣١، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٢. وسيذكر المصنف سببين للنزول آخَرَيْن عند تفسير قوله: «آناء الليل».

(٢) بنحوه في معاني القرآن له ١/ ٢٣٠.

(٣) في (د١) و(د٢) و(ح): خلافها، وفي (ب) و(د٣) و(ز٢): ضلالها، وفي (أ) و(ع) و(يه). خلالها. والمثبت من المطبوع، وهو موافق لما في المصادر. والبيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ص٧١، وفيه: دعاني إليها القلب. وذكر الشيخ محمود شاكر في تعليقه على تفسير الطبري ١/ ٣٢٧ أن المعنى لا يستقيم على رواية: عصيت، وأن رواية: دعاني (وكذلك: عصاني) صحيحة.

(٤) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣١، وتفسير الطبري ٥/ ٦٩٠، والصناعتين ص١٨٨.

(٥) ما بين حاصرتين من الدرّ المصون ٣/ ٣٥٥.

ويضعُف قول الفرّاء من حيث الحذفُ، ومن حيث[١] وضعُ الظاهر موضعَ المُضمر، إذِ التقدير: ليس أهلُ الكتاب مستوياً منهم أمّةٌ قائمةٌ كذا وأمّةٌ كافرة[٢].

وذهب أبو عبيدة إلى أنَّ الواو في «ليسوا» علامةُ جمع، لا ضمير، مثلُها في قول الشاعر:

يلومونني في شراءِ النَّخيـ ـلِ قومي[٣] فكلُّهُمُ ألْوَمُ[٤]

واسم ليس: «أمةٌ قائمة» أي: ليس سواءً من أهل الكتاب أمّةٌ قائمةٌ موصوفةٌ بما ذُكر وأمّةٌ كافرة.

قال ابنُ عطية[٥]: وما قالَه أبو عبيدة خطأ مردود. انتهى. ولم يبيّن جهة الخطأ، وكأنه توهَّم أن اسم «ليس» هو «أمّة قائمة» فقط، وأنه لا محذوفَ ثَمَّ، إذْ ليس الغرضُ تفاوتَ الأمّة القائمة التالية، فإذا قُدِّرَ ثَمَّ محذوفٌ لم يكن قولُ أبي عبيدة خطأً مردوداً[٦].

قيل: وما قالَه أبو عبيدة هو على لغة أكلوني البراغيث، وهي لغة رديئة، والعربُ على خلافها، فلا يُحمل عليها مع ما فيه من مخالفة الظاهر. انتهى.

وقد نازع السُّهيليُّ النحويِّين في قولهم: إنها لغة ضعيفة، وكثيراً ما جاءت في الحديث[٧].

---

(١) المثبت من (ز٢). وفي النسخ الأخرى: حذف. وهو تحريف.

(٢) ينظر أيضاً تفسير الطبري ٥/ ٦٩٠-٦٩١، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠١.

(٣) في هامش (د١): أهلي. (نسخة).

(٤) معاني القرآن للفراء ١/ ٣١٦ (وفيه: اشترائي، بدل: شراء)، وسرّ صناعة الإعراب ٢/ ٦٢٩ (وفيه: اشتراء، وفيه أيضاً وفي معاني الفراء: أهلي، بدل: قومي)، وإعراب الحديث للعكبري ص٤٠ (وفيه: ... اشتراء... ولَوْمُهُمُ أَلْوَمُ). ونُسب البيت في محاضرات الأدباء ٤/ ٥٠٩ لأُحيحة بن الجُلاح (وفيه: ... اشتراء... وكلُّهم يَعْذِلُ).

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٢.

(٦) وتقديرُه هو قول المصنِّف السالف: ليس سواءً من أهل الكتاب أمةٌ قائمة موصوفة بما ذُكر وأمةٌ كافرة. ولم يرد هذا القول في (أ) و(ح) و(د٢) و(ع) و(يه).

(٧) مثل قوله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار...» أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والإعرابُ الأوّلُ هو الظاهر، وهو أن يكون ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ مستأنفَ بيانٍ لانتفاء التسوية كما جاء «تأمرون بالمعروف» بياناً لقوله: «كنتم خَيْرَ أمّة».

والمرادُ بأهل الكتاب اليهودُ والنصارى، و«أمّة قائمة» أي: مستقيمة، من أقمتُ العُود فقام، أي: استقام. قال مجاهد والحسن وابنُ جُريج: عادلة. وقال ابن عباس وقتادة والرَّبيع: قائمةٌ على كتاب الله وحُدودِه، مهتدية. وقال السُّدِّيّ: قانتة مطيعة[١]. وكلُّها راجع للقول الأوّل.

وقال ابن مسعود والسُّدِّيّ: الضمير في «ليسوا» عائد على اليهود وأمَّةِ محمد ﷺ؛ إذ تقدَّمَ ذكر اليهود، وذكر هذه الأمة في قوله: «كنتم خَيْرَ أمّة». و«الكتابُ» على هذا القول جنس كتب الله، وليس بالمعهود من التوراة والإنجيل فقط، والمراد بقوله: «من أهل الكتاب أمةٌ قائمة» أهلُ القرآن[٢]. والظاهرُ عَوْدُ الضمير على أهل الكتاب المذكورين في قوله: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لتوالي الضمائر عائدةً عليهم، فكذلك ضمير «ليسوا».

وقال عطاء: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ الآية، يريد أربعين رجلاً من أهل نجران من العرب، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانيةً من الروم، كانوا على دين عيسى، وصدَّقوا محمداً ﷺ، وكان ناسٌ من الأنصار موحِّدين، يغتسلُون من الجَنَابة، ويقومون بما عرفوا من شرائع الحنيفية قبل قُدوم النبيّ ﷺ حتى جاءهم[٣]، منهم أسعد بنُ زُرارة، والبَراء بنُ مَعْرُور، ومحمد بنُ مَسْلَمة، وقيس بن صِرْمَة بن أنس[٤].

---

(١) ينظر تفسير الطبري ٥/ ٦٩٣-٦٩٤، والثعلبي ٢/ ١٣٢، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٢، وزاد المسير ١/ ٤٤٢.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٢. وقول ابن مسعود والسُّدِّيّ بمعناه فيه وفي تفسير الطبري ٥/ ٦٩٢-٦٩٣.

(٣) أي رسولُ الله ﷺ، والخبر في تفسير الثعلبي ٢/ ١٣٣، وتفسير البغوي ١/ ٣٤٣، وفيهما: «حتى جاءهم الله تعالى بالنبي ﷺ فصدّقوه ونصروه». وفي سياق المصنف تقديم وتأخير عن لفظه فيهما.

(٤) يقال في اسمه: قيس بن صِرْمة، وأبو قيس بن صِرْمة، وصِرْمة بن قيس، وصِرْمة بن مالك، وصِرْمة بن أنس، وقيل غير ذلك. ينظر الإصابة ٥/ ١٣٧-١٣٩، و٨/ ١٩٢-١٩٣.

﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ وصفَ الأمَّةَ القائمةَ بأنَّها تاليةٌ آياتِ الله، وعَبَّر بالتلاوة في ساعات الليل عن التهجُّد بالقرآن.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ جملة في موضع الصفة أيضاً معطوفةٌ على «يتلون» وصفَهم بالتلاوة للقرآن، وبالسجودِ، فتلاوةُ القرآن في القيام، وأمَّا السُّجود فلم تُشرع فيه التلاوة، وجاءت الصفة الثانية اسميَّة لتدلَّ على التوكيد بتكرُّر الضمير، وهو «هُم» والواو في «يسجدون»، إذْ أقربُ ما يكونُ العبد من ربّه وهو ساجد. وأخبرَ عن المبتدأ بالمضارع، وجاءت الصفة الأولى بالمضارع أيضاً لتدلَّ على التجدُّد، وعُطفت الثانية على الأولى بالواو لتُشعر بأنّ تلك التلاوة كانت في صلاة، فلم تكن التلاوة وحدَها، ولا السجودُ وحدَه.

وظاهرُ قوله: «آناءَ الليل» أنها جميعُ ساعات الليل، فيبعُد صدورُ ذلك ـ أعني التلاوة والسجود ـ من كلّ شخصٍ شخص، وإنَّما يكون ذلك من جماعة، إذ بعضُ الناس يقومُ أوّلَ الليل، وبعضُهم آخِرَه، وبعضُهم بعد هَجْعَة ثم يعود إلى نومه، فيأتي من مجموع ذلك في المدن والجماعات استيعابُ ساعات الليل بالقيام في تلاوة القرآن والسجود، وعلى هذا كان صدرُ هذه الأمَّة، وعُرْفُ الناسِ القيامُ في أوَّل الثُّلث الأخير من الليل، أو قبلَه بقليل، والقائمُ طُولَ الليل قليلٌ، وقد كان في الصالحين من يلتزمُه، وقد ذكرَ الله القصدَ في ذلك في أوّل المزَّمِّل[(١)].

و«آناءُ الليل»: ساعاتُه. قاله الرَّبيع وقتادة وغيرُهما. وقال السُّدِّيّ: جَوْفُه. وهو من إطلاق الكلّ على الجزء، إذِ الجوفُ فردٌ من الجمع.

وعن منصور أنها نزلَتْ في المصلِّين بين العشاءين، وهذا مخالفٌ لظاهر قوله: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾[(٢)].

(١) الكلام في المحرر الوجيز ١/ ٤٩٣، وقال بعده ابنُ عطيَّة: وقيامُ الليل لقراءةِ العلم المُبْتَغَى به وجهُ الله داخلٌ في هذه الآية، وهو أفضلُ من التنفُّل لمن يُرجَى انتفاعُ المسلمين بعلمه.

(٢) تنظر الأقوال السابقة في تفسير الطبري ٥/ ٦٩٦-٦٩٨، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٣٢-١٣٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٣.

وعن ابن مسعود أنها صلاةُ العَتَمة، وذكر أنَّ سبب نزولها هو احتباسُ النبيّ ﷺ في صلاة العَتَمة وكان عند بعض نسائه، فلم يأتِ حتى مضى ليل، فجاء ومِنَّا المصلّي ومنَّا المضطجع، فقال: «أبْشِرُوا، فإنّه ليس أحدٌ من أهل الكتاب يصلّي هذه الصلاة»[(١)]. ولهذا السبب ذكر ابنُ مسعود أنَّ قوله: «ليسوا سواءً» عائدٌ على اليهود وهذه الأمَّة. وهو خلافُ الظاهر.

والظاهرُ من قوله: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أنه أُريدَ به السجودُ في الصلاة، وقيل: عُبِّر بالسجود عن الصلاة تسميةً للشيء بجزءٍ شريفٍ منه كما يُعبَّرُ عنها بالركوع. قاله مقاتل والفرَّاء والزَّجَّاج، لأن القراءة لا تكون في الركوع ولا في السجود، فعلى هذا تكونُ الجملة في موضع الحال، أي: يتلون آياتِ الله ملتبسين بالصلاة.

وقيل: سجودُ التلاوة. وقيل: أُرِيدَ بالسجود الخشوعُ والخضوع.

وذهب الطبريُّ[(٢)] وغيرُه إلى أنها جملة مقطوعة[(٣)] من الكلام الأوَّل، أخبرَ عنهم أيضاً أنهم أهلُ سجود. ويُحسِّنُه إنْ كانت التلاوةُ في غير صلاة، ويكون أيضاً على هذا التأويل نعتاً عُدِّدَ بواو العطف كما تقول: جاءني زيد الكريم والعاقل[(٤)].

وأجاز بعضهم في قوله: «وهم يسجدون» أن يكون حالاً من الضمير في «قائمة» وحالاً من «أمة»؛ لأنها قد وُصفتب «قائمة»[(٥)].

فتلخّص في هذه الجملة قولان:

أحدُهما: أنها لا موضعَ لها من الإعراب بأن تكون مستأنَفة.

والقول الآخر: أن يكون لها موضع من الإعراب، ويكون رفعاً بأن يكون في موضع الصفة، أو بأن يكون نصباً بأن يكون في موضع الحال إمَّا من الضمير في «يتلون» أو من الضمير في «قائمة» أو من «أمَّة».

---

(١) المصادر السابقة. وأخرجه الإمام أحمد (٣٧٦٠) بنحوه.

(٢) ينظر تفسيره ٥/٦٩٨-٦٩٩. والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٤٩٣.

(٣) في (د١) والمطبوع: معطوفة. وهو تحريف.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٣.

(٥) الإملاء ١/ ١٤٦.

ودلَّت هذه الآية على الترغيب في قيام الليل، وقد جاء في كتاب الله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر: ٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ﴾. وفي الحديث: «يا عبدَ الله، لا تكن مثلَ فلان، كان يقومُ الليل فتركه»[١]، وفيه: «نِعْمَ الرجلُ عبدُ الله إلا أنه لا يقومُ من الليل»[٢]، وغير ذلك كثير.

وعن رجل من بني شَيْبة وكان يدرسُ الكتب؛ قال: إنَّا نجدُ كلاماً من كلام الرَّبِّ عزَّ وجلَّ: «أيحسَبُ راعي إبلٍ وغنمٍ إذا جَنَّهُ الليل انجدلَ كمَنْ هو قائمٌ وساجدٌ الليل؟!»[٣].

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تقدَّم تفسير مثل هذه الجمل.

﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ المسارعةُ في الخير ناشئةٌ عن فرط الرغبة فيه، لأنَّ مَنْ رغبَ في أمر بادرَ إليه وإلى القيام به، وآثرَ الفَوْرَ على التراخي. وجاء في الحديث: «اغتَنِمْ خمساً قبل خمس: شبابَكَ قَبْلَ هَرَمِك، وصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِك، وفَراغَك قَبْلَ شُغْلك، وحياتَك قَبْلَ مَوْتِك، وغِناكَ قَبْلَ فَقْرك»[٤].

وصفَهم الله تعالى بأنهم إذا دُعُوا إلى خيرٍ مِنْ نصرِ مظلومٍ[٥] وإعانةِ مكروبٍ وعبادةِ للهِ بادرُوا إلى فِعله[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (١١٥٢)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بنِ عَمرو بن العاص ﵄، وهو المقصود بالنداء.

(٢) أخرجه البخاري (١١٢٢) ومسلم (٢٤٧٩ ـ وفيه قصة) من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب ﵄، وهو المقصود بالمدح. ولفظه فيهما: «نِعْمَ الرجلُ عبدُ الله لو كان يصلي من الليل». ولم أقف على اللفظ الذي ساقه المصنف.

(٣) تفسير الثعلبي ٢/ ١٣٣، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٦٩ (وفيهما: انخذل، بدل: انجدل).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٠٦ من حديث ابن عباس ﵄ وصحَّحه على شرط الشيخين. وأخرجه في الزهد وكيع (٧)، وابنُ المبارك (٢) عن عمرو بن ميمون الأودي. وتنظر طرقُه وشواهدُه في التعليق عليه في الزهد لوكيع.

(٥) في (ح) و(د٢) و(يه): إذا دُعوا إلى نصر مظلوم. وفي (أ) و(ع): نُصرة.

(٦) بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٤٩٣.

والظاهر في «يؤمنون» أن يكون صفة، أي: تاليةٌ مؤمنةٌ، وجوَّزُوا أن تكون الجملة مستأنفَةً، وفي موضع الحال من الضمير في «يسجدون»، وأن تكون بدلاً من السجود؛ قيل: لأنَّ السجود بمعنى الإيمان.

قال الزمخشريّ[1]: وصَفَهم بخصائصَ ما كانت في اليهود؛ من تلاوةِ آياتِ الله بالليل ساجدين، ومن الإيمان بالله؛ لأنَّ إيمانهم به كلا إيمان لإشراكهم به عُزَيْراً وكفرِهم ببعض الكتب والرُّسلِ دون بعض، ومن الإيمان باليوم الآخِر؛ لأنهم يصفونه بخلاف صفته، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنهم كانوا مداهنين، ومن المسارعة في الخيرات؛ لأنهم كانوا متباطئين عنها غيرَ راغبين فيها. انتهى كلامه. وهو حسن.

ولمَّا ذكر تعالى هذه الأمَّة؛ وصفَها بصفات ستّ:

إحداها: أنها قائمة، أي: مستقيمة على النَّهج[2] القويم. ولمَّا كانت الاستقامةُ وصفاً ثابتاً لها لا يتغيَّر؛ جاء باسم الفاعل.

الثانية: الصلاةُ بالليل المعبَّرُ عنها بالتلاوة والسجود، وهي العبادةُ التي تظهرُ بها الخلوة لمناجاة اللهِ بالليل.

الثالثة: الإيمانُ بالله واليوم الآخر، وهو الحاملُ على عبادة الله، وذكرَ اليوم الآخِر لأنَّ فيه ظهورَ آثارِ عبادةِ الله تعالى من الجزاء الجزيل. وتضمَّنَ الإيمانُ باليوم الآخِر الإيمانَ بالأنبياء، إذْ هم الذين أخبروا بكينونة هذا الجائز في العقل ووقوعِه، فصار الإيمان به واجباً.

الرابعة: الأمرُ بالمعروف.

الخامسة: النهيُ عن المنكر، لمَّا كَمَلُوا في أنفسهم سعَوْا في تكميل غيرهم بهذين الوصفين.

السادسة: المسارعةُ في الخيرات، وهي صفة تشملُ أفعالَهم المختصَّة بهم

---

(١) الكشاف ١/ ٤٥٦.

(٢) في (أ) و(ح) و(ز٢) و(ع) و(يه): المنهج. وهما بمعنى. يعني الطريق الواضح.

والأفعالَ المتعدِّيةَ منهم إلى غيرهم. وهذه الصفاتُ الثلاثةُ ناشئةٌ أيضاً عن الإيمان، فانظر إلى حُسن مساق هذه الصفات حيث توسَّط الإيمان، وتقدَّمت عليه الصفة المختصَّة بالإنسان في ذاته، وهي الصلاةُ بالليل، وتأخَّرت عنه الصفتان المتعدِّيتان والصفة المشتركة، وكلُّها نتائج عن الإيمان[١].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هذا إشارة إلى مَنْ جمعَ هذه الصفات السِّتَّ، أي: وأولئك الموصوفون بتلك الأوصاف من الذين صَلَحت أحوالُهم عند الله تعالى.

قال الزمخشري[٢]: ويجوز أن يريد بالصالحين المسلمين. انتهى. ويُشبه قولُه قولَ ابنِ عبَّاس: من أصحاب محمد ﷺ[٣] وفيما قالَه الزمخشريّ بُعْدٌ، بل الظاهرُ أنَّ في الوصف بالصلاح زيادةً على الوصف بالإسلام، ولذلك سأل هذه الرتبةَ بعضُ الأنبياء، فقال تعالى حكاية عن سليمان على نبيِّنا وعليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، وقال تعالى في حقّ إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وقال تعالى بعد ذكر إسماعيل وإدريس وذي الكِفْل: ﴿كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥-٨٦]، وقال: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النساء: ٦٩].

و«مِنْ» للتبعيض، وقال ابن عطيَّة[٤]: ويحسُنُ أن تكون لبيان الجنس. انتهى.

ولم يتقدَّم شيءٌ فيه إبهام فيبيِّنَ جنسه.

﴿وما تَفْعَلُوا مِنْ خَيرٍ فلن تُكْفَرُوه﴾ قرأ نافع وابنُ عامر وابنُ كثير وأبو بكر

(١) ينظر الكلام مفصلاً على هذه الصفات في تفسير الرازي ٨/ ٢٠٠-٢٠٣.
(٢) الكشاف ١/ ٤٥٦.
(٣) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٣، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٦٩-٢٧٠. دون نسبة. وينظر ما سلف عن ابن عباس ﷺ في سبب نزول هذه الآيات.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٤.

بالتاء فيهما على الخطاب[١]، واختلفوا في المخاطَب، فقال أبو حاتم: هو مردود إلى قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾[٢]، فيكون من تلوين الخطاب ومعدوله.

وقال مكيّ: التاء فيها عمومٌ لجميع الأمَّة[٣]. والذي يظهرُ لي أنه التفاتٌ إلى قوله: «أمَّةٌ قائمةٌ»، لمَّا وصفهم بأوصافٍ جليلة أقبلَ عليهم تأنيساً لهم واستعطافاً عليهم، فخاطبَهم بأنَّ ما تفعلونه من الخير فلا تُمنعون ثوابَه، ولذلك اقتصرَ على قوله: «من خَيْرٍ»، لأنه موضعُ عطف عليهم وترحُّم، ولم يتعرَّض لذكر الشَّرِّ. ومعلومٌ أنَّ كلَّ ما يُفعل من خير وشرٍّ يترتَّب عليه موعودُه. ويُؤيِّد هذا الالتفات وأنه راجعٌ إلى «أمَّةٌ قائمةٌ» قراءةُ الياء، وهي قراءة ابن عبَّاس وحمزة والكسائيّ وحفص، وعبدِ الوارث عن أبي عَمرو، واختيارُ أبي عُبيد. وباقي رواة أبي عَمرو خَيَّرَ بين الياء والتاء[٤]، ومعلومٌ في هذه القراءة أنَّ الضمير عائد على «أمَّة قائمة» كما عاد في قوله: «يتلون» وما بعدَه.

و«كَفَرَ» يتعدَّى إلى واحد، يقال: كَفَرَ النِّعمةَ. وهنا ضُمِّنَ معنى «حَرَمَ» أي: فلن تُحْرَمُوه، أي: تُحْرَمُوا ثوابَه. ولمَّا جاء وصفُه تعالى بأنه شَكور في معنى توفية الثواب[٥]، نَفَى عنه تعالى نقيضَ الشكر وهو كُفْرُ الثواب[٦]، أي: حِرْمانُه.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ لـمَّا كانت الآية واردة فيمن اتَّصف بالأوصاف الجميلة، وأخبرَ تعالى أنه يُثيب على فعل الخير، ناسبَ ختمَ الآية بذكر عِلمه بالمتَّقين، وإن كان عالماً بالمتقين وبضدِّهم. ومعنى عليم بهم أنَّه[٧] مجازيهم على تقواهم، وفي ذلك وَعدٌ للمتقين، ووعيدٌ للمُفرِّطين.

---

(١) السبعة ص٢١٥، والتيسير ص٩٠.

(٢) ينظر تفسير كل من الثعلبي ٢/ ١٣٤، والقرطبي ٥/ ٢٧٠.

(٣) الهداية ٢/ ١١٠٢.

(٤) ينظر السبعة ص٢١٥، وجامع البيان ٢/ ٩٣-٩٤، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٣٤، وزاد المسير ١/ ٤٤٤، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٧٠. وقال مكي في الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٣٥٤: المشهور عن أبي عمرو التاء.

(٥) يعني في قوله: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾. والكلام بنحوه في الكشاف ١/ ٤٥٦.

(٦) في (أ) و(ع): كفران الثواب.

(٧) في (أ) و(ز٢) و(ع) و(يه): أي: بدل: أنه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ تقدَّم تفسير هذه الجملة في أوائل هذه السورة.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ تقدَّم تفسيرُ نظيرِ هذه الجملة في أوائل البقرة.

ومناسبةُ هذه الآية لما قبلَها ظاهرة، وهو أنه لمَّا ذكرَ شيئاً من أحوال المؤمنين ذكرَ شيئاً من أحوال الكافرين ليتَّضح الفرقُ بين القبيلين.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ لمَّا ذكرَ تعالى أنَّ ما فعلَه المؤمنون من الخير فإنَّهم لا يُحْرَمُون ثوابَه بل يَجْنُون في الآخرة ثمرةَ ما غرَسوه في الدنيا؛ أخذَ في بيان نفقة الكافرين، فضرب لها مثلاً اقتضى بطلانَها وذهابَها مجَّاناً بغير عِوَض.

قال مجاهد: نزلت في نفقات الكفار وصدقاتهم. وقال مقاتل: في نفقة سَفِلة اليهود على علمائهم. وقيل: في نفقة المشركين يوم بدر. وقيل: في نفقة المنافقين إذا خرجوا مع المسلمين لحرب المشركين[(١)].

قال الزمخشريّ: شبَّه ما كانوا ينفقونه من أموالهم في المكارم والمفاخر وكَسْبِ الثناء وحُسْنِ الذِّكر بين الناس لا يبتغون به وَجْهَ الله بالزَّرْع الذي حَسَّهُ البردُ فذهبَ حُطاماً. وقيل: هو ما يتقرَّبون به إلى الله مع كفرهم. وقيل: ما أنفقوا في عداوة رسولِ الله ﷺ[(٢)]، لأنهم لم يبلغوا بإنفاقه ما أنفقوه لأجله. انتهى.

وقال ابنُ عطيَّة[(٣)]: معناه المثالُ القائم في النفس من إنفاقهم الذي يعدُّونه قُرْبَةً وحِسْبَةً وتَحَنُّثاً، ومِنْ حَبْطِهِ يومَ القيامة، وكونِه هباءً منثوراً وذهابِه؛ كالمثال القائم في النفس مِن زَرْعِ قومٍ نبتَ واخضرَّ وقَوِيَ الأملُ فيه، فهبَّت عليه ريحٌ فيها صِرٌّ مُحرِقٌ، فأهلكَتْه. انتهى.

---

(١) ينظر تفسير الثعلبي ٢/ ١٣٥، والنكت والعيون ١/ ٤١٨، وزاد المسير ١/ ٤٤٥.
(٢) بعدها في الكشاف ١/ ٤٥٧ (والكلام منه): فضاع عنهم.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٤.

والظاهر أنَّ «ما» في قوله: «مَثَلُ ما ينفقون» موصولة، والعائدُ محذوف، أي: ينفقونه. والظاهر تشبيه ما ينفقونه بالرِّيح، والمعنى على تشبيهه بالحَرْث، فقيل: هو من التشبيه المركّب، لم يُقابَل فيه الأفراد بالأفراد. وقد مرَّ نظيرُه في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] ولذلك قال ثعلب: بدأ بالرِّيح، والمعنى على الحَرْث. وهو اختيار الزمخشريّ[١].

وقيل: وقعَ التشبيهُ بين شيئين وشيئين، ذكرَ أحدَ المشبَّهين وتركَ ذِكْرَ الآخَر، ثم ذكرَ أحدَ الشيئين المشبَّه بهما وليس الذي يوازن[٢] المذكور الأول، وتركَ ذكر الآخَر، ودلَّ المذكوران على المتروكَيْن. وهذا اختيار ابن عطيَّة؛ قال: وهذه غايةُ البلاغة والإعجاز[٣]، ومِثلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ [البقرة: ١٧١]. انتهى.

ويجوز أن يكون على حذف مضاف من الأول تقديرُه: مَثَلُ مُهْلَكِ ما ينفقون، أو من الثاني، تقديره: كمَثَلِ مُهْلَكِ ريح.

وقيل: يجوز أن تكون «ما» مصدريَّة، أي: مَثَلُ إنفاقِهم. فيكون قد شبّه المعقول بالمحسُوس، إذ شبَّه الإنفاق بالريح.

وظاهرُ قوله: «ينفقون» أنه من نفقة المال، وقال السُّدِّيُّ: معناه ينفقون من أقوالهم التي يُبطنون ضدَّها. ويُضعف هذا أنها في الكفار الذين يعلنون، لا في المنافقين الذين يُبطنون[٤].

وقيل: متعلَّق الإنفاق هو أعمالُهم من الكفر ونحوِه [أي:][٥] هي كالريح التي فيها صِرٌّ أبطلَتْ أعمالَهم؛ كلَّ ما لهم من صِلة رَحِم وتحنُّث بعِتق كما يُبطِلُ الرِّيحُ الزَّرع؛ قال ابن عطيَّة: وهذا قول حسن لولا بُعد الاستعارة في الإنفاق. انتهى.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٥٧. وقول ثعلب في زاد المسير ١/ ٤٤٥.
(٢) في المحرر الوجيز ١/ ٤٩٥ (والكلام منه): يوازي.
(٣) في المصدر السابق: الإيجاز.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٥. وقول السُّدِّي بنحوه في تفسير الطبري ٧/ ١٣٥-١٣٦ (طبعة دار المعارف).
(٥) لفظة «أي» بين حاصرتين من المحرر الوجيز ١/ ٤٩٥. والكلام فيه بنحوه.

وقال الراغب[(١)]: ومنهم من قال: «ما ينفقون» عبارة عن أعمالهم كلِّها لكنه خَصَّ الإنفاق لكونه أظهر وأكثر. انتهى.

وقرأ ابنُ هُرْمُز والأعرج[(٢)]: «تنفقون» بالتاء على معنى: قُل لهم.

وأفردَ رِيحًا لأنها مختصَّة بالعذاب كما أُفردت في قوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ [الروم: ٥١]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [القمر: ١٩]، ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] كما أن الجمع مختصّ بالرحمة: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦]، ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا﴾ [الأعراف: ٥٧]، ولذلك رُوِيَ: «اللهمَّ اجْعَلْها رِياحاً ولا تَجْعَلْها رِيحاً»[(٣)].

وارتفاع «صِرٌّ» على أنه فاعل بالمجرور قبلَه إذ قد اعتمد بكونه وقع صفة للرِّيح، فإن كان الصِّرُّ البرد - وهو قول ابن عباس والحسن وقتادة والسُّدِّيّ - أو صوتَ لهيب النار، أو صوتَ الرِّيح الشديدة؛ فظاهرٌ كونُ ذلك في الرِّيح. وإن كان الصِّرُّ صفةً للرِّيح، كالصَّرْصَر، فالمعنى: فيها قِرَّةٌ صِرٌّ، كما تقول: بَرْدٌ باردٌ، وحُذف الموصوف وقامت الصفة مَقامَه. أو تكون الظرفيةُ مجازاً؛ جُعل الموصوف ظرفاً للصفة، كما قال:

وفي الرحمن للضعفاء كافِ[(٤)]

---

(١) تفسيره ٢/ ٨١٨. وبمعناه قاله الزجاج في معاني القرآن ١/ ٤٦١.

(٢) كذا في النسخ. والصواب: ابن هُرْمُز الأعرج، واسمه عبد الرحمن، وذكر ابنُ عطية القراءة عنه في المحرر الوجيز ١/ ٤٩٥.

(٣) أخرجه أبو يعلى (٢٤٥٦)، والطبراني في المعجم الكبير (١١٥٣٣) وفي الدعاء (٩٧٧) من حديث ابن عباس ﷺ، وفي إسناده الحسين بن قيس أبو علي الرَّحَبيّ، وهو متروك كما ذكر ابنُ حجر في تقريب التهذيب. وقد ذكر الطحاوي في شرح مشكل الآثار ٢/ ٣٧٩ أن أبا عبيد كان يقول بهذا (يعني أن الريح المفردة للعذاب، وأنها إن كانت على الجمع فللرحمة) معتبراً بحديث ابن عباس المذكور، ثم ردَّ عليه بأن الحديث لا أصل له، وقال: كان الأولى به. . . أن لا يُضيف إلى رسول الله ﷺ ما لا يعرفه أهل العلم بالرواية عنه. اهـ. ثم ذكر الطحاوي أن كلام أبي عُبيد منتفٍ بقوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] وبما ورد من أحاديث. . . وذكرها.

(٤) هو عجُز بيت نُسب في الكامل ٣/ ١٠٨٢ لأبي خالد القَنَاني، من الخوارج، ونُسب في معجم شعراء المرزباني ص٩٥-٩٦ لعيسى بن عاتك الخَطّي، ونُسب في الحماسة البصرية

وقولهم: إنْ ضَيَّعني فلانٌ ففي الله كافٍ. المعنى: الرحمنُ كافٍ، واللهُ كافٍ. وهذا فيه بُعد.

وقولُه: «أصابَتْ» في موضع الصفة لـ «رِيح»؛ بدأ أوّلاً بالوصف بالمجرور، ثم بالوصف بالجملة.

وقوله: «ظلموا أنفسهم» جملة في موضع الصفة لـ «قوم». وظاهرُه أنهم ظلموا أنفسَهم بمعاصيهم، فكان الإهلاك أشدَّ، إذْ كان عقوبةً لهم.

وقد ذهب جماعةٌ من أهل العلم إلى أنَّ مصائب الدنيا إنما هي بمعاصي العبد، ويُستنبط ذلك من غير ما آية في القرآن، فيستقيم على ذلك أنَّ كلَّ حَرْث تُحرِقُه الرِّيح فإنما هو لمن قد ظلم نفسَه.

وقيل: «ظلموا أنفسَهم» معناه: زرعُوا في غير أوان الزِّراعة، أي: وضعوا أفعالَ الفِلاحة غيرَ موضعِها من وقتٍ أو هيئةِ عمل، وخُصَّ هؤلاء بالذِّكر لأنَّ الحَرْقَ فيما جرى هذا المجرى أوعبُ وأشدُّ تمكُّناً، ونحا إلى هذا القول المهدويّ[١].

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ جَوَّزَ الزَّمخشريّ وغيرُه أن يعود الضمير على المُنفِقين، أي: ما ظلمهم بأنْ لم يَقبل نفقاتِهم[٢]، وأن يعود على أصحاب الحَرْث، أي: ما ظلمَهم بإهلاك حَرْثِهم، ولكن ظلموا أنفسَهم بارتكاب المعاصي.

وقال ابنُ عطيّة[٣]: الضمير في «ظَلَمَهُم» للكفار الذين تقدّم ضميرُهم في «ينفقون»، وليس هو للقوم ذوي الحَرْث، لأنهم لم يُذكروا ليردَّ عليهم ولا ليبيِّن ظُلمهم. وأيضاً قولُه: ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يدلُّ على فعل الحال في حاضرين. انتهى. وهو ترجيح حسن.

= ١/ ٢٧٣-٢٧٤ لعمران بن حطان الشيباني. وصدرُه في الكامل: ولولا ذاك قد سَوَّمْتُ مُهْرِي، وفي معجم الشعراء: فلولاهنَّ قد سَوَّمتُ.... وفي الحماسة: ولولاهنَّ قد أبصرتُ رُشْدي.

(١) ذكره عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٩٥. وقاله أيضاً الماوردي في النكت والعيون ١/ ٤١٨.

(٢) بعدها في الكشاف ١/ ٤٥٧ (والكلام فيه): ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بها مستحِقَّةً للقبول.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٥-٤٩٦.

وقُرئ شاذًّا: «ولكنَّ» بالتشديد[١]، واسمُها «أنفسَهم»، والخبر «يظلمون»، والمعنى يظلمونَها هم. وحسَّنَ حَذْفَ هذا الضمير ـ وإنْ كان الحذفُ في مثله قليلاً ـ كونُ ذلك فاصلة رأس آية، فلو صُرِّح به لزالَ هذا المعنى. ولا يجوز أنْ يُعتقد أنَّ اسم «لكنَّ» ضميرُ الشأن وحُذِفَ، و«أنفسَهم» مفعول بـ «يظلمون»؛ لأنَّ حذف هذا الضمير يختصُّ بالشِّعر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ نزلت في رجال من المؤمنين يواصلون رجالاً من يهود للجِوار والحِلْف والرَّضاع. قاله ابن عباس[٢]. وقال أيضاً هو وقتادةُ والسُّدِّيُّ والرَّبيع: نزلت في المنافقين، نهى الله المؤمنين عنهم[٣]. شُبِّهَ الصَّدِيقُ الصِّدق بما يُباشر بطنَ الإنسان من ثوبه، يقال له: بِطانة ووَلِيجة[٤].

وقوله: «من دونِكم» في موضع الصفة لـ «بِطانة»، وقدَّره الزَّمخشريّ: من دون أبناء جنسكم، وهم المسلمون.

وقيل: يتعلَّق «مِنْ» بقوله: «لا تتَّخِذُوا». وقيل: «مِنْ» زائدة، أي: بِطانةً دونَكم. والمعنى أنهم نُهُوا أنْ يتَّخِذُوا أصفياءَ من غير المؤمنين. ودلَّ هذا النهيُ على المنع من استكتاب أهل الذِّمَّة وتصريفِهم في البيع والشِّراء والاستنابة إليهم. وقد عَتَبَ عُمرُ أبا موسى على استكتابِهِ ذِمِّيًّا وتلا عليه هذه الآية[٥].

وقد قيل لعمر في كاتبٍ مُجيدٍ من نصارى الحِيرة: ألا يكتب عنك؟ فقال: إذن أتخذُ بِطانةً[٦]!

(١) القراءات الشاذة ص٢٣، والكشاف ١/ ٤٥٨، والكلام الآتي بعده فيه بنحوه.
(٢) تفسير الطبري ٥/ ٧٠٩، والثعلبي ٢/ ١٣٥-١٣٦، والبغوي ١/ ٣٤٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٦، وزاد المسير ١/ ٤٤٦.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٦. وأخرج الطبري أقوالهم ٥/ ٧١٠-٧١١.
(٤) قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: ١٦].
(٥) الخبر بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٤٩٦، وزاد المسير ١/ ٤٧٧، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٧٣، وفيها أن عمر ﷺ كتب إلى أبي موسى يعنِّفه...
(٦) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٦، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٧٤.

والجملة من قوله: «لا يألونكم خَبَالاً» لا موضعَ لها من الإعراب، إذْ جاءت بياناً لحال البِطانة الكافرة هي والجملُ التي بعدَها لتنفِّر المؤمنين عن اتّخاذهم بِطانة، ومن ذهبَ إلى أنها صفة للبِطانة أو حال مما تعلَّقت به «مِنْ» فبعيدٌ عن فهم الكلام الفصيح[١] لأنهم نُهوا عن اتّخاذ بِطانةٍ كافرة.

ثم نبَّه على أشياءَ ممَّا هم عليه من ابتغاء الغوائل للمؤمنين، ووَدَادةِ مشقَّتِهم وظهور بُغْضهم، والتقييدُ بالوصف أو بالحال يُؤذِنُ بجواز الاتّخاذ عند انتفائهما.

و«ألَا» «يَألُو» متعدّ إلى واحد بحرف الجرّ، يقال: ما ألَوْتُ في الأمر، أي: ما قصَّرتُ فيه. وقيل: انتصب «خَبَالاً» على التمييز المنقول من المفعول، كقوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢] التقدير: لا يألون خَبالَكم، أي: في خَبَالِكم، فكان أصلُ هذا المفعول حرف الجرّ.

وقيل: انتصابُه على إسقاط حرف الجرّ، التقدير: لا يألونكم في تخبيلكم.

وقيل: انتصابُه على أنه مصدر في موضع الحال[٢].

قال ابن عطيّة[٣]: معناه: لا يُقصِّرُون لكم فيما فيه الفسادُ عليكم. فعلى هذا يكون قد تعدَّى للضمير على إسقاط اللام، وللخَبَال على إسقاط «في».

وقال الزمخشريّ[٤]: يقال: ألَا في الأمر يألُو: إذا قَصَّرَ فيه، ثم استُعمل مُعَدًّى إلى مفعولين في قولهم: لا آلُوكَ نُصْحاً، ولا آلُوكَ جُهداً، على التضمين، والمعنى لا أمنعُك نُصحاً ولا أَنقُصُكَهُ. انتهى.

﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ قال ابنُ جرير: ودُّوا إضلالَكم. وقال الزَّجَّاج: مَشَقَّتَكُم[٥].

وقال الراغب: المعاندة والمعانتة يتقاربان، لكن المعاندة هي الممانعة، والمعانتة أن تتحرَّى[٦] مع الممانعة المشقَّة. انتهى.

---

(١) ذهب إلى هذا أبو البقاء في الإملاء ١/١٤٧.
(٢) أي: مُتَخَبِّلين. ينظر الدر المصون ٣/ ٣٦٤.
(٣) المحرر الوجيز ١/٤٩٦.
(٤) الكشاف ١/٤٥٨.
(٥) تفسير الطبري ٥/ ٧١١ بنحوه، ومعاني القرآن للزجّاج ١/ ٤٦٢.
(٦) في (ب) وتفسير الراغب ٢/ ٨٢٢ (والكلام منه): يتحرى.

ويقال: عَنِتَ، بكسر النون، وأصلُه انهياضُ العَظْم بعد جَبْرِه.

و«ما» في قوله: «ما عَنِتُّمْ» مصدرية، وهذه الجملة مستأنفة كما قلنا في التي قبلَها. وجوَّزُوا أن تكون نعتاً لـ«بِطانة»، وحالاً من الضمير في «يألونكم»، و«قد» معه مُرادة.

﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ وقرأ عبد الله: «قَدْ بَدَا»[١] لأنَّ الفاعل مؤنث مجازاً، أو على معنى البُغْض، أي: لا يكتَفُون ببُغضكم بقلوبهم حتى يُصَرِّحُوا بذلك بأفواههم. وذكرَ الأفواه دون الألسنة إشعاراً بأنَّ ما يَلفِظُون به يملأُ أفواههم، كما يقال: قال كلمةً تملأ الفم: إذا تَشَدَّقَ بها.

وقيل: المعنى: لا يتمالكون مع ضبطِهم أنفسَهم وتحاملِهم عليها أن ينفلتَ من ألسنتهم ما يُعلم به بُغضُهم للمسلمين. انتهى[٢].

ولمَّا ذكرَ تعالى ما انطَوَوْا عليه من وَدَادَتهم عَنَتَ المؤمنين ـ وهو إخبارٌ عن فعلٍ قلبيّ ـ ذكرَ ما أنتجَه ذلك الفعلُ القلبيُّ من الفعل البَدَنيِّ، وهو ظهورُ البُغض منهم للمؤمنين في أقوالهم، فجمعوا بين كراهة القلوبِ وبَذاءةِ الألسن.

ثم ذكر أنَّ ما أبطنوه من الشرِّ والإيذاء للمؤمنين والبُغض لهم أعظمُ ممَّا ظهرَ منهم فقال: ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أي: أكبرُ[٣] ممَّا ظهرَ منها. والظاهر أن بُدُوَّ البغضاء منهم هو للمؤمنين، أي: أظهروا للمؤمنين البُغض. وقال قتادة: قد بدت البغضاء لأوليائهم من المنافقين والكفار لإطلاع بعضِهم بعضاً على ذلك[٤]. وقيل: بَدَتْ بإقرارهم بعد الجُحود. وهذه صفة المُجاهر. وأسندَ الإخفاء إلى الصدور مجازاً إذ هي مَحالُّ القلوب التي تُخفي، كما قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: الدالةَ على وجوب[٥] الإخلاص في الدين وموالاة

(١) تفسير الطبري ٥/ ٧١٤، والكشاف ١/ ٤٥٨.
(٢) الكشاف ١/ ٤٥٨.
(٣) في (د١) والمطبوع: أكثر.
(٤) الكشاف ١/ ٤٥٨.
(٥) في (أ) و(ح) و(ع) و(يه): وجود.

المؤمنين ومعاداة الكفار ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: ما بَيَّنَ لكم فعملتُم به، أو إن كنتُم عقلاء، وقد علم تعالى أنهم عقلاء، لكن علَّقه على هذا الشرط على سبيل الهَزِّ للنفوس، كقولك: إن كنتَ رجلاً فافعل كذا.

وقال ابنُ جرير[1]: معناه: إن كنتمُ تعقلون عن الله تعالى أمْرَه ونهيَه.

وقيل: إن كنتم تعقلون فلا تُصافُوهم، بل عامِلُوهم معاملةَ الأعداء. وقيل: معنى «إنْ» معنى «إذْ» أي: إذْ كنتُم عقلاء.

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ تقدَّم لنا الكلام على نظير «هاأنتم أولاء» في قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ﴾ [٦٦] قراءةً وإعراباً، وتلخيصُه هنا أن يكون «أُولاء» خبراً عن «أنتم» و«تُحبُّونَهُمْ» مستأنف، أو حال، أو صلة على[2] أن يكون «أُولاء» موصولاً، أو خبراً لـ «أنتم» و«أولاء» منادى، أو يكون «أولاء» مبتدأً ثانياً، و«تُحبُّونَهم» خبرٌ عنه، والجملة خبر عن الأوَّل، أو يكون «أولاء» في موضع نصب، نحو: أنا زيداً ضربتُه، فيكون من الاشتغال، واسم الإشارة في هذين الوجهين واقع على غير ما وقع عليه «أنتم»، لأنَّ «أنتم» خطاب للمؤمنين، و«أُولاء» إشارة إلى الكافرين، وفي الأوجه السابقة مدلولُه ومدلولُ «أنتم» واحد، وهو المؤمنون.

وعلى تقدير الاستئناف في «تُحبُّونهم» لا ينعقد ممَّا قبلَه مبتدأ وخبر إلا بإضمار وصف، تقديرُه: أنتم أُولاءِ الخاطئون في موالاة غيرِ المؤمنين، إذ «تُحِبُّونَهم ولا يُحبُّونكم» بيانٌ لخطئهم في موالاتهم، حيث يبذلون المحبَّةَ لمن يُبغضهم.

وضمير المفعول في «تُحِبُّونهم» قالوا: لمنافقي اليهود. وفي الزمخشريّ لمنافقي أهلِ الكتاب[3]. والذي يظهر أنه عائد على بِطانةٍ مِن دونِ المؤمنين، فهو كلُّ منافق حتى منافق المشركين، والمحبَّة هنا الميلُ بالطبع لموضع القَرابة والرَّضاع والحِلْف. قاله ابنُ عبَّاس. أو لأجل إظهارِ الإيمان والإحسان إلى المؤمنين. قاله

---

(١) تفسير الطبري ٥/٧١٦.

(٢) المثبت من (د١) والمطبوع، وثمة سقط في (ز٢)، وفي النسخ الأخرى: عن.

(٣) الكشاف ١/ ٤٥٩. ولفظة «المنافقي» لم ترد في (أ) و(ح) و(ع) و(يه).

أبو العالية. أو الرحمة لهم لما يقعُ منهم من المعاصي. قاله قتادة. أو إرادة الإسلام لهم. قاله المفضَّل والزجَّاج[١]. وهذا ليس بجيِّد، لأنه لا يقع توبيخٌ على معنى إرادة إسلام الكافر أو المصافاة لأنها من ثمرة المحبَّة.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ الكتاب اسمُ جنس، أي: بالكتب المُنزلة. قاله ابنُ عبَّاس، أو التوراة والإنجيل، أو التوراة. أقوال ثلاثة. وثَمَّ جملةٌ محذوفة تقديرُها: ولا يؤمنون[٢] به كلِّه، بل يقولون: «نؤمنُ ببعض ونكفر ببعض»[٣]، يدلُّ عليها إثباتُ المقابل في «تُحبُّونهم ولا يحبُّونكم».

والواو في «وتؤمنون» للعطف على «تُحبُّونهم» فلها من الإعراب ما لها. وقال الزمخشريّ[٤]: والواو في «وتؤمنون» للحال، وانتصابُها من «لا يحبُّونكم» أي: لا يُحِبُّونكم والحالُ أنكم تؤمنون بكتابهم كلِّه، وهم مع ذلك يُبغضونكم، فما بالُكم تُحبُّونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم؟! وفيه توبيخٌ شديد بأنهم في باطلهم أصلبُ منكم في حقِّكم. ونحوُه: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] انتهى كلامه، وهو حسَنٌ، إلا أنه فيه من الصناعة النحويَّة ما يَخْدِشُه، وهو أنَّه جعلَ الواو في «وتؤمنون» للحال، وأنها منتصبة من «لا يُحِبُّونكم». والمضارع المُثبت إذا وقع حالاً لا تدخلُ عليه واو الحال، تقول: جاء زيد يضحكُ، ولا يجوز: ويضحك. فأمَّا قولُهم: قمتُ وأَصُكُّ عينَه؛ ففي غاية الشُّذوذ. وقد أُوِّلَ على إضمار مبتدأ، أي: قمت وأنا أَصُكُّ عينَه، فتصيرُ الجملة اسميةً. ويحتمل هذا التأويل هنا، أي: ولا يُحِبُّونكم وأنتم تؤمنون بالكتاب كلِّه. لكنَّ الأَوْلى ما ذكرناه من كونها للعطف.

قال ابنُ عطيَّة[٥]: «وتؤمنون بالكتاب كلِّه» يقتضي أن الآية في منافقي اليهود، لا منافقي العرب، ويعترضُها أنَّ منافقي اليهود لم يُحفظ عنهم أنهم كانوا يؤمنون

(١) الأقوال في زاد المسير ١/ ٤٤٧. وينظر تفسير الثعلبي ٢/ ١٣٧.
(٢) في (د١) والمطبوع: تؤمنون. وهو خطأ.
(٣) هذا اللفظ من الآية (١٥٠) من سورة النساء.
(٤) الكشاف ١/ ٤٥٩.
(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٧-٤٩٨.

في الظاهر إيماناً مطلقاً ويكفرون في الباطن كما كان المنافقون من العرب إلا ما رُويَ من أمر زيد بن الصّيت[١] القَيْنُقَاعيّ. فلم يبقَ إلا أنَّ قولَهم: «آمنَّا» معناه: صَدَّقْنا أنه نبيٌّ مبعوث إليكم، أي: فكونوا على دينكم ونحن أولياؤكم وإخوانُكم، لا نُضمِرُ لكم إلا المودَّة. ولهذا كان بعضُ المؤمنين يتَّخذُهم بِطانةً، وهذا منزع قد حفظ أن كثيراً من اليهود كان يذهبُ إليه. ويدلُّ على هذا التأويل أنَّ المعادِلَ لقولهم: آمنَّا، عَضُّ الأناملِ من الغيظ، وليس فيه ما يقتضي الارتداد كما في قوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ بل هو ما يقتضي البُغض وعدمَ المودَّة. وكان أبو الجَوْزاء إذا تلا هذه الآية قال: هم الإباضيَّة. وهذه الصفة قد تترتَّبُ في أهل البدع من الناس إلى يوم القيامة. انتهى كلامه.

وما ذكر من أن منافقي اليهود لم يُحفظ عنهم أنهم كانوا يؤمنون في الظاهر إيماناً مطلقاً ويكفرون في الباطن إلا ما رُويَ من أمر زيد، فيه نظر، فإنه قد رُويَ أن جماعةً منهم كانوا يعتمدون ذلك، ذكرَه البيهقيُّ وغيره[٢]، ولو لم يُرْوَ ذلك إلا عن زيد القَيْنُقَاعيّ لكانَ في ذلك مذمَّة لهم بذلك، إذ وُجد ذلك في جنسهم، وكثيراً ما تمدحُ العرب أو تذمُّ بفعل الواحد من القبيلة. ويؤيِّد صدورَ ذلك من اليهود قولُه تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ [آل عمران: ٧٢].

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ هذا الإخبار جرى على منازعتهم في التَّوْرِيَة والسِّتر والخُبْث، إذ لم يذكروا متعلّق الإيمان، ولكنهم يوهمون المؤمنين بهذا اللفظ أنهم مؤمنون ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ أي: خلا بعضُهم ببعض وانفردُوا دونَكم. والمعنى: خَلَتْ مجالسُهم منكم، فأسندَ الخُلُوَّ إليهم على سبيل المجاز ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ

(١) كذا في النسخ وفي المصدر السابق (والكلام منه). وفي سيرة ابن هشام ١/ ٥١٤: زيد بن اللَّصِيت، قال: ويقال: ابن اللُّصَيْت (وجاء في هامشه أنه في نسخة منه بالباء). وخبرُه فيها ٢/ ٥٢٣ في قصة احتباس ناقة رسول الله ﷺ بشجرة في وادٍ، واستهزائه بأن النبي ﷺ يُخبر بأمر السماء ولا يدري أين ناقتُه.

(٢) ذكر البيهقي في دلائل النبوة ٤/ ٦١ أن رفاعة بن زيد بن التابوت (وهو من يهود بني قينقاع) كان قد أظهر الإسلام وكان كهفاً للمنافقين.

ٱلْغَيْظِۚ﴾ وظاهرُه فعلُ ذلك، وأنه يقع منهم عضُّ الأنامل لشدة الغيظ مع عدم القدرة على إنقاذ ما يريدون، ومنه قول أبي طالب:

وقد صالحوا قوماً علينا أشِحَّةً يَعضُّون غَيْظاً[١] خَلْفَنا بالأناملِ[٢]

وقال آخر:

إذا رَأَوْني - أطالَ اللهُ غَيْظَهُمُ - عَضُّوا من الغَيْظِ أطرافَ الأباهيمِ[٣]

وقال آخر:

وقد شَهِدَتْ قيسٌ فما كان نَصْرُها قُتيبةَ إلا عَضُّها بالأباهمِ[٤]

وقال الحارث بنُ ظالم المُرِّيّ:

وأَقْتلُ[٥] أقواماً لِئاماً أذلَّةً يَعَضُّون من غيظٍ رؤوسَ الأباهمِ[٦]

ويوصف المغتاظ والنادم بعضِّ الأنامل والبَنَان والإبهام، وهذا العَضُّ هو بالأسنان، وهي هيئةٌ في بَدَن الإنسان تتبعُ هيئةَ النفس الغاضبة[٧]، كما أنَّ ضَرْب اليد على اليد يتبعُ هيئة النفس المتلهّفة على فائت قريب الفوت، وكما أنَّ قَرْعَ السِّنّ هيئة تتبعُ هيئة النفس النادمة، إلى غير ذلك من عدّ الحصى والخطّ في الأرض للمهموم، ونحوه.

ويحتمل أن لا يكون ثَمَّ عضُّ أنامل، ويكونَ ذلك من مجاز التمثيل؛ عَبَّرَ بذلك عن شدَّة الغيظ والتأسُّف على ما يفوتُهم من إذايتكم.

---

(١) في (ب) و(د١) و(د٣) والمطبوع: عضاً.

(٢) المثبت من (ز٢)، وفي باقي النسخ: بالأباهم، وهو خطأ، والبيت في تفسير الثعلبي ٢/ ١٣٧، وورد عجزُه في المحرر الوجيز ١/ ٤٩٧، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٧٩. والبيت ضمن قصيدة في السيرة النبوية ١/ ٢٧٢: وصدرُه فيها: وقد حالفوا قوماً علينا أظِنَّةً.

(٣) البيت للفرزدق، وهو في تفسير الثعلبي ٢/ ١٣٧، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٧٩. ورواية صدره في ديوانه ص١٨٢: إذا رأوك أطالَ الله غَيْرَتَهُمْ.

(٤) البيت للفرزدق أيضاً، وهو في الكامل ٢/ ٥٩٩، وديوانه ص٣١١ (وفيهما: لقد، بدل: وقد)، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٧. ولم يرد هذا البيت في (ب) و(د٣).

(٥) في (أ) و(ب) و(ع) و(يه) والمطبوع: وأقبلُ.

(٦) الأغاني ١١/ ١٠٤، والكشاف ١/ ٤٥٩.

(٧) في المحرر الوجيز ١/ ٤٩٧ (والكلام فيه بنحوه): الغائظة. وهو الأشبه.

ونبَّه تعالى بهذه الآية على أنَّ من كان بهذه الأوصاف من بُغض المؤمنين والكفر بالقرآن والرِّياء بإظهار ما لا ينطوي عليه باطنُه جديرٌ بأن لا يُتَّخذَ صديقاً.

﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ ظاهرُه أنه ﷺ أُمر بأن يقول لهم ذلك. وهي صيغة أمر، ومعناها الدُّعاء، أذِنَ الله لنبيِّه أن يدعوَ عليهم لمَّا يئس من إيمانهم. هذا قولُ الطبريّ وكثيرٍ من المفسّرين[1]؛ قالوا: فله أن يدعوَ مواجهة. وقيل: أُمِرَ هو وأمَّتُه أن يُواجهوهم بهذا. فعلى هذا زال معنى الدعاء، وبقيَ معنى التقريع. قاله ابنُ عطيَّة[2].

وقيل: صورتُه أمر، ومعناه الخبر، والباء للحال، أي: تموتون ومعكم الغيظ، وهو على جهة الذّمّ على قبيح ما عملوه.

وقال الزمخشريّ: دَعَا[3] عليهم بأن يزداد غيظُهم حتى يَهْلِكُوا به، والمرادُ بزيادة الغيظ ما يغيظهم من قوَّة الإسلام وعِزِّ أهله، وما لهم في ذلك من الذُّلّ والخزي والتَّبار. انتهى كلامُه. وليس ما فسر به هو ظاهر قوله: «قل موتوا بغيظكم» ويكون ما قاله الزمخشريُّ يشبه قولهم: مُتْ بدائك، أي: أبقَى الله داءك حتى تموت به، لكن في لفظ الزمخشريّ زيادة الغيظ، ولا يدل عليه لفظ القرآن.

قال بعض شيوخنا: هذا ليس بأمر جازم، لأنه لو كان أمراً لماتوا من فورهم كما جاء: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ [البقرة: ٢٤٣]. وليس بدعاء؛ لأنه لو أمرَه بالدعاء لماتوا جميعُهم على هذه الصفة، فإنَّ دعوتَه لا تردّ، وقد آمن منهم بعد هذه الآية كثير، وليس بخبر؛ لأنه لو كان خبراً لوقعَ على حكم ما أخبر به. ولم يؤمن أحدٌ بعدُ، وإنما هو أمرٌ معناه التوبيخ والتقريع، كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، «إذا لم تَسْتَحْي فاصْنَعْ ما شئتَ»[4].

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٧٢١، والكشاف ١/ ٤٥٩. وينظر المحرر الوجيز ١/ ٤٩٨.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٨.
(٣) في الكشاف ١/ ٤٥٩: دعاء.
(٤) أخرجه أحمد (١٧٠٩٠)، والبخاري (٣٤٨٣) وغيرهما من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

قيل: ويجوز أن لا يكون ثمَّ قولٌ، وأن يكون أمراً بطيب النفس وقوة الرجاء، والاستبشار بوعد الله أن يَهْلِكوا غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالِهم به، كأنه قيل: حدِّث نفسَك بذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ قيل: يجوزُ أن يكون من جملة المقُول، والمعنى: أخبرهم بما يُسِرُّونه من عضِّهم الأناملَ غيظاً إذا خلَوا، وقل لهم: إن الله عليم بما هو أخفى ممَّا تُسِرُّونه بينَكم، وهو مضمراتُ الصدور، فلا تظنُّوا أنَّ شيئاً من أسراركم يخفى عليه[1].

ويجوز أن لا يدخل تحت القول، ومعناه: قل لهم ذلك، ولا تتعجَّب من إطْلاعي إيَّاك على ما يُسِرُّون، فإني أعلمُ ما هو أخْفَى من ذلك، وهو مضمراتُ صدورِهم لم يُظهروه بألسنتهم. والظاهر الأول، أوردَ ذلك على أنه وعيدٌ يُواجَهون به.

والذات لفظ مشترك، ومعناه هنا أنه تأنيث «ذي» بمعنى: صاحب، فأصلُه هنا: عليم بالمضمرات ذوات الصدور. ثم حذف الموصوف وغلبَ إقامةُ الصفة مقامَه، ومعنى صاحبة الصدور، أي: الملازمة له التي لا تنفكُّ عنه كما تقول: فلان صاحب فلان، ومنه: «أصحاب الجنة» و«أصحاب النار».

واختلفوا في الوقف على «ذات»؛ فقال الأخفش والفَرَّاء وابنُ كَيْسَان بالتاء، مراعاة لرسم المصحف، وقال الكسائيّ والجَرْميّ بالهاء، لأنها تاء تأنيث[2].

﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ الحسنةُ هنا ما يَسُرُّ؛ من رَخاء وخِصْب ونُصْرة وغنيمة، ونحوِ ذلك من المنافع، والسيِّئةُ ضدُّ ذلك، بيَّن تعالى بذلك فَرْط عداوتهم حيث يسوءُهم ما نالَ المؤمنين من الخير، ويفرحون بما يُصيبهم من الشدَّة.

قال الزمخشريّ[3]: المَسُّ مستعار لمعنى الإصابة، فكان المعنى واحداً، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ﴾ [التوبة: ٥٠]، ﴿مَّآ

(١) الكشاف ١/ ٤٥٩.
(٢) الهداية ٢/ ١٦٢٨ (عند الآية ٧ من سورة المائدة). وينظر أيضاً مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٠٩ (أول سورة الأنفال).
(٣) الكشاف ١/ ٤٥٩.

أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠-٢١].

وقال ابنُ عطيَّة: ذكرَ الله تعالى المَسَّ في الحسنة ليبيِّن أنَّ بأدنى طروء الحسنة تقعُ المساءةُ بنفوس هؤلاء المبغضين، ثم عادلَ ذلك في السيئة بلفظ الإصابة، وهي عبارة عن التمكّن، لأنَّ الشيء المصيبَ لشيء هو متمكّن منه أو فيه، فدلَّ هذا النوعُ[1] البليغ على شدَّة العداوة، إذ هو حقدٌ لا يذهبُ عند الشدائد، بل يفرحون بنزول الشدائد بالمؤمنين. انتهى كلامه.

والنَّكرة هنا في سياق الشَّرط بـ «إنْ» تعمُّ عموم البدل، ولم يأت معرَّفاً لإيهام التعيين بالعهد، ولإيهام العموم الشموليّ[2]، وقابلَ الحسنةَ بالسيئة، والمساءةَ بالفرح، وهي مقابلة بديعة.

قال قتادة والرَّبيع وابنُ جُريج: الحسنةُ بظهوركم على العدوّ والغنيمةِ منهم، والتتابعِ بالدخول في دينكم، وخِصْبِ معاشِكم، والسيئةُ بإخفاق سريَّة منكم أو إصابة عدوٍّ منكم، أو اختلافٍ بينكم.

وقال الحسن: الحسنةُ الأُلفةُ واجتماعُ الكلمة، والسيئةُ إصابة العدوّ واختلافُ الكلمة[3].

وقال ابنُ قُتيبة: الحسنةُ النعمة، والسيِّئة المصيبة[4].

وهذه الأقوال هي على سبيل التمثيل، وليست على سبيل التعيين.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ قال ابن عباس: وإنْ تصبروا على أذاهم وتتقوا الله ولا تقنطوا ولا تسأموا أذاهم وإن تكرَّر.

---

(١) في المحرر الوجيز ١/ ٤٩٨ (والكلام منه): المنزع.

(٢) العموم الشُّمولي يُحكم فيه على كلِّ فردٍ فرد، وعمومُ البَدَل لا يُحكم فيه على كلِّ فرد، بل على فرد شائع من أفراده يتناولها على سبيل البَدَل. قاله ابن بدران في المدخل ص٢٥١. وينظر البحر المحيط في أصول الفقه ٣/ ٧، والكليات ص٥٤٠.

(٣) يُقارن بما في تفسير الطبري ٥/ ٧٢٢-٧٢٣، وزاد المسير ١/ ٤٤٨، وينظر تفسير البغوي ١/ ٣٤٥.

(٤) غريب القرآن ص١٠٩، وزاد المسير ١/ ٤٤٨ وعنه نقل المصنف.

وقال مقاتل: وإن تصبروا على أمر الله وتتقوا مباطنتَهم.

وقال ابن عباس أيضاً: وإن تصبروا على الإيمان وتتقوا الشِّرك.

وقيل: وإن تصبروا على الطاعة وتتقوا المعاصي. وقيل: وإن تصبروا على حربهم[(١)].

والذي يظهر أنه لم يذكر هنا متعلَّق الصبر ولا متعلَّق التقوى، لكن الصبر هو حبسُ النفس على المكروه، والتقوى اتخاذُ الوقاية من عذاب الله، فيحسن أن يقدَّر المحذوف من جنس ما دلَّ عليه لفظُ الصبر ولفظ التقوى.

وفي هذا تبشير للمؤمنين وتثبيتٌ لنفوسهم، وإرشادٌ إلى الاستعانة على كيد العدوّ بالصبر والتقوى.

وقرأ الجمهور: «إنْ تَمْسَسْكُمْ» بالتاء. وقرأ السُّلَميّ بالياء معجمة من أسفل[(٢)]، لأن تأنيث الحسنة مجازي.

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عَمرو وحمزة في رواية عنه: «لا يَضِرْكُم» من: ضار يَضِير، ويقال: ضار يَضُور، وكلاهما بمعنى: ضَرَّ. وقرأ الكوفيون وابن عامر: «لا يَضُرُّكم» بضم الضاد والراء المشددة، من: ضَرَّ يَضُرُّ[(٣)].

واختُلف؛ أحركةُ الراء إعراب فهو مرفوع، أم حركةُ إتباع لضمة الضاد وهو مجزوم، كقولك: مُدُّ[(٤)]. ونُسب هذا إلى سيبويه[(٥)]، فخُرِّج الإعراب على التقديم، والتقديرُ: لا يَضُرُّكم إن تصبروا، ونُسب هذا القول إلى سيبويه[(٦)]، وخُرِّج أيضاً

(١) تنظر بعض هذه الأقوال في زاد المسير ١/ ٤٤٨. وينظر أيضاً تفسير السمرقندي ١/ ٢٩٥.
(٢) تفسير الثعلبي ٢/ ١٣٨، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٨١.
(٣) السبعة ص٢١٥، والتيسير ص٩٠.
(٤) يجوز في دال «مُدّ» وراءِ «يضرّكم» (في الآية) الضم للإتباع، والفتح للتخفيف، والكسر على أصل التقاء الساكنين. ينظر الدر المصون ٣/ ٣٧٦.
(٥) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٩٩ أنه اختيار سيبويه.
(٦) ومثلُه قولُ الشاعر: إنك إنْ يُصْرَعْ أخوك تُصْرَعُ. ينظر الكتاب ٣/ ٦٧، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٩، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٨٢، والدر المصون ٣/ ٣٧٤ ومن قوله: فخرّج الإعراب على التقديم... إلى هذا الموضع، ليس في (ب) و(د٣).

على أنّ «لا» بمعنى «ليس» مع إضمار الفاء، والتقدير: فليس يَضُرُّكم. وقاله الفرَّاء والكسائيّ[١].

وقرأ عاصم فيما روى أبو زيد عن المفضَّل عنه بضم الضاد وفتح الراء المشدَّدة، وهي أحسنُ من قراءة ضمّ الراء[٢]، نحو: لم يردَّ زيد. والفتحُ هو الكثير المستعمل.

وقرأ الضَّحَّاك بضمّ الضاد وكسر الراء المشدَّدة على أصل التقاء الساكنين، وقال ابنُ عطية[٣]: فأمَّا الكسر فلا أعرفها قراءةً، وعبارةُ الزجَّاج في ذلك متجوِّز فيها، إذ يظهرُ من دَرْج كلامه أنها قراءة. انتهى. وهي قراءة كما ذكرنا عن الضحَّاك.

وقرأ أُبيّ: «لا يَضْرُرْكُم» بفكّ الإدغام[٤]، وهي لغة أهل الحجاز، وعليها في الآية: «إنْ تَمْسَسْكُم» ولغةُ سائر العرب الإدغام في هذا كلِّه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ من قرأ بالياء فهو وعيد، والمعنى: محيطٌ جزاؤه. وعُبِّر بالإحاطة عن الاطلاع التامّ والقُدرة والسلطان. ومَنْ قرأ بالتاء ـ وهو الحسن بنُ أبي الحسن[٥] ـ فعلى الالتفات للكفار، أو على إضمار: قُلْ لهم يا محمد، أو على أنه خطاب للمؤمنين تضمَّن تَوعُّدَهم في اتخاذ بطانة من الكفار.

قالوا: وتضمَّنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة والفصاحة:

منها الوصلُ والقطع في «ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمةٌ قائمة». والتكرارُ في «أصحاب النار هم»، والعدول عن اسم الفاعل إلى غيره في «يَتْلون» وما بعدَه، وفي «يظلمون».

---

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٢، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٩، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٨٢. ومُثِّلَ لإضمار الفاء بقول الشاعر: مَنْ يفعلِ الحسناتِ اللهُ يشكرُها. أي: فاللهُ يشكرُها.

(٢) القراءات الشاذة ص٢٢، والكشاف ١/ ٤٦٠، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٩، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٨٣. وحسَّنها الفراء في معاني القرآن ١/ ٢٣٢.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٩. وذكر الثعلبي ٢/ ١٣٩ قراءة الضحَّاك.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠٣، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٩، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٨٢.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٤٩٩. وقراءة الجماعة بالياء.

والاكتفاء بذكر بعض الشيء عن كلّه إذا كان فيه دلالةٌ على الباقي في «يؤمنون بالله واليوم الآخر»، والمقابلةُ في «تأمُرُون» و«تَنْهَوْن» وفي «المعروف» و«المنكر»، ويجوزُ أن يكون طباقاً معنوياً، وفي «حسنة» و«سيئة»، وفي «تسؤهم»، و«يفرحوا»،

والاختصاص في «عليم بالمتقين»، وفي «أموالُهم ولا أولادُهم»، وفي «كَمَثَلِ رِيحٍ»، وفي «حَرْثَ قومٍ ظلموا أنفسهم»، وفي «عليم بذات الصدور».

والتشبيه في «مَثَلُ ما ينفقون»، وفي «بطانة»، وفي «عَضُّوا عليكم الأناملَ من الغيظ» على أحد التأويلين، وفي «تَمْسَسْكم حسنة»، و«تُصِبْكم سيئة»، شبّه حصولهما بالمسّ والإصابة، وهو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، والصحيح أنَّ هذه استعارة. وفي «محيط» شبَّه القدرة على الأشياء والعلم بها بالشيء المُحْدِق بالشيء من جميع جهاته، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس.

والتجنيسُ المماثل في «ظَلَمَهُم» و«يظلمون»، وفي «تُحبُّونهم ولا يُحِبُّونكم»، وفي «تؤمنون» و«آمنَّا»، وفي «من الغيظ» و«بغَيْظِكم».

والالتفاتُ في «وما تفعلوا من خير فلن تُكفروه» على قراءة من قرأ بالتاء، وفي «بما تعملون[(١)] محيط» على أحد الوجهين.

وتسمية الشيء باسم محلِّه في «من أفواههم» عبّر بها عن الألسنة لأنها محلُّها.

والحذف في مواضع.

❁ ❁ ❁

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت
طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ
بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ
رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا
يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ
قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ

---

(١) وهي قراءة الحسن بن أبي الحسن البصري كما سلف. وقراءة الجمهور: يعملون، بالياء.

يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ
﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾
وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

المفردات غدا الرجل: خرج غُدْوَةً، والغُدُوُّ يكون في أوّل النهار، وفي استعمال «غَدَا» بمعنى «صار» فيكون فعلاً ناقصاً خلافٌ.

الهَمُّ: دون العزم، والفعل منه: هَمَّ يَهُمُّ، وتقول العرب: هَمَمْتُ، وهَمْتُ، يحذفون أحَدَ المضعَّفَيْن، كما قالوا: مَسْتُ، وظَلْتُ وأَحَسْتُ، في: مَسَسْتُ، وظَلَلْتُ، وأَحْسَسْتُ.

وأوّلُ ما يمرُّ بالقلب[١] سُمِّيَ خاطراً، فإذا تردَّد صارَ حديثَ نفس، فإذا ترجَّحَ فعلُه صارَ هَمًّا، فإذا قَوِيَ واشتدَّ صار عزماً، فإذا قَوِيَ العزم واشتدَّ حصلَ الفعلُ أو القَوْل.

الفَشَل في البَدَن الإعياء، وفي الحرب الجُبْن والخَوَر، وفي الرأي العَجْزُ والفساد، وفِعْلُه: فَشِلَ، بكسر الشين.

التوكُّل تفعُّل، من: وَكَلَ أمرَه إلى فلان: إذا فَوَّضَه له؛ قال ابنُ فارس[٢]: هو إظهارُ العجز والاعتمادُ على غيرك، يقال: فلان وُكَلَةٌ تُكَلَة، أي: عاجزٌ يَكِلُ أمرَه إلى غيره. وقيل: هو من الوَكالة، وهو تفويضُ الأمر إلى غيره ثقةً بحُسن تدبيره.

«بَدْر» في الآية اسم عَلَم لماءٍ بين مكة والمدينة. سُمِّيَ بذلك لصفائه، أو لرؤية البدر فيه لصفائه أو لاستدارته.

قيل: وسُمِّيَ باسم صاحبِه بَدْرِ بن كَلَدَةِ. قيل: بل بَدْر بن يَخْلُد[٣] بن النَّضْر بن

---

(١) في (ب) و(د١) و(د٣) و(ز٢) والمطبوع: وأول ما يمرُّ الأمر بالقلب.
(٢) مجمل اللغة ٢/ ٩٣٤-٩٣٥.
(٣) تحرف في (ب) و(د٣) إلى: يحمل، وفي النسخ الأخرى إلى: بجيل. وينظر نسب قريش ص١٢، ومعجم البلدان (بدر) ١/ ٣٥٧.

كِنانة. وقيل: هو بئر لغِفار. وقيل: هو اسمُ وادي الصفراء وقيل: اسم قرية بين المدينة والجار(١).

الفَوْرُ: العَجَلة والإسراع، تقول: اصْنَعْ هذا على الفَوْر. وأصلُه من: فارَتِ القِدْر: اشتدَّ غَلَيانُها وبادرَ ما فيها إلى الخروج. ويُقال: فارَ غضبُه: إذا جاشَ وتحرَّك. وتقول: خرجَ من فَوْرِه، أي: من ساعتِه لم يلبث، استُعير الفَوْرُ للسرعة، ثم سُمِّيت به الحالة التي لا رَيْثَ فيها ولا تعريج على شيء من صاحبها(٢).

الخمسة رتبة من العدد معروفة، ويُصرف منها فعل، يقال: خَمَسْتُ الأربعة، أي: صَيَّرتُهُمْ لي خمسةً.

الطَّرَف: جانبُ الشيء الأخير، ثم يُستعمل للقطعة من الشيء وإن لم يكن جانباً أخيراً.

الكَبْت: الهزيمة، وقيل: الصَّرْعُ على الوجه أو إلى اليدَيْن. وقال النقَّاش وغيرُه: التاء بدل من الدال، أصلُه: كَبَدَه، أي: فَعَلَ فعلاً يؤذي كَبِدَه(٣).

الخَيْبَة: عدم الظَّفر بالمطلوب.

* * *

التفسير ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ﴾ قال المِسْوَر بنُ مَخْرَمَة: قلتُ لعبد الرحمن بن عوف: أيْ خالِ، أخبِرْني عن قصَّتكم يومَ أُحُد. فقال: اقرأ العشرين ومئة من آل عمران تجد: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ إلى ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾(٤).

ومناسبة هذه الآية لما قبلَها أنّه لما نَهاهم عن اتّخاذ بِطانةٍ من الكفَّار ووعدَهم أنهم إنْ صبروا واتَّقَوْا فلا يضرُّهم كيدُهم؛ ذَكَّرَهم بحالة اتَّفقَ فيها بعضُ طواعية وأتباعٌ لبعض المنافقين، وهو ما جرى يومَ أُحُد لعبد الله بن أُبيّ بن سَلُول حين

(١) بتخفيف الراء. وينظر معجم البلدان ٢/ ٩٢ (الجار)، و٣/ ٤١٢ (الصفراء).
(٢) الكشاف ١/ ٤٦٢.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٥.
(٤) ينظر تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٧٤٩، وابن المنذر ٢/ ٤٢٨، والواحدي ١/ ٤٨٥-٤٨٦.

انخزلَ عن رسول الله ﷺ واتَّبعه في الانخزال ثلاثُ مئة رجل من المنافقين وغيرهم من المؤمنين.

والجمهور على أنَّ ذلك كان في غزوة أُحُد، وفيها نزلت هذه الآياتُ كلُّها، وهو قول عبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وابن عبَّاس وقتادة والزُّهريّ والسُّدّي وابنِ إسحاق[١].

وقال الحسن: كان هذا الغُدُوّ في غزوة الأحزاب. وهو قولُ مجاهد ومقاتل[٢]، وهو ضعيف، لأنَّ يومَ الأحزاب كان فيه ظَفَرُ المؤمنين ولم يجر فيه شيءٌ مما ذُكر في هذه الآيات، بل قصَّتُهما متباينة.

وقال الحسن أيضاً: كان هذا الغُدُوُّ يومَ بدر.

وذكرَ المفسرون قصة غزوة أُحُد، وهي مستوعَبة في كتب السِّيَر، ونحن نذكرُ منها ما يتعلَّق بألفاظ الآية بعضَ تعلُّق عند تفسيرها.

وظاهرُ قوله: «وإذْ غَدَوْتَ» خروجُه غُدْوةً من عند أهله، وفُسِّرَ ذلك بخروجه من حُجرةِ عائشة يومَ الجمعة غُدْوَة حين استشار الناسَ، فمِن مشيرٍ بالإقامة وعدم الخروج إلى القتال، وأنَّ المشركين إن جاؤوا قاتلوهم بالمدينة، وكان ذلك رأيه ﷺ، ومن مشيرٍ بالخروج، وهم جماعة من صالحي المؤمنين فاتَتْهُمْ وقعةُ بدر.

وتبوئةُ المؤمنين مقاعدَ للقتال على هذا القولِ هو أنْ يَقسم أقطارَ المدينة على قبائل الأنصار.

وقيل: غُدُوُّهُ هو نُهوضُه يومَ الجمعة بعد الصلاة وتبوئتُه في وقت حضور القتال، وسَمَّاه غُدُوًّا إذْ كان قد عزمَ عليه غُدْوَة.

وقيل: غُدُوُّهُ كان يومَ السبت للقتال، ولمَّا لم يكن تلك الليلة مُوافِقاً للغُدُوّ كان كأنَّه في أهله[٣].

---

(١) زاد المسير ١/ ٤٤٩، وينظر المحرر الوجيز ١/ ٤٩٩.

(٢) زاد المسير ١/ ٤٤٩. وأخرجه الطبري في تفسيره ٦/ ٧ عن الحسن وقال: أولى القولين بالصواب قولُ من قال: عَنَى بذلك يومَ أُحُد.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٠١.

والعامل في «إذْ» قالوا: اذْكُرْ. وقيل: هو معطوف على قوله: «قَدْ كان لكم آيةٌ في فئتين التَقَتَا» أي: وآيةٌ إذْ غدوتَ. وهذا في غاية البُعد، ولولا أنه مسطور في الكتب ما ذكرتُه. وكذلك قولُ من جعلَ «مِنْ» في معنى «مع» أي: وإذْ غَدَوْتَ مع أهلك. وهذه تخريجاتٌ يقولُها وينقلُها على سبيل التجويز مَنْ لا بَصَرَ له بلسان العرب.

ومعنى «تُبوِّئ»: تُنزِلُ، من المَبَاءة، وهي المَرْجِع، ومنه: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: ٥٨]، «فليتبوَّأ مَقْعَدَه من النَّار»[١]. وقال الشاعر:

كم صاحبٍ لي صالحٍ بوّأتُهُ بيديَّ لَحْدَا[٢]

وقال الأعشى:

وما بَوَّأ الرحمنُ بيتَكَ منزلاً بشرقيِّ أجيادِ الصَّفَا والمحرَّمِ[٣]

و«مقاعد» جمع «مَقْعَد»، وهو هنا مكان القُعود، والمعنى: مواطنَ ومواقفَ. وقد استُعمل المَقْعَد والمَقَام في معنى المكان، ومنه: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: ٥٥]، و﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩].

قال الزمخشريّ[٤]: وقد اتُّسِعَ في «قعدَ» و«قامَ» حتى أُجْرِيا مجرى «صار». انتهى. أمَّا إجراء «قعد» مجرى «صار»؛ فقال أصحابُنا: إنما جاء في لفظة واحدة، وهي شاذَّة لا تُتعدَّى، وهي في قولهم: شَحَذَ شفرتَه حتى قَعَدَتْ كأنَّها حَرْبة، أي: صارت. وقد نُقِدَ على الزَّمخشريّ تخريج قوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ [الإسراء: ٢٩] على أنَّ معناه: فتصيرَ، لأن ذلك عند النحويين لا يطَّرد. وفي «اليواقيت» لأبي عُمر

(١) جاء هذا اللفظ في عدد من الأحاديث، منها الحديث المتواتر: «مَنْ كذبَ عليَّ متعمِّداً فليتبوَّأ مقعدَه من النار».
(٢) البيت لعمرو بن معدي كرب، وهو في التعازي والمراثي ص٧، والحماسة ١/ ١٧٩ (بشرح المرزوقي) بلفظ: كم من أخٍ لي... الخ. وهو بلفظ المصنف في المحرر الوجيز ١/ ٥٠١.
(٣) ديوان الأعشى ص١٧٣، وروايته فيه:

وما جعل الرحمن بيتك في العُلى بأجياد غربيّ الصَّفا والمُحَرَّمِ

والرواية أعلاه في المحرر الوجيز ١/ ٥٠١.
(٤) الكشاف ١/ ٤٦٠.

الزَّاهد[١]: قال ابنُ الأعرابي: القَعْدُ الصيرورة، والعرب تقول: قعدَ فلان أميراً بعدما كان مأموراً، أي: صارَ.

وأما إجراء «قام» مُجرى «صار» فلا أعلم أحداً عدَّها في أخوات «كان»، ولا ذكرَ أنها تأتي بمعنى «صار» ولا ذكرَ لها خبراً إلا أبا عبد الله بن هشام الخضراوي[٢] فإنه قال في قول الشاعر:

علـى مـا قـام يَـشْـتِـمُـنـي لـئـيـمٌ[٣]

إنها من أفعال المقاربة[٤].

وقال ابن عطيَّة[٥]: لفظة القعود أدلُّ على الثبوت، ولا سيما أنَّ الرماة إنما كانوا قعوداً، وكذلك كانت صفوف المسلمين أوَّلاً، والمبارِزةُ والسَّرَعان يجولون.

وجَمَعَ المقاعد لأنه عَيَّنَ لهم مواقفَ يكونون فيها، كالميمنة والميسرة، والقلب والسَّاقَة، وبَيَّنَ لكلٍّ فريق منهم موضعَهم الذي يقفون فيه.

خرج ﷺ بعد صلاة الجمعة وأصبحَ بالشِّعْب[٦] يومَ السبت للنصف من شوال،

---

(١) هو محمد بن عبد الواحد اللغوي، المعروف بغلام ثعلب. توفي سنة (٣٤٥).

(٢) هو محمد بن يحيى بن هشام الأندلسي، أخذَ عن ابن خروف، توفي بتونس سنة (٦٤٦). بغية الوعاة ١/ ٢٦٧-٢٦٨.

(٣) هو صدر بيت لحسان بن ثابت، وعَجُزُه: كخنزيرٍ تَمَرَّدَ في رَمَادِ. وهو في ديوانه. ص٧٩. وجاء في تهذيب الأسماء واللغات. ص٧٦٧ (قسم اللغات ـ حرف الميم) ومغني اللبيب ص٣٩٢: دَمَان، بدل: رَمَاد. وهما بمعنى؛ كما ذكر ابن هشام. وقولُه: على ما، أي: علامَ؟ فذكر ابن هشام أن ألف «ما»: ضرورة، وأما النووي فذكر أنَّ من العرب من يُثْبِتُها، فيقول: لِما تفعل، وفيما جئت؟ وذكرَ بيت حسان ﷺ.

(٤) وكذلك جعلَها ثعلب من أفعال المقاربة؛ فيما نقله عنه السيوطي في جمع الجوامع ١/ ٤٦٨ (طبعة الهمع). وذكر السمين الحلبي في الدر المصون ٣/ ٣٨٠ أنَّ من النحويين من يجعلها زائدة. وذكر صاحب اللسان (قوم) أنها بمعنى عزمَ، وقال: معناه: علامَ يعزمُ على شتمي؟

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٥٠١.

(٦) في الكشاف ١/ ٤٦٠ (والكلام فيه): «بالشِّعْب من أُحُد». والشِّعْب (بكسر الشين): الطريق في الجبل.

فمشى على رجليه، فجعلَ يصفُّ أصحابَه للقتال كأنّما يُقَوِّمُ بهم القِدْح[١]، إنْ رأى صَدْراً خارجاً قال: تَأَخَّرْ. وكان نزولُه في عُدْوَةِ الوادي، وجعلَ ظهرَه وعسكرَه إلى أُحُد، وأَمَّرَ عبدَ الله بنَ جُبير على الرُّماة وقال لهم: «انْضَحُوا عنَّا بالنَّبْل لا يأتونا مِنْ ورائنا»[٢].

و«تُبَوِّئُ» جملة حاليَّة من ضمير المخاطب، فقيل: هي حال مقدَّرة، أي: خرجتَ قاصداً التَّبوئَة، لأنَّ وقت الغُدُوّ لم يكن وقتَ التبوئة.

وقرأ الجمهور: «تُبَوِّئُ» من: بَوَّأَ. وقرأ عبد الله: «تُبْوِئُ» من: أَبْوَأَ. عدَّاه الجمهور بالتضعيف، وعبدُ الله بالهمزة. وقرأ يحيى بن وثّاب: «تُبْوِي» بوزن: تُحْيِي، عدَّاه بالهمزة، وسهَّل لام الفعل بإبدال الهمزة ياءً، نحو: يُقْرِي، في يُقْرِئُ. وقرأ عبد الله: «للمؤمنين» بلام الجرّ[٣] على معنى: تُرَتِّبُ وتُهَيِّئُ. ويظهر أنَّ الأصل تعديته لواحدٍ بنفسه وللآخر باللام، لأنَّ ثلاثيَّه لا يتعدَّى بنفسه، إنما يتعدَّى بحرف جرّ.

وقرأ الأشهب: «مقاعدَ القتالِ» على الإضافة وانتصاب مقاعد على أنه مفعول ثان لـ «تُبَوِّئُ»، ومن قرأ: «للمؤمنين» كان مفعولاً لـ «تُبَوِّئُ»، وعدَّاه باللام كما في قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]، وقيل: اللام في «لإبراهيم» زائدة. واللام في «للقتال» لام العلَّة تتعلَّق بـ «تُبَوِّئُ». وقيل: في موضع الصفة لـ «مقاعد».

وفي الآية دليلٌ على أنَّ الأئمة هم الذين يتولَّون أمرَ العساكر، ويختارون لهم المواضع للحرب، وعلى الأجناد طاعتُهم. قاله الماتريديّ[٤]. وهو ظاهر.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميعٌ لأقوالكم، عليمٌ بنيَّاتكم. وجاءت هاتان الصفتان هنا لأنَّ في ابتداء هذه الغزوة مشاورةً ومجاوبةً بأقوال مختلفة، وانطواءً على نيَّات مضطربة حسبما تضمَّنَتْه قصة غزوة أُحُد.

---

(١) بكسر القاف: هو السهم قبل أن يُراش ويُنْصَل. القاموس (قدح).

(٢) الكلام في الكشاف ١/ ٤٦٠. قوله: عُدوة الوادي، أي: جانبُه وشاطئه.

(٣) تفسير الثعلبي ٢/ ١٤٠، والكشاف ١/ ٤٦٠.

(٤) بنحوه أطول منه في تفسيره ١/ ٣٠٤.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآبِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ الطائفتان: بنو سَلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وهما الجناحان. قاله ابنُ عباس وجابر والحسن وقتادة ومجاهد والربيع والسُّدِّيّ وجمهورُ المفسرين.

وقيل: الطائفتان هما من الأنصار والمهاجرين. رُوِيَ أنَّ رسول الله ﷺ خرجَ في ألف، وقيل: في تسع مئة وخمسين، والمشركون في ثلاثة آلاف، ووعَدَهم الفتحَ إنْ صبروا، فانخزلَ عبدُ الله بنُ أُبيّ بثُلُث الناس[1]، وسببُ انخزاله أنه أشار على رسول الله ﷺ بالمدينة حين شاورَه رسولُ الله ﷺ ولم يُشاوِرْهُ قبلَها، فأشارَ عليه بالمُقام في المدينة، فلم يفعل، وخرج، فغضب عبدُ الله وقال: أطاعَهم وعصاني. وقال: يا قوم، علامَ نقتلُ أنفسَنا وأولادَنا؟ فتبعَهم عَمرو بنُ حزم الأنصاريّ ـ وفي رواية: أبو جابر السُّلَميّ ـ فقال: أَنْشُدُكم اللهَ في نبيِّكم وأنفسِكم. فقال عبد الله: لو نعلم قتالاً لاتَّبَعْناكم. فهمَّ الحيَّانِ[2] باتّباع عبدِ الله، فعصمَهم الله، ومضَوْا مع رسول الله ﷺ[3].

قال ابن عباس: أَضْمَرُوا أن يرجعوا، فعزمَ الله لهم على الرُّشْد فثبتُوا.

وهذا الهَمُّ غيرُ مؤاخَذ به، إذْ ليس بعزيمة، إنما هو ترجيحٌ[4] من غير عزم، ولا شكَّ أنَّ النفس عندما تلاقي الحروب ومن يجالدُها يزيدُ عليها مثلَيْن وأكثر، يلحقُها بعضُ الضعف عن الملاقاة[5]، ثم يُوَطِّنُها صاحبُها على القتال فتثبتُ وتستقرّ، ألا ترى إلى قول الشاعر[6]:

وقَوْلي كلَّما جَشَأَتْ وجَاشَتْ[7] مَكانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحي

---

(١) انخزل، بالزاي: انفردَ. «النهاية» (خزل). وفي رواية للطبري ٦/ ١٣: رجع عبد الله بن أُبَيّ في ثلاث مئة.

(٢) تحرّف في المطبوع إلى: الجبان!

(٣) تفسير الثعلبي ٢/ ١٤٠، والكشاف ١/ ٤٦٠-٤٦١. وينظر تفسير الطبري ٦/ ١٣.

(٤) في (د١) و(د٢) و(يه): ترجّح.

(٥) في (أ) و(ع): عند الملاقاة. ولم ترد هاتان الكلمتان في (يه).

(٦) هو عَمرو بن الإطنابة، والبيت في: الكامل ٣/ ١٤٣٤، والخصائص ٣/ ٣٥، والحماسة البصرية ١/ ٤.

(٧) رواية صدر البيت في الكشاف ١/ ٤٦١: أقول لها إذا جشأت... الخ. والكلام قبله فيه بنحوه.

و«إذْ هَمَّت» بدل من «إذْ غَدَوْتَ» قال الزَّمخشريّ: أو عملَ فيه معنى «سميع عليم» انتهى. وهذا غير محرَّر لأنَّ العاملَ لا يكون مركَّباً من وصفين، فتحريرُه أن يقول. أو عملَ فيه معنى سميع أو عليم، وتكون المسألة من بابِ التنازع. وجُوِّزَ أن يكون معمولاً لـ «تُبَوِّئُ» ولـ «غَدَوْتَ».

و«هَمَّ» يتعدَّى بالباء، فالتقدير: بأنْ تَفْشَلا، والمعنى: أنْ تَفْشَلا عن القتال. وما أحسنَ قول الشاعر[1] في التحريض على القتال والنهي عن الفَشَل:

قاتِلُوا القومَ[2] يا خُزاعُ ولا يَأْ ... خُذْكُمُ عن[3] قِتالِهِمْ فَشَلُ
القومُ أمْثالُكُمْ لَهُمْ شَعَرٌ ... في الرأسِ لا يُنْشَرُونَ إنْ قُتِلُوا

وأدغم السبعةُ تاءَ التأنيث في الطاء، وعن قالون خلاف ذكرناه في «عِقْد اللآلي في القراءات السَّبع العوالي» من إنشائنا.

والظاهر أنَّ هذا الهَمَّ كان عند تَبْوِئةِ الرسول ﷺ مقاعدَ للقتالِ، وانخزالِ عبدِ الله بمَن انخزلَ. وقيل: حين أشارُوا عليه بالخروج وخالفوا عبدَ الله بنَ أُبيّ.

وفي قوله: «طائفتان» إشارة لطيفة إلى الكناية عمَّن يقعُ منه ما لا يُناسبُ، والسَّتْرُ عليه، إذْ لم يعيِّن الطائفتين بأنفسهما[4] ولا صرَّحَ بمن همَّا به من القبائلِ ستراً عليهما.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ معنى الولاية هنا التثبيتُ والنَّصرُ، فما ينبغي لهما أنْ تَفْشَلا. وقيل: جعلهما من أوليائه المثابِرين على طاعته.

وفي «البخاريّ» عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾. قال: نحن الطائفتانِ بنو حارثة وبنو سَلِمة،

(١) هو الشَّدَّاخ بن يَعْمَر الكناني. والبيتان في الحماسة ١/١٩٦ (بشرح المرزوقي) والخصائص ١/٢٨٨.

(٢) في المصدرين السالفين: قاتلي القوم... الخ. قال المرزوقي: يُروى: «قاتِلُوا» و«قاتِلِي». على اللفظ مرَّة، وعلى المعنى أخرى... يقول: حارِبي أعداءَك يا خُزاعة، ولا يتداخلكم الجُبن والضعف.

(٣) في المصدرين السالفين: مِن، بدل: عن. وفي الحماسة: ولا يدخلكم من.

(٤) لفظ «بأنفسهما» من (ب) و(د١) و(د٣) و(ز٢).

وما نحبُّ أنها لم تنزل لقول الله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[1]. قال ذلك جابر لفرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله وإنزالِه فيهم آيةً ناطقةً بصحَّة الولاية، وأن تلك الهَمَّةَ المصفوحَ عنها لكونها ليست عزماً كانت سبباً لنزولها[2].

وقرأ عبدُ الله: «واللهُ وَلِيُّهم»[3]، أعادَ الضمير على المعنى لا على لفظ التثنية، كقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩]، و﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟﴾ [الحج: ١٩].

وهذه الجملة لا موضع لها من الإعراب، بل جاءت مستأنفة لثناء الله على هاتين الطائفتين.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لمَّا ذكر تعالى ما همَّتْ به الطائفتان من الفَشَل، وأخبر أنه تعالى وَلِيُّهما، ومن كان الله وليَّه فلا يفوِّض أمْرَه إلا إليه؛ أمَرَهم بالتوكُّل عليه، وقدَّم المجرور للاعتناء بمن يتوكل عليه، أو للاختصاص على مذهب من يرى ذلك. ونبَّه على الوصف الذي يقتضي ذلك ـ وهو الإيمان ـ لأنَّ مَنْ آمنَ بالله حَرٍ أن لا يكون اتِّكالُه إلا عليه، ولذلك قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وأتى به عامًّا لتندرجَ الطائفتانِ الهامَّتانِ وغيرُهم في هذا الأمر، وأنَّ متعلَّقَهُ مَنْ قامَ به الإيمان.

وفي هذا الأمر تحريضٌ على التغبيط بما فعلَتْه الطائفتانِ من اتِّباع رسولِ الله ﷺ والمسيرِ معه.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ لمَّا أمرَهم بالتوكُّل عليه ذكَّرَهُم بما يُوجب التوكُّلَ عليه، وهو ما سَنَّى لهم ويَسَّرَ من الفتح والنَّصر يومَ بدر وهم في حال قلَّةٍ وذِلَّة، إذ كان ذلك النصر ثمرةَ التوكُّل عليه والثقةِ به، والنصرُ المشارُ إليه ببدر: بالملائكة، أو بإلقاء الرُّعب، أو بكفِّ الحصَى التي رَمَى بها رسولُ الله ﷺ، أو بإرادة الله، لقوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾. أقوال.

---

(١) صحيح البخاري (٤٥٥٨).
(٢) الكشاف ١/ ٤٦١.
(٣) تفسير الثعلبي ٢/ ١٤٠، والكشاف ١/ ٤٦١، والمحرر الوجيز ١/ ٥٠١.

والجملة من قوله: «وأنتم أذلَّة» حالٌ من المفعول في «نَصَرَكُم». والمعنى: وأنتُم أذلَّةٌ في أعين غيرِكم، إذْ كانوا أَعِزَّةً في أنفسهم، وكانوا بالنسبة إلى عدوِّهم وجميعِ الكفار في أقطار الأرض عند المُتأمِّل مغلوبين. وقال رسول الله ﷺ: «اللهم إنْ تَهْلِكْ هذه العصابةُ لم تُعْبَدْ»[١].

والأذلَّة جمع ذليل، وجمعُ الكثرة ذُلَّان[٢]، فجاء على جمع القلَّة لِيدُل أنهم كانوا قليلين. والذِّلَّة التي ظهرت لغيرهم عليهم هي ما كانوا عليه من الضعف وقلَّةِ السلاحِ والمالِ والمركوب، خرجوا على النّواضح يعتقبُ النَّفَرُ على البعير الواحد، وما كان معهم من الخيل إلا فرسٌ واحد، ومع عدوِّهم مئةُ فرس، وكان عدد المسلمين ثلاث مئة رجل وثلاثةَ عشرَ رجلاً؛ سبعةٌ وسبعون من المهاجرين، وصاحبُ رايتهم عليُّ بنُ أبي طالب، ومئتان وستةٌ وثلاثون من الأنصار، وصاحبُ رايتهم سعد بنُ عُبادة[٣]. وقيل: ثلاث مئة وستةَ عشرَ رجلاً. وقيل: ثلاث مئة وأربعةَ عشرَ رجلاً. وفي رواية: ثلاث مئة وبضعةَ عشرَ رجلاً، وكان عدوُّهم في حال كثرة؛ زُهاءَ ألفِ مقاتل[٤].

وما أحسنَ قول الشاعر[٥]:

وقائلةٍ ما بالُ أُسْرَةِ عَادِيا ... تَفَانَتْ وفيها قِلَّةٌ وخُمُولُ
تُعَيِّرُنا أنَّا قليلٌ عَدِيدُنا ... فقلتُ لها إنَّ الكرامَ قليلُ
وما ضرَّنا أنَّا قليلٌ وجارُنا ... عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليلُ

(١) قطعة من حديث عمر رضي الله عنه في قصة غزوة بدر أخرجه أحمد (٢٠٨)، ومسلم (١٧٦٣) وغيرهما.
(٢) الكشاف ١/ ٤٦١. وينظر تفسير الرازي ٨/ ٢٢٢. ووقع في (يه): ذِلال، بدل: ذُلَّان، وهو جمع ذليل.
(٣) تفسير الطبري ٥/ ٢٤٨-٢٤٩، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٧، وتفسير البغوي ١/ ٢٨٣ (عند تفسير الآية ١٣ من هذه السورة).
(٤) ينظر أيضاً: تفسير الطبري ٦/ ١٨-١٩، وتفسير البغوي ١/ ٣٤٧، والكشاف ١/ ٤٦١، والمحرر الوجيز ١/ ٥٠٢. ولم أقف على من ذكرَ أنهم كانوا ثلاث مئة وستة عشر رجلاً.
(٥) هو السَّمَوْأل بن عادِياء، أو عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي كما في الحماسة البصرية ١/ ١٣٩ (طبعة الخانجي) وشرح الحماسة للمرزوقي ١/ ١١٠. والأبياتُ الثلاثة في الحماسة البصرية، والبيتان الثاني والثالث في شرح الحماسة للمرزوقي، وديوان السموأل ص٩٠.

والنصرُ ببدر هو المشهور الذي قُتل فيه صناديدُ قريش، وعلى يوم بدر انبنى الإسلام، وكان يومَ الجمعة السابعَ عشرَ من رمضان لثمانية عشر شهراً من الهجرة[١].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أمرٌ بالتقوى مطلقاً. وقيل: في الثبات مع رسولِ الله ﷺ. وترجيةُ الشكر إمّا على الإنعام السابق بالنصر يومَ بدر، أو على الإنعام المرجوّ أن يقع، فكأنّه قيل: لعلكم يُنعم عليكم نعمةً أخرى فتشكرونها، وضعَ الشكر موضعَ الإنعام لأنه سببٌ له[٢].

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ﴾ ظاهرُ هذه الآية اتّصالُها بما قبلَها، وأنّها من قصة بَدْر، وهو قولُ الجمهور، فيكون «إذ» معمولاً لـ «نصركم».

وقيل: هذا من تمام قصة أُحُد، فيكون قولُه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ معترضاً بين الكلامين لما فيه من التحريض على التوكُّل والثباتِ للقتال، وحجَّةُ هذا القول أنَّ يومَ بدر كان المَدَدُ فيه من الملائكة بألف، وهنا بثلاثة آلاف وخمسة آلاف، والكفار يومَ بدر كانوا ألفاً والمسلمون على الثُّلُث، فكان عدد الكفار مقابلاً لعدد الملائكة، ويوم أُحُد كان المسلمون ألفاً، والكفّار[٣] ثلاثة آلاف، فوُعِدُوا بثلاثة آلاف من الملائكة. وقال: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ﴾ أي: الأعداء[٤]. ويومَ بدر ذهبَ المسلمون إليهم[٥].

قال الزمخشريّ[٦]: فإنْ قلت: كيف يصحُّ أن يقوله لهم يومَ أُحُد ولم تنزل فيه الملائكة؟ قلت: قاله لهم مع اشتراط الصبر والتقوى عليهم، فلم يصبروا عن الغنائم، ولم يتَّقُوا حيث خالفُوا أمْرَ رسولِ الله ﷺ، فلذلك لم تنزل الملائكة، ولو

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٢.
(٢) ينظر الكشاف ١/ ٤٦١.
(٣) من قوله: مقابلاً لعدد الملائكة... إلى هذا الموضع، سقط من المطبوع.
(٤) في (د١) والمطبوع: الأمداد.
(٥) ينظر تفصيل الكلام في تفسير الرازي ٨/ ٢٢٣.
(٦) الكشاف ١/ ٤٦١.

تَمُّوا على ما شَرَطَ عليهم لنزلت، وإنَّما قدَّم الوَعْدَ بنزول الملائكة لتقوَى قلوبُهم ويَعْزِمُوا على الثبات ويثقوا بنصر الله. انتهى كلامه.

وقوله: لم تنزل فيه الملائكة، ليس مُجْمَعاً عليه، بل قال مجاهد: حَضَرَتْ فيه الملائكة ولم تقاتل[1]. فعلى قول مجاهد يسقطُ السؤال.

وقوله: قاله لهم مع اشتراط الصبر والتقوى عليهم فلم يصبروا عن الغنائم ولم يتَّقُوا... إلى آخره، المشروطُ بالصبر والتقوى هو الإمدادُ بخمسة آلاف، أمَّا الإمدادُ الأول ـ وهو بثلاثة آلاف ـ فليس بمشروط ولا يلزمُ من عدم إنزال خمسة آلاف لفوات شرطِه أن لا يُنزل ثلاثةَ آلاف ولا شيءَ[2] منها.

وأجيب عن عدم إنزال ثلاثةِ آلاف أنه وَعْدٌ من رسول الله ﷺ للمؤمنين الذين بوَّأهم مقاعدَ للقتال، وأمرَهم بالسكون والثبات فيها، فكان هذا الوعدُ مشروطاً بالثبوت في تلك المقاعد، فلمَّا أهملوا الشرط لم يحصل المشروط. انتهى[3]. ولا خَفَاء بضعفِ هذا الجواب.

قال الضَّحَّاك: كان هذا الوعدُ والمقالةُ للمؤمنين يومَ أحد، ففَرَّ الناسُ ووَلَّوْا مدبرين، فلم يُمِدَّهم الله، وإنما مُدُّوا يومَ بدر بألف من الملائكة.

وقال ابن زيد: لم يصبروا. وقال عكرمة: لم يصبروا ولم يتَّقُوا يومَ أحد، فلم يُمَدُّوا، ولو مُدُّوا لم ينهزموا[4].

وكان الوعد بالإمداد يومَ بدر. ورُجِّح أنه قال ذلك يومَ بدر لظاهرِ[5] اتصال الكلام، ولأنَّ قلَّة العَدَد والعُدَد كان يومَ بدر، فكانوا إلى تقوية قلوبِهم بالوعد أحوجَ، ولأن الوعد بثلاثة آلاف كان غيرَ مشروط، فوجبَ حصولُه، وإنما حصل

---

(١) تفسير الرازي ٨/ ٢٢٤. وأخرج الطبري في تفسيره ٦/ ٢٣ و٢٥ عن ابن عباس ومجاهد أن الملائكة لم تُقاتل إلا يوم بدر.
(٢) كذا. والجادَّة: شيئاً.
(٣) تفسير الرازي ٨/ ٢٢٤.
(٤) تنظر الأقوال الثلاثة في تفسير الطبري ٦/ ٢٧، والمحرر الوجيز ١/ ٥٠٣ (واللفظ له) وقول ابن زيد فيهما مطوّل.
(٥) المثبت من (ب) و(د٣). وفي النسخ الأخرى: فظاهر. وينظر تفسير الرازي ٨/ ٢٢٥.

يومَ بدر، والجمع بين ألف وثلاثة آلاف أنَّهم مُدُّوا أوّلاً بألف، ثم زِيدَ فيهم ألفان، فصارت ثلاثةَ آلاف، أو مُدُّوا بألف أوّلاً، ثم بلغَهم إمدادُ المشركين بعدد كثير، فوُعدوا بالخمسة على تقدير إمداد الكفار، فلم يُمَدَّ الكفار، فاستُغنِيَ عن إمداد المسلمين.

والظاهر في هذه الأعداد إدخالُ الناقص في الزائد فيكون وُعِدُوا بألفٍ، ثم ضُمَّ إليه ألفان، ثم ألفان، فصاروا خمسة. ومَنْ ضمَّ الناقصَ إلى الزائد وجعل ذلك في قصة أُحُد فيكونون قد وُعِدُوا بثمانية آلاف، أو في قصة بدر فيكونون قد وُعِدُوا بتسعة آلاف[١].

ولم تتعرَّض الآية الكريمة لنزول الملائكة ولا لقتالهم المشركين وقَتْلِهم، بل هو أمرٌ مسكوتٌ عنه في الآية.

وقد تظاهرت الروايات وتظافرت على أنَّ الملائكة حضَرَتْ بدراً وقاتلت؛ ذكر ذلك ابنُ عطية[٢] عن جماعة من الصحابة بما يُوقف عليه في كتابه. ولمَّا لم تتعرَّض له الآية لم نُكثر كتابنا بنقله.

وذكر ابن عطية أنَّ الشعبيَّ قال: لم يُمَدَّ المؤمنون بالملائكة يومَ بدر، وكانت الملائكة بعد ذلك تحضُرُ حروبَ النبيِّ ﷺ مَدَداً، وهي تحضُرُ حروبَ المسلمين إلى يوم القيامة. قال: وخالفَ الناسُ الشعبيَّ في هذه المقالة.

وذكر أبو عبد الله محمد بن عمر الرازيّ ما نصُّه[٣]: وأجمعَ أهلُ التفسير والسِّيَر على أنَّ الله تعالى أنزلَ الملائكة يومَ بدر، وأنهم قاتلوا الكفار. ثم قال: وأما أبو بكر الأصمُّ فإنه أنكرَ ذلك أشدَّ الإنكار. وذكرَ عنه حُجَجاً ثم قال: وكلُّ هذه الشُّبَه تليقُ بمن يُنكر القرآنَ والنبوّة، لأنَّ القرآن والسُّنَّة ناطقان بذلك. يعني بإنزال الملائكة.

ثم قال: واختلفوا في نُصرة الملائكة، فقيل: بالقتال. وقيل: بتقوية نفوس المؤمنين، وإلقاء الرُّعب في قلوب الكفار. والظاهرُ في المَدَد أنهم يَشْركون الجيشَ

(١) تفصيلُه في تفسير الرازي ٨/ ٢٢٦.
(٢) في المحرر الوجيز ١/ ٥٠٣.
(٣) تفسير الرازي ٨/ ٢٢٦-٢٢٧. وما سيرد بين حاصرتين منه.

في القتال [إنْ وقعت الحاجةُ إليهم، ويجوزُ أن لا تقعَ الحاجةُ إليهم في نفس القتال] وأن يكون مجرَّدُ حضورهم كافيًا. انتهى كلامه.

ودخلت أداة الاستفهام على حرف النفي على سبيل الإنكار لانتفاء الكفاية بهذا العدد من الملائكة، وكان حرف النفي «لَنْ» الذي هو أبلغُ في الاستقبال من «لا» إشعاراً بأنهم كانوا لقلَّتهم وضَعْفِهم وكثرةِ عدوِّهم وشوكتِهِ[١] كالآيسين من النصر. و«بلى» إيجاب لما بعد «لن» يعني: بلى يكفيكم الإمداد بهم، فأوجبَ الكفاية. وفي مصحف أُبيّ: «ألا يكفيكم». انتهى، ومعظمُه من كلام الزمخشريّ[٢].

وقال ابن عطيّة[٣]: «أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ» تقريرٌ على اعتقادهم الكفايةَ في هذا العدد من الملائكة، ومن حيث كان الأمرُ بَيِّناً في نفسه أنَّ الملائكة كافية، بادرَ المتكلم إلى الجواب ليبنيَ ما يستأنف من قوله عليه، فقال: «بلى»، وهي جواب المقرَّرين، وهذا يحسُن في الأمور البيِّنة التي لا محيدَ في جوابها، ونحوه قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩]. انتهى.

وقال أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المُرسي: «أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ». جواب الصحابة حين قالوا: هلّا أعلمتَنا بالقتال لنتأهّب؟ فقال لهم النبي ﷺ: «أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ».

قال ابنُ عيسى: والكفايةُ مقدار سدِّ الخَلَّة، والإمداد إعطاءُ الشيء حالاً بعد حال. انتهى.

وقرأ الحسن: «بثلاثَهْ آلاف» يقف على الهاء، وكذلك: «بخمسَهْ آلاف». قال ابن عطية: ووجه هذه القراءة ضعيف لأن المضاف والمضاف إليه يقتضيان الاتصال إذ هما كالاسم الواحد، وإنما الثاني كمالُ الأول، والهاء إنما هي أمارة وقف، فَيَقْلَقُ[٤] الوقف في موضع إنّما هو للاتصال، لكن قد جاء نحو هذا للعرب في

(١) في (ز٢) والمطبوع: وشوكتهم.
(٢) الكشاف ١/ ٤٦١.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٣.
(٤) في (أ) و(د٢) و(ع): فيتعلق، وفي (ب) و(ز٢): فتعلق، وهي مهملة من النقط في (د١) و(د٣)، وغير واضحة في (ح). والمثبت من (يه) وهو موافق لما في المصدر السابق.

مواضع، فمن ذلك ما حكاه الفرَّاء أنهم يقولون: أكلتُ لحما شاة، يريدون: لحمَ شاة، فمطَلُوا الفتحة حتى نشأت عنها ألف، كما قالوا في الوقف: قالا. يريدون: قال، ثم مَطَلُوا الفتحة في القوافي، ونحوها من مواضع الرَّوِيَّة والتثبُّت، ومن ذلك في الشعر قولُ الشاعر:

يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ زَيَّافَةٍ مثل الفَنِيقِ المُكْدَمِ[(١)]

يريد: ينبع، فمطَل، ومنه قول الآخر:

أقولُ إذْ خَرَّتْ على الكَلْكَالِ يا ناقتَا ما جُلْتِ من مَجَالِ[(٢)]

يريد: الكَلْكَل، فمطلَ، ومنه قول الآخر:

فأنتَ من الغوائلِ حين تُرْمَى ومِنْ ذَمِّ الرِّجالِ بمُنْتَزَاحِ[(٣)]

يريد: بمُنْتَزَح.

قال أبو الفتح: فإذا جازَ أن يعترض هذا التمادي بين أثناء الكلمة الواحدة؛ جاز التمادي والتأنّي بين المضاف والمضاف إليه، إذ هما في الحقيقة اثنان. انتهى كلامه[(٤)].

وهو تكثير وتنظير بغير ما يناسب، والذي يُناسب توجيهَ هذه القراءة الشاذَّة أنها من إجراء الوصل مُجرى الوقف، أبدَلَها هاءً في الوصل كما أبدلوها هاءً في الوقف، وموجودٌ في كلامهم إجراءُ الوصل مُجرى الوقف، وإجراءُ الوقف مُجرى الوصل.

---

(١) البيت لعنترة من معلَّقته، وهو في ديوانه ص٢٢، وخزانة الأدب ١/ ١٢٢ (الشاهد ١٢)، قال البغدادي: الذِّفرى: الموضع الذي يعرق من الإبل خلف الأُذن، والغَضوب: الناقة العَبُوس الشديدة المِراس، والجَسْرة الجاسرة في السَّير، والزَّيَّافة: المتبخترة، والفَنِيق: الفحل، المُكْدَم: الذي لا يُركب لكرامته على أهله. ورُويَ: المُقْرَم، وهو البعير الذي لا يُحمل عليه، إنما هو للفِحْلَة. اهـ. ورواية «المُقْرَم» في الخزانة ٨/ ٣٧٣.

(٢) تأويل مشكل القرآن ص٢٣٤، وتفسير الطبري ١/ ٢١٨، والمحتسب ١/ ١٦٦، واللسان (كلل) ١١/ ٥٩٦، وفيه: الكَلْكَل والكَلْكَال: الصدرُ من كل شيء.

(٣) البيت لإبراهيم بن هَرْمَة، وهو في ديوانه ص٩٢، والمحتسب ١/ ١٦٦، والخصائص ٢/ ٣١٦.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٤، وكلام أبي الفتح (وهو ابن جنّي) بنحوه في المحتسب ١/ ١٦٦.

وأمَّا قوله: لكن قد جاء نحوُ هذا للعرب في مواضع، وجميع ما ذكر إنما هو من باب إشباع الحركة، وإشباعُ الحركة ليس نحوَ إبدال التاء هاءً في الوصل، وإنما هو نظير قولهم: ثلاثَهَ ارْبَعَه، أبدلَ التاء هاءً، ثم نقلَ حركةَ همزة «أربعة» إليها وحذفَ الهمزة، فأجرى الوصل مُجرى الوقف في الإبدال، ولأجل الوصل نقل، إذ لا يكون هذا النقل إلا في الوصل.

وقُرئ شاذًّا: «بثلاثةْ آلاف» بتسكين التاء في الوصل؛ أجراه مُجرى الوقف. واختلفوا في هذه التاء الساكنة؛ أهي بَدَلٌ من الهاء التي يُوقفُ عليها، أم تاء التأنيث هي، وهي التي يُوقَفُ عليها بالتاء كما هي، وهي لغة.

وقرأ الجمهور: «مُنْزَلِين»، بالتخفيف مبنيًّا للمفعول، وابنُ عامر بالتشديد مبنيًّا للمفعول أيضاً[١]، والهمزة والتضعيف للتعدية، فهما سِيَّان.

وقرأ ابنُ أبي عَبْلَة: «مُنَزِّلِين» بتشديد الزَّاي وكسرها مبنيًّا للفاعل[٢]، وبعضُ القرَّاء بتخفيفها وكسرها مبنيًّا للفاعل أيضاً[٣]، والمعنى: يُنزِلون النصر.

﴿إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ رتَّبَ تعالى على مجموع الصبرِ والتقوى وإتيان العدوّ مِنْ فورهم إمدادَه تعالى المؤمنين بأكثر من العدد السابق، وعلَّقه على وجودها بحيث لا يتأخَّر نزولُ الملائكة عن تحلِّيهم بثلاثة الأوصاف، ومعنى «مِنْ فَوْرِهِم»: من سفرهم هذا؛ قاله ابنُ عباس أو: من وَجْهِهِم هذا؛ قاله الحسن وقتادة والسُّدِّيّ، قيل: وهي لغةُ هُذَيْل وقيس عَيْلان، وكِنانة، أو: من غَضَبهم هذا؛ قاله مجاهد وعكرمة والضحَّاك وأبو صالح مولى أمِّ هانئ[٤]، أو معناه: في نهضتهم هذه. قاله ابنُ عطيَّة، أو المعنى: من ساعتهم هذه. قاله الزمخشريّ[٥].

---

(١) السبعة ص٢١٥، والتيسير ص٩٠.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٤.
(٣) هي عن أبي حَيْوَة، كما في القراءات الشاذة ص٢٢، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٠٠.
(٤) ينظر تفسير الطبري ٦/ ٢٩-٣١، وتفسير البغوي ١/ ٣٤٨، والمحرر الوجيز ١/ ٥٠٤، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٠٠.
(٥) الكشاف ١/ ٤٦٢. وينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٠٤.

ولفظة «الفَوْر» تدلُّ على السرعة والعَجَلَة، تقول: افعل هذا على الفَوْر، لا على التراخي، ومنه الفَوْرُ في الحجّ والوضوء.

وفي إسناد الإمداد إلى لفظة «ربّكم» دون غيره من أسماء الله إشعارٌ بحسن النظر لهم واللطفِ بهم.

وقرأ الصاحبان والأخَوَان: «مُسَوَّمين» بفتح الواو، وأبو عمرو وابنُ كثير وعاصم بكسرها[١]. فقيل: من السُّومَة، وهي العلامة تكونُ على الشاة وغيرها، يُجعلُ عليها لون يُخالف لونَها لتُعرف. وقيل: من السَّوْم، وهو ترك البهيمة ترعى.

فعلى الأوَّل رُوِيَ أن الملائكة كانت بعمائمَ بِيض إلا جبريل عليه السلام، فبعِمامة صفراء، كالزُّبير، قاله ابنُ إسحاق والزجَّاج. وقيل: بعمائم صُفْر، كالزُّبير، قاله عروة وعبدُ الله ابنا الزُّبير وعبَّادُ بنُ حمزة بنِ عبد الله بن الزُّبير والكلبيُّ وزاد: مُرخاةٍ على أكتافهم.

قيل: وكانوا على خيل بُلْق، وكانت سِيماهم. قاله قتادة والربيع، أو خيلُهم مجزوزةُ النواصي والأذنابِ، مُعَلَّمتُها بالصوف والعِهْن، قاله مجاهد. فبفتح الواو: معلَّمين، وبكسرها: معلِّمين أنفسَهم أو خيلَهم. ورجَّح الطبري قراءة الكسر بأنه عليه الصلاة والسلام قال يوم بدر: «سَوِّمُوا فإنَّ الملائكة قد سَوَّمَت»[٢].

وعلى القول الثاني - وهو السَّوْم - فمعنى «مُسَوِّمين» بكسر الواو: سَوَّمُوا خيلَهم، أي: أعطَوْها سَوْمَها[٣] من الجَرْي والجَوَلان للقتال، ومنه سائمة الماشية، وأمَّا بفتح الواو فيصحُّ فيه هذا المعنى أيضاً. قاله المهدويّ وابن فُورَك، أي:

(١) السبعة ص٢١٦، والتيسير ص٩٠. والصاحبان: نافع وابن عامر، والأخوان: حمزة والكسائي.

(٢) ينظر تفسير الطبري ٦/ ٣٣-٣٤، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٦٧، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٤٥، والكشاف ١/ ٤٦٢، والمحرر الوجيز ١/ ٥٠٤-٥٠٥، وزاد المسير ١/ ٤٥١-٤٥٢، وتفسير القرطبي ١/ ٣٠١-٣٠٢. والحديث من رواية عُمير بن إسحاق مرسل، وجاء عند الطبري والثعلبي والزمخشري: تَسَوَّموا... تَسَوَّمت.

(٣) لفظة «سَوْمَها» من (ب) و(د٣). وهي كذلك في المحرر الوجيز ١/ ٥٠٥ والكلام منه.

سوَّمَهم الله تعالى، بمعنى أنه جعلَهم يجولُون ويجرُون للقتال[١].

وقال أبو زيد: سَوَّمَ الرجلُ خَيْلَه، أي: أرسلَها في الغارة. وحكى بعض البصريِّين: سَوَّمَ الرجلُ غُلامَه: أرسلَه وخلَّى سبيله. ولهذا قال الأخفش: معنى مُسَوَّمين: مُرْسَلين[٢].

وفي الآية دليلٌ على جواز اتِّخاذ العلامة للقبائل والكتائب لتتميَّز كل قبيلة وكتيبة عند الحرب.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ الظاهر أن الهاء في «جَعَلَهُ» عائدة على المصدر المفهوم من «يُمْدِدْكم» وهو الإمداد، وجُوِّزَ أن يعود على التَّسْوِيم، أو على النصر، أو على التنزيل، أو على العدد، أو على الوعد.

و«إلا بشرى» مستثنى من المفعول له، أي: ما جعلَه الله لشيء إلا بشرى لكم، فهو استثناء فُرِّغَ له العامل، و«بُشْرَى» مفعول من أجله، وشروط نصبه موجودة، وهو أنه مصدر متَّحِدُ الفاعل والزمان، «ولتطمئنَّ» معطوف على موضع «بشرى» إذ أصلُه: لِبشرى. ولمَّا اختلف الفاعل في «ولتطمئنَّ» أتى باللام إذ فات شرط اتحاد الفاعل؛ لأن فاعل «بشرى» هو «الله»، وفاعل «تطمئنَّ» هو «قلوبُكم».

و«تطمئنَّ» منصوب بإضمار «أنْ» بعد لام «كي»، فهو من عطف الاسم على توهُّم موضع اسم آخر، و«جعلَ» على هذا التقدير متعدِّية إلى واحد.

وقال الحَوْفيُّ: «إلا بُشْرى» في موضع نصب على البدل من الهاء، وهي عائدة على الوعد بالمدَد. وقيل: «بُشْرَى» مفعول ثان لـ «جعلَه»، فعلى هذين القولين تتعلَّق اللام في «لتطمئنَّ» بمحذوف، إذ ليس قبله علَّة[٣] يُعطف عليها، قالوا: تقديرُه: ولتطمئنَّ قلوبُكم به بَشَّرَكم.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٥، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٠١. قال ابن عطية بإثر هذا القول: وهذا قلق.

(٢) معاني القرآن للأخفش ١/ ٤٢٠، والهداية ٢/ ١١٢٠ والكلام منه دون قول أبي زيد.

(٣) في (د١) والمطبوع: عطف، بدل: علَّة.

و«بُشْرَى» فُعْلَى، مصدر، كـ «رُجْعَى» وهو مصدر من «بَشَرَ» الثلاثي المجرَّد، والهاء في «به» تعود على ما عادت عليه في «جَعَلَهُ» على الخلاف المتقدِّم.

وقال ابنُ عطيّة[١]: اللام في «ولتطمئنَّ» متعلّقة بفعل مُضمر يدلُّ عليه «جَعَلَه» ومعنى الآية: وما كان هذا الإمدادُ إلا لتستبشروا به وتطمئنَّ به قلوبُكم. انتهى. وكأنه رأى أنه لا يمكن عنده أن يُعطف «ولتطمئنَّ» على «بُشْرى» على الموضع؛ لأنَّ من شرط العطف على الموضع عند أصحابنا أن يكون ثمَّ مُحْرزٌ للموضع، ولا مُحْرِزَ هنا، لأنَّ عامل الجرِّ مفقود، ومن لم يشترط المُحْرِزَ فيجوِّزُ ذلك على مذهبه، وإلَّا فيكون من باب العطف على التَّوَهُّم كما ذكرناه أولاً.

وقال أبو عبد الله محمد بن عمر الرازيُّ[٢]: قال بعضُهم: الواو زائدة في «ولتطمئن». وقال أيضاً: في ذكر الإمداد مطلوبان: أحدُهما: إدخالُ السرور في قلوبهم، وهو المراد بقوله: «إلا بُشْرَى». والثاني: حصولُ الطمأنينة بالنصر، فلا يَجْبُنُوا، وهذا هو المقصود الأصلي، ففرَّقَ بين هاتين العبارتين تنبيهاً على حصول التفاوت بين الأمرين، فعطفَ الفعلَ على الاسم، ولما كان الأقوى حصول الطمأنينة؛ أدخلَ حرف التعليل. انتهى.

وفيه بعض ترتيب، ويُناقشُ في قوله: فعطفَ الفعل على الاسم، إذ ليس من عطف الفعل على الاسم، وفي قوله: أدخلَ حرفَ التعليل، وليس ذلك لِما ذكر[٣].

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ حَصَرَ كينونةَ النصر في جهته، لا أنَّ ذلك يكون من تكثير المُقاتِلة، ولا من إمداد الملائكة، وذكرَ الإمداد بالملائكة تقويةً لرجاء النصر لهم وتثبيتاً لقلوبهم، وذكرَ وَصْفَ العزّة، وهو الوصفُ الدالُّ على الغَلَبة، ووَصْفَ الحكمة، وهو الوَصْفُ الدالُّ على وضع الأشياء مواضعَها من نصر وخُذلان وغير ذلك.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٥.
(٢) تفسيره ٨/ ٢٣٠.
(٣) في (أ) و(ع) و(ز٢): كما ذكر.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ الطَّرَف: مَنْ قُتِل ببدر، وهم سبعون من رؤساء قُريش، أو مَنْ قُتل بأُحُد، وهم اثنانِ وعشرون رجلاً على الصحيح. وقال السُّدِّيّ: ثمانيةَ عشَرَ، أو مجموع المقتولين في الوقعتين. ثلاثةُ أقوال[١].

وكَنَى عن الجماعة بقوله: «طَرَفاً» لأنَّ مَنْ قتلَه المسلمون في حرب هم طَرَفٌ من الكفار، إذ هم الذين يَلُون القاتلين، فهم حاشيةٌ منهم، فكأنَّ جميع الكفار رُقعةٌ[٢]، وهؤلاء المقتولون طَرَفٌ منها.

قيل: ويحتمل أن يُراد بقوله: طَرَفاً: دابِراً، أي: آخِراً، وهو راجع لمعنى الطَّرَف، لأنَّ آخِر الشيء طرفٌ منه.

«أو يَكْبِتَهُمْ» أي: ليُخْزِيَهُم ويَغِيظَهُم، فيرجعوا غيرَ ظافرين بشيء ممَّا أمَّلُوه، ومتى وقعَ النصرُ على الكفَّار فإمَّا بقتل، وإمَّا بخَيبة، وإمَّا بهما، وهو كقوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وقرأ الجمهور: «أو يَكْبِتَهُمْ» بالتاء، وقرأ لاحقُ بنُ حُميد: «أو يَكْبِدَهُم» بالدَّال مكان التاء[٣]، والمعنى: يصيبُ الحزنُ كَبِدَهم.

وللمفسِّرين في «يَكْبِتَهم» أقوال: يَهزِمَهم؛ قاله ابن عباس والزجَّاج، أو: يُخزِيَهم؛ قاله قتادة ومقاتل، أو: يَصْرَعَهم؛ قاله أبو عُبيد واليزيدي، أو: يُهلِكَهم، قاله أبو عُبيدة، أو: يلعنَهم؛ قاله السُّدِّي، أو: يُظْفِرَ عليهم؛ قاله المبرِّد، أو: يَغِيظَهم؛ قاله النَّضْرُ بنُ شُميل، واختاره ابنُ قتيبة[٤].

وأمَّا قراءة لاحق؛ فهي من إبدال الدّال بالتاء، كما قالوا: هَرَتَ الثوبَ

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٤٠-٤١، والمحرر الوجيز ١/ ٥٠٥، وزاد المسير ١/ ٤٥٤، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٠٥، ولم أقف على القول الثالث.

(٢) المثبت من (د٢) و(يه) وغير واضحة في (ح)، وفي النسخ الأخرى: رفقة. والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٥٠٥ بنحوه.

(٣) تفسير الثعلبي ٢/ ١٤٦، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٠٥.

(٤) زاد المسير ١/ ٤٥٤. وينظر تفسير الطبري ٦/ ٤١-٤٢.

وهَرَدَه: إذا خَرَقَه، وسَبَتَ رأسَه وسَبَدَه: إذا حَلَقَه، فكذلك: كبتَ العدوَّ وكَبَدَه، أي: أصابَ كَبِدَه[١].

واللام في «ليقطعَ» تتعلَّق قيل: بمحذوف تقديره: أمدَّكم، أو: نصركم. وقال الحَوْفي: تتعلَّق بقوله: «ولقد نَصَرَكم الله» أي: نَصَرَكم ليقطعَ. قال: ويجوزُ أن تتعلَّق بقوله: «وما النَّصْرُ إلا من عند الله»، ويجوزُ أن تكون متعلّقة بـ «يُمْدِدْكُمْ». وقال ابنُ عطية: وقد يحتمل أن تكون اللام متعلّقة بـ «جَعَلَهُ». وقيل: هو معطوف على قوله: «ولتطمئنَّ» وحُذف حرفُ العطف منه، التقدير: ولتطمئنَّ قلوبُكم به وليقطع، وتكون الجملة من قوله: «وما النصرُ إلا من عند الله» اعتراضية بين المعطوف عليه والمعطوف.

والذي يظهر أن تتعلَّق بأقرب مذكور، وهو العاملُ في «من عند الله»، وهو خبر المبتدأ، كأنَّ التقدير: وما النصرُ إلا كائنٌ من عند الله، لا من عند غيره لأحدِ أمرَيْن: إمَّا قطع طَرَفٍ من الكفَّار بقتلٍ وأَسْرٍ، وإمَّا بخِزْيٍ وانقلابٍ بخيبة، وتكون الألف واللام في «النصر» ليست للعهد في نصرٍ مخصوص، بل هي للعموم، أي لا يكون نَصْرٌ أيُّ نَصْرٍ من الله للمسلمين على الكفار إلا لأحدِ الأمرَيْن.

﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ اختُلف في سبب النزول، وملخَّصُه أنه لعن ناساً، أو شخصاً عُيِّن أنه عتبة بنُ أبي وقَّاص[٢]، أو أشخاصاً دعا عليهم ـ وعُيِّنُوا ـ أبا سفيان، والحارث بن هشام، وصفوان بن أمية[٣]، أو قبائل عُيِّن منها لِحْيَان ورِعْل وذَكْوَان وعُصَيَّة[٤]، أو همَّ بسَبِّ الذين انهزموا يومَ أحد، أو استأذنَ ربَّه أن يدعوَ ودعا يوم أحد حين شُجَّ في وجهه وكُسِرَت رَباعِيَتُه، ورُمِيَ بالحجارة حتى صُرِعَ لجنبه، فلحقَه يَأْسٌ من فَلَاحِهم، ومالَ إلى أن يستأصلَهم الله ويُريحَ منهم، فنزلت[٥].

---

(١) ينظر الهداية ٢/ ١١٢٢، وتفسير البغوي ١/ ٣٤٩، وزاد المسير ١/ ٤٥٥.

(٢) تفسير عبد الرزاق ١/ ١٣١-١٣٢، وتفسير الطبري ٦/ ٤٦-٤٧، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٤٦.

(٣) سنن الترمذي (٣٠٠٤)، وتفسير الطبري ٦/ ٤٧-٤٨، وتفسير الثعلبي ٦/ ١٤٧.

(٤) مسند أحمد (١٣٢٥٥)، وصحيح البخاري (٢٨١٤)، وصحيح مسلم (٦٧٧)، وكان دعاؤه ﷺ على هذه القبائل بسبب قتلهم أصحابَ بئر مَعُونة.

(٥) ينظر تفسير البغوي ١/ ٣٥٠، والمحرر الوجيز ١/ ٥٠٦، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٠٦. وخبرُ شجِّه ﷺ وكسر رَبَاعِيَتِه في صحيح مسلم (١٧٩١).

فعلى هذه الأسباب يكون معنى الآية التوقيف على أنَّ جميع الأمور إنما هي لله، فيدخلُ فيها هدايةُ هؤلاء وإقرارُهم على حالهم.

وفي خطابه دليلٌ على صدور أمر منه، أو همٍّ به، أو استئذان في الدعاء، كما تقدَّم ذكره، وأنَّ عواقبَ الأمور بيد الله.

قال الكوفيُّون: نَسخت هذه الآيةُ القنوتَ على رِعْل وذَكْوان وعُصَيَّة وغيرِهم من المشركين[١]. وقال السَّخاويّ: ليس هذا شرط النَّاسخ لأنه لم ينسخ قرآناً[٢].

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ قيل: هو عطف على ما قبلَه من الأفعال المنصوبة، ويكون قوله: «ليس لك من الأمر شيء» جملة اعتراضية، والمعنى أن الله مالكُ أمرِهم، فإمَّا أن يُهلكَهم أو يهزمَهم أو يتوبَ عليهم إنْ أسلموا، أو يعذِّبَهم إن أصرُّوا على الكفر.

وقيل: «أنْ» مضمرة بعد «أو» بمعنى: إلا أنْ[٣]، وهي التي في قولهم: لَألزَمَنَّك أو تقضيَني حقِّي، والمعنى: أنه ليس له من أمرهم شيء إلا أن يتوبَ الله عليهم بالإسلام فيُسَرَّ بهُداهم، أو يعذِّبَهم بقتلٍ وأسْرٍ في الدنيا، أو بنارٍ في الآخرة، فيشتفي[٤] بذلك ويستريح. وعلى هذا التأويل تكون الجملة المنفية للتأسيس لا للتأكيد.

وقيل: «أو يتوبَ» معطوف على «الأمر»، وقيل: على «شيء»، أي: ليس لك من الأمر أو من توبتِهم أو تعذيبِهم شيء، أو: ليس لك من الأمر شيءٌ أو توبتُهم أو تعذيبُهم.

والظاهر من هذه التخاريج الأربعة هو الأول، وأبعدَ مَنْ ذهبَ إلى أنَّ قوله: «ليس لك من الأمر» أي: أمرِ الطائفتين اللتين همَّتا أن تفشلا.

---

(١) ينظر تفسير القرطبي ٥/ ٣٠٨.

(٢) جمال القراء وكمال الإقراء ٢/ ٦٤٤. وصاحبُه: عَلَم الدين عليّ بنُ محمد أبو الحسن السَّخاوي، المقرئ النحوي اللغوي. توفي بدمشق سنة (٦٤٣). ينظر طبقات القراء ١/ ٥٦٨-٥٧١.

(٣) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٦٨، وللنحاس ١/ ٤٧٤، والكشاف ١/ ٤٦٢.

(٤) المثبت من (ز٢). وفي النسخ الأخرى. فيستشفي. والكلام في الكشاف ١/ ٤٦٢-٤٦٣ بنحوه، وفيه: فتتشفَّى.

وقال ابن بحر: «من الأمر» أي: من هذا النصر، وإنما هو من الله، كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧].

وقيل: المراد بـ «الأمر» أمرُ القتال. والظاهرُ الحملُ على العموم وعَذْقُ الأمورِ كلِّها بالله تعالى[١].

وقرأ أُبيّ: «أو يتوبُ عليهم أو يعذِّبُهم» برفعهما على معنى: أو هو يتوبُ عليهم[٢].

ثم نبَّه على العلَّة المقتضية للتعذيب بقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ وأتى بـ «إنَّ» الدالَّةِ على التأكيد في نسبة الظلم إليهم.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لما قدَّم «ليس لك من الأمر شيء» بيَّن أن الأمر إنما هو لمن له المُلْكُ والمِلْكُ، فجاء بهذه الجملة مؤكِّدة للجملة السابقة، وتقدَّم شرح هذه الجملة.

و«ما» إشارة إلى جملة العالَم وماهِيَّاتِه، فلذلك حَسُنَتْ هنا «ما».

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ لما تقدَّم قولُه: «أو يتوبَ عليهم أو يُعذِّبَهم» أتى بهذه الجملة موضحةً أنَّ تصرُّفاتِه تعالى على وَفْقِ مشيئته، وناسبَ البُداءة بالغفران والإرداف بالعذاب ما تقدَّم من قوله: «أو يتوبَ عليهم أو يعذِّبهم»، ولم يشرط في الغفران هنا التوبة، إذ يغفرُ تعالى لمن يشاءُ مِن تائبٍ وغيرِ تائب ما عدا ما استثناه تعالى من الشِّرْك.

وقال الزمخشريُّ[٣] ما نصُّه عن الحسن رحمه الله: يغفر لمن يشاء بالتوبة، ولا يشاءُ أن يغفر إلا للتائبين، ويعذِّبُ من يشاء، ولا يشاء أن يعذِّب إلا المستوجِبين للعذاب.

وعن عطاء: يغفرُ لمن يتوبُ إليه، ويعذِّبُ مَن لَقِيَه ظالماً، وإتْباعُه قولَه «أو

---

(١) أي: تعليق الأمور بالله تعالى وربطُها وقَرْنُها بمشيئته، كما هو ظاهر اللفظ. ولم ترد لفظة «عذق» في المطبوع.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٦.
(٣) الكشاف ١/ ٤٦٣.

يتوبَ عليهم أو يُعَذِّبَهم فإنَّهم ظالمون» تفسيرٌ بيِّن لـ «مَنْ يشاءُ»، فإنهم المتوبُ عليهم أو الظالمون، ولكنَّ أهلَ الأهواء والبِدَعِ يَتَصامُّون ويَتَعامَوْن عن آيات الله تعالى[١]، فيَخْبِطُون خَبْطَ عَشْوَاء، ويُطيِّبون أنفسَهم بما يفترون عن ابن عباس من قولهم: يَهَبُ الذنبَ الكبيرَ لمن يشاء، ويعذِّبُ من يشاء على الذنب الصغير. انتهى كلامه.

وهو مذهب المعتزلة، وذلك أنَّ مَنْ ماتَ مُصرًّا على كبيرة لا يغفرُ الله له. وما ذكرَه عن الحسن لا يصحُّ البتَّة، ومذهبُ أهل السُّنَّة أنَّ الله تعالى يغفرُ لمن يشاءُ، وأنَّ مَنْ ماتَ مُصِرًّا على كبيرة غير تائبٍ منها داخلٌ في المشيئة[٢].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في هذه الجملة ترجيح لجهة الإحسان والإنعام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ قال ابنُ عطيَّة: هذا النهيُ عن أكل الرِّبا اعترضَ أثناء قصَّة أُحُد، ولا أحفظ شيئاً[٣] في ذلك مرويًّا. انتهى.

ومناسبةُ هذه الآية لما قبلَها ومجيئُها بين أثناء القصة أنه لمَّا نَهَى المؤمنين عن اتِّخاذِ بطانةٍ من غيرهم واستطردَ لذكرِ قصَّة أُحُد، وكان الكفارُ أكثرُ معاملاتِهم بالرِّبا مع أمثالِهم ومع المؤمنين، وهذه المعاملة مُؤدِّيةٌ إلى مخالطة الكفار = نُهوا عن هذه المعاملة التي هي الرِّبا قطعاً لمخالطةِ الكفَّار ومودَّتِهم واتِّخاذِ أخلَّاءَ منهم؛ لا سيَّما والمؤمنون في أوَّل حالِ الإسلام ذَوُو إعسار، والكفارُ من اليهود وغيرهم ذَوُو يَسَار، وكان أيضاً أكلُ الحرام له مدخلٌ عظيم في عدم قبول الأعمال الصالحة والأدعية، كما جاء في الحديث أنَّ الله تعالى لا يستجيبُ لمن مَطْعَمُه حرام ومَشْرَبُهُ حرام إذا دعاه[٤]، وأنَّ آكِلَ الحرام يقول إذا حَجَّ: لبَّيكَ وسَعْدَيْك، فيقول الله له: لا لبَّيْكَ ولا سَعْدَيْك، وحَجُّك مردودٌ عليك[٥]. فناسبَ ذكر هذه الآية هنا.

---

(١) قال محمود متعقِّباً الزمخشري (في حواشي الكشاف): اللهُ حسيبُه في نسبته إلى أهل السنة التعامي والتصامّ والهوى والبدعة والافتراء.

(٢) قوله: «داخل في المشيئة» من (يه) وهامش (ح)، وعبارة (ب) و(د١) و(د٣) و(ز٢): يغفرُ لمن يشاء، وإنْ مات مُصِرًّا على كبيرة غير تائب منها. ووقع بعض سقط في عبارة (أ) و(د٢) و(ع).

(٣) في المحرر الوجيز ١/ ٥٠٦: سبباً.

(٤) بمعناه عند أحمد (٨٣٤٨)، ومسلم (١٠١٥) وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ، وأوَّله: «أيها الناسُ إن الله طَيِّبٌ لا يقبل إلا طيِّباً...».

(٥) نسبه السيوطي في الدر المنثور ١/ ٣٤٧ (عند الآية ٢٦٧ من البقرة) للأصبهاني في الترغيب

وقيل: ناسبَ اعتراضُ هذه الجملة هنا أنه تعالى وعدَ المؤمنين بالنصر والإمداد مقروناً بالصبر والتقوى، فبدأ بالأهمّ منها، وهو ما كانوا يَتَعاطَوْنَه من أكل الأموال بالباطل، وأمرَ بالتقوى ثم بالطاعة.

وقيل: لمَّا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وبيَّنَ أنَّ ما فيهما من الموجودات مِلْكٌ له ولا يجوز أن يُتصرَّف في شيء منها إلا بإذنه على الوجه الذي شَرَعَه، وآكلُ الرِّبا متصرِّفٌ في ماله بغير الوجه الذي أمرَ، نَبَّهَ تعالى على ذلك، ونَهى عمَّا كانوا في الإسلام مستمرِّين عليه من حكم الجاهلية.

وقد تقدَّم «الرِّبا» في سورة البقرة.

وانتصب «أَضْعَافاً» على الحال[1]؛ نُهُوا عن الحالة الشَّنعاء التي يُوقعون الرِّبا عليها؛ كان الطالب يقول: أَتَقْضِي أمْ تُرْبِي؟ وربَّما استغرقَ بالنَّزْرِ اليسيرِ مالَ المَدِين، لأنه إذا لم يجدْ وَفاءً زادَ في الدَّيْن وزادَ في الأجل[2].

وأشار بقوله: «مضاعَفة» إلى أنهم كانوا يُكرِّرُون التضعيف عاماً بعد عام، والرِّبا محرَّمٌ جميعُ أنواعه، فهذه الحال لا مفهوم لها، وليست قيداً في النهي، إذْ ما لا يقع أضعافاً مضاعفةً مساوٍ في التحريم لِما كان أضعافاً مضاعفة. وقد تقدَّم الكلام في نسبة الآكِل إلى الرِّبا في «البقرة».

وقيل: المضاعفة منصرفة إلى الأموال، فإن كان الرِّبا في السنّ يرفعونها؛ ابنة مَخَاض بابنةِ لَبُون، ثم حِقَّة، ثم جَذَعَة، ثم رَبَاع[3]. هكذا إلى فوق، وإن كان في النقود فمئة إلى قابل بمئتين، فإنْ لم يُوَفِّها فأربعُ مئة[4].

= من حديث أسلم مولى عمر ﷺ. وبنحوه أطول منه عند الطبراني في الأوسط (٥٢٢٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(١) قوله: على الحال، سقط من (د١) والمطبوع.

(٢) في (د١) و(ز٢) والمطبوع: الأصل. وهو تحريف.

(٣) ابنُ مَخَاض من الإبل: هو ما دخلَ في السنة الثانية، والأنثى ابنةُ مَخَاض، فإذا دخلَ في الثالثة فهو ابنُ لَبُون، والأنثى ابنةُ لَبُون، فإذا دخلَ في الرابعة فهو حِقٌّ، والأنثى حِقَّة، فإذا دخلَ في الخامسة فهو جَذَع والأنثى جَذَعة، فإذا دخلَ في السادسة فهو ثَنِيّ والأنثى ثَنِيَّة، فإذا دخلَ في السابعة فهو رَبَاع والأنثى رَبَاعِيَة. ينظر الزاهر للأزهري ص٢٢٢.

(٤) تفسير الطبري ٦/ ٥٠-٥١.

والأضعاف جمع ضِعْف، وهو من جموع القِلَّة، فلذلك أردفَه بالمضاعفة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لمَّا نهاهم عن أمر صعبٍ عليهم فراقُه، وهو الرِّبا؛ أمرَ بتقوى الله، إذ هي الحاملةُ على مخالفة ما تعوَّدَه المرء ممَّا نهى الشرعُ عنه، ثم ذكر أنَّ التقوى سببٌ لرجاء الفلاح، وهو الفوز، وأمرَ بها مطلقًا لا مقيَّداً بفعل الرِّبا، لأنه لمَّا نَهَى عن الرِّبا كان المؤمنون أسرعَ شيء لطواعيةِ الله تعالى، فلم يأت «واتقوا الله» في أكل الرِّبا، بل أُمِرُوا بالتقوى لا بالنسبة إلى شيء خاصّ مُنعوه من جهة الشريعة.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ لمَّا تقدَّم «واتَّقُوا الله» والذَّواتُ لا تُتَّقى، فإنَّما المُتَّقَى محذوفٌ، أوضَحَهُ في هذه الآية، فقال: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾. والألف واللام في «النار» للجنس، فيجوز أن تكون النارُ التي وُعد بها آكلُ الرِّبا أخَفَّ من نار الكافر، أي: أُعِدَّ جنسُها للكافرين، ويجوز أن تكون للعهد، فيكون آكِلُ الرِّبا قد تُوُعِّدَ بالنَّار التي يعذَّب بها الكافر.

وقيل: تَوعَّدَ أَكَلَةَ الرِّبا بنار الكفرة، إذِ النارُ سبعُ طبقات، العُليا منها ـ وهي جهنَّم ـ للعُصاة، والخمسُ للكفار، والدَّرْكُ الأسفل للمنافقين، فأَكَلَةُ الرِّبا يُعَذَّبون بنار الكفار، لا بِنارِ العُصاة[١].

وقال ابن عبَّاس: هذا تهديدٌ للمؤمنين لئلا يستحلُّوا الرِّبا. وقال الزَّجَّاج: والمعنى: واتَّقُوا أنْ تُحِلُّوا ما حَرَّم الله فتكفروا[٢]. وقيل: اتَّقُوا العملَ الذي يَنْزِعُ منكم الإيمانَ وتستوجبون النار. وكان أبو حنيفة يقول: هي أخوفُ آية في القرآن؛ حيث أوعدَ الله المؤمنين بالنار المُعَدَّةِ للكافرين إن لم يتقوه باجتناب محارِمه.

قال الزمخشريّ[٣]: وقد أمَّدَ ذلك بما أتبعه من تعليق رجاء المؤمن لرحمته بتوفُّرِهم على طاعته وطاعةِ رسولِه. ومَنْ تأمَّلَ هذه الآيات وأمثالَها لم يُحدِّث نفسَه بالأطماع الفارغة والتمنِّي على الله تعالى. وفي ذكره تعالى «لعلَّ» و«عسى» في نحو

(١) ينظر النكت والعيون ١/ ٤٢٤، والمحرر الوجيز ١/ ٥٠٧.
(٢) القولان في زاد المسير ١/ ٤٥٩. وينظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٦٨.
(٣) الكشاف ١/ ٤٦٣. وفيه قول أبي حنيفة السالف قبله.

هذه المواضع ـ وإن قال الناسُ ما قالوا ـ ما لا يخفى على العارف الفَطِن من دقَّة مسلك التقوى وصعوبة إصابة رضا الله عزَّ وجلَّ، وعزَّةِ التوصُّل إلى رحمته وثوابه. انتهى كلامه.

وهو جارٍ على مذهبه من تقنيط العاصي غير التائب من رحمة ربِّه، ووُلوعُه بمذهبه يجعلُه يُحمِّل ألفاظَ القرآن ما لا يحتمله، أو ما هو بعيد عنها.

وتقدَّم شرح ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ في أوائل البقرة.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ قيل: أطيعوا الله في الفرائض والرَّسولَ في السُّنن، وقيل: في تحريم الرِّبا، والرسولَ فيما بلَّغكم من التحريم[١].

وقيل: وأطيعوا اللهَ والرسولَ فيما يأمرُكم به وينهاكم عنه: فإنَّ طاعةَ الرَّسول طاعةُ الله، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٢] [النساء: ٨٠].

وقال المهدويّ: ذِكْرُ الرسول زيادةٌ في التبيين والتأكيد، والتعريف بأنَّ طاعتَه طاعةُ الله.

وقال ابنُ إسحاق: هذه الآية هي ابتداء المعاتبة في أمر أُحُد وانهزامِ مَنْ فرَّ، وزوالِ الرُّماة من مركزهم[٣].

وقيل: صيغتُها الأمر، ومعناها العَتَب على المؤمنين فيما جرى منهم من أكل الرِّبا والمخالفة يومَ أُحُد.

والرحمةُ من الله إرادةُ الخير لعبيده أو ثوابُهم على أعمالهم.

وقد تضمَّنت هذه الآياتُ ضُروباً من الفصاحة والبديع، من ذلك العامُّ المُراد به الخاصّ في «من أهلك». قال الجمهور: أرادَ به بيت عائشة.

والاختصاص في «والله سميعٌ عليم»، وفي «فلْيتوكَّل المؤمنون»، وفي «ما في السماوات وما في الأرض»، وفي «يغفرُ لمن يشاء ويُعذِّبُ مَنْ يشاء»، خَصَّ نفسَه

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٨، وتفسير القرطبي ٥/ ٣١٢.
(٢) بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٥٠٧.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٧. وفيه: مراكزهم. وهو في تفسير الطبري ٦/ ٥٢ مختصر.

بذلك، كقوله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]. وفي «العزيز الحكيم» لأن العِزَّ من ثمرات النصر، والتدبيرَ الحَسَن من ثمرات الحكمة.

والتشبيه في «ليقطعَ طَرَفاً» شَبَّه مَنْ قُتِلَ منهم وتفرَّق بالشيء المقتطع الذي تفرَّقت أجزاؤه وانخرم نظامُه، وفي «ولتطمئنَّ قلوبُكم» شَبَّه زوالَ الخوف عن القلب وسكونه عن غليانه باطمئنان الرَّجل الساكن الحركة. وفي «فينقلبوا خائبين» شَبَّه رجوعَهم بلا ظفر ولا غنيمة بمن أمَّلَ خيراً من رجل فأمَّهُ فأخفقَ أمَلُه وقَصْدُه.

والطِّباق في «نَصَرَكُم» «وأنتم أذلة»؛ النصر إعزازٌ وهو ضدّ الذُّلّ، وفي «يغفر» و«يُعذِّب»، الغفرانُ تركُ المؤاخذة، والتعذيبُ المؤاخذةُ بالذنب.

والتجوُّز بإطلاق التثنية على الجمع في «أنْ تَفْشَلَا»، وبإقامة اللام مُقام «إلى» في «ليس لك»، أي: إليك، أو مقام «على» أي: ليس عليك.

والحذف والاعتراض في مواضع اقتضت ذلك.

والتجنيس المماثل في «أضعافاً مضاعفة».

وتسمية الشيء بما يؤولُ إليه في «لا تأكلوا»؛ سمَّى الأخذَ أكلاً لأنه يؤول إليه.

❁ ❁ ❁

﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ
(١٣٣) ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ
ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ
وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم
مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ (١٣٦) قَدْ
خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ
لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ
ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ
ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٤١)﴾.

المفردات الكَظْمُ: الإمساكُ على غَيْظٍ وغَمّ، والكَظِيم: الممتلئ أسَفاً، وهو المكظُوم، وقال عبد المطَّلب:

فَحضَضْتُ قومي واحتَسَبْتُ قتالَهُمْ والقَوْمُ من خوفِ المَنايا كُظَّمُ[١]

وكَظْمُ الغيظ: رَدُّه في الجوف إذا كادَ[٢] يخرجُ من كثرته، فَضَبْطُه ومَنْعُهُ كَظْمٌ له. ويقال: كَظَمَ القِرْبَةَ إذا شَدَّها وهي مَلأى، والكِظَامُ: السَّيْرُ الذي يُشَدُّ به فَمُها. وكَظَمَ البعيرُ جِرَّتَهُ: رَدَّها في جَوْفه، أو حَبَسَها قبلَ أن يُرْسِلَها إلى فيه. ويقال: كَظَمَ البعيرُ والناقةُ: إذا لم يَجْتَرَّا، ومنه قول الرَّاعي:

فأفَضْنَ بعدَ كُظُومِهِنَّ بِجِرَّةٍ مِنْ ذي الأباطِحِ إذْ رَعَيْنَ حَقِيلا[٣]

الحَقِيل موضع[٤]؛ والحَقِيل أيضاً نَبْت. ويُقال: لا تمنعُ الإبلُ جِرَّتَها إلا عند الجَهْد والفَزَع، فلا تجترّ، ومنه قول أعشى باهلة يصف نَحَّارَ الإبل:

قَدْ تَكْظِمُ البُزْلُ منه حين تُبْصِرُهُ حتى تَقَطَّعَ في أجْوَافِها الجِرَرُ[٥]

الإصْرَار: اعتزامُ الدَّوام على الأمر، وتركُ الإقلاع عنه، من: صَرَّ الدنانير: رَبَطَ عليها. وقال أبو السَّمَّال: عَلِمَ اللهُ أنَّها منّي صِرًّى. أي: عزيمة[٦].

وقال الحُطيئة يصفُ الخيل:

---

(١) تفسير الثعلبي ٢/ ١٥١. والنكت والعيون ٣/ ٧٠ وتفسير القرطبي ١١/ ٤٣٢ (عند تفسير الآية ٨٤ من سورة يوسف).

(٢) في (أ) و(د١) و(د٢) و(ع) و(يه): كان. وفي (ب) و(د٣): إذْ كان. والمثبت من (ح) و(ز٢). وفي المحرر الوجيز ١/ ٥٠٩: كاد أن.

(٣) ديوان الراعي النُّميري ص٢٢٤، وفيه: الأبارق، بدل: الأباطح. والجِرَّة (بكسر الجيم، وتُفتح): ما يفيض به البعير فيأكله ثانيةً. القاموس (جرر).

(٤) هو وادٍ في ديار بني عُكل بين جبالٍ من الحَلَّة (بين ضَرِيَّة واليمامة). ينظر معجم البلدان ٢/ ٢٧٩ و٢٩٥ و٣/ ٣٤١.

(٥) خزانة الأدب ١/ ١٩٤. قال البغدادي: البُزْل جمع بازل، وهو الداخل في السنة التاسعة. اهـ. والبيت في جمهرة أشعار العرب ٢/ ٧١٦ برواية: قد تكظم البَرْكُ منها حين يفجؤها. والبَرْك: جماعة الإبل الباركة.

(٦) ضَلَّتْ ناقةُ أبي السَّمَّال الأسدي فقال: لئن لم تردَّها عليَّ لا عبدتُك. فأصابَها وقد تعلَّقَ زمامُها بعَوْسَجة، فأخذَها وقال: علم ربي أنها منّي صِرًّى. ينظر النهاية (صرا).

عَوابِسُ بالشُّعْثِ الكُمَاةِ إذا ابْتَغَوْا عُلَالَتَها بالمُحْصَدَاتِ أَصَرَّتِ[1]

أي: ثَبَتَتْ على عَدْوِهَا.

وقال آخر:

يا وَيْحَ كلِّ مُصِرِّ القلبِ خَتَّارِ يُصِرُّ بالليلِ ما تُخفي شَواكِلُهُ[2]

السُّنَّة: الطريقة. وقال المفضَّل: الأُمَّة. وأنشد:

ما عَايَنَ الناسُ من فَضْلٍ كفَضْلِكُمُ ولا رُئِيْ مِثْلُهُ في سَالفِ السُّنَنِ[3]

وسُنَّةُ الإنسان: الشيء الذي يعملُه ويواليه، كقول خالد الهُذَلي لأبي ذُؤيْب:

فلا تَجْزَعَنْ مِنْ سُنَّةٍ أنتَ سِرْتَها فأوَّلُ راضٍ سنةً مَنْ يَسِيرُها[4]

وقال سليمان بنُ قَتَّة:

وإنَّ الألَى بالطَّفِّ من آلِ هاشمٍ تَآسَوْا فسَنُّوا للكِرام التآسِيَا[5]

وقال لَبِيد:

مِنْ أُمَّةٍ سَنَّتْ لهم آباؤُهُم ولكلِّ قومٍ سُنَّةٌ وإمامُها[6]

---

(١) في النسخ الخطية: علاليها بالمحضرات (وفي بعضها بالمحصرات). والمثبت من ديوان الحطيئة ص٣٤١، والمصادر. قال شارحه: الكُماة. جمع كَمِيّ [وهو الشجاع، أو لابس السلاح] والعُلالَة: الجَرْيُ يُطلب منها بعدَما يذهب جَرْيُها. ومُحْصَدَات: سِياط شديدة الفتل.

(٢) أورده القرطبي في تفسيره ٣٢٦/٥. ولم يرد هذا البيت في (يه).

(٣) تفسير الثعلبي ٢/ ١٥٥، وتفسير البغوي ١/ ٣٥٤، وفيهما: ولا رأوا مثلكم في سالف...، ورواية القرطبي ٥/ ٣٣٣: من فضلٍ كفضلهم... ولا رأوا مثلهم...

(٤) شرح أشعار الهُذليين ص٢١٣، والأغاني ٦/٢٧٧. قال أبو الفَرَج: ويُروى: قد أَسَرْتَها... يُسيرُها.

(٥) الكامل ١/ ٢١، والأغاني ١٩/ ١٢٩. قوله: الطَّفّ (بفتح الطاء): أرض من ضاحية الكوفة، كان فيها مقتل الحسين ﷺ. ينظر معجم البلدان ٤/ ٣٦. وقوله: تآسَوْا؛ قال ابن منظور في اللسان (أسا): من المواساة كما ذكر الجوهري، لا من التأسّي كما ذكر المبرِّد. قلت: وضُبط في (د١) و(ز٢): تأسَّوْا... التأسّيا.

(٦) ديوان لبيد ص٣٢٠، وتفسير الطبري ٦/ ٧٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥١١. وفيها: من معشرٍ سنّت...

وقال الخليل: سَنَّ الشيءَ: صَوَّرَه، والمَسْنُون: المُصَوَّر، وسَنَّ عليهم شَرًّا: صَبَّه، والماءَ والدِّرْعَ: صبَّهما[١].

واشتقاق السُّنَّة يجوزُ أن يكون من أحد هذين المعنيين، أو من: سَنَّ السِّنانَ والنَّصْلَ: حَدَّهما على المِسَنّ، أو من: سَنَّ الإبلَ: إذا أحسَنَ رَعْيَها.

السَّيْرُ في الأرض: الذهابُ.

وَهَنَ الشيءُ: ضَعُفَ، وَوَهَنَهُ الشيءُ: أضعفَه، يكون متعدّياً ولازماً. وفي الحديث: «وَهَنَتْهُمْ حُمَّى يَثْرِب»[٢]. والوَهْن والوَهَن: الضَّعْف. وقال زهير:

فأصبحَ الحَبْلُ منها واهِناً خَلَقاً[٣]

القَرْحُ والقُرْحُ لغتان، كالضَّعْف والضُّعْف، والكَرْه والكُرْه، الفتح لغة الحجاز، وهو الجُرْح. قال حُنْدُج[٤]:

وبُدِّلْتُ قَرْحاً دَامِياً بعدَ صِحَّةٍ لعلَّ مَنَايَانَا تَحَوَّلْنَ أبْؤُسَا

وقال الأخفش: هما مصدران. ومن قال: القَرْح بالفتح الجُرْح وبالضمّ ألَمُهُ[٥]، فيحتاج في ذلك إلى حُجَّةٍ[٦] نقلٍ عن العرب.

وأصل الكلمة الخُلوص، ومنه: ماءٌ قَرَاح: لا كُدُورة فيه، وأرضٌ قَرَاح: خالصة الطين، وقَرِيحةُ الرجل: خالِصَةُ طَبْعِهِ.

المُدَاولة: المُعاورة[٧]، وهي المُعاهَدةُ مرَّةً بعد مرَّة، يقال: داولتُ بينهم الشيءَ فتَدَاوَلُوه. وقال:

---

(١) صبَّ عليه دِرْعَه: لبسها.

(٢) قطعة من حديث ابن عباس ﵄ أخرجه أحمد (٢٦٣٩)، والبخاري (١٦٠٢)، ومسلم (١٢٦٦).

(٣) هذا عجز البيت، وصدرُه: وأخْلَفَتْكَ ابنةُ البَكْرِيِّ ما وَعَدَتْ. وهو في ديوان زهير ص٣٤.

(٤) هو امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص١٠٧.

(٥) قاله الزجَّاج في معاني القرآن ١/ ٤٧٠. وينظر معاني القرآن للأخفش ١/ ٤٢١، والمحرر الوجيز ١/ ٥١٣. وقد قُرِئ في المتواتر بفتح القاف وضمّها، كما سيرد.

(٦) في (د١) والمطبوع: صحة.

(٧) المثبت من (ح) و(د١) و(د٢). وفي النسخ الأخرى: المعاودة، وهو تحريف.

يَـرِدُ الـمـيـاهَ فـلا يـزالُ مُـداوِلاً في الـنـاسِ بـيـن تـمـثُّـلٍ وسَـمـاعِ[1]

وأدَلْتُه: جعلتُ له دَوْلةً وتصريفاً، والدُّولة بالضم المصدر، وبالفتح الفَعْلة الواحدة، فلذلك يقال: في دَوْلة فلان؛ لأنها مرَّةٌ في الدَّهر والدَّوْرُ والدَّوْلُ متقاربان، لكن الدَّوْر أعمُّ، فإنَّ الدَّولة لا تقال إلا في الحظّ الدُّنيويّ.

المَحْصُ كالفَحْص، لكن الفَحْص يقال في إبراز الشيء عن خلال أشياء منفصلة عنه، والمَحْصُ في إبرازه عن أشياء متصلة به.

قال الخليل: التمحيص: التخليص عن العيوب، ويقال: مَحَصَ الحَبْلُ: إذا زالَ عنه بكثرةِ مَرِّهِ على اليدِ زِئْبِرُهُ وامَّلَسَ. هكذا ساق الزجّاج اللفظة: الحَبْل[2]، ورواها النقَّاش: مَحَصَ الجَمَلُ: إذا زالَ عنه وَبَرُه وامَّلَسَ.

وقال حُنَيْف الحَناتم وقد وردَ ماءً اسمُه طُوَيْلِع[3]: إنك لَمَحِصُ الرِّشاء، بعيدُ المُسْتَقى، مُطِلٌّ على الأعداء. المعنى: أنه لبُعده يَمَّلِسُ حَبْلُه بمرِّ الأيدي[4].

* * *

التفسير ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾

قرأ ابنُ عامر ونافع: «سَارِعُوا» بغير واو على الاستئناف، والباقون بالواو على

---

(١) البيت بهذه الرواية ودون نسبة في الكشاف ١/ ٤٦٦، ومجمع الأمثال ١/ ٣٥٤، والمستقصى في الأمثال ١/ ١٧٥ (عند المثل: أسْيَر من شِعْر)، وهو من قصيدة للمسيَّب بن عَلَس في المفضَّليات برواية: تردُ المياهَ فلا تزالُ غريبة في القوم بين...

(٢) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٧١. والكلام أعلاه في المحرر الوجيز ١/ ٥١٤. والزِّئْبِر؛ بكسر الزاي والباء مهموز: ما يعلو الثوبَ الجديد مثل ما يعلو الخزّ، وضم الباء لغة فيه. (مختار الصحاح).

(٣) يطلق هذا الاسم على عدة أماكن، منها أنه رَكِيَّة عاديَّة بالشواجن (وادٍ في ديار ضَبَّة) عذبة الماء قريبة الرِّشاء، ذكره ياقوت في معجم البلدان ٤/ ٥١ وذكر قول حُنيف (الآتي) بنحوه دون أن يُسمِّيَه. وحُنَيْف الحَناتم: رجل من تَيْم اللّات بن ثعلبة، تضرب العرب به المَثَلَ في الإبالة (مصدر أَبَلَ) وهو البصير برِعْيَة الإبل وما يُصْلِحُها، فيقال: آبَلُ من حُنَيْف الحناتم. اهـ. من ثمار القلوب ص١٠٧. وينظر مجمع الأمثال ١/ ٨٦، والمستقصى في أمثال العرب ١/ ١.

(٤) في «المحرر الوجيز» ١/ ٥١٤: يمَّلسُ حبلُه بالطين الحرّ ومرّ الأيدي.

العطف[١]. لمَّا أُمِرُوا بتقوى النار أُمِرُوا بالمبادرة إلى أسباب المغفرة والجنة. وأمالَ الدُّوريُّ في قراءة الكسائي «وسارعوا» لكسرة الراء.

وقرأ أُبيّ وعبدُ الله: «وسابقوا»[٢].

والمسارعة مفاعلة، إذِ الناسُ كلٌّ[٣] واحد منهم يُسرِعُ[٤] ليصل قبل غيره، فبينهم في ذلك مفاعلة، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

والمسارعة: إلى سبب المغفرة، وهو الإخلاص؛ قاله عثمان. أو أداء الفرائض؛ قاله عليّ. أو الإسلام؛ قاله ابن عبَّاس. أو التكبيرة الأولى من الصلاة مع الإمام؛ قاله أنس ومكحول. أو الطاعة؛ قاله سعيد بن جبير. أو التوبة؛ قاله عكرمة. أو الهجرة؛ قاله أبو العالية. أو الجهاد؛ قاله الضحَّاك. أو الصلوات الخمس؛ قاله يمان. أو الأعمال الصالحة؛ قاله مقاتل[٥].

وينبغي أن تُحمل هذه الأقوال على التمثيل لا على التعيين والحصر.

قال الزمخشريّ[٦]: ومعنى المسارعة إلى المغفرة والجنة الإقبال على ما يُستحقَّان به. انتهى. وفي ذكر الاستحقاق دسيسة الاعتزال.

وتقدَّم ذكرُ المغفرة على الجنة لأنها السبب المُوصل إلى الجنة. وحُذف المضاف من السماوات، أي: عرضُ السماوات، بعد حذف أداة التشبيه، أي: كعرضِ.

وبعد هذا التقدير اختلفوا؛ هل هو تشبيهٌ حقيقي، أو ذهبَ به مذهب السَّعَة العظيمة لمَّا كانت الجنة من الاتِّساع والانفساح في الغاية القصوى، إذِ السماواتُ والأرضُ أوسعُ ما علمه الناس من مخلوقاته وأبسطُه.

---

(١) السبعة ص٢١٦، والتيسير ص٩٠.
(٢) الكشاف ١/ ٤٦٣.
(٣) في المحرر الوجيز ١/ ٥٠٧ (والكلام فيه): كأنَّ كلَّ.
(٤) كلمة «يسرع» سقطت من (د١) والمطبوع، وسقطَ حوالي سطر في هذا الموضع من (أ) و(ح) و(د٢) و(ع) و(يه).
(٥) ينظر تفسير الثعلبي ٢/ ١٤٩، وتفسير البغوي ١/ ٣٥١، وزاد المسير ١/ ٤٥٩-٤٦٠، وتفسير القرطبي ٥/ ٣١٣.
(٦) الكشاف ١/ ٤٦٣.

وخصَّ العرض لأنه في العادة أدنى من الطول للمبالغة، فعلى هذا لا يُرادُ عرضٌ ولا طول حقيقة. قاله الزجَّاج. وتقول العرب: بلادٌ عريضة، أي: واسعة. وقال الشاعر:

كـأنَّ بـلادَ الله وهـي عـريـضـةٌ   على الخائفِ المطلوبِ كَفَّةُ حابِلِ[1]

والقولُ الأول مرويٌّ عن ابن عباس وغيره؛ قال ابن عباس وسعيد بن جبير والجمهور: تُقرنُ[2] السماواتُ والأرضُ بعضُها إلى بعض كما تبسطُ الثياب، فذلك عرضُ الجنة، ولا يعلم طولَها إلا الله. انتهى[3].

ولا يُنكر هذا، فقد وردَ في الحديث في وصف الجنة وسَعتِها ما يشهد لذلك، وأوردَ ابنُ عطيَّة من ذلك أشياءَ في كتابه[4].

والجنةُ على هذا القول أكبر من السماوات، وهي ممتدَّة في الطول حيث شاء الله، وخصَّ العرض بالذِّكر لدلالته على الطُّول، والطُّول إذا ذُكر لا يدلُّ على سَعَة العرض، إذ قد يكون العرض يسيراً كعرض الخيط.

وقال قومٌ: معناه: كعرض السماوات والأرض طِباقاً، لا بأنْ تُقرن كبسط الثياب، فالجنة في السماء، وعرضُها كعرضِها وعَرضِ ما وازاها من الأرضين إلى السابعة. وهذه دلالة على العِظَم. وأغنى ذكرُ العرض عن ذكر الطول.

وقال ابن فُورَك: الجنةُ في السماء، ويُزادُ فيها يومَ القيامة.

وتقدّم الكلام في الجنة أخُلقت، وهو ظاهرُ القرآن ونصّ الآثارِ الصحيحة النبوية، أم لم تُخلق بعد، وهو قولُ المعتزلة، ووافقَهم من أهل بلادنا القاضي

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٤٧٧، وثمار القلوب ص٦٣٠، ومحاضرات الأدباء ١/ ٣٧٠ (ونُسب البيت فيه للبيد). والشطر الأول في الكامل ٢/ ١٠٣٦، واللسان (كفف) برواية: كأنَّ فجاجَ الأرضِ وهي عريضة... قال المبرِّد: كفّة الحابِل: الحِبالة التي ينصبُها للصيد. اهـ. وذكر الثعالبي أنه يُضرب بها المثل في الضِّيق.

(٢) المثبت من (ب) و(د١) و(د٣) (وكذا في الموضع التالي) وكذا هو في المصادر التالية، وفي النسخ الأخرى: تقرَّب.

(٣) تفسير الطبري ٦/ ٥٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥٠٨، وتفسير القرطبي ٥/ ٣١٣.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٨.

منذر بنُ سعيد، وأمّا قولُ ابن فُورك: إنه يُزاد فيها، فيحتاجُ إلى صحة نقل عن النبي ﷺ(١).

وقال الكلبيّ: الجِنان أربع: جنَّة عَدْن، وجنَّة المأوى، وجنَّةُ الفِرْدَوْس، وجنَّةُ النعيم، كلُّ جنَّةٍ منها كعرضِ السماء والأرض، ولو وُصل بعضُها ببعض ما عَلِمَ طولَها إلا الله تعالى(٢).

وقال ابن بحر(٣): هو من عَرْض المتاع على البيع، لا العَرْض المقابل للطول، أي: لو عُورضَتْ بها لساواها نصيبُ كلِّ واحد منكم.

وجاء إعدادُها للمتقين، فخصُّوا بالذكر تشريفاً لهم وإعلاماً بأنهم الأصل في ذلك، وغيرُهم تَبَعٌ لهم في إعدادها، وإن أُريدَ بالمتقين متقو الشِّرك كان عامًّا في كل مسلم طائع أو عاصٍ.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ قال ابن عبَّاس والكلبيُّ ومقاتل: السَّرَّاء اليُسر، والضَّرَّاء العُسْر. وقال عُبيد بنُ عُمير والضحَّاك: الرَّخاء والشِّدة. وقيل: في الحياة وبعد الموت بأن يُوصِي. وقيل: في الفَرَح وفي التَّرَح. وقيل: فيما يَسُرُّ كالنفقة على الولد والقَرابة، وفيما يَضُرُّ كالنفقة على الأعداء. وقيل: في ضيافة الغنيّ والإهداء إليه، وفيما يُنفقه على أهل الضُّرِّ ويتصدَّق به عليهم(٤).

وقيل: في المَنْشَط والمَكْرَه. ويحتمل التقييد بهاتين الحالتين، ويحتمل أن يعنيَ بهما جميعَ الأحوال، لأن هاتين الحالتين لا يخلو المنفق أن يكون على إحداهما. والمعنى: لا يمنعُهم حالُ سرورٍ ولا حالُ ابتلاءٍ عن بذل المعروف.

ورُوِيَ عن عائشة أنها تصدَّقت بحبَّة عِنب، وعن بعض السَّلَف ببصلة.

وابتدئ بصفة التقوى الشاملةِ لجميع الأوصاف الشريفة، ثم جيء بعدَها بصفة

---

(١) ينظر الكلام مفصلاً في المصدر السابق ١/ ٥٠٩، وتفسير القرطبي ٥/ ٣١٥-٣١٦.
(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٢٩٨، وتفسير القرطبي ٥/ ٣١٤.
(٣) هو أبو مسلم الأصفهاني، وكلامه بمعناه في مجمع البيان ٤/ ١٩٩، وتفسير الرازي ٩/ ٥.
(٤) تفسير القرطبي ٥/ ٣١٧.

البذل، إذ كانت أشقَّ على النفس وأدلَّ على الإخلاص، وأعظم الأعمال للحاجة إلى ذلك في الجهاد ومواساة الفقراء[١].

ويجوز في «الذين» الإتباع، والقطع للرفع، والنصب.

﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ أي: المُمْسِكين ما في أنفسِهم من الغيظ بالصبر، ولا يظهر له أثر، والغيظ أصل الغضب، وكثيراً ما يتلازمان، ولذلك فسَّره بعضُهم هنا بالغضب.

والغيظ فعل نفسانيّ لا يظهرُ على الجوارح، والغضبُ فعلٌ لها معه ظهور في الجوارح، وفعلٌ مّا ولا بدّ، ولذلك أُسند إلى الله تعالى، إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم، ولا يُسنَد الغيظُ إليه تعالى[٢].

ووردت أحاديثُ في كظم الغيظ، وهو من أعظم العبادة. ورُوِيَ عنه ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غيظاً وهو يقدرُ على إنفاذه، ملأه الله أمْناً وإيماناً»[٣].

وعنه عليه الصلاة والسلام: «ما من جُرْعَةٍ يتجرَّعُها العبدُ خيرٌ له وأعظمُ أجراً من جُرْعَةِ غَيْظٍ في الله»[٤].

وعن عائشة أنَّ خادماً لها غاظَها، فقالت: لله درُّ التقوى، ما تركت لذي غيظٍ شفاءً[٥].

وقال مقاتل: بلَغَنا أنَّ رسول الله ﷺ قال في هذه الآية: «إن هذه في أمّتي لقليل، وقد كانوا أكثر في الأمم الماضية»[٦].

---

(١) ينظر الكشاف ١/ ٤٦٤.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٩، وتفسير القرطبي ٥/ ٣١٨.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ القضاعي في مسنده (٤٣٧) من طريق سويد بن وهب، عن رجل من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ، عن أبيه. وأورده الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٦٤، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥١٠. وأخرجه بنحوه أحمد في المسند (١٥٦١٩) من حديث معاذ بن أنس الجُهني. قال محقّقوه: حديث حسن.

(٤) أخرجه أحمد (٦١١٤) بنحوه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، واللفظ أعلاه هو في المحرر الوجيز ١/ ٥٠٩-٥١٠، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٢٠.

(٥) الكشاف ١/ ٤٦٤.

(٦) تفسير الثعلبي ٢/ ١٥١، والكشاف ١/ ٤٦٤، وتفسير القرطبي ٥/ ٣١٩ عند تفسير قوله: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾.

وأنشد أبو القاسم بن حبيب للعَرْجيّ:

وإذا غضبتَ فكُنْ وَقُورًا كاظِمًا ... للغيظِ تُبْصِرُ ما تقولُ وتَسْمَعُ
فكَفَى به شَرَفاً تَصَبُّرُ ساعةٍ ... يرضَى بها عنكَ الإلَهُ ويَدْفَعُ[(١)]

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ أي: الجُناة والمسيئين. وقال ابنُ عباس وأبو العالية والربيع: المماليك. وهذا مثال[(٢)]، إذِ الأرقَّاء تكثُرُ ذنوبُهم لجهلهم وملازمتهم، وإنفاذُ العقوبة عليهم سهل للقدرة عليهم.

وقال الحسن: «والكاظمين الغيظ» عن الأرِقَّاء، و«العافين عن الناس» إذا جهلوا عليهم.

ووردت أخبار نبويَّة في العفو، منها: «ينادي منادٍ يومَ القيامة: أين الذين كانت أجورهم على الله، فليدخلوا الجنة، فيقال: من ذا الذي أجْرُه على الله؟ فلا يقوم إلا مَنْ عَفا»[(٣)].

ورواه سفيان[(٤)] للرشيد وقد غضب على رجل فخلَّاه.

ويجوز في «الكاظمين» و«العافين» القطع إلى النصب والإتباع بشرط إتْباع «الذين ينفقون».

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الألف واللام للجنس فيتناول كلَّ محسن، أو للعهد فيكون ذلك إشارةً إلى من تقدَّم ذكرُه من المتصفين بتلك الأوصاف[(٥)]، والأظهر الأول فيعمُّ هؤلاء وغيرَهم.

---

(١) البيتان في تفسير الثعلبي ٢/ ١٥١ عن أبي القاسم محمد بن حبيب بإسناده إلى العَرْجي، وفيه: وتُرفع، بدل: يَدفع. ونسبهما للعرجيّ أيضاً القرطبيُّ في تفسيره ٥/ ٣٢٠.
(٢) بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٥١٠.
(٣) الحديث في الكشاف ١/ ٤٦٤ بلفظ: «ينادي منادٍ يوم القيامة: أين الذين كانت أجورهم على الله؟ فلا يقوم إلا من عفا». وبنحوه في تفسير القرطبي ٥/ ٣٢١ من حديث أنس ﷺ، ونسبَه للماوردي.
(٤) هو ابن عُيينة كما في الكشاف ١/ ٤٦٤. ووقع في مطبوع البحر: أبو سفيان. وهو خطأ.
(٥) بنحوه في المصدر السابق.

وهذه الآية في المندوب إليه، ألا ترى إلى حديث جبريل عليه السلام: «ما الإيمان؟»، فبيَّن له العقائد، «ما الإسلام؟»، فبيَّن له الفرائض، «ما الإحسان؟» قال: «أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تَرَاه»(١). فالمعنى أنَّ الله يُحبُّ المحسنين، وهم الذين يُوقِعُون الأعمالَ الصالحةَ مراقِبين اللهَ كأنَّهم مشاهدوه.

وقال الحسن: الإحسان أن تعمَّ ولا تخصَّ، كالريح والمطر والشمس والقمر(٢).

وقال الثوريّ: الإحسان أن تُحسِنَ إلى المسيء، فإنَّ الإحسان إليه(٣) مناجزة(٤) كنقد السوق(٥)، خُذْ منِّي وهات.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ نزلت في قول الجمهور بسبب نبهان(٦) التمَّار، ويكنَى أبا مقبل، أتَتْه امرأة تشتري منه تمراً فضمَّها وقبَّلها، ثم ندم. وقيل: ضرب على عجُزها(٧).

والعطف بالواو مشعرٌ بالمغايرة، لمَّا ذكرَ الصِّنف الأعلى ـ وهم المتقون الموصوفون بتلك الأوصاف الجميلة ـ ذكر مَنْ دونَهم ممَّن قارفَ المعاصي وتابَ وأقلعَ، وليس من باب عطف الصفات واتحاد الموصوف.

وقيل: إنه من عَطْف الصفات، وإنه من نعت المتقين. رُويَ ذلك عن الحسن.

قال ابن عباس: الفاحشةُ: الزِّنى، وظلمُ النفس ما دونَه من النَّظرةِ واللَّمسة.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٤)، ومسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.
(٢) تفسير الثعلبي ٢/ ١٥٢.
(٣) في المصدرين الآتيين: إلى المحسن. وهو الأشبه.
(٤) اللفظة مهملة من النقط في (د٣) و(يه)، وفي بعض النسخ: مناجرة. وفي تفسير الثعلبي ٢/ ١٥٢: مزاجرة وفي تفسير البغوي ١/ ٣٥٢: تجارة. ولعل صواب العبارة أعلاه: فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة.
(٥) في تفسير الثعلبي: كلمة السوق. . .
(٦) المثبت من (ز٢)، ولم يجوِّد الاسم في (أ) و(ب) و(د٣) و(ع)، وتحرَّف في (ح) و(د١) و(د٢) و(يه) إلى: منهال.
(٧) أسباب النزول للواحدي ص١١٨. وأشار ابن حجر في الإصابة ١٠/ ١٤٠ إلى ضعف الخبر.

وقال مقاتل: الفاحشة الزِّنى، وظلمُ النفسِ سائرُ المعاصي.

وقال النَّخَعيّ: الفاحشة القبائح، وظلمُ النفس من الفاحشة، وهو لزيادة البيان.

وقيل: جميع المعاصي، وظلمُ النفس العملُ بغير علم ولا حجَّة.

وقال الباقر: الفاحشةُ النظر إلى الأفعال، وظلمُ النفس رؤية النَّجاة بالأعمال.

وقيل: الفاحشةُ الكبيرة، وظلمُ النفس الصغيرة.

وقيل: الفاحشة ما تُظُوهرَ به من المعاصي. وقيل: ما أُخفيَ منها.

وقال مقاتل والكلبيّ: الفاحشة ما دون الزِّنى من قُبْلَة أو لَمْسَة أو نَظْرة فيما لا يحلّ، وظلمُ النفس بالمعصية.

وقيل: الفاحشة الذنبُ الذي فيه تَبِعة للمخلوقين، وظلمُ النفس ما بين العبد وبين ربِّه[(١)].

وهذه تخصيصات تحتاجُ إلى دليل، وكثُر استعمال الفاحشة في الزِّنى، ولذلك قال جابر حين سمع الآية: زَنَوْا وربِّ الكعبة[(٢)].

ومعنى «ذكرُوا الله»: ذكرُوا وعيدَه؛ قاله ابن جرير وغيرُه[(٣)]. وقيل: العَرْضَ على الله؛ قاله الضحَّاك. أو السؤال عنه يومَ القيامة؛ قاله الكلبيّ ومقاتل والواقديّ. وقيل: نَهْيَ الله. وقيل: غُفرانَه. وقيل: تعرَّضوا لذكره بالقلوب ليبعثَهم على التوبة. وقيل: عظيمَ عفوه فطمعوا في مغفرته. وقيل: إحسانَه، فاستَحْيَوْا من إساءتهم.

وهذه الأقوال كلُّها على أنَّ الذِّكْر هو بالقلب.

وقيل: هو باللسان، وهو الاستغفار[(٤)]، ذكروا اللهَ بقولهم: اللهمَّ اغفْر لنا

---

(١) تنظر بعض الأقوال دون بعض في تفسير كل من الطبري ٦١، والثعلبي ٢/ ١٥٣، والبغوي ١/ ٣٥٣، وابن عطية ١/ ٥١٠، وابن الجوزي ١/ ٤٦٢.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٦١، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٥٣، وتفسير ابن المنذر ١/ ٣٨٥ (وفيه: جابر بن زيد) والمحرر الوجيز ١/ ٥١٠ (وفيه جابر بن عبد الله). وفي هذه المصادر: زنى القوم، بدل: زنوا.

(٣) تفسير الطبري ٢/ ٦٢، والبغوي ١/ ٣٥٣، والكشاف ١/ ٤٦٤، والمحرر الوجيز ١/ ٥١٠، وزاد المسير ١/ ٤٦٣.

(٤) في (أ) و(ع): وقيل هو الاستغفار. وفي (ب) و(د٣): وقيل الاستغفار.

ذنوبَنا. قاله ابنُ مسعود وأبو هريرة وعطاء في آخرين[(١)].

ورُوِيَ عن أبي هريرة: ما رأيتُ أكثرَ استغفاراً من رسول الله ﷺ[(٢)].

ولا بدَّ مع ذكرِ اللسانِ من مواطأة القلب، وإلا فلا اعتبارَ بهذا الاستغفار، ومن استغفرَ وهو مصرٌّ فاستغفارُه يحتاجُ إلى استغفار، والاستغفارُ سؤال الله بعد التوبةِ الغفرانَ.

وقيل: ندمُوا وإن لم يسألوا، والظاهر الأول.

ومفعول «استغفروا»: الله، محذوف لفهم المعنى، أي: فاستغفروه لذنوبهم. وتقدَّم الكلام على هذا الفعل وتعديته.

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جملة اعتراض بين المتعاطفين، أو بين ذي الحال والحال، وتقدَّم الكلام على نظير هذه الجملة إعراباً في قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وهذه الجملة الاعتراضية فيها ترقيق للنفس، وداعية إلى رجاء الله وسَعة عفوه، واختصاصه بغفران الذنب.

قال الزمخشريّ[(٣)]: وصفٌ لِذاتِه بسعة الرّحمة وقربِ المغفرة، وأنَّ التائب من الذنب عنده كمن لا ذنبَ له، وأنه لا مفزعَ للمذنبين إلا فضلُه وكرمُه، وأنَّ عدلَهُ يُوجب المغفرةَ للتائب، لأنَّ العبد إذا جاء في الاعتذار والتنصُّل بأقصى ما يقدرُ عليه وجبَ العفو والتجاوز، وفيه تطييبٌ لنفوس العباد وتنشيطٌ للتوبة، وبعثٌ عليها، وردعٌ عن اليأس والقُنوط، وأنَّ الذنوبَ وإنْ جلَّت فإنَّ عفوَه أجلُّ، وكرمَه أعظم. والمعنى أنه وَحْدَه معه مصحِّحاتُ المغفرة. انتهى.

وهو كلام حسن غير أنه لم يخرج عن ألفاظ المعتزلة في قوله: وأنَّ عدلَه يُوجب المغفرةَ للتائب، وفي قوله: وجبَ العفو والتجاوز. ولو لم نعلم أنَّ مذهبَه

---

(١) ينظر زاد المسير ١/ ٤٠٣.
(٢) الزهد لأحمد ص٥٠، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٢٤.
(٣) الكشاف ١/ ٤٦٤.

الاعتزال لتأوَّلنا كلامَه بأنَّ هذا الوجوبَ هو بالوعد الصادق، فهو من جهة السمع لا من جهة العقل فقط.

﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولم يُقيموا على قبيح فعلهم. وهذه الجملة معطوفة على «فاستغفروا» فهي من بعض أجزاء الجزاء المترتِّب على الشرط.

ويجوزُ أن تكون الواو للحال، ويكون حالاً من الفاعل في «فاستغفروا»، أي: فاستغفروا لذنوبهم غيرَ مُصِرِّين، و«ما» موصولة اسمية. وجُوِّزَ أن تكون مصدرية.

قال قتادة: الإصرارُ المُضِيُّ في الذنب قُدُماً.

وقال الحسن: هو إتيانُ الذنب حتى يتوب.

وقال مجاهد: لم يُصِرُّوا: لم يمضُوا[١].

وقال السُّدِّيّ: هو تركُ الاستغفار والسكوتُ عنه مع الذنب[٢].

والجملة من قوله: «وهم يعلمون»؛ قال الزمخشريّ: حال من فعل الإصرار، وحرفُ النفي منصبٌّ عليهما معاً، والمعنى: وليسوا ممّن يُصِرُّ[٣] على الذنوب وهم عالِمون بقُبحها وبالنهي عنها والوعيدِ عليها، لأنه قد يُعذر من لم يعلم قبح القبيح.

وفي هذه الآيات بيانٌ قاطع أنَّ الذين آمنوا على ثلاث طبقات: متَّقون وتائبون ومُصِرُّون، وأنَّ الجنة للمتقين والتائبين منهم دون المُصِرِّين، ومَنْ خالفَ في ذلك فقد كابرَ عقلَه وعاندَ ربَّه. انتهى كلامه. وآخِرُه على طريقته الاعتزالية من أنَّ من مات مُصِرًّا دخل النار ولا يخرج منها أبداً.

وأجاز أبو البقاء أن يكون «وهم يعلمون» حالاً من الضمير في «فاستَغْفَرُوا»[٤]. فإن أعرَبْنا «ولم يُصِرُّوا» جملة حاليَّة من الضمير في «فاستَغْفَرُوا» جاز أن يكون

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٧٦٦، والمحرر الوجيز ١/ ٥١١. وفي تفسير الطبري ٦/ ٦٧: لم يواقعوا.

(٢) المصادر السالفة، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٥٤، وتفسير البغوي ١/ ٣٥٣.

(٣) في الكشاف ١/ ٤٦٤: يصرُّون.

(٤) الإملاء ١/ ١٥٠.

«وهم يعلمون» حالاً منه أيضاً، وإن كان «ولم يُصِرُّوا» معطوفاً على «فاستغفروا» كان ما قاله أبو البقاء بعيداً للفصل بين ذي الحال والحال بالجملة.

وأمَّا متعلَّق العلم فتقدَّم في كلام الزمخشريّ، وقال أبو البقاء: «وهم يعلمون» المؤاخذةَ بها، أو عفوَ الله عنها.

وقال ابن عبَّاس والحسن: «وهم يعلمون» أنَّ تركَه أولى من التمادي.

وقال مجاهد وأبو عمارة: يعلمون أنَّ الله يتوب على من تاب.

وقال السُّدّي ومقاتل: يعلمون أنهم قد أذنبوا[١].

وقيل: يذكرون ذنوبَهم فيتوبون منها. أُطلق اسم العِلْمِ على الذِّكْر لأنَّه من ثمراته.

وقال ابنُ إسحاق: يعلمون ما حرَّمتُ عليهم.

وقال الحسين بن الفضل: يعلمون أنَّ لهم ربًّا يغفر الذنب[٢].

وقال ابن بحر: يعلمون بالذنب. وقيل: يعلمون العفو عن الذنوب وإن كثُرت.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ «أولئك» إشارة إلى الصِّنفين، وجُوِّزَ أن يكون مختصًّا بالصِّنف الثاني، ويكون «والذين إذا فعلوا» مبتدأ، و«أولئك» وما بعدَه خبرُه، و«جزاؤهم مغفرة» مبتدأ وخبر في موضع خبر «أولئك»، وثَمَّ محذوف، أي: جزاءُ أعمالهم مغفرةٌ من ربِّهم لذنوبهم.

قال ابن عطية[٣]: أوجبَ على نفسه بهذا الخبر الصادق قبولَ توبة التائب، وليس يجبُ عليه تعالى من جهة العقل شيء، بل هو بحكمِ المَلِك لا معقِّبَ لأمره.

وقال الزمخشري: قال: «أجر العاملين» بعد قوله: «جزاؤهم» لأنهما في معنًى واحد، وإنما خالفَ بين اللفظين لزيادة التنبيه على أنَّ ذلك جزاءٌ واجبٌ على عمل، وأجرٌ مستحَقٌّ عليه، لا كما يقول المبطلون.

---

(١) ينظر ما سلف في زاد المسير ١/ ٤٦٤.

(٢) ينظر تفسير البغوي ١/ ٣٥٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥١١، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٢٧.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥١١.

ورُوِيَ أنَّ الله عزَّ وجلَّ أوحى إلى موسى عليه السلام: ما أقلَّ حياءَ مَنْ يطمعُ في جنَّتي بغير عملٍ، كيف أجودُ برحمتي على من يبخلُ بطاعتي.

وعن شَهْرِ بنِ حَوْشَب: طلبُ الجنة بلا عمل ذنبٌ من الذنوب، وانتظارُ الشفاعة بلا سبب نوعٌ من الغرور، وارتجاءُ الرحمة ممَّن لا يُطاع حُمق وجَهالة.

وعن الحسن: يقولُ الله يوم القيامة: جُوزُوا الصراطَ بعفوِي، وادخُلُوا الجنة برحمتي، واقتسموها بأعمالكم.

وعن رابعة البصرية أنها كانت تُنشد:

تَرْجُو النجاةَ ولم تَسْلُكْ مَسالِكَها ... إنَّ السفينةَ لا تجري على اليَبَسِ

انتهى ما ذكره[(١)].

والبيت الذي كانت رابعة تُنشدُه هو لعبد الله بنِ المبارك[(٢)].

وكلامُ الزمخشريّ جارٍ على مذهبه الاعتزاليّ من أنَّ الإيمان دونَ عمل لا ينفعُ في الآخرة.

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ المخصوصُ بالمدح محذوف، تقديره: ونِعْمَ أجرُ العاملين ذلك، أي: المغفرة والجنة.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ الخطابُ للمؤمنين، والمعنى أنه إنْ ظهرَ عليكم الكفار يومَ أُحُد، فإنَّ حُسْنَ العاقبة للمتقين، وإنْ أُدِيلَ الكفارُ فالعاقبةُ للمؤمنين، وكذلك كفارُكم هؤلاء عاقبتُهم إلى الهلاك.

وقال النقَّاش: الخطابُ للكفار؛ لقوله بعدُ: «ولا تَهِنُوا»[(٣)].

---

(١) الكشاف ١/ ٤٦٥. وينظر تفسير الثعلبي ٢/ ١٥٤.

(٢) نسبه ابنُ حبان في روضة العقلاء ص٢٨٥، وأبو الفَرَج في الأغاني ٤/ ١٠٦ لأبي العتاهية مع بيتين آخرين في عظة له لهارون الرشيد. وزاد صاحب زهر الآداب ٢/ ٨١٥ بيتاً رابعاً.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥١١ وقال: وذلك قلق.

ولما ذكرَ تعالى الجُمل المعترضة في قصة أُحُد عاد إلى إكمالها، فخاطبَهم بأنه إنْ وقعت إدالة الكفار، فالعاقبةُ للمؤمنين.

والمعنى: قد تقدَّمَتْ ومضَتْ. قال الزجَّاج(١): أهلُ سُنن، أي: طرائق، أو أُمم على شرح المفضَّل أنَّ السُّنَّة الأُمَّة(٢). وقال الحسن: سُنَّة: أقضية في إهلاك الأمم السالفة عادٍ وثمودَ وغيرِهم(٣). وقال ابن زيد: أمثال(٤). وقال ابن عبَّاس: وقائع.

وطلبُ السَّيْر في الأرض ـ وإن كانت أحوالُ من تقدَّم تُدرَك بالأخبار دون السَّيْر ـ لأنَّ الأخبار إنما تكون ممَّن سارَ وعايَنَ، وعنه تُنقل، فطُلب منه الوجهُ الأكمل، إذْ للمشاهَدة أثرٌ أقوى من أثر السَّماع.

وقيل: السَّيْر هنا مجازٌ عن التفكُّر، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس.

وقال الجمهور: النظر هنا من نظر العين. وقال قوم: هو بالفكر.

والجملة الاستفهامية في موضع المفعول لـ «انْظُرُوا»؛ لأنها معلَّقة، و«كيف» في موضع نصب خبر «كان». والمعنى: ما سُنَّةُ اللهِ في الأمم المكذِّبين من وقائعه؟ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، الآية، ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۞ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ٦١-٦٢].

وفي هذه الآية دلالة على جواز السفر في فِجاج الأرض للاعتبار، ونظرِ ما حَوَتْ من عجائب مخلوقات الله تعالى، وزيارةِ الصالحين، وزيارةِ الأماكن المعظَّمة كما يفعلُه سُيَّاحُ هذه المِلَّة، وجوازِ النظر في كتب المؤرِّخين؛ لأنها سبيل إلى معرفة سِيَر العالَم، وما جرى عليهم من المَثُلات.

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ قال الحسنُ وقتادة وابنُ جُريج والرَّبيع: الإشارة إلى القرآن. وقيل: الإشارةُ إلى قوله: «قد خَلَتْ من قبلكم سُنَن».

---

(١) معاني القرآن ١/ ٤٧٠.

(٢) تفسير الثعلبي ٢/ ١٥٥، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٣٢.

(٣) بنحوه في زاد المسير ١/ ٤٦٥ عن مجاهد.

(٤) تفسير الطبري ٦/ ٧٣، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٣٣.

قاله ابنُ إسحاق والطبريّ وجماعة، أي: هذا تفسيرٌ للناس إنْ قَبِلُوه. وقال الشعبيّ: هذا بيانٌ للناس من العَمَى[١].

وقال الزمخشريّ[٢]: «هذا بيانٌ للناس» إيضاحٌ لسوء عاقبةِ ما هم عليه من التكذيب، يعني حثَّهم على النَّظَر في سُوء عواقب المكذِّبين قبلَهم، والاعتبارَ بما يُعاينون من آثار هلاكِهم. «وهدًى وموعظةٌ للمتقين»: يعني أنه مع كونه بياناً وتنبيهاً للمكذِّبين فهو زيادةُ تثبيتٍ وموعظةٌ للذين اتَّقَوْا من المؤمنين، ويجوزُ أن يكون «قَدْ خَلَتْ» جملةً معترضةً للبعث على الإيمان وما يستحقُّ به ما ذُكر من أجر العاملين، ويكون قولُه: «هذا بيانٌ» إشارةً إلى ما لخَّص وبيَّن من أمر المتقين والتائبين والمُصِرِّين. انتهى كلامه. وهو حسن.

ولمَّا كان ظاهراً واضحاً قال: «بيانٌ للناس»، ولما كانت الموعظة والهُدى لا يكونانِ إلا لمن اتَّقى خَصَّ بذلك المتَّقين؛ لأن من عَمِيَ فِكْرُه وقَسَا فؤادُه لا يهتدي ولا يتَّعظ، فلا يناسبُ أن يضافَ إليه الهُدى والموعظة[٣].

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ لمَّا انهزمَ مَن انهزمَ مِن المؤمنين، أقبل خالدٌ يريدُ أن يعلوَ الجبلَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «لا يَعْلُنَّ علينا، اللهمَّ لا قوَّة لنا إلا بك». فنزلت. قاله ابن عباس، وزاد الواقديّ أنَّ رُماةَ المسلمين صَعِدُوا الجبل ورَمَوْا خَيْلَ المشركين حتى هزمُوهم، فذلك قوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾[٤].

وقال القرطبيّ[٥]: وأنتم الغالبون بعد أُحُد. فلم يخرجوا بعد ذلك إلا ظَفِرُوا في كلِّ عسكرٍ كان في عهده عليه الصلاة والسلام، وفي كلِّ عسكرٍ كان بعدُ، ولو لم يكن فيه إلا واحدٌ من الصحابة.

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٧٤-٧٥، والمحرر الوجيز ١/ ٥١٢، وزاد المسير ١/ ٤٦٥.
(٢) الكشاف ١/ ٤٦٥.
(٣) بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٥١٢.
(٤) الخبر بتمامه في أسباب النزول للواحدي ص١٢٠ وتفسير القرطبي ٥/ ٣٣٤ عن ابن عباس. وأخرجه دون الزيادة الطبري ٦/ ٧٩. وعند الطبري والواحدي: اللهم لا يعلون علينا. وأخرجه أيضاً الطبري ٦/ ٧٨ بنحوه عن ابن جريج.
(٥) في تفسيره ٥/ ٣٠١، ونقله القرطبي عن تفسير أبي الليث ١/ ٣٠١.

وقال الكلبيّ: نزلت بعد أُحُد حين أُمِرُوا بطلب القوم مع ما أصابَهم من الجِراح وقال: «لا يَخْرُجْ إلا من شَهِدَ معَنا أمسِ». فاشتدَّ ذلك على المسلمين، فنزلت[١].

نهاهم عن أن يضعُفوا عن جهاد أعدائهم، وعن الحُزْن على مَن استُشهد من إخوانهم، فإنهم صارُوا إلى كرامة الله؛ قاله ابنُ عباس. أو لأجل هزيمتِهم وقتلِهم يوم أُحُد؛ قاله مقاتل. أو لِما أصابَ النبيَّ ﷺ من شَجِّهِ وكَسْرِ رَباعِيَتِه، ذكره الماورديّ. أو لِما فاتَ من الغنيمة؛ ذكره أحمد النيسابوريّ. أو لمجموع ذلك[٢].

وآنَسَهُم بقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: الغالبون وأصحابُ العاقبة، وهو إخبارٌ بعلوّ كلمة الإسلام. قاله الجمهور، وهو الظاهر.

وقيل: «أنتمُ الأعْلَوْن» أي: قد أصبتُم ببَدْرٍ ضِعْفَ ما أصابُوا منكم بأُحُد أسْراً وقَتْلاً، فيكون «وأنتم الأعْلَوْن» نصباً على الحال، أي: لا تحزنوا عالِين، أي: منصورين على عدوّكم. انتهى.

وأما كونُه من عُلُوِّهم الجبل كما أُشير إليه في سبب النزول؛ فرُوِيَ ذلك عن ابن عباس وابن جبير[٣].

قال ابن عطيَّة: ومِن كَرَم الخُلُق أن لا يَهِنَ الإنسانُ في حَرْبه وخِصامه ولا يَلِينَ إذا كان مُحِقًّا، وأن يتقصَّى جميعَ قدرتِه ولا يَضْرَعَ ولو مات، وإنَّما يحسُن اللِّين في السِّلْم والرِّضا، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمنُ هَيِّنٌ لَيِّن» و«المؤمنون هَيِّنون لَيِّنون»[٤].

---

(١) تفسير الثعلبي ٢/ ١٥٦. وفيه بعده قوله: ودليلُه قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ﴾.

(٢) الأقوال في زاد المسير ١/ ٤٦٦. وقول النيسابوري (وهو الواحدي) ذكره في الوسيط ١/ ٤٩٦ عن المفسِّرين، وأما هو فقال: هذه الآية تسليةٌ للنبي ﷺ وللمسلمين من الله تعالى لِما نالهم يومَ أُحد من القتل والجرح.

(٣) كذا في النسخ. وأغلبُ الظنّ أنه محرَّف عن: ابن جُريج، وقد أخرجه الطبري عنه كما سلف قبل أربع تعليقات. والكلام بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٥١٣.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥١٢. ولفظا الحديثين قطعتان منهما أخرجهما البيهقي في شُعب الإيمان (٨١٢٧) و(٨١٢٨) و(٨١٢٩).

وقال منذر بن سعيد: يجبُ بهذه الآية ألا يُوادَعَ العدوُّ ما كانت للمسلمين قوَّة وشَوْكة، فإن كانوا في قُطرٍ مَّا على غير ذلك فيَنظُرُ الإمامُ لهم في الأصلح. انتهى(١).

وفي قوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ دلالةٌ على فضيلة هذه الأمة إذْ خاطبَهم مثلَ ما خاطبَ موسى كليمَه صلى الله وسلَّم على نبيِّنا وعليه إذْ قال له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨].

وتعلَّق قولُه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالنهي، فيكون ذلك هَزًّا للنفوس يُوجبُ قوَّةَ القلب والثِّقةَ بصنع الله وقلَّةَ المبالاة بالأعداء، أو بالجملة الخبَريَّة، أي: إنْ صدقتُم بما وَعَدَكم وبَشَّرَكم به من الغَلَبة، ويكون شرطاً على بابِه يحصُل به الطعن على مَنْ ظهرَ نفاقُه في ذلك اليوم، أي: لا تكونُ الغَلَبةُ والعُلوُّ إلا للمؤمنين، فاسْتَمسِكوا بالإيمان.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ المعنى: إنْ نالُوا منكم يومَ أُحد، فقد نلتُم منهم يومَ بدر، ثم لم يضعفوا أن قاتلوكم بعد ذلك، فلا تضعفوا أنتم، أو فقد مسَّ القومَ في غزوة أُحد قبلَ مخالفةِ أمرِ رسول الله ﷺ، ونحوُه: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ [النساء: ١٠٤]. وهذه تسليةٌ منه تعالى للمؤمنين، والتأسِّي فيه أعظمُ مَسْلاة.

وقالت الخنساء:

ولولا كثرةُ الباكينَ حَوْلي ... على إخْوَانِهم لَقَتَلْتُ نفسي
وما يبكونَ مِثْلَ أخي ولكنْ ... أُعَزِّي النَّفْسَ عنه بالتَّأَسِّي

والمِثْلِيَّة تصدُقُ بأدنى مشابهة.

قال ابن عبَّاس والحسن: أصابَ المؤمنين يومَ أُحد ما أصابَ المشركين يومَ بدر، استُشهد من المؤمنين يومَ أُحد سبعون(٢).

وقال الزمخشريّ(٣): قُتل يومئذ ـ أي: يومَ أُحد ـ خلقٌ من الكفار، ألا ترى إلى

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥١٣.
(٢) سترد الأقوال عند تفسير الآية (١٦٥) ﴿أَوَلَمَّا أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾.
(٣) الكشاف ١/ ٤٦٦.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾؟ فعلى قوله يكون مَسَّ القومَ القرحُ يوم أُحُد، كما مَسَّ المؤمنين يومَ أُحُد، وعلى قول ابن عبَّاس يكون مَسُّ القَرْحِ يومَ بدر[1].

وأبعدَ مَن ذهبَ إلى أنَّ القومَ هنا الأممُ التي قد خلت، أي: نالَ مؤمنَهم من أذى كافرِهم مثلُ الذي نالكم من أعدائكم، ثم كانت العاقبةُ للمؤمنين، فلكم بهم أُسْوة، فإنَّ تأسِّيكم بهم ممَّا يخفِّفُ ألمَكم ويُثبِّتُ عند اللقاء أقدامَكم.

وقرأ الأخوان وأبو بكر والأعمش من طريقه[2]: «قُرْحٌ» بضم القاف فيهما، وباقي السبعة بالفتح، والسبعةُ على تسكين الراء[3].

قال أبو عليّ: والفتحُ أولى. انتهى[4]. ولا أولوية، إذْ كلاهما متواتر.

وقرأ أبو السَّمَّال وابنُ السَّمَيْفَع: «قَرَحٌ» بفتح القاف والراء، وهي لغة، كالطَّرْد والطَّرَد، والشَّلّ والشَّلَل[5]، وقرأ الأعمش: «إن تَمْسَسْكُم» بالتاء من فوق «قُروح» بالجمع[6].

وجواب الشرط محذوف تقديره: فتأسَّوْا فقد مَسَّ القومَ قَرْحٌ، لأنَّ الماضي معنًى يمتنعُ أن يكون جواباً للشرط، ومن زعم أنَّ جواب الشرط هو «فقد مَسَّ» فهو ذاهل[7].

---

(١) من قوله: أُحُد كما مَسَّ المؤمنين. . . إلى هذا الموضع، سقط من المطبوع.

(٢) إن صحَّ ما وقع أعلاه فهو من رواية الأكابر عن الأصاغر، فالأعمش من شيوخ أبي بكر، أو أنه من رواية الأقران، فأبو بكر راوي عاصم، وقرأ الأعمش أيضاً على عاصم. والله أعلم، وينظر تهذيب الكمال ١٢/ ٧ و٣٣/ ١٣٠، وطبقات القراء ١/ ٣١٥.

(٣) السبعة ص٢١٦، والتيسير ص٩٠. والقراءة عن الأعمش في تفسير الثعلبي ١/ ١٥٧، وإتحاف فضلاء البشر ص٢٢٨. والمراد بالأخوين حمزة والكسائي.

(٤) الحجة ٣/ ٧٩. وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥١٣ نحو كلام أبي علي.

(٥) المحتسب ١/ ١١٦، والمحرر الوجيز ١/ ٥١٤ عن ابن السميفع. والقراءات الشاذة ص٢٢، والكشاف ١/ ٤٦٦ عن أبي السَّمَّال.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥١٣.

(٧) ذكر السمين في الدّرّ المصون ٣/ ٤٠٤ أن غالب النُّحاة جعلوه جواباً متأوّلين له، فقدّروا شيئاً مستقبلاً، لأنه لا يكون التعليق إلا في المستقبل، وقوله: «فقد مَسَّ القومَ قرحٌ مثله» ماضٍ محقق، وذلك التأويل هو التبيين: فقد تبيَّن مَسُّ القرح للقوم.

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أخبرَ تعالى على سبيل التَّسلية أنَّ الأيام على قديم الدهر لا تبقَى لناسٍ على حالة واحدة. والمرادُ بالأيَّام أوقاتُ الغَلَبة والظَّفَر، يُصَرِّفها اللهُ على ما أراد، تارةً لهؤلاء وتارةً لهؤلاء، كما جاء: الحَرْبُ سِجَال[1]. وقال:

فَيَوْمٌ علينا ويَوْمٌ لَنَا ... ويَوْمٌ نُسَاءُ ويَوْمٌ نُسَرّ[2]

وسمع بعضُ العرب الأقحاح قارئاً يقرأ هذه الآية فقال: إنما هو: نُداوِلُها بين العرب، فقيل له: إنما هو: بين الناس. فقال: إنَّا لله، ذهبَ مُلكُ العرب وربِّ الكعبة[3].

وقُرئَ شاذّاً: «يُدَاوِلُها» بالياء، وهو جارٍ على الغَيْبَة قبلَه وبعدَه. وقراءةُ النون فيها التفاتٌ وإخبارٌ بنون العظمة المناسبة لمداولة الأيام.

و«الأيامُ» صفة لـ «تلك»، أو بدل، أو عطفُ بيان، والخبر «نُدَاوِلُها»، أو خبر لـ «تلك» و«نُداوِلُها» جملة حالية.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذه لام «كي» قبلَها حرفُ العطف، فتتعلَّق بمحذوف متأخِّر، أي: فَعَلْنا ذلك[4]، وهو المداولة، أو نيلُ الكفار منكم.

أو هو معطوفٌ على سبب محذوف هو وعاملُه، أي: فَعَلْنا ذلك ليكون كيت وكيت وليعلم. هكذا قدَّرَه الزَّمخشريّ[5] وغيرُه، ولم يعيِّن فاعلَ العلَّة المحذوفة، إنما كَنَى عنه بكيت وكيت، ولا يُكنى عن الشيء حتى يُعرف، ففي هذا الوجه حَذْفُ العلَّة وحَذْفُ عاملِها وإبهامُ فاعلِها، فالوجهُ الأوَّلُ أظهر، إذ ليس فيه غيرُ حذف العامل.

(١) هذا القول للمنذر بن ماء السماء كما ذكر الثعالبي في «الإعجاز والإيجاز» ص٦١. وقاله أبو سفيان يوم أحد ينظر «مسند» أحمد (٢٦٠٩).

(٢) البيت للنَّمِر بن تَوْلَب كما في الكتاب ١/ ٨٦، والمؤتلف والمختلف للآمدي ص٢٢ (في ذكر الأخطل بن حمَّاد). وهو بلا نسبة في ثمار القلوب ص٦٤١، والكشاف ١/ ٤٦٦، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٣٥.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥١٤.

(٤) أي إن التقدير: وليعلمَ اللهُ فَعَلْنا ذلك.

(٥) الكشاف ١/ ٤٦٦.

و«يعلم» هنا ظاهرُه التعدِّي إلى واحد، فيكون كـ «عَرَفَ»[(١)]. وقيل: يتعدَّى إلى اثنين، الثاني محذوف، تقديرُه: مميَّزين بالإيمان مَن غيرهم، أي: الحكمة في هذه المداولة أن يصيرَ الذين آمنُوا متميِّزين عمَّن يدَّعي الإيمان بسبب صبرِهم وثباتِهم على الإسلام.

وعلمُ الله تعالى لا يتجدَّد، بل لم يزل عالماً بالأشياء قبل كونها، وهو من باب التمثيل بمعنى: فَعَلْنا ذلك فِعْلَ من يريد أن يعلم مَن الثابتُ على الإيمان منكم من غير الثابت[(٢)].

وقيل: معناه: ليظهرَ في الوجود إيمانُ الذين قد علم أزلاً أنهم يؤمنون، ويساوقُ علمُه إيمانَهم ووجودَهم، وإلا فقد عَلِمَهُم في الأزل، إذ علمُه لا يطرأ عليه التغيّر، ومثلُه أن يضربَ حاكمٌ رجلاً، ثم يبيِّن سببَ الضرب ويقول: فعلتُ هذا التبيين لأضرب مستحقّاً، معناه: ليظهرَ أنَّ فعلي وافقَ استحقاقَه[(٣)].

وقيل: معناه: وليعلمَهم عِلماً يتعلَّق به الجزاء، وهو أن يعلمَهم موجوداً منهم الثباتُ.

وقيل: العِلمُ باقٍ على مدلوله، وهو على حذف مضاف، التقدير: ولِيَعْلَمَ أولياءُ الله. فأسندَ ذلك إلى نفسه تفخيماً.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي: بالقتل في سبيله، فيكرمَهم بالشهادة. يعني: يومَ أُحُد. وقد وَرَدَ في فضل الشهيد غيرُ ما آية وحديث. أو: شهداءَ على النَّاس يومَ القيامة، أي: وليتَّخذَ منكم مَنْ يَصْلُحُ للشهادة على الأمم يومَ القيامة بما يبتلي به صَبْرَكم على الشدائد، من قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[(٤)] [البقرة: ١٤٣] والقولُ الأوَّلُ أظهر وأليقُ بقصَّة أحد.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يحبُّ من لا يكون ثابتاً على الإيمان صابراً

---

(١) ذكر السمين في الدر المصون ٣/ ٤٠٦ أن هذا مُشكل لأنه لا يجوز وصف الله تعالى بذلك لأن المعرفة تستدعي جهلاً بالشيء.
(٢) ينظر الكشاف ١/ ٤٦٦.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥١٤.
(٤) ذكره الزمخشري ١/ ٤٦٦.

على الجهاد. وفيه إشارةٌ إلى مَن[١] انخزلَ يومَ أُحُد كعبد الله بن أُبيّ وأتباعِه من المنافقين، فإنَّهم بانخزالهم لم يظهر إيمانُهم، بل نجمَ نفاقُهم، ولم يَصْلُحوا لاتِّخاذهم شهداءَ بأنْ يُقتَلُوا في سبيل الله، وفي ذلك إشارةٌ أيضاً إلى أنَّ ما فعلَ من إدالة الكفار ليس سببُه المحبةَ منه تعالى لهم، بل ما ذكرَ من الفوائد من ظهور إيمانِ المؤمنِ وثبوتِه واصطفائه مَنْ شاء من المؤمنين للشهادة.

وهذه الجملةُ اعترضت بين بعض العلل وبعض لما فيها من التشديد[٢] والتأكيد، وأنَّ مَناط انتفاء المحبة هو الظلم، وهو دليل على فحاشتِه وقُبحِه من سائر الأوصاف القبيحة.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يُطَهِّرَهُم من الذنوب ويُخَلِّصَهُم من العيوب ويُصَفِّيَهُم. قال ابنُ عباس والحسن ومجاهد والسُّدِّيّ ومقاتل وابنُ قتيبة في آخرين: التمحيص: الابتلاء والاختبار[٣]. قال الشاعر:

رأيتُ فُضَيْلاً كان شيئاً مُلَفَّفاً فكَشَّفَهُ التَّمحِيصُ حتى بَدَا لِيَا[٤]

وقال الزجَّاج: التنقية والتخليص، وذكره عن المبرِّد وعن الخليل[٥].

وقيل: التطهير؛ قال الفرَّاء: هو على حذف مضاف، أي: وليمحِّصَ الله ذنوبَ الذين آمنوا[٦].

---

(١) في (د١) والمطبوع: إلى أن من.

(٢) في (ح) و(د١) و(يه): التسديد.

(٣) زاد المسير ١/ ٤٦٧. وينظر «غريب القرآن» لابن قتيبة ص١١٢، و«تفسير» الطبري ٦/ ٨٩، و«المحرر الوجيز» ١/ ٥١٤.

(٤) البيت لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر كما في غريب القرآن ص١١٢-١١٣، وعيون الأخبار ٣/ ٧٥، والكامل ١/ ٢٧٦، وذكر محقِّقُه في حواشيه أنه جاء في هامش نسخة مغلطاي للكامل عن أبي نُعيم أن فضيلاً هو فُضيل بن السائب بن الأقرع الثقفي. اهـ. وفي رواية الأغاني ١٢/ ٢١٤: رأيتُ قُصَيّاً. ويعني به صديقَه قصيَّ بنَ ذكوان وكان قد عَتَبَ عليه. وروايتُه فيه في ١٢/ ٢٣٣: وإنَّ حسيناً كان... فمحَّصَهُ التكشيف... ويعني حسينَ بنَ عبد الله بن عبيد الله بن العباس.

(٥) هو في معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٧٢ عن المبرّد، عن الخليل. (دون واو بينهما).

(٦) هو بمعناه في معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٥، وبلفظه أعلاه عنه في تفسير القرطبي ٥/ ٣٣٨. وينظر النكت والعيون ١/ ٤٢٦.

﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يُهلِكَهُم شيئاً فشيئاً. والمعنى أنَّ الدولة إن كانت للكافرين على المؤمنين كانت سبباً لتمييز المؤمنِ من غيره، وسبباً لاستشهاد من قُتل منهم، وسبباً لتطهير المؤمن من الذنب، فقد جمعَتْ فوائدَ كثيرةً للمؤمنين، وإنْ كان النصر للمؤمنين على الكافرين كان سبباً لمحقهم بالكلّية واستئصالهم. قاله ابن عباس[(١)].

وقال ابن عباس أيضاً: يَنْقُصُهم ويُقَلِّلُهم. وقاله الفرَّاء[(٢)].

وقال مقاتل: يُذهب دعوتَهم؛ وقيل: يُحبط أعمالَهم. ذكره الزجَّاج[(٣)]. فيكون على حذف مضاف.

والظاهر أنَّ المراد بالكافرين هنا طائفةٌ مخصوصة، وهم الذين حارَبُوا رسولَ الله ﷺ، لأنه تعالى لم يمحقْ كلَّ كافر، بل كثيرٌ منهم باقٍ على كفره، فلفظة «الكافرين» عامّ أُريد به الخصوص.

قيل: وقابلَ تمحيصَ المؤمن بمحق الكافر، لأن التمحيص إهلاكُ الذنوب، والمَحْق إهلاكُ النفوس، وهي مقابلة لطيفة في المعنى. انتهى[(٤)].

وفي ذِكر ما يلحقُ المؤمنَ عند إدالة الكفَّار تسليةٌ لهم، وتبشيرٌ بهذه الفوائد الجليلة، وأن تلك الإدالة لم تكن لهوانٍ بهم، ولا لحَطٍّ[(٥)] من أقدارهم، بل لِما ذكر تعالى.

وقد تضمَّنت هذه الآياتُ فُنوناً من الفَصاحة والبديع والبيان:

من ذلك الاعتراضُ في «واللهُ يحبُّ المحسنين»، وفي «ومَنْ يغفرُ الذُّنوبَ إلا الله»، وفي «واللهُ لا يحبُّ الظالمين».

---

(١) ينظر الكشاف ١/ ٤٦٦، والمحرر الوجيز ١/ ٥١٤، وتفسير الرازي ٩/ ١٨. وليُحرَّر نسبةُ القول لابن عباس.

(٢) في معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٥: ينقصهم ويُفنيهم.

(٣) معاني القرآن له ١/ ٤٧١، وفيه: ليستأصلهم. ثم قال الزجاج: وجائزٌ أن يكون «يمحقهم»: يحبط أعمالهم. اهـ. والأقوال أعلاه في زاد المسير ١/ ٤٦٨.

(٤) تفسير الرازي ٩/ ١٨.

(٥) في (أ) و(د١) و(ع) و(يه): تحطّ، وفي (د٢): حطّ.

وتسميةُ الشيء باسم سببه في «إلى مغفرةٍ من ربِّكم».

والتشبيهُ في «عرضُها السماواتُ والأرضُ». وقيل: هذه استعارة.

وإضافة الحُكم إلى الأكثر في «أُعِدَّتْ للمتَّقين» وهي مُعَدَّة لهم ولغيرهم من العُصاة.

والطِّباق في «السَّرَّاء والضَّرَّاء»، وفي «ولا تَهِنُوا» و«الأَعْلَوْنَ» لأنَّ الوَهْنَ والعُلُوَّ ضِدَّان، وفي «آمَنُوا» و«الظالمين» لأنَّ «الظالمين» هنا هم «الكافرون»، وفي «آمَنوا» و«يمحقَ الكافرين».

والعامُّ يُرادُ به الخاصُّ في «والعافِين عن النَّاس» يعني مَنْ ظَلَمَهُمْ، أو المماليك.

والتكرار في «واتَّقوا الله» و«اتَّقوا النار»، وفي لفظ الجلالة، وفي «واللهُ يُحِبُّ» و«ذكروا اللهَ»، وفي «وليعلمَ الله»، «والله لا يحبُّ»، «وليُمحِّصَ اللهُ»، وفي «الذين ينفقون» «والذين إذا فعلوا».

والاختصاص في «يحبُّ المحسنين»، وفي «وهم يعلمون»، وفي «عاقبةُ المكذِّبين»، وفي «موعظةٌ للمتقين»، وفي «إنْ كنتم مؤمنين»، وفي «لا يحبُّ الظالمين»، وفي «ولِيُمَحِّصَ اللهُ الذين آمنُوا»، وفي «ويَمْحَقَ الكافرين».

والاستعارة في «فسيرُوا» على أنه من سَيْرِ الفِكْرِ لا القَدَم، وفي «وأنتم الأَعْلَوْنَ» إذا لم تكن من عُلُوِّ المكان، وفي «وتلك الأيَّامُ نداولُها»، وفي «وليمحِّصَ» «ويَمْحَقَ».

والإشارة في «هذا بيان»، وفي «وتلك الأيام».

وإدخال حرف الشرط في الأمر المحقَّق في «إنْ كنتمُ مؤمنين» إذا علِّق عليه النهيُ.

والحذفُ في عدَّة مواضع.

❋ ❋ ❋

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾
وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ
قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ
فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ
ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ
وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ
لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ
ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ
خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ
يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ
وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ
مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ
صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

المفردات

«كأيِّنْ» كلمةٌ يُكثَّر بها، بمعنى «كم» الخبرية، وقلَّ الاستفهامُ بها، والكاف للتشبيه دخلت على «أيٍّ»، وزال معنى التشبيه. هذا مذهب سيبويه والخليل. والوقفُ على قولهما بغير تنوين.

وزعم أبو الفتح أنَّ «أيًا» وزنُه فَعْلٌ، وهو مصدر: أَوَى يأوِي: إذا انضمَّ واجتمعَ، أصلُه: أَوْيٌ، عُمل فيه ما عُمل في «طَيّ»(١) مصدر «طَوَى». وهذا كلُّه دعوى لا يقوم دليل على شيءٍ منها، والذي يظهرُ أنه اسم مبنيٌّ بسيط لا تركيب فيه، يأتي للتكثير، مثل «كَمْ».

وفيه لغات: الأولى: وهي التي تقدَّمَتْ. و«كَائِنْ»(٢) ومن ادَّعى أنَّ هذه اسم

---

(١) والأصل في طَيّ: طَوْي، اجتمعت الياء والواو، وسُبقت إحداهما بالسكون، فقُلبت الواو ياءً وأُدغمت في الياء. قاله السمين في الدر المصون ٣/ ٤٢٥. وينظر المحتسب ١/ ١٧١.

(٢) زِنة: كاعِنْ. وهي أكثر استعمالاً في لسان العرب وأشعارها كما سيرد من كلام المصنف =

فاعل من «كانَ» فقولُه بعيد. و«كَئِنْ» على وزن: كَعِنْ، و«كَأْيِنْ»، و«كَيْئِنْ»، ويوقَف عليها بالنون.

وأكثرُ ما يجيءُ تمييزُها مصحوباً بـ «مِنْ» ووهم ابنُ عصفور في قوله: إنه يلزمُه «من». وإذا حُذفت انتصبَ التمييزُ سواءٌ أَوَلِيَها أم لم يَلِها، نحو قول الشاعر:

أَطْرُدِ اليأسَ بالرَّجاءِ فَكَأْيِنْ   آلِماً حُمَّ يُسْرُهُ بعدَ عُسْرِ[(١)]

وقول الآخر:

وكَائنْ لَنَا فَضْلاً عليكُم ونِعْمَةً   قديماً ولا تَدْرُونَ ما مَنُّ مُنْعِمِ[(٢)]

الرُّعب: الخوف. رَعَبْتُهُ فهو مَرْعُوب، وأصلُه من المِلْءِ، يقال: سَيْلٌ راعبٌ يملأ الوادي، ورَعَبْتُ الحوضَ: ملأتُه.

السُّلطان: الحُجَّة والبُرهان، ومنه قيل للوالي: سُلطان. وقيل: اشتقاق السلطان من السَّلِيط، وهو ما يُضيءُ به السِّراجُ من دُهْن السِّمْسِم. وقيل: السَّلِيط: الحديد[(٣)]، والسَّلَاطة: الحِدَّة، والسَّلاطة من التَّسْليط، وهو القهر، والسُّلطانُ من ذلك، فالنون زائدة. والسَّلِيطَة: المرأة الصَّخَّابة، والسَّلِيط: الرجل الفصيحُ اللسان.

المَثْوَى مَفْعَل، من: ثَوَى يَثْوِي: أقامَ، يكون للمصدر والزَّمان والمكان، والثَّواء الإقامة بالمكان.

الحَسُّ: القتلُ الذَّريع، يقال: حَسَّه يَحُسُّه، قال الشاعر:

حَسَسْنَاهُمُ بالسيفِ حَسًّا فأصْبَحَتْ   بَقِيَّتُهمْ قد شُرِّدُوا وتَبَدَّدُوا[(٤)]

= عند تفسير الآية. وبنحوه قال ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥١٨.

(١) في النسخ الخطية: اطرِدِ النفسَ بالرجاء فكأيِنْ آمِلاً حُمَّ... الخ. والمثبت من المطبوع، والدر المصون ٣/ ٤٣٠، ومغني اللبيب ص٢٤٧، وهمع الهوامع ٢/ ٣٥٦، وشرح أبيات المغني ٤/ ١٦٧، وروح المعاني ٥/ ٤١. قولُه: حُمَّ، أي: قُضي وقُدِّر.

(٢) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٧٧، وفيه: ومنَّة، بدل: ونعمة، وما، بدل: ولا.

(٣) من الحِدَّة. جاء في اللسان (سلط): رجل سَلِيط، أي: فصيح حديدُ اللسان بيِّن السَّلَاطة والسُّلُوطة. اهـ. وبنحوه في التاج. وفي القاموس: السَّلِيط: الحديد من كل شيء.

(٤) تفسير الثعلبي ٢/ ١٦٧، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٦٠.

وجَرَادٌ مَحْسُوس: قَتَلَهُ البَرْد، وسَنَةٌ حَسُوس: أَتَتْ على كلِّ شيء.

التنازع: الاختلاف، وهو من النَّزْع وهو الجَذْبُ، ونَزَعَ يَنْزِعُ: جَذَبَ، وهو متعدٍّ إلى واحد، ونازعَ متعدٍّ إلى اثنين، وتنازَعَ متعدٍّ إلى واحد. قال:

فلمَّا تنازَعْنا الحديثَ وأَسْمَحَتْ هَصَرْتُ بغُصْنٍ ذي شَمارِيخَ مَيَّالِ[1]

* * *

التفسير

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ هذه الآيةُ وما بعدَها عَتْبٌ شديدٌ لمن وقعت منهم الهَفَوَات يومَ أُحُد، واستفهمَ على سبيل الإنكار أنْ يظنَّ أَحَدٌ أنَّه يدخلُ الجنةَ وهو مُخِلٌّ بما افتُرِض عليه من الجهاد والصبر عليه.

والمرادُ بنفي العلم انتفاءُ متعلَّقِه، لأنه منتفٍ بانتفائه كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣] المعنى: لو كان فيهم خيرٌ، لأنَّ ما لم يتعلَّق به علمُ الله تعالى موجوداً لا يكون موجوداً أبداً.

و«أمْ» هنا منقطعة في قول الأكثرين تتقدَّر بـ «بَلْ» والهمزة على ما قُرِّر في النحو. وقيل: هي بمعنى الهمزة. وقيل: «أمْ» متصلة؛ قال ابنُ بحر: هي عديلةُ همزة تتقدَّر من معنى ما تقدَّم، وذلك أنَّ قوله: «إنْ يَمْسَسْكُم قَرْحٌ» «وتلك الأيَّام نُداولها» إلى آخر القصة يقتضي أنْ يتبعَ ذلك: أتعلمون أنَّ التكليف يُوجب ذلك، أم حسبتُم أن تدخلوا الجنة من غير اختبار وتحمُّلِ مشقَّةٍ وأن تجاهدوا فيعلمَ اللهُ ذلك منكم واقعاً؟! انتهى كلامه. وتقدَّم لنا إبطالُ مثلِ هذا القول.

وهذا الاستفهام الذي تضمَّنته «أم» معناه الإنكارُ، والإضرابُ الذي تضمَّنَته أيضاً هو تركٌ لما قبلَه من غير إبطال وأخذٌ فيما بعدَه.

وقال أبو مسلم الأصبهاني[2]: «أَمْ حسبتُم» نهيٌ وقعَ بلفظ الاستفهام الذي

(١) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٣٢. وأورده ابن منظور في اللسان (هصر) وقال: أسمَحَتْ: انقادَتْ وتسهَّلَتْ بعد صعوبتها، وهصرتُ: جذبتُ... الخ. وشبَّه الشَّعر بشماريخ النخل.

(٢) هو ابنُ بحر السالف ذكرُه، واسمه محمد، وينظر التعليق عليه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

يأتي للتبكيت، وتلخيصه: لا تَحْسَبُوا أن تدخلُوا الجنَّةَ ولمَّا يقع[١] منكم الجهاد؛ لمَّا قال: «ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا» كان في معنى: أتعلمون أنَّ ذلك كما تُؤمرون به أم تحسبون أن تدخلوا الجنة من غير مجاهدة وصَبْر؟ وإنما استبعد هذا لأنَّ الله تعالى أوجبَ الجهاد قبلَ هذه الواقعة، وأوجبَ الصبر على تحمُّل مشاقِّها وبيَّن وجوهَ مصالِحها في الدِّين والدنيا، فلما كان كذلك كان من البُعد أن يصل الإنسان إلى السعادة والجنة مع إهمال هذه القاعدة[٢]. انتهى كلامه. وظاهرُه أنَّ «أَمْ» متصلة.

و«حَسِبْتُم» هنا بمعنى «ظننتُم» الترجيحية، وسدَّ مَسَدَّ مفعوليها «أَنْ» وما بعدَها على مذهب سيبويه، ومَسَدَّ مفعول واحد والثاني محذوف على مذهب أبي الحسن.

«ولمَّا يعلم» جملة حاليَّة، وهي نفيٌ مؤكَّد لمعادلته للمُثبت المؤكَّد بـ «قد»، فإذا قلت: قد قام زيد، ففيه من التثبيت والتأكيد ما ليس في قولك: قام زيد، فإذا نفيتَه قلتَ: لمَّا يقُم زيد، وإذا قلتَ: قام زيد، كان نفيُه: لم يقُم زيد. قاله سيبويه وغيرُه[٣].

وقال الزمخشريّ[٤]: و«لمَّا» بمعنى «لم» إلا أنَّ فيه ضرباً من التوقُّع، فدلّ على نفي الجهاد فيما مضى، وعلى توقُّعه فيما يُستقبل، وتقول: وعدَني أنْ يفعلَ كذا ولمَّا، تريد: ولم يفعل وأنا أتوقَّعُ فِعْلَه. انتهى كلامه.

وهذا الذي قاله في «لمَّا» إنَّها تدلُّ على توقُّع الفعل المنفيِّ بها فيما يُستقبل لا أعلمُ أحداً من النحويِّين ذكره، بل ذكروا أنك إذا قلتَ: لمَّا يخرجْ زيد؛ دلَّ ذلك على انتفاء الخروج فيما مضى متصلاً نفيُه إلى وقت الإخبار، أمَّا أنها تدلُّ على توقُّعه في المستقبل فلا، لكنَّني وجدتُ في كلام الفرَّاء شيئاً يقاربُ ما قاله الزمخشريُّ، قال: «لمَّا» لتعريض الوجود بخلاف «لم».

(١) في تفسير الرازي ٩/ ١٩ (والكلام فيه): ولم يقع.
(٢) في المصدر السابق: الطاعة، بدل: القاعدة.
(٣) ينظر الكتاب ٣/ ١١٧.
(٤) الكشاف ١/ ٤٦٧.

وقرأ الجمهور بكسر الميم لالتقاء الساكنين، وقرأ ابن وثَّاب والنَّخَعي بفتحها، وخُرِّجَ على أنه إتْباعٌ لفتحة اللام[١]، وعلى إرادة النون الخفيفة وحذفها كما قال الشاعر:

لا تُهِينَ الفقيرَ عَلَّكَ أنْ تَرْ كَعَ يوماً والدَّهرُ قدْ رَفَعَهْ[٢]

وقرأ الجمهور: «ويعلمَ» بفتح الميم[٣]، فقيل: هو مجزوم وأتبعَ الميمَ اللامَ في الفتح كقراءة من قرأ: «ولمَّا يعلمَ» بفتح الميم على أحد التخريجين.

وقيل: هو منصوب؛ فعلى مذهب البصريِّين بإضمار «أنْ» بعد واو «مع» نحو: لا تأكلِ السَّمكَ وتشربَ اللبنَ. وعلى مذهب الكوفيين بواو الصَّرْف، وتقريرُ المذهبين في علم النحو.

وقرأ الحسن وابنُ يَعْمَر وأبو حَيْوَة وعَمرو بنُ عُبيد بكسر الميم عطفاً على «ولمَّا يعلم»[٤].

وقرأ عبد الوارث عن أبي عَمْرو: «ويعلمُ» برفع الميم؛ قال الزمخشريّ[٥]: على أن الواو للحال، كأنه قيل: ولمَّا تُجاهدوا وأنتم صابرون. انتهى.

ولا يصحّ ما قال، لأنَّ واو الحال لا تدخلُ على المضارع، لا يجوز: جاء زيدٌ ويضحكُ، وأنت تريد: جاء زيدٌ يضحك، لأنَّ المضارع واقعٌ موقعَ اسم الفاعل، فكما لا يجوز: جاء زيدٌ وضاحكاً، كذلك لا يجوز: جاء زيدٌ ويضحكُ، فإنْ أُوِّلَ على أنَّ المضارع خبرُ مبتدأ محذوف أمكنَ ذلك، التقدير: وهو يعلمُ الصابرين، كما أوَّلُوا قولَه:

نَجَوْتُ وأرْهَنُهُمْ مالِكا[٦]

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥١٥.

(٢) الصحاح (هون)، ومغني اللبيب ص٨٤١-٨٤٢. قال الجوهري: أراد: لا تُهِينَنْ، فحذف النون الخفيفة لما استقبلها ساكن.

(٣) في (أ) و(د١) و(د٢) و(ع) و(يه) والمطبوع: برفع الميم. وهو خطأ.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥١٥.

(٥) الكشاف ١/ ٤٦٧، والقراءة عن عبد الوارث فيه وفي القراءات الشاذة ص٢٢.

(٦) هو عجز بيت لعبد الله بن همام السَّلُولي، وصدره: فلما خشيتُ أظافيرَهم. وهو في إصلاح المنطق ص٢٧٧، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٣٦٧. وروايتُه في الصحاح (رهن): وأرهنتُهم. وينظر الكلام عليه فيه وفي إصلاح المنطق.

أي: وأنا أَرْهَنُهُم. وخرَّجَ غيرُ الزمخشريّ قراءةَ الرفع على استئناف الإخبار، أي: وهو يعلمُ الصابرين.

وفي إنكار اللهِ تعالى على مَنْ ظَنَّ أنَّ دخول الجنة يكون مع انتفاء الجهاد والصبر عند لقاء العدوّ دليلٌ على فرضيَّة الجهاد إذ ذاك والثباتِ للعدوّ، وقد ذُكر في الحديث أنَّ التَّوَلِّي عند الزَّحْف من السَّبْع المُوبِقات[١].

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ الخطابُ للمؤمنين، وظاهرُه العمومُ والمرادُ الخصوص، وذلك أنَّ جماعةً من المؤمنين لم يحضُروا غزوة بدر، إذْ كان رسولُ الله ﷺ إنَّما خرجَ مبادراً يريد عِيراً لقُريش، فلم يظنُّوا حَرْباً، وفازَ أهلُ بدرٍ بما فازُوا به من الكرامة في الدنيا والآخرة، فتَمَنَّوْا لقاءَ العدوّ ليكون لهم يومٌ كيوم بدر، وهم الذين حرَّضوا على الخروج لأُحُد، فلمَّا كان في يوم أُحُد ما كان من قتل عبدِ الله بنِ قَمِئة مصعبَ بنَ عُمير الذَّابَّ عن رسول الله ﷺ ظانًّا أنه رسولُ الله وقال: قتلتُ محمداً، وصرخَ بذلك صارخٌ، وفشا ذلك في الناس، انكفؤوا فارِّين، فدعاهم الرسولُ ﷺ: «إليَّ عبادَ الله» حتى انحازَتْ إليه طائفة واستعذرُوا في انكفائهم بأنه أتانا خَبَرُ قتلِك، فرَعَبَتْ قلوبُنا فولَّينا مدبرين. فنزلت هذه الآية تلومُهم على ما صدرَ منهم مع ما كانوا قرَّرُوا على أنفسهم من تمنِّي الموت[٢].

وعبَّر عن ملاقاة الرِّجال ومجالدتهم[٣] بالحديد بالموت؛ إذْ هي حالةٌ تتضمَّن في الأغلب الموت، فلا يتمنَّاها إلا من طابَتْ نفسُه بالموت؛ ومتمنِّي الموت في الجهاد ليس متمنّياً لغلبةِ الكافر المسلمَ، إنَّما يجيء ذلك في الضِّمن، لا أنه مقصودٌ، إنما مقصِدُه[٤] نَيْلُ رتبةِ الشهادة لِما فيها من الكرامة عند الله.

(١) أخرج البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) عن أبي هريرة مرفوعاً: «اجتنبوا السبع الموبقات...» وذكر منها التولِّي يوم الزحف. وينظر حكم الفِرار يوم الزَّحف في تفسير القرطبي ٩/ ٤٧١.
(٢) ينظر تفسير الطبري ٦/ ٩٣-٩٦ و١٠٠، والكلام بنحوه في الكشاف ١/ ٤٦٧-٤٦٨.
(٣) في (ب) و(د٣) و(ز٢): وتجالدهم.
(٤) في (أ) و(ب) و(د٢): مقصوده. وكذا الكلمة التي قبلها في (ب).

وأنشد عبد الله بنُ رَوَاحة وقد نهضَ إلى مُؤْتَة وقيل له: رَدَّكُم الله تعالى، فقال:

لكنَّني أسألُ الرحمن مغفرةً وضَرْبَةً ذاتَ فَرْغٍ تقذِفُ الزَّبَدَا
حتى يقولوا إذا مَرُّوا على جَدَثي أَرْشَدَكَ اللهُ من غازٍ وقد رَشَدَا[(١)]

﴿مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ﴾ أي: من قبلِ أن تُشاهدوا شدائدَه ومضائقَه. وضمير المفعول في «تَلْقَوْه» عائدٌ على الموت، وقيل: على العدوّ، وأُضمِرَ لدلالة الكلام عليه، والأوَّل أظهر، لأنه يعود على مذكور.

وقرأ النَّخَعيُّ والزُّهريّ: «تُلاقُوه»[(٢)]، ومعناها ومعنى «تَلْقَوْهُ» سَواءٌ من حيث إنَّ معنى «لَقِيَ» يتضمَّن أنه من اثنين وإنْ لم يكن على وزن فاعل.

وقرأ مجاهد: «من قبلُ» بضمّ اللام مقطوعاً عن الإضافة[(٣)]، فيكون موضع «أنْ تَلْقَوْه» نصباً على أنه بدل اشتمال من الموت.

﴿فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ﴾ أي: عاينتُم أسبابَه، وهي الحربُ المستعرة، كما قال:

لقد رأيتُ الموتَ قبلَ ذَوْقِهِ[(٤)]

وقال:

وَوَجَدْتُ رِيحَ المَوْتِ من تِلْقَائِهِمْ في مأزِقٍ والخيلُ لم تتبَدَّدِ[(٥)]

وقيل: معنى الرؤية هنا العلم، ويحتاج إلى حذف المفعول الثاني، أي: فقد علمتُم الموتَ حاضراً، وحُذِفَ لدلالة المعنى عليه، وحَذْفُ أحد مفعولي «ظَنَّ» وأخواتها عزيزٌ جدًّا، ولذلك وقعَ فيه الخلاف بين النَّحويِّين.

---

(١) ينظر خبرُ مؤتة في سيرة ابن هشام ٣/ ٣٧٤، والاستيعاب ص٣٩٦. والكلام أعلاه في الكشاف ١/ ٤٦٧. قوله: ذات فَرْغ، أي: طعنة يسيلُ منها الدم.

(٢) القراءات الشاذة ص٢٢، والمحرر الوجيز ١/ ٥١٥.

(٣) المصدران السالفان.

(٤) الرَّجَز لعمرو بن أمامة، وبعده: إنَّ الجَبَانَ حَتْفُهُ من فوقِهِ. وهو في العقد الفريد ٣/ ١٣١ برواية: لقد وجدتُ الموتَ. . .، وفي مجمع الأمثال ١/ ١٠ برواية: لقد حَسَوْتُ الموت. . .، والرواية أعلاه في المحرر الوجيز ١/ ٥١٥.

(٥) البيت للحارث بن هشام المخزومي، وهو في شرح الحماسة للتبريزي ١/ ٩٨، وفيه: وشمَمْتُ ريحَ. . .، والمحرر الوجيز ١/ ٥٠٥.

وقرأ طلحة بنُ مصرِّف: «فلقد» باللام[١].

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ جملة حاليَّة للتأكيد ورفعِ ما يحتمله «رأيتموه» من المجاز أو من الاشتراك الذي بين رؤية القلب ورؤية العين، أي: معايِنين مشاهِدين له حين قُتل بين أيديكم مَنْ قُتل من إخوانكم وأقاربِكم، وشارفتُم أن تُقتلوا، فعلى هذا يكون متعلَّق النظر متعلَّق الرؤية، وهذا قول الأخفش، وهو الظاهر. وقيل: وأنتم بُصَراء، أي: ليس بأعينكم عِلَّة. ويرجع معناه إلى القول الأوَّل، وقاله الزجَّاج والأخفش أيضاً[٢].

وقيل: تنظرون إلى محمد ﷺ وما فُعل به. وقيل: تنظرون نَظَرَ تأمُّل بعد الرؤية. وقيل: تنظرون في أسباب النَّجاة والفِرار، وفي أمرِ رسول الله ﷺ هل قُتل أم لا. وقيل: تنظُرون ما تَمنَّيتُم. وهو عائدٌ إلى الموت[٣]. وقيل: تنظُرون في فعلكم الآن بعد انقضاء الحرب هل وفَّيتُم أو خالفتُم. فعلى هذا المعنى لا تكون جملةً حاليةً، بل هي جملةٌ مستأنفَة الإخبار، أتى بها على سبيل التوبيخ، كأنه قيل: وأنتم حُسَباءُ أنفسِكم، فتأمَّلوا قُبْحَ فِعْلِكم[٤].

وهذه الآية وإن كانت صيغتُها صيغةَ الخبر، فمعناها العَتْبُ والإنكار على من انهزم يومَ أُحُد، وفيها محذوف أخيراً بعد قوله: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي: ففرَرْتُم[٥] بعد رؤية أسبابه، وكشف الغيب أنَّ متعلق تمنّيكم نكصتم عنه.

وقال ابن الأنباريّ: يقال: إن معنى «رأيتُموه»: قابلتُموه «وأنتم تنظُرون» بعيونكم، ولهذه العلَّةِ ذكر النظرَ بعد الرؤية حين اختلف معناهما، لأنَّ الأوَّل بمعنى المقابلة والمواجهة، والثاني بمعنى رؤية العين. انتهى. ويكون إذ ذاك «وأنتم تنظرون» جملة في موضع الحال المبيِّنة لا المؤكِّدة، إلا أنَّ المشهور في اللغة أن الرؤية هي الإبصار لا المقابلة والمواجهة.

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥١٥.
(٢) معاني القرآن للأخفش ١/ ٤٢١-٤٢٢، وللزجَّاج ١/ ٤٧٣. وينظر الكشاف ١/ ٤٦٧، والمحرر الوجيز ١/ ٥١٦، وزاد المسير ١/ ٤٦٨.
(٣) في (ع) والمطبوع: على الموت.
(٤) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٥١٦.
(٥) المثبت من (د٣) و(ز٢). وفي النسخ الأخرى: تفرُّقهم.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ هذا استمرار في عتبهم، أخبر أنَّ محمداً رسولٌ كمن مضى من الرُّسل، بلَّغَ عن الله كما بلَّغوا، وليس بقاءُ الرسل شرطاً في بقاء شرائعهم، بل هم يموتون وتَبْقَى شرائعُهم يلتزمُها أتباعُهم، فكما مضت الرسل وانقضَوْا، فكذلك حُكْمُهم هو في ذلك واحد.

وقرأ الجمهور: «الرُّسُل» بالتعريف على سبيل التفخيم للرسل، والتنويه بهم على مقتضى حالهم من الله، وفي مصحف عبد الله: «رُسُل» بالتنكير، وبها قرأ ابنُ عباس وحِطَّانُ بنُ عبد الله[1]، ووجهُها أنه موضع تيسير لأمر النبيِّ ﷺ في معنى الحياة، ومكانُ تسوية بينه وبين البشر في ذلك، وهكذا يفعل في أماكن الاقتصاد[2] بالشيء ومنه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] إلى غير ذلك. ذكر هذا الفرقَ بين التعريف والتنكير في نحو هذا المساق أبو الفتح[3]، وقراءةُ التعريف أوجه؛ إذ تدلُّ على تساوي كلٍّ في الخلق والموت، فهذا الرسول هو مثلُهم في ذلك.

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ لـمَّا صُرِخَ بـأنَّ مـحـمـداً قـد قُـتـل؛ تزلزلت أقدام المؤمنين، ورَعَبَتْ قلوبُهم، وأمعنوا في الفِرار، وكانوا ثلاثَ فِرَق؛ فرقة قالت: ما نصنعُ بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟! قاتِلُوا على ما قاتَلَ عليه، فقاتَلُوا حتى قُتِلوا، منهم أنسُ بنُ النَّضر. وفرقة قالوا: نُلقي إليهم بأيدينا، فإنهم قومُنا وبنو عمِّنا. وفرقة أظهرت النِّفاق وقالوا: ارجعوا إلى دينكم الأوَّل، فلو كان محمدٌ نبيًّا ما قُتل[4].

وظاهر الانقلاب على العقبين هو الارتداد. وقيل: هو بالفِرار لا الارتداد، وقد جاء هذا اللفظ في الارتداد والكفر في قوله: ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهذه الهمزة هي همزة الاستفهام الذي معناه الإنكار، والفاء للعطف، وأصلُها

(١) المحتسب ١/١٦٨، والمحرر الوجيز ١/٥١٦، وتفسير القرطبي ٥/٣٤١.
(٢) في (أ) و(د٣) و(ع): الاقتصار.
(٣) المحتسب ١/١٦٨، والكلام أعلاه بنحوه في المحرر الوجيز ١/٥١٦.
(٤) بنحوه في أسباب النزول للواحدي ص١٢٠ عن عطية العَوْفي.

التقديم، إذ التقدير: فأإنْ ماتَ، لكنهم يعتنون بالاستفهام فيقدِّمونه على حرف العطف، وقد تقدَّم لنا مثل هذا وخلافُ الزمخشري فيه.

وقال الخطيب[١] كمال الدين الزَّمَلْكانيّ[٢]: الأوجه أن يقدَّر محذوف بعد الهمزة وقبل الفاء تكون الفاء عاطفة عليه، ولو صُرِّح به لقيل: أتؤمنون به مدَّة حياته، فإنْ ماتَ ارتدَدْتُم فتُخالفوا سُنن اتِّباع الأنبياء قبلكم في ثباتهم على ملل أنبيائهم بعد وفاتهم؟ انتهى. وهذه نزعة زمخشريَّة. وقد تقدَّم الكلام معه في نحو ذلك، وأنّ هذه الفاء إنما عطفت الجملة المستفهم عنها على الجملة الخبرية قبلَها.

وهمزةُ الاستفهام داخلة على جملة الشرط وجزائه، وجزاؤه هو «انقلبتُم» فلا تغيِّرُ همزةُ الاستفهام شيئاً من أحكام الشَّرط وجزائه، فإذا كانا مضارعَيْن كانا مجزومَين. نحو: أإنْ تأتِني آتِك.

وذهب يونس[٣] إلى أنَّ الفعل الثاني ينبني[٤] على أداة الاستفهام، فيُنوى به التقديم، ولا بدَّ إذ ذاك من جعل الفعل الأول ماضياً لأنَّ جواب الشرط محذوف، ولا يُحذف الجواب إلا إذا كان فعلُ الشرط لا يظهر فيه عملٌ لأداة الشرط، فيلزم عنده أن تقول: أإنْ أكْرَمْتَني أُكرِمُك[٥]؟ التقدير فيه: أأُكرِمُك إنْ أكرمتَني؟ ولا يجوز عنده: أإنْ تُكرِمْني أُكرِمْك؟ بجزمهما أصلاً، ولا: أإنْ تُكرِمْني أُكرِمُك؟ بجزم الأول ورفع الثاني إلا في ضرورة الشعر.

والكلام على هذه المسألة مستوفًى في علم النحو، فعلى مذهب يونس تكون همزة الاستفهام دخلت في التقدير على «انقلبتُم» وهو ماضٍ معناه الاستقبال لأنه مقيَّد بالموت أو بالقتل، وجوابُ الشرط عند يونس محذوف.

---

(١) في (أ) و(ع): ابن الخطيب. قلت: ويقال له: ابن خطيب زَمَلْكا، كما في طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٣١٦.

(٢) سلف ذكرُه في نحو هذه المسألة عند تفسير الآية (١٠٦): ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ وسمَّاه المصنف ثمة: عبد الواحد بن عبد الله بن خلف الأنصاري، وذكرت في التعليق عليه أنَّ اسمه في مصادر ترجمته عبد الواحد بن عبد الكريم بن خَلَف.

(٣) هو ابنُ حبيب النَّحْويّ، من أصحاب أبي عَمرو بن العَلَاء، وتكرر ذكره.

(٤) في (ب) و(د٣) و(يه): يبنى. ومكانها سواد في (ح).

(٥) يعني بالرفع. وينظر الدر المصون ٣/ ٤١٧.

وبقول يونس قال كثيرٌ من المفسِّرين في الآية؛ قالوا: ألفُ الاستفهام دخلت في غير موضعها؛ لأنَّ الغرض إنما هو: أتنقلبون على أعقابكم إنْ ماتَ محمد؟ ودخلت «إنْ» هنا على المحقَّق وليس من مظانِّها، لأنه أُورِدَ موردَ المشكوكِ فيه للتردُّد بين الموت والقتل وتجويز قتلِه عند أكثر المخاطَبين، ألا ترى إليهم حين سمعوا أنه قُتل اضطربوا وفرُّوا وانقسموا إلى ثلاث فِرَق، ومَنْ ثبتَ منهم فقاتل حتى قُتل؛ قال بعضُهم: يا قوم، إنْ كان محمدٌ قد قُتل فإنَّ ربَّ محمد لم يُقتل، مُوتُوا على ما ماتَ عليه. وقال بعضهم: إنْ كانَ محمدٌ قد قُتل فإنَّه قد بلَّغ، فقاتِلُوا عن دينكم(١). فهذا يدلُّ على تجويز أكثرِ المخاطَبين لأنْ يُقتلَ، فأمَّا العلمُ بأنه لا يُقتل من جهة قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] فهو مختصٌّ بالعلماء من المؤمنين وذوي البصيرة منهم ومن سمعَ هذه الآيةَ وعرفَ سببَ نزولها(٢).

﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ أي: مَنْ رجعَ إلى الكفر أو ارتدَّ فارًّا عن القتال، وعمَّا كان عليه الرسولُ ﷺ من أمر الجهاد على التفسيرَيْن السابقين.

وهذه الجملةُ الشرطيَّة هي عامَّة في أنَّ كلَّ مَن انقلبَ على عقبيه فلا يضرُّ إلا نفسَه، ولا يلحقُ من ذلك شيءٌ للهِ تعالى؛ لأنه تعالى لا يجوزُ عليه مضارُّ العبد، ولم تقع رِدَّةٌ من أحدٍ من المسلمين في ذلك اليوم إلا ما كان من قول المنافقين(٣).

وقرأ الجمهور: «على عَقِبَيْه» بالتثنية، وقرأ ابنُ أبي إسحاق: «على عَقِبِهِ» بالإفراد(٤).

وانتصابِ «شيئاً» على المصدر، أي: شيئاً من الضرر لا قليلاً ولا كثيراً، والانقلابُ على الأعقاب أو على العَقِبَيْنِ أو العَقِب من باب التمثيل، مُثِّلَ مَنْ يرجعُ إلى دينه الأوَّل بمن ينقلبُ على عقبيه. وتضمَّنت هذه الجملة الوعيدَ الشديد.

---

(١) ينظر تفسير الطبري ٦/ ٩٨-١٠٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥١٧.
(٢) ينظر الكشاف ١/ ٤٦٨.
(٣) المصدر السالف.
(٤) ذكرها السمين في «الدر المصون» ٣/ ٤١٨.

﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وَعْدٌ عظيمٌ بالجزاء، وجاء بالسين التي هي في قول بعضهم: قريبة التنفيس[١] في الاستقبال، أي: لا يتأخَّر جزاءُ الله إيَّاهم عنهم.

والشاكرون[٢]: هم الذين صبرُوا على دينه وصدقُوا الله فيما وعدُوه وثبتُوا، شكرُوا نعمةَ الله عليهم بالإسلام ولم يكفروها، كأنس بنِ النَّضْر وسَعْد بن الرَّبيع، والأنصاريِّ الذي كان يَتَشحَّطُ في دمه وغيرِهم ممَّن ثبتَ ذلك اليوم[٣].

والشاكرون لفظ عامٌّ يندرجُ فيه كلُّ شاكر فعلاً وقولاً. وقد تقدَّم الكلام على الشكر.

وظاهرُ هذا الجزاء أنه في الآخرة. وقيل: في الدنيا بالرِّزق والتمكين في الأرض.

وفسَّرُوا «الشاكرين» هنا بالثابتين على دينهم. قاله عليّ. وقال هو والحسنُ بنُ أبي الحسن: أبو بكر أميرُ الشاكرين[٤]. يشيران إلى ثباته يومَ ماتَ رسول الله ﷺ واضطرابِ الناس إذ ذاك وثباتِه في أمر الرِّدَّة وما قام به من أعباء الإسلام، وفُسِّر أيضاً بالطائعين.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قال الزمخشريّ[٥]: المعنى أن موت الأنفس مُحال أن يكون إلا بمشيئة الله، فأخرجه مخرجَ فعلٍ لا ينبغي لأحد أن يُقدم عليه إلا أن يأذنَ الله له فيه تمثيلاً، ولأن مَلَكَ الموت هو الموكَّل بذلك، فليس له أن يَقبِضَ نفساً إلا بإذن من الله، وهو على معنيين:

---

(١) في (د١) و(د٢) والمطبوع: التفسير. وهو تحريف. وكلمة «قريبة» أثبتُّها من (ز٢)، ووقع بدلها في النسخ الأخرى: قرينة. وقد ذكر المصنف معنى دلالة السين على قرب الاستقبال عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧] وذكر أنها أقرب في التنفيس من «سوف».

(٢) في (أ) و(ب) و(د٣) و(ز٢) و(ع): والشاكرين (على لفظ الآية).

(٣) ينظر تفسير الطبري ٦/ ٩٩-١٠٢، والمحرر الوجيز ١/ ٥١٧. وسلف نحو هذا الكلام قريباً. وينظر خبر أنس بن النَّضر (وهو عمُّ أنس بن مالك) عند البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣).

(٤) تفسير الطبري ٦/ ٩٧-٩٨، والمحرر الوجيز ١/ ٥١٧، وزاد المسير ١/ ٤٦٩. والقول فيها عن علي. ولم أقف على من ذكره عن الحسن بن أبي الحسن (وهو البصري).

(٥) الكشاف ١/ ٤٦٨.

أحدُهما: تحريضُهم على الجهاد وتشجيعُهم على لقاء العدوّ بإعلامهم أنَّ الحذَر لا ينفع، وأنَّ أحداً لا يموتُ قبلَ بُلُوغِ أجلِه وإنْ خَوَّضَ المهالكَ واقتحمَ المعارك.

والثاني: ذكرُ ما صنع الله تعالى برسوله عند غلبة العدوّ والتفافهم عليه وإسلام قومه له نُهْزَةً للمختلس من الحفظ والكلاءة وتأخُّر الأجل. انتهى كلام الزمخشريّ. وهو حسن، وهو بسطَ كلام غيره من المفسِّرين أنه لا تموتُ نفسٌ إلا بأجل محتوم، فالجُبْنُ لا يزيدُ في الحياة، والشجاعةُ لا تَنْقُصُ منها.

وفي هذه الجملة تقويةٌ للنفوس على الجهاد، وفيها تسليةٌ في موتِ النبيِّ ﷺ.

وقولُ العرب: ما كان لزيدٍ أن يفعل: معناه انتفاءُ الفعل عن زيد وامتناعُه، فتارةً يكونُ الامتناعُ في مثل هذا التركيب لكونه ممتنعاً عقلاً، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥] وقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النمل: ٦٠] وتارةً لكونه ممتنعاً عادةً، نحو: ما كان لزيدٍ أن يطير، وتارةً لكونه ممتنعاً شرعاً، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٢] وتارةً لكونه ممتنعاً أدباً، كقول أبي بكر: ما كان لابنِ أبي قُحافة أن يُصَلِّيَ بين يَدَيْ رسول الله ﷺ[١]. ويُفهم هذا من سياق الكلام، ولا تتضمَّن هذه الصيغة نهياً كما يقوله بعضُهم.

وقوله: «النفسِ» المرادُ الجنس لا نفسٌ واحدة، ومعنى «إلا بإذْنِ الله» أي: بتمكينه وتسويغِه ذلك. وقد تقدَّم شرحُ الإذْن. والأحسنُ فيه أنه تمكين من الشيء مع العلم به، فإن انضافَ إلى ذلك قولٌ فيكون أمراً[٢]، والمعنى: إلا بإذن الله للمَلَكِ المُوَكَّل بالقَبْض.

و«أنْ تموتَ» في موضع اسم «كان»، و«النفسِ» هو في موضع الخبر، فيتعلَّق

(١) قطعة من حديث سهل بن سعد الساعديّ ﷺ في قصة تأخُّر رسول الله ﷺ عن الصلاة حيث كان يُصلح بين بني عمرو بن عوف، فتقدَّم أبو بكر ﷺ وصلَّى بالناس، فجاء رسول الله ﷺ والناس في الصلاة... الخ. أخرجه أحمد (٢٢٨٠٧)، والبخاري (٦٨٤)، ومسلم (٤٢١).

(٢) المحرر الوجيز ١/٥١٨.

بمحذوف، وجعل بعضُهم «كان» زائدة، فيكون «أنْ تموتَ» في موضع مبتدأ، و«النفسِ» في موضع خبره.

وقدَّره الزجَّاج على المعنى، فقال: وما كانت نفسٌ لتموت[1]. فجعلَ ما كان اسماً خبراً، وما كان خبراً اسماً، ولا يريد بذلك الإعراب إنما فسَّر من جهة المعنى.

وقال أبو البقاء[2]: اللام في «لنفسٍ» للتَّبيين متعلِّقة بـ «كان». انتهى. وهذا لا يتمُّ إلا إن كانت «كان» تامَّة.

وقولُ من قال: هي متعلّقة بمحذوف تقديرُه: وما كان الموتُ لنفسٍ، و«أنْ تموتَ» تبيينٌ للمحذوف؛ مرغوبٌ عنه، لأنَّ اسم «كان» إن كانت ناقصة أو الفاعل إن كانت تامَّة لا يجوزُ حذفُه، ولِما في حذفه أنْ لو جاز من حذف المصدر وإبقاءِ معمولِه، وهو لا يجوز على مذهب البصريين.

﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ أي: له أجلٌ لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، وفي هذا ردٌّ على المعتزلة في قولهم بالأجلَين[3]، والكتابةُ هنا عبارةٌ عن القضاء. وقيل: مكتوباً في اللوح المحفوظ مبيَّناً فيه[4].

ويحتمل هذا الكلام أن يكون جواباً لقولهم: «لو كانوا عندنا ما ماتُوا وما قُتلوا».

وانتصاب «كتاباً» على أنه مصدر مؤكِّد لمضمون الجملة السابقة، والتقدير: كتبَ اللهُ كتاباً مؤجَّلاً. ونظيرُه: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٤] ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٨٨] و﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾ [الروم: ٦].

وقيل: هو منصوب على الإغراء، أي: اِلْزَمُوا وآمِنُوا بالقَدَر. وهذا بعيد.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٧٤. ونقله السمين في الدُّرّ المصون ٣/ ٤١٨ وزاد قولَه: ثم قُدِّمت اللام.

(٢) الإملاء ١/ ١٥١.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥١٨. وينظر تفسير القرطبي ٥/ ٣٤٨.

(٤) تفسير الثعلبي ٢/ ١٦٢.

وقال ابن عطية: «كتاباً» نُصب على التمييز[١]. وهذا لا يظهر، فإنَّ التمييز كما قسَّمه النُّحاة ينقسم إلى منقول وغير منقول، وأقسامُه في النوعين محصورة، وليس هذا واحداً منها.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ هذا تعريضٌ بالذين رغبُوا في الغنائم يومَ أُحُد واشتغلُوا بها والذين ثبتُوا على القتال فيه ولم يَشْغَلْهُم شيء عن نُصرة الدِّين، وهذا الجزاءُ من إيتاء الله مَنْ أرادَ ثوابَ الدُّنيا مشروطٌ بمشيئة الله تعالى كما جاء في الآية الأخرى: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

وقوله: «نُؤتِه» بالنون فيهما وفي «سنجزي» قراءةُ الجمهور، وهو التفات، إذ هو خروجٌ من غَيْبَةٍ إلى تكلُّم بنون العظمة. وقرأ الأعمش «يُؤته» بالياء فيهما وفي «سيجزي» وهو جارٍ على ما سبقَ من الغَيْبَة. قال ابن عطيَّة[٢]: وذلك على حذف الفاعل لدلالة الكلام عليه. انتهى. وهو وهم، وصوابُه: على إضمار الفاعل، والضميرُ عائد على الله.

وظاهرُ التقسيم يقتضي اختصاصَ كلٍّ واحدٍ بما أراد، لأنَّ مَنْ كانت نيَّتُه مقصورةً على طلب دنياه لا نصيبَ له في الآخرة، لكن مَنْ كانت نيَّتُه مقصورةً على طلب الآخرة قد يُؤتَى نصيباً من الدُّنيا.

وللمفسِّرين فيها أقوالٌ: نُؤْتِهِ نصيباً[٣] من الغنيمة لجهاده الكفار، أو: لم نَحرِمْه ما قسمناه له، إذْ مَن طلبَ الدُّنيا بعمل الآخرة نُؤته منها وما لَه في الآخرة من نصيب، أو هي خاصَّةٌ في أصحاب أُحُد، أو مَنْ أرادَ ثوابَ الدُّنيا بالتعرُّض لها بعمل النَّوافل مع مواقعة الكبائر جُوزِيَ عليها في الدُّنيا دون الآخرة[٤].

---

(١) المحرر الوجيز ١/٥١٨.
(٢) المصدر السابق، وفيه قراءة الأعمش، وهي أيضاً في القراءات الشاذة ص٢٢، وذكر الثعلبي في التفسير ٢/١٦٢: «سيجزي». ذكر الزمخشري ١/٤٦٩ اللفظتين دون نسبة.
(٣) في (أ) و(ع): نصيبه.
(٤) في النسخ الخطية: في الدنيا والآخرة. والتصويب من النكت والعيون ١/٤٢٨.

﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وَعْدٌ لمن شكر نِعَمَ الله، فقَصَرَ همَّه ونيَّته على طلب ثواب الآخرة. قال ابن فُورَك: وفيه إشارةٌ إلى أنهم يُنعِّمُهم اللهُ بنعيم الدنيا، ولا يَقْصُرهم على نعيم الآخرة[1].

وأظهرَ الحِرْمِيَّان وعاصمٌ وابنُ عامر في بعض طرق راوِيَيْهِ: هشام وابنِ ذكوان دال «يُرِدْ» عند ثاء «ثواب»، وأدغمَ الباقون. وقرأ الأبَوان وحمزةُ: «نُؤْتِهْ» بإسكان الهاء فيهما في الوصل[2]. وقرأ قالون والحلوانيّ عن هشام من طريقٍ باختلاسِ الحركةِ. وقرأ الباقون بالإشباع، وأمَّا في الوقف فبالسُّكون للجميع[3].

ووجْهُ الإسكان بأنَّ الهاء لمَّا وقعت موقع المحذوف الذي كان حقُّه لو لم يكن حرفَ علَّة أن يُسكَّن، فأعطيت الهاء ما يستحقه من السُّكون، ووجْهُ الاختلاس بأنه استصحب ما كان للهاء قبل أن تُحذف الياء، لأنه قبل الحذف كان أصلُه: «نؤتيه» والحذف عارض فلا يعتدُّ به، ووجْهُ الإشباع بأنه جاز نظراً إلى اللفظ وأنَّ الهاء[4] متصلة بحركة.

والأولى تركُ هذه التوجيهات، فإنَّ اختلاسَ الضمة والكسرة بعد متحرك لغةٌ حكاها الكسائيُّ عن بني عُقيل وبني كلاب؛ قال الكسائيُّ: سمعتُ أعراب كلاب وعُقيل يقولون: «إنَّ الإنسان لربِّهْ لَكَنُود»[5] «لربِّهِ لكَنُود» بغير تمام، و«لَهْ مالٌ» و«لَهُ مالٌ»، وغيرُ بني كلاب وبني عُقيل لا يوجد في كلامهم اختلاس ولا سكون في «له» وشبهِهِ إلا في ضرورة نحو قول الشاعر:

لــهُ زَجَــلٌ كــأنَّــهُ صَــوْتُ حــادٍ إذا طَـلَـبَ الـوَسِـيـقَـةَ أو زَمِـيـرُ[6]

---

(١) المحرر الوجيز ١/٥١٨.
(٢) قولُه: «الباقون وقرأ الأبوان وحمزة نؤته بإسكان الهاء فيهما» من (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه)، وسقط من (أ) و(ح) و(د١) و(د٢) و(ع). ويعني بالأبوين: أبا عمرو البصري، وأبا بكر بن عياش.
(٣) السبعة ص٨٩: وينظر التيسير ص٢٠٨-٢١٢.
(٤) في (ب) و(د٣): ولأن الهاء، وفي (أ) و(ح) و(د١) و(د٢) و(ع): وإن كان الهاء، والمثبت من (ز٢) و(يه). وينظر الدر المصون ٣/ ٤٢٠.
(٥) يعني بسكون الهاء. وينظر كلام الكسائي هذا في لسان العرب (ها) ١٥/ ٤٧٧. وينظر ما سلف في تفسير قوله: «يؤدِّه إليك» الآية (٧٥).
(٦) البيت للشمَّاخ، وسلف عند تفسير الآية (٧٥)، والشاهدُ فيه اختلاس ضمة الهاء في «كأنَّه»، ويجوز فيها السكون.

وقول الآخر:

وأَشْرَبُ الماءَ ما بي نحوَه عَطَشٌ إلا لأنَّ عُيونَهْ سَيْلُ وَادِيها[١]

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ لمَّا كان من المؤمنين ما كان يومَ أُحد وعَتَبَ الله عليهم ما صَدَرَ[٢] منهم في الآيات التي تقدَّمت؛ أخبرَهم بأنَّ الأمم السالفة قُتِلتْ أنبياءُ لهم كثيرون أو قُتل رِبِّيُّون كثيرٌ معه، فلم يلحقهم ما لحقَكم من الوَهْن والضَّعف ولا ثناهم عن القتال فَجْعُهُمْ بقَتْل أنبيائهم أو قَتْلِ رِبِّيِّيهم[٣]، بل مَضَوْا قُدُمًا في نُصْرَةِ دينهم صابرين على ما حَلَّ بهم، إذْ قَتْلُ نبيٍّ أو أتباعِهِ من أعظم المُصاب، فكذلك كان ينبغي لكم التأسِّي بمن مَضَى من صالحي الأمم السابقة. هذا وأنتم خيرُ الأمم، ونبيُّكم خيرُ الأنبياء. وفي هذه الجملة[٤] من العَتْب لمن فَرَّ عن النبيِّ ﷺ ما لا يخفى.

وقرأ الجمهور: «وكأَيِّن»، قالوا: وهي أصلُ الكلمة، إذ هي «أيٌّ» دخل عليها كاف التشبيه، وكُتبت بنون في المصحف، ووقف عليها أبو عَمرو وسَوْرَة بنُ المبارك عن الكسائيّ بياء دون نون، ووقف الجمهور على النون اتّباعاً للرسم، واعتلَّ لذلك أبو عليّ الفارسيّ بما يُوقف عليه في كلامه، وذلك على عادة المعلِّلين[٥].

وممَّا جاء على هذه اللغة قولُ الشاعر:

كأَيِّنْ[٦] في المعاشرِ[٧] من أناسٍ أَخُوهُمْ فوقَهم وهُمُ كِرامُ

(١) سلف البيت عند تفسير الآية (٧٥). والشاهد فيه إسكان الهاء في «عيونه».
(٢) في (أ) و(د١) و(د٢) و(ع): حذر، ومكانها سواد في (ح)، والمثبت من (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه).
(٣) في النسخ الخطية: وربِّيوهم. وأثبتُّ اللفظة على الجادَّة كما هي في المطبوع.
(٤) في (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه): الآية.
(٥) الحجة ٣/ ٨١-٨٢. وينظر المحرر الوجيز ١/ ٥١٩.
(٦) في (أ) و(ح) و(د٢) و(ع): وكائن. وفي (د١): وكأين. والمثبت من (ب) و(د٣) و(يه). وهو المراد من كلام المصنف، وكذا هي روايته في المحرر الوجيز ١/ ٥١٨، والدر المصون ٣/ ٤٢٢.
(٧) في (ز٢): العشائر.

وقرأ ابنُ كثير: «وكائنْ»، وهي أكثرُ استعمالاً في لسان العرب وأشعارِها. قال:

وكـائـنْ رَدَدْنـا عـنـكُـمُ مِـنْ مُـدَجَّـجٍ[١]

وقرأ ابن مُحَيصِن والأشهب العُقَيْليّ: «وكَأْيِنْ» على مثال: كَعْيِنْ، وقرأ بعضُ القُرَّاء من الشواذ: «كَيْئِنْ» وهو مقلوب قراءة ابن مُحَيْصِن. وقرأ ابنُ مُحَيْصِن أيضاً فيما حكاه الدانيّ: «كَئِنْ»[٢] على مثال: كَعٍ. وقال الشاعر:

كَئِنْ من صديقٍ خِلْتُهُ صادقَ الإخا أبانَ اختباري[٣] أنه لي مُداهِنُ

وقرأ الحسن: «كَيٍ» بكاف بعدها ياء مكسورة منوَّنة[٤].

وقد طوَّل المفسِّرون؛ ابنُ عطية وغيرُه بتعليل هذه التصرُّفات في «كَأَيِّنْ» وبما عُمل في «كائنْ» حتى صارت فيها هذه اللغات، وموضوعُ هذا علمُ النحو لا علمُ التفسير[٥]، فلذلك أضْرَبْنا عن ذكره صفحاً.

وقرأ الحِرْمِيَّان وأبو عَمرو: «قُتِلَ» مبنيًّا للمفعول، وقتادةُ كذلك، إلا أنه شدَّد التاء، وباقي السبعة: «قاتَلَ» بألف فعلاً ماضياً[٦]. وعلى كلٍّ من هذه القراءات يصلُحُ أن يُسنَدَ الفعلُ إلى الضمير، فيكون صاحبُ الضمير هو الذي قُتِلَ، أو قُتِّلَ

---

(١) هو صدر بيت لعمرو بن شاس، وعجزُه: يجيءُ أمام الألفِ يَرْدِي مُقَنَّعا. وهو بهذه الرواية في الكتاب ٢/ ١٧٠، وهو أيضاً في الحجة ٣/ ٨٠، والمحرر الوجيز ١/ ٥١٨ (وفيهما: القوم، بدل: الألف) وتفسير القرطبي ٥/ ٣٥٠ (وفيه: الركب، بدل: الألف). والبيت ضمن قصيدة في منتهى الطلب من أشعار العرب ٨/ ٥١ (وفيه: متوَّج، بدل: مُدَجَّج).

(٢) رُسمت في النسخ: كإن (وكذا في بيت الشعر الآتي). ورسمتُها حسب قواعد الإملاء. وينظر الكلام على هذه اللفظة في المحرر الوجيز ١/ ٥١٩.

(٣) في (أ) و(د٢) و(ع): اختياري. ولم أقف على البيت في المصادر قبل أبي حيان.

(٤) يعني أنه سهَّلَ الهمزة ياءً في قراءة ابنِ محيصن الثانية، فصارت: كَيٍ، كما ذكر ابنُ عطية في المحرر الوجيز.

(٥) قوله: حتى صارت فيها هذه اللغات. . . إلى هذا الموضع، من (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه)، وسقط من النسخ الأخرى.

(٦) السبعة ص٢١٧، والتيسير ص٩٠. وقراءة قتادة في المحتسب ١/ ١٧٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٠. والحِرْمِيَّان: نافع المدني، وابن كثير المكي.

على معنى التكثير بالنسبة لكثرة الأشخاص لا بالنسبة لفَرد فَرد، إذ القَتْلُ لا يتكثَّر في كلِّ فرد فرد. أو هو «قاتل»[١]، ويكون قولُه: «معه رِبِّيُّون» محتملاً أن يكون جملة في موضع الحال، فيرتفعُ «رِبِّيُّون» بالابتداء والظرف قبلَه خبرُه، ولم يحتج إلى الواو لأجل الضمير في «معه» العائد على ذي الحال. ومحتملاً أن يرتفع «رِبِّيُّون» على الفاعلية بالظرف، ويكون الظرف هو الواقع حالاً، التقدير: كائناً معه رِبِّيُّون. وهذا هو الأحسن، لأنَّ وقوع الحال مفرداً أحسنُ من وقوعه جملة، وقد اعتمدَ الظرفُ لكونه وقع حالاً فيعمل، وهي حال محكيَّة، فلذلك ارتفع «رِبِّيُّون» بالظرف وإن كان العامل ماضياً لأنه حكى الحال، كقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ [الكهف: ١٨] وذلك على مذهب البصريين، وأما الكسائيُّ وهشام[٢] فإنه يجوز عندهما إعمال اسم الفاعل الماضي غير المعرَّف بالألف واللام من غير تأويل بكونه حكاية حال.

ويصلح أن يُسنَد الفعل إلى «رِبِّيُّون» فلا يكون فيه ضمير، ويكون الرِّبِّيُّون هم الذين قُتِلُوا أو قُتِّلُوا أو قاتلُوا.

وموضع «كأيِّن» رفعٌ على الابتداء، والظاهرُ أنَّ خبره الجملة من قوله: «قُتِلَ» أو «قُتِّلَ» أو «قاتلَ»، سواءٌ أرَفَعَ الفعلُ الضميرَ أم الرِّبِّيِّين.

وجوَّزُوا أن يكون «قُتِلَ» إذا رفعَ الضميرَ في موضع الصِّفة، و«معه رِبِّيُّون» في موضع الخبر، كما تقول: كم مِنْ رجلٍ صالحٍ معه مال. أو في موضع الصِّفة فيكون قد وُصف بكونه مقتولاً أو مقتَّلاً أو مقاتِلاً وبكونه معه رِبِّيُّون كثير، ويكون خبر «كأيِّنْ» قد حُذف، تقديرُه: في الدُّنيا، أو: مضَى. وهذا ضعيف، لأنَّ الكلام مستقلٌّ بنفسه لا يحتاج إلى تكلُّف إضمار.

وأما إذا رفعَ الظاهرَ؛ فجوَّزُوا أن تكون الجملة الفعلية من «قُتل» ومتعلَّقاتها في موضع الصفة لنبيّ، والخبر محذوف. وهذا ـ كما قلنا ـ ضعيف.

ولمَّا ذكروا أنَّ أصل «كَأَيِّنْ» هو «أيّ» دخلَتْ عليها كاف التشبيه فَجَرَّتْهَا، فهي

---

(١) في (ب) و(د٣) و(يه): الذي قاتل.

(٢) هو ابنُ معاوية الضرير، أبو عبد الله الكوفي، صاحب الكسائي، توفي سنة (٢٠٩). «معجم الأدباء» ١٩/ ٢٩٢.

عاملة فيها، كما دخلت على «ذا» في قولهم: له عندي كذا، وكما دخلَتْ على «أنَّ» في قولهم: «كأنَّ»، ادَّعَى أكثرُهم أنَّ «كأنَّ» بقيت فيها الكاف على معنى التشبيه، وأن «كذا» و«كأيِّنْ»[(١)] زال عنهما معنى التشبيه، فعلى هذا لا تتعلَّق الكاف بشيء، وصار معنى «كَأَيِّنْ» معنى «كَمْ»، فلا تدلُّ على تشبيه البتَّة.

وقال الحَوْفيّ: أمَّا العاملُ في الكاف؛ فإنْ حملناها على حكم الأصل فمحمولٌ على المعنى، والمعنى: إصابتُكم كإصابة مَنْ تقدَّم من الأنبياء وأصحابِهم، وإنْ حملنا الحكم على الانتقال إلى معنى «كَمْ» كان العاملُ بتقدير الابتداء، وكانت في موضع رفع، و«قُتِلَ» الخبر، و«مِنْ» متعلّقة بمعنى الاستقرار، والتقديرُ الأوَّلُ أوضح لحمل الكلام على اللفظ دون المعنى بما يجبُ من الخفض في «أيّ»، وإذا كانت «أيّ» على بابها من معاملة اللفظ ف «مِنْ» متعلّقة بما تعلَّقت به الكاف من المعنى المدلول عليه. انتهى كلامه.

وهو كلامٌ فيه غرابة، وجَرَّهُم إلى التَّخليط في هذه الكلمة ادِّعاؤهم أنَّها مركَّبة من كاف التشبيه، وأن أصلَها «أيّ» فَجُرَّتْ بكاف التشبيه، وهي دَعْوَى لا يقوم على صحَّتها دليل. وقد ذكرنا رأيَنا فيها أنها بسيطة، وهي مبنيَّة على السكون، والنون من أصل الكلمة، وليس بتنوين، وحُملت في البناء على نظيرتها «كَمْ».

وإلى أنَّ الفعل مسندٌ إلى الضمير ذهبَ الطبريُّ وجماعة[(٢)]، ورَجَّحَ ذلك بأن القصَّة هي بسبب غزوة أُحُد وتخاذلِ المؤمنين حين قيل[(٣)]: قُتِلَ محمدٌ ﷺ، فضُربَ المثلُ بنبيٍّ قُتل.

ويؤيِّدُ هذا الترجيحَ قولُه: «أفإنْ ماتَ أو قُتِلَ». وقد قال ابنُ عباس في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١] النبيُّ يُقْتَل، فكيف لا يُخان؟ وإذا أُسنِدَ لغير النبيِّ كان المعنى تثبيت المؤمنين لفقد من فُقِدَ[(٤)] منهم فقط.

---

(١) في (أ) و(ح) و(د١) و(د٢) و(ع): كان، وهو خطأ. والمثبت من (ب) و(د٣) و(يه)، وثمة سقط في (ز٢) في هذا الموضع.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ١١٠. وينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٢٠.

(٣) سقطت لفظة «قيل» من مطبوعات البحر!

(٤) في (أ) و(ع): تقدم، بدل: فُقد. والكلام بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٠.

وإلى أن الفعل مُسنَدٌ إلى الرِّبِّيِّين ذهبَ الحسنُ وجماعة؛ قال هو وابنُ جبير: لم يُقْتَلْ نبيٌّ في حرب قطّ.

وقال ابن عطيَّة: قراءة من قرأ: «قاتلَ» أعمُّ في المدح[١]؛ لأنه يدخلُ فيها مَنْ قُتِلَ ومَنْ بقيَ. ويحسُنُ عندي على هذه القراءة استنادُ الفعل إلى الرِّبِّيِّين، وعلى قراءة «قُتِلَ» استنادُه إلى «نبيّ». انتهى كلامه.

ونقول: «قُتِلَ» يظهرُ أنها أمدح[٢]، وهي أبلغ في مقصود الخطاب، لأنها نصٌّ في وقوع القتل، ويستلزم المقاتلة، و«قاتَلَ» لا تدل على القتل، إذ لا يلزمُ من المقاتَلة وجودُ القتل، قد تكون مقاتَلةٌ ولا يقع قَتْلٌ، وما ذَكرَ من أنه يحسُنُ عنده ما ذَكَر لا يظهر حُسنه، بل القراءتان تحتملان الوجهين.

وقال أبو الفتح ابنُ جنيّ في قراءة قتادة: لا يحسُن أن يستند الفعل إلا[٣] إلى الرِّبِّيِّين لِما فيه من معنى التكثير الذي لا يجوزُ أن يُستعمل في قتل شخص واحد. فإن قيل: يستندُ إلى «نبيّ» مراعاةً لمعنى «كَمْ». فالجواب أنَّ اللفظ قد مشى على جهة الإفراد في قوله: «من نبيّ»، ودلَّ الضمير المفرد في «معه» على أنَّ المراد إنما هو التمثيل بواحدٍ واحد، فخرجَ الكلام عن[٤] معنى «كَمْ». قال أبو الفتح[٥]: وهذه القراءةُ تُقَوِّي قول من قال لمن[٦] «قُتل» و«قاتلَ» إنما يستندُ إلى الرِّبِّيِّين. انتهى كلامه.

وليس بظاهر؛ لأنَّ «كأَيِّنْ» هي مثلُ «كَمْ»، وأنتَ إذا قلتَ: كَمْ مِنْ عانٍ فَكَكْتُهُ. فأفْرَدْتَ؛ راعَيْتَ لفظ «كَمْ»، ومعناها الجمعُ، وإذا قلتَ: كَمْ مِنْ عانٍ فَكَكْتُهُمْ. راعَيْتَ معنى «كَمْ» لا لَفْظَها، وليس معنى مراعاة اللفظ إلا أنَّك أفردتَ الضمير والمرادُ به الجمع، فلا فرقَ من حيث المعنى بين «فَكَكْتُهُ» و«فَكَكْتُهُمْ»،

(١) عبارة المحرر الوجيز ١/ ٥٢٠: حُجَّةُ من قرأ: «قاتلَ» أنها أعمُّ في المدح. . . الخ.
(٢) في (أ) و(ع) والمطبوع: مدح.
(٣) لفظة «إلا» سقطت من (د١) و(ز٢) والمطبوع فانقلب المعنى.
(٤) في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٠: على. وفي (أ): فخرج به الكلام على. . . الخ.
(٥) بنحوه في المحتسب ١/ ١٧٣، وأورده المصنف بواسطة المحرر الوجيز ١/ ٥٢٠.
(٦) في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٠، والدر المصون ٣/ ٤٢٩: إنَّ، بدل: لمن.

كذلك لا فرق بين «قُتِلَ[١] معهم رِبِّيُّون» و«قُتِلَ معه رِبِّيُّون»، وإنَّما جازَ مراعاةُ اللفظ تارةً، ومراعاةُ المعنى تارةً لأنَّ مدلول «كَمْ» و«كأَيِّنْ» كثير، والمعنى: جمع كثير، وإذا أخبرتَ عن جمع كثير فتارةً تُفرِدُ مراعاةً للفظ، وتارةً تَجمع مراعاةً للمعنى، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٤-٤٥] فقال: «مُنتصر»، وقال: «ويُوَلُّون»، فأفردَ «منتصر»؛ وجمعَ في «يُولُّون».

وقولُ أبي الفتح في جواب السؤال الذي فرضَه أنَّ اللفظ قد جرى على جهة الإفراد في قوله: «مِنْ نبيّ» أي: رُوعيَ لفظ «كأيِّنْ» لكون تمييزِها جاء مفرَداً، فناسبَ لمَّا مُيِّزت بمفرد أنْ يُراعَى لفظُها، والمعنى على الجمع.

وقولُه: ودلَّ الضمير المفرَد في «معه» على أنَّ المراد إنَّما هو التمثيل بواحد واحد. هذا المرادُ مشترك بين أن يُفرَد الضمير أو يُجمع؛ لأنَّ الضمير المفرَد ليس معناه هنا إفرادَ مدلوله، بل لا فرقَ بينه مفرداً ومجموعاً من حيث المعنى، وإذْ لا فرقَ؛ فدلالتُه عامَّة، وهي دلالتُه على كلِّ فَرْدٍ فَرْد.

وقوله: فخرجَ الكلام عن معنى «كَمْ». لا[٢] يخرج الكلام عن معنى «كَمْ» إنَّما خرجَ عن جمع الضمير على معنى «كَمْ» دون لفظِها؛ لأنه إذا أَفردَ لفظاً لم يكن مدلُولُه مفرَداً إنما يكون جمعاً، كما قالوا: هو أحسنُ الفتيان وأجملُه. معناه: وأجملُهم.

ومن أسندَ «قُتِلَ» أو «قُتِّل» إلى «رِبِّيُّون» فالمعنى عنده: قُتِلَ بعضُهم كما تقول: قُتل بنو فلان في وَقعة كذا، أي جماعةٌ منهم.

والرِّبِّيُّ عابدُ الرَّبِّ، وكسرُ الراء من تغيير النَّسَب، كما قالوا: إمْسِيّ في النِّسبة إلى «أمْسِ»؛ قاله الأخفش. أو الجماعة؛ قاله أبو عُبيدة. أو منسوبٌ إلى الرِّبَّة ـ وهي الجماعة ـ ثم جُمع بالواو والنون؛ قاله الزجَّاج. أو الجماعة الكثيرة؛ قاله

---

(١) في النسخ الخطية: قُتلوا. والمثبت من الدر المصون ٣/ ٤٢٩ عن البحر.

(٢) في المطبوع: لم، بدل: لا. ووقع فيه: كأيِّنْ، بدل: كم، وكذا في الموضعين الآتيين، والمواضع السالفة.

يونُس بنُ حبيب. ورِبِّيُّون منسوبٌ إليها[١]. قال قطرب: جماعةُ العلماء على قول يونُس[٢].

وأمَّا المفسِّرون؛ فقال ابنُ مسعود وابنُ عباس في رواية: هم الألوف. واختارَه الفرَّاء[٣]. وعيَّن عددَ ذلك بعضُ المفسِّرين، فقال: هم عَشَرَةُ آلاف[٤].

وقال ابنُ عباس في رواية ومجاهدٌ وعكرمة والضَّحَّاك وقتادةُ والسُّدِّيُّ والرَّبيع: هم الجماعات الكثيرة. واختارَه ابنُ قُتيبة[٥].

وقال ابنُ عباس في رواية والحسنُ: هم العلماء الأتقياءُ الصُّبُرُ على ما يُصيبُهم. واختاره اليزيديّ والزجَّاج[٦].

وقال ابنُ زيد: الأتباع[٧]، والرَّبَّانِيُّون: الوُلاة.

وقال ابن فارس: المُتَألِّهون العارفون بالله[٨].

وقيل: وزراء الأنبياء. وقال الضحَّاك: الرِّبِّيَّةُ[٩] الواحدة: ألفٌ، والرِّبِّيُّون

---

(١) ينظر معاني القرآن للأخفش ١/ ٤٢٣، ومجاز القرآن ١/ ١٠٤، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٧٦، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢١.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٢١.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٧، وزاد المسير ١/ ٤٧٢.

(٤) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٧٦، ونقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٢١.

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص١١٣. والكلام أعلاه في زاد المسير ١/ ٤٧٢. وينظر تفسير الطبري ٦/ ١١٢.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥٢١، وزاد المسير ١/ ٤٧٢. وينظر تفسير الطبري ٦/ ١١٣.

(٧) زاد المسير ١/ ٤٧٢. ولفظُهُ في المحرر الوجيز ١/ ٥٢١: الرِّبِّيُّون: الرَّعِيَّة الأتباع للولاة، وبنحوه في تفسير الثعلبي ٢/ ١٦٥ (على تحريف في مطبوعِهِ).

(٨) بنحوه في مجمل اللغة ١/ ٣٧٠ (ربَّ). واللفظ أعلاه في زاد المسير ١/ ٤٧٢.

(٩) الضبط من (ح) و(د١) و(ز٢). وكذا جاءت اللفظة في تفسير الثعلبي ٢/ ١٦٥، والبغوي ١/ ٣٦٠، وسيرد في كلام المصنف أن أصول هذه اللفظة راء وباء وياء. ولم أقف على هذه اللفظة بهذا المعنى في المعاجم وكتبِ اللغة، إنما ذكروا الرِّبَّة، وهي كذلك في المحرر الوجيز ١/ ٥٢١، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٥٢، والدّرّ المصون ٣/ ٤٣١ وذكر فيه السمين أن أصولها راء وباء مكرَّرة. والله أعلم.

جمعُها. وقال الكلبيّ: الرِّبِّيَّةُ الواحدة: عَشَرَةُ آلاف[١].

وقال النقاش: هم المكثرون العلم، من قولهم: رَبَا الشيء يَرْبُو: إذا كَثُر. وهذا لا يصحُّ لاختلاف المادَّتين؛ لأنَّ «رَبَا» أصولُه: راءٌ، وباءٌ، وواو، وأصول هذا: راءٌ وباءٌ، وياء.

وقرأ الجمهور بكسر الراء وقرأ عليٌّ وابنُ مسعود وابنُ عباس وعكرمة والحسن وأبو رجاء وعمرو بنُ عبيد وعطاء بنُ السائب بضمِّ الراء، وهو من تغيير النسب، كما قالوا: دُهْرِيّ؛ بضمّ الدَّال، وهو منسوبٌ إلى الدَّهر الطويل.

وقرأ ابنُ عبَّاس فيما روى قتادة عنه بفتح الراء؛ قال ابنُ جنيّ: هي لغة تميم، وكلُّها لغات[٢].

والضمير في «وَهَنُوا» عائد على الرِّبِّيِّين إن كان الضميرُ في «قُتِلَ» عائداً على النبيّ، وإنْ كان «رِبِّيُّون» مسنَدًا إليه الفعل مبنيًّا للفاعل فكذلك، أو للمفعول فالضميرُ يعود على مَنْ بقيَ منهم، إذِ المعنى يدلُّ عليه، إذْ لا يصحُّ عودُه على «رِبِّيُّون» لأجل العطف بالفاء.

﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: بقَتْلِ أنبيائهم أو رِبِّيِّيهم.

وقرأ الجمهور: «وَهَنُوا» بفتح الهاء. وقرأ الأعمش والحسن وأبو السَّمَّال بكسرها[٣]، وهما لغتان: وَهَنَ يَهِنُ، كوَعَدَ يَعِدُ، ووَهِنَ يَوْهَنُ كوَجِل يَوْجَلُ. وقرأ عكرمة وأبو السَّمَّال أيضاً: «وَهْنُوا» بإسكان الهاء[٤]، كما قالوا: نَعْم في نَعِم، وشَهْد في شَهِد، وتميم تسكِّن عين فَعِل.

﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾ عن الجهاد بعدَ ما أصابَهم. وقيل: ما ضَعُفَ يقينُهم ولا انحلَّت عزيمتُهم. وأصلُ الضَّعف نقصانُ القوَّة، ثم يُستعمل في الرأي والعقل. وقُرئ «ضَعَفوا» بفتح العين، وحكاها الكسائيّ لغة[٥].

(١) تفسير الثعلبي ٢/ ١٦٥، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٠.
(٢) الكلام بنحوه في المحتسب ١/ ١٧٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٠.
(٣) القراءات الشاذة ص٢٢، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٠، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٥٣.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٠. وينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١١.
(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١١، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٥٤.

﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ قال ابنُ إسحاق: ما قعدوا عن الجهاد في دينهم. وقال السُّدِّيّ: ما ذَلُّوا. وقال عطاء: ما تضرَّعوا. وقال مقاتل: ما استسلموا. وقال أبو العالية: ما جَبُنُوا. وقال المفضَّل: ما خشَعوا. وقال قتادة والرَّبيع: ما ارتدُّوا عن نُصرتهم[١] ودينهم، ولكنَّهم قاتلوا على ما قاتلَ عليه نبيُّهم حتى لحقُوا بربِّهم[٢]. وكلُّ هذه أقوالٌ متقاربة[٣].

وهذا تعريضٌ لِما[٤] أصابَهم يومَ أُحُد من الوَهْن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم حين أرادَ بعضهم أن يعتضد بالمنافق عبد الله بنِ أُبيّ في طلب الأمان من أبي سفيان.

و«اسْتَكَانَ» ظاهرُه أنه «اسْتَفْعَلَ» من الكَوْن، فيكون أصلُ ألفِه واواً، أو من قول العرب: باتَ فلانٌ بِكِينَةِ سُوء[٥]، أي: بحالةِ سُوء. وأكانَهُ يُكِينُهُ إذا خَضَّعَهُ. قال هذا الأزهريُّ وأبو عليّ[٦]. فعلى قولهما أصلُ الألف ياءٌ.

وقال الفرَّاء وطائفةٌ من النُّحاة: إنه «افْتَعَلَ» من السكون، وأُشبعت الفتحةُ فتولَّد منها ألف[٧] كما قال:

أعـــوذُ بـــالله مـــن الـــعَـــقْـــرَابِ[٨]

(١) في المصادر الآتية بعد تعليق: بصيرتهم. وهو الأشبه.
(٢) في (أ) و(ب) و(ع): لحقوا بهم.
(٣) ينظر تفسير الطبري ٦/ ١١٨-١١٩، وابن أبي حاتم ٣/ ٧٨٢، والثعلبي ٢/ ١٦٥-١٦٦، والبغوي ١/ ٣٦٠، والدر المنثور ٢/ ٨٢.
(٤) في الكشاف ١/ ٤٦٩ (والكلام فيه): بما.
(٥) كِينة؛ بكسر الكاف كما في المعاجم، وضُبطت في (د١) بفتح الكاف، وقُيِّدت أيضاً في الدُّرّ المصون ٣/ ٤٣٢ على وزن جَفْنَة. والله أعلم. وتحرفت لفظة «بات» في مطبوع البحر إلى: مات.
(٦) تهذيب اللغة ١/ ٣٧٥، ونقل فيه الأزهري القول الأول عن الفرَّاء، والثاني عن أبي سعيد الضرير.
(٧) ذكره الأزهري ١/ ٣٧٥ عن ابن الأنباري.
(٨) الرَّجَز في المحلَّى (وجوه النصب) لابن شُقير ص٢٢٠، (وهو مطبوع أيضاً باسم الجمل ونُسب للفراهيدي)، وتاج العروس (عقرب). وبعده: الشائلاتِ عُقَدَ الأذنابِ. وسلف عند تفسير لفظة «الليل» من الآية (١٦٤) من سورة البقرة (مفردات).

يريد: من العَقْرَب. وهذا الإشباعُ لا يكون إلا في الشِّعر.

وهذه الكلمة في جميع تصاريفها بُنيت على هذا الحرف، تقول: استكانَ يستكينُ، فهو مُستكِين ومستكانٌ له، والإشباع لا يكون على هذا الحدّ.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: على قتال عدوِّهم. قاله الجمهور. أو على دينهم وقتالِ الكفار. والظاهرُ العمومُ لكلِّ صابر على ما أصابَه من قَتْلٍ في سبيل الله، أو جُرْح، أو بلاءٍ، أو أذًى ينالُه بقولٍ أو فعل، أو مصيبةٍ في نفسه أو أهله أو ماله، أو ما يجري مجرى ذلك. وكثيراً ما تمدَّحت العرب بالصَّبر وحرَّضت عليه كما قال طَرَفَةُ بنُ العَبْد:

وتَشَكَّى النفسُ ما صَابَ بها ... فاصْبِري إنَّكِ من قومٍ صُبُرْ
إنْ نُلاقي مُنْفِساً لا تُلْفِنا ... فُرُحَ الخيْرِ ولا نَكْبُو لِضُرّ[1]

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ لمَّا ذكرَ ما كانوا عليه من الجَلَد والصَّبر وعَدَمِ الوَهْن والاستكانةِ للعدوّ، وذلك كلُّه من الأفعال النفسانية التي يظهرُ أثرُها على الجوارح؛ ذكرَ ما كانوا عليه من الإنابة والاستغفار والالتجاء إلى الله تعالى بالدُّعاء، وحَصَرَ قولَهم في ذلك القول، فلم يكن لهم ملجأٌ ولا مفزعٌ إلا إلى الله تعالى، ولا قولٌ إلا هذا القول، لا ما كنتم عليه يومَ أُحُد من الاضطراب واختلافِ الأقوال، فمِنْ قائلٍ: نأخذُ أماناً من أبي سفيان، ومِنْ قائلٍ: نرجعُ إلى ديننا الأوَّل، ومِنْ قائلٍ ما قالَ حين فَرّ. وهؤلاء قد فُجِعُوا بقتلِ نبيِّهم أو رِبِّيِّيهم، لم يَهِنُوا، بل صبرُوا وقالوا هذا القولَ وهم رِبِّيُّونَ أحبارٌ[2] هَضْمًا لأنفسهم، وإشعارًا أنَّ ما نزلَ من بلايا الدنيا إنما هو بذنوبٍ من البشر؛ كما كان في قصَّة أُحُد بعصيانِ مَنْ عَصَى.

وقرأ الجمهور: «قَوْلَهُمْ» بالنصب على أنه خبر «كان»، و«أنْ قالوا» في موضع

---

(١) ديوان طَرَفَة ص٥٤، وفيه: نُصادف، بدل: نُلاقي. قوله: تَشَكَّى، أي: تَتَشَكَّى، وقوله: مُنْفِس، أي: مال كثير. ينظر الصحاح (نفس). وتحرَّفت لفظة «مُنْفِساً» في (أ) و(دا) و(ع) والمطبوع إلى: سفسفاً.

(٢) في (ز٢) و(يه): أخيار.

الاسم، جعلُوا ما كان أعرفَ الاسمَ؛ لأنَّ «أنْ» وصِلَتَها تتنزَّلُ منزلةَ الضمير، و«قَوْلَهم» مضافٌ للضمير يتنزَّلُ منزلةَ العَلَم[١].

وقرأت طائفة؛ منهم حمَّاد بنُ سَلَمة عن ابن كثير وأبو بكر عن عاصم فيما ذكره المهدويّ برفع «قولهم»[٢]. جعلوه اسمَ «كان»، والخبر «أنْ قالوا». والوجهان فصيحان، وإن كان الأوَّلُ أكثرَ. وقد قُرئ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٣] بالوجهين في السبعة[٣].

وقدَّمَ طلبَ الاستغفارِ على طلبِ تثبيتِ الأقدام والنُّصرةِ ليكون طلبُهُم ذلك إلى الله عن زكاءٍ وطهارة، فيكون طلبُهم التثبيتَ بتقديم الاستغفار حَرِيًّا بالإجابة.

و«ذنوبَنا وإسرافَنا» متقاربان من حيث المعنى، فجاء ذلك على سبيل التأكيد. وقيل: الذُّنوبُ ما دون الكبائر، والإسراف الكبائر. وقال أبو عبيدة: الذنوب هي الخطايا، و«إسرافَنا»، أي: تَفرِيطَنا[٤]. وقال الضَّحَّاك: الذنوبُ عامّ، والإسرافُ في الأمر الكبائرُ خاصّة[٥].

والأقدام هنا قيل: حقيقةٌ؛ دَعَوْا بتثبيتِ الأقدام في مواطئ[٦] الحرب ولقاءِ العدوّ كي لا تَزِلّ. وقيل: المعنى شَجِّعْ قلوبَنا على لقاء العدوّ. وقيل: ثَبِّتْ قلوبَنا على دينِك.

والأحسنُ حملُه على الحقيقة؛ لأنه من مظانِّها، وثبوتُ القَدَم في الحرب لا يكونُ إلا من ثبوتِ صاحبِها في الدِّين، وكثيراً ما جاءت هذه اللفظةُ دائرةً في الحرب ومع النُّصْرة، كقوله: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا﴾ [البقرة: ٢٥٠]. ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

---

(١) أي: فهو أقلُّ تعريفاً. ينظر الدُّرّ المصون ٣/ ٤٣٣.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٢.
(٣) قرأ نافع وأبو عمرو، وعاصم في رواية شعبة: «فتنتَهم» بالنصب، والباقون من السبعة بالرفع. ينظر السبعة ص١٥٥.
(٤) مجاز القرآن ١/ ١٠٤ دون قوله: الذنوب هي الخطايا.
(٥) بمعناه في تفسير الطبري ٦/ ١٢٠، وبلفظه في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٢.
(٦) في (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه): مواطن.

وقيل: «اغْفِرْ لنا ذنوبَنا» في المخالفة، «وإسرافَنا» في الهزيمة، «وثَبِّتْ أقدامَنا» بالمصابرة، «وانْصُرْنا على القوم الكافرين» بالمجاهدة.

قال ابنُ فُورك: في هذا الدعاء ردّ على القَدَريَّة لقولهم: إنَّ الله لا يخلُق أفعالَ العبد، ولو كان ذلك لم يَسُغْ أن يُدْعَى فيما لا يفعله[١].

وفي هذا دليلٌ على مشروعيَّة الدُّعاء عند لقاءِ العدوّ، وأنْ يدعوَ بهذا الدعاء المعيَّن. وقد جاء في القرآن أدعيةٌ أعقبَ اللهُ بالإجابة فيها.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قرأ الجَحْدَرِيُّ: «فأثابَهم» من الإثابة[٢]. ولمَّا تقدَّم في دعائهم ما يتضمَّنُ الإجابةَ فيه الثوابَيْن، وهو قولهم: «اغْفِرْ لنا ذُنوبَنا وإسرافَنا» فهذا يتضمَّن ثوابَ الآخرة، «وثَبِّتْ أقدامَنا وانْصُرْنَا» يتضمَّن ثوابَ الدُّنيا؛ أخبرَ تعالى أنه منَحَهم الثوابَيْن.

وهناك بدؤوا في الطلب بالأهمِّ عندَهم، وهو ما ينشأ عنه ثوابُ الآخرة، وهنا أخبرَ بما أعطاهم مقدِّماً ذِكْرَ ثوابِ الدُّنيا ليكونَ ذلك إشعارًا لهم بقَبُولِ دعائهم وإجابتِهم إلى طَلِبَتِهم[٣]، ولأنَّ ذلك في الزمان متقدِّم على ثواب الآخرة.

قال قتادة وابنُ إسحاق وغيرُهما: ثوابُ الدنيا هو الظهورُ على عدوِّهم. وقال ابنُ جُرَيْج: هو الظَّفَرُ والغنيمة[٤].

وقال الزَّمخشريّ[٥]: «ثواب الدنيا» من النُّصرة والغنيمة والعزِّ وطِيبِ الذِّكْر.

وقال النقَّاش: ليس إلا الظَّفر والغَلَبة، لأنَّ الغنيمة لم تَحِلَّ إلا لهذه الأمَّة[٦]. وهذا صحيحٌ ثبتَ في الحديث الصحيح: «وأُحِلَّتْ ليَ الغنائم، ولم تَحِلَّ لأحدٍ قبلي» وهي إحدى الخَمْس التي أُوتِيَها رسولُ الله ﷺ، ولم يُؤتَها أَحَدٌ قبلَه[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٢. وفي (أ) و(ح) و(د١) و(د٢) و(ع): لم، بدل: لا.
(٢) تفسير الثعلبي ٢/ ١٦٦، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٥٥.
(٣) في (ب) و(د٢) و(د٣): طلبهم. وفي (أ) و(ع): دعوتهم.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٢. وبنحوه في تفسير الطبري ٦/ ١٢٣-١٢٤.
(٥) الكشاف ١/ ٤٦٩.
(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٢.
(٧) ينظر حديث جابر بن عبد الله عند أحمد (١٤٢٦٤)، والبخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ﴾: الجنَّة بلا خلاف. قاله ابنُ عطيَّة[١]. وقيل: الأَجْرُ والمغفرة. وخصَّ ثوابَ الآخرة بالحُسْن دلالةً على فضله وتقدُّمه، وأنه هو المعتدُّ به عنده ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧] وترغيباً في طلب ما يُحَصِّلُه من العمل الصالح ومناسبةً لآخِرِ الآية.

قال عليّ: مَنْ عَمِلَ لدنياه أَضَرَّ بآخرته، ومَنْ عَمِلَ لآخِرتِه أضَرَّ بدنياه، وقد يجمعُهما الله تعالى لأقوام[٢].

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قد فَسَّرَ رسولُ الله ﷺ الإحسانَ حين سُئل عن حقيقته في حديث سؤال جبريل أنه أنْ تَعْبُدَ الله كأنَّكَ تَراه[٣]، وفسَّره المفسِّرون هنا بأحد قولَيْن، وهو من أحسن ما بينَه وبينَ ربِّه في لزوم طاعته، أو مَنْ ثبتَ في القتال مع نبيِّه حتى يُقتل أو يَغْلِب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ الخطابُ عامٌّ يتناولُ أهلَ أُحُدٍ وغيرَهم، وما زالَ الكفار مثابرين على رجوع المؤمنين عن دينهم ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩]، ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۞ لَن تَنفَعَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٢-٣]، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]، ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٩].

وقيل: الخطاب خاصٌّ بمن كان مع رسول الله ﷺ من المؤمنين يومَ أُحُد، فعلى الأوَّل علَّق على مطلق طاعتهم الردَّ على العَقِب والانقلابَ بالخسران، وهذا غايةٌ في التحرُّز منهم والمجانبة لهم، فلا يُطاعون في شيء ولا يُشاوَرُون؛ لأنَّ ذلك يستجرُّ إلى موافقتهم، ويكون «الذين كفروا» عامًّا.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٢.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٢٨. وأخرجَ الطبراني في المعجم الكبير (٨٧٥٧) عن عبد الله موقوفاً: من أرادَ الآخرةَ أضرَّ بدنياه... الخ. وأخرج ابن أبي عاصم في الزهد (١٦١) عن أبي هريرة مرفوعاً: «من طلب الدنيا أضرَّ بالآخرة، ومن طلب الآخرة أضرَّ بالدنيا». وحسَّن محقِّقُو المسند إسناده أثناء التعليق على حديث أبي موسى الأشعري (١٩٦٩٧).

(٣) قطعة من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، أخرجه أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨). وغيرهما.

وعلى القول الثاني يكون «الذين كفروا» خاصًا، فقال عليّ وابنُ عباس: هم المنافقون؛ قالوا للمؤمنين لمَّا رجعوا من أُحُد: لو كان نبيًّا ما أصابَه الذي أصابه، فارْجِعُوا إلى إخوانكم[١].

وقال ابنُ جُرَيْج: هم اليهود والنصارى[٢]. وقاله الحسن. وعنه: إنْ تَستنصحوا اليهود والنصارى وتقبلُوا منهم؛ لأنهم كانوا يستغوونهم ويُوقِعُون لهم الشُّبَهَ ويقولون: لو كان نبيًّا حقًّا لَمَا غُلِبَ، ولَمَا أَصابَه وأصحابَه ما أصابَهُمْ، وإنَّما هو رجلٌ حالُه كحال غيرِه من الناس، يوماً له ويوماً عليه[٣].

وقال السُّدِّيّ: هم أبو سفيان وأصحابُه من عبَّاد الأوثان[٤]. وقال الحسن أيضاً: هو كعبٌ[٥] وأصحابُه.

وقال أبو بكر الرّازيّ: فيها دلالة على النهي عن طاعة الكفار مطلقاً، لكن أجمعَ المسلمون على أنه لا يندرج تحته من وَثِقْنا بنُصحه منهم، كالجاسوس، والخِرِّيت[٦] الذي يهدي إلى الطريق، وصاحبِ الرأي ذي المصلحة الظاهرة، والزوجة تُشير بصواب.

والرِّدَّةُ هنا على العَقِب كنايةٌ عن الرُّجوع إلى الكفر، و«خاسرين» حال[٧]، أي: مغبونين ببيعكم الآخرة. ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ «بَلْ» لترك الكلام الأوَّل من غير إبطال، وأخذٍ في كلام غيرِه. والمعنى: ليس الكفارُ أولياءَ فيطاعوا في شيء، بل الله مولاكم.

وقرأ الحسن بنصب الجلالة على معنى: بل أطيعوا اللهَ[٨]، لأنَّ الشرط السابق

(١) تفسير الثعلبي ٢/ ١٦٦، وزاد المسير ١/ ٤٧٤. وينظر الكشاف ١/ ٤٦٩، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٢.
(٢) زاد المسير ١/ ٤٧٤. ويستفاد من قول له عند الطبري ٦/ ١٢٥ سيرد كما في التعليق التالي.
(٣) الكشاف ١/ ٤٦٩. وصدر الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٦/ ١٢٥ عن ابن جُريج.
(٤) بنحوه في تفسير الطبري ٦/ ١٢٥، والكشاف ١/ ٤٦٩، وزاد المسير ١/ ٤٧٤.
(٥) هو ابنُ الأشرف.
(٦) هو الدليل الحاذق بالدلالة.
(٧) لفظة «حال» من (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه).
(٨) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٢. ونُسبت في القراءات الشاذة ص٢٢ لعيسى النصر (كذا. ولعله =

يتضمَّن معنى النَّهي، أي: لا تطيعوا الكفار فتكفُروا، بل أطيعوا اللهَ مولاكم.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ لما ذكر أنَّه مولاهم، أي: ناصرُهم؛ ذكر أنه خيرُ ناصر، لا يحتاجُ معه إلى نُصْرَةِ أحدٍ ولا وِلايته، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ مَنْ قاتلَ لنَصْر[1] دين الله لا يُخذَلُ ولا يُغْلَب؛ لأنَّ الله مولاه، وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ أي: هؤلاء الكفار، وإن كانوا ظاهرين عليكم يومَ أُحُد فإنَّا نَخْذُلُهم بإلقاء الرُّعب في قلوبهم. وأتى بالسين القريبة[2] الاستقبال، وكذا وقع؛ أَلْقَى اللهُ الرُّعْبَ في قلوبهم يومَ أُحُد، فانهزموا إلى مكة من غير سبب من المسلمين، ولهم إذْ ذاك القوَّةُ والغَلَبة.

وقيل: ذهبوا إلى مكة، فلمَّا كانوا ببعض الطريق قالوا: ما صَنَعْنا شيئاً؛ قتلنا منهم ثم تركناهم ونحن قاهرون، ارجعوا فاستأْصِلُوهم. فلما عزموا على ذلك أَلْقَى اللهُ الرُّعْبَ في قلوبهم فأمسَكُوا[3].

والإلقاء حقيقةٌ في الأجرام، واستُعير هنا للجَعْل، ونظيرُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النور: ٤] ومثلُه قول الشاعر:

هما نَفَثَا في فِيَّ مِنْ فَمَوَيْهِمَا   على النَّابحِ العاوي أشدَّ رِجامِ[4]

= عنبسة بن النضر) وابنِ ميسرة. وهي في الكشاف ١/ ٤٦٩، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٥٥ دون نسبة. وأجازها الفراء ١/ ٢٣٧.

(١) في (أ) و(ع) و(يه): لنصرة.

(٢) في (د١) و(د٢) و(ز٢): القرينة، وهي مهملة النقط في (ب) و(د٣) والمثبت من النسخ الأخرى، وهو الصواب، وسلف هذا المعنى للسين عند تفسير قوله: «وسيجزي الله الشاكرين» الآية ١٤٤.

(٣) أخرج الطبري في التفسير ٦/ ١٢٨ نحوه عن السُّدِّي. والكلام أعلاه في الكشاف ١/ ٤٧٠.

(٤) البيت للفرزدق، وهو في ديوانه ٢/ ٢١٥ (وفيه: تَفَلَا، بدل: نَفَثَا). وهو من شواهد الكتاب ٣/ ٣٦٥. قال البغدادي في الخزانة ٤/ ٤١٢: قوله: هما نَفَثَا؛ ضمير التثنية راجع إلى إبليس وابنه... والنابح؛ أراد به من يتعرَّضُ للهجو والسبِّ من الشعراء، وأصله في الكلب، ومثله العاوي بالعين المهملة. والرِّجام مصدر راجمه بالحجارة، أي: راماه... وهذا البيت آخر قصيدة للفرزدق قالها آخر عمره تائباً إلى الله عزَّ وجلَّ ممَّا فرط منه من مهاجاته الناس وقذفِ المحصنات، وذمَّ فيها إبليس لإغوائه إيَّاه في شبابه.

وقرأ الجمهور: «سنُلْقِي» بالنون، وهو التفاتٌ[١] مشعرٌ بعِظَمِ ما يُلقَى، إذْ أسندَه إلى المتكلِّم بنون العظمة. وقرأ أيوب السَّخْتِياني: «سيُلْقي» بالياء جَرْياً على الغَيْبة السابقة في قوله: «وهو خيرُ النَّاصرين»، وقَدَّمَ «في قلوبهم»[٢] ـ وهو مجرور ـ على المفعولِ للاهتمام بالمحلِّ المُلْقَى فيه قبلَ ذكر المُلْقَى.

وقرأ ابنُ عامر والكسائيُّ: «الرُّعُبَ» بضم العين، والباقون بسكونها[٣]، فقيل: لغتان. وقيل: الأصل السكون وضُمَّ إتباعاً، كالصُّبْح والصُّبُح[٤]، وقيل: الأصل الضمّ وسكِّن تخفيفاً، كالرُّسُل والرُّسْل[٥].

وذكروا في إلقاء الرُّعْب في قلوب الكفار يومَ أُحُد قصَّة طويلة أردنا أن لا نُخْلِيَ الكتابَ من شيء منها، فلخَّصْنا منها أنَّ عليًّا أخبرَ الرسولَ بأنَّ أبا سفيان وأصحابَه حين ارتحلُوا ركبوا الإبلَ وجَنَبُوا الخيلَ[٦]، فسُرَّ بذلك رسولُ الله ﷺ، ثم رجعَ الرسول إلى المدينة، فتجهَّزَ، واتَّبَعَ المشركين إلى حمراء الأسد[٧]، وأنَّ مَعْبَداً الخُزاعيَّ جاء إلى الرسول ﷺ وهو كافر ممتعضٌ ممَّا حلَّ بالمسلمين، وكانت خُزاعة تميلُ إلى الرسول ﷺ، وأنَّ المشركين همُّوا بالرجوع إلى القتال، فخذَّلَهم صفوان بنُ أمية ومعبد، وقال معبد: خرجوا يتحرَّقون عليكم في جمعٍ لم أرَ مثلَه، ولا أرى إلا نَواصِيَ خيلِهم قد فاجأتْكم[٨]، وحملَني ما رأيتُ أني قُلتُ في ذلك شعراً. وأنشد:

---

(١) لفظة «التفات» من (ب) و(د٣) و(يه).
(٢) لفظ الآية: «في قلوب».
(٣) السبعة ص٢١٧، والتيسير ص٩١.
(٤) قرئ في الشواذ بضم الباء في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١] كما سيرد في موضعه.
(٥) كلُّ ما في القرآن من هذا الحرف بدون إضافة فهو في المتواتر بضم السين، وقرئ في الشواذ بسكونها، أمَّا ما أُضيف إلى ضمير على حرفين مثل «رسلنا» و«رسلكم» و«رسلهم» فقد قرأ أبو عمرو بإسكان السين، والباقون بضمها، وقرئ أيضاً في الشواذ بسكونها. ينظر السبعة ص١٩٦.
(٦) أي: قادوها إلى جنبهم ولم يركبوها، ممّا يعني أنهم عائدون إلى مكة، ولا يريدون القتال. ينظر سيرة ابن هشام ٢/ ٩٤، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٣.
(٧) هو موضع على ثمانية أميال من المدينة. معجم البلدان ٢/ ٣٠١.
(٨) في (أ) و(د١) و(ع): ولم أرَ إلا نواصي خيلهم قد جاءتكم.

كـادَتْ تُـهَـدُّ مـن الأصـواتِ راحـلـتـي إذْ سالـتِ الأرضُ بـالـجُـرْدِ الأبـابـيـلِ[١]

تَــرْدِي بــأُسْــدٍ كِــرامٍ لا تَــنــابــلــةٍ عـنـد الـلـقـاءِ ولا مِـيـلٍ مَـهـازِيـلِ[٢]

فـظَـلْـتُ عَـدْوًا أظـنُّ الأرضَ مـائـلـةً لـمَّـا سَـمَـوْا بـرئـيـسٍ غـيـرِ مَـخْـذُولِ

إلى آخر الشعر. فوقعَ الرُّعبُ في قلوب الكفار[٣].

وقوله: «سَنُلقي» وعدٌ للمؤمنين بالنصر بعد أُحُد والظَّفَرِ. وقال: «نُصِرْتُ بالرُّعْب مسيرةَ شَهْر»[٤]. وفيها دلالة على صدق نبوَّة رسولِ الله ﷺ إذْ أخبرَ عن الله بأنَّه يُلْقي الرُّعْبَ في قلوبهم، فكان كما أخبرَ به.

﴿بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ﴾ الباء للسبب، و«ما» مصدريَّة، أي: بسبب إشراكهم بالله آلهةً لم يُنزِلْ بإشراكها حُجَّةً ولا برهاناً.

وتسلَّط النَّفي على الإنزال والمقصودُ نفيُ السلطان، أي: آلهة لا سلطانَ في إشراكها فينزل، نحو قولِه:

عـلـى لاحـبٍ لا يُـهْـتَـدَى بـمـنـارِهِ[٥]

أي: لا مَنار له فيُهْتَدَىَ به. وقولِه:

ولا تــرى الــضَّــبَّ بــهــا يَــنْــجَــحِــرْ[٦]

أي: لا ينجحرُ الضَّبُّ فيُرى بها.

(١) الجُرْد، جمع أجْرَد، وهو من الخيل القصير الشَّعر. وأبابيل: فِرَق. ينظر القاموس (جرد ـ أبل).

(٢) تَرْدِي، أي: ترجمُ الأرض بحوافرها. والمِيل جمع أمْيَل، وهو مَنْ لا تُرْسَ معه، أو لا سَيْف أو لا رُمْح، ويُطلق على الجبان أيضاً. ينظر القاموس وشرحه (ردى ـ ميل). ووقع في المصادر التالية: معازيل، بدل: مهازيل.

(٣) ينظر الخبر مطوّلاً في سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٢-١٠٣، وتفسير الطبري ٦/ ٢٤٦-٢٤٧، والاستيعاب ص٦٩٣ (ترجمة معبد الخزاعي)، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٣، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٢٠-٤٢١.

(٤) قطعة من حديث جابر بن عبد الله، أخرجه أحمد (١٤٢٦٤)، والبخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٥) هو صدر بيت لامرئ القيس، وعجزه: إذا سَافَهُ العُودُ النَّبَاطيُّ جَرْجَرَا. وهو في ديوانه ص٦٦، وسلف في تفسير آية البقرة (١٦).

(٦) هو عجز بيت لعمرو بن أحمر في وصف فلاة، وصدرُه: لا تُفزِعُ الأرنبَ أهوالُها. وهو في

والمرادُ نفيُ السلطانِ والنزولِ معاً. وكان الإشراكُ بالله سبباً لإلقاء الرُّعب؛ لأنهم يكرهون الموت ويؤثرون الحياة، إذْ لم تتعلَّق آمالُهم بالآخرة، ولا بثوابٍ فيها ولا عقاب، فصار اعتقادُهم ذلك مؤثراً في الرغبة في الحياة الدنيا، كما قالوا: ﴿إِنْ هِيَ[1] إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧].

وفي قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ دليلٌ على إبطال التقليد، إذْ لا بُرهانَ مع المُقلِّد.

﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أخبرَ تعالى بأنَّ مصيرَهم ومرجعَهم إلى النار، فهم في الدنيا مرعُوبون، وفي الآخرة مُعَذَّبون بسبب إشراكهم، فهو جالبٌ لهم الشرَّ في الدنيا والآخرة.

﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ بالغَ في ذَمِّ مثواهم، والمخصوصُ بالذَّمّ محذوف، أي: وبئس مثوى الظالمين النارُ، وجعلَ النارَ مأواهم ومَثْواهم، وبدأ بالمأوى وهو المكانُ الذي يأوي إليه الإنسان، ولا يلزمُ منه الثَّواء؛ لأن الثَّواء دالٌّ على الإقامة، فجعلَها مأوًى ومثوًى، كما قال تعالى: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢] ونبَّه على الوصف الذي استحقُّوا به النارَ، وهو الظُّلمُ ـ وهو مجاوزةُ الحَدِّ ـ إذْ أشركُوا بالله غيرَه، كما قال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾.

هذا جوابٌ لمن رَجَعَ إلى المدينة من المؤمنين؛ قالوا: وَعَدَنا اللهُ النصرَ والإمدادَ بالملائكة، فمن أيِّ وجهٍ أُتِينا؟ فنزلَتْ إعلاماً أنه تعالى صَدَقَهُم الوَعْدَ ونصرَهم على أعدائهم أوَّلاً، وكان الإمدادُ مشروطاً بالصبر والتقوى، واتَّفقَ من بعضهم من المخالفة ما نَصَّ الله في كتابه[2].

= الخصائص ٣/ ١٦٥ و٣٢١، وأمالي ابن الشجري ١/ ٣٩٨، وشرح المفضليات ١/ ٢٢٥ للتبريزي. وهو الشاهد (٨٣٣) في خزانة الأدب. قوله: يَنْجَحِر (بتقديم الجيم على الحاء) أي: يدخل في الجُحْر.

(١) وقع في النسخ الخطية والمطبوع: وما هي، بدل: إن. وهو خطأ.

(٢) ينظر: تفسير الثعلبي ٢/ ١٦٧، وأسباب النزول للواحدي ص١٢١، والكشاف ١/ ٤٧٠.

وجاءت المخاطبة بجمع ضمير المؤمنين في هذه الآيات وإنْ كانوا لم يصدر ما يُعاتَبُ عليه من جميعِهم، وذلك على طريقة العرب في نسبة ما يقعُ من بعضهم للجميع على سبيل التجوُّز، وفي ذلك إبقاءٌ على مَنْ فَعَلَ وسَتْرٌ؛ إذْ لم يُعَيَّن، وزَجْرٌ لمن لم يفعل أن يفعل[١].

وصِدْقُ الوعدِ هو أنهم هَزَمُوا المشركين أوَّلاً، وكان لعليِّ بنِ أبي طالب وحمزةَ بنِ عبد المطَّلب والزُّبير وأبي دُجَانة وعاصم بنِ أبي الأقْلَح[٢] بلاءٌ عظيم في ذلك اليوم، وهو مذكور في السِّيَر، وكان المشركون في ثلاثة آلاف ومعهم مئتا فَرَس، والمسلمون في سبع مئة رجل[٣].

وتعدَّت «صَدَقَ» هنا إلى اثنين، ويجوزُ أنْ تتعدَّى إلى الثاني بحرف جرّ؛ تقولُ: صَدَقْتُ زيداً الحديثَ، وصدقتُ زيداً في الحديثِ، وذكرَها بعضُ النحويِّين في باب ما يتعدَّى إلى اثنين، وأصلُها أن يكون الثاني بحرف الجرّ، فيكونُ من باب «استغفرَ» و«اختارَ»[٤].

والعامل في «إذْ»: «صَدَقَكُمْ»، ومعنى «تَحُسُّونَهم»: تَقْتُلُونَهم. وكانوا قتلوا من المشركين اثنين وعشرين رجلاً.

وقرأ عبيد[٥] بن عمير: «تُحِسُّونَهم» رباعيًا؛ من الإحساس، أي: تُذهِبُون حِسَّهم بالقتل[٦].

---

(١) يعني أنَّ مَنْ لم يفعل مُعَدٌّ أن يفعل إنْ لم يُزْجَرْ. ينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٢٤.

(٢) هو عاصم بن ثابت بن أبي الأقْلَح، وهو الذي حَمَتْهُ الدَّبْرُ (ذكور النَّحل) من المشركين أن يَجُزُّوا رأسَه يوم الرَّجيع حين قتلَه بنو لِحْيان. ينظر الاستيعاب ص٥٧٣.

(٣) ينظر سيرة ابن هشام ٢/ ص٦٦ وما بعدها، وتفسير الطبري ٦/ ١٣٢، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٤.

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وقول الشاعر: أستغفر الله ذنباً لستُ مُحْصِيَهُ. وذلك على نزع الخافض. وينظر الكتاب ١/ ٣٧-٣٩، والأصول في النحو ١/ ١٧٨، والمحلَّى (وجوه النصب) ص٦٨، وخزانة الأدب ٣/ ١١١ و٩/ ١٢٣.

(٥) المثبت من (ز٢)، وفي غيرها: أبو عُبيد، وهو خطأ.

(٦) ونقل ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٤ عن بعض الناس قولهم: هو مأخوذ من الحاسَّة، والمعنى في «حَسَّ»: أفسدَ الحواسّ. ثم قال: وهذا ضعيف.

وغَيَّا القتلَ بوقت الفشل[١] وهو الجُبْن والضَّعف، والتَّنازع وهو التجاذب في الأمر، وهذا التنازعُ صَدَرَ من الرُّمَاة؛ كان رسول الله ﷺ قد رَتَّبَ الرُّماةَ على فم الوادي وقال: «اثبتُوا مكانكم وإن رأيتُمونا هزمناهم، فإنَّا لا نزالُ غالبينَ ما ثبتُّم مكانكم». ووعدَهم بالنصر إن انتهَوْا إلى أمره[٢].

فلما انهزمَ المشركون قال بعضُ الرُّماة: قد انهزموا، فما موقفُنا هنا؟ الغنيمةَ الغنيمةَ، إلْحَقْ بنا[٣] بالمسلمين. وقال بعضُهم: بل نثبتُ مكانَنا كما أمَرَنا رسولُ الله ﷺ.

وقيل: التنازعُ هو ما صَدَرَ من المسلمين من الاختلاف حين صِيحَ إنَّ محمداً قد قُتل، والعصيانُ هو ذهابُ مَنْ ذهبَ من الرُّماة من مكانِه طَلَباً للنَّهب والغنيمة، وكان خالدٌ حين رأى قِلَّة الرُّمَاة صاحَ في خيله، وحملَ على مَنْ بقيَ من الرُّماة فقتلَهم، وحملَ على عسكر المسلمين، فتراجعَ المشركون، فأُصيبَ من المسلمين يومئذ سبعون رجلاً[٤].

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ وهو ظَفَرُ المؤمنين وغَلَبَتُهُم. قال الزُّبير بنُ العوَّام: لقد رأيتُني أنظرُ إلى خَدَم[٥] هند وصواحبِها مشمِّراتٍ هواربَ، ما دونَ أخْذِهنَّ قليلٌ ولا كثير إذْ مالتِ الرُّماة إلى العسكر يريدون النَّهْب، وخَلَّوْا ظهورَنا للخيل، فأُتِينا من أدبارنا، وصرخَ صارخ: ألا إنَّ محمداً قد قُتل. فانكفأنا وانكفأ علينا القوم[٦].

و«إذا» في قوله: «إذا فَشِلْتُمْ» قيل: بمعنى «إذْ»، و«حتى» حرف جرّ، ولا جواب

(١) يعني على أنَّ «حتى» غاية مجرَّدة بمنزلة «إلى». والمعنى: تَحُسُّونهم بإذنه إلى أن فشلتُم. ينظر المصدر السابق. وتحرفت لفظة «غيًّا» في مطبوع البحر إلى: تمنى.
(٢) تفسير الطبري ٦/ ١٢٩، والهداية ٢/ ١١٥١. وينظر «المحرر الوجيز» ١/ ٥٠٠.
(٣) في المطبوع: الحقوا، بدل: إلْحَقْ بنا. والكلام بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٤-٥٢٥.
(٤) الهداية ٢/ ١١٥٢. وينظر تفسير الطبري ٦/ ١٢٩-١٣٠، والمحرر الوجيز ١/ ٥٠٠.
(٥) جمع خَدَمَة، وهي الخَلْخَال أو الساق. ينظر القاموس (خدم).
(٦) سيرة ابن هشام ٢/ ٧٧-٧٨، وتفسير الطبري ٦/ ١٣٢-١٣٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٥.

لها إذْ ذاك[١]، ويتعلَّق بـ «تَحُسُّونَهُمْ»، أي: تقتلونهم إلى هذا[٢] الوقت.

وقيل: «حتى» حرف ابتداء دخلت على الجملة الشرطية كما تدخلُ على جمل الابتداء، والجوابُ ملفوظٌ به، وهو قوله: «وتَنَازَعْتُم» على زيادة الواو؛ قاله الفرَّاء وغيرُه، و«ثُمَّ صَرَفَكم» على زيادة «ثُمَّ»[٣]، وهذان القولان والذي قبلهما ضِعاف؛ والصحيحُ أنه محذوف لدلالة المعنى عليه، فقدَّره ابنُ عطيَّة: انهزمتم، والزمخشريُّ: مَنَعَكم نَصْرَه، وغيرُهما: امتُحنتم[٤]. والتقادير متقاربة، وحَذْفُ جوابِ الشرط لفهم المعنى جائز، كقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنعام: ٣٥]، تقديرُه: فافْعَلْ.

ويظهر لي[٥] أنَّ الجواب المحذوف غيرُ ما قدَّروه، وهو: انقسمتُم إلى قسمَيْن، ويدلُّ عليه ما بعدَه، وهو نظيرُ: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان: ٣٢]، التقدير: انقسموا قسمين فمنهم مقتصد، لا يُقال: كيف يقال: انقسمُوا فيمن فشل وتنازع وعصى؛ لأنَّ هذه الأفعالَ لم تصدر من كلِّهم بل من بعضهم كما ذكرناه في أول الكلام على هذه الآية.

وقال أبو بكر الرازي[٦]: دلَّت هذه الآية على تقدُّم وَعْدِ الله تعالى للمؤمنين بالنصر على عدوِّهم ما لم يَعْصُوا بتنازعِهم وفَشَلِهم، وكان كما أخبر به؛ هزمُوهم وقَتَلُوا [منهم]. ودلَّ ذلك على صدق رسول الله ﷺ بأنَّ الإخبار بالغيوب من خصائص الرُّبوبية وصفات الألوهية، لا يَطَّلع عليها إلا مَنْ أطلعَهُ الله عليها،

---

(١) ونقل المصنف في النهر المادّ (بهامش مطبوع البحر ٣/ ٧٨) عن الأخفش أن «إذا» بعد «حتى» في موضع جرّ بـ «حتى» مزالاً عنها معنى الشرط.

(٢) في (أ) و(ع): ذلك.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٥. ونقل فيه ابن عطية التقدير الثاني عن أبي علي. وقد قدَّر الفراء زيادة الواو مع التقديم والتأخير، والمعنى عنده: حتى إذا تنازعتم في الأمر فشلتُم. ينظر معاني القرآن له ١/ ٢٣٨.

(٤) الكشاف ١/ ٤٧١، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٤، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٦١.

(٥) لفظة «لي» من (ب) و(د٣) و(يه).

(٦) هو الجصَّاص، وكلامُه بنحوه في أحكام القرآن ٢/ ٣٨-٣٩، ولفظة «منهم» الآتية بين حاصرتين منه.

ولا ينتهي علمُها إلينا إلا على لسان رسولٍ يُخبِرُ بها عن الله تعالى.

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ قال ابنُ عباس وجمهورُ المفسِّرين: الدنيا الغنيمة. وقال ابنُ مسعود: ما شعرنا أنَّ أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى كان يوم أُحُد[1].

والذين أرادوا الآخرة هم الذين ثبتوا في مركزهم مع أميرهم عبد الله بنِ جُبير في نفر دون العشرة، قُتِلُوا جميعاً، وكان الرُّماة خمسين، ذهبَ منهم نَيِّفٌ على أربعين للنَّهب وعَصَوا الأمر.

وممَّن أراد الآخرة مَن ثبتَ بعد تخلخل المسلمين فقاتلَ حتى قُتل؛ كأنس بن النَّضْر وغيرِه ممَّن لم يضطرب في قتاله ولا في دينه.

وهاتان الجملتان اعتراضٌ بين المعطوف عليه والمعطوف.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي: جعلَكم تَنْصرِفُون عن مكافحتهم ومكابرتهم في القتال[2]. ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي: ليمتحنَ صبرَكم على المصائب وثباتَكم على الإيمان عندها.

وقيل: «صَرَفَكم عنهم» أي: لم تتمادَ الكَسْرَةُ[3] عليكم فيستأصلوكم. وقيل: المعنى لم يُكلِّفْكُم طلبَهم عَقِيب انصرافهم.

وتأوَّلته المعتزلة على معنى: ثم انصرفتُم عنهم، فإضافتُه إلى الله بإخراجه الرُّعبَ من قلوب الكافرين ابتلاءً للمؤمنين[4].

وقيل: معنى «ليبتليَكم» أي: ليُنزلَ بكم ذلك البلاء من القتل والتمحيص.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ قيل: عن عقوبتكم على فِراركم ولم يؤاخذكم به.

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ١٤١، والبغوي ١/ ١٦٢، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٥، وزاد المسير ١/ ٤٧٦. وينظر حديث ابن مسعود في مسند أحمد (٤٤١٤).

(٢) قوله: «عن مكافحتهم ومكابرتهم في القتال» من (يه)، ووقع بدله في (ب) و(د٣): «عن مكانتهم ومصابرتهم في القتال».

(٣) أي: الهزيمة. ووقع في (د٢) و(د٣) و(يه): لم يتماد للكثرة.

(٤) تفسير القرطبي ٥/ ٣٦٣.

وقيل: بردُّ العَدُوِّ عنكم. وقيل: بترك الأمر بالعَوْد إلى قتالهم من فَوْركم. وقيل: بترك الاستئصال بعد المعصية والمخالفة، فمعنى عفا عنكم: أبقى عليكم(١).

قال الحسن: قُتل منهم جماعةٌ سبعون(٢)، وقُتل عمُّ النبيِّ ﷺ، وشُجَّ وجهُه، وكُسرت رَبَاعِيَتُه، وإنَّما العفوُ أنْ لم يستأصلهم، هؤلاء مع رسول الله ﷺ وفي سبيل الله غِضابٌ للهِ يقاتلونَ أعداءَ الله، نُهُوا عن شيء فضيَّعوه، فواللهِ ما تُركوا حتى غُمُّوا بهذا الغمّ، فأفسقُ(٣) الفاسقين اليوم يَتَجَرثمُ كلَّ كبيرة(٤)، ويركبُ كلَّ داهية، ويسحبُ عليها ثيابَه، ويزعُم أنْ لا بأسَ عليه، فسوف يعلم. انتهى كلام الحسن.

والظاهر أنَّ العفو إنَّما هو عن الذنب، أي: لم يؤاخذكم بالعصيان. ويدلُّ عليه قرينة قوله: «وعَصَيْتُم»، والمعنى أنَّ الذنب كان يستحقُّ أكثرَ ممَّا نزلَ بكم، فعفا عنكم، فهو إخبار بالعفو عمَّا كان يُستحَقُّ بالذنب من العقاب. وقال بهذا ابنُ جريج وابنُ إسحاق وجماعة(٥). وفيه مع ذلك تحذير.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: في الأحوال، أو بالعفو.

وتضمَّنت هذه الآياتُ من البيان والبديع ضُروباً:

من ذلك الاستفهامُ الذي معناه الإنكار في «أَمْ حَسِبْتُم».

والتجنيسُ المماثل في «انقلبتُم» و«مَنْ يَنْقَلِبْ»، وفي «ثوابَ الدُّنيا وحُسْنَ ثواب»، والمُغايرِ في «قولَهم إلا أن قالوا».

وتسميةُ الشيء باسم سَببِه في «تَمَنَّوْنَ الموت» أي: الجهادَ في سبيل الله، وفي قوله: «وثَبِّتْ أقدامَنا» فيمن فسَّر ذلك بالقلوب، لأن ثباتَ الأقدام متسبِّب عن ثبات القلوب.

---

(١) ينظر تفسير الثعلبي ٢/ ١٦٨، والبغوي ١/ ٣٦٢، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٥، وزاد المسير ١/ ٤٧٦-٤٧٧. وبعض هذه الأقوال مكرر بالمعنى.

(٢) في تفسير الطبري ٦/ ١٤٤، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٥: قُتل منهم سبعون.

(٣) جاء رسمها في النسخ: يا فسق. ولم تتبيَّن لي. والمثبت من المصدرين السالفين.

(٤) أي: يأخذُ معظمَها. ولفظةُ «يَتَجَرثَمُ» من (ز٢) و(يه)، وهي كذلك في تفسير الطبري، وفي المحرر الوجيز: يجترم، ولم تُجوَّد في النسخ الأخرى.

(٥) تفسير الطبري ٦/ ١٤٤-١٤٥، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٥.

والالتفاتُ في «وسنجزي الشاكرين».

والتكرارُ في «ولمَّا يعلم» و«يعلم» لاختلافِ المتعلَّق، أو للتنبيه على فضل الصابر، وفي «أفإنْ ماتَ أو قُتل» لأنَّ العُرف في الموت خلاف العُرف في القتل، والمعنى فيهما مفارقةُ الرُّوح للجسد، فهو واحد، و«مَنْ» في «ومَنْ يُرِدْ ثوابَ» الجملتين، وفي «ذنوبَنا وإسرافَنا» في قول مَنْ سَوَّى بينَهما، وفي «ثوابَ» و«حُسْنَ ثوابِ»، وفي لفظ الجلالة، وفي «منكم مَنْ يريد» الجملتين.

والتقسيمُ في «ومَنْ يُرد»، وفي «منكم مَنْ يريدُ».

والاختصاصُ في «الشاكرين» و«الصابرين» و«المؤمنين».

والطِّباق في «آمَنُوا إن تطيعوا الذين كفروا».

والتشبيه في «يردُّوكم على أعقابكم»، شبَّه الرجوع عن الدِّين بالراجع القَهْقَرَى، والذي حَبِطَ عملُه بالكفر بالخاسر الذي ضاعَ[1] رِبْحُه ورأسُ ماله، وبالمنقلِب الذي يروحُ في طريق ويغدو في أخرى، وفي قوله: «سنُلْقي». وقيل: هذا كلُّه استعارة.

والحذفُ في عدَّة مواضع.

❁ ❁ ❁

﴿۞إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ
فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ
خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ
وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ
ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ
لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ
مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ
﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ
وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

(١) في (أ) و(ع): ذهبَ.

﴿وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

المفردات

الإصْعاد: ابتداءُ السَّفر والمخرج، والصُّعود مصدر صَعِدَ: رَقِيَ من سُفْلٍ إلى عُلْوٍ. قاله الفرَّاء وأبو حاتم والزجَّاج[(١)].

وقال القُتَبيّ: أصْعَدَ: أبْعَدَ في الذَّهاب[(٢)]. فكأنه إبعاد كإبعاد الارتفاع. قال:

ألا أيُّهذا السائلي أين أصْعَدَتْ ... فإنَّ لها في أرْضِ[(٣)] يَثْرِبَ مَوْعِدًا[(٤)]

وأنشد أبو عبيدة:

قد كنتِ تبكينَ[(٥)] على الإصْعَادِ ... فاليومَ سُرِّحْتِ وصاحَ الحادي

وقال المفضَّل: صَعِدَ وأصْعَدَ وصَعَّد بمعنًى واحد[(٦)].

---

(١) أي إنهم فرَّقوا بين صَعِدَ، وأصْعَدَ. وينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٩، وللزجاج ١/ ٤٧٨-٤٧٩، والدّرّ المصون ٣/ ٤٣٩.

(٢) غريب القرآن ص١١٤.

(٣) في (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه): من بين.

(٤) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٨٥، وفيه: «أهل». بدل: «أرض»، و«يَمَّمَتْ» بدل: «أصْعَدَتْ». وعندئذ لا شاهد فيه، وإنما في البيت قبله، وعجزُه: حفيٌّ عن الأعشى به حيث أصعدا.

(٥) في (أ) و(د١) و(د٢) و(ع): تبكيني. والبيت في مجاز القرآن ١/ ١٠٥.

(٦) تفسير القرطبي ٥/ ٣٦٧.

و الصَّعيد وَجْهُ الأرض. وصَعْدَة اسمٌ من أسماء الأرض، وأصْعَدَ معناه: دخلَ في الصَّعِيد[١].

فاتَ الشيءُ: أعْجَزَ إدراكُه، وهو مُتَعدٍّ، ومصدرُه فَوْت، وهو قياس فَعَلَ المتعدِّي.

النُّعاس: النَّومُ الخفيف يقال: نَعَسَ يَنْعُسُ نُعاساً، فهو ناعِسٌ، ولا يقال: نَعْسان. وقال الفرَّاء: قد سمعتُها ولكنِّي لا أشتهيها[٢].

المَضْجَع: المكانُ الذي يُتَّكَأُ فيه للنَّوم، ومنه: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: ٣٤] والمضاجع: المصارع، وهي أماكنُ القَتْل، سُمِّيَتْ بذلك لضجعة المقتول فيها.

الغَزْوُ: القَصْد، وكذلك المَغْزَى، ثم أُطلِقَ على قصدٍ مخصوص، وهو الإيقاعُ بالعدوّ، تقولُ: غَزَا بني فلان: أوْقَعَ بهم القتلَ والنَّهْبَ وما أشبهَ ذلك. و«غُزًّى» جمع غازٍ؛ كعافٍ وعُفًّى[٣]، وقالوا: غُزَّاء[٤]؛ بالمدّ، وكلاهما لا ينقاس، أُجرِيَ جمع فاعل الصفة من المعتلّ اللام مُجرَى صحيحِها، كرُكَّع وصُوَّام[٥]، والقياس فُعَلَة، كقاضٍ وقُضَاة. ويقال: أغْزَت الناقةُ: عَسُرَ لِقاحُها، وأتانٌ مُغْزِيَةٌ: تأخَّرَ نَتَاجُها ثم تُنْتَجُ[٦].

يقال: لانَ الشيءُ يَلِينُ، فهو لَيِّن، والمصدرُ لِين، ولَيَان؛ بفتح اللام، وأصلُه في الجِرْم، وهو نُعومتُه وانتفاءُ خُشونتِه، ولا يُدرَكُ إلا باللمس، ثم تَوَسَّعُوا ونقلُوه إلى المعاني.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٥.
(٢) نقله ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٤٨٠ عن الفراء.
(٣) قوله: عافٍ، أي: طالب المعروف، أو الضيف، أو الذي يأتيك يطلب ما عندك. والجمع: عافية وعُفاة وعُفًّى. ينظر اللسان (عفا).
(٤) مثل: كاتب وكُتَّاب، وصائم وصُوَّام.
(٥) مَثَّلَ المصنِّف بـ «رُكَّع» لـ «غُزًّى» ووزنُها فُعَّل، ومَثَّلَ بـ «صُوَّام» لـ «غُزَّاء» ووزنُها فُعَّال. والجمعان (غُزًّى وغُزَّاء) على غير قياس كما ذكر.
(٦) ينظر الصحاح (غزا).

الفَظَاظة: الجَفْوَة في المُعاشرة قولاً وفعلاً؛ قال الشاعر في ابنةٍ له:

أخْشَى فَظَاظَةَ عَمٍّ أو جَفَاءَ أخٍ وكنتُ أخْشَى عليها من أذى الكَلِمِ[١]

الغِلَظُ: أصلُه في الجِرْم، وهو تكثُّر أجزائه[٢]، ثم يُستعمل في قلّة الانفعال والإشفاقِ والرحمة، كما قال:

يُبْكَى علينَا ولا نَبْكِي على أَحَدٍ لَنَحْنُ أغْلَظُ أكْبَاداً من الإبلِ[٣]

الانْفِضاضُ: التفرّق، وفَضَضْتُ الشيءَ: كسرتُه، وهو تَفرِقةُ أجزائِه.

الخَذْلُ والخِذْلانُ: هو التَّركُ في موضع يُحتاج فيه إلى التارك، وأصلُه مِنْ خَذْلِ الظِّباء[٤]، ولهذا قيل لها: خاذل إذا تركَتْها أمُّها[٥]. وهذا على النَّسَب، أي: ذاتُ خَذْلٍ؛ لأنَّ المتروكة هي الخاذِل، بمعنى مخذولة، ويقال: خاذلة، قال الشاعر:

بِجِيدِ مُغْزِلَةٍ أدْمَاءَ خَاذِلَةٍ مِنَ الظِّباءِ تُراعِي شادِناً خَرِقَا[٦]

(١) نسب التبريزي البيت في شرح الحماسة ١/ ١٥١ لإسحاق بن خلف، ونسبه ابنُ المعتزّ في طبقات الشعراء ص٢٨١ لمحمد بن يسير الرِّياشي. وهو من دون نسبة في المحرر الوجيز ١/ ٥٣٣.

(٢) في الدر المصون ٣/ ٤٦٢: تكثير الأجزاء. وجاء الغِلَظ في المعاجم بمعنى الثِّخَن والتكاثف.

(٣) نُسب البيت في شرح الحماسة للمرزوقي ٢/ ٥٩١، والخزانة ٦/ ٣٧ إلى المُهلهل، ونُسب في عيون الأخبار ٢/ ١٩٢ إلى المُخبَّل، ونُسب في ثمار القلوب ص٣٤٨، والمستقصى ١/ ٦٩ إلى بلعاء بن قيس الكناني.

(٤) في (أ) و(ح) و(د١) و(د٢) و(ع): الظبي (ولعلها الظُّبِيّ، جمع ظَبي أيضاً) والمثبت من (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه)، وهو موافق لما في المحرر الوجيز ١/ ٥٣٤.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٤. وجاء في المعاجم أيضاً أن الخاذل هي الظَّبْيَة التي تُقيم على ولدها. وهو معنى ما جاء في بيت زهير الآتي.

(٦) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص٣٥، وذكره النحاس في معاني القرآن ١/ ٥٠٣. قال شارح الديوان (ثعلب): بِجِيدِ مُغْزِلَةٍ، أي: بعُنقِ ظَبْيَةٍ معها غزال، والشادن: الذي قد اشتدَّ لحمُه، وإنما جعلَها مُغْزِلاً لأنه أشدُّ لانتصابها لحذَرِها عليه. وأدْمَاء: خالصة البَياض، والخاذلة: المتأخِّرة عن الظِّباء، والخَرِق: الذي لا يقدرُ أن يتحرَّك ولا يدري كيف يأخذُ من ضعفه وصِغَره.

ملاحظة: وقع في النسخ الخطية والدُّرّ المصون ٣/ ٤٦٦: منزلاً زِيَمَا، بدل: شادناً خَرِقَا. =

ويقال أيضاً لها: خَذُول، فَعُول بمعنى مفعول. قال:

خَذُولٌ تُراعِي رَبْرَباً بِخَمِيلَةٍ تَنَاوَلُ أَطْرَافَ البَرِيرِ وتَرْتَدِي[١]

الغُلُول: أخْذُ المالِ من الغنيمة في خَفَاء، والفعل منه: غَلَّ يَغُلُّ، بضمّ الغين، والغِلّ: الضِّغْن، والفعلُ منه: غَلَّ يَغِلُّ؛ بكسر الغين.

وقال أبو علي[٢]: تقولُ العرب: أَغَلَّ الرجلُ إغلالاً: خانَ في الأمانة. قال النَّمِر:

جَزَى اللهُ عنّي جَمْرَةَ ابنةَ نَوْفَلٍ جَزَاءَ مُغِلٍّ بالأمانةِ كاذِبِ[٣]

وقال بعض اللغويين: الغُلُول مأخوذ من الغَلَل، وهو الماء الجاري في أصول الشجرِ والدَّوْح[٤]. ويقال أيضاً في الغُلُول: أَغَلَّ إغْلالاً، وأغلَّ الجازرُ: سَرَقَ شيئاً من اللحم مع الجلد، ويقال: أَغَلَّه: وَجَدَه غالًّا، كقولك: أَبْخَلْتُه أي: وجَدْتُه بخيلاً.

السَّخَط: مصدر سَخِطَ، جاء على القياس، ويقال فيه: السُّخْط؛ بضم السِّين وسكون الخاء[٥]، ويقال: مات فلان في سُخْطَةِ المَلِك، أي: في سَخَطِه. والسَّخَط: الكراهة المُفرِطة، ويقابلُه الرِّضا.

* * *

= والمثبت من مطبوع البحر، وهو الصواب. ثم إنَّ البيت نُسبَ في الدّرّ المصون لبُجَيْر، وهو وهم غالباً، سببُه ـ والله أعلم ـ التباس لفظة «بِجِيد» أوّل البيت به. ولفظ «تُراعي منزلاً زِيَمَا» جاء في بيت للنابغة الذُّبياني، كما في ديوانه ص١٠٣:

بَاتَتْ ثلاثَ لَيَالٍ ثم واحدةً بِذي المَجازِ تُراعي منزلاً زِيَمَا

(١) البيت لطَرَفَة بن العَبْد، وهو في ديوانه ص٢١. قوله: رَبْرَباً، أي: قطيعاً من الظِّباء وبقر الوحش، والخَمِيلة: أرضٌ ذاتُ شجر، والبَرِير: ثمر الأراك.

(٢) الحجة ٣/ ٩٥. والكلام بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٥٣٥ عن أبي عمرو.

(٣) إصلاح المنطق ص٢٩٥، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٨، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٥.

(٤) الدَّوْحُ: جمع دَوْحَة، وهي الشجرة العظيمة من أيِّ شجر كان.

(٥) يعني على غير قياس. ينظر الدّرّ المصون ٣/ ٤٦٩.

التفسير ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ هذه من الجُملِ التي تضمَّنت التوبيخ والعَتَبَ الشديد، إذْ هو تَذْكارٌ بفرار مَنْ فَرَّ وبالغَ في الهَرَب ورسولُ الله ﷺ يدعُوه إليه، فمن شدَّةِ الفِرار واشتغالِهِ بنفسه وهو يَرُومُ نَجاتَها لم يُصْغ إلى دعاء الرسول ﷺ. وهذا من أعظم العَتَب حيث فرُّوا بحالةِ أنَّ رسولَ الله ﷺ يدعُوهم إليه.

وقرأ الجمهور: «تُصْعِدُون» مضارع «أَصْعَدَ»، والهمزةُ في «أَصْعَدَ» للدُّخول، أي: دخلتُم في الصَّعيد: ذهبتُم فيه، كما تقول: أصبحَ زيد، أي: دخلَ في الصَّباح، فالمعنى: إذْ تذهبون في الأرض. وتُبيِّن ذلك قراءة أُبيّ: «إذْ تُصْعِدُون في الوادي»(١).

وقرأ أبو عبد الرحمن والحسن ومجاهد وقتادة واليزيديّ: «تَصْعَدُون»(٢) من: صَعِدَ في الجبل: إذا ارتقى إليه.

وقرأ أبو حَيْوَة: «تَصَعَّدُون»(٣)، من «تَصَعَّدَ» في السُّلَّم، وأصلُه: تَتَصَعَّدُون، فحُذِفت إحدى التاءين على الخلاف في ذلك أهي تاء المضارعة، أم تاء تَفَعَّلَ، والجمعُ بينهما أنهم أوّلاً أَصْعَدُوا في الوادي، ثم لمَّا أرهَقَهم العدوّ صَعِدُوا في الجبل(٤).

وقرأ ابن مُحيصن وابنُ كثير في رواية شِبْل: «يَصْعَدُون ولا يَلْوُون» بالياء على الخروج من الخطاب إلى الغائب(٥).

والعامل في «إذْ» ذكروا: «اُذْكُرْ» محذوفة، أو «عَصَيْتُم» أو «تَنَازَعْتُم» أو

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ١٤٦، والقراءات الشاذة ص٢٣، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٦٨، والكشاف ١/ ٤٧١، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٥، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٦٦.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ١٤٥، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٦٨، والكشاف ١/ ٤٧١، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٦، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٦٥.

(٣) القراءات الشاذة ص٢٣، والكشاف ١/ ٤٧١.

(٤) في (أ) و(ح) و(د١) و(د٢) و(ع) والمطبوع: أصعدوا في الوادي لمَّا أرهقَهم العدوّ وصعدوا في الجبل. والمثبت من (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه).

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٦، والكشاف ١/ ٤٧١.

«فَشِلْتُم» أو «عَفَا عنكم» أو «ليبتليَكم» أو «صَرَفَكم». وهذان عن الزمخشري، وما قبلَه عن ابن عطيَّة[١]، والثلاثة قبله بعيدة لطول الفصل، والأوَّل جيِّد؛ لأنَّ ما قبلَ «إذْ» جُملٌ مستقلَّة يحسُنُ السكوتُ عليها، فليس لها تعلُّق إعرابيّ بما بعدَها، إنما تتعلَّق به من حيث إنَّ السِّياق كلَّه في قصَّة واحدة، وتعلُّقُهُ بـ «صَرَفَكُم» جيِّد من حيث المعنى، وبـ «عَفَا عنكم» جيِّد من حيث القُرب.

ومعنى «ولا تَلْوُوْنَ على أحد» أي: لا ترجعون لأحد من شدَّة الفِرار، يقال: لَوَى بكذا: ذَهَبَ به، ولَوَى عليه: كرَّ عليه وعطف، وهذا أشدُّ في المبالغة من قوله:

أخُو الجَهْدِ لا يَلْوِي على مَنْ تَعَذَّرَا[٢]

لأنه في الآية نفي عامّ، وفي هذا نفي خاصّ، وهو «على مَنْ تعذَّر». وقال دُرَيْد بنُ الصِّمَّة: وهل يَرُدُّ المنهزمَ شيء[٣]؟

وقُرئ: «تَلْؤُوْنَ» بإبدال الواو همزةً[٤]، وذلك لكراهة اجتماع الوَاوَيْن، وقياسُ هذه الواو المضمومة أن لا تُبدل همزةً، لأنَّ الضمة فيها عارضة، ومتى وقعت الواو غيرَ أوَّل وهي مضمومة فلا يجوزُ الإبدالُ منها همزةً إلا بشرطين:

أحدُهما: أن تكون الضمة لازمةً.

الثاني: أن لا تكون يمكن تخفيفها بالإسكان.

مثال ذلك: فُوُوْج، وقَوُوْل، وغُوُوْر. فهنا يجوز: فُؤُوْج، وقَؤُوْل، وغُؤُوْر، بالهمز[٥]. ومَثَلُ كونِها عارضة: هذا دَلْوُك، ومَثَلُ إمكان تخفيفها بالإسكان: هذا سُوْر ونُوْر، جمع سِوَار ونَوَار[٦]، فإنك تقول فيهما: سُوُر ونُوُر.

---

(١) يعني قوله: «عفا عنكم». ينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٢٥، وكلام الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٧١.

(٢) هو عجز بيت لامرئ القيس، وصدرُه: بِسَيْرٍ يَضِجُّ العَوْدُ منه يَمُنُّه. وهو في ديوانه ص٦٢.

(٣) قاله دريد لمالك بن عوف لما أخرجَ الذراري والنساء في غزوة حُنين ليقاتلوا عليها، وهو في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٦، وسيرد عند تفسير الآية (٢٦) من سورة التوبة.

(٤) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٢٦.

(٥) فُؤُوج: جمع فَوْج، وقَؤُول؛ بفتح القاف، أي: قائل، ويمكن أن تكون اللفظة: قُؤُول؛ بضمّ القاف، على الجمع كما في القاموس. وغُؤُور: مصدر مثل الغَوْر، من غار يَغورُ.

(٦) النَّوَار: المرأة النَّفُور من الرِّيبة.

ونبَّه بعض أصحابنا على شرط آخر ـ وهو لا بدَّ منه ـ وهو أن لا يكون مدغَماً فيها، نحو: تعوُّذ، فلا يجوز فيه تَعَؤُّذ بإبدال الواو المضمومة همزةً، وزاد بعضُ النَّحْويِّين شرطاً آخرَ، وهو أن لا تكون الواو زائدةً، نحو: التَّرَهْوُك[١]. وهذا الشرط ليس مُجمعاً عليه.

وقرأ الحسن: «تَلُونَ»[٢]، وخرَّجوها على قراءة همزة الواو. ونقلِ الحركة إلى اللام وحذفِ الهمزة؛ قال ابن عطية[٣]: وحُذفت إحدى الواوين الساكنتين. وكان قد قال في هذه القراءة: هي قراءة متركِّبة على لغة مَنْ هَمَزَ[٤] الواوَ المضمومة، ثم نُقلت حركة الهمزة إلى اللام. انتهى.

وهذا كلامٌ عجيب، تَخَيَّلَ هذا الرجل أنه نُقلت الحركةُ إلى اللام، فاجتمع واوان ساكنان إحداهما الواو التي هي عينُ الكلمة، والأخرى واو الضمير، فحُذفت إحدى الواوين لأنهما ساكنتان، وهذا قولُ مَنْ لم يُمعن في صناعة النحو؛ لأنها إذا كانت متركِّبة على لغة مَنْ همزَ الواو ثم نَقل حركتَها إلى اللام، فإنَّ الهمزة إذْ ذاك تُحذف، ولا يلتقي واوانِ ساكنان، ولو قال: استُثْقِلَت الضمةُ على الواو لأن الضمة كأنّها واو، فصار ذلك كأنه جمع بين ثلاث واوات فنُقِلَتِ الضمَّة إلى اللام، فالتقى ساكنان، فحُذِفت الأولى منهما، ولم يُبْهِمْ في قوله: إحدى الواوَيْن = لَأَمْكَنَ ذلك في توجيه هذه القراءة الشاذَّة، أمَّا أنْ يبنيَ ذلك على أنه على لغة من همزَ على زعمه، فلا يُتصوَّر. ويحتمل أن يكون مضارعَ «وَلِيَ»، وعُدِّيَ بـ«على» على تضمين معنى العطف، أي: ولا تَعْطِفُون على أَحَد.

وقرأ الأعمش وأبو بكر في رواية عن عاصم: «تُلْوُون» من: أَلْوَى، وهي لغة في «لَوَى»[٥].

---

(١) مصدر تَرَهْوَكَ، أي: مشى كأنه يموجُ في مَشْيِهِ.
(٢) الكشاف ١/ ٤٧١، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٦ (دون نسبة)، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٦٥.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٦.
(٤) في (أ) و(ع): هي لغة متركبة على قراءة من همز... الخ.
(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٢، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٦، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٦٥. قال النحاس (ونقله عنه القرطبي): هي لغة شاذة.

وظاهرُ قوله: «على أَحَد» العمومُ، وقيل: المرادُ النبيُّ ﷺ، وعَبَّرَ بـ «أَحَدٍ» عنه تعظيماً له وصَوْناً لاسمِهِ أَنْ يُذْكَرَ عند ذهابِهم عنه. قاله ابنُ عبَّاس والكلبيُّ(١).

وقرأ حُميد بن قيس: «على أُحُدٍ» بضم الهمزة والحاء، وهو الجبل(٢)؛ قال ابنُ عطيَّة: والقراءة الشهيرة أقوى لأنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن على الجبل إلا بعدَ ما فرَّ الناسُ عنه، وهذه الحال من إصعادهم إنما كانت وهو يدعوهم. انتهى.

وقال غيرُه: الخطاب فيه لمن أمْعَنَ في الهَرَب ولم يصعد الجبلَ مع مَنْ صَعِدَ.

ويجوزُ أن يكون أراد بقوله: «ولا تَلْوُونَ على أُحُد(٣)» أي: مَنْ كان على جبل أُحُد، وهو النبيُّ ﷺ ومَنْ معَه الذين صَعِدُوا.

و«تلوون» هو من لَيِّ العُنُق؛ لأنَّ مَنْ عَرَّجَ على الشيء يَلْوِي عُنقَه أو عِنَانَ دابَّتِه. والألفُ واللام في «الرَّسول» للعهد، ودعاءُ رسولِ الله ﷺ رُوِيَ أنه كان: «إليَّ عِبادَ الله» والناسُ يفرُّونَ عنه، ورُوِيَ: «أيْ عبادَ الله ارْجِعُوا»، قاله ابنُ عبَّاس. وفي رواية: «اِرْجِعُوا إليَّ، فإني رسولُ الله، مَنْ يَكِرَّ فله الجنَّة» وهو قولُ السُّدِّيّ والربيع(٤).

قال القرطبيّ: وكان دعاؤه تغييراً للمنكر، ومحالٌ أنْ يرى رسولُ الله ﷺ المنكر ـ وهو الانهزام ـ ثم لا ينهى عنه(٥).

ومعنى «في أُخْرَاكم» أي: في ساقَتِكم وجماعتِكم الأخرى، وهي المتأخِّرة يقال: جئتُ في آخِرِ الناس وأُخْرَاهم كما تقول: في أَوَّلهم وأُولاهم؛ بتأويل مقدِّمتهم وجماعتهم الأُولى(٦).

---

(١) تفسير الثعلبي ٢/ ١٦٩، وزاد المسير ١/ ٤٧٧. وينظر التعليق التالي.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٦. قال ابن عطية: والمعنيُّ بذلك رسول الله ﷺ لأنه كان على الجبل... وسيذكر المصنف نحوه، وهو متعقَّب بقول ابن عطية كما سيرد.

(٣) الضبط من (ح) و(د١).

(٤) ينظر تفسير الطبري ١/ ١٤٨-١٤٩، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٦٩ (ووقع في مطبوعه تحريف)، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٢، والكشاف ١/ ٤٧١، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٦.

(٥) تفسير القرطبي ٥/ ٣٦٧، لكن قال بإثره: هذا على أن يكون الانهزام معصية. وليس كذلك... الخ. ثم فصَّل الكلامَ فيه ٥/ ٣٧٣.

(٦) الكشاف ١/ ٤٧١.

وفي قوله: «في أُخراكُم» دلالةٌ عظيمة على شجاعة رسول الله ﷺ، فإنَّ الوقوف على أعقاب[١] الشجعان وهم فُرَّار والثبات فيه إنَّما هو للأبطال الأنْجاد[٢]، وكان رسول الله ﷺ أشجعَ النَّاس؛ قال سَلَمة: كنَّا إذا احْمَرَّ البأسُ اتقيناه برسول الله ﷺ[٣].

﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ الفاعل بـ«أثابكم» هو الله تعالى. وقال الفرَّاء: الإثابة هنا بمعنى المعاقبة[٤]. انتهى.

وسمَّى الغَمَّ ثَوَاباً على معنى أنه قائم في هذه النازلة مَقَامَ الثَّواب الذي كان يحصلُ لولا الفِرار، فهو نظيرُ قولِه:

تحيَّةُ بينِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ[٥]

وقوله:

أخافُ زيداً أن يكونَ عطاؤهُ أَدَاهِمَ سُوداً أو مُحَدْرَجَةً سُمْرَا[٦]

جعلَ القُيُودَ والسِّياطَ عَطَاءً، ومُحَدْرَجَة بمعنى: مُدَحْرَجَة.

والباء في «بغَمٍّ» إمّا أن تكونَ للمصاحبة، أو للسَّبَب، فإنْ كانت للمصاحَبة - وهي التي عَبَّرَ بعضُهم عنها بمعنى «مع» والمعنى: غَمًّا مصاحِبًا لِغَمٍّ - فيكون الغمَّانِ

(١) في (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه): في أعقاب.
(٢) جمع نَجِد، وهو الشجاع الماضي فيما يُعجِزُ غيرَه. ينظر القاموس (نجد).
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٦، وفيه: اتَّقَيْنا (من دون هاء). وأخرجه أحمد في المسند (١٣٤٧) من قول عليّ رضي الله عنه، وفيه أيضاً: اتَّقَيْنا. وأخرجه مسلم (١٧٧٦) مطولاً من قول البراء، وفيه: نتَّقي به، وإنَّ الشجاع منَّا الذي يُحاذي به ﷺ.
(٤) بنحوه في معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٩. وتحرفت لفظة «المعاقبة» في (أ) و(د١) و(د٢) و(ع) إلى: «المغالبة».
(٥) هو عجُز بيت لعَمرو بن معديكرب، وصدرُه: وخَيْلٍ قد دَلَفْتُ لها بِخَيْلٍ، وهو في الكتاب ٣/ ٥٠، ونوادر أبي زيد ص١٥٠، وخزانة الأدب ٩/ ٢٥٧. وسلف في تفسير الآية (٢١) من هذه السورة، و(٢٠٦) من البقرة.
(٦) البيت للفرزدق، وهو بهذه الرواية في تفسير الطبري ٦/ ١٥٠، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٦٩، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٦ (والكلام السالف والآتي فيه)، وزاد المسير ١/ ٤٧٨، واللسان وتاج العروس (حدرج). وهو في ديوان الفرزدق ١/ ١٨٨ برواية: فلما خشيتُ أن يكون عطاؤه... الخ. قوله: أداهم، جمع أدهم، وهو السَّوْط، وهو المُحَدْرَج أيضاً.

إذ ذاك لهم، فالأوَّل هو ما أصابَهم من الهزيمة والقتل. والثاني إشرافُ خالد بخَيْلِ المشركين عليهم. قاله ابنُ عبَّاس ومقاتل.

وقيل: الغمُّ الأوَّل سببُهُ فِرارُهُم الأوَّل، والثاني سببُهُ فِرارُهُم حين سمعوا أنَّ محمداً قد قُتل. قاله مجاهد.

وقيل: الأوَّلُ ما فاتَهم من الغنيمة وأصابَهم من الجِراح والقَتْل، والثاني حين سمعوا أنَّ النبيَّ ﷺ قُتل. قاله قتادة والرَّبيع[١]. وقيل عكسُ هذا الترتيب، وعزاه ابنُ عطيَّة إلى قتادة ومجاهد[٢].

وقيل: الأوَّل ما فاتَهم من الغنيمة والفتح، والثاني: إشرافُ أبي سفيان عليهم. ذكره الثعلبيّ[٣].

وقيل: الأوَّل هو قَتْلُهم وجِراحُهم، وكلُّ ما جرى في ذلك المأزق، والثاني إشرافُ أبي سفيان على النبيِّ ﷺ ومَنْ كان معه. قاله السُّدِّيُّ ومجاهد أيضاً وغيرُهما[٤].

وعبَّر الزَّمخشريُّ[٥] عن هذا المعنى ـ وهو اجتماع الغَمَّيْنِ لهم ـ بقوله: غَمًّا مضاعفاً؛ غَمًّا بعد غَمٍّ، وغَمًّا متَّصِلاً بغَمٍّ؛ من الاغتمام بما أُرْجِفَ به من قَتْلِ رسولِ الله ﷺ، والجرحِ والقَتْل، وظَفَرِ المشركين، وفَوْتِ الغنيمة والنصر. انتهى كلامه.

وقولُه: غَمًّا بعدَ غَمّ، تفسير للمعنى لا تفسيرُ إعراب؛ لأنَّ الباء لا تكون بمعنى «بعد»، وإنْ كانَ بعضُهم قد ذهبَ إلى ذلك[٦]. وكذلك قال بعضُهم: إنَّ المعنى

---

(١) الأقوال في زاد المسير ١/ ٤٧٨ دون قوله: والربيع.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٦-٥٢٧.

(٣) الذي في تفسير الثعلبي ٢/ ١٦٩ ـ ونقلَه عنه ابنُ الجوزي في زاد المسير ١/ ٤٧٨ ـ أنَّ الغمَّ الأوَّل هو إشراف خالد بن الوليد عليهم.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٧. وينظر في هذه الأقوال أيضاً: تفسير الطبري ٦/ ١٥٠-١٥٨، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٢.

(٥) الكشاف ١/ ٤٧١.

(٦) هو أبو البقاء في الإملاء ١/ ١٥٤.

غَمًّا على غَمّ. فينبغي أن يُحمل على تفسير المعنى، وإنْ كان بعضُهم قد ذهبَ إلى ذلك[(١)].

وإن كانت الباء للسبب - وهي التي عبَّر بعضُهم عنها أنها بمعنى الجزاء - فيكون الغمُّ الأوَّلُ للصحابة، والثاني قال الحسن وغيرُه: مُتَعلَّقُهُ المشركون يومَ بدر[(٢)]. والمعنى: أثابَكم غَمًّا بالغمّ الذي أُوقع على أيديكم بالكفار يومَ بدر؛ قال ابنُ عطية[(٣)]: فالباء على هذا باء معادلة كما قال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر والحربُ سِجَال[(٤)].

وقال قوم منهم الزجَّاج وتبعَه الزمخشريُّ: متعلَّقُهُ رسولُ الله ﷺ، والمعنى: جازاكم غمًّا بسبب الغَمِّ الذي أدخلتُموه على رسول الله ﷺ وسائر المؤمنين بفشلكم وتنازعِكم وعصيانِكم[(٥)].

قال الزمخشريّ: ويجوزُ أن يكون الضمير في «فأثابَكم» للرسول، أي فآساكم في الاغتمام، وكما غمَّكم ما نزلَ به من كَسْرِ الرَّبَاعِيَة والشَّجَّةِ وغيرِهما، غَمَّهُ ما نزلَ بكم، فأثابَكُم غَمًّا اغتمَّه لأجلكم بسبب غمٍّ اغْتَمَمْتُموه لأجله، ولم يُثَرِّبْكُم[(٦)] على عصيانكم ومخالفتكم[(٧)]، وإنما فعلَ ذلك لِيُسَلِّيَكم ويُنفِّسَ عنكم كيلا تحزنوا على ما فاتَكم من نصر الله، ولا على ما أصابَكم من غَلَبَةِ العدوّ. انتهى كلامُه.

وهو خلافُ الظاهر؛ لأنَّ المُسْنَدَ إليه الأفعالُ السابقةُ هو اللهُ تعالى، وذلك في

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٦/ ١٥٠، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٦٩، وتفسير البغوي ١/ ٣١٢، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٦، وزاد المسير ١/ ٥٧٨.

(٢) ينظر تفسير الثعلبي ٢/ ١٦٩، وزاد المسير ١/ ٥٧٨.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٤.

(٤) المثبت من (ح) و(د٢)، وهو كذلك في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٦. وفي (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه): يوم بيوم والحرب سجال، وفي (ع): كما قال أبو سفيان يوم بدر: الحرب سجال. ومثلها في (أ) و(د١) غير أن فيها: والحرب.

(٥) ينظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٧٩، والكشاف ١/ ٤٧١.

(٦) ثَرَّبَ عليهم فِعْلَهُم (وثَرَب أيضاً): لامَهُمْ. قال تعالى حكاية عن يعقوب: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.

(٧) في الكشاف ١/ ٤٧١: ومخالفتكم لأمره.

قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ﴾ فيكون قوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ مُسنَداً إلى الله تعالى، وذِكرُ الرسول إنما جاء في جملة حاليَّة، نُعِيَ عليهم فِرارُهم مع كون مَن اهتَدَوا على يده يدعوهم، فلم يَجِئْ مقصوداً لأنْ يُحدَّث عنه، إنما الجملة التي ذُكر فيها في تقدير المفرد، إذْ هيَ حال.

وقال الزمخشريّ: «فأثابَكم» عطف على «صَرَفَكُم». انتهى. وفيه بُعْد لطول الفصل بين المتعاطفَين، والذي يظهر أنه معطوف على «تُصْعِدُون ولا تَلْوُون» لأنه مضارع في معنى الماضي، لأنَّ «إذْ» تصرفُ المضارع إلى الماضي؛ إذْ هي ظرف لِمَا مضَى، والمعنى: إذْ صعدتُم[1] ومالَوَيْتُم على أحد، فأثابَكم.

﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ اللام لام «كَيْ» وتتعلَّق بقوله: «فأثابَكم»[2]، فقيل: «لا» زائدة؛ لأنه لا يترتَّب على الاغتمام انتفاءُ الحُزن، فالمعنى على أنه غمَّهم ليُحْزِنَهم عقوبةً لهم على تركهم مَوَاقِفَهم[3]. قاله أبو البقاء وغيرُه، وتكون كهي في قوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩] إذ تقديرُه: لأن يعلم، ويكونُ أَعْلَمَهُمْ بذلك تبكيتاً لهم وزَجْراً أن يعودُوا لمثله. والجمهور على أنَّ «لا» ثابتةٌ[4] على معناها من النفي.

واختلفوا في تعليل الإثابة بانتفاء الحُزن على ما ذكر، فقال الزمخشريّ[5]: «لكيلا تحزنُوا»: لتتمرَّنُوا على تجرُّع الغُموم وتضرُّوا باحتمال الشدائد، فلا تحزنُوا فيما بعد على فائتٍ من المنافع، ولا على مُصيبٍ من المَضَارّ. انتهى. فجعلَ العلَّة في الحقيقة ثُبوتيَّة، وهي التمرُّن على تجرُّع الغُموم، والاعتيادُ لاحتمال الشدائد، ورتَّب على ذلك انتفاءَ الحُزْن، وجعل ظرف الحُزْن هو مستقبل لا تعلُّق له بقصَّة أُحُد، بل لينتفيَ الحُزْنُ عنكم بعد هذه القصَّة.

(١) كذا. ولعلها: أصْعَدْتُم، لتوافق قوله: «تُصْعِدُون».
(٢) علَّقها القرطبي ٥/٣٦٨ أيضاً بقوله: «ولقد عفا عنكم». قال: وهو أحسن. وسيذكره المصنف لاحقاً ويستبعده.
(٣) في (أ) و(ح) و(د١) و(د٢) والمطبوع: موافقتهم، وهو تحريف. والكلام في الإملاء ١/ ١٥٤.
(٤) في (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه): باقية.
(٥) الكشاف ١/ ٤٧١.

وقال ابنُ عطيَّة: المعنى لتعلموا أنَّ ما وقعَ بكم إنما هو بجنايتكم، فأنتم آذيتُم أنفسَكم، وعادةُ البشر أنَّ جانيَ الذنب يصبرُ للعقوبة، وأكثرُ قلق المعاقَب وحُزنه إنَّما هو مع ظنِّه البراءةَ بنفسه(١). انتهى. وهذا تفسيرٌ مخالف لتفسير الزمخشريّ.

ومن المفسِّرين مَن ذهبَ إلى أنَّ قولَه: «لكيلا تحزنوا» متعلّق بقوله: «ولقد عفا عنكم»(٢)، ويكون الله أعْلَمَهُم بذلك تسليةً لمُصَابهم وعِوَضاً لهم عمَّا أصابَهم من الغمّ؛ لأنَّ عفوَه يُذهِبُ كلَّ غمّ. وفيه بُعد لطُول الفصل، ولأنَّ ظاهرَه تعلُّقُه بمجاورِهِ، وهو: «فأثابَكُم».

قال ابنُ عبَّاس: والذي فاتَهم: من الغنيمة، والذي أصابَهم: من الفشل والهزيمة(٣).

وممَّا تحتملُه الآية أنه لمَّا ذكرَ إصعادَهم وفرارَهم مُجِدِّين في الهَرَب في حالِ دعاءِ الرَّسول ﷺ إليه بالرجوع عن الهَرَب والانحياز إلى فئته؛ كان الجِدُّ في الهَرَب سبباً لاتصال الغُموم بهم وشُغْلِهم بأنفسهم طلباً للنجاة من الموت، فصار ذلك ـ أي: شغلُهم بأنفسهم واغتمامُهم المتصلُ بهم من جهة خوفِ القتل ـ سبباً لانتفاء الحُزن على فائت من الغنيمة ومُصابٍ من الجراح والقتلِ لإخوانهم، كأنه قيل: صارُوا في حالةٍ من اغتمامهم واهتمامهم بنجاة أنفسِهم بحيث لا يخطرُ لهم ببالٍ حزنٌ على شيء فائتٍ ولا مُصابٍ وإنْ جَلَّ، فقد شغلَهم بأنفسهم لينتفيَ الحُزْنُ منهم.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ هذه الجملةُ تقتضي تهديداً، وخصَّ العمل هنا ـ وإنْ كان تعالى خبيراً بجميع الأحوال من الأعمال والأقوال والنيَّات ـ تنبيهًا على أعمالهم من تولية الأدبار والمبالغةِ في الفرار، وهي أعمالٌ تُخْشَى عاقبتُها وعقابُها(٤).

(١) في (ب): إنما هو ظنُّه مع البراءة بنفسه. وفي (ع): إنما هو ظنُّه البراءة بنفسه، وفي مطبوع البحر: إنما وقع هو مع ظنه البراءة بنفسه. والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٧.
(٢) قاله القرطبي ٥/ ٣٦٧، وحسَّنَه، وذكرتُه قبل عدة تعاليق.
(٣) زاد المسير ١/ ٤٧٩. وفيه: الذي فاتهم الغنيمةُ، والذي أصابهم القتلُ والهزيمة.
(٤) في (ز٢) وعقباها، وفي (يه): وعاقبها.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ الأَمَنةُ: الأَمْنُ. قاله ابنُ قُتيبة[١] وغيرُه، وفرَّق آخرون فقالوا: الأَمَنَةُ تكون مع بقاء أسباب الخوف، والأَمْنُ يكونُ مع زوال أسبابِه.

وقرأ الجمهور: «أَمَنَةً» بفتح الميم على أنه بمعنى الأَمْن، أو جمع «آمِن» كـ«بارّ وبَرَرَة»، ويأتي إعرابُه. وقرأ النَّخَعيُّ وابنُ محيصن: «أمْنَة» بسكون الميم، بمعنى الأمْن[٢].

ومعنى الآية: امتنانُ الله عليهم بأَمْنِهِم بعد الخوف والغَمِّ بحيث صارُوا من الأَمْن ينامون، وذلك أنَّ الشديدَ الخوف والغمِّ لا يكادُ ينام.

ونقل المفسِّرون ما أخبرت به الصحابةُ من غَلَبَة النوم الذي غَشِيَهم، كأبي طلحة والزُّبير وابنِ مسعود.

واختلفوا في الوقت الذي غَشِيَهم فيه النُّعاس؛ فقال الجمهور: حين ارتحلَ أبو سفيان من موضع الحرب، فقال رسولُ الله ﷺ لعليّ وكان من المتحيِّزين إليه[٣]: «اذْهَبْ فانظر إلى القوم، فإنْ كانوا جَنَبُوا الخيلَ[٤] فهم ناهضون إلى مكة، وإن كانوا على خيلهم فهم عائدون إلى المدينة، فاتقوا الله واصْبِرُوا». ووَطَّنَهم على القتال، فمضى عليٌّ ثم رَجَع، فأخبرَ أنهم جنبُوا الخيلَ وقعدُوا على أثقالهم عِجالاً، فأَمِنَ المؤمنون[٥] المصدّقون رسولَ الله ﷺ، وألقى الله تعالى عليهم النُّعاسَ، وبقيَ المنافقون الذين في قلوبهم مرضٌ لا يُصدِّقون، بل كان ظنُّهم أنَّ أبا سفيان يؤمُّ المدينة، فلم يقع على أحد منهم نومٌ، وإنما كان همُّهم في أحوالهم الدنيويَّة[٦].

---

(١) مفردات القرآن ص١١٤.
(٢) المحتسب ١/ ١٧٤، والقراءات الشاذة ص٢٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٧، وذكرها الزمخشري ١/ ٤٧١ دون نسبة وقال: كأنها المرَّة من الأمن.
(٣) عبارة المحرر الوجيز ١/ ٥٢٧ (والخبر فيه): قال النبي ﷺ لعليّ بحضرةِ أصحابِه المتحيِّزين في تلك الساعة إليه. . . الخ.
(٤) أي: قادوها إلى جنبهم ولم يركبوها.
(٥) في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٧: الموقنون.
(٦) أخرجه الطبري في التفسير ١/ ١٦٠-١٦١ بنحوه عن السُّدّي، ولم يُصرِّح باسم علي ﷺ، والخبر في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٧، وذكره ابنُ عطية فيه أيضاً ١/ ٥٢٣ في تفسير الآيةِ

وثبت في البخاريّ من حديث أبي طلحة قال: غَشِيَنا النُّعاسُ ونحن في مَصَافِّنا يومَ أُحُد، فجعلَ سيفي[١] يسقطُ من يدي وآخُذُه ويسقطُ وآخذُه.

وفي طريق: رفعتُ رأسي فجعلتُ ما أرى أحداً من القوم إلا وهو يميلُ تحت حَجَفَتِه[٢].

وهذا يدلُّ على أنهم غَشِيَهُم النُّعاس وهم في المصافّ، وسياقُ الآية والحديث الأول يَدُلَّان على خلاف ذلك. قال تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ والغَمُّ كان بعد أن كُسِرُوا وتفرَّقوا عن مصافِّهم ورَحَلَ المشركون عنهم. والجمع بين هذين القولَين أنَّ المصافَّ الذي أخبرَ عنه أبو طلحة كان في الجبل بعد الكَسْرَة؛ أشرفَ[٣] عليهم أبو سفيان من عُلْوٍ في الخيل الكثيرة، فرماهم مَنْ كان انحازَ إلى الجبل من الصحابة بالحجارة، وأغنى هناك عمر حتى أنزلوهم[٤]، وما زالوا صافِّين حتى جاءهم خبرُ قريش أنهم عزموا على الرَّحيل إلى مكة، فأنزل الله عليهم النُّعاسَ في ذلك الموطن، فأَمِنُوا ولم يأمَنِ المنافقون.

والفاعلُ بـ «أنزَلَ» ضمير يعود على الله تعالى، وهو معطوف على «فأثابَكُم». و«عليكم» يدلُّ على تجلُّل النُّعاس واستعلائه وغَلَبَتِه. ونسبةُ الإنزال مجازٌ؛ لأنَّ حقيقتَه في الأجرام.

وأعربُوا «أَمَنَةً» مفعولاً بـ «أَنْزَلَ» و«نُعاساً» بدلٌ منه، وهو بدلُ اشتمال؛ لأن كلًّا منهما قد يُتَصَوَّرُ اشتمالُه على الآخر، أو يُتَصَوَّرُ اشتمالُ العامل عليهما، على الخلاف في ذلك، أو عطفُ بيان، ولا يجوز على رأي الجمهور من البصريّين؛ لأنَّ من شرط عطف البيان عندهم أن يكون في المعارف. أو مفعولٌ من أجله، وهو ضعيف؛ لاختلال أحد الشروط، وهو اتِّحاد الفاعل، ففاعلُ الإنزال هو الله تعالى،

= (١٥١) عند قوله: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ مطولاً، وسلف مختصراً عند هذه الآية، وفيه ذكرُ خروجِهم إلى حمراء الأسد.

(١) لفظة «سيفي» لم ترد في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع. والحديث عند البخاري (٤٥٦٢).
(٢) سنن الترمذي (٣٠٠٧) وفيه: يميد، بدل: يميلُ. وهما بمعنى.
(٣) في (أ) و(ب) و(ع): وأشرف. وقوله: الكَسْرَة، أي: الهزيمة.
(٤) ينظر تفسير الطبري ٦/ ١٥٢-١٥٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٧.

وفاعلُ النُّعاس هو المُنزَلُ عليهم. وهذا الشرط هو على مذهب الجمهور من النحويين.

وقيل: «نُعاساً» هو مفعول «أنزَلَ» و«أَمَنَةً» حالٌ منه، لأنه في الأصل نعتُ نكرةٍ تقدَّم عليها فانتصبَ على الحال، التقدير: نُعاساً ذا أَمَنَة؛ لأنَّ النُّعاس ليس هو الأَمْنَ، أو حالٌ من المجرور[1] على تقدير: ذَوِي أَمَنَة، أو على أنه جمعُ آمِن، أي: آمنِين، أو مفعولٌ من أجلِهِ، أي: لأَمَنَةٍ؛ قاله الزمخشريّ[2]، وهو ضعيف بما ضَعَّفْنا به قولَ مَن أعربَ «نُعاساً» مفعولاً من أجله.

﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ هم المؤمنون، ويدلُّ هذا على أنَّ قولَه: «ثم أَنزلَ عليكم» عامٌّ مخصوص؛ لأنه في الحقيقة ما أُنزِلَ إلا على مَنْ آمن.

وقرأ حمزة والكسائي: «تَغْشَى» بالتاء حملاً على لفظ «أمَنَة»[3]. هكذا قالوا، وقالوا: الجملة في موضع الصفة، وهذا ليس بواضح؛ لأنَّ النَّحْوِيِّين نَصُّوا على أنَّ الصفة مقدَّمةٌ على البَدَل وعلى عطف البيان إذا اجتمعت، فمن أعربَ «نُعاساً» بدلاً أو عطف بيان لا يتمُ له ذلك؛ لأنه مخالفٌ لهذه القاعدة. ومن أعربَه مفعولاً من أجله ففيه أيضاً الفصلُ بين النعت والمنعوت بهذه الفضلة. وفي جواز ذلك نظر مع ما نبَّهنا عليه من فوات الشرط، وهو اتحاد الفاعل، فإنْ جعلتَ «تغشى» جملةً مستأنفة، وكأنها جوابٌ لسؤالِ مَنْ سأل: ما حُكم هذه الأَمَنَة؟ فأخبرَ تعالى بقوله: «تَغْشَى طائفةً منكم» جاز ذلك.

وقال ابن عطيّة[4]: أُسنِدَ الفعلُ إلى ضمير المبدَل منه. انتهى. لمَّا أعربَ «نُعاساً» بدلاً من «أَمَنَةً» كان القياسُ أن يُحَدِّثَ عن البَدَل، لا عن المُبْدَل منه، فحدَّث هنا عن المُبْدَل منه، فإذا قلتَ: إنَّ هنداً حُسْنَها فاتنٌ؛ كان الخبر عن «حُسنها». هذا هو المشهور في كلام العرب، وأجاز بعضُ أصحابنا أن يُخْبَرَ عن المُبْدَل منه كما أجاز ذلك ابنُ عطية في الآية، واستدلَّ على ذلك بقوله:

---

(١) يعني في قوله: عليكم.

(٢) الكشاف ١/ ٤٧٢. وفيه: بمعنى: نعستم أَمَنَةً.

(٣) السبعة ص٢١٧، والتيسير ص٩١.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٧.

إنَّ السيوفَ غُدُوَّها ورَوَاحَها تَرَكَتْ هَوَازِنَ مثلَ قَرْنِ الأَعْضَبِ[(١)]

وبقول الآخَر:

وكأنَّهُ لَهِقُ السَّراةِ كأنَّهُ ما حاجِبَيْهِ مُعَيَّنٌ بسَوَادِ[(٢)]

قال: فقال: تَرَكَتْ ولم يقل: تَرَكا، وقال: مُعَيَّن، ولم يقل: مُعَيَّنان، فأعاد الضمير على المُبْدَل منه، وهو «السيوف» والضميرِ في «كأنَّه»، ولم يُعِدْ على البَدَل، وهو «غُدُوَّها ورَوَاحَها» و«حاجِبَيْه»، و«ما» زائدة بين المُبدَل منه والبَدَل. ولا حُجَّة فيما استَدَلَّ به لاحتمال أن يكون انتصاب «غُدُوَّها ورَوَاحَها» على الظرف لا على البَدَل، ولاحتمال أن يكون «معيَّن» خبراً عن «حاجِبَيْه» لأنه يجوز أن يُخبَر عن الاثنين اللذين لا يُغني[(٣)] أحدُهما عن الآخر كاليدَيْن والرِّجْلين والعَيْنَيْن والحاجِبَيْن إخبارَ الواحد، كما قال:

لِمَنْ زُحْلُوقةٌ زُلُّ بها العينانِ تَنْهَلُّ[(٤)]

وقال:

وكأنَّ في العَيْنَيْنِ حَبَّ قَرَنْفُلٍ أو سُنْبُلاً كُحِلَتْ بهِ فانهَلَّتِ[(٥)]

---

(١) البيت للأخطل، وهو في ديوانه ص٢٨، وهو الشاهد (٣٧١) في خزانة الأدب ٥/ ١٩٩. قوله: الأعضَب، يعني الكبش الذي كُسِرَ قَرْنُهُ.

(٢) الكتاب ١/ ١٦١، واللسان ١٣/ ٣٠٢ (عين). وهو الشاهد (٣٧٠) في «خزانة الأدب» ٥/ ١٩٧. قال البغدادي: هذا البيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يُعرف لها قائل. قوله: لَهِقُ السَّرَاة، اللَّهَق: البياض، والسَّراة: أعلى الشيء، وثورُ الوحش يُوصَفُ بأنه لَهِقُ السَّراة، شَبَّهَ الشاعرُ بعيرَه بثورِ وحشٍ في سرعته، وقوله: حاجِبَيْهِ معيَّنٌ بسَوَادِ، يعني أنَّ ما حَوْلَ حاجِبَيْه وعينيه أسود. ينظر «الخزانة» ٥/ ١٩٩.

(٣) المثبت من (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه). وفي (أ) و(ع): لا هما بمعنى، وفي (ح) و(د٢): لا بمعنى، وفي مطبوع البحر: لا يستغني.

(٤) أمالي القالي ١/ ٤٢، وتهذيب اللغة ١٥/ ٤٣٦، واللسان ١١/ ٢٦ و٣٠٦ (ألل - زلل) وخزانة الأدب ٥/ ١٩٧ و٧/ ٥٥٦، ونُسب في الأخيرين لامرئ القيس، وليس هو في ديوانه. قوله: زُحْلُوقة، أي: الزَّلَّاقة التي يَتَزلَّجُ فيها الصبيان، وزُلٌّ، أي: زَلَق. قال ابن منظور: ويُروى: زُحْلُوفَة (بالفاء).

(٥) البيت لسُلْميّ بن ربيعة، وهو في أمالي القالي ١/ ٨١، والصاحبي ص٢٤٩، وفقه اللغة للثعالبي ص٣٥٤، وشرح الحماسة للمرزوقي ٢/ ٥٤٧، وخزانة الأدب ٧/ ٥٥٥.

فقال: تنهلُّ، وكُحِلَتْ به، ولم يقل: تنهلّان، ولا كُحِلَتَا به. وهذا كما أجازُوا أن يُخبرَ عن الواحد من هذين إخبار المثنّى؛ قال:

إذا ذَكَرَتْ عيني الزَّمانَ الذي مَضى بصحراءِ فَلْجٍ ظَلَّتَا تَكِفَانِ[١]

فقال: ظَلَّتَا، ولم يقل: ظَلَّتْ تَكِفُ.

وقرأ الباقون: «يَغْشَى» بالياء؛ حمله على لفظ النُّعاس.

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ قال مكّيّ: أجمعَ المفسِّرون على أنَّ هذه الطائفة هم المنافقون، وقالوا: غَشِيَ النُّعاسُ أهلَ الإيمان والإخلاص، فكان سبباً لأَمْنِهم وثَباتِهم، وعَرِيَ منه أهلُ النِّفاق والشَّكّ، فكان سبباً لجَزَعِهم وانكشافِهم عن مراتبهم في مَصَافِّهم. انتهى.

ويقال: أهمَّني الشيء، أي: كان من همّي وقَصْدِي، أي: ممَّا أَهُمُّ به وأَقْصِدُه، وأهَمَّني الأمرُ: أقلقَني وأدخلَني في الهَمّ، أي: الغَمّ، فعلى هذا اختلف المفسِّرون في «قد أهَمَّتْهُمْ أنفسُهم» فقال قتادة والرَّبيع وابنُ إسحاق وأكثرُهم: هو بمعنى الغَمّ، والمعنى أنَّ نفوسهم المريضةَ وظنونَهم السيِّئة قد جلبت إليهم الهَمَّ خوفَ القتل[٢]، وهذا معنى قول الزمخشريِّ: أو قد أَوْقَعَتْهُم أنفسُهم وما حلَّ بهم في الهموم[٣] والأشجان، فهم في التَّشَاكي.

وقال بعض المفسِّرين: هو من: هَمَّ بالشيء: أرادَ فِعْلَه. والمعنى: أَهَمَّتْهُم أنفسُهم المكاشَفةَ ونَبْذَ الدِّين، وهذا لِقولِ مَنْ قال: قد قُتل محمد، فلنرجِعْ إلى ديننا الأوّل. ونحوِ هذا من الأقوال[٤].

(١) الصاحبي ص٢٤٩، وفقه اللغة للثعالبي ص٣٥٤، وخزانة الأدب ٧/ ٥٥٦. قوله: فَلْج، هو موضع بين البصرة وضَرِيَّة (وضَرِيَّة قرية بين البصرة ومكة) قاله صاحب القاموس. وينظر معجم البلدان ٤/ ٢٧٢. وقوله: تَكِفان، أي: تسيلان بالدموع، يقال: وكَفَتِ العينُ بالدمع.

(٢) كلمة «الهَمّ» ليست في (أ) و(ح) و(د١) و(ع). والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٨، وينظر تفسير الطبري ٦/ ١٦٤-١٦٥.

(٣) في (أ) و(ح) و(د١) و(ع): الغموم. والمثبت من النسخ الأخرى، وهو كذلك في الكشاف ١/ ٤٧٢.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٨.

وقال الزمخشريّ في قوله: «قد أَهمَّتْهم أنفسُهم»: ما بهم إلا همُّ أنفسِهم لا هَمُّ الدِّين، ولا هَمُّ رسولِ الله ﷺ والمسلمين. انتهى. فيكون من قولهم: أهمَّني الشيء، أي: كان من هَمِّي وإرادتي، والمعنى: أَهَمَّهُم خَلاصُ أنفسِهم خاصَّة، أي: كان من هَمِّهِم وإرادتهم خلاصُ أنفسِهم فقط.

ومعنى «غيرَ الحقِّ»: يظنُّون أنَّ الإسلام ليس بحقّ، وأنَّ أمرَ رسولِ الله ﷺ يذهبُ ويزول.

ومعنى «ظَنَّ الجاهلية» عند الجمهور: المدَّة الجاهليَّة القديمة قبلَ الإسلام، كما قال: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦] ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وكما تقول: شعراء الجاهليَّة[(١)]. وقال ابنُ عبَّاس: سمعتُ أبي في الجاهليَّة يقول: اسقِنا كأساً دِهاقاً.

وقال بعض المفسِّرين: المعنى: ظَنَّ الفرقةِ الجاهليَّة، والإشارةُ إلى أبي سفيان ومَن معه، ونحا إلى هذا القول قتادة والطبريّ[(٢)].

قال مقاتل: ظنُّوا أنَّ أمرَه مُضمحلّ. وقال الزَّجّاج: أنَّ مدَّته قد انقضَت. وقال الضحاك عن ابن عباس: ظنُّوا أنَّ محمداً ﷺ قد قُتل[(٣)].

وقيل: «ظنَّ الجاهلية» إبطال النبوَّات والشرائع. وقيل: يأسُهم من نصر الله وشكُّهم في سابق وعدِه بالنُّصرة. وقيل: يظنُّون أنَّ الحقَّ ما عليه الكفَّار، فلذلك نُصِرُوا. وقيل: كَذّبوا بالقَدَر.

قال الزمخشريّ[(٤)]: وظنُّ الجاهلية كقولك: حاتم الجُود، ورجلُ صِدْق؛ يريد

---

(١) في (ب) و(ز٢) والمطبوع والمصدر السابق (والكلام فيه): شعر الجاهلية.
(٢) الكلام في المصدر السابق. وينظر تفسير الطبري ٦/ ١٦٦.
(٣) لعل وهماً وقع للمصنف في نسبة هذه الأقوال الثلاثة، فلفظ قول الضحاك عن ابن عباس في زاد المسير ١/ ٤٨١: كذَّبوا بالقدر، وسيرد دون نسبة، وبنحوه في تفسير البغوي ١/ ٣٦٤، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٧١. وقول مقاتل في زاد المسير: ظنُّوا أنَّ محمداً ﷺ قد قُتل. وقول الزجاج كما في معانيه ١/ ٤٧٩ ونقله عنه ابن الجوزيّ في زاد المسير: ظنُّوا أنَّ أمر النبيّ ﷺ مضمحلّ.
(٤) الكشاف ١/ ٤٧٢.

الظَّنَّ المختصَّ بالمِلَّة الجاهلية. ويجوزُ أن يُراد ظنّ أهلِ الجاهلية، أي: لا يَظُنّ مثلَ ذلك الظنِّ إلا أهلُ الشِّرك الجاهلون بالله. انتهى.

وظاهر قوله: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ الاستفهام، فقيل: سألوا الرسول ﷺ: هل لهم مَعاشِرَ المسلمين من النصر والظهور على العدوّ شيء؟ أي: نصيب، وأُجيبوا بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ وهو النَّصر والغَلَبة ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣][١].

وقيل: المعنى ليس النَّصْرُ لنا، بل هو للمشركين. وقال قتادة وابنُ جُريج: قيل لعبد الله بن أُبَيّ بنِ سَلُول: قُتِلَ بنو الخزرج، فقال: وهَلْ لنا من الأمر من شيء؟ يريد أنَّ الرأيَ ليس لنا[٢]، ولو كان لنا منه شيء لسَمِعَ مِنْ رَأْينا ولم يَخرج ولم يُقتل أحدٌ منَّا، وهذا منهم قولٌ بأجَلَيْن.

وذكر المهدويُّ وابن فُورك أنَّ المعنى: لسنا على حقٍّ في اتِّباع محمد. ويُضعِفُ هذا التأويلَ الردُّ عليهم بقوله: «قل» فأَفْهَمَ أنَّ كَلامَهُم إنَّما هو في معنى سوء الرأي في الخروج، وأنه لو لم يخرج لم يُقتل أحدٌ[٣]. وعلى هذا المعنى وما قبلَه من قول قتادة وابن جُرَيْج يكون الاستفهام معناه النفي.

ولمَّا أكّد في كلامهم بزيادة «من» في قوله: «مِنْ شيء» جاء الكلامُ[٤] مؤكَّداً بـ «إنَّ»، وبُولغ في توكيد العموم بقوله: «كلَّه لله» فكان الجوابُ أبلغ.

والخطابُ بقوله: «قُلْ» متوجِّه إلى الرسول بلا خلاف، والذي يظهر أنه استفهامٌ باقٍ على حقيقته، لأنهم أُجِيبُوا بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ ولو كان معناه النَّفْيَ لم يُجابوا بذلك؛ لأنَّ مَنْ نَفَى عن نفسه أن يكون له شيءٌ من الأمر لا يُجاوَبُ بذلك، إلا إنْ قُدِّرَ مع جملة النفي جملةٌ ثبوتية لغيرهم، فكان المعنى: ليس لنا من الأمر من شيء، بل لغيرنا ممَّن حَمَلَنا على الخروج وأَكرَهَنا عليه، فيمكن أن يكون

(١) ينظر المصدر السالف.
(٢) في (أ) و(ع): ليس لنا منه شيء.
(٣) ينظر الكلام السالف في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٨. وينظر أيضاً تفسير الطبري ٦/ ١٦٦-١٦٧.
(٤) في (ب) و(د٣) و(يه): الجواب.

ذلك جواباً لهذا المقدَّر. وهذه الجملة الجوابيَّة معترضةٌ بين الجُمل التي أخبرَ الله بها عنهم.

والواو في قوله: «وطائفةٌ» واو الحال، و«طائفةٌ» مبتدأ، والجملةُ المتصلة به خبرُه، وجاز الابتداء بالنكرة هنا إذ فيه مسوِّغان؛ أحدُهما واوُ الحال، وقد ذكَرَها بعضهم في المسوِّغات، ولم يذكر ذلك أكثر أصحابنا. وقال الشاعر:

سَرَيْنا ونجمٌ قد أضاءَ فَمُذْ بَدَا مُحَيَّاكِ أخْفَى ضَوْءُه كلَّ شارِقِ[1]

والمسوِّغُ الثاني أنَّ الموضعَ موضعُ تفصيل، إذِ المعنى: يَغْشَى طائفةً منكم، وطائفةٌ لم يناموا. فصار نظيرَ قوله:

إذا ما بَكَى مِنْ خَلْفِها انْصَرَفَتْ لهُ[2] بِشِقٍّ، وشِقٌّ عندَنا لم يُحَوَّلِ

ونصبُ «طائفة» على أن تكون المسألة من باب الاشتغال على هذا التقدير من الإعراب جائز[3].

ويجوز أن يكون «قد أهمَّتْهم» في موضع الصفة، و«يظنُّون» الخبر، ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً والجملتان صفتان، التقدير: ومنكم طائفة، ويجوزُ أن يكون «يظنُّون» حالاً من الضمير في «أهمَّتْهم».

وانتصاب «غيرَ الحقّ» قال أبو البقاء[4]: على أنه مفعول أوَّل لـ «يَظُنُّون»، أي: أمراً غيرَ الحقّ، و«بالله» الثاني.

وقال الزمخشريّ[5]: «غيرَ الحقّ» في حُكم المصدر، ومعناه: [يظنُّون بالله غيرَ الظَّنِّ الحقِّ الذي يجبُ أن يُظَنَّ به، و«ظَنَّ الجاهلية» بَدَلٌ منه، ويجوز أن يكون

---

(١) شرح التسهيل ١/ ٣١٠، ومغني اللبيب ص٦١٣، والفصول المفيدة في الواو المزيدة ص١٦٥، وذكر السيوطي صدرَه في الأشباه والنظائر ٣/ ٩٨.

(٢) المثبت من (ب) و(د٣) و(يه)، وهو كذلك في ديوان امرئ القيس ص١٢، وفي النسخ الأخرى: انحرفت له. وسلف عند تفسير الآية (١٧) والآية (١٣٧) من سورة البقرة.

(٣) أي: جائزٌ لغةً، لكن لم يرد قراءةً. ينظر الدُّر المصون ٣/ ٤٤٧.

(٤) الإملاء ١/ ١٥٤.

(٥) الكشاف ١/ ٤٧٢، وما سيرد بين حاصرتين منه.

المعنى:] يظنُّون بالله ظنَّ الجاهلية، و«غيرَ الحقِّ» تأكيدٌ لـ «يظنُّون»، كقولك: هذا القولُ غيرَ ما تقول، وهذا القولُ لا قولَكَ[١]. انتهى كلامه. فعلى هذا لم يذكر لـ «يظنُّون» مفعولين، وتكون الباء ظرفية كما تقول: ظننتُ بزيد، وإذا كان كذلك لم تتعدَّ «ظننتُ» إلى مفعولين، وإنما المعنى: جعلتُ مكان ظنِّي زيداً. وقد نصَّ النَّحْوِيُّون على هذا، وعليه قولُه:

فقلتُ لهم ظُنُّوا بألفَيْ مُدَجَّجٍ سَرَاتُهُم في السَّابِرِيِّ[٢] المُسَرَّدِ

أي: اجعلُوا مكانَ ظَنِّكم أَلْفَيْ مُدَجَّج.

وانتصاب «ظَنَّ» على أنه مصدر تشبيهيّ، أي: ظنًّا مثلَ ظَنِّ الجاهلية.

ويجوز في «يقولون» أن يكون صفة أو حالاً من الضمير في «يظنُّون» أو خبراً بعد خبر على مذهب من يُجيز تَعداد الأخبار في غير ما اتفقوا على جواز تَعداده.

و«من شيء» في موضع مبتدأ، إذْ «مِنْ» زائدة، وخبرُه في «لنا»، و«من الأمرِ» في موضع الحال؛ لأنه لو تأخَّر عن «شيء» لكان نعتاً له، فيتعلق بمحذوف.

وأجاز أبو البقاء[٣] أن يكون «من الأمرِ» هو الخبر، و«لنا» تبيين، وبه تتمُّ الفائدة، كقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾. وهذا لا يجوز؛ لأنَّ ما جاء للتبيين العاملُ فيه مقدَّر، وتقديرُه: أعني لنا. فهو[٤] من جملة أخرى، فيبقى المبتدأ والخبرُ جملة لا تستقلُّ بالفائدة، وذلك لا يجوز. وأمَّا تمثيلُه بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

---

(١) بنصب «غير» و«قولك»، ومعنى الأولى: هذا القولُ حَقًّا غيرَ ما تقول، أي: غيرَ قولِكَ. ومعنى الثانية: هذا القولُ، لا أقولُ قولَك. ينظر الكتاب ١/ ٣٧٨، وشرح المفصّل ١/ ١١٦.

(٢) هي الدُّروع الدقيقة النَّسْج في إحكام. ولم أقف على هذه اللفظة في رواية البيت. وروايتُه في المصادر: الفارسيّ المسرَّدِ. يعني الدروع الفارسية المحبوكة النَّسج. والبيت لدُريد بن الصِّمَّة، وهو في الأضداد ص١٤، والأغاني ١٠/ ٨، وشرح الحماسة للمرزوقي ٢/ ٨١٣، وفصل المقال ص٣٥٣، واللسان (ظنن)، وغيرها. وروايتُه في الأصمعيات ص١٠٧: علانيةً ظُنُّوا... الخ. قوله: مُدَجَّج، أي: فارس تامّ السلاح. والسَّرَاة: جمع السَّرِيّ، وهم أشراف القوم.

(٣) الإملاء ١/ ١٥٥.

(٤) المثبت من (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه). وفي النسخ الأخرى: هو.

﴿كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فهما لا سواء؛ لأنَّ «له» معمولٌ لـ «كُفُواً»، وليس تبييناً، فيكون عاملُه مقدَّراً، والمعنى: ولم يكن أحدٌ كُفُواً له، أي: مكافئاً له، فصار نظير: لم يكن أحدٌ[1] ضارباً لعمرو. فقولُه: لعَمرو، ليس تبييناً، بل معمولاً لضارب.

وقرأ الجمهور: «كلَّه» بالنصب، تأكيداً للأمر، وقرأ أبو عَمرو: «كلُّه» على أنه مبتدأ[2]، ويجوز أن يُعرب توكيداً للأمر على الموضع على مذهب من يُجيز ذلك، وهو الجَرْميُّ والزَّجَّاج والفَرَّاء؛ قال ابنُ عطيَّة[3]: ورجَّح الناسُ قراءة الجمهور؛ لأنَّ التأكيد أملكُ بلفظة «كلّ» انتهى. ولا ترجيحَ، إذْ كلٌّ من القراءتين متواتر، والابتداء بـ «كلّ» كثيرٌ في لسان العرب.

﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ قيل: معناه يَتَستَّرُون بهذه الأقوال التي ليست بمَحْضِ كفر، بل هي جَهالة، ويحتمل أن يكون إخباراً عمَّا يُخفُونه من الكفر الذي لا يقدرون أن يُظهروا منه أكثرَ من هذه النَّزَعات[4].

وقيل: الذي أخْفَوْه قولُهم: لو كُنَّا في بيوتنا ما قُتلنا هاهنا. وقيل: النَّدمُ على حضورهم مع المسلمين بأُحُد[5].

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا﴾ قال الزُّبير بنُ العوَّام فيما أسند الطبريُّ عنه: واللهِ لكأنّي أسمعُ[6] قولَ معتِّب بنِ قُشَيْر أخي بني عَمرو بن عوف والنعاسُ يَغْشاني ما أسمعُه إلا كالحُلْم حين قال: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلْنا هاهنا.

ومعتِّب هذا شهدَ بدراً. ذكر ذلك ابنُ إسحاق وغيرُه، وكان مَغْمُوصاً عليه بالنِّفاق[7]. والمعنى: ما قُتل أشرافُنا وخِيارُنا. وهذا إطلاق اسم الكّل على البعض مجازاً.

---

(١) في المطبوع: له، بدل: أحد. وهو خطأ.
(٢) السبعة ص٢١٧، والتيسير ص٩١.
(٣) المحرر الوجيز ١/٥٢٨.
(٤) المحرر الوجيز ١/٥٢٨.
(٥) زاد المسير ١/ ٤٨٢.
(٦) في تفسير الطبري ٦/ ١٦٨: واللهِ إني لأسمع.
(٧) قال ابن حجر في الإصابة ٩/ ٢٥٠: قيل: إنه تاب.

وقوله: «يقولون» يجوز أن يكون هو الذي أَخْفَوْه؛ فيكون ذلك تفسيراً بعد إبهام قولِهِ: «ما لا يُبْدُون لك»، ومعناه: يقولون في أنفسهم، أو بعضُهم لبعض.

وقولُه: «من الأمر» فُسِّرَ الأمرُ هنا بما فُسِّر في قول عبدِ الله بنِ أُبيّ بنِ سَلُول: هل لنا من الأمر من شيء، فقيل: المعنى: لو كان الأمرُ كما قال محمد: إنَّ الأمر كلَّه لله ولأوليائه وإنهم الغالبون لَمَا غُلبنا قطّ، ولَمَا قُتل مِن المسلمين مَن قُتل في هذه المعركة[١].

وقيل: من الرأي والتدبير. وقيل: من دين محمد، أي: لسنا على حقّ في اتِّباعه.

وجواب «لو» هو الجملة المنفيَّة بـ «ما»، وإذا نفيت بـ «ما»، فالفصيحُ أن لا تدخل عليه اللام.

قيل: وفي قصة أُحُد اضطراب، ففي أوَّلها أنَّ عبد الله بنَ أُبيّ ومن معه من المنافقين رَجَعُوا ولم يشهدوا أُحُداً، فعلى هذا يكون قالوا هذا بالمدينة، ولم يُقتل أحدٌ منهم ولا من أصحابهم بالمدينة، وإنما قُتلوا بأُحُد، فكيف جاء قوله: «هاهنا»؟ وحديثُ الزُّبير في سماعه مُعَتِّباً يقول ذلك دليلٌ على أنَّ مُعَتِّباً حضر أُحُداً، فإنْ صحَّ حديث الزُّبير فيكون قد تخلَّف عن عبد الله بعضُ المنافقين وحضرَ أُحُداً، فيتَّجه قولُه: «هاهنا»، وإن لم يصحَّ فيُوجَّه قولُه: «هاهنا» إلى أنه إشارة إلى أُحُد إشارة القريب الحاضر لقُرب أُحُد من المدينة.

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ هذا النوعُ عند علماء البيان يسمَّى الاحتجاج النظري، وهو أن يذكر المتكلِّم معنًى يستدلُّ عليه بضروب من المعقول، نحو: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ﴾ [يس: ٨١]. وبعضُهم يسمِّيه المذهب الكلامي، ومنه قول الشاعر:

جَرَى القَضاءُ بما فيه فإنْ تَلُمِ فلا مَلامَ على ما خُطَّ بالقَلَمِ[٢]

---

(١) الكشاف ١/ ٤٧٢.

(٢) لم أقف عليه.

و«كُتِبَ» بمعنى: فُرِضَ، أو: قُضِيَ وحُتِمَ، أو خُطَّ في اللوح، أو كَتَبَ ذلك المَلَكُ عليهم وهم أَجِنَّة[١]. أقوال. ومعنى الآية: أنه لو تخلَّفتُم في البيوت لخرجَ مَنْ حُتم عليه القتلُ إلى مكان مصرعِه فقُتل فيه. وهذا رَدٌّ على قول مُعَتِّب، ودليلٌ على أنَّ كلَّ امرئٍ له أجلٌ واحد لا يتعدَّاه.

فإنْ قيل: فهو الأجَلُ الذي سَبَقَ له في الأزَل، وإلا مات لذلك الأجل. ولا فرقَ بين موته وخروجِ روحِه بالقتل، أو بأيِّ أسباب المرض أو فجأة من غير مرض، هو أجلٌ واحد لكلِّ امرئ وإن تعدَّدت الأسباب.

وقد تكلّم الزمخشريّ[٢] هنا بألفاظ مُسْهَبَة على عادته، فقال: «قُلْ لو كنتُم في بيوتكم» يعني مَنْ عَلِمَ اللهُ منه أنَّه يُقتل ويُصرع في هذه المصارع وكَتَبَ ذلك في اللوح لم يكن بدٌّ من وجوده، فلو قعدتُم في بيوتكم لبرزَ من بينكم الذين عَلِمَ اللهُ أنهم يُقتلون إلى مضاجعهم ـ وهي مصارعُهم ـ ليكون ما عَلِمَ أنه يكون. والمعنى أنَّ الله كتب في اللوح قَتْل مَنْ يُقتل من المؤمنين، وكتب مع ذلك أنهم الغالبون لعلمه أنَّ العاقبةَ في الغَلَبة لهم، وأنَّ دين الإسلام يظهرُ على الدِّين كلّه وأنَّ ما يُنْكَبُون به في بعض الأوقات تمحيصٌ لهم وترغيبٌ في الشهادة، وحرصُهم على الشهادة ممَّا يُحَرِّضُهم على الجهاد، فتحصُلُ الغَلَبة. انتهى كلامه. وهو نوعٌ من الخطابة، والمعنى في الآية واضحٌ جدًّا، لا يحتاجُ إلى هذا التطويل.

وقرأ الجمهور: «لَبَرَزَ» ثلاثياً مبنيًّا للفاعل، أي: لَصارُوا في البَرَازِ من الأرض.

وقرأ أبو حَيْوَة: «لَبُرِّزَ»[٣] مبنيًّا للمفعول مشدَّدَ الراء، عُدِّيَ «بَرَزَ» بالتضعيف.

وقرأ الجمهور: «كُتِبَ» مبنيًّا للمفعول ورفع «القتل»، وقُرئ: «كَتَبَ» مبنيًّا للفاعل، ونصب «القتل»[٤].

---

(١) ينظر في هذا المعنى حديث ابن مسعود ﷺ عند البخاري (٦٥٩٤)، ومسلم (٦٧٢٣) مرفوعاً: «إن أحدكم يُجمع خَلْقُه في بطن أمّه أربعين يوماً...» وفيه أنَّ المَلَكَ يُؤمَرُ بأربع كلمات: بكتبِ رزقه وأجله وعمله، وشقيٌ أو سعيد.

(٢) الكشاف ١/ ٤٧٢-٤٧٣.

(٣) القراءات الشاذة ص٢٣، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٧١، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٩.

(٤) نُسبت القراءة في القراءات الشاذة ص٢٣ لابن عباس.

وقرأ الحسن والزُّهْريُّ: «القتالُ» مرفوعًا[١]، وتحتمل هذه القراءة الاستغناء عن المنافقين[٢]، أي: لو تخلَّفتُم أنتم لَبَرَزَ المطيعون المؤمنون الذين فُرض عليهم القتال، وخرجوا طائعين إلى مواضع استشهادهم، فاستغنى بهم عنكم.

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ تقدَّم معنى الابتلاء والتمحيص؛ فقيل: المعنى أن الله فرضَ عليكم القتالَ ولم ينصركم يومَ أُحُد ليختبرَ صَبْرَكم وليمحِّصَ عنكم سيِّئاتِكم إنْ تبتُم وأخلصتُم.

وقيل: ليُعامِلَكُم معاملةَ المختبر. وقيل: ليقعَ منكم مشاهدةً ما عَلِمَهُ[٣] غَيْباً، كقوله: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وقيل: هو على حذف مضاف، أي: وليبتليَ أولياءُ الله ما في صدوركم، فأضافه إليه تعالى تفخيماً لشأنه.

والواو؛ قيل: زائدة[٤]. وقيل: للعطف على علَّة محذوفة، أي: ليقضيَ اللهُ أمرَه وليبتليَ. وقال ابنُ بحر: عطف على «لِيَبْتَلِيَكم»[٥]؛ لمَّا طالَ الكلامُ أعادَه، ثم عطفَ عليه: «ليُمَحِّصَ».

وقيل: تتعلَّق اللام بفعل متأخِّر؛ التقدير: وليبتليَ ولِيُمَحِّصَ فَعَلَ هذه الأمورَ الواقعة.

وكان متعلَّق الابتلاء ما انطوت عليه الصدور، وهي القلوب، كما قال: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ومتعلَّق التمحيص ـ وهو التصفية والتطهير ـ ما انطوت عليه القلوب من النيَّات والعقائد.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تقدَّم تفسير مثلُ هذه الجملة، وجاء بها عَقِيب قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ على معنى أنه عليمٌ بما انطوت عليه الصدور،

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٩، ونُسبت القراءة في تفسير الثعلبي ٢/ ١٧١ لقتادة، وهي في الكشاف ١/ ٤٧٣ دون نسبة.
(٢) بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٩.
(٣) المثبت من (يه). وفي (ب) و(د٣): مشاهدةً ما عليه. وفي النسخ الأخرى: مشاهدة علمه. والقول في تفسير القرطبي ٥/ ٣٧٢.
(٤) كما في قوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] أي: ليكون. ينظر المصدر السابق.
(٥) يعني في قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ قبل آية. وينظر تفسير الرازي ٩/ ٤٩.

وما أضمَرَتْه من العقائد، فهو يُمَحِّصُ منها ما أرادَ تمحيصَه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ خطبَ عُمرُ يومَ الجمعة، فقرأ آلَ عمران، وكان يُعجبُه إذا خطبَ أنْ يقرأَها، فلما انتهى إلى هذه الآية قال: لمَّا كان يومُ أُحُد فهُزِمْنا، فَرَرْتُ[١] حتى صَعِدتُ الجبلَ، فلقد رأيتُني أنْزُو كأنَّني أَرْوَى[٢] والناسُ يقولون: قُتِلَ محمد. فقلتُ: لا أجدُ أحداً يقولُ: قُتِلَ محمد؛ إلا قتلتُه؛ حتى اجتمعنا على الجبل. فنزلت هذه الآية كلُّها.

وقال عكرمة: نزلَتْ فيمن فرَّ من المؤمنين فِرارًا كثيرًا، منهم رافع بن المُعَلَّى، وأبو حذيفة بن عُتبة، ورجلٌ آخر[٣].

و«الذين تَوَلَّوْا»: كلُّ مَنْ ولَّى الدُّبُرَ عن المشركين يومَ أُحُد؛ قاله عُمر وقتادة والرَّبيع[٤]. أو كلُّ من قرُب من المدينة وقتَ الهزيمة؛ قاله السُّدِّي[٥]. أو رجالٌ بأعيانهم؛ قاله ابنُ إسحاق، منهم عقبة بن عثمان الزُّرَقيّ وأخوه سعد، وغيرُهما؛ بلغوا الجَلْعَبَ ـ جبلاً بناحية المدينة ممَّا يلي الأعوص ـ فأقاموا به ثلاثاً، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ، فقال لهم: «لقد ذهبتُم فيها عريضة»[٦].

ولم يبقَ مع رسول الله ﷺ يومئذٍ إلا ثلاثةَ عَشَرَ رجلاً؛ أبو بكر، وعليّ، وطلحة، وسعدُ بنُ أبي وقَّاص، وعبدُ الرحمن بنُ عوف، وباقيهم من الأنصار منهم أبو طلحة[٧].

---

(١) في (ب) و(د٣): ففررت، وفي (أ) و(ح) و(د١) و(د٢) و(ع): مررت، ولم تجوّد في (يه)، والمثبت من (ز٢). وفي المحرر الوجيز ١/ ٥٢٩ والنهر الماد (بهامش البحر ٣/ ٩٠): هُزمنا ففررتُ.

(٢) جمع أُرْوِيَّة، وهي أنثى الوعول. ينظر القاموس (روى).

(٣) تفسير الطبري ٦/ ١٧٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٠.

(٤) قول عمر مستفاد من خبره السالف، وقول قتادة والربيع عند الطبري ٦/ ١٧٢-١٧٣.

(٥) المصدر السابق. وذكره القرطبي ٥/ ٣٧٢ بلفظ: مَنْ هربَ إلى المدينة في وقت الهزيمة دون من صعد الجبل.

(٦) تفسير الطبري ٦/ ١٧٤، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٠.

(٧) المحرر الوجيز ١/ ٥٢٩-٥٣٠ (والكلام فيه عن ابن فُورك).

وظاهر «تولَّوا» يدلُّ على مطلق التولِّي يوم اللقاء؛ سواءٌ فَرَّ إلى المدينة أم صَعِدَ الجبل.

والجمع: اسمُ جَمع، ونصَّ النَّحْوِيُّون على أنَّ اسم الجمع لا يثنَّى، لكنه هنا أُطلق لا[1] يُراد به معقوليَّة اسم الجمع، بل بعضُ الخصوصيَّات، أي: جمعُ المؤمنين وجمعُ المشركين، فلذلك صحَّت تثنيتُه، ونظيرُ ذلك قولُه:

وكلُّ رَفِيقَيْ كلِّ رَحْلٍ وإنْ هُما ... تَعاطَى القَنا قَوْمَاهُمَا؛ أَخَوانِ[2]

فثنَّى «قَوْماً» لأنه أرادَ معنى القبيلة.

و«اسْتَزَلَّ» هنا «استفعلَ» للطلب، أي: طَلَبَ منهم الزَّلَلَ ودعاهم إليه؛ لأنَّ ذلك هو مقتضى وسوستِه وتخويفِه. هكذا قالوه، ولا يلزمُ من طلب الشيء واستدعائه حصولُه، فالأَوْلَى أنْ يكون «استفعل» هنا بمعنى «أفعلَ»، فيكون المعنى: أزَلَّهم الشيطان، فيدلُّ على حصول الزَّلَل، ويكون استزلَّ وأزلَّ بمعنًى واحد، كاسْتَبَانَ وأبانَ، واسْتَبَلَّ وأَبَلَّ[3]، كقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦] على أحد تأويلاته.

واستزلالُ الشيطان إيَّاهم سابقٌ على وقت التَّوَلِّي، أي: كانوا أطاعُوا الشيطان؛ واجترحُوا ذنوباً قبلُ مَنَعَتْهُم النصرَ، ففرُّوا. وقيل: الاستزلال هو تولِّيهم ذلك اليوم، أي: إنَّما استزلَّهم الشيطانُ في التولِّي ببعض ما سبق لهم من الذنوب؛ لأنَّ الذنب يجرُّ إلى الذنب[4]، فيكون نظير: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ [البقرة: ٦١].

وفي هذين القولين يكون «بعض ما كسبوا» هو ذنوبٌ سلفت لهم.

قال الحسن: استزلَّهم بقبول ما زَيَّنَ لهم من الهزيمة. وقيل: «بعض ما كسبوا» هو تركُهم المركزَ الذي أمرَهم رسولُ الله ﷺ بالثبات فيه، فجرَّهم ذلك إلى

---

(١) سقطت لفظة «لا» من المطبوع.

(٢) البيت للفرزدق، وهو في «ديوانه» ٢/ ٣٢٩. وينظر خزانة الأدب ٧/ ٥٧٢.

(٣) استبانَ (وأبانَ) الشيءُ: ظَهَرَ واتَّضَحَ، واستبلَّ (وأبلَّ) المريضُ: بَرَأَ.

(٤) ينظر الكشاف ١/ ٤٧٣.

الهزيمة[١]. ولا يظهر هذا؛ لأنّ الذين تركوا المركز من الرُّماة كانوا دون الأربعين، فيكون من باب إطلاق اسم الكلّ على البعض.

وقال المهدويّ: «ببعض ما كسبوا» هو حُبُّهم الغنيمة والحرصُ على الحياة.

وذهب الزجّاج[٢] وغيرُه إلى أن المعنى أنّ الشيطان ذَكّرَهم بذنوب لهم متقدّمة، فكرهوا الموت قبل التوبة منها والإقلاع عنها، فأخّروا الجهاد حتى يُصلحوا أمرَهم ويُجاهدوا على حال مَرْضِيَّة. ولا يظهر هذا القول لأنهم كانوا قادرين على التوبة قبل القتال وفي حال القتال، والتائبُ من الذنب كمن لا ذنبَ له.

وظاهر التَّولّي هو تولّي الأدبار والفِرارُ عن القتال، فلا يدخل فيه من صَعِدَ إلى الجبل لأنه مُتَحَيِّزٌ إلى جهة اجتمع في التحيُّز إليها رسولُ الله ﷺ ومَن ثبتَ معه فيها.

وظاهرُ هذا التولّي أنه معصية؛ لذكر استزلالِ الشيطانِ وعَفْوِ الله عنهم، ومَنْ ذَهَبَ إلى أنّ هذا التَّولّي ليس معصيةً لأنهم قصدُوا التحصُّن بالمدينة وقَطْعَ طمعِ العدوّ منهم لمّا سمعُوا أنّ محمداً قد قُتل، أو لكونهم لم يسمعُوا دعاءَ النبيِّ ﷺ: «إليَّ عبادَ الله» للهَوْل الذي كانوا فيه، أو لكونهم كانوا سبعَ مئة، والعدوّ ثلاثة آلاف، وعند هذا يجوزُ الانهزام، أو لكونهم ظَنُّوا أنّ الرسول ما انحازَ إلى الجبل وأنه يجعلُ ظهرَه المدينة = فمَذْهَبُه خلافُ الظاهر، وهذه الأشياء يجوزُ الفِرارُ معَها، وقد ذكر تعالى استزلالَ الشيطان إيّاهم وعفوَه تعالى عنهم، ولا يكون ذلك فيما يجوزُ فِعْلُه، وجاء قوله: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ ولم يجئ: بما كسبوا؛ لأنه تعالى يعفُو عن كثير، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] فالاستزلال كان بسبب بعض الذنوب التي لم يعف عنها، فجُعلت سببًا للاستزلال، ولو كان معفوًّا عنه لما كان سببًا للاستزلال.

﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ الجمهورُ على أنّ معنى العفو هنا هو حَطُّ التَّبِعاتِ في الدُّنيا والآخِرة، وكذلك تأوّله عثمانُ في محاورةٍ جرَتْ بينه وبين عبد الرحمن بن

---

(١) ينظر تفسير كلّ من الثعلبي ٢/ ١٧١، والبغوي ١/ ٣٦٤، والزمخشري ١/ ٤٧٣، والقرطبي ٥/ ٣٧٣.

(٢) معاني القرآن ١/ ٤٨١، ولفظه من المحرر الوجيز ١/ ٥٣٠، وكذا قول المهدوي السالف.

عوف؛ قال له عبد الرحمن: قد كنتَ تولَّيتَ مع مَنْ تولَّى يومَ الجمع ـ يعني يومَ أُحُد ـ فقال له عثمان، قال الله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ﴾ فكنتُ فيمن عفا الله عنه[١].

وكذلك ابنُ عمر مع الرجل العراقيّ حين نَشَدَه بحُرمة هذا البيت: أتعلمُ أنّ عثمانَ فَرَّ يومَ أُحُد؟ أجابه بأنه يشهدُ أن الله قد عفا عنه[٢].

وقال ابن جُرَيْج: معنى ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ﴾ أنه لم يُعاقبهم[٣].

قال ابن عطية[٤]: والفرار من الزَّحف كبيرةٌ من الكبائر بإجماع فيما علمتُ، وعدَّها رسولُ الله ﷺ في المُوبِقات مع الشِّرك وقَتْل النفس وغيرهما[٥]. انتهى.

ولمَّا كان مذهبُ الزَّمخشريِّ أنّ العفو والغفران عن الذنب لا يكون إلا لمن تابَ، وأنَّ الذنب إذا لم يُتَبْ منه لا يكون معه العفو؛ دَسَّ مذهبَه في هذه الجملة، فقال[٦]: «ولقد عفا الله عنهم» لتوبتهم واعتذارهم. انتهى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: غفورُ الذُّنوب، حليمٌ لا يُعاجلُ بالعقوبة. وجاءت هذه الجملة كالتعليل لعفوه تعالى عن هؤلاء الذين تَولَّوْا يومَ أُحُد، لأنَّ الله تعالى واسعُ المغفرة واسعُ الحِلْم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ لمَّا تقدَّم من قولِ المنافقين: «لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قُتِلْنا ههنا» وأخبرَ الله عنهم أنهم «قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قُتِلُوا»[٧] وكان قولاً باطلاً واعتقادًا فاسدًا؛ نَهَى تعالى المؤمنين أن يكونوا مثلَهم في هذه المَقَالة الفاسدة والاعتقاد السيِّئ، وهو أنَّ مَنْ سافرَ في تجارةٍ ونحوها

(١) الخبر مطوَّل في تفسير أبي الليث ١/ ٣١٠. ونقله عنه القرطبي ٥/ ٣٧٣.
(٢) أخرجه البخاري (٤٠٦٦) مطولاً.
(٣) تفسير الطبري ٦/ ١٧٤، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٠.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٠.
(٥) أخرج البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) عن أبي هريرة مرفوعاً: «اجتنبُوا السَّبْعَ المُوبِقات...» وذكر منها: التولِّي يوم الزَّحْف.
(٦) الكشاف ١/ ٤٧٣.
(٧) هذا اللفظ من الآية الآتية (١٦٧).

فمات، أو قاتلَ فقُتل، لو قعدَ في بيته لعاشَ ولم يمت في ذلك الوقت الذي عرَّض نفسَه للسفر فيه أو للقتال. وهذا هو معتقَد المعتزلة في القول بالأجَلَيْن(١).

والكفار القائلون؛ قيل: هو عامٌّ، أي: اعتقادُ الجميع هذا؛ قاله ابنُ إسحاق وغيرُه، أو عبدُ الله بنُ أُبَيّ وأصحابُه، سُمع منهم هذا القول؛ قاله مجاهد والسُّدِّيُّ وغيرُهما(٢)، أو هو ومعتِّب وجَدُّ بنُ قيس وأصحابُهم.

واللام في «لإخوانهم» لامُ السبب، أي: لأجلِ إخوانِهم، وليست لامَ التبليغ نحو: قلتُ لك. والأخوَّة هنا أخوَّة النَّسَب، إذ كان قتلى أُحُد من الأنصار، وأكثرُهم من الخزرج، ولم يُقتَل من المهاجرين إلا أربعة ـ وقيل: خمسة ـ ويكون القائلون منافقي الأنصار؛ جمعَهم أبٌ قريب أو بعيد. أو أُخُوَّة المعتقَد والتآلُف؛ كقوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال:

صَفَحْنَا عن بَني ذُهْلٍ وقُلْنا القَوْمُ إخْوَانُ(٣)

والضربُ في الأرض: الإبعادُ فيها والذهابُ لحاجة الإنسان. وقال السُّدِّيُّ: الضربُ هنا السَّيْرُ في التجارة. وقال ابنُ إسحاق: السَّيْرُ في الطاعات(٤).

و«إذا» ظرف لِما يُستَقبَلُ، و«قالوا» ماضٍ، فلا يمكن أن يَعمل فيه، فمنهم مَنْ جرَّدَه عن الاستقبال، وجعلَه لمطلق الوقت بمعنى «حين»، فأعملَ فيه «قال».

وقال ابنُ عطية(٥): دخَلَتْ «إذا» وهي حرف استقبال من حيث «الذين» اسمٌ فيه إبهامٌ يعمُّ مَنْ قال في الماضي ومَنْ يقولُ في المستقبل، ومن حيث هذه النازلةُ تُتصوَّرُ في مستقبل الزمان.

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٠.
(٢) ينظر تفسير الطبري ٦/ ١٧٦، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٠.
(٣) البيت لشَهْل (بالشين المعجمة) بن شيبان الزِّمَّاني، ويلقَّب بالفِنْد. ينظر الأمالي ١/ ٢٦٠، والأغاني ٢٤/ ٩١ (وفيه: كفَفْنَا عن)، وشرح الحماسة للمرزوقي ١/ ٣٢، وخزانة الأدب ٣/ ٤٣١.
(٤) تفسير الطبري ٦/ ١٧٧، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٠.
(٥) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٠-٥٣١.

وقال الزمخشريّ[١]: فإن قلت: كيف قيل: «إذا ضربُوا في الأرض» مع «قالوا»؟ قلت: هو حكايةُ الحال الماضية، كقولك: حين يضربون في الأرض. انتهى كلامه.

ويمكن إقرار «إذا» على ما استقرَّ لها من الاستقبال، والعاملُ فيها مضافٌ مستقبَل محذوف، وهو لا بدَّ من تقدير مضاف، غايةُ ما فيه أنَّا نقدِّره مستقبَلاً حتى يعمل في الظرف المستقبَل، لكن يكون الضمير في قوله: «لو كانوا» عائداً على «إخوانهم» لفظاً، وعلى غيرهم معنًى، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ [فاطر: ١١] وقولِ العرب: عندي درهمٌ ونصفُه، وقول الشاعر:

قالَتْ ألا ليتَما هذا الحَمامُ لنا ... إلى حَمامَتِنا ونِصْفُه فَقَدِ[٢]

المعنى: من مُعَمَّرٍ آخَرَ، ونصفُ درهمٍ آخَرَ، ونصفُ حَمَام آخَرَ، فعادَ الضمير على «درهم» و«الحمام» لفظاً لا معنًى، كذلك الضمير في قوله: «لو كانوا» يعود على «إخْوانِهم» لفظاً، والمعنى: لو كان إخوانُنا الآخَرُون. ويكون معنى الآية: وقالوا مخافةَ هَلاكِ إخْوانِهم إذا ضربُوا في الأرض أو كانوا غُزًّى: لو كان إخْوَانُنا الآخَرُون الذين تقدَّم موتُهم وقتلُهم عندنا ـ أي: مقيمين لم يسافروا ـ ما ماتُوا وما قُتلوا. فتكون هذه المقالةُ تثبيطاً لإخوانهم الباقين عن الضَّرْب في الأرض وعن الغَزْو، وإيهاماً لهم أن يُصيبَهم مثلُ ما أصابَ إخْوانَهم الآخَرين الذين سبقَ موتُهم وقتلُهم بالضَّرب في الأرض والغَزْو، ويكون العامل في «إذا»: «هَلَاك»، وهو مصدر ينحلُّ لـ «أنْ» والمضارع، أي: مخافةَ أنْ يَهْلِكَ إخْوانُهم الباقون إذا ضربُوا في الأرض أو كانوا غُزًّى، وهذا أبلغُ في المعنى؛ إذْ عَرَّضُوا للأحياء بالإقامة لئلا يُصيبَهم ما أصابَ مَن مات أو قُتل.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٧٣-٤٧٤.

(٢) البيت للنابغة الذُّبياني، وهو في ديوانه ص٣٥. قوله: «هذا الحمام» رُوي برفع «الحمام» ونصبه؛ على إعمال «لَيْتَ» أو إهمالها، لأن «ما» الزائدة إذا وَلِيَتْ «إنَّ» وأخواتِها تُبطلُ عملها إلا «لَيْتَ» فيجوزُ فيها الوجهان. وقوله: فقد، أي: فقط، أو: فحَسْب. ففي اللسان وغيره أن «قَدْ» مثل «قَطْ» (بسكون الطاء) بمنزلة «حَسْبُ». وحُرِّكت الدال في البيت بالكسر للرويّ. وينظر الكتاب ٢/ ١٣٧، والأصول في النحو ١/ ٢٣٣.

قالوا: ويجوز أن يكون «وقالوا» في معنى: ويقولون، فتعمل في «إذا»، ويجوز أن يكون «إذا» بمعنى «إذْ»، فيبقَى «وقالوا» على مُضِيِّه، وفي الكلام إذْ ذاك حذفٌ؛ تقديرُه: إذا ضربُوا في الأرض فماتوا، أو كانوا غُزًّى فقُتِلُوا.

وما أجهلَ مَنْ يدَّعي أنه لولا الضَّربُ في الأرض والغَزْوُ وتركُ القعود في الوطن لَمَا ماتَ المسافرُ ولا الغازي. وأين عَقْلُ هؤلاء من عَقْلِ أبي ذُؤيب على جاهليَّته حيث يقول:

يقولون لي لو كان بالرَّمْلِ لم يَمُتْ نُشَيْبَةُ[1] والطُّرَّاقُ يَكْذِبُ قِيلُهَا
ولو أنَّني استَوْدَعْتُهُ الشَّمْسَ لَارْتَقَتْ إليهِ المَنَايا عَيْنُها ورَسُولُها[2]

قال الرازيّ: وذكرَ الغَزْوَ بعد الضَّرْب لأنَّ من الغَزْوِ ما لا يكون ضَرْباً؛ لأنَّ الضَّرْب الإبعادُ، والجهادُ قد يكون قريبَ المسافة، فلذلك أفردَ الغَزْوَ عن الضَّرْب. انتهى[3]. يعني أن بينهما عموماً وخصوصاً فتَغَايَرَا، فصحَّ إفرادُه إذ لم يندرج من جهة تحتَه.

وقيل: لا يُفهم الغَزْو من الضَّرب، وإنما قُدِّم لكثرته، كما قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزّمّل: ٢٠].

وقرأ الجمهور: «غُزًّى» بتشديد الزَّاي، وقرأ الحسن والزُّهريّ بتخفيف الزاي[4]، ووُجِّهَ على حذف أحدِ المضعَّفَين تخفيفاً، وعلى حذف التاء، والمراد: غُزَاةً.

---

(١) المثبت من (ز٢)، ولم تجوَّد اللفظة في بعض النسخ، وفي بعضها الآخر: نسيبة.

(٢) البيتان في ديوان الهُذَليين ص٣٣، ومحاضرات الأدباء ٤/ ٢٩٨، والتذكرة الحمدونية ٤/ ٢٤٤. قوله: بالرَّمْل، أي: مكان غير وَخِيم، ونُشَيْبَة صاحبٌ حميم لأبي ذُؤيب، والطُّرَّاق: الذين يضربون بالحصى ويتكهَّنُون، وعَيْنُها، أي: يقينُها، وقال ابنُ منظور في اللسان (عين): «أراد نفسَها، وكان يجب أن يقول: أعينها ورسلها؛ لأن المنايا جمع، فوضع الواحد موضع الجمع، وبيت أبي ذُؤيب هذا استشهد به الأزهري على قوله: العين الرقيب، وقال بعد إيراد البيت: يريد رقيبَها».

(٣) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٩/ ٥٤.

(٤) المحتسب ١/ ١٧٥، والقراءات الشاذة ص٢٣، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٤، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣١، وذكرها الزمخشري ١/ ٤٧٣ دون نسبة.

وقال بعضُ مَن وَجَّهَ على أنه حذف التاء ـ وهو ابنُ عطية ـ قال[١]: وهذا الحذفُ كثيرٌ في كلامهم، ومنه قول الشاعر يمدحُ الكسائيَّ:

أَبَى الذَّمَّ أخلاقُ الكِسائيِّ وانْتَحَى   به المجدَ أخلاقُ الأُبُوِّ السَّوابِقِ[٢]

يريد: الأُبُوَّة جمع «أب»، كما أنَّ العمومة جمع «عَمّ»، والبُنُوَّة جمع «ابن»، وقد قالوا: ابنٌ وبُنُوّ. انتهى.

وقوله: وهذا الحذفُ كثيرٌ في كلامهم، ليس كما ذكر، بل لا يُوجد مثل رَام ورُمّى ولا حام وحُمّى؛ يريد رُمَاة وحُمَاة، وإنْ أرادَ حذف التاء من حيث الجملةُ كثير في كلامهم فالمدَّعَى إنما هو الحذف من فُعَلَة، ولا نقول: إنَّ الحذف ـ أعني حذف التاء ـ كثير في كلامهم؛ لأنه يُشعر أنَّ بناء الجمع جاء عليها ثم حُذفت كثيراً، وليس كذلك، بل الجمع جاء على فُعُول، نحو: عَمّ وعُمُوم، وفَحْل وفُحُول، ثم جيء بالتاء لتأكيد معنى الجمع، فلا نقول في «عموم»[٣]: إنَّه حُذفت منه التاء كثيرًا لأنَّ الجمع لم يُبْنَ عليها، بخلاف قُضاة ورُماة فإنَّ الجمعَ بُنِيَ عليها، وإنَّما تكلَّف النحويُّون لدخولها فيما كان لا ينبغي أنْ تدخل فيه أنَّ ذلك على سبيل تأكيد الجمع، لمَّا رأَوْا زائداً لا معنى له ذكروا أنه جاء لمعنى التأكيد، كالزوائد التي لا يُفهم لها معنًى غيرُ التأكيد.

وأمَّا البيت فالذي يقولُه النحويُّون فيه: إنَّه مما شذَّ جمعُه، ولم يُعَلَّ فيقال فيه: أُبِيّ، كما قالوا: عُصِيّ في «عَصاً»، وهو عندهم جمع على فُعُول، وليس أصله «أبوَّة»، ولا يجمع «ابن» على «بُنُوَّة»، وإنما هما مصدران.

والجملة من «لَوْ» وجوابها هي معمول القول، فهي في موضع نصب على المفعول، وجاءت على نظم ما بعد «إذا» من تقديم نفي الموت على نفي القتل، كما قُدّم الضربُ على الغزو.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٣١.

(٢) البيت للقناني، وهو في التمام في تفسير أشعار هذيل ص١٨٩ (وفيه: وانتمى من المجد). والمحتسب ١/ ١٧٥، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣١، وشرح المفصَّل ٥/ ٣٦، واللسان (أبي) (وفيه: وانتمى له الذروة العليا).

(٣) بعدها في النهر الماد (بهامش البحر ٣/ ٩٣): وبُعُول، وكذلك هي في (ب) و(د٣) و(يه) لكن اللفظة لم تجوَّد فيها.

والضمير في «لو كانوا» هو لقتلى أُحُد؛ قاله الجمهور، أو للسَّرِيَّة الذين قُتلوا ببئر مَعُونة[١]؛ قاله بكر بن سَهْل الدِّمياطيّ[٢].

وقرأ الجمهور: «وما قُتِلُوا» بتخفيف التاء، وقرأ الحسن بتشديدها[٣] للتكثير في المحالّ لا بالنسبة إلى محلّ واحد، لأنه لا يمكن التكثير فيه.

﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ اختلفوا في هذه اللام، فقيل: هي لامُ «كَيْ»، وقيل: لامُ الصَّيرورة، فإذا كانت لامَ «كَيْ» فبماذا تتعلَّق؟ ولماذا يُشار بذلك؟ فذهب بعضُهم إلى أنها تتعلَّق بمحذوف يدلُّ عليه معنى الكلام وسياقُه، التقدير: أوقعَ ذلك ـ أي: القولَ والمعتقَد ـ في قلوبهم ليجعلَه حسرةً عليهم، وإنَّما احتيج إلى تقدير هذا المحذوف لأنه لا يصحُّ أن تتعلَّق اللام على أنها لام «كَيْ» بـ «قال»؛ لأنهم لم يقولوا تلك المقالة ليجعلَ الله ذلك حسرةً في قلوبهم، فلا يصحُّ ذلك أن يكون تعليلاً لقولهم، وإنَّما قالوا ذلك تثبيطاً للمؤمنين عن الجهاد.

ولا يصحُّ أن يتعلَّق بالنهي، وهو «لا تكونوا كالذين كفروا»؛ لأنَّ جَعْلَ اللهِ ذلك حسرةً في قلوبهم لا يكون سببًا لنهي الله المؤمنين عن مماثلة الكفار؛ قال الزمخشريّ[٤] ـ وقد أوردَ سؤالاً على ما تتعلَّق به «ليجعلَ» ـ قال: أو «لا تكونوا» بمعنى: لا تكونوا مثلَهم في النطق بذلك القول واعتقادِه ليجعلَه اللهُ حسرةً في قلوبهم خاصَّة، ويَصُونَ منها قلوبَكم. انتهى كلامه. وهو كلام مُثَبَّجٌ[٥] لا تحقيقَ فيه؛ لأنَّ جَعْلَ الحسرة لا يكونُ سبباً للنَّهي كما قلنا، إنما يكون سبباً لحصول امتثال النَّهي، وهو انتفاءُ المماثلة، فحصولُ ذلك الانتفاء والمخالفة فيما يقولون

---

(١) الهداية ٢/ ١١٥٨، وتفسير كل من الواحدي ١/ ٥١٠، والقرطبي ٥/ ٣٧٥.

(٢) مفسّر مقرئ محدِّث، كنيتُه أبو محمد، من شيوخ أبي جعفر الطحاوي وأبي القاسم الطبراني، مات سنة (٢٨٩) على ما صحَّحه الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٢٦.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٣١.

(٤) الكشاف ١/ ٤٧٤.

(٥) أي: غير مُبَيَّن. والتثبيج: التخليط. ينظر اللسان (ثبج) وتحرفت اللفظة في (أ) و(ع) والمطبوع إلى: شيخ.

ويعتقدون يحصل عنه ما يَغِيظُهم ويَغُمُّهم؛ إذْ لم يوافقوهم فيما قالوه واعتقدوه، فلا تضربوا في الأرض ولا تغزوا، فالتبسَ على الزمخشريّ استدعاءُ انتفاء المماثلة بحصول الانتفاء، وفَهْمُ هذا فيه خَفاءٌ ودِقَّة[(١)].

وقال ابنُ عيسى[(٢)] وغيرُه: اللام متعلِّقة بالكون، أي: لا تكونوا كهؤلاء ليجعلَ الله ذلك حسرةً في قلوبهم دونكم. انتهى. ومنه أخذَ الزمخشريُّ قولَه، لكنَّ ابنَ عيسى نصَّ على ما تتعلَّق به اللام، وذاك لم ينصَّ[(٣)]. وقد بَيَّنَّا فسادَ هذا القول.

وإذا كانت لامَ الصيرورة والعاقبة تعلَّقت بـ «قالوا»، والمعنى أنهم لم يقولوا لِجَعْلِ الحَسْرة، إنَّما قالوا ذلك لعلَّةٍ، فصار مآلُ ذلك إلى الحسرة والنَّدامة، ونظَّروه بقوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، ولم يلتقطوه لذلك إنما آلَ أمرُه إلى ذلك[(٤)]، وأكثرُ أصحابنا لا يُثبتون للَّامِ هذا المعنى - أعني أن تكون اللام للعاقبة والمآل - ويَنْسُبون هذا المذهب للأخفش.

وأمَّا الإشارة بـ «ذلك»؛ فقال الزَّجَّاج[(٥)]: هو إشارةٌ إلى الظَّنِّ، وهو أنهم إذا ظنُّوا أنهم لو لم يَحْضُروا لم يُقْتَلُوا؛ كان حسرتُهم على مَنْ قُتل منهم أشدَّ.

وقال الزمخشريّ[(٦)] ما معناه: الإشارةُ إلى النُّطق بالقول والاعتقاد.

وقال ابنُ عطية[(٧)]: الإشارة بـ «ذلك» إلى هذا المعتقَد الذي لهم؛ جعلَ الله ذلك حسرةً؛ لأنَّ الذي يتيقَّن أنَّ كلَّ موتٍ وقَتْلٍ بأجل سابقٍ يجدُ بَرْدَ اليأس

(١) قال السمين الحلبي في الدر المصون ٣/ ٤٥٥ بعد أن أورد هذا الكلام: ولا أدري ما وَجْهُ تثبيج كلام أبي القاسم وكيف ردَّ عليه على زعمه بكلامه؟.
(٢) هو عليُّ بن عيسى أبو الحسن الرُّمَّاني، إمام النحو والأدب (ت ٣٨٤).
(٣) ردَّ السمين الحلبي على شيخه أبي حيّان بأنَّ الزمخشريَّ قد نصَّ على ما تتعلَّق به اللام حيث قال: «فإنْ قلتَ: ما متعلَّق «ليجعل»؟ قلت: قالوا... أو بقوله: لا تكونوا». ثم قال السمين: وأيُّ نصٍّ أظهرُ من هذا؟!.
(٤) ينظر اللامات للزجّاجي ص١٢٥.
(٥) بمعناه في معاني القرآن له ١/ ٤٨٢.
(٦) الكشاف ١/ ٤٧٤.
(٧) المحرر الوجيز ١/ ٥٣١-٥٣٢.

والتسليم لله تعالى على قلبه، والذي يعتقدُ أنَّ حميمَه لو قعدَ في بيته لم يمتْ يتحسَّرُ ويَتَلَهَّف. انتهى.

وهذه أقوالٌ متوافقة فيما أشير بـ «ذلك» إليه.

وقيل: الإشارة بـ «ذلك» إلى نفس نهي الله تعالى عن الكون مثلَ الكافرين في هذا المعتقَد؛ لأنهم إذا رَأَوْا أنَّ الله قد وَسَمَهُمْ بمعتقَد وأمرَ بخلافهم؛ كان ذلك حسرةً في قلوبهم.

وقال ابن عطية: ويحتملُ عندي أن تكون الإشارةُ إلى النهي والانتهاء معاً؛ فتأمَّلْهُ. انتهى.

وهذه كلُّها أقوال تُخالف الظاهر، والذي يقتضيه ظاهرُ الآية أنَّ الإشارة إلى المصدرِ المفهوم من «قالوا»، وأنَّ اللام للصيرورة، والمعنى أنهم قالوا هذه المقالةَ قاصدين التثبيطَ عن الجهاد والإبعادِ في الأرض؛ سواءٌ أكانوا معتقدين صحَّتَها أمْ لم يكونوا معتقديها، إذ كثيرٌ من الكفار قائلٌ بأَجَل واحد، فخابَ هذا القصد.

وجعل الله ذلك القولَ حسرةً في قلوبهم أي: غَمًّا على ما فاتَهم، إذْ لم يبلُغُوا مَقْصِدَهم من التثبيط عن الجهاد، وظاهرُ جَعْلِ الحسرةِ وحصولِها أنه يكون ذلك في الدنيا، وهو الغمُّ الذي يَلحقُهم على ما فاتَ من بلوغ مَقْصِدِهم. وقيل: الجَعْلُ يومَ القيامة لِما هم فيه من الخِزْي والنَّدامة، ولِما فيه المسلمون من النعيم والكرامة. وأسند الجعل إلى الله لأنه هو الذي يضعُ الغمَّ والحسرةَ في قلوبهم عقوبةً لهم على هذا القول الفاسد.

﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ ردٌّ عليهم في تلك المقالة الفاسدة، بل ذلك بقضائه الحَتْم، والأمرُ بيده، قد يُحيي المسافرَ والغازيَ، ويُميتُ المقيمَ والقاعد. وقال خالد بنُ الوليد عند موته: ما فيَّ مَوْضِعُ شِبْرٍ إلا وفيه ضَربةٌ أو طَعنةٌ، وهاأنا ذا أموتُ كما يموت البعير، فلا نامت أعينُ الجبناء.

وقيل: هذه الجملة متعلّقة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ﴾ أي: لا تقولوا مثلَ قولهم، فإنَّ الله هو المُحيي، مَنْ قَدَّر حياتَه لم يُقتل في الجهاد،

والمميتُ؛ مَنْ قدَّر له الموتَ لم يبقَ وإن لم يجاهد. قاله الرازيّ. وقال أيضاً[(١)]: المرادُ منه إبطالُ شُبهتِهم، أي: لا تأثيرَ لشيء آخَر في الحياة والموت؛ لأنَّ قضاءه لا يتبدَّل، ولا يلزم ذلك في الأعمال؛ لأنَّ له أن يفعل ما يشاء. انتهى. ورُدَّ عليه هذا الفرق بين الموت والحياة وسائر الأعمال لأنَّ سائر الأعمال مفروغٌ منها كالموت والحياة، فما قُدِّرَ وُقوعُه منها فلا بدَّ من وقوعه، وما لم يُقَدَّر فيستحيل وقوعُه، فإذاً لا فرقَ.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قال الراغب[(٢)]: علَّق ذلك بالبصر لا بالسمع وإن كان الصادرُ منهم قولاً مسموعاً لا فِعلاً مرئيًّا لمَّا كان ذلك القولُ من الكافر قصداً منهم إلى عمل يحاولونه، فخصَّ البصر بذلك، كقولك لمن يقول شيئاً وهو يَقْصِدُ فعلاً يحاولُه: أنا أرى ما تفعلُه.

وقرأ ابن كثير والأخَوان: «بما يعملون» بالياء على الغيبة، وهو وعيدٌ للمنافقين، وقرأ الباقون بالتاء على خطاب المؤمنين[(٣)] كما قال: «لا تكونوا» فهو توكيدٌ للنَّهي ووعيدٌ لمن خالفَ، ووَعْدٌ لمن امتثلَ.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا تَجمعون ﴿١٥٧﴾﴾ تقدَّم قبل هذا تكذيبُ الكفار في دعواهم أنَّ مَنْ مات أو قُتل في سفر أو غَزْوٍ؛ لو كان أقامَ ما ماتَ وما قُتل، ونَهَى المؤمنين عن أن يقولوا مثلَ هذه المَقَالة؛ لأنها سببٌ للتخاذل عن الغزو، وأخبرَ في هذه الجملة أنه إنْ تمَّ ما يحذرُونه من القتل في سبيل الله أو الموت فيه؛ فما يحصُل لهم من مغفرة الله ورحمته بسبب ذلك خيرٌ ممَّا يجمعون من حُطام الدنيا ومنافعها لو لم يَهلِكُوا بالقتل أو الموت.

وأكَّدَ ذلك بالقَسَم؛ لأنَّ اللام في «لئن» هي الموطِّئة للقَسَم، وجوابُ القَسَم هو «لَمَغْفِرَةٌ»، وكان نكرةً إشارةً إلى أنَّ أيسرَ جزء من المغفرة والرحمة خيرٌ من الدنيا، وأنه كافٍ في فوز المؤمن. وجاز الابتداء به لأنه وُصِفَ بقوله: «من الله»، وعُطف

(١) في تفسيره ٩/٥٦.
(٢) تفسيره ص٩٤٤ (جزء فيه سورة آل عمران).
(٣) السبعة ص٢١٧، والتيسير ص٩١. (والأخوان: حمزة والكسائي).

عليه نكرة، ومُسَوِّغُ الابتداء بها كونُها عُطفت على ما يُسوِّغُ به الابتداء، أو كونها موصوفةً في المعنى، إذِ التقدير: ورحمةٌ منه. وثَمَّ صفةٌ أخرى محذوفة لا بدَّ منها، وتقديرُها: ورحمةٌ لكم.

و«خَيْرٌ» هنا على بابها من كونها أفعل تفضيل كما رُوِي عن ابن عباس: خيرٌ من طِلاع الأرض ذَهَبةً حمراء[١]. وارتفاع «خَيْر» على أنه خَبَرٌ عن قوله: «لَمَغْفِرَةٌ».

قال ابنُ عطيَّة: وتحتملُ الآية أن يكون قولُه: «لَمَغْفِرَةٌ» إشارةً إلى القتل أو الموت في سبيل الله، فسمَّى ذلك مغفرةً ورحمةً، إذْ هما مقترنان به، ويجيءُ التقدير: لَذَلك مغفرةٌ ورحمة، وترتفع المغفرة على خَبَر الابتداء المقدَّر، وقولُه: «خَيْرٌ» صفة لا خَبَرُ ابتداء[٢]. انتهى قولُه. وهو خلاف الظاهر.

وجوابُ الشرط الذي هو «إنْ قُتِلْتُم» محذوف لدلالة جواب القَسَم عليه. وقولُ الزمخشريّ: سدَّ مسدَّ جوابِ الشرط؛ إنْ عَنَى أنه حُذف لدلالته عليه؛ فصحيح، وإن عَنَى أنه لا يحتاج إلى تقدير؛ فليس بصحيح.

وظاهر الآية يدلُّ على أنه جُعلت المغفرةُ والرحمةُ لمن اتَّفقَ له أحدُ هذين: القتل في سبيل الله، أو الموت فيه.

وقال الرازيّ: «لَمَغْفِرَةٌ من الله» إشارةٌ إلى تعبُّدِه خوفاً من عقابه، «ورحمةٌ» إشارة إلى تعبُّدِه لطلب ثوابه[٣]. انتهى. وليس بالظاهر.

وقُدِّم القتلُ هنا لأنه ابتداءُ إخبار، فقُدِّم الأشرف الأهمّ في تحصيل المغفرة والرحمة، إذ القتلُ في سبيل الله أعظمُ ثواباً من الموت في سبيله.

قال الراغب: تضمَّنت هاتان الآيتان[٤] إلزاماً هو جارٍ مَجرى قياسَيْن شرطيَّين اقتضَيا الحرصَ على القتل في سبيل الله، تمثيلُه: إنْ قُتلتُم في سبيل الله أو مُتُّم

---

(١) الكشاف ١/ ٤٧٤. ولم أقف على القول في مصدر متقدّم.

(٢) في المحرر الوجيز ١/ ٥٣٢: «صفة لخبر الابتداء». وكلاهما صواب.

(٣) تفسير الرازي ٩/ ٥٩. وقد أورد هذا الكلام عقيب قصة لعيسى عليه الصلاة والسلام مع ثلاثة أصناف من الناس، فتنظر ثمة.

(٤) يعني هذه الآية والتي بعدها: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

حصلت لكم المغفرةُ والرحمةُ، وهما خيرٌ ممَّا تجمعون، فإذاً الموتُ والقتلُ في سبيل الله خيرٌ ممَّا تجمعون، ولئن مُتُّم أو قُتِلْتُم فالحشرُ لكم حاصل، وإذا كان الموتُ والقتلُ لا بدَّ منه والحشرُ، فنتيجةُ ذلك أنَّ القتل والموتَ اللَّذَيْن يُوجبان المغفرةَ والرحمةَ خيرٌ من القتل والموت اللَّذَيْن لا يُوجِبانِهما. انتهى(١).

وقرأ الابنانِ والأبوانِ بضمّ الميم في جميع القرآن، وحفصٌ في هذين: «أوْمُتُّم» «ولئن مُتُّم»، وكسر الباقون(٢)، والضمُّ أقيسُ وأشهر، والكسر مستعملٌ كثيراً، وهو شاذٌ في القياس، جعله المازنيّ من: فَعِلَ يفعُل، نظير: دِمْتَ تَدُوْمُ، وفَضِلْتَ تَفْضُلُ(٣). وكذا أبو عليّ، فحكما عليه بالشُّذوذ. وقد نقل غيرُهما فيه لغتين؛ إحداهما: فَعَلَ يَفْعُلُ، فتقول: مات يَمُوتُ، والأخرى: فَعِلَ يَفْعَلُ، نحو: مات يَماتُ، أصلُه: مَوِتَ. فعلى هذا ليس بشاذّ؛ إذ هو مثل: خاف يَخاف، فأصلُه: مَوِتَ يَمْوَتُ، فمن قرأ: بالكسر فعلى هذه اللغة، ولا شذوذ فيه، وهي لغة الحجاز، يقولون: «مِتُّم» من: مات يَمات. قال الشاعر:

عِيشِي ولا يومي(٤) بأن تَماتي(٥)

وسُفْلَى مُضَر يقولون: «مُتُّم» بضمّ الميم، من: مات يموت، نقله الكوفيون.

---

(١) الكلام في تفسير الراغب ص٩٤٦-٩٤٧ حتى قوله: حصلت لكم المغفرة والرحمة.

(٢) الابنان: ابنُ كثير وابنُ عامر، والأبوان: أبو عمرو وأبو بكر بن عيَّاش. وقولُه: في جميع القرآن، يعني الألفاظ: «متُّ»، و«متُّم»، و«متنا». وينظر السبعة ص٢١٨، والتيسير ص٩١، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٢، وزاد المسير ١/ ٤٨٤.

(٣) فَضِلَ يَفْضُل لغة ليست بالأصل، وهي على تداخل اللغتين: فَضَلَ يَفْضُل، من باب قتلَ، وفَضِل يَفْضَل، من باب تعبَ. ونظيرُها في السالم: نَعِمَ يَنْعُم، وفي المعتلّ: دِمْتَ (من دَوِمَ) تدُوم، ومِتَّ (من مَوِتَ) تموت. ينظر المصباح المنير (فضل)، وينظر فيه أيضاً وفي اللسان (موت). والأصول في النحو ٣/ ٣٤٤، والمصادر في التعليق التالي.

(٤) في (د١) و(ز٢) و(يه): تومى (؟).

(٥) الرَّجَز بهذه الرواية في جمهرة اللغة ٣/ ٤٨٥، والحجة ٣/ ٩٣. وقبله: بُنَيَّ يا سيِّدة البناتِ، ويروى: بنيتي سيِّدةَ البنات. وهو في الخصائص ١/ ٣٨١، واللسان (موت)، وتفسير القرطبي ١/ ٣٣٢، والدر المصون ٣/ ٤٥٨، برواية: ولا يؤمن أن، بدل: ولا يومي بأن. وفي الصحاح (موت)، وشرح الشافية ٤/ ٥٧: ولا نأمنُ أن.

وقرأ الجمهور: «تجمعون» بالتاء على سياق الخطاب في قوله: «ولئن قُتِلْتُم»، وقرأ قومٌ ـ منهم حفص عن عاصم ـ بالياء[1]، أي: ممَّا يجمعُه الكفار المنافقون وغيرهم.

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ هذا خطاب عامٌّ للمؤمن والكافر؛ أعْلَمَ فيه أنَّ مصير الجميع إليه، فيُجازي كلًّا بعمله. هكذا قال بعضُهم، وكأنَّه لمَّا رأى الموتَ والقتلَ أُطلِقا ولم يُقيَّدا بذكر «سبيل الله» كما قُيِّدا في الآية؛ فَهم أنَّ ذلك عامٌّ.

والظاهر أنه خطابٌ للمؤمنين كالخطاب السابق، ولذلك قدَّره الزمخشريّ: لَإِلَى الرَّحيم الواسعِ الرحمةِ المُثِيبِ العظيم الثوابِ تُحشرون. قال[2]: ولوقوع اسم الله هذا الموقعَ مع تقديمه وإدخال اللام على الحرف المتصل به شأنٌ ليس بالخفيّ. انتهى. يُشير بذلك إلى مذهبه من أنَّ التقديم يُؤذن بالاختصاص، فكان المعنى عنده: لَإِلَى[3] الله لا غيرِه تُحشرون، وهو عندنا لا يدلُّ بالوضع على ذلك، وإنما يدلُّ التقديم على الاعتناء بالشيء والاهتمام بذكره كما قال سيبويه[4]، وزاده حُسناً هنا أنَّ تأخُّر الفعل هنا فاصلة، فلو تأخَّر المجرورُ لفاتَ هذا الغَرَض.

وتضمَّنت الآية تحقيرَ أمرِ الدنيا والحرصَ[5] على الشهادة، وأنَّ مصير العالَم كلِّهم إلى الله، فالمُوافاةُ على الشهادة أمثلُ بالمرء ليُحْرِزَ ثوابَها ويجدَه وقت الحشر، وقُدِّم الموت هنا على القتل لأنها آيةُ وعظٍ بالآخرة والحشر، وتزهيدٍ في الدنيا والحياة، والموتُ فيها مطلق لم يُقيَّد بشيء، فإمَّا أن يكون الخطابُ مختصًّا بمن خُوطب قبلُ، أو عامًّا واندرجَ أولئك فيه فقُدِّم لعمومه، ولأنَّه أغلبُ في الناس من القتل.

---

(١) السبعة ص٢١٨، والتيسير ص٩١.
(٢) الكشاف ١/ ٤٧٤، والكلام السالف فيه.
(٣) في (ب) و(د١) و(د٢) و(ز٢) و(يه): فإلى.
(٤) ينظر الكتاب ١/ ٥٦ و٢/ ١٤٣. وجاء في حاشية (ز٢) ما صورتُه: قول شيخنا العلَّامة أثير الدين رحمه الله: يشير بذلك إلى مذهبه. يعني أن مذهب الزمخشري أي التقديم يؤذن بالحصر. وقد تقدم الكلام في ذلك في قوله تعالى: إياك نعبد.
(٥) في (ب) و(د٣) و(يه): الحضّ.

فهذه ثلاثةُ مواضع: «ما ماتُوا وما قُتلوا»؛ تقدَّم الموتُ على القتل لمناسبة ما قبلَه من قوله: «إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزَّى». وتقدَّم القتلُ على الموت بعدُ[1] لأنه محلُّ تحريض على الجهاد، فقُدّم الأهَمُّ والأشرفُ، وقُدِّم الموتُ هنا[2] لأنه الأغلبُ ولم يُؤكَّد الفعلُ الواقع جواباً للقَسَم المحذوف لأنه فُصِلَ بين اللام المتلقَّى بها القَسَمُ وبينَه بالجارِّ والمجرور، ولو تأخَّر لكان: لَتُحْشَرُنَّ إليه، كقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ [هود: ٨]. وسواءٌ كان الفصلُ بمعمول الفعل كهذا، أو بـ «سَوْف» كقوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ٤٩]، أو بـ «قد» كقول الشاعر:

كَذَبْتِ لقد أُصْبِي على المرءِ عِرْسَهُ وأمنَعُ عِرْسِي أنْ يُزَنَّ بها الخالي[3]

قال أبو عليّ: الأصلُ دخولُ النون فرقاً بين لام اليمين ولام الابتداء، ولامُ الابتداء لا تدخلُ على الفضلات، فبدخول لام اليمين على الفَضْلَة وقعَ الفصل، فلم يُحتج إلى النون، وبدخولها على «سوف» وقعَ الفرق، فلم يُحتج إلى النون، لأنَّ لام الابتداء لا تدخلُ على الفعل إلا إذا كان حالاً، أمَّا إذا كان مستقبَلاً فلا.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ﴾ متعلق الرحمة المؤمنون، فالمعنى: فبرحمةٍ من الله عليهم لِنْتَ لهم، فتكون الرحمة امتنَّ بها عليهم، أي: دَمِثَتْ أخلاقُك، ولانَ جانبُك لهم بعدَ ما خالفُوا أمرَك وعَصَوْك في هذه الغَزَاة[4]، وذلك برحمة الله إياهم.

وقيل: متعلَّق الرحمة المخاطَبُ ﷺ، أي: برحمة الله إياك جعلَكَ لَيِّنَ الجانب مُوَطَّأ الأكناف، فرَحِمْتَهم ولِنْتَ لهم، ولم تُؤاخذهم بالعصيان والفِرار وإفرادِك للأعداء[5]، ويكون ذلك امتناناً على رسول الله ﷺ.

ويحتمل أن يكون متعلَّقُ الرحمة النبيَّ ﷺ والمؤمنين، أي: فبرحمةٍ من الله

---

(١) يعني في قوله: «ولئن قُتِلْتُم في سبيل الله أو مُتُّم».
(٢) أي: في قوله: «ولئن مُتُّم أو قُتِلْتُم».
(٣) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٢٨. قوله: يُزَنّ، أي: يُتَّهم، والخالي: الذي لا زوجَ له.
(٤) تحرّفت اللفظة في (د١) و(د٢) والمطبوع إلى: القراءة.
(٥) بنحوه في الكشاف ١/ ٤٧٤.

لجميعكم؛ للنبيِّ ﷺ[١] بأنْ جعلَه على خُلُق عظيم، وَبَعثَهُ بتتميم مكارم الأخلاق ومحاسِنِها[٢]، وللمؤمنين بأنْ لَيَّنَهُ لهم.

و«ما» هنا زائدة للتأكيد، وزيادتُها بين الباء و«عن» و«من» والكاف وبين مجروراتها شيء معروف في اللسان، مقرَّر في علم العربية، وذهبَ بعضُ الناس إلى أنها نكرة تامَّة، ورحمة بدل منها[٣]، كأنه قيل: فبشيء، أبهم ثم أبدل على سبيل التوضيح فقال: رحمةٍ، وكان قائلُ هذا يفرُّ من الإطلاق عليها أنها زائدة.

وقيل: «ما» هنا استفهامية؛ قال الرازيّ: قال المحقِّقون: دخولُ اللفظ المهمَلِ الوضعِ[٤] في كلام أحكمِ الحاكمين غيرُ جائز، وهنا يجوز أن تكون «ما» استفهاماً للتعجّب، تقديرُه: فبأيِّ رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم[٥]؟ وذلك بأنَّ جِنايتَهم لمَّا كانت عظيمةً، ثم إنه ما أظهرَ البتة تغليظاً في القول ولا خشونةً في الكلام؛ علموا أنَّ هذا لا يَتَأتَّى إلا بتأييدٍ رَبَّانيّ قبل ذلك. انتهى كلامه.

وما قاله المحقّقون صحيحٌ، لكن زيادة «ما» للتوكيد لا يُنكرُه في أماكنِه مَنْ له أدنى تعلّق بالعربية فضلاً عمَّن يتعاطى تفسير كلام الله، وليس «ما» في هذا المكان ممَّا يتوهَّمه أحدٌ مهملاً، فلا يحتاج ذلك إلى تأويلها بأن تكون استفهاماً للتعجُّب، ثم إنَّ تقديره ذلك: فبأيِّ رحمة؛ دليلٌ على أنه جعلَ «ما» مضافةً للرحمة.

وما ذهب إليه خطأ من وجهين:

---

(١) قوله: والمؤمنين أي فبرحمة. . . إلى هذا الموضع، سقط من (د١) والمطبوع. والكلام بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٥٣٣.

(٢) قوله: مكارم الأخلاق ومحاسنها، من (أ) و(ح) و(د٢) و(ع). وفي النسخ الأخرى: محاسن الأخلاق.

(٣) ذكره مكيّ في مشكل إعراب القرآن ١/ ١٧٨ عن ابن كيسان، وذكره أبو البقاء في الإملاء ١/ ١٥٥ عن الأخفش.

(٤) في تفسير الرازي ٩/ ٦٢: الضائع، بدل: الوضع.

(٥) استبعد القرطبي هذا القول في تفسيره ٥/ ٣٧٨ ثم قال: لو كان كذلك لكان: «فَبِمَ» بغير ألف.

أحدهما: أنه لا تُضاف «ما» الاستفهامية، ولا أسماءُ الاستفهام غير «أيّ» بلا خلاف، و«كم» على مذهب أبي إسحاق.

والثاني: أنه إذا لم تصحَّ الإضافة فيكونُ إعرابُه بدلاً، وإذا كان بدلاً من اسم الاستفهام فلا بدَّ من إعادة همزة الاستفهام في البدل، وهذا الرجل لحظَ المعنى ولم يلتفت إلى ما تقرَّر في علم النحو من أحكام الألفاظ، وكان يُغنيه عن هذا الارتباكِ والتسلُّقِ إلى ما لا يُحسِنُه والتسوُّرِ عليه قولُ الزجَّاج(١) في «ما» هذه: إنها صِلةٌ فيها معنى التوكيد بإجماع النَّحْويِّين.

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ بيَّن تعالى أنَّ ثمرة اللِّين هي المحبَّة والاجتماع عليه، وأنَّ خِلافَها من الجَفْوة والخُشونة مُؤدٍّ إلى التفرُّق. والمعنى: لو شافَهْتَهم بالمَلامة على ما صَدَرَ منهم من المخالفة والفِرار لتفرَّقوا من حولك هيبةً منك وحياءً، فكان ذلك سبباً لتفرُّق كلمة الإسلام وضَعفِ مادَّته، وإطماعاً للعدوّ.

واللِّين والرِّفق يكون فيما لم يُفضِ إلى إهمال حقٍّ من حقوق الله تعالى. وقال تعالى في حقِّ الكفار: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾ [التوبة: ٧٣]، وفي وصفه ﷺ في الكتب المنزَّلة: إنه «ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا صَخَّاب في الأسواق»(٢).

والوصفان قيل: بمعنًى واحد، فجُمِعا للتأكيد، وقيل: الفَظَاظة: الجَفْوة قولاً وفعلاً، وغِلَظُ القلب عبارة عن كونه خُلق صُلباً لا يلينُ ولا يتأثَّر، وعن الغِلَظ تنشأ الفَظَاظة، فَقَدَّمَ ما هو ظاهرٌ للحِسِّ على ما هو خافٍ، وإنما يُعلم بظهور أثرِه.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ﴾ أَمَرَهُ تعالى بالعفو عنهم، وذلك فيما كان خاصًّا به مِن تَبِعةٍ له عليهم، وبالاستغفار لهم فيما هو مختصٌّ بحقِّ الله تعالى، وبمشاورتِهم، وفيها فوائد: تطييبُ نفوسِهم، والرفعُ من مقدارهم بصفاء قلبِه لهم حيث أَهَّلَهم للمشاورة وجَعَلَهم خواصَّ بعد ما صَدَر منهم، وتشريعُ المشاورة

(١) في معاني القرآن له ١/ ٤٨٢. وهو أبو إسحاق السالف ذكره.

(٢) قطعة من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أخرجه أحمد (٦٦٢٢)، والبخاري (٢١٢٥) و(٤٨٣٨). قوله: صَخَّاب؛ من الصَّخَب، وهو الصِّياح والجَلَبَة. ويقال بالسين أيضاً، وهي رواية البخاري.

لِمَنْ بعدَه، والاستظهارُ برأيهم فيما لم ينزلْ فيه وَحْيٌ، فقد يكون عندَهم من أمور الدُّنيا ما يُنتفعُ به، واختبارُ عقولِهم فيُنْزِلُهم مَنازِلَهم، واجتهادُهم فيما فيه وجهُ الصلاح، وجَرْيٌ على مناهج العرب وعادتها في الاستشارة في الأمور، وإذا لم يُشاوَر أحدٌ منهم حصل في نفسه شيء[١]، ولذلك عزَّ على عليٍّ وأهلِ البيت كونُهم استُبِدَّ عليهم في المشورة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين[٢].

وفي ماذا أُمِرَ أن يُشاورهم؟ قيل: في أمر الحرب والدُّنيا. وقيل: في الدِّين والدُّنيا ما لم يَرِدْ نصٌّ. ولذلك استشار في أسرى بدر.

وظاهر هذه الأوامر يقتضي أنه أُمِرَ بهذه الأشياء ولا تدلُّ على ترتيب زمانيّ.

وقال ابن عطيَّة[٣]: أُمِرَ بتدريج بليغ؛ أُمِرَ بالعفو عنهم فيما يخُصُّه، فإذا صاروا في هذه الدرجة أُمِرَ بالاستغفار فيما للهِ، فإذا صارُوا في هذه الدرجة صارُوا أهلاً للاستشارة في الأمور. انتهى، وفيه بعضُ تلخيص.

ولا يظهرُ هذا التدريج من اللفظ، ولكن هذه حِكمةُ تقديم هذه الأوامر بعضِها على بعض؛ أُمِرَ أوّلاً بالعفو عنهم، إذْ عَفْوُهُ عنهم مُسقِطٌ لحقِّه، ودليلٌ على رضاه ﷺ عليهم وعدمِ مؤاخذتِه، ولمَّا سَقَطَ حقُّه بعفوه استغفرَ لهم اللهَ ليَكمُل لهم صَفْحُه وصَفْحُ اللهِ عنهم، ويحصُلَ لهم رِضاه ﷺ ورضاه تعالى، ولمَّا زالت عنهم التَّبِعاتُ من الجانبَيْن شاوَرَهُم إيذاناً بأنهم أهلٌ للمحبَّة الصادقة والخُلَّةِ الناصحة، إذ

---

(١) ينظر في هذه المعاني: تفسير الطبري ٦/ ١٨٨-١٩٠، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٧٤-١٧٥، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٥، والكشاف ١/ ٤٧٤-٤٧٥، وزاد المسير ١/ ٤٨٨-٤٨٩.

(٢) ذكر المؤرِّخون أن أمر البيعة كان لا يحتمل التأخير، فإنه لما توفّي رسولُ الله ﷺ اجتمعت الأنصار في سَقِيفَة بني ساعدة ليُبايعوا سعدَ بنَ عُبادة، فبلغَ ذلك أبا بكر، فأتاهم ومعه عُمر وأبو عبيدة. وذكروا أنه حدث لَغَطٌ في هذا الاجتماع وارتفعت أصوات، فقال عمر لأبي بكر رضي الله عنهما: ابْسُطْ يَدَكَ أُبايِعْكَ. فبسطَ يدَه، فبايعَه، وبايعَه الناس. ثم بايعَه عليٌّ رضي الله عنه بعد ذلك وغيرُه ممَّن كانوا منشغلين في أمرِ تجهيزِ رسولِ الله ﷺ، ولم يحضروا اجتماعَ السَّقِيفَة. قال عمر رضي الله عنه: خشيتُ إنْ فارقتُ القوم ولم تكن بيعة أن يُحْدِثُوا بعدَنا بيعة، فإمَّا أن نُتابعَهم على ما لا نرضى به، وإمَّا أنْ نُخالفَهم فيكون فساداً. ينظر الكامل لابن الأثير ٢/ ٣٢٥-٣٢٨.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٣-٥٣٤.

لا يستشيرُ الإنسانُ إلا مَنْ كان معتقدًا فيه المودَّةَ والعقلَ والتجربة.

والظاهر أنَّ قولَه: «فاعْفُ عنهم» أمْرٌ له بالعَفْو، وقيل: معناه: سَلْني العفوَ عنهم لأعفوَ عنهم.

والمعفوُّ عنه والمسؤول الاستغفارُ لأجله؛ قيل: فرارُهم يومَ أُحُد، وتركُ إجابتِه، وزوالُ الرُّماة عن مراكزهم. وقيل: ما يبدُو من هَفَوَاتهم وألسنتهم من السَّقَطات التي لا يعتقدونها، كمناداتهم من وراء الحُجُرات، وقولِ بعضِهم: أنْ[1] كان ابنَ عَمَّتِك[2]. وجرِّ ردائه حتى أثَّرَ في عنقه[3]. وغيرِ ذلك ممَّا وقعَ منهم على سبيل الهفوة.

ومن غريب النُّقول والمقول وضعيفِه الذي يُنَزَّه عنه القرآن قولُ بعضهم: إنَّ قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾: إنه من المقلوب، والمعنى: وليشاوروك في الأمر!

وذكر المفسِّرون هنا جملةً ممَّا وردَ في المشاورة من الآيات والأحاديث والآثار. وذكرَ ابنُ عطية[4] أنَّ الشُّورى من قواعد الشريعة وعزائمِ الأحكام، ومَن لا يستشيرُ أهلَ العلمِ والدِّين فعَزْلُه واجب، هذا ما لا خلافَ فيه، والمستشارُ في الدِّين عالمٌ دَيِّن، وقلَّما يكونُ ذلك إلا في عاقل. قال الحَسَن[5]: ما كَمَلَ دينُ امرئٍ لم يَكْمُلْ عقلُه، وفي الأمور الدُّنياويَّة عاقلٌ مُجَرِّب، وادٌّ في المستشير. انتهى كلام ابن عطية، وفيه بعضُ تلخيص.

(١) في (د١) و(يه): أأن.

(٢) هذا في خبر رجل من الأنصار خاصمَ الزُّبير عند النبي ﷺ في شِراج الحَرَّة التي كانوا يسقون بها النخيل، فقال النبي ﷺ: «اسْقِ يا زُبير، ثم أرْسِلِ الماء إلى جارك». فغضبَ الأنصاريّ وقال: أنْ كان ابنَ عمتك؟ أخرجه البخاري (٢٣٥٩-٢٣٦٠)، ومسلم (٢٣٥٧). الشِّراج جمع شَرْجة، وهي مسيل الماء.

(٣) وهذا في خبر أعرابيٍّ جذبَ بُرْدَ النبيِّ ﷺ جَذْبَةً شديدةً أثَّرت في عُنقه ﷺ، ثم قال له: مُرْ لي من مالِ الله الذي عندك. فالتفتَ إليه النبي ﷺ فضحكَ، ثم أمرَ له بعطاء. أخرجه البخاري (٣١٤٩)، ومسلم (١٠٥٧) من حديث أنس ﷺ.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٤.

(٥) يعني ابنَ أبي الحسن البصري كما في المصدر السابق، وقولُه فيه.

وقراءةُ الجمهور: في الأمر، وليس على العموم؛ إذ لا يُشَاوَرُ في التحليل والتحريم، والأمْرُ اسم جنس يقع للكلِّ وللبعض. وقرأ ابن عباس: «في بعضِ الأمر»[١].

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فإذا عقدتَ قلبَك على أمرٍ بعد الاستشارة؛ فاجعلْ تفويضَك فيه إلى الله تعالى، فإنه العالمُ بالأصلحِ لك والأرشدِ لأمرك، لا يعلمُه مَنْ أشارَ عليك.

وفي هذه الآية دليلٌ على المشاورة وتخميرِ الرأي وتنقيحِهِ والفِكْرِ فيه، وأنَّ ذلك مطلوبٌ شرعاً؛ خلافاً لما كان عليه بعضُ العرب مِن تَرْكِ المشورة، ومن الاستبداد برأيه من غير فِكْرٍ في عاقبة، كما قال:

إذا هَمَّ ألْقَى بين عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ ونَكَّبَ عن ذِكْرِ العواقِبِ جانِبَا
ولم يَسْتَشِرْ في رأيِهِ غيرَ نَفْسِهِ ولم يَرْضَ إلا قائمَ السَّيفِ صَاحِبَا[٢]

وقرأ الجمهور: «عَزَمْتَ» على الخطاب كالذي قبلَه. وقرأ عكرمة وجابر بن زيد وأبو نَهيك وجعفرُ الصادق: «عَزَمْتُ» بضمّ التاء[٣] على أنها ضميرٌ للهِ تعالى. والمعنى: فإذا عزمتُ لك على شيء، أي: أرشدتُك إليه وجعلتُك تَقصِدُه، ويكون قولُه: «على الله» من باب الالتفات؛ إذ لو جرى على نسق ضمِّ التاء لكان: فتوكَّلْ عليَّ. ونظيرُه في نسبة العزم إلى الله تعالى على سبيل التجوُّز قولُ أمِّ سلمة: «ثم عَزَمَ الله لي»[٤].

(١) الأدب المفرد (٢٥٧)، والمحتسب ١/ ١٧٥، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٤، وهي في الكشاف ١/ ٤٧٥ دون نسبة.
(٢) البيتان لسعد بن ناشب المازني، ينظر: الكامل للمبرّد ١/ ٢٦٨، والشعر والشعراء ٢/ ٦٩٦، والعقد الفريد ٣/ ١٤، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٨٤، وخزانة الأدب ٨/ ١٤١.
(٣) المحتسب ١/ ١٧٦، والقراءات الشاذة ص٢٣، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٦، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٤، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٨٤، وذكرها الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٧٥ دون نسبة.
(٤) هو قطعة من حديثها ﵂ في خبر زواجها من رسول الله ﷺ بعد وفاة أبي سَلَمة. أخرجه أحمد (٢٦٦٣٥)، ومسلم (٩١٨).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ حثَّ على التوكل على الله، إذ أخبرَ أنه يُحبُّ مَنْ توكَّلَ عليه، والمرءُ ساعٍ فيما يُحَصِّلُ له محبةَ الله تعالى.

وقد تضمَّنت هذه الآياتُ فنوناً من البيان والبديع[١]:

الإبهامَ في «ولا تَلْوُون على أَحَد» فمن[٢] قال: هو الرسول؛ أبهمَه تعظيماً لشأنه، ولأنَّ التصريح فيه هَضْمٌ لقَدْرِه.

والتجنيسَ المماثلَ في «غمًّا بغمّ»، «ثم أنزل عليكم من بعد الغمّ».

والطِّباقَ في «يُخْفُون» و«يُبْدُون»، وفي «فاتكم» و«أصابَكم».

والتجنيسَ المغايرَ في «تظنُّون» و«ظَنَّ». وفي «فتوكَّل» و«المتوكِّلين»، وذكر بعضُهم ذلك في «فظًّا» و«لانفضُّوا»، وليس منه لأنه قد اختلفت المادّتان.

والتفسيرَ بعد الإبهام في «ما لا يُبْدُون» «يقولون».

والاحتجاجَ النظريّ في «لو كنتُم في بيوتكم».

والاعتراضَ في «قُلْ إنَّ الأمرَ كلَّه لله».

والاختصاصَ في «بذات الصدور»، وفي «بما تعملون بصير»، وفي «يحبُّ المتوكلين».

والإشارةَ في قوله: «ليجعلَ الله ذلك حَسْرَةً».

والاستعارةَ في «إذا ضربوا في الأرض»، وفي «لِنْتَ لهم»، وفي «غليظ القلب».

والتكرارَ في «ما ماتوا وما قُتِلُوا» وما بعدَهما، وفي «على الله»، «إنَّ الله».

وزيادةَ الحرف للتأكيد في «فبِما رَحْمَةٍ».

والالتفاتَ والحذفَ في عدَّة مواضع.

---

(١) أنهى المصنف تفسير الآيات هنا، مع أنَّ شَرْحَ مفرداتِها التي تقدَّمت تفسيرَها يشملُ آيتين بعدها.

(٢) في (د٢) و(يه): فيمن.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ هذا التفاتٌ، إذْ هو خروجٌ من غَيْبةٍ إلى خطاب، ولمَّا أمَرَهُ تعالى بمشاورتهم وبالتوكُّل عليه؛ أوضحَ أنَّ ما صدرَ من النصر أو الخِذْلان إنما هو راجعٌ لما يشاء، وأنه متى نصرَكم لا يمكنُ أن يغلبَكم أحد، ومتى خَذَلَكم فلا ناصِرَ لكم، فما وقعَ لكم من النصر أو بكم من الخِذْلان كيَوْمَيْ بدر وأُحد؛ فبمشيئته. وفي هذا تسليةٌ لهم عمَّا وقع لهم من الفِرار.

ثم أمرَهم بالتوكُّل، وناطَ الأمرَ بالمؤمنين، فنبَّه على الوصف الذي يُناسبُ معه التوكُّل ـ وهو الإيمان ـ لأنَّ المؤمنَ مصدِّقٌ بأنَّ الله تعالى هو الفاعلُ المختارُ، بيده النصرُ والخِذْلان، وأشركَهم مع نبيِّهم في مطلوبيَّة التوكُّل(١)، وهو عَذْقُ الأمورِ بالله تعالى(٢) وتفويضُها إليه.

والتوكُّلُ على الله من فروض الإيمان، ولكنه يقترنُ بالتشمير في الطاعة والحَزَامةِ بغاية الجهد، ومعاطاة أسباب التحرُّز، وليس الإلقاء باليد والإهمال لما تجبُ مراعاتُه بتوكُّل، وإنما هو كما قال ﷺ: «قَيِّدْها وتَوكَّل»(٣) ونظيرُ هذه الآية: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢].

والضمير في «من بعدِه» عائدٌ على الله تعالى، إمَّا على حذف مضاف، أي: من بعدِ خِذْلانِهِ، أي: من بعدِ ما يَخْذُلُ؛ مَنِ الذي يَنصُر؟ وإمَّا أنْ لا يحتاجَ إلى تقدير هذا المحذوف، بل يكون المعنى: إذا جاوَزْتَهُ إلى غيره وقد خَذَلَك؛ فَمَنْ ذا الذي تُجاوزُه إليه فينصرَك؟

---

(١) ينظر تفسير الراغب ص٩٥٦.

(٢) أي: تعليق الأمور بالله تعالى، ووقع في مطبوع البحر بدل هذه العبارة ما نصُّه: وهو إضافة الأمور إلى الله تعالى.

(٣) هو بهذا اللفظ في المستدرك ٣/ ٦٢٣، ومسند الشهاب (٦٣٣)، وشُعب الإيمان (١٢٠٩) من حديث عَمرو بن أمية قال: قلتُ: يا رسول الله أُرْسِلُ راحلتي وأتوكَّل؟ فقال رسول الله ﷺ: «بل قَيِّدْها وتَوَكَّلْ» وصحَّحه ابنُ حبان (٧٣١). ولفظُه عنده: «اِعْقِلْها وتَوَكَّلْ». وأخرجه الترمذي بهذا اللفظ أيضاً (٢٦٨٦) (طبعة الرسالة) لكنْ من حديث أنس ﷺ. قال يحيى القطَّان: هذا عندي حديثٌ منكر (يعني من حديث أنس).

ويحتمل أن يكون الضمير عائدًا على المصدر المفهوم من قوله: «وإنْ يَخْذُلْكُم» أي: من بعد الخِذْلان.

وجاء جواب: «إنْ يَنْصُرْكم الله» بصريح النفي العام، وجوابُ «وإنْ يَخْذُلْكُم» بمتضمِّن النَّفي، وهو الاستفهام، وهو من تنويعِ الكلام في الفَصاحة والتلطُّفِ بالمؤمنين حتى لا يُصَرِّحَ لهم بأنه لا ناصرَ لهم، بل أبرزَ ذلك في صورة الاستفهام الذي يقتضي السؤال عن الناصر؛ وإنْ كان المعنى على نفي الناصر، لكن فرقٌ بين الصَّريح والمتضمَّن، فلم يُجْرِ المؤمنين في ذلك مُجْرَى الكفار الذين نَصَّ عليهم بالصَّريح أنه لا ناصرَ لهم، كقوله: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

وظاهرُ النُّصْرَةِ أنها في لقاء العدوّ والإعانةِ على مكافحته والاستيلاءِ عليه، وأكثرُ المفسِّرين جعلُوا النُّصْرَةَ بالحُجَّة القاهرة وبالعاقبة في الآخرة، فقالوا: المعنى: إنْ حصلت لكم النُّصْرَةُ فلا تعتدُّوا ما يعرضُ من العوارض الدُّنيوية في بعض الأحوال غَلَبةً، وإنْ خَذَلَكُم في ذلك فلا تعتدُّوا ما يحصُل لكم من القهر في الدنيا نُصرة[1]، فالنُّصرة والخذلان معتبران بالمآل.

وفي قوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ إشارةٌ إلى الترغيب في طاعة الله؛ لأنه بيَّن فيما تقدَّم أنَّ مَنِ اتَّقى اللهَ نَصَرَه.

وقال الزمخشريّ في قوله: «وعلى الله»: وليَخُصَّ المؤمنون ربَّهم بالتوكُّل والتفويضِ إليه لعِلمِهم أنه لا ناصرَ سِواه، ولأنَّ إيمانكم[2] يُوجبُ ذلك ويقتضيه. انتهى كلامه. وأخَذَ الاختصاصَ من تقديم الجارّ والمجرور، وذلك على طريقته بأنَّ تقديم المفعول يُوجبُ الحَصْرَ والاختصاص.

وقرأ الجمهور: «يَخْذُلْكُم» من «خَذَلَ». وقرأ عُبيد بن عُمير: «يُخْذِلْكم» من: «أَخْذَلَ» رباعيًا[3]، والهمزة فيه للجَعْل، أي: يجعلكم مخذولين.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ قال ابن عباس وعكرمة وابنُ جُبير: فُقِدَتْ قَطِيفةٌ حمراءُ

(١) كذا في تفسير الراغب ص٩٥٥-٩٥٦. ولم يتبين لي.
(٢) في الكشاف ١/ ٤٧٥: ولأن إيمانهم. وهو المناسب للسياق.
(٣) تفسير الثعلبي ٢/ ١٧٨، والمصدر السالف.

من المغانم يومَ بدر، فقال بعضُ مَن كان مع النبيِّ ﷺ: لعلَّ رسولَ الله ﷺ أخَذَها. فنزلت[١].

وقائلُ ذلك مؤمنٌ لم يظنَّ في ذلك حَرَجاً، وقيل: منافق[٢].

ورُوِيَ أنَّ المفقودَ سيف، وقال النقَّاش: قالت الرُّماة يومَ أُحُد: الغنيمةَ الغنيمةَ أيها الناس، إنَّا نخشى أن يقولَ النبيُّ ﷺ: مَنْ أَخَذَ شيئاً فهو له، فلمَّا ذكروا ذلك قال: «خشيتُم أن نَغُلَّ؟!» فنزلت[٣]. ورُوِيَ نحوُه عن الكلبيّ ومقاتل[٤].

وقيل غير هذا، من ذلك ما قال ابنُ إسحاق: إنما نزلَتْ إعلاماً بأنَّ النبيَّ ﷺ لم يكتُم شيئاً ممَّا أُمر بتبليغه[٥].

ومناسبةُ هذه الآية لما قبلَها من حيثُ إنها تضمَّنت حُكماً من أحكام الغنائم في الجهاد، وهي من المعاصي المتَوَعَّد عليها بالنار، كما جاء في قصة مِدْعَم، فحذَّرَهم من ذلك[٦]. وتقدَّم لنا الكلام في معنى: ما كان لزيد أن يفعل[٧].

وقرأ ابن عباس وابنُ كثير وأبو عَمرو وعاصم: «أَنْ يَغُلَّ» مِن: غَلَّ، مبنيًّا للفاعل، والمعنى: أنه لا يمكن ذلك منه؛ لأنَّ الغُلُول معصية، والنبيُّ ﷺ معصومٌ

(١) سنن أبي داود (٣٩٧١)، وسنن الترمذي (٣٠٠٩)، وتفسير الطبري ٦/ ١٩٤-١٩٥، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٧٨، وأسباب النزول للواحدي ص١٢١، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٥، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٨٧.

(٢) بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٥٣٥.

(٣) المصدر السابق. وقول النقَّاش هذا مأخوذ من رواية الكلبي ومقاتل المشار إليها بعده.

(٤) تفسير الثعلبي ٢/ ١٧٨، وأسباب النزول للواحدي ص١٢٣، وزاد المسير ١/ ٤٩٠.

(٥) تفسير الطبري ٦/ ١٩٧، والمصادر السالفة.

(٦) مِدْعَم عبدٌ لرسول الله ﷺ وَهَبَهُ له رِفاعة بن زيد الجُذامي، كان معه حين انصرافه من خيبر (أو حُنين) إلى وادي القُرى، وبينما هو يَحُطُّ رَحْلَ رسولِ الله ﷺ إذ جاءه سهمٌ فقتله، فقال الناس: هنيئاً له الشهادة، فقال رسول الله ﷺ: «كلا، والذي نفس محمد بيده، إن الشَّمْلَةَ لَتَلْتَهِبُ عليه ناراً أَخَذَها من المغانم يومَ خيبر، لم تُصِبْها المقاسم». وخبرُه في «صحيح البخاري» (٤٢٣٤)، وصحيح مسلم (١١٥) من حديث أبي هريرة ﷺ. وينظر فتح الباري ٧/ ٤٨٨-٤٨٩ حول الاختلاف في قوله: خيبر، أو حُنين.

(٧) عند تفسير الآية (١٤٥): ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

من المعاصي، فلا يمكنُ أن يقع في شيء منها. وهذا النفي إشارةٌ إلى أنه لا ينبغي أن يُتَوَهَّمَ فيه ذلك، ولا أنْ يُنْسَب إليه شيء من ذلك.

وقرأ ابنُ مسعود وباقي السبعة: «أنْ يُغَلَّ» بضمّ الياء وفتح الغين مبنيًّا للمفعول[١]؛ فقال الجمهور: هو من غَلَّ، والمعنى: ليس لأحدٍ أنْ يَخُونَه في الغنيمة، فهي نهيٌ للناس عن الغُلول في المغانم، وخُصَّ النبيُّ ﷺ بالذِّكْر ـ وإنْ كان ذلك حراماً مع غيره ـ لأنَّ المعصية بحضرة النبيِّ أشنعُ؛ لِما يجبُ من تعظيمه وتوقيرِه، كالمعصية بالمكان الشريفِ واليوم المعظَّم.

وقيل: هو من: أغلَّ، رُباعيًّا، والمعنى: أنْ يُوجَدَ غالًّا، كما تقولُ: أحمدَ الرجل: وُجِدَ محموداً[٢]. وقال أبو عليّ الفارسيّ: هو من: أُغِلَّ، أي: نُسِبَ إلى الغُلُول وقيل له: غَلَلْتَ، كقولهم: أكفرَ الرجل: نُسِبَ إلى الكفر[٣].

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ظاهرُ هذا أنه يأتي بعينِ ما غَلَّ، وَرَدَ ذلك في «صحيح» البخاريّ ومسلم، ففي الحديث: ذكَرَ الغُلُولَ وعَظَّمَهُ وعَظَّمَ أمْرَه، ثم قال: «لا أُلْفِيَنَّ أحَدَكُم يجيءُ يومَ القيامةِ على رَقَبَتِهِ بعيرٌ له رُغَاء فيقول: يا رسولَ الله أغِثْني. فأقولُ: لا أملِكُ لك من الله شيئاً، قد أبْلَغْتُك». الحديث[٤].

وكذلك ما جاء في حديث ابنِ اللُّتْبِيَّة: «والذي نفسي بيدِه، لا يأخذُ أحدٌ منها شيئاً إلا جاء به يحملُه يومَ القيامة على رقبته؛ إنْ كانَ بعيراً له رُغَاء، أو بقرةً لها خُوَار، أو شاةً تَيْعَرُ»[٥].

---

(١) ينظر السبعة ص٢١٨، والتيسير ص٩١، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٥.

(٢) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٥٣٦ وفيه: أحمدتُ الرجلَ: وجدتُه محموداً. قال ابن عطية: فهذه القراءة (أي: «يُغَلَّ» بضمّ الياء وفتح الغين) ترجع إلى معنى «يَغُلَّ» بفتح الياء وضمّ الغين.

(٣) ينظر الحجة ٣/ ٩٧. والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٦.

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وقد أورد المصنف صدر رواية مسلم.

(٥) هو قطعة من حديث أبي حُميد الساعديّ ﷺ قال: استَعْمَلَ النبي ﷺ رجلاً من الأزد ـ يقال له: ابن اللُّتْبِيَّة ـ على الصدقة فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أُهديَ إليَّ، فقال رسول الله ﷺ: «فهلَّا جلس في بيت أبيه...» الحديث، أخرجه البخاري (٢٥٩٧)، ومسلم (١٨٣٢)، =

ورُوِيَ عنه أيضاً: «وفرسٌ له حَمْحَمَة»(١).

وفي حديث مِدْعَم أنَّ الشَّمْلَةَ التي غَلَّ من المغانم يومَ حُنين(٢) لَتَشْتَعِلُ عليه ناراً.

ومجيئه بما غَلَّ فضيحةٌ له على رؤوس الأشهاد يومَ القيامة.

وقال الكلبي: يُمَثَّلُ له ذلك الشيء الذي غلَّه في النار، ثم يقال له: انْزِلْ فخُذْهُ. فينزلُ فيحملُه على ظهره، فإذا بلغ صومعتَه وقع في النار، ثم كُلِّفَ أن ينزلَ إليه فيُخرجَه، يُفعل ذلك به(٣).

وقيل: يأتي حاملاً إثمَ ما غَلَّ، وقيل: يؤخذُ من حسناته عِوَضَ ما غَلَّ(٤).

وقد وردت أحاديثُ كثيرة في تعظيم الغُلُول والوعيد عليه.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ هذه جملةٌ معطوفةٌ على الجملة الشرطية، لمَّا ذَكَرَ مسألةَ الغُلُول وما يجري لصاحبها يومَ القيامة؛ ذكَرَ أنَّ ذلك الجزاءَ ليس مختصًّا بمن غَلَّ، بل كلُّ نفسٍ تُوَفَّى جزاءَ ما كسبَتْ من غير ظلم، فصار الغالُّ مذكوراً مرَّتين؛ مرَّةً بخصوصه، ومرَّةً باندراجه في هذا العامّ ليعلم أنه غيرُ متخلِّص من تَبِعَةِ ما غَلَّ، ومِن تَبِعَةِ ما كَسَبَ من غير الغُلُول.

وتقدَّمَ تفسير هذه الجملة، فأغنى عن إعادته هنا.

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾ هذا الاستفهام معناه النفي، أي: ليس مَنِ اتَّبعَ رِضا اللهِ فامتثلَ أوامرَه واجتنبَ

= والطبري ٦/ ٢٠٤. وهذا الحديث في هدايا العمَّال، أورده المصنف بعد حديث الغُلول، وكذا فعل الطبريُّ وغيره. وقال القرطبي في تفسيره ٥/ ٣٩٧: ومن الغُلُول هدايا العمَّال، وحُكْمُه في الفضيحة في الآخرة حُكْمُ الغالّ. اهـ. ثم أورد حديث أبي حُميد المذكور. قوله: تَيْعَرُ، أي: تصيح.

(١) جاء هذا اللفظ في حديث أبي هريرة المذكور قبل تعليق.

(٢) وفي رواية: خيبر. وأشرتُ إلى هذا في التعليق على خبر مِدْعَم قريباً.

(٣) تفسير الثعلبي ٢/ ١٨٠، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٧.

(٤) ذكرهما ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٤٩٢ وقال: والقول الأول أصحُّ لمكان الأثر الصحيح.

مَناهِيَه كمن عصاه فباءَ بَسَخَطه، وهذا من الاستعارة البديعية؛ جعلَ ما شَرَعَهُ الله كالدليل الذي يتَّبعُه مَن يهتدي به، وجعلَ العاصيَ كالشخص الذي أُمِرَ بأنْ يتَّبعَ شيئاً، فنَكَصَ عن اتّباعه ورجعَ مصحوباً بما يُخالفُ الاتِّباع.

وفي الآية من حيث المعنى حذفٌ، والتقدير: أفَمنِ اتَّبعَ ما يؤولُ به إلى رِضا الله عنه فباءَ برضاه كمن لم يتَّبع ذلك فباءَ بسَخَطِه؟

وقال سعيد بنُ جُبير والضحَّاك والجمهور: أفَمنِ اتَّبَعَ رضوانَ الله فلم يَغُلَّ كَمَنْ باءَ بسَخَطٍ من الله حين غَلَّ[(١)]؟

وقال الزجَّاج: أفَمنِ اتَّبَعَ رضوانَ الله باتِّباع الرسولِ يومَ أُحُد كَمن باءَ بسخطٍ من الله بتخلُّفِه؟ وهم جماعةُ المنافقين[(٢)]. وقال الزَّجَّاج أيضاً: رضوانُ الله الجهادُ، والسَّخَط الفِرارُ[(٣)]. وقيل: رِضا اللهِ طاعتُه، وسَخَطُه عقابُه. وقيل: سَخَطُه معصيتُه. قاله ابنُ إسحاق[(٤)].

ويعسُرُ ما يزعُم الزَّمخشريُّ من تقدير معطوف بين همزة الاستفهام وبين حرف العطف في مثل هذا التركيب[(٥)]، وتقديرُه متكلَّف جدًّا[(٦)]، فيترجَّح إذْ ذاك مذهبُ الجمهور من أنَّ الفاءَ محلُّها قبل الهمزة، لكن قُدِّمَتْ الهمزة لأنَّ الاستفهامَ له صَدْرُ الكلام.

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٢٠٨-٢٠٩، وزاد المسير ١/ ٤٩٣، والكلام منه.

(٢) في (ب) و(د١) و(د٣) و(ز٢) و(يه): من المنافقين. والكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٨٦، وزاد المسير ١/ ٤٩٣، واللفظ أقرب إليه.

(٣) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٤/ ٢٥٣ عن الزجَّاج، وهو بمعنى قوله السالف قبله.

(٤) بنحوه في تفسير الطبري ٦/ ٢٠٩، ومجمع البيان ٤/ ٢٥٢.

(٥) ومذهب الزمخشري في مثل هذا التركيب أن يُقَدِّرَ فعلاً بين الهمزة والفاء، وتكون هذه الفاءُ عاطفةً ما بعدَها على ذلك الفعل. ولم يقدِّرْه في هذا الموضع، وقدَّره في مواضع أخرى. ينظر مثلاً عنده تفسير الآية (١٠٠) من سورة البقرة، و(١٦٥) من سورة آل عمران، و(٦٣) من سورة الأعراف، وينظر التعليق التالي.

(٦) وتقديرُه (كما ذكر السمين في الدر المصون ٣/ ٤٦٨): «أَحَصَلَ لكم تمييزٌ بين الضالّ والمهتدي، فمن اتَّبَعَ رضوانَ الله واهتدى ليس كمن باءَ بسَخَطِهِ وغلَّ». لأن الاستفهام هنا للنفي.

وتقدَّمَ اختلافُ القرَّاء في «رِضْوان» في أوائل هذه السورة[١].

والظاهر استئنافُ «ومأواه جهنَّم»، أخبرَ أنَّ مَنْ باءَ بسَخَطٍ من الله فمكانُه الذي يأوي إليه هو جهنَّم، وأفهمَ هذا أنَّ مُقابِلَهُ ـ وهو مَن اتَّبَعَ رضوانَ الله ـ مأواه الجَنَّة. ويحتمل أن تكون في صِلة «مَنْ» فوصَلَها بقوله: «باءَ»، وبهذه الجملة كان المعنى: كمَنْ باءَ بسَخَطِ الله وآلَ إلى النار[٢]؟ «وبئس المصير» أي: جهنَّم.

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ قال ابن عبَّاس والحسن: لكلٍّ درجاتٌ من الجنَّة والنَّار[٣].

وقال أبو عبيدة: كقوله: هم طبقاتٌ[٤].

وقال مجاهد وقتادة: أي ذَوُو درجات، فإنَّ بعضَ المؤمنين أفضلُ من بعض[٥]. وقيل: يعود على الغالّ وتاركِ الغُلُول. والدرجةُ الرُّتبةُ.

وقال الرازيّ[٦]: تقديرُه: لهم درجات. قال بعضُ المصنِّفين رادًّا عليه: اتَّبَعَ الرَّازيُّ في ذلك أكثرَ المفسِّرين لجهلِه وجهلِهم بلسان العرب؛ لأنَّ حذف لام الجرّ هنا لا مَساغَ له؛ لأنه إنما تُحذفُ لامُ الجرّ في مواضع الضرورة، أو لكثرة الاستعمال، وهذا ليس من تلك المواضع، على أنَّ المعنى دون حذفِها حَسَنٌ

---

(١) عند قوله: «ورضوانٌ من الله» الآية (١٥).

(٢) وعلى هذا الاحتمال والذي قبله؛ فالجملة (ومأواه جهنم) لا محلَّ لها من الإعراب. «الدرالمصون» ٣/ ٤٦٩.

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ عن ابن عباس والحسن، وذكره الطبري بنحوه عن ابن إسحاق، ولفظُه: لكلٍّ درجاتٌ ممَّا عملوا في الجنة والنار. وذكر الثعلبي ٢/ ١٨١، والبغوي ١/ ٣٦٨ نحوه أطولَ منه عن ابن عباس. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٤٩٣ عن الحسن بلفظ: درجات الجنة.

(٤) مجاز القرآن ١/ ١٠٧. وذكره أيضاً الطبري ٦/ ٢١١.

(٥) لم أقف على هذا اللفظ، ولعل المصنف أوردَه بمعناه. وقد أخرج الطبري ٦/ ٢١٠-٢١١ عن مجاهد قال: هي كقوله: لهم عند الله. وأخرج أيضاً عن السُّدِّيّ قال: لهم درجاتٌ عند الله. وبهذا اللفظ ذكره النحاس في معاني القرآن ١/ ٥٠٦ عن مجاهد، ثم قال: والتقدير في العربية: هم ذوو درجات، ثم حذف. والمعنى: بعضُهم أرفعُ درجةً من بعض. اهـ. ولم أقف عليه عن قتادة.

(٦) في تفسيره ٩/ ٧٥.

متمكِّن جدًّا، لأنَّه لمَّا قال: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وكأنَّه منتظرٌ للجواب، قيل له في الجواب: لا؛ ليسوا سَواءً، بل هم درجات عند الله على حَسَبِ أعمالهم، وهذا معنًى صحيحٌ لا يحتاجُ معه إلى تقدير حذف اللام لو كان سائغاً؛ كيف وهو غيرُ سائغ؟ انتهى كلام هذا المصنف. ويُحمل تفسيرُ ابن عباس والحسن أنَّ المعنى «لكلٍّ درجاتٌ من الجنة والنار» على تفسير المعنى لا تفسيرِ اللفظ الإعرابيّ.

والظاهر من قوله: «هم درجاتٌ» أنَّ الضمير عائدٌ على الجميع، فهم متفاوتون في الثواب والعقاب، وقد جاء التفاوتُ في العذاب كما جاء التفاوتُ في الثواب. ومعنى «عندَ الله» على هذا القول: في حكم الله.

وقيل: الضمير يعود على أهل الرِّضوان، فيكون «عندَ الله» معناها التشريف والمكانة لا المكان، كقوله: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥]. والدرجاتُ إذ ذاك مخصوصة بالجَنَّة. وهذا معنى قولِ ابنِ جبير وأبي صالح ومقاتل[١]، وظاهرُ ما قاله مجاهد والسُّدِّيّ[٢].

والدَّرَجات: المنازلُ بعضُها أعلى من بعض في المسافة، أو في التَّكرُمة.

وقرأ الجمهور: «درجاتٌ» فهي مطابقة للفظ «هم»، وقرأ النَّخَعيُّ: «درجة» بالإفراد[٣].

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: عالمٌ بأعمالهم ودرجاتِها، فمجازيهم على حَسَبِها.

وتضمَّنت هذه الآياتُ الطِّباقَ في «يَنْصُرْكم» و«يَخْذُلْكم»، وفي «رضوانَ الله» و«بِسَخَطٍ».

والتكرارَ في «يَنْصُرْكُم» و«يَنْصُرُكم»، وفي الجلالة في مواضع.

(١) زاد المسير ١/ ٤٩٣.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٧.
(٣) المصدر السالف.

والتجنيسَ المماثلَ في «يَغُلَّ» و«ما غَلَّ».

والاستفهامَ الذي معناه النَّفي في «أفمنِ اتَّبعَ» الآية.

والاختصاصَ في «فليتوكَّلِ المؤمنون»، وفي «وما كان لنبيٍّ»، وفي «بما يعملون» خَصَّ العملَ دون القول؛ لأنَّ العملَ جُلُّ ما يترتَّبُ عليه الجزاء.

والحذفَ في عدَّة مواضع.

❁ ❁ ❁

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ
وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ
أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ
نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ
لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ
﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

التفسير

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[1] مناسبةُ هذه الآية لما قبلَها أنه تعالى لمَّا ذكرَ الفريقين فريقَ الرِّضوان وفريقَ السُّخط وأنهم درجاتٌ عند الله مجملاً من غير تفصيل؛ فَصَّلَ أحوالَهم، وبدأ بالمؤمنين، وذكرَ ما امتنَّ عليهم به من بَعْثِ الرسولِ إليهم تالياً لآياتِ الله ومبيِّناً لهم طريقَ الهدى، ومُطَهِّراً لهم من أرجاس الشِّرك، ومستنقذاً لهم من غَمرة[2] الضلالة بعد أن كانوا فيها،

(١) لم يُفرد المصنف شرح المفردات لهذه الآيات (١٦٤-١٧٠) قبل تفسيرها كما هي طريقته في التفسير.

(٢) في (أ) و(ع): غمرات. وفي مطبوع البحر: ومنقذاً، بدل: ومستنقذاً.

وسلَّاهم عمَّا أصابَهم يومَ أُحُد من الخِذْلان والقتل والجرح بما أنالَهم يومَ بدر من الظَّفَر والغنيمة، ثم فصَّلَ حالَ المنافقين الذين هم أهلُ السُّخْط بما نصَّ عليه تعالى.

ومعنى «مَنَّ»: تَطَوَّلَ وتَفَضَّلَ. وخَصَّ المؤمنين لأنهم هم المنتفعون ببَعْثِهِ[1]. والظاهرُ عمومُه، فعلى هذا يكون معنى «من أنفسهم»: من أهل مِلَّتِهم، كما قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]. والمعنى: من جنسِ بني آدمَ[2]. والامتنان بذلك لحصولِ الأُنْسِ بكونه من الإنس، فيَسْهُلُ التَّلقِّي منه، وتزولُ الوَحْشَة والنُّفْرة الطبيعية التي بين الجنسين المختلفين، ولمعرفة قُوى جنسِهم، فإذا ظهرت المعجزة أدركوا أنَّ ذلك ليس في قُوى بني آدم، فعلمُوا أنَّه من عند الله، فكان ذلك داعيةً إلى الإجابة، ولو كان الرسولُ من غير الجنس لتُخيِّل أن تلك المعجزة هي في طِباعِهِ، أشار إلى هذه العلَّة الماتُريديّ[3].

وقيل: المراد بالمؤمنين العربُ؛ لأنه ليس حيٌّ من أحياء العرب إلَّا له فيهم نَسَبٌ من قِبَلِ أُمَّهاتِهِ إلا بني تَغْلِب لنصرانيَّتهم. قاله النقَّاش[4]. فصار بَعْثُهُ فيهم شَرَفاً لهم على سائر الأمم، ويكون معنى «من أنفسِهم» أي: من جنسِهم عربيًّا مثلَهم.

وقيل: من ولدِ إسماعيل كما أنَّهم من ولدِه. قال ابن عبَّاس وقتادة: قال: «من أنفسهم» لكونه معروفَ النَّسَب فيهم، معروفاً بالأمانة والصِّدق.

قال أبو سليمان الدمشقي: ليَسْهُلَ عليهم التعليمُ منه؛ لموافقة اللسان.

وقال الماورديّ: لأنَّ شَرَفَهم يتمُّ بظهور نبي منهم[5]. انتهى.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٧٦.

(٢) قوله: والظاهر عمومُه (السالف قبل سطر) حقُّه أن يأتي قبل قوله هنا: والمعنى من جنس بني آدم. لا في ذلك الموضع. والله أعلم.

(٣) ينظر تأويلات أهل السنَّة ١/ ٣٢٧.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٧.

(٥) بنحوه في النكت والعيون ١/ ٤٣٤. وهذه الأقوال كلُّها في زاد المسير ١/ ٤٩٤.

والمِنَّة عليهم بكونه من أنفسِهم، إذْ كان اللسانُ واحداً، فيَسْهُلُ عليهم أخذُ ما يجبُ أخذُه عنه، وكانوا واقفين على أحواله في الصِّدق والأمانة، فكان ذلك أقربَ إلى تصديقِهِ والوثوقِ به[(١)].

وقُرِئَ شاذًّا: «لَمِنْ مَنِّ اللهِ على المؤمنين»[(٢)]، بـ «مِنْ» الجارَّة و«مَنِّ» مجرورٌ بها، بدل: «قَدْ منَّ»؛ قال الزَّمخشريُّ[(٣)]، وفيه وجهان: أنْ يُراد: لَمِنْ مَنِّ اللهِ على المؤمنين مَنُّهُ أو بَعْثُهُ إذْ بَعَثَ فيهم، فحذف لقيام الدَّلالة، أو يكون «إذْ» في محلِّ الرَّفع كـ: «إذا» في قولك: أخْطَبُ ما يكونُ الأميرُ إذا كان قائماً، بمعنى: لَمِنْ مَنِّ اللهِ على المؤمنين وقتُ بَعْثِهِ. انتهى.

أمَّا الوجهُ الأوَّلُ فهو سائغٌ. وقد حُذف المبتدأ مع «مِنْ» في مواضعَ، منها: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]، ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن: ١١] على قول.

وأمَّا الوجهُ الثاني فهو فاسد؛ لأنه جعلَ «إذْ» مبتدأةً، ولم تستعملها العربُ مُتصرِّفةً البتَّة، إنما تكون ظرفًا، أو مضافاً إليها اسمُ زمان، ومفعولة بـ «اذْكُر» على قول، أمَّا أنْ تُستعملَ مبتدأةً؛ فلم يثبت ذلك في لسان العرب، ليس في كلامهم نحو: إذْ قامَ زيدٌ طويلٌ، وأنت تريد: وقتُ قيامِ زيدٍ طويلٌ.

وقد قال أبو عليّ الفارسيّ: لم تَرِدْ «إذْ» و«إذا» في كلام العرب إلا ظرفَيْن، ولا يكونان فاعلَيْن، ولا مفعولَيْن، ولا مبتدَأيْن. انتهى كلامه.

وأمَّا قولُه: في محلِّ الرَّفع كـ «إذا»، فهذا التشبيهُ فاسدٌ؛ لأنَّ المُشَبَّهَ مرفوعٌ بالابتداء، والمُشَبَّهَ به ليس مبتدأً، إنما هو ظرفٌ في موضع الخبر على زَعْمِ مَنْ يَرَى ذلك، وليس في الحقيقة في موضع رفع، بل هو في موضع نصبٍ بالعامل المحذوف، وذلك العاملُ هو مرفوع، فإذا قال النُّحاة: هذا الظرفُ الواقعُ خبراً في محلِّ الرفع؛ فيَعْنُون أنه لمَّا قامَ مقامَ المرفوع صار في محلِّه، وهو في التحقيق في موضع نصب كما ذكرنا.

---

(١) بنحوه في الكشاف ١/ ٤٧٦.
(٢) القراءات الشاذة ص٢٣ (ونُسبت فيه لعيسى بن سليمان عن بعضهم)، والكشاف ١/ ٤٧٧.
(٣) الكشاف ١/ ٤٧٧.

وأمَّا قولُه: في قولك: أخْطَبُ ما يكونُ الأميرُ إذا كان قائماً، فهذا في غاية الفساد؛ لأنَّ هذا الظرف على مذهب مَنْ يجعلُه في موضع خبرِ المبتدأ الذي هو «أخطبُ» لا يُجيز أن ينطق به، إنما هو أمرٌ تقديريّ، ونصَّ أربابُ هذا المذهب - وهم القائلون بإعراب «أخطب» مبتدأ - أنَّ هذه الحالَ سدَّتْ مسدَّ الخبر، وأنه ممَّا يجبُ حذفُ الخبر فيه لِسَدِّ هذه الحالِ مَسَدَّه، وفي تقرير تقدير هذا الخبرِ أربعةُ مذاهب ذُكرت في مبسوطات النحو.

وقرأ الجمهور: «مِنْ أنْفُسِهم» بضم الفاء، جمع «نَفْس»، وقرأت فاطمةُ وعائشةُ والضحَّاك وأبو الجوزاء: «مِنْ أَنْفَسِهم» بفتح الفاء[١]، من النَّفَاسَة والشيء النفيس. ورُويَ عن أنس أنه سمعَها كذلك من رسول الله ﷺ.

ورَوَى عليٌّ عنه عليه الصلاةُ والسلام: «أنا مِنْ أنفَسِكم نَسَباً وحَسَباً وصِهْراً، ولا في آبائي منذ آدمَ إلى يومَ وُلِدْتُ سِفاحٌ، كلُّها نكاح، والحمد لله»[٢].

قيل: والمعنى: مِنْ أشرَفِهم؛ لأنَّ عدنانَ ذِرْوَةُ ولدِ إسماعيل، ومُضَر ذِرْوَةُ نزار بن مَعَدّ بن عدنان، وخِنْدِف ذِرْوَةُ مُضر، ومُدْرِكة ذِرْوَةُ خِنْدِف، وقُريشٌ ذِرْوَةُ مُدْرِكَة، وذِرْوَةُ قريشٍ محمدٌ ﷺ[٣].

وفيما خَطَبَ به أبو طالب في تزويج خديجةَ رضي الله عنها وقد حضرَ معه بنو هاشم ورؤساء مُضَر: الحمدُ للهِ الذي جَعَلَنا من ذُرِّيَّةِ إبراهيم، وزَرْعِ إسماعيل، وضِئْضِئِ مَعَدّ، وعنصر مُضَر، وجَعَلَنا حَضَنَةَ بَيْتِه، وسُوَّاسَ حَرَمِه، وجعلَ لنا بيتاً مَحجُوجاً، وحَرَماً آمناً، وجَعَلَنا الحكَّامَ على الناس. ثم إنَّ ابنَ أخي هذا محمدَ بنَ عبد الله مَنْ لا يُوازَنُ به فَتًى مِنْ قُريش إلَّا رَجَحَ به، وهو - والله - بعدَ هذا له نبأٌ عظيم، وخَطَرٌ جليل[٤].

وقال ابنُ عبَّاس: ما خلقَ الله نفساً هيَ أكرمُ على الله من محمد رسولِه ﷺ، وما أقسمَ بحياةِ أحدٍ غيرِه فقال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾[٥] [الحجر: ٧٢].

---

(١) القراءات الشاذة ص٢٣، والكشاف ١/ ٤٧٦، وزاد المسير ١/ ٤٩٤.
(٢) نسبه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٢٩٤ (بنحوه) لابن مردويه (عند تفسير آية التوبة ١٢٨).
(٣) الكشاف ١/ ٤٧٦-٤٧٧.
(٤) المصدر السابق، وبنحوه ذكره المبرّد في الكامل ٣/ ١٣٦٢.
(٥) تفسير الطبري ١٤/ ٩١-٩٢، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٢٢، كلاهما عند تفسير آية الحِجْر (٧٢) وسيرد أيضاً في تفسيرها.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ تقدَّم تفسير أمثال هذه الجمل[١].

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قَبْلِ بَعْثِهِ ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: حَيْرَةٍ واضحة، فَهَدَاهُمْ به.

و«إنْ» هنا هي المخفَّفة من الثقيلة، وتقدَّم الكلامُ عليها وعلى اللام في قوله: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ [البقرة: ١٤٣] والخلاف في ذلك، فأغنى عن إعادته هنا.

وقال الزمخشريّ: «إنْ» هي المخفَّفة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، وتقديرُه: وإنَّ الشأنَ والحديثَ[٢] كانوا من قبلُ في ضلال مبين. انتهى.

وقال مكّيّ[٣] وقد ذَكَرَ أنه قيل «إنْ» نافية واللام بمعنى «إلَّا»: أي: وما كانوا من قبلُ إلَّا في ضلالٍ مبين؛ قال: وهذا قولُ الكوفيِّين، وأمَّا سيبويه فإنَّه قال: «إنْ» مخفَّفة من الثقيلة، واسمُها مُضْمَر، والتقدير على قوله: وإنهم كانوا من قبلُ في ضلال مبين.

فظهرَ من كلام الزمخشريّ أنه حين خُفِّفت حُذف اسمُها، وهو ضمير الشأنِ والحديثِ، ومن كلام مكّيّ أنها حين خُفِّفت حُذف اسمُها، وهو ضميرٌ عائدٌ على المؤمنين، وكلا هذين الوجهين لا نعرف نَحْويًّا ذَهَبَ إليه، إنما تقرَّر عندنا في كتب النحو ومن الشيوخ أنك إذا قلتَ: إنَّ زيداً قائم، ثم خَفَّفْتَ؛ فمذهبُ البصريين فيها إذ ذاك وجهان:

أحدُهما: جوازُ الإعمال، ويكون حالُها وهي مخفَّفة كحالها وهي مشدَّدة، إلَّا أنها لا تعملُ في مُضْمَر، ومنعَ ذلك الكوفيُّون، وهم محجُوجُون بالسماع الثابت من لسان العرب.

والوجهُ الثاني وهو الأكثر عندَهم: أنْ تُهْمَل فلا تعمل، لا في ظاهرٍ ولا في مُضْمَر، لا ملفُوظٍ به ولا مقدَّر البتة، فإنْ وَلِيَها جملة اسمية؛ ارتفعت بالابتداء

---

(١) ينظر تفسير الآية (١٢٩) من سورة البقرة.
(٢) في الكشاف ١/ ٤٧٧: وإنَّ الشأن وإنَّ الحديث.
(٣) الهداية ٢/ ١١٦٦.

والخبر، ولزمتِ اللامُ في ثاني مصحوبَيْها إنْ لم يُنْفَ، وفي أولهما إنْ تأخَّر، فتقول: إنْ زيدٌ لقائمٌ، ومدلولُه مدلولُ: إنَّ زيداً قائمٌ. وإنْ وَلِيَها جملة فعلية فلا بدَّ عند البصريِّين أن تكون من نواسخ الابتداء، وإن جاء الفعل من غيرها فهو شاذٌ لا يُقاس عليه عند جمهورهم.

والجملة من قوله: «وإن كانوا» حاليَّة، والظاهر أنَّ العامل فيها هو: «ويُعَلِّمُهُمْ»، فهو حالٌ من المفعول.

﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ الهمزةُ للاستفهام الذي معناه الإنكار. وقال ابنُ عطيَّة[1]: دخلت عليها ألفُ التقرير على معنى إلزام المؤمنين هذه المقالة في هذه الحال.

وقال الزمخشريّ[2]: «ولمَّا» نصبٌ بـ «قلتُم»، و«أصَابَتْكُم» في محلِّ الجرِّ بإضافة «لمَّا» إليه، وتقديرُه: أقلتُم حين أصابتكم؟ و«أنَّى هذا» نصب لأنه مَقُول، والهمزة للتقرير والتقريع. فإنْ قلتَ: علامَ عَطَفتِ الواوُ هذه الجملة؟ قلتُ: على ما مضى من قصَّة أُحُد من قوله: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ﴾. ويجوزُ أن تكون معطوفةً على محذوف، كأنه قال: أفعلتُم كذا وقلتُم حينئذ كذا؟ انتهى.

أمَّا العطفُ على ما مضى من قصَّة أُحُد من قوله: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ﴾ ففيه بُعد، وبعيدٌ أن يقعَ مثلُه في القرآن.

وأمَّا العطفُ على محذوف فهذا جارٍ على ما تقرَّر في غير موضع من مذهبِه، وقد رَدَدْناه عليه[3]. وأمَّا على مذهب الجمهور سيبويه وغيرِه؛ فالواوُ أصلُها التقديم، وعُطفت الجملة الاستفهامية على ما قبلَها.

وأمَّا قوله: ولمَّا نصبٌ، إلى آخره، وتقديرُه: وقلتم حينئذ كذا، فجعلَ «لمَّا» بمعنى «حين»[4]، فهذا ليس مذهبَ سيبويه، وإنَّما هو مذهبُ أبي عليّ

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٨.
(٢) الكشاف ١/ ٤٧٧.
(٣) سلف مثلُه في مواضع، ينظر مثلاً تفسير الآية السالفة (١٦٢) ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾.
(٤) فسَّرها بمعنى «حين» أيضاً الطبري ٦/ ٢١٤، والبغوي ١/ ٣٦٨، والثعلبي ٢/ ١٨٢، والواحدي ١/ ٥١٧.

الفارسيّ[١]؛ زعَمَ أنَّ «لمَّا» ظرف زمان بمعنى «حين»، والجملةُ بعدَها في موضع جَرٍّ بها، فجعلَها من الظروف التي تجبُ إضافتُها إلى الجُمل، وجعلَها معمولة للفعل الواقع جواباً لها في نحو: لمَّا جاء زيد جاء عَمرو، فـ«لمَّا» في موضع نصب بجاء من قولك: جاء عمرو، وأمّا مذهب سيبويه؛ فـ«لمَّا» حرف لا ظرف، وهو حرفُ وجوب لوجوب[٢]، ومذهبُ سيبويه هو الصحيح.

وقد بيَّنَّا فسادَ مذهب أبي عليّ من وجوه في كتابنا المسمَّى بـ«التكميل»[٣].

والمصيبةُ هي ما نزل بالمؤمنين يومَ أُحُد من قَتْلِ سبعين منهم، وكَعُّهم[٤] عن الثبات للقتال، وإسنادُ الإصابة إلى المصيبة هو مجاز؛ كإسناد الإرادةِ إلى الجدار[٥].

والمِثْلان اللذان أصابوهما؛ قال ابنُ عباس والضحَّاك وقتادة والرَّبيع وجماعة: قَتْلُهُمْ يومَ بدر سبعين، وأسْرُهُم سبعين[٦]. فالمِثْليَّة وقعت في العدد من إصابة الرِّجال. وقال الزجَّاج. قَتْلُهمْ يومَ بدر سبعين وقَتْلُهم يوم أُحُد اثنين وعشرين[٧]. فهو قَتْلٌ بقَتْل، ولا مَدخلَ للأسرى في الآية؛ لأنهم فُدُوا، فلا مُماثلةَ بين حالهم وبين قتل سبعين من المؤمنين.

---

(١) وهو مذهبُ ابن السراج أيضاً، وتبعَهما ابن جنّي وجماعة. قاله ابن هشام في المغني ١/ ٣٦٩. وقال الآلوسي في روح المعاني ٥/ ١١٤: وهو الصحيح عند جمع من المحقِّقين.

(٢) ويقال أيضاً: حرف وجود لوجود. «مغني اللبيب».

(٣) واسمُه. التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، وطُبع قسم منه، وينظر تهذيبُه الذي سمَّاه: ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب ٤/ ١٨٩٧.

(٤) أي: جُبْنُهم. ووقع في (أ) و(ع) والمطبوع: وكفُّهم.

(٥) يعني في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف: ٧٧].

(٦) تفسير الطبري ١/ ٢١٥-٢١٦، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٨، وزاد المسير ١/ ٤٩٥.

(٧) نقله المصنف عن الزَّجَّاج بواسطة ابن عطية في «المحرر الوجيز» ١/ ٥٣٨، وقد صرَّح ابنُ عطية بأنه معنى كلام الزجَّاج، فجعلَه أبو حيَّان من لفظه، ولفظُه في «معاني القرآن» للزجاج ١/ ٤٨٨: «أصبتُم يومَ أُحُدٍ مثلَها، وأصبتُم يومَ بدر مثلها، فأصبتُم مثلَيْ ما أصابكم». وينظر التعليق التالي.

وقيل: المِثْليَّة في الانهزام؛ هَزَمَ المؤمنون الكفارَ يومَ بدر، وهزموهم أوّلاً يومَ أُحُد، وهَزَمَهم المشركون في آخر يوم أُحُد[١].

وملخَّصُ ذلك؛ هل المِثْلِيَّة في الإصابة مِن قَتلٍ وأَسْر، أو من قَتْلٍ، أو من هزيمة؟ ثلاثةُ أقوال، والأظهرُ الأوَّل؛ لأنَّ قوله: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ هو على طريق التفضُّل منه تعالى على المؤمنين بإدالتهم على الكفَّار، والتسليةِ لهم على ما أصابهم، فيكون ذلك بالأبلغ في التَّسلية. وتنبيهُهُم على أنهم قَتَلوا منهم سبعين وأَسَرُوا سبعين أبلغُ في المِنَّة وفي التسلية، وأدعى إلى أن يذكروا نِعَمَ الله عليهم السابقة، وأنْ يَتَنَاسَوْا ما جرى عليهم يوم أُحُد.

و«أَنّى هذا» جملة من مبتدأ وخبر، وهي في موضع نصب على أنها معمولة لقوله: «قلتُم»، قالوا ذلك على سبيل التعجُّب والإنكارِ لِما أصابَهم. والمعنى: كيف أصابَنا هذا ونحن نقاتل أعداء الله وقد وُعدنا بالنصر وإمدادِ الملائكة؟! فاستفهَمُوا على سبيل التعجُّب عن ذلك[٢].

و«أَنّى» سؤالٌ عن الحال هنا، ولا يناسبُ أن يكون هنا بمعنى «أينَ» أو «متى»؛ لأنَّ الاستفهام لم يقع عن المكان ولا عن الزمان هنا، إنَّما الاستفهام وقعَ عن الحالة التي اقتضَتْ لهم ذلك، سألوا عنها على سبيل التعجُّب.

وقال الزمخشريّ[٣]: «أنَّى هذا»: من أينَ هذا، كقوله: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ٣٧] لقولِه: «من عند أنفسكم» وقوله: «من عند الله». انتهى كلامه. والظرفُ إذا وقعَ خبراً للمبتدأ لا يُقدَّرُ داخلاً عليه حرفُ جرٍّ غير «في»، أمَّا أنْ يُقدَّر داخلاً عليه «مِن» فلا، لأنه إنما انتصبَ على إسقاط «في» ولذلك إذا أُضمر الظرف تَعَدَّى إليه الفعل بوساطة «في» إلا أن يُتَّسَع في الفعل، فينصبه نصبَ التشبيه بالمفعول به، فتقديرُ الزمخشريّ: «أنَّى هذا»: من أينَ هذا، تقديرٌ غيرُ سائغ، واستدلالُه على هذا التقدير بقوله: «من عند أنفسكم» وقوله: «من عند الله» وقوفٌ

---

(١) هو بمعنى سابقه، وقد ذكره الرازي في «تفسيره» ٩/ ٨١ ثم قال: وهذا اختيار الزَّجَّاج.
(٢) من قوله: والإنكار لِما أصابهم... إلى هذا الموضع، لم يرد في (أ) و(ب) و(ح) و(د٢).
(٣) الكشاف ١/ ٤٧٧.

مع مطابقة الجواب للسؤال في اللفظ، وذهولٌ عن هذه القاعدة التي ذكرناها. وأمَّا على ما قرَّرناه فإنَّ الجواب جاء على مراعاة المعنى لا على مطابقة الجواب للسؤال في اللفظ، وقد تقرَّر في علم العربية أنَّ الجواب يأتي على حَسَب السؤال مطابقاً له في اللفظ، ومراعًى فيه المعنى لا اللفظ.

والسؤالُ بـ «أنَّى» سؤالٌ عن تعيين كيفية حصول هذا الأمر، والجواب بقوله: «من عندِ أنفسكم» يتضمَّن تعيينَ الكيفية؛ لأنه بتعيين السبب تتعيَّن الكَيفية من حيث المعنى، لو قيل على سبيل التعجُّب والإنكار: كيف لا يحجُّ زيدٌ الصالحُ؟ وأُجيبَ ذلك بأنْ يقال: لعدم[1] استطاعتِه، حصلَ الجواب، وانتظمَ من المعنى أنه لا يحجُّ وهو غيرُ مستطيع.

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ الإضمار في «هو» راجع إلى المصيبة على المعنى لا على اللفظ، وتقدَّم تفسير المصيبة في تفسير مقابل المِثْلَين، أهو القتلُ المقابِلُ للقتل والأسْر، أو المقابِلُ للقتل فقط، أو الانهزامُ المقابل للانهزامَيْن.

والمعنى أنَّ سبب هذه المصيبة صدَرَ من عند أنفسكم، فقيل: هو الفِداءُ الذي آثَرُوه على القتل يومَ بدر من غير إذن الله تعالى. قال معناه عمر بنُ الخطاب وعليّ والحسن[2].

ورَوَى عليٌّ في ذلك أنه لمَّا فَرَغَتْ هزيمة المشركين يومَ بدر جاء جبريلُ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا محمد، إنَّ الله قد كَرِهَ ما صنعَ قومُك في أَخْذِهم الأسرى[3]، وقد أمرَك أن تُخيِّرَهُم بين أمْرَيْن: أنْ يُقَدِّموا[4] الأسرى فتُضربَ أعناقُهم، أو يأخذوا الفِداء على أن يُقتلَ من أصحابك عِدَّةُ هؤلاء الأسرى، فدعا رسولُ الله ﷺ الناسَ، فذكر ذلك لهم، فقالوا: يا رسولَ الله، عشائرُنا وإخوانُنا، بل نأخذُ فِداءَهم فنتقَوَّى به على قتال عدوِّنا، ويُستشهد منَّا عِدَّتُهم، فليس في ذلك ما نكره، فقُتل منهم يومَ أُحُدٍ سبعون رجلاً[5].

---

(١) في (ب) و(د١) و(د٣) و(ز٢) و(يه): بعدم.
(٢) تفسير الطبري ٦/ ٢١٧، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٨، وزاد المسير ١/ ٤٩٥ و٤٩٦.
(٣) في (ح) و(د٢): فداء الأسرى، وفي (أ) و(ع): فداة الأسرى (!).
(٤) في (أ) و(ب) و(ح) و(د٢): تقدم.
(٥) أخرجه الترمذي (١٦٥٧) بنحوه، والطبري ٦/ ٢١٩-٢٢٠، وابنُ حبان (٤٧٩٥). قال =

وقال الجمهور: هو مخالفةُ الرسولِ في الرأي حين رأى أنْ يُقيمَ بالمدينة ويتركَ الكفار بشرِّ مجلس[١]، فخالفُوا وخرجُوا حتى جرت القصَّة.

وقالت طائفة ـ منهم ابن عباس ومقاتل ـ: هو عصيانُ الرُّماة وتسبيبُهم الهزيمةَ على المؤمنين[٢].

وقد لَخَّصَ الزَّمخشريّ[٣] هذه الأقوالَ الثلاثة أحسنَ تلخيص، فقال: المعنى: أنتم السببُ فيما أصابَكم لاختياركم الخروجَ من المدينة، أو لتخليتكم المركزَ، وعن عليّ: لِأَخْذِكُم الفِداءَ من أُسارى بدر قبلَ أنِ يُؤذَن لكم. انتهى.

ولم يُعَيِّنِ اللهُ تعالى السببَ ما هو لطفاً بالمؤمنين في خطابه تعالى لهم.

والظاهرُ في قوله: «أنَّى هذا» هو من سؤال المؤمنين على سبيل التعجُّب.

وذكر الرازيُّ أنَّ الله لمَّا حكى عن المنافقين طَعْنَهم في الرَّسول بأنْ نسبُوه إلى الغُلُول والخِيانة؛ حكى عنهم شُبهةً أُخرى في هذه الآية، وهي قولُهم: لو كان رسولاً من عند الله لَمَا انهزمَ عسكرُه يومَ أُحُد، وهو المرادُ من قولهم: «أنَّى هذا» فأجابَ عنه بقوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: هذا الانهزامُ إنَّما حصلَ بشُؤْم عصيانِكم. انتهى كلامُه[٤].

ودلَّ على أنَّ قولَه: «أنَّى هذا» من كلام المنافقين.

وقال الماتريديّ أيضاً: إنه من كلام المنافقين[٥].

والظاهرُ ما قلناه أنه من كلام المؤمنين، وهم المخاطَبون بقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ لأنَّ المنافقين لم تُصبهم مصيبة؛ لأنهم رجعوا مع عبد الله بنِ أُبَيّ

= الدارقطني في العلل ٤/ ٣١: المرسل أشبه بالصواب. اهـ. يعني رواية عَبِيدة السَّلْماني، وقد أخرجها الطبري.

(١) في المحرر الوجيز ١/ ٥٣٨ (والكلام فيه): محبس.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٨، وزاد المسير ١/ ٤٩٦.

(٣) الكشاف ١/ ٤٧٧.

(٤) تفسير الرازي ٩/ ٨١.

(٥) لكنه لم يجزم به، بل ذكره أحد احتمالات. ينظر تفسيره ١/ ٣٢٨-٣٢٩.

ولم يحضُروا القتال، إلا إنْ تُجُوِّز في قوله: ﴿أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ﴾ بمعنى: أصابَتْ أقرباءَكم وإخوانكم، فهو يمكن على بُعد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ أي: قادرٌ على النصر وعلى مَنْعِه، وعلى أن يُصيبَ بكم تارةً، ويُصيبَ منكم أُخرى، ونبَّه بذلك على أنَّ ما أصابَهم كان لِوَهْنٍ في دينهم لا لضعفٍ في قدرة الله؛ لأنَّ مَنْ هو قادرٌ على كلِّ شيء هو قادرٌ على دفاعهم على كل حال.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ هو يومُ أُحُد، والجمعانِ: جَمْعُ النبيِّ ﷺ وكفار قريش، والخطابُ للمؤمنين.

و«ما» موصولة مبتدأ، والخبرُ قولُه: «فبإذْن الله»[(١)]، وهُو على إضمار، أي: فهو بإذْنِ الله. ودخولُ الفاء هنا قال الحَوْفيّ: لِما في الكلام من معنى الشرط لِطَلِبَتِه للفعل.

وقال ابنُ عطيَّة[(٢)]: ودخلت الفاء رابطةً مسدِّدة، وذلك للإبهام الذي في «ما»، فأشْبَهَ الكلامُ الشَّرطَ، وهذا كما قال سيبويه: الذي قامَ فله درهمان[(٣)]، فيحسُنُ دخولُ الفاء إذا كان القيامُ سببَ الإعطاء. انتهى كلامه. وهو أحسنُ من كلام الحَوْفي؛ لأنَّ الحَوْفيَّ زعمَ أنَّ في الكلام معنى الشَّرط، وقال ابنُ عطيَّة: فأشْبَهَ الكلامُ الشرطَ.

ودخولُ الفاء على ما قالَه الجمهورُ وقرَّرُوه قلقٌ هنا، وذلك أنهم قرَّرُوا في جوازِ دخول الفاء على خبر الموصول أنَّ الصِّلة تكون مستقبَلَةً، فلا يُجيزون: الذي قامَ أمسِ فله درهم؛ لأنَّ هذه الفاءَ إنَّما دخلَتْ على خَبَر الموصول لشبهه بالشرط، فكما أنَّ فعلَ الشرط لا يكون ماضياً من حيث المعنى؛ فكذلك الصِّلة، والذي أصابَهم يومَ التقى الجمعان هو ماضٍ حقيقةً، فهو إخْبارٌ عن ماضٍ من حيث المعنى، فعلى ما قرَّرُوه يُشكل دخولُ الفاء هنا.

---

(١) من قوله: هو يوم أُحد، والجمعان... إلى هذا الموضع، لم يرد في (أ) و(ح) و(د٢) و(ع).

(٢) المحرر الوجيز ١/٥٣٨.

(٣) ينظر الكتاب ٣/١٠٢. والكلام في المصدر السابق.

والذي نذهبُ إليه أنه يجوزُ دخولُ الفاء في الخبر والصِّلةُ ماضيةٌ من جهة المعنى لورود هذه الآية، ولقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ [الحشر: ٦] ومعلومٌ أنَّ هذا ماضٍ معنًى مقطوعٌ بوقوعه صلةً وخبراً، ويكون ذلك على تأويل: وما يتبيَّنُ إصابتُه إيَّاكم، كما تأوَّلوا: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ﴾ [يوسف: ٢٦] أي: إنْ تبيَّن كونُ قميصِهِ قُدَّ.

وإذا تقرَّر هذا فينبغي أن يُحمل عليه قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠] فإنَّ ظاهر هذه كلِّها إخبارٌ عن الأمور الماضية، ويكون المعنى على التبيُّن[١] المستقبَل.

وفُسِّرَ الإذْنُ هنا بالعلم، وعُبِّر عنه به لأنه من مقتضياته؛ قاله الزَّجَّاج[٢]، أو بتمكين الله وتَخْلِيَتِه بين الجمعين؛ قاله القَفَّال[٣]، أو بمرأى ومسمعٍ، أو بقضائه وقَدَرِه[٤].

وقال الزمخشريّ: فهو كائنٌ بإذن الله [أي: بتَخْلِيتِه]، استعارَ الإذْنَ لتخليةِ الكفار[٥]، وأنَّه لم يمنعهم منهم لِيبتلِيَهم؛ لأنَّ الآذِنَ مُخَلٍّ بين المأذونِ له ومرادِه. انتهى. وفيه دسيسةُ الاعتزال؛ لأنَّ قَتْلَ الكفَّار للمؤمنين قبيحٌ عنده فلا يأذنُ فيه[٦].

وقال ابنُ عطية: يحسن دخولُ الفاء إذا كان سببَ الإعطاء. وكذلك ترتيب هذه الآية[٧]، فالمعنى إنما هو: وما أَذِنَ اللهُ فيه فهو الذي أصابَ، لكنْ قُدِّمَ الأهمُّ في

---

(١) في (أ) و(د٢) و(ع) و(يه): التبيين. ومكانها سواد في (ح).
(٢) معاني القرآن ١/ ٤٨٨.
(٣) ذكره القرطبي ٥/ ٤٠٣. وقال بإثره: «وهذا تأويل المعتزلة». اهـ. وسيذكره المصنف أيضاً عن الزمخشري.
(٤) تفسير الطبري ٦/ ٢٢٠، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٩، والمصدر السابق.
(٥) في الكشاف ١/ ٤٧٧: لتخليته الكفار. (والكلام السالف بين حاصرتين منه).
(٦) في (د٢): فلا إذن فيه. وفي (أ) و(ع): فلا يؤذن فيه. ومكانها سواد في (ح).
(٧) كلام ابن عطية هذا متصل عنده بكلامه السالف قريباً حيث أوردَ كلام سيبويه: «الذي قام فله درهمان» ثم قال: فيحسن دخول الفاء إذا كان القيامُ سببَ الإعطاء، وكذلك ترتيب هذه الآية... الخ. وهو في المحرر الوجيز ١/ ٥٣٨.

نفوسهم، والأقربُ إلى حِسِّهم. والإذْنُ: التَّمكينُ من الشيء مع العلم به. انتهى كلامُه. لمَّا كان من حيث المعنى أنَّ الإصابةَ مترتِّبةٌ على تمكين الله من ذلك؛ حملَ الآيةَ على ذلك، وادَّعى تقديماً وتأخيراً، ولا تحتاجُ الآيةُ إلى ذلك؛ لأنه ليس شرطاً وجزاءً فيحتاجَ فيه إلى ذلك، بل هذا من باب الإخبار عن شيء ماضٍ، والإخبارُ صحيحٌ، أخبرَ تعالى أنَّ الذي أصابَهم يومَ أُحُد كان لا محالةَ بإذن الله، فهذا إخبارٌ صحيحٌ ومعنًى صحيحٌ، فلا نتكلَّفُ تقديماً ولا تأخيراً، ونجعلُه من باب الشرط والجزاء.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ هو على حذف مضاف، أي: ولِيعلَم إيمانَ المؤمنين، ولِيعلَم نِفاقَ الذين نافقوا[١]. والمعنى[٢]: ولِيَمِيزَ أعيانَ المؤمنين من أعيان المنافقين.

وقيل: ليكونَ العلم مع وجود المؤمنين والمنافقين مساوِقاً للعلم الذي لم يزل ولا يزال[٣].

وقيل: ليظهرَ إيمانُ هؤلاء ونفاقُ هؤلاء[٤]. وقد تقدَّمَ تأويلُ مثلِ هذا في قوله: ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقالوا: تتعلَّق اللام بمحذوف، أي: ولِكذا فعلَ ذلك. والذي يظهرُ أنه معطوف على قوله: «بإذن الله» عَطْفَ السَّببِ على السَّبب، ولا فرقَ بين الباء واللام، فهو متعلِّق بما تعلَّقت به الباء من قوله: فهو كائن.

والذين نافقوا هنا عبدُ الله بنُ أُبَيّ وأصحابُه.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ القائلُ رسولُ الله ﷺ[٥]، وقيل: عبدُ الله بنُ عَمرو بنِ حَرَام الأنصاريُّ أبو جابر بنِ عبد الله؛ لمَّا انْخَزَلَ عبدُ الله بنُ

(١) تفسير الرازي ٩/ ٨٤. وذكره السمين في الدّرّ المصون ٣/ ٤٧٦ وقال: ولا حاجة إليه.
(٢) في (د١) و(د٣) و(ز٢): أو المعنى.
(٣) بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٥٣٨.
(٤) ينظر زاد المسير ١/ ٤٩٧.
(٥) نَسبَ الرازي ٩/ ٨٤ هذا القولَ للأصمّ.

أُبَيّ في نحوِ ثلاثِ مئة؛ تَبِعَهم عبدُ الله فقال لهم: اتقوا اللهَ ولا تتركوا نبيَّكم، وقاتِلُوا في سبيل الله أوِ ادْفَعُوا، ونحوَ هذا من القول، فقال عبدُ الله بنُ أُبَيّ: ما أرى أن يكون قتالٌ، ولو علمناه لكُنَّا معكم. فلمَّا يئس منهم عبدُ الله قال: اذهبوا أعداءَ الله، فسيُغني اللهُ عنكم. ومضى حتى استُشهد[١].

قال السُّدِّيّ وابنُ جُرَيْج ومجاهدٌ والحسن والضحَّاك والفرَّاء: معناه: كَثِّرُوا السَّوَادَ وإنْ لم تُقاتِلوا، فتدفعون القوم بالتكثير.

وقال أبو عَوْن الأنصاريُّ: معناه: رابِطُوا. وهو قريبٌ من الأول؛ لأنَّ المُرابط في الثُّغور دافعٌ للعدوّ، إذْ لولاه لَطَرقَها[٢].

قال أنس: رأيتُ عبدَ الله بنَ أمِّ مكتوم يومَ القادسيَّة وعليه دِرْعٌ يجرُّ أطرافَها وبيده رايةٌ سوداء، فقيل له: أليس قد أنزلَ اللهُ عُذْرَك؟! قال: بلى، ولكنِّي أُكَثِّرُ المسلمين بنفسي[٣].

وقيل: القتالُ بالأنفس، والدَّفْعُ بالأموال.

وقيل: المعنى: أوِ ادْفَعُوا حَمِيَّةً؛ لأنه لـمَّا دعاهم[٤] أوَّلاً إلى أنْ يقاتلوا في سبيل الله؛ وجدَ عزائمهم منحلَّةً عن ذلك، إذْ لا باعثَ لهم في ذلك لنفاقهم، فاستدعى منهم[٥] أن يدفعوا عن الحَوْزَة. فنبَّهَ على ما يُقاتَلُ لأجله إمَّا لإعلاءِ الدِّين، أو لِحِمَى الذِّمَار، ألا ترى إلى قول قُزْمَان: واللهِ ما قاتلتُ إلا على أحساب قومي[٦]، وقولِ الأنصاريّ وقد رأى قريشاً تَرْعَى زَرْعَ قَنَاة: أتُرْعَى زُروعُ بني قَيْلَةَ

---

(١) ينظر سيرة ابن هشام ١/ ٦٤، وتفسير الطبري ٦/ ٢٢٢-٢٢٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٩ (والكلام فيه)، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٠٣.

(٢) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٥٣٩. وينظر تفسير الثعلبي ٢/ ١٨٢، وزاد المسير ١/ ٤٩٧.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٩، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٠٤.

(٤) يعني عبدَ الله بن عَمرو بن حرام.

(٥) في (أ) و(ع): فاستدعاهم.

(٦) ذكر ابنُ هشام في السيرة ٢/ ٨٨ أن قُزْمان قاتَلَ يومَ أُحد قتالاً شديداً، فقَتَلَ وحدَه ثمانية أو سبعةً من المشركين، وجُرح جُرحاً شديداً، فأخذَ سهماً من كِنانتِهِ فقتلَ به نفسَه. وكان النبي ﷺ يقول إذا ذُكر له هذا الرجل: إنه من أهل النار. وأخرج البخاري (٤٢٠٢) عن

ولمَّا نُضارِب[١]؟! مع أنه ﷺ أمَرَ أن لا يُقاتِلَ أحدٌ حتى يأمرَه[٢].

و«أوْ» على بابها من أنها لأحدِ الشيئين، وقيل: يَحتمل أن تكون بمعنى الواو، فطَلَبَ منهم الشيئين: القتالَ في سبيل الله، والدَّفعَ عن الحريم والأهلِ والمال، فكفَّارُ قريشٍ لا تُفرِّق بين المؤمن والمنافق في القتل والسَّبْي والنَّهْب.

والظاهر أنَّ قولَه: «وقيل لهم» كلامٌ مستأنَف؛ قَسَمَ الأمرَ عليهم فيه بينَ أنْ يُقاتلوا للآخرة أو يدفعوا عن أنفسهم وأهليهم وأموالِهم[٣]؛ حكَى الله عنهم ما يدلُّ على نِفاقهم في هذا السؤال والجواب.

ويحتمل أن يكون قولُه: «وقيل لهم» معطوف على «نافقُوا»، فيكون من الصِّلة.

﴿قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ إنَّما لم يَرِدْ بالفاء لأنه جوابٌ لسؤال اقتضاه دعاؤهم إلى القتال، كأنَّه قيل: فماذا قالوا؟ فقيل: قالوا: لو نعلم.

و«نعلم» هنا في معنى: عَلِمنا؛ لأنَّ «لَوْ» من القرائن التي تُخَلِّص المضارع لمعنى الماضي إذا كانت حرفاً لِما كان سيقع لوقوع غيرِه، فإذا كانت بمعنى «إنْ» الشَّرطيَّة تُخَلِّص المضارع لمعنى الاستقبال.

ومضمون هذا الجواب أنهم علَّقُوا الاتِّباعَ على تقدير وجود عِلم القتال، وعلمُهم للقتال منتفٍ، فانتفى الاتِّباع، وإخبارُهم بانتفاء علم القتال منهم إمَّا على سبيل المكابرة والمكايدة، إذ معلومٌ أنه إذا خرجَ عسكرانِ وتلاقَيا، وقد قصدَ

= سهل بن سعد الساعدي ﷺ خبراً بنحوه دون تسمية الرجل والغزوة، فجزم ابنُ الجوزي أن الرجل في حديث البخاري هو قُزْمَان، والغزوة هي أُحُد، ولم يعتمد ذلك ابنُ حجر العسقلاني. وينظر تفصيل الكلام في فتح الباري ٧/ ٤٧٢. قوله: الذِّمَار، هو ما ينبغي الذَّوْدُ عنه، كالأهل والعِرْض.

(١) بنو قَيْلَة: الأوسُ والخزرج، نُسبوا إلى أمٍّ لهم قديمة اسمها قَيْلَة. ينظر «النهاية» (قيل). وقناة: أحد أودية المدينة الثلاثة عليه حَرْثٌ ومال، وقد يقال: وادي قناة. ينظر معجم البلدان ٤/ ٤٠١.

(٢) ينظر سيرة ابن هشام ٢/ ٦٥، وتفسير الطبري ٦/ ١٣١-١٣٢، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٩ (والكلام منه).

(٣) بنحوه في الكشاف ١/ ٤٧٧-٤٧٨.

أحدُهما الآخَرَ من شُقَّةٍ بعيدة في عَددٍ كثير وعُدَدٍ، وخرجَ إليهم العسكرُ الآخَرُ من بَلَدِهم للقائهم قبلَ أن يصلوا بَلَدَهم واثقين بنصر الله مقاتلين في سبيل الله؛ وإنْ كانوا أقلَّ من أولئك = أنه(١) سَيَنْشَبُ بينهم قتالٌ لا محالة، فأنكرُوا عِلْمَ ذلك رأسًا لِما كانوا عليه من النِّفاق والدَّغَل، والفَرَحِ بالاستيلاء على المؤمنين.

وإمَّا على سبيل التخطئة لهم في ظنِّهم أنَّ ذلك قتالٌ في سبيل الله، وليس كذلك، إنَّما هو رَمْيُ النفوسِ(٢) في التَّهْلُكة؛ إذْ لا مقاومةَ لهم بحرب الكفار لكثرتهم وقلَّةِ المؤمنين؛ لأنَّ رَأْيَ عبدِ الله بن أُبَيّ كان في الإقامة بالمدينة وجَعْلِها ظَهْراً للمؤمنين، وما كان يستصوبُ الخروج كما مرَّ ذِكْرُه في قصَّة أحد.

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ﴾ وَجْهُ الأقربيَّة ـ التي هي الزيادة في القُرْب ـ أنهم كانوا يُظهِرون الإيمان، ولم تكن تظهرُ لهم أمارة تدلُّ على الكفر، فلما انخزلُوا عن المؤمنين وقالوا ما قالوا؛ زادوا قُرْباً للكفر، وتباعَدُوا عن الإيمان. وقيل: هو على حذف مضاف، أي: هم لأهل الكفر أقربُ نُصْرَةً منهم لأهل الإيمان؛ لأنَّ تقليلَهم سَوَادَ المسلمين بالانخزال تقويةٌ للمشركين(٣).

و«أقْرَبُ» هنا أفعل تفضيل، وهي من القُرْب المقابلِ للبُعْد، ويتعدَّى بـ «إلى» وباللام وبـ «مِنْ»، فيقال: زيدٌ أقربُ لكذا، وإلى كذا، ومن كذا من عَمرو، فـ «مِنْ» الأولى ليست التي يتعدَّى بها أفعل التفضيل مطلقًا في نحو: زيدٌ أفضلُ من عَمرو.

وحرفا الجرّ هنا يتعلَّقان بـ «أقْرَب»، وهذا من خواصّ أفعل التفضيل أنه يتعلَّق به حرفا جَرٍّ من جنسٍ واحد، وليس أحدُهما معطوفاً على الآخر، ولا بَدَلاً منه، بخلاف سائر العوامل، فإنه لا يتعلَّق به حَرْفا جَرٍّ من جنسٍ واحد إلا بالعطف، أو على سبيل البدَل، فتقول: زيدٌ بالنَّحو أبصرُ منه بالفقه.

والعامل في «يَوْمَئِذٍ»: «أقْرَبُ»، و«منهم» متعلِّق بـ «أقرب» أيضاً، والجملةُ

(١) لفظة «أنه» لم ترد في (أ) و(ح) و(د٢) و(ع).
(٢) في (أ) و(ع): بالنفوس. وينظر الكشاف ١/ ٤٧٨، وتفسير الرازي ٩/ ٨٥.
(٣) ينظر الكشاف ١/ ٤٧٨، وتفسير الرازي ٩/ ٨٦.

المعوَّض منها التنوين هي السابقة، أي: هم يَوْمَ[(١)] إذْ قالوا: لو نعلمُ قتالاً لاتّبعناكم.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين فيما حكى النقَّاش إلى أنَّ «أقْرَبُ» ليس هو هنا المقابلَ للأبعد، وإنَّما هو من القَرَب، بفتح القاف والرَّاء، وهو المطلب[(٢)]، والقارِبُ[(٣)]: طالبُ الماء، وليلةُ القَرَب: ليلةُ الوِرْد[(٤)]، فاللفظة بمعنى الطَّلَب، ويتعيَّنُ على هذا القول التعدية باللام، ولا يجوزُ أنْ يُعَدَّى بـ «إلى» ولا بـ «مِنْ» التي لا تصحبُ كلَّ أفعل التفضيل، وصار نظيرَ: زيدٌ أضربُ[(٥)] لِعَمْرو من بكر.

وأكثرُ العلماء على أنَّ هذه الجملة تضمَّنت النَّصَّ على كفرهم؛ قال الحسن: إذا قال الله: «أقْرَب» فهو اليقين بأنهم مشركون، كقوله: ﴿مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] فالزيادة لا شكَّ فيها. والمكلَّفُ لا ينفكُّ عن الكفر أو الإيمان، فلما دلَّت على الأقربيَّة من الكفر لزم حصول الكفر[(٦)].

وقال الواحديّ في «الوسيط»[(٧)]: هذه الآية دليلٌ على أنَّ مَنْ أَتَى بكلمة التوحيد لم يكفر؛ لأنه تعالى لم يُطلق القولَ عليهم بتكفيرهم، مع أنهم كانوا كافرين مع إظهارهم لقول[(٨)]: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

قال الماتُريديّ: «أقْرَبُ» أي: ألزمُ على الكفر وأقْبَلُ له مع وجودِ الكفر منهم حقيقةً لا على القُرْبِ إليه قبلَ الوقوع والوجود، كقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] أي: هي لهم، لا على القُرب قبل الوجود، لكنَّهم لمَّا

(١) تحرفت لفظة «يوم» في (د١) ومطبوعات البحر إلى «قوم».
(٢) في المحرر الوجيز ١/ ٥٣٩ (وكلام النقَّاش فيه): الطلب. وفي لسان العرب (قرب) ١/ ٦٦٦: القَرَبُ: طلبُ الماء ليلاً.
(٣) في (أ) و(ح) و(د٢) و(ع): المقارب.
(٤) تحرفت اللفظة في مطبوعات البحر إلى: الوداد.
(٥) في (أ) و(ح) و(د٢) و(ع): أقرب.
(٦) تفسير الرازي ٩/ ٨٦. وكلام الحسن السالف فيه.
(٧) كذا قال المصنف رحمه الله، وليس القول في الوسيط، إنما هو في البسيط كما في المصدر السابق، وعنه نقله المصنف، وجاء في الوسيط المعنى الذي اعتمده المصنف أولاً.
(٨) المثبت من (ح) و(د٢). وفي (أ) و(ع): قول. وفي النسخ الأخرى: القول.

كانوا أهلَ نفاق، والكفرُ لم يُفارق قلوبَهم، وما كان من إيمانهم كان بظاهر اللسان قد يفارقُها في أكثر أوقاتهم؛ وُصِفُوا به.

ويحتمل أن يُحمل على القُرْب من حيث كانوا شاكِّين في الأمر، والشاكُّ في أمر الكفر والإيمان تاركٌ للإيمان، فهو أقربُ إلى الكفر.

أو من حيث قالوا للمؤمنين: ألم نكن معكم، وللكافرين: ألم نَسْتَحْوِذْ عليكم ونَمْنَعْكُم من المؤمنين(١)؟

أو من حيث ما أظهروا من الإيمان كذبٌ، والكفرُ نفسُه كذب، فما أظهروا من الإيمان فهو كذبٌ إلى الكذب الذي هم أقربُ إليه، وهو الكفر.

أو من حيث إنَّهم أحقُّ به أن يُعْرَفُوا كما جعل الله لهم أعلاماً يُعرفون بها.

أو من حيث لا يعبدون الله ولا يعرفونه، بل هم عبَّادُ النعمة، يميلون معها حيث مالت، والكفارُ يعرفون الله، وعبدوا(٢) الأصنام لاتِّخاذهم لها أربابًا، أو لِتقَرُّبِهم بها إلى الله، فإذا أصابتهم شدَّة فَزِعُوا إلى الله، والمؤمنون يرجعون إلى الله في الشدَّة والرَّخاء.

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ﴾ أي: يُظهرون من الإسلام ما يَحْقِنُون به دماءَهم، ويحفظون أهْلِيَهُمْ من السَّبْي، وأموالَهم من النَّهْب، وليس ما يُظهرون تنطوي عليه ضمائرُهم، بل هو لا يتجاوزُ أفواهَهم ومخارجَ الحروف منها، ولم تَعِ قلوبُهم منه شيئاً. وذِكرُ الأفواه مع القلوب تصويرٌ لنفاقهم، وأنَّ إيمانَهم موجودٌ في أفواههم معدومٌ في قلوبهم بخلاف إيمان المؤمنين في مُوَاطأة عَقْدِ قلوبِهم للفظِ ألسنتِهم(٣).

قال ابنُ عطيَّة(٤): «بأفواههم» توكيد مثل ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] انتهى.

---

(١) مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾ [النساء: ١٤١].

(٢) من قوله: النعمة يميلون معها... إلى هذا الموضع، من (ب) و(د٣) و(يه). والكلام بنحوه في تفسير الماتريدي ١/ ٣٢٩-٣٣٠ بتقديم وتأخير.

(٣) بنحوه في الكشاف ١/ ٤٧٨.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٩.

ولا يظهر أنه توكيد، إذِ القولُ ينطلقُ على اللسانيّ والنفسانيّ، فهو مخصَّص لأحد الانطلاقين، إلا إنْ قلنا: إنَّ إطلاقَه على النَّفسانيّ مجاز، فيكون إذْ ذاك توكيداً لحقيقةِ القول.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ أي: من الكفر وعداوة الدِّين. وقال: «أَعْلَمُ» لأنَّ عِلْمَه تعالى بهم عِلْمُ إحاطةٍ بتفاصيل ما يكتمونه وكيفيَّاتِه، ونحن نعلمُ بعضَ ذلك عِلماً مجملاً.

وتضمَّنت هذه الجملة التوعُّدَ الشديد لهم، إذِ المعنى ترتُّبُ الجزاء على عِلمه تعالى بما يكتمون.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾ هذه الآية نظيرُ قوله: ﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية [١٥٦]. وفُسِّرَ الإخوانُ هنا بما فُسِّرَ به هناك، وتَحتملُ لامُ الجرّ ما احتملَتْه في تلك.

وجوَّزُوا في إعراب «الذين» وجوهاً: الرفع على النعت للذين نافقوا[(١)]، أو على أنه خبرُ مبتدأ محذوف، أو على أنه بدلٌ من الواو في «يكتمون»[(٢)]، والنصب على الذَّمّ، أي: أذُمُّ الذين[(٣)]، والجرّ على البَدَل من الضمير في «بأفواهِهم» أو «في قلوبهم»[(٤)].

والجملة من قوله: «وقعدوا» حاليَّة، أي: وقد قعدوا، ووقوعُ الماضي حالاً في مثل هذا التركيب مصحوباً بـ «قد» أو بالواو أو بهما أو دونَهما ثابتٌ من لسان العرب بالسَّماع[(٥)].

(١) كذا وقع، وهو وهمٌ نبَّه عليه السَّمين في الدر المصون ٣/ ٤٧٩، وصوابُه: النصب على النعت لـ «الذين نافقوا» في قوله: «وليعلمَ الذين نافقُوا». قال السَّمين: الشيخُ (يعني أبا حيَّان) لا يخفى عليه ما هو أشكلُ من هذا، فيحتمل أن يكون تبعَ غيرَه في هذا السَّهو.

(٢) زاد أبو البقاء ١/ ١٥٧ والسمين ٣/ ٤٧٩ في حالات الرفع: أن يكون مبتدأً، والخبرُ قولُه: «قُل فادرؤوا». قال السمين: ولا بدَّ من حذف عائد تقديره: قل لهم فادرؤوا.

(٣) زاد أبو البقاء والسَّمين وجهين في النصب: البَدَلَ من «الذين نافقوا»، والنعتَ لهم.

(٤) كقول الفرزدق: على جُودِهِ لَضَنَّ بالماء حاتم. بجرّ «حاتم» على أنّه بدلٌ من الهاء في «جودِهِ». ينظر الكشاف ١/ ٤٧٨، والدُّرُّ المصونَ ٣/ ٤٧٩.

(٥) ويجوز أن تكون جملة «وقعدوا» معطوفة على الصلة. ينظر الإملاء ١/ ١٥٧، والدر المصون ٣/ ٤٧٩.

ومتعلَّق الطاعة هو تركُ الخروجِ والقعودُ كما قعدوا هم، وهذا منهم قولٌ بالأجَلَيْن، أي: لو وافقونا في التخلُّف والقعود ما قُتلوا كما لم نُقتل نحن.

وقرأ الحسن: «ما قُتِّلوا» بالتشديد[1].

﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أكذبَهم الله تعالى في دعواهم ذلك، فكأنَّه قيل: القتلُ ضربٌ من الموت، فإنْ كان لكم سبيلٌ إلى دَفْعِهِ عن أنفسكم بفعلٍ اختياريّ؛ فادْفَعُوا عنها الموت، وإنْ لم يكن ذلك دلَّ على أنكم مُبطِلون في دعواكم.

والدَّرْءُ: الدَّفعُ. وتقدَّمت مادَّته في قوله: ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢].

وقال دَغْفَلُ النسَّابة[2]:

صادَفَ دَرْءُ السَّيْلِ دَرْءاً يَدْفَعُهْ والعِبْءُ لا تَعْرِفُهُ أو تَرْفَعُهْ[3]

والمعنى: إن كنتم صادقين في دعواكم أن التَّحيُّلَ والتَّحرُّزَ يُنْجي من الموت فجِدُّوا أنتم في دَفْعه، ولن تجدُوا إلى ذلك سبيلاً، بل لا بدَّ أن يتعلَّق بكم بعضُ أسباب المنون، وهَبْ أنكم على زعمكم دَفعتُم بالقعود هذا السببَ الخاصَّ، فادفعُوا سائرَ أسباب الموت، وهذا لا يمكن لكم البتة.

قال الزمخشريّ[4]: فإنْ قلتَ: فقد كانوا صادقين في أنهم دفعُوا القتلَ عن أنفسهم بالقعود، فما معنى قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟ قلتُ: معناه أنَّ النجاة من

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٠. وقد قرأها بالتشديد في هذا الموضع ابنُ عامر في رواية هشام، ذكرها عنه الداني في التيسير ص٩١، وجامع البيان ٢/ ٩٧، ولم يذكرها ابنُ مجاهد في السبعة، ونسبَها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢٣ لأبي الدرداء.

(٢) هو ابنُ حنظلة، من بني شيبان. له خبرٌ مع أبي بكر الصِّدِّيق ﷺ، وفيه الرَّجَز المذكور. ينظر العقد الفريد ٣/ ٣٢٦-٣٢٧، ومجمع الأمثال ١/ ١٨-١٩، والفائق ٣/ ٤٢٣-٤٢٤، والأنساب ١/ ٦٣-٦٥.

(٣) كذا في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٠. وجاء الرَّجَز في المصادر السالفة مع غيره ضمن سياق الخبر المشار إليه آنفاً بترتيب مختلف، وبروايات مختلفة. وروايتُه في تاج العروس (درأ): صادفَ دَرْءَ السيلِ سيلٌ يدفعُه. وذكر الميداني في مجمع الأمثال ١/ ٣٩٤ أن معناه: صادفَ الشرُّ شرًّا يغلبُه، وهذا كما يقال: الحديدُ بالحديد يُفْلَحُ.

(٤) الكشاف ١/ ٤٧٨. والكلام السالف قبله فيه بنحوه.

القتل يجوزُ أنْ يكون سببُها القعودَ عن القتال، وأنْ يكون غيرُه؛ لأنَّ أسباب النجاة كثيرة، وقد يكون قتالُ الرجل سببَ نجاتِه، ولو لم يقاتل لَقُتِل، فما يُدريكم أنَّ سببَ نجاتِكم القعودُ وأنكم صادقون في مقالتكم؟ وما أنكرتُم أن يكونَ السببُ غيرَه.

ووجهٌ آخر: إن كنتم صادقين في قولكم: لو أطاعونا وقعدُوا ما قُتِلُوا: يعني أنهم لو أطاعُوكم وقعدُوا لَقُتِلُوا قاعدين كما قُتِلُوا مقاتلين. وقوله: ﴿فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ استهزاءٌ بهم، أي: إنْ كنتم رجالاً دفَّاعين[1] لأسباب الموت فادرؤوا جميعَ أسبابِه حتى لا تموتوا. انتهى كلامه، وهو حَسَن على طوله.

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ قيل: هم قتلى أُحُد[2]، وقيل: شهداء بئر مَعُونة[3]، وقيل: شهداء بدر[4].

وهل سبب ذلك قولُ من استُشهد وقد دخل الجنة فأكلَ من ثمارها: مَنْ يُبَلِّغُ عنَّا إخوانَنا أنَّا في الجنة نُرْزَق لئلا يزهدوا[5] في الجهاد؟ فقال الله: أنا أُبلِّغُ عنكم. فنزلت[6]. أو قولُ مَنْ لم يُستَشْهَد من أولياء الشهداء إذا أصابَتْهم نعمة: نحن في النِّعمة والسُّرور، وآباؤنا وأبناؤنا وإخوانُنا في القبور. فنزلت[7].

---

(١) في (أ) و(ع): دافعين.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٢٢٧، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٨٣، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٩، وزاد المسير ١/ ٤٩٩، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٠٦.

(٣) تفسير الطبري ٦/ ٢٣٤، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٨٤، وزاد المسير ١/ ٥٠٠، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٠٦.

(٤) تفسير الثعلبي ٢/ ١٨٣، وتفسير البغوي ١/ ٣٦٩، وزاد المسير ١/ ٤٩٩، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٠٧.

(٥) المثبت من المصادر، ووقع في (ب) و(د١) و(د٢): لا تزهدوا. وفي النسخ الأخرى: لا يزهدوا.

(٦) إشارة إلى حديث ابن عبَّاس ﵄، أخرجه أحمد في المسند (٢٣٨٨)، وأبو داود (٢٥٢٠). وهو في تفسير كلٍّ من الطبري ٦/ ٢٢٨، والثعلبي ٢/ ١٨٣، والواحدي ١/ ٥١٩، وغيرهم.

(٧) ينظر: أسباب النزول للواحدي ص١٢٥، وتفسير البغوي ١/ ٣٧٢، وزاد المسير ١/ ٥٠١، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٠٨.
وثمة أقوال أخرى في سبب النزول ذُكرت في المصادر السالفة. ثم إنه لم يرد جواب سؤال المصنِّف: وهل سببُ ذلك قول... الخ. لعله يريد أن ثمَّة أقوالاً في ذلك، والله أعلم.

وقرأ الجمهور: «ولا تَحْسَبَنَّ» بالتاء، أي: ولا تَحْسَبَنَّ أيُّها السامع، وقال الزمخشريّ[١]: الخطابُ لرسول الله ﷺ، أو لكلِّ أَحَد.

وقرأ حُميد بنُ قيس وهشام بخلاف عنه بالياء[٢]، أي: «ولا يَحْسَبَنَّ» هو، أي: حاسِبٌ أو أَحَدٌ. قال ابنُ عطيَّة: وأرى هذه القراءةَ بضمّ الباء، فالمعنى: ولا يَحْسَبُنَّ الناسُ[٣]. انتهى.

قال الزمخشريّ: ويجوز أن يكون «الذين قُتِلُوا» فاعلاً، ويكون التقدير: ولا يَحْسَبَنَّهم الذين قُتِلُوا أمواتاً، أي: لا يَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُوا أنفسَهم أمواتاً. فإنْ قلتَ: كيف جازَ حذفُ المفعول الأوّل؟ قلت: هو في الأصل مبتدأ، فحُذف كما حُذف المبتدأ في قوله: «أحياءٌ». والمعنى: هم أحياءٌ؛ لدلالة الكلام عليهما. انتهى كلامه.

وما ذهبَ إليه من أنَّ التقدير: ولا يَحْسَبَنَّهم الذين قُتِلُوا أمواتاً، لا يجوز؛ لأنَّ فيه تقديمَ المُضْمَرِ على مفسِّره[٤]، وهو محصورٌ في أماكنَ لا تتعدَّى، وهي بابُ «رُبَّ» بلا خلاف، نحو: رُبَّهُ رجلاً أكرمتُه، وبابُ «نِعْمَ» و«بِئْسَ» في نحو: نِعْمَ رجلاً زيدٌ، على مذهب البصريِّين، وبابُ التنازع على مذهب سيبويه في نحو: ضربني وضربتُ الزَّيْدَيْن، وضميرُ الأمرِ والشأن ـ وهو المسمَّى بالمجهول عند الكوفيِّين ـ نحو: هو زيدٌ منطلِقٌ، وبابُ البَدَل؛ على خلاف فيه بين البصريِّين، في نحو: مَرَرْتُ به زيدٍ.

وزادَ بعضُ أصحابِنا أن يكون الظاهرُ المفسِّر خبراً للضمير، وجعلَ منه قولَه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩] التقدير عندَه: ما الحياةُ إلا حياتُنا الدُّنيا.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٧٩.

(٢) ذكرها الدَّاني في التيسير ص٩١ عن هشام، وذكرها ابنُ عطيَّة في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٠ عن حُميد بن قيس. (والكلام أعلاه فيه بنحوه).

(٣) ضُبطت الباء في «يحسبنَّ» في (ح) بالضمّ، فإنْ صحَّ الضبط فيها؛ فهي على لغة من قال: أكلوني البراغيث.

(٤) تعقَّب السَّمين الحلبي في الدُّرّ المصون ٣/ ٤٨١ شيخه أبا حيان بأنَّ الزمخشريَّ لم يُقَدِّره صناعةً، بل إيراداً للمعنى المقصود، ولذلك لما أراد أن يقدِّر الصناعةَ النحويَّة قدَّره بلفظ «أنفسهم» المنصوبة، وهي المفعول الأول... الخ. وينظر تتمة كلامه.

وهذا الذي قدَّره الزَّمخشريّ ليس واحداً من هذه الأماكن المذكورة.

وأمَّا سؤالُه وجوابُه فإنَّه قد يَتَمشَّى على رأي الجمهور في أنه يجوزُ حذفُ أحدِ مفعولَيْ «ظَنَّ» وأخواتِها اختصاراً، وحذفُ الاختصار هو لفهم المعنى، لكنَّه عندهم قليلٌ جدًّا[١]. قال أبو عليّ الفارسيّ: حذفُه عزيزٌ جدًّا، كما أنَّ حذفَ خبر «كان» كذلك؛ وإن اختلفت جهتا القُبح. انتهى قولُ أبي علي.

وقد ذهب الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن مُلْكُون الحضرميّ الإشبيليّ[٢] إلى منع ذلك البتة، فلا يجوزُ عنده حذفُ أحدِ مفعولَيها اختصاراً، كما لا يجوزُ ذلك[٣] اقتصاراً. والحجَّةُ له وعليه مذكورةٌ في علم النحو.

وما كان بهذه المثابة ممنوعاً عند بعضِهم عزيزاً حذفُه عند الجمهور ينبغي أن لا يُحمَلَ عليه كلامُ الله تعالى، فتأويلُ مَنْ تأوَّلَ الفاعلَ مضمراً يُفسِّرُه المعنى[٤] - أي: لا يَحْسَبَنَّ هو، أي: أَحَدٌ أو حاسِبٌ - أولى، وتتَّفق القراءتان في كون الفاعل ضميراً وإن اختلفَ بالخطاب والغَيْبة.

وتقدَّم الكلامُ على معنى موت الشهداء وحياتِهم في قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [البقرة: ١٥٤] فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقرأ الحسنُ وابنُ عامر: «قُتِّلُوا» بالتشديد[٥]، ورُوِيَ عن عاصم: «قاتلوا»[٦]، وقرأ الجمهور: «قُتِلُوا» مخفَّفاً.

وقرأ الجمهور: «بل أحياءٌ» بالرفع على أنه خبرُ مبتدأ محذوف تقديرُه: بل هم

(١) قال السَّمين: ستأتي مواضعُ يُضطرُّ هو (أي: أبو حيَّان رحمه الله) وغيرُه إلى حذف أحد المفعولين، كما ستقف عليه قريباً.
(٢) هو إبراهيم بن محمد بن المنذر، نحويٌّ جليل، أَلَّفَ شرحَ الحماسة وغيره. مات سنة (٥٨٤) أو (٥٨١). ينظر بغية الوعاة ١/ ٤٣١، والوافي بالوفيات ٦/ ١٣٠.
(٣) من قوله: ذلك البتة... إلى هذا الموضع، سقط من المطبوع.
(٤) تأوَّله كذلك ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٠، وسلف ذكره.
(٥) السبعة ص٢١٩، والتيسير ص٩١.
(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٠. وقراءة عاصم المشهورة عنه هي قراءة الجمهور.

أحياءٌ، وقرأ ابنُ أبي عَبْلَة: «أحياءً» بالنصب[1]. قال الزمخشريّ[2]: على معنى: بلِ احْسَبْهُمْ أحياءً. انتهى. وتَبِعَ في إضمار هذا الفعل الزَّجَّاجَ؛ قال الزَّجَّاج: ويجوز النصب على معنى: بلِ احْسَبْهُمْ أحياءً. وردَّه عليه أبو عليّ الفارسيّ في «الإغفال»[3] وقال: لا يجوز ذلك؛ لأنَّ الأمرَ يقينٌ[4]، فلا يجوزُ أنْ يُؤمَرَ فيه بمَحْسَبَة، ولا يصحُّ أن يُضْمَرَ له إلا فِعلُ المَحْسَبَة. فوَجْهُ قراءة ابنِ أبي عَبْلَة أن تُضمرَ فعلاً غيرَ المَحْسَبَة: اعتَقِدْهم، أو: اجْعَلْهُمْ، وذلك ضعيف، إذْ لا دلالةَ في الكلام على ما يُضمر. انتهى كلامُ أبي عليّ[5].

وقوله: لا يجوزُ ذلك لأنَّ الأمر يقين، فلا يجوز أن يؤمَر فيه بمَحْسَبَة: معناه أنَّ المتيقَّن لا يُعبَّر عنه بالمَحْسَبَة؛ لأنها لا تكون لليقين. وهذا الذي ذكره هو الأكثر، وقد يقعُ «حَسِبَ» لليقين كما تقع «ظَنَّ»؛ لكنَّه في «ظنَّ» كثيرٌ، وفي «حَسِبَ» قليل.

ومن ذلك في «حَسِبَ» قولُ الشاعر:

حَسِبْتُ التُّقَى والحمدَ خيرَ تجارةٍ   رَبَاحاً إذا ما المرءُ أصبحَ ثَاقِلَا[6]

(١) تفسير الثعلبي ٢/ ١٨٦، والمصدر السابق. وذكرها الزمخشري ١/ ٤٧٩ دون نسبة.

(٢) الكشاف ١/ ٤٧٩.

(٣) الكلام بمعناه فيه ٢/ ١٣٨-١٣٩، ونقل المصنف عنه وعن الزجاج بواسطة المحرر الوجيز ١/ ٥٤٠. وعبارة الزجاج في معانيه ١/ ٤٨٨: القراءة بالرفع، ولو قُرئت: بل أحياءً، لجاز.

(٤) في (أ) و(ع) والدر المصون ٣/ ٤٨٢: تعيَّن (وكذا في الموضع التالي) وأظنه تصحيفاً.

(٥) كذا نسب المصنف الكلام بتمامه لأبي علي، ونقله السمين الحلبي في الدر المصون ٣/ ٤٨٢، لكن قوله: فوَجْهُ قراءةِ ابن أبي عبلة... الخ، هو من كلام ابن عطية ١/ ٥٤٠ وَجَّهَ فيه قراءة النصب بعد نقلِه كلامَ أبي علي.

ويظهر من كلام الرازي في تفسيره ٩/ ٩٤ أنه لم يطَّلع على قراءة ابن أبي عبلة، فقال: هذه المناظرة من الزجاج وأبي علي الفارسي تدلُّ على أنه ما قُرئ «أحياءً» بالنصب، بل الزجاج كان يدَّعي أن لها وجهاً في اللغة، والفارسي نازعَهُ فيه، وليس كل ما له وجه في الإعراب جازت القراءة فيه.

(٦) البيت للبيد، وهو في شرح التسهيل ٢/ ١٢ (وفيه: والمجد، بدل: والحمد)، وهمع الهوامع ١/ ٥٤٢ (وفيه: والجود). وروايتُه في ديوان لبيد ص١١٩، وتهذيب اللغة ٩/ ٨١، واللسان (ثقل) ١١/ ٨٨، وغيرها: رأيتُ التقى... وعندئذ لا شاهد فيه. قوله: ثاقلاً. أي: أدْنَفَهُ المرض. قاله الأزهري.

وقولُ الآخر:

شَهِدْتُ وفاتُوني وكنتُ حَسِبْتُني فقيراً إلى أنْ يَشْهَدُوا وتَغِيبي[(١)]

فلو قدَّر بعدُ: بلِ احْسَبْهُمْ بمعنى: اعْلَمْهُمْ، لصحَّ؛ لدلالة المعنى عليه، لا لدلالة لفظ: «ولا تَحْسَبنَّ» لاختلاف مدلوليهما، وإذا اختلف المدلول فلا يدلُّ أحدُهما على الآخر.

وقوله: ولا يصحُّ أنْ يُضمر له إلا فعل المَحْسَبَة، غيرُ مسلَّم؛ لأنه إذا امتنعَ من حيث المعنى إضمارُه أُضمرَ غيرُه لدلالة المعنى عليه لا اللفظ.

وقولُه: أو اجْعَلْهُمْ، هذا لا يصحُّ البتَّة، سواءٌ كانت اجْعَلْهُمْ بمعنى: اخْلُقْهُمْ، أو: صَيِّرْهُمْ، أو: سَمِّهِمْ، أو: الْقَهُمْ.

وقولُه: وذلك ضعيف، أي: النصب، وقولُه: إذْ لا دلالةَ في الكلام على ما يُضْمَر، إنْ عَنَى من حيث اللفظُ؛ فصحيحٌ، وإنْ عَنَى من حيث المعنى؛ فغيرُ مسلَّم له، بل المعنى يُسوِّغُ النصبَ على معنى: اعْتَقِدْهُمْ. وهذا على تسليم أنَّ «حَسِبَ» لا يُذهَبُ بها مَذهب العلم.

ومعنى «عندَ ربِّهم» بالمكانة والزُّلفى، لا بالمكان. قال ابن عطيَّة: فيه حذفُ مضاف، تقديره: عند كرامةِ ربِّهم؛ لأنَّ «عندَ» تقتضي غايةَ القُرب، ولذلك [لم][(٢)] تصغَّر. قاله سيبويه. انتهى.

ويحتمل «عندَ ربِّهم» أن يكون خبرًا ثانياً، وصفةً، وحالاً.

وكذلك «يُرْزَقُون» يجوزُ أن يكون خبراً ثالثاً[(٣)]، وأن يكون صفةً ثانيةً[(٤)]. وقدِّم صفةُ الظرف على صفة الجملة لأنَّ الأفصح هذا، وهو أن يقدَّم الظرف أو المجرور على الجملة إذا كانا وصفَين، ولأنَّ المعنى في الوصف بالزُّلْفى عند الله والقُربِ منه

---

(١) البيت للنَّمِر بن تَوْلَب كما في البخلاء ص٢٣٤.

(٢) لفظه «لم» بين حاصرتين من المحرر الوجيز ١/ ٥٤٠ (والكلام منه). وينظر الكتاب ٣/ ٤٨٠-٤٨١.

(٣) أو ثانياً إن لم نجعل الظرف خبراً. ينظر الدر المصون ٣/ ٤٨٣.

(٤) أو صفة أولى إن لم نجعل الظرف صفة.

أشرفُ من الوصف بالرِّزق. وأن يكون حالاً من الضمير المستكنّ في الظرف، ويكون العاملُ فيه في الحقيقة هو العامل في الظرف.

قال ابن عطية[١]: أخبرَ تعالى عن الشهداء أنهم في الجنة يُرزقون، هذا موضعُ الفائدة، ولا محالةَ أنَّهم ماتُوا وأنَّ أجسادَهم في التراب وأرواحَهم حيَّة كأرواح سائر المؤمنين، وفُضِّلُوا بالرِّزق في الجنة من وقت القتل، حتى كأنَّ حياةَ الدنيا دائمةٌ لهم، فقولُه: «بل أحياء» مقدِّمة لقوله: «يُرْزَقُون»، إذْ لا يُرْزَقُ إلا حَيّ. وهذا كما تقول لمن ذمَّ رجلاً: بل هو رجلٌ فاضل. فتجيءُ باسم الجنس الذي تركّب عليه الوصف بالفضل. انتهى ما قاله ابن عطية.

ولا يلزمُ ما ذكره من أنَّ لفظة «أحياء» جيء بها مجتلبةً لذكر الرِّزْق، لكون الحياة مشتركاً فيها الشهيدُ والمؤمنون؛ لأنه يجوزُ أن يكون هذا الإخبارُ بحياة الشهداء متقدِّماً على الإخبار بأنَّ أرواح المؤمنين على العموم حيَّة، فاستُفيد أولاً حياةُ أرواح الشهداء، ثم جاء بعدُ الإخبارُ بحياة أرواح المؤمنين. وأيضاً ففي ذكره النصُّ[٢] على نقيض ما حَسِبُوه، وهو كونُ الشهداء أمواتاً والبُعدُ عن أن يُراد بقوله: «يُرْزَقُون» ما يحتملُه المضارع من الاستقبال، فإذا سبقَه ما يدلُّ على الالتباس بالوصف حالةَ الإخبار؛ كان حكمُ ما بعدَه حُكمَه، إذِ الأصلُ في الإخبار أن يكون مَنْ أسندتَ إليه متَّصفاً بذلك في الحال إلا إنْ دلَّت قرينةٌ على مُضيّ أو استقبال من لفظٍ أو معنًى، فيُصارُ إليه.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: مسرورين بما أعطاهم الله من قُرْبِهِ ودُخولِ جنَّتِه، ورزقِهم فيها، إلى سائر ما أكرَمَهم به.

ولا تعارضَ بين «فَرِحين» وبين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] في قصَّة قارون، لأنَّ ذاك بالمَلَاذِّ الدُّنياويَّة، وهذا بالملاذِّ الأُخْراويَّة، ولذلك جاء: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨]، وجاء: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٠.
(٢) في (أ) و(ع): نصَّ.

و«مِنْ» يحتمل أن تكون للسبب، أي: ما آتاهم اللهُ متسبِّبٌ عن فضله، فتتعلَّق الباء بـ «آتاهم»، ويحتمل أن تكون للتبعيض، فتكون في موضع الحال من الضمير المحذوف العائد على «ما»، أي: بما آتاهُمُوه اللهُ كائناً من فضله، ويحتمل أن تكون لابتداء الغاية، فتتعلَّق بـ «آتاهُم».

وجوَّزُوا في «فَرِحِين» أن يكون حالاً من الضمير في «يُرْزَقُون»، أو من الضمير في الظرف، أو من الضمير في «أحياء»، وأن يكون صفةً لـ «أحياءً» إذا نُصب[(١)].

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ وهم جميعُ المؤمنين، أي: تحصُل لهم البُشرى بانتفاء الخوف والحُزن عن إخوانهم المؤمنين الذين لم يَلْحَقُوا بهم في الشهادة، فهم فَرِحُون بما حصلَ لهم، مستبشرون بما يحصُل لإخوانهم المؤمنين. قاله الزجَّاج وابنُ فُورك وغيرُهما[(٢)].

وقال قتادة وابنُ جُريج والرَّبيع وغيرُهم: هم الشهداء الذين يأتونهم بعدُ من إخوانهم المؤمنين الذين تركوهم يُجاهدون فيُستشهدون، فَرِحُوا لأنفسهم ولِمَنْ يلحقُ بهم من الشهداء، إذ يصيرون إلى ما صارُوا إليه من كرامة الله تعالى[(٣)].

قال ابنُ عطيَّة: وليست «استفعل» في هذا الموضع بمعنى طلب البِشارة، بل هي بمعنى: «استغنى اللهُ»[(٤)]، واسْتَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَار[(٥)]. انتهى كلامه.

أما قولُه: ليست بمعنى طلب البِشارة فصحيح، وأمَّا قولُه: بل هي بمعنى: «استغنى الله»، واسْتَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَار؛ فيَعني أنها تكون بمعنى الفعل المجرَّد،

---

(١) زاد أبو البقاء ١/ ١٥٧، والسمين الحلبي ٣/ ٤٨٤ وَجْهَ النصب على المدح.

(٢) بنحوه في «المحرر الوجيز» ١/ ٥٤١ عن الزجَّاج وابن فُورك، وبمعناه في «معاني القرآن» للزجاج ١/ ٤٨٩.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٤١ بنحوه. وتنظر الأقوال في «تفسير» الطبري ٦/ ٢٣٧-٢٣٨.

(٤) هذا اللفظ في الآية (٦) من سورة التغابن.

(٥) المَرْخ والعَفَار: شجرتان تكثُر نارُهما، وفي المَثَل: في كل شجرة نار، واستَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَار، أي: استكثَرا وأخذَا من النار ما هو حَسْبُهما، شُبِّها بمن يُكْثِرُ العطاءَ طلباً للمجد؛ لأنهما يُسرعان الوَرْيَ؛ ذكره الميداني في مجمع الأمثال ٢/ ٧٤ وقال: يُضربُ في تفضيل بعض الشيء على بعض. وينظر جمهرة الأمثال ٢/ ٩٢-٩٣.

كاستغنى بمعنى: غَنِيَ، واسْتَمْجَدَ بمعنى: مَجُدَ. ونُقل أنه يُقال: بَشِرَ الرجلُ بكسر الشين، فيكون «استبشر» بمعناه، ولا يتعيَّن هذا المعنى، بل يجوزُ أن يكون مطاوعاً لـ «أفعل»، وهو الأظهر، أي: أَبْشَرَهُ الله فاستبشَرَ، كقولهم: أَكَانَهُ فاسْتَكَانَ[1]، وأشْلَاه فاسْتَشْلَى[2]، وأَرَاحَهُ فاسْتَرَاح، وأَحْكَمَهُ فاسْتَحْكَم، وأَكَنَّهُ فاسْتَكَنَّ، وأمرَّهُ فاستمرَّ. وهو كثير، وإنَّما كان هذا الأظهرَ هنا لأنه من حيث المطاوعةُ يكون منفعلاً عن غيره، فحصلت له البُشرى بإبشارِ اللهِ له بذلك، ولا يلزم هذا المعنى إذا كان بمعنى المجرَّد؛ لأنه لا يدلُّ على المطاوعة.

ومعنى «مِنْ خَلْفِهِمْ»: قد بقُوا بعدَهم وهم قد تقدَّموهم إذا كان المعنيُّ «بالذين لم يلحقوا» الشهداء، وإن كان المعنيُّ بهم المؤمنين فمعنى «لم يَلْحَقُوا بهم» أي: لم يُدركوا فضلَهم ومنزلتَهم.

﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3].

وجوَّزُوا في إعراب «وَيَسْتَبْشِرُونَ» أن يكون معطوفاً على «فَرِحِينَ» أي: ومستبشرين، كقوله تعالى: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩] أي: قابضاتٍ، وأن يكون على إضمار «هُم»، والواو للحال، فتكون جملة حالية[4] من الضمير في «فرحين»، أو من ضمير المفعولِين في «آتاهم»، أو للعطف ويكون مستأنفاً من باب عطف الجملة الاسمية أو الفعلية على نظيرها.

و«أنْ» هي المخفَّفة من الثقيلة، واسمُها محذوف ضميرُ الشأن، وخبرُها الجملة المنفيَّة بـ «لا»، و«أنْ» وما بعدَها في تأويل مصدرٍ مجرور على أنَّه بدلُ اشتمال من «الذين»[5]، فيكونُ هو المُسْتَبْشَرَ به في الحقيقة، أو منصوبٍ على أنه مفعولٌ من

---

(١) في اللسان (كين): يقال: أَكَانَهُ اللهُ يُكِينُهُ إكانَةً، أي: أخضَعَه حتى استكانَ وأدخلَ عليه من الذلّ ما أكانَهُ.

(٢) في المصدر السابق (شلا): يقال: أشْلَى الكلبَ على الصَّيد: إذا دعاه وأغراه.

(٣) كذا جاء لفظ الآية في هذا الموضع، وسيرد الكلام عليها بعد عدة أسطر، عند قوله: وأن هي المخفَّفة من الثقيلة. . . إلخ.

(٤) كلمة «جملة» من (ب) و(د٣) و(يه).

(٥) يعني في قوله: «بالذين»، أي: يستبشرون بعدم خوفهم وحزنهم. ينظر الدر المصون ٣/ ٤٨٦.

أجله، فيكونُ علَّةً للاستبشار، والمستبشَرُ به غيرُه، التقدير: لأنَّه لا خوفٌ عليهم. والذَّواتُ لا يُستبشَرُ بها، فلا بدَّ من تقدير مضاف مناسب[١].

وتقدَّم تفسير «لا خوفٌ عليهم ولا هُم يَحْزَنُون»[٢] فأغْنَى عن إعادته.

وفي ذِكر حالِ الشهداء واستبشارِهم بمَنْ خَلْفَهُم بَعْثٌ للباقين بعدَهم على ازدياد الطاعة، والجِدِّ في الجهاد، والرَّغبةِ في نَيْلِ منازلِ الشُّهداء، وإصابةِ فضلِهم وإحْمادِ لحال مَنْ يرى نفسَه في خير، فيتمنَّى مثلَه لإخوانِه في الله، وبُشرى للمؤمنين بالفوز في المآب. قاله الزمخشريّ[٣]. وهو كلامٌ حسن.

قيل: وتضمَّنَتْ هذه الآياتُ من ضروب البديع: الطِّباقَ في قوله: «لقد مَنَّ اللهُ» الآية، إذِ التقدير: مَنَّ اللهُ عليهم بالهداية، فيكونُ في هذا المقدَّرِ وفي قوله: «في ضلالٍ مبين»، وفي «يقولون بأفواههم» والقولُ ظاهرٌ، و«يكتمون»، وفي «قالوا لإخوانِهم وقَعدُوا»، إذِ التقدير: حين خرجُوا وقعدوا هُم، وفي «أمواتاً بل أحياءٌ»، وفي «فَرِحين» و«يحزنون».

والتكرارَ في «وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقُوا» لاختلاف متعلَّق العلم، وفي «فَرِحين» و«يستبشرون».

والتجنيسَ المغايرَ في «أصابَتْكم مصيبةٌ»، والمماثلَ في «أصابَتْكم» «قد أصَبْتُم».

والاستفهامَ الذي يُرادُ به الإنكار في «أَوَلمَّا أصابَتْكُمْ».

والاحتجاجَ النظريَّ في «قُلْ فادْرَؤُوا عن أنفسكم».

والتأكيدَ في «ولا هُم يحزنُون».

والحذفَ في عدَّة مواضعَ لا يتمُّ المعنى إلا بتقديرها.

❁ ❁ ❁

(١) والتقدير: ويَستَبْشِرُون بسلامة الذين، أو لُحوقِهم بهم في الدرجة. ينظر المصدر السابق.
(٢) في الآية (٣٨) من سورة البقرة.
(٣) الكشاف ١/ ٤٨٠.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟
لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ
لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ
ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو
فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾
وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا
فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟
إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ
مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾.

المفردات

الحَظُّ: النَّصِيب، وإذا لم يُقيَّد فإنَّما يُستعمل في الخير.

مازَ ومَيَّزَ: فَصَلَ الشيءَ من الشيء. قالَ يعقوب[١]: هما لغتان بمعنًى واحد. انتهى. والتضعيف ليس للنقل[٢].

وقيل: التَّشديدُ أقربُ إلى الفَخامة وأكثرُ في الاستعمال، ألا ترى أنهم استعملوا المصدر على بِنْيَة[٣] التشديد، فقالوا: التمييز، ولم يقولوا: المَيْز؟ انتهى. ويعني ولم يقولوه مسموعاً، وأمَّا بطريق القياس فيُقال.

وقيل: لا يكونُ «مازَ» إلا في كثير من كثير، فأمَّا واحدٌ من واحد فيتميَّز على معنى: يَعْزِلُ. ولهذا قال أبو معاذ[٤]: يقال: مَيَّزْتُ بين شيئين، ومِزْتُ بين الأشياء.

---

(١) هو ابن السِّكِّيت، ونقل المصنف كلامه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٦.

(٢) يعني ليس لنقل غير المتعدِّي إلى المتعدِّي، وكذا الهمزة فيه. يقال: مازهُ، ومَيَّزَهُ، وأمازه. ثلاث لغات. وينظر الدُّرّ المصون ٣/ ٥٠٩.

(٣) في (أ) و(د٢) و(ع) والمطبوع: نيّة. وهو تحريف.

(٤) هو الفضل بن خالد النحوي المروزي، روى عن عبد الله بن المبارك، وروى عنه الأزهري، =

اجْتَبَى: اخْتَارَ واصطفى، وهي من جَبَيْتُ الماءَ والمالَ وجَبَوْتُهما. فاجْتَبَى: افتعل منه، فيحتمل أن تكون اللام واوًا وياءً.

* * *

التفسير ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٧١﴾ كَـرَّرَ الفعل على سبيل التوكيد إنْ كانت النعمةُ والفضلُ بياناً لمتعلَّق الاستبشار الأول. قاله الزمخشريّ؛ قال[١]: وكرّر «يَسْتَبْشِرُونَ» ليعلّق به ما هو بيانٌ لقوله: «ألَّا خوفٌ عليهم ولا هُمْ يحزنون» من ذِكْرِ النِّعمةِ والفضل، وأنَّ ذلك أجرٌ لهم على إيمانهم يجبُ في عَدْل الله وحِكمتِهِ أنْ يَحْصُلَ لهم ولا يضيع. انتهى. وهو على طريقة الاعتزال في ذِكْرِهِ وجوبَ الأجرِ وتحصيلِه على إيمانهم.

وسلك ابنُ عطيَّة طريقةَ أهلِ السُّنَّة، فقال[٢]: أكَّدَ اسْتبشارَهم بقوله: «يستبشرُون»، ثمَّ بيَّنَ بقوله: «وفَضْل» إدخالَهم الجنَّة الذي هو فضلٌ منه لا بعملِ أحد، وأمَّا النِّعمةُ في الجنة والدَّرجات فقد أخبرَ أنها على قَدْر الأعمال. انتهى.

وقال غيرُهما: هو بدلٌ من الأوّل، فلذلك لم يدخل عليه واو العطف. ومَن ذهبَ إلى أنَّ الجملةَ حال من الضمير في «يَحْزَنُون»، و«يَحْزَنُون» هو العاملُ فيها فبعيدٌ عن الصواب؛ لأنَّ الظاهرَ اختلافُ المنفيِّ عنه الحُزنُ والمُستبشِر، ولأنَّ الحالَ قيد، والحُزن ليس بمقيَّد.

والظاهر أنَّ قوله: «يستبشرُون» ليس بتأكيد للأوّل، بل هو استئنافٌ متعلِّقٌ بهم أنفسِهم لا بالذين لم يَلْحَقُوا بهم، فقد اختلفَ متعلَّق الفعلين، فلا تأكيد، لأنَّ هذا المُستبشَرَ به هُو لهم، وهو نعمةُ الله عليهم وفضلُه.

= مات سنة (٢١١). ينظر بغية الوعاة ٢/ ٢٤٥.

(١) الكشاف ١/ ٤٨٠.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٤١.

وفي التنكير دلالةٌ على بعضٍ غيرِ معيَّن، وإشارةٌ إلى إبهام المُرادِ تعظيماً لأمره، وتنبيهاً على صعوبة إدراكِه، كما جاء: «فيها ما لا عَيْنٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَر»(١).

والظاهر تباينُ النِّعمةِ والفضلِ للعطف، ويُناسب شرحُهما أن ينزَّل على قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحُسْنَى هي النِّعمة، والزيادةُ هي الفَضْل لقرينة قولِه: «أَحْسَنُوا» وقولِه: «للذين أَحْسَنُوا منهم واتَّقَوْا أجرٌ عظيم».

وقال الزجَّاج: النِّعمةُ هي الجزاء، والفضلُ زائدٌ عليه قدرَ الجزاء.

وقيل: النِّعمةُ قدرُ الكفاية، والفضلُ المضاعَف عليها مع مضاعفة السُّرور بها واللذَّة.

وقيل: الفضلُ داخلٌ في النِّعمة دلالةً على اتِّساعها وأنَّها ليست كَنِعَمِ الدُّنيا.

وقرأ الكسائيّ وجماعة: «وإنَّ الله» بكسر الهمزة على الاستئناف(٢)، ويُؤيِّده قراءةُ عبدِ الله ومصحفُه: «واللهُ لا يُضيعُ»(٣)، وقال الزمخشريّ: وعلى أنَّ الجملةَ اعتراض، وهي قراءة الكسائيّ. انتهى. وليست الجملة هنا اعتراضاً لأنها لم تدخل بين شيئين أحدُهما يتعلَّق بالآخر، وإنَّما جاءت لاستئناف إخبار.

وقرأ باقي السبعة والجُمهور بفتح الهمزة عطفاً على متعلَّق الاستبشار، فهو داخلٌ فيه.

قال أبو عليّ: يستبشرون بتوفير ذلك عليهم ووصولِه إليهم؛ لأنه إذا لم يُضَيِّعْهُ وصلَ إليهم ولم يُبْخَسُوه، ولا يصحُّ الاستبشارُ بأنَّ الله لا يُضِيعُ أجْرَ المؤمنين لأنَّ الاستبشار إنَّما يكون بما لم يتقدَّم به علم، وقد علموا قبلَ موتهم أنَّ الله لا يُضِيعُ أجْرَ المؤمنين، فهم يستبشرون بأنَّ الله ما أضاعَ أُجُورَهُم حين اختصَّهم بالشهادة، ومَنَحَهم

---

(١) الحديث بهذا اللفظ أخرجه أحمد (٢٢٨٢٦)، ومسلم (٢٨٢٥) عن سهل بن سعد، وأخرجه أيضاً أحمد (٨١٤٣)، والبخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) عن أبي هريرة مرفوعاً: «قال الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت... إلى آخر الحديث».

(٢) السبعة ص٢١٩، والتيسير ص٩١. والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٥٤١.

(٣) الكشاف ١/ ٤٨٠، والمحرر الوجيز ١/ ٥٤١.

أتمَّ النِّعمة، وختمَ لهم بالنَّجاة والفَوْز، وقد كانوا يَخْشَوْن على إيمانهم ويخافون سُوء الخاتمة المُحْبِطة لِلأعمال، فلمَّا رَأَوْا ما للمؤمنين عند الله من السَّعادة وما اختصَّهم به من حُسن الخاتمة التي تصحُّ معها الأجورُ وتضاعفُ الأعمال؛ استبشروا؛ لأنهم كانوا على وَجَلٍ من ذلك. انتهى كلامه. وفيه تطويل شبيهٌ بالخَطابة.

قيل: ويجوزُ أن يكون الاستبشار لمن خلَّفوه بعدَهم من المؤمنين لمَّا عايَنُوا منزلتَهم عند الله.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾.

قيل: الاستجابةُ كانت إثْر الانصراف من أُحُد، استنفرَ الرسولُ لطلب الكفار، فاستجابَ له تسعون[1]، وذلك لما ذُكر للرسول أنَّ أبا سفيان في جمع كثير، فأبَى الرسولُ إلا أن يطلبهم، فسبقه أبو سفيان ودخل مكة. فنزلت. قاله عَمرو بنُ دينار[2]. وفي ذكر هذا السبب اختلاف في مواضع.

وقيل: الاستجابة كانت من العام القابل بعد قصَّة أُحُد حيث تَواعَدَ أبو سفيان ورسولُ الله ﷺ موسمَ بدر، فلما كان العامُ المقبل؛ خرجَ أبو سفيان فأُرْعِبَ، وبَدَا له الرُّجوع، وقال لنُعيم بن مسعود: واعَدْتُ محمداً وأصحابَه أن نلتقيَ بموسم بدر الصُّغرى[3]، وهو عام جَدْب لا يصلُح لنا، فثَبِّطْهُمْ عنَّا، وأعْلِمْهُم أنَّا في جمع كثير. ففعل وخَوَّفَهم، فخرجَ رسولُ الله ﷺ بأصحابه وأقامُوا ببدر ينتظرون أبا سفيان فنزلت. قال معناه مجاهد وعكرمة[4].

(١) كذا في النسخ الخطية. وهو خطأ. والصواب: سبعون كما في المصادر التالية.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص١٢٥-١٢٦. ونُسب الخبر في زاد المسير ١/ ٥٠٣ لابن عباس. وهذه هي غزوة حمراء الأسد، وسيذكرها المصنف برواية أخرى بعد الخبر التالي.

(٣) كذا في زاد المسير ١/ ٥٠٣، وهذا معنى الكلام، وإنما قال أبو سفيان: موعدنا بدر العامَ المقبل. وأمَّا تسميتُها ببدر الصغرى فهو من قِبَل المؤرِّخين: وتسمى أيضاً بدر الموعد، وكانت في أول شعبان من السنة الرابعة للهجرة.

(٤) تفسير الطبري ٦/ ٢٥٠-٢٥١ (في تفسير الآية بعدها). وأورده ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٣ وذكر أن مجاهداً شذَّ في قوله هذا وقال: الجمهور على أن هذه الآية في غزوة أُحُد في الخرجة إلى حمراء الأسد، لا في بدر الصغرى.

وقيل: لَمَّا كان الثاني من أُحُد ـ وهو يوم الأَحَد ـ نادى رسولُ الله ﷺ في الناس باتِّباع المشركين، وقال: «لا يخرُجَنَّ[(١)] معنا إلَّا مَنْ شاهَدَنا بالأمس» وكانتْ بالناس جِراحةٌ وقَرْحٌ عظيمٌ، ولكن تجلَّدُوا، ونهضَ معه مئتا رجل من المؤمنين حتى بلغَ حمراءَ الأسد، وهي على ثمانية أميال من المدينة، وأقامَ بها ثلاثةَ أيام، وجَرَتْ قصَّةُ مَعْبَد بنِ أبي معبد، وقد ذُكرت، ومرَّت قريش فانصرف الرسول إلى المدينة، فنزلت[(٢)].

ورُوِيَ أنه خرجَ أخوانِ وبهما جِراحةٌ شديدة، وضَعُفَ أحدُهما، فكان أخوه يحملُه عُقْبَةً ويمشي هو عُقْبة[(٣)].

ولمَّا لم تتمَّ استجابةُ العَبْدِ للهِ تعالى إلا باستجابتِهِ للرَّسول؛ جمعَ بينهما؛ لأنَّ ما لا يتمُّ الواجبُ إلَّا به فهو واجب.

قيل: والاستجابتان مختلفتان، فإنهما بالنسبة إلى الله بالتوحيد والعبادة، وللرَّسول بتلقِّي الرسالة منه والنصيحةِ له، والظاهرُ أنَّها استجابةٌ واحدة، وهي إجابتُهم له حين انتدبَهم لاتِّباع الكفَّار على ما نُقل في سبب النزول.

والإحسانُ هنا ما هو زائد على الإيمان من الاتِّصاف بما يُستحبُّ مع الاتِّصاف بما يجب.

والظاهر إعراب «الذين» مبتدأ، والجملةُ بعده الخبر، وجوَّزُوا الإتْباعَ نعتاً أو بَدَلاً، والقطعَ إلى الرفع والنصب[(٤)].

---

(١) في (يه): لا يخرج.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٢. وهو بنحو رواية عَمرو بن دينار السالفة غير قوله: مئتا رجل، ولم أقف عليه عند غير ابن عطية، ونقله أيضاً القرطبي ٥/ ٤١٩ وأشار خلاله إلى أنه عند البخاري: سبعون، وهي في روايته (٤٠٧٧). وينظر سيرة ابن هشام، وتفسير الطبري ٦/ ٢٤٦، وتفسير البغوي ١/ ٣٧٣-٣٧٤. وقد ذكر المصنف الخبر وفيه قصة معبد عند تفسير الآية (١٥١).

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠١، وتفسير الطبري ٦/ ٢٤٠-٢٤١. والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٢.

(٤) الرفع على أنه خبر مبتدأ، أي: هم الذين، والنصب على إضمار «أعني». ينظر الدر المصون ٣/ ٤٨٨.

و«مِنْ» في «منهم» قال الزمخشريُّ: للتبيين؛ مثلُها في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً﴾ [الفتح: ٢٩]؛ لأنَّ الذين استجابوا للهِ والرَّسولِ قد أحسنُوا كلُّهم واتَّقَوْا، لا بعضُهم. وعن عُرْوَةَ بنِ الزُّبير، قالت لي عائشة: إنَّ أبَوَيْكَ لَمِنَ الذين استجابُوا للهِ والرَّسول. تعني أبا بكر والزُّبير. انتهى[١].

وقال أبو البقاء[٢]: «منهم» حال من الضمير في «أَحْسَنُوا»، فعلى هذا تكونُ «مِنْ» للتبعيض. وهو قولُ مَنْ لا يرى أنَّ «مِنْ» تكون لبيان الجنس.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ قيل: أُريدَ بالنَّاس الأوَّل نُعَيْمُ بنُ مسعود الأشجعيّ، وهو قولُ ابنِ قُتيبة، وضعَّفه ابنُ عطية[٣]، وبالثاني أبو سفيان. وتقدَّم ذِكرُ قصَّة نُعيم، وذكرَها المفسِّرون مطوَّلةً، وفيها أنَّ أبا سفيان جعلَ له جُعْلاً على تثبيط الصحابة عن بدر الصغرى، وذلك عشرةٌ من الإبل ضَمِنَها له سُهيل بن عَمرو، فقَدِمَ على الرَّسول ﷺ، وأفزَعَ الناسَ وخَوَّفَهم اللقاءَ، فقال الرسول ﷺ: «والذي نفسي بيدِه، لأَخْرُجَنَّ ولو وَحْدي». فأمَّا الجَبانُ فرَجَع، وأمَّا الشُّجاعُ فتجهَّزَ للقتال وقال: حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل، فوافَى بدرًا الصغرى[٤]، فجعلوا يَلْقَوْن المشركين ويسألونهم عن قريش فيقولون: قد جمعُوا لكم. وكانت موضعَ سوق لهم في الجاهلية يجتمعون إليها في كلِّ عام ثمانيةَ أيام، فأقامَ عليه الصلاة والسلام ببدرٍ ينتظرُ أبا سفيان وقد انصرفَ أبو سفيان من مَجَنَّة[٥] إلى مكَّة، فسمَّى أهلُ مكة جيشَهُ

(١) الكشاف ١/ ٤٨٠. وقول عائشة ﵂ أخرجه البخاري (٤٠٧٧)، ومسلم (٢٤١٨) بنحوه. وكان من الأولى أن يعزو المصنِّف إليهما، لا أن يقتصر على قول الزمخشري.

(٢) الإملاء ١/ ١٥٨.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٣. وقولُ ابن قُتيبة هو على قول من يرى أنهم خرجوا لموعد أبي سفيان، وهو قول مجاهد السالف في الآية قبلها، وسيذكره في تفسير الآية بعدها، ويذكر ردَّ ابن عطية له.

(٤) يعني: فخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى وَافَوْا بدراً الصُّغرى... الخ. كما في تفسير كل من الثعلبي ٢/ ١٩٢، والبغوي ١/ ٣٧٤-٣٧٥. وقوله: بدر الصغرى، هو اسم للغزوة التي خرج إليها رسول الله إلى موضع بدر المعروف.

(٥) هو اسم سوق للعرب في الجاهلية من ناحية مَرِّ الظَّهْران. وجاء ذكرها أوَّل الخبر في

جيشَ السَّوِيق[١]؛ قالوا: إنَّما خرجتُم لتشربوا السَّوِيق، وكانت مع الصحابة تجاراتٌ ونَفَقات، فباعُوا وأصابُوا بالدِّرهم[٢] درهمين، وانصرفُوا إلى المدينة غانمين، وحَسَبَها لهم الرسول ﷺ غزوة[٣].

وظَفِرَ في وجهه ذلك بمعاوية بن المغيرة بن العاص وأبي عَزَّة الجُمَحِيّ، فقتَلَهما[٤].

فعلى هذا القول أنَّ المثبِّط هو نُعَيْم وحدَه، وأُطْلِقَ عليه «الناسُ» على سبيل المجاز، لأنه من جنس الناس، كما يُقال: فلانٌ يركبُ الخيلَ ويلبسُ البُرُود، وما لَه إلا فَرَسٌ واحد وبُرْدٌ واحد. قاله الزمخشريّ. وقال أيضاً: ولأنه[٥] حين قال ذلك لم يَخْلُ من ناسٍ من أهل المدينة يُضامُّونَه ويَصِلُون جَناحَ كلامه، ويُثَبِّطُونَ مِثْلَ تثبيطه. انتهى. ولا يجيءُ هذا على تقدير السؤال ـ وهو أنَّ نُعيماً وحدَه هو المُثَبِّط ـ لأنَّه قد انضافَ إليه ناسٌ، فلا يكونُ إذْ ذاكَ منفرداً بالتثبيط.

وقيل: «النَّاسُ» الأول رَكْبٌ من عبد القيس مرُّوا على أبي سفيان يريدون المدينةَ للمِيرة[٦]، فجعلَ لهم جُعْلاً ـ وهو حَمْلُ إبلهم زبيباً ـ على أن يُخبِرُوا أنه جَمَعَ ليستأصلَ بقيَّة المؤمنين، فأَخْبَرُوا بذلك، فقال الرسول ﷺ وأصحابُه وهم إذ

= المصدرين السالفين بأنَّ أبا سفيان خرجَ في أهل مكة حتى نزل مَجَنَّة حيث كان واعدَ رسولَ الله ﷺ بعد أُحُد موسمَ بدر القابل كما سلف في تفسير الآية قبلها.

(١) يعني الخمر. ويطلق هذا الاسم أيضاً على طعام يُتَّخذ من دقيق الحنطة والشعير. ينظر القاموس (سوق).

(٢) المثبت من (أ) و(ع)، وهو موافق لما في تفسير البغوي ١/ ٣٧٥، والرازي ٩/ ٩٩، وفي النسخ الأخرى: للدرهم.

(٣) أورد ابن عطية ١/ ٥٤٢ قوله ﷺ فيها: «إنها غزوة».

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٤، وتفسير الثعلبي ٢/ ١٩٢. وذكر ابن هشام أن رسول الله ﷺ كان قد أَسَرَ أبا عَزَّة ببدر ثم مَنَّ عليه. فلما ظفرَ به قال: يا رسول الله أَقِلْني، فقال رسول الله ﷺ: «واللهِ لا تمسحُ عارضَيْك بمكة بعدَها وتقول: خدعتُ محمداً مرَّتين، اضرِبْ عُنُقَهُ يا زُبير». فضربَ عُنُقَه.

(٥) في الكشاف ١/ ٤٨١: أو لأنه.

(٦) أي: جَلْب الطعام. (القاموس ـ مير).

ذاك بحمراء الأسد: حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيل[١]، و«النَّاس» الثاني قريش. وهذا القولُ أقربُ إلى مدلول اللفظ.

وجَوَّزُوا في إعراب «الذين قالَ» أوجُهَ «الذين» قبلَه[٢]. والفاعلُ بـ «زادَ» ضمير مستكنّ يعود على المصدر المفهوم مِن «قالَ» أي: فزادَهم ذلك القولُ إيماناً، وأجازَ الزمخشريّ[٣] أن يعودَ إلى المَقُول، وأن يعودَ إلى «الناس» إذا أُرِيدَ به نُعيم وحدَه، وهما ضعيفان من حيث إن الأوّل لا يزيدُ إيماناً إلا النُّطق به، لا هوَ في نفسه، ومن حيث إنَّ الثانيَ إذا أُطلِقَ على المفرد لفظُ الجمع مجازاً فإنَّ الضمائر تجري على ذلك الجمع، لا على المفرد، فتقول: مَفَارِقُهُ شَابَتْ، باعتبار الإخبار عن الجمع، ولا يجوز: مَفَارِقُهُ شابَ، باعتبار: مَفْرِقُهُ شابَ.

وظاهر اللفظ أنَّ الإيمان يزيدُ، ومعناه هنا أنَّ ذلك القولَ زادَهُم تثبيتاً واستعداداً، فزيادة الإيمان على هذا هي في الأعمال.

وقد اختلف العلماء في ذلك، فقال قوم: يزيدُ ويَنْقُصُ باعتبار الطَّاعات، لأنَّها من ثمرات الإيمان، ويَنْقُص بالمعصية، وهو مذهبُ مالك، ونُسب للشافعي.

وقال قوم: من جهة أعمال القلوب، كالنيَّة والإخلاص والخوف والنَّصيحة.

وقال قوم: من طريق الأدلَّة وكثرتِها وتظافرها على معتقد واحد.

وقال قوم: من طريق نزولِ الفرائض والأخبار في مدَّة الرسول.

وقال قوم: لا يقبل الزِّيادة والنَّقص، وهو مذهب أبي حنيفة، وحكاه الباقلانيّ عن الشافعيّ.

---

(١) هذا الكلام هو في قصة مَعْبَد الجُهنيّ الذي سلف في تفسير الآية قبلها، وتفسير الآية (١٥١). فبعدَ أن خذَّلَ معبدٌ أبا سفيان عن المُضيّ إلى رسول الله ﷺ؛ مَرَّ بأبي سفيان الرَّكْبُ من عبد القيس يريدون المدينةَ للمِيرة... الخ. ينظر تفسير كل من الثعلبي ٢/١٩١، والبغوي ١/ ٣٧٤.

(٢) استثنى السمين الحلبي من أوجه إعرابها الرفعَ على الابتداء. الدر المصون ٣/ ٤٨٨.

(٣) الكشاف ١/ ٤٨١.

وقال أبو المعالي في «الإرشاد»[١]: زيادتُه من حيث ثبوتُه وتعاورُه دائماً؛ لأنه عَرَضٌ لا يثبتُ زمانَين، فهو للصالح متعاقبٌ متوالٍ، وللفاسق والغافل غيرُ متوال. فهذا معنى الزِّيادة والنَّقص.

وذهب قوم إلى ما نطقَ به النصُّ، وهو أنَّه يزيدُ ولا ينقص[٢]، وهو مذهب المعتزلة[٣]، ورُوِيَ شِبْهُهُ عن ابن المبارك[٤].

والذي يظهر أن الإيمان إذا أُريدَ به التصديقُ فتعلَّق بشيء واحد أنه تستحيلُ فيه الزِّيادةُ والنَّقص، وأنَّه إذا نُسِبَتْ إليه الزِّيادةُ والنَّقص فإنما ذلك بحَسَبِ متعلَّقاتِه دونَ ذاتِه. وحُجَجُ هذه الأقوال مذكورةٌ في المصنَّفات التي تضمَّنت هذه المسألة[٥]، وقد أفردَها بعض العلماء بالتصنيف في كتاب.

ولما تقدَّم من المُثَبِّطين إخبارٌ بأنَّ قريشاً قد جمعوا لكم، وأمرٌ منهم لهم بخشيتهم لهذا الجمع الذي جمعُوه؛ ترتَّبَ على هذا القول شيئان: أحدُهما قلبيّ، وهو زيادةُ الإيمان، وهو مقابِلٌ للأمر بالخشية، فأخبرَ بحصول طُمأنينة في القلب تُقابلُ الخشية، وأخبرَ بعدُ بما يقابلُ جَمْعَ الناس، وهو أنَّ كافِيَهم شَرَّ الناس هو اللهُ تعالى. ثم أثنَوْا عليه تعالى بقوله: «ونِعْمَ الوَكيلُ»، فدلَّ على أنَّ قولَهم: «حَسْبُنَا اللهُ» هو من المبالغة في التوكُّل عليه، وعَذْقِ أمورِهم به

(١) بمعناه في الإرشاد ص٣٣٥-٣٣٦. والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٢-٥٤٣.
(٢) في (أ) و(ع): «لا يزيد ولا ينقص». وهو قول للمعتزلة أيضاً. وينظر التعليق التالي.
(٣) قال القاضي عبد الجبَّار (وهو من شيوخ المعتزلة) في شرح الأصول الخمسة ص٨٠٢: جملةُ ذلك أن المرجع بالإيمان إذا كان إلى أداء الطاعات الفرائض منها والنوافل وإلى اجتناب المقبحات، فإنَّ ذلك مما يدخله الزيادة والنقصان بلا إشكال. والذي يدلُّ على أن الإيمان يزيد وينقص قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية... وللكلام تتمة، ينظر ثمة.
(٤) أخرج عبد الله بن أحمد في السنة ١/ ٣١٦، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ٥/ ١٠٣٤ عن عبد الله بن المبارك قوله: الإيمان قولٌ وعمل، والإيمان يتفاضل. وأخرجه عبد الله بن أحمد أيضاً عن النَّضر بن شُميل.
(٥) ينظر المصدران السالفان، والأقوال أعلاه بنحوها في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٢-٥٤٣، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٢٣-٤٢٦. وينظر أيضاً شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٤٧٩-٤٨٣، وفتح الباري ١/ ٤٦-٤٧، وروح المعاني ٢٥/ ٢٤١-٢٤٤.

تعالى[١]، فانظُرْ إلى بَرَاعة هذا الكلامِ وبَلاغتِه؛ حيث قُوبلَ قولٌ بقول، ومتعلَّق قلبٍ بمتعلَّقِ قلب.

وتقدَّمَ الكلام في «حَسْبُ» في قوله: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُۖ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، وأنَّه من قولهم: أَحْسَبَهُ الشيءُ: كفاه، وحَسْب بمعنى المُحْسِب، أي: الكافي، أُطلق ويُراد به معنى اسم الفاعل، ألا ترى أنه يُوصف به فتقول: مررتُ برجلٍ حَسْبِك من رجل، أي: كافيك. فتصفُ به النكرة، إذْ إضافتُه غيرُ مَحْضَة لكونه في معنى اسم الفاعل غير الماضي المجرَّد من «أَلْ»، وقال الشاعر:

وحَسْبُكَ مِنْ غِنًى شِبَعٌ ورِيُّ[٢]

أي: كافِيكَ.

و«الوكيل» فَعِيل بمعنى مفعول، أي: المَوْكُولُ إليه الأمور.

قيل: وهذه الحَسْبَلَةُ هي قولُ إبراهيم عليه السلام حين أُلقِيَ في النار[٣].

والمخصوصُ بالمدح محذوف لفهم المعنى، التقدير: ونِعمَ الوكيلُ اللهُ. قال ابنُ الأنباريّ: الوكيل الرَّبُّ. قاله قومٌ. انتهى[٤]. والمعنى أنَّه من أسماء صفاته تعالى كما تقول: القَهَّارُ هو اللهُ. وقيل: هو بمعنى الوَلِيّ والحفيظ، وهو راجع إلى معنى الموكول إليه الأمور. قال الفرَّاء: والوكيلُ الكفيل[٥].

---

(١) أي: تفويض أمورهم إليه وربطها وتخصيصها به تعالى وحده. قال في القاموس (عذق): اعتذق فلاناً بكذا: اختصَّه به. ووقع في مطبوع البحر: رَبْط، بدل: عَذْق. وأظنُّه من تغيير مصححه، وتكرّر تغيير مثلها في الكتاب.

(٢) هو عجزُ بيت لامرئ القيس، وصدرُه في ديوانه ص١٣٧: فتُوسِعُ أهلها أَقِطاً وسَمْناً. والأَقِط: شيء يتخذ من المخيض الغنمي. القاموس (أقط).

(٣) هو في حديث ابن عباس ﷺ عند البخاري (٤٥٦٣)، وكان من الأولى أن لا يُعبِّر المصنِّف عنها بهذه الصيغة «قيل» فهي عند المحدِّثين صيغة تضعيف.

(٤) هو في زاد المسير ١/ ٥٠٥ عن ابن الأنباري.

(٥) لفظ قول الفراء في المصدر السابق وتفسير الرازي ٩/ ١٠١: الوكيل: الكافي. وعبارة زاد المسير (وهو من مصادر المصنف): «قال الفراء: الوكيل: الكافي واختاره ابن القاسم، وقال ابن قتيبة: هو الكفيل». فالظاهر أنه سقط الكلام من قوله: الكافي... إلى قوله ابن قتيبة.

﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ أي: فرجعوا من بدر مصحوبين بنعمة من الله، وهي السَّلامةُ وحَذَرُ العدوِّ إيَّاهم، و«فضل» وهو الرِّبح في التجارة، كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] هذا الذي اختاره الزمخشري في تفسير هذا الانقلاب، ولم يذكر غيرَه، وهو قول مجاهد[١]. قال ابن عطية: والجمهورُ على أنَّ معنى هذه الآية «فانقلبوا بنعمة» يريد في السلامة والظهور في[٢] اتِّباع العدوّ وحماية الحَوْزَة، وبفضلٍ في الأجر الذي حازُوه والفخر الذي تجلَّلوه[٣]، وأنها في غزوة أُحد في الخَرْجة إلى حمراء الأسد، وشذَّ مجاهد وقال: في خروج النبيّ ﷺ إلى بدر الصُّغرى وذكرِ قصَّة نُعيم وأبي سفيان؛ قال: والصوابُ ما قاله الجمهورُ أنَّ هذه الآية نزلت في غزوة حمراء الأسد. انتهى كلامه[٤].

والكلام في هذه الآية مبنيٌّ على الخلاف في قوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ وقد تقدَّم ذكره عند ذكر تفسيرها.

وفرَّق بعضُهم بين الانقلاب والرجوع بأنَّ الانقلابَ صيرورةُ الشيء إلى خلاف ما كان عليه، والرُّجوعُ صيرورتُه إلى ما كان عليه.

قال: ويوضِّحُ هذا أنك تقولُ: انقلبتِ الخمرُ خلًّا، ولا تقول: رَجَعتِ الخمرُ خلًّا. انتهى كلامه، وفي ذلك نظر.

وقيل: النعمة الأجر. قاله مجاهد. وقيل: العافية والنصر. قاله الزَّجَّاج[٥]. قيل: والفَضْلُ: ربح التجارة. قاله مجاهد والسُّدِّيّ والزُّهري، وتقدَّم حكاية هذا القول عن مجاهد.

---

(١) يعني في انقلابهم من بدر الصغرى، وسلف خبره. وينظر الكشاف ١/ ٤٨١.

(٢) المثبت من (ب) و(د٣) و(يه)، وهو كذلك في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٣ (والكلام منه). وفي النسخ الأخرى: وفي.

(٣) المثبت من (ز٢). وفي (د١) و(يه): تخللوه. وفي (أ) و(ع): والفضل الذي تخللوه.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٣.

(٥) في الكلام سقط، ولعل صورته بتمامه: «وقيل: العافية. قاله السُّدِّي، وقيل: الإيمان والنصر. قاله الزجاج». ينظر زاد المسير ١/ ٥٠٥-٥٠٦ والكلام فيه. وهو كذلك في مصادر الأقوال المذكورة. ينظر تفسير الطبري ٦/ ٢٥٣-٢٥٤، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٩٠.

وقيل: أصابوا سريَّةً بالصَّفراء فرُزِقُوا منها. قاله مقاتل. وقيل: الثواب، ذكره الماورديّ(١).

والجملة من قوله: «لَمْ يَمْسَسْهُمْ سوء» في موضع الحال، أي: سالمين. و«بنعمة» حال أيضاً؛ لأن الباء فيه باءُ المصاحبة، أي: انقلبُوا متنعِّمين سالمين. والجملةُ الحاليَّة المنفيَّة بـ «لم» المشتملة على ضمير ذي الحال يجوزُ دخولُ الواو عليها وعدمُ دخولها، فمن الأوّل قولُه تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣] وقولُ الشاعر:

لا تَأْخُذَنِّي بأقوالِ الوُشاة ولَمْ ... أُذْنِبْ وإنْ كَثُرَتْ فيَّ الأقاويلُ(٢)

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥] وقول [أبي] قيس بن الأسْلَت:

وأَضْرِبُ القَوْنَسَ يَوْمَ الوَغَى ... بالسَّيفِ لم يَقْصُرْ به باعي(٣)

ووهم الأستاذ أبو الحسن بنُ خَرُوف في ذلك، فزَعَمَ أنها إذا كانت الجملةُ ماضيةً معنًى لا لفظاً احتاجت إلى الواو؛ كان فيها ضميرٌ أو لم يكن فيها، والمستعملُ في لسان العرب ما ذكرناه.

واتِّباعُهم رضوانَ الله هو بخروجهم إلى العدوّ، وجَراءتِهم وطَوَاعيتهم للرسول ﷺ.

وخَتْمُها بقوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ مناسبٌ لقوله: ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ تفضَّل عليهم بالتيسير والتوفيق فيما فعلُوه، وفي ذلك تحسيرٌ لمن تخلَّف عن الخروج حيث حَرَمُوا أنفسَهم ما فازَ به هؤلاء من الثواب في الآخرة، والثناءِ الجميل في الدنيا.

ورُوِيَ أنهم قالوا: هل يكونُ هذا غَزْوًا؟ فأعطاهم الله تعالى ثوابَ الغَزْو،

(١) تنظر الأقوال في زاد المسير ١/٥٠٦.
(٢) البيت لكعب بن زهير، وهو من قصيدته «بانت سعاد» في ديوانه ص٨٩.
(٣) المفضَّليَّات ص٢٨٦، والتذكرة الحمدونية ٢/٤٣٦. قوله: القَوْنَس: يعني أعلى الرأس. (القاموس: قنس).

ورَضِيَ عنهم[١] وهذه عاقبةُ تفويضِ أمرِهم إليه تعالى، جازاهم بنعمته وفضلِه، وسلامتِهم واتِّباعهم رضاه.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ «مَا» هي الكافَّة لـ «إنَّ» عن العمل، وهي التي يزعُم معظمُ أهلِ أصولِ الفقه أنَّها إذا لم تكن موصولة أفادَتْ مع «إنَّ» الحَصْرَ. و«ذلكم» إشارة إلى الرَّكْب المُثبِّط.

وقيل: المرادُ بالشيطان نُعيم بنُ مسعود، أو أبو سفيان. فعلى هذه الأقوال تكون الإشارة إلى أعيان.

وقيل: «ذلكم» إشارة إلى جميع ما جرى من إخبار الرَّكْب العَبْدِيِّين عن رسالة أبي سفيان وتحميلِ أبي سفيان ذلك الكلام، وجَزَعِ مَنْ جَزِعَ منه من مؤمنٍ أو متردِّد، فعلى هذا تكون الإشارة إلى مَعَانٍ، ولا بدَّ إذْ ذاك من تقدير مضاف محذوف تقديرُه: إنَّما ذلكم فِعْلُ الشيطان. وقَدَّره الزَّمخشريّ[٢]: قولُ الشيطان، أي: قولُ إبليس، فتكون الإشارة على هذا التقدير إلى القول السابق، وهو «إنَّ الناسَ قد جمعُوا لكم فاخْشَوْهُمْ»، وعلى هذه الأقوال كلِّها فالخبرُ عن المبتدأ الذي هو «ذلكم» بالشيطان هو مجاز؛ لأنَّ الأعيان ليست نفسَ الشيطان، ولأنَّ ما جَرَى من قولٍ فقط أو من قولٍ وما انضمَّ إليه ممَّا صَدَرَ من العدوِّ من تخويف وما صدرَ من جَزَع ليس نفسَ قولِ الشيطانِ ولا فِعله، وإنما نُسب إليه وأُضيف؛ لأنه ناشئٌ عن وسوسته وإغوائه وإلقائه.

والتشديد في «يُخوِّفُ» للنَّقل؛ كان قبلَه يتعدَّى لواحد، فلمَّا ضُعِّفَ صارَ يتعدَّى لاثنين، وهو من الأفعال التي يجوز حذف مفعولَيْها أو أحدهما اقتصاراً واختصاراً، وهنا تعدَّى إلى واحد، والآخر محذوفٌ، فيجوز أن يكون الأوَّلَ، ويكون التقدير: يُخَوِّفُكُمْ أولياءَه، أي: شَرَّ أوليائه؛ لأنَّ الذوات لا تُخاف، ويكون المخوَّفون إذْ ذاك المؤمنين، ويجوز أن يكون المحذوفُ المفعولَ الثاني، أي: يخوِّفُ أولياءَه شرَّ الكفَّار، ويكون «أولياءه» في هذا الوجه هم المنافقون ومَنْ في قلبه مرض

(١) تفسير الثعلبي ١/ ١٩٦، والبغوي ١/ ٣٧٥، والكشاف ١/ ٤٨١.
(٢) الكشاف ١/ ٤٨١.

المتخلِّفون عن الخروج مع رسول الله ﷺ، أي: إنَّه لا يتعدَّى تخويفُه المنافقين، ولا يصل إليكم تخويفُه.

وعلى الوجه الأول يكون «أولياءه» هم الكفار أبو سفيان ومن معه، ويدلُّ على هذا الوجه قراءةُ ابن مسعود وابن عباس: «يُخَوِّفُكُم أولياءَه»[١] إذْ ظهرَ فيها أنَّ المحذوف هو المفعولُ الأوَّل.

وقرأ أُبيٌّ والنَّخَعيُّ: «يُخَوِّفُكُم بأوليائه»[٢]، فيجوز أن تكون الباء زائدةً، مثلُها في: يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ[٣]، ويكون المفعول الثاني هو: بأوليائه، أي: أولياءَه، كقراءة الجمهور. ويجوز أن تكون الباء للسبب، ويكون مفعول «يخوِّفُ» الثاني محذوفاً، أي: يخوِّفُكم الشَّرَّ بأوليائه، فيكونون آلةً للتخويف.

وقد حمل بعضُ المُعْرِبين قراءة الجمهور: «يُخَوِّفُ أولياءَه» على أن التقدير: بأوليائه، فيكون إذ ذاك قد حُذف مفعولا «يُخَوِّفُ» لدلالة المعنى على الحذف، والتقدير: يُخَوِّفُكم الشَّرَّ بأوليائه. وهذا بعيد.

والأحسنُ في الإعراب أن يكون «ذلكم» مبتدأ، و«الشيطانُ» خبرُه، و«يُخَوِّفُ» جملة حاليَّة، يدلُّ على أنَّ هذه الجملة حال مجيءُ المفرد منصوباً على الحال مكانَها نحو قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ [النمل: ٥٢]، ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢].

وأجاز أبو البقاء[٤] أن يكون «الشيطان» بدلًا أو عطفَ بيان، ويكون «يُخَوِّفُ» خبرًا عن «ذلكم».

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٧٦ عن ابن مسعود، والمحرر الوجيز ١/ ٥٤٤ عن ابن عباس، والكشاف ١/ ٤٨١ عنهما. ولفظ قراءة ابن مسعود في تفسير الثعلبي ١/ ١٩٧: يخوِّف الناس أولياءه.
(٢) تفسير الثعلبي ١/ ١٩٧، وتفسير البغوي ١/ ٣٧٦، والمحرر الوجيز ١/ ٥٤٤ عن أُبي بن كعب.
(٣) هو قطعة من بيت للراعي النُّميري:

هُنَّ الحرائرُ لا رَبَّاتُ أَخْمِرَةٍ ... سُودُ المَحاجِرِ لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ

وهو في ديوانه ص١٢٢، ونُسب أيضاً للقتَّال الكلابي، وهو في ديوانه ص٥٣.
(٤) الإملاء ١/ ١٥٨.

وقال الزمخشريّ: «الشيطان» خبر «ذلكم» بمعنى: إنما ذلكم المثبِّط هو الشيطان، و«يُخَوِّفُ أولياءَه» جملة مستأنفة بيانٌ لشيطنته[١]، أو «الشيطان» صفة لاسم الإشارة، و«يُخَوِّفُ» الخبر، والمراد بالشيطان نُعيم، أو أبو سفيان. انتهى كلامه. فعلى هذا القول تكون الجملة لا موضع لها من الإعراب، وإنَّما قال: والمراد بالشيطان نُعيم أو أبو سفيان لأنه لا يكونُ صفةً، والمرادُ به إبليس؛ لأنه إذا أُريد به إبليس كان إذ ذاك عَلَماً بالغَلَبة، إذ أصلُه صفة كالعَيُّوق[٢]. ثم غلبَ على إبليس كما غلب العَيُّوق على النجم الذي ينطلق عليه.

وقال ابن عطية[٣]: و«ذلكم» في الإعراب ابتداء، و«الشيطان» مبتدأ آخر، و«يُخَوِّفُ أولياءَه» خبرٌ عن «الشيطان»، والجملة خبر الابتداء الأوّل. وهذا الإعراب خَيْرٌ في تناسق المعنى من أن يكون «الشيطان» خبر «ذلكم» لأنه يجيء في المعنى استعارة بعيدة. انتهى.

وهذا الذي اختاره إعرابٌ لا يجوزُ إنْ كان الضميرُ في «أولياءه» عائداً على «الشيطان» لأنَّ الجملة الواقعة خبراً عن «ذلكم» ليس فيها رابط يربطُها بقوله: «ذلكم» وليست نفسَ المبتدأ في المعنى، نحو قولهم: هِجِّيرَى أبي بكر: لا إله إلا الله، وإن كان عائداً على «ذلكم» ويكون «ذلك» غير الشيطان جاز، وصار نظيرَ: إنما هندٌ زيدٌ يضربُ غلامَها. والمعنى إذ ذاك: إنَّما ذلكم الرَّكْب ـ أو أبو سفيان الشيطان ـ يُخَوِّفُكُم أولياءَه، أي: أولياءَ الركب أو أبي سفيان.

والضمير المنصوب في «تخافوهم» الظاهرُ عَوْدُه على «أولياءَه» هذا إذا كان المرادُ بقوله: «أولياءه» كفارَ قريش وغيرَهم من أولياء الشيطان، وإن كان المرادُ به المنافقين، فيكون عائدًا على «الناس» من قوله: «إنَّ الناس قد جمعوا لكم»، قَوَّى نفوسَ المسلمين، فنهاهم عن خوف أولياء الشيطان، وأمَرَ بخوفه تعالى، وعلَّق ذلك على الإيمان، أي: إنَّ وَصْفَ الإيمان يُناسبُ أن لا يَخاف المؤمنُ إلا الله

---

(١) في (ح) و(د٢) و(ع): لتثبيطه، وفي (أ): لتثبيط. والمثبت من النسخ الأخرى، وهو كذلك في الكشاف ١/ ٤٨١.

(٢) هو نجم أحمر مضيء في طرف المجرَّة الأيمن يتلو الثُّريَّا لا يتقدَّمُها. (القاموس ـ عوق).

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٣-٥٤٤.

تعالى، كقوله: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] وأبرَزَ هذا الشرطَ في صفة الإمكان - وإن كان واقعاً - إذْ هم متَّصفون بالإيمان كما تقول: إنْ كنتَ رجلاً فافْعَلْ كذا.

وأثبتَ أبو عَمرو ياء «وخافونِ»(١) وهي ضمير المفعول، والأصل الإثبات، ويجوز حذفُها، ومنهم مَنْ يحذفُها وصلاً لدلالة الكسرة عليها، ويُثبتُها وقفاً، إذْ لو حَذَفَها لوقفَ على نون الوقاية بالسكون، فتذهبُ الدلالة على المحذوف.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ لمَّا نهى المؤمنين عن خوف أولياء الشيطان وأمَرَهم بخوفِه وحدَه تعالى؛ نهى رسولَه ﷺ عن الحُزن لمسارعة مَنْ سارعَ في الكفر. والمعنى: لا تتوقَّع حُزناً وضرراً منهم، ولذلك علَّله بقوله: «إنهم لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شيئاً» أي: لن يَضُرُّوا نبيَّ الله والمؤمنين.

والمنفيُّ هنا ضررٌ خاصٌّ، وهو إبطالُ الإسلام وكيدُه حتى يضمحلّ، فهذا لن يقعَ أبداً، بل أمْرُهُم يضمحلّ ويعلُو أمرُك عليهم.

قيل: نزلت في المنافقين، وقيل: نزلت في قوم ارْتَدُّوا، وقيل: المرادُ كفَّار قريش، وقيل: رؤساء اليهود(٢). والأوْلَى حَمْلُه على العموم، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١].

وقيل: مثيرُ الحزن هو شَفَقَتُه ﷺ عليهم، وإيثارُه إسلامَهم حتى يُنقذَهم من النار، فنُهِيَ عن المبالغة في ذلك، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وهذا من فَرْطِ رحمتِه للناس ورأفتِه بهم.

وقرأ نافع: «يُحْزِنْكَ» من «أحْزَنَ»، وكذا حيث وقع المضارع إلا في ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] فقرأه من «حَزَنَ» كقراءة الجماعة في جميع

(١) يعني وصلاً، وحَذَفَها وقفاً، وباقي السبعة يحذفونها مطلقاً. ينظر السبعة ص٢٢٣، والتيسير ص٩٣.

(٢) ينظر تفسير كل من الطبري ٦/٢٥٨، والثعلبي ٢/١٩٧، والزمخشري ١/٤٨١، وابن الجوزي ١/٥٠٨، والقرطبي ٥/٤٢٩.

القرآن[١]، يقال: حَزِنَ الرَّجلُ: أصابَه الحُزْنُ، وحَزَنْتُهُ: جعلتُ فيه ذلك، وأحْزَنْته: جعلتُه حزيناً.

وقرأ النحْويُّ: «يُسْرِعُون» من «أَسْرَعَ» في جميع القرآن[٢]؛ قال ابنُ عطية: وقراءة الجماعة أبلغ؛ لأنَّ مَنْ يُسارِعُ غيرَه أشدُّ اجتهاداً من الذي يُسْرِعُ وحدَه.

وفي ضمن قوله: «إنَّهم لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شيئاً» دلالة على أنَّ وبالَ ذلك عائدٌ عليهم، ولا يَضُرُّون إلا أنفسَهم.

وانتصب «شيئاً» على المصدر، أي: شيئاً من الضُّرّ، وقيل: انتصابُه على إسقاط حرف الجرّ، أي: بشيء.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بَيَّنَ تعالى أنَّ ما هم عليه من المسارعة في الكفر هو بإرادة الله تعالى أنَّه لا يهديهم إلى الإيمان فيكونَ لهم نصيبٌ من نعيم الآخرة، فهذه تسليةٌ منه تعالى لنبيِّه ﷺ في ترك الحُزْن؛ لأنَّ مراد الله منهم هو ما هم عليه، ولهم بَدَلَ النعيم عذابٌ عظيم.

قال الزمخشري[٣]: فإن قلت: هلَّا قيل: لا يجعلُ اللهُ لهم حظًّا في الآخرة، وأيُّ فائدة في ذكر الإرادة؟ قلت: فائدتُه الإشعارُ بأنَّ الداعيَ إلى حرمانهم وتعذيبهم قد خَلَصَ خُلُوصاً لم يبق معه صارفٌ قطُّ حين سارعوا في الكفر تنبيهاً على تماديهم في الطغيان، وبلوغِهم الغايةَ فيه، حتى إنَّ أرحمَ الراحمين يُريدُ أن لا يرحمهم. انتهى. وفيه دسيسةُ الاعتزال؛ لأنه استشعرَ أن إرادتَه تعالى أن لا يجعلَ لهم حظًّا في الآخرة موجبة أنَّ سبب ذلك هو مريدٌ له تعالى، وهو الكفر، ومن مذهبه أنَّه

---

(١) السبعة ص٢١٩، والتيسير ص٩١-٩٢. وقرأ أبو جعفر (وهو شيخ نافع) عكس ما قرأ نافع. ونقل ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٥٠٧ عن أبي علي قوله: يُشبه أن يكون نافع تبع في سورة الأنبياء أثراً، أو أحبَّ أن يأخذَ بالوجهين.

(٢) المحتسب ١/ ١٧٧، والمحرر الوجيز ١/ ٥٤٤. والنَّحْويُّ فيهما هو الحرّ. وهو الحُرُّ بن عبد الرحمن، سمع أبا الأسود الدُّؤليّ. ونقلَ البخاري في التاريخ الكبير ٣/ ٨٢ عنه قوله: طلبتُ إعراب القرآن خمسةً وأربعين سنة. أو أربعين سنة.

(٣) الكشاف ١/ ٤٨٢.

تعالى لا يريد الكفر ولا يشاؤه، فتأوَّلَ تعلُّق إرادته بانتفاء حظِّهم من الآخرة بتعلُّقها بانتفاء رحمته لهم لفرط كفرهم.

ونقل الماورديُّ في «يريد» ثلاثة أقوال(١):

أحدها: أنه يحكم بذلك.

والثاني: سيُريد في الآخرة أن يَحرِمَهم ثوابَهم لإحباط أعمالهم بكفرهم.

والثالث: يُريد: يُحبطُ أعمالهم بما استحقُّوه من ذنوبهم. قاله ابنُ إسحاق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١٧٧﴾ هذا عامٌّ في الكفَّار كلِّهم. وقولُه: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾ إن كان عامًّا فكرّر هذا على سبيل التوكيد، وإن كان خاصًّا بالمنافقين أو المرتدِّين أو كفار قريش فيكون ليس تكريراً على سبيل التأكيد، بل حكمٌ على العامّ بأنهم لن يَضُرُّوا اللهَ شيئاً، ويندرجُ فيه ذلك الخاصُّ أيضاً، فيكون الحكم في حقِّهم على سبيل التأكيد، ويكون قد جمع للخاصِّ العذابَ بنوعيه من العِظَم والألم، وهو أبلغُ في حقِّهم في العذاب. وجعلَ ذلك اشتراءً من حيثُ تَمكُّنُهم من قبول الخير والشَّرِّ، فآثَروا الكفرَ على الإيمان.

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ﴾ معنى نُملي: نُمْهِلُ ونَمُدُّ في العُمُر، والمَلَاوَة: المدَّةُ من الدَّهر، والمَلَوَان: الليل والنهار، ويقال: مَلَّاكَ اللهُ نعمتَه، أي: مَنَحَكَهَا عمرًا طويلاً.

وقرأ حمزة: «تَحْسَبَنَّ» بتاء الخطاب(٢)، فيكون «الذين كفروا» مفعولاً أوَّل، ولا يجوز أن يكون «أنَّما نُمْلِي لهم خيرٌ» في موضع المفعول الثاني؛ لأنه يَنْسَبِكُ منه مصدر، والمفعول الثاني في هذا الباب هو الأول من حيث المعنى، والمصدرُ لا يكون الذات، فخُرِّج ذلك على حذف مضاف من الأول، أي: ولا تَحْسَبَنَّ شأنَ الذين كفروا. أو من الثاني، أي: ولا تَحْسَبَنَّ الذين كفروا أصحابَ أنَّ الإملاء خيرٌ لأنفسهم، حتى يصحَّ كونُ الثاني هو الأول.

---

(١) النكت والعيون ١/ ٤٣٩.

(٢) السبعة ص٢٢٠، والتيسير ص٩٢.

وخرَّجه الأستاذ أبو الحسن بن الباذِش والزمخشريّ على أن يكون «أنَّما نُملي لهم خيرٌ لأنفسهم» بدل من «الذين». قال ابنُ الباذِش: ويكون المفعول الثاني حُذف لدلالة الكلام عليه، ويكون التقدير: ولا تحسبن الذين كفروا خيريَّة إملائنا لهم كائنةً أو واقعةً.

وقال الزمخشريّ: فإن قلتَ: كيف صحَّ مجيء البَدَل ولم يذكر إلا أحدَ المفعولين، ولا يجوز الاقتصار بفعل الحِسْبان على مفعول واحد؟

قلت: صحَّ ذلك من حيث إن التعويل على البَدَل والمُبدل منه في حكم المُنَحَّى، ألا تراكَ تقول: جعلتُ متاعَك بعضَه فوق بعض، مع امتناع سكوتك على متاعك؟ انتهى كلامه[(١)].

وهذا التخريجُ الذي خرَّجه ابنُ الباذِش والزمخشريُّ سبَقَهما إليه الكسائيُّ والفرَّاء؛ قالا: وَجْهُ هذه القراءة التكريرُ والتأكيدُ، التقدير: ولا تَحْسَبَنَّ الذين كفروا ولا تَحسَبَنَّ أنَّما نُمْلي لهم[(٢)]. قال الفرَّاء: ومثلُه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم﴾ [الزخرف: ٦٦] أي: ما ينظرون إلا أن تأتيهم. انتهى.

وقد ردَّ بعضُهم قولَ الكسائيّ والفرَّاء، فقال: حَذْفُ المفعول الثاني من هذه الأفعال لا يجوزُ عند أحد، فهو غلطٌ منهما. انتهى.

وقد أشبعنا الكلامَ في حذف أحد مفعولي «ظَنَّ» اختصاراً فيما تقدَّم من قول الزمخشريّ، في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ أنَّ تقديرَه: ولا تَحْسَبَنَّهُمْ، وذكرنا هناك أنَّ مذهب ابنِ مُلْكُون أنه لا يجوزُ ذلك، وأنَّ مذهب الجمهور الجواز لكنه عزيزٌ جدًّا بحيث لا يوجد في لسان العرب إلا نادرًا، وأنَّ القرآن ينبغي أن يُنَزَّه عنه.

وعلى البَدَل خرَّج هذه القراءة أبو إسحاق الزجَّاج[(٣)]، لكن ظاهرُ كلامه

---

(١) الكشاف ١/ ٤٨٢. وينظر الكتاب ١/ ١٥٥-١٥٧.

(٢) عبارة الفرَّاء في معانيه ١/ ٢٤٨: «لا تحسبنّهم لا تحسبَنَّ أنما نُملي لهم». من دون واو بين الفعلين، وكذلك هي عند النحاس في إعراب القرآن ١/ ٤٢١ عن الفراء.

(٣) في معاني القرآن له ١/ ٤٩١.

أنَّها بنصب «خَيْر»؛ قال: وقد قرأ بها خلقٌ كثير، وساقَ عليها مثالاً[١] قولَ الشاعر:

فما كان قيسٌ هُلْكُهُ هلكَ واحدٍ ولكنَّه بنيانُ قومٍ تَهَدَّمَا[٢]

بنصب «هُلْك» الثاني على أنَّ الأول بَدَل[٣]. وعلى هذا يكون «أنَّما نُمْلي» بدل، و«خيراً» المفعول الثاني، أي: إملاءَنا خيراً.

وأنكر أبو بكر بن مجاهد هذه القراءة التي حكاها الزجَّاج، وزعَمَ أنه لم يقرأ بها أحد[٤]، وابنُ مجاهد في باب القراءات هو المرجوعُ إليه.

وقال أبو حاتم: سمعتُ الأخفشَ يذكرُ فتح «أنَّ» يحتجُّ بها لأهل القَدَر، لأنه كان منهم، ويجعلُه على التقديم والتأخير، كأنه قال: ولا تَحْسَبَنَّ[٥] الذين كفروا إنَّما نُملي لهم ليزدادوا إثْماً أنَّما نُمْلي لهم خيرٌ لأنفسهم. انتهى[٦]. وعلى مقالة الأخفش يكون «إنَّما نُملِي لهم ليزدادوا إثماً» في موضع المفعول الثاني، و«أنَّما نُمْلِي لهم خَيْرٌ» مبتدأ وخبر، أي: إملاؤنا لهم خيرٌ لأنفسهم. وجاز الابتداء

---

(١) في (أ) و(ح) و(د٢) و(ع): شاهداً مثالاً.

(٢) البيت لعَبْدَة بن الطبيب. وهو في الكتاب ١/ ١٥٦، ومعاني الزجَّاج كما سلف، والأصول في النحو ٢/ ٥١، والمحلَّى لابن شُقير ص١٠١، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢١، والحُلل ص٤٣، وشرح المفصّل ٣/ ٦٥. ونقل العسكري في ديوان المعاني ٢/ ١٧٥ عن أبي عَمرو بن العلاء قوله: أرْثى بيت قولُ عَبْدة... وذكره.

(٣) فيكون «هُلْك» (الثاني) خبراً لـ «كان». ويجوز الرفع على أن جملة «هُلْكُه هُلْكُ» خبر «كان». ينظر شرح المفصَّل ٣/ ٦٥.

(٤) نقل ابن عطيَّة في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٥ هذا القولَ عن أبي علي الفارسيّ، ونقلَ عنه أيضاً أنه سأل عنها ابن مجاهد، فقال مثله.

(٥) المثبت من (ب) و(ز٢) و(يه) وفي النسخ الأخرى: يحسبنَّ، وهو خطأ.

(٦) كذا نقل أبو حيَّان عن أبي حاتم فتح «أنَّ»، ونقل عنه النحاس في إعرابه ١/ ٤٢١، ومكي في الهداية ٢/ ١١٨٦ كسرَها، وكذلك نقلَها القرطبي ٥/ ٤٣٤ عن النحاس عنه. وكلاهما صواب، فالذي نقلَ الفتح عَنَى قوله: «أنما نملي لهم خيرٌ»، والذي نقل الكسرَ عَنَى قوله: «إنما نملي لهم ليزدادوا»، وقد ذكر السمين في الدُّرّ المصون ٣/ ٥٠٠ أن أبا حاتم عَنَى بفتح «أن» تلك التي في قوله: «أنما نملي لهم خير»، وقيَّد الشوكاني في فتح القدير ١/ ٤٠٤ الأولى بالكسر، والثانية بالفتح، والله أعلم.

بـ «أنَّ» المفتوحة لأنَّ مذهبَ الأخفش جوازُ ذلك، ولإشكال هذه القراءة زعَمَ أبو حاتم وغيرُه أنها لحنٌ وردُّوها.

وقال أبو علي الفارسيّ: ينبغي أن تكون الألف من «إنَّما» مكسورة في هذه القراءة، وتكون «إنَّ» وما دخلت عليه في موضع المفعول الثاني. وقال مكّيّ في «مُشكله»: ما علمتُ أحداً قرأ «تَحْسَبَنَّ» بالتاء من فوق وكسر الألف من «إنَّما»[1].

وقرأ باقي السبعة والجمهور: «يَحْسَبَنَّ» بالياء، وإعراب هذه القراءة ظاهر؛ لأن الفاعل هو «الذين كفروا»، وسدَّت «أنّما نُمْلِي لهم خَيْرٌ» مسدَّ مفعولي «يَحْسَبَنَّ» كما تقول: حسبتُ أنَّ زيدًا قائمٌ، وتَحتملُ «ما» في هذه القراءة وفي التي قبلَها أن تكون موصولة بمعنى «الذي»، ومصدريَّة، أي أن الذي نُملي، وحُذف العائد، أي: نُمْلِيهِ[2]، وفيه شرط جواز الحذف من كونه متصلاً معمولاً لفعل تامّ متعيِّناً للرَّبط، أو أنَّ إملاءَنا خَيْرٌ.

وجوَّز بعضُهم أن يُسْنَدَ الفعلُ إلى النبيّ ﷺ، فيكون فاعلُ الغيب كفاعل الخطاب، فتكون القراءتان بمعنًى واحد.

وقرأ يحيى بن وثَّاب: «ولا يَحْسَبَنَّ» بالياء، و«إنَّما نُملي» بالكسر، فإن كان الفعل مسنَدًا للنبيّ ﷺ فيكون المفعول الأول «الذين كفروا»، ويكون «إنَّما نُملي لهم» جملة في موضع المفعول الثاني، وإن كان مُسْنَدًا للذين كفروا فيحتاج «يَحْسَبنَّ» إلى مفعولين، فلو كانت «أنّما» مفتوحة سدَّتْ مسدَّ المفعولين، ولكنَّ يحيى قرأ بالكسر، فخُرِّجَ ذلك على التعليق، فكُسرت «إنَّ» وإن لم تكن اللام في خبرها، والجملةُ المعلَّق عنها الفعل في موضع مفعولي «يَحْسَبَنَّ»، وهو بعيد لحذف اللامِ نظير تعليق الفعل عن العمل مع حذف اللام من المبتدأ، كقوله:

إنـي وجـدتُ مَـلاكُ الـشِّـيـمَـةِ الأدبُ[3]

---

(١) كلام الفارسي هو بنحوه في الحجة ٣/ ١٠٧، وكلام مكي بنحوه أيضاً في مشكله ١/ ١٨٠. ونقل المصنف عنهما بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٥.

(٢) في (د١) والمطبوع: عليه. وهو تحريف.

(٣) المقرّب ١/ ١١٧، وخزانة الأدب ٩/ ١٣٩ (الشاهد ٧١٣). وروايتُه في شرح الحماسة

أي: لَمَلَاكُ الشِّيمَةِ الأدَبُ، ولولا اعتقاد حذف اللام لنُصب.

وحكى الزمخشريّ أنَّ يحيى بنَ وثَّاب قرأ بكسر «إنما» الأولى وفتحِ الثانية[1]، ووَجْهُ ذلك على أنَّ المعنى: ولا يَحْسَبَنَّ الذين كفروا أنَّما نُملي لهم ليزدادوا إثماً كما يفعلون، وإنَّما هو ليتوبوا ويدخلوا في الإيمان. والجملة من «إنَّما نُملي لهم خيرٌ لأنفسهم» اعتراضٌ بين الفعل ومعموله، ومعناه أنَّ إملاءَنا خيرٌ لأنفسهم إنْ عملوا فيه وعرفوا إنعامَ الله عليهم بتفسيح المدَّة وتركِ المعاجلة بالعقوبة.

وظاهرُ «الذين كفروا» العموم. وقال ابن عباس: نزلت في اليهود والنصارى والمنافقين. وقال عطاء: في قُريظة والنَّضِير. وقال مقاتل: في مشركي مكة[2].

وقال الزجَّاج: هؤلاء قومٌ أعلَم اللهُ نبيَّه أنهم لا يؤمنون أبداً[3]، وليست في كلِّ كافر، إذْ قد يكون الإملاء ممَّا يُدْخِلُه في الإيمان، فيكونُ أحسنَ له. وقال مكّيّ: هذا هو الصحيح من المعاني.

وقال ابن عطية: معنى هذه الآية الردُّ على الكفار في قولهم: إنَّ كونَنا ظاهرين مُمَوَّلين أصِحَّةً دليلٌ على رضا الله بحالنا واستقامةِ طريقِنا[4] عنده، فأخبرَ الله تعالى أنَّ ذلك التأخير والإمهال إنَّما هو إملاءٌ واستدراجٌ لتكثير الآثام. قال عبد الله بنُ مسعود: ما مِنْ نفسٍ بَرَّةٍ ولا فاجرةٍ إلا والموتُ خيرٌ لها، أمَّا البَرَّةُ فلِتُسْرِعَ إلى رحمة الله، وقرأ: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وأمَّا الفاجرةُ فلئلَّا تزدادَ إثماً، وقرأ هذه الآية[5]. انتهى.

= للمرزوقي ٣/ ١١٤٦: وجدتُ ملاكَ الشيمة الأدَبَا. ونُسب فيه لبعض الفزاريين. وعندئذ لا شاهد فيه.

(١) الكشاف ١/ ٤٨٢. وحكاها أيضاً عنه ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص٢٣، وحكى النحاس في إعرابه ١/ ٤٢١ عنه أنه قرأ بكسر «إنَّ». فيهما جميعًا.

(٢) زاد المسير ١/ ٥٠٨.

(٣) إلى هذا الموضع في معاني الزَّجَّاج ١/ ٤٩١، وفيه بعده: وأن بقاءهم يزيدهم كفراً وإثماً. ولم أقف على الكلام الآتي، ولا على قول مكّيّ بعده.

(٤) في المطبوع و«المحرر الوجيز» ١/ ٥٤٦: طريقتنا.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٦. وخبر ابن مسعود أخرجه الطبري ٦/ ٢٦٢.

وقال الزمخشريّ[١]: والإملاءُ لهم تخليتُهم وشأنَهُمْ، مستعارٌ من: أمْلَى لفرسه: إذا أرْخَى له الطِّوَلَ[٢] ليرعى كيف شاء، وقيل: هو إمهالُهم وإطالةُ عُمُرِهم، والمعنى: [ولا تحسبنَّ] أنَّ الإملاءَ خيرٌ لهم من مَنْعِهم أو قَطْع آجالِهم، «إنَّما نُمْلِي لهم» جملةٌ مستأنفة تعليلٌ للجملة قبلَها كأنه قيل: ما بالُهم يحسبون الإملاءَ خيراً لهم؟ فقيل: إنَّما نُملي لهم ليزدادوا إثماً.

فإنْ قلتَ: كيف جازَ أن يكون ازديادُ الإثم غَرَضاً للهِ تعالى في إملائه لهم؟ قلت: هو علَّة الإملاء، وما كلُّ علَّة بغَرَض، ألا تراك تقولُ: قعدتُ عن الغَزْو للعجز والفاقة، وخرجتُ من البلد لمخافة الشرّ، وليس شيءٌ منها بغَرَض لك، وإنما هي عللٌ وأسباب؟ فكذلك ازدياد الإثم جُعل علَّةً للإملاء وسبباً فيه.

فإن قلت: كيف يكون ازديادُ الإثم عِلَّةً للإملاء كما كان العجز عِلَّةً للقعود عن الحرب؟ قلت: لما كان في علم الله المحيط بكلِّ شيء أنهم مزدادون إثماً، فكأنَّ الإملاءَ وقعَ لأجله وبسببه على طريق المجاز. انتهى كلامه. وكلُّه جارٍ على طريقة المعتزلة.

وقال الماتريدي: المعتزلة تناولوها على وجهين:

أحدهما: على التقديم والتأخير، أي: ولا يحسبنَّ الذين كفروا أنَّما نُملي لهم ليزدادوا إثماً إنما نُملي لهم خيرٌ لأنفسهم.

الثاني: أن هذا إخبارٌ منه سبحانه وتعالى عن حِسْبَانهم فيما يؤولُ إليه أمرُهم في العاقبة، بمعنى أنَّهم حَسِبُوا أنَّ إمهالَهم في الدُّنيا وإصابتَهم الصحة والسلامة والأموال خيرٌ لأنفسهم في العاقبة، بل عاقبةُ ذلك شرٌّ، وفي التأويل الأول إفسادُ النظم، وفي الثاني تنبيهٌ على مَنْ لا يجوزُ تنبيهُه، فإنَّ الإخبار عن العاقبة يكون لسهو في الابتداء أو غفلة، والعالمُ في الابتداء لا ينبه نفسه. انتهى كلامه[٣].

وكتبوا «ما» متصلة بـ «انَّ» في الموضعين. قيل: وكان قياس الأولى في علم

---

(١) الكشاف ١/ ٤٨٢-٤٨٣. وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) هو حَبْلٌ يُربَطُ في وَتِدٍ ونحوِه ويُطَوَّلُ للدابَّة فتَرعى مقيَّدةً به.

(٣) ينظر تأويلات أهل السنة ١/ ٣٣٦.

الخطّ أن تكتبَ مفصولة، ولكنَّها وقعت في الإمام متصلة، فلا يُخالَف، وتُتَّبَعُ سنَّةُ الإمام في المصاحف. وأمَّا الثانية فحقُّها أن تكتب متصلةً لأنها كافّة دون الأولى، ولا يجوز أن تكون موصولة بمعنى «الذي» ولا مصدرية، لأنَّ لام «كي» لا يصحُّ وقوعُها خبرًا للمبتدأ ولا لنواسخه.

وقيل: اللام في «ليزدادُوا» للصَّيرورة[١].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ هذه الواو في «ولهم» للعطف، وقال الزمخشريّ: فإن قلتَ: فما معنى قوله: «ولهم عذابٌ مُهين» على هذه القراءة؟ يعني قراءة يحيى بن وثَّاب بكسر «إنَّما» الأولى وفتح الثانية. قلت: معناه: ولا تحسبوا أنَّ إملاءَنا لزيادةِ الإثم وللتعذيب، والواو للحال، كأنه قيل: ليزدادوا إثماً مُعَدًّا لهم عذابٌ مهين. انتهى. والذين نقلوا قراءة يحيى بن وثَّاب لم يذكروا أنَّه قرأ الثانية بالفتح إلا هو، إنَّما ذكروا أنه قرأ الأولى بالكسر، ولكنَّ الزمخشريَّ من ولوعِه بنُصرة مذهبه يرومُ رَدَّ كلِّ شيء إليه[٢]، ولمَّا قرَّر في هذه القراءة أنَّ المعنى على نهي الكافر أن يحسبَ أنَّما يُمْلي الله إليه لزيادة الإثم وأنَّه إنما يُملي لأجل الخير؛ كان قولُه: «ولهم عذابٌ مهين» يدفعُ هذا التفسير، فخرَّجَ ذلك على أن الواو للحال حتى يزولَ هذا التدافع الذي بين هذه القراءة وبين ظاهرِ آخرِ الآية.

ووصفَ تعالى عذابَه في مقاطع هذه الآيات الثلاث بعظيم، وأليم، ومُهين، ولكلٍّ من هذه الصفات مناسبة تقتضي خَتْمَ الآية بها:

أمَّا الأولى: فإنَّ المسارعةَ في الشيء والمبادرةَ في تحصيله والتحلِّي به يقتضي جلالةَ ما سُورِعَ فيه، وأنَّه من النَّفَاسة والعِظَم بحيث يُتَسَابقُ فيه، فخُتمت الآية بعِظَم العذاب[٣]، وهو جزاؤهم على المسارعة في الكفر إشعاراً بخساسة ما سابقوا فيه.

---

(١) سلف من قول الماتريدي أنه من توجيه المعتزلة. وينظر «تفسير» الرازي ٩/ ١٠٨-١٠٩.

(٢) تعقَّب السمين الحلبي في الدر المصون ٣/ ٥٠٥ شيخَه أبا حيَّان بقوله: هذا تحاملٌ عليه لأنه ثقة لا ينقلُ ما لم يُرْوَ. اهـ. قلت: وقد نقل ابنُ خالويه قراءة يحيى بن وثَّاب مثل ما نقلها الزمخشري، وذكرتُها قريباً.

(٣) في (د١) والمطبوع: الثواب. وهو تحريف.

وأمَّا الثانية: فإنه ذكر فيها اشتراء الكفر بالإيمان، ومن عادة المشتري الاغتباطُ بما اشتراه والسرورُ به والفرح، فختمت الآية ـ لأنَّ صفقتَه خسرت ـ بألم العذاب كما يجدُه المشتري المغبونُ في تجارته.

وأمَّا الثالثة فإنه ذكر الإملاء وهو الإمتاعُ بالمال والبنين والصحَّة، وكان هذا الإمتاع سبباً للتعزُّز والتمنُّع والاستطاعة، فخُتمت الآية بإهانة العذاب لهم، وأنَّ ذلك الإملاءَ المُنتَجَ عنه في الدنيا التعزُّزُ والاستطالةُ؛ مآلُه في الآخرة إلى إهانتهم بالعذاب الذي يُهين الجبابرة.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ الخطاب في «أنتم» للمؤمنين، والمعنى: على ما أنتم عليه أيُّها المؤمنون من اختلاطكم بالمنافقين وإشكال أمرِهم وإجراء المنافق مُجرى المؤمن، ولكنه ميَّزَ بعضاً من بعض بما ظهر من هؤلاء وهؤلاء[1] من الأقوال والأفعال. قاله مجاهد وابنُ جُريج وابنُ إسحاق.

وقيل: الخطابُ للكفار، والمعنى: على ما أنتم عليه أيُّها الكفار من اختلاطكم بالمؤمنين. قاله قتادة والسُّدِّيُّ[2]. قال السُّدِّيُّ وغيرُه: قال الكفار في بعضِ جَدَلِهم: أنت يا محمد تزعُم في الرَّجل منَّا أنَّه من أهل النار، وأنه إذا اتَّبعك من أهل الجنة، فكيف يصحُّ هذا؟ ولكن أخْبِرْنا بمن يؤمنُ منَّا وبمن يبقى على كفره. فنزلت، فقيل لهم: لا بدَّ من التمييز[3].

وقال ابن عباس وأكثر المفسرين: الخطاب للكفار والمنافقين[4].

وقيل: الخطاب للمؤمنين والكافرين. وهو قريبٌ مما قاله الزَّمخشريّ، غايةُ

---

(١) بعدها في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٦ (والكلام فيه بنحوه): في أُحُد.

(٢) قول السُّدِّيّ في المصدر السابق: حتى يميز المؤمنين من الكافرين بالإيمان والهجرة. وقول قتادة عند الثعلبي ٢/ ٢٠٠، والبغوي ١/ ٣٧٨: حتى يميز المؤمن من الكافر بالهجرة والجهاد وبنحوه عند الطبري ٦/ ٢٦٣-٢٦٤.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٦. وهو عند الثعلبي ٢/ ١٩٩، والواحدي في أسباب النزول ص١٢٧، والبغوي ١/ ٣٧٧ عن الكلبي.

(٤) تفسير كل من الثعلبي ٢/ ٢٠٠، والقرطبي ٥/ ٤٣٥.

ما فيه أنه بدَّلَ الكافرين بالمنافقين، فقال[١]: فإن قلت: لمن الخطاب في «أنتم»؟ قلت: للمصدِّقين جميعاً من أهل الإخلاص والنِّفاق، كأنَّه قيل: ما كانَ اللهُ لِيذرَ المخلصين منكم على الحال التي أنتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض، وأنه لا يُعرفُ مُخْلِصُكم من منافقِكم لاتِّفاقكم على التصديق جميعاً حتى يميزهم منكم بالوحي إلى نبيِّه بإخباره بأحوالكم.

قال الزَّمخشريّ: ويجوزُ أن يُراد: لا يترُكُكم مختلطين حتى يَمِيزَ الخبيث من الطيِّب بأن يكلِّفكم التكاليفَ الصعبة التي لا يصبرُ عليها إلا الخُلَّصُ الذين امتحن الله قلوبَهم، كبذل الأرواح في الجهاد، وإنفاق الأموال في سبيل الله، فيجعل ذلك عِيَاراً على عقائدكم، وشاهدًا بضمائركم حتى يعلم بعضُكم ما في قلب بعض من طريق الاستدلال، لا من جهة الوقوف على ذات الصدور والاطِّلاع عليها، فإنَّ ذلك مما استأثر الله به. انتهى.

ومعنى هذا القول لابن كَيْسَان؛ قال ابنُ كَيْسَان[٢]: المعنى: ما يذرُكم على الإقرار حتى يختبرَكم بالشرائع والتكاليف. فأخذَه الزمخشريُّ والقولَ الذي قبلَه ونَمَّقَهما ببلاغته وحُسن خَطَابته.

وقيل: المعنى: ما كانَ اللهُ لِيذَرَ أولادَكم الذين حَكَمَ عليهم بالإيمان على ما أنتم عليه من الشِّرك حتى يفرِّق بينكم وبينهم[٣].

وقيل: كانوا يستهزئون بالمؤمنين سِرًّا. فقال: لا يَدَعُكُم على ما أنتم عليه من الطعن فيهم والاستهزاء، ولكن يمتحنُكم لتفتضحوا ويظهرَ نفاقُكم عندهم، لا في دارٍ واحدة[٤]، ولكن يجعلُ لهم دارًا أخرى يَمِيزُ فيها الخبيثَ من الطَّيِّب، فيجعلُ الخبيثَ في النار، والطيِّبَ في الجنَّة.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٨٣.

(٢) بنحوه عند الثعلبي ٢/ ٢٠٠-٢٠١ وابن الجوزي ١/ ٥١١.

(٣) هو كلام القرطبي ٥/ ٤٣٥، وهو معنى قول الضحاك عند الثعلبي ٢/ ٢٠١، والبغوي ١/ ٣٧٨.

(٤) الكلام في تفسير الماتريدي ١/ ٣٣٦، وفيه بعد قوله: نفاقكم عندهم، ما صورتُه: ويحتمل وجهاً آخر، وهو أن قوله: ما كان الله ليذر المؤمنين... أي: لا يدعُ المؤمنين على ما أنتم عليه من النفاق والكفر في دار واحدة... الخ. فلعل في الكلام سقطاً.

والخبيث: الكافر، والطيِّب: المؤمن، وتمييزُه بالهجرة والجهاد[١].

وقال مجاهد: الطيِّب المؤمن، والخبيث المنافق، مُيِّزَ بينهما يومَ أُحُد[٢].

وقيل: الخبيثُ الكافر، والطيِّب المؤمن، وتمييزُه بإخراجِ أحدِهما من صُلب الآخَر[٣].

وقيل: تمييزُ الخبيث هو إخراجُ الذنوب من أجساد المؤمنين بالبلايا والرَّزَايا[٤].

وقيل: الخبيثُ العاصي، والطيِّبُ المطيع.

والألف واللام في الخبيث والطيِّب للجنس، أو للعهد، إذ كان المعهود في ذلك الوقت أنَّ الخبيث هو الكافر، والطيِّب هو المؤمن، كما قال تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور: ٢٦] الآية.

واللام في قوله: «لِيذَرَ» هي المُسمَّاة لامَ الجحود، وهي عند الكوفيين زائدة لتأكيد النفي، وتعمل بنفسها النصب في المضارع، وخبر «كان» هو الفعل بعدَها، فتقول: ما كان زيدٌ يقومُ، وما كان زيد ليقومَ؛ إذا أكَّدْتَ النفي.

ومذهبُ البصريِّين أنَّ خبر «كان» محذوف، وأنَّ النصب بعد هذه اللام بـ «أنْ» مضمرة واجبة الإضمار، وأنَّ اللام مقوِّية لطلب ذلك المحذوف لما بعدَها، وأنَّ التقدير: ما كان الله مريدًا لِيَذَرَ المؤمنين على ما أنتم عليه، أي: ما كان مريداً لتركِ المؤمنين. وقد تكلَّمنا على هذه المسألة في كتابنا المسمَّى بـ «التكميل في شرح التسهيل»[٥].

و«حتى» للغاية المجرَّدة، والتقدير: إلى أن يَمِيزَها. هكذا قالوا. وهو مُشكل على أن تكون غايةً على ظاهر اللفظ، لأنه يكون المعنى: لا يتركُهم مختلطين إلى أن يَمِيز، فيكون قد غَيَّا نفيَ التَّرْك إلى وجود التمييز، فإذا وُجِدَ التمييز تركَهم على

(١) هو بنحوه من قول السُّدِّي وقتادة كما نقلتُه قبل ستة تعاليق.
(٢) تفسير الطبري ٦/ ٣٦٣.
(٣) هو معنى قول الضَّحَّاك الذي أشرتُ إليه قريباً. وينظر تفسير القرطبي ٥/ ٤٣٥.
(٤) بمعناه عند الثعلبي ٢/ ٢٠١، والبغوي ١/ ٣٧٨.
(٥) ينظر تهذيبُه الذي سمَّاه أبو حيان ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب ٤/ ١٦٥٦-١٦٦١.

ما هم عليه من الاختلاط، وصار نظير: ما أضربُ زيداً إلى أن يجيء عَمرو، فمفهومُه أنَّه إذا جاء عَمرو ضربتُ زيداً، وليس المراد من الآية هذا المعنى، وإنَّما هي غايةٌ لِما تضمَّنه الكلام السابق من المعنى الذي يصحُّ أن يكون غاية له، ومعنى «ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه» أنه تعالى يخلص ما بينكم بالابتلاء والامتحان إلى أن يميز الخبيث من الطَّيِّب.

وقرأ الأخَوان: «يُمَيِّزَ» من: «مَيَّزَ». وباقي السبعة: «يَمِيزَ»، من: «مَازَ». وفي رواية عن ابن كثير «يُمِيزَ» من «أمازَ»[1]. والهمزة ليست للنقل، كما أن التضعيف ليس للنقل، بل أفعل وفعَّل بمعنى الثلاثي المجرّد، كحَزَنَ وأحزن، وقَدَرَ الله وقدَّر.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ لمَّا قدَّم أنه تعالى هو الذي يَمِيزُ الخبيثَ من الطيِّب، وليس لهم تمييزُ ذلك؛ أخبر أنه لا يُطْلِعُ أحدًا من المخاطبين على الغيب.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي﴾ أي: يختار ويصطفي ﴿مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فيُطْلِعُه على ما شاء من المغيَّبات، فوقوعُ «لكنَّ» هنا لكون ما بعدَها ضدًّا لِما قبلَها في المعنى، إذْ تضمَّنَ اجتباءُ مَنْ شاءَ من رسله إطْلاعَه إيَّاه على ما أراد تعالى من علم الغيب، فإطْلاعُ الرسولِ على الغيب هو بإطلاع الله تعالى بوَحْي إليه، فيُخبَرُ بأنَّ في الغيب كذا من نفاق هذا وإخلاص هذا، فهو عالمٌ بذلك من جهة الوَحْي لا من جهة اطِّلاعه نفسِه من غير واسطةِ وَحْي على المغيَّبات[2].

قال السُّدِّيّ وغيرُه: ليُطلعكم على الغيب فيمن يؤمن ومن يبقى كافرًا، ولكن هذا رسولٌ مجتبى[3].

وقال مجاهد وابنُ جُريج وغيرُه: هي في أمر أُحُد، أي: ليُطلعَكم على أنَّكم تُهزمون أو تكعُّون[4] عن القتال[5].

---

(١) السبعة ص٢٢٠، والتيسير ص٩٢. والأخوان: حمزة والكسائي. ورواية ابن كثير: يُميز، من «أمازَ» ذكرها الزمخشري ١/ ٤٨٣. والرواية المشهورة عنه: يَمِيزَ، من «مازَ».

(٢) بنحوه في الكشاف ١/ ٤٨٣.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٦. وهو فيه تتمة لقوله السالف أول الآية، وبنحوه في الكشاف ١/ ٤٨٣.

(٤) المثبت من (يه). وفي النسخ الأخرى: تكفُّون. وكعَّ: جَبُنَ وضَعُفَ.

(٥) هذا القول هو معنى قول مجاهد وابن جريج، وهو في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٦.

وقيل: ليُطلعَكم على المنافقين تصريحاً بهم وتسميةً بأعيانهم، ولكن بقرائن أفعالهم وأقوالهم.

والغيبُ هنا ما غاب عن البشر ممَّا هو في علم الله تعالى من الحوادث التي تحدث، ومن الأسرار التي في قلوب المنافقين، ومن الأقوال التي يقولونها إذا غابوا عن الناس.

وقال الزجَّاج وغيرُه: رُوِيَ أنَّ بعض الكفار قال: لِمَ لا يكون جميعُنا أنبياء؟ فنزلت[١].

وقيل: قالوا: لِمَ لَمْ يُوحَ إلينا في أمر محمد؟ فنزلت[٢].

وقيل: قالوا: نحن أكثر أموالاً وأولاداً، فهلَّا كان الوَحْي إلينا. فنزلت.

وقيل: كانت الشياطين يصعدون إلى السماء فيَسْتَرِقُون السمعَ فيأتون بأخبارها إلى الكهنة قبلَ أن يُبعث رسولُ الله ﷺ، فأنزلها الله بعد بعثته، ولكن الله يصطفي من يشاء، فيجعلُه رسولاً فيوحي إليه، أي: ليس الوَحْي من السماء لغير الأنبياء[٣].

وظاهرُ الآية هو ما قدَّمناه من أنه تعالى هو الذي يُميِّز بين الخبيث والطيِّب، أخبرَ أنكم لا تدركون أنتم ذلك؛ لأنه تعالى لم يُطلعكم على ما أكَنَّتْهُ القلوبُ من الإيمان والنِّفاق، ولكنه تعالى يختارُ من رسله من يشاء، فيُطلعُه على ذلك، فتطَّلعون عليه من جهة الرسول بإخباره لكم عن ذلك بوحي الله. وهذا معنى ما رُوي أيضاً عن السُّدِّي أنه قال: حكمَ بأنه يُظهر هذا التمييزَ. ثم بيَّن بهذه الآية أنه لا يجوز أن يجعل هذا التمييز في عوامّ الناس بأنْ يُطْلِعَهم على غيبه فيقولون: إنَّ فلاناً منافق وفلاناً مؤمن، بل سنَّةُ الله تعالى جارية بأن لا يُطْلعَ عوامَّ الناس، ولا سبيل لهم إلى معرفة ذلك إلا بالامتحان، فأمَّا معرفةُ ذلك على سبيل الإطلاع على الغيب فهو من خواصِّ الأنبياء، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ

(١) الكلام السالف هو في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٦، وقول الزجاج في معانيه ١/ ٤٩٢.
(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ. وذكر القرطبي ٥/ ٤٣٦ أن الكفار قالوا: لِمَ لَمْ يُوحَ إلينا؟ فنزلت. وهو بمعنى قول الزجاج السالف.
(٣) الكلام في تفسير الماتريدي ١/ ٣٣٧. وفيه اختصار.

﴿مَن يَشَآءُ﴾ فيخصُّهم[1] بإعلام أنَّ هذا مؤمنٌ وهذا منافقٌ. وهذه الأقوال كلُّها والتفاسيرُ مشعرة بأنَّ هذا الغيب الذي نُفِيَ إطلاعُ اللهِ الناسَ عليه راجعٌ إلى أحوال المؤمنين والمنافقين.

ويحتمل أن يكون ذلك على سبيل العموم، أي: ما كان الله ليجعلَكم كلَّكم عالِمين بالمغيَّبات من حيثُ يعلم الرسول حتى تصيروا مستغنين عنه، بل اللهُ يخصُّ من يشاء من عباده بذلك، وهو الرسول، فتندرجُ أحوالُ المنافق والمؤمن في هذا العامّ.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ لمَّا ذكر تعالى أنَّه يختارُ من رسله مَنْ يشاء فيطلعُه على المغيَّبات؛ أمرَ بالتصديق بالمُجْتَبِي والمُجْتَبَى ومن يشاء، وهو محمد ﷺ، إذْ ثَبتَتْ نبوَّتُه بإطْلاع الله إيَّاه على المغيَّبات وإخبارِه لكم بها في غير ما موطن، وجمعَ في قوله: «ورُسُلِه» تنبيهاً على أنَّ طريقَ إثباتِ نبوَّة جميع الأنبياء واحدة، وهو ظهورُ المُعجِزِ على أيديهم.

قال الزمخشريّ في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾: بأنْ تَقْدُرُوهُ حَقَّ قَدْرِه، وتعلموه[2] وحدَه مطَّلعاً على الغيوب، وأن تُنزلوهم منازلَهم بأن تعلموهم عباداً مُجْتَبَيْن لا يعلمونَ إلا ما علَّمهم الله، ولا يُخبِرون إلا بما أخبر[3] الله به من الغيوب، وليسوا من علم الغيب في شيء. انتهى.

﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ رتَّبَ حصولَ الأجر العظيم على الإيمان، والمعنى: الإيمان السابق، وهو الإيمان بالله ورُسُلِه، وعلى التقوى، وهي زائدةٌ على الإيمان، وكأنَّها مرادةٌ في الجملة السابقة، فكأنه قيل: فآمِنُوا بالله ورُسُلِه واتقوا الله.

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ﴾ قال السُّدِّيُّ وجماعة: نزلت في البُخل بالمال والإنفاق في سبيل الله.

---

(١) في (أ) و(ح) و(د٢) و(ع): فيخصُّه.
(٢) في النسخ الخطية: وتعلمونه. والمثبت من الكشاف ١/ ٤٨٣.
(٣) في الكشاف: أخبرهم.

وقال ابنُ عباس في رواية عطيَّة ومجاهد وابنِ جُريج وجماعة، واختاره الزجَّاج: في أهل الكتاب وبُخلهم ببيان ما علَّمهم الله من أمر محمد ﷺ.

وقيل: نزلت في مانعي الزكاة المفروضة. قاله ابنُ مسعود وأبو هريرة وابنُ عبَّاس في رواية أبي صالح، والشعبيُّ ومجاهد.

وقيل: في النفقة على العِيال وذَوِي الأرحام[١].

ومناسبتُها لِما قبلَها أنه تعالى لمَّا بالغَ في التحريض على بذل الأرواح في الجهاد في الآيات السابقة؛ شَرَعَ في التحريض هنا على بذل الأموال في الجهاد وغيرِه، وبيَّن الوعيدَ الشديدَ لمن يبخل. والبُخْلُ الشرعيُّ عبارة عن منع بذلِ الواجب.

وقرأ حمزة: «تَحْسَبَنَّ» بالتاء[٢]، فتكون «الذين» أول مفعولين لـ «تَحْسَبَنَّ» وهو على حذف مضاف أي: بُخْلَ الذين[٣]. وقرأ باقي السبعة بالياء، فإنْ كان الفعل مسنَدًا إلى ضمير الرسول، أو ضمير أَحَدٍ، فيكون «الذين» هو المفعول الأول على ذلك التقدير، وإن كان «الذين» هو الفاعل فيكون المفعول الأول محذوفاً تقديرُه: بُخْلَهم، وحُذف لدلالة «يَبْخَلون» عليه[٤]، وحذفُه كما قلنا عزيزٌ جدًّا عند الجمهور[٥]، فلذلك الأَوْلى تخريجُ هذه القراءة على قراءة التاء من كون «الذين» هو المفعول الأوّل على حذف مضاف.

و«هو» فصل، وقرأ الأعمش بإسقاط «هو»[٦]، و«خيراً» هو المفعول الثاني لـ «يَحْسَبنَّ».

---

(١) ينظر ما سلف (وبعضه بمعناه) في تفسير الطبري ٦/ ٢٦٩-٢٧٠، وتفسير أبي الليث ١/ ٣١٩، وتفسير البغوي ١/ ٣٧٨، والمحرر الوجيز ١/ ٥٤٧.

(٢) السبعة ص٢٢٠، والتيسير ص٩٢.

(٣) ذكر الزجَّاج ١/ ٤٩٣: أنها مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: أهل القرية.

(٤) بنحوه في الكشاف ١/ ٤٨٤-٤٨٥.

(٥) ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ وأشار إليه في تفسير قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾.

(٦) الكشاف ١/ ٤٨٤.

قال ابنُ عطية: ودلَّ قولُه: «يَبْخَلُون» على هذا البُخل المقدَّر، كما دلَّ السَّفيه على السَّفَه في قول الشاعر:

إذا نُهِيَ السَّفِيهُ جَرَى إليهِ وخَالَفَ والسَّفِيهُ إلى خلافِ

والمعنى: جَرَى إلى السَّفَه. انتهى[١].

وليست الدَّلالة فيهما سواءً لوجهين:

أحدُهما: أنَّ الدالَّ في الآية هو الفعل، وفي البيت هو اسمُ الفاعل، ودلالةُ الفعل على المصدر أقوى من دلالة اسم الفاعل، ولذلك كثُر إضمار المصدر لدلالة الفعل عليه في القرآن وكلام العرب، ولم تكثُر دلالة اسم الفاعل على المصدر وإنَّما جاء في هذا البيت أو في غيره إن وُجد.

والثاني: أنَّ في الآية حَذفاً لظاهر، إذْ قَدَّرُوا المحذوف: بُخْلَهُمْ، وأمَّا في البيت فهو إضمارٌ لا حذفٌ.

ويظهر لي تخريجٌ غريب في الآية تقتضيه قواعدُ العربية، وهو أن تكون المسألة من باب الإعمال إذا جعلنا الفعل مسنَداً لـ «الذين»، وذلك أنَّ «يَحْسَبَنَّ» يطلب مفعولين، و«يَبْخَلُون» يطلب مفعولاً بحرف جَرّ، فقوله: «ما آتاهم» يطلبُه «يَحْسَبَنَّ» على أن يكون المفعولَ الأولَ، ويكون «هو» فَصْلاً، و«خيراً» المفعولَ الثاني، ويطلبه «يَبْخَلُون»بتوسُّط حرف الجرّ، فأعمل الثاني على الأفصح في لسان العرب وعلى ما جاء في القرآن، وهو «يَبْخَلُون» فعُدِّيَ بحرف الجرّ وأخَذَ معموله، وحذف معمول «يَحْسَبَنَّ» الأول، وبقيَ معمولُه الثاني؛ لأنه لم يتنازع فيه، إنَّما التنازعُ بالنسبة إلى المفعول الأول، وساغ حذفُه وحدَه كما ساغ حذفُ المفعولين في مسألة سيبويه: «متى رأيتَ أو قلتَ زيدٌ منطلقٌ؟»[٢] لأنَّ «رأيتَ» و«قلتَ» في هذه المسألة تنازَعا «زيدٌ منطلقٌ»، وفي الآية لم يتنازعا إلا في المفعول الواحد، وتقدير المعنى:

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٧. والبيت في معاني القرآن للفراء ١/ ٢٤٩، ومجالس ثعلب ص٦٠، وتأويل مشكل القرآن ص١٧٦، وتفسير الطبري ٦/ ٢٦٨، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٢، والمحتسب ١/ ١٧٠، والخصائص ٣/ ٤٩، والإنصاف ١/ ١٤٠، وأمالي ابن الشجري ١/ ١٠٣، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٣٨، وهو الشاهد (٣٦٤) في خزانة الأدب ٥/ ٢٢٦.

(٢) الكتاب ١/ ٧٩.

ولا يحسبنَّ ما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم الناسُ الذين يبخلون به. فعلى هذا التقدير والتخريج يكون «هو» فَصْلاً لـ «ما آتاهم» المحذوف، لا لتقديرهم: بُخْلَهم، ونظير هذا التركيب: ظنَّ الذي مرَّ بهند هي المنطلقةَ. المعنى: ظنَّ هندًا الشخصُ الذي مرَّ بها هي المنطلقةَ، فالذي تنازعَه الفعلان هو الاسم الأول، فأعمل الفعل الثاني، وبقيَ الأول يطلبُه محذوفاً، ويطلبُ المفعولَ الثاني مثبتاً، إذْ لم يقع فيه التنازع.

ولما تضمَّن النهيُ انتفاءَ كون البخل أو المبخول به خيراً لهم، وكان تحت الانتفاء قسمان: أحدُهما أن لا خير ولا شرَّ، والآخرُ إثبات الشرّ، أتى بالجملة التي تُعيِّن أحدَ القسمين، وهو إثبات كونه شرًّا لهم.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ هذا تفسير لقوله: «بل هو شرّ لهم»، والظاهرُ حملُه على المجاز، أي: سيلزمون عقابَه إلزام الطَّوْق، وفي المَثَل لمن جاء بهَنَةٍ: تَقَلَّدَها طَوْقَ الحمامة[(١)].

وقال إبراهيم النَّخَعيُّ: سيُجعل لهم يومَ القيامة طَوْقٌ من نار[(٢)].

وقال مجاهد وغيرُه: هو من الطاقة، لا من التطويق، والمعنى: سيحملون عقابَ ما بخلُوا به، كقوله: «وعلى الذين يُطَوَّقونَه»[(٣)]. وقال مجاهد: سيكلَّفون أن يأتوا بمثل ما بَخِلُوا به[(٤)]. وهذا التفسير لا يناسب قوله: إن البخل هو بالعلم الذي

(١) جمهرة الأمثال ١/ ٢٧٥، ومجمع الأمثال ١/ ١٤٥، والمستقصى في الأمثال ٢/ ٣٠. قال العسكري: يقال ذلك للرذيلة يأتيها الإنسان، فيلزمه عارُها. اهـ. والهَنَةُ مؤنث الهَنِ، يعني الشيء، والمرادُ به هنا الشيء القبيح.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٢٧٥، وتفسير الثعلبي ٢/ ٢٠٢، وتفسير البغوي ١/ ٣٧٨، والمحرر الوجيز ١/ ٥٤٧، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٣٩. وفي المصادر الثلاثة الأولى: طوقاً من نار، وهو ما وقع في (أ) و(ع). يعني: يُجعل ما بخلوا به طوقاً...

(٣) هذا من كلام ابن عطية في معنى قولٍ لمجاهد، هو في أهل الكتاب وبخلهم ببيانِ ما علَّمهم الله من أمر محمد ﷺ، وسلف أولَ تفسير هذه الآية، وينظر سياق كلام ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٧. وقوله: «يُطَوَّقُونَه» أي: يُكَلَّفُونَه، وهي قراءة مرويَّة عن ابن عباس ﵄، وهي قراءة شاذة، ووقع في (أ) و(ع): يطيقونه.

(٤) تفسير الطبري ٦/ ٢٧٦، والمحرر الوجيز ١/ ٥٤٧.

تفضَّل اللهُ عليهم به من أمر الرَّسول(١).

وقال أبو وائل: هو الرجلُ يرزقُه الله مالاً، فيمنعُ منه قَرَابتَه الحقَّ الذي جعلَ الله لهم في ماله، فيُجعل حَيَّةً يُطَوَّقُها، فيقول: مالي ولكِ؟ فتقول: أنا مالُك(٢).

وجاء في الحديث: «ما مِنْ ذي رَحِم يأتِي ذا رَحِمِهِ، فيسألُه من فضلٍ عندَه، فيبخلُ به عليه إلا أُخرِجَ له يومَ القيامة شُجَاعٌ من النار يتلمَّظ حتى يُطَوِّقَه»(٣).

والأحاديث في مثل هذا من منعِ الزكاة واكتناز المال كثيرة صحيحة(٤).

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيه قولان:

أحدُهما: أنه تعالى له ملكُ جميعِ ما يقعُ من إرْثٍ في السماوات والأرض، وأنه هو المالكُ له حقيقةً، فكلُّ ما تحصَّلَ لمخلوقاته ممَّا يُنسبُ إليهم مِلْكُه هو مالكه حقيقةً، وإذا كان هو مالكَه؛ فما بالكم(٥) تبخلون بشيء أنتم ممتَّعون به لا مالكوه حقيقةً؟ كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾(٦) [الحديد: ٧].

والقول الثاني: أنه خبرٌ بفَنَاء العالَم، وأنَّ جميعَ ما يُخلِّفونه فهو وارثُه، وهو خطابٌ على ما يفهم البشر دلَّ على فَناء الجميع، وأنَّه لا يبقى مالكٌ إلا الله، وإن كان ملكُه على كل شيء لم يزل(٧).

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ختم بهذه الصفة، ومعناها التهديدُ والوعيدُ على قبيح مرتكبهم من البخل.

---

(١) هو قول لابن عباس ومجاهد وغيرهما، وسلف أول تفسير الآية، وينظر الكلام قبل تعليق.
(٢) تفسير الطبري ٦/ ٢٧٤.
(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣٤٣) من حديث جرير بن عبد الله ﷺ، وجوَّدَ المنذريُّ إسنادَه في الترغيب والترهيب (١٣١٦)، ورواه الطبري في التفسير ٦/ ٢٧١ من حديث حُجير بن بَيان، ولا يصحُّ من حديثه كما نقلَ ابنُ حجر في الإصابة ٢/ ٢٢٠ عن ابن منده. وقد وقع خطأ في التعليق على الحديث في تفسير القرطبي ٥/ ٤٣٩. حيث لم تُذكر إلا رواية حُجير بن بيان عند الطبري المعلولة، فيستدرك من هنا. قوله: شجاع، أي: الحيَّة الذكر.
(٤) قاله ابن عطية بإثر الحديث المذكور آنفاً.
(٥) في (د١) والمطبوع: فما لكم.
(٦) بنحوه في الكشاف ١/ ٤٨٤.
(٧) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٧. وينظر زاد المسير ١/ ٥١٣-٥١٤.

وقرأ ابنُ كثير وأبو عَمرو: «يعملون» على الغَيْبة جريًا على «يبخلون» و«سيُطَوَّقُون»، وقرأ الباقون بالتاء على الالتفات[١]، فيكون ذلك خطاباً للباخلين.

وقال ابن عطية: وذلك على الرُّجوع من الغَيْبة إلى المخاطبة؛ لأنه قد تقدَّم: «وإنْ تُؤمنوا وتَتَّقُوا». انتهى. فلا يكون على قوله التفاتاً، والأحسنُ الالتفات.

وتضمَّنت هذه الآيات فنوناً من البلاغة والبديع.

الاختصاص في «أجْرَ المؤمنين».

والتكرار في «يستبشرون»، وفي «لن يَضُرُّوا اللهَ شيئاً»، وفي اسمه في عدَّة مواضع، وفي «لا يحسبنَّ الذين كفروا[٢]»، وفي ذكر الإملاء.

والطِّباق في «اشْتَرَوُا الكفرَ بالإيمان»، وفي «ليطلعكم على الغيب».

والاستعارة في «يسارعون»، وفي «اشْتَرَوْا»، وفي «نُمْلي»، وفي «ليزدادوا إثماً»، وفي «الخبيث» و«الطيِّب».

والتجنيس المماثل في «فآمِنُوا» «وإنْ تؤمِنُوا».

والالتفات في «أنتم» إن كان خطاباً للمؤمنين، إذ لو جرى على لفظ «المؤمنين» لكان: على ما هم عليه، وإن كان خطاباً لغيرهم كان من تلوين الخطاب، وفي «تعملون خبير» فيمن قرأ بتاء الخطاب.

والحذف في مواضع.

* * *

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ

(١) السبعة ص٢٢٠، والتيسير ص٩٢.
(٢) ضُرب على كلمة «كفروا» في (د٢)، وهو الصواب، لأن التكرار هو في لفظ: «ولا يحسبنَّ الذين».

يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.

المفردات «الزُّبُر» جمع زَبُور، وهو الكتاب، يقال: زَبَرْتُ، أي: كتبتُ، فهو بمعنى مفعول، أي: مَزْبُور، كالرَّكُوب بمعنى المركوب.

وقال امرؤ القيس:

لِمَنْ طَلَلٌ أبْصَرْتُهُ فشَجَاني كخَطِّ زَبُورٍ في عَسِيبِ يَمَانِ(١)

ويقال: زَبَرْتُه: قَرَأْتُه، وزَبَرْتُهُ: حَسَّنْتُهُ، وزَبَرْتُهُ: زَجَرْتُهُ. وقيل: اشتقاق الزَّبُور من الزُّبْرَة، وهي القطعة من الحديد التي تُركت بحالها(٢).

الزَّحْزَحَة: التَّنحية والإبعاد، تكرير الزَّح، وهو الجَذْب بعَجَلة(٣)، ويقال: مكان زَحْزَح أي: بعيد(٤).

الفوز: النجاة مما يُحذر، والظَّفَرُ بما يُؤمَّل، وسُمِّيت الأرضُ القَفْرُ البعيدةُ المَخُوفُ من الهلاك فيها مفازةً على سبيل التفاؤل، لأنَّ مَنْ قطعَها فاز. وقيل: لأنها مَظِنَّةُ تفويز ومَظِنَّةُ هلاك، تقول العرب: فَوَّزَ الرجلُ: ماتَ.

* * *

التفسير ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ نزلت في فِنْحاص بن عازُورا، حاوره أبو بكر في الإسلام وأنْ يُقْرِضَ الله قرضاً حسناً، فقال هذه

---

(١) ديوانه ص٨٥. قال شارحُه: قوله: كخطِّ زَبُورٍ، أي: قد درسَ وخَفِيَتْ آثارُه فلا يُرى منه إلا مثلُ الكتاب في الخفاء... وكان أهل اليمن يكتبون في عَسِيب النخلة عهودَهم وصكوكهم.

(٢) وجمعها زُبَر، مثل غُرْفَة وغُرَف.

(٣) العين ٣/ ١٨، والكشاف ١/ ٤٨٥.

(٤) الكشاف ١/ ٤٨٥، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٠.

المقالةَ، فضربَه أبو بكر، ومنَعَه من قَتْلِه[١] العَهْدُ، فشكاه إلى الرسول، وأنكرَ ما قال، فنزلَتْ تكذيباً لفِنْحاص، وتصديقاً للصِّدِّيق. قاله ابنُ عباس وعكرمة والسُّدِّيُّ ومقاتل وابنُ إسحاق، وساقُوا القصَّة مطوَّلة[٢].

وقال قتادة: نزلَتْ في حُيَيِّ بنِ أخْطَب[٣].

وقال هو أيضاً والحسَنُ ومَعْمَر وغيرُهم: في اليهود ـ وذكر أبو سليمان الدمشقيّ في الياس[٤] بن عَمرو ـ لمَّا نزل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال أو قالوا: إنما يستقرضُ الفقيرُ الغنيَّ[٥].

والظاهر أنَّ قائل ذلك جمع، فيمكن أنَّ ذلك صدرَ من فِنْحاص أو حُيَيّ أوَّلاً، ثم تَقَاوَلَها اليهود، أو صدرَ ذلك من واحد فقط ونُسب للجماعة على عادة كلام العرب في نسبتها إلى القبيلة فِعلَ الواحدِ منها.

ومعنى «لقد سَمِعَ الله» أنه لم يَخْفَ عليه تعالى مقالتُهم، ومقالتُهم هذه إمَّا على سبيل الاستهزاء بما نَزَلَ من طلب الإقراض، وإمَّا على سبيل الجَدَل والإلزام؛ لأنَّ مَنْ طلبَ الإقراضَ كان فقيراً، وإمَّا على سبيل الاعتقاد، ولا يُستبعد ذلك من عقولهم، إذْ قد حَكَى الله عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]. وأيًّا مّا كان من هذه الأسباب فذلك دليلٌ على تمرُّدِهِم في الكفر

(١) المثبت من (ز٢)، وهو موافق لمعنى الخبر في المصادر التالية. ووقع في النسخ الأخرى: قبلهُ، وكُسرت القاف في (ح) و(د١)، والله أعلم.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٢٧٨، وتفسير الثعلبي ٢/ ٢٠٣، وتفسير البغوي ١/ ٣٧٩، والمحرر الوجيز ١/ ٥٤٧، وزاد المسير ١/ ٥١٤.

(٣) تفسير الطبري ٦/ ٢٨٠، والمحرر الوجيز ١/ ٥٤٨، وفيهما أنه لما نزلَ قولُه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ الآية، بمعنى الخبر بعده. وذكره البغوي ١/ ٣٧٩ عن الحسن.

(٤) كذا في النسخ، ولعله وهم، ففي زاد المسير ١/ ١٥ (ورواية أبي سليمان فيه): النَّبَّاش. وفي رواية للطبراني: النَّبَّاش بن قيس. وينظر التعليق التالي.

(٥) تفسير الطبري ٦/ ٢٨٠-٢٨١، وتفسير البغوي ١/ ٣٧٩، والمحرر الوجيز ١/ ٥٤٨. ورواية أبي سليمان الدمشقي في زاد المسير ١/ ٥١٥. وأخرج الطبراني في المعجم الكبير (١٢٤٩٧) أن رجلاً من اليهود يقال له: النَّبَّاش بن قيس قال: إن ربَّك بخيل لا يُنفق! فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ الآية [المائدة: ٦٤].

والمبالغةِ فيه، حيث نَسَبُوا لِمُوجِد الأشياء من العدم الصِّرْف إلى الوجود الغنيِّ بذاته عمَّا أوجَدَه الوصفَ الدالَّ على الافتقار لبعض ما أوجدَه، ونسبوا العكس إلى أنفسهم.

وجاءت الجملة مؤكَّدةً باللام مؤذنةً بعلمه بمقالتهم ومؤكِّدةً له، وحيث نسبُوا إلى الله ما نَسَبُوا أكَّدُوا الجملة بـ «إنَّ» على سبيل المبالغة، وحيث نَسَبُوا إلى أنفسهم ما نَسَبُوا لم يؤكِّدوا، بل أخرجوا الجملةَ مخرجَ ما لا يحتاج إلى تأكيد، كأنَّ الغِنَى وصف لهم(١) لا يمكن فيه نزاع فيحتاجَ إلى أنْ يؤكَّد.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ الظاهرُ إجراء الكتابة على أنها حقيقة؛ قال ذلك كثير من العلماء، وأنها تُكتب الأعمال في صحف، وأنَّ تلك الصُّحفَ هي التي تُوزَنُ، ويُحْدِثُ الله سبحانه وتعالى فيها الخِفَّة والثِّقَل بحسب ما كُتب فيها من الخير والشرّ(٢).

وقيل: «سنَكْتُبُ ما قالوا» في القرآن حتى يعلمَ القوم شدَّةَ تعنُّتِهم وحَسَدِهم في الطعن عليه ﷺ(٣).

وذهب قوم إلى أنَّ الكتابة مجاز، ومعناها الإحصاءُ للشيء وضبطُه وعدمُ إهماله، وكينونتُه في علم الله مثبتاً(٤) محفوظاً لا يُنسى، كما يُثبت المكتوب(٥).

وذهب قومٌ إلى أنَّ معنى «سنَكْتُبُ» سنُوجِبُ عليهم في الآخرة جزاءَ ما قالوه في الدنيا، كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] وجاء «سنكتبُ» بلفظ المستقبل دون لفظ الماضي لأنه تضمَّن معنى المجازاة على ما قالوه، وفيه من التهديد والوعيد ما لا يخفى.

---

(١) بعدها في (أ) و(ع): لا ينفكّ.

(٢) ينظر تفسير كل من الواحدي ١/ ٥٢٨، والبغوي ١/ ٣٧٩. والكلام بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٨.

(٣) تفسير الرازي ٩/ ١١٨.

(٤) في (د١) والمطبوع: شيئاً.

(٥) في (أ) و(ع): كما يُحفظ المكتوب ويُثبت. وينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٤٨، وتفسير الرازي ٩/ ١١٨.

ونُسب إليهم قتلُهم الأنبياء ـ وإنْ كان من فعل آبائهم ـ لمَّا كانوا راضين به، وقد سَمُّوا أيضاً رسولَ الله ﷺ، وهَمُّوا بقتله. ودلَّ هذا القولُ وهذا الفعل على جميع الأقوال والأفعال القبيحة التي صدرت منهم، إذ القولُ في هذه الآية أشنعُ الأقوال في الله تعالى، والقتلُ أشنع الأفعال التي فعلوها مع أنبياء الله تعالى، وتشريكُ القتلِ مع هذا القول يدلُّ على أنَّهما سببانِ في استحقاق العقاب.

ولمَّا كان الصادرُ منهم قولاً وفعلاً ناسبَ أن يكونَ الجزاءُ قولاً وفعلاً، فتضمَّن القولَ والفعلَ قولُه تعالى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، وفي الجمع لهم بين القول والفعل أعظمُ انتقام، ويقال للمُنتَقِم منه: أُحسُ[1] وذُقْ.

وقال أبو سفيان لحمزة ﷺ لمَّا طعنه وَحْشِيّ: ذُقْ عُقَقُ[2].

واستُعير لمباشرة العذاب الذَّوقُ؛ لأنَّ الذَّوق من أبلغ أنواع المباشرة، وحاسَّتُها متميِّزة جدًّا.

والحَرِيق: المُحْرِق، فَعِيل بمعنى مُفْعِل، كأليم بمعنى مُؤلم. وقيل: الحريق طبقة من طِباق جهنَّم. وقيل: الحريق الملتهبُ من النَّار، والنارُ تشمل الملتهبةَ وغيرَ الملتهبة، والملتهبةُ أشدُّها.

والظاهر أنَّ هذا القولَ يكون عند دخولهم جهنَّم. وقيل: قد يكون عند الحساب، أو عند الموت[3].

و«إنَّ» وما بعدَها محكيٌّ بـ «قالوا»، وأجاز أبو البقاء أن يكون محكيًّا بالمصدر، فيكون من باب الإعمال[4]؛ قال: وإعمالُ الأوَّل أصلٌ ضعيف، ويزداد ضعفاً لأنَّ الثاني فعل والأولُ مصدر، وإعمالُ الفعل أقوى.

والظاهر أنَّ «ما» في «ما قالوا» موصولة بمعنى «الذي»، وأُجيزَ أن تكون مصدرية.

---

(١) الضبط من (د١). وينظر الكشاف ١/ ٤٨٤.
(٢) ينظر سيرة ابن هشام ٢/ ٩٣، والكشاف ١/ ٤٨٤. وقوله: عُقَق (وزن عُمر) أي: عاقّ.
(٣) تفسير القرطبي ٥/ ٤٤٤.
(٤) الإملاء ١/ ١٦٠.

وقرأ الجمهور: «سَنَكْتُبُ» و«قَتْلَهم» بالنصب، و«نقول» بنون المتكلم المعظَّم، أو تكون للملائكة، وقرأ الحسن والأعرج: «سَيَكْتُبُ» بالياء على الغَيْبة[١].

وقرأ حمزة: «سيُكْتَبُ» بالياء مبنيًّا للمفعول، و«قَتْلُهم» بالرفع عطفاً على «ما»، إذ هي مرفوعة بـ «سيُكْتَبُ»، و«يقول» بالياء على الغَيْبَة[٢].

وقرأ طلحة بن مصرِّف: «سنَكتبُ ما يقولون»، وحكى الدانيُّ عنه: «ستُكتَبُ ما قالوا» بتاء مضمومة، على معنى: مقالتُهم. وقرأ ابن مسعود: «ويقال ذُوقوا» ونقلوا عن أبي معاذ النَّحويّ أنَّ في حرف ابن مسعود: «سنَكْتُبُ ما يقولون ويُقالُ لهم ذوقوا»[٣].

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ الإشارة إلى ما تقدَّم من عقابهم، ونَسَبَ ما قدَّموه من المعاصي القوليَّة والفعليَّة والاعتقاديَّة إلى الأيدي على سبيل التغليب؛ لأن الأيدي تُزاوِلُ أكثرَ الأعمال، فكأنَّ كلَّ عمل واقعٌ بها.

وهذه الجملة داخلة في المَقُول؛ وُبِّخُوا بذلك، وذُكر لهم السببُ الذي أوجبَ لهم العقابَ، ويحتمل أن يكون خطاباً لمعاصري الرسول ﷺ يوم نزول الآية، فلا يندرجُ تحت معمول قوله: «ونقول».

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ هذا معطوف على قوله: «بما قدَّمت أيديكم» أي: ذلك العقاب حاصلٌ[٤] بسبب معاصيكم وعَدْلِ الله تعالى فيكم.

وجاء لفظ «ظَلَّام» الموضوعُ للتكثير، وهذا تكثير بسبب المتعلَّق، وذهب بعضُهم إلى أن فَعَّالاً قد يجيء لا يُراد به الكثرة كقول طَرَفَة:

وَلَسْتُ بِحَلَّالِ التِّلاعِ مَخَافَةً ... ولكنْ متى يَسْتَرْفِدِ القومُ أَرْفِدِ[٥]

---

(١) الكشاف ١/ ٤٨٤.
(٢) السبعة ص٢٢١، والتيسير ص٩٢.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٩. وينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٤٩، وتفسير الطبري ٦/ ٢٨١، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٣، والمصاحف ١/ ٣١٢، والكشاف ١/ ٤٨٤.
(٤) في (أ) و(ع): واقع.
(٥) ديوان طَرَفَة ص٢٩. وهو في خزانة الأدب ٩/ ٦٦. قوله: التِّلاع: جمع تَلْعَة، وهو مجرى الماء من أعلى الوادي، وأَرْفِد، أي: أُعِين.

لا يريد أنه قد يحلُّ التِّلاعَ قليلاً؛ لأنَّ عَجزَ البيت يدفعُه، فدَلَّ على نفي البُخْل في كلِّ حال، وتمامُ المدحِ لا يحصُلُ بإرادة الكثرة.

وقيل: إذا نَفَى الظُّلمَ الكثير؛ انتفى القليلُ ضرورةً؛ لأنَّ الذي يظلمُ إنَّما يظلمُ لانتفاعه بالظُّلم، فإذا تَرَكَ الكثيرَ مع زيادة نفعه في حقِّ من يجوزُ عليه النفعُ والضَّرر؛ كان للظُّلم القليلِ المنفعةِ أتركَ[١].

وقال القاضي[٢]: العذابُ الذي توعَّد أن يفعلَه بهم لو كان ظلماً لكان عظيماً، فنفاه على حدِّ عِظَمِه لو كان ثابتاً.

والعبيد جمع عبد، كالكَلِيب[٣]، وقد جاء اسم الجمع على هذا الوزن، نحو الضَّئين[٤]، ويُميِّزُه[٥] من جمع التكسير جوازُ الإخبار عنه إخبارَ الواحد، كأسماء الجموع، وناسبَ لفظُ هذا الجمع دون لفظ «العباد» لمناسبة الفواصل التي قبلَه ممَّا جاءت على هذا الوزن، كما ناسبَ ذلك في سورة فُصِّلت[٦]، وكما ناسبَ لفظ «العباد» في سورة غافر[٧] ما قبلَه وما بعدَه.

قال ابن عطيّة[٨]: وجمعَ عَبْداً في هذه الآية على عَبِيد لأنه مكانُ تشفيقٍ وتنجيةٍ من ظُلم. انتهى كلامه، ولا تظهر لي هذه العلَّة التي ذكرها في هذا الجمع.

---

(١) الإملاء ١/ ١٦٠.
(٢) الكلام في تفسير الرازي ٩/ ١٢٠ وليس فيا تعيين القاضي، وغالباً ما يُقصد به فيه عند إطلاقه القاضي عبدُ الجبَّار المعتزلي، غير أنه جاء في الدُّرّ المصون ٣/ ٥١٦ أنه القاضي أبو بكر، والله أعلم.
(٣) يعني جمع كلب. وجعلَهما غير المصنف اسمَيْ جمع. وسلف قول المصنف في تفسير الآية (٧٩): الأصحُّ أن عَبِيد جمع عَبْد. قال: وقيل: اسم جمع. وينظر ارتشاف الضَرَب ١/ ٤٣٨-٤٣٩.
(٤) اسم جمع ضائن، كما ذكر المصنف في تفسير الآية (١٤٣) من سورة الأنعام، وكذلك الضأن. وغيرُه قال: ضَئين جمع ضأن. وتحرَّف لفظ الضئين في (د١) والمطبوع إلى: الضيفن.
(٥) المثبت من (يه). وتحرَّفت اللفظة في النسخ الأخرى إلى: وغيره.
(٦) الآية (٤٦): ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.
(٧) الآية (٣١): ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾.
(٨) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٩.

وقال الزمخشريّ[١]: فإنْ قلتَ: فلِمَ عطف قوله: «وأنَّ الله ليس بظلَّامٍ للعبيد» على «ما قدمت أيديكم» وكيف جعل كونَه غيرَ ظلَّام للعبيد شريكاً لاجْتراحهم السيئات في استحقاق التعذيب؟ قلت: معنى كونِه غيرَ ظلَّام للعبيد أنَّه عادلٌ عليهم، ومن العدل أن يُعاقبَ المسيءَ منهم ويُثيبَ المحسن. انتهى. وفيه رائحةُ الاعتزال.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ قال الكلبيّ[٢]: نزلَتْ في كعب بنِ الأشرف ومالك بنِ الصَّيْف ووَهْب بن يَهُوذا وزيدِ بن تابوه[٣] وفِنْحاص بن عازُورا وحُيَيِّ بن أخْطَب؛ أتَوْا رسولَ الله ﷺ فقالوا: تَزْعُمُ أنَّ اللهَ بَعَثَكَ إلينا رسولاً وأنزلَ عليك كتاباً، وأنَّ الله قد عَهِدَ إلينا في التوراة أن لا نُؤْمِنَ لرسولٍ يزعمُ أنَّه من عند الله حتى يأتينا بقُرْبانٍ تأكُلُه النار، فإنْ جئتَنا به صدَّقْناكَ.

وظاهرُ هذا القول أنَّه عَهِدَ إليهم بذلك في التوراة، فقيل: كان هذا في التوراة، ولكن كان تمامُ الكلام: حتى يأتيَكم المسيحُ ومحمد، فإذا أتَيَاكم فآمِنُوا بهما من غير قُرْبان.

وقيل: كان أمرُ القَرَابينِ ثابتاً إلى أنْ نُسخَتْ على لسان المسيح[٤].

وقيل: ذِكْرُهم هذا العهدَ هو مِن كذبِهم على الله تعالى وافترائهم عليه وعلى أنبيائه[٥].

ومعنى «عَهِدَ»: وَصَّى، والعَهْدُ أخَصُّ من الأمر؛ لأنَّه في كلِّ ما يَتَطاولُ أمرُه ويبقَى في غابر الزمان[٦]، وتقدَّم تفسيره.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٨٤-٤٨٥.

(٢) تحرَّفت اللفظة في النسخ الخطية إلى: الكعبي. والخبر في تفسير الثعلبي ٢/ ٢٠٤، والبغوي ١/ ٣٨٠، وأسباب النزول للواحدي ص١٢٩، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٤٥، والعجاب ٢/ ٨٠٩.

(٣) في العُجاب: بن التابوت. وتحرَّفت اللفظة في النسخ الخطية إلى: مانوه.

(٤) تفسير القرطبي ٥/ ٤٤٥.

(٥) الكشاف ١/ ٤٨٥.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٩.

وتعدَّى «نؤمن» باللام كما في قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ [يونس: ٨٣]، ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾[١].

والقُرْبانُ: ما يُتَقَرَّبُ به من شاة أو بقرة أو غير ذلك، وهو في الأصل مصدر سُمِّيَ المفعولُ به، كالرَّهْن، وكان حُكمُه قديماً في الأنبياء، ألا ترى إلى قصَّة ابنَيْ آدمَ؟

وكان أكلُ النار ذلك القربانَ دليلاً على قَبول العمل من صدقةٍ أو عملٍ أو صدقِ مقالةٍ، وإذا لم تنزل النارُ فليس بمقبول، وكانت النارُ أيضاً تنزلُ للغنائم فتُحرقُها.

وإسنادُ الأكلِ إلى النار مجازٌ واستعارةٌ عن إذهاب الشيء وإفنائه، إذْ حقيقةُ الأكل إنما تُوجدُ في الحيوان المتغذِّي. والقُرْبانُ وأكلُ النار معجزٌ للنبيِّ يُوجبُ الإيمانَ به، فهو وسائرُ المعجزات سواء، ولله أن يُعَيِّن[٢] من الآيات ما شاء لأنبيائه. وهذه نظيرُ ما يقترحونه من الآيات على سبيل التبكيت والتعجيز، وقد أخبر تعالى أنه لو نَزَلَ ما اقترحوه لَمَا آمنُوا.

و«الذين قالوا» صفة لـ: «الذين قالوا». وقال الزَّجَّاج: «الذين» صفة لـ «العبيد»؛ قال ابنُ عطية: وهذا مفسد للمعنى والرَّصْف[٣]. انتهى. وهو كما قال. وجَوَّزُوا قَطْعَه للرَّفع والنصب، وإتْباعَه بدلاً[٤].

وفي «أنْ لا نُؤمنَ» تقدير حرف جرّ، فحُذف، وبقيَ على الخلاف فيه؛ أهو في موضع نصب أو جرّ؟ وأن يكون مفعولاً به على تضمين «عَهِدَ» معنى «ألزمَ»، فكأنه قيل[٥]: ألزمَنا أنْ لا نؤمنَ.

---

(١) المثبت من (يه)، وإنما الشاهد في اللفظ بعدها، فلفظ الآية: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]. ووقع في النسخ الأخرى: يؤمن لله، وهو خطأ، فليس ثمة آية بهذا اللفظ.

(٢) في (ز٢): يعطي.

(٣) المثبت من (ح) و(يه)، وهو كذلك في المحرر الوجيز ١/ ٥٤٩ (والكلام منه). ووقع في النسخ الأخرى: الوصف. وقول الزجاج في معانيه ١/ ٤٩٤.

(٤) الرفع على القطع بإضمار مبتدأ، أي: هم الذين، والنصب بإضمار فعل لائق، أي: أذمُّ الذين، والإتباع بالجرّ على البدل من «الذين قالوا». ينظر الدر المصون ٣/ ٥١٦.

(٥) كلمة «قيل» من (ب) و(يه).

وقرأ عيسى بنُ عمر: «بقُرُبَان» بضم الراء[١]؛ قال ابن عطيَّة: إتْباعاً لضمة القاف، وليس بلغة؛ لأنه ليس في الكلام «فُعُلان» بضم الفاء والعين، وحكى سيبويه: «السُّلُطان» بضم اللام وقال: إنَّ ذلك على الإتْباع. انتهى. ولم يقل سيبويه: إنَّ ذلك على الإتْباع، بل قال: ولا نعلمُ في الكلام فِعِلان ولا فِعُلان ولا شيئاً من هذا النحو لم نذكره[٢]، ولكنه جاء فُعُلان وهو قليل؛ قالوا: السُّلُطان، وهو اسم. انتهى. وقال الشارح: صاحبُ هذه اللغة لا يُسَكِّن ولا يُتْبِع. وكذا ذكرَ التصريفيُّون أنه بناءٌ مستقلّ؛ قالوا فيما لحقه زيادتان بعد اللام وعلى فُعُلان: ولم يجئ إلا اسماً، وهو قليل، نحو: سُلُطان.

﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ردَّ الله تعالى عليهم وأكذَبَهم في اقتراحهم وألزَمَهم أنهم قد جاءتهم الرُّسُل بالذي قالوه من الإتيان بالقُرْبان الذي تأكلُه النار وبالآيات غيرِه، فلم يؤمنوا بهم، بل قتلوهم ولم يكتفوا بتكذيبهم حتى أوقعوا بهم شَرَّ فعل، وهو إتلاف النفس بالقتل، فالمعنى أنَّ هذا منكم معشرَ اليهود تعلُّلٌ وتعنُّت، ولو جاءهم بالقُرْبان لَتعلَّلوا بغير ذلك مما يقترحونه، والاقتراح لا غايةَ له ولا يُجابُ طالبُه إلا إذا أراد الله هلاكَه، كقصَّة قوم صالح وغيرِه، وكذلك قيل لرسول الله ﷺ في اقتراح قريش، فأبى عليه الصلاة والسلام وقال: «بل أدعُوهُم وأُعالِجُهم»[٣].

ومعنى «إن كنتم صادقين»: في دعواكم أنَّ الإيمان يلزم بإتيان البيِّنات والقُرْبان، أو صادقين في أنَّ الله عَهِدَ إليكم.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ الخطابُ للرسول ﷺ، وذلك على سبيل التسلية لمَّا ظهرَ كذبُهم على الله بذكر العهد الذي افترَوْه، وكان في ضمنه تكذيبُه، إذْ علَّقوا الإيمان به على شيء مقترَحٍ منهم

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٤، والقراءات الشاذة ص٢٣، والمحتسب ١/ ١٧٧، والمحرر الوجيز ١/ ٥٤٩، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٤٦.

(٢) المثبت من (ز٢)، وهو كذلك في الكتاب ٤/ ٢٦٠. وفي النسخ الأخرى: يذكره. وقد ذكر سيبويه قبله أوزاناً أخرى مع أمثلتها.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٩. ولم أقف على لفظ الحديث.

على سبيل التعنُّت، ولم يُجبهم الله لذلك، فسُلِّيَ الرسولُ ﷺ بأنَّ هذا دأبُهم، وسبقَ منهم تكذيبُهم لرسلٍ جاؤوا بما يُوجبُ الإيمانَ من ظهور المعجزات الواضحةِ الدَّلالةِ على صدقهم، وبالكتب السَّماوية الإلهية النيِّرة المُزيلةِ لظُلَم الشُّبَه.

والزُّبُر جمع زَبُور، وهو الكتاب؛ سُمِّيَ بذلك قيل: لأنه مكتوب، إذْ يُقال: زَبَرَه: كتبَه، أو لكونه زاجراً، مِن: زَبَرَه: زَجَرَهُ، وبه سُمِّيَ كتابُ داود زَبُوراً لكثرة ما فيه من الزَّواجر والمواعظ، أو لإحكامه، والزَّبْرُ: الإحكام[1].

وقال الزَّجَّاج: الزَّبُور كلُّ كتاب فيه حكمة[2].

قيل: والكتابُ هو الزُّبُر، وجُمع بين اللفظين على سبيل التأكيد، أو لاختلاف معنَيَيْهما مع أنَّ المراد واحد، ولكن اختلف معنياهما من حيث الصفة.

وقيل: الكتابُ هنا جنسٌ للتوراة والإنجيل وغيرِهما.

ويحتمل أن يراد بقوله: «والزُّبُر»: الزَّواجر من غير أن يُراد به الكُتب، أي: جاؤوا بالمعجزات الواضحة والتخويفات والكتبِ النيِّرة.

وجوابُ الشرط محذوف لدلالة الكلام عليه، التقدير: وإنْ يكذبوك فتَسَلَّ[3]، ولا يمكن أن يكون «فقد كُذِّبَ رُسُلٌ» الجوابَ لمضيِّه، إذ جواب الشرط مستقبَل لا محالة لترتُّبِه على المستقبل، وما يُوجد في كلام المُعربين أنَّ مثل هذا من الماضي هو جوابُ الشرط هو على سبيل التسامح لا الحقيقة، وبُنِيَ الفعلُ للمفعول لأنه لم يقتصر في تكذيب الرُّسل على تكذيب اليهود وحدَهم لأنبيائهم، بل نَبَّه على أنَّ من عادة اليهود وغيرِهم من الأمم تكذيبَ الأنبياء، فكأنَّ المعنى: فقد كَذَّبَتْ أممٌ من اليهود وغيرِهم الرسلَ، قيل: ونُكِّرَ «رُسُل» لكثرتهم وشِياعِهم.

---

(١) قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة ٣/ ٤٤ (زبر): الزاء والباء والراء أصلان، أحدهما يدلُّ على إحكام الشيء وتوثيقه، والآخرُ يدلُّ على قراءة وكتابة وما أشبه ذلك. وقال صاحب التاج (زبر): يقال: زَبَرَهُ عن الأمر زَبْراً: نهاه ومَنَعَهُ، وهو مجاز؛ لأنَّ مَنْ زَبَرْتَهُ عن الشيء فقد أَحْكَمْتَه، كزَبْرِ البئر بالطيّ.

(٢) معاني القرآن للزجَّاج ١/ ٤٩٥.

(٣) في (د٢) والمطبوع: فتسلَّ به.

و«من قبلِك» متعلّق بـ «كُذِّبَ»، والجملةُ من قوله: «جاؤوا» في موضع الصفة لـ «رُسُل». انتهى.

والباء في «بالبينات» تحتمل الحال والتعدية، أي: جاؤوا أُممَهم مصحوبين بالبيِّنات، أو جاؤوا بالبيِّنات[١].

وقرأ الجمهور: «والزُّبُر»، وقرأ ابنُ عامر: «وبالزُّبُر»، وكذا هي في مصاحف أهل الشام.

وقرأ هشام بخلاف عنه: «وبالكتاب»، وقرأ الجمهور: «والكتاب»[٢] وإعادةُ حرف الجرّ في العطف هو على سبيل التأكيد، وكان ذكرُ الكتاب مفرداً ـ وإن كان مجموعاً من حيث المعنى ـ لتناسب الفواصل، ولم يُلحظ فيه أن يُجمع كالمعطوف عليهما لذلك.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ تضمَّنتْ هذه الجملةُ وما بعدَها الوعظَ والتَّسليةَ للرسول ﷺ عن الدنيا وأهلها والوعدَ بالنَّجاة في الآخرة، إذْ[٣] بذكرِ الموت والفكرةِ فيه يَهُونُ[٤] ما يصدرُ من الكفار من تكذيبٍ وغيرِه.

ولما تقدَّم ذِكْرُ المكذِّبين الكاذبين على الله من اليهود والمنافقين وذِكْرُ المؤمنين؛ نُبِّهُوا كلُّهم على أنَّهم ميِّتون ومآلُهم إلى الآخرة، ففيها يظهرُ الناجي والهالك، وأنَّ ما تعلَّقوا به في الدنيا من مالٍ وأهلٍ وعشيرةٍ إنَّما هو على سبيل التَّمتُّع المغرور به، كلُّها يضمحلُّ ويزولُ، ولا يبقى إلا ما عملَه الإنسان، وهو يُوَفَّاه في الآخرة؛ يُوَفَّى على طاعته ومعصيته[٥].

وقال محمد بنُ عمر الرازيّ[٦]: في هذه الآية دلالةٌ على أنَّ النفسَ لا تموتُ بموت البَدَن، وعلى أنَّ النفسَ غيرُ البَدَن. انتهى. وهذه مكابرة في الدَّلالة، فإنَّ

---

(١) المثبت من (أ) و(ز٢). وفي النسخ الأخرى: البينات.
(٢) السبعة ص٢٢١، والتيسير ص٩٢.
(٣) لفظة «إذ» من (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه).
(٤) المثبت من النسخ السالفة، وفي النسخ الأخرى: والفكرةُ فيه تُهَوِّنُ... الخ.
(٥) من قوله: كلها يضمحلُّ ويزول... إلى هذا الموضع، ليس في (أ) و(ع).
(٦) تفسيره ٩/ ١٢٥.

ظاهر الآية يدلُّ على أن النفس تموت. وقال أيضاً: لفظ النفس مختصٌّ بالأجسام. انتهى.

وقرأ اليزيديُّ: «ذائقةٌ» بالتنوين «الموتَ» بالنصب، وذلك فيما نقلَه عنه الزمخشريّ[١]، ونقلَها ابنُ عطية عن أبي حَيْوَة والأعمش[٢]، ونقلَها غيرُهما عن الأعمش ويحيى وابن أبي إسحاق[٣]. وقرأ الأعمش فيما نقله الزمخشريّ: «ذائقةُ» بغير تنوين «الموتَ» بالنصب[٤]. ومثلُه:

فألفيتُهُ غيرَ مُستعتِبٍ ولا ذاكِرَ اللهَ إلّا قليلا[٥]

حُذف التنوين لالتقاء الساكنين، كقراءة من قرأ: «قُلْ هو اللهُ أحدُ، اللهُ الصَّمَد»[٦]، بحذف التنوين من «أَحَد».

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لفظ التَّوفية يدلُّ على التكميل يومَ القيامة، فما قبله من كون القبر روضةً من رياض الجنة أو حفرةً من حُفَر النار هو بعضُ الأجور[٧]، وما لم يدخل الجنةَ أو النارَ فهو غيرُ موفًّى، والذي يدلُّ عليه السِّياق أنَّ الأجور هي ما يترتَّبُ على الطاعة والمعصية، وإن كان الغالب في الاستعمال أنَّ الأجر هو ما يترتَّبُ على عمل الطاعة، ولهذا قال ابن عطيَّة[٨]: وخَصَّ تعالى ذِكْرَ الأجور لشرفها وإشارةً إلى مغفرته لمحمد ﷺ وأمَّته، ولا محالةَ أنَّ يوم القيامة يقعُ فيه توفيةُ الأجور وتوفيةُ العقوبات. انتهى.

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ عَلَّقَ الفَوْز ـ وهو نَيلُ الحظِّ من

---

(١) الكشاف ١/ ٤٨٥.
(٢) قوله: والأعمش، من (ب) و(د٣) و(يه). وهو كذلك في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٠.
(٣) تفسير القرطبي ٥/ ٤٤٧.
(٤) الكشاف ١/ ٤٨٥.
(٥) البيت لأبي الأسود الدؤلي، وهو في ديوانه ص٥٤.
(٦) نسبها ابن مجاهد في السبعة ص٧٠١ لأبي عمرو، وزاد ابنُ خالويه ص١٨٢ نسبتَها لنصر بن عاصم.
(٧) قوله: كون القبر روضةً... الخ إشارة إلى قطعة من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، أخرجه الترمذي (٢٦٢٨) مطولاً.
(٨) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٠.

الخير والنَّجاةُ من الشَّرّ ـ على التنحية عن النار ودخولِ الجنة؛ لأنَّ مَنْ لم يُنَحَّ عن النار بل أُدْخِلَها ـ وإنْ كان سيَدْخُلُ الجنة ـ لم يَفُزْ، كمن يدخلُها من أهل الكبائر، ومَنْ نُحِّيَ عنها ولم يدخل الجنة كأصحاب الأعراف لم يَفُزْ أيضاً.

ورُوِيَ في الحديث عن رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أنْ يُزَحْزَحَ عن النار وأنْ يَدْخُلَ الجنَّة؛ فلتَأْتِهِ منيَّتُه وهو يشهدُ أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله، ويأتي إلى الناس ما يُحِبُّ أنْ يُؤْتَى إليه»[١].

قيل: فاز معناه: نجا، وقيل: سبقَ، وقيل: غَنِمَ.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ المَتَاعُ: ما يُستمتعُ به من آلاتٍ وأموالٍ وغيرِ ذلك، وفسَّره عكرمةُ بالفأس والقَصْعَة والقِدْر، وفسَّره الحسن فقال: هو كخُضْرة النبات ولُعَبِ البنات، لا حاصل له، يلمعُ لَمَعَ السَّراب، ويمرُّ مَرَّ السحاب[٢]، وهذا من عكرمة والحسن على سبيل التمثيل.

قال الزمخشريّ[٣]: شَبَّهَ الدنيا بالمتاع الذي يُدَلَّسُ به على المُسْتَام ويُغَرُّ حتى يشتريَه، ثم يتبيَّن له فسادُه وَرَداءَتُه، والشيطانُ هو المُدَلِّس الغَرُور. انتهى.

وقال سعيد بن جبير: إنما هذا لِمن آثرَها على الآخرة، فأمَّا من طلبَ الآخرةَ بها فإنَّها متاعُ بلاغٍ[٤].

وقال عكرمة أيضاً: متاعُ الغُرور: القوارير التي لا بدَّ لها من الانكسار والفساد، فكذلك أمر الدنيا كلُّه. وهذا تشبيهٌ من عكرمة[٥].

والغُرُور: الخَدْعُ والترجية بالباطل. وقال عبد الرحمن بنُ سابط: «متاعُ الغُرُور»: كزَادِ الرَّاعي، يُزَوَّدُ الكَفَّ من التمر والشيءَ من الدقيق يشربُ عليه

---

(١) هو قطعة من حديث عبد الله بن عَمرو أخرجه أحمد (٦٧٩٣)، ومسلم (١٨٤٤) وغيرهما.
(٢) ينظر تفسير كلٍّ من الثعلبي ٢/ ٢٠٦، والبغوي ١/ ٣٨١، والقرطبي ٥/ ٤٥٤. ولم أقف على من نسبَ اللفظ المذكور لعكرمة، وسيعيده المصنف بنحوه.
(٣) الكشاف ١/ ٤٨٧.
(٤) بعدها في زاد المسير ١/٥١٨: إلى ما هو خير منها.
(٥) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٠. وقول عكرمة فيه، وهو بنحو قوله السالف قريباً.

حسب . يعني أنَّ متاعَ الدُّنيا قليلٌ لا يكفي مَنْ تمتَّع به، ولا يبلِّغُه سفرَه. ومن كلام العرب: عِشْ ولا تغترَّ، أي: لا تجتزئ بما لا يكفيك[٢].

وقال ابنُ عرفة: الغُرُور: ما رأيتَ له ظاهرًا حسناً، وله باطنٌ مكروهٌ أو مجهول، والشيطانُ غَرُور لأنه يحملُ على محبَّات الناس[٣]، ووراء ذلك ما يسوء. قال: ومن هذا بيعُ الغَرَر[٤]، وهو ما كان له ظاهرُ بيعٍ[٥] وباطنٌ مجهول.

وقال أبو مسلم الأصبهاني: «وما الحياة الدنيا» بحذف المضاف تقديرُه: وما نَفْعُ الحياةِ الدُّنيا إلا نفعُ الغُرور، أي: نفعٌ يغفل عن النفع الحقيقي لدوامه، وهو النفع في الحياة الأخروية. وإضافةُ المتاع إلى الغُرور إن جُعل الغُرور جمعاً فهو كقولك: نفعُ الغافلين، وإن جُعل مصدراً فهو كقولك: نفعُ إغفال، أي: إهمال، فيُورِثُ الغفلة عن التأهُّب للآخرة.

وقرأ عبد الله بن عُمر: «الغَرُور» بفتح الغين[٦]، وفُسِّر بالشيطان. ويحتمل أن يكون فعولاً بمعنى مفعول، أي: متاعُ المَغْرُور، أي: المخدوع.

وتضمَّنت هذه الآيات: التجنيس المغايرَ في قوله: «الذين قالوا»، والمماثلَ في «قالوا» و«سنكتب ما قالوا»، وفي «كذَّبوك فقد كُذِّبَ».

والطِّباقَ في «فقير» و«أغنياء»، وفي «الموت» و«الحياة»، وفي «زُحْزِحَ عن النار وأدخل الجنة».

والالتفاتَ في «سنكتب» و«نقول»، وفي «أجورَكم» إذ تقدَّمه «كلُّ نفس».

والتكرارَ في لفظ الجلالة، وفي «البيِّنات».

---

(١) تفسير الطبري ٩/ ٢٨٩، والمصدر السابق.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٠، وصدر الكلام للطبري ٦/ ٢٨٩.

(٣) في تفسير القرطبي ٥/ ٤٥٥ (والكلام فيه): محابّ النفس.

(٤) في النسخ الخطية: بيع الغرور. والمثبت من المصدر السابق. والكلام فيه.

(٥) في تفسير القرطبي ٥/ ٤٥٥: ظاهرُ بيعٍ يغرّ.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٠. ووقع في (ب) و(د٣) و(ز٢): عبد الله بن عمير، وفي (يه): عبد الملك بن عمير.

والاستعارة في «سنكتبُ» على قول من لم يجعل الكتابة حقيقةً، وفي «قدَّمَتْ أيديكم»، وفي «تأكلُه النار»، وفي «ذُوقُوا» و«ذائقة»، والمذهب الكلامي في «فلِمَ قتلتُموهم».

والاختصاصَ في «أيديكم»، والإشارةَ في «ذلك»، والشرط المتجوَّز فيه.

والزيادةَ للتوكيد في «وبالزبر وبالكتاب» في قراءة من قرأ كذلك.

والحذفَ في مواضع.

❁ ❁ ❁

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ
وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ
﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ
ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا
وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾
وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ
جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ
النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا
سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا
تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم
مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ
الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ
الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ
عِندِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ
إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ

أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

المفردات الجُنُوب جمع جَنْب، وهو معروف، المرابطةُ: الملازمة في الثَّغْر للجهاد، وأصلُها من رَبْط الخيل.

* * *

التفسير ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ قيل: نزلت في قصَّة عبد الله بن أُبيّ حين قال لرسول الله ﷺ وقد قرأ عليهم الرسولُ القرآن: إنْ كان حقًّا فلا تُؤْذِنا به في مجالسنا. وردَّ عليه ابنُ رَوَاحة، فقال: اغْشَنَا به في مجالسنا يا رسولَ الله. وتَسَابَّ المسلمون والمشركون واليهود(١).

وقيل: فيما جرى بين أبي بكر وفِنْحاص. وقيل: في كعب بن الأشرف؛ وكان يُحَرِّضُ المشركين على الرسول وأصحابه في شِعْرِه(٢).

وأعلمَهم تعالى بهذا الابتلاء والسَّماع ليكونوا أحْمَلَ لِما يَرِدُ عليهم من ذلك إذْ سبقَ الإخبارُ به؛ بخلاف من يأتيه الأمرُ فجاةً فإنه يكثُر تألُّمه(٣).

والآية مَسُوقةٌ في ذَمِّ أهلِ الكتاب وغيرِهم من المشركين، فناسبَتْ ما قبلَها من الآيات التي جاءت في ذَمِّ أهل الكتاب وغيرِهم من المشركين.

والظاهر في قوله: «لَتُبْلَوُنَّ» أنهم المؤمنون. وقال عطاء: المهاجرون، أخذَ المشركون رِبَاعَهم فباعُوها، وأموالَهم فنهبُوها(٤).

---

(١) بنحوه في زاد المسير ١/ ٥١٨. وأخرجه مطولاً البخاري (٤٥٦٦)، ومسلم (١٧٩٨) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) تفسير كل من الطبري ٦/ ٢٩٠-٢٩٣، والثعلبي ٢/ ٢٠٦-٢٠٨، والبغوي ١/ ٣٨١-٣٨٣. وخبر كعب بن الأشرف فيها مطوّل، مع ذكر مقتله. وهو أيضاً في صحيح البخاري (٤٠٣٧)، وصحيح مسلم (١٨٠١) دون ذكر سبب النزول.

(٣) بنحوه في الكشاف ١/ ٤٨٦.

(٤) ينظر تفسير كل من الثعلبي ٢/ ٢٠٨، والبغوي ١/ ٣٨٣. الرِّباع جمع رَبْع، وهي الدار.

وقيل: الابتلاء في الأموال هو ما أُصِيبُوا به من نَهْب أموالِهم وعُدَدِهم يومَ أُحُد.

والظاهر أنَّ هذا خطابٌ للمؤمنين بما سيقعُ من الامتحان؛ في الأموال بما يقعُ فيها من المصائب والذهاب، والإنفاق في سبيل الله، وفي تكاليف الشرع، والابتلاء في النفس بالشهوات، أو الفروض البدنيَّة، أو الأمراض، أو فقد الأقارب والعشائر، أو بالقتل والجِراحات والأسْر وأنواع المخاوف، أقوال(١).

وقدَّم الأموالَ على الأنفس على سبيل الترقِّي إلى الأشرف، أو على سبيل الكثرة؛ لأن الرَّزايا في الأموال أكثر من الرَّزايا في الأنفس(٢).

والأذى اسم جامع في معنى الضَّرر يشملُ أقوالَهم في الرسول وأصحابِه وفي الله تعالى وأنبيائه، والمطاعنَ في الدِّين، وتخطئةَ مَنْ آمنَ، وهِجاءَ كعب وتشبيبَهُ بنساء المؤمنين.

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ﴾ على ذلك الابتلاء وذلك السماع ﴿وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: فإنَّ الصبر والتقوى ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ قيل: من أشدِّها وأحسنِها، والعزمُ إمضاءُ الأمر المُرَوَّى المنقَّح.

وقال النقَّاش: العَزْمُ والحَزْمُ بمعنًى واحد، الحاء مبدَلة من العين؛ قال ابن عطية: وهذا خطأ، الحَزْمُ جُودة النظر في الأمر، ونتيجتُه الحذرُ(٣) من الخطأ فيه، والعَزْمُ قصدُ الإمضاء، والله تعالى يقول: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ﴾ فالمشاورةُ وما كان في معناها هو الحَزْم، والعربُ تقول: قد أَحْزِمُ لو أعْزِمُ(٤).

وقال الزمخشريّ(٥): «من عزم الأمور»: من معزومات الأمور، أي: ممَّا

(١) ينظر الكشاف ١/ ٤٨٦، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٠، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٥٥.
(٢) بنحوه في تفسير القرطبي ٥/ ٤٥٥.
(٣) في المحرر الوجيز ١/ ٥٥١: وتنقيحُه والحذرُ... بدل: ونتيجتُه الحذر. وكلام النقَّاش السالف فيه.
(٤) مجمع الأمثال ٢/ ١٠٤، والمستقصى في أمثال العرب ٢/ ١٨٩. قال الميداني: أي: إن عزمتُ الرأي فأمضيتُه فأنا حازم، وإن تركتُ الصواب وأنا أراه وضيَّعتُ العزمَ لم ينفعني حزمي.
(٥) الكشاف ١/ ٤٨٦.

يجبُ عليه العزمُ من الأمور، أو ممَّا عزمَ الله أن يكون. يعني أنَّ ذلك عَزْمَةٌ من عَزَمات الله، لا بدَّ لكم أن تصبروا وتتقوا. وقيل: «من عَزْمِ الأمور»: من جِدِّها. وقال مجاهد في قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ [محمد: ٢١] أي: فإذا جَدَّ الأمر.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ هم اليهود، أَخَذَ عليهم الميثاقَ في أمر الرسول ﷺ فكتموه ونبذوه. قاله ابنُ عبَّاس وابنُ جُبير والسُّدِّي وابنُ جُرَيْج. وقال قوم: هم اليهود والنَّصارى[(١)].

وقال الجمهور: هي عامَّة في كلِّ مَنْ علَّمه الله علماً، وعلماءُ هذه الأمَّة داخلون في هذا الميثاق[(٢)].

وقرأ ابن كثير وأبو عَمرو وأبو بكر بالياء فيهما على الغَيْبة، إذ قبلَه «الذين أوتوا الكتاب» وبعدَه: «فنبذوه»، وقرأ باقي السبعة بالتاء للخطاب[(٣)]، وهي كقوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣] قُرئ بالياء والتاء[(٤)].

والظاهرُ عودُ الضمير إلى «الكتاب». وقيل: هو للنبي ﷺ[(٥)]. وقيل: للميثاق. وقيل: للإيمان بالرسول لقوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾[(٦)] [آل عمران: ٨١].

وارتفاع «ولا تكتمونه» لكونه وقع حالاً، أي: غيرَ كاتمين له، وليس داخلاً في المُقسَم عليه، فالواوُ للحال لا للعطف، كقوله: ﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ [يونس: ٨٩]، وقوله: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ﴾ [البقرة: ١١٩] في قراءة مَنْ خَفَّفَ النون، ورفعَ اللام.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٥١، وزاد المسير ١/ ٥٢١. وأخرج الطبري الأقوال ٦/ ٢٩٤-٢٩٥.

(٢) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ١/ ٥٥١، وفيه: «وقال جمهور من العلماء». قلت: هو قول قتادة والحسن. ينظر تفسير كل من الطبري ٦/ ٢٩٦، والبغوي ١/ ٣٨٣، والقرطبي ٥/ ٤٥٨.

(٣) السبعة ص٢٢١، والتيسير ص٩٣.

(٤) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء، وقرأ باقي السبعة بالتاء. ينظر السبعة ص١٦٢، والتيسير ص٧٤.

(٥) تفسير الماوردي ١/ ٤٤٢، وزاد المسير ١/ ٥٢١.

(٦) ينظر تفسير الطبري ٦/ ٢٩٧.

وقيل: الواو للعطف، وهو من جملة المُقْسَم عليه، ولمَّا كان منفيًا بـ «لا» لم يؤكَّد، تقول: واللهِ لا يقومُ زيدٌ. فلا تدخلُه النون. وهذا الوَجْهُ عندي أعربُ وأفصح؛ لأنَّ الأول يحتاجُ إلى إضمار مبتدأ قبلَ «لا» حتى تكون الجملة اسميَّة في موضع الحال، إذ المضارع المنفيّ بـ «لا» لا تدخلُ عليه واو الحال.

وقرأ عبدُ الله: «لَيُبَيِّنُونَهُ» بغير نون التوكيد[1]. قال ابن عطيَّة: وقد لا تلزم هذه النونَ لامُ التوكيد. قاله سيبويه. انتهى. وهذا ليس معروفاً من قول البصريين، بل تَعاقُبُ اللام والنونِ[2] عندهم ضرورةٌ، والكوفيون يُجيزون ذلك في سَعَة الكلام فيُجيزون: واللهِ لأقُومُ، وواللهِ أقُومَنَّ.

وقال الشاعر:

وعَيْشِكِ يا سلمى لَأُوقِنُ أنَّني ... لِما شِئْتِ مُسْتَحْلٍ ولو أنه القتلُ

وقال آخر:

يميناً لَأُبْغِضُ كلَّ امرئٍ ... يُزَخْرِفُ قولاً ولا يَفْعَلُ[3]

وقرأ ابنُ عباس: «ميثاقَ النبيِّين لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس»[4] فيعود الضمير في «فنَبَذُوه» على «الناس» إذ يستحيلُ عَوْدُهُ على النبيِّين، أي: فنبذَه الناسُ المبيَّنُ لهم الميثاقُ.

وتقدَّم تفسير معنى ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ في قوله: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠١].

﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ وتقدَّم تفسير مثل هذه الجملة، والكلامُ في إعراب ما بعد «بئس» فأغنى ذلك عن الإعادة.

---

(١) اللفظة في (يه) بالتاء، وكذلك هي في المحرر الوجيز ١/ ٥٥١، والدر المصون ٣/ ٥٢٤. وفي تفسير القرطبي ٥/ ٤٥٩ بالياء.

(٢) أي: عدمُ اجتماعهما والاكتفاءُ بأحدهما.

(٣) البيتان في شرح التسهيل ٣/ ٨٢-٨٣، وهما فيه (مع غيرهما) شاهدان على أنَّ جواب القسم إن كان فعلاً مضارعاً مثبتاً أُريدَ به الحال؛ فإنه يُقرنُ باللام ولا يؤكَّد بالنون لأنها مخصوصة بالمستقبل، ولم يذكر شارحُه أن تعاقب اللام والنون فيهما للضرورة.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٥١، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٥٩. وجاء عند الطبري ٦/ ٢٩٧، وابن أبي حاتم ٣/ ٨٣٥ من قول ابن عباس تفسيراً للآية لا قراءة، ولفظُه: أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ نزلت في المنافقين؛ كانوا يتخلَّفون عن رسول الله ﷺ في الغزْو، فإذا جاء استعذَرُوا له، فيُظهِرُ القبولَ ويستغفرُ لهم، ففضحَهم الله بهذه الآية. قاله أبو سعيد الخدريّ وابنُ زيد وجماعة[1].

وقال كثير من المفسرين: نزلت في أحبار اليهود[2]. و«أتى» تكون بمعنى فَعَلَ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] أي: مفعولاً، فمعنى «بما أتَوْا»: بما فعلُوا، ويدلُّ عليه قراءةُ أُبيّ: «بما فعلوا»[3].

وفي الذي فعلوه وفرحُوا به[4] أقوال:

أحدُها: كَتْمُ ما سألهم عنه الرسولُ، وإخبارُهم بغيره، وأرَوْه أنهم قد أخبروه به واستحمدوا بذلك إليه. قاله ابن عباس.

الثاني: ما أصابُوا من الدُّنيا وأحبُّوا أن يقال: إنهم علماء. قاله ابنُ عباس أيضاً.

الثالث: قولُهم: نحن على دين إبراهيم وكَتْمُهُمْ أمرَ الرسول. قاله ابنُ جُبير.

الرابع: كَتْبُهُم إلى اليهود يهودِ الأرض[5] كلِّها أنَّ محمداً ليس بنبيّ، فاثبُتُوا على دينكم، فاجتمعت كلمتُهم على الكفر به وقالوا: نحن أهلُ الصَّوم والصَّلاة وأولياءُ الله. قاله الضحَّاك والسُّدِّيّ.

الخامس: قولُ يهود خيبر للنبيّ ﷺ وأصحابِه: نحن على دينكم ونحن لكم رِدْءٌ، وهم مستمسكون بضلالهم، وأرادُوا أن يَحْمَدَهم بما لم يفعلوا. قاله قتادة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٧)، ومسلم (٢٧٧٧)، والطبري ٦/ ٣٠٠ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وأخرجه الطبري أيضاً عن ابن زيد. والكلام أعلاه في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٢ بنحوه.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٣٠١، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٢.

(٣) الكشاف ١/ ٤٨٦.

(٤) في (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه): بسببه، بدل: به.

(٥) في النسخ السالفة: كتبهم إلى يهود الأرض.

السادس: تجهيزُ اليهود جيشاً إلى النبيّ ﷺ وإنفاقُهم على ذلك الجيش. قاله النَّخَعيّ.

السابع: إخبارُ جماعة من اليهود للمسلمين حين خرجُوا من عند النبيّ، أنَّ النبيَّ ﷺ قد أخبرهم بأشياءَ عرفُوها، فَحَمِدَهُم المسلمون على ذلك، وأبطنُوا خلافَ ما أظهروا. ذكره الزَّجّاج.

الثامن: اتِّباعُ الناس لهم في تبديل تأويلِ التوراة، وأحبُّوا حَمْدَهُم إياهم على ذلك، وهم لم يفعلوا شيئاً نافعاً ولا صحيحاً. قاله مجاهد.

التاسع: تخلُّف المنافقين عن الغَزْو، وحَلِفُهُم للمسلمين أنهم يُسَرُّون بنصرهم، وكانوا يُحِبُّون أن يقال: إنهم في حكم المجاهدين. قاله أبو سعيد الخدريّ[1].

والأقوال السابقة غير هذا الأخير مبنيَّة على أنَّ الآية نزلت في اليهود.

قيل: ويجوزُ أن يكون شاملاً لكلِّ من يأتي بحسنةٍ فَرِحَ[2] بها فَرَحَ إعجاب، ويُحبُّ أن يَحْمَدَه الناسُ ويُثْنُوا عليه بالدِّيانة والزُّهْد، وبما ليس فيه.

وقرأ ابنُ كثير وأبو عَمرو: «لا يَحْسِبَنَّ» و«فلا يَحْسِبُنَّهم» بالياء فيهما، ورفعِ باء «يَحْسِبُنَّهم»[3] على إسناد «يَحْسِبَنَّ» لـ «الذين».

وخُرِّجت هذه القراءة على وجهين: أحدهما: ما قاله أبو عليّ، وهو أنَّ «لا يَحْسِبَنَّ» لم يقع على شيء، و«الذين» رفعٌ به، وقد تجيءُ هذه الأفعال لغواً لا في حكم الجُمل المفيدة، نحو قوله:

وما خِلْتُ أَبْقَى بيننا من مَوَدَّةٍ عِراضُ المَذَاكي المُسْنِفاتِ القَلائصَا[4]

---

(١) قولُ أبي سعيد هو ما سلف من حديثه قريباً، وهو في الصحيحين. وتنظر الأقوال الأخرى بنحوها في تفسير كل من الطبري ٦/ ٣٠٠-٣٠٦، والثعلبي ٢/ ٢١١، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٢، وزاد المسير ١/ ٥٢٤.

(٢) في (ب) و(د٣): يفرح، وفي (ز٢) و(يه): ففرح.

(٣) مع كسر السين فيهما أيضاً. ينظر السبعة ص٢١٩، والتيسير ص٩٣.

(٤) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص٢٠١. والكلام في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٣. وينظر الحجة ٣/ ١٠٤-١٠٥. قوله: المذاكي: هي الخيل التي أتى عليها بعد قُروحها سنة أو سنتان. قاله القرطبي ٥/ ٤٦٢. والمُسْنِفات: المتقدِّمات.

وقال الخليل: العرب تقول: ما رأيتُه يقول ذلك إلا زيد، وما ظننتُه يقول ذلك إلا زيد. قال ابن عطية: فتتَّجه القراءة بكون «فلا يَحْسِبُنَّهم» بدلاً من الأول. وقد تعدَّى إلى المفعولين، وهما الضمير، و«بمفازة»، واستغنى بذلك عن المفعولين كما استغنى في قوله:

بِأَيِّ كِتابٍ أَمْ بِأَيَّةِ سُنَّةٍ تَرَى حُبَّهُمْ عارًا عليَّ وتَحْسَبُ[1]

أي: وتَحْسَبُ حُبَّهُمْ عارًا عليَّ.

والوجه الثاني: ما قاله الزمخشريّ[2]: وهو أن يكون المفعول الأول محذوفًا على: لا يَحْسبَنَّهُم الذين يفرحون بمفازة، بمعنى: لا يَحْسبَنَّ أنفسَهم الذين يفرحون فائزين. و«فلا يَحْسبُنَّهُمْ» تأكيد. وتقدَّم لنا الردُّ على الزمخشريّ في تقديره: لا يحسبنَّهم الذين، في قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا﴾ وأنَّ هذا التقدير لا يصحُّ، فيُطالَع هناك[3]. وتعدَّى في هذه القراءة فعل الحِسْبان إلى ضميرَيْه المتصلين المرفوع والمنصوب، وهو ممَّا يختصُّ به «ظننتُ» وأخواتُها، ومن غيرها: وَجَدْتُ وفَقَدْتُ وعَدِمتُ، وذلك مقرَّر في علم النحو.

وقرأ حمزة والكسائيّ وعاصم: «لا تَحْسَبَنَّ»، و«فلا تَحْسَبَنَّهُمْ» بتاء الخطاب وفتح الباء فيهما[4] خطاباً للرسول.

وخُرِّجت هذه القراءة على وجهين:

أحدهما: ذكرَه ابنُ عطية: وهو أنَّ المفعول الأول هو «الذين يفرحون»، والثاني محذوف لدلالة ما بعدَه عليه، كما قيل آنفاً في المفعولين، وحسُن تكرار الفعل في «فلا تَحْسَبَنَّهم» لطول الكلام، وهي عادة العرب، وذلك تقريبٌ لذهن المخاطب.

---

(١) البيت للكميت بن زيد، وهو في شرح هاشميات الكميت ص٤٩.

(٢) الكشاف ١/ ٤٨٦-٤٨٧.

(٣) ذكره عند قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في قراءة من قرأ بالياء، لا في الموضع الذي ذكره. ونبَّه عليه السمين في الدر المصون ٣/ ٥٢٧.

(٤) مع كسر السين فيهما للكسائي وفتحها لحمزة وعاصم. ينظر السبعة ص٢١٩، والتيسير ص٩٣.

والوجه الثاني: ذكره الزمخشريّ؛ قال: وأحدُ المفعولين «الذين يفرحون» والثاني «بمفازة»، وقولُه: «فلا تَحْسَبَنَّهم» توكيد، تقديره: لا تَحْسَبَنَّهم فلا تَحْسَبَنَّهم فائزين.

وقرئ: «لا تَحْسَبُنَّ» «فلا تَحْسَبُنَّهُمْ» بتاء الخطاب وضمِّ الباء فيهما خطابًا للمؤمنين[١]، ويجيء الخلاف في المفعول الثاني كالخلاف فيه في قراءة الكوفيين[٢].

وقرأ نافع وابنُ عامر: «لا يَحْسَبَنَّ» بياء الغيبة، و«فلا تَحْسَبَنَّهم» بتاء الخطاب وفتح الباء فيهما[٣]، وخُرِّجت هذه القراءة على حذف مفعولي «يَحْسَبَنَّ» لدلالة ما بعدَهما عليهما، ولا يجوز في هذه القراءة البَدَل الذي جُوِّزَ في قراءة ابن كثير وأبي عَمرو لاختلاف الفعلين لاختلاف الفاعل.

وإذا كان «فلا يَحْسِبُنَّهم»[٤] توكيدًا أو بدلًا فدخول الفاء إنما يتوجَّه على أن تكون زائدة إذ لا يصحُّ أن تكون للعطف، ولا أن تكون فاءَ جواب الجزاء، وأنشدوا على زيادة الفاء قولَ الشاعر:

حتى تَرَكْتُ العائداتِ يَعُدْنَهُ يَقُلْنَ فلا تَبْعَدْ وقلتُ له ابْعَدِ[٥]

وقال آخر:

لمَّا اتَّقَى بيدٍ عظيمٍ جِرْمُها فتَرَكْتُ ضاحِيَ كَفِّهِ يَتَذَبْذَبُ[٦]

أي: لا تَبْعَد، وأي: تَرَكْتُ.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٨٦.

(٢) هم عاصم وحمزة والكسائي، وقراءتهم بتاء الخطاب وفتح الباء في الفعلين كما سلف.

(٣) مع كسر السين فيهما لنافع. ينظر السبعة ص٢١٩-٢٢٠.

(٤) في (ز٢): تحسبنَّهم. وهو صوابٌ أيضاً. وقد أُهملت من النقط في (ح) و(د١) و(د٢).

(٥) البيت لحاتم الطائي، وهو في ديوانه ص٣٧، والأُزهيَّة ص٢٤٧، وسرّ صناعة الإعراب ١/ ٢٦٩ برواية: وحتى (فيكون البيت فيها على الجادَّة دون ثَلْم، والبيت من الطويل) ورواية الديوان: يُنادين لا تَبْعَدْ... الخ. وعندئذ لا شاهد فيه. وجاء في الدّرّ المصون ٣/ ٥٢٩: فيَقُلْنَ لا تَبْعَدْ... وهو خطأ، إذ صارت الفاء فيه للعطف، وقد أورده السمين فيه (كما أورده أبو حيَّان) شاهدًا على زيادة الفاء، ثم إنَّ الشطر فيه بهذا اللفظ صار من الكامل، وهو في الديوان ضمن قصيدة من الطويل. والله أعلم.

(٦) الأُزهيَّة ص٢٤٨، وسرّ صناعة الإعراب ١/ ٢٦٩، ومغني اللبيب ص٢٢٠.

وقرأ النخعيّ ومروان بنُ الحكم: «بما آتَوْ» بمعنى: أعْطَوْا. وقرأ ابنُ جبير والسُّلَميّ: «بما أُوتُوا» مبنيًا للمفعول. وتقدَّمت الأقوال في «أَتَوْا»[1]، وبعضُها يستقيم على هاتين القراءتين. وفي حرف عبد الله: «بما لم يفعلوا بمفازة» وأسقطَ «فلا تحسبنَّهم»[2].

و«مَفازة» مَفْعَلَة، من: «فازَ» وهي للمكان، أي: موضع فوز، أي: نجاة. وقال الفرَّاء، أي: ببُعْدٍ من العذاب[3]؛ لأنَّ الفوزَ معناه التباعد من المكروه.

وفي هذه الآية دلالة على أنَّ تزيُّنَ الإنسان بما ليس فيه وحُبَّهُ المدحَ عليه منهيٌّ عنه ومذمومٌ شرعاً، وقال تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، وفي الحديث الصحيح: «المُتَشَبِّعُ بما ليس فيه كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»[4].

وقد أخبر تعالى عنهم بالعذاب الأليم في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وناسبَ وصفُه بأليم لأجل فرحِهم ومحبَّتِهم المحمدةَ على ما لم يفعلوا.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ ذكر تعالى أنهم من جملةِ ما مَلَكَ، وأنه قادرٌ عليهم، فهم مملوكون مقهورون مقدورٌ عليهم، فليسوا بناجين من العذاب.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ تقدَّم شرحُ نظيرِ هذه الجملة في سورة البقرة.

ومعنى «لآياتٍ»: لعلامات واضحة على الصانع وباهرِ حِكْمتِه، ولا يظهرُ ذلك إلا لذوي العقول، ينظرون في ذلك بطريق الفِكْر والاستدلال، لا كما تنظرُ البهائم.

ورَوَى ابنُ جُبير عن ابن عباس أنَّ قريشاً قالوا للرسول ﷺ: اُدْعُ لنا ربَّك يَجْعَلْ

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٣، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٦٣. ونُسبت قراءة «أوتوا» في الكشاف ١/ ٤٨٧ لعليّ رضي الله عنه.

(٢) تفسير الثعلبي ٥/ ٤٣ (عند تفسير الآية ٤٨ من سورة الروم)، وتفسير البغوي ١/ ٣٨٤.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٥٠ وفيه: ببعيد من العذاب.

(٤) أخرجه البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٣٠) من حديث أسماء رضي الله عنها، وأخرجه مسلم أيضاً (٢١٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

لنا الصَّفَا ذَهَباً، حين ذكرت اليهودُ والنصارى لهم بعضَ ما جاء به من المعجزات موسى وعيسى عليهما السلام، فنزلت هذه الآية[١].

ومناسبةُ هذه الآية لما قبلَها واضحة، لأنه تعالى لمَّا ذكرَ أنه مالكُ السماواتِ والأرض وذكرَ قدرتَه؛ ذكرَ أنَّ في خلقهما دلالاتٍ واضحةً لذوي العقول.

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ الظاهرُ أنَّ الذِّكرَ هو باللسان مع حضور القلب، وأنه التحميدُ والتهليلُ والتكبيرُ، ونحوُ ذلك من الأذكار.

هذه الهيئاتُ الثلاثةُ هي غالبُ ما يكون عليها المرء، فاستُعملت والمرادُ بها جميعُ الأحوال كما قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يذكُر الله على كلِّ أحيانِهِ[٢]. وظاهرُ هذا الحديث والآية يدلُّ على جواز ذِكْرِ الله على الخلاء، وقال بجواز ذلك عبدُ الله بنُ عمر[٣] وابنُ سِيرين والنَّخَعيّ، وكَرِهَه ابنُ عباس وعطاء والشعبيّ.

وعن ابن عمر وعروة بن الزُّبير وجماعة أنَّهم خرجُوا يومَ العيد إلى المصلَّى، فجعلوا يذكرون الله، فقال بعضُهم: أَمَا قال الله تعالى: «قياماً وقعودًا»؟ فقاموا يذكرون الله على أقدامهم. ورُوِيَ في الحديث: «مَنْ أَحَبَّ أن يَرْتَعَ في رياض الجنة فليُكثِرْ ذِكْرَ الله»[٤].

وإلى أنَّ المراد بالذِّكر هو الظاهرُ الذي ذكرناه ذهبَ ابنُ جُريج والجُمهور[٥]. والذِّكْرُ من أعظم العبادات، والأحاديثُ فيه كثيرة.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٣٢٢) وابن أبي حاتم ٣/ ٨٤١، والواحدي في أسباب النزول ص٢٣٣، وفي إسناده يحيى الحِمَّاني، وهو ضعيف. ورواه عَبْد بن حُميد عن ابن جُبير مرسلاً، وهو أصحّ كما قال ابن حجر في العُجاب ٢/ ٨١٦-٨١٧.

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٤١٠)، ومسلم (٣٧٣)، وعلَّقه البخاري بصيغة الجزم في كتاب الحيض (قبل الحديث ٣٠٥).

(٣) كذا في الأصول الخطية لتفسير القرطبي ٥/ ٤٦٦، وفي إكمال المعلم ٢/ ٢٣٠: عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٤) الخبران في الكشاف ١/ ٤٨٨. وذكر الثعلبي ٢/ ٢١٢ الحديث عن معاذ بن جبل ﷺ.

(٥) قول ابن جُريج الذي أخرجه عنه الطبري ٦/ ٣٠٩: هو ذِكْرُ الله في الصلاة وفي غير الصلاة، وقراءةُ القرآن. والمعنى الذي أورده المصنف ذكره جميع المفسِّرين.

وقال ابنُ عبَّاس وجماعة: المرادُ بالذِّكر: الصلوات، ففي حال العُذر يُصَلُّونها قعودًا وعلى جُنوبهم[١]، وسمَّاها ذِكْرًا لاشتمالها على الذِّكْر. وقيل: المرادُ بالذِّكْر صلاةُ النَّفْل يُصلِّيها كيف شاء.

وجَلَبَ المفسِّرون في هذه الآية أشياءَ من كيفية إيقاع الصلاة في القيام والقعود والاضطجاع وخلافَ الفقهاء في ذلك ودلائلَهم، وذلك مقرَّر في علم الفقه[٢].

وعلى الظاهر من تفسير الذِّكر فتقديمُ القيام لأنَّ الذِّكْرَ فيه أخفُّ على الإنسان، ثم انتقلَ إلى حالة القعود، والذِّكْرُ فيه أشقُّ منه في حالة القيام، لأنَّ الإنسان لا يقعدُ غالباً إلا لشُغْلٍ يشتغلُ به من صناعةٍ أو غيرها، ثم انتقل إلى هيئة الاضطجاع، والذِّكْرُ فيها أشقُّ منه في هيئة القعود، لأنَّ الاضطجاع هو هيئةُ استراحة وفراغ عن الشواغل.

ويمكن في هذه الهيئات أن يكون التقديم لما هو أقصرُ زماناً، فبُدِئَ بالقيام لأنها هيئةٌ زمانُها في الغالب أقصرُ من زمان القُعود، ثم بالقُعود إذْ زمانُه أطولُ، ثم بالاضطجاع[٣] إذ زمانُه أطولُ من زمان القعود، ألا ترى أنَّ الليلَ جميعَه هو زمانُ الاضطجاع، وهو مقابلٌ لزمان القعود والقيام، وهو النهار.

وأمَّا إذا كان الذِّكْرُ يُراد به الصلاةُ المفروضة فالهيئاتُ جاءت على سبيل القُدرة[٤]، فمَنْ قَدَرَ على القيام لا يصلِّي قاعدًا، ومَنْ قَدَرَ على القعود لا يصلي مضطجعًا.

وأمَّا إذا كان يُراد به صلاةُ النَّفْل فالهيئاتُ على سبيل الأفضلية، إذِ الأفضلُ التنفُّل قائماً، ثم قاعدًا، ثم مضطجعًا.

---

(١) تفسير الثعلبي ٢/ ٢١٢، وتفسير البغوي ١/ ٣٨٥، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٥، وغيرها من التفاسير.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٥٥٤، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٦٧-٤٧٠.

(٣) المثبت من (د٣) و(ز٢) و(يه)، وسقط الكلام من (ب) بقدر سطر، وفي النسخ الأخرى: وبالاضطجاع.

(٤) المثبت من (ب) و(ز٢) و(يه). وفي (د٣): المقدرة. وتحرفت اللفظة في النسخ الأخرى والمطبوع إلى: الندرة.

وأبعدَ في التفسير مَنْ ذهبَ إلى أنَّ المعنى: يذكرون الله قيامًا بأوامرِه، وقعودًا عن زواجره، وعلى جنوبهم، أي: تَجانبهم مخالفة أمره ونهيه. وهذا شبيهٌ بكلام أرباب القلوب، وقريبٌ من الباطنيَّة.

وجَوَّزُوا في «الذين» النعتَ والقطعَ للرفع والنصب، «وعلى جُنُوبهم» حالٌ معطوفة على حال، وهنا عُطف المجرور على صريح الاسم، وفي قوله: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا﴾ [يونس: ١٢] عطف صريح الاسم على المجرور.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الظاهر أنه معطوفٌ على الصِّلة فلا موضعَ له من الإعراب. وقيل: الجملةُ في موضع نصب على الحال؛ عُطفت على الحال قبلَها. ولمَّا ذَكَرَ الذِّكْرَ الذي محلُّه اللسان ذَكَرَ الفِكْرَ الذي محلُّه القلبُ.

ويحتمل «خَلْق» أن يُرادَ به المصدر، فإنَّ الفكرةَ في الخلق لهذه المصنوعات الغريبة الشكل والقدرة على إنشاء هذه من العدم الصِّرْف يدلُّ على القدرة التامَّة والعلم والأَحَدِيَّة إلى سائر الصفات العَلِيَّة، وفي الفِكْر في ذلك ما يُبْهِرُ العقولَ ويستغرقُ الخواطر.

ويحتمل أن يُرادَ به المخلوق، ويكون أضافه من حيث المعنى إلى الظرفين لا إلى المفعول، والفِكْرُ في ما أودعَ الله في السماوات من الكواكب النيِّرة والأفلاكِ التي جاء النصُّ فيها وما أَوْدَعَ في الأرض من الحيوانات والنبات والمعادن واختلافِ أجناسها وأنواعها وأشخاصها أيضاً يُبْهِرُ العقلَ ويُكثِرُ العِبَرَ:

وفي كلِّ شيءٍ لَهُ آيةٌ تدلُّ على أنَّهُ واحِدُ[١]

ومَرَّ النبيُّ ﷺ على قوم يتفكَّرون في الله، فقال: «تَفَكَّرُوا في الخَلْق ولا تَفَكَّروا في الخالق، فإنكم لا تَقْدِرُون قَدْرَه»[٢].

وقال بعض العلماء: المتفكِّرُ في ذات الله كالناظر في عين الشمس، لأنه تعالى

(١) البيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص١٠٤.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في العَظَمة (٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وإسناده ضعيف لإبهام أحد رواته. ورُوي من حديث عدد من الصحابة بأسانيد ضعيفة، لكن اجتماعها يُكسِبُها قوة، ومعناها صحيح، كما ذكر صاحب كشف الخفا ١/ ٣٧١-٣٧٢.

«ليس كمثله شيء»، وإنَّما التفكُّر وانبساطُ الذِّهْن في المخلوقات وفي مخاوف[1] الآخرة.

وفي الحديث: «لا عبادةَ كتفكُّر»[2].

وذكر المفسِّرُون من كلام الناس في التفكُّر ومن أعيان المتفكِّرين كثيرًا رَأَيْنَا أن لا نُطَوِّلَ كتابَنا بنقلها.

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ هذه الجملةُ محكيَّةٌ بقول محذوف تقديره يقولون، وهذا الفعل في موضع نصب على الحال، والإشارة بـ «هذا» إلى الخَلْق إن كان المرادُ المخلوقَ، أو إلى السماوات والأرض لأنها في معنى المخلوق، أي: ما خلقتَ هذا المخلوقَ العجيبَ باطلاً. قيل: المعنى خلقاً باطلاً، أي: لغير غاية، بل خلقتَه وخلقتَ البشرَ لينظرَ فيه فيُوَحِّدَ ويَعْبُدَ[3]، فمَنْ فعلَ ذلك نَعَّمْتَه، ومَنْ ضَلَّ عن ذلك عذَّبتَه.

وقال الزمخشريّ[4]: المعنى ما خلقتَه خلقًا باطلًا بغير حكمة، بل خلقتَه لداعي حكمةٍ عظيمة، وهو أن تجعلَها مساكنَ للمُكلَّفين وأدلَّةً لهم على معرفتك ووجوبِ طاعتك واجتنابِ معصيتِك. ولذلك وصلَ به قولَه: «فَقِنا عذابَ النار» لأنه جزاءُ مَنْ عصى ولم يطع. انتهى. وفيه إشاراتُ المعتزلة من قوله: بل خلقتَه لداعي حكمة عظيمة، وعلى هذا فيكون انتصاب «باطلًا» على أنه نعت لمصدر محذوف.

وقيل: انتصب «باطلاً» على الحال من المفعول.

وقيل: انتصب على إسقاط الباء، أي: بباطل، بل خلقتَه بقُدرتك التي هي حقٌّ.

---

(١) تحرفت اللفظة في النسخ الخطية إلى: مخلوق. والتصويب من المحرر الوجيز ١/ ٥٥٥، والقولُ فيه. وقال القرطبي ٥/ ٤٧٢: وممَّا يُتفكَّرُ فيه مخاوفُ الآخرة من الحشر والنَّشر، والجنةِ ونعيمها، والنارِ وعذابها.

(٢) الكشاف ١/ ٤٨٨، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٥، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٧١. ولم أقف عليه مسنداً.

(٣) في (ز٢) و(يه) والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٥: فتوحَّد وتعبد، وفي (أ) و(ع): ليُوحِّدَ ويَعبد، وهي مهملة من النقط في (د٣)، والمثبت من (ب) و(د١) و(د٢) و(ح).

(٤) الكشاف ١/ ٤٨٨.

وقيل: على إسقاط اللام، وهو مفعول من أجله، وفاعل بمعنى المصدر، أي: بُطولاً.

وقيل: على أنه مفعول ثانٍ لـ «خَلَق»، وهي بمعنى «جَعَلَ» التي تتعدَّى إلى اثنين. وهذا عكسُ المنقول في النحو، وهو أنَّ «جَعَلَ» يكون بمعنى «خَلَقَ» فيتعدَّى لواحد، أمَّا انَّ «خَلَقَ» يكون بمعنى «جَعَلَ» فيتعدَّى لاثنين فلا أعلم أحدًا ممَّن له معرفة ذهبَ إلى ذلك.

والباطل: الزائل الذاهب، ومنه:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ[1]

والأحسنُ من أعاريبِه انتصابُه على الحال من «هذا»، وهي حالٌ لا يُسْتَغْنَى عنها، نحو قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨] لا يجوز في هذه الحال أن تحذف لئلا يكون المعنى على النفي، وهو لا يجوز.

ولمَّا تضمَّنت هذه الجملةُ الإقرارَ بأنَّ هذا الخلقَ البديع لم يكن باطلاً والتنبيهَ على أنَّ هذا كلامُ أولي الألباب الذاكرين اللهَ على جميع أحوالهم والمتفكِّرين في الخلق؛ دلَّ على أنَّ غيرهم من أهل الغفلة والجَهالة يذهبون إلى خلاف هذه المقالة، فنزَّهُوه تعالى عمَّا يقول أولئك المبطلون ممَّا أشارَ إليه تعالى في قوله: ﴿لَٰعِبِينَ﴾ وفي قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥].

واعترض بهذا التنزيه المتضمِّن براءةَ الله من جميع النقائص وأفعالِ المُحْدَثين بين ذلك الإقرارِ وبين رغبتِهم إلى ربِّهم بأنْ يَقِيَهُم[2] عذابَ النار، ولم يكن لهم همٌّ في شيء من أحوال الدنيا ولا اكتراثٌ بها، إنَّما تضرَّعُوا في سؤال وقايتِهم العذابَ يومَ القيامة، وهذا السؤال هو نتيجةُ الذِّكْر والفِكْر والإقرار والتَّنزيه.

والفاء في «فَقِنَا» للعطف وترتيبِ السؤال على الإقرار المذكور. وقيل: لترتيب

---

(١) هو صدر بيت مشهور للبيد، وعَجُزُه: وكلُّ نعيم لا محالةَ زائلُ. وهو في ديوانه ص١٣٢.

(٢) ثمة سقط في (يه) بمقدار صفحة منها تقريباً، من هذا الموضع، وحتى قوله: ممَّا يُعدَّى إلى واحد إن دخل...

السؤال على ما تضمَّنه «سُبحان» من الفعل، أي: نَزَّهْناك عما يقول الجاهلون فَقِنَا. وأبعدَ مَنْ ذهبَ إلى أنه للترتيب على ما تضمَّن النِّداء.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ هذه استجارة واستعاذة، أي: فلا تفعلْ بنا ذلك، ولا تجعلْنا ممَّن يعملُ بعملها. ومعنى «أَخْزَيْتَه» فَضَحْتَه، من: خَزِيَ الرجلُ يَخْزَى خِزْياً إذا افتَضَحَ، وخَزَايةً: إذا اسْتَحْيَا، الفعلُ واحد واختَلَفَ في المصدر، فمن الافتضاح خِزْي، ومن الاستحياء خَزَاية، ومن ذلك: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ [هود: ٧٨] أي: لا تَفْضَحُونِ.

وقيل: المعنى: أَهَنْتَهُ. وقال المفضَّل: أهلكتَه[1]. ويقال: خَزَيْتُه وأَخْزَيْتُه، ثلاثيًا ورباعيًا، والرُّباعي أكثرُ وأفصح.

وقال الزجَّاج[2]: المُخْزَى في اللغة هو المُذَلُّ المحقورُ بأمرٍ قد لَزِمَه، يقال: أخزيتُه: ألزمتُه حجَّةً أذْلَلْتُه معها.

وقال أنس وسعيد وقتادة ومقاتل وابنُ جُرَيْج وغيرُهم: هي إشارةٌ إلى من يُخَلَّدُ في النار، أمَّا مَنْ يخرجُ منها بالشفاعة والإيمان فليس بمُخْزًى[3].

وقال جابر بنُ عبد الله وغيرُه: كلُّ مَنْ دخلَ النارَ فهو مُخْزًى وإنْ خرجَ منها، وإنَّ في دون ذلك لَخِزْياً[4]. واختارَه ابنُ جَرِير وأبو سليمان الدمشقيّ[5].

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ هو من قول الدَّاعين. وقال ابنُ عباس: الظالمون هنا هم الكافرون[6]، وهو قول جمهور المفسِّرين، وقد صُرِّح به في قوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. ويناسبُ هذا التفسير أن يكون ما قبلَه فيمن يخلَّد في النار، لأنَّ نفيَ الناصر إمَّا

(١) تفسير كلّ من الثعلبي ٢/ ٢١٣، والقرطبي ٥/ ٤٧٥.
(٢) معاني القرآن ١/ ٥٠٠. ونقله أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٥٢٨.
(٣) تفسير الطبري ٦/ ٣١٢-٣١٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٦ (والكلام منه)، وزاد المسير ١/ ٥٢٨.
(٤) تفسير الطبري ٦/ ٣١٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٦.
(٥) تفسير الطبري ٦/ ٣١٣، وزاد المسير ١/ ٥٢٨.
(٦) تفسير القرطبي ٥/ ٤٧٥ دون نسبة.

بمنعٍ أو شفاعةٍ مختصٌّ بالكفار، وأمَّا المؤمنُ فاللهُ ناصِرُه والرسولُ ﷺ شافعُه، وبعضُ المؤمنين يشفعُ لبعضٍ كما وردَ في الحديث(١).

وقال الزمخشريّ(٢): «وما للظالمين» اللام إشارة إلى مَنْ يدخلُ النارَ، وإعلامٌ بأنَّ مَنْ يَدْخلُ النارَ فلا ناصرَ له بشفاعةٍ ولا غيرِها. انتهى، وهو على طريقة الاعتزال أنَّ مَنْ يدخلُ النارَ لا يخرجُ منها أبدًا، سواءٌ أكان كافرًا أم فاسقًا.

و«مَنْ» مفعولة لفعل الشرط، وحكى بعضُ المُعْرِبين ما نصُّه: وأجاز قومٌ أنْ يكونَ «مَنْ» منصوباً بفعل دلَّ عليه جوابُ الشرط، وهو «فقَدْ أَخْزَيْتَه»، وأجاز آخرون أن يكون «مَنْ» مبتدأً، والشرطُ وجوابُه الخبرُ. انتهى(٣).

أمَّا القولُ الأوَّلُ فصادرٌ عن جاهل بعلم النحو، وأمَّا الثاني: فإعرابُ «مَنْ» مبتدأً في غاية الضَّعف، وأمَّا إدخالُه جوابَ الشرط في الخبر مع فعل الشرط فجهالة، ومَنْ أعظمُ وِزْراً ممَّن تكلَّم في كتاب الله بغير علم!.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ﴾ «سَـمِـعَ» إنْ دخلَ على مسموع؛ تعدَّى لواحد، نحو: سمعتُ كلامَ زيد، كغيره من أفعال الحواسّ، وإنْ دخلَ على ذات وجاء بعدَه فعلٌ أو اسم في معناه، نحو: سمعتُ زيداً يتكلَّم وسمعت زيدًا يقول كذا، ففي هذه المسألة خلاف، منهم مَنْ ذهبَ إلى أنَّ ذلك الفعلَ أو الاسم إنْ كان قبلَه نكرة كان صفةً لها، أو معرفةً كان حالاً منها، ومنهم مَنْ ذهبَ إلى أنَّ ذلك الفعل أو الاسم هو في موضع المفعول الثاني لـ «سَمِعَ» وجعلَ «سَمِعَ» مما يُعدَّى إلى واحد إنْ دخلَ على مسموع، وإلى اثنين إنْ دخلَ على ذات، وهذا مذهب أبي عليّ الفارسيّ، والصحيحُ القولُ الأول، وهذا مقرَّر في علم النحو، فعلى هذا يكون «يُنادي» في موضع الصفة لأنَّ قبلَه نكرة، وعلى مذهب أبي عليّ يكون في موضع المفعول الثاني.

(١) ينظر حديث أبي سعيد الخدري المطوّل عند مسلم (١٨٣) وفيه: فيقال لهم: أَخرِجُوا مَنْ عَرَفْتُم... فيُخرِجون خلقاً كثيراً...
(٢) الكشاف ١/ ٤٨٩.
(٣) الإملاء ١/ ١٦٣.

وذهبَ الزمخشريُّ إلى القول الأوَّل؛ قال: تقولُ: سمعتُ رجلاً يقول كذا، وسمعتُ زيدًا يتكلَّم، فتُوقِعُ[1] الفعل على الرجل وتحذفُ المسموع، لأنك وصفتَه بما يسمع أو جعلتَه حالاً عنه، فأغناك عن ذكره، ولولا الوصفُ أو الحالُ لم يكن منه بدٌّ وأنْ يقال: سمعتُ كلام فلان أو قولَه. انتهى كلامه.

وقولُه: ولولا الوصفُ أو الحال، إلى آخره، ليس كذلك، بل لا يكون وصفٌ ولا حالٌ ويدخلُ «سَمِعَ» على ذات لا على مسموع، وذلك إذا كان في الكلام ما يُشعر بالمسموع وإن لم يكن وصفاً ولا حالاً، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ [الشعراء: ٧٢] أغنى ذِكْرُ ظرف الدُّعاء عن ذِكْر المسموع.

والمنادِي هنا هو الرَّسول ﷺ، قال تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤٦]، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥] قاله ابنُ جُريج وابنُ زيد وغيرُهما. أو القرآن؛ قاله محمد بنُ كعب القُرَظيّ؛ قال: لأنَّ كلَّ المؤمنين لم يَلْقَوُا الرَّسول[2]. فعلى الأوَّل يكون وصفُه بالنداء حقيقةً، وعلى الثاني يكون مجازاً.

وجمع بين قوله: «منادياً يُنادي» لأنه ذكرَ الأول مطلقاً وقيَّد الثاني تفخيماً لشأن المنادي؛ لأنه لا منادِيَ أعظمُ من منادٍ يُنادي للإيمان، وذلك أنَّ المناديَ إذا أُطلِقَ ذهبَ الوهم إلى منادٍ للحرب، أو لإطفاء النَّائرة[3]، أو لإغاثة المكروب، أو لكفاية بعض النوازل، أو لبعض المنافع، فإذا قلت: يُنادي للإيمان، فقد رفعتَ من شأن المنادِي وفخَّمْتَه[4].

واللام متعلِّقة بـ «يُنادِي»، ويُعَدَّى «نَادَى» و«دَعَا» و«نَدَبَ» باللام وبـ «إلى» كما يُعَدَّى بهما «هَدَى» لوقوع معنى الاختصاصِ وانتهاءِ الغاية جميعًا، ولهذا قال

---

(١) في (أ) و(ع): ليوقع، وفي (ح) و(د١) و(د٢): لتوقع. والكلام في الكشاف ١/ ٤٨٩.
(٢) تفسير كل من الطبري ٦/ ٣١٤-٣١٥، والبغوي ١/ ٣٨٦، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٦، والقرطبي ٥/ ٤٧٦.
(٣) النَّائرة: العداوةُ والشحناء.
(٤) الكشاف ١/ ٤٨٩.

بعضهم: إنَّ اللام بمعنى «إلى»، لمَّا كان «يُنادِي» في معنى «يدعُو» حَسُنَ وصولُها باللام بمعنى «إلى»[(١)].

وقيل: اللام لامُ العلَّة، أي: لأجل الإيمان. وقيل: اللام بمعنى الباء، أي: بالإيمان.

والسماعُ هنا محمولٌ على حقيقته، أي: سمعنا صوتَ منادٍ. قيل: ومَنْ جعلَ المنادِيَ هو القرآن؛ فالسماعُ عندَه مجاز عن القَبول.

و«أنْ» مفسِّرة، التقدير: أي آمِنُوا[(٢)]. وجُوِّزَ أن تكون مصدريَّة وُصلت بفعل الأمر، أي: بأن آمِنُوا، فعلى الأوَّل لا موضعَ لها من الإعراب، وعلى الثاني لها موضع، وهو الجرُّ أو النصب على الخلاف.

وعطفُ «فآمَنَّا» بالفاء مُؤْذِنٌ بتعجيل القَبول وتسبيبِ الإيمان عن السَّماع من غير تَراخٍ، والمعنى: فآمَنَّا بك، أو: بربِّنا.

﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ قال ابنُ عباس: الذُّنوبُ هي الكبائر، والسيِّئاتُ هي الصغائر، ويؤيِّدُه: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

وقيل: الذنوبُ الكبائرُ قبلَ الإسلام، والسيئاتُ الصغائر بعد الإسلام، وهذا شبيه بما قبله إلا أنَّ فيه تقييداً بالزمان[(٣)].

وقيل: الذنوبُ تركُ الطاعات، والسيِّئاتُ فعلُ المعاصي.

وقيل: غُفرانُ الذنوب وتكفيرُ السيِّئات أمرٌ قريبٌ بعضُه من بعض، لكنَّه كُرِّر للتأكيد، ولأنها مَناحٍ من السَّتر وإزالةِ حُكم الذُّنوب بعد حصوله[(٤)].

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ١/ ٥٥٦، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٧٦.

(٢) «آمِنُوا» تفسير لـ «يُنادي»، التقدير: ينادي للإيمان أي يقول آمِنُوا، وليس تفسيراً للإيمان. «روح المعاني» ٥/ ٢٢٠. ووقع في (ح) و(د١) و(د٢) والمطبوع: أن، بدل: أي. وهو خطأ.

(٣) من قوله: وقيل الذنوب الكبائر قبل الإسلام... إلى هذا الموضع، من (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه).

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٦.

والغُفْرانُ والتكفير بمعنًى، والذُّنُوب والسيِّئاتُ بمعنًى، وجُمع بينهما تأكيدًا ومبالغةً، وليكون في ذلك إلحاحٌ في الدُّعاء، فقد رُوِيَ: «إنَّ الله يُحِبُّ المُلِحِّين في الدُّعاء»(١).

وقيل: في التكفير معنًى، وهو التغطية؛ ليأمَنُوا الفُضُوح، والكَفَّارة هي الطاعة المغطِّية للسيِّئة، كالعِتْق والصِّيام والإطعام. ورجلٌ مُكَفَّرٌ بالسِّلاح، أي: مُغَطًّى(٢).

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ الأبرار: جمع بَرّ على وزن فَعِل، كـ «صَلِف»، أو جمع «بارّ» على وزن فاعل كـ «ضارب»، وأدغمت الراء فيهما في الراء، وهم الطائعون لله، وتقدَّم معنى البَرّ.

وقيل: هم هنا الذين بَرُّوا الآباء والأبناء.

و«مع» هنا مجاز عن الصُّحبة الزَّمانية إلى الصُّحبة في الوصف، أي: تَوَفَّنا أبرارًا معدُودين في جملة الأبرار. والمعنى: اجْعَلْنا ممَّن توفَّيْتَهم طائعين لك. وقيل: المعنى: ٱحْشُرْنَا معهم في الجنة.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ الظاهر أنهم سألوا ربَّهم أن يُعْطِيَهم ما وعدَهم على رسله، ففسَّر هذا الموعود به بالجنة. قاله ابن عباس.

وقيل: الموعود به النصرُ على الأعداء. وقيل: استغفارُ الأنبياء، كاستغفار نوح وإبراهيمَ ورسولِ الله صلواتُ الله وسلامُهُ عليهم للمؤمنين، واستغفارُ الملائكة لهم.

وقوله: «على رُسُلك» هو على حذف مضاف، فقدَّرَه الطبريُّ وابنُ عطية(٣):

(١) أخرجه البيهقي في شُعب الإيمان (١٠٧٣) من حديث عائشة ﵂، وفي إسناده يوسف بن السَّفْر، وهو متروك، يضع الحديث كما نقل الذهبي في ميزان الاعتدال ٥/ ١٩٠. وفي هذا المعنى ما أخرجه مسلم (١٧٩٤): (١٠٩) (في رواية القاضي عياض في إكمال المُعْلِم ٦/ ١٦٨) من حديث ابن مسعود ﵁: كان (أي النبي ﷺ) يَسْتَحِثُّ ثلاثاً يقول: اللهم عليك بقريش... قال القاضي: «استحثَّ، بمعنى ألَحَّ في الدُّعاء واستعجل الإجابة». وأخرج البيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٢) عن الأوزاعي قال: أفضلُ الدعاء الإلحاحُ على الله عزَّ وجلّ والتضرُّعُ إليه.

(٢) بنحوه في تفسير الرازي ٩/ ١٤٦.

(٣) تفسير الطبري ٦/ ٣١٩، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٦.

على ألسنة رُسُلِك. وقدَّره الزمخشريّ[١]: على تصديق رُسُلك؛ قال: ف «على» هذه صلةٌ للوعد في قولك: وَعَدَ اللهُ الجنةَ على الطاعة، والمعنى: ما وَعَدْتَنا على تصديق رُسُلِك، ألا تَراه كيف أتْبَعَ ذِكْرَ المنادِي للإيمان، وهو الرسول، وقولَه آمنَّا، وهو التصديق؟ ويجوزُ أن يكون متعلِّقاً بمحذوف، أي: ما وعَدْتَنا مُنَزَّلاً على رُسُلك، أو محمولاً على رُسُلك؛ لأنَّ الرُّسل يُحَمَّلُون ذلك، فإنَّما عليه ما حُمِّلَ[٢]. انتهى.

وهذا الوجهُ الذي ذكرَ آخِرًا أنه يجوزُ، ليس بجائز، لأنَّ من قواعد النَّحْويِّين أنَّ الجارَّ والمجرور والظرف متى كان العامل فيهما مقيَّدًا فلا بدّ من ذكر ذلك العامل، ولا يجوز حذفُه، ولا يُحذف العاملُ إلا إذا كان كوناً مطلقاً، مثال ذلك: زيدٌ ضاحك في الدار، لا يجوزُ حذف ضاحك البتة، وإذا قلت: زيدٌ في الدار، فالعاملُ كونٌ مطلق يُحذَف، وكذلك: زيدٌ ناجٍ من بني تميم، لا يجوزُ حذف ناج، ولو قلت: زيدٌ من بني تميم، جازَ على تقدير: كائنٌ من بني تميم، والمحذوف فيما جوَّزه الزمخشري - وهو قوله: منزَّلاً أو محمولاً - لا يجوزُ حذفُه على ما تقرَّر في علم النحو، وإذا كان العاملُ في الظرف أو المجرور مقيَّدًا صار ذلك الظرفُ أو المجرورُ ناقصًا، فلا يجوزُ أن يقعَ صلةً ولا خبرًا، لا في الحال ولا في الأصل، ولا صفةً ولا حالاً.

ومعنى سؤالهم أن يُعطيَهم ما وعَدَهم أنْ يُثَبِّتَهُم على الإيمان والطاعة حتى يكونوا ممَّن يُؤتيهم الله ما وَعَد المؤمنين. ومعلومٌ أنه تعالى مُنجِزٌ ما وعدَ، فسألوا: إنجازَ ما ترتَّب على الإيمان، والمعنى: التثبيت على الإيمان حتى يكونوا ممَّن يستحقُّ برحمةِ الله تعالى إنجازَ الوعد.

وقيل: هذا السؤال جاء على سبيل الالتجاء إلى الله تعالى والتضرُّع له كما كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يستغفرون مع علمهم أنهم مغفورٌ لهم، يقصدون بذلك التَّذلُّلَ لربِّهم والتضرُّعَ إليه والالتجاء.

وقيل: استبطَؤوا النصرَ الذي وُعِدُوا به، فسألُوا أن يُعَجِّلَ لهم وَعْدَه[٣]، فعلى

---

(١) الكشاف ١/ ٤٨٩.

(٢) قوله: «فإنَّما عليه ما حُمِّلَ» من الآية (٥٤) من سورة النور.

(٣) ينظر تفسير الطبري ٦/ ٣١٨. وسلف نحوه أول تفسير الآية.

هذا ـ وهو أن يكونَ الموعودُ به النصر ـ يكون الإيتاء في الدُّنيا، وعلى أن يكون الجنة؛ يكون الإيتاء في الآخرة.

وقرأ الأعمش: «على رُسْلِك» بإسكان السين[(١)].

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ فُسِّر الإخزاءُ هنا بما فُسِّر في «فَقَدْ أَخْزَيْتَه»، و«يومَ القيامة» معمولٌ لقوله: «ولا تُخْزِنَا»، ويجوزُ أن يكونَ من باب الإعمال، إذ يصلُح أن يكون منصوباً بـ «تُخزِنا» وبـ «آتِنَا ما وَعَدْتَنَا» إذا كان الموعود به الجنة.

﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ظاهرُه أنه تعليلٌ لقوله: «وآتِنَا ما وَعَدْتَنا»، وقال ابنُ عطيَّة: إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨]، فهذا وَعْدُه تعالى، وهو دالٌّ على أنَّ الخِزْيَ إنَّما هو مع الخلود. انتهى.

وانظر إلى حُسْن محاورة هؤلاء الذاكرين المتفكِّرين، فإنَّهم خاطبُوا اللهَ تعالى بلفظة: «رَبَّنا»، وهي إشارة إلى أنه رَبَّهُم[(٢)] وأصْلَحهم وهيَّأهُم للعبادة، فأخبرُوا أوَّلاً بنتيجة الفِكْر، وهو قولُهم: «رَبَّنا ما خلقتَ هذا باطلاً»، ثم سألوه أن يَقِيَهُم النارَ بعد تنزيهه عن النَّقائص، وأخبرُوا عن حال مَنْ يدخلُ النار، وهم الظالمون الذين لا يذكرون اللهَ ولا يتفكَّرون في مصنوعاته. ثم ذكرُوا أيضاً ما أنتجَ لهم الفِكْرُ من إجابة الداعي إلى الإيمان، إذْ ذاك مترتِّب على أنه تعالى ما خلقَ هذا الخلقَ العجيبَ باطلاً. ثم سألوا غُفران ذنوبِهم ووَفاتَهم على الإيمان الذي أخبروا به في قولهم: «فآمنَّا»؛ ثم سألُوا اللهَ الجنةَ وأن لا يفضحَهم يومَ القيامة، وذلك هو غايةُ ما سألوه.

وتكرَّر لفظ «رَبَّنا» خمس مرات؛ كلُّ ذلك على سبيل الاستعطاف وتطلُّبِ رحمة الله تعالى بندائه بهذا الاسم الشريف الدالِّ على التربية والمُلك والإصلاح. وكذلك تكرَّرَ هذا الاسم في قصة آدم ونوح وغيرِهما.

وفي تكرار «رَبَّنا رَبَّنا» دلالةٌ على جواز الإلحاح في المسألة واعتمادِ كثرةِ الطلب من الله تعالى. وفي الحديث: «أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام»[(٣)].

---

(١) تفسير الثعلبي ٢/ ٢١٥، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٦. وزاد القرطبي ٥/ ٤٧٧ نسبتَها للزُّهري.
(٢) رَبَّ، من باب رَدَّ، بمعنى رَبَّى.
(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٧٥٩٦) من حديث ربيعة بن عامر، وأخرجه الترمذي (٣٨٣٤) (٣٨٣٥) من حديث أنس ﷺ. قوله: أَلِظُّوا، أي: الزَمُوا ذلك.

وقال الحسن: ما زَالُوا يقولون: رَبَّنا رَبَّنا، حتى استجابَ لهم[(١)].

وهذه مسألة أجمعَ عليها علماءُ الأمصار خلافاً لبعض الصوفيَّة إذْ أجازَ ذلك فيما يتعلَّق بالآخرة لا بالدنيا، ولبعض المتصوِّفة أيضاً إذ قال: اللهُ تعالى تَوَلَّى مَن اتَّبعَ الأمرَ واجتنبَ النَّهي، ورَفَعَ عنه كُلَف طلباتِه ودعائِه!

خرَّج أبو نَصْر الوائلي السجستاني الحافظ[(٢)] في كتاب «الإبانة» عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقرأُ عَشْرَ آياتٍ من آخِر سورةِ آلِ عمرانَ كلَّ ليلة[(٣)]، يعني: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

قال العلماء: ويُستحبُّ لمن انتبهَ من نومه أنْ يمسحَ على وجهه، ويستفتحَ قيامَه بقراءة هذه العشر الآيات اقتداءً بالنبيِّ ﷺ، ثبتَ ذلك في الصحيحين[(٤)] وغيرِهما، ثم يُصلِّي ما كُتب له، فيجمعُ بين التفكُّر والعمل[(٥)].

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ رُوِيَ أنَّ أمَّ سَلَمة قالت: يا رسولَ الله قد ذَكَرَ اللهُ الرِّجالَ في الهجرة، ولم يذكر النساء في شيء من ذلك، فنزلت، ونزل آياتٌ في معناها فيها ذِكْرُ النساء[(٦)].

ومعنى «استجاب»: أجابَ، ويُعَدَّى بنفسه وباللام، وتقدَّم الكلام فيه في ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ [البقرة: ١٨٦] ونقل تاجُ القُرَّاء[(٧)] أنَّ «أجابَ» عامّ، و«استجابَ» خاصّ في حصول المطلوب.

---

(١) تفسير الثعلبي ٢/ ٢١٥، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٧٨. ونسبه ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٦ لأبي الدرداء.

(٢) هو عُبيد الله بن سعيد بن حاتم، شيخ الحرم، توفي سنة (٤٤٤). ينظر سير أعلام النبلاء ١٧/ ٦٥٤.

(٣) تفسير القرطبي ٥/ ٤٦٥.

(٤) صحيح البخاري (٤٥٧٠)، وصحيح مسلم (٧٦٣): (١٨٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) الكلام في تفسير القرطبي ٥/ ٤٦٥ وقال بإثره: وذلك أفضل العمل.

(٦) سنن الترمذي (٣٠٢٣)، وتفسير الطبري ٦/ ٣٢٠، وأسباب النزول للواحدي ص١٣٣، ولفظ الخبر أعلاه في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٧.

(٧) هو محمود بن حمزة بن نصر الكِرْماني. وتكرَّر ذكره في الكتاب.

وقرأ الجمهور: «أنِّي» على إسقاط الباء، أي: بأنِّي، وقرأ أُبَيّ «بأنِّي» بالباء[(١)]، وقرأ عيسى بنُ عمر: «إنِّي» بكسر الهمزة[(٢)]، فيكون على إضمار القول على قول البصريِّين، أو على الحكاية بقوله: «فاستجابَ»، لأنَّ فيه معنى القول على طريقة الكوفيِّين.

وقرأ الجمهور: «أُضِيعُ» من: أَضاعَ. وقرأ بعضُهم: «أُضَيِّعُ» بالتشديد[(٣)]، من: ضَيَّع، والهمزة والتشديد فيه للنقل، كما قال الشاعر:

كمرضعةٍ أولادَ أخرى وضَيَّعَتْ ... بني بَطْنِها هذا الضلالُ عن القَصْدِ[(٤)]

ومعنى ذلك: لا أتركُ جزاءَ عاملٍ منكم.

و«منكم» في موضع الصفة، أي: كائن منكم، وقوله: «مِنْ ذَكَرٍ أو أنثى»؛ قيل: «مِنْ» لتبيين جنس العامل، فيكون التقدير: الذي هو ذَكَرٌ أو أنثى، وقيل: «مِنْ» زائدة لتقدُّم النفي في الكلام، وقيل: «مِنْ» في موضع الحال من الضمير الذي في العامل في «منكم» أي: عاملٍ كائنٍ منكم كائناً مِن ذَكَرٍ أو أنثى.

وقال أبو البقاء[(٥)]: «مِن ذكرٍ أو أنثى» بدل من «منكم» بدل الشيء من الشيء، وهما لعينٍ واحدة. انتهى. فيكون قد أعادَ العاملَ، وهو حرف الجرّ، ويكون بدلًا تفصيليًا من مخاطب، ويُعكِّر على أن يكون بدلًا تفصيليًا عطفُه بـ «أو»، والبدل التفصيليّ لا يكون إلا بالواو، كقوله:

وكنتُ كَذِي رِجْلَيْنِ رِجْلٍ صحيحةٍ ... ورِجْلٍ رَمَى فيها الزمانُ فَشَلَّتِ[(٦)]

---

(١) ذكرها السمين ٣/٥٣٨، وأبو السعود ٢/ ١٣٣. ولم أقف عليها في مصادر قبل أبي حيان.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٢٧، والقراءات الشاذة ص٢٤، وتفسير الثعلبي ٢/ ٢١٦، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٧، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٧٨.

(٣) القراءات الشاذة ص٢٤ (ونُسبت فيه لجناح بن حبيش)، والكشاف ١/ ٤٨٩.

(٤) البيت للعُدَيْل بن الفرخ العجلي، وهو في روضة العقلاء ص٢٥٥، والمستقصى في الأمثال ١/ ٧٧، والحماسة ٢/ ٧٣٦ (بشرح المرزوقي) وغيرها.

(٥) الإملاء ١/ ١٦٣.

(٦) البيت لكُثَيِّر عزَّة، وهو في ديوانه ص٧٨، وهو من شواهد سيبويه ١/ ٤٣٣، وسلف عند تفسير الآية (١٣).

ويُعكِّر على كونه من مخاطب أنَّ مذهب الجمهور أنه لا يجوز أن يُبدل من ضمير المتكلم وضمير المخاطب بدلَ شيء من شيء وهما لعينٍ واحدة، وأجازَ ذلك الأخفش، هكذا أطلق بعضُ أصحابنا الخلاف، وقيَّده بعضُهم بما كان البدَلُ فيه لإحاطةٍ، فإنه يجوزُ إذْ ذاك، وهذا التقييد صحيحٌ، ومنه: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ [المائدة: ١١٤] فقوله: «لأوَّلنا وآخِرِنَا» بدل من ضمير المتكلِّم في قوله: «لنا» وقولُ الشاعر:

فما بَرِحَتْ أقدامُنا في مَقَامِنا ... ثَلاثَتِنَا حتى أُزِيرُوا المَنائيا[1]

ف «ثلاثتنا» بدل من ضمير المتكلِّم، وجازَ ذلك لأنه بدل في معنى التوكيد، ويشهدُ لمذهب الأخفش قولُ الشاعر:

بِكُمْ قُرَيْشٍ كُفِينَا كُلَّ مُعْضِلةٍ ... وأَمَّ نَهْجَ الهُدى مَنْ كانَ ضِلِّيلا[2]

وقول الآخر:

وشَوْهَاءَ تَعْدُو بي إلى صارخِ الوَغَى ... بمُسْتَلْئِمٍ مِثْلِ الفَنِيقِ المُرَجَّلِ[3]

ف «قُريش» بدل من ضمير المخاطب، و«بمستلئم» بدل من ضمير المتكلِّم، وقد تجيءُ «أَوْ» في معنى الواو إذا عَطفت ما لا بدَّ منه، كقوله:

---

(١) البيت لعُبيدة بن الحارث ضمن قصيدة له قالها يومَ بدر في قَطْع رِجْلِه حين أُصيبت في مبارزته هو وحمزةُ وعليٌّ لعدوِّهم، أوردَها ابنُ هشام في السيرة ٢/ ٢٣-٢٤، وقال: «وبعضُ أهل العلم بالشعر ينكرها لعُبيدة».
والبيت أيضاً في شرح التسهيل ٣/ ٢٢١.
قوله: أُزِيرُوا المَنَائيا؛ أُزِيرَ: الماضي المجهول من أزَارَ، أي: حُمِلُوا على زيارة المنائيا، يعني المنايا. قال صاحب الإملاء المختصر ٢/ ٧١: زاد الهمزة، وقد تكون هذه الهمزة منقلبة عن الياء الزائدة التي في «مَنِيَّة».
(٢) شرح التسهيل ٣/ ٢٢١.
(٣) البيت لذي الرُّمَّة، وهو في ديوانه ٣/ ١٤٩٩، وفيه: مثل البعير المُدَجَّلِ. أي: المطليّ بالقَطِرَان، وهو بهذه الرواية في اللسان (دجل). والبيت برواية المصنف في التسهيل ٣/ ٢٢١، ووقع فيه: المُرَحَّل (بالحاء) وهو خطأ. والفَنِيق: الفَحْلُ المُكْرَم لكرامته على أهله ولا يُرْكَب. «القاموس» (فنق).

قومٌ إذا سَمِعُوا الصَّرِيخَ رَأَيْتَهُمْ مِنْ بينِ مُلْجِمٍ مُهْرِهِ أو سافِعِ[(١)]

يريد: وسافع، فكذلك يجوز ذلك هنا في «أو» أن تكون بمعنى الواو، لأنه لمَّا ذكر «عملَ عاملٍ» دَلَّ على العموم، ثم أبدل منه على سبيل التأكيد، وعطف على أحد الجزأين ما لا بدَّ منه؛ لأنه لا يؤكَّد العمومُ إلا بعموم مثلِه، فلم يكن بدٌّ من العطف حتى يفيد المجموعُ من المتعاطِفَين تأكيدَ العموم، فصار نظيرَ «من بين مُلْجِمٍ مُهْرِهِ أو سافعِ» لأنَّ «بين» لا تدخلُ على شيء واحد، فلا بدَّ من عطف مصاحَب مجرورِها.

ومعنى «بعضُكم من بعض» أي: مجمعُ[(٢)] ذكورِكم وإناثِكم أصلٌ واحد، فكلُّ واحد منكم من الآخَر، أي: من أصْلِهِ، فإذا كنتم مشتركين في الأصل؛ فكذلك أنتم مشتركون في الأجرِ وتَقَبُّلِ العمل، فيكون «من» هنا تفيد التبعيض الحقيقي، ويشيرُ بذلك الاشتراك الأصلي إلى الاشتراك في الأجر على حدٍّ واحد.

وقيل: معناه: «بعضُكم من بعض» في الدِّين والنُّصرة. والمعنى: أنَّ وَصْفَ الإيمان يجمعُهم، كما جاء: «المسلمون تتكافأُ دماؤهم»[(٣)].

وقيل: معناه الذكور من الإناث، والإناثُ من الذكور، فكذلك الثوابُ؛ فكما اشتركوا في هذه البعضيَّة؛ كذلك اشتركوا في الأجر والثواب، ومحصولُ معنى هذه الجملة أنه جيء بها لتبيينِ شركة النِّساء مع الرجال فيما وَعَدَ الله به عبادَه العاملين.

وقد تقدَّم ذكر سبب نزولها وهو سؤال أمِّ سَلَمة، وخرَّجه الحاكم في «صحيحه»[(٤)].

---

(١) البيت في تهذيب اللغة، والصحاح، واللسان، وتاج العروس (سفع). وفي التهذيب والصحاح: فزعوا، بدل: سمعوا. وهو (ببعض اختلاف) في الكشاف ٤/ ٢٧٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٣ ونُسب فيهما لعمرو بن معديكرب.

(٢) في الكشاف ١/ ٤٨٩ (والكلام فيه): يجمع.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٩٩١)، والنسائي ٨/ ٢٤ وغيرهما من حديث عليّ ﷺ.

(٤) ٢/ ٣٠٠. واسمه: المستدرك على الصحيحين، وفي تسميته بالصحيح تساهل، فإن فيه الضعيف، ولعل المصنف تابع القرطبيَّ على هذه التسمية، وقد نسب الخبر إليه في تفسيره ٥/ ٤٧٨-٤٧٩.

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ لمَّا ذكر تعالى أنه لا يُضِيعُ عملَ عاملٍ؛ ذكرَ مَنْ عَمِلَ الأعمالَ السنيَّة التي يستحقُّ بها أن لا يُضِيعَ عملَه، وأن لا يُترك جزاؤه، فذكر أوَّلاً الهجرة، وهي الخروجُ من الوطن الذي لا يمكنُ إقامةُ دينِهِ فيه إلى المكان الذي يمكنُ ذلك فيه، وهذا من أصعب شيء على الإنسان، إذْ هو مفارقةُ المكان الذي رَبَا فيه ونشأ مع أهله وعلى طريقتِهم، ولولا الوازعُ القويُّ المُرْبِي على وازع النشأة ما أمكنَه ذلك، ألا ترى إلى قوله[1]:

وحَبَّبَ أوطانَ الرجالِ إليهمُ ... مَآرِبُ قَضَّاها الشَّبابُ هُنالِكا
إذا ذَكَرُوا أوطانَهُمْ ذَكَّرَتْهُمُ ... عُهُودَ الصِّبا فيها فَحَنُّوا لِذَلِكا[2]

وقولِ أبي الصفي[3] رِفاعة بن عاصم الفقعسي:

أَحَبُّ بلادِ اللهِ ما بينَ مَنْعِجٍ[4] ... إليَّ وسلمى أَنْ يَصُوبَ سَحَابُها
بلادٌ بها نِيطَتْ عَلَيَّ تمائمي ... وأوَّلُ أرضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرابُها
بها طالَ تَجْرَارِي رِدائيَ حِقْبَةً ... وزينبُ رَيَّا الحِجْلِ دُرْمٌ كِعابُها[5]

---

(١) المثبت من (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه). وعبارة النسخ الأخرى: «ألا ترى لقول الشاعر، هما لابن الرومي». والظاهر أن قوله: هما لابن الرُّومي، زيادة من النُّسَّاخ.

(٢) البيتان لابن الرومي (كما في التعليق السالف)، وهما في ديوانه ٥/١٨٢٦.

(٣) في (أ) و(ع): وقال ابن الصيفي. وفي (ح) و(د١) و(د٢): وقال ابن الصفي: والمثبت من النسخ الأخرى، ولم أعرفه.

(٤) هو وادٍ يصبُّ من الدَّهْناء (موضع لتميم بنجد). قاله ياقوت ٥/ ٢١٣ وأورد البيتين الأوَّلَين.

(٥) البيتان الأوَّلان في زهر الآداب ٢/٦٨٢، ونُسبا فيه لأعرابي، وفي الحماسة البصرية ٢/١٢٩-١٣٠ دون نسبة، والبيت الثاني في اللسان (نوط)، ونُسب فيه لرِقاع بن قيس الأسدي. والبيتان الأولان أيضاً في أمالي القالي ١/٨٣، والمصون ص١٩٩، ورواية الثاني فيهما: بلادٌ بها حلَّ الشبابُ تمائمي. وذكرَهما البكري في سمط اللآلي ١/ ٢٧٣ برواية: عقَّ الشبابُ تمائمي، ونسبَهما لامرأة من طيِّئ، وقال: تقدير الكلام: أَحَبُّ صوبِ سحابِ بلادِ الله إليَّ سحابُ بلادٍ بها عَقَّ الشبابُ تمائمي ما بين سلمى ومَنْعِج. يريد وسط سلمى ومَنْعِج، فـ «أَحَبُّ» ابتداء، و«أن يَصُوبَ» بدل منه، و«ما بين» ظرف، و«بلاد» خبر الابتداء. اهـ. ولم أقف على البيت الثالث. قوله: دُرْمٌ، هو جمع دَرْماء. قال في اللسان (درم): امرأة دَرْماء: لا تستبين كعوبُها ولا مرافقُها. اهـ. يريد أن جسمها ممتلئ اللحم. والحِجْل: الخَلْخَال، والمقصود مكانه. والله أعلم.

واسمُ الهجرة وفضلُها الخاصُّ قد انقطع بعد الفتح، ولكن المعنى باقٍ إلى يوم القيامة(١). وقد تقدَّم معنى المفاعلة في هاجر(٢).

ثم ذكرَ الإخراجَ من الدِّيار وهو أنهم أُلجِئوا واضطُرُّوا إلى ذلك، وفيه إلزامُ الذنب للكفَّار، والمعنى: أنَّ المهاجرين إنما أخرجَهم سوءُ عِشْرَةِ الكفَّار وقبيحُ أفعالهم معهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وإذا كان الخروجُ برأي الإنسان وقوَّةٍ منه على الأعداء جاء الكلام بنسبة الخروج إليه فقيل: خرج فلان. قال معناه ابنُ عطية؛ قال: فمن ذلك إنكارُ النبيِّ ﷺ على أبي سفيان بن الحارث حين أنشده:

.... وردَّني إلى الله مَنْ طَرَّدْتُ كلَّ مُطَرَّدِ(٣)

فقال له الرسول ﷺ: «أنتَ طَرَّدْتَني كلَّ مطرَّد؟» إنكاراً عليه(٤).

ومن ذلك قول كعب بن زهير:

في عُصْبةٍ من قُرَيشٍ قال قائلُهُمْ ببطنِ مكَّةَ لمَّا أسلَمُوا زُولُوا
زَالُوا فما زالَ أنكاسٌ ولا كُشُفٌ عندَ اللقاءِ ولا مِيلٌ مَعازِيلُ(٥)

انتهى.

---

(١) أخرج البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣) عن ابن عباس مرفوعاً: «لا هجرةَ بعد الفتح، ولكنْ جهاد ونيَّة، وإذا استُنفرتُم فانفروا».

(٢) عند تفسير الآية (٢١٨) من سورة البقرة.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٧. وروايتُه في طبقات ابن سعد ٤/ ٤٧، والمستدرك ٣/ ٤٤: ودلَّني، بدل: وردَّني، وفي طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٤٧: وقادني، وفي سيرة ابن هشام ٢/ ٤٠١: ونالني. وتمام الشطر الأول: هدانيَ هادٍ غيرُ نفسي وردَّني.

(٤) الخبر إسناده منقطع، فقد نقل ابنُ هشام عن ابن إسحاق قوله: فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له ذلك عندما قال: طرَّدْتُ كل مطرَّد، وقال أيضاً محمد بن سلام الجمحي: فبلغني أن رسول الله ﷺ قال... الخ.

(٥) ديوان كعب بن زهير ص٩١. والبيتان من قصيدته المشهورة «بانت سعاد». قوله: قال قائلهم، هو عُمر بن الخطاب أو حمزة، رضي الله عنهما. وقوله: زُولُوا، فعل أمر من «زال» التامَّة، أي: تَحوَّلُوا وانتَقِلُوا من مكةَ إلى المدينة، وأنكاس: جمع نِكْس، بكسر النون، وهو الرجل الضعيف المَهِين، والكُشُف جمع أكْشَف، وهو الذي لا تُرْسَ معه في الحرب. والمِيل جمع =

ثم ذكر الإذاية في سبيل الله، والمعنى: في دين الله. وبدأ أوّلاً بالخاصّ، وهي الهجرة، وكانت تُطلق على الهجرة إلى المدينة إلى رسول الله ﷺ. وثنّى بما ينشأ عنه ما هو أعمُّ من الهجرة، وهو الإخراجُ من الدِّيار، فقد يخرج إلى الهجرة إلى المدينة أو إلى غيرها، كخروج مَنْ خرجَ إلى الحبشة، وكخروج أبي جَنْدَل، إذ لم يُترك يُقيمُ بالمدينة، وأتى ثالثاً بذكر الإذاية، وهي أعمُّ من أن تكون بإخراج من الدِّيار أو غير ذلك من أنواع الأذى.

وارتقى بعد هذه الأوصاف السَّنِيَّة إلى رُتبة جهادِ مَنْ أخرجَه ومقاومتِه واستشهادِه في دين الله، فجمعَ بين رُتَب هذه الأعمال من تنغيص أحوالِه في الحياة لأجل دينِ الله بالمهاجرة، وإخراجِه من داره، وإذايتِه في الله، ومآلِهِ أخيراً إلى إفنائه بالقتل في سبيل الله.

والظاهر الإخبارُ عمَّن جمعَ هذه الأوصاف كلَّها بالخبر الذي بعد، ويجوزُ أن يكون ذلك من باب عطف الصِّلات، والمعنى اختلافُ الموصول لا اتحادُه، فكأنه قيل: فالذين هاجروا والذين أخرجوا والذين أوذوا والذين قاتلوا والذين قُتِلوا[1]، ويكون الخبرُ عن كلٍّ من هؤلاء.

وقرأ جمهور السبعة: ﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾[2]، وقرأ حمزة والكسائي: «وقُتِلُوا وقاتَلوا» يبدآن بالمبنيّ للمفعول، ثم بالمبنيّ للفاعل، فتتخرَّجُ هذه القراءة على أنَّ الواو لا تدلُّ على الترتيب، فيكون الثاني وقع أوّلاً، ويجوز أن يكون ذلك على التوزيع، فالمعنى: قُتِلَ بعضُهم وقاتلَ باقيهم.

وقرأ عمر بن عبد العزيز: «وقَتَلُوا وقُتِلُوا»[3] بغير ألف، وبدأ ببناء الأول

= أُمَيل، وهو الذي لا سيفَ معه، أو الذي لا يُحسِنُ الرُّكوب ولا يستقرُّ على السَّرْج. والمعازيل: جمع مِعْزال، وهو الذي لا سلاحَ معه. ينظر شرح القصيدة ص٨٤-٨٥ لابن هشام وبهامشها للباجوري.

(١) المثبت من (ز٢) و(ع)، وهو موافق للفظ الآية. وفي النسخ الأخرى: قوتلوا.

(٢) هي قراءة نافع وعاصم وأبي عَمرو من السبعة. ينظر السبعة ص٢٢١، والتيسير ص٩٣.

(٣) القراءات الشاذة ص٢٤، وتفسير الثعلبي ٢/ ٢١٦، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٨، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٨٠.

للفاعل وبناء الثاني للمفعول، وهي قراءة حسنة في المعنى مستوفيةٌ للحالين على الترتيب المتعارف.

وقرأ محارب بنُ دِثار: «وقَتَلُوا» بفتح القاف «وقاتلوا»(١). وقرأ طلحة بن مُصَرِّف: «وقُتِّلُوا وقاتلوا»(٢) بضمّ قاف الأولى وتشديد التاء، وهي في التخريج كالقراءة الأولى. وقرأ أبو رجاء والحسن: «وقاتلوا وقُتِّلُوا»(٣) بتشديد الثانية والبناء للمفعول، أي: قُطِّعُوا في المعركة(٤).

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ «لأُكَفِّرَنَّ» جوابُ قسم محذوف، والقَسَمُ وما تُلقّي به خبرٌ عن قوله: «فالذين هاجروا».

وفي هذه الآية ونظيرِها من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ [النحل: ٤١] ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقولِ الشاعر:

جَشَأَتْ فقلتُ اللَّذْ خَشِيتِ لَيَأْتِيَنْ ... وإذا أتاكِ فلاتَ حينَ مَناصِ(٥)

رَدٌّ على أحمد بن يحيى ثعلب، إذْ زعَم أنَّ الجملة الواقعةَ خبراً للمبتدأ لا تكون قَسَمِيَّة.

﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ انتصبَ «ثواباً» على المصدر المؤكِّد، وإن كان الثوابُ هو المُثاب به، كما كان العطاءُ هو المُعْطَى، واستُعمل في بعض المواضع بمعنى المصدر الذي هو الإعطاء، فوُضع «ثَواباً» موضعَ «إثابةً»، أو موضع «تثويباً» لأنَّ ما قبلَه في معنى: لأُثِيبَنَّهم، ونظيرُه: «صُنْعَ الله» و«وَعْدَ الله»(٦).

---

(١) تفسير الثعلبي ٢/ ٢١٦، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٨. والكلام السالف فيه.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٨. وقد نُسب لطلحة في تفسير الثعلبي ٢/ ٢١٦ القراءة الآتية.

(٣) تفسير الثعلبي ٢/ ٢١٦. وهي قراءة ابن كثير وابن عامر من السبعة. وكان من الأولى الإشارة إلى ذلك.

(٤) هو من كلام الحسن في تفسير قراءته المذكورة كما نقله عنه الثعلبي ٢/ ٢١٦.

(٥) شرح التسهيل ١/ ٣٢٧، وشرح أبيات المغني للبغدادي ٦/ ٢٤٥. واللَّذْ ـ بسكون الذال وكسرها ـ لغة في «الذي»، والتثنية: «اللَّذَا» بحذف النون.

(٦) قوله: «صُنْعَ الله» من الآية (٨٨) من سورة النمل، وقوله: «وَعْدَ الله» من الآية (٦) من سورة الروم.

وجُوِّزَ أن يكون حالاً من «جنَّات» أي: مُثاباً بها، أو من ضمير المفعول في «ولأُدخلنَّهم» أي: مُثابين.

وأن يكون بدلاً من «جنَّات» على تضمين: «ولأدخلنَّهم» معنى: ولأُعطينَّهم.

وأن يكون مفعولاً بفعل محذوف يدلُّ عليه المعنى، أي: يعطيهم ثواباً.

وقيل: انتصب على التمييز[١]، وقال الكسائي: هو منصوبٌ على القطع[٢]. ولا يتوجَّه لي معنى هذين القولين هنا.

ومعنى «مِن عندِ الله» أي: من جهة فضلِه، وهو مختصٌّ به، لا يُثِيبُه غيرُه ولا يقدرُ عليه، كما تقول: عندي ما تريد، تريدُ اختصاصَك به وتَملُّكه وإن لم يكن بحضرتك[٣].

وأعربوا «عندَه حُسْنُ الثواب» مبتدأً وخبراً في موضع خبرِ المبتدأ الأوّل[٤]. والأحسنُ أن يرتفع «حُسْنُ» على الفاعلية؛ إذْ قد اعتمدَ الظرفُ بوقوعه خبراً، فالتقدير: واللهُ مستقرٌّ - أو استقرَّ - عندَه حُسْنُ الثواب.

قال الزمخشريّ: وهذا تعليمٌ من الله كيف يُدْعَى وكيف يُبْتَهَلُ إليه ويُتَضَرَّع، وتكريرُ «رَبَّنا» من باب الابتهال، وإعلامٌ بما يُوجبُ حُسْنَ الإجابة وحُسْنَ الإثابة؛ من احتمال المشاقِّ في دين الله، والصبرِ على صعوبة تكاليفِه، وقَطْعٌ لأطماع الكُسالَى المُتمنِّين عليه، وتسجيلٌ على مَنْ لا يرى الثوابَ موصولاً إليه بالعمل بالجهل والغباوة. انتهى. وآخِرُ كلامه إشارةٌ إلى مذهب المعتزلة، وطعنٌ على أهل السُّنَّة والجماعة.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾ قيل: نزلَتْ في اليهود؛ كانوا

---

(١) هو قولُ الفرَّاء في معانيه ١/ ٢٥١، ولفظُه فيه: لهم ذلك نُزُلاً وثَوَاباً، مفسِّراً، كما تقول: هو لك هبةً وبيعاً وصدقةً.

(٢) وفَسَّر مكّيّ القطع بكونه على الحال، وذكره السمين في الدر المصون ٣/ ٥٤٤. وينظر قول مكّيّ في مشكل إعراب القرآن ١/ ١٨٥.

(٣) بنحوه في الكشاف ١/ ٤٩٠.

(٤) يعني لفظ الجلالة. واللفظ بتمامه: واللهُ عنده حُسْنُ الثواب.

يضربون في الأرض، فيُصيبون الأموال. قاله ابنُ عباس. وقال أيضاً: هم أهل مكّة[١].

ورُوِيَ أنَّ ناساً من المؤمنين كانوا يَرَوْنَ ما كانوا فيه من الخِصْبِ والرَّخاء ولِين العيش، فيقولون: إنَّ أعداءَ الله فيما نَرَى من الخير وقد هَلَكْنا من الجوع والجَهْد[٢].

وقال مقاتل: في مشركي العرب[٣]. و«الذين كفروا» لفظ عامّ.

والكاف للخطاب، فقيل: لكلِّ سامع، وقيل: هو خطابٌ للنبيِّ ﷺ والمرادُ أمَّتُه. قاله ابنُ عطية، وقال[٤]: نزلت «لا يَغُرَّنَّك» في هذه الآية منزلةَ: لا تظنَّ أنَّ حالَ الكفار حسنة فتهتمَّ لذلك، وذلك أنَّ المغترَّ فارحٌ بالشيء الذي يغترُّ به، فالكفَّارُ مغترُّون بتقلُّبهم، والمؤمنون مهتمُّون به، لكنَّه ربَّما يقعُ في نفس مؤمنٍ أنَّ هذا الإملاءَ للكفار إنَّما هو خيرٌ لهم، فيجيء هذا جُنوحاً إلى حالهم ونوعاً من الاغترار، ولذلك حسُنت «لا يَغُرَّنَّك». ونظيرُه قولُ عمر لحفصة: لا يَغُرَّنَّكِ أنْ كانت جارتُكِ أوضأَ منكِ وأحبَّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ[٥]. المعنى: لا تغترِّي بما يتمُّ لتلك من الإدلال، فتقعي فيه، فيُطَلِّقَكِ رسولُ الله ﷺ. انتهى.

وقال الزمخشريّ: «لا يَغُرَّنَّكَ»: الخطابُ لرسول الله ﷺ، أو لكلِّ أحد، أي: لا تنظر إلى ما هم عليه من سَعَة الرِّزق والمضطرَب ودَرْكِ العاجل وإصابة حظوظ الدنيا، ولا تغترر بظاهر ما ترى من تبسُّطِهم في الأرض وتصرُّفِهم في البلاد.

فإن قلتَ: كيف جازَ أنْ يغترَّ رسولُ الله ﷺ بذلك حتى يُنْهَى عن الاغترار به[٦]؟

---

(١) القول الأول في زاد المسير ١/ ٥٣١، والثاني في الكشاف ١/ ٤٩٠.
(٢) تفسير الثعلبي ٢/ ٢١٧، وأسباب النزول للواحدي ص١٣٤، وتفسير البغوي ١/ ٣٨٧، والكشاف ١/ ٤٩٠.
(٣) زاد المسير ١/ ٥٣١، ولفظُه فيه بنحو سابقه.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٨.
(٥) هو قطعة من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، أخرجه البخاري (٢٤٦٨) (واللفظ له)، ومسلم (١٤٧٩): (٣٤) في خبر تخيير النبي ﷺ نساءه. وقوله: جارتُكِ. يعني عائشة ﷺ.
(٦) المثبت من (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه)، وهو كذلك في الكشاف ١/ ٤٩٠. وفي النسخ الأخرى: حتى ينهى عنه وعن الاغترار به.

قلت: فيه وجهان:

أحدُهما: أنَّ مِدْرَهَ القوم[١] ومُقَدَّمَهُم يُخاطَبُ بشيء، فيقوم خطابُه مقامَ خطابِهم جميعاً، فكأنَّه قيل: لَا يَغُرَّنَّكُم.

والثاني: أنَّ رسولَ الله ﷺ كان غيرَ مغرورٍ بحالهم، فأكَّد عليه ما كان عليه[٢] وثبتَ على التزامه، كقوله: «ولا تكن من الكافرين»[٣]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥] ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨]. وهذا في النهي نظيرُ قولِه في الأمر: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النساء: ١٣٦]. وقد جُعل[٤] النهي في الظاهر للتقلُّب، وهو في المعنى للمخاطَب، وهذا من تنزيل السبب منزلةَ المُسَبَّب؛ لأنَّ التقلُّب لو غَرَّهُ لاغْتَرَّ به، فمُنع السبب ليمتنع المسبَّب[٥]. انتهى كلامه.

وملخَّص الوجهين اللَّذين ذكرَهما أن يكون الخطاب له، والمرادُ أمَّتُه، أوْ لَهُ على جهة التأكيد والتنبيه؛ وإن كان معصوماً من الوقوع فيه، كما قيل:

قَدْ يُهَزُّ الحُسَامُ وَهْوَ حُسَامٌ   وَيُحَثُّ الجَوَادُ وَهْوَ جَوَادُ[٦]

وقرأ ابنُ أبي إسحاق ويعقوب: «لا يَغُرَّنْكَ» «ولا يَصُدُّنْكَ» «ولا يَصُدُّنْكم»

---

(١) المِدْرَهُ ـ كمِنْبَر ـ السيِّد الشريف.

(٢) المثبت من (ب) و(د٣). وهو كذلك في الكشاف ١/ ٤٩٠. ولم ترد لفظة «عليه» (الثانية) في النسخ الأخرى.

(٣) كذا في النسخ الخطية غير (أ) و(ع). وكذا هو في الكشاف (والكلام منه) وهو وهم وصواب الآية: «ولا تكن من الغافلين». وهي في «الأعراف» قبل الآية الأخيرة فيها. ووقع في (أ) و(ع): «مع الكافرين» وهي من الآية (٤٢) من سورة هود، لكنها ليست مرادةً هنا، لأن الخطاب فيها من نوح عليه السلام لابنه.

(٤) في (أ) و(ع): جاء.

(٥) السببُ عينُ التَّقلُّب، والمسبَّبُ الاغترارُ به. وينظر تفصيلُه في حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٣/ ٩٣.

(٦) البيت لمحمد بن أبي زُرْعَة عبد الرحمن، وهو في يتيمة الدهر ٢/ ٢٥٠، والتذكرة الحمدونية ٤/ ١١٤، وتاريخ دمشق ٦٣/ ١٠٦ (في ترجمته)، وفيها: قد يُهَزُّ الهِنْدِيُّ. وفي الإعجاز والإيجاز ص١٨٢: قد يُهَزُّ الحسامُ وهو الحسامُ.

«ولا يَغُرَّنْكم»، وشِبْهَهُ بالنون الخفيفة(١).

وتقلُّبُهُم هو تصرُّفُهم في التجارات. قاله ابن عبَّاس والفرَّاء وابنُ قتيبة والزجَّاج، أو ما يجري عليهم من النِّعم. قاله عكرمة ومقاتل، أو تصرُّفهم غير مأخوذين بذنوبهم. قاله بعضُ المفسِّرين(٢).

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ أي: ذلك التقلُّب والتبسُّط شيء قليل مُتِّعُوا به ﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ وقِلَّتُه باعتبار انقضائِه وزوالِه.

ورُوِيَ: «ما الدُّنيا في الآخرة إلا مِثْلُ ما يجعلُ أحدُكم أصبُعَه في اليمِّ، فلينظُرْ بِمَ يرجع». خرَّجه الترمذي(٣).

ورُوِيَ: «ما مَثَلي ومَثَلُ الدُّنْيا إلا كراكبٍ قالَ في ظلِّ شجرةٍ في يوم حارّ، ثم راحَ وتركَها»(٤).

أو باعتبار ما فاتَهم من نعيم الآخرة، أو باعتبار ما أعدَّ الله للمؤمنين من الثواب.

﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ﴾: ثم المكانُ الذي يأوُون إليه إنما هو جهنَّم، وعَبَّر بالمأوى إشعاراً بانتقالهم عن الأماكن التي تقلَّبُوا فيها، وكأنَّ البلادَ التي تقلَّبوا فيها إنما كانت لهم أماكنُ انتقال من مكان إلى مكان لا قَرَارَ لهم بها ولا خلود، ثم

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٨. ومواضعُها: «فلا يَصُدَّنك» طه (١٦)، «ولا يَصُدُّنك»، القصص (٨٧)، «ولا يَصُدَّنكم» (٦٢) الزخرف، «ولا يغرَّنكم» (٥) فاطر. وذكر ابنُ الجزري في النشر ٢/ ٢٤٦ عن يعقوب من رواية رويس أنه قرأ بالنون الخفيفة حرف آل عمران «لا يغرَّنك»، و«يَحْطِمَنكم» النمل (١٨)، و«يستخفَّنك» الروم (٦٠)، و«نَذْهَبَن» و(نُرِيَنك) الزخرف (٤١-٤٢)، ولم يذكر الألفاظ أعلاه التي نقلها المصنف عن ابن عطية.

(٢) هذه الأقوال هي بمعنى الأقوال السالفة في سبب نزول الآية. والكلام في «زاد المسير» ١/ ٥٣٢. وينظر معاني كل من الفراء ١/ ٢٥١، والزجَّاج ١/ ٥٠٠، وغريب القرآن لابن قتيبة ص١١٧.

(٣) في سننه (٢٣٢٣) من حديث المستورد الفِهْري. وأخرجه أيضاً مسلم (٢٨٥٨). قال القرطبي ٥/ ٤٨١: قيل: يرجع، بالياء والتاء.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٤٢٠٨) وغيرُه من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، وصحَّحه ابن حبان (٦٣٥٢).

المأوى الذي يأوُون إليه ويستقرُّون فيه هو جهنم. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: وبئس المهادُ جهنم. وقال الحطيئة:

أُطَــوِّفُ مــا أُطَــوِّفُ ثــم آوِي إلـى بـيـتٍ قَـعِـيـدَتُـهُ لَـكَـاعِ[(١)]

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لمَّا تضمَّن ما تقدَّم أنَّ ذلك التقلُّب والتصرُّف في البلاد هو متاعٌ قليل، وأنهم يأوُون بعدُ إلى جهنم، فدلَّ على قلَّة ما مُتِّعُوا به، لأنَّ ذلك منقضٍ بانقضاء حياتِهم، ودلَّ على استقرارهم في النار = استدركَ بـ «لكنْ» الإخبارَ عن المتقين بمقابل ما أخبرَ به عن الكافرين، وذلك شيئان: أحدُهما: مكانُ استقرارِهم، وهي الجنَّات، والثاني: ذِكْرُ الخلود فيها، وهو الإقامةُ دائماً والتمتُّعُ بنعيمها سرمدًا، فقابلَ جهنَّم بالجنَّات، وقابلَ قلَّةَ متاعِهم بالخلود الذي هو الديمومة في النعيم، فوقعت «لكنْ» هنا أحسَنَ موقع؛ لأنه آلَ معنى الجملتين إلى تعذيب[(٢)] الكفار، وإلى تنعيم المتقين، فهي واقعةٌ بين الضِّدَّيْن.

وقرأ الجمهور: «لكنْ» خفيفة النون، وقرأ أبو جعفر بالتشديد[(٣)]، ولم يظهر لها عمل، لأنَّ اسمها مبني.

﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ النُّزُل: ما يُعَدُّ للنازل من الضِّيافة والقِرَى، ويجوزُ تسكينُ زايه، وبه قرأ الحسنُ والنَّخَعيّ ومَسْلَمة بن محارب والأعمش[(٤)]. وقال الشاعر:

وكُنَّا إذا الجبَّارُ بالجيشِ ضَافَنا جَعَلْنَا القَنَا والمُرْهَفَاتِ له نُزْلَا[(٥)]

---

(١) ديوان الحطيئة ص٢٨٠. والبيت في هجاء الحُطيئة لامرأته. وقعيدةُ البيت: رَبَّةُ البيت، وإنما قيل: قعيدة؛ لقعودها وملازمتها. ولَكاعِ، أي: لئيمة، وهو لفظ مبنيّ على الكسر، ويُستعمل في النداء، وقد اضطرَّ الحُطيئة فذكره في غير النداء. ينظر الكامل ١/ ٣٣٨-٣٣٩.

(٢) في (أ) و(ح) و(د١) و(د٢) و(ع): تكذيب، والمثبت من (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه).

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٨، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٨٢، والنشر ٢/ ٢٤٧.

(٤) ينظر القراءات الشاذة ص٢٤، والكشاف ١/ ٤٩١، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٨، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٨٣.

(٥) البيت لأبي الشَّعر (بفتح الشين المعجمة كما في تبصير المنتبه ٢/ ٦٨٢، واسمُه موسى بن سُحيم) وهو في الكشاف ١/ ٤٩١. قوله: القَنَا، أي: الرِّماح، والمُرْهَفات: السيوف؛ يقال: رَهَفَ السيفَ وأرْهَفَهُ، أي: رَقَّقَهُ. ينظر القاموس (رهف).

قال ابن عباس: النُّزُل: الثواب، وهي كقوله: «ثواباً من عندِ الله». وقال ابنُ فارس: النُّزُل ما يُهَيَّأُ للنَّزِيل[1]. والنَّزِيلُ الضَّيف.

وقيل: النُّزُل: الرِّزْق وما يتغذَّى به، ومنه: ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٣] أي: فغذاؤه، ويقال: أقمتُ للقوم نُزُلَهم، أي: ما يصلُح أن ينزل عليه من الغذاء[2]. وجمعه أنزال. وقال الهَرَوي[3]: الأنزال التي سُوِّيَتْ ونُزل عليها.

ومعنى «من عند الله» أي: لا من عندِ غيرِه، وسمَّاه «نُزُلاً» لأنه ارتفعَ عنهم تكاليفُ السعي والكسب، فهو شيء مهيَّأ يُهَيَّأ[4] لهم، لا تَعَبَ عليهم في تحصيله هناك ولا مشقَّة، كالطعام المُهيَّأ للضيف، لم يتعب في تحصيله ولا في تسويته ومعالجتِه.

وانتصاب «نُزُلاً»؛ قالوا: إمَّا على الحال من «جنَّات» لتخصُّصها بالوصف، والعاملُ فيها العامل في «لهم»؛ وإمَّا بإضمار فعل، أي: جَعَلَها نُزُلًا، وإمَّا على المصدر المؤكِّد، فقدَّره ابنُ عطيَّة: تكرمةً، وقَدَّرَه الزَّمخشريّ: رِزْقاً أو عطاءً[5]. وقال الفرَّاء: انتصبَ على التفسير[6]، كما تقول: هو لك هبةً أو صدقة[7]. انتهى. وهذا القولُ راجعٌ إلى الحال.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ ظاهرُه حَوَالةُ الصِّلة على ما تقدَّم من قوله: «نُزُلاً من عند الله». والمعنى: أنَّ الذي أعدَّ اللهُ للأبرار في الآخرة خيرٌ لهم، فيحتمل أن يكون المفضَّل عليه بالنسبة للأبرار، أي: خيرٌ لهم ممَّا هم فيه في الدنيا، وإليه

---

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٤١٧، ومجمل اللغة ٣/ ٨٦٤. والكلام أعلاه في زاد المسير ١/ ٥٣٢.
(٢) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٤، وتفسير القرطبي ٥/ ٤١ عند تفسير قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ [الصافات: ٦٢].
(٣) في (أ) و(ع): المهدوي.
(٤) في (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه): مهنَّأ مهيَّأ.
(٥) الكشاف ١/ ٤٩١. وقولُ ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٨.
(٦) أي: على التمييز، وكلام الفراء في معانيه ١/ ٢٥١، وكذا هو قولُه في لفظة «ثواباً» في الآية قبلها.
(٧) في (أ) و(ح) و(د١) و(د٢) و(ع): وصدقة. والمثبت من (ب) و(د٣) و(ز٢) و(يه).

ذهب ابنُ مسعود[(١)]. وجاء: «لَمَوْضِعُ سَوْطٍ في الجنَّة خيرٌ من الدُّنيا وما فيها»[(٢)].

ويحتمل أن يكون بالنسبة إلى الكفار، أي: خيرٌ لهم مما يتقلَّبُ فيه الكفار من المتاع الزائل[(٣)].

وقيل: «خَيْرٌ» هنا ليست للتفضيل، كما أنَّها ليست للتفضيل في قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤] والأظهر ما قدَّمناه.

و«للأبرار» متعلِّق بـ «خَيْر»، و«الأبرار» هم المتقون الذين أخبرَ عنهم بأنَّ لهم جنَّات.

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخير، أي: الذي عندَ الله للأبرار خيرٌ لهم[(٤)]. وهذا ذهولٌ عن قاعدة العربية من أنَّ المجرورَ إذ ذاك يتعلَّق بما تعلَّق به الظرفُ الواقعُ صلةً للموصول، فيكون المجرورُ داخلاً في حيِّز الصِّلة، ولا يُخبَرُ عن الموصول إلا بعد استيفائه صِلتَهُ ومتعلَّقاتِها.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ لـمَّا مات أَصْحَمَةُ النَّجَاشيُّ ملكُ الحَبَشَة ـ ومعنى أَصْحَمَة بالعربية عَطِيَّة؛ قاله سفيان بنُ عُيينة وغيرُه ـ صلَّى عليه رسولُ الله ﷺ، فقال قائل: يصلِّي على هذا العِلْج النَّصْرانيّ وهو في أرضه! فنزلت. قاله جابر بنُ عبدِ الله وابنُ عبَّاس وأنس[(٥)].

وقال الحسن وقتادة: في النَّجَاشيِّ وأصحابه[(٦)].

وقال ابنُ عباس فيما رَوَى عنه أبو صالح: في مؤمني أهلِ الكتاب من اليهود والنَّصارى. وبه قال مجاهد[(٧)].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٥٨.
(٢) أخرجه أحمد (٢٢٧٩٧)، والبخاري (٣٢٥٠) من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ.
(٣) تفسير الثعلبي ٢/ ٢١٨، والكشاف ١/ ٤٩١، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٨.
(٤) ينظر الإملاء ١/ ١٦٤، والدر المصون ٣/ ٥٤٨.
(٥) تفسير الثعلبي ٢/ ٢١٨-٢١٩، والبغوي ١/ ٣٨٨، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٩، وزاد المسير ١/ ٥٣٢. وأخرجه الطبري ٦/ ٣٢٧ عن جابر، و٣٢٨ عن قتادة.
(٦) زاد المسير ١/ ٥٣٢. وأخرجه الطبري ٦/ ٣٢٨ عن قتادة.
(٧) زاد المسير ١/ ٥٣٣. وأخرجه الطبري ٦/ ٣٣٠ عن مجاهد.

وقال ابن جُرَيْج وابنُ زيد ومقاتل: في عبدِ الله بنِ سَلَام وأصحابه[١].

وقال عطاء: في أربعين من نَجْرانَ واثنين وثلاثينَ من الحبشة وثمانيةٍ من الرُّوم، كانوا على دين عيسى، فآمَنُوا بالنبيِّ ﷺ[٢].

و«مَنْ» في «لَمَنْ» الظاهرُ أنها موصولة، وأُجيزَ أن تكون نكرة موصوفة، أي: لَقَوْمًا. والذي أُنزِلَ إلينا هو القرآن، والذي أُنزِلَ إليهم هو كتابُهم.

﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ﴾ كما اشترت بها أحبارُهم الذين لم يؤمنوا.

وانتصابُ «خاشعين» على الحال من الضمير في «يؤمن»، وكذلك «لا يشترون» هو في موضع نصب على الحال.

وقيل: حال من الضمير في «إليهم»، والعاملُ فيها «أُنزل»، وقيل: حال من الضمير في «لا يشترون» وهما قولان ضعيفان. ومَن جعلَ «مَنْ» نكرةً موصوفة يُجوِّزُ أن يكون «خاشعين» و«لا يشترون» صفتين للنكرة.

وجُمع «خاشعين» على معنى «مَنْ» كما جُمع في «وما أُنزل إليهم»، وحُمل أوَّلاً على اللفظ في قوله: «يؤمن» فأُفرِد، وإذا اجتمع الحَمْلان فالأَوْلَى أن يُبدأ بالحمل على اللفظ.

وأتى في الآية بلفظ «يؤمن» دون: آمن - وإن كان إيمانُ مَنْ نزلَ فيهم قد وقع - إشارةً إلى الدَّيمومة والاستمرار. ووصَفَهم بالخشوع، وهو التذلُّل والخضوع المنافي للتعاظم والاستكبار، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ أي: ثوابُ إيمانِهم، وهذا الأجرُ مضاعف مرَّتين بنصِّ الحديث الصحيح، وأنَّ مَنْ آمنَ من أهل الكتاب يُؤتَى أجرَه مرَّتين[٣]،

---

(١) زاد المسير. وأخرجه الطبري ٦/ ٣٢٩ عن ابن جُريج، وبنحوه عن مقاتل.
(٢) تفسير الثعلبي ٢/ ٢١٩، والبغوي ١/ ٣٨٨. وسلف هذا الخبر فيهما وفي هذا التفسير عند تفسير الآية (١١٣). ووقع في «تفسير» البغوي في هذا الموضع: اثنان وثلاثون (دون واو) من أرض الحبشة. . . الخ. ولعله تفصيل للعدد أربعين قبله.
(٣) يُشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ =

يُضاعَفُ لهم الثوابُ بما تضاعفَ منهم من الأسباب.

و«عند» ظرف في موضع الحال، والعاملُ فيه العاملُ في «لهم»، ومعنى «عند ربِّهم» أي: في الجنَّة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: سريعُ الإتيان بيوم القيامة، وهو يومُ الحساب، والمعنى أنَّ أجرَهم قريبٌ إتيانُه، أو سريعٌ حسابُه لنفوذ علمه، فهو عالمٌ بما لكلِّ عامل من الأجر. وتقدَّم تفسير هذه الجملة مستوفًى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ ختَم الله تعالى هذه السورةَ بهذه الوَصَاةِ التي جمعَتْ الظُّهورَ في الدنيا على العدوّ، والفوزَ بنعيم الآخرة، فأمرَ تعالى بالصبر والمصابرة والرِّباط.

فقيل: اصبروا وصابِرُوا بمعنًى واحد للتأكيد.

وقال الحسن وقتادةُ والضَّحَّاك وابنُ جُرَيْج: اصْبِرُوا على طاعة الله في تكاليفه، وصابِرُوا أعداءَ الله في الجهاد، ورابِطُوا في الثُّغور في سبيل الله، أي: ارتبطُوا الخيلَ كما يرتبطُها أعداؤكم[1].

وقال أُبيّ ومحمد بنُ كعب القُرَظيّ: هي مُصابَرةُ وَعْدِ الله بالنَّصر، أي: لا تسأمُوا وانتَظِرُوا الفَرَج[2].

وقيل: «رَابِطُوا»: استعِدُّوا للجهاد كما قال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال أبو سَلَمة بنُ عبد الرحمن: الرِّباط: انتظارُ الصلاة بعدَ الصلاة، ولم يكن في زمن الرسول ﷺ غَزْوٌ مُرابَطٌ فيه، واحتجَّ بقوله عليه الصلاة والسلام: «أَلَا أدلُّكم على ما يَمْحُو الله به الخَطَايا ويرفعُ به الدرجات؟ إسباغُ الوُضوء على

= ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القصص: ٥٣-٥٤]، وإلى حديث أبي موسى الأشعري مرفوعاً: «ثلاثة لهم أجران: رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيِّه، وآمن بمحمد ﷺ...» الحديث. أخرجه البخاري (٩٧)، ومسلم (١٥٤).

(١) ينظر تفسير الطبري ٦/ ٣٣٢-٣٣٣، والثعلبي ٢/ ٢١٩، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٩-٥٦٠.

(٢) تفسير الثعلبي ٢/ ٢١٩، والمحرر الوجيز ١/ ٥٥٩-٥٦٠.

المكاره، وكثرةُ الخُطا إلى المساجد، وانتظارُ الصلاة بعدَ الصلاة، فذلكم الرِّباط»(١) ثلاثاً. فعلى هذا لا يكون «رَابِطُوا» من باب المفاعلة؛ قال ابنُ عطيَّة(٢): والقولُ الصحيحُ هو أنَّ الرِّباط هو الملازمةُ في سبيل الله، أصلُها من رَبْطِ الخيل، ثم سُمِّيَ كلُّ ملازمٍ لثَغْرٍ من ثُغورِ الإسلام مُرابطاً، فارسًا كان أو راجلاً، واللفظةُ مأخوذة من الرَّبْط، وقولُ النبيِّ ﷺ: «فذلكم الرِّباط» إنما هو تشبيهٌ بالرِّباط في سبيل الله، إذِ انتظارُ الصلاة إنما هو سبيلٌ من السُّبُل المُنجية، والرِّباطُ اللغويُّ هو الأول، والمرابطُ في سبيل الله عند الفقهاء هو الذي يَشْخَصُ إلى ثَغْرٍ من الثُّغُور ليُرابط فيه مُدَّةً مَّا. قاله ابنُ الموَّاز ورواه، فأمَّا سُكَّان الثُّغور دائماً بأهليهم الذين يعتمرون ويكتسبون هناك؛ فهم - وإن كانوا حُماةً - ليسوا بمرابطين. انتهى كلامه.

وقال الزمخشريّ: «وصابِرُوا» أعداءَ الله في الجهاد، أي: غالِبُوهم في الصبر على شدائد الحرب، لا تكونوا أقلَّ صبرًا منهم وثباتًا. والمصابرةُ بابٌ من الصبر، ذُكر بعد الصبر على ما يجبُ الصبرُ عليه تحقيقاً(٣) لشدَّته وصعوبته.

«ورابِطُوا»: وأقيموا في الثُّغور رابِطين خيلَكم فيها مترصِّدِين مستعدِّين للغَزْو. قال الله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وعن النبيِّ ﷺ: «مَنْ رابَطَ يوماً وليلةً في سبيل الله كان كعِدْلِ صيامِ شهرٍ وقيامِه لا يُفطر ولا ينفتل عن صلاته إلا لحاجة». انتهى كلام الزمخشريّ(٤).

وفي البخاريّ: قال رسول الله ﷺ: «رِباطُ يومٍ في سبيل الله خيرٌ من الدُّنيا وما فيها»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ. ورواية «فذلكم الرِّباط» ثلاث مرات عند مالك في الموطأ ١/ ١٦١. وقولُ أبي سلمة في تفسير الثعلبي ٢/ ٢٢٠، والمحرر الوجيز ١/ ٥٦٠، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٨٧.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٦٠.

(٣) في الكشاف ١/ ٤٩١: تخصيصاً. ووقع في (د٣) و(ز٢) و(يه): تخفيفاً، وهو تحريف.

(٤) الكشاف ١/ ٤٩١. والحديث عند الثعلبي ٢/ ٢٢٠ عن سلمان الفارسي ﷺ. وهو بنحوه عند مسلم وسيرد.

(٥) هو قطعة من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ في صحيح البخاري (٢٨٩٢)، وفيه: «خيرٌ من الدنيا وما عليها». واللفظُ أعلاه في تفسير القرطبي ٥/ ٤٨٨.

وفي مسلم: «رباطُ يوم وليلةٍ خَيْرٌ من صيام شهرٍ وقيامِه، وإنْ ماتَ جَرَى عليه [عملُه الذي كان يعملُه، وأُجرِيَ عليه] رزقُه وأَمِنَ الفَتَّان»[١].

وفي «سنن» أبي داود[٢] قال: «كلُّ الميِّتِ يُختم على عمله إلا المرابِط، فإنَّه يَنْمُو له عملُه إلى يوم القيامة، ويُؤمَنُ[٣] من فَتَّانَي القَبْر».

وتضمَّنت هذه الآياتُ من ضُروب البيان والبديع: الاستعارةَ؛ عُبِّرَ بأخْذِ الميثاق عن التزامِهم أحكامَ ما أُنزِلَ عليهم من التوراة والإنجيل، وبالنَّبْذِ وراءَ ظهورِهم عن ترك عملِهم بمقتضى تلك الأحكام، وباشتراءِ ثمنٍ قليلٍ عمَّا تَعَوَّضُوه من الحُطام على كَتْم آياتِ الله، وبسماع المنادي - إن كان القرآن - عمَّا تلقَّوْه من الأمر والنَّهي والوعد والوعيد، وبالاستجابة عن قبول مسألتهم، وبانتفاء التضييع عن عدم مجازاتِه على يسير أعمالهم، وبالتقلُّب عن ضربهم في الأرض لطَلَبِ المكاسب، وبالمِهاد عن المكان المستقَرِّ فيه، وبالنُّزُل عمَّا يعجِّلُ الله لهم في الجنَّة من الكرامة، وبالخشوع - الذي هو تهدُّم المكان وتغيُّر معالمه - عن خُضوعهم وتذلُّلهم بين يديه، وبالسرعة - التي هي حقيقةٌ في المشي - عن تعجيل كرامته. قيل: ويحتمل أن يكون الحساب استُعير للجزاء كما استُعير ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٦] لأنَّ الكفَّار لا يُقام لهم حساب كما قال تعالى: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

والطِّباقَ في «لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاس ولا تكتمونه»، وفي «السَّماوات والأرض واختلاف الليل والنهار»؛ فالسَّماءُ جهة العُلو، والأرضُ جهة السُّفل، والليلُ عبارة عن الظُّلمة، والنَّهارُ عبارة عن النُّور، وفي «قياماً وقُعوداً» و«من ذكر أو أنثى».

والتكرارَ في «لا تَحْسَبنَّ» «فلا تَحْسَبَنَّهم»، وفي «ربَّنا» في خمسة مواضع، وفي «فاغْفِرْ لنا ذنوبَنا وكَفِّرْ عنَّا سيِّئاتِنا» إنْ كان المعنى واحداً، وفي «ما أُنزلَ إليكم وما أُنزلَ إليهم»، وفي «ثَواباً» و«حُسْنُ الثَّواب».

---

(١) صحيح مسلم (١٩١٣) وما بين حاصرتين منه، وهو من حديث سلمان الفارسي ﷺ. قوله: الفَتَّان؛ يُروى بضمِّ الفاء؛ جمع فاتن، وبفتحها؛ يعني فَتَّانَ القبر. قاله أبو العباس القرطبي في المفهم ٣/٧٥٦.

(٢) رقم (٢٥٠٠) من حديث فَضالة بن عبيد. وهو في مسند أحمد (٢٣٩٥١).

(٣) في (أ) و(ع): ويأمنُ.

والاختصاصَ في «لأُولي الألباب»، وفي «وما للظالمين من أنصار»، وفي «تَوَفَّنا مع الأبرار»، وفي «ولا تُخْزِنَا يومَ القيامة»، وفي «وما عندَ الله خيرٌ للأبرار».

والتجنيسَ المُماثِل في «أنْ آمِنُوا» «فآمَنَّا»، وفي «عَمَلَ عاملٍ»، والمُغايِر في «منادياً ينادي».

والإشارة في «ما خلقتَ هذا باطلاً».

والحذف في عدَّة مواضع.

(٣) سورة آل عمران مدنية
وآياتها مائتان

صدرها إلى ثلاث وثمانين آية منهـا نزل في (وفد نجران) ، وكان قدومهم في سنة تسع من الهجرة كما سيأتي بيان ذلك عنـد تفسير آية المبـاهلة منها إن شاء الله تعالى. وقـد ذكرنا مـا ورد في فضلها مـع سورة البقرة (أول سورة البقرة) فارجع إليه هناك .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾

قد ذكرنا الحديث الوارد في أن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾، و ﴿ الم. الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ عند تفسير آية الكرسي، وقـد تقدم الكلام على قوله: ﴿ الم﴾ في أول سـورة البقرة بمـا أغنى عن إعادته، وتقـدم الكلام على قوله : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ في تفسير آيـة الكرسي .

وقوله تعالى : ﴿ نزَّل عليك الكتاب بالحق﴾ يعني نزل عليك القرآن يا محمد بالحق، أي لا شك فيـه ولا ريب بل هو منزل من عند الله، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيداً. وقوله: ﴿ مصدقاً لما بين يديه﴾ أي من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله والأنبياء، فهي تصدقه بمـا أخبرت به وبشرت في قديم الزمان، وهو يصدقها لأنه طابق مـا أخبرت بـه وبشرت من الوعـد من الله بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن العظيم عليه، وقوله: ﴿وأنزل التوراة﴾ أي على موسى بن عمران، ﴿والإنجيل﴾ أي على عيسى بن مريم عليهما

السلام، ﴿من قبل﴾ أي من قبل هـذا القرآن، ﴿هدى للنـاس﴾: أي في زمانهما، ﴿وأنزل الفرقان﴾: وهو الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والغي والرشاد، بمـا يذكره الله تعالى من الحجج والبينات والدلائل الواضحات، والبراهين القاطعات، ويبينه ويوضحه ويفسره ويقرره ويرشد إليه وينبه عليه من ذلك. وقال قتادة والربيع: الفرقان ههنا القرآن، واختار ابن جرير أنه مصدر ههنا لتقدم ذكر القرآن في قوله: ﴿نزل عليك الكتاب بالحق﴾ وهو القرآن. وأما ما روي عن أبي صالح: أن المراد بالفرقان ههنا التوراة، فضعيف أيضاً، لتقدم ذكر التوراة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ أي جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل، ﴿لهم عذاب شديد﴾: أي يوم القيامة، ﴿والله عزيز﴾ أي منيع الجناب عظيم السلطان، ﴿ذو انتقام﴾: أي ممن كذب بآياته وخالف رسله الكرام وأنبياءه العظام.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾

يخبر تعالى أنه يعلم غيب السماء والأرض لا يخفى عليه شيء من ذلك، ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ أي يخلقكم في الأرحـام كما يشاء من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقي وسعيد، ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ أي هو الذي خلق وهو المستحق للإلهية، وحده لا شريك له وله العزة التي لا ترام، والحكمة والأحكام، وهـذه الآية فيها تعريض بل تصريح بأن عيسى بن مريم عبد مخلوق كما خلق الله سائر البشر، لأن الله صوره في الرحم وخلقه كما يشاء، فكيف يكون إلهـاً كما زعمته النصارى عليهم لعـائن الله!! وقـد تقلب في الأحشاء وتنقل من حال إلى حال!؟ كما قال تعالى: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾.

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾

يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات ﴿هنَّ أم الكتاب﴾ أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيهـا على أحد، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه وحكَّم محكمه على متشابهه عنده فقـد اهتدى، ومن عكس انعكس، ولهـذا قال تعالى: ﴿هن أم الكتاب﴾ أي أصله

الذي يرجع إليه عند الاشتباه ﴿وأخر متشابهات﴾ أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظُ والتركيبُ لا من حيث المراد، وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه، فقال ابن عباس: المحكمات ناسخة وحلاله وحرامه وحدوده وأحكامه وما يؤمر بـه ويعمل بـه. وقال يحيى بن يعمر: الفرائض والأمر والنهي والحلال والحرام، وقال سعيد بن جبير: ﴿هنّ أم الكتاب﴾ لأنهن مكتوبات في جميع الكتب، وقال مقاتل: لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهن. وقيل في المتشابهات: المنسوخة والمقدم والمؤخر والأمثال فيه والأقسام، وما يؤمن به ولا يعمل به، روي عن ابن عباس، وقيل: هي الحروف المقطعة في أوائل السور قاله مقاتل بن حيان، وعن مجاهد: المتشابهات يصدق بعضها بعضاً وهذا إنما هو في تفسير قوله: ﴿كتاباً متشابهاً مثاني﴾ هناك ذكروا أن المتشابه هو الكلام الذي يكون في سياق واحد، والمثاني هو الكلام في شيئين متقابلين كصفة الجنة وصفة النار، وذكر حال الأبرار وحال الفجّار ونحو ذلك، وأما هاهنا فالمتشابه هو الذي يقابل المحكم، وأحسن ما قيل فيه هو الذي قدمنا، وهو الذي نص عليه ابن يسار رحمه الله حيث قال: ﴿منه آيات محكمات﴾ فهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم الباطل، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه، قال: والمتشابهات في الصدق ليس لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام ألا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾ أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾ أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه. فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه لأنه دامغ لهم وحجة عليهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ابتغاء الفتنة﴾ أي الإضلال لأتباعهم، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهو حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قـد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه﴾، وبقوله: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قـال له كن فيكون﴾، وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خَلْقٌ من مخلوقات الله، وعبد ورسول من رسل الله.

وقوله تعالى: ﴿وابتغاء تأويله﴾ أي تحريفه على ما يريدون، وقال مقاتل والسدي: يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن، وقـد قال الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ إلى قوله: ﴿أولو الألباب﴾ فقال: «إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم». وقد روى هذا الحديث البخاري عند تفسير هذه الآية ومسلم في كتاب القدر من صحيحه وأبو داود في السنة من سننه ثلاثتهم عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات﴾ إلى قوله: ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم».

وروى أحمد عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾ قال: «هم الخوارج»، وفي قوله تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ قال: «هم الخوارج»، وهذا الحديث

أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي، ومعناه صحيح فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم النبي ﷺ (غنائم حنين) فكأنهم رأوا - في عقولهم الفاسدة - أنه لم يعدل في القسمة ففاجأوه بهذه المقالة، فقال قائلهم وهو (ذو الخويصرة) - بقر الله خاصرته - إعدل فإنك لم تعدل، فقال رسول الله ﷺ: «لقد خبت وخسرت. إن لم أكن أعدل، أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني»! فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب في قتله، فقال: «دعه فإنه يخرج من ضئضئ هذا - أي من جنسه - قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وقراءته مع قراءتهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم». ثم كان ظهورهم أيام (علي بن ابي طالب) رضي الله عنه وقتلهم بالنهروان، ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة، ثم انبعثت القدرية، ثم المعتزلة، ثم الجهمية، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ في قوله: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة»، قالوا: ومن يا رسول الله؟ قال: «من كان على ما أنا عليه وأصحابي». أخرجه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة.

وروى الحافظ أبو يعلى، عن حذيفة عن رسول الله ﷺ أنه ذكر: «إنّ في أمّتي قوماً يقرؤون القرآن ينثرونه نثر الدَّقَل[1] يتأولونه على غير تأويله».

وقوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ اختلف القراء في الوقف ههنا، فقيل على الجلالة كما تقدم عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: التفسير على أربعة أنحاء، فتفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله. وقال رسول الله ﷺ: «إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا بـه، وما تشابه منه فآمنوا بـه»، وقال عبد الرزاق: كان ابن عباس يقرأ: (وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون آمنا به)، وكذا رواه ابن جرير عن عمر بن عبد العزيز ومالك ابن أنس أنهم يؤمنون بـه ولا يعلمون تأويـله، وحكى ابن جرير أن في قراءة عبدالله بن مسعود: (إنْ تأويله إلا عند الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به) واختار ابن جرير هذا القول.

ومنهم من يقف على قوله تعالى: ﴿والراسخون في العلم﴾ وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا الخطاب بما لا يفهم بعيد، وقد روى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله، وقال مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به، وكذا قال الربيع بن أنَس، وقال محمد ابن جعفر بن الزبير: وما يعلم تأويله الذي أراد ما أراد إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به، ثم ردوا تأويل المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فاتسق بقولهم الكتاب وصدق بعضه بعضاً فنفذت الحجة، وظهر بـه العذر وزاح بـه الباطل ودفع بـه الكفر، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل». ومن العلماء من فصل في هذا المقام وقال: التأويل يطلق ويراد بـه في القرآن معنيان، **احدهما**: التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه؛ ومنه قوله تعالى:

(١) أردأ التمر.

﴿وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾، وقوله: ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله﴾ أي حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد. فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا الله عزّ وجلّ؛ ويكون قوله: ﴿والراسخون في العلم﴾ مبتدأ و ﴿يقولون آمنا به﴾ خبره. وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر: وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء كقوله: ﴿نبئنا بتأويله﴾ أي بتفسيره، فإن أريد به هذا المعنى فالوقف على ﴿والراسخون في العلم﴾ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يقولون آمنا به﴾ حالاً منهم، وساغ هذا وان يكون من المعطوف دون المعطوف عليه كقوله: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم - إلى قوله - يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾ أي وجاء الملائكة صفوفاً صفوفاً.

وقوله تعالى - إخباراً عنهم - أنهم يقولون آمنا به أي المتشابه ﴿كلٌّ من عند ربنا﴾ أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له، لأن الجميع من عند الله وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد، كقوله: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ أي انما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة، وقد قال ابن أبي حاتم بسنده: حدَّثنا عبيدالله بن يزيد - وكان قد أدرك أصحاب النبي ﷺ أنساً وأبا أمامة وأبا الدرداء - أن رسول الله ﷺ سئل عن الراسخين في العلم فقال: «من برت يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، ومن عف بطنه وفرجه، فذلك من الراسخين في العلم»، وقال الإمام أحمد بسنده: سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارون، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا؛ ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضه ببعض. فما علمتم منه فقولوا به، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه».

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، والمراء في القرآن كفر - قالها ثلاثاً - ما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه جل جلاله»[1]. وقال ابن المنذر في تفسيره عن نافع بن يزيد قال: الراسخون في العلم المتواضعون لله المتذللون لله في مرضاته، لا يتعاظمون على من فوقهم ولا يحقرون من دونهم. ثم قال تعالى عنهم مخبراً أنهم دعوا ربهم قائلين: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ أي لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم. ﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾ تثبت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً ﴿إنك أنت الوهاب﴾. عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، ثم قرأ: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾[2].
وعن أم سلمة، عن أسماء بنت يزيد بن السكن، سمعتها تحدِّث أن رسول الله ﷺ كان يكثر من دعائه: «اللهم

(١) رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده.
(٢) رواه ابن أبي حاتم عن أم سلمة.

مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك »، قالت، قلت: يا رسول الله وإن القلب ليتقلب؟ قال: « نعم، ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عزّ وجلّ، فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه »[١]. قلت: يا رسول الله ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي، قال: « بلى، قولي: اللهم رب محمد النبي اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن ».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو: « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ». قلت: يا رسول الله ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء، فقال: « ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه. أما تسمعي قوله: ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ »[٢]. وعن سعيد بن المسيب عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل قال: « لا إله إلا أنت سبحانك أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علماً، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة. إنك أنت الوهاب »[٣].

وقوله تعالى: ﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ﴾ أي يقولون في دعائهم إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم، وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه، وتجزي كلاً بعمله، وما كان عليه في الدنيا من خير وشر.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن الكفّار بأنهم وقود النار: ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾، وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله، ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه، كما قال تعالى: ﴿ ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾. وقال تعالى: ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾، وقال ههنا: ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي بآيات الله، وكذبوا رسله، وخالفوا كتابه، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه: ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار ﴾ أي حطبها الذي تسجر به وتوقد به كقوله: ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ الآية. وعن أم الفضل: أن رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة، فقال: « هل بلغت »؟ يقولها ثلاثاً، فقام عمر بن الخطاب - وكان أوّاهاً - فقال: اللهم نعم، وحرصت وجهدت، ونصحت فاصبر؛ فقال النبي ﷺ: « ليظهرن الإيمان حتى يرد الكفر إلى مواطنه، وليخوضن رجال البحار بالإسلام، وليأتين

---

(١) رواه ابن مردويه وابن جرير.

(٢) رواه ابن مردويه، قال ابن كثير: وأصله في الصحيحين.

(٣) رواه أبو داود والنسائي.

على النـاس زمان يقرؤون القرآن فيقرؤونه ويعلمونه، فيقولون قـد قرأنا وقـد علمنا فمن هذا الذي هو خـير منا؟ فما في أولئك من خير». قالوا: يا رسول الله فمن أولئك؟ قال: «أولئك منكم، أولئك هم وقـود النار»[1].

وقوله تعالى: ﴿كدأب آل فرعون﴾، قال ابن عباس: كصنيع آل فرعون، وكذا روي عن عكرمة ومجاهد والضحاك وغير واحد، ومنهم من يقول: كسنة آل فرعون، وكفعل آل فرعون وكشبه آل فرعون، والألفاظ متقاربة والدَّأب - بالتسكين والتحريك أيضاً كنَهْر ونَهَر - هو الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة، كما يقال: لا يزال هذا دأبي ودأبك، وقال امرؤ القيس:

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسـل

والمعنى: كعادتك في أم الحويرث حين أهلكتَ نفسك في حبها وبكيت دارهـا ورسمها! والمعنى في الآية: إنَّ الكافرين لا تغني عنهم الأموال ولا الأولاد، بل يهلكون ويعذبون، كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم مـن المكذبين للرسل فيما جاؤوا بـه من آيات الله وحججه: ﴿والله شديد العقاب﴾ أي شديد الأخذ، أليم العذاب، لا يمتنع منه أحـد، ولا يفوته شيء، بل هو الفعال لمـا يريـد الذي قـد غلب كل شيء، لا إله غيره ولا رب سواه.

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾

يقول تعالى: قل يا محمد للكافرين ﴿ستغلبون﴾ أي في الدنيا، ﴿وتحشرون﴾ أي يوم القيامة إلى جهنم وبئس المهاد. وقـد ذكر محمد بن إسحاق أن رسول الله ﷺ لمـا أصاب من أهل بدر ما أصاب، ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق (بني قينقاع) وقال: «يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمـا أصاب قريشاً». فقالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾، إلى قوله: ﴿لعبرة لأولي الأبصار﴾[2]. ولهذا قال تعالى: ﴿قد كان لكم آية﴾ أي قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم آية، أي دلالة على أن الله معزّ دينه، وناصر رسوله، ومظهر كلمته، ومعل أمره ﴿في فئتين﴾ أي طائفتين ﴿التقتا﴾ أي للقتال، ﴿فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر. وقوله: ﴿يرونهم مثليهم رأي العين﴾، قال بعض العلماء: يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم في العدد

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) أخرجه محمد بن إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس.

رأي أعينهم، أي جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم، وهذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة، وهي أن المشركين بعثوا (عمر بن سعد) يومئذ قبل القتال يحزر لهم المسلمين، فأخبرهم بأنهم ثلثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، وهكذا كان الأمر، كانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً، ثم لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم.

والقول الثاني أن المعنى في قوله تعالى: ﴿ يرونهم مثليهم رأي العين ﴾ أي يرى الفئة المسلمة الفئة الكافرة ﴿ مثليهم ﴾ أي ضعفيهم في العدد ومع هـذا نصرهم الله عليهم، والمشهور أنهم كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف، وعلى كل تقدير، فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين، وعلى هذا فيشكل هذا القول والله أعلم، لكن وجَّه ابن جرير هذا وجعله صحيحاً. كما تقول: عندي ألف وأنا محتاج إلى مثليها، وتكون محتاجاً إلى ثلاثة آلاف كذا قال. وعلى هـذا فلا إشكال، لكن بقي سؤال آخر وهو وارد على القولين، وهو أن يقال: ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في قصة بدر: ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ **فالجواب**: أن هذا كان في حالة، والآخر كان في حالة أخرى، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا ﴾ الآية. قال: هذا يوم بدر، وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا. ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً. وذلك قوله تعالى: ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ﴾ الآية. وقال أبو إسحاق عن عبدالله بن مسعود: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، قال: فأسرنا رجلاً منهم فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً، فعندما عاين كل من الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثليهم، أي أكثر منهم بالضعف ليتوكلوا ويتوجهوا، ويطلبوا الإعانة من ربهم عزّ وجلّ، ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع. ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان قلّل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء ليقدم كل منهما على الآخر: ﴿ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ أي ليفرق بين الحق والباطل فيظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان، ويعزّ المؤمنين ويذل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾، وقال ههنا: ﴿ والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ أي: إن في ذلك لعبرة لمن له بصيرة وفهم ليهتدي به إلى حكم الله وأفعاله، وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء لأن الفتنة

بهن أشد، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء». فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه، وأن خير هذه الأمة من كان أكثرها نساء، وقوله ﷺ: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرَّته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله»[1]. وقوله في الحديث الآخر: «حبِّب إليّ النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة».

وحبُّ البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا، وتارة يكون لتكثير النسل وتكثير أمة محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح كما ثبت في الحديث: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة». وحب المال كذلك، تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البر والطاعات فهذا ممدوح محمود شرعاً، وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال، وحاصلها: أنه المال الجزيل كما قاله الضحاك وغيره، وقيل: ألف دينار، وقيل: ألف ومائتا دينار، وقيل: اثنا عشر ألفاً، وقيل: أربعون ألفاً، وقيل: ستون ألفاً، وقيل غير ذلك.

وحب الخيل على ثلاثة أقسام: تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله متى احتاجوا إليها غزوا عليها، فهؤلاء يثابون. وتارة تربط فخراً ونِواء[2] لأهل الإسلام فهذه على صاحبها وزر. وتارة للتعفف واقتناء نسلها ولم ينس حق الله في رقابها فهذه لصاحبها ستر، كما سيأتي الحديث بذلك إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ الآية، وأما المسوّمة: فعن ابن عباس رضي الله عنهما المسومة الراعية، والمطهمة الحسان، وقال مكحول: المسومة الغرة والتحجيل، وقيل غير ذلك. وقوله تعالى: ﴿والأنعام﴾ يعني الإبل والبقر والغنم، ﴿والحرث﴾ يعني الأرض المتخذة للغراس والزراعة: وقال الإمام أحمد عن سويد بن هبيرة عن النبي ﷺ قال: «خير مال امرئ له مهرة مأمورة، أو سكة مأبورة» المأمورة الكثيرة النسل، والسكة النخل المصطف، والمأبورة الملقحة.

ثم قال تعالى: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ أي إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة، ﴿والله عنده حسن المآب﴾ أي حسن المرجع والثواب، قال عمر بن الخطاب: لما نزلت ﴿زين للناس حب الشهوات﴾ قلت: الآن يا رب حين زينتها لنا، فنزلت: ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم﴾ أي قل يا محمد للناس أؤخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا، من زهرتها ونعيمها الذي هو زائل لا محالة؟ ثم أخبر عن ذلك فقال: ﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبد الآباد لا يبغون عنها حولاً، ﴿وأزواج مطهرة﴾ أي من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس وغير ذلك مما يعتري نساء

---

(١) أخرجه النسائي وروى بعضه مسلم في صحيحه. (٢) مفاخرة ومعارضة.

الدنيا، ﴿ورضوان من الله﴾ أي يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبداً، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى التي في براءة: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ أي أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم، ثم قال تعالى: ﴿والله بصير بالعباد﴾ أي يعطي كلا بحسب ما يستحقه من العطاء.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

يصف تبارك وتعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل فقال تعالى: ﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا﴾ أي بك وبكتابك وبرسولك، ﴿فاغفر لنا ذنوبنا﴾ أي بإيماننا بك وبما شرعته لنا فاغفر لنا ذنوبنا بفضلك ورحمتك ﴿وقنا عذاب النار﴾، ثم قال تعالى: ﴿الصابرين﴾ أي في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات، ﴿والصادقين﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة، ﴿والقانتين﴾ والقنوت: الطاعة والخضوع، ﴿والمنفقين﴾ أي من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام والقرابات، وسد الخلّات، ومواساة ذوي الحاجات، ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار، وقد قيل: إن يعقوب عليه السلام لما قال لبنيه: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾ إنه أخرهم إلى وقت السحر، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟».

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ، من أوله وأوسطه وآخره، فانتهى وتره إلى السحر. وكان عبدالله بن عمر يصلي من الليل ثم يقول: يا نافع هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح[1]. وقال ابن جرير، عن إبراهيم بن حاطب، عن أبيه قال: سمعت رجلاً في السحر في ناحية المسجد وهو يقول: يا رب أمرتني فأطعتك، وهذا السحر فاغفر لي، فنظرت فإذا هو ابن مسعود رضي الله عنه، وعن أنس بن مالك قال: كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر في آخر السحر سبعين مرة[2].

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) رواه ابن مردويه.

شهد تعالى وكفى بـه شهيداً وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم وأصدق القائلين ﴿أنه لا إله إلا هو﴾ أي المنفرد بالالهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه وفقراء إليه، وهو الغني عما سواه كما قال تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾ الآية، ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هـو والملائكة وأولو العلم﴾، وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام. ﴿قائماً بالقسط﴾ منصوب على الحـال وهو في جميع الأحوال كذلك. ﴿لا إله إلا هو﴾ تأكيد لما سبق، ﴿العزيز الحكيم﴾ العزيز الذي لا يرام جنابه عظمة وكبرياء﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره. عن الزبير بن العوام قـال: سمعت النبي ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾، ثم قال: وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب[1] .

وعن غالب القطان قال: أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريباً من الأعمش، فلما كانت ليـلة أردت أن أنحدر، قـام فتهجد من الليل فمر بهذه الآية: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، إن الدين عند الله الإسلام﴾. ثم قـال الأعمش: وأنا أشهد بمـا شهد الله بـه وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعـة ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ قالها مراراً. قلت: لقد سمع فيها شيئاً، فغدوت إليه فودعته ثم قلت: يا أبا محمد إني سمعتك تردد هـذه الآية، قال: أوما بلغك ما فيها ؟ قلت: أنا عندك منذ شهر لم تحدثني ! قـال: والله لا أحدثك بهـا إلى سنة ؛ فأقمت سنة فكنت على بابه، فلما مضت السنة، قلت: يا أبا محمد قـد مضت السنة. قال، حدثني أبو وائل عن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ : « يجاء بصاحبها يوم القيامة، فيقول الله عزّ وجلّ: عبدي عهد إليّ، وأنا أحق من وفى بالعهـد أدخلوا عبـدي الجنة »[2] .

وقوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحـد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيا بعثهم الله بـه في كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قـال تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ الآية، وقال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل منه عنده في الإسلام: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾. ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول إنمـا اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم، فقال: ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ أي بغي بعضهم على بعض، فاختلفوا في الحق بتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله وإن كانت حقاً، ثم قال تعالى: ﴿ومن يكفر بآيات الله﴾ أي من جحد ما أنزل الله في كتابه ﴿فإن الله سريع الحساب﴾ أي فإن الله سيجازيـه على ذلك ويحاسبه على تكذيبه ويعاقبه على مخالفته كتابه .

---

(١) رواه أحمد وابن أبي حاتم .

(٢) رواه الطبراني في الكبير .

ثم قال تعالى: ﴿فإن حاجوك﴾ أي جادلوك في التوحيد، ﴿فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن﴾ أي فقل أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له، ولا ندَّ له، ولا ولد له ولا صاحبة له. ﴿ومن اتبعن﴾ أي على ديني، يقول كمقالتي كما قال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ الآية، ثم قال تعالى آمراً لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه والدخول في شرعه وما بعثه الله به إلى الكتابيين من المليين والأميين من المشركين، فقال تعالى: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾ أي والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة. ولهذا قال تعالى: ﴿والله بصير بالعباد﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة وهو الذي ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ وما ذلك إلا لحكمته ورحمته.

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنّة في غير ما آية وحديث فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾، وقال تعالى: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾، وفي الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم، كتابيهم وأميهم امتثالاً لأمر الله له بذلك، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار»[1]، وقال ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود»، وقال: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[2].

وروى الإمام أحمد، عن أنَس رضي الله عنه: أن غلاماً يهودياً كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ويناوله نعليه، فرض فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه، فقال له النبي ﷺ: «يا فلان قل لا إله إلا الله»، فنظر إلى أبيه فسكت أبوه. فأعاد عليه النبي ﷺ، فنظر إلى أبيه، فقال أبوه: أطع أبا القاسم، فقال الغلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أخرجه بي من النار»[3].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب، بما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً، التي بلّغتهم إياها الرسل استكباراً عليهم، وعناداً لهم وتعاظماً على الحق واستنكافاً عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة. (٢) أخرجاه في الصحيحين. (٣) أخرجه البخاري وأحمد.

من النبيين حين بلّغوهم عن الله شرعه، بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم إلا لكونهم دعوهم إلى الحق ﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من النـاس﴾ وهـذا هو غـاية الكبر. عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنـه قـال: قلت: يا رسول الله أي النـاس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قـال: «رجل قتل نبياً، أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون الـذين يأمرون بالقسط من النـاس، فبشرهم بعذاب أليم﴾ الآية. ثم قـال رسول الله ﷺ: «يا أبا عبيـدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة وسبعون رجلاً من بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر الله عزّ وجلّ»[1]. وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار وأقاموا سوق بقلهم من آخره، ولهذا لما أن تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة، فقال تعالى: ﴿ فبشرهم بعذاب أليم﴾ أي موجع مهين ﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين﴾.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

ينكر الله تعالى على اليهود والنصارى، المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللذين بأيديهم، وهما (التوراة والإنجيل) إذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طـاعة الله، فيما أمرهم بـه فيهما من اتباع محمد ﷺ، تولوا وهم معرضون عنهما، وهـذا في غاية مـا يكون من ذمهم والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد، ثم قـال تعالى: ﴿ ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾ أي إنمـا حملهم وجرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم، أنهم إنمـا يعذبون في النار سبعة أيام عن كل ألف سنة في الدنيا يوماً، وقـد تقدم تفسير ذلك في سورة البقرة، ثم قال تعالى: ﴿ وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ أي ثبتهم على دينهم البـاطل ما خدعوا بـه أنفسهم، من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أيامـاً معدودات، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم، واختلقوه ولم ينزل الله بـه سلطاناً، قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعداً: ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾، أي كيف يكون حـالهم وقـد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم، الآمرين بالمعروف والنـاهين عن المنكر!! والله تعالى سائلهم عن ذلك كله وحـاكم عليهم ومجازيهم بـه، ولهـذا قال تعالى: ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾؟ أي: لا شك في وقوعـه وكونه، ﴿ ووفيت كل نفس مـا كسبت وهم لا يظلمون﴾.

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تبارك وتعالى: ﴿قل﴾ يا محمد معظماً لربك وشاكراً له ومفوضاً إليه ومتوكلاً عليه ﴿اللهم مالك الملك﴾ أي لك الملك كله، ﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾: أي أنت المعطي وأنت المانع، وأنت الذي ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن، **وفي هذه الآية تنبيه** وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى، على رسوله ﷺ وهذه الأمة، لأن الله تعالى حوّل النبوّة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي خاتم الأنبياء على الاطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصَّه بخصائص لم يعطها نبياً من الأنبياء، ولا رسولاً من الرسل، في العلم بالله وشريعته واطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشفه له عن حقائق الآخرة، ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار، ولهذا قال تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ الآية، أي: أنت المتصرف في خلقك الفعّال لما تريد، كما رد تعالى على من يحكم عليه في أمره حيث قال: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾، قال الله رداً عليهم: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾؟ الآية، أي: نحن نتصرف فيما خلقنا كما نريد، بلا ممانع ولا مدافع، ولنا الحكمة البالغة والحجة التامة في ذلك، وهكذا يعطي النبوة لمن يريد، كما قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾. وقال تعالى: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ أي تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان ثم يعتدلان، وهكذا في فصول السنة ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاء.

وقوله تعالى: ﴿وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾ أي تخرج الزرع من الحب، والحب من الزرع، والنخلة من النواة والنواة من النخلة، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء: ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ أي تعطي من شئت من المال ما لا يعده ولا يقدر على إحصائه، وتقتر على آخرين لما لك في ذلك من الحكمة والارادة والمشيئة. عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في هذه الآية من آل عمران﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾»[1]

﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن

(١) أخرجه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً.

تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين، ثم توعدهم على ذلك فقال تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ أي ومن يرتكب نهي الله من هذا فقد برئ من الله، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة – إلى أن قال – ومن يفعله منكم فقد ضل سواء سبيل﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾، أي إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما قال البخاري عن أبي الدرداء إنه قال: «إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم». وقال الثوري، قال ابن عباس: ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان، ويؤيده قول الله تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ الآية. ثم قال تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ أي يحذركم نقمته في مخالفته وسطوته، وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه، ثم قال تعالى: ﴿وإلى الله المصير﴾ أي إليه المرجع والمنقلب ليجازي كل عامل بعمله.

قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان، والأيام واللحظات وجميع الأوقات، وجميع ما في الأرض والسموات، لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال، ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي وقدرته نافذة في جميع ذلك. وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته، لئلا يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أَنظَرَ من أنظر منهم، فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر، ولهذا قال بعد هذا: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾ الآية، يعني يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر كما قال تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخر﴾ فما رأى من أعماله حسناً سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغصّه، وودّ لو أنه تبرأ منه وأن يكون بينهما أمد بعيد، كما يقول لشيطانه الذي كان مقروناً به في الدنيا، وهو الذي جرأه على فعل السوء: ﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾، ثم قال تعالى مؤكداً ومهدداً ومتوعداً: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ أي يخوفكم عقابه، ثم قال جلّ

جلاله مرجياً لعباده لئلا ييأسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه: ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ قال الحسن البصري: من رأفته بهم حذرهم نفسه وقال غيره: أي رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم، وأن يتبعوا رسوله الكريم.

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»، ولهذا قال: ﴿إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأن أن تحب إنما الشأن أن تُحَب، وقال الحسن البصري: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾. عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ «هل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله؟ قال الله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني﴾[1].

ثم قال تعالى: ﴿ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم﴾ أي باتباعكم الرسول ﷺ، يحصل لكم هذا من بركة سفارته، ثم قال تعالى آمراً لكل أحد من خاص وعام: ﴿قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا﴾ أي تخالفوا عن أمره، ﴿فإن الله لا يحب الكافرين﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل، ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلا اتباعه، والدخول في طاعته واتباع شريعته، كما سيأتي تقريره عند قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ الآية، إن شاء الله تعالى.

* إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى ﴿آدم﴾ عليه السلام خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلّمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة، ثم أهبطه منها لما له في ذلك من

(١) رواه ابن أبي حاتم عن عائشة مرفوعاً وفي سنده ضعف.

الحكمة؛ واصطفى ﴿ نوحاً ﴾ عليه السلام، وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض، لما عبد الناس الأوثان وأشركوا بالله ما لم ينزل بـه سلطاناً، وانتقم له لما طالت مدته بين ظهراني قومه يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلا فراراً، فدعا عليهم فأغرقهم الله عن آخرهم، لم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به، واصطفى ﴿ آل إبراهيم ﴾ ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء على الاطلاق محمد ﷺ، و ﴿ آل عمران ﴾ والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى بن مريم عليه السلام، فعيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم كما سيأتي بيانه في سورة الأنعام إن شاء الله تعالى.

إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾

امرأة عمران هذه هي أم مريم عليها السلام وهي (حنة بنت فاقوذ)، قال محمد بن إسحاق: وكانت امرأة لا تحمل فرأت يوماً طائراً يزق فرخه، فاشتهت الولد فدعت الله تعالى أن يهبها ولداً، فاستجاب الله دعاءها فواقعها زوجها فحملت منه، فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون محرراً، أي خالصاً مفرغاً للعبادة لخدمة بيت المقدس، فقالت: يا رب ﴿ إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم ﴾ أي السميع لدعائي العليم بنيتي، ولم تكن تعلم ما في بطنها أذكراً أم أنثى، ﴿ فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت، وليس الذكر كالأنثى ﴾ أي في القوة، والجلد في العبادة، وخدمة المسجد الأقصى. ﴿ وإني سميتها مريم ﴾ فيه دليـل على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق لأنه شرع من قبلنا، وقد حكي مقرراً وبذلك ثبتت السنّة عن رسول الله ﷺ حيث قال: «ولد لي الليلة ولد سميته باسم أبي إبراهيم» أخرجاه، وكذلك ثبت فيهما أن أنَس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله ﷺ فحنكه وسماه (عبد الله). وفي صحيح البخاري: أن رجلاً قال: يا رسول الله ولد لي الليلة ولد فما أسميه؟ قال: «سم ابنك عبد الرحمن». فأما حديث قتادة عن الحسن البصري، عن سمرة بن جندب: أن رسول الله ﷺ قال: «كل غلام مرتهن بعقيقته يذبـح عنـه يوم السابع ويسمى ويحلق رأسه» فقد رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي.

وقوله تعالى إخباراً عن أم مريم أنها قالت: ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ أي عوذتها بالله عزّ وجلّ من شر الشيطان، وعوذت ذريتها وهو ولدها عيسى عليه السلام، فاستجاب الله لها ذلك. عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطـان حين يولد فيستهل صارخاً من مسه إياه إلا مريم وابنها»، ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾[1].

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى ابن مريم ومريم »، ثم قرأ رسول الله ﷺ : « وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم»[1] .

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٧﴾

يخبر ربنا تعالى أنه تقبلها من أمها نذيرة، وأنه أنبتها نباتاً حسناً أي جعلها شكلاً مليحاً ومنظراً بهيجاً، ويسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده، تتعلم منهم العلم والخير والدين، فلهذا قال: ﴿وكفَّلها زكريا﴾ بتشديد الفاء ونصب زكريا على المفعولية أي جعله كافلاً لها، قال ابن إسحاق: وما ذلك إلا أنها كانت يتيمة، وذكر غيره أن بني إسرائيل أصابتهم سنة جدب فكفل زكريا مريم لذلك ولا منافاة بين القولين والله أعلم، وإنما قدر الله كون زكريا كفلها لسعادتها، لتقتبس منه علماً جماً وعملاً صالحاً، ولأنه كان زوج خالتها على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما، **وقيل**: زوج أختها كما ورد في الصحيح: « فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة » وقد يطلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضاً توسعاً، فعلى هذا كانت في حضانة خالتها، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قضى في (عمارة بنت حمزة) أن تكون في حضانة خالتها امرأة (جعفر بن أبي طالب) وقال: « الخالة بمنزلة الأم » . ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلادتها في محل عبادتها فقال: ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً﴾، قال مجاهد وعكرمة والسدي: يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، وعن مجاهد: ﴿وجد عندها رزقاً﴾ أي علماً، والأول أصح **وفيه دلالة على كرامات الأولياء**، وفي السنة لهذا نظائر كثيرة، فإذا رأى زكريا هذا عندها ﴿قال يا مريم أنى لك هذا﴾ أي يقول من أين لك هذا؟ ﴿قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ .

عن جابر أن رسول الله ﷺ أقام أياماً لم يطعم طعاماً، حتى شقَّ ذلك عليه، فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً، فأتى فاطمة فقال: « يا بنية هل عندك شيء آكله فإني جائع؟ » قالت: لا والله - بأبي أنت وأمي - فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته منها فوضعته في جفنة لها وقالت: والله لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي، وكانوا جمعاً محتاجين إلى شبعة طعام، فبعثت حسناً - أوحسيناً - إلى رسول الله ﷺ، فرجع إليها ، فقالت: بأبي أنت وأمي قد أتى الله بشيء فخبأته لك، قال: « هلمي يا بنية »، قالت: فأتيته بالجفنة فكشفت عنها فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً، فلما نظرت إليها بهتُّ وعرفت أنها بركة من الله، فحمدت الله وصليت على نبيّه، وقدمته إلى رسول الله ﷺ فلما رآه حمد الله، وقال: « من أين لك هذا يا بنية »؟ قالت: يا أبت: ﴿هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ فحمد الله، وقال: « الحمد لله الذي جعلك يا بنية شبيهة بسيدة نساء بني إسرائيل فإنها كانت إذا رزقها الله شيئاً وسئلت عنه

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً .

قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب »، فبعث رسول الله ﷺ إلى علي ثم أكل رسول الله ﷺ، وأكل علي وفاطمة وحسن وحسين، وجميع أزواج النبي ﷺ، وأهل بيته حتى شبعوا جميعاً. قالت: وبقيت الجفنة كما هي. قالت: فأوسعت ببقيتها على جميع الجيران، وجعل الله فيها بركة وخيراً كثيراً(١).

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾

لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، طمع حينئذ في الولد، وإن كان شيخاً كبيراً قد وهن منه العظم، واشتعل الرأس شيباً، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقراً، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفياً، وقال: ﴿ رب هب لي من لدنك ﴾ أي من عندك ﴿ ذرية طيبة ﴾ أي ولداً صالحاً ﴿ إنك سميع الدعاء ﴾. قال تعالى: ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ﴾ أي خاطبته الملائكة شفاهاً خطاباً أسمعته، وهو قائم يصلي في محراب عبادته، ومحل خلوته ومجلس مناجاته وصلاته، ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة: ﴿ أن الله يبشرك بيحيى ﴾ أي بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى. قال قتادة: إنما سمي يحيى لأن الله أحياه بالإيمان، وقوله: ﴿ مصدقاً بكلمة من الله ﴾. روى العوفي عن عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿ مصدقاً بكلمة من الله ﴾ أي بعيسى بن مريم، وقال الربيع بن أنس: هو أول من صدق بعيسى بن مريم، وقال ابن جريج: قال ابن عباس: كان يحيى وعيسى ابني خالة، وكانت أم يحيى تقول لمريم: إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك فذلك تصديقه له في بطن أمه، وهو أول من صدق عيسى وكلمة الله عيسى، وهو أكبر من عيسى عليه السلام وهكذا قال السدي أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿ وسيداً ﴾ قال أبو العالية: حليماً، وقال قتادة: سيداً في العلم والعبادة، وقال ابن عباس: السيد الحليم التقي، وقال ابن المسيب: هو الفقيه العالم، وقال عطية: السيد في خُلُقه ودينه، وقال ابن زيد: هو الشريف، وقال مجاهد: هو الكريم على الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿ وحصوراً ﴾ روي عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد أنهم قالوا: الذي لا يأتي النساء، وعن أبي العالية والربيع بن أنس: هو الذي لا يولد له ولا ماء له، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: ليس

(١) رواه الحافظ أبو يعلى عن جابر بن عبد الله.

أحد من خلق الله لا يلقاه بذنب غير يحيى بن زكريا، ثم قرأ سعيد ﴿ وسيداً وحصوراً ﴾، ثم أخذ شيئاً من الأرض فقال: الحصور من كان ذكره مثل ذا.

وقد قال «القاضي عياض» في كتابه «الشفاء»: اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان ﴿ حصوراً ﴾ ليس كما قاله بعضهم إنه كان هيوباً، أو لا ذَكَر له، بل قد أنكر هذا حذّاق المفسرين، ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب أي لا يأتيها كأنه حصور عنها، وقيل: مانعاً نفسه من الشهوات، وقيل: ليست له شهوة في النساء، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها، إما بمجاهدة كعيسى، أو بكفاية من الله عزّ وجلّ كيحيى عليه السلام، ثم هي في حق من قدر عليها - وقام بالواجب فيها، ولم تشغله عن ربه - درجة عليا، وهي درجة نبينا ﷺ الذي لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن، وقيامه عليهن وإكسابه لهن وهدايته إياهن، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو وإن كانت من حظوظ دنيا غيره فقال: «حبب إليّ من دنياكم»(١) هذا لفظه، والمقصود أنه مدح ليحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه كما قاله هو وغيره: أنه معصوم من الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: ﴿ هب لي من لدنك ذرية طيبة ﴾ كأنه قال ولداً له ذرية ونسل وعقب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿ ونبياً من الصالحين ﴾، هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته، وهي أعلى من الأولى، كقوله لأم موسى: ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾. فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة، أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر، ﴿ قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال ﴾: أي الملك، ﴿ كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر، ﴿ قال رب اجعل لي آية ﴾ أي علامة استدل بها على وجود الولد مني، ﴿ قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً ﴾: أي إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوي صحيح، كما في قوله: ﴿ ثلاث ليال سوياً ﴾، ثم أمره بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح في هذه الحال، فقال تعالى: ﴿ واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار ﴾.

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام، عن أمر الله لهم بذلك أن الله قد **اصطفاها**، أي اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها، وشرفها وطهارتها من الأكدار والوسواس، واصطفاها ثانياً

(١) انظر الشفاء للقاضي عياض فهو كتاب جليل ونفيس.

مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خير نساء ركبن الإبل نساء قريش أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده، ولم تركب مريم بنت عمران بعيراً قط»(١). وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد»(٢). وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «خير نساء العالمين أربع، مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت رسول الله»(٣)

وفي البخاري: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». ثم أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والركوع والسجود، والدأب في العمل لما يريد الله بها من الأمر الذي قدره الله وقضاه، مما فيه محنة لها ورفعة في الدارين، بما أظهر الله فيها من قدرته العظيمة، حيث خلق منها ولداً من غير أب، فقال تعالى: ﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾. أما القنوت فهو الطاعة في خشوع، كما قال تعالى: ﴿وله من في السموات والأرض كل له قانتون﴾. وقال مجاهد: كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تتورم كعباها، والقنوت هو طول الركوع في الصلاة، يعني امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾ قال الحسن: يعني اعبدي لربك ﴿واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ أي كوني منهم. ثم قال لرسوله بعدما أطلعه على جلية الأمر: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ أي نقصه عليك، ﴿وما كنت لديهم﴾ أي ما كنت عندهم يا محمد، فتخبرهم عن معاينة عما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضر وشاهد لما كان من أمرهم، حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكلفها وذلك لرغبتهم في الأجر.

قال ابن جرير عن عكرمة: ثم خرجت أم مريم بها، يعني بمريم في خرقها إلى بني الكاهن بن هارون أخي موسى عليهما السلام - وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجبة من الكعبة - فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة فإني حررتها، وهي أنثى ولا يدخل الكنيسة حائض، وأنا لا أردها إلى بيتي، فقالوا: هذه ابنة إمامنا - وكان عمران يؤمهم في الصلاة - وصاحب قرباننا فقال زكريا: ادفعوها لي فإن خالتها تحتي، فقالوا: لا تطيب أنفسنا، هي ابنة إمامنا، فذلك حين اقترعوا عليها بأقلامهم التي يكتبون بها التوراة، فقرعهم زكريا فكفلها. وقد ذكر عكرمة والسدي وقتادة أنهم ذهبوا إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم فأيهم يثبت في جرية الماء فهو كافلها، فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت، ويقال: إنه ذهب صاعداً يشق جرية الماء، وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم وعالمهم وإمامهم ونبيهم صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ

(١) رواه عبدالرزاق عن أبي هريرة وأخرجه مسلم بنحوه.
(٢) رواه الشيخان عن علي بن أبي طالب.
(٣) رواه ابن مردويه عن أنس بن مالك.

ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام، بأنه سيوجد منها ولد عظيم له شأن كبير ، قال الله تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾ أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أي يقول له كن فيكون، وهذا تفسير قوله: ﴿ مصدقاً بكلمة من الله﴾ كما ذكره الجمهور على ما سبق بيانه،﴿اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾ أي يكون هذا مشهوراً في الدنيا يعرفه المؤمنون بذلك، وسمي المسيح - قال بعض السلف - : لكثرة سياحته، وقيل: لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما ، وقيل: لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ عيسى ابن مريم﴾ نسبة إلى أمه حيث لا أب له، ﴿ وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ أي له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزله عليه من الكتاب وغير ذلك مما منحه الله به، وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وقوله: ﴿ ويكلم الناس في المهد وكهلاً﴾ أي يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره، معجزة وآية، وفي حال كهولته حين يوحي الله إليه: ﴿ومن الصالحين﴾ أي في قوله وعمله له علم صحيح وعمل صالح. وقال ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « لم يتكلم في المهد إلا ثلاث، عيسى، وصبي كان في زمن جريج، وصبي آخر ». فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله عزّ وجلّ، قالت في مناجاتها: ﴿ رب أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر﴾ ؟ تقول: كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج، ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغياً حاشا لله ! ! فقال لها الملك عن الله عزّ وجلّ في جواب ذلك السؤال ﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ أي هكذا أمرُ الله عظيم، لا يعجزه شيء، وصرح ههنا بقوله: ﴿ يخلق ما يشاء﴾، ولم يقل يفعل كما في قصة زكريا، بل نص ههنا على أنه يخلق لئلا يبقى لمبطل شبهة، وأكد ذلك بقوله: ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي فلا يتأخر شيئاً، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة كقوله : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ أي إنما نأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها، فيكون ذلك الشيء سريعاً كلمح البصر .

وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

يقول تعالى مخبراً عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السلام: إن الله يعلّمه الكتاب والحكْمة، الظاهر أن المراد بالكتاب ههنا الكتابة، والحكمة تقدم تفسيرها في سورة البقرة، والتوراة والإنجيل. فالتوراة هو الكتاب الذي أنزل على موسى بن عمران، والإنجيل الذي أنزل على عيسى بن مريم عليهما السلام، وقد كان عيسى عليه السلام يحفظ هذا. وقوله: ﴿ ورسولاً إلى بني إسرائيل ﴾ قائلاً لهم: ﴿ إني قد جئتكم بآية من ربكم، أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ﴾ وكذلك كان يفعل: يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عزّ وجلّ الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله، ﴿ وأبرئ الأكمه ﴾، **قيل**: الأعشى، **وقيل**: الأعمش، **وقيل**: هو الذي يولد أعمى، وهو أشبه لأنه أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي ﴿ والأبرص ﴾ معروف، ﴿ وأحيي الموتى بإذن الله ﴾. قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحّار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار، انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار، وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرّع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص، وبعثِ من هو في قبره رهينٌ إلى يوم التناد؟ وكذلك محمد ﷺ بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجاويد الشعراء، فأتاهم بكتاب من الله عزّ وجلّ، فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وما ذاك إلا أن كلام الرب عزّ وجل لا يشبه كلام الخلق أبداً.

وقوله تعالى: ﴿ وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ﴾ أي أخبركم بما أكل أحدكم الآن، وما هو مدخر له في بيته لغد، ﴿ إن في ذلك ﴾ أي في ذلك كله، ﴿ لآية لكم ﴾ أي على صدقي فيما جئتكم به، ﴿ إن كنتم مؤمنين. ومصدقاً لما بين يديَّ من التوراة ﴾ أي مقرراً لها ومثبتاً، ﴿ ولأحل لكم بعض الذي حُرِّم عليكم ﴾ فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين، ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئاً، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ﴾ والله أعلم. ثم قال: ﴿ وجئتكم بآية من ربكم ﴾ أي بحجة ودلالة على صدقي فيما أقوله لكم، ﴿ فاتقوا الله وأطيعون، إن الله ربي وربكم فاعبدوه ﴾ أي أنا وأنتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾.

* فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ

ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى: ﴿ فلما أحسّ عيسى ﴾ أي استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال، قال: ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾؟ قال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله، وقال سفيان الثوري: أي من أنصاري مع الله، وقول مجاهد أقرب، والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله، كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر: «من رجل يؤويني حتى أبلغ كلام ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه، وهاجر إليهم فواسوه ومنعوه من الأسود والأحمر، رضي الله عنهم وأرضاهم. وهكذا عيسى بن مريم عليه السلام انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به ووازروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، ولهذا قال الله تعالى مخبراً عنهم: ﴿ قال الحواريون: نحن أنصار الله، آمنا بالله، واشهد بأنا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾، الحواريون قيل: كانوا قصّارين، وقيل سموا بذلك لبياض ثيابهم، وقيل: صيادين، والصحيح أن الحواري: الناصر كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير رضي الله عنه، فقال النبي ﷺ: «لكل نبي حواريّ، وحواريّ الزبير».

عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ قال: مع أمة محمد ﷺ، وهذا إسناد جيد. ثم قال تعالى مخبراً عن ملأ بني إسرائيل، فيما هموا به من الفتك بعيسى عليه السلام وإرادته بالسوء والصلب، حين تمالؤوا عليه ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان - وكان كافراً - أن هنا رجلاً يضل الناس، ويصدهم عن طاعة الملك، ويفسد الرعايا، ويفرق بين الأب وابنه، إلى غير ذلك، مما تقلدوه في رقابهم، ورموه به من الكذب، وأنه ولد زنية، حتى استثاروا غضب الملك فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به، فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به نجّاه الله تعالى من بينهم، ورفعه من روزنة ذلك البيت إلى السماء، وألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل ﴿ عيسى ﴾ فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك، وكان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجّى نبيّه ورفعه من بين أظهرهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم، وأسكن الله في قلوبهم قسوة وعناداً للحق ملازماً لهم، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد، ولهذا قال تعالى: ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾.

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿إني متوفيك ورافعك إلي﴾، فقال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إليّ ومتوفيك، يعني بعد ذلك. وقال ابن عباس: إني متوفيك أي مميتك، وقال وهب بن منبه: توفاه الله ثلاث ساعات من أول النهار حين رفعه إليه، قال مطر الوراق: إني متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت، وكذا قال ابن جرير: توفيه هو رفعه. وقال الأكثرون: المراد بالوفاة ههنا النوم، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ الآية، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا» الحديث. وعن الحسن أنه قال في قوله تعالى: ﴿إني متوفيك﴾ يعني وفاة المنام رفعه الله في منامه. وقوله تعالى: ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ أي برفعي إياك إلى السماء، ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾، وهكذا وقع فإن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إلى السماء، تفرقت أصحابه شيعاً بعده، فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله، وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة، وقد حكى الله مقالتهم في القرآن وردّ على كل فريق، فاستمروا على ذلك قريباً من ثلثمائة سنة.

ثم نبغ لهم ملك من ملوك اليونان يقال له (قسطنطين) فدخل في دين النصرانية قيل: حيلة ليفسده، فإنه كان فيلسوفاً، وقيل: جهلاً منه، إلا أنه بدّل لهم دين المسيح وحرّفه وزاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين والأمانة الكبرى التي هي الخيانة الحقيرة، وأحل في زمانه لحم الخنزير، وصلوا له إلى المشرق، وصوروا له الكنائس والمعابد والصوامع، وزاد في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون، وصار دين المسيح (دين قسطنطين). إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد، وبنى المدينة المنسوبة إليه، واتبعه طائفة الملكية منهم، وهم في هذا كله قاهرون لليهود، أيده الله عليهم لأنه أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفاراً عليهم لعائن الله، فلما بعث الله محمداً ﷺ فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق، فكانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض، إذ قد صدقوا النبي الأمي العربي خاتم الرسل وسيد ولد آدم على الإطلاق، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق فكانوا أولى بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته مما قد حرفوا وبدلوا، ثم لو لم يكن شيء من ذلك لكان قد نسخ الله شريعة جميع الرسل بما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين الحق الذي لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة، ولا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كل دين، فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واحتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميع الدول، وكسروا كسرى وقصروا قيصر، وسلبوهما كنوزهما وأنفقت في سبيل الله، كما أخبرهم بذلك نبيّهم عن ربهم عزّ وجلّ في قوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ الآية. فلهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقاً سلبوا النصارى بلاد الشام وألجؤهم إلى الروم فلجأوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة.

وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ويستفيئون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جداً لم ير الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها، وقد جمعت في هذا جزءاً مفرداً،

ولهذا قال تعالى: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الـذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين﴾، وكذلك فعل بمن كفر بالمسيح من اليهود أو غلا فيه أو أطراه من النصارى، عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأخذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق ﴿وما لهم من الله من واق﴾، ﴿وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهـم أجورهم﴾ أي في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالجنات العاليات ﴿والله لا يحب الظالمين﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم﴾ أي هذا الذي قصصنا عليك يا محمد في أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره، هو مما قـاله تعالى وأوحاه إليك، ونزله عليك من اللوح المحفوظ، فلا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾، وههنا قال تعالى:

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

يقول جلّ وعلا: ﴿إن مثل عيسى عند الله﴾ في قدرة الله حيث خلقه من غير أب ﴿كمثل آدم﴾ حيث خلقه من غير أب ولا أم، بل ﴿خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾. فالذي خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى، وإن جـاز ادعـاء البنوة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفـاق أن ذلك باطل، فدعواهم في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً، ولكن الرب جلّ جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقيـة البرية من ذكر وأنثى، ولهـذا قـال تعالى في سورة مريم: ﴿ولنجعله آية للنـاس﴾، وقال ههنا: ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾ أي هـذا هو القول الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال! ثم قـال تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان: ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾ أي نحضرهم في حال المباهلة ﴿ثم نبتهل﴾ أي نلتعن ﴿فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ أي منا ومنكم.

* وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفـد نجران: أن النصارى لما قدموا فجعلوا

يحاجون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوّة والإلهية، فأنزل الله صدر هـذه السورة رداً عليهم . قال ابن إسحاق في سيرته : وقـدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى من نجران ستون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم يؤول أمرهم إليهم فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية في جمال رجـال بني الحارث بن كعب قال – يقول من رآهم من أصحاب النبي ﷺ ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم –وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ : « دعوهم »، فصلوا إلى المشرق. قال: فكلّم رسولَ الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة، والعاقب عبد المسيح، والأيهم –وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف أمرهم – يقولون: هو الله ، ويقولون: هو ولد الله ، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وكذلك النصرانية فهم يحتجون في قولهم هو الله بأنه كان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص والأسقام ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً، وذلك كله بأمر الله؛ وليجعله الله آيـة للناس، ويحتجون في قولهم بأنـه ابن الله يقولون : لم يكن له أب يعلم، وقـد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بني آدم قبـله ، ويحتجون على قولهم بأنــه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى : فعلنا ، وأمرنا، وخلقنا ، وقضينـا ، فيقولون لو كان واحـداً مـا قال إلا فعلت وأمرت وقضيت وخلقت ، ولكنـه هو عيسى ومريم – تعالى الله وتقدس وتنزه عمـا يقول الظالمون والجاحـدون علواً كبيراً – وفي كل ذلك من قولهم: قد نزل القرآن .

فلما كلمه الحبران قال لهما رسول الله ﷺ: « أسلما »، قالا: قـد أسلمنا. قال: « إنكما لم تسلما فأسلما ». قالا : بلى، قـد أسلمنا قبلك، قال: « كذبتما يمنعكما من الإسلام ادعاؤكما لله ولداً وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير »، قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما فلم يجبهما، فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة (آل عمران) إلى بضع وثمانين آية منها . ثم تكلم ابن إسحاق على تفسيرها إلى أن قال: فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بمـا أمر بـه من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه دعــاهم إلى ذلك ، فقالوا : يا أبا القاسم، دعنا ننظر في أمرنا، ثم نأتيك بمـا نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، ثم انصرفوا عنه، ثم خلوا بالعـاقب، وكان ذا رأيهم، فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقـد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل، ولقـد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لا عـن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنـه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينـكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم . فأتوا النبي ﷺ، فقالوا : يا أبا القاسم قـد رأينا أن لا نلاعنك ، ونتركك على دينك ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنـا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنـا فإنكم عندنا رضا ، فقال رسول الله ﷺ : « ائتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين »، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : مـا أحببت الإمـارة قط حبي إياهـا يومئذ ، رجـاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجراً ، فلمـا صلى رسول الله ﷺ الظهر سلم ، ثم نظر عن يمينه وشماله فجعلت أتطـاول له ليراني ، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعـــاه ، فقال : « اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيـه » ، قـال عمر : فذهب بهـا أبو عبيدة رضي الله عنه .

وقال البخاري، عن حذيفة رضي الله عنه قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعنّاه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: «لأبعثن معكم رجلاً أميناً، حق أمين»، فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح»، فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة». وفي الحديث عن ابن عباس قال، قال أبو جهل قبّحه الله: إن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على رقبته. قال، فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً»[1]

والغرض أن وفودهم كان في سنة تسع لأن الزهري قال: كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله ﷺ، وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح، وهي قوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ الآية. وقال أبو بكر بن مردويه، عن جابر: قدم على النبي ﷺ العاقب والطيب فدعاهما إلى الملاعنة، فواعداه على أن يلاعناه الغداة، قال: فغدا رسول الله ﷺ فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا وأقرا له بالخراج، قال، فقال رسول الله ﷺ: «والذي بعثني بالحق لو قالا: لا لأمطر عليهم الوادي ناراً». قال جابر: وفيهم نزلت: ﴿ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾[2]

ثم قال تعالى: ﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد، ﴿وما من إله إلا الله، وإن الله لهو العزيز الحكيم ۞ فإن تولوا﴾ أي عن هذا إلى غيره، ﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾ أي من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد، والله عليم به وسيجزيه على ذلك شر الجزاء، وهو القادر الذي لا يفوته شيء سبحانه وبحمده، ونعوذ به من حلول نقمته.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم، ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة﴾، والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال ههنا، ثم وصفها بقوله: ﴿سواء بيننا وبينكم﴾ أي عدل ونَصَف نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسرها بقوله: ﴿أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً﴾ لا وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرسل. قال الله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾، وقال تعالى: ﴿ولقد

---

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) رواه ابن مردويه والحاكم في المستدرك ورواه الطيالسي عن الشعبي مرسلاً، قال ابن كثير: وهذا أصح.

بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، ثم قال تعالى: ﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ قال ابن جريج: يعني يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله، وقال عكرمة: يسجد بعضنا لبعض، ﴿فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ أي فإن تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم. وقد ذكرنا في شرح البخاري عن أبي سفيان في قصته حين دخل على قيصر، فسأله عن نسب رسول الله ﷺ وعن صفته ونعته وما يدعو إليه، فأخبره بجميع ذلك على الجلية، ثم جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فأسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين، و﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾».

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ
هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا
كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ
بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل عليه السلام ودعوى كل طائفة منهم، أنه كان منهم، كما قال ابن عباس رضي الله عنه: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان ابراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم﴾ الآية. أي: كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهودياً، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى؟ وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾؟ ثم قال تعالى: ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾؟ هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به، فإن اليهود والنصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد ﷺ لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لا يعلمون، فأنكر الله عليهم ذلك وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها، ولهذا قال تعالى: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾ أي متحنفاً عن الشرك

قاصداً إلى الإيمان، ﴿وما كان من المشركين﴾، وهـذه الآية كالتي تقدمت في سورة البقرة: ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهـذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾، يقول تعالى: أحق النـاس بمتابعـة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه ﴿وهذا النبي﴾ يعني محمداً ﷺ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم. عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي ولاية من النبيين وإن وليي منهم - أبي وخليل ربي عزّ وجلّ - إبراهيم عليه السلام»، ثم قرأ: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا﴾[1] الآية، وقوله: ﴿والله ولي المؤمنين﴾ أي ولي جميع المؤمنين برسله.

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيهم إياهم الإضلال، وأخبر أن وبال ذلك إنمـا يعود على أنفسهم، وهم لا يشعرون أنهم ممكور بهم، ثم قال تعالى منكراً عليهم: ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾ أي تعلمون صدقها وتتحققون حقها، ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ أي تكتمون مـا في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه، ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره﴾ الآية. هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم، ليقول الجهلة من النـاس إنمـا ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهـذا قالوا: ﴿لعلهم يرجعون﴾. قال مجاهد: يعني يهوداً صلت مع النبي ﷺ صلاة الصبح، وكفروا آخر النهار مكراً منهم، ليروا النـاس أن قد بدت لهم الضلالة منه بعد أن كانوا اتبعوه، وقال ابن عباس: قالت طائفة من أهل الكتاب إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا، وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم، لعلهم يقولون هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا.

(١) أخرجه وكيع في تفسيره.

وقوله تعالى: ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ أي لا تطمئنوا أو تظهروا سركم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين فيؤمنوا بــه ويحتجوا بــه عليكم، قال الله تعالى: ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ أي هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمـان، بمـا ينزله على عبده ورسوله ﷺ من الآيـات البينـات، والدلائل القاطعات والحجج الواضحات، وإن كتمتم أيها اليهود ما بأيديكم من صفة محمد النبي الأمي، في كتبكم التي نقلتموهـا عن الأنبياء الأقدمين. وقوله: ﴿أن يؤتى أحـد مثل مـا أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾ يقولون لا تظهروا مـا عندكم من العلم للمسلمين فيتعلموه منكم، ويساوونكم فيـه، ويمتازون بـه عليكم لشدة الإيمان به، أو يحاجوكم بـه عند ربكم، أي يتخـذوه حجـة عليكم بمـا في أيديكم فتقوم بـه عليكم الدلالة وترتكب الحجة في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ أي الأمور كلها تحت تصرفه وهو المعطي المانع، يمنُّ على من يشاء بالإيمان والعلم والتصرف التـام، ويضل من يشاء فيعمي بصره وبصيرته، ويختم على قلبه وسمعه ويجعل على بصره غشاوة، وله الحجة والحكمة البالغة ﴿والله واسع عليم • يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾، أي اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يُحدُّ ولا يُوصف، بما شرف به نبيكم محمداً ﷺ على سائر الأنبياء، وهداكم به إلى أكمل الشرائع.

۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

يخبر تعالى عن اليهود بأن منهم الخونة، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم، فإن منهم ﴿من إن تأمنه بقنطار﴾ أي من المـال ﴿يؤده إليك﴾ أي وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك، ﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً﴾ أي بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقك، وإذا كان هــذا صنيعه في الدينار، فما فوقه أولى أن لا يؤديه إليك. وقوله: ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾ أي إنمـا حملهم على جحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأمين (وهم العرب) فإن الله قـد أحلها لنا، قال الله تعالى: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أي وقـد اختلقوا هذه المقالة، وائتفكوها بهذه الضلالة، فإن الله حرّم عليهم أكل الأموال إلا بحقها وإنمـا هم قوم بُهت. عن أبي صعصعة بن يزيد أن رجلاً سأل ابن عباس، فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة، قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال، نقول: ليس علينا بذلك بأس، قال: هــذا كما قال أهل الكتاب: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾، إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم[1]. وعن سعيد بن جبير قال: لمـا قال أهل الكتاب ليس علينا في الأميين سبيل، قـال نبي الله ﷺ: «كذب أعداء الله، ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت

(١) أخرجه عبدالرزاق عن أبي صعصعة بن يزيد.

قدميَّ هاتين إلا الأمانة فإنهـا مؤداة إلى البر والفاجر »[1] ، ثم قال تعالى: ﴿بلى من أوفى بعهده واتقى﴾ أي لكن من أوفى بعهده واتقى منكم يا أهل الكتاب.. اتقى محارم الله واتبع طاعته وشريعته التي بعث بها خاتم رسله وسيدهم ﴿فإن الله يحب المتقين﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى : إن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه، من اتباع محمد ﷺ وذكر صفته للناس وبيـان أمره، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة، بالأثمان القليـلة الزهيدة، وهي عروض هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة، ﴿أولئك لا خلاق لهم في الآخرة﴾ أي لا نصيب لهم فيها ولا حظ لهم منها، ﴿ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة﴾ أي برحمة منه لهم، يعني لا يكلمهم الله كلام لطف بهم ولا ينظر إليهم بعين الرحمة، ﴿ولا يزكيهم﴾ أي من الذنوب والأدناس، بل يأمر بهم إلى النار، ﴿ولهم عذاب أليم﴾ ، وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة فلنذكر منها ما تيسر .

(الحديث الأول) : عن أبي ذر قال، قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » ، قلت : يا رسول الله من هم ؟ خسروا وخابوا ، قال: وأعاده رسول الله ﷺ ثلاث مرات قال: « المسبل، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب، والمنان »[2] .

(الحديث الثاني) : عن عدي بن عميرة الكِندي قال : خاصم رجل من كِنْدة يُقال له امرؤ القيس بن عامر رجلاً من حضرموت إلى رسول الله ﷺ في أرض، فقضى على الحضرمي بالبيِّنة فلم يكن له بيِّنة، فقضى عـلى امرئ القيس باليمين، فقـال الحضرمي: أمكنته من اليمين يا رسول الله ؟ ذهبت ورب الكعبة أرضي، فقال النبي ﷺ : « من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها مال أحد لقي الله عزّ وجلّ وهو عليه غضبان »، وتلا رسول الله ﷺ : ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾ ، فقال امرؤ القيس: ماذا لمن تركها يا رسول الله ؟ فقال : « الجنة »، قال: فاشهد أني قد تركتها له كلها[3] .

(الحديث الثالث) : عن عبدالله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ : « من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان »، قال: فجـاء الأشعث بن قيس فقال: مـا يحدثكم أبو عبد الرحمن ؟ فحدثناه فقال: كان فيّ هـذا الحديث ، خاصمت ابن عم لي إلى رسول الله ﷺ في بئر كانت لي في يده فجحدني، فقال رسول الله ﷺ : « بينتك أنها بئرك وإلا فيمينه »، قال: قلت: يا رسول الله ما لي بينة، وإن تجعلها بيمينه

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن .

(٣) رواه أحمد والنسائي .

تذهب بشري، إن خصمي امرؤ فاجر، فقال رسول الله ﷺ: «من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان»، قال: وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾[١] الآية.

(الحديث الرابع): قال أحمد، عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تعالى عباداً لا يكلمهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم»، قيل: «ومن أولئك يا رسول الله؟ قال: «متبرىء من والديه راغب عنهما، ومتبرىء من ولده، ورجل أنعم عليه قوم فكفر نعمتهم وتبرأ منهم».

(الحديث الخامس): عن عبد الله بن أبي أوفى، أن رجلاً أقام سلعة له في السوق فحلف بالله لقد أعطي بها ما لم يعطه ليوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت هذه الآية: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾[٢] الآية.

(الحديث السادس): عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده، ورجل حلف على سلعة - بعد العصر - يعني كاذباً، ورجل بايع إماماً فإن أعطاه وفى له وإن لم يعطه لم يف له»[٣].

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله، أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه، ويبدلون كلام الله ويزيلونه عن المراد به، ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله وهو كذب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله، ولهذا قال تعالى: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾، قال مجاهد والحسن: ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ يحرفونه، وهكذا روى البخاري عن ابن عباس أنهم يحرفون ويزيلون، وليس أحد من خلق الله يزيل لفظ كتاب من كتب الله، لكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله.

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَٰٓئِكَةَ وَالنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

(١) رواه أحمد.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه البخاري من غير وجه عن العوَّام.

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

عن ابن عباس قال، قال أبو رافع القرظي: حين اجتمعت الأحبار من (اليهود والنصارى) من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعونا؟ فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني»، أو كما قال ﷺ، فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة - إلى قوله - بعد إذ أنتم مسلمون﴾[1] أي ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكمة والنبوة، أن يقول للناس اعبدوني من دون الله، أي مع الله، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى. ولهذا قال الحسن البصري: لا ينبغي هذا لمؤمن أن يامر الناس بعبادته، قال: وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً، يعني أهل الكتاب كانوا يعبدون أحبارهم ورهبانهم، كما قال الله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ الآية. وفي المسند أن عدي بن حاتم قال: يا رسول الله، ما عبدوهم، قال: «بلى، إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»، فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال، يدخلون في هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين.

فالرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، هم السفراء بين الله وبين خلقه، في أداء ما حملوه من الرسالة، وإبلاغ الأمانة فقاموا بذلك أتم القيام ونصحوا الخلق، وبلغوهم الحق، وقوله تعالى: ﴿ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ أي ولكن يقول الرسول للناس: كونوا ربانيين، قال ابن عباس: أي حكماء علماء حلماء، وقال الحسن: فقهاء، وعن الحسن أيضاً: يعني أهل عبادة وأهل تقوى، وقال الضحاك في قوله: ﴿بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً، تَعْلمون: أي تفهمون معناه، وقرئ تعلّمون بالتشديد من التعليم، ﴿وبما كنتم تدرسون﴾ تحفظون ألفاظه، ثم قال الله تعالى: ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ أي ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب، ﴿أيامركُم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾؟ أي لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله، ومن دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾، وقال: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الله آلهة يعبدون﴾؟ وقال إخباراً عن الملائكة: ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾.

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾

(١) ذكره محمد بن إسحاق.

فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام، مهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة وبلغ أي مبلغ، ثم جاء رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته، ولهذا قال تعالى وتقدس: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة﴾ أي لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة، ﴿ ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: يعني عهدي، وقال محمد بن إسحاق﴿ إصري ﴾ أي ميثاق الشديد المؤكد، ﴿ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين * فمن تولى بعد ذلك﴾ أي عن هذاالعهد والميثاق ﴿ فأولئك هم الفاسقون﴾، قال علي وابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه، وقال الحسن البصري وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً، وهذا لا يضاد ما قاله علي وابن عباس ولا ينفيه بل يستلزمه ويقتضيه، وقد قال الإمام أحمد: جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أمرت بأخ لي يهودي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ، قال عبد الله بن ثابت قلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ! فقال عمر: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، قال: فسُرِّي عن النبي ﷺ، وقال: «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين»[1].

(**حديث آخر**) : وعن جابر، قال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل، وإما أن تكذبوا بحق، وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني»[2]. وفي بعض الأحاديث: «لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي». فالرسول محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، هو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد، لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيع في المحشر في إتيان الرب جلّ جلاله لفصل القضاء بين عباده، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلّا له، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين، حتى تنتهي النوبة إليه فيكون هو المخصوص به، صلوات الله وسلامه عليه.

أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) رواه الحافظ أبو يعلى.

مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾

يقول تعالى منكراً على من أراد ديناً سوى دين الله، الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، الذي له أسلم من في السموات والأرض، أي استسلم له من فيهما طوعاً وكرهاً، كما قال تعالى: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾. وقال تعالى: ﴿ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون * يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهاً، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع، وقد قال وكيع في تفسيره عن مجاهد: ﴿وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾، قال: هو كقوله: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾، ﴿وإليه يرجعون﴾ أي يوم المعاد فيجازي كلاً بعمله.

ثم قال تعالى: ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا﴾ يعني القرآن، ﴿وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب﴾ أي من الصحف والوحي، ﴿والأسباط﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل - وهو يعقوب - الاثني عشر، ﴿وما أوتي موسى وعيسى﴾ يعني بذلك التوراة والإنجيل، ﴿والنبيون من ربهم﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة، ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ يعني بل نؤمن بجميعهم، ﴿ونحن له مسلمون﴾ فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل، وبكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك، بل هم يصدقون بما أنزل من عند الله، وبكل نبي بعثه الله.

ثم قال تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ الآية. أي من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه، ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾

قال ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟ فنزلت: ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم - إلى قوله - فإن الله غفور رحيم﴾، فأرسل إليه قومه فأسلم[1]. ﴿وجاءهم البينات﴾ أي قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق

(١) رواه النسائي والحاكم وابن ماجة.

ما جاءهم بـه الرسول، ووضح لهم الأمر ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية؟ ولهذا قـال تعالى: ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ أي يلعنهم الله ويلعنهم خلقه، ﴿ خالدين فيها ﴾ أي في اللعنة، ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يفتر عنهم العذاب ولا يخفف عنهم ساعة واحدة، ثم قال تعالى: ﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾، وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه، أن من تاب إليه تاب عليه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

يبين تعالى متوعداً ومهدداً لمن كفر بعد إيمانـه ثم ازداد كفراً أي استمر عليه إلى الممات، ومخبراً بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات، كما قال تعالى: ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحـدهم الموت ﴾ الآية. ولهذا قال ههنا: ﴿ لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون ﴾ أي الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي، قال الحافظ أبو بكر البزار عن عكرمة عن ابن عباس: أن قوماً أسلموا ثمَّ ارتدوا، ثم أسلموا، ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم ﴾[1].

ثم قال تعالى: ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يُقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾، أي من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبـداً، ولو كان قـد أنفق ملْ الأرض ذهباً فيما يراه قربة، كما سئل النبي ﷺ عن عبدالله بن جدعان - وكان يقري الضيف ويفك العاني ويطعم الطعام - هل ينفعه ذلك؟ فقال: «لا! إنه لم يقل يوماً من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»، وكذلك لو افتدى بملْ الأرض أيضاً ذهباً ما قبل منه كما قال تعالى: ﴿ ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ﴾، وقال: ﴿ لا بيع فيه ولا خلال ﴾، وقال: ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا بـه من عذاب يوم القيـامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم ﴾، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً، بوزن جبالهـا وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرهـا وبرها وبحرها. عن أنس بن مالك، أن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال، فيقول: نعم، فيقول الله: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك»[2].

---

(١) أخرجه البزار، قال ابن كثير: إسناده جيد. (٢) رواه البخاري ومسلم.

(طريق آخر) : وقال الإمام أحمد، عن أنَس قال، قال رسول الله ﷺ: « يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول له: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول: أي رب خير منزل، فيقول: سل وتمن، فيقول: ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردني إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرار، لما يرى من فضل الشهادة، ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول: يا رب شر منزل، فيقول له: أتفتدي مني بطلاع الأرض ذهباً ؟ فيقول: أي رب نعم، فيقول: كذبت قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل فيرد إلى النار »[1] ، ولهذا قال: ﴿ أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾ أي وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه .

لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

روى وكيع في تفسيره عن عمرو بن ميمون ﴿ لن تنالوا البر ﴾ قال: الجنة، وقال الإمام أحمد عن أنَس بن مالك: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه (بير حاء) وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيِّب . قال أنَس: فلما نزلت: ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾، قال أبو طلحة: يا رسول الله إن الله يقول: ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وإن أحب أموالي إليّ (بيرحاء)، وإنها صدقة لله أرجو بها برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ : « بخ بخ، ذاك مال رابح، ذاك مال رابح، وقد سمعت، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين »، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله . فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[2] . وفي الصحيحين أن عمر قال: يا رسول الله لم أصب مالاً قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر ، فما تأمرني به ؟ قال : « أَحبِسْ الأصل ، وأَسبِلْ الثمرة » .

* كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

قال ابن عباس: حضرَتْ عصابة من اليهود نبيَ الله ﷺ فقالوا: حدثنا عن خلالٍ نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي، قال: « سلوني عما شئتم ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعني على الإسلام »، قالوا: فذلك لك، قالوا: أخبرنا عن أربع خلال، أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على

(١) رواه الإمام أحمد .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

نفسه؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى، وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ومن وليه من الملائكة؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه. فقال: «أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً وطال سقمه فنذر لله نذراً لئن شفاه الله من سقمه ليحرمنّ أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها»؟ فقالوا: اللهم نعم. فقال: «اللهم اشهد عليهم»، وقال: «أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، إن علا ماء الرجل ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله، وإن علا ماء المرأة ماء الرجل كان أنثى بإذن الله» قالوا: نعم. قال: «اللهم اشهد عليهم»، قال: «وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟» قالوا: اللهم نعم، قال: «اللهم اشهد». قال: «وإن وليي جبريل ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه»، قالوا: فعند ذلك نفارقك ولو كان وليك غيره لتابعناك، فعند ذلك قال الله تعالى: ﴿قل من كان عدواً لجبريل﴾[1] الآية.

وقال ابن جريج، عن ابن عباس: كان إسرائيل عليه السلام - وهو يعقوب - يعتريه عرق النسا بالليل، وكان يقلقه ويزعجه عن النوم ويقلع الوجع عنه بالنهار، فنذر لله لئن عافاه الله لا يأكل عرْقًا، ولا يأكل ولد ما له عرْق، فاتبعه بنوه في تحريم ذلك استناناً به واقتداء بطريقه، وقوله: ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ أي حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ فإنها ناطقة بما قلناه، ﴿فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾ أي فمن كذب على الله وادعى أنه شرع لهم السبت والتمسك بالتوراة دائماً، وأنه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله تعالى بالبراهين والحجج، بعد هذا الذي بيناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرنا ﴿فأولئك هم الظالمون﴾، ثم قال تعالى: ﴿قل صدق الله﴾ أي قل يا محمد صدق الله فيما أخبر به وفيما شرعه في القرآن، ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ أي اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم، كما قال تعالى: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم * ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾، وقال تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس أي لعموم الناس، لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده ﴿للذي ببكة﴾ يعني الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي يزعم كل من طائفتي

(١) رواه الإمام أحمد.

النصارى واليهود أنهم على دينه، ومنهجه، ويحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله، ولهذا قال تعالى: ﴿مباركاً﴾ أي وضع مباركاً ﴿وهدى للعالمين﴾. عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»، قلت: ثم أي؟ قال: «ثم حيث أدركتك الصلاة فصل فكلها مسجد[1]». وعن علي رضي عنه في قوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً﴾، قال: كانت البيوت قبله ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله. وزعم السدي أنه أول بيت وضع على وجه الأرض، مطلقا، والصحيح قول علي رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿للذي ببكة﴾ بكة من أسماء مكة على المشهور، قيل: سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة، بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها، وقيل: لأن الناس يتباكون فيها أي يزدحمون، قال قتادة: إن الله بَكَّ به الناس جميعاً، فيصلي النساء أمام الرجال ولا يفعل ذلك ببلد غيرها، وقال شعبة عن إبراهيم: بكة البيت والمسجد، وقال عكرمة: البيت وما حوله بكة، وما وراء ذلك مكة، وقال مقاتل بن حيان: بكة موضع البيت وما سوى ذلك مكة، وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة (مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، وأم القرى، والقادس لأنها تطهر من الذنوب، والمقدسة، والحاطمة، والرأس، والبلدة، والبنية، والكعبة).

وقوله تعالى: ﴿فيه آيات بينات﴾ أي دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم، وأن الله عظمه وشرفه، ثم قال تعالى: ﴿مقام إبراهيم﴾ يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران، حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل، وقد كان ملتصقاً بجدار البيت حتى أخَّره عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطواف منه، ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف، لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾، وقد قدمنا الأحاديث في ذلك فأغنى عن إعادته ههنا ولله الحمد والمنة، وقال ابن عباس في قوله: ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ أي فمنهن مقام إبراهيم والمشاعر، وقال مجاهد: أثر قدميه في المقام آية بينة، وقال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة   على قدميه حافياً غير ناعل

وقال ابن أبي حاتم عن عطاء عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مقام إبراهيم﴾ قال: الحرم كله مقام إبراهيم.
وقوله تعالى: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ يعني حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية، كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج، وعن ابن عباس قال: من عاذ بالبيت أعاذه البيت، ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى، فإذا خرج أخذ بذنبه، وقال الله تعالى: ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها، كما ثبتت الأحاديث والآثار في ذلك.

---

(١) رواه احمد وأخرجه الشيخان بنحوه.

ففي الصحيحين - واللفظ لمسلم - عن ابن عباس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: « لا هجرة ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا »، وقال يوم فتح مكة: « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة: لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها »، فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم، فقال: « إلا الإذخر ». وعن أبي شريح العدوي أنه قال: لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به: إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: « إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها، فقولوا له: إن الله أذن لنبيه ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد الغائب »، فقيل لأبي شريح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدم ولا فاراً بخربة[1].

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة »[2]، وعن عبد الله بن الحمراء الزهري، أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف بالحزورة بسوق مكة يقول: « والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت »[3]. وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ قال: آمناً من النار.

وقوله تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ هذه أول آية وجوب الحج عند الجمهور، وقيل: بل هي قوله: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ والأول أظهر، وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع، لحديث أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: « أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا »، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: « لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم »، ثم قال: « ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه »[4]. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: « يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج »، فقام الأقرع بن حابس فقال: يا رسول الله أفي كل عام؟ فقال: « لو قلتها لوجبت ولو وجبت لم تعملوا بها ولن تستطيعوا أن تعملوا بها، الحج مرة فمن زاد فهو تطوع »[5].

---

(١) رواه الشيخان واللفظ لمسلم، والخربة: أصلها سرقة الإبل، وتطلق على كل خيانة وقيل هي الفساد في الدين. من الخارب وهو اللص المفسد في الأرض.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة.

(٤) رواه أحمد ومسلم.

(٥) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة.

وأما الاستطاعة فأقسام: تارة يكون الشخص مستطيعاً بنفسه، وتارة بغيره كما هو مقرر في كتب الأحكام. عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: من الحاج يا رسول الله؟ قال: «الشعث التفل»[1]، فقام آخر فقال: أي الحج أفضل يا رسول الله؟ قال: «العج والثج»[2]، فقام آخر فقال: ما السبيل يا رسول الله، قال: «الزاد والراحلة»[3]. وعن أنَس أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله عز وجلّ: ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾ فقيل: ما السبيل؟ قال: «الزاد والراحلة»[4]. وعن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «تعجلوا إلى الحج - يعني الفريضة - فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له»[5] وقال رسول الله ﷺ: «من أراد الحج فليتعجل»[6]. وروى وكيع بن الجراح عن ابن عباس قال: ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾، قال: «الزاد والبعير».

وقوله تعالى: ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾، قال ابن عباس: أي ومن جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه، وقال سعيد بن منصور عن عكرمة: لما نزلت: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ قالت اليهود: فنحن مسلمون، قال الله عزّ وجلّ فأخصمهم فحجهم يعني، فقال لهم النبي ﷺ: «إن الله فرض على المسلمين حج البيت من استطاع إليه سبيلاً»، فقالوا: لم يكتب علينا، وأبوا أن يحجوا، قال الله تعالى: ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾». عن علي رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «من ملك زاداً وراحلة ولم يحج بيت الله فلا يضره مات يهودياً أو نصرانياً، وذلك بأن الله قال: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾»[7]. وروى الحسن البصري قال، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار فينظروا إلى كل من كان عنده جِدَة (أي سعة) فلم يحج، فيضربوا عليهم الجزية، ما هم بمسلمين، ما هم بمسلمين).

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

هذا تعنيف من الله تعالى للكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق، وكفرهم بآيات الله وصدهم عن سبيل الله مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله، وقد توعدهم الله على ذلك، وأخبر بأنه شهيد على صنيعهم بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء، ومعاملتهم الرسول المبشر بالتكذيب والجحود والعناد، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون، أي وسيجزيهم على ذلك: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾.

(١) الشعث: مغبر الشعر متلبده. (التَّفِل): منتن الرائحة.

(٢) العج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: إراقة دم الهدْي.

(٣) رواه الترمذي وابن ماجة.

(٤) رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٥) رواه الإمام أحمد.

(٦) رواه أحمد وأبو داود.

(٧) رواه ابن مردويه وابن جرير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

يحذر تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طـائفة من أهل الكتاب، الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما منحهم من إرسال رسوله، كما قال تعالى: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾ الآية. وهكذا قـال ههنا: ﴿إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾، ثم قـال تعالى: ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾، يعني أن الكفر بعيد منكم - وحاشاكم منه - فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلاً ونهاراً، وهو يتلوهـا عليكم ويبلغها إليكم. وهذا كقوله تعالى: ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين﴾. وكما جـاء في الحديث أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوماً «أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟» قالوا: الملائكة، قال: «وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم»، قالوا: فنحن، قال: «وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم»، قالوا: فأي النـاس أعجب إيماناً؟ قال: «قوم يجيئون من بعـدكم يجدون صحفاً يؤمنون بمـا فيها». ثم قال تعالى: ﴿ومن يعتصم بالله فقـد هدي إلى صراط مستقيم﴾، أي ومع هـذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعدة في مباعدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد وحصول المراد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

عن عبد الله بن مسعود: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ قال: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر. وروي مرفوعاً عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الله حق تقاته أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى»[1]. وروي عن أنس أنه قـال: لا يتقي اللهَ العبدُ حق تقاته حتى يخزن لسانه، وقد ذهب سعيد بن جبير وأبو العالية إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ قال: لم تنسخ ولكن حق تقاته أن يجاهدوا في سبيله حق جهـاده، ولا تأخـذهم في الله لومة لائم، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم. وقوله تعالى: ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾، أي حـافظوا على الإسلام في حـال صحتكم وسلامتكم، لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه، أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعياذاً بالله من خلاف ذلك.

(١) رواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط الشيخين، قال ابن كثير: والأظهر أنه موقوف.

روى الإمام أحمد عن مجاهد: أن الناس كانوا يطوفون بالبيت وابن عباس جالس معه محجن[١]، فقال، قال رسول الله ﷺ: « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، ولو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن ليس له طعام إلا الزقوم » !؟[٢] .

وقال الإمام أحمد، عن عبد الله بن عمرو قال، قال رسول الله ﷺ : « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه ». وفي الحديث الصحيح عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عزّ وجلّ ». وعن أنَس قال: كان رجل من الأنصار مريضاً فجاءه النبي ﷺ يعوده فوافقه في السوق فسلم عليه، فقال له: « كيف أنت يا فلان » ؟ قال: بخير يا رسول الله أرجو الله وأخاف ذنوبي ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف »[٣] .

وقوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾، **قيل:** ﴿بحبل الله﴾ أي بعهد الله كما قال في الآية بعدها: ﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ أي بعهد وذمة ، **وقيل:** ﴿بحبل الله﴾ يعني القرآن كما في حديث الحارث الأعور عن علي مرفوعاً في صفة القرآن: « هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم » .

وروى ابن مردويه عن عبد الله رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن هو حبل الله المتين، وهو النور المبين، وهو الشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه » .

وقوله تعالى : ﴿ولا تفرقوا﴾ أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة، وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق، والأمر بالاجتماع والائتلاف، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولّاه الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثاً: قيل وقال ، وكثرة السؤال، وإضاعة المال » .

وقوله تعالى : ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ إلى آخر الآية، وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن وإحن، طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخواناً متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى. قال الله تعالى: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ إلى آخر الآية. وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم فأنقذهم الله منها أن هداهم للإيمان. وقد امتن عليهم

(١) عصا منعطفة الرأس .
(٢) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة .
(٣) رواه الحافظ البزار والترمذي والنسائي .

بذلك رسول الله ﷺ يوم قسم غنائم حنين، فعتب من عتب منهم، بما فضّل عليهم في القسمة بما أراده الله، فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي!! وكنتم متفرقين فألفكم الله بي!! وعالة فأغناكم الله بي!؟» فكلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنّ.

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار وغيره: أن هذه الآية نزلت في شأن (الأوس والخزرج)، وذلك أن رجلاً من اليهود، مر بملأ من الأوس والخزرج، فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة، فبعث رجلاً معه وأمره أن يجلس بينهم، ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بعاث وتلك الحروب ففعل، فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم، وغضب بعضهم على بعض، وتثاوروا ونادوا بشعارهم، وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى الحرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأتاهم فجعل يسكنهم ويقول: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟» وتلا عليهم هذه الآية فندموا على ما كان منهم واصطلحوا وتعانقوا، وألقوا السلاح رضي الله عنهم.

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى: ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ قال الضحاك: هم خاصة الصحابة، وخاصة الرواة يعني المجاهدين والعلماء، وقال أبو جعفر الباقر، قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾. ثم قال: «الخير اتباع القرآن وسنتي»[1]. والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»، وفي رواية: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن

(١) أخرجه ابن مردويه.

المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم »[١]، ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾ الآية. ينهى تبارك وتعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضين، في افتراقهم واختلافهم وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع قيام الحجة عليهم.

روى الإمام أحمد عن أبي عامر (عبدالله بن يحيى) قال: حججنا مع (معاوية بن أبي سفيان)، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال: إن رسول الله ﷺ قال: « إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعني الأهواء - كلها في النار إلا واحدة - وهي الجماعة - وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكَلَب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله »، والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به »[٢].

وقوله تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ يعني يوم القيامة حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودّ وجوه أهل البدعة والفرقة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. ﴿فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾؟ قال الحسن البصري: وهم المنافقون، ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾، وهذا الوصف يعم كل كافر، ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ يعني الجنة ماكثون فيها أبداً لا يبغون عنها حولاً.

ثم قال تعالى: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك﴾ أي هذه آيات الله وحججه وبيناته نتلوها عليك يا محمد ﴿بالحق﴾ أي نكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة، ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ أي ليس بظالم لهم، بل هو الحكم العدل الذي لا يجور، لأنه القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحداً من خلقه، ولهذا قال تعالى: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي الجميع ملك له وعبيد له، ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي هو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة.

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم، قال البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه: ﴿كنتم

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة. (٢) رواه أحمد وأبو داود.

خير أمة أخرجت للناس﴾، قال: خير الناس ، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام ، والمعنى: أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس، ولهذا قال: ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ ، قال الإمام أحمد: قـام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال: يا رسول الله أي الناس خير ؟ قال: «خير الناس أقراهم وأتقاهم لله وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم». وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ قال: هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة. والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ أي خياراً ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ الآية .

وفي مسند أحمد وجامع الترمذي من رواية حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه قال، قال رسول الله ﷺ : «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عزّ وجلّ» وهو حديث مشهور ، وقـد حسَّنه الترمذي، وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات، بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم ، لم يعطه نبي قبله ولا رسول من الرسل، فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامـه ، وفي الحديث : «وجعلت أمتي خـير الأمم»[1] .

وقد وردت أحاديث يناسب ذكرها ههنا : عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : «أعطيت سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم كالقمر ليلة البدر، قلوبهم على قلب رجل واحد، فاستزدت ربي فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: فرأيت أن ذلك آت على أهل القرى ومصيب من حافات البوادي[2] .

(**حديث آخر**) : قال الإمام أحمد، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال، قال النبي ﷺ : «عرضت عليّ الأمم بالموسم فراثت[3] عليّ أمتي، ثم رأيتهم فأعجبتني كثرتهم وهيئتهم، قـد ملؤا السهل والجبل، فقال: أرضيت يا محمد؟ فقلت: نعم ! قال: فان مع هؤلاء سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب وهم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»، فقـام عكاشة بن محصن فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم»، فقام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة» .

(**حديث آخر**) : قال الطبراني، عن عمران بن حصين قال، قال رسول الله ﷺ : «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب ولا عقاب»، قيل: من هم ؟ قال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون» .

---

(١) رواه الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب .
(٢) رواه الإمام أحمد .
(٣) فراثت : تأخرت .

(حديث آخر): ثبت في الصحيحين من رواية الزهري عن سعيد بن المسيب، أن أبا هريرة حدثه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدخل الجنة من أمتي زمرة وهم سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر»، قال أبو هريرة: فقام عكاشة بن محصن الأسدي يرفع نمرة[1] عليه، فقال: يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعله منهم»، ثم قام رجل من الأنصار فقال مثله، فقال: «سبقك بها عكاشة».

(حديث آخر): عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «عرضت عليَّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي؛ فقيل لي هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «ما الذي تخوضون فيه؟» فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «أنت منهم»، ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «سبقك بها عكاشة»[2]

(حديث آخر): قال الحافظ أبو بكر بن عاصم في كتاب السنن، عن محمد بن زياد: سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً، مع كل ألف سبعون ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حثيات من حثيات[3] ربي عزّ وجلّ».

(حديث آخر): قال أبو القاسم الطبراني: عن عامر بن زيد البكالي أنه سمع عتبة بن عبد السلمي رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن ربي عزّ وجلّ وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب، ثم يشفع كل ألف لسبعين ألفاً، ثم يحثي ربي عزّ وجلّ بكفيه ثلاث حثيات». فكبر عمر وقال: إن السبعين الأول يشفعهم الله في آبائهم وأبنائهم وعشيرتهم، وأرجو أن يجعلني الله في إحدى الحثيات الأواخر. قال الحافظ المقدسي في كتابه صفة الجنة: لا أعلم لهذا الإسناد علة، والله أعلم.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد: عن عطاء بن يسار أن رفاعة الجهني حدثه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بالكديد - أو قال بقديد - فذكر حديثاً وفيه ثم قال: «وعدني ربي عزّ وجلّ أن يدخل

---

(١) نمرة: ثوب من صوف.

(٢) رواه مسلم.

(٣) حَثَيات: مفردها حَثْي وهو ما غرف باليد.

الجنة من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب، وإني لأرجو أن لا يدخلوها حتى تبوؤا أنتم ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن في الجنة »، قال الضياء: وهذا عندي على شرط مسلم.

(**حديث آخر**) : قال عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن قتادة عن النضر بن أنس عن أنس قال، قال رسول الله : « إن الله وعدني أن يدخل الجنة من أمتي أربعمائة ألف »، قال أبو بكر رضي الله عنه. زدنا يا رسول الله، قال: « والله هكذا »، قال عمر: حسبك يا أبا بكر، فقال أبو بكر: دعني وما عليك أن يدخلنا الله الجنة كلنا. قال عمر: إن الله إن شاء أدخل خلقه الجنة بكف واحد، فقال النبي ﷺ: « صدق عمر ». هذا الحديث بهذا الإسناد تفرد به عبد الرزاق. قال الضياء: وقد رواه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني عن قتادة عن أنس عن النبي ﷺ قال: « وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي مائة ألف »، فقال له أبو بكر: يا رسول الله زدنا، قال: « وهكذا »، وأشار سليمان بن حرب بيده كذلك، قلت: يا رسول الله زدنا، فقال عمر: إن الله قادر على أن يدخل الناس الجنة بحفنة واحدة، فقال رسول الله ﷺ: « صدق عمر ». هذا حديث غريب من هذا الوجه.

(**حديث آخر**) : عن أنس، عن النبي ﷺ قال: « يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً »، قالوا: زدنا يا رسول الله، قال: « لكل رجل سبعون ألفاً »، قالوا: زدنا، وكان على كثيب، فقالوا: فقال: « هكذا » وحثا بيديه، قالوا: يا رسول الله: أبعد اللهُ من دخل النار بعد هذا »[1].

ومن الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة وشرفها وكرامتها على الله عزّ وجلّ، وأنها خير الأمم في الدنيا والآخرة ما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال، قال لنا رسول الله ﷺ: « أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة » فكبرنا، ثم قال: « أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة » فكبرنا، ثم قال: « إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة ».

(**حديث آخر**) : قال الإمام أحمد بسنده عن ابن بريدة عن أبيه، أن النبي ﷺ قال: « أهل الجنة عشرون ومائة صف. هذه الأمة من ذلك ثمانون صفاً ».

(**حديث آخر**) : قال الطبراني عن أبي هريرة: لما نزلت: ﴿ثلة من الأولين وثلة من الآخرين﴾ قال رسول الله ﷺ: « أنتم ربع أهل الجنة، أنتم ثلث أهل الجنة، أنتم نصف أهل الجنة، أنتم ثلثا أهل الجنة ».

(**حديث آخر**): عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، الناس لنا فيه تبع، غداً لليهود، وللنصارى بعد غد »[2].

(١) رواه الحافظ أبو يعلى، قال ابن كثير: وإسناده جيد.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾، فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح، كما قال قتادة: بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجها رأى من الناس دَعَة، فقرأ هذه الآية: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾، ثم قال: (من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها)، رواه ابن جرير، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى: ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ الآية، ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات، شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم، فقال تعالى: ﴿ ولو آمن أهل الكتاب﴾ أي بما أنزل على محمد، ﴿ لكان خيراً لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ أي قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان.

ثم قال تعالى مخبراً عباده المؤمنين، ومبشراً لهم: أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين فقال تعالى: ﴿ لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون﴾، هكذا وقع فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم أنوفهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة (بني قينقاع) وبني النضير وبني قريظة كلهم أذلهم الله، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن، وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى بن مريم وهم كذلك، ويحكم بملة الإسلام وشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام. ثم قال تعالى: ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾، أي ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا فلا يؤمنون ﴿ إلا بحبل من الله﴾ أي بذمة من الله وهو عقد الذمة لهم، وضرب الجزية عليهم وإلزامهم أحكام الملة، ﴿ وحبل من الناس﴾ أي أمان منهم لهم كما في المهادن والمعاهد والأسير إذا أمنه واحد من المسلمين ولو امرأة، قال ابن عباس: ﴿ إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ أي بعهد من الله وعهد من الناس، وقوله: ﴿ وباءوا بغضب من الله﴾ أي ألزموا، فالتزموا بغضب من الله وهم يستحقونه، ﴿ وضربت عليهم المسكنة﴾ أي ألزموها قدراً وشرعاً، ولهذا قال: ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾ أي إنما حملهم على ذلك الكبر والبغي والحسد، فأعقبهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبداً متصلاً بذل الآخرة. ثم قال تعالى: ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله - وقُيِّضوا لذلك - أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله والغشيان لمعاصي الله والاعتداء في شرع الله، فعياذاً بالله من ذلك، والله عزّ وجلّ المستعان.

* لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ

أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

المشهور عند كثير من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، و (أسد بن عبيد) و (ثعلبة بن شعبة) وغيرهم، أي لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب، وهؤلا الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: ﴿ليسوا سواء﴾ أي ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم، ولهذا قال تعالى: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ أي قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه، متبعة نبي الله فهي (قائمة) يعني مستقيمة، ﴿يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ أي يقيمون الليل، ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم، ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾، وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة ﴿وإنَّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله﴾ الآية، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿وما يفعلوا من خير فلن يُكفروه﴾ أي لا يضيع عند الله بل يجزيهم به أوفر الجزاء، ﴿والله عليم بالمتقين﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملاً.

ثم قال تعالى مخبراً عن الكفرة المشركين بأنه ﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ أي لا ترد عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أراده بهم، ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾، ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار في هذه الدار فقال: ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيه صر﴾ أي برد شديد قاله ابن عباس، وقال عطاء: برد وجليد، ﴿فيها صر﴾ أي نار وهو يرجع إلى الأول، فإن البرد الشديد ولا سيما الجليد يحرق الزروع والثمار كما يحرق الشيء بالنار، ﴿أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته﴾ أي فأحرقته يعني بذلك الصعقة إذا نزلت على حرث قد آن جذاذه أو حصاده فدمرته، وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع، فذهبت به وأفسدته فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه، فكذلك الكفار يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا كما يذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه، وكذلك هؤلاء بنوها على غير أصل وعلى غير أساس ﴿وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ

كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

- يقول تبارك وتعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أي يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خبالاً، أي يسعون في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعون من المكر والخديعة، ويودون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم، وقوله تعالى: ﴿لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾أي من غيركم من أهل الأديان، وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخل أمره، وقد روى البخاري والنسائي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضُّه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله».

وقال ابن أبي حاتم: قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتباً! فقال: قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين. ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين، واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب، ولهذا قال تعالى: ﴿لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم﴾ أي تمنوا وقوعكم في المشقة.

ثم قال تعالى: ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾ أي قد لاح على صفحات وجوههم، وفلتات ألسنتهم من العداوة، مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل، ولهذا قال تعالى: ﴿قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾، وقوله تعالى: ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم﴾ أي أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرون لكم من الإيمان فتحبونهم على ذلك، وهم لا يحبونكم لا باطناً ولا ظاهراً، ﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾ أي ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب، وهم عندهم الشك والريب والحيرة، عن ابن عباس: ﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾ أي بكتابكم وكتابهم وبما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم، ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ والأنامل أطراف الأصابع، قاله قتادة.

وقال الشاعر: «وما حملت كفاي أنملي العشرا»

وقال ابن مسعود والسدي: الأنامل الأصابع، وهذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة، وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه كما قال تعالى: ﴿وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ وذلك أشد الغيظ والحنق، قال الله تعالى: ﴿قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم، فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين ومكمل دينه، ومعل كلمته ومظهر دينه، فموتوا أنتم بغيظكم، ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم، وتكنه سرائركم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تأملون، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها، لا محيد لكم عنها، ولا خروج لكم منها.

ثم قال تعالى: ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين، وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد وكثروا وعز أنصارهم ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سنة أي جدب أو أديل عليهم الأعداء - لما لله تعالى في ذلك من الحكمة كما جرى يوم أُحُد - فرح المنافقون بذلك. قال الله تعالى مخاطباً للمؤمنين: ﴿وإن تصبروا وتتَّقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ الآية، يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله، الذي هو محيط بأعدائهم فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته ومن توكل عليه كفاه.

ثم شرع تعالى في ذكر قصة أُحُد وما كان فيها من الإختبار لعباده المؤمنين، والتميز بين المؤمنين والمنافقين، وبيان الصابرين فقال تعالى:

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

المراد بهذه الوقعة يوم أُحُد عند الجمهور، وعن الحسن البصري: المراد بذلك يوم الأحزاب. وكانت وقعة أُحُد يوم السبت من شوّال سنة ثلاث من الهجرة، قال قتادة: لإحدى عشرة ليلة خلت من شوّال، وقال عكرمة: يوم السبت للنصف من شوّال فالله أعلم، وكان سببها أن المشركين حين قتل من قتل من أشرافهم يوم بدر، وسلمت العير بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان قال أبناء من قتل ورؤساء من بقي لأبي سفيان: ارصد هذه الأموال لقتال محمد فأنفقوها في ذلك، فجمعوا الجموع والأحابيش وأقبلوا في نحو ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريباً من أُحُد تلقاء المدينة، فصلى رسول الله ﷺ يوم الجمعة فلما فرغ منها استشار الناس: «أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة»؟ فأشار (عبدالله بن أُبي) بالمقام بالمدينة، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين، وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدراً بالخروج إليهم. فدخل رسول الله ﷺ فلبس لامته وخرج عليهم، وقد ندم بعضهم، وقالوا: لعلنا استكرهنا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله إن شئت أن نمكث، فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يرجع حتى يحكم الله له»، فسار ﷺ في ألف من أصحابه، فلما كانوا بالشوط رجع (عبدالله بن أُبي) بثلث الجيش مغضباً لكونه لم يرجع إلى قوله، وقال هو وأصحابه: لو نعلم اليوم قتالاً لاتبعناكم ولكنا لا نراكم تقاتلون، واستمر رسول الله ﷺ سائراً حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وقال: «لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال».

وتهيأ رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه، وأمَّر على الرماة (عبدالله بن جبير) أخا بني عمرو ابن عوف، والرماة يومئذ خمسون رجلاً فقال لهم: «انضحوا الخيل عنا ولا نؤتين من قبلكم، والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم»، وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين،

وأعطى اللواء (مصعب بن عمير) أخا بني عبد الدار. وأجاز رسول الله ﷺ بعض الغلمان يومئذ وأخر آخرين حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقريب من سنتين. وتهيأ قريش وهم ثلاثة آلاف، ومعهم مائة فرس قد جنبوها فجعلوا على ميمنة الخيل (خالد بن الوليد) وعلى الميسرة (عكرمة بن أبي جهل)، ودفعوا اللواء إلى بني عبد الدار، ثم كان بين الفريقين ما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى. ولهذا قال تعالى: ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال﴾ أي تنزلهم وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم ﴿والله سميع عليم﴾ أي سميع لما تقولون عليم بضمائركم.

وقوله تعالى: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ الآية. قال البخاري، قال عمر: سمعت جابر بن عبد الله يقول: فينا نزلت: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ الآية. قال: نحن الطائفتان (بنو حارثة) و (بنو سلمة)، وما يسرني أنها لم تنزل لقوله تعالى: ﴿والله وليهما﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾ أي يوم بدر، وكان يوم الجمعة وافق السابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغ فيه الشرك وخرب محله وحزبه، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فيهم فارسان وسبعون بعيراً والباقون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدوّ يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض والعدة الكاملة، والخيول المسوَّمة والحلي الزائد. فأعز الله رسوله وأظهر وحيه وتنزيله، وبيّض وجه النبي وقبيله وأخزى الشيطان وجيله، ولهذا قال تعالى ممتناً على عباده المؤمنين وحزبه المتقين، ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ أي قليل عددكم لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العَدَد والعُدَد، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً﴾. وقال الإمام أحمد، عن سماك قال: سمعت عياضاً الأشعري قال: شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء. وقال عمر: إذا كان قتالاً فعليكم أبو عبيدة، قال: فكتبنا إليه أنه قد جاش إلينا الموت واستمددناه، فكتب إلينا إنه قد جاءني كتابكم تستمدونني وإني أدلكم على من هو أعز نصراً، وأحصن جنداً، الله عزّ وجلّ فاستنصروه، فإن محمداً ﷺ قد نصر في يوم بدر في أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني. قال: فقاتلناهم فهزمناهم أربع فراسخ، قال: وأصبنا أموالاً فتشاورنا، فأشار علينا عياض أن نعطي عن كل ذي رأس عشرة. و (بدر) محلة بين مكة والمدينة تعرف ببئرها منسوبة إلى رجل حفرها يقال له (بدر بن النارين) قال الشعبي: بدر بئر لرجل يسمى بدراً، وقوله: ﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ أي تقومون بطاعته.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا

مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

اختلف المفسرون في هذا الوعد: هل كان يوم بدر أو يوم أُحُد؟ على قولين، (**أحدهما**): ان قولـه: ﴿إذ تقول للمؤمنين﴾ متعلق بقوله: ﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾ واختاره ابن جرير. قال عباد بن منصور عن الحسن في قوله: ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة﴾، قال: هذا يوم بدر. وقال الربيع بن أنس: أمد الله المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة الآف، **فإن قيل**: فما الجمع بين هذه الآية على هذا القول وبين قوله في قصة بدر: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين - إلى قوله - إن الله عزيز حكيم﴾؟ **فالجواب** أن التنصيص على الألف ههنا لا ينافي الثلاثـة الآلاف فما فوقها لقوله: ﴿مردفين﴾ بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم، وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران، فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم.

(**القول الثاني**): إن هذا الوعد متعلق بقوله: ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال﴾ وذلك يوم أُحُد، وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك، لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف لأن المسلمين فروا يومئذ. وقوله تعالى: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا﴾ يعني تصبروا على مصابرة عدوكم، وتتقوني وتطيعوا أمري، وقوله تعالى: ﴿ويأتوكم من فورهم هذا﴾، قـال الحسن وقتادة: أي من وجههم هذا، وقال مجاهد وعكرمة: أي من غضبهم هذا. وقال ابن عباس: من سفرهم هذا، ويقال: من غضبهم هذا، وقوله تعالى: ﴿يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ أي معلمين بالسيما. عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان سيما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض، وكان سيماهم أيضاً في نواصي خيولهم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه في هذه الآية ﴿مسوّمين﴾ قال: بالعهن الأحمر، وقال ابن عباس رضي الله عنه: أتت الملائكة محمداً ﷺ مسوّمين بالصوف فسوم محمد وأصحـابـه أنفسهم وخيلهـم على سيماهم بالصوف، وقال قتادة وعكرمة: ﴿مسومين﴾ أي بسيما القتال. وعن ابن عباس قال: كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض قد أرسلوهـا في ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمر، ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر، وكانوا يكونون عدداً ومـدداً لا يضربون. وقوله تعالى: ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم بـه﴾ أي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم وتطييباً لقلوبكم وتطميناً، وإلا فإنمـا النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: ﴿ذلـك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ أي هو ذو العزة التي لا ترام، والحكمـة في قـدره والأحكام.

ثم قال تعالى: ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا﴾ أي أمركم بالجهاد والجلاد لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين، فقال: ﴿ليقطع طرفاً﴾ أي ليهلك أمة ﴿من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا﴾ أي يرجعوا ﴿خائبين﴾، أي لم يحصلوا على ما أملوا، ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له فقال تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾، أي بل الأمر كله إليّ، كما قال تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾، وقال: ﴿ليس عليك هداهم ولكنّ الله يهدي من يشاء﴾، وقال: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾، وقال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم. ثم ذكر بقية الأقسام فقال: ﴿أو يتوب عليهم﴾ أي مما هم فيه من الكفر فيهديهم بعد الضلالة ﴿أو يعذبهم﴾ أي في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم، ولهذا قال: ﴿فإنهم ظالمون﴾ أي يستحقون ذلك، قال البخاري: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول ﷺ يدعو على رجال من المشركين يسميهم بأسمائهم حتى أنزل الله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ الآية. وقال البخاري أيضاً، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع وربما قال، إذا قال: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد: اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين. اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» يجهر بذلك، وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: «اللهم العن فلاناً وفلاناً» لأحياء من أحياء العرب حتى أنزل الله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ الآية.

وقال الإمام أحمد: عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أُحُد وشج في وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجلّ» فأنزل الله: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾[1].

وقال ابن جرير: عن قتادة قال: أصيب النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته، وفرق حاجبه، فوقع وعليه درعان والدم يسيل، فمر به سالم مولى أبي حذيفة فأجلسه ومسح عن وجهه، فأفاق وهو يقول: «كيف بقوم فعلوا هذا بنبيّهم وهو يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ؟» فأنزل الله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ الآية.

ثم قال تعالى: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ الآية، أي الجميع ملك له، وأهلهما عبيد بين يديه، ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ أي هو المتصرف فلا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿والله غفور رحيم﴾.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ * وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد في المسند.

ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضعافاً مضاعفة، كما كانوا في الجاهلية يقولون إذا حل أجل الدين: إما أن تقضي وإما أن تربي، فإن قضاه وإلا زاده في المدة وزاده في القدر، وهكذا كل عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً، وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى وفي الآخرة، ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها، فقال تعالى: ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾، ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارعة إلى نيل القربات، فقال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾ أي كما أعدت النار للكافرين. وقد قيل: إن في معنى قوله: ﴿عرضها السموات والأرض﴾ تنبيهاً على اتساع طولها، كما قال في صفة فرش الجنة: ﴿بطائنها من إستبرق﴾ أي فما ظنك بالظهائر، وقيل: بل عرضها كطولها لأنها قبة تحت العرش، والشيء المقبب والمستدير عرضه كطوله، وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وسقفها عرش الرحمن». وهذه الآية كقوله في (سورة الحديد): ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾ الآية. وقد روينا في مسند الإمام أحمد أن (هرقل) كتب إلى النبي ﷺ إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال النبي ﷺ: «سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار».

وهذا يحتمل معنيين، (أحدهما): أن يكون المعنى في ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان، وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث شاء الله عزّ وجل، وهذا أظهر، (الثاني): أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السموات تحت العرش وعرضها، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿كعرض السموات والأرض﴾ والنار في أسفل سافلين، فلا تنافي بين كونها كعرض السموات والأرض وبين وجود النار، والله أعلم.

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾ أي في الشدة والرخاء، والمنشط والمكره، والصحة والمرض، وفي جميع الأحوال، كما قال: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية﴾، والمعنى: أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مراضيه، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر، وقوله تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾، أي إذا ثار بهم

الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه، وعفوا مع ذلك عمن أساء إليهم، وقد ورد في بعض الآثار: «يقول تعالى يا ابن آدم اذكرني إذا غضبت، اذكرك إذا غضبت فلا أهلكك فيمن أهلك»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ليس الشديد بالصُّرَعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[2]. وقال الإمام أحمد، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله»، قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: «اعلموا أنه ليس منكم أحد إلا مال وارثه أحب إليه من ماله، مالَكَ من مالِكَ إلا ما قدمت، وما لوارثك إلا ما أخرت» قال، وقال رسول الله ﷺ: «ما تعدون الصرعة فيكم! قلنا الذي لا تصرعه الرجال، قال: «لا، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب». قال، وقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما الرقوب» قلنا: الذي لا ولد له، قال«: لا، ولكن الرقوب الذي لا يقدم من ولده شيئاً»[3].

(حديث آخر): قال الإمام أحمد، عن سهل بن معاذ بن أنَس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء».

(حديث آخر): عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ أن النبي ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله جوفه أمناً وإيماناً».

فقوله تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ أي لا يعملون غضبهم في الناس بل يكفون عنهم شرهم ويحتسبون ذلك عند الله عزّ وجلّ، ثم قال تعالى: ﴿والعافين عن الناس﴾ أي مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم، فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال ولهذا قال: ﴿والله يحب المحسنين﴾ فهذا من مقامات الإحسان. وفي الحديث: «ثلاث أقسم عليهن، ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله». وروى الحاكم في مستدركه، عن أُبيِّ بن كعب، أن رسول الله ﷺ قال: «ومن سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات، فليعف عمن ظلمه، ويعطِ من حرمه، ويصلْ من قطعه». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ يقول: أين العافون عن الناس، هلموا إلى ربكم، وخذوا أجوركم، وحق على كل امرئ مسلم إذا عفا أن يدخل الجنة»[4].

وقوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ أي إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار. قال الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن رجلاً أذنب ذنباً فقال: رب إني أذنبت ذنباً فاغفره لي، فقال الله عزّ وجلّ: عبدي عمل ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب إني عملت ذنباً فاغفره، فقال تبارك وتعالى: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب إني عملت ذنباً

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

(٣) رواه أحمد وأخرج البخاري النصّ الأول منه.

(٤) أخرجه ابن مردويه.

فاغفر لي، فقال عزَّ وجلَّ: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب إني عملت ذنباً فاغفره فقال الله عزّ وجلّ عبدي علم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به أشهدكم أني قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء». وعن علي رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله بما شاء منه. وإذا حدثني عنه غيره استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وإن أبا بكر رضي الله عنه حدثني، وصدق أبو بكر، أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ ويحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين فيستغفر الله عزّ وجلّ، إلا غفر له»[1]. ومما يشهد لصحة هذا الحديث ما رواه مسلم في صحيحه عن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ - الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء». عن أنس رضي الله عنه قال: بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ بكى.

وعن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما فإن إبليس قال: أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون»[2]. وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «قال إبليس: يا رب وعزتك لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني». وقوله تعالى: ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ أي لا يغفرها أحد سواه، وقوله: ﴿ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ أي تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عزّ وجلّ عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه، كما قال رسول الله ﷺ: «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»[3]، ﴿وهم يعلمون﴾ أن من تاب تاب الله عليه وهذا كقوله تعالى ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾، وكقوله: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ ونظائر هذا كثيرة جداً. ثم قال تعالى بعد وصفهم بما وصفهم به: ﴿أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم﴾ أي جزاؤهم على هذه الصفات ﴿مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي من أنواع المشروبات، ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها، ﴿ونعم أجر العاملين﴾ يمدح تعالى الجنة.

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

(١) رواه أحمد وأهل السنن وابن حبان.

(٢) رواه الحافظ أبو يعلى.

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي والبزار.

ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

يقول تعالى مخاطباً عباده المؤمنين لما أصيبوا يوم أحد وقتل منهم سبعون: ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾، أي قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين، ولهذا قال تعالى: ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾، ثم قال تعالى: ﴿هذا بيان للناس﴾ يعني القرآن فيه بيان الأمور على جليتها وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم، ﴿وهدى وموعظة﴾ يعني القرآن فيه خبر ما قبلكم وهدى لقلوبكم وموعظة أي زاجر عن المحارم والمآثم. ثم **قال تعالى مسلياً للمؤمنين**: ﴿ولا تهنوا﴾ أي لا تضعفوا بسبب ما جرى، ﴿ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ أي العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون، ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ أي إن كنتم قد أصابتكم جراح وقتل منكم طائفة فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح، ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ أي نديل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت لكم العاقبة لما لنا في ذلك من الحكمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ قال ابن عباس: في مثل هذا لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ يعني يقتلون في سبيله ويبذلون مهجهم في مرضاته، ﴿والله لا يحب الظالمين*وليمحص الله الذين آمنوا﴾ أي يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب، وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به.

وقوله تعالى: ﴿ويمحق الكافرين﴾ أي فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا، فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم، ثم قال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾، أي أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾. وقال تعالى: ﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ الآية، ولهذا قال ههنا: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ أي لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا، ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله، والصابرين على مقاومة الأعداء.

وقوله تعالى: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ أي قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو، وتحترقون عليه وتودون مناجزتهم ومصابرتهم، فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه فدونكم فقاتلوا وصابروا، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»، ولهذا قال تعالى: ﴿فقد رأيتموه﴾ يعني الموت شاهدتموه وقت حد الأسنة واشتباك الرماح، وصفوف الرجال للقتال، والمتكلمون يعبرون عن هذا بالتخييل، وهو مشاهدة ما ليس بمحسوس كالمحسوس، كما تتخيل الشاة صداقة الكبش، وعداوة الذئب.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أُحُد وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل، ورجع (ابن قميئة) إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمداً، وإنما كان قد ضرب رسول الله فشجه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل وجوزوا عليه ذلك - كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام - فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال، ففي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ أي له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه. قال ابن أبي نجيح عن أبيه: إن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه فقال له: يا فلان أشعرت أن محمداً ﷺ قد قتل، فقال الأنصاري: إن كان محمداً قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم، فنزل: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾[1]. ثم قال تعالى منكراً على من حصل له ضعف: ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ أي رجعتم القهقرى، ﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾ أي الذين قاموا بطاعته وقاتلوا عن دينه، واتبعوا رسوله حياً وميتاً، وكذلك ثبت في الصحاح والمسانيد والسنن أن الصدّيق رضي الله عنه تلا هذه الآية لما مات رسول الله ﷺ.

عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمَّم رسول الله ﷺ وهو مغطى بثوب حبرة: فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين: أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها[2]، وروى الزهري: عن ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس فقال: اجلس يا عمر، قال أبو بكر: أما بعد من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل - إلى قوله - وسيجزي الله الشاكرين﴾، قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن

(١) رواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة.

(٢) رواه البخاري.

الله أنزل هـذه الآية حتى تلاهـا عليهم أبو بكر، فتلاهـا منه الناس كلهم فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها. وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال: و الله مـا هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرقت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض.

وقال ابو القاسم الطبراني، عن عكرمة عن ابن عباس: أن علياً كان يقول في حياة رسول الله ﷺ: ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت، والله إني لأخوه ووليه وابن عمه ووارثه فمن أحق بـه مني؟ وقوله تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾ أي لا يموت أحد إلا بقدر الله وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له، ولهذا قال: ﴿كتاباً مؤجلاً﴾ كقوله: ﴿وما يُعَمَّر من مُعَمَّر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾، وكقوله: ﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده﴾ وهـذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه، كما قال ابن أبي حاتم عن حبيب بن ظبيان: قال رجل من المسلمين وهو (حجر بن عدي): مـا يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو هذه النطفة – يعني دجلة – ﴿ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾ ثم أقحم فرسه دجلة، فلما أقحم أقحم الناس، فلما رآهم العدوّ قالوا: ديوان ... فهربوا.

وقوله تعالى: ﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها﴾ أي من كان عمله للدنيا فقط ناله منها مـا قدره الله له، ولم يكن له في الآخرة من نصيب، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها وما قسم له في الدنيا كما قال تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾، وقال تعالى: ﴿من كان يريـد العـاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنـا له جهنم يصلاهـا مذموماً مدحوراً ۞ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهـم مشكوراً﴾، ولهذا قـال ههنا: ﴿وسنجزي الشاكرين﴾ أي سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهـم. ثم قال تعالى مسلياً للمؤمنين عما كان وقع في نفوسهم يوم أحد، ﴿وكأين من نبيّ قاتل معه ربيون كثير﴾ قيل معناه: كم من نبي قتل وقتل معه ربيون من أصحابه كثير، وهذا القول هو اختيار ابن جرير. وقد عاتب الله بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحـد وتركوا القتال لـمـا سمعوا الصائح يصيح بأن محمداً قـد قتل، فعذلهم الله على فرارهم وتركهم القتال فقـال لهم: ﴿أفإن مات أو قتل﴾، أيهـا المؤمنون ارتددتم عن دينكم ﴿وانقلبتم على أعقابكم﴾ وقيل: وكم من نبي قتل بين يديه من أصحابه ربيون كثير.

وكلام ابن إسحاق في السيرة يقتضي قولاً آخر، فإنه قـال: وكأين من نبي أصابـه القتل ومعه ربيون أي جماعات فما وهنوا بعد نبيهم، وما ضعفوا عن عدوهم، وما استكانوا لـمـا أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم، وذلك الصبر ﴿والله يحب الصابرين﴾. فجعل قوله: ﴿معه ربيون كثير﴾ حالاً، وقـد نصر هـذا القول السهيلي وبالغ فيه، وله اتجـاه لقوله: ﴿فما وهنوا لـمـا أصابهم﴾ الآية. وقرأ بعضهم: ﴿قاتل معه ربيون كثير﴾ أي ألوف، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: الربيون الجموع الكثيرة، وقال الحسن: ﴿ربيون كثير﴾، أي علماء كثير، وعنـه أيضاً: علماء صبر أي أبرار أتقياء، وحكى ابن جرير عن بعض نحاة البصرة أن الربيين هم الذين يعبدون الرب

عزّ وجلّ، قال: ورد بعضهم عليه فقال: لو كان كذلك لقيل الربيون بفتح الراء، وقال ابن زيد: الربيون الأتباع والرعية والربانيون الولاة، ﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا﴾، قال قتادة: ﴿وما ضعفوا﴾ بقتل نبيهم، ﴿وما استكانوا﴾ يقول: فما ارتدوا عن نصرتهم ولا عن دينهم أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله، وقال ابن عباس: ﴿وما استكانوا﴾ تخشعوا، وقال ابن زيد: وما ذلوا لعدوهم، ﴿والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾ أي لم يكن لهم هجير[1] إلا ذلك، ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾ أي النصر والظفر والعاقبة ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ أي جمع لهم ذلك مع هذا ﴿والله يحب المحسنين﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ
وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ
وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ
وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ
فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين، فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾، ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكل عليه فقال تعالى: ﴿بل الله مولاكم وهو خير الناصرين﴾، ثم بشرهم بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم بسبب كفرهم وشركهم، مع ما ادخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والنكال، فقال: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين﴾ وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة». وقال الإمام أحمد: عن أبي موسى قال، قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً: بعثت إلى الأحمر والأسود، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لمن كان قبلي، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة، وليس من نبي إلا وقد سأل الشفاعة وإني قد اختبأت شفاعتي لمن مات لا يشرك بالله شيئاً». قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ قذف الله في قلب أبي سفيان الرعب فرجع إلى مكة، فقال النبي ﷺ: «إن أبا سفيان قد

(١) أي دأب وعادة وما يكثر على اللسان جريانه.

أصاب منكم طرفاً، وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب»[1] . وقوله تعالى: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه﴾ قال ابن عباس: وعدهم الله النصر، ﴿إذ تحسونهم﴾ أي تقتلونهم ﴿بإذنه﴾ أي بتسليطه إياكم عليهم ﴿حتى إذا فشلتم﴾ الفشل: الجبن ﴿وتنازعتم في الأمر وعصيتم﴾ كما وقع للرماة ﴿من بعد ما أراكم ما تحبون﴾ وهو الظفر بهم ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة ﴿ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ ثم أدالهم عليكم ليختبركم ويمتحنكم ﴿ولقد عفا عنكم﴾ أي غفر لكم ذلك الصنيع . قال ابن جريج: قوله: ﴿ولقد عفا عنكم﴾ قال: لم يستأصلكم ﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾ .

عن ابن مسعود قال: إن النساء كن يوم أحُد، خلف المسلمين يجهزن على جرحى المشركين، فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبر، أنه ليس منا أحد يريد الدنيا حتى أنزل الله: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾، فلما خالف أصحاب رسول الله ﷺ وعصوا ما أمروا به أفرد النبي ﷺ في تسعة، سبعة من الأنصار ورجلين من قريش وهو عاشرهم ﷺ، فلما أرهقوه قال: «رحم الله رجلاً ردهم عنا»، قال: فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قتل، فلما أرهقوه أيضاً قال: «رحم الله رجلاً ردهم عنا»، فلم يزل يقول ذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: «ما أنصفنا أصحابنا»، فجاء أبو سفيان فقال: اعل هبل، فقال رسول الله ﷺ : «قولوا الله أعلى وأجل»، فقالوا: الله أعلى وأجل، فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا والكافرون لا مولى لهم»، فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر (فيوم علينا ويوم لنا : ويوم نساء ويوم نسر) حنظلة بحنظلة وفلان بفلان: فقال رسول الله ﷺ : «لا سواء: أما قتلانا فأحياء يرزقون، وأما قتلاكم ففي النار يعذبون»، فقال أبو سفيان: لقد كان في القوم مُثْلة – وإن كانت لعن غير مَلَيٍّ منا[2] – ما أمرت ولا نهيت، ولا أحببت ولا كرهت، ولا ساءني ولا سرني، قال: فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه، وأخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطع أن تأكلها، فقال رسول الله ﷺ : «أكلت شيئاً»؟ قالوا: لا، قال: «ما كان الله ليدخل شيئاً من حمزة في النار»، قال: فوضع رسول الله ﷺ حمزة فصلى عليه، وجيء برجل من الأنصار فوضع إلى جنبه فصلى عليه فرفع الأنصاري وترك حمزة، حتى جيء بآخر فوضع إلى جنب حمزة فصلى عليه، ثم رفع وترك حمزة، حتى صلى عليه يومئذ سبعين صلاة[3] .

وقال البخاري عن البراء قال: لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة وأمر عليهم (عبد الله ابن جبير)، وقال: «لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا». فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن عن سوقهن. قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله بن جبير : عهد إليَّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً، فأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد، فقال: «لا تجيبوه»، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: «لا تجيبوه»، فقال: أفي القوم ابن الخطاب، فقال: إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر

(١) رواه ابن أبي حاتم .
(٢) المَلَيُّ بفتح الميم: الهوى .
(٣) رواه الإمام أحمد في المسند .

نفسه فقال له: كذبت يا عدو الله، أبقى الله لك ما يحزنك، قال أبو سفيان: اعل هبل، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه»، قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل»، قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه»، قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»، قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وستجدون مُثْلة لم آمر بها ولم تسؤني. وعن الزبير بن العوام قال: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند وصواحباتها مشمرات هوارب ما دون أخذهن كثير ولا قليل، ومالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه يريدون النهب، وخلوا ظهورنا للخيل فأوتينا من أدبارنا، وصرخ صارخ ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى ما يدنو منه أحد من القوم، قال محمد بن إسحاق: فلم يزل لواء المشركين صريعاً حتى أخذته (عمرة بنت علقمة الحارثية) فدفعته لقريش فلاثوا بها[1] وقال السدي عن عبد الله بن مسعود قال: ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أُحُد ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾، قال ابن إسحاق: انتهى أَنَس بن النضر عم أَنَس بن مالك إلى (عمر بن الخطاب) و (طلحة بن عبد الله) في رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا ما بأيديهم، فقال: ما يخليكم؟ فقالوا: قتل رسول الله ﷺ، قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه - وقال البخاري عن أَنَس بن مالك أن عمه يعني (أَنَس بن النضر) غاب عن بدر فقال: غبت عن أول قتال النبي ﷺ لئن أشهدني الله مع رسول الله ﷺ لَيَرَينَّ الله ما أجد، فلقي يوم أحد فهزم الناس، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ فقال: أين يا سعد إني أجد ريح الجنة دون أحد، فمضى فقتل فما عرف حتى عرفته أخته بشامة أو ببنانه وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم[2].

وقوله تعالى: ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد﴾ أي صرفكم عنهم إذ تصعدون أي في الجبال هاربين من أعدائكم، ﴿ولا تلوون على أحد﴾ أي وأنتم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرعب، ﴿والرسول يدعوكم في أخراكم﴾ أي وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء، وإلى الرجعة والعودة والكرة، قال السدي: لما اشتد المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها، فجعل الرسول ﷺ يدعو الناس: «إليّ عباد الله، إليّ عباد الله»، فذكر الله صعودهم إلى الجبل، ثم ذكر دعاء النبي ﷺ إياهم فقال: ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم﴾.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أحد - وكانوا خمسين رجلاً - (عبد الله بن جبير)، قال: ووضعهم موضعاً، وقال: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»، قال، فهزموهم، قال: فلقد والله رأيت النساء يشتددن على الجبل وقد بدت أسواقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن

---

(١) رواه ابن أبي إسحاق.

(٢) هذه رواية البخاري.

فقال أصحاب عبدالله: الغنيمة أي قوم الغنيمة! ظهر أصحابكم فا تنظرون؟ قال عبدالله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ فقالوا: إنا لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة. فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين فذلك الذي يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً فأصابوا منا سبعين. وكان رسول الله ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر مائة وأربعين، سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً. قال أبو سفيان: أفي القوم محمد، أفي القوم محمد، أفي القوم محمد؟ ثلاثاً - قال. فنهاهم رسول الله ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة، أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابن الخطاب، أفي القوم ابن الخطاب؟ ثم أقبل على أصحابه، فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا وكفيتموهم، فا ملك عمر نفسه أن قال: كذبت والله يا عدو الله إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد أبقى الله لك ما يسوؤك، فقال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال. إنكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني. ثم أخذ يرتجز يقول: اعل هبل، اعل هبل، فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبوه»؟ قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: «قولوا الله أعلى وأجل»، قال: لنا العزى ولا عزى لكم، قال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: يا رسول الله وما نقول؟ قال: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم»[1].

وقد روى البخاري عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي ﷺ يعني يوم أحد، وفي الصحيحين، عن أبي عثمان النهدي قال: لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهن رسول الله ﷺ إلا طلحة بن عبيد الله وسعد عن حديثهما. وعن سعيد بن المسيب يقول: سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: نثل لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد، وقال: «ارم فداك أبي وأمي»، وعن سعد بن أبي وقاص أنه رمى يوم أحد دون رسول الله ﷺ قال سعد: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يناولني النبل، ويقول: «ارم فداك أبي وأمي» حتى إنه ليناولني السهم ليس له نصل فأرمي به.

وثبت في الصحيحين من حديث إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: رأيت يوم أحد عن يمين النبي ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشد القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام، وعن أنَس بن مالك: أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار واثنين من قريش، فلما أرهقوه قال: «من يردهم عنا وله الجنة - أو هو رفيقي في الجنة -»، فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، ثم أرهقوه أيضاً فقال: «من يردهم عنا وله الجنة»، فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة: فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: «ما أنصفنا أصحابنا»[2]. وقال أبو الأسود عن عروة ابن الزبير قال: كان (أُبيّ بن خلف) أخو بني جمح قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله ﷺ، فلما بلغت رسول الله ﷺ حلفته قال: «بل أنا أقتله إن شاء الله»، فلما كان يوم أُحُد أقبل (أُبيّ) في الحديد مقنعاً وهو يقول: لا نجوتُ إن نجا محمد، فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله، فاستقبله (مصعب بن عمير) أخو بني عبد الدار يقي رسول الله ﷺ بنفسه فقتل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) رواه مسلم.

والبيضة وطعنه فيها بحربته فوقع إلى الأرض عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أجزعك إنما هو خدش؟ فذكر لهم قول رسول الله ﷺ: « بل أنا أقتل أُبيًا »، ثم قال: والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون، فمات إلى النار ﴿ فسحقاً لأصحاب السعير ﴾.

وذكر محمد بن إسحاق قال: لما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه (أُبيّ بن خلف) وهو يقول: لا نجوتُ إن نجوتَ، فقال القوم: يا رسول الله يعطف عليه رجل منا، فقال رسول الله ﷺ: « دعوه »، فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، فقال بعض القوم كما ذكر لي: فلما أخذها رسول الله ﷺ منه انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انفضّ، ثم استقبله رسول الله ﷺ فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً[1].

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: « اشتد غضب الله على قوم فعلوا برسول الله ﷺ - وهو حينئذ يشير إلى رباعيته - واشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله ». وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال: ذاك يوم كله لطلحة، ثم أنشأ يحدث، قال: كنت أول من فاء يوم أحد فرأيت رجلاً يقاتل مع رسول الله ﷺ دونه -وأراه قال حميَّة- فقلت: كن طلحة حيث فاتني ما فاتني، فقلت: يكون رجلاً من قومي أحب إلي، وبيني وبين المشركين رجل لا أعرفه وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه، وهو يخطف المشي خطفاً لا أعرفه فإذا هو (أبو عبيدة بن الجراح) فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد كسرت رباعيته وشج في وجهه، وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر، فقال رسول الله ﷺ: « عليكما صاحبكما يريد طلحة » وقد نزف فلم نلتفت إلى قوله قال: وذهبت لأنزع ذلك من وجهه، فقال (أبو عبيدة): أقسمت عليك بحقي لما تركتني فتركته، فكره أن يتناولها بيده فيؤذي رسول الله ﷺ، فأزمَّ عليها بفيه فاستخرج إحدى الحلقتين، ووقعت ثنيته مع الحلقة، وذهبت لأصنع ما صنع فقال: أقسمت عليك بحقي لما تركتني، قال، ففعل مثل ما فعل في المرة الأولى، ووقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة، فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتماً، فأصلحنا من شأن رسول الله ﷺ ثم أتينا (طلحة) في بعض تلك الجفار، فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر من طعنة ورمية وضربة، وإذا قد قطعت أصبعه، فأصلحنا من شأنه[2]. وقال ابن وهب: إن (مالكاً) أبا أبي سعيد الخدري لما جرح النبي ﷺ يوم أحد مصَّ الجرح حتى أنقاه ولاح أبيض فقيل له: مجه، فقال: لا والله لا أمجه أبداً، ثم أدبر يقاتل، فقال النبي ﷺ: « من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا فاستشهد ». وقد ثبت في الصحيحين عن سهل بن سعد أنه سئل عن جرح رسول الله ﷺ فقال: جرح وجه رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه ﷺ، فكانت فاطمة تغسل الدم وكان علي يسكب عليه الماء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها، حتى إذا صارت رماداً ألصقته بالجرح فاستمسك الدم.

---

(١) تدأدأ: سقط. (٢) أخرجه أبو داود الطيالسي والطبراني.

وقوله تعالى: ﴿ فأثابكم غماً بغم﴾ أي فجزاكم غماً على غم، كما تقول العرب: نزلت ببني فلان، ونزلت على بني فلان، وقال ابن جرير: وكذا قوله: ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾ أي على جذوع النخل. قال ابن عباس: الغم الأول بسبب الهزيمة وحين قيل قتل محمد ﷺ، والثاني حين علاهم المشركون فوق الجبل، وقال النبي ﷺ: «اللهم ليس لهم أن يعلونا»، وعن عبدالرحمن بن عوف: الغم الأول بسبب الهزيمة، والثاني حين قيل: قُتل محمد ﷺ كان ذلك عندهم أشد وأعظم من الهزيمة. وقال السدي: الغم الأول بسبب ما فاتهم من الغنيمة والفتح، والثاني بإشراف العدو عليهم. وقال محمد بن إسحاق: ﴿ فأثابكم غماً بغم﴾ أي كرباً بعد كرب من قتل من قتل من إخوانكم، وعلو عدوكم عليكم، وما وقع في أنفسكم من قتل نبيكم، فكان ذلك متتابعاً عليكم غماً بغم. وقال مجاهد وقتادة: الغم الأول سماعهم قتل محمد، والثاني ما أصابهم من القتل والجراح. وقوله تعالى: ﴿ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم﴾ أي على ما فاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم ﴿ ولا ما أصابكم﴾ من الجراح والقتل قاله ابن عباس والسدي ﴿ والله خبير بما تعملون﴾ سبحانه وبحمده، لا إله إلا هو جل وعلا.

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

يمتن الله تعالى على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة وهو النعاس الذي غشيهم وهم مشتملون السلاح في حال همهم وغمهم، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان. كما قال في سورة الأنفال في قصة بدر: ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾ الآية، وقال ابن أبي حاتم، عن عبدالله بن مسعود قال: (النعاس في القتال من الله، وفي الصلاة من الشيطان). وقال البخاري، عن أبي طلحة قال: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مراراً يسقط وآخذه ويسقط وآخذه. وعن أنَس بن مالك، أن أبا طلحة قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه، قال: والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم همٌّ إلا أنفسهم، أجبن قوم وأرعبه وأخذله للحق[1]، ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾ أي إنما هم أهل شك وريب في الله عز وجلّ، فإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم﴾ يعني أهل الايمان واليقين والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله عزّ وجلّ سينصر رسوله وينجز له مأموله، ولهذا قال: ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾ يعني لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿ يظنون

(١) أخرجه البيهقي.

بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً﴾ وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم ﴿يقولون﴾ في تلك الحال ﴿هل لنا من الأمر من شيء﴾ فقال تعالى: ﴿قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾، ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله: ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾، أي يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق، عن عبدالله بن الزبير قال: قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره، قال: فوالله إني لأسمع قول (متعب بن قشير) ما أسمعه إلا كالحلم يقول: ﴿لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾، فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله: ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾ لقول معتب[1]. قال الله تعالى: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ أي هذا قدر قدره الله عزّ وجلّ وحكم حتم لا محيد عنه ولا مناص منه.

وقوله تعالى: ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم﴾ أي يختبركم بما جرى عليكم ليميز الخبيث من الطيب، ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس في الأقوال والأفعال، ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ أي بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر. ثم قال تعالى: ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾ أي ببعض ذنوبهم السالفة، كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها. ثم قال تعالى: ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ أي عما كان منهم من الفرار، ﴿إن الله غفور حليم﴾ أي يغفر الذنب ويحلم عن خلقه ويتجاوز عنهم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفّار في اعتقادهم الفاسد الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب: لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم﴾ أي عن إخوانهم، ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾ أي سافروا للتجارة ونحوها، ﴿أو كانوا غزًّى﴾ أي كانوا في الغزو، ﴿لو كانوا عندنا﴾ أي في البلد، ﴿ما ماتوا وما قتلوا﴾ أي ما ماتوا في السفر وما قتلوا في الغزو. وقوله تعالى: ﴿ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم﴾ أي خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتاهم، ثم قال تعالى رداً عليهم: ﴿والله يحيي ويميت﴾ أي بيده الخلق وإليه يرجع الأمر،

(١) رواه ابن أبي حاتم.

ولا يحيا أحـد ولا يموت أحـد إلا بمشيئته وقَـدَره، ولا يزاد في عمر أحد ولا ينقص منه شيء إلا بقضائه وقدره، ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ أي علمه وبصره نافذ في جميع خلقه، لا يخفى عليه من أمورهم شيء، وقوله تعالى: ﴿ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ﴾ تضمن هذا أن القتل في سبيل الله والموت أيضاً وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني، ثم أخبر تعالى بأن كل من مات أو قتل فمصيره ومرجعه إلى الله عزّ وجلّ فيجزيه بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر فقال تعالى: ﴿ ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

يقول تعالى مخاطباً رسوله ممتناً عليه وعلى المؤمنين فيما ألان بـه قلبه على أمته المتبعين لأمره التاركين لزجره وأطاب لهم لفظه ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ أي بأي شيء جعلك الله لهم ليناً لولا رحمة الله بك وبهم، وقال قتادة: ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ يقول: فبرحمة من الله لنت لهم و (ما) صلة، والعرب تصلها بالمعرفة كقوله ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم ﴾، وبالنكرة كقوله: ﴿ عما قليل ﴾ وهكذا ههنا. قال: ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ أي برحمة من الله، وقال الحسن البصري: هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله بـه، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾، والفظ: الغليظ والمراد به ههنا غليظ الكلام لقوله بعـد ذلك: ﴿ غليظ القلب ﴾ أي لو كنت سيء الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم، كما قال عبدالله بن عمرو: إني أرى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة «أنه ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح». ولهذا قال تعالى: ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾. ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث، تطييباً لقلوبهم، ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير، فقـالوا:

يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون. وشاورهم أيضاً أين يكون المنزل، حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم، وشاورهم في أُحُد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدوّ ، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم، وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ فأبى ذلك عليه السعدان، سعد ابن معاذ وسعد بن عبادة، فترك ذلك، وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين، فقال له الصديق: إنا لم نجئ لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال ، فكان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها .

وروينا عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ قال: نزلت في أبي بكر وعمر، وكانا حواري رسول الله ﷺ ووزيريه وأبوي المسلمين، وقد روى الإمام أحمد عن عبدالرحمن بن غنم أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر: « لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما »، وروى ابن مردويه، عن علي بن أبي طالب قال: سئل رسول الله ﷺ عن العزم؟ فقال: « مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم »، وقد قال ابن ماجة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « المستشار مؤتمن » .

وقوله تعالى: ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾، أي إذا شاورتهم في الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾، وقوله تعالى: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ وهذه الآية كما تقدم من قوله: ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾، ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾، وقوله تعالى: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾، قال ابن عباس ومجاهد: ما ينبغي لنبي أن يخون، وقال ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: فقدوا قطيفة يوم بدر فقالوا: لعل رسول الله ﷺ أخذها فأنزل الله: ﴿وما كان لنبي أن يغلّ﴾ أي يخون. وقال ابن جرير، عن ابن عباس، أن هذه الآية: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ نزلت في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعل رسول الله أخذها، فأكثروا في ذلك، فأنزل الله: ﴿وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾، وعنه قال: اتهم المنافقون رسول الله ﷺ بشيء فُقد، فأنزل الله تعالى: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾، وهذا تنزيه له صلوات الله وسلامه عليه من جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك. ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، وقد وردت السنّة بالنهي عن ذلك أيضاً في أحاديث متعددة. قال الإمام أحمد عن أبي مالك الأشجعي، عن النبي ﷺ قال: « أعظم الغلول عند الله ذراع في الأرض، تجدون الرجلين جارين في الأرض - أو في الدار - فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعاً فإذا قطعه طوقه من سبع أرضين يوم القيامة » .

(حديث آخر) : قال الإمام أحمد، عن عبدالرحمن بن جبير قال: سمعت المستورد بن شداد يقول، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من ولي لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً، أو ليست له زوجة فليتزوج، أو ليس له خادم فليتخذ خادماً، أو ليس له دابة فليتخذ دابة، ومن أصاب شيئاً سوى ذلك فهو غال » .

(حديث آخر) : قال ابن جرير، عن عكرمة، عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ : «لأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ينادي: يا محمد يا محمد! فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل جملاً له رغاء يقول: يا محمد يا محمد! فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرساً له حمحمة ينادي: يا محمد يا محمد! فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل قسماً من أدم ينادي: يا محمد يا محمد! فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك»[1].

(حديث آخر) : قال الإمام أحمد: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فقال: «ما بال العامل نبعثه على عمل فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحدكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته، إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر»، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه، ثم قال: «اللهم هل بلغت»؟ ثلاثاً.

(حديث آخر) : قال أبو عيسى الترمذي، عن معاذ بن جبل قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فلما سرت أرسل في أثري فرددت، فقال: «أتدري لم بعثت إليك؟ لا تصيبن شيئاً بغير إذني فإنه غلول: ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾ لهذا دعوتك فامض لعملك»[2].

(حديث آخر) : قال الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره، ثم قال: «لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حمحمة فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك». أخرجه الشيخان.

وقوله تعالى: ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ أي لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه، ومن استحق غضب الله وألزمه به فلا محيد له عنه ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير، وهذه الآية لها نظائر كثيرة في القرآن كقوله تعالى: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾، كقوله: ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا﴾ الآية. ثم قال تعالى: ﴿هم درجات عند الله﴾ قال الحسن البصري: يعني أهل الخير وأهل الشر درجات، وقال أبو عبيدة والكسائي: منازل، يعني متفاوتون في منازلهم، درجاتهم في الجنة ودركاتهم في النار، كقوله تعالى: ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿والله بصير بما يعملون﴾، أي وسيوفيهم إياها، لا يظلمهم خيراً ولا يزيدهم شراً، بل يجازي كل عامل بعمله. وقوله تعالى: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾ أي من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به، كما قال تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك

(١) أخرجه ابن جرير، قال ابن كثير: لم يروه أحد من أهل الكتب الستة. (٢) قال الترمذي: حديث حسن غريب.

من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾، وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى﴾، وقال تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾؟ فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿يتلو عليهم آياته﴾ يعني القرآن ﴿ويزكيهم﴾ أي يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم ،وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم، ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ يعني القرآن والسنّة، ﴿وإن كانوا من قبل﴾ أي من قبل هذا الرسول، ﴿لفي ضلال مبين﴾ أي لفي غي وجهل ظاهر جلي بيّن لكل أحد.

أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

يقول تعالى: ﴿أولما أصابتكم مصيبة﴾ وهي ما أصيب منهم يوم أُحُد من قتل السبعين منهم، ﴿قد أصبتم مثليها﴾ يعني يوم بدر فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلاً، وأسروا سبعين أسيراً ﴿قلتم أنى هذا﴾ أي من أين جرى علينا هذا؟ ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾. عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب رسول الله ﷺ عنه وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله: ﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم﴾ بأخذكم الفداء[1]، وهكذا قال الحسن البصري وقوله ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ أي بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم، يعني بذلك الرماة، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه. ثم قال تعالى: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله﴾ أي فراركم بين يدي عدوكم، وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين، كان بقضاء الله وقدره، وله الحكمة في ذلك، ﴿وليعلم المؤمنين﴾ أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا، ﴿وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ يعني بذلك أصحاب (عبدالله بن أبي ابن سلول) الذين رجعوا معه في أثناء الطريق فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإتيان والقتال والمساعدة، ولهذا قال: ﴿أو ادفعوا﴾، قال ابن عباس وعكرمة: يعني كثّروا سواد المسلمين، وقال الحسن: ادفعوا بالدعاء،

---

(١) رواه ابن أبي حاتم.

وقال غيره: رابطوا، فتعللوا قائلين: ﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾، قال مجاهد: يعنون لو نعلم أنكم تلقون حرباً لجئناكم، ولكن لا تلقون قتالاً. وقد روي أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد في ألف رجل من أصحابه؛ حتى إذا كان بالشوط بين أحد والمدينة انحاز عنه عبدالله بن أبي ابن سلول بثلث الناس فقال: أطاعهم فخرج وعصاني، ووالله ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق وأهل الريب، واتبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول: يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكن لا نرى أن يكون قتال، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم، ومضى رسول الله ﷺ[1]، قال الله عزّ وجلّ: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾، استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان لقوله: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾.

قال تعالى: ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ يعني أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته، ومنه قولهم هذا: ﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ فإنهم يتحققون أن جنداً من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من أشرافهم يوم بدر، وهم أضعاف المسلمين، وأنه كائن بينهم قتال لا محالة، ولهذا قال تعالى: ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾، ثم قال تعالى: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾ أي لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل، قال الله تعالى: ﴿قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ أي إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي أنكم لا تموتون، والموت لا بد آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين، قال مجاهد: نزلت هذه الآية في عبدالله بن أبي ابن سلول وأصحابه.

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

(١) ذكره ابن إسحاق عن الزهري.

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم، وإن قتلوا في هذه الدار، فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار، روى ابن جرير بسنده عن أنَس بن مالك في قصة أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم نبي الله إلى أهل (بئر معونة) قال: لا أدري أربعين أو سبعين، وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري، فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ حتى أتوا غاراً مشرفاً على الماء فقعدوا فيه، ثم قال بعضهم لبعض: أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء؟ فقال - أراه أبو ملحان الأنصاري - أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ، فخرج حتى أتى حول بيتهم فاجتثى أمام البيوت ثم قال: يا أهل بئر معونة إني رسول رسول الله إليكم، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فآمنوا بالله ورسوله. فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضربه في جنبه حتى خرج من الشق الآخر، فقال: الله أكبر فزت ورب الكعبة، فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار فقتلهم أجمعين (عامر بن الطفيل).

وقال ابن إسحاق: حدثني أنس بن مالك أن الله أنزل فيهم قرآناً، بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه، ثم نسخت فرفعت بعد ما قرأناها زماناً، وأنزل الله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾، وقد قال مسلم في صحيحه، عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن تردَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا».

(حديث آخر): عن أنَس، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نفس تموت لها عند الله خير، يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى مما يرى من فضل الشهادة»(١).

(حديث آخر): عن جابر قال، قال لي رسول الله ﷺ: «أعلمت أن الله أحيا أباك فقال له: تمنَّ، فقال له: أردُّ إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى، قال: إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون»(٢). وقال البخاري، عن ابن المنكدر، سمعت جابراً قال: لما قتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني والنبي ﷺ لم ينه، فقال النبي ﷺ: «لا تبكيه - أو ما تبكيه - ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع»(٣).

(حديث آخر): عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم يوم أُحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم، وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في

(١) رواه أحمد وأخرجه مسلم. (٢) رواه أحمد عن جابر بن عبد الله.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي.

الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله عزّ وجلّ: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ وما بعدها».

(**حديث آخر**): عن طلحة بن خراش الأنصاري قال: سمعت جابر بن عبدالله قال: نظر إليّ رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «يا جابر مالي أراك مهتماً؟» قلت: يا رسول الله استشهد أبي وترك ديناً عليه، قال، فقال: «ألا أخبرك ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً»، قال علي: والكفاح المواجهة. «قال سلني أعطك قال: أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية فقال الرب عزّ وجلّ إنه قد سبق مني القول أنهم إليها لا يرجعون، قال: أي رب فأبلغ من ورائي فأنزل الله: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾[1] الآية».

وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها وتأكل من ثمارها وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة (أصحاب المذاهب المتبعة) فإن الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله، عن مالك بن أنَس الأصبحي رحمه الله، عن الزهري عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه»[2]. قوله: «يعلق» أي يأكل. وفي الحديث: «إن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة» وأما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين فإنها تطير بأنفسها، فنسأل الله الكريم المنان أن يميتنا على الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿فرحين بما آتاهم الله﴾ إلى آخر الآية: أي الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند ربهم، وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة، ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم، نسأل الله الجنة. وقال محمد بن إسحاق: ﴿ويستبشرون﴾ أي ويسرون بلحوق من لحقهم من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم. قال السدي: يؤتى الشهيد بكتاب فيه يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا، ويقدم عليك فلان يوم كذا وكذا، فيسر بذلك كما يسر أهل الدنيا بغائبهم إذا قدم. قال سعيد بن جبير: لما دخلوا الجنة ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا: يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة، فإذا شهدوا القتال باشروها بأنفسهم حتى يستشهدوا فيصيبوا ما أصبنا من الخير، فأخبر رسول الله ﷺ بأمرهم وما هم فيه من الكرامة، وأخبرهم - أي ربهم - أني قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم وما أنتم فيه فاستبشروا بذلك، فذلك قوله: ﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ الآية.

وقد ثبت في الصحيحين عن أنَس في قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار الذين قتلوا في غداة واحدة، وقنت رسول الله ﷺ يدعو على الذين قتلوهم ويلعنهم. قال أنَس: ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع: «أن بلِّغوا

---

(١) أخرجه ابن مردويه ورواه البيهقي في دلائل النبوة. (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

عنا قومنا أنا قـد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا » .

ثم قال تعالى : ﴿ يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾، قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم سواء الشهداء وغيرهم، وقلما ذكر الله فضلاً ذكر به الأنبياء وثواباً أعطاهم الله إياه إلا ذكر الله ما أعطى المؤمنين من بعدهم .

وقوله تعالى : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾ هذا كان يوم (حمراء الأسد) وذلك أن المشركين لما أصابوا مـا أصابوا من المسلمين كروا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا في سيرهم ندموا لم لا تمَّموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ويريهم أن بهم قوة وجلداً، ولم يأذن لأحـد سوى من حضر الوقعـة يوم أحد سوى جابر بن عبدالله رضي الله عنه لمـا سنذكره، فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله عزّ وجلّ ولرسوله ﷺ . وعن عكرمة أنه: لما رجع المشركون عن أحد قالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، بئسما صنعتم، ارجعوا فسمع رسول الله ﷺ بذلك، فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغوا (حمراء الأسد) فقال المشركون: نرجع من قابل، فرجع رسول الله ﷺ، فكانت تعد غزوة فأنزل الله تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للـذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ .

قال محمد بن إسحاق، عن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان: أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كان قد شهد أحداً، قال: شهدنا أُحداً مع رسول الله ﷺ أنا وأخي ورجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العـدو قلت لأخي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريـح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جراحاً منه؛ فكان إذا غلب حملته عقبة؛ حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون. وقال البخاري عن عائشة رضي الله عنها: ﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾ الآية، قلت لعروة : يا ابن أختي كان أبوك منهم (الزبير) و (أبو بكر) رضي الله عنهما لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصابه يوم أحـد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا فقال: « من يرجع في أثرهم »، فانتدب منهم سبعون رجلاً فيهم أبو بكر والزبير . وروي عن عروة قال، قالت لي عائشة إن أباك من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح . وكانت وقعة أُحُد في شوّال ، وكان التجار يقدمون المدينة في ذي القعدة فينزلون ببدر الصغرى في كل سنة مرة، وإنهم قدموا بعد وقعـة أحد، وكان أصاب المؤمنين القرح واشتكوا ذلك إلى النبي ﷺ واشتد عليهم الذي أصابهم، وإن رسول الله ﷺ ندب الناس لينطلقوا معه ويتبعوا ما كانوا متبعين، وقال: « إنمـا يرتحلون الآن فيـأتون الحج ولا يقدرون على مثلها حتى عـام مقبل »، فجاء الشيطان يخوف أولياءه فقال: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾ وقال الحسن البصري في قوله: ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾ إن أبا سفيان وأصحابه أصابوا من المسلمين مـا أصابوا ورجعوا، فقال رسول الله ﷺ : « إن أبا سفيان قـد رجع وقد قذف الله في قلبه الرعب، فمن ينتدب في طلبه »، فقـام النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وناس من أصحاب رسول الله ﷺ فتبعوهم، فبلغ أبا سفيان أن النبي ﷺ يطلبه فلقي عيراً من التجار فقال: ردوا محمداً ولكم من الجعل كذا وكذا، وأخبروهم أني قـد جمعت جموعاً وأني راجع إليهم، فجاء التجار فأخبروا رسول الله ﷺ بذلك، فقال النبي ﷺ :

« حسبنا الله ونعم الوكيل » فأنزل الله هذه الآية .

وقوله تعالى: ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً﴾ الآية، أي الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء فما اكترثوا لذلك، بل توكلوا على الله واستعانوا به، ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾، وقال البخاري، عن ابن عباس: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ وفي رواية له: كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار:﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ . وعن أبي رافع أن النبي ﷺ وجه علياً في نفر معه في طلب أبي سفيان فلقيهم أعرابي من خزاعة فقال: إن القوم قد جمعوا لكم فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل فنزلت فيهم هذه الآية .

وفي الحديث: « إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل »[1] .وقد قال الإمام أحمد، عن عوف ابن مالك أنه حدثهم، أن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه لما أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال النبي ﷺ : « ردوا عليّ الرجل »، فقال: « ما قلت؟ »، قال: « قلت حسبي الله ونعم الوكيل »، فقال النبي ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل » .

قال تعالى: ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾ أي لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم، ورد عنهم بأس من أراد كيدهم فرجعوا إلى بلدهم: ﴿ بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾ مما أضمر لهم عدوهم، ﴿واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ . عن ابن عباس في قول الله: ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل﴾، قال (النعمة) أنهم سلموا، و(الفضل) أن عيراً مرت في أيام الموسم فاشتراها رسول الله ﷺ فربح فيها مالاً فقسمه بين أصحابه[2] ، وقال مجاهد في قول الله تعالى: ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ قال هذا أبو سفيان قال لمحمد ﷺ موعدكم بدر حيث قتلتم أصحابنا، فقال محمد ﷺ: « عسى » ، فانطلق رسول الله ﷺ لموعده حتى نزل بدراً فوافقوا السوق فيها فابتاعوا، فذلك قول الله عزّ وجل: ﴿ فانقلبوا بنعمة الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾ الآية، قال: وهي غزوة بدر الصغرى[3]

ثم قال تعالى : ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾ أي يخوفكم أولياءه ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة قال الله تعالى: ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ إذا سوّل لكم وأوهمكم فتوكلوا عليّ و الجأوا إليَّ، فإني كافيكم وناصركم عليهم، كما قال تعالى: ﴿ أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه﴾، وقال تعالى: ﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾، وقال تعالى: ﴿ أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾، وقال: ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾، وقال: ﴿ ولينصرن الله من ينصره﴾، وقال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ والآيات في ذلك كثيرة .

---

(١) رواه ابن مردويه وقال : حديث غريب من هذا الوجه . (٢) رواه البيهقي عن عكرمة عن ابن عباس .

(٣) أخرجه ابن جرير عن مجاهد .

وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى
مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ
يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ
مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ وذلك من شدة حرصه على الناس، كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق، فقال تعالى: ولا يحزنك ذلك ﴿إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة﴾ أي حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة ﴿ولهم عذاب عظيم﴾. ثم قال تعالى مخبراً عن ذلك إخباراً مقرراً: ﴿إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان﴾ أي استبدلوا هذا بهذا، ﴿لن يضروا الله شيئاً﴾ أي ولكن يضرون أنفسهم ﴿ولهم عذاب أليم﴾. ثم قال تعالى: ﴿ولا يحسبنَّ الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾، كقوله: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾، وكقوله: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾، وكقوله: ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ أي لا بد أن يعقد شيئاً من المحنة، يظهر فيه وليه ويفضح به عدوّه، يعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر، يعني بذلك (يوم أحد) الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ، وهتك به ستار المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد، وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾، قال مجاهد: ميز بينهم يوم أحد، وقال قتادة: ميز بينهم بالجهاد والهجرة، وقال السدي: قالوا: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا عمن يؤمن به منا ومن يكفر به فأنزل الله تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ أي حتى يخرج المؤمن من الكافر روى ذلك ابن جرير. ثم قال تعالى: ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ أي أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه حتى يميز لكم المؤمن من المنافق، لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك، ثم قال تعالى: ﴿ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾،

كقوله تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول﴾ الآية. ثم قال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسله﴾ أي أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم ، ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم، بل هو شر لهم﴾ أي لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه بل هو مضرة عليه في دينه، وربما كان في دنياه، ثم أخبر بمآل أمر ماله يوم القيامة فقال: ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾، قال رسول الله ﷺ : «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثّل له شجاعاً[1] أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، يأخذ بلهزمتيه - يعني بشدقيه - ثم يقول أنا مالك، أنا كنزك» ، ثم تلا هذه الآية: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم﴾[2] إلى آخر الآية.

(حديث آخر) : عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إن الذي لا يؤدي زكاة ماله يمثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان ثم يلزمه يطوقه يقول: أنا مالك، أنا كنزك»[3] .

(حديث آخر) : عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «ما من عبد لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له شجاع أقرع يتبعه يفر منه فيتبعه فيقول: أنا كنزك» ، ثم قرأ عبدالله مصداقه من كتاب الله: ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾[4] .

وقال العوفي، عن ابن عباس: نزلت في أهل الكتاب الذين بخلوا بما في أيديهم من الكتب المنزلة أن يبينوها، رواه ابن جرير، والصحيح الأول وإن دخل هذا في معناه، وقد يقال: إن هذا أولى بالدخول والله سبحانه وتعالى أعلم. وقوله تعالى: ﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾ أي ﴿فأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾، فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله عزّ وجلّ. فقدموا من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي بنياتكم وضمائركم .

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

(١) شُجاعاً وشِجاعاً : نوع من الحيات .
(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة .
(٣) رواه أحمد والنسائي .
(٤) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة .

قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾، قالت اليهود: يا محمد! افتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فأنزل الله: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ الآية؟ وقال محمد بن إسحاق، عن عكرمة أنه حدثه عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر الصدّيق بيت المدراس[1] فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له (فنحاص) وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقال له أشيع، فقال له أبو بكر: ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل. فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر رضي الله عنه فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدوّ الله فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب (فنحاص) إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ: «ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر؟» فقال: يا رسول الله إن عدو الله قال قولاً عظيماً، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه، فجحد فنحاص ذلك وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ الآية[2]. وقوله ﴿سنكتب ما قالوا﴾ تهديد ووعيد، ولهذا قرنه تعالى بقوله: ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ أي هذا قولهم في الله، وهذه معاملتهم رسل الله، وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء، ولهذا قال تعالى: ﴿ونقول ذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً.

وقوله تعالى: ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾، يقول تعالى تكذيباً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم، أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها، قاله ابن عباس والحسن وغيرهما، قال الله عزّ وجل: ﴿قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات﴾ أي بالحجج والبراهين، ﴿وبالذي قلتم﴾ أي وبنار تأكل القرابين المتقبلة، ﴿فلم قتلتموهم﴾؟ أي فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم، ﴿إن كنتم صادقين﴾ أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل، ثم قال تعالى مسلياً لنبيّه محمد ﷺ: «فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير﴾ أي لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل، الذين كذبوا مع ما جاءوا به من البينات، وهي الحجج والبراهين القاطعة ﴿والزبر﴾ وهي الكتب المتلقاة من السماء كالصحف المنزلة على المرسلين ﴿والكتاب المنير﴾ أي الواضح الجلي.

---

(١) المدراس: المعلم المدرّس.

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

يخبر تعالى إخباراً عاماً يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت كقوله تعالى: ﴿كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾، فهو تعالى وحده الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش وينفردالواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء فيكون آخراً كما كان أولاً، وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البرية، أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾. روى ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما توفي النبي ﷺ وجاءت التعزية، جاءهم آت يسمعون حسه ولا يرون شخصه، فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ﴿كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾ إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودركاً من كل فائت، فبالله ثقوا وإياه فارجو، فإن المصاب من حرم الثواب والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، قال جعفر بن محمد: فأخبرني أبي أن علي بن أبي طالب قال: أتدرون من هذا؟ هذا الخضر عليه السلام، وقوله: ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ أي من جنب النار ونجا منها وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرءوا إن شئتم: ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾[1]».

وقوله تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ تصغير لشأن الدنيا، وتحقير لأمرها، وأنها دنيئة فانية قليلة زائلة كما قال تعالى: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾، وقال: ﴿وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها، وما عند الله خير وأبقى﴾، وفي الحديث: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم ترجع إليه». وقال قتادة: هي متاع متروكة أوشكت - والله الذي لا إله إلا هو - أن تضمحل عن أهلها، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم ولا قوة إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم﴾، كقوله تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾ إلى آخر الآيتين، أي لا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله، ويبتلى المؤمن على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾، يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر، مسلياً لهم عما ينالهم

---

(١) رواه ابن أبي حاتم وأصله في الصحيحين.

من الأذى من أهل الكتاب والمشركين، وآمراً لهم بالصفح والصبر والعفو حتى يفرج الله، فقال تعالى: ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾، قال ابن أبي حاتم، عن أسامة بن زيد: كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال تعالى: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾، قال: وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم.

وعن عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد حدثه أن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة فدكية[1]، وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود (سعد بن عبادة) ببني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، حتى مر على مجلس فيه (عبد الله بن أبي ابن سلول) وذلك قبل أن يسلم ابن أبي، وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، وأهل الكتاب اليهود والمسلمين، وفي المجلس عبدالله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمّر عبدالله بن أُبي أنفه بردائه وقال: لا تغبروا علينا، فسلم رسول الله ﷺ ثم وقف، فنزل ودعاهم إلى الله عزّ وجلّ وقرأ عليهم القرآن، فقال عبدالله بن أُبي: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على (سعد بن عبادة) فقال له النبي ﷺ: «يا سعد ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب؟» يريد عبدالله بن أُبي، قال كذا وكذا، فقال سعد: يارسول الله اعف عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي نزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ[2].

وكان رسول الله ﷺ، وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى. قال الله تعالى: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردوكم من بعد إيمانكم كفاراً، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾ الآية. وكان النبي ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله له فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال عبدالله بن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام، فبايعوا وأسلموا، فكل من قام بحق أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر فلا بد أن يؤذى فما له دواء إلا الصبر في الله، والاستعانة بالله، والرجوع إلى الله.

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟

(١) قطيفة فَدَكية: كساء غليظ منسوب إلى فَدَك بلد على مرحلتين من المدينة.
(٢) رواه البخاري.

بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأن ينوهوا بذكره في الناس فيكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والحظ الدنيوي السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم، وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئاً، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار». وقوله تعالى: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بمـا أتوا ويحبون أن يحمدوا بمـا لم يفعلوا﴾ الآية، يعني بذلك المرائين المتكثرين بمـا لم يعطوا، كما جـاء في الصحيحين عن النبي ﷺ: «من ادعى دعوى كاذبـة ليتكثر بهـا لم يزده الله إلا قلة». وفي الصحيحين أيضاً: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور».

وقد روي أن مروان قـال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له: لئن كان كل امرئ منا فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بمـا لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعين!! فقال ابن عباس: ما لكم وهذه، إنمـا نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونـه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا بـه ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون * لا تحسبن الذين يفرحون بمـا أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ الآية، وقال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه وأخبروه بغيره فخرجوا قـد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بمـا أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه[1]. وفي رواية عن أبي سعيد الخدري: أن رجـالاً من المنـافقين في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فـإذا قـدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ الآية[2].

وقد روى ابن مردويه عن محمد بن ثابت الأنصاري أن (ثابت بن قيس الأنصاري) قال: يا رسول الله والله لقد خشيت أن أكون هلكت، قال: لِمَ؟ قال: نهى الله المرء أن يحب أن يحمد بمـا لم يفعل وأجدني أحب الحمد، ونهى الله عن الخيلاء وأجدني أحب الجمال، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا امرؤ جهير الصوت، فقال رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة» فقال: بلى، يا رسول الله، فعاش حميداً وقتل شهيداً يوم مسيلمة الكذاب. وقوله تعالى: ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾ أي لا تحسب

---

(١) رواه أحمد وأخرجه البخاري ومسلم والترمذي. (٢) أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري.

أنهم ناجون من العذاب، بل لا بد لهم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿ولهم عذاب أليم﴾، ثم قال تعالى: ﴿ولله ملك السموات والأرض، والله على كل شيء قدير﴾ أي هو مالك كل شيء، والقادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا غضبه ونقمته، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، القدير الذي لا أقدر منه.

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

معنى الآية ان الله تعالى يقول: ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ أي هذه في ارتفاعها واتساعها، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثوابت وبحار وجبال وقفار وأشجار ونبات وزروع وثمار وحيوان ومعادن، ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص، ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ أي تعاقبهما وتقارضهما الطول والقصر، فتارة يطول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيراً، ويقصر الذي كان طويلاً وكل ذلك تقدير العزيز العليم، ولهذا قال تعالى: ﴿لآيات لأولي الألباب﴾ أي العقول التامة الزكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون، الذين قال الله فيهم: ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾. ثم وصف تعالى أولي الألباب فقال: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾. كما ثبت في الصحيحين عن عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ قال: «صل قائماً، فان لم تستطع فقاعداً، فان لم تستطع فعلى جنبك» أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم، ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ أي يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته. وقال الداراني: إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله علي فيه نعمة ولي فيه عبره، وعن الحسن البصري أنه قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة، وقال: الحسن: الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: طوبى لمن كان قيله تذكرا، وصمته تفكراً، ونظره عبراً. وقال مغيث الأسود: زوروا القبور كل يوم تفكركم، وشاهدوا الموقف بقلوبكم، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة أو النار، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها، وكان يبكي عند ذلك حتى يرفع صريعاً من بين

أصحابه. وقال ابن المبارك: مرّ رجل براهب عند مقبرة ومزبلة فناداه فقال: يا راهب إن عندك كنزين من كنوز الدنيا لك فيهما معتبر: كنز الرجال، وكنز الأموال. وعن ابن عمر: أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين فيقول: أين أهلك؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾. وقال بعض الحكماء: من نظر إلى الدنيا بغير العبرة انطمس من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة. وقال بشر الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه، وعن عيسى عليه السلام أنه قال: يا ابن آدم الضعيف اتق الله حيث ما كنت، وكن في الدنيا ضعيفاً، واتخذ المساجد بيتاً، وعلم عينيك البكاء، وجسدك الصبر وقلبك الفكر، ولا تهتم برزق غد. وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه بكى يوماً بين أصحابه فسئل عن ذلك، فقال: فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها. ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر، إن فيها مواعظ لمن ادكر.

وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته فقال: ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾، ومدح عباده المؤمنين: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾، قائلين: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾ أي ما خلقت هذا الخلق عبثاً، بل بالحق لتجزي الذين أساءوا بما عملوا، وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل، فقالوا: ﴿سبحانك﴾ أي عن أن تخلق شيئاً باطلاً، ﴿فقنا عذاب النار﴾ أي يا من خلق الخلق بالحق والعدل؛ يا من هو منزه عن النقائص والعيب والعبث، قنا من عذاب النار بحولك وقوتك، ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم، وتجيرنا به من عذابك الأليم، ثم قالوا: ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ أي أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع، ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ أي يوم القيامة لا مجير لهم منك، ولا محيد لهم عما أردت بهم، ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ أي داعياً يدعو إلى الإيمان، وهو الرسول ﷺ، ﴿أن آمنوا بربكم فآمنا﴾ أي يقول آمنوا بربكم فآمنا أي فاستجبنا له واتبعناه أي بإيماننا واتباعنا نبيك، ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا﴾ أي استرها، ﴿وكفر عنا سيئاتنا﴾ فيما بيننا وبينك، ﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ أي ألحقنا بالصالحين، ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ قيل: معناه على الإيمان برسلك، وقيل: معناه على ألسنة رسلك، وهذا أظهر. ﴿ولا تخزنا يوم القيامة﴾ أي على رؤوس الخلائق، ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾ أي لا بد من الميعاد الذي أخبرت عنه رسلك وهو القيام يوم القيامة بين يديك.

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده فقال البخاري رحمه الله، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بت عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ الآيات، ثم قام فتوضأ واستن، ثم صلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح. وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة بعدما مضى ليل فنظر إلى السماء، وتلا هذه الآية: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ إلى آخر السورة، ثم قال: «اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وعن يميني

نوراً، وعن شمالي نوراً، ومن بين يدي نوراً، ومن خلفي نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً وأعظم لي نوراً يوم القيامة »(١) .

وعن عطاء قال: انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب، فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا، قال: قول الشاعر (زر غباً تزدد حباً)، فقال ابن عمر: ذرينا أخبرينا بأعجب ما رأيتيه من رسول الله ﷺ !؟ فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال « ذريني أتعبد لربي عزّ وجلّ »، قالت، فقلت: والله إني لأحب قربك، وإني أحب أن تعبد ربك، فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح ، قالت، فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال: « ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة: ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ » ، ثم قال: « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها »(٢) .

فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

يقول الله تعالى: ﴿ فاستجاب لهم ربهم ﴾ أي فأجابهم ربهم كما قال الشاعر :

وداعٍ دعا يا من يجيب إلى الندا فلم يستجبه عند ذاك مجيب

عن أم سلمة قالت: يا رسول الله، لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله تعالى: ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾ إلى آخر الآية، وقالت الأنصار: هي أول ظعينة قدمت علينا، ومعنى الآية أن المؤمنين ذوي الألباب لما سألوا ما سألوا مما تقدم ذكره فاستجاب لهم ربهم، عقب ذلك بفاء التعقيب، كما قال تعالى: ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ . وقوله تعالى: ﴿ أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾ هذا تفسير للاجابة أي قال لهم مخبراً أنه لا يضيع عمل عامل لديه، بل يوفي كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى، وقوله: ﴿ بعضكم من بعض ﴾ أي جميعكم في ثوابي سواء، ﴿ فالذين هاجروا ﴾ أي تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان، وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان والجيران، ﴿ وأخرجوا من ديارهم ﴾ أي ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجأوهم إلى الخروج من بين أظهرهم، ولهذا قال: ﴿ وأوذوا في سبيلي ﴾ أي إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده كما قال تعالى: ﴿ يخرجون

(١) رواه ابن مردويه عن ابن عباس .

(٢) رواه ابن مردويه وعبد بن حميد .

الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم﴾، وقال تعالى: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾، وقوله تعالى: ﴿وقاتلوا وقتلوا﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله فيعقر جواده ويعفر وجهه بدمه وترابه، وقد ثبت في الصحيحين أن رجلاً قال: يا رسول الله! أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، أيكفر الله عني خطاياي؟ قال: «نعم»، ثم قال: «كيف قلت»؟ فأعاد عليه ما قال، فقال: «نعم، إلا الدين قاله لي جبريل آنفاً»، ولهذا قال تعالى: ﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تجري في خلالها الأنهار من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وقوله: ﴿ثواباً من عند الله﴾ أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم، لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جزيلاً كثيراً كما قال الشاعر:

إن يعذب يكن غراماً وإن يعـ ـطِ جزيلاً فإنه لا يبالي

وقوله تعالى: ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ أي عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحاً.

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

ومعناه: لا تنظر إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور، فعما قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة، فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجاً، وجميع ما هم فيه ﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد﴾، وقال تعالى: ﴿متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾، وقال تعالى: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾، وقال تعالى: ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ أي قليلاً، وقال تعالى: ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾؟ وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا وذكر أن مآلهم إلى النار قال بعده: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار﴾. عن عبد الله بن عمرو قال: إنما سمّاهم الله الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء، كما أن لوالديك عليك حقاً، كذلك لولدك عليك حق. وعن أبي الدرداء أنه كان يقول: ما من مؤمن إلا والموت خير له، وما من كافر إلا والموت خير له، ومن لم يصدقني فإن الله يقول: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾، ويقول: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾[1].

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ

(١) أخرجه ابن جرير.

بِءَايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، ويؤمنون بما أنزل على محمد مع ما هم مؤمنون بـه من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله أي مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أي لا يكتمون مـا بأيديهم من البشارة بمحمد ﷺ، وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم سواء كانوا هوداً أو نصارى، وقـد قال تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم بـه يؤمنون﴾ الآية. وقـال تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون بـه﴾ الآية. وقد قال تعالى: ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾، وقال تعالى: ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾، وقال تعالى: ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾. وهذه الصفات توجد في اليهود ولكن قليلاً، كما وجد في (عبدالله بن سلام) وأمثـاله ممن آمن من أحبار اليهود ولم يبلغوا عشرة أنفس، وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقـادون للحق، كما قـال تعالى: ﴿ لتجدن أشد النـاس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجـدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قـالوا إنا نصارى﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ فأثابهم الله بمـا قالوا جنات تجري من تحتها الانهـار خـالدين فيها﴾ الآية. وهكذا قال ههنا: ﴿ أولئك لهم أجرهم عند ربهم﴾ الآية.

وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لمـا قرأ سورة ﴿ كهيعص﴾ بحضرة النجاشي ملك الحبشة وعنده البطاركة والقساوسة بكى وبكوا معـه حتى أخضبوا لحاهم، وثبت في الصحيحين أن النجاشي لمـا مات نعاه النبي ﷺ إلى أصحابه، وقال: « إن أخـاً لكم بالحبشة قـد مات فصلّوا عليه » فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه، وروى ابن أبي حاتم، عن أنس بن مالك قال: لمـا توفي النجاشي، قال رسول الله ﷺ: « استغفروا لأخيكم »، فقال بعض النـاس: يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة، فنزلت: ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله﴾ الآية. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿ وإن من أهـل الكتاب﴾ يعني مسلمة أهل الكتاب، وقـال عباد بن منصور: سألت الحسن البصري عن قول الله: ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ الآية، قال: هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ فاتبعوه وعرفوا الإسلام فـأعطـاهم الله تعالى أجر اثنين، للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ، واتباعهم محمداً ﷺ.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى قال، قال رسول الله ﷺ: « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين » فذكر منهم رجلاً من أهل الكتاب آمن بنبيّه وآمن بي، وقوله تعالى: ﴿ لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ أي لا يكتمون مـا بأيديهم من العلم كما فعلته الطـائفة المرذولة منهم بل يبذلون ذلك مجاناً، ولهذا قـال تعالى: ﴿ أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾ قال مجاهد: سريع الحساب يعني سريع الإحصاء.

وقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ قال الحسن البصري: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم وهو الإسلام، فلا يدعوه لسراء ولا لضراء ولا لشدة ولا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم، وكذلك قال غير واحد من علماء السلف، وأما المرابطة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات **وقيل:** انتظار الصلاة بعد الصلاة قاله ابن عباس ويشهد له حديث: « ألا أخبركم بما يمحو الله بـه الخطايا ويرفع بـه الدرجات !! إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط »[1]. وعن أبي سلمة بن عبدالرحمن قال: أقبل عليَّ أبو هريرة يوماً فقال: أتدري يا ابن أخي فيم نزلت هذه الآية؟ ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ قلت: لا، قال: أما إنه لم يكن في زمان النبي ﷺ غزو يرابطون فيه، ولكنها نزلت في قوم يعمرون المساجد ويصلون الصلاة في مواقيتها، ثم يذكرون الله فيها فعليهم أنزلت: ﴿ اصبروا ﴾ أي على الصلوات الخمس، ﴿ وصابروا ﴾ أنفسكم وهواكم، ﴿ ورابطوا ﴾ في مساجدكم، ﴿ واتقوا الله ﴾ فيما عليكم ﴿ لعلكم تفلحون ﴾.

وعن جابر بن عبدالله قال، قال رسول الله ﷺ: « ألا أدلكم على ما يمحو الله بـه الخطايا ويكفر بـه الذنوب؟ » قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: « إسباغ الوضوء في أماكنها وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط »[2]. **وقيل:** المراد بالمرابطة ههنا (مرابطة الغزو) في نحور العدو، وحفظ ثغور الإسلام، وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين وقد وردت الأخبار بالترغيب في ذلك وذكر كثرة الثواب فيه، فروى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ».

(حديث آخر): روى مسلم عن سلمان الفارسي عن رسول الله ﷺ أنه قال: « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان ».

(حديث آخر): قال ﷺ: « كل ميت يختم له على عمله إلا المرابط في سبيل الله يجري عليه عمله حتى يبعث ويأمن الفتان »[3].

(حديث آخر): عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: « من مات مرابطاً في سبيل الله أجري عليه عمله الصالح الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن من الفتان وبعثه الله يوم القيامة آمناً من الفزع الأكبر »[4].

(طريق أخرى): قال الإمام أحمد، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: « من مات مرابطاً وقي فتنة القبر وأمن من الفزع الأكبر وغدا عليه ريح برزقه من الجنة وكتب له أجر المرابط إلى يوم القيامة ».

(طريق أخرى: قال الترمذي، عن أبي صالح مولى عثمان بن عفان، قال: سمعت عثمان وهو على المنبر يقول

---

(١) رواه مسلم والنسائي.

(٢) أخرجه ابن مردويه والحاكم.

(٣) رواه الإمام أحمد عن عقبة بن عامر.

(٤) رواه ابن ماجة في سننه.

إني كتمتكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ كراهية تفرقكم عني ثم بدا لي أن أحدثكموه ليختار امرؤ لنفسه ما بدا له، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل ».

(**حديث آخر**) : قال الترمذي: مرّ سلمان الفارسي بشرحبيل بن السمط وهو في مرابطة له وقد شق عليه وعلى أصحابه فقال: ألا أحدثك يا ابن السمط بحديث سمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال: بلى، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « رباط يوم في سبيل الله أفضل – أو قال خير – من صيام شهر وقيامه، ومن مات فيه وقي فتنة القبر ونمي له عمله إلى يوم القيامة ».

(**حديث آخر**) : قال أبوداود: عن سهل بن الحنظلة أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين حتى كانت عشية، فحضرت الصلاة مع رسول الله ﷺ، فجاء رجل فارس فقال: يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشياههم، فتبسم النبي ﷺ وقال: « تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله »، ثم قال: « من يحرسنا الليلة »؟ قال أنَس بن أبي مرثد: أنا يا رسول الله، قال: « فاركب »، فركب فرساً، فجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: « استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه ولا تغز من قبلك الليلة »، فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين، فقال: « هل أحسستم فارسكم ؟ »، فقال رجل: يا رسول الله ما أحسسناه، فثوّب بالصلاة، فجعل النبي ﷺ وهو يصلي يلتفت إلى الشعب، حتى إذا قضى صلاته، قال: « أبشروا فقد جاءكم فارسكم »، فجعلنا ننظر في خلال الشجر في الشعب فإذا هو قد جاء، حتى وقف على النبي ﷺ فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب حيث أمرتني، فلما أصبحنا طلعت الشعبين كليهما، فنظرت فلم أر أحداً، فقال له رسول الله ﷺ: « هل نزلت الليلة ؟ » قال: لا، إلا مصلياً أو قاضي حاجة، فقال له: « أوجبتَ فلا عليك أن لا تعمل بعدها »[1].

(**حديث آخر**) : قال الإمام أحمد بسنده عن أبي ريحانة، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فأتينا ذات ليلة إلى شرف فبتنا عليه، فأصابنا برد شديد حتى رأيت من يحفر في الأرض يدخل فيها ويلقي عليه الحجفة (يعني الترس) فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ من الناس نادى: « من يحرسنا هذه الليلة فأدعو له بدعاء يكون له فيه فضل ؟ » فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، قال: « ادن »، فدنا منه، فقال: « من أنت » ؟ فتسمى له الأنصاري، ففتح رسول الله ﷺ بالدعاء فأكثر منه. قال أبو ريحانة: فلما سمعت ما دعا به قلت: أنا رجل آخر، فقال: « ادن »، فدنوت، فقال: « من أنت » ؟ قال، فقلت: أبو ريحانة، فدعا بدعاء دون ما دعا به للأنصاري، ثم قال: « حرمت النار على عين دمعت – أو بكت – من خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله »، وروى النسائي منه: « حرمت النار » إلى آخره.

(**حديث آخر**) : قال الترمذي، عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « عينان لا تَمَسُّهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله ».

(**حديث آخر**) : روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: « تعس عبد الدينار

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي في السنن.

وعبد الدرهم وعبد الخميصة[1]، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش[2]، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة[3]، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع». فهذا آخر ما تيسر إيراده من الأحاديث المتعلقة بهذا المقام، ولله الحمد على جزيل الأنعام، على تعاقب الأعوام والأيام.

تنبيه: قال ابن جرير: كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزلة شدة يجعل الله له بعدها فرجاً، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾. وروى الحافظ ابن عساكر عن محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة قال: أملى عليَّ عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس وأنشدها إلى (الفضيل بن عياض) في سنة سبعين ومائة:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي غبَّار خيل الله في ... أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

قال: فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه في المسجد الحرام، فلما قرأه ذرفت عيناه وقال: صدق أبو عبدالرحمن ونصحني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قال، قلت: نعم، قال: فاكتب هذا الحديث كراء حملك كتاب أبي عبدالرحمن إلينا، وأملى عليَّ الفضيل بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله علِّمني عملاً أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله، فقال: «هل تستطيع أن تصلي فلا تفتر، وتصوم فلا تفطر؟» فقال: يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبي ﷺ: «فوالذي نفسي بيده لو طُوِّقت ذلك ما بلغت المجاهدين في سبيل الله، أو ما علمت أن الفرس المجاهد ليستن في طوله فيكتب له بذلك الحسنات؟! وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله﴾ أي في جميع أموركم وأحوالكم، كما قال النبي ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»، ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي في الدنيا والآخرة.

انتهى تفسير سورة آل عمران، ولله الحمد والمنة، ونسأله الموت على الكتاب والسنّة آمين.

---

(١) الخميصة: الثوب المخطَّط. (٢) قوله (فلا انتقش) قال الحافظ في الفتح: أي إذا أصابته الشوكة فلا وجد من يخرجها منه بالمنقاش. (٣) قال ابن الجوزي: المعنى أنه خامل الذكر لا يقصد السمو والرفعة.

تفسير سورة آل عمران

هي مدنية؛ لأن صدرها[(١)] إلى ثلاث وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران، وكان قدومهم في سنة تسع من الهجرة، كما سيأتي بيان ذلك، إن شاء اللّه تعالى عند تفسير آية المباهلة منها، وقد ذكرنا ما ورد في فضلها مع سورة البقرة في أول تفسير [سورة][(٢)] البقرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤) ﴾.

وقد ذكرنا الحديث الوارد في أن اسم اللّه الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. و﴿الٓمٓ. اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ عند تفسير آية الكرسي، وتقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته، وتقدم أيضًا الكلام على قوله: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ في تفسير آية الكرسي.

وقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: نزل عليك القرآن يا محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: لا شك فيه ولا ريب، بل هو منزل من عند اللّه[عز وجل][(٣)]، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون، وكفى باللّه[(٤)] شهيداً.

وقوله: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد اللّه الأنبياء، فهي تصدّقه بما أخبرت به وبشرت في قديم الزمان، وهو يصدّقها؛ لأنه طابق ما أخبرت به وبشرت، من الوعد من اللّه بإرسال محمد ﷺ، وإنزال القرآن العظيم عليه.

وقوله : ﴿ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ ﴾ أي: على موسى بن عمران[عليه السلام][(٥)]، ﴿وَالإِنجِيلَ﴾ أي: على عيسى ابن مريم﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أي: في زمانهما ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والغي والرشاد، بما يذكره اللّه تعالى من الحجج والبينات، والدلائل الواضحات، والبراهين القاطعات، ويبينه ويوضحه ويفسره ويقرّره، ويرشد إليه وينبه عليه من ذلك.

وقال قتادة والربيع بن أنس: الفرقان ههنا القرآن. واختار ابن جرير أنه مصدر ههنا؛ لتقدّم ذكر

---

(١) في جـ: «صدورها»، وفي أ: «صورها». (٢) زيادة من أ. (٣) زيادة من جـ، ر.
(٤) في جـ، ر: «به». (٥) زيادة من جـ ، أ.

القرآن فى قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهو القرآن. وأما ما رواه ابن أبى حاتم عن أبى صالح أن المراد ههنا بالفرقان: التوراة فضعيف أيضاً؛لتقدم ذكرها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى: جحدوا بها وأنكروها، وردّوها بالباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أى: يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أى: منيع الجناب عظيم السلطان ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ أى: ممن كذب بآياته[١]، وخالف رسله الكرام، وأنبياءه العظام.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ۝ ٥ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ٦ ﴾.

يخبر تعالى أنه يعلم غيب السموات والأرض، [و][٢] لا يخفى عليه شىء من ذلك ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أى: يخلقكم كما يشاء فى الأرحام من ذكر وأنثى،[و][٣]حسن وقبيح، وشقى وسعيد ﴿لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى: هو الذى خلق،وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له،وله العزة التى لا ترام، والحكمة والأحكام.

وهذه الآية فيها تعريض بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق،كما خلق الله سائر البشر؛ لأن الله[تعالى][٤] صوّره فى الرحم وخلقه،كما يشاء،فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصارى ـ عليهم لعائن الله ـ وقد تقلب فى الأحشاء، وتنقل من حال إلى حال،كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦]؟

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُوْلُو الأَلْبَابِ ۝ ٧ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝ ٨ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝ ٩ ﴾.

يخبر تعالى أن فى القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، أى: بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد من الناس، ومنه آيات أخر فيها اشتباه فى الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم،فمن ردّ ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى. ومن عكس انعكس؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أى: أصله

(١) فى جـ، ر: «آياته». (٢) زيادة من جـ. (٣) زيادة من جـ، و.
(٤) زيادة من جـ.

الذى يرجع إليه عند الاشتباه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ أى: تحتمل[١] دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل[٢] شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب، لا من حيث المراد.

وقد اختلفوا فى المحكم والمتشابه، فروى عن السلف عبارات كثيرة، فقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس[أنه قال][٣]: المحكمات ناسخه، وحلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه، ومايؤمر[٤] به ويعمل به.

وكذا روى عن عكرمة، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، ومُقاتل بن حَيّان، والربيع بن أنس، والسُّدِّى أنهم قالوا: المحكم الذى يعمل به.

وعن ابن عباس أيضًا أنه قال: المحكمات[فى][٥] قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[الأنعام: ١٥١] والآيتان بعدها، وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٢٣] إلى ثلاث آيات بعدها. رواه ابن أبى حاتم، وحكاه عن سعيد بن جُبَيْر [ثم][٦] قال: حدثنا أبى، حدثنا سليمان بن حرب، حدّثنا حماد بن زيد، عن إسحاق بن سُوَيْد أن يحيى بن يَعْمَر وأبا فاختة تراجعا فى هذه الآية: ﴿هُنَّ[٧] أُمُّ الْكِتَابِ﴾، فقال أبو فاختة: فواتح السور. وقال يحيى بن يَعْمَر: الفرائض، والأمر والنهى، والحلال والحرام[٨].

وقال ابن لَهِيعَة، عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: أصل الكتاب، وإنما سماهن أم الكتاب؛ لأنهنّ مكتوبات فى جميع الكتب.

وقال مقاتل بن حيان: لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهنّ.

وقيل فى المتشابهات: إنهن المنسوخة، والمقدم منه والمؤخر، والأمثال فيه والأقسام، وما يؤمن به ولا يعمل به. رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس.

وقيل: هى الحروف المقطعة فى أوائل السور، قاله مقاتل بن حيان.

وعن مجاهد: المتشابهات يصدق بعضهن بعضاً. وهذا إنما هو فى تفسير قوله: ﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]. هناك ذكروا: أن المتشابه هو الكلام الذى يكون فى سياق واحد، والمثانى هو الكلام فى شيئين متقابلين كصفة الجنة وصفة النار، وذكر حال الأبرار ثم حال[٩] الفجار، ونحو ذلك. فأما هاهنا فالمتشابه هو الذى يقابل المحكم.

وأحسن ما قيل فيه الذى قدمناه، وهو الذى نص عليه محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه اللّه، حيث قال: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾: فيهن حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن[١٠] عليه.

قال: والمتشابهات فى الصدق، لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى اللّه فيهن العباد، كما ابتلاهم فى الحلال والحرام ألا[١١] يصرفن إلى الباطل، ولا يحرّفن عن الحق.

(١، ٢) فى أ، ر: «يحتمل». (٣) زيادة من جـ، ر، أ، و. (٤) فى جـ، ر: «يؤمن».
(٥) زيادة من جـ، ر. (٦) زيادة من أ، و. (٧) فى ر: «هى».
(٨) تفسير ابن أبى حاتم(٢/ ٥٥).
(٩) في و: «وحال». (١٠) فى أ: «وصفن». (١١) فى جـ: «لا».

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ أى : ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ أى : إنما يأخذون منه بالمتشابه الذى يمكنهم أن يحرّفوه إلى مقاصدهم الفاسدة ، وينزلوه عليها ، لاحتمال لفظه لما يصرفونه[١] ، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه ؛ لأنه دامغ لهم وحجة عليهم ، ولهذا قال : ﴿ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾ أى : الإضلال لأتباعهم ، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن ، وهذا حجة عليهم لا لهم ، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو روح اللَّه وكلمته ألقاها إلى مريم ، وتركوا الاحتجاج بقوله[تعالى][٢] : ﴿ إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾[الزخرف : ٥٩] ، وبقوله : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[آل عمران : ٥٩] وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات اللَّه ، وعبد ، ورسول من رسل اللَّه .

وقوله : ﴿ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ أى : تحريفه على ما يريدون[٣] . وقال مقاتل والسدى : يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من[٤] القرآن .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب عن عبد اللَّه بن أبى مُلَيْكَة ، عن عائشة قالت : قرأ رسول اللَّه ﷺ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ [فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ][٥] ﴾ إلى قوله : ﴿ أُوْلُو الأَلْبَابِ ﴾ فقال : «فإذا رأيتم الذين يُجَادلُون فيه فهم الذين عَنَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ[٦]» .

هكذا وقع هذا الحديث فى مسند الإمام أحمد ، رحمه الله ، من رواية ابن أبى مُلَيْكَة ، عن عائشة ، ليس بينهما أحد .

وهكذا رواه ابن ماجة من طريق إسماعيل بن عُلَيَّة وعبد الوهاب الثقفى ، كلاهما عن أيوب ، عن عبد الله بن عبيد الله بن أبى مليكة ، عنها[٧] .

ورواه محمد بن يحيى العبدى فى مسنده عن عبد الوهاب الثقفى ، عن أيوب ، به . وكذا رواه عبد الرزاق ، عن مَعْمَر[٨] ، عن أيوب . وكذا رواه غير واحد عن أيوب . وقد رواه ابن حبان فى صحيحه ، من حديث أيوب ، به .

وتابع أيوب أبو عامر الخزاز[٩] وغيره عن ابن أبى مليكة ، فرواه الترمذى عن بُنْدار ، عن أبى داود الطيالسى ، عن أبى عامر الخزاز ، فذكره . وهكذا رواه سعيد بن منصور فى سننه ، عن حماد بن يحيى الأَبَحّ ، عن عبد اللَّه بن أبى مليكة ، عن عائشة . ورواه ابن جرير ، من حديث روح بن القاسم ونافع بن عمر الجُمَحىّ ، كلاهما عن ابن أبى مليكة ، عن عائشة ، به . وقال نافع فى روايته عن ابن أبى مليكة : حدثتنى عائشةَ ، فذكره[١٠] .

---

(١) فى جـ : «تصرفونه» . (٢) زيادة من جـ ، ر . (٣) فى أ : «يريدونه» .
(٤) فى جـ ، ر ، أ : «فى» . (٥) زيادة من جـ ، ر ، أ ، و . (٦) فى أ : «فاحذرهم» .
(٧) المسند (٦/ ٤٨) وابن ماجة فى السنن برقم(٤٧) .
(٨) فى ر : «يعمر» . (٩) فى هـ ، جـ ، ر ، أ : «الخراز» .
(١٠) عبد الرزاق فى تفسيره برقم (٣٧٦) وابن حبان فى صحيحه(١/ ٤٧)«الإحسان» والترمذى فى السنن برقم (٢٩٩٣) وسعيد بن منصور فى السنن برقم (٤٩٢) وابن جرير فى تفسيره(٦/ ١٩١) .

وقد روى هذا الحديث البخارى، رحمه الله، عند تفسير هذه الآية، ومسلم فى كتاب القدر من صحيحه، وأبو داود فى السنة من سننه، ثلاثتهم ،عن القَعْنَبىِّ، عن يزيد بن إبراهيم التُّسْتَرىّ، عن ابن أبى مليكة، عن القاسم بن محمد، عن عائشة، رضى اللّه عنها، قالت: تلا رسول اللّه ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ[هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ][1]﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ قالت: قال رسول اللّه ﷺ: «فإذا رأيتَ الذين يتَّبعُون ما تشابه منه فأولئك الذين سَمَّى اللّهُ فَاحْذَرُوهُمْ» لفظ البخارى[2].

وكذا رواه الترمذى أيضاً، عن بندار، عن أبى داود الطيالسى، عن يزيد بن إبراهيم التسترى، به. وقال: حسن صحيح. وذكر أن يزيد بن إبراهيم التسترى تفرد بذكر القاسم فى هذا الإسناد، وقد رواه غير واحد عن ابن أبى مليكة، عن عائشة،ولم يذكروا القاسم. كذا قال[3].

ورواه ابن المنذر فى تفسيره من طريقين عن النعمان بن محمد بن الفضل السَّدُوسِىّ - ولقبه عارم- حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن ابن أبى مليكة، عن عائشة، به[4].

وقد رواه ابن أبى حاتم فقال: حدثنا أبى، حدثنا أبو الوليد الطيالسى، حدثنا يزيد بن إبراهيم التسترى وحمّاد بن سلمة، عن ابن أبى مليكة، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: سئل رسول اللّه ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾، فقال رسول اللّه ﷺ: «إذا رأيتم الذين يَتَّبِعُونَ ما تشابه منهُ فأولئك الذين سَمَّى اللّهُ ، فَاحْذَرُوهُمْ»[5].

وقال ابن جرير: حدثنا على بن سهل حدثنا الوليد[6] بن مسلم، عن حماد بن سلمة، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة قالت: نزع رسول اللّه ﷺ بهذه الآية: ﴿يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ فقال رسول اللّه ﷺ: «قد حَذَّرَكُمُ اللّهُ، فإذا رأيتُموهم فَاعرِفُوهُمْ».

ورواه ابن مَرْدُويه من طريق أخرى، عن القاسم، عن عائشة، به[7].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد، عن أبى غالب قال: سمعت أبا أمامة يحدث، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ قال: «هم الخوارج»، وفى قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[آل عمران: ١٠٦] قال: «هم الخوارج».

وقد رواه ابن مردويه من غير وجه، عن أبى غالب، عن أبى أمامة مرفوعا، فذكره[8].

---

(١) زيادة من جـ ، ر، أ، و.

(٢) البخارى فى صحيحه برقم(٤٥٤٧) ومسلم برقم(٢٦٦٥) وأبو داود فى السنن برقم(٤٥٩٨).

(٣) سنن الترمذى برقم(٢٩٩٣، ٢٩٩٤).

(٤) تفسير ابن المنذر كما فى الدر(٢/ ١٤٨) ورواه البيهقى فى دلائل النبوة(٦/ ٥٤٦) من طريق حماد بن زيد ، به.

(٥) تفسير ابن أبى حاتم(٢/ ٦٤)، ومسند الطيالسى برقم(١٤٣٣).

(٦) فى أ: «أبو الوليد» .

(٧) تفسير الطبرى(٦/ ١٩٢)، ورواه الآجرى فى الشريعة(ص٣٣٢).

(٨) أحمد فى المسند(٥/ ٢٦٢) ورواه الطبرانى فى الكبير(٨/ ٣٢٥) وابن أبى حاتم فى تفسيره(٢/ ٦٠) من طريق أبى غالب به.

وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابى، ومعناه صحيح؛ فإن أوّل بدعة وقعت فى الإسلام فتنة الخوارج، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم رسول الله (١) ﷺ غنائم حُنَيْن، فكأنهم رأوا فى عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل فى القسمة، ففاجؤوه بهذه المقالة، فقال قائلهم - وهو ذو الخُوَيْصرة - بقر الله خاصرته -: اعدل فإنك لم تعدل، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد خبْتُ وخسرْتُ إنْ لَمْ أكن أعدل، أيأمَنُنى على أهل الأرض ولا تأمَنونى». فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب - وفى رواية: خالد بن الوليد - [ولا بُعد فى الجمع] (٢) - رسول الله فى قتله، فقال: «دَعْهُ فإنه يخرج من ضِئْضِئ هذا - أى: من جنسه - قوم يَحْقِرُ أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يَمْرُقُونَ من الدين كما يَمْرُقُ السهمَ من الرَّمِيَّة، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن فى قتلهم أجرًا (٣) لمن قتلهم».

ثم كان ظهورهم أيام على بن أبى طالب، وقتلهم (٤) بالنَّهْروان، ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحَلٌ كثيرة منتشرة، ثم نَبَعَت القَدَرِيّة، ثم المعتزلة، ثم الجَهْمِيَّة، وغير ذلك من البدع التى أخبر عنها الصادقَ المصدوق فى قوله: «وستفترق هذه الأمّة على ثلاث وسبعين فرْقَةً، كلها فى النار إلا واحدة» قالوا: [من] (٥) هم يا رسول الله؟ قال: «من كان على ما أنا عليه وأصحابى». أخرجه الحاكم فى مستدركه بهذه الزيادة (٦).

وقال الحافظ أبو يَعْلَى: حدثنا أبو موسى، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا المعتمر، عن أبيه، عن قتادة، عن الحسن عن جندب بن عبد الله أنه بلغه، عن حذيفة - أو سمعه منه - يحدّث عن رسول الله ﷺ أنه ذكر: «إن فى أمّتى قوماً يقرؤون القرآن يَنْثُرُونَه نَثْر الدَّقَل، يَتَأَوَّلُونَهُ على غير تأويله». [لم] (٧) يخرجوه (٨).

[وقوله] (٩): ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾: اختلف القراء فى الوقف ههنا، فقيل: على الجلالة، كما تقدم عن ابن عباس أنه قال: التفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لا يعذر أحد فى فهمه، وتفسير تعرفه (١٠) العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون فى العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل. ويروى هذا القول عن عائشة، وعروة، وأبى الشعثاء، وأبى نَهيك، وغيرهم.

وقد قال الحافظ أبو القاسم فى المعجم الكبير: حدثنا هاشم بن مرثد (١١)، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثنى أبى، حدثنى ضَمْضَم بن زُرْعَة، عن شُرَيْح بن عبيد، عن أبى مالك الأشعرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا أخاف على أمّتى إلا ثلاث خلال: أن يكثر لهم المال

---

(١) فى و: «النبى». (٢) زيادة من جـ، ر. (٣) فى ر: «أجرٌ» وهو خطأ.
(٤) فى جـ، ر: «فقتلهم». (٥) فى جـ، ر: «ومن».
(٦) المستدرك (١/ ٢٨) من حديث عبد الله بن عمرو، والزيادة هى قوله: «كلها فى النار إلا واحدة»، وقد ضعفها ابن الوزير ونسبه إلى ابن حزم، وللشيخ ناصر الألبانى بحث أثبت فيه صحة هذه الزيادة فليراجع السلسلة الصحيحة برقم (٢٠٤).
(٧) فى جـ: «ولم».
(٨) وذكره الحافظ ابن حجر فى المطالب العالية (٣/ ٣٠٠) وعزاه لأبى يعلى، لكنه ذكره من حديث عائشة.
(٩) زيادة من و. (١٠) فى ر: «يعرفه». (١١) فى هـ، جـ، ر، أ: «مزيد».

فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب[١] فيأخذه[٢] المؤمن يبتغى تأويله، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ [كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ][٣]﴾ الآية، وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يبالون عليه» غريب جداً[٤]. وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، أخبرنا أحمد بن عمرو، أخبرنا هشام بن عمار، أخبرنا ابن أبى حاتم[٥]، عن أبيه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن ابن العاص، عن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به»[٦].

وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: كان ابن عباس يقرأ: «وما يعلم تأويله إلا الله، ويقول الراسخون: آمنا به»[٧]. وكذا رواه ابن جرير، عن عمر بن عبد العزيز، ومالك بن أنس: أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله. وحكى ابن جرير أن فى قراءة عبد اللَّه بن مسعود: «إن تأويله إلا عند اللَّه والراسخون فى العلم يقولون آمنا به». وكذا عن أبى بن كعب. واختار ابن جرير هذا القول.

ومنهم من يقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد.

وقد روى ابن أبى نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله. وقال ابن أبى نجيح، عن مجاهد: والراسخون فى العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به. وكذا قال الربيع بن أنس.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ الذى أراد ما أراد ﴿إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ ثم ردوا تأويل المتشابه على ما عرفوا من تأويل المُحْكَمَة التى لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فاتسق بقولهم الكتاب، وصدق بعضه[٨] بعضاً، فنفذت الحجة، وظهر به العذر، وزاح به الباطل، ودفع به الكفر.

وفى الحديث أن رسول اللَّه ﷺ دعا لابن عباس فقال: «اللهم فَقِّهْهُ فى الدين وعلمه التأويل».

ومن العلماء من فصل فى هذا المقام، فقال: التأويل يطلق ويراد به فى القرآن معنيان، أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشىء، وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقوله[٩]: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] أى: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد

(١) فى ر، أ: «الكتب» وفى و: «تفتح لهم الكتب». (٢) فى جـ: «ليأخذ». (٣) زيادة من أ، و.
(٤) الطبرانى فى الكبير(٣/ ٢٩٢) وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/ ١٢٨): «فيه محمد بن إسماعيل بن عياش عن أبيه ولم يسمع من أبيه».
(٥) فى جـ، ر، أ، و: «حازم».
(٦) ورواه ابن الضريس فى فضائل القرآن، وابن سعد فى الطبقات الكبرى(٤/ ١/ ١٩٧) وإسناده حسن.
(٧) عبد الرزاق فى تفسيره برقم(٣٧٧) .
(٨) فى جـ: «بعضهم». (٩) فى أ: «وقال».

بالتأويل هذا، فالوقف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا اللَّه عز وجل، ويكون قوله : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ مبتدأ و﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ خبره . وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر[١] وهو التفسير والتعبير والبيان عن الشيء كقوله تعالى : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾[يوسف : ٣٦] أي : بتفسيره ، فإن أريد به هذا المعنى، فالوقف على : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هى عليه، وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ حالا[٢] منهم، وساغ هذا، وهو أن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه، كقوله : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾إلى قوله : ﴿ [وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ][٣] يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا[الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ][٤] ﴾ الآية[الحشر : ٨-١٠]، وكقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[الفجر : ٢٢] أى : وجاءت الملائكة صفوفاً صفوفاً .

وقوله إخباراً عنهم أنهم﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ أى : بالمتشابه﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ أى : الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له؛ لأن الجميع من عند اللَّه وليس شيء من عند اللَّه بمختلف ولا متضاد لقوله : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾[النساء : ٨٢] ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ أى : إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعانى على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عوف الحِمْصِىّ، حدثنا نُعَيْم بن حماد، حدثنا فياض الرَّقّىّ، حدّثنا عبد الله[٥] بن يزيد - وكان قد أدرك أصحاب النبى ﷺ : أنساً، وأبا أمامة، وأبا الدرداء، رضى الله عنهم، قال : حدثنا أبو الدرداء، أن رسول اللَّه ﷺ سئل عن الراسخين فى العلم، فقال : «من بَرَّت يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، ومن أعَفّ[٦] بطنه وفرجه، فذلك من الراسخين فى العلم»[٧] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن الزهرى، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال : سمع رسول اللَّه ﷺ قوماً يتدارؤون فقال : «إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب اللَّه بعضه ببعض، وإنما أنزل[٨] كتاب اللَّه ليصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فَكِلُوهُ إلى عَالمه»[٩] .

---

(١) فى أ : «الأخير» . (٢) فى ر : «حال» وهو خطأ . (٣، ٤) زيادة من أ، و .
(٥) فى و : «عبيد الله» . (٦) فى أ، و : «عف» .
(٧) تفسير ابن أبى حاتم(٢/ ٧٢) ورواه الطبرى(٦/ ٢٠٧) والطبرانى فى الكبير كما فى الدر(٢/ ١٥١) من طريق عبد الله بن يزيد به . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ٣٢٤) : «عبد الله بن يزيد ضعيف» .
(٨) فى جـ، ر، أ، و : «نزل» .
(٩) المسند (٢/ ١٨٥) ورواه ابن ماجة برقم(٨٥) والبغوى فى شرح السنة(١/ ٢٦٠) من طريق عمرو بن شعيب به . وقال البوصيرى فى «زوائد ابن ماجة» (١/ ٥٨) : «إسناده صحيح ورجاله ثقات» .

و[قد][١] تقدم رواية ابن مردويه لهذا الحديث، من طريق هشام بن عمار، عن ابن أبى حازم[٢]، عن أبيه، عن عمرو بن شعيب، به.

وقد قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن على بن المثنى الموصلى فى مسنده، حدثنا زهير بن حرب، حدثنا أنس بن عياض، عن أبى حازم، عن أبى سلمة قال: لا أعلمه إلا عن أبى هريرة، أن[٣] رسول اللّه ﷺ قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، والمِرَاءُ فى القرآن كفر ـ ثلاثاً ـ ما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه».

وهذا إسناد صحيح، ولكن فيه علة بسبب قول الراوى: «لا أعلمه إلا عن أبى هريرة»[٤].

وقال ابن المنذر فى تفسيره: أخبرنا محمد بن عبد اللّه بن عبد الحكم، أخبرنا ابن وهب قال: أخبرنى نافع بن يزيد قال: يقال: الراسخون فى العلم المتواضعون للّه، المتذللون للّه فى مرضاته، لا يتعاطون[٥] من فوقهم، ولا يحقرون من دونهم. [ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ﴾ أى: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعانى على وجهها أولو العقول السليمة أو الفهوم المستقيمة][٦].

ثم قال تعالى عنهم مخبراً أنهم[٧] دعوا ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أى: لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه ولا تجعلنا كالذين فى قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ﴾ أى: من عندك ﴿رَحْمَةً﴾ تثبت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا عمرو بن عبد اللّه الأَوْدى ـ وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب ـ قالا جميعاً: حدثنا وكِيع، عن عبد الحميد بن بَهْرام، عن شَهر بن حَوْشَب، عن أم سلمة، رضى الله عنها، أن النبى ﷺ كان يقول: «يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبى على دينك»، ثم قرأ: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾. ورواه ابن مردويه من طريق محمد بن بكّار، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن أم سلمة، وهى[٨] أسماء بنت يزيد[٩] ابن السكن، سمعها تحدّث أن رسول اللّه ﷺ كان يكثر فى دعائه: «اللهم مقلب القلوب، ثبت قلبى على دينك» قالت: قلت: يا رسول اللّه، وإن القلب ليتقلب[١٠]؟ قال: «نعم، ما خلق اللّه من بنى آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع اللّه عز وجل، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه». فنسأل اللّه ربنا ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب.

وهكذا رواه ابن جرير من حديث أسد بن موسى، عن عبد الحميد بن بهرام، به مثله. ورواه أيضاً عن المثنى، عن الحجاج بن مِنْهَال، عن عبد الحميد بن بهرام، به مثله، وزاد: «قلت[١١]: يا رسول اللّه،

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى جـ، ر، أ: «حاتم». (٣) فى أ: «فإن».

(٤) أبو يعلى فى المسند برقم(٦٠١٦) ومن طريقه رواه ابن حبان فى صحيحه(١/١٤٦)«الإحسان» ورواه أحمد فى المسند(٢/٣٠٠) والنسائى فى الكبرى(٥/٣٣) من طريق أنس بن عياض به. وليس فى رواية النسائى الشك «لا أعلمه».

(٥) فى جـ، أ: «يتعاظمون». (٦) زيادة من جـ، ر، أ. (٧) فى جـ، ر: «عنهم».

(٨) فى و: «عن». (٩) فى أ: «زيد». (١٠) فى و: «ليقلب».

(١١) فى أ، و: «وزاد: «قالت: قلت».

ألا تعلمنى دعوة أدعو بها لنفسى؟ قال: « بلى، قولى : اللهم رب النبى محمد، اغفر لى ذنبى، وأذهب غَيْظ قلبى، وأجرنى من مُضلات الفتن»(١) .

ثم قال ابن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن هارون بن بكار الدمشقى، أخبرنا العباس بن الوليد الخلال، أخبرنا يزيد بن يحيى بن عبيد الله، أخبرنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبى حسان الأعرج(٢)، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبى على دينك»، قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء. فقال: «ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه، أما تسمعين قوله: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾»(٣) .

غريب من هذا الوجه، ولكن أصله ثابت فى الصحيحين، وغيرهما من طرق كثيرة بدون زيادة ذكر هذه الآية الكريمة.

وقد روى أبو داود والنسائى وابن مردويه، من حديث أبى عبد الرحمن المقرى ـ زاد النسائى وابن حبان: وعبد الله بن وهب، كلاهما عن سعيد بن أبى أيوب، حدّثنى عبد الله بن الوليد التُّجيبى، عن سعيد بن المسيب، عن عائشة، رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل قال: «لا إله إلا أنت سبحانك، اللهم إنى أستغفرك لذنبى، وأسألك رحمة، اللهم زدنى علماً، ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب» لفظ ابن مردويه(٤) .

وقال عبد الرزاق، عن مالك، عن أبى عبيد ـ مولى سليمان بن عبد الملك ـ عن عبادة بن نُسَىّ، أنه أخبره، أنه سمع قيس بن الحارث يقول: أخبرنى أبو عبد الله الصُّنابحى، أنه صلى وراء أبى بكر الصديق المغرب، فقرأ أبو بكر فى الركعتين الأوليين(٥) بأم القرآن وسورتين من قصار المفصل، وقرأ فى الركعة الثالثة، قال: فدنوت منه حتى إن ثيابى لتكاد تمس ثيابه، فسمعته يقرأ(٦) بأم القرآن وهذه الآية: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا [وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ](٧)﴾(٨) .

قال أبو عبيد: وأخبرنى عُبَادة بن نُسَىّ: أنه كان عند عمر بن عبد العزيز فى خلافته، فقال عمر لقيس: كيف أخبرتنى عن أبى عبد الله الصنابحى فأخبره بما سمع أبا عبد الله ثانيا. قال عمر: فما تركناها منذ سمعناها منه، وإن كنت(٩) قبل ذلك لَعَلَى غير ذلك. فقال له رجل: على أى شىء كان

(١) ابن أبى حاتم فى تفسيره(٢/ ٨٤) والطبرى فى تفسيره(٦/ ٢١٣) ورواه أحمد فى المسند(٦/ ٣١٥) والترمذى فى السنن(٣٥٢٢) وابن أبى عاصم فى السنة برقم(٢٢٣) من طريق أبى كعب صاحب الحرير عن شهر بن حوشب به.
وللحديث شواهد عن عائشة وأنس وجابر والنواس بن سمعان رضى الله عنهم.
(٢) فى هـ، جـ، ر، أ: «عن حسان الأعرج».
(٣) وفى إسناده سعيد بن بشير وهو ضعيف، وقد تفرد بزيادة هذه الآية، وقد رواه أحمد فى المسند(٦/ ٢٥١) من طريق حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أم محمد عن عائشة به، وليس فيه زيادة هذه الآية.
(٤) أبو داود فى السنن برقم(٥٠٦١) والنسائى فى الكبرى برقم(١٠٧٠١).
(٥) فى ر: «الأولتين». (٦) فى و: «يقرأ أى فى الثالثة». (٧) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».
(٨) رواه مالك فى الموطأ(١/ ٧٩). (٩) فى أ: «كعب».

أمير المؤمنين قبل ذلك؟ قال: كنت أقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

وقد روى هذا الأثر الوليد بن مسلم، عن مالك والأوزاعى، كلاهما عن أبى عبيد، به. ورواه الوليد أيضاً، عن ابن جابر، عن يحيى بن يحيى الغسانى، عن محمود بن لبيد، عن الصُّنَابحى: أنه صلى خلف أبى بكر، رضى الله عنه، المغرب فقرأ فى الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة قصيرة، يجهر بالقراءة، فلما قام إلى الثالثة ابتدأ القراءة فدنوت منه حتى إن ثيابى لتمس ثيابه، فقرأ هذه الآية: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا [بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ][١]﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أى: يقولون فى دعائهم: إنك ـ يا ربنا ـ ستجمع بين خلقك يوم معادهم، وتفصل بينهم وتحكم فيهم[٢] فيما اختلفوا فيه، وتجزى كلا بعمله، وما كان عليه فى الدنيا من خير وشر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١)﴾.

يخبر تعالى عن الكفار أنهم وقود النار، ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[غافر: ٥٢]، وليس ما أوتوه فى الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند اللَّه، ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه، بل كما قال تعالى: ﴿وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[التوبة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿لا[٣] يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[آل عمران: ١٩٦، ١٩٧] كما قال ههنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: بآيات اللَّه وكذبوا رسله، وخالفوا كتابه، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ أى: حطبها الذى تسجر به وتوقد به، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ [أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ][٤]﴾[الأنبياء: ٩٨].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى مريم، أخبرنا ابن لَهِيعة، أخبرنى ابن الهاد، عن هند بنت الحارث، عن أم الفضل أم عبد اللَّه بن عباس قالت: بينما نحن بمكة قام رسول اللَّه ﷺ من الليل، فقال[٥]: «هل بلغت، اللهم هل بلغت. . . » ثلاثاً، فقام عمر بن الخطاب فقال: نعم. ثم أصبح فقال النبى ﷺ: «ليظهرن الإسلام حتى يردّ الكفر إلى مواطنه، ولَتَخُوضُنَّ[٦] البحار بالإسلام، وليأتين على الناس زمان يتعلمون القرآن ويقرؤونه، ثم يقولون: قد قرأنا وعلمنا، فمن هذا الذى هو خير منا، فهل فى أولئك من خير؟» قالوا: يا رسول اللَّه، فمن أولئك؟ قال: «أولئك منكم[٧] وأولئك هم

---

(١) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».
(٢) فى أ، و: «بينهم».
(٣) فى جـ، ر: «ولا» وهو خطأ.
(٤) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».
(٥) فى أ، و: «فنادى».
(٦) فى أ: «وليخوضن».
(٧) فى جـ، أ، و: «منهم».

وقود النار» . وكذا رأيته بهذا اللفظ .

وقد رواه ابن مردويه من حديث يزيد بن عبد اللّه بن الهاد، عن هند بنت الحارث، امرأة عبد اللّه بن شداد، عن أم الفضل؛ أن رسول اللّه ﷺ قام ليلة بمكة فقال: «هل بلغت» يقولها ثلاثا، فقام عمر بن الخطاب - وكان أوّاها - فقال: اللهم نعم، وحرصتَ وجهدتَ ونصحتَ فاصبر. فقال النبي ﷺ: «ليظهرن الإيمان حتى يردّ الكفر إلى مواطنه، وليخوضنّ رجال البحار بالإسلام[1] ، وليأتين على الناس زمان يقرؤون القرآن، فيقرؤونه ويعلمونه، فيقولون: قد قرأنا، وقد علمنا، فمن هذا الذى هو خير منا؟ فما فى أولئك من خير» قالوا: يا رسول اللّه، فمن أولئك؟ قال: «أولئك منكم، وأولئك هم وقود النار»[2] ثم رواه من طريق موسى بن عبيد، عن محمد بن إبراهيم، عن بنت الهاد، عن العباس بن عبد المطلب بنحوه.

وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: كصنيع آل فرعون. وكذا روى عن عكرمة، ومجاهد، وأبى مالك، والضحاك، وغير واحد، ومنهم من يقول: كسنة آل فرعون، وكفعل آل فرعون وكشبه[3] آل فرعون، والألفاظ متقاربة. والدأب - بالتسكين، والتحريك أيضاً كنَهْر ونَهَر -: هو الصنع[4] والشأن والحال والأمر والعادة، كما يقال: لا يزال هذا دأبى ودأبك، وقال امرؤ القيس:

وقـــوفاً بها صحبى على مطيــهم يقولون: لا تهلك[5] أسى وتجمــل[6]

كـدأبك مـن أم الحـــويرث[7] قبلها وجـارتهـا أم الـرباب بمأســل[8]

والمعنى: كعادتك فى أم الحويرث حين أهلكت نفسك فى حبها وبكيت دارها ورسمها.

والمعنى فى الآية: أن الكافرين لا تغنى[9] عنهم الأولاد ولا الأموال، بل يهلكون ويعذبون، كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسل[10] فيما جاؤوا[11] به من آيات اللّه وحججه.

﴿[كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ][12] وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: شديد الأخذ أليم العذاب، لا يمتنع منه أحد، ولا يفوته شىء بل هو الفعال لما يريد، الذى[قد][13] غلب كل شىء وذل له كل شىء، لا إله غيره ولا رب سواه.

---

(١) فى جـ: «بإسلامهم».

(٢) تفسير ابن أبى حاتم(٢/ ٩٠)وفيه ابن لهيعة، وقد توبع، تابعه عبد العزيز بن أبى حازم عن يزيد بن الهاد به.
أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير(١٢/ ٢٥٠) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد: (١/ ١٨٦) «رجاله ثقات، إلا أن هند بنت الحارث الخثعمية التابعية لم أر من وثقها ولا من جرحها».

(٣) فى أ، و: «وكشبيه». (٤) فى جـ، ر، أ، و: «الصنيع». (٥) فى جـ، ر، أ، و: «تأسف».

(٦) فى جـ، ر، أ: «تحملى»، وفى و: «تحمل». (٧) فى أ: «الحويرة».

(٨) البيت فى تفسير الطبرى(٦/ ٢٢٥) وديوان امرئ القيس(١٢٥)، والبيت من معلقته المشهورة.

(٩) فى ر، أ: «يغنى». (١٠) فى جـ، ر: «بالرسل». (١١) فى جـ، ر، أ، و: «جاؤوهم».

(١٢) زيادة من جـ، ر، أ، و. (١٣) زيادة من أ، و.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) ﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد للكافرين: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ أي: في الدنيا، ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن[1] يسار، عن عاصم بن عمر بن قتادة؛ أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قَيْنُقَاع وقال: «يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم الله ما[2] أصاب قريشاً». فقالوا: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك والله لو[3] قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا؟ فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ إلى قوله: ﴿لَعِبْرَةً[4] لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[5] .

وقد رواه ابن إسحاق أيضاً، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس فذكره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي: قد كان لكم - أيها اليهود القائلون ما قلتم - ﴿آيَةٌ﴾ أي: دلالة على أن الله معز دينه، وناصر رسوله، ومظهر كلمته، ومعل أمره ﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾ أي: طائفتين ﴿الْتَقَتَا﴾ أي: للقتال ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المسلمون، ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر.

وقوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ قال بعض العلماء - فيما حكاه ابن جرير: يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم في العدد رأى أعينهم، أي: جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم. وهذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة، وهي أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذ قبل القتال يحزر[6] لهم المسلمين، فأخبرهم بأنهم ثلاثمائة، يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا. وهكذا كان الأمر، كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، ثم لما وقع القتال أمدّهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم.

والقول الثاني: أن المعنى في قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ أي: ترى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم، أي: ضعفيهم في العدد، ومع هذا نصرهم[7] الله عليهم. وهذا لا إشكال فيه على ما رواه العوفي، عن ابن عباس أن المؤمنين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، والمشركين[8] كانوا ستمائة وستة وعشرين رجلا. وكأن هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية، ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس، وخلاف المعروف عند الجمهور من أن المشركين كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف كما رواه محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، أن رسول الله ﷺ لما سأل ذلك العبد

---

(١) في ر: «عن». (٢) في جـ، ر: «بما». (٣) في جـ، ر: «إن».
(٤) في ر، و: «عبرة».
(٥) السيرة لابن إسحاق (ق١٦٢ ظاهرية).
(٦) في أ، و: «يحرز». (٧) في أ: «نصر». (٨) في جـ، ر، أ: «والمشركون».

الأسود لبنى الحجاج عن عدّة قريش ، فقال : كثير ، قال : «كم ينحرون كل يوم؟» قال : يومًا تسعاً[١] ، ويوماً عشراً ، فقال النبى ﷺ : «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف»[٢] .

وروى[٣] أبو إسحاق السَّبِيعى ، عن حارثة ، عن على ، قال : كانوا ألفاً ، وكذا قال ابن مسعود .

والمشهور أنهم كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف ، وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين ، وعلى هذا فيشكل هذا القول واللّه أعلم . لكن وجه ابن جرير هذا ، وجعله صحيحاً كما تقول : عندى ألف وأنا محتاج إلى مثليها ، وتكون[٤] محتاجاً إلى ثلاثة آلاف ، كذا قال . وعلى هذا فلا إشكال .

لكن بقى سؤال آخر وهو وارد على القولين ، وهو أن يقال : ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى فى قصة بدر : ﴿**وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً**﴾[الأنفال : ٤٤]؟ والجواب : أن هذا كان فى حال ، والآخر كان فى حال[٥] أخرى ، كما قال السُّدِّى ، عن [مرة] الطيب[٦] ، عن ابن مسعود فى قوله : ﴿**قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا [فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ]**[٧]﴾ الآية ، قال : هذا يوم بدر . قال عبد اللّه بن مسعود : وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يُضْعِفون علينا ، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحداً ، وذلك قوله[٨] تعالى : ﴿**وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ**﴾ .

وقال أبو إسحاق ، عن أبى عبيدة ، عن عبد اللّه بن مسعود ، رضى الله عنه ، قال : لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبى[٩] : تراهم سبعين؟ قال : أراهم مائة . قال : فأسرنا رجلا منهم فقلنا : كم كنتم ؟ قال : ألفا .

فعندما عاين كل الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثليهم ، أى : أكثر منهم بالضعف ، ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم ، عز وجل . ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع ، ثم لما حصل التصاف[١٠] والتقى الفريقان قلل اللّه هؤلاء فى أعين هؤلاء ، وهؤلاء فى أعين هؤلاء ، ليقدم كل منهما على الآخر .

﴿**لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً**﴾ أى : ليفرّق بين الحق والباطل ، فيظهر كلمة الإيمان على الكفر ، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين ، كما قال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ**﴾[آل عمران : ١٢٣] ، وقال هـهنا : ﴿**وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الأَبْصَارِ**﴾ أى : إن فى ذلك لمعتبراً لمن له بصيرة وفهم يهتدى به إلى حكمة اللّه وأفعاله ، وقدره الجارى بنصر عباده المؤمنين فى هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

---

(١) فى جـ ، ر ، أ : « قال : ينحرون يومًا تسعًا» .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦١٦) .
(٣) فى أ : «قال» . (٤) فى أ : «ويكون» . (٥) فى أ ، و : «حالة» .
(٦) فى هـ : «عن الطيب» . (٧) زيادة من جـ ، ر ، أ ، و . (٨) فى جـ ، ر ، أ ، و : «قول ا» .
(٩) فى جـ ، ر : «جنبى» . (١٠) فى أ ، و : «المصاف» .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) ﴾ .

يخبر تعالى عما زُيِّن للناس فى هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت فى الصحيح أنه، عليه السلام، قال[١] : «مَا تَرَكْتُ بَعْدى فِتْنَةً أَضرَّ عَلَى الرِّجَال منَ النِّساء» . فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب فى التزويج والاستكثار منه، «وإنَّ خَيْرَ هَذه الأمَّة كَانَ أكْثرَها نساءً»[٢]، وقوله، عليه السلام[٣] : «الدُّنْيَا مَتَاع، وخَيْرُ مَتَاعهَا المرْأةُ الصَّالحةُ، إنْ نَظَرَ إلَيْهاَ سَرَّتْه، وإنْ أمَرَهَا أطاعَتْه، وإنْ غَابَ عَنْها حَفظَتْه فى نَفْسهَا ومَاله»[٤]، وقوله فى الحديث الآخر: «حُبِّبَ إلَيَّ النِّسَاءُ والطِّيبُ[٥]، وجُعلَتْ قُرة عَيْنى فى الصَّلاَة»[٦]. وقالت عائشة، رضى الله عنها: لم يكن شىء أحب إلى رسول الله ﷺ من النساء إلا الخيل، وفى رواية: من الخيل إلا النساء[٧].

وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل فى هذا، وتارة يكون لتكثير النسل، وتكثير أمة محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح، كما ثبت فى الحديث: «تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الولُودَ، فَإنِّى مُكاثرٌ بكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ القيامَة»[٨].

وحب المال ـ كذلك ـ تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء، والتجبر على الفقراء، فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة فى القربات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البر والطاعات، فهذا ممدوح محمود[٩] عليه شرعاً.

وقد اختلف المفسرون فى مقدار القنطار على أقوال، وحاصلها: أنه المال الجزيل، كما قاله

(١) فى جـ، ر، أ، و: «أنه قال ﷺ»، وفى ر: «أنه قال عليه السلام».
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٠٦٩) موقوفا على ابن عباس .
(٣) فى جـ: «ﷺ».
(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٤٦٧) والنسائى فى السنن (٦/ ٦٩) وابن ماجه فى السنن برقم (١٨٥٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه .
(٥) فى جـ، ر: «الطيب والنساء».
(٦) رواه أحمد فى المسند (٣/ ١٢٨) والنسائى فى السنن (٧/ ٦١) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.
(٧) رواه النسائى فى الكبرى (٤٤٠٤) من طريق سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك ، به.
وله شاهد من حديث معقل بن يسار، رواه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٧).
(٨) رواه أبو داود فى السنن برقم(٢٠٥٠) والنسائى فى السنن (٦/ ٦٥) وابن حبان فى صحيحه برقم(١٢٢٩) «موارد» والحاكم فى المستدرك (٢/ ١٦٢) وصححه وأقره الذهبى من حديث معقل بن يسار.
ورواه أحمد فى المسند (٣/ ١٥٨) وابن حبان فى صحيحه برقم (١٢٢٨) والبيهقى فى السنن الكبرى (٧/ ٨١، ٨٢) من حديث أنس ابن مالك .
(٩) فى ر: «محسود».

الضحاك وغيره، وقيل : ألف دينار . وقيل : ألف ومائتا دينار . وقيل : اثنا عشر ألفا . وقيل : أربعون ألفا . وقيل : ستون ألفا وقيل : سبعون ألفا . وقيل : ثمانون ألفا . وقيل غير ذلك .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد، حدثنا [١] حماد، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ : «القِنْطَارُ اثْنَا عَشَرَ أَلْف أوقِيَّةٍ، كُلُّ أوقِيَّةٍ خَيْرٌ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ والأرْضِ» .

وقد رواه ابن ماجة، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عبد الصمد بن عبد الوارث، عن حماد بن سلمة، به . وقد رواه ابن جرير عن بُنْدار، عن ابن مهدي، عن حماد بن زيد، عن عاصم - هو ابن بَهْدَلة - عن أبي صالح، عن أبي هريرة [٢]، موقوفا، وهذا أصح . وهكذا رواه ابن جرير عن معاذ بن جبل وابن عمر . وحكاه ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة وأبي الدرداء، أنهم قالوا : القنطار ألف ومائتا أوقية .

ثم قال ابن جرير : حدثني زكريا بن يحيى الضرير، حدثنا شبابة، حدثنا مَخْلَد بن عبد الواحد، عن علي بن زيد، عن عطاء بن أبي ميمونة، عن زِرّ بن حُبَيْش عن أُبيّ بن كعب، قال : قال رسول الله ﷺ : «القِنْطَارُ أَلْفُ أوقِيَّةٍ ومائتَا أوقِيَّةٍ» [٣] .

وهذا حديث منكر أيضاً، والأقربُ أن يكون موقوفا على أبي بن كعب، كغيره من الصحابة .

وقد روى ابن مَرْدُويَه، من طريق موسى بن عُبَيْدة الربَذي [٤]، عن محمد بن إبراهيم عن يحنَّش [٥] أبي موسى، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ قَرَأَ مائة آية لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، ومَنْ قَرَأَ مائةَ آية إلَى أَلْف أَصْبَحَ لَهُ قِنْطار مِنْ أجْر عندَ الله، القِنْطارُ مِنْهُ مِثْلُ الجَبَلِ العَظِيم» . ورواه وكيع، عن موسى بن عبيدة، بمعناه [٦] وقال الحاكم في مستدركه : حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عيسى بن زيد اللخمي بتنِّيس [٧]، حدثنا عَمْرو [٨] بن أبي سلمة، حدثنا زهير بن محمد، حدثنا حُمَيد الطويل، ورجل آخر، عن أنس بن مالك قال : سئل رسول الله ﷺ عن قول الله، عز وجل : ﴿ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ ﴾ قال : «القِنْطَارُ ألفا أُوقِيَّة» .

صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، هكذا رواه الحاكم [٩] .

---

(١) في جـ : «عن» .
(٢) المسند (٢/ ٣٦٣) وابن ماجة في السنن برقم (٣٦٦٠) ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (٦٦٣) «موارد» .
قال البوصيري في مصباح الزجاجة : «إسناده صحيح ورجاله ثقات» والأرجح تحسينه للكلام في عاصم بن بهدلة . ورواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٦/ ٢٤٤) موقوفا .
(٣) تفسير الطبري (٦/ ٢٤٥) وفي إسناده مخلد بن عبد الواحد، ضعفه أبو حاتم، وقال ابن حبان : «منكر الحديث جداً» .
(٤) في جـ، ر : «الترمذي» .
(٥) في جـ، ر : «يحنس» .
(٦) ورواه عبد بن حميد في تفسيره، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ١٠٧) من طريق وكيع به، وهو مضطرب، فتارة يروى خمسين، وتارة يروى ألفا، وتارة يروى مائة، وقد اختلف فيه على موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف .
(٧) في ر : «تبتيس» .
(٨) في المخطوطة أ، و : «محمد بن عمرو بن أبي سلمة» وهو خطأ .
(٩) المستدرك (٢/ ١٧٨) وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وفي إسناده عمرو بن أبي سلمة الشامي ضعيف خاصة إذا روى عن زهير . قال الإمام أحمد : «روى عن زهير أحاديث بواطيل كأنه سمعها من صدقة بن عبد الله فغلط فقلبها زهير» .

وقد رواه ابن أبى حاتم بلفظ آخر فقال: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الرَّقِّى، حدثنا عمرو بن أبى سلمة، حدثنا زهير ـ يعنى ابن محمد ـ حدثنا حميد الطويل ورجل آخر قد سماه ـ يعنى يزيد الرَّقَاشي ـ عن أنس، عن رسول الله ﷺ فى قوله: قنطار، يعنى: «ألف دينار». وهكذا [رواه][(١)] ابن مَرْدُويه، ورواه [(٢)] الطبرانى، عن عبد الله بن محمد بن أبى مريم، عن عَمْرو بن أبى سلمة، فذكر بإسناده مثله سواء[(٣)].

وروى ابن جرير عن الحسن البصرى مرسلا عنه وموقوفا عليه: القنطار ألف ومائتا دينار. وكذا[(٤)] رواه العَوْفى عن ابن عباس.

وقال الضحاك: من العرب من يقول: القنطار ألف دينار. ومنهم من يقول: اثنا عشر ألفا.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عارِم، عن حَمّاد، عن سعيد الجُرَيْرِى[(٥)]، عن أبى نضْرة، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، قال: [القنطار][(٦)] ملء مَسْك الثور ذهبا.

قال أبو محمد: ورواه محمد بن موسى الحرشى، عن حماد بن زيد، مرفوعا. والموقوف أصح[(٧)].

وحب الخيل على ثلاثة أقسام، تارة يكون ربطَها أصحابُها معدَّة لسبيل الله تعالى، متى احتاجوا إليها غزَوا عليها، فهؤلاء يثابون. وتارة تربط فخرا ونواء لأهل الإسلام، فهذه على صاحبها وزْر. وتارة للتعفف واقتناء نسلها. ولم يَنْسَ حق الله فى رقابها، فهذه لصاحبها ستْر، كما سيأتى الحديث بذلك [إن شاء الله تعالى] [(٨)] عند قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ [تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ]**[(٩)]﴾ [الأنفال: ٦٠].

وأما ﴿**الْمُسَوَّمَةِ**﴾ فعن ابن عباس، رضى الله عنهما: المسومة الراعية، والمُطَهَّمة الحسَان، وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعبد الرحمن بن عبد الله [(١٠)] بن أبْزَى، والسُّدِّى، والربيع بن أنس، وأبى سِنَان وغيرهم.

وقال مكحول: المسومة: الغُرَّة والتحجيل. وقيل غير ذلك.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الحميد بن جعفر، عن [(١١)] يزيد بن أبى حبيب، عن سُوَيْد بن قيس، عن معاوية بن حُدَيج، عن أبى ذر، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليسَ مِنْ فَرَسٍ عَرَبِى إلا يُؤْذَنَ لَهُ مَعَ كُلِّ فَجْر يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إنَّكَ خَوَّلْتَنِى من

---

(١) زيادة من جـ، ر، أ، و. (٢) فى و: «عن».
(٣) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ١١١) وفى إسناده عمرو بن أبى سلمة وهو ضعيف كما سبق كلام الإمام أحمد عنه.
(٤) فى و: « وهو». (٥) فى هـ، جـ، أ، و: «الجرشى» وهو خطأ.
(٦) زيادة من جـ، ر، أ، و.
(٧) تفسير ابن أبى حاتم (٢/ ١١٥) ورواه الطبرى فى تفسيره (٦/ ٢٤٨) من طريق سعيد الجريرى عن أبى نضرة موقوفا.
(٨) زيادة من جـ، أ. (٩) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».
(١٠) فى جـ، ر، أ، و: «عبد الله بن عبد الرحمن». (١١) فى جـ، ر: «حدثنى».

خوَّلْتنى من][١] بَنِى آدَم، فاجْعَلْنِى مِنْ أحَبِّ مَالِه وأهْلِه إلَيْه، أوْ أحَب أهْلِه وماله إليه»[٢].

وقوله: ﴿وَالأَنْعَامِ﴾ يعنى: الإبل والبقر والغنم ﴿وَالْحَرْثِ﴾ يعنى: الأرض[٣] المتخذة للغِرَاس والزراعة[٤].

قال الإمام أحمد: حدثنا رَوْح بن عبادة، حدثنا أبو نعامة العدوى، عن مسلم بن بُدَيل[٥]، عن إياس بن زهير، عن سُويد بن هبيرة، عن النبى ﷺ قال: «خَيْرُ مَال امرئ لَهُ مُهْرة مَأمُورة، أو سِكَّة مَأبُورَة»[٦]، المأمورة الكثيرة النسل، والسِّكَّة: النخل المصطف، والمأبورة: الملقحة.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ أى: حسن المرجع والثواب.

وقد قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن عطاء، عن أبى بكر بن حفص بن عُمَر ابن سعد قال: قال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: لما أنزلت: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ قلت: الآن يا رب حين زينتها لنا! فنزلت: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا [عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَار][٧]﴾[٨].

ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ﴾ أى: قل يا محمد للناس: أأخبركم بخير مما زين للناس فى هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها، الذى هو زائل لا محالة.

ثم أخبر عن ذلك، فقال: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أى: تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار، من أنواع الأشربة؛ من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين فيها أبد الآباد[٩]، لا يبغون[١٠] عنها حوَلا.

﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أى: من الدنَس، والخَبَث، والأذى، والحيض، والنفاس، وغير ذلك مما يعترى نساء الدنيا.

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: يحل عليهم رضوانه، فلا يَسْخَط عليهم بعده أبدا؛ ولهذا قال فى الآية الأخرى التى فى براءة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] أى: أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم،

---

(١) زيادة من جـ، ر، أ، و، والمسند.

(٢) المسند(٥/ ١٧٠) ورواه الحاكم فى المستدرك(٢/ ١٤٤) من طريق يحيى بن سعيد به، وقال: صحيح الإسناد على شرطهما ووافقه الذهبى.

(٣) فى جـ، ر: «الأراضى».

(٤) فى جـ: «للزراعة والغراس».

(٥) فى أ: «نديل».

(٦) المسند (٣/ ٤٦٨) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (١٠/ ٦٤) والطبرانى فى المعجم الكبير(٧/ ١٠٧) من طريق مسلم بن بديل به، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥/ ٢٥٨): «رجال أحمد ثقات».

(٧) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٨) تفسير الطبرى(٦/ ٢٤٤).

(٩) فى جـ، ر: «فيها أبدًا».

(١٠) فى جـ، ر: «يجدون».

ثم قال [تعالى](١) : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ أى : يعطى كُلا بحسب ما يستحقه من العطاء .

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ .

يصف تعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل ، فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا ﴾ أى : بك وبكتابك وبرسولك ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ أى بإيماننا بك وبما شرعته لنا فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من(٢) أمرنا بفضلك ورحمتك ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ .

ثم قال : ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ أى : فى قيامهم بالطاعات وتركهم المحرّمات ﴿ وَالصَّادِقِينَ ﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة ﴿ وَالْقَانِتِينَ ﴾ والقنوت : الطاعة والخضوع(٣) ﴿ وَالْمُنفِقِينَ ﴾ أى : من أموالهم فى جميع ما أمروا به من الطاعات ، وصلة الأرحام والقرابات ، وسد الخَلات ، ومواساة ذوى الحاجات ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار .

وقد قيل : إن يعقوب ، عليه السلام ، لما قال لبنيه : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ [يوسف : ٩٨] أنه أخرهم إلى وقت السحر . وثبت فى الصحيحين وغيرهما من المساند(٤) والسنن ، من غير وجه ، عن جماعة من الصحابة ، أن رسول الله ﷺ قال : «يَنزِلُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فى كُلِّ لَيْلَة إِلَى سَمَاء الدُّنيا حينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخر(٥) فيقولُ : هَلْ مِنْ سَائل فَأُعْطِيَه؟ هَلْ مِنْ دَاع فَأَسْتَجِيبَ لَه؟ هَل مَنْ مُسْتَغْفِر فأغفرَ لَهُ؟» الحديثَ(٦) . وقد أفرد الحافظ أبو الحسن الدارقطنى فى ذلك جزءًا على حدة(٧) ، فرواه من طرق متعددة .

وفى الصحيحين ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : مِنْ كُلِّ اللَّيلِ قَدْ أَوْتَرَ رَسُولُ الله ﷺ ، مِنْ أوله وأوْسَطِه وآخره ، فَانْتَهَى وتره إِلَى السّحَرِ(٨) .

وكان عبد الله بن عمر يصلى من الليل ، ثم يقول : يا نافع ، هل جاء السَّحَرَ؟ فإذا قال : نعم ، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح . رواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبى ، عن حُرَيْث بن أبى مطر ، عن إبراهيم بن حاطب ، عن أبيه قال : سمعت رجلا فى السحر فى ناحية المسجد وهو يقول : ربّ أمرتنى فأطعتك ،

---

(١) زيادة من جـ ، أ . (٢) فى و : «فى» . (٣) فى أ : «الخشوع» .
(٤) فى أ : «المسانيد» . (٥) فى أ : «الأخير» .
(٦) جاء من حديث أبى هريرة : رواه البخارى فى صحيحه برقم(٧٤٩٤) وبرقم (٦٣٢١) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٥٨) وأبو داود فى السنن برقم(١٣١٥) والترمذى فى السنن برقم(٤٣٩٨) .
وجاء من حديث أبى سعيد الخدرى وجبير بن مطعم ورفاعة الجهنى وعلى بن أبى طالب وابن مسعود . انظر الكلام عليها فى كتاب إرواء الغليل للشيخ ناصر الألبانى (٢/ ٤٥٠) .
(٧) فى أ : «حدته» .
(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٩٩٦) ، ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٤٥) .

وهذا سحر، فاغفر لى. فنظرت فإذا ابن مسعود، رضى الله عنه[١].

وروى ابن مَرْدُويه عن أنس بن مالك قال: كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أنْ نستغفر فى آخر السحر سبعين مرة.

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠) ﴾.

شهد[٢] تعالى ـ وكفى به شهيدا، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم، وأصدق القائلين ـ **﴿أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾** أى: المتفرِّد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه، والفقراء إليه، وهو الغنى عما سواه كما قال تعالى: **﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ[٣] شَهِيدًا﴾** الآية [النساء: ١٦٦].

ثم قرن شهادة ملائكته وأولى العلم بشهادته فقال: **﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾** وهذه خصوصية عظيمة للعلماء فى هذا المقام.

﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ منصوب على الحال، وهو فى جميع الأحوال كذلك.

﴿لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾ تأكيد لما سبق **﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** العزيز: الذى لا يرام جنابه عظمةً وكبرياء، الحكيم فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد، حدثنى جبير بن عَمْرو القرشى، حدثنا أبو سَعِيد[٤] الأنصارى، عن أبى يحيى مولى آل الزبير بن العوام، عن الزبير بن العوام، قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو بعرفةَ يقرأ هذه الآية: **﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** «وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ يَارَبِّ»[٥].

وقد رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر، فقال: حدثنا على بن حسين، حدثنا محمد بن المتوكل العسقلانى، حدثنا عُمَر بن حفص بن ثابت أبو سعيد الأنصارى، حدثنا عبد الملك بن يحيى بن عباد ابن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن جده، عن الزبير قال: سمعت رسول الله ﷺ حين قرأ هذه الآية: **﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ﴾** قال: « وَأَنَا أَشْهَدُ أَىْ رَبِّ»[٦].

---

(١) تفسير الطبرى (٦/ ٢٦٦) وفى إسناده سفيان بن وكيع ضعيف، وحديث ابن أبى مطر ضعفه أبو حاتم وابن معين والبخارى.
(٢) فى و: «يشهد». (٣) فى جـ، ر: «به» وهو خطأ.
(٤) فى أ، و: «أبو سعد».
(٥) المسند (١/ ١٦٦) وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ٣٢٥): «فى إسناده مجاهيل».
(٦) تفسير ابن أبى حاتم (٢/ ١٤٦) وفى إسناده مجاهيل.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى المعجم الكبير: حدثنا عبدان بن أحمد وعلى بن سعيد الرازى قالا: حدثنا عمَّار بن عمر بن المختار، حدثنى أبى، حدثنى غالب القطان قال: أتيت الكوفة فى تجارة، فنزلت قريبا من الأعمش، فلما كانت ليلة أردتُ أن أنْحَدرَ قام فتهجد من الليل، فمر بهذه الآية: **﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾** ثم قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، وهى لى عند الله وديعة: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾** قالها مرارا. قلت: لقد سمع فيها شيئا، فغدوت إليه فودعته، ثم قلت: يا أبا محمد، إنى سمعتك تردد هذه الآية. قال: أو ما بلغك ما فيها؟ قلت: أنا عندك منذ شهر لم تحدثنى. قال: والله لا أحدثك بها إلى سنة. فأقمت سنة فكنت على بابه، فلما مضت السنة قلت: يا أبا محمد، قد مضت السنة. قال: حدثنى أبو وائل، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجاءُ بصَاحبِهَا يوْمَ القيامَة، فيَقولُ الله عز وجل: عَبْدى عَهِدَ إلَىَّ، وأنَا أحَقُّ مَن وَفَّى بالعَهْدِ، أدْخلُوا عَبْدى الْجَنَّةَ»(١).

وقوله: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾** إخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به فى كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ، الذى سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقى الله بعد بعثته محمداً ﷺ بدين على غير شريعته، فليس بمتقبل. كما قال تعالى: **﴿وَمَن يَبْتَغِ(٢) غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ [وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ](٣)﴾** [آل عمران: ٨٥]. وقال فى هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل عنده فى الإسلام: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾**.

وذكر ابن جرير أن ابن عباس قرأ: **﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾** بكسر **﴿إِنَّهُ﴾** وفتح **﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾** أى: شهد هو وملائكته وأولو العلم من البشر بأن الدين عند الله الإسلام. والجمهور قرؤوها بالكسر على الخبر، وكلا المعنيين صحيح. ولكن هذا على قول الجمهور أظهر والله أعلم.

ثم أخبر تعالى بأن (٤) الذين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة، بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم، فقال: **﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾** أى: بغى بعضهم على بعض، فاختلفوا فى الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم، فحمل بعضهم بُغْض البَعْض الآخر (٥)على مخالفته فى جميع أقواله وأفعاله، وإن كانت حقا، ثم قال: **﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾** أى: من جحد بما أنزل (٦) الله فى كتابه فإن الله

---

(١) المعجم الكبير (١٠/ ٢٤٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ٣٢٦): «فيه عمر بن المختار وهو ضعيف». ورواه ابن عدى فى الكامل (٥/ ٣٦) من طريق عمار بن عمر المختار به. قال: «لا يحدث به غير عمر المختار، ومقدار ما يرويه فيه نظر».

(٢) فى أ: «يتبع».
(٣) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».
(٤) فى أ، و: «أن».
(٥) فى جـ: «فحمل بعضهم على بغض الآخر».
(٦) فى أ، و: «أنزله».

سيجازيه على ذلك، ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه(١).

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ أى: جادلوك فى التوحيد ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أى: فقل أخلصت عبادتى لله وحده، لا شريك له ولا ند [له](٢) ولا ولد له ولا صاحبة له ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ على دينى، يقولون كمقالتى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي [وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ](٣)﴾ [يوسف: ١٠٨].

ثم قال تعالى آمرًا لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه، والدخول فى شرعه وما بعثه الله به الكتابيين(٤) من الملتين والأميين من المشركين فقال: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أى: والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذى يهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وله الحكمة فى ذلك، والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أى: هو(٥) عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة، وهو الذى ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وما ذاك(٦) إلا لحكمته ورحمته.

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته، صلوات الله وسلامه(٧) عليه، إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة فى غير(٨) ما آية وحديث، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وفى الصحيحين وغيرهما، مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة، أنه بعث كتبه ﷺ يدعو إلى الله ملوك الآفاق، وطوائف(٩) بنى آدم من عربهم وعجمهم، كتابيِّهم وأميِّهم، امتثالا لأمر الله له بذلك. وقد روى عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن هَمَّام، عن أبى هريرة، عن النبى(١٠) ﷺ أنه قال: «والَّذى نَفْسى بيَده، لاَ يَسْمَعُ بى أحَدٌ منْ هَذه الأمَّة يَهُودىٌ ولاَ نَصْرَانى، ومَاتَ ولَمْ يُؤْمنْ بالَّذى أرْسلتُ به، إلا كان منْ أَهلِ النَّار» رواه مسلم(١١).

وقال ﷺ: «بُعثْتُ إلَى الأحْمَر والأسْود»(١٢)، وقال: «كَانَ النَّبىُّ يُبْعَثُ إلَى قَوْمه خاصَّةً وبُعثْتُ إلَى النَّاس عَامَّةً». وقال الإمام أحمد: حدثنا مُؤَمَّل، حدثنا حَمَّاد، حدثنا ثابت عن أنس، رضى الله عنه: أن غلاما يهوديا كان يَضع للنبى ﷺ وَضُوءه ويناوله نعليه، فمرض، فأتاه النبى ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه فقال له النبى ﷺ: «يا فُلاَنُ، قُلْ: لاَ إله إلا الله» فَنَظَرَ إلَى أبيه، فَسَكَتَ أبُوهُ، فأعَادَ عَلَيْه النَّبىُّ ﷺ، فَنَظَرَ إلَى أبيه، فَقَالَ أبُوهُ: أطعِ أبا القَاسم، فَقَالَ الغُلاَمُ: أشْهَدُ أن

---

(١) فى أ، و: «بكتابه». (٢) زيادة من جـ، ر، أ، و. (٣) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».
(٤) في جـ: «أهل الكتابين». (٥) فى أ، و: «وهو». (٦) فى أ، و: «وذلك».
(٧) فى جـ: «الله». (٨) فى أ: «وغير». (٩) فى و: «من طوئف».
(١٠) فى جـ، ر، أ، و: «رسول الله».
(١١) صحيح مسلم برقم(١٥٣).
(١٢) فى جـ، ر، أ، و: «الأسود والأحمر».

لا إِلَهَ إلا الله وَأَنَّكَ رَسُولُ الله، فَخَرَجَ النَّبِىُّ (١) ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِى أَخْرَجَهُ بِى مِنَ النَّارِ» أخرجه البخارى فى الصحيح(٢). إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٢)﴾.

هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب فيما ارتكبوه من المآثم والمحارم فى تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثا، التى بلغتهم إياها الرسل، استكباراً عليهم وعناداً لهم، وتعاظما على الحق واستنكافا عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه، بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم، إلا لكونهم دعوهم إلى الحق **﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾** وهذا هو غاية الكبر، كما قال النبى (٣) ﷺ: «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وغَمْطُ النَّاسِ».

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو الزُّبَيْر الحسن بن على بن مسلم النيسابورى، نزيل مكة، حدثنى أبو حفص عمر بن حفص ـ يعنى ابن ثابت بن زرارة الأنصارى ـ حدثنا محمد بن حمزة، حدثنى أبو الحسن مولى لبنى أسد، عن مكحول، عن قبيصة بن ذُؤَيب الخزاعى، عن أبى عبيدة بن الجراح، رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أى الناس أشد عذابا يوم القيامة؟ قال: «رَجلٌ قَتَلَ نَبيا أوْ مَنْ أمر بالْمَعْرُوف ونَهَى عَنِ الْمُنْكَر». ثم قرأ رسول الله ﷺ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** [إلى قوله: **﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾**](٤) الآية. ثم قال رسول الله ﷺ: «يا أبَا عُبَيْدَةَ، قَتَلَتْ بَنُو إسْرَائيلَ ثَلاثَةً وأرْبعين نَبيا، من أوَّل النَّهَارِ فِى ساعةٍ واحِدَةٍ، فَقَامَ مائَة (٥) وسبْعُونَ رَجُلاً مِنْ بَنى إسْرائيلَ، فأمَرُوا مَنْ قَتَلَهُم بالْمَعْرُوفِ ونَهَوْهُمْ عَنِ المنكرِ، فقتلوا جَميعاً مِنْ آخرِ النَّهارِ مِنْ ذَلكَ اليَوْمِ، فَهُم الذينَ ذَكَرَ اللهُ، عَزَّ وَجَلَّ».

وهكذا رواه ابن جرير عن أبى عبيد الوصّابى محمد بن حفص، عن ابن حُمَيْر، عن أبى الحسن مولى بنى أسد، عن مكحول، به(٦).

---

(١) فى جـ، ر، أ، و: «رسول الله».

(٢) المسند(٣/ ١٧٥) والبخارى برقم (١٣٥٦).

(٣) فى جـ، ر، أ، و: «رسول الله». (٤) زيادة من جـ، ر، أ، و. (٥) فى جـ، ر، أ، و: «مائة رجل».

(٦) ابن أبى حاتم فى تفسيره (١/ ١٦١) والطبرى فى تفسيره (٦/ ٢٨٥) وأبو عبيد الوصابى لم يدرك محمد بن حمير كما ذكره ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل، وقد توبع أبو عبيد، تابعه عبد الوهاب بن نجدة، فرواه البزار من طريق عبد الوهاب بن نجدة عن محمد ابن حمير به.

ثم قال البزار: لا نعلم له عن أبى عبيدة غير هذه الطريق، ولم نسمع أحداً سمى أبا الحسن هذا الذى روى عنه محمد بن حمير.

وقال الحافظ ابن حجر: «فيه أبو الحسن مولى بنى أسد وهو مجهول».

وعن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبى من أول النهار، وأقاموا سوق بَقْلِهِمْ من آخره. رواه ابن أبى حاتم.

ولهذا لما أن تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق، قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار فى الدنيا والعذاب المهين فى الآخرة، فقال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: موجع مهين ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)﴾.

يقول تعالى منكراً على اليهود والنصارى، المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللَّذين بأيديهم، وهما التوراة والإنجيل، وإذا دُعُوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما، من اتباع محمد ﷺ، تولَّوا وهم معرضون عنهما، وهذا فى غاية ما يكون من ذمهم، والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد. ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أى: إنما حملهم وجرّأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون فى النار سبعة أيام، عن كل ألف سنة فى الدنيا يوما. وقد تقدم تفسير ذلك فى سورة البقرة. ثم قال: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [أى غرهم فى دينهم][(١)] أى: ثَبَّتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياما معدودات، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم وافتعلوه، ولم ينزل الله به سلطانا قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله، ومحاسبهم عليه، ومجازيهم به؛ ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شك فى وقوعه وكونه ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)﴾.

---

(١) زيادة من و.

يقول تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد، معظما لربك ومتوكلا عليه، وشاكراً له ومفوضاً إليه: ﴿اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾، أي: لك الملك كله ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾، أى: أنت المعطى، وأنت المانع، وأنت الذى ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن.

وفى هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة؛ لأن الله حول النبوة من بنى إسرائيل إلى النبى العربى القرشى المكى الأمى خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن، الذى جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يُعطها نبياً من الأنبياء ولا رسولا من الرسل، فى العلم بالله وشريعته وإطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشفه عن حقائق الآخرة ونشر أمته فى الآفاق، فى مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان، والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، ما تعاقب الليل والنهار. ولهذا قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ [تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] (١)﴾ .

أى: أنت المتصرف في خلقك، الفعال لما تريد، كما رد تبارك وتعالى على من يتحكم (٢) عليه فى أمره، حيث قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

قال الله تعالى ردأ عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ [نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ](٣) ﴾ الآية [الزخرف: ٣٢] أى: نحن نتصرف فى خلقنا كما نريد، بلا ممانع ولا مدافع، ولنا الحكمة والحجة فى ذلك، وهكذا نعطى النبوة لمن نريد، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ [وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا](٤)﴾[الإسراء: ٢١]. وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة «إسحاق بن أحمد» من تاريخه عن المأمون الخليفة: أنه رأى فى قَصْرٍ ببلاد الروم مكتوبا بالحميرية، فعرب له، فإذا هو: باسم الله ما اختلف الليل والنهار، ولا دارت نجوم السماء فى الفلك إلا بنقل النعيم عن مَلِك قد زال سلطانه إلى ملك. ومُلْكُ ذى العرش دائم أبداً ليس بِفَانٍ ولا بمشترك(٥).

وقوله: ﴿تُولِجُ(٦) اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ (٧) النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أى: تأخذ من طول هذا فتزيده فى قصر هذا فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا فى هذا فيتفاوتان، ثم يعتدلان. وهكذا في فصول السنة: ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاء.

وقوله: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أى: تخرج الحبَّة من الزرع والزرع من الحبة، والنخلة من النواة والنواة من النخلة، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى: تعطى من شئت من المال ما لا يَعده ولا يقدر على إحصائه، وتقتر على آخرين، لما لك

---

(١) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٢) فى أ، و: «تحكم».

(٣) زيادة من جـ، ر، أ، و .

(٤) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢/ ٧٠٦ المخطوط) ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٤/ ٢٦٤).

(٦ ، ٧) فى جـ، ر: «يولج».

فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة والعدل. قال الطبرانى: حدثنا محمد بن زكريا الغلابى، حدثنا جعفر بن جسْر بن فرْقد، حدثنا أبى، عن عمْرو [١] بن مالك، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: « اسْم الله الأعْظَمَ الَّذى إذَا دُعِىَ به أجَابَ، فى هَذه الآية منْ آل عمْرانَ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ [تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾] [٢]» [٣].

﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)﴾.

نهى الله، تبارك وتعالى، عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، وأن يتخذوهم أولياء يُسرُّون إليهم بالمودة من دون المؤمنين، ثم توعد على ذلك فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أى: من يرتكب نهى الله فى هذا فقد برئ من الله كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]، وقال [تعالى] [٤]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ [إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ] [٥]﴾ [المائدة: ٥١].

[وقال تعالى] [٦]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١] وقال تعالى ـ بعد ذكر موالاة المؤمنين للمؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب ـ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

وقوله: ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أى: إلا من خاف فى بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما حكاه البخارى عن أبى الدرداء أنه قال: «إنَّا لَنَكْشرُ فِى وُجُوهِ أقْوَامٍ وَقُلُوبُنَا تَلْعَنُهُمْ».

وقال الثورى: قال ابن عباس، رضى الله عنهما: ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان، وكذا رواه العوفى عن ابن عباس: إنما التقية باللسان، وكذا قال أبو العالية، وأبو الشعثاء والضحاك، والربيع بن أنس. ويؤيد ما قالوه قولُ الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ [وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ] [٧]﴾ [النحل: ١٠٦].

---

(١) فى جـ، ر، أ: «عمر».
(٢) فى أ، و: « إلى آخر الآية».
(٣) المعجم الكبير (١٢/ ١٧٢) وفى إسناده جسر بن فرقد، ضعيف.
(٤) زيادة من جـ، ر، أ، و.
(٥) زيادة من جـ، أ، و، وفى هـ: «الآية».
(٦) زيادة من جـ، ر، أ، و.
(٧) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

وقال البخارى: قال الحسن: التقية إلى يوم القيامة.

ثم قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أى: يحذركم نقمته، أى مخالفته وسطوته فى عذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أى: إليه المرجع والمنقلب، فيجازى كل عامل بعمله.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا مسلم بن خالد، عن ابن أبى حسين، عن عبد الرحمن بن سابط، عن عمرو بن ميمون [بن مِهْران][1] قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يابنى أوْد، إنى رسولُ رسولِ الله إليكم، تعلمون أن المعاد [إلى الله][2] إلى الجنة أو إلى النار[3].

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)﴾.

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم فى سائر الأحوال والآنات واللحظات وجميع الأوقات، وبجميع ما فى السموات والأرض، لا يغيب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك فى جميع أقطار الأرض والبحار والجبال، وهو ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: قدرته[4] نافذة فى جميع ذلك.

وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته، وألا يرتكبوا ما نهى عنه وما يَبْغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإنْ أنظر من أنظر منهم، فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا [وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا][5]﴾ الآية، يعنى: يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر[6] كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، فما رأى من أعماله حسنا سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغاظه، وود لو أنه تبرأ منه، وأن يكون بينهما أمد بعيد، كما يقول لشيطانه الذى كان مقترناً به فى الدنيا، وهو الذى جرَّأه على فعل السوء: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

ثم قال تعالى مؤكدا ومهددا ومتوعدا: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أى: يخوفكم عقابه، ثم قال مرجيًا لعباده لئلا ييأسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

---

(١) زيادة من جـ، ر، أ، و.
(٢) زيادة من أ، و.
(٣) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ١٩٤).
(٤) فى جـ، ر، أ، و: «وقدرته».
(٥) زيادة من جـ، ر، أ، و.
(٦) فى جـ: «أو شر».

قال الحسن البصرى: من رأفته بهم حذرهم نفسه. وقال غيره: أى رحيم بخلقه، يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم، وأن يتبعوا رسوله الكريم.

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) ﴾.

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب فى دعواه فى نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدى والدين النبوى فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عليه أمرُنا فَهُوَ رَدٌّ» ولهذا قال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ أى: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأن أن تُحَبَّ وقال الحسن البصرى وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطَّنافسى، حدثنا عبيد الله بن موسى عن عبد الأعلى بن أعين، عن يحيى بن أبى كثير، عن عروة، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «وَهَلِ الدِّينُ إلا الْحُبُّ والْبُغْضُ؟ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾» قال أبو زُرْعَة: عبد الأعلى هذا منكر الحديث[(١)].

ثم قال: ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى: باتباعكم للرسول ﷺ يحصل لكم هذا كله ببركة سفارته. ثم قال آمراً لكل أحد من خاص وعام: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أى: خالفوا عن أمره ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ فدل على أن مخالفته فى الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم فى نفسه أنه يحب الله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبى الأمى خاتم الرسل، ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس[(٢)]، الذى لو كان الأنبياء - بل المرسلون، بل أولو العزم منهم - فى زمانه لما وسعهم إلا اتباعه، والدخول فى طاعته، واتباع شريعته، كما سيأتى تقريره عند قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴾ الآية[آل عمران: ٨١] [إن شاء الله تعالى][(٣)].

---

(١) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٢٠٢)، ورواه أبو نعيم فى الحلية (٨/ ٣٦٨) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٢٩١) من طريق عبد الأعلى بن أعين عن يحيى بن أبى كثير به.
قال الحاكم: صحيح على شرطهما، وتعقبه الذهبى بقوله: «فيه عبد الأعلى بن أعين، قال الدارقطنى: ليس بثقة».
وقال ابن حبان: «يروى عن يحيى بن أبى كثير ماليس من حديثه، لا يجوز الاحتجاج به بحال».
وقال العقيلى: «جاء بأحاديث منكرة ليس منها شيء محفوظ».

(٢) فى جـ: «الإنس والجن». (٣) زيادة من و.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)﴾.

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم، عليه السلام، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها، لما له في ذلك من الحكمة.

واصطفى نوحا، عليه السلام، وجعله أول رسول [بعثه][(١)] إلى أهل الأرض، لما عبد الناس الأوثان، وأشركوا في دين الله ما لم ينزل به سلطانا، وانتقم له لما طالت مدته بين ظَهْرَانى قومه، يدعوهم إلى الله ليلا ونهاراً، سرا وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلا فراراً، فدعا عليهم، فأغرقهم الله عن آخرهم، ولم يَنْجُ منهم إلا من اتبعه على دينه الذى بعثه الله به.

واصطفى آل إبراهيم، ومنهم: سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ، وآل عمران، والمراد بعمران هذا: هو والد مريم بنت عمران، أم عيسى ابن مريم، عليهم السلام. قال محمد بن إسحاق بن يَسار[(٢)]، رحمه الله: هو عمران بن ياشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن يوثم ابن عزاريا[(٣)] ابن أمصيا بن ياوش بن أجريهو بن يازم بن يهفاشاط بن إنشا بن أبيان[(٤)] بن رخيعم بن سليمان بن داود، عليهما السلام. فعيسى، عليه السلام، من ذرية إبراهيم، كما سيأتى بيانه فى سورة الأنعام، إن شاء الله وبه الثقة.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦)﴾.

امرأة عمران هذه أم مريم [بنت عمران][(٥)] عليها السلام[(٦)]، وهى حَنَّة بنت فاقوذ، قال محمد ابن إسحاق: وكانت امرأة لا تحمل، فرأت يوما طائراً يَزُقُّ فرخه، فاشتهت الولد، فدعت الله، عز وجل، أن يهبها ولدا، فاستجاب الله دعاءها، فواقعها زوجها، فحملت منه، فلما تحققت الحمل نذرته أن يكون ﴿مُحَرَّرًا﴾ أى: خالصا مفرغا للعبادة، ولخدمة بيت المقدس، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، أى: السميع لدعائى، العليم بنيتى، ولم تكن تعلم ما فى بطنها أذكرا أم أنثى؟ ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾. قرئ برفع التاء على أنها تاء المتكلم، وأن ذلك من تمام قولها، وقُرِئ بتسكين التاء على أنه من قول الله عز وجل ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ أى: فى القوة والجَلَد فى العبادة وخدمة المسجد الأقصى ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾. فيه دلالة على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق؛ لأنه شرع من

---

(١) زيادة من ج، ر، أ، و.
(٢) فى أ: «بشار».
(٣) فى و: «عزازيا».
(٤) فى ر، أ: «أثان»، وفى و: «أيان».
(٥) زيادة من جـ، ر، أ، و.
(٦) فى و: «سم».

قبلنا، وقد حكى مقرراً، وبذلك ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ حيث قال: «وُلِدَ لِى اللَّيْلَةَ وَلَد سَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِى إِبْرَاهِيمَ». أخرجاه[١]: وكذلك ثبت فيهما أنّ أنس بن مالك ذهب بأخيه، حين ولدته أمه، إلى رسول الله ﷺ، فَحَنَّكه وسماه عبد الله[٢]. وفى صحيح البخارى: أن رجلا قال: يا رسول الله، وُلِدَ لى وَلَد، فما أُسميِّه؟ قال: «أسْمِ وَلَدكَ[٣] عَبْد الرَّحْمَنِ»[٤]. وثبت فى الصحيح أيضاً: أنه لما جاءه أبو أسَيد بابنه ليُحنِّكه، فذَهَل عنه، فأمر به أبوه فَرَدّه إلى منزلهم، فلما ذكرَ رسولُ الله ﷺ فى المجلس سَمّاه المنذر[٥].

فأما حديث قتادة، عن الحسن البصرى، عن سَمُرَة بن جُنْدُب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ غُلام رَهِين[٦] بِعَقِيقَتِهِ، يُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ سَابعه، ويُسَمَّى وَيحلَقُ رَأْسُهُ» فقد رواه أحمد وأهل السنن، وصححه الترمذى بهذا اللفظ، ويروى: «وَيُدَمَّى»، وهو أثبت وأحفظ[٧]، والله أعلم. وكذا ما رواه الزبير بن بكار فى كتاب النسب: أن رسول الله ﷺ عقّ عن ولده إبراهيم يوم سابعه وسماه إبراهيم. فإسناده لا يثبت، وهو مخالف لما فى الصحيح[٨]، ولو صح لَحُمِل[٩] على أنه أشْهَرَ اسمه بذلك يومئذ، والله أعلم.

وقوله إخباراً عن أم مريم أنها قالت: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أى: عَوَّذتها بالله، عز وجل، من شر الشيطان، وعوذت ذريتها، وهو ولدها عيسى، عليه السلام. فاستجاب الله لها ذلك كما قال عبد الرزَّاق: أنبأنا مَعْمَر، عن الزهرى، عن ابن المسيب، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إلا مَسَّه الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلّ صَارِخًا مِنْ مَسِّه إِيَّاهُ، إلا مَرْيَمَ وابْنَهَا». ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

أخرجاه[١٠] من حديث عبد الرزاق. ورواه ابن جرير، عن أحمد بن الفرج، عن بَقِيَّة، [عن

---

(١) رواه البخارى تعليقا برقم (١٣٠٣) ورواه مسلم برقم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك.

(٢) رواه البخارى برقم (٥٤٧٠) ورواه مسلم برقم (٢١٤٤).

(٣) فى جـ، ر: «ابنك».

(٤) صحيح البخارى برقم (٦١٨٦) من حديث جابر.

(٥) رواه البخارى برقم (٦١٩١) ورواه مسلم برقم (٢١٤٩) من حديث سهل بن سعد الساعدى.

(٦) فى أ، و: «رهينته».

(٧) المسند (٥/١٢) وسنن أبى داود برقم (٢٨٣٨) وسنن الترمذى برقم (١٥٢٢) وسنن النسائى (٧/١٦٦) وسنن ابن ماجة برقم (٣١٦٥).

وقد صرح الحسن بسماعه هذا الحديث من سمرة؛ لذا قال الترمذى: «حديث حسن صحيح».

(٨) وقال ابن القيم، رحمه الله، فى كتابه «تحفة المودود فى أحاكم المولود» ص٦٧ بعد ما ساق قول الزبير بن بكار عن أشياخه: «هكذا قال الزبير وسماه يوم سابعه، والحديث المرفوع أصح من قوله وأولى».

(٩) فى جـ، ر: «يحمل».

(١٠) صحيح البخارى (٤٥٤٨) وصحيح مسلم برقم (٢٣٦٦).

الزبيدى][١] عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، بنحوه. وروَى من حديث قيس، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا منْ مَوْلُود إلا وَقَدْ عَصَرَهُ الشَّيطانُ عَصْرَةً أو عَصْرَتَيْن إلاَّ عِيسَى ابن مَرْيَم وَمَرْيَم». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[٢].

ومن حديث العلاء عن أبيه عن أبى هريرة. ورواه مسلم، عن أبى الطاهر، عن ابن وهب، عن عَمْرو بن الحارث، عن أبى يونس، عن أبى هريرة. ورواه وهب أيضًا، عن ابن أبى ذئب، عن عَجْلان مولى المُشْمَعِلِّ، عن أبى هريرة. ورواه محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ بأصل الحديث. وهكذا رواه الليث بن سعد، عن جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن بن هرمز، الأعرج[٣] قال: قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ بنى آدَمَ يطْعَنُ الشَّيْطَانُ فِى جَنْبِه حِينَ تَلده أمُّهُ، إلاَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، ذَهَبَ يَطْعَنُ فَطَعَنَ فى الْحجَاب»[٤].

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾.

يخبر ربنا[٥] أنه تقبلها من أمها نذيرة، وأنه ﴿أَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، أى: جعلها شكلا مليحا ومنظرا بهيجا، ويَسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم الخير والعلم والدين. ولهذا[٦] قال: ﴿وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا﴾ وفى قراءة: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ بتشديد الفاء ونصب زكريا على المفعولية، أى جعله كافلا لها.

قال ابن إسحاق: وما ذاك إلا أنها كانت يتيمة. وذكر غيره أن بنى إسرائيل أصابتهم سَنَةُ جَدْب، فكفل زكريا مريم لذلك. ولا منافاة بين القولين، والله أعلم.

وإنما قدر الله كون زكريا كافلها لسعادتها، لتقتبس منه علما جما نافعاً وعملا صالحاً؛ ولأنه كان زَوْجَ خالتها، على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير [وغيرهما][٧]. وقيل: زوج أختها، كما ورد فى الصحيح: «فإذا بيحيى[٨] وعيسَى، وَهُمَا ابْنَا الخَالَة»، وقد يُطْلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضا تَوسُعا، فعلى هذا كانت فى حضانة خالتها. وقد ثبت فى الصحيحين أن النبى ﷺ قضى فى عمارة بنت حَمْزَةَ أن تكون فى حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبى طالب، وقال: «الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ»[٩].

(١) زيادة من أ، و.
(٢) تفسير الطبرى (٦/ ٣٣٩).
(٣) فى أ: «عن الأعرج».
(٤) تفسير الطبرى (٦/ ٣٤٢) ورواه أحمد فى مسنده (٢/ ٥٢٣) من طريق أبى الزناد عن الأعرج به.
(٥) فى جـ، ر، أ، و: «تعالى». (٦) فى جـ، ر، أ، و: «فلهذا». (٧) زيادة من و.
(٨) فى جـ، ر: « يحيى».
(٩) صحيح البخارى برقم (٢٦٩٩) وصحيح مسلم برقم (١٧٨٣).

ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلالتها فى محل عبادتها، فقال: **﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾** قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو الشعثاء، وإبراهيم النخَعىّ، والضحاك، وقتادة، والربيع بن أنس، وعطية العَوْفى، والسُّدِّى [والشعبى](١): يعنى وجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف. وعن مجاهد **﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾** أى: علما، أو قال: صحفاً فيها علم.

رواه ابن أبى حاتم، والأول أصح، وفيه دلالة على كرامات الأولياء. وفى السنة لهذا نظائر كثيرة.

فإذا رأى زكريا هذا عندها **﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾** أى يقول: من أين لك هذا؟ **﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾**.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سَهْل بن زنْجَلة، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى عبد الله بن لَهِيعَة، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر؛ أن رسول الله ﷺ أقام أياماً لم يَطْعَمْ طعاما، حتى شَقّ ذلك عليه، فطاف فى منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً، فأتى فاطمة فقال: «يا بُنَيَّة، هَلْ عِنْدَكِ شَىْء آكُلُهُ، فَإِنِّى جَائِع؟» فقالت: لا، والله بأبى أنتَ وأمّى. فلما خَرَج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته منها فوضعته فى جَفْنَة لها، وقالت: والله لأوثرن بهذا رسول الله [ﷺ](٢) على نفسى ومن عندى. وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعة طعام، فبعثت حَسَنا أو حُسَينا إلى رسول الله [ﷺ](٣)، فرجع إليها فقالت له: بأبى وأمى(٤)، قد أتى الله بشىء فخبَّأته لك. قال: «هَلُمِّى يا بُنَيَّة» قالت: فأتيته بالجفنة. فكشفت عن الجفنة فإذا هى مملوءة خبزاً ولحماً، فلما نظرَتْ إليها بُهِتَتْ وعرفَتْ أنها بركة من الله، فحمدَتِ الله وصلَّتْ على نَبِيِّه، وقدّمَتْه إلى رسول الله ﷺ. فلما رآه حمد الله وقال: «مِنْ أيْنَ لَكِ هَذَا يَابُنَية؟» فقالت(٥): يا أبت، **﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾**، فحمد الله وقال: «الْحَمْدُ لله الَّذى جَعَلَكِ ـ يَا بُنَيَّة ـ شَبِيهَة بسيدة(٦) نساء بَنِى إسْرَائيلَ، فَإنَّهَا كَانَتْ إذَا رَزَقَهَا اللهُ شَيْئاً فَسُئلَتْ عَنْهُ قَالَتْ: **﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** فبعث رسول الله ﷺ إلى علىّ(٧)، ثم أكل رسولُ الله ﷺ وأكل علىّ، وفاطمة، وحسن، وحسين، وجميع أزواج النبىّ ﷺ وأهل بيته جميعاً حتى شبعوا. قالت: وبقيت الجفنة كما هى، فأوسعت ببقيتها(٨) على جميع الجيران، وجعل الله فيها بركة وخيرا كثيرا(٩).

---

(١) زيادة من جـ، أ.
(٢) زيادة من جـ، ر، أ، و.
(٣) زيادة من أ، و.
(٤) فى جـ، ر، أ، و: «بأبى أنت وأمى».
(٥) فى أ: «فقلت».
(٦) فى ر: «سيدة».
(٧) فى أ: «وحملوا».
(٨) فى أ، و: «بقيتها».
(٩) مسند أبى يعلى كما فى المطالب العالية لابن حجر (٤/ ٧٤)، وفى إسناده عبد الله بن صالح متكلم فيه، وابن لهيعة ضعفه الجمهور.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (٤١)﴾.

لما رأى زكريا، عليه السلام، أن الله تعالى يرزق مريم، عليها السلام، فاكهة الشتاء فى الصيف، وفاكهة الصيف فى الشتاء، طمع حينئذ فى الولد، و [إن][1] كان شيخا كبيرا قد [ضعف و][2] وَهَن منه[3] العظم، واشتعل رأسه شيبا، وإن كانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرًا، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خَفيا، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ أى: من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أى: ولدا صالحا ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ أى: خاطبته الملائكة شفاها خطاباً أسمعته، وهو قائم يصلى فى محراب عبادته، ومحل خَلْوَته، ومجلس مناجاته، وصلاته.

ثم أخبر عما بشّرته به الملائكة: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾، أى: بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى.

قال قتادة وغيره: إنما سُمِّى يحيى لأن الله تعالى أحياه بالإيمان.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ روى العَوْفىّ وغيره عن ابن عباس. وقال الحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد وأبو الشعثاء والسُّدى والربيع بن أنس، والضحاك، وغيرهم فى هذه الآية: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: بعيسى ابن مريم؛ قال الربيع بن أنس: هو أول من صدق بعيسى ابن مريم، وقال قتادة: وعلى سننه[4] ومنهاجه. وقال ابن جُرَيْج: قال ابن عباس فى قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ قال: كان يحيى وعيسى ابْنَى خالة، وكانت أم يحيى تقول لمريم: إنى أجد الذى فى بطنى يَسْجُد للذى فى بطنك فذلك تصديقه بعيسى: تصديقه له فى بطن أمه، وهو أول من صدق عيسى، وكلمة الله عيسى، وهو أكبر من عيسى[5]، عليه[6] السلام، وهكذا قال السدى أيضا.

وقوله: ﴿وَسَيِّدًا﴾: قال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، وسعيد بن جبير، وغيرهم: الحكيم[7]، وقال قتادة: سيداً فى العلم والعبادة. وقال ابن عباس، والثورى، والضحاك: السيد الحكيم[8] المتقى[9]، وقال سعيد بن المسيب: هو الفقيه العالم. وقال عطية: السيد فى خلقه ودينه. وقال عكرمة: هو الذى لا يغلبه الغضب. وقال ابن زيد: هو الشريف. وقال مجاهد وغيره[10]: هو

(١) زيادة من أ، و. (٢) زيادة من أ، و. (٣) فى جـ، ر: «ضعف».
(٤) فى جـ، أ، و: «سنته». (٥) فى ر: «يحيى». (٦) فى ر، أ، و: «عليهما»
(٧، ٨) فى جـ، أ، و: «الحليم». (٩) فى أ، و: «التقى». (١٠) فى أ: «غيرهم».

الكريم على الله، عز وجل.

وقوله: ﴿وَحَصُورًا﴾ رُوى عن ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبى الشعثاء، وعطية العَوْفى أنهم قالوا: هو الذى لا يأتى النساء.

وعن أبى العالية والربيع بن أنس: هو الذى لا يولد له. وقال الضحاك: هو الذى لا ولد له ولا ماء له.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن المغيرة، أنبأنا جرير، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس فى الحَصُور: الذى لا ينزل الماء، وقد روى ابن أبى حاتم فى هذا حديثا غريباً جدا فقال: حدثنا أبو جعفر محمد بن غالب البغدادى، حدثنى سعيد بن سليمان، حدثنا عبادة - يعنى ابن العوام - عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيَّب، عن ابن العاص - لا يدرى عبد الله أو عمرو - عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ قال: ثم تناول شيئا من الأرض فقال: «كان ذكره مثل هذا»[1].

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا يحيى بن سعيد القَطَّان، عن يحيى بن سعيد الأنصارى؛ أنه سمع سعيد بن المُسَيَّب، عن عَبد الله بن عمرو بن العاص يقول: ليس أحد من خلق الله لا يلقاه بذنب غير يحيى بن زكريا، ثم قرأ سعيد: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾، ثم أخذ شيئا من الأرض فقال[2]: الحصور ما كان ذكره مثل ذى وأشار يحيى بن سعيد القطان بطرف إصبعه السبابة.

فهذا موقوف[3]، وهو أقوى[4] إسناداً من المرفوع، بل وفى صحة المرفوع نظر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقد قال القاضى عياض فى كتابه[5] الشفاء: اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه[6] كان ﴿حَصُورًا﴾ ليس كما قاله بعضهم: إنه كان هيوبا، أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حُذَّاقُ المفسرين ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا تليق[7] بالأنبياء، عليهم السلام، وإنما معناه: أنه معصوم من الذنوب، أى لا يأتيها كأنه حصر عنها، وقيل: مانعا نفسه من الشهوات. وقيل: ليست له شهوة فى النساء.

وقد[8] بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل فى كونها موجودة ثم قمعها: إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله عز وجل، كيحيى، عليه السلام. ثم هى حق من أقدر[9] عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله[10] عن ربه درجة علياء، وهى درجة نبينا محمد ﷺ

---

(١) تفسير ابن أبى حاتم (٢/ ٢٤١) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١١/ ٥٦١) من طريق يحيى بن سعيد به.

(٢) فى أ، و: «قال».

(٣) تفسير ابن أبى حاتم (٢/ ٢٤٣).

(٤) فى و: «أصح».

(٥) فى أ: «كتاب».

(٦) فى جـ، ر، أ: «بأنه».

(٧) فى أ: «ولا يليق».

(٨) فى جـ، ر، أ: «فقل».

(٩) فى أ: «قدر».

(١٠) فى أ: «يشغله».

الذى لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة، بتحصينهن وقيامه عليهن، واكتسابه لهن، وهدايته إياهن. بل قد صرّح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره، فقال: «حُبِّبَ إلىَّ مِنْ دُنْياكُمْ».

هذا لفظه. والمقصود أن مدح يحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتى النساء، بل معناه كما قاله هو وغيره: أنه معصوم عن الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: ﴿هَبْ[(١)] لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كأنه قال: ولداً له ذرية ونسل وعَقِب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

[وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا عيسى بن حماد زُغْبَة ومحمد بن سلمة المرادى قالا: حدثنا حجاج، عن سلمان بن القمرى، عن الليث بن سعد، عن محمد بن عَجْلان، عن القعقاع، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، أن النبى ﷺ قال: «كل ابن آدم يلقى الله بذنب قد أذنبه يعذبه عليه، إن شاء أو يرحمه، إلا يحيى بن زكريا، فإنه كان سيدًا وحصورًا ونبيا من الصالحين»، ثم أهوى النبى ﷺ إلى قذاة من الأرض فأخذها وقال: «كان ذكره مثل هذه القذاة»][(٢)].

قوله: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته، وهى أعلى من الأولى كقوله[(٣)] تعالى لأم موسى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] فلما تحقق زكريا، عليه السلام، هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ﴾ أى الملك: ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: هكذا أمْرُ الله عظيم، لا يعجزه شىء ولا يتعاظمه أمر ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ أى: علامة أستدل بها على وجود الولد منى ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾ أى: إشارة لا تستطيع النطق، مع أنك سوى صحيح، كما فى قوله: ﴿ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] ثم أمر بكثرة الذكر والشكر والتسبيح فى هذه الحال، فقال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾. وسيأتى طرف آخر فى بسط هذا المقام فى أول سورة مريم، إن شاء الله تعالى.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾.

هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم، عليها السلام، عن أمر الله لهم بذلك: أن الله قد اصطفاها، أى: اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهرها من الأكدار والوسواس[(٤)]، واصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين.

---

(١) فى جـ، ر، أ: «فهب»، وهو خطأ والصواب ما بالأصل. (٢) زيادة من و.
(٣) فى ر: «لقوله». (٤) فى أ: «الوساوس».

قال عبد الرزاق : أنبأنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب فى قوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ** ﴾ . قال : كان أبو هريرة يُحدث عن رسول الله ﷺ : «خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ نِسَاءُ قُرَيْشٍ ، أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِى صِغَرِهِ ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِى ذَاتِ يَدِهِ ، وَلَمْ تَرْكَبْ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ بَعِيرًا قَطُّ» .

لم يخرجوه من هذا الوجه ، سوى مسلم فإنه رواه عن محمد بن رافع وعبد بن حُمَيد[(١)] ، كلاهما عن عبد الرزاق[(٢)] ، به .

وقال هشام بن عُرْوَة ، عن أبيه ، عن عبد الله بن جعفر ، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ» .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث هشام ، به مثله[(٣)] .

وقال الترمذى : حدثنا أبو بكر بن زَنْجَوَيْه ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا[(٤)] مَعْمَر ، عن قتادة ، عن أنس ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ» تفرد به الترمذى وصححه[(٥)] .

وقال عبد الله بن أبى جعفر الرازى ، عن أبيه قال : كان ثابت البُنَانى يحدث عن أنس بن مالك ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أَرْبَعٌ ، مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ [ﷺ][(٦)] »رواه ابن مردويه[(٧)] .

وروى ابن مردويه من طريق شعبة ، عن معاوية بن قُرَّة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ ثَلاَثٌ : مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ على سائر الطعام»[(٨)] .

---

(١) فى ر : «عبد الحميد» .
(٢) عبد الرزاق فى تفسيره (١/ ١٢٨) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٠٠) ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٠٨٢) من وجه آخر : فرواه عن ابن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة به .
(٣) صحيح البخارى برقم (٣٨١٥)، (٣٤٣٢) وصحيح مسلم برقم (٢٤٣٠) .
(٤) فى أ : «عن» .
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٨٧٨) .
(٦) زيادة من جـ، أ .
(٧) ورواه ابن عدى فى الكامل (٤/ ٢١٧) من طريق عبد الله بن أبى جعفر عن أبيه قال : كان ثابت البنانى فذكره .
وقال ابن عدى بعد ما ساق له هذا الحديث : «لا يتابع فى بعض حديثه» .
وقد توبع فرواه الخطيب فى تاريخ بغداد (٩/ ٤٠٤) من طريق عبد الرحمن بن سعد حدثنا أبو جعفر الرازى عن أبى عبد الرحمن محمد بن سعيد عن ثابت به ، وأبو جعفر الرازى عيسى بن ماهان متكلم فيه، لكن روى عن أنس من وجه آخر ، فرواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن أنس به . مصنف عبد الرزاق(١١/ ٤٣٠) ومن طريقه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٢٢٢) «موارد» .
(٨) وقد ذكره الحافظ ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية (٢/ ٥٦) .

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا آدم العسقلانى، حدثنا شُعْبة، حدثنا عمرو بن مُرَّة، سمعت مرَّة الهَمْدانى بحديث عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمُل مِنَ الرِّجَالِ كَثير، ولَم يكملْ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ مَريَمُ بِنْتُ عِمرَانَ، وآسِيَةُ امْرَأةُ فِرْعَوْنَ».

وقد أخرجه الجماعة إلا أبا داود من طرق عن شعبة به[١] ولفظ البخارى: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَال كَثيُر، ولَمْ يَكْملْ مِنَ النِّسَاء إلاَّ آسِيَةُ امْرَأةُ فِرْعَوْنَ، ومَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وإنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ».

وقد استقصيت طرق هذا الحديث وألفاظه فى قصة عيسى ابن مريم[٢]، عليهما السلام، فى كتابنا: «البداية والنهاية» ولله الحمد والمنة[٣].

ثم أخبر تعالى عن الملائكة: أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والخضوع والسجود والركوع والدؤوب فى العمل لها، لما يريد الله [تعالى][٤] بها من الأمر الذى قدره وقضاه، مما فيه محنة لها ورفعة فى الدارين، بما أظهر الله تعالى فيها من قدرته العظيمة، حيث خلق منها ولداً من غير أب، فقال تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾. أما القنوت فهو الطاعة فى خشوع[٥]، كما قال تعالى: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ[٦]﴾ [البقرة: ١١٦].

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى عَمْرو بن الحارث: أن دَرَّاجا أبا السمح حدثه عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ حَرْفٍ فِى الْقُرآنِ يُذْكَرُ فِيهِ الْقُنُوتُ فَهُوَ الطَّاعَةُ».

ورواه ابن جرير من حديث[٧] ابن لهيعة، عن دَرّاج، به، وفيه نكارة[٨].

وقال مجاهد: كانت مريم، عليها السلام، تقوم حتى تتورم كعباها، والقنوت هو: طول الركود[٩] فى الصلاة، يعنى امتثالا لقوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾. بل قال الحسن: يعنى اعبدى لربك ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أى: كونى منهم.

---

(١) تفسير الطبرى (٦/ ٣٩٧) ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٤١١)، (٣٤٣٣) ومسلم برقم (٢٤٣١) والترمذى برقم (١٨٣٤) والنسائى فى الكبرى برقم (٨٣٥٦) وابن ماجة فى السنن برقم (٣٢٨٠).

(٢) فى جـ، ر، أ، و: «عيسى ومريم».

(٣) البداية والنهاية (٢/ ٥٥ ـ ٥٧).

(٤) زيادة من و.

(٥) فى جـ، أ: «الخشوع».

(٦) فى أ، و: «﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦]».

(٧) فى جـ، أ، و: «طريق».

(٨) تفسير ابن أبى حاتم (٢/ ٢٦١) وتفسير الطبرى (٦/ ٤٠٣) ورواه أحمد فى مسنده (٣/ ٧٥) قال الهيثمى فى المجمع (٦/ ٣٢٠): «فى إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف» وفيه أيضا دراج قال أحمد: «أحاديثه مناكير» وضعفه النسائى وأبو حاتم وقال أبو داود: «أحاديثه مستقيمة إلا ما كان عن أبى الهيثم عن أبى سعيد».

(٩) فى أ: «الذكر».

وقال الأوزاعى: ركدت فى محرابها راكعة وساجدة وقائمة، حتى نَزل الماء الأصفر فى قدميها، رضى الله عنها.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمتها من طريق محمد بن يونس الكُدَيمى ـ وفيه مقال ـ: حدثنا على بن بحر بن برّى، حدثنا الوليد بن مسلم، عن الأوزاعى، عن يحيى بن أبى كثير فى قوله: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي﴾ قال: سَجَدت حتى نزل الماء الأصفر فى عينيها[١] [٢].

وذكر ابن أبى الدنيا: حدثنا الحسن بن عبد العزيز، حدثنا ضَمْرة، عن ابن شَوْذَب قال: كانت مريم، عليها السلام، تغتسل فى كل ليلة.

ثم قال تعالى لرسوله [عليه أفضل الصلوات والسلام][٣] بعدما أطلعه على جلية الأمر: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أى: نقصه عليك ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أى: ما كنت عندهم يا محمد فَتُخْبرهم[٤] عنهم معاينة عما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك كنت حاضرا وشاهداً لما كان من أمرهم حين اقترعوا فى شأن مريم أيهم يكفلها، وذلك لرغبتهم فى الأجر.

قال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنى حجاج، عن ابن[٥] جُرَيْج، عن القاسم ابن أبى بَزَّة، أنه أخبره عن عكرمة ـ وأبى بكر، عن عكرمة ـ قال: ثم خَرَجَتْ بها ـ يعنى أم مريم بمريم ـ تحملها فى خرقها إلى بنى الكاهن بن هارون أخى موسى، عليهما السلام ـ قال: وهم يومئذ يلون فى[٦] بيت المقدس ما يلى الحَجَبَة من الكعبة ـ فقالت لهم: دُونكم هذه النَّذيرة فإنى حررتها وهى ابنتى، ولا تدخل[٧] الكنيسة حائض، وأنا لا أردها إلى بيتى؟ فقالوا[٨]: هذه ابنة إمامنا ـ وكان عمران يؤمهم فى الصلاة ـ وصاحب قربانا فقال زكريا: ادفعوها إلىَّ: فإن خالتها تحتى. فقالوا: لا تطيب أنفسنا، هى[٩] ابنة إمامنا فذلك حين اقترعوا بأقلامهم عليها[١٠] التى يكتبون بها التوراة، فَقَرَعَهُم زكريا، فكفلها[١١].

وقد ذكر عكرمة أيضاً، والسدى، وقتادة، والربيع بن أنس، وغير واحد ـ دخل حديث بعضهم فى بعض ـ أنهم دخلوا [١٢] إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم [فيه][١٣] فأيهم ثبت فى جريْة الماء فهو كافلها، فألقوا أقلامهم فاحتملها [١٤] الماء، إلا قلم زكريا فإنه ثبت. ويقال: إنه ذهب صُعُداً يشق جرية الماء، وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم، وعالمهم وإمامهم ونبيهم صلوات الله

---

(١) فى ر: «عينها».
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر(ص٣٦٩) تراجم النساء ط. المجمع العلمى بدمشق، ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٦/ ٧٨).
(٣) زيادة من و.
(٤) فى جـ، أ، ر، و: «فتخبر».
(٥) فى أ: «أبى».
(٦) فى أ، و: «من».
(٧) فى أ، و: «يدخل».
(٨) فى أ: «فقال».
(٩) فى ر: «تلى».
(١٠) فى أ: « اقترعوا بالأقلام».
(١١) لم أجده فى تفسير الطبرى المطبوع.
(١٢) فى أ، و: «ذهبوا».
(١٣) زيادة من أ.
(١٤) فى جـ: «فاحتمل».

وسلامه عليه سائر النبيين(١) [والمرسلين](٢).

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) ﴾.

هذه بشارة من الملائكة لمريم، عليها السلام، بأن سيوجد منها ولد عظيم، له شأن كبير. قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ أى: بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أى: بقوله له: «كن» فيكون، وهذا تفسير قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] كما ذكره الجمهور على ما سبق بيانه ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أى يكون مشهوراً بهذا فى الدنيا، يعرفه المؤمنون بذلك.

وسمى المسيح، قال بعض السلف: لكثرة سياحته. وقيل: لأنه كان مسيح(٣) القدمين: [أى](٤) لا أخْمَص لهما. وقيل: لأنه [كان](٥) إذا مسح أحداً من ذوى العاهات برئ بإذن الله تعالى.

وقوله: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نسبة له إلى أمه، حيث لا أب له ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أى: له وجاهة ومكانة عند الله فى الدنيا، بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزل(٦) عليه من الكتاب، وغير ذلك مما منحه به. وفى الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه، أسوة بإخوانه(٧) من أولى العزم، صلوات الله عليهم.

وقوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾ أى: يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فى حال صغره، معجزة وآية، و[فى](٨) حال كهوليته(٩) حين يوحى الله إليه بذلك ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أى: فى قوله وعمله، له علم صحيح وعمل صالح.

قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط، عن محمد بن شرحبيل، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا تَكَلَّمَ مَوْلُود فِى صِغَرِهِ إلا عِيسَى وصَاحِبَ جُرَيْج»(١٠).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو الصقر يحيى بن محمد بن قَزَعَة، حدثنا الحسين ـ يعنى المروزى ـ حدثنا جرير ـ يعنى ابن حازم ـ عن محمد، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِى المهدِ إلا ثَلاثَة، عِيسى، وَصَبِىٌّ كَانَ فِى زَمَنِ جُرَيْج، وصبىٌّ آخَرُ»(١١).

---

(١) فى جـ، أ: «الأنبياء». (٢) زيادة من أ. (٣) فى ر: «يسيح».
(٤، ٥) زيادة من أ. (٦) فى أ، و: «وينزله».
(٧) فى جـ، أ: «إخوانه»، وفى ر، و: «إخوته». (٨) زيادة من جـ، ر، أ، و. (٩) فى جـ، أ، و: «كهولته».
(١٠) ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٢/ ٢٧٢، ٢٧٣) من طريق أبيه عن أحمد بن شعيب عن محمد بن سلمة عن ابن إسحاق به.
(١١) تفسير ابن أبى حاتم (٢/ ٢٧٢) ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٤٣٦) (٢٤٨٢) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٥٠) من طريق جرير بن حازم عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة به.

فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك، عن الله، عز وجل، قالت فى مناجاتها: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، تقول: كيف يوجد هذا الولد منى وأنا لست بذات زوج ولا من عزمى أن أتزوج، ولست بَغيا؟ حاشا لله. فقال لها الملك ـ عن الله، عز وجل، فى جواب هذا السؤال ـ: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: هكذا أمْرُ الله عظيم، لا يعجزه شىء. وصرح هاهنا بقوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ ولم يقل: « يفعل» كما فى قصة زكريا، بل نص هاهنا على أنه يخلق؛ لئلا يبقى شبهة، وأكد ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أى: فلا يتأخر[١] شيئاً، بل يوجد عقيب[٢] الأمر بلا مهلة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، أى: إنما نأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها، فيكون ذلك الشىء سريعاً كلمح بالبصر[٣].

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١) ﴾.

يقول تعالى ـ مخبرا عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى، عليه[٤] السلام ـ أن الله يعلمه ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ الظاهر أن المراد بالكتاب هاهنا الكتابة. والحكمة تقدم الكلام على تفسيرها فى سورة البقرة[٥].

و﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾، فالتوراة: هو الكتاب الذى أنزله الله على موسى بن عمران. والإنجيل: الذى أنزله الله على عيسى عليهما [٦] السلام، وقد كان [عيسى][٧] عليه السلام، يحفظ هذا وهذا.

وقوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى: [و][٨] يجعله رسولا إلى بنى إسرائيل، قائلا لهم: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وكذلك كان يفعل: يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخُ فيه، فيطير عياناً بإذن الله، عز وجل، الذى جعل هذا معجزة يَدُلّ على أن الله أرسله.

﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾، قيل: هو الذى يبصر نهاراً ولا يبصر ليلا. وقيل بالعكس. وقيل: هو الأعشى. وقيل: الأعمش. وقيل: هو الذى يولد أعمى. وهو أشبه؛ لأنه أبلغ فى المعجزة وأقوى فى التحدى ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ معروف.

---

(١) فى ر: « ولاتتأخر». (٢) فى جـ، ر: «عقب». (٣) فى أ: «البصر».
(٤) فى جـ، أ، و: «عليهما». (٥) الآية رقم ١٢٩. (٦) فى و: «عليه».
(٧، ٨) زيادة من جـ، أ.

﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبى من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى، عليه السلام، السحر وتعظيم السحرة. فبعثه الله بمعجزة بَهَرَت الأبصار وحيرت كل سَحَّار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام، وصاروا من الأبرار. وأما عيسى، عليه السلام، فبُعث فى زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه، إلا أن يكون مؤيداً من الذى شرع الشريعة. فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمة، والأبرص، وبعث من هو فى قبره رهين إلى يوم التناد؟ وكذلك محمد ﷺ بعثه [الله][1] فى زمن الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء، فأتاهم بكتاب من الله، عز وجل، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وما ذاك إلا لأن كلام الرب لا يشبهه كلام الخلق أبداً.

وقوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أى: أخبركم بما أكل أحدكم الآن، وماهو مدخر [له][2] فى بيته لغده ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أى: فى ذلك كله ﴿لَآيَةً لَّكُمْ﴾ أى: على صدْقى فيما جئتكم به ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أى: مقرر لها ومُثَبِّت ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، فيه دلالة على أن عيسى، عليه السلام، نسَخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح من القولين، ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئاً، وإنما أحَلّ لهم بعض ما كانوا يتنازعون [3] فيه فأخطؤوا، فكشف [4] لهم عن المغطى فى ذلك، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣] والله أعلم.

ثم قال: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: بحجة ودلالة على صدقى فيما أقول لكم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أى: أنا وأنتم سواء فى العبودية له والخضوع والاستكانة إليه ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ﴾ أى: استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال قال: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، قال مجاهد: أى من يَتبعنى إلى الله؟ وقال سفيان الثورى وغيره: من أنصارى مع الله؟ وقول [5] مجاهد أقربُ.

والظاهر أنه أراد من أنصارى فى الدعوة إلى الله؟ كما كان النبى ﷺ يقول فى مواسم الحج، قبل أن يهاجر: «مَنْ رَجُل يُؤْوِينى عَلى[أن][6] أبلغ كلامَ ربِّى، فإنَّ قُرَيْشاً قَدْ مَنَعُونى أنْ أُبَلِّغَ كَلامَ

(١) زيادة من جـ، أ، و. (٢) زيادة من ر، أ، و. (٣) فى جـ، ر أ، و: «تنازعوا».
(٤) فى أ، و: « وانكشف». (٥) فى أ: «وقال». (٦) زيادة من ر، وفى جـ، أ، و: «يؤوينى حتى أبلغ».

ربِّى»(١) حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه، وهاجر إليهم فآسوه(٢)، ومنعوه من الأسود والأحمر. وهكذا(٣) عيسى ابن مريم، انْتدَبَ له طائفة من بنى إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه. ولهذا قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾: الحواريون، قيل: كانوا قَصَّارين وقيل: سموا بذلك لبياض ثيابهم، وقيل: صيادين. والصحيح أن الحوارى الناصر، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما نَدَبَ الناس يوم الأحزاب، فانتدَبَ الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير [ثم ندبهم فانتدب الزبير](٤) فقال: «إنَّ لكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِياً وحَوَارِيى الزُّبَيْرُ»(٥).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجّ، حدثنا وكيع، حدثنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، قال مع أمة محمد ﷺ. وهذا إسناد جيد.

ثم قال(٦) تعالى مخبرا عن [ملأ](٧) بنى إسرائيل فيما هَمُّوا به من الفتك(٨) بعيسى، عليه السلام، وإرادته بالسوء والصَلْب، حين تمالؤوا(٩) عليه ووَشَوا به إلى ملك ذلك الزمان، وكان كافراً، فأنْهَوا إليه أن هاهنا رجلا يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك، ويُفَنِّد الرعايا، ويفرق بين الأب وابنه(١٠)، إلى غير ذلك مما تقلدوه فى رقابهم ورموه به من الكذب، وأنه ولد زانية(١١) حتى استثاروا غضب الملك، فبعث فى طلبه من يأخذه ويصلبه ويُنَكّل به، فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظَفروا به، نجاه الله من بينهم، ورفعه من رَوْزَنَة ذلك البيت إلى السماء، وألقى الله شبهه على رجل [ممن](١٢) كان عنده فى المنزل، فلما دخل أولئك اعتقدوه فى ظلمة الليل عيسى، عليه السلام، فأخذوه وأهانوه وصلبوه، ووضعوا على رأسه الشوك. وكان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجى نبيه ورفعه من بين أظهرهم، وتركهم فى ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطَلَبتَهم، وأسكن الله فى قلوبهم قسوة وعنادا للحق ملازما لهم، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)﴾.

اختلف المفسرون فى قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾. فقال قتادة وغيره: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: إنى رافعك إلى ومتوفيك، يعنى بعد ذلك.

---

(١) رواه أحمد فى المسند(٣/ ٣٢٢) من حديث جابر رضى ا« عنه.
(٢) فى أ: «فآمنوه». (٣) فى أ: «وكذا». (٤) زيادة من أ، و.
(٥) صحيح البخارى برقم (٣٧١٩) وصحيح مسلم برقم (٢٤١٥) من حديث جابر رضي الله عنه.
(٦) فى أ: «وقال». (٧) زيادة من أ، و. (٨) فى أ: «القتل».
(٩) فى أ: «مالوا». (١٠) فى جـ، أ، و: «الابن وأبيه». (١١) فى جـ، ر، أ، و: «زنية».
(١٢) زيادة من أ، و.

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أى: مميتك.

وقال محمد بن إسحاق، عمن لا يتهم، عن وَهْب بن مُنَبِّه، قال: توفاه الله ثلاث ساعات من النهار حين رفعه الله إليه.

قال ابن إسحاق: والنصارى يزعمون أن الله توفاه سبع ساعات ثم أحياه.

وقال إسحاق بن بشر[١]، عن إدريس، عن وهب: أماته الله ثلاثة أيام، ثم بعثه، ثم رفعه.

وقال مطر الوراق: متوفيك من[٢] الدنيا وليس بوفاة موت[٣]، وكذا قال ابن جريج: توفيه هو رفعه.

وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هاهنا: النوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ [وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ][٤]﴾[الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ][٥]﴾ [الزمر: ٤٢]، وكان رسول الله ﷺ يقول ـ إذا قام من النوم ـ: «الْحَمْدُ لله الَّذى أحْيَانَا بَعْدَ مَا أمَاتَنَا وإلَيْه النُّشُورُ»، وقال الله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾إلى قوله[تعالى][٦]: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا .بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٦ ـ ١٥٩] والضمير فى قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ عائد على عيسى، عليه السلام، أى: وإن من أهل الكتاب إلا يؤمن[٧] بعيسى قبل موت عيسى، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، على ما سيأتى بيانه، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلّهم؛ لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا عبد الله بن أبى جعفر، عن أبيه، حدثنا الربيع بن أنس، عن الحسن أنه قال فى قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ يعنى وفاة المنام، رفعه الله فى منامه. قال الحسن: قال رسول الله ﷺ لليهود: « إنَّ عِيسَى لَمْ يَمُتْ، وَإنَّه رَاجِعٌ إلَيْكُمْ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: برفعى إياك إلى السماء ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وهكذا وقع؛ فإن المسيح، عليه السلام، لما رفعه الله إلى السماء تَفَرَّقت أصحابه شيَعاً بعده؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله. وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة. وقد حكى الله مقالاتهم فى القرآن، ورَد على كل فريق، فاستمروا كذلك قريبا من ثلاثمائة سنة، ثم نَبَع لهم ملك

---

(١) فى أ: «بشير». (٢) فى أ: «فى». (٣) فى أ: «مرة».

(٤) زيادة من جـ، ر، أ، و. (٥) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية». (٦) زيادة من ر، أ.

(٧) فى جـ، أ، و: «ليؤمن»، وفى ر: «فيؤمن».

(٨) تفسير ابن أبى حاتم (٢/ ٢٩٦) ورواه الطبرى فى تفسيره (٦/ ٤٥٥) من طريق عبد الله بن جعفر عن أبيه عن الربيع عن الحسن به مرسلاً.

من ملوك اليونان، يقال له: قسطنطين، فدخل فى دين النصرانية، قيل: حيلة ليفسده، فإنه كان فيلسوفا، وقيل: جهلا منه، إلا أنه بَدل لهم دين المسيح وحرفه، وزاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين والأمانة الكبيرة ـ التى هى الخيانة الحقيرة ـ وأحل فى زمانه لحم الخنزير، وصَلّوا له إلى المشرق[١]، وصوروا له الكنائس، وزادوا فى صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه، فيما يزعمون. وصار دين المسيح [٢] دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارت مايزيد على اثنى عشر ألف معبد، وبنى المدينة المنسوبة إليه، واتبعه [٣] الطائفة المَلْكيَّة منهم. وهم فى هذا كله قاهرون لليهود، أيَّدهم[٤] الله عليهم لأنهم أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفار، عليهم لعائن الله.

فلما بعث الله محمداً ﷺ، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق ـ كانوا هم أتباع كُل نبى على وجه الأرض ـ إذ قد صدقوا الرسول النبى الأمى، خاتم الرسل، وسيد ولد آدم، الذى دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا [٥] أولى بكل نبى من أمته، الذين يزعمون أنهم على ملّته وطريقته، مع ماقد حرّفوا وبدلوا.

ثم لو لم يكن شىء من ذلك لكان قد نسخ الله بشريعته [٦] شريعة جميع الرسل بما بعث به محمداً ﷺ من الدين الحق، الذى لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة، ولا يزال قائما منصوراً ظاهرا على كل دين. فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واحتازوا [٧]جميع الممالك، ودانت لهم جميعُ الدول، وكسروا كسرى، وقَصروا قيصر، وسلبوهما كُنُوزَهما، وأنفقت فى سبيل الله، كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم، عز وجل، فى قوله: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾** الآية [النور: ٥٥] ولهذا [٨] لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقا[٩] سلبوا النصارى بلاد الشام وأَجْلَوهم إلى الروم، فلجؤوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولايزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة. وقد أخبر الصادق المصدوق أمَّته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية، ويستفيؤون [١٠] ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مَقْتلة عظيمة جدا، لم ير الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها، وقد جمعت فى هذا جزءا مفردا. ولهذا قال تعالى: **﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾** أى: يوم القيامة **﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾**، وكذلك فعل تعالى [١١] بمن كفر بالمسيح من اليهود، أو غلا فيه وأطراه من النصارى؛ عَذبهم فى الدنيا بالقتل والسبى وأخْذ الأموال وإزالة الأيدى عن

---

(١) فى ر: «الشرق».
(٢) فى أ: «عيسى».
(٣) فى أ: «واتبعته».
(٤) فى ر: «أيديهم».
(٥) فى جـ، أ: «وكانوا».
(٦) فى جـ: «شريعة». وفى ر: «شريعته».
(٧) فى ر، و: «واختاروا».
(٨) فى أ: «فلهذا».
(٩) فى و: «حقا بالمسيح».
(١٠) فى أ: «ويستلبون».
(١١) فى ر: «تعالى فعل».

الممالك، وفى الدار الآخرة عَذابُهم أشد وأشق ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ[(١)] أُجُورَهُمْ﴾، أى: فى الدنيا والآخرة، فى الدنيا بالنصر والظفر، وفى الآخرة بالجنات العاليات ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أى: هذا الذى قَصَصْنَاه عليك يامحمد فى أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره، هو مما قاله الله تعالى، وأوحاه إليك ونَزّله عليك من اللوح المحفوظ، فلا مرية فيه ولاشك، كما قال تعالى فى سورة مريم: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤، ٣٥] وهاهنا قال تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ﴾ فى قدرة الله تعالى حيث خلقه من غير أب ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ فإن الله تعالى خلقه من غير أب ولا أم، بل ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ والذى [(٢)] خلق آدم قادر على خلق عيسى بالطريق الأولى والأحرى، وإن جاز ادعاء البنوة فى عيسى بكونه مخلوقا من غير أب، فجواز ذلك فى آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواها فى عيسى أشد بطلانا وأظهر فساداً. ولكن الرب، عزّ وجل، أراد أن يظهر قدرته لخلقه، حين خلَق آدم لا من ذكر ولا من أنثى؛ وخلَق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلَق عيسى من أنثى بلا ذكر كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى فى سورة مريم: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]، وقال هاهنا: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أى: هذا القول هو الحق فى عيسى، الذى لا محيد عنه ولا صحيح [(٣)] سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

ثم قال تعالى ـ آمرا رسوله ﷺ أن يُباهِلَ مَنْ عَانَدَ الحق فى أمر عيسى بعد ظهور البيان: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أى: نحضرهم فى حال المباهلة ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ أى: نلتعن ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾، أى: منا أو منكم.

وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا فى وفد نجران، أن النصارى حين

---

(١) فى ر: «فنوفيهم». (٢) فى جـ، و: «فالذى». (٣) فى أ: «والصحيح».

قدموا فجعلوا يُحَاجّون فى عيسى، ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوة والإلهية، فأنزل الله صَدْرَ هذه السورة رَدا عليهم، كما ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن يَسَار وغيره.

قال ابن إسحاق فى سيرته المشهورة وغيره: وقَدم [(١)] على رسول الله ﷺ وفد نصارى نَجْران، ستون راكبا، فيهم أربعة عَشرَ رجلا من أشرافهم يؤول إليهم أمرهم، وهم: العاقب، واسمه عبد المسيح، والسيد، وهو الأيْهَم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل، وأويس الحارث[(٢)]، وزيد، وقيس، ويزيد، ونبيه، وخويلد، وعَمْرو، وخالد، وعبد الله، ويُحَنَّس.

وأمْرُ هؤلاء يؤول إلى ثلاثة منهم، وهم: العاقب وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم، والذى لا يصدرون إلا عن رأيه، والسيد وكان عالمهم وصاحب رَحْلهم ومُجتمعهم، وأبو حارثة بن علقمة وكان أسْقُفهم وحَبْرَهم وإمامهم وصاحب مدراسهم، وكان رجلا من العرب من بنى بكر بن وائل، ولكنه تَنَصَّر، فعظمته الروم وملوكها وشرفوه، وبنوا له الكنائس وَمَوّلُوه وأخْدَموه، لما يعلمونه من صلابته فى دينهم. وقد كان يعرف أمر رسول الله ﷺ وشأنه وصفته بما علمه من الكتب المتقدمة جيدا، ولكن احتمله جهله على الاستمرار فى النصرانية لما يرى [من] [(٣)] تعظيمه فيها ووجاهته عند أهلها.

قال ابن إسحاق: وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير، قال: قَدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه مَسْجِدَه حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرَات: جُبَب وأرْدية، فى جَمَال رجال بنى الحارث بن كعب. قال: يقول بعض من رآهم من أصحاب النبى ﷺ: ما رأينا بعدهم وفدا مثلهم. وقد حانت صلاتهم، فقاموا فى مسجد رسول الله ﷺ يصلون، فقال رسول الله ﷺ: دَعُوهم فصلّوا إلى المشرق.

قال: فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة، والعاقب عبد المسيح، أو السيِّد الأيهم، وهم من النصرانية على دين الملك، مع اختلاف أمرهم، يقولون: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة. تعالى الله [عن ذلك علوًا كبيرا][(٤)]. وكذلك قول النصرانية، فهم يحتجون فى قولهم: «هو الله» بأنه كان يحيى الموتى، ويُبْرئُ الأسقامَ، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طيرا[(٥)]. وذلك كله بأمر الله، وليجعله آية للناس.

ويحتجون فى قولهم بأنه ابن الله، يقولون: لم يكن له أب يعلم، وقد تكلم فى المهد بشىء لم يصنعه أحد من بنى آدم قبله.

ويحتجون فى [(٦)] قولهم بأنه ثالث ثلاثة، بقول الله تعالى: فعلنا، وأمرنا، وخلقنا، وقضينا؛ فيقولون: لو كان واحداً ما قال إلا فعلتُ وقضيتُ وأمرتُ وخلقتُ؛ ولكنه هو وعيسى ومَرْيَم وفى

---

(١) فى ر: «وفد».
(٢) فى جـ، ر: «و أوس بن الحارث».
(٣) زيادة من جـ، ر،أ،و.
(٤)زيادة من جـ، أ.
(٥) فى جـ، ر،أ، و:«طائرا».
(٦) فى جـ، ر،أ،و: «على».

كل ذلك من (١) قولهم قد نزل القرآن.

فلما كلمه الحَبْران قال لهما رسول الله ﷺ: «أسْلمَا» قالا: قد أسلمنا. قال: «إنَّكُمَا لَمْ تُسْلمَا فأسْلما» قالا: بلى، قد أسلمنا قبلك. قال: «كَذَبْتُمَا، يمْنَعكُمَا منَ الإسْلاَم دُعَاؤكُما (٢) لله ولدا، وَعبَادَتُكُمَا الصَّليبَ وأكْلُكُمَا الخنْزير». قالا: فمن أبوه يامحمد؟ فَصَمَتَ رسول الله ﷺ عنهما فلم يجبهما، فأنزل الله فى ذلك من قولهم، واختلاف أمرهم، صَدْرَ سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها.

ثم تكَلَّم ابن إسحاق على التفسير (٣) إلى أن قال: فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله، والفَصْلُ من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إنْ رَدّوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك؛ فقالوا: يا أبا القاسم، دعْنَا ننظر فى أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل (٤) فيما دعوتنا إليه، فانصرفوا عنه، ثم خَلَوْا بالعاقب، وكان ذا رأيهم، فقالوا: ياعبدَ المسيح، ماذا ترى؟ فقال: والله يامعشر النصارى لقد عرَفْتُم أنَّ محمداً لنبىٌّ مرسل، ولقد جاءكم بالفَصْل من خبرَ صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعَن قوم نبياً قط فبقى كبيرهم، ولا نبت صَغيرهم، وإنه للاستئصال (٥) منكم إن فعلتم، فإن كنتم [قد] (٦) أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم، فوادعُوا الرجلَ وانصرفوا إلى بلادكم.

فأتوا النبى ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا ألاّ نلاعنك، ونتركك على دينك، ونرجعَ على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم (٧) عندنا رضاً.

قال محمد بن جعفر: فقال رسول الله ﷺ: «ائْتُونى الْعَشيَّة أبعث معكم القوى الأمين»، فكان(٨) عمر بن الخطاب يقول: ما أحببت الإمارة قَطّ حُبّى إياها يومئذ، رجاء أن أكون صاحبها، فَرُحْتُ إلى الظهر مُهَجّرا، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهرَ سلَّم، ثم نَظَر عن يمينه وعن يساره، فجعلت أتطاول له ليرانى، فلم يَزَلْ يلتمس ببصره حتى رأى أبا عُبَيدة بن الجَرَّاح، فدعاه: «اخْرُجْ معهم، فَاقْضِ بينهم بِالْحَقِّ فِيما اختَلَفُوا فِيه». قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة، رضى الله عنه(٩).

وقد روى ابن مردويه من طريق محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن(١٠) قتادة، عن محمود بن لبيد، عن رافع بن خُدَيْج: أن وفد أهل نجران قدموا على رسول الله ﷺ فذكر نحوه، إلا أنه قال فى الأشراف: كانوا اثنى عشر. وذكر بقيته بأطول من هذا السياق، وزيادات أُخَر.

وقال البخارى: حدثنا عباس بن الحسين، حدثنا يحيى بن آدم، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن صِلَة بن زُفَر، عن حذيفة قال: جاء العاقبُ والسيدُ صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن

(١) فى جـ، ر: «فى». (٢) فى جـ، أ، و: « ادعاؤكما». (٣) فى جـ، ر،أ،و: «تفسيرها».
(٤) فى جـ، ر: «تريد أن تفعل». (٥) فى جـ، ر: «الاستئصال». (٦) زيادة من أ،و.
(٧) فى جـ، أ: «وإنكم». (٨) فى جـ: «وكان».
(٩) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٧٣ ـ ٥٧٥) ورواه الطبرى فى تفسيره (٦/ ١٥١) من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق به.
(١٠) فى أ: «عن».

يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تَفْعَلْ، فوالله إن [1]كان نبيا فلاعناه لا نفلحُ نحنُ ولاعَقبنا من بعدنا. قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلا أميناً، ولاتبعث معنا إلا أمينا. فقال: «لأبْعثَنَّ معكُمْ رَجُلاً أمينًا [2]، حَقَّ أمينٍ»، فاستشرفَ لها أصحابُ رسول الله ﷺ، فقال: «قُمْ يَاأبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجرَّاحِ» فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هَذَا أَمِينُ هذه الأُمَّةِ».

[و] [3] رواه البخارى أيضا، ومسلم، والترمذى، والنسائى، وابن ماجة[4]، من طرق عن أبى إسحاق السَّبِيعى، عن صِلَة، عن حذيفة، بنحوه.

وقد رواه أحمد، والنسائى، وابن ماجة، من حديث إسرائيل عن أبى إسحاق، عن صلَة عن ابن مسعود، بنحوه[5].

وقال البخارى: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن خالد، عن أبى قِلابة، عن أنس عن النبى ﷺ قال: « لكل أُمَّة أمينٍ وأمين هذه الأُمَّة أَبُو عبيدة بْنُ الْجرَّاحِ»[6].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن يزيد الرَّقِّى أبو يزيد، حدثنا فُرَات، عن عبد الكريم بن مالك الجزَرى» عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال أبو جهل: إن رأيتُ رسول الله ﷺ يصلى عند الكعبة لآتينه حتى أطَأ على عنقه. قال: فقال: «لو فعلَ لأخَذْته الملائكةُ عياناً، ولو أن اليهود تمنَّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجَعَوا لا يجدون مالا ولا أهلا»[7].

وقد رواه الترمذى، والنسائى، من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن عبدالكريم، به. وقال الترمذى: [حديث][8] حسن صحيح[9].

وقد روى البيهقى فى دلائل النبوة قصَّة وَفْد نَجْران مطولة جداً، ولنذكره فإن فيه فوائدَ كثيرة، وفيه غرابة وفيه مناسبة لهذا المقام، قال البيهقى:

حدثنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد محمد بن موسى بن الفضل، قالا: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس بن بُكَيْر، عن سلمة بن عبد يَسُوع، عن أبيه، عن جده قال يونس ـ وكان نصرانيا فأسلم ـ: إن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان: «بِاسْمِ إلَهِ إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ، مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللهِ إلَى أسْقف

---

(١) فى أ، و: «لأن». (٢) فى أ: « أمينا خير أمين». (٣) زيادة من أ، و.

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٧٤٥) (٧٢٥٤) (٤٣٨٠، ٤٣٨١) وصحيح مسلم برقم (٢٤٢٠) وسنن الترمذى برقم (٣٧٩٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨١٩٧) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٥).

(٥) المسند (١/ ٤١٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨١٩٦) وسنن ابن ماجة برقم (٣١٣٦).

(٦) البخارى برقم (٣٧٤٤)، (٤٣٨٢)، (٧٢٥٥)، ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٦٩٠) من حديث أنس بن مالك.

(٧) فى جـ: « أهلا ولا مالا». (٨) زيادة من جـ.

(٩) المسند (١/ ٢٤٨) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٨)، والنسائى فى السنن برقم (١١٦٨٥).

نَجْرانَ وأهلِ نَجْرانَ سِلْم[1] أَنْتم، فإنّى أحْمَدُ إلَيْكُمْ إلَهَ إبْرَاهِيمَ وإسْحَاقَ ويَعْقُوبَ. أَمَّا بَعْدُ، فإنِّى أَدْعُوكُم إلَى عِبَادَةِ اللهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ، وأدْعُوكُمْ إلَى وِلاَيَةِ اللهِ مِنْ وِلاَيَةِ الْعِبَادِ، فَإنْ أَبَيْتُم فَالْجِزْيَةُ، فَإنْ أَبَيْتُم[2] آذَنْتُكُمْ بِحَرْبٍ والسَّلاَمُ».

فلما أتى الأسقف الكتاب فقرأه فَظِعَ به، وذَعَره ذُعراً شديدًا، وبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له: شُرَحْبيل بن وَداعة ـ وكان من هَمْدان ولم يكن أحد يُدْعَى إذا نزلت مُعْضلة قَبْلَه، لا الأيهم ولا السيِّد ولا العاقب ـ فدفع الأسْقُفُ كتابَ رسول الله ﷺ إلى شُرَحبيل، فقرأه، فقال الأسقف: يا أبا مريمَ، ما رأيك[3]؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم فى ذرية إسماعيل من النبوة، فما يُؤْمنُ أن يكون هذا هو ذاك الرجل، ليس لى فى النبوة رأى، ولو كان أمر من أمور الدنيا لأشرت عليك فيه برأيى، وجَهِدتُ لك، فقال له الأسقف: تَنَحَّ فاجلس. فَتَنَحَّى شرحبيل فجلس ناحية، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران، يقال لَهُ: عبد الله بن شرحبيل، وهو من ذى أصبح من حمْير، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأى فيه، فقال له مثل قول شرحبيل، فقال له الأسقف: فاجلس، فتَنَحى فجلس ناحية. وبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران، يقال له: جبار بن فيض، من بني الحارث بن كعب، أحد بني الحماس، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأى فيه؟ فقال له مثل قول شُرَحبيل وعبد الله، فأمره الأسقف فتنحى فجلس ناحية.

فلما اجتمع الرأى منهم على تلك المقالة جميعاً، أمر الأسقف بالناقوس فضُرب به، ورُفعت النيران والمسوح فى الصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا فَزِعوا بالنهار، وإذا كان فزعُهم ليلا ضربوا بالناقوس، ورفعت النيران فى الصوامع، فاجتمعوا[4] حين ضرب بالناقوس ورفعت المسوح أهل الوادى أعلاه وأسفله ـ وطولُ الوادى مَسيرة يوم للراكب السريع، وفيه ثلاث وسبعون قرية، وعشرون ومائة ألف مقاتل . فقرأ عليهم كتابَ رسول الله ﷺ، وسألهم عن الرأى فيه، فاجتمع رأىُ أهل الرأى منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن ودَاعة الهمدانى، وعبد الله بن شُرَحبيل الأصبحى، وجبار بن فيض الحارثى، فيأتونهم[5] بخبر رسول الله ﷺ. فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم، ولبسوا حُلَلا لهم يجرونها من حبرة، وخواتيم الذهب، ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ، فسلموا عليه، فلم يرد عليهم[6]، وتصدوا لكلامه نهارا طويلا، فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل وخواتيم الذهب. فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، وكانا مَعْرفة لهم، فوجدوهما فى ناس من المهاجرين والأنصار فى مجلس، فقالوا: يا عثمان ويا عبد الرحمن، إن نبيكم كتب إلينا بكتاب، فأقبلنا مجيبين له، فأتيناه فسلمنا عليه فلم يرد سلامنا، وتصدينا لكلامه نهارا طويلا فأعيانا أن يكلمنا، فما الرأى منكما، أترون أن نرجع؟ فقالا لعلى بن أبى طالب ـ وهو فى

---

(١) فى جـ، ر، أ، و: «أسلم». (٢) فى جـ، ر، أ، و: «أبيتم فقد». (٣) فى جـ: «ما رأيك يا أبا مريم».
(٤) فى جـ، ر: «فاجتمع». (٥) فى أ: «فيأتوهم». (٦) فى جـ: «عليه السلام» وفى أ: «عليهم السلام».
(٧) زيادة من أ.

القوم ـ: ما ترى يا أبا الحسن فى هؤلاء القوم؟ فقال علىّ لعثمان ولعبد الرحمن: أرى أن يضعوا حُللهم هذه وخواتيمهم، ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يعودوا إليه. ففعلوا فسلموا، فرد سلامهم، ثم قال: «والَّذي بَعَثَني بِالحَقِّ لَقَدْ أَتَوْنِي الْمرَّةَ الأُولَى، وإنَّ إبْلِيسَ لَمَعَهُم» ثم ساءلهم وساءلوه، فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا: ما تقول فى عيسى، فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى، يسرنا إن كنت نبيا أن نسمع ما تقول فيه[1]؟ قال رسول الله ﷺ: «مَا عِنْدى فِيه شىء يَوْمِى هَذَا، فَأَقِيمُوا حَتَّى أُخْبِرَكُمْ بما[2] يقول لى ربِّى فى عيسَى». فأصبح الغد وقد أنزل الله ،عز وجل، هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ [خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى][3] الْكَاذِبِينَ﴾، فأبوا أن يُقروا بذلك، فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعد ما أخبرهم الخبر، أقبل مشتملا على الحسن والحسين فى خَمِيل له وفاطمة تمشى عند ظهره للملاعنة، وله يومئذ عدة نسوة، فقال شرحبيل لصاحبيه: قد علمتما أن الوادى إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأيى[4]، وإنى والله أرى أمرا ثقيلا، والله لئن كان هذا الرجل ملكا مبعوثا، فكنا أول العرب طعن فى عينيه[5] ورد عليه أمره، لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور أصحابه حتى يصيبونا بجائحة، وإنا لأدنى العرب منهم جوارا، ولئن كان هذا الرجل نبيا مرسلا فلاعنَّاه لا يبقى على وجه الأرض منا شَعْر ولا ظُفُر إلا هلك. فقال[6] له صاحباه: يا أبا مريم، فما الرأى؟ فقال: أرى[7] أن أحكمه، فإنى أرى رجلا لا يحكم شططا أبدا. فقالا له: أنت وذاك. قال: فلقى[8] شرحبيلُ رسولَ الله ﷺ، فقال له: إنى قد رأيت خيرا من ملاعنتك. فقال: «وما هو؟» فقال: حكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح، فمهما حكمت فينا فهو جائز. فقال رسول الله ﷺ: «لَعَلَّ وَرَاءَكَ أَحَدًا يَثْرِبُ عَلَيْكَ؟» فقال شرحبيل: سل صاحبى. فسألهما فقالا: ما يرد الوادى ولا يَصْدُرُ إلا عن رأى شرحبيل: فَرَجَع رسول الله ﷺ فلم يلاعنهم، حتى إذا كان الغد أتوه فكتب لهم هذا الكتاب: «بِسْمِ الله الرَّحمنِ الرَّحِيم، هَذَا مَا كَتَبَ مُحَمَّدٌ النَّبى رَسُولُ الله لنَجْرَانَ ـ إنْ كَانَ عَلَيْهِمْ حُكْمَهُ ـ فِي كُلِّ ثَمَرَةٍ وَكُلِّ صَفْرَاءَ وَبَيْضَاءَ وَسَوْدَاءَ وَرَقِيق فَاضِلٍ[9] عَلَيْهِمْ، وَتَرْك ذَلِكَ كُلُّهُ لَهُمْ، عَلَى أَلْفَى حُلَّةٍ، فِي كُلِّ رَجَبٍ أَلْفُ حُلَّةٍ، وفِى كُلِّ صَفَرٍ أَلْفُ حُلَّةٍ» وذكر تمام الشروط وبقية السياق[10].

والغرض أن وفودهم[11] كان فى سنة تسع؛ لأن الزهرى قال: كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله ﷺ، وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح، وهى قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ [وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ][12]﴾[التوبة: ٢٩].

وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن داود المكى، حدثنا بشر بن

(١) فى جـ: «فيه ما تقول». (٢) فى أ: «ما». (٣) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «إلى قوله».
(٤) فى ر: «رأى». (٥) فى جـ، ر: «عينه». (٦) فى أ: «فقالا».
(٧) فى ر: «رأيى». (٨) فى جـ: «فتلقى»، وفى ر: «فيلقى». (٩) فى و: «فافضل».
(١٠) دلائل النبوة للبيهقى (٥/ ٣٨٥).
(١١) فى أ: «ورودهم». (١٢) زيادة من جـ ، أ، ر، و، وفى هـ : «الآية».

مهران، أخبرنا محمد بن دينار، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن جابر قال: قدم على النبي ﷺ العاقب والطيب، فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على أن يلاعناه(١) الغداة. قال: فغدا رسول الله ﷺ، فأخذ بيد على وفاطمة والحسن والحسين، ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيئا(٢)، وأقرا بالخراج، قال: فقال رسول الله ﷺ: «والذي بعثني بالحق لو قالا: لا، لأمطر عليهم الوادي(٣) ناراً» قال جابر: فيهم نزلت ﴿ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾. قال جابر: ﴿أنفسنا وأنفسكم﴾: رسول الله ﷺ وعلى بن أبي طالب ﴿وأبناءنا﴾(٤): الحسن والحسين ﴿ونساءنا﴾: فاطمة.

وهكذا رواه الحاكم في مستدركه، عن على بن عيسى، عن أحمد بن محمد الأزهري(٥)، عن على بن حجر، عن على بن مسهر، عن داود بن أبي هند، به بمعناه، ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه(٦).

هكذا قال: وقد رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن المغيرة(٧)، عن الشعبي مرسلا، وهذا أصح(٨)، وقد روى عن ابن عباس والبراء نحو ذلك.

ثم قال الله تعالى: ﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾ أي: هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد ﴿وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم . فإن تولوا﴾ أي: عن هذا إلى غيره ﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾ أي: من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء، وهو القادر، الذي لا يفوته شيء [سبحانه وبحمده ونعوذ به من حلول نقمه](٩).

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (٦٤)﴾.

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن جرى مجراهم ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال هاهنا. ثم وصفها بقوله: ﴿سواء بيننا وبينكم﴾ أي: عدل ونصف، نستوى نحن وأنتم فيها. ثم فسرها بقوله: ﴿ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به

---

(١) في جـ، أ، و: «يعاوداه» وفي ر: «يعاديه».
(٢) في أ: «يجيبا». (٣) في جـ: «الوادي عليهم». (٤) في ر: «وابنانا».
(٥) في ر: «الأزهر» وفي أ، و: «الزهري».
(٦) المستدرك (٢/ ٥٩٣، ٥٩٤) ورواه أبو نعيم في دلائل النبوة (٢/ ٥٩٣) من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن جابر به.
(٧) في جـ، ر، أ، و: «مغيرة».
(٨) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٣١٠) من طريق شعبة به، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٤/ ٥٤٩)، والطبري في تفسيره (٦/ ٤٦٨) من طريق جرير عن مغيرة عن الشعبي به مرسلا، ورواه سعيد بن منصور في السنن برقم (٥٠٠) من طريق هشيم عن مغيرة عن الشعبي به مرسلا.
(٩) زيادة من و.

شَيْئًا﴾ لا وثَنا، ولا صنما، ولا صليبا ولا طاغوتا، ولا ناراً، ولا شيئاً[(١)]. بل نُفْرِدَ العبادة لله وحده لا شريك له. وهذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، [وقال تعالى][(٢)]: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ثم قال: ﴿وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ قال ابن جُرَيْج: يعني: يطيع بعضا بعضا فى معصية الله. وقال عكرمة: يعنى: يسجد بعضنا لبعض.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أى: فإن تولوا عن هذا النَّصَف وهذه الدعوة فأشْهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذى شرعه الله لكم.

وقد ذكرنا فى شرح البخارى، عند روايته من طريق الزهرى، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود، عن ابن عباس، عن أبى سفيان، فى قصته حين دخل على قيصر، فسألهم عن نسب رسول الله ﷺ وعن صفته ونعته وما يدعو إليه، فأخبره بجميع ذلك على الجلية، مع أن أبا سفيان كان إذ ذاك مُشْركاً لم يُسْلم بعد، وكان ذلك بعد صُلْح الحُدَيْبِيَة وقبل الفتح، كما هو مُصرّح به فى الحديث، ولأنه لما قال[(٣)]: هل يغدر؟ قال: فقلت: لا، ونحن منه فى مُدة لا ندرى ما هو صانع فيها. قال: ولم يمكنى كلمة أزيد فيها شيئا سوى هذه: والغرض أنه قال: ثم جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى هِرَقْلٍ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ، فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ، وأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ[(٤)] تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأريسِيِّين، و﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[(٥)].

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد أن صَدْر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت فى وَفْدِ نَجْران، وقال الزهرى: هم أول من بَذَلَ الجزية. ولا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هِرَقْل فى جملة الكتاب، وبين ما ذكره محمد بن إسحاق والزهرى؟ والجواب من وجُوه:

أحدها: يحتمل أن هذه الآية نزلت مرتين، مَرّةً قبل الحديبية، ومرة بعد الفتح.

---

(١) فى جـ، ر: «وثن ولا صنم ولا صليب ولا طاغوت ولا نار ولا شىء».

(٢) زيادة من و.

(٣) فى جـ: «سأله» وفى أ، و: «ولأنه قال لما سأله».

(٤) فى جـ، ر: «وإن».

(٥) قصة هرقل مع أبى سفيان رواها البخارى مطولة فى صحيحة برقم(٧).

الثانى: يحتمل أن صدر سورة آل عمران نزل فى وفد نجران إلى عند هذه الآية، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك، ويكون قول ابن إسحاق: «إلى بضع وثمانين آية» ليس بمحفوظ، لدلالة حديث أبى سفيان.

الثالث: يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية، وأن الذى بذلوه مُصَالحةً عن المباهلة لا على وجه الجزية، بل يكون من باب المهادنة والمصالحة، ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك على وفق ذلك كما جاء فرض الخمس والأربعة الأخماس وفق ما فعله عبد الله بن جحش فى تلك السرية قبل بدر، ثم نزلت فريضة القسم على وفق ذلك.

الرابع: يحتمل أن رسول الله ﷺ لما أمر بكَتْب هذا [الكلام][1] فى كتابه إلى هرقل لم[2] يكن أنزل بعد، ثم نزل القرآن موافقة له كما نزل بموافقة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الحجاب وفى الأسارى، وفى عدم الصلاة على المنافقين، وفى قوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وفى قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ الآية [التحريم: ٥].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾.

ينكر تعالى على اليهود والنصارى فى محاجتهم[3] فى إبراهيم الخليل، ودعوى[4] كل طائفة منهم أنه كان منهم، كما قال محمد بن إسحاق بن يسار:

حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت، حدثنى سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديا. وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلا نصرانيا. فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ [وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ][5]﴾.

أى: كيف تَدّعُون، أيها اليهود، أنه كان يهوديا، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى، وكيف تَدّعُون، أيها النصارى، أنه كان نصرانيا، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر. ولهذا قال: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

ثم قال: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ [وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ

---

(١) زيادة من جـ، ر، أ، و. (٢) فى أ، و: «إن لم». (٣) فى أ: «تحاجه».
(٤) فى أ: «فى دعوى». (٥) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

لا تَعْلَمُون][(١)]﴾ هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به، فإنَّ اليهود والنصارى تَحَاجّوا فى إبراهيم بلا علم، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علْم مما يتعلق بأديانهم التى شرعت لهم إلى حين بعثة محمد ﷺ لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لم يعلموا به، فأنكر الله عليهم ذلك، وأمرهم بردّ ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة، الذى[(٢)] يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ أى: مُتَحَنفًا عن الشرك قَصْدًا إلى الإيمان ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وهذه الآية كالتى[(٣)] تقدمت فى سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا [قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ][(٤)]﴾[البقرة: ١٣٥].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى: أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه، وهذا النبى ـ يعني محمداً ﷺ ـ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومَنْ بعدهم.

قال سعيد بن منصور: أخبرنا أبو الأحوص، عن سعيد بن مسروق، عن أبى الضُّحَى، عن مسروق، عن ابن مسعود، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ لِكُلِّ نَبِىٍّ وُلاَةً مِنَ النَّبِيِّينَ، وإنَّ وَلِيِّى مِنْهُمْ أبى وخَلِيلُ رَبِّى عز وجل». ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ [وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ][(٥)]﴾.

وقد رواه الترمذى والبزار من حديث أبى أحمد الزُّبيرى، عن سفيان الثورى، عن أبيه، به[(٦)]، ثم قال البزار: ورواه غير[(٧)] أبى أحمد، عن سفيان، عن أبيه، عن أبى الضحى، عن عبد الله، ولم يذكر[(٨)] مسروقا. وكذا رواه الترمذى من طريق وَكِيع، عن سفيان، ثم قال: وهذا أصح[(٩)]. لكن رواه وكيع فى تفسيره فقال: حدثنا سفيان، عن أبيه، عن أبى إسحاق، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ. . . فذكره.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: ولى جميع المؤمنين برسله.

---

(١) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ «الآية». (٢) فى ر: «والذى». (٣) فى ر: «الذى».

(٤) زيادة من ر، جـ، أ، و، وفى هـ: «الآية». (٥) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٦) سعيد بن منصور فى السنن برقم (٥٠١) والترمذى فى السنن برقم (٢٩٩٥) وقد خولف أبو أحمد الزبيرى وأبو الأحوص فى رواية هذا الحديث، فرواه ابن مهدى ويحيى القطان وأبو نعيم، فلم يذكروا فيه مسروق.

قال ابن أبى حاتم فى العلل (٦٣/٢): سألت أبى وأبا زرعة عن حديث رواه أبو أحمد الزبيرى وروح بن عبادة فذكره، فقالا جميعا: «هذا خطأ رواه المتقنون من أصحاب الثورى عن الثورى عن أبيه عن أبى الضحى عن النبى ﷺ بلا مسروق».

(٧) فى ر: «عن». (٨) فى و، أ: «عن عبد الله يعنى ولم يذكر».

(٩) سنن الترمذى برقم (٤٠٨١).

﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٧٤) ﴾.

يخبر تعالى عن حَسَد اليهود للمؤمنين وبَغْيهم إياهم الإضلال، وأخبر[١] أنْ وَبَالَ ذلك إنما يعود على أنفسهم، وهم لا يشعرون أنهم[٢] ممكور بهم.

ثم قال[٣] تعالى منكرا عليهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أى: تعلمون صدقها وتتحققون حقها ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: تكتمون ما فى كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه.

﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ [لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ][٤]﴾ هذه مكيدة أرادوها لِيَلْبسُوا على الضعفاء من الناس أمْر دينهم، وهو أنهم اشْتَوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويُصَلّوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما رَدّهم[٥] إلى دينهم اطّلاعهُم على نقيصة وعيب فى دين المسلمين، ولهذا قالوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد، فى قوله تعالى إخبارًا عن اليهود بهذه الآية: يعنى يهود، صَلَّت مع النبى ﷺ صلاة الفجر وكفروا آخر النهار، مكرًا منهم، ليُرُوا الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة، بعد أن كانوا اتبعوه.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس: قالت طائفة من أهل الكتاب: إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا، وإذا كان آخره فَصلّوا صلاتكم، لعلهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا.[وهكذا روى عن قتادة والسدى والربيع وأبى مالك][٦].

وقوله: ﴿وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أى: لا تطمئنوا وتظهروا سركم وما عندكم إلا لمن اتبع دينكم ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين، فيؤمنوا به ويحتجوا[٧] به عليكم؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ

(١) فى أ: «فأخبر». (٢) فى ر: «فهم». (٣) فى جـ: «وقال».
(٤) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية». (٥) فى جـ، أ، و: «رجعهم». (٦) زيادة من جـ، أ، و.
(٧) فى جـ، أ، و: «يحتجون».

﴿إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ أى هو الذى يهدى قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان، بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات، والدلائل القاطعات، والحجج الواضحات، وَإِنْ كتمتم[١] ـ أيها اليهود ـ ما بأيديكم من صفة محمد فى[٢] كتبكم التى نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين.

وقوله ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يقولون: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين، فيتعلموه منكم، ويساووكم[٣] فيه، ويمتازوا[٤] به عليكم لشدة الإيمان[٥] به، أو يحاجوكم[٦] به عند الله، أى: يتخذوه حجة عليكم مما بأيديكم، فتقوم[٧] به عليكم الدلالة وتَتَركَّب الحجةُ فى الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أى: الأمورُ كلها تحت تصريفه، وهو المعطى المانع، يَمُنّ على من يشاء بالإيمان والعلم والتصور التام، ويضل من يشاء ويُعمى بصره وبصيرته، ويختم على سمعه وقلبه، ويجعل على بصره غشاوة، وله الحجة والحكمة[٨].

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أى: اختصكم ـ أيها المؤمنون ـ من الفضل بما لا يُحَد ولا يُوصَف، بما شرف به نبيكم محمدًا ﷺ على سائر الأنبياء وهداكم به لأحمد[٩] الشرائع.

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) ﴾.

يخبر تعالى عن اليهود بأن فيهم الخونة، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم، فإن منهم ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ أى: من المال ﴿ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ أى: وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أى: بالمطالبة والملازمة والإلحاح فى استخلاص حقك، وإذا كان هذا صنيعه فى الدينار فما فوقه أولى ألا يؤديه.

وقد تَقَدَّم الكلام على القنطار فى أول السورة، وأما الدينار فمعروف.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا سعيد بن عمرو السَّكُونى، حدثنا بَقيَّة، عن زياد بن الهيثم، حدثنى مالك بن دينار قال: إنما سمى الدينار لأنه دين ونار، وقال: معناه: أنه[١٠] من أخذه بحقه فهو دينه، ومن أخذه بغير حقه فله النار.

ومناسب أن يكون[١١] ها هنا الحديث الذى علقه البخارى فى غير موضع من[١٢] صحيحه، ومن أحسنها سياقه فى كتاب الكفالة حيث قال: وقال الليث: حدثنى جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن بن

---

(١) فى جـ، ر: «كنتم». (٢) فى و : «صفة محمد التى فى». (٣) فى جـ، ر، و: «يساوونكم».
(٤) فى جـ، ر: «ويمتازون». (٥) فى جـ، أ: «بشدة الآيات». (٦) فى جـ، ر: «ويحاجوكم».
(٧) فى أ: «فيقوم». (٨) فى أ: «والحكم». (٩) فى جـ: «أكمل»، وفى ر، أ، و: «لأكمل».
(١٠) فى جـ، ر: «أن». (١١) فى جـ، ر: «يذكر». (١٢) فى جـ، ر: «فى».

هُرْمُز الأعرج، عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ: أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ سَأَلَ [بَعْض][1] بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسلفه أَلْفَ دينار، فَقَالَ: ائتنى بالشُّهَدَاء أُشْهِدْهُم. فَقَالَ: كَفَى بالله شَهيدًا. قَالَ: ائتنى بالْكَفِيلِ. قَالَ: كَفَى بالله كَفيلاً. قَالَ[2]: صَدَقْتَ. فَدَفَعهَا إِلَيْه إِلَى أجلٍ مُسمّى، فَخَرجَ فِى الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُها يَقْدم عَلَيْه للأَجَلِ الَّذى أَجَّله، فلم يَجدْ مَرْكباً، فَأَخَذَ خَشَبَةً فنقرهَا فَأَدْخَلَ فيهَا أَلْفَ دينَار، وصَحيفَةً منْهُ إِلَى صَاحبه، ثُمَّ زجَّج مَوْضعهَا، ثُمَّ أتَى بهَا إِلَى الْبَحْر، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعلَمُ أَنِّى اسْتَسْلَفت[3] فلانًا أَلْفَ دينَار فسَأَلنى كفيلا، فَقُلْتُ: كَفَى بالله كَفيلا فَرَضِىَ بك. وَسَأَلَنى شَهيدًا، فَقُلْتُ: كَفَى بالله شَهيدًا. فَرَضِىَ بكَ[4]، وإِنِّى جَهَدْتُ أَنْ أَجدَ مَرْكَبًا أَبْعثُ إِلَيْه الذى لَهُ فَلَمْ أَقْدرْ، وإِنِّى اسْتَوْدَعْتُكَهَا[5]. فَرَمَى بهَا فى الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فيه، ثُمَّ انصرَفَ[6] وَهُوَ فى ذَلكَ يَلْتَمسُ مَرْكباً يَخرُجُ إِلَى بَلَده، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذى كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكباً يَجيئُهُ بمَاله، فإِذَا بالخَشَبَة الَّتى فيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لأَهْله حطَباً، فَلَمَّا كَسرَها وجَدَ الْمَالَ والصَّحيفَةَ، ثُمَّ قدمَ الرَّجُلُ الَّذى كَانَ تَسَلَّفَ منْهُ، فَأَتَاهُ بأَلْف دينَار، وَقَالَ: وَالله مَا زلْتُ جَاهدًا فى طَلَب مَرْكب لآتيكَ بمَالكَ، فما وجَدْتُ مَرْكَباً قَبْلَ الَّذى أَتَيْتُ فيه. قَالَ: هَلْ كُنتَ بَعَثْتَ إِلَىَّ بشَىْءٍ؟ قَالَ: أَلَمْ أُخْبِرْكَ أَنِّى لَمْ أجدْ مَرْكَباً قَبْلَ هَذَا؟ قَالَ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذى بَعَثْتَ فى الْخَشَبَة، فَانْصَرفْ بأَلْف دينَار رَاشدا.

هكذا رواه[7] البخارى فى موضعه مُعلَّقاً بصيغة الجزم، وأسنده فى بعض المواضع من الصحيح عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه. ورواه الإمام أحمد فى مسنده هكذا مطولا، عن يونس بن محمد المؤدب، عن الليث به[8]. ورواه البزار فى مسنده، عن الحسن بن مُدْرِك، عن يحيى بن حماد، عن أبى عَوَانة، عن عمر بن أبى سلمة، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ بنحوه، ثم قال: لا يروى عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد. كذا قال، وهو خطأ، لما تقدم[9].

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ أى: إنَّما حَمَلهم على جُحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا فى ديننا حَرَج فى أكل أموال الأميّين، وهم العرب؛ فإن الله قد أحلها لنا. قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أى: وقد اختلقوا هذه المقالة، وائتفكوا بهذه الضلالة، فإن الله حرَم عليهم أكل الأموال إلا بحقها، وإنما هم قوم بُهْت.

قال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن أبى إسحاق الهمدانى، عن [أبى][10] صَعْصَعَة بن يزيد[11]؛ أن رجلا سأل ابن عباس، قال: إنا نُصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجةَ والشاةَ؟ قال[12] ابن

(١) فى ر: «رجلا». (٢) فى جـ، ر، أ: «فقال». (٣) فى جـ، أ، و: «تسلفت»، وفى ر: «استلفت».
(٤) فى أ: «ذلك». (٥) فى و: «استودعكها». (٦) فى و: «انصرفت».
(٧) فى أ: «أورد».
(٨) صحيح البخارى فى الكفالة برقم(٢٢٩١) وفى غيرها برقم(١٤٩٨)،(٢٤٠٤)،(٢٤٣٠)، (٢٧٤٤)، (٦٢٦١) والمسند (٢/ ٣٤٨).
(٩) وذكره المؤلف فى البداية والنهاية (٢/ ١٢٨) ووجه الخطأ أنه قد جاء من وجه آخر وهى رواية أحمد والبخارى.
(١٠) زيادة من جـ، ر. (١١) فى أ: «مرثد». (١٢) فى أ: «فقال».

عباس: فتقولون[١] ماذا؟ قال: نقول[٢]: ليس علينا بذلك بأس. قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ إنهم إذا[٣] أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم.

وكذا رواه الثورى، عن أبى إسحاق[٤] بنحوه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن يحيى، أخبرنا أبو الربيع الزهرانى[٥]، حدثنا يعقوب، حدثنا جعفر، عن سعيد بن جبير قال: لما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ قال نبى الله [ﷺ][٦]: «كَذَبَ أَعْدَاءُ اللهِ، مَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ فِى الْجَاهِلِيَّةِ إلا وهو تَحْتَ قَدَمَىَّ هَاتَيْنِ إلا الأَمَانَةَ، فإنَّها مُؤَدَّاةٌ إلى الْبَرِّ والْفَاجِرِ»[٧].

ثم قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ﴾ أى: لكن من أوفى بعهده منكم يا أهل الكتاب الذى عاهدكم الله عليه، من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بُعث، كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك، واتقى محارم الله تعالى واتبع طاعته وشرعته التى بعث بها خاتم رسله[٨] وسيد البشر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) ﴾.

يقول تعالى: إن الذين يعتاضون[٩] عما عهدهم[١٠] الله عليه، من اتباع محمد ﷺ، وذكر[١١] صفته الناس وبيان أمره، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة، وهى عروض هذه[١٢] الدنيا الفانية الزائلة ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أى: لا نصيب لهم فيها، ولا حظ لهم منها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: برحمة[١٣] منه لهم، بمعنى: لا يكلمهم كلام لطف بهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أى: من الذنوب والأدناس، بل يأمر بهم إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة فلنذكر ما تيسر منها:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا شعبة قال: على بن مُدْرِك أخبرنى قال: سمعت أبا زُرْعَة، عن خَرَشَة[١٤] بن الحُر، عن أبى ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قلت: يا رسول الله، من هم؟ خابوا وخسروا. قال: وأعاده رسول الله [ﷺ][١٥] ثلاث مرات قال: «المُسْبِل، والمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ

---

(١) فى ر، أ: «فيقولون». (٢) فى أ: «يقول». (٣) فى أ: «لو».
(٤) تفسير عبد الرزاق (١/ ١٣٠).
(٥) فى ر: «الزهرى». (٦) زيادة من جـ، أ، و.
(٧) تفسير ابن أبى حاتم (٢/ ٣٤٩) ورواه الطبرى فى تفسيره (٦/ ٥٢٢) وهو مرسل.
(٨) فى جـ، ر، أ، و: «الرسل». (٩) فى جـ: «يقاضون». (١٠) فى ر، أ، و: «عاهدتم».
(١١) فى جـ: « فذكر». (١٢) فى أ، و: «عروض الحياة هذه الدنيا». (١٣) فى أ: «برحمته».
(١٤) فى ر، أ: «حرسه». (١٥) زيادة من جـ، ر، أ، و.

الْكَاذِبِ، والـمنانُ»[١].

ورواه مسلم، وأهل السنن، من حديث شعبة، به.

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا إسماعيل، عن الحُرَيرى، عن أبى العلاء بن الشِّخِّير، عن أبى الأحْمَس [٢] قال: لقيتُ أبا ذر، فقلتُ له: بلغنى عنك أنك تُحدِّث حديثا عن رسول الله ﷺ. فقال: أما إنه لا تَخالُنى أكذبُ على رسول الله ﷺ بعد ما سمعته منه، فما الذى بلغك عنى؟ قلتُ: بلغنى أنك تقول: ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يَشْنَؤهم الله عز وجل. قال: قلته وسمعته. قلت: فمن هؤلاء الذين يحبهم الله؟ قال: الرجل يلقى العدوّ فى فئة فينصب لهم نَحْرَه حتى يقتل أو يفتح لأصحابه. والقومُ يسافرون فيطول سراهم حتى يَحنُّوا أن يمسوا [٣] الأرض فينزلون، فيتنحى أحدهم فيصلى حتى يوقظهم لرحيلهم. والرجلُ يكون له الجار يؤذيه[٤] فيصبر على أذاهُ حتى يفرق بينهما موت [٥] أو ظَعْن. قلت: ومن هؤلاء الذين يشنأ [٦] الله ؟ قال: التاجر الحلاف ـ أو [٧]: البائع الحلاف ـ والفقير المختال، والبخيل المنان[٨]. غريب من هذا الوجه[٩].

الحديث الثانى: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن جرير بن حازم قال: حدثنا عَدِىّ ابن عدى، أخبرنى رجاء بن حَيْوة والعُرْس بن عَميرة [١٠]عن أبيه عَدِى ـ هَو ابن عميرة الكندى ـ قال: خاصم رجل من كِنْدَةَ يقال له: امرؤ القيس بن عابس[١١] رَجلا من حَضْرَمَوْت إلى رسول الله ﷺ فى أرض، فقضى على الحضرمى بالبينة، فلم يكن[١٢] له بينة، فقضى على امرئ القيس باليمين. فقال الحضرمى: إن أمكنته من اليمين يارسول الله ذهبتْ ورب[١٣] الكعبة أرضى. فقال النبى ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كاذبة لِيقتطعَ بِهَا مَال أحَد لَقىَ الله عَزَّ وجَلَّ وَهُوَ عَلَيْه غَضْبَانٌ» قال رجاء: وتلا رسول الله ﷺ : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلا**﴾. فقال امرؤ القيس: ماذا لمن تركها يا رسول الله؟ فقال [١٤]: «الجنة» قال: فاشهَدْ أنى قد تركتها له كلها.

ورواه النسائى من حديث عدى بن عدى، به[١٥].

الحديث الثالث : قال أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شَقَيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ :« مَنْ حَلَفَ عَلَى يمين هو فيها فَاجِر، لِيقْتَطِعَ بِهَا مَال امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِىَ الله عَزَّ

---

(١) المسند (٥/ ١٤٨) وصحيح مسلم برقم (١٠٦) وأبو داود فى السنن برقم (٤٠٨٧، ٤٠٨٨) والترمذى فى السنن برقم (١٢١١) والنسائى فى السنن (٥/ ٨١) وابن ماجه فى السنن برقم (٢٢٠٨).

(٢) فى ر: «الأخفش».

(٣) فى جـ، ر: «يحبوا أن يمشوا».

(٤) فى ر: «يؤذيه جوره»، وفى أ، و: « يؤذيه جواره».

(٥) فى جـ، ر: «الموت».

(٦) فى جـ، ر، أ: «يشناهم».

(٧) فى أ، و : « أو قال».

(٨) فى ر: «المنام».

(٩) المسند (٥/ ١٥١).

(١٠) فى أ: «عمير».

(١١) فى جـ، ر، أ، و: «بن عامر» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه من المسند للإمام أحمد(٤/ ١٩١).

(١٢) فى و: «تكن».

(١٣) فى ر: «أو رب».

(١٤) فى أ: «قال».

(١٥) المسند (٤/ ١٩١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٥٩٩٦).

وجلَّ وَهوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ».

فقال [١] الأشعث: فىّ والله كان ذلك، كان بينى وبين رجل من اليهود أرض فجَحَدنى، فقدَّمته إلى رسول [٢] الله ﷺ فقال لى رسول الله ﷺ: « أَلَكَ بَيِّنة؟» قلتُ: لا، فقال لليهودى: «احْلفْ» فقلتُ: يارسول الله، إذا يحلف فيذهب مالى. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلا﴾ [إلى آخر] [٣] الآية: أخرجاه من حديث الأعمش[٤].

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا أبو بكر بن عيَّاش، عن عاصم بن أبى النَّجُود، عن شَقيق بن سلمة، حدثنا عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ مَالَ امرئ مسلمٍ بغير حَقٍّ لَقِيَ الله وَهُوَ عَلَيْه غَضْبَان» قال: فجاء الأشْعث بن قَيْس فقال: مايُحدِّثكم أبوعبد الرحمن؟ فحدثناه، فقال: فىّ كان[٥] هذا الحديث، خاصمتُ ابن عمٍّ لى إلى رسول الله ﷺ فى بئر لى كانت فى يده، فجَحَدنى، فقال رسول الله ﷺ: «بَيِّنَتُكَ أَنَّها بئْرُكَ وَإلا فَيَمينُهُ» قال: قلتُ: يارسول الله، ما لى بينة، وإن تجعلها بيمينه [٦] تذهب بئرى[٧]؛ إنَّ خَصْمى امرؤ فاجر. فقال رسول الله ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ مَالَ امرْئٍ مُسْلمٍ بغَيْرِ حَقٍّ لَقِيَ الله وَهُوَ عَلَيْه غَضْبَان» قال: وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً [أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ][٨] ﴾[٩].

الحديث الرابع: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غَيْلان، حدثنا رِشْدين عن زبّان، عن سهل ابن معاذ بن أنس، عن أبيه، عن النبى ﷺ: «إنَّ لله تَعَالى عبادًا لاَ يُكَلِّمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَة وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ» قيل: ومن أولئك يارسول الله؟ قال: «مُتَبَرِّئٌ منْ وَالدَيه رَاغِبٌ عَنْهُمَا، ومُتَبَرِّئٌ من وَلَده، وَرَجُلٌ أنْعَمَ عَلَيْه قَوْمٌ فكَفَرَ نعْمَتَهُمْ وَتَبرَّأَ مِنْهُمْ»[١٠].

الحديث الخامس: قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا هُشَيْم، أنبأنا العوّام ـ يَعنى ابن حَوْشَبَ ـ عن إبراهيم بن عبد الرحمن ـ يَعنى السَّكْسكى ـ عن عبد الله بن أبى أوْفَى: أن رجلا أقام سلعة له فى السوق، فحلف بالله لقد أعْطَى بها ما لم يُعْطه، ليُوقع فيها رجلا من المسلمين، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلا﴾.

ورواه البخارى، من غير وجه، عن العوام[١١].

الحديث السادس: قال الإمام أحمد: حدثنا وَكيع، حدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى

---

(١) فى جـ، ر: «قال». (٢) فى ر: «النبى». (٣) زيادة من جـ، ر، أ، و.

(٤) المسند (٥/ ٢١١) والبخارى فى صحيحه برقم (٢٦٧٣).

(٥) فى جـ: «كان فىّ». (٦) فى جـ، ر: «يمينه».

(٧) فى جـ: «فذهب ببئر»، وفى ر: «يذهب بئرى». (٨) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٩) المسند (٥/ ١٢).

(١٠) المسند (٣/ ٤٤٠).

(١١) تفسير ابن أبى حاتم (٢/ ٣٥٥) وصحيح البخارى برقم (٤٥٥١).

هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثَة لا يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقِيامَة وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهم عذابٌ أليم: رَجُلٌ مَنَعَ ابْنَ السَّبِيل فَضْلَ مَاء عِنْدهُ، ورَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ ـ يَعْنِى كَاذِبًا ـ وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا، فَإِنْ أَعْطَاهُ وَفَى لَهُ، وَإِنْ لَم يُعْطِه لَمْ يَفِ لَهُ».

ورواه أبو داود، والترمذى، من حديث وكيع. وقال الترمذى: حسن صحيح[(١)].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)﴾.

يخبر تعالى عن اليهود، عليهم لعائن الله، أن منهم فريقا يُحَرِّفون الكلم عن مواضعه ويُبَدِّلون كلام الله، ويزيلونه عن المراد به، ليُوهِموا الجهلة أنه فى كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله، وهو كذب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا فى ذلك كله؛ ولهذا قال: **﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾**.

وقال مجاهد، والشعبي، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس: **﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾**: يحرفونه.

وهكذا روى[(٢)] البخارى عن ابن عباس: أنهم[(٣)] يحرفون ويزيدون[(٤)]. وليس أحد من خلق الله يزيل لفظ كتاب من كتب الله، لكنهم يحرفونه: يتأولونه على غير تأويله.

وقال وهب بن مُنَبِّه: إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله لم يغير منهما حرف، ولكنهم يُضلّونَ بالتحريف والتأويل، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم، **﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾** فأما كتب الله فإنها محفوظة ولا تحول.

رواه ابن أبى حاتم، فإن عَنَى وَهْب ما بأيديهم من ذلك، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص، وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير، وزيادات كثيرة ونقصان، ووَهْم فاحش. وهو من باب تفسير المعبر[(٥)] المعرب، وفَهْم[(٦)] كثير منهم بل أكثرهم، بل جميعهم فاسد. وأما إن عَنَى كتبَ الله التى هى كتبه عندَه، فتلك كما قال محفوظة لم يدخلها شيء.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠)﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثنا محمد بن أبى محمد، عن عِكْرِمة أو سعيد بن جُبَير، عن ابن

---

(١) المسند (٢/ ٤٨٠) وسنن أبى داود برقم (٣٤٧٤) وسنن الترمذى برقم (١٥٩٥).
(٢) فى أ، و: «وحكى». (٣) فى جـ، أ، و: «أنه قال». (٤) فى جـ، ر، أ، و: «يزيلون».
(٥) فى أ، و: «المعنى». (٦) فى أ: «وفهمه».

عباس، قال: قال أبو رافع القُرَظى، حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران، عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدكَ كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصرانى يقال له الرئيس: أوَ ذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعوننا؟أو كما قال. فقال رسول الله ﷺ: «مَعَاذَ الله أنْ نَعْبُدَ غَيْرَ الله، أو أنْ نَأمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِه، مَا بِذَلِكَ بَعَثَنى، وَلا بِذَلِكَ أمَرَنى». أو كما قال ﷺ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك من قولهما: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الآية][1] إلى قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[2].

فقوله[3]: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: ما ينبغى لبشر آتاه الله الكتاب والحُكْم والنبوة أن يقول للناس: اعبدونى من دون الله. أى: مع الله، فإذا[4] كان هذا لا يصلح[5] لنبى ولا لمرسل،فلأن لا يصلح[6] لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى؛ ولهذا قال الحسن البصرى: لا ينبغى هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته. قال: وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضا ـ يعنى أهل الكتاب ـ كانوا يَتعبَّدون لأحبارهم ورهبانهم، كما قال الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ [وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ][7]﴾[التوبة: ٣١] وفى المسند، والترمذى ـ كما سيأتى ـ أن عَدىّ بن حاتم قال: يا رسول الله، ما عبدوهم. قال: «بَلَى، إنَّهُمْ أحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلاَلَ، فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ[8] عِبادتُهُم إيَّاهُمْ».

فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون فى هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنما يأمرون بما أمرَ الله به وبلغتهم إياه رسله الكرام. إنما يَنْهَوْنهم عما نهاهم الله عنه وبلغتهم إياه رسله الكرام، فالرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعينَ، هم السفراء بين الله وبين خلقه فى أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم قيام، ونصحوا الخلق، وبلغوهم الحق.

وقوله: ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أى: ولكن يقول الرسول للناس: كونوا ربَّانيين. قال ابن عباس وأبو رَزين وغير واحد، أى: حكماء علماء حلماء. وقال الحسن وغير واحد: فقهاء، وكذا رُوى عن ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، وقتادة، وعطاء الخراسانى، وعطية العوفى، والربيع بن أنس. وعن الحسن أيضا: يعنى أهل عبادة وأهل تقوى.

وقال الضحاك فى قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: حَقٌّ على من تعلم القرآن أن يكون فَقيهاً: ﴿تُعْلَمُونَ﴾ أى: تفهمون[9] معناه. وقرئ ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بالتشديد من التعليم ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: تحفظون[10] ألفاظه.

---

(١) زيادة من جـ، ر، أ، و.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٥٤) ورواه الطبرى فى تفسيره (٦/ ٥٣٩) من طريق ابن إسحاق به.

(٣) فى أ: «وقوله». (٤) فى جـ، ر، أ، و: «إذا». (٥) فى أ، و: «يصح».

(٦) فى أ: «يصح». (٧) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٨) فى أ، و: «فذاك». (٩) فى أ، و: «يعلمون أى يفهمون». (١٠) فى ر: «يحفظون».

ثم قال: ﴿وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ أى: ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله، لا نبى مرسل ولا ملك مُقرَّب ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أى: لا يَفعَل[1] ذلك؛ لأنَّ من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي[2] إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الآية [النحل: ٣٦]، وقال تعالى[3]: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال [تعالى][4] إخباراً عن الملائكة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) ﴾.

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبى بعثه من لدن آدم، عليه السلام، إلى عيسى، عليه السلام، لَمَهْمَا آتى الله أحدَهم من كتاب وحكمة، وبلغ أىّ مبلَغ، ثم جاءه رسول من بعده، ليؤمنَنّ به ولينصرنَّه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته؛ ولهذا قال تعالى وتقدس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أى: لمهما أعطيتكم[5] من كتاب وحكمة ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾.

وقال ابن عباس، ومجاهد، والربيع، وقتادة، والسدى: يعنى عهدى.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿إِصْرِي﴾ أى: ثقل ما حمّلتم من عهدى، أى[6]: ميثاقى الشديد المؤكد.

﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ. فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أى: عن هذا العهد والميثاق، ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .

قال على بن أبى طالب وابن عمه عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما: ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بَعَث محمداً وهو حَىّ ليؤمنن به ولينصرنه، وأمَرَه أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بعث محمد [ﷺ][7] وهم أحياء ليؤمِنُنَّ به ولينصرنَّه.

---

(١) فى ر: «تفعل». (٢) فى ر: «يوحى». (٣) زيادة من جـ، ر، أ.
(٤) زيادة من جـ، ر، أ، و. (٥) فى أ: «أعطيكم». (٦) فى جـ، ر، أ، و: «يعنى».
(٧) زيادة من أ.

وقال طاووس، والحسن البصرى، وقتادة: أخذ [١] الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضا.

وهذا لا يضاد ما قاله علىّ وابن عباس ولا ينفيه، بل يستلزمه ويقتضيه. ولهذا رواه عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن ابن طاووس، عن أبيه مثل قول علىّ وابن عباس.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا سفيان، عن جابر، عن الشعبى، عن عبد الله ابن ثابت قال: جاء عمر إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى[٢] مررتُ بأخٍ لى من قُرَيْظَة، فكتب لى جَوَامعَ [٣] من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغيَّرَ وَجْهُ رسول الله ﷺ ـ قال عبد الله بن ثابت: قلت[٤] له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا ـ قال: فسُرِّىَ عن رسول الله ﷺ وقال: «وَالذى نَفْسُ مُحَمَّد بِيَدِه لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى عليه السلام، ثمَّ اتَّبَعْتُمُوه وتَرَكْتُمُونِى لَضَلَلتمْ [٥]، إِنَّكُمْ حَظِّى مِن الأُمَمِ، وأَنَا حَظُّكم مِنَ النَّبِيينَ»[٦].

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر[٧]: حدثنا إسحاق، حدثنا حماد، عن مُجالد، عن الشعبى، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَسأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَىْءٍ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، وإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ وإما أَنْ تُكَذِّبُوا بحَقٍّ، وإِنَّهُ ـ وَاللهِ ـ لَوْ كَانَ مُوسَى حيا بَيْنَ أظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلا أَنْ يَتَّبِعَنِى»[٨].

وفى بعض الأحاديث [له][٩]: «لَوْ كَانَ مُوسَى وَعِيسَى حَيَّيْنِ لَمَا وَسِعَهُما إلاّ اتِّبَاعِى»[١٠].

فالرسول محمد خاتم الأنبياء[١١]، صلوات الله وسلامه عليه، دائما إلى يوم الدين، وهو الإمام الأعظم الذى لو وجد فى أى عصر وجد لكان هو[١٢] الواجب الطاعة المقدَّم على الأنبياء كلهم؛ ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء[١٣] لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيع فى يوم الحشر[١٤] فى إتيان الرب لِفَصْلِ القضاء، وهو المقام المحمود الذى لا يليق إلا له، والذى يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين، حتى تنتهى النوبة إليه، فيكونَ هو المخصوص به.

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى ر: «إننى».
(٣) فى أ: «جوامع الكلم».
(٤) فى جـ، ر، أ، و: «فقلت».
(٥) فى أ: «لظللتم».
(٦) المسند (٤/ ٢٦٥) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٧٣): «رجاله رجال الصحيح إلا أن فيه جابر الجعفى وهو ضعيف».
(٧) فى جـ، ر، أ، و: «أبو يعلى».
(٨) مسند البزار برقم (١٢٤) «كشف الأستار» ورواه أحمد فى مسنده (٣/ ٣٨٧) والدارمى فى السنن (١/ ١١٥) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٧٤): «رواه البزار وأحمد وأبو يعلى». وقد حسنه الشيخ ناصر الألبانى، وتوسع فى الكلام عليه فليراجع فى كتابه: «إرواء الغليل» (٦/ ٣٤).
(٩) زيادة من أ.
(١٠) قال العبد الضعيف: لم أجد من ذكر عيسى فى الحديث، ولعل الله ييسر لى الاطلاع على هذه الرواية والله أعلم.
(١١) فى أ: «النبيين».
(١٢) فى جـ، ر، أ، و: «كان».
(١٣) فى جـ، أ، و: «ليلة الإسراء إمامهم».
(١٤) فى أ، و: «المحشر».

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾.

يقول تعالى منكرًا على من أراد دينا سوى دين الله، الذى أنزل به كتبَه وأرسل به رسلَه، وهو عبادته وحده لا شريك له، الذى ﴿لَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: استسلم له من فيهما طوعا وكرها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ. وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٨ ـ ٥٠].

فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرها، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم، الذى لا يخالف ولا يمانع. وقد ورد حديث فى تفسير هذه الآية، على معنى آخر فيه غرابة، فقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى:

حدثنا أحمد بن النضر العسكرى، حدثنا سعيد بن حفص النُّفَيْلى، حدثنا محمد بن مِحْصَن العكاشى، حدثنا الأوزاعى، عن عطاء بن أبى رباح، عن النبى ﷺ: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾: «أمَّا مَنْ فِى السَّمَوات فَالْمَلائِكَةُ، وأمَّا مَنْ فِى الأرضِ فَمَنْ وُلِدَ عَلَى الإسْلاَمِ، وأمَّا كَرْهًا فَمَنْ أُتِى بِهِ مِنْ سَبَايا الأُمَمِ فِى السَّلاَسِلِ والأغْلال، يُقَادونَ إِلَى الجَنَّةِ وَهُم كَارِهُونَ»(١).

وقد ورد فى الصحيح: «عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِى السَّلاَسِلِ»(٢). وسيأتى له شاهد من وجه آخر ولكن المعنى الأول للآية أقوى.

وقد قال وكيع فى تفسيره: حدثنا سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال: هو كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ﴾ [لقمان: ٢٥].

وقال أيضا: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾قال: حين أخذ الميثاق.

---

(١) المعجم الكبير للطبرانى(١١/ ١٩٤) وهنا سقط اسم ابن عباس، فالإسناد عنده: عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس عن النبى ﷺ به. قال الهيثمى فى المجمع(٦/ ٣٢٦): «فيه محمد بن محصن العكاشى وهو متروك».

(٢) صحيح البخارى (٣٠١٠).

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أى: يوم المَعَاد، فيجازى كلا بعمله.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعنى: القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أى: من الصحف والوحى ﴿وَالأَسْبَاطِ﴾ وهم بُطون بنى إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل ـ هو يعقوب ـ الإثنى عشر. ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ يعنى: بذلك التوراة والإنجيل ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وهذا يَعُم جميعَ الأنبياء جملة ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ يعنى: بل نؤمن بجميعهم ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾: فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبى أرسل، وبكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشىء من ذلك بل هم مُصَدِّقون(١) بما أنزل من عند الله، وبكل نبى بعثه الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أى: من سلك طريقاً سوى ما شَرَعه الله فلن يُقْبل منه ﴿وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ كما قال النبى(٢) ﷺ فى الحديث الصحيح: «مَنْ عَمِلَ عَملاً لَيسَ عَلَيْهِ أمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا عباد بن راشد، حدثنا الحسن، حدثنا أبو هريرة، إذ ذاك ونحن بالمدينة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَجىءُ الأعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَة، فَتَجىءُ الصَّلاَةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أنَا الصَّلاَةُ. فَيَقُولُ: إنَّك عَلَى خَيْر. وتَجىءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أنا الصَّدَقَةُ. فَيَقُولُ:إنَّك عَلَى خَيْر. ثُمَّ يَجىءُ الصِّيَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أنَا الصِّيَامُ. فَيَقُولُ: إنَّكَ عَلَى خَيْر. ثُمَّ تَجىءُ الأعْمَالُ، كُل ذَلكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إنَّك عَلَى خَيْر، ثُمَّ يَجىءُ الإسْلامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أنْتَ السَّلاَمُ وأنَا الإسْلاَمُ. فَيَقُولُ اللهُ [تعالى](٣): إنَّكَ عَلَى خَيْر، بكَ الْيَوْمَ آخُذُ وبك(٤) أعْطِى، قَالَ اللهُ فِى كِتَابِه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

تفرد به أحمد. قال أبو عبد الرحمن عبد الله(٥) بن الإمام أحمد: عباد بن راشد ثقة، ولكن الحسن لم يسمع من أبى هريرة(٦).

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٨٩)﴾.

قال ابن جرير: حدثنى محمد بن عبد الله بن بَزِيع البصرى، حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا داود ابن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك،

(١) فى أ: «يصدقون». (٢) فى جـ، أ، و: «رسول الله». (٣) زيادة من و.
(٤) فى و: «وبه». (٥) فى ر: «أبو عبد الرحمن بن عبد الله» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.
(٦) المسند (٢/ ٣٦٢) وقال الهيثمى فى المجمع(١٠/ ٣٤٥): «فيه عباد بن راشد، وثقه أبو حاتم وغيره، وضعفه جماعة، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح».

ثم ندم، فأرسل إلى قومه: أن سَلُوا لى(١) رسول الله ﷺ:هل لى من توبة؟ قال: فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿[إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا](٢) فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وهكذا رواه النسائى، وابن حبان، والحاكم، من طريق داود بن أبى هند، به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه(٣).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا جعفر بن سليمان، حدثنا حُمَيد الأعرج، عن مجاهد قال: جاء الحارث ابن سُوَيد فأسلم مع النبى ﷺ، ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه فأنزل الله فيه: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿[إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ اللَّهَ](٤) غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، قال: فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه. فقال الحارث: إنك والله ما علمتُ لصدوق، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك، وإن الله لأصدق الثلاثة. قال: فرجع الحارث فأسلم فحَسُنَ إسلامه(٥).

فقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أى: قامتْ عليهم الحُجَجُ والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسولُ، وَوَضَح لهم الأمرُ، ثم ارتدوا إلى ظُلْمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تَلَبَّسُوا به من العماية؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. ثم قال: ﴿أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أى: يلعنهم الله ويلعنهم خلقه ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: فى اللعنة ﴿لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أى: لا يُفتَّر عنهم العذاب ولا يُخَفَّف عنهم ساعة واحدة.

ثم قال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه: أنه من تاب إليه تاب عليه.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٩١) ﴾.

يقول تعالى متوعداً ومتهدِّداً لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفرا، أى: استمر عليه إلى الممات، ومخبرا بأنه لا يقبل لهم توبة عند مماتهم، كما قال [تعالى](٦): ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ

---

(١) فى و: «أن أرسلوا إلى». (٢) زيادة من جـ، ر، أ، و.

(٣) تفسير الطبرى(٦/ ٥٧٢)وسنن النسائى(٧/ ١٠٧)والحاكم فى المستدرك(٤/ ٣٦٦) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبى».

(٤) زيادة من جـ، ر، أ، و.

(٥) تفسير عبد الرزاق (١/ ١٣١).

(٦) زيادة من ر، أ، و.

حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ [قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا][(١)]﴾ [النساء: ١٨].

ولهذا قال هاهنا: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ أى: الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغَىِّ.

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الله بن بَزِيع، حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا بن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ أن قوما أسلموا ثم ارتدوا، ثم أسلموا ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾. هكذا رواه، وإسناده جيد[(٢)].

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ أى: من مات على الكفر فلن يقبل منه خير[(٣)] أبداً، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبا فيما يراه قُرْبَة، كما سئل النبى ﷺ عن عبد الله بن جُدْعان ـ وكان يُقْرِى الضيفَ، ويَفُكُّ العانى، ويُطعم الطعام ـ: هل ينفعه ذلك؟ فقال:[(٤)] «لا، إنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ: رَبِّ اغْفِرْ لى خَطِيئَتِى يوم الدِّينِ»[(٥)].

وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضًا ذهبا ما قبل منه، كما قال تعالى: ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، [وقال: ﴿لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ﴾] [(٦)] [البقرة: ٢٥٤]، وقال: ﴿لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦]؛ ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ فعطف ﴿وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ على الأول، فدل على أنه غيره، وما ذكرناه أحسن من أن يقال: إن الواو زائدة، والله أعلم. ويقتضى ذلك ألا ينقذه من عذاب الله شىء، ولو كان قد أنفق مثل[(٧)] الأرض ذهبا، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهبا، بوزْن جبالها وتلالها وتُرابها ورِمَالها وسَهْلها ووعْرِها وبرِّها وبَحْرِها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حَجَّاج، حدثنى شُعْبَة، عن أبى عمران الجَوْنى، عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النارِ يَوم الْقِيامَةِ: أَرأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَىْء، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟قَالَ: فَيَقُولُ:نعم. قال: فيقول:قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ

---

(١) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ:«الآية».

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور(٢/٢٥٨) وعزاه للبزار ثم قال فى آخره:«هذا خطأ من البزار».

(٣) فى أ:«خيرا»وهو خطأ.

(٤) فى ر،أ:«قال».

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم(٢١٤) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٦) زيادة من جـ،ر، أ.

(٧) فى أ: «ملء».

عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ أبيكَ آدَمَ ألاَّ تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فأبَيْتَ إلا أنْ تُشْرِكَ». وهكذا أخرجاه[١]: البخارى، ومسلم[٢].

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا رَوْح، حدثنا حَمَّاد، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بالرَّجُلِ مِنْ أهْلِ الْجَنَّة فَيَقُولُ لَهُ: يا ابْنَ آدَمَ، كَيفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فيَقُولُ: أيْ ربِّ، خيرَ مَنْزِلٍ. فيَقُولُ: سَلْ وتَمَنَّ. فَيَقُولُ: ما أسْألُ ولاَ أتمنَّى إلا أنْ تَرُدَّنى إلَى الدُّنْيَا فأُقْتَلُ فِي سَبِيلك عَشْرَ مِرَار ـ لما يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ. ويُؤْتَى بالرَّجُلِ مِنْ أهْلِ النَّارِ فَيَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدم، كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ: يا[٣] ربِّ، شَرَّ مَنْزِلٍ. فيقُولُ لَهُ: تَفْتَدى[٤] مِنى بطِلاَعِ الأرْضِ ذَهبًا؟ فَيَقُولُ: أيْ ربِّ، نَعَمْ. فَيَقُولُ: كَذَبْتَ، قَدْ سَألْتُكَ أقَلَّ مِنْ ذَلكَ وأيْسَر فَلَمْ تَفْعَلْ، فيُرَدّ[٥] إلى النَّارِ»[٦].

ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أى: وما لهم من أحد يُنْقِذهم من عذاب الله، ولا يجيرهم من أليم عقابه.

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)﴾.

[روى وكِيع فى تفسيره عن شريك، عن أبى إسحاق، عن عمرو بن ميمون ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ قال: البر الجنة][٧]. وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا مالك، عن إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة، سمع أنس بن مالك يقول: كان أبو طلحة أكثر أنصارى[٨] بالمدينة مالا، وكانَ أحَبَّ أمواله إليه بيْرَحاءُ ـ وكانت مُسْتَقْبلة المسجد، وكان النبى ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيّب ـ قال أنس: فلما نزلت: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحبَّ أموالى إلَيَّ بيْرَحاءُ وإنها صدقة لله أرجو بِرَّها وذُخْرَها عند الله تعالى، فَضَعْها يا رسول الله حيث أراك الله [تعالى][٩]. فقال النبى ﷺ: «بَخٍ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مَالٌ رابِح، وَقَدْ سَمِعْتُ، وَأَنَا أرَى أنْ تَجْعَلَهَا فِى الأقْرَبِينَ». فقال أبو طلحة: أفْعَلُ يارسول الله. فَقَسَمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه. أخرجاه[١٠].

وفى الصحيحين أن عُمَر [رضى الله عنه][١١] قال: يارسول الله، لم أُصِبْ مالاً قطُّ هو أنْفَسُ

---

(١) فى أ، و: «أخرجه».
(٢) المسند(٣/١٢٧) وصحيح البخارى برقم (٦٥٣٨) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٥).
(٣) فى جـ، أ، و: «أى». (٤) فى أ، و: «أتفتدى». (٥) فى أ: «فرد».
(٦) المسند (٣/٢٠٨).
(٧) زيادة من و. (٨) فى جـ، أ: «أكثر الأنصار»، وفى ر، و: «أكبر أنصارى». (٩) زيادة من جـ.
(١٠) المسند (٣/١٤١) وصحيح البخارى برقم (١٤٦١، ٢٧٥٢، ٢٣١٨، ٢٧٦٩، ٥٦١١، ٤٥٥٤) وصحيح مسلم برقم (٩٩٨).
(١١) زيادة من و.

عندى من سهمى الذى هو بِخَيْبَرَ، فما تأمرنى به؟ قال[١]: «حبِّس الأصْلَ[٢]، وسبِّلِ الثَّمرَةَ»[٣].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أبو الخطاب زياد بن يحيى الحَسانى، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمْرو، عن أبى عمرو بن حَماس عن حمزة بن عبد الله بن عُمر، قال: قال عبد الله: حضرتنى هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فذكرتُ ما أعطانى الله، فلم أجد شيئاً أحبَّ إلىّ من جارية رُوميَّة، فقلتُ: هى حُرَّة لوجه الله. فلو أنِّى أعود فى شىء جعلته لله لنكَحْتُها، يعنى تَزوَّجتُها[٤].

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شَهْر قال: قال ابن عباس [رضى الله عنه][٥]: حضرت عصابة من اليهود نبىَّ الله ﷺ فقالوا: حدِّثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبى. قال: «سَلُونى عَمَّا شئتُمْ، ولَكِنِ اجْعلُوا لى ذِمَّةَ الله، ومَا أخَذَ يَعْقُوبُ عَلَى بَنِيه لَئِنْ أنَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا فَعَرَفْتُمُوهُ لَتُتَابِعُنِّى[٦] عَلَى الإِسْلاَم». قالوا: فذلك لك. قال: «فَسَلُونى عَمَّا شِئْتُمْ» قالوا: أخبرنا عن أربع خلال: أخْبِرْنَا أىُّ الطعام حَرَّمَ إسرائيل على نفسه؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل؟ كيف[٧] هذا النبى الأمِّى فى النوم؟ ومن وَلِيّه من الملائكة؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه[٨] وقال: «أنْشُدُكُمْ بالَّذى أنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى: هَلْ تَعْلَمُونَ أنَّ إِسْرَائِيلَ مَرِض مَرَضًا شَديداً وَطال[٩] سُقْمُهُ، فَنَذَرَ لله نَذْرًا لَئِنْ شَفَاهُ اللهُ من سُقْمه ليحرِّمَنَّ أحبَّ الشَّرَاب إليه وأحبَّ الطَّعَامِ إلَيْه، وكان أحبُّ الطَّعَامِ إلَيْه لُحْمان الإبل، وأحبُّ الشَّرَاب إلَيْه ألْبَانُهَا» فقالوا: اللهم نعم. قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ». وقال: «أنْشُدُكُمْ بالله الَّذى لا إله إلا هو، الذى[١٠] أنزل التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى: هَلْ تَعْلَمُونَ أنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أبْيَضُ غَلِيظٌ، ومَاءَ المرْأة أصفر رَقِيقٌ، فَأيُّهُمَا عَلاَ كان له الولد والشَّبَهُ بإذن الله، إنْ عَلاَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ المرأة[١١] كَانَ ذَكَرًا بإذن الله، وإن علا ماءُ

---

(١) فى أ، و: «فقال». (٢) فى جـ: «الأرض».
(٣) لم أجده فيهما، وقد رواه النسائى فى السنن (٢/ ٢٣٢) والدارقطنى فى السنن (٤/ ١٩٣) من طريق سفيان عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن عمر قال: فذكره.
(٤) مسند البزار برقم(٢٩١٤) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع(٦/ ٣٢٦):«ورواه البزار وفيه من لم أعرفه».
(٥) زيادة من أ.
(٦) فى جـ، ر، أ، :«لتبايعنى».
(٧) فى جـ ، و : « وماء الرجل؟ كيف يكون الذكر منه؟ وأخبرنا وكيف».
(٨) فى جـ، أ: «ليبايعنه». (٩) فى أ، و: «فطال». (١٠) فى جـ ، م، و : «والذى».
(١١) فى جـ، ر، أ، و: «ماء الرجل على ماء المرأة».

الْمَرْأةِ[١] مَاءَ الرَّجُلِ كَانَ أُنْثَى بإِذْنِ الله». قالوا: نعم. قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِم». وقال: «أنْشُدُكُمْ[٢] بالذى أنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى: هَلْ تَعْلَمُونَ أنَّ هَذَا النَّبِىَّ الأُمِّىَّ تَنَامُ عَيْنَاه[٣] ولاَ يَنَامُ قَلْبُهُ». قالوا: اللهم نعم. قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ». قالوا: وأنت الآن فحدثنا منْ وليُّك من الملائكة؟ فعندها نجامعك أو نفارقك قال: «إنَّ وليِّى جبْريلَ، ولَمْ يَبْعَث الله نَبيا قَط إلاَّ وَهُوَ وَليه». قالوا: فعندها[٤] نفارقك، لو كان وليك غيره لتابعنَاك[٥]، فعندذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية [البقرة: ٩٧].

ورواه أحمد أيضاً، عن حسين بن محمد، عن عبد الحميد، به[٦].

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا أبو أحمد الزبيرى[٧]، حدثنا عبدالله بن الوليد العِجْلىّ، عن بُكَير[٨] بن شهاب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: أقبلت يهودُ على رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، نسألك[٩] عن خمسة أشياء، فإن[١٠] أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبى واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]. قال: «هاتوا». قالوا: أخبرنا عن علامة النبى؟ قال: «تَنَامُ عَيْنَاهُ ولاَ يَنَامُ قَلْبُه». قالوا: أخبرنا كيف تُؤنِّثُ المرأةُ وكيف تُذكرُ؟ قال: «يَلْتَقِى المَاءَان، فإذا[١١] علاَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ أذْكَرَتْ، وإذَا عَلاَ مَاءُ الْمَرْأةِ[١٢] آنثَتْ. قالوا: أخبرنا ما حَرَّم إسرائيل على نفسه، قال: «كَانَ يَشْتَكِى عِرْقَ النَّسَا، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلاَئِمُهُ إلاَّ ألْبَانَ كَذَا وكَذَا ـ قال أحمد: قال بعضهم: يعنى الإبل ـ فَحَرَّمَ لُحُومَهَا». قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرَّعد؟ قال: «مَلَكٌ منْ مَلاَئكَة الله مُوكَلٌ بالسَّحَاب بيده[١٣] ـ أو فى يَدِه ـ مخْرَاقٌ منْ نَارٍ يَزْجُر بِهِ السّحابَ، يَسُوقُهُ حَيْثُ أمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ». قالوا: فما هذا الصوت الذى يُسمع؟ قال: «صَوْتُه». قالوا: صدقت، إنما بقيت واحدة، وهى التى نتابعك إن أخبرتنا بها، فإنه ليس من نبى إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبُك؟ قال: «جبْريلُ عَلَيْه السَّلاَمُ». قالوا: جبريل ذاك يَنْزِل بالحَرْب والقتال والعذاب عَدُوُّنا. لو قلتَ: ميكائيل الذى ينزل بالرحمة والنبات والقَطْر لكَانَ، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ[١٤]﴾ [البقرة: ٩٧].

وقد رواه الترمذى، والنسائى، من حديث عبد الله بن الوليد العِجْلى، به نحوه، وقال الترمذى: حسن غريب[١٥].

---

(١) فى جـ، ر، أ، و: «علا ماء المرأة على ماء الرجل». (٢) فى أ: «أشهدكم».
(٣) فى جـ: «عينه». (٤) فى أ: «فعندنا». (٥) فى جـ، أ: «لبايعناك».
(٦) المسند (١/ ٢٧٨).
(٧) فى أ: « أبو أحمد عن الزبيرى»، وفى جـ، و: « أبو أحمد هو الزبيرى». (٨) فى جـ، أ: «بكر».
(٩) فى أ: « يا أبا القاسم ، إنا نسألك». (١٠) فى جـ، أ: «وإن».
(١١) فى جـ: «فإن». (١٢) فى جـ، ر، أ: «وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل آنثت».
(١٣) فى جـ، ر، أ، و: «بيديه». (١٤) فى جـ، ر، أ، و: «قل من كان عدوا لجبريل إلى آخر الآية».
(١٥) المسند (١/ ٢٧٤) وسنن الترمذى برقم (٣١١٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٠٧٢).

وقال ابن جُرَيْج والعَوْفِىّ، عن ابن عباس: كان إسرائيل ـ وهو يعقوب عليه السلام ـ يَعْتَرِيه عِرْق النَّسَا بالليل، وكان[١] يقلقه ويُزعجه عن النوم، ويُقْلِعُ الوَجَعَ عنه بالنهار، فنذر لله لئن عافاه الله لا يأكل عِرْقًا ولا يأكل ولد ما له عِرْق.

وهكذا قال الضحاك والسدى. كذا حكاه ورواه ابن جرير فى تفسيره. قال: فاتَّبعه بَنُوه فى تحريم ذلك استنَاناً به واقتداء بطريقه. قال: وقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ أى: حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة.

قلت: ولهذا السياق بعد ما تقدم مناسبتان[٢]:

إحداهما: أن إسرائيل، عليه السلام، حرّم أحب الأشياء إليه وتركها لله، وكان هذا سائغًا فى شريعتهم[٣]، فله مناسبة بعد قوله: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. فهذا هو المشروع عندنا وهو الإنفاق فى طاعة الله مما يحبُّه العبد ويشتهيه، كما قال: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨].

المناسبة الثانية: لَمَّا تقدّم السياق فى الرد على النصارى، واعتقادهم الباطل فى المسيح وتبين زَيْف ما ذهبوا إليه. وظهور[٤] الحق واليقين فى أمر عيسى وأمه، وكيف خلقه الله بقدرته ومشيئته، وبعثه إلى بنى إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تعالى ـ شرَعَ فى الرد على اليهود، قَبَّحهم الله، وبيان أن النَّسْخ الذى أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله، عز وجل، قد نصّ فى كتابهم التوراة أن نوحا، عليه السلام، لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرّم إسرائيل على نفسه لُحْمان الإبل وألبانها، فاتبعه بنوه فى ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخر زيادة على ذلك. وكان الله، عز وجل، قد أذن لآدم فى تزويج بناته من بنيه، وقد حرَّم ذلك بعد ذلك. وكان التَّسرِّى على الزوجة مباحا فى شريعة إبراهيم، وقد فعله [الخليل][٥] إبراهيم فى هاجر لما تسرَّى بها على سارّة، وقد حُرِّم مثل هذا فى التوراة عليهم. وكذلك كان الجمع بين الأختين شائعا[٦]، وقد فعله يعقوب، عليه السلام، جمع بين الأختين، ثم حُرِّم ذلك عليهم فى التوراة. وهذا كله منصوص عليه فى التوراة عندهم، فهذا هو النسخ بعينه، فكذلك[٧] فليكن ما شرعه الله للمسيح، عليه السلام، فى إحلاله بعض ما حرم فى التوراة، فما بالهم لم يتبعوه؟ بل كذبوه وخالفوه؟ وكذلك ما بعث الله به محمدا ﷺ من الدين القويم، والصراط المستقيم، وملَّة أبيه إبراهيم فما بَالَهم[٨] لا يؤمنون؟ ولهذا قال [تعالى][٩]: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ أى: كان حلا[١٠] لهم جميعُ الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ما حرَّمه إسرائيل، ثم قال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ فإنها ناطقة بما قلناه ﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن

---

(١) فى جـ، أ، و: «فكان». (٢) فى ر: «مناسبات». (٣) فى جـ، أ، و: «شرعهم».
(٤) فى ر، أ، و: «ظهر». (٥) زيادة من أ. (٦) فى أ، و: «سائغا».
(٧) فى أ: «فلذلك». (٨) فى جـ، ر، أ، و: «فما لهم». (٩) زيادة من أ، و.
(١٠) فى و: «حلالا».

بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: فمن كَذَب على الله وادَّعى أنه شرَع لهم السبت والتمسك بالتوراة دائمًا، وأنه لم يبعث نبيا آخر يدعو إلى الله بالبراهين والحُجَج بعد هذا الذي بيَّنَّاه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرناه ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أى: قل يا محمد: صدق فيما أخبر به وفيما شرعه فى القرآن ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى: اتبعوا ملة إبراهيم التى شرعها الله فى القرآن على لسان محمد ﷺ، فإنه الحق الذى لاشك فيه ولا مرية، وهى الطريقة التى لم يأت نبى بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) ﴾.

يُخْبر تعالى أن[1] أول بيت وُضع للناس، أى: لعموم الناس، لعبادتهم ونُسُكهم، يَطُوفون به ويُصلُّون إليه ويَعتكِفُون عنده ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ يعنى: الكعبة التى بناها إبراهيم الخليل[عليه السلام][2]، الذى يَزعُم كل من طائفتى النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه، ولا يَحجُّون إلى البيت الذى بناه عن أمر الله له فى ذلك ونادى الناس إلى حجه. ولهذا قال: ﴿مُبَارَكًا﴾ أى وُضع مباركا ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم التَّيمىّ، عن أبيه، عن أبى ذَر، رضى الله عنه، قال قلتُ: يا رسولَ الله، أىُّ مَسجد وُضِع فى الأرض أوَّلُ؟ قال: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ». قلت: ثم أىٌّ؟ قال: «الْمسجدُ الأقْصَى». قلت: كم بينهما؟ قال: «أَرْبَعُونَ سَنَةً». قلتُ: ثم أىٌّ؟ قال: ثُم حَيْثُ أدركْتَ[3] الصَّلاةَ فَصَلِّ، فَكُلُّهَا مَسْجِدٌ».

وأخرجه البخارى، ومسلم، من حديث الأعمش، به[4].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصَّبَّاح، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا شَرِيك عن مُجالد، عن الشَّعْبىّ عن علىّ فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ قال: كانت البيوت قبلة، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله [تعالى][5].

[قال][6]: وحدثنا أبى، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحْوَص، عن سِماك، عن خالد

---

(١) فى جـ: «بأن». (٢) زيادة من و. (٣) فى أ: «أدركتك».
(٤) المسند (٥/ ١٥٠) وصحيح البخارى برقم (٣٣٦٦، ٣٤٢٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢٠).
(٥) زيادة من أ، و. (٦) زيادة من و.

ابن عَرْعَرة قال: قام رجل إلى علىّ فقال: ألا تُحَدِّثنى عن البيت: أهو أولُ بيت وُضِع فى الأرض؟ قال[١]: لا، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمنا. وذكر تمام الخبر فى كيفية بناء إبراهيم البيت، وقد ذكرنا ذلك مُستَقصًى فى سورة البقرة فأغْنَى عن إعادته[٢].

وزعم السُّدِّى أنه أولُ بيت وضع على وجه الأرض مطلقا. والصحيحُ قولُ علىّ [رضى الله عنه][٣]. فأما الحديث الذى رواه البيهقى فى بناء الكعبة فى[٤] كتابه دلائل النبوة، من طريق ابن لَهيعة، عن يَزيد بن أبى حَبيب، عن أبى الخير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا: «بَعثَ اللهُ جِبْريلَ إلَى آدَمَ وحوَّاءَ، فَأمَرَهُمَا بِبنَاء الْكَعْبَة، فَبَنَاهُ آدَمُ، ثُمَّ أمرَ بالطَّوَاف به، وَقيلَ لَهُ: أنْتَ أوَّلُ النَّاسِ، وهَذَا أوَّلُ بَيْتٍ وُضعَ للنَّاسِ»[٥] فإنَّهُ كَمَا تَرَى منْ مُفْرَدَات ابْنِ لَهيعة،وهو ضعيف. والأشْبَهُ، والله أعلمُ، أن يكون هذا مَوْقُوفا على عبد الله بن عَمْرو. ويكون من الزاملتين اللتين[٦] أصابهما يوم الْيَرْمُوك، من كلام أهل الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ بكّة: من أسماء مكة على المشهور، قيل[٧]: سُمِّيت بذلك لأنها تَبُكّ أعناق الظلمة والجبابرة، بمعنى: يُبكون[٨] بها ويخضعون عندها. وقيل: لأن الناس يتَبَاكّون فيها، أى: يزدحمون.

قال قتادة: إن الله بَكَّ به الناس جميعا، فيصلى[٩] النساء أمام الرجال، ولا يفعل ذلك ببلد غيرها.

وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعَمْرو بن شُعَيب، ومُقاتل بن حَيَّان.

وذكر حَمّاد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: مكّة من الفجّ إلى التنعيم، وبكّة من البيت إلى البطحاء.

وقال شعبة، عن المغيرة، عن إبراهيم: بكّة: البيت والمسجد. وكذا قال الزهرى.

وقال عكرمة فى رواية، وميمون بن مِهْران: البيت وما حوله بكة، وما وراء ذلك مكة.

وقال أبو صالح، وإبراهيم النّخَعى، وعطية [العَوْفى][١٠]، ومقاتل بن حيان: بكة موضع البيت، وما سوى ذلك مكة.

وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة: مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، والمأمون، وأُمّ رُحْم، وأم القُرَى، وصلاح، والعرْش على وزن بدر، والقادس؛ لأنها تطهر من الذنوب، والمقدسة، والناسّة: بالنون، وبالباء أيضا، والحاطمة، والنسَّاسة[١١]، والرأس، وكُوثى، والبلدة، والبَنِيَّة، والكعبة.

---

(١) فى ر، أ، و: «فقال».
(٢) تفسير ابن أبى حاتم (٢/٤٠٣).
(٣) زيادة من أ، و.
(٤) فى أ، و: «من».
(٥) دلائل النبوة للبيهقى (٢/٤٥) وقال البيهقى: «تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعًا».
(٦) فى أ: «اللذين».
(٧) فى ر: «وقيل».
(٨) فى و: «يذلون».
(٩) فى جـ، ر: «فتصلى».
(١٠) زيادة من جـ، أ، و.
(١١) فى جـ، ر: «النساسة والحطامة».

وقوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أى: دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم، وأن الله تعالى عَظَّمه وشرفه.

ثم قال تعالى: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعنى: الذى لَمَّا ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران، حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل، وقد كان ملتصقا[1] بجدار البيت، حتى أخّره عُمَر بن الخطاب، رضى الله عنه، فى إمارته إلى ناحية الشرق[2] بحيث يتمكن الطُّوَّاف، ولا يُشَوِّشون على المصلين عنده بعد الطواف؛ لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقد قدمنا الأحاديث فى ذلك، فأغْنَى عن إعادتها هاهنا، ولله الحمد والمنة.

وقال العَوْفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى: فمنهُنَّ[3] مقام إبراهيم والمَشْعَر.

وقال مجاهد: أثرُ قدميه فى المقام آية بينة. وكذا روى عن عُمر بن عبد العزيز، والحسن، وقتادة، والسُّدِّى، ومُقَاتِل بن حَيّان، وغيرهم.

وقال أبو طالب فى قصيدته:

ومَوْطِئ إبراهيم فى الصخر رَطْبَةٌ ... على قدميه حافيًا غير ناعلِ

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد وعَمْرو الأوْدِى قالا: حدثنا وَكِيع، حدثنا سفيان، عن ابن جُرَيج، عن عطاء، عن ابن عباس فى قوله: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال: الْحَرَم كله مقام إبراهيم. ولفظ عمرو: الحَجَر كله مقام إبراهيم.

وروى عن سعيد بن جبير أنه قال: الحج مقام إبراهيم. هكذا رأيت فى النسخة، ولعله الحَجَر كله مقام إبراهيم، وقد صرح بذلك مجاهد.

وقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ يعنى: حَرَمُ مكة إذا دخله الخائف يأمنُ من كل سوء، وكذلك كان الأمر فى حال الجاهلية، كما قال الحسن البصرى وغيره: كان الرجل يَقْتُل فيَضَع فى عُنُقِه صوفَة ويدخل[4] الحرم فيلقاه ابنُ المقتول فلا يُهَيِّجْهُ حتى يخرج.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشَجّ، حدثنا أبو يحيى التَّيمِىّ، عن عطاء، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ قال: من عاذ بالبيت أعاذه البيت، ولكن لايؤوى ولا يُطْعَم ولا يُسْقى، فإذا خرج أُخذ بذنبه.

وقال الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣، ٤] وحتى إنه من جُمْلة تحريمها حُرْمة اصطياد صيدها وتَنفيره عن أوكاره، وحُرْمة قطع شجرها وقَلْع

(١) فى أ، و: «ملصقا».
(٢) فى جـ: «المشرق».
(٣) فى أ: «فهى».
(٤) فى جـ: «فيدخل».

حَشيشها، كما ثبتت الأحاديث والآثار[١] فى ذلك عن جماعة من الصحابة مرفوعا وموقوفاً.

ففى الصحيحين، واللفظ لمسلم، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح فتح مكة: «لاَهجْرَةَ ولَكنْ جهادٌ ونية، وإذَا استَنْفَرتُم فَانفرُوا»، وقال يوم الفتح فتح مكة: «إنَّ هَذَا البَلَدَ[٢] حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خلَقَ السَّموَاتِ والأرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بُحرمَةِ اللهِ إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى، ولم يحل لى إلا فى ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لاَ يُعْضَد شَوْكُهُ، ولا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، ولا يَلْتَقطُ لُقطتَه إلا من عرَّفها، ولا يُختَلى خَلاها[٣]»، فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذْخَرَ، فإنه لقَيْنهم ولبيُوتهم، فقال: «إلا الإذْخَر»[٤].

ولهما عن أبى هريرة، مثله أو نحوه[٥] ولهما واللفظ لمسلم أيضاً عَن أبى شُرَيح العَدَوى أنه قال لعَمْرو بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكةَ: ائذَنْ لى أيها الأمير أن أُحدِّثك قَولا قام به رسول الله ﷺ الغدَ من يوم الفتح سَمعَتْه أذناى ووعاه قلبى وأبصرته عيناى حين تكلم به، إنه حَمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إنَّ مكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ ولَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلاَ يَحلُّ لامرئ يُؤْمنُ بالله والْيَوْمِ الآخر أنْ يَسْفكَ بهَا دمًا، ولا يَعْضد بهَا شَجرَةً، فَإنْ أحَد تَرخَّصَ بقتَال رَسُول الله ﷺ فيها فَقُولُوا له: إنَّ اللهَ أذنَ لرَسُوله ولَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وإنَّمَا أذنَ لى فيهَا سَاعَةً منْ نَهَار، وقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتهَا بالأمْسِ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهدُ الغَائبَ» فقيل لأبى شُرَيح: ما قال لك عَمْرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحَرَم لا يُعيذ عاصيا ولا فَارا بدَمٍ ولا فارا بخَزْيَة[٦][٧].

وعن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لاَيَحلُّ لأحَدكُمْ أنْ يَحْملَ بمكَّةَ السِّلاحَ»[٨] رواه مسلم.

وعن عبد الله بن عَدىّ بن الحمراء الزهرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول، وهو واقف بالحَزْوَرَة فى سوق مكة: «واللهِ إنَّكَ لَخَيْرُ أرْضِ اللهِ، وأحَبُّ أرْضِ اللهِ إلَى اللهِ، ولَوْلاَ أنِّى أُخْرِجْتُ منْك مَا خَرَجْتُ».

رواه الإمام أحمد، وهذا لفظه، والترمذى، والنسائى، وابن ماجة. وقال الترمذى: حسن صحيح[٩]، وكذا صَحَّح من حديث ابن عباس نحوه[١٠]. وروى أحمد عن أبى هريرة، نحوه[١١].

---

(١) فى جـ: «الآثار والأحاديث». (٢) فى أ، و: «البيت». (٣) فى ر: «خلالها».
(٤) صحيح البخارى برقم (١٨٣٤) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣).
(٥) صحيح البخارى برقم (٢٤٣٤)، وصحيح مسلم برقم(١٣٥٥).
(٦) فى أ: «بخرمة».
(٧) صحيح البخارى برقم (١٨٣٢) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٤).
(٨) صحيح مسلم برقم (١٣٥٦).
(٩) المسند (٤/ ٣٠٥) وسنن الترمذى برقم (٣٩٢٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٤٢٥٤) وسنن ابن ماجة برقم (٣١٠٨).
(١٠) سنن الترمذى برقم (٣٩٢٦) وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».
(١١) المسند (٤/ ٣٠٥).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا بِشْر بن آدم ابن بنت أزهر السمان[١]، حدثنا أبو عاصم، عن زُرَيق بن مسلم[٢] الأعمى مولى بنى مخزوم، حدثنى زياد بن أبى عياش، عن يحيى بن جَعْدَةَ بن هُبَيْرَة، فى قوله تعالى: ﴿ومن دخله كان آمنا﴾ قال: آمنا من النار.

وفى معنى هذا القول الحديثُ الذى رواه البيهقى: أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد بن عَبْدان، أخبرنا أحمد بن عبيد، حدثنا محمد بن سليمان الواسطى، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا ابن المُؤَمَّل، عن ابن مُحَيْصِن، عن عطاء، عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَخَلَ الْبَيْتَ دَخَلَ فى حَسَنَةٍ وَخَرَجَ مِنْ سَيِّئَةٍ، وَخَرَجَ مَغْفُورًا له»: ثم قال: تفرد به عبد الله بن المؤمل، وليس بقوى[٣].

وقوله: ﴿وللَّه عَلَى النَّاسِ حجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْه سَبِيلاً﴾ هذه آية وُجُوب الحج عند الجمهور. وقيل: بلى هى قوله: ﴿وأَتموا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ للَّه﴾ [البقرة: ١٩٦] والأول أظهر.

وقد وَرَدَت الأحاديثُ المتعددة بأنه أحدُ أركان الإسلام ودعائمه وقواعده، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعا ضروريا، وإنما يجب على المكلَّف في العُمْر مَرّة واحدة بالنص والإجماع.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا الربيع بن مسلم القُرَشىّ، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيُّهَا النَّاسُ، قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمُ الحَجُّ فَحُجُّوا». فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً. فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ». ثم قال: «ذَرُونى مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَة سُؤالِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَىْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَىْءٍ فَدَعُوهُ».

ورواه مسلم، عن زُهَير بن حرب، عن يزيد بن هارون، به نحوه[٤].

وقد روى سُفْيان بن حسين، وسليمان بن كثير، وعبد الجليل بن حُمَيد، ومحمد بن أبى حفصة، عن الزهرى، عن أبى سِنَان الدؤلى ـ واسمه يزيد بن أمية ـ عن ابن عباس قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يَأَيُّهَا النَّاسُ، إنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُم الحَجَّ». فقام الأقرع بن حابس فقال: يا رسول الله، أفى كل عام؟ قال: «لَوْ قُلْتُهَا، لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهَا، وَلَمْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْمَلُوا بِهَا؛ الحَجُّ مَرَّةً، فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ».

رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجة، والحاكم من حديث الزهرى، به. ورواه شريك، عن سِمَاك، عن عِكرمة، عن ابن عباس، بنحوه. وروى من حديث أسامة يزيد[٥].

---

(١) فى ر: «السماك». (٢) فى أ: «أسلم».

(٣) السنن الكبرى(٥/١٥٨) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/٢٠١) والبزار فى مسنده برقم (١١٦١) من طريق عبد الله بن المؤمل به.

(٤) المسند(٢/٥٠٨) وصحيح مسلم برقم (١٣٣٧).

(٥) المسند(١/ ٢٩٠) وسنن أبى داود برقم(١٧٢١) وسنن النسائى(٥/ ١١١) وسنن ابن ماجة برقم(٢٨٨٦) والمستدرك(٢/ ٢٩٣).

[و](1) قال الإمام أحمد: حدثنا منصور بن وَرْدَان، عن على بن عبد الأعلى، عن أبيه، عن أبى البَخْتَرِىّ، عن علِىّ قال: لما نزلت: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ قالـوا: يا رسول الله، فى كل عام؟ فسكت، قالوا: يا رسول الله، فى كل عام؟ قال: «لا، ولَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجَبَتْ». فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

وكذا رواه الترمذى، وابن ماجة، والحاكم، من حديث منصور بن وَرْدان، به: ثم قال(2) الترمذى: حسن غريب. وفيما قال نظر؛ لأن البخارى قال: لم يسمع أبو البَخْتَرِىّ من على(3).

وقال ابن ماجة: حدثنا محمد بن عبد الله بن نُمَيْر، حدثنا محمد بن أبى عُبَيدة، عن أبيه، عن الأعمش، عن أبى سفيان، عن أنس بن مالك قال: قالوا: يا رسول الله، الحج فى كل عام؟ قال: «لَوْ قُلْتُ: نعم، لوجَبَتْ، ولَوْ وَجَبَتْ لَمْ تقُومُوا(4) بهَا، ولَوْ لَمْ تَقُومُوا بِهَا لَعُذِّبْتُمْ»(5).

وفى الصحيحين من حديث ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن جـابر، عن(6) سُراقة بـن مـالك قال: يا رسول الله، مُتْعَتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد؟ قال: «لاَ، بَلْ للأَبَدِ». وفى رواية: «بل لأبَد أبَدٍ»(7).

وفى مسند الإمام أحمد، وسنن أبى داود، من حديث واقد بن أبى واقد الليثى، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال لنسائه فى حجته: «هَذِه ثُمَّ ظُهُورَ الحُصْرِ»(8) يعنى: ثم الزَمْنَ ظُهور الحصر، ولا تخرجن من البيوت.

وأما الاستطاعة فأقسام: تارة يكون الشخص مستطيعا بنفسه، وتارة بغيره، كما هو مقرر فى كتب الأحكام.

قال أبو عيسى الترمذى: حدثنا عَبْدُ بن حميد، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا إبراهيم بن يزيد قال: سمعت محمَّد بن عَبَّاد بن جعفر يحدث عن ابن عمر قال: قام رجل إلى رسول الله(9) ﷺ فقال: مَن الحاجّ يا رسول الله؟ قال: «الشَّعِثُ التَّفِل»(10)، فقام آخر فقال: أىّ الحج أفضل يا رسول الله؟ قال: «العَجُّ والثَّجُّ»، فقام آخر فقال: ما السبيل يا رسول الله(11)؟ قال: «الزَّادُ والرَّاحِلَة».

---

(1) زيادة من جـ، ر.

(2) فى أ: «وقال».

(3) المسند(١/ ١١٣) وسنن الترمذى برقم(٣٠٥٥) وسنن ابن ماجة برقم(٢٨٨٤) والمستدرك(٢/ ٢٩٤).

(4) فى ر: «يقوموا».

(5) سنن ابن ماجة برقم(٢٨٨٥) وقال البوصيرى فى الزوائد(٣/ ٤): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

(6) فى أ: «أن».

(7) صحيح البخارى برقم(٢٥٠٥) وصحيح مسلم برقم (١٢١٦)

(8) المسند(٥/ ٢١٨، ٢١٩) وسنن أبى داود برقم (١٧٢٢).

(9) فى جـ، ر، أ، و: «النبى».

(10) فى ر: «الثقل» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه

(11) فى جـ: «يا رسول الله ما السبيل».

وهكذا رواه ابن ماجة من حديث إبراهيم بن يزيد وهو الخُوزى. قال الترمذى: ولا نعرفه[١] إلا من حديثه، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه. كذا قال هاهنا. وقال فى كتاب الحَجّ: هذا حديث حسن[٢].

[و][٣] لا يشك أن هذا الإسناد رجاله كلهم ثقات سوى الخوزى هذا، وقد تكلموا فيه من أجل هذا الحديث.

لكن قد تابعه غيره، فقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله العامرى، حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثى، عن محمد بن عباد بن جعفر قال: جلست إلى عبد الله بن عمر قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال له: ما السبيل؟ قال: «الزَّادُ والرَّحْلَة». وكذا رواه ابن مَرْدُويَه من رواية محمد بن عبد الله بن عُبَيد بن عمير، به.

ثم قال ابن أبى حاتم: وقد روى عن ابن عباس، وأنس، والحسن، ومجاهد، وعطاء، وسعيد ابن جبير، والربيع بن أنس، وقتادة ـ نحو ذلك[٤].

وقد روى هذا الحديث من طُرُق أخَر من حديث أنس، وعبد الله بن عباس، وابن مسعود، وعائشة كُلها مرفوعة، ولكن فى أسانيدها مقال[٥]، كما هو مقرر فى كتاب الأحكام، والله أعلم.

وقد اعتنى الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه بجمع طرق هذا الحديث. ورواه الحاكم من حديث قَتَادَة[٦]، عن حماد بن سلمة، عن قتادة، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ فقيل[٧]: ما السبيل[٨]؟ قال: «الزَّاد والرَّاحِلَة». ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه[٩].

وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّه، عن يُونس، عن الحسن قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ قالوا: يا رسول الله، ما السبيل؟ قال: «الزَّادُ والرَّاحِلَةُ»[١٠].

ورواه وَكِيع فى تفسيره، عن سفيان، عن يونس، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا الثورى، عن إسماعيل ـ وهو أبو إسرائيل الملائى ـ عن فُضَيْل ـ يعنى ابن عمرو ـ عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعَجَّلُوا

(١) فى ر: «يرفعه».
(٢) سنن الترمذى برقم(٨١٣)، (٢٩٩٨) وسنن ابن ماجة برقم(٢٨٩٦).
(٣) زيادة من جـ، ر.
(٤) تفسير ابن أبى حاتم(٢/ ٤٢٢).
(٥) وقد جمع هذه الطرق وتكلم عليها الشيخ ناصر الألبانى فى كتابه: «إرواء الغليل»(٤/ ١٦٠) بما يكفى وانتهى إلى ضعف الحديث فأفاد وأجاد جزاه الله خيرا.
(٦) فى جـ: «أبى قتادة». (٧) فى أ: «فقال»، وفى و: «قالوا». (٨) فى و: «فقيل: يا رسول الله، ماالسبيل».
(٩) المستدرك(١/ ٤٤٢).
(١٠) تفسير الطبرى(٧/ ٤٠) وإسناده مرسل.

إِلَى الحَجِّ ـ يعنى الفريضة ـ فإِنَّ أَحَدَكُمْ لاَ يَدْرِى مَا يَعْرِضُ لَهُ»[١].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الحسن بن عمرو الفُقَيْمى، عن مِهْرَان بن أبى صفوان[٢]، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَرَادَ الحجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ».

ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن أبى معاوية الضرير، به[٣].

وقد روى ابن جُبَير، عن ابن عباس فى قوله: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾. قال: من مَلَك ثلاثمائة دِرْهَم فقد استطاع إليه سبيلا.

وعن عِكْرِمة مولاه أنه قال: السبيل الصِّحَّة.

وروى وَكِيعُ بن الجَرّاح، عن أبى جَنَاب[٤] ـ يعنى الكلبى ـ عن الضحاك بن مُزاحِم، عن ابن عباس قال: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ قال: الزاد والبعير.

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أى ومن جَحَد فريضة الحج فقد كفر، والله غنى عنه[٥].

وقال سَعيد بن منصور، عن سفيان، عن ابن أبى نَجيح، عن عِكْرِمة قال: لما نزلت: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ قالت اليهود: فنحن مسلمون. قال الله، عز وجل[٦]: فَاخْصِمْهُمْ فَحَجَّهُمْ ـ يعنى فقال لهم النبى ﷺ: «إِنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَى الْمسلمِينَ حَجَّ الْبَيْت مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْه سَبِيلاً». فقالوا: لم يكتب علينا، وأبَوْا أن يحجوا. قال الله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[٧].

وروى ابن أبى نَجيح، عن مجاهد، نَحْوَه.

وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، أخبرنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود، أخبرنا مسلم بن إبراهيم وشَاذ[٨] بن فياض قالا: أخبرنا هلال أبو هاشم الخُراسانى، أخبرنا أبو إسحاق الهمدانى، عن الحارث، عن على، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَلَكَ زَادًا وَرَاحِلَةً وَلَمْ يَحُجَّ بَيْتَ الله، فَلاَ يَضُرُّهُ مَاتَ يَهُودِيًا أَوْ نَصْرَانِيًا، ذَلكَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

ورواه ابن جرير من حديث مسلم بن إبراهيم، به.

وهكذا رواه ابنُ أبى حاتم عن أبى زُرْعة الرازى: حدثنا هلال بن فياض، حدثنا هلال أبو هاشم

---

(١) المسند(١/ ٣١٣).
(٢) فى أ:«ضرار»، وفى و:«مهران».
(٣) المسند (١/ ٢٢٥).
(٤) فى جـ، ر:«حباب».
(٥) فى ر:«عنه غنى».
(٦) فى ر:«الله تعالى».
(٧) ورواه الطبرى فى تفسيره(٧/ ٥٠) من طريق عيسى عن سفيان به.
(٨) فى أ: «وساد».

الخراسانى، فذكره بإسناده مثله.

ورواه الترمذى عن محمد بن يحيى القُطَعى، عن مسلم بن إبراهيم، عن هلال بن عبد الله مولى رَبيعة بن عَمْرو بن مسلم الباهلى، به، وقال: [هذا][١] حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفى إسناده[٢] مقال، وهلال مجهول، والحارث يضعف فى الحديث[٣].

وقال البخارى: هلال هذا منكر الحديث. وقال ابن عَدِىّ: هذا الحديث ليس بمحفوظ.

وقد روى أبو بكر الإسماعيلى الحافظ من حديث [أبى][٤] عمرو الأوزاعى، حدثنى إسماعيل بن عبيد الله[٥] بن أبى المهاجر، حدثنى عبد الرحمن بن غَنْم أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: من أطاق الحج فلم يحج، فسواء عليه يهوديا مات أو نصرانيا.

وهذا إسناد صحيح إلى عمر[٦]، رضى الله عنه، وروى سَعيد بن منصور فى سننه عن الحسن البصرى قال: قال عمر بن الخطاب: لقد هممت أن أبعث رجالا إلى هذه الأمصار فينظروا كل من كان له جَدَةٌ فلم[٧] يحج، فيضربوا عليهم الجِزْية، ما هم بمسلمين. ما هم بمسلمين[٨].

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) ﴾.

هذا تعنيف من الله تعالى لكَفَرة أهل الكتاب، على عنادهم للحق، وكفرهم بآيات الله، وصَدِّهم عن سبيله مَنْ أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم[٩]، مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله، بما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين، والسادة المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما بَشَّروا به ونوَّهُوا، من ذِكْر النبى [ﷺ][١٠] الأمىّ الهاشمى العربى المكىّ، سيد ولد آدم، وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء. وقد توعدهم [الله][١١] تعالى على ذلك بأنه شهيد على صَنِيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء، ومقاتلتهم[١٢] الرسول المُبشر بالتكذيب والجحود والعناد، وأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون، أى: وسيجزيهم على ذلك يوم لا ينفعهم مال ولا بنون.

---

(١) زيادة من جـ. (٢) فى أ: «أسانيده».
(٣) تفسير الطبرى(٧/ ٤١) وتفسير ابن أبى حاتم(٢/ ٤٢١) وسنن الترمذى برقم (٨١٢).
(٤) زيادة من جـ. (٥) فى ر، أ: «عبد الله» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه«تهذيب التهذيب ١/ ٣١٧».
(٦) ورواه ابن أبى شيبة وسعيد بن منصور كما فى الدر المنثور(٢/ ٢٧٥) وروى مرفوعا من حديث أبى أمامة الباهلى وابن مسعود وعلى وأبى هريرة، لكن لم يصح منها شىء. انظر تخريجها والكلام عليها فى: «نصب الراية» للزيلعى (٤/ ٤١٠).
(٧) فى جـ، ر، أ: «ولم».
(٨) ذكره المؤلف ابن كثير فى«مسند عمر»وعزاه لمحمد بن إسماعيل البصرى، وسعيد بن منصور فى سننه قال: «وفيه انقطاع»(١/ ٢٩٣).
(٩) فى جـ، أ: «طاعتهم». (١٠، ١١) زيادة من أ.
(١٢) فى جـ، ر، أ، و: «ومقابلتهم».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١)﴾.

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من الذين أوتوا الكتاب، الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما مَنَحهم به من إرسال رسوله[(١)]، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩] وهكذا قال هاهنا: ﴿إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ يعنى: أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه؛ فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلا ونهاراً، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨] والآية بعدها. وكما جاء فى الحديث: أن رسول الله ﷺ قال يوما لأصحابه: «أىُّ الْمُؤمنينَ أعْجَبُ إلَيْكُمْ إيمَانًا؟» قالوا: الملائكة. قال: «وَكَيْفَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ ربِّهِمْ؟!» وذكروا الأنبياء[(٢)]، قال: «وَكَيْفَ لاَ يؤْمنُونَ وَالْوَحْىُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟» قالوا: فنحن. قال: «وكيفَ لاَ تُؤْمِنُونَ وأنَا بَيْنَ أظْهُرِكُمْ؟!». قالوا: فأىّ الناس أعجب إيمانًا؟ قال: «قَوْمٌ يَجيئُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يَجِدونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا»[(٣)].

وقد ذكرت سَنَد هذا الحديث والكلام عليه فى أول شرح البخارى، ولله الحمد.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العُمْدة فى الهداية، والعُدَّة فى مباعدة الغَواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان وشُعْبَة، عن زُبَيْد اليامىّ، عن مُرَّة، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال: أن يُطاع فلا يُعْصَى،

---

(١) فى أ: «ورسله».

(٢) فى جـ، أ، و: «قالوا فالأنبياء».

(٣) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير(٤/ ٢٢، ٢٣) من حديث أبى جمعة الأنصارى.

وأن يُذْكَر فلا يُنْسَى، وأن يُشْكَر فلا يُكْفَر[١].

وهذا إسناد صحيح موقوف، [وقد تابع مرة عليه عمرو بن ميمون عن ابن مسعود][٢].

وقد رواه ابن مَرْدُويه من حديث يونس بن[٣] عبد الأعلى، عن ابن وَهْب، عن سفيان الثورى، عن زُبَيد، عن مُرَّة، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾: أن يُطَاعَ فَلاَ يُعْصَى، ويُشْكَرَ فَلاَ يُكْفَر، ويُذْكَر فَلاَ يُنْسَى».

وكذا رواه الحاكم فى مستدركه، من حديث مِسْعَر، عن زُبَيْد، عن مُرَّة، عن ابن مسعود، مرفوعا فذكره. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. كذا قال. والأظهر[٤] أنه موقوف[٥]. والله أعلم.

ثم قال ابن أبى حاتم: ورُوى نحوُه عن مُرة الهَمْدانى، والربيع بن خُثَيم، وعمرو بن ميمون، وإبراهيم النَّخَعى، وطاووس، والحسن، وقتادة، وأبى سِنان، والسُّدِّىّ، نحوُ ذلك.

[وروى عن أنس أنه قال: لا يتقى العبد الله حق تقاته حتى يخزن من لسانه] [٦].

وقد ذهب سعيد بن جُبَير، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حَيَّان، وزيد بن أسلم، والسُّدِّىّ وغيرهم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال على بن أبى طَلْحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال: لم تُنْسخ، ولكن ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ أن يجاهدوا فى سبيله حق جهاده، ولا تأخذهم فى الله لَوْمَة لائم، ويقوموا بالقِسْط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم.

وقوله: ﴿وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أى: حافظوا على الإسلام فى حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شىء مات عليه، ومن مات على شىء بُعث عليه، فعياذاً بالله من خلاف ذلك.

قال الإمام أحمد: حدثنا رَوْح، حدثنا شُعْبة قال: سمعتُ سليمان، عن مجاهد، أنّ الناس كانوا يطوفون بالبيت، وابنُ عباس جالس معه مِحْجَن، فقال: قال رسول الله ﷺ: «﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ لأَمَرَّتْ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ عِيشَتَهُمْ[٧] فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَه طَعَامٌ إِلاَّ الزَّقُّومُ».

وهكذا رواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجة، وابن حِبَّان فى صحيحه، والحاكم فى مستدركه، من

(١) فى جـ: «أن يشكر فلا يكفر وأن يذكر فلاينسى».
(٢) زيادة من و.
(٣) فى أ: «عن».
(٤) فى أ، و: «الأشهر».
(٥) المستدرك (٢/ ٢٩٤).
(٦) زيادة من جـ، ر، و.
(٧) فى أ، و: «عيشهم».

طرق عن شعبة، به. وقال الترمذى: حسن صحيح. وقال الحاكم: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكيع، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وَهْب، عن عبد الرحمن بن عبدرب الكعبة، عن عبد الله بن عَمْرو قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ ويَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَلْتُدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ، وَهُوَ يُؤْمِنُ(٢) باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، ويَأْتِى إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»(٣).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ(٤) إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ».

ورواه مسلم من طريق الأعمش، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا [أبو](٥) يونس، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ قَالَ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى، فَإِنْ ظَنَّ بِى خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرا فَلَهُ»(٦).

وأصل هذا الحديث ثابت فى الصحيحين(٧) من وجه آخر، عن أبى هريرةقال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ [عز وجل](٨): أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بى»(٩).

وقال الحافظ أبوبكر البزّار: حدثنا محمد بن عبد الملك القُرَشى، حدثنا جعفر بن سليمان، عن ثابت ـ وأحسبه ـ عن أنس قال: كان رجل من الأنصار مريضاً، فجاءه النبى ﷺ يَعودُه، فوافقه فى السوق فسلَّم عليه، فقال له: «كَيْفَ أَنْتَ يَا فَلاَنُ؟» قال(١٠): بخير يا رسول الله، أرجو الله أخاف ذنوبى. فقال رسول الله ﷺ: «لاَ يَجْتَمِعَانِ فِى قَلْبِ عَبْدٍ فِى هَذَا الْمَوْطِنِ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو وآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ».

ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابت غير جعفر بن سليمان. وهكذا رواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجة من حديثه، ثم قال الترمذى: غريب. وقد رواه بعضهم عن ثابت مرسلا(١١).

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعبة، عن أبى بِشْر، عن

---

(١) المسند (١/ ٣٠١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم(١١٠٧٠) والمستدرك (٢/ ٢٩٤).
(٢) فى ر: «مؤمن».
(٣) المسند (٢/ ١٩٢).
(٤) فى أ، و: «أحد منكم».
(٥) زيادة من ر.
(٦) المسند (٢/ ٣٩١).
(٧) فى جـ: «الصحيح».
(٨) زيادة من أ.
(٩) صحيح البخارى برقم (٧٥٠٥) من طريق أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة، وصحيح مسلم برقم (٢٦٧٥) من طريق الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة.
(١٠) فى جـ: «فقال».
(١١) سنن الترمذى برقم(٩٨٣) وسنن ابن ماجة برقم(٤٢٦١) ورواه ابن أبى الدنيا فى«حسن الظن بالله» برقم(٣١) وحسنه المنذرى فى الترغيب والترهيب (٤/ ٢٦٨).
أما المرسل: فرواه ابن أبى الدنيا فى«المرضى والكفارات» برقم(١٠٨) ومن طريقه البيهقى فى شعب الإيمان من طريق حماد عن ثابت عن عبيد بن عمير مرسلاً.

يوسف بن مَاهُك، عن حكيم بن حِزَام قال: بايعتُ رسولَ الله ﷺ على ألاَّ أخِرَّ إلا قائما. ورواه النسائى فى سننه عن إسماعيل بن مسعود، عن خالد بن الحارث، عن شعبة، به، وترجم عليه فقال: (باب كيف يخر للسجود)(١) ثم ساقه مثله(٢) فقيل: معناه: على ألاَّ أموت إلا مسلماً، وقيل: معناه: [على](٣) ألاّ أُقتل إلا مُقبلا غير مُدبر، وهو يرجع إلى الأول.

وقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ قيل: ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ أى: بعهد الله، كما قال فى الآية بعدها: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢] أى بعهد وذمة(٤). وقيل: ﴿بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ يعنى: القرآن، كما فى حديث الحارث الأعور، عن علىّ مرفوعا فى صفة القرآن: «هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمتينُ، وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ».

وقد وَرَدَ فى ذلك حديث خاص بهذا المعنى، فقال الإمام الحافظ أبو جعفر الطبرى: حدثنا سعيد ابن يحيى الأموى، حدثنا أسباط بن(٥) محمد، عن عبد الملك بن أبى سليمان العَرْزَمى، عن عطية عن [أبى](٦) سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «كِتَابُ اللهِ، هو حَبْلُ الله الْمَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ»(٧).

وروى ابن مَرْدُويَه من طريق إبراهيم بن مسلم الهَجَرِىّ، عن أبى الأحْوَص، عن عبد الله رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هو حَبْلُ اللهِ الْمتينُ، وهو النور المبين وهُوَ الشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، ونَجَاةٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ»(٨).

ورُوى من حديث حذيفة وزيد بن أرقم نحو ذلك. [وقال وَكِيع: حدثنا الأعمش عن أبى وائل قال: قال عبدالله: إن هذا الصراط محتضر تحضره الشياطين، يا عبد الله، بهذا الطريق هلم إلى الطريق، فاعتصموا بحبل الله فإن حبل الله القرآن](٩).

وقوله: ﴿وَلا تَفَرَّقُوا﴾: أمرَهُم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة(١٠). وقد وردت الأحاديثُ المتعددة بالنهى عن التفرق والأمر بالاجتماع والائتلاف(١١)، كما فى صحيح مسلم من حديث سُهَيل بن أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا، يَرْضى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا به شَيْئًا، وأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا، وأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاَّهُ اللهُ أمْرَكُمْ؛ وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وإِضَاعَةَ الْمَالِ»(١٢).

---

(١) المسند (٣/ ٤٠٢) وسنن النسائى (٢/ ٢٠٥).

(٢) فى جـ، أ: «عليه». (٣) زيادة من أ. (٤) فى ر: «بعهد ذمة».

(٥) فى أ: «عن». (٦) زيادة من جـ.

(٧) تفسير الطبرى (٧/ ٧٢) وفى إسناده عطية العوفى وهو ضعيف.

(٨) ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٥٥) وابن أبى شيبة فى المصنف (١٠/ ٤٨٢) وابن حبان فى المجروحين (١/ ٩٩) وابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/ ١٠١) وقال: «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، ويشبه أن يكون من كلام ابن مسعود».

(٩) زيادة من و. (١٠) فى أ، و: «الفرقة». (١١) فى جـ: «بالائتلاف والاجتماع».

(١٢) صحيح مسلم برقم (١٧١٥).

وقد ضُمِنتْ لهم العِصْمةُ، عند اتفاقهم، من الخطأ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضًا، وخِيفَ عليهم الافتراق، والاختلاف، وقد وقع ذلك فى هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة، منها فرقة[١] ناجية إلى الجنة ومُسَلمة من عذاب النار، وهم الذين على ما كان عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابه.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا [وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا][٢]﴾ إلى آخر الآية، وهذا السياق فى شأن الأَوْس والخَزْرَج، فإنه كانت[٣] بينهم حُروبٌ كثيرة فى الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن، وإحَنٌ وذُحُول[٤] طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخوانا متحابين بجلال الله، متواصلين فى ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ. وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ [إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ][٥]﴾ [الأنفال: ٦٢] وكانوا على شفا حُفْرة من النار بسبب كفرهم، فأبعدهم[٦] الله منها: أنْ هَدَاهُم للإيمان. وقد امتن عليهم بذلك رسولُ الله ﷺ يوم قَسَم غنائم حُنَيْنٍ، فَعَتَبَ من عتب[٧] منهم لَمَّا فَضَّل عليهم فى القِسْمَة بما أراه الله، فخطبهم فقال: «يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ، أَلَمْ أجِدْكُمْ ضُلاَّلا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِى، وَكُنْتُم مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِى، وَعَالَةً فأغْنَاكُمُ اللهُ بِى؟» كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمَنّ.

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يَسار وغيره: أن هذه الآية نزلت فى شأن الأوس والخزرج، وذلك أن رجلا من اليهود مَرَّ بملأ من الأوس والخزرج، فساءه ما هُمْ عليه من الاتفاق والأُلْفَة، فبعث رجلا معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم[٨] ما كان من حروبهم يوم بُعَاث وتلك الحروب، ففعل، فلم يزل ذلك دأبُه حتى حميت نفوسُ القوم وغضب بعضهم على بعض، وتثاوروا، ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم، وتواعدوا إلى الحرة، فبلغ ذلك النبى ﷺ فأتاهم فجعل يُسكِّنهم ويقول: «أبِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ وَأنَا بَيْنَ أظْهُرِكُمْ؟» وتلا عليهم هذه الآية، فندموا على ما كان منهم، واصطلحوا وتعانقوا، وألقوا السلاح، رضى الله عنهم[٩].

وذكر عِكْرِمة أن ذلك نزل فيهم حين تثاوروا فى قضية الإفْك، والله أعلم.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ

---

(١) فى ر: «فرقة منها». (٢) زيادة فى جـ، ر، أ، و. (٣) فى أ: «قد كان»، وفى و: «قد كانت».
(٤) فى ر: «دخول». وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه. (٥) زيادة من و. (٦) فى أ، و: «فأنقذهم».
(٧) فى جـ، ر: «فعنت من عنت». (٨) فى جـ، ر، أ، و: «ويذكر لهم».
(٩) انظر: تفسير الطبرى (٧/ ٧٨، ٧٩).

الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (١٠٩)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أى: منتصبة للقيام بأمر الله، فى الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قال الضحاك: هم خاصّة الصحابة وخاصة الرُّواة، يعنى: المجاهدين والعلماء.

وقال أبوجعفر الباقر: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ ثم قال: «الْخَيْرُ اتِّبَاعِ القُرآنِ وَسُنَّتِى» رواه ابن مردويه.

والمقصود من هذه الآية أن تكون فرْقَة من الأمَّة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيده، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلسانه، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ». وفى رواية: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[(١)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان الهاشمى، أخبرنا إسماعيل بن جعفر، أخبرنى عَمْرو بن أبى عمرو، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهلى، عن حذيفة بن اليمان، أن النبى[(٢)] ﷺ قال: «وَالَّذى نَفسى بِيَده لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوف وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلاَ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ».

ورواه الترمذى، وابن ماجة، من حديث عَمْرو بن أبى عمرو، به وقال الترمذى: حسن[(٣)].

والأحاديث فى هذا الباب كثيرة مع الآيات الكريمة كما سيأتى تفسيرها فى أماكنها.

ثم قال تعالى: ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ [وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ]**[(٤)]﴾: ينهى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضين فى تفرقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع قيام الحجة عليهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صَفْوان، حدثنى أزْهَر بن عبد الله الْهَوْزَنى[(٥)] عن

(١) صحيح مسلم برقم(٤٩) من حديث أبى موسى الأشعرى، قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: «وهم الحافظ ابن كثير وهما شديداً، فحديث: «من رأى منكم منكراً» هو حديث أبى موسى».

(٢) فى أ: «أن رسول الله».

(٣) المسند(٥/٣٨٨) وسنن الترمذى برقم(٢١٦٩).

(٤) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٥) فى جـ، ر: «الهورى»، وفى هـ ومسند الإمام أحمد(٤/١٠٢): «الهوزى. قال أبو المغيرة فى موضع آخر: الحرازى» والله أعلم بالصواب.

أبى عامر عبد الله بن لُحَى[١] قال: حججنا مع معاوية بن أبى سفيان، فلما قدمنا مكة قام حين صلى [صلاة][٢] الظهر فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أهْلَ الْكِتَابَيْنِ افترَقُوا فى دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وإنَّ هذه الأُمَّةَ ستَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ـ يعنى الأهواء ـ كُلُّهَا فى النَّار إلا وَاحِدَةٌ، وَهِىَ الْجَمَاعَةُ، وإنَّهُ سَيَخْرُجُ فِى أُمَّتى أقْوَامٌ تُجَارى بِهِمْ تِلْكَ الأهْواء، كَمَا يَتَجَارى الكَلْبُ بِصَاحِبه، لاَ يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلاَ مَفْصِلٌ إلاَّ دَخَلَهُ. والله ـ يَا مَعْشَرَ العَرَبِ ـ لَئِنْ لَمْ تَقُومُوا بِمَا جاء بِهِ نَبِيُّكُمْ ﷺ لَغَيْرُكم[٣] مِن النَّاسِ أحْرَى ألاَّ يَقُومَ بِهِ».

وهكذا رواه أبو داود، عن أحمد بن حنبل ومحمد بن يحيى، كلاهما عن أبى المغيرة ـ واسمه عبد القدوس بن الحجاج الشامى ـ به، وقد رُوى هذا الحديث من طرق[٤].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يعنى: يوم القيامة، حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودّ وجوه أهل البدْعَة والفرقة، قاله ابن عباس، رضى الله عنهما[٥].

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: قال الحسن البصرى: وهم المنافقون: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذا الوصف يَعُمّ كل كافر.

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ يعنى: الجنة، ماكثون فيها أبدا لا يبغون عنها حوَلا. وقد قال أبو عيسى الترمذى عند تفسير هذه الآية: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وَكيع، عن رَبيع ـ وهو ابن صَبِيح[٦] ـ وحَمَّاد بن سلمة، عن أبى غالب قال: رأى أبو أمامة رؤوسا منصوبة على دَرَج دمشق، فقال أبو أمامة: كلاب النار، شر قتلى تحت أديم السماء، خَيْرُ قتلى من قتلوه، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إلى آخر الآية. قلت لأبى أمامة: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا أو أربعا ـ حتى عدّ سبعا ـ ما حدّثتكموه.

ثم قال: هذا حديث حسن: وقد رواه ابن ماجة من حديث سفيان بن عيينة عن أبى غالب، وأخرجه أحمد فى مسنده، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أبى غالب، بنحوه[٧].

وقد روى ابن مَرْدُوَيه عند تفسير هذه الآية، عن أبى ذر، حديثاً مطولا غريبا عجيبا جدا.

ثم قال [تعالى][٨]: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ أى: هذه آيات الله وحُجَجُه وبيناته ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿بِالْحَقِّ ﴾ أى: نكشف[٩] ما الأمر عليه فى الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى: ليس بظالم لهم بل هو الحكَم العدل الذى لا يجور؛ لأنه القادر

---

(١) فى ر: «لجى». (٢) زيادة من أ، و. (٣) فى جـ: «فغيركم».
(٤) المسند(٤/ ١٠٢) وسنن أبى داود برقم (٤٥٩٧).
(٥) فى ر: «عنه». (٦) فى ر: «صبح».
(٧) سنن الترمذى برقم(٣٠٠٠) وسنن ابن ماجة برقم (١٧٦).
(٨) زيادة من أ، و. (٩) فى جـ: «ينكشف».

على كل شيء، العالم بكل شيء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحدا من خلقه؛ ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملك له وعبيد له. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ أي: هو المتصرف في الدنيا والآخرة، الحاكم في الدنيا والآخرة.

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) ﴾.

يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم فقال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

قال البخاري: حدثنا محمد بن يوسف، عن سفيان، عن مَيْسَرة، عن أبي حازم، عن أبي هريرة: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: خَيْرَ الناس للناس، تأتون[(١)] بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام[(٢)].

وهكذا قال ابن عباس، ومُجاهد، وعكْرِمة، وعَطاء، والربيع بن أنس، وعطية العَوْفيّ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ يعني: خَيْرَ الناس للناس.

والمعنى: أنهم خيرُ الأمم وأنفع الناس للناس؛ ولهذا قال: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ[(٣)] بِاللَّهِ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا شريك، عن سماك، عن عبد الله بن عُمَيرة عن زوج [دُرّة][(٤)] بنت أبي لَهَب، [عن درة بنت أبي لهب][(٥)]، قالت: قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر، فقال: يارسول الله، أيّ الناس خير؟ فقال: «خَيْرُ النَّاسِ أقْرَؤهُمْ وأتقاهم لله، وآمَرُهُمْ بِالمعروفِ، وأنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ»[(٦)].

ورواه أحمد في مسنده، والنسائي في سننه، والحاكم في مستدركه، من حديث سماك، عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس في قوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، قال: هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة[(٧)].

---

(١) في جـ، ر، أ، و: «يأتون».

(٢) صحيح البخاري برقم(٤٥٥٧).

(٣) في ر: «يؤمنون». (٤، ٥) زيادة من جـ، ر، أ، والمسند.

(٦) المسند (٦/ ٤٣٢).

(٧) المسند (١/ ٣١٩) والنسائي في السنن الكبرى(١١٠٧٢) والمستدرك(٢/ ٢٩٤) وقال الحاكم: «صحيح الإسناد على شرط مسلم» ووافقه الذهبي.

والصحيح أن هذه الآية عامةٌ فى جميع الأمة، كل قَرْن بحسبه، وخير قرونهم الذين بُعثَ فيهم[(١)] رسول الله ﷺ، ثم الذين يَلونهم، ثم الذين يلونهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، أى: خيارا ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ [وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً][(٢)]﴾ الآية.

وفى مسند الإمام أحمد، وجامع الترمذى، وسنن ابن ماجة، ومستدرك الحاكم، من رواية حكيم ابن مُعَاوية بن حَيْدَة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا، وأَنْتُمْ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ عزَّ وجَلَّ»[(٣)].

وهو حديث مشهور، وقد حَسَّنه الترمذى. ويروى من حديث معاذ بن جبل، وأبى سعيد [الخدرى][(٤)]، نحوه.

وإنما حازت هذه الأمة قَصَبَ السَّبْق إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ[(٥)]، فإنه أشرفُ خلق الله أكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يُعْطه نبياً قبله ولا رسولا من الرسل. فالعمل [على][(٦)] منهاجه وسبيله، يقوم القليلُ منه ما لا يقوم العملُ الكثيرُ من أعمال غيرهم مقامه، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرحمن، حدثنا ابن زُهَير، عن عبد الله ـ يعنى ابن محمد بن عقيل ـ عن محمد بن على، وهو ابن الحنفية، أنه سمع على بن أبى طالب، رضى الله عنه، يقول: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أحَدٌ مِنَ الأنْبِيَاءِ». فقلنا: يا رسول الله، ما هو؟ قال: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الأرْضِ، وسُمِّيتُ أحْمَدَ، وجُعِلَ التُّرَابُ لِى طَهُورًا، وجُعِلَتْ أُمَّتِى خَيرَ الأُمَمِ».

تفرد به أحمد من هذا الوجه، وإسناده حسن[(٧)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو العلاء الحسن بن سَوَّار، حدثنا لَيْث، عن معاوية عن أبى حُلَيْس يزيد بن مَيْسَرَةَ قال: سمعت أم الدرداء، رضى الله عنها، تقول: سمعت أبا الدرداء يقول: سمعت أبا القاسم ﷺ، وما سمعته يكنيه قبلها ولا بعدها، يقول[(٨)]: «إنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا عِيسَى، إنِّى بَاعِثٌ بَعْدَكَ أُمَّةً، إنْ أَصَابَهُمْ مَا يُحِبُّونَ حَمدُوا وشَكَرُوا، وإنْ أصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ احْتَسَبُوا وَصَبَرُوا، ولاَ حِلْمَ ولاَعِلْمَ». قال: «يَارَبِّ، كَيْفَ هَذَا لَهُمْ، ولاَ حِلْمَ ولاَ عِلْمَ؟. قال: «أُعْطِيهِمْ مِن حِلْمِى وعلمى»[(٩)].

---

(١) فى أ: «الذى بعث فيه». (٢) زيادة من جـ، ر، أ، و.
(٣) المسند (٤/ ٤٤٧) وسنن الترمذى برقم(٣٠٠١) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٨٧) والمستدرك (٤/ ٨٤).
(٤) زيادة من جـ. (٥) فى و: «صلوات الله وسلامه عليه». (٦) زيادة من جـ، ر.
(٧) المسند(١/ ٩٨) وقال الهيثمى فى المجمع(١/ ٢٦٠): «فيه عبد الله بن محمد بن عقيل وهو سيِّئ الحفظ. وقال الترمذى: صدوق وقد تكلم فيه بعض العلماء من قبل حفظه، وسمعت محمد البخارى يقول: كان أحمد بن حنبل وإسحاق والحميدى يحتجون بحديث ابن عقيل. قلت: فالحديث حسن».
(٨) فى ر: «تقول».
(٩) المسند (٦/ ٤٥٠).

وقد وردت أحاديثُ يناسب[١] ذكرُها هاهنا:

قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا المسعودى، حدثنا بُكَيْر[٢] بن الأخْنَس، عن رجل، عن أبى بكرالصديق، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيتُ سَبْعينَ ألْفاً يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَاب، وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَاسْتَزَدْتُ رَبِّى، عز وجَلَّ، فَزَادَنِى مَعَ كُل وَاحِدٍ سبعين ألفاً». قال أبو بكر، رضى الله عنه: فرأيت أن ذلك آتٍ على أهل القرى، ومصيبٌ من حافات البوادى.[٣]

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن بكر السهمى، حدثنا هشام بن حسان، عن القاسم بنِ مِهْرَان، عن موسى بن عبيد، عن ميمون بن مهران، عن عبد الرحمن بن أبى بكر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ رَبِّى أعْطَانِى سَبْعِينَ ألْفاً يَدْخُلُونَ الْجَنَّة، بِغَيْرِ حِسَابٍ». فقال عمر: يا رسول الله، فهلا استزدته؟ فقال: «اسْتَزَدْتُهُ فَأَعْطَانِى مَعَ كُلِّ رَجُلٍ سَبْعِينَ ألْفاً». قال عمر: فهلا استزدته؟ قال: «قَدِ اسْتَزَدْتُهُ فأعْطَانِى هكَذَا». وفرج عبد الله بن بكر[٤] بين يديه، وقال عبد الله: وبسط باعيه، وحثا[٥] عبد الله، قال هشام: وهذا من الله لا يدرى ما عدده[٦].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليَمان، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، عن ضَمْضم بن زُرْعة قال: قال شُرَيح بن عبيد: مَرِضَ ثَوْبَان بحِمْص، وعليها عبد الله بن قُرْط الأزْدِي، فلم يَعُدْه، فدخل على ثوبان رجل من الكَلاعيين عائداً، فقال له ثوبان: [أتكتب؟ قال: نعم: فقال: اكتب، فكتب للأمير عبد الله بن قرط، «من ثوبان][٧] مولى رسول الله ﷺ، أما بعد: فإنه لو كان لموسى وعيسى، عليهما السلام، بحضرتك خَادمٌ لعدته» ثم طوى الكتاب وقال له: أتبلغه إياه؟ فقال: نعم. فانطلقَ الرجلُ بكتابه فدفعه إلى ابن قرط، فلما رآه قام فَزِعا، فقال الناس: ما شأنه؟ أحدث أمر؟ فأتى ثوبان حتى دخل عليه فعاده، وجلس عنده ساعة ثم قام، فأخذ ثوبان بردائه وقال: اجلس حتى أحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ سمعته يقول: «لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَتِى سَبْعُونَ ألْفاً، لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلاَ عَذَاب، مَعَ كُلِّ ألفٍ سَبْعُونَ ألْفاً».

تفرد به أحمد من هذا الوجه، وإسناد رجاله كلهم ثقات شاميون حِمْصِيّون[٨]، فهو حديث صحيح[٩]، ولله الحمد.

طريق أخرى: قال الطبرانى: حدثنا عمرو بن إسحاق بن زبريق الحِمْصى، حدثنا محمد بن

(١) فى ر: «تناسب». (٢) فى جـ: «بكر».
(٣) المسند(١/ ٦) وقال الهيثمى فى المجمع(١٠/ ٤١٠): «فيه المسعودى وقد اختلط وتابعيه لم يسم، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح».
(٤) فى جـ، ر، أ، أ: «عبد الله بن أبى بكر (٥) فى جـ، ر: «حى».
(٦) المسند(١/ ١٩٧) وفى إسناده القاسم بن مهران وموسى بن عبيد وهما مجهولان، وبقية رجاله رجال الصحيح.
(٧) زيادة من جـ، ر، والمسند. (٨) فى ر: «ضمضميون».
(٩) المسند (٥/ ٢٨٠)

إسماعيل ـ يعنى ابن عَيَّاش ـ حدثنا أبى، عن ضَمْضَم بن زُرْعة، عن شُرَيح بن عبيد، عن أبى أسماء الرَّحَبِىّ، عن ثوبان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ ربِّى، عَزَّ وجَلَّ، وَعَدَنى مِنْ أُمَّتِى سَبْعِينَ ألْفاً لاَ يُحَاسَبُونَ، مَعَ كُلِّ ألْفٍ سَبْعُونَ ألْفاً».

هذا لعله هو المحفوظ بزيادة أبى أسماء الرحبى، بين شريح وبين ثوبان[١]، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة، عن الحسن، عن عمران بن حُصَين، عن ابن مسعود قال: أكثرنا الحديث عند رسول الله ﷺ ذات ليلة، ثم غَدَوْنا إليه فقال: «عُرِضَتْ عَلَىَّ الأَنْبِيَاءُ الليلة بأُمَمِهَا، فَجَعَلَ النَّبِىُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الثَّلاَثَةُ، والنَّبِىُّ وَمَعَهُ العِصَابَةُ، والنَّبِىُّ ومَعَهُ النَّفَرُ، والنَّبِىُّ وَلَيس مَعهُ أحَدٌ، حَتَّى مَرَّ عَلَىَّ مُوسَى، عليه السلام، وَمَعَهُ كَبْكَبَةٌ مِنْ بَنى إسْرَائيلَ، فَأَعْجَبُونِى، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاَءِ؟ فَقِيلَ: هَذَا أخُوكَ مُوسَى، مَعَهُ بَنُو إسْرَائيلَ». قال: «فَقُلْتُ: فَأَيْنَ أُمَّتِى؟ فَقِيل: انظُرْ عَنْ يَمينِكَ. فَنَظَرْتُ فَإذَا الظِّرَابُ[٢] قَدْ سُدَّ بِوُجُوه الرِّجَال ثُمَّ قيلَ لِى: انظُرْ عَنْ يَسَارِكَ. فَنَظَرْتُ، فَإذَا الأُفُقُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوه الرِّجَال» فَقِيلَ لِى: قَدْ رَضِيتَ؟ فَقُلْتُ[٣]: «رَضِيتُ يَارَبِّ، [رَضِيتُ يَارَبِّ][٤]». قال: «فَقِيلَ لِى: إنَّ مَعَ هَؤُلاَءِ سَبْعِينَ ألْفاً يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ». فقال النبى ﷺ: «فِدَاكُمْ أبِى وأُمِّى، إن اسْتَطَعْتُمْ أنْ تَكُونُوا مِنَ السَّبْعِينَ ألْفاً فَافْعَلُوا فإنْ قَصَّرْتُمْ فكُونُوا مِنْ أهْلِ الظِّرَابِ[٥]، فَإنْ قَصَّرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أهْلِ الأُفُقِ، فَإنِّى قَدْ رَأيْتُ ثَمَّ أُنَاساً يَتَهَاوَشُونَ». فقام عُكَاشَة بنِ مِحْصَن فقال: ادع الله يا رسول الله أن يجعلنى منهم. أى من السبعين، فدعا له. فقام رجل آخر فقال: ادع الله يا رسول الله أن يجعلنى منهم فقال: «قَدْ سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ». قال: ثم تحدثنا فقلنا: لِمَن[٦] تُرَوْنَ هؤلاء السبعين الألف؟ قوم ولدُوا فى الإسلام لم يُشْرِكُوا بالله شيئا حتى ماتوا. فبلغ ذلك النبىَّ ﷺ فقال: «هُمُ الَّذِينَ لاَ يَكْتَوُونَ وَلاَ يَسْتَرْقُونَ وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوكَّلُونَ»[٧].

هكذا رواه أحمد بهذا السَّنَد وهذا السياق، ورواه أيضا عن عبد الصمد، عن هشام، عن قتادة، بإسناده مثله، وزاد بعد قوله: «رَضِيتُ يَارَبِّ رضيت يارب» قال[٨]: رَضِيتَ؟ قُلْتُ: «نَعَمْ». قَالَ: انْظُرْ عَنْ يَسَارِكَ قال: «فَنَظَرْتُ فَإذَا الأُفق قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ». فقال: رَضِيتَ؟ قُلْتُ: «رَضِيتُ».

وهذا إسناد صحيح من هذا الوجه، تفرد به أحمد ولم يخرجوه[٩].

حديث آخر: قال أحمد بن مَنِيع: حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز، حدثنا حمّاد، عن عاصم، عن

(١) المعجم الكبير(٢/ ٩٢) ورواه أيضا فى مسند الشاميين رقم(١٦٨٢).
(٢) فى جـ، ر: «الضراب» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه من المسند (١/ ٤٠١).
(٣) فى جـ، ر: «قلت».
(٤) زيادة من ر، أ ، والمسند.
(٥) فى ر: «الضراب» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه من المسند (١/ ٤٠١).
(٦) فى جـ، ر، أ، و: «من».
(٧) المسند(١/ ٤٠١).
(٨) فى جـ: «فقال».
(٩) المسند (١/ ٤٢٠).

زر، عن ابن مسعود قال النبى ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ بِالْمُوْسِمِ فَرَاثت[١] عَلَى أُمَّتى، ثُمَّ رَأَيْتُهم فَأعْجَبَنى كَثْرَتُهُمْ وَهَيأَتُهم، قدْ مَلؤوا السَّهْلَ وَالْجبَلَ»، فَقَالَ: أَرَضِيتَ يَامُحَمَّدُ؟ فَقُلْتُ: « نَعمْ». قَالَ: فَإِنَّ مَعَ هؤُلاءِ سَبْعِينَ أَلْفاً يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَهُمُ الَّذينَ لا يَسْتَرْقُونَ وَلا يَكْتُوونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون». فقام عُكَاشَةَ بن مِحْصَن فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلنى منهم فقال: «أَنْتَ مِنْهُمْ»: فقام رجل آخرفقال: [ادع الله أن يجعلنى منهم فقال][٢]: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ».

رواه الحافظ الضِّياء المَقْدسىّ، قال: هذا عندى على شرط مسلم[٣].

حديث آخر: قال الطبرانى: حدثنا محمد بن محمد الجُذُوعىّ القاضى، حدثنا عُقْبة بن مكْرم. حدثنا محمد بن أبى عَدىّ عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين، عن عمْران بن حُصَين قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْخُل[٤] الجَنَّة مِنْ أمَّتى سَبْعُونَ أَلْفاً بِغَيْرِ حِسَاب وَلا عَذَاب». قيل: من هم؟ قال: «هُمُ الَّذينَ لا يكْتَوُونَ وَلا يسترْقُونَ وَلايَتَطيرونَ، وعَلَى رَبِّهِمْ يَتوكَّلُونَ».

رواه مسلم من طريق هشام بن حسان، وعنده ذكر عكاشة[٥].

حديث آخر: ثبَتَ فى الصحيحين من رواية الزُّهْرى، عن سعيد بن الْمُسَيَّب، أن أبا هريرة حدثه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتى زُمْرَةٌ وَهُمْ سَبْعُونَ ألفاً، تُضِيء وُجُوهُهُمْ إضَاءة الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْر». فقال[٦] أبو هريرة: فقام عُكَاشَة بن مِحْصَن الأسدى يرفع نَمِرَةً عليه فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم. فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُم». ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم فقال: «سَبَقَكَ بِهَا عكاشَةُ»[٧].

حديث آخر: قال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا يحيى بن عثمان، حدثنا سعيد بن أبى مريم، حدثنا أبو[٨] غسَّان، عن أبى حازم، عن سَهْلِ بن سَعْد؛ أن النبى ﷺ قال: «لَيدخُلَنَّ مِنْ أُمَّتى سَبْعُونَ أَلْفاً ـ أوْ سَبْعُمَائة أَلف ـ آخِذٌ بَعْضُهُمْ ببعض، حَتَّى يدخل أوَّلُهُمْ وآخِرُهُمُ الْجَنَّةَ، ووجُوهُهُمْ[٩] عَلَى صُورَةِ الْقَمرِ لَيْلَة الْبَدْرِ».

أخرجه البخارى ومسلم جميعاً، عن قُتَيْبَةَ عن عبد العزيز بن أبى حازم، عن أبيه، عن سَهْل، به[١٠].

---

(١) فى جـ، ر، أ: «فرأيت». (٢) زيادة من جـ.

(٣) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٦٤٦) «موارد» وأبو يعلى فى مسنده (٩/ ٢٣٣) والبزار فى مسنده(٤/ ٢٠٤) كلهم من طريق حماد عن عاصم به.

(٤) فى جـ: «يدخلون».

(٥) المعجم الكبير (١٨/ ١٨٣) وصحيح مسلم برقم(٢١٦).

(٦) فى جـ، ر،أ، و: «قال».

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٥٤٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٦).

(٨) فى جـ: «ابن». (٩) فى أ، و: «وجوههم».

(١٠) المعجم الكبير(٦/ ١٤٢) وصحيح البخارى برقم(٦٥٥٤) وصحيح مسلم برقم (٢١٩).

حديث آخر: قال مسلم بن الحجّاج فى صحيحه: حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا حُصَيْن بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبُيْر فقال: أيُّكم رأى الكوكب الذى انقضَّ البارحةَ؟ قلتُ: أنا. ثم قُلتُ: أما إنى لم أكن في صلاة، ولكنى لُدغتُ. قال: فما صنعتَ؟ قلتُ: استرقَيْتُ. قال: فما حملك على ذلك؟ قلتُ: حديث حدَّثَناه الشعبى. قال: وما حدثكم الشعبى؟ قلتُ: حدَّثَنَا عن بُرَيْدَة بن الحُصَيب الأسلمى أنه قال: لا رُقْيَةَ إلاَّ مِنْ عَيْنٍ أو حُمَّة. فقال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابنُ عباس عن النبى ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِىَّ ومَعَهُ الرُّهَيْطُ[(١)]، والنَّبِىَّ ومَعَهُ الرَّجُلُ والرَّجُلان والنَّبِىَّ ولَيْسَ مَعَهُ أحَدٌ، إذْ رُفِعَ لِى سَوادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أنَّهُمْ أُمَّتِى، فَقِيلَ لِى: هَذَا مُوسَى وقومُهُ، ولَكِنِ انظُرْ إلَى الأُفق. فَنَظَرْتُ، فإذا سَوادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِى: انظُرْ إلَى الأُفُقِ الآخرِ، فإذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِى: هَذِهِ أُمَّتُكَ ومعهُم سَبْعُونَ ألفاً يَدْخُلُونَ الجنة بِغَيْرِ حِسَابٍ، ولا عَذَابٍ». ثم نهَضَ فدخل منزله، فخاض الناس فى أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صَحِبوا رسول الله ﷺ. وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلِدُوا فى الإسلام فلم يُشْركوا بالله شيئا، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «مَا الَّذى تَخُوضُونَ فِيهِ؟» فأخبروه، فقال: «هُمُ الَّذِينَ لا يَرْقُونَ ولا يَسْترقُونَ ولا يَتطيرونَ، وعَلَى ربِّهِمْ يَتوكَّلُونَ». فقام عكاشة بن مِحصن فقال: ادع الله أن يجعلنى منهم قال: «أَنْتَ مِنْهُمْ». ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلنى منهم. قال: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ».

وأخرجه البخارى عن أُسَيد بن زيد، عن هُشَيم وليس عنده، «لا يرقون»[(٢)].

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا رَوْح بن عبادة. حدثنا ابن جُرَيج، أخبرنى أبو الزُّبَيْر، أنه سمع جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ، فذكر حديثاً، وفيه: «فَتَنجُو أوَّلُ زُمْرَةٍ وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ سَبْعُونَ ألفاً، لا يُحَاسَبُونَ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، كَأَضْوَإ نَجْمٍ فِى السَّماءِ، ثم كَذَلِكَ». وذكر بقيته، رواه مسلم من حديث رَوْح، غير أنه لم يذكر النبى ﷺ[(٣)].

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر بن أبى عاصم فى كتاب السنن له: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا إسماعيل بن عيَّاش، عن محمد بن زياد، سمعت أبا أمامة الباهلى يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «وَعَدَنى ربِّى أنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتى سَبْعِينَ ألفاً، مَعَ كُلِّ ألْفٍ سَبْعُونَ ألْفًا، لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ ولا عَذَابَ. وثَلاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّى عزَّ وجَلَّ».

وكذا رواه الطبراني من طريق هشام بن عمار، عن إسماعيل بن عياش، به، وهذا إسناد جيد[(٤)].

طريق أخرى عن أبى أمامة: قال ابن أبى عاصم: حدثنا دُحَيم، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا

---

(١) فى جـ، ر: «الرهط».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٢٠) وصحيح البخارى برقم (٥٧٥٢، ٣٤١٠، ٥٧٠٥، ٦٥٤١، ٦٤٧٢).

(٣) المسند (٣/ ٢٨٣).

(٤) السنة لابن أبى عاصم برقم (٥٨٩) والمعجم الكبير (٨/ ١٢٩).

صفوان بن عَمرو، عن سليم بن عامر، عن أبى اليمان الهوزنى[(١)] ـ واسمه عامر بن عبد الله بن لُحىّ، عن أبى أمامة، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اللهَ وَعَدَنى أنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتى سَبْعِينَ أَلْفاً بِغَيْرِ حِسَابٍ». قال يزيد بن الأخنس: والله ما أولئك فى أمتك يا رسول الله إلا مثل الذباب[(٢)] الأصهب فى الذباب. قال رسول الله ﷺ: «فَإِنَّ اللهَ وَعَدَنِى سَبْعِينَ أَلْفاً، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلفاً، وَزَادَنى ثَلاثَ حَثَيَاتٍ».

وهذا أيضاً إسناد حسن[(٣)].

حديث آخر: قال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أحمد بن خُلَيْد، حدثنا أبو تَوْبة، حدثنا معاوية[(٤)] ابن سلام، عن زيد بن سلام أنه سمع أبا سلام يقول: حدثنى عامر بن زيد البُكَالى أنه سمع عُتْبة بن عبْد السلمى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ ربِّى عزَّ وَجَلَّ وعَدَنى أنْ يُدْخِلَ الْجنة مِنْ أُمَّتى سَبْعِينَ ألفا بغَيْرِ حِسَابٍ، ثمَّ يَشْفَعُ كُلُّ أَلْفٍ لِسَبْعِينَ أَلْفاً، ثم يَحْثى ربِّى، عز وجل، بِكفيْهِ ثَلاثَ حَثَيَاتٍ». فكبر[(٥)] عمر وقال: إن السبعين الأول يُشفعهم الله فى آبائهم وأبنائهم وعشائرهم، وأرجو أن يجعلنى الله فى إحدى الحثيات الأواخر.

قال الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه صفة الجنة: لا أعلم لهذا الإسناد علة. والله أعلم[(٦)].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشام ـ يعنى الدَّستَوائى ـ حدثنا يحيى بن أبى كثير، عن هلال بن أبى ميمونة، حدثنا عطاء بن يَسَار أن رِفَاعة الجُهَنىّ حدّثه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بالكُدَيد ـ أو قال بقُدَيْد ـ فذكر حديثا، وفيه: ثم قال: «وَعَدَنى ربِّى، عزَّ وجلَّ، أنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتى سَبْعِينَ أَلْفا بغَيْرِ حسَابٍ، وَإِنِّى لأَرْجُو أَلاَّ يَدْخُلُوهَا حَتَّى تَبُوؤُوا أَنْتُمْ ومَنْ صَلَحَ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وذرياتكم مَسَاكِنَ فِى الْجَنَّةِ».

قال الضياء [المقدسى][(٧)]: وهذا عندى على شرط مسلم[(٨)].

حديث آخر: قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن، قتادة، عن النَّضْر بن أنس، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ وَعَدَنى أنْ يُدْخِلَ الجنة مِنْ أُمَّتى أَرْبَعمائَة أَلْف». قال أبو بكر: زدنا يارسول الله. قال: والله هكذا[(٩)]. فقال عمر: حسبك يا أبا بكر. فقال أبو بكر: دَعْنى، وما عليك أن يدخلنا الله الجنة كلنا[(١٠)]. فقال عمر: إن شاء الله أَدْخَل خَلْقه الجنة بكفٍّ واحد. فقال النبى ﷺ: «صَدَقَ عُمَرُ».

---

(١) فى جـ، ر: «الهودى».
(٢) فى ر: «الدنان».
(٣) السنة لابن أبى عاصم برقم (٥٨٨).
(٤) فى و: «أبو معاوية».
(٥) فى ر: «وكبر».
(٦) المعجم الكبير(١٧/ ١٢٦، ١٢٧) ورواه الطبرانى أيضا فى المعجم الأوسط (١/ ٢٥٤) بهذا الإسناد. وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤١٣): «وفيه عامر بن زيد البكالى، وقد ذكره ابن أبى حاتم ولم يجرحه ولم يوثقه، وبقيه رجاله ثقات».
(٧) زيادة من و.
(٨) المسند (٤/ ١٦).
(٩) فى و: «قال: وهكذا. وجمع بين يديه، قال: زدنا يا رسول الله، قال: وهكذا».
(١٠) فى أ: «كلنا بكف واحد».

هذا الحديث بهذا الإسناد انفرد[١] به عبد الرزاق[٢]، قاله الضياء. وقد رواه الحافظ أبو نُعيم الأصبهانى:

حدثنا محمد بن أحمد بن مَخْلَد، حدثنا إبراهيم بن الْهيْثَم البَلَدى، حدثنا سليمان بن حَرْب، حدثنا أبو هلال، عن قتادة، عن أنس عن النبى ﷺ قال: «وَعَدَنى ربِّى أنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتى مائَةَ أَلْفٍ». فقال أبو بكر: يا رسول الله، زدنا قال: «وهكذا» ـ وأشار سليمان بن حرب بيده كذلك ـ قلتُ[٣]: يا رسول الله، زدنا. فقال عمر: إن الله قادر أن يدخل الناس الجنة بِحَفْنَةٍ واحدة. فقال رسول الله ﷺ: «صَدَقَ عُمَرُ».

هذا حديث غريب من هذا الوجه وأبو هلال اسمه: محمد بن سُلَيْم الراسبى، بصرى[٤].

طريق أخرى عن أنس: قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبى بكر، حدثنا عبد القاهر بن السُّرِّى السلمى، حدثنا حُمَيد، عن أنس، عن النبى ﷺ قال: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتى سَبْعُونَ أَلْفًا». قالوا: زدنا يا رسول الله. قال: لِكُلِّ رَجُلٍ سَبْعُونَ أَلْفاً» قالوا: زدنا ـ وكان[٥] على كثيب ـ فقال: هكذا، وحثا بيده. قالوا: يا رسول الله، أَبْعَدَ الله من دخل النار بعد هذا، وهذا إسناد جيد، رجاله ثقات، ما عدا عبد القاهر بن السرى، وقد سئل عنه ابن معين، فقال: صالح[٦].

حديث آخر: روى الطبرانى من حديث قتادة، عن أبى بكر بن أنس، عن أبى بكر بن عُمَير عن أبيه؛ أن النبى ﷺ قال: «إنَّ اللهَ وَعَدَنى أنْ يُدْخِلَ مِنْ أمتى ثَلاثَمائة أَلْف الْجَنَّة». فقال عمير: يارسول الله، زدنا. فقال هكذا بيده. فقال عمير يا رسول الله، زدنا. فقال عمر: حسبُك، إنّ الله إنْ شاء أدخل الناس الجنة بَحفْنَةٍ ـ أو بِحَثْيَةٍ ـ واحدة. فقال نبى الله ﷺ: «صَدَقَ عُمَرُ»[٧].

حديث آخر: قال الطبرانى: حدثنا أحمد بن خُلَيْد، حدثنا أبو تَوْبَة، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد بن سلام أنه سمع أبا سلام يقول: حدثنى عبد الله بن عامر، أن قيسا الكندى حَدّث أن أبا سعيد[٨] الأنمارى حدثه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ رَبِّى وَعَدَنى أنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتى سَبْعينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، ويَشْفَعُ كُلُّ أَلْفٍ لِسبعين[٩] ألفا، ثُمَّ يَحْثى رَبِّى ثَلاثَ حَثَيات بِكَفَّيْه». كذا قال قيس، فقلت لأبى سعيد: أنت سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، بأذنى، ووعاه قلبى. قال أبوسعيد: فقال ـ يعنى رسول الله ﷺ ـ: «وَذَلِكَ إنْ شَاءَ اللهُ، عز وجل، يستَوْعِبُ مُهَاجِرِى أمتى، ويُوَفِّى الله بقيته مِنْ أعْرَابِنَا».

وقد روى هذا الحديث محمد بن سهل بن عسكر، عن أبى تَوْبَةَ الربيع بن نافع بإسناده، مثله.

---

(١) فى جـ، ر: «تفرد».
(٢) المصنف لعبد الرزاق برقم (٢٠٥٥٦) ورواه من طريقه أحمد فى المسند (٣/ ١٦٥) وابن أبى عاصم فى السنة برقم (٥٩٠).
(٣) فى أ: «فقال» وفى و: «قال».
(٤) الحلية لأبى نعيم (٢/ ٣٤٤) ورواه أحمد فى مسنده (٣/ ١٩٣) من طريق أبى هلال عن قتادة به.
(٥) فى ر: «وكانوا».
(٦) مسند أبى يعلى (٦/ ٤١٧).
(٧) المعجم الأوسط (١/ ٢٥٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤٠٩): «رجاله ثقات».
(٨) فى جـ: «سعد».
(٩) فى أ، و: «لكل ألف سبعين».

وزاد: قال أبو سعيد: فحسب ذلك عند رسول الله ﷺ، فبلغ أربعمائة ألف ألف وتسعين[١] ألف ألف.

حديث آخر: قال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا هاشم بن مَرْثَد الطبرانى، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عَيَّاش، حدثنى أبى، حدثنى ضَمْضَم بن زُرْعة، عن شُرَيح بن عبيد، عن أبى مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أمَا وَالَّذى نَفسُ مُحَمَّد بيده ليُبْعثَنَّ منكُمْ يَوْمَ الْقيَامَة إلى الْجنَّة مثْلَ اللَّيْلِ الأسْوَد، زُمْرةٌ جَميعُهَا يَخْبطُونَ الأرضَ، تَقُولُ المَلائكَةُ: لمَ جَاءَ مَعَ مُحَمَّدٍ أكْثَرُ ممَّا جَاءَ مَعَ الأنْبِيَاءِ؟». وهذا إسناد حسن[٢].

نوع آخر من الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة وشرفها بكرامتها[٣] على الله، وأنها خير الأمم فى الدنيا والآخرة:

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا ابن جُرَيج، أخبرنى أبو الزبير، عن جابر[٤]، أنه سمع النبى ﷺ يقول: «إنِّى لأرْجُو أنْ يكُونَ مَنْ يَتْبَعُنى منْ أُمَّتى يوْمَ الْقيَامَة رُبعَ الْجَنَّة». قال: فكبرنا. ثم قال: «أرْجُو أنْ يكُونُوا[٥] ثلثَ النَّاسِ». قال: فكبرنا. ثم قال: «أرْجُو أنْ تكُونُوا الشَّطْرَ».

وهكذا رواه عن رَوْح، عن ابن جُرَيج، به. وهو على شرط مسلم[٦].

وثبت فى الصحيحين من حديث أبى إسحاق السَّبيعى، عن عَمْرو بن ميمون، عن عبد الله بن مسعود قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «أمَا تَرْضَوْنَ أنْ تكُونُوا رُبع أهلِ الْجَنَّة؟» فكبرنا. ثم قال: «أمَا تَرْضَوْنَ أنْ تكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» فكبرنا. ثم قال: «إنِّى لأرْجُو أنْ تكُونُوا شَطْرَ أهْلِ الْجَنَّةِ»[٧].

طريق أخرى عن ابن مسعود: قال الطبرانى: حدثنا أحمد بن القاسم بن مُساور، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنى الحارث بن حَصيرة، حدثنى القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أنْتُمْ ورُبْعُ الْجَنَّة لَكُمْ ولسَائر النَّاس ثلاثة أرْبَاعهَا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «كَيْفَ أنْتُمْ وثُلُثُهَا؟» قالوا: ذاك أكثر. قال: «كَيْفَ أنْتُمْ والشَّطْرُ لَكُمْ؟» قالوا: ذاك أكثر. فقال رسول الله ﷺ: «أهْلُ الْجَنَّة عشْرُونَ ومَائةُ صَفٍّ، لَكُمْ منْهَا[٨] ثَمَانُونَ صَفًا».

قال الطبرانى: تفرد به الحارث بن حَصيرة[٩].

---

(١) فى أ: «سبعمائة»، وفى و: «تسعمائة».

(٢) المعجم الكبير (٣/ ٢٩٧) وقال الهيثمى فى المجمع(١٠/ ٤٠٤) :«وفيه محمد بن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف».

(٣) فى أ، و:« وكرامتها». (٤) فى و:« أنه سمع جابرا». (٥) فى جـ : «تكونوا».

(٦) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤٠٢):«رواه أحمد والبزار والطبرانى فى الأوسط،ورجال البزار رجال الصحيح وكذا أحد أسانيد أحمد».

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٥٢٨، ٦٦٤٢) وصحيح مسلم برقم (٢٢١).

(٨) فى أ: «فيها».

(٩) المعجم الكبير (١٠/ ٢٠٨) ورواه أحمد فى مسنده (١/ ٤٥٣) من طريق عفان عن عبد الواحد بن زياد به. قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤٠٣): «رجالهم رجال الصحيح غير الحارث بن حصيرة وقد وثق».

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا ضرار ابن مُرَّة أبو سِنَان الشيباني، عن محارب بن دثَار، عن ابن بُرَيْدة، عن أبيه أن النبى ﷺ قال: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عَشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، هَذِهِ الأُمَّةُ مِنْ ذَلِكَ ثَمَانُون صَفًا».

وكذلك[١] رواه عن عفان، عن عبد العزيز، به. وأخرجه الترمذى من حديث أبى سنان، به وقال: هذا حديث حسن. ورواه ابن ماجة من حديث سفيان الثورى، عن عَلْقَمة بن مَرْثَد، عن سليمان بن بُرَيدة، عن أبيه، به[٢].

حديث آخر: رَوَى الطبرانى من حديث سليمان بن عبد الرحمن الدمشقى، حدثنا خالد بن يزيد البَجَلى، حدثنا سليمان بن على بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده، عن رسول الله ﷺ قال: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ أُمَّتِى».

تفرد به خالد بن يزيد البَجَلى، وقد تكلم فيه ابن عَدِى[٣].

حديث آخر: قال الطبرانى: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا موسى بن غيلان، حدثنا هاشم[٤] بن مَخْلَد، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن سفيان، عن أبى عمرو، عن أبيه عن أبى هريرة قال: لما نزلت ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٣٨، ٣٩] قال رسول الله ﷺ: «أَنْتُم رُبعُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَنْتُمْ ثُلُثُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَنْتُمْ نِصفُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَنْتُمْ ثُلُثَا أَهْلِ الْجَنَّةِ»[٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولاً الْجَنَّةَ، بَيْدَ أَنَّهُم أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِم، فَهَدَانَا اللهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا الْيَوْمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ، النَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبعٌ، غَداً لِلْيَهُودِ [و][٦] للنصارى بَعْدَ غَدٍ».

رواه البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن طاوس، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ مرفوعا بنحوه[٧]. ورواه مسلم أيضا عن طريق الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ». وذكر تمام الحديث[٨].

حديث آخر: روى الدارقطنى فى الأفراد من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الزهرى،

---

(١) فى أ: «وكذا».

(٢) المسند (٥/ ٣٥٥، ٣٤٧) وسنن الترمذى برقم (٢٥٤٦) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٨٩).

(٣) المعجم الكبير (١٠/ ٣٤٨) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣/ ١٣) وقال: «أحاديثه كلها لا يتابع عليها لا إسنادا ولا متنا، ولم أر للمتقدمين فيه قولاً، بل غفلوا عنه وهو عندى ضعيف».

(٤) فى جـ: «هشام».

(٥) ورواه أبو نعيم فى الحلية من طريق الطبرانى به (٧/ ١٠١) ونقل عن الطبرانى قوله: «تفرد برفعه ابن المبارك عن الثورى. وأبو عمرو اسمه محمد والد أسباط بن محمد الكوفى القرشى».

(٦) زيادة من جـ، ر.

(٧) صحيح البخارى برقم (٨٩٦، ٣٤٨٦، ٣٤٨٧) ومسلم برقم (٨٥٥).

(٨) صحيح مسلم برقم (٨٥٥).

عن سعيد بن المسيَّب، عن عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الْجَنَّةَ حُرِّمَتْ عَلَى الأنْبِيَاءِ كُلِّهِم حتَّى أدْخُلَهَا، وَحُرِّمَتْ على الأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا[١] أمتى».

ثم قال: تفرد به ابن عقيل، عن الزهرى، ولم يرو عنه سواه. وتفرد به زُهير بن محمد، عن ابن عقيل، وتفرد به عَمْرو بن أبى سلمة، عن زهير.

وقد رواه أبو أحمد بن عَدِىّ الحافظ فقال: حدثنا أحمد بن الحسين بن إسحاق، حدثنا أبو بكر الأعين محمد بن أبى عَتَّاب، حدثنا أبو حفص التِّنيسى ـ يعنى عمرو بن أبى سلمة ـ حدثنا صدقة الدمشقى. عن زهير بن محمد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الزهرى.

ورواه الثَّعْلَبى: حدثنا أبو العباس المَخْلَدى، أخبرنا أبو نُعْم عبد الملك بن محمد، أخبرنا أحمد ابن عيسى التنيسى، حدثنا عمرو بن أبى سلمة، حدثنا صدقة بن عبد الله، عن زهير بن محمد، عن ابن عقيل، به[٢].

فهذه الأحاديث فى معنى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم فى هذا الثناء عليهم والمدح لهم، كما قال قتادة: بَلَغَنَا أن عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][٣] فى حجة حجّها رأى من الناس سُرْعة[٤]، فقرأ هذه الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، ثم قال: من سَرَّه أن يكون من تلك الأمة فَلْيؤدّ شَرْط الله فيها. رواه ابن جرير.

ومن[٥] لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله: ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[٦] [المائدة: ٧٩]. ولهذا لما مَدح [الله][٧] تعالى هذه الأمة على هذه الصفات شرع فى ذم أهل الكتاب وتأنيبهم، فقال: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أى: بما أنزل على محمد ﷺ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى: قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان.

ثم قال تعالى مخبراً عباده المؤمنين ومُبشِّراً لهم أن النصر والظَّفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين، فقال: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾. وهكذا وقع، فإنهم يوم خَيْبَر أذلّهم الله وأرغَم آنافهم[٨]، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بنى قَيْنُقَاع وبنى النَّضير وبنى قُرَيْظَة[٩]، كلهم أذلهم الله، وكذلك النصارى بالشام كَسَرهم الصحابة فى غير ما موطن، وسَلَبوهم مُلْك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين، ولا تزال عِصَابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل

---

(١) فى جـ: «يدخلها».

(٢) أطراف الغرائب والأفراد (ق٢١) لابن القيسرانى، والكامل لابن عدى (٤/ ١٢٩) ورواه البغوى فى تفسيره (٢/ ٩١) من طريق الثعلبى. ونقل ابن أبى حاتم فى العلل (٢/ ٢٢٧) عن أبى زرعة: «هذا الحديث منكر لا أدرى كيف هو».

(٣) زيادة من جـ، أ. (٤) فى جـ، ر: «ترعل». (٥) فى أ: «من».

(٦) زيادة من جـ، أ، و، وفى هـ: «الآية». (٧) زيادة من جـ، ر، أ. (٨) فى و: «أنوفهم».

(٩) فى ر: «بنو النضير وبنو قريظة».

عيسى ابن مريم [عليه السلام][١] وهم كذلك، ويحكم، عليه السلام[٢] بشرع محمد[٣]، عليه أفضل الصلاة والسلام[٤]، فيكْسر الصَّليب، ويقتل الخنزير، ويَضَع الجزْيَة، ولا يقبل إلا الإسلام.

ثم قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ أى: ألزمهم الله الذلة[٥] والصَّغَار أينما كانوا فلا يأمنون ﴿إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: بذمة من الله، وهو عَقْد الذمة لهم وضَرْب الجزية عليهم، وإلزامهم أحكام الملة ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ أى: أمان منهم ولهم، كما فى المُهَادَن والمعاهَد والأسير إذا أمَّنَه واحد[٦] من المسلمين ولو امرأة، وكذا عَبْد،على أحد قولى العلماء.

قال ابن عباس: ﴿إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ أى: بعهد من الله وعهد من الناس، [و][٧] هكذا قال مُجاهد، وعِكْرِمة، وعَطَاء، والضَّحَّاك، والحسن، وقتادة، والسُّدِّى، والرَّبيع بن أنس.

وقوله: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: أُلزموا فالتزَمُوا بغضب من الله، وهم يستحقونه ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ أى: أُلزموها[٨] قَدرًا وشَرْعًا. ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ[٩] حَقٍّ﴾، أى: وإنما حملهم على ذلك الكبْر والبَغْى والحسَد، فأعْقَبَهم ذلك الذِّلَة والصَّغَار والمسكنة أبدا، متصلا بذلة الآخرة، ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أى: إنما حمَلَهم على الكفر بآيات الله وقَتْل رُسُل الله وقُيِّضوا لذلك أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله، عز وجل، والغشيان لمعاصى الله، والاعتداء فى شرع الله، فَعياذًا بالله من ذلك، والله المستعان.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن حَبِيب حدثنا أبو داود الطيالسى، حدثنا شعبة، عن سليمان الأعمش، عن إبراهيم، عن أبى مَعْمَر الأزدى، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: كانت بنو إسرائيل تقتل فى اليوم ثلاثمائة نبىّ، ثم يقوم سُوق بَقْلهم آخر النهار.

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) ﴾.

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى و: «ويحكم بملة الإسلام».
(٣) فى جـ: «عيسى ابن مريم عليه السلام ويحكم بشرع محمد»، وفى ر: «عيسى ابن مريم وهو كذلك ويحكم عليه السلام بشرع محمد».
(٤) فى جـ، أ: «ﷺ».
(٥) فى و: «المذلة».
(٦) فى جـ، ر، أ، و: «أحد».
(٧) زيادة من و.
(٨) فى و: «ألزموا بها».
(٩) فى و: «بذل».

قال ابن أبى نَجيح: زعَم الحسن بن يزيد[١] العجْلىّ، عن ابن مسعود فى قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾، قال[٢]: لا يستوى أهل الكتاب وأمَّة محمد ﷺ.

وهكذا قال السُّدِّى، ويؤيد هذا القول الحديثُ الذى رواه الإمامُ أحمدُ بن حنبل فى مسنده.

حدثنا أبو النَّضْر وحسن بن موسى قالا: حدثنا شَيْبان، عن عاصم، عن زِر، عن ابن مسعود قال: أخر رسولُ الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة: فقال: «أمَا إنَّه لَيسَ منْ أهلِ هَذه الأديَان أحدٌ يَذكُرُ الله هَذه السَّاعَةَ غيْرَكُمْ». قال: وأُنزلَت هذه الآيات: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ [أُمَّةٌ قَائِمَةٌ][٣]﴾ إلى قوله[٤]: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾»[٥].

والمشهور عن[٦] كثير من المفسرين ـ كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، ورواه العَوْفىّ عن ابن عباس ـ أن هذه الآيات نزلت فيمن آمَنَ من أحبار أهل الكتاب، كعبد الله بن سَلاَم وأسَد بن عُبَيْد وثعلبة بن سَعْية وأسَيد بن سعْية وغيرهم، أى: لا يستوى من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب [وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أى: ليسوا[٧] كلُّهم على حَدّ سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المُجْرِم، ولهذا قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ] أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾، أى: قائمة بأمر الله، مطيعة لشَرْعه[٩]، متَّبعة نبىَّ الله، [فهى][١٠] ﴿قَائِمَةٌ﴾ يعنى مستقيمة ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أى: يقومون الليل، ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن فى صلواتهم[١١] ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. وهؤلاء هم المذكورون فى آخر السورة: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ [لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ][١٢]﴾ [الآية ١٩٩] وهكذا قال هاهنا: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ أى: لا يضيع عند الله بل يجزيكم به أوفر الجزاء. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أى: لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملا.

ثم قال تعالى مخبراً عن الكفرة المشركين بأنه ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أى لا يُرَدّ عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أراده بهم ﴿وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ثم ضرب مثلا لما ينفقه الكفار فى هذه الدار، قاله مجاهد والحسن، والسُّدِّى، فقال تعالى:

---

(١) فى أ، و: «ابن أبى يزيد». (٢) فى أ، و: «يقول». (٣) زيادة من جـ، ر، أ، و.
(٤) فى جـ، ر، أ، و: «حتى بلغ».
(٥) المسند (١/ ٣٩٦).
(٦) فى أ، و: «عند». (٧) فى أ: «ليس». (٨) زيادة من جـ.
(٩) فى جـ، ر، أ، و: «لشرع الله». (١٠) زيادة من جـ، أ، و. (١١) فى أ: «صلاتهم».
(١٢) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى الأصل: «الآية».

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أى: بَرْد شديد، قاله ابن عباس، وعكْرِمة، وسعيد بن جُبَير وقتادة والحسن، والضَّحَّاك، والرَّبيع بن أنس، وغيرهم. وقال عطاء: بَرْد وجَليد. وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ أى: نار. وهو يرجع إلى الأول، فإن البرد الشديد ـ سيّما[١] الجليد[٢] ـ يحرق الزروع والثمار، كما يحرق الشيء بالنار ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ أى: أحرقته، يعنى بذلك السَّفْعة إذا نزلت على حَرْث قد آن جداده أو حَصاده فدمَّرته وأعدَمَتْ ما فيه من ثمر أو زرع، فذهبت به وأفسدته، فعدَمه صاحبه أحوج ما كان إليه. فكذلك الكفار يمحق الله ثوابَ أعمالهم فى هذه الدنيا وثمرتها كما أذهب ثمرةَ هذا الحرث بذنوب صاحبه. وكذلك هؤلاء بَنَوْهَا على غير أصْل وعلى غير أساس ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠) ﴾.

\ يقول تبارك وتعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أى: يُطْلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خَبَالا، أى: يَسْعَوْنَ فى مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعونه من المكر والخديعة، ويودون ما يُعْنتُ المؤمنين ويخرجهم ويَشُقّ عليهم./

وقوله: ﴿لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ أى: من غيركم من أهل الأديان، وبطانة الرجل: هم خاصّة أهله الذين يطلعون على داخلة أمره.

وقد روى البخارى، والنسائى، وغيرهما، من حديث جماعة، منهم: يونس، ويحيى بن سعيد، وموسى بن عقبة، وابن أبى عتيق ـ عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى سعيد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبى وَلاَ اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَة إلاَّ كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَان: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخيرِ وتَحضُّهُ عَلَيْهِ، وبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْه، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ»[٣].

وقد رواه الأوزاعى ومعاوية بن سلام، عن الزهرى، عن أبى سلمة [عن أبى هريرة مرفوعا بنحوه[٤]. فيحتمل أنه عند الزهرى عن أبى سلمة][٥] عنهما. وأخرجه النسائى عن الزهرى

(١) فى و: «لا سيما».
(٢) فى جـ، ر، أ: «والجليد».
(٣) صحيح البخارى برقم (٦٦١١، ٧١٩٨) والنسائى فى الكبرى برقم (٨٧٥٥).
(٤) فى أ: «نحوه».
(٥) زيادة من جـ.

أيضا[١]. وعلقه البخارى فى صحيحه فقال: وقال عبيد الله بن أبى جعفر، عن صَفْوان بن سليم، عن أبى سلمة، عن أبى أيوب الأنصارى، فذكره. فيحتمل أنه عند أبى سلمة عن ثلاثة من الصحابة[٢]، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو أيوب محمد[٣] بن الوَزَّان، حدثنا عيسى بن يونس، عن أبى حَيّان التيمى عن أبى الزِّنْباع، عن ابن أبى الدِّهْقانة قال: قيل لعمر بن الخطاب، رضى الله عنه: إن هاهنا غُلاما من أهل الحِيرة، حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتبا؟ قال: قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين[٤].

ففى هذا الأثر مع هذه الآية دلالة على أن أهل الذِّمَّة لا يجوز استعمالهم فى الكتابة، التى فيها استطالة على المسلمين واطِّلاع على دَوَاخل أمُورهم التى يُخْشَى أن يُفْشوها إلى الأعداء من أهل الحرب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾.

وقد قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا إسحاق بن إسرائيل، حدثنا هُشَيم، حدثنا العَوَّام، عن الأزهر ابن راشد قال: كانوا يأتون أنَساً، فإذا حَدَّثهم بحديث لا يدرون ما هو، أتَوُا الحسن ـ يعنى البصرى ـ فيفسره[٥] لهم. قال: فحدَّث ذاتَ يوم عن النبى ﷺ أنه قال: «لاَ تَسْتَضيؤوا بنَار الْمُشْركينَ، ولاَ تَنْقُشُوا فى خوَاتيمكُمْ عَربيا[٦]». فلم يدروا ما هو، فأتوا الحسن فقالوا له: إن أنسا حَدَّثنا أن رسول الله[٧] ﷺ قال: «لاَ تَسْتَضيؤوا بنَار الشِّرْك[٨] ولاَ تَنْقُشُوا فى خوَاتيمكُمْ عَرَبيا[٩]». فقال الحسن: أما قوله: «لاَ تَنْقُشُوا فى خوَاتيمكُمْ عَرَبيا[١٠]»: محمد ﷺ. وأما قوله: «لاَ تَسْتَضيؤوا بنَار الشِّرْك» يقول: لا تستشيروا المشركين فى أموركم. ثم قال الحسن: تصديق ذلك فى كتاب الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾.

هكذا رواه الحافظ أبو يعلى، رحمه الله، وقد[١١] رواه النسائى عن مجاهد بن موسى، عن هُشَيم. ورواه الإمام أحمد، عن هشيم بإسناده مثله، من غير ذكر تفسير الحسن البصرى[١٢].

وهذا التفسير فيه نظر، ومعناه ظاهر: «لاَ تَنْقُشُوا فى خوَاتيمكُمْ عَرَبيًا[١٣]» أى: بخط عربى، لئلا يشابه نقش خاتم النبى ﷺ، فإنه كان نَقْشُه محمد رسول الله؛ ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أنه

---

(١) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٧٥٦) من طريق معاوية بن سلام عن الزهرى به.

(٢) صحيح البخارى برقم (٧١٩٨) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٧٥٧).

(٣) فى أ، و: «بن محمد»

(٤) تفسير ابن أبى حاتم (٢/ ٥٥٠) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (٨/ ٦٥٨) من طريق أبى حيان التيمى به ورواه عبد بن حميد فى تفسيره كما فى الدر (٢/ ٣٠٠).

(٥) فى جـ: «ليفسره». (٦) فى ر: «غريبا».

(٧) فى أ، و: «إن أنسا حدثنا بحديث ما ندرى ما هو قال: وماحدثكم أنس، قالوا: حدثنا أن رسول الله».

(٨) فى أ: «المشركين». (٩، ١٠) فى ر: «غريبا». (١١) فى أ: «قد».

(١٢) رواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٩٣٧٥) والطبرى فى تفسيره (٧/ ١٤٢) من طريق هشيم بسياق أبى يعلى به، ورواه أحمد فى مسنده (٣/ ٩٩) والنسائى فى السنن (٨/ ١٧٦) من غير ذكر تفسير الحسن البصرى.

(١٣) فى ر: «غريبا».

نهى أن يَنْقُشَ أحد على نقشه. وأما الاستضاءة بنار المشركين، فمعناه: لا تقاربوهم فى المنازل بحيث تكونون[١] معهم فى بلادهم، بل تَبَاعَدُوا منهم وهَاجروا من بلادهم؛ ولهذا روى أبو داود [رحمه الله][٢]: «لاَ تَتَراءَى نَاراهُمَا» وفى الحديث الآخر: «مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ أَوْ سكَن معَهُ، فَهُوَ مِثْلُهُ»؛ فحَمْلُ الحديث على ما قاله الحسن، رحمه الله، والاستشهاد عليه بالآية فيه نظر، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾، أى: قد لاح على صفَحَات وجوههم، وفلتات ألسنتهم من العداوة، مع ما هم مشتملون عليه فى صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل؛ ولهذا قال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أى: أنتم ـ أيها المؤمنون ـ تحبون المنافقين مما يظهرون لكم من الإيمان، فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم، لا باطنا ولا ظاهرا[٣] ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أى: ليس عندكم فى شىء منه شك ولا رَيْب، وهم عندهم الشك والرِّيَب والحيرة.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عِكْرِمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أى: بكتابكم وكتابهم، وبما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحق بالبغضاء لهم، منهم لكم. رواه ابن جرير.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ والأنامل: أطراف الأصابع، قاله قتادة.

وقال الشاعر:

أوَدُّ[٤] كما ما بَلّ حَلْقِىَ رِيقَتِى ... وَمَا حَمَلَتْ كَفَّاىَ أَنْمُلِى العَشْرا[٥]

وقال ابن مسعود، والسُّدِّى، والرَّبِيع بن أنس: ﴿الأَنَامِلَ﴾: الأصابع.

وهذا شأن المنافقين يُظْهِرون للمؤمنين الإيمانَ والمودّة، وهم فى الباطن بخلاف ذلك من كل وجه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ وذلك أشد الغيظ والحنق، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم، فاعلموا أن الله مُتمّ نعمته على عباده المؤمنين ومُكَمِلٌ دينَه، ومُعلٍ كلمتَه ومظهر دينَه، فموتوا أنتم بغيظكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: هو عليم بما تنطوى عليه ضمائركم، وتُكنُّه سَرَائرُكُم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه فى الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤمّلون، وفى الآخرة بالعذاب الشديد فى النار التى أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها.

ثم قال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾. وهذه الحال دالة[٦] على شدة

(١) فى أ، و: «تكونوا». (٢) زيادة من أ. (٣) فى جـ، ر، أ، و: «لا ظاهراً ولا باطنا».
(٤) فى أ: «أريد».
(٥) البيت فى تفسير الطبرى (٤/ ٤٣).
(٦) فى جـ، ر، أ، و: «وهذا الحال دال».

العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه[١] إذا أصاب المؤمنين خصب، ونصر وتأييد، وكثروا وعزّ أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سَنَةٌ[٢] ـ أى: جَدْب ـ أو أُديل عليهم الأعداء، لما لله فى ذلك من الحكمة، كما جرى يوم أُحُد، فَرِح المنافقون بذلك، قال الله تعالى مخاطبا عباده المؤمنين: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا [إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ][٣]﴾، يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكَيْد الفُجّار، باستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله الذى هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ولا يقع فى الوجود شىء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل عليه كفاه.

ثم شَرَعَ تعالى فى ذكر قصة أُحُد، وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وبيان صَبْر الصابرين، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)﴾.

المرادُ بهذه الوقعة يوم أُحُد عند الجمهور، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسُّدِّى، وغير واحد. وعن الحسن البصرى: المراد بذلك يوم الأحزاب. رواه ابن جرير، وهو غريب لا يُعَوَّل[٤] عليه.

وكانت وقعةُ أحد يومَ السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة. قال [قتادة][٥]: لإحدى عشرة ليلة خَلَتْ من شوَّال. وقال عِكْرِمة: يوم السبت للنصف من شوال، فالله أعلم.

وكان سببها أن المشركين حين قُتل من قتل من أشرافهم يومَ بَدْر، وسَلِمَت العيرُ بما فيها من التجارة التى كانت مع أبى سُفْيان، فلما رجع قفلُهم[٦] إلى مكة قال أبناء من قُتل، ورؤساء من بقى لأبى سفيان: ارصد هذه الأموال لقتال محمد، فأنفقوها فى ذلك، وجمعوا الجموع والأحابيش وأقبلوا فى قريب من ثلاثة آلاف، حتى نزلوا قريباً من أحد تلْقاء المدينة، فصلى رسولُ الله ﷺ يومَ الجمعة، فلما فَرَغَ منها صَلى على رجل من بنى النجار، يقال له: مالك بن عَمْرو، واستشار[٧] الناس: أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؟ فأشار عبد الله بن أُبىّ بالمقام بالمدينة، فإن أقاموا أقاموا بشَرِّ مَحْبس[٨]، وإن دخلوها قاتلهم الرجال فى وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدرا بالخروج إليهم، فدخل رسول الله ﷺ فلبس لأمَتَه وخرج عليهم، وقد نَدم بعضهم وقالوا: لعلنا استكرَهْنا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إن شئت أن نمكث؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَا يَنْبَغى لِنَبىٍّ إِذَا لَبِسَ لأمَتَه أنْ يَرْجِعَ حَتى يَحْكُمَ اللهُ لَه».

---

(١) فى جـ، ر، أ، و: «أنهم». (٢) فى أ، و: «المؤمنين سيئة إما». (٣) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».
(٤) فى ر: «نعول». (٥) زيادة من جـ. (٦) فى أ، و: «كلهم».
(٧) فى جـ، أ: «فاستشار». (٨) فى جـ، ر، أ: «مجلس».

فسار، عليه السلام[١]، فى ألف من أصحابه، فلما كان بالشَّوط رجع عبد الله بن أبىّ فى ثُلُث الجيش مُغْضَبا؛ لكونه لم يرجع إلى قوله، وقال هو وأصحابه: لو نعلم اليوم قتالاً لاتبعناكم، ولكنا لا نراكم تقاتلون اليوم.

واستمر رسول الله ﷺ سائرا حتى نزل الشِّعْب من أُحُد فى عَدْوَةِ الوادى. وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال: «لاَ يُقَاتِلَنَّ أَحَدٌ حتى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ».

وتهيأ رسول الله ﷺ للقتال وهو فى سبعمائة من أصحابه، وأمّر على الرماة عبد الله بن جُبَيْر أخا بنى عَمْرو بن عوف، والرماة يومئذ خمسون رجلا، فقال لهم: «انْضَحُوا الْخَيْلَ عَنَّا، وَلاَ نُؤْتَيَنَّ مِنْ قَبلِكُمْ. والْزَمُوا مَكَانَكُمْ إنْ كَانَتِ النَّوْبَةُ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا، وإنْ رَأَيْتُمُونَا تَخَطَّفُنا الطَّيْرُ فَلاَ تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ».

وظاهر رسولُ الله ﷺ بين درعين، وأعطى اللواء مُصْعَب بن عُمَير أخا بنى عبد الدار. وأجاز رسول الله ﷺ بعض الغِلْمان يومئذ وأرجأ آخرين، حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقريب من سنتين.

وتعبَّأت قريش وهم ثلاثة آلاف، ومعهم مائتا فَرَس قد جَنَبوها[٢]، فجعلوا على مَيْمَنَة الخيل خالد بن الوليد: وعلى الميسرة عِكْرِمَة بن أبى جَهْل، ودفعوا إلى بنى عبد الدار اللواء. ثم كان بين الفريقين ما سيأتى تفصيله فى مواضعه عند هذه الآيات، إن شاء الله تعالى.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أى: بَيّن لهم منازلهم ونجعلهم[٣] مَيْمَنة ومَيْسَرة وحيث أمرتهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: سميع لما تقولون، عليم بضمائركم.

وقد أورد ابن جرير هاهنا سؤالا، حاصله: كيف يقولونَ: إن النبى ﷺ سار[٤] إلى أحد يوم الجمعة بعد الصلاة، وقد قال الله [تعالى][٥]: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾؟ ثم كان جوابه عنه: أن غدوه ليبوئهم[٦] مقاعد، إنما كان يوم السبت أول النهار.

وقوله: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا [وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ][٧]﴾، قال البخارى: حدثنا علىّ بنُ عبد الله، حدثنا سفيان قال: قال عَمْرو: سمعت جابر بن عبد الله يقول: فينا نزلت: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا [وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ][٨]﴾ قال: نحن الطائفتان بنو حارثَة وبنو سَلِمَة، وما نحب ـ وقال سفيان مرة: وما يسرنى ـ أنها لم تَنْزِلْ، لقول[٩] الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾.

---

(١) فى أ: «ﷺ». (٢) فى ر: «حينوها».
(٣) فى جـ، أ، و: «تنزلهم منازلهم وتجعلهم»، وفى ر: «ينزلهم منازلهم ويجعلهم».
(٤) فى أ، و: «خرج». (٥) زيادة من جـ، ر. (٦) فى جـ: «تبوئهم».
(٧) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: « الآية». (٨) زيادة من جـ، وفى ر: «والله وليهما»، وفى هـ: «الآية».
(٩) فى أ: «يقول».

وكذا رواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة(١)، به. وكذا قال غيرُ واحد من السَّلَف: إنهم بنو حارثة وبنو سلمةَ.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى: يوم بدر، وكان فى جمعة(٢)، وافق السابع عشر من رمضان، من سنة اثنتين(٣) من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذى أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغَ فيه الشرك وخرَّب محله، [هذا](٤) مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، فيهم فرسان وسبعون بَعِيرا، والباقون مُشاة، ليس معهم من العَدَد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بينَ التسعمائة إلى الألف فى سوابغ الحديد والبَيَض، والعدة(٥) الكاملة والخيول المسومة والحلى(٦) الزائد، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله، وبَيَّضَ وَجْه النبى وقبيله، وأخزى الشيطان وجيله(٧). ولهذا قال تعالى ـ مُمْتَنا على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أى: قليل عددكم ليعلموا(٨) أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العَدَد والعُدَد؛ ولهذا قال فى الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا [وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ](٩) غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جَعْفَر، حدثنا شُعْبَة، عن سِمَاك قال: سمعت عياضا الأشعرى قال: شهدتُ اليَرْمُوك وعلينا خمسة أمراء: أبو عبيدة، ويزيد بن أبى سفيان، وابن حَسَنَة، وخالد بن الوليد، وعياض ـ وليس عياض هذا(١٠) الذى حدث سماكا ـ قال: وقال عمر، رضى الله عنه: إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة. قال: فكتبنا إليه(١١): إنه قد جاش إلينا الموت، واستمددناه، فكتب إلينا: إنه قد جاءنى كتابكم تَسْتَمدُّونَنى(١٢)، وإنى أدلكم على من هو أعز نصراً، وأحصن جنداً: الله عز وجل، فاستنصره، فإن محمداً ﷺ قد نُصر يومَ بدر فى أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابى فقاتلوهم ولا تراجعونى. قال(١٣): فقاتلناهم فهزمناهم أربعة(١٤) فراسخ، قال: وأصبنا أموالا، فتشاورنا، فأشار علينا عياض أنْ نُعْطىَ عن كل ذى رأس عشرة. قال: وقال أبو عبيدة: من يراهننى؟ فقال شاب: أنا، إن لم تَغْضَبْ. قال: فسبقه، فرأيت عَقِيصَتَىْ أبى عُبَيدة تَنْقُزان وهو خَلْفَه على فرس عُرْى(١٥).

وهذا إسناد صحيح(١٦). وقد أخرجه ابن حِبّان فى صحيحه من حديث بُنْدَار، عن غُنْدَر،

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٠٥١، ٤٥٥٨) وصحيح مسلم برقم (٢٥٠٥).
(٢) فى أ و: «فى يوم جمعة». (٣) فى جـ: «اثنين». (٤) زيادة من أ، و.
(٥) فى أ: «والعدد». (٦) فى جـ، ر: «الخيلاء». (٧) فى أ، و: «وأحزن الشيطان وخيله».
(٨) فى أ، و: «لتعلموا». (٩) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى الأصل: «إلى».
(١٠) فى جـ: «هذا هو الذى». (١١) فى أ: «له». (١٢) فى ر: «تستمدونى»
(١٣) فى أ: «قالت». (١٤) فى جـ، ر: «أربع». (١٥) فى أ، و: «عربى».
(١٦) المسند (١/٤٩) وصحيح ابن حبان (٧/١٣١) «الإحسان». وقال الهيثمى فى المجمع (٦/٢١٣): «رجاله رجال الصحيح».

بنحوه، واختاره الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه.

وبَدْر مَحَلَّة بين مكة والمدينة، تُعرف ببئرها، منسوبة إلى رجل حفرها يقال له: «بدر بن النارين». قال الشعبى: بدر بئر لرجل يسمى بدراً.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى: تقومون بطاعته.

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩) ﴾.

اختلف المفسرون فى هذا الوعد: هل كان يوم بَدْر أو يوم أُحُد؟ على قولين:

أحدهما: أن قوله: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾. ورُوى هذا عن الحسن البصرى، وعامر الشعبى، والرَّبيع بن أنس، وغيرهم. واختاره ابن جرير.

قال عباد بن منصور، عن الحسن فى قوله: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ﴾، قال: هذا يوم بَدْر. رواه ابن أبى حاتم، ثم قال:

حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا وُهَيْب عن داود، عن عامر ـ يعنى الشعبى ـ أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كُرْز بن جابر يُمدّ المشركين، فشق ذلك عليهم، فأنزل الله: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾. قال: فبلغت كُرْزاً الهزيمة، فلم يمد المشركين ولم يمد الله المسلمين بالخمسة.

وقال الرَّبيع بن أنس: أمد الله المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف.

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية ـ على هذا القول ـ وبين قوله تعالى فى قصة بدر: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ . [وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ][(١)] إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ٩، ١٠]؟فالجواب: أن التنصيص على الألف هاهنا لا ينافى الثلاثة الآلاف فما فوقها، لقوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾، بمعنى يَرْدَفُهم غيرهم ويَتْبَعهم ألوف أخر مثلهم. وهذا السياق شبيه بهذا السياق فى سورة آل عمران. فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم، قال سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة: أمد الله المؤمنين يوم بدر بخمسة آلاف.

---

(١) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «إلى قوله».

القول الثانى: أن هذا الوعد متعَلق[١] بقوله: ﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ**﴾، وذلك يوم أحُد. وهو قول مجاهد، وعكْرِمة، والضَّحَّاك، والزهرى، وموسى بن عُقبة وغيرهم. لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف؛ لأن المسلمين فرّوا يومئذ ـ زاد عكرمة: ولا بالثلاثة الآلاف؛ لقوله: ﴿**بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا**﴾، فلم يصبروا، بل فروا، فلم يمدوا بملَك واحد.

وقوله: ﴿**بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا**﴾، يعنى: تصبروا على مُصَابرة عَدُوّكم وتتقونى وتطيعوا أمرى.

وقوله: ﴿**وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا**﴾، قال الحسن، وقتادة، والرَّبيع، والسُّدِّى: أى من وجههم هذا. وقال مجاهد، وعكرمة، وأبو صالح: أى من غضبهم هذا. وقال الضحاك: من غضبهم ووجههم. وقال العَوْفىّ عن ابن عباس: من سفرهم هذا. ويقال: من غضبهم هذا.

وقوله: ﴿ **يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾ أى: معلمين بالسِّيما.

وقال أبو إسحاق السَّبِيعى، عن حارثة بن مُضَرِّب، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: كان سِيَما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض، وكان سيماهم أيضا فى نواصى خَيْلِهم[٢].

رواه ابن أبى حاتم، ثم قال: حدثنا أبو زُرْعة، حدثنا هَدْبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة فى هذه الآية: ﴿**مُسَوِّمِينَ**﴾ قال: بِالْعِهْن الأحمر.

وقال مجاهد: ﴿**مُسَوِّمِينَ**﴾ أى: مُحَذَّقة أعرافها، مُعَلَّمة نواصيها بالصوف الأبيض فى أذناب الخيل.

وقال العَوْفِىّ، عن ابن عباس، قال: أتت الملائكة محمدا ﷺ مُسَوَّمين بالصوف، فسَوَّم محمد وأصحابه أنفسهم وخيولهم على سيماهم بالصوف.

وقال عكرمة وقتادة ﴿**مُسَوِّمِينَ**﴾ أى: بسيما القتال، وقال مكحول: ﴿**مُسَوِّمِينَ**﴾ بالعمائم.

وروى ابن مَرْدُويَه، من حديث عبد القدوس بن حَبيب، عن عطاء بن أبى رباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ فى قوله: ﴿**مُسَوِّمِينَ**﴾ قال: «مُعَلَّمينَ. وكان[٣] سيما الملائكة يوم بدر عمائم سود، ويوم حنين عمائم حُمْر».

ورَوَى من حديث حُصَين بن مُخارق، عن سعيد، عن الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس قال: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر.

وقال ابن إسحاق: حَدّثنى مَنْ لا أتهم،عن مِقْسَم، عن ابن عباس قال: كان[٤] سيما الملائكة يوم بدر عَمَائمَ بيض قد أرسَلُوها فى ظهورهم، ويوم حُنَيْن عمائمَ حُمْرا. ولم تضرب الملائكة فى يوم سوى يوم بدر، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عَدَدًا ومَدَدًا لا يَضْربون.

ثم رواه عن الحسن بن عمارة، عن الحكم، عن مقْسَم عن ابن عباس، فذكر نحوه.

(١) فى أ: «يتعلق». (٢) فى أ، و: «خيولهم».
(٣) فى أ، و: «وكانت». (٤) فى أ، و: «كانت».

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الأحْمَسى[1]، حدثنا وَكيع، حدثنا هشام بن عُرْوة، عن يحيى بن عباد: أن الزبير [بن العوام][2]، رضى الله عنه، كان عليه يوم بدر عمامة صفراء مُعْتَجرًا بها، فنزلت الملائكة عليهم عمائم صُفْر.

رواه ابن مَرْدُويَه من طريق هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير، فذكره.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ أى: وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارةً لكم وتطييبا لقلوبكم وتطمينا، وإلا فإنما النصر من عند الله، الذى لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦]. ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أى: هو ذو العزة التى لا تُرام، والحكمة فى قَدره والإحكام.

ثم قال[3] تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: أمركم بالجهاد والجلاَد، لما له فى ذلك من الحكمة فى كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة فى الكفار المجاهدين. فقال: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ أى: ليهلك أمة ﴿مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أى: يخزيهم ويردهم بغيظهم لَمّا لم ينالوا منكم ما أرادوا؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا﴾ أى: يرجعوا ﴿خَائِبِينَ﴾ أى: لم يحصلوا على ما أمّلوا.

ثم اعترض بجملة دلَّت على أنّ الحُكْم فى الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له، فقال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أى: بل الأمر كلّه إلى، كما قال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

قال محمد بن إسحاق فى قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أى: ليس لك من الحكم شىء فى عبادى إلا ما أمرتك به فيهم.

ثم ذكر تعالى بقية الأقسام فقال: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أى: مما هم فيه من الكفر ويهديهم بعد الضلالة ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أى: يستحقون ذلك.

وقال البخارى: حدثنا حِبَّان بن مُوسى، أخبرنا عبد الله، أخبرنا مَعْمَر، عن الزهرى، حدثنى سالم، عن أبيه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول، إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الثانية من الفجر[4]:

---

(١) فى ر: «الأخمسى». (٢) زيادة من جـ. (٣) فى جـ: «وقال».
(٤) فى جـ، ر، أ: «من الفجر يقول».

«اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلاناً وَفُلانًا» بعد ما يقول: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، ربنا ولك الحمد» فأنزل الله تعالى[١]: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ [أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ][٢]﴾.

وهكذا رواه النسائى، من حديث عبد الله بن المبارك وعبد الرزاق، كلاهما، عن مَعْمَر[٣]، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النَّضْر، حدثنا أبو عقيل ـ قال أحمد: وهو عبد الله بن عقيل، صالح الحديث ثقة ـ قال: حدثنا عُمَر بن حمزة، عن سالم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم العن فلانا، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سُهَيلَ بنَ عَمْرو، اللهم العن صَفْوانَ بنَ أُميَّةَ». فنزلت هذه الآية: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، فَتِيبَ عليهم كلّهم[٤].

وقال أحمد: حدثنا أبو معاوية الغَلاَبى، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا محمد بن عجْلان، عن نافع، عن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ كان يدعو على أربعة قال: فأنزل الله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ [أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ][٥]﴾، قال: وهداهم الله للإسلام[٦].

وقال محمد بن عَجْلان، عن نافع، عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يدعو على رجال من المشركين يُسَمِّيهم بأسمائهم، حتى أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية.

وقال البخارى أيضاً: حَدّثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سَعْد، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيَّب، وأبى سلمة بن[٧] عبد الرحمن، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يَدْعُو على أحد ـ أو يدعو لأحد ـ قَنَتَ بعد الركوع، وربما قال ـ إذا قال: «سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد ـ: «اللَّهُمَّ انجِ الْوَلِيد بن الوليد، وسَلَمَةَ بْنَ هِشَام، وعَيَّاشَ بْنَ أبى رَبيعَةَ، والْمُسْتَضْعَفينَ منَ الْمُؤْمنينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ على مُضَر، واجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِىِّ يوسُفَ». يجهر بذلك، وكان يقول ـ فى بعض صلاته فى صلاة الفجر ـ : «اللهم العن فلانا وفلانا» لأحياء من أحياء العرب، حتى أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية[٨].

وقال البخارى: قال حُمَيْد وثابت، عن أنس بن مالك: شُجّ النبى ﷺ يوم أُحُد، فقال: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟». فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وقد أسند هذا الذى علّقه البخارى رحمه الله[٩].

وقال البخارى: فى غزوة أُحُد: حدثنا يحيى بن عَبْد الله السلمى، حدثنا عبد الله ـ أخبرنا مَعْمَر،

---

(١) فى أ: «عز وجل».
(٢) زيادة من جـ، ر، وفى هـ: «الآية».
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٠٦٩، ٤٥٥٩، ٧٣٤٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠٧٥).
(٤) المسند (٢/ ٩٣).
(٥) زيادة من جـ، ر، أ، و ، وفى هـ: «إلى آخر الآية».
(٦) المسند (٢/ ١٠٤).
(٧) فى جـ، ر: «عن».
(٨) صحيح البخارى برقم (٤٥٦٠).
(٩) صحيح البخارى (٧/ ٣٦٥) «فتح»، وسيأتى حديث حميد موصولا عن أحمد. أما حديث ثابت فقد وصله مسلم برقم (١٧٩١).

عن الزهرى، حدّثنى سالم بن عبد الله، عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ـ إذا رفع رأسه من الركوع، فى الركعة الأخيرة من الفجر ـ : «اللهم العن فلانا وفلانا وفُلانًا» بعد ما يقول: «سَمِعَ اللهُ لمن حَمِدَهُ، ربنا ولك الحمد». فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾][(١)].

وعن حنظلة بن أبى سفيان قال: سمعت سالم بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يدعو على صفوانَ بن أميّة، وسُهَيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ [أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ] [(٢)] فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾[(٣)].

هكذا ذكر هذه الزيادة البخارى معلقة مرسلة مسندة متصلة فى مسند أحمد متصلة آنفا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيم، حدثنا حُمَيد، عن أنس، رضى الله عنه أن النبى ﷺ كُسِرَتْ رَبَاعيَتُه يومَ أُحُد، وشُجَّ فى جبهته حتى سال الدم على وجهه، فقال: «كَيفَ يُفلحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ، وهو يدعوهم إلى ربهم، عز وجل». فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

انفرد به مسلم، فرواه[(٤)] [عن][(٥)] القعنبى، عن حمّاد، عن ثابت، عن أنس، فذكره[(٦)].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا الحسين بن واقد، عن مطر، عن قتادة قال: أصيب النبى ﷺ يوم أحد وكُسرت رَبَاعيته، وفرق حاجبه، فوقع وعليه درعان والدم يسيل، فمر به سالم مولى أبى حذيفة، فأجلسه ومسح عن وجهه، فأفاق وهو يقول: «كيفَ بِقَوْمٍ فعلوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ، وهو يدعوهم إلى اللهِ؟» فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ [أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ][(٧)]﴾.

وكذا رواه عبدُ الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة، بنحوه، ولم يقل: فأفاق[(٨)].

ثم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أى: الجميع ملك له، وأهلهما عبيد بين يديه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أى: هو المتصرف فلا مُعقّب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، والله غفور رحيم[(٩)].

---

(١) زيادة من جـ، ر، وفى هـ: «الآية».

(٢) فى جـ، ر: «إلى قوله».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٠٦٩).

(٤) فى جـ: «ورواه».

(٥) زيادة من ر.

(٦) المسند (٣/ ٩٩) وصحيح مسلم برقم (١٧٩١).

(٧) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

(٨) تفسير الطبرى (٧/ ١٩٧، ١٩٨) وتفسير عبد الرزاق (٢/ ١٣٥).

(٩) فى أ: «لا يعجزه شىء».

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) ﴾.

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطى الربا وأكله أضعافا مضاعفة، كما كانوا يقولون فى الجاهلية ـ إذا حَلّ أجل الدين: إما أن يَقْضِى وإمّا أن يُرْبِى، فإن قضاه وإلا زاده فى المدة وزاده الآخرَ فى القَدْر، وهكذا كلّ عام، فربما[١] تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفا.

وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون فى الأولى والأخرى[٢]، ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها، فقال: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ثم نَدَبهم إلى المبادرة إلى فعْل الخيرات والمسارعة إلى نَيْل القُرُبات، فقال: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى: كما أعدّت النار للكافرين. وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾: تنبيها[٣] على اتساع طولها، كما قال فى صفة فرش الجنة: ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] أى: فما ظنك بالظهائر؟ وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشىء المُقَبَّب والمستدير عَرْضُه كطوله. وقد دل على ذلك ما ثبت فى الصحيح: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أعلَى الجنة وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة، وَسَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ»[٤].

وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة الحديد: ﴿ وَسَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ الآية [رقم ٢١].

وقد روينا فى مسند الإمام أحمد: أنّ هرَقْل كَتَب إلى النبى ﷺ: إنك دَعَوْتنى إلى جنة عَرْضُها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال النبى[٥] ﷺ: «سُبْحَانَ الله! فأين[٦] الليل إِذَا جَاءَ النَّهَارُ؟»[٧].

وقد رواه ابنُ جرير فقال: حدثنى يونس، أنبأنا ابنُ وَهْب، أخبرنى مسلم بن خالد، عن أبى

---

(١) فى ر: «وربما». (٢) فى أ: «الآخرة». (٣) فى ر: «تنبيه».

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٧٩٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٥) فى جـ، ر: «رسول الله». (٦) فى و: «أين».

(٧) المسند (٣/٤٤٢) من حديث التنوخى. وقال الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٥/١٥): «هذا حديث غريب تفرد به أحمد، وإسناده لا بأس به».

خُثَيم، عن سعيد بن أبى راشد، عن يعلى بن مُرَّة(١) قال: لَقِيت التَّنوخى رَسُولَ هرَقْل إلى رسول الله ﷺ بحِمْص، شيخا كبيرا فَسَد، قال: قدمتُ على رسول الله ﷺ بكتاب هرَقْل، فناول الصحيفة رَجُلاً عن يساره. قال: قلت: من صاحبكم الذى يقرأ؟ قالوا: معاوية. فإذا كتاب صاحبى: «إنك كتبت تدعونى إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين، فأين النار؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «سُبْحَانَ الله! فأيْنَ اللَّيْلُ إذَا جَاءَ النَّهَارُ؟»(٢).

وقال الأعمش، وسفيان الثورى، وشُعْبَة، عن قيس بن مسلم(٣)، عن طارق بن شهاب، أن ناسا من اليهود سألوا عُمَرَ بن الخطاب عن جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال عمر [رضى الله عنه](٤): أرأيتم إذا جاء الليل أين النهار؟ وإذا جاء النهار أين الليل؟ فقالوا: لقد نزعت مثْلَها من التوراة.

رواه ابن جرير من الثلاثة الطرق(٥) (٦)، ثم قال: حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا أبو نعيم، حدثنا جعفر بن بُرْقَان، أنبأنا يزيد بن الأصم: أن رجلا من أهل الكتاب قال: يقولون: ﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾، فأين النار؟ فقال ابن عباس: أين يكون الليل إذا جاء النهار، وأين يكون النهار إذا جاء الليل؟(٧).

وقد رُوى هذا مرفوعا، فقال البَزّار: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا المغيرة بن سلمة أبو هشام، حدثنا عبد الواحد بن زياد، عن عبيد الله بن عبد الله بن الأصم، عن عَمّه يزيد بن الأصَم، عن أبى هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت قوله تعالى: ﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ فأين النار؟ قال: «أرَأَيْتَ اللَّيْلَ إذا جَاءَ لَبسَ كُلَّ شَيْءٍ، فَأَيْنَ النَّهَار؟» قال: حيث شاء الله. قال: «وكَذلِك(٨) النَّارُ تكون حيث شاء الله عز وجل»(٩).

وهذا يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون المعنى فى ذلك: أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار ألاَّ يكون فى مكان، وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث يشاء الله عز وجل، وهذا(١٠) أظهر كما تقدم فى(١١) حديث أبى هريرة، عن(١٢) البزار.

الثانى: أن يكون المعنى: أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة فى أعلى علّيين فوق السموات تحت العرش، وعرضها كما قال الله، عز وجل: ﴿كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، والنار فى أسفل سافلين. فلا تنافى بين كونها كعرض السموات والأرض، وبين وجود النار، والله أعلم.

---

(١) فى ق «أبى مرة» وهو خطأ».
(٢) تفسير الطبرى (٧/ ٢١١، ٢١٢).
(٣) فى أ: «سلمة». (٤) زيادة من أ. (٥) فى جـ، ر: «طرق».
(٦) تفسير الطبرى (٧/ ٢١١، ٢١٢).
(٧) فى جـ، ر، أ، و: «فقال ابن عباس: أرأيت إذا جاء الليل أين يكون النهار، وإذا جاء النهار أين يكون الليل».
(٨) فى أ: «فذلك»، وفى و: «فكذلك».
(٩) ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٣٦) من طريق محمد بن معمر عن المغيرة به. وقال: «على شرطهما ولم يخرجاه ولا أعلم له علة» ووافقه الذهبى.
(١٠) فى أ: «فهذا». (١١) فى أ: «من». (١٢) فى أ: «عند».

ثم ذكر تعالى صفَةَ أهل الجنة، فقال: ﴿ الَّذينَ يُنفقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: فى الشدة والرخاء، والمَنْشَط والمَكْرَه، والصحة والمرض، وفى جميع الأحوال، كما قال: ﴿ الذينَ يُنفقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤]. والمعنى: أنهم لا يشغلهم أمْر عن طاعة الله تعالى والإنفاق فى مَرَاضيه، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر.

وقوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أى: إذا ثار بهم الغيظ كظموه، بمعنى: كتموه فلم يعملوه، وعفَوْا[(١)] مع ذلك عمن أساء إليهم[(٢)]. وقد ورد فى بعض الآثار: «يقول الله تعالى: ابنَ آدَمَ، اذكُرْنِى إذَا غَضِبْتَ، أذكُرْكَ إذَا غَضِبْتُ، فَلاَ أهْلِكُكَ[(٣)] فيمن أهْلكُ» رواه ابن أبى حاتم[(٤)].

وقد قال أبو يعلى فى مسنده: حدثنا أبو موسى الزّمن، حدثنا عيسى بن شُعَيب الضَّرير أبو الفضل، حدثنا[(٥)] الربيع بن سليمان الجيزى[(٦)]، عن أبى عمرو بن أنس بن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ كَفَّ اللهُ عَنْهُ عَذَابَهُ، وَمَنْ خزَنَ لِسَانَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنِ اعْتَذَرَ إلَى اللهِ قَبِلَ عُذْرَهُ» [و][(٧)] هذا حديث غريب، وفى إسناده نظر[(٨)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا مالك، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيَّب، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، قال: «لَيْسَ الشَّدِيدُ[(٩)] بالصُّرُعة، وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ[(١٠)] الَّذِى يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ».

وقد رواه الشيخان من حديث مالك[(١١)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم التَّيْمىّ، عن الحارث بن سُوَيد، عن عبد الله، هو ابن مسعود، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّكُمْ مَالُ وَارِثه أحَبُّ إلَيْه منْ مَاله؟» قال: قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا مَالُهُ أحب إليه من مال وارثه. قال: «اعْلَمُوا أنَّهُ لَيْسَ منْكُمْ أحَدٌ إلا مَالُ وَارِثه أحَبُّ إلَيْه منْ مَاله مَالَكَ منْ مَالكَ إلا مَا قَدَّمْتَ، وَمَالُ وَارِثكَ مَا أخَّرْتَ». قال: وقال رسول الله ﷺ: «مَا تَعُدُّونَ فيكُمُ الصُّرَعَة؟» قلنا: الذى لا تَصْرَعه[(١٢)] الرجَال، قال: قال: «لا، ولكن الذى يَمْلكُ نَفْسَهُ عند الْغَضَب». قال: قال[(١٣)] رسول الله ﷺ: «مَا تَعُدُّونَ فيكُمُ الرَّقُوبَ؟» قال: قلنا: الذى لا ولد له. قال: «لاَ، ولكن الرَّقُوبَ الَّذى لم[(١٤)] يُقَدِّمْ منْ وَلَده شَيْئاً».

---

(١) فى أ: «وعفا». (٢) فى أ، و: «إليه». (٣) فى ر: «أهلك».

(٤) لم أجده فى تفسيره .

(٥) فى جـ، ر: «حدثنى»

(٦) فى أ، و: «النميرى». وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه من الجرح والتعديل ٣/ ٤٦٤. (٧) زيادة من أ، و.

(٨) ورواه الخرائطى فى مساوى الأخلاق برقم (٣٢٩) وابن أبى عاصم فى الزهد برقم (٤٧)من طريق الربيع عن أبى عمرو مولى أنس عن أنس به. ووقع عند الخرائطى «الربيع بن مسلم» ولعله تصحيف. قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٩٨): «وفيه الربيع بن سليمان الأزدى وهو ضعيف » وللحديث طريق آخر عن أنس يرويه الفضل بن العلاء عن سفيان عن حميد عن أنس به، وأخرجه الضياء المقدسى فى المختارة برقم (٢٠٦٦، ٢٠٦٧) وقال: «الفضل ذكره ابن أبى حاتم ولم يذكر فيه جرحًا». قلت: نقل ابن أبى حاتم عن أبيه (٧/ ٦٥): «شيخ يكتب حديثه»، ووثقه ابن معين وابن المدينى.

(٩، ١٠) فى جـ، ر، أ، و: «الشدة».

(١١) المسند (٢/ ٢٣٦) وصحيح البخارى برقم (٦١١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٠٩).

(١٢) فى جـ: «يصرعه». (١٣) فى أ، و:«قال: وقال». (١٤) فى جـ،ر: «لا».

أخرج البخارى الفصل الأول منه وأخرج مسلم أصل هذا الحديث من رواية الأعمش، به(١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعْبة، سمعت عُرْوة بن عبد الله الجعفىّ يحدث عن أبى حصبة، أو ابن حصبة، عن رجل شهد النبى ﷺ يخطب فقال: «تَدْرُونَ مَا الرَّقُوبُ؟» قالوا(٢): الذى لا ولد له. قال: «الرَّقُوبُ كُلُّ الرَّقُوبِ الَّذِى لَهُ وَلَدٌ فَمَاتَ، وَلَمْ يُقَدِّمْ منهم شيئا». قال: «تَدْرُونَ مَا الصُّعْلُوكُ؟» قالوا: الذى ليس له مال. قال النبى ﷺ: «الصُّعْلُوكُ كُلُّ الصُّعْلُوكِ الذى لَهُ مَالٌ، فمات ولَمْ يُقَدِّمْ منْهُ شيْئًا». قال: ثم قال النبى ﷺ: «مَا الصُّرُعَةُ؟» قالوا: الصريع. قال: فقال(٣) ﷺ: «الصُّرَعَةُ كُل الصُّرَعَةِ الَّذِى يَغْضَبُ فَيَشْتَدُّ غَضَبُهُ، وَيَحْمَرّ وَجْهُهُ، وَيَقْشَعِرُّ شَعْرُهُ، فَيَصْرَعُ غَضبَه»(٤).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نُمَيْر، حدثنا هشام ـ هو ابن عروة ـ عن أبيه، عن الأحنف بن قيس ،عن عم له يقال له: جَارية بن قُدامة السعدى؛ أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قل لى قولا ينفعنى وأقْلِل علىّ، لعلى أعيه. فقال رسول الله ﷺ: «لاَ تَغْضَبْ». فأعاد عليه حتى أعاد عليه مرارا، كل ذلك يقول: «لاَ تَغْضَبْ».

وكذا رواه عن أبى معاوية، عن هشام، به. ورواه [أيضا](٥) عن يحيى بن سعيد القطان، عن هشام، به؛ أن رجلا قال: يا رسول الله، قل لى قولا وأقْلِل علَىَّ لَعَلّى أعقله. قال: «لاَ تَغْضَبْ».

الحديث انفرد به أحمد(٦).

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن الزهرى، عن حُمَيد بن عبدالرحمن، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال: قال رجل: يا رسول الله، أوصنى. قال: «لاَ تَغْضَبْ». قال الرجل: ففكرت حين قال (٧) ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله.

انفرد به أحمد(٨).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا داود بن أبى هِنْد عن ابن أبى حَرْب بن أبى الأسود، عن أبى الأسود، عن أبى ذَرّ قال: كان يسقى على حوض له، فجاء قوم قالوا(٩): أيكم يورد على أبى ذر ويحتسب شعرات من رأسه فقال رجل: أنا. فجاء الرجل فأورد عليه الحوض فدقه، وكان أبو ذر قائما فجلس، ثم اضطجع، فقيل له: يا أبا ذر، لم جلست ثم اضطجعت؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُم وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجلِسْ، فإن(١٠) ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وإلا فَلْيَضْطَجِعْ».

ورواه أبو داود، عن أحمد بن حنبل بإسناده، إلا أنه وقع فى روايته: عن أبى حرب، عن أبى

(١) المسند (١/ ٣٨٢) وصحيح البخارى برقم (٦٤٤٢).

(٢) فى أ: «قال».

(٣) فى جـ، ر: «فقال النبى».

(٤) المسند (٥/ ٣٦٧) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٦٩): «فيه أبو حصبة أو ابن عصبة ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».

(٥) زيادة من و.

(٦) المسند (٥/ ٣٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٦٩): «رجاله رجال الصحيح».

(٧) فى جـ، ر، أ، و: «قال النبى».

(٨) المسند (٥/ ٣٧٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٦٩): «رجاله رجال الصحيح».

(٩) فى جـ، ر: «فقالوا».

(١٠) فى جـ، أ: «فإذا».

ذر، والصحيح: ابن أبى حرب، عن أبيه، عن أبى ذر، كما رواه عبد الله بن أحمد، عن أبيه(١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن خالد: حدثنا أبو وائل الصَّنْعَانى قال: كنا جلوسا عند عرْوة بن محمد إذ دخل عليه رجل، فكلمه بكلام أغضبه، فلما أن غضب قام، ثم عاد إلينا وقد توضأ فقال: حدثنى أبى، عن جدى عطية ـ هو ابن سعد السعدى، وقد كانت له صحبة ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وإنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ(٢)، وإنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالماءِ، فَإذَا أُغْضِبَ(٣) أحَدُكُم فَلْيَتَوضَّأْ».

وهكذا رواه أبو داود من حديث إبراهيم بن خالد الصنْعَانى، عن أبى وائل القاص(٤) المُرَادى الصَّنْعَانى: قال أبو داود: أراه عبد الله بن بَحير(٥) (٦).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا نوح بن جَعْوَنة السُّلَمى، عن مقاتل بن حَيَّان، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أنْظَرَ مُعْسِرًا أو وَضَعَ لَهُ وَقَاهُ اللهُ مِنْ فَيْحِ جهنَّمَ، ألاَ إنَّ عَمَلَ الْجَنَّة حَزْنٌ بِربْوَة ـ ثلاثا ـ ألاَ إنَّ عَمَلَ النَّار سَهْلٌ بسَهْوة والسَّعيدُ مَنْ وقِىَ الفتَنَ، ومَا منْ جَرْعَة أحَبُّ إلَى الله [عزَّ وجل](٧) مِنْ جَرْعَةِ غَيْظٍ يكْظِمُهَا عَبْدٌ، مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لله(٨) إلاَّ مَلأَ(٩) جَوْفَه إيمَانًا».

انفرد به أحمد، إسناده حسن ليس فيه(١٠) مجروح، ومتنه حسن(١١).

حديث آخر فى معناه: قال أبو داود: حدثنا عقبة بن مُكرَم، حدثنا عبد الرحمن ـ يعنى ابن مَهْدى ـ عن بشر ـ يعنى ابن منصور ـ عن محمد بن عَجْلان، عن سُوَيد بن وَهْب، عن رجل من أبناء أصحاب النبى ﷺ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادرٌ عَلَى أنْ يُنفذَه مَلأَهُ اللهُ أمْناً وإيمانًا، ومَنْ تركَ لُبْسَ ثَوْب جمَال وَهُوَ يَقْدرُ علَيْه ـ قال بشْر: أحسبه قال: «تَوَاضُعًا» ـ كَسَاهُ اللهُ حُلَّةَ الْكَرَامَةِ، ومَنْ زَوَّجَ لله كَسَاهُ اللهُ تَاجَ الْمُلْك»(١٢).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يَزيد، حدثنا سعيد، حدثنى أبو مَرْحُوم، عن سَهْل بن مُعَاذ بن أنس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادرٌ عَلَى أنْ يُنفِذَه، دَعَاهُ اللهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلائقِ، حَتَّى يُخيرَهُ مِنْ أىِّ الْحُور شَاءَ».

ورواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجة، من حديث سعيد بن أبى أيُّوب، به. وقال الترمذى: حسن غريب(١٣).

(١) المسند (٥/ ١٥٢) وسنن أبى داود برقم (٤٧٨٢، ٤٧٨٣).
(٢) فى و: «من نار». (٣) فى جـ، ر، أ، و: «غضب». (٤) فى جـ، أ: «العاص»، وفى ر: «العلص».
(٥) فى جـ: «جبير».
(٦) المسند (٤/ ٢٢٦) وسنن أبى داود برقم (٤٧٨٤).
(٧) زيادة من أ. (٨) فى أ، و: «ما كظم عبد الله» (٩) فى ر، أ، و: «ملأ الله».
(١٠) فى أ، و: «فيهم».
(١١) المسند (١/ ٣٢٧).
(١٢) سنن أبى داود برقم (٤٧٧٨).
(١٣) المسند (٣/ ٤٤٠) وسنن أبى داود برقم (٤٧٧٧) وسنن الترمذى برقم (٢٠٢١، ٢٤٩٣) وسنن ابن ماجة برقم (٤١٨٦).

حديث آخر: قال: عبد الرزاق: أخبرنا داود بن قَيْس، عن زيد بن أسلم، عن رجل من أهل الشام ـ يقال له: عبد الجليل ـ عن عم له، عن أبى هريرة فى قوله تعالى: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ**﴾ أن النبى ﷺ قال: «من كظم غيظا، وهو يقدر على إنفاذه ملأه الله أمنا وإيمانا». رواه ابن جرير[(١)].

حديث آخر: قال ابن مَرْدُويَه: حدثنا أحمد بن محمد بن زياد، أخبرنا يحيى بن أبى طالب، أخبرنا على بن عاصم، أخبرنى يونس بن عبيد عن الحسن، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تَجَرَّعَ عبد من جُرْعَةٍ أفضل أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله».

وكذا رواه ابن ماجة عن بشر بن عمر، عن حَمَّاد بن سلمة، عن يونس بن عُبَيد، به[(٢)].

فقوله: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ**﴾ أى: لا يعملون [(٣)] غضبهم فى الناس، بل يكفون عنهم شرهم، ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل.

ثم قال [تعالى][(٤)]: ﴿**وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ**﴾، أى: مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم فى أنفسهم، فلا يبقى[(٥)] فى أنفسهم[(٦)] مَوجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾. فهذا من مقامات الإحسان.

وفى الحديث: «ثلاث أُقْسِمُ عليهن: ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عِزا، ومن تواضع لله رفعه الله»[(٧)].

وروى الحاكم فى مستدركه من حديث موسى بن عُقْبة، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة القُرشى، عن عُبَادة بن الصامت، عن أبى بن كعب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن يُشْرَفَ له البنيان، وترفع له الدرجات فَلْيَعْفُ عمن ظلمه، ويعط من حرمه، ويَصِلْ من قطعه».

ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه[(٨)]. وقد أورده ابن مردويه من حديث على، وكعب بن عُجْرة، وأبى هريرة، وأم سلمة، بنحو ذلك. وروى عن[(٩)] طريق الضحاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد يقول: أين العافون عن الناس؟ هَلُمُّوا إلى ربكم، وخذوا أجوركم، وحق على كل امرئ مسلم إذا عفا أن يدخل الجنة».

وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ**﴾ أى:

---

(١) تفسير عبد الرزاق (١/ ١٣٦) وتفسير الطبرى (٧/ ٢١٦) ورواه البخارى فى التاريخ الكبير (٥/ ١٢٣) وقال: «عبد الجليل لا يتابع عليه».

(٢) سنن ابن ماجة برقم (٤١٨٩) ورواه أحمد فى مسنده (٢/ ١٢٨) من طريق على بن عاصم عن يونس بن عبيد، به.

(٣) فى جـ: «أى يعلمون»، وفى ر: «أى لا يعلمون».

(٤) زيادة من جـ. (٥) فى و: «تبقى». (٦) فى أ: «نفوسهم».

(٧) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٣٢٥) من حديث أبى كبشة الأنمارى.

(٨) المستدرك (٢/ ٢٩٥) وتعقبه الذهبى فقال: «فيه أبى أمية بن يعلى ضعفه الدارقطنى وإسحاق بن يحيى بن طلحة عن عبادة عن أبى، وإسحاق لم يدرك عبادة». ورواه الطبرانى فى الكبير (١/ ١٦٧) من طريق أبى أمية بن يعلى عن موسى بن عقبة، به.

(٩) فى ر، أ، و: «من».

إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا هَمّام بن يحيى، عن إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة، عن عبد الرحمن بن أبى عَمْرة، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إن رجلا أذنب ذَنْبًا، فقال: رب[١]، إنى أذنبت ذنبا فاغفره. فقال الله [عز وجل][٢]: عبدى عمل ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدى، ثم عمل ذنبا آخر فقال: رب، إنى عملت ذنبا فاغفره. فقال تبارك وتعالى: علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويَأْخُذُ به، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِى. ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ، إنِّى عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرهُ لِى. فَقَالَ عَزَّ وجَلَّ: عَلِمَ عَبْدِى أنَّ لَهُ ربا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ويَأْخُذُ بِه، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِى ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ، إنِّى عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ[٣]. فَقَالَ عَزَّ وجَلَّ: عَبْدِى عَلِمَ[٤] أنَّ لَهُ رَبا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، أُشْهِدُكُم أنِّى قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِى، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ».

أخرجه[٥] فى الصحيح من حديث إسحاق[٦] بن أبى طلحة، بنحوه[٧].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر وأبو عامر قالا: حدثنا زهير، حدثنا سعد الطائى، حدثنا أبو الْمُدِلَّة ـ مولى أم المؤمنين ـ سمع أبا هريرة، قلنا: يا رسول الله، إذا رأيناك رقَّت قلوبُنا، وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشَمَمْنا النساء والأولاد، فقال[٨]: «لَوْ أَنَّكُمْ تَكُونُونَ عَلَى كُلِّ حَال، عَلَى الْحَالِ الَّتِى أنْتُمْ عَلَيْهَا عِنْدِى، لَصَافَحَتْكُمُ الملائكةُ بِأكُفِّهِمْ، وَلَزَارَتْكُمْ فِى بُيُوتِكُمْ، وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ اللهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ كَىْ يُغْفَرَ لَهُمْ». قلنا: يا رسول الله، حَدِّثْنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةُ ذَهَب، وَلَبِنَةُ فِضَّة، وَمِلاطُهَا الْمِسْكُ الأذْفَرُ، وَحَصْبَاؤهَا اللُّؤْلُؤُ واليَاقُوتُ، وتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ ولاَ يبأس، ويَخْلُدُ وَلاَ يَمُوتُ، لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُ، ولاَ يَفْنَى شَبَابُهُ، ثَلاثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوتُهُمْ: الإمَامُ الْعَادِلُ، والصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ وتُفْتَح[٩] لها أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِى لأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ».

ورواه الترمذى، وابن ماجة، من وجه آخر عن سعد، به[١٠].

ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل:

حدثنا وكيع، حدثنا مِسْعَر، وسفيان ـ هو الثورى ـ عن عثمان بن المغيرة الثقفى، عن على بن ربيعة، عن أسماء بن[١١] الحكم الفزارى، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: كنت إذا

(١) فى جـ: «يارب». (٢) زيادة من جـ، ر، أ، و. (٣) فى جـ: «فاغفره لى».
(٤) فى جـ: «علم عبدى». (٥) فى جـ، ر، أ، و: «أخرجاه». (٦) فى جـ: «إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة».
(٧) المسند (٢/ ٢٩٦) وصحيح البخارى رقم (٥٧٠٧) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٧٥٨) من طريق إسحاق بن عبد الله، به.
(٨) فى ج: «قال». (٩) فى جـ، ر: «ويفتح».
(١٠) المسند(٢/ ٣٠٤، ٣٠٥) وسنن الترمذى برقم (٣٥٩٨)، وسنن ابن ماجة برقم (١٧٥٢).
(١١) فى ر: «بنت».

سمعت من رسول الله ﷺ حديثا[(١)] نفعنى الله بما شاء منه، وإذا حدثنى عنه [غيرى استحلفته، فإذا حلف لى صدقته، وإن أبا بكر رضى الله عنه حدثنى][(٢)] وصدق أبو بكر ـ أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوضَّأُ فَيُحْسِنُ ـ الوُضُوءَ ـ قال مِسْعر: فَيُصَلِّى. وقال سفيان: ثم يُصلِّى ركعتين ـ فَيَسْتَغْفِرُ اللهَ عز وجَلَّ إلا غَفَرَ لَهُ».

كذا[(٣)] رواه على بن المَدينى، والحُمَيْدى وأبو بكر بن أبى شيبة، وأهل السنن، وابن حبَّان فى صحيحه والبزار والدارقُطنى، من طرق، عن عثمان بن المغيرة، به. وقال الترمذي: هو حديث حسن[(٤)]. وقد ذكرنا طُرقه والكلام عليه مستقصى فى مسند أبى بكر الصديق، [رضى الله عنه][(٥)]، وبالجملة فهو حديث حسن، وهو من رواية أمير المؤمنين على بن أبى طالب [رضى الله عنه][(٦)]، عن خليفة النبى[ﷺ][(٧)] أبى بكر الصديق، رضى الله عنهما[(٨)]. ومما يشهد لصحة هذا الحديث ما رواه مسلم فى صحيحه، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أحدَ يَتَوَضَّأُ فيُبْلغَ ـ أو: فَيُسْبِغَ ـ الوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وَحْدَه لا شَرِيكَ لَهُ، وأَشْهَدُ أنَّ مُحمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إلا فُتِحَتْ لَهُ أبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ، يَدْخُلُ مِنْ أيِّهَا شَاءَ»[(٩)].

وفى الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، أنه توضأ لهم وُضُوء النبى ﷺ، ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ تَوضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِى هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ ما تقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه»[(١٠)].

فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، عن سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين، كما دل عليه الكتاب المبين من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين.

وقد قال عبد الرزاق: أخبرنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: بلغنى أن إبليس حين نزلت: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ**﴾ الآية، بكى[(١١)].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مُحْرِز بن عَوْن، حدثنا عثمان بن مطر، حدثنا عبد الغفور، عن أبى نُصَيْرة عن أبى رجاء، عن أبى بكر، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بلاَ إِلَهَ إلا اللهُ والاسْتِغْفَار، فأكْثِرُوا مِنْهُمَا، فإنَّ إبْلِيسَ قَالَ: أهْلَكْتُ النَّاسَ بالذُّنُوب، وأهْلَكُونِى بِلاَ إِلَهَ إلا اللهُ والاسْتِغْفَار، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ أهْلَكْتُهُمْ بالأهْوَاء، فَهُمْ يَحْسَبُونَ أنَّهم مُهْتَدُونَ».

عثمان بن مطر وشيخه ضعيفان[(١٢)].

---

(١) فى جـ: «سمعت حديثا من رسول الله ﷺ». (٢) زيادة من جـ، والمسند. (٣) فى جـ، ر، أ، و: «وهكذا».

(٤) المسند (١/ ٢، ١٠) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٩٥) ومسند الحميدى برقم (٤) ومصنف ابن أبى شيبة (٢/ ٣٨٧) ومسند البزار برقم (٨) والعلل للدارقطنى برقم (٨) وقد توسع الدارقطنى فى الكلام عليه.

(٥ ، ٦) زيادة من و. (٧) زيادة من جـ، أ، و.

(٨) فى أ، و: «عنه».

(٩) صحيح مسلم برقم (٢٣٤).

(١٠) صحيح البخارى برقم (١٥٩، ١٦٤، ١٩٣٤) وصحيح مسلم برقم (٢٢٦، ٢٣٢).

(١١) تفسير عبد الرزاق (١/ ١٣٧) وتفسير الطبرى (٧/ ٢٢٠) وليس فيها أنس بن مالك.

(١٢) مسند أبى يعلى (١/ ١٢٤) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٠٧): «فيه عثمان بن مطر وهو ضعيف».

وروى الإمام أحمد فى مسنده، من طريق عَمْرو بن أبى عمرو وأبى الهيثم العُتْوَارىّ، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ قال: «قَالَ إبْلِيسُ: يَا رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لا أَزَالُ أغْوِى [عِبادَكَ](١) ما دامت أَرْوَاحُهُمْ فِى أجْسَادِهِمْ. فَقَالَ اللهُ: وَعِزَّتِى وَجَلالِى وَلا أَزَالُ أغفِرُ لَهُم مَا اسْتَغْفَرُونِى»(٢).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عمر بن أبى خليفة، سمعت أبا بَدْر يحدث عن ثابت، عن أنس قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله،(٣) أَذْنَبْتُ ذَنْباً، فقال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَذْنَبْتَ فَاسْتَغْفِرْ ربَّكَ». [قال: فإنى أستغفر، ثم أعود فأُذنب. قال(٤): «فإذا(٥) أَذْنَبْتَ فَعُدْ فَاسْتَغْفِرْ ربَّكَ]»(٦). فقالها فى الرابعة فقال: «اسْتَغْفِرْ رَبَّكَ حَتَّى يَكُونَ الشَّيْطَانُ هُوَ المحسُورُ»(٧).

وهذا حديث غريب من هذا الوجه(٨).

وقوله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ أى: لا يغفرها أحد سواه، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا محمد بن مُصْعَب، حدثنا سلام بن مسكين، والمبارك، عن الحسن، عن الأسود بن سَرِيع؛ أن النبى ﷺ أتى بأسير فقال: اللهُم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد. فقال النبى ﷺ. «عَرَفَ الْحَقَّ لأَهْلِه»(٩).

وقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أى: تابوا من ذنوبهم، ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقْلعين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا عنه، كما قال الحافظ أبو يعلى الموصلى، رحمه اللهُ، فى مسنده:

حدثنا إسحاق بن أبى إسرائيل وغيره قالوا: حدثنا أبو يحيى عبد الحميد الحِمَّانىّ، عن عثمان بن واقد عن أبى نُصَيْرَةَ، عن مولى لأبى بكر، عن أبى بكر، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِى الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً».

ورواه أبو داود، والترمذى، والبَزَّار فى مسنده، من حديث عثمان بن واقد ـ وقد وثقه يحيى بن معين ـ به وشيخه أبو نصيرة(١٠) الواسطى واسمه مسلم بن عبيد، وثقه الإمام أحمد وابن حبان وقول على بن المدينى والترمذى: ليس إسناد هذا الحديث بذاك، فالظاهر إنما [هو](١١) لأجل جهالة مولى أبى بكر، ولكن جهالة مثله لا تضر؛ لأنه تابعى كبير، ويكفيه نسبته إلى [أبى بكر](١٢) الصديق، فهو حديث حسن(١٣)، والله أعلم.

---

(١) عن المسند، وفى جـ، ر، أ: «أغويهم».
(٢) المسند (٣/ ٧٦).
(٣) فى جـ، ر: «يا رسول الله إنى». (٤) فى جـ، ر: «فقال». (٥) فى أ، و: «إذا».
(٦) زيادة من جـ، ر، ومسند البزار.
(٧) مسند البزار برقم (٣٢٤٩) «كشف الأستار».
(٨) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٧٠٩٠) من طريق عمر بن أبى خليفة به. وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٠١): «رواه البزار وفيه بشارة بن الحكم الضبى ضعفه غير واحد. وقال ابن عدى: أرجو أنه لا بأس به وبقية رجاله وثقوا».
(٩) المسند (٣/ ٤٣٥).
(١٠) فى جـ: «أبو بصيرة»، وفى ر: «أبو نصر». (١١) زيادة من جـ، ر، أ، و. (١٢) زيادة من جـ، أ.
(١٣) مسند أبى يعلى (١/ ١٢٤) وسنن أبى داود برقم (١٥١٤) وسنن الترمذى برقم (٣٥٥٩) ومسند البزار برقم (٩٣).

وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: قال مجاهد وعبد الله بن عبيد بن عُمَير: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن من تاب تاب الله عليه.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وكقوله(١): ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] ونظائر هذا كثيرة جدا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد أخبرنا جرير، حدثنا حبان ـ هو ابن زيد الشَّرْعَبيّ ـ عن عبد الله ابن عَمْرو، عن النبى ﷺ أنه قال ـ وهو على المنبر ـ: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، واغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ، وَيْلٌ لأقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصرونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

تفرد به أحمد ، رحمه الله(٢).

ثم قال تعالى ـ بَعْد وصفهم بما وصفهم به ـ: ﴿أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ﴾ أى: جزاؤهم على هذه الصفات مغفرة من الله (٣)وجنات ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أى: من أنواع المشروبات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين فيها ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ يمدح تعالى الجنة.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣) ﴾.

يقول تعالى مخاطبا عباده(٤) المؤمنين الذين أُصِيبوا يومَ أُحُد، وقُتِل منهم سبعون: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أى: قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين؛ ولهذا قال: ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

ثم قال: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن فيه بيان للأمور على جليتها، وكيف كان الأممُ الأقدمون مع أعدائهم ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ﴾ يعنى: القرآن فيه خَبَرُ ما قبلكم و ﴿هُدًى﴾ لقلوبكم و﴿مَوْعِظَةٌ﴾ أى: زاجر [عن المحارم والمآثم](٥).

ثم قال مسليا للمؤمنين: ﴿ وَلا تَهِنُوا﴾ أى: لا تَضعفوا بسبب ما جرى ﴿وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ

---

(١) فى أ: «قوله».

(٢) المسند (٢/ ١٦٥).

(٣) فى و: «من ربهم». (٤) فى أ: «العباده» . (٥) زيادة من جـ، ر.

إن كُنتم مُّؤمنين﴾ أى: العاقبة والنّصرة لكم أيها المؤمنون.

﴿ إن يَمْسَسْكُمْ قَرحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرحٌ مِّثْلُهُ﴾، أى: إن كنتم قد أصابتكم جراحٌ وقُتل منكم طائفةٌ، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أى: نُديل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت العاقبة لكم لما لنا فى ذلك من الحكم[١]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال ابن عباس: فى مثل هذا لنَرَى، أى: من يَصبر على مناجزة الأعداء ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ يعنى: يُقْتَلون فى سبيله، ويَبْذُلون مُهَجهم فى مرضاته. ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: يكفر عنهم من ذنوبهم، إن كان لهم ذنوب وإلا رُفعَ لهم فى درجاتهم بحسب ما أصيبوا به، وقوله: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ أى: فإنهم إذا ظفروا بَغَوا وبَطروا فيكون ذلك سَبَبَ دمارهم وهلاكهم ومَحْقهم وفنائهم.

ثم قال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ أى: أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تُبْتَلوا بالقتال والشدائد، كما قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا [حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ][٢]﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿الم. أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ. [وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ][٣]﴾[العنكبوت: ١ـ٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ أى: لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تُبْتَلَوا ويرى الله منكم المجاهدين فى سبيله والصابرين على مقارنة الأعداء.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أى: قد كنتم ـ أيها المؤمنون ـ قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتتحرقون عليهم، وتودون مناجزتهم ومصابرتهم، فها قد حصل لكم الذى تمنيتموه وطلبتموه، فدونكم فقاتلوا وصابروا.

وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺقال: «لا تَمَنَّوْا[٤] لِقاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا الله الْعَافِيَةَ، فَإذَا لقيتموهم فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوف»[٥].

ولهذا قال: ﴿قَدْ رَأَيْتُمُوهُ ﴾ يعنى: الموت شاهدتموه[٦] فى لَمَعَان السيوف وحدّ الأسنّة واشتباك الرِّماح، وصفوف الرجال للقتال.

والمتكلمون يعبرون عن هذا بالتخْييل، وهو مشاهدة ما ليس بمحسوس كالمحسوس[٧]، كما تَتَخَيل الشاة صداقة الكبش وعداوة الذئب.

---

(١) فى أ: «الحكمة».

(٢) زيادة من جـ، ر، أ، و ،وفى هـ: «الآية».

(٣) زيادة من جـ، ر، أ، ، و، وفى هـ: «الآية».

(٤) فى هـ: «تتمنوا»، والمثبت من جـ، ر، ومسلم.

(٥) صحيح البخارى معلقا برقم (٣٠٢١) وصحيح مسلم برقم (١٧٤١).

(٦) فى و: «يعنى شاهدوه».

(٧) فى جـ: «فى المحسوس»، وفى ر، أ، و : «من المحسوس».

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(١٤٨) ﴾.

لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أُحُد، وقُتِل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قُتل. ورجع ابن قَمِيئَةَ إلى المشركين فقال لهم: قتلتُ محمداً. وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ، فشَجَّه فى رأسه، فوقع ذلك فى قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله قد قُتل، وجوزوا عليه ذلك، كما قد قَصَّ الله عن كثير من الأنبياء، عليهم السلام، فحصل وهَن وضعف وتأخر عن القتال ففى ذلك أنزل الله [عز وجل](١) على رسوله ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أى: له أسْوة بهم فى الرسالة وفى جواز القتل عليه.

قال ابن أبى نَجيح، عن أبيه، أنّ رجلا من المهاجرين مَر على رجل من الأنصار وهو يتشحط فى دمه، فقال له: يا فلان أشعرتَ أن محمدا ﷺ قد قتل؟ فقال الأنصارى: إن كان محمد [ﷺ](٢) قد قُتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم، فنزل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾.

رواه [الحافظ أبو بكر] (٣)البيهقى فى دلائل النبوة(٤).

ثم قال تعالى منكرا على من حصل له ضعف: ﴿ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أى: رجعتم القَهْقرى ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أى: الذين قاموا بطاعته وقاتلوا عن دينه، واتبعوا رسوله حيا وميتا.

وكذلك ثبت فى الصحاح والمساند والسنن(٥)، وغيرها من كتب الإسلام من طرُق متعددة تفيد القطْع، وقد ذكرت ذلك فى مُسْندى الشيخين أبى بكر وعُمَرَ، رضى الله عنهما؛ أن الصدّيق ـ رضى الله عنه ـ تلا هذه الآية لما مات رسول الله ﷺ(٦).

وقال البخارى: حدثنا يحيى بن بُكَير، حدثنا الليث، عن عُقيل عن ابن شهاب، أخبرنى أبو سَلَمة؛ أنّ عائشة، رضى الله عنها، أخبرته أن أبا بكر، رضى الله عنه، أقبل على فَرَس من مَسْكنه بالسُّنْح(٧) حتى نَزَل فدخل المسجد، فلم يُكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمَّم رَسُول الله ﷺ

(١) زيادة من و. (٢) زيادة من ر. (٣) زيادة من و.

(٤) (٢/٢٤٨) من طريق آدم بن أبى إياس عن ورقاء عن ابن أبى نجيح به .

(٥) فى جـ، ر، أ، و: «السنن والمسانيد».

(٦) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٢١٣) ودلائل النبوة للبيهقى (٧/ ٢١٥ ـ ٢١٧).

(٧) فى ر: «بالسيح» وهو خطأ، والمثبت من البخارى (٤٤٥٢، ٤٤٥٣) وهو الصواب.

وهو مُغَشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه [ﷺ][1]، ثم أكب عليه وقَبَّله وبكى، ثم قال: بأبى أنت وأمى. والله لا يجمع الله عليك موتَتَين؛ أما الموتة التى كُتبت عليك فقد مُتَّها.

وقال الزهرى: وحدثنى أبو سَلَمة عن ابن عباس، أن أبا بكر خرج وعمر يُحَدِّث[2] الناس فقال: اجلس يا عمر فأبى عمرُ أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عُمَرَ، فقال أبو بكر: أما بعد، مَنْ كانَ يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حَىّ لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إلى قوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ قال: فوالله لكأنّ الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآيَة حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها الناس منه[3] كلهم، فما سمعها[4] بشر من الناس إلا تلاها[5].

وأخبرنى سعيد بن المُسَيَّب أن عُمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فَعقرتُ حتى ما تقلنى رجلاى[6]، وحتى هَوَيتُ إلى الأرض[7].

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا عمرو بن حماد بن طلحة القنَّاد، حدثنا أسباط بن نصر، عن سماك بن حَرْب، عن عكْرمة، عن ابن عباس أن عليا كان يقول فى حياة رسول الله : ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾، والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت، والله إنى لأخوه، ووليُّه، وابن عمه، ووارثه فمن أحق به منى؟[8].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾ أى: لا يموت أحد إلا بقدر الله، وحتى يستوفى المدةَ التى ضربها الله له؛ ولهذا قال: ﴿كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾، كقوله[9]: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وكقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام: ٢].

وهذه الآية فيها تشجيع للجُبَناء وترغيب لهم فى القتال، فإن الإقدام والإحجام لا يَنْقُص من العمر ولا يزيد فيه كما قال ابن أبى حاتم:

حدثنا العباس بن يزيد العبدى قال: سمعت أبا معاوية، عن الأعمش، عن حبيب بن صُهبان، قال: قال رجل من المسلمين[10] ـ وهو حُجْر بن عَدىّ ـ: ما يمنعكم أن تعبُروا إلى هؤلاء العدو، هذه[11] النقطة؟ ـ يعنى دِجْلَة ـ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾، ثم أقحم فرسه دجلة فلما أقحم أقحم الناس فلما رآهم العدوّ قالوا: دبوان ، فهربوا[12][13].

---

(١) زيادة من جـ.
(٢) فى جـ، ر، أ، و: «يكلم».
(٣) فى جـ، أ، و: «فتلاها منه الناس» فى ر: «فتلاها الناس منه».
(٤) فى جـ، ر، أ، و: «أسمع».
(٥) فى جـ، ر، أ، و: «يتلوها».
(٦) فى و: «رجلان».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٤٥٢، ٤٤٥٣، ٤٤٥٤).
(٨) ورواه أبى حاتم فى تفسيره (٢/ ٥٨١) والحاكم فى المستدرك (٣/ ١٢٦) من طريق عمرو بن حماد بن طلحة به. قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ١٣٤): «رجاله رجال الصحيح».
(٩) فى جـ: «وكقوله».
(١٠) فى جـ: «للمسلمين».
(١١) فى أ، و: «وهذه».
(١٢) فى جـ : «وهربوا».
(١٣) تفسير ابن أبى حاتم (٢/ ٥٨٤).

وقوله: ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِه مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِه مِنْهَا ﴾ أى: من كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قدَّره الله له، ولم يكن له فى الآخرة [من][1] نصيب، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له فى الدنيا كما قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِه وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِه مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩] وهكذا قال هاهنا: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ أى: سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا فى الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم.

ثم قال تعالى ـ مسلياً للمسلمين[2] عما كان وقع فى نفوسهم يوم أُحُد ـ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾، قيل: معناه: كم من نبى قُتِل وقتل معه ربيون من أصحابه كثير. وهذا القول هو اختيار ابن جرير، فإنه قال: وأما الذين قرؤوا: ﴿قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ فإنهم قالوا: إنما عنى بالقتل النبى وبعض من معه من الربيين دون جميعهم، وإنما نفي الوهن والضعف عمن بقى من الربيين ممن لم يقتل.

قال: ومن قرأ ﴿قَاتَلَ﴾ فإنه اختار ذلك لأنه قال: لو قتلوا[3] لم يكن لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ وجه معروف؛ لأنهم يستحيل أن يُوصَفُوا بأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا بعد ما قتلوا.

ثم اختار قراءة من قرأ ﴿قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾؛ لأن الله [تعالى][4] عاتب بهذه الآيات والتى[5] قبلها من انهزم يوم أحد، وتركوا القتال أو سمعوا الصائح يصيح: «إن[6] محمدا قد قتل». فعذلهم الله على فرارهم وتركهم القتال فقال لهم: ﴿ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم وانقلبتم على أعقابكم؟

وقيل: وكم من نبى قتل بين يديه من أصحابه ربيون كثير[7].

وكلام ابن إسحاق فى السيرة يقتضى قولا آخر، [فإنه][8] قال: أى وكأين من نبى أصابه القتل، ومعه ربيون، أى: جماعات فما وهنوا بعد نبيهم، وما ضعفوا عن عدوهم، وما استكانوا لما أصابهم فى الجهاد عن الله وعن دينهم، وذلك الصبر، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.

فجعل قوله: ﴿مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ حالاً، وقد نصر هذا القول السهيلى وبالغ فيه، وله اتجاه لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ﴾ الآية، وكذلك حكاه الأموى فى مغازيه، عن كتاب محمد بن إبراهيم، ولم يقل[9] غيره.

وقرأ بعضهم: ﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾، قال سفيان الثورى، عن عاصم، عن زرّ، عن ابن

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى جـ، ر، أ، و: «للمؤمنين». (٣) فى جـ: «لأنه لو قتلوا»، وفى ر: «فإنه قال لو قتلوا».
(٤) زيادة من و. (٥) فى و: «الذى». (٦) فى ر: «بأن».
(٧) فى و: «وقيل: وكم من نبى قتل معه ربيون كثير». (٨) زيادة من جـ.
(٩) فى جـ، أ، و: « ولم يحك».

مسعود ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾، أي: ألوف.

وقال ابن عباس، ومجاهد وسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، والرَّبِيع، وعطاء الخراساني: الربيون : الجموع الكثيرة.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر عن الحسن : ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي: علماء كثير، وعنه أيضًا: علماء صبر أبرار أتقياء.

وحكى ابن جرير، عن بعض نحاة البصرة: أن الربيين هم الذين يعبدون الرب، عز وجل، قال: ورد بعضهم عليه قال: لو كان كذلك لقيل رَبيون، بفتح الراء.

وقال ابن زيد: «الربيون: الأتباع، والرعية، والربابيون:[١] الولاة.

﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ قال قتادة والربيع بن أنس: ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ بقتل نبيهم ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾، يقول: فما ارتدوا عن نصرتهم ولا عن دينهم، أنْ قاتلوا على ما قاتل عليه نبى الله حتى لحقوا بالله.

وقال ابن عباس ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾: تَخَشَّعوا. وقال السُّدِّي وابن زيد: وما ذلوا لعدوهم.

وقال محمد بن إسحاق، وقتادة والسدى: أى ما أصابهم ذلك حين قُتل نبيهم.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ . وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أى: لم يكن لهم هِجيرى إلا ذلك.

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أى: النصر والظفر والعاقبة[٢] ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ أى: جمَع لهم ذلك مع هذا، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣)﴾.

يحذر[٣] تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة[٤]؛ ولهذا قال: ﴿إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.

(١) في جـ، ر: «الربانيون». (٢) في ر: «العافية». (٣) في أ: «يخبر».
(٤) في ر: «الأخرى».

ثم أمرهم بطاعته وموالاته، والاستعانة به، والتوكل عليه، فقال: ﴿ **بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ**﴾.

ثم بشرهم بأنه سيُلقى في قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم، بسبب كفرهم وشركهم، مع ما ادخره لهم فى الدار الآخرة من العذاب والنّكال، فقال: ﴿**سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ**﴾.

وقد ثبت فى الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطيتُ خَمساً لَمْ يُعطهنَّ أحدٌ منَ الأنبيَاء قَبْلى: نُصرتُ بالرعب مَسيرَة شَهْر، وجعلتْ لى الأرضُ مَسْجداً وطهورًا، وأُحِلَّت لِى الْغَنَائِمُ وأُعطِيت الشَّفَاعَةَ وكَانَ النَّبِىُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِه خَاصة وبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[(١)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبى عَدِىّ عن سليمان ـ يعنى التيمى ـ عن سيّار، عن أبى أمامة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «فَضَّلَنى [ربِّى][(٢)] عَلَى الأنْبيَاء ـ أو قال: عَلَى الأُمَمِ ـ بأَرْبَع» قال «أرْسِلْتُ إلى النَّاسِ كَافَّةً وجُعلتْ لىَ الأَرْضُ كُلُّهَا ولأُمَّتى مَسْجداً وطَهُورًا فَأيْنما أدركَتْ[(٣)] رَجُلاً مِنْ أُمتي الصَّلاةُ فعِنْدهُ مَسجدُهُ و[(٤)] طَهُورُهُ، ونُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ يَقْذِفُهُ فِى قُلُوبِ أعدَائى وأحَل لِى[(٥)] الغنائم».

ورواه الترمذى من حديث سليمان التيمى، عن سَيَّار القُرَشى الأموى مولاهم الدمشقي ـ سكن البصرة ـ عن أبى أمامة صُدَىّ بن عَجْلان، رضى الله عنه ، به. وقال: حسن صحيح[(٦)].

وقال سعيد بن منصور: أخبرنا ابن وَهْب، أخبرنى عمرو بن الحارث: أن أبا يونس حدثه، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى الْعَدُوِّ».

ورواه[(٧)] مسلم من حديث ابن وهب[(٨)].

وروى الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق عن أبى بُرْدَة، عن أبيه[(٩)] أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ : «أُعْطيتُ خَمْسًا: بُعِثْتُ إِلَى الأحْمَرِ وَالأسْوَد، وَجعلَتْ لىَ الأرْض طَهُورًا ومَسْجدًا، وأُحلَّتْ لىَ الْغَنَائم ولَمْ تحل لمَنْ كَانَ قَبْلى، ونُصرْتُ بالرُّعْب[(١٠)] شَهْرًا، وأُعطيتُ الشَّفَاعَةَ، ولَيْسَ مِنْ نَبِىٍّ إلا وَقَدْ سَأَل شَفَاعَتَهُ، وإنِّى اخْتَبَأْتُ شَفَاعتِى، ثُمَّ جعَلْتُهَا لِمَنْ مَاتَ لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا».

تفرد به أحمد[(١١)].

---

(١) صحيح البخارى برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١) .
(٢) زيادة من جـ، ر، أ، و، والمسند.
(٣) فى و: «أدركه».
(٤) فى جـ:«مسجده وعنده طهوره».
(٥) فى جـ، ر: «لنا».
(٦) المسند (٥/ ٢٤٨) وسنن الترمذى برقم (١٥٥٣).
(٧) فى جـ، ر: «رواه».
(٨) صحيح مسلم برقم (٥٢٣) .
(٩) فى أ:« عن أبيه عن أبي موسى».
(١٠) فى و:«بالرعب مسيرة شهر».
(١١) المسند (٤/ ٤١٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢٥٨): «رجاله رجال الصحيح».

وروى العَوْفىّ، عن ابن عباس فى قوله: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾، قال: قذف الله فى قلب أبى سفيان الرعب، فرجع إلى مكة، فقال النبى ﷺ: «إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ أَصَابَ مِنْكُمْ طَرَفًا، وَقَدْ رَجَعَ، وَقَذَفَ اللهُ فِى قَلْبِهِ الرُّعْبَ».

رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾. قال ابن عباس: وعدهم الله النصر.

وقد يستدل بهذه الآية على أحد القولين المتقدمين فى قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ . بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أن ذلك كان يوم أحد لأن عدوهم كان ثلاثة آلاف مقاتل، فلما واجهوهم كان الظفر والنصر أول النهار للإسلام، فلما حصل ما حصل من عصيان الرُّماة وفشل بعض المقاتلة، تأخر الوعد الذى كان مشروطا بالثبات والطاعة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أى: أول النهار ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أى: تقتلونهم[1] ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أى: بتسليطه إياكم عليهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾، وقال[2] ابن جريج: قال ابن عباس: الفشل الجبن، ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾ كما وقع للرماة ﴿مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ وهو الظفر منهم[3]، ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ وهم الذين رغبوا فى المغنم حين رأوا الهزيمة ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ثم أدالهم عليكم ليختبركم ويمتحنكم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ أى: غفر لكم ذلك الصَّنيع، وذلك ـ والله أعلم ـ لكثرة عَدَد العدو وعُدَدهم، وقلة عَدَد المسلمين وعُدَدهم.

قال ابن جريج: قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾، قال: لم يستأصلكم. وكذا قال محمد بن إسحاق، رواهما ابن جرير ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود أخبرنا عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن أبيه، عن عُبَيد الله[4] عن ابن عباس أنه قال: ما نَصَرَ الله فى مَوْطِن كما نصر يوم أحد. قال: فأنكرنا ذلك، فقال ابن عباس: بينى وبين من أنكر ذلك كتابُ الله، إن الله يقول فى يوم أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾، يقول ابن عباس: والْحَسُّ: القتل[5]. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ الآية[6]، وإنما عنى بهذا الرُّماة، وذلك أن النبى ﷺ أقامهم فى موضع، ثم قال: «احْمُوا ظُهُورَنَا، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نقتل فَلَا تَنْصُرُونَا وَإِنْ رَأَيْتُمونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلَا تُشْرِكُونَا. فلما غنم النبى ﷺ وأباحُوا عسكر المشركين أكبّت الرُّماة جميعا [ودخلوا][7] فى العسكر ينهبون، ولقد التقت صفوف أصحاب رسول الله ﷺ، فَهُم هكذا ـ وشبك بين يديه ـ وانتشبوا، فلما أخل الرماة تلك الخلَّة التى كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله ﷺ، فضرب[8] بعضهم بعضا والتبسوا، وقُتل من المسلمين ناس

---

(١) فى ر: «يقتلونكم». (٢) فى أ، و: «قال». (٣) فى و: «بهم».
(٤) فى هـ، ر: «أبى عبيد الله»، والصواب ما أثبتناه من المسند. (٥) فى ر: «والحَسُّ الفشل».
(٦) فى جـ، ر، أ، و: «﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾».
(٧) زيادة من جـ، ر، أ، والمسند. (٨) فى و: «يضرب».

كثير، وقد كان لرسول الله ﷺ وأصحابه أول النهار، حتى قُتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعةٌ، وجال المسلمون جَوْلَةً نحو الجبل ولم يبلغوا ـ حيث يقول الناس ـ الغار، إنما كان[1] تحت المِهْراس، وصاح الشيطان: قُتل محمد، فلم يُشَك فيه أنه حق، فما زلنا كذلك ما نَشُك أنه حق، حتى طلع رسول الله ﷺ بين السعدين، نعرفه بتلفته[2] إذا مشى ـ قال: ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا ـ قال: فَرَقِىَ نحونا وهو يقول: «اشتد[3] غَضَبُ الله عَلَى قَوْمٍ دَمَّوْا وَجْهَ رَسُولِ الله». ويقول مرة أخرى: «اللَّهم إنه ليس لَهم أنْ يَعْلُونَا». حتى انتهى إلينا، فمكث ساعة، فإذا أبو سفيان يصيح فى أسفل الجبل: اعْلُ هبل، مرتين ـ يعنى آلهته ـ أين ابن أبى كَبْشة؟ أين ابن أبى قحَافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: يا رسول الله، ألا أجيبه؟ قال: «بلى» قال: فلما قال: اعل هبل. قال عمر: الله أعلى وأجل. فقال أبو سفيان: قد أنعمت عينها فعَاد عنها[4]، أو: فَعَال! فقال: أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبى قُحَافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسول الله، وهذا أبو بكر، وها أنا ذا عمر. قال: فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، الأيام دُوَل، وإن الحرب سجَال. قال: فقال عمر: لا سواء، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار. قال[5]: إنكم تزعمون[6] ذلكَ، لقد خبْنا إذا وخَسرْنا ثم قال أبو سفيان: إنكم ستجدون فى قتلاكم مثلة[7]، ولم يكن ذلك عن رأى سراتنا. قال: ثم أدركَتْه حَمِيَّة الجاهلية فقال: أما إنه إن كان ذلك لم نكْرهْه.

هذا حديث غريب، وسياق عجيب، وهو من مرسلات ابن عباس، فإنه لم يشهد أحُدًا ولا أبوه.

وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه عن أبى النَّضْر الفقيه، عن عثمان بن سعيد، عن سليمان بن داود بن على بن عبد الله بن عباس، به. وهكذا رواه ابن أبى حاتم والبيهقى فى دلائل النبوة، من حديث سليمان بن داود الهاشمى، به[8].ولبعضه شواهد فى الصحاح وغيرها،فقال[9] الإمام أحمد:

حدثنا عفان، حدثنا حماد، حدثنا عطاء بن السائب عن الشعبى، عن ابن مسعود قال: إن النساء كن يوم أحد، خلْف المسلمين، يُجهِزْن[10] على جَرْحى المشركين، فلو حلَفت يومئذ رجوت أن أبَر: أنه ليس أحد منا يريد الدنيا، حتى أنزل الله عز وجل: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ فلما خالف أصحاب النبى ﷺ وعصَوا ما أمروا به، أفرد رسول الله ﷺ فى تسعة: سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، وهو عاشرهم، فلما رهقُوه [قال: «رَحِم اللهُ رَجُلاً رَدَّهُمْ عَنَّا». قال: فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قتل، فلما رَهقُوه][11] أيضاً قال: «رَحمَ اللهُ رَجُلاً رَدَّهُمْ عَنَّا». فلم يزل يقول ذا حتى قُتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبه: «مَا أنْصَفْنا أصْحَابَنا».

---

(١) فى أ، و: «كانوا». (٢) فى جـ: «بتكفيه»، وفى ر: «بتلسعه»، وفى أ، و: «بتكفنته». (٣) فى ر: « شد».
(٤) فى جـ: «فعاذ عنها»، وفى ر: «فعال عنها». (٥) فى أ:«وقال».
(٦) فى جـ، ر: «لتزعمون». (٧) فى جـ، ر، أ، و: «مثلاً».
(٨) المسند (١/ ٢٨٧، ٢٨٨) والمستدرك (٢/ ٢٩٦) ودلائل النبوة للبيهقى (٣/ ٢٦٩، ٢٧٠) .
(٩) فى أ: «وقال». (١٠) فى ر: «يجهزون» .
(١١) زيادة من جـ، ر، والمسند.

فجاء أبو سفيان فقال: اعْلُ هُبَلُ. فقال رسول الله ﷺ: «قُولُوا: اللهُ أعْلَى وأجَلُّ». فقالوا: الله أعلى وأجل. فقال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم. فقال رسول الله ﷺ: قُولُوا: «اللهُ مَوْلاَنَا، وَالْكَافِرُونَ لاَ مَوْلَى لَهُم». ثم قال أبو سفيان: يومٌ بيوم بَدْر، يومٌ علينا ويوم لنا[(١)]، ويوم نُسَاءُ ويوم نُسَر. حَنْظَلَةَ بحنْظَلَةَ، وفلان بفلان، وفلان بفلان، فقال رسول الله ﷺ: «لاَ سَوَاء. أمَّا قَتْلاَنَا فأحْيَاءٌ يُرْزَقُونَ، وَقَتْلاَكُمْ فِي النَّار يُعَذَّبُون». قال أبو سفيان: قد كان[(٢)] فى القوم مُثْلَةٌ، وإنْ كانَتْ لَعَنْ[(٣)] غير مَلأ منَّا، ما أَمرتُ ولاَ نَهَيْتُ، ولاَ أحْبَبْتُ ولا كَرِهتُ، ولا ساءنى ولا سرَّنى. قال: فنظروا فإذا حمزةُ قد بُقِرَ بَطْنُه، وأخذتْ هِنْد كبِدَه فلاكَتْها فلم تستطع أن تأكلها، فقال رسول الله ﷺ: «أكَلَتْ شَيْئًا؟» قالوا: لا. قال: «مَا كَانَ اللهُ لِيُدْخِلَ شَيْئًا مِنْ حَمْزَةَ فِى النَّار».

قال: فوضع رسول الله ﷺ حمزة فَصلَّى عليه، وَجِيء برجل من الأنصار فَوُضِع إلى جنبه فصلَّى عليه، فَرُفِعَ الأنصارى وتُرِكَ حمزة، ثم جيء بآخر فوضعه إلى جنب حمزة فصلى [عليه][(٤)]، ثم رُفِعَ وتُرِكَ حمزة، حتى صَلَّى عليه يومئذ سبعين صلاة.

تفرد به أحمد أيضاً[(٥)].

وقال البخارى: حدثنا عُبَيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق: عن البراء قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجْلَس النبى ﷺ جَيْشا من الرُّماة، وأمَّر عليهم عبد الله ـ يعنى ابن جُبَيْر ـ وقال: «لاَ تَبْرَحُوا إنْ[(٦)] رأيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلاَ تَبْرَحُوا، وإنْ رَأيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلاَ تُعِينُونَا». فلما لقيناهم هربُوا، حتى رأينا النساء يَشْتَدِدْنَ[(٧)] فى الجبل، رَفَعْنَ عن سُوقهن، وقد بدت خَلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمةَ الغَنيمة. فقال عبد الله: عَهِدَ إلىَّ النبىّ ﷺ ألاّ تَبْرَحُوا. فأبَوْا، فلما أبَوْا صُرِفَ وجوههم، فأُصيب سبعون قتيلا، فأشرف أبو سفيان فقال: أفى القوم محمد؟ فقال: «لاَ تُجِيبُوهُ». فقال: أفى القوم ابن أبى قحافة؟ فقال: «لاَ تُجِيبُوه». فقال: أفى القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قد قُتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عُمَرُ نفسه فقال: كَذَبْتَ يا عَدُوَّ الله، قد أبقى الله لك ما يُحزِنك[(٨)]. فقال أبو سفيان: اعْل هُبَل. فقال النبى ﷺ: «أجِيبُوهُ». قالوا: ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللهُ أعْلَى وأجَلُّ». فقال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم. فقال النبى ﷺ: «أجِيبُوهُ». قالوا: ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللهُ مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ». قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سِجَال، وتجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤنى.

تفرد به البخارى من هذا الوجه، ثم رواه عن عَمْرو بن خالد، عن زُهَير بن معاوية عن أبى إسحاق، عن البراء، بنحوه[(٩)]. وسيأتى بأبْسط من هذا.

وقال البخارى أيضا: حدثنا عُبَيد الله بن سعيد، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه،

(١) فى جـ، ر، أ، و: «يوم لنا ويوم علينا». (٢) فى جـ، ر: «كانت». (٣) فى جـ: «على»
(٤) زيادة من جـ، ر، والمسند.
(٥) المسند (١/٤٦٢). (٦) فى جـ، ر، أ، و: «وإن».
(٧) فى ر: «يشتدن» وهو خطأ، والصحيح ما أثبتناه من البخارى (٤٠٤٣). (٨) فى جـ، ر: «ما يخزيك»
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٠٤٣) وبرقم (٣٩٨٦).

عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: لَمَّا كان يوم أُحد هُزِم المشركون، فصَرخَ إبليس: أىْ عباد الله، أخْرَاكم. فرَجعت أولادهم[1] فاجْتَلَدَتْ هى وأخراهم، فَبَصُرَ حُذيفة فإذا هو بأبيه اليمان، فقال: أىْ عباد الله، أبى أبى. قال: قالت: فوالله ما احْتَجَزُوا حَتَّى قَتَلُوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم. قال عروة: فوالله ما زَالَتْ فى حذيفة بقية خير حتى لقى الله عز وجل[2].

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى يحيى بن عَبَّاد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن جَدِّه أن الزبير بن العوام قال: والله لقد رأيتنى أنظر إلى خَدَم [هند][3] وصواحباتها مُشَمِّرات هوارب ما دون أخْذهن كثير ولا قليل[4]، ومالت الرُّماة إلى العسكر حين كَشَفْنا القوم عنه، يريدون النهب وَخَلَّوا ظهورنَا للخيل فأتتنا من أدبارنا، وصرخ[5] صارخ: ألا إن محمداً قد قُتل. فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصَبْنا أصحاب اللواء، حتى ما يدنو منه أحد من القوم.

قال محمد بن إسحاق: فلم يزل لواء المشركين صريعا، حتى أخذته عَمْرَة بنت علقمة الحارثية، فدفعته لقريش فلاثوا[6] به[7] [8]. وقال السُّدِّى عن عبد خير قال: قال[9] عبد الله بن مسعود[10]، قال: ما كنتُ أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزلت[11] فينا ما نزل يوم أحد ﴿منكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾.

وقد رُوى من غير وَجْه عن ابن مسعود، وكذا رُوى عن عبد الرحمن بن عَوْف وأبى طلحة، رواهن ابن مَرْدُوَيه فى تفسيره.

وقوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ قال ابن إسحاق: حدثنى القاسم بن عبد الرحمن بن رافع، أحدُ بنى عدىّ بن النجار قال: انتهى أنسُ بنُ النَّضر، عَمّ أنس بن مالك، إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عُبَيد الله، فى رجال من المهاجرين والأنصار، قد ألْقَوْا بأيديهم فقال: ما يخليكم[12]؟ فقالوا: قُتلَ رسولُ الله ﷺ. قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه. ثم استقبل القَومَ فقاتل حتى قُتِل.

وقال البخارى: حدثنا حسان بن حسان، حدثنا محمد بن طلحة، حدثنا حُمَيد، عن أنس بن مالك: أن عمه ـ يعنى أنس بن النضر ـ غاب عن بدر فقال: غبتُ عن أول قتال رسول الله ﷺ، لَئِنْ أشهدنى الله مع رسول الله ﷺ ليَرَيَنَّ الله ما أُجدّ فلقى يومَ أحد، فهُزم الناسُ، فقال: اللهُمّ إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المسلمين ـ وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه فلقى سعدَ ابن مُعَاذ فقال: أينَ يا سعد؟ إنى أجدُ ريح الجنة دون أحد. فمضى فَقُتِل، فما عُرف حتى عَرَفته أخته ببنانه[13] بشامة[14]، وبه بضع وثمانون من طَعْنة وضَرْبة وَرْمية بسَهْم.

---

(١) فى و: «أولاهم».
(٢) صحيح البخارى (٤٠٦٥).
(٣) زيادة من جـ، وسيرة ابن هشام.
(٤) فى جـ، ر، و: «قليل ولا كثير».
(٥) فى جـ: «فصرخ».
(٦) فى جـ، ر: «فلاذوا».
(٧) فى و: «بها».
(٨) سيرة ابن إسحاق (ظاهرية ق ١٧٠).
(٩) فى و: «عن».
(١٠) فى جـ: «عن عبد خير عنه عبد الله بن مسعود»، وفى ر: «عند جواب عبد الله بن مسعود».
(١١) فى و: «نزل».
(١٢) فى جـ، و: «ما يجلسكم»، وفى ر: «ما نحلتكم».
(١٣) فى ر: «بثيابه».
(١٤) فى جـ، ر، و: «أو بشامة».

هذا لفظ البخارى وأخرجه مسلم من حديث ثابت عن أنس، بنحوه[(١)].

وقال البخارى [أيضا][(٢)]: حدثنا عبدان، أخبرنا أبو حَمْزةَ عن عثمان بن مَوْهَب قال: جاء رجل حج البيت، فرأى قوما جلوسا، فقال: من هؤلاء القُعُودُ؟ قالوا: هؤلاء قريش. قال: من الشيخ؟ قالوا: ابن عُمَر. فأتاه فقال: إنى سائلك عن شيء فحدثنى. قال: أَنْشُدُكَ بحرمة هذا البيت أتعلم أنّ عثمان بن عفان فر يوم أحد؟ قال: نعم. قال: فتَعْلَمُه تَغَيَّبَ عن بدر فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال فتعْلَم أنه تخلف عن بيعة الرّضْوان فلم يشهَدْها؟ قال: نعم. قال: فكبر، فقال[(٣)] ابن عمر: تَعَالَ لأخبرَك ولأبيِّن لك عما سألتنى عنه. أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه، وأما تَغَيُّبه عن بدر فإنه كان تحتَه بنتُ النبى ﷺ، وكانت مريضة، فقال له رسول الله[(٤)] ﷺ: «إنَّ لَكَ أجْرَ رَجُلٍ ممَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَه». وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعزّ ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعَث عثمانَ، فكانت[(٥)] بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة. فقال النبى ﷺ بيده اليمنى: «هَذِه يَدُ عُثْمَان». فضرب بها على يده، فقال: «هَذِه يَدُ عُثْمَانَ اذْهَبْ بِهَا الآنَ مَعَكَ».

ثم رواه البخارى من وجه آخر عن أبى عَوانة عن عثمان بن عبد الله بن موهب[(٦)].

وقوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ أى: صرفكم عنهم ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ أى: فى الجبل هاربين من أعدائكم.

وقرأ الحسن وقتادة: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ أى: فى الجبل ﴿وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ أى: وأنتم لا تلوون على أحد من الدَّهَش والخوف والرعب ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ أى: وهو قد خلفتموه وراء ظُهوركم يدعوكم إلى تَرْك الفرار من الأعداء، وإلى الرجعة والعودة والكرة.

قال السُّدّى: لما شَدّ المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم، دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة فقاموا عليها، وجعل الرسول ﷺ يدعو الناس: «إلىَّ عِبَادَ الله، إلىَّ عباد الله». فذكر[(٧)] الله صعودهم على[(٨)] الجبل، ثم ذكر دُعَاء النبى ﷺ إياهم فقال: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾.

وكذا قال ابنُ عباس، وقتادة والربيع، وابن زيد.

وقد قال عبد الله بن الزِّبَعْرى يذكر هزيمة المسلمين يوم أحد فى قصيدته ـ وهو مشرك بعد لم يسلم ـ التى يقول فى أولها:

يا غُرابَ البَيْنَ أَسْمَعْتَ فَقُل	إنما تَنْطقُ شيئاً قَدْ فُعِلْ
إنّ للخير وللشر مَدى	وكلا ذلك وجْه وقَبَلْ

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٠٤٨) وصحيح مسلم برقم (١٩٠٣).

(٢) زيادة من و. (٣) فى جـ، ر، و: «قال». (٤) فى جـ: «النبى».

(٥) فى جـ: «وكانت».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٠٦٦) وبرقم (٣٦٩٨).

(٧) فى جـ: «فذكرهم». (٨) فى و: «إلى».

إلى أن قال:

لَيْتَ أشياخى ببدر شهـــــدوا ... جَزَعَ الخزرج من وقع الأسَـــلْ

حيـن حكَّـت[١] بقُباء بَرْكهــا[٢] ... واستحر القتل فى عبد الأشــــل

ثم خفّوا[٣] عنْدَ ذاكـم رُقَّصـــا ... رقص الحَفَّان يعلو[٤] فى الجَبَـــل

فقتلنا الضعف من أشــرافهـم ... وعَدَلْنا مَيـل[٥] بـدر فاعتـدَلْ[٦]

الحفان: صغار النعم.

وقد كان النبى ﷺ قد أفرد فى اثنى عشر رجلا من أصحابه، كما قال الإمام أحمد: حدثنا حسن ابن موسى، حدثنا زُهَير، حدثنا أبو إسحاق أن البراء بن عازب قال: جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أحد ـ وكانوا خمسين رجلا ـ عبد الله بن جُبير قال: ووضعهم موضعاً وقال: «إنْ رَأَيْتُمُونَا تَخطَّفُنَا الطَّيْرُ فَلا تَبْرحُوا حتَّى أُرْسلَ إلَيْكُمْ وَإنْ رَأَيْتُمونَا ظَهَرْنَا على العدوّ وأوطأناهُمْ فَلا تَبْرحُوا حَتَّى أُرْسلَ إلَيْكُمْ قال: فهزموهم. قال: فأنا والله رأيت النساء يَشْتَددن[٧] على الجبل، وقد بدت أَسْؤُقُهنّ وَخلاخلُهُن رافعات ثيابهُن، فقال أصحاب عبد الله: الغَنيمة، أى قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون[٨]؟ قال عبد الله بن جبير: أنسيتم[٩] ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ فقالوا: إنا والله لَنَأتيَن الناس فَلَنُصيبَنَّ من الغنيمة. فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين، فذلك الذى يدعوهم الرسول فى أخراهم، فلم يبق مع رسول الله ﷺ غير اثنى عشر رجلا، فأصابوا منا سبعين، وكان رسول الله ﷺ وأصحابُه أصابوا من المشركين يوم بَدْر أربعين ومائة: سبعين أسيراً وسبعين قتيلا. قال أبو سفيان: أفى القوم محمد؟ أفى القوم محمد؟ أفى القوم محمد؟ ـ ثلاثا ـ قال: فنهاهم رسولُ الله ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفى القوم ابن أبى قُحافة؟ أفى القوم ابن أبى قحافة؟ أفى القوم ابن الخطاب؟ أفى القوم ابن الخطاب؟ثم أقبل على أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، قد كفيتُمُوه. فما ملك عُمَر نفسَه أن قال: كذبتَ والله يا عدو الله، إن الذين عَدَدْتَ لأحياء كلهم، وقد بَقى لك ما يسوؤك. فقال[١٠]: يوم بيوم بدر، الحرب سِجَال،إنكم ستجدون فى القوم مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤنى[١١]. ثم أخذ يرتجز، يقول: اعلُ هُبَلْ، اعل هُبَلْ. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تُجيبُوه[١٢]؟» قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللهُ أعلى وأجل». قال: لنا العُزَّى ولا عزَّى لكم. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تُجيبُوهُ؟». قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال:«قُولُوا:اللهُ مَوْلانَا وَلا مَوْلَى لَكُمْ»[١٣].

وقد رواه البخارى من حديث زُهَير بن معاوية مختصرا، ورواه من حديث إسرائيل، عن أبى

---

(١) فى أ، و: «حلت». (٢) فى جـ، أ: «تركها». (٣) فى جـ، ر: «حفوا».
(٤) فى أ، و: «تعلو». (٥) فى جـ: «قتل».
(٦) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٣٦).
(٧) فى أ: «يشتدون». (٨) فى جـ، ر: «تنظرون». (٩) فى جـ، ر، أ، و: «أفنسيتم».
(١٠) فى أ، و: «قال». (١١) فى جـ: «لم يسوؤنى». (١٢) فى جـ، ر: «ألا تجيبونه».
(١٣) المسند (٤/ ٢٩٣).

إسحاق بأبسط من هذا، كما تقدم. والله أعلم.

وروى البيهقى فى دلائل النبوة من حديث عمارة[١] بن غَزِيَّة، عن أبى الزُّبير، عن جابر قال: انهزم الناس عن رسول الله ﷺ يوم أحد وبقى معه أحد عشر رجلا من الأنصار، وطلحة بن عبيد الله هو يصعد[٢] الجبل، فلقيهم المشركون، فقال: «ألا أحَدٌ لهؤُلاء؟» فقال طلحة: أنا يا رسول الله، فقال: «كمَا أنتَ يَا طَلْحَةُ». فقال رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله، فقاتل عنه، وصعد رسول الله ﷺ ومن بقى معه، ثم قُتل الأنصارى فلحقوه فقال: «ألا رَجُلٌ لهؤُلاء؟» فقال طلحة مثل قوله، فقال رسول الله ﷺ مثل قوله، فقال رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله، فقاتل عنه وأصحابه يصعدن، ثم قتل فلحقوه، فلم يزل يقول مثل قوله الأول فيقول[٣] طلحة: فأنا[٤] يا رسول الله، فيحبسه، فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال فيأذَنُ له، فيقاتل[٥] مثل من كان قبله، حتى لم يبق معه إلا طلحة فَغَشَوْهما، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ لِهؤلاء؟» فقال طلحة: أنا. فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله وأصيبت أنامله، فقال: حس، فقال رسول الله: «لوْ قُلْتَ: بِاسْمِ الله، وذكرت اسم الله، لَرَفَعَتْكَ الملائكَة والنَّاسُ يَنْظُرُونَ إلَيْكَ، حَتَّى تلجَ بِكَ فِى جَوِّ السَّمَاءِ»، ثم صعد[٦] رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم مجتمعون[٧].

وقد روى البخارى، عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن وَكيع، عن إسماعيل، عن قَيْس بن أبى حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبى ﷺ ـ يعنى يوم أحد[٨].

وفى الصحيحين من حديث مُعْتَمر بن سليمان، عن أبيه، عن أبى عثْمان النَّهْدى قال: لم يبق مع رسول الله ﷺ فى بعض تلك الأيام، التى قاتل فيهن رسول الله ﷺ غَيْرُ طلْحَةَ بن عبيد الله وسعد، عن حَديثهما[٩] وقال حماد بن سلمة عن على بن زيد وثابت عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رَهقوه قال: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا ولَهُ الْجَنَّةُ ـ أو: وَهُوَ رَفِيقى فى الْجَنَّة؟» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتل، ثم رَهقوه أيضا، فقال: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا ولَهُ الْجَنَّةُ؟» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل. فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: ما أنْصَفنا أصْحَابنا».

رواه مسلم عن هُدبة بن خالد، عن حماد بن مسلمة[١٠]، به نحوه[١١].

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا بن مروان بن معاوية، عن هاشم بن هاشم الزهرى، قال سمعت سعيد بن المسيَّب يقول: سمعت سعد بن أبى وقاص [رضى الله عنه][١٢] يقول: نَثَل لى

---

(١) فى جـ: «عمار». (٢) فى أ، و: «يصعد فى». (٣) فى جـ، ر، أ، و: «ويقول».
(٤) فى أ، و: «أنا». (٥) فى أ، و: «فقاتل». (٦) فى ر، و: «أصعد».
(٧) دلائل النبوة (٣/٢٣٦)
(٨) صحيح البخارى برقم (٤٠٦٣).
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٠٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤١٤).
(١٠) فى جـ، ر: «سلمة».
(١١) صحيح مسلم برقم (١٧٨٩).
(١٢) زيادة من ر، أ، و.

رسول[١] الله ﷺ كنانته يوم أحد قال: «ارمِ فِداكَ أبى وأمى».

وأخرجه البخارى، عن عبد الله بن محمد، عن مروان بن معاوية[٢].

وقال محمد بن إسحاق[٣]: حدثنى صالح بن كيسان، عن بعض آل سعد، عن سعد بن أبى وقاص؛ أنه رمى يوم أحد دونَ رسول الله ﷺ، قال سعد: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يناولنى النَّبْلَ ويقول: «ارمِ فِداكَ أبى وأمى» حتى إنه ليناولنى السهم ليس له نصل، فأرمى به.

وثبت فى الصحيحين من حديث إبراهيم بن سعد عن أبيه، عن جده، عن سعد بن أبى وقاص[٤]، قال: رأيت يوم أحد عن يمين النبى ﷺوعن يساره رجلين، عليهما ثياب بيض، يقاتلان عنه أشد القتال، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده، يعنى: جبريل وميكائيل عليهما السلام[٥].

وقال أبو الأسود، عن عروة بن الزبير قال: كان أُبَىُّ بن خَلَف، أخو بنى جُمَح، قد حلف وهو بمكة ليَقْتُلَن رسول الله ﷺ، فلما بلغتْ رسولَ الله ﷺحَلْفَتُه قال: «بَلْ أنَا أقْتُلُهُ، إنْ شَاءَ اللهُ». فلما كان يوم أحد أقبل أبى فى الحديد مُقَنَّعا، وهو يقول: لا نَجَوْتُ إن نجا محمد. فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتْله، فاستقبله مُصْعَب بن عُمير، أخو بنى عبد الدار، يقى رسول الله ﷺ بنفسه، فقتل مصعب بن عمير، وأبصر رسولُ الله ﷺ تَرْقُوَة أبى بن خلف من فَرْجَة بين سابغة الدرع والبيضة، وطعنه فيها بحربته، فوقع إلى الأرض عن فرسه، لم يخرج من طعنته دم، فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خُوار الثور، فقالوا له: ما أجزعك إنما هو خدش؟ فذكر لهم قول رسول الله ﷺ: «أنا أقْتُلُ أبيا». ثم قال: والذى نفسى بيده لو كان هذا الذى بى بأهل ذى المَجَاز لماتوا أجمعون. فمات إلى النار، فسحقا لأصحاب السعير.

وقد رواه موسى بن عُقْبة فى مغازيه، عن الزُّهْرى، عن سعيد بن المسيّب بنحوه.

وذكر محمد بن إسحاق قال: لما أَسْندَ رسول الله ﷺ فى الشعب، أدركه أبى بن خَلَف وهو يقول: لا نجوتُ إن نجوتَ فقال القوم: يا رسول الله، يَعْطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: «دَعُوهُ» فلما دنا تناول رسول الله [ﷺ][٦] الحربة من الحارث بن الصِّمَّة، فقال بعض القوم ما ذكر[٧] لى: فلما أخذها رسول الله ﷺ منه انتفض بها انتفاضة، تطايرنا عنه تطاير الشَّعْر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله رسول الله ﷺ فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً.

وذكر الواقدى، عن يونس بن بُكَير، عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمرو بن قتادة، عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه نحو ذلك[٨].

قال الواقدى: كان ابن عمر يقول: مات أُبَىّ بن خلف ببطن رَابِغ، فإنى لأسير ببطن رابغ بعد

---

(١) فى ر: «نثل ـ قال الحسن بن عرفة: نثل: أى نفض لى رسول الله».
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٠٥٥).
(٣) فى ر: «سعيد».
(٤) فى جـ، ر، أ، و: «إبراهيم بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٠٥٤) وصحيح مسلم برقم (٢٣٠٦).
(٦) زيادة من جـ، ر، أ، و.
(٧) فى أ، و: «كما ذكر».
(٨) سيرة ابن إسحاق (ظاهرية ق ١٧١) برواية محمد بن سلمة.

هوى من الليل إذا أنا بنار تأجّح[(١)]، فهبتها، فإذا رجل يخرج منها فى سلسلة يجتذبها يهيج به العطش، وإذا رجل يقول: لا تسقه، فإن هذا قتيل رسول الله ﷺ، هذا أبىّ بن خلف.

وثبت فى الصحيحين، من رواية عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن هَمَّام بن مُنَبِّه، عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اشْتَدَّ غضَبُ اللهَ عَلَى قَوْمٍ فَعَلُوا برَسُول الله ـ وهو حينئذ يشير إلى رباعيته ـ اشْتَدَّ غَضَبُ الله عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسُولُ الله ﷺ فِى سَبيلِ الله»[(٢)].

ورواه البخارى أيضاً[(٣)] من حديث ابن جُرَيج، عن عَمرو بن دينار، عن عكرِمة، عن ابن عباس قال: اشتد غضب الله على من قتله رسول الله ﷺ، بيده فى سبيل الله، اشتد غضب الله على قوم دمَّوا وجه رسول الله ﷺ. وقال محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله: أصيبت رَبَاعِية رسول الله ﷺ وشج فى وَجْنته، وكُلِمَت شفَته[(٤)]، وكان الذى أصابه عتبة بن أبى وقاص.

فحدثنى صالح بن كَيْسان، عمن حدثه، عن سعد بن أبى وقاص قال: ما حَرَصْتُ على قتل أحد قطَ ما حرصت على قَتْل عُتْبة بن أبى وقاص وإن كان ما علمته لسيئ الخُلُق، مُبْغَضاً فى قومه، ولقد كفانى فيه قول رسول الله ﷺ: «اشْتَدَّ غَضَبُ الله عَلَى مَنْ دَمَّى وَجْهَ رَسُولِ الله ﷺ»[(٥)].

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معْمَر، عن الزهرى، عن عثمان الجزَرى، عن مقْسَم؛ أن رسول الله ﷺ دعا على عُتبةَ بن أبى وقاص يوم أحُد حين كَسر رَبَاعيته ودَمى وجهه فقال: «اللَّهُمَّ لا تحل[(٦)] عَلَيْهِ الْحَوْل حَتَّى يموتَ كَافِراً». فما حال عليه الحولُ حتى مات كافراً إلى النار[(٧)].

ذكر الواقدى عن ابن أبى سبرة، عن إسحاق بن عبد الله بن أبى فَرْوة، عن أبى الحُويرث، عن نافع بن جبير قال: سمعتُ رجُلا من المهاجرين يقول: شهدت أحُداً فنظرت إلى النَّبْل يأتى من كل ناحية، ورسول الله ﷺ[(٨)] وسطها، كُل ذلك يُصْرَف عنه، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهرى يقول يومئذ: دُلونى على محمد، لا نَجَوتُ إن نجا، ورسول الله ﷺ إلى جنبه ليس معه[(٩)] أحد، ثم جاوره[(١٠)]، فعاتبه فى ذلك صَفْوان، فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله إنه منا ممنوع. خرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك.

قال الواقدى: الثَّبَتُ عندنا أن الذى رمى فى وَجْنَتى رسول الله ﷺ ابن قَميئة[(١١)]، والذى دَمى شفته[(١٢)] وأصاب رباعيته عتبة بن أبى وقاص[(١٣)].

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا ابن المبارك، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله،

---

(١) فى أ، و: «تاجج لى».
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٠٧٣) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٣).
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٠٧٤، ٤٠٧٦).
(٤) فى و: «شفتاه».
(٥) سيرة ابن إسحاق (ظاهرية ق ١٧٢).
(٦) فى جـ، ر: «لا يحل».
(٧) تفسير عبد الرزاق (١/ ١٣٦).
(٨) فى و: «ورسول الله ﷺ فى وسطها». (٩) فى و: «ما معه». (١٠) فى جـ، ر، أ، و: «جاوزه».
(١١) فى جـ، ر: «قماة». (١٢) فى و: «شفتيه».
(١٣) المغازى للواقدى (١/ ٢٤٤).

أخبرنى عيسى بن طلحة، عن أم المؤمنين عائشة، رضى الله عنها، قالت: كان أبو بكر، رضى الله عنه، إذا ذكر يوم أحد قال[١]: ذاك[٢] يوم كُله لطلحة، ثم أنشأ يحدث قال: كنت أول من فَاء يوم أحد، فرأيت رجلا يقاتل مع رسول الله ﷺ دونه ـ وأراه قال: حَمِيَّةً فقال[٣]: فقلت: كن طَلْحَةَ، حيث فاتنى ما فاتنى، فقلت: يكون رجلا من قومى أحب إلى، وبينى وبين المشركين رجل لا أعرفه، وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه، وهو يخطف المشى خطفا لا أحفظه[٤]، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ: وقد كسرت رَبَاعيتُه وشُجّ فى وجهه، وقد دخل فى وَجْنته حلقتان من حَلَق المغْفَر، قال رسول الله ﷺ: «عَليكمُا صَاحبكُما». يريد طلحة، وقد نزف، فلم نلتفت إلى قوله، قال: وذهبت لأن أنزع[٥] ذلك[٦] من وجهه، فقال أبو عبيدة: أقسمت عليك بحقى لما تركتنى. فتركته، فكره أن يتناولها بيده فيؤذى النبى[٧] ﷺ، فَأَزَمَّ عليها[٨] بفيه فاستخرج إحدى الحلقتين، ووقعت ثَنِيَّته مع الحلقة، ذهبت لأصنع ما صنع، فقال: أقسمت عليكَ بحقى لما تركتنى، قال: ففعل مثل ما فعل فى المرة الأولى، فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة، فكان أبو عبيدة، رضى الله عنه، أحسن[٩] الناس هَتْما، فأصلحنا من شأن رسول الله ﷺ، ثم أتينا طلحة فى بعض تلك الجفار، فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر من طعنة ورَمْيَة وضربة، وإذا قد قُطعَتْ إصبعه، فأصلحنا من شأنه.

ورواه الهيثم بن كُلَيب، والطبرانى، من حديث إسحاق بن يحيى به. وعند الهيثم: فقال أبو عبيدة: أنشدك[١٠] يا أبا بكر إلا تركتنى؟ فأخذ أبو عبيدة السّهم بِفيه، فجعل يُنَضْنِضَه كراهية[١١] أن يؤذى رسول الله ﷺ، ثم استلّ السهم بفيه فبدرت[١٢] ثنية أبى عبيدة.

وذكر تمامه، واختاره الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه[١٣]. وقد ضَعّف على بن المدينى هذا الحديث من جهة إسحاق بن يحيى هذا، فإنه تكلم فيه يحيى بن سعيد القطان، وأحمد، ويحيى بن معين، والبخارى، وأبو زُرعة، وأبو حاتم، ومحمد بن سعد، والنسائى وغيرهم.

وقال ابن وَهْب: أخبرنى عَمْرو بن الحارث: أن عُمَر بن السائب حدثه: أنه بلغه أن مالكا أبا [أبى][١٤] سعيد الخُدْرى لَمَّا جُرح النبى ﷺ يوم أحد مَصّ الجرح حتى أنقاه ولاح أبيض، فقيل له: مُجَّه. فقال: لا، والله لا أمجه أبدا. ثم أدبر يقاتل، فقال النبى ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فلينظُرْ إلى هذا». فاستشهد[١٥].

وقد ثبت فى الصحيحين من طريق عبد العزيز بن أبى حازم[١٦]، عن أبيه، عن سَهْل بن سَعْد أنه

---

(١) فى جـ، ر، أ، و: «قال: كان». (٢) فى أ: «ذلك». (٣) فى جـ، ر: «قال».
(٤) فى جـ، ر: «لا أخطفه». (٥) فى جـ، ر: «لأنزع». (٦) فى جـ، ر، أ، و: «ذاك»
(٧) فى و: «رسول الله». (٨) فى و: «عليه». (٩) فى أ، و: «من أحسن».
(١٠) فى جـ، أ، و: «أنشدك بالله». (١١) فى ر: «كراهة» (١٢) فى جـ: «فبذرت» وفى ر، أ، و: «فندرت».
(١٣) مسند الطيالسى (ص٣) والمختارة للضياء المقدسى برقم (٤٩) من طريق الهيثم بن كليب، ورواه البزار فى مسنده برقم (٦٣) وابن حبان فى صحيحه برقم (٤٩٤١) «الإحسان» من طريق إسحاق بن يحيى به. قال الهيثمى فى المجمع (٦/ ١١٢): «فيه إسحاق بن يحيى وهو متروك».
(١٤) زيادة من جـ.
(١٥) ورواه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٢٦٦) من طريق ابن وهب به.
(١٦) فى ر: «حاتم».

سئل عن جُرْح رَسُول الله ﷺ فقال: جُرح وجه رسول الله ﷺ، وكُسرت رَبَاعيته، وهُشمَت البَيْضة على رأسه، فكانت[١] فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم، وكان عَلى يسكب عليها[٢] بالمجَن[٣]، فلما رأت فاطمة [رضى الله عنها][٤] أن الماء لايزيدُ الدم إلا كثرة، أخذت قطعةَ حَصِير فأحرقته، حتى إذا صار[٥] رمادا ألصقته بالجُرْح، فاستمسك الدم[٦].

وقوله: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ أى: فجازاكم غما على غَم كما تقول العرب: نزلت ببنى فلان، ونزلت على بنى فلان.

قال ابن جرير: وكذا قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[طه: ٧١][أى: على جذوع النخل][٧].

قال ابن عباس: الغم الأول: بسبب الهزيمة وحين قيل: قتل محمد ﷺ، والثانى: حين علاهم المشركون فوق الجبل، وقال النبى ﷺ: «اللَّهُمَّ لَيسَ لَهُمْ أنْ يَعْلُونا».

وعن عبد الرحمن بن عوف: الغم الأول: بسبب الهزيمة، والثانى: حين قيل: قُتِلَ محمد ﷺ، كان ذلك عندهم أعظم من الهزيمة.

رواهما ابن مَرْدُويَه، وروى عن عمر بن الخطاب نحو ذلك. وذكر ابن أبى حاتم عن قتادة نَحْوَ ذلك أيضا.

وقال السُّدِّى: الغم الأول: بسبب ما فاتهم من الغنيمة والفتح، والثانى: بإشراف العدو عليهم.

وقال محمد بن إسحاق ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ أى: كربًا بعد كرب، قَتْل مَنْ قُتل من إخوانكم، وعلُو عدوكم عليكم، وما وقع فى أنفسكم من قول من قال: «قُتل نبيكم»[٨] فكان[٩] ذلك متتابعا[١٠] عليكم غما بغم.

وقال مجاهد وقتادة: الغم الأول: سماعهم قتل محمد، والثانى: ما أصابهم من القتل والجراح. وعن قتادة والربيع بن أنس عكسُه.

وعن السُّدِّى: الأول: ما فاتهم من الظَّفَر والغنيمة، والثانى: إشراف العدو عليهم، وقد تقدم هذا عن السدى.

قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصواب قولُ من قال: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ فأثابكم بغَمكُم أيها المؤمنون بحرمان الله إياكم غنيمةَ المشركين والظَّفر بهم والنصرَ عليهم، وما أصابكم من القتل والجراح يومئذ ـ بعد الذى أراكم[١١] فى كل ذلك ما تحبون ـ بمعصيتكم ربكم، وخلافكم أمر النبى[١٢] ﷺ، غَم ظنكم أن نبيكم قد قتل، وميل العدو عليكم بعد فُلولكم منهم.

---

(١) فى جـ، ر: «وكانت». (٢) فى جـ، ر، أ، و: «عليه». (٣) فى جـ، ر، أ، و: «عليه الماء بالمجن».
(٤) زيادة من جـ، أ، و. (٥) فى أ: «صارت».
(٦) صحيح البخارى برقم (٢٩١١) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٠).
(٧) زيادة من جـ. (٨) فى أ، و: «من قبل قتل نبيكم». (٩) فى جـ: «وكان».
(١٠) فى أ، و: «مما تتابع». (١١) فى جـ، ر، أ، و: «الذى كان قد أراكم». (١٢) فى أ، و: «نبيكم».

وقوله: ﴿ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أى: على ما فاتكم من الغنيمة بعدوكم ﴿ وَلا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من القتل والجراح، قاله ابن عباس، وعبد الرحمن بن عوف، والحسن، وقتادة، والسدى ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) ﴾.

يقول تعالى مُمْتَنا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأَمَنَة، وهو النعاس الذى غشيهم وهم مستَلْئمو السلاح فى حال هَمِّهم وغَمِّهم، والنعاس فى مثل تلك الحال دليل على الأمان(١)، كما قال تعالى فى سورة الأنفال، فى قصة بدر: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ [وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ](٢) ﴾ [الأنفال: ١١].

وقال [الإمام](٣) أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو نعيم وكيع(٤)، عن سفيان، عن عاصم، عن أبى رزين، عن عبد الله بن مسعود قال: النعاس فى القتال من الله، وفى الصلاة من الشيطان.

قال البخارى: قال(٥) لى خليفة: حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن أبى طلحة، رضى الله عنه، قال: كنت فيمن تَغَشاه(٦) النعاس يوم أحُد، حتى سقط سيفى من يدى مرارا، يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه.

هكذا رواه فى المغازى معلقا. ورواه فى كتاب التفسير مُسْنَداً عن شيبان، عن قتادة، عن أنس، عن أبى طلحة قال: غَشينا النعاس ونحن فى مَصَافنا يوم أحد. قال: فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه، ويسقط وآخذه.

وقد رواه الترمذى والنسائى والحاكم، من حديث حَمَّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، عن

---

(١) فى جـ، ر، أ، و: «الإيمان».
(٢) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».
(٣) زيادة من جـ، ر، أ، و.
(٤) فى جـ، ر، أ، و: «ووكيع».
(٥) فى أ، و: «وقال».
(٦) فى جـ، ر: «يغشاه».

أبى طلحة قال: رفعت رأسى يوم أحُد، وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يميد[١] تحت حَجَفَتِه من النعاس.

لفظ الترمذى، وقال: حسن صحيح.

ورواه النسائى أيضا، عن محمد بن المثنى، عن خالد بن الحارث، عن أبى قتيبة، عن ابن أبى عدى، كلاهما عن حميد، عن أنس قال: قال أبو طلحة: كنت فيمن ألقى عليه النعاس ـ الحديث[٢].

وهكذا رُوى عن الزبير وعبد الرحمن بن عوف، رضى الله عنه[٣].

وقال البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنى أبو الحسين محمد بن يعقوب، أخبرنا محمد بن إسحاق الثقفى، حدثنا محمد بن عبد الله المبارك المخزومى، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك؛ أن أبا طلحة قال: غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحُد، فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه، ويسقط وآخذه، قال: والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هَمٌّ إلا أنفسهُم، أجبن قوم وأرعنه، وأخذَله للحق ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ كَذَبَةَ، أهل[٤] شك وريب فى الله، عز وجل[٥].

هكذا رواه بهذه الزيادة، وكأنها من كلام قتادة، رحمه الله، وهو كما قال؛ فإن الله عز جل يقول: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ يعنى: أهل الإيمان واليقين والثبات[٦] والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله سينصر رسوله ويُنْجِز له مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعنى: لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا [وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا][٧]﴾ [الفتح: ١٢] وهكذا هؤلاء، اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنَّها الفيصلة[٨]، وأن الإسلام قد باد وأهلُه، هذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة.

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم ﴿يَقُولُونَ﴾ فى تلك الحال: ﴿هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾، ثم فَسر ما أخفوه فى أنفسهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ أى: يسرون[٩] هذه المقالة عن رسول الله ﷺ.

قال [محمد][١٠] بن إسحاق بن يسار: فحدثنى يحيى بن عباد[١١] بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير: لقد رأيتنى مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا، أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذقنه فى صدره، قال: فوالله إنى لأسمع قول مُعَتِّب بن

---

(١) فى جـ، ر: «يمتد».

(٢) صحيح البخارى (٤٥٦٢، ٤٠٦٨) وسنن الترمذى برقم (٣٠٠٧، ٣٠٠٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠٨٠).

(٣) فى ر: «عنهما».

(٤) فى جـ، ر، أ، و: «كذبة، إنما هم أهل».

(٥) دلائل النبوة للبيهقى (٣/ ٢٧٣).

(٦) فى ر: «والبيان».

(٧) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «إلى آخر الآية».

(٨) فى ر: «الفضيلة».

(٩) فى أ: «أى لا يسرون».

(١٠) زيادة من جـ، ر، أ، و.

(١١) فى أ: «عباد الله».

قُشَير، ما أسمعه إلا كالحلم، [يقول][(١)] : ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ . فحفظتها منه، وفى ذلك أنزل الله [تعالى][(٢)]: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾لقول مُعتِّب.

رواه ابن أبى حاتم.

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أى: هذا قدر مقدر من الله عز وجل، وحكم حَتْم لازم لا يحاد[(٣)] عنه، ولا مناص منه.

وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أى: يختبركم بما جرى عليكم، وليميز الخبيثَ من الطيب، ويظهر أمرَ المؤمن والمنافق للناس فى الأقوال والأفعال، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: بما يختلج[(٤)] فى الصدور من السرائر والضمائر.

ثم قال[(٥)]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ أى: ببعض ذنوبهم السالفة، كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جزَاء السيئةَ السيئة بعدها[(٦)].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾، أى: عمّا كان منهم من الفرار ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أى: يغفر الذنب ويحلُم عن خلقه، ويتجاوز عنهم، وقد تقدم حديث ابن عمر فى شأن عثمان، رضى الله عنه، وتوليه يوم أحد، وأن الله [قد][(٧)] عفا عنهم، عند قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾، ومناسب ذكره هاهنا.

قال[(٨)] الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عَمْرو، حدثنا زائدة، عن عاصم، عن شقيق، قال: لقى عبدُ الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة[(٩)]، فقال له الوليد: ما لى أراك جفوتَ أمير المؤمنين عثمانَ؟ فقال له عبد الرحمن: أبلغه أنى لم أفر يوم عَيْنَيْن[(١٠)] ـ قال عاصم: يقول يوم أحد ـ ولم أتخلف عن بدر، ولم أترك سُنة عمر. قال: فانطلق فَخبر ذلك عثمان، قال: فقال: أما قوله: إنى لم أفر يوم عَيْنَيْن[(١١)] فكيف يعَيرنى بذَنْب قد[(١٢)] عفا الله عنه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وأما قولُهُ: إنى تخلفت يوم بدر فإنى كنت أمرض رقَيَّة بنت رسول الله ﷺ حتى ماتت، وقد ضرب لى رسول الله ﷺ بسهم، ومن ضرب له رسول الله ﷺ بسهم فقد شهِد. وأما قوله: «إنى لم أترك سنَّة عمر» فإنى لا أطيقها ولا هو، فأته فحدثه بذلك[(١٣)].

---

(١) زيادة من ر. (٢) زيادة من ر، وفى جـ، أ: «عز وجل». (٣) فى ر، أ، و: «مجيد».
(٤) فى جـ، ر، أ: «يتخالج». (٥) فى أ: «وقال».
(٦) فى جـ، ر، أ، و: «إن من جزاء السيئة السيئة بعدها وإن من جزاء الحسنة الحسنة بعدها». (٧) زيادة من جـ، ر، أ، و.
(٨) فى ر، أ، و: «وقال». (٩) فى و: «عتبة». (١٠) فى جـ، ر، أ: «حنين».
(١١) فى ر، أ: «حنين». (١٢) فى جـ، ر، أ، و: «بذلك وقد».
(١٣) المسند (١/ ٦٨).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) ﴾.

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار فى اعتقادهم الفاسد، الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا فى الأسفار وفى[1] الحروب: لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم. فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ﴾ أى: عن إخوانهم ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ﴾ أى: سافروا للتجارة ونحوها[2] ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ أى: فى الغزو ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا﴾ أى: فى البلد ﴿مَا مَاتُوا وَمَا[3] قُتِلُوا﴾ أى: ما ماتوا فى السفر ولا قتلوا فى الغزو.

وقوله: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى: خلق هذا الاعتقاد فى نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتهم وقتلهم[4] ثم قال تعالى ردا عليهم: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى: بيده الخلق وإليه يرجع الأمر، ولا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدره، ولايُزاد فى عُمُر أحد ولا يُنْقَص منه إلا بقضائه وقدره ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أى: وعلمه وبصره نافذ فى جميع خلقه، لا يخفى عليه من أمورهم شىء.

وقوله: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ تضمن هذا أن القتل فى سبيل الله، والموت أيضا، وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء فى الدنيا وجمع حطامها الفانى.

ثم أخبر بأن كل من مات أو قتل فمصيره ومرجعه إلى الله، عز وجل، فيجزيه بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرا فشر فقال: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ

---

(١) فى جـ، ر، و: «أو فى». (٢) فى جـ: «وغيرها». (٣) فى ر: «ولا».

(٤) فى جـ، ر، أ، و: «موتاهم وقتلاهم».

فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)﴾.

يقول تعالى مخاطبا رسوله ﷺ، ممتنا عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته، المتبعين لأمره، التاركين لزجره، وأطاب لهم لفظه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أى: أى شىء جعلك لهم ليناً لولا رحمة الله بك وبهم.

قال قتادة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ يقول: فبرحمة من الله لنت لهم. و«ما» صلة، والعربُ تصلها بالمعرفة كقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥، المائدة: ١٣]، وبالنكرة كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠] وهكذا[١] هاهنا قال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أى: برحمة من الله[٢].

وقال الحسن البصرى: هذا خُلُقُ محمد ﷺ بعثه الله به.

وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حَيْوَة، حدثنا بَقيَّة، حدثنا محمد بن زياد، حدثنى أبو راشد الحُبْرانى قال: أخذ بيدى أبو أمَامة الباهلى وقال: أخذ بيدى رسول الله ﷺ فقال: «يَا أَبَا أُمامَةَ، إنَّ مِنَ الْمؤْمنينَ مَنْ يَلِينُ لِى قَلْبُه»[٣].

انفرد[٤] به أحمد[٥].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ الفظ: الغليظ، [و][٦] المراد به هاهنا غليظ الكلام؛ لقوله بعد ذلك: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أى: لو كنت سيِّئَ الكلام قاسى القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفا لقلوبهم، كما قال عبد الله بن عمرو: إنه رأى صفة رسول الله ﷺ فى الكتب المتقدمة: أنه ليس بفظٍّ، ولا غليظ، ولا سَخّاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح[٧].

وروى أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذى، أنبأنا بشْر بن عُبَيد الدارمى، حدثنا عمّار بن عبد الرحمن، عن المسعودى، عن ابن أبى مُلَيْكَة، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله أمَرَنِى بِمَدارَاةِ النَّاس كَمَا أمرنى بإقَامَة الْفَرَائِضِ»[٨] حديث غريب[٩].

---

(١) فى جـ، أ، و: «كذا».
(٢) فى أ: «فبما رحمة من الله ـ أى برحمة من الله ـ لنت لهم».
(٣) فى جـ، ر، أ، و «له قلبى».
(٤) فى جـ، ر، أ، و: «تفرد».
(٥) المسند (٥/ ٢٦٧).
(٦) زيادة من جـ، ر، أ، و.
(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٨٣٨).
(٨) فى أ: «الصلاة».
(٩) ورواه ابن مردويه فى ثلاثة مجالس من الأمالى برقم (٤٢) وابن عدى فى الكامل (٢/ ١٥) والديلمى فى مسند الفردوس برقم (٦٥٩) من طريق بشر بن عبيد به. وبشر بن عبيد قال ابن عدى: منكر الحديث عن الأئمة. وساق له الذهبى أحاديث، منها هذا الحديث، ثم قال: «وهذه الأحاديث غير صحيحة فالله المستعان».

ولهذا قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾، ولذلك[١] كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه فى الأمر إذا حدَث، تطييباً لقلوبهم؛ ليكونوا فيما يفعلونه[٢] أنشط[٣] لهم [كما][٤] شاورهم يوم بدر فى الذهاب إلى العير[٥]، فقالوا: يا رسول الله، لو استعرضت بنا عُرْض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى بَرْك الغَمَاد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب، فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن [شمالك][٦] مقاتلون.

وشاورهم ـ أيضا ـ أين يكون المنزل؟ حتى أشار المنذر بن عمرو المعتق ليموتَ، بالتقدم إلى أمام القوم، وشاورهم فى أحد فى أن يقعد فى المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهُورُهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم.

وشاورهم يوم الخندق فى مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ، فأبى عليه ذلك السَّعْدَان: سعدُ بن معاذ وسعدُ بن عُبَادة، فترك ذلك.

وشاورهم يومَ الحُدَيبية فى أن يميل على ذَرَارى المشركين، فقال له الصديق: إنا لم نجئ[٧] لقتال أحد، وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال.

وقال عليه السلام[٨] فى قصة[٩] الإفك: «أشيروا عَلَيَّ مَعْشَرَ الْمُسْلمينَ فى قَوْمٍ أَبَنُوا[١٠] أهلِى ورمُوهُم، وايْمُ اللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِى مِنْ سُوءٍ، وأَبَنُوهم بِمَنْ ـ واللهِ ـ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إلاَّ خَيْرًا».

واستشار عليا وأسامة فى فراق عائشة، رضى الله عنها.

فكان[١١] [ﷺ][١٢] يشاورهم فى الحروب ونحوها. وقد اختلف الفقهاء: هل كان ذلك واجبا عليه أو من باب الندب تطييبا لقلوبهم؟ على قولين.

وقد قال الحاكم فى مستدركه: حدثنا أبو جعفر محمد بن محمد البغدادى، حدثنا يحيى بن أيوب العلاف[١٣] بمصر، حدثنا سعيد بن [أبى][١٤] مريم، أنبأنا سفيان بن عيينة، عن عَمْرو بن دينار، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ قال: أبو بكر وعمر، رضى الله عنهما. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه[١٥].

وهكذا رواه الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس قال: نزلت فى أبى بكر وعمر، وكانا حَوَارى رسول الله ﷺ ووزيريه وأبَوى المسلمين.

وقد روى الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع، حدثنا عبد الحميد، عن شَهْرَ بن حَوْشَب، عن عبد الرحمن

---

(١) فى جـ، ر،أ، و: «وكذلك». (٢) فى و: «ليكون ما يفعلونه». (٣) فى ر: «أبسط».
(٤) زيادة من جـ. (٥) فى أ، و: «النفير». (٦) زيادة من جـ، أ، و.
(٧) فى أ: «لم نأت». (٨) فى أ: ﷺ. (٩) فى جـ، أ: «قضية».
(١٠) فى جـ، ر:«آنبوا». (١١) فى أ: «وكان». (١٢) زيادة من و.
(١٣) فى أ: «العلائى». (١٤) زيادة من جـ، ر. (١٥) المستدرك (٣/ ٧٠).

ابن غَنْم أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر وعمر: «لوِ اجْتَمعنا[١] فِى مَشُورةَ مَا خَالَفْتُكُمَا»[٢].

وروى ابن مَرْدُويه، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: سُئل رسول الله ﷺ عن العزْم؟ قال[٣]: «مُشَاوَرَةُ أَهْلِ الرَّأْى ثُمَّ اتِّبَاعُهُمْ»[٤].

وقد قال ابن ماجة: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا يحيى بن أبى بكير[٥]، عن شيبان[٦]، عن عبد الملك بن عُمير، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ».

ورواه أبو داود والترمذى، وحسّنه [و][٧] النسائى، من حديث عبد الملك بن عُمير بأبسط منه[٨].

ثم قال ابن ماجة: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا أسود بن عامر، عن شريك، عن الأعمش، عن أبى عَمْرو الشيبانى، عن أبى[٩] مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ». تفرد به[١٠].

[وقال أيضا][١١]: وحدثنا أبو بكر، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة وعلى بن هاشم، عن ابن أبى ليلى، عن أبى الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا اسْتَشَارَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيشِرِ[١٢] عَلَيْهِ. تفرد به أيضا[١٣].

وقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: إذا شاورتهم فى الأمر وعزَمْت عليه فتوكل على الله فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

وقوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وهذا كما تقدم من قوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد: ما ينبغى لنبى أن يخون.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا المسيَّب بن واضح، حدثنا أبو إسحاق الفزارى، عن

---

(١) فى جـ، ر، أ، و: «اجتمعتما».

(٢) المسند (٤/ ٢٢٧).

(٣) فى أ، و: «فقال».

(٤) ذكره السيوطى فى الدر (٢/ ٣٦٠) وعزاه إلى ابن مردويه.

(٥) فى جـ، أ: «بكر». (٦) فى جـ، ر، أ: «سفيان». (٧) زيادة من جـ، ر، أ، و.

(٨) سنن ابن ماجة برقم (٣٧٤٥) وسنن أبى داود برقم (٥١٢٨) وسنن الترمذى برقم (٢٨٢٢، ٢٣٦٩، ٢٣٧٠).

(٩) فى جـ، ر «ابن».

(١٠) سنن ابن ماجة برقم (٣٧٤٦) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ١٨١): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

(١١) زيادة من و. (١٢) فى أ: «فليشير».

(١٣) سنن ابن ماجة برقم (٣٧٤٧).

سفيان[١] ،[عن][٢] خصيف، عن عكرمة عن ابن عباس قال: فقدوا قطيفة يوم بدر فقالوا: لعل رسول الله ﷺ أخذها. فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أى : يخون.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا حصِيف، حدثنا مِقْسَم حدثنى ابن عباس أن هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ نزلت فى قطيفة[٣] حمراء فُقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: أخذها[٤]. قال فأكثروا فى ذلك، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

وكذا رواه أبو داود، رحمه الله، والترمذى جميعا، عن قتيبة، عن عبد الواحد بن زياد، به. وقال الترمذى: حسن غريب. ورواه بعضهم عن خَصِيف، عن مِقْسَم ـ يعنى مرسلا[٥].

وروى ابن مَرْدوَيه من طريق أبى عمرو بن العلاء، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: اتهم المنافقون رسول الله ﷺ بشىء فُقد، فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾.

وقد روى من غير وجه عن ابن عباس نحو ما تقدم. وهذه تبرئة له، صلوات الله وسلامه عليه، عن جميع وجوه الخيانة فى أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك.

وقال العوفى عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أى: بأن يَقْسم لبعض السرايا ويترك بعضا[٦]. وكذا قال الضحاك.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾: بأن يترك بعض ما أنزل إليه فلا يبلغه أمته.

وقرأ الحسن البصرى وطاوس، ومجاهد، والضحاك: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يُغَلَّ﴾ بضم الياء أى: يخان.

وقال قتادة والربيع بن أنس: نزلت هذه الآية يوم بدر، وقد غَلّ بعض أصحابه. رواه ابن جرير عنهما، ثم حكى عن بعضهم أنه قرأ[٧] هذه القراءة بمعنى يُتَّهم بالخيانة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد. وقد وردت السنة بالنهى عن ذلك أيضا فى أحاديث متعددة.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك، حدثنا زهير ـ يعنى ابن محمد ـ عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن عطاء بن يسار، عن أبى مالك الأشجعى [رضى الله عنه][٨]، عن النبى ﷺ[٩]: «أَعْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللهِ ذِرَاعٌ مِنَ الأَرْضِ: تَجِدُونَ الرَّجُلَيْن جَارَيْن فى الأرْضِ ـ أو فِى الدَّارِ ـ فَيَقْطَعُ أَحَدُهُمَا

---

(١) فى ر: « شقيق». (٢) زيادة من جـ،ر.
(٣) فى جـ، ر، أ، و: «أن هذه الآية نزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ فى قطيفة».
(٤) فى جـ:« سمعت رسول الله ﷺ أخذها»، وفى أ: « لعل رسول الله ﷺ أخذها».
(٥) تفسير الطبرى (٧/٣٤٨) وسنن أبى داود برقم (٣٩٧٧) وسنن الترمذى برقم (٣٠٠٩).
(٦) فى أ: «بعضها». (٧) فى جـ ، ر، أ، و: «فسر». (٨) زيادة من جـ، ر، أ .
(٩) فى جـ، ر:«النبى ﷺ قال».

مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا، فَإِذَا اقْتَطَعَهُ طُوِّقَهُ مِنْ سَبعِ(١) أرضِينَ إلى يَوْمِ الْقِيَامة»(٢) .

[«وفى الصحيحين عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «من ظلم قَيْد شبر من الأرض طُوِّقَه يوم القيامة من سبع أرضين»](٣) (٤).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لَهيعة، عن ابن(٥) هُبَيْرة والحارث بن يزيد(٦)، عن عبد الرحمن بن جبير. قال: سمعت المُسْتَوْرد بن شدّاد يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « مَن ولى لَنَا عَملاً ولَيس لَهُ مَنزِلٌ فَلْيَتَّخِذْ مَنْزِلاً، أوْ لَيستْ لَهُ زَوجَةٌ فَلْيَتزَوَّجْ، أوْ لَيس لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا، أوْ لَيستَ(٧) لَهُ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً، ومَنْ أصابَ شيْئًا سِوَى ذَلِكَ فهو غَالٌّ»(٨).

هكذا رواه الإمام أحمد، وقد رواه أبو داود بسند آخر وسياق آخر فقال:

حدثنا موسى بن مروان الرَّقّىّ، حدثنا المعافى، حدثنا الأوزاعى، عن الحارث بن يزيد(٩)، عن جبير بن نُفَير، عن المستورد بن شداد. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:«مَنْ كَانَ لَنَا عَامِلاً فَلْيكْتَسِبْ زَوْجَةً، فَإنْ لَمْ يكُنْ لَهُ خَادِمٌ فَلْيكْتَسِبْ خَادِمًا، فَإنْ لَمْ يكُنْ لَهُ مَسْكَنٌ فَلْيكْتَسِبَ مَسْكَنًا». قال: قال أبو بكر: أخْبِرْتُ أنّ النبى ﷺ قال: «مَنِ اتَّخَذَ غَيْرَ ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌّ، أو سَارِقٌ»(١٠).

قال شيخنا الحافظ المزّى [رحمه الله](١١): رواه جعفر بن محمد الفريَابى، عن موسى بن مروان فقال: عن عبد الرحمن بن جُبير بدل جبير بن نفير، وهو أشبه بالصواب.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا حَفْص(١٢) بن بَشْر، حدثنا(١٣) يعقوب القُمّى(١٤)، حدثنا حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «لا أعرِفَنَّ أحدَكُمْ يَأْتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ شَاةً لَهَا ثُغَاءٌ، فيُنَادى: يَا مُحَمَّدُ، يا محمد، فَأَقُولُ: لاَ أمْلكُ [لَكَ](١٥) مِنَ الله شَيْئًا، قَدْ بَلَّغْتُكَ. ولا أعرِفَنَّ أحَدَكُمْ [يأتى](١٦) يوْمَ الْقِيَامَة يَحملُ جَمَلاً لَهُ رُغاءٌ، فيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. فَأقولُ: لاَ أمْلكُ لَكَ من الله شَيْئًا، قَدْ بَلَّغْتُكَ. ولاَ أعرِفَنَّ أحَدكمْ يَأْتى يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحمِلُ فَرَسًا لَهُ حَمْحَمَةٌ، يُنَادِى: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. فَأقُولُ: لاَ أمْلكُ لَكَ مِنَ الله شَيْئًا، قَدْ

---

(١) فى أ، و: «فى سبع».
(٢) المسند (٤/ ١٤٠).
(٣) زيادة من أ، و.
(٤) صحيح البخارى برقم (٢٤٥٢) وصحيح مسلم برقم (١٦١٠).
(٥) فى جـ، ر، أ، و: «أبى». (٦) فى أ: «سويد». (٧) فى أ: «أو ليس».
(٨) المسند (٤/ ٢٢٩).
(٩) فى جـ، أ: «شريك».
(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٩٤٥).
(١١) زيادة من و. (١٢) فى جـ: «جعفر». (١٣) فى جـ، ر: «عن».
(١٤) فى جـ: «العمى». (١٥، ١٦) زيادة من جـ، والطبرى.

بلَّغْتُكَ. ولاَ أعرِفَنَّ أحدَكُمْ يأتى يومَ القيامةِ يحملُ [قَشْعاً][١] من أدمٍ، يُنادِى: يَا مُحمَّدُ، يَا مُحمَّدُ. فأقُولُ: لاَ أملِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، قَدْ بلَّغْتُكَ».

لم يروه أحدٌ من أهل[٢] الكتب الستة[٣].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن الزهرى، سمع عُرْوَة يقول: أخبرنا أبو حميد الساعدى قال: استعمل رسولُ الله ﷺ رجُلاً من الأزْد يقال له: ابن اللُّتْبيَّة على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدى لى. فقام رسولُ الله ﷺ على المنبر فقال: «مَا بَالُ العَاملُ نَبْعَثُهُ فَيَجىءُ فَيَقُولُ: هَذَا لكمْ وَهَذَا أُهْدىَ لِى. أفلاَ جَلَسَ[٤] فى بَيْتِ أبيه وأُمِّه فَيَنْظُرَ أيُهْدَى إلَيْه أمْ لاَ؟ والَّذى نَفْسُ مُحمَّد بيَده لاَ يَأْتى أحَدٌ منْكُمْ منها بشَىءٍ إلا جاءَ به يومَ القيامَةِ علَى رَقَبَته إن كان بَعيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أوْ شَاةً تَيْعَرُ» ثم رفع يديه حتى رأينا عُفْرَةَ إبْطَيْه ثم قال: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ» ثلاثا.

وزاد هشَام بن عُرْوَة: فقال[٥] أبو حميد: بَصَرُ عينى، وسمع أذنى، وسلوا[٦] زيد بن ثابت.

أخرجاه من حديث سفيان بن عيينة[٧]. وعند البخارى: وسلوا زيد بن ثابت. ومن غير وجه عن الزهرى، ومن طريق[٨] عن هشام بن عروة، كلاهما عن عروة، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا إسماعيل بن عيَّاش، عن يحيى ابن سعيد، عن عروة بن الزبير، عن أبى حُمَيد أن رسول الله ﷺ قال: «هَدَايا العُمَّالِ غُلُولٌ».

وهذا الحديث من أفراد أحمد[٩]، وهو ضعيف الإسناد، وكأنه مختصر من الذى قبله، والله أعلم.

حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذى فى كتاب الأحكام، حدّثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو أسامة، عن داود بن يزيد الأوْدى، عن المغيرة بن شبْل، عن قيس بن أبى حازم، عن معاذ بن جبَل قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن، فلما سرت أرسل فى أثرى فَرُددتُ، فقال: «أتَدْرى لمَ بعَثْتُ إلَيْكَ؟ لاَ تُصيبَنَّ شيْئاً بغَيْرِ إذْنى فَإنَّهُ غُلُولٌ، ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لهذا دَعَوْتُكَ، فَامْضِ لعَمَلكَ».

هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفى الباب عن عَدىّ بن عَميرة، وبُرَيدة، والمستورد بن شداد، وأبى حُمَيد، وابن عمر[١٠].

---

(١) زيادة من جـ، ر، والطبرى وفى أ، و: «قسمان». (٢) فى جـ، ر: «أصحاب».
(٣) تفسير الطبرى (٧/٣٥٨).
(٤) فى أ: «أجلس». (٥) فى أ، و: «قال». (٦) فى أ: «وسألوا».
(٧) المسند (٥/٤٢٣) وصحيح البخارى برقم (٢٥٩٧، ٧١٧٤) وصحيح مسلم برقم (١٨٣٢).
(٨) فى أ: «طرق».
(٩) المسند (٥/٤٢٤).
(١٠) سنن الترمذى برقم (١٣٣٥).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عُلَيَّة، حدثنا أبو حيان يحيى بن سعيد التّيمىّ، عن أبى زُرْعَةَ بن عُمر بن جرير، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً، فذكر الغُلُول فعظَّمه وعظّم أمره، ثم قال: «لاَ أُلْفِيَنَّ أحدَكُم يَجيءُ يَوْمَ الْقِيامَة عَلَى رَقَبَته بَعيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، فيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أغثْنى. فأقولُ: لاَ أَمْلكُ لَكَ منَ الله شيئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لاَ أُلْفينَّ أحدَكُمْ يَجيءُ يوْمَ الْقيامَة عَلَى رَقبته فَرسٌ لَهَا حَمْحَمَةٌ، فيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أغثْنى. فَأقُولُ: لاَ أَملكُ لَكَ منَ الله شَيْئاً، قَدْ أبْلغْتُكَ. لاَ أُلْفينَّ أحدَكُم يَجيءُ يوْمَ الْقيامَة عَلَى رقَبَته رقاعٌ تَخفقُ، فيَقولُ: يَا رَسُولَ الله، أغثنى، فأقُولُ: لاَ أملكُ لَكَ منَ الله شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لاَ أُلْفينَّ أحدَكُمْ يَجيءُ يَوْمَ الْقيامَة عَلَى رَقَبَته صَامتٌ فيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله أغثْنى. فأقُولُ: لاَ أَملكُ لَكَ منَ الله شيْئاً، قَدْ بَلَّغْتُكَ».

أخرجاه من حديث أبى حَيَّان، به(١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن إسماعيل بن أبى خالد، حدثنى قيس، عن عدىّ بن عُميرَة الكندى قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأيُّها النَّاسُ، مَنْ عَملَ لَنَا [منْكُمْ](٢) عملا(٣)، فكتَمَنَا منْهُ(٤) مخيطا فمَا فَوْقَهُ فَهُوَ غُلٌّ يَأتى به يَوْمَ الْقيامَة». قال: فقال(٥) رجل من الأنصار أسود ـ قال مُجَالد: هو سَعيد(٦) بن عبادة ـ كأنى أنظر إليه، فقال: يا رسول الله، اقبل عنى عملك. قال: «ومَا(٧) ذاك؟» قال: سمعتك تقول كذا وكذا. قال: «وأنا أقولُ ذَاك(٨) الآن: مَنِ استَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجئْ بقَليله وكَثيرِه، فمَا أُوتىَ منْهُ أخَذَهُ. ومَا نُهىَ عَنْهُ انْتَهَى».

وكذا رواه مسلم، وأبو داود، من طرق عن إسماعيل بن أبى خالد، به(٩).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا أبو إسحاق الفَزَارى، عن ابن جُرَيج، حدثنى منبوذ، رَجل من آل أبى رافع، عن الفضل بن عُبَيد الله(١٠) بن أبى رافع، عن أبى رافع قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلّى العصر ربَّما ذهب إلى بنى عبد الأشهل فيتحدث معهم حتى ينحدر المغرب(١١)، قال أبو رافع: فبينا رسولُ الله ﷺ مسرعاً إلى المغرب إذ مر بالبقيع فقال: «أُفٍّ لَكَ. . أُفٍّ لَكَ» مرتين، فكبر(١٢) فى [ذرعى](١٣) وتأخرت وظننت أنه يريدنى، فقال: «مَالَكَ؟ امش» قال: قلتُ: أحدثت حدثا يا رسول الله؟ قال: «ومَا ذَاكَ؟» قلت: أفَّفْتَ بى(١٤). قال: «لاَ، ولَكنْ هَذَا قَبْرُ فُلاَنٍ، بَعَثْتُهُ(١٥) ساعياً عَلَى آلِ فُلاَنٍ، فغَلَّ نَمرَة فَدُرِعَ الآنَ مثْلَهُ منْ نَارٍ»(١٦).

حديث آخر: قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن سالم الكوفى المفلوج ـ وكان بمكة ـ

---

(١) المسند (٢/٤٢٦) وصحيح البخارى برقم (٣٠٧٣) وصحيح مسلم برقم (١٨٣١).
(٢) زيادة من جـ ، والمسند.
(٣) فى أ، و: «فى عمل».
(٤) فى جـ: «من عمل منكم لنا فى عمل كتمنا به».
(٥) فى جـ، ر: «فقام».
(٦) فى أ، و: «سعد».
(٧) فى جـ، أ: «فما».
(٨) فى أ: «ذلك».
(٩) المسند (٤/١٩٢) وصحيح مسلم برقم (١٨٣٣).
(١٠) فى جـ، ر، أ: «عبد الله».
(١١) فى جـ، ر، أ، و: «للمغرب».
(١٢) فى جـ، ر: «فليس».
(١٣) زيادة من جـ، ر، أ، و، والمسند.
(١٤) فى جـ، ر، أ، و: «لى».
(١٥) فى و: «نبعثه».
(١٦) المسند (٦/٣٩٢).

حدثنا عُبَيْدة بن الأسود، عن القاسم بن الوليد، عن أبى صادق، عن ربيعة بن ناجد، عن عبادة بن الصامت، أن النبى ﷺ كان يأخذ الوبرة من جنب البعير من المغنم، ثم يقول: «مَالِيَ فيه إلا مِثْلُ مَا لأحَدِكُمْ، إيَّاكُمْ والغُلُولَ، فَإنَّ الغُلُولَ خزى عَلَى صَاحبه يوْمَ القيامة، أدُّوا الخَيْطَ والمخْيَطَ ومَا فَوْقَ ذَلكَ، وجَاهدُوا فى سبيل الله القَرِيب[١] والبَعيدَ، فى الحَضَرِ والسَّفَرِ، فإنَّ الجهَادَ بَابٌ منْ أبْوَابِ الْجَنَّة، إنَّهُ لَيُنْجى اللهُ بِهِ مِنَ الْهَمِّ والْغَمِّ؛ وأقِيمُوا حُدُودَ الله فى القَرِيبِ والبَعِيد، ولاَ تَأْخُذُكُمْ فى الله لَوْمَةُ لائم».

وقد روى ابنُ ماجة بَعْضَه عن المفلوج، به[٢].

حديث آخر: عن عَمْرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جدِّه قال: قال رسول الله ﷺ: «رُدُّوا الْخِيَاط[٣] والْمخيَطَ، فَإنَّ الْغُلُولَ عَارٌ ونَارٌ وشَنَارٌ عَلَى أهْله يوْمَ الْقيامَة»[٤].

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا جرير، عن مُطَرِّف، عن أبى الجَهْم، عن أبى مسعود الأنصارى قال: بعثنى رسول الله ﷺ ساعياً ثم قال: «انْطَلقْ ـ أبا مَسْعُود ـ لاَ ألْفيَنَّكَ يَوْمَ الْقِيَامَة تَجِيءُ عَلَى ظَهْرِكَ بَعيرٌ منْ إبلِ الصَّدَقَة لَهُ رُغَاءٌ قَدْ غَلَلْتَهُ». قال: إذاً لا أنطلق. قال: «إذاً لاَ أُكْرِهُكَ». تفرد به أبو داود[٥].

حديث آخر: قال أبو بكر بن مَرْدُويَه: أنبأنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، أنبأنا محمد بن عثمان ابن أبى شيبة، أنبأنا عبد الحميد بن صالح أنبأنا أحمد بن أبان، عن علقمة بن مَرْثَد، عن ابن[٦] بُرَيدة، عن أبيه، عن النبى ﷺ قال: إنَّ الحَجَرَ لَيُرْمَى به [فى][٧] جهَنَّمَ فَيَهْوِى سَبْعِينَ خَرِيفاً مَا يَبْلُغُ قَعْرَهَا، ويؤْتَى بالْغُلُولِ فَيُقْذَفُ مَعَهُ»، ثم يُقَالُ لِمَنْ غَلَّ ائت بِهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿**وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾»[٨].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم[٩] بن القاسم، حدثنا عكْرِمة بن عمار، حدثنى سماك الحَنفى أبو زُميل، حدثنى عبد الله بن عباس، حدثنى عُمَر بن الخطاب قال: لما كان يومُ خَيْبَر أقبل نَفَر من أصحاب النبى ﷺ فقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد. حتى أتوا على رجل فقالوا: فلان شهيد؟ فقال رسول الله ﷺ: «كلاَّ، إنِّى رَأيْتُهُ فى النَّار فى بُرْدَة غَلَّهَا ـ أو عَبَاءَة». ثم قال رسول الله ﷺ: «يَا ابْنَ الْخَطَّاب اذْهَبْ فَنَاد فى النَّاسِ: إنَّه لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إلا الْمُؤْمنُونَ». قال: فخرجت فناديت: ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون.

---

(١) فى و: «بالقريب».

(٢) المسند(٥/ ٣٣٠) وهذا الحديث من زيادات عبد الله بن أحمد على مسند أبيه، وسنن ابن ماجة برقم (٢٥٤٠).

(٣) فى ر: «المخياط».

(٤) المسند (٢/ ١٨٤).

(٥) سنن أبى داود برقم (٢٩٤٧).

(٦) فى جـ، ر، أ: «أبى».

(٧) زيادة من جـ، ر، والمعجم الكبير.

(٨) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢/ ٢١) والبيهقى فى شعب الإيمان برقم (٤٣٣٤) من طريق محمد بن أبان عن علقمة بن مرثد به، وفى إسناده محمد بن أبان الجعفى ضعيف.

(٩) فى جـ: «هشام».

وكذا رواه مسلم، والترمذى من حديث عكرمة بن عمار به. وقال الترمذى: حسن صحيح[(١)].

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا سعيد بن يحيى الأموى، حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن سعيد، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ بعث سعد بن عُبَادة مُصَدقاً، فقالَ: «إيَّاكَ يَا سَعْدُ أنْ تَجِيء يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِبَعِيرٍ تَحْملُهُ لَهُ رُغَاءٌ » قَالَ: لا آخذه ولا أجىء به. فأعفاه.

ثم رواه من طريق عُبَيد الله[(٢)]، عن نافع، به، نحوه[(٣)].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا عبد العزيز بن محمد، حدثنا صالح بن محمد بن زائدة، عن سالم بن عبد الله، أنه كان مع مَسْلَمة بن عبد الملك فى أرض الروم، فوُجد في متاع رجل غُلُول. قال: فسأل سالمَ بْنَ عبد الله فقال: حدثنى أبى عبدُ الله، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ وَجَدْتُم فِى مَتَاعه غُلُولاً فأحْرِقُوهُ»: قال: وأحسبه قال: واضربوه قال: فأخرج متاعَه فى السوق، فَوَجَد فيه مصحفا، فَسَأل سالم: بِعهُ وتَصَدَّقْ بثمنه.

وهكذا رواه على بن المدينى، وأبو داود، والترمذى من حديث عبد العزيز بن محمد الأَنْدَرَاوَرْدى[(٤)] ـ زاد أبو داود: وأبو إسحاق الفزارى ـ كلاهما عن أبى واقد الليثى الصغير صالح بن محمد بن زائدة، به[(٥)].

وقد قال على بن المدينى، رحمه الله، والبخارى وغيرهما: هذا حديث منكر من رواية أبى واقد هذا. وقال الدارقطنى: الصحيح أنه من فتوى سالم فقط، وقد ذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث الإمامُ [أحمد][(٦)] بن حنبل، رحمه الله، ومن تابعه من أصحابه، وخالفه أبو حنيفة، ومالك، والشافعى، والجمهور، فقالوا: لا يحرق متاع الغالّ، بل يعزر تعزير مثله. وقال البخارى: وقد امتنع رسولُ الله ﷺ من الصلاة على الغال، ولم يحرق متاعه، والله أعلم.

طريق أخرى عن عمر: قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا عبد الله ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث: أن موسى بن جُبَير حدثه: أن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحباب الأنصارى حدثه: أن عبد الله بن أنيس حدثه: أنه تذاكر هو وعمر بن الخطاب يوما الصدقة فقال: ألم تسمع رسول الله ﷺ حين ذكر غلول الصدقة: «مَنْ غَلَّ مِنهَا بَعِيرًا أوْ شَاةً، فإنَّهُ يَحْملُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»؟ قال عبد الله بن أنيس: بلى.

ورواه ابن ماجة، عن عمرو بن سَوَّاد، عن عبد الله بن وهب، به[(٧)].

ورواه الأموى عن معاوية، عن أبى إسحاق، عن يونس بن عبيد، عن الحسن قال: عقوبة الغال

---

(١) المسند (١/ ٣٠) وصحيح مسلم برقم (١١٤) وسنن الترمذى برقم (١٥٧٤).

(٢) فى جـ، ر، أ: «عبد الله».

(٣) تفسير الطبرى (٧/ ٣٦١).

(٤) فى جـ، ر: «الدراوردى».

(٥) المسند (١/ ٢٢) وسنن أبى داود برقم (٢٧١٣، ٢٧١٤) وسنن الترمذى برقم (١٤٦١) وقال: «حديث غريب».

(٦) زيادة من جـ، ر، أ.

(٧) تفسير الطبرى (٧/ ٣٦٠) وسنن ابن ماجة برقم (١٨١٠) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٥٦): «هذا إسناد فيه مقال، موسى بن جبير قال فيه ابن حبان فى الثقات: يخطئ ويخالف، وقال الذهبى فى الكاشف: ثقة، ولم أر لغيرهما فيه كلاما، وعبد الله بن عبدالرحمن ذكره ابن حبان فى الثقات، وباقى رجال الإسناد ثقات».

أن يخرج رحله ويحرق على ما فيه.

ثم روى عن معاوية، عن أبى إسحاق، عن عثمان بن عطاء، عن أبيه، عن على [رضى الله عنه][(١)] قال: الغال يجمع رحله فيحرق ويجلد دون حد [المملوك، ويحرم نصيبه، وخالفه أبو حنيفة ومالك والشافعى والجمهور فقالوا: لايحرق متاع الغال، بل يعزر تعزير مثله، وقد قال البخارى: وقد امتنع رسول الله ﷺ من الصلاة على الغال ولم يحرق متاعه، والله أعلم][(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، أنبأنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن خُمَيْر[(٣)] بن مالك قال: أُمر بالمصاحف أن تُغَيَّرَ قال: فقال ابن مسعود: من استطاع منكم أن يَغُلَّ مصحفا[(٤)] فليَغُلُّه، فإنه من غَلَّ شيئا جاء به يوم القيامة، ثم قال[(٥)]: قرأت من فم رسول الله ﷺ سبعين سورة، أفأترك ما أخذتُ من فى رسول الله ﷺ؟[(٦)].

وروى وَكِيع فى تفسيره عن شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن إبراهيم، قال: لما أمر بتحريق[(٧)] المصاحف قال عبد الله: يأيها الناس، غُلُّوا المصاحف، فإنه من غَلّ يأت بما غَلَّ يوم القيامة، ونعم الغُل المصحف. يأتى به أحدكم يوم القيامة[(٨)].

وقال [أبو][(٩)] داود عن سَمُرَة بن جُنْدُب قال: كان رسول الله ﷺ إذا غنم غنيمة أمر بلالا فينادى فى الناس، فَيَجيئُون بغنائمهم يخمسه ويُقسمه، فجاء رجل يوما بعد النداء بزمام من شعر فقال: يا رسول الله، هذا كان مما[(١٠)] أصبنا[(١١)] من الغنيمة. فقال: «أَسَمِعْتَ بِلاَلاً يُنَادى ثلاثا؟»، قال: نعم. قال: «فَمَا مَنَعَكَ أنْ تَجِىء بِهِ؟» فاعتذر إليه، فقال: «كَلاَّ، أَنْتَ تَجِىءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَنْ أَقْبَلَهُ مِنْكَ»[(١٢)].

وقوله: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أى: لا يستوى من اتبع رضوان الله فيما شرعه، فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه وأُجير من وَبِيل عقابه، ومن استحق غضب الله وألزم به، فلا محيد له عنه، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير.

وهذه لها نظائر فى القرآن كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩] وكقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ][(١٣)] ﴾ [القصص: ٦١].

(١) زيادة من ر. (٢) زيادة من و.
(٣) فى هـ، جـ، ر: «جبير» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه من المسند (١/ ٤١٤). وانظر تعليق أحمد شاكر على الحديث رقم (٣٩٢٩).
(٤) فى جـ، ر، أ، و: «مصحفه». (٥) فى جـ ،ر: «قال: ثم قال».
(٦) المسند (١/ ٤١٤) ورواه ابن أبى داود فى المصاحف (ص٢١) من طريق إسرائيل عن أبى إسحاق به.
(٧) فى أ، و: «بتمزيق».
(٨) ورواه ابن أبى داود فى المصاحف (ص٢٢) من طريق وكيع به.
(٩) زيادة من جـ، ر. (١٠) فى جـ، ر، أ: «فيما».
(١١) فى ر، أ: «أصبناه».
(١٢) رواه أبو داود فى سننه برقم (٢٧١٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وقول الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ بأنه عن سمرة بن جندب وَهم. وقد ذكر هذا الحديث الحافظ المزى من مسند عبد الله بن عمرو فى كتابه القيم «تحفة الأشراف».
(١٣) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».

ثم قال: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾. قال الحسن البصرى ومحمد بن إسحاق: يعنى: أهل الخير وأهل الشر درجات، وقال أبو عبيدة والكسائى: منازل، يعنى: متفاوتون فى منازلهم ودرجاتهم فى الجنة ودركاتهم في النار، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ الآية [الأنعام: ١٣٢]؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أى: وسيُوفيهم إياها، لا يظلمهم خيرا ولا يزيدهم شرا، بل يجازى كلا بعمله.

وقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أى: من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ(١) لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١] أى: من جنسكم. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فهذا أبلغ فى الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته فى فَهْم الكلام عنه، ولهذا قال: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ يعنى: القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أى: يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتزكُوَ نفوسهم وتطهر من الدَّنَسِ والخَبَث الذى كانوا متلبسين به فى حال شركهم وجاهليتهم(٢) ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يعنى: القرآن والسنة ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ أى: من قبل هذا الرسول ﴿لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: لفى غَى وجهل ظاهر جلىّ بين لكُل أحد.

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)﴾.

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾: وهى ما أصيب منهم يوم أُحد من قتل السبعين منهم ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾. يعنى: يوم بَدْر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلا وأسروا سبعين أسيرا ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ أى: من أين جرى علينا هذا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

---

(١) فى جـ، ر، أ: «جعل».

(٢) فى أ: «مشركهم وجاهلهم».

قال ابن أبى حاتم: ذكره أبى، أنبأنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا قُرَاد أبو[١] نوح، حدثنا عكرمة ابن عمار، حدثنا سِمَاك الحنفى أبو زُميل، حدثنى ابن عباس، حدثنى عُمَر بن الخطاب قال: لما كان يومُ أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفدَاء، فقتل منهم سبعون وفرَّ أصحاب رسول الله ﷺ عنه، وكُسرت رَبَاعيتهُ وهُشمَت البَيْضَة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ بأخذكم الفداء.

وهكذا رواه الإمام أحمد[٢]، عن عبد الرحمن بن غزْوان، وهو قُرَاد أبو نوح، بإسناده ولكن بأطولِ منه ، وكذا قال الحسن البصرى.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا إسماعيل بن عُلَيَّة عن ابن عوْن، عن محمد عن عَبيدة (ح) قال سُنَيد ـ وهو حسين ـ: وحدثنى حجاج عن جَرير، عن محمد، عن عَبيدة، عن على، رضى الله عنه، قال: جاء جبريل، عليه السلام، إلى النبى ﷺ فقال: يا محمد، إن الله قد كَرِه ما صنع قومُك فى أخذهم الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين، إما أن يُقدموا فتضرب[٣] أعناقهم، وبين أن يأخذوا الفداء، على أن يُقْتَل منهم عدّتهم. قال: فدعا رسولُ الله ﷺ الناسَ فذكر ذلك لهم، فقالوا: يا رسول الله، عشائرنا وإخواننا، ألا نأخذ فداءهم فَنَتقوّى[٤] به على قتال عدونا، ويستشهد منا عدّتهم، فليس فى ذلك ما نكره؟ قال: فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا، عدة أسارى أهل بدر.

وهكذا رواه الترمذى والنسائى من حديث أبى داود الحَفْرى، عن يحيى بن زكريا بن أبى زائدة، عن سفيان بن سعيد، عن هشَام بن حَسّان، عن محمد بن سيرين، به. ثم قال الترمذى: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبى زائدة. وروى أبو أسامة عن هشام نحوه. وروى عن ابن سيرين عن عبيدة، عن النبى ﷺ مرسلا[٥].

وقال محمد بن إسحاق، وابن جريج، والربيع بن أنس، والسدىّ: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أى: بسبب عصيانكم رَسُول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم، يعنى بذلك الرماة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا مُعَقبَ لحكمه[٦].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: فراركم بين يدى عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين، كان بقضاء الله وقدره، وله الحكمة في ذلك. [وقوله][٧]: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي

---

(١) فى أ، و: «بن».
(٢) المسند (١/ ٣٠، ٣١).
(٣) فى جـ، أ، و: «فيضرب». (٤) فى ر: «فنقوى».
(٥) تفسير الطبرى (٧/ ٣٧٦) وسنن الترمذى برقم (١٥٦٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٦٦٢).
(٦) انظر: تفسير الطبرى (٧/ ٣٧٤).
(٧) زيادة من جـ، ر .

سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ يعنى[بذلك][١] أصحاب عبد الله بن أبى ابن سلول الذين رجعوا معه فى[٢] أثناء الطريق، فاتبعهم من اتبعهم من المؤمنين يحرضونهم على الإياب والقتال والمساعدة؛ ولهذا قال: ﴿أَوِ ادْفَعُوا﴾. قال ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، والضحاك، وأبو صالح، والحسن، والسُّدِّى: يعنى[٣] كَثروا سواد المسلمين. وقال الحسن بن صالح: ادفعوا بالدعاء. وقال غيره: رابطوا. فتعلَّلوا قائلين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ قال مجاهد: يعنون لو نعلم أنكم تلقون حربا لجئناكم، ولكن لا تلقون قتالا.

قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى، ومحمد[٤] بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، وغيرهم من علمائنا، كُلهم قد حدث قال: خَرَجَ رسول الله ﷺ ـ يعنى حين خرج إلى أحد ـ فى ألف رجل من أصحابه، حتى إذا كان بالشَّوط ـ بين أحد والمدينة ـ انحاز[٥] عنه عبد الله بن أبى بن سلول بثلث الناس، وقال[٦]: أطاعهم فخرج وعصانى، ووالله ما ندرى علام نقتُل أنفسنا هاهنا أيها الناس، فرجع بمن[٧] اتبعه من الناس من قومه من أهل النفاق وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عَمرو بن حَرَام أخو بنى سَلَمة، يقول: يا قوم، أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكنا لا نرى أن يكون قتال. فلما استعصوا عليه وأَبَوْا إلا الانصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيُغْنى[٨] الله عنكم. ومضى رسول الله ﷺ[٩].

قال الله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾: استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال، فيكون فى حال أقرب إلى الكفر، وفى حال أقرب [إلى][١٠] الإيمان؛ لقوله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾.

ثم قال: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعنى: أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته، ومنه قولهم هذا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ فإنهم يتحققون أن جندا من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سراتهم يوم بدر، وهم أضعاف المسلمين، أنه كائن بينهم قتال[١١] لا محالة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾. وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أى: لو سمعوا من مشورتنا عليهم فى القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل. قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: إن كان القُعود يَسْلَم[١٢] به الشخص من القتل والموت، فينبغى، أنكم لا تموتون، والموت لابد آت إليكم ولو كنتم فى

(١) زيادة من جـ، ر.
(٢) فى أ، و: «من».
(٣) فى أ: «بعد».
(٤) فى ر: «وعن محمد».
(٥) فى جـ، ر، أ، و: «انخذل».
(٦) فى أ، و: «فقال».
(٧) فى ر: «من».
(٨) فى أ: «يستغنى».
(٩) سيرة ابن إسحاق (ظاهرية ق١٦٦ـ ١٦٨) ورواه الطبرى فى تفسيره (٧/ ٣٧٨) من طريق ابن إسحاق به.
(١٠) زيادة من جـ، ر.
(١١) فى ر: «قتالاً».
(١٢) فى ر: «القول يدفع».

بروج مُشيّدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.

قال مجاهد، عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية فى عبد الله بن أبى ابن سلول.

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾.

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا فى هذه الدار فإن أرواحهم حية مرزوقة فى دار القرار.

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا عُمَر بن يونس، عن عكْرِمة، حدثنا ابن إسحاق ابن أبى طلحة، حدثنى أنس بن مالك فى أصحاب النبى ﷺ الذين[1] أرسلَهم نبى الله ﷺ إلى أهل بئر معونة قال: لا أدرى أربعين أو سبعين. وعلى ذلك الماء عامر بن الطُّفَيل الجعفرى، فخرج أولئك النَّفَر من أصحاب رسول الله ﷺ، حتى أتوا[2] غارا مُشْرفا على الماء فقعدوا[3] فيه، ثم قال بعضهم لبعض: أيكم يُبَلِّغ رسَالةَ رسول الله ﷺ أهلَ هذا الماء؟ فقال ـ أرَاه ابن ملْحان الأنصارى ـ: أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ. فخَرَج حتى أتى حيا[4] [منهم][5] فاختبأ أمام البيوت، ثم قال: يا أهل بئر مَعُونة، إنى رسولُ رسول الله إليكم، إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فآمنوا بالله ورسوله. فخرج إليه رَجُل من كسر البيت برُمْح فضرب به فى جنبه حتى خرج من الشق الآخر. فقال: الله أكبر، فُزْتُ ورب الكعبة. فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه فى الغار فقتلهم أجمعين عامرُ بن الطفيل. وقال إسحاق: حدثنى أنس بن مالك: أن الله [تعالى][6] أنزل فيهم قرآنا: بَلِّغُوا عنا قَوْمَنا أنَّا قد لقينا ربَّنا فَرَضى عنَا ورَضينا عنْه ثم نسخت فرفعت بعد ما قرأناه زمَنا[7] وأنزل الله: **﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾**[8].

وقد قال الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى فى صحيحه: حدثنا محمد بن عبد الله بن نُمَير، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمَشُ، عن عبد الله بن مُرَّةَ، عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: **﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾** فقال: أما إنَّا قد سألنا عن ذلك فقال: «أرْوَاحُهُم فِى جَوْف طَيْر خُضْرٍ لها قَنَاديلُ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنْ الْجَنَّةِ[9]

---

(١) فى أ: «الذى». (٢) فى ر: «حتى إذا أتوا». (٣) فى جـ، ر: «قعدوا».
(٤) فى هـ، جـ، ر، أ، و: «حول»، والمثبت من الطبرى. (٥) زيادة من جـ، ر. (٦) زيادة من أ.
(٧) فى أ، و: «زمانا».
(٨) تفسير الطبرى (٧/ ٣٩٢، ٣٩٣) ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٨٠١) من طريق همام عن إسحاق بن أبى طلحة به.
(٩) فى أ. : «أهل الجنة».

حَيْثُ شاءَتْ، ثُمَّ تأوى إلَى تلْكَ الْقَنَاديلِ، فاطَّلَعَ إلَيْهِم ربُّهُمْ اطِّلاعَة فَقَالَ: هَلْ تَشْتهُونَ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: أىَّ شَىْء نَشْتَهِى ونَحْنُ نَسرحُ منَ الْجَنَّة حَيْثُ شئْنَا؟ فَفَعَلَ ذَلكَ بهِمْ ثَلاثَ مرَّات، فَلَمَّا رأوا أنَّهُم لَن[1] يُتركُوا منْ أنْ يُسألُوا قَالُوا: يَاربِّ، نُرِيدُ أنْ تَرُدَّ أرْوَاحَنَا فِى أجْسَادنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِى سَبِيلك مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رأى أنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا»[2].

وقد روى نحوه عن أنس وأبى سعيد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حمَّاد، حدثنا ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «مَا منْ نَفْسٍ تَمُوتُ، لَهَا عنْدَ الله خَيْرٌ، يَسرُّهَا أنْ تَرْجعَ إلَى الدُّنْيَا إلا الشَّهيدَ فَإنَّهُ يَسرُّهُ أنْ يَرْجع إلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى لمَا يَرَى منْ فَضْلِ الشَّهَادَة».

انفرد[3] به مسلم من طريق حماد[4] [5].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا على بن عبد الله المدينى، حدثنا سفيان، عَن[6] محمد بن على بن ربيعة السلمى، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر قال: قال لى رسولُ الله ﷺ: «أما علَمْت[7] أن الله أحْيَا أبَاكَ فَقَالَ لَهُ: تَمنَّ عَلَىَّ، فَقَالَ لَهُ: أرَدُّ إلَى الدُّنْيَا، فَأُقْتَلُ مَرَّةً أخْرَى، فَقَالَ: إنِّى قَضَيْتُ الْحُكمَ أنَّهُمْ إلَيْهَا لاَ يَرْجعُونَ».

انفرد[8] به أحمد من هذا الوجه[9]. وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما أن أبا جابر ـ وهو عبد الله بن عَمْرو بن حَرَام الأنصارى رضى الله عنه ـ قتل يوم أحد شهيدا. قال البخارى: وقال أبو الوليد، عن شعبة عن ابن المُنْكَدر قال: سمعت جابرا قال: لما قُتل أبى جعلتُ أبكى وأكشفُ الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهَوننى[10]، والنبى ﷺ لم ينْه، وقال النبى ﷺ: «لاَ تَبْكه[11] ـ أو: مَا تَبْكيه[12] ـ مَا زالَت الْملائكَةُ تُظلُّهُ بأجْنحتها حَتَّى رُفعَ». وقد أسنده هو ومسلم والنسائى من طريق آخر[13] عن شعبةَ عن محمد بن المنكدر عن جابر قال: لما قتلَ أبى يوم أحد، جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكى... وذكر تمامه بنحوه[14].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن ابن إسحاق، حدثنا إسماعيل ابن أمية بن عَمْرو بن سعيد، عن أبى الزبير المكى، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا أُصيب[15] إخْوَانُكُمْ بأُحُد جَعَلَ اللهُ أرْوَاحَهُمْ فِى أجْوَاف طَيْرٍ خُضْرٍ، تَردُ أنهارَ الْجَنَّة، وَتَأكُلُ منْ ثمَارهَا وتَأوى إلَى قَنَاديلَ منْ ذَهَبٍ فِى ظلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طيبَ مَشْرَبهِم

---

(١) فى أ: «لم».
(٢) صحيح مسلم برقم (١٨٨٧).
(٣) فى و: «تفرد».
(٤) فى أ: «حماد به».
(٥) المسند (٣/١٢٦) وصحيح مسلم برقم (١٨٧٧) لكن من طريق حميد وقتادة عن أنس به.
(٦) فى جـ، ر، أ، و: «حدثنا».
(٧) فى جـ، ر، أ، و: «أعلمت».
(٨) فى أ، و: «تفرد».
(٩) المسند (٣/٣٦١).
(١٠) فى و: «ينهوننى».
(١١) فى أ، و: «تبكه» وهو الصحيح.
(١٢) فى أ، و: «ما يبكيه».
(١٣) فى أ، و: «من طرق أخر».
(١٤) صحيح البخارى برقم (٤٠٨٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤٧١) وسنن النسائى (٤/١٣).
(١٥) فى أ: «أصيبت».

وَمَأْكَلِهِمْ، وَحُسْنَ منقلبهم[١] قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ مَا صَنَعَ اللهُ لَنا، لِئَلا يَزْهَدُوا فِى الْجِهَادِ، وَلاَ يَنْكُلُوا عَنِ الْحَرْبِ» فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلَاءِ الآيَاتِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ . . وما بعدها».

هكذا رواه [الإمام][٢] أحمد، وكذا رواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وَهْب، عن إسماعيل بن عَيَّاش[٣] عن محمد بن إسحاق به[٤]. ورواه أبو داود والحاكم فى مستدركه من حديث عبد الله بن إدريس عن محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن أبى الزبير، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس فذكره، وهذا أثبت[٥].

وكذا رواه سفيان الثورى، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جُبَير عن ابن عباس.

وروى الحاكم فى مستدركه من حديث أبى إسحاق الفزارى، عن سفيان[٦]، عن إسماعيل[٧] بن أبى خالد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية فى حمزة وأصحابه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه[٨].

وكذا قال قتادة، والربيع، والضحاك: إنها نزلت فى قتلى أحد.

حديث آخر: قال أبو بكر بن مَرْدُوَيه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا هارون بن سليمان[٩]، أنبأنا على بن عبد الله المدينى، أنبأنا موسى بن إبراهيم بن كثير بن بشير بن الفاكه الأنصارى، سمعت طلحة بن خِرَاش بن عبد الرحمن بن خراش بن الصمة الأنصارى، قال: سمعت جابر بن عبد الله قال: نظر إلَيّ رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «يا جابر، مَالى أراكَ مُهْتَماً؟» قال: قلت: يا رسول الله، استشهد أبى وترك [١٠] دينا وعيالا. قال: فقال: «ألاَ أُخْبِرُكَ؟ مَا كَلَّمَ اللهُ أحداً قَطُّ إلا مِنْ وراء حجَاب، وإنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كفاحا ـ قال علي: الكفاح: المواجهة ـ فَقَالَ: سَلْنى أُعْطكَ. قَالَ: أَسْأَلُكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلَ فيكَ ثَانِيَةً فَقَالَ الرَّبُّ عَزَّ وجَلَّ: إنَّه سَبَقَ مِنِّى الْقَولُ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لاَ يُرْجَعُونَ. قَالَ: أىْ رَبِّ: فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِى. فَأَنْزَلَ اللهُ [عزَّ وجَلَّ][١١]: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ الآية[١٢].

ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن سليمان بن سبيط الأنصارى، عن أبيه، عن جابر، به نحوه. وكذا رواه البيهقى فى «دلائل النبوة» من طريق على بن المدينى، به[١٣].

---

(١) فى أ: «مقيلهم». (٢) زيادة من أ. (٣) فى أ: «عباس».
(٤) المسند (١/ ٢٦٥) وتفسير الطبرى (٧/ ٣٨٥).
(٥) سنن أبى داود برقم (٢٥٢٠) والمستدرك (٢/ ٢٩٧) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبى.
(٦) فى ر: «أبى سفيان» وهو خطأ. انظر: المستدرك (٢/ ٣٨٧). (٧) فى و: «أبى إسماعيل» وهو خطأ.
(٨) المستدرك (٢/ ٣٨٧).
(٩) فى و: «سليم». (١٠) فى أ: «وترك عليه». (١١) زيادة من جـ، أ.
(١٢) فى أ، و: «حتى أنفذ الآية».
(١٣) دلائل النبوة للبيهقى (٣/ ٢٩٩).

وقد رواه البيهقى أيضا من حديث أبى عبادة الأنصارى، وهو عيسى بن عبد الرحمن، إن شاء الله، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة [رضى الله عنها](١) قالت: قال النبى ﷺ لجابر: «يَا جَابِرُ، أَلاَ أُبَشِّرُكَ؟ قال: بلى. بشّرك الله بالخير. قال(٢): «شَعَرْتُ أَنَّ اللهَ أَحْيَا أَبَاكَ فَقَالَ: تَمَنَّ عَلَىَّ عَبْدِى مَا شِئْتَ أُعْطِكَه. قَالَ: يَارَبِّ، مَا عَبَدْتُكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ. أَتمنَّى عَلَيْكَ أَنْ تردَّنى إِلَى الدُّنْيَا فَأُقَاتِل(٣) مَعَ نَبِيِّكَ، وَأُقْتَلَ فِيكَ مَرَّةً أُخْرَى. قَالَ: إِنَّهُ سَلَفَ مِنِّى أَنَّهُ إِلَيْهَا [لا](٤) يَرْجِعُ»(٥).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن ابن إسحاق، حدثنا الحارث بن فُضَيْل الأنصارى، عن محمود بن لبيد، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقِ نهرٍ بِبَابِ الْجَنَّةِ، فى قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهمْ مِنَ الجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيا».

تفرد(٦) به أحمد، وقد رواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب حدثنا عبد الرحيم بن سليمان، وعَبَدَة(٧)، عن محمد بن إسحاق، به. وهو إسناد جيد(٨).

وكان الشهداء أقسام: منهم من تسرح(٩) أرواحهم فى الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر فيجتمعون هنالك، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح، والله أعلم.

وقد روينا فى مسند الإمام أحمد حديثا فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون فى الجنة تسرح أيضا فيها، وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعده الله لها من الكرامة، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة؛ فإن الإمام أحمد، رحمه الله، رواه عن [الإمام](١٠) محمد بن إدريس الشافعى، رحمه الله، عن مالك بن أنس الأصبحى، رحمه الله، عن الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نَسَمَةُ الْمُؤمِنِ طَائِرٌ يَعْلق(١١) فى شَجَرِ الْجَنَّةِ، حتى يُرْجِعَهُ اللهُ إِلَى جَسَدِه يَوْمَ يَبْعَثُهُ»(١٢).

قوله: «يعلق»(١٣)، أى: يأكل(١٤).

وفى هذا الحديث: «إِنَّ روحَ الْمُؤمِنِ تَكُونُ عَلَى شَكْلِ طَائِرٍ فِى الْجَنَّةِ».

وأما أرواح الشهداء، فكما تقدم فى حواصل طير خضر، فهى كالكواكب(١٥) بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين فإنها تطير بأنفسها، فنسأل الله الكريم المنان أن يثبتنا(١٦) على الإيمان.

---

(١) زيادة من ر. (٢) فى جـ، أ: «قال: قال». (٣) فى جـ، ر، أ، و: «فاقتل».
(٤) زيادة من جـ، ر، ودلائل النبوة.
(٥) دلائل النبوة للبيهقى (٣/ ٢٩٨).
(٦) فى أ: «انفرد». (٧) فى جـ، ر: «عبيدة».
(٨) المسند (١/ ٢٦٦) وتفسير الطبرى (٧/ ٣٨٧).
(٩) فى جـ: «يسرح». (١٠) زيادة من أ. (١١) فى جـ، ر: «تعلق».
(١٢) المسند (٣/ ٤٥٥).
(١٣) فى جـ، ر: «تعلق»، وفى أ: «يتعلق». (١٤) فى جـ: «تأكل». (١٥) فى جـ، ر: «كالراكب».
(١٦) فى و: «يمتنا».

وقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ [مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ](١)﴾. أى: الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله أحياء عند الله، وهم فَرِحون(٢) مما هم فيه من النعمة والغبطة، ومستبشرون(٣) بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم فى سبيل الله أنهم يقْدمون عليهم، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم.

قال محمد بن إسحاق ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ أى: ويُسَرون بلحوق من خلفهم(٤)من إخوانهم على ما مَضَوْا عليه من جهادهم؛ ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذى أعطاهم.

[و](٥) قال السدى: يُؤتى الشهيد بكتاب فيه: «يَقْدَمُ عَلَيْكَ فُلَانٌ يَوْمَ كَذَا وكَذَا، ويَقْدَمُ عَلَيْكَ فُلَانٌ يَوْمَ كَذَا وكَذَا، فَيُسَرُّ بِذَلِكَ كَمَا يُسَرُّ أَهْلُ الدُّنْيَا بِقُدُومِ غُيَّابِهِمْ»(٦).

وقال سعيد بن جبير: لَمّا دخلوا الجنة ورأوْا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا: ياليت إخواننا الذين فى الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة، فإذا شهدوا للقتال(٧) باشروها بأنفسهم، حتى ويُستشهدوا فيصيبوا ما أصبنا من الخير، فأُخبِر رسولُ الله ﷺ بأمرهم وما هم فيه من الكرامة، وأخبرهم ـ أى ربهم ـ [أنى](٨) قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم، وما أنتم فيه، فاستَبْشروا بذلك، فذلك قوله: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية.

وقد ثبت فى الصحيحين عن أنس،رضى الله عنه، فى قصة أصحاب بئر مَعُونة السبعين من الأنصار،الذين قتلوا فى غداة واحدة،وقَنَت رسول الله ﷺ على الذين قتلوهم،يدعو عليهم ويَلْعَنهم، قال أنس: ونزل فيه قرآن قرأناه حتى رفع:«أنْ بَلغُوا عنّا قَوْمَنا أنّا لقينا ربَّنا فَرَضِىَ عنّا وأرْضَانا»(٩).

ثم قال: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: قال محمد بن إسحاق: استبشروا وسُرّوا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم، سواء الشهداء وغيرهم، وقَلّما ذكر الله فضلا ذكر(١٠) به الأنبياء وثوابا أعطاهم إلا ذكر ما أعطى الله المؤمنين من بعدهم.

وقوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾: هذا كان يوم «حمراء الأسد»، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كرُّوا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا(١١) فى سيرهم تَنَدّمُوا لم لا تَمّموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذّهاب وراءهم ليُرْعِبَهم ويريهم أن بهم قوّةً وجلدا، ولم يأذنْ لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أحد، سوى جابر بن عبد الله رضى الله عنه ـ لما سنذكره ـ فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله [عز وجل](١٢) ولرسوله ﷺ.

---

(١) زيادة فى جـ، ر، أ، و، وفى هـ:«إلى آخر الآية».
(٢) فى أ:«فرحين» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.
(٣) فى جـ، ر، أ:«ويستبشرون».
(٤) فى جـ، ر، أ، و:«الحقهم».
(٥) زيادة من جـ، ر، أ، و.
(٦) فى جـ، ر، أ، و:«غايبهم».
(٧) فى أ، و:«القتال».
(٨) زيادة من جـ، ر.
(٩) صحيح البخارى برقم (٢٨٠١، ٤٠٩٥) وصحيح مسلم برقم (٦٧٧).
(١٠) فى جـ، ر:«ذكرته».
(١١) فى أ:«استقروا».
(١٢) زيادة من و.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن عكرمة قال: لما رجع المشركون عن أحد قالوا: لا محمدا قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، بئسما[(١)] صنعتم، ارجعوا. فسمع رسول الله ﷺ، فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغ حَمْراء الأسد ـ أو: بئر أبى عيينة[(٢)] ـ الشك من سفيان ـ فقال المشركون: نرجع من قابلٍ. فرجع رسول الله ﷺ، فكانت تعد[(٣)] غزوة، فأنزل[(٤)] الله عز وجل: ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾.

ورواه ابن مَرْدويه من حديث محمد بن منصور، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس فذكره[(٥)].

وقال محمد بن إسحاق: كان يوم أحد يوم السبت للنصف من شوال، فلما كان الغد من يوم الأحد لستّ عشرةَ ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رسول الله ﷺ فى الناس بطلب العدو، وأذن مؤذنه ألا يخرج[(٦)] معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس. فكلمه جابر بن عبد الله بن عَمْرو بن حرام فقال: يا رسول الله، إن أبى كان خَلّفنى على أخوات لى سَبْع وقال: يا بُنَىّ، إنه لا ينبغى لى ولا لك أن نترك هؤلاء النّسوةَ لا رجلَ فيهن، ولست بالذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسى، فتخلّف على أخواتك، فتخلفت عليهن، فأذن له رسول الله ﷺ، فخرج معه. وإنما خرج رسول الله مُرْهبا للعدو، وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم ليظنوا به قوةً، وأن الذى أصابهم لم يُوهِنْهم عن عدوهم.

قال ابن إسحاق: حدثنى[(٧)] عبد الله بن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبى السائب مولى عائشة بنت عثمان؛ أن رجلا من أصحاب رَسُول الله ﷺ من بنى عبد الأشهل، كان شَهد أحدا قال: شهدتُ أحدا مع رسول الله ﷺ أنا وأخى[(٨)]، فرجعنا جريحين، فلما أَذّن مُؤَذّن رسول الله ﷺ بالخروج فى طلب العدوّ، قلتُ لأخى ـ أو قال[(٩)] لى ـ: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابّة نركبها، وما منّا إلا جريح ثَقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جراحا[(١٠)] منه، فكان إذا غُلب حملته عُقْبة ومشى عُقْبة حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون[(١١)].

وقال البخارى: حدثنا محمد بن سلام، حدثنا أبو معاوية، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة رضى الله عنها: ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ [مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ]**[(١٢)]﴾، قالت[(١٣)] لعروة: يا ابن أختى، كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر، رضى الله عنهما، لما أصاب نبى الله ﷺ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا فقال: «مَنْ يَرْجِعُ فِى إِثْرِهِمْ؟» فانتدبَ منهم سبعون رجلا، فيهم أبو بكر والزبير ، رضى الله عنهما.

---

(١) فى جـ: «وبئس». (٢) فى جـ، أ، و: «عتبة». (٣) فى و: «بعد».
(٤) فى جـ، ر، أ، و: «وأنزل».
(٥) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠٨٣) من طريق سفيان عن عمرو به.
(٦) فى جـ، ر، أ، و: «يخرجن». (٧) فى ر، أ، و: «فحدثنى». (٨) فى جـ، ر، أ، و: «أخ لى».
(٩) فى ر: «وقال». (١٠) فى جـ، ر، أ: «جرحا».
(١١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٠١) وتفسير الطبرى(٧/ ٣٩٩، ٤٠٠) كلاهما من طريق ابن إسحاق به.
(١٢) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية». (١٣) فى أ: «قال».

هكذا رواه البخارى منفردا به، بهذا السياق. وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه عن الأصَم، عن عباس الدورى، عن أبى النضر، عن أبى سعيد المؤدب، عن هشام بن عروة، به، ثم قال: صحيح ولم يخرجاه. كذا قال[١].

ورواه أيضا من حديث إسماعيل بن أبى خالد، عن البَهِىّ، عن عروة قال: قالت لى عائشة: يا بُنى، إن أباك من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه[٢].

وروى ابن ماجة، عن هشام بن عمّار، وهُدْبَة بن عبد الوهاب عن سفيان بن عيينة، عن هشام ابن عروة به وهكذا رواه سعيد بن منصور وأبو بكر الحميدى فى مسنده عن سفيان، به[٣].

وقال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا عبد الله بن جعفر من أصل كتابه، أنبأنا سَمويه، أنبأنا عبد الله ابن الزبير، أنبأنا سفيان، أنبأنا هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال لى رسول الله ﷺ: «إنْ كَانَ أبَواك لَمن[٤] الَّذينَ اسْتَجَابُوا لله والرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أصَابَهُمُ القَرْحُ: أبو بكر والزبير، رضى الله عنهما»[٥].

ورفْعُ هذا الحديث خطأ محض من جهة إسناده، لمخالفته رواية[٦] الثقات من وقْفة على عائشة كما قدمناه، ومن جهة معناه، فإن الزبير ليس هو من آباء عائشة، وإنما قالت عائشة لعروة بن الزبير ذلك لأنه ابن أختها أسماء بنت أبى بكر الصديق، رضى الله عنهم.

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن سعد، حدثنى أبى، [حدثنى][٧] عَمى، حدثنى أبى، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن الله قَذَف فى قَلْب أبى سفيان الرُّعْب يوم أحد بعد ما[٨] كان منه ما كان، فرجع إلى مكة، فقال النبى ﷺ: «إنَّ أبَا سُفْيَانَ قَدْ أصَابَ مِنْكُمْ طَرَفاً، وقد رَجَع، وقَذَفَ اللهُ فِى قَلْبِه الرُّعْبَ». وكانت وقعةُ أحد فى شوال، وكان التجار يَقْدَمون المدينة فى ذى القعدة، فينزلون ببدر الصغرى فى كل سنة مَرة، وإنهم قدموا بعد وقعة أحد[٩] وكان أصاب المؤمنين القرح، واشتكوا ذلك إلى النبى ﷺ، واشتد عليهم الذى أصابهم. وإن رسول الله ﷺ نَدَب الناس لينطلقوا معه، ويتبعوا ما كانوا مُتَّبعين، وقال: «إنَّمَا يَرْتَحِلُونَ الآنَ فَيَأتُونَ الحَجَّ ولا يَقْدرُونَ عَلَى مِثْلِهَا حَتَّى عَام مُقْبِلٍ». فجاء الشيطان فخوف أولياءه فقال: إن الناس قد جمعوا لكم فأبى عليه الناس أن يتبعوه، فقال: «إنِّى ذَاهِبٌ وإنْ لمْ يَتْبَعْنِى أحَدٌ». لأحضض الناس، فانتدب معه أبو بكر الصديق، وعمر،

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٠٧٧) والمستدرك (٢/ ٢٩٨) وفيه أن المخاطب بقول عائشة عبد الله بن الزبير وليس عروة، كما فى رواية البخارى.

(٢) المستدرك (٣/ ٣٦٣).

(٣) سنن ابن ماجة برقم (١٢٤).

(٤) فى جـ، أ: «من».

(٥) هذا الحديث لا يصح مرفوعًا فهو مضطرب. وقد بين الحافظ ابن كثير وجه اضطرابه، وقد روى ابن جرير فى تفسيره (٧/ ٤٠٢) أن عائشة قالت ذلك لعبد الله بن الزبير بنفس هذا اللفظ، فقد يكون الوهم من أحد الرواة أو من كتابه.

(٦) فى ر: «رواته». (٧) زيادة من جـ، والطبري. (٨) فى أ، و: «الذى».

(٩) فى أ: «أحد فى شوال».

وعثمان، وعلى، والزبير، وسعد، وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة ابن اليمان، وأبو عبيدة بن الجراح فى سبعين رجلا، فساروا فى طلب أبى سفيان، فطلبوا حتى بلغوا الصفراء، فأنزل الله [عز وجل](١): ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ [الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ](٢)﴾(٣).

ثم قال ابن إسحاق: فخرج رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد، وهى من المدينة على ثمانية أميال.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكْتوم فأقام بها الإثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة. وقد مَر به ـ كما حدثنى عبد الله بن أبى بكر ـ مَعْبد بن أبى معبد الخزاعى، وكانت خُزاعة ـ مسلمهم ومشركهم ـ عيبة نُصح لرسول الله ﷺ بتُهامة، صَفْقَتُهم معه، لا يخفون عنه شيئا كان بها، ومعبد يومئذ مشرك فقال: يا محمد، أما والله لقد عَزّ علينا ما أصابك فى أصحابك، ولوَدِدْنا أن الله عافاك فيهم. ثم خرج ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد، حتى لقى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالرَّوحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وقالوا: أصبنا حَد أصحابه وقادتهم وأشرافهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم. لنُكرّنّ على بقيتهم فَلَنَفْرُغَنّ منهم. فلما رأى أبو سفيان معبدا قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جَمْع لم أر مثلهم قط، يتحرقون عليكم تحرقا، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحَنَق عليكم شىء لم أر مثله قط. قال: ويلك. ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل(٤) حتى نرى نواصى الخيل ـ قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم. قال: فإنى أنهاك عن ذلك. ووالله لقد حملنى ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتا من شعر، قال: وما قلت؟ قال: قلت:

كادَتْ تُهدُّ منَ الأصوات رَاحلتى ... إذْ سَالَت الأرضُ بالجُرْدِ الأبابيل
تَرْدى بأسْدٍ كرام لا تَنَابلة ... عنْد اللّقاء ولا ميل مَعَازيل(٥)
فَظَلْتُ عَدْوا أظُنُّ الأرض مائلةً ... لَمَّا سَمَوا برئيس غير مَخْذول
فقلتُ: ويل ابن حَرْب من لقائكمُ ... إذا تَغَطْمَطَت البطحاء بالجيل(٦)
إنى نذير لأهل البَسْل ضَاحيَةً ... لكل ذى إرْبَة منهم ومعقول
من جَيْش أحمدَ لا وَخْشٍ تَنَابلة ... وليس يُوصف ما أنذرت بالقيل

قال: فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه.

ومَر به ركب من بنى عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريدُ المدينة. قال: ولم؟ قالوا:

---

(١) زيادة من أ. (٢) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».
(٣) تفسير الطبرى (٧/ ٤٠٢).
(٤) فى أ: «ترحل». (٥) فى ر: «مغازيل». (٦) فى و: «بالخيل».

بعكاظ إذ وَافَيْتُمونا[١]. قالوا: نعم. قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا[٢] المسير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب[٣] برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذى قال أبوسفيان وأصحابه، فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل[٤].

وذكر ابن هشام عن أبى عُبيدة قال: قال رسول الله ﷺ حين بلغه رجوعهم: «وَالَّذى نَفْسى بِيَدِهِ لَقَدْ سُوِّمَتْ لَهُمْ حِجَارَةٌ لَوْ صُبِّحُوا بَهَا لَكَانُوا كَأَمْسِ الذَّاهِبِ»[٥].

وقال الحسن البصرى [فى قوله][٦]: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾: إن أبا سفيان وأصحابه أصابوا من المسلمين ما أصابوا ورجعوا، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ رَجَعَ وَقَدْ قذفَ الله فِى قَلْبِهِ [الرُّعْبَ][٧]، فمن يَنْتَدِبُ فِى طَلَبِهِ؟» فقام النبى ﷺ، وأبو بكر وعُمَر، وعثمان، وعلى، وناس من أصحاب النبى[٨] ﷺ، فاتبعوهم، فبلغ أبا سفيان أن النبى ﷺ يطلبه، فلقى عيرا من التجار فقال: ردُّوا محمدا ولكم من الجُعْل كذا وكذا، وأخْبروهم أنى قد جمعت لهم جموعا، وأننى راجع إليهم. فجاء التجار فأخبروا بذلك رسول الله ﷺ، فقال النبى ﷺ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ فأنزل الله هذه الآية.

وهكذا قال عكْرِمة، وقتادة وغير واحد: إن هذا السياق نزل فى شان [غزوة][٩] «حَمْراء الأسد»، وقيل: نزلت فى بَدْرِ الموعد، والصحيح الأول.

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا [وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ][١٠]﴾أى: الذين توعدهم الناس [بالجموع][١١] وخوفوهم بكثرة الأعداء، فما اكترثوا لذلك، بل توكلوا على الله واستعانوا به ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

قال البخارى: حدثنا أحمد بن يونس، أراه قال: حدثنا أبو بكر، عن أبى حَصين، عن أبى الضُّحَى، عن ابن عباس: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلْقى فى النار وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

وقد رواه النسائى، عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم وهارون بن عبد الله، كلاهما عن يحيى ابن أبى بُكَير، عن أبى بكر ـ وهو ابن عياش ـ به. والعجب أن الحاكم [أبا عبد الله][١٢] رواه من حديث أحمد بن يونس، به، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه[١٣].

ثم[١٤] رواه البخارى عن أبى غَسَّان مـالك بن إسماعيل، عن إسرائيل، عن أبى حصين، عن

---

(١) فى أ، و: «إذا وافيتموها». (٢) فى أ، و: «جمعنا» (٣) فى و: «الراكب».
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠٢).
(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠٤).
(٦) زيادة من جـ. (٧) زيادة من جـ، أ، و. (٨) فى جـ، أ، و: «رسول الله».
(٩) زيادة من جـ، أ، و . (١٠) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية» .
(١١) زيادة من جـ، ر. (١٢) زيادة من و.
(١٣) صحيح البخارى برقم (٤٥٦٣، ٤٥٦٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠٨١) والمستدرك (٢/ ٢٩٨) وأقره الذهبى مع أن البخارى قد روى هذا الحديث من هذا الوجه.
(١٤) فى جـ: «و».

أبي الضُّحَى، عن ابن عباس قال: كان آخر قول إبراهيم، عليه السلام، حين ألقى فى النار: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[١].

وقال عبد الرزاق: قال ابن عيينة: وأخبرنى زكريا، عن الشَّعْبِى، عن عبد الله بن عمرو قال: هى كلمة إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى البنيان. رواه ابن جرير.

وقال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا إبراهيم بن موسى الثورى[٢]، أخبرنا عبد الرحيم بن محمد بن زياد السكرى، أنبأنا أبو بكر بن عياش، عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ أنه قيل له يوم أحد: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم. فأنزل الله هذه الآية[٣].

وروى أيضا بسنده عن محمد بن عُبَيد الله الرافعى، عن أبيه، عن جده أبى رافع أن النبى ﷺ وَجَّه عليا فى نفرٍ معه فى طلب أبى سفيان، فلقيهم أعرابى من خُزاعة فقال: إن القوم قد جمعوا لكم قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. فنزلت فيهم هذه الآية.

ثم قال ابن مَرْدُويه: حدثنا دَعْلَجَ بن أحمد، أخبرنا الحسن بن سفيان، أنبأنا أبوخَيْثَمَة مُصْعَب بن سعيد، أنبأنا موسى بن أعين، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا وَقَعْتُمْ فِى الأمرِ العظيمِ فَقُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»[٤].

هذا حديث غريب من هذا الوجه.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا حَيْوَة بن شُرَيح وإبراهيم بن أبى العباس قالا: حدثنا بَقيَّة، حدثنا بَحِير[٥] بن سَعْد، عن خالد بن مَعْدان، عن سيف، عن عوف بن مالك أنه حدثهم: أن النبى ﷺ قَضَى بين رجلين فقال المقضى عليه لما أدبر: حسبى الله ونعم الوكيل. فقال رسول الله[٦] ﷺ: «رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ». فقال: «ما قلتَ؟». قال: قلتُ: حسبى الله ونعم الوكيل. فقال رسول الله[٧] ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، ولَكِنْ عَلَيْكَ بالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ».

وكذا رواه أبو داود والنسائى من حديث بقية عن بَحير، عن خالد، عن سَيْف ـ وهو الشامى، ولم ينسب ـ عن عوف بن مالك، عن النبى ﷺ، بنحوه[٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسباط، حدثنا مُطَرِّف، عن عَطية، عن ابن عباس [فى قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾[المدثر:٨] قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وصَاحِبُ القَرْنِ قَد الْتَقَم القَرْنَ وحَنَى جَبْهَتَه، يَسْمَعُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ». فقال أصحاب محمد ﷺ: فما نقول[٩]؟ قال: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥٦٤).
(٢) فى أ، و: «التوزى».
(٣) ورواه الخطيب فى تاريخ بغداد (١١/ ٨٦) من طريق إبراهيم بن موسى الجوزى وهو الثورى عن عبد الرحيم بن محمد السكرى به.
(٤) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٢/ ٣٩٠) وفى الجامع الصغير وعزاه إلى ابن مردويه، ورمز له المناوى بالضعف، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع برقم (٨٢٩).
(٥) فى أ: «يحيي». (٦) فى أ: «النبى». (٧) فى أ: «النبى».
(٨) المسند (٦/ ٢٤) وسنن أبى داود برقم (٣٦٢٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٤٦٢).
(٩) فى و: «فما تأمرنا».

وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا».

وقد روى هذا من غير وجه، وهو حديث جيد[(١)]. وروينا عن أم المؤمنين عائشة وزينب [بنت جحش][(٢)] رضى الله عنهما، أنهما تفاخرتا فقالت زينب: زَوجنى الله وزوجكُن أهاليكن[(٣)]. وقالت عائشة: نزلت براءتى من السماء فى القرآن. فَسَلَّمَت لها زينب، ثم قالت: كيف قلتِ حين ركبت راحلة صَفْوان بن المعطَّل؟ فقالت: قلت: حسبى الله ونعم الوكيل، فقالت زينب: قلت كلمة المؤمنين[(٤)].

ولهذا قال تعالى: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ أى: لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمَّهُمْ وَرد عنهم بأس من أراد كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ مما أضمر لهم عدوهم ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

قال البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو بكر بن داود الزاهد، حدثنا محمد بن نُعَيم، حدثنا بِشْر بن الحكم، حدثنا مُبشِّر بن عبد الله بن رَزِين، حدثنا سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن عكْرِمة، عن ابن عباس فى قول الله تعالى[(٥)]: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ قال: النعمة أنهم سلَمُوا، والفضل أن عيرا مرت، وكان فى أيام الموسم، فاشتراها رسولُ الله ﷺ فربِح فيها مالا، فقسمه بين أصحابه.

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد فى قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ قال: [هذا][(٦)] أبو سفيان، قال لمحمد ﷺ: موعدكم بدر، حيثُ قتلتم أصحابنا. فقال محمد ﷺ: «عَسَى». فانطلق رسول الله ﷺ لموعده[(٧)] حتى نزل بدراً، فوافقوا السوق فيها وابتاعوا[(٨)] فذلك قول الله عز وجل: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ [وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ][(٩)]﴾. قال: وهى غزوة بدر الصغرى.

رواه ابن جرير. وروى [أيضا][(١٠)] عن القاسم، عن الحُسَين، عن حجاج، عن ابن جُرَيج قال: لما عهد رسول الله ﷺ لموعد أبى سفيان، فجعلوا يلقون المشركين ويسألونهم عن قريش، فيقولون[(١١)]: قد جمعوا لكم يكيدونهم بذلك، يريدون أن يَرْعَبُوهم[(١٢)]، فيقول المؤمنون: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ حتى قدموا بدرا، فوجدوا أسواقها عافية لم ينازعهم فيها أحد، قال: رَجُل[(١٣)] من المشركين فأخبر أهل مكَّة بخيل محمد، وقال فى ذلك:

---

(١) المسند (١/ ٣٢٦).

(٢) زيادة من جـ، ر، أ، و.
(٣) فى جـ، ر، أ، و: «أهلوكن».

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٠/ ٨٨، ٨٩) ط «الفكر» من طريق محمد بن عبد الله بن جحش، وسيأتى إن شاء الله فى تفسير سورة النور.

(٥) فى ر: «عز وجل».

(٦) زيادة من جـ، ر.
(٧) فى جـ: «بموعده».
(٨) فى و: «فابتاعوا».

(٩) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».
(١٠) زيادة من جـ، ر، أ، و.
(١١) فى جـ: «فيقولون لهم».

(١٢) فى و: «يرهبوهم».
(١٣) فى جـ، ر، أ: «قال: وقدم رجل».

نَفَرَتْ قَلُوصِي من خيُول محمد | وَعَجْـوَةٍ منْشُـورةٍ كـالعُنْجُدِ
واتَّخذَتْ ماء قُدَيْدٍ مَوْعدى

ثم قال ابن جرير: هكذا أنشدنا القاسم، وهو خطأ، وإنما هو:

قَدْ نَفَرَتْ من رفقَتَى مُحَـمد | وَعَجْوَة مِنْ يَثْرِبِ كَالعُنْجُـد
تَهْوى [١]عَلَى دين أبيها الأتْلَد | قَدْ جَعَلَتْ ماء قُدَيْد مَوْعدى
وَمَاء ضَجْنَان لَهَا ضُحَى الغَد[٢]

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أى: يخوفكم أولياءه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة، قال الله تعالى: ﴿ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [أى: فـ][٣] إذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا على والجؤوا إلى، فأنا كافيكم وناصركم عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾، إلى قوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٦ـ ٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال [تعالى][٤]: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ [وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ][٥]﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ . يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

﴿ وَلا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) ﴾.

---

(١) فى جـ، ر، أ، و: «فهو».
(٢) تفسير الطبرى (٧/ ٤١١، ٤١٢).
(٣) زيادة من ر، أ، و. (٤) زيادة من جـ، ر، أ، و. (٥) زيادة من جـ، أ، و، وفى هـ: «الآية».

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾، وذلك من شدة حرصه على الناس كان يحزنه مُبَادَرَة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق، فقال تعالى: لا يحزنك ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ﴾ أي: حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته ألا يجعل لهم نصيبا في الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى مخبرا عن ذلك إخبارا مقرراً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ﴾ أي: استبدلوا هذا بهذا ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي: ولكن يضرون أنفسهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وكقوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]، وكقوله: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

ثم قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: لابُد أن يعقد سببا من المحنة، يظهر فيه وليه، ويفتضح فيه عدوه. يُعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر. يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم [وثباتهم][(١)] وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ، وهتك به ستر المنافقين، فظهر مخالفتهم ونُكُولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله [ﷺ][(٢)] ولهذا قال: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

قال مجاهد: ميّز بينهم يوم أحد. وقال قتادة: ميّز بينهم بالجهاد والهجرة. وقال السُّدِّي: قالوا: إنْ كان محمد صادقا فَلْيُخبرنا عمّن يؤمن به منا ومن يكفُر. فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ [يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: حتى][(٣)] يُخرج المؤمن من الكافر.

روى ذلك كلّه ابنُ جرير:

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ أي: أنتم لا تعلمون غيبَ الله في خلقه حتى يُميز[(٤)] لكم المؤمن من المنافق، لولا ما يعقده[(٥)] من الأسباب الكاشفة عن ذلك.

ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾، كقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾[(٦)] [الجن: ٢٦، ٢٧].

ثم قال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع[(٦)] لكم ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

---

(١) زيادة من ر، أ، و. (٢) زيادة من و. (٣) زيادة من جـ.
(٤) في ر، و: «يتميز». (٥) في ر: «يعتقدوه». (٦) في ر، أ، و: «شرعه».

وقوله: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ أى: لا يحسبن(١) البخيل أن جمعه المال ينفعه، بل هو مضرّة عليه فى دينه ـ وربما كان ـ فى دنياه.

ثم أخبر بمآل أمر ماله(٢) يوم القيامة فقال: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، قال البخارى:

حدثنا عبد الله بن منير، سمع أبا النضر، حدثنا عبد الرحمن ـ هو ابن عبد الله بن دينار ـ عن أبيه، عن أبى صالح، عن أبى هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتاهُ الله مَالاً فلم يُؤَدِّ زكَاتَهُ مُثِّلَ له شُجَاعاً أقرعَ له زبيبتان، يُطَوَّقُه يوم القيامة، يأخذ(٣) بلهزمَتَيْه ـ يعنى بشدقَيْه ـ يقول: أنا مَالُكَ، أنا كَنْزُكَ» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ(٤) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ إلى آخر الآية.

تفرد به البخارى دون مسلم من هذا الوجه، وقد رواه ابن حبان فى صحيحه من طريق الليث بن سعد، عن محمد بن عَجْلان، عن القَعْقاع بن حكيم، عن أبى صالح، به(٥).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حُجَين بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمَر، عن النبى ﷺ قال: «إن الَّذى لا يُؤَدِّى زكَاةَ مَاله يُمثلُ اللهُ لَهُ مَالَه يَوْمَ القِيامةِ شُجَاعًا أقْرعَ لَهُ زَبِيبتَان، ثم يُلْزِمهُ يطوّقه، يَقُول: أنَا كَنْزُكَ، أنا كَنْزُكَ».

وهكذا رواه النسائى عن الفضل بن سهل، عن أبى النضر هاشم بن القاسم، عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة، به(٦)، ثم قال النسائى: وروايةُ عبد العزيز، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، أثبتُ من رواية عبد الرحمن، عن أبيه عبد الله بن دينار، عن أبى صالح، عن أبى هريرة.

قلت: ولا منافاة بينهما(٧)، فقد يكون عند عبد الله بن دينار من الوجهين، والله أعلم. وقد ساقه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويَه من غير وجه، عن أبى صالح، عن أبى هريرة. ومن حديث محمد ابن أبى حميد، عن زياد الخطمى، عن أبى هريرة، به.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن جامع، عن أبى وائل، عن عبد الله، عن النبى ﷺ؛ قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ لا يُؤَدِّى زكَاةَ مَاله إلا جُعلَ لَهُ شُجَاعٌ أقرعُ يَتْبعُه، يَفرّ منه وهو يَتْبَعُه فَيَقُولُ: أنا كَنْزُكَ». ثم قرأ عبدُ الله مصداقه من كتاب الله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

وهكذا رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة، من حديث سفيان بن عيينة، عن جامع بن أبى راشد، زاد الترمذى: وعبد الملك بن أعين، كلاهما عن أبى وائل شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود، به. ثم قال الترمذى: حسن صحيح. وقد رواه الحاكم فى مستدركه، من حديث أبى بكر بن عياش وسفيان الثورى، كلاهما عن أبى إسحاق السَّبِيعى، عن أبى وائل، عن ابن مسعود، به(٨). ورواه ابن جرير من غير وجه، عن ابن مسعود، موقوفا.

(١) فى ر: «تحسبن».   (٢) فى أ: «أمره إليه».   (٣) فى أ، و: «فيأخذ».
(٤) فى ر: «لا تحسبن».
(٥) صحيح البخارى برقم (١٤٠٣، ٤٥٦٥).
(٦) المسند (٢/ ٩٨) وسنن النسائى (٥/ ٣٨).
(٧) فى و: «بين الروايتين».
(٨) المسند (١/ ٣٧٧) وسنن الترمذى برقم (٣٠١٢) وسنن النسائى (٥/ ١١) وسنن ابن ماجة برقم (١٧٨٤) والمستدرك (٢/ ٢٩٨).

حديث آخر: قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أمية بن بِسْطام، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن سالم بن أبى الجعد، عن مَعْدان بن أبى طلحة، عن ثوبان، عن النبى ﷺ؛ قال: «مَنْ تركَ بَعْدَهُ كَنْزًا مُثِّلَ لَهُ شُجَاعًا أقْرعَ يومَ الْقيامَة لَهُ زبِيبَتان، يَتْبعُه ويقُولُ: مَنْ أنْتَ؟ وَيْلَكَ. فيقُولُ: أنَا كَنْزُكَ الَّذى خَلَّفتَ بَعْدَكَ فَلا يَزَالُ يَتْبعُهُ حَتَّى يُلْقمه يَدَه فَيَقْضِمهَا، ثم يَتْبَعه سَائِر جَسَدِه». إسناده جيد قوى ولم يخرجوه[١].

وقد رواه الطبرانى عن جرير بن عبد الله البَجَلى[٢]. ورواه ابن جرير وابن مَرْدُويه من حديث بَهْز ابن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ قال: «لا يأتى الرَّجلُ مَولاهُ فيَسْأله من فَضْلِ مَاله[٣] عِنْدَهُ، فَيمنَعَهُ إيَّاهُ، إلاَّ دُعِى لَهُ يوم الْقيامَة شُجاعٌ يَتَلَمَّظُ فَضْلَهُ الَّذى مَنَعَ». لفظ ابن جرير[٤].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود، عن أبى قَزَعَة، عن رجل، عن النبى ﷺ قال: «مَا مِنْ ذى رَحِم يَأتى ذا رَحِمه، فيَسْأله من فَضْلِ جَعَلَهُ اللهُ عِنْدَهُ، فَيَبْخَلُ بِهِ عَلَيْه، إلا أُخْرِجَ له من جَهَنَّم شُجَاعٌ يَتَلَمَّظ، حتى يُطَوِّقه».

ثم رواه من طريق أخرى عن أبى قَزَعَة ـ واسمه حُجَيْر[٥] بن بَيَان ـ عن أبى مالك العبدى موقوفا. ورواه من وجه آخر عن أبى قَزَعَة مرسلا[٦].

وقال العَوْفى عن ابن عباس: نزلت فى أهل الكتاب الذين بَخِلوا بما فى أيديهم من الكتب المنزلة أن يبينوها.

رواه ابن جرير. والصحيح الأول، وإن دخل هذا فى معناه. وقد يقال: [إن][٧] هذا أولى[٨] بالدخول، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: فأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، فإن الأمور كُلّها مرجعها إلى الله عز وجل. فقدموا لكم من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أى: بنياتِكم وضمائركم.

---

(١) عزاه إلى أبى يعلى فى المطالب العالية الحافظ ابن حجر (١/ ٢٥٤) ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم(٢٢٥٥) وابن حبان فى صحيحه برقم (٨٠٣) «موارد» والبزار فى مسنده (١/ ٤١٨) «كشف الأستار» والطبرانى فى المعجم الكبير (٢/ ٩١) والحاكم فى المستدرك (١/ ٣٣٨) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبى، كلهم من طريق سعيد بن أبى عروبة عن قتادة به. وقال البزار: «إسناده حسن».

(٢) المعجم الكبير (٢/ ٣٢٢) ولفظه: «ما من ذى رحم يأتى رحمه فيسأله فضلا أعطاه الله إياه فيبخل عليه إلا أخرج له يوم القيامة من جهنم حية يقال لها: شجاع يتلمظ فيطوف به». قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٥٤): «رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وإسناده جيد».

(٣) فى ر، أ، و: «مال».

(٤) تفسير الطبرى (٧/ ٤٣٥) ورواه أحمد فى مسنده (٥/ ٣) والنسائى فى السنن (١/ ٣٥٨).

(٥) فى أ، و: «حجر» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

(٦) تفسير الطبرى (٧/ ٤٣٤).

(٧) زيادة من أ، و.

(٨) فى أ: «روى».

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)﴾.

قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما نزل قوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥] قالت اليهود: يا محمد، افتقَرَ ربّك. يسأل[1] عباده القرض؟ فأنزل الله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية. رواه ابن مردويه وابن أبي حاتم.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عِكْرِمة أنه حدثه عن ابن عباس، رضي الله عنه، قال: دخل أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، بيت المدراس، فوجد من يهود أناسا كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فِنْحَاص[2] وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حَبْرٌ يقال له: أشيع. فقال أبو بكر: ويحك يا فِنْحَاص[3]، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله ـ يا أبا بكر ـ ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير. ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويُعْطناه[4]، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا فغضب أبو بكر، رضي الله عنه، فضرب وجه فِنْحَاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده، لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله، فَاكْذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: أبصر[5] ما صنع بي صاحبك. فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «ما حَمَلكَ على ما صَنَعْت؟» فقال: يا رسول الله، إن عَدُوَّ الله قد قال قولا عظيما، زَعَم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غَضِبْتُ لله مما قال، فضربت وجهه فجَحَد ذلك فنحاص[6] وقال: ما قلتُ ذلك فأنزل الله فيما قال فنحاص ردا عليه وتصديقاً لأبي بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ تهديد ووعيد؛ ولهذا قرنه بقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: هذا قولهم في الله، وهذه معاملتهم لرسل الله، وسيجزيهم الله على ذلك شرَّ الجزاء؛ ولهذا قال: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ. ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: يقال[7] لهم ذلك تقريعًا وتحقيرًا وتصغيرًا.

---

(١) في ر، و: «فسأل». (٢) في ر: «فيحاص». (٣) في ر: «فيحاص».
(٤) في أ، و: «يعطينا». (٥) في جـ، ر، أ، و: «فقال: يا محمد، أبصر». (٦) في ر: «فيحاص».
(٧) في جـ، أ، و: «فقال».

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ يقول تعالى تكذيباً أيضاً لهؤلاء الذين زعموا(١) أن الله عَهِدَ إليهم فى كتبهم ألا يؤمنوا برسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فقبلَتْ منه أن تنزل نار من السماء تأكلها. قاله ابن عباس والحسن وغيرهما. قال الله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: بالحجج والبراهين ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أى: وبنار تأكل القرابين المتقبلة ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ أى: فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنكم تتَّبعُونَ الحق وتتقادون للرسل.

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه(٢) ﷺ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾(٣) أى: لا يهيدنك تكذيب(٤) هؤلاء لك، فلك أسوة من قبلك من الرسل الذين كُذبوا مع ما جاؤوا به من البينات وهى الحجج والبراهين القاطعة ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهى الكتب المتلقاة من السماء، كالصحف المنزلة على المرسلين ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أى: البَين الواضح الجلى.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)﴾.

يخبر تعالى إخباراً عاماً يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فهو تعالى وحده هو الحى الذى لا يموت والإنس والجن يموتون، وكذلك(٥) الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخراً كما كان أولا.

وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة وفَرَغَت النطفة التى قدر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البرية ـ أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحدا مثقال ذرة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد العزيز الأويسى، حدثنا على بن أبى على اللِّهْبى(٦)، عن جعفر بن محمد بن على بن الحسين، عن أبيه، عن(٧) على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: لما تُوفى النبى ﷺ وجاءت التعزية، جاءهم آت يسمعون حسّه ولا يرون شخصه فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. إن

---

(١) فى جـ، أ: « يزعمون». (٢) فى جـ: «لرسوله». (٣) فى ر: «المبين».
(٤) فى جـ: «بتكذيب». (٥) فى أ: «وكذا». (٦) فى جـ: «الهاشمى».
(٧) فى أ، و: «أن».

فى[١] الله عزاءً من كل مُصيبة، وخَلَفاً من كل هالك، ودركاً من كل فائت، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. قال جعفر بن محمد: فأخبرنى أبى أن على بن أبى طالب قال: أتدرون[٢] من هذا؟ هذا الخضر، عليه السلام[٣].

وقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أى: من جنب النار ونجا منها وأدخل الجنة، فقد فاز كل الفوز.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى، حدثنا محمد بن عَمرو بن علقمة، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «مَوْضِعُ سوط فى الجنة خيْرٌ من الدنيا وما فيها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[٥].

هذا حديث[٦] ثابت فى الصحيحين من غير هذا الوجه[٧] بدون هذه الزيادة، وقد رواه بدون هذه[٨] الزيادة أبو حاتم، وابن حبان[٩] فى صحيحه، والحاكم فى مستدركه، من حديث محمد بن عمرو هذا. ورواه ابن مردويه [أيضا][١٠] من وجه آخر فقال:

حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن يحيى، أنبأنا حُمَيْد بن مَسْعَدة، أنبأنا عمرو ابن على، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لموضع سَوط أحَدكم فى الجنة خير من الدنيا وما فيها». قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

وتقدّم عند قوله تعالى: ﴿وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ما رواه الإمام أحمد، عن وَكيع[١١]، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة، عن عبد الله بن عَمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحَبَّ أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة، فلتدركه مَنِيَّتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ولْيَأتِ إلى الناس ما يُحِبُّ أن يؤتى إليه»[١٢].

وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ تصغيراً[١٣] لشأن الدنيا، وتحقيراً[١٤] لأمرها، وأنها

---

(١) فى جـ، أ: «من». (٢) فى جـ، ر: «تدرون».

(٣) ذكره السيوطى فى الدر (٢/٣٩٩) وإسناده ضعيف ومتنه منكر.

(٤) زيادة من ر.

(٥) ورواه أحمد فى مسنده (٢/٤٣٨) والترمذى فى السنن برقم (٣٢٩٢)، والحاكم فى المستدرك (٢/٢٩٩) وقال: «على شرط مسلم» ووافقه الذهبى، كلهم من طريق محمد بن عمرو عن أبى سلمة به. وللحديث طرق أخرى عن أبى هريرة وله شواهد من حديث سهل بن سعد فى الصحيحين كما سيأتى، ومن حديث أنس بن مالك عند أحمد فى المسند (٣/١٤١) انظر الكلام عليه موسعًا فى: السلسلة الصحيحة للألبانى برقم (١٩٧٨).

(٦) فى جـ، ر، أ، و: «الحديث».

(٧) أخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٦٤١٥)، ومسلم فى صحيحه برقم (١٨٨١).

(٨) فى جـ، ر: «بهذه». (٩) فى جـ، ر: «أبو حاتم بن حبان». (١٠) زيادة من أ، و.

(١١) فى و: «ما رواه ابن الجراح فى تفسيره».

(١٢) المسند (٢/١٩١). .

(١٣) فى ر: «تصغير». (١٤) فى جـ: «وتحقيرها»، وفى ر: «تحقير».

دنيئة فانية قليلة زائلة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧] [وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦] وقال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[(١)] [النحل: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا(٢) أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠]، وفى الحديث: «والله ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يَغْمِسُ أحدُكُم إصبعه فى اليَمِّ، فلينظر بِمَ تَرْجِع(٣) إليه؟»(٤).

وقال قتادة فى قوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾: هى متاع، هى متاع، متروكة، أوشكت ـ والله الذى لا إله إلا هو ـ أن تَضْمَحِلَّ عن أهلها، فخذوا من هذا(٥) المتاع طاعة الله إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله.

وقوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ كقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ [وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ](٦)﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦] أى: لابد أن يبتلى المؤمن فى شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله، ويبتلى المؤمن(٧) على قدر دينه، إن(٨) كان فى دينه صلابة زيد فى البلاء ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾، يقول تعالى للمؤمنين عند مَقْدمهم المدينَة قبل وقعة بدر، مسليا لهم عما نالهم(٩) من الأذى من أهل الكتاب والمشركين، وآمراً لهم بالصبر والصفح والعفو حتى يفرج الله، فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب بن أبى حمزة، عن الزهرى، أخبرنى عُرْوة بن الزبير: أن أسامة بن زيد أخبره قال: كان النبى ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ قال: وكان رسول الله(١٠) ﷺ يتأول فى العفو ما أمره الله به، حتى أذن(١١) الله فيهم.

هكذا رواه مختصرا، وقد ذكره البخارى عند تفسير هذه الآية مطولا فقال: حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن الزهرى أخبرنى عروة بن الزبير؛ أن أسامة بن زيد أخبره أن رسول الله ﷺ ركب على حمَار، عليه قطيفة فَدَكِيَّة وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سَعْدَ بن عبادة فى بنى الحارث بن الخزرج، قَبْل وقعة بَدْر، قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبى ابن سَلُول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبى، فإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين، عَبَدَة الأوثان واليهود والمسلمين، وفى المجلس عبدُ الله بن رَوَاحة، فلما غَشيَت المجلسَ عَجَاجةُ الدابة خَمَّر عبد الله بن أبى أنفه بردائه وقال: «لا تُغَبروا علينا. فسلم رسول الله ﷺ(١٢)، ثم وقف، فنزل فدعاهم إلى الله عز وجل،

---

(١) زيادة من جـ، ر. (٢) فى ر: «فما». (٣) فى أ، و: « يرجع.

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٥٨) والترمذى فى السنن برقم (٢٣٢٣) وابن ماجة فى السنن برقم (٤١٠٨) من حديث المستورد ابن شداد رضى الله عنه.

(٥) فى جـ، ر: «هذه». (٦) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «إلى آخر الآيتين».

(٧) فى جـ ، ر، أ، و: «المرء». (٨) فى أ، و: «فإن». (٩) فى جـ، ر: «ينالهم».

(١٠) فى أ: « النبى». (١١) فى أ: «أذنه». (١٢) فى أ:«فسلم رسول الله ﷺ عليهم».

وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبَى: أيها المَرْء، إنه لا أحْسَنَ مما تقول، إن كان حقا فلا تؤْذنا به فى مجالسنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه. فقال عبد الله بن رواحة: بلى[١] يا رسول الله، فَاغْشَنَا به فى مجالسنا فإنا نُحب ذلك. فاستَب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يَتَثَاورون[٢]، فلم يزل النبى ﷺ يُخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب النبى ﷺ دَابته، فسار حتى دخل على سعد بن عُبَادة، فقال له النبى ﷺ: «يا سعد، ألم تَسْمَعْ إلى ما قال أبو حُبَاب[٣] ـ يريد عبد الله ابن أبى ـ قال كذا وكذا». فقال سعد: يا رسول الله، اعف عنه واصفح[٤]، فوَالله الذى[٥] أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله[٦] بالحق الذى أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرَة[٧] على أن يُتَوِّجوه ويُعَصِّبُوه[٨] بالعصابة، فلما أبى[٩] الله ذلك بالحق الذى أعطاك الله شرق بذلك، فذلك الذى فَعَل[١٠] به ما رأيتَ، فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا [وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ][١١]﴾، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ الآية [البقرة: ١٠٩]، وكان النبى ﷺ يَتَأَوّل فى العفو ما أمره الله به، حتى أذنَ الله فيهم، فلما غزا رسولُ الله ﷺ بدراً، فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال عبد الله بن أبَىّ ابن سَلُول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد تَوَجّه، فبايعُوا الرسول ﷺ على الإسلام[١٢] وأسلموا[١٣] [١٤].

فكان من قام بحق، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، فلابد أن يؤذَى، فما له دواء إلا الصبر فى الله، والاستعانة بالله، والرجوع إلى الله، عز وجل.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)﴾.

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب، الذين أخَذ عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينوهوا بذكره فى الناس ليكونوا[١٥] على أهْبَة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه،

---

(١) فى أ: «بل».
(٢) فى و: «يتبارزون».
(٣) فى أ: «حبان».
(٤) فى جـ، ر، أ، و: «واصفح عنه».
(٥) فى جـ، ر، أ، و: «فوالذى».
(٦) فى و: «لقد خالفتهم».
(٧) البحيرة المقصود بها: مدينة رسول الله ﷺ.
(٨) فى أ: «فيعصبوه»، وفى و: «فيعصبونه».
(٩) فى ر، أ: «أتى».
(١٠) فى أ: «ثقل».
(١١) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفى هـ: «الآية».
(١٢) في جـ، أ، و: «على الإسلام فبايعوا».
(١٣) فى ر: «فأسلموا».
(١٤) صحيح البخارى برقم (٤٥٦٦)، ورواه مسلم فى صحيحه برقم (١٧٩٨).
(١٥) فى و: «فيكونوا».

فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير فى الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والحظ الدنيوى السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم.

وفى هذا تَحْذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويُسْلكَ بهم مَسْلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا[١] منه شيئا، فقد ورد فى الحديث المروى من طرق متعددة عن النبى ﷺ أنه قال: «من سُئل عن علْم فكتَمه أُلْجِم يوم القيامة بِلجَام من نار».

وقوله تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا [فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ][٢]﴾ الآية، يعنى بذلك المرائين المتكثرين بما لم يُعْطَوا، كما جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ: «من ادَّعَى دَعْوى كاذبة ليتكثَّر بها لم يَزِدْه الله إلا قِلَّة»[٣]. وفى الصحيح: «المتشبع[٤] بما لم يُعْطَ كلابس ثَوْبَى زُور»[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حَجَّاج، عن ابن جُرَيْج، أخبرنى ابن أبى مُلَيكة أن حُمَيد بن عبد الرحمن بن عَوْف أخبره: أن مروان قال: اذهب يا رافع ـ لبَوَّابه ـ إلى ابن عباس، رضى الله عنه، فقل[٦]: لئن كان كل امرئ منَّا فَرِح بما أتَى[٧]، وأحب أن يحمد بما لم يفعل ـ معَذَّباً، لنُعَذبن أجمعون؟[٨] فقال ابن عباس: وما لكم[٩] وهذه؟ إنما نزلت هذه فى أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[١٠] وتلا ابن عباس: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية. وقال ابن عباس: سألهم النبى ﷺ عن شىء، فكتموه[١١] وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أرَوْه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا[١٢] من كتمانهم ما سألهم عنه.

وهكذا رواه البخارى فى التفسير، ومسلم، والترمذى والنسائى فى تفسيريهما، وابن أبى حاتم وابن جرير[١٣] وابن مَرْدُويه، والحاكم فى مستدركه، كلهم من حديث عبد الملك بن جُرَيج، بنحوه[١٤]. ورواه البخارى أيضا من حديث ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن عَلقمة بن وقاص: أن

(١) فى ر: «يكتمون». (٢) زيادة من جـ، ر، أ، و.
(٣) صحيح البخارى برقم (٦١٠٥، ٦٦٥٢) وصحيح مسلم برقم (١١٠) من حديث ثابت بن الضحاك رضى الله عنه.
(٤) فى أ: «المشبع».
(٥) رواه مسلم برقم (٢١٢٩) من حديث عائشة رضى الله عنها.
(٦) فى جـ، ر، أ: «فقل له». (٧) فى جـ: «أوتى». (٨) فى جـ، ر،أ، و: «أجمعين».
(٩) فى جـ: «ما لكم». (١٠) فى جـ، ر، أ، و: «لتبيننه للناس... الآية». (١١) فى ر، أ، و: «فكتموه إياه».
(١٢) فى جـ: «أوتوا». (١٣) فى و: «وابن خزيمة».
(١٤) المسند (١/٢٩٨) وصحيح البخارى برقم (٤٥٦٨) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٨) وسنن الترمذى برقم (٣٠١٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠٨٦).

مَرْوان قال لبوابه: اذهبْ يا رافع إلى ابن عباس، فذكره[١].

وقال البخارى: حدثنا سعيد بن أبى مريم، أنبأنا محمد بن جعفر، حدثنى زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه؛ أن رجالا من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرَج رسول الله ﷺ إلى الغزو تَخلَّفوا عنه، وفَرِحوا بمقعدهم خِلاف رسول الله ﷺ، فإذا قَدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا[٢] إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية.

وكذا رواه مسلم من حديث ابن أبى مريم، بنحوه[٣]. وقد رواه ابن مَرْدُويه فى تفسيره من حديث الليث بن سعد، عن هشَام بن سَعْد، عن زيد بن أسلم قال: كان[٤] أبو سعيد ورافع بن خَديج وزيد بن ثابت عند مَرْوان فقال: يا أبا سعيد، رأيت[٥] قول الله تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ[٦] الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ . ونحن نفرح بما أتَيْنا ونُحب أن نُحْمَد بما لم نفعل؟ فقال أبو سعيد: إن هذا ليس من ذاك، إنما ذاك[٧] أن ناسا من المنافقين كانوا يَتخلَّفون إذا بعَث رسول الله ﷺ بَعْثاً، فإن كان فيهم نَكْبَة فرحوا بتخلفهم، وإن كان لهم نَصْر من الله وفتح حلفوا[٨] لهم ليرضوهم ويحمدوهم على سرورهم بالنصر والفتح. فقال مروان: أين هذا من هذا؟ فقال أبو سعيد: وهذا يَعْلَمُ هذا، فقال مروان: أكذلك يا زيد؟ قال: نعم، صدق أبو سعيد. ثم قال أبو سعيد: وهذا يعلم ذاك[٩] ـ يعنى رافع بن خديج ـ ولكنه يخشى إن أخبرك أن تنزع قَلائصه فى الصدقة. فلما خرجوا قال زيد لأبى سعيد الخدرى: ألا تحمدنى على شهادة لك[١٠]؟ فقال أبو سعيد: شهدتَ الحق. فقال زيد: أو لا تحمدنى على ما شهدت الحق؟

ثم رواه من حديث مالك، عن زيد بن أسلم، عن رافع بن خديج: أنه كان هو وزيد بن ثابت عند مَروان بن الحكم، وهو أمير المدينة، فقال مروان: يا رافع، فى أى شىء نزلت[١١] هذه؟ فذكره[١٢] كما تقدم عن أبى سعيد، رضى الله عنهم، وكان مَروان يبعث[١٣] بعد ذلك يسأل ابن عباس كما تقدم، فقال له ما ذكرناه، ولا منَافاة بين ما ذكره ابن عباس وما قاله هؤلاء؛ لأن الآية عامة فى جميع ما ذكر، والله أعلم.

وقد روى ابن مَرْدُويه أيضا من حديث محمد بن أبى عَتيق وموسى بن عُقْبَة، عن الزهْرى، عن محمد بن ثابت الأنصارى؛ أن ثابت بن قيس الأنصارى قال: يا رسول الله، والله لقد خشيت أن أكون

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥٦٨).
(٢) فى ر: «أعذروا».
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٥٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٧).
(٤) فى و: «قال». (٥) فى جـ: «أرأيت» (٦) فى أ: «لا يحسبن».
(٧) فى أ: «من ذلك إنما ذلك». (٨) فى ر: «يحلفوا». (٩) فى أ: «ذلك».
(١٠) فى ر: «أنى شهدت لك»، وفى أ، و: «على ما شهدت لك». (١١) فى جـ، ر، أ، و: «أنزلت».
(١٢) ورواه عبد بن حميد فى تفسيره كما فى الدر (٢/ ٤٠٤) وذكره الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨/ ٢٣٤).
(١٣) فى ر: «بعث».

هلكت. قال: «لم؟» قال: نهى الله المرء أن يُحب أن يُحْمَدَ بما لم يفعل، وأجدنى أُحبُّ الحمدَ. ونهى الله عن الخُيلاء، وأجدنى[1] أحب الجمال، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك، وأنا[2] امرؤ جهورى الصوت. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تَرْضى أن تَعيش حَميدا، وتُقْتَل شَهيدا، وتدخل الجنة؟» قال: بلى يا رسول الله. فعاش[3] حميدا، وقُتل شهيدا يوم مُسَيْلَمة الكذاب[4].

وقوله: ﴿فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ يقرأ بالتاء على مخاطبة المفرد، وبالياء على الإخبار عنهم، أى: لا تحسبون[5] أنهم ناجون من العذاب، بل لابد لهم منه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: هو مالك كُل شىء، والقادرُ على كُل شىء فلا يعجزه شىء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا نقمته وغضبه، فإنه العظيم الذى لا أعظم منه، القدير الذى لا أقدر منه.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)﴾.

قال الطبرانى: حدثنا الحسن بن إسحاق التُستَرى، حدثنا يحيى الحِمَّانى، حدثنا يعقوب القُمِّى، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهودَ فقالوا: بم جاءكم موسى؟ قالوا: عصاه ويده بيضاء للناظرين. وأتوا النصارى فقالوا: كيف كان عيسى؟ قالوا: كان يُبْرِئُ الأكمه والأبرص ويُحيى الموتى. فأتوا النبى ﷺ فقالوا: ادع لنا ربك يجعل لنا الصَّفا ذَهبًا. فدعا ربه، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي

---

(١) فى أ: «وإنى». (٢) فى ر، أ، و: «وإنى». (٣) فى ر، أ، و: «قال: فعاش».

(٤) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٢) من طريق الزهرى عن محمد بن ثابت به. ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٢٣٤) من طريق إسماعيل بن محمد عن أبيه محمد بن ثابت به. ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٢٧٠) «موارد»، والطبرانى فى المعجم الكبير (٢/ ٦٧) كلاهما من طريق إسماعيل بن ثابت أن ثابت فذكره. ورواه عبد الرزاق فى مصنفه برقم (٢٠٤٢٥) من طريق الزهرى أن ثابت بن قيس فذكره مرسلا. ورواه مالك ومن طريق ابن عبد البر فى الاستيعاب (٢/ ٧٥) من طريق الزهرى عن إسماعيل بن محمد بن ثابت عن ثابت به. والأصح: الزهرى عن محمد بن ثابت عن ثابت به، وهى رواية ابن مردويه والطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٢) وقد صرح محمد بن ثابت بالتحديث عند الطبرانى فقال: حدثنى ثابت بن قيس فذكره، والحديث حسن إن شاء الله.

(٥) فى جـ، ر، أ، و: «ولا تحسبوا».

الأَلْبَابِ﴾، فليتفكروا فيها[(١)].

وهذا مُشْكل، فإن هذه الآية مدنية. وسؤالهم أن يكون الصفا ذهبا كان بمكة، والله أعلم.

ومعنى الآية أنه يقول تعالى: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾** أى: هذه فى ارتفاعها واتساعها، وهذه فى انخفاضها وكثافتها واتضاعها[(٢)]. وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثوابتَ وبحار، وجبال وقفار وأشجار ونبات وزروع وثمار، وحيوان ومعادن ومنافع، مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص **﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾** أى: تعاقبهما وتَقَارضهما الطول والقصر، فتارة يطُول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذى كان قصيرا، ويقصر الذى كان طويلا، وكل ذلك تقدير العزيز الحكيم[(٣)]؛ ولهذا قال: **﴿لأُولِي الأَلْبَابِ﴾** أى: العقول التامة الذكية التى تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وليسوا كالصم البُكْم الذين لا يعقلون الذين قال الله [تعالى][(٤)] فيهم: **﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾** [يوسف: ١٠٥، ١٠٦].

ثم وصف تعالى أُولى الألباب فقال: **﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾** كما ثبت فى صحيح البخارى عن عمْران بن حُصَين، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «صَلِّ قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فَعَلَى جَنْبك[(٥)]» [(٦)] أى: لا يقطعون ذكْره فى جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم **﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾** أىَ: يفهمون ما فيهما من الحكَم الدالة على عظمة الخالق وقدرته، وعلمه وحكمته، واختياره ورحمته.

وقال الشيخ أبو سليمان الدارانى: إنى لأخرجُ من منزلى، فما يقع بصرى على شىء إلا رأيت لله عَلَى فيه نِعْمَة، أوْ لِى فيه عِبْرَة. رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب «التفكر[(٧)] والاعتبار».

وعن الحسن البصرى أنه قال: تَفكُّر سَاعَة خير من قيام ليلة. وقال الفُضَيل: قال الحسن: الفكرة مِرآة تريك حَسنَاتك وسيئاتك. وقال سفيان بن عيينة: الفكرة نور يدخل قلبك. وربما تمثل بهذا البيت.

إذا المرء كانت له فكْرَةٌ ففى كل شىء له عبرَة

وعن عيسى، عليه السلام، أنه قال: طُوبَى لمن كان قِيلُه تذكّرًا، وصَمْته تَفكُّرًا، ونَظَره عبراً.

وقال لقمان الحكيم: إن طول الوحدة ألْهَمُ للفكرة، وطولَ الفكْرة دليل على طَرْق باب الجنة.

وقال وهب بن مُنَبِّه: ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم، وما[(٨)] فهم امرؤ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل.

---

(١) فى المعجم الكبير للطبرانى (١٢٣٢٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ٣٣٢): «وفيه يحيى الحمانى وهو ضعيف».

(٢) فى أ: «وكشافتها وإيضاعها». (٣) فى جـ، أ، و: «العليم». (٤) زيادة من و.

(٥) فى جـ، أ: «جنب».

(٦) صحيح البخارى برقم (١١١٥).

(٧) فى النسخ: «التوكل»، والصحيح ما أثبتناه كما ذكره الذهبى فى سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٠٢) ومعجم مصنفات ابن أبى الدنيا الموجود بالظاهرية، وسيأتى فى نهاية المقطع مضبوطا. انظر ص١٨٩.

(٨) فى ر: «ولا».

وقال عمر بن عبد العزيز: الكلام بذكر الله، عز وجل، حَسَن، والفكرة فى نعم الله أفضل العبادة.

وقال مغيث الأسود: زوروا القبور كل يوم تفكركم، وشاهدوا الموقف بقلوبكم، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة أو النار، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها، وكان يبكى عند ذلك حتى يُرْفع صَرِيعا من بين أصحابه، قد ذهب عقله.

وقال عبد الله بن المبارك: مَرَّ رجل براهب عند مَقْبَرة ومَزْبَلَة، فناداه فقال: يا راهب، إن عندك كَنزين من كنوز الدنيا لك فيهما مُعْتَبَر، كنز الرجال وكنز الأموال.

وعن ابن عمر: أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه، يأتى الخَرِبة فيقف على بابها، فينادى بصوت حزين فيقول: أين أهْلُك؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

وعن ابن عباس أنه قال: ركعتان مقتصدتان فى تَفَكُّر، خير من قيام ليلة والقلب ساه[١].

وقال الحسن: يا ابن آدم، كُلْ فى ثلث بطنك، واشرب فى ثلثه، ودع ثلثه الآخر تتنفَّس للفكرة.

وقال بعض الحكماء: من نظر إلى الدنيا بغير العبرة انطَمَسَ مِنْ بَصَرِ قلبه بقدر تلك الغَفْلَة.

وقال بِشْر بن الحارث الحافى: لو تفكر الناس فى عظمة الله تعالى لما عصوه.

وقال الحسن، عن عامر بن عبد قيس قال: سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ يقولون: إن ضياء الإيمان، أو نور الإيمان، التفكر.

وعن عيسى، عليه السلام، أنه قال: يا ابن آدم الضعيف، اتق الله حيثما كنت، وكُنْ فى الدنيا ضَيْفًا، واتَّخِذِ المساجدَ بيتا، وعَلِّم عينيك البكاء، وجَسَدك الصَّبْر، وقلبك الفِكْر، ولا تهتم برزق غد.

وعن أمير المؤمنين عُمَرَ بن عبد العزيز، رضى الله عنه، أنه بكى يوما بين أصحابه، فسُئِل عن ذلك، فقال: فَكَّرت فى الدنيا ولذاتها وشهواتها، فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تَنْقَضى حتى تكدرها مرارتُها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر إن فيها مواعظ لمن ادَّكر.

وقال ابن أبى الدنيا: أنشدنى الحُسَين بنُ عبد الرحمن:

نُزْهَـةُ المـؤمن الفـكَرْ	لـــذَّة المؤمـن العبَرْ
نحـمدُ اللهَ وَحْـدَه	نحنُ كل عَلَى خطَرْ
رُبَّ لاهٍ وعُمْـــــرُه	قد تَقَضَّى وما شَعَـرْ
رُبَّ عيش قَدْ كَانَ فـو	ق المُنَى مُونقَ الزهَـرْ
فى خَرِير[٢] من العيُو	ن وَظل من الشَّجَـرْ
وسُــرُور مــن النَّبا	ت وَطيب منَ الثمَـرْ
غيَّـرتْه وَأهْــلَهُ[٣]	سرعةُ الدّهْر بالغَـير

(١) فى ر: «ساهى».
(٢) فى ر: «جرير».
(٣) فى ر: «وغيرت أهله».

نَحْمَدُ الله وحـــده إنّ فى ذا لمعتبر
إن فى ذَا لَعبـــرةً للبيب إن اعْتَبرْ

وقد ذمّ الله تعالى مَنْ لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦]، ومدح عباده المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قائلين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾ أى: ما خلقت هذا الخلق عَبَثاً، بل بالحق لتجزى(١) الذين أساؤوا بما عملوا، وتجزى(٢) الذين أحسنوا بالحسنى. ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أى: عَنْ أن تخلق شيئا باطلا ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أى: يا من خلَق الخلق بالحق والعدل يا من هو مُنَزّه عن النقائص والعيب والعبث، قنا من(٣) عذاب النار بحولك وقوتك وَقيضْنَا لأعمال ترضى بها عنا، ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم، وتجيرنا به من عذابك الأليم.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أى: أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أى: يوم القيامة لا مُجير لهم منك، ولا مُحيد لهم عما أردت بهم ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ﴾ أى: داعيا يدعو إلى الإيمان، وهو الرسول ﷺ ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ أى يقول: ﴿آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ أى: فاستجبنا له واتبعناه ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أى: بإيماننا واتباعنا نبيك فاغفر لنا ذنوبنا، أى: استرها ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ أى: فيما بيننا وبينك ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ أى: ألحقنا بالصالحين ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ قيل: معناه: على الإيمان برسلك. وقيل: معناه: على ألسنة رسلك. وهذا أظهر.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عمرو بن محمد، عن أبى عِقَال، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عَسْقَلان أحد العروسين، يبعث الله منها يوم القيامة سبعين(٤) ألفاً لا حساب عليهم، ويبعث منها خمسين(٥) ألفا شهداء وُفُوداً إلى الله، وبها صُفُوف الشهداء، رؤوسهم مُقطَّعة فى أيديهم، تَثجّ أوداجهم دما، يقولون: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ فيقول: صَدَق عبدي، اغسلوهم بنهر البيضة. فيخرجون منه نقاء بيضاً، فيسرحون فى الجنة حيث شاؤوا».

وهذا الحديث يُعَد من غرائب المسند، ومنهم من يجعله موضوعا، والله أعلم(٦).

---

(١) فى جـ، ر، أ، و: «ليجزى». (٢) فى ر، أ، و: «يجزى». (٣) فى أ: «فقنا».
(٤) فى ر: «سبعون». (٥) فى جـ، ر، أ: «خمسون».
(٦) المسند (٣/ ٢٢٥) وقد ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات (٢/ ٥٤) وقال: «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وجميع طرقه تدور على أبى عقال واسمه: هلال بن زيد بن يسار. قال ابن حبان: يروى عن أنس أشياء موضوعة ما حدث أنس بها قط، لا يجوز الاحتجاج به بحال»، وذكره الذهبى فى الميزان (٤/ ٣١٣) وقال: «باطل». وانظر كلام الحافظ ابن حجر فى: القول المسدد برقم (٨) فقد ذكر أن الحديث فى فضائل الأعمال والتحريض على الرباط فى سبيل الله وأن التسامح فى رواية مثله طريقة الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ ثم ساق له شواهد، فراجعها إن شئت.

﴿وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: على رؤوس الخلائق ﴿إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أى: لابد من الميعاد الذى أخبرتَ عنه رسُلَك، وهو القيام يوم القيامة بين يديك.

وقد قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحارث بن سُرَيْج[(١)]، حدثنا المعتمر، حدثنا الفضل بن عيسى، حدثنا محمد بن المنكدر؛ أن جابر بن عبد الله حدثه: أن رسول الله ﷺ قال: «العار والتخزية تبلغ[(٢)] من ابن آدم فى القيامة فى المقام بين يدى الله، عز وجل، ما يتمنى العبد أن يؤمر به إلى النار» حديث غريب[(٣)].

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده، فقال البخارى، رحمه الله:

حدثنا سعيد بن أبى مريم، حدثنا محمد بن جعفر، أخبرنى شريك بن عبد الله بن أبى نَمْر، عن كُرَيب عن ابن عباس قال: بت عند خالتى ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثُلث الليل الآخر قَعد فنظر إلى السماء فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾، ثم قام فتوضأ واستن. فصلى إحدى عَشْرَة[(٤)] ركعة. ثم أذّن بلالٌ فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس الصبح.

وكذا رواه مسلم عن أبى بكر بن إسحاق الصنعانى، عن ابن أبى مريم، به[(٥)]. ثم رواه البخارى من طُرقٍ عن مالك، عن مَخْرَمَة بن سليمان، عن كريب، عن ابن عباس [(٦)] أنه بات عند ميمونة زوج النبى ﷺ، وهى خالته، قال: فاضطجعت فى عَرْض الوسادة، واضطجع[(٧)] رسول الله ﷺ وأهله فى طُولها، فنام رسول الله ﷺ حتى إذا انتصف الليل ـ أو قبله بقليل، أو بعده بقليل ـ استيقظَ رسولُ الله ﷺ من منامه، فجعل يمسحُ النومَ عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر الآيات الخواتيمَ من سُورة آل عمران، ثُم قام إلى شَنّ معلقة فتوضأ منها فأحسن وُضُوءه[(٨)] ثم قام يصلىّ ـ قال ابن عباس: فقمت فصنعت مثل ما صنع، ثم ذَهَبتُ فقمت إلى جَنْبه ـ فوضع رسولُ الله ﷺ يَدَه اليمنى على رأسى، وأخذ بأذنى اليمنى يَفْتلُها[(٩)]، فصلى ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم أوتر، ثم اضطجع حتى جاءه المؤذن، فقام فصلى ركعتين خفيفتين، ثم خَرَجَ فصلّى الصبح.

وهكذا أخرجه بقية الجماعة من طُرُق عن مالك، به[(١٠)]. ورواه مسلم أيضاً وأبو داود من وجوه أُخرَ، عن مخرمة بن سليمان، به[(١١)].

---

(١) فى جـ، ر: «شريح». (٢) فى جـ، ر: «يبلغ».
(٣) مسند أبى يعلى (٣/ ٣١١) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٥٠): «وفيه الفضل بن عيسى الرقاشى، وهو مجمع على ضعفه».
(٤) فى ر: «عشر» والصحيح ما أثبتناه.
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٥٦٩) وصحيح مسلم برقم (٧٦٣).
(٦) في جـ، ر، أ، و: «ابن عباس أخبره». (٧) فى جـ: «فاضطجع». (٨) فى أ: «الوضوء».
(٩) فى جـ، ر، أ، و: «ففتلها».
(١٠) صحيح البخارى برقم (٤٥٧٠، ٤٥٧١) وصحيح مسلم برقم (٧٦٣) وسنن أبي داود برقم(١٣٦٧) وسنن النسائى (٣/ ٢١٠) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٦٣) وأما الترمذى فرواه فى الشمائل برقم (٢٥٢).
(١١) صحيح مسلم برقم (٧٦٣) وسنن أبى داود برقم (١٣٦٤).

طريق أخرى لهذا الحديث عن ابن عباس [رضى الله عنهما][١]:

قال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن محمد بن على، أخبرنا أبو يحيى بن أبى مسرَّة[٢]، أنبأنا خَلاَّد بن يحيى، أنبأنا يونس بن أبى إسحاق، عن المنهال بن عَمْرو، عن على بن عبد الله بن عباس، عن عبد الله بن عباس[٣] قال: أمرنى العباس أن أبيت بآل رسول الله ﷺ وأحفظ صلاته. قال: فصلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة العشاء الآخرة، حتى إذا لم يبق فى المسجد أحد غيره قام[٤] فمرّ بى، فقال: «من هذا؟ عبد الله؟» فقلت[٥]: نعم. قال: «فَمَه؟» قلت: أمرنى العباسُ أن أبيت بكم الليلة. قال: «فالحق الحق» فلما[٦] أن دخل قال: «افرشَنْ عبد الله؟» فأتى بوسادة من مسوح، قال فنام رسولُ الله ﷺ عليها حتى سَمعتُ غَطيطه، ثم استوى على فراشه قاعدا، قال: فَرَفَع رأسَه إلى السماء فقال: «سُبحان الملك القدوس» ثلاث مرات، ثم تلا هذه الآيات من آخر سورة آل عمران حتى ختمها.

وقد روى مسلم وأبو داود والنسائى، من حديث على بن عبد الله بن عباس[٧] حديثا[٨] فى ذلك أيضا[٩].

طريق أخرى رواها ابن مَرْدُوَيه، من حديث عاصم بن بَهْدَلَة، عن بعض أصحابه، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس؛ أن النبى ﷺ خرج ذات ليلة بعد ما مَضى ليل، فنظر إلى السماء، وتلا هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ إلى آخر السورة. ثم قال: «اللهم اجعل فى قلبى نُورا، وفى سَمْعى نورا، وفى بَصَرى نورا، وعن يمينى نورا، وعن شمالى نورا، ومن بين يَدَىّ نورا، ومن خَلْفى نورا، ومن فَوْقى نورا، ومن تحتى نورا، وأعْظِم لى نورا يوم القيامة».

وهذا الدعاء[١٠] ثابت فى بعض طرق الصحيح، من رواية كُريب، عن ابن عباس، رضى الله عنه[١١].

ثم روى ابن مَرْدُوَيه وابن أبى حاتم من حديث جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود فقالوا: بما جاءكم موسى من الآيات؟ قالوا: عصاه ويده البيضاء[١٢] للناظرين. وأتوا النصارى فقالوا: كيف كان عيسى فيكم؟ قالوا: كان يُبْرِئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى. فأتوا النبى ﷺ فقالوا: ادع لنا ربك[١٣] يجعل لنا الصَّفَا ذَهبًا. فدعا ربه، عز وجل، فنزلت: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾. قال: «فليتفكروا فيها»[١٤]. لفظ ابن مَرْدُوَيه.

---

(١) زيادة من و. (٢) فى أ: «ميسرة». (٣) فى أ: «عن أبيه» وفى و: «عن ابن عباس».
(٤) فى و: «قال». (٥) فى جـ، ر: «قلت». (٦) فى ر، أ، و: «قال: فلما».
(٧) فى جـ، ر، أ، و: «عباس عن أبيه». (٨) فى ر: «حدثنا».
(٩) صحيح مسلم برقم (٧٦٣) وسنن أبى داود برقم (١٣٥٣) وسنن النسائى (٣/ ٢٣٦).
(١٠) فى إسناده عاصم وقد تكلم فيه وشيخه مجهول. ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٥٦٩) ومسلم فى صحيحه برقم (٧٦٣) من طريق كُرَيب عن ابن عباس بنحوه.
(١١) فى و: «عنهما». (١٢) فى جـ، ر، أ، و: «بيضاء». (١٣) فى أ، ر: «ربك أن».
(١٤) ورواه ابن أبى حاتم، والطبرانى، وابن المنذر كما فى الدر (٢/ ٤٠٧). قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨/ ٢٣٥): «رجاله ثقات=

وقد تقدم سياق الطبرانى لهذا الحديث فى أول الآية، وهذا يقتضى أن تكون[(١)] هذه الآيات مكية، والمشهور أنها مدنية، ودليله الحديث الآخر، قال ابن مَرْدويه:

حدثنا إسماعيل بن على بن إسماعيل، أخبرنا أحمد بن على الحرانى، حدثنا شجاع بن أشرس، حدثنا حَشْرج بن نباتة الواسطى أبو مكرم، عن الكلبى ـ هو أبو جَنَاب[(٢)] [الكلبى][(٣)] ـ عن عطاء قال: انطلقت أنا وابن عمر وعُبَيد بن عُمَير إلى عائشة، رضى الله عنها، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب، فقالت: يا عبيد، ما يمنعك من زيارتنا؟. قال: قول الشاعر:

زُر غبّا تزدد حبّا

فقال ابن عمر: ذرينا[(٤)]، أخبرينا بأعجب شىء رأيته من رسول الله ﷺ. فَبكَتْ وقالت: كُلُّ أمره كان عجبا، أتانى فى ليلتى حتى مس جلده جلدى، ثم قال: ذرينى أتعبد لربى [عز وجل][(٥)] قالت: فقلت: والله إنى لأحب قربك، وإنى أحب[(٦)] أن تَعبد لربك. فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلى، فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد فبكى حتى بَل الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يُؤذنه بصلاة الصبح قالت: فقال: يا رسول الله، ما يُبكيك؟ وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر، فقال: «ويحك يا بلال، وما يمنعنى أن أبكى وقد أُنْزل[(٧)] علىّ فى هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾» ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها».

وقد رواه عَبْد بن حُمَيد، عن[(٨)] جعفر بن عَوْن، عن أبى[(٩)] جَنَاب[(١٠)] الكلبى عن[(١١)] عطاء، بأطول من هذا وأتم سياقا[(١٢)].

وهكذا رواه أبو حاتم ابن حبان فى صحيحه، عن عمران بن موسى، عن عثمان بن أبى شيبة، عن يحيى بن زكريا، عن إبراهيم بن سُوَيد النَّخعى، عن عبد الملك بن أبى سليمان، عن عطاء قال: دخلت أنا [وعبد الله بن عمر][(١٣)] وعُبَيد بن عُمَير على عائشة[(١٤)]، فذكر[(١٥)] نحوه.

وهكذا رواه عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا فى كتاب «التفكر والاعتبار» عن شجاع بن أشرس، به. ثم قال: حدثنى الحسن بن عبد العزيز: سمعت سُنَيْدًا يذكر عن سفيان ـ هو الثورى ـ رفعه قال: من قرأ آخر آل عمران فلم يتفكر فيه ويْلَه. يعد بأصابعه عشرا. قال الحسن بن عبد العزيز: فأخبرنى

= إلا الحمانى فإنه متكلم فيه، وقد خالفه الحسن بن موسى، فرواه عن يعقوب عن جعفر عن سعيد مرسلا وهو أشبه، وعلى تقدير كونه محفوظا وصله، ففيه إشكال من جهة أن هذه السورة مدنية وقريش من أهل مكة، ويحتمل أن يكون سؤالهم لذلك بعد أن هاجر النبى ﷺ إلى المدينة ولا سيما زمن الهدنة».

(١) فى ر: «يكون». (٢) فى أ: «حبان». (٣) زيادة من ر.

(٤) في جـ، ر: «ذرنا» (٥) زيادة من جـ، ر، أ، و. (٦) فى جـ، ر، أ: «لأحب».

(٧) فى أ: «أنزل الله». (٨) فى و: «طريق أخرى: قال عبد بن حميد فى تفسيره: أنبأنا».

(٩) فى و: «حدثنا أبو». (١٠) فى جـ، ر: «حباب». (١١) فى و: «حدثنا».

(١٢) ومن طريق ابن مردويه رواه الأصبهانى فى الترغيب والترهيب برقم (٦٦٦) فقال: أخبرنا أحمد الذكوانى، أنبأنا أحمد بن موسى ابن مردويه، فذكره. وفى إسناده أبو جناب الكلبى تفرد به وهو ضعيف.

(١٣) زيادة من و. (١٤) فى و: «على أم المؤمنين». (١٥) فى جـ: «فذكره».

عُبيد بن السائب قال: قيل للأوزاعى: ما غاية التفكر فيهن؟ قال: يقرؤهن وهو يعقلهن.

قال ابن أبى الدنيا: وحدثنى قاسم بن هاشم، حدثنا على بن عيَّاش، حدثنا عبد الرحمن بن سليمان قال: سألت الأوزاعى عن أدنى ما يَتَعلق به المتعلق من الفكر فيهن وما ينجيه من هذا الويل؟ فأطرق هُنيّة[1] ثم قال: يقرؤهن وهو يَعْقلُهن.

[**حديث آخر فيه غرابة**: قال أبو بكر بن مردويه: أنبأنا عبد الرحمن بن بشير بن نمير، أنبأنا إسحاق بن إبراهيم البستى ح وقال: أنبأنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا أحمد بن عمرو قالا: أنبأنا هشام بن عمار، أنبأنا سليمان بن موسى الزهرى، أنبأنا مظاهر بن أسلم المخزومى، أنبأنا سعيد ابن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة آل عمران كل ليلة. مظاهر بن أسلم ضعيف][2].

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)﴾.

يقول تعالى: **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾** أى: فأجابهم ربهم، كما قال الشاعر:

وداعٍ دعا: يَا مَن يجيب إلى النّدى فَلم يَسْتجبْه عنْد ذاك مجيب[3]

قال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن سلمة، رجل من آل أم سلمة، قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله، لا نَسْمَع اللهَ ذَكَر النساء فى الهجرة بشىء؟ فأنزل الله [عز وجل][4]: **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾** إلى آخر الآية. وقالت الأنصار: هى أول ظعينة قَدمت علينا.

وقد رواه الحاكم فى مستدركه من حديث سفيان بن عُيَيْنة، ثم قال: صحيح على شرط البخارى، ولم يخرجاه[5].

وقد روى ابن أبى نَجيح، عن مجاهد، عن أم سَلَمة قالت: آخر آية أنزلت هذه الآية: **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾** إلى آخرها. رواه ابن مَرْدُويه.

ومعنى الآية: أن المؤمنين ذوى الألباب لما سألوا ـ مما تقدم ذكره ـ فاستجاب لهم ربهم ـ عقب ذلك بفاء التعقيب، كما قال تعالى: **﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾** [البقرة: ١٨٦].

---

(١) فى جـ: «هنيهة». (٢) زيادة من أ، و .

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (٧/ ٤٨٨) وهو لكعب بن سعد الغنوى.

(٤) زيادة من أ .

(٥) سنن سعيد بن منصور برقم (٥٥٢) والمستدرك (٢/ ٣٠٠) ورواه عبد الرزاق فى تفسيره (١/ ١٤٤) ومن طريقه ابن جرير فى تفسيره (٧/ ٤٨٨) ولم يذكر قوله: «وقالت الأنصار إلى آخره» من طريق سفيان بنحوه.

(٦) فى ر: «دعانى».

وقوله: ﴿أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ هذا تفسير للإجابة، أى قال لهم مُجيباً[١] لهم: أنه لا يضيع عمل عامل لديه، بل يُوَفّى كل عامل بقسط عمله، من ذكر أو أنثى.

وقوله: ﴿بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ أى: جميعكم فى ثوابى سَواء ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ أى: تركوا دار الشِّرْك وأتَوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والخلان والإخوان والجيران، ﴿وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ أى: ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجؤوهم إلى الخروج من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ أى: إنما كان ذنبُهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾[الممتحنة: ١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

وقوله: ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل فى سبيل الله، فيُعْقَر جَواده، ويعفَّر وجهه بدمه وترابه، وقد ثبت فى الصحيح أن رجلا قال: يا رسول الله، أرأيت إن قُتلت فى سبيل الله صابرا مُحْتَسباً مُقْبلا غير مُدبِر، أيُكفِّر الله عنى خطاياى؟ قال: «نعم» ثم قال: «كيف قلت؟» : فأعاد عليه[٢] ما قال، فقال: «نعم، إلا الدَّين، قاله لى جبريل آنفاً».

ولهذا قال تعالى: ﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أى: تجرى فى خلالها الأنهار من أنواع المشارب، من لبن وعسل وخمر وماء غير آسِن وغير ذلك، مما لا عَيْنَ رأتْ، ولا أذن سَمِعت، ولا خَطَر على قلب بَشَر.

وقوله: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يعطى إلا جَزيلا كثيراً، كما قال الشاعر:

إن يُعَذب يكُن غَراماً وإن يُعْـــ ـــطِ جزيلاً فإنَّه لا يُبَالى

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ[٣]﴾ أى: عنده حُسْن الجزاء لمن عمل صالحا.

قال ابن أبى حاتم: ذكر عن دُحَيم بن إبراهيم: حدثنا الوليد بن مسلم، أخبرنى حَرِيز[٤] بن عثمان: أن شداد بن أوس كان يقول: يأيها الناس، لا تَتهموا الله فى قضائه، فإنه[٥] لا يبغى على مؤمن، فإذا نزَل بأحدكم شىء مما يُحب فليحْمَد الله، وإذا أنزل[٦] به شىء مما يكره فَلْيَصْبر وليحتسب، فإن الله عنده حسن الثواب.

﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ (١٩٨)﴾.

---

(١) فى جـ، ر، أ، و: «مخبرا». (٢) فى أ، و: «قال: فأعاد عليه». (٣) فى أ: «المآب» وهو خطأ.
(٤) فى جـ، ر: «جرير». (٥) فى أ: «فإن الله»، وفى و: «فالله». (٦) فى جـ، ر، أ: «نزل».

يقول تعالى: لا تنظروا[١] إلى ما هؤلاء الكفار مُتْرفون فيه، من النِّعْمَة والغِبْطَة والسرور، فعمّا قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مُرتَهنين بأعمالهم السيئة، فإنما نَمُدّ لهم فيما هم فيه استدراجا، وجميع ما هم فيه ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾ [غافر: ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]، وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧]، أي: قليلا، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١]، وهكذا لما ذكر حال الكفار فى الدنيا وذكر مآلهم إلى النار قال بعده: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً﴾ أى: ضيافة من عند الله ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾.

وقال[٢] ابن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن نصر[٣]، أخبرنا أبو طاهر سهل بن عبد الله، أنبأنا[٤] هشام ابن عَمَّار، أنبأنا سعيد بن يحيى، أنبأنا عُبَيد الله بن الوليد الوصافى[٥]، عن مُحَارب بن دثَار، عن عَبْد الله بن عَمْرو بن العاص، عن النبى ﷺ قال: «إنما سُمّوا الأبرار لأنهم بَرّوا الآباء والأبناء، كما أن لوالديك عليك حقا، كذلك لولدك عليك حق».

كذا رواه ابن مردُويه عن عَبْد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا[٦]، وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن جَنَاب، حدثنا عيسى بن يونس، عن عُبَيد الله بن الوليد الوصافى[٧]، عن محارب بن دثار عن ابن عُمَر قال: إنما سماهم الله أبراراً لأنهم بَرّوا الآباء والأبناء، كما أن لوالديك[٨] عليك حقا، كذلك لولدك عليك حق، وهذا أشبه والله أعلم[٩].

ثم قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام الدَّسْتَوائى، عن رجل، عن الحسن قال: الأبرار الذين لا يؤذون الذَّرّ.

وقال ابن أبى حاتم أيضا: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن خَيْثَمَة، عن الأسود قال: قال عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ: ما من نَفْس بَرّة ولا فاجرة إلا الموت خيرٌ لها، لئن كان برا لقد قال الله: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾.

---

(١) في ر: «تنظر». (٢) فى جـ، أ، و: «قال». (٣) فى جـ،أ: «نصير».
(٤) فى جـ: «ابن». (٥) فى جـ: «عبد الله بن الوليد الرصافى».
(٦) وهو غير محفوظ، وإنما المحفوظ عن ابن عمر، وقد تفرد به أبو طاهر سهل بن عبد الله.
(٧) فى جـ: «عبد الله بن الوليد الرصافى». (٨) فى أ، و: «لوالدك».
(٩) ورواه ابن عدى فى الكامل (٤/ ٣٢٣) من طريق محمد بن خريم عن هشام بن عمار عن سعيد بن يحيى عن عبيد الله بن الوليد الوصافى عن محارب بن دثار عن عبد الله بن عمر بن الخطاب مرفوعا. ورواه البخارى فى الأدب المفرد برقم (٩٤) من طريق عبيدالله بن الوليد الوصافى عن محارب بن دثار عن عبد الله بن عمر بن الخطاب موقوفا. قال السيوطى فى الدر (٢/ ٤١٦): «ووقفه أصح». وفى إسناده عبيد الله بن الوليد الوصافى متفق على ضعفه. وقال ابن عدى: «ضعيف جدًا يتبين ضعفه على حديثه».

وكذا رواه عبد الرزاق، عن الأعمش، عن الثورى، به، وقرأ: ﴿ولا يحسبن[١] الَّذين كفروا أنَّما نملي لهم خير لأنفسهم إنَّما نملي لهم ليزدادوا إثمًا ولهم عذاب مُّهين﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا ابن أبى جعفر، عن فرج بن فضالة، عن لقمان، عن أبى الدرداء أنه كان يقول: ما من مؤمن إلا والموت خير له، وما من كافر إلا والموت خير له، ومن لم يصدقنى فإن الله يقول: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾، ويقول: ﴿ولا يحسبنَّ الَّذين كفروا أنَّما نملي لهم خير لأنفسهم إنَّما نملي لهم ليزدادوا إثمًا ولهم عذاب مُّهين﴾.

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾.

يخبرُ تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، وبما أنزل على محمد، مع ما هم يؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أى: مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه، ﴿لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلا﴾ أى: لا يكتمون بأيديهم من البشارات بمحمد ﷺ، وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هوداً أو نصارى. وقد قال تعالى فى سورة القصص: ﴿الَّذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يتلى[٢] عليهم قالوا آمنَّا به إنَّه الحق من ربِّنا إنَّا كنَّا من قبله مسلمين. أولئك يؤتون أجرهم مرَّتين بما صبروا﴾ الآية [القصص: ٥٢ ـ ٥٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾ الآية [البقرة: ١٢١]، وقال: ﴿ومن قوم موسى أمَّة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿ليسوا سواء مِّن أهل الكتاب أمَّة قائمة يتلون آيات الله آناء اللَّيل وهم يسجدون﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إنَّ الَّذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدًا. ويقولون سبحان ربِّنا إن كان وعد ربِّنا لمفعولاً. ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩]، وهذه الصفات توجد فى اليهود، ولكن قليلا، كما وجد فى عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ولم يبلغوا عَشَرَةَ أنفس، وأما النصارى فكثير منهم مهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى: ﴿لتجدنَّ أشدَّ النَّاس عداوةً لِّلَّذين آمنوا اليهود والَّذين أشركوا ولتجدنَّ أقربهم مَّودَّةً لِّلَّذين آمنوا الَّذين قالوا إنَّا نصارى [ذلك بأنَّ منهم قسيسين ورهبانًا وأنَّهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرَّسول ترى أعينهم تفيض من الدَّمع ممَّا عرفوا من الحق يقولون ربَّنا آمنَّا فاكتبنا مع الشَّاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربُّنا مع القوم الصَّالحين.[٣]] فأثابهم الله بما قالوا جنَّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ الآية [المائدة: ٨٢ ـ ٨٥]، وهكذا قال هاهنا: ﴿أولئك لهم أجرهم عند ربِّهم [إنَّ الله سريع الحساب][٤]﴾ الآية.

---

(١) فى أ: «ولا تحسبن».
(٢) فى جـ، أ: «تتلى».
(٣) زيادة من جـ، ر، و. وفى هـ: «إلى قوله تعالى».
(٤) زيادة من جـ، ر، أ.

وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، لَمَّا قرأ سورة ﴿كهيعص﴾ بحضرة النجاشي ملك الحبشة، وعنده البطاركة والقساوسة[١] بكَى وبكَوْا معه، حتى أخْضَبُوا[٢] لِحاهَمُ.

وثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نَعَاه النبي[٣] ﷺ إلى أصحابه، وقال: «إن أخًا[٤] لكم بالحبشة قد مات فصَلُّوا عليه». فخرج [بهم][٥] إلى الصحراء، فَصفَّهم، وصلى عليه[٦].

وروى ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: لما تُوفى النجاشي قال رسولُ الله ﷺ: «استغفروا لأخيكم». فقال بعض الناس: يأمرنا أن نستغفر لعلْج مات بأرض الحبشة. فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية.

ورواه عبد بن حميد وابن[٧] أبي حاتم من طريق أخرى عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن الحسن[٨]، عن النبي ﷺ[٩]. ثم رواه ابن مَرْدويه [أيضا][١٠] من طرق عن حُمَيْد، عن أنس بن مالك بنحو ما تقدم[١١].

ورواه أيضاً ابن[١٢] جرير من حديث أبي بكر الهُذَلي، عن قَتَادة، عن سعيد بن المُسَيَّب، عن جابر قال: قال [لنا][١٣] رسول الله ﷺ حين مات النجاشي: «إن أخاكم أصْحَمة قد مات». فخرج رسولُ الله ﷺ فصلَّى كما يُصَلِّى على الجنائز فكبر عليه أربعا، فقال المنافقون: يصلي على علج مات بأرض الحبشة: فأنزل الله [عز وجل][١٤]: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ [وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ][١٥]﴾[١٦].

وقد روى الحافظُ أبو عبد الله الحاكم في مستدركه أنبأنا أبو العباس السياري بمرو، حدثنا عبد الله ابن علي الغزال، حدثنا علي بن الحسن بن شقيق، حدثنا ابن المبارك، أنبأنا مصعب بن ثابت، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه قال: نزل بالنجاشي عَدُوٌّ من أرضهم، فجاءه المهاجرون فقالوا: نحب[١٧] أن نَخْرُجَ إليهم حتى نقاتل معك، وترى جرأتنا، ونجزيك بما صنعت بنا. فقال: لا، دواء

---

(١) في جـ، ر: «القساقسة». (٢) في جـ، ر: «أخضلوا». (٣) في جـ، ر، أ، و: «رسول الله».
(٤) في جـ: «أخاكم». (٥) زيادة من جـ، أ، و.
(٦) صحيح البخاري برقم (١٣٢٠) وصحيح مسلم برقم (٩٥٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.
(٧) في ر: «عن». (٨) في جـ، ر: «أنس».
(٩) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٢٦٨٨) من طريق مؤمل بن إسماعيل عن حماد بن سلمة به. ثم قال: «لم يروه عن حماد إلا مؤمل».
(١٠) زيادة من أ، و.
(١١) ورواه الطبراني في الأوسط برقم (٣٩٢٨) «مجمع البحرين» من طريق أبي بكر بن عياش عن حميد عن أنس به. قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٣٨): «رجاله ثقات». ورواه الواحدي في الوسيط (١/ ٥٣٦) من طريق معتمر بن سليمان عن حميد عن أنس به.
(١٢) في ر: «وابن». (١٣) زيادة من جـ، ر. (١٤) زيادة من جـ، أ.
(١٥) زيادة من جـ، ر، أ، و.
(١٦) تفسير الطبري (٧/ ٤٩٦).
(١٧) في جـ، ر: «إنا نحب».

بنصرة الله عز وجل خَيْر من دواء بنصرة الناس. قال: وفيه نزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه[(١)].

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن عَمْرو الرازى، حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، حدثنى يزيد بن رومان، عن عروة، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: لما مات النجاشى كنا نُحَدِّث أنه لا يزال يرى على[(٢)] قبره نور[(٣)].

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعنى: مُسلمة أهل الكتاب.

وقال عَباد بن منصور: سألت الحسن البصرى عن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ [وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ][(٤)]﴾الآية. قال: هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ، فاتبعوه وعرفوا الإسلام، فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين[(٥)] للذى[(٦)] كانوا عليه من الإيمان[(٧)] قبل محمد ﷺ وبالذى اتبعوا محمداً ﷺ. رواهما ابن أبى حاتم.

وقد ثبت فى الصحيحين، عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يُؤتَوْنَ أجرَهم مرتين» فذكر منهم: «ورجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى»[(٨)].

وقوله: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أى: لا يكتمون ما بأيديهم من العلم، كما فعله الطائفة المرذولة منهم[(٩)]، بل يبذلون ذلك مجانا؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

قال مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يعنى: سريع الإحصاء. رواه ابن أبى حاتم وغيره.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ قال الحسن البصرى، رحمه الله: أمروا أن يصبروا على دينهم الذى ارتضاه الله لهم، وهو الإسلام، فلا يدعوه لسرّاء ولا لضرّاءَ ولا لشدَّة ولا لرخَاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون[(١٠)] دينهم. وكذا قال غير واحد من علماء السلف.

وأما المرابطة فهى المداومة فى مكان العبادة والثبات. وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة، قاله [مجاهد و][(١١)] ابن عباس وسهل بن حُنَيف، ومحمد بن كعب القُرَظى، وغيرهم.

وروى ابن أبى حاتم هاهنا الحديث الذى رواه مسلم والنسائى، من حديث مالك بن أنس، عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب، مولى الحُرَقَة، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «ألا

(١) المستدرك (٢/ ٣٠٠) واقره الذهبى.
(٢) فى جـ، أ: «فى».
(٣) سنن أبى داود برقم (٢٥٢٣).
(٤) زيادة من جـ، ر، أ، و. (٥) فى جـ، ر: «إحدى اثنتين». (٦) فى أ: «للذين».
(٧) فى جـ، ر، أ، و: «الإسلام».
(٨) صحيح البخارى برقم (٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٥٤).
(٩) فى أ: «بينهم». (١٠) فى ر، أ، و: «يميلون». (١١) زيادة من و.

أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ إسباغُ الوضوء على المكاره، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرِّباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»[(١)].

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد، حدثنا موسى بن إسحاق حدثنا أبو جُحَيْفة[(٢)] على ابن يزيد الكوفى، أنبأنا ابن أبى كريمة، عن محمد بن يزيد[(٣)]، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال: أقبل علىَّ أبو هريرة يوما فقال: أتدرى يا ابن أخى فيم نزلت[(٤)] هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾؟ قلت: لا. قال: أما إنه لم يكن فى زمان النبى ﷺ غزو يرابطون فيه، ولكنها نزلت فى قوم يعمرون المساجد، يصلون الصلاة فى مواقيتها، ثم يذكرون الله فيها، فعليهم أنزلت: ﴿اصْبِرُوا﴾ أى: على الصلوات الخمس ﴿وَصَابِرُوا﴾ [على][(٥)] أنفسكم وهواكم ﴿وَرَابِطُوا﴾ فى مساجدكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(٦)].

وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه من طريق سعيد بن منصور بن المبارك عن مصعب بن ثابت، عن داود بن صالح، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة ـ بنحوه[(٧)].

وقال ابن جرير: حدثنى أبو السائب، حدثنى ابن فضيل[(٨)]، عن عبد الله بن سعيد المقبرى، عن جده، عن شرحبيل، عن على، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يُكَفِّر الذنوب والخطايا؟ إسْباغُ الوُضوُء على المكاره، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرِّباط»[(٩)].

وقال ابن جرير أيضا: حدثنا موسى بن سَهْل الرملى، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا محمد بن مُهاجر، حدثنى يحيى بن يزيد، عن زيد بن أبى أُنَيْسَة، عن شُرَحْبيل، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدُلُّكم على ما يَمْحُو الله به الخطايا ويُكفِّر به الذنوب؟» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضُوء فى أماكنها، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرِّباط»[(١٠)].

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنى محمد بن على، أنبأنا محمد بن عبد الله بن[(١١)] السلام البيروتى، أنبأنا محمد بن غالب الأنطاكى، أنبأنا عثمان بن عبد الرحمن، أنبأنا الوازع بن نافع، عن أبى سلمة

---

(١) رواه مالك فى الموطأ فى قصر الصلاة برقم (٥٥) ومن طريقه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٣٩).

(٢) فى جـ: «حجية»، وفى أ: «جحيفة». (٣) فى أ: «سويد». (٤) فى جـ، ر، أ، و: «أنزلت».

(٥) زيادة من أ.

(٦) ذكره السيوطى فى الدر (٢/ ٤١٧) وعزاه لابن مردويه.

(٧) المستدرك (٢/ ٣٠١) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وأقره الذهبى. ورواه الطبرى فى تفسيره (٧/ ٥٠٤) من طريق ابن المبارك عن مصعب بن ثابت عن داود من كلام أبى سلمة كما سيأتى.

(٨) فى ر: «فضل».

(٩) تفسير الطبرى (٧/ ٥٠٥) وفى إسناده المقبرى: عبد الله بن سعيد، ضعيف ورمى بالكذب.

(١٠) تفسير الطبرى (٧/ ٥٠٥، ٥٠٦) ورواه البزار (١/ ٢٢٣) «كشف الأستار» وقال: «لا نعلم يروى هذا عن جابر بغير هذا الإسناد» ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٦١) «موارد» كلاهما من طريق محمد بن سلمة عن خالد بن يزيد عن محمد بن سلمة به.

(١١) فى جـ، ر، أ، و: «عبد الله بن عبد السلام».

ابن عبد الرحمن، عن أبي أيوب، رضي الله عنه، قال: وقف علينا رسول الله ﷺ فقال: «هل لكم[(١)] إلى ما يمحو الله به الذنوب ويعظم به الأجر؟» قلنا: نعم، يا رسول الله، وما هو؟ قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة».

قال: «وهو قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فذلك هو الرباط في المساجد» وهذا حديث غريب من هذا الوجه جداً[(٢)].

وقال عبد الله بن المبارك، عن مُصْعَب بن ثابت بن عبد الله بن الزُّبَيْر، حدثني داود بن صالح قال: قال لي أبو سلمة بن عبد الرحمن: يا ابن أخي، هل تدري في أي شيء نزلت هذه الآية ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾؟ قال: قلت: لا. قال: إنه ـ يا ابن أخي ـ لم يكن في زمان النبي ﷺ غَزْو يُرَابَطُ فيه، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة. رواه ابن جرير، وقد تقدم سياقُ ابن مَرْدُويه، وأنه من كلام أبي هريرة، فالله أعلم.

وقيل: المراد بالمرابطة هاهنا مرابطة الغزو في نُحور العدوّ، وحفظ ثُغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حَوْزَة بلاد المسلمين، وقد وردت الأخبار بالترغيب في ذلك، وذِكْر كثرة الثواب فيه، فرَوَى البخاري في صحيحه عن سَهْل بن سَعْد الساعدي، رضي الله عنه[(٣)]: أنَ رسول الله ﷺ قال: «رِبَاط يوم في سَبِيل الله خير من الدنيا وما عليها»[(٤)].

حديث آخر: روى مسلم، عن سَلْمان الفارسي، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رباطُ يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإنْ مات جرَى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجْرِيَ عليه رزْقُه، وأمِنَ الفتّان»[(٥)].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا ابن المبارك، عن حَيْوة بن شُرَيح، أخبرني أبو هانئ الخولاني، أن عمرو بن مالك الجَنْبي[(٦)] أخبره: أنه سمع فُضالة بن عُبيد يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ميّت يُخْتَمُ على عمله، إلا الذي مات مُرَابطاً في سبيل الله، فإنه يَنْمى[(٧)] له عملُه إلى يوم القيامة، ويأمن فتنة القبر».

وهكذا رواه أبو داود، والترمذي من حديث أبي هانئ الخولاني. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه ابن حبان في صحيحه أيضاً[(٨)].

حديث آخر: وروى الإمام أحمد أيضاً عن يحيى بن إسحاق وحسن بن موسى وأبي[(٩)] سعيد

---

(١) في جـ، أ: «هل أدلكم».

(٢) وفي إسناده الوازع بن نافع، قال ابن معين: ليس بثقة. وقال البخاري: منكر الحديث وتركه النسائي. وقال ابن عدي: عامة ما يرويه الوازع غير محفوظ. ميزان الاعتدال (٤/ ٣٢٧).

(٣) في أ، و: «عنهما».

(٤) صحيح البخاري برقم (٢٨٩٢).

(٥) صحيح مسلم برقم (١٩١٣).

(٦) في أ: « الختني».

(٧) في جـ، ر: «ينموا».

(٨) المسند (٦/ ٢٠) وسنن أبي داود برقم (٢٥٠٠) وسنن الترمذي برقم (١٦٢١) وصحيح ابن حبان (٧/ ٦٩) «الإحسان».

(٩) في جـ، أ : «أبو» .

[وعبد الله بن يزيد][١] قالوا: حدثنا[٢] ابن لَهِيعة حدثنا مَشْرَح بن هاعان، سمعت عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ميت يُختَم على عمله، إلا المرابط فى سبيل الله، فإنه يجرى عليه[٣] عمله حتى يُبعَثَ ويأمن من الفتَّان»[٤].

وروى الحارث بن محمد بن أبى أسامة فى مسنده، عن المقبرى وهو عبد الله بن يزيد، به إلى قوله: «حتى يبعث» دون ذكر «الفتان»[٥]. وابن لَهِيعة إذا صرح بالتحديث فهو حَسَن، ولا سيما مع ما تقدم من الشواهد.

حديث آخر: قال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة فى سننه: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا عبد الله بن وَهْب، أخبرنى اللَّيْث، عن زُهرة بن مَعْبَد[٦]، عن أبيه، عن أبى هُرَيرة، عن رسول الله ﷺ قال: «من مات مُرَابطاً فى سبيل الله، أجرى[٧] عليه عمله الصالح الذى كان يعمل وأُجْرى عليه رزقه، وأمن من الفتان، وبعثه الله يوم القيامة آمنا من الفزَع»[٨].

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا موسى، أنبأنا ابن لَهِيعة، عن موسى بن وَرْدان، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «من مات مُرابطا وقى فتنة القبر، وأمن[٩] من الفزَع الأكبر، وغدَا عليه وريح برزقه من الجنة، وكتب له أجر المرابط إلى يوم القيامة»[١٠].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا إسماعيل بن عيَّاش، عن محمد ابن عمرو بن حَلْحَلَة الدؤلى، عن إسحاق بن عبد الله، عن أم الدَّرْداء ترفع الحديث قالت[١١]: «من رابط فى شىء من سواحل المسلمين ثلاثة أيام، أجزأت عنه رباط سنة»[١٢].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا كَهْمَس، حدثنا مُصْعب بن ثابت ابن عبد الله بن الزبير قال: قال عثمان، رضى الله عنه ـ وهو يخطب على منبره ـ: إنى مُحدِّثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم يكن يمنعنى أن أحدثكم به إلا الضِّن بكم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حَرْسُ ليلة فى سبيل الله أفضل[١٣] من ألف ليلة يقام ليلها ويُصَام نهارها»[١٤].

وهكذا رواه أحمد أيضا عن رَوْح عن كهمس عن مصعب بن ثابت، عن عثمان[١٥]. وقد رواه ابن ماجة عن هشام بن عمَّار، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن مُصْعب بن ثابت،

---

(١) زيادة من جـ، ر،أ، و. (٢) فى جـ، ر، أ، و: «كلهم عن عبد الله بن لهيعة». (٣) فى أ: «له».
(٤) المسند (٣/ ١٥٧) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٢٨٩): «فيه ابن لهيعة وحديثه حسن».
(٥) مسند الحارث برقم (٦٢٧) «بغية الباحث» ورواية عبد الله بن يزيد عن ابن لهيعة صحيحه، فهو ممن روى عنه قبل الاختلاط.
(٦) فى ر: «وابن سعيد». (٧) فى أ، و: «أجر».
(٨) سنن ابن ماجة برقم (٢٧٦٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٣٩١): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».
(٩) فى ر: «وأومن».
(١٠) المسند (٢/ ٤٠٤).
(١١) فى ر، أ، و : «قال».
(١٢) المسند (٦/ ٣٦٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٢٨٩): «رواه أحمد والطبرانى من رواية إسماعيل بن عياش عن طريق المدنيين وبقية رجاله ثقات».
(١٣) فى أ: «خير».
(١٤) المسند (١/ ٦٤).
(١٥) المسند (١/ ٦١).

عن عبد الله بن الزبير قال: خطب عثمان بن عفان الناس فقال: يأيها الناس، إنى سمعت حديثا من رسول الله ﷺ لم يمنعنى أن أحدثكم به إلا الضِّنّ بكم وبصحابتكم، فَليختَرْ مُختَار لنفسه أو ليَدَعْ. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رَابطَ لَيْلة فى سَبِيل الله كانت كألْف ليلة صِيامها وقيامها»[(١)].

طريق أخرى عن عثمان [رضى الله عنه][(٢)]: قال الترمذى: حدثنا الحسن بن على الخلال، حدثنا هشام بن عبد الملك، حدثنا الليثُ بن سعد، حدثنا أبو[(٣)] عَقِيل زهْرَة بن مَعْبد، عن أبى صالح مولى عثمان بن عفان قال: سمعت عثمان ـ وهو على المنبر ـ يقول: إنى كَتَمْتُكُمْ حديثا سمعته من رسول الله ﷺ كَرَاهية تفرقكم عنى، ثم بدا لى أن أحدثكُمُوه، ليختار امرؤ لنفسه ما بدا له، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رباطُ يوم فى سَبِيل الله خَير من ألف يوم فيما سِوَاه من المنازل».

ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه،قال محمد ـ يعنى البخارى ـ:أبو صالح مولى عثمان اسمه بُرْكان[(٤)] وذكر غير الترمذى أن اسمه الحارث،فالله أعلم[(٥)]وهكذا رواه الإمام أحمد من حديث الليث بن سعد وعبد الله بن لَهِيعة وعنده زيادة فى آخره فقال ـ يعنى عثمان ـ: فليرابط امرؤ كيف شاء، هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد[(٦)].

حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذى: حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، حدثنا محمد بن المُنْكَدر قال: مر سَلْمان الفارسى بشُرَحْبِيل بن السِّمْط، وهو فى مُرَابَط له، وقد شَق عليه وعلى أصحابه فقال: أفلا[(٧)] أحدثك ـ يا ابن السمط ـ بحديث سمعتُه من رسول الله ﷺ؟ قال: بلى. قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «رِبَاط يوم فى سبيل الله أفضل ـ أو قال: خير ـ من صيام شهر وقيامه، ومن مات فيه وُقِى فِتْنَةَ القبر، ونَمَى له عمله إلى يوم القيامة».

تفرد به الترمذى من هذا الوجه، وقال: هذا حديث حسن[(٨)]. وفى بعض النسخ زيادة: وليس إسناده بمتصل، وابن المنكدر لم يدرك سلمان.

قلت: الظاهر أن محمد بن المنكدر سمعه من شرحبيل بن السِّمط وقد رواه مسلم والنسائى من حديث مكحول وأبى عُبيدة بنُ عقبة، كلاهما عن شرحبيل بن السمط ـ وله صحبة ـ عن سلمان الفارسى عن النبى ﷺ أنه قال: «رِباطُ يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله، وأجرِى عليه رزقُه، وأمن الفَتَّان» وقد تقدم[(٩)] سياق مسلم بمفرده[(١٠)].

حديث آخر: قال ابن ماجة: حدثنا محمد بن إسماعيل بن سَمُرة، حدثنا[(١١)] محمد بن يَعْلى

---

(١) سنن ابن ماجة برقم (٢٧٦٦) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٣٩٠): «إسناده ضعيف».

(٢) زيادة من و.

(٣) فى جـ: «أبى». (٤) فى جـ، أ: «تركان».

(٥) سنن الترمذى برقم (١٦٦٧) ورواه النسائى فى السنن (٦/ ٣٩).

(٦) المسند (١/ ٦٢).

(٧) فى جـ: «ألا».

(٨) سنن الترمذى برقم (١٦٦٥).

(٩) فى جـ: «قدم».

(١٠) صحيح مسلم برقم (١٩١٣) وسنن النسائى (٣٩١٦).

(١١) فى جـ: «قال: حدثنا».

السُّلَمى، حدثنا عُمَر بن صُبْح، عن عبد الرحمن بن عَمْرو، عن مكحول، عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «لرِبَاط يوم فى سبيل الله، من وراء عَوْرَة المسلمين مُحْتَسباً، من غير شهر رمضان، أعظمُ أجراً من عبادة مائة سنة، صيامها وقيامها. ورباطُ يوم فى سبيل الله، من وراء عورة المسلمين محتسبا، من شهر رمضان، أفضل عند الله وأعظم أجرا ـ أراه قال ـ: من عبادة ألف سنة صيامها، وقيامها فإن رده الله تعالى إلى أهله سالما، لم تكتب[(١)] عليه سيئة ألف سنة، وتكتب له الحسنات، ويُجْرَى له أجر الرباط إلى يوم القيامة».

هذا حديث غريب، بل منكر من هذا الوجه، وعُمَر بن صُبْح مُتَّهم[(٢)].

حديث آخر: قال ابن ماجة: حَدثنا عيسى بن يونس الرمْلى، حدثنا محمد بن شُعيب بن شابور، عن سعيد بن خالد بن أبى طويل، سمعتُ أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حَرْسُ ليلة فى سبيل الله أفضل من صيام رَجُل وقيامه فى أهله ألف سنة: السنة ثلاثمائة وستون[(٣)] يوما، واليوم[(٤)] كألف سنة».

وهذا حديث غريب أيضا[(٥)]، وسعيد بن خالد هذا ضَعَّفَه أبو زُرْعَة وغير واحد من الأئمة، وقال العقيلى: لا يتابع على حديثه. وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به. وقال الحاكم: روى عن أنس أحاديث موضوعة.

حديث آخر: قال ابن ماجة: حدثنا محمد بن الصَّبَّاح، أنبأنا عبد العزيز بن محمد، عن صالح ابن مُحمَّد بن زائدَةَ، عن عُمَرَ بن عبد العزيز، عن عقبة بن عامر الجهنى قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله حارس الحرس»[(٦)].

فيه انقطاع بين عمر بن عبد العزيز وبين عقبة بن عامر، فإنه لم يدركه، والله أعلم.

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا أبو تَوْبَةَ، حدثنا معاوية ـ يعنى ابن سلام عن زيد ـ يعنى ابن سلام ـ أنه سمع أبا سلام قال: حدثنى السلولى: أنه حدثه سهل بن الحنظلية[(٧)]: أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حُنين، فأطنبوا السير حتى كانت عَشيَّة، فحضرت الصلاة مع رسول الله ﷺ، فجاء رجل فارس فقال: يا رسول الله، إنى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهُوازن على بكْرَة أبيهم بظُعنهم ونَعَمهم وشَائهم[(٨)]، اجتمعوا إلى حنين، فتبسم النبى ﷺ وقال: «تلك غَنيمَة المسلمين غدًا إن شاء الله [تعالى[(٩)]]». ثم قال: «من يحرسنا الليلة؟» قال أنس بن أبى مرثد: أنا يا رسول الله. فقال[(١٠)]: «فاركب» فركب فرساً له، فجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له

(١) فى جـ: «يكتب».
(٢) سنن ابن ماجة برقم (٢٧٦٨).
(٣) فى جـ، ر، أ: «وستين». (٤) فى جـ، ر: «يوم اليوم».
(٥) سنن ابن ماجة برقم (٢٧٧٠).
(٦) سنن ابن ماجة برقم (٢٧٦٩) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٣٩٤): «هذا إسناد ضعيف. صالح بن محمد ضعفه ابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم والبخارى وأبو داود والنسائى وابن عدى وغيرهم».
(٧) فى ر: «الحنظلية». (٨) فى ر، أ: «وشياهم». (٩) زيادة من جـ، أ.
(١٠) فى جـ، أ، و: «قال».

رسول الله ﷺ: «اسْتَقْبِل هذا الشِّعْب حتى تكون فى أعلاه ولا يُغَرَّن[١] من قِبَلك الليلة» فلما أصبحنا خرَج رسول الله ﷺ إلى مُصَلاّه فركع ركعتين ثم قال: «هل أحسستم فارسكم؟» قال رجل: يا رسول الله، ما أحسسناه، فثُوِّب بالصلاة، فجعل النبى ﷺ، وهو يصلى يلتفت إلى الشعب، حتى إذا قضى صلاته قال: «أبْشِرُوا فقد جاءكم فارسكم» فجعلنا ننظر إلى خِلال الشجر فى الشعب، فإذا هو قد جاء، حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: إنى انطلقت حتى كنت فى أعلى هذا الشعب حيث رسول الله[٢] ﷺ، فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما، فنظرت فلم أر أحداً، فقال له رسول الله ﷺ: «هل نزلت الليلة؟» قال: لا، إلا مصلياً أو قاضياً حاجة، فقال له: «أوْجَبْتَ، فلا عليك ألا تعمل بعدها».

ورواه النسائى عن محمد بن يحيى بن محمد بن كثير الحرانى، عن أبى توبة وهو الربيع بن نافع به[٣].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحُبَاب: حدثنا عبد الرحمن بن شُرَيح، سمعت محمد بن شُمَير[٤] الرُّعَيْنى يقول: سمعت أبا عامر التَّجيبى. قال الإمام أحمد: وقال غير زيد: أبا على الجَنْبى[٥] يقول: سمعت أبا ريحانة يقول: كنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة، فأتينا ذات ليلة إلى شَرَف فَبِتْنَا عليه، فأصابنا برد شديد، حتى رأيتُ مَنْ يحفر فى الأرض حفرة، يدخل فيها ويلقى عليه الجَحْفَة ـ يَعنى التُّرس ـ فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ من الناس نادى: «من يَحْرُسُنا فى هذه الليلة فأدعو له بدعاء يكون له فيه فضل؟» فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله. فقال: «ادْنُ» فدنا، فقال: «من أنت؟» فتسمى له الأنصارى، ففتح رسول الله ﷺ بالدعاء، فأكثر منه. فقال[٦] أبو ريحانة: فلما سمعت ما دعا به رسول الله ﷺ قلت[٧]: أنا رجل آخر. فقال: «ادن». فدنوت. فقال: من أنت؟ قال: فقلت: أنا أبو ريحانة. فدعا بدعاء هو دون ما دعا للأنصارى، ثم قال: «حُرِّمَت النار على عَيْنٍ دَمِعَت ـ أو بكَتْ ـ من خَشْيَةِ الله، وحرمت النار على عين سَهِرَتْ فى سَبِيل الله».

وروى النسائى منه: «حرمت النار. . .» إلى آخره عن عِصْمَة بن الفضل، عن زيد بن الحباب به، وعن الحارث بن مسكين، عن ابن وَهْب، عن عبد الرحمن بن شُرَيح، به، وأتم، وقال فى الروايتين: عن أبى على الجنبى[٨] [٩].

حديث آخر: قال الترمذى: حدثنا نصر بن على الجَهْضَمِىّ، حدثنا بِشْر بن عُمَر، حدثنا شعيب ابن رزَيق أبو شَيْبة، حدثنا عطاء الخراسانى، عن عطَاء بن أبى رَبَاح، عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عَيْنان لا تَمَسُّهما النار: عَيْنٌ بكَتْ من خَشْيَةِ الله، وعين باتت تَحْرُسُ فى سبيل الله».

---

(١) فى جـ، أ، و: «تغرن». (٢) فى جـ، ر، أ: «حيث أمرنى رسول الله».
(٣) سنن أبى داود برقم (٢٥٠١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٨٧٠).
(٤) فى جـ، ر: «سمير». (٥) فى جـ، ر، و: «الحنفى». (٦) فى جـ، ر، أ، و: «قال».
(٧) فى جـ، ر: «فقلت». (٨) فى أ، و: «التجيبى».
(٩) المسند (٤/١٣٤) وسنن النسائى (٥/١٥).

ثم قال: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث شُعَيب بن رُزَيق[١]، قال: وفى الباب عن عثمان وأبى ريحانة[٢].

قلت: وقد تقدما، ولله الحمد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غَيْلان، حدثنا رشْدين، عن زبّان[٣] عن سهل ابن معاذ عن أبيه معاذ بن أنس، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «من حَرَس من وراء المسلمين فى سبيل الله، متطوعا لا بأجرة سلطان، لم ير النار بعينيه إلا تَحِلَّة القَسَم، فإن الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾[مريم: ٧١].

تفرد به أحمد[٤] رحمه الله [تعالى][٥].

حديث آخر: روى البخارى فى صحيحه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال النبى ﷺ: «تَعسَ عبد الدينار وعبد الدِّرْهَم وعبد الخَميصة، إن أُعطىَ رضى، وإن لم يُعْطَ سَخط، تَعس وانتكَسَ، وإذا شيك فلا انْتَقَش[٦]، طُوبَى لعَبْد آخذ بعنان فَرَسه فى سبيل الله، أشعثَ رأسُهُ، مُغْبَرة قدماه، إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة، وإن كان فى السَّاقة كان فى الساقة، إن استأذن لم يؤْذنَ له، وإن شَفَع لم يُشفَّع»[٧].

فهذا ما تَيَسَّر إيرادُه من الأحاديث المتعلقة بهذا المقام، ولله الحمدُ على جزيل الإنعام، على تعاقب الأعوام والأيام.

وقال ابن جرير: حدثنى المُثَنَّى، حدثنا مُطَرِّف بن عبد الله المدنى[٨]، حدثنا مالك، عن زيد بن أسلم قال: كتب أبو عبيدة، رضى الله عنه، إلى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، يذكر له جموعا من الروم وما يتخوف منهم، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه مهما يَنْزِلْ بعبد مؤمن من مَنزِلَة شدة يجعل الله بعدها فرجا، وإنه لن يغلب عُسْر يسرين، وإن الله تعالى يقول فى كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٩].

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الله بن المبارك[١٠]، من طريق محمد بن إبراهيم بن أبى سكينة قال: أملى علىّ عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس، وودعته للخروج، وأنشدها

(١) فى أ: «زريق».
(٢) سنن الترمذى برقم (١٦٣٩).
(٣) فى ر: «رثان».
(٤) المسند (٣/٤٣٧).
(٥) زيادة من ر.
(٦) فى ر: «انتفش».
(٧) صحيح البخارى برقم (٢٨٨٦).
(٨) فى ر: «المدينى».
(٩) تفسير الطبرى (٧/٥٠٣) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٠٠) من طريق زيد بن أسلم به وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى.
(١٠) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٤/٢٢).

معى إلى الفضيل بن عياض فى سنة سبعين ومائة ، وفى رواية: سنة سبع وسبعين ومائة:

يا عابدَ الحرمين لَوْ أبْصَرْتَنا ... لَعَلمْتَ أنكَ فى العبادة تلعبُ
من كان يخضب خدَّه بدموعه ... فَنُحورنا بدمائنا تَتَخضَّب
أو كان يُتعِبُ خَيْلَه فى باطلٍ ... فخُيولنا يومَ الصبيحة تَتْعبُ
ريحُ العبيرِ لكم ،ونحنُ عبيرُنا ... وَهجُ السنابك والغبارُ الأطيبُ
ولَقَد أتانا منْ مَقَالِ نبينا ... قول صَحيح صادق لا يَكْذبُ
لا يستوى وَغُبَارَ خيل الله فى ... أنف امرئ ودخانَ نار تَلْهَبُ
هذا كتاب الله يَنْطق بيننا ... ليس الشهيدُ بميِّت، لا يَكْذبُ

قال: فلقيت الفُضيل بن عياض بكتابه فى المسجد الحرام، فلما قرأه ذَرِفَتْ عَيْنَاهُ وقال: صَدَق أبو عبد الرحمن، ونصحنى، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قال: قلت: نعم. قال: فاكتب هذا الحديث كِرَاءَ حملك كتاب أبى عبد الرحمن إلينا. وأملى عَلَيّ الفُضيل بن عياض:

حدثنا منصور بن المعتمر، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، أن رجلا قال: يا رسول الله، عَلمنى عملا أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله. فقال: «هل تستطيع أن تُصلِّى فلا تَفْتُر، وتصومَ فلا تُفْطر؟» فقال: يا رسول الله، أنا أضْعَفُ من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبى ﷺ: «فوالَّذي نَفْسى بيَده لو طُوِّقْتَ ذلك ما بلغتَ المجاهدينَ فى سبيل الله، أو ما عَلمتَ أن فرس المجاهد ليَسْتَنُّ فى طِوَلَه، فيكتب له بذلك الحسنات»[(١)].

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فى جميع أموركم وأحوالكم، كما قال النبى ﷺ لمعاذ [بن جبل][(٢)] [رضى الله عنه][(٣)] حين بعثه إلى اليمن: «اتَّقِ الله حَيْثُما كُنْتَ، وأتْبع السيئَة الحسنة تَمْحُها، وخالق الناس بخُلق حَسَنٍ».

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أنبأنا ابن وهب، أنبأنا أبو[(٤)] صخر، عن محمد بن كعب القُرَظى: أنه كان يقول فى قول الله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: واتقوا الله فيما بينى وبينكم، لعلكم تفلحون غدا إذا لقيتمونى.

ولله الحمد والمنة، نسأله الموت على الكتاب والسنة

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٥/ ٢٣٦).
(٢) زيادة من أ.
(٣) زيادة من و.
(٤) فى أ: «ابن».

[بسم الله الرحمن الرحيم
وما توفيقي إلا بالله][١]

تفسير سورة آل عمران و[٢] هي مدنية

لأن صدرها إلىٰ ثلاثٍ وثمانين آية منها نزلت في وفدِ نجران ، وكان قدومهم في سنة تسع من الهجرة ، كما سيأتي بيان ذلك عند تفسير آية المباهلة منها ، إن شاء الله تعالىٰ . وقد ذكرنا ما ورد في فضلها مع سورة البقرة في أول تفسير البقرة .

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾

[قد][٣] ذكرنا الحديث(١) الوارد في أن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ و ﴿ **الم [الله لا إله إلا هو الحي القيوم]**[٤] ﴾ عند تفسير آية الكرسي ، وقد[٥] تقدم [ ][٦] الكلام علىٰ قوله تعالى : ﴿ **الم** ﴾ في أول[٧] سورة البقرة بما أغنىٰ عن إعادته ، وقد تقدم أيضًا[٨] الكلام على قوله : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ في تفسير آية الكرسي .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **نزّل عليك الكتاب بالحق** ﴾ يعني : نزل عليك القرآن يا محمد بالحق أي : لا شك فيه ولا ريب ، بل هو مُنزل من عند[٩] الله عز وجل ، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ، وكفىٰ بالله شهيدًا .

وقوله : ﴿ **مصدّقًا لما بين يديه** ﴾ أي : من الكتب المنزلة قبله من السماء علىٰ عباد الله الأنبياء ، فهي تُصدّقه بما أخبرت به ، وبشرت في قديم الزمان ، وهو يصدقها ؛ لأنه طابق ما أخبرت به

(١) - سبق تخريجه في سورة البقرة آية (٢٥٥) .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - في ز ، خ : « وقد » .
[٤] - ما بين المعكوفتين زيادة من : ت .
[٥] - سقط من : ز ، خ .
[٦] - بين المعكوفتين في : ز « أيضًا » .
[٧] - سقط من : خ .
[٨] - سقط من : ت .
[٩] - سقط من : ز .

وبشرت من الوعد من الله ؛ بإرسال محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، وإنزال القرآن العظيم عليه . وقوله : ﴿ **وأنزل التوراة** ﴾ أي : علىٰ موسىٰ بن عمران ﴿ **والإنجيل** ﴾ أي : علىٰ عيسى ابن مريم عليهما السلام ﴿ **من قبل** ﴾ أي : من قبل هذا القرآن ﴿ **هدًى للناس** ﴾ أي : في زمانهما ﴿ **وأنزل الفرقان** ﴾ وهو الفارق بين الهدىٰ والضلال ، والحق والباطل ، والغي والرشاد ؛ بما يذكره[١] الله تعالىٰ من الحجج والبينات ، والدلائل الواضحات ، والبراهين القاطعات ، ويبينه ويوضحه ، ويفسره ويقرّره ، ويرشد إليه ، وينبه عليه من ذلك .

وقال قتادة والربيع بن أنس : الفرقان هاهنا : القرآن . واختار ابن جرير(٢) أنه مصدر هاهنا ؛ لتقدّم ذكر القرآن في قوله : ﴿ **نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه** ﴾ وهو القرآن . وأما ما رواه ابن أبي حاتم(٣) عن أبي صالح ، أن المراد هاهنا بالفرقان : التوراة ، فضعيف أيضًا ؛ لتقدم ذكرها ، والله أعلم .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **إن الذين كفروا بآيات الله** ﴾ أي : جحدوا بها وأنكروها وردّوها بالباطل ﴿ **لهم عذابٌ شديدٌ** ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ **والله عزيز** ﴾ أي : منيع الجناب ، عظيم السلطان ﴿ **ذو انتقام** ﴾ أي : ممن كذب بآياته[٢] ، وخالف رسله الكرام ، وأنبياءه العظام .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾

يخبر الله تعالىٰ أنه يعلم غيب السمٰوات والأرض ، لا يخفىٰ عليه شيء من ذلك ﴿ **هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء** ﴾ أي : يخلقكم [كما يشاء في الأرحام] ؛ من ذكر وأنثىٰ ، حسن وقبيح ، وشقي وسعيد ﴿ **لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ أي : هو الذي خلق ، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له ، وله العزة التي لا ترام ، والحكمة والأحكام .

وهذه الآية فيها تعريض ، بل تصريح ، بأن عيسىٰ ابن مريم عبدٌ مخلوق ، كما خلق الله سائر البشر ؛ لأن الله صوره في الرحم ، وخلقه كما[٣] يشاء ، فكيف يكون إلهًا كما زعمته النصارىٰ

(٢) - تفسير ابن جرير (٦/١٦٢ - ١٦٣ - شاكر) .

(٣) - تفسير ابن أبي حاتم (٢/٣٧) رقم (٥١) من حديث علي بن الحسين ، ثنا عثمان بن أبي شيبة ، ثنا أبو معاوية ، عن إسماعيل ، عن أبي صالح ، به . وعلي بن الحسين هو ابن الجنيد : ثقة ، أو هو العامري : صدوق . وباقي رجال الإسناد ثقات .

[١] - في خ : « يذكر » .

[٢] - في ز ، خ : « آياته » . [٣] - في ت : « كيف » .

عليهم لعائن الله ؟! وقد تقلب في الأحشاء ، وتنقل من حال إلىٰ حال ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **يخلقكم في بطون أمّهاتكم خلقًا من بعد خلق في ظلماتٍ ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو**[١] **فأنّى تصرفون** ﴾ .

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾

يخبر تعالىٰ أن في القرآن آياتٌ محكماتٌ ، هن أم الكتاب ، أي : بينات ، واضحات الدلالة ، لا التباس فيها علىٰ أحد من الناس ، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة علىٰ كثير من الناس أو بعضهم ، فمن ردّ ما اشتبه عليه إلىٰ الواضح منه ، وحكم محكمه علىٰ متشابهه عنده فقد اهتدىٰ ، ومن عكس انعكس ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب** ﴾ أي : أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه ﴿ **وأخر متشابهات** ﴾ أي : تحتمل دلالتها موافقة المحكم ، وقد تحتمل شيئًا[٢] آخر من حيث اللفظ والتركيب ، لا من حيث المراد .

وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه ؛ فرُوي عن السلف عبارات كثيرة ، فقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما [أنه قال][٣] : المحكمات : ناسخه ، وحلاله وحرامه ، وأحكامه[٤] وحدوده وفرائضه ، وما يؤمر به ويعمل به .

وكذا رُوي عن عكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، ومقاتل بن حيان ، والربيع بن أنس والسُّدى ، أنهم قالوا : المحكم الذي يعمل به .

---

[١] - في خ : « هو العزيز الحكيم » .
[٢] - في خ : « أشياء » .
[٣] - سقط من خ .
[٤] - سقط من : ز .

وعن ابن عباس أيضًا[١] أنه قال : المحكمات : [ ][٢] قوله تعالىٰ : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم [أن لا تشركوا به شيئًا]**[٣] ﴾ والآيتان بعدها ، وقوله تعالىٰ : ﴿ **وقضىٰ ربك ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ إلىٰ ثلاث آيات بعدها .

رواه[٤] ابن أبي حاتم(٤) ، وحكاه عن سعيد بن جبير ، ثم[٥] قال(٥) : حدثنا أبي ، حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، عن إسحاق بن سويد أن يحيىٰ بن يعمر وأبا فاختة تراجعا في هذه الآية : ﴿ **هنّ**[٦] **أمّ الكتاب [وأخر متشابهات]**[٧] ﴾ فقال أبو فاختة : فواتح السور . وقال يحيىٰ بن يعمر : الفرائض ، والأمر والنهي ، والحلال والحرام[٨] .

وقال ابن لهيعة(٦) ، عن عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جبير : ﴿ **هنّ أمّ الكتاب** ﴾ يقول : أصل الكتاب ، وإنما سمّاهنّ أم الكتاب ؛ لأنهنّ مكتوبات في جميع الكتب .

وقال مقاتل بن حيان(٧) : لأنه ليس من أهل دين إلا يرضىٰ بهنّ .

وقيل في المتشابهات : إنهن المنسوخة ، والمقدم منه والمؤخر ، والأمثال فيه ، والأقسام ، وما يؤمن به ولا يعمل به . رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

وقيل : هي الحروف المقطعة في أوائل السور . قاله مقاتل بن حيان . وعن مجاهد : المتشابهات يصدق[٩] بعضهن بعضًا(٨) .

---

(٤) - تفسير ابن أبي حاتم (٢/٥٣) رقم (٨٠) . من حديث العوام بن حوشب ، عمن حدثه ، عن ابن عباس به . وسنده فيه جهالة .

(٥) - تفسير ابن أبي حاتم (٢/٥٥) رقم (٨٤) . ورجال إسناده ثقات .

(٦) - تفسير ابن أبي حاتم (٢/٥٦) حديث (٨٥) .

(٧) - تفسير ابن أبي حاتم (٢/٥٧) حديث (٨٦) وإسناده حسن .

(٨) - رواه البخاري معلقًا عن مجاهد (٦/٤١) ، وقال العيني : رواه عبد بن حميد ، عن روح ، عن شبل ، عن ابن أبي نجيح عنه ، به . ورواه ابن المنذر عن علي بن المبارك ، عن زيد بن المبارك ، عن محمد بن ثور ، عن ابن جريج عنه (عمدة القارئ ١٨/١٣٨) . ورواه ابن أبي حاتم معلقًا (٨٨) . ورواه من طريق ابن جريج ، عن مجاهد برقم (٩٢) .

---

[١] - سقط من : ز ، خ .

[٢] - ما بين المعكوفتين في : ز « في » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٤] - في ت : ورواه .

[٥] - في ت : « به » .

[٦] - في ز ، خ : « هي » .

[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من ز .

[٨] - سقط من : ز ، خ .

[٩] - في ز ، خ : « يصدقن » .

وهذا إنما هو في تفسير قوله : ﴿ كتابًا متشابهًا مثاني ﴾ هناك ذكروا أن المتشابه : هو الكلام الذي يكون في سياق واحد ، والمثاني : هو الكلام في شيئين متقابلين ، كصفة الجنة وصفة النار ، وذكر حال الأبرار ثم[١] حال الفجار ، ونحو ذلك .

وأما[٢] هاهنا ؛ فالمتشابه هو الذي يقابل المحكم ، وأحسن ما قيل فيه : هو[٣] الذي قدمنا[٤] ، وهو الذي نص عليه محمد بن إسحاق بن يسار ، رحمه الله ، حيث قال : منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب ، فيهن حجة الرب ، وعصمة العباد ، ودفع الخصوم والباطل ، ليس لهن تصريف ، ولا تحريف عما وضعن عليه .

قال : والمتشابهات في الصدق لهن تصريف وتحريف وتأويل ، ابتلىٰ الله فيهن العباد ، كما ابتلاهم في الحلال والحرام ، ألا يُصْرَفْن إلىٰ الباطل ولا[٥] يحرَّفْن عن الحق .

ولهذا قال الله تعالىٰ : ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ ﴾ أي : ضلال وخروج عن الحق إلىٰ الباطل ﴿ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ أي : إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرّفوه إلىٰ مقاصدهم الفاسدة ، وينزلوه عليها ؛ لاحتمال لفظه لما يصرفونه ، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه ؛ لأنه دامغ لهم وحجة عليهم ، ولهذا قال الله تعالىٰ : ﴿ ابتغاء الفتنة ﴾ أي : الإضلال لأتباعهم ، إيهامًا لهم أنهم يحتجون علىٰ بدعتهم بالقرآن ، وهذا[٦] حجة عليهم لا لهم ، كما لو احتج النصارىٰ بأن القرآن قد نطق بأن عيسىٰ هو روح الله ، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم [وروح منه][٧] ، وتركوا الاحتجاج بقوله تعالى : ﴿ إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه ﴾ وبقوله : ﴿ إن مثل عيسىٰ عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله ، وعبد ورسول من رسل الله .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وابتغاء تأويله ﴾ أي : تحريفه علىٰ ما يريدونه[٨] . وقال مقاتل والسُّدي : يبتغون أن يعلموا ما يكون ، وما عواقب الأشياء من القرآن .

وقد قال الإمام أحمد(٩) : حدثنا إسماعيل ، ثنا أيوب ، عن عبد الله بن أبي مليكة ، عن

(٩) - مسند أحمد (٦/٤٨) . وسنن ابن ماجه (١/١٨ - ١٩) ، المقدمة ، باب : اجتناب البدع والجدل ، حديث رقم (٤٧) . وعبد الرزاق في تفسيره (١/١١٦) . وابن حبان (١/٢٧٧ - الإحسان) حديث رقم (٧٦) . والترمذي في سننه ، كتاب : تفسير القرآن ، باب : ومن سورة آل عمران ، حديث رقم (٢٩٩٧)=

[١] - في ت : « ثم » .
[٢] - في ز : « فأما » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في ز : « قدمناه » .
[٥] - في خ : « و » .
[٦] - في ت : «و هو » .
[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٨] - في خ : « يريدون » .

عائشة ، رضي اللَّه عنها ، قالت : قرأ رسول اللَّه ، ﷺ ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات** [ ][١] ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ **أولوا[٢] الألباب** ﴾ فقال[٣] : « **فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنىٰ اللَّه فاحذروهم** » .

هكذا وقع هذا[٤] الحديث في مسند الإمام أحمد ، رحمه اللَّه ، من رواية ابن أبي مليكة ، عن عائشة ، رضي اللَّه عنها ، ليس بينهما أحد .

وهكذا رواه ابن ماجة من طريق إسماعيل بن علية ، وعبد الوهاب الثقفي ، كلاهما عن أيوب ، عن عبد اللَّه بن عبيد اللَّه بن أبي[٥] مليكة ، عنها به[٦] .

ورواه محمد بن يحيىٰ العبدي في مسنده ، عن عبد الوهاب الثقفي ، عن أيوب ، به .

وكذا رواه عبد الرزاق ، عن معمر ، عن أيوب . وكذا رواه غير واحد عن أيوب . وقد رواه ابن حبان في صحيحه ، من حديث أيوب ، به .

وتابع أيوبَ أبو عامرٍ الخزاز وغيره ، عن ابن أبي مليكة ، فرواه الترمذي ، عن بُندار ، عن أبي داود الطيالسي ، عن أبي عامر الخزاز فذكره . وهكذا رواه سعيد بن منصور في سننه ، عن حماد ابن يحيىٰ الأبح ، عن عبد اللَّه بن أبي مليكة ، عن عائشة .

ورواه ابن جرير (١٠) من حديث روح بن القاسم ونافع بن عمر الجمحي ، كلاهما عن ابن أبي مليكة ، عن عائشة ، به[٧] . وقال نافع في روايته عن ابن أبي مليكة : حدثتني عائشة .... فذكره .

وقد روىٰ هذا الحديث البخاري (١١) ، رحمه اللَّه ، عند تفسير[٨] هذه الآية ، ومسلم في

= وسعيد بن منصور في سننه برقم (٤٩٢) .

(١٠) - رواه ابن جرير في تفسيره (٦/١٩٣ - ١٩٤ - شاكر) حديث رقم (٦٦١٢ ، ٦٦١٣ ، ٦٦١٤) .

(١١) - رواه البخاري في صحيحه ، كتاب : التفسير ، باب : ﴿ **منه آيات محكمات** ﴾ ، حديث (٤٥٤٧) . ومسلم في كتاب العلم ، باب : النهي عن اتباع متشابه القرآن ، والتحذير من متبعيه والنهي عن الاختلاف في القرآن ، حديث (٢٦٦٥) . وأبو داود في كتاب السنة ، باب : مجانبة أهل الأهواء ، حديث رقم (٤٥٩٨) . والترمذي في سننه ، كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة آل عمران ، حديث رقم (٢٩٩٦ - ٢٩٩٧) .

---

[١] - في ز : « فأما الذين في قلوبهم زيغ » .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - زيادة من : ز ، خ .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - سقط من : ز .
[٧] - زيادة من : ز ، خ .
[٨] - في خ : « تفسيره » .

كتاب القدر من صحيحه ، وأبو داود في السنة من سننه ؛ ثلاثتهم عن القعنبي ، عن يزيد ابن إبراهيم التستري ، عن ابن أبي مليكة ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : تلا رسول اللّه ﷺ [هذه الآية][١] : ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات** ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ [**وما يذكر**][٢] **إلا أولوا الألباب** ﴾ قالت : قال رسول اللّه ، ﷺ : « **فإذا رأيتم**[٣] **الذين يتبعون ما تشابه منه ؛ فأولئك الذين سمىٰ اللّه فاحذروهم** » لفظ البخاري ، وكذا رواه الترمذي أيضًا ، عن بندار ، عن أبي داود الطيالسي ، عن يزيد بن إبراهيم التستري به ، وقال : حسن صحيح . وذكر أن يزيد بن إبراهيم التستري تفرد بذكر القاسم في هذا الإسناد . وقد رواه غير واحد ، عن ابن أبي مليكة ، عن عائشة ، ولم[٤] يذكروا القاسم ، كذا قال .

ورواه [أبو بكر][٥] بن المنذر في تفسيره من طريقين ، عن أبي النعمان محمد بن الفضل السدوسي ، ولقبه : عارم ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا أيوب ، عن ابن أبي مليكة ، عن عائشة ، به[٦] .

وقد رواه ابن أبي حاتم(١٢) فقال[٧] : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الوليد الطيالسي ، حدثنا يزيد بن إبراهيم التستري ، وحماد بن سلمة ، عن ابن أبي مليكة ، عن القاسم بن [ ][٨] محمد ، عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : سئل رسول اللّه ﷺ عن قول اللّه تعالىٰ[٩] : ﴿ **فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه** ﴾ فقال رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم : « **إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ؛ فأولئك الذين سمىٰ اللّه فاحذروهم** » .

وقال ابن جرير(١٣) رضي اللّه عنه : حدثنا[١٠] علي بن سهل ، حدثنا الوليد بن مسلم[١١] ، عن حماد بن سلمة ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه ، عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : نزع رسول اللّه ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، بهذه الآية ﴿ **يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة** ﴾ فقال

---

(١٢) - ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/٦٤) رقم (١٠٣) .

(١٣) - رواه ابن جرير في تفسيره (٦/١٩٢ - ١٩٣ - شاكر) رقم (٦٦١١) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

[٣] - في ز ، خ : « رأيت » .

[٤] - في ز : « لم » .

[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٦] - زيادة من : خ .

[٧] - سقط من : ز .

[٨] - ما بين المعكوفتين في ز : « أبي » .

[٩] - في خ : « عز وجل » .

[١٠] - سقط من : خ .

[١١] - في خ : « سلم » .

رسول الله ﷺ : « **قد حذركم الله فإذا رأيتموهم فاعرفوهم** » .

ورواه ابن مردويه من طريق أخرىٰ ، عن القاسم ، عن عائشة ، به .

وقال الإمام أحمد (١٤) : حدثنا أبو كامل ، حدثنا حماد ، عن أبي غالب ، قال : سمعت أبا أمامة يحدث عن النبي ﷺ في قوله تعالىٰ : ﴿ **فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه** ﴾ قال : « **هم الخوارج** » وفي قوله تعالىٰ : ﴿ **يوم تبيض وجوه وتسود وجوه** ﴾ قال : « **هم الخوارج** » .

وقد رواه ابن مردويه من غير وجه ، عن أبي غالب ، عن أبي أمامة مرفوعًا ، فذكره .

وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفًا من كلام الصحابي ، ومعناه صحيح ؛ فإن أوّل بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج ، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم النبي ﷺ ، غنائم حنين ، فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة ، ففاجئوه بهذه المقالة ، فقال قائلهم - وهو ذو الخويصرة ، بقر الله خاصرته ، : اعدل ، فإنك لم تعدل . فقال له[١] رسول الله ﷺ : « **لقد خبتُ وخسِرتُ إن لم أكن أعدل ، أيأمنني[٢] علىٰ أهل الأرض ، ولا تأمنوني[٣]** » . فلما قفّى(١٥) الرجل ؛ استأذن عمر بن الخطاب - في[٤] رواية : خالد بن الوليد - [رسول الله] في قتله فقال : « **دعه ، فإنه يخرج من ضئضيء هذا** ، أي : - من جنسه - **قومٌ يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية(١٦) ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم** »(١٧) .

---

(١٤) - **حسن** ، رواه أحمد في مسنده (٢٦٢/٥) . ورواه البيهقي (١٨٨/٨) من طريق حماد بن زيد ، عن أبي غالب ، عن أبي أمامة . وأخرجه الطبراني (٣٢٥/٨) رقم (٨٠٤٦) . من طريق حميد بن مهران ، عن أبي غالب .

(١٥) - معنى قفّى : ذهب موليًا ، وكأنه من القفا ، أي : أعطاه ظهره وقفاه .

(١٦) - أي يجوزونه ويخرقونه ويتعدونه ، كما يخرق السهم الشيء المرميَّ به ، ويخرج منه .

(١٧) - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المناقب ، باب : علامات النبوة في الإسلام ، حديث (٣٦١٠) ، وطرفه (٦١٦٣) . ومسلم في صحيحه ، كتاب : الزكاة ، باب : ذكر الخوارج وصفاتهم ، حديث (١٤٨/١٠٦٣) . وابن حبان في صحيحه (١٤٠/١٥ - الإحسان) رقم (٦٧٤١) . والبيهقي في « دلائل النبوة » (٤٢٧/٦ - ٤٢٨) ، كلهم من طريق أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - فذكره .

---

[١] - زيادة من : ز ، خ .
[٢] - في خ : « إن أمنني » .
[٣] - في ز : « يأمنوني » .
[٤] - في ز : « وفي » .

ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب ، رضي اللّه عنه ، وقتلهم[١] بالنهروان ، ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل ، وآراء وأهواء ، ومقالات ونحل كثيرة منتشرة ، ثم نبعت القدرية ، ثم المعتزلة ، ثم الجهمية ، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق ، ﷺ ، في قوله : « **وستفترق هذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة** » . قالوا : من[٢] هم يا رسول اللّه ؟ قال : « [**من كان علىٰ**][٣] **ما أنا عليه وأصحابي** » . أخرجه الحاكم في مستدركه(١٨) بهذه الزيادة .

وقال الحافظ أبو يعلىٰ(١٩) : حدثنا أبو موسىٰ ، حدثنا عمرو بن عاصم ، حدثنا المعتمر ، عن أبيه ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن جندب بن عبد اللّه ، أنه بلغه عن حذيفة أو سمعه منه يحدِّث عن رسول اللّه ، ﷺ ، أنه ذكر : « **إن في أمتي قومًا يقرءون القرآن ينثرونه نثر الدقل ، يتأولونه علىٰ غير تأويله** » لم يخرجوه .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **وما يعلم تأويله إلا اللّه** ﴾ اختلف القراء في الوقف هاهنا ، فقيل : علىٰ الجلالة ، كما تقدم عن ابن عباس ، رضىٰ اللّه عنه ، أنه قال : التفسير علىٰ أربعة أنحاء : فتفسير لا يعذر أحد في فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها ، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم ، وتفسير لا يعلمه إلا اللّه ، عزّ وجلّ ، ويروىٰ هذا القول عن عائشة ، وعروة ، وأبي الشعثاء ، وأبي نهيك ، وغيرهم .

وقد قال الحافظ أبو القاسم في المعجم الكبير(٢٠) : حدثنا هاشم بن مرثد ، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش ، حدثني أبي ، حدثني ضمضم[٤] بن زرعة[٥] ، عن شريح[٦] بن عبيد ، عن أبي مالك الأشعري ، أنه سمع رسول اللّه ، صلىٰ اللّه عليه وسلم يقول : « **لا أخاف علىٰ أمّتي إلا ثلاث خلال : أنْ يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا ، وأنْ يفتح لهم الكتاب فيأخذه[٧] المؤمن**

(١٨) - الحاكم (١٢٨/١) ، وسيأتي تخريجه في سورة يونس آية (٩٣) ، حديث (٩٧) .

(١٩) - ذكره السيوطي في الدر المنثور (٩/٢) ولم يعزه لغير أبي يعلى ، وهو في المطالب العالية (٣٨٨٤/٨) وقال البوصيري في الإتحاف : إسناد رجاله ثقات .

(٢٠) - المعجم الكبير (٣٣٢/٣) رقم (٣٤٤٢) ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٣٢/١ - ١٣٣) ، وقال : فيه محمد بن إسماعيل بن عياش ، عن أبيه ، ولم يسمع من أبيه .

[١] - في ز ، خ : « فقتلهم » .

[٢] - في ز : « ومن » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٤] - في ز : « ضضم » .

[٥] - في ز : « ورعة » .

[٦] - في ز : « سريج » .

[٧] - في ز : « فيأخذ » .

يبتغي تأويله ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به ﴾ الآية ، وأن يزداد[١] علمهم فيضيعوه ، ولا يالون عليه » غريب جدًا .

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه(٢١) : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، أخبرنا أحمد ابن عمرو ، حدثنا هشام بن عمار ، أخبرنا ابن أبي حازم[٢] ، عن أبيه ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن ابن العاص ، عن رسول الله ، ﷺ ، قال : « **إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضًا ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه منه[٣] فآمنوا به** » .

وقال عبد الرزاق(٢٢) : أنبأنا معمر ، عن ابن طاووس ، عن أبيه ، قال : كان ابن عباس يقرأ : « **وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون آمنا به** » . وكذا روى ابن جرير(٢٣) ، عن عمر بن عبد العزيز ، ومالك بن أنس : إنهم يؤمنون به ، ولا يعلمون تأويله . وحكىٰ ابن جرير أن في قراءة عبد الله بن مسعود : ﴿ إن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون [آمنا به][٤] ﴾ . وكذا عن أبي بن كعب ، واختار ابن جرير هذا القول(٢٤) .

ومنهم من يقف علىٰ قوله ﴿ **والراسخون في العلم** ﴾ . وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول ، وقالوا : الخطابُ بما لا يفهم بعيدٌ .

وقد روىٰ ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس أنه قال : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله . وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : والراسخون في العلم يعلمون تأويله ، ويقولون[٥] : آمنا به . وهكذا[٦] قال الربيع بن أنس .

وقال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن جعفر بن الزبير : ﴿ **وما يعلم تأويله** ﴾ الذي أراد ما أراد ﴿ **إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به** ﴾ ثم ردوا تأويل المتشابه علىٰ ما عرفوا من تأويل المحكمة ، التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد ، فاتسق بقولهم الكتاب ، وصدّق بعضه بعضًا ، فنفذت[٧] الحجة ، وظهر به العذر ، وزاح به الباطل ، ودفع به الكفر . وفي الحديث أن

---

(٢١) - ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٩/٢) وعزاه إلى ابن مردويه وابن سعد ، وابن الضريس في فضائله (حديث ٣١٥) عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده .

(٢٢) - عبد الرزاق في تفسيره (١١٦/١) .

(٢٣) - ابن جرير في تفسيره (٢٠٣/٦ - شاكر) رقم (٦٦٣٠ ، ٦٦٣١) .

(٢٤) - تفسير ابن جرير (٢٠٤/٦ - شاكر) .

---

[١] - في ز ، خ : « يروا ذا » .

[٢] - في ت : « حاتم » .

[٣] - سقط من : خ .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٥] - في ز : « يقولون » .

[٦] - في ز : « كذا » .

[٧] - في ز : « فنفدت » .

رسول الله ، ﷺ ، دعا لابن عباس فقال : « **اللَّهم فقهه في الدين وعلمه التأويل** »(٢٥) .

ومن العلماء من فصل في هذا المقام فقال : التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان : أحدهما التأويل بمعنىٰ حقيقة الشيء ، وما يئول أمره إليه ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ **ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدًا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربى حقًا** ﴾ وقوله : ﴿ **هل**

---

(٢٥) - أخرجه الإمام أحمد في « مسنده » (٣٢٨/١ ، ٣٣٥) (٢٦٦/١ ، ٣١٤) ، وفي « الفضائل » (٢/ ٩٥٦) رقم (١٨٥٨) ، و(٩٥٥/٢ - ٩٥٦) رقم (١٨٥٦) ، و(٩٦٣/٢ - ٩٦٤) رقم (١٨٨٢) ، والفسوي في « المعرفة والتاريخ » (٤٩٣/١ - ٤٩٤) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢٩٣/١٠) رقم (١٠٥٨٧) ، (٣٢٠/١٠) رقم (١٠٦١٤) ، وابن حبان في صحيحه (٥٣١/١٥ - الإحسان) رقم (٧٠٥٥) من طرق عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فذكر الحديث ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٩/ ٢٧٩) : ورجالهما رجال الصحيح . وقال قبل ذلك : قلت : هو في الصحيح غير قوله : « وعلمه التأويل ».

وأخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : الوضوء ، باب : وضع الماء عند الخلاء ، حديث (١٤٣) عن ابن عباس أن النبي - صلى الله عليه وسلم - دخل الخلاء فوضعت له وضوءًا قال : « **من وضع هذا ؟** » فأخبر ، فقال : « **اللَّهم فقهه في الدين** » .

وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : فضائل الصحابة ، حديث (١٣٨/٢٤٧٧) ، وأحمد في مسنده (١/ ٣٢٧) وفي « الفضائل » (٩٥٦/٢) رقم (١٨٥٩) ، وابن حبان في صحيحه (٥٢٩/١٥ - الإحسان) رقم (٧٠٥٣) عن ابن عباس : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أتى الخلاء فوضعت له وضوءًا فلما خرج قال : « **من وضع هذا ؟** » قالوا : ابن عباس ، قال : « **اللَّهم فقهه** » .

وأخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (١١٠/١١) رقم (١١٢٠٤) . عن محمد بن علي بن شعيب السمسار ، عن أبيه ، عن أبي النضر هاشم بن القاسم ، عن ورقاء بن عمر ، عن عمرو بن دينار ، عن ابن عباس قال : صببت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وضوءًا فقال : « **اللَّهم فقهه في الدين وعلمه التأويل** » .

وأخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : العلم ، باب : قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : « **اللَّهم علمه الكتاب** » ، حديث (٧٥) وأطرافه في (١٤٣ ، ٣٧٥٦ ، ٧٢٧٠) ، والترمذي في سننه ، كتاب : المناقب ، باب : مناقب عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - حديث (٣٨٢٤) ، وابن ماجه في سننه ، المقدمة فضل ابن عباس ، حديث (١٦٦) . وأحمد في « مسنده » (٢١٤/١ ، ٣٥٩) ، وفي « الفضائل » (٩٤٩/٢) رقم (١٨٣٥) ، (٩٧٦/٢) رقم (١٩٢٣) ، وابن حبان في صحيحه : (٥٣٠/١٥ - الإحسان) رقم (٧٠٥٤) ، والفسوي في « المعرفة والتاريخ » (٥١٨/١) ، والطبراني في « الكبير » (٢٩٣/١٠) رقم (١٠٥٨٨) من طرق عن خالد الحذاء ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : ضمني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال : « **اللَّهم علمه الكتاب** » . وفي بعض الروايات : « **اللَّهم علمه الحكمة** » وفي بعضها كذلك : « **اللَّهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب** » .

وأخرجه أحمد في « الفضائل » (٩٥٦/٢) رقم (١٨٥٧) ، والفسوي في « المعرفة والتاريخ » (٥١٨/١ ، ٥١٩) من طريق عمرو بن دينار ، عن كريب ، عن ابن عباس ولفظه : « أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعا الله لي أن يزيدني علمًا وفقهًا » .

ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله ﴾ أي : حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد ، فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف علىٰ الجلالة ؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية[١] إلا اللَّه ، عز وجل ، ويكون قوله : ﴿ **والراسخون في العلم** ﴾ مبتدأ و﴿ **يقولون آمنا به** ﴾ خبره ، وأما إن أريد بالتأويل المعنىٰ الآخر ، وهو التفسير [والبيان ، والتعبير] عن الشيء ، كقوله : ﴿ **نبئنا بتأويله** ﴾ أي : بتفسيره ، فإن أريد به هذا المعنىٰ فالوقف علىٰ ﴿ **والراسخون في العلم** ﴾ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار ، وإن لم يحيطوا علمًا بحقائق الأشياء علىٰ كنه ما هي عليه ، وعلىٰ هذا فيكون قوله ﴿ **يقولون آمنا به** ﴾ حال منهم ، وساغ هذا ، وهو أن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه ، كقوله : ﴿ **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم** ﴾ إلىٰ قوله ﴿ **يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا** ﴾ الآية ، وكقوله تعالىٰ : ﴿ **وجاء ربك والملك صفًّا صفًّا** ﴾ أي : وجاءت الملائكة صفوفًا صفوفًا .

وقوله إخبارًا عنهم أنهم يقولون : ﴿ **آمنَّا به** ﴾ أي : بالمتشابه ، ﴿ **كل من عند ربنا** ﴾ أي : الجميع ، من المحكم والمتشابه ، حق وصدق ، وكل واحد منهم يصدق الآخر ويشهد له ؛ لأن الجميع من عند اللَّه ، وليس شيء من عند اللَّه بمختلف ولا متضاد[٢] لقوله[٣] : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير اللَّه لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا** ﴾ . [ولهذا قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **وما يذّكر إلا أولوا الألباب** ﴾ أي : إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني علىٰ وجهها ، أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة][٤] .

وقد قال ابن أبي حاتم(٢٦) : حدثنا محمد بن عوف الحمصي ، حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا فياض الرقي ، حدّثنا عبد اللَّه بن يزيد ، وكان قد أدرك أصحاب النبي ﷺ : أنسًا ، وأبا أمامة ، وأبا الدرداء ، رضي اللَّه عنهم ، قال : حدثنا أبو الدرداء : أن رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، سئل عن الراسخين في العلم ، فقال : « **من برت يمينه ، وصدق لسانه ، واستقام قلبه ، ومن أعف بطنه وفرجه ، فذلك من الراسخين في العلم** » .

---

(٢٦) - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧٢/٢) رقم (١٢٦) ، وعبد اللَّه بن يزيد ؛ قال ابن أبي حاتم : روى عن أبي الدرداء ، وأبي أمامة ، وواثلة بن الأسقع حديث ..... ثم قال : لا أعرفه ، وهذا حديث باطل . ونقل الذهبي عن أحمد : أحاديثه موضوعة ، وقال الجوزجاني : أحاديثه منكرة . (الميزان ٥٢٦/٢) . ورواه الطبري من حديث عبد اللَّه بن يزيد ، عن أبي الدرداء ، وأبي أمامة (٦٦٣٧) . ومن حديث أنس ، وأبي أمامة ، وأبي الدرداء (٦٦٣٨) . وأخرجه الطبراني من حديث أبي الدرداء ، وأبي أمامة ، وواثلة وأنس . وقال الهيثمي : وعبد اللَّه بن يزيد : ضعيف . مجمع الزوائد (٣٢٤/٦) .

---

[١] - في خ : « الجليلة » .
[٢] - في خ : بمتضاد .
[٣] - في ت : « كقوله » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

وقال الإمام أحمد(٢٧) : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن عمرو ابن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، قال : سمع رسول اللَّه ، ﷺ ، قومًا يتدارءون فقال : « **إنما هلك من كان[١] قبلكم بهذا ؛ ضربوا كتاب اللَّه بعضه ببعض ، وإنما نزل[٢] كتاب اللَّه يصدق بعضه بعضًا ، فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوا به[٣] وما جهلتم فكلوه إلىٰ عالمه** » .

وتقدّم رواية ابن مردويه لهذا[٤] الحديث ، من طريق هشام بن عمار ، عن ابن أبي حازم[٥] ، عن أبيه ، عن عمرو بن شعيب ، به .

وقد قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده (٢٨) : حدثنا زهير بن حرب ، حدثنا أنس[٦] بن عياض ، عن أبي حازم ، عن أبي سلمة قال : لا أعلمه إلا عن أبي هريرة ، أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **نزل القرآن علىٰ سبعة أحرف ، والمراء في القرآن كفر- قالها[٧] ثلاثًا - ما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلىٰ عالمه جل جلاله** » . وهذا إسناد صحيح ، ولكن فيه علة بسبب قول الراوي : لا أعلمه إلا عن أبي هريرة .

وقال ابن المنذر في تفسيره : حدثنا محمد بن عبد اللَّه بن عبد الحكم ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني نافع بن يزيد قال : يقال : الراسخون في العلم المتواضعون للَّه ، المتذللون[٨] للَّه في مرضاته ، لا يتعاظمون[٩] من فوقهم ، ولا يحقرون من دونهم ، [ولهذا قال تعالى : ﴿ **وما يتذكر إلَّا أولوا الألباب** ﴾ ؛ أي إنما يعقل ويفهم ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة][١٠] . ثم قال تعالىٰ مخبرًا عنهم أنهم دعوا ربهم قائلين : ﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا** ﴾ أي : لا تملها عن الهدىٰ بعد إذ أقمتها عليه ، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ، ولكن ثبتنا علىٰ صراطك

(٢٧) - رواه أحمد في مسنده (١٨٥/٢) حديث ٦٧١٤ ، ورواه البخاري في خلق أفعال العباد (ص ٧٨) . وأورده السيوطي في الدر المنثور ، ولم يعزه لغير أحمد .

(٢٨) - رواه أبو يعلى في مسنده برقم (٦٠١٦) . وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥١/٧) وقال : رواه أحمد بإسنادين ، ورجال أحدهما رجال الصحيح ، ورواه البزار بنحوه . ولم ينسبه لأبي يعلى .

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في ت: «أ نزل » .
[٣] - سقط من : ز ، خ .
[٤] - في ز : « كهذا » .
[٥] - في ز : « حاتم » .
[٦] - سقط من : خ .
[٧] - سقط من : ز ، خ .
[٨] - في خ : « المتللذون » .
[٩] - في ز ، خ : « يتعاطون » .
[١٠] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .

المستقيم ، ودينك القويم ﴿ **وهب لنا من لدنك رحمة**[١] ﴾ [أي : من عندك رحمة][٢] تثبت بها قلوبنا ، وتجمع بها شملنا ، وتزيدنا بها إيمانًا وإيقانًا ﴿ **إنك أنت الوهاب** ﴾ .

قال ابن أبي حاتم(٢٩) : حدثنا عمرو بن عبد اللّه الأودي ،

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، قالا جميعًا : حدثنا وكيع ، عن عبد الحميد بن بهرام ، عن شهر بن حوشب ، عن أم سلمة ، رضيَّ اللّه عنها ، أن النبي ، ﷺ ، كان يقول : « **يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي علىٰ دينك** » ثم قرأ ﴿ **ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب** ﴾ .

ورواه ابن مردويه من طريق محمد بن بكار ، عن [عبد الحميد][٣] بن بهرام ، عن شهر بن حوشب ، عن أم سلمة ، (وهي أسماء بنت يزيد بن السكن) سمعها تحدث أن رسول اللّه ، ﷺ ،كان يكثر في دعائه : « **اللّهم يا**[٤] **مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك** » قالت : قلت : يا رسول اللّه ؛ وإن القلب ليتقلب ؟ قال : « **نعم ، ما خلق اللّه من بني آدم من بشر ، إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع اللّه ، عز وجل ، فإن شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه** » . فنسأل اللّه ربنا ، أن لا يزغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة ، إنه هو الوهاب .

وهكذا رواه ابن جرير(٣٠) من حديث أسد بن موسىٰ ، عن عبد الحميد بن بهرام ، به[٥] مثله .

---

(٢٩) - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٤/٢) رقم (١٤٥) . وابن جرير في تفسيره (٦/ ٢١٣- شاكر) رقم (٦٦٥٠) . ورواه ابن أبي شيبة (المصنف ٢٠٩/١٠ رقم ٩٢٤٦ ، والإيمان ص ١٧) وأحمد (٣١٥/٦) ، والترمذي في الدعوات رقم ٣٥٢٢ وحسنه . وذكره السيوطي في « الدر المنثور » (١٣/٢) وزاد نسبته للطبراني .

ورواه أحمد (٢٩٤/٦) ، ورواه ابن خزيمة في التوحيد ص ٨١ . من طريق ابن أبي حسين - وهو عبد اللّه ابن عبد الرحمن بن أبي حسين - ثقة - عن شهر بن حوشب به . وأخرجه الآجري من حديث مقاتل بن حيان ، عن شهر ، به . وأخرجه الآجري من حديث أم سلمة بنحوه . وكذلك الطبراني وابن مردويه روياه من حديث أم سلمة كما عزاه إليهما السيوطي في الدر المنثور . ورواه ابن أبي عاصم في « السنة » (١/ ١٠٠) رقم (٢٢٣) من حديث أم سلمة رضي اللّه عنها .

(٣٠) - رواه ابن جرير في تفسيره (٢٢٠/٦ - شاكر) رقم (٦٦٥٨) .

---

[١] - سقط من : ز .

[٢] - ما بين المعكوفتين زيادة من : ز ، خ .

[٣] - ما بين المعكوفتين في خ : « حميد » .

[٤] - زيادة من : خ .

[٥] - سقط من : ز ، خ .

ورواه أيضًا عن المثنىٰ(٣١) ، عن الحجاج بن منهال ، عن عبد الحميد بن بهرام ، به مثله .

وزاد : قالت[١] : قلت : يا رسول اللّه ؛ ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي ؟ قال : « **بلىٰ قولي : اللّٰهم رب النبي محمد ، اغفر لي[٢] ذنبي ، وأذهب غيظ قلبي ، وأجرني من مضلات[٣] الفتن** » .

ثم قال ابن مردويه(٣٢) : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا محمد بن هارون بن بكار الدمشقي ، حدثنا العباس بن الوليد الخلال ، [أنا يزيد][٤] بن يحيىٰ بن عبيد اللّه[٥] ، أنا سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن [أبي][٦] حسان الأعرج ، عن عائشة ، رضي اللّه عنها ، قالت : كان رسول اللّه ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، كثيرًا ما يدعو : « **يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي علىٰ دينك** » قلت : يا رسول اللّه ، ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء . فقال : « **ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمٰن ، إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه ، أما تسمعين قوله ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾** » .

غريب من هذا الوجه ، ولكن أصله ثابت في الصحيحين(٣٣) وغيرهما من طرق كثيرة ؛ بدون

(٣١) - رواه ابن جرير في تفسيره (٢١٤/٦ - شاكر) رقم (٦٦٥٢) .

(٣٢) - وأخرجه أحمد (٩١/٦ ، ٢٥١) وابن أبي عاصم في السنة (١٠٠/١ - ١٠١) رقم (٢٢٤) .

(٣٣) - أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : القدر ، حديث ١٧ - (٢٦٥٤) . وأحمد في « مسنده » (٢/ ١٦٨) ، والبيهقي في الأسماء والصفات ص (١٤٧) ، وابن حبان في صحيحه (١٨٤/٣ - الإحسان) رقم (٩٠٢) ، وابن أبي عاصم في « السنة » (١٠٠/١) رقم (٢٢٢) من طرق ، عن حيوة بن شريح ، عن أبي هانئ الخولاني ، عن عبد الرحمن الحبلي ، عن عبد اللّه بن عمرو ، فذكره بنحوه . وقال الحاكم (٢/ ٣١٧) : وقد أخرج مسلم حديث عبد اللّه بن عمرو في قلوب بني آدم .

وأخرجه أحمد (١٧٣/٢) من طريق عن رشدين ، عن أبي هانئ الخولاني ، عن عبد الرحمن الحبلي ، عن عبد اللّه بن عمرو ، فذكره . وأخرجه ابن ماجه في سننه ، المقدمة ، باب : فيما أنكرت الجهمية ، حديث (١٩٩) ، وأحمد في « مسنده » : (١٨٢/٤) . وابن حبان في صحيحه (٢٢٢/٣ - ٢٢٣ - الإحسان) رقم (٩٤٣) ، والحاكم في المستدرك (٥٢٥/١) ، (٢٨٩/٢) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ١٤٨) ، وابن أبي عاصم في « السنة » (٢١٩) (٩٨/١) ، كلهم من طرق عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن بسر بن عبيد اللّه ، عن أبي إدريس الخولاني ، عن النواس بن سمعان فذكره . قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي . قال الحاكم : وله شاهد بإسناد صحيح عن أنس .

[١] - زيادة من : ز ، خ .

[٢] - سقط من : خ .

[٣] - في خ : « عضلات » .

[٤] - في ز : « أبا زيد » .

[٥] - سقط من : ز .

[٦] - سقط من ت .

زيادةِ ذكرِ هذه الآيةِ الكريمة .

وقد رواه[١] أبو داود ، والنسائي ، وابن مردويه ، من حديث أبي عبد الرحمن المقري ، زاد النسائي وابن حبان : وعبد اللَّه بن وهب - كلاهما عن سعيد بن أبي أيوب ، حدثني عبد اللَّه بن الوليد التجيبي ، عن سعيد بن المسيب ، عن عائشة (٣٤)، رضي اللَّه عنها ، أن رسول اللَّه ، ﷺ ، كان إذا استيقظ من الليل قال : « **اللَّهم[٢] لا إله إلا أنت سبحانك ، اللَّهم إني أستغفرك لذنبي ، وأسألك رحمة ، اللَّهم زدني علمًا ، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لي من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب** » لفظ ابن مردويه .

وقال عبد الرزاق(٣٥) ، عن مالك ، عن أبي عبيد مولىٰ سليمان بن عبد الملك ، عن عبادة بن نسي ، أنه أخبره أنه سمع قيس بن الحارث يقول : أخبرني أبو عبد اللَّه الصنابحي ، أنه صلىٰ وراء أبي بكر الصديق ، رضي اللَّه عنه، المغرب ، فقرأ أبو بكر في الركعتين الأوليين بأم القرآن ، وسورتين من قصار المفصل ، وقرأ في الركعة الثالثة قال : فدنوت منه حتىٰ إن ثيابي لتكاد تمس ثيابه ، فسمعته يقرأ بأم القرآن وهذه الآية ﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا** ﴾ الآية .

قال أبو عبيد : وأخبرني عبادة بن نُسي ، أنه كان عند عمر بن عبد العزيز في خلافته ، فقال عمر لقيس : كيف أخبرتني عن أبي عبد اللَّه ؟ قال عمر : فما تركناها منذ سمعناها منه ، وإن كنت قبل ذلك لعلىٰ غير ذلك . فقال له رجل : علىٰ أي شيء كان أمير المؤمنين قبل ذلك ؟ قال : كنت أقرأ ﴿ **قل هو اللَّه أحد** ﴾ .

وقد روىٰ هذا الأثر الوليد بن مسلم ، عن مالك والأوزاعي ، كلاهما عن أبي عبيد به .

[وروىٰ هذا الأثر][٣] الوليد أيضًا ، عن ابن جابر ، عن يحيىٰ بن يحيىٰ الغساني ، عن محمود بن لبيد ، عن[٤] الصنابحي أنه صلىٰ خلف أبي بكر ، رضي اللَّه عنه، المغرب فقرأ

(٣٤) - أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الأدب ، باب : ما يقال عند النوم ، حديث (٥٠٦١) ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (ص ٤٩٥) رقم (٨٦٥) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٤١/١٢ - الإحسان) برقم (٥٥٣١) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٤٠/١) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٣٥) - رواه عبد الرزاق في مصنفه (١٠٩/٢ - ١١٠) رقم (٢٦٩٨) ، (٢٦٩٩) . وأخرجه مالك في « الموطأ » كتاب : الصلاة ، باب : القراءة في المغرب والعشاء ، حديث رقم (٢٥) ، والشافعي في مسنده حديث (٢٣٣) ، والبيهقي في سننه (٦٤/٢ ، ٣٩١) . وإسناده صحيح ، رجاله كلهم ثقات من رجال التهذيب .

[١] - في ز ، خ : « روى » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « رواه » .
[٤] - سقط من : ت .

في الأولين بفاتحة الكتاب وسورة[١] قصيرة يجهر بالقراءة فلما قام إلىٰ الثالثة ابتدأ[٢] القراءة فدنوت منه حتىٰ إن ثيابي لتمس ثيابه ، فقرأ هذه الآية : ﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا** ﴾ الآية .

وقوله ﴿ **ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن اللّٰه لا يخلف الميعاد** ﴾ أي : يقولون في دعائهم : إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم ، وتفصل بينهم وتحكم بينهم[٣] فيما اختلفوا فيه وتجزي كلًّا بعمله ، وما كان عليه في الدنيا من خير وشر .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾

يخبر تعالىٰ عن الكفار بأنهم[٤] وقود النار ﴿ **يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾ وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند اللّٰه ، ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه ، بل كما قال تعالىٰ : ﴿ **ولا تعجبك**[٥] **أموالهم وأولادهم إنما يريد اللّٰه أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ **لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد** ﴾ كما قال هاهنا : ﴿ **إن الذين كفروا** ﴾ أي : بآيات اللّٰه وكذبوا رسله [ ][٦] ، وخالفوا كتابه ، ولم ينتفعوا بوحيه إلىٰ أنبيائه ﴿ **لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من اللّٰه شيئًا ، وأولئك هم وقود النار** ﴾ أي : حطبها الذي تسجر[٧] به وتوقد به ، كقوله : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون اللّٰه حصب جهنم** ﴾ الآية .

وقال ابن أبي حاتم(٣٦) : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي مريم ، أخبرنا ابن لهيعة ، أخبرني ابن الهاد ، عن هند بنت الحارث ، عن أم الفضل - أم عبد اللّٰه بن عباس - قالت : بينما نحن بمكة ، قام رسول اللّٰه ﷺ من الليل فقال : «**اللهم هل بلغت ، اللّٰهم هل بلغت** » .اللّٰهم[٨]

---

(٣٦) - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/٩٠) رقم (١٥٢) ، وأخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٢/ ٢٥٠ ، ٢٥١) رقم (١٣٠١٩) ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١/١٩١) وقال : رجاله ثقات ، إلا أن هند بنت الحارث الخثعمية التابعية لم أر من وثقها ولا من جرحها . وذكرها ابن حبان (٥/٥١٧).

---

[١] - في ز : « صورة » .
[٢] - في ز : « ابتداء » .
[٣] - في ت : « فيهم » .
[٤] - في ز : « أنهم » .
[٥] - في ز : « يعجبك » .
[٦] - في ز : « وخالفوا » .
[٧] - في ز : « تشجر » .
[٨] - سقط من : ت .

ثلاثًا ، فقام عمر بن الخطاب ، رضىٰ اللّه عنه ، فقال : نعم . ثم أصبح فقال رسول اللّه ﷺ : « **ليظهرنّ الإسلام حتىٰ يرد الكفر إلىٰ مواطنه ، وليخوضنّ [رجال البحار]**[١] **بالإسلام ، وليأتين علىٰ الناس زمان يتعلمون القرآن ويقرءونه ، ثم يقولون : قد قرأنا وعلمنا ، فمن هذا الذي هو خير منا ؟ فهل في أولئك من خير؟** » قالوا : يا رسول اللّه ، فمن أولئك ؟ قال : « **أولئك منكم [فأولئك منهم] وأولئك هم وقود النار** » وكذا رأيته بهذا اللفظ .

وقد رواه ابن مردويه من حديث يزيد بن عبد اللّه بن الهاد ، عن هند بنت الحارث امرأة عبد اللّه بن شداد - عن أم الفضل أن رسول اللّه ﷺ قام ليلة بمكة فقال : « **هل بلغت ؟** » يقولها ثلاثًا . فقام عمر بن الخطاب ، وكان أوّاهًا فقال : اللّهم نعم ، وحرصت وجهدت ونصحت ، فاصبر ، فقال النبي ﷺ : « **ليظهرن الإيمان حتىٰ يرد الكفر إلىٰ مواطنه ، وليخوضنّ رجال البحار بالإسلام ، وليأتينّ علىٰ الناس زمان يقرءون القرآن ، فيقرءونه ويعلمونه ، فيقولون : قد قرأنا وقد علمنا ، فمن هذا الذي هو خير منا ؟ فما في أولئك من خير** » قالوا : يا رسول اللّه ! فمن أولئك ؟ قال : « **أولئك منكم أولئك هم وقود النار** » .

ثم رواه من طريق موسىٰ بن عبيد ، عن محمد بن إبراهيم ، عن بنت الهاد ، عن العباس بن عبد المطلب ، بنحوه .

وقوله تعالىٰ ﴿ **كدأب آل فرعون** ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس : كصنيع آل فرعون ، وكذا روي عن عكرمة ، ومجاهد ، وأبي مالك ، والضحاك ، وغير واحد ، ومنهم من يقول : كسُنَّة آل فرعون ، وكفعل آل فرعون ، وكشبه آل فرعون . والألفاظ متقاربة ، والدأب ، بالتسكين والتحريك أيضًا ، كنهر ونهر ، هو الصنع والحال والشأن والأمر والعادة ، كما يقال : لايزال هذا دأبي ودأبك ؛ وقال امرؤ القيس :

وقوفا بها صحبي عليَّ مطيهم يقولون لاتهلك[٢] أسًى وتجمل[٣]
كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل

والمعنىٰ : كعادتك في أم الحويرث حين أهلكت نفسك في حبها ، وبكيت دارها ورسمها .

والمعنىٰ في الآية : أن الكافرين لا تغني عنهم [الأولاد ولا الأموال] ، بل يهلكون ويعذبون ، كما جرىٰ لآل فرعون ، ومن قبلهم من [المكذبين للرسل فيما جاءوا][٤] به من آيات اللّه وحججه . ﴿ **واللّه شديد العقاب** ﴾ أي : شديد الأخذ أليم العذاب ، لا يمتنع منه أحد ،

---

[١] - في خ : « النجار » .
[٢] - في ز : « تأسف » .
[٣] - في ز : « تحمل » .
[٤] - في خ : « الرسل وما جاءوهم » .

ولا يفوته شيء ، بل هو الفعال لما يريد ، الذي قد[١] غلب كل شيء وذل له كل شئ لا إله غيره ولا رب سواه .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) ﴾

يقول تعالىٰ : قل يا محمد للكافرين : ستغلبون . [أي : في الدنيا][٢] ، وتحشرون ؛ أي : يوم القيامة إلىٰ جهنم وبئس المهاد .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن[٣] يسار ، عن عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ، ورجع إلىٰ المدينة ، جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال : « **يا معشر يهود ! أسلموا قبل أن يصيبكم اللَّه كما[٤] أصاب قريشًا** » فقالوا : يا محمد ! لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال ، إنك واللَّه لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا ، فأنزل اللَّه في [ ][٥] ذلك من قولهم : ﴿ **قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلىٰ جهنم وبئس المهاد** ﴾ إلىٰ قوله ﴿ **لعبرة[٦] لأولي الأبصار** ﴾(٣٧) .

وقد رواه محمد[٧] بن إسحاق أيضًا ، عن محمد بن أبي محمد ، عن سعيد ، أو[٨] عكرمة ، عن ابن عباس فذكره(٣٨) ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **قد كان لكم آية** ﴾ أي : قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم آية ، أي : دلالة علىٰ أن اللَّه مُعِزٌّ دينه ، وناصر رسوله ، ومظهر كلمته ، ومُعْلٍ أمره ﴿ **في فئتين** ﴾ ، أي : طائفتين ، التقتا ؛ أي : للقتال

(٣٧) - ابن هشام في « السيرة » (٢/٥٦١) ، وعاصم بن عمر بن قتادة تابعي ، فالحديث مرسل .

(٣٨) - أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب : الخراج والإمارة والفيء ، باب : كيف كان إخراج اليهود من المدينة ، حديث (٣٠٠١) ، وابن هشام في « السيرة » (٢/٥٦١) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » : (٣/١٧٣) ، وفيه محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت وهو مجهول .

[١] - [٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - في ز ، خ : « عن » .
[٤] - في ز : « ما » .
[٥] - بين المعكوفتين في ز : « مثل » .
[٦] - في ز : « عبرة » .
[٧] - سقط من : ز .
[٨] - عند أبي داود [و] .

﴿ فئة تقاتل في سبيل الله ﴾ وهم المسلمون ﴿ وأخرىٰ كافرة ﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر .

وقوله : ﴿ يرونهم مثليهم رأي العين ﴾ قال بعض العلماء فيما حكاه ابن جرير(٣٩) : يرىٰ المشركون يوم بدر ، أن المسلمين مثليهم في العدد رأي أعينهم أي : جعل اللَّه ذلك فيما رأوه سببًا لنصرة الإِسلام عليهم ، وهذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة ؛ وهي : أن المشركين بعثوا عمر ابن سعد يومئذٍ قبل القتال يحزر[١] لهم المسلمين ، فأخبرهم بأنهم ثلاثمائة يزيدون قليلًا ، أو ينقصون قليلًا ، وهكذا كان الأمر . كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا ، ثم لما وقع القتال أمدهم اللَّه بألف من خواص الملائكة وساداتهم .

(والقول الثاني[٢]) أن المعنىٰ في قوله تعالىٰ : ﴿ يرونهم مثليهم رأي العين ﴾ أي : ترىٰ[٣] الفئةُ المسلمة الفئةَ[٤] الكافرةَ مثليهم ، أي : ضِعْفَيْهِم في العدد ، ومع هذا نصرهم اللَّه عليهم ، وهذا لا إشكال فيه علىٰ ما رواه العوفي عن ابن عباس : أن المؤمنين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا ، والمشركين[٥] كانوا ستمائة وستة وعشرين رجلًا . وكأن هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية ، ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس ، وخلاف المعروف عند الجمهور ، من أن المشركين كانوا ما بين التسعمائة إلىٰ الألف ، كما رواه محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير أن رسول اللَّه ﷺ لما سأل ذلك العبد الأسود لبني الحجاج عن عدّة قريش قال : كثير ، قال : « **كم ينحرون كل يوم ؟** » قال[٦] : ينحرون[٧] يومًا تسعًا ويومًا عشرًا ، فقال النبي ، ﷺ : « **القوم ما بين التسعمائة إلىٰ الألف** »(٤٠) .

وروىٰ[٨] أبو إسحاق السبيعي[٩] عن حارثة ، عن علي ، رضي اللَّه عنه ، قال : كانوا ألفًا .

---

(٣٩) - ذكره ابن جرير في تفسيره (٢٣٣/٦ : ٢٣٥ - شاكر) .

(٤٠) - أورده ابن هشام في « السيرة » (٤٤٩/٢) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٤٢/٣) ، وابن جرير في تفسيره (٢٣٦/٦ ، ٢٣٧- شاكر) رقم (٦٦٨٥) ، وابن كثير في البداية والنهاية (٣٢٣/٣) عن ابن إسحاق عن يزيد بن رومان ، عن عروة مرسلًا .

وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : الجهاد والسير ، حديث (٨٣/١٧٧٩) من حديث أنس بنحوه مختصرًا . وأخرجه أحمد في « مسنده » (١١٧/١) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » : (٤٧٢/٨) من حديث علي بن أبي طالب ببعضه وسنده صحيح .

---

[١] - في ز ، خ : « يحرز » .

[٢] - سقط من : خ .

[٣] - في ز : « نري » .

[٤] - في ز : « للفئة » .

[٥] - في ز : « المشركون » .

[٦] - في ز : « قالوا » .

[٧] - سقط من : ز ، خ .

[٨] - في ز : « روىٰ » .

[٩] - في خ : « البيهقي » .

وكذا قال ابن مسعود .

والمشهور أنهم كانوا ما بين التسعمائة إلىٰ الألف ، وعلىٰ كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين ، وعلىٰ هذا فيشكل هذا القول ، والله أعلم . لكن وجه ابن جرير(٤١) هذا وجعله صحيحًا ، كما تقول : عندي ألف وأنا محتاج إلىٰ مثليها ، وتكون محتاجًا إلىٰ ثلاثة آلاف . كذا قال . وعلىٰ هذا فلا إشكال .

لكن بقي سؤال آخر وهو وارد علىٰ القولين ، وهو أن يقال : ما الجمع بين هذه الآية ، وبين قوله تعالىٰ في قصة بدر : ﴿ **وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلًا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا** ﴾ والجواب : أن هذا كان في حال ، والآخر كان في حال[١] أخرىٰ ، كما قال السدي ، عن الطيب ، عن ابن مسعود في قوله تعالىٰ : ﴿ **قد كان لكم آية في فئتين التقتا** ﴾ الآية . قال : هذا يوم بدر .

قال عبد الله بن مسعود : وقد نظرنا إلىٰ المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلًا واحدًا . وذلك قوله تعالىٰ : ﴿ **وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ، ويقللكم في أعينهم** ﴾ الآية .

وقال أبو إسحاق ، عن أبي عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود ﷺ ؛ قال : لقد قللوا في أعيننا حتىٰ قلت لرجل إلىٰ جانبي : تراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة . قال : فأسرنا رجلًا منهم ، فقلنا : كم كنتم؟ قال : ألفًا .

فعندما عاين كل من الفريقين الآخر رأىٰ المسلمون المشركين مثليهم أي : أكثر منهم بالضعف ؛ ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم ، عز وجل ، ورأىٰ المشركون المؤمنين كذلك ؛ ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع ؛ ثم لما حصل التصاف[٢] والتقى الفريقان ؛ قلل الله هؤلاء في أعين هؤلاء ، وهؤلاء في أعين هؤلاء ؛ ليقدم كل منهما علىٰ الآخر ﴿ **ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا** ﴾ أي : ليفرّق بين الحق والباطل ، فيظهر كلمة الإيمان علىٰ الكفر والطغيان[٣] ، ويعزّ المؤمنين ويذل الكافرين ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة** ﴾ وقال هاهنا : ﴿ **والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار** ﴾ أي : إن في ذلك لمعتبرًا لمن له بصيرة وفهم ؛ يهتدي به إلىٰ حكمة الله وأفعاله ، وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد .

---

(٤١) - تفسير ابن جرير (٦/٢٣٨ - شاكر) .

---

[١] - في ز : « حالة » .

[٢] - في ز : « المصافُ » .

[٣] - سقط من : ز ، خ .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ (١٤) ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ (١٥) ﴾

يخبر تعالىٰ عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ ؛ من النساء والبنين فبدأ بالنساء ؛ لأن الفتنة بهنّ أشد ، كما ثبت في الصحيح(٤٢) أنه [ﷺ قال] : « **ما تركت بعدي فتنة أضر علىٰ الرجال من النساء** » . فأما إذا كان القصد بهنّ الإعفاف وكثرة الأولاد ، فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه ، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه ، و« **إن خير هذه الأمة كان أكثرها نساء** » (٤٣) وقوله ﷺ : « **الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة ، إن نظر إليها سرته ، [وإن أمرها أطاعته]**[١] **، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله** »(٤٤) . وقوله في الحديث الآخر « **حبب إليَّ [الطيب**

(٤٢) - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب النكاح ، باب : ما يتقى من شؤم المرأة ، وقوله تعالى : ﴿ **إن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم** ﴾ حديث (٥٠٩٦) . ومسلم في صحيحه ، كتاب : الرقاق ، حديث ٩٦ - (٢٧٤٠) كلاهما من طريق سليمان التيمي ، عن أبي عثمان النهدي ، عن أسامة بن زيد فذكره .

(٤٣) - أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب النكاح ، باب : كثرة النساء ، حديث (٥٠٦٩) موقوفًا على ابن عباس - رضي الله عنهما - .

(٤٤) - أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الرضاع ، حديث ٦٤ - (١٤٦٧) ، والنسائي في سننه (٦٩/٦) كتاب النكاح ، باب : المرأة الصالحة ، وابن ماجة في السنن ، كتاب النكاح ، باب : أفضل النساء حديث (١٨٥٥) ، وأحمد (١٧٨/٢) من حديث عبد الله بن عمرو : أن رسول الله ﷺ قال : « **الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة** » وفي رواية « **إنما الدنيا متاع ، وليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة** » .

وأخرجه النسائي في « سننه » (٦٨/٦) ، كتاب النكاح ، باب : أي النساء خير ، والبيهقي في السنن (٧/ ٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ قال : قيل لرسول الله ﷺ : أي النساء خير ؟ قال : « **التي تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه في نفسها ومالها بما يكره** » .

وأخرجه ابن ماجه في « سننه » كتاب النكاح ، باب : أفضل النساء ، حديث (١٨٥٧) من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه كان يقول : « **ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرًا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرته ، وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله** » .

[١] - سقط من : ز ، خ .

والنساء] ، وجعلت قرّة عيني في الصلاة »(٤٥) .

وقالت عائشة رضي اللَّه عنها : لم يكن شيء أحب إلىٰ رسول اللَّه ﷺ من النساء إلا الخيل .

وفي رواية : « **من[١] الخيل إلا النساء** »(٤٦) .

وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة ، فهو داخل في هذا ، وتارة يكون لتكثير النسل وتكثير أمة محمد ، ﷺ ، ممن يعبد اللَّه وحده لا شريك له ، فهذا محمود ممدوح كما ثبت في الحديث : « **تزوجوا الودود الولود ، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة** »(٤٧) .

وحب المال كذلك يكون تارة للفخر والخيلاء ، والتكبر علىٰ الضعفاء ، والتجبر علىٰ الفقراء ، فهذا مذموم ، وتارة يكون للنفقة في القربات ، وصلة الأرحام والقرابات ، ووجوه البر والطاعات ، فهذا ممدوح محمود عليه شرعًا .

---

(٤٥) - أخرجه النسائي في « سننه » (٦١/٧) في كتاب عشرة النساء ، باب : حب النساء ، وأحمد في « مسنده » (١٢٨/٣) ، والحاكم في « المستدرك » (١٦٠/٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٤٦) - أخرجه النسائي في « الكبرى » (٤٤٠٤) (٣٦/٣) من طريق سعيد ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك ولفظه : « لم يكن شيء أحب إلى رسول اللَّه ﷺ بعد النساء من الخيل » . وأخرجه أحمد في مسنده ٢٠٣٦٤ - (٢٧/٥) من حديث معقل بن يسار ولفظه : « لم يكن شيء أحب إلى رسول اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلم من الخيل ، ثم قال : اللَّهم غفرًا لا بل النساء » .

(٤٧) - أخرجه أبو داود في « سننه » كتاب النكاح ، باب : النهي عن تزويج من لم يلد من النساء ، حديث (٢٠٥٠) . والنسائي في « سننه » (٦٥/٦ - ٦٦) كتاب النكاح ، باب : كراهية تزويج العقيم ، وابن حبان في صحيحه (٣٦٣/٩ - ٣٦٤ - الإحسان) رقم (٤٠٥٦، ٤٠٥٧) ، والحاكم في « المستدرك » (١٦٢/٢) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٨١/٧) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢١٩/٢٠) رقم (٥٠٨) من طريق المستلم بن سعيد ، عن منصور بن زاذان ، عن معاوية بن قرة ، عن معقل بن يسار به مرفوعًا ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه بهذه السياقة ، ووافقه الذهبي .

وأخرجه أحمد في « مسنده » (١٥٨/٣) وابن حبان في « صحيحه » (٣٣٨/٩ - الإحسان) رقم (٤٠٢٨) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٨١/٧ ، ٨٢) ، وسعيد بن منصور في « سننه » (٤٩٠) ، من طريق خلف بن خليفة ، عن حفص بن عمرو ابن أخي أنس بن مالك ، عن أنس بن مالك فذكره . وذكره الهيثمي في « المجمع » (١٦١/٤) وزاد نسبته إلى الطبراني في « الأوسط » وحسن إسناده .

وأخرجه أحمد في « مسنده » (١٧١/٢ - ١٧٢) من حديث عبد اللَّه بن عمرو ، بنحوه .

وذكره الهيثمي في « المجمع » (٢٦١/٤) وقال : رواه أحمد ، وفيه حيي بن عبد اللَّه المعافري ، وقد وثق ، وفيه ضعف .

---

[١] - سقط من : ز ، خ .

وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال ، وحاصلها أنه المال الجزيل ، كما قال[١] الضحاك وغيره . وقيل : ألف دينار ، وقيل : ألف ومائتا دينار . وقيل : اثنا[٢] عشر ألفًا . وقيل : أربعون ألفًا . وقيل : ستون ألفًا . وقيل : سبعون ألفًا . وقيل : ثمانون ألفًا . وقيل غير ذلك .

وقد قال الإمام أحمد(٤٨) : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حماد ، عن عاصم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ « **القنطار : اثنا[٣] عشر ألف أوقية ، كل أوقية خير مما بين السماء والأرض** » .

وقد رواه ابن ماجة ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن عبد الصمد بن عبد الوارث ، عن حماد ابن سلمة به .

وقد رواه ابن جرير ، عن بندار ، عن ابن مهدي ، عن حماد بن زيد ، عن عاصم هو ابن بهدلة ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، موقوفًا وهذا أصح .

وهكذا رواه ابن جرير(٤٩) ، عن معاذ بن جبل وابن عمر ، وحكاه ابن أبي حاتم(٥٠) عن أبي هريرة وأبي الدرداء أنهم قالوا : القنطار ألف ومائتا أوقية .

ثم قال ابن جرير(٥١) رحمه الله : حدثني زكريا بن يحيى الضرير ، حدثنا شبابة ، حدثنا مخلد بن عبد الواحد ، عن علي بن زيد ، عن عطاء بن أبي ميمونة ، عن زر بن حبيش ، عن أبي بن كعب ؛ [قال : قال رسول الله ، ﷺ : « **القنطار ألف أوقية ومائتا أوقية** » .

وهذا حديث منكر أيضًا ، والأقرب أن يكون موقوفًا على أبي بن كعب][٤] كغيره من

(٤٨) - رواه أحمد في « مسنده » (٣٦٣/٢) ، ورواه ابن ماجه في « سننه » كتاب الأدب ، باب : بر الوالدين ، حديث (٣٦٦٠) ، والدارمي في « سننه » (٤٦٧/٢) كتاب فضائل القرآن ، باب : كم يكون القنطار ، وابن حبان في صحيحه (٣١١/٦ ، ٣١٢ - الإحسان) رقم (٢٥٧٣) من طريق عبد الصمد بهذا الإسناد ، وتابع حماد بن سلمة عند الدارمي أبان العطار . ورواه ابن جرير في تفسيره (٢٤٤/٦) رقم (٦٧٠٠) ، والبيهقي (٢٣٣/٧) من طريق حماد بن زيد ، عن عاصم بن بهدلة ، بنحوه .

(٤٩) - رواه ابن جرير في تفسيره (٢٤٤/٦) رقم (٦٦٩٦ ، ٦٦٩٧) ، وابن أبي حاتم (١٠٨/٢) رقم ١٨٢. عن معاذ بن جبل ، ورقم (٦٦٩٨) عن ابن عمر ، والبيهقي في « السنن » (٢٣٣/٧).

(٥٠) - تفسير ابن أبي حاتم (١١٠/٢) رقم (١٨٣ ، ١٨٤) . والبيهقي في « السنن » (٢٣٣/٧) .

(٥١) - رواه ابن جرير في تفسيره (٢٤٥/٦) رقم (٦٧٠١) .

[١] - في ز : « قاله » .
[٢] - في ز ، خ : « اثني » .
[٣] - في خ : « اثني » .
[٤] - سقط من خ ، ز.

الصحابة .

وقد روى ابن مردويه من طريق موسى بن عبيدة الربذي[١] ، عن محمد بن إبراهيم ، عن يحنَّش[٢] أبي موسى ، عن أم الدرداء ، عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « **من قرأ مائة آية لم يكتب من الغافلين ، ومن قرأ مائة آية إلى ألف أصبح [له قنطار من الأجر]**[٣] **عند الله ، القنطار منه مثل الجبل العظيم** »(٥٢) .

ورواه وكيع ، عن موسى بن عبيدة بمعناه . وقال الحاكم في مستدركه(٥٣) : حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا أحمد بن عيسى بن زيد اللخمي بتنِّيس[٤] ، حدثنا [عمرو بن أبي سلمة][٥] ، حدثنا زهير بن محمد ، حدثنا حميد الطويل ، ورجل آخر ، عن أنس بن مالك ؛ قال : سئل رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى : ﴿ **والقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ** ﴾ قال : « **القنطار : ألفا أوقية** » . صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . هكذا رواه الحاكم .

وقد رواه ابن أبي حاتم(٥٤) بلفظ آخر فقال : أنبأنا أحمد بن عبد الرحمن الرقي ، حدثنا عمرو ابن أبي سلمة ، حدثنا زهير ، يعني : ابن محمد ، أنبأنا حميد الطويل ، ورجل آخر ، قد سماه - يعني : يزيد الرقاشي - عن أنس ، عن رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، في قوله :

---

(٥٢) - موسى بن عبيدة : ضعيف ، وأخرجه ابن أبي شيبة ، وزاد في الإسناد « راشد بن سعد أخ لأم الدرداء » بين يحنس ، وأم الدرداء ، ورواه عبد بن حميد في مسنده ص (٩٨) رقم (٢٠٠) . وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث يحنس ، عن أم الدرداء قالت : قال رسول الله ﷺ : « **من قرأ بخمسين آية في ليلة أصبح له قنطار من الأجر ، والقنطار مثل التل العظيم** » . لم يذكر في الإسناد أبا الدرداء ، وكذلك رواه ابن أبي شيبة ، وأبو يعلى .

ورواه الدارمي (٤٦٧/٢) من حديث يحنس ، عن سالم أخي أم الدرداء ، عن أبي الدرداء : **من قرأ ألف آية كتب له قنطار من الأجر ، والقيراط منه مثل التل العظيم** .

وهكذا فإن الاضطراب ظاهر ، فتارة يروى عن أم الدرداء ، وتارة عن أبي الدرداء ، وتارة يدخل راشد ، وتارة يدخل سالم . وأما الاختلاف في المتن فظاهر ، وهذا من صنيع موسى بن عبيدة ، فمدار الحديث عليه .

(٥٣) - رواه الحاكم (١٧٨/٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي . وفي إسناده عمرو بن أبي سلمة ضعيف ، خاصة إذا روى عن زهير ، وقال أبو حاتم : لا يحتج به ، وقال الساجي : ضعيف ، وضعفه أيضًا : يحيى بن معين ، وقال العقيلي : في حديثه وهم . وانظر « ميزان الاعتدال » (١٨٢/٤) رقم (٦٣٧٩) ، « الجرح والتعديل » (٢٣٥/٦ ، ٢٣٦) رقم (١٣٠٤) ، « التقريب » للحافظ (ص ٤٢٢) رقم (٥٠٤٣) .

(٥٤) - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١١١/٢) رقم (١٨٦) .

---

[١] - في خ : « الترمذي » .
[٢] - غير واضحة في خ .
[٣] - في خ : « قنطارين أجر » .
[٤] - في ز : « تبتيس » .
[٥] - في ز : محمد بن عمرو بن أبي سلمة

« **قنطار يعني : ألف دينار** » .

وهكذا رواه[١] ابن مردويه ، عن [٢] الطبراني ، عن عبد الله بن محمد بن أبي مريم ، عن عمرو بن أبي سلمة ، فذكر بإسناده مثله سواء .

وروىٰ ابن جرير(٥٥) ، عن الحسن البصري عنه مرسلًا أو[٣] موقوفًا عليه : القنطار ألف ومائتا[٤] دينار ، [وكذا رواه العوفي عن ابن عباس .

وقال الضحاك : من العرب من يقول : القنطار ألف ومائتا دينار][٥] ، ومنهم من يقول : اثنا عشر ألفًا .

وقال ابن أبي حاتم(٥٦) : حدثنا أبي ، حدثنا عارم ، عن حماد ، عن سعيد الجريري[٦] ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، قال : القنطار[٧] ملء مسك[٨] الثور ذهبًا .

قال أبو محمد(٥٧) : ورواه محمد [بن موسىٰ الحرشي][٩] ، عن حماد بن زيد مرفوعًا ، والموقوف أصح .

(**وحب الخيل علىٰ ثلاثة أقسام**) تارة يكون ربطها أصحابها معدّة لسبيل الله تعالىٰ متىٰ احتاجوا إليها غزوا عليها ، فهؤلاء يثابون ، وتارة تربط فخرًا ونواءً لأهل الإسلام ، فهذه علىٰ صاحبها وزر ، وتارة للتعفف واقتناء رقابها ولم ينس حق الله في نسلها[١٠] ، فهذه لصاحبها ستر ، كما سيأتي الحديث(٥٨) بذلك [إن شاء الله تعالىٰ][١١] عند قوله تعالىٰ : ﴿ **وأعدوا**

(٥٥) - رواه ابن جرير في تفسيره (٦/٢٤٥) رقم (٦٧٠٢) .

(٥٦) - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/١١٥) رقم (١٩٠) ، والبيهقي في « السنن » (٧/٢٣٣) . ورواه الدارمي (٢/٤٦٧) .

ورواه موقوفًا على أبي نضرة ، كل من الدارمي (٢/٤٦٧) والطبري (٦٧٢٢) .

(٥٧) - يعني ابن أبي حاتم .

(٥٨) - سيأتي تخريجه في سورة الأنفال آية (٦٠) .

[١] - سقط من : ت .

[٢] - في ت : رواه .

[٣] - في ز ، خ : « عنه و » .

[٤] - سقط من : خ .

[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٦] - في ز : « الحرسي » .

[٧] - سقط من : ز ، خ .

[٨] - المسك : الجلد .

[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[١٠] - في ز ، خ : « رقابها » .

[١١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ﴾ الآية وأما المسومة ، فعن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، : المسوّمة : الراعية ، والمطهمة : الحسان .

وكذا روي عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن أبزى والسدّي ، والربيع بن أنس ، وأبي سنان وغيرهم .

وقال مكحول : المسوّمة : الغرة والتحجيل . وقيل غير ذلك .

وقد قال الإمام أحمد(٥٩) : حدثنا يحيىٰ بن سعيد ، عن عبد الحميد بن جعفر ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن سويد بن قيس ، عن معاوية بن حُديج[١] ، عن أبي ذر ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ، ﷺ : « **ليس من فرس عربي إلا يؤذن له مع كل فجر ، يدعو بدعوتين يقول : اللّهم إنك خوّلتني [من خوّلتنى][٢] من بني آدم فاجعلني من أحب ماله وأهله إليه ، أو أحب أهله وماله إليه** » .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **والأنعام** ﴾ يعني : الإبل والبقر والغنم ﴿ **والحرث** ﴾ يعني : الأرض المتخذة للغراس والزراعة .

وقال[٣] الإمام أحمد(٦٠) : حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا أبو نعامة العدوي ، عن مسلم بن بديل عن إياس بن زهير ، عن سويد بن هبيرة ، عن النبي ، صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال : « **خير مال امرئ له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة** » . المأمورة : الكثيرة النسل ، والسكة[٤] : النخل المصطف ، والمأبورة : الملقحة .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ذلك متاع الحياة الدنيا** ﴾ أي : إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة ﴿ **والله عنده حسن المآب** ﴾ أي : حسن المرجع والثواب .

وقد قال ابن جرير(٦١) : حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن عطاء ، عن أبي بكر بن حفص

---

(٥٩) - رواه أحمد في « مسنده » ٢١٥٧٨ - (١٧٠/٥) ، ورواه أيضًا ٢١٥٢٣ - (١٦٢/٥) ، والنسائي (٢٢٣/٦) كتاب الخيل ، باب : دعوة الخيل ، والحاكم في « المستدرك » (١٤٤/٢) من طريق يحيى بن سعيد به . وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(٦٠) - أخرجه أحمد في « مسنده » (٤٦٨/٣) ، وسيأتي تخريجه في سورة الإسراء آية (١٦) رقم (١٦١) .

(٦١) - في إسناده عطاء بن السائب ، اختلط ، ورواية جرير عنه بعد الاختلاط ، وأبو بكر بن حفص لم يلق عمر ، والأثر رواه ابن جرير في تفسيره (٢٤٤/٦) رقم (٦٦٩٥) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٠١/٢) رقم (١٧٥) من طريق جرير ، به .

---

[١] - في ر « خديج »
[٢] ما بين المعكوفتين سقط من خ
[٣] - في ر « قال »
[٤] في خ « سكة »

ابن عمر بن سعد ، قال : قال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه : لما أنزلت[١] ﴿ **زين للناس حب الشهوات** ﴾ قلت : الآن يارب حين زينتها لنا ، فنزلت : ﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ الآية .

ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم** ﴾ أي : قل يا محمد للناس : أأخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها الذي هو زائل لا محالة ، ثم أخبر عن ذلك فقال : ﴿ **للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ أي : تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار ، من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أي : ماكثين فيها أبد الآباد لا يبغون عنها حولًا ، ﴿ **وأزواج مطهرة** ﴾ أي : من الدنس والخبث والأذىٰ والحيض والنفاس وغير ذلك ، مما يعتري نساء الدنيا .

﴿ **ورضوان من اللّه** ﴾ أي : يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبدًا . ولهذا قال تعالىٰ في الآية الأخرى التي في براءة : ﴿ **ورضوان من اللّه أكبر** ﴾ أي : أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم . ثم قال تعالى : ﴿ **واللّه بصير بالعباد** ﴾ أي : يعطي كلا بحسب ما يستحقه من العطاء

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾
ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

يصف [تبارك و][٢] تعالىٰ عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل ، فقال تعالىٰ : ﴿ **الذين يقولون ربنا إننا آمنا** ﴾ أي : بك وبكتابك وبرسلك[٣] ﴿ **فاغفر لنا ذنوبنا** ﴾ أي : بإيماننا بك وبما شرعته لنا [فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا ، بفضلك ورحمتك][٤] ﴿ **وقنا عذاب النار** ﴾ .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **الصابرين** ﴾ أي : في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرّمات ﴿ **والصادقين** ﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة ﴿ **والقانتين** ﴾ والقنوت : الطاعة والخضوع ، ﴿ **والمنفقين** ﴾ أي : من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات ، وصلة الأرحام والقرابات ، وسد الخلات ، ومواساة ذوي الحاجات ﴿ **والمستغفرين بالأسحار** ﴾ دل علىٰ فضيلة الاستغفار وقت الأسحار .

---

[١] - في ت : «نزلت » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٣] - في ز : « برسولك » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

وقد قيل : إن يعقوب عليه السلام لما قال لبنيه ﴿ **سوف أستغفر لكم ربي** ﴾ أنه أخرهم إلىٰ وقت السحر .

وثبت في الصحيحين(٦٢) وغيرهما من المسانيد والسنن من غير وجه ، عن جماعة من الصحابة أن رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وآله وسلم ، قال : « **ينزل اللّٰه تبارك وتعالىٰ في كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر**[١] **فيقول : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟** » . الحديث . وقد أفرد الحافظ أبو الحسن الدارقطني في ذلك جزءًا علىٰ حدة ، فرواه من طرق متعدّدة .

وفي الصحيحين(٦٣) عن عائشة ، رضي اللّٰه عنها ، قالت : من كل الليل قد أوتر رسول اللّٰه ﷺ من أوله وأوسطه وآخره ، فانتهىٰ وتره إلىٰ السحر .

وكان عبد اللّٰه بن عمر يصلي من الليل ثم يقول : يا نافع هل جاء السحر ؟ فإذا قال : نعم . أقبل علىٰ الدعاء والاستغفار حتىٰ يصبح . رواه ابن أبي حاتم(٦٤) .

وقال ابن جرير(٦٥) : حدّثنا ابن وكيع ، حدّثنا أبي ، عن حريث بن أبي مطر ، عن إبراهيم بن

---

(٦٢) - أخرجه البخاري في كتاب التهجد ، باب : الدعاء والصلاة في آخر الليل ، حديث (١١٤٥) ، وأطرافه (٦٣٢١) ، و(٧٤٩٤) . ومسلم في « صحيحه » كتاب صلاة المسافرين ، حديث (٧٥٨) ، ومالك في « الموطأ » كتاب القرآن ، باب : ما جاء في الدعاء ، حديث (٣٠) وأبو داود في « سننه » كتاب الصلاة ، باب : أي الليل أفضل ؟ حديث (١٣١٥) . وأخرجه النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٤٨٠) وابن ماجه ، كتاب : الإقامة ، باب : ما جاء في أي ساعات الليل أفضل حديث (١٣٦٦) ، وأحمد في مسنده (٤٨٧/٢) (٢٦٧/٢) ، وابن خزيمة في « التوحيد » ص (١٢٧ - ١٢٨) ، وابن أبي عاصم في « السنة » (٢١٧/١) رقم (٤٩٢) والفسوي في « المعرفة والتاريخ » (٤١٤/١) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٢/٣) ، وفي « الأسماء والصفات » (ص ٤٤٩) . وابن حبان في صحيحه (١٩٩/٣ - ٢٠٠ - الإحسان) رقم (٩٢٠) كلهم من حديث أبي هريرة .
وقد ورد عن جماعة من الصحابة كما ذكر المصنف .

(٦٣) - أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الوتر ، باب : ساعات الوتر ، حديث (٩٩٦) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، ١٣٦ ، ١٣٨ - (٧٤٥) .

(٦٤) - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٤٥/٢) رقم (٢٤٥) . وفي إسناده سليمان بن موسى الأموي صدوق فقيه ، في حديثه بعض لين . وأخرجه الطبري في تفسيره (٢٦٦/٦) رقم (٦٧٥٦) .

(٦٥) - رواه ابن جرير في تفسيره (٢٦٦/٦) رقم (٦٧٥٥) . وفيه « حريث بن أبي مطر عمرو الفزاري ، أبو عمرو الحناط » ، ضعفه غير واحد - قال ابن معين : لا شيء ، وقال عمرو بن علي : ضعيف الحديث . وقال أبو حاتم : ضعيف الحديث ، وقال النسائي : متروك الحديث ، وقال البخاري : ليس بالقوي عندهم =

---

[١] - في ت : « الأخير » .

حاطب ، عن أبيه قال : سمعت رجلًا في السحر في ناحية المسجد وهو يقول : يا[١] رب أمرتني فأطعتك ، وهذا السحر فاغفر لي . فنظرت فإذا هو ابن مسعود ، رضي الله عنه .

وروى ابن مردويه(٦٦) عن أنس بن مالك قال : كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر في آخر السحر سبعين مرة .

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

شهد تعالى وكفى به شهيدًا ، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم ، وأصدق القائلين ﴿ **أنه لا إله إلا هو** ﴾ أي : المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق ، وأن الجميع عبيده وخلقه وفقراء[٢] إليه ، وهو الغني عما سواه . كما قال تعالى : ﴿ **لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيدًا** ﴾ الآية . ثم قرن شهادة ملائكته [وأولي العلم][٣] بشهادته فقال : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة أولوا العلم** ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام .

﴿ **قائمًا بالقسط** ﴾ منصوب على الحال ، وهو في جميع الأحوال كذلك ﴿ **لا إله إلا**

= وقال مرة : فيه نظر . وانظر « ميزان الاعتدال » (٤٧٤/١) رقم (١٧٩٠) ، والتهذيب (٢٠٥/٢ - ٢٠٦) رقم (٤٣٤) .
قال الشيخ أحمد شاكر : وأما إبراهيم بن حاطب فلم أجد له ولا لأبيه « حاطب » ترجمة ، وأخشى أن يكون في اسمه تحريف أو سقط ، وأن يكون حاطب هذا هو حاطب بن أبي بلتعة صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

(٦٦) - أخرجه الطبري في « تفسيره » (٢٦٦/٦) رقم (٦٧٥٧) .

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في خ : « الفقراء » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

هو ﴾ تأكيد لما سبق ﴿ **العزيز الحكيم** ﴾ العزيز الذي لا يرام جنابه عظمة وكبرياء ، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

وقال الإمام أحمد(٦٧) : حدّثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا بقية بن الوليد ، حدثني جبير بن عمرو القرشي ، حدثنا أبو سعيد الأنصاري ، عن أبي يحيىٰ مولىٰ آل الزبير بن العوام ، عن الزبير بن العوام ، قال : سمعت النبي ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ وأنا علىٰ ذلك من الشاهدين يارب .

وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر(٦٨) ، فقال : حدثنا علي بن حسين ، حدثنا محمد بن المتوكل العسقلاني ، حدثنا عمر بن حفص بن ثابت - أبو سعيد الأنصاري - حدثنا عبد الملك ابن يحيىٰ بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن الزبير قال : سمعت رسول الله ﷺ حين قرأ هذه الآية ﴿ **شهد الله أنه لا له إله هو والملائكة** ﴾ قال : « **وأنا أشهد أي رب** » .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في المعجم الكبير(٦٩) : حدثنا عبدان بن أحمد ، وعلي ابن

(٦٧) - جبير بن عمرو القرشي : لا يدرى من هو . وقال الحافظ في التعجيل (٦٧) وأحسب أن هذا غلط ، نشأ عن تصحيف في اسمه ، وتحريف في اسم أبيه . وإنما هو حبيب بن عمر الأنصاري » . وأبو سعيد الأنصاري : أورده في التعجيل ، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا ، غير أنه قال : الذي في المسند أبو سعد بسكون العين ، وكذا ذكر ضبطه شيخنا الحافظ العراقي . وأبو يحيى مولى آل الزبير : ترجمه في التعجيل وأشار إلى هذا الحديث ، ولم يذكر عنه شيئًا . والحديث أخرجه أحمد في « مسنده » (١٦٦/١) . وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٣٢٨/٦) وعزاه إلى أحمد وبنحوه للطبراني . وقال : وفي أسانيدهما مجاهيل .

(٦٨) - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٤٦/٢) رقم (٢٤٦) .

(٦٩) - أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٤٥/١٠) رقم (١٠٤٥٣) وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٨٧ - ١٨٨) ، والعقيلي في « الضعفاء » (٣٢٥/٣) في ترجمة عمار بن عمر بن المختار ، وابن عدي في « الكامل » (١٦٩٣/٥ ، ١٦٩٤) في ترجمة عمر بن المختار ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٩٣/٧ - ١٩٤) وفي المهروانيات ص (٢٠٢) رقم (١٦٦) في ترجمة جعفر بن محمد بن عبد الله القطان المهرواني . قال ابن عدي : روى الأباطيل ، روى عنه ابنه عمار ، وقال الذهبي في ترجمته - الميزان - : قال ابن خطاف : عمر بن المختار متهم بالوضع . وقال ابن عدي - أيضًا - : لا يحدث به غير عمر بن المختار .. ومقدار ما يرويه فيه نظر . قال البيهقي : « عمار بن المختار ، عن أبيه ، ضعيفان ، وهذا لم يأت به غيرهما والله أعلم » . وقال أبو نعيم : « غريب من حديث الأعمش ، تفرد به عمر بن المختار عن غالب » وقال العقيلي : لا يتابع على حديثه . وقال الخطيب البغدادي : هذا حديث غريب جدًّا من حديث أبي وائل شقيق ، عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود ، ومن حديث سليمان الأعمش ، عن أبي وائل ، تفرد به غالب بن خطاف القطان البصري ، عن الأعمش ، ولم يكتبه إلا من رواية عمار بن عمر بن المختار ، =

سعيد الرازي ، قالا : حدثنا عمار بن عمر بن المختار ، حدثني أبي ، حدثني غالب القطان ، قال : أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريبًا من الأعمش ، فلما كانت ليلة أردت أن أنحدر ، قام فتهجد من الليل فمرّ بهذه الآية ﴿ **شهد اللَّه أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند اللَّه الإسلام** ﴾ ثم قال الأعمش : وأنا أشهد بما شهد اللَّه به ، وأستودع اللَّه هذه الشهادة ، وهي لي[١] عند اللَّه وديعة ، ﴿ **إن الدين عند اللَّه الإسلام** ﴾ قالها مرارًا ، قلت : لقد سمع فيها شيئًا ، فغدوت إليه فودعته ، ثم قلت : يا أبا محمد ؛ إني سمعتك تردّد هذه الآية ، قال : أو ما بلغك ما فيها ؟ قلت : أنا عندك منذ شهر لم تحدثني . قال : واللَّه لا أحدّثك بها إلىٰ سنة . فأقمت سنة ، فكنت علىٰ بابه ، فلما مضت السنة ، قلت : يا أبا محمد ؛ قد مضت السنة . قال : حدثني أبو وائل ، عن عبد اللَّه ، قال : قال رسول اللَّه ﷺ: « **يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول اللَّه ، عز وجل ، : عبدي عهد إلي وأنا أحق من وفىٰ بالعهد ، أدخلوا عبدي الجنة** » .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **إن الدين عند اللَّه الإسلام** ﴾ إخبارٌ منه[٢] اللَّه[٣] تعالىٰ بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوىٰ الإسلام ، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم اللَّه به في كل حين ، حتىٰ[٤] ختموا بمحمد ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ، ﷺ ، فمن لقي اللَّه بعد [بعثة محمد][٥] ﷺ بدين علىٰ غير شريعته فليس بمتقبل ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾ الآية . وقال في هذه الآية مخبرًا بانحصار الدين المتقبل منه[٦] عنده في الإسلام : ﴿ **إن الدين عند اللَّه الإسلام** ﴾ .

وذكر[٧] ابن جرير(٧٠) ، أن ابن عباس قرأ ﴿ **شهد اللَّه إنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو[٨] العزيز الحكيم أن الدين عند اللَّه الإسلام** ﴾ بكسر ﴿إن﴾[٩] - وفتح ، ﴿ **أن الدين عند اللَّه الإسلام**﴾ أي : شهد هو والملائكة وأولو العلم

= عن أبيه ، عن غالب . انظر « الكامل » لابن عدي (١٦٩٤/٥) ، و« ميزان الاعتدال » (١٤٣/٤) رقم (٦٢١٣) ، و« لسان الميزان » (٣٧٦/٤) رقم (٦١٩٣) ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٦/ ٣٢٨، ٣٢٩) ، وقال : رواه الطبراني وفيه عمر بن المختار وهو ضعيف . وضعفه والخطيب في تاريخه .

(٧٠) - تفسير ابن جرير (٢٦٨/٦) .

[١] - سقط من : خ .
[٢] - في خ : « من » .
[٣] - سقط من : ت .
[٤] - سقط من : خ .
[٥] - ما بين المعكوفتين في ز : « بعثته محمدًا » .
[٦] - سقط من : ز ، خ .
[٧] - في خ : « قال » .
[٨] - في ت : « اللَّه » .
[٩] - سقط من : خ ، وفي ز : « أنه » .

من البشر بأن الدين عند الله الإسلام . والجمهور قرءوها بالكسر علىٰ الخبر ، وكلا المعنيين صحيح ، ولكن هذا علىٰ قول الجمهور أظهر ، والله أعلم .

ثم أخبر تعالىٰ بأن[١] الذين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم[٢] الحجة بإرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم ، فقال : ﴿ **وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم** ﴾ أي : بغىٰ بعضهم علىٰ بعض ، فاختلفوا في الحق ؛ لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم ، فحمل [بعضهم بغض][٣] البعض[٤] الآخر علىٰ مخالفته في جميع أقواله وأفعاله ، وإن كانت حقًا ؛ ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب** ﴾ [أي : من جحد [ما أنزل][٥] الله في كتابه] ﴿ **فإن الله سريع الحساب** ﴾ أي : فإن[٦] الله سيجازيه علىٰ ذلك ، ويحاسبه علىٰ تكذيبه ، ويعاقبه علىٰ مخالفته كتابه .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **فإن حاجوك** ﴾ أي : جادلوك في التوحيد ﴿ **فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن** ﴾ أي : فقل أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له ولا ندّ له ، ولا ولد له[٧] ولا صاحبة له ﴿ **ومن اتبعن**[٨] ﴾ أي : علىٰ ديني ، يقول[٩] كمقالتي . كما قال تعالىٰ : ﴿ **قل هذه سبيلي أدعو إلىٰ الله علىٰ بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾ الآية .

ثم قال تعالىٰ آمرًا لعبده ورسوله محمد ، ﷺ ، أن يدعو إلىٰ طريقته ودينه والدخول في شرعه ، وما بعثه الله به ، الكِتَابِيِّين من الملتين ، والأُمِّيِّين من المشركين ، فقال تعالىٰ : ﴿ **وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ** ﴾ أي : والله عليه حسابهم ، وإليه مرجعهم ومآبهم ، وهو الذي يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وله الحكمة في ذلك ، والحجة البالغة ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **والله بصير بالعباد** ﴾ أي : هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة ، وهو الذي ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾ وما ذلك[١٠] إلا لحكمته ورحمته .

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات علىٰ عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلىٰ جميع الخلق ، كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث ،

---

[١] - في خ : « أن » .
[٢] - سقط من : ت .
[٣] - في ز ، خ : « بعضهم على بعض » .
[٤] - في ز ، خ : « البغض » .
[٥] - ما بين المعكوفتين في ز : « بما أنزله » .
[٦] - في ز : « في أن » .
[٧] - سقط من : ت .
[٨] - في ز : « اتبعني » .
[٩] - في ز : « يقولون » .
[١٠] - في خ : « ذاك » .

فمن ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ **قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا** ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ **تبارك الذي نزّل الفرقان علىٰ عبده ليكون للعالمين نذيرًا** ﴾ .

وفي الصحيحين وغيرهما(٧١) مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة ، أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلىٰ الله ملوكَ الآفاق ، وطوائف بني آدم ، من عربهم وعجمهم ، كتابيهم وأميهم ؛ امتثالًا لأمر الله له[١] بذلك .

وقد روىٰ عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « **والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به ؛ إلا كان من أهل النار** » رواه مسلم(٧٢) .

---

(٧١) - أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب العلم ، باب : ما يذكر في المناولة ، وكتاب أهل العلم بالعلم إلى البلدان حديث (٦٥) وأطرافه في (٢٩٣٨ ، ٥٨٧٠ ، ٥٨٧٢ ، ٥٨٧٤ ، ٥٨٧٥ ، ٥٨٧٧ ، ٧١٦٢) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب اللباس والزينة ، حديث (٢٠٩٢) ، وأبو داود في « سننه » كتاب : الخاتم ، باب : ما جاء في اتخاذ الخاتم ، حديث (٤٢١٤) ، والترمذي في « سننه » كتاب : الاستئذان والآداب ، باب : ما جاء في ختم الكتاب ، حديث (٢٧١٩) ، والنسائي (١٧٤/٨) كتاب الزينة ، باب : صفة خاتم النبي ﷺ ، وأحمد في « مسنده » (١٦٨/٣ ، ١٦٩) كلهم من حديث أنس بن مالك قال : كتب النبي ﷺ كتابًا أو أراد أن يكتب - فقيل له : إنهم لا يقرءون كتابًا إلا مختومًا ، فاتخذ خاتمًا من فضه نقشه : محمد رسول الله ، كأني أنظر إلى بياضه في يده .

ومن حديث ابن عباس : أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب العلم ، باب : ما يذكر في المناولة وكتاب أهل العلم بالعلم إلى البلدان حديث (٦٤) ، وأطرافه حديث (٢٩٣٩) ، و(٤٤٢٤) ، و (٧٢٦٤) من طريق ابن شهاب قال : أخبرني عبيد الله بن عبد الله أن ابن عباس أخبره : « أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمي ، فأمر أن يدفعه إلى عظيم البحرين ، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى ، فلما قرأه مزقه ، فحسبت أن ابن المسيب قال : فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق » .

وأخرجه البخاري في « صحيحه » : كتاب : بدء الوحي حديث (٧) . ومسلم في « صحيحه » كتاب الجهاد والسير ، حديث (٧٤/١٧٧٣) . وأبو داود في « سننه » كتاب : الأدب ، باب : كيف يكتب إلى الذمي ؟ حديث (٥١٣٦) ، والترمذي في « سننه » كتاب : الاستئذان والآداب ، باب : ما جاء كيف يكتب لأهل الشرك ، حديث (٢٧١٨) ، والنسائي في « الكبرى » (٣٠٩/٦ : ٣١١) رقم (١١٠٦٤) ، وأحمد في مسنده «٢٦٢/١» من طريق الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس أن أبا سفيان أخبره - فذكر حديثًا طويلًا في ذكر كتاب النبي ﷺ إلى هرقل .

(٧٢) - ومن طريق عبد الرزاق رواه ابن منده في « التوحيد « (٤٤/١) كما في « الصحيحة » للألباني (رقم ١٥٧) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ح ٢٤٠ - (١٥٣) ، وانظر ما يأتي [سورة الأعراف / آية ١٥٨/ ح ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠] .

---

[١] - سقط من : خ .

وقال ﷺ : « **بعثت إلىٰ الأسود والأحمر** »(٧٣) . وقال : « **كان النبي يبعث إلىٰ قومه خاصة ، وبعثت إلىٰ الناس عامة** »(٧٤) .

وقال الإمام أحمد (٧٥) : حدثنا مؤمل ، حدثنا حماد ، حدثنا ثابت عن أنس ، رضي اللَّه عنه : أن غلامًا يهوديًا كان يضع[١] للنبي ﷺ وضوءه ، ويناوله نعليه ، فمرض ، فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه ، وأبوه قاعد عند رأسه ، فقال له النبي ﷺ : « **يا فلان ! قل لا إله إلا اللَّه** » . فنظر إلىٰ أبيه ، فسكت أبوه ، فأعاد عليه النبي ﷺ فنظر إلىٰ أبيه ، فقال أبوه : أطع أبا القاسم . فقال الغلام : أشهد أن لا إله إلا اللَّه ، وأنك رسول اللَّه . فخرج النبي ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، وهو يقول : « **الحمد للَّه الذي أخرجه بي من النار** » رواه[٢] البخاري في الصحيح ، إلىٰ غير ذلك من الآيات والأحاديث .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٢٢)

هذا ذم من اللَّه تعالىٰ لأهل الكتاب فيما ارتكبوه من المآثم والمحارم ، في تكذيبهم بآيات اللَّه قديمًا وحديثًا ، التي بلغتهم إياها الرسل ؛ استكبارًا عليهم ، وعنادًا لهم ، وتعاظمًا علىٰ الحق ، واستنكافًا عن اتباعه ، ومع هذا [قتلوا من][٣] قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن اللَّه شرعه ، بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم ، إلا لكونهم دعوهم إلىٰ الحق ﴿ **ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس** ﴾ وهذا هو غاية الكبر ، كما قال النبي ﷺ : « **الكبر بطر الحق وغمط الناس** »(٧٦) .

---

(٧٣) - تقدم تخريجه - في المقدمة

(٧٤) - سيأتي تخريجه سورة النساء آية (٤٣) .

(٧٥) - أخرجه أحمد في « مسنده » (١٧٥/٣) ، والبخاري في « صحيحه » كتاب الجنائز ، باب : إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ؟ حديث (١٣٥٦) ، وطرفه حديث (٥٦٥٧) . وأبو داود في كتاب الجنائز ، باب : في عيادة الذمي ، حديث (٣٠٩٥) كلهم من طريق حماد بن زيد به .

(٧٦) - سبق تخريجه - سورة البقرة آية (٦١) .

---

[١] - في ز : « يصنع » . [٢] - في ز : « أخرجه » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من ز ، خ .

وقال[١] ابن أبي حاتم(٧٧) : حدثنا أبو الزبير الحسن بن علي بن مسلم النيسابوري نزيل مكة ، حدثني أبو حفص عمر بن حفص ، يعني ابن ثابت بن زرارة الأنصاري - حدثنا محمد بن حمزة ، حدثنا أبو الحسن - مولىٰ لبني أسد - عن مكحول ، عن قبيصة[٢] بن ذؤيب الخزاعي ، عن أبي عبيدة بن الجراح ﷺ قال : قلت : يا رسول الله ! أي : الناس أشد عذابًا يوم القيامة ؟ قال : « **رجل قتل نبيًا أو [من أمر بالمنكر أو نهى عن المعروف]** » . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **إن[٣] الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ الآية ، ثم قال رسول الله ﷺ : « **يا أبا عبيدة ! قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيًا ، من أول النهار في ساعة واحدة ، فقام مائة [ ][٤] وسبعون رجلًا من بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر ، فقتلوا جميعًا من آخر النهار من ذلك اليوم ، فهم الذين ذكر الله عز وجل** » .

وهكذا رواه ابن جرير(٧٨) ، عن أبي عبيدة الوصابي محمد بن حفص ، عن ابن حمير ، عن أبي الحسن مولىٰ بني أسد ، عن مكحول به .

وعن[٥] عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبي[٦] من أول النهار ، وأقاموا سوق بقلهم من آخره . رواه ابن أبي حاتم(٧٩) .

ولهذا لما أن تكبروا عن الحق واستكبروا علىٰ الخلق قابلهم الله علىٰ ذلك بالذلة والصغار في الدنيا ، والعذاب المهين في الآخرة فقال تعالىٰ : ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ أي : موجع مهين ﴿ **أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين** ﴾ .

---

(٧٧) - أبو الحسن مولى بني أسد ؛ قال ابن أبي حاتم : سألت أبي عنه ؟ فقال : مجهول . وكذا قال الذهبي ، ثم ابن حجر . والحديث رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/١٦١) (٢٦٧) . وأخرجه ابن جرير في تفسيره (٦/٢٨٥ - ٢٨٦) رقم (٦٧٨٠) من طريق أبي الحسن مولى ابن سعد ، به .

(٧٨) - فيه محمد بن حفص الوصابي الحمصي أبو عبيد ، روى عن محمد بن حمير ، قال ابن منده : ضعيف ، وقال ابن أبي حاتم : أردت السماع منه فقيل لي : ليس يصدق ، فتركته ، وذكره ابن حبان في الثقات انظر الجرح والتعديل (٧/٢٣٧) رقم (١٢٩٨) ، و« ميزان الاعتدال » (٤/٤٤٦) رقم (٧٤٣٣) ، و« لسان الميزان » (٥/١٥٠) رقم (٧٣٣٣) .

(٧٩) - أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/١٢٦) رقم (٦٣٢ ط : الباز) .

---

[١] - في ز : « قال » .

[٢] - في خ : « أبي قبيصة » .

[٣] - سقط من : ز ، خ .

[٤] - بين المعكوفتين في ز : « رجل » .

[٥] - سقط من : خ .

[٦] - سقط من : ز .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالىٰ منكرًا علىٰ اليهود والنصارىٰ ، المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللذين بأيديهم ، وهما التوراة والإنجيل ، وإذا دعوا إلىٰ التحاكم إلىٰ ما فيهما من طاعة اللّٰه فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد ﷺ تولوا وهم معرضون عنهما ، وهذا في غاية ما يكون من ذمهم ، والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد ، ثم قال تعالى : ﴿ **ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودات** ﴾ أي : إنما حملهم وجرأهم علىٰ مخالفة الحق افتراؤهم علىٰ اللّٰه فيما ادّعوه لأنفسهم ؛ أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام ، عن كل ألف سنة في الدنيا يومًا ، وقد تقدّم تفسير ذلك في سورة البقرة . ثم قال تعالىٰ : ﴿ **وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون** ﴾ أي : ثبتهم علىٰ دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أيامًا معدودات ، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم ، وافتعلوه ولم ينزل اللّٰه به سلطانًا ، قال اللّٰه تعالىٰ متهدّدا لهم ومتوعدًا : ﴿ **فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه** ﴾ أي : كيف يكون حالهم وقد افتروا علىٰ اللّٰه وكذّبوا رسله ، وقتلوا أنبياءه ، والعلماء من قومهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، واللّٰه تعالىٰ سائلهم[١] عن ذلك كله ، ومحاسبهم عليه ومجازيهم به ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه** ﴾ أي[٢] : لا شك في وقوعه وكونه ﴿ **ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ .

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تبارك وتعالىٰ : قل يا محمد معظمًا لربك ، وشاكرًا له ، ومفوضًا إليه ، [ومتوكلا

---

[١] - في ز ، خ : « مقابلهم » .
[٢] - سقط من : ز ، خ .

عليه] ﴿ **اللَّهم مالك الملك** ﴾ أي : لك الملك كله ﴿ **تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء** ﴾ أي : أنت المعطي ، وأنت المانع ، وأنت الذي ما شئت كان ومالم تشأ لم يكن .

وفي هذه الآية[١] تنبيه وإرشاد إلىٰ شكر نعمة اللَّه تعالىٰ علىٰ رسوله ﷺ وهذه الأمّة ؛ لأن اللَّه تعالىٰ حول النبوة من بني إسرائيل إلىٰ النبي العربي القرشي [الأمي المكي] ، خاتم الأنبياء علىٰ الإطلاق ، ورسول اللَّه إلىٰ جميع الثقلين الإنس والجن ، الذي جمع اللَّه فيه محاسن من كان قبله ، وخصه بخصائص لم يعطها نبيًّا من الأنبياء ولا رسولًا من الرسل ، في العلم باللَّه وشريعته وإطلاعه علىٰ الغيوب الماضية والآتية ، وكشفه له[٢] عن حقائق الآخرة ، ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها ، وإظهار دينه ، وشرعه علىٰ سائر الأديان والشرائع ، فصلوات اللَّه وسلامه عليه دائمًا إلىٰ يوم الدين ، ما تعاقب الليل والنهار ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **قل اللَّهم مالك الملك** ﴾ الآية أي : أنت المتصرف في خلقك ، الفعال لما تريد . كما رد تبارك وتعالىٰ علىٰ من يحكم[٣] عليه في أمره حيث قال : ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن علىٰ رجل من القريتين عظيم** ﴾ قال اللَّه تعالى ردًّا عليهم : ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك** ﴾ ، الآية أي[٤] : نحن نتصرف فيما[٥] خلقنا كما نريد بلا ممانع ، ولا مدافع ، ولنا الحكمة البالغة[٦] والحجة التامة[٧] في ذلك . وهكذا يعطي[٨] النبوة لمن يريد[٩] ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **اللَّه أعلم حيث يجعل رسالته**[١٠] ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ **انظر كيف فضلنا بعضهم علىٰ بعض** ﴾ ، الآية .

وقد روىٰ الحافظ ابن عساكر(٨٠) في ترجمة إسحاق ابن أحمد من تاريخه ، عن المأمون الخليفة ، أنه رأىٰ في قصر ببلاد الروم مكتوبًا بالحميرية ، فعرب له ، فإذا هو بسم اللَّه ما اختلف الليل والنهار ، ولا دارت نجوم السماء في الفلك ، إلا بنقل النعيم عن مَلِكٍ قد زال سلطانه إلىٰ ملك . وملك ذي العرش دائم أبدًا ليس بفان ولا بمشترك .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **تولج**[١١] **الليل في النهار وتولج**[١٢] **النهار في الليل** ﴾ أي : تأخذ[١٣]

---

(٨٠) - في « تاريخ دمشق » : (٧٠٦/٢ - مخطوط) .

---

[١] - سقط من : خ .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - في ز : « يتحكم » .
[٤] - سقط من : خ .
[٥] - في ز : « في » .
[٦] - سقط من : ز ، خ .
[٧] - سقط من : ز ، خ .
[٨] - في ز : « نعطي » .
[٩] - في ز : « نريد » .
[١٠] - في ز : « رسالاته » .
[١١] - في ز ، خ : « يولج » .
[١٢] - في ز ، خ : « يولج » .
[١٣] - في ز : « نأخذ » .

من طول هذا فتزيده في قصر هذا ، فيعتدلان ، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان ثم يعتدلان ، وهكذا في فصول السنة ربيعًا ، وصيفًا ، وخريفًا ، وشتاء . وقوله تعالىٰ : ﴿ **وتخرج**[١] **الحي من الميت وتخرج**[٢] **الميت من الحي** ﴾ أي : تخرج[٣] [الزرع من الحبة ، والحبة من الزرع] ، والنخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والدجاجة من البيضة ، والبيضة من الدجاجة ، وما جرىٰ هذا المجرىٰ من جميع الأشياء ﴿ **وترزق**[٤] **من تشاء**[٥] **بغير حساب** ﴾ أي : تعطي من شئت[٦] من المال ما لا يعده ولا يقدر علىٰ إحصائه ، وتقتر علىٰ آخرين ، لما لك في ذلك من الحكمة والإرادة ، والمشيئة ، والعدل .

قال الطبراني(٨١) : حدّثنا محمد بن زكريا الغلابي[٧] ، حدثنا جعفر بن جسر[٨] ابن فرقد ، حدثنا أبي ، عن عمرو بن مالك ، عن أبي الجوزاء ، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « **اسم**[٩] **الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في هذه الآية من آل عمران : ﴿ قل اللّٰهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك علىٰ كل شيء قدير ﴾** .

﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ

(٨١) - أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٢/١٧١ - ١٧٢) وفيه : محمد بن زكريا الغلابي وهو ضعيف ، وقد ذكره ابن حبان في « الثقات » : وقال : يعتبر بحديثه إذا روىٰ عن ثقة ، وقال ابن منده : تكلم فيه ، وقال الدارقطني : يضع الحديث . انظر « ميزان الاعتدال » (٤/٤٧٠) رقم (٧٥٣٧) ، و« لسان الميزان » (٥/١٧٣) رقم (٧٤١٩) . وفي إسناده كذلك جعفر بن جسر بن فرقد . قال العقيلي في « الضعفاء » (١/١٨٧) : بصري ، وحفظه فيه اضطراب شديد ، كان يذهب إلى القدر وحدث بمناكير . قال ابن عدي : ولجعفر مناكير سوى ما ذكرت ، ولعل ذلك من قِبل أبيه ؛ فإنه مضعف . وقال الساجي : حدث بمناكير ، وكان يذهب إلى القدر ، « لسان الميزان » (٢/١٤٠ - ١٤١) رقم (١٩٩١) وانظر « ميزان الاعتدال » (١/٤٠٣) رقم (١٤٩٣) . وأما أبيه : جسر بن فرقد فهو ضعيف أيضًا ، قال البخاري : ليس بذاك عندهم ، وقال ابن معين : ليس بشيء ، وقال النسائي : ضعيف ، وقال ابن حبان : ضعيف ، وقال أبو حاتم :كان رجلًا صالحًا وليس بالقوي ، انظر « الضعفاء والمتروكين » (١/١٦٩) ، و« الجرح والتعديل » (٢/٥٣٨) ، و« ميزان الاعتدال » (١/٣٩٨) رقم (١٤٨١) ، و« لسان الميزان » (٢/١٣٢ - ١٣٣) رقم (١٩٦٥) .

[١] - [٢] - [٣] - في خ : « ويخرج » .
[٤] - في ز ، خ : « ويرزق » .
[٥] - في ز : « يشاء » .
[٦] - في خ : « تشاء » .
[٧] - في ز : « العلاتي » .
[٨] - في ز : « حبر » .
[٩] - هذه الكلمة مكررة في خ .

ٱلۡمَصِيرُ (٢٨)

نهى اللّٰه تبارك وتعالىٰ عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين ، وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين ، ثم توعد[١] علىٰ ذلك فقال : ﴿ **ومن يفعل ذلك فليس من اللّٰه في شيء** ﴾ أي : ومن يرتكب نهي اللّٰه في هذا فقد برئ من اللّٰه ، كما قال تعالىٰ : [﴿ **يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة** ﴾ ، إلىٰ أن قال ، ﴿ **ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل** ﴾ وقال تعالىٰ] : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا للّٰه عليكم سلطانا مبينا** ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارىٰ أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم** ﴾ الآية . وقال [سبحانه وتعالىٰ] بعد ذكر موالاة المؤمنين للمؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب ﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير** ﴾ . و[قوله تعالىٰ] : ﴿ **إلا أن تتقوا منهم تقاة** ﴾ أي : إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم . فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته ، كما حكاه البخاري(٨٢) ، عن أبي الدرداء أنه قال : إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم . وقال الثوري : قال ابن عباس : ليس التقية بالعمل ، إنما التقية باللسان . [وكذا رواه العوفي عن ابن عباس : إنما التقية باللسان][٢] . وكذا قال أبو العالية وأبو الشعثاء والضحاك والربيع بن أنس . ويؤيد ما قالوه قول اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **من كفر باللّٰه من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرًا فعليهم غضب من اللّٰه ولهم عذاب عظيم** ﴾ . الآية . وقال البخاري(٨٣) : قال الحسن : التقية ثم[٣] إلىٰ يوم القيامة . ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ويحذركم اللّٰه نفسه** ﴾ أي : يحذركم نقمته في[٤] مخالفته وسطوته في عذابه لمن والىٰ أعداءه وعادىٰ أولياءه . ثم قال تعالىٰ : ﴿ **وإلى اللّٰه المصير** ﴾ أي : إليه المرجع والمنقلب فيجازي[٥] كل عامل بعمله .

قال ابن أبي حاتم(٨٤) : حدثنا أبي ، حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا مسلم بن خالد ، عن ابن

---

(٨٢) - في صحيحه كتاب الأدب (١٠/ ٥٢٧/ الفتح)

(٨٣) - فاتحة كتاب الإكراه (١٢/ ٣١١/ الفتح) .

(٨٤) - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ، وأبو داود في « سننه » كتاب الصلاة ، باب : إذا أخر الإمام الصلاة عن الوقت ، حديث (٤٣٢) . وفيه : عمرو بن ميمون الأودي ، وجاء في ز ، خ : عمرو بن ميمون =

---

[١] - في خ : « توعدهم » .

[٢] - زيادة من : خ ، وسقط من ز .

[٣] - زيادة من : خ .

[٤] - في خ : « أي » .

[٥] - في خ : « فيجازي » .

أبي حسين ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن عمرو بن ميمون [ ][١] ، قال : قام فينا معاذ بن جبل فقال : يا بني أود أني رسول رسول الله إليكم ، تعلمون أن المعاد إما[٢] إلى الجنة أو إلى النار .

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر ، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية ، بل علمه محيط بهم في سائرالأحوال [والأزمان والأيام][٣] واللحظات وجميع الأوقات ، وبجميع ما في الأرض والسموات لا يغيب عنه مثقال ذرّة ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض ، والبحار ، والجبال وهو ﴿ **والله**[٤] **على كل شيء قدير** ﴾ أي : وقدرته نافذة في جميع ذلك[٥] ، وهذا تنبيه منه[٦] لعباده على خوفه ، وخشيته لئلا[٧] يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم ، فإنه عالم بجميع أمورهم ، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة ، وإن أنظر من أنظر منهم فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر ، ولهذا قال بعد هذا : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا** ﴾ الآية . يعني : يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر ،

= ابن مهران ، والصواب عمرو بن ميمون الأودي ، فقد قال الحافظ في « التهذيب » (٩٦/٨ - ٩٧) : عمرو بن ميمون الأودي معروف بالرواية عن معاذ ، وبرواية عبد الرحمن بن سابط عنه . وفي « التقريب » (ص ٤٢٧) رقم (٥١٢٢) في ترجمة عمرو ابن ميمون الأودي : مخضرم مشهور ، ثقة عابد ، نزل الكوفة ، مات سنة أربع وسبعين ، وانظر « فتح الباري » (٦٥/٨) . وأما عمرو بن ميمون بن مهران فهو جزري من السادسة ، مات سنة سبع وأربعين ومائة ، ولم يدرك معاذًا ، « التهذيب » (٩٥/٨ ، ٩٦) ، وكون عمرو بن ميمون أوديًا يتناسب مع متن الحديث وهو قوله : قام فينا معاذ ، فقال : يا بني أود ، فالخطاب موجه إلى بني أود ، والضمير (نا) في قوله : فينا يعود إلى بني أود ، فهو منهم ، كما صرح أبو داود في سننه بأنه عمرو بن ميمون الأودي حديث (٤٣٢) . والحديث حسن إسناده المنذري في مختصر سنن أبي داود .

[١] - في ز ، خ : بن مهران .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - في ر ، خ : « والأنات » .
[٤] - سقط من : ز ، خ .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - سقط من : ز ، خ .
[٧] - في ز ، خ : « وأن لا » .

كما قال تعالىٰ : ﴿ **ينبأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخر** ﴾ فما رأىٰ من أعماله حسنًا سره ذلك وأفرحه ، وما رأىٰ من قبيح ساءه وغاظه ، وودّ لو أنه تبرأ منه ، وأن يكون بينهما [أمد بعيد][١] ، كما يقول لشيطانه الذي كان مقترنًا به في الدنيا وهو الذي جرّأه[٢] علىٰ فعل السوء ﴿ **ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين** ﴾ .

ثم قال تعالىٰ مؤكدًا ، ومهددًا[٣] ، ومتوعدًا : ﴿ **ويحذركم الله نفسه** ﴾ أي : يخوّفكم عقابه . ثم قال جل جلاله مرجيًا لعباده [لئلا ييئسوا][٤] من رحمته ويقنطوا من لطفه : ﴿ **والله رءوف بالعباد** ﴾ قال الحسن البصري : من رأفته بهم حذرهم نفسه . وقال غيره : أي : رحيم بخلقه ، يحب لهم أن يستقيموا علىٰ صراطه المستقيم ودينه القويم ، وأن يتبعوا رسوله الكريم .

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

هذه الآية الكريمة حاكمة علىٰ كل من ادّعىٰ محبة الله ، وليس هو علىٰ الطريقة المحمدية ؛ فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر ، حتىٰ يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله ، وأحواله[٥] ، كما ثبت في الصحيح(٨٥) عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردّ** » ؛ ولهذا قال : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ أي : يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه ، وهو محبته إياكم ، وهو أعظم من الأول ، كما قال بعض [العلماء الحكماء] : ليس الشأن أن تُحِبَّ ، إنما الشأن أن تُحَبَّ . وقال الحسن البصري وغيره من السلف : زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ .

وقد قال ابن أبي حاتم (٨٦) : حدثنا أبي ، حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا عبيد الله بن

---

(٨٥) - سبق تخريجه سورة البقرة آية (١١٢) .

(٨٦) - أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢٠٢/٢ - ٢٠٣)رقم ٣٣٧٦) والحاكم في « المستدرك » (٢٩١/٢) ، والعقيلي في « الضعفاء » (٦٠/٣ - ٦١) رقم (١٠٢٤) . وصححه الحاكم ، وتعقبه الذهبي بقوله : قلت : عبد الأعلى ؛ قال الدارقطني : ليس بثقة . وعبد الأعلى بن أعين الكوفي مولى بني شيبان : ضعيف من السابعة كما في التقريب ، وقد روى عن يحيى بن أبي كثير المناكير ، وقال العقيلي :=

---

[١] - ما بين المعكوفتين في خ : « أمدًا بعيدًا » .

[٢] - في ز : « حداه » .

[٣] - في ز : « متهددًا » .

[٤] - ما بين المعكوفتين في ز : « لييئسوا » .

[٥] - زيادة من : ز ، خ .

موسىٰ ، عن عبد الأعلىٰ بن أعين[١] ، عن يحيىٰ بن أبي كثير ، عن عروة ، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : « **وهل الدين إلا الحب [والبغض]**[٢] **قال الله تعالىٰ : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾** . وقال[٣] أبو زرعة : [ ][٤] عبد الأعلىٰ هذا منكر الحديث .

ثم قال تعالىٰ : **﴿ ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم ﴾** أي : باتباعكم للرسول ﷺ يحصل لكم هذا [من بركة][٥] سفارته ، ثم قال تعالىٰ آمرًا لكل أحد من خاص وعام : **﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا ﴾** أي : خالفوا عن أمره **﴿ فإن الله لايحب الكافرين ﴾** فدل علىٰ أن مخالفته في الطريقة كفر ، والله لا يحب من اتصف بذلك ، وإن ادعىٰ وزعم في نفسه أنه [محب لله][٦] ويتقرّب إليه حتىٰ يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل ورسول الله إلىٰ جميع الثقلين الجن والإنس ، الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم في زمانه ما[٧] وسعهم إلا اتباعه والدخول في طاعته واتباع شريعته ، كما سيأتي تقريره عند قوله تعالىٰ : **﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ﴾** الآية [إن شاء الله تعالىٰ][٨] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)

يخبر تعالىٰ أنه اختار هذه البيوت علىٰ سائر أهل الأرض ، فاصطفىٰ آدم عليه السلام ؛ خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء ، وأسكنه الجنة ، ثم أهبطه[٩] منها ، لما له في ذلك من الحكمة ، واصطفىٰ نوحًا عليه السلام وجعله أوّل رسولٍ بعثه[١٠] إلىٰ أهل الأرض ، لما عبد الناس الأوثان ، وأشركوا بالله[١١] ما لم ينزل به سلطانًا ،

= جاء بأحاديث منكرة ، ليس منها شيء يحفظ ، وقال ابن حبان : لا يجوز الاحتجاج به ، منكر . انظر « الضعفاء » للعقيلي (٣/٦٠ ، ٦١) ، و« التهذيب » (٦/٨٥) رقم (١٩٦) .

---

[١] - في ز : « اعه » .
[٢] - في ت : في الله والبغض في الله
[٣] - في ز : « قال » .
[٤] - عند ابن أبي حاتم في التفسير : هذا حديث منكر .
[٥] - في ز ، خ : « كلّه ببركة » .
[٦] - في ز ، خ : « يحب الله » .
[٧] - في ز : « لما » .
[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٩] - في خ : « أهبط » .
[١٠] - سقط من : ز ، خ .
[١١] - في ز ، خ : « في دين الله » .

وانتقم له لما طالت مدّته بين ظهراني قومه ، يدعوهم إلىٰ اللَّه ليلًا ونهارًا ، سرًا[١] وجهارًا ، فلم يزدهم ذلك إلا فرارًا ، فدعا عليهم فأغرقهم اللَّه عن آخرهم ، ولم ينج منهم إلا من اتبعه علىٰ دينه الذي بعثه اللَّه به ، واصطفىٰ آل إبراهيم ، ومنهم سيد البشر وخاتم الأنبياء علىٰ الإطلاق محمد ﷺ ، وآل عمران ، والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسىٰ بن مريم عليهم السلام .

قال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه اللَّه : هو عمران بن ياشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن يونم بن عزاريا بن أمصيا بن ياوش بن [أجر يهو] بن يازم بن يهفاشاط بن إنشا بن أبيان[٢] بن رخيعم بن سليمان بن داود عليهما السلام . فعيسىٰ عليه السلام من ذرية إبراهيم ، كما سيأتي بيانه في سورة الأنعام إن شاء اللَّه تعالىٰ وبه الثقة .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٣٦) ﴾

امرأة عمران هذه هي[٣] أمّ مريم [بنت عمران][٤] عليها السلام وهي حنة بنت فاقود . قال محمد بن إسحاق : وكانت امرأة لا تحمل ، فرأت يوما طائرًا يزق فرخه ، فاشتهت الولد ، فدعت اللَّه تعالىٰ أن يهبها ولدًا ، فاستجاب اللَّه دعاءها ، فواقعها زوجها فحملت منه ، فلما تحققت الحمل نذرته أن يكون محررًا أي : خالصًا مفرغًا للعبادة و[٥] لخدمة بيت المقدس ، فقالت : ﴿ **رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم** ﴾ أي : السميع لدعائي العليم بنيتي . ولم تكن تعلم ما في بطنها أذكرًا أم أنثىٰ ﴿ **فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثىٰ واللَّه أعلم بما وضعت** ﴾ قرىء[٦] برفع التاء علىٰ أنها تاء المتكلم وأن ذلك من تمام قولها ، وقرئ بتسكين التاء علىٰ أنه من قول اللَّه عز وجل ﴿ **وليس الذكر كالأنثىٰ** ﴾ أي : في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصىٰ ﴿ **وإني سميتها مريم** ﴾ فيه دلالة[٧] علىٰ جواز التسمية يوم الولادة ، كما هو الظاهر من

---

[١] - في ز : « وسرًا » .
[٢] - في خ : « أنان » .
[٣] - زيادة من : ز ، خ .
[٤] - ما بين المعكوفتين زيادة من : ز ، خ .
[٥] - زيادة من : ز ، خ .
[٦] - في ز : « قرئت » .
[٧] - في ت : « دليل » .

السياق ؛ لأنه شرع من قبلنا ، وقد حكي مقررًا ، وبذلك ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ حيث قال : « **ولد لي الليلة ولد وسميته باسم أبي إبراهيم** »(٨٧) . أخرجاه .

وكذلك ثبت فيهما أن أنس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلىٰ رسول الله ، ﷺ ، فحنكه وسماه عبد الله(٨٨) .

وفي صحيح البخاري(٨٩) أن رجلًا قال : يا رسول الله ؛ ولد لي الليلة[١] ولد فما أسميه ؟ قال[٢] : « **اسم ولدك عبد الرحمن** » وثبت في الصحيح أيضًا (٩٠) : أنه لما جاء[٣] أبو أسيد بابنه ليحنكه فذهل عنه ، فأمر به أبوه فرده إلىٰ منزلهم ، فلما ذكر رسول الله ، ﷺ في المجلس سماه المنذر . فأما حديث قتادة ، عن الحسن البصري ، عن سمرة بن جندب ، أنّ رسول الله ﷺ قال : « **كل غلام رهينة[٤] بعقيقته ، يذبح عنه يوم سابعه ، ويسمىٰ ويحلق رأسه** »(٩١) . فقد رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي بهذا اللفظ وروي[٥] « **ويدمّى** » . وهو أثبت وأحفظ والله أعلم .

وكذا[٦] ما رواه الزبير بن بكار في كتاب النسب ، أن رسول الله ﷺ عق عن ولده إبراهيم

(٨٧) - أخرجه مسلم في كتاب الفضائل ، حديث ٦٢ - (٢٣١٥) ، وأبو داود في « سننه » كتاب الجنائز ، باب : في البكاء على الميت ، حديث (٣١٢٦) ، وأحمد في « مسنده » (١٩٤/٣) ، والبيهقي في « سننه » (٦٩/٤) من طرق ، عن سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس به ،

وأخرجه البخاري بنحوه ، كتاب الجنائز ، باب : قول النبي ﷺ : « **إنا بك لمحزونون** » حديث (١٣٠٣) ، والبغوي في « شرح السنة » (٤٢٨/٥ - ٤٢٩) برقم (١٥٢٨) من طريق الحسن بن عبد العزيز ، عن يحيى ابن حسان ، عن قريش - هو ابن حبان - عن ثابت ، عن أنس ، به .

(٨٨) - أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب العقيقة ، باب : تسمية المولود غداة يولد لمن لم يعق عنه وتحنيكه ، حديث (٥٤٧٠) . ومسلم في كتاب : الآداب ، حديث (٢١٤٤) من حديث أنس بن مالك .

(٨٩) - أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب : الأدب ، باب : أحب الأسماء إلى الله عز وجل ، حديث (٦١٨٦) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٩٠) - أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الأدب ، باب : تحويل الاسم إلى اسم أحسن منه ، حديث (٦١٩١) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب : الآداب ، حديث (٢١٤٩) من حديث سهل بن سعد الساعدي .

(٩١) - أخرجه أحمد في « مسنده » (١٢/٥) ، وأبو داود في « سننه » كتاب الأضاحي ، باب : في العقيقة ، رقم (٢٨٣٨) والترمذي في « سننه » كتاب الأضاحي ، باب : ما جاء في العقيقة ، حديث (١٥٢٢) ، والنسائي في « سننه » (١٦٦/٧) ، كتاب العقيقة ، باب : متى يعق ؟ وابن ماجه في =

[١] - سقط من : ز ، خ .
[٢] - في ز ، خ : « فقال » .
[٣] - في ز ، خ : « جاءه » .
[٤] - في ت : « مرتهن » .
[٥] - في ز ، خ : « ويروي » .
[٦] - سقط من : خ .

[وسماه إبراهيم يوم سابعه][١] ، فإسناده لا[٢] يثبت ، وهو مخالف لما في الصحيح ولو صح لحمل على أنه اشتهر[٣] اسمه بذلك يومئذ والله أعلم . وقوله إخبارًا عن أم مريم أنها قالت ﴿ **وإني أعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرجيم** ﴾ أي : عوذتها بالله عز وجل من شر الشيطان ، وعوذت ذريتها وهو ولدها عيسى عليه السلام فاستجاب الله لها ذلك ، كما قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن الزهري ، عن ابن المسيب ، عن أبي هريرة ، [رضي الله عنه] قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد ، فيستهل صارخًا من مسه إياه ، إلا مريم وابنها** » . ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿ و[٤] **إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** ﴾ . أخرجاه(٩٢) من حديث عبد الرزاق .

ورواه ابن جرير(٩٣) ، عن أحمد بن الفرج ، عن بقية ، عن الزبيدي ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه .

وروي من حديث قيس ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما من مولود إلا [وقد عصره][٥] الشيطان عصرة أو عصرتين ، إلا عيسى ابن مريم ومريم** » . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ و[٦] **إني أعيذها بك وذرّيتها من الشيطان**

= كتاب الذبائح ، باب : العقيقة ، حديث (٣١٦٥) . والطيالسي في مسنده (ص ١٢٣) برقم (٩٠٩) ، والدارمي في « سننه » (٨١/٢) ، كتاب الأضاحي ، باب : السنة في العقيقة ، وابن الجارود في « المنتقى » (ص ٣٣٩) رقم (٩١٠) ، والحاكم في المستدرك (٢٣٧/٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٢٩٩/٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٩١/٦) كلهم من طرق عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة به . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي . وذكره الشيخ الألباني - حفظه الله - في « الإرواء » (٣٨٥/٤ - ٣٨٦) رقم : (١١٦٥) . وقال : صحيح .

(٩٢) - أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب التفسير ، باب : قوله تعالى : ﴿ **وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** ﴾ ، حديث (٤٥٤٨) ، ومسلم في « صحيحه » : كتاب : الفضائل ، حديث (٢٣٦٦) ، وأحمد في مسنده (٢٧٤/٢ - ٢٧٥) ، وابن جرير في تفسيره (٣٣٩/٦) رقم (٦٨٩١) وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٢١/٢) رقم (٤٢٠) من طريق عبد الرزاق به .

(٩٣) - رواه ابن جرير في « تفسيره » (٣٤٣/٦) برقم (٦٨٩٩) . وبقية هو ابن الوليد الحمصي مدلس ويسوي ، ولم يصرح بالتحديث إلا من شيخه كما هو عند الطبري . والزُّبيدي : بضم الزاي : هو محمد بن الوليد بن عامر الحمصي ، وهو ثقة - روى له الشيخان . وقد أشار الحافظ في « فتح الباري » إلى هذه الرواية (٤٦٩/٦) عند رواية الزهري ، عن ابن المسيب ، فقال : كذا قال أكثر أصحاب الزهري ، وقال الزبيدي : عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة - أخرجه الطبري .

---

[١] - في ز ، خ : « يوم سابعه وسماه إبراهيم » . [٢] - في خ : « لم » .

[٣] - في ز : « أشهر » . [٤] - سقط من : ز ، خ .

[٥] - في ز : « وعصره » . [٦] - سقط من : ز ، خ .

الرجيم ﴾(٩٤) .

ومن حديث العلاء ، [عن أبيه][١] ، عن أبي هريرة .

ورواه مسلم(٩٥) ، عن أبي الطاهر ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن أبي يونس ، عن أبي هريرة .

ورواه ابن وهب أيضًا عن ابن[٢] أبي ذئب ، عن عجلان مولىٰ المشمعل ، عن أبي هريرة(٩٦) .

ورواه محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن عبد اللَّه بن قسيط ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلىٰ اللَّه عليه وآله وسلم بأصل الحديث (٩٧) .

وهكذا رواه الليث بن سعد ، عن جعفر بن ربيعة ، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج قال : قال أبو هريرة : قال رسول اللَّه ، ﷺ : « **كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه حين تلده أمه ، إلا عيسىٰ ابن مريم ، ذهب يطعن فطعن في الحجاب** »(٩٨) .

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا

---

(٩٤) - أخرجه الطبري في « تفسيره » (٦/٣٣٩) رقم (٦٨٩٢) . وقيس هو : قيس بن الربيع الأسدي أبو محمد الكوفي ، صدوق تغير لما كبر ، وأدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به .

(٩٥) - أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الفضائل ، حديث (١٤٧/٢٣٦٦) .

(٩٦) - أخرجه الطبري في « تفسيره » (٦/٣٣٨) برقم (٦٨٨٨) من طريق ابن وهب بهذا الإسناد . وأخرجه أحمد في « مسنده » (٢/٢٨٨) عن إسماعيل بن عمر ، و(٢/٢٩٢) عن يزيد بن هارون ، و(٢/٣١٩) عن هاشم بن القاسم - ثلاثتهم - عن ابن أبي ذئب بهذا الإسناد ، وعجلان مولى المشمعل : تابعي ثقة .

(٩٧) - أخرجه الطبري في « تفسيره » (٦/٣٣٦ ، ٣٣٧) رقم (٦٨٨٤ ، ٦٨٨٥ ، ٦٨٨٦) من طريق محمد ابن إسحاق ، بهذا الإسناد ، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٥٩٤) من طريق إسماعيل بن جعفر ، عن يزيد ابن عبد اللَّه بن قسيط ، عن أبي هريرة ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . قال الشيخ أحمد شاكر - رحمه اللَّه - (٦/٣٣٧) : ووقع في المستدرك ومختصر الذهبي : يزيد بن عبد اللَّه ابن قسيط ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، وزيادة « عن أبيه » في الإسناد خطأ صرف لا معنى لها ، وأرجح أنه خطأ من ناسخي المستدرك ، فإن والد يزيد هذا غير معروف بالرواية ، ولم يذكره أحد في رواة الحديث .

(٩٨) - أخرجه الطبري في « تفسيره » (٦/٣٤٢) رقم (٦٨٩٧) من طريق الليث بن سعد بهذا الإسناد . وذكره السيوطي بنحوه في « الدر المنثور » (٢/٣٤) وعزاه لعبد بن حميد ، وابن جرير ، والحاكم ، وصححه عن أبي هريرة به .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز . [٢] - سقط من : خ .

﴿زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾

يخبر ربنا – تعالى- أنه تقبلها من أمها نذيرة ، وأنه[١] أنبتها نباتًا حسنًا ، أي : جعلها شكلًا مليحًا ومنظرًا بهيجًا ، ويسر لها أسباب القبول ، وقرنها بالصالحين من عباده ، تتعلم منهم [العلم و][٢] الخير والدين ، فلهذا[٣] قال : ﴿ **وكفلها زكريا** ﴾(٩٩) وفي قراءة ﴿ **وكَفَّلها زكريا** ﴾(١٠٠) بتشديد الفاء ، ونصب زكريا على المفعولية ، أي : جعله كافلًا لها . قال ابن إسحاق : وما ذلك[٤] إلا أنها كانت يتيمة . وذكر غيره : أن بني إسرائيل أصابتهم سنة جدب ، فكفل زكريا مريم[٥] لذلك ولا منافاة بين القولين والله أعلم .

وإنما قدر الله كون زكريا كافلها لسعادتها ، لتقتبس منه علمًا جمًّا نافعًا وعملًا صالحًا ، ولأنه كان زوج خالتها على ما ذكره ابن إسحاق ، وابن جرير وغيرهما[٦] . وقيل : زوج أختها . كما ورد في الصحيح(١٠١) : « **فإذا بيحيى[٧] وعيسى و[٨] هما ابنا الخالة** » وقد يطلق[٩] على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضًا[١٠] توسعًا ، فعلى هذا كانت في حضانة خالتها . وقد ثبت في الصحيحين[١١] : أنّ رسول الله ﷺ قضى في عمارة بنت حمزة ، أن تكون[١٢] في حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب ، وقال : « **الخالة بمنزلة الأم** »(١٠٢) .

ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلالتها في محل عبادتها ، فقال : ﴿ **كلما دخل عليها زكريا**

(٩٩) – قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر : ﴿وكَفَلَها﴾ مفتوحة الفاء خفيفة .

(١٠٠) – وقرأ عاصم وحمزة والكسائي : ﴿وكفَّلها﴾ مشددة الفاء .

(١٠١) – سيأتي تخريجه – سورة الإسراء .

(١٠٢) – أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الصلح ، باب : كيف يكتب « هذا ما صالح فلان بن فلان ابن فلان وإن لم ينسبه إلى قبيلته أو نسبه » حديث (٢٦٩٩) مطولًا . ومسلم في « صحيحه » كتاب الجهاد والسير ، حديث (١٩/١٧٨٣) مختصرًا وليس فيه لفظ « الخالة بمنزلة الأم » ، وأحمد في « مسنده » (٢٩٨/٤) بلفظ مسلم من حديث البراء بن عازب .

[١] – سقط من : ز ، خ .

[٢] – سقط من : خ .

[٣] – في ز و خ : « ولهذا » .

[٤] – في ز ، خ : « ذاك » .

[٥] – في ز : « لمريم » .

[٦] – سقط من : ز ، خ .

[٧] – في خ : « يحيى » .

[٨] – سقط من : خ .

[٩] – في ز ، خ : « نطق » .

[١٠] – سقط من : ز ، خ .

[١١] – في ت : « الصحيح » .

[١٢] – في ز ، خ : « تكن » .

المحراب وجد عندها رزقًا ﴾ . و[١] قال مجاهد وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبو الشعثاء ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، وعطية العوفي ، والسُّدي : يعني[٢] [وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف .

وعن مجاهد][٣] : ﴿ وجد عندها رزقًا ﴾ أي : علمًا . أو قال : صحفًا فيها علم .

رواه ابن أبي حاتم(١٠٣) ، والأول أصح ، وفيه دلالة على كرامات الأولياء .

وفي السنة لهذا نظائر كثيرة ، فإذا رأى زكريا هذا عندها ﴿ قال : يا مريم أنى لكِ هذا ﴾ أي : يقول من أين لك هذا ؟ ﴿ قالت هو من عند اللَّه إن اللَّه يرزق من يشاء بغير حساب ﴾

وقال الحافظ أبو يعلى (١٠٤) : [حدثنا سهيل بن زنجلة][٤] ، حدثنا عبد اللَّه بن صالح ، حدثنا[٥] عبد اللَّه بن لهيعة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر ؛ أن رسول اللَّه ﷺ أقام أيامًا لم يطعم طعامًا ، حتى شق ذلك عليه ، فطاف في منازل أزواجه ، فلم يجد عند واحدة منهن شيئًا ، فأتى فاطمة فقال : « يا بنية ؛ هل عندك شيء آكله فإني جائع ؟ » قالت[٦] : لا واللَّه - بأبي أنت وأمي - فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم ، فأخذته منها ، فوضعته في جفنة لها ، وقالت : واللَّه لأوثرن بهذا رسول اللَّه ﷺ على نفسي ومن عندي ، وكانوا جميعا محتاجين إلى شبعة طعام ، فبعثت حسنًا أو حسينًا إلى رسول اللَّه ﷺ فرجع إليها فقالت له : بأبي أنت وأمي : قد أتى اللَّه بشيء فخبأته لك قال : « هلمي يا بنية » . قالت : فأتيته بالجفنة فكشفت عنها[٧] ، فإذا هي مملوءة خبزًا ولحمًا ، فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من اللَّه ، فحمدت اللَّه ، وصلت على نبيه ، وقدمته إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، فلما رآه حمد اللَّه ، وقال : « من أين لك هذا يا بنية » ؟قالت : يا أبت ﴿ هو من عند اللَّه إن اللَّه يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ فحمد اللَّه ، وقال : « الحمد للَّه الذي جعلك يابنية شبيهة بسيدة نساء بني إسرائيل ، فإنها كانت إذا رزقها اللَّه شيئًا وسئلت[٨] عنه قالت : ﴿ هو من عند اللَّه إن اللَّه يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ فبعث رسول اللَّه ﷺ إلى علي ، ثم أكل رسول اللَّه ﷺ وأكل[٩] علي

(١٠٣) - رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٢٢٩) رقم (٤٤٥) .

(١٠٤) - رواه أبو يعلى كما في « المطالب العالية » (٤/٧٣ - ٧٤) .

[١] - زياة من : خ .

[٢] - غير واضحة في خ .

[٣] - ما بين المعكوفتين زيادة من : ت .

[٤] - في خ : « ثنا سهيل بن مرحلة » .

[٥] - في ز : « حدثني » .

[٦] - في ز : « فقالت » .

[٧] - في ز : « عن الجفنة » .

[٨] - في خ : « فسئلت » .

[٩] - سقط من : ز ، خ .

وفاطمة ، وحسن وحسين ، وجميع أزواج النبي ﷺ وأهل بيته [حتىٰ شبعوا جميعًا] ، قالت : وبقيت الجفنة كما هي . قالت[١] : فأوسعت ببقيتها[٢] علىٰ جميع الجيران ، وجعل اللَّه فيها بركة وخيرًا كثيرًا .

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾

لما رأىٰ زكريا عليه السلام أن اللَّه تعالى يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ؛ [طمع حينئذ][٣] في الولد [وإن كان][٤] شيخًا كبيرًا ، قد [ضعف و][٥] وهن منه العظم واشتعل الرأس[٦] شيبًا ، [وإن كانت][٧] امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرًا ، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفيًّا وقال : ﴿ **رب هب لي من لدنك** ﴾ أي : من عندك ، ذرية طيبة ، أي : ولدًا صالحًا ، إنك سميع الدعاء . قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب** ﴾ أي : خاطبته الملائكة شفاهًا ، خطابًا أسمعته وهو قائم يصلي[٨] في محراب عبادته ، ومحل خلوته ، ومجلس مناجاته وصلاته .

ثم أخبر تعالىٰ عما بشرته به الملائكة ﴿ **أن اللَّه يبشرك بيحيىٰ** ﴾ أي : بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيىٰ .

قال[٩] قتادة وغيره : إنما سمي يحيىٰ لأن اللَّه تعالى أحياه بالإيمان . وقوله : ﴿ **مصدقًا بكلمة**

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في ز : « بقيمتها » .
[٣] - في خ : « كمع ح » .
[٤] - بين المعكوفتين في ز ، خ : « وكان » .
[٥] - - سقط من ت .
[٦] - في ز : « رأسه » .
[٧] - في خ : « وكانت » .
[٨] - سقط من : ز .
[٩] - في خ : « وقال » .

من الله ﴾ روىٰ العوفي وغيره عن ابن عباس ، وقال الحسن وقتادة ، وعكرمة ومجاهد ، وأبو الشعثاء والسدّي، والربيع بن أنس والضحاك وغيرهم ، في هذه الآية ﴿ مصدقًا بكلمة من الله ﴾ أي : بعيسىٰ بن مريم . وقال الربيع بن أنس : هو أول من صدق بعيسىٰ بن مريم .

وقال قتادة : وعلىٰ سنته ومنهاجه .

وقال ابن جريج : قال ابن عباس في قوله : ﴿ مصدقًا بكلمة من الله ﴾ قال : كان يحيىٰ وعيسىٰ ابني خالة ، وكانت أم يحيىٰ تقول لمريم : إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك ، فذلك تصديقه بعيسى ؛ تصديقه له في بطن أمه ، وهو أول من صدق عيسىٰ ، وكلمة الله عيسىٰ ، وهو أكبر من [يحيى عليهما السلام][1] » وهكذا قال السدي أيضًا .

وقوله[2] ﴿ وسيدًا ﴾ . قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة وسعيد بن جبير وغيرهم : الحكيم . وقال قتادة : سيدًا في العلم والعبادة .

وقال[3] ابن عباس والثوري والضحاك : السيد : الحكيم التقي[4] . وقال سعيد بن المسيب : هو الفقية العالم .

وقال عطية : السيد في خلقه ودينه . وقال عكرمة : هو الذي لا يغلبه الغضب . وقال ابن زيد : هو الشريف . وقال مجاهد وغيره : هو الكريم علىٰ [الله عز وجل] .

وقوله : ﴿ وحصورًا ﴾ روي عن ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد ابن جبير ، وأبي الشعثاء ، وعطية العوفي ؛ أنهم قالوا : هو الذي لا يأتي النساء . وعن أبي العالية والربيع بن أنس : هو الذي لا يولد له . وقال الضحاك : هو الذي لا ولد له ولا ماء له .

وقال ابن أبي حاتم (١٠٥) : حدّثنا أبي ، حدثنا يحيىٰ بن المغيرة ، أنبأنا جرير ، عن قابوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس في الحصور : الذي لا ينزل الماء .

وقد روىٰ ابن أبي حاتم(١٠٦) في هذا حديثًا غريبًا جدًّا فقال : حدثنا أبو جعفر محمد بن غالب

(١٠٥) - رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٢٤٦) رقم (٤٩٣) ، وأخرجه الطبري في « تفسيره » (٦/٣٧٩) رقم (٦٩٩٧) من طريق ابن حميد ، عن جرير به . وقابوس هذا : هو ابن أبي ظَبْيان ، الجَنْبي ، الكوفي فيه لين .

(١٠٦) - رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٢٤١) برقم (٤٨٢) ، وأخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (١١/٥٦١) رقم (١١٩٥٦) عن أبي خالد ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن عبد الله =

[١] - في ت : « عيسى عليه السلام » .
[٢] - في ز : « قوله » .
[٣] - زيادة في : ت .
[٤] - في ز ، خ : « المتقي » .

البغدادي ، حدثني سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد ، يعني ابن العوام ، عن يحيىٰ بن سعيد ، عن [سعيد بن][١] المسيب ، عن ابن العاص - لا يدري عبد الله أو عمرو - عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ **وسيدًا وحصورًا** ﴾ قال : ثم تناول شيئًا من الأرض فقال : « **كان ذكره مثل هذا** » .

و[٢] قال ابن أبي حاتم(١٠٧) : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا يحيىٰ بن سعيد القطان ، عن يحيىٰ بن سعيد الأنصاري ، أنه سمع سعيد بن المسيب ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ؛ يقول : [ليس أحد من خلق الله لا يلقاه بذنب غير يحيىٰ بن زكريا][٣]، ثم[٤] قرأ سعيد : ﴿ **سيدًا وحصورًا** ﴾ ثم[٥] أخذ شيئًا من الأرض فقال[٦] : الحصور من[٧] كان ذكره مثل ذي . وأشار يحيىٰ بن سعيد القطان بطرف أصبعه السبابة .

فهذا موقوف وهو أقوى إسنادًا من المرفوع ، بل وفي صحة المرفوع نظر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

[ورواه ابن المنذر في تفسيره : حدثنا أحمد بن داود السمناني ، حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا علي بن مسهر ، عن يحيىٰ بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : سمعت عبد الله ابن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما من عبد يلقىٰ الله إلا ذا ذنب ، إلا يحيىٰ بن زكريا ، فإنّ الله يقول :** ﴿ **وسيدًا وحصورًا** ﴾ ، قال ، : وإنما ذكره مثل هدبة الثوب » . وأشار بأنملته .

وقال ابن أبي حاتم (١٠٨) : حدثنا أبي ، حدثنا عيسىٰ بن حماد ومحمد بن سلمة المرادي قالا :

=ا بن عمرو ، بنحوه . وفيه : أبو جعفر محمد بن غالب البغدادي ويعرف بتمتام . حافظ مكثر عن أصحاب شعبة ووثقه الدارقطني وقال : وهم في أحاديث ، وكان إسماعيل القاضي يجل تمتامًا ويثني عليه ، وقال ابن المناوي : كتب عنه الناس ، ثم رغب أكثرهم عنه لخصال شنيعة في الحديث . وروى حمزة السهمي عن الدارقطني قال : ثقة مأمون ، وقال الدارقطني مرة أخرى : تمتام مكثر مجود . وقال ابن أبي حاتم : سمعت منه ببغداد ، وهو صدوق .

(١٠٧) - رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٢٤٣) رقم (٤٨٣) . ورواه الطبري مرفوعًا برقم (٦٩٨١) بنحوه .

(١٠٨) - رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٢٤٨ - ٢٤٩) رقم (٤٩٨) . وحجاج بن سليمان هو الرعيني منكر الحديث . ومحمد ابن عجلان المدني » قال الحافظ : صدوق إلا أنه اختلطت عليه أحاديث أبي هريرة .

---

[١] - سقط من خ . [٢] - في ت : « و » .
[٣] - عند ابن أبي حاتم : ليس أحد يلقى الله إلا يلقاه بذنب غير يحيى بن زكريا .
[٤] - سقط من : ز . [٥] - سقط من : ز .
[٦] - في ز : « قال » . [٧] - في خ : « ما » .

حدثنا حجاج بن سليمان المقري ، عن الليث بن سعد ، عن محمد بن عجلان عن القعقاع ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : « **كل ابن آدم يلقىٰ اللَّه بذنب يعذبه عليه ، إن شاء أو يرحمه ، إلا يحيىٰ بن زكريا ؛ فإنه كان سيدًا وحصورًا ونبيًا من الصالحين** » . ثم أهوىٰ النبي ﷺ إلىٰ قذاة من الأرض فأخذها وقال : « **وكان ذكره مثل هذه القذاة** »][1] .

وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء : اعلم أن ثناء اللَّه تعالىٰ علىٰ يحيىٰ أنه كان[2] ﴿ **حصورًا** ﴾ ليس كما قاله بعضهم ، إنه كان هيوبًا أولا ذكر له ، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ، ونقاد العلماء ، وقالوا : هذه نقيصة وعيب ، ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام . وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب ، أي : لا يأتيها ، كأنه حصور عنها ، وقيل : مانعًا نفسه من الشهوات . وقيل : ليست له شهوة في النساء .

وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة علىٰ النكاح نقص ، وإنما الفضل في كونها موجودة ، ثم يمنعها إمّا بمجاهدة كعيسىٰ ، أو بكفاية من اللَّه عز وجل كيحيىٰ عليه السلام ، ثم هي في حق من قدر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه ، درجة عليا ، وهي درجة نبينا ﷺ الذي لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه ، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهنّ وقيامه عليهنّ ، وإكسابه لهنّ ، وهدايته إياهنّ ، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو ، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره ، فقال : « **حبب إلي من دنياكم** »(١٠٩) هذا لفظه .

والمقصود أنه مدح ليحيىٰ بأنه حصور ، ليس أنه لا يأتي النساء ، بل معناه كما قاله هو وغيره : أنه حصور من الفواحش والقاذورات ، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال ، وغشيانهنّ وإيلادهنّ ، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم ، حيث قال : ﴿ **هب[3] لي من لدنك ذرّية طيبة** ﴾ كأنه [قال : ولدًا][4] له ذرية ونسل وعقب ، واللَّه سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وقوله : ﴿ **ونبيًا من الصالحين** ﴾ هذه بشارة ثانية بنبوّة يحيىٰ بعد البشارة بولادته ، وهي أعلىٰ من الأولىٰ ، كقوله تعالى لأمّ موسىٰ : ﴿ **إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين** ﴾ . فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة ، وأخذ[5] يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر ﴿ **قال : رب أنىٰ يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال** ﴾ أي : الملك ﴿ **كذلك اللَّه يفعل ما يشاء** ﴾ أي : هكذا أمر اللَّه عظيم ، لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر ﴿ **قال رب اجعل لي آية** ﴾

---

(١٠٩) - تقدم آية (١٤) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٢] - زيادة في : ت .

[٣] - في خ : « فهب » .

[٤] - ما بين المعكوفتين في خ : « ولد » .

[٥] - في خ : « أخذ » .

أي : علامة أستدل بها علىٰ وجود الولد مني ﴿ **قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا** ﴾ أي : إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوي صحيح . كما في قوله : ﴿ **ثلاث ليال سويًا** ﴾ ثم أمر بكثرة الذكر والشكر والتكبير[١] والتسبيح في هذه الحال ، فقال تعالىٰ : ﴿ **واذكر ربك كثيرًا وسبح بالعشي والإبكار** ﴾ . وسيأتي طرف آخر في بسط هذا المقام في أول سورة مريم إن شاء الله تعالىٰ .

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

هذا إخبار من الله تعالىٰ بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك ؛ أن الله قد اصطفاها ، أي : اختارها ، لكثرة عبادتها ، وزهادتها ، وشرفها ، وطهارتها[٢] من الأكدار والوساوس[٣] ، واصطفاها ثانيًا مرة بعد مرة ؛ لجلالتها علىٰ نساء العالمين .

قال عبد الرزاق(١١٠) : أنبأنا معمر ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، في قوله تعالىٰ : ﴿ **إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك علىٰ نساء العالمين** ﴾ قال : كان أبو هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ : « **خير نساء ركبن الإبل نساء قريش ؛ أحناه علىٰ ولد في صغره ، وأرعاه علىٰ زوج في ذات يده ، ولم تركب مريم بنت عمران بعيرًا قط** » .

(١١٠) - في « مصنفه » (٣٠٣/١١) رقم (٢٠٦٠٣) . وأخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٢٠١ - (٢٥٢٧) . وأحمد في « مسنده » (٢٦٩/٢ ، ٢٧٥) ، وابن حبان في « صحيحه » (١٦٥/١٤ - الإحسان) برقم (٦٢٦٨) من طريق عبد الرزاق بهذا الإسناد . وأخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب فضائل الصحابة ، حديث (٢٠١/٢٥٢٧) ، وابن حجر في « تغليق التعليق » (٤/ ٣٥) ، وابن حبان في « صحيحه » (١٦٣/١٤ - الإحسان) برقم (٦٢٦٧) من طريق حرملة بن يحيى ، عن ابن وهب ، عن يونس ، عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة ، به . وعلقه البخاري في « صحيحه » كتاب الأنبياء ، باب ﴿ **إذ قالت الملائكة يا مريم ...** ﴾ حديث (٣٤٣٤) . قال : وقال ابن وهب : أخبرني يونس بنفس الإسناد السابق . وقال بإثره : تابعه ابن أخي الزهري وإسحاق الكلبي عن الزهري .

أما متابعة ابن أخي الزهري فوصلها ابن عدي في « الكامل » من طريق الدراوردي ، حدثنا محمد بن =

[١] - سقط من : خ .

[٢] - في ز ، خ : « وطهرها » . [٣] - في ز : « الوسواس » .

[ولم يخرجه][١] من هذا الوجه سوى مسلم ، فإنه رواه عن محمد بن رافع ، [وعبد ابن حميد][٢] كلاهما عن عبد الرزاق به .

وقال هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عبد الله بن جعفر ، عن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **خير نسائها مريم بنت عمران**[٣] ، **وخير نسائها خديجة بنت خويلد** » .

أخرجاه في الصحيحين من حديث هشام به مثله(١١١) .

وقال الترمذي(١١٢) : حدثنا أبو بكر ابن زنجويه[٤] ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : « **حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية امرأة فرعون** » تفرّد به الترمذي وصححه .

= عبد الله ابن مسلم بن أحمد الزهري ، عن عمه ، به . وأما متابعة إسحاق الكلبي فوصلها الزهري في الزهريات ، عن يحيى بن صالح الوحاظي ، حدثنا إسحاق ، به . انظر « الفتح » (٤٧٤/٦) و« التغليق » (٣٥/٤ - ٣٦) ، وأخرجه البخاري في كتاب النكاح ، باب : إلى من ينكح ، وأي النساء خير ، حديث (٥٠٨٢) ، وطرفه حديث (٥٣٦٥) . ومسلم في « صحيحه » كتاب فضائل الصحابة ، حديث (٢٥٢٧) ، وأحمد في مسنده (٢٦٩/٢ ، ٣٩٣ ، ٤٤٩ ، ٥٠٢) ، وعبد الرزاق في مصنفه (٣٠٣/١١ - ٣٠٤) رقم (٢٠٦٠٤) ، والحميدي في مسنده (٤٥١/٢ - ٤٥٢) (١٠٤٧) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٢٩٣/٧) ، والبغوي في « شرح السنه » (١٦٧/١٤) رقم (٣٩٦٥) ، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥٤٧/٧) . وابن أبي عاصم في السنة (٦٣٩/٢) رقم (١٥٣٣) من طرق مختلفة عن أبي هريرة بنحوه .

(١١١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ، باب : ﴿ **وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك** ...﴾ حديث (٣٤٣٢) ، وطرفه (٣٨١٥) ، ومسلم في كتاب : الفضائل ، حديث (٢٤٣٠) ، والترمذي في كتاب المناقب ، باب : فضل خديجة - رضي الله عنها - حديث (٣٨٨٧) ، وأحمد في « مسنده » (٨٤/١ ، ١٣٢ ، ١٤٣) من طرق عن هشام بن عروة بهذا الإسناد . قال الطيبي : « الضمير الأول يعود إلى الأمّة التي كانت فيها مريم ، والثاني على هذه الأمة ، ولهذا كرر الكلام تنبيهًا على أن حكم كل واحدة منهما غير حكم الأخرى » . ولكن جاء في رواية مسلم : « وأشار وكيع إلى السماء والأرض » فكأنه أراد أن يبين أن المراد نساء الدنيا ، وأن الضميرين يرجعان إلى الدنيا . وقال الحافظ في « الفتح » (١٣٥/٧) : « والذي يظهر لي أن قوله : « خير نسائها » خبر مقدم ، والضمير لمريم ، فكأنه قال : خير نسائها أي زمانها ، وكذا في خديجة .

(١١٢) - رواه الترمذي في « سننه » كتاب المناقب ، باب : فضل خديجة - رضي الله عنها - حديث (٣٨٨٨) ، وعبد الرزاق في « مصنفه » (٤٣٠/١١) رقم (٢٠٩١٩) من طريق عبد الرزاق به ، وقال الترمذي : هذا حديث صحيح . وابن أبي شيبة في مصنفه (٥٣٠/٧) من حديث الحسن ، به .

---

[١] - في ز ، خ : « لم يخرجوه » .
[٢] - في ز ، خ : « وابن عبد الحميد » .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - في ز : « رنجويه » .

وقال عبد الله بن أبي جعفر الرازي ، عن أبيه قال : كان ثابت البناني يحدث عن أنس ابن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال : « **خير نساء العالمين أربع ، مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت رسول الله** » . رواه ابن مردويه(١١٣) .

وروىٰ ابن مردويه ، من طريق شعبة ، عن معاوية بن قرّة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « **كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة علىٰ النساء كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام** » .

وقال ابن جرير(١١٤) : حدثني المثنىٰ ، حدثنا آدم العسقلاني ، حدثنا شعبة ، حدثنا عمرو بن مرّة ، سمعت مرّة الهمداني ، يحدث عن أبي موسىٰ الأشعري ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « **كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون** » .

وقد أخرجه الجماعة(١١٥) ؛ إلا أبا داود من طرق عن شعبة به ، ولفظ البخاري : « **كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة علىٰ النساء كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام** » .

وقد استقصيت طرق هذا الحديث وألفاظه في قصة [عيسىٰ بن مريم][١] عليهما السلام في كتابنا البداية والنهاية(١١٦) ، ولله الحمد والمنة .

ثم أخبر تعالىٰ عن الملائكة ، أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع [والخضوع والسجود والركوع] والدأب[٢] في العمل [ ][٣] ، لما يريد الله تعالى بها من الأمر الذي قدره

(١١٣) - وأخرجه ابن عدي في « الكامل » (١٥٣٣/٤) . من طريق عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه قال : كان ثابت البناني ... فذكره . وقال ابن عدي بعد ما ساق له هذا الحديث : ولعبد الله بن أبي جعفر غير ما ذكرت من الحديث ، عن أبيه ، وعن غيره ، وبعض حديثه مما لا يتابع عليه .

(١١٤) - رواه ابن جرير في « تفسيره » (٣٩٧/٦ - ٣٩٨) رقم (٧٠٣١) .

(١١٥) - أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلًا للذين آمنوا امرأة فرعون ...** ﴾ حديث (٣٤١١) ، وطرفه حديث (٣٤٣٣) ، (٣٧٦٩) ، (٥٤١٨) ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، حديث (٢٤٣١) ، والترمذي في كتاب الأطعمة ، باب : ما جاء في فضل الثريد ، حديث (١٨٣٥) ، والنسائي في « الكبرى » (٩٣/٥) برقم (٨٣٥٦) ، وابن ماجه في كتاب الأطعمة ، باب : فضل الثريد على الطعام ، حديث (٣٢٨٠) كلهم من حديث أبي موسى الأشعري به .

(١١٦) - « البداية والنهاية » (٧٣/٢) ، (١٥٩/٣) ، (١٠٠/٨) .

[١] - ما بين المعكوفتين في ز ، خ : « عيسى ومريم » .

[٢] - في ز : « والدوب » .

[٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « لها » .

وقضاه ، مما فيه محنة لها ورفعة في الدارين ، بما أظهر اللَّه تعالى فيها من قدرته العظيمة ؛ حيث خلق منها ولدًا من غير أب ، فقال تعالىٰ : ﴿ **يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين** ﴾ أمّا القنوت : فهو الطاعة في خشوع ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **بل له ما[١] في السموات والأرض كل له قانتون** ﴾ .

وقد قال ابن أبي حاتم(١١٧) : حدثنا يونس بن عبد الأعلىٰ ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني عمرو ابن الحارث ، أن دراجًا أبا السمح حدثه ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد ، عن رسول اللَّه ﷺ قال : « **كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة** » .

ورواه ابن جرير من [حديث][٢] ابن لهيعة ، عن دراج به ، وفيه نكارة .

وقال مجاهد : كانت مريم ، عليها السلام ، تقوم حتىٰ تتورم كعباها . والقنوت هو طول الركود في الصلاة ، يعني امتثالا [لقول اللَّه][٣] تعالىٰ : ﴿ **يا مريم اقنتي لربك** ﴾ [ ][٤] قال الحسن : يعني اعبدي لربك . ﴿ **واسجدي واركعي مع الراكعين** ﴾ أي : كوني منهم .

وقال الأوزاعي : ركدت في محرابها راكعة وساجدة وقائمة حتىٰ نزل ماء الأصفر في قدميها رضي اللَّه عنها [وأرضاها][٥] .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر(١١٨) في ترجمتها من طريق محمد بن يونس الكديمي[٦] ، وفيه مقال : ثنا علي بن بحر بن بري ، ثنا الوليد بن مسلم ، عن الأوزاعي ، عن يحيىٰ بن أبي كثير في قوله : ﴿ **يا مريم اقنتي لربك واسجدي** ﴾ قال : سجدت حتىٰ نزل الماء الأصفر في عينيها[٧] .

---

(١١٧) - رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٢٦١) رقم (٥٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/٣٢٥) من طريق ابن وهب ، به . ثم قال : تفرد به عبد اللَّه بن عمرو . في إسناده دراج أبو السمح في حديثه عن أبي الهيثم ضعف . وأخرجه الطبري في « تفسيره » (٦/٤٠٣) رقم (٧٠٥٠) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٢/٥٢٢) رقم (١٣٧٩) ، وابن حبان في صحيحه (٢/٧) رقم (٣٠٩) ، وأحمد في « مسنده » (٣/٧٥) ، والطبراني في الأوسط (٥/٢٣٤) رقم (٥١٨١) من طريق ابن لهيعة به ، وذكره الهيثمي في « المجمع » (٦/٣٢٣) وقال : رواه أحمد ، وأبو يعلى ، والطبراني في الأوسط ، وفي إسناد أحمد وأبي يعلى ابن لهيعة وهو ضعيف . اهـ . وقال ابن كثير عند تفسيره لسورة البقرة آية (١١٦) : في هذا الإسناد ضعيف لا يعتمد عليه ، ورفع هذا الحديث منكر ، وقد يكون من كلام الصحابي أو من دونه ، وكثير ما يأتي بهذا الإسناد تفاسير فيها نكارة ، فلا يغتر بها فإن السند ضعيف ، واللَّه أعلم .

(١١٨) - تاريخ دمشق (١٩/٥٣٥) .

---

[١] - في ت : « من » .

[٢] - في ت : طريق .

[٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « لقوله » .

[٤] - بين المعكوفتين في ز : « بل » .

[٥] - زيادة في : ت .

[٦] - في ز : « اللديمي » .

[٧] - في ز : « عينها » .

وذكر ابن أبي الدنيا : ثنا الحسن بن عبد العزيز ، ثنا ضمرة ، عن ابن[١] شَوْذَب ؛ قال : كانت مريم عليها السلام تغتسل في كل ليلة .

ثم قال تعالى لرسوله بعد ما أطلعه علىٰ جلية الأمر : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك** ﴾ أي : نقصه عليك ﴿ **وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم ايهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾ أي : ما كنت عندهم يا محمد [فتخبر عنهم][٢] معاينة عما جرىٰ ، بل أطلعك الله علىٰ ذلك [كأنك حاضر وشاهد][٣] لما كان من أمرهم ، حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها ، وذلك لرغبتهم في الأجر .

قال ابن جرير (١١٩) : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن القاسم بن أبي بزة[٤] ، أنه أخبره عن عكرمة - [وأبي بكر ، عن عكرمة][٥] - قال : ثم خرجت بها - يعني أم مريم بمريم[٦] - [في خرقها][٧] إلىٰ بني الكاهن بن هارون أخي موسىٰ عليهما السلام قال : وهم يومئذ يلون في بيت المقدس ما تلي الحجبة من الكعبة ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ، فإني حررتها وهي ابنتى ، ولا تدخل الكنيسة حائض ، وأنا لا أردها إلىٰ بيتي ، فقالوا : هذه ابنة إمامنا وكان عمران يؤمهم في الصلاة ، وصاحب قرباننا . فقال زكريا : ادفعوها إلي[٨] فإن خالتها تحتي . فقالوا : لا تطيب أنفسنا ، هي[٩] ابنة إمامنا . فذلك حين اقترعوا [عليها بأقلامهم][١٠] [ ][١١] التي يكتبون بها التوراة ، فقرعهم زكريا ، فكفلها .

وقد ذكر عكرمة أيضًا والسدي وقتادة والربيع بن أنس وغير واحد - دخل حديث بعضهم في بعض - : أنهم ذهبوا[١٢] إلىٰ نهر الأردن واقترعوا هنالك علىٰ أن يلقوا أقلامهم فيه[١٣] ، فأيهم يثبت[١٤] في جِرية(*) الماء[١٥] فهو كافلها ، فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت .

---

(١١٩) - لم أجده في تفسير الطبري المطبوع . ولم يذكره السيوطي في « الدر المنثور » .

(*) - جرية الماء : حالة جريانه .

---

[١] - في ز : « أبي » .
[٢] - في ت : « فتخبرهم عن » .
[٣] - ما بين المعكوفتين في ز ، خ : « كأنك كنت حاضرٌ وشاهدٌ » .
[٤] - في ز ، خ : « برة » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٦] - في ز : « بريم » .
[٧] - في خ : « تحملها في خرقتها » .
[٨] - في خ : « لي » .
[٩] - في ز : « على » .
[١٠] - في ز : « بأقلامهم عليها » .
[١١] - ما بين المعكوفتين في ز : « بالأقلام » .
[١٢] - في ز ، خ : « دخلوا » .
[١٣] - زيادة من : ز ، خ .
[١٤] - في ز : « ثبت » .
[١٥] - في خ : « النار » .

ويقال : إنه ذهب صعدًا[١] يشق جرية الماء ، وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم وعالمهم وإمامهم ونبيهم ، صلوات اللّٰه وسلامه عليه وعلىٰ سائر النبيين.

إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام ، بأن سيوجد منها ولد عظيم ، له شأن كبير ؛ قال اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **إذ قالت الملائكة يا مريم إن اللّٰه يبشرك بكلمة منه** ﴾ أي : بولد يكون وجوده بكلمة من اللّٰه ، أي : بقوله[٢] له : كن ؛ فيكون .

وهذا تفسير قوله : ﴿ **مصدّقًا بكلمة من اللّٰه** ﴾ كما ذكره الجمهور علىٰ ما سبق بيانه ﴿ **اسمه المسيح عيسىٰ ابن مريم** ﴾ أي : يكون مشهورًا بهذا في الدنيا ، يعرفه المؤمنون بذلك .

وسمي المسيح قال بعض السلف : لكثرة سياحته . وقيل : لأنه[٣] كان مسيح القدمين لا أخمص لهم . وقيل : لأنه كان إذا مسح أحدًا من ذوي العاهات برئ بإذن اللّٰه تعالىٰ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **عيسىٰ ابن مريم** ﴾ نسبة له[٤] إلىٰ أمه ، حيث لا أب له ﴿ **وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين** ﴾ أي : له وجاهة ومكانة عند اللّٰه في الدنيا بما يوحيه اللّٰه إليه من الشريعة ، وينزله عليه من الكتاب ، وغير ذلك مما منحه اللّٰه[٥] به .

وفي الدار الآخرة يشفع عند اللّٰه فيمن يأذن له فيه ، فيقبل منه أسوة بإخوانه[٦] من أولي العزم صلوات اللّٰه [وسلامه عليه وعليهم أجمعين][٧] .

وقوله : ﴿ **ويكلم الناس في المهد وكهلا** ﴾ أي : يدعو إلىٰ عبادة اللّٰه وحده لا شريك له في حال صغره ، معجزة وآية ، [وفي حال][٨] كهولته[٩] حين يوحي اللّٰه إليه بذلك ﴿ **ومن**

---

[١] - في خ : « صاعدا » .
[٢] - في خ : «يقول » .
[٣] - في ز : « إنه » .
[٤] - سقط من : ت .
[٥] - سقط من : ز .
[٦] - في ز ، خ : « إخوته » .
[٧] - في ز ، خ : « عليهم » .
[٨] - في ز ، خ : « وحال » .
[٩] - في ز : « كهوليته » .

الصالحين ﴾ أي : في قوله وعمله . له علم صحيح ، وعمل صالح .

قال محمد بن إسحاق(١٢٠) : عن يزيد[١] بن عبد الله بن قسيط ، عن محمد بن شرحبيل ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما تكلم مولود في صغره[٢] إلا عيسىٰ وصاحب جريج[٣]** » .

وقال ابن أبي حاتم(١٢١) : حدثنا أبو الصقر[٤] يحيىٰ بن محمد بن قزعة ، حدثنا الحسين - يعني المروزي - حدثنا جرير ، يعني ابن حازم ، عن محمد ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة ؛ عيسىٰ ، وصبي كان في زمن جريج وصبي آخر** » .

فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله ، عز وجل ، قالت في مناجاتها : **﴿ رب أنىٰ يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ﴾** ، تقول : كيف يوجد هذا الولد مني ، وأنا لست بذات زوج ، ولا من عزمي أن أتزوج ، ولست بغيًا حاشا[٥] لله[٦] . فقال لها الملك عن الله عز وجل في جواب هذا السؤال : **﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء ﴾** أي : هكذا أمر الله عظيم ، لا يعجزه شيء ، وصرح هاهنا [ ][٧] بقوله : **﴿ يخلق ما يشاء ﴾** ولم يقل : يفعل كما في قصة زكريا . بل نص هاهنا علىٰ أنه يخلق ؛ لئلا يبقىٰ لمبطل شبهة ، وأكد ذلك بقوله : **﴿ إذا قضىٰ أمرًا فإنما يقول له كن فيكون ﴾** أي : فلا يتأخر شيئًا ، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة[٨] ، كقوله تعالى : **﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾** أي : إنما نأمر مرة واحدة[٩] لا مَثْنَوِيَة فيها ، فيكون ذلك الشيء سريعًا ، كلمح بالبصر .

وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

---

(١٢٠) - فيه محمد بن إسحاق لم يصرح بالسماع . وأخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٢٧٢ - ٢٧٣) رقم (٥٦٤) من طريق محمد بن إسحاق ، به .

(١٢١) - رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٢٧٢) رقم (٥٦٣) . وأخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى **﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها ...﴾** حديث (٣٤٣٦) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب : البر والصلة ، حديث ٨ - (٢٥٥٠) ، وأحمد في « مسنده » (٢/٣٠٧ - ٣٠٨ و٣٠٨) .

---

[١] - في ز : « زيد » .
[٢] - في ز : « صغيره » .
[٣] - في ز ، خ : « جرير » .
[٤] - في ز : « الصفر » .
[٥] - في ز : « حاش » .
[٦] - في خ : « الله » .
[٧] - ما بين المعكوفتين في ز : « أنه » .
[٨] - في ز : « مهملة » .
[٩] - زيادة من : خ .

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ
فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ
بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم
بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ
(٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١)﴾

يقول اللَّه تعالىٰ مخبرًا[١] عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها ، عيسىٰ عليه السلام ،: إن اللَّه يعلمه الكتاب والحكمة . الظاهر أن المراد بالكتاب هاهنا الكتابة ، والحكمة تقدم [الكلام على][٢] تفسيرها في سورة البقرة .

﴿ والتوراة والإنجيل ﴾ : فالتوراة هو[٣] الكتاب الذي [أنزله الله][٤] على موسىٰ بن عمران ، والإنجيل الذي [أنزله الله][٥] على عيسىٰ [ابن مريم][٦] عليهما السلام . وقد كان عيسىٰ[٧] عليه السلام يحفظ هذا وهذا ، وقوله : ﴿ ورسولًا إلىٰ بني إسرائيل ﴾ أى : يجعله رسولًا إلى بني إسرائيل قائلًا لهم ﴿ **أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله** ﴾ . وكذلك كان يفعل ؛ يصور من الطين شكل طير ، ثم ينفخ فيه ؛ فيطير عيانًا بإذن اللَّه ، عز وجل ، الذي جعل هذا معجزة له تدل[٨] على [أن الله][٩] أرسله .

﴿ **وأبرئ الأكمه** ﴾ قيل : إنه[١٠] الذي يبصر نهارًا ولا يبصر ليلًا ، وقيل بالعكس ، وقيل : هو[١١] الأعشىٰ . وقيل : الأعمش . وقيل : هو الذي يولد أعمىٰ . وهو أشبه ؛ لأنه أبلغ في المعجزة ، وأقوىٰ في التحدي ﴿ **والأبرص** ﴾ معروف .

---

[١] - سقط من : ز ، خ .
[٢] - ما بين المعكوفتين زيادة من : ز ، خ .
[٣] - زيادة من : ز ، خ .
[٤] - في ت : « أنزل » .
[٥] - في : « أنزل » .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٧] - سقط من : ز ، خ .
[٨] - في ز ، خ : « يدل » .
[٩] - في ت : « أنه » .
[١٠] - في خ : « هو » .
[١١] - زيادة من : ز ، خ .

﴿ وأحيي الموتىٰ بإذن اللَّه ﴾ قال كثير من العلماء : بعث اللَّه كل نبي من الأنبياء [بمعجزة تناسب][١] أهل زمانه ، فكان الغالب علىٰ زمان موسىٰ عليه السلام السحر وتعظيم السحرة ، فبعثه اللَّه بمعجزات[٢] بهرت الأبصار ، وحيرت كل سحار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار ، انقادوا للإسلام وصاروا من [عباد اللَّه][٣] الأبرار . وأما عيسىٰ عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه ، إلا أن يكون مؤيدًا من الذي شرع الشريعة .

فمن أين للطبيب قدرة علىٰ إحياء الجماد ، أو علىٰ مداواة الأكمه والأبرص ، وبعث من هو في قبره رهين إلىٰ يوم التناد[٤] ؟ ؟ .

وكذلك محمد ﷺ بعث[٥] في زمان[٦] الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء ، فأتاهم بكتاب من اللَّه ، عز وجل ، لو اجتمعت الإنس والجن علىٰ أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدًا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ، وما ذاك إلا لأن كلام الرب عز وجل لا يشبهه[٧] كلام الخلق أبدًا .

وقوله : ﴿ **وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم** ﴾ أي : أخبركم بما أكل أحدكم الآن ، وما هو مدخر [في بيته لغداه][٨] ﴿ **إن في ذلك** ﴾ أي : في ذلك كله ﴿ **لآية لكم** ﴾ أي : علىٰ صدقي فيما جئتكم به ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ .

﴿ **ومصدقا لما بين يدي من التوراة** ﴾ أي : مقرًّا[٩] لها ومثبتًا[١٠] ﴿ **ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم** ﴾ فيه دلالة علىٰ أن عيسىٰ عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة ، وهو الصحيح من القولين ، ومن العلماء من قال : لم ينسخ منها شيئًا ، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون[١١] فيه فأخطئوا ، فكشف[١٢] لهم عن المغطى في ذلك ، كما قال في الآية الأخرىٰ : ﴿ **ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه** ﴾ ، واللَّه أعلم .

ثم قال : ﴿ **وجئتكم بآية من ربكم** ﴾ أي : بحجة ودلالة علىٰ صدقي فيما أقول لكم ﴿ **فاتقوا اللَّه وأطيعون إن اللَّه ربي وربكم فاعبدوه** ﴾ أي : أنا وأنتم سواء في العبودية له ،

---

[١] - في ت : « بما يناسب » .
[٢] - في ز : « بمعجزة » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٤] - في ز : « التناده » .
[٥] - في ز : « بعثه » .
[٦] - في ز : « زمن » .
[٧] - في خ : « يشبه » .
[٨] - في ت : « له في بيته لغد » .
[٩] - في ز : « مقرر » .
[١٠] - في ز : « مثبت » .
[١١] - في ز : « يتنازعوا » .
[١٢] - في خ : « وكشف » .

والخضوع والاستكانة إليه ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ .

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ فلما أحس عيسىٰ ﴾ أي : استشعر منهم التصميم علىٰ الكفر والاستمرار علىٰ الضلال ؛ قال : من أنصاري إلىٰ الله ؟ قال مجاهد : أي : من يتبعني إلىٰ الله . وقال سفيان الثوري وغيره : أي[١] : من أنصاري مع الله . وقول مجاهد أقرب .

والظاهر أنه أراد : من أنصاري في الدعوة إلىٰ الله ؟ كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر : « **من رجل يؤويني [على أن][٢] أبلغ كلام ربي ؟ فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي** »(١٢٢) . حتىٰ وجد الأنصار فآووه ونصروه ، وهاجر إليهم فواسوه[٣] ومنعوه من الأسود والأحمر ، [رضي الله عنهم وأرضاهم] . وهكذا عيسىٰ بن مريم ، [عليه السلام] ، انتدب له طائفة من بني إسرائيل ، فآمنوا به ، وآزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، ولهذا قال تعالىٰ مخبرًا عنهم : ﴿ **قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا[٤] مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ .

---

(١٢٢) - أخرجه أحمد في « المسند » (٣٢٢/٣ ، ٣٣٩) ، والبزار (١٧٥٦) ، وصححه ابن حبان (١٤/ ٦٢٧٤) ، (٧٠١٢/١٥) ، والحاكم في « المستدرك » (٦٢٤/٢) ، ووافقه الذهبي ، ورواه البيهقي في « الدلائل » (٤٤٣/٢) ، وفي « السنن » (١٤٦/٨) ، (٩/٩) ، وقال ابن كثير في « البداية » (١٩٥/٣) : « إسناد جيد على شرط مسلم » ، وقال الحافظ في « الفتح » (١٧٧/٧) : « رواه أحمد بإسناد حسن ، وصححه الحاكم ، وابن حبان » . من طريق أبي الزبير عن جابر ، به مطولًا . وأخرجه النسائي في « الكبرى » (٤١١/٤) رقم (٧٧٢٧) ، وأبو داود في « سننه » كتاب : السنة ، باب : في القرآن ، حديث (٤٧٣٤) . والترمذي في « سننه » كتاب : فضائل القرآن ، باب (٢٤) حديث (٢٩٢٥) ، وابن ماجه في المقدمة ، باب : فيما أنكرت الجهمية حديث (٢٠١) ، كلهم من طريق سالم بن أبي الجعد ، عن جابر قال : كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموسم فيقول : « **ألا رجل يحملني إلى قومه ، فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي** » .

---

[١] - سقط من : ز ، خ .
[٢] - في ت : حتى .
[٣] - في ز : « فآسوه » .
[٤] - في خ : « بأننا » .

الحواريون قيل : كانوا قصارين ، وقيل[١] : سموا بذلك لبياض ثيابهم . وقيل : صيادين . والصحيح أن الحواري الناصر . كما ثبت في الصحيحين(١٢٣) أن رسول اللَّه ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب فانتدب الزبير ، ثم ندبهم فانتدب الزبير رضي اللَّه عنه ، [ثم ندبهم فانتدب الزبير رضي اللَّه عنه][٢] ، فقال النبي ﷺ : « **إن لكل نبي حواريًا وحواري الزبير** » .

وقال ابن أبي حاتم(١٢٤) : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وكيع ، حدثنا إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما ، في قوله : ﴿ **فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ قال[٣] : مع أمة محمد ﷺ . وهذا إسناد جيد .

ثم قال تعالىٰ مخبرًا عن ملإ[٤] بني إسرائيل فيما هموا به من [الفتك بعيسىٰ][٥] ، عليه السلام ، وإرادته بالسوء والصلب ، حين تمالئوا عليه ، ووشوا به إلىٰ ملك ذلك الزمان ، وكان كافرًا ، فأنهوا إليه أن هاهنا رجلًا يضل الناس ، ويصدهم عن طاعة الملك ، ويفسد[٦] الرعايا ، ويفرق بين الأب وابنه ، إلىٰ غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم ، ورموه به من الكذب ، وأنه ولد زانية حتىٰ استثاروا غضب الملك ، فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به ، فلما أحاطوا بمنزله ، وظنوا أنهم قد ظفروا به ، نجاه اللَّه تعالىٰ من بينهم ، ورفعه من روزنة ذلك البيت إلىٰ السماء ، وألقىٰ اللَّه شبهه علىٰ رجل ممن[٧] كان عنده في المنزل ، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسىٰ ، عليه السلام ، فأخذوه وأهانوه وصلبوه ، ووضعوا علىٰ رأسه الشوك ، وكان هذا من مكر اللَّه بهم ، فإنه نجىٰ نبيه ورفعه من بين

---

(١٢٣) - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ، باب : فضل الطليعة ، حديث (٢٨٤٦) ، وطرفه حديث (٤١١٣) ، ومسلم في كتاب : فضائل الصحابة ، حديث ٤٨ - (٢٤١٥) والترمذي في كتاب : المناقب ، باب رقم (٢٥) حديث (٣٧٤٥) ، والنسائي في « الكبرى » كتاب : المناقب (٥/٦٠) حديث (٨٢١١) . وابن ماجه في المقدمة ، باب : في فضائل أصحاب رسول اللَّه ﷺ حديث (١٢٢) ، والبيهقي في « الدلائل » (٣/٤٣١) .

(١٢٤) - رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٢٩٤) رقم (٦٣٤) ، وأخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (١١/٣٧٩) من طريق محمد بن يوسف الفريابي ، عن إسرائيل ، به . وفيه سماك ، صدوق ، وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة ، وقد تغير بأخرة .

---

[١] - سقط من : ز ، خ .
[٢] - سقط من ت .
[٣] - سقط من : ز ، خ .
[٤] - سقط من : ز ، خ .
[٥] - في ز ، خ : « القتل لعيسى » .
[٦] - في خ : « ويفتد » ، وفي ز : « ويفند » .
[٧] - سقط من : ز ، خ .

أظهرهم ، وتركهم في ضلالهم يعمهون ؛ يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم[١] ، وأسكن الله في قلوبهم قسوة وعنادًا للحق ملازمًا لهم ، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلىٰ يوم التناد ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين** ﴾ .

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٧) ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ (٥٨)

اختلف المفسرون في قوله تعالىٰ : ﴿ **إني متوفيك ورافعك إلي** ﴾ فقال قتادة وغيره : هذا من المقدم والمؤخر ، تقديره : إني رافعك إلي[٢] ﴿ ومتوفيك ﴾ ، يعني بعد ذلك .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : إني متوفيك أي : مميتك .

وقال محمد بن إسحاق عمن لا يتهم[٣] ، عن وهب بن منبه ؛ قال : توفاه الله ثلاث ساعات من أول[٤] النهار حين رفعه الله إليه .

قال[٥] ابن إسحاق : والنصارىٰ يزعمون أن الله توفاه سبع ساعات ثم أحياه .

وقال إسحاق بن بشر ، عن إدريس ، عن وهب : أماته الله ثلاثة أيام ثم بعثه ثم رفعه .

وقال مطر الوراق : إني[٦] متوفيك من الدنيا ، وليس بوفاة موت . وكذا قال ابن جريج : توفيه هو رفعه .

وقال الأكثرون : المراد بالوفاة هاهنا النوم . كما قال تعالىٰ : ﴿ **وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار** ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت**

---

[١] - في ز : « بطلبهم » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في خ : « يتوهم » .
[٤] - سقط من : ز .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من ت .
[٦] - زيادة من : ز ، خ .

في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ . وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم : « **الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا** [**وإليه النشور**][١] » . الحديث(١٢٥) . وقال الله تعالىٰ : ﴿ **وبكفرهم وقولهم علىٰ مريم بهتانًا عظيمًا وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسىٰ ابن مريم رسول الله** [**وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾**] إلىٰ قوله تعالى : ﴿ **وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزًا حكيما وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدًا ﴾** والضمير في قوله « **قبل موته** » عائد علىٰ عيسىٰ عليه السلام أي : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن[٢] بعيسىٰ [قبل موت عيسى][٣] وذلك حين ينزل إلىٰ الأرض قبل يوم القيامة ، علىٰ ما سيأتي بيانه ، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم ؛ لأنه يضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام .

وقال[٤] ابن أبي حاتم(١٢٦) : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، [حدثنا عبد الله][٥] بن أبي جعفر ، عن أبيه ، حدثنا الربيع بن أنس ، عن الحسن ، أنه قال في قوله تعالىٰ ﴿ **إني متوفيك** ﴾ : يعني وفاة المنام[٦] رفعه الله في منامه . قال الحسن : قال رسول الله ﷺ لليهود : « **إن عيسىٰ لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة** » .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **ومطهرك من الذين كفروا** ﴾ أي : برفعي إياك إلىٰ السماء ﴿ **وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلىٰ يوم القيامة** ﴾ وهكذا وقع فإن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إلىٰ السماء تفرقت أصحابه شيعًا بعده .

فمنهم من آمن بما بعثه الله به علىٰ أنه عبد الله ورسوله وابن أمته ، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله ، وآخرون قالوا : هو الله . وآخرون قالوا : هو ثالث ثلاثة . وقد حكىٰ الله مقالتهم[٧] في القرآن ورد علىٰ كل فريق ، [فاستمروا علىٰ ذلك][٨] قريبًا من ثلاثمائة سنة ، ثم نَبَعَ لهم ملك

---

(١٢٥) - رواه البخاري في كتاب الدعوات ، باب : ما يقول إذا نام ، حديث (٦٣٢١) من حديث حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه .

(١٢٦) - رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٢٩٦) رقم (٦٤٢) ، وأخرجه الطبري في « تفسيره » (٦/ ٤٥٥) رقم (٧١٣٣) من طريق عبد الله بن أبي جعفر به .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٢] - في ز ، خ : « فيؤمن » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٤] - في ز : « قال » .

[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٦] - في ز : « المقام » .

[٧] - في ز : « مقالاتهم » .

[٨] - في ز ، خ : « فاستمر كذلك » .

من ملوك اليونان يقال له قسطنطين ، فدخل في دين النصرانية ، قيل : حيلة ليفسده . فإنه كان فيلسوفًا . وقيل : جهلًا منه . إلا أنه بدل لهم دين المسيح وحرفه ، وزاد فيه ونقص منه ووضعت له القوانين والأمانة الكبرىٰ[١] التي هي الخيانة الحقيرة ، وأحل في زمانه لحم الخنزير ، وصلوا له[٢] إلىٰ المشرق[٣] ، وصوروا له الكنائس والمعابد والصوامع ، [وزادوا][٤] في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون ، وصار دين المسيح دين قسطنطين [إلا أنه][٥] بنىٰ لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد علىٰ اثني عشر ألف معبد ، وبني المدينة المنسوبة إليه ، واتبعه الطائفة[٦] الملكية منهم ، وهم في هذا كله قاهرون لليهود [أيدهم اللَّه][٧] عليهم لأنهم[٨] أقرب إلىٰ الحق منهم ، وإن كان الجميع كفارًا ، عليهم لعائن اللَّه .

فلما بعث اللَّه محمدًا ﷺ فكان من آمن به يؤمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله علىٰ الوجه الحق ، فكانوا[٩] هم أتباع كل نبي علىٰ وجه الأرض ؛ إذ قد صدقوا الرسول النبي الأمي العربي[١٠] خاتم الرسل وسيد ولد آدم [علىٰ الإطلاق][١١] ، الذي دعاهم إلىٰ التصديق بجميع الحق ، فكانوا أولىٰ بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم علىٰ ملته وطريقته ، مما[١٢] قد حرفوا وبدلوا ، ثم لو لم يكن شيء من ذلك ، لكان قد نسخ اللَّه بشريعته شريعة[١٣] جميع الرسل بما بعث اللَّه[١٤] به محمدًا ، ﷺ ، من الدين الحق ، الذي لا يبدل ولا يغير إلىٰ قيام الساعة ، ولا يزال قائمًا منصورًا ظاهرًا علىٰ كل دين ، فلهذا فتح اللَّه لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها ، واحتازوا جميع الممالك ، ودانت لهم جميع الدول ، وكسروا كسرىٰ ، وقصروا[١٥] قيصر ، وسلبوهما كنوزهما ، وأنفقت في سبيل اللَّه ، كما أخبرهم بذلك نبيهم(١٢٧) عن ربهم عز وجل في قوله : ﴿ **وعد اللَّه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض**[١٦] **كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضىٰ لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا [يعبدونني لا يشركون بي شيئًا** ﴾] الآية . فلهذا[١٧] لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقًّا سلبوا النصارىٰ بلاد الشام ، وأجلوهم إلىٰ

(١٢٧) - انظر سورة النور آية (٥٥) .

[١] - في ز : « الكبيرة » .
[٢] - زيادة من : ز ، خ .
[٣] - في ز : « الشرق » .
[٤] - في ت : « وزاد » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٦] - في ت : « طائفة » .
[٧] - في ت : « أيده » .
[٨] - في ت : « لأنه » .
[٩] - في ز : « كانوا » .
[١٠] - سقط من : ز ، خ .
[١١] - سقط من : ز .
[١٢] - في ز ، خ : « مع ما » .
[١٣] - سقط من : ز ، خ .
[١٤] - سقط من : ز .
[١٥] - سقط من : خ .
[١٦] - سقط من : ز .
[١٧] - في ز : « ولهذا » .

الروم ، فلجئوا إلىٰ مدينتهم القسطنطينية ، ولا يزال الإسلام وأهله[١] فوقهم إلىٰ يوم القيامة . وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية(١٢٨) ويستفيئون ما فيها من الأموال ، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جدًا لم ير الناس مثلها ، ولا يرون بعدها نظيرها ، وقد جمعت في هذا جزءًا مفردًا . ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلىٰ يوم القيامة ثم إلي مرجعكم** ﴾ [، أي يوم القيامة ،][٢] ﴿ **فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابًا شديدًا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين** ﴾ وكذلك فعل تعالى بمن كفر بالمسيح من اليهود أو غلا فيه [أو أطراه][٣] من النصارىٰ ؛ عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي[٤] وأخذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك ، وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق ﴿ **ومالهم من اللّٰه من واق** ﴾ ﴿ **وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم[٥] أجورهم** ﴾ أي : في الدنيا والآخرة ؛ في الدنيا بالنصر والظفر ، وفي الآخرة بالجنات العاليات ﴿ **واللّٰه لا يحب الظالمين** ﴾ .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم** ﴾ أي : هذا الذي قصصناه[٦] عليك يا محمد في أمر عيسىٰ ومبدأ ميلاده وكيفية أمره هو مما قاله اللّٰه[٧] تعالىٰ وأوحاه إليك وأنزله عليك من اللوح المحفوظ ، فلا مرية فيه ولا شك ، كما قال تعالىٰ في سورة مريم : ﴿ **ذلك عيسىٰ ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ما كان للّٰه أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضىٰ أمرا فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ وهاهنا قال تعالىٰ :

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟

(١٢٨) - رواه أحمد (١٧٦/٢) من حديث عبد اللّٰه بن عمرو ، وصححه الحاكم (٤٢٢/٣) (٥٠٨/٤) ووافقه الذهبي ، وأقرهما الألباني في الصحيحة (٤/١) .

[١] - زيادة من : ت .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .
[٣] - في ز ، خ : « وأطراه » .
[٤] - في ز : « السبا » .
[٥] - في ز ، خ : « فنوفيهم » .
[٦] - في ت : « قصصنا » .
[٧] - سقط من : ت .

فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

يقول [جل وعلا][١] : ﴿ **إن مثل عيسىٰ عند الله** ﴾ في قدرة الله تعالى حيث خلقه من غير أب ﴿ **كمثل آدم** ﴾ [فإن الله تعالى][٢] خلقه من غير أب ولا أم ، بل ﴿ **خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون [الحق من ربك]**[٣] ﴾ فالذي[٤] خلق آدم [من غير أب][٥] قادر علىٰ [أن يخلق][٦] عيسىٰ بالطريق الأولىٰ والأحرىٰ ، وإن جاز ادّعاء البنوة[٧] في عيسىٰ لكونه[٨] مخلوقًا من غير أب ، فجواز ذلك في[٩] آدم بالطريق الأولىٰ ، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل ، فدعواها[١٠] في عيسىٰ أشدّ بطلانًا وأظهر فسادًا ، ولكن الرب [جل جلاله][١١] أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم ، لا من ذكر ولا من أنثىٰ ، وخلق حوّاء[١٢] من ذكر بلا أنثىٰ ، وخلق عيسىٰ من أنثىٰ بلا ذكر ، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثىٰ ، ولهذا قال تعالىٰ في سورة مريم : ﴿ **ولنجعله آية للناس** ﴾ وقال هاهنا : ﴿ **الحق من ربك فلا تكن[١٣] من الممترين** ﴾ أي : هذا [هو القول][١٤] الحق في عيسىٰ الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه ، وماذا بعد الحق إلا الضلال .

ثم قال تعالىٰ آمرًا رسوله ﷺ أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسىٰ بعد ظهور البيان ﴿ **فمن حاجك فيه من بعد ما[١٥] جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم** ﴾ أي : نحضرهم في حال المباهلة ﴿ **ثم نبتهل** ﴾ أي : نلتعن ﴿ **فنجعل لعنة الله علىٰ الكاذبين** ﴾ أي : منا أو[١٦] منكم .

وكان سبب نزول[١٧] المباهلة وما قبلها من أول السورة إلىٰ هنا في وفد نجران : [أن النصارىٰ لما][١٨] قدموا ، فجعلوا يحاجون في عيسىٰ ، ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوة والإلهية ، فأنزل الله صدر هذه السورة[١٩] ردًّا عليهم ، كما ذكره الإمام محمد ابن إسحاق بن يسار

---

[١] - في ز ، خ : « تعالى » .
[٢] - في ت : حيث .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .
[٤] - في ز ، خ : « والذي » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٦] - ما بين المعكوفتين في ز ، خ : « خلق » .
[٧] - في ز : « النبوة » .
[٨] - في ز : « بكونه » .
[٩] - في خ : « من » .
[١٠] - في خ : « فدعواه » .
[١١] - في ز ، خ : « عز وجل » .
[١٢] - في ز : « حوى » .
[١٣] - في خ : « تكونن » .
[١٤] - في ز : « القول هو » .
[١٥] - سقط من : ز .
[١٦] - في ت : « و » .
[١٧] - في ز ، خ : « هذه » .
[١٨] - في ز ، خ : « النصارى حين » .
[١٩] - في ز : « الصورة » .

وغيره(١٢٩) .

قال ابن إسحاق في سيرته المشهورة وغيره(١٣٠) : وقدم علىٰ رسول الله ، ﷺ ، وفد نصارىٰ نجران ستون راكبًا ، فيهم أربعة عشر رجلًا من أشرافهم يئول [أمرهم إليهم] وهم : العاقب واسمه عبد المسيح ، والسيد وهو الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل ، وأوس ابن الحارث ، وزيد ، وقيس ويزيد ونبيه وخويلد وعمرو[١] وخالد وعبد الله وَيُحَنّس[٢] .

وأمر هؤلاء يئول إلىٰ ثلاثة منهم ، وهم : العاقب ، وكان أمير القوم ، وذا رأيهم ، وصاحب مشورتهم ، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه ، والسيد ، وكان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، وأبو حارثة ابن علقمة وكان أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارستهم ، وكان رجلًا من العرب من بني بكر بن وائل ، ولكنه تنصر ، فعظمته الروم وملوكها وشرفوه وبنوا له الكنائس ومولوه[٣] وأخدموه لما يعلمون[٤] من صلابته في دينهم ، وقد كان يعرف أمر رسول الله ﷺ وصفته وشأنه بما[٥] علمه من الكتب المتقدّمة جيدًا[٦] ولكن احتمله جهله علىٰ الاستمرار في النصرانية لما يرىٰ من تعظيمه فيها ووجاهته عند أهلها .

قال ابن إسحاق(١٣١) : وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير ؛ قال : قدموا علىٰ رسول الله ﷺ المدينة ، فدخلوا عليه مسجده حين صلىٰ العصر عليهم ثياب الحبرات جُبَب[٧] وأردية في جمال رجال بني الحارث بن كعب ، قال : يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي ﷺ : ما رأينا بعدهم وفدًا مثلهم ، وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يصلون[٨] فقال رسول الله ﷺ : « **دعوهم** » . فصلوا إلىٰ المشرق .

---

(١٢٩) - انظر « السيرة » لابن هشام (٤١٢/٢ : ٤٢٢) ، و« الدلائل » للبيهقي (٣٨٢/٥ : ٣٩٣) ، و« الطبقات » لابن سعد (٢٦٨/١ - ٢٦٩) و« الفتح » (٩٤/٨ - ٩٥) ، و« زاد المعاد » (٦٢٩/٣ - ٦٤٥) ، وأخرجه الطبري في « تفسيره » (١٥٤/٦) رقم (٦٥٤٤) . وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢٠/٢ - ٢١) رقم (١٨) .

(١٣٠) - « السيرة » لابن هشام (٤١٢/٢) ، وأخرجه الطبري في تفسيره (١٥١/٦) رقم (٦٥٤٣) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢١/٢ - ٢٢) رقم (١٩) والبيهقي في « الدلائل » (٣٨٣/٥) كلاهما من طريق محمد بن إسحاق ، به .

(١٣١) - « السيرة » لابن هشام (٤١٣/٢ - ٤١٤) ، وأخرجه الطبري في « تفسيره » (١٥٢/٦ ، ١٥٣) رقم (٦٥٤٣) و(٤٦١/٦) رقم (٧١٤٦) من طريق محمد بن إسحاق به .

---

[١] - في ز : « وعمر » .

[٢] - في خ : « وحسن » .

[٣] - في خ : « ودولوه » .

[٤] - في ت : « يعلمونه » .

[٥] - في ت : « مما » .

[٦] - سقط من : ت .

[٧] - في ت : « جباب » .

[٨] - سقط من : ز ، خ .

قال : فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة ، والعاقب عبد المسيح ، و[١] السيد الأيهم ، وهم من النصرانية علىٰ دين الملك مع اختلاف أمرهم ؛ يقولون : هو الله . ويقولون : هو ولد الله . ويقولون : هو ثالث ثلاثة . تعالىٰ الله [عن قولهم علوًّا كبيرًا][٢] وكذلك قول[٣] النصرانية فهم يحتجون في قولهم هو الله بأنه كان يحيي الموتىٰ ويبرئ الأكمه والأبرص و[٤] الأسقام ، ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ[٥] فيه فيكون طيرًا[٦] ، وذلك كله بأمر الله ، وليجعله الله[٧] آية للناس .

ويحتجون في قولهم بأنه ابن الله ، يقولون : لم يكن له أب يعلم ، وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بني آدم قبله .

ويحتجون علىٰ[٨] قولهم بأنه ثالث ثلاثة : بقول الله تعالىٰ : فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا فيقولون : لو كان واحدًا ما قال إلا فعلت وأمرت وقضيت وخلقت ، ولكنه هو وعيسىٰ ومريم- [تعالىٰ الله وتقدّس وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرا،][٩] وفي كل ذلك من قولهم : [قد نزل][١٠] القرآن .

فلما كلمه الحبران قال لهما رسول الله ﷺ : « **أسلما** » . قالا : قد أسلمنا . قال : « **إنكما لم تسلما فأسلما** » . قالا : بلىٰ قد أسلمنا قبلك . قال : « **كذبتما يمنعكما من الإسلام ادعاؤكما[١١] لله ولدا ، وعبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير** » . قالا : فمن أَبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما[١٢] فلم يجبهما ، فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلىٰ بضع وثمانين آية منها .

ثم تكلم ابن إسحاق علىٰ تفسيرها[١٣] إلىٰ أن قال (١٣٢): فلما أتىٰ رسول الله ﷺ الخبر من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم ، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم ، أن ردّوا ذلك عليه ، دعاهم إلىٰ ذلك فقالوا : يا أبا القاسم ؛ دعنا ننظر في أمرنا . ثم نأتيك بما نريد[١٤] أن نفعل[١٥] فيما دعوتنا

---

(١٣٢) - « السيرة » (٢/٤٢٢) .

---

[١] - في ز : « أو » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٣] - سقط من : ز ، خ .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٥] - في ت : « فينفخ » .
[٦] - في ز : « طائرًا » .
[٧] - سقط من : ز .
[٨] - في ز ، خ : « في » .
[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[١٠] - ما بين المعكوفتين كررت في : خ .
[١١] - في ز : « دعاؤكما » .
[١٢] - سقط من : ت .
[١٣] - في ز ، خ : « التفسير » .
[١٤] - في ز : « تريد » .
[١٥] - في ز : « تفعل » .

إليه . [ثم انصرفوا][١] عنه ، ثم خلوا بالعاقب ، وكان ذا رأيهم فقالوا : يا عبد المسيح ؛ ماذا ترىٰ ؟ فقال : والله يا معشر النصارىٰ لقد عرفتم أن محمدًا لنبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبيًا قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنه الاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد[٢] أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة علىٰ ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل ، وانصرفوا إلىٰ بلادكم .

فأتوا النبي ﷺ ، فقالوا : يا أبا القاسم ؛ قد رأينا أن لا نلاعنك ، ونتركك علىٰ دينك ، ونرجع علىٰ ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلًا من أصحابك ترضاه لنا ، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من[٣] أموالنا ، فإنكم عندنا رضا .

قال محمد بن جعفر : فقال رسول الله ﷺ : « **ائتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين** » . فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : ما أحببت الإمارة قط حبي إياها يومئذ ، رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلىٰ الظهر مهجرًا[٤] ، فلما صلىٰ رسول الله ﷺ الظهر سلم ثم نظر عن يمينه وشماله[٥] ، فجعلت أتطاول له ليراني ، فلم يزل يلتمس ببصره حتىٰ رأىٰ أبا عبيدة بن الجراح ، فدعاه فقال : « **اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه** » قال عمر : فذهب بها[٦] أبو[٧] عبيدة ، رضي الله عنه (١٣٣) .

وقد روىٰ ابن مردويه(١٣٤) من طريق محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ، عن رافع بن خديج ؛ أن وفد أهل نجران قدموا علىٰ رسول الله ﷺ فذكر نحوه ، إلا أنه قال في الأشراف : كانوا اثني عشر ، وذكر بقيته بأطول من هذا السياق وزيادات أخر .

وقال البخاري (١٣٥) : [حدّثنا عباس] بن الحسين ، حدثنا يحيىٰ بن آدم ، عن إسرائيل عن أبي إسحاق ، عن صلة بن زفر ، عن حذيفة رضي الله عنه ؛ قال : جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلىٰ رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه ، قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل ، فوالله لئن[٨] كان نبيًا فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا . قالا : إنا نعطيك ما سألتنا ، وابعث

(١٣٣) - انظر السابق .

(١٣٤) - انظر السابق .

(١٣٥) - رواه البخاري في كتاب : المغازي ، باب : قصة أهل نجران حديث (٤٣٨٠) .

[١] - ما بين المعكوفتين في ز ، خ : « فانصرفوا » .
[٢] - سقط من : ت .
[٣] - في ز ، خ : « في » .
[٤] - في خ : « مهاجرًا » .
[٥] - في ز : « يساره » .
[٦] - سقط من : ت .
[٧] - في ز : « أبا » .
[٨] - في ز : « إن » .

معنا رجلًا أمينًا ، ولا تبعث معنا إلا أمينًا . فقال[١] : « **لأبعثن[٢] معكم [ ][٣] رجلًا أمينًا[٤] حق أمين** » . فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال[٥] : « **قم يا أبا عبيدة بن الجراح** » . فلما قام قال رسول الله ﷺ : « **هذا أمين هذه الأمة** » .

رواه البخاري أيضًا ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة من طرق عن أبى إسحاق السبيعي عن صلة عن حذيفة بنحوه(١٣٦) .

وقد رواه أحمد والنسائي وابن ماجة من حديث إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن صلة ، عن ابن[٦] مسعود بنحوه(١٣٧) .

وقال البخاري(١٣٨) : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة ، عن خالد ، عن أبي قلابة ، عن أنس ، عن رسول الله ﷺ قال : « **لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح** » .

وقال الإمام أحمد(١٣٩) : حدثنا إسماعيل بن يزيد الرقي أبو يزيد ، حدثنا فرات ، عن عبد الكريم ابن مالك الجزري ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ؛ قال : قال أبو جهل [قبحه الله][٧] : إن رأيت محمدًا[٨] يصلي عند الكعبة لآتينَّه حتىٰ أطأ علىٰ رقبته[٩] ، قال : فقال : لو فعل

(١٣٦) - أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ، باب : مناقب أبي عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه - حديث (٣٧٤٥) . وطرفه حديث (٤٣٨١) ، و(٧٢٥٤) ، ومسلم في كتاب : فضائل الصحابة ، حديث (٢٤٢٠) ، والترمذي في « سننه » كتاب المناقب ، باب : مناقب أبي عبيدة بن الجراح ، حديث (٣٧٥٩) ، والنسائي في « السنن الكبرى » (٥٧/٥) رقم (٨١٩٧) ، وابن ماجه في « سننه » المقدمة ، فضل أبي عبيدة بن الجراح ، حديث (١٣٥) .

(١٣٧) - أخرجه أحمد في « المسند » (٤١٤/١) ، والنسائي في « السنن الكبرى » (٥٧/٥) برقم (٨١٩٦) ، وابن ماجه في « سننه » المقدمه ، فضل أبي عبيدة بن الجراح ، حديث (١٣٦) .

(١٣٨) - أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب : قصة أهل نجران ، حديث (٤٣٨٢) . وطرفه حديث (٣٧٤٤) ، و(٧٢٥٥) . ومسلم في « صحيحه » كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٥٣ - (٢٤١٩) . من طرق عن خالد ، عن أبي قلابة ، عن أنس ، به .

(١٣٩) - رواه أحمد في « مسنده » (٢٤٨/١) . وأخرجه عبد الرزاق في « تفسيره » (١٢٣/١) ، وابن جرير في « تفسيره » (٤٨٢/٦) ، رقم (٧١٨٦) وابن أبي حاتم في « تفسيره » رقم (٦٨٤) (٣١٢/٢ - ٣١٣) من حديث عبد الرزاق به ، وانظر الحديث الآتي .

[١] - في ز : « قال » .
[٢] - في ز ، خ : « لا أبعث » .
[٣] - في ز ، خ : إلا
[٤] - في ز ، خ : « حق أمين » .
[٥] - في ز : « قال » .
[٦] - في خ : « أبي » .
[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٨] - في ز ، خ : « رسول الله » .
[٩] - في ز ، خ : « عنقه » .

لأخذته الملائكة عيانًا ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرأوا[١] مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالًا ولا أهلًا » .

وقد رواه البخاري والترمذي والنسائي من حديث عبد الرزاق ، عن[٢] معمر ، عن عبد الكريم به(١٤٠) . وقال الترمذي : حسن صحيح [وقال ابن مردويه :][٣] .

وقد روىٰ البيهقي في دلائل النبوة قصة وفد نجران مطولة جدًّا (١٤١) ، ولنذكره ؛ فإن فيه فوائد كثيرة ، [وفيه غرابة][٤] ، وفيه مناسبة لهذا المقام قال البيهقي(١٤٢) : حدثنا[٥] أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد ، محمد[٦] بن موسىٰ بن الفضل ؛ قالا : حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا أحمد بن عبد الجبار ، حدثنا يونس بن بكير ، عن سلمة بن عبد يسوع ، عن أبيه ، عن جده قال يونس- وكان نصرانيًا فأسلم ، : أن رسول الله ﷺ كتب إلىٰ أهل نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان « **باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، من محمد النبي رسول الله إلىٰ أسقف نجران وأهل نجران ، أسلم أنتم**[٧] ، **فإني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، أما بعد فإني أدعوكم إلىٰ عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلىٰ ولاية الله من ولاية العباد ، فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب . والسلام** .

فلما أتىٰ الأسقف الكتاب وقرأه[٨] فظِعَ به ، وذعره ذعرًا شديدًا ، وبعث إلىٰ رجل من أهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة ، وكان من همدان ، ولم يكن أحد يدعىٰ[٩] إذا نزلت معضلة قبله ، لا الأيهم ، ولا السيد ، ولا العاقب ، فدفع الأسقف كتاب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم إلىٰ شرحبيل فقرأه ، فقال الأسقف : يا أبا مريم ؛ ما رأيك ؟ فقال شرحبيل : قد علمت ما

---

(١٤٠) - أخرجه البخاري في كتاب : التفسير ، باب : قوله تعالى : ﴿ **كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة** ﴾ حديث (٤٩٥٨) معلقًا ، وقال البخاري : تابعه عمرو بن خالد ، عن عبيد الله ، عن عبد الكريم . ، قال الحافظ في « الفتح » (٧٢٤/٨) : وصلها علي بن عبد العزيز البغوي في متنخب المسند له ، عن عمرو بن خالد بهذا . وانظر « تغليق التعليق » (٣٧٥/٤) . ورواه الترمذي في « سننه » كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة ﴿ **اقرأ باسم ربك** ﴾ ، حديث (٣٣٤٥) ، والنسائي في « الكبرى » (٦/ ٥١٨) رقم (١١٦٨٥) .

(١٤١) - « دلائل النبوة » للبيهقي (٣٨٢/٥ : ٣٩٣) .

(١٤٢) - « الدلائل » (٣٨٥/٥ : ٣٩١) .

---

[١] - في خ : « ورأوا » .

[٢] - في ز ، خ : « بن » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .

[٤] - في خ : « وغرائب » .

[٥] - في ز : « أنا » .

[٦] - في خ : « ومحمد » .

[٧] - في دلائل النبوة : إن أسلمتم .

[٨] - في ز : « فقرأه » .

[٩] - في ز : « يدعا » .

وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة ، فما يؤمن أن يكون هذا[١] هو ذاك الرجل ، ليس لي في أمر[٢] النبوة رأي ، ولو كان في[٣] أمر[٤] من أمور الدنيا لأشرت عليك فيه برأيي[٥] ، واجتهدت[٦] لك . فقال له الأسقف : تنح فاجلس . فتنحىٰ شرحبيل فجلس ناحية ، فبعث الأسقف إلىٰ رجل من أهل نجران يقال له عبد الله بن شرحبيل ، وهو من ذي أصبح من حمير ، فأقرأه الكتاب ، وسأله عن الرأي فيه ، فقال له[٧] مثل قول شرحبيل . فقال له الأسقف : تنح[٨] فاجلس . فتنحىٰ [عبد الله][٩] فجلس ناحية ، فبعث[١٠] الأسقف إلىٰ رجل من أهل نجران يقال له جبار بن فيض من بني الحارث بن كعب ، أحد بني الحماس ، فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي : فيه ، فقال له مثل قول شرحبيل وعبد الله ، فأمره الأسقف فتنحىٰ ، فجلس ناحية .

فلما اجتمع الرأي منهم علىٰ تلك المقالة جميعًا أمر الأسقف بالناقوس فضرب به ، ورفعت النيران والمسوح في الصوامع ، وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار ، وإذا كان فزعهم ليلًا ضربوا بالناقوس ، ورفعت النيران في الصوامع ، فاجتمعوا[١١] حين ضرب بالناقوس ورفعت المسوح[١٢] ، أهل الوادي أعلاه وأسفله ، وطول الوادي مسيرة يوم للراكب [ ][١٣] السريع ، وفيه ثلاث وسبعون قرية ، وعشرون ومائة ألف مقاتل ، فقرأ عليهم كتاب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ، وسألهم عن الرأي فيه ، فاجتمع رأي أهل الرأي منهم على[١٤] أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمداني ، وعبد الله بن شرحبيل الأصبحي ، وجبار بن فيض الحارثي[١٥] ، فيأتونهم بخبر رسول الله ﷺ فانطلق الوفد ، حتىٰ إذا كانوا بالمدينة ، وضعوا ثياب السفر عنهم ولبسوا حللا لهم يجرونها من حبرة وخواتيم الذهب ، ثم انطلقوا حتىٰ أتوا رسول الله ﷺ فسلموا عليه ، فلم يرد عليهم ، وتصدوا لكلامه نهارًا طويلًا فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل ، وخواتيم الذهب فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وكانا معرفة لهم ، فوجدوهما في ناس من المهاجرين والأنصار في مجلس ، فقالوا :

---

[١] - سقط من : ت .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - سقط من : ز ، خ .
[٥] - في ز : « برأى » .
[٦] - في ز ، خ : « وجهدت » .
[٧] - سقط من : ت .
[٨] - سقط من : ز .
[٩] - سقط من : ز ، خ .
[١٠] - في ز : « وبعث » .
[١١] - في ز : « فاجتمع » .
[١٢] - في ز : « بالمسوح » .
[١٣] - في ز : « المجد » .
[١٤] - سقط من : ت .
[١٥] - في خ : « الجباري » ، وفي ز : « الحيارى » .

يا عثمان ، ويا عبد الرحمن إن نبيكم كتب إلينا كتابًا[١] ، فأقبلنا مجيبين له فأتيناه فسلمنا عليه فلم يرد سلامنا ، وتصدينا لكلامه نهارًا طويلًا فأعيانا أن يكلمنا ، فما الرأي منكما أترون أن نرجع ؟ فقالا لعلي بن أبي طالب وهو في القوم : ما ترىٰ يا أبا الحسن في هؤلاء القوم ؟ فقال علي لعثمان وعبد[٢] الرحمن : أرىٰ أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم ، ويلبسوا ثياب سفرهم ، ثم يعودوا إليه . ففعلوا فسلموا عليه[٣] فرد سلامهم ثم قال . « **والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرة الأولىٰ وإن إبليس لمعهم** » . ثم ساءلهم وساءلوه، فلم تزل به وبهم المسألة حتىٰ قالوا له[٤] : ما تقول في عيسىٰ ، فإنا نرجع إلىٰ قومنا ونحن نصارىٰ يسرنا إن كنت نبيًّا أن نسمع ما تقول فيه ؟ فقال[٥] رسول اللَّه ﷺ : « **ما عندي فيه شيء يومي هذا ، فأقيموا حتىٰ أخبركم بما يقول ربي[٦] لي في عيسىٰ ، فأصبح الغد وقد أنزل اللَّه ، عز وجل ، هذه الآية ﴿ إن مثل عيسىٰ عند اللَّه كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة اللَّه على الكاذبين ﴾** فأبوا أن يقروا بذلك ، فلما أصبح رسول اللَّه ﷺ الغد بعد ما أخبرهم الخبر[٧] أقبل مشتملًا علىٰ الحسن والحسين في خميل[٨] له وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعنة ، وله يومئذ عدة نسوة ، فقال شرحبيل لصاحبيه : لقد[٩] علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ، ولم يصدروا إلا عن رأيي[١٠] ، وإني[١١] واللَّه أرىٰ [ ][١٢] أمرًا ثقيلًا ، واللَّه لئن كان هذا الرجل ملكا مبعوثًا فكنا أول العرب طعنًا[١٣] في عينيه[١٤] وردا[١٥] عليه أمره لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور أصحابه حتىٰ يصيبونا بجائحة ، وإنا لأدنىٰ العرب منهم جوارا ، ولئن كان هذا الرجل نبيًّا مرسلًا فلاعناه لا يبقىٰ [منا علىٰ وجه][١٦] الأرض شعر ولا ظفر إلا هلك . فقال له[١٧] صاحباه : يا أبا مريم ! فما الرأي ؟ فقال : أرىٰ أن أحكمه ، فإني أرىٰ رجلًا لا [يحكم شططا أبدًا][١٨] . فقالا له : أنت

---

[١] - في ز ، خ : « بكتاب » .
[٢] - في ز ، خ : « ولعبد » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في خ : « قال » .
[٥] - في ز : « قال » .
[٦] - سقط من : ز ، خ .
[٧] - سقط من : ت .
[٨] - في خ : « حميل » .
[٩] - في خ : « قد » .
[١٠] - في خ : « رأي » .
[١١] - في خ : « وأنا » ، وفي ز : « وإنا » .
[١٢] - في ز : « واللَّه » .
[١٣] - في ز ، خ : « طعن » .
[١٤] - في ز ، خ : « عينه » .
[١٥] - في ز : « ورد » .
[١٦] - في ز : « على وجه منا » .
[١٧] - سقط من : ت .
[١٨] - في ز ، خ : « يحلكم شططا أبد » .

وذاك قال[١] : فتلقىٰ[٢] شرحبيل رسول الله ، ﷺ فقال له[٣] : إني قد[٤] رأيت خيرًا من ملاعنتك فقال « **وما هو ؟** » فقال : حكمك اليوم إلىٰ الليل وليلتك إلىٰ الصباح ، فمهما حكمت فينا فهو جائز . فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **لعل وراءك أحدًا[٥] يثرب عليك** » ؟ فقال شرحبيل : سل صاحبي . فسألهما ، فقالا : ما يرد الوادي ولا يصدر إلا عن رأي : شرحبيل . فرجع رسول الله ﷺ فلم يلاعنهم حتىٰ إذا كان من[٦] الغد أتوه فكتب لهم هذا الكتاب : « **بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما كتب [محمد النبي] رسول الله لنجران - إن كان عليهم حكمه- في كل ثمرة وكل صفراء وبيضاء وسوداء ، ورقيق فاضل[٧] عليهم وترك ذلك كله لهم علىٰ ألفي حلة ، في كل رجب ألف حلة ، وفي كل صفر ألف حلة** » وذكر تمام الشروط وبقية السياق .

والغرض أن وفودهم كان في سنة تسع لأن الزهري قال : كان أهل نجران أول من أدىٰ الجزية إلىٰ رسول الله ﷺ ، وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح ، وهي قوله تعالىٰ : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون** ﴾ الآية .

وقال أبو بكر بن مردويه(١٤٣) : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا أحمد بن داود المكي ، حدثنا بشر بن مهران ، حدّثنا[٨] محمد بن دينار ، عن داود بن أبي هند ، عن الشعبي ، عن جابر قال : قدم علىٰ النبي ﷺ العاقب ، والطيب ، فدعاهما إلىٰ الملاعنة فواعداه علىٰ أن يلاعناه[٩] الغداة قال : فغدا رسول الله ﷺ فأخذ بيد علي ، وفاطمة ، والحسن والحسين ، ثم أرسل إليهما ، فأبيا[١٠] أن يجيئا ، وأقرا[١١] له بالخراج ، قال : فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله[١٢] وسلم : « **والذي بعثني بالحق لو قالا : لا ، لأمطر عليهم الوادي نارًا** » . قال جابر : و[١٣] فيهم نزلت : ﴿ **تعالوا[١٤] ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم [وأنفسنا**

(١٤٣) - رواه الحاكم في المستدرك (٢/٥٩٣ - ٥٩٤) ، وأخرجه أبو نعيم في « دلائل النبوة » ص (٢٩٧ - ٢٩٨) من طريق داود بن أبي هند ، عن الشعبي ، عن جابر به .

[١] - سقط من : خ .
[٢] - في ز ، خ : « فيلقى » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - سقط من : ز ، خ .
[٥] - في ز : « أحد » .
[٦] - سقط من : ز .
[٧] - في ز ، خ : « فافضل » .
[٨] - في ز : « أنا » .
[٩] - في ز ، خ : « يعاديه » .
[١٠] - سقط من : ز ، خ .
[١١] - في خ : « فأقرا » .
[١٢] - سقط من : خ .
[١٣] - سقط من : ز ، خ .
[١٤] - سقط من : ز ، خ .

وأنفسكم][١] ﴾ قال جابر : ﴿ أنفسنا وأنفسكم ﴾ رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ﴿ وأبناءنا ﴾ الحسن والحسين ﴿ ونساءنا ﴾ فاطمة .

وهكذا رواه الحاكم في مستدركه ، عن علي بن عيسىٰ ، عن أحمد بن محمد الأزهري[٢] ، عن علي بن حجر[٣] ، عن علي بن مسهر[٤] ، عن داود بن أبي هند به بمعناه ، ثم قال : صحيح علىٰ شرط مسلم ، ولم يخرجاه .

هكذا قال . وقد رواه أبو داود الطيالسي ، عن شعبة ، عن المغيرة ، عن الشعبي مرسلًا (١٤٤)، وهذا أصح . وقد روي عن[٥] ابن عباس والبراء نحو ذلك .

ثم قال الله تعالىٰ : ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾ أي : هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسىٰ هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد ﴿ وما من إله إلا الله ، وإن[٦] الله لهو العزيز الحكيم فإن تولوا ﴾ أي : عن هذا إلىٰ غيره ﴿ فإن الله عليم بالمفسدين ﴾ أي : من عدل عن الحق إلىٰ الباطل ، فهو المفسد ، والله عليم به وسيجزيه علىٰ ذلك شر الجزاء ، وهو القادر وهو[٧] الذي لا يفوته شيء ، [سبحانه وبحمده ، ونعوذ به من حلول نقمته][٨] .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب ، من اليهود والنصارىٰ ، ومن جرىٰ مجراهم ﴿ قل يأهل الكتاب تعالوا إلىٰ كلمة ﴾ والكلمة تطلق علىٰ الجملة المفيدة ، كما قال هاهنا ، ثم وصفها بقوله : ﴿ سواء بيننا وبينكم ﴾ أي : عدل ونَصفَ ، نستوي نحن وأنتم فيها ، ثم فسرها بقوله : ﴿ أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ﴾ لا [وثنًا ، ولا صليبًا ، ولا صنمًا ،

---

(١٤٤) - أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٣١٠) رقم (٦٧٨) من طريق شعبة ، عن المغيرة ، عن الشعبي مرسلًا . وأخرجه الطبري في « تفسيره » (٦/٤٧٨) رقم (٧١٨٠) من طريق جرير ، عن المغيرة ، عن الشعبي مرسلًا . وأخرجه أبو نعيم في « الدلائل » (ص ٢٩٨ ، ٢٩٩) من طريق الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس بنحوه .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٢] - في ز ، خ : « ابن الأزهر » .
[٣] - في خ : « أبي حجر » .
[٤] - في خ : « مهز » ، وفي ز : « مهر » .
[٥] - سقط من : ز ، خ .
[٦] - في خ : « فإن » .
[٧] - سقط من : ت .
[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

ولا طاغوتًا ، ولا نارًا ، ولا شيئًا] ، بل نفرد العبادة للّه وحده لا شريك له ، وهذه دعوة جميع الرسل .

قال اللّه تعالىٰ : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي**[١] **إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ [وقال تعالىٰ][٢] : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمّة رسولًا أن اعبدوا اللّه واجتنبوا الطاغوت** ﴾ ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون اللّه** ﴾ . وقال ابن جريج : يعني يطيع بعضنا بعضًا في معصية اللّه . وقال عكرمة : يعني[٣] يسجد بعضنا لبعض .

﴿ **فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾ أي : فإن تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة ، فاشهدوا[٤] أنتم علىٰ استمراركم علىٰ الإسلام الذي شرعه اللّه لكم .

وقد ذكرنا في شرح البخاري عند روايته من طريق الزهري عن عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة ابن مسعود ، عن ابن عباس ، عن أبي سفيان ، في قصته حين دخل علىٰ قيصر ، فسأله[٥] عن نسب رسول اللّه ﷺ وعن صفته ، ونعته ، وما يدعو إليه ، فأخبره بجميع ذلك علىٰ الجلية ، مع أن أبا سفيان [إذ ذاك كان][٦] مشركًا لم يسلم إلا[٧] بعد ، وكان ذلك بعد صلح الحديبية ، وقبل الفتح ، كما هو مصرح به في الحديث (١٤٥) ، ولأنه لما [قال لما][٨] سأله : هل يغدر ؟ قال[٩] : فقلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها . قال : ولم يمكني كلمة أزيد فيها شيئًا سوىٰ هذه . والغرض أنه قال : ثم جيء بكتاب رسول اللّه ﷺ فقرأه فإذا فيه :

بسم اللّه الرحمن الرحيم : من محمد رسول اللّه ، إلىٰ هرقل عظيم الروم ، سلام[١٠] علىٰ من اتبع الهدىٰ ، أما بعد فأسلم تسلم ، وأسلم يؤتك اللّه أجرك مرتين ، فإن[١١] توليت فإنما[١٢] عليك إثم الأريسيين[١٣] و ﴿ **يأهل الكتاب تعالوا إلىٰ كلمة سواء بيننا وبينكم ألَّا نعبد إلا اللّه ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون اللّه ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾ .

---

(١٤٥) - سبق تخريجه آية (٢٠) .

---

[١] - في ز « يوحى » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٣] - سقط من : م ، وهي في ز .

[٤] - في خ ، ز : « فأشهدوهم » .

[٥] - في خ ، ز : « فسألهم » .

[٦] - في خ ، ز : « كان إذا ذاك مشركًا » .

[٧] - سقط من : خ ، ز .

[٨] - سقط من : م ، والمثبت من ز.

[٩] - سقط من : خ ، ز..

[١٠] - في خ : « السلام » .

[١١] - في ز « وإن » .

[١٢] - في خ ، ز : « فإن » .

[١٣] - في ز : « اليريسيين » .

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد(١٤٦) ، أن صدر سورة آل عمران إلىٰ بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران . وقال الزهري : هم أول من بذل الجزية . ولا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح . فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلىٰ هرقل في جملة الكتاب ، وبين ما ذكره محمد بن إسحاق والزهري ؟ والجواب من وجوه :

(أحدها) يحتمل أن هذه الآية نزلت مرتين : مرة قبل الحديبية ، ومرة بعد الفتح .

(الثاني) يحتمل أن صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلىٰ[١] هذه الآية ، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك ، ويكون قول ابن إسحاق : « **إلىٰ بضع وثمانين آية** » ليس بمحفوظ ، لدلالة حديث أبي سفيان .

(الثالث) يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية ، وأن الذي بذلوه[٢] مصالحة عن المباهلة ، لا علىٰ وجه الجزية ، بل يكون من باب المهادنة والمصالحة ، ووافق نزول آية[٣] الجزية بعد ذلك ، علىٰ وفق ذلك كما جاء فرض الخمس ، والأربعة أخماس[٤] وفق ما فعله عبد الله بن جحش في تلك السرية قبل بدر . ثم نزلت فريضة القسم علىٰ وفق ذلك .

(الرابع) يحتمل أن رسول الله ﷺ لما أمر بكتب هذا الكلام[٥] في كتابه إلىٰ هرقل ، [ ][٦] لم يكن أنزل[٧] بعد ، ثم نزل[٨] القرآن موافقة له ﷺ كما نزل بموافقة عمر بن الخطاب [رضي الله عنه] في الحجاب وفي الأسارىٰ ، وفي عدم الصلاة علىٰ المنافقين ، وفي قوله : ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلًّىٰ** ﴾ وفي قوله : ﴿ **عسىٰ ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن** ﴾ الآية .

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ

(١٤٦) - ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٢/٥) وقال : وقال ابن إسحاق : حدثني محمد بن سهل بن أبي أمامة قال : لما قدم أهل نجران على رسول الله ﷺ يسألونه عن عيسى ابن مريم . نزلت فيهم فاتحة آل عمران إلى رأس الثمانين منها ، وأخرجه البيهقي في الدلائل .

[١] - في ز : « إلى عند » .
[٢] - في ز : « بدلوه » .
[٣] - سقط من : خ ، ز .
[٤] - في خ ، ز : « الأخماس » .
[٥] - سقط من : ت ، والمثبت من ز .
[٦] - في ز : وإن .
[٧] - في ت : « نزل » .
[٨] - في ت : « أنزل » .

﴿إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾

ينكر [تبارك و][١] تعالىٰ علىٰ اليهود والنصارىٰ في محاجتهم في إبراهيم الخليل عليه السلام ، ودعوىٰ كل طائفة منهم أنه كان منهم ، كما قال محمد بن إسحاق بن يسار(١٤٧) : حدثني محمد بن أبي محمد مولىٰ زيد بن ثابت ، حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس [رضي الله عنه] قال : اجتمعت نصارىٰ نجران ، وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديًا ، وقالت النصارىٰ : ما كان إبراهيم إلا نصرانيًا ؛ فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ **يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم [وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون]** ﴾ . أي : كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهوديًا . وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة علىٰ موسىٰ ، وكيف تدعون أيها النصارىٰ أنه كان نصرانيًا ، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر ؟ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ [ثم قال تعالىٰ][٢] : ﴿ **ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾.

هذا إنكار علىٰ من يحاج فيما لا علم له به ؛ فإن اليهود والنصارىٰ تحاجوا في إبراهيم بلا علم ، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلىٰ حين بعثة محمد ﷺ لكان أولىٰ بهم ، وإنما تكلموا فيما [لا يعلمون][٣] ، فأنكر الله عليهم ذلك وأمرهم برد مالا علم لهم به إلىٰ عالم الغيب والشهادة ، الذي يعلم الأمور علىٰ حقائقها وجلياتها[٤] ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا** ﴾ أي : متحنفًا عن الشرك ، قاصدًا[٥] إلىٰ الإيمان ﴿ **وما كان من المشركين** ﴾ .

---

(١٤٧) - انظر « السيرة » لابن هشام (٢/٣٩٣ - ٣٩٤) ، والحديث أخرجه الطبري في « تفسيره » (٦/٤٩٠) رقم (٧٢٠٢) ، والبيهقي في « الدلائل » (٥/٣٨٤ - ٣٨٥) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٣] - في خ ، ز : « لم يعملوا » .
[٤] - في ت : « وجليتها » .
[٥] - في ز : « قصدًا » .

وهذه الآية كالتي[١] تقدّمت في سورة البقرة : ﴿ **وقالوا كونوا هودًا أو نصارىٰ تهتدوا [قل بل ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين]** ﴾ .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **إن أولىٰ الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين** ﴾ يقول تعالىٰ : أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه علىٰ دينه ، وهذا النبي يعني محمدًا ﷺ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ، ومن تبعهم[٢] بعدهم .

قال سعيد بن منصور : حدّثنا أبو الأحوص ، عن سعيد بن مسروق ، عن أبي الضحىٰ ، عن مسروق ، عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **إن[٣] لكل نبي ولاة من النبيين ، وإن وليّي منهم أبي وخليل ربي عز وجل ، ثم قرأ : ﴿ إن أولىٰ الناس بإبراهيم للذين اتبعوه [وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين]** ﴾ الآية .

وقد رواه الترمذي(١٤٨) ، والبزار من حديث أبي أحمد الزبيري ، عن سفيان الثوري ، عن أبيه به . [ثم قال البزار : ورواه غير أبي أحمد عن سفيان ، عن أبيه ، عن أبي الضحىٰ ، عن عبد الله ولم يذكر مسروقًا . وكذا رواه الترمذي من طريق وكيع عن سفيان][٤] ثم قال : وهذا أصح .

لكن رواه وكيع في تفسيره(١٤٩) فقال : حدثنا سفيان ، عن أبيه ، عن أبي إسحاق ، عن عبد

---

(١٤٨) - أخرجه الترمذي في كتاب : تفسير القرآن ، باب : ومن سورة آل عمران ، حديث (٢٩٩٨) . والحاكم في « المستدرك » (٢٩٢/٢) ، والطبري في « تفسيره » (٤٩٨/٦) رقم (٧٢١٦) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٣٢٦/٢ - ٣٢٧) رقم (٧٣١) . كلهم من طرق عن سفيان عن أبيه - سعيد بن مسروق - عن أبي الضحي - مسلم بن صبيح - عن مسروق - هو ابن الأجدع بن مالك الهمداني - عن ابن مسعود - رضي الله عنه - متصلاً ، وقد خولف هذا الطريق من طريق آخر ، فلم يذكر فيه مسروق ، أخرجه الترمذي في كتاب :تفسير القرآن ، باب : ومن سورة آل عمران ، حديث (٢٩٩٨)، وأحمد في (٤٢٩/١ - ٤٣٠) والطبري في (٤٩٩/٦) رقم (٧٢١٧) وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٣٢٦/٢ - ٣٢٧) رقم (٧٣١) . كلهم من طرق عن سفيان ، عن أبيه - سعيد بن مسروق - عن أبي الضحي ، عن عبد الله بن مسعود ، وليس فيه : عن مسروق ، وهو بهذا منقطع . قال ابن أبي حاتم في « العلل » (٦٣/٢) : سألت أبي وأبا زرعة ، عن حديث رواه أبو أحمد الزبيري وروح بن عبادة فذكره ، فقالا جميعًا : « هذا خطأ » . رواه المتقنون من أصحاب الثوري عن الثوري ، عن أبيه ، عن أبي الضحى ، عن النبي ﷺ بلا مسروق .اهـ .

(١٤٩) - أخرجه أحمد في « مسنده » (٤٠١/١) ، والترمذي في « سننه » كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة آل عمران ، حديث (٣٩٩٨) . كلاهما من طريق وكيع ، عن سفيان ، عن أبيه ، عن أبي الضحى ، عن عبد الله مرفوعًا . قال الشيخ أحمد شاكر (٤٩٩/٦) : ولكن نقله ابن كثير عن تفسير وكيع بهذا الإسناد وفيه « عن أبي إسحاق » بدل « عن أبي الضحى » ، وأنا أرجح أن هذا خطأ من بعض ناسخي تفسير وكيع ترجيحًا لرواية أحمد عن وكيع والترمذي من طريق وكيع وفيهما : « عن أبي الضحى » .

---

[١] - سقط من : خ ، ز . [٢] - سقط من : خ ، ز .

[٣] - سقط من : ت . [٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم : [« **إن لكل نبي ولاية من النبيين ، وإن ولي منهم أبي وخليل الله عز وجل إبراهيم عليه السلام** » . ثم قرأ : ﴿ **إن أولىٰ الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا** ﴾ الآية][١] . وقوله : ﴿ **والله ولي المؤمنين** ﴾ أي : ولي جميع المؤمنين برسله .

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

يخبر تعالىٰ عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيهم إياهم الإضلال ، وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود علىٰ أنفسهم وهم لا يشعرون أنهم[٢] ممكور بهم .

ثم قال تعالىٰ منكرًا[٣] عليهم : ﴿ **يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون** ﴾ أي : تعلمون صدقها وتتحققون حقها ﴿ **يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون** ﴾ أي : تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه .

﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل علىٰ الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون** ﴾ هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا علىٰ الضعفاء من الناس أمر دينهم ، وهو [أنهم اشْتَوَرُوا][٤] بينهم أن يظهروا الإيمان أوّل النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح ،

---

[١] - سقط من : خ ، ز ، ومكانه كلمة « فذكره » .

[٢] - في خ ، ز : « فهم » .

[٣] - في ز : « ممكرًا » .

[٤] - في خ ، ز : « واشتوروا » .

فإذا جاء[١] آخر النهار ارتدوا إلىٰ دينهم ؛ ليقول الجهلة [من الناس إنما ردهم إلىٰ دينهم اطلاعهم علىٰ نقيصة وعيب في دين المسلمين][٢] ولهذا قالوا : ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ .

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالىٰ إخبارًا عن اليهود بهذه الآية : يعني يهودًا[٣] صلت مع النبي صلىٰ اللّٰه عليه وآله وسلم صلاة الصبح[٤] ، وكفروا آخر النهار مكرًا منهم ، ليروا الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة بعد أن كانوا اتبعوه .

وقال العوفي عن ابن عباس : قالت طائفة من أهل الكتاب : إذا لقيتم أصحاب محمد أوّل النهار فآمنوا ، وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم ؛ لعلهم يقولون : هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا .

[وهكذا روي عن قتادة والسدي والربيع وأبي مالك][٥] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم** ﴾ أي : لا[٦] تطمئنوا وتظهروا سركم[٧] وما عندكم إلا لمن تبع دينكم ، ولا تظهروا ما بأيديكم إلىٰ المسلمين ، فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم . قال اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **قل إن الهدىٰ هدىٰ اللّٰه** ﴾ أي : هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلىٰ أتم الإيمان بما ينزله علىٰ عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات ، والدلائل القاطعات ، والحجج الواضحات ، وإن كتمتم[٨] أيها اليهود ما بأيديكم من صفة محمد [النبي الأمّي][٩] في كتبكم التي نقلتموها[١٠] عن الأنبياء الأقدمين .

وقوله : ﴿ **أن يؤتىٰ أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم** ﴾ يقولون : لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين ، فيتعلموه منكم ويساووكم[١١] فيه ، ويمتازوا[١٢] به عليكم ؛ لشدّة الإيمان به ، أو[١٣] يحاجوكم به عند ربكم[١٤] ، أي : يتخذوه حجة عليكم بما [في أيديكم][١٥] ، فتقوم به عليكم الدلالة[١٦] ، وتتركب الحجة في الدنيا والآخرة .

---

[١] - في خ ، ز : « كان » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٣] - في ز : « يهود » .

[٤] - في ز : « الفجر » .

[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٦] - سقط من : خ ، ز .

[٧] - في ت : « سروركم » .

[٨] - في ز : « كنتم » .

[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[١٠] - في ز : « نقلتوها » .

[١١] - في خ ، ز : « ويساوونكم » .

[١٢] - في خ ، ز : « ويمتازون » .

[١٣] - في خ، ز : « و » .

[١٤] - في خ ، ز : « اللّٰه » .

[١٥] - في خ ، ز : « بأيدكم » .

[١٦] - في خ : « الحجة » .

قال الله تعالىٰ : ﴿ **قل : إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء** ﴾ أي : الأمور كلها تحت تصرفه[١] ، وهو المعطي المانع ، يمن علىٰ من يشاء بالإيمان[٢] ، والعلم ، والتصرف[٣] التام ، ويضل من يشاء ؛ فيعمي[٤] بصره وبصيرته ، ويختم علىٰ [قلبه وسمعه] ، ويجعل علىٰ بصره غشاوة ، وله [الحجة التامة والحكمة البالغة][٥] .

﴿ **والله واسع عليم يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ أي : اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يحد ولا يوصف ، بما شرف به نبيكم محمدًا[٦] ﷺ علىٰ سائر الأنبياء ، وهداكم به[٧] إلىٰ أكمل[٨] الشرائع .

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

يخبر تعالىٰ عن اليهود بأن منهم[٩] الخونة ، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم ، فإن منهم ﴿ **من إن تأمنه بقنطار** ﴾ أي : من المال ﴿ **يؤده إليك** ﴾ أي : وما دونه بطريق الأولىٰ أن يؤده إليك ﴿ **ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤدّه إليك إلا ما دمت عليه قائمًا** ﴾ أي : بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقك ، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار[١٠] ، فما فوقه أولىٰ أن لا يؤدّه إليك[١١] .

وقد تقدم الكلام علىٰ القنطار في أوّل السورة ، وأمّا الدينار فمعروف .

وقد قال ابن أبي حاتم(١٥٠) : حدثنا سعيد بن عمرو السكوني ، حدثنا بقية ، عن زياد ابن

(١٥٠) - فيه بقية بن الوليد وهو من مدلسي من الرابعة ، ولم يصرح بالسماع . والحديث أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٣٤٦/٢) رقم (٨٠٣) .

[١] - في ز : « تصريفه » .
[٢] - في خ : « من بالإيمان » .
[٣] - في ز : « التصور » .
[٤] - في خ ، ز : « ويعمى » .
[٥] - في خ، ز: « الحجة والحكمة ».
[٦] - سقط من : خ ، ز .
[٧] - زيادة من : ز .
[٨] - في ز : « أحمد » .
[٩] - في خ ، ز : « فيهم » .
[١٠] - في خ ، ز : « الدنيا » .
[١١] - سقط من خ ، ز .

الهيثم ، حدثني مالك بن دينار ، قال : إنما سمي الدينار لأنه دين ونار . وقيل[١] : معناه أنه[٢] من أخذه بحقه فهو دينه ، ومن أخذه بغير حقه فله النار .

ومناسب أن يذكر[٣] هاهنا الحديث الذي علقه البخاري في غير موضع من[٤] صحيحه ، ومن أحسنها سياقه في كتاب الكفالة ، حيث قال : وقال الليث : حدثني جعفر بن ربيعة ، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، عن أبي هريرة - رضي اللَّه عنه - عن رسول اللَّه ﷺ أنه ذكر رجلًا من بني إسرائيل سأل بعض[٥] بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال : ائتني بالشهداء أشهدهم . فقال : كفىٰ باللَّه شهيدًا . فقال[٦] : ائتني بالكفيل . قال : كفىٰ باللَّه كفيلًا قال[٧] : صدقت . فدفعها إليه إلىٰ أجل مسمىٰ ، فخرج في البحر فقضىٰ حاجته ، ثم التمس مركبًا يركبها[٨] [ليقدم عليه في الأجل][٩] الذي أجله فلم يجد مركبًا ، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلىٰ صاحبه ، ثم زجج[١٠] موضعها ، ثم أتىٰ بها إلىٰ البحر ، فقال : اللَّهم إنك تعلم أني استسلفت[١١] فلانًا ألف دينار فسألني شهيدًا ، فقلت : كفىٰ باللَّه شهيدًا ، وسألني كفيلًا ، فقلت : كفىٰ باللَّه كفيلًا ، فرضي بك ، وإني جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أقدر ، وإني استودعتكها[١٢] ، فرمىٰ بها في البحر حتىٰ ولجت فيه ، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلىٰ بلده ، فخرج الرجل الذي كان [سلَّفه لينظر][١٣] لعل مركبًا يجيئه بماله ، فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حطبًا ، فلما كسرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الرجل الذي كان[١٤] تسلف منه ، فأتاه بألف دينار ، وقال[١٥] : واللَّه ما زلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه . قال : هل كنت بعثت إلىٰ بشيء ؟ قال : ألم أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل هذا . قال : فإن اللَّه قد أدىٰ عنك الذي بعثت في الخشبة ، فانصرف بألف دينار راشدًا » .

هكذا رواه البخاري في موضعه معلقًا بصيغة الجزم ، وأسنده في بعض المواضع من الصحيح عن عبد اللَّه بن صالح كاتب الليث عنه(١٥١) .

---

(١٥١) - أخرجه البخاري في كتاب الزكاة ، باب : ما يستخرج من البحر ، حديث (١٤٩٨) ، =

[١] - في خ ، ز : « قال » .
[٢] - سقط من : م .
[٣] - في خ ، ز : « يكون » .
[٤] - في خ ، ز : « في » .
[٥] - سقط من : خ ، ز .
[٦] - في ز : « قال » .
[٧] - في ز : « فقال » .
[٨] - سقط من : خ ، ز .
[٩] - في خ ، ز : « يقدم عليه للأجل » .
[١٠] - سقط من : خ .
[١١] - في خ ، ز : « استلفت » .
[١٢] - في خ : « أستودعكها » .
[١٣] - في خ ، : « أسلفه ينظر» .
[١٤] - سقط من : خ ، ز .
[١٥] - سقط من : خ .

ورواه[١] الإمام أحمد في مسنده هكذا مطولًا ، عن يونس ابن محمد المؤدب ، عن الليث به(١٥٢) .

ورواه البزار في مسنده(١٥٣) ، عن الحسن بن مدرك ، عن يحيىٰ ابن حماد ، عن أبي عوانة ، عن عمر بن أبي سلمة ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه ، ثم قال : لا يروىٰ عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد . كذا قال ، وهو خطأ لما تقدم .

وقوله : ﴿ **ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأمّيين سبيل** ﴾ أي : إنما حملهم علىٰ جحود الحق أنهم يقولون : ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأمّيين ، وهم العرب ، فإن اللّٰه قد أحلها لنا . قال اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **ويقولون علىٰ اللّٰه الكذب وهم يعلمون** ﴾ أي : وقد اختلقوا هذه المقالة ، وأتفكوا بهذه الضلالة ، فإن اللّٰه حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها ، وإنما هم قوم بهت .

قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن أبي إسحاق الهمداني ، عن أبي صعصعة بن يزيد ، أن رجلًا سأل ابن عباس [فقال : إنا][٢] نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة ؟ قال ابن عباس : فتقولون[٣] ماذا ؟ قال : نقول : ليس علينا بذلك بأس . قال : هذا كما قال أهل الكتاب : ليس علينا في الأميين سبيل ، إنهم إذا أدوا الجزية ؛ لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم(١٥٤) .

= وأطرافه (٢٠٦٣) ، و(٢٢٩١) ، و(٢٤٠٤) ، و(٢٤٣٠) ، و(٢٧٣٤) ، و حديث (٦٢٦١) معلقًا - مختصرًا ومطولًا . ووصله البخاري في « صحيحه » كتاب : البيوع ، باب : التجارة في البحر ، حديث (٢٠٦٣) قال : حدثني عبد اللّٰه بن صالح ، حدثني الليث به ، قال الحافظ في « الفتح » (٣٦٣/٣) : هكذا أورده مختصرًا ، وقد أورده ثم وصله في البيوع . اهـ . وقال في « الفتح » أيضًا (٣٠٠/٤) : قوله في آخره : «حدثني عبد اللّٰه بن صالح ، حدثنا الليث به » فيه التصريح بوصل المعلق المذكور ، ولم يقع ذلك في الصحيح.

(١٥٢) - « المسند » (٣٤٨/٢) .

(١٥٣) - ذكره ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٦٦/٢) . وقال : والعجب من الحافظ أبي بكر البزار كيف رواه في مسنده ، عن الحسن بن مدرك ، عن يحيى بن حماد ، عن أبي عوانة ، عن عمر بن سلمة ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه ، ثم قال : لا يُروى إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد .

(١٥٤) - الخبر في تفسير عبد الرزاق (١٢٣/١ - ١٢٤) ، ومن طريقه أخرجه الطبري في « تفسيره » (٦/ ٥٢٤) رقم (٧٢٧٤) . وأخرجه الطبري في « تفسيره » (٥٢٣/٦) رقم (٧٢٧٣) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٣٤٨/٢ - ٣٤٩) رقم (٨١١) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (١٩٨/٩) من طرق عن أبي إسحاق ، عن صعصعة بن يزيد ، عن ابن عباس بنحوه . قال الشيخ أحمد شاكر (٥٢٤/٦) : وخرّجه =

---

[١] - في خ : « وقال » .

[٢] - في خ ، ز : « قال » . [٣] - في ز : « فيقولون » .

وكذا رواه الثوري عن أبي إسحاق بنحوه(١٥٥) .

وقال ابن أبي[١] حاتم (١٥٦) : حدّثنا محمد بن يحيىٰ ، حدّثنا أبو الربيع الزهراني ، حدّثنا يعقوب ، حدّثنا جعفر ، عن سعيد بن جبير قال : لما قال أهل الكتاب : ليس علينا في الأميين سبيل ، قال نبي اللَّه ﷺ : « **كذب أعداء اللَّه ! ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين ، إلا الأمانة ؛ فإنها مؤداة إلىٰ البرّ والفاجر** » .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **بلىٰ من أوفىٰ بعهده[٢] واتقىٰ** ﴾ أي : لكن من أوفىٰ بعهده ، واتقىٰ[٣] منكم يا أهل الكتاب ، الذي عاهدكم اللَّه عليه من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بعث، كما أخذ العهد والميثاق علىٰ الأنبياء وأممهم بذلك ، واتقىٰ محارم اللَّه تعالى ، واتبع طاعته وشرعته التي بعث بها خاتم الرسل وسيد البشر ؛ ﴿ **فإن اللَّه يحب المتقين** ﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

يقول اللَّه تعالىٰ ، إن الذين يعتاضون عما عاهدوا[٤] اللَّه عليه ، من اتباع محمد ، ﷺ ، وذكر صفته للناس ، وبيان أمره ، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالأثمان القليلة

= ابن كثير في تفسيره من تفسير عبد الرزاق ، وفيه : عن أبي صعصعة بن يزيد وهو خطأ ، صوابه « صعصعة ».اهـ . ووقع في روايه البيهقي قلب وتصحيف فورد باسم : زيد بن صعصعة . وفي إسناد الحديث : « أبي إسحاق » وهو أبوإسحاق السبيعي مدلس من الثالثة ، ولم يصرح بالسماع ، فالإسناد ضعيف . انظر « تهذيب التهذيب » (٥٦/٨ : ٥٩) . وصعصعة بن يزيد ، ذكره البخاري وابن أبي حاتم والخطيب البغدادي ، وذكروا أنه روى عن ابن عباس وأن أبا إسحاق روى عنه ، ولم يذكروا فيه جرحًا ولا تعديلًا ونص الخطيب على أنه تابعي . انظر « التاريخ الكبير » (٣٢٠/٤) ، « والجرح والتعديل » (٤/ ٤٤٦) ، و« تاريخ بغداد » (٣٤١/٩) .

(١٥٥) - انظر السابق .

(١٥٦) - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٤٩/٢) رقم (٨١٢) ، وأخرجه الطبري في « تفسيره » (٥٢٣/٦) رقم (٧٢٧٠) من طريق يعقوب القمي به . وفي إسناده جعفر ، وهو جعفر بن أبي المغيرة القمي ، صدوق يهم .

[١] - مكررة في خ .

[٢] - في خ : « بعهدة من الله » .

[٣] - سقط من : ز .

[٤] - في خ ، ز : « عاهدهم » .

الزهيدة ، وهي عروض هذه الحياة[١] الدنيا الفانية الزائلة ﴿ **أولئك**[٢] **لا خلاق لهم في الآخرة** ﴾ أي : لا نصيب لهم فيها ، ولا حظَّ لهم منها ، ﴿ **ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة** ﴾ أي : برحمة منه لهم ، [يعني لا يكلمهم الله كلام][٣] لطف بهم ، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ، ﴿ **ولا يزكيهم** ﴾ أي : من الذنوب والأدناس ، بل يأمر بهم إلىٰ النار ، ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ . وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة فلنذكر ما تيسر منها .

(الحديث الأوّل) : قال الإمام أحمد(١٥٧) : حدّثنا عفان ، حدّثنا شعبة ، قال : علي ابن مدرك أخبرني ؛ قال : سمعت أبا زرعة ، عن خرشة بن الحر ، عن أبي ذرّ قال : قال رسول الله ﷺ : « **ثلاثة لا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم** » قلت : يا رسول الله ؛ من هم[٤] ؟ [خسروا وخابوا] قال : وأعاده رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، قال « **المسبل ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ، والمنان** » .

ورواه مسلم وأهل السنن ، من حديث شعبة به(١٥٨) .

(طريق أخرىٰ) قال الإمام أحمد(١٥٩) : حدثنا إسماعيل ، عن الجريري ، عن أبي العلاء بن الشخير ، عن ابن الأحمس قال : لقيت أبا ذرّ ، فقلت له : بلغني عنك أنك تحدث حديثًا عن[٥] رسول الله ﷺ فقال : أما إنه لا تخالني أكذب علىٰ رسول الله ﷺ بعدما سمعته منه فما الذي بلغك عني ؟ قلت بلغني أنك تقول : ثلاثة[٦] يحبهم الله ، وثلاثة يشنؤهم الله عز وجل ، قال : قلته وسمعته ؛ قلت : فمن هؤلاء الذين يحبهم الله ؟ قال : « **الرجل يلقىٰ العدوّ في فئة ، فينصب لهم نحره حتىٰ يقتل أو يفتح لأصحابه ، والقوم يسافرون فيطول سراهم حتى يحنوا أن يمسوا الأرض ، فينزلون فيتنحىٰ أحدهم ، فيصلي حتىٰ يوقظهم لرحيلهم ، والرجل يكون له الجار يؤذيه ، فيصبر علىٰ أذاه ، حتىٰ يفرق بينهما موت أو ظعن** » .

---

(١٥٧) – في « مسنده » (١٤٨/٥) .

(١٥٨) – أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، حديث ١٧١ – (١٠٦) . وأبو داود في كتاب : اللباس ، باب : ما جاء في إسبال الإزار ، حديث (٤٠٨٧) ، والترمذي في كتاب : البيوع ، باب : ما جاء فيمن حلف على سلعة كاذبًا ، حديث (١٢١١) والنسائي (٨١/٥) كتاب الزكاة ، باب : المنان بما أعطى ، وابن ماجه في كتاب التجارات ، باب : ما جاء في كراهية الأيمان في الشراء والبيع ، حديث (٢٢٠٨) .

(١٥٩) – أخرجه أحمد في مسنده (١٥١/٥) . ومن طرق أخرى عن أبي ذر (١٥٣/٥) ، (١٧٦/٥) .

---

[١] – سقط من : ز .

[٢] – في خ ، ز : « فأولئك » .

[٣] – في ز : « بمعنى لا يكلمهم كلام » .

[٤] – في ز : « منهم » .

[٥] – مكانه في خ ، ز : بياض .

[٦] – كررت في : خ .

قلت : ومن هؤلاء الذين [يشنؤهم الله][١] ؟ قال : « **التاجر الحلاف – أو قال[٢] البائع الحلاف– والفقير المختال ، والبخيل المنان** » .

غريب من هذا الوجه .

(الحديث الثاني) : قال الإمام أحمد (١٦٠) : حدّثنا يحيىٰ بن سعيد ، عن جرير بن حازم ؛ قال[٣] : حدّثنا عدي بن عدي ، أخبرني رجاء بن حيوة ، والعُرْس بن عَمِيرة ، عن [أخيه] عَديّ –هو ابن عميرة الكندي – قال : خاصم رجل من كندة ، يقال له : امرؤ القيس بن عابس[٤] ، رجلًا من حضرموت إلىٰ رسول الله ﷺ في أرض ، فقضىٰ علىٰ الحضرمي بالبينة ، فلم يكن له بينة ، فقضىٰ علىٰ امرئ القيس باليمين ، فقال الحضرمي : إن[٥] أمكنته من اليمين يا رسول الله ؟ ذهبت ورب الكعبة أرضي ، فقال النبي ﷺ : « **من حلف علىٰ يمين كاذبة ليقتطع بها مال أحد ، لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان** » . قال رجاء : وتلا رسول الله ﷺ : ﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا** ﴾ فقال امرؤ القيس : ماذا لمن تركها يا رسول الله ؟ فقال : « **الجنة** » . قال : فاشهد أني قد تركتها له كلها .

ورواه النسائي(١٦١) من حديث عدي بن عدي به .

(الحديث الثالث) قال أحمد(١٦٢) : حدّثنا أبو معاوية ، حدّثنا الأعمش عن شقيق ، عن عبد الله ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « **من حلف علىٰ يمين ، هو فيها فاجر ؛ ليقتطع بها مال امرئ مسلم ، لقي الله ، عز وجل ، وهو عليه غضبان** » . فقال الأشعث : فيَّ[٦] والله كان ذلك ، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض ، فجحدني أرضي[٧] ؛ فقدمته إلىٰ رسول الله ﷺ فقال لي رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **ألك بينة** » ؟ قلت : لا . فقال لليهودي : « **احلف** ». فقلت : يا رسول الله ؛ إذًا يحلف ؛ فيذهب مالي ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا** ﴾ [إلى آخر][٨] الآية .

---

(١٦٠) – أخرجه أحمد في « مسنده » (١٩١/٤ – ١٩٢) ، والنسائي في « الكبرى » (٤٨٦/٣) رقم (٥٩٩٦) والطبراني في « الكبير » (١٠٨/١٧) رقم (٢٦٥) ، والطبري في تفسيره ٥٣٠/٦ رقم (٧٢٨٠) ، وذكره الهيثمي في المجمع (١٨١/٤) وقال : رواه أحمد ، والطبراني في الكبير ، ورجالهما ثقات .

(١٦١) – انظر السابق .

---

[١] – ما بين المعكوفتين في خ ، ز : « يشنأ » .
[٢] – سقط من : ز .
[٣] – سقط من : م ، والمثبت من ز .
[٤] – في خ ، ز : « عامر » .
[٥] – سقط من : خ ، ز .
[٦] – في ز : « بي » .
[٧] – سقط من : خ ، ز .
[٨] – سقط من: م، والمثبت من ز.

أخرجاه من حديث الأعمش .

(طريق أخرىٰ) قال أحمد(١٦٣) : حدثنا يحيىٰ بن آدم ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن شقيق بن سلمة ، حدثنا عبد الله بن مسعود ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « **من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق ؛ لقي الله ، وهو عليه غضبان** » . قال : فجاء الأشعث بن قيس ، فقال : ما يحدثكم أبو عبد الرحمن ؟ فحدّثناه ؛ فقال : فيّ كان هذا الحديث ؛ خاصمت ابن عم لي إلى رسول الله ﷺ في بئر لي كانت في يده ، فجحدني ، فقال رسول الله ﷺ : « **بينتك أنها بئرك وإلا فيمينه** » . قال : قلت : يا رسول الله ما لي بينة ، وإن تجعلها بيمينه[١] ؛ تذهب[٢] بئري ؛ إن خصمي امرؤ فاجر . فقال رسول الله ﷺ : « **من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان** » . قال : وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا [أولئك لاخلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم]** ﴾ .

(الحديث الرابع) قال الإمام أحمد(١٦٤) : حدثنا يحيىٰ بن غيلان ، قال : حدثنا رشدين ، عن زبّان عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه ؛ أن[٣] رسول الله ﷺ قال[٤] : « **إن لله تعالىٰ عبادًا ؛ لا يكلمهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم** » قيل : ومن أولئك يا رسول الله ؟ قال[٥] : « **متبرئ من والديه راغب عنهما ، ومتبرئ من ولده ، ورجل**

(١٦٢) - رواه أحمد في « المسند » (٢١١/٥) وبنحوه أيضًا في « المسند » (٢١١/٥ ، ٢١١ - ٢١٢ ، ٢١٢) . وأخرجه البخاري في كتاب الشرب والمساقاة ، باب : الخصومة في البئر والقضاء فيها ، حديث (٢٣٥٦ ، ٢٣٥٧) . ومسلم في كتاب الأيمان ، حديث (١٣٨) ، وأبو داود في « سننه » كتاب : الأيمان والنذور ، باب : فيمن حلف يمينًا ليقتطع بها مالًا لأحد ، حديث (٣٢٤٣) والترمذي في « سننه » ، كتاب : البيوع ، باب : ما جاء في اليمين الفاجرة يقتطع بها مال المسلم ، حديث (١٢٦٩) ، وكتاب : تفسير القرآن ، باب : ومن سورة آل عمران ، حديث (٢٩٩٩) ، والنسائي في « الكبرى » (٤٨٤/٣ - ٤٨٥) رقم (٥٩٩١ ، ٥٩٩٢) و(٣٠٨/٦ ، ٣٠٩) رقم (١١٠٦٢) وابن ماجه في » كتاب : الأحكام ، باب : البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، حديث (٢٣٢٢) كلهم من طريق أبي وائل به .

(١٦٣) - في « مسنده » (٢١٢/٥) ، وانظر السابق .

(١٦٤) - أخرجه أحمد في « مسنده » (٤٤٠/٣) . والطبراني في « الكبير » (١٩٥/٢٠) رقم (٤٣٧) ، وذكره الهيثمي في « المجمع » (١٨/٥ - ١٩) وقال : رواه أحمد والطبراني ، وفيه زبان بن فائد ، قد ضعفه أحمد وابن معين ، وقال أبو حاتم : صالح ، وذكره الشيخ الألباني - حفظه الله - في « الضعيفه » حديث (١٩٤١) .

[١] - في ز : « يمينه » .

[٢] - في خ ، ز : « يذهب » .

[٣] - في ر : « عن » .

[٤] - سقط من : خ ، ر

[٥] - سقط من : خ ، ر .

أنعم عليه قوم ، فكفر نعمتهم وتبرأ منهم » .

(الحديث الخامس) قال ابن أبي حاتم (١٦٥) : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا هشيم ، أنبأنا العوام - يعني ابن حوشب - عن إبراهيم بن عبد الرحمن - يعني السكسكي - عن عبد اللَّه بن أبي أوفىٰ ؛ أن رجلًا أقام سلعة له في السوق ، فحلف باللَّه ؛ لقد أعطي بها ما لم يعطه ؛ ليوقع فيها رجلًا من المسلمين ؛ فنزلت هذه الآية ﴿ **إن الذين يشترون بعهد اللَّه وأيمانهم ثمنًا قليلًا** ﴾ [إلى آخر][١] الآية .

ورواه البخاري ، من غير وجه عن العوام .

(الحديث السادس) قال الإمام أحمد (١٦٦) : حدثنا وكيع ، حدثنا[٢] الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه ؛ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **ثلاثة لا يكلمهم اللَّه يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم ؛ رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده ، ورجل حلف علىٰ سلعة بعد العصر ، يعني كاذبًا ، ورجل بايع إمامًا ؛ فإن أعطاه وفىٰ[٣] له ، وإن لم يعطه لم يف له** » .

ورواه أبو داود والترمذي ، من حديث وكيع . وقال الترمذي : حديث[٤] حسن صحيح .

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(١٦٥) - أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٣٥٥/٢) رقم (٨٢٣) ، وأخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب التفسير ، باب : قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يشترون بعهد اللَّه وأيمانهم ثمنًا قليلًا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة** ﴾ الآية حديث (٤٥٥١) من طريق علي بن أبي هاشم أنه سمع هشيمًا ، أخبرنا العوام بن حوشب . عن إبراهيم بن عبد الرحمن ، عن عبد اللَّه ابن أبي أوفى مرفوعًا بلفظه .

(١٦٦) - رواه أحمد في مسنده (٤٨٠/٢) . وأخرجه أبو داود في « سننه » كتاب : البيوع ، باب : في منع الماء ، حديث (٣٤٧٤) . والترمذي في « سننه » ، كتاب السير ، باب : ما جاء في نكث البيعة ، حديث (١٥٩٥) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٣٥٨/٢) رقم (٨٢٩) كلهم من طريق وكيع بهذا الإسناد .

وأخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب : الشهادات ، باب : اليمين بعد العصر ، حديث (٢٦٧٢) ، وأطرافه في (٢٣٥٨ ، ٢٣٦٩ ، ٧٢١٢ ، ٧٤٤٦) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الأيمان ، باب : حديث (١٠٨) من طريق الأعمش بإسناده نحوه .

---

[١] - سقط من :ت .

[٢] - في ت : عن .

[٣] - في ز : « وفا » .

[٤] - سقط من : خ ، ز .

يخبر تعالىٰ عن اليهود ، عليهم لعائن اللَّه ، أن منهم فريقًا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويبدلون كلام اللَّه ، ويزيلونه عن المراد به ؛ ليوهموا الجهلة أنه في كتاب اللَّه كذلك ، وينسبونه إلىٰ[١] اللَّه ، وهو كذب علىٰ اللَّه ، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله ، ولهذا قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **ويقولون علىٰ اللَّه الكذب وهم يعلمون** ﴾ وقال[٢] مجاهد والشعبي ، والحسن وقتادة ، والربيع بن أنس : ﴿ **يلوون ألسنتهم بالكتاب** ﴾ يحرفونه[٣] ، وهكذا روىٰ البخاري ، عن ابن عباس ، أنهم يحرفون ، ويزيلون[٤] ، وليس أحد من خلق اللَّه يزيل لفظ كتاب من كتب اللَّه ؛ لكنهم يحرفونه ويتأولونه[٥] علىٰ غير تأويله .

وقال وهب بن منبه : إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما اللَّه تعالىٰ ؛ لم يغير منهما حرف ، ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم .

﴿ **ويقولون هو من عند اللَّه وما هو من عند اللَّه** ﴾ ، فأما كتب اللَّه فإنها محفوظة ولا تحول .

رواه ابن أبي حاتم(١٦٧) ، فإن عنى وهب ما بأيديهم من ذلك ، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص . وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية ، ففيه خطأ كبير ، وزيادات كثيرة ، ونقصان ، ووهم فاحش ، وهو من باب تفسير المعرب المعبر ، وفهم كثير منهم ، بل أكثرهم ، بل جميعهم فاسد . وأما إن عنى كتب اللَّه التي هي كتبه من[٦] عنده ، فتلك كما قال محفوظة ، لم يدخلها شي .

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

(١٦٧) - رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٣٦١ - ٣٦٢) رقم (٨٤٤) .

[١] - في ز : « علىٰ » .
[٢] - في ز : « قال » .
[٣] - في خ : « ليحرفونه » .
[٤] - في ت : « ويزيدون » .
[٥] - في ز : « يتأولونه » .
[٦] - سقط من : خ ، ز .

قال محمد بن إسحاق (١٦٨) : حدثنا محمد بن أبي محمد ، عن عكرمة ، أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ؛ قال : قال أبو رافع القرظي ؛ حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارىٰ من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ، ودعاهم إلىٰ الإسلام : أتريد يا محمد أن نعبدك ؛ كما تعبد النصارىٰ عيسىٰ بن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني ، يقال له الرئيس : أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعونا ؟ أو كما قال : فقال رسول الله ﷺ : « **معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة [غير الله]**[١] ، **ما بذلك بعثني ، ولا بذلك أمرني** » ، أو كما قال ﷺ فأنزل الله [عز وجل] في ذلك من قولهما: ﴿ **ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة** ﴾ الآية[٢] إلىٰ قوله: ﴿ **بعد إذ أنتم مسلمون** ﴾ فقوله : ﴿**ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادًا لي من دون الله** ﴾ أي : ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة، أن يقول للناس : اعبدوني من دون الله ، أي : مع الله ، فإذا[٣] كان هذا لا يصلح لنبي ، ولا لمرسل ، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولىٰ والأحرىٰ ؛ ولهذا قال الحسن البصري : لا ينبغي هذا لمؤمن ؛ أن يأمر الناس بعبادته ، قال : وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضًا - يعني أهل الكتاب - كانوا [يتعبدون لأحبارهم][٤] ورهبانهم ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله [والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون]**[٥] ﴾.

وفي المسند والترمذي ، كما سيأتي(١٦٩) ، أن عدي بن حاتم ؛ قال : يا رسول الله؛ ما عبدوهم . قال : « **بلىٰ إنهم أحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم** » .

فالجهلة من الأحبار والرهبان ، ومشايخ الضلال ، يدخلون في هذا الذم والتوبيخ ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين ، [فإنهم إنما][٦] يأمرون بما أمر[٧] الله به[٨] ، وبلغتهم إياه

---

(١٦٨) - « السيرة لابن هشام » (٣٩٥/٢) ، وأخرجه الطبري في « تفسيره » (٥٣٩/٦) رقم (٧٢٩٦ ، ٧٢٩٧) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٣٦٩/٢ - ٣٧٠) رقم (٨٧٥) . والبيهقي في « دلائل النبوة » (٣٨٤/٥) ، من طريق محمد بن إسحاق بهذا الإسناد .

(١٦٩) - سيأتي تخريجه - في سورة الأنعام آية (١٢١) .

---

[١] - في خ ، ز : « غيره » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : م .

[٣] - في ز : « وإذا » .

[٤] - في ت : « يعبدون أحبارهم » .

[٥] - ما بين المعكوفتين زيادة من خ، ز: وفي م: الآية.

[٦] - في خ ، ز : « فإنما » .

[٧] - في ت : « يأمر » .

[٨] - سقط من : خ ، ز .

رسله الكرام ، وإنما ينهونهم[١] عما نهاهم اللَّه عنه ، وبلغتهم إياه رسله الكرام . فالرسل[٢] صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين ، هم السفراء بين اللَّه وبين خلقه ، في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة . فقاموا بذلك أتم القيام[٣] ، ونصحوا الخلق ، وبلغوهم الحق .

وقوله : ﴿ ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ أي : ولكن يقول الرسول للناس : كونوا ربانيين . قال ابن عباس ، وأبو رزين ، وغير واحد : أي : حكماء علماء حلماء ، وقال الحسن وغير واحد : فقهاء ، وكذا روي عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وعطاء الخراساني ، وعطية العوفي ، والربيع بن أنس . وعن الحسن أيضًا : يعني أهل عبادة ، وأهل تقوىٰ .

وقال الضحاك في قوله : ﴿ بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ حق علىٰ من تعلم القرآن أن يكون فقيهًا، ﴿ تعْلَمون ﴾ أي : تفهمون معناه وقرئ ﴿ تعلّمون﴾ بالتشديد(*) ، من التعليم ، ﴿ وبما كنتم تدرسون ﴾ تحفظون ألفاظه .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا ﴾ أي : ولا يأمركم بعبادة أحد غير اللَّه ؛ لا نبي مرسل ، ولا ملك مقرّب ، ﴿ أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ أي : لا يفعل[٤] ذلك إلا[٥] من دعا إلىٰ عبادة غير اللَّه ، [ومن دعا إلىٰ عبادة غير اللَّه][٦] ؛ فقد دعا إلىٰ الكفر ، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان ، وهو عبادة اللَّه وحده لا شريك له ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي[٧] إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمّة رسولًا أن اعبدوا اللَّه واجتنبوا الطاغوت ﴾ . الآية . وقال : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ . وقال تعالى إخبارًا عن الملائكة : ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾ .

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ

(*) وهي قراءة عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمر : ﴿تعْلَمون﴾ بإسكان العين ، وفتح اللام والتاء تخفيفًا .

[١] - في ز : « ينهوهم » .
[٢] - سقط من : خ ، ز .
[٣] - في خ : « قيام » .
[٤] - في خ ، ز : « تفعل » .
[٥] - في ز : لأن .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٧] - في ز : « يوحى » .

﴿إِصْرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (٨٢)﴾

يخبر تعالىٰ أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلىٰ عيسىٰ عليه السلام ؛ لمهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة ، وبلغ أي مبلغ ، ثم جاءه رسول من بعده ، ليؤمنن به ، ولينصرنه ، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة ، من اتباع من بعث بعده ونصرته ؛ ولهذا قال تعالىٰ وتقدّس : **﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ﴾** أي : لمهما أعطيتكم[١] من كتاب وحكمة ، **﴿ ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ﴾** .

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، والربيع [بن أنس][٢] وقتادة والسدّي : يعني عهدي .

وقال محمد بن إسحاق : **﴿ إصري ﴾** أي : ثقل ما حملتم من عهدي ، أي : ميثاقي الشديد المؤكد .

﴿ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولىٰ بعد ذلك ﴾ ، أي : عن هذا العهد والميثاق **﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾** .

قال علي بن أبي طالب[٣] ، وابن عمه [عبد الله][٤] بن عباس رضي الله عنهما ما بعث الله نبيًا من الأنبياء ؛ إلا أخذ عليه الميثاق ، لئن بعث محمدٌ وهو حي ؛ ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق علىٰ أمته ؛ لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه .

وقال طاوس والحسن البصري[٥] وقتادة : أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدّق بعضهم بعضًا .

وهذا لا يضاد ما قاله علي وابن عباس ، ولا ينفيه ، بل يستلزمه ويقتضيه ، ولهذا روىٰ[٦] عبد الرزاق عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، مثل قول علي وابن عباس .

وقد قال الإمام أحمد(١٧٠) : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا سفيان ، عن جابر ، عن الشعبي ، عن

---

(١٧٠) - رواه أحمد في « مسنده » (٤/٢٦٥ - ٢٦٦) ويأتي تخريجه بأبسط من ذلك في فاتحة سورة يوسف حديث (٨) .

---

[١] - في خ ، ز : « أعطيكم » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٣] - في ز : « طلحة » .
[٤] - سقط من: ت .
[٥] - سقط من : خ ، ز .
[٦] - في خ ، ز : « رواه » .

عبد الله بن ثابت ؛ قال : جاء عمر إلىٰ [رسول الله] صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، فقال : يارسول الله ، إني مررت بأخ[١] لي من قريظة ، فكتب لي جوامع من التوراة ، ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبد الله ابن ثابت : قلت له : ألا ترىٰ ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ قال[٢] عمر : رضينا بالله ربًا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد رسولًا ، قال : فسري عن النبي ﷺ ، وقال : « **والذي نفس محمد بيده ، لو أصبح فيكم موسىٰ ، عليه السلام ، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنكم حظي من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين** » .

(حديث آخر) قال الحافظ أبو بكر(١٧١) : حدثنا إسحاق ، حدثنا حماد ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ؛ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وإنكم إما أن تصدّقوا بباطل ، وإما أن تكذبو بحق ، وإنه والله لو كان موسىٰ حيًا بين أظهركم ؛ ما حل له إلا أن يتبعني** » .

وفي بعض الأحاديث : « **لو كان موسىٰ وعيسىٰ حيين ؛ لما وسعهما إلا اتباعي** » .

فالرسول محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلىٰ يوم الدين ، وهو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد ؛ لكان[٣] هو الواجب الطاعة ، المقدم علىٰ الأنبياء كلهم ، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء ، لما[٤] اجتمعوا ببيت المقدس ، وكذلك هو الشفيع في المحشر[٥] ، في إتيان الرب [جل جلاله] لفصل القضاء [بين عباده][٦] ، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له ، والذي يحيد عنه أولوا العزم من الأنبياء والمرسلين ، حتىٰ تنتهي النبوة إليه فيكون هو المخصوص به ، [صلوات الله وسلامه عليه] .

أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن

(١٧١) - أخرجه البزار كما في « كشف الاستار » (١/٧٨ - ٧٩) حديث (١٢٤) . ويأتي تخريجه بأبسط من ذلك في فاتحة سورة يوسف (٧) .

[١] - في خ : « برجل » .
[٢] - في خ ، ز : « فقال » .
[٣] - في ز : « كان » .
[٤] - في ت : «يوم » .
[٥] - في ز : « يوم الحشر » .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

﴿يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

يقول تعالىٰ ، منكرًا علىٰ من أراد دينًا سوىٰ دين الله ، الذي أنزل به كتبه ، وأرسل به رسله ، وهو [عبادة الله][١] وحده لا شريك له ، الذي له أسلم من في السموات والأرض ، أي : استسلم له من فيهما طوعًا وكرهًا ؛ كما قال تعالىٰ : [﴿ **ولله يسجد من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا** ﴾ الآية . وقال تعالىٰ][٢] : ﴿ **أو لم يروا إلىٰ ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدًا لله وهم داخرون * ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من[٣] فوقهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ .

فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله ، والكافر مستسلم لله كرهًا ، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم ، الذي لا يخالف ولا يمانع . وقد ورد حديث في تفسير هذه الآية علىٰ معنىٰ آخر فيه غرابة ؛ فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني(١٧٢) : حدثنا[٤] أحمد بن النضر العسكري ، حدثنا سعيد بن حفص النفيلي ، حدّثنا محمد بن محصن العكاشي ، حدثنا الأوزاعي ، عن عطاء ابن أبي رباح ، [عن ابن عباس][٥] عن النبي ﷺ : « ﴿ **وله أسلم من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا** ﴾ أمّا من في السموات فالملائكة ، وأما من في الأرض ، فمن ولد علىٰ الإسلام ، وأما كرهًا فمن أتى به من سبايا الأمم في السلاسل والأغلال ، يقادون إلىٰ الجنة وهم كارهون » .

وقد ورد في الصحيح(١٧٣) : « **عجب ربك من قوم يقادون إلىٰ الجنة في السلاسل** » . وسيأتي له شاهد من وجه آخر ، ولكن المعنىٰ الأوّل للآية أقوىٰ .

وقد قال وكيع في تفسيره(١٧٤) : حدثنا سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد : ﴿ **وله أسلم من**

---

(١٧٢) - الحديث أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (١١/١٩٤) رقم (١١٤٧٣) . وهنا سقط اسم ابن عباس ، فالإسناد عند الطبراني عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٦/٣٢٩) وقال : رواه الطبراني ، وفيه محمد بن محصن العكاشي وهو متروك .

(١٧٣) - أخرجه البخاري في « صحيحه » ، كتاب الجهاد ، باب : الأسارى في السلاسل ، حديث (٣٠١٠) وطرفه في (٤٥٥٧) . والحديث سبق تخريجه في سورة البقرة آية (٢٥٦).

(١٧٤) - أخرجه الطبري في « تفسيره » (٦/٥٦٥) ، حديث (٧٣٥٢) ، من طريق وكيع به .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز : عبادته .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٣] - كرر في خ .

[٤] - سقط من : خ .

[٥] - زيادة من الطبراني ، ومجمع الزوائد ، والدر المنثور .

في السموات والأرض طوعًا و[١] كرهًا ﴾ قال : هو كقوله : **﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾** .

وقال أيضًا (١٧٥) : حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : **﴿ وله أسلم من في السموات والأرض طوعًا وكرها ﴾** قال : حين أخذ الميثاق .

﴿ وإليه يرجعون ﴾ أي : يوم المعاد ، فيجازي كلًّا بعمله .

ثم قال الله تعالىٰ : **﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا ﴾** يعني القرآن ، **﴿ وما أنزل علىٰ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴾** أي : من الصحف والوحي **﴿ والأسباط ﴾** وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل- وهو يعقوب - الاثني عشر : **﴿ وما أوتي موسىٰ وعيسىٰ ﴾** يعني بذلك التوراة والإنجيل ، **﴿ والنبيون من ربهم ﴾** وهذا يعم جميع الأنبياء جملة ، **﴿ لانفرق بين أحد منهم ﴾** يعني بل نؤمن بجميعهم ، **﴿ ونحن له مسلمون ﴾** فالمؤمنون من هذه الأمّة يؤمنون بكل نبي أرسل ، وبكل كتاب أنزل ، لا يكفرون بشيء من ذلك ، بل هم يصدقون بما أنزل[٢] من عند الله ، وبكل نبي بعثه الله .

ثم قال تعالىٰ : **﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه ﴾** . الآية . أي : من سلك طريقًا سوىٰ ما شرعه الله ؛ فلن يقبل منه **﴿ وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾** ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « **من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد** »(١٧٦) .

وقال الإمام أحمد(١٧٧) : حدثنا أبو سعيد - مولىٰ بني هاشم ، حدثنا عباد بن راشد ، حدثنا الحسن ، حدثنا أبو هريرة إذ ذاك ، ونحن بالمدينة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **تجيء الأعمال يوم القيامة فتجيء الصلاة فتقول : يارب ؛ أنا الصلاة ، فيقول : إنك علىٰ خير ، وتجيء الصدقة فتقول : يا رب ؛ أنا الصدقة ، فيقول : إنك علىٰ خير ، ثم يجيء الصيام فيقول : يارب ؛ أنا الصيام ، فيقول : إنك علىٰ خير ، ثم تجيء الأعمال ، كل ذلك يقول الله : إنك علىٰ خير ، ثم يجيء الإسلام فيقول : يا رب ؛ إنك[٣] أنت السلام ، وأنا الإسلام ، فيقول الله تعالىٰ : إنك علىٰ خير ، بك اليوم آخذ وبك أعطي . قال الله في كتابه : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾** .

---

(١٧٥) - أخرجه الطبري في « تفسيره » (٥٦٥/٦) رقم (٧٣٤٥) ، من طريق وكيع بهذا الإسناد .

(١٧٦) - سبق تخريجه - سورة البقرة آية (١١٢) .

(١٧٧) - رواه أحمد في « مسنده » (٣٦٢/٢) ، وذكره الهيثمي في « المجمع » (٣٤٨/١٠) . وقال : رواه=

---

[١] - في ز : « أو » .
[٢] - في خ ، ز : « نزل » .
[٣] - سقط من : خ ، ز .

تفرد به أحمد .

قال أبو عبد الرحمن عبد الله ابن الإمام أحمد : عباد بن راشد ثقة ، ولكن الحسن لم يسمع من أبي هريرة .

كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾

قال ابن جرير(١٧٨) : حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع البصري ، حدثنا يزيد بن زُرَيع ، حدثنا داود بن أبي هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ؛ قال : كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتدّ ولحق بالشرك ، ثم ندم فأرسل إلىٰ قومه ؛ أن سلوا لي رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لي من توبة ؟ قال[١] : فنزلت : ﴿ **كيف يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم** ﴾ إلىٰ قوله ﴿ [**وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا**][٢] **فإن الله غفور رحيم** ﴾ فأرسل إليه[٣] قومه فأسلم .

وهكذا رواه النسائي والحاكم وابن حبان من طريق داود بن أبي هند به .

وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه .

= أحمد وأبو يعلى والطبراني في الأوسط ... وفيه عباد بن راشد ، وثقه أبو حاتم وغيره ، وضعفه جماعة ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح .

(١٧٨) - رواه ابن جرير في « تفسيره » (٥٧٢/٦ - ٥٧٣) رقم (٧٣٦٠) و (٧٣٦١ ، ٧٣٦٢) . والنسائي في « سننه » (١٠٧/٧) كتاب تحريم الدم ، باب : توبة المرتد ، والحاكم في « المستدرك » (٣٦٦/٤) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٣٨٥/٢ - ٣٨٦) رقم (٩٢٤) . وابن حبان في « صحيحه » (٣٢٩/١٠ - الإحسان) برقم (٤٤٧٧) . كلهم من طريق داود بن أبي هند به .

---

[١] - سقط من : خ . ز .

[٢] - سقط من: ت .

[٣] - في خ : « إلى » .

وقال عبد الرزاق(١٧٩) : أنبأنا جعفر بن سليمان ، حدثنا حميد الأعرج ، عن مجاهد قال : جاء الحارث بن سويد ، فأسلم مع النبي صلىٰ الله عليه وآله[١] وسلم ، ثم كفر الحارث ، فرجع إلىٰ قومه ، فأنزل الله فيه القرآن[٢] ﴿ **كيف يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم** [**إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله**] غفور رحيم ﴾ قال : فحملها إليه رجل من قومه ، فقرأ[٣] عليه ، فقال الحارث : إنك- والله ما علمت- لصدوق ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصدق منك ، وإن الله لأصدق الثلاثة ، قال : فرجع الحارث ، فأسلم فحسن إسلامه .

فقوله تعالىٰ : ﴿ **كيف يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات** [**والله لا يهدي القوم الظالمين**] ﴾ ، أي : قامت عليهم الحجج والبراهين ، علىٰ صدق ما جاءهم به الرسول ، ووضح لهم الأمر ، ثم ارتدوا إلىٰ ظلمة الشرك ، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية ؟ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ . ثم قال تعالىٰ : ﴿ **أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين** ﴾ . أي : يلعنهم الله ، ويلعنهم خلقه ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أي : في اللعنة ، ﴿ **لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون** ﴾ أي : لايفتر عنهم العذاب ، ولا يخفف عنهم ساعة واحدة .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم** ﴾ وهذا من لطفه وبرّه ، ورأفته ورحمته ، وعائدته علىٰ خلقه ؛ أن من تاب إليه تاب عليه .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

يقول تعالىٰ متوعدًا ومهددًا[٤] لمن كفر من[٥] بعد إيمانه ، ثم ازداد[٦] كفرًا ، أي استمر عليه إلىٰ الممات، ومخبرًا [بأنهم لن تقبل لهم][٧] توبة عند الممات[٨] ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وليست**

(١٧٩) - أخرجه عبد الرزاق في « تفسيره » (١/١٢٥) ، ومن طريقه ابن جرير الطبري في « تفسيره » (٦/٥٧٣) رقم (٧٣٦٣) .

[١] - سقط من : خ .
[٢] - سقط من : ت .
[٣] - في ز : « فقرأها » .
[٤] - في ز : « ومتهددًا » .
[٥] - سقط من خ .
[٦] - في خ : « ازدادوا » .
[٧] - في خ ، ز : « بأنه لا يقبل منهم » .
[٨] - في خ ، ز : « مماتهم » .

التوبة للذين يعملون السيئات حتىٰ إذا حضر أحدهم الموت [قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليمًا] ﴾ .

[ولهذا قال هاهنا : ﴿ **لن تقبل توبتهم**][١] **وأولئك هم الضالون** ﴾ أي : الخارجون عن المنهج[٢] الحق إلىٰ طريق الغي .

قال الحافظ أبو بكر البزار(١٨٠) : حدثنا محمد بن عبد اللَّه بن بزيع ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا داود بن أبي [هند ، عن][٣] عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أن قومًا أسلموا ، ثم ارتدوا ، ثم أسلموا ثم ارتدوا فأرسلوا إلىٰ قومهم يسألون لهم ، فذكروا ذلك لرسول اللَّه ﷺ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرًا لن تقبل توبتهم** ﴾ هكذا رواه وإسناده جيد .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا ولو افتدىٰ به** ﴾ أي : من مات علىٰ الكفر ، فلن يقبل منه خير[٤] أبدًا ، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبًا [ولو افتدى به][٥] فيما يراه قُرْبة ، كما سئل النبي ﷺ عن عبد اللَّه بن جُدعان - وكان يقري الضيف ، ويفك العاني ، ويطعم الطعام : هل ينفعه ذلك ؟ فقال : « **لا ، إنه لم يقل يومًا من الدهر : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين** »(١٨١) .

وكذلك لو افتدىٰ بملء الأرض أيضًا ذهبًا ، ما قبل منه ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ولا[٦] يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة** ﴾ وقال : ﴿ **لا بيع فيه ولا خلال** ﴾ ، وقال : ﴿ **إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأض جميعًا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم** ﴾ ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا ولو افتدىٰ به** ﴾ فعطف ولو افتدىٰ به علىٰ الأوّل ؛ فدل علىٰ أنه غيره ، وما ذكرناه أحسن من أن يقال : إن الواو زائدة ، واللَّه أعلم .

---

(١٨٠) - ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٢/٨٨) وعزاه إلى البزار عن ابن عباس . وقال : هذا خطأ من البزار .

(١٨١) - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، حديث (٢١٤) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها قالت : قلت : يا رسول اللَّه ! ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه ؟ قال : « **لا ينفعه ، إنه لم يقل يومًا : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين** » . وسيأتي الحديث في سورة النساء آية (٣٧) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٢] - في خ : « منهج » .
[٣] - سقط من : خ ، ز .
[٤] - في ز : « خيرًا » .
[٥] - ما بين المعكوفتين زيادة من : خ .
[٦] - سقط من : ز .

ويقتضي ذلك أن لا ينقذه من عذاب الله شيء ، ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهبًا ، ولو افتدىٰ نفسه من الله بملء الأرض ذهبًا بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها .

وقال الإمام أحمد(١٨٢) : حدثنا حجاج ، حدثني شعبة ، عن أبي عمران الجوني ، عن أنس بن مالك ؛ عن النبي ﷺ ؛ قال : « **يقال للرجل من أهل النار**[١] **يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما علىٰ الأرض من شيء أكنت مفتديًا به ؟ قال : فيقول : نعم ،** [**قال : فيقول الله : قد**][٢] **أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم ؛ أن لا تشرك بي شيئًا ، فأبيت إلا أن تشرك** » . وهكذا أخرجه البخاري ومسلم.

(طريق أخرىٰ) وقال الإمام أحمد(١٨٣) : حدثنا روح ، حدثنا حماد ، عن ثابت ، عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **يؤتىٰ بالرجل من أهل الجنة ، فيقول له : يا ابن آدم ؛ كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أي رب خير منزل ، فيقول : سل وتمن**[٣] **، فيقول : ما أسأل وما**[٤] **أتمنىٰ إلا أن تردني إلىٰ الدنيا ، فأقتل في سبيلك عشر مرار ، لما يرىٰ من فضل الشهادة . ويؤتىٰ بالرجل من أهل النار ، فيقول له يا بن آدم؛ كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : يارب ؛ شر منزل . فيقول له**[٥] **: أتفتدي**[٦] **مني بطلائع**[٧] **الأرض ذهبًا ؟ فيقول : أي رب؛ نعم . فيقول : كذبت ، قد سألتك أقل من ذلك وأيسر ، فلم تفعل ، فيرد إلىٰ النار** » .

(١٨٢) - رواه أحمد في « مسنده » (١٢٧/٣) ، وأخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ، باب : خلق آدم وذريته ، حديث (٣٣٣٤) ، وحديث (٦٥٥٧) . ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم حديث ٥١ - (٢٨٠٥) ، وأحمد في « مسنده » (١٢٩/٣) . كلهم من طريق شعبة ، عن أبي عمران الجوني ، عن أنس به .

وقد ورد من حديث قتادة ، عن أنس : أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب : من نوقش الحساب عُذِّب ، حديث (٦٥٣٨) ، ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٥٢ ، ٥٣ - (٢٨٠٥) ، وأحمد في مسنده (٢١٨/٣ ، ٢٩١) من طرق ، عن قتادة ، عن أنس به .

(١٨٣) - رواه أحمد في « مسنده » (٢٠٧/٣ ، ٢٠٨) . وأخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٥٥ - (٢٨٠٧) . والنسائي في « سننه » (٣٦/٦) ، كتاب الجهاد ، باب : ما يتمنى أهل الجنة ، وأحمد في « مسنده » (١٣١/٣ - ١٣٢) من طريق حماد بن سلمة ، عن ثابت البناني ، عن أنس بنحوه .

[١] - في ز : « اليسار » .
[٢] - في ز : « فيقول : قد » .
[٣] - في ز : « وتمنى » .
[٤] - سقط من : خ ، ز .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - في خ ، ز : « تفتدي » .
[٧] - في خ ، ز : « بطلاع » .

ولهذا قال : ﴿ أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾ أي : وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ، ولا يجيرهم من أليم عقابه .

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾

[روى وكيع في تفسيره(١٨٤) عن شريك ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون : ﴿ لن تنالوا البر ﴾ قال : الجنة][١] .

قال الإمام أحمد(١٨٥) : حدثنا روح ، حدثنا مالك ، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، سمع أنس بن مالك يقول : كان أبو طلحة أكثر أنصاري[٢] بالمدينة مالاً ، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، قال أنس : فلما نزلت ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ قال أبو طلحة : يارسول الله ، إن الله يقول : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ ، وإن أحب أموالي إلي بيرحاء ، وإنها صدقة لله ؛ أرجو بها[٣] برها وذخرها عند الله تعالى ، فضعها يا رسول الله ، حيث أراك الله فقال النبي ﷺ : « [بخ بخ][٤] ، ذاك مال رابح ، ذاك[٥] مال رابح ، وقد سمعت وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين » ، فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه . أخرجاه .

(١٨٤) – أخرجه الطبري في « تفسيره » (٥٨٧/٦) رقم (٧٣٨٦) من طريق وكيع به . وأخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٣٩١/٢) رقم (٩٤٣) عن عمرو بن ميمون به .

(١٨٥) – رواه أحمد في « مسنده » (١٤١/٣) . وأخرجه البخاري في كتاب الزكاة ، باب : الزكاة على الأقارب ، حديث (١٤٦١) ، وأطرافه حديث (٢٣١٨) ، و(٢٧٥٢) ، و(٢٧٥٨) ، و(٢٧٦٩) ، و(٤٥٥٤) ، و(٥٦١١) . ومسلم في كتاب الزكاة ، حديث (٩٩٨) . ومالك في « الموطأ » (ص ٧٦٠) كتاب الصدقة ، باب : الترغيب في الصدقة ، حديث (٢) ، والترمذي في كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة آل عمران ، حديث (٣٠٠٠) ، والنسائي في « الكبرى » (٣١١/٦) رقم (١١٠٦٦) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (١٦٤/٦ – ١٦٥) و(٣٧٥/٦) ، والبغوي (١٨٩/٦) رقم (١٦٨٣) والطحاوي (٣/ ٢٨٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٣٨/٦) ، وابن خزيمة في « صحيحه » (١٠٣/٤) حديث (٢٤٥٥) ، وابن حبان في صحيحه (١٢٩/٨ ، ١٣٠ – الإحسان) رقم (٣٣٤٠) وابن جرير الطبري في « تفسيره » (٥٨٩/٦ ، ٥٩٠) رقم (٧٣٩٤ ، ٧٣٩٥) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٣٩٢/٢ ، ٣٩٣) رقم (٩٤٧).

[١] – ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٢] – في ت : « الأنصار » .

[٣] – سقط من : ز .

[٤] – في خ ، ز : « بخ » .

[٥] – في ت : « ذلك » .

وفي الصحيحين أن عمر قال : يا رسول الله ؛ لم أصب مالًا قط ، هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر ، فما تأمرني به ؟ قال[١] : « **حبس الأصل وسبل[٢] الثمرة** »(١٨٦) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار(١٨٧) : حدثنا أبو الخطاب زياد بن يحيىٰ الحساني ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبي عمرو بن حماس ، عن حمزة بن عبد الله بن عمر قال : قال عبد الله : حضرتني هذه الآية : ﴿ **لن تنالوا البر حتىٰ تنفقوا مما تحبون** ﴾ فذكرت ما أعطاني الله ، فلم أجد شيئًا أحب إليّ من جارية لي رومية ، فقلت : هي حرّة لوجه الله ، فلو أني أعود في شيء جعلته لله ؛ لنكحتها ، يعني تزوجتها .

---

(١٨٦) - لا يوجد بهذا اللفظ « **حبس الأصل وسبل الثمرة** » في الصحيحين ، وبهذا اللفظ : « **حبس الأصل وسبل الثمرة** » أخرجه النسائي في « سننه » (٢٣٢/٦) كتاب الأحباس ، باب : حبس المشاع ، وابن ماجه في « سننه » كتاب الصدقات ، باب : من وقف ، حديث (٢٣٩٧) ، والشافعي (٢٨٥/٢ ، ٢٨٦) حديث (٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠) والبيهقي في « السنن الكبرى » (١٦٢/٦) ، والدارقطني في « سننه » (١٩٣/٤) . كلهم من طرق ، عن سفيان بن عيينة ، عن عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال عمر بن الخطاب للنبي ﷺ : إن المائة سهم التي لي بخيبر لم أصب مالًا قط أعجب إليّ منها ، وقد أردت أن أتصدق بها ، فقال النبي ﷺ : « **احبس أصلها وسبل ثمرتها** » . وأخرجه أحمد في « مسنده » (١٥٦/٢ - ١٥٧) من طريق عبد الله ، عن نافع به مختصرًا . بلفظ : أول صدقة كانت في الإسلام صدقة عمر ، فقال له رسول الله ﷺ: « **احبس أصولها وسبل ثمرتها** » . وقد صححه الشيخ الألباني - حفظه الله - في « إرواء الغليل » (٣١/٦) رقم (١٥٨٣) . وقال : وهذا سند صحيح على شرط الشيخين .

وقد أخرجه البخاري في كتاب الشروط ، باب : الشروط في الوقف ، حديث (٢٧٣٧) ، وطرفه (٢٧٧٢) ، و(٢٧٧٣) . ومسلم في « صحيحه » كتاب الوصية ، حديث (١٦٣٢) ، وأبو داود في « سننه » كتاب : الوصايا ، باب : ما جاء في الرجل يوقف الوقف ، حديث (٢٨٧٨) ، والترمذي في « سننه » كتاب : الأحكام ، باب : في الوقف ، حديث (١٣٧٥) ، والنسائي في « سننه » (٢٣٠/٦) كتاب الأحباس ، باب : كيف يكتب الحبس ، وذكر الاختلاف على ابن عون في خبر ابن عمر فيه ، وابن ماجه في « سننه » كتاب الصدقات ، باب : من وقف ، حديث (٢٣٩٦) والطحاوي في « شرح معاني الآثار » (٩٥/٤) ، والبيهقي في « السنن » (١٥٨/٦ - ١٥٩) ، وأحمد في مسنده (١٢/٢ - ١٣ ، ٥٥ ، ١٢٥) . من طرق عن ابن عون ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : أصاب عمر أرضًا بخيبر فأتى النبي ﷺ يستأمره فيها ، فقال : يا رسول الله ! إني أصبت مالًا بخيبر لم أصب مالًا أنفس عندي منه ، فما تأمرني فيه ؟ فقال : « **إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها ، غير أنه لا يباع أصلها ولا يوهب ولا يورث** » . قال : فتصدق بها عمر في الفقراء ، وفي القربي ، وفي سبيل الله وابن السبيل ، والضعيف ، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف أو يطعم صديقًا غير متمول فيه » . وفي لفظ « **غير متأثل** » .

(١٨٧) - « كشف الأستار » رقم (٢٩١٤) . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٣٢٩/٦) وقال : ورواه البزار ، وفيه من لم أعرفه .

---

[١] - في ز : « فقال » . [٢] - في خ : « وسبيل » .

۞ ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾

قال الإمام أحمد(١٨٨) : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا عبد الحميد ، حدثنا شهر قال : قال ابن عباس : حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ ، فقالوا : حدثنا عن خلال نسألك عنهن ، لا يعلمهن إلا نبي ، قال : « **سلوني عما شئتم ، ولكن اجعلوا لي ذمة الله ، وما أخذ يعقوب علىٰ بنيه ؛ لئن أنا حدثتكم شيئًا فعرفتموه ، لتتابعني علىٰ الإسلام** » . قالوا : فذلك لك. [قال : فسلوني عما شئتم][١] . قالوا : أخبرنا عن[٢] أربع خلال ، أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل علىٰ نفسه ؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل ؟ وكيف [يكون الذكر منه والأنثىٰ ؟ وأخبرنا كيف][٣] هذا النبي الأمي في النوم ، ومن وليّه من الملائكة ؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه ، فقال[٤] : « **أنشدكم بالذي أنزل التوراة علىٰ موسىٰ ، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضًا شديدًا ، وطال سقمه ، فنذر لله[٥] نذرًا ؛ لئن شفاه الله من**

(١٨٨) - رواه أحمد في « مسنده » (٢٧٨/١) . وأخرجه الطبري في « تفسيره » (١٥/٧ ، ١٦) رقم (٧٤٢٠) . وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٣٩٥/٢ ، ٣٩٦) رقم (٩٥١) . والطبراني في « المعجم الكبير » (٢٤٦/١٢) رقم (١٣٠١٢) . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٣١٧/٦ ، ٣١٨) و(٨/ ٢٤٤ ، ٢٤٥) . وقال : رواه أحمد والطبراني ، ورجالهما ثقات ، وقال في موضع آخر : رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم ، وهو ضعيف . وأخرجه أحمد في « مسنده » (٢٧٤/١) ، والبخاري في « التاريخ الكبير » (١١٤/٢) رقم (١٨٧٨) ، والترمذي في « سننه » كتاب : تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الرعد ، حديث (٣١١٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٠٤/٤ ، ٣٠٥) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٣٩٦/٢) رقم (٩٥٢) . كلهم من طريق عبد الله بن الوليد العجلي ، عن بكير بن شهاب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس بنحوه . وأخرجه الطبري في « تفسيره » (١٤/٧) رقم (٧٤١٧) . وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٣٩٧/٢) رقم (٩٥٣) . وعبد الرزاق في « تفسيره » (١٢٦/١) . والحاكم في « المستدرك » (٢٩٢/٢) كلهم من طريق سفيان الثوري ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس بنحوه مختصرًا .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٢] - في م : « على » ، والمثبت من خ ، ز .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٤] - في ز : « وقال » .
[٥] - في خ : « بعد » .

سقمه ، ليحرمنّ [أحب الطعام والشراب إليه][١] ، وكان أحب الطعام إليه لحم[٢] الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها » . فقالوا : اللَّهم نعم ، فقال[٣] : « اللَّهم اشهد عليهم » . وقال : « أنشدكم باللَّه ، الذي لا إله إلا هو ، الذي أنزل التوراة علىٰ موسىٰ ، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ ، وماء المرأة أصفر رقيق ، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن اللَّه ؛ إن علا ماء الرجل[٤] ماء المرأة كان ذكرًا بإذن اللَّه ، وإن علا ماء المرأة ماء الرجل كان أنثىٰ بإذن اللَّه » . قالوا : نعم ، قال : « اللَّهم اشهد عليهم » . وقال : « أنشدكم بالذي أنزل التوراة علىٰ موسىٰ ، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟ » . قالوا : اللَّهم نعم . قال « اللَّهم اشهد » . [قالوا : وأنت الآن محدثنا عن وليك من الملائكة ؟ فعندها نجامعك أو نفارقك][٥] . قال : « إن وليي جبريل ، ولم يبعث اللَّه نبيًّا قط إلا وهو وليه » . قالوا : [فعند ذلك][٦] نفارقك ، لو كان وليك غيره لتابعناك ، فعند ذلك قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ قل : من كان عدوًّا لجبريل ﴾ الآية .

ورواه أحمد أيضًا عن حسين بن محمد ، عن عبد الحميد به .

(طريق أخرىٰ) قال أحمد(١٨٩) : حدثنا أبو أحمد [ ][٧] الزبيري ، حدثنا عبد اللَّه بن الوليد العجلي ، عن بكير[٨] بن شهاب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ؛ قال : أقبلت يهود على رسول اللَّه ﷺ ، فقالوا : يا أبا القاسم ؛ إنا[٩] نسألك عن خمسة أشياء ؛ فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك ، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل علىٰ بنيه ، إذ قال : ﴿ واللَّه علىٰ ما نقول وكيل ﴾ قال : « هاتوا » قالوا : أخبرنا عن علامة النبي ؟ قال : « تنام عيناه ولا ينام قلبه » . قالوا : أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر ؟ قال : « يلتقي الماءان فإن[١٠] علا ماء الرجل ماء المرأة أذْكَرتْ ، وإن[١١] علا ماء المرأة أنثت » . قالوا : أخبرنا ما حرم إسرائيل علىٰ نفسه ؟ قال : « كان يشتكي عرق النسا فلم يجد شيئًا يلائمه إلا ألبان كذا وكذا - قال أحمد : قال بعضهم : يعني الإبل- فحرم لحومها قالوا : صدقت ، قالوا : أخبرنا ما هذا الرعد ؟ قال : « ملك من ملائكة اللَّه [عز وجل] موكل بالسحاب

(١٨٩) - رواه أحمد في « مسنده » (١/٢٧٤) ، والنسائي في الكبرى (٥/٣٣٦ - ٣٣٧) برقم (٩٠٧٢) . وانظر الحديث السابق .

[١] - ما بين المعكوفتين في خ ، ز : « أحب الشراب إليه ، وأحب الطعام إليه » .
[٢] - في ز : « لحمان » .
[٣] - في ز : « قال » .
[٤] - في خ ، ز : « على » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٦] - ما بين المعكوفتين في خ : « وعندها » ، وفي ز : « فعندها » .
[٧] - في ز ، خ : عن .
[٨] - في خ : « بكر » .
[٩] - سقط من : خ ، ز .
[١٠] - في خ ، ز : « فإذا » .
[١١] - في خ : « فإذا » ، وفي ز : « وإذا » .

بيده[١] **- أو في يديه**[٢] **- مخراق من نار يزجر به السحاب ، يسوقه حيث أمره اللَّه عز وجل »**. قالوا : فما هذا الصوت الذي يسمع ؟ قال : « **صوته** » . قالوا : صدقت ، إنما بقيت واحدة ، وهي التي نتابعك إن [أخبرتنا بها : إنه ليس من نبي][٣] إلا له ملك يأتيه بالخبر ، فأخبرنا من صاحبك ؟ قال : « **جبريل عليه السلام** » قالوا : جبريل ذاك ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا ، لو قلت : ميكائيل ، أي[٤] : الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان ، فأنزل اللَّه تعالىٰ[٥] : ﴿ **قل من كان عدوًّا لجبريل [فإنه نزله علىٰ قلبك بإذن اللَّه مصدقًا لما بين يديه وهدىٰ وبشرىٰ للمؤمنين]** ﴾ . [والآية بعدها][٦] .

وقد رواه الترمذي والنسائي من حديث عبد اللَّه بن الوليد العجلي به نحوه ، وقال الترمذي : حسن غريب .

وقال ابن جريج والعوفي(١٩٠) عن ابن عباس : كان إسرائيل عليه السلام- وهو يعقوب يعتريه عرق النسا بالليل ، وكان يقلقه ويزعجه عن النوم . ويقلع الوجع عنه بالنهار ؛ فنذر للَّه لئن عافاه اللَّه لا يأكل عرقًا ، ولا يأكل [ولد ما][٧] له عرق ، وهكذا قال الضحاك والسدي ، كذا رواه وحكاه ابن جرير في تفسيره ، قال : فاتبعه[٨] بنوه في تحريم ذلك ، استنانًا به ، واقتداءً بطريقه . قال : وقوله ﴿ **من قبل أن تنزل التوراة** ﴾ أي : حرّم ذلك علىٰ نفسه من قبل أن تنزل التوراة . قلت : ولهذ السياق بعد ما تقدم مناسبتان :

(إحداهما)[٩] أن إسرائيل، عليه السلام، حرم أحب الأشياء إليه[١٠] وتركها للَّه ، وكان هذا سائغًا في شريعتهم فله مناسبة بعد قوله : ﴿ **لن تنالوا البر حتىٰ تنفقوا مما تحبون** ﴾ فهذا هو المشروع عندنا ، وهو الإنفاق في طاعة اللَّه مما يحبه العبد ويشتهيه ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وآتىٰ المال علىٰ حبه** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **ويطعمون الطعام علىٰ حبه** ﴾ الآية .

(المناسبة الثانية) لما تقدم بيان[١١] الرد علىٰ النصارىٰ ، واعتقادهم الباطل في المسيح ، وتبين

(١٩٠) - ابن جريج لم يلق ابن عباس ، والعوفي : ضعيف . والطريق الأول عند ابن جرير في « تفسيره » (٧/ ١٠) رقم (٧٤٠٢) . والطريق الثاني عند ابن جرير في « تفسيره » (٧/١٠) رقم (٧٤٠١) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٣٩٨ ، ٣٩٩) رقم (٩٥٧) .

[١] - في ز : « بيديه » .
[٢] - في ز : « يده » .
[٣] - في ز : « أخبرتنا إنه ليس نبي » .
[٤] - سقط من : خ ، ز .
[٥] - في خ : « عز وجل » .
[٦] - في خ ، ز : « إلى آخر الآية » .
[٧] - في خ ، ز : « ولدًا » .
[٨] - في خ : « فاتبعته » .
[٩] - في خ : « أحديهما » .
[١٠] - سقط من : ز .
[١١] - سقط من : خ .

زيف ما ذهبوا إليه ، وظهر[١] الحق واليقين في أمر[٢] عيسىٰ وأمه ، وكيف خلقه اللَّه بقدرته ومشيئته ، وبعثه إلىٰ بني إسرائيل يدعو إلىٰ عبادة ربه تبارك وتعالىٰ ، شرع في الرد علىٰ اليهود قبحهم اللَّه تعالىٰ ، وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع ، فإن اللَّه تعالىٰ[٣] قد نص في كتابهم التوراة ، أن نوحًا عليه السلام لما خرج من السفينة ، أباح اللَّه له جميع دواب الأرض ، يأكل منها ، ثم بعد هذا حرم إسرائيل علىٰ نفسه لحمان[٤] الإبل وألبانها ، فاتبعه بنوه في ذلك ، وجاءت التوراة بتحريم ذلك ، وأشياء أخر زيادة علىٰ ذلك ، وكان اللَّه - عز وجل - قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه ، وقد حرم ذلك بعد ذلك ، وكان التسري علىٰ الزوجة مباحًا في شريعة إبراهيم عليه السلام وقد فعله الخليل[٥] في هاجر لما تسرىٰ بها علىٰ سارة ، وقد حرم مثل هذا في التوراة عليهم ، وكذلك كان[٦] الجمع بين الأختين سائغًا[٧] ، وقد فعله يعقوب عليه السلام جمع بين الأختين ، ثم حرم ذلك عليهم في التوراة ، وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم ، وهذا[٨] هو النسخ بعينه . فكذلك فليكن ما شرعه اللَّه للمسيح ، عليه السلام ، في إحلاله بعض ما حرم في التوراة ، فما بالهم لم يتبعوه ، بل كذبوه وخالفوه ؟ وكذلك ما بعث اللَّه به محمدًا ﷺ ، من الدين القويم والصراط المستقيم ، وملة أبيه إبراهيم ، فما بالهم لا يؤمنون ؟ ولهذا قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **كل الطعام كان حلًّا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل علىٰ نفسه من قبل أن تنزل التوراة** ﴾ أي : كان حلًّا لهم جميع الأطعمة ، قبل نزول التوراة ، إلا ما حرمه إسرائيل، ثم قال تعالىٰ : ﴿ **قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين** ﴾ أي[٩] : فإنها ناطقة بما قلناه . ﴿ **فمن افترىٰ علىٰ اللَّه الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون** ﴾ ، أي : فمن كذب علىٰ اللَّه ، وادعىٰ أنه شرع لهم السبت ، والتمسك بالتوراة دائمًا ، وأنه لم يبعث نبيًّا آخر يدعو إلىٰ اللَّه تعالىٰ بالبراهين والحجج ، بعد هذا الذي بيَّنَّاه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرناه ﴿ **فأولئك هم الظالمون** ﴾ .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **قل صدق اللَّه** ﴾ أي : قل يا محمد : صدق اللَّه[١٠] فيما أخبر به ، وفيما شرعه في القرآن ﴿ **فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين** ﴾ أي : اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها اللَّه[١١] في القرآن ، علىٰ لسان محمد ﷺ فإنه الحق الذي لا شك فيه ، ولا مرية ،

---

[١] - في خ : « السياق في » ، وفي ز « في».
[٢] - سقط من : ت .
[٣] - في خ : « عز وجل » .
[٤] - في ت : « لحوم » .
[٥] - في ت « إبراهيم » .
[٦] - سقط من : خ ، ز .
[٧] - في ز : « شائعًا » .
[٨] - في ز : « فهذا » .
[٩] - سقط من : ت .
[١٠] - سقط من : خ ، ز .
[١١] - سقط من : ز .

وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ، ولا أبين ولا أوضح ولا أتم ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **قل إنني هداني ربي إلىٰ صراط مستقيم دينًا قيمًا ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين** ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ **ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين** ﴾ .

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾

يخبر اللَّه تعالىٰ أن أول بيت وضع للناس ، أي: لعموم الناس ، لعبادتهم ونسكهم ، يطوفون به ، ويصلون إليه ، ويعتكفون عنده ﴿ **للذي ببكة** ﴾ يعني : الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام ، الذي يزعم كل من طائفتي اليهود والنصارىٰ أنهم علىٰ دينه ومنهجه ، ولا يحجون إلىٰ البيت الذي بناه عن أمر اللَّه له في ذلك ، ونادىٰ الناس إلىٰ حجه ؛ ولهذا قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **مباركًا** ﴾ أي وضع مباركًا ، ﴿ **وهدًى للعالمين** ﴾ .

وقد قال الإمام أحمد(١٩١) : حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه ، عن أبي ذر - رضي اللَّه عنه - قال : قلت : يارسول اللَّه ؛ أي مسجد وضع [في الأرض][١] أول ؟ قال : « **المسجد الحرام** » . قلت : ثم أي ؟ قال : « **المسجد الأقصىٰ** » قلت : كم بينهما ؟ قال : « **أربعون سنة** » . قلت : ثم أي ؟ قال : « **ثم**[٢] **حيث أدركتك الصلاة فصل فكلها مسجد** » .

وأخرجه البخاري ومسلم من حديث الأعمش به .

وقال ابن أبي حاتم(١٩٢) : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا شريك ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن علي رضي اللَّه عنه في قوله تعالىٰ : ﴿ **إن أول**

---

(١٩١) - رواه أحمد في « مسنده » (١٥٠/٥) . ورواه أحمد أيضًا (١٥٦/٥ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦٧) والبخاري في « صحيحه » كتاب الأنبياء ، باب (١٠) ، حديث (٣٣٦٦) . وحديث (٣٤٢٥) ، ومسلم في « صحيحه » ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث (٥٢٠) ، والنسائي في « سننه » (٣٢/٢) ، كتاب الأذان ، باب : ذكر أي مسجد وضع أولًا ، وابن ماجه في « سننه » ، كتاب المساجد والجماعات ، باب : أي مسجد وضع أولًا ، حديث (٧٥٣) ، كلهم من طرق عن الأعمش به .

(١٩٢) - أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٤٠٢/٢) رقم (٩٦٢) وإسناده ضعيف لضعف مجالد بن سعيد .

---

[١] - [٢] - سقط من : خ ، ز .

بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا ﴾ ، قال : كانت البيوت قبله ، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله .

وحدثنا أبي(١٩٣) ، حدثنا الحسن بن الربيع ، حدثنا أبو الأحوص ، عن سماك ، عن خالد بن عَرْعَرة ؛ قال : قام رجل إلىٰ علي رضي الله عنه فقال : ألا تحدثني عن البيت ؛ أهو أول بيت وضع في الأرض ؟ قال : لا ، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة ، مقام إبراهيم ، ومن[١] دخله كان آمنًا ، وذكر تمام الخبر في كيفية بناء إبراهيم البيت ، وقد ذكرنا ذلك مستقصى في أول[٢] سورة البقرة ؛ فأغنىٰ عن إعادته هنا[٣] .

وزعم السدي ، أنه أول بيت وضع علىٰ وجه الأرض مطلقًا ، والصحيح قول علي رضي الله عنه . فأما الحديث الذي رواه البيهقي(١٩٤) في بناء الكعبة ، في كتابه « **دلائل النبوة** » من طريق ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن أبي الخير ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا : **«بعث الله جبريل إلىٰ آدم وحواء فأمرهما ببناء الكعبة ، فبناه آدم ثم أمر بالطواف به ، وقيل له : أنت أول الناس ، وهذا أول بيت وضع للناس »** . فإنه كما ترىٰ من مفردات ابن لهيعة وهو ضعيف ، والأشبه - والله أعلم - أن يكون هذا موقوفًا علىٰ عبد الله بن عمرو ، ويكون من الزاملتين اللتين أصابهما يوم اليرموك من كلام أهل الكتاب .

وقوله تعالىٰ : **﴿ للذي ببكة ﴾** بكة من أسماء مكة علىٰ المشهور ، قيل : سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة ، بمعنىٰ [أنهم يذلون][٤] بها ، ويخضعون عندها . وقيل : لأن الناس يتباكون فيها ، أي : يزدحمون .

قال[٥] قتادة : إن الله بكَّ به الناس جميعًا ، فيصلي النساء أمام الرجال ، ولا يفعل ذلك ببلد غيرها . وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير [وعمرو بن شعيب ومقاتل بن حيان .

---

(١٩٣) - أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٤٠٣/٢) رقم (٩٦٤) ، والطبري (١٩/٧) رقم (٧٤٢٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٢٩٣/٢) من طريق سماك بن حرب ، عن خالد بن عرعرة ، عن علي بنحوه وصححه الحاكم ووافقه الذهبي . وأخرجه إسحاق بن راهويه ، من طريق خالد بن عرعرة ، بنحوه ، كما في « المطالب العالية » (٣١٣/٣) رقم (٣٥٦٥) . وخالد بن عرعرة هو السهمي الكوفي ذكره ابن أبي حاتم في « الجرح والتعديل » (٣٤٣/٣) برقم (١٥٤٧) ، وصرح بأنه روى عن علي ، وأن سماكًا روى عنه .

(١٩٤) - أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (٤٥/٢) وقال البيهقي : « تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعًا » . وذكره ابن كثير في « البداية والنهاية » (٣٦٥/٢ ، ٣٦٦) وقال : وهو ضعيف ، ووقفه على عبد الله بن عمرو أقوى وأثبت ، والله أعلم .

---

[١] - في خ : « من » .
[٢] - سقط من : خ ، ز .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في خ ، ز : « يبكون » .
[٥] - في خ : « وقال » .

وذكر حماد بن سلمة ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير][١] ، عن ابن عباس رضي اللَّه عنه قال : مكة من الفج إلىٰ التنعيم ، وبكة من البيت إلىٰ البطحاء . وقال شعبة ، عن المغيرة ، عن إبراهيم : بكة البيت والمسجد ، وكذا قال الزهري . وقال عكرمة في رواية ميمون بن مهران : البيت وما حوله بكة ، وما وراء ذلك مكة .

وقال [أبو مالك و][٢] أبو صالح ، وإبراهيم النخعي ، وعطية العوفي[٣] ، ومقاتل بن حيان : بكة : موضع البيت ، وما سوىٰ ذلك مكة .

وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة : مكة ، وبكة ، والبيت العتيق ، والبيت الحرام ، البلد الأمين ، والمأمون ، وأم رحم[٤] ، وأم القرىٰ ، وصلاح ، والعرش علىٰ وزن بدر ، والقادس لأنها تطهر من الذنوب ، والمقدسة ، والناسة بالنون وبالباء أيضًا ، والنسّاسة ، والحاطمة ، والرأس ، وكوثاء ، والبلدة ، والبنية ، والكعبة .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **فيه آيات بينات** ﴾ أي : دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم ، وأن اللَّه تعالى عظّمه وشرفه .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **مقام إبراهيم** ﴾ يعني الذي لما ارتفع البناء ، استعان به علىٰ رفع القواعد منه والجدران ، حيث كان يقف عليه ، ويناوله ولده إسماعيل ، وقد كان ملتصقًا بجدار البيت ، حتىٰ أخره عمر بن الخطاب - رضي اللَّه عنه - في إمارته إلىٰ ناحية الشرق ، بحيث يتمكن الطواف منه[٥] ، ولا يشوشون[٦] علىٰ المصلين عنده بعد الطواف، لأن اللَّه تعالىٰ قد أمرنا بالصلاة عنده ، حيث قال : ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلىٰ** ﴾ وقد قدمنا الأحاديث في ذلك(١٩٥) ؛ فأغنىٰ عن إعادتها هاهنا ، ولله الحمد والمنة . وقال العوفي ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ **فيه آيات بينات مقام إبراهيم** ﴾ أي : فيهن[٧] مقام إبراهيم والمشعر . وقال مجاهد : أثر قدميه في المقام آية بينة ، وكذا روي عن عمر بن عبد العزيز ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم . وقال أبو طالب في قصيدته [اللامية المشهورة][٨] :

وموْطِئ إبراهيم في الصخر رطبة ... علىٰ قدميه حافيًا غيرَ ناعلِ

(١٩٥) - تقدم تخريجها - سورة البقرة آية (١٢٥) .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٣] - سقط من : خ ، ز .
[٤] - في خ ، ز : « جم » .
[٥] - سقط من : ز .
[٦] - في خ : « يشوش » .
[٧] - في ت : « فمنهن » .
[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

وقال ابن أبي حاتم(١٩٦) : حدثنا أبو سعيد وعمرو الأودي ؛ قالا : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس في قوله تعالىٰ : ﴿ **مقام إبراهيم** ﴾ قال : الحرم كله مقام إبراهيم ، ولفظ عمرو : الحجر كله مقام إبراهيم . وروي عن سعيد بن جبير ؛ أنه قال : الحج مقام إبراهيم ، هكذا رأيته[١] في النسخة ؛ ولعله الحَجَر كله مقام إبراهيم هكذا[٢] . وقد صرح [بذلك مجاهد][٣] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **ومن دخله كان آمنًا** ﴾ ، يعني : حرم مكة ؛ إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء ، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية ، كما قال الحسن البصري وغيره : كان الرجل يقتل فيضع [في عنقه][٤] صوفة ، ويدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول ، فلا يهيجه[٥] [حتىٰ يخرج][٦] .

وقال ابن أبي حاتم (١٩٧) : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو يحيىٰ التيمي ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله تعالىٰ : ﴿ **ومن دخله كان آمنًا** ﴾ قال : من عاذ بالبيت أعاذه البيت ، ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقىٰ ؛ فإذا خرج أخذ بذنبه .

وقال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **ألم[٧] يروا أنا جعلنا حرمًا آمنا ويتخطف الناس من حولهم** ﴾ الآية . وقال تعالىٰ : ﴿ **فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** ﴾ . وحتىٰ إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها ، وتنفيره[٨] عن أوكاره ، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها ، كما ثبتت الأحاديث والآثار في ذلك عن جماعة من الصحابة مرفوعًا وموقوفًا . ففي الصحيحين ، واللفظ لمسلم ، عن ابن عباس رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ يوم فتح مكة : « **لا هجرة ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا** »(١٩٨) .

---

(١٩٦) - رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٤١٤/٢) رقم (١٠٠١) .

(١٩٧) - أخرجه ابن أبي حاتم (٤١٤/٢ - ٤١٥) رقم (١٠٠٤) وفي إسناده أبو يحيى التيمي ، وهو إسماعيل بن إبراهيم الأحول الكوفي ، ضعيف كما في « التقريب » . وفي إسناده أيضًا عطاء ابن السائب صدوق اختلط ، ولكنهما توبعا ، وباقي رجاله ثقات ، وبالمتابعات يرتقي إلى الحسن لغيره .

(١٩٨) - سبق تخريجه - سورة البقرة آية (٢١٦) .

---

[١] - في ز : « رأيت » .

[٢] - سقط من : ت .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٥] - في ز : « تهيجه » .

[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٧] - في خ ، ز : « أولم » .

[٨] - في خ : « تنفيرها » .

وقال يوم فتح مكة : « **إن هذا البلد حرّمه اللَّه يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة[١] اللَّه إلىٰ يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة اللَّه إلىٰ يوم القيامة لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلىٰ خلاها[٢]** » . فقال العباس : يارسول اللَّه ؛ إلا الإذخر ، فإنه لقينهم ولبيوتهم[٣] فقال : « **إلا الإذخر** »(١٩٩) .

ولهما عن أبي هريرة مثله أو نحوه(٢٠٠) .

ولهما[٤] (٢٠١) واللفظ لمسلم أيضًا عن أبي شريح[٥] العدوي ، أنه قال لعمرو بن سعيد ، وهو يبعث البعوث إلىٰ مكة ، ائذن لي أيها الأمير ، أن أحدثك قولًا قام به رسول اللَّه ﷺ الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناي ووعاه قلبي ، وأبصرته عيناي حين تكلم به أنه حمد اللَّه ، وأثنىٰ عليه ، ثم قال : « **إن مكة حرمها اللَّه ، ولم يحرمها الناس ؛ فلا يحل لامرئ يؤمن باللَّه واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا ، ولا يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص بقتال رسول اللَّه ﷺ فيها فقولوا : إن اللَّه أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب** » . فقيل لأبي شريح : ما قال لك عمرو[٦] ؟ قال : أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، إن الحرم لا يعيذ عاصيًا ، ولا فارًّا بدم ، ولافارًّا بخزية[٧] .

وعن جابر(٢٠٢) رضي اللَّه عنه قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **لا يحل لأحد[٨] أن يحمل [السلاح بمكة][٩]** » . رواه مسلم .

وعن عبد اللَّه بن عدي بن[١٠] الحمراء الزهري ؛ أنه سمع رسول اللَّه ﷺ واقفًا[١١]

---

(١٩٩) - سبق تخريجه - سورة البقرة آية (١٢٦) .

(٢٠٠) - سبق تخريجه - سورة البقرة آية (١٢٦) .

(٢٠١) - سبق تخريجه - سورة البقرة آية (١٢٦) .

(٢٠٢) - سبق تخريجه - سورة البقرة آية (١٢٦) .

---

[١] - في ز : « لحرمة » .

[٢] - في ز : « خلالها » .

[٣] - سقط من : خ ، ز .

[٤] - سقط من : خ ، ز .

[٥] - في ز : « سريج » .

[٦] - سقط من : خ ، ز .

[٧] - في خ : « بجزية » .

[٨] - في خ : « لأحدكم » .

[٩] - ما بين المعكوفتين في خ : « بمكة » .

[١٠] - سقط من : خ .

[١١] - في خ ، ز : « يقول وهو واقف » .

بالحزورة ، بسوق[١] مكة ، يقول[٢] : « **والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلىٰ الله ، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت** » .

رواه الإمام أحمد(٢٠٣) ، وهذا لفظه ، والترمذي والنسائي وابن ماجة ، وقال الترمذي : حسن صحيح ، وكذا صحح من حديث ابن عباس ونحوه(٢٠٤) ، وروىٰ أحمد عن أبي هريرة نحوه(٢٠٥) .

وقال ابن أبي حاتم(٢٠٦) : حدثنا أبي ، حدثنا بشر بن آدم ابن بنت أزهر السمان[٣] ، حدثنا أبو عاصم ، عن زريق بن مسلم الأعمىٰ ، مولىٰ بني مخزوم ، حدثني زياد بن أبي عياش ، عن يحيىٰ بن جعدة بن هبيرة ، في قوله تعالىٰ : ﴿ **ومن دخله كان آمنًا** ﴾ قال : آمنًا من النار .

وفي معنىٰ هذا القول الحديث الذي رواه البيهقي(٢٠٧) : أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان ، حدثنا أحمد بن عبيد ، حدثنا محمد بن سليمان الواسطي ، حدثنا سعيد بن

---

(٢٠٣) - **صحيح** ، رواه أحمد في « مسنده » (٣٠٥/٤) . والترمذي في « سننه » كتاب المناقب ، باب : ما جاء في فضل مكة ، حديث (٣٩٢١) ، والنسائي في « السنن الكبرى » (٤٧٩/٢ - ٤٨٠) برقم (٤٢٥٢، ٤٢٥٣) ، وابن ماجه في « سننه » كتاب : المناسك ، باب : فضل مكة ، حديث (٣١٠٨) ، والدارمي في « سننه » (٢٣٩/٢) ، كتاب : السير ، باب : إخراج النبي ﷺ من مكة ، وعبد بن حميد (ص ١٧٧ ، ١٧٨) رقم (٤٩١) ، وابن حبان في « صحيحه » (٢٢/٩ - الإحسان) رقم (٣٧٠٨)، والحاكم في « المستدرك » (٤٣١/٣) وصححه ووافقه الذهبي .

(٢٠٤) - أخرجه الترمذي في « سننه » كتاب : المناقب ، باب : ما جاء في فضل مكه ، حديث (٣٩٢٢) وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

(٢٠٥) - **صحيح** ، رواه أحمد في « مسنده » (٣٠٥/٤) ، والنسائي في « الكبرى » (٤٨٠/٢) رقم (٤٢٥٤) والبزار (٤٠/٢) « كشف الأستار » رقم (١١٥٦) .

(٢٠٦) - **إسناده ضعيف** ، أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٤١٨/٢) رقم (١٠١٣) . وأخرجه الطبري في « تفسيره » (٣٣/٧) رقم (٧٤٧٢) من طريق على بن مسلم ، عن أبي عاصم به . وفي إسناده : بشر بن آدم ابن بنت الأزهر السمان ، أبو عبد الرحمن ، صدوق فيه لين . وزريق بن مسلم ، وزياد بن أبي عياش لم أقف لهما على ترجمة . وإن كان زريق من رجال المسند ؛ إلا أن الحافظ لم يذكره في التعجيل ، فليستدرك.

(٢٠٧) - **ضعيف - لضعف عبد الله بن المؤمل** ، رواه البيهقي في « السنن الكبرى » (١٥٨/٥) . وأخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٠١/١١) برقم (١١٤٩٠) ، ومختصرًا في (١٧٧/١١) رقم (١١٤١٤) . والبزار في « مسنده » (٤٣/٢ - كشف الأستار) برقم (١١٦١) من طريق عبد الله بن المؤمل به . =

---

[١] - في ز : « في سوق » . [٢] - سقط من : خ .

[٣] - في ز : « السماك » .

سليمان ، حدثنا ابن المؤمل ، عن ابن محيصن ، عن عطاء ، عن عبد الله بن عباس ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « **من دخل البيت دخل في حسنة ، وخرج من سيئة ، وخرج مغفورًا له** » . ثم قال : تفرد به عبد الله بن المؤمل ، وليس بالقوي .

وقوله: ﴿**ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً**﴾ هذه آية وجوب الحج عند الجمهور. وقيل: بل هي قوله : ﴿ **وأتموا الحج والعمرة لله** ﴾ والأول أظهر .

وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعًا ضروريًا ، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع .

قال الإمام أحمد(٢٠٨) رحمه الله : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا الربيع بن مسلم القرشي، عن محمد بن زياد ، عن أبي هريرة ؛ قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « **أيها الناس ، قد فرض عليكم الحج فحجوا** » فقال رجل : أكل[١] عام يا رسول الله ، فسكت حتى قالها ثلاثًا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **لو قلت : نعم ، لوجبت ، ولما استطعتم** » . ثم قال : « **ذروني ما تركتكم ؛ فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، وإذا أمرتكم بشيء ، فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه** » .

ورواه مسلم ، عن زهير بن حرب ، عن يزيد بن هارون به نحوه .

وقد روى سفيان بن حسين ، وسليمان بن كثير ، وعبد الجليل بن حميد ، ومحمد بن أبي حفصة ، عن الزهري ، عن أبي سنان الدؤلي ، واسمه يزيد بن أمية ، عن ابن عباس [رضي الله عنه] قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، فقال[٢] « **يا أيها الناس ، إن الله كتب عليكم الحج** » . فقام الأقرع بن حابس ، فقال : يا رسول الله ، أفي كل عام ؟ فقال[٣] : « **لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ، ولن تستطيعوا أن تعملوا بها ، الحج مرة فمن زاد فهو تطوع** » .

= وذكره الهيثمي في « المجمع » (٢٩٦/٣) وقال : رواه الطبراني في الكبير ، والبزار بنحوه ، وفيه عبد الله بن المؤمل وثقه ابن سعد وغيره ، وفيه ضعف .

(٢٠٨) - صحيح ، رواه أحمد في « مسنده » (٥٠٨/٢) . وأخرجه مسلم في « صحيحه » ، كتاب : الحج ، حديث (١٣٣٧)

---

[١] - في خ ، ز : « لكل » .

[٢] - في ز : « قال » .

[٣] - في ز : « قال » .

ورواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي وابن ماجة ، والحاكم من حديث الزهري به(٢٠٩) .

ورواه شريك ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس بنحوه (٢١٠) . وروي من حديث أسامة بن زيد[١] .

وقال الإمام أحمد(٢١١) : حدثنا منصور بن وردان ، عن [علي بن عبد الأعلىٰ][٢] عن أبيه ، عن أبي البختري ، عن علي [رضي الله عنه] قال : لما نزلت : ﴿ **وللّه علىٰ الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلًا** ﴾ قالوا : يارسول الله ، أفي[٣] كل عام ؟ فسكت قالوا : يا رسول الله ، أفي[٤] كل عام ؟ قال : « **لا ، ولو قلت نعم لوجبت** » . فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ **يأيها الذين آمنوا ؛ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم** ﴾ .

وكذا[٥] رواه الترمذي ، وابن ماجة ، والحاكم ، من حديث منصور بن وردان به . ثم قال الترمذي : حسن غريب . وفيما قال نظر ؛ لأن البخاري قال : لم يسمع أبو البختري من علي .

---

(٢٠٩) - أخرجه أحمد في « مسنده » (٢٩٠/١ - ٢٩١) ، وبنحوه في (٣٧١/١ ، ٣٧١ - ٣٧٢) ، وأبو داود في « سننه » كتاب المناسك ، باب : فرض الحج ، حديث (١٧٢١) . والنسائي في « سننه » (١١١/٥) ، كتاب : المناسك ، باب : وجوب الحج . وابن ماجه في « سننه » كتاب : المناسك ، باب : فرض الحج ، حديث (٢٨٨٦) . والحاكم في « المستدرك » (٤٧٠/١) (٢٩٣/٢) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٣٢٦/٤) ، والدارقطني في « سننه » (٢٧٩/٢ ، ٢٨٠) ، والدارمي في « سننه » (٢٩/٢) كتاب : مناسك الحج ، باب : كيف وجوب الحج ؟ كلهم من طرق عن الزهري به .

(٢١٠) - أخرجه أحمد في « مسنده » (٢٩٢/١ ، ٣٠١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥) ، والدارمي في « سننه » (٢/ ٢٩) كتاب مناسك الحج ، باب : كيف وجوب الحج ؟ من طريق شريك ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن رجلًا قال : يا رسول الله ، الحج كل عام ؟ فقال : « **بل حجة علىٰ كل إنسان ، ولو قلت : نعم كل عام ، لكان كل عام** » . وأخرجه الدارقطني في « سننه » (٢١٨/٢ ، ٢٨١) من طريق سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس بنحوه .

(٢١١) - رواه أحمد في « مسنده » (١١٣/١) . والترمذي في « سننه » كتاب الحج ، باب : ما جاء كم فرض الحج ؟ حديث (٨١٤) ، وكتاب : تفسير القرآن ، باب : ومن سورة المائدة ، حديث (٣٠٥٧) ، وابن ماجه في « سننه » ، كتاب المناسك ، باب : فرض الحج ، حديث (٢٨٨٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٢٩٤/٢) ، والدارقطني في « سننه » (٢٨٠/٢) ، كلهم من طريق منصور بن وردان الأسدي .

---

[١] - في ز ، خ : يزيد .

[٢] - خ : « عبد الأعلى بن عبد الله علي » ، وفي ز : « عبد الأعلى بن عبد الأعلى » .

[٣] - [٤] - في خ ، ز : « فى » . [٥] - في خ : « وقد » .

وقال ابن ماجة(٢١٢) : حدثنا محمد بن عبد اللَّه بن نمير ، حدثنا محمد بن أبي عبيدة ، عن أبيه، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن أنس بن مالك ؛ قال : قالوا : يا رسول اللَّه ، الحج في كل عام ؟ قال : « **لو قلت نعم[١] لوجبت ، ولو وجبت لم تقوموا[٢] بها ، ولو لم تقوموا بها لعذبتم** » .

وفي[٣] الصحيحين(٢١٣) من حديث ابن جريج ، عن عطاء ، عن جابر ، عن سراقة بن مالك ؛ قال : يا رسول اللَّه ، متعتنا هذه لعامنا[٤] هذا[٥] أم للأبد ؟ قال : « **لا ، بل للأبد** » وفي رواية : « **بل لأبد الأبد** » .

وفي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود(٢١٤) ، من حديث واقد[٦] بن أبي واقد[٧] الليثي ، عن أبيه : أن رسول اللَّه ﷺ ، قال لنسائه في حجته هذه : « **ثم [ظهور الحصر][٨] - يعني ثم الزمن [ظهور الحصر][٩] - ولا تخرجن من البيوت** » .

وأما الاستطاعة فأقسام : تارة يكون الشخص مستطيعًا بنفسه ، وتارة بغيره ، كما هو مقرر في كتب الأحكام .

قال أبو عيسىٰ الترمذي(٢١٥) : حدثنا عبد[١٠] بن حميد ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا

(٢١٢) - **صحيح** . رواه في « سننه » كتاب المناسك ، باب : فرض الحج ، حديث (٢٨٨٥) . وقال البوصيري في الزوائد (٤/٣) : هذا إسناد صحيح ؛ لأن محمد بن أبي عبيدة بن معن بن عبد الرحمن بن عبد اللَّه بن مسعود ثقة وأبوه مثله . وذكره الشيخ الألباني في « الإرواء » (١٥١/٤) ، وفي صحيح سنن ابن ماجه برقم (٢٣٣٢) .

(٢١٣) - أخرجه البخاري في كتاب الحج ، باب : من أهلَّ في زمن النبي ﷺ كإهلال النبي ﷺ حديث (١٥٥٧) ، وطرفه (٢٥٠٥ ، ٢٥٠٦) ، و (٤٣٥٢) ، و(٧٣٦٧) . ومسلم في « صحيحه » ، كتاب : الحج ، حديث (١٢١٦) .

(٢١٤) - **صحيح** ، أخرجه أحمد في « مسنده » (٢١٩/٥) ، وأبو داود في « سننه » كتاب المناسك ، باب : فرض الحج ، حديث (١٧٢٢) . والحديث في « صحيح سنن أبي داود » للشيخ الألباني - حفظه اللَّه - (٣٢٤/١) رقم (١٥١٥) .

(٢١٥) - **ضعيف جدًا** ، رواه الترمذي في « سننه » كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة آل عمران ، حديث (٣٠٠١) ، ومختصرًا في كتاب الحج ، باب : ما جاء في إيجاب الحج بالزاد والراحلة =

[١] - سقط من : خ ، ز .
[٢] - في ز : « يقوموا » .
[٣] - في خ : « وقد » .
[٤] - في خ ، ز : « لعامتنا » .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - في خ : « وافد » .
[٧] - في خ : « وافد » .
[٨] - في خ ، ز : « الخضر » .
[٩] - ما بين المعكوفتين في خ ، ز : « الخضر » .
[١٠] - في خ : « عبيد » .

إبراهيم بن يزيد، قال[١]: سمعت محمد بن عبّاد بن جعفر، يحدّث عن ابن عمر [رضي الله عنهما] قال: قام رجل إلىٰ [رسول الله] ﷺ فقال: من الحاجّ يا رسول الله؟ قال: «الشَّعثُ التفِلُ». فقام آخر فقال: أي الحج أفضل يا [رسول الله]؟ قال: «العَجُّ والثَّجُّ». فقام آخر فقال: ما السبيل يا رسول الله؟ قال: «الزاد والراحلة».

وهكذا[٢] رواه ابن ماجة من حديث إبراهيم بن يزيد، وهو الخوزي. قال الترمذي: ولا نعرفه[٣] إلا من حديثه، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه، كذا قال هاهنا، وقال في كتاب الحج: هذا حديث حسن. لا يشك[٤] أن هذا الإسناد رجاله كلهم ثقات، سوىٰ الخوزي هذا، وقد تكلموا فيه من أجل هذا الحديث، لكن قد تابعه غيره، فقال ابن أبي حاتم (٢١٦): حدثنا أبي، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله العامري، حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي، عن محمد بن عباد بن جعفر قال: جلست

= حديث (٨١٣). وابن ماجه في «سننه» كتاب المناسك، باب: ما يوجب الحج، حديث (٢٨٩٦)، والطبري في «تفسيره» (٣٩/٧، ٤٠) رقم (٧٤٨٤، ٧٤٨٥)، والشافعي في «مسنده» (٤٨٧/١) رقم (٧٤٤) وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥٣٥/٤)، والدارقطني في «سننه» (٢١٧/٢)، والبيهقي في «سننه» (٣٣٠/٤). كلهم من طريق إبراهيم بن يزيد الخوزي، عن محمد بن عباد بن جعفر، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - به. وإبراهيم بن يزيد: ضعيف ؛ قال البيهقي: «ضعفه أهل العلم بالحديث، وقد تابعه محمد بن عبد الله ابن عبيد بن عمير عن محمد بن عباد، إلا أنه أضعف، من إبراهيم بن يزيد، ورواه أيضًا محمد بن الحجاج، عن جرير بن حازم، عن محمد بن عباد، ومحمد بن الحجاج متروك». اهـ. ومدار الحديث على إبراهيم بن يزيد الخوزي، وهو متروك الحديث، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك - انظر: «تهذيب التهذيب» (١٥٧/١) رقم (٣٢٧)، و«الضعفاء» (٧٠/١) رقم (٧٢) وأشار إليه ابن عدي في «الكامل» (٢٢٢٦/٦). وأعله بمحمد بن عبد الله الليثي، وأسند تضعيفه عن النسائي وابن معين ثم قال: والحديث معروف من طريق إبراهيم بن يزيد ... وهو من هذا الطريق غريب.

وله طريق أخرى عن ابن عمر فقد قال ابن أبي حاتم في العلل (٢٩٧/١): «سألت على بن الحسين بن الجنيد، عن حديث رواه سعيد بن سلام العطار، عن عبد الله بن عمر العمري، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾ قال: «الزاد والراحلة» قال: هذا حديث باطل. وذكره الشيخ الألباني - حفظه الله - في «إرواء الغليل» (١٦٠/٤ : ١٦٧) وضعفه.

(٢١٦) - **حسن لغيره**. في إسناده محمد بن عبد الله بن عمير الليثي، روى ابن أبي حاتم عن ابن معين: أن حديثه ليس بشيء، وعن أبيه: ليس بذاك الثقة ضعيف الحديث، وعن أبي زرعة: لين الحديث، ومرة أخرى: ليس بقوي. انظر: «الجرح والتعديل» (٣٠٠/٧) رقم (١٦٢٧) ولكنه توبع، وله شواهد أيضًا فيكون الإسناد حسنًا لغيره. والحديث أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤٢٢/٢) رقم (١٠١٧)=

---

[١] - سقط من: خ، ز.
[٢] - في خ: «هكذا».
[٣] - في خ: «يرفعه».
[٤] - في ز: «يوشك».

إلىٰ عبد اللّٰه بن عمر قال : جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال له : ما السبيل ؟ قال : « **الزاد والراحلة** » . وهكذا[١] رواه ابن مردويه ، من رواية محمد بن عبد اللّٰه بن عبيد بن عمير[٢] به .

ثم قال ابن أبي حاتم(٢١٧) : وقد روي عن ابن عباس وأنس ، والحسن ومجاهد ، وعطاء وسعيد ابن جبير ، والربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك .

وقد روي هذا الحديث من طرق أخرىٰ[٣] ، من حديث أنس(٢١٨) وعبد اللّٰه بن عباس(٢١٩) ،

= وانظر الحديث السابق .

(٢١٧) - انظر ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٤٢٣/٢ : ٤٢٥) برقم (١٠١٨ : ١٠٢٥) .

(٢١٨) - **ضعيف** . أخرجه الدارقطني في « سننه » (٢١٦/٢) والحاكم في « المستدرك » (٤٤٢/١) من طريق علي بن العباس ، ثنا علي بن سعيد بن مسروق الكندي ، ثنا ابن أبي زائدة ، عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن أنس ، به ، وقال الحاكم : « صحيح على شرط الشيخين ، وقد تابع حماد بن سلمة سعيدًا على روايته عن قتادة » . ثم ساقه الحاكم من طريق أبي قتادة الحراني ، عن حماد بن سلمة ، عن قتادة به ، ثم قال : « هذا صحيح على شرط مسلم » ووافقه الذهبي في كل ذلك .

ولكن خالف البيهقيُ الحاكمَ في ذلك فقال في « سننه الكبرى » (٣٣٠/٤) بعد أن علقه من طريق سعيد بن أبي عروبة به : « ولا أراه إلا وهمًا ، فقد أخبرنا ...» . ثم ساق البيهقي إسناده إلى جعفر بن عون : أنبا سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن قال : ... فذكره مرفوعًا مرسلًا ، وقال : « هذا هو المحفوظ عن قتادة ، عن الحسن ، عن النبي ﷺ مرسلًا ، وكذلك رواه يونس بن عبيد ، عن الحسن » . وقد رواه الدارقطني في « سننه » (١٨/٢) من طريق يونس بن عبيد ، عن الحسن مرسلًا .

(٢١٩) - **ضعيف** . أخرجه ابن ماجه في « سننه » كتاب المناسك ، باب : ما يوجب الحج ، حديث (٢٨٩٧) . قال : حدثنا سويد بن سعيد ، ثنا هشام بن سليمان القرشي ، عن ابن جريج قال : وأخبرنيه أيضًا عن ابن عطاء ، عن عكرمة عنه وفيه ابن عطاء ، وهو عمر بن عطاء بن وراز ، قال ابن معين : عمر بن عطاء الذي يروي عنه ابن جريج يحدث عن عكرمة ليس بشيء ، وهو ابن وراز وهم يضعفونه ، وقال النسائي : « ضعيف » . وذكره ابن عدي في « الكامل » (١٦٨٢/٥) ثم قال : « وهو قليل الحديث ، ولا أعلم يروي عنه غير ابن جريج » . وانظر : « تهذيب التهذيب » (٤٢٥/٧) رقم (٨٠٤) ، و« التقريب » (ص ٤١٦) رقم (٤٩٤٩) . وفيه أيضًا - هشام بن سليمان القرشي وجده عكرمة بن خالد بن العاص المخزومي . قال ابن أبي حاتم في « الجرح والتعديل » (٦٢/٩) رقم (٢٤٤) عن أبيه : « مضطرب الحديث ومحله الصدق ، ما أرى به بأسًا » . وفيه أيضًا - سويد بن سعيد هو الحدثاني قال الحافظ : « صدوق في نفسه ، إلا أنه عمي فصار يتلقن ما ليس من حديثه وأفحش فيه ابن معين القول » انظر « تهذيب التهذيب » (٢٣٩/٤) رقم (٤٨١) . وأخرجه الدارقطني في « سننه » (٢١٨/٢) والبيهقي (٣٣١/٤) من طريق هشام ابن سليمان وعبد المجيد ، عن ابن جريج قال : أخبرني عمر بن عطاء ، عن عكرمة ، عن ابن عباس مثل =

[١] - في ز : « كذا » .

[٢] - في خ : « عمر » . [٣] - في خ : « أخر » .

وابن مسعود(٢٢٠) ، وعائشة(٢٢١) ، كلها[١] مرفوعة ، ولكن في أسانيدها مقال ، كما هو مقرر في كتاب الأحكام ، والله أعلم .

وقد اعتنىٰ الحافظ أبو بكر بن مردويه بجمع طرق هذا الحديث ، ورواه الحاكم(٢٢٢) من حديث أبي[٢] قتادة ، عن حماد بن سلمة ، عن قتادة ، عن أنس أن رسول الله ﷺ سئل[٣] عن قول الله عز وجل : ﴿ **من استطاع إليه سبيلًا** ﴾ فقيل : ما السبيل ؟ قال : « **الزاد والراحلة** » . ثم قال : صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه .

وقال ابن جرير(٢٢٣) : حدثني يعقوب ، حدثنا ابن علية ، عن يونس ، عن الحسن قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **ولله علىٰ الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلًا** ﴾ قالوا : يا رسول الله ، وما[٤] السبيل ؟ قال : « **الزاد والراحلة** » .

ورواه وكيع في تفسيره ، عن سفيان ، عن يونس به (٢٢٤) .

وقال الإمام أحمد(٢٢٥) : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا الثوري ، عن إسماعيل - وهو

= قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « السبيل : الزاد والراحلة » موقوفًا على ابن عباس .

(٢٢٠) - **ضعيف** . أخرجه الدارقطني في « سننه » (٢/٢١٦) من طريق بهلول بن عبيد ، عن حماد بن أبي سليمان ، عن إبراهيم بن علقمة ، عن عبد الله عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلًا** ﴾ قال : قيل : يا رسول الله ما السبيل ؟ قال : « **الزاد والراحلة** » . وفيه بهلول بن عبيد قال أبو حاتم : « ضعيف الحديث ذاهب » وقال ابن حبان : « يسرق الحديث » وقال الحاكم : « روى أحاديث موضوعة » انظر « لسان الميزان » (٢/٧٨) رقم (١٧٩٢) و« الميزان » (١/٣٥٥) رقم (١٣٣٠) .

(٢٢١) - **ضعيف** . أخرجه العقيلي في « الضعفاء » (٣/٣٣٢) رقم (١٣٥٣) . والدارقطني في « سننه » (٢/٢١٧) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٤/٣٣٠) من طريق عتاب بن أعين ، عن سفيان الثوري ، عن يونس بن عبيد ، عن الحسن ، عن أمه عن عائشة ، به . وقال العقيلي : « عتاب في حديثه وهم » . وانظر « الجرح والتعديل » (٧/١٢) رقم (١٢) و« لسان الميزان » (٤/١٥٠) رقم (٥٥٣٣) . و« الميزان » (٣/٤٢٤) رقم (٥٤٦٥) .

(٢٢٢) - في « المستدرك » (١/٤٤٢) .

(٢٢٣) - رواه ابن جرير في « تفسيره » (٧/٤٠) رقم (٧٤٨٦) . وأخرجه الدارقطني في « سننه » (٢/١٨) ، والبيهقي في « سننه » (٤/٣٢٧ ، ٣٣٠) وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٤/٥٣٦) من طرق عن الحسن ، به . وذكره السيوطي في « الدر » (٢/٩٩) وزاد عزوه إلى سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر . ولم ينسبه إلى وكيع في تفسيره .

(٢٢٤) - انظر السابق .

---

[١] - في ت : « وكلها » .

[٢] - سقط من : خ .

[٣] - سقط من : خ ، ز .

[٤] - في خ ، ز : « ما » .

أبو إسرائيل الملائي - عن فضيل - يعني ابن عمرو - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « **تعجلوا إلى الحج - يعني الفريضة فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له** ».

وقال أحمد أيضًا (٢٢٦) : حدثنا أبو معاوية، حدثنا الحسن بن عمرو الفقيمي، عن مهران ابن أبي صفوان عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « **من أراد الحج فليتعجل** ».

ورواه[١] أبو داود، عن مسدد، عن أبي معاوية الضرير به.

وقد روى [وكيع و][٢] ابن جرير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ **من استطاع إليه سبيلًا** ﴾ قال: من ملك ثلاثمائة درهم فقد استطاع إليه سبيلًا(٢٢٧).

وعن عكرمة مولاه أنه قال: السبيل الصحة.

وروى وكيع بن الجراح، عن أبي جناب - يعني الكلبي - عن الضحاك بن مزاحم، عن ابن عباس قال: ﴿ **من استطاع إليه سبيلًا** ﴾ قال: قال: الزاد والبعير.

وقوله تعالى: ﴿ **ومن كفر فإن الله غني عن العالمين** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أي: من[٣] جحد فريضة الحج فقد كفر، والله غني عنه.

وقال سعيد بن منصور عن سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن عكرمة قال: لما نزلت: ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه** ﴾ قالت اليهود: فنحن مسلمون. قال الله عز

---

(٢٢٥) - **ضعيف**. أخرجه أحمد في « مسنده » (٣١٣/١، ٣١٤). وأخرجه ابن ماجه في « سننه » كتاب المناسك، باب: الخروج إلى الحج، حديث (٢٨٨٣). والبيهقي في « سننه » (٣٤٠/٤) والطبراني في « الكبير » (٢٨٧/١٨ - ٢٨٨) رقم (٧٣٧). من طريق أبي إسرائيل الملائي، عن فضيل بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن الفضل بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « **من أراد الحج فليتعجل، فإنه قد يمرض المريض وتضل الضالة وتعرض الحاجة** ».

وأخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٩٦/١٨) رقم (٧٦٠) من طريق أبي إسرائيل عن فضيل بن عمرو عن سعيد بن جبير عن الفضل بن عباس، به. وفيه أبو إسرائيل الملائي وهو: إسماعيل بن خليفة العبسي معروف بكنيته، وقيل: اسمه عبد العزيز، صدوق سيئ الحفظ نُسب إلى الغلو في التشيع. « التقريب ».

(٢٢٦) - رواه أحمد في « مسنده » (٢٢٥/١). وأخرجه البيهقي في « السنن الكبرى » (٣٣٩/٤ - ٣٤٠) من طريق أبي معاوية بهذا الإسناد. وأخرجه أبو داود في « سننه » كتاب: المناسك حديث (١٧٣٢).

(٢٢٧) - أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٥٣٦/٤).

---

[١] - في خ: « وقال ».

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من: خ.

[٣] - في خ: « ومن ».

وجل : فأخصمهم فحُجُّهم[١] ، يعني قال[٢] لهم النبي ﷺ : « **إن الله فرض على الناس[٣] حج البيت من استطاع إليه سبيلًا** » . فقالوا : لم يكتب علينا ، وأبوا أن يحجوا ، قال الله تعالىٰ : ﴿ **ومن كفر فإن الله غني عن العالمين** ﴾ (٢٢٨) .

وروىٰ[٤] ابن أبي نجيح عن مجاهد نحوه (٢٢٩) .

وقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود ، حدثنا مسلم بن إبراهيم وشاذ بن فياض قالا : حدثنا هلال أبو هاشم الخراساني ، حدثنا أبو إسحاق الهمداني ، عن الحارث ، عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من ملك زادًا و راحلة ولم يحج بيت الله ؛ فلا يضره مات يهوديًّا أو نصرانيًّا ، وذلك[٥] بأن الله قال : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلًا ، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾** (٢٣٠) . ورواه ابن جرير ، من حديث مسلم بن إبراهيم به .

وهكذا رواه ابن أبي حاتم ، عن أبي زرعة ، الرازي ، حدثنا هلال بن الفياض ، حدثنا

---

(٢٢٨) - أخرجه الطبري في « تفسيره » (٥٧١/٦) رقم (٧٣٥٦ ، ٧٣٥٧ ، ٧٣٥٨) و(٥٠/٧) برقم (٧٥١٨) . من طرق عن ابن أبي نجيح عن عكرمة ، به .

(٢٢٩) - ذكره السيوطي « الدر » (١٠١/٢) وعزاه إلى عبد بن حميد والبيهقي في « سننه » عن مجاهد به.

(٢٣٠) - **ضعيف جدًّا** . في إسناده شاذ بن فياض هو أبو عبيدة اليشكري البصري كان اسمه هلالًا وعزاه السيوطي إلى سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي في سننه عن عكرمة . فغلب عليه شاذ ، صدوق له أوهام كما في « التقريب » . وفي إسناده أيضًا : هلال بن عبد الله أبوهاشم الخراساني مولى ربيعة بن مسلم الباهلي البصري ، متروك من السابعة « التقريب » وفي إسناده الحارث وهو الأعور : ضعيف . وأبو إسحاق هو السبيعي لم يصرح بالسماع . والحديث أخرجه الترمذي في « سننه » كتاب : الحج ، باب : ما جاء في التغليظ في ترك الحج رقم (٨١٢) . وابن جرير الطبري في « تفسيره » (٤١/٧ - ٤٢) رقم (٧٤٨٧ ، ٧٤٨٩) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٤٢١/٢) رقم (١٠١٦) كلهم من طرق عن هلال أبي هاشم الخراساني به .

وأورده الذهبي من طريق مسلم بن إبراهيم ، عن هلال بن عبد الله الباهلي ، به ، ثم قال : « وقد جاء بإسناد آخر أصلح من هذا » « ميزان الاعتدال » (٤٤٠/٥) رقم (٩٢٧٢) . وذكره ابن الجوزي في « الموضوعات » (٢٠٩/٢) وعقب عليه بقوله : أما حديث علي فقال الترمذي : هلال بن عبد الله مجهول ، وأما الحارث فقد كذبه الشعبي وغيره . وذكره الزيلعي في « نصب الراية » (٤١٠/٤ - ٤١١) من حديث علي ، وأبي أمامة الباهلي ، وابن مسعود ، وأبي هريرة لكن لم يصح منها شيء .

---

[١] - يعني : حاججهم ، وخاصمهم .

[٢] - في خ : « فقال » .

[٣] - في خ : « المسلمين » .

[٤] - في خ : « وقال » .

[٥] - في خ : « ذلك » .

هلال أبو هاشم الخراساني ... فذكره بإسناده[١] مثله .

ورواه الترمذي عن محمد بن يحيىٰ القطعي ، عن مسلم بن إبراهيم ، عن هلال بن عبد اللَّه - مولىٰ ربيعة بن عمرو بن مسلم الباهلي به ، وقال : هذا[٢] حديث غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وفي إسناده مقال ، وهلال مجهول ، والحارث يضعف في الحديث .

وقال البخاري : هلال هذا منكر الحديث . وقال ابن عدي : هذا الحديث ليس بمحفوظ .

وقد روىٰ أبو بكر الإسماعيلي الحافظ ، من حديث أبي[٣] عمرو الأوزاعي ، حدثني إسماعيل ابن عبيد[٤] اللَّه بن أبي المهاجر ، حدثني عبد الرحمن بن غنم[٥] ، أنه[٦] سمع عمر ابن الخطاب رضي اللَّه عنه يقول : من أطاق الحج فلم يحج ؛ فسواء عليه [مات يهوديًا][٧] أو نصرانيًا(٢٣١) .

وهذا إسناد صحيح إلىٰ عمر رضي اللَّه عنه وروىٰ سعيد[٨] بن منصور في سننه[٩] ، عن[١٠] الحسن البصري قال: قال عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه : لقد هممت أن أبعث رجالًا إلىٰ هذه الأمصار ، فينظروا إلىٰ[١١] كل من كان عنده[١٢] جدة[١٣] ولم يحج ، فيضربوا عليهم الجزية ، ما هم بمسلمين ، ماهم بمسلمين (٢٣٢) .

قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ

(٢٣١) - ذكره السيوطي في « الدر » (٢/١٠٠) وعزاه إلى سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، عن عمر بن الخطاب قال : من مات وهو موسر لم يحج فليمت إن شاء يهوديًا ، وإن شاء نصرانيًا .

(٢٣٢) - ذكره السيوطي في « الدر » (٢/١٠٠) وعزاه إلى سعيد بن منصور بسند صحيح عن عمر بن الخطاب .

[١] - في خ : « بإسناد » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - في خ ، ز : « عبد » .
[٥] - في خ ، ز : « غنيم » .
[٦] - سقط من : خ .
[٧] - ما بين المعكوفتين في خ : « يهوديًا مات » .
[٨] - في ز : « سعد » .
[٩] - في خ : « سنده » .
[١٠] - في خ ، ز : « عن ... عن » .
[١١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[١٢] - في خ ، ز : « له » .
[١٣] - الجدة : الاستطاعة .

﴿شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

هذا تعنيف من اللّٰه تعالىٰ للكفرة[١] - أهل الكتاب-؛ علىٰ عنادهم للحق وكفرهم بآيات اللّٰه ، وصدهم عن سبيله[٢] من أراده من أهل الإيمان ؛ بجهدهم وطاقتهم مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من اللّٰه ، بما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين ، والسادة المرسلين ، صلوات اللّٰه وسلامه عليهم أجمعين ، وما بشروا به ونوّهوا به[٣] من ذكر النبي الأمي الهاشمي العربي المكي ، سيد ولد آدم ، وخاتم الأنبياء ، ورسول رب الأرض والسماء ، وقد توعدهم اللّٰه تعالى علىٰ ذلك ، وأخبرهم[٤] بأنه شهيد علىٰ صنيعهم ذلك ، بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء ، ومقاتلتهم الرسول المبشر به[٥] بالتكذيب والجحود والعناد ، فأخبر[٦] تعالىٰ أنه ليس بغافل عما يعملون ؛ أي : سيجزيهم[٧] علىٰ ذلك ﴿ **يوم لا ينفع[٨] مال ولابنون** ﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

يحذر تبارك وتعالىٰ عباده المؤمنين ؛ من[٩] أن يطيعوا طائفة من أهل[١٠] الكتاب ، الذين يحسدون المؤمنين علىٰ ما آتاهم اللّٰه من فضله ، وما منحهم من إرسال رسوله ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم[١١] من[١٢] بعد إيمانكم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم** ﴾ الآية[١٣] . وهكذا قال هاهنا : ﴿ **إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين** ﴾ ، ثم قال تعالىٰ : ﴿ **وكيف تكفرون وأنتم تتلىٰ عليكم آيات اللّٰه وفيكم رسوله** ﴾ يعني : أن الكفر بعيد منكم ، وحاشاكم منه ؛ فإن آيات اللّٰه تنزل علىٰ رسوله ليلًا ونهارًا ، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم ، [وهذا كقوله

---

[١] - في خ : « لكفرة » .
[٢] - في ت : سبيل الله » .
[٣] - سقط من : خ ، ز .
[٤] - سقط من : خ ، ز .
[٥] - سقط من : خ ، ز .
[٦] - في خ ، ز : « وأخبر » .
[٧] - في خ ، ز : « وسيجزيهم » .
[٨] - في خ ، ز : « ينفعهم ».
[٩] - في خ : « عن » .
[١٠] - في خ ، ز : « الذين أوتوا » .
[١١] - في خ : « يردوكم » .
[١٢] - سقط من : خ .
[١٣] - سقط من : خ ، ز .

تعالىٰ : ﴿ **وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ الآية بعدها . و][١] كما جاء في هذا[٢] الحديث أن النبي[٣] صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال [لأصحابه يومًا][٤] : « **أي المؤمنين أعجب إليكم إيمانًا** ». قالوا : الملائكة . قال : [« **وكيف لا يؤمنون [وهم عند ربهم؟!** ». وذكروا الأنبياء قال :][٥] « **وكيف لا يؤمنون][٦] والوحي ينزل عليهم** ». قالوا : نحن[٧] . قال : « **وكيف لا تؤمنون ، وأنا بين أظهركم** ». قالوا : فأي الناس أعجب إيمانًا ؟ قال : « **قوم يجيئون من بعدكم ، يجدون صحفًا يؤمنون بما فيها** » (٢٣٣) .

وقد ذكرت سند هذا الحديث ، والكلام عليه في أول شرح البخاري ، ولله الحمد .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ومن يعتصم بالله فقد هدي إلىٰ صراط مستقيم** ﴾ أي : ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية ، والعدّة في مباعدة الغواية ، والوسيلة إلىٰ الرشاد ، وطريق السداد ، وحصول المراد .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

قال ابن أبي حاتم(٢٣٤) : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن ، عن سفيان ، وشعبة ، عن زبيد اليامي ، عن مرّة ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - : ﴿ **اتقوا الله حق تقاته** ﴾ قال : أن يطاع فلا يعصىٰ ، وأن يذكر فلا ينسىٰ ، وأن يشكر فلا يكفر ، وهذا إسناد صحيح موقوف .

---

(٢٣٣) - سبق تخريجه في سورة البقرة آية رقم (٣) .

(٢٣٤) - **إسناده صحيح** . أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٤٤٦/٢) رقم (١٠٧٩) . وأخرجه عبد الرزاق في « تفسيره » (١٢٩/١) والطبري في « تفسيره » (٦٥/٧) برقم (٧٥٣٦ ، ٧٥٣٧) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٩٣/٩) رقم (٨٥٠١) ، والحاكم في « المستدرك » (٢٩٤/٢) . من طريق زبيد اليامي عن مرة ، عن عبد الله بن مسعود .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٢] - سقط من : خ ، ز .

[٣] - سقط من : خ .

[٤] - في خ ، ز : « يومًا لأصحابه » .

[٥] - من بين المعكوفتين سقط من : ز .

[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٧] - في خ ، ز : « فنحن » .

[وقد تابع مرة عليه عمرو بن ميمون ، عن ابن مسعود][١] ، وقد رواه ابن مردويه من حديث يونس بن عبد الأعلىٰ ، عن ابن وهب ، عن سفيان الثوري ، عن زبيد ، عن مرّة ، عن عبد اللّٰه قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : ﴿ **اتقوا اللّٰه حق تقاته** ﴾ أن يطاع فلا يعصىٰ ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسىٰ .

وكذا[٢] رواه الحاكم في مستدركه ، من حديث مسعر ، عن زبيد ، عن مرة ، عن ابن مسعود مرفوعًا... فذكره ، ثم قال : صحيح علىٰ شرط الشيخين ، ولم يخرجاه . كذا قال . والأظهر أنه موقوف ، واللّٰه أعلم .

ثم قال ابن أبي حاتم(٢٣٥) : وروي نحوه عن مرة الهمداني والربيع بن خثيم، وعمرو بن ميمون وإبراهيم [النخعي ، وطاوس والحسن ، وقتادة وأبي سنان والسدي نحو ذلك .

[وروي عن أنس أنه قال: لا يتقي اللّٰه العبدُ حق تقاته؛ حتىٰ يخزن لسانه .][٣] وقد ذهب سعيد بن جبير[٤] وأبو [٥] العالية، والربيع بن أنس وقتادة، ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم ، والسدي وغيرهم إلىٰ أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالىٰ : ﴿ **فاتقوا اللّٰه ما استطعتم** ﴾ .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله تعالىٰ : ﴿ **اتقوا اللّٰه حق تقاته** ﴾ قال : لم تنسخ ، ولكن : ﴿ **حق تقاته** ﴾ أن يجاهدوا[٦] في سبيله حق جهاده ، ولا تأخذهم في اللّٰه لومةُ لائم ، ويقوموا بالقسط ولو علىٰ أنفسهم وآبائهم وأبنائهم .

وقوله : ﴿ **ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ أي : حافظوا علىٰ الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه ؛ فإن الكريم قد أجرىٰ عادته بكرمه ، أنه من عاش علىٰ شيء مات عليه ومن مات علىٰ شيء بعث عليه ، فعياذًا[٧] باللّٰه من خلاف ذلك .

وقال الإمام أحمد (٢٣٦) : حدثنا روح ، حدثنا شعبة ، قال : سمعت سليمان ، عن

---

(٢٣٥) - رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٤٤٦ - ٤٤٧) برقم (١٠٨٠ : ١٠٨٨) .

(٢٣٦) - **إسناده صحيح** ، أخرجه أحمد في « مسنده » (١/٣٠١) وبنحوه في (١/٣٣٨) وأخرجه الترمذي في « سننه » كتاب صفة جهنم ، باب : ما جاء في صفة شراب أهل النار ، رقم (٢٥٨٨) ، والنسائي في التفسير « السنن الكبرى » (٦/٣١٣) برقم (١١٠٧٠) . وابن ماجه في « سننه » كتاب : الزهد =

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٢] - في خ : « وقد » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٥] - في ز ، خ : « وأبي » .

[٦] - في خ ، ز : « يجاهد » .

[٧] - في ز : « فعياذ » .

مجاهد ، أن الناس كانوا يطوفون بالبيت ، وإن[١] ابن عباس جالس معه محجن(*) ، فقال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللَّه حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، ولو أن قطرة من الزقوم قطرت [في دار الدنيا][٢] ؛ لأفسدت[٣] على أهل الدنيا[٤] معايشهم[٥] فكيف بمن ليس له طعام إلا من[٦] الزقوم** » .

وكذا[٧] رواه الترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه ، من طرق عن شعبة به ، وقال الترمذي : حسن صحيح . وقال الحاكم : على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

وقال الإمام أحمد(٢٣٧) : حدثنا وكيع ، حدثنا الأعمش ، عن زيد بن وهب ، عن عبد الرحمن ابن عبد رب الكعبة ، عن عبد اللَّه بن عمرو قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ؛ فلتدركه منيته وهو يؤمن[٨] باللَّه واليوم الآخر ، ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه** » .

وقال الإمام أحمد أيضًا[٩] (٢٣٨) : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن أبي سفيان ،

= باب : صفة النار ، حديث (٢٥٨٥) ، وابن حبان في صحيحه (٥١١/١٦ - الإحسان) برقم (٧٤٧٠) والطبراني في « الكبير » (٦٨/١١) رقم (١١٠٦٨) ، و « الصغير » (٥١/٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٢٩٤/٢) . وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٤٥٠/٢ - ٤٥١) رقم (١٠٩٨) والبغوي في « شرح السنة » (٢٤٦/١٥) رقم (٤٤٠٨) ، والطيالسي في « مسنده » ص (٣٤٤) رقم (٢٦٤٣) ، والبيهقي في « البعث » (ص ٣٠٢) برقم (٥٤٣) كلهم من طرق عن شعبة ، به .

(*) - المحجن : العصا المعوجة . «القاموس ح ج ن » .

(٢٣٧) - **إسناده صحيح** . أخرجه أحمد في « مسنده » (١٩٢/٢) . وبنحوه في (١٦١/٢) . وأخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب : الإمارة ، حديث (٤٦/١٨٤٤) من طرق عن الأعمش به .

وأخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب : الإمارة ، حديث ٤٧ - (١٨٤٤) من طريق عبد اللَّه بن أبي السفر ، عن عامر ، عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة ، عن ابن عمرو .

(٢٣٨) - **إسناده صحيح** . أخرجه أحمد في « مسنده » (٢٩٣/٣) عن يحيى بن آدم و(٣٣٠/٢) عن عبد الرزاق - كلاهما - عن سفيان الثوري ، عن الأعمش ، به . وأخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب : الجنة وصفة نعيمها حديث ٨١ - (٢٨٧٧) من طريق يحيى بن يحيى عن يحيى بن زكريا عن الأعمش به .

[١] - سقط من « ز » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٣] - في ز : « لأمرت » .
[٤] - في خ ، ز : « الأرض » .
[٥] - في خ : « عيشهم » ، في ز : « معيشتهم » .
[٦] - سقط من : خ ، ز .
[٧] - في خ : « وهكذا » .
[٨] - في ز : « مؤمن » .
[٩] - سقط من : خ .

عن جابر قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول قبل موته بثلاث : « **لا يموتن أحدكم**[١] **إلا وهو يحسن الظنّ باللَّه عز وجل** » . ورواه مسلم من طريق الأعمش به .

وقال الإمام أحمد(٢٣٩) : حدثنا حسن بن موسىٰ ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا أبو[٢] يونس ، عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « **إن اللَّه قال : أنا عند ظن عبدي بي ، فإن ظن بي خيرًا فله ، وإن ظن شرًّا فله** » .

وأصل هذا الحديث ثابت في الصحيحين(٢٤٠) من وجه آخر ، عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **يقول اللَّه : أنا عند ظن عبدي بي** » .

وقال الحافظ أبو بكر البزار ، حدّثنا محمد بن عبد الملك القرشي ، حدّثنا جعفر بن سليمان ، عن ثابت - وأحسبه عن أنس - قال : كان رجل من الأنصار مريضًا ، فجاءه النبي ﷺ يعوده ، فوافقه في السوق فسلم عليه ، فقال له : « **كيف أنت يا فلان** » ؟ قال : بخير يا رسول اللَّه ، أرجو اللَّه وأخاف ذنوبي ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « **لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن ، إلا أعطاه اللَّه ما يرجو ، وآمنه مما يخاف** »(٢٤١) .

ثم قال : لا نعلم رواه عن ثابت غير جعفر بن سليمان ، وهكذا رواه الترمذي ، والنسائي وابن ماجة من حديثه ، ثم قال الترمذي : غريب ، وقد[٣] رواه بعضهم عن ثابت مرسلًا .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد(٢٤٢) : حدّثنا محمد بن جعفر ، حدّثنا شعبة ، عن

---

(٢٣٩) - رواه أحمد في « مسنده » (٣٩١/٢) .

(٢٤٠) - أخرجه البخاري في كتاب : التوحيد ، باب : قول اللَّه تعالى : ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام اللَّه** ﴾ حديث (٧٥٠٥) . ومسلم في كتاب : التوبة ، باب : في الحض على التوبة والفرح بها ، حديث (٢٦٧٥) من طرق عن أبي هريرة ، به .

(٢٤١) - **حديث حسن** . أخرجه الترمذي في « سننه » كتاب : الجنائز ، باب (١١) ، حديث (٩٨٣) ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » « السنن الكبرى » (٢٦٢/٦) رقم (١٠٩٠١) . وابن ماجه في « سننه » كتاب : الزهد ، باب : ذكر الموت والاستعداد له ، حديث (٤٢٦١) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٢/ ٤، ٥) رقم (١٠٠١ ، ١٠٠٢) كلهم من طريق جعفر بن سليمان ، عن ثابت ، عن أنس ، به .

وأما المرسل : فأخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » (٥/٢) رقم (١٠٠٢) من طريق حماد ، عن ثابت ، عن عبيد بن عمير مرسلًا . والحديث حسنه الالباني في « صحيح الترمذي » برقم (٧٨٥) (٢٨٩/١) .

(٢٤٢) - **صحيح** . أخرجه أحمد في « مسنده » (٤٠٢/٣) ، وأخرجه النسائي في « سننه » (٢٠٥/٢) كتاب الافتتاح ، باب : كيف يخر للسجود ؟

---

[١] - في ز : « أحد منكم » . [٢] - سقط من : خ ، ز .

[٣] - في خ : « كذا » .

أبي بشر ، عن يوسف بن ماهك ، عن حكيم بن حزام قال : بايعت رسول الله ﷺ على[١] أن لا أخر إلا قائمًا ، ورواه النسائي في سننه ، عن إسماعيل بن مسعود ، عن خالد بن الحارث ، عن شعبة به ، وترجم عليه فقال : (باب كيف يخر للسجود) ثم ساقه مثله ، فقيل : معناه [ ][٢] أن لا أموت إلا مسلمًا ، وقيل : معناه أن لا أقتل إلا مقبلًا غير مدبر ، وهو يرجع إلىٰ الأوّل .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **واعتصموا [بحبل الله][٣] جميعًا ولا تفرقوا** ﴾ قيل : ﴿ **بحبل الله** ﴾ أي بعهد الله ، كما قال في الآية بعدها : ﴿ **ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس** ﴾ أي : بعهد وذمة[٤] ، وقيل : ﴿ **بحبل من الله** ﴾ يعني القرآن ، كما في حديث الحارث الأعور ، عن علي مرفوعًا في صفة القرآن : « **هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم** »(٢٤٣) .

وقد وَرَد في ذلك حديث خاص بهذا المعنىٰ ، فقال الإمام الحافظ أبو جعفر الطبري(٢٤٤) : حدّثنا سعيد بن يحيىٰ الأموي ، حدّثنا أسباط بن محمد ، عن عبد الملك ابن أبي سليمان العرزمي ، عن عطية ، عن أبي[٥] سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « **كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلىٰ الأرض** » .

---

(٢٤٣) - **ضعيف جدًا** . أخرجه الترمذي في كتاب : فضائل القرآن ، باب : ما جاء في فضل القرآن ، حديث (٢٩٠٨) . والدارمي (٤٣٥/٢) كتاب فضائل القرآن ، باب : فضل من قرأ القرآن . وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٤٥٢/٢) رقم (١١٠٠) ، وابن أبي شيبة في مصنفه (٤٨٢/١٠) رقم (١٠٠٥٦) كلهم من طريق حمزة الزيات ، عن سعد الطائي ، عن ابن أخي الحارث الأعور ، عن الحارث ، عن علي . قال الترمذي : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول ، وفي الحارث مقال .

(٢٤٤) - **إسناده ضعيف - لضعف عطيه العوفي** . والحديث أخرجه الطبري في « تفسيره » (٧٢/٧) رقم (٧٥٧٢) . وأخرجه الترمذي في « سننه » كتاب : المناقب ، باب : مناقب أهل بيت النبي ﷺ حديث (٣٧٩٠) ، وأحمد في « مسنده » (١٤/٣ ، ١٧ ، ٢٦ ، ٥٩) . وابن أبي عاصم في « السنة » (٦٤٣/٢ - ٦٤٤ ، ٦٤٤) برقم (١٥٥٣ ، ١٥٥٤) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٢٩٧/٢ ، ٢٩٨) برقم (١٠٢١) و(٣٧٦/٢) برقم (١١٤٠) . والطبراني في الأوسط (٣٧٤/٣) برقم (٣٤٣٩) و(٣٣/٤) برقم (٣٥٤٢) . من طرق ، عن عطيه العوفي ، به نحوه .

وذكره الهيثمي في « المجمع » (١٦٦/٩) وقال : رواه الطبراني في « الأوسط » ، وفي إسناده رجال مختلف فيهم . ولم ينسبه الهيثمي لأحمد ، وهو مروي فيه أربع مرات !! .

---

[١] - سقط من : خ .

[٢] - في ز ، خ : على .

[٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « بالله » .

[٤] - في خ : « ذمة » .

[٥] - سقط من : خ ، ز .

وروىٰ ابن مردويه ، من طريق إبراهيم بن مسلم الهجري ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **إنّ هذا القرآن هو حبل الله المتين، وهو النور المبين ، وهو الشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه** »(٢٤٥) .

وروي من حديث حذيفة(٢٤٦) ، وزيد بن أرقم(٢٤٧) نحو[١] ذلك .

[وقال وكيع(٢٤٨) : حدّثنا الأعمش ، عن أبي وائل قال : إنّ هذا الصراط محتضر يحضره الشياطين : يا عبد الله ، هذا الطريق ، هلم إلىٰ الطريق ، فاعتصموا بحبل الله ، فإن حبل الله القرآن][٢] .

وقوله : ﴿ **ولا تفرَّقوا** ﴾ أمرهم بالجماعة ، ونهاهم عن التفرقة . وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق ، والأمر بالاجتماع والائتلاف ، كما في صحيح مسلم(٢٤٩) ، من حديث سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هريرة : أنّ رسول الله ﷺ قال : « **إنّ الله يرضى لكم ثلاثًا ؛ ويسخط لكم ثلاثًا ، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولّاه الله أمركم ، ويسخط لكم ثلاثًا[٣] : قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال** » .

---

(٢٤٥) - **إسناده ضعيف - لضعف إبراهيم بن مسلم الهجري** ، والحديث أخرجه الدارمي في « سننه » (٢/ ٤٣١) كتاب فضائل القرآن ، باب : فضل من قرأ القرآن ، موقوفًا على ابن مسعود ، وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/٥٥٥) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (١٠/٤٨٢ ، ٤٨٣) رقم (١٠٠٥٧) وعبد الرزاق في « مصنفه » (٣/٣٧٥) رقم (٦٠١٧) ، وابن حبان في « المجروحين » (١/١٠٠) ، والطبراني في « الكبير » (٩/١٣٩) رقم (٨٦٤٦) ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١/١٠٩) رقم (١٤٥) مرفوعًا وقال : وهذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ويشبه أن يكون من كلام ابن مسعود . قال ابن معين : إبراهيم الهجري ليس حديثه بشيء .اهـ . وقال الحاكم : صحيح الإسناد - ورده الذهبي بقوله : إبراهيم ضعيف . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٧/١٦٧) وقال : رواه الطبراني ، وفيه مسلم بن إبراهيم الهجري وهو متروك . وذكره الذهبي في « الميزان » (١/٦٦) في ترجمة مسلم بن إبراهيم الهجري .

(٢٤٦) - لم أعثر عليه من حديث حذيفة .

(٢٤٧) - أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب : فضائل الصحابة ، باب : من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، حديث (٢٤٠٨/٣٦) .

(٢٤٨) - أخرجه الطبري في « تفسيره » (٧/٧٢) رقم (٧٥٧٠) من طريق وكيع به .

(٢٤٩) - مسلم في « صحيحه » ، كتاب الأقضية ، حديث (١٧١٥) .

---

[١] - في خ : « مثل » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٣] - سقط من : خ ، ز .

وقد ضمنت لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطأ ؛ كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضًا . وخيف عليهم الافتراق والاختلاف ، فقد[١] وقع ذلك في هذه الأمة فافترقوا علىٰ ثلاث[٢] وسبعين فرقة ؛ منها فرقة[٣] ناجية إلىٰ الجنة ، ومسلمة من عذاب[٤] النار ؛ وهم الذين علىٰ ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **واذكروا نعمة اللَّه عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا [وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها]** ﴾ ، وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج ، فإنه [قد كان][٥] بينهم حروب كثيرة في الجاهلية ، وعداوة شديدة ، وضغائن وإحن [وذحول ، طال بسببها][٦] قتالهم والوقائع بينهم ، فلما جاء اللَّه بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم ، صاروا إخوانا متحابين بجلال اللَّه ، متواصلين في ذات اللَّه ؛ متعاونين علىٰ البر والتقوىٰ ، قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم ولكن اللَّه ألف بينهم** ﴾ [إلىٰ آخر الآية] ، وكانوا علىٰ شفا حفرة من النار[٧] بسبب[٨] كفرهم ، فأنقذهم[٩] اللَّه منها ؛ أن هداهم للإيمان .

وقد امتن عليهم بذلك[١٠] رسول اللَّه ﷺ يوم قسم غنائم حنين ، فعتب من عتب منهم بما[١١] فضل عليهم في القسمة ، بما أراه اللَّه ، فخطبهم فقال : « **يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضلالًا فهداكم اللَّه بي ؛ وكنتم متفرقين فألفكم اللَّه بي ؛ وعالة فأغناكم اللَّه بي؟** »(٢٥٠) . فكلما[١٢] قال شيئًا قالوا : اللَّه ورسوله أمن .

وقد[١٣] ذكر محمد بن إسحاق بن يسار وغيره(٢٥١) : أن هذه الآية نزلت في شأن

(٢٥٠) - أخرجه ابن هشام في « السيرة » (٩٣٤/٤ ، ٩٣٥) ، وأحمد في « مسنده » (٦٧/٣ ، ٧٦ ، ٧٧) مختصرًا ومطولًا من طريق محمد بن إسحاق ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ، عن أبي سعيد الخدري به . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٣٢/١٠ - ٣٣) مطولًا بروايتين وقال : « رواها أحمد كلها وأبو يعلى ... ورجال الرواية الأولى لأحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع » .

(٢٥١) - **إسناده منقطع** . أخرجه ابن هشام في « السيرة » (٥٨٨/٢ ، ٥٨٩) ، والطبري في « تفسيره »=

[١] - في خ ، ز : « وقد » .
[٢] - في خ : « ثلاثة » .
[٣] - في خ : « فرق » .
[٤] - في خ : « العذاب » .
[٥] - ما بين المعكوفتين في خ : « كانت » .
[٦] - في خ ، ز : « ودخول حال سببها » .
[٧] - سقط من : خ .
[٨] - في ز : « سبب » .
[٩] - في خ ، ز : « فأبعدهم » .
[١٠] - سقط من : خ ، ز .
[١١] - في خ ، ز : « لما » .
[١٢] - في خ ، ز : « كلما » .
[١٣] - في خ : « قال » .

الأوس والخزرج : وذلك أن رجلًا من اليهود مرّ بملإ من الأوس والخزرج ، فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة ، فبعث رجلًا معه ، وأمره أن يجلس بينهم ، ويذكر لهم ما كان من حروبهم يوم بعاث وتلك الحروب ، ففعل ، فلم يزل ذلك دأبه ، حتىٰ حميت نفوس القوم ، وغضب بعضهم علىٰ بعض ، وتثاوروا ، ونادوا بشعارهم ، وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلىٰ الحرة ، فبلغ ذلك النبي صلىٰ اللّٰه عليه وآله وسلم فأتاهم ، فجعل يسكنهم ، ويقول : « **أبدعوىٰ الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟** » . وتلا عليهم هذه[١] الآية ، فندموا علىٰ ما كان منهم ، واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح رضي اللّٰه عنهم .

وذكر عكرمة : أن ذلك نزل فيهم حين تثاوروا في قضية الإفك ، واللّٰه أعلم .

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

يقول تعالىٰ : ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر اللّٰه ، في الدعوة إلىٰ الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون . قال الضحاك : هم خاصة الصحابة ، وخاصة الرواة ، يعني : المجاهدين والعلماء .

وقال أبو جعفر الباقر : قرأ رسول اللّٰه ﷺ : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلىٰ الخير** ﴾ ثم قال : « **الخير اتباع القرآن وسنتي** » . رواه ابن مردويه .

= (٧/٥٥ - ٥٦) رقم (٧٥٢٤) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٤٣٢) رقم (١٠٤٧) كلهم من طريق محمد ابن إسحاق ، قال : حدثني الثقة ، عن زيد بن أسلم به . وفي إسناده ابن إسحاق لم يصرح باسم شيخه ، وأيضًا فإن زيد بن أسلم أرسله .

---

[١] - سقط من : ت .

والمقصود من هذه الآية ، أن تكون فرقة[١] من هذه[٢] الأمة متصدية لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجبًا علىٰ كل فرد من الأمة بحسبه ، كما ثبت في صحيح مسلم(٢٥٢) ، عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان** » . وفي رواية : « **وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل** » .

وقال الإمام أحمد(٢٥٣) : حدثنا سليمان الهاشمي ، أنبأنا إسماعيل بن جعفر ، أخبرني عمرو ابن أبي عمرو ، عن عبد اللَّه بن عبد الرحمن الأشهلي ، عن حذيفة بن اليمان[٣] ، أن النبي ﷺ قال : « **والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن اللَّه أن يبعث عليكم عقابًا من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم** » .

ورواه الترمذي ، وابن ماجة من حديث عمرو بن أبي عمرو به ، وقال الترمذي : حسن .

والأحاديث في هذا الباب كثيرة ، مع الآيات الكريمة ، كما سيأتي تفسيرها في أماكنها .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات [وأولئك لهم عذاب عظيم]** ﴾ . ينهى [تبارك وتعالىٰ] هذه الأمة ، أن يكونوا[٤] كالأمم الماضين[٥] ؛ في افتراقهم[٦] واختلافهم ، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مع قيام الحجة عليهم .

---

(٢٥٢) - لم نقف عليه من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه ، وقد أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان ، حديث (٤٩) ، وأبو داود في كتاب : الصلاة ، باب : الخطبة يوم العيد ، حديث (١١٤٠) ، والترمذي في « سننه » كتاب الفتن ، باب : ما جاء في تغيير المنكر باليد ، حديث (٢١٧٣) ، والنسائي في « سننه » (١١١/٨) كتاب الإيمان ، باب : تفاضل أهل الإيمان ، وأحمد في « مسنده » (٤٩/٣، ٥٤) . كلهم من حديث أبي سعيد الخدري .

وقال الشيخ أحمد شاكر في « عمدة التفسير » (١٧/٣) : وهم الحافظ ابن كثير هنا وهمًا شديدًا فحديث : « **من رأى منكم منكرًا** ...» إلخ - هو من حديث أبي سعيد الخدري كما أثبتنا ولكن الذي قاله ابن كثير هنا : « عن أبي هريرة » وهو خطأ على اليقين .

(٢٥٣) - أخرجه أحمد في « مسنده » (٣٨٨/٥) . وبنحوه في (٣٩٠/٥ ، ٣٩١) من طريق أبي الرقاد ، عن حذيفة ، وأخرجه الترمذي في « سننه » كتاب الفتن ، باب : ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حديث (٢١٧٠) . من طرق عن عمرو بن أبي عمرو به .

---

[١] - سقط من : خ .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - في خ : « اليماني » .
[٤] - في خ : « تكون » .
[٥] - في خ : « الماضيين » .
[٦] - في خ ، ز : « تفرقهم » .

قال الإمام أحمد(٢٥٤) : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان ، حدثني أزهر بن[١] عبد الله الهوزني[٢] ، عن أبي عامر عبد الله بن لُحي ، قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة ، قام حين صلىٰ صلاة[٣] الظهر ، فقال : إن رسول الله ﷺ قال : « **إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق علىٰ ثلاث وسبعين ملة - يعني الأهواء- كلها في النار إلا واحدة- وهي الجماعة- إنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارىٰ بهم تلك[٤] الأهواء ، كما يتجارىٰ الكَلَب(*) لصاحبه ، لا يبقىٰ منه عرق ولا مفصل إلا دخله** » . والله - يا معشر العرب - لئن[٥] لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ ؛ لغيرُكم من الناس أحرىٰ أن لا يقوم به » .

وهكذا رواه أبو داود عن أحمد بن حنبل ومحمد بن يحيىٰ[٦] كلاهما عن أبي المغيرة ، واسمه عبد القدوس بن الحجاج الشامي به ، وقد[٧] ورد[٨] هذا الحديث من طرق .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **يوم تبيض وجوه وتسود وجوه** ﴾ يعني : يوم القيامة ، يوم[٩] تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة ، قاله ابن عباس - رضي الله عنهما - ﴿ **فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم** ﴾ قال الحسن البصري : وهم المنافقون ، ﴿ **فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ ، وهذا[١٠] الوصف يعم كل كافر . ﴿ **وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون** ﴾ يعني : الجنة ماكثون فيها أبدًا ، لا يبغون عنها حولًا .

---

(٢٥٤) - أخرجه أحمد في « مسنده » (١٠٢/٤) . و أبو داود في « سننه » كتاب : السنة ، باب : شرح السنة ، حديث (٤٥٩٧) . و الحاكم في « المستدرك » (٢١٨/١) من طريق صفوان بن عمرو ، عن الأزهر ابن عبد الله به . وقال الحاكم : هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث ، وقد روي هذا الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعمرو بن عوف المزني بإسنادين تفرد بأحدهما عبد الرحمن بن زياد الأفريقي ، والآخر كثير بن عبد الله المزني ولا تقوم بهما الحجة ، ثم رواهما الحاكم في « المستدرك » (٢١٨/١ - ٢١٩) .

(*) - الكَلَب : داء يعرض للإنسان من عضِّ الكلب الكلِب ، فيصيبه شبه الجنون وتعرض له أعراض رديئة ، ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشًا .

---

[١] - في خ : « عن » .
[٢] - في خ : « الثوري » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - سقط من : م .
[٥] - في خ : « إن » .
[٦] - في خ : « لحي » .
[٧] - في خ : « وهكذا » .
[٨] - في خ ، ز : « روي » .
[٩] - في خ : « حين » .
[١٠] - في م : « هذا » . والمثبت من : ز .

وقد قال أبو عيسىٰ الترمذي عند[١] تفسير هذه الآية : حدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع عن الربيع[٢] - وهو ابن صبيح[٣] - وحماد بن سلمة ، عن أبي غالب قال : رأىٰ أبو أمامة رءوسًا منصوبة علىٰ درج مسجد[٤] دمشق ، فقال أبو أمامة : كلاب النار شر قتلىٰ تحت أديم السماء ، خير قتلىٰ من قتلوه ، ثم قرأ : ﴿ **يوم تبيض وجوه وتسود وجوه** ﴾ إلىٰ آخر الآية . قلت لأبي أمامة : أنت سمعته من رسول الله ﷺ قال : لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاثًا أو أربعًا- حتىٰ عد سبعًا- ما حدثتكموه(٢٥٥) .

ثم قال : هذا حديث حسن . وقد رواه ابن ماجة من حديث سفيان بن عيينة ، عن أبي غالب ، وأخرجه أحمد في مسنده عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن أبي غالب بنحوه .

وقد روىٰ ابن مردويه عند تفسير هذه الآية ، عن أبي ذر ، حديثًا مطولًا غريبًا عجيبًا جدًّا .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك**] ﴾ أي : هذه آيات الله وحججه وبيناته ، نتلوها عليك يا محمد ﴿ **بالحق** ﴾ ، أي : نكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة . ﴿ **وما الله يريد ظلمًا للعالمين** ﴾ أي : ليس بظالم لهم ، بل هو الحكم العدل الذي لا يجور ، لأنه القادر علىٰ كل شيء ، العالم بكل شيء ، فلا يحتاج مع ذلك إلىٰ أن يظلم أحدًا من خلقه ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **ولله ما في السموات وما في الأرض** ﴾ أي :

---

(٢٥٥) - **حسن** . أخرجه الترمذي في « سننه » كتاب : تفسير القرآن ، ومن سورة آل عمران ، حديث (٣٠٠٠) . وابن ماجه في « سننه » المقدمة ، باب : في ذكر الخوارج ، حديث (١٧٦) ، والحميدي في « مسنده » (٢/٤٠٤) رقم (٩٠٨) من طريق سفيان بن عيينة ، عن أبي غالب ، عن أبي أمامة به . وأخرجه عبد الرزاق في « مصنفه » برقم (١٨٦٦٣) وأحمد في « مسنده » (٥/٢٥٣) ، والطبراني في « الكبير » (٨/٣١٩) رقم (٨٠٣٣) . كلهم من طريق عبد الرزاق ، عن معمر ، عن أبي غالب به .

وأخرجه أحمد في « مسنده » (٥/٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢) ، والطبراني في « الكبير » (٨/٣٢٤) رقم (٨٠٤٤) ، و(٨/٣٢٦) رقم (٨٠٤٩) و(٨/٣٢٧) رقم (٨٠٥١) و(٨/٣٢٨ - ٣٢٩) رقم (٨٠٥٥ ، ٨٠٥٦) . من طرق عن أبي غالب به بنحوه مختصرًا ومطولًا . وذكره الحافظ في « المطالب العالية » (٣/ ٨٦ - ٨٧) مطولًا وقال : رواه الترمذي ، وأحمد ، وابن ماجه باختصار . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٦/ ٢٣٦، ٢٣٧) وقال : رواه ابن ماجه ، والترمذي باختصار - رواه الطبراني ورجاله ثقات .

وحسنه الشيخ الألباني - حفظه الله - كما في « المشكاة » برقم (٣٥٥٤) ، وصحيح سنن ابن ماجه برقم (١٤٦) . وللحديث طريق آخر عند أحمد . وأخرجه في « مسنده » (٣/٢٦٩) من طريق صفوان بن سليم ، عن أبي أمامة به بنحوه .

---

[١] - في خ ، ز : « عن » . [٢] - في ز : « ربيع » .

[٣] - في خ ، ز : « صبح » . [٤] - سقط من : خ .

الجميع ملك[١] له وعبيد له ، ﴿ **وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ أي : هو الحاكم[٢] المتصرف في الدنيا والآخرة[٣] .

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم ؛ فقال تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ .

قال البخاري (٢٥٦) : حدثنا محمد بن يوسف ، عن سفيان ، عن ميسرة ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه: ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ قال[٤] : خير الناس للناس ؛ تأتون[٥] بهم في السلاسل في أعناقهم ؛ حتى يدخلوا في الإسلام .

وهكذا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء والربيع بن أنس وعطية العوفي ، ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ يعني : خير الناس للناس .

والمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس ، ولهذا قال : ﴿ **تأمرون[٦] بالمعروف وتنهون[٧] عن المنكر وتؤمنون[٨] بالله** ﴾ .

---

(٢٥٦) - أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب : التفسير ، باب : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ حديث (٤٥٥٧) .

---

[١] - في خ : « ملكة » .

[٢] - سقط من : خ ، ز .

[٣] - في خ : « والآخرة الحاكم » .

[٤] - سقط من : خ .

[٥] - في خ ، ز : « يأتون » .

[٦] - في خ ، ز : « يأمرون » .

[٧] - في خ ، ز : « وينهون » .

[٨] - في خ ، ز : « ويؤمنون » .

قال الإمام أحمد(٢٥٧) : حدثنا أحمد بن عبد الملك ، حدثنا شريك ، عن سماك ، عن عبد الله ابن عميرة ، عن[١] زوج درة بنت أبي لهب [عن درة بنت أبي لهب][٢] قالت[٣] : قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر ، فقال يا رسول الله ، أي : الناس خير ؟ فقال[٤] : « **خير الناس أقرؤهم وأتقاهم لله وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر ، وأوصلهم للرحم** » .

ورواه أحمد في مسنده ، والنسائي في سننه ، والحاكم في مستدركه ، من حديث سماك ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ قال : هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة (٢٥٨) .

والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة كل قرن بحسبه ، وخير قرونهم الذين[٥] بعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطًا** ﴾ أي : خيارًا[٦] ﴿ **لتكونوا شهداء على الناس [ويكون الرسول عليكم شهيدًا]** ﴾ .

وفي مسند الإمام أحمد وجامع الترمذي وسنن ابن ماجة ومستدرك الحاكم من رواية حكيم بن معاوية بن حيدة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أنتم توفون سبعين أمة**

---

(٢٥٧) - **إسناده ضعيف** ، عبد الله بن عميرة : قال الذهبي : فيه جهالة ، وشريك ، وهو القاضي : ساء حفظه لما ولي القضاء ، وزوج درة : مبهم . والحديث رواه أحمد في « مسنده » (٦/٤٣١ ، ٤٣٢) ، والطبراني في « الكبير » (٢٤/٢٥٧ ، ٢٥٨) رقم (٦٥٧) من طريق شريك به ، وذكره الهيثمي في « المجمع » (٧/٢٦٦) وقال : رواه أحمد وهذا لفظه ، والطبراني ... ورجالهما ثقات . وقال في موضع آخر (٩/٢٦١) بعد أن نسبه لأحمد فقط : ورجاله ثقات .

(٢٥٨) - **إسناده حسن** ، أخرجه أحمد في « مسنده » (١/٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٣١٩ ، ٣٢٤ ، ٣٥٤) ، والنسائي في التفسير من « الكبرى » (٦/٣١٣) رقم (١١٠٧٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/٢٩٤) ، وعبد الرزاق في « تفسيره » (١/١٣٠) ، والطبري في « تفسيره » (٧/١٠١) رقم (٧٦١١) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٤٧٠) برقم (١١٥٧) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (١٢/٦) رقم (١٢٣٠٣) . كلهم من طرق ، عن سماك ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس به .

وذكر الحافظ في « الفتح » (٨/٢٢٥) رواية عبد الرزاق ، وأحمد والنسائي ، والحاكم ، وقال : إسناد جيد . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٦/٣٣٠) وقال : رواه أحمد والطبراني ، ورجال أحمد رجال الصحيح .

---

[١] - سقط من : خ ، ز .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٣] - في خ ، ز : « قال » .

[٤] - في ت : « قال » .

[٥] - في خ : « الذين » .

[٦] - في خ : « خيرًا » .

أنتم خيرها وأكرمها[١] علىٰ اللَّه عز وجل »(٢٥٩) وهو حديث مشهور ، وقد حسنه الترمذي . ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبي سعيد نحوه[٢] (٢٦٠) .

وإنما حازت هذه الأمّة قصب[٣] السبق إلىٰ الخيرات بنبيها محمد صلوات اللَّه وسلامه عليه ، فإنه أشرف خلق اللَّه وأكرم الرسل علىٰ اللَّه ، وبعثه اللَّه بشرع كامل عظيم لم يعطه نبيًا قبله ولا رسولاً من الرسل . فالعمل علىٰ [منهاجه ، وسبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال][٤] غيرهم مقامه ، كما قال الإمام أحمد (٢٦١) : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا ابن زهير ، عن عبد اللَّه - يعني : ابن محمد بن عقيل - عن محمد بن علي وهو ابن الحنفية ، أنه سمع علي ابن أبي طالب رضي اللَّه عنه يقول : قال رسول اللَّه ﷺ : **« أعطيت ما لم يعط أحدٌ من الأنبياء »** فقلنا يا رسول اللَّه ، ما هو ؟ قال : **« نصرت بالرعب ، وأعطيت مفاتيح الأرض ، وسميت أحمد وجعل التراب لي طهورًا ،**

---

(٢٥٩) - **حديث حسن** . أخرجه أحمد في « مسنده » (٤٤٧/٤) ، (٤،٣/٥) والترمذي في « سننه » كتاب : تفسير القرآن ، باب : ومن سورة آل عمران ، حديث (٣٠٠١) ، وابن ماجه في « سننه » كتاب الزهد ، باب : صفة أمة محمد ﷺ حديث (٤٢٨٧ ، ٤٢٨٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٨٤/٤) ، وعبد الرزاق في « تفسيره » (١٣٠/١) ، والطبري في « تفسيره » (١٠٤/٧) برقم (٧٦٢١ ، ٧٦٢٢) وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٤٦٩/٢) برقم (١١٥٦) . والطبراني في « المعجم الكبير » (٤٢٢/١٩ : ٤٢٦) برقم (١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧) ، كلهم من حديث معاوية بن حيدة به .

وذكره الحافظ في « الفتح » (٢٢٥/٨) مشيرًا إلى رواية الطبري ثم قال : « وهو حديث حسن صحيح . أخرجه الترمذي وحسنه ، وابن ماجه ، والحاكم وصححه . وله شاهد مرسل عن قتادة عند الطبري رجاله ثقات ، وفي حديث علي عند أحمد بإسناد حسن أن النبي ﷺ قال : « **جعلت أمتي خير الأمم** ».

(٢٦٠) - حديث أبي سعيد : أخرجه أحمد في « مسنده » (٦١/٣) من طريق علي بن زيد بن جدعان ، عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال : خطبنا رسول اللَّه ﷺ خطبة بعد العصر ... إلى أن قال النبي ﷺ : « وإنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على اللَّه » . **وإسناده ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان** ، وقد صحت بعض فقراته مطولاً .

(٢٦١) - أخرجه أحمد في « مسنده » (٩٨/١) . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٢٦٥/١ - ٢٦٦) وقال : رواه أحمد ، وفيه عبد اللَّه بن محمد بن عقيل ، وهو سيئ الحفظ . قال الترمذي : صدوق ، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه ، وسمعت محمد بن إسماعيل - يعني البخاري - يقول : كان أحمد بن حنبل وإسحاق بن إبراهيم والحميدي يحتجون بحديث ابن عقيل . قلت : فالحديث حسن ، واللَّه أعلم .اهـ . وحسنه الحافظ في « الفتح » (٢٢٥/٨) فقال : « وفي حديث علي عند أحمد بإسناد حسن أن النبي ﷺ قال : « **وجعلت أمتي خير الأمم** » وقال الشيخ أحمد شاكر - رحمه اللَّه - في « عمدة التفسير » (٢١/٣) : وعندي أن إسناده صحيح .

---

[١] - في خ ، ز : « وأنتم أكرم » .
[٢] - سقط من : خ ، ز .
[٣] - في خ ، ز : « نصيب » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

وجعلت أمّتي خير الأمم » . تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وإسناده حسن .

وقال الإمام أحمد أيضًا (٢٦٢) : حدثنا أبو العلاء الحسن بن سوار ، حدثنا ليث ، عن معاوية ، عن أبي حَلْبس يزيد بن ميسرة قال : سمعت أم الدرداء - رضي اللَّه عنها - تقول [سمعت أبا الدرداء يقول][١] : سمعت أبا القاسم ﷺ وما سمعته يكنيه قبلها ولا بعدها يقول : « **إن اللَّه تعالىٰ يقول : يا عيسىٰ إني باعث بعدك أمّة ؛ إن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا ، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ، ولا حلم ولا علم قال : يا رب كيف هذا لهم ولا حلم ولا علم ؟ قال : أعطيهم من حلمي وعلمي** » .

وقد وردت أحاديث يناسب ذكرها هاهنا .

قال الإمام أحمد (٢٦٣) : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا المسعودي ، حدثنا بكير بن الأخنس ، عن رجل ، عن أبي بكر الصديق رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **أعطيت سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ، قلوبهم علىٰ قلب رجل واحد ، فاستزدت ربي عز وجل فزادني مع كل واحد سبعين[٢] ألفًا** » فقال أبو بكر - رضي اللَّه عنه - : فرأيت أن ذلك آت علىٰ أهل القرىٰ ، ومصيب من حافات البوادي .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد (٢٦٤) : حدثنا عبد اللَّه بن بكر السهمي ، حدثنا هشام ابن حسان عن القاسم بن مهران ، عن موسىٰ بن عبيد ، عن ميمون بن مهران عن عبد الرحمن بن أبي بكر ، أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **إن ربي أعطاني سبعين ألفًا يدخلون الجنة**

---

(٢٦٢) - أخرجه أحمد في « مسنده » (٦/٤٥٠) وذكره الهيثمي في « المجمع » (١٠/٧٠ - ٧١) وقال : رواه أحمد ، والبزار ، والطبراني في الكبير والأوسط ، ورجال أحمد رجال الصحيح غير الحسن بن سوار وأبي حلبس يزيد بن ميسرة ، وهما ثقتان .

(٢٦٣) - **إسناده ضعيف** ، رواه أحمد في « مسنده » (١/٦) . وذكره الهيثمي في « المجمع » (١٠/٤١٣) وقال : رواه أحمد ، وأبو يعلى ، وفيهما المسعودي وقد اختلط ، وتابعيه لم يسم ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح .

(٢٦٤) - رواه أحمد في « مسنده » (١/١٩٧) . وذكره الهيثمي في « المجمع » (١٠/٤١٣ - ٤١٤) وقال : رواه أحمد والبزار بنحوه والطبراني بنحوه وفي أسانيدهم القاسم بن مهران ، عن موسى بن عبيد ، وموسى بن عبيد هذا هو مولى خالد بن عبد اللَّه بن أسيد ، ذكره ابن حبان في الثقات ، والقاسم بن مهران ذكره الذهبي في الميزان ، وأنه لم يرو عنه إلا سليم بن عمرو النخعي ، وليس كذلك ، فقد روى عنه هذا الحديث هشام بن حسان ، وباقي رجال إسناده محتج بهم في الصحيح .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز . [٢] - في خ : « سبعون » .

بغير حساب » فقال عمر : يا رسول الله ؛ فهلا استزدته ، [فقال : استزدته فأعطاني مع كل ألف سبعين ألفًا » قال عمر : فهلا استزدته ،][١] قال : « **استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفًا** » قال عمر : فهلا استزدته ، قال[٢] : « **قد**[٣] **استزدته فأعطاني هكذا** » وفرج عبد الرحمن[٤] بن أبي بكر بين يديه ، وقال عبد الله وبسط باعيه ، وحثا[٥] عبد الله وقال هشام : وهذا من الله لا يدرى ما عدده .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد (٢٦٥) : حدثنا أبو اليمان ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن ضمضم بن زرعة قال : قال شريح [بن عبيد][٦] : مرض ثوبان بحمص ، وعليها عبد الله بن قرط الأزدي فلم يعده ، فدخل علىٰ ثوبان رجل من الكلاعيين عائدًا له[٧] ، فقال له ثوبان : أتكتب ؟ قال : نعم . قال : اكتب ، فكتب للأمير عبد الله بن قرط : من ثوبان مولىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أما بعد : فإنه لو كان لموسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام بحضرتك خادم لعدته ، ثم طوىٰ الكتاب ، وقال له : أتبلغه إياه ؟ قال[٨] : نعم ، فانطلق الرجل بكتابه فدفعه إلىٰ ابن قرط ، فلما رآه قام فزعًا ، فقال الناس : ما شأنه أحدث أمر ؟ فأتىٰ ثوبان فدخل[٩] عليه فعاده[١٠] ، وجلس عنده ساعة، ثم قام فأخذ ثوبان بردائه ، وقال : اجلس حتىٰ أحدّثك حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ سمعته ، يقول : « **ليدخلن الجنة من أمّتي سبعون ألفًا لا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفًا** » .

تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وإسناد رجاله كلهم ثقات ، شاميون ، حمصيون ، فهو حديث صحيح ، ولله الحمد والمنة[١١] .

(طريق أخرىٰ) ، قال الطبراني (٢٦٦) : حدثنا عمرو بن إسحاق بن زبريق الحمصي ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، يعني : ابن عياش ، حدثنا أبي ، عن ضمضم ابن زرعة ، عن شريح بن عبيد ، عن أبي أسماء الرحبي ، عن ثوبان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله

---

(٢٦٥) - أخرجه أحمد في « مسنده » (٥/٢٨٠ ، ٢٨١) . وذكره الهيثمي في « المجمع » (١٠/٤١٠) وقال : رواه أحمد ، والطبراني باختصار .ا.هـ

(٢٦٦) - أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (٢/٩٢) رقم (١٤١٣) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من « ز » .
[٢] - في ز : « فقال » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في ز : « عبد الله » .
[٥] - في خ ، ز : « وحي » .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٧] - سقط من : خ ، ز .
[٨] - في خ ، ز : « فقال » .
[٩] - في خ ، ز : « حتى دخل » .
[١٠] - سقط من : ز.
[١١] - سقط من : خ ، ز .

ﷺ يقول : « **إن ربي عز وجل وعدني من أمّتي سبعين ألفًا لا يحاسبون ، مع كل ألف سبعون ألفًا** » .

هذا لعله هو المحفوظ بزيادة أبي أسماء الرحبي ، بين شريح وبين ثوبان ، والله أعلم .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد (٢٦٧) : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن عمران بن حصين ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أكثرنا الحديث عند رسول الله ﷺ ذات ليلة ، ثم غدونا إليه ، فقال : « **عُرِضَتْ عليّ الأنبياء الليلة بأممها ، فجعل النبي يمر ومعه الثلاثة ، والنبي ومعه العصابة ، والنبي ومعه النفر ، والنبي وليس معه أحد ، حتىٰ مر عليّ موسىٰ عليه السلام ومعه كبكبة من بني إسرائيل ، فأعجبوني ، فقلت : من هؤلاء ؟ قيل[١] : هذا أخوك موسىٰ ، ومعه[٢] بنو إسرائيل ، فقلت[٣] : فأين أمّتي ؟ فقيل : انظر عن[٤] يمينك ، فنظرت ، فإذا الظراب[٥] قد سدّ بوجوه الرجال ، [ثم يقول[٦] لي : [انظر عن يسارك فنظرت فإذا الأفق قد سد بوجوه الرجال][٧] فقيل لي][٨] : أرضيت[٩] ؟ فقلت : رضيت يا رب رضيت يا رب - قال : فقيل لي : إن مع هؤلاء سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب** » ، فقال النبي صلىٰ الله عليه وسلم : « **فداكم أبي وأمي إن استطعتم أن تكونوا من السبعين ألفًا فافعلوا ، فإن قصرتم ؛**

---

(٢٦٧) - **إسناده صحيح** ، أخرجه أحمد في « مسنده » (١/٤٠١) . وبنحوه في (١/٤٢٠) عن عبد الصمد عن هشام عن قتادة بهذا الإسناد . وبنحوه في (١/٤٢٠ ، ٤٢١) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٥٧٧ - ٥٧٨) والبزار في « مسنده » (٤/٢٧٠ : ٢٧٢) برقم (١٤٤٠ ، ١٤٤١) ، وأبو يعلى (٩/٢٣١ : ٢٣٣) رقم (٥٣٣٩) ، وعبد الرزاق في « مصنفه » (١٠/٤٠٨ - ٤٠٩) برقم (١٩٥١٩) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/ ٥ : ٨) برقم (٩٧٦٥ - ٩٧٧٠) . وابن حبان في « صحيحه » (١٤/٣٤١ : ٣٤٣ - الإحسان) برقم (٦٤٣١) ، و(١٦/٣٤١ ، ٣٤٢) برقم (٧٣٤٦) . كلهم من طرق عن قتادة بهذا الإسناد . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة . وذكره الهيثمي في « المجمع » : (١٠/٤٠٨ ، ٤٠٩) وقال : رواه أحمد بأسانيد ، والبزار أتم منه والطبراني ، وأبو يعلى باختصار كثير وأحد أسانيد أحمد والبزار رجاله رجال الصحيح . وأشار إليه الحافظ في « الفتح » (١١/٤٠٧) عند أحمد والبزار بسند صحيح .

الكبكبة : بضم الكافين وفتحهما : الجماعة المتضامة من الناس .

الظِراب : بكسر الظاء المعجمه وتخفيف الراء الجبال الصغار .

---

[١] - في ز : « فقيل » .

[٢] - في خ ، ز : « معه » .

[٣] - في ز : « قال : فقلت : » .

[٤] - في ت : « على » .

[٥] - في خ : « الضراب » .

[٦] - في ز : « فقيل » .

[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من « ز » .

[٩] - في خ ، ز : « قد رضيت ؟ » .

فكونوا من أهل الظراب[١] ، **فإن قصرتم ؛ فكونوا من أهل الأفق ، فإني قد رأيت ثم أناسًا يتهاوشون** » فقام عكاشة بن محصن فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم[٢] .

[أي : من السبعين ،][٣] فدعا له ، فقام رجل آخر فقال : ادع الله يا رسول الله أن يجعلني منهم فقال : « **قد سبقك بها عكاشة** » ، قال : ثم تحدثنا فقلنا : من ترون هؤلاء السبعين الألف ؟ ، قوم ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئا حتى ماتوا ؟ فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: « **هم الذين لا يسترقون ، ولا يكتوون ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون** » .

هكذا رواه أحمد بهذا السند وهذا السياق ، ورواه أيضًا عن عبد الصمد ، عن هشام ، عن قتادة بإسناده مثله ، وزاد بعد قوله : « **رضيت يا رب ، رضيت يا رب . قال رضيت ؟ قلت : نعم . قال : انظر عن يسارك . قال : فنظرت فإذا الأفق قد سد بوجوه الرجال ، فقال : رضيت ؟ قلت : رضيت** » .

وهذا إسناد صحيح من هذا الوجه ، تفرد به أحمد ولم يخرجوه .

(حديث آخر) قال [الإمام أحمد (٢٦٨) : حدثنا][٤] أحمد بن منيع ، حدثنا عبد الملك ابن عبد العزيز ، حدثنا حماد ، عن عاصم ، عن زر ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « **عرضت على الأمم بالموسم ، فراثت**[٥] **علىَّ أمتي ، ثم رأيتهم فأعجبني كثرتهم وهيئتهم ، قد ملئوا السهل والجبل ، فقال : أرضيت يا محمد ؟ فقلت : نعم . قال : فإن مع هؤلاء سبعين**[٦] **ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ، وهم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون**[٧] **، وعلى ربهم يتوكلون** » ، فقام عكاشة بن محصن فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : « **أنت منهم** » فقام رجل آخر [فقال :

(٢٦٨) - **إسناده حسن** ، أخرجه أحمد في « مسنده » (٤٠٣/١ ، ٤٥٤) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٢٣٣/٩) رقم (٥٣٤٠) ، وابن حبان في « صحيحه » (٤٤٨/١٣ - الإحسان) برقم (٦٠٨٤) ، من طرق عن حماد بن سلمة بهذا الإسناد . وأخرجه أحمد في « مسنده » (٤١٨/١) وأبو يعلى (٢١٨/٩) رقم (٥٣١٨) مختصرًا عن عبد الصمد عن همام عن عاصم به . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٣٠٧/٩ ، ٣٠٨) وقال : رواه أحمد مطولًا ومختصرًا ، ورواه أبو يعلى ، ورجالهما في المطول رجال الصحيح .

[١] - في خ : « الضراب » .
[٢] - في ز : « من السبعين » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٥] - في خ ، ز : « فرأيت » .
[٦] - في خ : « سبعون » .
[٧] - في خ ، ز : « ولا يكتوون » .

ادع اللَّه أن يجعلني منهم][١] ، فقال : « **سبقك بها عكاشة** » . رواه الحافظ الضياء المقدسي وقال ، هذا عندي علىٰ شرط مسلم .

(حديث آخر) قال الطبراني (٢٦٩) : حدثنا محمد بن محمد الجذوعي القاضي[٢] ، حدثنا عقبة بن مكرم ، حدثنا محمد بن أبي عدي ، عن هشام[٣] بن حسان ، عن محمد ابن سيرين ، عن عمران[٤] بن حصين قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب ولا عذاب** » قيل : من هم ؟ قال : « **هم الذين لا يسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلىٰ ربهم يتوكلون** » . ورواه مسلم من طريق هشام بن حسان ، وعنده ذكر عكاشة .

(حديث آخر) ثبت في الصحيحين (٢٧٠) من رواية الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، أن أبا هريرة حدثه قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **يدخل الجنة من أمتي زمرة ، وهم سبعون ألفًا ، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر** » . قال[٥] أبو هريرة : فقام عكاشة بن محصن الأسدي يرفع نمرة عليه ، فقال : يا رسول اللَّه ادع اللَّه أن يجعلني منهم ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « **اللهم اجعله منهم** » ، ثم قام رجل من الأنصار فقال مثله[٦] فقال : « **سبقك بها[٧] عكاشة** » .

(حديث آخر) قال أبو القاسم الطبراني (٢٧١) : حدثنا يحيىٰ بن عثمان ، حدثنا سعيد

(٢٦٩) - **حديث صحيح** ، أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٨/١٨٣) رقم (٤٢٧) (١٨/١٨٢) رقم (٤٢٥) . وأخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان ، باب : الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ، حديث (٢١٨) ، . من طريق هشام بن حسان به .

(٢٧٠) - أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب اللباس ، باب : البرود والحبر والشملة ، حديث (٥٨١١) ، وطرفه (٦٥٤٢) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ، حديث (٢١٦/٣٦٩) من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة .

(٢٧١) - أخرجه الطبراني في « الكبير » (٦/١٤٢) رقم (٥٧٨٢) . وأخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب : يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب ، حديث (٦٥٤٣) من طريق سعيد بن أبي مريم به . وطرفه (٦٥٥٤) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، حديث ٣٧٣ - (٢١٩) من طريق قتيبة ، عن عبد العزيز بن أبي حازم ، عن أبيه ، عن سهل به .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٢] - في ز : « العاصي » .

[٣] - في خ : « هاشم » .

[٤] - في خ ، ز : « عثمان » .

[٥] - في خ ، ز : « فقال » .

[٦] - في خ ، ز : « يا رسول الله ؛ ادع الله أن يجعلني منهم » .

[٧] - سقط من : خ ، ز .

ابن أبي مريم ، حدثنا أبو غسان ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد[١] أن النبي ﷺ قال : « **ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفًا- أو سبعمائة ألف- آخذ بعضهم ببعض حتىٰ يدخل أولهم وآخرهم الجنة ، وجوههم[٢] علىٰ صورة القمر ليلة البدر** » .

أخرجه البخاري ومسلم جميعًا ، عن قتيبة ، عن عبد العزيز بن أبي حازم ، عن[٣] أبيه ، عن سهل به .

(حديث آخر) قال مسلم بن الحجاج في صحيحه(٢٧٢) : حدثنا سعيد بن منصور ، حدثنا هشيم ، أنبأنا حصين بن عبد الرحمن ، قال : كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيكم رأىٰ الكوكب الذي انقض البارحة ؟ قلت : أنا ، ثم قلت : أما إني لم أكن في صلاة ، ولكني لدغت ، قال : فما صنعت ؟ قلت : استرقيت . قال : فما حملك علىٰ ذلك ؟ قلت : حديث حدثناه الشعبي ، قال : وما حدثكم الشعبي . [قلت : حدثنا][٤] عن بريدة ابن الحصيب الأسلمي أنه قال : « **لا رقية إلا من عين أو حمة** » . قال[٥] : قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه[٦] قال : « **عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي ؛ فقيل لي هذا موسىٰ وقومه ، ولكن أنظر إلىٰ الأفق ، فنظرت فإذا سواد عظيم . فقيل لي : انظر الأفق الآخر ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : هذه أمتك ، ومعهم سبعون ألفًا ، يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب** » ، ثم نهض فدخل منزله ، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ، فلم يشركوا بالله شيئًا ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم[٧] رسول الله ﷺ فقال : « **ما الذي[٨] تخوضون فيه** » ؟ فأخبروه ، فقال : « **هم الذين لا يرقون ولا يسترقون [][٩] ولا يتطيرون ، وعلىٰ ربهم يتوكلون** » فقام عكاشة بن محصن ، فقال :

---

(٢٧٢) - أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان ، حديث ٣٧٤ - (٢٢٠) .

وأخرجه البخاري في « صحيحه » : كتاب الرقاق : باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب ، حديث (٦٥٤١) من طريق أسيد بن زيد ، عن هشيم به .

---

[١] - في خ : « سعيد » .

[٢] - في خ : « ووجوههم » .

[٣] - سقط من : خ .

[٤] - ما بين المعكوفتين في خ : « ثنا » .

[٥] - في خ : « فقال » .

[٦] - سقط من : ز .

[٧] - سقط من : خ ، ز .

[٨] - في خ : « الذين » .

[٩] - في ت : ولا يكتوون .

ادع اللَّه أن يجعلني منهم ، قال : « **أنت منهم** » ثم قام رجل[١] آخر فقال : ادع اللَّه أن يجعلني منهم ، قال : « **سبقك بها عكاشة** » .

وأخرجه البخاري ، عن أسيد بن زيد ، عن هشيم ، وليس عنده : لا[٢] يرقون .

(حديث آخر) قال أحمد (٢٧٣) : حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا ابن جريج ، أخبرني أبو الزبير ، أنه سمع جابر بن عبد اللَّه قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ ، فذكر حديثًا، وفيه : « **فتنجو أول زمرة ، وجوههم كالقمر ليلة البدر سبعون ألفًا ، لا يحاسبون، ثم الذين يلونهم كأضوأ نجم في السماء** » ثم كذلك ، وذكر بقيته ، رواه مسلم من حديث روح غير أنه لم يذكر النبي ﷺ .

(حديث آخر) قال الحافظ أبو بكر بن أبي عاصم ، في كتاب «السنن» له : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن محمد بن زياد ، سمعت أبا أمامة الباهلي يقول : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول « **وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا ، مع كل ألف سبعون ألفًا ، لا حساب عليهم ولا عذاب ، وثلاث حثيات من حثيات ربي عز وجل** » (٢٧٤).

وكذا رواه الطبراني من طريق هشام بن عمار ، عن إسماعيل بن عياش به ، وهذا إسناد جيد .

(طريق[٣] أخرىٰ) عن أبي أمامة . قال ابن أبي عاصم : حدثنا دحيم ، حدثنا الوليد بن مسلم ، ثنا[٤] صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر، عن أبي اليمان الهوزني - واسمه عامر

---

(٢٧٣) - أخرجه أحمد في « مسنده » (٢٨٣/٣) . وأخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان ، حديث ٣١٦ - (١٩١) من طريق روح ، عن أبي الزبير أنه سمع جابرًا يسأل عن الورد فذكره موقوفًا .

(٢٧٤) - **إسناده صحيح** ، أخرجه ابن أبي عاصم في « السنة » (٢٦١/١) برقم (٥٨٩) . وأخرجه الطبراني في « الكبير » (١٢٩/٨) برقم (٧٥٢٠) من طريق هشام بن عمار ، عن إسماعيل بن عياش به . وأخرجه أحمد في « مسنده » (٢٦٨/٥) ، والترمذي في « سننه » كتاب : صفة القيامة ، باب : منه ، رقم (١٢) ، رقم (٢٤٣٧) ، وابن ماجه في « سننه » كتاب الزهد ، باب : صفة أمة محمد ﷺ حديث (٤٢٨٦) ، كلهم من طريق إسماعيل بن عياش بهذا الإسناد . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٣٦٥/١٠ ، ٣٦٦) وقال : « عند الترمذي وابن ماجه بعضه ، رواه أحمد والطبراني ، ورجال أحمد وبعض أسانيد الطبراني رجال الصحيح ....» . وصحح إسناده الشيخ الألباني - حفظه اللَّه - في « ظلال الجنة في تخريج السنة » (٢٦٢/١) رقم (٥٨٩) .

---

[١] - سقط من : خ .

[٢] - سقط من : خ ، ز .

[٣] - في خ : « طريقة » .

[٤] - في ت : «عن» .

ابن عبد الله بن لُحي - عن أبي أمامة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **إن الله وعدني أن يدخل الجنة من أمّتي سبعين ألفًا بغير حساب** » فقال[١] يزيد بن الأخنس : والله ما أولئك في أمّتك يا رسول الله ، إلا مثل الذباب الأصهب في الذباب ، قال رسول الله ﷺ : « **فإن الله وعدني سبعين ألفًا ، مع كل ألف سبعون**[٢] **ألفًا ، وزادني ثلاث حثيات** (٢٧٥) » وهذا أيضًا إسناد حسن .

(حديث آخر) قال أبو القاسم الطبراني (٢٧٦) : حدثنا أحمد بن خليد ، حدثنا أبو توبة[٣] حدثنا معاوية بن سلام ، عن زيد بن سلام ، أنه سمع أبا سلام يقول : حدثني عامر بن زيد البكالي ، أنه سمع عتبة بن عبد السلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن ربي [عز وجل وعدني]**[٤] **أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا بغير حساب ، ثم يشفع كل ألف لسبعين ألفًا ، ثم يحثي ربي عز وجل بكفيه ثلاث حثيات** » فكبر عمر وقال : إن السبعين الأول يشفعهم الله في آبائهم وأبنائهم وعشائرهم[٥] ، وأرجو أن يجعلني الله في إحدى الحثيات الأواخر .

قال الحافظ الضياء [أبو عبد الله][٦] المقدسي في كتابه « **صفة الجنة** » : لا أعلم لهذا الإسناد علة ، والله أعلم .

---

(٢٧٥) - **إسناده صحيح** ، أخرجه ابن أبي عاصم في « السنة » (١/٢٦٠ - ٢٦١) رقم (٥٨٨) . وأخرجه الطبراني في « الكبير » (٨/١٨٧) رقم (٧٦٧٢) من طريق : دحيم ، عن الوليد بن مسلم ، عن صفوان بن عمرو ، عن سليم بن عامر وأبي اليمان الهوزني ، عن أبي أمامة به .
وأخرجه أحمد في « مسنده » (٥/٢٥٠) من طريق عصام بن خالد ، عن صفوان بن عمرو ، عن سليم بن عامر الخبائري وأبي اليمان ، عن أبي أمامة به . وأخرجه ابن حبان في « صحيحه » (١٦/٢٣٠) رقم (٧٢٤٦) ، والطبراني (٨/١٨١ ، ١٨٢) رقم (٧٦٦٥) من طريق سليم بن عامر ، عن أبي أمامة به .
وصحح إسناده الشيخ الألباني - حفظه الله في « ظلال الجنة في تخريج السنة » ١/٢٦١) رقم (٥٨٨) .
وقال تعليقًا على رواية الإمام أحمد : « كذا قال : « وأبي اليمان » وقال المصنف [يقصد : ابن أبي عاصم] : « عن أبي اليمامة » ولعل الصواب الأول ، فإنهم لم يذكروا لصفوان رواية عن أبي اليمامة ، وإنما ذكروا له كأبي اليمان رواية عن أبي أمامة مباشرة » . وانظر الحديث السابق .
(٢٧٦) - **صحيح** ، أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٧/١٢٦ - ١٢٧) رقم (٣١٢) . ورواه أيضًا في « الأوسط » (١/١٢٦) . وسيأتي تخريجه في سورة الرعد حديث رقم (١١١) .

---

[١] - في خ : « قال » .
[٢] - في ز : « سبعين » .
[٣] - في خ ، ز : « ثوبة » .
[٤] - في خ ، ز : « وعدني عز وجل » .
[٥] - في ت : « وعشيرتهم » .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد(٢٧٧) : حدثنا يحيىٰ بن سعيد ، حدثنا هشام[١] - يعني : الدستوائي - حدثنا يحيىٰ بن أبي كثير ، عن هلال بن أبي ميمونة ، حدثنا عطاء ابن يسار ، أن رفاعة الجهني حدثه ، قال : أقبلنا مع رسول اللّه ﷺ حتىٰ إذا كنا بالكديد- أو قال : بقديد- فذكر حديثًا ، وفيه : ثم قال : « **وعدني ربي عز وجل أن يدخل الجنة من أمّتي سبعين ألفًا بغير حساب ، وإني لأرجو أن لا يدخلوها حتىٰ تبوءوا**[٢] **أنتم ، ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن في الجنة** » قال الضياء : وهذا عندي علىٰ شرط مسلم .

(حديث آخر) قال عبد الرزاق(٢٧٨) ، أنبأنا معمر ، عن قتادة ، عن النضر بن أنس ، عن أنس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **إن اللّه وعدني أن يدخل الجنة من أمتي أربعمائة ألف** » قال أبو بكر رضي اللّه عنه : زدنا يا رسول اللّه قال : « **واللّه وهكذا**[٣] » فقال[٤] عمر: حسبك يا أبا بكر ، فقال أبو بكر: دعني وما عليك أن يدخلنا اللّه الجنة كلنا . فقال[٥] عمر : [إن اللّه إن شاء أدخل][٦] خلقه الجنة بكف واحد . فقال النبي ﷺ : « **صدق عمر** » .

هذا الحديث بهذا الإسناد تفرّد[٧] به عبد الرزاق . قال الضياء : وقد رواه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني ، قال[٨] : حدثنا محمد بن أحمد بن مخلد ، حدثنا إبراهيم بن الهيثم

---

(٢٧٧) - أخرجه أحمد في « مسنده » (١٦/٤) . وابن ماجه في « سننه » كتاب الزهد ، باب : صفة أمة محمد ﷺ حديث (٤٢٨٥) من طريق الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن هلال بن ميمونة ، به نحوه . وذكره الهيثمي في « المجمع » : (٤١١/١٠) وقال : « قلت : عند ابن ماجه طرف منه يسير ، رواه الطبراني والبزار بأسانيد ورجال بعضها عند الطبراني والبزار رجال الصحيح .

(٢٧٨) - أخرجه عبد الرزاق في « مصنفه » (٢٨٦/١١) رقم (٢٠٥٥٦) . ومن طريقه أحمد في « مسنده » (١٦٥/٣) وابن أبي عاصم في « السنة » (٢٦٢/١) رقم (٥٩٠) ، والطبراني في « الأوسط » (٣٥٩/٣) رقم (٣٤٠٠) . وقال الطبراني : هكذا رواه معمر ، عن قتادة ، عن النضر بن أنس . ورواه معاذ ابن هشام ، عن أبيه ، عن قتادة ، عن أبي بكر بن أنس ، عن أبي بكر بن عمير ، عن أبيه . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٤٠٧/١٠) وقال : رواه أحمد والطبراني في « الأوسط » وإسناده حسن . وذكر طريقًا آخر وقال : رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجالهما رجال الصحيح . وصحح إسناده الشيخ الألباني - حفظه اللّه - كما في « ظلال الجنة في تخريج السنة » (٢٨٢/١) رقم (٥٩٠) .

---

[١] - في خ ، ز : « هاشم » .
[٢] - في خ : « يبوأ » .
[٣] - في ت : « هكذا » .
[٤] - في خ : « قال » .
[٥] - في خ : « قال » .
[٦] - في : خ ، ز : « إن شاء اللّه أدخل » .
[٧] - في خ : « انفرد » .
[٨] - سقط من : خ ، ز .

البلدي[١] ، حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا أبو هلال ، عن قتادة ، عن أنس عن النبي ﷺ قال : « **وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي مائة ألف** » فقال أبو بكر يا رسول الله ، زدنا . قال : « **وهكذا** » وأشار سليمان بن حرب بيده كذلك ، قلت : يا رسول الله ، زدنا . فقال عمر : إن الله قادر على[٢] أن يدخل الناس الجنة بحفنة واحدة ، فقال رسول الله ﷺ : « **صدق عمر** »(٢٧٩) .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وأبو هلال اسمه[٣] محمد بن سليم الراسبي بصري .

(طريق أخرىٰ) عن أنس . قال الحافظ أبو يعلىٰ(٢٨٠) ، حدثنا محمد بن أبي بكر ، حدثنا عبد القاهر بن السري السلمي ، حدثنا حميد ، عن أنس ، عن النبي ﷺ : قال « **يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا** » قالوا : زدنا يا رسول الله [قال : « **لكل رجل سبعون ألفًا** » قالوا : زدنا وكان علىٰ كثيب ،][٤] فقال : « **هكذا** » وحثا بيده[٥] ، قالوا : يا رسول الله ، أبعد اللهُ مَن دَخل النار بعد هذا ! وهذا إسناد جيد ، رجاله كلهم[٦] ثقات ، ما عدا عبد القاهر بن السري ، وقد سئل عنه ابن معين ، فقال : صالح .

([حديث آخر) روىٰ الطبراني(٢٨١) من حديث قتادة ، عن أبي بكر بن أنس ، عن أبي بكر بن عمير ، عن أبيه أن النبي ﷺ قال : « **إن الله وعدني أن يدخل من أمتي ثلثمائة ألف الجنة [بغير حساب]**[٧] » فقال عمير : يا رسول الله ، زدنا . فقال : « **وهكذا** » بيده ، فقال عمير : يا رسول الله ، زدنا . فقال عمر : حسبك ، إن الله إن شاء أدخل الناس الجنة بحفنة ، أو بحثية واحدة ، فقال النبي ﷺ : « **صدق عمر**][٨] » .

---

(٢٧٩) - أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٣٤٤/٢ ، ٣٤٥) . ورواه أحمد في « مسنده » (١٩٣/٣) من طريق أبي هلال ، عن قتادة ، عن أنس - رضي الله عنه - به . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٤١٢/١٠) وقال : رواه البزار ، ورجاله ثقات ، على ضعف في أبي هلال الراسبي . وقال أبو نعيم : تفرد به أبو هلال واسمه محمد بن سليم الراسبي ، ثقة ، بصري .

(٢٨٠) - أخرجه أبو يعلي في « مسنده » (٤١٧/٦) رقم (٣٧٨٣) . وذكره الهيثمي في « المجمع » (١٠/ ٤٠٧) وقال : « رواه أبو يعلى » وسكت عنه - كما ذكره الحافظ ابن حجر في « المطالب العالية » (٤/ ٤٠٩) رقم (٤٦٩٩) وعزاه إلى أبي يعلى » .

(٢٨١) - أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (٦٤/١٧) رقم (١٢٣) . وذكره الهيثمي في « المجمع » ، وقال : رواه الطبراني وأبو بكر بن عمير لم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

---

[١] - في خ ، ز : « الباري » .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - في خ : « واسمه » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .
[٥] - في ت : « بيديه » .
[٦] - سقط من : خ ، ز .
[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من « ز » .
[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

(**حديث**[١] **آخر**) قال[٢] الطبراني(٢٨٢) : حدثنا أحمد بن خليد ، حدثنا أبو توبة ، حدثنا معاوية بن سلام ، عن زيد[٣] [أنه سمع أبا سلام][٤] يقول : حدثني عبد الله بن عامر ، أن قيسًا الكندي حدث ، أن أبا سعيد الأنماري ، حدثه : أن رسول الله ﷺ قال : « **إن ربي وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا بغير حساب ، ويشفع [كل ألف لسبعين]**[٥] **ألفًا ، ثم يحثي ربي ثلاث حثيات بكفيه** »[٦] قال قيس : فقلت لأبي سعيد : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال : نعم بأذني ، ووعاه قلبي . قال أبو سعيد : فقال يعني : رسول الله صلى الله عليه وسلم « **وذلك إن شاء الله عز وجل يستوعب مهاجري**[٧] **أمتي ، ويوفي الله بقيته من أعرابنا**[٨] » وقد روى هذا الحديث محمد بن سهل بن عسكر ، عن أبي توبة الربيع بن نافع بإسناده مثله ، وزاد : قال أبو سعيد : فحسب ذلك عند رسول الله ﷺ فبلغ أربعمائة ألف ألف وتسعين ألفًا .

(٢٨٢) - أخرجه الطبراني في « الأوسط » (١/١٢٨ ، ١٢٩) رقم (٤٠٤) ، وفي « الكبير » (٢٢/٣٠٤ ، ٣٠٥) رقم (٧٧١) . إلا أنه قال في « الكبير » : أبو سعد الأنصاري . وقال الطبراني في « الأوسط » : لا يُروى هذا الحديث عن أبي سعد الأنماري إلا بهذا الإسناد ، تفرد به معاوية بن سلام . وأخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٢/٣٠٥) رقم (٧٧٢) من طريق الزبيدي عن عبد الله بن عامر اليحصبي عن قيس بن الحارث عن أبي سعد الخير الأنصاري به بنحوه مختصرًا . وذكره الهيثمي في « المجمع » (١٠/٤١٢ ، ٤١٣) وقال : رواه الطبراني في « الأوسط والكبير » إلا أنه قال في « الأوسط » أبو سعيد الأنماري ، ورجاله ثقات .

وأورده الحافظ ابن حجر في « الإصابة » في ترجمة أبي سعيد الأنماري (٤/٨٨ - ٨٩) رقم (٥٣٣) من طريق مروان بن محمد عن معاوية بن سلام أخي زيد بن سلام أنه سمع جده أبا سلام الخشني قال : حدثني عبد الله بن عامر اليحصبي سمعت قيس بن حجر يحدث عن عبد الملك بن مروان قال : حدثني أبو سعيد الأنماري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن الله وعدني ....» الحديث ثم قال الحافظ : سنده صحيح وكلهم من رجال الصحيح إلا قيس بن حجر وهو شامي ثقة .

ثم قال الحافظ : ولكن أخرجه الحاكم أبو أحمد أيضًا من طريق أبي توبة عن معاوية بن سلام فقال : إن قيس ابن حجر الكندي حدث الوليد بن عبد الملك أن أبا سعيد الخير حدثه ... ، وأخرجه الطبراني من طريق أبي توبة عن معاوية فقال : إن أبا سعيد الأنماري وقيل : قيس بن الحارث أن أبا سعيد الخير الأنصاري حدثه فذكر طرفًا منه . ثم قال الحافظ : فمن هذا الاختلاف يتوقف في الجزم بصحة هذا السند .ا.هـ .

[١] - في خ : « طريق » .
[٢] - في خ : « روى » .
[٣] - في خ : « يزيد » .
[٤] - سقط من خ .
[٥] - في خ ، ز : « لكل ألف سبعين » .
[٦] - بعده في ز : كذا .
[٧] - في ز : « لمهاجري » .
[٨] - في خ : « أعرانا » .

(حديث آخر) قال أبو القاسم الطبراني(٢٨٣) : حدثنا هشيم بن مرثد الطبراني ، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش ، حدّثني أبي ، حدثني ضمضم[١] بن زرعة ، عن شريح بن عبيد ، عن أبي مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « **أما والذي نفس محمد بيده ، ليبعثن منكم يوم القيامة إلىٰ الجنة مثل الليل الأسود ، زمرة جميعها يخبطون الأرض ، تقول[٢] الملائكة : لم جاء مع محمد أكثر مما جاء مع الأنبياء ؟!** » وهذا إسناد حسن .

(نوع[٣] آخر) من الأحاديث الدالة علىٰ فضيلة هذه الأمّة وشرفها وكرامتها[٤] علىٰ الله ، عز وجل ، وأنها خير الأمم في الدنيا والآخرة .

قال الإمام أحمد(٢٨٤) حدثنا يحيىٰ بن سعيد ، حدثنا ابن جريج ، أخبرني أبو الزبير عن جابر ، أنه سمع النبي ﷺ يقول : « **إني لأرجو أن يكون من يتبعني من أمّتي يوم القيامة ، ربع أهل[٥] الجنة** » قال[٦] : فكبرنا ، ثم قال : « **أرجو أن تكونوا[٧] ثلث الناس** » قال : فكبرنا ، ثم قال : « **أرجو أن تكونوا[٨] الشطر** » وهكذا رواه عن روح ، عن ابن جريج به ، وهو علىٰ شرط مسلم .

وثبت في الصحيحين(٢٨٥) من حديث أبي إسحاق السبيعي ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال لنا رسول الله ﷺ : « **أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟** » فكبرنا ، ثم قال : « **أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟** » فكبرنا ، ثم قال : « **إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة** » .

---

(٢٨٣) - **إسناده ضعيف** ، أخرجه الطبراني في « الكبير » (٣٣٧/٣) رقم (٣٤٥٥) . وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » : (٤٠٧/١٠) ، وقال : رواه الطبراني وفيه محمد بن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف .

(٢٨٤) - أخرجه أحمد في « مسنده » (٣٤٦/٣) قال : حدثنا موسى بن داود قال : حدثنا ابن لهيعة . وفي (٣٨٣/٣) قال : حدثنا روح ، قال : حدثنا ابن جريج كلاهما (ابن لهيعة وابن جريج) عن أبي الزبير ، فذكره . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٤٠٥/١٠ - ٤٠٦) وقال : رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط ، ورجال البزار رجال الصحيح وكذلك أحد إسنادي أحمد .

(٢٨٥) - أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب : كيف الحشر ، حديث (٦٥٢٨) ، وكتاب : الأيمان والنذور ، حديث (٦٦٤٢) . ومسلم في « صحيحه » كتاب : الإيمان ، حديث ٣٧٦ - ٣٨٨ - (٢٢١) . من حديث أبي إسحاق السبيعي ، عن عمرو بن ميمون الأودي ، عن عبد الله بن مسعود به .

---

[١] - في خ : « ضمضمة » .
[٢] - في خ : « يقول » .
[٣] - في خ : « حديث » .
[٤] - في خ : « بكرامتها » .
[٥] - سقط من : ز .
[٦] - سقط من ز .
[٧] - في ت : « يكونوا » .
[٨] - في ت : « يكونوا » .

(طريق أخرىٰ) عن ابن مسعود . قال الطبراني(٢٨٦) : حدثنا أحمد بن القاسم بن مساور ، حدثنا عفان بن مسلم ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثني الحارث بن حصيرة[١] ، حدثني القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **كيف أنتم وربع الجنة لكم ، ولسائر الناس ثلاثة أرباعها** » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « **كيف أنتم وثلثها** » قالوا : ذاك أكثر ، قال : « **كيف أنتم والشطر لكم** » ، قالوا : ذاك[٢] أكثر ، فقال رسول الله ﷺ : « **أهل الجنة عشرون ومائة صف ؛ لكم منها ثمانون صفًا** » .

قال الطبراني : تفرّد به الحارث بن حصيرة[٣] .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد (٢٨٧) : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عبد العزيز بن مسلم ، حدثنا ضرار بن مرة أبو سنان الشيباني ، عن محارب بن دثار ، عن ابن بريدة ، عن أبيه ، أن[٤] النبي ﷺ قال : « **أهل الجنة عشرون ومائة صف ، هذه الأمة من ذلك**

---

(٢٨٦) - أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٠/٢٠٨ ، ٢٠٩) رقم (١٠٣٥٠) ، و« الأوسط » (١/١٧٢) رقم (٥٣٩) و« الصغير » (١/٣٤) . وأخرجه أحمد في « مسنده » (١/٤٥٣) ، والبزار في « مسنده » (٥/٣٦٨ - ٣٦٩) رقم (١٩٩٩) وأبو يعلى في « مسنده » (٩/٢٤١) رقم (٥٣٥٨) والحاكم في « المستدرك » (١/٨٢) من طريق الحارث بن حصيرة به . وذكره الهيثمي في « المجمع » : (١٠/٤٠٦) وقال : « قلت : - هو في الصحيح باختصار - رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الثلاثة ، ورجالهم رجال الصحيح غير الحارث بن حصيرة وقد وثق . وقال الطبراني في الأوسط : لم يرو هذا الحديث عن القاسم بن عبد الرحمن إلا الحارث ، تفرد به : عبد الواحد بن زياد . وقال البزار : لا نعلمهما يرويان عن عبد الله بن مسعود إلا بهذا الإسناد . وقال الحاكم : عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود لم يسمع من أبيه في أكثر الأقاويل .

(٢٨٧) - **إسناده صحيح** على شرط مسلم ، رجاله ثقات رجال الشيخين غير ضرار بن مرة ، وابن بريدة - وهو سليمان - فكلاهما من رجال مسلم . وأخرجه أحمد في « مسنده » (٥/٣٥٥) من طريق عبد الصمد . وأخرجه أيضًا في « مسنده » (٥/٣٤٧) من طريق عفان ، عن عبد العزيز به . وأخرجه الترمذي في « سننه » كتاب صفة الجنة ، باب : ما جاء في وصف أهل الجنة ، حديث (٢٥٤٦) ، من طريق أبي سنان به وحسنه . وأخرجه ابن ماجه في « سننه » كتاب : الزهد ، باب : صفة أمة محمد ﷺ حديث (٤٢٨٩) والدارمي في « سننه » (٢/٣٣٧) ، كتاب : الرقائق ، باب : في صفوف أهل الجنة ، والحاكم في « المستدرك » (١/٨٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (١٦/٤٩٩ - ٥٠٠ - الإحسان) برقم (٧٤٦٠) . كلهم من طريق سفيان الثوري ، عن علقمة بن مرثد ، عن سليمان بن بريدة ، عن أبيه به . وأخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (١١/٤٧٠ ، ٤٧١) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٨١، ٨٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (١٦/٤٩٨ - الإحسان) برقم (٧٤٥٩) . =

---

[١] - في خ ، ز : « حصين » .
[٢] - في خ : « ذلك » .
[٣] - في خ ، ز : « حصين » .
[٤] - في ت : « عن » .

ثمانون صفًا » .

وكذا[١] رواه عن عفان عن عبد العزيز به ، وأخرجه الترمذي من حديث أبي سنان به وقال : هذا حديث حسن ، ورواه ابن ماجة من حديث سفيان الثوري ، عن علقمة بن مرثد ، عن سليمان بن بريدة ، عن أبيه به .

(حديث آخر) روىٰ الطبراني(٢٨٨) من حديث سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي ، حدثنا خالد بن يزيد البجلي ، حدثنا سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، قال : « **أهل الجنة عشرون ومائة صف ، ثمانون منها من أمتي** » تفرد به خالد بن يزيد البجلي ، وقد تكلم فيه ابن عدي .

(حديث آخر) قال الطبراني(٢٨٩) : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا موسىٰ بن غيلان ، حدثنا هاشم بن مخلد ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن سفيان ، عن أبي عمرو ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : لما نزلت : ﴿ **ثلة من الأولين وثلة من الآخرين** ﴾ قال رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم : « **أنتم ربع أهل الجنة ، أنتم ثلث أهل الجنة ، أنتم نصف أهل الجنة ، أنتم ثلثا أهل الجنة** » .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن ابن[٢] طاوس ، عن أبيه عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « **نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، نحن أول الناس دخولًا الجنة ؛ بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ؛ وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه**

= كلهم من طريق محمد بن فضيل بن غزوان ، عن ضرار بن مرة ، عن محارب بن دثار ، عن ابن بريدة به.
وأخرجه ابن عدي في « الكامل » (١٤٢٠/٤) من طريق عبد الله بن معاوية ، عن عبد العزيز بن مسلم ، عن ضرار بن عمرو ، عن محارب بن دثار به ، ذكره ابن عدي في ترجمة ضرار بن عمرو الملطي ، وقال : منكر الحديث . وتعقبه الحافظ ابن حجر في « لسان الميزان » (٢٣٩/٣) رقم (٤٣٢٢) فقال : « وحديث بريدة ليس هو من منكراته كما هنا ، فقد رواه ضرار بن مرة الثقة الثبت ، عن محارب بن دثار ، عن سليمان ابن بريدة ، عن أبيه به » .

(٢٨٨) - **إسناده ضعيف** ، أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (٣٤٨/١٠) رقم (١٠٦٨٢) . وأخرجه ابن عدي في « الكامل » (٨٨٥/٣) من طريق خالد بن يزيد العجلي به . وقال عنه : « أحاديثه كلها لا يتابع عليها لا إسنادًا ولا متنًا ، ولم أر للمتقدمين فيه قولًا ، إل غفلوا عنه وهو عندي ضعيف » . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٤٠٦/١٠) وقال : رواه الطبراني وفيه خالد بن يزيد الدمشقي وهو ضعيف وقد وثق .

(٢٨٩) - أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١٠١/٧) من طريق الطبراني ، ونقل عنه قوله : « تفرد برفعه ابن المبارك عن الثوري ، وأبو عمرو اسمه محمد والد أسباط بن محمد الكوفي القرشي » .

[١] - في خ : « وكذلك » . [٢] - سقط من ز .

من الحق ، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه ، الناس لنا فيه تبع ، غدًا لليهود ، وللنصارىٰ بعد غد » (٢٩٠) .

رواه البخاري ، ومسلم من حديث عبد اللَّه بن طاوس عن أبيه ، عن أبي هريرة ، رضي اللَّه عنه ، عن النبي ﷺ مرفوعًا بنحوه ، ورواه مسلم أيضًا من طريق الأعمش ، عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وآله وسلم : « **نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة ، ونحن أوّل من يدخل الجنة** » وذكر تمام الحديث .

(حديث آخر) روىٰ الدارقطني في الأفراد ، من حديث عبد اللَّه بن محمد بن عقيل ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه أنّ النبي ، ﷺ ، قال : « **إنّ الجنة حرّمت علىٰ الأنبياء كلهم حتىٰ أدخلها ، وحرّمت علىٰ الأمم حتىٰ تدخلها أمّتي** »(٢٩١) .

ثم قال : تفرد[١] به ابن عقيل ، عن الزهري ، ولم يرو عنه سواه ، وتفرد به زهير بن محمد ، عن ابن عقيل ، وتفرّد به عمرو بن أبي سلمة عن زهير .

وقد [رواه أبو أحمد بن عدي[٢] الحافظ فقال : حدثنا أحمد بن الحسين بن إسحاق ، حدثنا أبو بكر الأعين محمد بن أبي عتّاب[٣] ، حدثنا أبو حفص التنيسي ، [يعني عمرو بن أبي سلمة][٤] حدثنا صدقة الدمشقي، عن زهير بن محمد ، عن عبد اللَّه بن محمد بن عقيل ، عن الزهري به[٥]][٦] .

---

(٢٩٠) - أخرجه البخاري في كتاب : الأيمان والنذور ، باب : قول اللَّه تعالى ﴿ **لا يؤاخذكم اللَّه باللغو في أيمانكم ...** ﴾ حديث (٦٦٢٤) ، وكتاب التعبير ، باب : النفخ في المنام ، حديث (٧٠٣٦) ، ومسلم في كتاب الجمعة ، حديث (٨٥٥) من طرق عن ابن طاوس ، عن أبيه طاوس ، عن أبي هريرة به .

(٢٩١) - أخرجه ابن عدي في « الكامل » (١٤٤٨/٤) في ترجمة عبد اللَّه بن محمد بن عقيل . ونقل ابن أبي حاتم في « العلل » (٢٢٧/٢) عن أبي زرعة : « هذا الحديث منكر لا أدري كيف هو » . وذكره الذهبي في الميزان (١٩٨/٣) في ترجمة عبد اللَّه بن محمد بن عقيل .

وعبد اللَّه بن محمد بن عقيل : روى جماعة عن ابن معين تضعيفه ، وقال ابن المديني : لم يدخل مالك في كتبه ابن عقيل ، واحتج به أحمد وإسحاق ، وقال أبو حاتم وغيره : لين الحديث ، وقال ابن خزيمة : لا أحتج به .

---

[١] - في ت : « انفرد » .

[٢] - في خ ، ز : « علي » .

[٣] - في خ ، ز : « غياث » .

[٤] - سقط من ت .

[٥] - سقط من ت .

[٦] - هذه الفقرة متأخرة في : خ ، ز عن الفقرة التي تليها.

ورواه الثعلبي ، حدثنا أبو عباس المخلدي ، أنبأنا أبو نعيم عبد الملك بن محمد ، أنبأنا أحمد بن عيسىٰ التنيسي ، حدثنا عمرو بن أبي سلمة ، حدثنا صدقة بن عبد اللَّه ، عن زهير بن محمد بن عقيل به .

فهذه الأحاديث في معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ **كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون باللَّه** ﴾ فمن اتصف من هذه[١] الأمّة بهذه الصفات ، دخل معهم في هذا [الثناء عليهم المدح لهم][٢] ، كما قال قتادة : بلغنا أنّ عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه في حجة حجها رأىٰ من الناس سرعة ؛ فقرأ هذه الآية : ﴿ **كنتم خير أمّة أخرجت للناس** ﴾ ، ثم[٣] قال : من سره أن يكون من تلك[٤] الأمّة ؛ فليؤدّ شرط اللَّه فيها ، رواه ابن جرير(٢٩٢) .

ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمّهم اللَّه تعالى بقوله : ﴿ **كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾ ؛ ولهذا لما مدح تعالىٰ هذه الأمّة علىٰ هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم ، فقال تعالىٰ : ﴿ **ولو آمن أهل الكتاب** ﴾ ، أي : بما أنزل علىٰ محمد ﴿ **لكان خيرًا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون** ﴾ أي : قليل منهم من يؤمن باللَّه ، وما أنزل إليكم ، وما أنزل إليهم ، وأكثرهم علىٰ الضلالة ، والكفر ، والفسق ، والعصيان .

ثم قال تعالىٰ مخبرًا عباده المؤمنين ، ومبشرًا لهم : أن النصر والظفر لهم علىٰ أهل الكتاب الكفرة الملحدين ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ **لن يضروكم إلا أذىٰ وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون** ﴾ وهكذا وقع ؛ فإنهم يوم خيبر أذلهم اللَّه ، وأرغم آنافهم[٥] ، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة ؛ بني قينقاع ، وبني[٦] النضير ، وبني[٧] قريظة ، كلهم أذلهم اللَّه ، وكذلك النصارىٰ بالشام ، كسرهم الصحابة في غير [ما موطن][٨] ، وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين ، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام ، حتىٰ ينزل عيسىٰ بن مريم وهم[٩] كذلك ، ويحكم [عليه السلام][١٠] ، وبشرع[١١] محمد عليه أفضل الصلاة

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في ت : « المدح » .
[٣] - سقط من : خ ، ز .
[٤] - في ت : « هذه » .
[٥] - في ت : « أنوفهم » .
[٦] - في ز : « بنو » .
[٧] - في ز : « بنو » .
[٨] - ما بين المعكوفتين في خ : « مواطن » .
[٩] - في خ : « وهو » .
[١٠] - في ت : بملة الإسلام .
[١١] - في ت : « وشرع » .

والسلام ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من اللّٰه وحبل من الناس** ﴾ أي ألزمهم اللّٰه الذلة والصغار أينما كانوا ، فلا يأمنون ﴿ **إلا بحبل من اللّٰه** ﴾ أي : بذمّة من اللّٰه ، وهو عقد الذمّة لهم ، وضرب الجزية عليهم ، وإلزامهم أحكام المذلة[١] ﴿ [**وحبل من الناس** ﴾] أي : أمان منهم لهم ، كما في المهادن والمعاهد ، والأسير إذا أمنه واحد من المسلمين ولو امرأة : وكذا عبد علىٰ أحد قولي العلماء .

قال ابن عباس: ﴿ **إلا بحبل من اللّٰه** [٢] **وحبل من الناس** ﴾[٣] أي: بعهد من اللّٰه ، وعهد من الناس ، وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وعطاء ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والسدّي ، والربيع بن أنس .

وقوله ﴿ **وباءوا بغضب من اللّٰه** ﴾ [أي : ألزموا . فالتزموا بغضب من اللّٰه وهم يستحقونه : ﴿ **وضربت عليهم المسكنة** ﴾][٤] أي : ألزموها[٥] قدرًا وشرعًا ، ولهذا قال : ﴿ **ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات اللّٰه ويقتلون الأنبياء بغير حق** ﴾ أي[٦] : إنما حملهم علىٰ ذلك الكبر ، والبغي والحسد ، فأعقبهم ذلك الذلة ، والصغار ، والمسكنة أبدًا متصلًا بذلة الآخرة . ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ أي : إنما حملهم علىٰ الكفر بآيات اللّٰه وقتل رسل اللّٰه ، وقيضوا لذلك أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر اللّٰه عز وجل والغشيان لمعاصي اللّٰه ، والاعتداء في شرع اللّٰه ، فعياذًا باللّٰه من ذلك ، وباللّٰه المستعان.

قال ابن أبي حاتم(٢٩٣) : حدثنا يونس بن[٧] حبيب ، حدثنا أبو داود الطيالسي ، حدثنا شعبة ، عن سليمان الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبي معمر الأزدي ، عن عبد اللّٰه بن مسعود رضي اللّٰه عنه قال : كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمائة نبي ، ثم يقوم سوق [بقلهم في][٨] آخر النهار .

---

(٢٩٢) - أخرجه ابن جرير في « تفسيره » (١٠٢/٧) رقم (٧٦١٢) وذكره السيوطي في « الدر » (٢/ ١١٣) وعزاه إلى ابن جرير .

(٢٩٣) - **إسناده صحيح** ، وعدم تصريح الأعمش بالتحديث لا يضر ؛ لأن الراوي عنه شعبة ، أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٤٨٣/٢) رقم (١٢١٥) . وذكره السيوطي في « الدر » (١٤٢/١) وزاد عزوه إلى الطيالسي .

---

[١] - في ز : « الملة » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من « ز » .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٥] - في ز : « ألزموا بها » .

[٦] - في خ ، ز : « و » .

[٧] - في ز : « عن » .

[٨] - ما بين المعكوفتين في ز : « تقبلهم » .

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) ﴾

قال ابن أبي نجيح : زعم الحسن بن أبي يزيد العجلي[١] ، عن ابن مسعود في قوله تعالىٰ : ﴿ **ليسوا سواء من أهل الكتاب أمّة قائمة** ﴾ قال[٢] : لا يستوي أهل الكتاب وأمّة محمد ، ﷺ (٢٩٤) .

وهكذا قال السدي . ويؤيد هذا القول الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده : حدثنا أبو النضر ، وحسن بن موسىٰ قالا[٣] : حدثنا شيبان ، عن عاصم ، عن زر ، عن ابن مسعود قال : أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ثم خرج إلىٰ المسجد ؛ فإذا الناس ينتظرون الصلاة ، فقال : « **أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه**

(٢٩٤) - أخرجه الطبري في « تفسيره » (١٢٢/٧) رقم (٧٦٤٨) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/ ٤٨٤) رقم (١٢١٧) كلاهما عن ابن أبي نجيح به . وذكره السيوطي في « الدر » (١١٦/٢) . وزاد عزوه إلى الفريابي والبخاري في تاريخه ، وعبد بن حميد وابن المنذر .

والحسن بن أبي يزيد العجلي - هكذا في الأصل - وهو خطأ ، والصواب : الحسن بن يزيد العجلي ، فإنه معروف بالرواية عن ابن مسعود ، وبرواية ابن أبي نجيح عنه ، كما أن الطبري وكذلك ابن أبي حاتم ذكر في تفسيريهما « الحسن بن يزيد العجلي » . وكذا ذكره البخاري في « تاريخه » (٣٠٨/٢) رقم (٢٥٧٦) وابن أبي حاتم في « الجرح والتعديل » (٤٢/٢) رقم (١٨٠) وسكتا عنه . وقال الحافظ في « التقريب » : مقبول .

[١] - في خ ، ز : « النخعي » . [٢] - في ز : « يقول » .

[٣] - سقط من : خ .

الساعة غيركم » قال : فنزلت[١] هذه الآيات : ﴿ **ليسوا سواء من أهل الكتاب** [**أمة قائمة**][٢] ﴾ [إلىٰ قوله][٣] ﴿ **والله عليم بالمتقين** ﴾ (٢٩٥) .

والمشهور عند[٤] كثير من المفسرين كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره ، ورواه العوفي عن ابن عباس : أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب ؛ كعبد الله بن سلام ، وأسد بن عبيد ، وثعلبة بن سعية[٥] ، وأسيد بن سعية[٦] وغيرهم (٢٩٦) . أي : لا يستوىٰ من تقدّم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب ، [وهؤلاء الذين أسلموا ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **ليسوا سواء** ﴾ أي : ليسوا كلهم علىٰ حد سواء ، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم ، ولهذا قال تعالىٰ][٧] : ﴿ **من أهل الكتاب أمّة قائمة** ﴾ أي : قائمة بأمر الله ، مطيعة لشرع الله ، متبعة نبي الله ، فهي[٨] قائمة يعني[٩] مستقيمة ﴿ **يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون** ﴾ أي : يقيمون[١٠] الليل ، ويكثرون التهجد ، ويتلون القرآن في صلواتهم ﴿ **يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من**

---

(٢٩٥) - **إسناده حسن** ، أخرجه أحمد في « مسنده » (٣٩٦/١) . والنسائي في التفسير من « الكبرى » (٣١٣/٦) رقم (١١٠٧٣) ، والبزار في « مسنده » (١٩٠/١ - ١٩١ كشف الأستار) رقم (٣٧٥) . وابن حبان في « صحيحه » (٣٩٧/٤ ، ٣٩٨/ الإحسان) برقم (١٥٣٠) . وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٨٧) ، والطبري في « تفسيره » (١٢٨/٧) رقم (٧٦٦٢) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٤٨٦/٢ - ٤٨٧) رقم (١٢٢٦) ، كلهم من طرق ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن زر بن حبيش ، عن عبد الله بن مسعود به .

وأخرجه الطبري في « تفسيره » (١٢٧/٧) رقم (٧٦٦١) ، والطبراني في « الكبير » (١٦٢/١٠) رقم (١٠٢٠٩) وأبو نعيم في « الحلية » (١٨٧/٤) ، من طريق سليمان الأعمش ، عن زر بن حبيش ، عن عبد الله بن مسعود به . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٣١٧/١) وقال : رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الكبير ، وقال : ورجال أحمد ثقات ، ليس فيهم غير عاصم بن أبي النجود ، وهو مختلف في الاحتجاج به ، وفي إسناد الطبراني عبيد الله بن زحر ، وهو ضعيف .

(٢٩٦) - أخرجه الطبري في « تفسيره » (١٢٠/٧ - ١٢١) رقم (٧٦٤٤) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٤٨٥/٢) رقم (١٢٢٠) من طريق محمد بن إسحاق قال : حدثني محمد بن أبي محمد ، عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فذكره . وذكره السيوطي في « الدر » (١١٥/٢) وزاد عزوه إلى ابن المنذر والطبراني والبيهقي في الدلائل وابن عساكر .

---

[١] - سقط من : خ .
[٢] - ما بين المعكوفتين في ز : « حتى بلغ » .
[٣] - في خ : « وأنزلت » .
[٤] - في ز : « عن » .
[٥] - في خ ، ز : « شعبة » .
[٦] - في خ ، ز : « شعبة » .
[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ . ز .
[٨] - سقط من : خ ، ز .
[٩] - في ز : « بمعنى » .
[١٠] - في ز : « يقومون » .

الصالحين ﴾ وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة ﴿ **وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله** [**لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب**] ﴾، ولهذا[١] قال تعالىٰ هاهنا : ﴿ **وما يفعلوا**[٢] **من خير فلن يكفروه**[٣] ﴾ أي : لا يضيع عند الله ، بل يجزيهم[٤] به أوفر الجزاء ﴿ **والله عليم بالمتقين** ﴾ أي : لا يخفىٰ عليه عمل عامل ، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملًا .

ثم قال تعالىٰ مخبرًا عن الكفرة المشركين بأنه : ﴿ **لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا** ﴾ أي : لا[٥] تردّ[٦] عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أراده[٧] بهم ، ﴿ **وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ .

ثم ضرب مثلًا لما ينفقه الكفار في هذه الدار - قاله مجاهد ، والحسن ، والسدي - فقال تعالىٰ : ﴿ **مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيا صر** ﴾ أي : برد شديد ، قال ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة والضحاك ، والربيع بن أنس وغيرهم . وقال عطاء : برد وجليد ، وعن ابن عباس أيضًا ومجاهد ﴿ **فيها صر** ﴾ أي : نار ، وهو يرجع إلىٰ الأول ، فإن البرد الشديد ، ولا[٨] سيما الجليد[٩] يحرق الزروع والثمار ، كما يحرق الشيء بالنار ، ﴿ **أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته** ﴾ أي : وأحرقته[١٠] ، يعني بذلك السفعة[١١] ، إذا نزلت علىٰ حرث قد آن جداده[١٢] أو حصاده فدمّرته ، وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع ، فذهبت به وأفسدته؛ فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه . فكذلك الكفار ، يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا وثمرها[١٣] ، كما يذهب[١٤] ثمرة هذا[١٥] الحرث بذنوب صاحبه . وكذلك هؤلاء بنوها علىٰ غير أصل ، وعلىٰ غير أساس ، ﴿ **وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون** ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ

---

[١] - في ز : « وهكذا » .
[٢] - في خ ، ز : « تفعلوا » .
[٣] - في خ ، ز : « تكفروه » .
[٤] - في خ ، ز : « يجزيكم » .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - في ز : « يرد » .
[٧] - في خ : « أراد » .
[٨] - سقط من : خ ، ز .
[٩] - في ز : « والجليد » .
[١٠] - في ت : « فأحرقته » .
[١١] - في ز : « السقعة » .
[١٢] - في ت ، خ : « جذاذه » .
[١٣] - في خ : « وثمرتها » .
[١٤] - في خ ، ز : « أذهب » .
[١٥] - في ز : « هذه » .

ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٞ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٞ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾

يقول تبارك وتعالىٰ ، ناهيًا عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين ﴿ **بطانة** ﴾ أي : يطلعونهم علىٰ سرائرهم ، وما يضمرونه لأعدائهم ، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم[١] لا يألون المؤمنين خبالًا ؛ أي : يسعون في مخالفتهم ، وما يضرهم بكل ممكن ، وبما يستطيعونه من المكر والخديعة ، ويودّون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **لا تتخذوا بطانة من دونكم** ﴾ أي : من غيركم من أهل الأديان . وبطانة الرجل هم خاصة أهله ؛ الذين يطلعون علىٰ داخلة[٢] أمره .

وقد روىٰ البخاري ، والنسائي ، وغيرهما من حديث جماعة ، منهم يونس ، ويحيىٰ بن سعيد ، وموسىٰ بن عقبة ، وابن أبي عتيق ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي سعيد ، أن رسول الله ، ﷺ ، قال : « **ما بعث الله من نبي ، ولا استخلف من خليفة ، إلا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه ، والمعصوم من عصمَ الله** »(٢٩٧) .

---

(٢٩٧) - أخرجه البخاري في كتاب القدر ، باب المعصوم من عصم الله ، حديث (٦٦١١) ، وكتاب : الأحكام ، باب : بطانة الإمام وأهل مشورته ، حديث (٧١٩٨) ، والنسائي في « سننه » (١٥٨/٧) كتاب : البيعة ، باب : بطانة الإمام ، وأحمد في « مسنده » : (٣٩/٣ ، ٨٨) ، والبيهقي في « الكبرى » (١١١/١٠) وأبو يعلى في « مسنده » (٤٢٨/٢) رقم (١٢٢٨) ، وابن حبان في « صحيحه » (١٤/ ٧٢ - الإحسان) رقم (٦١٩٢) من طرق عن الزهري عن أبي سلمة ، عن أبي سعيد الخدري .

وأخرجه أحمد في « مسنده » (٢٣٧/٢) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (١١١/١٠) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٣٠٧/١٠ ، ٣٠٨) رقم (٥٩٠١) ، وابن حبان في « صحيحه » (٧٠/١٤ ، ٧١/ الإحسان) رقم (٦١٩١) . كلهم من طرق عن الأوزاعي ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، به بنحوه .

وعلق البخاري بإثر الحديث (٧١٩٨) فقال : « وقال الأوزاعي ومعاوية بن سلام حدثني الزهري ، حدثني أبو سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ . وقال ابن أبي حسين وسعيد بن زياد عن أبي سلمة عن =

---

[١] - في خ ، ز : « بطانتهم » . [٢] - في خ ، ت : « داخل » .

وقد رواه الأوزاعي ومعاوية بن سلام ، عن الزهري ، عن أبي سلمة [عن أبي هريرة مرفوعًا بنحوه ، فيحتمل أنه عند الزهري ، عن أبي سلمة][١] عنهما وأخرجه النسائي عن الزهري أيضًا ، وعلقه البخاري في صحيحه ، فقال : وقال عبيد اللَّه بن أبي جعفر ، عن صفوان بن سليم ، عن أبي سلمة ، عن أبي أيوب الأنصاري مرفوعًا فذكره . فيحتمل أنه عند أبي سلمة ، عن ثلاثة من الصحابة ، واللَّه أعلم .

وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي[٢] ، [حدثنا أبو أيوب محمد بن الوزان ، حدثنا عيسىٰ بن يونس ، عن أبي حيان التيمي ، عن أبي][٣] الزنباع ، عن ابن أبي الدهقانة قال : قيل لعمر بن الخطاب - رضي اللَّه عنه - : إن هاهنا غلامًا من أهل الحيرة ، حافظ كاتب[٤] ، لو[٥] اتخذته كاتبًا ؟ فقال : قد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين(٢٩٨) .

= أبي سعيد قوله . وقال عبد اللَّه بن أبي جعفر : ثني صفوان ، عن أبي سلمة ، عن أبي أيوب قال : سمعت النبي ﷺ ».

وأخرجه أحمد في « مسنده » (٢٨٩/٢) ، والنسائي في « سننه » (١٥٨/٧) ، وكتاب البيعة ، باب : بطانة الإمام ، وفي التفسير من « الكبرى » (٢٣٠/٥) رقم (٨٧٥٥) ، (٨٧٥٦) . من طرق عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة به .

وأخرجه أبو يعلى في « مسنده » (٣٩٧/١٠) رقم (٦٠٠٠) ، (٤١٥/١٠) رقم (٦٠٢٣) . من طريقين عن أبي سلمة عن أبي هريرة به .

وأخرجه النسائي في « سننه » (١٥٨/٧) كتاب البيعة ، باب : بطانة الإمام ، وفي التفسير من « الكبرى » (٢٣٠/٥) رقم (٨٧٥٧) من طريق عبد اللَّه بن أبي جعفر عن صفوان عن أبي سلمة عن أبي أيوب الأنصاري .

وأخرجه ضمن حديث مطول البخاري في « الأدب المفرد » رقم (٢٥٦) ، والترمذي في « سننه » : كتاب الزهد ، باب : ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ حديث (٢٣٦٩) ، وفي الشمائل (١٣٤) ، والحاكم في « المستدرك » (١٣١/٤) . كلهم من طرق عن عبد الملك بن عمير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة به . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي . وقال الشيخ الألباني - حفظه اللَّه - في « صحيح الأدب المفرد » : « صحيح » وانظر « السلسلة الصحيحة » حديث (١٦٤١) .

(٢٩٨) - أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٥٠٠/٢) رقم (١٢٧٤) . وأخرجه ابن أبي شيبه عن علي بن مسهر عن أبي حيان التيمي بنفس الإسناد بنحو المصنف (٤٧٠/٨) رقم (٥٩٢٣) . وذكره السيوطي في « الدر » (١١٨/٢) وزاد عزوه إلى عبد بن حميد .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ ، ز .

[٢] - في خ : « ابن » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٤] - في خ : « كتاب » .

[٥] - في خ : « فلو » .

ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل[١] علىٰ أن أهل الذمّة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة علىٰ المسلمين ، واطلاع علىٰ دواخل أمورهم ، التي يخشىٰ أن يفشوها إلىٰ الأعداء من أهل الحرب ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **لا يألونكم خبالًا ودّوا ما عنتم** ﴾ .

وقال الحافظ : أبو يعلى : حدثنا إسحاق بن إسرائيل ، حدثنا هشيم ، حدثنا العوّام ، عن الأزهر بن راشد قال : كانوا يأتون أنسًا ؛ فإذا حدّثهم بحديث لا يدرون ما هو ، أتوا الحسن - يعني البصري - فيفسره لهم ، قال : فحدّث ذات يوم عن النبي ﷺ أنه قال : « **لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا في خواتيمكم عربيًّا** » فلم يدروا ما هو ، فأتوا الحسن فقالوا له : إن أنسًا حدثنا ، أن رسول الله ﷺ قال : « **لا تستضيئوا بنار المشركين ، ولا تنقشوا في خواتيمكم**[٢] **عربيًّا** » . فقال الحسن : أما قوله : « **لا تنقشوا في**[٣] **خواتيمكم عربيًّا** » محمد ﷺ ، وأما قوله : « **لا تستضيئوا بنار المشركين** » ؛ يقول : لا تستشيروا المشركين في أموركم . ثم قال الحسن : تصديق ذلك في كتاب الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم** ﴾ (٢٩٩) .

---

(٢٩٩) - الأزهر بن راشد البصري : ثقة . ترجم له البخاري في الكبير (٤٥٥/١) رقم (١٤٥٩) ، وابن أبي حاتم (٣١٣/١) رقم (١١٧٨) فلم يذكر فيه جرحًا .

قال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على تفسير الطبري (١٤٢/٧) : وهناك راوٍ آخر اسمه « الأزهر بن راشد الكاهلي » وهو كوفى ، وهو غير البصري ، ومتأخر عنه ، وترجم له البخاري وابن أبي حاتم أيضًا - فإن البصري يروي عنه « العوام بن حوشب » المتوفى سنة ١٤٨ ، والكوفي الكاهلي يروى عنه « مروان بن معاوية الفزاري المتوفى سنة ١٩٣ ، ومروان بن معاوية من شيوخ أحمد ، والعوام بن حوشب من شيوخ شيوخه ، فشتان هذا وهذا ، ومع هذا الفرق الواضح أخطأ الحافظ المزي ، فذكر في التهذيب الكبير أن أبا حاتم قال في البصري : « مجهول » . وتبعه الحافظ في « تهذيب التهذيب » ، والذهبي في « الميزان » وزاد الأمر تخليطًا ، فذكر أنه ضعفه ابن معين !! وابن معين وأبو حاتم إنما قالا ذلك في الكاهلي الكوفي ، فروى ابن أبي حاتم في ترجمة « الكاهلي » (٣١٣/١) رقم (١١٨٠) عن ابن معين قال : « أزهر بن راشد الذي روى عنه مروان بن معاوية : ضعيف » . ثم قال : سألت أبي عن أزهر بن راشد ؟ فقال : هو مجهول . ولم يحقق الحافظ ابن حجر ، واشتبه عليه الكلام في الترجمتين ، فقال في ترجمة « الكاهلى » بعد ترجمة « البصري » : « أخشى أن يكونا واحدًا ! لكن فرق بينهما ابن معين » . والفرق بينهما كالشمس انتهى كلام الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله . وانظر ترجمة « أزهر بن راشد البصري » في « التاريخ الكبير » (١/ ٤٥٥) رقم (١٤٥٩) ، و« تهذيب الكمال » (٣٢١/٢ ، ٣٢٢) رقم (٣٠٤) ، و« تهذيب التهذيب » (١/ ١٧٦) رقم (٣٧٩) ، و« ميزان الاعتدال » (١٧١/١) رقم (٦٩٣) ، و« الجرح والتعديل » (٣١٣/١) رقم (١١٧٨) وترجمة « أزهر بن راشد الكوفي الكاهلي » في : « التاريخ الكبير » (٤٥٥/١ ، ٤٥٦) رقم (١٤٦٠) ، و« تهذيب الكمال » (٣٢٢/٢) رقم (٣٠٥) ، و« تهذيب التهذيب » (١٧٦/١) ، =

---

[١] - في خ : « دلالة » .

[٢] - سقط من : خ .

[٣] - سقط من : خ .

هكذا رواه الحافظ أبو يعلى - رحمه اللَّه تعالىٰ - وقد رواه النسائي عن مجاهد بن موسىٰ ، عن هشيم ، ورواه الإمام ، أحمد عن هشيم بإسناده مثله ، من غير ذكر تفسير الحسن البصري .

وهذا التفسير فيه نظر ، ومعناه ظاهر : « **لا تنقشوا في خواتيمكم عربيًا** » أي : بخط عربي لئلا يشابه نقش خاتم النبي ﷺ ؛ فإنه كان نقشه محمد رسول اللَّه ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أنه نهىٰ أن ينقش أحد علىٰ نقشه . وأما الاستضاءة[١] بنار المشركين ، فمعناه لا تقاربوهم في المنازل ؛ بحيث تكونون معهم في بلادهم ، بل تباعدوا منهم وهاجروا من بلادهم ، ولهذا روىٰ أبو داود : « **لا تتراءىٰ ناراهما** »(٣٠٠) . وفي الحديث الآخر :

= و« ميزان الاعتدال » : (١٧١/١) ، و« الجرح والتعديل (٣١٣/١) . والحديث أخرجه الطبري في « تفسيره » (١٤٢/٧) رقم (٧٦٨٥) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٠/٧) رقم (٩٣٧٥) من طريق هشيم بسياق أبي يعلى به .

وأخرجه أحمد في « مسنده » (٩٩/٣) ، والنسائي في « سننه » (١٧٦/٨) كتاب الزينة ، باب : قول النبي ﷺ : « **لا تنقشوا على خواتيكم عربيًا** » ، والبخاري في « الكبير » (٤٥٥/١) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٤٩٨/٢ - ٤٩٩) رقم (١٢٧٢) من طريق هشيم به ، دون ذكر كلام الحسن البصري . وذكره السيوطي في « الدر » (١١٨/٢) وزاد عزوه إلى عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في الشعب .

(٣٠٠) - **حديث صحيح** ، أخرجه أبو داود في « سننه » كتاب الجهاد ، باب : النهي عن قتل من اعتصم بالسجود ، حديث (٢٦٤٥) ، والترمذي في « سننه » كتاب : السير ، باب : ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين حديث (٢٦٠٤) . من حديث أبي معاوية ، عن إسماعيل بن خالد ، عن قيس بن أبي حازم عن جرير قال : قال النبي ﷺ : « **أنا بريء من كل مسلم مقيم بين أظهر المشركين لا تتراءى ناراهما** » وذكره البغوي في « شرح السنة » (٣٧٣/١٠) . وصححه الشيخ الألباني - حفظه اللَّه - كما في صحيح « سنن أبي داود » (٥٠١/٢ ، ٥٠٢) رقم (٢٦٤٥) . وقال : « صحيح » دون جملة العقل .

وأخرجه النسائي في « سننه » (٣٦/٨) كتاب : القسامة ، باب : القود بغير حديدة . مرسلًا عن قيس أن رسول اللَّه ﷺ فذكره .

وله شاهد يقويه من حديث معاوية بن حيدة : أخرجه النسائي في « سننه » (٨٢/٥ ، ٨٣) ، كتاب الزكاة ، باب : من سأل بوجه اللَّه عز وجل ، وابن ماجه في « سننه » كتاب الحدود ، باب : المرتد عن دينه ، حديث (٢٥٣٦) ، وأحمد في « مسنده » (٤/٥،٥) من حديث بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **لا يقبل اللَّه عز وجل من مشرك بعد ما أسلم عملًا أو يفارق المشركين إلى المسلمين** » . وإسناده حسن .

وله شاهد أيضًا من حديث جرير بن عبد اللَّه : أخرجه أحمد في « مسنده » (٣٦٥/٤) ، والنسائي في « سننه » (١٤٨/٧) : كتاب البيعة ، باب : البيعة على فراق المشرك ، عن أبي نخيلة البجلي قال : قال جرير: « أتيت النبي ﷺ وهو يبايع فقلت : يا رسول اللَّه ابسط يدك حتى أبايعك واشترط علي فأنت أعلم . قال : « أبايعك على أن تعبد اللَّه وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة وتناصح المسلمين وتفارق المشركين » .

[١] - في خ : « الإضاءة » .

« **من جامع المشرك أو سكن معه فهو مثله** » (٣٠١) . فحملُ الحديث علىٰ ما قاله الحسن رحمه اللّٰه ، والاستشهاد عليه بالآية فيه نظر ، واللّٰه أعلم .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر** ﴾ أي : قد لاح علىٰ صفحات وجوههم ، وفلتات ألسنتهم من العداوة مع[١] ماهم مشتملون عليه في صدورهم ، من البغضاء للإسلام وأهله ؛ ما لا يخفىٰ مثله علىٰ لبيب عاقل[٢] ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون** ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم** ﴾ أي : أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرون لكم الإيمان ، فتحبونهم علىٰ ذلك ، وهم لا يحبونكم لا باطنًا ولا ظاهرًا ﴿ **وتؤمنون بالكتاب كله** ﴾ أي : ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب ، وهم عندهم الشك والريب والحيرة .

وقال محمد بن إسحاق : حدّثني محمد بن أبي محمد ، عن عكرمة ، أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ﴿ **وتؤمنون بالكتاب كله** ﴾ أي : بكتابكم وكتابهم وبما مضىٰ من الكتب قبل ذلك ، وهم يكفرون بكتابكم ، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم . رواه ابن جرير (٣٠٢) .

﴿ **وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ** ﴾ ، والأنامل أطراف الأصابع ، قاله قتادة .

وقال الشاعر :

أوَدُّكما[٣] ما بَلَّ حَلْقِي رِيقَتي   وما حملت كفاي أنملي العشرا

وقال ابن مسعود والسدي والربيع بن أنس : الأنامل الأصابع . وهذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودّة ، وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه ، كما قال

(٣٠١) - **حديث صحيح** ، أخرجه أبو داود في « سننه » كتاب : الجهاد ، باب : في الإقامة بأرض الشرك ، حديث (٢٧٨٧) من طريق سليمان بن موسى أبي داود ، عن جعفر بن سعد بن سمرة بن جندب ، عن خبيب بن سليمان ، عن أبيه سليمان بن سمرة ، عن سمرة به جندب : أما بعد قال رسول اللّٰه ﷺ : « **من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله** » . وذكره البغوي في « شرح السنة » (١٠/٣٧٤) . وصححه الشيخ الألباني - حفظه اللّٰه - كما في « صحيح سنن أبي داود » (٢/٥٣٦) رقم (٢٤٢٠) .

(٣٠٢) - أخرجه ابن جرير في « تفسيره » (٧/١٤٩) رقم (٧٦٩٥) . وذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٢/١١٩) وعزاه إلى ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر .

[١] - سقط من : خ .   [٢] - سقط من : خ .

[٣] - في خ : « أوديكها » .

تعالىٰ : ﴿ **وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ** ﴾ وذلك أشد الغيظ والحنق ، قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **قل موتوا بغيظكم إن اللَّه عليم بذات الصدور** ﴾ أي : مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم ، فاعلموا أن اللَّه متم نعمته علىٰ عباده المؤمنين ومكمل دينه ، ومعل كلمته ، ومظهر دينه ، فموتوا أنتم بغيظكم ﴿ **إنّ اللَّه عليم بذات الصدور** ﴾ أي : هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم ، وتكنه سرائركم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين ، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تأملون ، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها ، [لا محيد لكم عنها][١] ، ولا[٢] خروج لكم منها . ثم قال تعالىٰ ﴿ **إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها** ﴾ وهذه الحال دالة علىٰ شدة العداوة منهم للمؤمنين ، وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد وكثروا وعز أنصارهم ساء ذلك المنافقين ، وإن أصاب المسلمين[٣] سنة أي[٤] : جدب ، أو أديل عليهم الأعداء[٥] ، لما للَّه تعالىٰ في ذلك من الحكمة ، كما جرىٰ يوم أحد- فرح[٦] المنافقون بذلك ، قال اللَّه تعالىٰ مخاطبا عباده المؤمنين : ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا** ﴾ الآية ، يرشدهم تعالىٰ إلىٰ السلامة من شر الأشرار ، وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوىٰ والتوكل علىٰ اللَّه الذي هو محيط بأعدائهم ، فلا حول ولا قوّة لهم إلا به ، وهو الذي ما شاء كان ، ومالم يشأ لم يكن ، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته . ومن توكل عليه كفاه .

ثم شرع تعالىٰ في ذكر قصة أحد ، وما كان فيها من الاختبار[٧] لعباده المؤمنين ، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين ، وبيان صبر[٨] الصابرين فقال تعالىٰ :

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾
إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

المراد بهذه الواقعة يوم أحد عند الجمهور ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ،

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٢] - في خ : « فلا » .
[٣] - في خ : « المؤمنين » .
[٤] - في خ : « أما » .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - في خ : « فخرج » .
[٧] - في خ : « الإحسان » .
[٨] - سقط من : ت .

وغير واحد . وعن الحسن البصري المراد بذلك يوم الأحزاب . ورواه ابن جرير(٣٠٣) ، وهو غريب لا يعوّل عليه .

وكانت وقعة أحد يوم السبت من شوّال سنة ثلاث من الهجرة ، قال قتادة[١] : لإحدىٰ عشرة ليلة خلت من شوّال ، وقال عكرمة : يوم السبت للنصف من شوّال ، واللَّه أعلم .

وكان سببها أن المشركين حين قتل من قتل من أشرافهم يوم بدر ، وسلمت العير بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان ، فلما رجع قَفَلُهم إلى مكة قال أبناء من قتل ، ورؤساء من بقي لأبي سفيان : أرصد هذه الأموال لقتال محمد . فأنفقوها في ذلك ، فجمعوا[٢] الجموع والأحابيش ، وأقبلوا في قريب من ثلاثة الآف ، حتىٰ نزلوا قريبًا من أحد ، تلقاء المدينة . فصلىٰ رسول اللَّه ﷺ يوم الجمعة ، فلما فرغ منها ، صلىٰ علىٰ رجل من بني النجار يقال له مالك بن عمرو ، واستشار رسول اللَّه ﷺ الناسَ : أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة ؟ فأشار عبد اللَّه بن أُبَيّ بالمقام بالمدينة ، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين . وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدرًا بالخروج إليهم ، فدخل رسول اللَّه ﷺ فلبس لأمته وخرج عليهم ؛ وقد ندم بعضهم ، وقالوا[٣] : لعلنا استكرهنا رسول اللَّه ﷺ فقالوا : يا رسول اللَّه ؛ إن شئت أن نمكث ، فقال رسول اللَّه ﷺ « **ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يرجع حتىٰ يحكم اللَّه له** »(٣٠٤) فسار ﷺ في ألف من

(٣٠٣) - **إسناده حسن** ، أخرجه ابن جرير الطبري في « تفسيره » (٧/١٦٠ ، ١٦١) رقم (٧٧١٤) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٥١١) رقم (١٣٨٧) كلاهما عن أبي بكر الحنفي ، ثنا عباد بن منصور قال : سألت الحسن عن قوله : ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين** ﴾ قال : يعني محمد ﷺ يبوئ المؤمنين مقاعد للقتال يوم الأحزاب » .

(٣٠٤) - روى هذا من حديث : جابر بن عبد اللَّه ، ومن حديث ابن عباس .

أما حديث جابر بن عبد اللَّه : فقد أخرجه النسائي في « التعبير » من الكبرى (٤/٣٨٩) رقم (٧٦٤٧) ، والدارمي في « سننه » (٢/٥٥) كتاب الرؤيا ، باب : في القميص والبئر واللبن والعسل والسمن والتمر وغير ذلك في النوم ، حديث (٢١٦٥) وأحمد في « مسنده » (٣/٣٥١) ، وابن الجاورد في « المنتقى » ص (٣٩١) باب : ما جاء في لبس الدرع ، والبيهقي في « السنن (٧/٤١) من طريق حماد عن أبي الزبير عن جابر بن عبد اللَّه به . وفيه : « **ما كان لنبي أن يلبس لأمته ثم يخلعها حتى يقاتل** » .

وأما حديث ابن عباس : فقد أخرجه أحمد في « مسنده » (١/٢٧١) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٢٨ ، ١٢٩) . من طريق ابن أبي الزناد عن أبيه عن عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبة عن ابن عباس . وفيه : « **ما ينبغي لنبي أن يضع أداته بعد أن لبسها حتى يحكم اللَّه بينه وبين عدوه** » . وقال الحاكم : =

[١] - سقط من : خ . [٢] - في خ : « وأجمعوا » .
[٣] - في خ : « وقال » .

أصحابه فلما كانوا[١] بالشوط رجع عبد الله بن أبي [بثلث الجيش][٢] مغضبًا ، لكونه لم يرجع إلىٰ قوله .

وقال هو وأصحابه : لو نعلم اليوم قتالًا لاتبعناكم ، ولكنا لا نراكم تقاتلون اليوم ، واستمر رسول الله ﷺ سائرًا حتىٰ نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي : وجعل ظهره وعسكره إلىٰ أحد وقال : « **لا يقاتلن أحد حتىٰ نأمره بالقتال** » .

وتهيأ رسول الله ﷺ ، للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه . وأمر علىٰ الرماة عبد الله ابن جبير أخا بني عمرو بن عوف . والرماة يومئذ خمسون رجلًا ، فقال لهم : « **انضحوا الخيل عنا ولا نؤتين من قبلكم ، والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم** »(٣٠٥) .

وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين . وأعطىٰ اللواء مصعب بن عمير أخا بني عبد الدار . وأجاز رسول الله ﷺ بعض الغلمان يومئذ . وأرجأ آخرين حتىٰ أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقريب من سنتين .

= حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . وعلقه البخاري في « صحيحه » (٣٣٩/١٣) باب : قول الله تعالى : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ قبل حديث (٧٣٦٩) .

وقد وصلها الحافظ في « تغليق التعليق » (٣٣٠/٥ ، ٣٣١) وقال : أما قصة المشاورة يوم أحد فرويناها من طريق ابن عباس ومن طريق جابر . وقال في « الفتح » (٣٤١/١٣) :

وقد وصلها الطبراني وصححها الحاكم من رواية عبد الله بن وهب ، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس فذكره . وقال : وهذا سند حسن .

وقال - أيضًا - في « هدي الساري » ص (٧٠) وصله أحمد والحاكم والطبراني بتمامه ، والنسائي وابن ماجه مختصرًا من حديث ابن عباس . ورواه أحمد بن حنبل بتمامه عن سريج بن النعمان عن ابن أبي الزناد.

(٣٠٥) - أخرجه أحمد في « مسنده » (٢٨٧/١ ، ٢٨٨) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٣٦٥/١٠) رقم (١٠٧٣١) ، والبيهقي في « الدلائل (٢٦٩/٣) ، والحاكم في المستدرك (٢٩٦/٢ ، ٢٩٧) من حديث ابن عباس مطولًا . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي . وإسناده حسن لكلام في أحد رجال إسناده وفيه : « احموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا » .

وأخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب الجهاد ، باب : ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب ، حديث (٣٠٣٩) وأطرافه في (٤٠٤٣ ، ٤٠٦٧ ، ٤٥٦١) ، وأبو داود في « سننه » كتاب : الجهاد ، باب : في الكمناء ، حديث (٢٦٦٢) ، وأحمد في « مسنده » (٢٩٣/٤) من حديث البراء بن عازب به .

وفيه : « **إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم** » .

[١] - في خ : « كان » . [٢] - في خ : « ثلث القوم » .

وتهيأت[١] قريش وهم ثلاثة الآف . ومعهم مائتا فرس قد جنبوها . فجعلوا علىٰ ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلىٰ الميسرة عكرمة بن أبي جهل . ودفعوا اللواء إلىٰ بني عبد الدار ، ثم كان بين الفريقين ما سيأتي تفصيله في مواضعه [عند هذه الآيات][٢] إن شاء اللّٰه تعالىٰ .

ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال** ﴾ أي : تنزلهم منازلهم ، وتجعلهم ميمنة وميسرة ، وحيث أمرتهم ﴿ **واللّٰه سميع عليم** ﴾ أي : سميع لما تقولون ، عليم بضمائركم .

وقد أورد ابن جرير هاهنا سؤالًا حاصله : كيف تقولون : إن النبي ﷺ خرج[٣] إلىٰ أحد يوم الجمعة بعد الصلاة ، وقد قال اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال** ﴾ الآية ؟ ثم كان جوابه عنه : أن غدوه ليبوأهم مقاعد إنما كان يوم السبت أول النهار .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا** ﴾ الآية ، قال البخاري : حدثنا علي بن عبد اللّٰه ، حدثنا سفيان قال : قال عمرو : سمعت جابر بن عبد اللّٰه يقول : فينا نزلت : ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا** ﴾ الآية قال : نحن الطائفتان : بنو حارثة وبنو سلمة وما نحب- وقال سفيان مرة-وما يسرني أنها لم تنزل ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ **واللّٰه وليهما** ﴾ (٣٠٦) .

وكذا رواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة به ، وكذا قال غير واحد من السلف : إنهم بنو حارثة وبنو سلمة .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **ولقد نصركم اللّٰه ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون** ﴾ أي[٤] : في[٥] بدر ، وكان يوم جمعة ووافق السابع عشر من شهر رمضان ، من سنة اثنتين من الهجرة ، وهو يوم الفرقان الذي أعز اللّٰه فيه الإسلام وأهله ، ودمغ فيه الشرك وخرب

(٣٠٦) - أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب المغازي ، باب : ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا واللّٰه وليهما وعلى اللّٰه فليتوكل المؤمنون** ﴾ حديث (٤٠٥١) ، وكتاب التفسير ، باب : ﴿ **إذا همت طائفتان منكم أن تفشلا** ﴾ حديث (٤٥٥٨) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب : فضائل الصحابة ، حديث ١٧١ - (٢٥٠٥) كلاهما من حديث سفيان بن عيينة عن عَمْرو عن جابر به .

[١] - في خ : « وتعبأت » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .

[٣] - في خ : « سار » .

[٤] - سقط من : خ .

[٥] - في ز : « يوم » .

محله [وحزبه ، هذا][١] مع قلة عدد المسلمين يومئذ ، فإنهم كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلًا ، فيهم فرسان وسبعون بعيرًا ، والباقون مشاة ليس معهم من العُدَد جميع ما يحتاجون إليه . وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلىٰ الألف ، في سوابغ الحديد والبيض والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلي الزائد ، فأعز اللَّه رسوله وأظهر وحيه وتنزيله ، وبيض وجه النبي وقبيله وأخزىٰ الشيطان وجيله ، ولهذا قال تعالىٰ ممتنًا علىٰ عباده المؤمنين وحزبه المتقين : ﴿ **ولقد نصركم اللَّه ببدر وأنتم أذلة** ﴾ أي : قليل عددكم ، لتعلموا أن النصر إنما هو من عند اللَّه ، لا بكثرة العَدد والعُدد ، ولهذا قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ : ﴿ **ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا** ﴾ إلىٰ ﴿ **غفور رحيم** ﴾ .

وقال الإمام أحمد(٣٠٧) : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن سماك ، قال[٢] : سمعت عياضًا الأشعري قال : شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء : أبو عبيدة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وابن حسنة ، وخالد بن الوليد ، وعياض- وليس عياض هذا الذي حدث سماكًا- قال : وقال عمر رضى اللَّه عنه : إذا كان قتالًا فعليكم أبو عبيدة . قال[٣] : فكتبنا إليه أنه : قد جاش إلينا الموت . واستمددناه ؛ فكتب إلينا : إنه قد جاءني كتابكم تستمدونني ، وإني أدلكم علىٰ من هو أعز نصرًا ، وأحصن جندًا ، اللَّه عز وجل فاستنصروه ؛ فإن محمدًا ﷺ قد نصر في[٤] يوم بدر ، في أقل من عدتكم ، فإذا جاءكم كتابي هذا[٥] فقاتلوهم ولا تراجعوني . قال : فقاتلناهم فهزمناهم أربعة فراسخ . قال : وأصبنا أموالًا فتشاورنا ، فأشار علينا عياض أن نعطي عن كل ذي رأس عشرة ، قال : وقال أبو عبيدة : من يراهنني ؟ فقال شاب : أنا إن لم تغضب . قال : فسبقه ، فرأيت عقيصتي أبي عبيدة تنقزان[٦] وهو خلفه علىٰ فرس عُرْيٍ[٧] .

هذا إسناد صحيح ، وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه ، من حديث بندار ، عن غندر بنحوه ، واختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه .

---

(٣٠٧) - **إسناده حسن** ، أخرجه أحمد في « مسنده » (٤٩/١) . وأخرجه ابن حبان في « صحيحه » (١١/ ٨٣ : ٨٥ / الإحسان) رقم (٤٧٦٦) من طريق محمد بن بشار ، عن محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن سماك بن حرب ، عن عياض الأشعري به . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٢١٦/٦) وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٢] - سقط من : خ . [٣] - سقط من : ت .

[٤] - سقط من : خ . [٥] - سقط من : خ .

[٦] - في خ : « سعران » .

[٧] - في خ : « عدي » . وفرس عري : بلا سرج .

وبدر محلة بين مكة والمدينة ، تعرف ببئرها[١] منسوبة إلىٰ رجل حفرها ، يقال له : بدر بن النارين ، قال الشعبي . بدر بئر لرجل يسمىٰ بدرًا .

وقوله : ﴿ **فاتقوا الله لعلكم تشكرون** ﴾ أي : تقومون بطاعته .

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

اختلف المفسرون في هذا[٢] الوعد : هل كان يوم بدر أو يوم أحد ؟ علىٰ قولين : (أحدهما) : أن قوله : ﴿ **إذ تقول للمؤمنين** ﴾ متعلق بقوله : ﴿ **ولقد[٣] نصركم الله ببدر** ﴾ ، وروي هذا عن الحسن البصري ، وعامر الشعبي ، والربيع بن أنس وغيرهم ، واختاره ابن جرير .

قال عباد بن منصور عن الحسن في قوله : ﴿ **إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة** ﴾ قال : هذا يوم بدر ، رواه ابن أبي حاتم (٣٠٨) .

ثم قال : حدثنا أبي ، حدثنا موسىٰ بن إسماعيل ، حدثنا وهيب ، حدّثنا[٤] داود ، عن عامر - يعني الشعبي - أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يمد المشركين ؛ فشق ذلك عليهم ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ **ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين** ﴾ إلىٰ قوله ﴿ **مسومين** ﴾ قال : فبلغت كرزًا الهزيمة ، فلم يمد المشركين ، ولم

(٣٠٨) - أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٥١٩) رقم (١٣٤٧) . وأخرجه الطبري في « تفسيره » (٧/١٧٤) رقم (٧٧٤٥) من طريق محمد بن سنان ، عن أبي بكر الحنفي ، عن عباد بن منصور به .

[١] - في ت : « بئر » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في خ : « لقد » .
[٤] - في خ : « عن » .

يمد الله[١] المسلمين بالخمسة (٣٠٩) .

وقال الربيع بن أنس : أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف .

فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية على هذا القول ، وبين قوله في قصة بدر : ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين** ﴾ إلى قوله ﴿ **إن الله عزيز حكيم** ﴾ ؟ فالجواب : أن التنصيص على الألف هاهنا لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها ؛ لقوله : ﴿ **مردفين** ﴾ بمعنى يردفهم غيرهم ، ويتبعهم ألوف أخر مثلهم . وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران ، فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر ، كما هو المعروف من أن[٢] قتال الملائكة إنما كان يوم بدر والله أعلم . وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة : أمد الله المسلمين[٣] يوم بدر بخمسة آلاف .

(القول الثاني) : أن هذا الوعد متعلق بقوله : ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال** ﴾ وذلك يوم أحد ؛ وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك والزهري وموسى بن عقبة وغيرهم . لكن قالوا : لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف ؛ لأن المسلمين فروا يومئذ ، زاد عكرمة : ولا بالثلاثة الآلاف ، لقوله تعالى : ﴿ **بلى إن تصبروا وتتقوا** ﴾ فلم يصبروا ، بل فروا ؛ فلم يمدوا بملك واحد .

وقوله تعالى : ﴿ **بلى إن تصبروا وتتقوا** ﴾ يعني تصبروا على مصابرة عدوكم ، وتتقوني وتطيعوا أمري .

وقوله تعالى : ﴿ **ويأتوكم من فورهم هذا** ﴾ ، قال الحسن وقتادة والربيع والسدّي : أي من وجههم هذا .

وقال مجاهد وعكرمة وأبو صالح : أي من غضبهم هذا . وقال الضحاك : من غضبهم ووجههم . وقال العوفي عن ابن عباس : من سفرهم هذا ؛ ويقال من غضبهم هذا .

وقوله تعالى : ﴿ **يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين** ﴾ أي : معلمين بالسيما .

---

(٣٠٩) - **إسناده صحيح** ، أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » : (٥٢٠/٢) رقم (١٣٥٠) . وأخرجه الطبري في « تفسيره » (١٧٤/٧) رقم (٧٧٤٦) من طريق يعقوب ، عن ابن علية ، عن داود بإسناده نحوه . وعزاه السيوطي أيضًا في « الدر » (١٢٣/٢) إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر .

---

[١] - سقط من : خ .

[٢] - سقط من : خ .

[٣] - في خ : « المؤمنين » .

وقال أبو إسحاق السبيعي : عن حارثة بن مضرب ، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : كان سيما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض ؛ وكان سيماهم أيضًا في نواصي خيولهم(٣١٠) .

رواه ابن أبي حاتم . ثم قال : حدثنا أبو زرعة ، حدّثنا هدبة بن خالد ، حدّثنا حماد بن سلمة ، عن محمد بن عمرو بن علقمة ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، في هذه الآية : ﴿ **مسوّمين** ﴾ قال : بالعهن الأحمر(٣١١) .

وقال مجاهد : ﴿ **مسوّمين** ﴾ أي : محدقة[١] أعرافها ، معلمة نواصيها بالصوف الأبيض في أذناب الخيل .

وقال العوفي عن ابن عباس ، رضي الله عنه قال : أتت الملائكة محمدًا ﷺ مسوّمين بالصوف فسوّم محمد وأصحابه أنفسهم وخيلهم على سيماهم بالصوف(٣١٢) .

وقال قتادة وعكرمة : ﴿ **مسوّمين** ﴾ أي : بسيما القتال . وقال مكحول : مسوّمين بالعمائم .

وروى[٢] ابن مردويه ، من حديث عبد القدوس بن حبيب ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ في قوله : ﴿ **مسوّمين** ﴾ قال : « **معلمين . وكان سيما الملائكة يوم بدر عمائم سود ، ويوم حنين عمائم حمر** »(٣١٣) .

وروي من حديث حصين بن مخارق ، عن سعيد ، عن الحكم ، عن مقسم ، عن ابن

---

(٣١٠) - أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٥٢٥) رقم (١٣٦٨) . وعزاه السيوطي أيضًا في « الدر » (١٢٥/٢) إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر .

(٣١١) - **إسناده ضعيف** ، في إسناده محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي المدني ، صدوق له أوهام من السادسة روى له الجماعة . « التقريب » . وأخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٥٢٥ - ٥٢٦) رقم (١٣٦٩) . وعزاه السيوطي أيضًا في « الدر » (٢/١٢٥) إلى ابن المنذر .

(٣١٢) - **إسناده ضعيف** ، أخرجه ابن جرير الطبري في « تفسيره » (٧/١٨٨) رقم (٧٧٨٦) ، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/٥٢٧) رقم (١٣٧٣) .

(٣١٣) - **إسناده ضعيف** ، **لضعف عبد القدوس بن حبيب وهو متروك** . أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (١١/١٩٣) رقم (١١٤٦٩) من طريق عبد القدوس بن حبيب ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس به . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٦/٣٣٠) وقال : رواه الطراني وفيه عبد القدوس بن حبيب وهو متروك .

---

[١] - في خ : « محذفة » . [٢] - في خ : « وقال » .

عباس قال : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر (٣١٤) .

وقال ابن[١] إسحاق : حدثني من لا أتهم عن مقسم عن ابن عباس قال : كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض ، قد أرسلوها في ظهورهم ، ويوم حنين عمائم حمر . ولم تضرب الملائكة في يوم سوىٰ يوم بدر ، وكانوا يكونون [فيما سواه من الأيام][٢] عددًا ومددًا لا يضربون (٣١٥) .

ثم رواه عن الحسن بن عمارة ، عن الحكم ، عن[٣] مقسم ، عن ابن عباس ، فذكر نحوه (٣١٦) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الأحمسي ، حدثنا وكيع ، حدثنا هشام بن عروة ، عن يحيىٰ بن عباد : أن الزبير رضي اللَّه عنه ، كان عليه يوم بدر عمامة صفراء معتجرًا بها ، فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر (٣١٧) .

(٣١٤) - أخرجه ابن جرير الطبري في « تفسيره » (١٧٥/٧) رقم (٧٧٥٠) من طريق الحكم بن عتيبة ، عن مقسم مولى عبد اللَّه بن الحارث ، عن عبد اللَّه بن عباس ، به نحوه . وأخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٦٥/١١ - ١٦٦) رقم (١١٣٧٧) من طريق عبد العزيز بن عمران ، عن أيوب بن ثابت ، عن عطاء ، عن ابن عباس به نحوه .

(٣١٥) - أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (٣٨٩/١١) رقم (١٢٠٨٥) من طريق الحكم ، عن مقسم ، عن ابن عباس به .

(٣١٦) - أخرجه الطبري في « تفسيره » (١٢٥/٧) رقم (٧٧٥٠) .

(٣١٧) - **إسناده صحيح** ، أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٥٢٨/٢) رقم (١٣٧٤) . وأخرجه الطبري في « تفسيره » (١٨٨/٧) رقم (٧٧٨٩) بإسناد حسن ، من طريق الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر ، عن هشام بن عروة قال : نزلت الملائكة يوم بدر على خيل بلق ، عليهم عمائم صفر وكان على الزبير يومئذ عمامة صفراء . وأخرجه الحاكم في « المستدرك » (٣٦١/٣) قال : حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن بالويه ، ثنا محمد بن أحمد بن النضر الأزدي ، ثنا معاويه بن عمرو ، عن أبي إسحاق الفزاري ، عن هشام بن عروة ، عن عباد بن عبد اللَّه بن الزبير قال : كانت على الزبير يوم بدر عمامة صفراء معتجرًا بها فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر .

وأخرجه الطبراني في « الكبير » (١٩٥/١) رقم (٥١٨) قال : حدثنا عبدان بن أحمد ، ثنا أبو كامل الجحدري ، ثنا يوسف بن خالد السمتي ، ثنا الصلت بن دينار ، عن أبي المليح ، عن أبيه نحوه . وقال الهيثمي في « المجمع » (٨٧/٦) : وهو مرسل صحيح الإسناد . وعزاه السيوطي أيضًا في « الدر » (٢/ ١٢٥) إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر .

[١] - سقط من : ت .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٣] - في خ : « ابن » .

رواه ابن مردويه ، من طريق هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عبد اللَّه بن الزبير فذكره .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **وما جعله اللَّه إلا بشرىٰ لكم ولتطمئن قلوبكم به** ﴾ أي : وما أنزل اللَّه الملائكة ، وأعلمكم بإنزالهم[١] ، إلا بشارة لكم ، وتطييبًا لقلوبكم ، وتطمينًا ، وإلا فإنما النصر من عند اللَّه ، الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ، ومن غير احتياج إلىٰ قتالكم لهم ، كما قال تعالىٰ بعد أمره المؤمنين بالقتال : ﴿ **ذلك ولو يشاء اللَّه لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل اللَّه فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم** ﴾ . ولهذا قال هاهنا : ﴿ **وما جعله اللَّه إلا بشرىٰ لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند اللَّه العزيز الحكيم** ﴾ أي : هو ذو العزة التي لا ترام ، والحكمة في قدره والإحكام .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ليقطع طرفًا من الذين كفروا** ﴾ [أي : أمركم بالجهاد لما له في ذلك من الحكمة ، في كل تقدير ، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين ، فقال : ﴿ **ليقطع طرفًا** ﴾ أي : ليهلك أمة ، من الذين كفروا][٢] ﴿ **أو يكبتهم** ﴾ أي : يخزيهم ويردهم بغيظهم لما لم ينالوا منكم ما أرادوا ولهذا قال : ﴿ **أو يكبتهم فينقلبوا** ﴾ أي : يرجعوا ، ﴿ **خائبين** ﴾ أي : لم يحصلوا علىٰ ما أمّلوا .

ثم اعترض بجملة دلت علىٰ أن الحكم[٣] في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له ، فقال تعالىٰ : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ أي : بل الأمر كله إليَّ كما قال تعالىٰ : ﴿ **فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب** ﴾ . وقال : ﴿ **ليس عليك هداهم ولكن اللَّه يهدي من يشاء** ﴾ . [وقال : ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت ولكن اللَّه يهدي من يشاء**][٤] ﴾ .

وقال محمد بن إسحاق : في قوله : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ أي : ليس لك من الحكم شيء في عبادي ؛ إلا ما أمرتك به فيهم(٣١٨) .

ثم ذكر تعالىٰ بقية الأقسام فقال : ﴿ **أو يتوب عليهم** ﴾ أي : مما هم فيه من الكفر ، فيهديهم بعد الضلالة ، ﴿ **أو يعذبهم** ﴾ أي : في الدنيا والآخرة علىٰ كفرهم وذنوبهم ، ولهذا قال : ﴿ **فإنهم ظالمون** ﴾ أي : يستحقون ذلك .

---

(٣١٨) - سيرة ابن هشام (٣/٦٢٢) . وأخرجه الطبري في « تفسيره » (٧/١٩٥) رقم (٧٨٠٤) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٥٣٥) رقم (١٣٩١ ، ١٣٩٣ ، ١٣٩٤) عن ابن إسحاق .

---

[١] - في خ : « بإنزالها » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٣] - في ز : « الحكمة » .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

وقال البخاري(٣١٩) : حدثنا حبان بن موسى ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا معمر ، عن الزهري ، حدّثني سالم ، عن أبيه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع ، في الركعة الثانية من الفجر ، يقول[١] : « **اللّهم العن فلانًا وفلانًا** » بعد ما يقول : « **سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد** » . فأنزل الله تعالى : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ الآية . وهكذا رواه النسائي من حديث عبد الله بن المبارك ، وعبد الرزاق كلاهما عن معمر به .

وقال الإمام أحمد(٣٢٠) : حدثنا أبو النضر ، حدّثنا أبو عقيل - قال أحمد : وهو عبد الله ابن عقيل ، صالح الحديث ، ثقة قال[٢] : حدثنا عمر بن حمزة ، عن سالم ، عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **اللّهم العن فلانًا وفلانًا**[٣] ، **اللّهم العن الحارث بن**

---

(٣١٩) - أخرجه البخاري في كتاب : التفسير ، باب : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ حديث (٤٥٥٩) وأطرافه (٤٠٦٩ ، ٧٣٤٦) .

والنسائي في التفسير من « الكبرى » (٣١٤/٦) رقم (١١٠٧٥) من طريق عبد الرزاق ، و(١١٠٧٦) من طريق ابن المبارك ، كلاهما عن معمر ، عن الزهري ، عن سالم ، عن أبيه به .

(٣٢٠) - أخرجه أحمد في « مسنده » (٩٣/٢) . وأخرجه الترمذي في « سننه » كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة آل عمران ، حديث (٣٠٠٤) ، والطبري في « تفسيره » (٢٠٠/٧) رقم (٧٨١٩) كلاهما من طريق عمر بن حمزة ، عن سالم ، عن ابن عمر ، به .

وقال الترمذي : « هذا حديث حسن غريب ، يستغرب من حديث عمر بن حمزة ، عن سالم . وكذا رواه الزهري ، عن سالم ، عن أبيه » .

ورواية الزهري عن سالم - التى أشار إليها الترمذي - هي الحديث السابق فانظر إليه .

(٣٢١) - أخرجه أحمد في « مسنده » (١٠٤/٢) . وأخرجه الترمذي في « سننه » كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة آل عمران ، حديث (٣٠٠٥) ، والطبري في « تفسيره » (١٩٩/٧) رقم (٧٨١٨) من طريق يحيى بن حبيب بن عربي البصري ، عن خالد بن الحارث ، عن محمد بن عجلان به .

قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب صحيح يستغرب من هذا الوجه من حديث نافع ، عن ابن عمر ، ورواه يحيى بن أيوب ، عن ابن عجلان .

وأخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٥٣٥/٢ - ٥٣٦) رقم (١٣٩٢) من طريق عبد الله بن عبد الوهاب الحجبي ، عن خالد بن الحارث ، عن محمد بن الحارث ، عن محمد بن عجلان به .

وأخرجه أحمد في « مسنده » (١١٨/٢) بنحوه عن هارون بن معروف المروزي ، عن ابن وهب ، عن أسامة ابن زيد ، عن نافع ، عن ابن عمر به .

---

[١] - سقط من : ت . [٢] - سقط من : ت .

[٣] - سقط من : خ .

هشام ، **اللَّهم العن سهيل بن عمرو ، اللَّهم العن صفوان بن أمية** » فنزلت هذه الآية : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون** ﴾ فتيب عليهم كلهم .

وقال أحمد (٣٢١) : حدثنا أبو معاوية الغلابي ، حدثنا خالد بن الحارث ، حدثنا محمد ابن عجلان ، عن نافع ، عن عبد اللَّه ، أن رسول اللَّه ﷺ كان يدعو علىٰ أربعة قال : فأنزل اللَّه : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ إلىٰ آخر الآية . قال : وهداهم اللَّه للإسلام .

[قال البخاري][١] : قال محمد بن عجلان ، عن نافع ، عن ابن عمر ، رضي اللَّه عنهما ، قال : كان رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وآله وسلم يدعو علىٰ رجال من المشركين ، يسميهم بأسمائهم ، حتىٰ أنزل اللَّه تعالىٰ : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ الآية .

وقال البخاري أيضًا (٣٢٢) : حدثنا موسىٰ بن إسماعيل ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب ، وأبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه ، أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا أراد أن يدعو علىٰ أحد ، أو يدعو لأحد ؛ قنت بعد الركوع ، وربما قال إذا قال[٢] : « **سمع اللَّه لمن حمده ، ربنا لك الحمد : اللَّهم أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام**[٣] ، **وعياش بن أبي**[٤] **ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين . اللَّهم اشدد وطأتك علىٰ مضر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف** » يجهر بذلك . وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر : « **اللَّهم العن فلانًا وفلانًا** » لأحياء من أحياء العرب ، حتىٰ أنزل اللَّه عز وجل : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ الآية .

وقال البخاري : قال حميد وثابت ، عن أنس بن مالك ، شج النبي ﷺ يوم أحد فقال : « **كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ؟** » فنزلت : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ (٣٢٣) .

---

(٣٢٢) - أخرجه البخاري في كتاب : المغازي ، باب : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ ، حديث (٤٥٦٠) .

(٣٢٣) - أخرجه البخاري تعليقًا في « صحيحه » (٣٦٥/٧) كتاب المغازي ، باب : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون** ﴾ قبل حديث (٤٠٦٩) .

وحديث حميد وثابت عن أنس وصله الأئمة ؛ أما حديث حميد عن أنس : فقد أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، حديث (٣٠٠٢ ، ٣٠٠٣) ، والنسائي في التفسير من « السنن الكبرى » (٣١٤/٦) رقم (١١٠٧٧) ، وابن ماجه في كتاب الفتن ، حديث (٤٠٢٧) ، وأحمد (٩٩/٣ ، ٢٠٦) ، والطبري في « تفسيره » (١٨٥/٧ ، ١٨٦) رقم (٧٨٠٥ - ٧٨٠٨) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٥٣٢/٢) رقم (١٣٨٨) والبغوي في « شرح السنة » (٣٣٣/١٣ - ٣٣٤) رقم (٣٧٤٨) ، وابن حبان في « صحيحه » : (٥٣٦/١٤ - الإحسان) رقم (٦٥٧٤) ، كلهم من طرق عن حميد الطويل عن أنس مرفوعًا .=

---

[١] - ما بين المعكوفتين في خ : « و » .
[٢] - سقط من : ت .
[٣] - في خ : « هاشم » .
[٤] - سقط من : ت .

وقد أسند هذا الحديث الذي علقه البخاري في صحيحه .

وقال البخاري في غزوة أحد(٣٢٤) : حدّثنا يحيىٰ بن عبد اللّه السلمي ، أخبرنا عبد اللّه ، أخبرنا معمر ، عن الزهري ، حدّثني سالم بن عبد اللّه ، عن أبيه أنه سمع رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم يقول ، إذا رفع رأسه من الركوع ، في الركعة الأخيرة من الفجر : « **اللّهم العن فلانًا وفلانًا وفلانًا** » ، بعدما يقول : « **سمع اللّه لمن حمده ، ربنا ولك الحمد** » فأنزل اللّه : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ الآية .

وعن حنظلة بن أبي سفيان قال[١] : سمعت سالم بن عبد اللّه قال : كان رسول اللّه ﷺ يدعو علىٰ صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام ؛ فنزلت : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون** ﴾ .

هكذا ذكر هذه الزيادة البخاري معلقة مرسلة ، وقد تقدمت مسندة متصلة في مسند أحمد [٢] آنفًا .

وقال الإمام أحمد(٣٢٥) : حدّثنا هشيم ، حدّثنا حميد ، عن أنس رضي اللّه عنه ، أنّ النبي صلىٰ اللّه عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد ، وشج في جبهته[٣] ، حتىٰ سال الدم علىٰ وجهه ، فقال : « **كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم ، وهو يدعوهم إلىٰ ربهم عز**

وأما حديث ثابت عن أنس . فقد أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الجهاد ، باب : غزوة أحد ، حديث (١٧٩١) ، وأحمد في « مسنده » (٣/٢٥٣ ، ٢٨٨) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٣/٢٦٢) ، وابن حبان في صحيحه (١٤/٥٣٧ - الإحسان) رقم (٦٥٧٥) . كلهم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس مرفوعًا بنحوه .

وفي جميع الروايات نزول آية ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ وقد وجه الحافظ ابن حجر الجمع بين هذه الروايات بقوله في « الفتح » (٨/٢٢٧) : وطريقة « الجمع بينه - أي حديث أنس - وبين حديث ابن عمر أنه ﷺ دعا على المذكورين بعد ذلك في صلاته فنزلت الآية في الأمرين معًا ، فيما وقع له من الأمر المذكور ، وفيما نشأ عنه من الدعاء عليهم ، وذلك كله في أحد ، وبخلاف قصة رعل وذكوان فإنها أجنبية . ويحتمل أن يقال : إن قصتهم كانت عقب ذلك وتأخر نزول الآية ، واللّه أعلم » . اهـ .

(٣٢٤) - أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب ﴿ **ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون** ﴾ ، حديث (٤٠٦٩) .

(٣٢٥) - **إسناده صحيح** ، أخرجه أحمد في « مسنده » (٣/٩٩) . وأخرجه مسلم في كتاب : الجهاد ، باب : غزوة أحد ، حديث (١٧٩١) من طريق القعنبي ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس فذكره .

---

[١] - سقط من : خ .

[٢] - بعده في ز ، خ : متصلة .

[٣] - في خ : « وجهه » .

وجل ؟ » . فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون** ﴾ انفرد به مسلم ، فرواه عن[١] القعنبي ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس فذكره .

وقال ابن جرير (٣٢٦) : حدّثنا ابن حميد ، حدّثنا يحيىٰ بن واضح ، حدّثنا الحسين بن واقد ، عن مطر ، عن قتادة قال : أصيب النبي ﷺ يوم أحد ، وكسرت رباعيته ، وفرق حاجبه ، فوقع وعليه درعان ، والدم يسيل ، فمر به سالم مولىٰ أبي حذيفة ، فأجلسه ، ومسح علىٰ[٢] وجهه ، فأفاق ، وهو يقول : « **كيف بقوم فعلوا هذا بنبيهم ، وهو يدعوهم إلىٰ اللَّه عز وجل ؟** » فأنزل اللَّه : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ الآية . وكذا رواه عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة بنحوه ، ولم يقل : فأفاق .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **وللَّه ما في السموات وما في الأرض** ﴾ الآية ، أي : الجميع ملك له ، وأهلهما عبيد بين يديه ، ﴿ **يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء** ﴾ أي : هو المتصرف فلا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون ، واللَّه غفور رحيم .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

(٣٢٦) - أخرجه ابن جرير في « تفسيره » (١٩٧/٧) رقم (٧٨١٢) . وأخرجه عبد الرزاق (١٣١/١) عن معمر ، عن قتادة نحوه . ومن طريق عبد الرزاق أخرجه الطبري في « تفسيره » (١٩٨/٧) رقم (٧٨١٥) .

[١] - سقط من : خ . [٢] - في خ : « عن » .

يقول اللّٰه تعالىٰ ناهيًا عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضعافا مضاعفة ، كما كانوا [في الجاهلية يقولون] إذا حل أجل الدين : إما أن تقضي[١] ، وإما أن تربي[٢] . فإن قضاه ؛ وإلا زاده في المدة ، زاده الآخر في القدر ، وهكذا كل عام ، فربما تضاعف القليل حتىٰ يصير كثيرًا مضاعفًا ، وأمر تعالىٰ عباده بالتقوىٰ ؛ لعلهم يفلحون في الأولىٰ و[في][٣] الآخرة ؛ ثم توعدهم بالنار ، وحذرهم منها ، فقال تعالىٰ : ﴿ **واتقوا النار التي أعدت للكافرين وأطيعوا اللّٰه والرسول لعلكم ترحمون** ﴾ . ثم ندبهم إلىٰ المبادرة إلىٰ فعل الخيرات والمسارعة إلىٰ نيل القربات ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ **وسارعوا إلىٰ مغفرة من ربكم وجنة عرضها السمٰوات والأرض أعدت للمتقين** ﴾ . أي كما أعدت النار للكافرين . وقد قيل : إن معنىٰ قوله : ﴿ عرضها السموات والأرض ﴾ ؛ تنبيه[٤] علىٰ اتساع طولها ، كما قال في صفة فرش[٥] الجنة : ﴿ **بطائنها من إستبرق** ﴾ أي : فما ظنك بالظهائر ، وقيل : بل عرضها كطولها ؛ لأنها قبة تحت العرش ، والشيء المقبَّب والمستدير عرضه كطوله ، وقد دل علىٰ ذلك ما ثبت في الصحيح : « **إذا سألتم اللّٰه الجنة ؛ فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلىٰ الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وسقفها عرش الرحمن** »(٣٢٧) .

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحديد : ﴿ **سابقوا إلىٰ مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض** ﴾ الآية .

وقد روينا في مسند الإمام أحمد(٣٢٨) : أن هرقل كتب إلىٰ النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ؛ إنك دعوتني إلىٰ جنة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « [**سبحان اللّٰه**][٦] ؛ **فأين الليل إذا جاء النهار** » .

---

(٣٢٧) - أخرجه البخاري في « صحيحه » ، كتاب الجهاد ، باب : درجات المجاهدين ، حديث (٢٧٩٠) ، وكتاب التوحيد ، حديث (٧٤٢٣)

(٣٢٨) - أخرجه أحمد في « مسنده » (٣/٤٤١ ، ٤٤٢) من طريق إسحاق بن عيسى ؛ قال : حدثني يحيى ابن سليم ، عن عبد اللّٰه بن عثمان بن خثيم ، عن سعيد بن أبي راشد قال : لقيت التنوخي رسول هرقل إلى رسول اللّٰه ﷺ ... فذكره مطولًا . وأخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » مختصرًا (١/٢٦٦) ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٨/٢٣٧ : ٢٣٩) وقال : رواه عبد اللّٰه بن أحمد وأبو يعلى ، ورجال أبي يعلى ثقات ، وكذلك رجال عبد اللّٰه بن أحمد .

والحديث أخرجه عبد اللّٰه بن أحمد في « زوائده على المسند » (٤/٧٤ ، ٧٥) ، وذكره ابن كثير في =

---

[١] - في خ : « يقضى » .

[٢] - في خ : « يربى » .

[٣] - سقط من خ .

[٤] - في خ : « تنبيهًا » .

[٥] - سقط من : ت .

[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

وقد رواه ابن جرير(٣٢٩) ، فقال : حدثني يونس ، قال أنبأنا ابن وهب ، أخبرني مسلم ابن خالد- [عم أبي][١] خثيم - عن سعيد بن أبي راشد ، عن يعلى بن أبى[٢] مرة ، قال : لقيت التنوخي - رسول هرقل إلىٰ رسول الله ﷺ - بحمص شيخًا كبيرًا قد فند ، فقال[٣] : قدمت علىٰ رسول الله ﷺ بكتاب هرقل ، فتناول الصحيفة رجل عن يساره قال : قلت : من صاحبكم الذي يقرأ ؟ قالوا : معاوية ، فإذا كتاب صاحبي : إنك كتبت تدعوني إلىٰ جنة عرضها السمٰوات والأرض [أعدت للمتقين][٤] ، فأين النار ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : « **سبحان الله ! فأين الليل إذا جاء النهار؟!** » .

وقال الأعمش وسفيان الثوري وشعبة عن قيس بن مسلم[٥] عن طارق بن شهاب[٦] : أن أناسًا[٧] من اليهود ، سألوا عمر بن الخطاب عن جنة عرضها السمٰوات والأرض فأين النار ؟ فقال لهم[٨] عمر : أرأيتم إذا جاء [النهار أين الليل ؛ وإذا جاء][٩] الليل أين النهار ، فقالوا[١٠] : لقد نزعت مثلها من التوراة(٣٣٠) .

ورواه ابن جرير من ثلاث[١١] طرق . ثم قال : حدثنا أحمد بن حازم ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا جعفر بن برقان ، أنبأنا يزيد بن الأصم : أن رجلًا من أهل الكتاب قال : يقولون : ﴿ **جنة عرضها السمٰوات والأرض** ﴾ فأين النار ؟ فقال ابن عباس - رضي الله عنه - : أين يكون الليل إذا جاء النهار ؛ وأين يكون[١٢] النهار إذا جاء الليل (٣٣١) ؟

=« البداية والنهاية » (٥/١٩ : ٢١) وقال : هذا حديث غريب ، وإسناده لا بأس به ، تفرد به الإمام أحمد .

(٣٢٩) - أخرجه ابن جرير في « تفسيره » (٧/٢٠٩) رقم (٧٨٣١) .

(٣٣٠) - أخرجه ابن جرير في « تفسيره » (٧/٢١٠ - ٢١١) رقم (٧٨٣٢ ، ٧٨٣٣ ، ٧٨٣٤ ، ٧٨٣٥) من ثلاث طرق عن عمر بن الخطاب به . وذكره السيوطي في « الدر » (٢/١٢٩) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر .

(٣٣١) - أخرجه ابن جرير في « تفسيره » (٧/٢١٢) رقم (٧٨٣٦) . وذكره السيوطي في « الدر » (٢/ ١٢٩) وعزاه لعبد بن حميد .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في خ : « عن ابن » .

[٢] - سقط من :ت .

[٣] - في خ : « قال » .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت.

[٥] - في خ : « سلم » .

[٦] - في خ : « هشام » .

[٧] - في خ : « ناسًا » .

[٨] - سقط من : خ .

[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من خ .

[١٠] - في خ : « فقال » .

[١١] - في خ : « ثلاثة » .

[١٢] - سقط من : خ .

وقد روي هذا مرفوعًا . فقال البزار : حدثنا محمد بن معمر ، حدثنا المغيرة بن سلمة - أبو هشام[١] - حدثنا عبد الواحد بن زياد ، عن عبيد الله بن عبد الله بن الأصم ، عن عمه - يزيد بن الأصم - عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال : أرأيت قوله تعالىٰ : ﴿ **جنة عرضها السموات والأرض** ﴾ فأين النار ؟ قال : « **أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شيء فأين النهار** » ؟قال : حيث شاء الله . قال : « **وكذلك [النار تكون]**[٢] **حيث شاء الله عز وجل** »(٣٣٢) .

وهذا يحتمل معنيين : (أحدهما) : أن يكون المعنىٰ في ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار ، أن لا يكون في مكان ؛ وإن كنا لا نعلمه : وكذلك [تكون النار][٣] حيث شاء الله عز وجل ، وهذا أظهر ، كما تقدم في حديث أبي هريرة ، عن البزار .

(الثاني) : أن يكون المعنىٰ أن النهار إذا تغشىٰ وجه العالم من هذا الجانب ، فإن الليل يكون من الجانب الآخر ، فكذلك الجنة في أعلىٰ عليين فوق السموات تحت العرش ، وعرضها كما قال الله عز وجل : ﴿ **كعرض السماء**[٤] **والأرض** ﴾ والنار في أسفل سافلين ، فلا تنافي بين كونها كعرض السموات والأرض ، وبين وجود النار ، والله أعلم .

ثم ذكر تعالىٰ وصف[٥] أهل الجنة فقال : ﴿ **الذين ينفقون في السرَّاء والضرَّاء** ﴾ أي : في الشدة والرخاء ، والمنشط والمكره ، والصحة والمرض ، وفي جميع الأحوال[٦] . كما قال : ﴿ **الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًا وعلانية** ﴾ والمعنىٰ أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالىٰ ، والإنفاق في مراضيه ، والإحسان إلىٰ خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس** ﴾ أي : إذا ثار بهم الغيظ

---

(٣٣٢) - **إسناده صحيح** ، أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٢١٩٦) . وأخرجه ابن حبان في « صحيحه » (١/٣٠٦ ، ٣٠٧ - الإحسان) رقم (١٠٣) ، والحاكم في « المستدرك » (١/٣٦) من طريق عبد الواحد بن زياد به . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولا أعلم له علة ، ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٦/٣٣٠) وقال : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .

---

[١] - في خ : « هاشم » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٣] - ما بين المعكوفتين في خ : النار تكون .
[٤] - في خ : « السماوات » .
[٥] - في خ : « صفة » .
[٦] - سقط من : خ .

كظموه ، بمعنىٰ كتموه فلم يعملوه ، وعفوا[١] مع ذلك عمن أساء إليهم . وقد ورد في بعض الآثار يقول الله تعالىٰ : « يا[٢] **بن آدم ؛ اذكرني إذا غضبت ، أذكرك إذا غضبت فلا أهلكك فيمن أهلك** » . رواه ابن أبي حاتم .

وقد[٣] قال أبو يعلى في مسنده : حدثنا أبو موسىٰ الزمن ، حدثنا عيسىٰ بن شعيب الضرير -أبو الفضل- حدثني الربيع بن سليمان الجيزي[٤] ، عن أبي عمرو بن أنس بن مالك عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من كف غضبه كف الله عنه عذابه ، ومن خزن لسانه ستر الله عورته ، ومن اعتذر إلىٰ الله قبل الله عذره** »(٣٣٣) . وهذا[٥] حديث غريب وفي إسناده نظر .

وقال الإمام أحمد(٣٣٤) : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا مالك ، عن الزهري ، عن سعيد ابن المسيب ، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **ليس الشديد بالصُّرَعَة ،**

(٣٣٣) - **إسناده ضعيف جدًّا** . أبو عمرو مولى أنس بن مالك مجهول . والربيع بن سليم الأزدي ، قال الأزدي : « منكر الحديث » - في الأصل : الربيع بن سليمان - وقد جاء عند البخاري في « التاريخ الكبير » (٨/٥٥) وابن أبي حاتم في « الجرح والتعديل » (٩/٤١٠) : « والحديث أخرجه أبو يعلى في « مسنده » (٧/٣٠٢) رقم (٤٣٣٨) قال : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا زيد بن الحباب قال : حدثني الربيع بن سليم ؛ قال : حدثني أبو عمرو مولى أنس بن مالك أنه سمع أنس بن مالك يقول : ... فذكره . وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/٣٠١) وقال : رواه أبو يعلى وفيه الربيع بن سليمان الأزدي وهو ضعيف . وذكره الحافظ ابن حجر في « المطالب العالية » (٣/١٥٢) برقم (٣١٢٥) وعزاه إلى أبي بكر وأبي يعلى . وذكره المنذري في « الترغيب والترهيب » (٣/٥٢٥) وعزاه إلى الطبراني في « الأوسط » وأبو يعلى ، ثم قال : ورواه البيهقي مرفوعًا ، وموقوفًا ولعله الصواب . وأخرجه الطبراني في « المعجم الصغير » (٢/٧٢) من طريق زهير بن عباد ، حدثنا داود بن هلال ، عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يخزن لسانه** » . وهذا إسناد فيه داود بن هلال أبو سليمان النصيبي لم يرو عنه غير زهير بن عباد ، ولم يوثقه أحد فهو مجهول . وقال الطبراني : « لم يروه عن هشام بن حسان إلا داود بن هلال . تفرد به زهير بن عباد ». وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٧/١٦) من طريق يحيى بن خليق ، حدثنا ابن عون ، عن عطاء الواسطي عن أنس بلفظ : « **لا يتقي الله عبدٌ حتى يخزن لسانه** » . ويحيى بن خليق منكر الحديث .

(٣٣٤) - **صحيح** ، أخرجه أحمد في « مسنده » (٢/٢٣٦) . وأخرجه مالك في الموطأ (٢/٦٩١) كتاب : حسن الخلق ، باب : ما جاء في الغضب ، ومن طريقه أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب : الأدب ، باب : الحذر من الغضب ، حديث (٦١١٤) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب : البر ، حديث (٢٦٠٩) كلهم من طريق مالك ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة به .

[١] - في خ : « وعفا » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - في خ : « الحميري » .
[٥] - في ت : « هذا » .

ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » . وقد رواه الشيخان من حديث مالك .

وقال الإمام أحمد أيضًا (٣٣٥) : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم التيمي ، عن الحارث بن سويد ، عن عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله** » ؟ [قالوا : يا رسول الله ، ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه ، قال : « **اعلموا أنه ليس منكم أحد إلا مال وارثه أحب إليه من ماله**][١] . **ما لك من مالِك إلا ما قدمت ، ومال وارثك ما**[٢] **أخرت** » . قال : وقال رسول الله ﷺ : « **ما تَعُدُّون [الصرعة فيكم]**[٣] ؟ » [قلنا : الذي لا تصرعه الرجال ، قال : « **لا ، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب** » . قال : وقال رسول الله ﷺ : ما تَعُدُّون فيكم الرقوب ؟ » . قال :][٤] قلنا : الذي لا ولد له . قال : « **لا ، ولكن الرقوب الذي لا**[٥] **يقدم من ولده شيئًا** » . أخرج البخاري الفصل الأول منه ، وأخرج مسلم أصل هذا الحديث من رواية الأعمش به .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد(٣٣٦) : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، سمعت عروة ابن عبد الله الجعفي ، يحدث عن أبي حصبة ، أو ابن حصبة ، عن رجل شهد النبي ﷺ يخطب فقال : « **أتدرون**[٦] **ما الرقوب ؟** » . قالوا : الذي لا ولد له . قال : «

---

(٣٣٥) - أخرجه أحمد في « مسنده » (١/٣٨٢ - ٣٨٣) . والبخاري في « صحيحه » كتاب : الرقاق ، باب : ما قدّم من ماله فهو له ، حديث (٦٤٤٢) من طريق الأعمش ، عن إبراهيم التيمي ، عن الحارث بن سويد ، عن عبد الله قال : قال النبي ﷺ : « **أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟** » قالوا : يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه ، قال : « **فإن ماله ما قدم ، ومال وارثه ما أخر** » .

وأخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب : البر والصلة والأداب ، حديث (٢٦٠٨) من طريق الأعمش ، عن إبراهيم التيمي ، عن الحارث بن سويد ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما تعدون الرقوب فيكم ؟** » قال : قلنا : الذي لا يولد له ، قال : « **ليس ذاك بالرقوب ولكنه الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئًا** » قال : « **فما تعدون الصرعة فيكم ؟** » قال : قلنا : الذي لا يصرعه الرجال ، قال : « **ليس بذلك ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب** » .

(٣٣٦) - قال الحافظ ابن حجر في « تعجيل المنفعة » ص (٤٧٦) رقم (١٢٥٧) أبو حصبة أو ابن حصبة : مجهول ، وضبطه الحسيني بمهملتين وموحدة ، ورأيته في ترتيب المسند لابن المحب كذلك لكن بنون وتصغير ، ولم يذكره الحاكم أبو أحمد لا هنا ولا هنا ، وهو من أفراد الحاكم .

والحديث أخرجه أحمد في « مسنده » (٥/٣٦٧) ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٣/١٤) وقال : رواه أحمد وفيه أبو حصنة أو ابن حصنة قال الحسيني : مجهول وبقية ورجاله ثقات . =

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٢] - في خ : « إلا » .
[٣] - في خ : « فيكم الصرعة » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - في خ : « تدرون » .

الرقوب كل الرقوب الذي له ولد فمات ولم يقدم منهم شيئًا » . قال : « **أتدرون ما الصعلوك** » ؟ قالوا : الذي ليس له مال ، قال النبي ﷺ : « **الصعلوك كل الصعلوك ، الذي له مال فمات ، ولم يقدم منه شيئًا** » . قال : ثم قال النبي ﷺ : « **ما الصرعة ؟** » قالوا : الصريع [الذي لا تصرعه الرجال][1] ، فقال النبي[2] ﷺ : « **الصرعة [كل الصرعة][3] ، الذي يغضب فيشتد غضبه ، ويحمر وجهه ، ويقشعر شعره ؛ فيصرع غضبه** » .

(حديث آخر) . قال الإمام أحمد(٣٣٧) : حدثنا ابن نمير ، حدثنا هشام - هو ابن عروة - عن أبيه ، عن الأحنف بن قيس ، عن عم له يقال له جارية[4] بن قدامة السعدي ، أنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ؛ قل لي قولًا ينفعني ، وأقلل عليّ لعلي أعيه . فقال رسول الله ﷺ : « **لا تغضب** » . فأعاد عليه ، حتىٰ أعاد عليه مرارًا ، كل ذلك يقول : « **لا تغضب** » .

وهكذا رواه عن أبي معاوية ، عن هشام به . ورواه أيضًا[5] عن يحيىٰ بن سعيد القطان ، عن هشام به : أن رجلًا قال : يا رسول الله قل لي قولًا ، وأقلل علي لعلي أعقله ، فقال : « **لا تغضب** » . الحديث انفرد به أحمد .

(حديث آخر) : قال أحمد (٣٣٨) : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن الزهري ، عن

=وذكره كذلك في « المجمع » (٧٢/٣) وقال : رواه أحمد وفيه أبو حصبة أو ابن حصبة ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات .

(٣٣٧) - **إسناده صحيح** ، أخرجه أحمد في « مسنده » (٣٤/٥) . والطبراني في « المعجم الكبير » (٢/ ٢٦١ ، ٢٦٢) رقم (٢٠٩٣ - ٣٠٩٨) وفي « الأوسط » (٢٧٧/٧) رقم (٧٤٩١) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٢٢٦/١٢) رقم (٦٨٣٨) .

وذكره الهيثمي في « المجمع » (٧١/٨) وقال : رواه أحمد والطبراني في الأوسط : إلا أنه قال : عن الأحنف ابن قيس ، عن عمه - وعمه جارية بن قدامة - أنه قال : يا رسول الله ! قل لي قولًا ينفعني الله به ، فذكر نحوه .

ورواه في الكبير كذلك ، وفي رواية عنده : عن جارية بن قدامة ؛ أن عمه أتى النبي ﷺ فذكره نحوه ، وفي رواية : عن جارية بن قدامة عن ابن عم له قال : قلت : يا رسول الله ... ، ورجال أحمد رجال الصحيح ، ورواه أبو يعلى إلا أنه قال : عن جارية بن قدامة ، أخبرني عم أبي أنه قال النبي ﷺ ... فذكر نحوه ، ورجاله رجال الصحيح .

(٣٣٨) - أخرجه أحمد في « مسنده » (٣٧٣/٥) . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٧١/٨) وقال : =

---

[١] - في خ : « قال » .
[٢] - زيادة من : خ .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٤] - في خ : « حارثة » .
[٥] - سقط من : خ .

حميد بن عبد الرحمن ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : قال رجل : يا رسول الله ؛ أوصني . قال : « **لا تغضب** » قال الرجل : ففكرت حين قال النبي ﷺ ما قال ؛ فإذا الغضب يجمع الشر كله . انفرد به أحمد .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا داود بن أبي هند ، عن أبي[١] حرب بن أبي الأسود ، عن أبي الأسود ، عن أبي ذر رضي الله عنه قال : كان يسقي علىٰ حوض له ، فجاء قوم فقالوا : أيكم يورد علىٰ أبي ذر ، ويحتسب[٢] شعرات من رأسه ؟ فقال رجل : أنا ؛ فجاء الرجل ، فأورد عليه[٣] الحوض ، فدقه ، وكان أبو ذر قائمًا ، فجلس ، ثم اضطجع ، فقيل له : يا أبا ذر ، لما جلست ثم اضطجعت ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ قال لنا : « **إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع** » (٣٣٩) .

ورواه أبو داود ، عن أحمد بن حنبل بإسناده ، إلا أنه وقع في روايته : عن أبي حرب ، عن أبي ذر . والصحيح أبي حرب ، عن أبيه ، عن أبي ذر ، كما رواه عبد الله بن أحمد ، عن أبيه .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد (٣٤٠) : حدثنا إبراهيم بن خالد ، حدثنا أبو وائل الصنعاني ، قال : كنّا جلوسًا عند عروة بن محمد ؛ إذ دخل عليه رجل ، فكلمه بكلام أغضبه ، فلما أغضبه قام ثم عاد إلينا ، وقد توضأ فقال : حدثني أبي ، عن جدي عطية - هو ابن سعد السعدي ، وقد كانت له صحبة- قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم**

= رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٣٣٩) - **حديث صحيح** ، أخرجه أحمد في « مسنده » (١٥٢/٥) . ومن طريقه أبو داود في كتاب : الأدب ، باب : ما يقال عند الغضب ، حديث (٤٧٨٢) . وحديث (٤٧٨٣) من طريق وهب بن بقية ، عن خالد ، عن داود ، عن بكر أن النبي ﷺ بعث أبا ذر بهذا الحديث ، قال أبو داود : وهذا أصح الحديثين. وصححه الشيخ الألباني - حفظه الله - كما في صحيح أبي داود (٩٠٨/٣) رقم (٤٠٠٠ ، ٤٠٠١) وانظر المشكاة (٥١١٤) .

(٣٤٠) - **إسناده ضعيف** ، أخرجه أحمد في « مسنده » (٢٢٦/٤) . وأبو داود في كتاب : الأدب ، باب : ما يقال عند الغضب ، حديث (٤٧٨٤) ، من طريق إبراهيم بن خالد الصنعاني ، عن أبي وائل القاص به . ومن طريق أحمد رواه الطبراني في « الكبير » (١٦٧/١٧) حديث (٤٤٣) . وضعفه الشيخ الألباني في « السلسلة الضعيفة » (٥١/٢) حديث (٥٨٢) .

---

[١] - سقط من : خ . [٢] - في خ : « ويحسب » .

[٣] - في ت : « على » .

فليتوضأ » .

وهكذا رواه أبو داود ، من حديث إبراهيم بن خالد الصنعاني ، عن أبي وائل القاص المرادي الصنعاني . قال أبو داود : أراه عبد اللَّه بن بحير .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد(٣٤١) : حدثنا عبد اللَّه بن يزيد ، حدثنا نوح بن جعونة السلمي ، عن مقاتل بن حيان ، عن عطاء ، عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من أنظر معسرًا أو وضع له وقاه اللَّه من فيح جهنم ألا إن عمل الجنة حزن بربوة** » ثلاثًا ، «**ألا إن عمل النار سهل بسهوة**[١] ، **والسعيد من وقي الفتن ، وما من جرعة أحب إليّ اللَّه من جرعة غيظ يكظمها عبد ، ما كظمها**[٢] **عبد للَّه إلا ملأ اللَّه جوفه إيمانًا** » . انفرد به أحمد ، وإسناده حسن ، ليس فيه مجروح ، ومتنه حسن .

(حديث آخر في معناه) : قال أبو داود(٣٤٢) : حدثنا عقبة بن مكرم ، حدثنا عبد الرحمن - يعني ابن مهدي - عن بشر - يعني ابن منصور - عن محمد بن عجلان ، عن سويد ابن وهب ، عن رجل من أبناء أصحاب النبي ﷺ عن أبيه ، قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من كظم غيظًا ؛ وهو يقدر**[٣] **علىٰ أن ينفذه ؛ ملأ**[٤] **اللَّه جوفه**[٥] **أمنًا وإيمانًا ، ومن ترك لبس ثوب جمال وهو قادر**[٦] **عليه- قال بشر : أحسبه قال : تواضعًا - كساه اللَّه [حلة الكرامة ، ومن روج للَّه كساه اللَّه]**[٧] **تاج الملك** » .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد(٣٤٣) : حدثنا عبد اللَّه بن يزيد ، قال[٨] : حدثنا سعيد ، حدثني أبو مرحوم ، عن سهل بن معاذ بن أنس ، عن أبيه ؛ أن رسول اللَّه

---

(٣٤١) - أخرجه أحمد في « مسنده » (٣٢٧/١) .

(٣٤٢) - **ضعيف** ، أخرجه أبو داود في كتاب : الأدب ، باب : من كظم غيظًا ، حديث (٤٧٧٨) وضعفه الشيخ الألباني كما في ضعيف سنن أبي داود (١٠٢٣) ، وانظر المشكاه (٥٠٨٩) .

(٣٤٣) - **صحيح - إسناده حسن** ، أخرجه أحمد في « مسنده » (٤٤٠/٣) . وأبو داود في كتاب : الأدب ، باب : من كظم غيظًا ، حديث (٤٧٧٧) ، والترمذي في كتاب : البر والصلة ، حديث (٢٠٢١) ، وكتاب : صفة القيامة ، باب (٤٨) ، حديث (٢٤٩٣) ، وابن ماجة في كتاب : الزهد ، باب : الحلم ، حديث (٤١٨٦) ، كلهم من طريق سعيد بن أبي أيوب به . وصححه الشيخ الألباني كما في صحيح سنن أبي داود (٩٠٧/٣ ، ٩٠٨) رقم (٣٩٩٧) والمشكاة (٥٠٨٨) .

---

[١] - في خ : « بشهوة » .
[٢] - في خ : « كظم » .
[٣] - في خ : « قادر » .
[٤] - في خ : « ملأه » .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - في خ : « يقدر » .
[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٨] - سقط من : خ .

صلىٰ اللَّه عليه وسلم قال : « **من كظم غيظًا ؛ وهو قادر علىٰ أن ينفذه ، دعاه اللَّه علىٰ رءوس الخلائق حتىٰ يخيره من أي الحور شاء** » .

ورواه أبو داود [والترمذي وابن ماجة من حديث سعيد بن أبي أيوب به][١] ، وقال الترمذي : حسن غريب .

(حديث آخر) قال عبد الرزاق(٣٤٤) : أنبأنا داود بن قيس ، عن زيد بن أسلم ، عن رجل من أهل الشام ، يقال له عبد الجليل ، عن عم له ، عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه في قوله تعالىٰ : ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ ، أن النبي ﷺ قال : « **من كظم غيظًا وهو يقدر علىٰ إنفاذه ؛ ملأ[٢] اللَّه جوفه[٣] أمنًا وإيمانًا** » . رواه ابن جرير .

(حديث آخر) قال ابن مَرْدُويه : حدثنا أحمد بن محمد بن زياد ، أنبأنا يحيىٰ بن أبي طالب ، أنبأنا علي بن عاصم ، أخبرني يونس بن عبيد ، عن الحسن ، عن ابن عمر رضي اللَّه عنهما قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **ما تجرع عبد من جرعة أفضل أجرًا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه اللَّه** »(٣٤٥) . [رواه ابن جرير][٤] .

وكذا رواه ابن ماجة ، عن بشر بن عمر ، عن حماد بن سلمة ، عن يونس بن عبيد به .

فقوله تعالىٰ : ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ أي : لا يعملون[٥] غضبهم في الناس ، بل يكفون عنهم شرهم ، ويحتسبون ذلك عند اللَّه عزَّ وجلَّ .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **والعافين عن الناس** ﴾ أي : مع كف الشر ، يعفون عمن ظلمهم في

---

(٣٤٤) - **إسناده ضعيف** لجهالة اثنين من رواته وهما : عبد الجليل وعمه .

والحديث أخرجه الطبري في « تفسيره » (٢١٦/٧) رقم (٧٨٤٢) ، والبخاري في « التاريخ » (١٢٣/٦) رقم (١٩٠٩) والعقيلي في « الضعفاء » (١٠٢/٣ - ١٠٣) رقم (١٠٧٦) . من طريق عبد الرزاق ، عن داود بن قيس ، عن زيد بن أسلم ، عن رجل يقال له : عبد الجليل ، عن عم له ، عن أبي هريرة به . وضعفه الشيخ الألباني - كما في « السلسلة الضعيفة » (٣٨٥/٤) رقم (١٩١٢) .

(٣٤٥) - **صحيح** ، أخرجه ابن ماجه في « سننه » كتاب : الزهد ، باب : الحلم ، حديث (٤١٨٩) من طريق بشر بن عمر ، عن حماد بن سلمة ، وأخرجه أحمد في « مسنده » (١٢٨/٢) من طريق علي بن عاصم - كلاهما - عن يونس بن عبيد ، عن الحسن ، عن ابن عمر به . وصححه الشيخ الألباني كما في صحيح سنن ابن ماجه (٤٠٧/٢) رقم (٣٣٧٧) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٢] - في خ : « ملأه » .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٥] - في خ : « يعلمون » .

أنفسهم ، فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد ، وهذا أكمل الأحوال ؛ ولهذا قال : ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ فهذا من مقامات الإحسان .

وفي الحديث : « **ثلاث أقسم عليهن : ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا ، ومن تواضع لله رفعه الله** »(٣٤٦) .

وروى الحاكم في مستدركه من حديث موسى بن عقبة ، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة القرشي ، عن عبادة بن الصامت ، عن أبي بن كعب ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **من سرَّهُ أن يشرف له البنيان ، وترفع له الدرجات ؛ فليعف عمن ظلمه ، ويعط من حرمه ، ويصل من قطعه** »(٣٤٧) . ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

وقد أورده ابن مردويه من حديث علي وكعب بن عجرة ، وأبي هريرة وأم سلمة رضي الله عنهم بنحو ذلك ، وروي من طريق الضحاك ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا كان يوم القيامة نادى مناد يقول : أين العافون عن الناس ؛ هلموا إلى ربكم ، وخذوا أجوركم ، وحق على كل امرئ مسلم إذا عفا أن يدخل الجنة** ».

وقوله تعالى : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم** ﴾ أي : إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا همام بن يحيى ، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي

---

(٣٤٦) - أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب البر والصلة ، حديث (٢٥٨٨) .

(٣٤٧) - **إسناده ضعيف - لضعف أبي أمية بن يعلى الثقفي** ، ضعفه الدارقطني ، وقال ابن حبان : لا تحل الرواية عنه إلا للخواص ، روى عن هشام بن عروة وأبي الزناد ، وعنه الصلت بن مسعود وغيره .

وانظر ترجمته في : « الميزان » (١٦٧/٦) رقم (٩٩٧٣) ، و« لسان الميزان » (١٣/٧) رقم (٧٣) ، و« المغني في الضعفاء » (٧٧١/٢) رقم (٧٣١١) .

والحديث أخرجه الحاكم في « المستدرك » : (٢٩٥/٢) من طريق أبي أمية بن يعلى الثقفي ، عن موسى بن عقبة به .

ومن هذا الطريق أيضًا : أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٩٩/١) رقم (٥٣٤) وفي « الأوسط » (٨٨/٣) رقم (٢٥٧٩) . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وتعقبه الذهبي فقال : أبو أمية ضعفه الدارقطني وإسحاق لم يدرك عبادة . وذكره الهيثمي في « المجمع » (١٩٢/٨) وقال : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه أبو أمية بن يعلى وهو ضعيف .

ﷺ قال : « **إن رجلًا أذنب ذنبًا ، فقال : رب ؛ إني أذنبت ذنبًا فاغفره لي**[١] ، **فقال [الله عز وجل]**[٢] **: عبدي عمل ذنبًا ؛ فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ، ويأخذ به ، قد غفرت لعبدي . ثم عمل ذنبًا آخر ، فقال : رب ، إني عملت ذنبًا فاغفره لي**[٣] ، **فقال تبارك وتعالىٰ : علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ، ويأخذ به ، قد غفرت لعبدي . ثم عمل ذنبًا آخر فقال : رب ؛ إني عملت ذنبًا فاغفره لي ، فقال عز وجل : علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ، ويأخذ به ، قد غفرت لعبدي . ثم عمل ذنبًا آخر ، فقال : رب ؛ إني عملت ذنبًا فاغفره . فقال عز وجل : عبدي علم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به ، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي ؛ فليعمل ما شاء** »(٣٤٨) . أخرجاه في الصحيح من حديث إسحاق بن أبي طلحة بنحوه .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر وأبو عامر قالا : حدثنا زهير ، حدثنا سعد الطائي ، حدثنا أبو المدله - مولىٰ أم المؤمنين - سمع أبا هريرة قلنا : يا رسول اللَّه ؛ إذا رأيناك رقَّتْ قلوبنا ، وكنَّا من أهل الآخرة ، وإذا فارقناك أعجَبَتْنا الدنيا وشممنا النساءَ والأولاد . فقال : « **لو أنكم تكونون علىٰ كل حال ، علىٰ الحال التي أنتم عليها عندي ؛ لصافحتكم الملائكة بأكفِّهم ، ولزارتكم في بيوتكم ، ولو لم تذنبوا لجاء اللَّه بقوم يذنبون ؛ كي يغفر لهم** » . قلنا : يا رسول اللَّه ؛ حدثنا عن الجنة ؛ ما بناؤها ؟ قال : « **لبنة ذهب ولبنة فضة ، وملاطها المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا**[٤] **يبأس ، ويخلد لا يموت ، لا تبلىٰ ثيابه ، ولا يفنىٰ شبابه ، ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتىٰ يفطر ، ودعوة المظلوم تحمل علىٰ الغمام ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتي لأنصرنك ؛ ولو بعد حين** »(٣٤٩) .

ورواه الترمذي وابن ماجة من وجه آخر ، [من حديث][٥] سعد به .

ويتأكد الوضوء ، وصلاة ركعتين عند التوبة ؛ لما رواه الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا

---

(٣٤٨) - أخرجه أحمد في « مسنده » (٢/٢٩٦) . وأخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب : التوحيد ، باب : قول اللَّه تعالى : ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام اللَّه** ﴾ ، حديث (٧٥٠٧) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب : التوبة ، حديث (٢٧٥٨) من طرق عن إسحاق بن عبد اللَّه بن أبي طلحة به .

(٣٤٩) - أخرجه أحمد في « مسنده » (٢/٣٠٤ ، ٣٠٥) . وأخرجه الترمذي في « سننه » كتاب : الدعوات ، باب : في العفو والعافية ، حديث (٣٥٩٨) ، وابن ماجه في « سننه » كتاب : الصيام ، باب : في الصائم لا ترد دعوته ، حديث (١٧٥٢) من طريق سعدان الجهني ، عن سعد به . وقال الترمذي : هذا حديث حسن .

---

[١] - في خ : « وقال » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في خ : « تبارك وتعالى » .
[٤] - في خ : « لا » .
[٥] - في خ : « عن » .

وكيع ، حدثنا مسعر ، وسفيان هو[١] الثوري ، عن عثمان بن المغيرة الثقفي ، عن علي بن ربيعة ، عن أسماء بن الحكم الفزاري ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا ؛ نفعني الله بما شاء منه . وإذا حدثني [عنه غيره استحلفته ؛ فإذا حلف لي صدّقته ، وإن أبا بكر رضي الله عنه حدثني][٢] ، وصدق أبو بكر : أنه سمع رسول الله ﷺ قال : **« ما من رجل يذنب ذنبًا فيتوضأ فيحسن الوضوء- قال مسعر : فيصلي . وقال سفيان : ثم - يصلي ركعتين ، فيستغفر الله عزَّ وجلَّ إلا غفر له »**(٣٥٠) .

وهكذا[٣] رواه علي بن المديني والحميدي ، وأبو بكر بن أبي شيبة ، وأهل السنن ، وابن حبان في صحيحه ، والبزار ، والدارقطني من طرق ، عن عثمان بن المغيرة به . وقال الترمذي : هو حديث حسن . وقد ذكرنا طرقه ، والكلام عليه مستقصى في مسند أبي بكر الصديق رضي الله عنه وبالجملة فهو حديث حسن ، وهو من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عن خليفة النبي ﷺ أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - ومما يشهد بصحة الحديث ، ماروا مسلم في صحيحه ، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : **« ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ- أو فيسبغ- الوضوء ، ثم يقول :**

(٣٥٠) - **إسناده حسن** ، أخرجه أحمد في « مسنده » (٢/١ و ٩،٨) ، وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب : في الاستغفار ، حديث (١٥٢١) ، والترمذي في كتاب : الصلاة ، باب : ما جاء في الصلاة عند التوبة ، حديث (٤٠٦) ، وفي التفسير ، باب : ومن سورة آل عمران ، حديث (٣٠٠٦) ، والنسائي في التفسير من « الكبرى » (٣١٥/٦) رقم (١١٠٧٨) وعمل اليوم والليلة ص (٣١٥ : ٣١٧) ، وابن ماجه في كتاب : الإقامة ، باب : ما جاء في أن الصلاة كفارة ، حديث (١٣٩٥) ، والطيالسي في « مسنده » (ص ١) حديث (١،٢) ، والبغوي في « شرح السنة » (١٥١/٤ ، ١٥٢) رقم (١٠١٥) ، والحميدي في « مسنده » (٢/١ ، ٤) ، والطبري في « تفسيره » (٢٢٠/٧ ، ٢٢١) رقم (٧٨٥٣) و(٧٨٥٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٨٩/٢ ، ٣٩٠ - الإحسان) رقم (٦٢٣) ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٢/ ٣٨٧) ، و البزار برقم (٨) ، والعلل للدارقطني برقم (٨) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٥٥٣/٢) رقم (١٤٥٥) . كلهم من طرق عن عثمان بن المغيرة بهذا الإسناد .

قال الترمذي : حديث علي حديث حسن ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث عثمان بن المغيرة .

وروى عنه شعبة وغير واحد فرفعوه مثل حديث أبي عوانة ، ورواه سفيان الثوري ومسعر فأوقفاه ولم يرفعاه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم .

وقد روى عن مسعر هذا الحديث مرفوعًا أيضًا ، ولا نعرف لأسماء بن الحكم حديثًا مرفوعًا إلا هذا .

وأخرجه الحميدي في « مسنده » (٤/١ ، ٥) رقم (٥) ، والطبري في « تفسيره » (٢٢٢/٧) رقم (٧٨٥٥).

---

[١] - سقط من : ت .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ . [٣] - في خ : « وكذا » .

أشهد ألّا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ؛ يدخل من أيها شاء »(٣٥١) .

وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضي اللّه عنه ، أنه توضأ لهم وضوء النبي ﷺ ، ثم قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « **من توضأ نحو وضوئي هذا ، ثم صلى ركعتين ، لا يحدّث فيهما نفسه ، غفر له ما تقدم من ذنبه** »(٣٥٢) .

فقد ثبت هذا الحديث ، من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين ، عن سيد الأولين[١] والآخرين ، [ورسول رب العالمين][٢] ، كما دل عليه الكتاب المبين ، من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين .

و[٣] قال عبد الرزاق : أنبأنا جعفر بن سليمان ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك - رضي اللّه عنه - قال : بلغني أن إبليس حين نزلت [هذه الآية][٤] : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا اللّه فاستغفروا لذنوبهم** ﴾ . الآية - بكىٰ(٣٥٣) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا محرز بن عون ، حدثنا عثمان بن مطر ، حدثنا عبد الغفور ، عن أبي نُصيرة[٥] ، عن أبي رجاء ، عن أبي بكر رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال : « **عليكم بلا إله إلا اللّه ، والاستغفار ، فأكثروا منهما ؛ فإن إبليس قال : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكوني بلا إله إلا اللّه والاستغفار ، فلما رأيت ذلك ، أهلكتهم بالأهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتدون** »(٣٥٤) . عثمان بن مطر وشيخه ضعيفان .

---

(٣٥١) - أخرجه مسلم في كتاب : الطهارة ، حديث (٢٣٤) من حديث عقبة بن عامر الجهني.

(٣٥٢) - أخرجه البخاري في كتاب : الوضوء ، باب : الوضوء ثلاثًا ثلاثًا ، حديث (١٥٩) (١٦٠) ، وأطرافه : حديث (١٦٤) ، و(١٩٣٤) ، و(٦٤٣٣) ، ومسلم في « صحيحه » كتاب : الطهارة ، حديث (٢٢٦) ، وحديث (٢٣٢) من حديث عثمان بن عفان .

(٣٥٣) - أخرجه عبد الرزاق في « تفسيره » (١٣٧/١) ومن طريقه أخرجه ابن جرير الطبري في « تفسيره » (٢٢٠/٧) رقم (٧٨٥٢) . وذكره السيوطي في « الدر » (١٣٧/٢) وعزاه إلى عبد بن حميد .

(٣٥٤) - **إسناده ضعيف** - لضعف عثمان بن مطر ، وشيخه عبد الغفور بن عبد العزيز الواسطي ؛ قال يحيى ابن معين : ليس حديثه بشيء ، وقال ابن حبان : كان ممن يضع الحديث ، وقال البخاري : تركوه ، وقال ابن عدي : ضعيف منكر الحديث . وأبو نُصيرة هو الواسطي واسمه مسلم بن عبيد . وأبو رجاء مولى لأبي بكر ، قال الحافظ : مجهول .

والحديث أخرجه أبو يعلى في « مسنده » (١٢٣/١ ، ١٢٤) رقم (١٣٦) وذكره الهيثمي في =

---

[١] - في خ : « المرسلين » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٣] - في خ : « وقد » .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٥] - في خ : « نضرة » .

وروى الإمام أحمد في مسنده من طريق عمرو بن أبي عمرو ، وأبي الهيثم العتواري ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال : « **قال إبليس : يا رب ؛ وعزتك لا أزال [تأغوي عبادك]**[١] ، **ما دامت أرواحهم في أجسادهم . فقال الله تعالى**[٢] : **وعزتي وجلالي ؛ لا أزال أغفر لهم ما استغفروني** »(٣٥٥) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا عمر بن أبي[٣] خليفة ، سمعت أبا بدر يحدث عن ثابت ، عن أنس ، قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله إني أذنبت ذنبًا ، فقال رسول الله ﷺ : « **إذا أذنبت فاستغفر ربك** » . [قال : فإني أستغفر ثم أعود فأذنب . قال : « **فإذا أذنبت فعد فاستغفر ربك** »][٤] فقالها في الرابعة ، فقال . « **استغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المحسور** »(٣٥٦) . وهذا حديث غريب من هذا الوجه .

وقوله تعالى : ﴿ **ومن يغفر الذنوب إلا الله** ﴾ أي : لايغفرها أحد سواه . كما قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن مصعب ، حدثنا سلام بن مسكين ، والمبارك عن [الحسن ، عن][٥] الأسود بن سريع ، أن النبي ﷺ أتي بأسير فقال : اللَّهم ؛ إني أتوب إليك ، ولا

= « مجمع الزوائد (١٠/٢١٠) وقال : رواه أبو يعلى وفيه عثمان بن مطر وهو ضعيف .

(٣٥٥) - **إسناده ضعيف** ، أخرجه أحمد في « مسنده » (٣/٢٩ ، ٧٦) ، وأبو يعلى (٢/٥٣٠) رقم (١٣٩٩) ، وعبد بن حميد في « المنتخب » ص (٢٩٠) رقم (٩٣٢) ، والبغوي في شرح السنة (٥/٧٦ ، ٧٧) رقم (١٢٩٣) ، والبيهقي في الأسماء والصفات ص (١٣٣ - ١٣٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٢٦١) . من طرق عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري .

وأخرجه أحمد في « مسنده » (٣/٢٩ ، ٤١) ، وأبو يعلى (٢/٤٥٨) رقم (١٢٧٣) ، والطبراني في « الأوسط » (٨/٣٣٣) رقم (٨٧٨٨) من طريق الليث بن سعد ، عن يزيد بن الهاد ، عن عمرو بن أبي عمرو ، عن أبي سعيد به نحوه .

قال الشيخ الألباني - حفظه الله - في « السلسلة الصحيحة » (١/١٦٤) رقم (١٠٤) : « هذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين لكنه منقطع بين عمرو - وهو ابن أبي عمرو مولى المطلب - وبين أبي سعيد الخدري ؛ فإنهم لم يذكروا لعمرو رواية عن أحد من الصحابة غير أنس بن مالك . والحديث ذكره الهيثمي في « المجمع » (١٠/٢١٠) وقال : رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه ، والطبراني في الأوسط وأحد إسنادى أحمد رجاله رجال الصحيح ، وكذلك أحد إسنادى أبي يعلى .

(٣٥٦) - أخرجه البزار كما في كشف الأستار رقم (٣٢٤٩) . وأخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » (٥/٤٠٦ ، ٤٠٧) برقم (٧٠٩٠) من طريق عمر بن أبي خليفة به . وذكره الهيثمي في « المجمع » (١٠/٢٠٤) وقال : رواه البزار ، وفيه بشارة بن الحكم الضبي ضعفه غير واحد ، وقال ابن عدي : أرجو أنه لا بأس به ، وبقية رجاله وثقوا .

[١] - في خ : « أغويهم » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - سقط من : م .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

أتوب إلىٰ محمد . فقال النبي ﷺ : « **عرف الحق لأهله** »(٣٥٧) .

وقوله : ﴿ **ولم يصروا علىٰ ما فعلوا وهم يعلمون** ﴾ أي : تابوا من ذنوبهم ، ورجعوا إلىٰ الله عن قريب ، ولم يستمرّوا علىٰ المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها ، ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه . كما قال الحافظ أبو يعلى الموصلي -رحمه الله- في مسنده : حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل وغيره ، قالوا : حدثنا أبو يحيىٰ عبد الحميد الحماني ، عن عثمان بن واقد ، عن أبي نصيرة[١] ، عن مولىٰ لأبي بكر ، عن أبي بكر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة** »(٣٥٨) .

ورواه أبو داود والترمذي والبزار في مسنده من حديث عثمان بن واقد- وقد وثقه يحيىٰ ابن معين - به وشيخه أبو نصيرة الواسطي ، واسمه مسلم[٢] بن عبيد ، وثقه الإِمام أحمد

---

(٣٥٧) - **إسناده ضعيف** . المبارك بن فضالة : ضعفه أحمد والنسائي ، وقال الدارقطني : لين كثير الخطأ ، وثقه ابن معين مرة ، ومرة قال : ضعيف الحديث . ووثقه جماعة ، وكان يدلس ويسوى ولم يصرح بالسماع هنا وكذلك الحسن فهو مدلس ، وقد عنعن هنا ، ولم يصرح بالسماع ، وقد نقل العلائي عن علي ابن المديني : أنه لم يسمع من الأسود بن سريع . وعليه فيكون الحديث فيه انقطاع بين الحسن والأسود . ومحمد ابن مصعب فيه ضعف .

والحديث أخرجه أحمد في « مسنده » (٤٣٥/٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٢٥٥/٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٣/٤) رقم (٤٤٢٥) ، والطبراني في « الكبير » (٢٨٦/١) رقم (٨٣٩،٨٤٠) ، والضياء في « المختارة » رقم (١٤٥٨ ، ١٤٦٠) . كلهم من طريق محمد بن مصعب بهذا الإسناد . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وتعقبه الذهبي بأن فيه محمد بن مصعب وهو ضعيف . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٢٠٢/١٠) وقال : رواه أحمد والطبراني وفيه محمد بن مصعب وثقه أحمد وضعفه غيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح . وذكره الشيخ الألباني - حفظه الله - في ضعيف الجامع (٣٧٠٧) وقال : ضعيف .

(٣٥٨) - **إسناده ضعيف لجهالة مولى أبي بكر** .

أخرجه أبو يعلى في « مسنده » (١٢٤/١) رقم (١٣٧ ، ١٣٨) و(١٢٤/١ ، ١٢٥) رقم (١٣٩) من طريق عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير حدثنا عفيف بن سالم ، عن عثمان بن واقد ، حدثنا أبو نصيرة ، عن مولى لأبي بكر عن أبي بكر به .

وأخرجه أبو داود كتاب الصلاة ، باب : في الاستغفار ، حديث (١٥١٤) ، والترمذي في كتاب : الدعوات ، باب : ما أصرَّ من استغفر ، حديث (٣٥٥٩) ، والبزار في « مسنده » برقم (٩٣) وابن جرير الطبري في « تفسيره » (٧ /٢٢٥) رقم (٧٨٦٣) وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٥٥٤/٢ ، ٥٥٥) رقم (١٤٥٩) كلهم من طريق عثمان بن واقد بهذا الإسناد . وقال الترمذي : هذا حديث غريب إنما نعرفه من حديث أبي نصيرة وليس إسناده بالقوي . وقال البزار : فرأيت في هذا الإسناد رجلين مجهولين فتركت ذكر هذا الحديث . والحديث ضعفه الشيخ الألباني - كما في ضعيف سنن أبي داود برقم (٣٢٦) وغيره .

---

[١] - في خ : « نضرة » . [٢] - في خ : « سلم » .

وابن حبان ، وقول علي بن المديني والترمذي : ليس إسناد هذا الحديث بذاك . فالظاهر [أنما هو][١] لأجل جهالة مولى أبي بكر ، ولكن جهالة مثله لا تضر ؛ لأنه تابعي كبير ، ويكفيه نسبته إلى أبي بكر الصديق ، فهو حديث حسن ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وهم يعلمون** ﴾ ، قال مجاهد وعبد الله بن عبيد بن عمير : ﴿ **وهم يعلمون** ﴾ أنه من تاب ؛ تاب الله عليه ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده** ﴾ ، وكقوله : ﴿ **ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا** ﴾ ، ونظائر هذا كثيرة جدًّا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أنبأنا جرير ، حدثنا حبان - هو ابن زيد الشرعبي ، عن عبد الله ابن عمرو ، عن النبي ﷺ أنه قال ، وهو على المنبر : « **ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم ، ويل لأقماع**(*) **القول ، ويل للمصرين ، الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون** »(٣٥٩) . تفرّد به أحمد رحمه الله !

ثم قال الله[٢] تعالى بعد وصفهم بما وصفهم به : ﴿ **أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات**[٣] ﴾ ، أي : جزاؤهم على هذه الصفات ، ﴿ **مغفرة من ربهم**[٤] **وجنات تجري**

(*) - (الأقماع) بفتح الهمزة جمع (قِمَع) بكسر القاف وفتح الميم وتسكن : الإناء الذي يجعل في رأس الطرف ليملأ بالمائع . شبه استماع الذين يستمعون القول ولا يعونه ولا يعملون به بالأقماع التى لا تعى شيئًا مما يفرغ فيها ، فكأنه يمر عليها مجتازًا كما يمر الشراب في القمع كذلك قال الزمخشري : من المجاز « ويل لأقماع القول » وهم الذين يستمعون ولا يعون » .

(٣٥٩) - **إسناده صحيح** ، أخرجه أحمد في « مسنده » (١٦٥/٢) . وعبد بن حميد في « المنتخب » ص (١٣١) رقم (٣٢٠) بهذا الإسناد .

وأخرجه أيضًا - أحمد (٢١٩/٢) ، والبخاري في الأدب المفرد برقم (٣٨٠) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٤٩/٥) رقم (٧٢٣٦) و(٤٧٦/٧ - ٤٧٧) رقم (١١٠٥٢) . كلهم من طرق عن جرير ، عن حبان بن زيد ، عن ابن عمرو به .

وذكره الهيثمي في « المجمع » (١٩٤/١٠) وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير حبان بن يزيد الشرعي ووثقه ابن حبان ، ورواه الطبراني كذلك .

وذكره السيوطي في « الدر » (١٣٩/٢) وعزاه لابن مردويه ، وذكره المنذري في « الترغيب والترهيب » (١٥٥/٣) وقال : رواه أحمد بإسناد جيد . وذكره الشيخ الألباني - حفظه الله - في « السلسلة الصحيحة » برقم (٤٨٢) وقال : وهذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات . وكذلك في « صحيح الأدب المفرد » برقم (٢٩٣) وقال : صحيح .

---

[١] - في ت : « أنه » .
[٢] - سقط من : ت .
[٣] - سقط من : ت .
[٤] - في خ : « الله » .

من تحتها الأنهار ﴾ ، أي : من[١] أنواع المشروبات : ﴿ **خالدين فيها** ﴾ ، أي : ماكثين فيها[٢] ، ﴿ **ونعم أجر العاملين** ﴾ يمدح الله[٣] تعالىٰ الجنة .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣) ﴾

يقول تعالىٰ مخاطبًا عباده المؤمنين لما[٤] أصيبوا يوم أحد ، وقتل منهم سبعون : ﴿ **قد خلت من قبلكم سنن** ﴾ أي : قد جرىٰ نحو هذا علىٰ الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء ، ثم كانت العاقبة لهم ، والدائرة علىٰ الكافرين ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **هذا بيان للناس وهدىٰ**[٥] ﴾ يعني القرآن : فيه بيان الأمور علىٰ جليتها ، وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم ، ﴿ **وهدى وموعظة** ﴾ يعني القرآن : فيه خبر من قبلكم ، وهدىٰ لقلوبكم ، ﴿**وموعظة**﴾ أي زاجر عن المحارم والمآثم .

ثم قال تعالىٰ مسليًا للمؤمنين : ﴿ **ولا تهنوا** ﴾ أي : لا تضعفوا بسبب ما جرىٰ ، ﴿ **ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾ ، أي العاقبة والنصر[٦] لكم ، أيها المؤمنون .

﴿ **إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله** ﴾ أي : إن كنتم قد أصابتكم جراح ،

[١] - في خ : « منهم » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - سقط من : ت .
[٤] - في خ : « الذين » .
[٥] - سقط من : ت .
[٦] - في خ : « والنصرة » .

وقتل منكم طائفة ، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾ أي : نديل عليكم الأعداء تارة ، وإن كانت لكم العاقبة لما لنا في ذلك من الحكمة[١] ، ولهذا قال الله تعالىٰ : ﴿ **وليعلم الله الذين آمنوا** ﴾ قال ابن عباس : في مثل هذا لنرىٰ من[٢] يصبر علىٰ مناجزة الأعداء ، ﴿ **ويتخذ منكم شهداء** ﴾ يعني : يقتلون في سبيله ، ويبذلون مهجهم في مرضاته[٣] ، ﴿ **والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا** ﴾ أي : يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت[٤] لهم ذنوب ، وإلا رفع لهم[٥] في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به . وقوله : ﴿ **ويمحق الكافرين** ﴾ أي : فإنهم إذا ظفروا ؛ بغوا وبطروا ؛ فيكون ذلك سبب دمارِهم وهلاكِهم ومحقِهم وفنائِهم .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ أي : أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد . كما قال تعالىٰ في سورة البقرة : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا** ﴾ . الآية . وقال تعالىٰ : ﴿ **الم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون** ﴾ . الآية ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ أي : لايحصل لكم دخول الجنة حتىٰ تبتلوا ، ويرىٰ الله منكم المجاهدين في سبيله ، والصابرين علىٰ مقاومة[٦] الأعداء .

وقوله : ﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون** ﴾ أي : قد كنتم أيها المؤمنون ، قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدّو ، وتتحرقون عليه ، وتودّون مناجزتهم ومصابرتهم ، فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه ؛ فدونكم فقاتلوا وصابروا .

وقد[٧] ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ ؛ قال : « **لا تتمنوا لقاء العدّو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف** »(٣٦٠) .

ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **فقد رأيتموه** ﴾ يعني الموت ، شاهدتموه في لمعان السيوف ، وحد الأسنة ، واشتباك الرماح ، وصفوف الرجال للقتال .

(٣٦٠) - أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب : الجهاد ، باب : الجنة تحت بارقة السيوف ، حديث (٢٨١٨) ، وأطرافه حديث (٢٨٣٣) ، و (٢٩٦٦) ، و(٣٠٢٤) (٣٠٢٥) ، و(٧٢٣٧) . ومسلم في « صحيحه » كتاب : الجهاد والسير ، حديث (١٧٤٢) من حديث عبد الله بن أبي أوفى .

[١] - في خ : « الحكم » .
[٢] - في خ : « أي : من » .
[٣] - في خ : « مرضات الله » .
[٤] - في خ : « كان » .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - في خ : « مقارنة » .
[٧] - مكانها بياض في خ .

والمتكلمون يعبرون عن هذا بالتخييل ، وهو مشاهدة ما ليس بمحسوس ، كالمحسوس[١] كما تتخيل الشاة صداقة الكبش ، وعداوة الذئب .

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

لما انهزم من[٢] انهزم من المسلمين يوم أُحد ، وقتل منهم من قتل ، نادىٰ الشيطان : ألا إن محمدًا قد قتل ، ورجع ابن قميئة إلىٰ المشركين ، فقال لهم : قتلت محمدًا ! وإنما كان قد ضرب رسول اللَّه فشجه في رأسه ، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس ، واعتقدوا أن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم قد قُتل ، وجوّزوا عليه ذلك ، كما قد قص اللَّه عن كثير من الأنبياء عليهم السلام ، فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال ، ففي ذلك أنزل اللَّه تعالىٰ على رسوله صلى اللَّه عليه وسلم : ﴿ **وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلَتْ من قبله الرسلُ** ﴾ أي : له أسوة بهم في الرسالة ، وفي جواز القتل عليه .

قال ابن أبي نجيح : عن أبيه : إن رجلًا من المهاجرين مَرَّ علىٰ رجل من الأنصار ، وهو يتشحط في دمه ، فقال له : يا فلان ؛ أشعرت أن محمدًا ﷺ قد قتل ، فقال الأنصاري : إن كان محمد قد قتل ؛ فقد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم ، فنزل : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾(٣٦١) .

(٣٦١) - أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (٣/٢٤٨ ، ٢٤٩) من طريق آدم بن أبي إياس عن ورقاء =

[١] - في خ : « من المحسوس » . [٢] - في خ : « ما » .

رواه [الحافظ أبو بكر][١] البيهقي في دلائل النبوة .

ثم قال تعالىٰ ، منكرًا علىٰ من حصل له ضعف : ﴿ **أفإن مات أو قتل انقلبتم علىٰ أعقابكم** ﴾ أي : رجعتم القهقرىٰ ، ﴿ **ومن ينقلب علىٰ عقبيه فلن يضر اللَّه شيئًا ، وسيجزي اللَّه الشاكرين** ﴾ أي : الذين قاموا[٢] بطاعته ، وقاتلوا عن دينه ، واتبعوا رسوله حيًّا وميتًا .

وكذلك ثبت في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من كتب الإسلام ، من طرق متعدّدة تفيد القطع ، وقد ذكرت ذلك في مسندي الشيخين أبي بكر وعمر - رضي اللَّه عنهما - أن الصديق - رضي اللَّه عنه - تلا هذه الآية ، لما مات رسول اللَّه ، ﷺ(٣٦٢) .

وقال البخاري : حدثنا يحيىٰ بن بكير ، حدثنا الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، أخبرني أبو سلمة ، أن عائشة - رضي اللَّه عنها - أخبرته أن أبا بكر - رضي اللَّه عنه - أقبل علىٰ فرس من مسكنه بالسنح حتىٰ نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتىٰ دخل علىٰ عائشة ، فتيمم رسول اللَّه ﷺ وهو مُغَشًّىٰ بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ، ثم أكب عليه ، وقبله ، وبكىٰ ثم قال : بأبي أنت وأمي ؛ واللَّه لا يجمع اللَّه عليك موتتين . أمّا الموتة التي كتبت عليك فقد متها(٣٦٣) .

وقال الزهري : وحدثني أبو سلمة ، عن ابن عباس ، أن أبا بكر خرج ، وعمر يكلم[٣] الناس ، وقال : اجلس يا عمر [فأبىٰ عمر أن يجلس ، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر][٤] . فقال أبو بكر : أما بعد ، فمن[٥] كان يعبد محمَّدًا فإن محمَّدًا قد مات ، ومن كان يعبد اللَّه فإن اللَّه حي لا يموت . قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾ إلىٰ قوله ﴿ [**وسيجزي اللَّه**][٦] **الشاكرين** ﴾ قال : فو اللَّه ، لكأن الناس لم

= عن ابن أبي نجيح به . وأخرجه الطبري في « تفسيره » (٧/٢٥٦) رقم (٧٩٤٥) من طريق عيسى وشبل - كلاهما عن ابن أبي نجيح به .

(٣٦٢) - انظر « البداية والنهاية » للمصنف (٥/٢٦٢ : ٢٦٤) و« دلائل النبوة » للبيهقي (٧/٢١٤ : ٢١٨) وانظر الأحاديث الآتية .

(٣٦٣) - أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب : المغازي ، باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، حديث (٤٤٥٢ ، ٤٤٥٣) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٢] - في خ : « ماتوا » .

[٣] - في خ : « يحدث » .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٥] - في خ : « من » .

[٦] - سقط من : خ .

يعلموا أن الله أنزل هذه الآية ، حتىٰ تلاها أبو بكر ، [فتلقاها منه الناس][١] كلهم ، فما سمعها بشر من الناس إلا تلاها .

وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعقرت[٢] حتىٰ ما تقلني[٣] رجلاي ، وحتىٰ هويت إلىٰ الأرض(٣٦٤) .

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا علي بن عبد العزيز ، حدثنا عمرو بن حماد بن طلحة القناد ، حدّثنا أسباط بن نصر ، عن سماك بن حرب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن عليًا كان يقول في حياة رسول الله ﷺ : ﴿ **أفإن مات أو قتل انقلبتم علىٰ أعقابكم** ﴾ : والله لا ننقلب علىٰ أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، والله لئن مات أو قتل ؛ لأقاتلن علىٰ ما قاتل عليه حتىٰ أموت ، والله إني لأخوه ، ووليه ، وابن عمه ، ووارثه فمن أحق به منّي(٣٦٥) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابًا مؤجلًا** ﴾ أي : لا يموت أحد إلا بقدر الله ، وحتىٰ يستوفي المدّة التي ضربها الله له ؛ ولهذا قال : ﴿ **كتابًا مؤجلًا** ﴾ كقوله : ﴿ **وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب** ﴾ وكقوله : ﴿ **هو الذي خلقكم من طين ثم قضىٰ أجلًا وأجل مسمًّى عنده** ﴾ .

وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء ، وترغيب لهم في القتال ، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه ، كما قال ابن أبي حاتم : حدثنا العباس بن يزيد العبدي ، قال : سمعت أبا معاوية . عن الأعمش ، عن حبيب بن صهبان ، قال : قال رجل من المسلمين - وهو حجر بن عدي - : ما يمنعكم أن تعبروا[٤] إلى هؤلاء العدّو هذه النطفة - يعني دجلة - ﴿ و[٥] **ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابًا مؤجلًا** ﴾ ثم أقحم فرسه دجلة ، فلما أقحم أقحم الناس ، فلما رآهم العدّو ، قالوا : ديوان ! فهربوا(٣٦٦) .

---

(٣٦٤) - أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب : المغازي ، باب : مرض النبي ﷺ ووفاته ، حديث (٤٤٥٤) .

(٣٦٥) - **إسناده ضعيف** ، فيه سماك بن حرب يروى عن عكرمة وروايته عن عكرمة فيها اضطراب .

والحديث أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٠٧/١) رقم (١٧٦) . وأخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٥٨١/٢) رقم (١٥٥٣) . والحاكم في « المستدرك » (١٢٦/٣) من طريق عمرو بن حماد بن طلحة به . وذكره الهيثمي في « المجمع » (١٣٧/٩) وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

(٣٦٦) - **إسناده حسن** ، أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٥٨٤/٢) رقم (١٥٦٢) .

---

[١] - في خ : « فتلاها الناس من » .

[٢] - في خ : « فعرفت » .

[٣] - في خ : « أبلغني » .

[٤] - في خ : « تعبوا » .

[٥] - سقط من : خ .

وقوله : ﴿ **ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها** ﴾ أي : من كان عمله للدنيا فقط ، ناله[١] منها ما قدره الله له ، ولم يكن له في الآخرة من[٢] نصيب ، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها ، مع ما قسم له في الدنيا . كما قال تعالىٰ : ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومًا مدحورًا ومن أراد الآخرة وسعىٰ لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورًا** ﴾ ؛ ولهذا[٣] قال هاهنا : ﴿ **وسنجزي الشاكرين** ﴾ أي : سنعطيهم من فضلنا ، ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم[٤] .

ثم قال تعالىٰ ، مسليًا للمؤمنين عما كان[٥] وقع في نفوسهم يوم أحد : ﴿ **وكأين من نبي قُتِلَ[٦] معه ربيون كثير** ﴾ قيل : معناه كم من نبي قتل ، وقتل معه ربيون من أصحابه كثير ، وهذا القول هو اختيار ابن جرير فإنه قال : وأما الذين قرءوا ﴿ **قتل معه ربيون كثير** ﴾ فإنهم قالوا : إنما عني بالقتل النبي وبعض من معه من الربيين[٧] دون جميعهم ، وإنما نفي الوهن والضعف عمن بقي من الربيين ممن لم يقتل .

قال : ومن قرأ ﴿**قاتل**﴾ فإنه اختار ذلك ؛ لأنه[٨] قال : لو قتلوا لم يكن [لقول الله][٩] : ﴿ **فما وهنوا** ﴾ وجه معروف ، لأنه يستحيل أن يوصفوا بأنهم لم يهنوا ، ولم يضعفوا بعد ما قتلوا .

ثم اختار قراءة من قرأ ﴿ **قتل معه ربيون كثير** ﴾ ؛ لأن الله تعالى عاتب بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحد ، وتركوا القتال لما[١٠] سمعوا الصائح يصيح : إن[١١] محمّدًا قد قتل ! فعذلهم الله علىٰ فرارهم وتركهم القتال ، فقال لهم : ﴿ **أفإن مات أو قتل** ﴾ أيها[١٢] المؤمنون ارتددتم عن دينكم ، و ﴿ **انقلبتم علىٰ أعقابكم** ﴾ . وقيل : وكم من نبي قتل بين يديه من أصحابه ربيون كثير .

---

[١] - في خ : « نال » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في خ : « وهكذا » .
[٤] - في خ : « وعلمهم » .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - في خ : « قاتل » .
[٧] - في خ : « الربيون » .
[٨] - في خ : « فإنه » .
[٩] - في خ : « لقوله » .
[١٠] - في خ : « أو » .
[١١] - في خ : « بأن » .
[١٢] - في خ : « يا أيها » .

وكلام ابن إسحاق في السيرة يقتضي قولًا آخر ، قال : أي : وكأين من نبي أصابه القتل ، ومعه ربيون أي : جماعات ، فما وهنوا بعد نبيهم ، وما ضعفوا عن عدوهم ، وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم ، وذلك الصبر ﴿ **والله يحب الصابرين** ﴾(٣٦٧) .

فجعل قوله : ﴿ **معه ربيون كثير** ﴾ حالًا ، وقد نصر هذا القول السهيلي وبالغ فيه ، وله اتجاه لقوله : ﴿ **فما وهنوا لما أصابهم** ﴾ الآية . وقدا[١] حكاه الأموي في مغازيه عن كتاب محمد ابن إبراهيم ولم يحك[٢] غيره .

وقرأ بعضهم ﴿ **قاتل معه ربيون كثير** ﴾ قال سفيان الثوري ، عن عاصم ، عن زر ، عن ابن مسعود ﴿ **ربيون كثير** ﴾ أي : ألوف(٣٦٨) .

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، والربيع ، وعطاء الخراساني : الربيون الجموع الكثيرة(٣٦٩) .

وقال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن ﴿ **ربيون كثير** ﴾ أي : علماء كثير(٣٧٠) ، وعنه أيضًا : علماء صُبر أي[٣] : أبرار أتقياء(٣٧١) .

وحكىٰ ابن جرير عن بعض نحاة البصرة أن الربيين هم الذين يعبدون الرب عز وجل ،

---

(٣٦٧) - **إسناده حسن** ، أخرجه ابن جرير الطبري في « تفسيره » : (٧/٢٦٨) رقم (٧٩٧٨) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٥٨٦) رقم (١٥٦٩٠) من طريق سلمة عن محمد بن إسحاق به .

(٣٦٨) - أخرجه الطبري في « تفسيره » (٧/٢٦٦) رقم (٧٩٥٧ ، ٧٩٥٨ ، ٧٩٥٩) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٥٨٦) رقم (١٥٧٠) والطبراني في « المعجم الكبير » (٩/٢٥٧) رقم (٩٠٩٦) . كلهم من طرق عن سفيان عن عاصم عن زر عن عبد الله به . وذكره الهيثمي في « المجمع » (٦/٣٣٠) وقال : رواه الطبراني وفيه عاصم بن بهدلة وثقه النسائي وغيره ، وضعفه جماعة .

(٣٦٩) - أخرج هذه الآثار ابن جرير الطبرى في تفسيره (٧/٢٦٧ ، ٢٦٨) بأرقام (٧٩٦٦ - ٧٩٧٩) . وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٥٨٧ ، ٥٨٨) بأرقام (١٥٧٢ - ١٥٧٩) .

(٣٧٠) - **إسناده صحيح** ، أخرجه عبد الرزاق في « تفسيره » ، ومن طريقه الطبري في « تفسيره » (٧/ ٢٦٧) رقم (٧٩٦٨) وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/٥٨٨) رقم (١٥٨٠). وذكره السيوطي في « الدر » (٢/١٤٧) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم .

(٣٧١) - أخرجه الطبري في « تفسيره » (٧/٢٦٨) رقم (٧٩٧٥) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/ ٥٨٩) رقم (١٥٨٢) . من طريق المبارك عن الحسن به .

---

[١] - في ت : « وكذا » .

[٢] - في خ : « يقل » .

[٣] - سقط من : خ .

قال : ورد بعضهم عليه فقال : لو كان كذلك لقيل الربيون[١] بفتح الراء(٣٧٢) .

وقال ابن زيد : الربيون الأتباع والرعية « **والربابيون** » : الولاة(٣٧٣) ﴿ **فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا** ﴾ قال[٢] قتادة والربيع بن أنس : ﴿ **وما ضعفوا** ﴾ بقتل نبيهم ﴿ **وما استكانوا** ﴾ يقول : فما ارتدوا عن نصرتهم ، ولا عن دينهم أن قاتلوا علىٰ ما قاتل عليه نبي الله حتىٰ لحقوا بالله .

وقال ابن عباس : ﴿ **وما استكانوا** ﴾ تخشعوا[٣](٣٧٤) ، وقال السدي وابن زيد : وما ذلوا لعدوهم(٣٧٥) .

وقال محمد بن إسحاق(٣٧٦) ، والسدي(٣٧٧) ، وقتادة (٣٧٨) : أي : ما أصابهم ذلك حين قتل نبيهم .

﴿ **والله يحب الصابرين وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا علىٰ القوم الكافرين** ﴾ أي : لم يكن لهم هجِّيرى[٤] إلا ذلك ﴿ **فآتاهم الله ثواب الدنيا** ﴾ أي : النصر ، والظفر ، والعاقبة ﴿ **وحسن ثواب الآخرة** ﴾ أي : جمع لهم ذلك مع هذا ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ

(٣٧٢) - انظر تفسير الطبري (٢٦٥/٧) .

(٣٧٣) - أخرجه ابن جرير الطبري في « تفسيره (٢٦٩/٧) رقم (٧٩٨٠) .

(٣٧٤) - أخرجه ابن جرير الطبري في « تفسيره » (٢٧١/٧) رقم (٧٩٨٥) وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٥٩٢/٢) رقم (١٥٩٦) عن ابن عباس .

(٣٧٥) - أخرجه الطبري في « تفسيره » (٢٧١/٧) رقم (٧٩٨٦) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/ ٥٩١) رقم (١٥٩٤) .

(٣٧٦)- أخرجه الطبري في « تفسيره » (٢٧١/٧) رقم (٧٩٨) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٥٩٠/٢) رقم (١٥٨٧) عن محمد بن إسحاق به .

(٣٧٧) - أخرجه الطبري في « تفسيره » (٢٧٠/٧) رقم (٧٩٨٣) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٢/ ٥٩٠، ٥٩١) رقم (١٥٨٦ ، ١٥٨٩) .

(٣٧٨) - أخرجه الطبري في « تفسيره » (٢٧٠/٧) رقم (٧٩٨١) وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٥٩١/٢) رقم ١٥٩٠.) عن قتادة به .

[١] - في خ : « ربيون » .
[٢] - في خ : « وقال » .
[٣] - في خ : « ضعفوا » .
[٤] - في خ : « هجر » .

أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ
﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ
يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾
وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم
مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ
لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ
تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ
فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ
أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

يحذر تعالىٰ عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين ، فإن طاعتهم تورث الردىٰ في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **إن تطيعوا الذين كفروا يردّوكم علىٰ أعقابكم فتنقلبوا خاسرين** ﴾ .

ثم أمرهم بطاعته ، وموالاته ، والاستعانة به ، والتوكل عليه ، فقال تعالىٰ : ﴿ **بل اللَّه مولاكم وهو خير الناصرين** ﴾ .

ثم بشرهم بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم ، والذلة لهم بسبب كفرهم ، وشركهم مع ما ادّخره لهم في الدار[١] الآخرة من العذاب والنكال ، فقال : ﴿ **سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا باللَّه ما لم ينزل به سلطانًا ومأواهم النار وبئس مثوىٰ الظالمين** ﴾ .

وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد اللَّه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **أعطيت خمسًا ، لم يُعْطَهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي**

---

[١] - سقط من : خ .

الأرض مسجدًا وطهورًا، وأحلت لي الغنائم ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة[١] ، وبعثت إلى الناس عامة » (٣٧٩) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عدي ، عن سليمان التيمي عن سيار ، عن أبي أمامة : أن رسول الله ﷺ قال : [**« فضلني ربي]**[٢] **على الأنبياء - أو قال : على الأمم - بأربع : قال**[٣] **أرسلت إلى الناس كافة ، وجعلت لي الأرض كلها ولأمتي مسجدًا وطهورًا ، فأينما أدركت رجلًا من أمتي الصلاة ، فعنده مسجده وطهوره ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر يقذف**[٤] **في قلوب أعدائي ؛ وأحلت**[٥] **لي الغنائم »**(٣٨٠) .

ورواه[٦] الترمذي ، من حديث سليمان التيمي ، عن سيار القرشي الأموي مولاهم الدمشقي - سكن البصرة - عن أبي أمامة صدي[٧] بن عجلان رضي الله عنه به ، وقال : حسن صحيح .

وقال سعيد بن منصور : أنبأنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، أن أبا يونس حدثه عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ ، قال : **« نصرت بالرعب على العدو »**(٣٨١) . ورواه مسلم من حديث ابن[٨] وهب .

---

(٣٧٩) - أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب : التيمم ، باب (١) حديث (٣٣٥) ، وكتاب : الصلاة ، باب : قول النبي ﷺ : « **جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا** » حديث (٤٣٨) ، وكتاب : الجهاد ، باب : قول النبي ﷺ : « **أحلت لكم الغنائم** » حديث (٣١٢٢) . ومسلم في « صحيحه » كتاب : المساجد ومواضع الصلاة ، حديث (٥٢١) .

من طرق عن هشيم بن بشير عن سيار عن يزيد الفقير عن جابر به .

(٣٨٠) - أخرجه أحمد (٢٤٨/٥) . والترمذي في كتاب السير ، باب : ما جاء فى الغنيمة ، حديث (١٥٥٣) من طريق محمد بن عبيد المحاربى ، عن أسباط بن محمد ، عن سليمان التيمى ، به - مختصرًا على الغنائم - وقال أبو عيسى الترمذى : حسن صحيح .

وأخرجه أيضًا الطبراني في الكبير (٣٠٨/٨) رقم (٨٠٠١ ، ٨٠٠٢) من طرق عن سليمان التيمي ، به .

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٢/٨) وقال : « روى الترمذي طرفًا منه - رواه أحمد والطبراني بنحوه ؛ إلا أنه قال : « بُعثت إلى كل أبيض وأسود » ورجال أحمد ثقات .

(٣٨١) - رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة برقم ٧ - (٥٢٣) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤٧١/٥ - ٤٧٢) .

---

[١] - سقط من : خ .

[٢] - في خ : « فضيلتي » .

[٣] - سقط من : خ .

[٤] - في خ : « يقذفه » .

[٥] - في خ : « وأحل » .

[٦] - في خ : « رواه » .

[٧] - في خ : « صبي » .

[٨] - سقط من : خ .

وقال[١] الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن أبي بردة عن أبيه أبي موسىٰ قال : قال رسول الله ﷺ : « **أعطيت خمسًا : بعثت إلىٰ الأحمر والأسود ، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لمن كان قبلي ، ونصرت بالرعب مسيرة[٢] شهر ، وأعطيت الشفاعة ، وليس من نبي إلا وقد سأل شفاعته ، وإني قد[٣] اختبأت شفاعتي ثم جعلتها لمن مات[٤] لا يشرك بالله شيئًا** »(٣٨٢) تفرد به أحمد .

وروىٰ العوفي ، عن ابن عباس في قوله تعالىٰ : ﴿ **سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب** ﴾ . قال : قذف الله في قلب أبي سفيان الرعب ؛ فرجع إلى مكة ، فقال النبي ﷺ : « **إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفًا ، وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب** »(٣٨٣) رواه ابن أبي حاتم .

وقوله تعالىٰ ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه** ﴾ قال ابن عباس : وعدهم الله النصر .

وقد يستدل بهذه الآية علىٰ أحد القولين المتقدّمين في قوله تعالىٰ : ﴿ **إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلىٰ إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين** ﴾ أنّ ذلك كان يوم أحد ، لأن عدوهم كان ثلاثة آلاف مقاتل ، فلما واجهوهم كان الظفر والنصر أوّل النهار للإسلام ، فلما حصل ما حصل من عصيان الرماة وفشل بعض المقاتلة . [تأخر الوعد] الذي كان مشروطًا بالثبات والطاعة ، ولهذا قال : ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده** ﴾ أي : أوّل النهار ، ﴿ **إذ تحسونهم** ﴾ أي : تقتلونهم ، ﴿ **بإذنه** ﴾ أي : بتسليطه إياكم عليهم ، ﴿ **حتىٰ إذا فشلتم** ﴾ وقال ابن جريج : قال ابن عباس : الفشل الجبن ﴿ **وتنازعتم في الأمر وعصيتم** ﴾ كما وقع للرماة : ﴿ **من بعد ما أراكم ما تحبون** ﴾ وهو الظفر بهم ، ﴿ **منكم من يريد الدنيا** ﴾ وهم الذين رغبوا في المغنم ، حين رأوا الهزيمة ﴿ **ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم** ﴾ ثم أدالهم عليكم ليختبركم ويمتحنكم ، ﴿ **ولقد عفا عنكم** ﴾ أي : غفر لكم ذلك الصنيع ، وذلك والله أعلم لكثرة عدد العدو

(٣٨٢) - رواه أحمد (٤١٦/٤) . وذكره الهيثمي في المجمع (٢٦١/٨) وقال : رواه أحمد متصلًا ومرسلاً والطبراني ، ورجاله رجال الصحيح .

(٣٨٣) - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥٩٧/٢ - ٥٩٨) رقم (١٦١٩) .

[١] - في خ : « وروى » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - سقط من : خ .

وعددهم ، وقلة عدد المسلمين[١] وعددهم .

قال[٢] ابن جريج : قوله : ﴿ **ولقد عفا عنكم** ﴾ ، قال : لم يستأصلكم(٣٨٤) . وكذا قال محمد بن إسحاق (٣٨٥) ، رواهما ابن جرير ﴿ **والله ذو فضل على المؤمنين** ﴾

وقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه ، عن[٣] عبيد الله ، عن ابن عباس أنه قال : ما نصر الله [النبي ﷺ][٤] في موطن ؛ كما نصره[٥] يوم أحد . قال : فأنكرنا ذلك فقال ابن عباس : بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله ؛ إن الله يقول في يوم أحد : ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه** ﴾ يقول ابن عباس : [والحس القتل][٦] .

﴿ **حتىٰ إذا فشلتم** [**وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين** ﴾] وإنما عنيٰ بهذا الرماة ، وذلك أن النبي ﷺ أقامهم في موضع ، وقال : « **احموا ظهورنا ؛ فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا**[٧] » .

فلما غنم النبي ﷺ ، وأباحوا[٨] عسكر المشركين ، أكب[٩] الرماة جميعًا فدخلوا[١٠] في المعسكر ينهبون ، ولقد التقت صفوف أصحاب رسول الله ﷺ فهم[١١] هكذا -وشبك بين يديه - وانتشبوا ، فلما أخل الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها ؛ دخلت الخيل من ذلك الموضع علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ ، فضرب بعضهم بعضًا والتبسوا ، وقتل من المسلمين ناس كثير ، وقد كان النصر[١٢] لرسول الله ﷺ وأصحابه أول النهار ، حتىٰ قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة ، وجال المسلمون جولة نحو الجبل ، ولم يبلغوا - حيث يقول الناس الغار ، إنما كان تحت المهراس ، وصاح الشيطان : قتل محمد . فلم يُشَك فيه أنه حق ، [فلا زلنا][١٣] كذلك ما نشك أنه حق ، حتىٰ طلع رسول الله ﷺ بين

(٣٨٤) - رواه ابن جرير (٢٩٨/٧) .
(٣٨٥) - رواه ابن جرير (٢٩٩/٧) .

[١] - سقط من : خ .
[٢] - في خ : « وقال » .
[٣] - في خ : « عن أبي » .
[٤] - سقط من : خ .
[٥] - في خ : « نصر » .
[٦] - في خ : « والحسن الفشل » .
[٧] - في خ : « تشاركونا » .
[٨] - في خ : « وإذا خبا » .
[٩] - في خ : « أكبت » .
[١٠] - سقط من : خ .
[١١] - في خ : « فيهم » .
[١٢] - سقط من : خ .
[١٣] - في خ : « فما زلنا » .

السعدين نعرفه بتكفُّئه [إذا مشى][١] قال : ففرحنا حتىٰ كأنه لم يصبنا ما أصابنا قال : فرقي نحونا ، وهو يقول : « **اشتدّ[٢] غضب اللّٰه علىٰ قوم أدموا[٣] وجه رسول اللّٰه** » ، ويقول مرة أخرىٰ : « **اللّٰهم إنه ليس لهم أن يعلونا** » حتىٰ انتهىٰ إلينا فمكث ساعة ، فإذا أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل : اعل هبل مرتين - يعني آلهته - أين ابن أبي كبشة ؟ أين ابن أبي قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر رضي اللّٰه عنه : يا رسول اللّٰه ؛ ألا أجيبه ؟ قال : « **بلىٰ** » . فلما قال : اعل هبل ، قال عمر : اللّٰه أعلىٰ وأجلّ ، فقال أبو سفيان : قد أنعمت [عينها فعاد عنها أو : فعال][٤] ، فقال : أين ابن أبي كبشة ؟ أين ابن أبي قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر : هذا رسول اللّٰه ﷺ ، وهذا أبو بكر ، وهأنذا عمر ، قال : فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، الأيام دول ، وإن الحرب سجال ، قال : فقال عمر : لا سواء قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار ، قال : إنكم تزعمون ذلك فقد خبنا[٥] وخسرنا إذن . ثم قال[٦] أبو سفيان : إنكم ستجدون في قتلاكم مثلة[٧] ، ولم يكن ذلك عن رأي سراتنا . قال : ثم أدركَتْه حمية الجاهلية ، فقال : أما إنه إن كان ذلك لم نكرهه(٣٨٦) . هذا حديث غريب ، وسياق عجيب ، وهو من مرسلات ابن عباس ، فإنه لم يشهد أحدًا ولا أبوه .

وقد خرجه[٨] الحاكم في مستدركه ، عن أبي النضر الفقيه ، عن عثمان بن سعيد ، عن سليمان بن داود بن علي بن عبد اللّٰه بن عباس به . وهكذا رواه ابن أبي حاتم ، والبيهقي في دلائل النبوّة من حديث سليمان بن داود الهاشمي به ؛ ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها - فقال الإمام أحمد :

[ثنا عفان][٩] حدثنا حماد ، حدثنا عطاء بن السائب ، عن الشعبي ، عن ابن مسعود ؛ قال : إن النساء كنّ يوم أحد خلف المسلمين ؛ يجهزن[١٠] علىٰ جرحىٰ[١١] المشركين ، فلو

---

(٣٨٦) - رواه أحمد (٢٨٧/١ - ٢٨٨) ، والحاكم في المستدرك (٢٩٦/٢ - ٢٩٧) والطبراني في الكبير (٣٦٥/١٠- ٣٦٦) ، وابن أبي حاتم (٦٠٢/٢ - ٦٠٤) ، والبيهقي في الدلائل (٢٦٩/٣ - ٢٧٠) . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وذكره الهيثمي في المجمع (١١٣/٦ - ١١٤) وقال : رواه أحمد ، وفيه عبد الرحمن بن أبي الزناد ، وقد وثق على ضعفه .

---

[١] - في خ : « إذا يمشي » .
[٢] - في خ : « شد » .
[٣] - في خ : « رموا » .
[٤] - في خ : « فقال عنها » .
[٥] - في خ : « خلبنا » .
[٦] - في ت : « فقال » .
[٧] - في خ : « مثلًا » .
[٨] - في خ : « أخرجه » .
[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .
[١٠] - في خ : « يجهزون » .
[١١] - في خ : « جروح » .

حلفت[١] يومئذ رجوت أن أبرّ إنه ليس منا أحد يريد الدنيا حتىٰ أنزل اللَّه [عز وجل] : ﴿ **منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم** ﴾ فلما خالف أصحاب [رسول اللَّه] ﷺ وعصوا ما أمروا به ، أفرد رسول اللَّه ﷺ في تسعة ، سبعة من الأنصار ؛ ورجلين من قريش ، وهو عاشرهم ﷺ ؛ فلما رهقوه قال : « **رحم اللَّه رجلاً ردّهم عنا !** » قال : فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتىٰ قتل ؛ فلما رهقوه أيضًا قال : « **رحم اللَّه رجلًا ردّهم عنا :** » فلم يزل يقول ذلك[٢] حتىٰ قتل السبعة ، فقال رسول اللَّه ﷺ لصاحبيه : « **ما أنصفنا أصحابنا** » . فجاء أبو سفيان فقال : اعل هبل ؛ فقال رسول اللَّه ﷺ : « **قولوا : اللَّه أعلىٰ وأجلّ** » . فقالوا : اللَّه أعلىٰ وأجل ، فقال أبو سفيان : لنا العزّىٰ ولا عزّىٰ لكم ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « **قولوا : اللَّه مولانا [ولا مولى لكم]**[٣] **والكافرون لا مولىٰ لهم** » فقال[٤] أبو سفيان : يوم بيوم بدر ،

[فيوم علينا ويوم لنا][٥] ويومٌ نُساءُ ويومٌ نُسَرّْ

حنظلة بحنظلة وفلان بفلان ، [وفلان بفلان][٦] . فقال رسول اللَّه ﷺ : « **لا سواء ؛ أما قتلانا فأحياء يرزقون ؛ [وأما قتلاكم]**[٧] **ففي النار يعذبون** » . فقال أبو سفيان : لقد كان في القوم مُثْلَةٌ ، وإن كانت لعن غير ملأ منا ، ما أمرت ولا نهيت ، ولا أحببت ولا كرهت ، ولا ساءني ولا سرني ، قال : فنظر فإذا حمزة قد بقر بطنُه ، وأخذت هند كبده فلاكتها ، فلم تستطع أن تأكلها ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « **أكلت شيئًا ؟** » قالوا : لا . قال : « **ما كان اللَّه ليدخل شيئًا من حمزة في النار** » .

قال[٨] : فوضع رسول اللَّه ﷺ حمزة ، فصلّىٰ عليه ، وجيء برجل من الأنصار ، فوضع إلىٰ جنبه فصلىٰ عليه ، فرفع الأنصاري وترك حمزة ، حتىٰ جيء بآخر فوضع إلىٰ جنب حمزة فصلىٰ عليه[٩] ، ثم رفع وترك حمزة ، حتىٰ صلىٰ عليه يومئذ سبعين صلاة (٣٨٧) . تفرد به أحمد أيضًا[١٠] .

وقال البخاري : حدثنا عبيد اللَّه بن موسىٰ ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن البراء ؛ قال : لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبي ﷺ جيشًا من الرماة ، وأمَّر عليهم عبد

---

(٣٨٧) - رواه أحمد (١/٤٦٣) .

---

[١] - في خ : « خلف » .
[٢] - في خ : « ذا » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : م .
[٤] - في خ : « ثم قال » .
[٥] - في خ : « فيوم لنا ويوم علينا » .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٧] - في خ : « وقتلاكم » .
[٨] - مكانه بياض في : خ .
[٩] - سقط من : خ .
[١٠] - سقط من : خ .

اللَّه يعني بن جبير ، وقال : « **لا تبرحوا ؛ إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا** » . فلما لقيناهم هربوا ، حتىٰ رأينا النساء يشتددن في الجبل ، رفعن عن سوقهن ؛ قد بدت خلاخلهن ، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة فقال عبد اللَّه [بن جبير][١] : عهد إليّ[٢] النبي ﷺ أن لاتبرحوا فأبوا ؛ فلما أبوا صُرف وجوههم(٣٨٨) ، فأصيب سبعون قتيلًا ، فأشرف أبو سفيان فقال : أفي القوم محمد ؟ فقال : « **لا تجيبوه** » فقال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ فقال : « **لا تجيبوه** » . فقال : أفي القوم ابن الخطاب ؟ فقال : إن هؤلاء قد قتلوا ، فلوا كانوا أحياء لأجابوا ، فلم يملك عمر نفسه ، فقال له[٣] : كذبت يا عدو اللَّه ، قد[٤] أبقىٰ اللَّه لك ما يحزنك[٥] ؛ قال[٦] أبو سفيان : اعلُ هبل . فقال النبي ﷺ : « **أجيبوه** » . قالوا : ما نقول ؟ قال : « **قولوا : اللَّه أعلىٰ وأجلّ** » . قال أبو سفيان : لنا العزىٰ ولا عزىٰ لكم ، فقال النبي ﷺ : « **أجيبوه** » . قالوا : ما نقول ؟ قال « **قولوا : اللَّه مولانا ولا مولى لكم** » . قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ؛ والحرب سجال ؛ وستجدون مثلة ، لم آمر بها ولم تسؤني .

تفرد به البخاري من هذا الوجه(٣٨٩) ؛ ثم رواه عن عمرو بن خالد ، عن زهير بن معاوية ، عن أبي إسحاق ، عن البراء بنحوه(٣٩٠) ؛ وسيأتي بأبسط من هذا .

وقال البخاري أيضًا : حدثنا عبيد اللَّه بن سعيد ، حدثنا أبو أسامة ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة - رضي اللَّه عنها - قالت : لمّا كان يوم أحد هزم المشركون فصرخ إبليس : أي : عباد اللَّه أخراكم فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم فبصر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان ، فقال : أي عباد اللَّه ، أبي أبي . قال[٧] : قالت : فو اللَّه ما احتجزوا حتى قتلوه ، فقال حذيفة : يغفر اللَّه لكم . قال عروة : فو اللَّه مازالت في حذيفة بقية خير حتىٰ لقي اللَّه عز وجل .(٣٩١)

وقال محمد بن إسحاق : حدثني يحيىٰ بن عباد بن عبد اللَّه بن الزبير ، عن أبيه ، عن

---

(٣٨٨) - يعني تحيروا فلم يدروا أين يتوجهون « الفتح (٣٥١/٧) »

(٣٨٩) - رواه البخاري في كتاب المغازي ، حديث (٤٠٤٣) .

(٣٩٠) - رواه البخاري في كتاب الجهاد ، حديث (٣٠٣٩) .

(٣٩١) - رواه البخاري في المغازي حديث (٤٠٦٥) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٢] - سقط من : خ .

[٣] - سقط من : خ .

[٤] - سقط من : ت .

[٥] - في خ : يخزيك » .

[٦] - في خ : « فقال » .

[٧] - سقط من : خ .

جدّه ؛ أن الزبير بن العوام ؛ قال : واللَّه ، لقد رأيتني أنظر إلىٰ خدم هند[١] وصواحباتها مشمرات هوارب ما دون أخذهن كثير ولا قليل ، ومالت الرماة إلىٰ العسكر حين كشفنا القوم عنه يريدون النهب ، وخلوا ظهورنا للخيل ، فأوتينا من أدبارنا ، وصرخ صارخ : ألا إن محمدًا قد قتل ؛ فانكفأنا وانكفأ علينا القوم ، بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتىٰ ما يدنو منه أحد من القوم(٣٩٢) .

قال محمد بن إسحاق : فلم يزل لواء المشركين صريعًا حتىٰ أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية ، فرفعته لقريش فلاثوا به[٢] (٣٩٣) . وقال السدي ، [عن عبد خير ، قال : قال][٣] عبد اللَّه بن مسعود ، قال : ما كنت أرىٰ أن أحدًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ يريد الدنيا ، حتىٰ نزل[٤] فينا ما نزل يوم أحد : ﴿ **منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة** ﴾(٣٩٤) . وقد روي من غير وجه ، عن ابن مسعود . وكذا روي عن عبد الرحمن بن عوف وأبي طلحة ؛ رواهنّ ابن مَرْدُوَيه في تفسيره .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **ثم صرفكم عنهم ليبتليكم** ﴾ قال ابن إسحاق : حدثني القاسم بن عبد الرحمن بن رافع ، أحد بني عدي بن النجار ، قال : انتهىٰ أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلىٰ عمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا ما[٥] بأيديهم فقال : ما تجليكم ؟ فقالوا : قتل رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا علىٰ ما مات عليه ؛ ثم استقبل القوم فقاتل حتىٰ قتل رضي اللَّه عنه(٣٩٥) .

وقال البخاري : حدثنا حسان بن حسان ، حدثنا محمد بن طلحة ، حدثنا حميد عن أنس بن مالك ؛ أن عمه - يعني أنس بن النضر - غاب عن بدر ، فقال : غبت عن أول

---

(٣٩٢) - رواه ابن هشام (٣/٥٩٦) .

(٣٩٣) - السيرة (٣/٥٩٦) .

(٣٩٤) - رواه الطبري (٧/٢٩٥) ، وابن أبي حاتم (٢/٦٠٥ - ٦٠٦) ، والطبراني في الأوسط (٢/١٠٦) من طرق عن السدي ، به . ورواه أحمد (١/٤٦٣) ، وذكره الحافظ في المطالب العالية (٣/٣١٤) وعزاه لأبي بكر بن أبي شيبة . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٣٣٠ - ٣٣١) وقال : رواه الطبراني في الأوسط ، وأحمد في حديث طويل ورجال الطبراني ثقات .

(٣٩٥) - أخرجه ابن هشام فى « السيرة » (٣/٦٠٠) .

---

[١] - سقط من : خ .

[٢] - في خ : « بها » .

[٣] - في خ : « جواب » .

[٤] - في خ : « نزلت » .

[٥] - سقط من : خ .

قتال النبي ﷺ ، لئن أشهدني الله مع رسول الله ﷺ ليرين[١] الله ما أجد ، فلقي يوم أحد ، فهزم الناس ، فقال : اللهم ؛ إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به المشركون ؛ فتقدم بسيفه ، فلقي سعد بن معاذ فقال : أين يا سعد ، إني أجد ريح الجنة دون أحد ، فمضىٰ فقتل ، فما عرف حتىٰ عرفته أخته ببنانه[٢] أو بشامة ، وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم(٣٩٦) .

هذا لفظ البخاري ؛ وأخرجه مسلم من حديث ثابت عن أنس بنحوه(٣٩٧) - وقال البخاري أيضًا[٣] : حدثنا عبدان ، أخبرنا أبو حمزة ، عن[٤] عثمان بن موهب[٥] ؛ قال : جاء رجل حج البيت ، فرأى قومًا جلوسًا ، فقال : من هؤلاء القعود ؟ قالوا : هؤلاء[٦] قريش . قال : من الشيخ ؟ قالوا : ابن عمر ، فأتاه ، فقال : إني سائلك عن شيء فحدّثني [قال : سل][٧] . قال : أنشدك بحرمة هذا البيت ، أتعلم أن عثمان بن عفان فرّ يوم أحد ؟ قال : نعم . قال : فتعلمه تغيّب عن بدر فلم يشهدها ؟ قال : نعم . قال : فتعلم أنه تخلف عن بيعه الرضوان فلم يشهدها ؟ قال : نعم . قال[٨] فكبر ؛ فقال[٩] ابن عمر : تعال لأخبرك ولأبين لك عما سألتني عنه : أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه ؛ وأما تغيبه عن بدر ؛ فإنه كان تحته بنت [رسول الله] ﷺ ، وكانت مريضة ؛ فقال له رسول الله ﷺ : « **إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه** » . وأما تغيبه عن بيعة الرضوان ؛ فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث عثمان ، فكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلىٰ مكة . فقال النبي ﷺ بيده اليمنىٰ « هذه يد عثمان » فضرب بها علىٰ يده فقال : « **هذه يد عثمان اذهب بها الآن معك** »(٣٩٨) .

ثم رواه البخاري من وجه آخر عن أبي[١٠] عوانة ، عن عثمان بن عبد الله بن موهب(٣٩٩) .

---

(٣٩٦) - أخرجه البخارى فى كتاب المغازي ، باب : غزوة أحد ، حديث (٤٠٤٨) .

(٣٩٧) - أخرجه مسلم فى كتاب الإمارة ، باب : ثبوت الجنة للشهيد ، حديث (١٩٠٣) .

(٣٩٨) - أخرجه البخارى فى كتاب المغازى ، باب : قول الله تعالى : ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور رحيم** ﴾ ، حديث (٤٠٦٦) .

---

[١] - في خ : « ليرني » .

[٢] - في خ : « بثيابه » .

[٣] - سقط من : خ .

[٤] - سقط من : خ .

[٥] - في خ : « وهب » .

[٦] - سقط من : ت .

[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٨] - سقط من : خ .

[٩] - في خ : « قال » .

[١٠] - سقط من : خ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إذ تُصْعِدُون ولا تلوون علىٰ أحد ﴾ أي : صرفكم عنهم ﴿إذ تصعدون﴾ أي : في الجبل هاربين من أعدائكم .

وقرأ الحسن وقتادة : ﴿ إذ تَصْعَدُون ﴾ أي : في الجبل ، ﴿ ولا تلوون علىٰ أحد ﴾ أي : وأنتم لا تلوون علىٰ أحد من الدهش والخوف والرعب ، ﴿ والرسول يدعوكم في أخراكم ﴾ أي : وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم ، يدعوكم إلىٰ ترك الفرار من الأعداء ، وإلىٰ الرجعة والعودة والكرّة .

قال السدي : لما شدّ المشركون علىٰ المسلمين بأحد فهزموهم ، دخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم إلىٰ الجبل فوق الصخرة ، فقاموا عليها . فجعل[١] الرسول ﷺ يدعو الناس : « إليّ عباد الله ! إليَّ عبادَ الله! » . فذكر الله صعودهم على الجبل ، ثم ذكر دعاء النبي ﷺ إياهم فقال : ﴿ إذ تصعدون ولا تلوون علىٰ أحد والرسول يدعوكم في أخراكم ﴾ (٤٠٠).

وكذا قال ابن عباس(٤٠١) وقتادة(٤٠٢) والربيع(٤٠٣) وابن زيد(٤٠٤) .

وقد[٢] قال عبد الله بن الزبعرى : يذكر هزيمة المسلمين يوم أحد في قصيدته وهو مشرك بعد لم يسلم التي يقول في أولها :

يَا غُرَابَ الْبَيْنِ أَسْمَعْتَ فَقُلْ ... إِنَّما [تَنْطِقُ شَيئًا قَدْ][٣] فُعِلْ
إن للخيرِ وللشرِّ مدىٰ ... وكلا ذلك وجه وقَبَل

إلىٰ أن قال :

ليت أشياخي ببدر شهدوا[٤] ... جَزَعَ الخزرج من وَقعِ الأَسَل

(٣٩٩) - أخرجه البخارى فى : كتاب فضائل الصحابة ، باب : مناقب عثمان بن عفان أبى عمرو القرشى - رضى الله عنه - حديث (٣٦٩٨) .

(٤٠٠) - أخرجه ابن جرير الطبرى فى « تفسيره » : (٣٠١/٧) رقم (٨٠٥٠) .

(٤٠١) - أخرجه ابن جرير الطبرى فى « تفسيره » : (٣٠٢/٧ - ٣٠٣) رقم (٨٠٥٣ و ٨٠٥٤) .

(٤٠٢) - أخرجه الطبرى فى « تفسيره » : (٣٠١/٧) رقم (٨٠٤٩) و (٣٠٣/٧) رقم (٨٠٥٥) .

(٤٠٣) - أخرجه الطبرى فى « تفسيره » : (٣٠٦/٧) رقم (٨٠٦٣) بنحوه .

(٤٠٤) - أخرجه ابن جرير الطبرى فى « تفسيره » : (٣٠٣/٧) رقم (٨٠٥٨) .

[١] - في خ : « وجعل » .
[٢] - في خ : « وقال » .
[٣] - في خ : « ينطق شيئًا » .
[٤] - في خ : « يسهدوا » .

حين حكّت[١] بقباءٍ بَرْكَهَا واستحرَّ القتلُ في عبدَ الأَشَل
ثم خَفُّوا[٢] عِندَ ذاكم رُقّصا رَقَصَ الحفانِ[٣] يعلو في الجَبَل
فقتلنا الضعف من أشرافِهم وعَدَلْنا ميلَ بدرٍ فاعتدل

الحفان[٤] : صغار النعم .

وقد كان النبي صلىٰ اللَّه عليه وآله وسلم قد أفرد في اثني عشر رجلًا من أصحابه ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسىٰ ، حدثنا زهير ، حدثنا أبو إسحاق ، أن البراء بن عازب رضي اللَّه عنه قال : جعل رسول اللَّه ﷺ علىٰ الرماة يوم أحد - وكانوا خمسين رجلًا - عبد اللَّه بن جبير قال : ووضعهم موضعًا ، وقال : « **إن رأيتمونا تخطفنا الطير ؛ فلا تبرحوا حتىٰ أرسل إليكم** ، [**وإن رأيتمونا ظهرنا علي العدو وأوطأناهم فلا تبرحوا حتىٰ أرسل إليكم**»][٥] قال فهزموهم ، قال : فأنا[٦] واللَّه ، رأيت النساء يشتددن علىٰ الجبل ، وقد بدت[٧] أسوقهن وخلاخلهن ، رافعات ثيابهن . فقال أصحاب عبد اللَّه : الغنيمة أي قوم الغنيمة ، ظهر أصحابكم فما تنتظرون ؟قال عبد اللَّه [بن جبير][٨] : أنسيتم ما قال لكم رسول اللَّه ﷺ ؟ فقالوا : إنا واللَّه لنأتين[٩] الناس ، فلنصيبن[١٠] من الغنيمة ، فلما أتوهم صرفت وجوههم ، فأقبلوا منهزمين ، فذلك الذي يدعوهم الرسول في أخراهم ، فلم يبق مع رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم إلا اثنا عشر رجلًا فأصابوا منا سبعين ، وكان رسول اللَّه ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة : سبعين أسيرًا وسبعين قتيلًا .

قال أبو سفيان : أفي القوم محمد ؟ أفي القوم محمد ؟ أفي القوم محمد ؟ ثلاثًا - قال : فنهاهم رسول اللَّه ﷺ أن يجيبوه ، ثم قال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ أفي القوم ابن الخطاب أفي القوم ابن الخطاب ؟ ثم أقبل علىٰ أصحابه فقال : أمّا هؤلاء فقد قتلوا وقد كُفِيتُموهم ، فما ملك عمر نفسه أن قال : كذبت واللَّه يا عدو اللَّه ، إن الذين عددت لأحياء كلهم ، وقد [أبقىٰ اللَّه][١١] لك ما يسوؤك ، فقال : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، إنكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني . ثم أخذ يرتجز

---

[١] - في خ : « جلت » .
[٢] - في خ : « حفوا » .
[٣] - في خ : « المعان » .
[٤] - في خ : « الجفان » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٦] - في ت : فلقد .
[٧] - سقط من : خ .
[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٩] - في خ : « لناس » .
[١٠] - « ولنصيبن » .
[١١] - في خ : « بقي » .

: اعل هبل اعل هبل . فقال رسول الله ﷺ : « **ألا تجيبونه**[١] » . قالوا : يا رسول الله ، ما نقول ؟ قال : « **قولوا : الله أعلىٰ وأجلّ** » قال : لنا العزّىٰ ولا عزّىٰ لكم . قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **ألا تجيبونه**[٢] ؟ » قالوا : يا رسول الله ؛ وما نقول ؟ قال : « **قولوا : الله مولانا ولا مولىٰ لكم** »(٤٠٥) .

وقد رواه البخاري من حديث زهير بن معاوية مختصرًا(٤٠٦) ، ورواه من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق بأبسط [من هذا][٣] كما تقدم(٤٠٧) ، والله أعلم .

وروىٰ البيهقي في دلائل النبوّة ، من حديث عمارة بن غزيَّة ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : انهزم الناس عن رسول الله ﷺ يوم أحد ، وبقي معه أحد عشر رجلًا من الأنصار ، وطلحة بن عبيد الله ، وهو يصعد في الجبل ، فلحقهم المشركون فقال : « **ألا أحد لهؤلاء ؟** » فقال : طلحة أنا يا رسول الله ؛ فقال : « **كما أنت يا طلحة** » . فقال رجل من الأنصار : فأنا يا رسول الله ؛ فقاتل عنه ، وصعد رسول الله ﷺ ومن بقي معه ثم قتل الأنصاري ، فلحقوه ، فقال : « **ألا رجل لهؤلاء ؟** » فقال طلحة مثل قوله ، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم مثل قوله ، فقال رجل من الأنصار : فأنا يا رسول الله ، [فقاتل عنه][٤] ، وأصحابه يصعدون ، ثم قتل ، فلحقوه ، فلم يزل يقول مثل قوله الأول ، فيقول طلحة : فأنا[٥] يا رسول الله ، فيحبسه ، فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال ، فيأذن له ، فيقاتل مثل من كان قبله ، حتىٰ لم يبق معه إلا طلحة فَغَشَوْهُمَا ، فقال رسول الله ﷺ : « **من لهؤلاء ؟** » . فقال طلحة : أنا ، فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله ، وأصيبت أنامله ، فقال حَسِّ[٦] ! فقال [رسول الله ﷺ][٧] : « **لو قلت بسم الله ، أو ذكرت اسم الله لرفعتك الملائكة ، والناس[٨] ينظرون إليك ، حتىٰ تلج بك[٩] في جو السماء** » . ثم صعد رسول الله ، ﷺ إلىٰ أصحابه وهم مجتمعون .(٤٠٨)

---

(٤٠٥) - أخرجه أحمد فى « مسنده » : (٤/٢٩٣) والحديث تقدم تخريجه برقم (٤٣٥) .

(٤٠٦) - تقدم تخريجه .

(٤٠٧) - تقدم تخريجه .

(٤٠٨) - أخرجه البيهقى فى « دلائل النبوة » : (٣/٢٣٦، ٢٣٧) وأخرجه النسائى فى « سننه » : (٦/٢٩ - ٣٠) ، كتاب الجهاد ، باب ما يقول من يطعنه العدو من حديث عمارة بن غزية به .

---

[١] - في ت : « تجيبوه » .

[٢] - في ت : « تجيبوه » .

[٣] - سقط من : خ .

[٤] - سقط من : خ .

[٥] - في خ : « أنا » .

[٦] - في خ : « فحس » .

[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٨] - في خ : « حتى والناس » .

[٩] - سقط من : خ .

وقد روىٰ البخاري ، عن [أبي بكر][١] بن أبي شيبة ، عن وكيع ، عن إسماعيل ، عن قيس ابن أبي حازم قال : رأيت يد طلحة شلَّاء ؛ وقىٰ بها النبي ﷺ ، يعني يوم أحد(٤٠٩) .

وفي الصحيحين من حديث معتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن أبي عثمان النهدي قال : لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهنّ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، غير[٢] طلحة بن عبيد الله ، وسعد عن حديثهما(٤١٠) .

[وقال الحسن بن عرفة : حدثنا مروان بن معاوية ، عن هاشم[٣] بن هاشم[٤] الزهري ، قال : سمعت سعيد بن المسيب يقول : سمعت سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يقول : نَثَل لي رسول الله ، صلىٰ الله عليه وآله وسلم كنانته يوم أُحد ، وقال : « **ارم فداك أبي وأمي** »(٤١١) . وأخرجه البخاري عن عبد الله بن محمد ، عن مروان بن معاوية(٤١٢) .

وقال محمد بن إسحاق[٥] : حدثني صالح بن كيسان ، عن بعض آل سعد ، عن سعد ابن أبي وقاص ، أنه رمىٰ يوم أحد دون رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال سعد : فلقد رأيت رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم يناولني النَّبل ، ويقول « **ارم فداك أبي وأمي** » . حتىٰ إنه ليناولني السهم ليس له نصل فأرمي به(٤١٣) .

(٤٠٩) - أخرجه البخارى فى « صحيحه » كتاب المغازى ، باب : ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلان والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ حديث (٤٠٦٣) ، وطرفه حديث (٣٧٢٤) من طريق مسدد عن خالد عن ابن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم به بنحوه .

(٤١٠) - أخرجه البخارى فى « صحيحه » كتاب فضائل الصحابة ، باب : ذكر طلحة بن عبيد الله ، حديث (٣٧٢٢، ٣٧٢٣) وكتاب المغازى ، باب : ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما** ﴾ حديث (٤٠٦٠، ٤٠٦١) . ومسلم فى « صحيحه » كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل طلحة والزبير - رضى الله عنهما - حديث (٤٧/٢٤١٤) من طريق معتمر بن سليمان عن أبيه عن أبى عثمان النهدى به . من حديثهما : يعنى أنهما حدثا بذلك .

(٤١١) - أخرجه البيهقى فى « الدلائل » : (٢٣٩/٣) من طريق الحسن بن عرفة به .

(٤١٢) - أخرجه البخارى فى « صحيحه » : كتاب المغازى ، باب : ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما** ﴾ حديث (٤٠٥٥) من طريق عبد الله بن محمد عن مروان بن معاوية به .

(٤١٣) - أخرجه ابن هشام فى السيرة (٦٠٠/٣) .

[١] - سقط من : خ .
[٢] - في ت : « إلا » .
[٣] - في خ : « هشام » .
[٤] - في خ : « هشام » .
[٥] - في خ : « سعيد » .

وثبت في الصحيحين من حديث إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه جده[١] قال : رأيت يوم أحد عن يمين النبي ﷺ وعن يساره رجلين ، عليهما ثياب بيض ، يقاتلان عنه أشد القتال ، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده ، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام][٢] (٤١٤) .

وقال حماد بن سلمة : عن علي بن زيد وثابت عن أنس بن مالك : أن رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما رهقوه قال : « **من يردهم عنّا وله الجنة - أو هو[٣] رفيقي في الجنة** » . فتقدم رجل من الأنصار ، فقاتل حتىٰ قتل ، [ثم أرهقوه أيضًا ، فقال : « **من يردهم عنا وله الجنة ؟** » . فتقدم رجل من الأنصار ، فقاتل حتىٰ قتل][٤] . فلم يزل كذلك حتىٰ قتل السبعة . فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه : « **ما أنصفنا أصحابنا** »(٤١٥) . رواه مسلم ، عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة به نحوه(٤١٦) .

وقال أبو الأسود عن عروة بن الزبير قال : كان أبي بن خلف أخو بني جُمَح قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله ﷺ ، فلما بلغت رسول الله ﷺ حلفَتُهُ قال : « **بل أنا أقتله إن شاء الله** » . فلما كان يوم أحد أقبل أُبَيٌّ في الحديد مقنعًا وهو يقول : لا نجوت إن نجا محمد ، فحمل علىٰ رسول الله ﷺ يريد قتله ، فاستقبله مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول الله ﷺ بنفسه ، فقتل مصعب بن عمير ، وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة ، وطعنه فيها بحربته ، فوقع إلىٰ الأرض عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم ، فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور ، فقالوا له : ما أجزعك ! إنما هو[٥] خدش ؟ فذكر لهم قول رسول الله ، ﷺ : « **بل[٦] أنا أقتل أبيًا** » ،

---

(٤١٤) - أخرجه البخاري في « صحيحه » : كتاب المغازي ، باب : ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ حديث (٤٠٥٤) ، وطرفه حديث (٥٨٢٦) ، ومسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل ، باب : في قتال جبريل وميكائيل عن النبي ﷺ يوم أحد ، حديث (٢٣٠٦/ ٤٦ ،٤٧) ، والبيهقي في « الدلائل » : (٣/٢٥٤) .

(٤١٥) - أخرجه البيهقي في « الدلائل » : (٣/٢٣٤ - ٢٣٥) من طريق علي بن عثمان ، وهُدْبة بن خالد عن حماد بن سلمة به .

(٤١٦) - أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة أحد ، حديث (١٧٨٩/ ١٠٠) من طريق هُدبة بن خالد ، عن حماد بن سلمة به « ما أنصفنا أصحابنا » : معناه ما أنصفت قريش الأنصار لكون القرشيين لم يخرجا للقتال ، بل خرجت الأنصار واحدًا بعد واحد ، وذكر القاضي عياض وغيره أن بعضهم رواه : « ما أنصفنا بفتح الفاء والمراد على هذا : الذين فروا من القتال فإنهم لم ينصفوا لفرارهم .

---

[١] - سقط من : خ .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٣] - في خ : « وهو » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - سقط من : خ .

ثم قال : والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون ، فمات إلى النار ﴿ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السعير ﴾ (٤١٧) . وقد رواه موسى[١] بن عقبة [ ][٢] في مغازيه ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب بنحوه(٤١٨) .

وذكر محمد بن إسحاق قال : لما أسند رسول الله ﷺ في الشعب ، أدركه أبي بن خلف ، وهو يقول : لا نجوت إن نجوت ، فقال القوم : يا رسول الله ؛ يعطف عليه رجل منا فقال رسول الله ﷺ : « **دعوه** » . فلما دنا منه تناول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الحربة من الحارث بن الصِّمَّة ، فقال بعض القوم كما[٣] ذكر لي : فلما أخذها رسول الله ﷺ منه انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشُعْر عن ظهر البعير إذا انتفض ، ثم استقبله رسول الله ﷺ فطعنه في عنقه طعنة ؛ تدأدأ منها عن فرسه مرارًا (٤١٩) .

وذكر الواقدي : عن يونس بن بكير ، عن محمد[٤] بن إسحاق ، عن عاصم بن عمرو[٥] ابن قتادة ، عن عبد الله بن كعب بن مالك ، عن أبيه نحو ذلك (٤٢٠) .

وقال الواقدي : وكان ابن عمر يقول : مات أبي بن خلف ببطن رابغ ، فإني لأسير ببطن رابغ بعد هوي من الليل ، فإذا أنا بنار تتأجج فهبتها ، وإذا[٦] رجل يخرج منها في سلسلة يجتذبها ، يهيج به العطش ، وإذا رجل يقول : لا تسقه ، فإن هذا قتيل رسول الله ﷺ ، هذا أبي بن خلف(٤٢١) .

وثبت في الصحيحين من رواية عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **اشتدَّ غضبُ الله علىٰ قومٍ فعلوا**

---

(٤١٧) - سيرة ابن هشام (٣/٦٠١) ، وأخرجه البيهقى فى « الدلائل » : (٣/٢٥٨) . وأورده ابن كثير فى « البداية » (٤/٣٦) عن عروة بن الزبير مرسلاً ، وفى إسناده ضعف أيضًا ، وأخرجه البيهقى أيضًا (٣/٢١١ - ٢١٢) عن سعيد بن المسيب مرسلاً .

(٤١٨) - أخرجه البيهقى فى « الدلائل » (٣/٢١١ - ٢١٢) وانظر السابق .

(٤١٩) - أخرجه ابن هشام فى « السيرة » (٣/٦٠١) ، والبيهقى فى « الدلائل » : (٣/٢٣٧ - ٢٣٨)

(*) - تدأدأ : تقلب عن فرسه وتدحرج قاله ابن هشام فى السيرة .

(٤٢٠) - ذكره البيهقى فى « الدلائل » (٣/٢٥٩) وانظر سيرة ابن هشام فى « السيرة » : (٣/٦٠١)، والبيهقى فى « الدلائل » (٣/٢٣٧ - ٢٣٨) .

(٤٢١) - ذكره البيهقى فى « الدلائل » : (٣/٢٥٩) ، عن الواقدى به .

---

[١] - في خ : « أبو موسى » .
[٢] - في خ : وذكره .
[٣] - في خ : « ما » .
[٤] - في خ : « يونس » .
[٥] - في خ : « عمر » .
[٦] - في خ : « فإذا » .

برسول اللَّه - صلىٰ اللَّه عليه وسلم - وهو حينئذ يشير إلىٰ رباعيته - واشتدَّ غضبُ اللَّه علىٰ رجلٍ يقتله رسولُ اللَّه ، ﷺ في سبيل اللَّه »(٤٢٢) .

وأخرجه[١] البخاري أيضًا من حديث ابن جريج ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : قال « **اشتد غضبُ اللَّه علىٰ من قتله رسول اللَّه [صلىٰ اللَّه عليه وسلم] بيده في سبيل اللَّه ، واشتد غضبُ اللَّه علىٰ قومٍ أدمَوا وجهَ رسولِ اللَّه** ، ﷺ »(٤٢٣) .

وقال محمد بن إسحاق : أصيبت رباعية رسول اللَّه ﷺ ، وشج في وجنته ، وكُلِمَتْ شِفَتُه ، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص(٤٢٤) .

[فحدثني صالح بن كيسان ، عمَّن حدثه ، عن سعد بن أبي وقاص قال : ما حرصت علىٰ قتل أحد قطُّ ، ما حرصت علىٰ قتل عتبة بن أبي وقاص][٢] ، وإن كان ما علمته لسيىء الخلق مبغضًا في قومه ، ولقد كفاني فيه قول رسول اللَّه ﷺ : « **اشتد غضب اللَّه علىٰ من أدمىٰ وجه رسول اللَّه** ﷺ »(٤٢٥) .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن الزهري ، عن عثمان الجَزَري ، عن مقسم ، أن رسول ، اللَّه[٣] ﷺ ، دعا علي عتبة بن أبي وقاص يوم أحد حين كسر رباعيته وأدمىٰ وجهه ، فقال : «**اللهم ؛ لا تحل عليه الحول حتىٰ يموت كافرًا** » . فما حال عليه الحول حتىٰ مات كافرًا إلىٰ النار(٤٢٦) .

وذكر[٤] الواقدي عن ابن أبي سبرة ، عن إسحاق بن عبد اللَّه بن أبي فروة عن أبي الحويرث ، عن نافع بن جبير قال : سمعت رجلًا من المهاجرين يقول : شهدت أُحدًا ،

(٤٢٢) - أخرجه البخارى فى كتاب المغازى ، باب : ما أصاب النبى ﷺ من الجراح يوم أحد ، حديث (٤٠٧٣) ، ومسلم فى « صحيحه » كتاب الجهاد والسير ، باب : اشتداد غضب اللَّه على من قتله رسول اللَّه ﷺ حديث (١٧٩٣/١٠٦) .

(٤٢٣) - أخرجه البخارى فى كتاب المغازى ، باب : ما أصاب النبى ﷺ من الجراح يوم أحد ، حديث (٤٠٧٤ ، ٤٠٧٦) ، والبيهقى فى « الدلائل » : (٣/٢٦٢) .

(٤٢٤) - أخرجه ابن هشام فى « السيرة » (٣/٥٩٧ - ٥٩٨) ، والبيهقى فى « الدلائل » : (٣/٢٦٥) .

(٤٢٥) - أخرجه ابن هشام فى « السيرة » (٣/٦٠٣) ، والبيهقى فى « الدلائل » (٣/٢٦٥) .

(٤٢٦) - أخرجه البيهقى فى « الدلائل » (٣/٢٦٥) عن عبد الرزاق به .

[١] - في خ : « وقال » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٣] - سقط من : خ .

[٤] - في خ : « وقال » .

فنظرت إلىٰ النبل يأتي من كل ناحية ، ورسول الله ﷺ في[١] وسطها كل ذلك يصرف عنه ؛ ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يومئذ يقول : دلوني علىٰ محمد لا نجوت إن نجا ، ورسول الله ﷺ إلىٰ جنبه ليس معه أحد . ثم جاوزه فعاتبه في ذلك صفوان فقال : والله ما رأيته ، أحلف بالله إنه منا ممنوع ؛ خرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاقدنا علىٰ قتله فلم نخلص[٢] إلىٰ ذلك(٤٢٧) .

قال الواقدي : [والذي ثبت][٣] عندنا أن الذي أدمىٰ[٤] وجنتي رسول الله ﷺ ابن قميئة ؛ والذي دمىٰ[٥] شفته وأصاب رباعيته عتبة بن أبي وقاص .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا ابن المبارك عن إسحاق بن[٦] يحيىٰ بن طلحة بن عبيد الله ، أخبرني عيسىٰ بن طلحة ، عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - قالت : كان أبو بكر رضي الله عنه إذا ذكر يوم أحد قال : ذاك يوم كله لطلحة ؛ ثم أنشأ يحدث قال : كنت أول من فاء يوم أحد ، فرأيت رجلًا يقاتل مع رسول الله ﷺ دونه وأراه قال : حمية ، فقال : فقلت : كن طلحة ، حيث فاتني ما فاتني ، فقلت : يكون رجلًا من قومي أحب إلي ، وبيني وبين المشركين رجل لا أعرفه ، وأنا أقرب إلىٰ رسول الله ﷺ منه ، وهو يخطف المشي خطفًا ، لا أعرفه[٧] ، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح ، فانتهينا إلىٰ رسول الله ﷺ وقد كسرت رباعيته ، وشج في وجهه ؛ وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر ، فقال رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم : « **عليكما صاحبكما يريد طلحة** » وقد نزف فلم نلتفت إلى قوله ، قال : وذهبت لأنزع[٨] ذلك من وجهه ، فقال أبو عبيدة : أقسمت عليك بحقي لما تركتني فتركته ، فكره أن يتناولها بيده ، فيؤذىٰ رسول الله ﷺ ، فأزم عليها بفيه ، فاستخرج إحدىٰ الحلقتين ، ووقعت ثنيته مع الحلقة ، وذهبت لأصنع ما صنع ، فقال : أقسمت عليك بحقي لما تركتني ، قال : ففعل مثل ما فعل في المرة الأولىٰ ، ووقعت ثنيته الأخرىٰ مع الحلقة ، فكان أبو عبيدة رضي الله عنه من أحسن الناس هتمًا ، فأصلحنا من شأن رسول الله ﷺ ثم أتينا طلحة في بعض تلك الجفار ، فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر من طعنة ورمية وضربة ، وإذا قد قطعت أصبعه ، فأصلحنا من شأنه(٤٢٨) .

(٤٢٧) - ذكره البيهقى فى « الدلائل » (٢٦٤/٣) عن الواقدى به .

(٤٢٨) - أخرجه الطيالسى فى « مسنده » ص (٣) ، والبيهقى فى « دلائل النبوة » : (٢٦٣/٣ - ٢٦٤) ، والحاكم فى « المستدرك » : (٢٦٦/٣) من طريق ابن المبارك به ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه - وسكت عنه الذهبى .

[١] - سقط من : خ .
[٢] - في خ : « يخلص » .
[٣] - في خ : « والثبت » .
[٤] - في خ : « رمى في » .
[٥] - في خ : « رمى » .
[٦] - في خ : « أن » .
[٧] - في خ : « أحفظه » .
[٨] - في خ : « الآن أنزع » .

ورواه الهيثم بن كليب ، والطبراني من حديث إسحاق بن يحيىٰ به . وعند الهيثم فقال[١] أبو عبيدة : أنشدك يا أبا بكر إلا تركتني ؟ فأخذ أبو عبيدة السهم بفيه ، فجعل ينضنضه(*) كراهية أن يؤذي رسول اللَّه ﷺ ، ثم استل السهم بفيه فندرت(**) ثنية أبي عبيدة(٤٢٩) .

وذكر تمامه ؛ واختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه ؛ وقد ضعف علي بن المديني هذا الحديث ؛ من جهة إسحاق بن يحيىٰ هذا ؛ فإنه تكلم فيه يحيىٰ بن سعيد القطان وأحمد ، ويحيىٰ بن معين والبخاري ، وأبو زرعة ، وأبو حاتم ، ومحمد بن سعد ، والنسائي وغيرهم .

وقال ابن وهب : أخبرني عمرو بن الحارث ، أن عمر بن السائب ، حدّثه أنه بلغه أن مالكًا أبا أبي[٢] سعيد الخدري لما جُرح[٣] النبي ﷺ يوم أحد ، مص الجرح حتىٰ أنقاه ولاح أبيض ، فقيل له مجه ، فقال : لا واللَّه ؛ لا أمجه أبدًا ؛ ثم أدبر يقاتل ، فقال النبي ﷺ : « **من أراد أن ينظر إلىٰ رجل من أهل الجنة ؛ فلينظر إلىٰ هذا** » فاستشهد(٤٣٠) .

وقد ثبت في الصحيحين من طريق عبد العزيز بن أبي حازم[٤] ، عن أبيه ، عن سهل بن سعد ، أنه سئل عن جرح رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم فقال : جرح وجه رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة علىٰ رأسه ﷺ فكانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تغسل الدم ، وكان عليّ يسكب عليه الماء بالمجن ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة ، أخذت قطعة من حصير ، فأحرقتها حتى صارت رمادًا ألصقته بالجرح فاستمسك الدم(٤٣١) .

---

(٤٢٩) - **إسناده ضعيف - لضعف إسحاق بن طلحة** ، أخرجه الضياء المقدسى فى « المختارة » (١/١٣٦ و١٣٧) رقم (٤٩) من طريق الهيثم بن كليب مطولاً . وأخرجه البزار فى « مسنده » : (١/١٣٢ - ١٣٣) رقم (٦٣) ، وابن حبان فى « صحيحه » (١٥/٤٣٧ - ٤٣٨ - الإحسان) برقم (٦٩٨٠) من طريق إسحاق بن يحيى به . وذكره الهيثمى فى « المجمع » : (٦/١١٥) وقال : رواه البزار ، وفيه إسحاق بن يحيى بن طلحة وهو متروك .

(٤٣٠) - أخرجه البيهقى فى « الدلائل » : (٣/٢٦٦) من طريق ابن وهب به .

(٤٣١) - أخرجه البخارى فى « صحيحه » كتاب الجهاد ، باب : لبس البيضة ، حديث (٢٩١١) ، وطرفه (٤٠٧٥) ، ومسلم فى « صحيحه» كتاب الجهاد والسير ، حديث (١٧٩٠) .

---

[١] - في ت : « قال » .

(*) أي يحركه .

(**) أي سقطت .

[٢] - سقط من : خ .

[٣] - في خ : « خرج » .

[٤] - في خ : « حاتم » .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **فأثابكم غمًّا بغم** ﴾ أي : فجزاكم غمًّا علىٰ غم ، كما تقول العرب : نزلت ببني فلان ، ونزلت علىٰ بني فلان . وقال ابن جرير : وكذا قوله : ﴿ **ولأصلبنكم في جذوع النخل** ﴾ أي : علىٰ جذوع النخل .

قال ابن عباس : الغم الأوّل بسبب الهزيمة ، وحين قيل : قتل محمد ﷺ والثاني حين علاهم المشركون فوق الجبل ؛ وقال النبي ﷺ : « **اللّهم ؛ ليس لهم أن يعلونا** »(٤٣٢) .

وعن عبد الرحمن بن عوف : الغم الأوّل بسبب الهزيمة ؛ والثاني حين قيل : قتل محمد ﷺ كان ذلك عندهم أشد[١] وأعظم من الهزيمة .

رواهما ابن مَرْدُويه . وروي عن عمر بن الخطاب نحو ذلك ، وذكر ابن أبي حاتم(٤٣٣) : عن قتادة نحو ذلك أيضًا .

وقال السدي : الغم الأوّل : بسبب ما فاتهم من الغنيمة والفتح ؛ والثاني بإشراف العدو عليهم .

وقال محمد بن إسحاق : ﴿ **فأثابكم غمًّا بغم** ﴾ أي : كربًا بعد كرب ؛ قتل من قتل من إخوانكم ؛ وعُلُوُّ عدوّكم عليكم ؛ وما وقعَ في أنفسكم [من قول من قال : قتل نبيكم][٢] ؛ فكان ذلك [ممَّا تتابع][٣] عليكم غمًّا بغمٍ .

وقال مجاهد وقتادة : الغم الأوّل سماعهم قتل محمد ؛ والثاني ما أصابهم من القتل والجراح . وعن قتادة ، والربيع بن أنس عكسه . وعن السدي : الأوّل ما فاتهم من الظفر والغنيمة والثاني إشراف العدو عليهم . وقد تقدم هذا القول عن السدي .

وقال ابن جرير : وأولىٰ هذه الأقوال بالصواب قول من قال : ﴿ **فأثابكم غمًّا بغمٍ** ﴾

---

(٤٣٢) - جزء من حديث طويل أخرجه أحمد (١/٢٨٧ - ٢٨٨) ، والطبراني في « الكبير » : (١٠/ ١٠٧٣١) ، والبيهقي في « الدلائل » (٣/٢٦٩) وصححه الحاكم (٢/٢٩٦ ، ٢٩٧) ووافقه الذهبي .

(٤٣٣) - تفسير ابن أبي حاتم (٢/رقم ١٦٨٤) وأخرجه ابن جرير (٧/٨٠٨٣) ثنا ابن بشار ، ثنا عبد الرحمن ، ثنا سفيان به ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٩/٩٤٥٢) من طريق عبد الرزاق ، عن الثوري به ، وهذا إسناد حسن ؛ لكلام في عاصم وهو ابن أبي النجود ، وأبو رزين هو مسعود بن مالك ، ورواه الطبراني (٩/٩٤٥١) من طريق قيس بن الربيع ، عن عاصم ، عن زر ، عن عبد الله به ، وقيس بن الربيع سيىء الحفظ ، وذكره الهيثمي في « المجمع » (٦/٣٣١) وقال : « رواه الطبراني ، وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة وغيره ، وضعفه جماعة » ولم يشر الهيثمي لطريق الثوري المتقدم .

---

[١] - سقط من : خ .

[٢] - في خ : « قيل بينكم » .

[٣] - في ت : « متتابعًا » .

فأثابكم بغمكم أيها المؤمنون ؛ بحرمان الله إياكم غنيمة المشركين ، والظفر بهم ، والنصر عليهم ، وما أصابكم من القتل ، والجراح يومئذ ، بعد الذي كان قد أراكم في كل ذلك ما تحبون بمعصيتكم أمر[١] ربكم ، وخلافكم أمر نبيكم ﷺ ، غم ظنكم أن نبيكم قد قتل ، وميل العدو عليكم بعد فلولكم منهم .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **لكيلا تحزنوا علىٰ ما فاتكم** ﴾ أي : علىٰ ما فاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم ، ﴿ **ولا ما أصابكم** ﴾ من [الجراح والقتل] ، قاله ابن عباس ، وعبد الرحمن بن عوف والحسن ، وقتادة ، والسدي ﴿ **والله خبير بما تعملون** ﴾ [سبحانه وبحمده لا إله إلا هو جلَّ وعلا][٢] .

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

يقول تعالىٰ ممتنًا علىٰ عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة ، وهو النعاس الذي غشيهم ، وهم مستلئمو السلاح في حال همهم وغمهم ، والنعاس في مثل تلك الحال دليل علىٰ الأمان[٣] ، كما قال تعالىٰ في سورة الأنفال في قصة بدر ﴿ **إذ يغشيكم**[٤] **النعاس أمنة منه** ﴾ .الآية .

وقال الإمام أبو محمد عبدُ الرحمنِ بن أبي حاتم : حدّثنا أبو سعيد الأشج ، حدّثنا أبو نعيم ووكيع ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن أبي رزين ، عن عبد الله بن مسعود ،

---

[١] - سقط من : خ .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٣] - في خ : « الإيمان » .
[٤] - في خ : « يغشاكم » .

قال : النعاس في القتال من الله ، وفي الصلاة من الشيطان .

وقال البخاري(٤٣٤) : وقال[١] لي خليفة : حدّثنا يزيد بن زريع ، حدّثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أنس ، عن أبي طلحة رضي الله عنه قال : كنت فيمن تغشاه[٢] النعاس يوم أحد ؛ حتى سقط سيفي من يدي مرارًا ، يسقط[٣] وآخذه ويسقط وآخذه .

وهكذا رواه في المغازي معلقًا ، ورواه في كتاب التفسير مسندًا ، عن شيبان ، عن قتادة ، عن أنس ، عن أبي طلحة ، قال : غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد ، قال : فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ، ويسقط وآخذه .

وقد رواه الترمذي [والنسائي ، والحاكم(٤٣٥) من حديث حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس ، عن أبي طلحة ، قال : رفعت رأسي يوم أحد ، وجعلت أنظر ، وما منهم يومئذ أحد إلا يميد تحت حجفته من النعاس . لفظ الترمذي وقال : حسن صحيح .

[ورواه النسائي][٤] أيضًا(٤٣٦) عن محمد بن المثنى ، عن[٥] خالد بن الحارث ، عن قتيبة[٦] ، عن ابن أبي عدي ، كلاهما عن حميد ، عن أنس ؛ قال : قال أبو طلحة : كنت فيمن ألقي عليه النعاس ... الحديث . وقد[٧] رواه عن الزبير(٤٣٧) وعن[٨] عبد الرحمن بن عوف(٤٣٨) رضي الله عنه .

---

(٤٣٤) - صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، باب : ﴿ **ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسًا ...** ﴾ (٤٠٦٨) وأخرجه أيضًا (٤٥٦٢).

(٤٣٥) - أخرجه الترمذى (٣٠٠٧) ، والنسائى كما فى « التحفة » (٣/٣٧٧١) ، والحاكم فى « المستدرك » (٢٩٧/٢) وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

(٤٣٦) - أخرجه النسائى فى « الكبرى » كما فى « التحفة » (٣/٣٧٧١) وكذا أخرجه ابن جرير (٧/ ٨٠٧٤) ثنا ابن بشار قال : حدثنا ابن أبى عدى عن حميد به .

(٤٣٧) - أخرجه عبد بن حميد - كما فى « الدر المنثور » (١٥٥/٢) ، وعنه الترمذى (٣٠٠٧) حدثنا روح ابن عبادة ، عن حماد بن سلمة ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن الزبير مثل حديث أنس السابق ، وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » وكذا أخرجه ابن جرير (٨٠٨٦/٧) من طريقين عن حماد بن سلمة به ، والبيهقى فى « الدلائل » (٢٧٣/٣) .

(٤٣٨) - أخرجه ابن جرير (٨٠٧٩/٧) ، والطبرانى فى « المعجم الكبير » (١/رقم ٢٨٥) وفى =

---

[١] - في خ : « قال » .
[٢] - في خ : « يغشاه » .
[٣] - في خ : « فيسقط » .
[٤] - في خ : « والنسائي » .
[٥] - في خ : « والنسائي عن » .
[٦] - في ت : أبي قتيبة .
[٧] - في ت : « هكذا » .
[٨] - سقط من : م .

وقال البيهقي(٤٣٩) : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرني أبو الحسين محمد بن يعقوب ، أخبرنا محمد بن إسحاق الثقفي ، حدثنا محمد بن عبد الله بن المبارك المخزومي ، حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا شيبان ، عن قتادة ، حدثنا أنس بن مالك ؛ أن أبا طلحة قال : غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد ، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ، ويسقط وآخذه . قال : والطائفة الأخرىٰ المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم أجبن قوم وأرعنه وأخذله للحق ، ﴿ **يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية** ﴾ كَذَبَة ، أهل شك وريب في الله عز وجل (٤٤٠) .

هكذا رواه بهذه الزيادة ، وكأنها من كلام قتادة - رحمه الله - وهو كما قال ؛ فإن الله - عز وجل - يقول : ﴿ **ثُمَّ أنزلَ عليكم من بعدِ الغمِّ أمنة نُعَاسًا يغشىٰ طائفةً منكم** ﴾ . يعني أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق ، وهم الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله ؛ وينجز له مأموله ؛ ولهذا قال : ﴿ **وطائفة قد أهمتهم أنفسهم** ﴾ يعني لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ، ﴿ **يظنون بالله غير الحق ظنّ الجاهلية** ﴾ ، كما قال في الآية الأخرىٰ : ﴿ **بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلىٰ أهليهم أبدًا** ﴾ إلىٰ آخر الآية ، وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة ، وأن الإسلام قد باد وأهله ، وهذا شأن أهل الريب والشك ؛ إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة .

ثم أخبر تعالىٰ عنهم أنهم : ﴿ **يقولون** ﴾ في تلك الحال : ﴿ **هل لنا من الأمر من**

= «الأوسط» (٤١٧٢/٤) ، والبيهقى فى « الدلائل » (٤١٧٢/٤) من طريق أبى نعيم ضرار بن صرد ، ثنا عبد العزيز بن محمد ، عن محمد بن عبد العزيز ، عن ابن شهاب ، عن عبد الرحمن بن المسور ، عن أبيه ، عن عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - فى قوله - عز وجل : ﴿ **ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسًا** ﴾ قال : ألقى علينا النوم يوم أحد ، وقال الطبرانى : « لم يرد هذا الحديث عن الزهرى إلا محمد بن عبد العزيز » وعزاه الهيثمى فى « المجمع » (١٢٠/٦ ، ٣٣١) إلى الطبرانى وقال : « فيه ضرار بن صرد وهو ضعيف » وأخرجه ابن أبى حاتم (١٦٨٢/٢) من طريق يحيى بن عبد الحميد ، ثنا عبد الله بن جعفر المخرمى ، عن أبى عون ، عن المسور بن مخرمة به ، وأبو عون هذا سئل عنه أبو زرعة فقال : « مدينى لا نعرفه » الجرح والتعديل (٤١٤/٩) والخبر زاد نسبته السيوطى (١٥٥/٢) إلى ابن المنذر .

(٤٣٩) - « دلائل النبوة » للبيهقى (٢٧٣/٣ ، ٢٧٤) ، وأخرجه ابن حبان فى « صحيحه » (١٦/رقم ٧١٨٠) أخبرنا محمد بن إسحاق الثقفى ، حدثنا محمد بن عبيد الله بن المنادى ، ثنا يونس بن محمد به . وتقدم (رقم ٤٧٩) من طريق شيبان ، عن قتادة به دون قوله : « والطائفة الأخرى ... » .

(٤٤٠) - تفسير ابن أبى حاتم (١٦٩٧/٢) ومن طريق ابن إسحاق أخرجه ابن جرير (٨٠٩٤/٧ ، ٨٠٩٥) وأبو نعيم والبيهقى فى « دلائل النبوة » (ص ٤٢١) (٢٧٣/٣). وزاد نسبته السيوطى فى «الدر المنثور » (٢/ ١٥٦) إلى إسحاق بن راهوية وعبد بن حميد وابن المنذر .

شيء ؟ ﴾ فقال[١] تعالىٰ : ﴿ **قل إن الأمر كله للّٰه يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك** ﴾ ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله : ﴿ **يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا** ﴾ أي: يسرون هذه المقالة عن رسول اللّٰه ﷺ .

قال محمد بن يسار بن إسحاق : فحدثني يحيىٰ بن عباد بن عبد اللّٰه بن الزبير ، عن أبيه ، عن عبد اللّٰه بن الزبير ؛ قال : قال الزبير : لقد رأيتني مع رسول اللّٰه ﷺ حين اشتدّ الخوف علينا ، أرسل اللّٰه علينا النوم ؛ فما منّا من رجل إلا ذقنه في صدره ، قال : فواللّٰه إني لأسمع قول معتِّب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم يقول[٢] : ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ﴾ فحفظتها منه ، وفي ذلك أنزل اللّٰه : ﴿ **يقولون**[٣] **لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا** ﴾ لقول معتِّب . رواه ابن أبي حاتم .

قال اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلىٰ مضاجعهم** ﴾ ، أي : هذا قدر قدّره[٤] اللّٰه عز وجل وحكم حتم لازم[٥] لا محيد[٦] عنه ولا مناص منه .

وقوله : ﴿ **وليبتلي اللّٰه ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم** ﴾ أي : يختبركم بما جرىٰ عليكم ؛ ليميز[٧] الخبيث من الطيب ، ويظهر أمر المؤمن والمنافق للناس في الأقوال والأفعال ﴿ **واللّٰه عليم بذات الصدور** ﴾ ، أي : بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا** ﴾ ، أي ببعض ذنوبهم السالفة ، كما قال بعض السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ؛ وإن من جزاء السيئة السيئةَ بعدها .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ولقد عفا اللّٰه عنهم** ﴾ أي : عما كان منهم من الفرار ، ﴿ **إن اللّٰه غفور حليم** ﴾ أي : يغفر الذنب ، ويَحْلُمُ عن خلقه ، ويتجاوز عنهم ، وقد تقدم حديث ابن عمر في شأن عثمان رضي الله عنه وتوليه يوم أحد ، وأن اللّٰه قد عفا عنه مع من عفا عنهم عند قوله : ﴿ **ولقد عفا عنكم** ﴾ ومناسب ذكره هاهنا .

---

[١] - في خ : « قال الله » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - في خ : « مقدّر » .
[٥] - سقط من : ت .
[٦] - في خ : « محاد » .
[٧] - في خ : « وليميز » .

قال[١] الإمام أحمد(٤٤١) : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا زائدة[٢] ، عن عاصم ، عن شقيق ، قال : لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة ، فقال له الوليد : مالي أراك جفوت أمير المؤمنين عثمان ، فقال له عبد الرحمن : أبلغه أني لم أفر يوم عينين[٣] ، قال عاصم : يقول يوم أحد ، ولم أتخلف عن بدر ، ولم أترك سنَّة عمر . قال : فانطلق ، فأخبر بذلك عثمان . قال : فقال عثمان : أمّا قوله : إني لم أفرّ يوم عينين ؛ فكيف يعيرني بذنب[٤] ، وقد[٥] عفا اللَّه عنه فقال : ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا اللَّه[٦] عنهم** ﴾ وأما قوله : إني تخلفت يوم بدر ، فإني كنت أمرض رقية بنتَ رسول اللَّه ﷺ حتىٰ ماتت ، وقد ضرب لي رسول اللَّه ﷺ بسهم ، ومن ضرب له رسول اللَّه ﷺ بسهم فقد شهد ، وأما قوله : إني تركت سنة عمر ؛ فإني لا أطيقها ولا هو ، فأته[٧] فحدثه بذلك .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ

(٤٤١) - « المسند » (٦٨/١) (رقم ٤٩٠) وأخرجه عبد اللَّه بن أحمد فى « زوائد المسند » (٧٥/١) حدثنى أبى وأبو خيثمة ، قالا : ثنا معاوية بن عمرو ، به ، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر ، والحديث عند البزار فى « مسنده » (٢/رقم ٣٨٠) من طريق سلام أبى المنذر ، عن على بن زيد ، عن سعيد بن المسيب قال : رفع عثمان صوته على عبد الرحمن بن عوف فقال : ... فذكر الحديث بنحوه ، وقال البزار : وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن سعيد بن المسيب عن عثمان إلا من هذا الوجه ، ولا رواه عن على بن زيد إلا سلام أبو المنذر . وعاصم هو ابن بهدلة حسن الحديث ، والحديث ذكره الهيثمى فى « المجمع » (٢٢٩/٧) و (٨٦/٩، ٨٧) وقال : « رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى باختصار ، والبزار بطوله بنحوه ، وفيه عاصم ابن أبى النجود ، وهو حسن الحديث ، وبقية رجاله ثقات »

وعلى بن زيد هو ابن جدعان سيىء الحفظ جدًّا ، والخبر اكتفى السيوطى (١٥٧/٢) بعزوه إلى أحمد وابن المنذر !! .

[١] - في خ : « وقال » .
[٢] - في خ : « زيادة » .
[٣] - في خ : « عنين » .
[٤] - في خ : « بذلك » .
[٥] - في ت : « ولقد » .
[٦] - سقط من : خ .
[٧] - في ت : « فأتاه » .

قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

ينهىٰ تعالىٰ عبادَهُ المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد ، الدال عليه قولهم عن[١] إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب : لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم** ﴾ أي : عن إخوانهم ، ﴿ **إذا ضربوا في الأرض** ﴾ ، أي : سافروا للتجارة ونحوها ﴿ **أو كانوا غُزًى** ﴾ ، أي : كانوا[٢] في الغزو : ﴿ **لو كانوا عندنا** ﴾ أي : في البلد ، ﴿ **ما ماتوا وما قتلوا** ﴾ أي : ما ماتوا في السفر ، وما قتلوا في الغزو .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم** ﴾ أي : خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ؛ ليزدادوا حسرة علىٰ [موتاهم وقتلاهم][٣] . ثم قال تعالىٰ ردًّا عليهم : ﴿ **والله يحيي ويميت** ﴾ أي : بيده الخلق ، وإليه يرجع الأمر ، ولا يحيا أحد ولا يموت أحد إلا بمشيئته وقدره ، ولا يزاد في عمر أحد ولا ينقص منه شيء[٤] إلا بقضائه وقدره : ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ ، أي : علمه وبصره نافذ في جميع خلقه ؛ لا يخفىٰ عليه من أمورهم شيء .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون** ﴾ تضمن هذا أن القتل في سبيل الله والموت أيضًا وسيلة إلىٰ نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه ، وذلك خير من البقاء في الدنيا ، وجميع حطامها الفاني .

ثم أخبر تعالىٰ بأن كل من مات أو قتل ، فمصيره ومرجعه إلىٰ الله عز وجل فيجزيه بعمله : إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر . فقال تعالىٰ : ﴿ **ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون** ﴾ .

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ

---

[١] - في ت : « على » .

[٢] - سقط من : خ .

[٣] - في خ : « موتهم وقتلهم » .

[٤] - سقط من : خ .

أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ
جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ
﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

يقول تعالىٰ مخاطبًا رسوله ﷺ ممتنًّا عليه وعلىٰ المؤمنين فيما ألان به قلبه علىٰ أمته المتبعين لأمره ، التاركين لزجره ، وأطاب لهم لفظه ، ﴿ **فبما رحمةٍ من اللَّه لنت لهم** ﴾ ، أي : أي شيء جعلك اللَّه لهم ليِّنًا لولا رحمةُ اللَّه بك وبهم .

وقال قتادة : ﴿ **فبما رحمة من اللَّه لنت لهم** ﴾ يقول : فبرحمة من اللَّه لنت لهم ، « **وما** » صلة ، والعرب تصلها بالمعرفة كقوله : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم** ﴾ ، وبالنكرة كقوله : ﴿ **عما قليلٍ** ﴾ ، وهكذا هاهنا قال[١] : ﴿ **فبما رحمة من اللَّه لنت لهم** ﴾ أي : برحمة من اللَّه .

وقال الحسن البصري : هذا خلق محمد ﷺ بعثه اللَّه به .

وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالىٰ : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾ .

وقال الإمام أحمد(٤٤٢) : حدّثنا حَيْوَة ، حدثنا [بقية ، حدثنا][٢] محمد بن زياد ،

(٤٤٢) - « المسند » (٢٦٧/٥) وهذا إسناد صحيح ، وبقية - وهو ابن الوليد - إنما يخشى من عنعنته ، وهو هنا صرح بالتحديث ، وقد أخرجه ابن عدى فى « الكامل » (٥٠٤/٢ ، ٥٠٩) من طريق أبى مسهر عبدالأعلى بن مسهر ، ثنا بقية ، به ، غير أنه قال « يلين له قلبى » مكان « يلين لى قلبه » وقال ابن عدى : «وهذا الحديث لا أعرفه إلا ببقية » وهو ثقة إذا صرح بالتحديث ، وروى عن مشايخ له معروفين ، وعبد الأعلى بن مسهر ثقة حافظ ، وقد رواه عن بقية بلفظ عبد الأعلى ، المُعلى بن الوليد القعقاعى عند الطبرانى فى « المعجم الكبير » (٧٤٩٩/٨) ، وأحمد بن الفرج عند ابن عساكر فى « تاريخ دمشق » (٢/٢٣/١٩) - كما فى « الصحيحة » للألبانى (١٠٩٥/٣) - وأعل الألبانى هذا اللفظ لضعف أحمد بن الفرج ، وهو =

[١] - سقط من : خ .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

حدثني أبو راشد الحُبراني[١] ؛ قال : أخذ بيدي أبو أمامة الباهلي ، وقال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : « **يا أبا أمامة ؛ إن من المؤمنين من يلين [لي قلبه]**[٢] » . تفرد[٣] به أحمد .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ والفظ : الغليظ ، والمراد[٤] به هاهنا غليظ الكلام ؛ لقوله بعد ذلك : ﴿ **غليظ القلب**[٥] ﴾ أي : لو كنت سيىء الخُلق[٦] قاسي القلب عليهم ؛ لانفضوا عنك وتركوك ، ولكن الله جمعهم عليك ، وألان جانبك لهم تأليفًا لقلوبهم . كما قال عبد الله بن عمرو (٤٤٣) : إنه رأى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة أنه ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا سخّاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح .

وروى أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذي (٤٤٤) : أنبأنا بشر بن عبيد الداري[٧] ، حدثنا عمار بن عبد الرحمن ، عن المسعودي ، عن ابن أبي مليكة ، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله أمرني بمداراة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض** » . حديث غريب .

= متابع عليه كما رأيت . وأخرجه ابن عساكر أيضًا (٢٩٧/٨/مخطوط) من طريق مسيب بن واضح نا بقية ، عن محمد بن دينار ، عن أبى راشد به ، بلفظ عبد الأعلى ، لكن المسيب بن واضح هذا تركه العقيلى والدارقطنى ، وكان النسائى حسن الرأى فيه ، وقال أبو حاتم : « صدوق يخطئ كثيرًا » ولا شك أنه أخطأ هنا فى إسناده لمخالفته الثقات والله أعلم ، والحديث ذكره الهيثمى فى موضعين من « المجمع » (٦٨/١) وقال فيه : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » (٢٧٩/١٠) وقال : « رواه الطبرانى ورجاله وثقوا».

(٤٤٣) - يأتي تخريجه سورة الأعراف / آية ١٥٧ .

(٤٤٤) - وكذا رواه ابن عدى فى « الكامل » (٤٤٧/٢) وابن مردويه فى « ثلاثة مجالس من الأمالى » (١/١٩٢) ، وأبو مطيع المصرى فى « الأمالى » أيضًا (٢/٢٣/١) والديلمى (٣٢٠/٢/١) - كما فى «الضعيفة » للألبانى (٨١٠/٢) - كلهم من طريق بشر بن عبيد به ، وعزاه السيوطى فى « الدر المنثور » (٢/ ١٥٩) إلى الحكيم الترمذى وابن عدى بسند فيه متروك وهو يعنى بذلك بشر بن عبيد هذا ، فقد قال فيه ابن عدى : « منكر الحديث عن الأئمة ،... هو بين الضعف أيضًا ، ولم أجد للمتقدمين فيه كلامًا ، وهو إذا روى إنما يروى عن ضعيف مثله أو مجهول أو محتمل أو يروى عمن يرويه أمثالهم » وكذبه الأزدى ، وساق له الذهبى فى « الميزان » أحاديث هذا منها ثم عقبها بقوله : « وهذه الأحاديث غير صحيحة ، والله المستعان » ومع هذا فقد ذكره ابن حبان فى « الثقات » (١٤١/٨) !! .

---

[١] - في خ : « الحراني » .
[٢] - في خ : « له قلبي » .
[٣] - في خ : « انفرد » .
[٤] - في ت : « المراد » .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - في ت : « الكلام » .
[٧] - سقط من : ت .

ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾ ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث ، تطييبًا لقلوبهم [ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه][١] ، كما[٢] شاورهم يوم بدر في الذهاب إلىٰ العير فقالوا : يا رسول الله ؛ لو استعرضت بنا عُرْضَ البحر لقطعناه معك ، ولو سرت بنا إلىٰ بَرْكِ الغِمَاد(*) ؛ لسرنا[٣] معك ، ولا نقول لك كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا هاهنا قاعدون ، ولكن نقول[٤] : اذهب فنحن معك ، وبين يديك ، وعن يمينك ، وعن[٥] شمالك مقاتلون[٦] (٤٤٥) . وشاوَرَهم أيضًا أين يكون المنزل ؟ حتىٰ أشار المنذر بن عمرو المعنق ليموت[٧] بالتقدم[٨] أمام القوم . وشاورهم في أحد : في[٩] أن يقعد في المدينة ، أو يخرج [إلىٰ العدو][١٠] ، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم ، فخرج إليهم(٤٤٦) . وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ ؛ فأبىٰ ذلك عليه السعدان : سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، فترك ذلك . وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل علىٰ ذراري المشركين ؟ فقال له الصديق : إنا لم نجيء لقتال أحد[١١] ، وإنما جئنا معتمرين ، فأجابه إلىٰ ما قال .

وقال ﷺ في قصة الإفك (٤٤٧) : « **أشيروا علي معشر المسلمين في قوم أبنوا(*) أهلي ورموهم ، [وايم الله ما علمت علىٰ أهلي من سوء ، وأبنوهم][١٢] بمن ؟ والله ما علمت عليه إلا خيرًا** » . واستشار عليًا وأسامة في فراق عائشة رضي الله عنها .

فكان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ، وقد اختلف الفقهاء : هل كان ذلك[١٣] واجبًا عليه ، أو من باب الندب تطييبًا لقلوبهم ؟ علىٰ قولين .

---

(٤٤٥) - قائل ذلك هو المقداد بن عمرو أخرج ذلك البخارى (٣٩٥٢) والنسائى فى « التفسير » من «الكبرى» (٦/١١٤٠) ، وأحمد (١/٣٩٠ ، ٤٢٨) من حديث عبد الله بن مسعود .

(٤٤٦) - انظر ما تقدم عند آية رقم (١٢١) .

(٤٤٧) - يأتى تخريج قصة الإفك فى سورة النور .

---

[١] - في خ : « ليكونوا ما يفعلونه أنشط لهم » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في خ : « لسرناه » .
[٤] - سقط من : خ .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - سقط من : خ .
[٧] - في خ : « للموت » .
[٨] - في خ : « بالتقدم إلى » .
[٩] - سقط من ت .
[١٠] - في خ : « إليهم » .
[١١] - سقط من ت .
[١٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[١٣] - سقط من ت .

وقد قال الحاكم في مستدركه(٤٤٨) : حدثنا أبو جعفر محمد بن محمد البغدادي ، حدثنا يحيىٰ بن أيوب العلاف بمصر ، حدثنا سعيد بن أبي مريم ، أنبأنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار ، عن ابن عباس في قوله تعالىٰ : ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾ قال : أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

وكذا[١] رواه الكلبي ، عن أبي صالح عن ابن عباس قال : نزلت في أبي بكر وعمر ، وكانا حواريَّي رسول الله ﷺ و وزيريه[٢] وأبوي المسلمين .

وقد روىٰ الإمام أحمد(٤٤٩) : حدثنا وكيع ، حدثنا عبد الحميد ، عن شهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن بن غنم[٣] ، أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما : « **لواجتمعتما في مشورة ما خالفتكما** » .

وروىٰ ابن مردُويه(٤٥٠) ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سُئل رسول الله ﷺ عن العزم ؟ فقال[٤] : « **مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم** » .

وقد[٥] قال ابن ماجة (٤٥١) : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا يحيىٰ بن أبي بكير[٦] ، عن

(٤٤٨) - « المستدرك » (٧٠/٣) وقال : « حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي وهو كما قالا .

(٤٤٩) - « المسند » (٢٢٧/٤) وذكره الهيثمى فى « المجمع » (٥٦/٩) وقال : « رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أن ابن غنم لم يسمع من النبى ﷺ » ، قال العلائى فى « جامع التحصيل » (ص ٢٢٥) : « عبد الرحمن بن غنم الأشعرى ، قال أحمد بن حنبل : أدرك النبى ﷺ ولم يسمع منه . قلت - الحافظ العلائى - : ولا رؤية له أيضًا بل كان مسلمًا باليمن فى حياة النبى ﷺ ولم يفد عليه ولزم معاذ بن جبل . وهو من كبار التابعين فحديثه مرسل ، وقد قيل : إن له صحبة ، وذلك ضعيف والله أعلم » والحديث لم يعزه السيوطى فى « الدر المنثور » (١٦٠/٢) لغير أحمد .

(٤٥٠) - ذكره السيوطى فى « الدر المنثور » (١٦٠/٢) ولم يعزه لغير ابن مردويه !! .

(٤٥١) - سنن ابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب المستشار مؤتمن (٣٧٤٥) ، وأخرجه أبو داود ، كتاب الأدب ، باب في المشورة (٥١٢٨) ، والترمذى كتاب الزهد ، باب ما جاء فى معيشة أصحاب النبى ﷺ (٢٣٦٩) مطولاً ، وكتاب الأدب ، باب : إن المستشار مؤتمن (٢٨٢٢) مختصرًا ، من طريق شيبان به. وأخرجه النسائى فى « التفسير » من « الكبرى » (١١٦٩٧/٦) من طريق أبى حمزة ، عن عبد الملك بن عمير به مختصرًا ، وقال الترمذى عقب الموضع الأول : « حديث حسن صحيح غريب » وقال =

[١] - بياض في خ .
[٢] - في خ : « وزيره » .
[٣] - في خ : « عنيم » .
[٤] - في خ : « قال » .
[٥] - في خ : بياض .
[٦] - في خ : « بكر » .

شيبان[١] ، [عن عبد الملك بن عمير ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « **المستشار مؤتمن** » .

ورواه أبو داود والترمذي ، وحسَّنه النسائي من حديث عبد الملك][٢] بأبسط [من هذا][٣] .

ثم قال ابن ماجة (٤٥٢) : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا أسود بن عامر ، عن شريك ، عن الأعمش ، عن أبي عمرو[٤] الشيباني ، عن أبي مسعود قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **المستشار مؤتمن** » . [تفرد به][٥] .

و[قال أيضًا][٦] (٤٥٣) : حدثنا أبو بكر ، حدثنا يحيىٰ بن زكريا بن أبي زائدة ، وعلي[٧] بن هاشم ، عن ابن أبي ليلىٰ ، عن أبي الزبير عن جابر ، قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه** » . تفرد به أيضًا .

= عقب الثاني : « حديث حسن » ، وصححه الحاكم (١٣١/٤) على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وأصل الحديث عند مسلم ، كتاب الأشربة ، حديث ١٤٠ - (٢٠٣٨) .

(٤٥٢) - سنن ابن ماجه كتاب الأدب ، باب المستشار مؤتمن (٣٧٤٦) ، وأخرجه ابن حبان (١٩٩١/٦/ موارد) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (١٧/رقم٦٣٨) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة به ، وأخرجه أحمد (٢٧٤/٥) وعبد بن حميد في « المنتخب » (٢٣٥) ، والدارمي في « السنن » (٢٤٥٢/٢) والحاكم في « المستدرك » كما في زوائد البوصيري (١٨٢/٣) ومن طريقه البيهقي في « السنن الكبرى » (١٠/ ١١٢) من طريق الأسود بن عامر به ، وأخرجه الطبراني أيضًا من طريق عبد الحميد بن بحر ، وطلق بن غنام ، ثنا شريك به ، وقال البوصيري : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات ، وأبو عمرو الشيباني اسمه سعد ابن إياس .. كذا قال !! وشريك هو ابن عبد اللَّه القاضي ، سيىء الحفظ جدًّا ، وقد أعل الحديث به أبو حاتم في « العلل » (٢٤٧/٢) (رقم ٢٣١٩) ، فقال ابنه : « سألت أبي عن حديث رواه الأسود بن عامر عن شريك ، عن الأعمش ، عن أبي عمرو الشيباني ، عن أبي مسعود - تحرف إلى ابن مسعود - عن النبي - ﷺ قال : « المستشار مؤتمن » قال أبي : هذا خطأ ، إنما أراد « الدال على الخير كفاعله » قلت : الخطأ ممن هو ؟ قال : من شريك » وقال أيضًا : « العلل » (٣٢٢/٢) (رقم ٢٤٨٥) : « سألت أبي عن حديث رواه سهل بن عثمان ، عن غالب ، عن شريك ، عن الأعمش ... الحديث : « قال أبي : وهم فيه غالب إنما هو عن أبي مسعود عن النبي ﷺ « **الدال على الخير كفاعله** » .

(٤٥٣) - سنن ابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب المستشار مؤتمن (٣٧٤٧) وهذا إسناد ضعيف وله =

[١] - في خ : « سفيان » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٣] - في خ : « منه » .
[٤] - في خ : « عمر » .
[٥] - في خ : « تفرد به أحمد » .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٧] - في خ : « عن » .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **فإذا عزمت فتوكل علىٰ الله** ﴾ أي إذا شاورتهم في الأمر ، وعزمت عليه فتوكل علىٰ الله فيه ﴿ **إن الله يحب المتوكلين** ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذُلْكُم فمن ذا الذي ينصركم من بعده** ﴾ وهذه الآية كما تقدم من قوله : ﴿ **وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم** ﴾ . ثم أمرهم بالتوكل عليه ، فقال : ﴿ **وعلىٰ الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **وما كان لنبي أن يَغُل** ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وغير واحد : ما ينبغي لنبي أن يخون .

وقال ابن أبي حاتم (٤٥٤) : حدثنا أبي ، حدثنا المسيب بن واضح ، حدثنا أبو إسحاق الفزاري ، عن [سفيان ، عن][١] خصيف ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : فقدوا قطيفة يوم بدر فقالوا : لعل رسول الله ﷺ أخذها ، فأنزل الله : ﴿ **وما كان لنبي أن يَغُل** ﴾ [أي : يخون][٢] .

وقال ابن جرير(٤٥٥) : حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب : حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا خصيف ، حدثنا مقسم ، حدثني ابن عباس ، أن هذه الآية : ﴿ **وما كان لنبي أن يغل** ﴾ نزلت[٣] في قطيفة حمراء فُقِدَتْ يوم بدر ؛ فقال بعض الناس : [لعل رسول الله][٤] أخذها ، فأكثروا في ذلك ؛ فأنزل الله : ﴿ **وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة** ﴾ . وكذا رواه أبو داود رحمه الله تعالى والترمذي جميعًا ، عن قتيبة ، عن عبد الواحد ابن زياد به وقال الترمذي : حسن غريب . ورواه[٥] بعضهم عن خصيف عن مقسم يعني

= علتان، الأولى : عنعنة أبى الزبير ، فإنه كان مدلسًا ، والأخرى : ضعف ابن أبى ليلى ، وهو محمد بن عبد الرحمن القاضى .

(٤٥٤) - تفسير ابن أبى حاتم (١٧٦٠/٢) .

(٤٥٥) - تفسير ابن جرير (٨١٣٦/٧) وأخرجه أبو داود ، فاتحة كتاب الحروف والقراءات (٣٩٧١) ، والترمذى ، كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة آل عمران (٣٠٠٩) كلاهما (أبو داود والترمذى) ثنا قتيبة بن سعيد به ، وأخرجه ابن جرير أيضًا (٨١٣٨/٧) من طريق عتاب بن بشير ، عن خصيف به ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن غريب ، وقد روى عبد السلام بن حرب عن خصيف نحو هذا ، وروى بعضهم هذا الحديث عن خصيف عن مقسم ، ولم يذكر فيه ابن عباس » .

[١] - في خ : « شقيق » .

[٢] - سقط من : خ .

[٣] - مكانها في خ : قبل الآية .

[٤] - زيادة من : خ .

[٥] - في خ : « رواه » .

مرسلًا .

ورواه ابن مردُويه من طريق أبي عمرو بن العلاء ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : اتهم المنافقون رسول الله ﷺ بشيء فُقِدَ ، فأنزل الله تعالىٰ[١] : ﴿ **وما كان لنبي أن يغل** ﴾ .

وقد روي من غير وجه(٤٥٦) ، عن ابن عباس نحو ما تقدّم ، وهذا [تنزيه و][٢] تبرئة له ، صلوات الله وسلامه عليه ، عن[٣] جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك .

وروى[٤] العوفي عن ابن عباس : ﴿ **وما كان لنبي أن يغل** ﴾ أي : بأن يقسم لبعض السرايا ويترك بعضًا . وكذا قال الضحاك .

وقال محمد بن إسحاق : ﴿ **وما كان لنبي أن يغل** ﴾ بأن يترك بعض ما أنزل عليه[٥] فلا يبلغه لأمّته[٦] .

وقرأ الحسن البصري ، وطاووس ، ومجاهد ، والضحاك : ﴿ **وما كان لنبي أن يُغَلَّ** ﴾ [بضم الياء][٧] أي : يخان .

وقال قتادة ، والربيع بن أنس : نزلت هذه الآية يوم بدر ، وقد غل بعض أصحابه ، رواه ابن جرير عنهما(٤٥٧) ، ثم حكىٰ عن[٨] بعضهم أنه فسر[٩] هذه القراءة بمعنىٰ يتهم بالخيانة .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ومن يَغْلُل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، وقد وردت السنة بالنهي عن ذلك أيضًا في أحاديث متعدّدة .

قال الإمام أحمد(٤٥٨) : حدثنا عبد الملك ، حدثنا زهير - يعني ابن محمد - عن عبد الله

(٤٥٦) - أخرجه ابن جرير (٨١٣٩/٧) والطبراني في « المعجم الكبير » (١٢٠٢٨/١١ ، ١٢٠٢٩) من طرق عن خصيف ، عن عكرمة ، عن ابن عباس به .

(٤٥٧) - تفسير ابن جرير (٨١٥٢/٧ ، ٨١٥٣ ، ٨١٥٤) .

(٤٥٨) - « المسند » (١٤٠/٤) ، (٣٤١/٥) وأخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (٣/رقم ٣٤٦٣)=

[١] - في خ : « عز وجل » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في ت : « من » .
[٤] - في ت : « وقال » .
[٥] - في ت : « إليه » .
[٦] - في ت : « أمته » .
[٧] - سقط من : خ .
[٨] - سقط من : ت .
[٩] - في خ : « قرأ » .

ابن محمد بن عقيل ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي مالك الأشجعي ، عن النبي ﷺ ، قال[١] : « **أعظم الغلول عند الله ذراع من أرض**[٢] ، **تجدون**[٣] **الرجلين جارين في الأرض- أو في الدار- فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعًا ، فإذا اقتطعه طُوِّقه من سبع أرضين [إلىٰ يوم القيامة]**[٤] » .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد (٤٥٩) : حدثنا موسىٰ بن داود[٥] ، حدثنا ابن لهيعة ، عن ابن هبيرة والحارث بن يزيد ، عن عبد الرحمن بن جبير ، قال : سمعت المستورد[٦] بن شدّاد يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من ولي لنا عملًا وليس له منزل فليتخذ منزلًا ، أو ليست له زوجة فليتزوج ، أو ليس له**[٧] **خادم فليتخذ له خادمًا ، أو ليس**[٨] **له دابة فليتخذ دابة ، و**[٩] **من أصاب شيئًا سوىٰ ذلك فهو غال** » .

هكذا رواه الإمام أحمد ، وقد رواه أبو داود بسند آخر وسياق آخر فقال (٤٦٠) : حدثنا موسىٰ ابن مروان الرقي ، حدثنا المعافى ، حدثنا الأوزاعي ، عن الحارث بن يزيد ، عن جبير بن نفير ، عن المستورد بن شدّاد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من كان لنا عاملًا فليكتسب زوجة ؛**

= ثنا حفص الرقى ، ثنا أبو حنيفة ، ثنا زهير به ، غير أنه سمى صحابيه « أبو مالك الأشعرى » . وأخرجه ابن أبى شيبة - كما فى « المطالب العالية المسندة » (٤/رقم ١٥٧٤) ، وأحمد (٥/٣٤٤) ، والطبرانى من طرق عن شريك عن عبد الله بن محمد بن عقيل به . وحسن إسناده الحافظ ابن حجر فى « الفتح » (٥/١٠٥) ومن قبله شيخه الهيثمى فى « المجمع » (٤/١٧٨) وكذا حسنه المنذرى فى « الترغيب والترهيب » (٣/١٦).

(٤٥٩) - « المسند » (٤/٢٢٩) وأخرجه أيضًا : ثنا يحيى بن إسحاق ، قال : حدثنا ابن لهيعة به ، وأخرجه أيضًا ثنا حسن بن موسى ، والطبرانى فى « المعجم الكبير » (٢٠/رقم ٧٢٥) من طريق القعنبى كلاهما (حسن والقعنبى) ثنا ابن لهيعة به ليس فيه ابن هبيرة ، وأخرجه أحمد أيضًا (٤/٢٢٩) ثنا حسن ، والطبرانى (٢٠/٧٢٦) من طريق أسد بن موسى كلاهما (حسن وأسد) ثنا ابن لهيعة به وليس فيه الحارث ابن يزيد وانظر ما بعده .

(٤٦٠) - سنن أبى داود كتاب الخراج والإمارة والفىء باب فى أرزاق العمال (٢٩٤٥) ومن طريقه البيهقى فى « السنن الكبرى » (٦/٣٥٥) وأخرجه الطبرانى فى « المعجم الكبير » (٢٠/٧٢٧) ثنا جعفر بن =

---

[١] - سقط من : خ .
[٢] - في ت : « الأرض » .
[٣] - في خ : « يجدون » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٥] - سقط من : ت .
[٦] - في خ : « المستور » .
[٧] - سقط من : خ .
[٨] - في خ : « ليست » .
[٩] - سقط من : خ .

فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادمًا ، فإن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكنًا » . قال : قال أبو بكر : أخبرت أن النبي ﷺ قال : « **من اتخذ غير ذلك فهو غالٍ أو سارق** » .

قال شيخنا الحافظ المزي رحمه الله : رواه أبو[١] جعفر بن محمد الفريابي ، عن موسىٰ بن مروان فقال : عن عبدالرحمن بن جبير بن نفير ، وهو أشبه بالصواب .

(حديث آخر) قال ابن جرير(٤٦١) : حدثنا أبو كريب ، حدثنا حفص بن بشر ، حدثنا يعقوب القمي ، حدثنا حفص بن حميد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « **لا أعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء**(*) ، **ينادي**[٢] : **يا محمد ، يا محمد ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئًا ، قد بلغتك . ولا أعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة**

= محمد الفريابي ، ثنا موسي بن مرزوق - كذا وصوابه مروان كما هنا - الرقي ، ثنا المعافى به غير أنه قال : « عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن المستورد بن شداد » وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٢٣٧٠/٤) ثنا يحيى بن مخلد ، والحاكم فى « المستدرك » (٤٠٦/١) - وعنه البيهقى - وأبو نعيم فى « الحلية » (٨/ ٢٩١) من طريق محمد بن عبد الله بن عمار ، كلاهما (يحيى ومحمد) ثنا المعافى بن عمران عن الأوزاعى حدثنى الحارث بن يزيد عن عبد الرحمن بن جبير به ، وقال أبو نعيم : « تفرد به الحارث عن عبد الرحمن ، كذا قال ، وتابعه ابن هبيرة كما فى السابق . وقال الحاكم : « حديث صحيح على شرط البخارى » ووافقه الذهبى ، لكن أعله أبو حاتم الرازى - كما فى « العلل » (١/رقم ٦٣٦ . ١٢٣١) لابنه قال : « سألت أبى عن حديث رواه ابن وهب عن ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن عبد الرحمن بن جبير ... الحديث » . قال : « قال أبى : هذا خطأ إنما هو على ما رواه الليث عن الحارث بن يزيد عن رجل عن المستورد عن النبى ﷺ فقلت لأبى : للمستورد صحبة ، قال : نعم » وقد مال البغوى إلى تضعيفه ، فعلقه بصيغة التمريض فى « شرح السنة » (٨٦/١٠) ، وقول المزى المنقول هنا هو « تحفة الأشراف » (٣٧٧/٨ ، ٣٧٨) ، وقال الحافظ ابن حجر فى « النكت الظراف » ، رواه أحمد من طريق ابن لهيعة ، عن ابن هبيرة والحارث بن يزيد ، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، فيحتمل أن يكون فى أصل أبى داود عن « ابن جبير بن نفير » فسقطت « ابن » ثم وجدت الحديث فى « تاريخ ابن يونس » أخرجه عن النسائى ، عن يحيى بن مخلد ، عن موسى بن مروان بسند أبى داود ، لكن قال فيه « عن عبد الرحمن بن جبير » حسب ، كذلك ساقه النسائى فى « كتاب الجهاد » (٤) من رواية ابن الأحمر ، وهو مما أغفله المزى فيستدرك كنظائره ، وعلى هذا فذكر « نفير » فى هذا الإسناد غلط ممن ذكره ، فإن الذى جده نفير شامى ، وصاحب هذا الحديث مصرى ، والمستورد أيضا مصرى » .

(٤٦١) - تفسير ابن جرير (٨١٥٨/٧) ورجاله كلهم من رجال « التهذيب » غير حفص بن بشر ، لم يترجم له إلا ابن أبى حاتم فى « الجرح والتعديل » (١٧٠/٣) ولم يزد علي قوله : « روى عن يعقوب القمى ، روى عنه أبو كريب » .

(*) الثغاء : صياح الشاة .

---

[١] - سقط من : خ .

[٢] - في خ : « فينادى » .

يحمل جملًا له رغاء(*) **، يقول**[١] **: يا محمد ، يا محمد ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئًا ، قد بلغتك . ولا أعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرسًا له حمحمة**(**) **، ينادي : يا محمد ؛ يا محمد ؛ فأقول : لا أملك لك من الله شيئًا ، قد بلغتك ، و**[٢] **لا أعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل قشعًا**[٣](***) **من أدم ، ينادي : يا محمد ؛ يا محمد ؛ فأقول : لا أملك لك من الله شيئًا ، قد بلغتك** » . لم يروه أحد من أصحاب[٤] الكتب الستة .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد(٤٦٢) : حدثنا سفيان ، عن الزهري سمع[٥] عروة يقول : أخبرنا أبو حميد الساعدي ، قال : استعمل رسول الله ﷺ رجلًا من الأزد ، يقال له : ابن اللتبية ، علىٰ الصدقة ، فجاء[٦] فقال : هذا لكم ، وهذا أهدي لي ، فقام رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، [علىٰ المنبر][٧] فقال : « **ما بال العامل نبعثه فيجيء**[٨] **فيقول : هذا لكم ، وهذا أهدي لي ، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدىٰ إليه أم لا ؟ والذي نفسُ محمد بيده لا يأتي أحدكم منكم**[٩] **منها بشيء إلا جاء به**[١٠] **يوم القيامة علىٰ رقبته ، إن كان بعيرًا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تَيْعرُ**(****) » ، ثم رفع يديه حتىٰ رأينا عفرة إبطيه : ثم قال : « **اللَّهم ، هل بلغت** » . ثلاثًا . وزاد هشام بن عروة ، فقال أبو حميد : بصر عيني ، وسمع أذني ، واسألوا زيد بن ثابت .

(*) - الرغاء : صوت الإبل .

(**) - حمم الفرس : صات صوتًا دون العالي .

(***) - القشع : الفرو الخلق .

(٤٦٢) - « المسند » (٥/٤٢٣) وأخرجه البخارى كتاب الهبة ، باب : من لم يقبل الهدية لعِلَّة (٢٥٩٧) وكتاب الأحكام ، باب : هدايا العمال (٧١٧٤) ، ومسلم كتاب الإمارة باب تحريم هدايا العمال (٢٦) (١٨٣٢) ، وأبو داود كتاب الخراج والإمارة والفيء ، باب فى هدايا العمال (٢٩٤٦) من طرق عن سفيان وهو ابن عيينة به ، وأخرجه البخارى في كتاب الزكاة ، باب : قول الله تعالى ﴿ والعاملين عليها ﴾ (١٥٠٠) وانظر أطرافه رقم (٩٢٥) ، ومسلم (٢٧ ، ٢٨) (١٨٣٢) من طرق عن هشام بن عروة عن أبيه به .

(****) أي تصيح . واليعار : صوت الشاة . شرح مسلم (١٣/٣٠٣) .

---

[١] - في خ : « ويقول » .

[٢] - سقط من : خ .

[٣] - في خ : « وقال » .

[٤] - في ت : « أهل » .

[٥] - في ت : سمع عن » .

[٦] - في ت : « فجاءه » .

[٧] - سقط من : خ .

[٨] - سقط من : خ .

[٩] - سقط من : ت .

[١٠] - سقط من : خ .

أخرجاه من حديث سفيان بن عيينة ؛ وعند البخاري : وسلوا زيد بن ثابت ، ومن غير وجه عن الزهري ؛ ومن طرق عن هشام بن عروة ؛ كلاهما عن عروة به .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد(٤٦٣) : حدثنا إسحاق بن عيسىٰ ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن يحيىٰ بن سعيد ، عن عروة بن الزبير ، عن أبي حميد أن رسول اللّٰه ، ﷺ ، قال : « **هدايا العمال غلول** » .

وهذا الحديث من أفراد أحمد ، وهو ضعيف الإسناد وكأنه مختصر من الذي قبله واللّٰه أعلم .

(حديث آخر) قال أبو عيسىٰ الترمذي في كتاب الأحكام (٤٦٤) : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو أسامة ، عن داود بن يزيد الأودي ، عن المغيرة بن شبل ، عن قيس بن أبي حازم ، عن معاذ ابن جبل قال : بعثني رسول اللّٰه ﷺ إلىٰ اليمن ، فلما سرت ، أرسل في أثري فرددت ، فقال : « **أتدري لما بعثت إليك ؟ لا تصيبن شيئًا بغير إذني فإنه غلول ، ﴿ ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة ﴾ لهذا دعوتك ، فامض لعملك** » .

هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ؛ وفي الباب عن عدي بن عميرة وبريدة ، والمستورد بن شداد ، وأبي حميد ، وابن عمر .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد(٤٦٥) : حدثنا إسماعيل بن علية ، حدثنا أبو حيان يحيىٰ

(٤٦٣) - « المسند » (٥/٤٢٤) وأخرجه البزار في « مسنده » (٩/٣٧٢٣) وابن عدى فى « الكامل » (١/ ٢٩٥) ومن طريقه البيهقى فى « السنن الكبرى » (١٠/١٣٨) من طرق عن إسماعيل بن عياش به ، وقال البزار : « وهذا الحديث رواه إسماعيل بن عياش واختصره وأخطأ فيه ، وإنما هو عن الزهرى عن عروة عن أبى حميد أن النبى ﷺ بعث رجلاً على الصدقة » يعنى السابق - وقال ابن عدى : « ولا يحدث هذا الحديث عن يحيى غير ابن عياش » وهو ثقة فى روايته عن الشاميين ، ضعيف فى غيرهم ، وهذا منها فإن يحيى بن سعيد حجازى مدنى ، وبذلك أعله الهيثمى فى « المجمع » (٤/١٥٤ ، ٢٠٣) ، (٥/٢٥٢) وكذا ضعف إسناده الحافظ ابن حجر فى « الفتح » (٥/٢٢١) وفى « تلخيص الحبير » (٤/٢٠٨) وللحديث طرق أخرى يحتمل معها التحسين ، انظر « إرواء الغليل » للألبانى (٨/٢٦٢٢) .

(٤٦٤) - جامع الترمذى ، كتاب الأحكام ، باب ما جاء فى هدايا الأمراء (١٣٣٥) ، وقال : « حديث معاذٍ ، حديث غريب . لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبى أسامة عن داود الأودى » قلت : وداود وهو ابن يزيد بن عبد الرحمن الأودى ، ضعفه أحمد وابن معين وأبو داود ، وقال النسائى : « ليس بثقة » وقال أبو حاتم : « ليس بقوى ، يتكلمون فيه » واستنكر له ابن عدى فى « الكامل » (٢/٩٤٨) هذا الحديث بعينه . والحديث ذكره السيوطى فى « الدر المنثور » (٢/١٦٣) ولم يعزه لغير الترمذى .

(٤٦٥) - « المسند » (٢/٤٢٦) وأخرجه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب الغُلول (٣٠٧٣) ، ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب غلظ تحريم الغلول (٢٤) (١٨٣١) من طريق أبى حيان به . وتابعه عمارة بن القعقاع عن أبى زرعة به أخرجه من هذه الطريق مسلم .

ابن سعيد التيمي ، عن أبي زرعة بن عمر بن جرير ، عن أبي هريرة قال : قام فينا رسول اللَّه ، ﷺ يومًا فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ، ثم قال : « **لا أُلفِين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رُغاء ، فيقول : يا رسول اللَّه ؛ أغثني ، فأقول : لا أملك لك من اللَّه شيئًا ، قد أبلغتك ؛ لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حمحمة فيقول : يا رسول اللَّه ؛ أغثني . فأقول : لا أملك لك من اللَّه شيئًا ، فقد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على[١] رقبته رقاع تخفق[٢] فيقول : يا رسول اللَّه ؛ أغثني فأقول : لا أملك لك من اللَّه شيئًا ، فقد[٣] أبلغتك ، [لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت(*) ، فيقول : يا رسول اللَّه ؛ أغثني ، فأقول : لا أملك لك من اللَّه شيئًا قد أبلغتك** »][٤] . أخرجاه من حديث أبي حيان به .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد (٤٦٦) : حدثنا يحيىٰ بن سعيد ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، حدثني قيس ، عن عدي بن عميرة الكندي ، قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **يا أيها الناس ، من عمل لنا منكم[٥] عملًا فكتمنا منه مخيطًا فما فوقه فهو غل يأتي به يوم القيامة** » . قال : فقام[٦] رجل من الأنصار أسود- قال مجالد : هو سعد[٧] بن عبادة ، كأني أنظر إليه- فقال : يا رسول اللَّه ، اقبل[٨] عني عملك ؛ قال : « **وما ذاك** » ؟ قال[٩] : سمعتك تقول كذا وكذا ، قال : « **وأنا أقول ذاك الآن ، من استعملناه على عمل فليجيء بقليله وكثيره ، فما أوتي منه أخذه ، وما نهي عنه انتهى** » . وكذا رواه مسلم ، وأبو داود من طرق عن إسماعيل بن أبي خالد به .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد (٤٦٧) : حدثنا أبو معاوية ، [ثنا أبو][١٠] إسحاق

(*) - يعني الذهب ، والفضة ، خلاف الناطق ، وهو الحيوان . النهاية (٥٢/٣)

(٤٦٦) - « المسند » (١٩٢/٤) وأخرجه أيضًا مسلم ، كتاب ، الإمارة ، باب تحريم هدايا العمال (٣٠) (١٨٣٣) وأبو داود ، كتاب الأقضية باب فى هدايا العمال ، من طرق عن إسماعيل بن أبى خالد به .

(٤٦٧) - « المسند » (٣٩٢/٦) وأخرجه الطبرانى فى « المعجم الكبير » (١/رقم ٩٦٢) ومن طريقه المزى فى « تهذيب الكمال » (٢٣٤/٢٣ ، ٢٣٥) أنا الفضل بن عبيد اللَّه بن أبى رافع ثنا محمد بن النضر =

[١] - سقط من : خ .

[٢] - في خ : « يخفق » .

[٣] - في خ : « قد » .

[٤] - ما بين المعقوفتين سقط من : خ .

[٥] - سقط من : خ .

[٦] - في ت : « فقال » .

[٧] - في ت : « سعيد » .

[٨] - في خ : « قتل » .

[٩] - سقط من : خ .

[١٠] - في ت : « عن أبي » .

الفزاري ، عن ابن جريج ، حدثني منبوذ - رجل من آل أبي رافع - عن الفضل بن عبيد[١] الله ابن أبي رافع ، عن أبي رافع قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلّىٰ العصر ربما ذهب إلىٰ بني عبد الأشهل فيتحدّث معهم حتىٰ ينحدر للمغرب[٢] ، قال أبو رافع : فبينا[٣] رسول الله ﷺ مسرعًا إلىٰ المغرب إذ مرّ بالبقيع ، فقال : « **أفٍّ لك ! أفٍّ لك !** » . مرتين [فكبر في ذرعي(*)][٤] ، وتأخرت ، فظننت[٥] أنه يريدني ، فقال : « **ما لك** » قال قلت : [أحدثت حدثًا يا رسول الله][٦] ؛ قال : « **وما ذاك** » ؟ قلت : [أفففت بي][٧] ، قال : « **لا ، ولكن هذا قبر فلان بعثته[٨] ساعيًا علىٰ آل فلان فغل نمرة ، فدرع الآن مثلها من نار** » .

(حديث آخر) قال عبد الله ابن الإمام أحمد(٤٦٨) : حدثنا عبد الله بن سالم الكوفي المفلوج- وكان بمكة- حدثنا عبيدة بن الأسود ، عن القاسم بن الوليد ، عن أبي صادق ، عن ربيعة بن ناجد[٩] ، عن عبادة بن الصامت ، [قال : كان رسول الله][١٠] صلىٰ الله عليه وسلم يأخذ الوبرة من جنب البعير من المغنم ، ثم يقول : « **ما لي فيه إلا مثل ما لأحدكم ، إياكم والغلول ! فإن الغلول خزي علىٰ صاحبه يوم القيامة ، أدّوا الخيط والمخيط وما فوق**

= الأزدى ، ثنا معاوية بن عمرو به . وأخرجه النسائي ، كتاب الإمامة ، باب : الإسراع إلى الصلاة من غير سعى (١١٥/٢ ، ١١٦) أخبرنا هارون بن عبد الله ، قال : حدثنا معاوية بن عمرو به . وأخرجه أحمد (٦/ ٣٩٢) والنسائى (١١٥/٢) وابن خزيمة فى صحيحه (٢٣٣٧/٤) من طريق ابن وهب عن ابن جريج به ومنبوذ المُزَنِيّ ، والفضل بن عبيد الله لم يوثقهما غير ابن حبان !!

(*) أي : عظم وقعه وجلّ عندي النهاية (١٥٢/٢) .

(٤٦٨) - « زوائد المسند » (٣٣٠/٥) ومن طريقه وطرق أخرى اختاره الضياء فى « المختارة » (٣٤٣/٨ : ٣٤٥) وكذا أخرجه من طريق عبد الله المزى فى « تهذيب الكمال » (١٤٧/٩) وأخرجه ابن ماجه ، كتاب الحدود ، باب فى إقامة الحدود (٢٥٤٠) حدثنا عبد الله بن سالم به من قوله « أقيموا حدود الله ...» قال البوصيرى فى « الزوائد » (٣٠٢/٢) ، « إسناده صحيح على شرط ابن حبان ، فقد ذكر جميع رواته فى ثقاته» لكنه متساهلٌ فى التوثيق إلا أن الإمام أحمد رواه فى « المسند » (٣١٦/٥ ، ٣٢٦) من طريق المقدام بن معدى كرب : أنا عبادة بن الصامت به ، وفى إسناده حسن إن كان محفوظًا » وقد صححه الألبانى بمجموع طرقه هذه مع شاهد عبد الله بن عمرو الآتى فكان فى نصيب « الصحيحة » (٢/ رقم ٦٧٠) و (٤/رقم ١٩٤٢ ، ١٩٧٢) وبالله التوفيق .

---

[١] - في خ : « عبد » .
[٢] - في خ : « للمغرب » .
[٣] - في خ : « وبينما » .
[٤] - بياض في خ .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - في خ : « أحديث حدث برسول الله » .
[٧] - في خ : « بلى » .
[٨] - في خ : « بعثه » .
[٩] - في خ : « ماجد » .
[١٠] - في خ : « أن النبي » .

ذلك ، وجاهدوا في سبيل اللَّه القريب والبعيد ، في الحضر والسفر ؛ فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، إنه لينجي اللَّه به من الهم والغم ، وأقيموا حدود اللَّه في القريب والبعيد ، ولا تأخذكم في اللَّه لومةُ لائم » . وقد روىٰ ابن ماجة بعضه عن المفلوج به .

(حديث آخر) عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جدّه ؛ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **ردّوا الخياط والمخيط ؛ فإن الغلول عار ونار وشنار علىٰ أهله يوم القيامة** » (٤٦٩) .

(حديث آخر) قال أبو داود (٤٧٠) : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير ، عن[١] مطرّف ، عن أبي الجهم ، عن أبي مسعود الأنصاري ؛ قال : بعثني رسول اللَّه ﷺ ساعيًا ثم قال : « **انطلق أبا مسعود ؛ لا ألفينك يوم القيامة تجيء علىٰ ظهرك بعير من إبل الصدقة له رغاء قد غللته** » . قال : إذن لا أنطلق . قال : « **إذن لا أكرهك** » . تفرد به أبو داود .

(حديث آخر) قال أبو بكر بن مردويه (٤٧١) : أنبأنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، أنبأنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، أنبأنا عبد الحميد بن صالح ، أنبأنا أحمد بن أبان ، عن علقمة بن مرثد ، عن ابن[٢] بريدة ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ ؛ قال : « **إن الحجر ليرمىٰ به في جهنم**

---

(٤٦٩) - جزء من حديث طويل أخرجه ابن إسحاق فى « السيرة » كما فى « سيرة ابن هشام » (٩٢٦/٤ : ٩٢٩) حدثنى عمرو بن شعيب به ، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه أحمد فى « المسند » (١٨٤/٢) والبيهقى فى « دلائل النبوة » (١٩٤/٥ : ١٩٦) وإسناده حسن للخلاف المعروف فى رواية « عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده » وابن إسحاق صرح بالتحديث هنا ، ولله الحمد .

(٤٧٠) - سنن أبى داود ، كتاب الخراج والإمارة والفيء باب فى غلول الصدقة (٢٩٤٧) وأخرجه الطبرانى فى « المعجم الكبير » (١٧/رقم ٦٨٩) ثنا الحسين بن إسحاق التسترى ، ثنا عثمان بن أبى شيبة به (١٧/ ٦٨٨) من طريق وهب بن بقية أنا خالد عن مطرف به ، وذكره الهيثمى فى « المجمع » (٨٩/٣) وقال : « رواه الطبرانى فى « الكبير » ورجاله رجال الصحيح » كذا قال ، وأبو الجهم واسمه سليمان بن الجهم لم يرو له البخارى ولا مسلم ، لكن وثقه ابن حبان والعجلى وابن عمير ، وقال ابن المدينى : « لا أعلم روى عنه غير مطرف » وقد فات الهيثمى أن الحديث فى سنن أبى داود وإلا لما أورده فى « المجمع » .

(٤٧١) - وعزاه لابن مردويه السيوطى فى « الدر المنثور » (١٦٤/٢) وأخرجه الطبرانى فى « المعجم الكبير » (١١٥٨/٢) ثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة به ، دون موضع الشاهد هنا ، وأخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٢/رقم ١٧٧١) والبيهقى فى « شعب الإيمان » (٤٣٣٤/٤) من طريق إسماعيل بن أبان الوراق ، حدثنى محمد بن أبان به ، والبزار (٢٢٤٢/٢) زوائد ابن حجر ، ثنا عمر بن محمد بن الحسن الأسدى الكوفى ، ثنا أبي ، ثنا محمد بن أبان به مختصرًا وقال البزار : « لا نعلم رواه إلا محمد بن أبان ، ولا عنه إلا محمد بن الحسن » كذا ومحمد بن الحسن متابع عليه ، ومحمد بن أبان ضعيف ، وبه أعله الهيثمى ، وابن حجر كما فى « زوائد البزار » .

---

[١] - في خ : « بن » . [٢] - في خ : « أبي » .

فيهوي سبعين خريفًا ، ما يبلغ قعرها ، ويؤتىٰ بالغلول فيقذف معه ، ثم يقال لمن غل به[١] : ائت به ، فذلك قوله : ﴿ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ﴾ » .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد (٤٧٢) : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا عكرمة بن عمار ، حدثنا سماك الحنفي أبو زُميل ، حدثني عبد اللَّه بن عباس ، حدثني عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب رسول اللَّه ﷺ فقالوا : فلان شهيد وفلان شهيد ، حتىٰ أتوا علىٰ رجل فقالوا : فلان شهيد فقال رسول اللَّه ﷺ : « **كلا إني رأيته في النار في بردة غلها- أو عباءة** » . ثم قال رسول اللَّه ﷺ : « [**يا ابن الخطاب**][٢] ؛ **اذهب فناد في الناس أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون** » . قال : فخرجت فناديت : إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون .

وكذا رواه مسلم والترمذي من حديث عكرمة بن عمار به . وقال الترمذي : حسن صحيح .

(حديث آخر عن عمر رضي اللَّه عنه -) قال ابن جرير (٤٧٣) : حدثني أحمد بن عبد الرحمن ابن وهب ، حدثنا عبد اللَّه بن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ؛ أن موسىٰ بن جبير حدثه ، أن عبد اللَّه بن عبد الرحمن بن الحباب الأنصاري حدثه ، أن عبد اللَّه بن أنيس حدثه ، أنه تذاكر هو وعمر بن الخطاب يومًا الصدقة ، فقال : ألم تسمع قول رسول اللَّه ﷺ حين ذكر غلول الصدقة : « **من غل منها بعيرًا أو شاة فإنه يحملها يوم القيامة** » ؟ قال عبد اللَّه بن أنيس : بلىٰ .

ورواه ابن ماجة ، عن عمرو بن سواد ، عن عبد اللَّه بن وهب به . ورواه الأموي عن معاوية عن أبي إسحاق ، عن يونس بن عبيد ، عن الحسن ؛ قال : عقوبة الغال أن يخرج رحله ، ويحرق

---

(٤٧٢) - « المسند » (١/٣٠/رقم ٢٠٣/ شاكر) وأخرجه مسلم كتاب الإيمان باب غلظ تحريم الغلول وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون (١٨٢) (١١٤) حدثنى زهير بن حرب ، حدثنا هاشم بن القاسم به ، والترمذى ، كتاب السير ، باب ما جاء فى الغُلول (١٥٧٤) حدثنا الحسن بن على ، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنا عكرمة بن عمار به مختصرًا .

(٤٧٣) - تفسير ابن جرير (٨١٦٢/٧) وأخرجه أحمد وابنه عبد اللَّه فى « المسند » (٤٩٨/٣) ثنا هارون بن معروف ، ثنا ابن وهب به ، ومن طريقهما المزى فى « تهذيب الكمال » (٢٠٢/١٥ ، ٢٠٣) ت / عبد اللَّه ابن عبد الرحمن بن الحُباب ، وأخرجه ابن ماجه ، كتاب الزكاة ، باب ما جاء فى عمال الصدقة (١٨١٠) ، والضياء فى « المختارة » (١/رقم ١٤٨) من طريقين عن ابن وهب به ، وقال البوصيرى فى « الزوائد » (٥٦/٢) « إسناده فيه مقال ، موسى بن جبير ، قال فيه ابن حبان فى « الثقات » (٤٥١/٧) « يخطئ ويخالف » وقال الذهبى فى « الكاشف » ثقة . ولم أر لغيرهما فيه كلامًا ، وعبد اللَّه بن عبد الرحمن ذكره ابن حبان فى « الثقات » وباقى رجال الإسناد ثقات » .

---

[١] - سقط من : خ . [٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

على ما فيه .

ثم روي عن معاوية ، عن أبي إسحاق ، عن عثمان بن عطاء ، عن أبيه ، عن علي رضى الله عنه قال : الغال يجمع[١] رحله فيحرق ، ويجلد دون حدٍّ .

(حديث آخر) قال ابن جرير (٤٧٤) : حدثنا سعيد بن يحيىٰ الأموي ، حدثنا أبي ، حدثنا يحيىٰ ابن سعيد ، عن نافع ، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ بعث سعد بن عبادة مصدقًا ، فقال : [« **يا سعد ، إياك**][٢] **أن تجيء يوم القيامة ببعير تحمله له رغاء** » . قال : لا آخذه ولا أجيء به ، فأعفاه . ثم رواه من طريق عبيد الله عن نافع به نحوه (٤٧٥) .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد (٤٧٦) : حدثنا أبو سعيد ، حدثنا عبد العزيز بن محمد ، حدثنا صالح بن محمد بن زائدة ، عن سالم بن عبد الله ، أنه كان مع مسلمة بن عبد الملك في أرض الروم ، فوجد في متاع رجل غلولًا ، قال : فسأل سالم بن عبد الله ، فقال : حدثني أبي

(٤٧٤) - تفسير ابن جرير (٨١٦٣/٧) ، وأخرجه البزار (٨٩٨/١/ كشف الأستار) وأبو يعلى فى « معجم الشيوخ » (١٨٩) وعنه ابن حبان فى صحيحه (٣٢٧٠/٨) والحاكم في « المستدرك » (٣٩٩/١) شاهدًا وابن عساكر فى « تاريخ دمشق » (١٢٢/٧/مخطوط) من طريق سعيد بن يحيى الأموى به وقال البزار : « لا نعلم رواه هكذا إلا يحيى الأموى » وهو صدوق له غرائب ، كما فى « التقريب » وقال الحاكم : « على شرط الشيخين » ووافقه الذهبى ، وذكره الهيثمى فى « المجمع » (٨٩/٣) وقال : « رواه البزار ورجاله رجال الصحيح » وانظر ما بعده .

(٤٧٥) - تفسير ابن جرير (٨١٦٤/٧) ثنا أحمد بن المغيرة الحمصى أبو حميد ، قال : حدثنا الربيع بن روح ، قال : حدثنا ابن عياش ، قال : حدثنى عبيد الله بن عمربن حفص به ، ورجاله ثقات غير شيخ ابن جرير فلم أهتد لترجمته ، وأخرجه أحمد (٢٨٥/٥) ، والطبرانى فى « الكبير » (٦/رقم ٥٣٦٣) والبزار فى « مسنده » (٣٧٣٧/٩) من طريق سليمان بن المغيرة قال : نا حميد بن هلال عن سعيد بن المسيب ، عن سعد بن عبادة فذكر الحديث بنحوه ، وقال البزار « هذا الحديث لا نعلمه يروى عن سعد بن عبادة إلا من هذا الوجه بهذا اللفظ وإسناده حسن » كذا قال : وذكره الهيثمى فى « المجمع » (٨٨/٣) : « رواه أحمد والبزار والطبرانى فى « الكبير » ورجاله ثقات إلا أن سعيد بن المسيب لم ير سعد بن عبادة » لكن هذا الإسناد المنقطع مع الطريقين السابقين يتقوى بهم الحديث ولله الحمد .

(٤٧٦) - « المسند » (٢٢/١/رقم ١٤٤/شاكر) ومن طريق أحمد ابن الجوزى فى « العلل المتناهية » (٢/رقم ٩٦٠) وأخرجه سعيد بن منصور فى « سننه » (٢٧٢٩/٢) وعنه الدارمى (٢٤٩٣/٢) وأبو داود كتاب الجهاد ، باب فى عقوبة الغال (١٧١٣) ، والترمذى ، كتاب الحدود ، باب : ما جاء فى الغالّ ما يُصْنَعُ به (١٤٦١) وغيرهم من طرق عن عبد العزيز بن محمد به ، وقال الترمذى : « هذا الحديث غريب =

[١] - في خ : « يخرج » .

[٢] - ما بين المعكوفتين في خ : « إياك يا سعد » .

عبد اللَّه ، عن عمر بن الخطاب - رضي اللَّه عنه - أن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم قال : « **من وجدتم في متاعه غلولًا فأحرقوه** » . قال : وأحسبه قال : « **واضربوه** » قال : فأخرج متاعه في السوق ، فوجد فيه مصحفًا فسأل سالمًا ؟ فقال : بعه وتصدق بثمنه .

وكذا[١] رواه علي بن المديني وأبو داود والترمذي من حديث عبد العزيز بن محمد الدراوردي ، زاد أبو داود وأبو إسحاق الفزاري كلاهما عن أبي واقد الليثي الصغير صالح بن محمد بن زائدة به .

وقال علي بن المديني رحمه اللَّه والبخاري وغيرهما : هذا حديث منكر من رواية أبي واقد هذا . وقال الدارقطني : الصحيح أنه من فتوىٰ سالم فقط ، وقد ذهب إلىٰ القول بمقتضىٰ هذا الحديث الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - ومن تابعه من أصحابه - [وقد رواه الأموي - عن معاوية ، عن أبي إسحاق ، عن يونس بن عبيد ، عن الحسن قال : عقوبة الغال أن يخرج رحله فيحرق علىٰ ما فيه : ثم روي عن معاوية عن أبي إسحاق ، عن عثمان بن عطاء ، عن أبيه ، عن علي قال : الغال يجمع رحله فيحرق ، ويجلد دون حد المملوك ويحرم نصيبه][٢] (٤٧٧) - وخالفه أبو حنيفة ومالك والشافعي والجمهور فقالوا : لا يحرق متاع الغال ، بل يعزر تعزير مثله . [وقد قال][٣] البخاري : وقد امتنع رسول اللَّه ﷺ من الصلاة علىٰ الغال ، ولم يحرق متاعه ،

= لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم ، وهو قول الأوزاعى وأحمد وإسحاق ، قال : وسألت محمدًا - يعنى البخارى - عن هذا الحديث ، فقال : إنما روى هذا صالح بن محمد بن زائدة وهو أبو واقد الليثى ، وهو منكر الحديث ، قال محمد : وقد رُوِىَ فى غير حديث عن النبى ﷺ فى الغالِّ فلم يأمر فيه بحرق متاعه » واستنكر ابن عدى فى « الكامل » (١٣٤١/٤ ، ١٣٧٧) هذا الحديث لصالح بن محمد أبى واقد الليثى هذا وكذا ضعفه به الدارقطنى ، فقال فى « العلل » (٢/س ١٠٣) « ... وأبو واقد هذا ضعيف ، والمحفوظ أن سالمًا أمر بهذا ولم يرفعه إلى النبى ﷺ ولا ذكره عن أبيه ولا عن عمر » ومع هذا فقد صحح هذا المرفوع الحاكم (١٢٧/٢ ، ١٢٨) ووافقه الذهبى . وقد صحح هذا الموقوف أيضًا أبو داود فقال عقب المرفوع هذا (٢٧١٤) حدثنا أبو صالح محبوب بن موسى الأنطاكي ، قال : أخبرنا أبو إسحاق عن صالح بن محمد ، قال : غزونا مع الوليد بن هشام ومعنا سالم بن عبد اللَّه بن عمر وعمر بن عبد العزيز فغَلَّ رجل متاعًا ، فأمر الوليدَ بمتاعه فأحرق ، وطِيفَ به ، ولم يُعْطِهِ سهمه ، قال أبو داود : وهذا أصح الحديثين ، رواه غير واحد أن الوليد بن هشام حرق رحل زياد بن سعد ، وكان قد غل وضربه » .

(٤٧٧) - أخرجه سعيد بن منصور (٢٧٣٠/٢) نا خالد بن عبد اللَّه ، وابن أبي شيبة فى « المصنف » (٦/ ٥٤٠) ، (٧١٣/٧) ثنا عبد الأعلى ، كلاهما (خالد وعبد الأعلى) عن يونس عن الحسن فى الغلول =

[١] - في خ : « وقد » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .
[٣] - ما بين المعكوفتين في خ : « وقال » .

والله أعلم .

وقد قال الإمام أحمد(٤٧٨) : حدثنا أسود بن عامر ، أنبأنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن جبير ابن مالك ؛ قال : أمر بالمصاحف أن تغير ، قال : فقال ابن مسعود : من استطاع منكم أن يغل مصحفه[١] فليغله ؛ فإنه من غل شيئًا جاء به يوم القيامة ، قال[٢] : ثم قال : قرأت من فم رسول الله ﷺ سبعين سورة ، أفأترك ما أخذت من في رسول الله ﷺ .

وروى وكيع(٤٧٩) [في تفسيره][٣] عن شريك ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن إبراهيم ؛ قال : لما أمر بتحريق[٤] المصاحف ، قال عبد الله [بن مسعود - رضي الله عنه][٥] - : يا أيها الناس ؛ غلوا المصاحف ؛ فإنه من غل يأت بما غل يوم القيامة ، ونعم الغل المصحف[٦] ، يأتي به أحدكم يوم القيامة .

وقال أبو[٧] داود(٤٨٠) ، عن سمرة بن جندب ؛ قال : كان رسول الله إذا غنم غنيمة أمر

= إذا وجد عند رجل : يحرق رحله .

(٤٧٨) - « المسند » (٤١٤/١/رقم ٣٩٢٩) وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر ، وأخرجه ابن أبى داود فى « المصاحف » (ص ١٥) من طريق ابن أبى رجاء ، قال : أخبرنا إسرائيل به ، وتصحف فيه « خُمير » إلى « حميد » وأخرجه ابن أبى داود أيضًا من طريق أبى داود الطيالسى ثنا عمرو بن ثابت عن أبي إسحاق به .

(٤٧٩) - ومن طريق وكيع أخرجه ابن أبى داود فى « المصاحف » (ص ١٥) ، قال الشيخ أبو الأشبال أحمد شاكر فى حاشية « المسند » (١٥/٦/ح ٣٩٢٩) « كان هذا من ابن مسعود حين أمر عثمان - رضى الله عنه - بجمع الناس على المصحف الإمام ، خشية اختلافهم ، فغضب ابن مسعود . وهذا رأيه ، ولكنه رحمه الله أخطأ خطأ شديدًا فى تأويل الآية على ما أول ، فإن الغلول هو الخيانة ، والآية واضحة المعنى فى الوعيد لمن خان أو اختلس من المغانم » .

(٤٨٠) - كذا جعله المصنف من مسند « سمرة بن جندب » وقد وقع فى مثل ذلك أيضًا أبو عبد الله القرطبى فى تفسيره (٢٥٧/٤) والصواب أنه من مسند « عبد الله بن عمرو بن العاص » كما فى « تحفة الأشراف » للحافظ المزى (٨٨٣٨/٦) وكذا أسنده المصنف نفسه فى « جامع المسانيد والسنن » (٢٦/ ٢٤٧) إلى « عبد الله بن عمرو » وهو على الصواب فى جميع مصادر التخريج الآتية .

فقد أخرجه أبو داود ، كتاب الجهاد ، باب فى الغلول إذا كان يسيرًا يتركه الإمام ولا يحرق رحله (٢٧١٢) ومن طريقه البيهقى فى « السنن الكبرى » (٢٩٣/٦) وابن حبان فى صحيحه (٤٨٠٩/١١ و ٥٨٥٨) والحاكم فى « المستدرك » (١٢٧/٢) وعنه البيهقى أيضًا (٣٢٤/٦) ، (١٠٢/٩) كلهم من =

[١] - في ت : « مصحفًا » .
[٢] - سقط من : ت .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٤] - في خ : « بتمزيق » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٦] - في ت : « المصاحف » .
[٧] - سقط من : ت .

بلالًا فينادي في الناس ، فيجيئون بغنائمهم فيخمسه ويقسمه ، فجاء رجل يومًا بعد النداء بزمام من شعر ، فقال : يا رسول اللَّه ؛ هذا كان مما أصبناه من الغنيمة ، فقال : « **أسمعت بلالًا ينادي ثلاثًا ؟** » . قال : نعم . قال : « **فما منعك أن تجيء به ؟** » فاعتذر إليه ، فقال : « **كلا ، أنت تجيء به يوم القيامة فلن أقبله منك** » .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **أفمن اتبع رضوان اللَّه كمن باء بسخط من اللَّه ومأواه جهنم وبئس المصير** ﴾ أي لا يستوي من اتبع رضوان اللَّه فيما شرعه ، فاستحق رضوان اللَّه وجزيل ثوابه ، وأجير من وبيل عقابه ، ومن استحق غضب اللَّه ، وألزم به ، فلا محيد له عنه ، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير .

[وهذه الآية لها نظائر كثيرة في القرآن][١] ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمىٰ** ﴾ وقوله[٢] : ﴿ **أفمن وعدناه وعدًا حسنًا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحيوة الدنيا** ﴾ . الآية .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **هم درجات عند اللَّه** ﴾ قال[٣] الحسن البصري ومحمد بن إسحاق : يعني أهل الخير وأهل الشر درجات ، وقال أبو عبيدة والكسائي : منازل يعني متفاوتون في منازلهم ، ودرجاتهم في الجنة ودركاتهم في النار ، كقوله[٤] تعالىٰ : ﴿ **ولكل درجات مما عملوا** ﴾ . الآية ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **واللَّه بصير بما يعملون** ﴾ أي : وسيوفيهم إياها ، لا يظلمهم خيرًا ولا يزيدهم شرًّا ، بل يجازي [كل عامل][٥] بعمله .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **لقد منّ اللَّه على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولًا من أنفسهم** ﴾ أي : من جنسهم ؛ ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ومن آياته أن خلق[٦] لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها** ﴾ أي : من جنسكم ، وقال تعالىٰ : ﴿ **قل**

= طريق أبي إسحاق الفزارى عن عبد اللَّه بن شوذب ، حدثني عامر بن عبد الواحد عن عبد اللَّه بن بريدة عن عبد اللَّه بن عمرو . فذكر الحديث وأخرجه أحمد (٢/٢١٣/ ٦٩٩٦) ثنا عتاب بن زياد حدثنا عبد اللَّه - يعنى ابن المبارك - أخبرنا عبد اللَّه بن شوذب به ، وصحح إسناده الحاكم ، ووافقه الذهبى ، وإسناده حسن لكلام فى عامر بن عبد الواحد ، والحديث قصر السيوطى فى عزوه جدًّا ، حيث عزاه إلى الحاكم فحسب ، وتحرف عنده « عبد اللَّه بن عمرو » إلى « عبد اللَّه بن عمر » « الدر المنثور » (٢/١٦٢) .

[١] - ما بين المعكوفتين في خ : « فهذه لها نظائر ، في القرآن كثيرة » .

[٢] - في خ : « وكقوله » .

[٣] - في خ : « وقال » .

[٤] - في خ : « كما قال » .

[٥] - في خ : « كلًّا » .

[٦] - في خ : « جعل » .

إنما أنا بشر مثلكم يوحىٰ إلي [أنما إلٰهكم إله واحد ﴾ . الآية . وقال تعالىٰ : ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق**][١] ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وما أرسلنا من**[٢] **قبلك إلا رجالًا نوحي إليهم من أهل القرىٰ** ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ **يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم** ﴾ فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم بحيث يمكنهم مخاطبتُه ومراجعتُه في فهم الكلام عنه[٣] ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **يتلوا عليهم آياته** ﴾ يعني القرآن ﴿ **ويزكيهم** ﴾ أي : يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، لتزكو[٤] نفوسهم ، وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم ﴿ **ويعلمهم الكتاب والحكمة** ﴾ يعني القرآن والسنة ، ﴿ **وإن كانوا من قبل** ﴾ أي : من قبل هذا الرسول ﴿ **لفي ضلال مبين** ﴾ أي : لفي غي وجهل ظاهر جلي بين لكل أحد .

أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ **أولما أصابتكم مصيبة** ﴾ [وهي ما أصيب منهم يوم أحد من قتلىٰ السبعين منهم][٥] ﴿ **قد أصبتم مثليها** ﴾ يعني يوم بدر ؛ فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلًا ، وأسروا سبعين أسيرًا ، ﴿ **قلتم أنىٰ هذا** ﴾ أي : من أين جرىٰ علينا هذا ؟ ﴿ **قل هو من عند أنفسكم** ﴾ .

قال ابن أبي حاتم(٤٨١) : حدثنا[٦] أبي ، أنبأنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا قراد أبو نوح ،

(٤٨١) - وأخرجه أحمد فى « المسند » (١/ ٣٠ - ٣١) (رقم ٢٠٨) حدثنا أبو نوح قُراد به ويأتي =

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - في خ : « ليزكوا » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٦] - في خ : « ذكره » .

حدثنا عكرمة بن عمار ، حدثنا سماك الحنفي أبو زُمَيل ، حدثني ابن عباس ، حدثني عمر بن الخطاب ؛ قال : لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون ، وفر أصحاب رسول اللَّه ﷺ عنه ، وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة علىٰ رأسه ، وسال الدم علىٰ وجهه ، فأنزل اللَّه عز وجل : ﴿ **أَوَلما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنىٰ هذا قل هو من عند أنفسكم** ﴾ بأخذكم الفداء .

وهكذا رواه الإمام أحمد ، عن عبد الرحمن بن غزوان - وهو قراد أبو نوح - بإسناده[١] ، ولكن بأطول منه ، وهكذا[٢] قال الحسن البصري .

وقال ابن جرير(٤٨٢) : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا إسماعيل بن علية ، عن ابن[٣] عون عن محمد عن عبيدة (ح) قال سنيد[٤] - وهو حسين - : وحدثني حجاج ، عن جريج ، عن محمد ، عن عبيدة ، عن علي - رضي الله عنه - قال : جاء جبريل عليه السلام إلىٰ النبي ﷺ فقال : يا محمد ، إن اللَّه قد كره ما صنع قومك في أخذ[٥] الأسارىٰ ، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين : إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم ، وبين أن يأخذوا الفداء علىٰ أن يقتل منهم عدتهم ؛ قال : فدعا رسول اللَّه ﷺ الناس ، فذكر لهم ذلك ، فقالوا : يا رسول اللَّه ، عشائرنا وإخواننا ، ألا نأخذ فداءهم فنتقوىٰ به علىٰ قتال عدونا ، ويستشهد منا عدتهم ، فليس في ذلك ما نكره ؟ قال : فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلًا ، عدة أسارىٰ أهل[٦] بدر .

= تخريجه بأبسط مما هنا فى سورة الأنفال /آية ٩ .

(٤٨٢) - تفسير ابن جرير (٨١٩١/٧) وأخرجه الترمذى ، كتاب السير ، باب ما جاء في قتل الأسارى والفداء (١٥٦٧) والنسائى فى « الكبرى » (٨٦٦٢/٥) ، وابن أبى شيبة فى « المصنف » (٤٧٥/٨) ، من طريق أبى داود الحفرى به وقال الترمذى : « حديث حسن غريب من حديث الثورى ، لا نعرفه إلا من حديث ابن أبى زائدة » وهذا لا يضره ، فإن يحيى بن زكريا بن أبى زائدة ثقة روى له الجماعة ثم إنه لم ينفرد به ، فقد تابعه أزهر بن سعد السمان - وهو ثقة - عن ابن عون عن محمد به وزاد فى آخره : « فكان آخر السبعين ثابت بن قيس قتل يوم اليمامة » أخرجه البيهقى (٦٨/٩) ، والحاكم (١٤٠/٣) وقال : « صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبى وقد صحح إسناد الحديث الألبانى فى « الإرواء » (٤٩/٥) فراجعه ، وأخرج المرسل الذى أشار إليه الترمذى ، ابن أبى شيبة ثناعبد الرحيم بن سليمان عن أشعث عن ابن سيرين عن عبيدة السلمانى قال : أسر يوم بدر من المشركين - فذكر الحديث ومن طريق أشعث بن سوار أخرجه ابن جرير فى تفسيره (٨١٨٩/٧) وأخرجه أيضًا (٨١٩٠/٧) من طريق إسماعيل بن علية ثنا ابن عون عن ابن سيرين به مرسلاً .

---

[١] - سقط من : خ .

[٢] - في خ : « وكذا » .

[٣] - سقط من : خ .

[٤] - في خ : « سند » .

[٥] - في خ : « أخذهم » .

[٦] - في خ : « يوم » .

وهكذا رواه الترمذي والنسائي من حديث أبي داود الحفري ، عن يحيىٰ بن زكريا بن[١] أبي زائدة ، عن سفيان بن سعيد ، عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين به[٢] . ثم قال الترمذي : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة ، وروىٰ أبو أسامة عن هشام[٣] نحوه . وروي عن ابن سيرين ، عن عبيدة ، عن النبي ﷺ مرسلًا .

وقال محمد ابن إسحاق وابن جريج ، والربيع بن أنس والسدي : ﴿ **قل هو من عند أنفسكم** ﴾ ، أي : بسبب عصيانكم لرسول[٤] اللَّه ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم ؛ فعصيتم ، يعني بذلك الرماة ﴿ **إن اللَّه علىٰ كل شيء قدير** ﴾ أي : يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن اللَّه** ﴾ أي : فراركم بين يدي[٥] عدوكم ، وقتلهم لجماعة منكم ، وجراحتهم لآخرين ؛ كان بقضاء اللَّه وقدره ، وله الحكمة في ذلك[٦] : ﴿ **وليعلم المؤمنين** ﴾ أي : الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿ **وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالَوْا قاتلوا في سبيل اللَّه أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالًا لاتبعناكم** ﴾ يعني بذلك[٧] أصحاب عبد اللَّه بن أبي ابن سلول ؛ الذين رجعوا معه في أثناء الطريق ، فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم علىٰ الإِياب[٨] والقتال والمساعدة ؛ ولهذا قال : ﴿ **أو ادفعوا** ﴾ قال ابن عباس وعكرمة ، وسعيد بن جبير والضحاك ، وأبو صالح والحسن والسدي : يعني كَثّروا سواد المسلمين ، وقال الحسن بن صالح : ادفعوا بالدعاء ؛ وقال غيره : رابطوا ؛ فتعللوا[٩] ؛ قائلين : ﴿ **لو نعلم قتالًا لاتبعناكم** ﴾ قال مجاهد : يعنون لو نعلم أنكم تلقون حربًا لجئناكم ؛ ولكن لا تلقون قتالًا .

قال محمد بن إسحاق(٤٨٣) : حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، و[١٠] محمد بن

---

(٤٨٣) - أخرجه ابن هشام فى « السيرة » (٣/٥٨٤ . ٥٨٥) وابن جرير في تفسيره (٧/٨١٩٣) وابن المنذر كما فى « الدر المنثور » (٢/١٦٧) عن ابن إسحاق به .

---

[١] - في ت : « عن » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في خ : « هاشم » .
[٤] - في خ : « رسول » .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - سقط من : ت .
[٧] - سقط من : خ .
[٨] - في خ : « الإتيان » .
[٩] - في خ : « فتعالوا » .
[١٠] - في خ : « وعن » .

يحيىٰ بن حبان ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد ابن معاذ ، وغيرهم من علمائنا ، كلهم قد حدّث ، قال : خرج علينا رسول اللَّه ﷺ ، يعني : حين خرج إلىٰ أحد في ألف رجل من أصحابه ، حتىٰ إذا كان بالشوط بين أحد والمدينة ، انحاز عنه عبد اللَّه بن أبي ابن سلول بثلث الناس ، وقال : أطاعهم فخرج[١] ، وعصاني ، وواللَّه ما ندري علامَ نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس ؟ فرجع[٢] بمن اتبعه من الناس من قومه من أهل النفاق ، وأهل الريب ، واتبعهم عبد اللَّه بن عمرو بن حرام[٣] أخو بني سلمة يقول : يا قوم ؛ أذكركم اللَّه ألَّا تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم ، قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ، ولكنا[٤] لا نرىٰ أن يكون قتال ، فلما استعصوا عليه ، وأبوا إلا الانصراف عنهم ، قال : أبعدكم اللَّه أعداء اللَّه فسيغني[٥] اللَّه عنكم ، ومضىٰ رسول اللَّه ، ﷺ .

قال اللَّه عز وجل - : ﴿ **هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان** ﴾ استدلوا به علىٰ أن الشخص قد تتقلب[٦] به الأحوال ؛ فيكون في حال أقرب إلىٰ الكفر ، وفي حال أقرب إلىٰ الإيمان لقوله : ﴿ **هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان** ﴾ ثم قال تعالىٰ : ﴿ **يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم** ﴾ يعني أنهم يقولون القول ، ولا يعتقدون صحته ، ومنه قولهم هذا : ﴿ **لو نعلم قتالًا لاتبعناكم** ﴾ فإنهم يتحققون أن جندًا من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة ؛ يتحرّقون علىٰ المسلمين بسبب ما أصيب من أشرافهم يوم بدر ؛ وهم أضعاف المسلمين أنه كائن بينهم قتال لا محالة ؛ ولهذا قال اللَّه[٧] تعالىٰ : ﴿ **واللَّه أعلم بما يكتمون** ﴾ [ثم قال تعالىٰ][٨] : ﴿ **الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا** ﴾ أي : لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ، ما قتلوا مع من قتل ؛ قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **قل : فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين** ﴾ أي : إن كان [القعود يسلم][٩] به الشخص من القتل والموت ، فينبغي أنكم لا تموتون : والموت لابد آت إليكم ، ولو كنتم في بروج مشيّدة ؛ فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين .

قال مجاهد عن جابر بن عبد اللَّه : نزلت هذه الآية في عبد اللَّه بن أبي بن سلول

---

[١] - في خ : « وخرج » .
[٢] - في خ : « فرح » .
[٣] - في خ : « حازم » .
[٤] - سقط من : خ .
[٥] - في ت : « ولكن » .
[٦] - في ت : « فيستغني » .
[٧] - في خ : « ينقلب » .
[٨] - في خ : « وقوله » .
[٩] - سقط من : خ .

وأصحابه[١] (٤٨٤) .

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾

يخبر تعالىٰ عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار ؛ فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار .

قال محمد[٢] بن جرير(٤٨٥) : حدثنا محمد بن مرزوق ، حدثنا عمر بن يونس ، عن عكرمة ، حدثنا إسحاق[٣] بن أبي طلحة ، حدثني أنس بن مالك في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم نبي الله إلىٰ أهل بئر معونة ، قال : لا أدري أربعين أو سبعين ؛ وعلىٰ ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري ، فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ ، حتىٰ أتوا غارًا مشرفًا علىٰ

(٤٨٤) - أخرجه ابن جرير (٨٢٠٢/٧) من طريق ابن جريج عن مجاهد به ، قال أبو الحجاج يوسف المزى : « أحاديث مجاهد عن جابر ليس لها ضوء ، إنما هى من حديث ابن إسحاق عن أبان بن صالح عن مجاهد ، ومن حديث ليث بن أبى سليم عنه » « جامع التحصيل » للعلائى (ص ٢٧٤) .

(٤٨٥) - تفسير ابن جرير (٨٢٢٤/٧) وحديث بئر معونة ، أخرجه أحمد (٢١٠/٣) والبخارى ، كتاب الجهاد باب : من يُنْكب فى سبيل الله (٢٨٠١) من طريق همام بن يحيى ، عن إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة به ، وأخرجه مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب القنوت (٢٩٧) (٦٧٧) من طريق مالك عن إسحاق به وانظر ما يأتى هنا برقم (٥٤٨) .

[١] - سقط من : خ .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في ت : ابن إسحاق .

الماء فقعدوا فيه ؛ ثم قال بعضهم لبعض : أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ [أهل هذا الماء ؟ فقال- أراه ابن ملحان الأنصاري- : أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ][١] فخرج حتىٰ أتىٰ [حيًّا منهم][٢] ، فاختبأ أمام البيوت ، ثم قال : يا أهل بئر معونة ، إني رسولُ رسولِ اللّٰه إليكم ؛ إني أشهد أن لا إله إلا اللّٰه ، وأن محمدًا عبده ورسوله ؛ فآمنوا باللّٰه ورسوله ، فخرج إليه رجل من كسر(*) البيت برمح ؛ فضربه[٣] في جنبه حتىٰ خرج من الشق الآخر ، فقال : اللّٰه أكبر ، فزت وربِّ الكعبة ، فاتبعوا أثره ؛ حتىٰ أتوا أصحابه في الغار ، فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل . وقال إسحاق[٤] : حدثني أنس بن مالك : أن اللّٰه أنزل فيهم قرآنا (بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا ، فرضي عنا ورضينا عنه) ثم نسخت فرفعت بعد ما قرأناه زمنًا ، وأنزل اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل اللّٰه أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ . [فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال : « أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل تحت العرش»][٥] .

وقد قال الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري في صحيحه (٤٨٦) : حدثنا محمد بن عبد اللّٰه بن نمير ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن عبد اللّٰه بن مرة ، عن مسروق قال : سألنا[٦] عبد اللّٰه عن هذه الآية : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل اللّٰه أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول اللّٰه [ﷺ] فقال : « **أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل [معلقة بالعرش][٧] ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلىٰ تلك القناديل ؛ فاطلع إليهم ربهم اطّلاعة ، ثم قال[٨] : هل تشتهون شيئًا ؟ فقالوا : أي شيء نشتهي ؛ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ؛ فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا ، قالوا : يارب ، نريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا حتىٰ نقتل في سبيلك مرة أخرىٰ ؛ فلما رأىٰ أن ليس لهم حاجة تُركوا** » . وقد روي نحوه [من حديث][٩]

(*) - أي جانبه ، ولكل بيت كسران ، عن يمين وشمال . النهاية (١٧٢/٤)

(٤٨٦) - صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب بيان أن أرواح الشهداء فى الجنة (١٢١) (١٨٨٧) ، وأخرجه الترمذى كتاب تفسير القرآن ، باب « ومن سورة آل عمران » (٣٠١١) ، وابن ماجه كتاب الجهاد ، باب فضل الشهادة فى سبيل اللّٰه (٢٨٠١) من طريق سليمان الأعمش به .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٢] - في خ : « بينهم » .

[٣] - في خ : « فضرب به » .

[٤] - في خ : « ابن إسحاق » .

[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من ت .

[٦] - في ت : إنا سألنا .

[٧] - في خ : « تحت العرش » .

[٨] - في خ : « فقال » .

[٩] - في خ : « عن » .

أنس(٤٨٧) وأبي سعيد .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد(٤٨٨) : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حماد ، حدثنا ثابت عن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : « **ما من نفس تموت لها عند الله خير ، يسرها أن ترجع إلىٰ الدنيا إلا الشهيد ؛ فإنه يسره أن يرجع إلىٰ الدنيا فيقتل مرة أخرىٰ ، لما يرىٰ من فضل الشهادة** » . تفرد[١] به مسلم من طريق حماد .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد(٤٨٩) : حدثنا علي بن عبد الله المديني ، حدثنا سفيان عن[٢] محمد بن علي بن ربيعة السلمي عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن جابر قال : قال لي رسول الله ﷺ : « **[أما علمت][٣] أن الله أحيا أباك فقال له : تمن عليَّ[٤] ، فقال : أردّ إلىٰ الدنيا : فأقتل فيك[٥] مرة أخرىٰ ، قال[٦] : إني قضيت الحكم أنهم إليها لا يرجعون** ». تفرد[٧] به أحمد من هذا الوجه. وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما ، أن أبا جابر . وهو عبد الله

---

(٤٨٧) - حديث أنس هو الآتي .

(٤٨٨) - « المسند » (١٢٦/٣) وأخرجه أيضًا (١٥٣/٣ ، ٢٨٤) من طريقين عن حماد بن سلمة به وأخرجه البخاري كتاب الجهاد ، باب الحور العين وصفتهن (٢٧٩٥) وباب : تمنى المجاهد أن يرجع إلى الدنيا (٢٨١٧) ، ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب فضل الشهادة فى سبيل الله تعالى (١٠٨ ، ١٠٩) (١٨٧٧) ، والترمذى ، كتاب فضائل الجهاد ، باب ما جاء فى ثواب الشهداء (١٦٤٣) باب في ثواب الشهيد (١٦٦١ ، ١٦٦٢) من طريق حميد وقتادة عن أنس به نحوه .

(٤٨٩) - « المسند » (٣٦١/٣) . وأخرجه الحميدي (١٢٦٥) (٥٣٢/٢) ، وعبد بن حميد (١٠٣٩) ، وأبو يعلى (٢٠٠٢) (٦/٤) . من طريق سفيان بن عيينة ، به .

وهذا إسناد حسن من أجل عبد الله بن محمد بن عقيل ، ومحمد بن علي بن ربيعة هو ابن عم منصور بن المعتمر ، وثقه ابن معين ، وقال أبو حاتم : شيعي صدوق لا بأس به ، صالح الحديث « تعجيل المنفعة » (٩٦٢) .

وأخرجه الحاكم (١١٩/٢ - ١٢٠) من طريق أبي إسحاق الفزاري عن أبي حماد الحنفي عن ابن عقيل ، قال : سمعت جابر بن عبد الله ، فذكره في جزء من حديث طويل . وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، فقال الذهبي متعقبًا : أبو حماد هو المفضل بن صدقة ، قال النسائي : متروك . وأخرجه الطبري في تفسيره (١٧٢/٤) ثنا ابن حميد ثنا سلمة ، قال : قال محمد بن إسحاق وحدثني بعض أصحابي عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، به . =

---

[١] - في خ : « انفرد » .
[٢] - في خ : « ثنا » .
[٣] - في خ : أعلمت » .
[٤] - سقط من : خ .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - في خ : « فقال » .
[٧] - في خ : « انفرد » .

ابن عمرو بن حرام الأنصاري - رضي اللَّه عنه - قتل يوم أحد شهيدًا .

قال البخاري(٤٩٠) : وقال أبو الوليد ، عن شعبة ، عن ابن المنكدر ، [قال[١]] سمعت جابرًا قال : لما قتل ، أبي ، جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه ، فجعل أصحاب رسول اللَّه ، ﷺ ، ينهونني ، والنبي ﷺ لم ينه ، وقال النبي ﷺ : « **لا تبكه[٢] - أو ما تبكيه- ما[٣] زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتىٰ رفع** » . وقد أسنده هو ، ومسلم ، والنسائي من طريق آخر ، عن شعبة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر قال : لما قتل أبي يوم أحد ، جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي ... وذكر تمامه بنحوه .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد(٤٩١) : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي ، عن ابن إسحاق ،

= وهذا إسناد ضعيف لجهالة أصحاب ابن إسحاق . وأخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة آل عمران (٣٠١٣) . وابن ماجه في المقدمة ، باب : فيما أنكرت الجهمية (١٩٠) ، وكتاب الجهاد ، باب : فضل الشهادة في سبيل اللَّه (٢٨٠٠) ، وابن حبان في صحيحه (٧٠٢٢) (١٥/٤٩٠) ، والحاكم (٣/٢٠٣ ، ٢٠٤) ، وابن أبي عاصم في السنة (٦٠٢) (١/٢٦٧) . والبيهقي في « دلائل النبوة » (٣/٢٩٨) ، والواحدي في أسباب النزول (ص ٨٦) من طرق ثلاثة عن موسى بن إبراهيم بن كثير الأنصاري ؛ قال : سمعت طلحة بن خراش قال : سمعت جابر بن عبد اللَّه - فذكر الحديث بأتم مما هنا .

وقال الترمذي : حسن غريب من هذا الوجه . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

وأخرجه ابن أبي عاصم (٦٠٣) (٢/٢٦٨) من طريق صدقة أبي معاوية عن عياض بن عبد اللَّه عن جابر ، به مختصرًا . وصدقة هو ابن عبد اللَّه السمين أبو معاوية ضعيف لكن يشهد له ما تقدم . وعزاه الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٩/٣٢٠) إلى الطبراني وقال : وفيه حماد بن عمرو وهو كذاب .

وزاد السيوطى نسبته في الدر المنثور (٢/١٦٨) إلى ابن خزيمة وابن مردويه ، وفي الباب عن عائشة عند الحاكم (٣/٢٠٣) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/٢٩٨) ، والبزار (٢٧٠٦) .

(٤٩٠) - صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، باب من قتل من المسلمين يوم أُحد (٤٠٨٠) ، وأخرجه أيضًا ، كتاب الجنائز ، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج فى أكفانه (١٢٤٤) ثنا محمد بن بشار ، ثنا غندر ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عبد اللَّه بن عمرو بن حرام (١٣٠) (٢٤٧١) ثنا محمد ابن المثنى ، حدثنا وهب بن جرير ، والنسائى ، كتاب الجنائز ، باب فى البكاء على الميت (٤/١٣) أخبرنا عمرو بن يزيد ، قال : حدثنا بهز بن أسد وأحمد (٣/٢٩٨) ثنا محمد بن جعفر وحجاج ، أربعتهم (غندر محمد بن جعفر ، وهب ، وبهز وحجاج) عن شعبة به وأخرجه البخارى أيضًا ، كتاب الجنائز (١٢٩٣) ، وكتاب الجهاد (٢٨١٦) ، ومسلم والنسائى (٤/١١) وأحمد (٣/٣٠٧) من طرق عن ابن المنكدر به .

(٤٩١) - « المسند » (١/٢٦٥ ، ٢٦٦) (رقم ٢٣٨٨) وأخرجه ابن أبى شيبة فى « المصنف » =

---

[١] - سقط من : خ .

[٢] - في خ : « تبكيه » . [٣] - في خ : « لا » .

حدثنا إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد ، عن أبي الزبير المكي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ، ﷺ : « **لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلىٰ قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم ، وحسن منقلبهم ؛ قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا ؛ لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله - عز وجل - : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾** وما بعدها » .

وهكذا رواه أحمد ، ورواه[١] ابن جرير ، عن يونس ، عن ابن وهب ، عن إسماعيل بن عياش ، عن محمد بن إسحاق به . ورواه أبو داود ، والحاكم في مستدركه(٤٩٢) من حديث عبد الله بن إدريس ، عن محمد بن إسحاق ، عن إسماعيل بن أمية ، عن أبي الزبير ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما فذكره ، وهذا أثبت . وكذا رواه سفيان الثوري عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس .

= (٥٦٥/٤) وعنه ابن أبي عاصم فى « الجهاد » (٢/رقم ١٩٤) وهناد فى « الزهد » (١/رقم ١٥٥) عن محمد بن فضيل ، وابن أبي عاصم أيضًا (١٩٥) وابن جرير (٨٢٠٥/٧) من طريق إسماعيل بن عياش ، وأخرجه ابن جرير أيضًا من طريق سلمة وعبد الله بن المبارك فى كتابه « الجهاد » (٦٢) وأبو الشيخ بن حيان فى « جزء فيه أحاديث أبي الزبير » (رقم ١٤) من طريق زفر ، وعبد بن حميد فى « المنتخب » (٦٧٩) من طريق عبد الله بن إدريس سبعتهم (إبراهيم بن سعد - والد يعقوب - ومحمد بن فضيل وإسماعيل بن عياش وسلمة ابن الفضل الرازى ، وعبد الله بن المبارك وزفر وعبد الله بن إدريس) عن ابن إسحاق به وأبو الزبير مدلس وقد عنعنه ، ثم إنه لم يسمع من ابن عباس صرح به أبو حاتم كما فى « المراسيل » (ص ١٩٣) وانظر ما بعده .

(٤٩٢) - أخرجه أبو داود ، كتاب الجهاد ، باب فى فضل الشهادة (٢٥٢٠) وعنه البيهقى فى « السنن الكبرى » (١٦٣/٩) ، والحاكم فى « المستدرك » (٨٨/٢ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨) ومن طريقه وطريق آخر البيهقى فى « دلائل النبوة » (٣٠٤/٣) وفى « شعب الإيمان » (٤٢٤٠/٤) وفى « الأسماء والصفات » (٢/رقم ٧٧٥) وفى « البعث » (٢٠١) وأخرجه أحمد (٢٦٦/١) (٢٣٨٩) وبقى بن مخلد - كما فى «التمهيد » لابن عبد البر (٦١/١١) - وابن أبي عاصم فى « الجهاد » (رقم ٥٢ ، ١٩٣) وأبو يعلى فى « مسنده » (٢٣٣١/٤) ومن طريقه وطريق آخر اختاره الضياء فى « المختارة » (٣٧٥/١٠ ، ٣٧٦) والآجرى فى « الشريعة » (٩٨١/٢) وأبو الشيخ بن حيان فى « جزء فيه أحاديث أبي الزبير » (٨٣) والواحدى فى « أسباب النزول » (ص ١٢٤) كلهم من طريق عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا عبد الله بن إدريس به ، وتابع عثمان أبو كريب - محمد بن العلاء الهمدانى - عن عبد الله بن إدريس به ، أخرجه الواحدى (ص ١٢٣ - ١٢٤) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، وأفاد المنذرى - كما فى « مختصر سنن أبي داود » (٣٧٤/٣) - أن أبا الحسن الدارقطنى ذكر « أن عبد الله بن إدريس تفرد به عن محمد بن =

[١] - في خ : « وقد » .

وروىٰ الحاكم في مستدركه(٤٩٣) ، من حديث أبي إسحاق الفزاري ، عن[١] سفيان عن[٢] إسماعيل بن أبي خالد ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل اللَّه أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ ثم قال : صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه .

وكذا قال قتادة ، والربيع ، والضحاك : إنها نزلت في قتلىٰ أحد .

(حديث آخر) قال أبو بكر بن مردُويه(٤٩٤) : حدثنا عبد اللَّه بن جعفر ، حدثنا هارون بن سليمان ، أنبأنا علي بن عبد اللَّه المديني ، أنبأنا موسىٰ بن إبراهيم بن كثير بن بشير[٣] بن الفاكه الأنصاري سمعت طلحة بن خراش بن عبد الرحمن بن خراش بن الصِّمة[٤] الأنصاري قال : سمعت جابر بن عبد اللَّه قال : نظر إلي رسول اللَّه ﷺ ذات يوم ؛ فقال : « **يا جابر ؛ مالي أراك**

= إسحاق ، وغيره يرويه عن ابن إسحاق لا يذكر فيه - سعيد بن جبير » وقوى المصنف الإسناد المثبت فيه « سعيد بن جبير » مع أن عبد اللَّه بن إدريس خالف رواية الجماعة ، ثم إنه قد اختلف عليه فيه أيضًا - فرواه الجماعة عنه بإثبات « سعيد بن جبير » ورواه يوسف بن بهلول عنه دون إثبات « سعيد بن جبير » أخرجها عبد بن حميد فى « المنتخب » (٦٧٩) ويوسف ثقة كما فى « التقريب » وطريق سفيان الثورى ، الذى أشار إليه المصنف ، لم أهتد إليه ، واللَّه تعالى أعلم .

(٤٩٣) - « المستدرك » (٢/٣٨٧) وقال الحاكم : « حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

(٤٩٤) - وعزاه لابن مردويه السيوطى فى « الدر المنثور » (٢/١٦٨) وأخرجه الواحدى فى « أسباب النزول » (ص ٨٦) والبيهقى فى « دلائل النبوة » (٣/٢٩٨) من طريق على بن عبد اللَّه المدينى به .

وأخرجه الترمذى ، كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة آل عمران (٣٠١٠) ثنا يحيى بن حبيب بن عربى ، وابن ماجه فى المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية (١٩٠) ، كتاب الجهاد ، باب : فضل الشهادة فى سبيل اللَّه (٢٨٠٠) من طريق إبراهيم بن المنذر الحزامى ويحيى بن حبيب بن عربى ، وابن أبى عاصم فى « السنة » (٦٠٢/١) ثنا إبراهيم بن المنذر ، وابن خزيمة فى « صحيحه » (٢/٥٩٩) - ومن طريقه الحاكم فى «المستدرك» (٣/٢٠٣ ، ٢٠٤) : ثنا عبدة بن عبد اللَّه الخزاعى ويحيى بن حبيب ، وابن حبان فى صحيحه (٧٠٢٢/١٥) من طريق يحيى بن حبيب ، أربعتهم (على المدينى ، ويحيى وإبراهيم وعبدة) ثنا موسى بن إبراهيم به . وصحح إسناده الحاكم وسكت عنه الذهبى فى « التلخيص » ، وقال الترمذى : « حديث حسن غريب من هذا الوجه ، وقد روى عبد اللَّه بن محمد بن عقيل عن جابر - انظر ما تقدم هنا برقم (٥٣٨) شيئًا من هذا ، ولا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم ، ورواه على بن عبد اللَّه بن المدينى وغير واحدٍ من كبار أهل الحديث ، هكذا عن موسى بن إبراهيم ، وموسى بن إبراهيم هذا ذكره =

---

[١] - في خ : « عن أبي » .
[٢] - في ت : «بن » .
[٣] - في خ : « شهير » .
[٤] - في خ : « الصمت » .

مهتمًا ؟ » قال : قلت : يا رسول الله ؛ استشهد أبي وترك دينًا وعيالًا قال : فقال : « **ألا أخبرك ما كلم الله أحد قط إلا من وراء حجاب ، وإنه كلم أباك كفاحًا** » - قال علي : و[١] الكفاح المواجهة - « **قال : سلني أعطك**[٢] ، **قال : أسألك أن أرد إلىٰ الدنيا ؛ فأقتل فيك ثانية . فقال الرب - عز وجل - : إنه قد**[٣] **سبق مني القول**[٤] **أنهم إليها لا يرجعون ، قال : أي رب ، فأبلغ من ورائي ، فأنزل الله : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا ﴾** [حتى أنفد][٥] الآية » . ثم رواه من طريق أخرىٰ ، عن محمد بن سليمان بن سليط الأنصاري، [عن أبيه][٦] عن جابر به نحوه ، وكذا رواه البيهقي في دلائل النبوة ، من طريق علي بن المديني به .

وقد رواه البيهقي أيضًا(٤٩٥) ، من حديث أبي عبادة الأنصاري ، وهو عيسىٰ بن عبد الرحمن ، إن شاء الله ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال النبي ﷺ لجابر : « **يا جابر ؛ ألا أبشرك ؟** » قال : بلىٰ ، بشرك الله بالخير ، قال : « **شعرت بأن الله أحيا أباك فقال ، تمن علي عبدي ما شئت أعطكه**[٧] ؛ **قال : يارب ؛ ما عبدتك حق عبادتك أتمنىٰ عليك أن تردني إلىٰ الدنيا ، فأقاتل مع نبيك ، وأقتل فيك مرة أخرىٰ ، قال :**

= ابن حبان فى « الثقات » (٧/٤٤٩) وقال : « كان ممن يخطىء » وفى « التقريب » « صدوق يخطىء » لكن صحح حديثه هذا - كما رأيت - ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وحسنه الترمذى والحديث زاد نسبته السيوطى إلى الطبرانى .

(٤٩٥) - « دلائل النبوة » للبيهقى (٣/٢٩٨) أخبرنا أبو عبد الله الحافظ - وهو فى « المستدرك » (٣/٢٠٣) - وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضى ، قالا : حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، قال : حدثنا محمد بن إسحاق ، قال : حدثنا فيض بن وثيق بصرى ، قال : حدثنا أبو عبادة الأنصارى به وقال الحاكم : « حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » فتعقبه الذهبى بأن « فيض بن وثيق كذاب » قلت : وشيخه أبو عبادة الأنصارى - تحرف فى « المستدرك » إلى « أبو عمارة - واسمه عيسى بن عبد الرحمن بن فروة تركه النسائى ، وقال البخارى وأبو حاتم : « منكر الحديث » زاد أبو حاتم : « ضعيف الحديث ، شبيه بالمتروك ، لا أعلمه روى عن الزهرى حديثًا صحيحًا » ، وقال ابن عدى : « يروى عن الزهرى مناكير » والحديث ذكره الهيثمى فى « المجمع » (٩/٣٢٠) وقال : « رواه الطبرانى والبزار من طريق الفيض بن وثيق عن أبى عبادة الزرقى وكلاهما ضعيف » وقصر فى عزوه السيوطى فى « الدر المنثور » (٢/١٦٨) فعزاه إلى الحاكم فحسب .

[١] - سقط من : خ .
[٢] - في خ : « أعطيك » .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - سقط من : خ .
[٥] - سقط من ت .
[٦] - سقط من : خ .
[٧] - في خ : « أعطيكه » .

إنه سلف مني أنه إليها لايرجع » .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد (٤٩٦) : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي ، عن ابن إسحاق ، حدثنا الحارث بن فضيل الأنصاري ، عن محمود بن لبيد[١] ، عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال : قال رسول اللَّه ، ﷺ : « **الشهداء علىٰ بارق نهر بباب الجنة ، في قبة خضراء ، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية** » .

تفرد به أحمد ، وقد رواه ابن جرير[٢] ، عن أبي كريب ، حدثنا عبد الرحيم بن سليمان ، وعَبَدة[٣] ، عن محمد بن إسحاق ، به . وهو إسناد جيد .

وكأن الشهداء أقسام منهم من تسرح أرواحهم في الجنة ، ومنهم من يكون علىٰ هذا النهر بباب الجنة ، وقد يحتمل أن يكون منتهىٰ سيرهم إلىٰ هذا النهر ، فيجتمعون هنالك ، ويُغدى عليهم برزقهم هناك ويراح ، واللَّه أعلم .

وقد روينا في مسند الإمام أحمد : حديثا فيه البشارة لكل أحد[٤] مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضًا فيها وتأكل من ثمارها ، وترىٰ ما فيها من النضرة والسرور ، وتشاهد ما أعده[٥] اللَّه لها من الكرامة ، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة ؛ فإن الإمام أحمد(٤٩٧) رحمه اللَّه رواه عن محمد بن إدريس الشافعي

---

(٤٩٦) - « المسند » (٢٦٦/١) (رقم ٢٣٩٠) وأخرجه ابن أبي شيبة فى « المصنف » (٥٦٣/٤) وابن جرير (٣٨٧/٧ ، ٣٨٨) وابن أبي حاتم (٤٤٩٤/٣) والطبراني فى « المعجم الكبير » (١٠٨٢٥/١٠) وفى « الأوسط » (١/رقم ١٢٣) من طرق عن ابن إسحاق به وقال الطبراني : « لا يُرْوَى هذا الحديث عن ابن عباس إلا بهذا الإسناد ، تفرّد به محمد بن إسحاق » قلت : وهو صدوق مدلس وقد صرح بالتحديث هنا ولذا جود إسناده المصنف وصححه من طريقه ابن حبان (٤٦٥٨/١٠) والحاكم (٧٤/٢) على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، ومحمد بن إسحاق إنما أخرج له مسلم مقرونًا بغيره !! وذكره الهيثمي فى موضعين من « المجمع » (٢٩٧/٥ ، ٣٠١) قال فى الأول : « رواه أحمد وإسناده رجاله ثقات ورواه الطبراني فى «الكبير» و « الأوسط » وقال فى الثاني : « رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات » والحديث زاد نسبته السيوطي فى « الدر المنثور » (١٧١/٢) إلى عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي فى « البعث » .

(٤٩٧) - « المسند » (٤٥٥/٣) - والحديث فى موطأ مالك ، كتاب الجنائز ، باب جامع الجنائز (٢٠٦/١) - ومن طريق أحمد أخرجه أبو نعيم فى « الحلية » (١٥٦/٩) والبيهقي فى « البعث والنشور » (رقم ٢٠٣) ، وأخرجه النسائي (١٠٨/٤) وابن ماجه (٤٢٧١) والطبراني فى « المعجم الكبير » =

---

[١] - في خ : « أسد » .
[٢] - في ت : « جريج » .
[٣] - في خ : عبيدة » .
[٤] - زيادة من : خ .
[٥] - في ت : « أعد » .

رحمه الله عن مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله ،عن الزهري ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن أبيه - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم : « **نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة ، حتىٰ يرجعه الله إلىٰ جسده يوم يبعثه** » . قوله : « **يعلق**[١] » أي : يأكل[٢] .

وفي هذا الحديث(٤٩٨) : « **إن روح المؤمن تكون علىٰ شكل طائر في الجنة** » . وأما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر ، فهي كالكوالب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين فإنها تطير بنفسها ، فنسأل الله الكريم المنان أن يميتنا[٣] علىٰ الإيمان .

[قوله تعالىٰ][٤] : ﴿ **فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ أي : الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند ربهم[٥] ، وهم فرحون[٦] بما هم فيه من النعمة والغبطة ، ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يَقْدمُون عليهم ، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ، ولا يحزنون علىٰ ما تركوه وراءهم .

= (١٩/رقم ١٢٠) ، والآجرى فى « الشريعة » (٢/٩٨٠) من طرق عن مالك بن أنس به ، وأخرجه أحمد (٣/٤٥٥ ، ٤٥٦) (٦/٣٨٦) والترمذى (١٦٤١) وابن حبان (١٠/٤٦٥٧) والطبرانى (١٩/١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٤) والبيهقى (٢٠٢) من طرق عن الزهرى به وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » غير أن لفظ الرواية عنده « إن أرواح الشهداء فى طير خضر تَعْلُقُ من ثمرة الجنة ، أو شجر الجنة » وقد تفرد بهذه الرواية سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن الزهرى به ، والثقات من الرواة إنما رووه بلفظ « المسلم » أو «المؤمن» وقد حكم على رواية سفيان بالشذوذ الألبانى فى « الصحيحة » (٢/٩٩٥) ورواه الحميدى فى « مسنده» (٨٧٣) عن سفيان عن عمرو بن دينار بلفظ الجادة « إن نسمة المؤمن ... » !! .

(٤٩٨) - لم أهتد له . وأقرب لفظ لما أورده المصنف ، ما أخرجه الطبرانى فى « المعجم الكبير » (١٩/١٢٣) ثنا جعفر بن محمد الفريابى ، ثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقى ، ثنا شعيب بن إسحاق ، ثنا الأوزاعى ، حدثنى الزهرى حدثنى عبد الرحمن بن كعب عن كعب قال : لما حضرت الوفاة ، أتته أم مبشر ، فقالت : اقرأ على ابنى السلام ، فقال لها : أوما سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **روح المؤمن طائر تعلق فى شجر الجنة حتى يبعث يوم القيامة ؟** » قالت : بلى ولكن وهلت . قال الهيثمى فى « المجمع » (٢/٣٣٢) : « رجاله رجال الصحيح » قلت : وسنده متصل وقد رواه محمد بن إسحاق عن الحارث بن فضيل عن الزهرى بهذا الإسناد : لكنه أخطأ فى لفظه فانظر « الصحيحة » للألبانى (٢/رقم ٩٩٥) .

[١] - في خ : « تعلق » .
[٢] - في خ : « تأكل » .
[٣] - في خ : « يثبتنا » .
[٤] - في خ : « وقوله » .
[٥] - في خ : « الله » .
[٦] - في خ : « فرحين » .

[نسأل اللَّه الجنة][١] . وقال محمد بن إسحاق ﴿ **ويستبشرون** ﴾ أي : ويسرون بلحوق من خلفهم من إخوانهم علىٰ ما مضوا عليه من جهادهم ، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب اللَّه الذي أعطاهم .

قال[٢] السدي : يؤتىٰ الشهيد بكتاب فيه : يقدم عليك فلان ، يوم كذا وكذا ، ويقدم عليك فلان ، يوم كذا وكذا ؛ فيسر بذلك كما يسر أهل الدنيا بغائبهم بقدوم غيابهم .

قال سعيد بن جبير : لما دخلوا الجنة ، ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا : يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة ؛ فإذا شهدوا القتال باشروها بأنفسهم حتىٰ يستشهدوا فيصيبوا ما أصبنا من الخير ؛ فأخبر رسول اللَّه ﷺ بأمرهم وما هم فيه من الكرامة ؛ وأخبرهم أي : [ربهم أني][٣] قد أنزلت علىٰ نبيكم وأخبرته بأمركم وما أنتم فيه فاستبشروا بذلك ؛ فذلك قوله : ﴿ **ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم** ﴾ . الآية .

وقد ثبت في الصحيحين(٤٩٩) عن أنس رضي اللَّه عنه في قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار الذين قتلوا في غداة واحدة ؛ وقنت رسول اللَّه ﷺ علىٰ الذين قتلوهم يدعوا عليهم ويلعنهم ؛ قال أنس : ونزل فيهم قرآن قرأناه حتىٰ رفع : « **أن بلغوا عنا قومنا أنا قد[٤] لقينا ربنا ، فرضي عنا وأرضانا** » .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **يستبشرون بنعمة من اللَّه وفضل وأن اللَّه لا يضيع أجر المؤمنين** ﴾ قال[٥] محمد بن إسحاق : استبشروا وسروا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذه الآيات جمعت المؤمنين كلهم سواء الشهداء وغيرهم ، وقلما ذكر اللَّه فضلًا [ذكر به][٦] الأنبياء وثوابًا أعطاهم اللَّه إياه ، إلا ذكر ما أعطىٰ اللَّه[٧] المؤمنين من بعدهم . وقوله تعالىٰ : ﴿ **الذين استجابوا للَّه والرسول من بعد ما أصابهم**

(٤٩٩) - أخرجه البخاري ، كتاب المغازي ، باب : غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة (٤٠٨٨) وانظرأطرافه عند رقم (١٠٠١) ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٢٩٧ : ٣٠٤) (٦٧٧) من طرق عن أنس ، وانظر ما تقدم برقم (٥٣٤).

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٢] - في خ : « وقال » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٤] - سقط من : خ .
[٥] - في خ : « وقال » .
[٦] - في خ : « ذكرته » .
[٧] - سقط من : ت .

القرح ﴾ هذا كان يوم حمراء الأسد ، وذلك أن المشركين لما أصابوا [ما أصابوا][١] من المسلمين كروا راجعين إلىٰ بلادهم ، فلما استمروا في سيرهم ندموا لم لاتمموا علىٰ أهل المدينة وجعلوها الفيصلة ، فلما بلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ ندب المسلمين[٢] إلىٰ الذهاب وراءهم ليرعبهم وليريهم[٣] أن بهم قوة وجلدًا ، ولم يأذن لأحد سوىٰ من حضر الوقعة يوم أحد سوىٰ جابر بن عبد اللَّه - رضي اللَّه عنه - لما سنذكره ، فانتدب المسلمون علىٰ ما بهم من الجراح والإثخان طاعة للَّه ولرسوله صلىٰ اللَّه عليه وسلم .

قال[٤] ابن أبي حاتم (٥٠٠) : حدثنا محمد بن عبد اللَّه بن يزيد ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن عمرو ، عن عكرمة ؛ قال : لما رجع المشركون عن أحد قالوا : لا محمدًا قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ؛ بئس ما صنعتم ؛ ارجعوا ، فسمع رسول اللَّه ﷺ بذلك ، فندب المسلمين فانتدبوا حتىٰ بلغوا[٥] حمراء الأسد- أو بئر أبي عيينة- الشك من سفيان- فقال المشركون : نرجع من قابل ، فرجع رسول اللَّه ﷺ ، فكانت تعد غزوة ، فأنزل اللَّه تعالىٰ[٦] : ﴿ **الذين استجابوا للَّه والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم** ﴾ وروىٰ[٧] ابن مردُويه (٥٠١) من حديث محمد بن منصور عن سفيان بن عيينة ، عن عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ... فذكره .

---

(٥٠٠) - تفسير ابن أبي حاتم (٤٥١٠/٣) هكذا مرسلاً ورجاله ثقات رجال الشيخين غير محمد بن عبد اللَّه ابن يزيد ، فروى له النسائي - ووثقه - وابن ماجه ، وقال ابن أبي حاتم : « هو صدوق ثقة » ، وقال الخليلي : « ثقة متفق عليه » لكن خالفه غيره ، فوصل الحديث - انظر الآتي .

(٥٠١) - وعزاه لابن مردويه الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٢٢٨/٨) وأخرجه النسائي في « التفسير » من « الكبرى » (١١٠٨٣/٦) والطبراني في « المعجم الكبير » (١١٦٣٢/١١) من طريق محمد بن منصور به موصولاً. وذكره الهيثمي في « المجمع » (١٢٤/٦) وقال : « رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الجواز وهو ثقة » وصحح إسناده السيوطي في « الدر المنثور » (١٧٨/٢) غير أن الحافظ أعله فقال في « الفتح » (٢٢٨/٨ ، ٢٢٩) « المحفوظ إرساله عن عكرمة ، ليس فيه ابن عباس ، ومن الطريق المرسلة أخرجه ابن أبي عاصم وغيره » ومِنْ هذا الغير عبد الرزاق ، فرواه في تفسيره (١٤٠/١) أنا ابن عيينة عن عمرو عن عكرمة مرسلاً بنحوه ، وهذه متابعة قوية لـ « محمد بن عبد اللَّه بن يزيد » لكن تبين من رواية الطبراني أن سفيان بن عيينة هو الذي حدَّث به موصولاً ومرسلاً ، واللَّه أعلم .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٢] - في خ : « المسلمون » .

[٣] - في خ : « ويريهم » .

[٤] - في خ : « وقال » .

[٥] - في خ : « بلغ » .

[٦] - في خ : « عز وجل » .

[٧] - في خ : « وقال » .

وقال محمد بن إسحاق(٥٠٢) : كان يومُ أحد يوم السبت للنصف من شوّال ، فلما كان الغد من يوم الأحد لستٍّ عشرة ليلةً مضت من شوال أذَّن مؤذن رسولِ اللَّه ﷺ في الناس بطلب العدو ، وأذن مؤذنه : أن لا يخرجن[١] معنا أحد إلا من[٢] حضر يومنا بالأمس ، فكلمه جابر بن عبد اللَّه بن عمرو بن حرام ، فقال : يا رسول اللَّه ؛ إن أبي كان خلفني علىٰ أخوات لي سبع ، وقال : يا بُني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن ؛ ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول اللَّه ﷺ علىٰ نفسي ، فتخلف على أخواتك ، فتخلفت عليهن ؛ فأذن له رسول اللَّه ﷺ فخرج معه ؛ وإنما خرج رسول اللَّه ﷺ مرهبًا للعدو وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة ؛ وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوّهم .

[قال محمد][٣] بن إسحاق(٥٠٣) : فحدثني عبد اللَّه بن خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أبي السائب مولىٰ عائشة بنت عثمان ، أن رجلًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ من بني عبد الأشهل ، كان قد[٤] شهد أحدًا ، قال : شهدنا أحدًا مع رسول اللَّه ﷺ أنا وأخي فرجعنا جريحين ؛ فلما أذن مؤذن رسول اللَّه ﷺ بالخروج في طلب العدو قلت ، لأخي- أو قال لي- : أتفوتنا غزوة مع رسول اللَّه ﷺ ؟ واللَّه ما لنا من دابة نركبها ؛ وما منا إلا جريح ثقيل ؛ فخرجنا مع رسول اللَّه ﷺ ؛ وكنت أيسر جراحًا منه : فكان إذا غلب حملته عقبة ؛ ومشىٰ عقبة حتىٰ انتهينا إلىٰ ما انتهىٰ إليه المسلمون .

(٥٠٢) - وكذا هو في « السيرة » لابن هشام (٦١٥/٣) وفى « فتح البارى » (٣٧٣/٧ ، ٣٧٤) من كلام ابن إسحاق ، لكن أسنده ابن جرير فى تفسيره (٨٢٣٣/٧) ثنا ابن حميد ، ثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، قال : حدثنى حسين بن عبد اللَّه عن عكرمة فذكره وحسين بن عبد اللَّه ، ضعيف كما فى « التقريب » وقد رواه البيهقى فى « دلائل النبوة » (٣١٤/٣) من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق عن شيوخه فذكره وعزاه الحافظ فى « الفتح » إلى عبد بن حميد .

(٥٠٣) - « السيرة » لابن هشام (٦١٥/٣ ، ٦١٦) ومن طريق ابن إسحاق أخرجه ابن جرير فى تفسيره (٨٢٣٤/٧) والبيهقى فى « دلائل النبوة » (٣١٤/٣) به وعبد اللَّه بن خارجة لم يوثقه غير ابن حبان «الثقات» (٣٢/٧) وشيخه لم أهتد لترجمته . وقد أشار لهذا الإسناد البخارى فى « التاريخ الكبير » (٧٩/٥) وقال : «عبد اللَّه بن خارجة بن زيد بن ثابت الأنصارى ، سمع عروة بن الزبير وأباه ، روى عنه الزهرى وبكير بن الأشج ، وقال ابن إسحاق : حدثنى عبد اللَّه بن خارجة بن زيد ، عن أبى السائب مولى عائشة بنت عثمان ، هو أخو سليمان » يعنى عبد اللَّه . وسليمان هذا مترجم فى « التهذيب » والخبر زاد نسبته السيوطى فى « الدر المنثور » (١٧٩/٢) إلى عبد بن حميد وابن المنذر .

[١] - في خ : « يخرج » .
[٢] - في خ : « أحد » .
[٣] - في خ : « وقال » .
[٤] - سقط من : خ .

وقال البخاري (٥٠٤) : حدثنا محمد بن سلام ، حدثنا أبو معاوية عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة رضي اللَّه عنها : ﴿ **الذين استجابوا للَّه والرسول** ﴾ . الآية . قالت لعروة : يا بن أختي ، كان أبواك منهم الزبير ، وأبو بكر رضي اللَّه عنهما لما أصاب نبي اللَّه ﷺ ما أصابه يوم أحد ، وانصرف عنه المشركون ، خاف أن يرجعوا ، فقال : « **من يرجع في أثرهم ؟** » فانتدب منهم سبعون رجلًا ، فيهم أبو بكر والزبير ، رضي الله عنهما .

هكذا رواه البخاري منفردًا بهذا السياق ؛ وهكذا رواه الحاكم في مستدركه (٥٠٥) ، عن الأصم ، عن عباس الدوري ، عن أبي النضر ، عن أبي سعيد المؤدب ، عن هشام بن عروة به . ثم قال صحيح الإِسناد[١] ولم يخرجاه . كذا[٢] قال . [وقد رواه الحاكم][٣] أيضًا(٥٠٦) من حديث إسماعيل بن أبي خالد ، عن البهي[٤] ، عن عروة ، وقال : قالت لي عائشة : [يا بني][٥] إن أباك من الذين استجابوا للَّه والرسول من بعد ما أصابهم القرح . ثم قال : صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه .

ورواه ابن ماجة (٥٠٧) ، عن هشام بن عمار وهدية بن عبد الوهاب ، عن سفيان بن عيينة ، عن هشام بن عروة به ؛ وهكذا رواه سعيد بن منصور وأبو بكر الحميدي في مسنده عن سفيان

---

(٥٠٤) - صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، باب ﴿ الذين استجابوا لله والرسول ﴾ (٤٠٧٧) ، و أخرجه البيهقى فى « دلائل النبوة » (٣/٣١٢ ، ٣١٣) من طريق أبى معاوية به نحوه وانظر ما بعده .

(٥٠٥) - « المستدرك » (٢/٢٩٨) غير أنه فيه أن عائشة قالت ذلك لعبد اللَّه بن الزبير وليس لعروة ، ولعل هذا علة استدراكه على الشيخين ، لا سيما وقد وافقه الذهبى في هذا ولم يتعقبه . وقد أخرجه ابن جرير (٨٢٣٩/٧) حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا هاشم بن القاسم - أبو النضر - به وانظر ما بعده .

(٥٠٦) - « المستدرك » (٣/٣٦٣) أخبرنا الحسن بن يعقوب العدل ، ثنا محمد بن عبد الوهاب العبدى ، أنا جعفر بن عون ، أنا إسماعيل بن أبى خالد به وقال : « حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » واستدركه الذهبى فحذفه من « التلخيص » حيث أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل طلحة والزبير (٥٢) (٢٤١٨) حدثنا أبو كريب محمد العلاء ، ثنا وكيع ، حدثنا إسماعيل به ، وأخرجه ابن أبى شيبة فى « المصنف » (٥١٠/٧) ثنا وكيع عن إسماعيل به .

(٥٠٧) - سنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب فضل الزبير - رضى اللَّه عنه - (١٢٤) وأخرجه سعيد بن منصور كما في « الدر المنثور » (٢/١٧٩) - والحميدى في « مسنده » (١/رقم ٢٦٣) وابن جرير (٨٢٤١/٧) من طريق سفيان به ، وأخرجه مسلم (٥١) (٢٤١٨) من طرق عن هشام بن عروة به .

---

[١] - سقط من : خ .
[٢] - في خ : « وكذا » .
[٣] - في خ : « ورواه » .
[٤] - في خ : « الهني » .
[٥] - سقط من : خ .

به .

وقال[١] أبو بكر بن مردويه (٥٠٨) : حدثنا عبد الله بن جعفر ، من أصل كتابه ، أنبأنا سمويه[٢] ، أنبأنا عبد الله بن الزبير ، أنبأنا سفيان ، أنبأنا هشام ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ : « **إن كان أبواك لمن الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح : أبو بكر والزبير ، رضي الله عنهما** » .

ورفع هذا الحديث خطأ محض من جهة إسناده ؛ لمخالفته رواية الثقات ، من وقفه على عائشة رضي الله عنها كما قدمناه ؛ ومن جهة معناه : فإن الزبير ليس هو من آباء عائشة ؛ وإنما قالت ذلك عائشة لعروة بن الزبير لأنه ابن أختها أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهم .

وقال ابن جرير (٥٠٩) : حدثني محمد بن سعد ، حدثني أبي ، [حدثني عمي][٣] ، حدثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن الله قذف في قلب أبي سفيان الرعب يوم أحد بعدما[٤] كان منه ما كان ، فرجع إلى مكة ، فقال النبي ﷺ : « **إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفًا ، وقد رجع وقد قذف الله في قلبه الرعب** » . وكانت وقعة أحد في شوال ، وكان التجار يقدمون المدينة في ذي القعدة ، فينزلون ببدر الصغرى في كل سنة مرة ، وإنهم قدموا بعد وقعة أحد ، وكان أصاب المؤمنين القرح ، واشتكوا ذلك إلى النبي ﷺ ، واشتد عليهم الذي أصابهم ، وأن رسول الله ﷺ ندب[٥] الناس لينطلقوا معه ، ويتبعوا ما كانوا متبعين ، وقال : « **إنما يرتحلون الآن فيأتون[٦] الحج ولا يقدرون على مثلها حتى عام مقبل** » . فجاء الشيطان يخوف[٧] أولياءه فقال : إن الناس قد جمعوا لكم ، فأبى عليه الناس أن يتبعوه ، وقال : « **إني ذاهب وإن لم يتبعني أحد ؛ لأحضض الناس** » . فانتدب[٨] معه الصديق وعمر وعثمان ، وعلي

(٥٠٨) - لم أهتد إليه في غير هذا الموضع ولا أعرف من المتهم برفعه ، فإن رجاله كلهم ثقات أثبات ، وعبد الله بن الزبير هو الحميدى وسفيان هو ابن عيينة وسَمُّويه هو الإمام الثقة أبو بشر إسماعيل بن عبد الله بن مسعود وعبد الله بن جعفر هو ابن أحمد بن فارس مترجمان فى « السير » للذهبى (١٣/١٠) ، (١٥/٥٥٣) .

(٥٠٩) - تفسير ابن جرير (٨٢٣٨/٧) وإسناده مسلسل بالضعفاء أولهم راويه عن ابن عباس وهو عطية العوفى .

[١] - في خ : « قال » .
[٢] - في خ : « ميمونة » .
[٣] - في خ : « عمر » .
[٤] - في خ : « الذي » .
[٥] - في خ: « انتدب » .
[٦] - في خ : « فتأتون » .
[٧] - في خ : « فخوف » .
[٨] - سقط من : خ .

والزبير ، وسعد وطلحة ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وأبو عبيدة بن الجراح في سبعين رجلًا ، فساروا في طلب أبي سفيان فطلبوه ، حتىٰ بلغوا الصفراء ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ **الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح** ﴾ . الآية . ثم قال ابن إسحاق (٥١٠) : فخرج رسول الله ﷺ حتىٰ انتهىٰ إلىٰ حمراء الأسد ، وهي من المدينة علىٰ ثمانية أميال .

قال ابن هشام : واستعمل علىٰ المدينة ابن أم مكتوم ، فأقام بها الإثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلىٰ المدينة ، وقد مر به كما حدثني عبد الله بن أبي بكر معبد بن أبي معبد الخزاعي ، وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح لرسول الله ﷺ بتهامة صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئًا كان بها ، ومعبد يومئذ كان مشركًا ، فقال : يا محمد ؛ أما والله لقد عز علينا ما أصابَك في أصحابِك ، ولوددنا أن الله عافاك فيهم ، ثم خرج ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد ، حتىٰ لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلىٰ رسول الله ﷺ وأصحابه ، وقالوا : أصبنا [محمدًا و][1] أصحابه وقادتهم وأشرافهم ، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ؟ لنكرّنّ علىٰ بقيتهم ، [ثم لنفرغنّ][2] منهم ، فلما رأى أبو سفيان معبدًا قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج [في أصحابه][3] يطلبكم في جمع لم أر مثله قطُّ ، يتحرقون عليكم تحرقًا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم ، وندموا علىٰ ما صنعوا فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط ، قال : ويلك ما تقول ؟ قال : والله ، ما أرىٰ أن ترتحل حتىٰ ترىٰ نواصي الخيل ، قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم ، قال : فإني أنهاك عن ذلك ، ووالله لقد حملني ما رأيت علىٰ أن قلت فيهم أبياتًا من شعر ، قال : وما قلت ؟ قال قلت :

كَادَتْ تُهَدّ مِنَ الأَصْواتِ رَاحِلَتِي ... إذ سَالَتِ الأَرْضُ بالجُردِ الأَبابيلِ
تَـرْدىٰ بـأُسدٍ كـرامٍ لا تـنـابـلـة ... عـنـد الـلـقـاءِ ولا مـيـل معـازيـل
فَظلْتُ عدوًا أظنُّ الأرضَ مائلةً ... لما سموا برئيسٍ غيرِ مخذولِ
فقلتُ ويل ابنِ حربٍ من لقائِكمُ ... إذا تغطمطتِ البطحاءُ بالجيلِ
إني نذيرٌ لِأهلِ البَسْلِ ضاحيةً ... لكلِّ ذي إربةٍ منهم ومعقولِ
من جيش أحمدَ لا وخش تنابلة ... وليس يوصف ما أنذرت بالقيل

قال : فثنىٰ ذلك أبا سفيان ومن معه .

---

(٥١٠) - « السيرة » لابن هشام (٣/٦١٦ ، ٦١٧) .

---

[١] - في خ : « حد » .
[٢] - في خ : « فلنفرغنّ » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

ومرّ به ركب من بني عبد القيس ، فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة ، قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة ؟ قال : فهل أنتم مبلغون عني محمدًا رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل لكم هذه غدا زبيبًا بعكاظ إذا وافيتمونا ؟ قالوا : نعم ، قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا المسير إليه وإلىٰ أصحابه ، لنستأصل بقيتهم ، فمر الركب برسول اللَّه ﷺ وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه ، فقالوا[١] : ﴿ **حسبنا اللَّه ونعم الوكيل** ﴾ وذكر[٢] ابن هشام عن أبي عبيدة قال : قال رسول اللَّه ﷺ حين بلغه رجوعهم : « **والذي نفسي بيده ، لقد سومت لهم حجارة لو صبحوا بها لكانوا كأمس الذاهب** » .

وقال الحسن البصري (٥١١) في قوله : ﴿ **الذين استجابوا للَّه والرسول من بعد ما أصابهم القرح** ﴾ : إن أبا سفيان وأصحابه أصابوا من المسلمين ما أصابوا ، ورجعوا ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن أبا سفيان قد رجع وقد قذف اللَّه في قلبه الرعب[٣] ؛ فمن ينتدب في طلبه ؟** » فقام النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وناس من أصحاب رسول اللَّه ﷺ ، فتبعوهم ، فبلغ أبا سفيان أن النبي ﷺ يطلبه ، فلقي عيرًا من التجار ، فقال : ردوا محمدًا ولكم من الجعل كذا وكذا ، وأخبروهم أني قد جمعت لهم[٤] جموعًا ، وأني[٥] راجع إليهم ، فجاء التجار ، فأخبروا رسول اللَّه ﷺ بذلك ، فقال النبي ﷺ : ﴿ **حسبنا اللَّه ونعم الوكيل** ﴾ فأنزل اللَّه هذه الآية ، وهكذا قال عكرمة وقتادة وغير واحد : إن هذا السياق نزل في شأن غزو[٦] حمراء الأسد . وقيل : نزلت في بدر الموعد ، والصحيح الأول ، وقوله تعالىٰ ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا** ﴾ . الآية . أي : الذين توعدهم الناس بالجموع[٧] ، وخوفوهم بكثرة الأعداء ، فما اكترثوا لذلك ، بل توكلوا علىٰ اللَّه ، واستعانوا به ، ﴿ **وقالوا حسبنا اللَّه ونعم الوكيل** ﴾ .

وقال البخاري (٥١٢) : حدثنا أحمد بن يونس - [أراه قال][٨] : - حدثنا أبو بكر ، عن أبي

(٥١١) - أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٤٥١٢/٣) ثنا أبي ، ثنا موسى بن إسماعيل ، ثنا مبارك عن الحسن به مرسلاً .

(٥١٢) - صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ﴾ الآية (٤٥٦٣) وأخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢٩٨/٢) ومن طريقه - من غير طريق « المستدرك » =

[١] - في خ : « فقال » .
[٢] - في خ : « وقال » .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - سقط من : ت .
[٥] - في خ : « وأنني » .
[٦] - سقط من : خ .
[٧] - سقط من : ت .
[٨] - في خ : « قال أراه » .

حصين ، عن أبي الضحىٰ ، عن ابن عباس ، ﴿ **حسبنا اللّٰه ونعم الوكيل** ﴾ ، قالها إبراهيم [عليه السلام] حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين ﴿ [**قال لهم الناس**][١] : **إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا اللّٰه ونعم الوكيل** ﴾ .

وقد رواه النسائي(٥١٣) عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ، وهارون بن عبد اللّٰه ، كلاهما عن يحيىٰ بن أبي بكير ، عن أبي بكر - وهو ابن عيّاش به . والعجب أن الحاكم [أبا عبد اللّٰه][٢] رواه من حديث أحمد بن يونس به ، ثم قال : صحيح الإسناد[٣] على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه . ثم رواه البخاري(٥١٤) عن أبي غسان مالك بن إسماعيل ، عن إسرائيل ، عن أبي حصين ، عن أبي الضحىٰ ، عن ابن عباس : قال : كان آخر قول إبراهيم - عليه السلام - حين ألقي في النار ﴿ **حسبنا اللّٰه ونعم الوكيل** ﴾ .

وقال عبد الرزاق (٥١٥) : قال ابن عيينة ، وأخبرني زكريا ، عن الشعبي ، عن عبد اللّٰه بن عمرو ، وقال[٤] : هي كلمة إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار[٥] . رواه ابن جرير .

وقال أبو بكر بن مردُويه(٥١٦) : حدثنا محمد بن معمر ، حدثنا إبراهيم بن موسىٰ الثوري ،

= - البيهقى فى « دلائل النبوة » (٣١٧/٣) من طريق أحمد بن يونس به وقال الحاكم : « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى فوهما ، فالحديث كما ترى عند البخارى ، وأشار لوهمه هذا غير المصنف الحافظ ابن حجر فى « الفتح » (٢٢٩/٨) .

(٥١٣) - تفسير النسائى من « السنن الكبرى » (١١٠٨١/٦) وأخرجه فى « عمل اليوم والليلة » (٦/ ١٠٤٣٩) أخبرنا هارون بن عبد اللّٰه قال : حدثنا يحيى بن بكير به ، والبيهقى فى « الأسماء والصفات » (١/رقم ١٤٦) من طريق محمد بن إسحاق ثنا يحيى بن بكير به . وأخرجه ابن أبى حاتم فى « تفسيره » (٤٥٢١/٣) من طريق أبى داود الطيالسى ، ثنا قيس عن أبى حصين به .

(٥١٤) - صحيح البخارى ، كتاب التفسير ، باب ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ﴾ (٤٥٦٤).

(٥١٥) - تفسير عبد الرزاق (١٤٠/١ ، ١٤١) ومن طريق عبد الرزاق أخرجه ابن جرير فى « تفسيره » (٧/ ٨٢٥٠) وأخرجه ابن أبى شيبة فى « المصنف » (٤٤٩/٧) ثنا الفضل بن دكين ، عن سفيان ، عن فراس ، عن الشعبى به ورجاله ثقات رجال الشيخين ، لكن نفى ابن معين سماع الشعبى من عمرو بن العاص ، والأثر زاد نسبته السيوطى فى « الدر المنثور » (١٨١/٢) إلى ابن المنذر .

(٥١٦) - وعزاه لابن مردويه السيوطى فى « الدر المنثور » (١٨٠/٢) . وأشار إلى رواية ابن مردويه أيضًا الحافظ ابن حجر فى « الفتح » (٢٢٩/٨) ورجاله ثقات إلا أن فيه عنعنة حميد الطويل ، وأخرجه =

[١] - في خ : « قالوا » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - في خ : « قال » .
[٥] - في خ : « البنيان » .

أخبرنا عبد الرحيم بن محمد بن زياد السكري ، أنبأنا أبو بكر بن عياش ، عن حميد الطويل ، عن أنس بن مالك ، عن النبي ﷺ أنه قيل له يوم أحد : إن الناس قد جمعوا لكم ؛ فاخشوهم ، فأنزل الله هذه الآية وروى[١] أيضًا بسنده(٥١٧) ، عن محمد بن عبيد الله الرافعي ، عن أبيه ، عن جده أبي رافع ، أن النبي ﷺ : وجه عليًا في نفر معه ، في طلب أبي[٢] سفيان ، فلقيهم أعرابي من خزاعة ، فقال : إن القوم قد جمعوا لكم ، فقالوا[٣] : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فنزلت فيهم هذه الآية .

ثم قال ابن مردويه(٥١٨) ، حدثنا دعلج بن أحمد ، أخبرنا الحسن بن سفيان ، أنبأنا أبو خيثمة ابن[٤] مصعب بن سعيد ، أنبأنا موسىٰ بن أعين ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾** » .

هذا حديث غريب من هذا الوجه . وقد قال الإمام أحمد(٥١٩) : حدثنا حيوة بن شريح ،

= الخطيب البغدادى فى « تاريخ بغداد » (٨٦/١١) أخبرنا الحسن بن الحسين النعالى ، أخبرنا عبد الله بن العباس الشطوى ، ثنا إبراهيم بن موسى به ، وأخرجه أبو نعيم فى « الحلية » (١٩/١) ثنا القاضى عبد الله بن محمد بن عمر ثنا عبد الله بن العباس الطيالسى ، ثنا عبد الرحيم بن محمد به ، والحديث لم يعزه السيوطى لغير ابن مردويه والخطيب .

(٥١٧) - وعزاه لابن مردويه السيوطى فى « الدر المنثور » (١٨٠/٢) . ومحمد بن عبيد الله الرافعي هذا ضعفه أبو حاتم وقال ابن معين : « ليس بشيء » وقال البخارى : « منكر الحديث » وأما أبوه عبيد الله وهو ابن أبى رافع مولى النبى ﷺ فوثقه أبو حاتم والخطيب وابن سعد وغيرهم وروى له الجماعة .

(٥١٨) - وعزاه لابن مردويه السيوطى فى « الدر المنثور » (١٨١/٢) . وأبو خيثمة مصعب بن سعيد هذا قال ابن عدي فى « الكامل » (٢٣٦٢/٦) : « يحدث عن الثقات بالمناكير ويصحف عليهم ، والضعف على حديثه بَيِّنٌ » وقال صالح جزرة : « شيخ ضرير ، لا يدرى ما يقول » ومع هذا فقد ذكره ابن حبان فى « الثقات » (١٧٥/٩) قال : « ربما أخطأ ، يعتبر حديثه ، إذا روى عن الثقات ، وبين السماع فى خبره لأنه كان مدلسًا ، وقد كف فى آخر عمره » .

(٥١٩) - « المسند » (٢٤/٦) وأخرجه أبو داود ، كتاب الأقضية باب الرجل يحلف على حقه (٣٦٢٧) - ومن طريقه البيهقى فى « السنن الكبرى » (١٨١/١٠) والنسائى فى عمل اليوم والليلة من « الكبرى » (٦/ ١٠٤٦٢) والبزار فى « مسنده » (٢٧٤٩/٧) والطبرانى في « المعجم الكبير » (١٨/رقم ٩٧ ، ١٣٩) والمزى فى « تهذيب الكمال » (٣٣٨/١٢) من طرق عن بقية وفى إسناده سيف الشامي وثقه ابن حبان والعجلى ، لكن قال النسائى : « لا أعرفه » ، وقال الذهبى : « لا يعرف » واكتفى ابن حجر =

[١] - في خ : « وقال » .
[٢] - في خ : « أبا » .
[٣] - في خ : « قالوا » .
[٤] - سقط من : خ .

وإبراهيم بن أبي العباس ، قالا : حدثنا بقية[١] ، حدثنا بحير بن سعد[٢] ، عن خالد بن معدان ، عن سيف ، عن عوف بن مالك ، أنه حدثهم : أن النبي ﷺ قضىٰ بين رجلين ؛ فقال المقضي عليه لما أدبر : حسبي اللَّه ونعم الوكيل ؛ فقال النبي[٣] ، ﷺ : « **ردّوا عليّ الرجل** » . فقال : « **ما قلت ؟** » قال : قلت : حسبي اللَّه ونعم الوكيل ، فقال النبي ﷺ : « **إن اللَّه يلوم علىٰ العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر فقل : حسبي اللَّه ونعم الوكيل** » .

وكذا رواه أبو داود ، والنسائي من حديث بقية ، عن بحير عن خالد ، عن سيف وهو الشامي ولم ينسب عن عوف بن مالك ، عن النبي ﷺ بنحوه .

وقال الإمام أحمد (٥٢٠) : حدثنا أسباط ، حدثنا مطرف ، عن عطية ، عن ابن عباس [في قوله : ﴿ **فإذا نقر في الناقور** ﴾][٤] قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **كيف أنعم وصاحب القرن ، قد التقم القرن وحنىٰ جبهته يستمع[٥] متىٰ يؤمر فينفخ** » . فقال أصحاب [رسول اللَّه][٦] صلىٰ اللَّه عليه وسلم فما نقول ؟ قال : « **قولوا : حسبنا اللَّه ونعم الوكيل ، علىٰ اللَّه توكلنا** » .

وقد روي هذا من غير وجه ، وهو حديث جيد ، [وقد روينا][٧] عن أم المؤمنين عائشة ، وزينب [بنت جحش][٨] رضي اللَّه عنهما أنهما تفاخرتا[٩] ، فقالت زينب : زوجني اللَّه ،

= في « التهذيب » بنقل توثيق العجلي له ، وذِكْر ابن حبان له في « الثقات » !! .

(٥٢٠) - « المسند » (٣٢٦/١) وأخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٩٦/٧) - ومن طريقه الطبراني في « الكبير » (١٢٦٧١/١٢) وابن جرير في تفسيره (١٥٠/٢٩ - ١٥١) وابن أبي حاتم - كما يأتي عند المصنف (سورة المدثر آية٨) - وابن أبي الدنيا في « الأهوال » (رقم ٥٣) من طريق أسباط بن محمد - مقرونا به محمد بن فضيل عند ابن جرير - عن مطرف به . وأخرجه الطبراني أيضًا (١٢٦٧٠/١٢) والحاكم في « المستدرك » (٥٥٩/٤) من طريق مطرف به . وأخرجه الطبراني في « الأوسط » (٣٦٦٣/٤) من طريق إدريس الأودى عن عطية به ، وعطية هو ابن سعد العوفي ضعفه أحمد والنسائي وابن عدى وغيرهم . وبه أعل الحديث الهيثمي في « المجمع » (١٣٤/٧) ، (٣٣٤/١٠) وكذا الذهبي في « تلخيص المستدرك » وقد اضطرب في سنده عطية هذا فرواه عن ابن عباس - كما هنا - ورواه عن أبي سعيد الخدري كما يأتي تخريجه سورة الكهف آية ٩٩ .

---

[١] - في خ : « قتيبة » .
[٢] - في خ : « سعيد » .
[٣] - في خ : « رسول اللَّه » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٥] - في خ : « يسمع » .
[٦] - في خ : « محمد » .
[٧] - في خ : « وروي » .
[٨] - سقط من ت .
[٩] - في خ : « تفاخرا » .

وزوجكن أهاليكن ، وقالت : عائشة : نزلت براءتي من السماء في القرآن ؛ فسلمت لها زينب ، ثم قالت : كيف قلت حين ركبت راحلة صفوان بن المعطل ، قالت : قلت : حسبي الله ونعم الوكيل ، قالت[١] زينب : قلت كلمة المؤمنين(٥٢١) .

ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء** ﴾ أي : لما توكلوا علىٰ الله كفاهم ما أهمهم ، ورد عنهم بأس من أراد كيدهم ، فرجعوا إلىٰ بلدهم ، ﴿ **بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء** ﴾ مما أضمر لهم عدوهم ، ﴿ **واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم** ﴾ .

وقال البيهقي (٥٢٢) : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا[٢] أبو بكر بن داود الزاهد ، حدثنا محمد بن نعيم ، حدثنا بشر بن الحكم ، حدثنا مبشر بن عبد الله بن رزين ، حدثنا سفيان بن حسين ، عن يعلى بن مسلم ، عن عكرمة ، عن ابن عباس في قول الله تعالى : ﴿ **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل** ﴾ ، قال : النعمة أنهم سلموا ، والفضل أنّ عيرًا مرت وكان في أيام الموسم ، فاشتراها رسول الله ﷺ ، فربح فيها مالًا ؛ فقسمه بين أصحابه .

وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في [قول الله تعالىٰ][٣] : ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم** ﴾ قال : هذا[٤] أبو سفيان ، قال لمحمد ﷺ : موعدكم بدر حيث قتلتم أصحابنا ، فقال محمد ﷺ : « عسىٰ » ، فانطلق رسول الله ﷺ ، لموعده حتىٰ نزل بدرًا ، فوافقوا السوق فيها وابتاعوا ، فذلك قول الله عز وجل : ﴿ **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء** ﴾ الآية ، قال : وهي غزوة بدر الصغرىٰ .

رواه ابن جرير(٥٢٣) ، وروى أيضًا عن القاسم(٥٢٤) ، عن الحسين ، عن حجاج ، عن ابن جريج ، قال : لما عمد[٥] رسول الله ﷺ لموعد أبي سفيان ، فجعلوا يلقون[٦] المشركين

---

(٥٢١) - يأتي تخريجه سورة النور / آية ١١ .

(٥٢٢) - « دلائل النبوة » للبيهقي (٣١٨/٣) وإسناده صحيح .

(٥٢٣) - تفسير ابن جرير (٨٢٤٨/٧) .

(٥٢٤) - تفسير ابن جرير (٨٢٤٩/٧) .

---

[١] - في خ : « فقالت » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في خ : « قوله » .
[٤] - سقط من : خ .
[٥] - في خ : « عمر » .
[٦] - في خ : « يقولون » .

فيسألونهم عن قريش ؛ فيقولون : قد جمعوا لكم . يكيدونهم بذلك ، يريدون أن يرهبوهم[١] ، فيقول المؤمنون : حسبنا الله ونعم الوكيل ، حتىٰ قدموا بدرًا ، فوجدوا أسواقها عافية ، لم ينازعهم فيها أحد ، قال : فقدم[٢] رجل من المشركين ، فأخبر أهل مكة بخيل محمد ، وقال في ذلك :

نفرت قلوصي من خيول محمد وعجوةٍ منثورة كالعنجد
واتخذت ماء قديد موعدي

ثم قال ابن جرير : هكذا أنشدنا القاسم ، وهو خطأ ، وإنما هو :

قد نفرت من رفقتي محمد وعجوة من يثرب كالعنجد
تهوي علىٰ دين أبيها الأتلد قد جعلتْ ماء قديد موعدي
وماء ضجنان لها ضحىٰ الغد

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه** ﴾ [أي : يخوفكم أولياءه][٣] ، ويوهمكم أنهم ذوو[٤] بأس وذوو[٥] شدة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ **فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي : إذا سول لكم ، وأوهمكم[٦] فتوكلوا عليّ والجئوا إليّ ؛ فإني كافيكم وناصركم عليهم ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه** ﴾ ، إلىٰ قوله : ﴿ **قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون** ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ **فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفًا** ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ **أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **ولينصرن الله من ينصره** ﴾ . وقال : تعالىٰ : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم** ﴾ الآية . وقال تعالىٰ : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾ .

وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا

---

[١] - في ت : « يرعبوهم » .
[٢] - في خ : « وقدم » .
[٣] - سقط من ت .
[٤] - في خ : « فهو » .
[٥] - في خ : « ذو » .
[٦] - في خ : « فأوهمكم » .

نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ
أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي
مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا
يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ سَيُطَوَّقُونَ
مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ : ﴿ **ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر** ﴾ وذلك من شدة حرصه علىٰ الناس ؛ كان يحزنه مبادرة الكفار إلىٰ المخالفة ، والعناد ، والشقاق ، فقال تعالىٰ ، لا يحزنك ذلك ﴿ **إنهم لن يضروا الله شيئًا يريد الله ألَّا يجعل لهم حظًا في الآخرة** ﴾ أي : حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته ، أن لا يجعل لهم نصيبا في الآخرة ﴿ **ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

ثم قال تعالىٰ ، مخبرًا عن ذلك إخبارًا مقررًا : ﴿ **إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان** ﴾ ، أي : استبدلوا هذا بهذا ﴿ **لن يضروا الله شيئًا** ﴾ ، أي : ولكن يضرون أنفسهم ، ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ولا يحسبن**[١] **الذين كفروا أنما نملي لهم خير**[٢] **لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا ولهم عذاب مهين** ﴾ ، كقوله : ﴿ **أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون** ﴾ ، وكقوله : ﴿ **فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون** ﴾ وكقوله ﴿ **ولا تعجبك أموالهم**[٣] **وأولادهم إنما يريد الله [أن يعذبهم]**[٤] **بها في الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ما كان الله ليذر المؤمنين علىٰ ما أنتم عليه حتىٰ يميز الخبيث من الطيب** ﴾ أي : لابد أن يعقد سببًا من المحنة ، يظهر فيه وليّه ، ويفتضح فيه عدوه ، يعرف به المؤمن الصابر ، والمنافق الفاجر ، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين ، فظهر به إيمانهم ، وصبرهم ، وجلدهم ، وثباتهم[٥] وطاعتهم لله ورسوله[٦] ﷺ وهتك به أستار[٧] المنافقين ، فظهر

---

[١] - في خ : « تحسبن » .
[٢] - في خ : « خيرًا » .
[٣] - في خ : « ولا » .
[٤] - في خ : « ليعذبهم » .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - في خ : « ولرسوله » .
[٧] - في خ : « ستر » .

مخالفتهم[١] ، ونكولهم عن الجهاد ، وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **ما كان الله ليذر المؤمنين علىٰ ما أنتم عليه حتىٰ يميز الخبيث من الطيب** ﴾ .

قال مجاهد : ميز بينهم يوم أحد ، وقال قتادة : ميز بينهم بالجهاد والهجرة ، وقال[٢] السدي : قالوا : إن كان محمد صادقًا فليخبرنا عمن يؤمن به منا ، ومن يكفر به[٣] فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ **ما كان الله ليذر المؤمنين علىٰ ما أنتم عليه [حتىٰ يميز الخبيث من الطيب** ﴾ أي][٤] : حتىٰ يخرج المؤمن من الكافر .

رویٰ ذلك كله ابن جرير (٥٢٥) . ثم[٥] قال تعالىٰ : ﴿ **وما كان الله ليطلعكم علىٰ الغيب** ﴾ أي : أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه ؛ حتىٰ يميز لكم المؤمن من المنافق ، لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء** ﴾ ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر علىٰ غيبه أحدًا إلا من ارتضىٰ من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدًا** ﴾ الآية .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **فآمنوا بالله ورسله** ﴾ ، أي : أطيعوا الله ، ورسوله ، واتبعوه فيما شرع لكم ، ﴿ **وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم** ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم بل هو شر لهم** ﴾ أي : لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه ، بل هو مضرة عليه في دينه ، وربما كان في[٦] دنياه .

ثم أخبر بمآل أمر ماله[٧] يوم القيامة ، فقال : ﴿ **سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة** ﴾ وقال البخاري (٥٢٦) : حدّثنا عبد الله بن منير[٨] ، سمع أبا النضر ، حدّثنا عبد الرحمن هو - ابن

(٥٢٥) - راجع ما أخرجه من آثار فى تفسيره (٧/٤٢٤ ، ٤٢٥) .

(٥٢٦) - صحيح البخارى ، كتاب التفسير ، باب ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله** ﴾ (٤٥٦٥) وأخرجه أيضًا ، كتاب الزكاة ، باب إثم مانع الزكاة (١٤٠٣) ، والنسائى ، كتاب الزكاة : باب مانع زكاة ماله (٥/٣٩) من طريقين عن عبد الرحمن بن عبد الله به ، وأخرجه العقيلى فى « الضعفاء »=

[١] - في خ : « مخالفهم » .
[٢] - في خ : « قاله » .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - في خ : « وفي » .
[٧] - في خ : « المال » .
[٨] - في خ : « نمير » .

عبد اللَّه بن دينار عن أبيه ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من آتاه اللَّه مالاً فلم يؤد زكاته مثل له شجاعًا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، يأخذ بلِهْزِمَتيهْ**[١] **- يعني بشدقيه - يقول : أنا مالك ، أنا كنزك** » ، ثم تلا هذه الآية ﴿ [**ولا يحسبن**][٢] **الذين يبخلون بما آتاهم اللَّه** [**من فضله هو خيرًا لهم ، بل هو شر لهم** ﴾ إلىٰ آخر][٣] الآية .

تفرد به البخاري دون مسلم من هذا الوجه ، وقد رواه ابن حبان في صحيحه (٥٢٧) ، من طريق الليث بن سعد ، عن محمد بن عجلان ، عن القعقاع بن حكيم ، عن أبي صالح به .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد(٥٢٨) : حدثنا حجين بن المثني ، حدثنا عبد العزيز بن عبد اللَّه ابن أبي سلمة ، عن عبد اللَّه بن دينار ، عن ابن عمر[٤] ، عن النبي ﷺ ، قال : « **إن الذي لا يؤدي زكاة ماله يمثل الله له ماله يوم القيامة ، شجاعًا أقرع ، له زبيبتان ثم يلزمه يطوقه**[٥] **يقول : أنا كنزك ، أنا كنزك** » وهكذا رواه النسائي ، عن الفضل[٦] بن سهل ، عن أبي [النضر هاشم][٧] بن القاسم ، عن عبد العزيز بن عبد اللَّه بن أبي سلمة به ، ثم قال النسائي : ورواية عبد العزيز ، عن عبد اللَّه بن دينار ، عن ابن عمر - أثبت من رواية عبد الرحمن[٨] ، عن أبيه [عبد اللَّه][٩] بن دينار ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة .

= (٢٤٨/٢) من طريق القعنبى ، عن مالك عن عبد اللَّه بن دينار به وانظر رقم (٥٧٧) .

(٥٢٧) - صحيح ابن حبان (٨/رقم ٣٢٥٨) أخبرنا إسماعيل بن داود بن وَرْدَان ، حدثنا عيسى بن حماد ، قال : أخبرنا الليث به ، وأخرجه أحمد فى « المسند » (٣٧٩/٢) والنسائى فى « التفسير » من » الكبرى » (١١٢١٧/٦) ثنا قتيبة بن سعيد ، أنا الليث به ، و« الحاكم فى « المستدرك » (٣٨٩/١) شاهدًا من طريق أبي صالح وابن بكير قالا : ثنا الليث به ، وأخرجه أحمد أيضًا (٢٧٩/٢) ثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن عاصم عن أبى صالح به .

(٥٢٨) - « المسند » (٩٨/٢) (١٣٧/٢ ، ١٥٦) والنسائى ، كتاب الزكاة ، باب مانع زكاة ماله (٣٨/٥ ، ٣٩) وابن خزيمة فى « صحيحه » (٢٢٥٧/٤) من طرق عن عبد العزيز بن عبد اللَّه به . ونقله المنذرى فى « الترغيب والترهيب » (٥٤٠/١) من طريق النسائى وصحح إسناده . وقول النسائى المنقول هنا غير موجود فى « السنن » وقد خالف العقيلى النسائى ، فأخرج حديث ابن عمر من طريق موسى بن داود ، حدثنا عبد العزيز بن أبى سلمة به ، وحديث أبي هريرة من طريق القعنبى ، عن مالك ، عن عبد اللَّه بن دينار ، عن أبى صالح عنه به ، ثم قال : « حديث مالك أولى » وجمع المصنف أولى من القولين واللَّه أعلم.

---

[١] - في خ : « بهزمته » .
[٢] - في خ : « لا تحسبن » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٤] - في خ : « عمير » .
[٥] - في خ : « بطوقه » .
[٦] - في خ : « الفضيل » .
[٧] - في خ : « النضر عن هاشم » .
[٨] - في خ : « اللَّه » .
[٩] - في خ : عن أبيه .

(قلت) : ولا منافاة [بين الروايتين][١] ؛ فقد يكون عند عبد الله بن دينار من[٢] الوجهين ، والله أعلم ، وقد ساقه الحافظ أبو بكر بن مردويه من غير وجه ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة . ومن حديث محمد بن أبي حميد ، عن زياد الخطمي ، عن أبي هريرة - به .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد(٥٢٩) : حدثنا سفيان ، عن جامع ، عن أبي وائل ، عن عبد الله عن النبي ﷺ ؛ قال : « **ما من عبد لا يؤدي زكاة ماله ؛ إلا جعل له شجاع أقرع ، يتبعه يفر منه ، وهو يتّبعه فيقول : أنا كنزك** » ، ثم قرأ عبد الله مصداقه من كتاب الله : ﴿ **سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة** ﴾ .

وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة من حديث سفيان بن عيينة ، عن جامع بن أبي راشد ، زاد الترمذي : وعبد الملك بن أعين[٣] كلاهما ، عن أبي وائل شقيق بن سلمة[٤] ، عن عبد الله بن مسعود به ، وقال[٥] الترمذي : حسن صحيح . وقد رواه الحاكم في مستدركه(٥٣٠) ، من حديث أبي بكر بن عياش وسفيان الثوري ، كلاهما عن أبي إسحاق السبيعي ، عن أبي وائل ، عن ابن مسعود به ، ورواه ابن جرير من غير وجه عن ابن مسعود موقوفًا .

(٥٢٩) - « المسند » (٣٧٧/١) وأخرجه النسائى ، كتاب الزكاة : باب التغليظ فى حبس الزكاة (٥/ ١٢،١١) وفى التفسير من الكبرى (١١٠٨٤/٦) أخبرنا مجاهد بن موسى وابن خزيمة فى صحيحه (٤/ ٢٢٥٦) ثنا عبد الجبار بن العلاء كلاهما (مجاهد وعبد الجبار) عن سفيان به ، وأخرجه الحميدى فى مسنده (٩٣) ومن طريقه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٤٥٧٨/٣) والترمذى كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة آل عمران (٣٠١٢) ، وابن ماجه ، كتاب الزكاة باب ما جاء فى منع الزكاة (١٧٨٤) ، والبزار فى مسنده (١٧٤٤/٥) وابن جرير فى تفسيره (٨٢٨٩/٧) معلقًا ، والبيهقى فى « السنن الكبرى » (٨١/٤) من طرق عن سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن أعين وجامع بن أبى راشد عن شقيق أبى وائل به وقال البزار : « هذا الحديث لا نعلم رواه عن جامع بن أبى راشد ولا عن عبد الملك إلا سفيان بن عيينة » وهو ثقة حافظ ، وقد قال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

(٥٣٠) - « المستدرك » للحاكم (٢٩٨/٢ ، ٢٩٩) بالإسناد الذى ذكره ا لمصنف ، لكن موقوفًا على ابن مسعود ، وأخرجه ابن جرير (٨٢٨٥/٧ ، ٨٢٨٨) ، وابن أبى حاتم (٤٥٧٩/٣) من طريق سفيان الثورى وأخرجه ابن جرير (٨٢٨٦/٧ ، ٨٢٨٧) وابن أبى حاتم (٤٥٨٠/٣) من طريق شعبة كلاهما (الثورى وشعبة) عن أبى إسحاق السبيعى به موقوفًا مختصرًا .

[١] - في خ : « بينهما » .
[٢] - في خ : « عن » .
[٣] - في خ : « أعيا » .
[٤] - في خ : « مسلمة » .
[٥] - في خ : « ثم قال » .

(حديث آخر) قال الحافظ أبو يعلى (٥٣١) : حدثنا أمية بن بسطام ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن معدان بن أبي طلحة ، عن ثوبان ، عن النبي ﷺ قال : « **من ترك بعده كنزًا مثل له شجاعًا أقرع يوم القيامة ، له زبيبتان يتبعه ، فيقول[١] : من أنت ؟ ويلك . فيقول : أنا كنزك الذي خلفت بعدك ؛ فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ثم يتبع سائر جسده** » ، إسناده جيد قوي ولم يخرجوه .

وقد رواه الطبراني (٥٣٢) عن جرير بن عبد الله البجلي ، ورواه ابن جرير وابن مردويه (٥٣٣) من حديث بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده عن النبي ﷺ ؛ قال : « **لا يأتي الرجل مولاه**

(٥٣١) - ذكره المصنف كما هنا فى « جامع المسانيد والسنن » (٤٦٣/٢ ، ٤٦٤) وعزاه أيضًا لأبى يعلى وذكره الحافظ ابن حجر فى « المطالب العالية » (١/رقم ٨٧١) وزاد عزوه إلى البزار والحسن بن سفيان ، ومن طريق الحسن بن سفيان ، أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٣٢٥٧/٨) وأبو نعيم فى « الحلية » (١/ ١٨١) ، ثنا أمية ابن بسطام به وأخرجه البزار (١/رقم ٨٨٢) والرويانى (١/رقم ٦١٠) وابن خزيمة فى صحيحه (٢٢٥٥/٤) والطبرانى فى « المعجم الكبير » (١٤٠٨/٢) والحاكم فى « المستدرك » (٣٨٨/١ ، ٣٨٩) من طريق يزيد بن زريع ثنا سعيد به ، وأخرجه الحاكم أيضًا من طريق عبد الوهاب بن عطاء ، أنبأ سعيد بن أبى عروبة به ، وقال المصنف : « إسناده جيد قوى ولم يخرجوه » وقال الحاكم : « حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» وقال الذهبى فى تلخيصه : « على شرطهما » وكلام الحاكم أوجه ، فإن ثوبان مولى رسول الله ﷺ وكذا معدان بن أبى طلحة ، لم يخرج لهما البخارى فى « الصحيح » وقال البزار : « قد روى نحوه بلفظه من غير هذا الوجه ، ولا نعلم له طريقًا إلا هذا الطريق ، وإسناده حسن » والحديث ذكره الهيثمى فى « المجمع » (٦٧/٣) وقال : « رواه البزار وقال : إسناده حسن ، قلت - الهيثمى - ورجاله ثقات ، ورواه الطبرانى فى « الكبير » .

(٥٣٢) - « المعجم الكبير » (٢٣٤٣/٢) ثنا عبيد العجلى والحضرمى ، وفى « المعجم الأوسط » (٥٥٩٣/٥) ثنا محمد بن عبد الله الحضرمى ، كلاهما (العجلى والحضرمى) قالا : ثنا عبد الله بن الحاكم بن أبى زياد القطوانى ، قال : ثنا إسحاق بن الربيع العصفرى ، عن داود بن أبى هند عن الشعبى عن جرير بن عبد الله قال : « ما من ذى رحم يأتى ذا رحمه ، يسأله فضلاً أعطاه الله إياه ، فيبخل عليه ، إلا أخرج الله له يوم القيامة من جهنم حيةيقال لها : شجاع ، يتلمظ ، فيوطوق به » وقال الطبرانى : « لم يرو هذا الحديث عن داود بن أبى هند ، إلا إسحاق بن الربيع العصفرى » وهو شيخ بصرى يُغرب كما قال أبو حاتم بن حبان فى « الثقات » (١٠٧/٨) وذكره ابن حاتم فى « الجرح والتعديل » (٢٢٠/٢) دون جرح أو تعديل : وقد أورده ابن عدى فى « الكامل » (٣٣٤/١) وساق له حديثين من غرائبه ، وقال الذهبى فى « الميزان » : « صدوق إن شاء الله » وجوّد له هذا الحديث المنذرى فى « الترغيب والترهيب » (٣٩/٢) والهيثمى فى « المجمع » (١٥٧/٨) وهذا بعيد والحديث لم ينسبه السيوطى فى « الدر المنثور » (١٨٥/٢) لغير الطبرانى .

(٥٣٣) - تفسير ابن جرير (٨٢٨٤/٧) واقتصار المصنف فى عزوه إلى ابن جرير وابن مردويه تقصير ، فقد أخرج الحديث عبد الرزاق فى « المصنف » (٦٨٦٤/٤) ومن طريقه أحمد (٢/٥) والطبرانى فى « المعجم الكبير » (٩٧٨/١٩) عن معمر عن بهز بن حكيم به نحوه وكذا أخرجه أحمد (٣/٥ ، ٥) وأبو داود=

[١] - في خ : « ويقول » .

فيسأله من فضل ماله عنده ، فيمنعه إياه ؛ إلا دعي له يوم القيامة شجاعًا ، يتلمظ فضله الذي منع » لفظ ابن جرير .

وقال ابن جرير (٥٣٤) : حدثنا ابن المثني ، حدثنا[١] عبد الأعلىٰ ، حدثنا داود ، عن أبي قزعة[٢] ، عن رجل ، عن النبي ﷺ ؛ قال : « **ما من ذي رحم يأتي ذا رحمه فيسأله من فضل ، جعله اللَّه عنده ؛ فيبخل به عليه[٣] ، إلا أخرج له من جهنم شجاع يتلمظ حتىٰ يطوّقه** » .

ثم رواه من طريق أخرىٰ ، عن أبي قزعة واسمه حجير[٤] بن بيان عن أبي مالك العبدي موقوفًا ، ورواه من وجه آخر عن أبي قزعة مرسلًا .

= كتاب الأدب ، باب في بر الوالدين (٥١٣٩) ، والنسائي ، كتاب الزكاة ، باب من يسأل ولا يعطى (٥/ ٨٢) ، والطبراني (١٩/٩٧٩ ، ٩٨٣) ، والبيهقى فى « السنن الكبرى » (١٧٩/٤) وفى « الشعب » (٣/ ٣٣٩٠) والبغوى فى « شرح السنة » (٣٤١٧/١٣) من طرق عن بهز بن حكيم به مطولاً ومختصرًا وهذا إسناد حسن مشهور والحديث ذكره السيوطى فى « الدر المنثور » (١٨٥/٢) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد والترمذى ، وكذا عزاه المنذرى فى « الترغيب والترهيب » (٣٨/٢) إلى الترمذى ، والذى فى الترمذى (١٨٩٧ ، ٢٣١٥، ٢٧٩٤) بهذا الإسناد ، بغير هذا اللفظ .

(٥٣٤) - تفسير ابن جرير (٨٢٨٢/٧) وأخرجه أيضًا (٨٢٨٣/٧) حدثنا ابن المثنى ، قال : حدثنا أبو معاوية محمد بن خازم ، قال : حدثنا داود ، عن أبي قزعة حجر بن بيان قال : قال رسول اللَّه ﷺ فذكر الحديث كذا وقع هذا الإسناد هكذا فى تفسير ابن جرير ، قال محققه فى « الحاشية » ، « وهو خطأ من وجهين فأولاً : « حجر » صوابه « حجير » بالتصغير ، وقد وقع هذا الخطأ فى « الإصابة » أيضا فى ترجمة « أبى مالك العبدى » ، « عن أبى قزعة سويد بن حجر » وهو خطأ ناسخ أو طابع ، لا شك فى ذلك ، لأن الحافظ ترجم لأبى قزعة فى « التهذيب » وغيره على الصواب « سويد بن حجير » وثانيًا : سقط هنا بين الكنية والاسم كلمة « بن » لأن حجير بن بيان - هو والد أبى قزعة وليس اسمه ، وأبوه « حجير بن بيان » مذكور فى الصحابة ، وقد أخرجه ابن أبى شيبة فى « تفسيره » (٢/رقم ٥٩٣) نا أبو معاوية عن داود عن أبى قزعة عن حجير بن بيان قال : قال النبى ﷺ الحديث وهذا إسناد صحيح . وقد عزاه الحافظ ابن حجر فى «الإصابة» (ترجمة حُجير بن بيان) إلى تقى بن مخلد فى مسنده من طريق داود بن أبى هند به وأخرجه ابن جرير أيضا (٨٢٨١/٧) حدثنى الحسن بن قزعة ، قال : حدثنا مسلمة بن علقمة قال : حدثنا داود ، عن أبى قزعة ، عن أبى مالك العبدى قال : فذكره موقوفًا وأبو مالك العبدى ترجم له الحافظ ابن حجر فى « الإصابة » وبنى ترجمته على هذا الحديث فأشار إلى هذه الرواية ورواية « أبى قزعة سويد بن حجر كذا ونبهنا أنه خطأ عن رجل » ورواية أبى قزعة المرسلة ثم قال : « وأخرجه الثعلبى - لكن قال « عن رجل من قيس » وأبو قزعة تابعى بصرى مشهور لكنه كان يرسل عن الصحابة فهو على الاحتمال » يعنى أن أبا مالك العبدى قد يكون صحابيًا ، لأن أبا قزعة يروى عن الصحابة ويرسل الرواية عنهم .

---

[١] - سقط من : خ .
[٢] - في خ : « فرع » .
[٣] - في خ : « عنه » .
[٤] - في خ : « حجر » .

وقال[١] العوفي عن ابن عباس : نزلت في أهل الكتاب الذين بخلوا بما في أيديهم من الكتب المنزلة أن يبينوها ، رواه ابن جرير(٥٣٥) ، والصحيح الأول ، وإن دخل هذا في معناه ، وقد يقال : إن هذا[٢] أولىٰ بالدخول ، والله [سبحانه وتعالىٰ] أعلم . وقوله تعالىٰ : ﴿ **ولله ميراث السموات والأرض** ﴾ ، أي : فأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فإن الأمور كلها مرجعها إلىٰ الله عز وجل . فقدموا لكم[٣] من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم ﴿ **والله بما تعملون خبير** ﴾ أي : بنياتكم وضمائركم .

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزل قوله تعالىٰ : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة** ﴾ قالت اليهود : يا محمد ؛ افتقر ربك فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾ الآية ، رواه ابن مردويه وابن أبي حاتم(٥٣٦) .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن أبي محمد ، عن عكرمة ، أنه حدثه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : دخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه بيت المدارس[٤] ، فوجد من

(٥٣٥) - تفسير ابن جرير (٨٢٩٧/٧) .

(٥٣٦) - تفسير ابن أبى حاتم (٤٥٨٨/٣) ولم ينسبه السيوطى فى « الدر المنثور » (١٨٦/٢) لغير ابن أبى حاتم.

[١] - في خ : « وروى » .
[٢] - في خ : « هنا » .
[٣] - سقط من : ت .
[٤] - في خ : « المدارس » .

يهود ناسًا[١] كثيرة قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له : فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر يقال له[٢] : أشيع ، فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص ؛ اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول [من عند][٣] الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل . فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنيًّا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا [ويُعطناه ، ولو كان غنيًّا ما أعطانا الربا][٤] ، فغضب أبو بكر - رضي الله عنه - فضرب وجه فنحاص ضربًا شديدًا ؛ وقال : والذي نفسي بيده ، لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدوّ الله ، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين . فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال : يا محمد ، أبصر ما صنع بي صاحبك ، فقال ، رسول الله ﷺ : « **ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر** » فقال : يا رسول الله ؛ إن عدوّ الله قد[٥] قال قولًا عظيمًا ؛ يزعم[٦] أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه ، فجحد ذلك فنحاص وقال : ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص ردًّا عليه[٧] وتصديقًا لأبي بكر : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾ الآية . رواه ابن أبي حاتم (٥٣٧) .

وقوله : ﴿ **سنكتب ما قالوا** ﴾ تهديد ووعيد ، ولهذا قرنه تعالى بقوله : ﴿ **وقتلهم الأنبياء بغير حق** ﴾ ، أي : هذا قولهم في الله ؛ وهذه معاملتهم لرسل الله ، وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **ونقول ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ أي : يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا وتحقيرًا وتصغيرًا .

وقوله تعالى : ﴿ **الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألَّا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار** ﴾ يقول تعالى [تكذيبًا لهؤلاء][٨] الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم أن لا يؤمنوا

(٥٣٧) - تفسير ابن أبي حاتم (٤٥٨٩/٣) والحديث في « السيرة » لابن هشام (٥٩٢/٢ ، ٥٩٣) وكذا أخرجه ابن جرير في تفسيره (٨٣٠٠/٧) من طريق محمد بن إسحاق به ، وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (١٨٦/٢) إلى ابن المنذر . ومحمد بن أبي محمد وهو الأنصاري مولى زيد بن ثابت ، ذكره ابن حبان في « الثقات » (٣٩٢/٧) وقال الذهبي في « الميزان » : لا يُعْرف .

[١] - في خ : « أناسًا » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٥] - سقط من : ت .
[٦] - في خ : « زعم » .
[٧] - سقط من : خ .
[٨] - في خ : « تكذيبًا أيضًا لهؤلاء » .

لرسول[١] ؛ حتىٰ يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته ، فتقبلت[٢] منه ، أن تنزل نار من السماء تأكلها ؛ قاله ابن عباس والحسن وغيرهما . قال اللَّه [عز وجل][٣] : ﴿ **قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات** ﴾ ، أي : بالحجج والبراهين ، ﴿ **وبالذي قلتم** ﴾ ، أي : وبنار تأكل القرابين المتقبلة ، ﴿ **فلم قتلتموهم** ﴾ ، أي : فلم قابلتموهم[٤] بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ أنكم تتبعون الحق ، وتنقادون للرسل .

ثم قال تعالىٰ مسليًا لنبيه ﷺ : ﴿ **فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير** ﴾ [أي : لا يوهنك][٥] تكذيب هؤلاء لك ، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل الذين كُذبوا مع ما جاءوا به من البينات ، وهي الحُجج والبراهين القاطعة ﴿ **والزبر** ﴾ ، وهي الكتب المتلقاة من السماء ، كالصحف المنزلة علىٰ المرسلين ﴿ **والكتاب المنير** ﴾ أي : البين الواضح الجلي .

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

يخبر تعالىٰ إخبارًا عامًّا يعم جميع الخليقة ، بأن كل نفس ذائقة الموت ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **كل من عليها فان ويبقىٰ وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ فهو تعالىٰ وحده هو الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون ، وكذلك الملائكة . وحملة العرش ، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء ، فيكون آخرًا كما كان أولًا ، وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس ؛ فإنه لا يبقىٰ أحد علىٰ وجه الأرض حتىٰ يموت ، فإذا انقضت المدّة ، [وفرغت النطفة] التي قدّر اللَّه وجودها من صلب آدم ، وانتهت البرية ، أقام اللَّه القيامة ، وجازىٰ الخلائق بأعمالها جليلها [وحقيرها ، قليلها وكثيرها ، كبيرها وصغيرها ،][٦] فلا يظلم أحدًا مثقال ذرّة ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **وإنما**

---

[١] - في خ : « برسول » .
[٢] - في خ : « فقبلت » . [٣] - في خ : « تعالى » .
[٤] - في خ : « قاتلتموهم » . [٥] - في خ : « يهدنك » .
[٦] - في خ : « وقليلها وكثيرها وحقيرها » .

توفون أجوركم يوم القيامة ﴾ .

قال[١] ابن أبي حاتم(٥٣٨) : حدثنا أبي ، حدثنا عبد العزيز الأويسي ، حدثنا [علي بن أبي علي اللهبي ، عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ، عن أبيه ، عن][٢] علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه قال : لما تُوفي النبي ﷺ :وجاءت التعزية ، جاءهم آت يسمعون حسه ولا يرون شخصه ، فقال : « **السلام عليكم أهل البيت ورحمة اللَّه وبركاته** ، **﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ﴾** ، إن في اللَّه عزاءً من كل مصيبة ، وخلفًا من كل هالك ، ودركًا من كل فائت ، فباللَّه فثقوا ، وإياه فارجوا ؛ فإن المصاب[٣] من حرم الثواب ، والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته » . قال جعفر بن محمد : فأخبرني أبي ، أن علي بن أبي طالب قال : أتدرون[٤] من هذا ؟ هذا الخضر عليه السلام .

وقوله : **﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾** ، [أي : من جنب النار ، ونجا منها وأدخل الجنة ، فقد فاز][٥] كل الفوز .

---

(٥٣٨) - تفسير ابن أبي حاتم (٤٦٠٩/٣) وعزاه الحافظ ابن حجر فى « لسان الميزان » (٢٨٥/٤) ترجمة على بن أبى على اللهبى إلى أبى حاتم بن حبان فى كتاب « الثقات » ولم أهتد إليه فى الكتاب المشار إليه. وعلى بن أبى على هذا تركه أبو حاتم والنسائى والعقيلى وقال البخارى : « منكر الحديث » ، وقال ابن معين : « ليس بشيء » وضعفه أبو زرعة وابن الجارود والخطيب وغيرهم ، وقال ابن عدى : « الكامل » (٥/ ١٨٣١) : « أحاديثه كلها غير محفوظة » وأخرجه البيهقى فى « دلائل النبوة » (٢٦٧/٧ ، ٢٦٨) من طريق المزنى ثنا الشافعى عن القاسم بن عبد اللَّه بن عمر بن حفص عن جعفر بن محمد عن أبيه أن رجالاً من قريش دخلوا على أبيه على بن الحسين فذكر حديثًا طويلاً وفيه اللفظ الذى هنا وقد ذكره بطوله المصنف فى « البداية والنهاية » (٢٩٧/٥ ، ٢٩٨) وقال : « وهذا الحديث مرسلاً وفى إسناده ضعف بحال القاسم العمرى هذا ؛ فإنه قد ضعفه غير واحد من الأئمة ، وتركه بالكلية الآخرون » ثم رواه البيهقى (٧/ ٢٦٧) من طريق الشافعى أخبرنا القاسم بن عبد اللَّه بن عمر ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده فذكر منه قصة التعزية فقط موصولاً والقاسم العمرى المذكور متروك من طريق أبي الوليد المخزومى - وهو متروك - عن أنس بن عياض عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد اللَّه فذكره بنحوه ، وليس فيهما أن قائل ذلك هو الخضر وقال البيهقى : « هذان الإسنادان وإن كانا ضعيفين ، فأحدهما يتأكد بالآخر ، ويدلك على أن له أصلاً من حديث جعفر واللَّه أعلم » ثم أخرجه من طريق عباد بن عبد الصمد عن أنس بن مالك فذكره بنحوه وفيه هذا القول منسوبًا إلى الخضر ، لكن قال البيهقى : « عباد بن عبد الصمد ضعيف » وهذا منكر بمرَّة » .

---

[١] - في خ : « وقال » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٣] - في خ : « المصائب » .
[٤] - في خ : « تدرون » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

قال ابن أبي حاتم(٥٣٩) : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري ، حدثنا محمد ابن عمرو بن علقمة ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة [رضي الله عنه] قال : قال رسول الله ﷺ : « **موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ؛ اقرءوا إن شئتم ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾** » .

هذا حديث ثابت في الصحيحين(٥٤٠) من غير هذا الوجه بدون هذه الزيادة . وقد [رواه بهذه][١] الزيادة أبو حاتم ابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه من حديث محمد بن عمرو .

هذا ورواه[٢] ابن مردويه من وجه آخر(٥٤١) فقال : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، حدثنا محمد بن يحيىٰ ، أنبأنا حميد بن مسعدة ، أنبأنا عمرو بن علي ، عن أبي حازم ، عن سهل ابن سعد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما**

(٥٣٩) - تفسير ابن أبي حاتم (٤٦١٠/٣) وأخرجه أحمد (٤٣٨/٢) والترمذى ، كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة آل عمران (٣٠١٣) ، وباب ومن سورة الواقعة (٣٢٩٢) ، والنسائى فى « التفسير » من « الكبرى» (١١٠٨٥/٦) وابن أبى شيبة فى « المصنف » (٧٠/٨) وهناد فى « الزهد » (١/رقم ١١٣) ، والدارمى فى سننه (٢٨٢٣) وابن جرير (٨٣١٥/٧) وأبو نعيم فى « صفة الجنة » (١/رقم ٥٣) والبيهقى فى « البعث » (٣٨٩) من طرق عن محمد بن عمرو به ، وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » وصححه الحاكم (٢٩٩/٢) على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، وكذا صححه ابن حبان (٧٤١٧/١٦) والبغوى فى شرح السنة (٤٣٧٢/١٥) .

(٥٤٠) - كذا عزا اللفظ للصحيحين ، وإنما أخرجه البخارى ، كتاب الجهاد ، باب فضل رباط يوم فى سبيل الله (٢٨٩٢) من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبى حازم عن سهل بن سعد الساعدى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها » وقد أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الإمارة باب فضل الغدوة والروحة فى سبيل الله (١١٣) (١٨٨١) من طريق (عبد العزيز بن أبى حازم وسفيان الثورى) عن أبى حازم عن سهل بن سعد مرفوعًا مقتصرًا على الجزء الثالث من الحديث .

(٥٤١) - وعزاه لابن مردويه السيوطى فى « الدر المنثور » (١٨٨/٢) وفى إسناده عمر بن على وهو المُقَدَّمِيُّ أثنى عليه أحمد ، غير أنه قال : « كان يدلس » وكذا قال يحيى بن معين ، وقال ابن سعد : « كان ثقة ، وكان يدلس تدليسًا شديدًا » ، وقال أبو حاتم : « محله الصدق ، ولولا تدليسه لحكمنا له إذا جاء بزيادة ، غير أنا نخاف أن يكون أخذه عن غير ثقة » وهو هنا لم يصرح بالسماع على أنه قد رواه أحمد وابنه عبد الله فى «المسند » (٤٣٣/٣) من طريق أبى كامل الجحدرى وفضيل بن الحسن والليث بن خالد وأبى بشر عاصم بن عمر) عنه عن أبى حازم به وليس فيه ذكر الآية وانظر السابق والآتى هنا برقم (٦٤٤) .

[١] - في ت : « رواه بدون بهذه » . [٢] - في خ : « وقال » .

فيها » ثم تلا هذه الآية : ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** ﴾ .

وتقدّم عند قوله تعالىٰ : ﴿ **ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ ما رواه الإمام أحمد(٥٤٢) عن وكيع [بن الجراح في تفسيره][١] ، عن الأعمش ، عن زيد بن وهب ، عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ؛ قال : قال رسول الله ﷺ :« **من أحب أن يزحزح عن النار وأن**[٢] **يدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلىٰ الناس ما يحب أن يؤتىٰ إليه** » .

[وقد رواه الإمام أحمد في مسنده عن وكيع به ، وقوله تعالىٰ][٣] : ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ تصغير لشأن الدنيا ، وتحقير لأمرها ، وأنها دنيئة فانية قليلة زائلة ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقىٰ** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **وما**[٤] **أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقىٰ** ﴾ ، وفي الحديث(٥٤٣) : « **والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بما**[٥] **ترجع إليه** » .

وقال قتادة في قوله تعالىٰ : ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ قال[٦] : [هي متاع][٧] متروكة ، أوشكت والله الذي لا إله إلا هو أن تضمحل عن أهلها ، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم ، ولا قوّة إلا بالله .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **لتبلونّ في أموالكم وأنفسكم** ﴾ ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات** ﴾ إلىٰ آخر الآيتين . أي : لابد أن يبتلىٰ المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ، ويبتلى المؤمن[٨] علىٰ قدر دينه ؛ فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء ، ﴿ **ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا** ﴾ يقول تعالىٰ للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر ، مسليًا لهم عما ينالهم[٩]

(٥٤٢) - « المسند » (١٩١/٢) وقد تقدم تخريجه هناك برقم (٢٧٤) .

(٥٤٣) - أخرجه مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأصلها ، باب فناء الدنيا (٥٥) (٢٨٥٨) ، ويأتى تخريجه بأوسع مما هنا فى سورة الرعد / آية ٢٦ .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٢] - في ت : « ويدخل » .
[٣] - في خ : « وقوله » .
[٤] - في خ : « فما » .
[٥] - في خ : « بم » .
[٦] - سقط من : خ .
[٧] - تكررت في : ت .
[٨] - في خ : « المرء » .
[٩] - في خ : « نالهم » .

من الأذىٰ من أهل الكتاب والمشركين ، وآمرًا لهم بالصفح والصبر والعفو حتىٰ يفرج اللَّه ، فقال تعالىٰ : ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور** ﴾ .

قال[١] ابن أبي حاتم(٥٤٤) : حدثنا أبي ، حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب بن أبي حمزة ، عن الزهري ، أخبرني عروة بن الزبير ؛ أن أسامة بن زيد أخبره ؛ قال : كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ، كما أمرهم اللَّه ، ويصبرون علىٰ الأذىٰ ، قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **ولتسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا** ﴾ قال : وكان رسول اللَّه ﷺ يتأول في العفو ما أمره اللَّه به ، حتىٰ أذن اللَّه فيهم .

هكذا ذكره[٢] مختصرًا . وقد ذكره[٣] البخاري(٥٤٥) عند تفسير هذه الآية مطولًا ،فقال : حدثنا أبو اليمان ، أنبأنا شعيب ، عن الزهري ، أخبرني عروة بن الزبير ؛ أن أسامة بن زيد حدّثه[٤] أن رسول اللَّه ﷺ ركب علىٰ حمار عليه قطيفة فدكية ، وأردف أسامة بن زيد وراءه ، يعود سعد بن عبادة ببني[٥] الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، قال[٦] : حتىٰ مر [علىٰ مجلس][٧] فيه عبد اللَّه بن أبي ابن سلول ، وذلك قبل أن يسلم [عبد اللَّه][٨] بن أبي ، وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان و[أهل الكتاب][٩] اليهود والمسلمين ، وفي المجلس عبد اللَّه بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة ، خمر عبد اللَّه بن أبي أنفه بردائه ، وقال : لا تغبروا علينا ، فسلم رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، ثم وقف ، فنزل ودعاهم[١٠] إلىٰ اللَّه - عز وجل - وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد اللَّه ابن أبي : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول ، إن كان حقًّا ، فلا تؤذنا به في مجالسنا ، ارجع إلىٰ رحلك ، فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبد اللَّه بن

---

(٥٤٤) - تفسير ابن أبي حاتم (٣/٤٦١٨) وانظر ما بعده .

(٥٤٥) - صحيح البخارى كتاب التفسير ، باب ﴿ **ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا** ﴾ (٤٥٦٦) وأخرجه أحمد (٥/٢٠٣) ثنا أبو اليمان به ، وأخرجه البخارى ، كتاب الجهاد ، باب الرّدف على الحمار (٢٩٨٧) وانظر أطرافه الأخرى عند هذا الموضع ومسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب فى دعاء النبى ﷺ وصبره على أذى المنافقين (١١٦) (١٧٩٨) والترمذى ، كتاب الاستئذان ، باب ما جاء فى السلام علي مجلس فيه المسلمون وغيرهم (٢٧٠٢) والنسائي فى « الكبرى » كما فى « التحفة » (١/رقم ١٠٥) وأحمد (٥/٢٠٣) من طرق عن الزهرى به مطولاً ومختصرًا .

---

[١] - في خ : « وقال » .

[٢] - في خ : « رواه » .

[٣] - في خ : « ذكر » .

[٤] - في خ : « أخبره » .

[٥] - في خ : « في بني » .

[٦] - سقط من : ت .

[٧] - في خ : « بمجلس » .

[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .

[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[١٠] - في خ : « فدعاهم » .

رواحة - رضي اللَّه عنه - بلى يا رسول اللَّه فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتىٰ كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتىٰ سكتوا ، ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتىٰ دخل علىٰ سعد بن عبادة ، فقال له النبي ﷺ : « **يا سعد ، ألم تسمع إلىٰ ما قال أبو حباب** » يريد عبد اللَّه بن أبي ، قال كذا وكذا ، فقال سعد : يا رسول اللَّه ؛ اعف عنه واصفح[١] ، فوالذي أنزل عليك الكتاب ، لقد جاءك[٢] اللَّه بالحق الذي نزل[٣] عليك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة علىٰ أن يتوجوه فيعصبوه[٤] بالعصابة ، فلما أبىٰ اللَّه ذلك بالحق الذي أعطاك اللَّه شرق بذلك ، فذلك الذي فعل به ما رأيت ، فعفا عنه رسول اللَّه ﷺ ، وكان رسول اللَّه ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم اللَّه ويصبرون علىٰ الأذى ، قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيرًا** ﴾ الآية . وقال تعالىٰ : ﴿ **ود كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفارًا ، حسدًا من عند أنفسهم [من بعد ما تبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتىٰ يأتي اللَّه بأمره]**[٥] ﴾ الآية وكان النبي ﷺ يتأوّل في العفو ما أمره اللَّه به حتىٰ أذن اللَّه له[٦] فيهم ، فلما غزا رسول اللَّه ﷺ بدرًا فقتل اللَّه به[٧] صناديد كفار قريش ، قال عبد اللَّه بن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان : هذا أمر قد توجه ، فبايعوا الرسول[٨] ﷺ علىٰ الإسلام ، فبايعوا وأسلموا . فكل[٩] من قام بحق ، أو أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، فلابدّ أن يؤذىٰ ، فما له دواء إلا الصبر في اللَّه ، والاستعانة باللَّه ، والرجوع إلىٰ اللَّه ، عز وجل .

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

---

[١] - في خ : « واصح عنه » .
[٢] - في خ : « جاء » .
[٣] - في خ : « أنزل » .
[٤] - في خ : « ويعصبوه » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٦] - سقط من : خ .
[٧] - سقط من : خ .
[٨] - في خ : « رسول اللَّه » .
[٩] - في خ : « فكان » .

هذا توبيخ من الله ، وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، وأن ينوهوا بذكره في الناس ، فيكونوا على أهبة من أمره ، فإذا أرسله الله تابعوه ، فكتموا ذلك وتعوضوا[١] عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف ، والحظ الدنيوي السخيف[٢] ، فبئست الصفقة صفقتهم ، وبئست البيعة بيعتهم .

وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا[٣] مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ، ويسلك بهم مسلكهم . فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع ، الدال على العمل الصالح ، ولا يكتموا[٤] منه شيئًا ، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال : « **من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار** »(٥٤٦) .

وقوله تعالى : ﴿ **لا تحسبن**[٥] **الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يُحمدُوا بما لم يفعلوا** ﴾ الآية ، يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا ، كما جاء في الصحيح(٥٤٧) عن النبي ﷺ : « **من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها ؛ لم يزده الله إلا قلة** » ، وفي [الصحيحين(٥٤٨) أيضًا][٦] : « **المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور** » .

وقال الإمام أحمد(٥٤٩) : حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، أخبرني ابن أبي مليكة ، أن حميد

(٥٤٦) - تقدم تخريجه في « المقدمة » وسورة البقرة / آية ١٥٩ .

(٥٤٧) - هو جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (١٧٦) (١١٠) من حديث ثابت بن الضحاك ، وأصل هذا الحديث عند البخاري كتاب الجنائز ، باب ما جاء في قاتل النَّفس (١٣٦٣) دون هذه اللفظة ، وقد أفاد الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٥٣٨/١١) أنها من زيادات مسلم .

(٥٤٨) - أخرجه البخاري ، كتاب النكاح ، باب المتشبع بما لم ينَل ، وما يُنهى من افتخار الضَّرَّة (٥٢١٩) ومسلم ، كتاب اللباس والزينة ، باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره ، والتشبع بما لم يعط (١٢٦) (٢١٢٩) وكذا أخرجه أحمد (٣٤٥/٦ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣) وأبو داود ، كتاب الأدب ، باب في المتشبع بما لم يعط (٤٩٩٧) ، والنسائي في « الكبرى » كتاب عشرة النساء ، باب المتشبعة بغير ما أعطيت (٥/ ٨٩٢١ ، ٨٩٢٢) من حديث أسماء بنت أبي بكر ، وأخرجه مسلم (١٢٦) (٢١٢٩) ، والنسائي (٥/ ٨٩٢٠) من حديث عائشة لكن أعل هذه الرواية النسائي ومن بعده أبو الحسن الدارقطني في « التتبع » وأجاب عن ذلك الحافظ ابن حجر ، فراجع « فتح الباري » (٣١٨/٩ ، ٣١٩) .

(٥٤٩) - « المسند » (٢٩٨/١) وأخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب ﴿ **لا تحسبن الذين يفرحون** =

[١] - في خ : « وتعرضوا وتعوضوا » .
[٢] - في خ : « الخسيف » .
[٣] - في خ : « تسلكوا » .
[٤] - في خ : « ولا يكتمون » .
[٥] - في خ : « ولا يحسبن » .
[٦] - سقط من ت .

ابن عبد الرحمن بن عوف أخبره أن مروان قال : اذهب يا رافع - لبوابه - إلىٰ ابن عباس ، رضي الله عنه فقل : لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتي ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبًا ؛ لنعذبن أجمعون[١] . فقال ابن عباس : مالكم وهذه ؟ إنما نزلت هذه في أهل الكتاب ، ثم تلا ابن عباس : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلًا فبئس ما يشترون** ﴾ [ثم تلا][٢] ابن عباس : ﴿ **لا تحسبن[٣] الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا** ﴾ الآية . وقال ابن عباس : سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره ، فخرجوا قد[٤] أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما [أتوا من كتمانهم إيَّاه ما سألهم عنه][٥] .

وهكذا رواه البخاري في التفسير ومسلم ، والترمذي والنسائي في تفسيريهما[٦] ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير ، والحاكم في مستدركه وابن مردويه ، كلهم من حديث عبد الملك بن جريج بنحوه . ورواه البخاري (٥٥٠) أيضًا[٧] من حديث ابن جريج ، عن ابن أبي مليكة ، عن علقمة بن وقاص ؛ أن مروان قال لبوابه : اذهب يا رافع إلىٰ ابن عباس ، فذكره .

وقال البخاري (٥٥١) : حدثنا سعيد بن أبي مريم ، أنبأنا محمد بن جعفر ، حدثني زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجالًا من المنافقين [علىٰ

= بما أتوا ﴾ (٤٥٦٨) ومسلم ، فاتحة كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٨) (٢٧٧٨) ، والترمذى ، كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة آل عمران (٣٠١٤) والنسائى فى « التفسير » من « الكبرى » (٦/ ١١٠٨٦) وابن أبى حاتم (٤٦٤٧/٣) وابن جرير (٨٣٤٩/٧) والطبرانى فى « المعجم الكبير » (١٠/ ١٠٧٣٠) من طرق عن حجاج بن محمد به ، ومع أنه متفق عليه فقد استدركه الحاكم (٢٩٩/٢) من طريق محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج عن أبيه به ، وصحح إسناده ووافقه الذهبى ومحمد بن عبد الملك لم يوثقه غير ابن حبان « الثقات » (٥٦/٩) وقال الذهبى نفسه فى « الميزان » : « لا يعرف » .

(٥٥٠) - أخرجه البخارى (٤٥٦٨) حدثنى إبرهيم بن موسى أخبرنا هشام أن ابن جريج أخبرهم عن ابن أبى مليكة به ، وأخرجه عبد الرزاق فى تفسيره (١٤١/١ ، ١٤٢) ومن طريقه ابن جرير (٨٣٤٨/٧) أخبرنا ابن جريج به .

(٥٥١) - صحيح البخارى ، كتاب التفسير ، باب ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ﴾ (٤٥٦٧) ، ومسلم فاتحة كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٧) (٢٧٧٧) .

---

[١] - في خ : « أجمعين » .
[٢] - في خ : « وتلا » .
[٣] - في خ : « ولا تحسبن » .
[٤] - سقط من : خ .
[٥] - في خ : «أوتوا من كتابهم ما يسألهم عنه » .
[٦] - في خ : « تفسيرهما » .
[٧] - سقط من : ت .

عهد رسول الله ﷺ][١] كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلىٰ الغزو تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا ، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فنزلت : ﴿ **لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا** ﴾ الآية .

وكذا رواه مسلم من حديث ابن أبي مريم بنحوه ، وقد رواه ابن مردويه(٥٥٢) في تفسيره من حديث الليث بن سعد عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ؛ قال : كان[٢] أبو سعيد ورافع بن خديج[٣] وزيد بن ثابت عند مروان فقال : يا أبا سعيد ، أرأيت[٤] قوله[٥] تعالىٰ : ﴿ **لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا** ﴾ ونحن نفرح بما أتينا[٦] ، نحب أن نحمد بما لم نفعل ؟ فقال أبو سعيد : إن هذا ليس من ذاك ، إنما[٧] ذلك أن ناسًا من المنافقين كانوا يتخلفون إذا بعث رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ، فإن كان فيهم نكبة فرحوا بتخلفهم ، وإن كان لهم نصر [من الله وفتح][٨] حلفوا لهم ليرضوهم ويحمدوهم علىٰ سرورهم بالنصر والفتح ، فقال مروان : أين هذا من هذا ؟ فقال أبو سعيد : وهذا يعلم هذا ؟ [فقال مروان :][٩] أكذلك يا زيد ؟ قال : نعم ، صدق أبو سعيد . ثم قال أبو سعيد ؛ وهذا يعلم ذاك- يعني رافع بن خديج[١٠] - ولكنه يخشىٰ إن أخبرك أن تنزع قلائصه في الصدقة ، فلما خرجوا قال زيد لأبي سعيد الخدري : ألا تحمدني علىٰ [ما شهدت][١١] لك ؟ فقال له أبو سعيد : شهدت الحق ، فقال زيد : أو لا تحمدني علىٰ ما شهدت الحق ؟

ثم رواه من حديث مالك ، عن زيد بن أسلم ، عن رافع بن خديج[١٢] ؛ أنه كان هو وزيد ابن ثابت عند مروان بن الحكم ، وهو أمير علىٰ[١٣] المدينة ، فقال مروان : يا رافع ؛ في أي شيء نزلت هذه الآية ؟ فذكره كما تقدم عن أبي سعيد - رضي الله عنهم - ، وكان مروان يبعث بعد

(٥٥٢) - وعزاه لابن مردويه أيضا الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٨/٢٣٤) .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٢] - في ت : « قال » .
[٣] - في خ : « جُريج » .
[٤] - في خ : « رأيت » .
[٥] - في خ : « قول الله » .
[٦] - في خ : « أوتينا » .
[٧] - في ت : « إن » .
[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[١٠] - في خ : « جريج » .
[١١] - في خ : « شهادة » .
[١٢] - في خ : « جريج » .
[١٣] - سقط من : خ .

ذلك يسأل ابن عباس كما تقدم ؟ فقال له ما ذكرناه . ولا منافاة بين ما ذكره ابن عباس وما قاله هؤلاء لأن الآية عامة في جميع ما ذكر ، والله أعلم .

وقد روىٰ ابن مردويه(٥٥٣) أيضا[١] من حديث محمد بن أبي[٢] عتيق وموسىٰ بن عقبة عن الزهري ، عن محمد بن ثابت الأنصاري ؛ أن ثابت بن قيس الأنصاري ؛ قال : يا رسول الله ؛ والله لقد خشيت أن أكون هلكت ، قال : « **لم؟** » قال : نهىٰ الله المرء أن يحب أن يحمد بما لم يفعل ، وأجدني أحب الحمد ، ونهىٰ الله عن الخيلاء ، وأجدني أحب الجمال ، ونهىٰ الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك ، وأنا امرؤ جهير[٣] الصوت ، فقال رسول الله ﷺ : « **أما ترضى أن تعيش حميدًا[٤] وتقتل شهيدًا ، وتدخل الجنة** » فقال[٥] : بلىٰ يا رسول الله ، فعاش[٦] حميدًا ، وقتل شهيدًا يوم مسيلمة الكذاب .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب** ﴾ [يقرأ بالتاء][٧] علىٰ مخاطبة المفرد ، وبالياء علىٰ الإخبار عنهم أي : لا تحسب[٨] أنهم ناجون من العذاب ؛ بل لابد لهم منه ، ولهذا

(٥٥٣) - وأخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٣١٠/٢ ، ١٣١١ ، ١٣١٣) من طريق صالح بن أبي الأخضر والأوزاعي ومعاوية بن يحيى ، وفي « الأوسط » (١/رقم ٤٢) من طريق الأوزاعي ، ثلاثتهم (صالح ومعاوية والأوزاعي) عن الزهري به ، وهذا إسناد رجاله ثقات إلا أن ابن حجر قال في « التهذيب » ترجمة محمد بن ثابت بن قيس : « الظاهر أن رواية محمد عن أبيه وعن سالم - مولى أبي حذيفة - مرسلة ، لأنهما قُتلا يوم اليمامة وهو صغير ، إلا أن يكون حفظ عن أبيه وهو طفل ، وقد أورده في الصحابة على قاعدتهم ، ولا تصح له صحبة ، ولا يصح سماع الزهري منه أيضًا » وقد رواه عنه الزهري أيضًا لكن بواسطة ابنه إسماعيل ، واختلف فيه على الزهري فرواه إبراهيم بن سعد عنه ، قال : أخبرني إسماعيل بن محمد بن ثابت الأنصاري عن أبيه أن ثابت بن قيس قال ... فذكره ، أخرجه بهذا الوجه الحاكم في « المستدرك » (٢٣٤/٣) وعنه البيهقي في « دلائل النبوة » (٣٥٥/٦) وقال الحاكم « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة » ووافقه الذهبي ، كذا قالا مع أن إسماعيل وأباه لم يخرجا لهما ولا لأحدهما ثم إن إسماعيل هذا ترجم له البخاري في « التاريخ الكبير » (٣٧١١) وقال : « روى عنه الزهري ، مرسل » ورواه مالك ، ويونس ، وعبيد الله بن عمر ، عن ابن شهاب الزهري ، عن إسماعيل ابن ثابت : أن ثابت بن قيس قال : .... الحديث وقال الحافظ في « تعجيل المنفعة » « إسماعيل بن ثابت يروى عن ثابت بن قيس وعنه الزهري ، نسب إسماعيل إلى جده ، ولم يدرك إسماعيل جده ، فإنه قتل يوم اليمامة أخرجه على هذا الوجه أبو حاتم بن حبان في صحيحه (٧١٦٧/١٦) من طريق يونس فحسب والطبراني في « الكبير » (١٣١٢/٢ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥) من الطرق الثلاثة وأبو نعيم في « الدلائل » (٥٢٠) من طريق مالك وللحديث طرق أخرى غير متصلة انظر سورة الحجرات .

[١] - سقط من : خ .
[٢] - سقط من : ت .
[٣] - في خ : « جهري » .
[٤] - في خ : « حميد » .
[٥] - في خ : « قال » .
[٦] - في خ : « قال فعاش » .
[٧] - في خ : « بقراءة التاء » .
[٨] - في خ : « يحسب » .

قال تعالىٰ : ﴿ **ولهم عذاب أليمٌ** ﴾ .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **ولله ملك السموات والأرض ، والله علىٰ كل شيء قدير** ﴾ أي : هو مالك كل شيء ، والقادر علىٰ كل شيء ، فلا يعجزه شيء ، فهابوه ولا تخالفوه ، واحذروا غضبه ونقمته ، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه ، القدير الذي لا أقدر منه .

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

قال الطبراني(٥٥٤) : حدّثنا الحسين بن إسحاق التستري ، حدّثنا يحيىٰ الحماني ، حدّثنا يعقوب القمي ، عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : أتت قريش اليهود فقالوا : بم جاءكم موسىٰ ؟ قالوا : عصاه ويده بيضاء للناظرين . وأتوا النصارىٰ ، فقالوا : كيف كان عيسىٰ ؟ قالوا : كان يبرئ الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتىٰ فأتوا النبي ﷺ فقالوا : ادع [الله أن][١] يجعل لنا الصفا ذهبًا ، فدعا ربه فنزلت هذه الآية : ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب** ﴾ فليتفكروا فيها .

---

(٥٥٤) - « المعجم الكبير » (١٢٣٢٢/١٢) وأخرجه ابن أبي حاتم فى تفسيره (٤٦٥٥/٣) ثنا أبى ، ثنا يحيى بن عبد الحميد به ، وذكره الهيثمى فى « المجمع » (٣٣٢/٦) وقال : « رواه الطبرانى وفيه يحيى الحمانى وهو ضعيف » ويعيده المصنف هنا من رواية ابن مردويه (رقم ٦١٤) وذكره الحافظ ابن حجر فى « الفتح » (٢٣٥/٨) وقال : « رجاله ثقات ، إلا الحِمَّانى فإنه متكلم فيه ، وقد خالفه الحسن بن موسى فرواه عن يعقوب عن جعفر عن سعيد مرسلاً وهو أشبه ، وعلى تقديركونه محفوظًا وصله ففيه إشكال من جهة أن هذه السورة مدنية وقريش من أهل مكة ، ويحتمل أن يكون سؤالهم لذلك بعد أن هاجر النبى ﷺ إلى المدينة ولا سيما فى زمن الهدنة » . والخبر زاد نسبته السيوطى فى « الدر المنثور » (١٩٣/٢) إلى ابن المنذر وابن مردويه .

---

[١] - في خ : « لنا ربك » .

وهذا مشكل ، فإن هذه الآية مدنية ، وسؤالهم أن يكون الصفا ذهبًا كان بمكة ، والله أعلم .
ومعنىٰ الآية [أن الله تعالىٰ يقول][١] : ﴿ **إن في خلق السموات والأرض** ﴾ أي : هذه في ارتفاعها واتساعها ، وهذه في انخفاضها ، وكثافتها واتضاعها ، وما فيهما[٢] من الآيات المشاهدة العظيمة [كواكب سيارات][٣] ، وثوابت ، وبحار ، وجبال ، وقفار ، وأشجار ، ونبات ، وزروع ، وثمار ، وحيوان ، ومعادن ، ومنافع مختلفة الألوان ، والطعوم ، والروائح ، والخواص ﴿ **واختلاف الليل والنهار** ﴾ أي : تعاقبهما ، وتقارضهما[٤] الطول والقصر . فتارة يطول هذا ويقصر هذا ، ثم يعتدلان ، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيرًا ، ويقصر الذي كان طويلًا ، وكل ذلك تقدير العزيز الحكيم ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **لآيات لأولي الألباب** ﴾ أي : العقول التامة الزكية ، التي تدرك الأشياء بحقائقها علىٰ جلياتها[٥] . وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون ، الذين قال الله فيهم : ﴿ **وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ .

ثم وصف تعالىٰ أولي الألباب فقال : ﴿ **الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلىٰ جنوبهم** ﴾ ، كما ثبت في [صحيح البخاري][٦] عن عمران بن حصين(٥٥٥) رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا ، فإن لم تستطع فعلىٰ جنبك** » . أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم ؛ بسرائرهم ، وضمائرهم ، وألسنتهم ، ﴿ **ويتفكرون في خلق السموات والأرض** ﴾ أي : يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة علىٰ عظمة الخالق ، وقدرته وعلمه ، وحكمته ، واختياره ، ورحمته .

وقال الشيخ أبو سليمان الداراني : إني لأخرج من منزلي ، فما يقع بصري علىٰ شيء ، إلا رأيت لله علي فيه نعمة ، ولي فيه عبرة . رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل والاعتبار .

وعن[٧] الحسن البصري أنه قال : تفكر ساعةٍ خير من قيام ليلة . وقال الفضيل : قال الحسن :

---

(٥٥٥) - أخرجه البخارى ، كتاب تقصير الصلاة ، باب إذا لم يُطِقْ قاعدًا صلَّى على جنب (١١١٧) وانظره بأطرافه عند رقم (١١١٥) وأخرجه أيضا أحمد (٤/٤٢٦) وأبو داود (٩٥٢) والترمذى (٣٧٢) وابن ماجه (١٢٢٣) .

---

[١] - في خ : « أنه يقول - تعالى » .
[٢] - في خ : « فيها » .
[٣] - في خ : « من كواكب سيارة» .
[٤] - في خ : « تعارضهما » .
[٥] - في خ : « جليتها » .
[٦] - في ت : «الصحيحين » .
[٧] - في خ : « عنه » قال » .

الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك . وقال سفيان بن عيينة : الفكرة نور يدخل قلبك ، وربما تمثل بهذا البيت :

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

وعن عيسىٰ - عليه السلام - أنه قال : طوبىٰ لمن كان قيله تذكرًا ، وصمته تفكرًا ، ونظره عبرًا .

و[١] قال لقمان الحكيم : إن طول الوحدة ألهم للفكرة ، وطول الفكرة دليل علىٰ طرق باب الجنة .

وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قطُّ إلا فهم ، وما[٢] فهم امرؤ قطُّ إلا علم ، وما علم امرؤ قطُّ إلا عمل .

وقال عمر بن عبد العزيز : الكلام بذكر الله - عز وجل - حسن ، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة .

وقال مغيث الأسود : زوروا القبور كل يوم تفكركم ؛ وشاهدوا الموقف بقلوبكم وانظروا إلىٰ المنصرف بالفريقين : إلىٰ الجنة أو النار ، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها . وكان يبكي عند ذلك حتىٰ يرفع صريعًا من بين أصحابه ، قد ذهب عقله .

وقال عبد الله بن المبارك : مر رجل براهب عند مقبرة ومزبلة ، فناداه فقال : يا راهب ؛ إن عندك كنزين من كنوز الدنيا ، لك فيهما معتبر : كنزَ الرجال وكنزَ الأموال .

وعن ابن عمر : أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة ، فيقف علىٰ بابها فينادي بصوت حزين فيقول : أين أهلك ؟ ثم يرجع إلىٰ نفسه فيقول : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ .

وعن[٣] ابن عباس أنه قال : ركعتان مقتصدتان في تفكر ، خير من قيام ليلة ، والقلب ساهٍ .

وقال الحسن البصري : يا بن آدم كل في ثلث بطنك ؛ واشرب في ثلثه ؛ ودع ثلثه الآخر تتنفس للفكرة .

وقال بعض الحكماء : من نظر إلىٰ الدنيا بغير العبرة ؛ انطمس من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة .

---

[١] - سقط من : خ .
[٢] - في خ : « ولا » .
[٣] - في خ : « قال » .

وقال بشر بن الحارث الحافي : لو تفكر الناس في عظمة اللّٰه تعالىٰ لما عصوه ، وقال الحسن ، عن عامر بن عبد قيس قال : سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي ، ﷺ يقولون : إن ضياء الإيمان ، أو نور الإيمان التفكر .

وعن[١] عيسىٰ - عليه السلام - أنه قال : يا بن آدم الضعيف اتق اللّٰه حيثما كنت ، وكن في الدنيا ضيفًا ، واتخذ المساجد بيتًا ، وعلم عينيك البكاء ، وجسدك الصبر ، وقلبك الفكر ، ولا تهتم برزق غد .

وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - رضي اللّٰه عنه - : أنه بكى يومًا بين أصحابه ، فسئل عن ذلك ؟ فقال : فكرت في الدنيا ولذاتها ، وشهواتها فاعتبرت منها بها ، ما تكاد شهواتها تنقضي حتىٰ تكدرها مرارتها ، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر ، إن فيها مواعظ لمن ادّكر .

وقال ابن أبي الدنيا : أنشدني الحسين بن عبد الرحمن :

نزهة المؤمنِ الفِكَرُ ... لذةُ المؤمن العِبَر
نحمد اللّٰه وحدَهُ ... نحن كلٌّ علىٰ خطر
رُبَّ[٢] لاهٍ وعمره ... قد تقضَّى وما شعر
ربَّ عيشٍ قد كان فَوْ ... قَ المنىٰ مونق الزهر
في خريرٍ من العيو ... ن وظلٍ من الشجر
وسرور من النبا ... تِ وطيبٍ من الثمر
غيرته وأهلَه ... سرعة الدهر بالغير
نحمد اللّٰه وحده ... إن في ذا لمعتبر
[إن في ذا لعبرةً][٣] ... للبيب إن اعتبر

وقد ذم اللّٰه تعالىٰ من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة علىٰ [ذاته و][٤] صفاته ، وشرعه ، وقدره ، وآياته ، فقال : ﴿ **وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم باللّٰه إلا وهم مشركون** ﴾ ومدح عباده المؤمنين : ﴿ **الذين يذكرون اللّٰه قيامًا وقعودًا وعلىٰ جنوبهم ويتفكرون في خلق السمٰوات والأرض** ﴾ ، قائلين : ﴿ **ربنا ما خلقت هذا باطلًا** ﴾ ، أي : ما خلقت هذا الخلق عبثًا ، بل بالحق لتجزي[٥] الذين أساءوا بما عملوا ،

---

[١] - بياض في خ .
[٢] - في خ : « ربما » .
[٣] - في خ : « إن في ذا المعتبر » .
[٤] - سقط من ت .
[٥] - في خ : « ليجزي » .

وتجزي[١] الذين أحسنوا بالحسنىٰ ، ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل ، فقالوا : ﴿ **سبحانك** ﴾ ، أي : عن أن تخلق شيئًا باطلًا ، ﴿ **فقنا عذاب النار** ﴾ ، أي : يا من خلق الخلق بالحق والعدل ، يا من هو منزه عن النقائص ، والعيب ، والعبث ، قنا من عذاب النار بحولك وقوتك ، و[٢] قيضنا لأعمال ترضىٰ بها عنا ، ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلىٰ جنات النعيم ، وتجيرنا به من عذابك الأليم .

ثم قالوا : ﴿ **ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته** ﴾ ، أي : أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع ، ﴿ **وما للظالمين من أنصار** ﴾ أي : يوم القيامة ، لا مجير لهم منك ، ولا محيد لهم عما أردت بهم ، ﴿ **ربنا إننا سمعنا مناديًا ينادي للإيمان** ﴾ أي : داعيًا يدعو إلىٰ الإيمان ، وهو الرسول ﷺ ﴿ **أن آمنوا بربكم فآمنا** ﴾ ، أي يقول : آمنوا بربكم فآمنا ، أي : فاستجبنا له ، واتبعناه ، ﴿ **ربنا فاغفر لنا ذنوبنا** ﴾ ، أي : بإيماننا واتباعنا نبيك فاغفر لنا ذنوبنا ، أي : استرها ، ﴿ **وكفر عنا سيئاتنا** ﴾ أي[٣] : فيما بيننا وبينك ، ﴿ **وتوفَّنا مع الأبرار** ﴾ ، أي : ألحقنا بالصالحين ، ﴿ **ربنا وآتنا ما وعدتنا علىٰ رسلك** ﴾ ، [قيل : معناه علىٰ الإيمان برسلك : وقيل : معناه علىٰ ألسنة رسلك][٤] ، وهذا أظهر .

وقد قال الإمام أحمد(٥٥٦) : حدثنا أبو اليمان ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن عمر[٥] بن محمد ، عن أبي عقال ، عن أنس بن مالك [رضي الله عنه][٦] قال : قال رسول الله ﷺ : « **عسقلان أحد العروسين يبعث الله منها يوم القيامة سبعين ألفًا لا حساب عليهم ، ويبعث منها خمسين ألفًا [شهداء وفودًا][٧] إلىٰ الله ، وبها صفوف الشهداء ، رءوسهم مقطعة في أيديهم ، تثج أوداجهم دمًا يقولون : ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا علىٰ رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد ﴾** فيقول الله[٨] : صدق عبيدي ، اغسلوهم بنهر البيضة ،

(٥٥٦) - « المسند » (٢٢٥/٣) ومن طريق أحمد وطريق أخرى أخرجه ابن الجوزى فى « الموضوعات » (٢/ ٥٣) وأخرجه ابن عدى فى « الكامل » (٢٥٧٧/٧) من طريق الوليد بن مسلم ، ثنا عمر بن محمد بن زيد وعبد الله بن واقد وأبو صدقة صخر بن صدقة التُّمامى قالوا : ثنا أبو عقال به ، وأخرجه ابن أبى حاتم (٣/ ٤٦٦٦) من طريق عبد الله بن وهب حدثنى عمر بن محمد به . وقال ابن الجوزى : « هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ... وحديث أنس جميع طرقه تدور على أبى عقال واسمه هلال بن زيد بن يسار ، وقال ابن حبان « المجروحين » (٨٧/٣) يروى عن أنس أشياء موضوعة ما حدّث بها قط لا =

[١] - في خ : « وجزى » .
[٢] - في خ : « يا رب » .
[٣] - سقط من ت .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٥] - في ت : « عن عمرو » .
[٦] - زيادة من : خ .
[٧] - في خ : « سهير وفود » .
[٨] - سقط من : خ .

فيخرجون منه نقاء بيضًا ، فيسرحون في الجنة حيث شاءوا » ، وهذا الحديث يعد من غرائب المسند ، ومنهم من يجعله موضوعًا ، والله أعلم .

﴿ **ولا تخزنا يوم القيامة** ﴾ أي : علىٰ رءوس الخلائق ، ﴿ **إنك لا تخلف الميعاد** ﴾ ، أي : لابد من الميعاد الذي أخبرت عنه رسلك ، وهو القيام يوم القيامة بين يديك .

وقد قال الحافظ أبو يعلى(٥٥٧) : حدثنا [الحافظ أبو سُريج][١] ، حدثنا المعتمر ، حدثنا الفضل بن عيسىٰ ، حدثنا محمد بن المنكدر ، أن جابر بن عبد الله حدثه : أن رسول الله ﷺ قال : « **العار والتخزية تبلغ[٢] من ابن آدم في القيامة ، في المقام بين يدي الله عز وجل ، ما يتمنىٰ العبد أن يؤمر به إلىٰ النار** » ، حديث غريب .

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران ، **إذا قام من الليل لتهجده ، فقال البخاري رحمه الله(٥٥٨) : حدّثنا سعيد بن أبي مريم ، حدّثنا محمد بن جعفر ،**

= يجوز الاحتجاج به بحال . وقال البخارى : «فى حديثه مناكير » وقال أبو حاتم والنسائى : منكر الحديث ، زاد النسائى ليس بثقة ، وذكر له ابن عدى أحاديث غير هذا ثم قال : « وهذه الأحاديث غير محفوظة » وبه أعل الحديث الهيثمى فى « المجمع » (٦٤/١٠) وتعقب الحافظ ابن حجر ابن الجوزى لإيراده هذا الحديث فى كتاب الموضوعات ، فقال فى « القول المسدد » (ص ٢٧) : « ليس فيه ما يحيله الشرع ولا العقل ، فالحكم عليه بالبطلان بمجرد كونه من رواية أبى عقال لا يتجه ، وطريقة الإمام أحمد معروفة فى التسامح فى رواية أحاديث الفضائل دون أحاديث الأحكام ... » ثم شرع فى ذكر شواهد لهذا الحديث يستبعد بها أن يحكم على هذا الحديث بالوضع وانظر غير مأمور « اللالئ المصنوعة » للسيوطى (٤٢١/١ : ٤٢٣) و « تنزيه الشريعة » للكنانى (٤٩/٢) .

(٥٥٧) - مسند أبى يعلى (٣/رقم ١٧٧٦) وأخرجه ابن عدى فى « الكامل » (٢٠٣٩/٦) ثنا أحمد بن الحسين الصوفى ، ثنا الحارث بن سريج أبو سريج به . وأخرجه الحاكم فى « المستدرك » (٥٧٧/٤) من طريق عبد الوهاب بن عطاء ، أنبأ الفضل بن عيسى به وقال : « حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه » فتعقبه الذهبى فى « التلخيص » بأن « الفضل واهٍ » وبه أعله الهيثمى ، فقال فى « المجمع » (٣٥٣/١٠) : « رواه أبو يعلى وفيه الفضل بن عيسى الرقاشى وهو مجمع على ضعفه » والحديث لم يعزه السيوطى فى « الدر المنثور » (١٩٧/٢) لغير أبى يعلى !! .

(٥٥٨) - صحيح البخارى كتاب التفسير ، باب ﴿ إن فى خلق السماوات والأرض ﴾ الآية -٤٥٦٩) ، وكتاب الأدب ، باب رفع البصر إلى السماء (٦٢١٥) وكتاب التوحيد : باب ما جاء فى تخليق السموات والأرض ... (٧٤٥٢) وأخرجه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه (١٩٠) (٧٦٣) وحدثنى أبو بكر بن إسحاق أخبرنا ابن أبى مريم به .

[١] - في خ : « الحارث بن شريح » . [٢] - في خ : « يبلغ » .

أخبرني شريك بن عبد الله بن أبي نمر[١] ، عن كريب ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بتُّ عند خالتي ميمونة ، فتحدّث رسول الله ﷺ [مع أهله][٢] ساعة ثم رقد ؛ فلما كان ثلث الليل الآخر ، قعد فنظر إلىٰ السماء فقال : ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب** ﴾ الآيات[٣] ، [ثم قام فتوضأ واستن ، ثم صلىٰ][٤] إحدىٰ عشرة ركعة ، ثم أذن بلال فصلىٰ ركعتين ، ثم خرج فصلىٰ بالناس الصبح .

وهكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن إسحاق الصنعاني ، عن ابن[٥] أبي مريم به ، ثم قال :[٦] رواه البخاري من طرق(٥٥٩) : عن مالك ، عن مخرمة بن سليمان ، عن كريب ، أن[٧] ابن عباس أخبره[٨] أنه بات عند ميمونة زوج النبي ﷺ وهي خالته قال : فاضطجعت في عرض الوسادة ، واضطجع رسول الله ﷺ وأهله في طولها ، فنام رسول الله ﷺ حتىٰ إذا انتصف الليل ، أو قبله بقليل ، أو بعده بقليل استيقظ رسول الله ﷺ من منامه ، فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ، ثم قرأ العشر آيات الخواتيم من سورة آل عمران ، ثم قام إلىٰ شنٍّ(*) معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه ، ثم قام يصلي ، قال ابن عباس [رضي الله عنهما : فقمت][٩] فصنعت مثل ما صنع ، ثم ذهبت فقمت إلىٰ جنبه ، فوضع رسول الله ﷺ ، يده اليمنىٰ علىٰ رأسي ، وأخذ بأذني اليمنى[١٠] يفتلها[١١] ، فصلىٰ ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، [ثم ركعتين][١٢] ثم أوتر ، ثم اضطجع حتىٰ جاءه المؤذن ، فقام فصلىٰ ركعتين خفيفتين ، ثم خرج فصلىٰ الصبح .

---

(٥٥٩) - أخرجه البخارى ، كتاب الوضوء ، باب قراءة القرآن بعد الحدث وغيره ..(١٨٣) حدثنا إسماعيل ، وكتاب الوتر ، باب ما جاء فى الوتر (٩٩٢) حدثنا عبد الله بن مسلمة ، وكتاب العمل فى الصلاة ، باب استعانة اليد فى الصلاة إذا كان من أمر الصلاة (١١٩٨) حدثنا عبد الله بن يوسف ، وكتاب التفسير ، باب ﴿ الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا ... ﴾ (٤٥٧٠) وباب ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ... ﴾ (٤٥٧١) وباب ﴿ ربنا إننا سمعنا مناديًا ينادى للإيمان ﴾ (٤٥٧٢) من طريق عبد الرحمن بن مهدى ومعن بن عيسى وقتيبة بن سعيد ستتهم (إسماعيل وعبد الله وعبد الرحمن ومعن وقتيبة) عن مالك به .

(*) - أي قربة . النهاية (٢/٥٠٦)

[١] - في خ : « نمير » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - في خ : « فصلى » .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - زيادة من : خ .
[٧] - في خ : « عن » .
[٨] - سقط من : خ .
[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[١٠] - سقط من : خ .
[١١] - في خ : « ففتلها » .
[١٢] - زيادة من : خ .

وهكذا أخرجه بقية الجماعة(٥٦٠) من طرق عن مالك به . ورواه مسلم أيضًا ، وأبو داود من وجوه أُخر ، عن مخرمة بن سليمان به .

(طريق أخرىٰ) لهذا الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما : قال أبو بكر بن مردويه(٥٦١) ، حدّثنا محمد بن أحمد بن محمد بن علي ، حدثنا أبو يحيىٰ بن أبي ميسرة أنبأنا خلاد بن يحيىٰ ، أنبأنا يونس بن[١] أبي إسحاق ، عن المنهال بن عمرو ، عن علي بن عبد الله بن عباس ، عن عبد الله بن عباس قال : أمرني العباس أن أبيت بآل رسول الله ﷺ وأحفظ صلاته ، قال : فصلىٰ رسول الله ﷺ بالناس صلاة العشاء الآخرة ، حتىٰ إذا لم يبق في المسجد أحد غيري ، قام فمر بي ، فقال : من هذا ؟ عبد الله ؟ قلت[٢] : نعم ؛ قال : فمه ؟ قلت: أمرني العباس أن أبيت بكم الليلة ، قال : « **فالحق الحق** » ، فلما أن[٣] دخل قال : افرشن عبد الله ؟ قال[٤] : فأتىٰ بوسادة من مسوح ، قال : فنام رسول الله ﷺ عليها حتىٰ سمعت غطيطه(*) ، ثم استوىٰ علىٰ فراشه قاعدًا ، قال : فرفع رأسه إلىٰ السماء ، فقال[٥] : « **سبحان الملك القدوس** » ثلاث مرات ، ثم تلا هذه الآيات من آخر سورة آل عمران حتىٰ ختمها .

وقد روىٰ مسلم ، وأبو داود ، والنسائي من حديث علي بن عبد الله بن عباس ، [عن

---

(٥٦٠) - أخرجه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه (١٨٢) (٧٦٣) ، وأبو داود ، كتاب الصلاة ، باب فى صلاة الليل (١٣٦٧) ، والنسائى ، كتاب قيام الليل وتطوع النهار ، باب ذكر ما يستفتح به القيام (٣/٢١٠ ، ٢١١) ، وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : ما جاء فى كم يصلى بالليل (١٣٦٣) بينما أخرجه الترمذى فى « الشمائل » (٢٦٥) كلهم من طرق عن مالك به ، وأخرجه مسلم (١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥) (٧٦٣) وأبو داود (١٣٦٤) والنسائى (٣٠/٢) من طرق عن مخرمة بن سليمان به .

(٥٦١) - وأخرجه الطبراني في الكبير (١٠٦٤٨/١٠) ، وفي كتاب الدعاء (٢/رقم ٧٥٩) ، والحاكم في المستدرك (٣/٥٣٥،٥٣٦) وفي إسناده سقط - من طريق يونس بن أبي إسحاق به ، وقال الحاكم : حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي ، وإسناده حسن لكلام في المنهال بن عمرو ، ثم إن مسلمًا لم يخرج له شيئًا ،والبخاري لم يخرج لعلي بن عبد الله بن عباس في الصحيح فتنبه !! وقد أشار إلى هذه الرواية الحافظ ابن حجر في الفتح (١١٧/١١) .

(*) - الغطيط : الصوت الذي يخرج مع نفس النائم ، وهو ترديده حيث لا يجد مساغًا . النهاية (٣٧٢/٣) .

---

[١] - في ت : « عن » .
[٢] - في خ : « فقلت » .
[٣] - زيادة من : خ .
[٤] - سقط من : خ .
[٥] - سقط من : خ .

أبيه][١] حديثًا في ذلك أيضًا (٥٦٢) .

(طريق[٢] أخرىٰ) رواها ابن مردويه(٥٦٣) ، من حديث عاصم بن بهدلة ، عن بعض أصحابه ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، أن رسول اللَّه ﷺ خرج ذات ليلة بعدما مضىٰ ليل ، فنظر إلىٰ السماء ، وتلا هذه الآية : ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب** ﴾ [إلىٰ آخر السورة][٣] . ثم قال : « **اللَّهم ؛ اجعل في قلبي نورًا ، وفي سمعي نورًا ، وفي بصري نورًا ، وعن[٤] يميني نورًا ، وعن شمالي نورًا ، ومن بين يدي نورًا ، ومن خلفي نورًا ، ومن فوقي نورًا ، ومن تحتي نورًا ، وأعظم لي نورًا يوم القيامة** » .

وهذا الدعاء ثابت في بعض طرق الصحيح(٥٦٤) من رواية كريب ، عن ابن عباس رضي اللَّه عنه . ثم روىٰ ابن مردويه وابن أبي حاتم(٥٦٥) ، من حديث جعفر بن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ؛ قال : أتت قريش اليهود ، فقالوا : بم جاءكم موسىٰ من الآيات ؟ قالوا : عصاه ويده البيضاء للناظرين ، وأتوا النصارىٰ فقالوا : كيف كان عيسىٰ فيكم ؟ فقالوا[٥] : كان يبرئ الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتىٰ ، فأتوا النبي ﷺ ، فقالوا : ادع لنا[٦] ربك أن[٧] يجعل

---

(٥٦٢) - أخرجه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه (١٩١) (٧٦٣) ، وأبو داود ، كتاب الطهارة ، باب السواك لمن قام من الليل (٥٨) ، وكتاب الصلاة ، باب فى صلاة الليل ، (١٣٥٣ ، ١٣٥٤) والنسائى ، كتاب قيام الليل وتطوع النهار (٢٣٧/٣) وكذا أخرجه أحمد فى « المسند » (٣٥٠/١ ، ٣٧٣) .

(٥٦٣) - شيخ عاصم بن بهدلة مجهول ، وعاصم نفسه متكلم فيه ، وأخرجه الطبرانى فى « المعجم الكبير » (١٢٣٤٩/١٢) ثنا زكريا بن حمدويه البغدادى ثنا عبيد بن إسحاق العطار ثنا كامل أبو العلاء عن حبيب ابن أبى ثابت عن سعيد بن جبير به فذكره فى قصة نومه عند خالته ميمونة غير أن الهيثمى قال فى « المجمع » (٢٧٨/٢) : « فيه عبيد بن إسحاق العطار ضعفه ابن معين وغيره وأما أبو حاتم فرضيه » وقد أخرج البخارى ، كتاب اللباس باب الذوائب (٥٩١٩) وغيره طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس مختصرًا .

(٥٦٤) - أخرجه البخارى ، كتاب الدعوات ، باب الدعاء إذا انتبه من الليل (٦٣١٦) ، ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه (١٨١) (٧٦٣) .

(٥٦٥) - تقدم تخريجه رقم (٦٠٣) .

---

[١] - سقط من : خ .
[٢] - في خ : « طريقة » .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - في خ : « في » .
[٥] - في خ : « قالوا » .
[٦] - سقط من : ت .
[٧] - سقط من : خ .

لنا الصفا ذهبًا ، فدعا ربه عز وجل ، فنزلت : **﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾** ، قال : فليتفكروا فيها .

لفظ ابن مردويه . وقد تقدم [هذا الحديث من رواية الطبراني][١] في أول الآية ، وهذا يقتضي أن تكون هذه الآيات مكية ، والمشهور أنها مدنية ، ودليله الحديث[٢] الآخر ، قال ابن مردويه(٥٦٦) : حدثنا إسماعيل بن علي بن إسماعيل ، حدثنا أحمد بن علي الحراني ، حدثنا شجاع بن أشرس ، حدثنا حشرج بن نباتة الواسطي ، أبو مكرم ، عن الكلبي - وهو[٣] أبو جناب الكلبي[٤] - عن عطاء ، قال : انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلىٰ عائشة - رضي اللَّه عنها - فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب ، فقالت يا عبيد ؛ ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال[٥] : قول الشاعر

*** زرغبًا تزدد حبًا ***

فقال ابن عمر : ذرنا[٦] أخبرنا بأعجب [ما رأيتيه][٧] من رسول اللَّه ﷺ ، فبكت ، وقالت : كل أمره كان عجبًا ، أتاني في ليلتي حتىٰ مس جلده جلدي ، ثم قال : **« ذريني أتعبد لربي عز وجل »** قالت : فقلت : واللَّه إني لأحب قربك ، وإني أحب أن تعبد ربك ، فقام إلىٰ القربة فتوضأ ، ولم يكثر صب الماء ، ثم قام[٨] يصلي فبكىٰ حتىٰ بل لحيته ، ثم سجد فبكى حتىٰ بل الأرض ، ثم اضطجع علىٰ جنبه فبكىٰ حتىٰ إذا أتىٰ بلال يؤذنه بصلاة الصبح ، قالت : فقال يا رسول اللَّه ، ما يبكيك ؛ وقد غفر اللَّه لك [ما تقدم من ذنبك وما تأخر][٩] ؟ فقال : **« ويحك يا بلال ، وما[١٠] يمنعني أن أبكي ، وقد أنزل اللَّه علي في هذه الليلة : ﴿ إن في**

---

(٥٦٦) - وعزاه لابن مردويه السيوطى فى « الدر المنثور » (١٩٥/٢) ومن طريق ابن مردويه أخرجه الأصبهانى فى « الترغيب والترهيب » (٦٦٦) . وأبو خباب الكلبى - واسمه يحيى بن أبى حيَّة - ضعفه الجمهور لكثرة تدليسه غير أنه صرح هنا بالتحديث فانتفت شبهة تدليسه . وأخرجه ابن حبان فى صحيحه (٢/رقم ٦٢٠) وأبو الشيخ فى « أخلاق النبى » (ص ١٨٦) وابن أبى حاتم كما قال المصنف ولم أجده فى تفسيره المطبوع - فأودعه فى « الصحيحة » (١/رقم ٦٨) والحديث زاد نسبته السيوطى فى « الدر المنثور » (١٩٥/٢) إلى عبد بن حميد وابن أبى الدنيا فى « التفكر » وابن المنذر وابن عساكر .

---

[١] - في خ : « سياق الطبراني لهذا الحديث » .
[٢] - في خ : « حديث » .
[٣] - في خ : « هو » .
[٤] - سقط من : ت .
[٥] - في خ : « فقال » .
[٦] - في ت : « ذرينا » .
[٧] - في خ : « شيء رأيته » .
[٨] - في خ : « قال » .
[٩] - في خ : « ذنبك ، تقدم وما تأخر » .
[١٠] - في ت : « ما » .

خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ ثم قال : « **ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها** » .

وقد رواه عبد بن حميد [في تفسيره][١] ، عن جعفر بن عون ، عن أبي جناب الكلبي ، عن عطاء [قال : دخلت أنا وعبد الله بن عمر وعبيد بن عمير علىٰ أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وهي في خدرها ، فسلمنا عليها ، فقالت : من هؤلاء ؟ قال : فقلنا هذا عبد الله بن عمر وعبيد بن عمير ، قالت : يا عبيد بن عمير ؛ ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : ما قال الأول : « **زرغبًا تزدد حبًا** » قالت : إنا لنحب زيارتك وغشيانك ، قال عبد الله بن عمر : دعينا من بطالتكما هذه ، أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ قال : فبكت ، ثم قالت : كل أمره كان عجبًا ، أتاني في ليلتي حتىٰ دخل معي فراشي حتىٰ لصق جلده بجلدي ، ثم قال : « **يا عائشة ؛ ائذني لي أتعبد لربي** » قالت : إني لأحب قربك وأحب هواك ، قالت : فقام إلىٰ قربة في البيت ، فما أكثر صب الماء ، ثم قام فقرأ القرآن ، ثم بكىٰ ، حتىٰ رأيت أن دموعه قد بلغت حقويه(*) ، قالت : ثم جلس فحمد الله وأثنىٰ عليه ، ثم بكىٰ ، حتىٰ رأيت دموعه قد بلغت حجره ، قالت : ثم اتكأ علىٰ جنبه الأيمن ، ووضع يده تحت خده ، قالت : ثم بكىٰ حتىٰ رأيت دموعه قد بلغت الأرض ، فدخل عليه بلال فآذنه بصلاة الفجر ، ثم قال : الصلاة يا رسول الله ؛ فلما رآه بلال يبكي ، قال : يا رسول الله ؛ تبكي وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « **يا بلال أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟ وما لي لا أبكي وقد نزل علي الليلة : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾** ، إلىٰ قوله : **﴿ سبحانك فقنا عذاب النار ﴾** » ثم قال : « **ويل لمن قرأ هذه الآيات ثم لم يتفكر فيها** »][٢] .

وهكذا رواه [أبو حاتم بن حبان][٣] في صحيحه عن عمران بن موسىٰ ، عن عثمان بن أبي شيبة ، عن يحيىٰ بن زكريا ، عن إبراهيم بن سويد النخعي ، عن عبد الملك بن أبي سليمان ، عن عطاء ، قال : دخلت أنا وعبيد بن عمير علىٰ عائشة ، فذكر نحوه .

وهكذا رواه عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا في كتاب التفكر والاعتبار (٥٦٧) ، عن شجاع بن

(*) : الحقو : معقد الإزار .

(٥٦٧) - ولم يعزه السيوطى فى « الدر المنثور » (٢/١٩٥) لغير ابن أبى الدنيا وهو منقطع .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٢] - في خ : « بأطول من هذا وأتم سياقًا » .
[٣] - في ت : ابن أبي حاتم وابن حبان

أشرس به ، ثم قال : حدثني الحسن بن عبد العزيز ، سمعت سنيدًا يذكر عن سفيان - هو الثوري - رفعه قال : « **من قرأ آخر « آل عمران** » فلم يتفكر فيها ويله » يعدّ بأصابعه عشرًا. قال الحسن بن عبد العزيز : فأخبرني عبيد بن السائب قال : قيل للأوزاعي : ما غاية التفكر فيهنّ ؟ قال : يقرأهن [وهو يعقلهن][١] .

قال ابن أبي الدنيا : وحدثني قاسم بن هاشم ، حدثنا علي بن عياش ، حدثنا عبد الرحمن ابن سليمان ؛ قال : سألت الأوزاعي عن أدنى ما يتعلق به المتعلق من الفكر فيهن ، وما ينجيه من هذا الويل ؟ فأطرق هنيهة[٢] ثم قال ؛ يقرؤهن وهو [يعقلهن .

(حديث آخر) فيه غرابة . قال أبو بكر بن مردويه(٥٦٨) : حدثنا عبد الرحمن بن بشير ابن نمير ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم البستي ، (ح) قال : وحدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد ، حدثنا أحمد بن عمرو ، وقال : أنبأنا هشام بن عمار ، أنبأنا سليمان بن موسىٰ الزهري ، أنبأنا مظاهر بن أسلم المخزومي ، أنبأنا سعيد بن أبي سعيد المقبري ، عن أبي هريرة قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ عشر آيات من آخر سورة آل عمران كل ليلة . مظاهر بن أسلم ضعيف][٣] .

فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

(٥٦٨) - وعزاه لابن مردويه السيوطى فى « الدر المنثور » (٢٠٤/٢) وأخرجه ابن السنى فى « عمل اليوم والليلة » ، والطبرانى فى « الأوسط » (٦٧٧٧/٧) وابن عدى فى « الكامل » (٢٤٤٢/٦) وأبو نعيم فى « أخبار أصبهان » (١٢٠/٢) وابن عساكر فى « تاريخ دمشق » (٦٥٠/٧ مخطوط) . من طرق عن هشام ابن عمار به . وقال الطبرانى « لم يرو هذا الحديث عن سعيد المقبرى إلا مظاهر بن أسلم ، ولا عن مظاهر إلا سليمان بن موسى ، تفرّد به هشام بن عمار » ومظاهر بن أسلم ضعفه أبو عاصم النبيل وأبو حاتم والنسائى ، زاد أبو حاتم « منكر الحديث » وقال ابن معين : « ليس بشىء » وبه أعل الحديث الهيثمى فى « المجمع » (٢٧٧/٢) فقال : « رواه الطبرانى فى « الأوسط » وفيه مظاهر بن أسلم وثقه ابن حبان وضعفه ابن معين وجماعة والحديث زاد نسبته أبو عبد الله القرطبى فى « الجامع لأحكام القرآن » (٣١٠/٤) إلى أبى نصر السجستانى فى كتاب « الإنابة » .

[١] - في خ : « ويعقلهنّ » . [٢] - في خ : « هنية » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

يقول تعالىٰ : ﴿ **فاستجاب لهم ربهم** ﴾ أي : فأجابهم ربهم ، كما قال الشاعر :

وداعٍ دعا : يا من يجيب إلىٰ الندا فلم يستجبه عند ذاك مجيبُ

قال سعيد بن منصور(٥٦٩) : حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار ، عن سلمة[١] - رجل من آل أمّ سلمة - قال : قالت أمّ سلمة : يا رسول اللّٰه ، لا نسمع اللّٰه ذكر النساء في الهجرة بشيء . فأنزل اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثىٰ** ﴾ إلىٰ آخر الآية : وقالت الأنصار : هي أوّل ظعينة قدمت علينا .

وقد رواه الحاكم في مستدركه من حديث سفيان بن عيينة . ثم قال : صحيح علىٰ شرط البخاري ، ولم يخرجاه .

وقد روىٰ ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن أمّ سلمة ؛ قالت : آخر آية نزلت[٢] هذه الآية . ﴿ **فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثىٰ بعضكم من بعض** ﴾ إلىٰ آخرها . رواه ابن مردويه(٥٧٠) .

ومعنىٰ الآية أن المؤمنين ذوى الألباب لما سألوا ما سألوا - مما تقدّم ذكره - فاستجاب لهم ربهم

---

(٥٦٩) - وعزاه إلى سعيد بن منصور السيوطى فى « الدر المنثور » (١٩٧/٢) وأخرجه عبد الرزاق فى تفسيره (١٤٤/١) ومن طريقه وطريق أسد بن موسى أخرجه ابن جرير (٨٣٦٨/٧ ، ٨٣٦٩) والحميدى فى مسنده (١/رقم ٣٠١) والترمذى (٣٠٢٣) ثنا ابن أبى عمر ، والطبرانى فى « المعجم الكبير » (٦٥١/٢٣) ثنا الحسين بن إسحاق ، ثنا يحيى الحمانى ، خمستهم (عبد الرزاق ، أسد بن موسى ، ابن أبى عمر ، الحميدى ، الحمانى) عن سفيان بن عيينة به ، غير أن الثلاثة الأول قالوا « عن رجلٍ من ولد أم سلمة) ولم يسموه ، ورواه الحاكم فى مستدركه (٣٠٠/٢) من طريق يعقوب بن حميد ، ثنا سفيان بن عيينة به غير أنه قال : « عن سلمة بن أبى سلمة رجل من ولد أم سلمة » وقال الحاكم : « حديث صحيح على شرط البخارى ، ولم يخرجاه ، سمعت أبا أحمد الحافظ . وذكر فى بحثين فى كتاب البخارى يعقوب عن سفيان ، ويعقوب عن الدراوردى وقال أبو أحمد : هو يعقوب بن حميد واللّٰه أعلم » ووافق الذهبى الحاكم على أنه على شرط البخارى ، ويعقوب بن حميد وثقه جماعة وضعفه آخرون راجع « التهذيب » وتابع « يعقوب بن حميد » على تسميته هكذا ، قتيبة بن سعيد عن سفيان به كما فى « التهذيب » ترجمة سلمة ابن عبد اللّٰه بن عمر بن أبى سلمة وسلمة هنا نسب إلى جده ، وقد روى عنه أكثر من واحد ، ووثقه ابن حبان في « الثقات » فالخبر يحتمل التحسين وانظر ما يأتى سورة الأحزاب / آية ٣٥ .

(٥٧٠) - وذكره السيوطى فى « الدر المنثور » (١٩٨/٢) ولم يعزه لغير ابن مردويه وانظر ما يأتى سورة النساء / آية ٣٢ (ح ٣٤٦ : ٣٤٩) .

---

[١] - في ت : « مسلمة » . [٢] - في خ : « أنزلت » .

عقب[١] ذلك بفاء التعقيب ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان . فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون** ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثىٰ** ﴾ هذا تفسير للإجابة ، أي : قال لهم مخبرًا[٢] أنه لا يضيع عمل عامل منكم لديه ، بل يوفى كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثىٰ .

وقوله : ﴿ **بعضكم من بعض** ﴾ أي : جميعكم في ثوابي سواء ﴿ **فالذين هاجروا** ﴾ أي : تركوا دار الشرك ، وأتوا إلىٰ دار الإيمان ، وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان والجيران ، ﴿ **وأخرجوا من ديارهم** ﴾ أي : ضايقهم المشركون بالأذىٰ ، حتىٰ ألجئوهم إلىٰ الخروج من بين أظهرهم ، ولهذا قال : ﴿ **وأوذوا في سبيلي** ﴾ ، أي : إنما كان ذنبهم إلىٰ الناس ؛ أنهم آمنوا باللَّه وحده ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا باللَّه ربكم** ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ **وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا باللَّه العزيز الحميد** ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **وقاتلوا وقتلوا** ﴾ وهذا أعلىٰ المقامات أن يقاتل في سبيل اللَّه ، فيُعقر جوَاده ، ويعفرَّ وجهه بدمه وترابه ، وقد ثبت في الصحيح(٥٧١) أن رجلًا قال : يا رسول اللَّه ؛ أرأيت إن قتلت في سبيل اللَّه صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر ، أيكفر اللَّه عني خطاياي ؟ قال : « **نعم** » ثم قال : « **كيف قلت ؟** » ، فأعاد عليه ما قال . فقال : « **نعم ، إلا الدين[٣] قاله لي جبريل آنفًا** » .

ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **لأكفرن عنهم سيآتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ ، أي : تجري في خلالها الأنهار من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر .

وقوله : ﴿ **ثوابًا من عند اللَّه** ﴾ أضافه إليه ، ونسبه إليه ليدل علىٰ أنه عظيم ؛ لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جزيلًا كثيرًا[٤] ، كما قال الشاعر :

---

(٥٧١) - أخرجه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب من قتل فى سبيل اللَّه كفرت خطاياه إلا الدين (١١٧ ، ١١٨) (١٨٨٥) وكذا أخرجه أحمد (٢٩٧/٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٨) والترمذى ، كتاب الجهاد ، باب ما جاء فيمن يستشهد وعليه دين (١٧١٢) والنسائى ، كتاب الجهاد ، باب من قاتل فى سبيل اللَّه تعالى وعليه دين (٣٤/٦ ، ٣٥) من حديث أبى قتادة الأنصارى .

---

[١] - في خ : « عقيب » .
[٢] - في خ : « مجيبًا لهم » .
[٣] - في ت : « الذي » .
[٤] - سقط من : خ .

إن يعذب يكن غرامًا [وإن يعـ ـط جزيلًا فإنه لا يبالي][١]

وقوله تعالىٰ : ﴿ والله عنده حسن الثواب ﴾ ، أي : عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحاً .

قال ابن [أبي حاتم][٢] (٥٧٢) : ذكر عن دحيم[٣] بن إبراهيم ، حدثنا الوليد بن مسلم : أخبرني حريز[٤] بن عثمان ، أنَّ شدّاد بن أوس ، كان يقول : يا أيها الناس ؛ لا تتهموا الله في قضائه ، فالله لا يبغي علىٰ مؤمن ، فإذا نزل بأحدكم شئ مما يحب فليحمد الله ، وإذا نزل به شيءٌ مما يكره فليصبر وليحتسب ، فإن الله عنده حسن الثواب .

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

يقول تعالىٰ لا تنظر إلىٰ [ما هؤلاء][٥] الكفار مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور ، فعما قليل يزول هذا كله عنهم ، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة . فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجًا ، وجميع ما هم فيه : ﴿ متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ .

وهذه الآية كقوله تعالىٰ : ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ نمتعهم قليلًا ثم نضطرّهم إلىٰ عذاب غليظ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويدًا ﴾ أي : قليلًا ، وقال تعالىٰ : ﴿ أفمن وعدناه وعدًا حسنًا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ ، وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا ، وذكر أن[٦] مآلهم النار ، قال بعده : ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلًا ﴾ [أي : ضيافة من عند الله][٧] ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾ .

(٥٧٢) - تفسير ابن أبى حاتم (٤٦٧١/٣) ولم يعزه السيوطى فى « الدر المنثور » (١٩٩/٢) إلى غيره .

[١] - سقط من خ .
[٢] - في خ : « أبي ليلى حاتم » .
[٣] - في خ : « رحيم » .
[٤] - في خ : « جرير » .
[٥] - في خ : « هؤلاء » .
[٦] - سقط من : خ .
[٧] - في خ : « من عند الله » .

وقال ابن مردويه(٥٧٣) : حدثنا أحمد بن نصر ، حدثنا أبو طاهر سهل بن عبد الله ، أنبأنا هشام بن عمار ، أنبأنا سعيد بن[١] يحيىٰ ، أنبأنا عبد الله بن الوليد الوصافي[٢] ، عن محارب بن دثار[٣] ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن النبي ﷺ قال : « **إنما سموا الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء ، كما أن لوالديك عليك حقًّا ، كذا[٤] لولدك عليك حق** » .

كذا رواه ابن مردويه ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا ، وقال ابن أبي حاتم(٥٧٤) : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن جناب[٥] ، حدثنا عيسىٰ بن يونس ، عن عبيد الله ابن الوليد الوصافي[٦] ، عن محارب بن دثار ، عن ابن عمر ، قال : إنما سماهم الله الأبرار[٧] ؛ لأنهم بروا الآباء والأبناء ، كما أن لوالديك عليك حقًّا ، كذلك لولدك عليك حق ، وهذا أشبه ، والله أعلم .

ثم قال ابن أبي حاتم (٥٧٥) : حدّثنا أبي ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا هشام الدستوائي ، عن رجل ، عن الحسن ، قال : الأبرار الذين لا يؤذون الذر .

وقال ابن أبي حاتم أيضًا(٥٧٦) : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ،

(٥٧٣) - كذا وقع نسبة هذا الحديث هنا إلى عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأخشى أن يكون سهوًا من الناسخ ، فقد عزاه لابن مردويه السيوطي فى « الدر المنثور » (١٩٩/٢) من حديث عبد الله بن عمر ، وأخرجه ابن عدى فى « الكامل » (١٦٣٠/٤) ثنا محمد بن خريم ، ثنا هشام بن عمار به فى مسند ابن عمر ، وكذا رواه ابن عساكر فى « تاريخ دمشق » (٤٠٠/١٧ مخطوط) ويذكر المصنف من طريقه فى سورة الأنفطار / آية ١٣ - وعبيد الله الوصافى هذا ضعفه ابن معين وأبو حاتم ، وأبو زرعة وغيرهم ، و قال ابن عدى - وذكر أحاديث منها هذا - : « هذه الأحاديث للوصافى عن محارب عن ابن عمر هو الذى يرويها ولا يتابع عليها » وقد اضطرب فيه فرواه موقوفًا وهو الآتى .

(٥٧٤) - تفسير ابن أبى حاتم (٤٦٨٠/٣) وأخرجه البخارى فى « الأدب المفرد » (٩٤) من طريق الوصافى أيضًا ، وصحح هنا الموقوف السيوطى - وزاد عزوه إلى عبد بن حميد - فى « الدر المنثور » (١٩٩/٢) مع أن الوصافى ضعيف كما تقدم .

(٥٧٥) - تفسير ابن أبى حاتم (٤٦٨١/٣) ولم يعزه السيوطى فى « الدر المنثور » (١٩٩/٢) إلى غيره .

(٥٧٦) - تفسير ابن أبى حاتم (٤٦٧٩/٣) ورواه عبد الرزاق فى تفسيره (١٤٢/١) أنا الثورى عن الأعمش به .

[١] - في خ : « وأنا » .
[٢] - في خ : « الرصافى » .
[٣] - في خ : « ديار » .
[٤] - في خ : « كذلك » .
[٥] - في خ : « حباب » .
[٦] - في خ : « الرصافى » .
[٧] - في خ : « أبرارًا » .

عن خيثمة ، عن الأسود ؛ قال[١] : قال عبد الله - يعني ابن مسعود - : ما من نفس برة ولا فاجرة إلا الموت خير لها ؛ لئن كان برًّا ، لقد قال الله تعالىٰ : ﴿ **وما عند الله خير للأبرار** ﴾ .

وكذا رواه عبد الرزاق ، عن الأعمش عن الثوري به ، وقرأ ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا ولهم عذاب مهين** ﴾ .

وقال[٢] ابن جرير(٥٧٧) : حدثني المثنى ، حدثنا إسحاق ، حدثنا[٣] ابن أبي جعفر ، عن فرج[٤] بن فضالة ، عن لقمان ، عن أبي الدرداء ، أنه كان يقول : ما من مؤمن إلا والموت خير له ، وما من كافر إلا والموت خير له ، ومن لم يصدقني ؛ فإن الله يقول : ﴿ **وما عند الله خير للأبرار** ﴾ ، ويقول : ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا ولهم عذاب مهين** ﴾ .

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

يخبر تعالىٰ عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان ، ويؤمنون[٥] بما أنزل علىٰ محمد ، مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة ، أنهم خاشعون لله ، أي مطيعون له ، خاضعون متذللون بين يديه ، ﴿ **لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا** ﴾ أي : لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة[٦] بمحمد ﷺ ، وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته ، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم سواء كانوا هودًا أو نصارىٰ . وقد قال تعالىٰ في سورة القصص : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلىٰ عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله**

(٥٧٧) - تفسير ابن جرير (٨٣٧٥/٧) ولقمان هو ابن عامر الوصَّابى ، قال أبو حاتم الرازى : روايته عن أبى الدرداء مرسلة ، وهو مترجم فى « التهذيب » . والخبر زاد نسبته السيوطى فى « الدر المنثور » (١٨٣/٢) إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر .

[١] - سقط من : ت .
[٢] - في خ : « قال » .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - في خ : « نوح » .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - في خ : « البشارات » .

مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا ﴾ الآية . وقد قال تعالىٰ : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به** ﴾ الآية . [وقد قال تعالىٰ][١] : ﴿ **ومن قوم موسىٰ أمّة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ **ليسوا سواءً ، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات اللّٰه آناء الليل وهم يسجدون** ﴾ : وقال تعالىٰ : ﴿ **قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلىٰ عليهم يخرّون للأذقان سجدًا** ، [**ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ، ويخرّون للأذقان**][٢] **يبكون ويزيدهم خشوعًا** ﴾ . وهذه الصفات توجد في اليهود ، ولكن قليلا ؛ كما وجد في عبد اللّٰه بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ، ولم يبلغوا عشرة أنفس ، وأما النصارىٰ فكثير منهم يهتدون[٣] ، وينقادون للحق ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **لتجدنّ أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارىٰ** ﴾ ، إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ **فأثابهم اللّٰه بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ . الآية ، هكذا[٤] قال هاهنا : ﴿ **أولئك لهم أجرهم عند ربهم** ﴾ . الآية .

وقد ثبت في الحديث(٥٧٨) أن جعفر بن أبي طالب رضي اللّٰه عنه لما قرأ سورة « **كهيعص** » بحضرة النجاشي ملك الحبشة ، وعنده البطاركة والقساوسة بكىٰ وبكوا معه ؛ حتىٰ أخضبوا لحاهم .

وثبت في الصحيحين(٥٧٩) أن النجاشي لما مات ، نعاه النبي ﷺ إلىٰ أصحابه ، وقال : « **إنّ**

---

(٥٧٨) - جزء من حديث أخرجه ابن هشام فى « السيرة » (١/٢٢٢ ، ٢٢٥) وأحمد فى « المسند » (١/٢٠٢) (٥/٢٩٠) عن محمد بن إسحاق ، حدثنى محمد بن مسلم الزهرى ، عن أبى بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام المخزومى عن أم سلمة زوج النبى ﷺ وهذا إسناد حسن ، وابن إسحاق قد صرح بالتحديث ، والحديث أورده الهيثمى فى « المجمع » (٦/٢٧ : ٣٠) وعزاه إلى أحمد وقال : « ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع » .

(٥٧٩) - أخرجه مسلم ، كتاب الجنائز ، باب فى التكبير على الجنازة (٦٤ : ٦٦) (٩٥٢) (٦٧) (٩٥٣) من حديث جابر بن عبد اللّٰه وعمران بن حصين ، وحديث جابر أصله فى صحيح البخارى ، كتاب الجنائز ، باب : من صف صفين أو ثلاثة على الجنازة خلف الإمام (١٣١٧) دون اللفظ المرفوع ، وفى الباب عن غير واحد من الصحابة راجع « الإرواء » للألبانى (٣/رقم ٧٢٧) .

---

[١] - في خ : « وقال » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في خ : « مهتدون » .
[٤] - في خ : « وهكذا » .

أخًا لكم بالحبشة قد مات ؛ فصلوا عليه » ، فخرج إلىٰ الصحراء فصفهم ، وصلىٰ عليه .

وروىٰ ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه(٥٨٠) من حديث حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك ؛ قال : لما توفي النجاشي ، قال رسول الله ﷺ : « **استغفروا لأخيكم**[١] » ، فقال بعض الناس : يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة ، فنزلت : ﴿ **وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله** ﴾ الآية .

ورواه عبد بن حميد وابن أبي حاتم من طريق أخرىٰ(٥٨١) ، [عن حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن الحسن ، عن النبي ﷺ ، ثم رواه ابن مردويه(٥٨٢) من طرق : عن حميد][٢] ، عن أنس بن مالك نحو[٣] ما تقدم .

ورواه أيضًا ابن جرير (٥٨٣) من حديث أبي بكر الهذلي ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب ، عن جابر ؛ قال : قال رسول الله ﷺ حين مات النجاشي : « **إن أخاكم أصحمة قد مات!** » ، فخرج رسول الله ﷺ فصلىٰ كما يصلي علىٰ الجنائز فكبر عليه أربعًا ، فقال المنافقون : يصلي

(٥٨٠) - أخرجه ابن أبى حاتم (٤٦٨٢/٣) ثنا أبى ، ثنا أحمد بن محمد بن عبد الله ، والطبرانى فى « الأوسط » (٢٦٦٧/٣) ثنا إبراهيم - وهو ابن أحمد بن عمر الوكيعى - نا أبى ، كلاهما (الأحمدان) ثنا مؤمل بن إسماعيل ، ثنا حماد به ، وقال الطبرانى : « لم يرو هذا الحديث عن حمادٍ إلا مُؤَمَّلٌ » وهو صدوق سيىء الحفظ فمثله لا يحتمل ، والحديث ذكره الهيثمى فى « المجمع » (٤٢٢/٩ ، ٤٤٣) وقال : « رواه الطبرانى فى « الأوسط » بإسنادين أحدهما قال فيه « صلوا عليه » تأتى هذه الرواية (٦٣١) ورجالهما ثقات ، وفى هذه من لم أعرفه » قلت : كلهم معروفون وشيخ الطبرانى أحسن عبد الله بن أحمد القول فيه ، ووثقه أبو الحسن الدارقطنى « تاريخ بغداد » (٥/٦ ، ٦) وأبوه ثقة مترجم فى « التهذيب» وباقى رجاله من رجال « التهذيب » .

(٥٨١) - أخرجه ابن أبى حاتم في تفسيره (٤٦٨٣/٣) واقتصر السيوطى فى « الدر المنثور » (٢٠٠/٢) على عزوه إلى عبد بن حميد ، ورواه النسائى فى « التفسير » من « السنن الكبرى » (١١٠٨٩/٦) أنا عمرو بن منصور ، نا يزيد بن مهران أبو خالد الخباز ، أنا أبو بكر بن عياش عن حميد عن الحسن مرسلاً .

(٥٨٢) - وعزاه لابن مردويه السيوطى فى « الدر المنثور » (٢٠٠/٢) وأخرجه النسائى فى « التفسير » من « الكبرى » (١١٠٨٨/٦) والطبرانى فى « الأوسط » (٥١٤٧/٥) من طريق يزيد بن مهران قال : نا أبو بكر ابن عياش ، وأخرجه البزار (١/رقم ٨٣٢) وابن شاهين والدارقطنى فى « الأفراد » كما فى « الإصابة » (١/ ١٧٧) والواحدى فى « أسباب النزول » (ص ١٠٥) من طريق معتمر ، كلاهما (أبو بكر بن عياش ومعتمر) عن حميد عن أنس قال : لما جاء نَعْىُ النجاشى قال رسول الله ﷺ « صلوا عليه » قالوا : يا رسول الله نصلى على عبد حبشى ؟! فأنزل الله عز وجل ﴿ وإن من أهل الكتاب ... ﴾ وقال الطبرانى : =

[١] - في خ : « لإخوانكم » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ . [٣] - في خ : « بنحو » .

علىٰ علج مات بأرض الحبشة ، فأنزل اللَّه : ﴿ **وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن باللَّه** ﴾ الآية .

وقد روىٰ الحافظ أبو عبد اللَّه الحاكم في مستدركه(٥٨٤) ، أنبأنا أبو العباس السياري بمرو ، حدثنا عبد اللَّه بن علي الغزال ، حدثنا علي بن الحسين[١] بن شقيق ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا مصعب بن ثابت ، عن عامر بن عبد اللَّه بن الزبير ، عن أبيه ، قال : نزل بالنجاشي عدو من أرضهم ، فجاءه المهاجرون ، فقالوا : إنا نحب أن تخرج إليهم حتىٰ نقاتل معك ، وترىٰ جرأتنا ونجزيك بما صنعت بنا ، فقال : لا ، دواء[٢] بنصرة[٣] اللَّه عز وجل ، خير من دواء بنصرة الناس . قال : وفيه نزلت : ﴿ **وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن باللَّه وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين[٤] لله** ﴾ الآية . ثم قال : هذا حديث صحيح الإِسناد ولم يخرجاه .

وقال أبو داود (٥٨٥) : حدثنا محمد بن عمرو الرازي ، حدثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد ابن إسحاق ، حدثني يزيد بن رومان ، عن عروة ، عن عائشة - رضي اللَّه عنها - قالت : لما مات النجاشي ؛ كنا نتحدث أنه لا يزال يرىٰ علىٰ قبره نور .

= « لم يرو هذا الحديث عن حميد إلا أبو بكر بن عياش ، ومعتمر بن سليمان » كذا قال ، ورواه البزار (٨٣٢/ كشف) من طريق عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن حميد به ، والحديث ذكره الهيثمى فى « المجمع » (٤١/٣) وقال : « رواه البزار والطبرانى فى « الأوسط » ورجال الطبرانى ثقات إلا أن حميد بن أبى حميد مدلس وقد عنعن لكنه ، هنا يروى عن أنس وفى « جامع التحصيل » للعلائى (ص ١٦٨) قال مؤمل بن إسماعيل : عامة ما يرويه حميد عن أنس سمعه من ثابت يعني البنانى عنه ، وقال أبو عبيدة الحداد عن شعبة لم يسمع حميد من أنس إلا أربعة وعشرين حديثا والباقى سمعها من ثابت أو ثبته فيها ثابت ، قلت العلائى - فعلى تقدير أن يكون مراسيل قد تبين الواسطة فيها ، وهو ثقة محتج به » والحديث زاد نسبته السيوطى إلى ابن المنذر .

(٥٨٣) - تفسير ابن جرير (٨٣٧٦/٧) ثنا عصام بن رواد بن الجراح قال : حدثنا أبى قال حدثنا أبو بكر الهذلى به ، وفى روايته خلاف لما نقله المصنف هنا ، وقال ابن جرير : « فى إسناده نظر » وعلته أبو بكر الهذلى هذا فإنه « أخبارى ، متروك » والحديث لم ينسبه السيوطى فى « الدر المنثور » (٢٠٠/٢) لغير ابن جرير .

(٥٨٤) - « المستدرك » (٣٠٠/٢) وقال : « حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى مع أنه قد ترجم لمصعب بن ثابت فى « الميزان » وقال : « ضعفه يحيى بن معين وأحمد ، وقال أبو حاتم : لا يحتج به ، وقال النسائى : ليس بالقوى » .

(٥٨٥) - سنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب فى النور يرى عند قبر الشهيد (٢٥٢٣) والحديث فى « السيرة » لابن إسحاق كما فى سيرة ابن هشام (٣٥٣/١) وإسناده حسن لكلام فى ابن إسحاق .

---

[١] - في ت : « الحسن » .
[٢] - في خ : « أدواء » .
[٣] - في ت : « بنصر » .
[٤] - في خ : « إلى خاشعين لله » .

وقال[١] ابن أبي نجيح عن مجاهد : ﴿ **وإن من أهل الكتاب** ﴾ يعني مسلمة أهل الكتاب .

وقال عباد بن منصور : سألت الحسن البصري عن [قول الله][٢] : ﴿ **وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله** ﴾ الآية ، قال : هم أهل الكتاب الذين كانوا[٣] قبل محمد ، ﷺ ، فاتبعوه ، وعرفوا الإسلام ، فأعطاهم الله تعالىٰ أجر[٤] اثنين ؛ للذي[٥] كانوا عليه من الإيمان[٦] قبل محمد ، ﷺ ، واتباعهم[٧] محمدًا ﷺ ، رواه[٨] ابن أبي حاتم (٥٨٦) .

وقد ثبت في الصحيحين(٥٨٧) عن أبي موسىٰ قال : قال رسول الله ﷺ : « **ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين** » فذكر منهم : « **ورجل[٩] من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي** » .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا** ﴾ أي : لا يكتمون ما بأيديهم من العلم ، كما فعله الطائفة المرذولة منهم ، بل يبذلون ذلك منهم[١٠] مجانًا ، ولهذا قال [تعالىٰ : ﴿ **أولئك**][١١] **لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب** ﴾ .

قال مجاهد : سريع الحساب يعني سريع الإحصاء ، رواه ابن أبي حاتم وغيره (٥٨٨) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا** ﴾ ، قال الحسن البصري ، رحمه الله : أمروا أن يصبروا علىٰ دينهم الذي ارتضاه الله لهم ، وهو الإسلام ، فلا يدعوه لسراء ولا لضراء ، ولا لشدّة ولا لرخاء ، حتىٰ يموتوا مسلمين ، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم ، وكذلك[١٢] قال غير واحد من علماء السلف .

وأما المرابطة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات ، وقيل : انتظار الصلاة بعد الصلاة ، قاله

---

(٥٨٦) - تفسير ابن أبي حاتم (٣/٤٦٨٥) ثنا الحسن بن أحمد ، ثنا موسى بن محكم ، ثنا أبو بكر الحنفي ، ثنا عباد بن منصور .

(٥٨٧) - تقدم تخريجه سورة البقرة / آية ٤ ، ٢٨٢ .

(٥٨٨) - تفسير ابن أبي حاتم (٣/٤٦٨٨) وكذا أخرجه ابن جرير في تفسيره (٦/٦٧٧١ ، ٦٧٧٢) .

---

[١] - في خ : « وروى » .
[٢] - في خ : « وقوله تعالى » .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - في خ : « إحدى » .
[٥] - في خ : « للذين » .
[٦] - في خ : « الإسلام » .
[٧] - في خ : « وبالذي اتبعوا » .
[٨] - في خ : « رواهما » .
[٩] - في ت : « رجلًا » .
[١٠] - زيادة من : خ .
[١١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[١٢] - في خ : « وكذا » .

ابن عباس ، وسهل بن حنيف ، ومحمد بن كعب القرظي وغيرهم ..

وروىٰ ابن أبي حاتم(٥٨٩) هاهنا الحديث الذي رواه مسلم ، والنسائي من حديث مالك بن أنس ، عن العلاء بن عبد الرحمن بن[١] يعقوب - مولىٰ الحرقة - [عن أبيه][٢] ، عن أبي هريرة ، [رضي اللَّه عنه] عن النبي ﷺ قال : « **ألا أخبركم بما يمحو اللَّه به الخطايا ويرفع به الدرجات ، إسباغ الوضوء علىٰ المكاره ؛ وكثرة الخطا إلىٰ المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ؛ فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط** » .

وقال ابن مردويه(٥٩٠) : حدثنا محمد بن أحمد ، حدثنا موسىٰ بن إسحاق ، [حدثنا أبو][٣] جحيفة علي بن يزيد الكوفي ، أنبأنا ابن أبي كريمة ، عن محمد بن يزيد ، عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن قال : أقبل عليَّ أبو هريرة يومًا فقال : أتدري يا بن أخي ، فيم نزلت هذه الآية : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا** ﴾ ؟ قلت : لا . قال : أما إنه لم يكن في زمان النبي ، ﷺ ، غزو يرابطون فيه ، ولكنها نزلت في قوم يعمرون المساجد ، و[٤] يصلون الصلاة في مواقيتها ، ثم يذكرون اللَّه فيها ، فعليهم أنزلت : ﴿ **اصبروا** ﴾ أي : علىٰ الصلوات الخمس ، ﴿ **وصابروا** ﴾ أنفسكم وهواكم ، ﴿ **ورابطوا** ﴾ في مساجدكم ، ﴿ **واتقوا اللَّه** ﴾

(٥٨٩) - تفسير ابن أبى حاتم (٤٧٠٣/٣) وأخرجه مسلم ، كتاب الطهارة ، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره (٤١) (٢٥١) والنسائى ، كتاب الطهارة : باب الفضل فى إسباغ الوضوء (٨٩/١ . ٩٠) وكذا أخرجه أحمد (٢٧٧/٢ ، ٣٠٣) من طرق عن مالك به ، وأخرجه مسلم وأحمد (٢٧٧/٢ ، ٣٠٣) من طرق عن مالك به ، وأخرجه مسلم وأحمد (٢٣٥/٢ ، ٣٠١ ، ٤٣٨) والترمذى ، كتاب الطهارة ، باب ما جاء فى إسباغ الوضوء (٥١ ، ٥٢) من طرق عن العلاء بن عبد الرحمن به .

(٥٩٠) - وعزاه لابن مردويه السيوطى فى « الدر المنثور » (٢٠١/٢) وأخرجه ابن المبارك - كما فى « الدر المنثور » - ومن طريقه ابن جرير فى تفسيره (٨٣٩٤/٧) حدثنى المثنى ، قال : حدثنا سويد ، والحاكم فى « المستدرك » (٣٠/٢) وعنه البيهقى فى « الشعب » (٢٨٩٨/٣) من طريق أحمد بن نجدة القرشى ، ثنا سعيد بن منصور ، والبيهقى أيضًا (٢٨٩٧) من طريق أبى عمران موسى بن إسماعيل ، ثلاثتهم (سويد وسعيد وموسى) عن ابن المبارك به ، وقال الحاكم : « حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى ، مع أن فى إسناده « مصعب بن ثابت » وهو ضعيف - كما تقدم ذكره عند رقم (٦٣٣) وأشار إلى هذا الخبر الحافظ ابن حجر فى « الفتح » (٨٦/٦) وقال : « وما احتج به أبو سلمة لا حجة فيه ولا سيما مع ثبوت حديث الباب - يعنى الحديث الآتى هنا برقم (٦٤٤) - فعلى تقدير تسليم أنه لم يكن فى عهد رسول اللَّه ﷺ رباط فلا يمنع ذلك من الأمر به والترغيب فيه ، ويحتمل أن يكون المراد كلا الأمرين - رباط الجاهد وانتظار الصلاة - أو ما هو أعم من ذلك » . والخبر زاد نسبته السيوطى إلى ابن المنذر .

[١] - في خ : « عن » .
[٢] - مكررة في خ .
[٣] - في خ : « أنا ابن » .
[٤] - سقط من : خ .

فيما عليكم ، ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ .

وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من طريق سعيد[١] بن منصور [عن ابن المبارك][٢] ، عن مصعب بن ثابت ، عن داود بن صالح ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة بنحوه .

وقال ابن جرير(٥٩١) : حدثني أبو السائب ، حدثني ابن فضيل[٣] ، عن عبد الله بن سعيد المقبري ، عن جدّه ، عن شرحبيل ، عن علي - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ، ﷺ : « **ألا أدلكم علىٰ ما يكفر الذنوب والخطايا ؟ إسباغ الوضوء علىٰ المكاره ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ؛ فذلكم الرباط** » .

وقال ابن جرير أيضًا(٥٩٢) : حدثني موسىٰ بن سهل الرملي ، حدثنا يحيىٰ بن واضح ، حدثنا محمد بن مهاجر ، حدثني يحيىٰ بن يزيد ، عن زيد بن أبي أنيسة ، عن شرحبيل ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « **ألا أدلكم علىٰ ما يمحو الله به الخطايا ، ويكفر به الذنوب ؟ قلنا : بلىٰ يا رسول الله ؛ قال : « إسباغ الوضوء في أماكنها ، وكثرة الخطا إلىٰ المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ؛ فذلكم الرباط** » .

---

(٥٩١) - تفسير ابن جرير (٨٣٩٥/٧) وهذا إسناد ضعيف بمرّة شرحبيل بن سعد ضعفه الجمهور ، وعبد الله ابن سعيد هذا تركه أحمد وعبد الرحمن بن مهدى ويحيى بن سعيد وضعفه غيرهم وقد أخطأ عبد الله بن سعيد فى هذا الإسناد فقد رواه غيره عن زيد بن أبى أنيسة عن شرحبيل بن سعد عن جابر بن عبد الله وهو الآتى ؛ إلا أن الحديث قد ورد من طريق آخر بإسناد حسن أخرجه البزار فى مسنده (٢/رقم ٥٢٨) وأبو يعلى (١/رقم ٤٨٨) وصححه الحاكم على شرط مسلم (١٣٢/١) ووافقه الذهبى .

(٥٩٢) - تفسير ابن جرير (٨٣٩٦/٧) وأخرجه البزار (١/رقم ٤٤٩/ كشف) وابن حبان (١٠٣٩/٣) من طريق محمد بن سلمة عن أبى عبد الرحيم بن أبي يزيد الحرانى عن زيد بن أبى أنيسة به ، وقال البزار : « لا نعلم يروى هذا عن جابر إلا بهذا الإسناد » ثم أخرجه البزار أيضًا (٤٥٠) من طريق محمد بن عمر عن عبد الحميد بن عبد الرحمن الحمانى عن يوسف الصباغ ، عن عامر الشعبى عن جابر ... فذكر نحوه غير أنه قال : « فتلك رياض الجنة » بدل « فذلكم الرباط » وذكره الهيثمى فى « المجمع » (٤٠/٢) وقال : « رواه البزار وله رواية بنحو هذا إلا أنه قال .... وإسناد الأول فيه شرحبيل بن سعد وهو ضعيف عند الجمهور ، وذكره ابن حبان فى « الثقات » (٣٦٥/٤) وأخرج له فى صحيحه هذا الحديث ، وإسناد الثانى فيه يوسف بن ميمون الصباغ ضعفه جماعة ووثقه ابن حبان وأبو أحمد بن عدى وقال البزار : « صالح الحديث » .

---

[١] - في خ : « سعر » . [٢] - سقط من : خ .

[٣] - في خ : « فضل » .

وقال ابن مردويه(٥٩٣) : حدثنا محمد بن علي ، أنبأنا محمد بن عبد اللَّه بن سلام البيروتي ، أنبأنا محمد بن غالب الأنطاكي ، أنبأنا عثمان بن عبد الرحمن ، أنبأنا الوازع بن نافع ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي أيوب رضي اللَّه عنه قال : وقد[١] علينا رسول اللَّه ﷺ ، فقال: « **هل لكم إلىٰ ما يمحو اللَّه به الذنوب ، ويعظم به الأجر** » ؟ قلنا : نعم يا رسول اللَّه ، وما هو ؟ قال : « **إسباغ الوضوء علىٰ المكاره ، وكثرة الخطا إلىٰ المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة** » ، قال : « **وهو قول اللَّه : ﴿ يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا اللَّه لعلكم تفلحون ﴾** فذلك هو الرباط في المساجد » . وهذا حديث غريب من هذا الوجه جدًّا .

وقال عبد اللَّه بن المبارك ، عن مصعب بن ثابت بن عبد اللَّه بن الزبير ، حدثني داود بن صالح قال : قال لي أبو سلمة بن عبد الرحمن : يا ابن أخي ، هل تدري في أي شيء نزلت هذه الآية : **﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾** قال : [قلت : لا . قال][٢] : إنه لم يكن يا ابن أخي في زمان رسول اللَّه ﷺ غزو يرابط فيه ، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة .

رواه ابن جرير(٥٩٤) ، وقد تقدم سياق ابن مردويه له ، وإنه من كلام أبي هريرة رضي اللَّه عنه واللَّه أعلم .

وقيل المراد بالمرابطة هاهنا ، مرابطة الغزو في نحو العدوّ ، وحفظ ثغور الإِسلام ، وصيانتها عن دخول الأعداء إلىٰ حوزة بلاد المسلمين ، وقد وردت الأخبار بالترغيب في ذلك ، وذكر كثرة الثواب فيه ، فروىٰ البخاري في صحيحه(٥٩٥) عن سهل بن سعد الساعدي رضى اللَّه عنه ، أن رسول اللَّه ، ﷺ ، قال : « **رباط يوم في سبيل اللَّه خير من الدنيا وما عليها** » .

(حديث آخر) روىٰ مسلم(٥٩٦) ، عن سلمان الفارسي ، عن رسول اللَّه ، ﷺ ، أنه قال :

---

(٥٩٣) - والحديث لم يعزه السيوطى فى « الدر المنثور » (٢٠١/٢) لغير ابن مردويه ، والوازع بن نافع قال يحيى بن معين : ليس بثقة . وقال البخارى: « منكر الحديث » وتركه النسائى وأبو حاتم وغيرهما ، وقال ابن عدى : « عامة ما يرويه الوازع غير محفوظ » راجع « لسان الميزان » لابن حجر (٩٠٥٦/٦) .

(٥٩٤) - تفسير ابن جرير (٨٣٩٤/٧) وتقدم هنا برقم (٦٣٩) .

(٥٩٥) - تقدم تخريجه هنا برقم (٥٨٩) .

(٥٩٦) - صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب فضل الرباط فى سبيل اللَّه عز وجل (١٦٣) (١٩١٣) وأخرجه أيضًا أحمد (٤٤١/٥) والنسائى ، كتاب الجهاد ، باب فضل الرباط (٣٩/٦) ويعيده المصنف هنا من طريق آخر انظر رقم (٦٥٣) .

---

[١] - في خ : « وقف » . [٢] - في خ : « قليلًا » .

« رباط يوم وليلة ، خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرىٰ عليه الذي كان يعمله ، وأجرىٰ عليه رزقه ، وأمن الفتان » .

(حديث آخر) قال[١] الإمام أحمد (٥٩٧) : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا ابن المبارك ، عن حيوة بن شريح ، أخبرني أبو هانئ الخولاني ، أن عمرو بن مالك الجنبى أخبره أنه سمع فضالة ابن عبيد يقول : سمعت رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وآله وسلم يقول : **« كل ميت يختم علىٰ عمله ، إلا الذي مات مرابطًا في سبيل اللَّه ؛ فإنه ينمو له عمله إلىٰ يوم القيامة ، ويأمن فتنة القبر »** .

وهكذا رواه أبو داود ، والترمذي من حديث أبي هانئ الخولاني ، وقال الترمذي : [هذا حديث] حسن صحيح ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه أيضًا .

(حديث آخر) [قال الإمام أحمد(٥٩٨)][٢] : حدثنا[٣] يحيىٰ بن إسحاق ، [و][٤] حسن

(٥٩٧) - « المسند » (٦/ ٢٠) وأخرجه أيضًا (٦/ ٢٢) والترمذى ، كتاب فضائل الجهاد ، باب ما جاء فى فضل من مات مرابطًا)١٦٢١) وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٤٦٢٤) والطبرانى فى « المعجم الكبير » (١٨/رقم ٨٠٢) والحاكم فى « المستدرك » (٢/ ١٤٤) من طرق عن عبد اللَّه بن المبارك به ، وأخرجه سعيد ابن منصور فى سننه (٢/رقم ٢٤١٤) ومن طريقه أبو داود ، كتاب الجهاد ، باب فى فضل الرباط (٢٥٠٠) والحاكم (٢/ ٧٩) وعنه البيهقى فى « الشعب » (٤/ ٤٢٨٧) والطبرانى (١٨/ ٨٠٣) من طريق أحمد بن صالح كلاهما (سعيد وأحمد) ثنا عبد اللَّه بن وهب حدثنى أبو هانىء به وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » وصححه الحاكم فى الموضع الأول عنده على شرط مسلم وفى الثانى على شرط الشيخين مع أن عمرو بن مالك لم يرو له ؛ إلا أصحاب السنن والبخارى فى « الأدب » ووثقه ابن معين وابن حبان والعجلى والدارقطنى .

(٥٩٨) - « المسند » (٤/ ١٥٧) وليس فى هذا الطريق لفظة « ويأمن من الفتان » وإنما رواه أحمد أيضًا (٤/ ١٥٠) ثنا قتيبة ، ثنا ابن لهيعة به وفيه هذه اللفظة ، ورواه أيضًا (٤/ ١٥٠ ، ١٥٧) ثنا عبد اللَّه بن يزيد ، وحسن بن موسى به مفرقًا ، وأخرجه الدارمى (٢/رقم ٢٤٣٠) والحارث بن أبى أسامة (٦٢٧/ البغية) ثنا عبد اللَّه بن يزيد أبو عبد الرحمن المقرئ به والرويانى فى مسنده (١/رقم ٢١٩) نا أحمد بن عبد الرحمن ، نا عمى عبد اللَّه بن وهب - نا ابن لهيعة به ، وابن لهيعة ضعف إلا أن رواية العبادلة عنه مستقيمة غير أنه قد اختلف عليه فيه ومِشْرَح بن هاعان وثقه ابن معين وقال ابن عدى : أرجو أنه لا بأس به ، وقال ابن حبان فى « الثقات » : يخطىء ويخالف . وقال فى « الضعفاء » : يروى عن عقبة مناكير لا يتابع عليها ، فالصواب ترك ما انفرد به ، فرواه السابق ذكرهم عنه هكذا ورواه (يحيى بن إسحاق أيضًا ، وسعيد بن عفير وسعيد بن يحيى) ثنا ابن لهيعة عن أبى عشانة عن عقبة به ، وأبو عشانة واسمه حي بن يُؤمن وثقه أحمد ويحيى ويعقوب بن سفيان وقال أبو حاتم : « صالح الحديث » . والحديث ذكره الهيثمى فى =

[١] - في خ : « وقال » .

[٢] - في خ : « وروى الإمام أحمد أيضًا » .

[٣] - في خ : « عن » .

[٤] - في ت : « حدثنا » .

ابن موسىٰ ، وأبو[١] سعيد [عبد اللَّه بن يزيد ، كلهم عن عبد اللَّه بن لهيعة ، حدثنا مشرح بن هاعان ، سمعت][٢] عقبة بن عامر يقول : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **كل ميت يختم له علىٰ عمله ، إلا المرابط في سبيل اللَّه ، يجري عليه عمله حتىٰ يبعث ، ويأمن[٣] من الفتان** » .

رواه الحارث بن محمد بن أبي أسامة في مسنده ، عن المقبري ، وهو عبد اللَّه بن يزيد به ، إلىٰ قوله : « **حتىٰ يبعث** » ، دون ذكر « **الفتان** » ، وابن لهيعة إذا صرح بالتحديث فهو حسن ، ولا سيما مع ما تقدم من الشواهد .

(حديث آخر) قال أبو عبد اللَّه محمد بن يزيد بن ماجة في سننه(٥٩٩) : حدثنا يونس ابن عبد الأعلىٰ ، حدثنا عبد اللَّه بن وهب ، أخبرني الليث ، عن زهرة بن معبد[٤] ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن رسول اللَّه ﷺ قال : « **من مات مرابطًا في سبيل اللَّه ، أجري عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمل[٥] ، وأجري عليه رزقه ، وأمن [من الفتان][٦] ، وبعثه اللَّه يوم القيامة آمنًا من الفزع[٧]** » .

(طريق[٨] أخرىٰ) قال الإمام أحمد(٦٠٠) : حدثنا موسىٰ ، أنبأنا ابن لهيعة ، عن موسىٰ بن وردان ، عن أبي هريرة [رضي اللَّه عنه] ، عن[٩] رسول اللَّه ﷺ قال[١٠] : « **من مات مرابطًا**

= «المجمع» (٢٩٢/٥) وقال : « رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن » .

(٥٩٩) - سنن ابن ماجه ، كتاب الجهاد ، باب فضل الرباط فى سبيل اللَّه (٢٧٦٧) ورجاله ثقات غير معبد وهو ابن عبد اللَّه بن هشام ، لم يوثقه غير ابن حبان « الثقات » (٤٣٣/٥) وقال الذهبى فى « الميزان » تفرد عنه ابنه ، وقال ابن حجر فى « التقريب » مقبول . ومع هذا فقد صحح إسناده السيوطى فى « الدر المنثور » (٢٠٢/٢) وكذا البوصيرى فى « الزوائد » (٣٩١/٢) قال : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات ورواه البزار فى مسنده عن أحمد بن منصور بن يسار عن عبد اللَّه بن صالح عن الليث عن زهرة بن معبد عن أبى صالح - مولى عثمان - عن عثمان وأبى هريرة به ... » .

(٦٠٠) - « المسند » (٤٠٤/٢) وابن لهيعة ضعيف في غير رواية العبادلة عنه ، وهذه ليست منها ، وموسى ابن وردان متكلم فيه ، ورواه الطبرانى فى « الأوسط » (٥٣١٢/٥) من طريق هانىء بن المتوكل الإسكندرانى قال : ناعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة مرفوعًا بنحوه . وقال : « لم يرو هذا الحديث عن زيد بن أسلم إلا ابنه عبد الرحمن تفرّد به هانىء بن المتوكل » وهو ضعيف وشيخه مثله .

---

[١] - في خ : « وأبي » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٣] - في خ : « ويؤمن » .
[٤] - في خ : « سعيد » .
[٥] - في ت : « يعمله » .
[٦] - في خ : « الفتن » .
[٧] - في ت : الفزع الأكبر.
[٨] - في خ : « طريقة » .
[٩] - في خ : « قال : قال » .
[١٠] - سقط من : خ .

وقي فتنة القبر ، وأمن من الفزع الأكبر ، وغديٰ عليه وريح برزقه من الجنة ، وكتب له أجر المرابط إلىٰ يوم القيامة » .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد(٦٠١) : حدثنا إسحاق بن عيسىٰ ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن محمد بن عمرو بن حلحلة الديلي[١] ، عن إسحاق بن عبد الله ، عن أم الدرداء ترفع الحديث ، قالت : « **من رابط في شيء من سواحل المسلمين ثلاثة أيام ؛ أجزأت عنه رباط سنة** » .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد (٦٠٢) : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا كهمس ، حدثنا مصعب بن[٢] ثابت بن عبد الله بن الزبير قال : قال عثمان - رضي الله عنه - وهو يخطب علىٰ منبره : إني محدثكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ ، لم يكن يمنعني أن أحدثكم به إلا الظن بكم ؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة ، يقام ليلها ويصام نهارها** » .

---

(٦٠١) - « المسند » (٢٦٢/٦) وأخرجه ابن أبي عاصم في « الجهاد » (٢/رقم ٣٠٧) والطبراني في « المعجم الكبير » (٢٤/رقم ٦٤٨) من طريق علي بن عياش الحمصي ، ثنا إسماعيل بن عياش به ، والبخاري في « التاريخ الكبير » (٣٩٤/١) من طريق سليمان بن عبد الرحمن عن إسماعيل بن عياش به وذكره الهيثمي في « المجمع » (٢٩٢/٥) وقال : « رواه أحمد والطبراني من رواية إسماعيل بن عياش عن المدنيين وبقية رجاله ثقات » قلت : رواية إسماعيل بن عياش عن غير الشاميين ضعيفة ، ومع هذا فجوَّد إسناده السيوطي في « الدر المنثور » (٢٠٢/٢) ولم يعزه لغير أحمد .

(٦٠٢) - « المسند » (٦٣/١ ، ٦٥) وأخرجه أيضًا (٦١/١) ثنا رَوْح حدثنا كهمس به ومصعب بن ثابت ضعيف - انظر الحديث المتقدم برقم (٦٣٣) - ثم إنه لم يلق عثمان بن عفان ، فالإسناد منقطع ، لكن أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (١/رقم ١٤٥) وأبو نعيم في « الحلية » (٢١٤/٦ ، ٢١٥) من طريق بشر بن موسى ، والحاكم في « المستدرك » (٨١/٢) وعنه البيهقي في « الشعب » (٤٢٣٤/٤) من طريق يحيى بن أبي ميسرة ، كلاهما (بشر ويحيى) ثنا عبد الله بن يزيد المقرئ ، ثنا كهمس بن الحسن ، ثنا مصعب بن ثابت عن عبد الله بن الزبير - رضى الله عنه - قال : قال عثمان ... فذكر الحديث ، وصحح إسناده الحاكم ووافقه الذهبي مع أن علتيه ما زالتا قائمتين وهما ضعف مصعب وانقطاعه فإن مصعبًا هذا لم يلق جدَّه أيضًا راجع « التهذيب » ورواه ابن ماجه في سننه (٢٧٦٦) ثنا هشام بن عمار ، حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن مصعب بن ثابت عن عبد الله بن الزبير به وقال البوصيري في « الزوائد » (٣٩٠/٢) « هذا إسناد ضعيف عبد الرحمن بن زيد ضعفه أحمد وابن معين وابن المديني والنسائي ، وقال الحاكم : روى عن أبيه أحاديثه موضوعة ، وقال ابن عبد البر : أجمعوا على ضعفه . والأولى إعلاله بمن هو فوقه كما سبق بيانه لكن الحديث ثابت عن عثمان بلفظ آخر وهو الآتي .

---

[١] - في خ : « الدولي » . [٢] - في خ : « أن » .

وهكذا رواه أحمد أيضًا[١] عن روح ، عن كهمس ، عن مصعب بن ثابت ، عن عثمان ، وقد رواه ابن ماجة ، عن هشام بن عمار ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن مصعب ابن ثابت ، عن عبد اللَّه بن الزبير قال : خطب عثمان بن عفان الناس ، فقال : يا[٢] أيها الناس سمعت حديثًا من رسول اللَّه ﷺ ، لم يمنعني أن أحدثكم به إلا الظن بكم وبصحابتكم ، فليختر مختار لنفسه ، أو ليدع ، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **من رابط ليلة في سبيل اللَّه كانت كألف ليلة [قيامها وصيامها]** » .

(طريق[٣] أخرىٰ) عن عثمان رضي اللَّه عنه ، قال الترمذي(٦٠٣) : حدثنا الحسن بن علي الخلال ، حدثنا هشام بن عبد الملك ، حدثنا الليث بن سعد ، حدثنا أبو عقيل - زهرة بن معبد - عن أبي صالح مولىٰ عثمان بن عفان ، قال : سمعت عثمان وهو علىٰ المنبر ، يقول : إني كتمتكم حديثًا سمعته من رسول اللَّه ﷺ كراهية تفرقكم عني ، ثم بدا لي أن أحدثكموه[٤] ليختار امرؤ لنفسه ما بدا له ، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **رباط يوم في سبيل اللَّه خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل** » .

ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، قال محمد - يعني البخاري - : أبو صالح مولىٰ عثمان - اسمه بركان - ، وذكر غير الترمذي ، أن اسمه الحارث واللَّه[٥] أعلم . وهكذا رواه الإمام أحمد من حديث الليث بن سعد ، وعبد اللَّه بن لهيعة ، وعنده زيادة في

(٦٠٣) - « الجامع للترمذى » كتاب فضائل الجهاد ، باب ما جاء فى فضل المرابط (١٦٦٧) وأخرجه الدارمى (٢٤٢٩) والبزار فى مسنده (٢/رقم ٤٦) والبيهقى فى « السنن الكبرى » (٣٩/٩) من طريق أبى الوليد هشام بن عبد الملك به ، وأخرجه ابن أبى شيبة فى « المصنف » (٥٨٤/٤) وأحمد (٦٥/١ ، ٧٥) والنسائى (٣٩/٦ ، ٤٠) والحاكم فى « المستدرك » (١٤٣/٢ - ١٤٤) وصحح إسناده ووافقه الذهبى ، والمزى فى « تهذيب الكمال » (٤٢١/٣٣) من طرق عن الليث بن سعد به وأخرجه أحمد (٦٢/١) من طريق ابن لهيعة ثنا زهرة بن معبد به وأخرجه عبد اللَّه بن أحمد فى زوائده على المسند (٦٦/١) ومن طريقه المزى (٤٢٢/٣٣) ثنا سويد بن سعيد ثنا رشدين بن سعد عن زهرة به وأخرجه الطيالسى فى مسنده (ص ١٥) والنسائى (٤٠/٦) وابن حبان (٤٦٠٩/١٠) والحاكم (٦٨/٢) والبيهقى فى « السنن الكبرى » (٩/ ١٦١) وفى « الشعب » (٤٢٣٣/٤) من طريق عبد اللَّه بن المبارك أخبرنا أبو معن ، حدثنى أبو عقيل به - وسقط « أبو عقيل » من مسند الطيالسى فليستدرك - وصححه الحاكم من هذا الوجه على شرط البخارى ووافقه الذهبى مع أن أبا صالح مولى عثمان لم يرو له البخارى لكن وثقه ابن حبان « الثقات » (١٣٦/٤) والعجلى والهيثمى في « المجمع » (٢٩٧/١) وحسن حديثه هذا الترمذى وفى بعض النسخ صححه وقد جزم الدارقطنى ، والرامهرمزى وابن حبان بأن اسمه الحارث ، واللَّه أعلم .

---

[١] - سقط من ت .
[٢] - سقط من ت .
[٣] - في خ : « طريقة » .
[٤] - في خ : « أحدثكم » .
[٥] - في خ : « فاللَّه » .

آخره ، فقال : - يعني عثمان - : « **فليرابط امرؤ كيف شاء** » هل بلغت ؟ قالوا : نعم . قال : اللَّهم اشهد .

(حديث آخر) قال أبو عيسىٰ الترمذي (٦٠٤) : حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان ، حدثنا محمد بن المنكدر ، قال : مر سلمان الفارسي بشرحبيل بن السمط وهو في مرابطة له ، وقد شق عليه وعلىٰ أصحابه فقال : ألا أحدثك يا ابن السمط بحديث سمعته من رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم ؟ قال : بلىٰ . قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **رباط يوم في سبيل اللَّه أفضل- أو قال خير- من صيام شهر وقيامه ، ومن مات فيه وُقي فتنة القبر ، ونمي له عمله إلىٰ يوم القيامة** » .

تفرد به الترمذي من هذا الوجه ، وقال : هذا حديث حسن . وفي بعض النسخ زيادة : وليس إسناده بمتصل ، وابن المنكدر لم يدرك سلمان .

(قلت) الظاهر أن محمد بن المنكدر سمعه من شرحبيل بن السمط ، [وقد رواه مسلم ، والنسائي من حديث مكحول وأبي عبيدة بن عقبة ، كلاهما عن شرحبيل بن السمط][١] وله صحبة عن سلمان الفارسي ، عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « **رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرىٰ عليه عمله الذي كان يعمله ، وأجري عليه رزقه ، وأمن الفتان** » . وقد تقدم سياق مسلم بمفرده .

(حديث آخر) قال ابن ماجة(٦٠٥) : حدثنا محمد بن إسماعيل بن سمرة ، حدثنا محمد بن يعلى السلمي ، حدثنا عمرو بن صبيح[٢] ، عن عبد الرحمن بن عمرو ، عن مكحول ، عن أبي

(٦٠٤) - « الجامع » للترمذى ، كتاب فضائل الجهاد ، باب ما جاء فى فضل المرابط (١٦٦٥) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن » يعنى بذلك متنه وإن كان وإلا فقد قال بعد ذلك : « حديث سلمان إسناده ليس بمتصل ، محمد بن المنكدر لم يدرك سلمان الفارسى ، وقد رُوى هذا الحديث عن أيوب بن موسى عن مكحول عن شرحبيل بن السِّمْط عن سلمان عن النبى ﷺ » وهذه الطريق عند مسلم وقد تقدم تخريجه هنا برقم (٦٤٥) .

(٦٠٥) - سنن ابن ماجه ، كتاب الجهاد ، باب فضل الرباط فى سبيل اللَّه (٢٨٦٨) وقال البوصيرى فى « الزوائد » (٣٩٢/٢ ، ٣٩٣) : « هذا إسناد ضعيف لضعف محمد بن يعلى وشيخه عمر بن صبيح ومكحول لم يدرك أبى بن كعب ، ومع ذلك فهو مدلس وقد عنعنه » وقال عبد العظيم المنذرى فى « كتاب الترغيب والترهيب » (٢٤٥/٢ ، ٢٤٦) - فى باب الرباط : « وآثار الوضع عليه ظاهر » قال المنذرى ولا عجب فرواية عمر بن صبيح الخراسانى ، ولولا أنه فى الأصول لما ذكرته ، وقال المصنف فى « جامع المسانيد والسنن » (١٥٠/١) « اخلق بهذا الحديث أن يكون موضوعًا ، لما فيه من المجازفة ، ولأنه =

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ . [٢] - في خ : « أصبح » .

ابن كعب ، قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لرباط يوم في سبيل الله من[١] وراء عورة المسلمين محتسبًا من غير شهر رمضان أعظم أجرًا من عبادة مائة سنة صيامها وقيامها ، ورباط يوم في سبيل اللَّه من وراء عورة المسلمين محتسبًا من[٢] شهر رمضان أفضل عند اللَّه وأعظم أجرًا- أراه قال- : من عبادة ألف سنة صيامها وقيامها ؛ فإن رده اللَّه تعالىٰ إلىٰ أهله سالمًا لم يكتب عليه سيئة ألف سنة ، وتكتب[٣] له الحسنات ، ويجري له[٤] أجر الرباط إلىٰ يوم القيامة** » .

هذا حديث غريب [من هذا الوجه ، بل منكر][٥] ، وعمر بن صبيح متهم .

(حديث آخر) قال ابن ماجة(٦٠٦) : حدثنا عيسىٰ بن يونس الرملي ، حدثنا محمد بن شعيب بن شابور ، عن سعيد بن خالد بن أبي طويل ، سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **حرس[٦] ليلة في سبيل اللَّه أفضل[٧] من صيام رجل وقيامه في أهله ألف سنة ، السنة ثلثمائة [وستون يومًا][٨] ، واليوم كألف سنة** » .

وهذا حديث غريب أيضًا ، وسعيد بن خالد هذا ضعفه أبو زرعة وغير واحد من الأئمة ، وقال

= من رواية عمر بن صبح أبى نعيم ، أحدُ الكذابين المعروفين بوضع الحديث » ووهى إسناده الحافظ جلال الدين السيوطى فى « الدر المنثور » (٢٠٣/٢) ولم يعزه لغير ابن ماجه .

(٦٠٦) - سنن ابن ماجه ، كتاب الجهاد ، باب فضل الحرس والتكبير فى سبيل اللَّه (٢٧٧٠) وأخرجه ابن أبي عاصم فى « الجهاد » (٢/رقم ٣٠٥) وأبو يعلى فى مسنده (٣٩٧٤/٧ ، ٤٢٨٣) ومن طريقه وطريقه آخر الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى « تاريخ دمشق » (٢٢٣/٧ -مخطوط) وأبو حاتم بن حبان فى « الضعفاء » (٣١٣/١) ومن طريقه ابن الجوزى فى « العلل المتناهية » (٢/رقم ٩٥٦) من طرق عن محمد بن شعيب به ، بزيادة « من رابط - وفى رواية حرس - ليلة على ساحل البحر ... » وقال ابن الجوزى : « هذا حديث لا يصح ، قال ابن حبان : سعيد منكر الرواية لا يحل الاحتجاج به ؛ إلا فيما وافق فيه الثقات » وقال البخارى : « فيه نظر » وقال أبو حاتم الرازى : « لا أعلم روى عنه غير محمد بن شعيب بن شابور ، ولا يشبه حديثه حديث أهل الصدق ، منكر الحديث ، وأحاديثه عن أنس » وقال أبو زرعة : « ضعيف الحديث ، حدث عن أنس مناكير » وبه أعل الحديث الهيثمى فى « المجمع » (٢٩٢/٥) وقال المنذرى فى « الترغيب والترهيب » (٣٤٩/٢) « يشبه أن يكون موضوعًا » وجزم بوضعه الألبانى فى « الضعيفة » (٣/ ١٢٣٤) وقصر به البوصيرى فى « الزوائد » (٣٩٥/٢) فاكتفى بتضعيف إسناده .

[١] - زيادة من : خ .
[٢] - في خ : « من غير » .
[٣] - في خ : « ويكتب » .
[٤] - في ت : « عليه » .
[٥] - في خ : « بل منكر من هذا الوجه » .
[٦] - في خ : « جلوس » .
[٧] - في ت : « خير » .
[٨] - في خ : « يوم » .

العقيلي : لا يتابع علىٰ حديثه . وقال ابن حبان : لا يجوز الاحتجاج به . وقال الحاكم : روىٰ عن أنس أحاديث موضوعة .

(حديث آخر) قال ابن ماجة(٦٠٧) : حدّثنا محمد بن الصباح ، أنبأنا عبد العزيز بن محمد ، عن صالح بن محمد بن زائدة ، [عن عمر بن عبد العزيز][١] ، عن عقبة بن عامر الجهني قال : قال رسول اللّه ﷺ « **رحم اللّه حارس الحرس** » .

فيه انقطاع بين عمر بن عبد العزيز ، وعقبة بن عامر ، فإنه لم يدركه واللّه أعلم .

(حديث آخر) قال أبو داود(٦٠٨) : حدّثنا أبو توبة ، حدثنا معاوية - يعني ابن سلام عن زيد - يعني ابن سلام - [أنه سمع أبا سلام قال][٢] : حدثني السلولي ، أنه حدثه سهل بن الحنظلية ، أنهم ساروا مع رسول اللّه ﷺ يوم حنين [فأطنبوا السير][٣] ، حتىٰ كانت[٤] عشية ، فحضرت الصلاة مع رسول اللّه ﷺ ، فجاء رجل فارس فقال : يا رسول اللّه ؛ إني

(٦٠٧) - سنن ابن ماجه ، كتاب الجهاد ، باب فضل الحرس والتكبير فى سبيل اللّه (٢٧٦٩) وأخرجه الدارمى (٢٤٠٦) وسعيد بن منصور فى سننه (٢٤١٦) ومن طريقه الرويانى فى مسنده (١/رقم ٢٧٢) والبزار كما فى مصباح الزجاجة للبوصيرى (٣٩٤/٢) وأبو يعلى فى مسنده (١٧٥٠/٣) والبيهقى فى « السنن الكبرى » (١٤٩/٩ ، ١٥٠) من طرق عن عبد العزيز بن محمد به ، وقال البوصيرى : « هذا إسناد ضعيف ، صالح بن محمد ضعفه ابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم والبخارى وأبو داود والنسائى وابن عدى وغيرهم » وهو معل قبل ذلك بالانقطاع بن عمر بن عبد العزيز وعقبة بن عامر فقد قال أبو محمد الدارمى عقبه « عمر بن عبد العزيز لم يلق عقبة بن عامر » وبهذا أعله المصنف لكن وصله الحاكم فى مستدركه (٢/ ٨٦) من طريق عبد العزيز بن عبد اللّه الأويسى ، حدثنى محمد بن صالح بن قيس الأزرق عن صالح بن محمد بن زائدة عن عمر بن عبد العزيز عن أبيه عن عقبة به ، وصحح إسناده الحاكم ووافقه الذهبى ومحمد بن صالح ذكره ابن حبان فى « المجروحين » (٢٦٠/٢) وقال : « يروى المناكير عن المشاهير لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد » ومع هذا فقد أورده فى ثقاته (٣٨٥/٧) !! وقال أبو حاتم : « شيخ » وفى « التقريب » مقبول ، وعلى اعتبار وصله ففيه أيضًا صالح بن محمد وهو ضعيف ولعل هذا الاضطراب منه فقد رواه البيهقى أيضًا (١٤٩/٩) من طريق سعيد بن أبى مريم ثنا سعيد بن عبد الرحمن بن جميل الجمحى ثنا صالح بن محمد به غير أنه جعل صحابيه « قيس بن الحارث » .

(٦٠٨) - سنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب فى فضل الحرس فى سبيل اللّه تعالى (٢٥٠١) وأخرجه أيضًا ، كتاب الصلاة ، باب الرخصة فى النظر فى الصلاة (٩١٦) ومن طريقه البيهقى فى « دلائل النبوة » (١٢٥/٥ ، ١٢٦) وأخرجه النسائى فى كتاب السير من « السنن الكبرى » (٨٨٧٠/٥) والبخارى فى « التاريخ الكبير » (٣٠/٢) وابن أبى عاصم فى « كتاب الجهاد » (١٤٩/٢) وابن خزيمة فى صحيحه =

[١] - في خ : « عمرو بن عبد الرحمن » . [٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ . [٤] - في خ : « كان » .

انطلقت بين أيديكم حتىٰ طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا أنا بهوازن علىٰ بكرة أبيهم ، بظعنهم ونعمهم وشائهم[١] ، اجتمعوا إلى حنين ، فتبسم النبي ﷺ وقال : « **تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء اللّٰه** » . ثم قال : « **من يحرسنا الليلة** » ؟ قال أنس بن أبي مرثد : أنا يا رسول اللّٰه . قال[٢] : « **فاركب** » فركب فرسًا له ، فجاء إلىٰ رسول اللّٰه ، ﷺ ، فقال له رسول اللّٰه ﷺ : « **استقبل هذا الشعب ، حتىٰ تكون في أعلاه ، ولا يُغرَّنَّ[٣] من قبلك الليلة** » . فلما أصبحنا خرج رسول اللّٰه ﷺ إلىٰ مصلاه ، فركع ركعتين ثم قال : « **هل أحسستم فارسكم** » ؟ فقال[٤] رجل : يا رسول اللّٰه ؛ ما أحسسناه ، فثوب بالصلاة ، فجعل النبي ﷺ وهو يصلي يلتفت إلىٰ الشعب ، حتىٰ إذا قضىٰ صلاته قال : « **أبشروا ، فقد جاءكم فارسكم** » . فجعلنا ننظر في خلال الشجر في الشعب ، فإذا هو[٥] قد جاء حتىٰ وقف علىٰ النبي[٦] ﷺ فقال : إني انطلقت حتىٰ كنت في أعلىٰ هذا الشعب حيث أمرتني[٧] ، فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما ، فنظرت فلم أر أحدًا ، فقال له رسول اللّٰه ﷺ : « **هل [نزلت الليلة][٨]** ؟ » قال : لا إلا مصليًا أو قاضي حاجة . فقال له : « **أوجبت فلا عليك أن لا تعمل بعدها** » . ورواه النسائي ، عن محمد بن يحيىٰ بن محمد بن كثير الحراني ، عن أبي توبة ، وهو الربيع بن نافع به .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد(٦٠٩) : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا عبد الرحمن بن شريح ، سمعت محمد بن شمير[٩] الرعيني يقول : سمعت أبا عامر التجيبي . قال الإمام أحمد :

= (١/رقم ٤٨٧) والطبراني في « المعجم الكبير » (٥٦١٩/٦) وفي « الأوسط » (١/رقم ٤٠٧) والحاكم في « المستدرك » (٢٣٧/١) من طريق عن أبي توبة بن الربيع بن نافع به ، وأخرجه ابن خزيمة أيضًا من طريق معمر بن يعمر نا معاوية بن سلام به ، وصحح إسناده الحاكم ووافقه الذهبي ، وحسنه الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٢٧/٨) ، وأخرجه الحاكم أيضًا (٨٣/٢ ، ٨٤) ومن طريقه وطريق آخر البيهقي في « السنن الكبرى » (١٤٩/٩) من طريقين عن معاوية بن سلام أخبرني زيد بن سلام حدثني أبو كبشة السلولي به هكذا دون ذكر أبي سلام ، وقال الحاكم : « صحيح على شرط الشيخين غير أنهما لم يخرجا مسانيد سهل بن الحنظلية لقلة رواية التابعين عنه وهو من كبار الصحابة » ووافقه الذهبي مع أن زيد بن سلام إنما أخرج له البخاري في « الأدب المفرد » ولم يخرج له في « الصحيح » وأبو كبشة السلولي أخرج له البخاري دون مسلم واللّٰه أعلم.

(٦٠٩) - « المسند » (١٣٤/٤) ومن طريق أحمد ابن عساكر في « تاريخ دمشق » =

[١] - في خ : « وشياههم » .
[٢] - في خ : « فقال » .
[٣] - في خ : « يعرف » .
[٤] - في خ : « قال » .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - في خ : « رسول اللّٰه » .
[٧] - في خ : « أمرني رسول اللّٰه ﷺ .
[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٩] - في خ : « سمير » .

وقال غير زيد : أنا علي الجنبي[١] يقول : سمعت أبا ريحانة يقول : كنا مع رسول الله ، ﷺ ، في غزوة ، فأتينا ذات ليلة إلىٰ شرف ، فبتنا عليه فأصابنا برد شديد ، حتىٰ رأيت من يحفر في الأرض حفرة[٢] يدخل فيها ويلقي عليه الجحفة - يعني الترس - ، فلما رأىٰ : ذلك رسول الله ﷺ ، من الناس نادىٰ : « **من يحرسنا في هذه الليلة ، فأدعو له بدعاء يكون له فيه فضل** » ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا يا رسول الله . [قال : « **ادن** »][٣] . فدنا منه[٤] ، فقال : « **من أنت؟** » فتسمىٰ له الأنصاري ، ففتح رسول الله ﷺ بالدعاء فأكثر منه ، قال[٥] أبو ريحانة . فلما سمعت ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت[٦] : أنا رجل آخر . فقال : « **ادن**[٧] » . فدنوت ، فقال : « **من أنت؟** » قال : فقلت : أنا أبو ريحانة . فدعا بدعاء هو[٨] دون ما دعا به للأنصاري ، ثم قال : « **حرمت النار علىٰ عين دمعت- أو بكت- من خشية الله ، وحرمت النار علىٰ عين سهرت في سبيل الله** » .

وروىٰ النسائي منه : « **حرمت النار** » إلىٰ آخره عن عصمة بن الفضل ، عن زيد بن الحباب به ، وعن الحارث بن مسكين ، عن ابن وهب ، عن عبد الرحمن بن شريح به ، وأتم ، وقال في

= (١٢٦/٨ / مخطوط) وأخرجه ابن أبي شيبة في مسنده (٧٣٣/٢) وفي « المصنف » كتاب الجهاد ، باب ما ذكر في فضل الجهاد والحث عليه (٥٩٨/٤) وعنه ابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٤/رقم ٢٣٢٥) وفي « كتاب الجهاد » (١٤٥/٢) - والنسائي في « الصغرى » (١٥/٦) وفي « الكبرى » (٤٣٢٥/٣) وابن عساكر من طريق زيد بن الحباب به مطولاً ومختصرًا ، وأخرجه البخاري في « التاريخ الكبير » (٤/ ٢٦٤) وابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٢٣٢٦/٤) وفي « الجهاد » (١٤٤/٢) والدارمي (٢/ ٢٤٠٥) والنسائي في « الكبرى » (٨٨٦٩/٥) والطبراني في « الأوسط » (٨٧٤١/٨) وعنه أبو نعيم في « الحلية » (٢٨/٢) ومن طريق أبي نعيم المزي في « تهذيب الكمال » (٥٦٦/١٢) والدارقطني في « المؤتلف والمختلف » (١٢٥٤/٣ ، ١٣٢٣) والحاكم في « المستدرك » (٨٣/٢) وعنه البيهقي في « السنن الكبرى » (١٤٩/٩) وابن عساكر من طرق عن أبي شريح عبد الرحمن بن شريح به ، وقال الطبراني : « لا يروى هذا الحديث عن أبي ريحانة إلا بهذا الإسناد ، تفرد به أبو شريح » وذكره الهيثمي في « المجمع » (٥/ ٢٩٠) وقال : « روى النسائي طرفًا منه ، رواه أحمد والطبراني في « الكبير » و « الأوسط » ورجال أحمد ثقات وصحح إسناده الحاكم ووافقه الذهبي ، مع أن الذهبي جهل محمد بن شُمَيْر في « الديوان » وقال في « الميزان » لم يرو عنه سوى عبد الرحمن بن شريح على أبي على ... » وذكر هذا الحديث وقال عنه الحافظ في « التقريب » : « مقبول » لكن يشهد لقوله « حرمت على النار على عين ... » الحديث الآتي .

[١] - في خ : « الحنفي » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في خ : « فقال : ادنوا » .
[٤] - سقط من : خ .
[٥] - في خ : « فقال » .
[٦] - في خ : « فقلت » .
[٧] - في خ : « ادنه » .
[٨] - زيادة من : خ .

الروايتين : عن أبي علي الجنبي .

(حديث آخر) قال الترمذي (٦١٠) : حدثنا نصر بن علي الجهضمي ، حدثنا بشر بن عمر ، حدثنا[١] شعيب بن رزيق -أبو شيبة - عن[٢] عطاء الخراساني ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول[٣] : « **عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله** » .

ثم قال : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن رزيق . قال : وفي الباب عن عثمان وأبي ريحانة . (قلت) : وقد تقدما ، ولله الحمد والمنة[٤] .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد(٦١١) : حدثنا يحيىٰ بن غيلان ، حدثنا رشدين ، عن زبّان[٥] ، عن سهل بن معاذ ، عن أبيه - معاذ بن أنس رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال : « **من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعًا لا بأجرة سلطان ، لم ير النار بعينه إلا تحلة القسم ، فإن الله يقول : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾** . تفرد به أحمد رحمه الله .

---

(٦١٠) - « الجامع » للترمذى ، كتاب فضائل الجهاد ، باب ما جاء فى فضل الحرس فى سبيل الله (١٦٣٩) وأخرجه ابن أبى عاصم فى « كتاب الجهاد » (٢/رقم ١٤٦) وأبو نعيم فى « الحلية » (٥/٢٠٩) ومن طريقه المزى فى « تهذيب الكمال » (١٢/٥٢٥) والبيهقى فى « الشعب » (١/رقم ٧٩٦) من طريق بشر بن عمر به وقال الترمذى « حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن رُزَيْق » وهو مختلف فيه فوثقه الدارقطنى فى رواية وضعفه فى أخرى وقال دحيم : « لا بأس به » وضعفه ابن حزم ولينه الأزدى وذكره ابن حبان فى « الثقات » (٨/٣٠٨) وقال : « يعتبر حديثه من غير روايته عن عطاء الخراسانى » وهذه منها وقد أعل هذه الرواية أبو نعيم فقال عقبه : « رواه عثمان بن عطاء عن أبيه ، وقال عن ابن عباس » يعنى أن عثمان بن عطاء وهو الخراسانى خالف شعيبًا فأسقط عطاء بن أبى رباح ، فهو بهذا منقطع لأن عطاء الخراسانى لم يسمع من ابن عباس قاله أحمد - كما فى « جامع التحصيل » للعلائى (ص ٢٣٨) إلا أن عثمان بن عطاء هذا ضعفه غير واحد وتركه آخرون فهو أسوأ حالاً من شعيب بن رُزيق ، وعليه فالقول قول شعيب والله أعلم .

(٦١١) - « المسند » (٣/٤٣٧ ، ٤٣٨) وأخرجه أبو يعلى فى مسنده (٣/١٤٩٠) وعنه ابن عدى فى « الكامل » (٣/١٠١٢) ثنا محرز بن عون ، والطبرانى فى « المعجم الكبير » (٢٠/رقم ٤٠٣) من طريق محمد بن أبى السرى ، كلاهما (محرز ومحمد) ثنا رشدين بن سعد به ، وأخرجه أحمد أيضًا ثنا حسن والطبرانى (٢٠/رقم ٤٠٢) من طريق أسد بن موسى كلاهما (حسن وأسد) ثنا ابن لهيعة عن زبان =

---

[١] - في ت : وحدثنا
[٢] - في خ : « ثنا » .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - سقط من : خ .
[٥] - في خ : « رنان » .

(حديث آخر) روىٰ البخاري في صحيحه[٦١٢] ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **تعس عبد الدينار ، وعبد الدرهم ، وعبد الخميصة ، إن أعطي رضي ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، طوبىٰ لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع** » .

فهذا آخر ما تيسر إيراده من الأحاديث المتعلقة بهذا المقام ، ولله الحمد علىٰ جزيل الإنعام ، علىٰ تعاقب الأعوام والأيام .

وقال ابن جرير[٦١٣] : حدثني المثنى ، حدثنا مطرف بن عبد الله المدني ، حدثنا مالك ، عن زيد ابن أسلم ، قال : كتب أبو عبيدة - رضي الله عنه - إلىٰ عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، يذكر له جموعًا من الروم ، وما يتخوف منهم ، فكتب إليه عمر : أما بعد ، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزلة شدة يجعل الله له بعدها فرجًا ، وإنه لن يغلب عسر يسرين ، وإن الله تعالىٰ يقول : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ .

وقد روىٰ الحافظ ابن عساكر[٦١٤] في ترجمة عبد الله بن المبارك ، من طريق محمد بن إبراهيم ابن أبي سكينة ؛ قال : أملىٰ علي عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس ، وودعته

= به ، والحديث ذكره المنذرى فى « الترغيب والترهيب » (٢٣٨/٢) وقال : « لا بأس بإسناده في المتابعات » وكذا ذكره الهيثمي في « المجمع » (٢٩٠/٥) وقال : « رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى وفى أحد إسنادى أحمد ابن لهيعة وهو أحسن حالاً من رشدين » .

(٦١٢) - صحيح البخارى ، كتاب الجهاد ، باب الحراسة فى الغزو فى سبل الله (٢٨٨٧) وكذا أخرجه ابن ماجه كتاب الزهد باب فى المكثرين (٤١٣٥ ، ٤١٣٦) من حديث أبى هريرة .

(٦١٣) - تفسير ابن جرير (٨٣٩٣/٧) والحديث عند مالك فى الموطأ ، كتاب الجهاد ، باب الترغيب فى الجهاد (٣٥٧/٢) وهو هكذا منقطع فإن زيد بن أسلم لم يلق أبا عبيدة ، لكن وصله أبو عبد الله الحاكم فى « المستدرك » (٣٠٠/٢ ، ٣٠١) من طريق عبد الله بن المبارك ، أنبأ هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب - فذكر الخبر بنحو ما هنا وصححه الحاكم على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى والخبر زاد نسبته السيوطى فى « الدر المنثور » (٢٠٢/٢) إلى ابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا والبيهقى فى « الشعب » ولم أجده فى مظانه فى « الشعب » والله أعلم .

(٦١٤) - « مختصر تاريخ دمشق » لابن منظور (٢٢/١٤) والقصة أوردها كذلك الذهبى فى « سير أعلام النبلاء » (٤١٢/٨) دون ذكر الحديث ، ومحمد بن إبراهيم بن أبى سُكينة ذكره ابن حبان فى « الثقات » (١٠/٩) وقال : « ربما أخطأ » وترجم له ابن ماكولا فى « الإكمال » (٣١٧/٤) ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً . والحديث أخرجه البخارى ، كتاب الجهاد ، باب فضل الجهاد والسير (٢٧٨٥) ثنا إسحاق أخبرنا عفان ثنا همام ثنا محمد بن جحادة ، قال أخبرنى أبو حصين أن ذكوان حدثه أن أبا هريرة - رضى الله عنه

للخروج ، وأنشدها معي إلىٰ الفضيل بن عياض في سنة سبعين ومائة ، وفي رواية سنة سبع وسبعين ومائة :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خدّه بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا وهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي وغبار خيل اللّه في أنف امرىء ودخان نار تلهب
هذا كتاب اللّه ينطق بيننا ليس الشهيد بميت لا يكذب

قال فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه في المسجد الحرام ، فلما قرأه ذرفت عيناه وقال : صدق أبو عبد الرحمن ونصحني . ثم قال : أنت ممن يكتب الحديث؟ قال : قلت : نعم ، قال : فاكتب هذا الحديث ، كراء حملك كتاب أبي عبد الرحمن إلينا ، وأملىٰ علي الفضيل بن عياض : حدثنا منصور بن المعتمر ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة : أن رجلًا قال : يا رسول اللّه ؛ علمني عملًا أنال به ثواب المجاهدين في سبيل اللّه . فقال : « **هل تستطيع أن تصلي فلا تفتر ، وتصوم فلا تفطر؟** » فقال : يا رسول اللّه أنا أضعف من أن أستطيع ذلك . ثم قال النبي ﷺ : « **فوالذي نفسي بيده ، لو طوّقت ذلك ما بلغت المجاهدين في سبيل اللّه ، أوما علمت أن فرس المجاهد ليستن في طوله فيكتب له بذلك الحسنات** »؟ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **واتقوا اللّه** ﴾ أي : في جميع أموركم وأحوالكم ، كما قال النبي صلىٰ اللّه عليه وسلم لمعاذ ، حين بعثه إلىٰ اليمن : « **اتق اللّه حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن** »(٦١٥) .

﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ أي : في الدنيا والآخرة - وقال ابن جرير(٦١٦) : حدثني يونس ، أنبأنا

- حدثه قال : « جاء رجل إلى رسول اللّه ﷺ فقال : دُلّني على عملٍ يعدل الجهاد . قال : لا أجده . قال : هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر ، وتصوم ولا تفطر ؟ قال : ومن يستطيع ذلك ؟ قال أبو هريرة : إن فرس المجاهد ليستنُّ فى طِوله ، فيكتب له حسناتٍ » وقد أخرجه النسائى فى « الكبرى » (٤٣٣٦/٣) وأحمد فى مسنده (٣٤٤/٢) وابن أبى عاصم فى « الجهاد » (١/رقم ٢٧) وتمام في فوائده (٨٤١/٣) وغيرهم من طرق عن عفان بن مسلم به ، ولم أجد هذا الحديث من طريق الفضيل بن عياض فى غير هذا الموضع ، واللّه أعلم .

(٦١٥) - يأتى تخريجه سورة هود / آية ١١٤ .

(٦١٦) - تفسير ابن جرير (٨٣٩٩/٧) وأبو صخر هو حميد بن زياد بن أبى المخارق ضعفه ابن معين =

ابن وهب ، أنبأنا أبو صخر ، عن محمد بن كعب القرظي ، أنه كان يقول - في قول اللَّه - عز وجل - : ﴿ **واتقوا اللَّه لعلكم تفلحون** ﴾ يقول : اتقوني فيما بيني وبينكم ، لعلكم تفلحون يقول : غدًا إذا لقيتموني .

آخر تفسير سورة آل عمران ، وللَّه الحمد والمنة ، نسأله الموت على الكتاب والسنة ، آمين .

= والنسائى وفى رواية عن ابن معين قال : ليس به بأس . وكذا قال أحمد ، ووثقه الدارقطنى وابن حبان وفى « التقريب » : « صدوق يهم » واللَّه الموفق .

سورة آل عمران

مدنيّة، وهي[1] مائتا آية.[2]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢﴾

﴿الٓمٓ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قد سلف أنّ ما لا تكون مِن هذه الفواتح مفرَدةً كـ"صاد" و"قاف" و"نون"، ولا موازِنةً لمفردٍ كـ"حاميم" و"طاسين" و"ياسين" الموازنةِ لـ"قابيل" و"هابيل"، وكـ"طاسين ميم" الموازنةِ لـ"دارابجِرْد" حسبما ذَكَره سيبويهِ في الكتاب،[3] فطريقُ[4] التلفّظ بها الحكايةُ فقط، ساكنةَ الأعجاز على الوَقْف، سواءً جُعِلت أسماءً أو مسرودةً على نمط التعديد وإن لزِمها التقاءُ الساكنين؛ لِما أنّه مغتفَر في باب الوقف قطعًا.[5] فحقُّ هذه الفاتحة أن يوقَف عليها ثمّ يُبدَأ بما بعدها، كما فعله أبو بكر[6] روايةً عن عاصم.[7]

وأمّا ما فيها مِن الفتح على القراءة المشهورة،[8] فإنّما هي حركة همزة الجلالة أُلقيَت على الميم لتدلّ على ثبوتها، إذ ليس إسقاطها للدَّرْج؛ بل للتخفيف،

---

[1] ي - مدنيّة، وهي.

[2] س - وهي مائتا آية؛ س + وآيها مائتان.

[3] وفي هامش ط ي أ: وقد[(1)] نُقل في فاتحة سورة البقرة. «منه». | [(1)] هامش ي: هذا. | انظر: كتاب سيبويه، ٢٥٨/٣، وجاء لفظ "درابجرد" مِن غير ألف بعد الدال، وجاء لفظها بتلك الألف في الكشّاف للزمخشري، ٣٤/١؛ ومعجم البلدان للحموي، ٤١٩/٢، وفيه أنّ دارابجِرد: ولاية بفارس يُنسَب إليها كثير مِن العلماء.

[4] السياق: أنّ ما لا تكون... فطريق التلفّظ...

[5] مضى في أوّل سورة البقرة. وانظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٤/١-٤٠.

[6] هو شعبة بن عيّاش بن سالم الأسدي الكوفي، أبو بكر الحنّاط (ت. ١٩٣هـ/٨٠٩م). واختُلف في اسمه على ثلاثة عشر قولًا أصحُّها شُعبة. المُقرئ المشهور الفقيه المحدِّث. عرض القرآن على عاصم بن أبي النَّجود وعطاء بن السائب وأسلم المنقري. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٩٥/٨-٥٠٨؛ وغاية النهاية لابن الجزري، ٣٢٥/١-٣٢٦.

[7] انظر: السبعة لابن مجاهد، ص ٢٠٠.

[8] انظر: السبعة لابن مجاهد، ص ٢٠٠.

فهي ببقاء حركتها في حُكم الثابت المبتدَإ به، والميمُ بكون الحركة لغيرها في حُكم الوقف على السكون دون الحركة، كما تُوهِم. واعتُرض بأنّه غيرُ معهود في الكلام.[١] وقيل: هي[٢] حركة لالتقاء السواكن التي هي الياء والميم ولام الجلالة بعد سقوط همزتها.[٣] وأنت خبير بأنّ سقوطها مَبنيّ على وقوعها في الدَّرْج، وقد عرفتَ أنّ سكون الميم وَقفيٌّ موجِب لانقطاعها عمّا بعدها مستدعٍ لثبات الهمزة على حالها، لا كما في الحروف والأسماء المَبنيّة على السكون، فإنّ حقّها الاتّصال بما بعدها وضعًا واستعمالًا، فتَسقط بها همزة الوصل، وتُحرَّك أعجازها لالتقاء الساكنَين.

ثمّ إن جُعلت مَسرودةً على نمط التعديد، فلا محلّ لها مِن الإعراب كسائر الفواتح. وإن جُعلت اسمًا للسورة، فمحلُّها إمّا الرفع على أنّها[٤] خبرُ مبتدأ محذوفٍ، وإمّا النصب على إضمار فعل يَليق بالمقام كـ"اذكر" أو "اقرأ" أو نحوهما. وأمّا الرفع بالابتداء، أو النصبُ بتقدير فعل القَسم، أو الجرُّ بتقدير حرفه، فلا مَساغَ لشيء منها لِما أنّ[٥] ما بعدها غيرُ صالح[٦] للخبريّة، ولا للإقسام عليه؛ فإنّ الاسم الجليل مبتدأ، وما بعده خبرُه، والجملة مستأنَفة، أي: هو المستحِقّ للمعبوديّة لا غيرُ.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ خبر[٧] آخرُ له، أو لمبتدأ محذوف، أي: هو الحيّ القيّوم لا غيرُ. وقيل: هو[٨] صفة للمبتدأ، أو بدل منه، أو مِن الخبر الأوّل، أو هو الخبر، وما قبله اعتراض بين المبتدأ والخبر مقرِّر لِما يفيده الاسم الجليل، أو حال منه.[٩] وأيًّا ما كان فهو كالدليل على اختصاص استحقاق

---

١ ونسب أبو حيّان القول بالوقف على الحركة إلى الزمخشري، ورَدّ ذلك على أنّه له. ثمّ بيّن السمين الحلبي أنّ ذلك لا يُفهم مِن كلام الزمخشري. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٢٥٧؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣/١٠؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣/٧-٩؛ واللباب لابن عادل، ٥/٦.

٢ ي – هي.

٣ انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣/١٧؛ واللباب لابن عادل، ٥/٤-٥.

٤ ي: أنّه.

٥ ي + أنّ.

٦ ي: صالحة.

٧ ي: خبرًا.

٨ ي – هو.

٩ انظر هذه الأعاريب في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢/٥٣٩ (البقرة، ٢/٢٥٥)؛ واللباب لابن عادل، ٤/٣١٣-٣١٤ (البقرة، ٢/٢٥٥).

المعبوديّة به سبحانه وتعالى لِما مرّ مِن أنّ معنى ﴿ٱلۡحَيُّ﴾: الباقي الذي لا سبيل عليه للموت والفناء، ومعنى ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾: الدائمُ القيامِ بتدبير الخلق وحفظِه، ومِن ضرورة اختصاصِ ذَيْنك الوصفين به تعالى اختصاصُ استحقاق المعبوديّة به تعالى لاستحالة تحقّقِه بدونهما.

وقد رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «اسمُ الله الأعظمِ في ثلاث سوَر:[١] في سورة البقرة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة، ٢/٢٥٥]، وفي آل عمران ﴿الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾، وفي طه ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ﴾ [طه، ٢٠/١١١]».[٢] ورُوي أنّ / بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام عن اسم الله [٨٦و] الأعظم، قال: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾. ويُروى أنّ عيسى عليه السلام كان إذا أراد إحياء الموتى يدعو "يا حيُّ يا قيُّوم". ويقال: إنّ آصف بن برخيا حين أتى بعرش بِلْقيس دعا بذلك.[٣] وقُرئ: "الحَيُّ القَيَّامُ".[٤]

وهذا ردٌّ على مَن زعَم أنّ عيسى عليه السلام كان ربًّا. فإنّه[٥] رُوي أنّ وفد نجران قدِموا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكانوا ستّين راكبًا فيهم أربعةَ عشرَ رجلًا مِن أشرافهم، ثلاثةٌ منهم أكابرُ إليهم يئُول أمرُهم: أحدُهم: أميرُهم وصاحبُ مشورتهم العاقبُ، واسمُه عبدُ المسيح، وثانيهم: وزيرُهم ومُشيرُهم السيِّد واسمُهُ الأيهَم، وثالثهم: حَبرُهم وأُسْقُفّهم وصاحبُ مِدْراسهم[٦] أبو حارثة بن عَلْقمة، أحدُ بني بَكْر بنِ وائل، وقد كان ملوك الرومِ شرَّفوه ومَوَّلوه وأكرموه لِما شاهدوا مِن عِلمه واجتهاده في دينهم وبنَوا له كنائس،

---

[١] ي: سورة.

[٢] بلفظ قريب في المعجم الكبير للطبراني، ٨/١٨٣ (٧٧٥٨)؛ والمستدرك للحاكم، ١/٦٨٦ (١٨٦٦)؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٤٢.

[٣] خبر بني إسرائيل وعيسى عليه السلام وآصف في تفسير السمرقندي، ١/١٩٢؛ وتفسير القرطبي، ٣/٢٧١ (البقرة، ٢/٢٥٥)؛ واللباب لابن عادل، ٤/٣١٥ (البقرة، ٢/٢٥٥).

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر بن الخطّاب وابن مسعود وحذيفة والنخَعي. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٥؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٧؛ والمغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٥٦٦.

[٥] ي – فإنّه.

[٦] المِدراس: البيت الذي يدرسون فيه. انظر: لسان العرب لابن منظور، «درس».

فلما خرجوا مِن نجرانَ ركِب أبو حارثة بغلتَه، وكان أخوه كُرز بنُ علقمة[١] إلى جنبه، فبينا بَغْلة أبي حارثة تسير إذ عثَرت، فقال كُرز: «تعسًا للأبعَد»، يريد به رسولَ الله عليه السلام، فقال له أبو حارثة: «بل تَعِستْ أمُّك»، فقال كُرز: «ولِمَ يا أخي؟» قال: «إنّه واللهِ النبيُّ الذي كنّا ننتظره»، فقال له كُرز: «فما يَمنعُك عنه وأنت تعلم هذا؟» قال: «لأنّ هؤلاء الملوكَ أعطَوْنا أموالًا كثيرةً وأكرمونا، فلو آمنّا به لأخذوا منّا كلَّها»، فوَقَع ذلك في قلب كُرز وأَضمَره إلى أن أَسلَم فكان يُحدِّث بذلك.

فأتَوا المدينة ثمّ دخلوا مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد صلاة العصر، عليهم ثيابُ الحِبَرات[٢] جُبَبٌ وأرديةٌ فاخرة، يقول بعضُ مَن رآهم مِن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «ما رأينا وفدًا مِثلَهم». وقد حانت صلاتُهم فقاموا ليصلُّوا في المسجد، فقال عليه السلام: «دَعُوهم»،[٣] فصلُّوا إلى المَشرِق.

ثمّ تكلّم أولئك الثلاثةُ مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقالوا تارةً: عيسى هو الله؛ لأنّه كان يُحيي الموتى، ويُبرئ الأسقام، ويُخبِر بالغيوب، ويَخلُق مِن الطين كهيئة الطير فيَنفُخ فيه فيَطير؛ وتارةً أخرى: هو ابنُ الله، إذ لم يكن له أبٌ يُعلَم؛ وتارةً أخرى: إنّه ثالث ثلاثة، لقوله تعالى: فَعلْنا وَقُلْنا، ولو كان واحدًا لقال: فعلتُ وقلتُ. فقال لهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أسلِموا»، قالوا: «أَسلمْنا قبلك»، قال عليه السلام: «كذبتُم! يَمنعُكم مِن الإسلام دعاؤكم لله تعالى[٤] ولدًا»، قالوا: «إن لم يكن ولدًا لله فمَن أبوه؟» فقال عليه السلام: «ألستُم تعلمون أنّه لا يكون ولد إلّا ويُشبِه أباه؟» فقالوا: «بلى»، قال: «ألستُم تعلمون

---

[١] هو كُرز بن علقمة بن هلال الخُزاعي (ت. نحو ٤٥هـ/٦٦٥م). صحابيّ مِن المعمَّرين، عاش زمنًا في الجاهليّة، وأسلم يوم فتح مكّة. وهو الذي قفا أثر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأبي بكر رضي الله عنه حين جاءا إلى المدينة، فانتهى إلى باب الغار فقال: ههنا انقطع الأثر. وهو الذي وضع للناس معالم الحَرَم في زمن معاوية. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤٥٨/٥؛ والاستيعاب لابن عبد البرّ، ١٣١١/٣؛ والإصابة لابن حجر، ٤٣٥/٥-٤٣٧.

[٢] الحِبَرات جمع حِبَرة: وهي ضرب مِن برود اليمن موشّاة مُخطَّطة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «حبر».

[٣] ط س: دعوه.

[٤] ي - تعالى.

أنّ ربّنا حيٌّ لا يَموت وأنّ عيسى يأتي عليه الفناء؟» قالوا: «بلى»، قال عليه السلام: «ألستُم تعلمون أنّ ربّنا قيُّوم على كلّ شيء يَحفَظه ويَرزُقه؟» قالوا: «بلى»، قال عليه السلام: «فهل يَملِك عيسى مِن ذلك شيئًا؟» قالوا: «لا»، فقال عليه السلام: «ألستُم تَعلمون أنّ الله تعالى[1] لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء؟» قالوا: «بلى»، قال عليه السلام: «فهل يعلم عيسى مِن ذلك إلّا ما عُلِّم؟» قالوا: «لا»، قال عليه السلام: «ألستُم تعلمون أنّ ربّنا صوَّر عيسى في الرَّحِم كيف شاء،[2] وأنّ ربّنا لا يَأكُل ولا يَشرَب ولا يُحدِث؟» قالوا: «بلى»، قال عليه السلام: «ألستُم تَعلمون أنّ عيسى حَملتْه أمُّه كما تَحمِل المرأة، ووضعَته كما تضَع المرأةُ ولدها، ثمّ غُذّي كما يُغذّى الصبيُّ، ثمّ كان يَطعَم الطعام ويشرَب الشراب ويُحدِثُ الحدثَ؟»[3] قالوا: «بلى»، قال عليه السلام: «فكيف يكون هذا كما زعمتُم؟» فسكتوا فأبَوا إلّا جُحودًا، فأنزل الله عزّ وجلّ مِن أوّل السورة إلى نيِّف وثمانين آيةً.[4] تقريرًا لِما احتجّ به عليه السلام عليهم، وأجاب به عن شُبَهِهم، وتحقيقًا للحقّ الذي فيه يَمترون.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾، أي: القرآنَ، عُبّر عنه باسم الجنس إيذانًا بكمال تَفوُّقه على بقيّة الأفراد في حِيازة كمالات الجنس، كأنّه هو الحقيق بأن يُطلَق عليه اسم الكتاب دون ما عداه، كما يُلوِّح به التصريحُ باسمي **التوراة والإنجيل**. وصيغة التفعيل للدلالة[5] على التفخيم.[6] وتقديم الظرف على المفعول لِما مرّ مِن الاعتناءِ بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر. والجملة إمّا[7] مستأنَفة، أو خبر آخرُ عن[8] الاسم الجليل، أو هي الخبر. وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾... إلخ، اعتراض أو حال،

---

[1] ي – تعالى.
[2] ي: يشاء.
[3] ي – الحدث.
[4] مِن قوله: "فإنّه رُوي أنّ وفد نجران" بمعناه عن الكلبي والربيع في جامع البيان للطبري، ١٧١/٥-١٧٤؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٥٨٥/٢. وعنهما بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢.
[5] ي: للدالة.
[6] ي: التنجيم.
[7] ي – إمّا.
[8] ط: مِن.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ صفة أو بدل كما مرّ. وقُرئ: "نَزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابُ" بالتخفيف ورفعِ "الكتاب"،[١] فالظاهر حينئذ أن تكون مستأنَفة. وقيل: يجوز كونها خبرًا بحذف العائد،[٢] أي: نزَل الكتابُ مِن عنده.

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ حال مِن الفاعل أو المفعول، أي: نزَّله مُحِقًّا في تنزيله على ما هو عليه، أو ملتبِسًا بالعدل في أحكامه، أو بالصدق في أخباره التي مِن جملتها خبرُ التوحيد وما يَليه، وفي وعده ووعيدِه، أو بما يُحقِّق[٣] أنّه مِن عند الله تعالى مِن الحُجج البيّنة.

﴿مُصَدِّقًا﴾ حال مِن ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بالاتّفاق، على تقدير كون قوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ حالًا مِن فاعل ﴿نَزَّلَ﴾. وأمّا على تقدير حاليّته مِن ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فهو عند مَن يُجوِّز تعدّد الحال بلا عطف ولا بدليّة حالٌ منه بعد حال. وأمّا عند مَن يَمنعه فقد قيل: إنّه حال مِن محلّ الحال الأولى على البدليّة. وقيل: مِن المستكِنّ في الجارّ والمجرور؛[٤] لأنّه حينئذ يتحمَّل ضميرًا لقيامه مقامَ عاملِه المتحمِّل له، فيكون حالًا متداخِلةً. وعلى كلّ حال فهي حال مؤكِّدة. وفائدة تقييد التنزيل بها حثُّ أهل الكتابَين على الإيمان بالمنزَّل، وتَنبيهُهم على وجوبه؛ فإنّ الإيمان بالمصدَّق موجِبٌ للإيمان بما يصدِّقه حتمًا.

﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ مفعول لـ﴿مُصَدِّقًا﴾، واللام دِعامة لتقوية العمل، نحوُ ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود، ١١/١٠٧]، أي: مصدِّقًا لِما قبله مِن الكُتب السالفة. وفيه إيماء إلى حضورها وكمالِ ظهور أمرِها بين الناس. وتصديقه إيّاها في الدعوة إلى الإيمان والتوحيد، وتنزيهِ الله عزّ وجلّ عمّا لا يليق بشأنه الجليل، والأمرِ بالعدل والإحسان، وكذا في أنباء الأنبياءِ والأمم الخالية، وكذا في نزوله على النعت المذكور فيها، وكذا في الشرائع التي لا تَختلِف باختلاف الأمم والإعصار،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش والنخَعي. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٥؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٧.

[٢] هذا القول في التبيان للعُكبَري، ١/٢٣٥-٢٣٦؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣/١٥؛ واللباب لابن عادل، ٥/١٣.

[٣] ط: تحقّق.

[٤] الوجوه الثلاثة في التبيان للعُكبَري، ١/٢٣٦؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣/١٥؛ واللباب لابن عادل، ٥/١٤.

ظاهرٌ[١] لا ريبَ فيه. وأمّا ما[٢] في الشرائع المختلفة باختلافهما فمِن حيث إنّ أحكام كلّ / واحدٍ منها واردةٌ حسبما تَقتضيه الحِكمة التشريعيّة بالنسبة إلى [٨٦ظ] خصوصيّات الأُمَم المكلَّفة بها،[٣] مشتمِلةٌ على المصالح اللائقة بشأنهم.

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ تعيين لِما بين يديه وتبيين لرِفعة مَحلِّه، تأكيدًا لِما قبله وتمهيدًا لِما بعده؛ إذ بذلك يترقّى شأنُ ما يُصدِّقه رِفعةً ونباهةً، ويَزداد في القلوب قَبولًا ومَهابةً، ويَتفاحَش حالُ مَن كفَر بهما في الشَّناعة واستتباعِ ما سيُذكر مِن العذاب الشديد والانتقام، أي: أَنزَلهما جُملةً على موسى وعيسى عليهما السلام، وإنّما لم يُذكَرا؛ لأنّ الكلام في الكتابين لا فيمَن أُنزلا عليه. وهما اسمان أعجميّانِ: الأوّل عِبريّ، والثاني سريانيّ.[٤] ويَعضُده القراءةُ بفتح همزةِ "الأنجيل"؛[٥] فإنّ "أَفعِيل" ليس مِن أبنية العربِ.[٦] والتصدّي لاشتقاقهما مِن "الوري" و"النجْل" تَعسّفٌ.[٧]

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ④﴾

﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلِّق بـ﴿أَنزَلَ﴾، أي: أنزلهما مِن قَبل تنزيل الكتاب. والتصريح به مع ظهور الأمر للمبالغة في البيان. ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ في حيّز النصب على أنّه عِلّة للإنزال، أي: أنزلهما لهداية الناس، أو على أنّه حال منهما، أي: أنزلهما حالَ كونهما هُدًى لهم. والإفراد لِما أنّه مَصدر، جُعلا نفس الهُدى مبالغةً، أو حُذف منه المُضاف، أي: ذَوَيْ[٨] هُدى. ثُمّ إن أُرِيد هِدايتهما بجميع ما فيهما

---

١ خبر "تصديقُه".
٢ ط ي - ما.
٣ وفي هامش ي: الباء لتضمين التكليف معنى الأمر. «منه»».
٤ انظر: التفسير البسيط للواحدي، ٥/٢٨؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٢٥٧؛ والمُعرَّب للجواليقي، ص ١٢٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٤٣.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحَسَن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٥.
٦ انظر هذا الاستدلال في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٥٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٤٣.
٧ هذا الردُّ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٤٣. وذهب إلى اشتقاقه الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه، ١/٣٧٤-٣٧٥؛ وابن دريد في جمهرة اللغة، ١/٤٩٢ «نجل». وانظر لتفصيل الكلام في اشتقاقهما: التفسير البسيط للواحدي، ٥/٢٨؛ والمُعرَّب للجواليقي، ص ١٢٣.
٨ ي: ذوا.

مِن حيث هو جميع، فالمراد بـ"الناس" الأُمَم الماضية مِن حين نزولهما إلى زمان نسخِهما، وإن أُرِيد هدايتهما على الإطلاق -وهو الأنسَب بالمقام- فـ"الناس" على عمومه لِما أنّ هدايتهما بما عدا الشرائعَ المنسوخةَ مِن الأمور التي يُصدِّقهما القرآن فيها -ومِن جملتها البِشارةُ بنزوله وبمَبعَث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم- تعمُّ الناس قاطبة.

﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ في الأصل مَصدر كالغُفران أُطلِق على الفاعل مبالغةً، والمراد به ههنا:

إمّا جِنس الكتب الإلهيّة، عُبّر عنها بوصف شامل لِما ذُكِر منها وما لم يُذكَر، على طريق التتميم بالتعميم إثرَ تخصيصِ بعضِ مشاهيرها بالذِّكر، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا﴾ [عبس، ٨٠/٢٧-٢٨] إلى قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً﴾ [عبس، ٣١/٨٠].

وإمّا نفسُ الكتب المذكورة أُعِيد ذكرها بوَصف خاصّ لم يُذكَر فيما سبق، على طريقة العطف بتكرير لفظِ الإنزال، تنزيلًا للتغايُر الوصفيّ مَنزلةَ التغايُر الذاتيّ، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود، ٥٨/١١].

وإمّا الزبورُ فإنّه مشتمِل على المَواعظ الفارقة بين الحقّ والباطل، الداعية إلى الخير والرَّشاد، الزاجرة عن الشرّ والفساد. وتقديم الإنجيل عليه مع تأخُّره عنه نزولًا لقُوّة مناسَبته للتوراة في الاشتمال على الأحكام والشرائع، وشيوع اقترانهما في الذِّكر.

وإمّا القرآنُ نفسُه ذُكِر بنعت مادح له بعد ما ذُكِر باسم الجنس تعظيمًا لشأنه ورفعًا لمكانه. وقد بيّن أوّلًا تنزيلَه التدريجيَّ إلى الأرض، وثانيًا إنزالَه الدفعيّ إلى السماء الدنيا. أو أُرِيد بـ"الإنزال" القَدْر المشترك العاري عن قيد التدريج وعدمِه.

وإمّا المعجزاتُ المقرونةُ بإنزال الكتب المذكورة، الفارقة بين المُحقّ والمُبطِل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وُضع مَوضِع الضمير العائد إلى ما فُصِّل مِن الكتب المُنزَلة، أو منها ومِن المعجزات الآيات مُضافَة إلى الاسم الجليل

تعيينًا لحيثيّة كُفرِهم، وتهويلًا لأمرهم، وتأكيدًا لاستحقاقهم العذابَ الشديد، وإيذانًا بأنّ ذلك الاستحقاق لا يُشترَط فيه الكفرُ بالكُلّ؛ بل يكفي فيه الكفرُ ببعضٍ منها. والمراد بالموصول إمّا أهلُ الكتابين، وهو الأنسبُ بمقام المُحاجّة معهم، أو جنسُ الكفَرة، وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًا، أي: إنّ[1] الذين كفروا بما ذُكِر مِن آيات الله الناطقة بالحقّ، لاسيّما بتوحيده تعالى وتنزيهه عمّا لا يَليق بشأنه الجليل كلًّا أو بعضًا، مع ما بها مِن النعوت الموجِبة للإيمان بها، بأن كذّبوا بالقرآن أصالةً وبسائر الكتُب الإلهيّة تبَعًا، لِما أنّ تكذيب المصدِّق موجِب لتكذيب ما يُصدِّقُه حتمًا وأصالةً أيضًا، بأن كذّبوا بآياتها الناطقة بالتوحيد والتنزيه وآياتِها المبشِّرة بنزول القرآن ومَبعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وغيِّروها.

﴿لَهُمْ﴾ بسبب كُفرهم بها[2] ﴿عَذَابٌ﴾ مرتفِع، إمّا على الفاعليّة مِن الجارّ والمجرور، أو على الابتداء، والجملة خبر "إنّ"، والتنوينُ للتفخيم، أي: أيُّ عذابٍ؟ عذابٌ[3] ﴿شَدِيدٌ﴾ لا يُقادَر قَدْره، وهو وعيد جِيء به إثرَ تقرير أمْر التوحيد الذاتيّ والوصفيّ، والإشارةِ إلى ما يَنطِق بذلك مِن الكتب الإلهيّة، حَمْلًا على القَبول والإذعان وزَجْرًا عن الكفر والعصيان.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُغالَب، يَفعَل ما يشاء ويَحكُم ما يريد. ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ عظيمٍ خارج عن أفراد جنسه. وهو افتعال مِن النِّقْمة: وهي السَّطْوة والتسلُّط، يُقال: انتقم منه إذا عاقبه بجِنايته. والجملة اعتراض تذييليّ مقرِّر للوعيد ومؤكِّد له.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ استئناف كلامٍ سِيق لبيان سَعة عِلمه تعالى، وإحاطتِه بجميع ما في العالَم مِن الأشياء التي مِن جملتها ما صدَر عنهم مِن الكُفر والفُسوق سِرًّا وجَهْرًا إثرَ بيان كمال قُدرته وعِزّتِه، تربيةً لِما قبله مِن الوعيد، وتنبيهًا على أنّ الوقوف على بعض المغيَّبات كما كان

---

[1] ي - إنّ.
[2] ي - بها.
[3] ي - عذاب.

في عيسى عليه السلام بمَعزِل مِن بُلوغ رُتبة الصفات الإلهيّة. وإنّما عُبّر عن عِلمه عزّ وجلّ بما ذُكِر بعدم خفائِه عليه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم، ١٤/٣٨]؛ إيذانًا بأنّ عِلمه تعالى بمَعلوماته -وإن كانت في أقصى الغايات الخفيّةِ- ليس مِن شأنه أن يكون على وجه يُمكِن أن تُقارِنه شائبةُ خفاءٍ بوَجْه مِن الوجوه، كما في علوم المخلوقين؛ بل هو في غاية الوضوح والجلاءِ.

والجملة المنفيّة خبر لـ﴿إِنَّ﴾، وتكريرُ الإسنادِ لتقوية الحُكم. وكلمة ﴿فِي﴾ متعلِّقة بمحذوف وقع صفةً / لـ﴿شَيْءٌ﴾ مؤكِّدةً لعُمومه المستفاد مِن وقوعه في [٨٧و]
سياق النفي، أي: لا يَخفى عليه شيء ما كائنٌ في الأرض ولا في السماء أعمُّ مِن أن يكونَ ذلك بطريق الاستقرار فيهما أو الجزئيّة[١] منهما. وقيل: متعلِّقة بـ﴿يَخْفَىٰ﴾.[٢] وإنّما عُبّر بهما عن كلّ العالَم لأنّهما قُطْراه. وتقديم ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ لإظهار الاعتناء بشأن أحوال أهلِها. وتوسيط حرفِ النفي بينهما للدلالة على الترقّي مِن الأدنى إلى الأعلى، باعتبار القُرب والبُعد منّا المستدعِيَين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ جملة مستأنَفة ناطقة ببعض أحكام قيّوميّته تعالى وجَرَيانِ أحوال الخلق في أطوار الوجود حسب مَشيئته تعالى[٣] المَبنيّة على الحِكم البالغة، مقرّرةً لكمال عِلمه، مع زيادة بيانٍ لتعلُّقه بالأشياء قبل دخولِها تحت الوجود، ضرورةَ وجوبِ عِلمه تعالى بالصُّور المختلفة المترتِّبة على التصوير المترتِّب على المشيئة قبل تحققها بمَراتبَ.

وكلمة ﴿فِي﴾ متعلِّقة بـ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ضمير المفعول، أي: يُصوِّركم وأنتم في الأرحام مُضَغ. و﴿كَيْفَ﴾ معمول لـ﴿يَشَآءُ﴾.

---

١ ي: والجزئيّة.

٢ في التبيان للعُكبري، ١/٢٣٧؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣/٢٣؛ واللباب لابن عادل، ٥/٢٥.

٣ ط س - تعالى.

والجملة في محلّ النصب على الحاليّة، إمّا مِن فاعل ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾، أي: يُصوِّركم كائنًا على مَشيئته تعالى، أي: مريدًا، أو مِن مفعوله، أي: يُصوِّركم كائنين على مَشيئته تعالى تابعين لها في قَبول الأحوال المتغايرة، مِن كونكم نُطَفًا ثمّ عَلَقًا ثمّ مُضَغًا غيرَ مخلَّقة ثمّ مخلَّقة، وفي الاتِّصاف بالصفات المختلِفة مِن الذُّكورة والأُنوثة والحُسْن والقُبْح وغير ذلك مِن الصفات. وفيه مِن الدلالة على بُطلان زَعْم مَن زَعَم رُبوبيّة عيسى عليه السلام، وهو مِن جملة أبناءِ النواسِيت[١] المتقلِّبين في هذه الأطوار على مَشيئة الباري عزّ وعلا، وكمالِ ركاكةِ عقولِهم ما لا يخفى. وقُرئ: "تَصَوَّرَكُمْ" على صيغة الماضي،[٢] مِن التفعُّل، أي: صوَّركم لنفسه وعبادتِه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يتَّصِف بشيء ممّا ذُكِر مِن الشئون العظيمة الخاصّة بالألوهيّة أحدٌ، ليَتوهَّم ألوهيّتُه. ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المتناهي في القدرة والحِكمة، ولذلك يَخلقُكم على ما ذُكِر مِن النمط البديع.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ شروع في إبطال شُبَهِهم الناشئة عمّا نَطَق به القرآن في نَعْت عيسى عليه السلام بطريق الاستئناف، إثرَ بيان اختصاص الربوبيّةِ ومَناطِها به سبحانه وتعالى[٣] تارةً بعد أخرى، وكونِ كلّ مَن عداه مَقهورًا تحت مَلَكوته تابعًا لمشيئته.

قيل: إنّ وفد نجرانَ قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ألستَ تَزعُم يا محمّد أنّ عيسى كلمة الله ورُوح منه؟» قال عليه السلام: «بلى»، قالوا:

---

[١] النواسيت جمع الناسوت: وهو مِن منازل الخلائق، وتنطبق عليه جميع الأوصاف الحيوانيّة؛ إذ يطلق على الطبيعة البشريّة. انظر: كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي، ١/٥٥٠.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن طاوس. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٥-٢٦.

[٣] ي - وتعالى.

«فحَسبُنا ذلك».[١] فنُعيَ عليهم زيغهم وفتنتهم وبُيِّن أنّ الكتاب مؤسَّس على أصول رَصينة وفروع مَبنيّة عليها ناطقةٍ بالحقّ قاضيةٍ ببُطلان ما هم عليه مِن الضلال.

والمراد بـ"الإنزال" القَدْر المشترَك المجرّد عن الدلالة على قَيْد التدريج وعدمِه. ولام ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للعهد، وتقديمُ الظرف عليه لِما أُشِير إليه فيما قبل مِن الاعتناء بشأن بِشارته عليه السلام، بتشريف الإنزال عليه، ومِن التشويق إلى ما أُنزِل. فإنّ النفس عند تأخير ما حقُّه التقديم -لاسيّما بعد الإشعار برِفعة شأنه أو بمَنفعتِه- تبقى مترقِّبة له؛ فيَتمكّن لديها عند وُروده عليها فَضْلَ تمكّن، وليتَّصل به تقسيمه إلى قسميه.

﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ﴾ الظرف خبر، و﴿ءَايَٰتٌ﴾ مبتدأ، أو بالعكس، بتأويلٍ مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ الآية [البقرة، ٨/٢]. والأوّل أوفَق بقواعد الصناعة، والثاني أدخَل في جزالة المعنى؛ إذ المقصود الأصليّ انقسام الكتاب إلى القِسمين المعهودين، لا كونُهما مِن الكتاب، فتَذكّرْ. والجملة مستأنَفة، أو في حيّز النصب على الحاليّة مِن ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: هو الذي أنزَل الكتابَ كائنًا على هذه الحال، أي:[٢] منقسِمًا إلى محكَم ومتشابِه. أو الظرف هو الحال وحدَه، و﴿ءَايَٰتٌ﴾ مرتفِع به على الفاعليّة. ﴿مُّحْكَمَٰتٌ﴾ صفةُ ﴿ءَايَٰتٌ﴾، أي: قطعيّة الدلالة على المعنى المراد، محكَمة العبارة، محفوظةٌ مِن الاحتمال والاشتباه.

﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أصل فيه وعمدة يُردّ إليها غيرُها. فالمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ كلُّه. والإضافة بمعنى "في"، كما في "واحدِ العَشرةِ"، لا بمعنى اللام؛ فإنّ ذلك يُؤدّي إلى كون ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ عبارةً عمّا عدا المحكَمات. والجملة إمّا صفة لِما قبلها، أو مستأنَفة. وإنّما أُفرِد "الأمّ" مع تعدّد الآيات لِما أنّ المراد بيانُ أصليّة كلّ واحدة منها، أو بيانُ أنّ الكلّ بمَنزلة آية واحدة، كما في قوله تعالى:

---

[١] لم أجِده بهذا اللفظ في مظانّه. وهو عن الربيع بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٤٣/٨.

[٢] ي - أي.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء، ٩١/٢١]. وقيل: اكتُفيَ بالمفرد عن الجمع، كما في قول الشاعر:[١]

بها جِيَفُ الحَسْرى فأمّا عِظامُها فبيضٌ وأمّا جِلدُها فصَليبُ[٢]

أي: وأمّا جُلودها.[٣]

﴿وَأُخَرُ﴾ نَعْت لمحذوف معطوف على ﴿ءَايَٰتٌ﴾، أي: وآيات أُخَر، وهي جَمْع "أُخرى". وإنّما لم يَنصرِف؛ لأنّه وصف مَعدولٌ مِن "الآخَر" أو مِن "آخَر مِن". ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ صفة لـ﴿أُخَرُ﴾، وفي الحقيقة صفة للمحذوف، أي: محتمِلات لمَعانٍ متشابِهة لا يَمتاز بعضها مِن بعض في استحقاق الإرادة بها، ولا يتّضح الأمر إلّا بالنظر الدقيق والتأمّل الأنيق، فالتشابه في الحقيقة وصف لتلك المعاني، وُصِفَ به الآياتُ على طريقة وَصْف الدالّ بوصف المدلول.

وقيل: لمّا كان مِن شأن الأمور المتشابِهة أن يَعجِز العقل عن التميز بينها سُمِّي كلّ ما لا يَهتدي إليه العقل متشابهًا، وإن لم يكن ذلك بسبب التشابه. كما أنّ المشكِل في الأصل ما دخل في أشكاله وأمثاله ولم يُعلَم بعينه، ثمّ أُطلِق على كلّ غامضٍ وإن لم يكن غُموضُه مِن تلك الجهة.[٤]

وإنّما جُعِل ذلك كذلك ليظهر فضل العلماء ويزدادَ حِرصهم على الاجتهاد في تدبّرها وتحصيل العلوم التي نِيط بها استنباط ما أُرِيد بها مِن الأحكام الحَقّة،

---

١ القول مع التمثيل بالبيت عليه في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٥/٣؛ واللباب لابن عادل، ٢٩/٥.

٢ البيت لعلقمة بن عَبَدة المُلقَّب بالفَحل في ديوانه بشرح الشَّنتمَري، ص ٤٠؛ والمفضَّليّات للمُفضَّل الضَّبّي، ص ٣٩٤؛ وكتاب سيبويه، ٢٠٩/١؛ وخِزانة الأدب للبغدادي، ٥٥٩/٧. ونُسِب إلى الراعي النُّميري في الكشف والبيان للثعلبي، ٩٥/٣ (البقرة، ٧/٢)؛ والتفسير البسيط للواحدي، ١١٥/٢ (البقرة، ٧/٢). وليس في أصل ديوان الراعي، وأورده مُحقِّقه في المُلحَق المنسوب خطأً إليه. انظر: ديوانه، ص ٢٩٩. والضمير في "بها" عائد إلى الطريق التي قطعها الشاعر في فلاة إلى الممدوح. والحسرى: الرواحل المُعيِية التي يتركها أصحابها فتموت. وجعل عظامها بيضًا لقدم عهدها. والصليب: اليابس الذي لم يُدبَغ. انظر: شرح الشنتمري على ديوان علقمة، ص ٤١.

٣ وهذا البيت شاهد على ما جاء فيه اللفظ مُفردًا بمعنى الجمع في كتاب سيبويه، ٢٠٩/١؛ ومعاني القرآن للأخفش، ٢٤٥/١ (النساء، ٤/٤)؛ وجامع البيان للطبري، ٣٨٥/٦ (النساء، ٤/٤).

٤ انظر القول في اللباب لابن عادل، ٣٢/٥.

[٨٧ظ] فينالوا بها وبإتعاب القرائح / في استخراج مقاصدِها الرائقة ومعانيها اللائقة المَدارجَ العالية ويَعرِجوا بالتوفيق بينها وبين المحكَمات مِن اليقين والاطمئنان إلى المَعارج القاصية.

وأمّا قوله عزّ وجلّ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود، ١/١١]، فمعناه: أنّها حُفِظت مِن اعتراء الخَلَل أو مِن النَّسخ، أو أُيِّدت بالحُجَج القاطعة الدالَّة على حَقِّيتها، أو جُعِلت حَكيمة لانطوائها على جلائل الحِكَم البالغة ودقائقها. وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر، ٢٣/٣٩]، معناه: متشابِه الأجزاء، أي: يُشبِه بعضُها بعضًا في صحّة المعنى وجزالةِ النظم وحَقّيَة المدلول.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ أي: مَيل عن الحقّ إلى الأهواء الباطلة. «قال الراغب:[١] الزيغ: المَيل عن الاستقامة إلى أحد الجانبين».[٢] وفي جعل قلوبهم مَقرًّا للزَّيغ مبالغةٌ في عُدولهم عن سَنن الرشاد وإصرارِهم على الشرّ والفساد. ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ مُعرِضين عن المحكَمات، أي: يتعلَّقون بظاهر المتشابه مِن الكتاب، أو بتأويل باطل، لا تَحرِّيًا للحقّ بعد الإيمان بكونه مِن عند الله تعالى؛ بل ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ أي: طلبَ أن يَفتِنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكَم بالمتشابه، كما نُقِل عن الوفد.[٣] ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي: وطلبَ أن يُئوِّلوه حسبما يَشتهونه مِن التأويلات الزائغة، والحال أنّهم بمَعزِل مِن تلك الرتبة. وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾، فإنّه حال مِن ضمير ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ باعتبار العِلّة الأخيرة، أي: يتَّبعون المتشابه لابتغاء تأويله، والحالُ أنّه مخصوص به تعالى وبمَن وفَّقه له مِن عباده الراسخين في العلم، أي: الذين ثبَتوا وتمكَّنوا فيه ولم يَتزلزلوا في مَزالّ الأقدام، وفي تعليل الاتّباع

---

[١] هو الحسين بن محمّد بن المفضّل الأصفهاني، أبو القاسم (ت. ٥٠٢هـ/١١٠٨م). المعروف بالراغب. كان مِن أذكياء المتكلّمين. سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يُقرن بالإمام الغزّالي. مِن كتبه محاضرات الأدباء، والذريعة إلى مكارم الشريعة، والمفردات في غريب القرآن، وحلّ متشابهات القرآن، وتفصيل النشأتين. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٢٠/١٨؛ والأعلام للزركلي، ٢٥٥/٢.

[٢] الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٧/٣؛ واللباب لابن عادل، ٣٥/٥. وهو بمعناه في مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٣٨٧.

[٣] يقصد وفد نجران، ومضى خبرهم آنفًا.

بابتغاء تأويله دون نفسِ تأويلِه، وتجريدِ التأويل عن الوصف بالصحّة أو الحقّيّة إيذانٌ[١] بأنّهم ليسوا مِن التأويل في شيء، وأنّ ما يَبتغونه ليس بتأويل أصلًا، لا أنّه تأويل غيرُ صحيح قد يُعذَر صاحبه.

ومَن وَقَف في ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فسّر المتشابه بما استأثر اللهُ عزّ وعلا بعِلمه، كمدّة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة وخواصّ الأعداد كعدد الزَّبانية، أو بما دلّ القاطع على عدم إرادة ظاهره ولم يدلّ على ما هو المراد به.

﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بالمتشابه -وعدم التعرُّض لإيمانهم بالمحكَم لظهوره- أو بالكتاب. والجملة على الأوّل استئناف موضِّح لحال الراسخين أو حال منهم، وعلى الثاني خبر لقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ مِن تمام المَقول مقرِّر لِما قبله ومؤكِّد له، أي: كلُّ واحدٍ منه ومِن المحكم، أو كلُّ واحدٍ مِن متشابهه ومحكمه مُنزَل مِن عنده لا مخالفةَ بينهما. أو آمنّا به وبحَقّيّته على مراده تعالى.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ حقَّ التذكُّر ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: العقول الخالصة عن الرُّكون إلى الأهواء الزائغة. وهو تذييل سِيق مِن جهته تعالى مَدْحًا للراسخين بجَوْدة الذِّهن وحُسْن النظر، وإشارةً إلى ما به استعَدُّوا للاهتداء إلى تأويله مِن تجرّد العقل عن غواشي الحِسّ. وتعلُّق الآية الكريمة بما قبلها -مِن حيث إنّها جواب عمّا تشبّث به النصارى مِن نحو قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء، ٤/١٧١]- على وَجْه الإجمال. وسيجيء الجواب المفصّل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران، ٣/٥٩].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ٨﴾

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ مِن تمام مَقالة الراسخين، أي: لا تُزِغ قلوبنا عن نَهج الحقّ إلى اتّباع المتشابه بتأويلٍ لا تَرتضيه. قال صلّى الله عليه وسلّم: «قَلْب ابن آدم

[١] ي: إيذانًا.

بين أصبعين مِن أصابع الرحمن إن شاء أَقامه على الحقّ وإن شاء أَزاغه عنه».[١] وقيل: معناه: «لا تَبلُنا ببلايا تُزيغ فيها قلوبنا».[٢] ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي: إلى الحقّ والتأويل الصحيح، أو إلى الإيمان بالقِسمين. و﴿بَعْدَ﴾ نصب بـ﴿لَا تُزِغْ﴾ على الظرف. و﴿إِذْ﴾ في محلّ الجرّ بإضافته إليه، خارج مِن الظرفيّة، أي: بعد وقت هدايتِك إيّانا. وقيل: إنّه بمعنى "أنْ".[٣]

﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ﴾ كلا الجارّين متعلِّق بـ﴿هَبْ﴾. وتقديم الأوّل لِما مرّ مِرارًا. ويَجوز تعلُّق الثاني بمحذوف هو حال مِن المفعول، أي: كائنة مِن لدنك. و﴿مِن﴾ لابتداء الغاية المجازيّة. و"لَدُنْ" في الأصل ظرف بمعنى أوّلُ غايةِ زمانٍ أو مكان أو غيرهما مِن الذوات، نحو "مِن لدُنْ زيدٍ"، وليست مرادِفة لـ"عند"، إذ قد تكون فَضْلة، وكذا "لدى". وبعضُهم يخُصُّها بظرف المكان. وتُضاف إلى صريح الزمان، كما في قوله:

تَنتفضُ الرِّعدةُ في ظُهَيْري ... مِن لَدن الظُّهرِ إلى العُصَيرِ[٤]

ولا تُقطع عن الإضافة بحال، وأكثرُ ما تضاف إلى المفردات، وقد تضاف إلى "أنْ" وصلتِها، كما في قوله:

ولم تقْطعَ أصلًا مِن لدنْ أنْ وَلِيتَنا ... قرابةَ ذي رَحْمٍ ولا حقَّ مسلمٍ[٥]

أي: مِن لَدُن وِلايتِك إيّانا. وقد تُضاف إلى الجملة الاسميّة، كما في قوله:

---

[١] بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٨١/١١ (٦٦١٠)؛ وجامع البيان للطبري، ٢٣٠/٥؛ والمعجم الكبير للطبراني، ٣٦٦/٢٣ (٨٦٥). وبلفظه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٥/١؛ وفتوح الغيب للطيبي، ٢٩/٤.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٢٦٠/١. وانظره في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٥/١.

[٣] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٦/١.

[٤] لم أهتدِ إلى قائل هذا الرجز. وهما في لسان العرب لابن منظور، «نهض»، ممّا أنشده الأصمعي لبعض الأغفال. وبلا نسبة في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٢/٣؛ واللباب لابن عادل، ٤٥/٥. وقال العينيّ في قائلهما: «هو راجز مِن رُجّاز طيّئ، لم أقف على اسمه». المَقاصد النحويّة، ١٣٤٣/٣.

[٥] لم أهتدِ إلى قائله. وهو بلا نسبة في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٢/٣؛ واللباب لابن عادل، ٤٥/٥؛ وصدره في خزانة الأدب للبغدادي، ١١١/٧. ورواية صدره في تلك المصادر:

وَلِيتَ فلم تقطع لَدُن أن وَلِيتنا

تَـذَكُّـرُ[1] نُـعـمـاه لَـدُنْ أنـتَ يـافـعٌ[2]

وإلى الجملة الفعليّة أيضًا، كما في قوله:

لـزِمـنـا لَـدُنْ سـالـمتمونا وِفاقَكـم فـلا يَـكُ منكـم لـلخِلاف جُـنـوحُ[3]

وقلّما تخلو عن "مِن"،[4] كما في البيتين الأخيرين.

﴿رَحۡمَةً﴾ واسعةً تُزلِفُنا إليك ونَفوز بها عندك، أو توفيقًا للثبات على الحقّ. وتأخير المفعول الصريح عن الجارّين لِما مرّ مِرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر؛ فإنّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تبقى النفسُ مترقِّبة لوروده، لاسيّما عند الإشعار بكونه مِن المَنافع باللام، فإذا أوردها يتمكّن عندها فَضلَ تمكّن.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ تعليل للسؤال، أو لإعطاء المسئولِ. و﴿أَنتَ﴾ إمّا مبتدأ، أو فَصل، أو تأكيد لاسمِ "إنّ". وإطلاق ﴿ٱلۡوَهَّابُ﴾ ليتناوَل كلَّ موهوب، وفيه دلالة على أنّ الهُدى والضلال مِن قِبَله تعالى، وأنّه متفضِّل بما يُنعِم به على عباده مِن غير أن يَجب عليه شيء.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾

/ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ﴾ أي: لحساب يومٍ، أو لجزاء يوم. حُذِف [٨٨و] المضاف وأُقيم مُقامه المُضاف إليه تهويلًا له وتفظيعًا لِما يقع فيه. ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أي: في وقوعه ووقوع ما فيه مِن الحشر والحساب والجزاء. ومقصودهم بهذا عَرْض كمال افتقارهم إلى الرحمة وأنّها المَقصِد الأسنى عندهم، والتأكيدُ لإظهار ما هم عليه مِن كمال الطُّمَأنينة وقوّة اليقين بأحوال الآخرة.

---

[1] ط: مذكِّرٌ.

[2] وفي هامش أ: تمامه: إلى أنت ذا فرس أبيض كالنسر. «منه». | ولم أهتدِ إلى قائله. وهو صدر بيت غير منسوب في ارتشاف الضَّرَب لأبي حيّان، ٣/١٤٥٣؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣/٣٢؛ واللباب لابن عادل، ٥/٤٥. وعجزه فيها:

إلى أنتَ ذو فَودين أبيضَ كالنسرِ

[3] لم أهتدِ إلى قائله. وهو بلا نسبة في مغني اللبيب لابن هشام، ٥/٢١١؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣/٣٢؛ واللباب لابن عادل، ٥/٤٥.

[4] مِن قوله: "ولَدُنْ في الأصل ظرف" مع جميع الشواهد الشعريّة بلفظ قريب في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣/٣٢-٣٣؛ واللباب لابن عادل، ٥/٤٥-٤٧.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ تعليل لمضمون الجملة المؤكَّدة، أو لانتفاء الريب، والتأكيدُ لِما مرّ. وإظهار الاسم الجليل مع الالتفات لإبراز كمالِ التعظيم والإجلالِ الناشئ مِن ذِكْر اليوم المَهيب الهائل -بخلاف ما في آخر السورة الكريمة؛[١] فإنّه مقامُ طَلَب الإنعام، كما سيأتي- وللإشعار بعِلّة الحُكم؛ فإنّ الألوهيّة منافِية للإخلاف. وقد جُوِّز أن تكون الجملة مَسوقةً مِن جهته تعالى لتقرير قول الراسخين.[٢] و﴿المِيعادُ﴾ مصدر كـ"المِيقات".[٣] «واستدلّ به الوَعيديّة.[٤] وأُجِيب بأنّ وعيدَ الفسّاقِ مَشروط بعدم العفو بدلائلَ مفصَّلة، كما هو مَشروط بعدم التوبة وِفاقًا».[٥]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إثرَ ما بيّن الدِّين الحقّ والتوحيد، وذُكِر أحوال الكتب الناطقة به، وشُرِح شأن القرآن العظيم وكيفيّةُ إيمان العلماء الراسخين به، شُرِع[٦] في بيان حالِ مَن كفر به. والمرادُ بالموصول جنس الكَفَرة الشامل لجميع الأصناف. «وقيل: وفد نجرانَ، أو اليهودُ مِن قُريظةَ والنَّضِير، أو مُشركو العَرب».[٧]

﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ﴾ أي: لن تنفعَهم. وقُرئ بالتذكير وبسكون الياء[٨] جدًّا في استثقال[٩] الحركة على حروف اللِّين. ﴿أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ التي يبذُلونها في جَلْب المَنافع ودَفْع المَضارّ. ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم﴾ الذين بهم يَتناصرون في الأمور المُهمّة، وعليهم يُعوِّلون في الخُطوب المُلِمّة. وتأخير "الأولاد" عن "الأموال" مع توسيط حرفِ النفي بينهما إمّا لعَراقة الأولاد في كَشْف الكروب، أو لأنّ الأموال أوّل عُدّة يُفزَع إليها عند نزول الخطوب. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مِن عذابه تعالى. ﴿شَيۡـٔٗا﴾ أي: شيئًا مِن الإغناء.

---

١ يعني إضمار اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران، ١٩٤/٣].
٢ انظر تجويز ذلك في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٤/٣؛ واللباب لابن عادل، ٤٧/٥.
٣ ي: المقيات.
٤ يعني: المعتزلة.
٥ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٦/١.
٦ السياق: شُرِعَ... إثر ما بيّن...
٧ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٦/١.
٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن السُّلمي وابن مِقْسَم والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٠٧؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ٥٦٨.
٩ ي: استقلال.

وقيل: كلمة ﴿مِن﴾ بمعنى البدل، والمعنى: بدلَ رحمة الله تعالى،[1] أو بدلَ طاعته،[2] كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس، ٣٦/١٠]، أي: بدلَ الحقّ. ومنه قوله: «ولا يَنفَع ذا الجَدّ منك الجَدُّ»،[3] أي: لا يَنفعه[4] جَدُّه بذلك، أي: بدلَ رحمتِك كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ، ٣٧/٣٤]. وأنت خبير بأنّ احتمال سدّ أموالِهم وأولادهم مَسدَّ رحمة الله تعالى أو طاعته ممّا لا يَخطُر ببال أحد حتّى يُتصدّى لنفيه. والأوّل هو الأَليَق بتفظيع حال الكَفَرة وتهويل أمرهم، والأَنسَب بما بعده مِن قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾، ومِن قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾،[5] أي: أولئك المتّصفون بالكفر حطب النار وحَصَبها الذي تُسعَّر به.

فإن أُرِيد بيان حالهم عند التسعير فإيثارُ الجملة الاسميّة للدلالة على تحقّق الأمر وتقرّره، وإلّا فهو للإيذان بأنّ حقيقة حالهم ذلك، وأنّ أحوالهم الظاهرة بمَنزِلة العدم، فهم حالَ كونهم في الدنيا وَقودُ النار بأعيانهم. وفيه مِن الدلالة على كمال ملابَستهم بالنار ما لا يخفى. و﴿هُمْ﴾ يَحتمِل الابتداء وأن يكون ضميرَ الفَصل. والجملة إمّا مستأنَفة مقرِّرة لعدم الإغناء، أو معطوفة على خبر ﴿إِنَّ﴾. وأيًّا ما كان ففيها تعيين للعذاب الذي بيَّن أنّ أموالهم وأولادهم لا تُغني عنهم منه شيئًا. وقُرِئ: "وُقُودُ النَّارِ" بضمّ الواو،[6] وهو مصدر، أي: أهل وقودها.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الدأب مصدر "دَأَب" في العمل إذا كَدَح فيه وتَعِب، غَلَب استعماله في معنى الشأن والحال والعادة. ومحلّ الكاف الرفع على أنّه خبر

---

١ ط س – تعالى.
٢ انظر القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٦/١.
٣ مسند أحمد، ٣٤٣/١٨ (١١٨٢٧)؛ صحيح البخاري، ١٦٨/١ (٨٤٤)؛ صحيح مسلم، ٣٤٣/١ (٤٧١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦١/١.
٤ ط: ينفع.
٥ آل عمران، ١١/٣.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة ومجاهد وطلحة بن مصرف. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٦٩.

لمبتدأ[١] محذوف. وقد جُوّز النصب بـ﴿لَن تُغْنِيَ﴾، أو بـ"الوَقود"، أي: لن تغني عنهم كما لم تُغنِ عن أولئك، أو تُوقَد بهم النارُ كما تُوقَد بهم.[٢]

وأنت خبير بأنّ المذكور في تفسير "الدَّأْب" إنّما هو التكذيب والأَخذ، مِن غير تعرّض لعدم الإغناء، لاسيّما على تقدير كونِ ﴿مِن﴾ بمعنى البدل، كما هو رأيُ المجوِّز، ولا لإيقاد النار فيُحمَل على التعليل، وهو خِلاف الظاهر. على أنّه يلزَمُ الفصلُ بين العامل والمعمول بالأجنبيّ على تقدير النصب بـ﴿لَن تُغْنِيَ﴾، وهو قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾،[٣] إلّا أن يُجعل استئنافًا لا معطوفًا على خبر ﴿إِنَّ﴾. فالوجه هو الرفع على الخبريّة، أي: دَأْب هؤلاء في الكفر وعدمِ النجاة مِن أخذِ الله تعالى وعذابه كدأب آل فرعون. ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مِن قَبْل آل فرعون مِن الأُمَم الكافرة، فالموصول في محلّ الجرّ عطفًا على ما قبله.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ بيان وتفسير لدأبهم الذي فعلوا، على طريقة الاستئناف المَبنيّ على السؤال. كأنّه قيل: كيف كان دأبهم؟ فقيل: كذّبوا بآياتنا. وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تفسير لدَأبهم الذي فُعل بهم، أي: فأخَذهم الله[٤] وعاقَبهم، ولم يَجدوا مِن بأس الله تعالى مَحيصًا، فدَأْب هؤلاء الكفرة أيضًا كدَأْبهم. وقيل: ﴿كَذَّبُواْ﴾... إلخ، حال مِن ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ على إضمار "قد"، أي: دَأْب هؤلاء كدَأْب أولئك وقد كذّبوا... إلخ.[٥] وأمّا كونه خبرًا مِن الموصول -كما قيل-[٦] فممّا يَذهَب برونق النظم الكريم. والالتفات إلى التكلُّم أوّلًا للجَري على سَنن الكبرياء، وإلى الغَيبة ثانيًا بإظهار الجلالة لتربية المَهابة وإدخالِ الروعة.

---

١ ي: مبتدأ.

٢ جوّز الوجهين الزمخشريُّ في الكشّاف، ٢٦١/١. وذكروا في نصب الكاف سبعة وجوه أخرى. انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٨/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥٢/٥.

٣ بهذا اعترض أبو حيّان على الزمخشري في هذا الوجه. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٧/٣.

٤ ط - الله.

٥ انظر هذا الوجه في التبيان للعُكبري، ٢٤٢/١؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٩/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥٤/٥.

٦ انظر هذا الوجه في كشف المشكلات للأصفهاني الباقولي، ٢١٧/١؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٩/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥٤/٥.

﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ إن أُرِيد بها تكذيبهم بالآيات فالباء للسببيّة جيء بها تأكيدًا لِما تُفيده الفاء مِن سببيّة ما قبلها لِما بعدها، وإن أُرِيد بها سائرُ ذنوبهم فالباء للملابَسة جِيء بها للدلالة على أنّ لهم ذنوبًا أُخَر، أي: فأَخَذهم ملتبِسين بذنوبهم / غيرَ تائبين عنها، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة، ٩/٥٥]. والذنب في الأصل: التِّلْو والتابع، وسُمِّي الجريمة ذَنْبًا؛ لأنّها تتلو، أي: يَتبَع عِقابُها فاعلَها.[1] [٨٨ظ]

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تذييل مقرِّر لمَضمون ما قبله مِن الأخذ وتكملة له.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المراد بهم اليهود لِما رُوِي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ يهود المدينة لمّا شاهدوا غلَبة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على المشركين يوم بدر قالوا: «واللهِ إنّه النبيُّ الأمّيُّ الذي بشّرَنا به موسى وفي التوراة نعتُه، وهمُّوا باتّباعه»، فقال بعضهم: «لا تَعجَلوا حتّى ننظُر إلى وَقْعة له أخرى». فلمّا كان يومُ أُحُد شكُّوا، وقد كان بينهم وبين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عَهْد إلى مُدَّة فنقضوه، وانطلق كعب بن الأشرَف[2] في ستّين راكبًا إلى أهل مكّة، فأجمَعوا أمرهم على قتال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فنزلت.[3]

وعن سَعيد بن جُبير وعِكرمة عن ابن عبّاس رضي الله عنهم: أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا أصاب قريشًا ببدر ورجَع إلى المدينة جمَع اليهودَ

---

١ انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤٤١/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥٤/٥.

٢ هو كعب بن الأشرف الطائي مِن بني نبهان (ت. ٣هـ/٦٢٤م). شاعر جاهليّ. كانت أمّه مِن بني النضير فدَانَ باليهوديّة. وكان سيّدًا في أخواله. أدرك الإسلام ولم يُسلم. وأكثر مِن هَجْو النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه، وتحريض القبائل عليهم وإيذائهم والتشبيب بنسائهم. وخرج إلى مكّة بعد وقعة بدر فندب قتلى قريش وحضّ على الأخذ بثأرهم وعاد إلى المدينة. أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بقتله، فانطلق إليه خمسة مِن الأنصار فقتلوه. انظر: الروض الأنف للسُّهيلي، ٣٠٦/٤، ٣٩٦/٥-٤١٥؛ والأعلام للزركلي، ٢٢٥/٥.

٣ لم أجِده في مظانّه. وهو عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس في الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٣/٨؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ١٠٠؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٢٦١؛ واللباب لابن عادل، ٥٦/٥.

في سوق بني قَينُقاع،[١] فحذَّرهم أن يَنزِل بهم ما نزَل بقريش، فقالوا: «لا يَغُرَّنك أنّك لقِيتَ قومًا أغمارًا[٢] لا عِلم لهم بالحرب فأَصبتَ منهم فُرصة، لئن قاتلتَنا لعَلِمتَ أنّا نحن الناسُ»، فنزلت.[٣]

أي: قل لهم: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ البتّةَ عن قريب في الدنيا. وقد صدَق الله عزّ وجلّ وعدَه بقَتْل بني قُريظة، وإجلاء بني النَّضِير، وفَتْح خَيبر، وضَرْب الجزية على مَن عداهم. وهو مِن أوضَح شواهد النبوّة. وأمّا ما رُوِي عن مقاتل مِن أنّها نزلت قبل بدر، وأنّ الموصول عبارة عن مشركي مكّة، ولذلك قال لهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يوم بدر: «إنّ الله غالبكم وحاشركم إلى جهنّم وبئس المهاد»،[٤] فيُؤدّي[٥] إلى انقطاع الآية الكريمة عمّا بعدها لنزوله بعد وقعة بدر.

﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ أي: في الآخرة[٦] ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾. وقُرئ الفعلان بالياء،[٧] على أنّه عليه السلام أُمِر بأن يَحكيَ لهم ما أَخبَر الله تعالى به مِن وعيدهم بعبارته، كأنه قيل: أدِّ إليهم هذا القول. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ إمّا مِن تمام ما يقال لهم، أو استئناف لتهويل جهنّمَ وتفظيع حالِ أهلها. والمخصوص بالذمّ محذوف، أي: وبئس المِهادُ جهنّمُ، أو ما مَهَدوه لأنفسهم.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ١٣﴾

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ جوابُ قسم محذوف، وهو مِن تمام القول المأمور به، جِيء به لتقرير مضمونِ ما قبله وتحقيقِه. والخطاب لليهود أيضًا. والظرف خبر ﴿كَانَ﴾

[١] قبيلة مِن اليهود كانوا في المدينة مع بني قُريظة وبني النضير. وكانوا أوّل يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد غزوة بدر، فحاربهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأجلاهم عن المدينة. انظر: أنساب الأشراف للبلاذري، ١/٣٠٨-٣٠٩؛ والبداية والنهاية لابن كثير، ٤/٥٥٤، ٥/٣١٨-٣٢١.

[٢] الأغمار جمع غُمر: وهو الجاهل الغِرّ الذي لم يُجرِّب الأمور. لسان العرب لابن منظور، «غمر».

[٣] سنن أبي داود، ٤/٦١٦ (٣٠٠١)؛ جامع البيان للطبري، ٥/٢٣٩؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢/١٣؛ الكشّاف للزمخشري، ١/٢٦١.

[٤] تفسير مقاتل بن سليمان، ١/٢٦٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢/١٣.

[٥] السياق: وأمّا ما رُوي... فيؤدّي...

[٦] ط - أي: في الآخرة.

[٧] قرأ بها حمزة والكسائي وخلَف. انظر: السبعة لابن مجاهد، ص ٢٠٢؛ والنشر لابن الجزري، ٢/٢٣٨.

على أنّها ناقصة، ولتَوسُّطه بينها وبين اسمها تُرِك التأنيث، كما في قوله:

إنّ امــــرأً غـــرّه منكنّ واحــدةٌ   بعدي وبعدكِ في الدنيا لَمغرورُ[١]

على أنّ التأنيث ههنا غير حقيقيّ، أو هو متعلِّق بـ﴿كَانَ﴾ على أنّها تامّة. وإنّما قُدِّم على فاعلها لِما مرّ مِرارًا مِن الاعتناء بما قُدِّم والتشويق إلى ما أُخِر، أي: واللهِ قد كان لكم أيُّها المغترُّون بعددهم وعُدَدهم ﴿ءَايَةٌ﴾ عظيمة دالّة على صِدْق ما أقول لكم: إنّكم ستُغلَبون. ﴿فِى فِئَتَيْنِ﴾[٢] أي: فرقتين أو جماعتين. فإنّ المَغلوبة منهما كانت مدِلّةً بكثرتها معجِبة[٣] بعِزّتها، وقد لقِيَها ما لَقِيَها فسيُصيبُكم ما يُصيبكم.[٤] ومحلّ الظرف الرفع على أنّه صفة لـ﴿ءَايَةٌ﴾. وقيل: النصب على خبريّة ﴿كَانَ﴾، والظرف الأوّل متعلِّق بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿ءَايَةٌ﴾.[٥] ﴿ٱلْتَقَتَا﴾ في حيّز الجرّ على أنّه صفةُ فئتين، أي: تلاقتا بالقتال يوم بدر.

﴿فِئَةٌ﴾ بالرفع خبرُ مبتدأ محذوف، أي: إحداهما فئة، كما في قوله:

إذا مِتُّ كان الناسُ حزبين شامتٌ   وآخَرُ مُثنٍ بالذي كنتُ أَصنعُ[٦]

أي: أحدهما شامت وآخر مثنٍ، وقولِه:

حتّى إذا ما استقلّ النجمُ في غَلَسٍ   وغُودِر البقلُ مَلويٌّ ومَحصودُ[٧]

والجملة مع ما عُطِف عليها مستأنَفة لتقرير ما في الفئتين مِن "الآية".

---

١ لم أهتدِ إلى قائله. وهو بلا نسبة في معاني القرآن للفرّاء، ٣٠٨/٢ (القصص، ٥٧/٢٨)؛ والخصائص لابن جنّي، ٤١٤/٢؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٧٨/٥؛ واللباب لابن عادل، ٥٧/٥.

٢ وفي هامش ط ي: مِن "فاء إليه". «منه»؛ وفي هامش ط: مِن "فأت رأيه". «منه»

٣ ضُبِطت على صيغة اسم الفاعل في ط.

٤ ي: يصيبهم.

٥ انظر هذا الوجه لإعرابهما في التبيان للعُكبَري، ٢٤٢/١؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤٤٣/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥٨/٥.

٦ البيت للعُجير السّلولي في النوادر لأبي زيد الأنصاري، ص ٤٤٣، والرّواية فيه:

إذا مِتُّ كان الناس نصفين شامتٌ
ومُثنٍ بصَرعَي ببعض ما كنتُ أصنعُ

وهو له في كتاب سيبويه، ٧١/١. وهو بلا نسبة في اللباب لابن عادل، ٥٨/٥.

٧ البيت لذي الرُّمّة في ديوانه بشرح الباهلي، ١٣٦٦/٢، وعجزه فيه:

وأَحصَد البقلُ أو مُلوٍ ومحصودُ

وهو بلا نسبة في معاني القرآن للفرّاء، ١٩٣/١؛ وجامع البيان للطبري، ١٢٦/٢٠ (ص، ٥٧/٣٨)، وفيه «أضاء» مكان «استقلّ»؛ واللباب لابن عادل، ٥٩/٥. | وفي شرح الباهلي: استقلّ النجم، أي: طلع بعد النور عند الصبح. وألوى إلواء إذا جفّ. ومحصود: قد حُصِد. ولم يشرح الغَلَس وهو: ظلمة آخر الليل. لسان العرب لابن منظور، «غلس».

وقوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في محلّ الرفع على أنّه صفة ﴿فِئَةٌ﴾، كأنّه قيل: فئة مؤمنة، ولكن ذُكِر مكانَه مِن أحكام الإيمان ما يَليق بالمَقام مدحًا لهم واعتدادًا بقتالهم وإيذانًا بأنّه المَدار في تحقيق[١] الآية، وهي رؤية القليل كثيرًا. وقُرئ: "يُقَاتِلُ"،[٢] على تأويل "الفئة" بالقوم أو الفريق.

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ نعت لمبتدأ محذوف، معطوفٌ على ما حُذِف مِن الجملة الأولى، أي: وفئة[٣] أخرى. وإنّما نُكِّرت -والقياس تعريفها كقرينتها- لوضوح أنّ التفريق لنفس المثنّى المقدَّم ذِكْره، وعدمِ الحاجة إلى التعريف. وقوله تعالى: ﴿كَافِرَةٌ﴾ خبرُ المبتدأ المحذوفِ. وإنّما لم تُوصَف هذه الفئة بما يُقابِل صفة الفئة الأولى إسقاطًا لقتالهم عن درجة الاعتبار، وإيذانًا بأنّهم لم يَتصدَّوا للقتال لِما اعتراهم مِن الرُّعب والهَيبة.

وقيل: كلّ مِن المتعاطِفَين بدل مِن الضمير في ﴿ٱلْتَقَتَا﴾، وما بعدهما صفة.[٤] فلا بُدّ مِن ضمير محذوف عائد إلى المُبدَل منه مُسوِّغ لوصف البدل بالجملة العارية عن ضميره، أي: فئة منهما تُقاتِل... إلخ، وفئة أخرى كافرة. ويَجوز أن يكون كلّ منهما مبتدأ وما بعدهما خبرًا، أي: فئة منهما تُقاتل... إلخ، وفئة أخرى كافرة. وقيل: كلّ منهما مبتدأ محذوفُ الخبر، أي: منهما فئة تقاتل... إلخ.[٥] وقُرئ: "فِئَةٍ"،[٦] بالجرّ على البدليّة مِن ﴿فِئَتَيْنِ﴾، بدلَ بعض مِن كلّ. وقد مرّ أنّه لا بُدَّ مِن ضمير عائد إلى المُبدَل منه ويُسمَّى بدلًا تفصيليًا، كما في قول كُثَيِّر عزّة:[٧]

---

١ ط: تحقُّق.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٨.

٣ وفي هامش ي: وهي المبتدأ المحذوف مِن الجملة الأولى. «منه».

٤ انظر هذا القول في التبيان للعُكبَري، ٢٤٣/١؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤٤/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥٨/٥.

٥ انظر القولين الأخيرين في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤٥/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥٩/٥.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري وكِرداب ومجاهد وابن مِقْسَم والزعفراني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٨؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٥٦٩.

٧ هو كُثَيِّر بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخُزاعي، أبو صخر (ت. ١٠٥هـ/٧٢٣م). شاعر مُتيَّم مشهور. مِن أهل المدينة أكثر إقامته بمصر. مُقرَّب مِن عبد الملك بن مروان ومِن بني مروان. وكان شاعر أهل الحِجاز في الإسلام، لا يُقدِّمون عليه أحدًا. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ٤٩٤/١-٥٠٨؛ والأعلام للزركلي، ٢١٩/٥.

وكنتُ كذي[١] رِجلين رِجلٍ صحيحةٍ ورِجـلٍ رمى فيها الزمانُ فَشَلَّتِ[٢]

وقُرئ: "فِئَةً"،[٣] بالنصب على المدح والذمّ، أو على الحاليّة مِن ضمير ﴿ٱلۡتَقَتَا﴾.[٤] كأنّه قيل: التقتا مؤمِنةً وكافرةً. فيكون "فئة" و"أخرى" توطئةً لِما هو الحال حقيقةً؛ إذ المقصود بالذِّكر وصفاهما، كما في قولك: جاءني زيد رجلًا صالحًا.

﴿يَرَوۡنَهُم﴾ أي: ترى الفئةُ الأخيرة الفئةَ الأولى. وإيثار صيغة الجمع للدلالة على شمول الرُّؤية لكلّ واحدٍ واحدٍ مِن آحاد الفئة. والجملة في محلّ الرفع على أنّها صفة للفئة الأخيرة، أو مستأنَفة / مبيِّنة لكيفيّة الآية. ﴿مِّثۡلَيۡهِمۡ﴾ أي: [٨٩و] مِثلَي عدد الرائين قريبًا مِن ألفين، إذ[٥] كانوا قريبًا مِن ألف. كانوا تسعمائةٍ وخمسين مقاتلًا رأسَهم عُتْبة بن رَبيعة بن عبد شمس،[٦] وفيهم أبو سفيان وأبو جهل.[٧] وكان فيهم مِن الخيل والإبل مائةُ فرسٍ وسبعُمائة بعير، ومِن أصناف الأسلحة عددٌ لا يُحصى.[٨]

عن محمّد بن أبي الفرات عن سعد بن أوس أنّه قال: أَسَر المشركون رجُلًا مِن المسلمين فسألوه: «كم كنتُم؟» قال: «ثلثمائة وبضعةَ عشرَ»، قالوا:

---

١ ط س ي: لدى. | كذا ورد في الأصول، ولا يستقيم به معنًى، وأثبتُّ ما جاء في الديوان والمصادر المذكورة في تخريج البيت.

٢ البيت في ديوان كُثيِّر عزّة، ص ٩٩. وهو له في كتاب سيبويه، ٤٣٣/١. وبلا نسبة في معاني القرآن للفرّاء، ١٩٢/١؛ وجامع البيان للطبري، ٢٤٣/٥؛ واللباب لابن عادل، ٥٩/٥.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٦.

٤ هذان القولان في توجيه القراءة مع آخَرين في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤٥/٣-٤٦؛ واللباب لابن عادل، ٥٩/٥-٦٠.

٥ ي: إذا.

٦ ي: الشمس. | هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب القُرشي، أبو الوليد (ت. ٢هـ/٦٢٤م). كبير قريش وأحد ساداتها في الجاهليّة. وكان موصوفًا بالرأي والعلم والفضل خطيبًا نافذ القول. توسّط للصلح في حرب الفِجار بين هوازن وكنانة، وقد رضي الفريقان بحكمه وانقضت الحرب على يده. أدرك الإسلام وطغى وشهد بدرًا مع المشركين وقاتل قتالًا شديدًا، فأحاط به عليّ بن أبي طالب وحمزة وعبيدة بن الحارث فقتلوه. انظر: الروض الأنف للسهيلي، ٢٣٥/٢-٢٣٦؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ١٦٤/١. وفي ترجمة ابنه الصحابيّ الجليل أبي حذيفة بن عُتبة انظر: الأعلام للزركلي، ٢٠٠/٤.

٧ انظر: جامع البيان للطبري، ٢٤٧/٥-٢٤٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٤/٢.

٨ انظر: اللباب لابن عادل، ٦٨/٥.

«ما كنّا نراكم إلّا تَضعُفون علينا، أو مِثلَي عدد المَرئيِّين»، أي: ستّمائة ونيِّفًا وعشرين.[١]

حيثُ كانوا ثلثَمائة وثلاثةَ عشرَ رجُلًا: سبعة وسبعون رجُلًا مِن المهاجرين، ومائتان وستّة وثلاثون مِن الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. وكان صاحبَ راية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمهاجرين عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وصاحبَ راية الأنصار سعدُ بن عُبادة الخزرجيُّ رضي الله عنه. وكان في العَسكر تسعون بعيرًا، وفرَسان، أحدُهما للمِقداد بن عَمْرو،[٢] والآخر لمَرْثَد بن أبي مَرْثَد، وستُّ أدرع، وثمانيةُ سيوف.[٣] وجميع مَن استُشهد يومئذ مِن المسلمين أربعةَ عشرَ رجلًا: ستّة مِن المهاجرين، وثمانية مِن الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

أراهم الله عزّ وجلّ كذلك مع قِلّتهم ليَهابوهم ويَجبُنوا عن قتالهم، مَدَدًا لهم منه سبحانه، كما أَمدّهم بالملائكة عليهم السلام، وكان ذلك عند التقاء الفئتين بعد أن قلَّلهم في أعينهم عند ترائيهما ليجترئوا عليهم ولا يَهرُبوا مِن أوّل الأمر حين يُنجِيهم الهرب.

وقيل: ترى الفئةُ الأولى الفئةَ الأخيرةَ مِثلَي أنفسِهم مع كونهم ثلاثةَ أمثالِهم؛ ليثبُتوا ويَطمئِنّوا بالنصر الموعود في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال، ٨/٦٦].[٤]

---

[١] لم أجده فيما وقفت عليه مِن المصادر. وورد ذِكْر عدد المسلمين يوم بدر وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجُلًا فيما رُوي عن قتادة وابن جريج والربيع. انظر: جامع البيان للطبري، ٢٤٨/٥-٢٤٩.

[٢] هو المِقداد بن عمرو -ويعرف بابن الأسود- الكِندي البهراني الحضرمي، أبو معبد أو أبو عمرو (ت. ٣٣هـ/٦٥٣م). أحد السبعة الذين كانوا أوّل مَن أظهر الإسلام. وهو أوّل مَن قاتل على فَرس في سبيل الله. شهد بدرًا والمشاهد كلّها. وسكن المدينة، وتوفّي على مقربة منها، فحُمل إليها ودفن فيها. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ١٤٨٠/٤؛ والإصابة لابن حجر، ٣٠٦/١٠؛ والأعلام للزركلي، ٢٨٢/٧.

[٣] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٢٦٥/١-٢٦٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٣/٢؛ واللباب لابن عادل، ٦٨/٥.

[٤] انظر هذا القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٧/١؛ واللباب لابن عادل، ٦٢/٥.

والأوّل هو الأَولى؛ لأنّ رؤيةِ المِثلَين غير متعيّنة مِن جانب المؤمنين؛ بل قد وقعتْ رؤية المِثْل؛ بل أقلّ منه أيضًا. فإنّه رُوي أنّ ابن مسعود رضي الله عنه قال: «قد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يَضعُفون علينا، ثمّ نظرنا إليهم فما رأيناهم يَزيدون علينا رجُلًا واحدًا»،[١] ثمّ قلّلهم الله تعالى[٢] أيضًا في أعينهم حتّى رأتهم عددًا يسيرًا أقلَّ مِن أنفسهم. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لقد قُلِّلوا في أعيننا يوم بدر حتى قلتُ لرجُل إلى جنبي: "تراهم سبعين؟" قال: "أراهم مائة"، فأسَرنا منهم رجلًا، فقلنا: "كم كنتُم؟" قال:[٣] "ألفًا"».[٤]

فلو أُرِيد رؤية المؤمنين المشركين أقلَّ مِن عددهم في نفس الأمر كما في سورة الأنفال لكانت رُؤيتهم إيّاهم أقلَّ مِن أنفسهم أحقَّ بالذِّكر في كونها آيةً مِن رؤيتهم مِثلَيهم. على أنّ إبانة آثار قُدرة[٥] الله[٦] تعالى وحكمتِه للكفرة، بإراءتهم القليلَ كثيرًا والضعيفَ قويًا وإلقاءِ الرعب في قلوبهم بسبب ذلك، أَدخَلُ[٧] في كونها آيةً لهم وحُجّةً عليهم وأقربَ إلى اعتراف المخاطبين بذلك لكثرة مخالطتِهم الكفرةَ المشاهِدين للحال، وكذا تعلُّق الفعل بالفاعل أشدُّ مِن تعلُّقه بالمفعول، فجَعْل أقرب المذكورَين السابقَين فاعلًا وأبعدِهما مفعولًا سواءٌ جُعِل الجملة صفة أو مستأنَفة أَوْلى مِن العكس. هذا ما تَقضيه جزالةُ التنزيل على قراءة الجمهور.

ولا ينبغي جَعْل الخطاب لمشركي مكّة كما قيل؛[٨] أمّا إن جُعِل الوعيد[٩] عبارةً عن هزيمة بدر كما صرّحوا به فظاهر لا سُترة به، وأمّا إن جُعِل عبارةً عن هزيمة أخرى فلأنّ الفئةَ التي شاهدت تلك الآيةَ الهائلة هم المخاطَبون حينئذ،

---

١ جامع البيان للطبري، ٥/٢٤٥-٢٤٦؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢/١٤.

٢ ي - تعالى.

٣ ي + قال.

٤ جامع البيان للطبري، ٥/٢٥١؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢/١٤.

٥ ي: قدرته.

٦ ي - الله.

٧ السياق: على أنّ إبانة آثار... أدخَلُ...

٨ القول في معالم التنزيل للبغوي، ١/١٤؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٢٦١. وهو أحد قولين في التفسير الوسيط للواحدي، ١/٤١٧؛ وأحد ثلاثة أقوال في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٤٧.

٩ وفي هامش أ: بقوله تعالى: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ الآية. «منه». | هو في الآية السابقة.

فالتعبير عنهم بفئة مبهَمةٍ تارة وموصوفةٍ أخرى، ثمّ إسنادُ المشاهَدة إليها مع كون إسنادها إلى المخاطَبين أَوقَعُ في إلزام الحُجّة وأَدخَلُ في التبكيت ممّا لا داعيَ إليه. وبهذا يتبيَّن حال جَعْل الخطابِ الثاني للمؤمنين.

وأمّا قراءة "تَرَوْنَهُمْ" بتاء الخطاب،[1] فظاهرُها وإن اقتضى توجيه الخطاب الثاني إلى المشرِكين لكنّه ليس بنصّ في ذلك؛ لأنّه وإن اندفع به المحذور الأخير فالأوّل باقٍ بحاله، فلعلّ رؤية المشرِكين نُزِّلت مَنزلةَ رؤية اليهود لِما بينهم مِن الاتّحاد في الكفر والاتّفاق في الكلمة لاسيّما بعد ما وقَع بينهم بواسطة كعب بن الأشرف مِن العهد والمِيثاق، فأُسنِدت الرؤية إليهم مبالغةً في البيان وتحقيقًا لعُروض مثل تلك الحالة لهم. فتَدبَّر.

وقيل: المراد جميعُ الكفرة. ولا ريب في صحّته وسَداده.

وقُرِئ: "يُرَونَهُمْ"،[2] و"تُرَونَهُمْ"[3] على البناء للمفعول، مِن الإراءة، أي: يُريهم أو يُريكم الله تعالى كذلك.

﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ مصدر مؤكِّد لـ﴿يَرَوْنَهُم﴾ إن كان الرؤية بصريّة، أو مصدر تشبيهيّ إن كانت قلبيّةً، أي: رؤية ظاهرة مكشوفة جارية مَجرى رُؤية العين.

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ﴾ أي: يُقوّي ﴿بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يُؤيِّده مِن غير توسيط الأسباب العاديّة، كما أيَّد الفئة المقاتِلة في سبيله بما ذُكِر مِن النصر، وهو مِن تمام القول المأمور به.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكِر مِن رؤية القليل كثيرًا المستتبِعةِ لغَلَبة القليلِ العديمِ العُدَّةِ على الكثير الشاكي السلاحِ،[4] وما فيه مِن معنى البعد للإيذان ببُعد مَنزلة المشار إليه في الفضل. ﴿لَعِبْرَةً﴾ "العِبرة": فِعلَة مِن العُبور،

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر ويعقوب. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٠١؛ النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٨.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والصرصري وابن مِقْسَم والمَلْطي عن أبي بكر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٧٠.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة والسُّلَمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٧٠.

[4] شاكي السلاح وشائك السلاح: ذو الشوكة والحدّ في سلاحه. لسان العرب لابن منظور، «شاك».

كالرِّكْبة مِن الرُّكوب والجِلْسة مِن الجُلوس، والمراد بها الاتِّعاظ فإنّه نوع مِن العُبور، أي: لَعِبرة عظيمة كائنة. ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لذوي العقول والبصائر. وقيل: لمَن أبصرهم.[1] وهو إمّا مِن تمام الكلام الداخلِ تحت القول، مقرِّر لِما قبله بطريق التذييل، وإمّا وارد مِن جهته تعالى تصديقًا لمَقالته صلّى الله عليه وسلّم.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ كلام مستأنَف سِيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيويّة بأصنافها، وتزهيدِ الناس فيها، وتوجيهِ رغباتهم إلى ما عنده تعالى إثرَ بيان عدم نَفْعها للكَفَرة / الذين كانوا يَتعزَّزون بها. والمراد بـ"الناس" الجنس. ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ الشهوة: نُزوع النفس إلى ما تُريده، والمراد ههنا المشتهَيات، عُبِّر عنها بالشهوات مبالغة في كونها مشتهاةً مَرغوبًا فيها، كأنّها نفس الشهوات، أو إيذانًا بانهماكِهم في حُبِّها بحيث أحبُّوا شهواتِها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ [ص، ٣٢/٣٨]، أو استرذالًا لها، فإنّ الشهوة مسترذَلة مَذمومة مِن صفات البهائم. والمزيِّن هو الباري سبحانه وتعالى، إذ هو الخالق لجميع الأفعال والدواعي. [٨٩ظ]

والحكمة في ذلك ابتلاؤهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ الآية [الكهف، ٧/١٨]، فإنّها ذريعة لنيل سعادة الدارين عند كون تعاطيها على نهج الشريعة الشريفة، ووسيلةٌ إلى بقاء النوع. وإيثار صيغة المبنيّ للمفعول للجري على سَنن الكبرياء. وقُرئ على البناء للفاعل.[2] وقيل: المزيِّن هو الشيطان

---

١ انظر القول في معالم التنزيل للبغوي، ١١٤/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٧/١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحُميد وكِرداب وابن مِقْسَم وأبي البرهسم والبَزّي عن ابن محيصن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٧٠.

لِما أنّ مَساق الآية الكريمة على ذمّها. وفرّق الجُبّائي[١] بين المباحات وأسنَد تزيينها إليه تعالى، وبين المحرّمات فنسَب تزيينها إلى الشيطان.[٢]

﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ في محلّ النصب على أنّه حال مِن ﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، وهي مفسِّرة لها في المعنى. وقيل: ﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس.[٣] وتقديم ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ على ﴿ٱلْبَنِينَ﴾ لعراقتهنّ[٤] في معنى الشهوة، فإنّهنّ حبائل الشيطان. وعدم التعرّض للبنات لعدم الاطِّراد في حُبّهنّ.

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ جمعُ "قِنطار": وهو المالُ الكثير.[٥] وقيل: مائة ألف دينار.[٦] وقيل: مِلء مَسْك ثور.[٧] وقيل: سبعون ألفًا.[٨] وقيل: أربعون ألف مِثقال.[٩] وقيل: ثمانون ألفًا.[١٠] وقيل: مائة رطل.[١١] وقيل: ألف ومائتا مِثقال.[١٢] وقيل: ألفُ[١٣] دينار.[١٤]

---

١ هو محمّد بن عبد الوهّاب بن سلام البصري الجُبّائي، أبو عليّ (ت. ٣٠٣هـ/٩١٦م). نسبته إلى جبّى مِن قُرى البصرة. أحد شيوخ المعتزلة، وكان إمامًا في علم الكلام، وإليه نسبة الطائفة الجُبّائيّة. له آراء ومقالات انفرد بها. أخذ العلم عن أبي يوسف يعقوب بن عبد الله الشَّحّام البصري رئيس المعتزلة بالبصرة في عصره. وأخذ عنه علم الكلام أبو الحسن الأشعري ثمّ خالفه ونابذه. وخلف أبا عليّ ابنه أبو هاشم. انظر: وفيات الأعيان لابن خَلِّكان، ٢٦٧/٤-٢٦٩؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ١٨٣/١٤-١٨٤؛ والأعلام للزركلي، ٢٥٦/٦.

٢ انظر القول وتَفرِقة الجُبّائي في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٨/١.

٣ يُفهم مِن عبارة الزمخشري في الكشّاف، ٢٦٣/١؛ وبيّن ذلك في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٥٨/٣.

٤ ي: لعراقتها.

٥ مرويّ عن أنس بن الربيع. جامع البيان للطبري، ٢٥٩/٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٣/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٨/١.

٧ مَرويّ عن أبي سعيد الخُدري وأبي نَضرة. جامع البيان للطبري، ٢٥٩/٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٣/١.

٨ مَرويّ عن ابن عمر وطاوس ومجاهد. جامع البيان للطبري، ٢٥٨/٥-٢٥٩؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢.

٩ مَرويّ عن السُّدّي. معالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢.

١٠ مَرويّ عن سعيد بن المُسيّب وقتادة. جامع البيان للطبري، ٢٥٧/٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢.

١١ مَرويّ عن أبي صالح والسُّدّي وقتادة. جامع البيان للطبري، ٢٥٨/٥؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٦٠٨/٢.

١٢ مَرويّ عن ابن عبّاس والضحّاك ومعاذ بن جبل وابن عمر وأبي هريرة وأُبيّ بن كعب. جامع البيان للطبري، ٢٥٤/٥-٢٥٥؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٦٠٨/٢؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢.

١٣ ط س: ألفا. | وليس فيما رُوي.

١٤ مَرويّ عن ابن عبّاس وأنس والضحّاك. جامع البيان للطبري، ٢٥٦/٥؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٦٠٨/٢؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢.

وقيل: مائة مَنٍّ[١] ومائة رطل ومائة مِثقال ومائة دِرهَم.[٢] وقيل: دية النفس.[٣] واختُلِف في أنّ وزنه "فِعْلال" أو "فِنْعال". ولفظُ ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ مأخوذ منه للتأكيد، كقولهم: بَذْرةٌ مبذَّرة.[٤] وقيل: المقنطَرة: المُحْكمة المُحصنة.[٥] وقيل: الكثيرة المُنضَّدة بعضُها على بعض،[٦] أو المَدفونة.[٧] وقيل: المَضروبة المَنقوشة.[٨]

﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ بيان لـ﴿ٱلْقَنَـٰطِيرِ﴾، أو حال. ﴿وَٱلْخَيْلِ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْقَنَـٰطِيرِ﴾. قيل: هي جَمْع لا واحد له مِن لفظه كـ"القوم" و"الرهط".[٩] والواحد فرس، وقيل: واحده خائل.[١٠] وهو مُشتقّ مِن الخُيَلاء.[١١] ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ أي: المُعْلَمة مِن السَّومة وهي العلامة، أو المَرْعيّة، مِن أسام الدابّة وسوَّمها إذا أرسلها وسيَّبها للرَّعي، أو المُطَهَّمة[١٢] التامّة الخَلْق. ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ أي: الإبل والبقر والغنم. ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ أي: الزرع، مصدر بمعنى المفعول.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكِر مِن الأشياء المعهودة ﴿مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ما يُتمتَّع به في الحياة الدنيا أيامًا قلائلَ فتفنى سريعًا. ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ حُسْن المَرجِع. وفيه دلالة على أن ليس فيما عُدِّد عاقبة حميدة. وفي تكرير الإسناد بجَعْل الجلالة مبتدأً وإسنادِ الجملة الظرفيّة إليه زيادةُ تأكيد وتفخيم، ومَزيدُ اعتناء بالترغيب فيما عند الله عزّ وجلّ مِن النعيم المقيم والتزهيد في مَلاذّ الدنيا وطيّباتها الفانية.

---

١ المَنّ: الكيل أو الميزان الذي يُوزَن به. لسان العرب لابن منظور، «مني».

٢ مَرويّ عن سعيد بن جبير وعكرمة. معالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢.

٣ مَرويّ عن الحسن. جامع البيان للطبري، ٢٥٧/٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢.

٤ مِن قوله: "واختُلِف" في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٣/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٧/١.

٥ مَرويّ عن الضحّاك. معالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢.

٦ مَرويّ عن الربيع بن أنس وقتادة. جامع البيان للطبري، ٢٦٠/٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢.

٧ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢.

٨ مَرويّ عن السُّدّي. جامع البيان للطبري، ٢٦٢/٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢.

٩ القول في التفسير البسيط للواحدي، ٩٨/٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢.

١٠ انظر القول في اللباب لابن عادل، ٧٦/٥.

١١ انظر: التفسير البسيط للواحدي، ٩٨/٥؛ واللباب لابن عادل، ٧٦/٥.

١٢ المُطهَّم مِن الناس والخيل: الحسن التامّ كلّ شيء منه. لسان العرب لابن منظور، «طهم».

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ إثرَ ما بُيِّن شأن مُزخرَفات الدنيا وذكر ما عنده تعالى مِن حُسْن المآب إجمالًا، أُمِر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بتفصيل ذلك المجمَل للناس، مبالغة في الترغيب. والخطاب للجميع. والهمزة للتقرير، أي: أأُخبِركم[١] بما هو خير ممّا فُصِّل مِن تلك المستلذّات المزيَّنة لكم؟ وإبهام "الخير" لتفخيم شأنه والتشويق إليه.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ استئناف مبيِّن لذلك المبهَم، على أنّ ﴿جَنَّاتٌ﴾ مبتدأ، والجارّ خبر، أو على أنّ ﴿جَنَّاتٌ﴾ مرتفِع به على الفاعليّة عند مَن لا يَشترِط في ذلك اعتمادَ الجارّ، على ما فُصِّل في مَحلّه. والمراد بـ"التقوى" هو التبتُّل إلى الله تعالى والإعراضُ عمّا سواه، على ما تُنبئ عنه النعوت الآتية. وتعليق حصول الجنّات وما بعدها مِن فنون الخيرات[٢] للترغيب في تحصيله والثبات عليه. و﴿عِندَ﴾ نصب على الحاليّة مِن ﴿جَنَّاتٌ﴾، أو متعلِّق بما تعلَّق به الجارّ مِن معنى الاستقرار، مفيد لكمال عُلوّ رتبة الجنّات وسُموّ طبقتها.

والتعرُّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضمير المتّقين لإظهار مَزيد اللطف بهم. وقيل: اللام متعلِّقة بـ"خير"، وكذا الظرفُ، و﴿جَنَّاتٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والجملة مبيِّنة لـ"خير". ويُؤيِّده قراءة "جَنَّاتٍ"،[٣] بالجرّ على البدليّة مِن "خير".[٤] ولا يخفى أنّ تعليق الإخبار والبيان بما هو خير لطائفة ربّما يُوهِم أن هناك خيرًا آخرَ لآخَرين.

---

١ ي: أخبركم.

٢ ط س + به.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حاتم وكِرداب والأصمعي وأبي قرّة ومُغيث والقُورُسي عن أبي جعفر وأبو خُليد عن نافع. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٩؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ٥٧١.

٤ القول مع تأييده بقراءة الجرّ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٤٨؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣/٦٥؛ واللباب لابن عادل، ٥/٨٣.

﴿تَجۡرِي﴾ في محلّ الرفع أو الجرّ صفة لـ﴿جَنَّٰتٞ﴾ على حسب القراءتين. ﴿مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ متعلِّق بـ﴿تَجۡرِي﴾. فإن أُريد بالجنّات نفسُ الأشجار -كما هو الظاهر- فجريانُها مِن تحتها ظاهر، وإن أُريد بها مجموع الأرض والأشجار فهو باعتبار جُزئها الظاهر كما مرّ تفصيله مِرارًا. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدَّرة مِن المستكِنّ في ﴿لِلَّذِينَ﴾، والعامل ما فيه مِن معنى الاستقرار. ﴿وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ عطفٌ على ﴿جَنَّٰتٞ﴾، أي: مبرّأة ممّا يُستقذَر مِن النساء مِن الأحوال البدنيّة والطبيعيّة. ﴿وَرِضۡوَٰنٞ﴾ التنوين للتفخيم. وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بمحذوف وقَع صفة له مؤكِّدة لِما أفاده التنوين مِن الفخامة، أي: رضوان وأيُّ رضوانٍ، لا يُقادر قَدْره كائن مِن الله عزّ وجلّ. وقُرئ بضمّ الراء.[1]

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ وبأعمالهم فيُثيب ويُعاقِب حسبما يَليق بها، أو بَصير بأحوال الذين اتَّقَوا، ولذلك أعدّ لهم ما ذُكِر. وفيه إشعار بأنّهم المستحقّون للتسمية باسم العبد.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ في محلّ الرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوفٍ، كأنّه قيل: مَن أولئك المتَّقون الفائزون بهذه الكرامات السنيّة؟ فقيل: هم الذين... إلخ، أو النصبِ على المدح أو الجرّ على أنّه صفة للمتّقين / أو للعباد، أو بدلٌ [٩٠و]
مِن أحدهما،[2] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[3] حينئذ معترِضة. وتأكيد الجملة لإظهار أنّ إيمانهم ناشئ مِن وُفور الرغبة وكمال النشاط، وفي ترتيب الدعاء بقولهم ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ على مجرّد الإيمان دلالةٌ على كفايته في استحقاق المَغفرة والوقاية مِن النار.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ هو -على تقدير كون الموصول في محلّ الرفع- منصوب

---

[1] قرأ بها عاصم في رواية أبي بكر عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٨.

[2] مِن قوله: "على أنّه صفة..." في ي: على أنّه تابع للمتّقين نعتًا أو بدلًا أو للعباد كذلك. والأوّل أظهر.

[3] في الآية السابقة.

على المدح بإضمار "أعني"؛ وأمّا على تقدير كونه في محلّ النصب أو الجرّ فهو نعت له. والمراد بالصبر: هو الصبر على مشاقّ الطاعات وعلى البأساء والضرّاء وحينَ البأس. ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في أقوالهم ونيّاتهم وعزائمهم.

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ المداومِين على الطاعات المواظِبين على العبادات. ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ أموالَهم في سبيل الله تعالى.[1] ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ قال مجاهد وقَتادة والكلبي: «أي: المصلِّين بالأسحار».[2] وعن زيد بن أَسلَم:[3] «هم الذين يُصلُّون الصبح في جماعة».[4] وقال الحسَن: «مدُّوا الصلاة إلى السَّحَر ثمّ استغفروا».[5] وقال نافع: «كان ابن عمر رضي الله عنه يُحيي الليلة، ثمّ يقول: يا نافع أَسْحَرْنا؟ فأقول: لا، فيُعاود الصلاة، فإذا قلتُ: نعم، قعد[6] يَستغفر الله ويدعو حتّى يُصبِح».[7] وعن الحسَن: «كانوا يُصلُّون في أوّل الليل حتّى إذا كان السَّحَر أخذوا في الدعاء والاستغفار».[8] وتخصيص الأسحار بالاستغفار؛ لأنّ الدعاء فيها أقربُ إلى الإجابة، إذ العبادة حينئذ أشقّ والنفس أصفى والروح أَجمَع لاسيّما للمتهجّدين.[9] وتوسيط الواو بين الصفات المعدودة للدلالة على استقلال كلّ منها وكمالهم فيها، أو لتغايُر الموصوفِين بها.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ﴾ بفتح الهمزة، أي: بأنّه، أو على أنّه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي:

---

[1] ط - تعالى.

[2] تفسير مقاتل بن سليمان، ٢٦٧/١؛ جامع البيان للطبري، ٢٧٤/٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٦/٢.

[3] هو زيد بن أسلم العدوي العُمري، أبو أسامة وأبو عبد الله (ت. ١٣٦هـ/٧٥٣م). الإمام الحُجّة القدوة الفقيه المفسِّر. تابعيّ حدّث عن والده أسلم مولى عمر وعن عبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك. وحدّث عنه مالك بن أنس وسفيان الثوري وسفيان بن عُيينة. وكان له حلقة للعلم في المسجد النبويّ. وله تفسير رواه عنه ابنه عبد الرحمن. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣١٦/٥؛ والأعلام للزركلي، ٥٦/٣-٥٧.

[4] جامع البيان للطبري، ٢٧٥/٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٦/٢.

[5] معالم التنزيل للبغوي، ١٧/٢.

[6] ط: فقد.

[7] جامع البيان للطبري، ٢٧٤/٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٧/٢.

[8] لم أجِده فيما وقفت عليه مِن مَظانّه. وهو عن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٣/١؛ وبلا نسبة في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٩/١.

[9] ط س: للمجتهدين.

بيَّن وحدانيّته بنصب الدلائل التكوينيّة في الآفاق والأنفس وإنزال الآيات التشريعيّة الناطقة بذلك. عُبّر عنه بالشهادة على طريقة الاستعارة إيذانًا بقوّته في إثبات المطلوب وإشعارًا بإنكار المنكِر. وقُرئ: "إنّهُ" بكسر الهمزة،[١] إمّا بإجراء ﴿شَهِدَ﴾ مُجرى "قال"، وإمّا بجَعْل الجملة اعتراضًا وإيقاع الفعل على قوله تعالى: "أنّ الدِّينَ"... إلخ، على قراءة "أنّ" بفتح الهمزة، كما سيأتي.[٢] وقُرئ: "شُهَداءَ لله" بالنصب[٣] على أنّه حال مِن المذكورين، أو على المدح؛ وبالرفع[٤] على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، ومَآله الرفع على المدح، أي: هم شهداءُ لله. وهو إمّا جَمْع شهيد كـ"ظُرفاء" في جمع "ظريف"، أو جَمْع "شاهد" كـ"شُعراء" في جَمْع "شاعر".

﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ عطفٌ على الاسم الجليل بحمل الشهادة على معنًى مَجازيّ شامل للإقرار والإيمان بطريق عموم المجاز، أي: أقرُّوا بذلك. ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: آمنوا به واحتجُّوا عليه بما ذُكِر مِن الأدلّة[٥] التكوينيّة والتشريعيّة. قيل: المراد بهم الأنبياء عليهم السلام.[٦] وقيل: المهاجرون والأنصار.[٧] وقيل: علماء مؤمني أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأضرابه.[٨] وقيل: جميع علماء المؤمنين الذين عرفوا وَحدانيّته تعالى بالدلائل القاطعة.[٩] وارتفاعهما على القراءتين الأخيرتين، قيل: بالعطف على الضمير في "شُهَداء" لوقوع الفصل بينهما.[١٠] وأنت خبير بأنّ ذلك

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والحسن. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٢٦؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٥٧٢.

٢ في الآية الآتية، وتخريج القراءة ثمّة.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي المُهلب ومُحارب بن دِثار وقتيبة بن أبي جعفر والشَّيزري عن الكسائي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٠٩؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٥٧١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مِقْسَم. **الكشّاف** للزمخشري، ١/٢٦٥؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٥٧١.

٥ ي: الدلالة.

٦ انظر القول في **معالم التنزيل** للبغوي، ٢/١٧؛ **واللباب** لابن عادل، ٥/٩٤.

٧ عن عطاء عن ابن عبّاس في **التفسير الوسيط** للواحدي، ١/٤٢١؛ وعن ابن كيسان في **معالم التنزيل** للبغوي، ٢/١٨؛ **واللباب** لابن عادل، ٥/٩٤.

٨ **تفسير مقاتل بن سليمان**، ١/٢٦٧. وعن مقاتل في **معالم التنزيل** للبغوي، ٢/١٨؛ **واللباب** لابن عادل، ٥/٩٤.

٩ مَرويّ عن السُّدِّي والكلبي. **جامع البيان** للطبري، ٥/٢٧٧؛ **والوسيط** للواحدي، ١/٤٢١؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ٢/١٨؛ **واللباب** لابن عادل، ٥/٩٥.

١٠ **الكشّاف** للزمخشري، ١/٢٦٥.

على قراءة النصب على الحاليّة يُؤدّي إلى تقييد حال المَذكورين بشهادة الملائكة وأولي العلم، وليس فيه كثير فائدةٍ. فالوجه حينئذ كون ارتفاعِهما بالابتداء، والخبرُ محذوف لدلالة الكلام عليه، أي: والملائكة وأولو العلم شهداءُ بذلك. ولك أن تَحمِل القراءتين على المدح نصبًا ورفعًا، فحينئذ يَحسُن العطف على المستتِر على كلّ حال.

وقوله تعالى:[١] ﴿قَآبِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي: مُقيمًا للعدل في جميع أموره. بيان لكماله تعالى في أفعاله إثرَ بيان كماله في ذاته. وانتصابه على الحاليّة مِن ﴿ٱللَّهُ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة، ٩١/٢]. وإنّما جاز إفرادُه -مع عدم جواز "جاء زيد وعمرو راكبًا"- لعدم اللَّبس، كقوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء، ٧٢/٢١]. ولعلّ تأخيره عن المعطوفَين للدلالة على عُلوّ رتبتهما وقُرب منزلتهما والمسارعةِ إلى إقامة شهود التوحيد اعتناءً بشأنه ورفعًا لمَحلّه. وهو السرّ في تقديمه على المعطوفَين مع ما فيه مِن الإيذان بأصالته تعالى في الشهادة به، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة، ٢٨٥/٢].

أو مِن ﴿هُوَ﴾،[٢] وهو الأوجَه، والعامل فيها معنى الجملة، أي: تفرَّد، أو أُحِقّه؛ لأنّها حال مؤكِّدة. أو على المدح.[٣] وقيل: على أنّه صفة للمَنفيّ، أي: لا إله قائمًا... إلخ، والفَصل بينهما مِن قَبيل توسِعاتهم.[٤] وهو مندرِج في المشهود به إذا جُعِل صفة أو حالًا مِن الضمير أو نصبًا على المدح منه. وقُرئ: "القائمُ بالقِسْطِ"[٥] على البدليّة مِن ﴿هُوَ﴾، فيَلزَم الفصل بينهما، كما في الصفة، أو على أنّه خبر لمبتدأ محذوف. وقُرئ: "قيّمًا بالقِسْطِ".[٦]

---

١ ط س - وقوله تعالى.

٢ السياق: وانتصابُه على الحاليّة: مِن ﴿ٱللَّهُ﴾... أو مِن ﴿هُوَ﴾...

٣ السياق: وانتصابُه على الحاليّة... أو على المدح...

٤ انظر القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٤/١. واعترُض عليه. انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٧٧/٣-٧٨؛ واللباب لابن عادل، ٩٧/٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٢٦٤/١؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ٥٧٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حنيفة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٤/١.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تكرير للتأكيد ومَزيدِ الاعتناء بمعرفة أدلّة التوحيد والحُكمِ به بعد إقامة الحُجّة، وليُجريَ عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فيُعلمَ أنّه المَنعوت بهما. ووجه الترتيب تقدُّم العِلم بقدرته على العِلم بحكمته تعالى. ورَفْعهما على البدليّة مِن الضمير، أو الوصفيّة لفاعل ﴿شَهِدَ﴾، أو الخبريّة لمبتدأ مضمَر.

وقد رُوي في فضلها أنّه عليه السلام قال: «يُجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عزّ وجلّ: إنّ لِعبدي هذا عندي عهدًا، وأنا أحقّ مَن وفّى بالعهد، أَدخِلوا عبدي الجنّة»،[1] وهو دليل على فَضْل عِلم أصول الدين وشرفِ أهله. ورُوي عن سعيد بن جُبير: «أنّه كان حول البيت ثلاثمائة وستّون صنمًا، فلمّا نزلت هذه الآية الكريمة خرَرْنَ سُجّدًا».[2]

وقيل: نزلت في نصارى نَجران.[3] وقال الكلبي: قدِم على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حَبْران مِن أحبار الشام، فلمّا أبصرا المدينة قال أحدهما: «ما أشبَه هذه المدينةَ بصفة مدينة النبيّ عليه السلام[4] الذي يخرُج في آخر الزمان!» فلمّا دخلا عليه عليه السلام عرفاه بالصفة، فقالا له عليه السلام: «أنت محمّد؟» قال صلّى الله عليه وسلّم: «نعم»، قالا: «وأنت أحمد؟» قال عليه السلام: «أنا محمّد وأحمد»، قالا: / «فإنّا نسألك عن شيء فإن أخبرتنا به آمنّا بك وصدّقناك»، قال [٩٠ظ] عليه السلام: «سلا»، فقالا: «أَخبِرنا عن أعظَم شهادة في كتاب الله عزّ وجلّ»، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأَسلَم الرجُلان.[5]

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ جملة مستأنَفة مؤكِّدة للأولى، أي: لا دين مَرضيًا

---

١ المعجم الكبير للطبراني، ٢٤٥/١٠ (١٠٤٥٣)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٢١/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥٠/١؛ واللباب لابن عادل، ١٠٧/٥.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٥/٨؛ تفسير القرطبي، ٤٠/٤؛ اللباب لابن عادل، ٩٣/٥.

٣ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ١٧/٢.

٤ ط س - عليه السلام.

٥ انظر: أسباب النزول للواحدي، ص ١٠١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧/٢.

لله تعالى سوى الإسلام الذي هو التوحيد والتدرّع بالشريعة الشريفة. وعن قتادة: «أنّه شهادةُ ألّا إله إلّا الله، والإقرارُ بما جاء مِن عند الله تعالى».[١] وقُرئ: "إنّ الدِّينَ عِندَ اللهِ لَلإسْلَامُ"،[٢] وقُرئ: "أنّ الدِّينَ".. إلخ،[٣] على أنّه بدل مِن ﴿أَنَّهُۥ﴾ بدلَ الكلّ إن فُسِّر الإسلامُ بالإيمان أو بما يتضمّنه، وبدلَ الاشتمال إن فُسِّر بالشريعة، أو على أنّ ﴿شَهِدَ﴾[٤] واقع عليه على تقدير قراءة "إنّه" بالكسر،[٥] كما أُشير إليه.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ نزلت في اليهود والنصارى حين تركوا الإسلام الذي جاء به النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم وأنكروا نبوّته.[٦] والتعبير عنهم بالموصول وجعلُ إيتاءِ الكتاب صلة له لزيادة تقبيح حالهم، فإنّ الاختلاف ممّن أُوتيَ ما يُزيله ويَقطَع شأفته في غاية القُبح والسماجة. وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأحوال أو أعمّ الأوقات، أي: وما اختلفوا في حال مِن الأحوال، أو في وقت مِن الأوقات إلّا بعد أن عِلموا بأنّه الحقُّ الذي لا مَحيد عنه، أو بعد أن عِلموا حقيقة الأمر وتمكّنوا مِن العِلم بها بالحُجج النيّرة والآيات الباهرة. وفيه مِن الدلالة على ترامي حالهم في الضلالة ما لا مَزيد عليه، فإنّ الاختلاف بعد حصول تلك المَرتبة ممّا لا يَصدُر عن العاقل. وقوله تعالى: ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: حسدًا كائنًا بينهم وطلبًا للرئاسة، لا لشبهة وخفاءٍ في الأمر، تشنيعٌ إثرَ تشنيع.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بآياته الناطقةِ بما ذُكِر مِن أنّ الدِّين عند الله تعالى[٧] هو الإسلام، ولم يعمَل بمُقتضاها أو بأيّة آيةٍ كانت مِن آياته تعالى على أن يَدخُل فيها ما نحن فيه دخولًا أوّليًا. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ قائم مَقام جواب الشرط عِلّة له، أي: ومَن يَكفر بآياته تعالى فإنّه تعالى يجازيه ويعاقِبه عن قريب،

---

١ جامع البيان للطبري، ٥/٢٨١-٢٨٢؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢/١٨.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٩.
٣ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٨.
٤ في الآية السالفة.
٥ الآية السالفة. ومضى تخريجها ثمّة.
٦ انظر: جامع البيان للطبري، ٥/٢٨٢-٢٨٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢/١٩.
٧ ط - تعالى.

فإنّه سريع الحساب، أي: يأتي حسابُه عن قريب، أو يتمّ ذلك بسرعة. وإظهار الجلالة لتربية المَهابة وإدخال الرَّوعة. وفي ترتيب العِقاب على مطلَق الكفر بآياته تعالى مِن غير تعرّضٍ لخصوصيّة حالِهم -مِن كون كفرِهم بعد إيتاء الكتاب وحصول الاطِّلاع على ما فيه وكونِ ذلك للبغي-[١] دلالةٌ على كمال شِدّة عقابهم.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾،أي: في كون الدِّين عند الله الإسلامَ، أو جادلوك فيه بعد ما أقمتَ عليهم الحُجَج. ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ﴾ أي: أخلصتُ نفسي وقلبي وجملتي، وإنّما عُبِّر عنها بالوجه؛ لأنّه أشرف الأعضاء الظاهرة ومَظهر القُوى والمَشاعر، ومَجمَع معظَم ما تقع به العبادة مِن السجود والقراءة، وبه يحصل التوجّه إلى كلّ شيء. ﴿لِلَّهِ﴾ لا أُشرِك به فيها غيرَه، وهو الدِّينُ القويم الذي قامت عليه الحُجَج ودعَت إليه الآيات والرسُل عليهم السلام. ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ عطفٌ على المتّصِل في ﴿أَسْلَمْتُ﴾، وحَسُن ذلك لمكان الفَصْل الجاري مَجرى التأكيد بالمنفصل، أي: وأَسلَم مَن اتَّبعني، أو مفعولٌ معه.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: مِن اليهود والنصارى. وُضِع الموصول مَوضِع الضمير لرعاية التقابل بين وصفي المتعاطفَين. ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ أي: الذين لا كتابَ لهم مِن مُشركي العَرب. ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ متَّبعين لي، كما فعَل المؤمنون، فإنّه قد أتاكم مِن البيِّنات ما يُوجِبه ويَقتضيه لا مَحالةَ، فهل أسلمتُم وعمِلتُم بقضيّتها، أو أنتم على كفركم بعدُ؟ كما يقول مَن لخّص لصاحبه المسألة ولم يَدَع مِن طرق التوضيح والبيان مَسلكًا إلّا سلكه: فهل فهِمتَها؟ على منهاج[٢] قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة، ٥/٩١]، إثرَ تفصيل الصوارف عن تعاطي الخمر والمَيسِر. وفيه مِن استقصارهم وتعييرهم بالمُعانَدة وقلّة الإنصاف وتوبيخهم بالبلادة وكَلّة القريحةِ ما لا يخفى.

[١] ط: للنفي.
[٢] ط: مناهج.

﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ﴾ أي: كما أسلمتم. وإنّما لم يُصرَّح به، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة، ١٣٧/٢]؛ ختمًا لباب إطلاق اسم الإسلام على شيء آخر بالكلّيّة. ﴿فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ﴾ أي: فازوا بالحظّ الأوفَر ونجَوا عن مَهاوي الضلال.

﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي: أعرَضوا عن الاتّباع وقَبول الإسلام. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ﴾ قائم مقامَ الجواب، أي: لم يَضرُّوك شيئًا إذ ما عليك إلّا البلاغ، وقد فعلتَ على أبلغ وجه. رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا: «أسلمنا»، فقال صلّى الله عليه وسلّم لليهود: «أتشهَدون أنّ عيسى كلمةُ الله وعبده ورسوله؟» فقالوا: «معاذَ الله». وقال عليه الصلاة والسلام للنصارى: «أتشهَدون أنّ عيسى عبدُ الله ورسوله؟» فقالوا: «معاذَ الله أن يكون عيسى عبدًا». وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾.[١] ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ عالم بجميع أحوالهم. وهو تذييل فيه وعد ووعيد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٢﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أيّ آية كانت، فيَدخُل فيهم الكافرون بالآيات الناطقة[٢] بحقّيّة الإسلام على الوجه الذي مرّ تفصيله دُخولًا أوّليًّا.

﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ هم أهل الكتاب، قتَلَ أوّلوهم الأنبياء عليهم السلام، وقتلوا أتباعَهم وهم راضون بما فعلوا، وكانوا -قاتلهم الله تعالى- حائمين حول قتل النبيّ صلّى الله غليه وسلّم، لولا أن عصَم الله عزّ وجلّ ساحته المَنيعة، وقد أُشير إليه بصيغة الاستقبال. وقُرئ بالتشديد[٣] للتكثير. والتقييد بـ"غير حقّ" للإيذان بأنّه كان عندهم أيضًا بغير حقّ.

---

١ ي - ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾. | انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٣/٨؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٢٠/٢؛ اللباب لابن عادل، ١١٢/٥.

٢ ط: القاطعة.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن مِقْسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٩؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٥٧٣.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بالعدل. ولعلّ تكرير الفعل للإشعار بما بين القتلين مِن التفاوت، أو باختلافهما في الوقت. عن أبي عُبيدة بن الجرّاح: قلتُ: «يا رسول الله أيُّ الناسِ أشدُّ عذابًا يوم القيامة؟» قال: «رجل قتَل نبيًا أو رجلًا أمَر بمعروف ونهى عن منكَر.» ثمّ قرأها، ثمّ قال: «يا أبا عُبيدة قتلَت / بنو إسرائيل ثلاثةً وأربعين نبيًا مِن أوّل النهار في ساعة واحدة، فقام مائة [٩١و] واثنا عشرَ رجُلًا مِن عُبّاد بني إسرائيل فأمَروا قَتَلَتَهم بالمعروف ونهَوهم عن المنكر، فقُتلوا جميعًا مِن آخر النهار».[١] وقُرِئ: "ويُقاتِلُونَ الذِينَ".[٢]

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾. والفاء لتضمّن اسمها معنى الشرط، فإنّها بالنَّسخ لا تُغيّر معنى الابتداء؛ بل تَزيده تأكيدًا، وكذا الحال في النَّسخ بـ"أنّ" المفتوحة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال، ٤١/٨]، وكذا النَّسخ بـ"لكنّ"، كما في قوله:

فــواللهِ مــا فــارقــتُكــم عــن مَــلالــةٍ ولــكــنّ مــا يُقضى فسوف يَكونُ[٣]

وإنّما يتغيّر معنى الابتداء في النسخ بـ"ليت" و"لعلّ". وقد ذهب سيبويه والأخفش إلى مَنْع دخول الفاء عند النسخ مُطلقًا؛[٤] فالخبر عندهما قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾، كما في قولك: الشيطان -فاحذَر-[٥] عدُوّ مبين.

وعلى الأوّل هو استئناف، واسم الإشارةِ مبتدأ، وما فيه مِن معنى البعد للدلالة على ترامي أمرهم في الضلال، وبُعد منزلتهم في فظاعة[٦] الحال.

---

١ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢٩١/٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢١/٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٦٧/١.

٢ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢٣٨/٢.

٣ البيت لذي القرنين أبي المُطاع بن حمدان في تاج العروس للزّبيدي، «برد». ونُسِب إلى الأفوه الأودي في التذييل والتكميل لأبي حيّان، ١١٢/٤، وليس في ديوانه ولا في شعراء مَذحِج. وهو بلا نسبة في أمالي القالي، ١٩٩/١؛ والدُّرّ الفريد لابن آيدمر، ١٣٥/٨. وهو في المصادر السالفة جميعًا «قاليًا لكم» مكان «عن مَلالة». وهو بالرِّواية ههنا وبلا نسبة في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٩٣/٣؛ واللباب لابن عادل، ١١٣/٥.

٤ في مذهبهما تفصيل أوسع ممّا ذكره المصنِّف، ولغيرهما مِن النحاة مذاهب فيه. انظر: التذييل والتكميل لأبي حيّان، ١٠٩/٤-١١٤؛ وكتاب سيبويه، ١٠٢/٣-١٠٣.

٥ ط: فاحذره.

٦ س: فضاعة.

والموصول بما في حيّز صلته خبره، أي: أولئك المتّصفون بتلك الصفات القبيحة، أو المبتلون[١] بأسوأ الحال، الذين بطلت أعمالُهم التي عمِلوها مِن البرّ والحسنات، ولم يبقَ لها أثر في الدارين؛ بل بقيَ لهم اللعنة والخزيُ في الدنيا وعذاب أليم في الآخرة. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ ينصرونهم مِن بأس الله وعذابه في إحدى الدارين. وصيغة الجمع لرعاية ما وقع في مقابَلته، لا لنفي تعدّد الأنصار مِن كلّ واحد منهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة، ٢/٢٧٠].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو لكلّ مَن يتأتّى منه الرُّؤية مِن حال أهل الكتاب وسوء صنيعهم، وتقريرٌ لِما سبق مِن أنّ اختلافهم في الإسلام إنّما كان بعد ما جاءهم العلم بحقّيّته، أي: ألَم تنظُر ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: **التوراة**، على أنّ اللام للعهد. وحَمْله على جنس الكتب الإلهيّة[٢] تطويل للمسافة، إذ تمام التقريب حينئذ بكون **التوراة** مِن جملتها؛ لأنّ مَدار التشنيع والتعجيب إنّما هو إعراضهم عن المحاكَمة إلى ما دُعوا إليه، وهم لم يُدعَوا إلّا إلى **التوراة**.

والمراد بما أُوتوه منها ما بُيّن لهم فيها مِن العلوم والأحكام التي مِن جملتها ما علِموه مِن نعوت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وحقِّيّة الإسلام. والتعبير عنه بـ"النصيب" للإشعار بكمال اختصاصه بهم، وكونه حقًّا مِن حقوقهم التي يَجِب مراعاتُها والعملُ بموجَبها. وما فيه مِن التنكير للتفخيم. وحَمْله على التحقير[٣] لا يساعده مَقام المبالغة في تقبيح حالهم.

---

[١] ط س: المبتلين.

[٢] انظر حمله على الجنس في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٦٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٥١.

[٣] حَمَله الزمخشري على التعظيم، وجوّز فيه البيضاويُّ التعظيم والتحقير. انظر: الكشّاف، ١/٢٦٧؛ وأنوار التنزيل، ١/٢٥١.

﴿يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ الذي أُوتوا نصيبًا منه وهو التوراة.[١] والإظهار في مَقام الإضمار لإيجاب الإجابة، وإضافتُه إلى الاسم الجليل لتشريفه، وتأكيدِ وجوب المراجعة إليه. والجملة استئناف مبيِّن لمَحلّ التعجيب مبنيّ على سؤال نشأ مِن صَدْر الكلام، كأنّه قيل: ماذا يَصنعون حتّى يُنظَر إليهم؟ فقيل: يُدعَون إلى كتاب الله تعالى. وقيل: حال مِن الموصول.[٢] ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ وذلك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دخل مِدْراسَهم،[٣] فدعاهم إلى الإيمان، فقال له نُعيم بن عمرو والحارث بن زيد: «على أيّ دين أنت؟» قال صلّى الله عليه وسلّم: «على مِلّة إبراهيم»، قالا: «إنّ إبراهيم كان يَهوديًّا»، قال صلّى الله عليه وسلّم لهما: «إنّ بيننا وبينكم التوراة فهلُمّوا إليها»، فأبَيا.[٤] وقيل: نزلت في الرَّجم، وقد اختلفوا فيه.[٥] وقيل: ﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: القرآن،[٦] فإنّهم قد علِموا أنّه كتاب الله لم يَشكُّوا فيه. وقُرئ: "لِيُحكَمَ" على بناء المجهول،[٧] فيكون الاختلاف بينهم بأن أسلم بعضُهم كعبد الله بن سلام وأضرابه وعاداهم الآخَرون.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ﴾ استبعاد لتولّيهم بعد علمِهم بوجوب الرجوع إليه. ﴿وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ إمّا حال مِن ﴿فَرِيقٞ﴾ لتخصّصه بالصفة، أي: يتولّون مِن المَجلِس وهم مُعرِضون بقلوبهم، أو اعتراض، أي: وهم قوم دَيْدنهم الإعراض عن الحقّ والإصرارُ على الباطل.[٨]

---

[١] انظر: جامع البيان للطبري، ٢٩٣/٥؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٦٢٢/٢.

[٢] القول في التبيان للعُكبري، ٢٤٩/١؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٩٥/١؛ واللباب لابن عادل، ١١٧/٥.

[٣] المِدراس: البيت الذي يدرسون فيه. انظر: لسان العرب لابن منظور، «درس».

[٤] جامع البيان للطبري، ٢٩٣/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٧/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥١/١.

[٥] القول في معالم التنزيل للبغوي، ٢٢/١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٦٧/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥١/١.

[٦] مَرويّ عن قتادة والحسن وابن جُريج. انظر: جامع البيان للطبري، ٢٩٤/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٦٧/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥١/١.

[٧] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٢٧/٢، ٢٣٩.

[٨] ي: الباصل.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرّ مِن التولّي والإعراض. وهو مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: حاصل بسبب أنّهم ﴿قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ باقتراف الذنوب وركوب المعاصي ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾، وهي مِقدار عبادتهم العجل، ورَسَخ اعتقادهم على ذلك، وهوَّنوا عليهم الخطوب. ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ مِن قولهم ذلك، وما أشبَهه مِن قولهم: إنّ آباءنا الأنبياء يَشفَعون لنا، أو إنّ الله تعالى وعَد يعقوب عليه السلام ألّا يُعذِّب أولاده إلّا تَحِلّةَ القَسَم؛ ولذلك ارتكبوا ما ارتكبوا مِن القبائح.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَكَيْفَ﴾ ردٌّ لقولهم المذكور، وإبطال لِما غرَّهم باستعظام ما سيَدهَمهم، وتهويلُ ما سيحيق بهم مِن الأهوال، أي: فكيف يكون حالهم ﴿إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ﴾ أي: لجزاء يوم ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في وقوعه ووقوع ما فيه. رُوي[١] أنّ أوّل راية تُرفَع يوم القيامة مِن رايات الكُفر راية اليهود، فيَفضَحهم الله عزّ وجلّ على رءوس الأشهاد، ثمّ يأمُر[٢] بهم[٣] إلى النار.[٤]

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: جزاء ما كسبت مِن غير نقصٍ أصلًا كما يَزعُمون. وإنّما وُضِع المَكسوبُ مَوضِعَ جزائه للإيذان بكمال الاتّصال والتلازم بينهما كأنّهما شيء واحد. وفيه دلالة على أنّ العبادة لا تُحبَط، وأنّ المؤمن لا يُخلَّد في النار؛ لأنّ تَوفية جزاء إيمانه وعمله لا تكون في النار ولا قَبل دخولها، فإذن هي بعد الخلاص منها.[٥] ﴿وَهُمْ﴾ أي: كلّ الناس المدلول عليهم بـ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة عذاب أو بنقص ثواب؛ بل يُصيب كلًّا منهم مِقدارُ ما كسَبه.

---

١ ي: وروي.
٢ ي: يأمرهم.
٣ ي - بهم.
٤ الخبر مِن غير نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٨/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥٢/١.
٥ مِن قوله: "وفيه دلالة" بلفظ قريب جدًّا في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥٢/١.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ الميم عِوَض عن حرف النداء؛ ولذلك لا يجتمعان.[1] وهذا مِن خصائص الاسمِ الجليل كدخوله عليه مع حرف التعريف، وقطع همزته، ودخول تاء القَسم عليه.[2] وقيل: أصله "يا الله أُمَّنا بخير"، أي: اقصدنا به، فخُفِّف بحذف حرف النداء ومتعلَّقات الفعل / وهمزته.[3] ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي: مالك [٩١ظ] جنسِ المُلْك على الإطلاق مُلْكًا حقيقيًا، بحيثُ تتصرَّف فيه كيفما تشاء إيجادًا وإعدامًا وإحياءً وإماتةً وتعذيبًا وإثابةً مِن غير مُشارِك ولا مُمانِع. وهو نداء ثانٍ عند سيبويه؛ فإن الميم عنده تَمنَع الوصفيّة.[4]

﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ﴾ بيان لبعض وجوه التصرّف الذي تَستدعيه مالكيّة المُلْك، وتحقيق لاختصاصها به تعالى حقيقةً وكونِ مالكيّة غيره[5] بطريق المجاز، كما يُنبئ عنه إيثارُ الإيتاء الذي هو مجرّد الإعطاء على التمليك المُؤذِن بثبوت المالكيّة حقيقة. ﴿مَن تَشَآءُ﴾ أي: إيتاءه إيّاه. ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ أي: نَزْعَه منه، فالمُلْك الأوّل حقيقيّ عامّ ومملوكيّته حقيقيّة، والآخران مجازيّان خاصّان ونِسبتُهما إلى صاحبهما مجازيّة. وقيل: المُلْك الأوّل عامّ، والآخران بَعضان منه.[6] فتأمَّلْ. وقيل: المراد بالمُلْك النبوّةُ، ونَزْعُها نقلُها مِن قوم إلى آخرين.[7] ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ أن تُعِزّه في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما بالنصر والتوفيق ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ أن تُذِلّه في إحداهما أو فيهما مِن غير ممانعة مِن الغير ولا مدافعة.

---

١ إذ لا يجتمع المُعوَّض والمُعوَّض عنه.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٢٦٨.

٣ انظر القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٥٢.

٤ انظر: كتاب سيبويه، ٢/١٩٦، وعبارته فيه: «وإذا ألحقت الميم لم تَصِف الاسم؛ مِن قِبَل أنّه صار مع الميم عندهم بمنزلة صوت كقولك: يا هَناهْ». وانظر تفصيل الكلام على مذهبه والاحتجاج له، ومذهب مَن خالفه مِن النحاة في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣/٩٩-١٠١.

٥ ي: غير.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٦٨؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٥٢.

٧ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٥٢.

﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ تعريفُ ﴿ٱلْخَيْرُ﴾ للتعميم، وتقديمُ الخبر للتخصيص، أي: بقُدرتك الخيرُ كلّه لا بقُدرة أحد مِن غيرك، تتصرّف فيه قبضًا وبسطًا حسبما تقتضيه مشيئتك. وتخصيص ﴿ٱلْخَيْرُ﴾ بالذِّكر لِما أنّه مَقضيّ بالذات، وأمّا الشرّ فمَقضيّ بالعَرَض؛ إذ ما مِن شرّ جُزئيّ إلّا وهو متضمِّن لخير كُلّيّ. أو لأنّ في حصول الشرّ دَخْلًا لصاحبه في الجملة؛ لأنّه مِن أَجزِية أعماله، وأمّا الخير ففَضْل مَحْض. أو لِرعاية الأدب. أو لأنّ الكلام فيه؛ فإنّه رُوي: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا خطّ الخندق عام الأحزاب، وقطَع لكلّ عشرة مِن أهل المدينة أربعين ذِراعًا وأخذوا يَحفِرونه، خرج مِن بطن الخندق صخرة كالتَّلّ لم تَعمَل فيها المَعاوِل؛ فوجَّهوا سلمان إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُخبِره، فجاء عليه السلام وأخذ منه المِعْوَل فضربها ضربة صدعَتْها وبرَق منها بَرْق أضاء ما بين لابتَيها،[1] لكأنّ مِصباحًا في جَوْف بيت مُظلِم، فكبّر وكبّر معه المسلمون وقال: «أضاءت لي منها[2] قصور الحِيرة[3] كأنّها أنياب الكلاب»، ثمّ ضرب الثانية فقال: «أضاءت لي منها القصور الحُمْر في أرض الروم»، ثمّ ضرب الثالثة فقال: «أضاءت لي قصور صنعاء، وأخبرني جبريل عليه السلام أنّ أمّتي ظاهرة على كلّها فأبشِروا». فقال المنافقون: «ألا تَعجَبون! يُمنِّيكم ويَعِدُكم الباطل ويُخبِركم أنّه يُبصِر مِن يثرب قصور الحِيرة ومدائن[4] كسرى، وأنّها تُفتَح لكم وأنتم تَحفِرون الخندقَ مِن الفَرَق[5] لا تستطيعون أن تبرُزوا»، فنزلت.[6]

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لِما سبق وتحقيق له.

---

[1] اللابة واللُّوبة: الحرّة، وهي الأرض التي اشتدّ سواد حجارتها، وغلُظت، وارتفعت قليلًا. لسان العرب لابن منظور، «لوب».

[2] ط - منها.

[3] هي مدينة كانت على ثلاثة أميال مِن الكوفة، على موضع يقال له: النجف. كانت مسكن ملوك العرب في الجاهليّة مِن زمن نصر ثمّ مِن لخم النعمان وآباؤه. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢/٣٢٨.

[4] المدائن: هي دار مُلك الأكاسرة بالعراق، وهي على مسافة يوم مِن بغداد، ويشتمل مجموعها على مدائن متّصلة مبنيّة على جانبي دجلة شرقًا وغربًا، ودجلة تشقّ بينها، ولذلك سُمّيت المدائن. الرّوض المعطار للحميري، ١/٩.

[5] ي: العرق. | والفرَق: الخوف. لسان العرب لابن منظور، «فرق».

[6] بمعناه في جامع البيان للطبري، ١٩/٣٩-٤٢ (الأحزاب، ٣٣/١٢)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٦/٣٢٣-٣٢٤ (الأحزاب، ٣٣/٩)؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٢٦٨-٢٦٩؛ واللباب لابن عادل، ٥/١٢٧.

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ أي: تُدخِله فيه بتعقيبه إيّاه أو بنَقص الأوّل وزيادة الثاني. ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ على أحد الوجهين. ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ أي: تُنشئ الحيوانات مِن مَوادِّها أو مِن النُّطفة. وقيل: تُخرِج المؤمن مِن الكافر.[1] ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ أي: تُخرِج النُّطفة مِن الحيوان. وقيل: تُخرِج الكافر مِن المؤمن.[2]

﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ قال أبو العبّاس المُقرئ:[3] ورد لفظُ "الحِساب" في القرآن على ثلاثة أوجهٍ: بمعنى التعب، قال تعالى: ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾؛ وبمعنى العَدد، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر، ١٠/٣٩]؛ وبمعنى المطالَبة، قال تعالى: ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [ص، ٣٩/٣٨].[4] والباء متعلِّقة بمحذوف وقع حالًا مِن فاعل ﴿تَرۡزُقُ﴾، أو مِن مفعوله، وفيه دلالة على أنّ مَن قدَر على أمثال هاتِيك الأفاعيل العظام المحيِّرة للعقول والأفهام فقُدرته على أن يَنزِعَ المُلْك مِن العَجم ويُذِلّهم ويُؤتيَه العَرب ويُعِزَّهم أهونُ مِن كلّ هيِّن.

عن عليّ رضي الله عنه أنّه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ "فاتحة الكتاب"، و"آية الكرسيّ"، وآيتين مِن "آل عمران": ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران، ١٨/٣] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران، ١٩/٣]،

---

١ مَرويّ عن الحسن وعطاء. جامع البيان للطبري، ٣١٠/٥-٣١١؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٤/١. وبلا نسبة في التفسير الوسيط للواحدي، ٤٢٧/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥٣/١.

٢ مَرويّ عن الحسن وعطاء. جامع البيان للطبري، ٣١٠/٥-٣١١؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٤/١. وبلا نسبة في التفسير الوسيط للواحدي، ٤٢٧/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥٣/١.

٣ ما عرفتُه على وجه التعيين؛ لكثرة مَن كُنُوا بأبي العبّاس المُقرئ. وقد نقل عنه ابن عادل في اللباب في عدّة مواضع يظهر منها أنّه كان مُفسِّرًا أو مؤلِّفًا في غريب القرآن وتفسير ألفاظه. على أنّ السمين الحلبي كان يُكنى بأبي العبّاس المُقرئ، كما ذكر الداوودي في طبقات المفسِّرين، ١٠١/١، لكن يظهر أنّه غير المراد ههنا؛ لأنّ صاحب اللباب يذكر السمين بلقبه "شهاب الدِّين"، ولأنّي نظرتُ في المواضع التي نقلها ابن عادل عن أبي العبّاس المُقرئ فما وجدتها في الدرّ المصون ولا في عُمدة الحفّاظ للسمين، فلعلّها له في كتبه التي لم تنتهِ إلينا، أو لعلّ المراد بأبي العبّاس هذا رجلٌ غير السمين.

٤ انظر: اللباب لابن عادل، ١٣٦/٥.

و﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ إلى قوله:[١] ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران، ٣/٢٦-٢٧] معلَّقات،[٢] ما بينهنّ وبين الله[٣] حجابٌ. قُلن: يا ربّ تُهبِطنا إلى أرضك وإلى مَن يَعصيك؟ قال الله عزّ وجلّ: "إنّي حلفتُ أنّه لا يَقرؤكنّ أحد دُبُرَ كلّ صلاة إلّا جعلتُ الجَنّة مَثواه على ما كان منه، وأسكنتُه في حظيرة القدس، ونظرتُ إليه بعيني كلّ يوم سبعين مرة وقضيتُ له سبعين حاجة أدناها المغفرة، وأَعذتُه مِن كلّ عدوّ وحاسدٍ، ونصرتُه عليهم"».[٤] وفي بعض الكُتب:[٥] «أنا الله مَلِك الملوك، قلوبُ الملوك ونواصيهم بيدي فإنِ العِبادُ أطاعوني جعلتُهم لهم رحمة، وإنِ العِبادُ عصَوني جعلتُهم عليهم عقوبة، فلا تشتغلوا بسبّ المُلوك، ولكن تُوبوا إليّ أُعطِّفهم عليكم».[٦] وهو معنى قوله عليه السلام: «كما تكونون يُولَّى عليكم».[٧]

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ نُهوا عن مُوالاتهم لقرابة أو صداقة جاهليّة ونحوهما مِن أسباب المصادَقة والمعاشَرة، كما في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة، ٦٠/١]، وقولِه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة، ٥/٥١]، حتّى لا يكون حبُّهم ولا بغضهم إلّا لله تعالى،[٨] أو عن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينيّة.

---

١ ط س + تعالى.

٢ السياق: إنّ فاتحة الكتاب... مُعلّقات...

٣ ط س + تعالى.

٤ عمل اليوم والليلة لابن السُّني، ص ١١١ (١٢٥)؛ الوسيط للواحدي، ١/٤٢٦؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢/٢٥، وقال فيه: «رواه الحارث عن عمرو وهو ضعيف»؛ اللباب لابن عادل، ٥/١٣٦. وفصّل الكلام عليه ابن عرّاق في تنزيه الشريعة، ١/٢٨٧-٢٨٨.

٥ وردت هذه العبارة في الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٠٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢/٢٣، بلفظ «قال الله عزّ وجلّ في بعض الكتب». ويُبيّن ذلك ما جاء في المُصنَّف لابن أبي شيبة، ١٨/٥٣٩ (٣٥٣٥٩): «كان في زبور داود مكتوبًا...». وما نقله المصنّف ههنا عبارة الزمخشري في الكشّاف، ١/٢٦٩.

٦ المُصنَّف لابن أبي شيبة، ١٨/٥٣٩ (٣٥٣٥٩)؛ حلية الأولياء لأبي نُعيم، ٦/١٧٢؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢/٢٣.

٧ شعب الإيمان للبيهقي، ٩/٤٩٢ (٧٠٠٦)، بلفظ «كما تكونوا كذلك يؤمَّر عليكم»؛ الكشّاف للزمخشري، ١/٢٦٩. وانظر: الكافي الشاف لابن حجر، ص ٢٥.

٨ س − تعالى.

﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في مَوضِع الحال، أي: متجاوِزين المؤمنين إليهم استقلالًا أو اشتراكًا. وفيه إشارة إلى أنّهم الأحقّاء بالمُوالاة، وأنّ في مُوالاتهم مَندوحةً عن مُوالاة الكَفَرة.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: اتّخاذهم أولياءَ.[١] والتعبير عنه بالفعل للاختصار، أو لإيهام الاستهجان بذِكْره. ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن وَلايته تعالى ﴿فِى شَىْءٍ﴾، يصِحّ أن يُطلَق عليه اسم الوَلاية، فإنّ مُوالاة المتعاديَين ممّا لا يكاد يدخُل تحت الوقوع. قال:

تَـــودّ عَـــــدوِّي ثُـــمّ تـزعُـم أنّـني صديقُك ليس النَّوْكُ عنك بعازبِ[٢]

والجملة / اعتراضيّة. [٩٢و]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟﴾ على صيغة الخطاب بطريق الالتفات استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأحوال. والعامل فعل النهي معتبَرًا فيه الخطاب، كأنّه قيل: لا تتّخذوهم أولياءَ ظاهرًا وباطنًا في حال مِن الأحوال إلّا حال اتّقائكم. ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: مِن جهتهم ﴿تُقَىٰةً﴾ أي: اتّقاء أو شيئًا يَجب اتّقاؤه، على أنّ المصدر واقع مَوقِع المفعول. فإنّه يجوز إظهار المُوالاة حينئذ مع اطمئنان النفس بالعداوة والبغضاء، وانتظارِ زوال المانع مِن قَشْر العصا وإظهارِ ما في الضمير، كما قال عيسى عليه السلام: «كُن وسَطًا وامشِ جانبًا».[٣] وأصل ﴿تُقَىٰةً﴾ "وُقَيَة"، ثمّ أُبدِلت الواو تاء كـ"تُخَمَة" و"تُهَمَة"، وقُلبت الياء ألفًا. وقُرئ: "تَقِيَّة".[٤]

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: ذاتَه المقدّسة، فإنّ جواز إطلاق لفظ "النفس" -مرادًا به الذات- عليه سبحانه بلا مُشاكَلة ممّا لا كلام فيه عند المتقدِّمين،

---

١ ي: الأولياء.

٢ البيت لبشّار بن بُرد في ديوانه، ص ١٢١؛ وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٢٧٠/١. وقد يُنسَب لغير بشار، وفيه روايات أخرى. انظر ذلك مع تفصيل تخريجه في عمل مُحقِّق ديوانه، ص ١٩-٢١. | والنَّوْك: الحُمْق. والعازب: البعيد والغائب. لسان العرب لابن منظور، «نوك»، «عزب».

٣ مجمع الأمثال للميداني، ١٥٧/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٠/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥٤/١.

٤ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٣٩/٢.

وقد صرّح بعضُ مُحقِّقي المتأخِّرين[١] بعدم الجواز، وإن أُريد به الذات إلّا مُشاكلة. وفيه مِن التهديد ما لا يخفى عِظَمه. وذِكْر "النفس" للإيذان بأنّ له عقابًا هائلًا لا يُؤبَه دونه بما يُحذَر مِن الكَفَرة. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ تذييل مُقرِّر لمضمون ما قبله ومُحقِّق لوقوعه حتمًا.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ مِن الضمائر التي مِن جملتها وَلاية الكَفَرة. ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ فيما بينكم ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ فيُؤاخذكم بذلك عند مصيركم إليه. وتقديم الإخفاء على الإبداء قد مرّ سِرّه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة، ٢/٢٨٤]، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة، ٢/٧٧].

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كلام مستأنَف غيرُ معطوف على جواب الشرط، وهو مِن باب إيراد العامّ بعد الخاص تأكيدًا له وتقريرًا. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيَقدِر على عقوبتكم بما لا مَزيد عليه إن لم تنتهوا عمّا نُهيتُم عنه. وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المَهابة وتهويل الخَطْب، وهو تذييل لِما قبله مبيِّن لقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران، ٣/٢٨]، بأنّ ذاته المقدّسة -المتميِّزة عن سائر الذوات المتّصفة بما لا يتّصِف به شيء منها مِن العِلم الذاتيّ المتعلِّق بجميع المعلومات- متّصفةٌ بالقدرة الذاتيّة الشاملة لجميع المقدورات بحيث لا يَخرُج مِن ملكوته شيءٌ قطّ.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: مِن النفوس المكلَّفة. ﴿مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾

---

[١] في هامش ط س ي: الفاضل الشريف والفاضل التفتازاني رحمهما الله تعالى ذكراه في شرح المفتاح. «منه». | انظر: شرح المفتاح للتفتازاني، ٢٨٨و؛ والمصباح في شرح المفتاح للشريف الجرجاني، ص ٧٣٠.

عندها بأمر الله تعالى. وفيه مِن التهويل ما ليس في "حاضرًا". ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ عطفٌ على ﴿مَا عَمِلَتْ﴾. والإحضار معتبَر فيه أيضًا، إلّا أنّه خُصّ بالذِكْر في الخير؛ للإشعار بكون الخير مرادًا بالذات، وكونِ إحضار الشرّ مِن مقتضَيات الحكمة التشريعيّة.

﴿تَوَدُّ﴾ عامل في الظرف، والمعنى: تودّ وتتمنّى يوم تَجِد صحائف أعمالها مِن الخير والشرّ أو أجزيتَها مُحضَرة. ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ﴾ أي: بين ذلك اليوم ﴿أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ لغاية هو له. وفي إسناد الودادة إلى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ -سواءٌ كان لها عملٌ سيّء أو لا؛ بل كانت متمحِّضة في الخير- مِن الدلالة على كمال فَظاعة[١] ذلك اليوم وهَول مَطلَعه ما لا يخفى. اللّٰهمّ إنّا نعوذ بك مِن ذلك.

ويجوز أن يكون انتصاب ﴿يَوْمَ﴾ على المفعوليّة بإضمار "اذكروا". و﴿تَوَدُّ﴾ إمّا حال مِن ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، أو استئناف مبنيّ على السؤال، أي: اذكروا يوم تَجِد كلّ نفس ما عملت مِن خير وشرّ مُحضَرًا وادّة أنّ بينها وبينه أمدًا بعيدًا. أو كأنّ سائلًا قال حين أُمِروا بذِكْر ذلك اليوم: فماذا يكون إذ ذاك؟ فقيل: تَودّ لو أنّ بينها... إلخ. أو ﴿تَجِدُ﴾ مقصور على ﴿مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ﴾، و﴿تَوَدُّ﴾ خبرُ ﴿مَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾. ولا تكون ﴿مَا﴾ شرطيّة؛ لارتفاع ﴿تَوَدُّ﴾. وقُرئ: "وَدَّتْ"،[٢] فحينئذ يجوز كونها شرطيّة. لكنّ الحَمْل على الخبر أَوقَع معنًى؛ لأنّها حكاية حال ماضية، وأَوفَقُ للقراءة المَشهورة.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ تكرير لِما سبق وإعادة له، لكن لا للتأكيد فقط؛ بل لإفادة ما يُفيده قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ مِن أنّ تحذيره تعالى مِن رأفته بهم ورحمته الواسعة، أو أنّ رأفته بهم لا تَمنَع تحقيق ما حذّرهموه[٣] مِن عقابه، وأنّ تحذيره ليس مَبنيًّا على تناسي[٤] صفة الرأفة؛ بل هو متحقِّق مع تحقّقها أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار، ٦/٨٢]. فالجملة على الأوّل اعتراض، وعلى الثاني حال. وتكرير الاسم الجليل لتربية المَهابة.

---

١ ي: فضاعة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ١/٢٧٠؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٥٥.

٣ س: حذرتموه.

٤ ي: تناهي.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١﴾

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ المحبّة: مَيل النفس إلى الشيء لكمال أدركَته فيه، بحيث يَحمِلها على ما يقرِّبها إليه. والعبد إذا عَلِم أنّ الكمال الحقيقيَّ ليس إلّا لله عزّ وجلّ، وأنّ كلّ ما يراه كمالًا مِن نفسه أو مِن غيره فهو مِن الله وبالله وإلى الله، لم يكن حبُّه إلّا لله وفي الله، وذلك يقتضي إرادة طاعته والرَّغبة فيما يُقرِّبه إليه، فلذلك فُسِّرت المحبّة بإرادة الطاعة وجُعِلت مستلزِمة لاتِّباع الرسول صلّى الله عليه وسلّم في عبادته والحرصِ على مطاوَعته.

﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يَرضَ عنكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي: يَكشِف الحُجُب عن قلوبكم بالتجاوز عمّا فرَط منكم، فيقرِّبكم مِن جناب عزِّه ويبوِّئكم في جوار قُدْسه. عُبِّر عنه بالمَحبّة بطريق الاستعارة أو المشاكَلة.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لمَن يَتحبّب إليه بطاعته ويتقرّب إليه باتّباع نبيّه صلّى الله عليه وسلّم، فهو تذييل مقرِّر لِما قبله مع زيادة وَعْد الرحمة. ووَضْع الاسم الجليل مَوضِع الضمير للإشعار باستتباع وصفِ الألوهيّة للمغفرة والرحمة. رُوي أنّها نزلت لمّا قالت اليهود: نحن أبناء الله وأحبّاؤه.[1] وقيل: نزلت في وَفْد نَجران لمّا قالوا: إنّا نعبد المَسيح حبًّا لله تعالى.[2] وقيل: في أقوام زعموا على عهده عليه الصلاة والسلام أنّهم يحبُّون الله تعالى فأُمِروا أن يجعلوا لقولهم مِصداقًا مِن العمل.[3]

[٩٢ظ] وروى الضحّاك / عن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[4] أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وَقَف على قريش وهم في المَسجِد الحرام يَسجدون للأصنام[5] وقد علّقوا عليها بَيض النَّعام وجعلوا في آذانها الشُّنوف، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

---

١ مَرويّ عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس. انظر: أسباب النزول للواحدي، ص ١٠٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢/٢٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٥٥.

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٥/٣٢٦؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ١٠٦؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٥٥.

٣ مَرويّ عن الحسن وابن جُريج. انظر: جامع البيان للطبري، ٥/٣٢٥-٣٢٦؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٢٧١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٥٥.

٤ ي - رضيَ الله عنهما.

٥ ي: الأصنام.

«يا معشر قريش، لقد خالفتم مِلّة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام»، فقالت قريش: «إنّما نعبدها حبًا لله تعالى ليُقرّبونا إلى الله زُلفى»، فقال الله تعالى لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ تعالى وتعبدون الأصنام لتُقرّبكم إليه ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾، أي: اتَّبعوا شريعتي وسُنّتي ﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ فأنا رسوله إليكم وحُجّته عليكم.[1]

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَ﴾ أطيعوا ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ أي: في جميع الأوامر والنواهي فيَدخلُ في ذلك الطاعةُ في اتّباعه عليه الصلاة والسلام دخولًا أوّليًا. وإيثار الإظهار على الإضمار بطريق الالتفات لتعيين حيثيّة الإطاعة والإشعار بعِلّتها، فإنّ الإطاعة المأمور بها إطاعته عليه الصلاة والسلام مِن حيث إنّه رسول الله، لا مِن حيث ذاتُه ولا ريب في أنّ عُنوان الرسالة مِن مُوجِبات الإطاعة ودواعيها.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ إمّا مِن تمام مَقول القول فهي صيغة المضارع المخاطَب، بحذف إحدى التاءين، أي: تتولّوا، وإمّا كلام متفرّع عليه مَسوق مِن جهته تعالى، فهي صيغة الماضي الغائب. وفي تَرْك ذِكْر احتمال الإطاعة -كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ﴾ [آل عمران، ٢٠/٣]- تلويح[2] إلى أنّه غير محتمَل منهم. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ نفيُ المَحبّة كناية عن بُغضه تعالى لهم وسُخطِه عليهم، أي: لا يرضى عنهم ولا يُثني عليهم. وإيثار الإظهار على الإضمار[3] لتعميم الحُكم لكلّ الكَفَرة والإشعار بعِلّته، فإنّ سُخطه تعالى عليهم بسبب كفرهم، والإيذانِ بأنّ التولّيَ عن الطاعة كفر وبأنّ مَحبّته عزّ وجلّ مخصوصة بالمؤمنين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لمّا بيّن الله عزّ وجلّ[4] أنّ الدِّين المَرضيّ عنده هو الإسلام والتوحيد، وأنّ اختلاف أهل الكتابَين فيه

---

[1] بلفظ قريب في أسباب النزول للواحدي، ص ١٠٥-١٠٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٧/٢. «منه».

[2] وفي هامش ي: بتضمين التلويح معنى الإشارة.

[3] ي - على الإضمار.

[4] ي: تعالى.

إنّما هو للبغي والحسد، وأنّ الفوز برضوانه ومغفرته ورحمته منوطٌ باتّباع الرسولِ صلّى الله عليه وسلّم[١] وطاعته؛ شرَعَ في تحقيق رسالته وكونِه مِن أهل بيت النبوّة القديمةِ، فبدأ ببيان جلالةِ أقدارِ الرسل عليهم السلام[٢] كافّةً، وأتبعه ذِكرَ مبدأ أمرِ عيسى عليه السلام وأمِّه وكيفيّةِ دعوته للناس إلى التوحيد[٣] والإسلام تحقيقًا للحقّ، وإبطالًا لِما عليه أهلُ الكتابَين في شأنهما مِن الإفراط والتفريط.

ثمّ بيّن بطلانَ مُحاجّتهم في إبراهيمَ عليه السلام،[٤] وادعائِهم الانتماءَ إلى مِلّته، ونزّه ساحتَه العليّة عمّا هم عليه مِن اليهوديّة والنصرانيّة.[٥] ثمّ نصّ على أنّ جميع الرسل عليهم السلام دعاةٌ إلى عبادة الله عزّ وجلّ[٦] وحدَه وطاعتِه، منزّهون عن احتمال الدعوة إلى عبادة أنفسِهم أو غيرِهم مِن الملائكة والنبيّين،[٧] وأنّ أممهم قاطبةً مأمورون بالإيمان بمَن جاءهم مِن رسولٍ مصدّقٍ لِما معهم[٨] تحقيقًا لوجوب الإيمان برسول الله صلّى الله عليه وسلّم[٩] وكتابه المصدِّق لِما بين يديه مِن التوراة والإنجيل، وتحتّمِ الطاعة له حسبما سيأتي تفصيله. وتخصيص آدمَ عليه السلام[١٠] بالذكر لأنّه أبو البشر، ومنشأ النبوّة. وكذا حال نوحٍ عليه السلام، فإنّه آدمُ[١١] الثاني.

وأمّا ذكرُ "آل إبراهيمَ" فلترغيب المعترفين باصطفائهم في الإيمان بنبوّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم،[١٢] واستمالتِهم نحوَ الاعترافِ باصطفائه بواسطة كونِه مِن زُمرتهم، مع ما مرّ مِن التنبيه على كونه عليه السلام عريقًا في النبوّة

---

١ ي: عليه السلام.

٢ ط: الصلاة والسلام.

٣ وفي هامش ط س ي: بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ الآيةَ [آل عمران، ٥١/٣]. «منه».

٤ وفي هامش ط س ي: بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآية [آل عمران، ٦٥/٣]. «منه».

٥ وفي هامش ط س ي: بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ الآية [آل عمران، ٦٧/٣]. «منه».

٦ ي: تعالى.

٧ وفي هامش ط س ي: بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾... إلى آخر الآيتين [آل عمران، ٧٩/٣-٨٠]. «منه».

٨ وفي هامش ط س ي: بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾... إلى آخر الآية [آل عمران، ٨١/٣]. «منه».

٩ ي: عليه السلام.

١٠ ي – عليه السلام

١١ ط + عليه السلام.

١٢ ي: عليه السلام.

مِن زمرة المصطفَيْنَ الأخيار. وأمّا ذكر "آلِ عمرانَ" مع اندراجهم في "آل إبراهيمَ" فلإظهار مزيدِ الاعتناء بتحقيق أمرِ عيسى عليه السلام؛ لكمال رسوخِ الخلاف في شأنه، فإنّ نسبة الاصطفاءِ إلى الأب الأقرب أدلُّ على تحقّقه في الآل، وهو الداعي إلى إضافة الآلِ إلى إبراهيمَ دون نوحٍ وآدمَ عليهم السلام. والاصطفاء: أخذُ ما صفا مِن الشيء، كالاستصفاء، مثّل به اختيارَه تعالى إيّاهم بالنفوس القدسيّة وما يَليق بها مِن المَلَكات الروحانيّةِ والكمالاتِ الجسمانيّة المستتبعةِ للرّسالة في نفس المصطفى، كما في كافّة الرسل عليهم السلام، أو فيمن يلابسه وينشأ منه، كما في مريمَ.

وقيل: اصطفى آدمَ عليه السلام بأن خلقه بيده في أحسنِ تقويمٍ، وبتعليم الأسماء، وإسجادِ الملائكة إياه، وإسكانِ الجنّة. واصطفى نوحًا عليه السلام بكونه أوّلَ مَن نسخ الشرائعَ؛ إذ لم يكن قبل ذلك تزويجُ المحارم حرامًا، وبإطالة عُمره، وجعْلِ ذرّيّته هم الباقين، واستجابةِ دعوتِه في حقّ الكفَرة والمؤمنين، وحملِه على متن الماء.

والمراد بـ﴿ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾: إسماعيلُ وإسحاقُ والأنبياءُ مِن أولادهما الذين مِن جملتهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وأمّا اصطفاء نفسِه عليه السلام فمفهوم مِن اصطفائهم بطريق الأولويّة. وعدمُ التصريح به للإيذان بالغنى عنه لكمال شهرةِ أمرِه في الخِلّة، وكونِه إمامَ الأنبياء وقدوةَ الرسل عليهم السلام، وكونِ اصطفاء آله بدعوته بقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ الآية [البقرة، ١٢٩/٢]، ولذلك قال عليه السلام: «أنا دعوةُ أبي[١] إبراهيمَ».[٢]

وبـ﴿ءَالَ عِمْرَٰنَ﴾: عيسى عليه السلام[٣] وأمُّه مريمُ ابنةُ عِمرانَ بنِ ماثانَ بنِ العاذار بن أبي هوذ بن ربّ بابل بن ساليان بن يوحيّا بن أوشا بن أموذر بن ميشك بن حارفا بن أحاد بن يونام بن عزريا بن يوزان بن ساقط بن إيشا بن راجعيم بن سليمانَ بنِ داودَ عليهما السلام ابن إيشا بن عويل بن سلمون بن

---

١ ط س - أبي.

٢ مسند الإمام أحمد، ٣٧٩/٢٨ (١٧١٥٠)؛ المستدرك للحاكم، ٤٥٣/٢ (٣٥٦٦).

٣ ط س - عليه السلام.

ياعر بن يحشون[١] بن عمياد بن دام بن حضروم بن فارض بن يهوذا بنِ يعقوبَ عليه السلام. وقيل: موسى وهارون عليهما السلام ابنا عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام، وبين العِمرانين ألفٌ وثمانمائة سنةٍ، فيكون اصطفاء عيسى عليه السلام حينئذ بالاندراج في آل إبراهيمَ عليه السلام، [٩٣و] والأوّل هو الأظهر، بدليل تعقيبه بقصّة مريمَ واصطفاءِ / موسى وهارون عليهما السلام بالانتظام في سلك آلِ إبراهيمَ عليه السلام انتظامًا ظاهرًا.

والمرادُ بـ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أهلُ زمان كلّ واحدٍ منهم، أي: اصطفى كلّ واحد منهم على عالَمي زمانه.

﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾

﴿ذُرِّيَّةًۢ﴾ نصب على البدليّة مِن "الآلَيْن"، أو على الحاليّة منهما. وقد مرّ بيان اشتقاقها في قوله تعالى:﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة، ٢/١٢٤].

وقوله تعالى: ﴿بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ في محلّ النصب على أنّه صفة لـ﴿ذُرِّيَّةًۢ﴾، أي: اصطفى الآلَيْن حالَ كونهم ذرّيةً متسلسلةً متشعّبةَ البعضِ مِن البعض في النسَب، كما ينبئ عنه التعرّضُ لكونهم ذرّيّة. وقيل: بعضُها مِن بعض في الدِّين. فالاستمالة على الوجه الأوّل تقريبيّة، وعلى الثاني برهانيّة.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال العباد، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمالهم البادية والخافية، فيصطفي مِن بينِهم لخِدمته مَنْ يظهر استقامتُه قولًا وفعلًا على نهج قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام، ٦/١٢٤]. والجملة تذييل مقرِّرٌ لمَضمون ما قبلها.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٥﴾

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ في حيّز النصب على المفعوليّة بفعل مقدّرٍ على طريقة الاستئنافِ؛ لتقرير اصطفاءِ آلِ عمرانَ، وبيانِ كيفيّته، أي: اذكر لهم وقت قولِها... إلخ.

---

١ ي: يحشو.

وقد مرّ مرارًا وجهُ توجيه التذكيرِ إلى الأوقات مع أنّ المقصود تذكير ما وقع فيها مِن الحوادث.[١]

وقيل: هو منصوب على الظرفيّة لِما قبله، أي: سميع لقولها المحكيّ، عليمٌ بضميرها المَنْويّ.

وقيل: هو ظرف لمعنى الاصطفاء المدلول عليه بـ﴿ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ المذكور، كأنّه قيل: واصطفى آلَ عمران إذ قالت... إلخ، فكان مِن عطف الجُمل على الجُمل، دون عطفِ المفردات على المفردات؛ ليلزَمَ كونُ اصطفاء الكلِّ في ذلك الوقت.

و﴿ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ﴾ هي حنّةُ بنتُ فاقوذ جدّةُ عيسى عليه السلام. وكانت لِعمرانَ بنِ يَصْهرَ بنتٌ اسمُها مريمُ أكبرُ مِن موسى وهارون عليهما السلام فظُنّ أنّ المراد زوجتُه، وليس بذلك،[٢] فإنّ قصّة كفالةِ زكريّا عليه السلام قاضيةٌ بأنّها زوجةُ عِمرانَ بنِ ماثانَ؛ لأنّه عليه السلام كان معاصرًا له، وقد تزوّج إيشاع أختَ حنّة أم يحيى عليه السلام. وأمّا قوله صلّى الله عليه وسلّم[٣] في شأن يحيى وعيسى عليهما السلام: «هما ابنا خالة»،[٤] فقيل: تأويله: أنّ الأخت كثيرًا ما تُطلق على بنت الأخت، وبهذا الاعتبار جُعِلا عليهما السلام ابنَي خالة. وقيل: كانت إيشاعُ أختَ حنّةَ مِن الأمّ، وأختَ مريمَ مِن الأب، على أنّ عِمرانَ نكحَ أوّلًا أمَّ حنّة، فولدت لهما إيشاع، ثمّ نكح حنّة بناءً على حِلّ نكاح الربائبِ في شريعتهم، فولدَتْ مريمَ فكانت إيشاعُ أختَ مريمَ مِن الأب وخالتَها مِن الأمّ؛ لأنّها أخت حنّة مِن الأمّ.

روي أنّها كانت عجوزًا عاقرًا، فبينما هي ذاتَ يوم في ظلّ شجرة إذ رأت طائرًا يُطعِم فرخَه فحنّت إلى الولد وتمنّته، وقالت:[٥] «اللّٰهمّ إنّ لك عليّ نذرًا إن رَزقتني ولدًا أن أتصدّق به على بيت المقدس فيكونَ مِن سَدَنته». وكان هذا النذرُ

---

[١] وفي هامش ط ي: وهو المبالغة في إيجاب ذكرها؛ لِما أنّ إيجابَ ذكر الوقت إيجابٌ لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني، ولأنّ الوقت مشتمل على ما وقع فيه مِن الحوادث، فإذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها كأنّها مشاهدة عيانًا. «منه».

[٢] ط: بذاك.

[٣] ي: عليه السلام.

[٤] صحيح البخاري، ١٦٣/٤ (٣٤٣٠)؛ صحيح ابن حِبّان، ٢٣٧/١ (٤٨).

[٥] ي: فقالت.

مشروعًا عندهم في الغِلمان، ثمّ هلك عِمران وهي حامل.[١] وحينئذ فقولها: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ لا بدّ مِن حمله على التكرير؛ لتأكيد نذرِها وإخراجِه عن صورة التعليق إلى هيئة التنجيز.

والتعرض لوصف الربوبيّة المنبِئة عن إفاضة ما فيه صلاحُ المَربوب مع الإضافة إلى ضميرها لتحريك سلسلة الإجابة، ولذلك قيل: إذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه فليدعُ الله بما يناسبه مِن أسمائه وصفاته.

وتأكيد الجملة لإبراز وفورِ الرغبة في مضمونها. وتقديم الجارّ والمجرور لكمال الاعتناءِ به. وإنّما عُبّر عن الولد بـ"ما" لإبهام أمرِه وقصورِه عن درجه العقلاء.

﴿مُحَرَّرًا﴾ أي: مُعْتقًا لخدمة بيتِ المقدس، لا يشغَلُه شأن آخر، أو مُخلَصًا للعبادة. ونصبُه على الحاليّة مِن الموصول، والعامل فيه ﴿نَذَرْتُ﴾. وقيل: مِن ضميره في الصلة، والعامل معنى الاستقرار، فإنّها في قوّة: ما استقرّ في بطني. ولا يخفى أنّ المراد تقييدُ فعلِها بالتحرير، ليحصُل به التقرّبُ إليه تعالى، لا تقييدُ ما لا دخلَ لها فيه مِن الاستقرار في بطنها.

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ أي: ما نذرتُه. والتقبُّل: أخذُ الشيء على وجه الرضى. وهذا في الحقيقة استدعاءٌ للولد؛ إذ لا يُتصوّر القَبولُ بدون تحقّق المقبول؛ بل للولد الذكَرِ؛ لعدم قَبول الأنثى.

﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ﴾ لجميع المسموعات التي مِن جملتها تضرّعي ودعائي. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكلّ المعلومات التي مِن زمرتها ما في ضميري لا غير، وهو تعليل لاستدعاء القَبول، لا مِن حيث إنّ كونه تعالى سميعًا لدعائها[٢] عليمًا بما في ضميرها مصحّحٌ للتقبّل في الجملة؛ بل مِن حيث إنّ علمَه تعالى بصحّة نيّتها وإخلاصِها مستدعٍ لذلك تفضّلًا وإحسانًا. وتأكيد الجملة لعرض قوّةِ يقينها بمضمونها، وقصرُ صفتَي السمعِ والعلم عليه تعالى لعرض اختصاص دعائها به تعالى وانقطاعِ حبل رجائها عمّا عداه بالكلّيّة مبالغةً في الضراعة والابتهال.

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤/٢.

٢ ط: لدعائه.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾

﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا﴾ أي: ما في بطنها. وتأنيث الضمير العائد إليه لِما أنّ المقام يستدعي ظهورَ[١] أنوثتِه، واعتبارَه في حيّز الشرط؛ إذ عليه يترتّب جوابُ "لمّا"، أعني: قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾، لا على وضع ولدٍ ما،[٢] كأنّه قيل: فلمّا وضعت بنتًا قالت... إلخ. وقيل: تأنيثُه لأنّ ما في بطنها كان أنثى في علم الله تعالى، أو لأنّه مئوّل بالحبَلة أو النفس أو النَّسَمة. وأنت خبير بأنّ اعتبارَ شيءٍ[٣] ممّا ذُكر في حيّز الشرط لا يكون مدارًا لترتّب الجواب عليه.

وقوله تعالى: ﴿أُنثَىٰ﴾ حال مؤكِّدة مِن الضمير أو بدلٌ منه، وتأنيثُه للمسارعة إلى عَرْض ما دَهمها[٤] مِن خيبة الرجاء، أو لِما مرّ مِن التأويل بالحبَلةِ أو النسَمة، فالحال حينئذ مبيِّنة. وإنّما قالته / تحزُّنًا وتحسّرًا على خيبة رجائِها وعكسِ تقديرِها؛ لِما كانت ترجو أن تلدَ ذكَرًا، ولذلك نذرَتْه محرّرًا للسِّدانة، والتأكيدُ للردّ على اعتقادها الباطل. [٩٣ظ]

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ تعظيم مِن جهته تعالى لموضوعها، وتفخيمٌ لشأنه، وتجهيلٌ لها بقدَره، أي: والله أعلم بالشيء الذي وضعتْه وما علِقَ به مِن عظائم الأمور، وجعلِه وابنه آية للعالمين، وهي غافلةٌ عن ذلك. والجملة اعتراضيّة. وقُرئ: "وَضَعْتِ"[٥] على خطاب الله تعالى لها، أي: إنّك لا تعلمين[٦] قدرَ هذا الموهوبِ، وما أودع الله فيه مِن علوّ الشأنِ وسموِّ المقدار. وقُرئ: "وَضَعْتُ"[٧] على صيغة التكلّم، مع الالتفات مِن الخطاب إلى الغَيبة؛ إظهارًا لغاية الإجلال، فيكون ذلك منها اعتذارًا لله[٨] تعالى؛ حيث أتت بمولود لا يصلُح لِما نذَرَته مِن السدانة،

---

١ س: ظهور.

٢ ي - ما.

٣ ي: الشيء.

٤ ط س: دهمه.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٠.

٦ ط: لا تعلمن.

٧ قرأ بها ابن عامر ويعقوب وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٩.

٨ ي: اعتذار إلى الله.

أو تسليةً لنفسها على معنى: لعلّ لله تعالى فيه سرًّا وحكمة، ولعلّ هذه الأنثى خيرٌ مِن الذكر، فوَجهُ الالتفاتِ[1] ظاهر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ اعتراض آخرُ مبيِّن لِما في الأوّل مِن تعظيم الموضوعِ ورفع منزلتِه. واللامُ في "الذكَر" و"الأنثى" للعهد، أي: ليس الذكَر الذي كانت تطلُبه وتتخيّل فيه كمالًا قُصاراه أن يكون كواحد مِن السَّدَنة كالأنثى التي وُهِبتْ لها، فإنّ دائرةَ علمِها وأمنيّتها لا تكاد تُحيط بما فيها مِن جلائل الأمور. هذا على القراءتين الأُولَيَيْن وأمّا على التفسير الأخير للقراءة الأخيرة فمعناه: وليس الذكَر كهذه الأنثى في الفضيلة؛ بل أدنى منها. وأمّا على التفسير الأوّل لها فمعناه: تأكيدُ الاعتذارِ ببيان أنّ الذكَر ليس كالأنثى في الفضيلة والمزيّة وصلاحيةِ خدمة المتعبّدات، فإنّهنّ بمَعزِل مِن ذلك، فاللامُ للجنس.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ عطفٌ على ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، وغرَضُها مِن عَرْضها على علّام الغيوب التقرّبُ إليه تعالى، واستدعاءُ العِصمة لها، فإنّ مريمَ في لغتهم بمعنى: العابدة. قال القرطبي: «معناه خادمُ الربّ»،[2] وإظهارُ أنّها غيرُ راجعة عن[3] نيّتها وإن كان ما وضعته أنثى، وأنّها إن لم تكن خليقةً بسَدانة بيت المقدس فلتكنْ مِن العابدات فيه.

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ عطفٌ على ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا﴾، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، أي: أُجيرُها بحفظك. وقُرئ بفتح ياء المتكلّم في المواضع التي بعدها همزةٌ مضمومة إلّا في موضعين: ﴿بِعَهْدِيٓ أُوفِ﴾ [البقرة، ٢/٤٠]، ﴿ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ﴾ [الكهف، ١٨/٩٦].[4]

﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ عطفٌ على الضمير، وتقديمُ الجارّ والمجرور عليه لإبراز كمالِ العناية به.

---

[1] ط ي + حينئذ.

[2] تفسير القرطبي، ٦٨/٤.

[3] ي: في.

[4] قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ١٦٩/٢.

﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أي: المطرود، وأصلُ الرجم: الرميُ بالحجارة. عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:[١] «ما مِن مولودٍ يولد إلّا والشيطانُ يَمَسّه حين يولد، فيستهِلُّ صارخًا مِن مسّه إلّا مريمَ وابنَها»،[٢] ومعناه: أنّ الشيطان يطمع في إغواء كلِّ مولود بحيث يتأثّر منه إلّا مريم وابنها، فإنّ الله تعالى عصَمَهما ببركة هذه الاستعاذة.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾

﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ أي: أخذ مريمَ ورضيَ بها في النذر مكانَ الذَّكَر. ﴿رَبُّهَا﴾ مالكها ومبلِّغها إلى كمالها اللائق، وفيه مِن تشريفها ما لا يخفى.

﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ قيل: الباء زائدة، و"القَبول": مصدر مؤكِّد للفعل السابق بحذف الزوائد، أي: تقبّلها قَبولًا حسنًا، وإنّما عدَلَ عن الظاهر للإيذان بمقارنة التقبُّل لكمال الرضى، وموافقتِه للعناية الذاتيّة، فإنّ صيغة التفعّل مُشعِرةٌ بحسب أصل الوضعِ بالتكلّف، وكونِ الفعل على خلاف طبع الفاعل، وإن كان المراد بها في حقّه تعالى ما يترتّب عليه مِن كمال قوّةِ الفعل وكثرتِه.

وقيل: "القبول": ما يقبل به الشيء، كالسَّعوط[٣] واللَّدود[٤] لِما يُسعَط به ويُلَدّ. وهو اختصاصه تعالى إيّاها بإقامتها مُقام الذكَر في النَّذر، ولم تُقبلْ قبلها أنثى، أو بأن تُسلِّمها مِن أمّها عَقيبَ الوِلادة قبل أن تنشأ وتصلُحَ للسدانة.

رُوي أنّ حنّة حين وَلدتها لفّتها في خِرقة، وحملتْها إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار أبناءِ هارونَ، وهم في بيت المقدس كالحَجَبة في الكعبة، فقالت لهم:

---

١ ي: عليه السلام.

٢ صحيح البخاري، ١٦٤/٤ (٣٤٣١)؛ صحيح مسلم، ١٨٣٨/٤ (٢٣٦٦).

٣ السَّعوطُ: الدواءُ يُصَبّ في الأنف. الصحاح للجوهري، «سعط».

٤ اللَّدود: هو ما يُصبّ مِن الأدوية في أحد شِقّي الفم. الصحاح للجوهري، «لدد».

«دونكم هذه النَّذيرة، فتنافسوا فيها»؛ لأنّها كانت بنتَ إمامِهم، وصاحبِ قُربانهم، فإنّ بني ماثانَ كانت رءوسَ بني إسرائيلَ وملوكَهم. وقيل: لأنّهم وجدوا أمرَها وأمرَ عيسى عليه السلام في الكتب الإلهيّة، فقال زكريّا عليه السلام: «أنا أحقُّ بها، عندي خالتُها»، فأبَوا إلّا القُرْعة، وكانوا سبعةً وعشرين، فانطلقوا إلى نهر فألقَوْا فيه أقلامَهم، فطفا قلمُ زكريّا عليه السلام، ورسَبَ أقلامُهم، فتكفّلها.[١]

وقيل: هو مصدر، وفيه مضاف مقدّر، أي: فتقبّلها بذي قبولٍ، أي: بأمرٍ ذي قَبول حسن.

وقيل: "تقبّل" بمعنى: استقبل، كتقصَّى بمعنى استقصى، وتعجَّل بمعنى استعجل، أي: استقبلها في أوّل أمرِها حين وُلدت بقَبول حسن.

﴿وَأَنۢبَتَهَا﴾ مجاز عن تربيتها بما يُصلِحها في جميع أحوالها، ﴿نَبَاتًا حَسَنًا﴾ مصدر مؤكِّد للفعل المذكور بحذف الزوائد. وقيل: بل لفعل مضمَر موافقٍ له، تقديرُه: فنبت نباتًا حسنًا.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي: جعله عليه السلام كافلًا لها، وضامنًا لمصالحها، قائمًا بتدبير أمورِها، لا على طريقة الوحي؛ بل على ما ذُكر مِن التفصيل، فإنّ رغبته عليه السلام في كفالتها وطُفوَّ قلمِه ورسوبَ أقلامِهم وغيرَ ذلك مِن الأمور الجارية بينهم كلُّها مِن آثار قدرته تعالى. وقُرئ: "أَكْفَلَهَا"،[٢] وقُرئ: "زَكَرِيَّاءَ" بالنصب والمدّ،[٣] وقُرئ بتخفيف الفاء وكسرِها ورفع "زَكَرِيَّاءُ" ممدودًا.[٤] وقُرئ: "فَتَقَبَّلْهَا[٥] رَبَّهَا" و"أَنْبِتْهَا" و"كَفِّلْهَا" على صيغة الأمر في الكلّ ونصبِ "رَبَّهَا" على الدعاء،[٦] أي: فاقبلها يا ربَّها وربِّها تربيةً حسنةً، واجعلْ زكريّا كافلًا لها، فهو تعيين لجهة التربية.

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٣٨٦/١. ونحوه مسندًا عن عكرمة في جامع البيان للطبري، ٣٥٠/٥.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١١.

[٣] وهي رواية شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢٣٩/٢.

[٤] قرأ بها كلٌّ مِن نافع وأبي جعفر وابن كثير وأبي عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٣٩/٢.

[٥] ط: فتقبلها.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٦.

قيل: بنَى عليه السلام لها مِحرابًا في المسجد، أي: غرفةً يُصعَد إليها بسُلّم، وقيل: المحرابُ أشرفُ المجالس ومُقدَّمُها، كأنّها وضِعت في أشرف موضعٍ مِن بيت المقدس. وقيل: كانت مساجدُهم تسمّى المحاريب.

رُوي أنّه كان لا يدخل عليها إلّا هو وحده، / وإذا خرج غلّق عليها سبعة أبواب.[١] [٩٤و]

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ تقديم الظرف على الفاعل لإظهار كمالِ العناية بأمرِها، ونصبُ ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾ على التوسّع، وكلمة ﴿كُلَّمَا﴾ ظرف على أنّ "ما" مصدريّة، والزمان محذوف، أو نكرةٌ موصوفة معناها: الوقتُ، والعائد محذوف، والعامل فيها جوابها، أي: كلَّ زمانِ دخولِه عليها، أو كلَّ وقتٍ دخل عليها فيه ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ أي: نوعًا منه غيرَ معتاد؛ إذ كان ينزل ذلك مِن الجنّة، وكان يجد عندها في الصيف فاكهةَ الشتاء، وفي الشتاء فاكهةَ الصيف، ولم ترضَعْ ثديًا قطّ.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قال زكريّا عليه السلام عند مشاهدةِ هذه الآية؟ فقيل: قال: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أي: مِن أين يجيء لكِ هذا الذي لا يُشبه أرزاقَ الدنيا والأبوابُ مغلَقةٌ دونك؟ وهو دليل على جواز الكرامةِ للأولياء، ومَن أنكرها جعلَ هذا إرهاصًا وتأسيسًا لرسالة عيسى عليه السلام. وأمّا جعلُه معجزةً لزكريّا عليه السلام فيأباه اشتباهُ الأمر عليه، وإنّما خاطبها عليه السلام بذلك مع كونها بمَعزِل مِن رتبة الخطاب لِما علم بما شاهده أنّها مؤيَّدة مِن عند الله تعالى بالعلم والقدرة.

﴿قَالَتْ﴾ استئناف كما قبله، كأنّه قيل: فماذا صنعت مريمُ وهي صغيرة لا قدرةَ لها على فهم السؤال وردِّ الجواب؟ فقيل: قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، فلا تعجبْ ولا تستبعد، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يرزُقَه ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير تقدير لكثرته، أو بغير استحقاق تفضّلًا منه تعالى. وهو تعليل لكونه مِن عند الله، إمّا مِن تمام كلامِها، فيكونُ في محلّ النصب، وإمّا مِن كلامه عزّ وجلّ، فهو مستأنَف.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٨/١؛ وهو بسنده عن الربيع في جامع البيان للطبري، ٣٥٦/٥.

روي أنّ فاطمةَ الزهراءَ رضي الله تعالى عنها أهدَت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رغيفين وبضعةَ لحم، فرجع بها إليها، فقال: «هلُمّي يا بنيّة»، فكشف عن الطبَق، فإذا هو مملوء خبزًا ولحمًا، فقال لها: «أنّى لكِ هذا؟»، قالت: «هو مِن عند الله، إنّ الله يرزق مَن يشاء بغير حساب»، فقال عليه السلام: «الحمدُ لله الذي جعلك شبيهةَ سيّدةِ بني إسرائيل»، ثمّ جمَع عليًا والحسَنَ والحسينَ رضي الله عنهم[1] وجميعَ أهلِ بيته، فأكلوا وشبِعوا، وبقي الطعام كما هو، فأوسعت على جيرانها.[2]

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾

﴿هُنَالِكَ﴾ كلام مستأنَف، وقصة مستقلّة، سيقت في تضاعيف حكايةِ مريمَ؛ لِما بينهما مِن قوّة الارتباطِ وشدّةِ الاشتباك مع ما في إيرادها مِن تقرير ما سيقت له حكايتُها مِن بيان اصطفاءِ آل عمران، فإنّ فضائل بعض الأقرباء أدلّةٌ على فضائل الآخَرين. و"هنا" ظرف مكانٍ، واللام للدلالة على البُعد، والكاف للخطاب، أي: في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريمَ في المحراب، أو في ذلك الوقت؛ إذ يستعار "هنا" و"ثمّة" و"حيث" للزمان.

﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ لمّا رآى كرامةَ مريمَ على الله تعالى ومنزلتَها منه تعالى رغِب في أن يكون له مِن إيشاعَ ولدٌ مثلُ ولدِ حنّةَ في النجابة والكرامة على الله تعالى، وإن كانت عاقِرًا عجوزًا فقد كانت حنّة كذلك. وقيل: لمّا رأى الفواكهَ في غير إبّانِها تنبّه لجواز وِلادةِ العجوز العاقرِ مِن الشيخ الفاني، فأقبل على الدعاء مِن غير تأخير، كما يُنبئ عنه تقديمُ الظرف على الفعل، لا على معنى أنّ ذلك كان هو الموجِبَ للإقبال على الدعاء فقط؛ بل كان جزءًا أخيرًا مِن العِلّة التامّة التي مِن جملتها كِبَرُ سِنّه عليه السلام، وضَعفُ قواه، وخوفُ مَواليه، حسبما فُصّل في سورة مريم.[3]

---

[1] ط: رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

[2] بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٣٥٨/١؛ وهو بإسناده في الكشف والبيان للثعلبي، ٥٧/٣؛ وقال السيوطي: أخرجه أبو يعلى عن جابر. انظر: الدرّ المنثور للسيوطي، ١٨٦/٢.

[3] انظر: تفسير سورة مريم، الآيات ٤-٦.

﴿قَالَ﴾ تفسير للدعاء، وبيان لكيفيّته، لا محلّ له مِن الإعراب. ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ كلا الجارَّين متعلِّق بـ﴿هَبْ﴾؛ لاختلاف معنيَيهما، فاللام صِلة له، و﴿مِن﴾ لابتداء الغايةِ مجازًا، أي: أعطني مِن مَحْض قدرتِك مِن غير وسطٍ معتاد ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كما وهبتَها لحنّةَ. ويجوز أن يتعلّق ﴿مِن﴾ بمحذوفٍ وقع حالًا مِن ﴿ذُرِّيَّةً﴾، أي: كائنة مِن لدنك. و"الذرّيّة": النسلُ، تقع على الواحد والجمع، والذكر والأنثى. والمراد ههنا ولد واحد، فالتأنيث في الصفة لتأنيث لفظ الموصوف، كما في قول مَن قال:

أبـــوكَ خـليـفـةٌ ولَـدتْـه أُخـرَى   وأنـــتَ خـلـيـفـةٌ، ذاكَ الـكـمـالُ[1]

وهذا إذا لم يُقصَدْ به واحد معيّن، أمّا إذا قُصد به المعيَّن امتنع اعتبار اللفظ، نحو: طلحة وحمزة، فلا يجوز أن يقال: جاءت طلحة، وذهبت حمزة.

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: مجيبُه، وهو تعليل لِما قبله، وتحريك لسلسلة الإجابة.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ كان المنادي جبريل عليه السلام، كما يُفصح عنه قراءةُ مَن قرأ: "فناداهُ جِبريلُ".[2] والجمع كما في قولهم: فلان يركب الخيلَ ويلبَس الثياب وما له غيرُ فرس وثوب. قال الزجّاج: «أي: أتاه النداءُ مِن هذا الجنس»؛[3] الذين هم الملائكة. وقيل: لمّا كان جبريل عليه السلام رئيسَهم عَبّر عنه باسم الجماعة تعظيمًا له. وقيل: الرئيس لا بدّ له مِن أتباع، فأسند النداء إلى الكلّ، مع كونه صادرًا عنه خاصّة. وقُرِئ: "فَنَادَاهُ" بالإمالة.[4]

﴿وَهُوَ قَآئِمٌ﴾ جملة حاليّة مِن مفعول النداء مقرِّرةٌ لِما أفاده الفاءُ مِن حصول البِشارة عَقيب الدعاء. وقوله تعالى: ﴿يُصَلِّى﴾ إمّا صفة لـ﴿قَآئِمٌ﴾، أو خبر ثانٍ

---

[1] أنشده الفرّاء كما في الصحاح للجوهري، «خلف»؛ ولسان العرب لابن منظور، «خلف».
[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: جامع البيان للطبري، ٦/٣٦٤.
[3] معاني القرآن للزجّاج، ١/٤٠٥.
[4] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٩.

عند مَن يرى تعدّدَه عند كون الثاني جملةً، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه، ٢٠/٢٠]، أو حال أخرى منه على القول بتعدّدها بلا عطف ولا بدليّة، أو حال مِن المستكِنّ في ﴿قَآئِمٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي: في المسجد، أو في غرفة مريمَ، متعلّق بـ﴿يُصَلِّي﴾ أو بـ﴿قَآئِمٌ﴾ على تقدير كونِ ﴿يُصَلِّي﴾ حالًا مِن ضمير ﴿قَآئِمٌ﴾؛ لأنّ العامل فيه وفي الحال حينئذ شيء واحد، فلا يلزَم الفصل بالأجنبيّ كما يلزَم على التقادير الباقية.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ أي: بأنّ الله، وقُرئ بكسر الهمزة[١] على تقدير القول أو إجراء النداء مُجراه؛ لكونه نوعًا منه. وقُرئ: "يُبْشِرُكَ"[٢] مِن الإبشار، و"يَبْشُرُكَ"[٣] مِن الثلاثيّ. وأيًا ما كان ينبغي أن يكون هذا الكلام إلى آخره / محكيًا بعبارته [٩٤ظ] مِن الله[٤] عزّ وجلّ على منهاج قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الزمر، ٥٣/٣٩]، كما يلوّح به مراجعته عليه السلام في الجواب إليه تعالى بالذات لا بواسطة الملك.

والعدولُ عن إسناد التبشير إلى نون العظمة حسبما وقع في سورة مريم؛[٥] للجري على سنَنِ الكبرياء، كما في قول الخلفاء: أميرُ المؤمنين يرسُم لك كذا، وللإيذان بأنّ ما حُكي هناك مِن النداء والتبشير وما يترتّب عليه مِن المحاورة كان كلّ ذلك بتوسّط الملَك بطريق الحِكاية منه سبحانه، لا بالذات كما هو المتبادَر، وبهذا يتّضح اتّحادُ المعنى في السورتين الكريمتين، فتأمّل. و"يَحيى" اسم أعجميّ، وإن جعل عربيًا فمنعُ صرفه للتعريف ووزنِ الفعل.

رُوي عن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما: «إنّما سُمّي يحيى لأنّ[٦] الله[٧] تعالى أحيى به عُقرَ أمّه».[٨] وقال قتادة: «لأنّه تعالى أحيى قلبه بالإيمان».[٩]

---

١ قرأ بها ابن عامر وحمزة. النشر لابن الجزري، ٢٣٩/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحميد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١١.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٣٩/٢.

٤ ي – مِن الله.

٥ في قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم، ٧/١٩].

٦ ي: لأنّه.

٧ ي – الله.

٨ الكشف والبيان للثعلبي، ٦٢/٣.

٩ الكشف والبيان للثعلبي، ٦٢/٣.

قال القرطبي: «كان اسمه في الكتاب الأوّل حيّا».[١] ولا بدّ مِن تقدير مضافٍ يقود إليه الحالُ، أي: بوِلادة يحيى، فإنّ التبشير لا يتعلّق بالأعيان.

﴿مُصَدِّقًا﴾ حال مقدّرة مِن يحيى. ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بعيسى عليه السلام، وإنّما سمّي "كلمةً"؛ لأنّه وجد بكلمة "كن"، مِن غير أبٍ، فشابه البديعيّات التي هي عالم الأمر. و﴿مِن﴾ لابتداء الغاية مجازًا، متعلّقةٌ بمحذوف وقع صفة لـ"كلمة"، أي: بكلمة كائنة منه تعالى. قيل: هو أوّل مَن آمن به، وصدّق بأنّه كلمة الله ورُوحٌ منه.

وقال السُّدّي: «لقِيَتْ أمُّ يحيى أمَّ عيسى، فقالت: "يا مريم أشَعرتِ بحبَلي؟" فقالت مريم: "وأنا أيضًا حُبلى"، قالت: "فإنّي وجدتُ ما في بطني يسجد لِما في بطنك"، فذلك قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ﴾... إلخ».[٢] وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إنّ يحيى كان أكبرَ مِن عيسى عليهما السلام بستّة أشهرٍ»،[٣] وقيل: بثلاث سنين، وقيل: قبل رفعِ عيسى عليه[٤] السلام بمدّة يسيرةٍ، وعلى كلّ تقديرٍ يكون بين وِلادة يحيى وبين البِشارة بها زمان مديد؛ لِما أنّ مريمَ ولَدت وهي بنتُ ثلاثَ عشرةَ سنةً، أو بنتُ عشرِ سنين. وقيل: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بكتابِ الله، سمّي "كلمةً" كما قيل: "كلمة الحُوَيدرة" لقصيدته.[٥]

﴿وَسَيِّدًا﴾ عطفٌ على ﴿مُصَدِّقًا﴾، أي: رئيسًا يسود قومَه ويفوقهم في الشرف، وكان فائقًا للناس قاطبةً، فإنّه لم يُلِمَّ بخطيئة، ولم يَهُمَّ بمعصية، فيا لها مِن سِيادة ما أسناها!

﴿وَحَصُورًا﴾ عطفٌ على ما قبله، أي: مبالِغًا في حصر النفس وحبسِها عن الشهوات مع القدرة. روي أنّه مرّ في صِباه بصبيان فدعَوْه إلى اللعب، فقال: «ما لِلّعب خُلقتُ».[٦]

---

١ تفسير القرطبي، ٧٥/٤.

٢ جامع البيان للطبري، ٣٧٣/٥، بسنده إلى السدّي.

٣ تفسير الرازي، ٢١١/٨؛ وأخرجه الطبري بسنده دون قوله: «بستّة أشهر». انظر: جامع البيان للطبري، ٣٧٢/٥.

٤ ي: عليهما.

٥ روي أنّ الحُويدرة ذُكِر لحسّان، فقال: "لعَن الله كلمتَه"، أي: قصيدتَه. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٣١/٣. والحُوَيدرة لقب شاعر جاهليّ اسمه قُطبة بن الحصين الغطفاني. انظر: تاج العروس للزبيدي، «حدر».

٦ جامع البيان للطبري، ٤٧٤/١٥ (مريم، ١٢/١٩).

﴿وَنَبِيًّا﴾ عطفٌ على ما قبله، مترتِّب على ما عُدِّد مِن الخصال الحميدة.

﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: ناشئًا منهم؛ لأنّه كان مِن أصلاب الأنبياء عليهم السلام، أو كائنًا مِن جملة المشهورين بالصلاح، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة، ١٣٠/٢]. والمراد بالصلاح ما فوق الصلاحِ الذي لا بدّ منه في منصِب النبوّة البتّة مِن أقاصي مراتبه، وعليه مبنيٌّ دعاءُ سليمانَ عليه السلام: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل، ١٩/٢٧].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قال زكريّا عليه السلام حينئذ؟ فقيل: قال: ﴿رَبِّ﴾، لم يخاطِب الملَكَ المناديَ له بملابسة أنّه المباشرُ للخطاب، وإن كان ذلك بطريق الحكاية عنه تعالى؛ بل جرى على نهجِ دعائه السابق مبالغةً في التضرّع والمناجاة، وجِدًّا في التبتّل إليه تعالى، واحترازًا عمّا عسى يوهم خطابُ الملَكِ مِن توهّم أن علمه سبحانه بما يصدُر عنه يتوقّف على توسّطه كما يتوقّف وقوفُ البشر على ما يصدر عنه سبحانه على توسّطه في عامّة الأحوال، وإن لم يتوقّف عليه[١] في بعضها.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ فيه دلالة على أنّه قد أُخبِر بكونه غلامًا عند التبشير، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [مريم، ٧/١٩]، و﴿أَنَّىٰ﴾ بمعنى: كيف، أو "مِن أين"، و"كان" تامّةٌ، و﴿أَنَّىٰ﴾ واللام متعلّقتان بها، وتقديمُ الجارِّ على الفاعل لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بما قُدِّم، والتشويقِ إلى ما أُخّر، أي: كيف -أو مِن أين- يحدُث لي غلام؟ ويجوز أن يتعلّق اللامُ بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿غُلَٰمٌ﴾؛ إذ لو تأخّر لكان صفة له. أو ناقصةٌ[٢] واسمها ظاهرٌ، وخبرها إمّا ﴿أَنَّىٰ﴾، واللام متعلِّقة بمحذوف كما مرّ، أو هو الخبر، و﴿أَنَّىٰ﴾ منصوب على الظرفيّة.

---

[١] ط - عليه.
[٢] السياق: "كان" تامّة... أو ناقصة...

﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ حال مِن ياء المتكلِّم، أي: أدركَني كِبَرُ السِّنِّ وأثَّر فيَّ، كقولهم: أدركَته السِّنُّ، وأخذَته السِّنّ. وفيه دلالة على أنّ كِبَر السِّنّ مِن حيث كونُه مِن طلائع الموت طالبٌ للإنسان لا يكاد يتركه. قيل: كان له تسعٌ وتسعون سنةً. وقيل: اثنتان وتسعون. وقيل: مائة وعشرون. وقيل: ستّون. وقيل: خمس وستّون. وقيل: سبعون. وقيل: خمس وسبعون. وقيل: خمس وثمانون، ولامرأته ثمانٍ وتسعون.

﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ أي: ذاتُ عُقرٍ، وهو أيضًا حال مِن ياء ﴿لِي﴾ عند مَن يجوّز تعدّد الحال، أو مِن ياء ﴿بَلَغَنِيَ﴾، أي: كيف يكون لي ذلك والحال أنّي وامرأتي على حالةٍ[١] منافيةٍ له كلَّ المنافاة؟ وإنّما قاله عليه السلام مع سبق دعائه بذلك وقوّة يقينه بقدرة الله تعالى عليه[٢] لا سيّما بعد مشاهدته عليه السلام للشواهد السالفة استعظامًا لقدرة الله سبحانه، وتعجيبًا منها، واعتدادًا بنعمته عزّ وجلّ[٣] عليه في ذلك، لا استبعادًا له. وقيل:[٤] بل كان ذلك للاستبعاد حيث كان بين الدعاء والبِشارة ستّون سنةً،[٥] وكان قد نسِيَ دعاءَه، وهو بعيد. وقيل: كان ذلك استفهامًا عن كيفيّة حدوثه.

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سلف، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر ﴿يَفْعَلُ﴾ في قوله عزّ وجلّ:[٦] ﴿ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: ما يشاء أن يفعلَه مِن تعاجيب الأفاعيل الخارقةِ للعادات. فـ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، و﴿يَفْعَلُ﴾ خبره، والكاف في محلّ / النصب على أنّها [٩٥و] في الأصل نعتٌ لمصدر محذوف، أي: الله يفعل ما يشاء أن يفعله فعلًا مثلَ ذلك الفعل العجيبِ، والصنعِ البديعِ، الذي هو خلقُ الولد مِن شيخٍ فانٍ وعجوزٍ عاقر، فقُدِّم على العامل لإفادة القصر بالنسبة إلى ما هو أدنى مِن المشار إليه.

واعتبرت الكافُ مقحَمةً؛ لتأكيد ما أفاده اسمُ الإشارة مِن الفخامة، وقد مرّ تحقيقه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة، ٢/١٤٣]،

---

١ ي: حال.
٢ ي - عليه.
٣ ي: تعالى.
٤ وفي هامش س ي: وهو قول الحسَن وابن كَيسان «منه».
٥ قال أبو حيّان: «نقل عن سفيان». **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣/١٣٥.
٦ ي: تعالى.

أو على أنّها حال مِن ضمير المصدرِ المقدّر معرِفة، أي: يفعل الفعل كائنًا مثل ذلك، أو في محلّ الرفع على أنّها خبر والجلالة مبتدأ، أي: على نحو هذا الشأن البديع شأنُ الله تعالى، و﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ بيان لذلك الشأن المبهَم، أو ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ بيان له.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ أي: علامة تدلّني على تحقّق المسئول، ووقوعِ الحبَل. وإنّما سألها لأنّ العُلوق أمرٌ خفيّ، لا يوقَف عليه، فأراد أن يُطلعه الله تعالى عليه؛ ليتلقّى تلك النعمةَ الجليلة مِن حين حصولِها بالشكر، ولا يؤخِّرَه إلى أن يظهر ظهورًا معتادًا.

ولعلّ هذا السؤالَ وقع بعد البِشارة بزمانٍ مديد؛ إذ به يظهر ما ذُكر مِن كون التفاوت بين سِنَّي يحيى وعيسى عليهما السلام بستّة أشهر، أو بثلاثِ سنينَ؛ لأنّ ظهورَ العلامة كان عَقيبَ تعيينها؛ لقوله تعالى في سورة مريم: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ الآيةَ [مريم، ١١/١٩]، اللّهمّ إلّا أن يكونَ المجاوَبةُ بين زكريّا ومريمَ في حالة كِبَرها، وقد عُدّت مِن جملة مَن تكلّم في الصِّغر بموجب قولها المحكيّ، والجعلُ إبداعيّ، واللام متعلِّقة به، والتقديم لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بما قدّم، والتشويق إلى ما أُخّر، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿ءَايَةً﴾. وقيل: هو بمعنى التصيير المستدعي لمفعولين؛ أوّلُهما ﴿ءَايَةً﴾، وثانيهما ﴿لِّيٓ﴾، والتقديم لأنّه لا مسوّغ لكون ﴿ءَايَةً﴾ مبتدأً عند انحلال الجملة إلى مبتدأ وخبر سوى تقديم الجارّ، فلا يتغيّر حالهما بعد دخول الناسخ.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أن لا تقدر على تكليمهم ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي: متوالية؛ لقوله تعالى في سورة مريم: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم، ١٠/١٩]، مع القدرة على الذكر والتسبيح. وإنّما جُعلت آيتُه ذلك لتخليص المدّة لذكر الله تعالى وشكره قضاءً لحقّ النعمة، كأنّه قيل: آيةُ حصولِ المطلوب ووصول النعمة أن تحبِسَ لسانك إلّا عن شكرها، وأحسنُ الجواب ما اشتقّ مِن السؤال.

﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: إشارةً بيدٍ أو رأس أو نحوِهما، وأصلُه التحرّكُ، يقال: ارتمزَ،[١] أي: تحرّك، ومنه قيل للبحر: الراموز. وهو استثناء منقطعٌ؛ لأنّ الإشارة ليست مِن قبيل الكلام، أو متّصلٌ على أنّ المراد بالكلام ما فهم منه المرام، ولا ريب في كون الرمز مِن ذاك القبيل. وقُرئ: "رَمَزًا" بفتحتين[٢] على أنّه جمع رَامِز، كخَدَم، وبضمّتين[٣] على أنّه جمع رَمُوز، كرُسُل، على أنّه حال منه ومِن ﴿ٱلنَّاسَ﴾ معًا، بمعنى: مترامزين، كقوله:

متَى[٤] ما[٥] تلْقَني فردَيْنِ تَرجُف رَوانِفُ أَلْيَتَيكَ وتُستطارا[٦]

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ أي: في أيام الحبسة شكرًا لحصول التفضُّل والإنعام، كما يُؤذِن به التعرّضُ لعنوان الربوبيّة. ﴿كَثِيرًا﴾ أي: ذكرًا كثيرًا، أو زمانًا كثيرًا. ﴿وَسَبِّحْ﴾ أي: سبّحه تعالى، أو افعل التسبيحَ. ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ أي: مِن الزوال إلى الغروب، وقيل: مِن العصر إلى ذهاب صدر الليل. ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ مِن طلوع الفجرِ إلى الضحى. قيل: المرادُ بـ"التسبيح": الصلاةُ؛ بدليل تقييده بالوقت، كما في قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم، ١٧/٣٠]، وقيل: الذِكر اللّسانيّ، كما أنّ المراد بالذِّكر: الذِّكرُ القلبيّ، وقُرئ: "الأَبْكَارِ" بفتح الهمزة،[٧] على أنّه جمعُ "بِكر"، كسِحرٍ وأسحارٍ.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ شروع في شرح بقيّةِ أحكامِ اصطفاء آلِ عمران إثرَ الإشارة إلى نُبَذٍ مِن فضائل بعضِ أقاربهم، أعني: زكريّا ويحيى عليهما السلام؛ لاستدعاء المقامِ إيّاها حسبما أشير إليه، وقُرئ بتذكير الفعل.[٨]

---

١ ي: ايرتمز.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن والأعمش وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٢.

٤ ي: متيما.

٥ ي - ما.

٦ لعنترة في لسان العرب لابن منظور، «طير»؛ وأساس البلاغة للزمخشري، «رنف».

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٢.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمر وابن مسعود رضي الله عنهم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٢.

والمرادُ بـ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ جبريلُ عليه السلام، وقد مرّ ما فيه مِن الكلام.[١] و﴿إِذْ﴾ منصوب بمضمَر معطوفٍ على المضمَر السابق عطفَ القِصّة على القصّة، وقيل: معطوف على الظرف السابق، أعني: قولَه تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ [آل عمران، ٣٥/٣]، منصوب بناصِبه، فتدبّرْ، أي: واذكر أيضًا مِن شواهد اصطفائِهم وقتَ قولِ الملائكة عليهم السلام: ﴿يَٰمَرْيَمُ﴾، وتكريرُ التذكير للإشعار بمزيد الاعتناء بما يُحكى مِن أحكام الاصطفاءِ والتنبيهِ على استقلالها وانفرادِها عن الأحكام السابقة، فإنّها مِن أحكام التربية الجُسمانيّة اللائقة بحال صِغَر مريمَ عليها السلام، وهذه مِن باب التربية الروحانيّة بالتكاليف الشرعيّةِ المتعلِّقة بحال كِبَرها. قيل: كلّموها شِفاهًا كرامةً لها، أو إرهاصًا لنبوّة عيسى عليه السلام؛ لمكان الإجماعِ على أنّه تعالى لم يَستنبِئ امرأةً.[٢] وقيل: ألهموها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أوّلًا حيث تقبّلكِ مِن أمّكِ بقَبولٍ حسن، ولم يتقبّل غيرَكِ أنثى، وربّاكِ في حِجْرِ زكريّا عليه السلام، ورزَقكِ مِن رِزق الجنّةِ، وخَصّكِ بالكرامات السنيّة.

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي: ممّا يُستقذَر مِن الأحوال والأفعال، وممّا قذَفكِ[٣] به اليهودُ بإنطاق الطفلِ.

﴿وَٱصْطَفَىٰكِ﴾ آخِرًا ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بأن وهبَ لكِ عيسى عليه السلام مِن غير أب، ولم يكن ذلك لأحدٍ مِن النساء، وجعلكما آيةً للعالمين، فعلى هذا ينبغي أن يكون تقديمُ حكاية هذه المقاولة على حكاية بشارتِها بعيسى عليه السلام؛ لِما مرّ مرارًا مِن التنبيه على أنّ كلًّا منهما مستحِقٌّ للاستقلال بالتذكير، ولو رُوعي الترتيبُ الخارجيُّ لَتبادر كونُ الكلّ شيئًا واحدًا.

---

[١] في تفسير قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الآيةَ [آل عمران، ٣٩/٣].

[٢] كذا في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦/٢. وقال السيوطي: «قلت: دعوى الإجماع عجيب، فإنّ الخلاف في نبوّة نسوة موجود، خصوصًا مريم، فإنّ القول بنبوّتها شهير؛ بل قال الشيخ تقي الدين السُّبكي في الحلبيّات إلى ترجيحِه، وقال: إنّ ذكرها مع الأنبياء في سورة الأنبياء قرينة قويّة لذلك». نواهد الأبكار للسيوطي، ٥٣١/٢.

[٣] ي: قرفك.

وقيل: المراد بالاصطفاءَين واحد، والتكرير للتأكيد وتبيينِ مَن اصطفاها عليهنّ، فحينئذ لا إشكالَ في ترتيب النظم الكريم؛ إذ يُحمل حينئذ الاصطفاءُ على ما ذُكر أوّلًا، ويُجعل هذه المقاولة قبل بِشارتها بعيسى عليه السلام إيذانًا بكونها قبل ذلك متوفّرةً / على الطاعات والعبادات حسبما أُمِرت بها، مجتهدةً فيها، مُقْبِلةً على الله تعالى، مُتبتّلةً إليه تعالى، منسلخةً عن أحكام البشريّة، مستعدّةً لفيضان الروح عليها. [٩٥ظ]

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾

﴿يَٰمَرۡيَمُ﴾ تكريرُ النداءِ للإيذان بأنّ المقصودَ بالخطاب ما يرِدُ بعده، وأنّ ما قبله مِن تذكير النِّعم كان تمهيدًا لذِكره، وترغيبًا في العمل بموجبه.

﴿ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أي: قومي في الصلاة، أو أطيلي القيام فيها له تعالى. والتعرّضُ لعنوان ربوبيّته تعالى لها للإشعار بعِلّة وجوبِ الامتثالِ بالأمر.

﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أُمِرَت بالصلاة بالجماعة بذكر أركانها مبالغةً في إيجاب رعايتها، وإيذانًا بفضيلة كلٍّ منها وأصالتِه. وتقديمُ السجود على الركوع؛ إمّا لكون الترتيب في شريعتهم كذلك، وإمّا لكون السجودِ أفضلَ أركانِ الصلاة، وأقصى مراتبِ الخضوع، ولا يقتضي ذلك كونَ الترتيب الخارجيّ كذلك؛ بل اللائقُ به الترقّي مِن الأدنى إلى الأعلى، وإمّا لِيَقترِن ﴿ٱرۡكَعِي﴾ بـ﴿ٱلرَّٰكِعِينَ﴾؛ للإشعار بأنّ مَن لا ركوعَ في صلاتهم ليسوا مصلّين. وأمّا ما قيل مِن أنّ الواوَ لا يوجب الترتيبَ فغايتُه التصحيحُ لا الترجيح. وتجريدُ الأمر[١] بالرُّكنين الأخيرين عمّا قُيِّد به الأوّلُ لِما أنّ المراد تقييدُ الأمر بالصلاة بذلك، وقد فعل حيث قيّد به الركن الأوّل منها.

وقيل: المرادُ بـ"القنوت": إدامةُ الطاعات، كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ [الزمر، ٩/٣٩]، وبـ"السجود": الصلاةُ؛ لِما مرّ مِن أنّه أفضلُ أركانها، وبـ"الركوع": الخشوعُ والإخبات.

---

[١] ي + وتجريد الأمر.

قيل: لمّا أُمِرَت بذلك قامت في الصلاة حتّى ورِمَتْ قدَماها، وسالت دمًا وقَيحًا.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سلف مِن الأمور البديعة، وما فيه مِن معنى البعد للتنبيه على علوّ شأنِ المشارِ إليه، وبُعد منزلتِه في الفضل. وهو مبتدأ، خبرُه قوله تعالى: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: مِن الأنباء المتعلّقةِ بالغيب. والجملة مستأنَفة لا محلّ لها مِن الإعراب، وقوله تعالى: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ جملة مستقِلّة مبيّنة للأُولى. وقيل: الخبرُ هو الجملة الثانية، و﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ إمّا متعلّق بـ﴿نُوحِيهِ﴾، أو حال مِن ضميره، أي: نوحي مِن أنباء الغيب، أو نوحيه حالَ كونه مِن جملة أنباء الغيب. وصيغةُ الاستقبال للإيذان بأنّ الوحيَ لم ينقطعْ بعدُ.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: عند الذين اختلفوا وتنازعوا في تربية مريمَ، وهو تقرير وتحقيق لكونه وحيًا على طريقة التهكُّم بمُنكِريه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ الآيةَ [القصص، ٤٤/٢٨]، ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ الآيةَ [القصص، ٤٥/٢٨]، فإنّ طريق معرفة أمثالِ هاتِيك الحوادثِ والواقعات إمّا المشاهدةُ وإمّا السماعُ، وعدمُه محقَّقٌ عندهم، فبقيَ احتمال المعاينة المستحيلةِ ضرورةً، فنُفِيَت تهكّمًا بهم.

﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ ظرف للاستقرار العامل في ﴿لَدَيْهِمْ﴾، و﴿أَقْلَٰمَهُمْ﴾: أقداحَهم التي اقترعوا بها، قيل: اقترعوا بأقلامهم التي كانوا يكتُبون بها التوراة تبرّكًا. ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ متعلّق بمحذوف دلَّ عليه: ﴿يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾، أي: يُلقونها ينظرون، أو ليعلموا أيُّهم يكفُلُها.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: في شأنها تنافُسًا في كفالتها حسبما ذكر فيما سبق. وتكريرُ ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ مع تحقّق المقصودِ بعطف ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ على ﴿إِذْ يُلْقُونَ﴾ كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء، ٤٧/١٧]؛ للدلالة على أنّ كلَّ واحدٍ مِن عدم حضورِه

صلّى الله عليه وسلّم عند إلقاءِ الأقلام وعدمِ حضوره عند الاختصام مستقِلٌّ بالشهادة على نبوّته عليه السلام لا سيّما إذا أريد باختصامهم تنازعُهم قبل الاقتراعِ، فإنّ تغييرَ الترتيبِ في الذِّكر مؤكِّدٌ له.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ شروع في قصّة عيسى عليه السلام، وهو بدل مِن ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾،[1] منصوب بناصِبه، وما بينهما اعتراض جيءَ به تقريرًا لِما سبَق، وتنبيهًا على استقلاله وكونِه حقيقًا بأن يُعدَّ على حِياله مِن شواهدِ النبوّة، وتركُ العطف بينهما بناءً على اتّحاد المخاطِب والمخاطَب، وإيذانًا بتقارُن الخطابين، أو تقارُبهما في الزمان. وقيل: منصوب بمضمَر معطوفٍ على ناصبه. وقيل: بدل مِن ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، كأنّه قيل: وما كنت حاضرًا في ذلك الزمان المديد الذي وقع في طرَفٍ منه الاختصامُ، وفي طرَفٍ آخرَ هذا الخطابُ إشعارًا بإحاطته عليه السلام بتفاصيلِ أحوالِ مريمَ عليها السلام مِن أوّلها إلى آخرها. والقائلُ جبريلُ عليه السلام، وإيرادُ صيغة الجمعِ لِما مرّ.[2]

﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ "مِن" لابتداءِ الغاية مَجازًا متعلِّقةٌ بمحذوف وقعَ صفةً لـ"كلمة"، أي: بكلمة كائنةٍ منه عزّ وجلّ،[3] ﴿ٱسْمُهُ﴾ ذُكر الضميرُ الراجعُ إلى "الكلمة"؛ لكونها عبارةً عن مذكّر، وهو مبتدأ، خبرُه: ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾، وقوله تعالى: ﴿عِيسَى﴾ بدل منه، أو عطفُ بيانٍ، وقيل: خبر آخرُ، وقيل: خبرُ مبتدأ محذوفٍ، وقيل: منصوب بإضمار "أعني" مدحًا. وقوله تعالى: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ صفة لـ﴿عِيسَى﴾.

وقيل: المرادُ بالاسم ما به يتميّز المسمّى عمّن سواه، فالخبرُ حينئذ مجموعُ الثلاثةِ؛ إذ هو المميّز له عليه السلام تمييزًا عن جميع مَن عداه. و﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ لَقَبُه عليه السلام وهو مِن الألقاب المشرّفة كالصدّيق، وأصلُه بالعبريّة "مسيحا"،

---

١ آل عمران، ٣/٤٢.

٢ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الآية [آل عمران، ٣/٣٩].

٣ ي: تعالى.

ومعناه: المبارَك. و﴿عِيسَى﴾ معرّب مِن "إيشوع"، والتصدّي لاشتقاقهما مِن المسْح والعيْس، وتعليلُه بأنّه عليه السلام مُسِحَ بالبركة، أو بما يطهّره مِن الذنوب، أو مسَحَه جبريلُ عليهما السلام، أو مسَح الأرضَ ولم يُقِمْ في موضع، أو كان عليه السلام يمسَح ذا العاهةِ فيبرأُ، وبأنّه كان في لونه عيس، أي: بياض يعلوه حُمرةٌ؛ مِن قَبيل الرَّقْم على الماء. وإنّما قيل: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ مع كون الخطابِ لها تنبيهًا على أنّه يُولد مِن غير أبٍ فلا يُنسب إلّا إلى أمّه، وبذلك فُضّلت على نساء العالمين.

﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ "الوجيهُ": ذو الجاه، وهو القوّةُ والمنَعةُ والشرَفُ. وهو حال مقدّرة مِن "كَلِمَةٍ"، فإنّها وإن كانت نكرةً لكنّها صالحة لِأن ينتصِبَ بها الحال، وتذكيرُها باعتبار المعنى. والوَجاهةُ في الدنيا: النبوّة والتقدّمُ على الناس، وفي الآخرة: الشفاعةُ وعلوُّ الدرجة في الجنّة.

﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: مِن الله عزّ وجلّ، قيل: هو إشارة إلى رفعه عليه [٩٦و] السلام[1] إلى السماء وصُحبةِ الملائكة. وهو عطفٌ على / الحال الأولى، وقد عُطف عليه قوله تعالى:

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي: يكلّمهم حال كونِه طفلًا وكهلًا كلامَ الأنبياء مِن غير تفاوت. و﴿ٱلْمَهْدِ﴾ مصدر سُمّي به ما يُمهَّد للصّبيّ، أي: يُسوَّى مِن مضجعه. وقيل: إنّه رُفع شابًّا، والمراد: وكهلًا بعد نزوله، وفي ذكر أحوالِه المختلفة المتنافيةِ إشارة إلى أنّه بمَعزِل مِن الألوهيّة.

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حال أخرى مِن "كَلِمة"، معطوفة على الأحوال السالفة،[2] أو مِن الضمير في ﴿يُكَلِّمُ﴾.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾

---

[1] س – عليه السلام.

[2] ي: السابقة.

﴿قَالَتۡ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قالت مريمُ حين قالت لها الملائكة ما قالت؟[١] فقيل: قالت متضرّعةً إلى ربّها: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ أي: كيف يكونُ، أو مِن أين يكون ﴿لِي وَلَدٞ﴾ على وجه الاستبعاد العاديّ والتعجّب واستعظامِ قدرةِ الله عزّ وجلّ.[٢] وقيل: على وجه الاستفهامِ والاستفسارِ بأنّه بالتزوّج أو بِغيره.

و﴿يَكُونُ﴾ إمّا تامّة، و﴿أَنَّىٰ﴾ و"اللّام" متعلّقتان بها، وتأخيرُ الفاعل عن الجارّ لِما مرّ مِن الاعتناء بالمقدّم والتشويقِ إلى المؤخّر، ويجوز أن يتعلّق اللامُ بمحذوفٍ وقع حالًا مِن ﴿وَلَدٞ﴾؛ إذ لو تأخّرَ لكان صفةً له. وإمّا ناقصة واسمُها ﴿وَلَدٞ﴾، وخبرها إمّا ﴿أَنَّىٰ﴾ و"اللّامُ" متعلّقة بمضمَر وقع حالًا كما مرّ، أو خبر و﴿أَنَّىٰ﴾ نصبَ على الظرفيّة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ﴾ جملة حاليّة محقِّقة للاستبعاد، أي: والحال أنّي على حالة منافيةٍ للوِلادة.

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سلف، والقائلُ هو الله تعالى، أو جبريلُ عليه السلام، ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ الكلامُ في إعرابه كما مرّ في قصّة زكريّا[٣] بعينه، خلا أنّ إيراد ﴿يَخۡلُقُ﴾ ههنا مكانَ "يفعلُ" هناك لِما أنّ وِلادةَ العذراءِ مِن غير أن يمسَّها بشرٌ أبدعُ وأغربُ مِن وِلادة عجوزٍ عاقرٍ مِن شيخ فانٍ، فكان الخلق المُنبئ عن الاختراع أنسَبَ بهذا المقام مِن مطلَق الفعل، ولذلك عُقّب ببيان كيفيّته، فقيل: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ مِن الأمور، أي: أراد شيئًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا﴾ [يس، ٨٢/٣٦]. وأصلُ "القضاء": الإحكامُ، أُطلق على الإرادة الإلهيّة القطعيّةِ المتعلّقةِ بوجود الشيءِ لإيجابها إيّاه البتّةَ. وقيل: الأمرُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء، ٢٣/١٧].

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ لا غيرُ ﴿فَيَكُونُ﴾ مِن غير ريثٍ، وهو كما ترى تمثيل لكمال قدرته تعالى وسهولةِ تأتّي المقدوراتِ حسبما يقتضيه مشيئتُه، وتصويرٌ

---

١ ي - ما قالت.

٢ ي: تعالى.

٣ في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران، ٤٠/٣].

لسرعة حدوثِها بما هو علم فيها مِن طاعة[١] المأمورِ المطيعِ للآمرِ القويّ المطاعِ، وبيانٌ لأنّه تعالى كما يقدِر على خلق الأشياءِ مُدرّجًا بأسباب وموادَّ معتادةٍ يقدِر على خلقها دفعةً مِن غير حاجة إلى شيء مِن الأسباب والموادّ.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٤٨﴾

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الكتابةَ، أو جنسَ الكتُبِ الإلهيّة. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: العلومَ وتهذيبَ الأخلاق. ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ إفرادُهما بالذِّكر -على تقدير كونِ المرادِ بـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: جنسَ الكتب المنزّلة- لزيادة فضلِهما وإنافتِهما على غيرهما. والجملة عطفٌ على ﴿يُبَشِّرُكِ﴾،[٢] أو على ﴿وَجِيهًا﴾،[٣] أو على ﴿يَخْلُقُ﴾،[٤] أو هو كلام مبتدأ سيق تطييبًا لقلبها، وإزاحةً لِما أهمّها[٥] مِن خوف اللائمةِ لمّا علِمَت أنّها تلِدُ مِن غير زوجٍ.[٦] وقُرِئ: "ونُعَلِّمُهُ" بالنون.[٧]

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٤٩﴾

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ منصوب بمضمَر يقود إليه المعنى، معطوفٍ على ﴿يُعَلِّمُهُ﴾، أي: ويجعله رسولًا إلى بني إسرائيلَ، أي: كلِّهم، وقال بعضُ اليهود: إنّه كان مبعوثًا إلى قوم مخصوصين. ثمّ قيل: كان رسولًا حالَ الصِّبا، وقيل: بعد البلوغ. وكان أوّلَ أنبياءِ بني إسرائيلَ يوسفُ، وآخِرَهم عيسى عليهما السلام، وقيل: أوّلُهم موسى وآخِرُهم عيسى عليهم السلام.

---

١ ي: إطاعة.
٢ آل عمران، ٣/٣٩.
٣ آل عمران، ٣/٤٥.
٤ آل عمران، ٣/٤٧.
٥ وفي هامش ي: أي: أحزنها وأقلقها. «منه».
٦ ط: زواج.
٧ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٠.

وقوله تعالى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم﴾ معمول لـ﴿رَسُولًا﴾؛ لِما فيه مِن معنى النُّطقِ، أي: رسولًا ناطقًا بأنّي... إلخ. وقيل: منصوب بمضمَر معمولٍ لقولٍ مضمَرٍ معطوفٍ على ﴿يُعَلِّمُهُ﴾، أي: ويقول: أُرسِلتُ رسولًا بأنّي قد جئتُكم... إلخ. وقيل: معطوف على الأحوال السابقةِ، ولا يقدَحُ فيه كونُها في حكم الغَيبة مع كونِ هذا في حكم التكلّم؛ لِما عرَفتَ مِن أنّ فيه معنى النُّطقِ، كأنّه قيل: حالَ كونه وجيهًا ورسولًا ناطقًا بأنّي... إلخ. وقُرئ: "وَرَسُولٍ" بالجرّ[1] عطفًا على "كَلِمَة".

والباء في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ متعلِّقة بمحذوفٍ وقع حالًا مِن فاعل الفعلِ على أنّها للملابَسة، والتنوينُ للتفخيم دون الوحدة؛ لظهور تعدّدها وكثرتها، وقُرئ: "بِآيَاتٍ".[2] أو بـ﴿جِئْتُكُم﴾ على أنّها للتّعدية.

و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ لابتداء الغاية مجازًا متعلِّقةٌ بمحذوف وقعَ صفةً لـ"آيةٍ"، أي: قد جئتُكم ملتبسًا بآية عظيمةٍ كائنةٍ مِن ربّكم، أو آتيتكم آيةً عظيمةً كائنةً منه تعالى. والتعرّضُ لوصف الربوبيّة مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين لتأكيد إيجاب الامتثالِ بما سيأتي مِن الأوامر.

وقوله تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ بدل مِن قوله تعالى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم﴾، ومحلّه النصبُ على نزع الجارّ عند سيبويهِ والفرّاء، والجرُّ على رأي الخليلِ والكسائي،[3] أو بدلٌ مِن "آية"، وقيل: منصوب بفعل مقدَّر، أي: أعني: أنّي... إلخ، وقيل: مرفوع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هي[4] ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم﴾. وقُرئ بكسر الهمزةِ على الاستئناف،[5] أي: أقدّرُ لكم -أي: لأجل تحصيلِ إيمانِكم ودفعِ تكذيبِكم إيّايَ- مِن الطين شيئًا مثلَ صورةِ الطير، ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للكاف، أي: في ذلك الشيءِ المماثلِ لهيئة الطيرِ.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليزيدي. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٧.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٦٣/٣.

[3] انظر: شرح الكافية لابن مالك، ٦٣٤/٢.

[4] ط - هي.

[5] قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٤٠/٢.

وقُرئ: "فَأَنفُخُ فِيهَا"[١] على أنّ الضميرَ للهيئة المقدّرةِ، أي: أخلُق لكم مِن الطين هيئةً كهيئة الطيرِ فأنفخُ فيها، ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ حيًّا طيّارًا كسائر الطيور ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بأمرِه تعالى، أشارَ بذلك إلى أنّ إحياءَه مِن الله تعالى، لا منه.

قيل: لم يَخْلُقْ غيرَ الخفّاش؛ رُوي أنّه عليه السلام لمّا ادّعى النبوّة وأظهر المعجزاتِ طالبوه بخلق خفّاشٍ،[٢] فأخذ طينًا وصوّره ونفخَ فيه، فإذا هو يطيرُ بين السماء والأرض. قال وهْبٌ: «كان يطير ما دام الناسُ ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميّتًا ليتميّز مِن خلق الله تعالى».[٣] قيل: إنّما طلبوا خلق الخفّاشِ / لأنّه أكملُ الطير خلقًا، وأبلغ دلالة على القدرة؛ لأنّ له ثُديًا وأسنانًا، وهي تحيض وتطْهر وتلِد كسائر الحيوان، ويضحك كما يضحك الإنسانُ، ويطير بغير ريش، ولا يُبصِرُ في ضوء النهار ولا في ظلمة اللّيل، وإنّما يرى في ساعتين: ساعةٍ بعد الغروب، وساعةٍ بعد طلوع الفجر. وقيل: خَلَق أنواعًا مِن الطير. [٩٦ظ]

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ أي: الذي وُلد أعمى، أو الممسوحَ العين، ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ المبتلى بالبَرَص، لم تكن العربُ تنفِرُ مِن شيءٍ نَفْرتَها منه، ويقال له: الوَضَح أيضًا. وتخصيصُ هذين الداءَين لأنّهما ممّا أعيى الأطبّاءَ، وكانوا في غاية الحَذاقةِ في زمنه عليه السلام، فأراهم الله تعالى المعجزةَ مِن ذلك الجنس. رُوي أنّه ربّما كان يجتمعُ عليه[٤] عليه السلام ألوفٌ مِن المرضى، مَن أطاق منهم أتاه، ومَن لم يُطِقْ أتاه عيسى عليه السلام، وما يداويه إلّا بالدعاء.[٥]

﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ كرّره مبالغةً في دفع وَهْمِ مَن توهّم فيه اللاهوتيّة.

قال الكلبيُّ: «كان عليه السلام يُحيي الموتى بـ"يا حيُّ يا قيُّومُ"».[٦] أحيى عازَرَ وكان صديقًا له فعاش ووُلدَ له، ومرّ على ابن عجوز ميّت فدعا الله تعالى فنزل عن سريره حيًّا، ورجع إلى أهله وبقي ووُلدَ له، وبنت العاشر أحياها

---

١ قراءة شاذّة، ولم أجد مَن قرأ بها، وقال الفرّاء: «وفي قراءة عبد الله "فأنفُخُها" بغير "في"، وهو ممّا تقوله العرب: ربّ ليلة قد بتُّ فيها وبتُّها». معاني القرآن للفرّاء، ٢١٤/١.

٢ ي: الخفّاش.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٧١/٣.

٤ ي - عليه.

٥ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨/٢. وهو عن وهب في جامع البيان للطبري، ٤٢٥/٥.

٦ الكشف والبيان للثعلبي، ٧٣/٣.

وولَدت بعد ذلك، فقالوا: «إنّك تُحيي مَن كان قريبَ العهدِ مِن الموت، فلعلّهم لم يموتوا؛ بل أصابتهم سكتةٌ، فأحْيِ لنا سامَ بنَ نوحٍ»، فقال: «دُلّوني على قبره»، ففعلوا، فقام على قبره، فدعا الله عزّ وجلّ، فقام مِن قبره وقد شاب رأسُه، فقال عليه السلام: «كيف شِبْتَ ولم يكن في زمانكم شيبٌ؟» قال: «يا روحَ الله؛ لمّا دعَوْتَني سمعتُ صوتًا يقول: "أجِبْ روحَ الله"، فظننتُ أنّ الساعةَ قد قامت، فمِنْ هولِ ذلك شِبْتُ»، فسأله عن النزع قال: «يا روحَ الله؛ إنّ مرارتَه لم تذهَبْ مِن حنْجَرَتي»، وكان بينه وبين موته أكثرُ مِن أربعة آلافِ سنةٍ، وقال للقوم: «صدِّقوه، فإنّه نبيّ»، فآمن به بعضُهم، وكذّبه آخرون، فقالوا: «هذا سحرٌ، فأرِنا آيةً»، فقال: «يا فلان أكلتَ كذا، ويا فلان خُبِئ لك كذا»،[1] وذلك قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بالمغيَّبات مِن أحوالكم التي لا تشكّون فيها، وقُرئ: "تَذْخَرُونَ" بالذال والتخفيف.[2]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر مِن الأمور العِظام ﴿لَآيَةً﴾ عظيمةً، وقُرئ: "لَآيَاتٍ"[3] ﴿لَّكُمْ﴾ دالّةً على صِحّةِ[4] رسالتي دَلالةً واضحة. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ جواب[5] الشرطِ[6] محذوفٌ؛ لانصباب المعنى إليه، أو دلالةِ المذكورِ عليه، أي: انتفعتم بها، أو إن كنتم ممّن يتأتّى منهم الإيمانُ دلَّتْكم على صحّة رسالتي والإيمانِ بها.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ عطفٌ على المضمَر الذي تعلّق به قوله تعالى: ﴿بِآيَةٍ﴾،[7] أي: قد جئتُكم ملتبسًا بآية... إلخ، ومصدِّقًا لِما بين... إلخ،[8]

---

[1] انظر: تفسير القرطبي، ٩٥/٤.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك والزيدي وأيّوب السختياني وأبي السمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٣.

[3] قراءة شاذّة، وذكر ابن عطيّة أنّها في مصحف ابن مسعود كذلك. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٤٤١/١.

[4] ي - صحّة.

[5] ي: جوب.

[6] ي: شرط.

[7] آل عمران، ٤٩/٣.

[8] ي: يديّ.

أو على ﴿رَسُولًا﴾[١] على الأوجه الثلاثةِ، فإنّ ﴿مُصَدِّقًا﴾ فيه معنى النُطقِ كما في ﴿رَسُولًا﴾، أي: ويجعله مصدِّقًا ناطقًا بأنّي أُصدِّق... إلخ، أو ويقول: أُرسلتُ رسولًا بأنّي قد جئتُكم... إلخ، ومصدِّقًا... إلخ، أو حالَ كونه مصدِّقًا ناطقًا بأنّي أُصدّق... إلخ، أو منصوبٌ بإضمار فعلٍ دلَّ عليه ﴿قَدْ جِئْتُكُم﴾،[٢] أي: وجئتكم مصدِّقًا... إلخ. وقوله: ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ إمّا حال مِن الموصول، والعاملُ ﴿مُصَدِّقًا﴾، وإمّا مِن ضميره المستترِ في الظرف الواقعِ صلةً، والعاملُ الاستقرارُ المضمَرُ في الظرف، أو نفسُ الظرف؛ لقيامه مَقامَ الفعل.

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾ معمول لمضمَرٍ[٣] دلّ عليه ما قبله، أي: وجِئتكم لأُحِلَّ... إلخ، وقيل: عطفٌ على معنى ﴿مُصَدِّقًا﴾، كقولهم: جئتُه معتذرًا ولأجتلِبَ رضاه، كأنّه قيل: جئتُكم لأصدِّق ولأحِلّ... إلخ، وقيل: عطفٌ على ﴿بِـَٔايَةٍ﴾، أي: جئتُكم بآية مِن ربكم، ولأحِلَّ لكم ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في شريعة موسى عليه السلام مِن الشحومِ والشُّروبِ والسمكِ ولحومِ الإبلِ والعملِ في السبت، قيل: أحَلَّ لهم مِن السمك والطير ما لا صيصية[٤] له، واختلف في إحلال السبت. وقُرئ: "حَرَّمَ" على تسمية الفاعل،[٥] وهو ما بين يديّ، أو الله عزّ وجلّ. وقُرئ: "حَرُمَ"[٦] بوزن كَرُم. وهذا يدلّ على أنّ شرعَه كان ناسخًا لبعض أحكام التوراةِ، ولا يُخِلّ ذلك بكونه مصدِّقًا لها؛ لِما أنّ النَّسخَ في الحقيقة بيان تخصيص في الأزمان. وتأخيرُ المفعول مِن الجارّ والمجرور لِما مرّ مرارًا مِن المبادرة إلى ذِكر ما يسُرُّ المخاطَبين، والتشويقِ إلى ما أُخِر.

﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ شاهدةٍ على صحّة رسالتي، وقُرئ: "بِآيَاتٍ".[٧]

---

[١] آل عمران، ٤٩/٣.

[٢] آل عمران، ٤٩/٣.

[٣] ي: المضمر.

[٤] س: صَنصنة؛ ط ي: صنصنة. | وأثبتُّ ما في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٦٥/١، وغيره مِن كتب التفسير: "ما لا صيصية له". قال الجوهري: «الصِّيصية: شَوكة الحائك التي يُسوِّي بها السَّداةَ واللُّحمةَ، ومنه صِيصية الديك التي في رجليه». **الصحاح** للجوهري، «صيص».

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن قطيب وعكرمة واليماني. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١١٣.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيم ويحيى. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١١٣؛ **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٢٧.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ١٦٣/٣.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في عدم قَبولها ومخالفةِ مدلولها، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمرُكم به وأنهاكم عنه بأمر الله تعالى.

وتلك الآية[١] هي قولي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، فإنّه الحقُّ الصريحُ الذي أجمع عليه الرسلُ قاطبةً، فيكون آيةً بيّنة على أنّه عليه السلام مِن جملتهم. وقُرئ: "أَنَّ اللهَ" بالفتح[٢] بدلًا مِن "آية"، أو: قد جئتكم بآية على أنّ الله ربّي وربُّكم.

وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ اعتراض، والظاهرُ أنّه تكرير لِما سبق، أي: قد جئتكم بآية بعد آية ممّا ذكرتُ لكم، مِن خلق الطير، وإبراءِ الأكمهِ، والإحياءِ، والإنباءِ بالخفيّات، وبغيرِه مِن وِلادتي بغير أبٍ، ومِن كلامي في المَهد، ومن غير ذلك، **والأوّلُ**: لتمهيد الحجّة، **والثاني**: لتقريبها إلى الحكم، ولذلك رُتّب عليه بالفاء قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: لمّا جئتُكم بالمعجزات الباهرةِ والآياتِ الظاهرة فاتّقوا الله في المخالفة، وأطيعونِ فيما أدعوكم إليه.

ومعنى قراءةِ مَن فتح: ولأنّ الله ربّي وربّكم فاعبدوه، كقوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾... إلخ [قريش، ١/١٠٦]. ثمّ شرع في الدعوة وأشار إليها بالقول المجمل فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ إشارةً إلى استكمالِ القوّةِ النظريّةِ بالاعتقاد الحقِّ الذي غايتُه التوحيدُ، وقال: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ إشارةً إلى استكمال القوّةِ العمليّةِ، فإنّه يلازِمُ الطاعة التي هي الإتيانُ بالأوامر، والانتهاءُ عن المناهي، ثمّ قرّر ذلك بأن بيّن أنّ الجمعَ بين الأمرين هو الطريقُ المشهودُ له بالاستقامة، ونظيرُه قوله عليه السلام: «قُل آمَنتُ ثمّ استَقِم».[٣]

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٥٢﴾

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ شروع في بيان مآلِ أحوالِه عليه السلام

---

١ ي: الآيات.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأخفش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٣.

٣ صحيح مسلم، ٦٥/١ (٣٨)؛ صحيح ابن حِبّان، ٢٢٢/٣.

[٩٧و] إثرَ / ما أشير إلى طرَفٍ منها بطريق النقلِ عن الملائكة. والفاءُ فصيحة تُفصِحُ عن تحقُّق جميعِ ما قالته الملائكة عليهم السلام. وخروجُه مِن القوّة إلى الفعل حسبما شرحتُه كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾، بعد قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل، ٤٠/٢٧]، كأنّه قيل: فحمَلته فوَلدتْه، فكان كيتَ وكيتَ، وقال: ذيتَ وذيتَ. وإنّما لم يُذكَر اكتفاءً بحكاية الملائكة عليهم السلام،[١] وإيذانًا بعدم الخُلْفِ، وثقةً بما فُصّل في المواضع الأُخَرِ. وأمّا عدمُ نظمِ بقيّة أحوالِه عليه السلام في سلك النقلِ؛ فإمّا للاعتناء بأمرِها، أو[٢] لعدم[٣] مناسبتها لمقام البِشارة؛ لِما فيها مِن ذِكر مُقاساتِه عليه السلام للشدائد ومعاناتِه للمكائد.

والمرادُ بالإحساس: الإدراكُ القويُّ الجاري مَجرَى المشاهدةِ، وبالكفر: إصرارُهم عليه وعتوُّهم ومكابرتُهم فيه مع العزيمة على قتله عليه السلام، كما ينبئ عنه الإحساسُ، فإنّه إنّما يُستعمل في أمثال هذه المواقعِ عند كونِ مُتعلَّقِه أمرًا محذورًا مكروهًا، كما في قوله عزّ وجلّ:[٤] ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء، ١٢/٢١]. وكلمةُ "مِن" متعلِّقة بـ﴿أَحَسَّ﴾، والضميرُ المجرورُ لبني إسرائيلَ، أي: ابتدأ الإحساسَ مِن جهتهم، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على المفعول الصريحِ لِما مرّ غيرَ مرّةٍ مِن الاعتناء به، والتشويقِ إلى المؤخَّر. وقيل: متعلِّقة بمحذوف وقعَ حالًا مِن الكفر.

﴿قَالَ﴾ أي: لخُلَّصِ أصحابِه، لا لجميعِ بني إسرائيلَ؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ الآية [الصف، ١٤/٦١]. وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ [الصف، ١٤/٦١] ليس بنصّ في توجيه الخطابِ إلى الكلّ؛ بل يكفي فيه بلوغُ الدعوة إليهم. ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ﴾ "الأنصارُ": جمع نصير، كأشراف جمع شريف.

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بمحذوف وقعَ حالًا مِن الياء، أي: مَنْ أنصاري متوجِّهًا إلى الله، ملتجئًا إليه، أو بأنصاري مضمّنًا معنى الإضافةِ، كأنّه قيل: مَنِ الذين

---

[١] س ي – عليهم السلام.
[٢] ي – أو.
[٣] ي: ولعدم.
[٤] ي: تعالى.

يُضيفون أنفسَهم إلى الله عزّ وجلّ ينصُرونني كما ينصُرني؟ وقيل: ﴿إِلَى﴾ بمعنى "في"، أي: في سبيل الله، وقيل: بمعنى اللام، وقيل: بمعنى "مع".

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ينساقُ إليه الذهنُ، كأنّه قيل: فماذا قالوا في جوابه عليه السلام؟ فقيل: قال ﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ جمعُ "حَواريّ"، يقال: فلان حَواريّ فلان، أي: صفوتُه وخاصّتُه، مِن الحَوَر؛ وهو البياضُ الخالص، ومنه الحواريّاتُ للحَضَريّات؛[1] لخُلوص ألوانِهنّ ونقائِهنّ. سُمّي به أصحابُ عيسى عليه السلام؛ لخُلوص نيّاتِهم ونقاءِ سرائرِهم، وقيل: لِما عليهم مِن آثار العبادةِ وأنوارِها.

وقيل: كانوا مُلوكًا يلبَسون البِيضَ، وذلك أنّ واحدًا مِن المُلوك صنعَ طعامًا وجمع الناسَ عليه، وكان عيسى عليه السلام على قَصْعةٍ لا يزال يأكلُ منها ولا تنقُص، فذكروا ذلك للمَلك فاستدعاه عليه السلام، فقال له: «مَن أنت؟» قال: «عيسى ابن مريم»، فترك مُلكَه فتبِعه[2] مع أقاربه، فأولئك هم الحَواريّون.[3]

وقيل:[4] كانوا صيّادين يصطادون السمكَ، يلبَسون الثيابَ البيض، فيهم شمعونُ ويعقوبُ ويوحنّا، فمرّ بهم عيسى عليه السلام، فقال لهم: «أنتم تصيدون السمكَ، فإن اتّبعتموني صِرتم بحيث تصيدون الناسَ بالحياة الأبديّة»، قالوا: «مَن أنت؟» قال: «عيسى ابنُ مريم، عبدُ الله ورسولُه»، فطلبوا منه المعجِز،[5] وكان شمعونُ قد رمى شبكتَه تلك اللّيلةَ فما اصطاد شيئًا، فأمر عيسى عليه السلام بإلقائها في الماء مرّةً أخرى، ففعل، فاجتمع في الشبكة مِن السمك ما كادَتْ تتمزّقُ، واستعانوا بأهل[6] سفينةٍ أخرى وملأوا السفينتين، فعند ذلك آمنوا بعيسى عليه السلام.[7]

---

١ قال الزبيدي: الحواريّات: نساء الأمصار، هكذا تسمّيهنّ الأعراب؛ لبياضهنّ وتباعدهنّ عن قَشف الأعراب بنظافتهنّ. تاج العروس للزبيدي، «حور».

٢ ي: وتبعه.

٣ نسبه الثعلبي إلى ابن عون. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٧٧/٣.

٤ وفي هامش ط س ي: قائله مجاهد والسدّي «منه».

٥ ي: المعجزة.

٦ ي: بل.

٧ انظر: تفسير الرازي، ٢٣٣/٨. وأخرج الطبري بسنده عن سعيد بن جبير، قال: سئل ابن عبّاس عن الحواريّين، قال: «سمّوا لبياض ثيابهم، كانوا صيّادي السمك». جامع البيان للطبري، ٦٢١/٢٢.

وقيل:[١] كانوا اثنيْ عشرَ رجلًا آمنوا به عليه السلام واتّبعوه، وكانوا إذا جاءوا قالوا: «جُعْنا يا روحَ الله»، فيضرِب بيده الأرضَ، فيخرُجُ منها لكلّ واحد رَغيفان، وإذا عطِشوا قالوا: «عطِشنا»، فيضرب بيده الأرضَ، فيخرُج منها الماءُ، فيشربون، فقالوا: «مَن أفضلُ منّا؟» قال عليه السلام: «أفضلُ منكم مَن يعمل بيدِه، ويأكُلُ مِن كَسْبه»، فصاروا يغسِلون الثيابَ بالأُجرة، فسُمّوا حَواريّين.[٢]

وقيل: إنّ أمّه سلّمته إلى صبّاغ، فأراد الصبّاغُ يومًا أن يشتغل ببعض مهمّاتِه، فقال له عليه السلام: «ههنا ثياب مختلفة، قد جَعَلْتُ لكلّ واحدٍ منها علامةً معيّنةً»، فاصبغْها بتلك الألوانِ، فغاب فجعل عليه السلام كلَّها في جُبّ واحدٍ، وقال: «كوني بإذن الله كما أُريد»، فرجع الصبّاغُ، فسأله، فأخبره بما صنع، فقال: «أفسدتَ عليّ الثيابَ»، قال: «قمْ فانظرْ»، فجعل يُخرِجُ ثوبًا أحمرَ، وثوبًا أخضرَ، وثوبًا أصفرَ، إلى أن أخرج الجميعَ على أحسنِ ما يكون حسبما كان يريد، فتعجَّبَ منه الحاضرون وآمنوا به عليه السلام، وهم الحواريّون.[٣]

قال القفّالُ: «ويجوزُ أن يكون بعضُ هؤلاء الحواريّين الاثنَي عشرَ مِن المُلوك، وبعضُهم مِن صيّادي السمك، وبعضُهم مِن القصّارين، وبعضُهم مِن الصبّاغين. والكلُّ سُمّوا بالحَواريّين؛ لأنّهم كانوا أنصارَ عيسى عليه السلام وأعوانَه، والمخلِصين في طاعته ومحبّتِه».[٤]

﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: أنصار دينه ورسولِه، ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ استئناف جارٍ مَجرى العلّةِ لِما قبله، فإنّ الإيمان به تعالى موجبٌ لنُصرة دينِه، والذَّبِّ عن أوليائه، والمحاربةِ مع أعدائه. ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ مخلِصون في الإيمانِ، منقادون لِما تريد منّا مِن نُصرتك. طلبوا منه عليه السلام الشهادةَ بذلك يومَ القيامة يومَ يشهد الرسلُ عليهم السلام لأُمَمهم وعليهم إيذانًا بأنّ مرمى غرضِهم السعادةُ الأخرويّة.

---

١ وفي هامش ط س ي: حسَن «منه». | يعني: الحسَن البصري.
٢ تفسير الرازي، ٢٣٤/٨.
٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٧٦/٣؛ تفسير الرازي، ٢٣٤/٨.
٤ تفسير الرازي، ٢٣٤/٨.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ تضرّعٌ إلى الله عزّ وجلّ[1] وعرض لحالهم عليه تعالى بعد عرضِها على الرسول مبالغةً في إظهار أمرِهم. ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ أي: في كلّ ما يأتي ويذرُ مِن أمور الدينِ، فيدخُل فيه الاتّباعُ في النُّصرة دخولًا أوّليًّا. ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: مع الذين يشهدون بوحدانيّتك، أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم، أو مع أمّة محمّد عليه السلام، فإنّهم شهداءُ على الناس قاطبةً، وهو حال / مِن مفعول "اكتُبنا". [٩٧ظ]

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَمَكَرُوا۟﴾ أي: الذين علِمَ عيسى عليه السلام كفرَهم مِن اليهود، بأن وكّلوا به مَن يقتُله غِيلةً.

﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ بأن رفعَ عيسى عليه السلام، وألقى شَبَهَه على مَن قصَد اغتيالَه حتّى قُتل. و"المكرُ" -مِن حيث إنّه في الأصل حيلةٌ يُجلَب بها غيرُه إلى مَضرّة- لا يمكن إسنادُه إليه سبحانه إلّا بطريق المشاكلة.

روي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ ملِكَ بني إسرائيلَ لمّا قصد قتلَه عليه السلام أمَره جبريلُ عليه السلام أن يدخُلَ بيتًا فيه رَوزنة،[2] فرفعه جبريل عليه السلام مِن تلك الرَّوزنة إلى السماء، فقال الملِكُ لرجل خبيثٍ منهم: «ادخُل عليه فاقتُله»، فدخل البيت، فألقى الله عزّ وجلّ شَبَهَه عليه، فخرج يُخبرهم أنّه[3] ليس في البيت، فقتلوه وصلَبوه.[4]

وقيل: إنّه عليه السلام جمع الحواريّين ليلةً وأوصاهم، ثمّ قال: «لَيَكفرَنّ بي أحدُكم قبل أن يَصيح الديكُ، ويَبيعني بدراهِمَ يسيرة»، فخرجوا وتفرّقوا،

---

[1] ي: تعالى.

[2] الرَّوزنة: الخرق في أعلى السقف. تاج العروس للزبيدي، «رزن».

[3] ط: أن.

[4] انظر: جامع البيان للطبري، ٦٢٢/٢٢ (الصف، ١٤/٦١)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٤٠٩/٣ (النساء، ١٥٨/٤)؛ وتفسير الرازي، ٢٣٦/٨.

وكانت اليهودُ تطلُبه، فنافق أحدُهم فقال لهم: «ما تجعلون لي إن دَلَلْتُكم على المسيح»؟ فجعلوا له ثلاثين درهمًا، فأخذها ودلّ[١] عليه، فألقى الله عزّ وجلّ[٢] عليه شبَهَ عيسى عليه السلام، ورفعه إلى السماء، فأخذوا المنافِقَ وهو يقول: «أنا دليلُكم»، فلم يلتفتوا إلى قوله وصَلَبوه، ثمّ قالوا: «وجهُه يُشبه وجهَ عيسى، وبَدَنُه يشبه بدنَ صاحبِنا، فإن كان هذا عيسى فأين صاحبُنا؟ وإن كان صاحِبَنا فأين عيسى»؟ فوقع بينهم قتال عظيم.[٣]

وقيل: لمّا صُلب المَصلوب جاءت مريمُ عليها السلام[٤] ومعها امرأةٌ أبرأها الله تعالى مِن الجُنون بدعاء عيسى عليه السلام، وجعلتا تبكِيان على المَصلوب، فأنزل الله عيسى عليه السلام، فجاءهما، فقال: «علامَ تبكيان؟» قالتا: «عليك»، فقال: «إن الله تعالى رفعني ولم يُصِبني إلّا خيرٌ، وإنّ هذا شيءٌ شُبِّه لهم».[٥]

قال محمّد بنُ إسحاقَ:[٦] «إنّ اليهودَ عذّبوا[٧] الحواريّين بعد رفعِ عيسى عليه السلام، ولقُوا منهم الجَهْدَ، فبلغ ذلك مِلِكَ الرّومِ، وكان مِلكُ اليهود مِن رعيّته، فقيل له: "إنّ رجلًا مِن بني إسرائيلَ ممّن تحت أمرِك كان يخبرهم أنّه رسولُ الله، وأراهم إحياءَ الموتى وإبراءَ الأكمهِ والأبرص وفعل وفعل"، فقال: "لو علِمتُ ذلك ما خلّيتُ بينهم وبينه"، ثمّ بعَث إلى الحواريّين فانتزعهم مِن أيديهم، وسألهم عن عيسى عليه السلام، فأخبروه فبايعهم على دينهم، وأنزل المصلوبَ فغيّبه، وأخذ الخشبةَ فأكرمها، ثمّ غزا بني إسرائيلَ، وقتل منهم خلقًا عظيمًا، ومنه ظهر أصلُ النصرانيّةِ في الروم، ثمّ جاء بعده مِلِكٌ آخرُ يقال له:

---

١ ط ي: ودلّهم.

٢ ي: تعالى.

٣ انظر: جامع البيان للطبري، ٦٥٢/٧ (النساء، ١٥٨/٤)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٧٩/٣؛ واللباب لابن عادل، ٢٦٤/٥.

٤ ي - عليه السلام.

٥ انظر: جامع البيان للطبري، ٦٥٢/٧ (النساء، ١٥٨/٤)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٨٠/٣.

٦ هو محمّد بن إسحاق بن يسار المطّلبي بالولاء المدني، أبو بكر (ت. ١٥١هـ/٧٦٨م). الحافظ، الأخباري، صاحب السيرة النبويّة، كان جدّه يسار مِن سبي عَين التمر، رأى أنسَ بن مالك وسعيدَ بن المسيّب. قال الذهبي: «هو أوّل مَن دوّن العلم بالمدينة، وذلك قبلَ مالك وذويه، وكان في العلم بحرًا عَجاجًا، ولكنّه ليس بالمجوّد كما ينبغي». انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٣/٧؛ والأعلام للزركلي، ٢٨/٦.

٧ س: عذّب.

طيطوس، وغزا بيتَ المقدس بعد رفع عيسى عليه السلام بنحوٍ مِن أربعين سنةً، فقتَلَ وسبَى، ولم يترُكْ في مدينة بيتِ المقدسِ حجرًا على حجر، فخرج عند ذلك قُريظةُ والنَّضيرُ إلى الحجاز».[١]

قال أهلُ التواريخ: حملت مريم بعيسى عليه السلام وهي بنتُ ثلاثَ عشرةَ سنةً، ووَلدته ببيت لَحْمَ مِن أرض "أورى شَلَّم"[٢] لمُضيّ خمسٍ وستين سنةً مِن غلبة الإسكندرِ على أرض بابلَ، وأوحى الله تعالى إليه على رأس ثلاثينَ سنةً، ورفعه إليه مِن بيت المقدس ليلة القدر مِن شهر رمضانَ وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثين سنةً، وعاشت أمُّه بعد رفعِه ستَّ سنين.[٣]

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أقواهم مكرًا، وأنفذُهم كَيدًا، وأقدرُهم على إيصال الضرر مِن حيث لا يحتسب. وإظهارُ الجلالة في موقع الإضمار لتربية المَهابة، والجملة تذييل مقرِّر لمَضمون ما قبله.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ ظرف لـ﴿مَكَرَ ٱللَّهُ﴾،[٤] أو لمضمَر، نحو: وقع ذلك. ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: مستوفي أجلك، ومؤخِّرُك إلى أجلك المسمَّى، عاصِمًا لك مِن قتلهم، أو قابضُك مِن الأرض، مِن "توفَّيتُ مالي"، أو متوفِّيك نائمًا؛ إذ رُوي: أنّه رُفع وهو نائم. وقيل: مُميتُك في وقتك بعد النزول مِن السماء ورافعُك الآن، أو مُميتُك مِن الشهوات العائقة عن العُروج إلى عالم الملكوت، وقيل:

---

١ انظر: تفسير الرازي، ٢٣٦/٨؛ واللباب لابن عادل، ٢٦٤/٥.

٢ وفي هامش ط س ي: شَلَّم كبَقَّم؛ موضع بالشام، وقيل: هو اسم مدينة بيت المقدس بالعبرانيّة «منه». | انظر: الصحاح للجوهري، «شلم». وقال الفيروزابادي: «شَلَّم كبَقَّم وككتف وجبل». القاموس المحيط للفيروزابادي، «شلم».

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٨٠/٣؛ اللباب لابن عادل، ٢٧٠/٥.

٤ في الآية السابقة.

أماته الله تعالى سبعَ ساعاتٍ ثمّ رفعه إلى السماء، وإليه ذهبت النصارى، قال القرطبيُّ:

والصحيح أنّ الله تعالى رفعه مِن غير وفاةٍ ولا نومٍ كما قال الحسنُ وابنُ زيد، وهو اختيار الطبري،[١] وهو الصحيح عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، وأصل القصّة: أنّ اليهود لمّا عزموا على قتله عليه السلام اجتمع الحواريّون -وهم اثنا عشرَ رجلًا- في غرفة، فدخل عليهم المسيحُ مِن مِشكاة الغرفة، فأخبر بهم إبليسُ جميعَ اليهود، فركِبَ منهم أربعةُ آلافِ رجلٍ، فأخذوا باب الغرفة، فقال المسيحُ للحواريّين: «أيُّكم يخرجُ ويُقتل، ويكونُ معي في الجنّة؟» فقال واحد منهم: «أنا يا نبيَّ الله»، فألقى عليه مَدرَعةً[٢] مِن صوفٍ وعِمامةً مِن صوفٍ، وناوله[٣] عُكّازَة، وأُلقِيَ عليه شبَهُ عيسى عليه السلام، فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه. وأمّا عيسى عليه السلام فكساه الله تعالى[٤] الريشَ والنورَ،[٥] وألبسه النورَ، وقطع عنه شهوةَ المطعمِ والمشرب، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾، فطار مع الملائكة. ثمّ إنّ أصحابه حين رأَوْا ذلك تفرّقوا ثلاثَ فِرَقٍ، فقالت فِرقة: «كان الله فينا ثمّ صعِدَ إلى السماء»، وهم اليعقوبيّةُ، وقالت فرقة أخرى: «كان فينا ابنُ الله ما شاء الله ثمّ رفعه الله إليه»، وهم النّسطوريّة، وقالت فرقة أخرى منهم: «كان فينا عبدُ الله ورسولُه ما شاء الله ثمّ رفعه الله إليه»، وهؤلاء هم المسلمون، فتظاهرت[٦] عليهم الفرقتانِ الكافرتان فقتلوهم، فلم يزل الإسلامُ منطَمِسًا إلى أن بعث الله تعالى محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم.[٧]

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: إلى محلّ كرامتي ومقرِّ ملائكتي، ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: مِن سوء جوارِهم وخبثِ صُحبتِهم ودنَسِ معاشرتِهم.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ قال قتادةُ والربيعُ والشعبيُّ ومقاتل والكلبيُّ: «هم أهل الإسلام الذين صدّقوه واتّبعوا دينَه مِن أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، دون الذين كذّبوه وكذَبوا عليه مِن النصارى».[٨]

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٥/٤٥٠.
٢ ي: مذرعة.
٣ ي: ناوله.
٤ ط س - تعالى.
٥ ي - والنور.
٦ ي: فناظرت.
٧ ي: عليه السلام. | تفسير القرطبي، ٤/١٠١، مع تغيير ونقص في بعض ألفاظه.
٨ انظر: جامع البيان للطبري، ٥/٤٥٤؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣/٨٣.

﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وهم الذين مكَروا به عليه السلام ومَن يسير بسيرتهم مِن اليهود، فإنّ أهلَ الإسلام فوقهم ظاهرين بالعزّة والمَنَعة والحُجّة. وقيل: هم الحواريّون، فينبغي أن يُحمل فوقيّتُهم على فوقيّة المسلمين بحكم الاتّحادِ في الإسلام والتوحيد. وقيل: هم الرومُ. وقيل: هم / النصارى. فالمرادُ بـ"الاتّباع": [٩٨و]
مجرَّدُ الادّعاء والمحبّة، وإلّا فأولئك الكفَرةُ بمَعزِل مِن اتّباعه عليه السلام.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ غاية للجعل أو للاستقرار[١] المقدّرِ في الظرف، لا على معنى أنّ الجعلَ أو الفوقيّةَ ينتهي حينئذ ويتخلّص الكفَرةُ مِن الذِلّة؛ بل على معنى: أنّ المسلمين يعلُونهم إلى تلك الغاية، فأمّا بعدها فيفعل الله تعالى بهم ما يريد.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي رجوعكم بالبعث، و﴿ثُمَّ﴾ للتّراخي، وتقديمُ الجارّ والمجرور للقصر المفيدِ لتأكّد الوعدِ والوعيد، والضمير لعيسى عليه السلام وغيرِه مِن المتّبعين له والكافرين به على تغليب المخاطَب على الغائب في ضمن الالتفاتِ، فإنّه أبلغُ في التبشير والإنذار.

﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يومئذ إثرَ رجوعكم إليّ ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ مِن أمور الدين. و﴿فِيهِ﴾ متعلِّق بـ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾، وتقديمُه عليه لرعاية الفواصل.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٥٦﴾

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تفسير للحكم الواقعِ بين الفريقين وتفصيل لكيفيّته. والبِداية لبيانِ حالِ الكفرة؛ لِما أنّ مساقَ الكلامِ لتهديدهم وزجرِهم عمّا هم عليه مِن الكفر والعِناد. وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾ متعلِّق بـ"أعذّبُهم"، لا بمعنى إيقاعِ كلٍّ واحدٍ مِن التعذيب في الدنيا والتعذيبِ في الآخرة وإحداثِهما يومَ القيامة؛ بل بمعنى إتمامِ مجموعِهما يومئذ. وقيل: إنّ المرجِعَ أعمُّ مِن الدنيويّ والأخرويّ. وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٢] غاية للفوقيّة لا للجَعلِ، والرجوعُ متراخٍ عن الجَعل، وهو غيرُ محدودٍ، لا عن الفوقيّة المحدودةِ،

---

[١] ط: الاستقرار.

[٢] آل عمران، ٥٥/٣.

على نهج قولِك: سأُعيرك سكنى هذا البيتِ شهرًا ثمّ أخلَع عليك بخلْعة، لزم تأخّرُ الخَلْع عن الإعارة لا عن الشهر.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ يُخلِّصونهم مِن عذاب الله في الدارين. وصيغةُ الجمعِ لمقابلة ضميرِ الجمعِ، أي: ليس لواحد منهم ناصرٌ واحدٌ.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما أُرسِلْتُ به ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ كما هو ديدَنُ المؤمنين ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: يعطيهم إيّاها كاملة. ولعلّ الالتفاتَ إلى الغَيبة للإيذان بما بين مصدري التعذيبِ والإثابةِ مِن الاختلاف مِن حيث الجلالُ والجمال. وقُرئ: "فنُوَفِّيهِمْ"[١] جريًا على سَنن العظمةِ والكبرياء.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: يبغُضهم، فإنّ هذه الكناية فاشيةٌ في جميع اللّغاتِ، جاريةٌ مَجرى الحقيقةِ. وإيراد الظلم للإشعار بأنّهم بكفرهم متعدّون متجاوزون عن الحدودِ، واضعون[٢] للكفر مكانَ الشكرِ والإيمانِ. والجملة تذييل لِما قبله[٣] مقرِّر لمَضمونه.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سلف مِن نبأ عيسى عليه السلام، وما فيه مِن معنى البُعد للدلالة على عِظَمِ شأنِ المُشار إليه وبُعدِ منزلتِه في الشرف، وعلى كونه في ظهور الأمرِ ونباهةِ الشأن بمنزلة المشاهَد المعايَن. وهو مبتدأ، وقوله عزّ وعلا:[٤] ﴿نَتْلُوهُ﴾ خبرُه، وقوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلِّق بـ﴿نَتْلُوهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ حال مِن الضمير المنصوب، أو خبر بعد خبرٍ، أو هو الخبرُ وما بينهما حال مِن اسمِ الإشارة، أو ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ مضمَرٍ، أي: الأمرُ ذلك، و﴿نَتْلُوهُ﴾ حال كما مرّ، وصيغةُ الاستقبال إمّا لاستحضار الصورةِ، أو على معناها؛ إذ التلاوةُ لم تتِمّ بعدُ.

---

١ قرأ بها الجمهور غير حفص ورُوَيس. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٠.

٢ ي: وواضعون.

٣ س - لما قبله.

٤ ي: تعالى.

﴿وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي: المشتملِ على الحِكَم، أو المُحكمِ الممنوعِ مِن تطرُّق الخَللِ إليه. والمراد به القرآن، فـ﴿مِنْ﴾ تبعيضيّة، أو بعضٌ مخصوصٌ منه، فـ﴿مِنْ﴾ بيانيّة، وقيل: هو اللوح المحفوظ، فـ﴿مِنْ﴾ ابتدائيّة.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ أي: شأنَه البديعَ المنتظِمَ لغرابته في سلك الأمثال ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في تقديره[١] وحُكمِه ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أي: كحاله العجيبةِ التي لا يرتاب فيها مرتاب، ولا ينازِعُ فيها منازِع. ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ تفسير لِما أُبهم في المَثَل، وتفصيل لِما أُجمِلَ فيه، وتوضيح للتّمثيل ببيان وجهِ الشبَهِ بينهما، وحسْم لمادّة شُبَه الخصومِ، فإنّ إنكار خلقِ عيسى عليه السلام بلا أبٍ ممّن اعترف بخلقِ آدمَ عليه السلام بغير أبٍ وأمٍّ ممّا لا يكاد يصحّ. والمعنى: خلق قالَبه مِن تراب ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ أي: أنشأه بَشرًا، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون، ١٤/٢٣]، أو قدّر تكوينَه مِن التراب ثمّ كوّنه، ويجوز كونُ ﴿ثُمَّ﴾ لتراخي[٢] الأخبار، لا لتراخي المُخبَرِ به. ﴿فَيَكُونُ﴾ حكايةُ حالٍ ماضية.

روي أنّ وفدَ نجرانَ قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم:[٣] «ما لَك تشتمُ صاحبَنا؟» قال: «وما أقول؟» قالوا: «تقول: إنّه عبدٌ»، قال: «أجل، هو عبدُ الله ورسولُه، وكلمتُه ألقاها إلى العذراء البتولِ»، فغضِبوا وقالوا: «هل رأيتَ إنسانًا بغير[٤] أبٍ؟ فحيثُ سلّمتَ أنّه لا أبَ له مِن البشر وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى»،[٥] فقال عليه السلام: «إنّ آدمَ عليه السلام ما كان له أبٌ ولا أمٌ، ولم يلزَم مِن ذلك كونُه ابنًا لله سبحانه[٦] وتعالى، فكذا حالُ عيسى عليه السلام».[٧]

---

١ س: تقدير.
٢ ط + في.
٣ ي: عليه السلام.
٤ ط ي: مِن غير.
٥ س ي - تعالى.
٦ ي - سبحانه.
٧ القصّة في جامع البيان للطبري، ٤٦١/٥، بغير هذه الألفاظ، وفيه: فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يا جبريل؛ إنّهم سألوني أن أخبرهم بمثل عيسى»، قال جبريل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران، ٥٩/٣]، فلمّا أصبحوا عادوا، فقرأ عليهم الآيات.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو الحقُّ، أي: ما قصصنا عليك مِن نبأ عيسى عليه السلام وأمِّه، والظرف إمّا حال، أي: كائنًا مِن ربك، أو خبر ثانٍ، أي: كائنٌ منه تعالى. وقيل: هما مبتدأ وخبر، أي: الحقُّ المذكورُ مِن الله تعالى. والتعرّضُ لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبِ لتشريفه عليه السلام، والإيذانِ بأنّ تنزيلَ هذه الآياتِ الحقّةِ الناطقةِ بكنه الأمر تربيةٌ له صلّى الله عليه وسلّم[1] ولُطفٌ به.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ في ذلك، والخطاب إمّا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم[2] على طريقة الإلهابِ والتهييجِ لزيادة التثبيتِ والإشعارِ بأنّ الامتراء في المحذوريّة بحيث ينبغي أن ينهى عنه مَن لا يكاد يمكن صدوره عنه، فكيف بمَن هو بصدد الامتراء؟ وإمّا لكلّ مَن له صلاحية الخطاب.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١﴾

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ أي: مِن النصارى؛ إذ هم المتصدّون للمُحاجّة. ﴿فِيهِ﴾ أي: في شأن عيسى وأمِّه زعمًا منهم أنّه ليس على الشأن المحكيّ. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: ما يُوجِبُه إيجابًا قطعيًا مِن الآيات البيّناتِ، وسمعوا ذلك منك فلم يرعَوُوا عمّا هم عليه مِن الغيّ والضلال. ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿تَعَالَوْاْ﴾ أي: هلُمّوا بالرأي والعزيمة ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ اكتُفيَ بهم عن ذكر البنات؛ لظهور كونهم أعزَّ منهنّ، وأمّا النساء فتعلّقُهنّ / مِن جهة أخرى، ﴿وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ [٩٨ظ]
وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي: ليدعُ كلّ منّا ومنكم نفسَه وأعِزّةَ أهلِه وألصقَهم بقلبه إلى المُباهَلة ويحمِلهم عليها.

وتقديمهم على النفس في أثناء المُباهلةِ التي هي مِن باب المَهالكِ ومظانِّ التلفِ، مع أنّ الرجل يخاطرُ لهم بنفسه، ويحارب دونهم؛ للإيذان بكمال أمنِه

[1] ي: عليه السلام.
[2] ي: عليه السلام.

صلّى الله عليه وسلّم،[١] وتمامِ ثقتِه بأمره، وقوّةِ يقينِه بأنّه لن يُصيبَهم في ذلك شائبةُ مكروهٍ أصلًا. وهو السرّ في تقديم جانبِه عليه السلام على جانب المخاطَبين في كلّ مِن المقدّم والمؤخّرِ مع رعاية الأصلِ في الصيغة، فإنّ غير المتكلّم تبعٌ له في الإسناد.

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي: نتباهلْ بأن نلعنَ الكاذبَ منّا، والبُهلةُ -بالضمّ والفتح-: اللعنة، وأصلُها: الترك، مِن قولهم: بَهَلْتُ الناقةَ، أي: تركتُها بلا صِرار. ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ عطفٌ على ﴿نَبْتَهِلْ﴾ مبيّنٌ لمعناه.

روي أنّهم لمّا دُعوا إلى المُباهلة قالوا: «حتّى نرجعَ وننظرَ»، فلمّا تخالَوا قالوا للعاقب -وكان ذا رأيهم-: «يا عبدَ المسيح ما ترى؟» فقال: «واللهِ لقد عرفتم يا معشرَ النّصارى أنّ محمّدًا نبيّ مرسل، ولقد جاءكم بالفصل مِن أمر صاحبِكم، واللهِ ما باهل قومٌ نبيًا قطُّ فعاش كبيرُهم، ولا نبت صغيرُهم، ولئن فعلتم لتهلِكُنّ، فإن أبيتُم إلّا إلفَ دينِكم والإقامة على ما أنتم عليه فوادِعوا الرجلَ، وانصرِفوا إلى بلادكم». فأتَوا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم[٢] وقد غدا محتضِنًا[٣] الحسينَ آخذًا بيد الحسَنِ، وفاطمةُ تمشي خلفَه، وعليٌّ خلفها، رضي الله عنهم أجمعين،[٤] وهو يقول: «إذا أنا دعوتُ فأمِّنوا»، فقال أُسقفُ نجرانَ:[٥] «يا معشرَ النصارى، إنّي لأرى وجوهًا لو شاء الله تعالى أن يُزيل جبلًا مِن مكانه لأزاله بها، فلا تُباهلوا وتهلِكوا ولا يبقى على وجه الأرضِ نصرانيٌّ إلى يوم القيامة»، فقالوا: «يا أبا القاسم، رأينا أن لا نباهِلَك، وأن نُقِرَّك على دينك ونثبُتَ على ديننا»، قال صلّى الله عليه وسلّم:[٦] «فإذا أبيتم المُباهلةَ فأسلِموا يكنْ لكم ما للمسلمين، وعليكم ما عليهم»،[٧] فأبَوا، قال: «فإنّي أناجِزُكم»، فقالوا: «ما لنا بحربِ العربِ طاقةٌ، ولكن نصالِحُك على أن لا تغزونا ولا تُخيفَنا ولا تَردَّنا عن ديننا على أن نؤدّي إليك كلَّ عامٍ ألفي حُلّةٍ، ألف في صَفَر،

---

[١] ي: عليه السلام.
[٢] ي: عليه السلام.
[٣] ي: متحضّنًا.
[٤] ي - أجمعين.
[٥] ي: النجران.
[٦] ي: عليه السلام.
[٧] ي: على المسلمين [صحح في الهامش].

وألف في رجبٍ، وثلاثين دِرعًا عاديّة مِن حديد»، فصالحهم على ذلك، وقال: «والذي نفسي بيده؛ إنّ الهلاكَ قد تدلّى على أهل نجرانَ، ولو لاعنوا لَمُسِخوا قِردةً وخنازيرَ، ولاضْطَرمَ عليهم الوادي نارًا، ولاستأصَلَ الله نجرانَ وأهلَه حتّى الطيرَ على رءوس الشجر، ولَمَا حال الحولُ على النصارى كلِّهم حتّى يهلكوا».[1]

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: ما قُصّ مِن نبأ عيسى عليه السلام[2] وأمِّه ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ دون ما عداه مِن أكاذيبِ النصارى، فـ"هو" ضميرُ الفصلِ دخلتْه اللامُ؛ لكونه أقربَ إلى المبتدأ مِن الخبر، وأصلها أن تدخُلَ المبتدأَ. وقُرئ: "لَهْوَ" بسكون الهاء،[3] و﴿ٱلْقَصَصُ﴾ خبرُ ﴿إِنَّ﴾، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفتُه، أو "هو" مبتدأ، و﴿ٱلْقَصَصُ﴾ خبره، والجملة خبر لـ﴿إِنَّ﴾.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ صرّح فيه بـ﴿مِن﴾ الاستغراقيّة تأكيدًا للردّ على النصارى في تثليثهم.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر على جميع المقدوراتِ، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المحيط بالمعلومات، لا أحدَ يشاركُه في القدرة والحِكمة ليشاركَه في الألوهيّة.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن التوحيد وقَبولِ الحقِّ الذي قُصّ عليك بعد ما عاينوا تلك الحُججَ النيِّرة والبراهينَ الساطعة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: بهم، وإنّما وُضِعَ موضعَه ما وُضِع للإيذان بأنّ الإعراض عن التوحيد والحقِّ الذي لا محيدَ عنه بعد ما قامت به الحججُ إفسادٌ للعالَم، وفيه مِن شدّة الوعيدِ ما لا يخفى.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/٨٥.
٢ س – عليه السلام.
٣ قرأ بها أبو عمرو والكسائي وأبو جعفر وقالون. النشر لابن الجزري، ٢/٢٠٩.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أمرٌ بخطاب أهلِ الكتابَين، وقيل: بخطاب وفدِ نجْرانَ، وقيل: بخطاب يهودِ المدينةِ، ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا يختلف فيها الرسلُ والكتبُ، وهي: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: نوحِّدُه بالعبادة، ونُخلِصُ فيها، ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ ولا نجعلَ غيرَه شريكًا له في استحقاق العبادةِ، ولا نراه أهلًا لأن يُعبد، ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بأن نقولَ: عزيرٌ ابنُ الله، والمسيحُ ابنُ الله، ولا نُطيعَ الأحبارَ فيما أحدثوا مِن التحريم والتحليل؛ لأنّ كلًّا منهم بعضُنا، بشرٌ مثلُنا.

روي أنّه لمّا نزلت: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة، ٣١/٩] قال عديُّ بنُ حاتم:[1] «ما كنّا نعبُدهم يا رسولَ الله»، فقال عليه السلام: «أليس كانوا يُحِلّون لكم ويحرِّمون، فتأخذون بقولهم؟»، قال: «نعم»، قال عليه السلام: «هو ذاك».[2]

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عمّا دعوتَهم إليه مِن التوحيد وتركِ الإشراك ﴿فَقُولُوا۟﴾ أي: قل لهم أنت والمؤمنون: ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: لزِمَتكم الحُجّةُ، فاعترِفوا بأنّا مسلمون دونكم، أو اعترِفوا بأنكم كافرون[3] لِما نطقَتْ به الكتُب، وتطابقت عليه الرسلُ عليهم السلام.

تنبيه: انظُر إلى ما روعيَ في هذه القصّة مِن المبالغة في الإرشاد وحسنِ التدرُّج في المُحاجّة حيث بيّن أوّلًا أحوالَ عيسى عليه السلام، وما توارد عليه

---

[1] عَديّ بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عديّ الطائي، أبو طَريف (ت. ٦٨هـ/٦٨٧م). صاحب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. أسلم في سنة تسع مِن الهجرة، وكان نصرانيًا قبل ذلك، وثبت على إسلامه في الردّة، وأحضر صدقة قومِه إلى أبي بكر رضي الله عنه، وشهد فتح العراق، ثمّ سكن الكوفة، وشهد صفّين مع عليّ. عاش أكثر مِن مئة سنة. انظر: الإصابة لابن حجر، ٣٨٨/٤؛ والأعلام للزركلي، ٢٢٠/٤.

[2] بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٣٧١/١. وأخرجه بنحوه الترمذي في السنن، ٢٧٨/٥ (٣٠٩٥).

[3] وفي هامش ط س ي: فيكون قوله: ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ تعريضًا لهم بأنّهم كافرون. «منه».

مِن الأطوار المنافيةِ للإلهيّة، ثمّ ذُكر كيفيّةُ دعوتِه للناس إلى التوحيد والإسلامِ، فلمّا ظهَر عنادهم دُعُوا إلى المُباهلة بنوع مِن الإعجاز، ثمّ لمّا أعرَضوا عنها وانقادوا بعضَ الانقياد دُعوا إلى ما اتّفق عليه عيسى عليه السلام[1] والإنجيلُ وسائرُ الأنبياء والكتُب، ثمّ لمّا ظهر عدمُ إجدائِه أيضًا أُمِرَ بأن يقال لهم: ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ مِن اليهود والنصارى ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: في مِلّته وشريعتِه.

تنازعت اليهودُ والنصارى في إبراهيمَ عليه السلام، وزعَم كلّ منهم أنّه عليه السلام منهم، وترافَعوا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم،[2] فنزلت.[3]

والمعنى: لمَ تدّعون أنّه عليه السلام كان منكم؟ ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ على موسى عليه السلام ﴿وَٱلْإِنجِيلُ﴾ على عيسى عليه السلام ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ حيث كان بينه وبين موسى عليهما السلام ألفُ سنةٍ، وبين موسى وعيسى عليهما
[٩٩و] السلام ألفَا سنةٍ، فكيف يمكن / أن يتفوّهَ به عاقلٌ؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: ألا تتفكّرون فلا تعقِلون بطلانَ مذهبِكم؟ أو أتقولون ذلك، فلا تعقلون بُطلانه؟

﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر، صُدِّرت بحرف التنبيه، ثمّ بُيِّنت بجملة مستأنَفة إشعارًا بكمال غفلتِهم، أي: أنتم هؤلاءِ الأشخاصُ الحمقى حيث ﴿حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ في الجملة حيث وجدتموه في التوراة والإنجيل،

---

١ ط س - عليه السلام.
٢ ي: عليه السلام.
٣ انظر: جامع البيان للطبري، ٤٨١/٥.

﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾ أصلًا؛ إذ لا ذِكْرَ لدين إبراهيمَ عليه السلام[١] في أحد الكتابَين قطعًا. وقيل: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بمعنى "الذي"، و﴿حَٰجَجۡتُمۡ﴾ صلتُه. وقيل: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾ أصلُه: "أأنتم" على الاستفهام للتعجّب، قُلبت الهمزةُ هاءً.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ ما حاججتم فيه، أو كلَّ شيءٍ، فيدخُل فيه ذلك دخولًا أوّليًا. ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: محلَّ النزاعِ، أو شيئًا مِن الأشياء التي مِن جملتها ذلك.

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا﴾ تصريح بما نطَق به البرهانُ المقرِّر، ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا﴾ أي: مائلًا عن العقائد الزائغةِ كلِّها، ﴿مُّسۡلِمٗا﴾ أي: منقادًا لله تعالى، وليس المراد أنّه كان على مِلّة الإسلامِ، وإلّا اشترك الإلزامُ.[٢]

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ تعريض بأنّهم مشركون بقولهم: عزيرٌ ابنُ الله، والمسيحُ ابنُ الله، وردٌّ لادّعاء المشركين أنّهم على ملّته عليه السلام.

﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾

﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي: أقربَهم إليه وأخصَّهم به ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ أي: في زمانه ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لموافقتهم في أكثرِ ما شَرعه[٣] لهم على الأصالة. وقُرئ: "النَّبِيَّ"[٤] بالنصب[٥] عطفًا على الضمير في ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾، وبالجرّ[٦] عطفًا على "إبراهيمَ".

---

١ ط س - عليه السلام.

٢ قال القونوي: «واشتراك الإلزام بأن يقال: إنّ الإسلام حدث بنزول القرآن على محمّد عليه السلام، وكان إبراهيم عليه السلام قبل رسولنا عليه السلام بدهر طويل، ودفعه ما ذُكر». حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، ١٨٢/٦.

٣ ط: شرعهم.

٤ ط س ي: والنبيّ. | بالواو، وهو سهو.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٥.

٦ قراءة شاذّة، وعزاه ابن خالويه إلى بعضهم. انظر: مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٧، البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٠٣/٣.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ينصُرهم ويجازيهم الحسنى بإيمانهم. وتخصيص المؤمنين بالذكر ليثبُتَ الحكمُ في النبيّ عليه السلام بدلالة النصِّ.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ نزلت في اليهود حين دعَوا حُذيفةَ وعمّارًا ومُعاذًا إلى اليهوديّة،[١] و﴿لَوْ﴾ بمعنى "أن". ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ جملة حاليّة جيء بها للدلالة على كمال رسوخِ المخاطَبين وثباتِهم على ما هم عليه مِن الدين القويم، أي: وما يتخطّاهم الإضلالُ، ولا يعود وبالُه إلّا إليهم؛ لِما أنّه يُضاعفُ به عذابُهم. وقيل: وما يُضِلّون إلّا أمثالَهم،[٢] ويأباه قوله تعالى:[٣] ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: باختصاص وبالِه وضررِه بهم.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بما نَطَقتْ به التوراةُ والإنجيلُ، ودلّت على نبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم،[٤] ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي: والحالُ أنكم تشهدون أنّها آياتُ الله، أو بالقرآن وأنتم تشهدون نعتَه في الكتابَين، أو تعلمون بالمعجزات أنّه حقّ.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بتحريفكم وإبرازِ الباطِلِ في صورته، أو بالتقصير في التمييز بينهما. وقُرئ: "تَلَبِّسُونَ" بالتشديد،[٥] و"تَلْبَسُونَ" بفتح الباء،[٦] أي: تَلبَسون الحقَّ مع الباطل، كما في قوله عليه السلام:

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١/٣٧٢.
٢ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢/٢٢.
٣ ط - تعالى.
٤ ي: عليه السلام.
٥ قراءة شاذّة، عزاها أبو حيّان إلى أبي مِجلَز، وضبطها بضمّ التاء وكسر الباء المشدّدة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٢٠٧.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٥.

«كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ».[١]

﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ أي: نبوّةَ محمّد عليه السلام ونعتَه، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: حقّيّتَه.

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم رؤساؤهم ومفسدوهم لأعقابهم: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: أظهِروا الإيمانَ بالقرآن المنزَلِ عليهم ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: أوّلَه على المؤمنين،[٢] ﴿وَٱكْفُرُوٓاْ﴾ أي: أظهِروا ما أنتم عليه مِن الكفر به ﴿ءَاخِرَهُۥ﴾ مُرائين لهم أنكم آمنتم به بادِيَ الرأي مِن غير تأمّلٍ، ثمّ تأمّلتم فيه فوقَفتم على خلَل رأيِكم الأوّلِ، فرجعتم عنه، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: المؤمنين ﴿يَرْجِعُونَ﴾ عمّا هم عليه مِن الإيمان به كما رجعتم.

والمرادُ بـ"الطائفة": كعبُ بنُ الأشرفِ ومالكُ بنُ الصيفِ[٣] قالا لأصحابهما لمّا حُوّلت القِبلة: آمِنوا بما أنزلت عليهم مِن الصلاة إلى الكعبة، وصلّوا إليها أوّلَ النهار، ثمّ صلّوا إلى الصخرة آخِرَه؛ لعلّهم يقولون: هم أعلمُ منّا وقد رجَعوا، فيرجِعون.[٤] وقيل: هم اثنا عشرَ رجلًا مِن أحبار خيبَر، تقاولوا بأن يدخُلوا في الإسلام أوّلَ النهار، ويقولوا آخرَه: نظرنا في كتابنا وشاوَرْنا علماءَنا،

---

[١] عن عائشة رضي الله عنها؛ أنّ امرأة قالت: يا رسول الله؛ أقول: إن زوجي أعطاني ما لم يعطني، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «المتشبّع بما لم يُعطَ كلابِس ثوبَي زُور». **صحيح البخاري**، ٣٥/٧ (٥٢١٩)؛ **صحيح مسلم**، ١٦٨١/٣ (٢١٢٩). وقال النووي: «قال العلماء: معناه: المتكثِّر بما ليس عنده بأن يُظهر أنّ عنده ما ليس عنده؛ يتكثّر بذلك عند الناس، ويتزيّن بالباطل، فهو مذموم كما يذمّ مَن لبس ثوبَي زور. قال أبو عبيد وآخرون: هو الذي يلبَس ثياب أهل الزهد والعبادة والورع ومقصوده أن يُظهِر للناس أنّه متّصف بتلك الصفة، ويُظهِر مِن التخشّع والزهد أكثر ممّا في قلبه». **شرح صحيح مسلم** للنووي، ١١١/١٤.

[٢] ط ي - على المؤمنين.

[٣] ي: صيف.

[٤] انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٩١/٣؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٣٧٣/١؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٣/٢.

فلم نجِدْ محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم[١] بالنعت الذي ورد في التوراة؛ لعلّ أصحابه يشكّون فيه.[٢]

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٧٣﴾

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ أي: لا تُقِرّوا بتصديقٍ قلبيّ ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي: لأهل دينِكم، أو لا تُظهِروا إيمانَكم وجهَ النهار إلّا لمَن كان على دينكم مِن قبلُ، فإنّ رجوعَهم أرجى وأهمُّ. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ يهدي به مَن يشاءُ إلى الإيمان ويُثبّته عليه.

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ، أي: دبّرتم ذلك وقلتم: لأن يؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم. أو بـ﴿لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ أي: ولا تظهِروا إيمانكم بأن يؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم إلّا لأشياعكم، ولا تُفْشوه إلى المسلمين؛ لئلا يزيدَ ثباتُهم، ولا إلى المشركين؛ لئلا يدعوهم إلى الإسلام.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ اعتراض مفيد لكون كيدِهم غيرَ مُجدٍ لطائل، أو خبر ﴿إِنَّ﴾ على أنّ ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ بدل مِن ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾. وقُرئ: "ءَأَنْ يُؤْتَى" على الاستفهام التقريعيّ،[٣] وهو مؤيّد للوجه الأوّل، أي: ألِأَن يُؤتى أحدٌ... إلخ دبّرتم؟ وقُرئ: "إِنْ"[٤] على أنّها نافية،[٥] فيكونُ مِن كلام الطائفة، أي: ولا تؤمنوا إلّا لمَن تبِعَ دينَكم، وقولوا لهم: ما يؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم.

﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ عطفٌ على ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ﴾ على الوجهين الأوّلَين، وعلى الثالث معناه: حتّى يحاجّوكم عند ربِّكم فيدحَضوا حُجّتَكم. والواوُ ضميرُ ﴿أَحَدٌ﴾؛ لأنّه في معنى الجمع؛ إذ المرادُ به غيرُ أتباعِهم.

---

١ ي: عليه السلام.

٢ انظر: الكشّاف للزمحشري، ١/٣٧٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٣.

٣ بهمزتين مع تسهيل الهمزة الثانية، قرأ بها ابن كثير المكّي. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٣٦٦.

٤ س: أن.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٥.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ردٌّ لهم، وإبطال لِما زعَموه بالحجّة الباهرة.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾ أي: يجعل رحمتَه مقصورةً على ﴿مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ كلاهما تذييل لِما قبله مقرِّرٌ لمَضمونه.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ شروع في بيان خيانتِهم في المال بعد بيانِ خيانتِهم في الدين، والجارُّ والمجرورُ في محلّ الرفع على الابتداء حسبما مرّ تحقيقُه في تفسير قوله تعالى:[١] ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾... إلخ [البقرة، ٨/٢]. خبرُه قوله تعالى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ / بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ على أنّ المقصود بيانُ اتّصافِهم [٩٩ظ] بمضمون الجملة الشرطيّة، لا كونُهم ذواتِ المذكورين، كأنّه قيل: بعضُ أهلِ الكتاب بحيث إن تأمنْه بقنطار -أي: بمالٍ كثيرٍ- يؤدِّه إليك، كعبد الله بن سلامٍ، استودَعه قرشيٌّ ألفًا ومِائتيْ أوقيّةٍ ذهبًا فأدّاه إليه.[٢]

﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ كفِنحاصَ بنِ عازوراءَ، استودعه قرشيٌّ آخرُ فجحَده.[٣] وقيل: المأمونون على الكثير: النصارى؛ إذ الغالبُ فيهم الأمانة، والخائنون في القليل: اليهودُ؛ إذ الغالبُ فيهم الخيانة. ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال أو الأوقات، أي: لا يؤدّه إليك في حالٍ مِن الأحوال، أو في وقتٍ مِن الأوقات، إلّا في حال دوام قيامِك، أو في وقت دوامِ قيامِك على رأسه مبالِغًا في مطالبته بالتقاضي وإقامةِ البيّنة.

---

١ س ي - تعالى.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٧٤/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣/٢.

٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٧٤/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣/٢.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ترك الأداءِ المدلولِ عليه بقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَدِّهِۦٓ﴾، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بكمال غُلوِّهم في الشرّ والفساد. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنّهم ﴿قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ أي: في شأنِ مَنْ ليس مِن أهل الكتاب. ﴿سَبِيلٌ﴾ أي: عتاب ومؤاخذة. ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بادّعائهم ذلك ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّهم كاذبون مفترون على الله تعالى؛ وذلك لأنّهم استحلّوا ظُلْمَ مَن خالفهم، وقالوا: لم يُجعل في التوراة في حقّهم حُرمةٌ.

وقيل:[١] عامل اليهودُ رجالًا مِن قريشٍ، فلمّا أسلموا تقاضَوْهم، فقالوا: سقَط حقُّكم حيث تركتم دينَكم، وزعَموا أنّه كذلك في كتابهم.

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٢] أنّه قال عند نزولِها: «كذَب أعداءُ الله، ما مِن شيء في الجاهليّة إلّا وهو تحت قدميّ إلّا الأمانةَ، فإنّها مؤدّاة إلى البَرِّ والفاجر».[٣]

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٧٦﴾

﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لِما نفَوْه، أي: بلى عليهم فيهم سبيلٌ. وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ استئناف مقرِّر للجملة التي سدّ ﴿بَلَىٰ﴾ مسدَّها، والضميرُ المجرور لـ﴿مَنْ﴾، أو لله تعالى. وعموم ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ نائبٌ منابَ الراجعِ مِن الجزاء إلى ﴿مَنْ﴾، ومُشعِر بأنّ التقوى مَلاكُ الأمرِ، عامٌّ للوفاء وغيرِه مِن أداء الواجباتِ والاجتنابِ عن المناهي.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٧﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ أي: يستبدلون ويأخذون ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ أي: بدلَ ما عاهدوا عليه مِن الإيمان بالرسول صلّى الله عليه وسلّم والوفاءِ بالأمانات،

---

١ نقله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢/٢٤.
٢ ي: عليه السلام.
٣ جامع البيان للطبري، ٥/٥١١.

﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾ وبما حلفوا به مِن قولهم: لنُؤمِننّ به ولننصُرَنّه، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هو حُطامُ الدنيا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفاتِ القبيحةِ ﴿لَا خَلَٰقَ﴾ لا نصيبَ ﴿لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ مِن نعيمها، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: بما يسُرّهم، أو[1] بشيء أصلًا، وإنّما يقع ما يقع مِن السؤال والتوبيخِ والتقريعِ في أثناء الحساب مِن الملائكة عليهم السلام. أو لا ينتفعون بكلماتِ الله تعالى وآياتِه.

والظاهر أنّه كناية عن شدّة غضبِه وسَخَطِه، نعوذ بالله تعالى مِن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فإنّه مَجاز عن الاستهانة بهم والسَّخطِ عليهم، متفرّعٌ على الكناية في حقّ مَن يَجوز عليه النظرُ؛ لأنّ مَن اعتدّ بالإنسان التفت إليه، وأعاره نظر عينيه، ثمّ كثُر حتّى صار عبارةً عن الاعتداد والإحسانِ وإن لم يكن ثمّة نظَرٌ، ثمّ جاء فيمَن لا يجوز عليه النظرُ مجرّدًا لمعنى الإحسان، مَجازًا عمّا وقع، كنايةً عنه فيمَن يجوزُ عليه النظر. و﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متعلّق بالفعلين. وفيه تهويل للوعيد. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يُثني عليهم، أو لا يُطَهّرهم مِن أوضار الأوزار. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ما فعلوه مِن المعاصي.

قيل: إنّها نزلت في أبي رافعٍ ولُبابةَ بنِ أبي الحقيق[2] وحُيَيّ بنِ أخطَبَ، حرّفوا التوراة، وبدّلوا نعتَ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، وأخذوا الرِّشوةَ على ذلك.[3] وقيل: نزلت في الأشعث بنِ قيس[4] حيث كان بينه وبين رجل نزاعٌ في بئر،

---

[1] س: أي.

[2] كذا في الأصول الخطّيّة: "لُبابة" باللام والباء الموحدة، وهو كذلك في مطبوع **الكشّاف** للزمخشري، ٣٧٦/١. وفي **جامع البيان** للطبري، ٥١٦/٥؛ **والكشف والبيان** للثعلبي، ٩٨/٣، وغيرهما: "كِنانة" بالكاف والنون، وهو الصواب. وكِنانة بن أبي الحقيق اليهوديّ مِن بني النضير، كان شاعرًا، وكان قد تزوّج صفيّة بنت حُييّ بن أخطب أمّ المؤمنين قبل إسلامها، وقُتل عنها يوم خيبر. انظر: **معجم الشعراء** للمرزباني، ص ٣٥٢؛ وسير **أعلام النبلاء** للذهبي، ٢٣١/٢؛ **والإصابة** لابن حجر، ٥٣٣/١٣.

[3] انظر: **جامع البيان** للطبري، ٥١٦/٥؛ **والكشف والبيان** للثعلبي، ٩٨/٣.

[4] هو الأشعث بن قيس بن مَعدي كَرِب الكندي، أبو محمّد (ت. ٤٠هـ/٦٦١م). وفَد على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سنة عشرٍ في سبعين راكبًا مِن كِندة، وكان مِن ملوك كِندة. شهد الأشعث اليرموك بالشام والقادسيّة وغيرها، وسكَن الكوفة، وشهد مع عليّ صِفّين، وله معه أخبار. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ١٨١/١. **وتهذيب التهذيب** لابن حجر، ٣٥٩/١؛ **والأعلام** للزركلي، ٣٣٢/١.

فاختصما إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم،[١] فقال له: «شاهداك أو يمينُه»، فقال الأشعَث: «إذن يحلِفُ ولا يبالي»، فقال صلّى الله عليه وسلّم:[٢] «مَن حلَف على يمين يستحِقّ بها مالًا هو فيها فاجرٌ لقِيَ الله وهو عليه غضبان».[٣] وقيل: «في رجل أقام سِلعة في السوق، فحلَف لقد اشتراها بما لم يكن اشتراها به».[٤]

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ أي: مِن اليهود المحرِّفين ﴿لَفَرِيقًا﴾ ككعب بنِ الأشرفِ ومالكِ بنِ الصيف وأضرابِهما ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: يَفتِلونها بقراءته، فيُميلونها مِن المُنزَّل إلى المحرَّف، أو يَعطِفونها بشَبَه الكتاب. وقُرئ: "يُلَوُّونَ"[٥] بالتشديد،[٦] و"يَلُونَ" بقلب الواو المضمومة همزةً، ثمّ تخفيفِها بحذفها وإلقاء حركتها على ما قبلها مِن الساكن.[٧]

﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ أي: المحرَّفَ المدلولَ عليه بقوله تعالى: ﴿يَلْوُۥنَ﴾... إلخ، وقُرئ بالياء،[٨] والضميرُ للمسلمين. ﴿مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: مِن جملته، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ حال مِن الضمير المنصوبِ، أي: والحال أنّه ليس منه في نفس الأمرِ وفي اعتقادهم أيضًا.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ مع ما ذكر مِن اللَّيّ والتحريف على طريقة التصريحِ، لا بالتورية والتعريض، ﴿هُوَ﴾ أي: المحرَّفُ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: منزلٌ[٩] مِن عند الله، ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ حال مِن ضمير المبتدأ في الخبر، أي: والحالُ أنّه ليس مِن عنده تعالى

---

١ ي: عليه السلام.
٢ ي: عليه السلام.
٣ انظر: صحيح البخاري، ١٢١/٣ (٢٤١٦)؛ وصحيح مسلم، ١٢٢/١ (١٣٨).
٤ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤/٢. وهو حديث في صحيح البخاري، ٦٠/٣ (٢٠٨٨).
٥ ي: يُلوُّنها.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر وشيبة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٥.
٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحميد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٥.
٨ قراءة شاذّة، عزاها ابن خالويه لبعضهم. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٧؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٢٨/٣.
٩ ي: المنزّل.

في اعتقادهم أيضًا. وفيه مِن المبالغة في تشنيعهم وتقبيحِ أمرِهم وكمالِ جرأتهم ما لا يخفى، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ والكتاب في محلّ الإضمارِ لتهويل ما أقدموا عليه مِن القول.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّهم كاذبون ومفترون على الله تعالى، وهو تأكيد وتسجيل عليهم بالكذبِ على الله تعالى والتعمُّد فيه. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هم اليهودُ الذين قدِموا على كعب بنِ الأشرف وغيَّروا التوراةَ، وكتبوا كتابًا بدَّلوا فيه صِفةَ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم،[١] ثمّ أخذت قُريظةُ[٢] ما كتبوا فخلَطوه بالكتاب الذي عندهم».[٣]

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ بيان لافترائهم على الأنبياء عليهم السلام، حيث قال نصارى نجرانَ: «إنّ عيسى عليه السلام أمرنا أن نتّخِذَه ربًّا»، حاشاه عليه السلام، وإبطالٌ له إثرَ بيانِ افترائِهم على الله سبحانه وإبطالِه، / أي: ما صحّ وما استقام لأحد. [١٠٠و]
وإنّما قيل: ﴿لِبَشَرٍ﴾ إشعارًا بعلّة الحُكم، فإنّ البشريّة منافية للأمر الذي أسنده الكفرةُ إليهم.

﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الناطقَ بالحقّ، الآمرَ بالتوحيد، الناهيَ عن الإشراك. ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ الفهم والعلم، أو الحكمة؛ وهي السنّة، ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ﴾ ذلك البشرُ بعدما شرّفه الله تعالى بما ذُكر مِن التشريفات، وعرّفه الحقَّ وأطلعه على شئونه العالية ﴿لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي﴾ الجارُّ متعلّق بمحذوف هو صفةُ ﴿عِبَادًا﴾، أي: عبادًا كائنين لي ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بلفظ ﴿عِبَادًا﴾؛ لِما فيه مِن معنى الفعل، أو صفةٌ ثانيةٌ، ويحتمِل الحاليّةَ؛ لتخصّص النكرةِ بالوصف، أي: متجاوزين الله تعالى سواءٌ كان ذلك استقلالًا أو اشتراكًا، فإنّ التجاوز متحقّقٌ فيهما حتمًا.

---

[١] ي: عليه السلام.
[٢] ي: قريضة.
[٣] الكشّاف للزمخشري، ١/١٣٧٧؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٢٢٦.

قيل: إنّ أبا رافعٍ القُرَظي[١] والسيّدَ النجرانيّ[٢] قالا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم:[٣] «أتريد أن نعبُدَك ونتّخِذَك ربًّا؟» قال:[٤] «معاذَ الله أن يُعبَدَ غيرُ الله تعالى، وأن نأمرَ بعبادة غيرِه تعالى، فما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرَني»، فنزلت.[٥]

وقيل: قال رجل مِن المسلمين: «يا رسول الله؛ نسلِّم عليك كما يُسلِّم بعضُنا على بعض، أفلا نسجُد لك؟» قال عليه السلام: «لا ينبغي أن يُسجَدَ لأحد مِن دون الله تعالى، ولكن أكرِموا نبيَّكم، واعرِفوا الحقَّ لأهله».[٦]

﴿وَلَٰكِن كُونُواْ﴾ أي: ولكن يقول: كونوا ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ الربانيّ: منسوب إلى الربّ بزيادة الألف والنون، كاللِّحيانيّ والرُّقبانيّ.[٧] وهو الكاملُ في العِلم والعمل، الشديدُ التمسّكِ بطاعة الله تعالى[٨] ودينِه.

﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ أي: بسبب مُثابرتِكم على تعليم الكتابِ ودراستِه، أي: قراءتِه، فإنّ جعْلَ خبرِ "كان" مضارعًا لإفادة الاستمرارِ التجدّديّ. وتكريرُ ﴿بِمَا كُنتُمۡ﴾ للإيذان باستقلال كلّ مِن استمرار التعليمِ

---

١ هو أبو رافع القرظي اليهودي، اسمه سلّام بن أبي الحَقيق؛ وقيل: عبد الله بن أبي الحَقيق، عن ابن إسحاق: لمّا انقضى شأن الخندق وأمر بني قريظة، وكان أبو رافع فيمن حزّب الأحزاب على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، استأذَنت الخزرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في قتله، فأذِن لهم. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٠/٢؛ وفتح الباري لابن حجر، ٣٤٢/٧.

٢ السيّد النجراني، كان مِن وفْد نَجران الذين وفَدوا على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فناظرَهم على النصرانيّة، ثمّ إنّه قدم على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فأسلَم، وأنزله عليه الصلاة والسلام دار أبي أيّوب الأنصاري. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣٥٧/١؛ والإصابة لابن حجر، ٥٥٨/٤.

٣ ي: عليه السلام.

٤ ط ي: فقال.

٥ انظر: جامع البيان للطبري، ٥٢٤/٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥/٢.

٦ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٠١/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥/٢. قال السيوطي: «أخرجه عبد بن حميد عن الحسَن». الدرّ المنثور للسيوطي، ٢٥٠/٢. وفي السنن مِن حديث قيس بن سعد: ... فأنت يا رسول الله أحقّ أن نسجد لك، قال: «أرأيت لو مررت بقبري، أكنت تسجد له؟» قال: قلت: لا، قال: «فلا تفعلوا، لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهنّ، لِما جعل الله لهم عليهنّ مِن الحقّ». سنن أبي داود، ٤٧٥/٣ (٢١٤٠).

٧ اللِّحياني -بكسر اللام-: عظيم اللِّحية، والرُّقباني: غليظ الرَّقبة. حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، ٧٩/٦.

٨ ط س - تعالى.

واستمرارِ القراءةِ بالفضل وتحصيلِ الربّانية. وتقديمُ التعليم على الدراسة لزيادة شرفِه عليها، أو[١] لأنّ[٢] الخطابَ الأوّلَ لرؤسائهم، والثاني لمَن دونهم. وقُرئ: "تَعْلَمُونَ"[٣] بمعنى: عالمين، و"تُدَرِّسُونَ"[٤] مِن التدريس، و"تُدْرِسُونَ"[٥] مِن الإدراس بمعنى: التدريس، كأكرَمَ بمعنى كرَّم، ويجوز كون القراءة المشهورة أيضًا بهذا المعنى، على تقدير: بما تدْرُسونه على الناس.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝٨٠﴾

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ بالنصب عطفًا على ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾،[٦] و﴿لَا﴾ مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾،[٧] أي: ما كان لبشر أن يستنبئَه الله تعالى ثمّ يأمرَ الناس بعبادة نفسِه ويأمرَ باتّخاذ الملائكة والنبيّين أربابًا. وتوسيطُ الاستدراك بين المعطوفَين للمسارعة إلى تحقيق الحقّ ببيان ما يليق بشأنه ويحِقُّ صدورُه عنه إثرَ تنزيهه عمّا لا يليقُ به ويمتنِعُ صدورُه عنه.

وأمّا ما قيل مِن "أنّها[٨] غيرُ مزيدةٍ على معنى: أنّه ليس له أن يأمُرَ بعبادته ولا يأمرَ باتّخاذِ أكفائِه أربابًا؛ بل ينهى عنه، وهو أدنى مِن العبادة"؛[٩] فيقضي بفساده ما ذُكِر مِن توسيط[١٠] الاستدراكِ بين الجملتين المتعاطفتين ضرورةَ أنّهما حينئذ في حكم جملةٍ واحدة، وكذا قوله تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾ فإنّه صريح

---

١ ي - أو.

٢ ي: ولأنّ.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٦.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حياة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٦.

٦ في الآية السابقة.

٧ في الآية السابقة.

٨ ط - وتوسيطُ الاستدراك بين المعطوفَين للمسارعة إلى تحقيق الحقّ ببيان ما يليق بشأنه ويحِقُّ صدورُه عنه إثرَ تنزيهه عمّا لا يليقُ به ويمتنِعُ صدورُه عنه، وأمّا ما قيل مِن أنّها؛ ط + أو.

٩ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٥. | ط + وقُرئ بالرفع على الاستئناف، ويحتمل الحال. ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾ إنكار لِما نفي عن البشر، والضمير له، وقيل: لله سبحانه. | وقعت هذه الزيادة كذلك في نسخة س ثمّ ضرب عليها.

١٠ ي: توسّط.

في أنّ المراد بيانُ انتفاءِ كِلا الأمرَين قصدًا، لا بيانُ انتفاءِ الأوّلِ لانتفاءِ الثاني، ويعضُده قراءةُ الرفع[١] على الاستئناف. وتجويز الحاليّة بتقدير المبتدأ -أي: وهو لا يأمرَكم... إلى آخره- بيّن الفساد لِما عرَفته آنفًا.

وقوله تعالى:[٢] ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وهذا[٣] دليل[٤] على أنّ الخطابَ للمسلمين، وهم المستأذِنون للسجود له صلّى الله عليه وسلّم.[٥]

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ منصوب بمضمَر خوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم،[٦] أي: اذكرْ وقتَ أخذِه تعالى ميثاقَهم.

﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ قيل: هو على ظاهره، وإذا[٧] كان هذا حكمَ الأنبياءِ كان الأممُ بذلك أولى وأحرى. وقيل: معناه: أُخِذ الميثاقُ مِن النبيّين وأممِهم، واستُغنيَ بذكرهم عن ذكرهم. وقيل: إضافة الميثاقِ إلى النبيّين إضافةٌ إلى الفاعل، والمعنى: وإذ أخذ الله الميثاقَ الذي وثّقه الأنبياءُ على أممهم. وقيل: المراد أولادُ النبيّين على حذف المضافِ، وهم بنو إسرائيلَ، أو سمّاهم نبيّين تهكّمًا بهم؛ لأنّهم كانوا يقولون: نحن أولى[٨] بالنبوّة مِن محمّد صلّى الله عليه وسلّم؛ لأنّا أهلُ الكتاب والنبيّون كانوا منّا.

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو - والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٠.

٢ ط س - فيقضي بفساده ما ذُكِر مِن توسيط الاستدراكِ بين الجملتين المتعاطفتين ضرورةَ أنّهما حينئذ في حكم جملةٍ واحدة، وكذا قوله تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾، فإنّه صريحٌ في أنّ المرادَ بيانُ انتفاءِ كِلا الأمرَين قصدًا، لا بيانُ انتفاءِ الأوّلِ لانتفاءِ الثاني، ويعضُده قراءةُ الرفعِ على الاستئناف، وتجويزُ الحاليّة بتقدير المبتدأ -أي: وهو لا يأمرَكم... إلى آخره- بيّن الفساد لِما عرَفته آنفًا. وقوله تعالى ["صح" في هامش س].

٣ ي - وهذا.

٤ ي: يدلّ.

٥ ي: عليه السلام.

٦ ي: عليه السلام.

٧ ي: وإذ.

٨ صحّح في هامش ط: أحقّ.

واللام في ﴿لَمَا﴾ موطِّئة للقسَم؛ لأنّ أخذَ الميثاق بمعنى الاستحلافِ، و"ما" يحتملُ الشرطيةَ، و﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ سادٌّ مسدَّ جوابِ القسم والشرط، ويحتمل الخبريّة. وقُرئ: "لِمَا" بالكسر[١] على أنّ "ما" مصدريّة، أي: لأجل إيتائي إيّاكم بعضَ الكتاب ثمّ لمجيء رسولٍ مصدّقٍ أخذَ الله الميثاقَ لَتؤمِنُنَّ به ولَتنصُرُنّه، أو موصولةٌ، والمعنى: أخذَه للذي آتيتُكموه وجاءكم رسول مصدّق له. وقُرئ: "لَمّا"[٢] بمعنى: حين آتيتُكم، أو لَمِنْ أجل ما[٣] آتيتُكم، على أنّ أصله "لَمِنْ ما" بالإدغام، فحُذف إحدى الميمات الثلاثِ استثقالًا.

﴿قَالَ﴾ أي: الله تعالى بعد ما أخذَ الميثاقَ: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ بما ذُكر ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أي: عهدي، سُمّيَ به لأنّه يؤصَرُ، أي: يُشَدّ. وقُرئ بضمّ الهمزة،[٤] وهي إمّا لغةٌ فيه، كعِبْر وعُبْر،[٥] أو جمع إصار؛ وهو ما يشدّ به. ﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قالوا عند ذلك؟ فقيل: قالوا: ﴿أَقْرَرْنَا﴾، وإنّما لم يُذكر أخذُهم الإصر اكتفاءً بذلك. ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿فَاشْهَدُواْ﴾ أي: فليشهدْ بعضُكم على بعض بالإقرار. وقيل: الخطابُ فيه للملائكة. ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: وأنا أيضًا على إقراركم ذلك وتشاهُدِكم شاهدٌ. وإدخال "مع" على المخاطبين لِما أنّهم المباشِرون للشّهادة حقيقةً، وفيه مِن التأكيد والتحذيرِ ما لا يخفى.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض عمّا ذكر ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الميثاقِ والتوكيدِ بالإقرار والشهادة، فمعنى البُعد في اسم الإشارةِ لتفخيم الميثاق، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى "مَنْ". والجمعُ باعتبار المعنى، كما أنّ الإفراد في ﴿تَوَلَّىٰ﴾ باعتبار اللّفظ. وما فيه مِن معنى البُعد للدلالة على ترامي أمرِهم في السوء وبُعد منزلتِهم في الشر والفساد،

[١] قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤١.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٦.

[٣] ي - ما.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي بكر عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٦.

[٥] وفي هامش ي: هو شطّ النهر. «منه».

أي: فأولئك المُتولُّون المتّصفون بالصفات القبيحةِ ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المتمرّدون الخارجون عن الطاعة مِن الكَفَرة، فإنّ الفاسق مِن كلّ طائفةٍ مَنْ كان متجاوزًا عن الحدّ.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ عطفٌ على مقدّر، أي: أيتوَلَّون[١] فيبغون غيرَ دينِ الله؟ وتقديمُ المفعولِ لأنّه المقصود إنكارُه، أو على الجملة المتقدّمةِ، / والهمزةُ [١٠٠ظ] متوسّطة بينهما؛ للإنكار. وقُرئ بتاء الخطاب[٢] على تقدير: وقل لهم.

﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جملة حاليّة مفيدة لوكادة[٣] الإنكار. ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي: طائعين بالنظر واتّباعِ الحجّةِ، وكارهين بالسيف ومعاينةِ ما يُلجئ إلى الإسلام، كنتْق الجبلِ، وإدراكِ الغرقِ، والإشرافِ على الموت، أو مختارين كالملائكة والمؤمنين، ومسخَّرين كالكَفَرة، فإنّهم لا يقدِرون على الامتناع عمّا قُضيَ عليهم.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أي: مَنْ فيهما، والجمعُ باعتبار المعنى. وقُرئ بتاء الخطاب.[٤] والجملة إمّا معطوفة على ما قبلها منصوبة على الحاليّة، وإمّا مستأنَفة سيقت للتّهديد والوعيد.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أمرٌ للرسول صلّى الله عليه وسلّم[٥] بأن يُخبرَ عن نفسه

---

١ ي: يتولّون.
٢ قرأ بها الجمهور غير أبي عمرو ويعقوب وحفص. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤١.
٣ قال المطرّزي: «الوكادة: بمعنى التوكيد، غير ثبت». المُغرب للمطرّزي، «وكد».
٤ قرأ بها الجمهور غير يعقوب وحفص. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤١.
٥ ي: عليه السلام.

ومَنْ معه مِن المؤمنين بالإيمان بما ذُكر، وجمع الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وهو القرآنُ؛ لِما أنّه منزل عليهم أيضًا بتوسّط تبليغِه إليهم، أو لأنّ المنسوب إلى واحد مِن الجماعة قد يُنسَب إلى الكلّ، أو عن نفسه فقط، وهو الأنسبُ لِما بعده. والجمعُ لإظهار جلالةِ قدرِه عليه السلام ورفعةِ محلّه بأمره بأن يتكلّم عن نفسه على دَيْدَن الملوكِ، ويجوز أن يكون الأمرُ عامًّا، والإفرادُ لتشريفه صلّى الله عليه وسلّم،[١] والإيذانِ بأنّه عليه السلام أصل في ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق، ١/٦٥].

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ مِن الصحُف. والنزولُ كما يعدّى بـ"إلى" -لانتهائه إلى الرسل- يعدّى بـ"على"؛ لأنّه مِن فوق، ومَن رامَ الفرق بأنّ "على" لكون الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم،[٢] و"إلى" لكون الخطاب للمؤمنين فقد تعسّف، ألا يرى إلى قوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾... إلخ [البقرة، ٤/٢]، وقوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾... إلخ [آل عمران، ٧٢/٣]. وإنّما قدّم المُنْزلُ على الرسول صلّى الله عليه وسلّم[٣] على ما أُنزِل على سائر الرسل عليهم السلام مع تقدّمه عليه نزولًا؛ لأنّه المعرّفُ له والعيار عليه. و﴿ٱلْأَسْبَاطِ﴾ جمع سِبْط، وهو الحافد، والمرادُ بهم حفَدَةُ يعقوبَ عليه السلام وأبناؤه الاثنا[٤] عشرَ وذراريّهم، فإنّهم حفدةُ إبراهيمَ عليه السلام.

﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ مِن التوراة والإنجيلِ وسائرِ المعجزاتِ الظاهرةِ بأيديهما، كما يُنبئ عنه إيثارُ "الإيتاءِ" على الإنزالِ الخاصّ بالكتاب. وتخصيصُهما بالذكر لِما أنّ الكلام مع اليهود والنصارى. ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ عطفٌ على ﴿مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ عليهما السلام، أي: وبما أوتي النبيّون مِن المذكورين وغيرِهم ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ مِن الكتب والمعجزاتِ.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ كدأبِ اليهودِ والنصارى، آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض؛ بل نؤمن بصِحّةِ نبوّةِ كلّ منهم، وبحقّيّة ما أُنزل إليهم في زمانهم. وعدمُ التعرّضِ

---

[١] ي: عليه السلام.
[٢] ي: عليه السلام.
[٣] ي: عليه السلام.
[٤] ط: الاثنى.

لنفي التفريق بين الكتبِ لاستلزام المذكورِ إيّاه، وقد مرّ تفصيلُه في تفسير قولِه تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة، ٢/٢٨٥]. وهمزة ﴿أَحَدٍ﴾ إمّا أصليّة، فهو اسم موضوع لمَن يصلُح أن يخاطَبَ، يستوي فيه المفرد والمثنّى والمجموع والمذكّر والمؤنّث، ولذلك صحّ دخول ﴿بَيْنَ﴾ عليه، كما في مثل: المالُ بين الناس. وإمّا مُبدَلة مِن الواو، فهو بمعنى واحد، وعمومُه لوقوعه في حيّز النفي، وصِحّةُ دخول ﴿بَيْنَ﴾ عليه باعتبار معطوفٍ قد حُذف لظهوره، أي: بين أحدٍ منهم وغيرِه، كما في قول النابغة:

فما كان بينَ الخيرِ إذ جاء سالمًا أبو حَجَرٍ[1] إلّا ليالٍ[2] قلائلُ[3]

أي: بين الخير وبيني.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: منقادون، أو مخلصون له تعالى أنفسنا، لا نجعلُ له شريكًا فيها. وفيه تعريض بإيمان أهلِ الكتاب، فإنّه بمَعزِل مِن ذلك.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: غيرَ التوحيد والانقيادِ لحكم الله تعالى كدأب المشركين صريحًا، والمدّعين[4] للتّوحيد مع إشراكهم كأهل الكتابين.

﴿دِينًا﴾ ينتحِلُ إليه، وهو نصب على أنه مفعول لـ﴿يَبْتَغِ﴾، و﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ حال منه؛ لِما أنّه كان صفةً له، فلمّا قُدِّمت عليه انتصبت حالًا، أو هو المفعول، و﴿دِينًا﴾ تمييز؛ لِما فيه مِن الإبهام، أو بدل مِن ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾.

﴿فَلَن يُقْبَلَ﴾ ذلك ﴿مِنْهُ﴾ أبدًا؛ بل يُردّ أشدَّ ردّ وأقبحَه. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ إمّا حال مِن الضمير[5] المجرور، أو استئناف لا محلّ له

---

١ كذا ضبطها المصنّف في موضع آخر.

٢ ي: أبو حجر الليالي.

٣ ديوان النابغة الذبياني، ص ١٢٠. وهو من قصيدة يرثي بها النعمان بن الحارث الغساني. و"أبو حجر" كُنية النعمان، و"أبو حجر" في البيت فاعل "جاء"، و"سالمًا" حال منه، و"قلائلُ" صفة "ليال". والشاهد في البيت: قوله: "بينَ الخير لو جاء سالمًا" حيث حذف فيه المعطوف بالواو؛ إذ التقدير: فما كان بين الخير وبيني لو جاء سالمًا. انظر: المقاصد النحويّة للعَيني، ١٦٥٣/٤.

٤ ي: والمدّعيين.

٥ ي: ضمير.

مِن الإعراب، أي: مِن الواقعين في الخُسران. والمعنى: أنّ المُعرِض عن الإسلام والطالبَ لغيره فاقدٌ للنّفع، واقعٌ في الخسران بإبطال الفطرةِ السليمةِ التي فُطر الناسُ عليها. وفي ترتيب الردّ والخُسران على مجرّد الطلبِ دلالةٌ على أنّ حال مَن تديّن بغير الإسلام واطمأنّ بذلك أفظعُ وأقبحُ. واستُدِلّ به على أنّ الإيمان هو الإسلامُ، إذ لو كان غيرَه لم يقبل، والجوابُ: أنّه ينفي قَبولَ كلِّ دينٍ يُغايرُه، لا قبولَ كلّ ما يغايرُه.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ﴾ إلى الحقّ[1] ﴿قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ قيل: هم عشرةُ رهطٍ ارتدّوا بعد ما آمنوا ولحِقوا بمكّة.[2] وقيل: هم يهودُ قُريظةَ والنَّضِير ومَنْ دان بدينهم، كفروا بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم[3] بعد أن كانوا مؤمنين به قبل مَبعثِه.

﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ استبعاد لأن يهديَهم الله تعالى، فإنّ الهائد[4] عن الحقّ بعد ما وضَحَ له مُنهمِكٌ في الضلال، بعيدٌ عن الرشاد. وقيل: نفيٌ وإنكار له، وذلك يقتضي أن لا يقبلَ توبة المرتدّ. وقوله تعالى: ﴿وَشَهِدُوٓاْ﴾ عطفٌ على ﴿إِيمَٰنِهِمْ﴾ باعتبار انحلالِه إلى جملة فعليّةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ﴾... إلخ [الحديد، ١٨/٥٧]، فإنّه في قوّة أن يقال: بعد أن آمنوا. أو حال مِن ضمير ﴿كَفَرُواْ﴾ بإضمار "قد". وهو دليل على أنّ الإقرار باللّسان خارج عن حقيقة الإيمان.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الذين ظلموا أنفسَهم بالإخلال بالنظر، ووضعِ الكفر موضِعَ الإيمان، فكيف مَن جاءه الحقُّ وعرَفه ثمّ أعرض عنه؟ والجملة اعتراضيّة، أو حاليّة.

---

١ س - إلى الحقّ.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٨١/١؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٢٥١/٣.

٣ ي: عليه السلام.

٤ الهائد: اسم فاعل مِن "هاد" إذا رجع، قال ابن الأعرابي: «هاد إذا رجع مِن خير إلى شرّ، أو مِن شرّ إلى خير». انظر: لسان العرب لابن منظور، «هود».

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ٨٧﴾

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتّصافِهم بما مرّ مِن الصفات الشنيعة، وما فيه مِن معنى البعدِ لِما مرّ مرارًا. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ﴾ مبتدأ ثانٍ، وقوله تعالى: ﴿أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ خبرُه، والجملة
[١٠١و] خبر لـ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾. وهذا يدلُّ بمنطوقه على جواز لعنِهم، وبمفهومِه ينفي / جوازَ لعنِ غيرِهم، ولعلّ الفرقَ بينهم وبين غيرِهم أنّهم مطبوع على قلوبهم، ممنوعون مِن الهدى، آيِسون عن الرحمة رأسًا، بخلاف غيرِهم. والمرادُ بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾: المؤمنون، أو الكلُّ؛ فإنّ الكافر أيضًا يَلعن مُنكِرَ الحقِّ والمرتدَّ عنه، ولكن لا يعرِف الحقَّ بعينه.

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٨﴾

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ في اللّعنة والعقوبةِ، أو النار وإن لم تُذكر؛ لدلالة الكلامِ عليها. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ أي: يُمهَلون.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٨٩﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن بعد الارتدادِ ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ أي: ما أفسدوا، أو دخلوا في الصلاح ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فيَقبلُ توبتَهم ويتفضّلُ عليهم، وهو تعليل لِما دلّ عليه الاستثناء. وقيل:[١] نزلت في الحارثِ بنِ سويد[٢] حين ندِم على رِدّته، فأرسل إلى قومه أن يسألوا: هل لي مِن توبة؟ فأرسل إليه أخوه الجُلاس[٣] الآيةَ، فرجَع إلى المدينة فتاب.[٤]

---

[١] ي: قيل.

[٢] هو الحارث بن سُويد بن الصامت الأنصاري الأوسي. كان قد ارتدّ على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولحِق بالكفّار، فنزلت هذه الآية، فرجع وأسلم وحسن إسلامه. قال ابن الأثير: اتّفق أهل النقل على أنّه الذي قتل المُجذَّر بن ذِياد، فقتله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم به، وكان سبب قتله المُجذَّر أنّ المُجذَّر قتل أباه سويد بن الصامت في الجاهليّة، فرأى الحارثُ مِن المُجذَّر غِرّة يوم أُحُد فقتله وهرَب. انظر: الاستيعاب لابن عبد البر، ١/٣٠٠؛ والإصابة لابن حجر، ٢/٣٥٧.

[٣] هو جُلَاس بن سُويد بن الصامت الأنصاري، أخو الحارث بن سُويد، له صحبة، وله ذِكر في المغازي. كان مِن المنافقين، ثمّ تاب وحسنت توبته. انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ١/٣٤٦؛ والإصابة لابن حجر، ٢/٢١٩.

[٤] انظر: جامع البيان للطبري، ٥/٥٥٧.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ٩٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ كاليهود كفروا بعيسى والإنجيلِ بعد الإيمانِ بموسى عليه السلام[١] والتوراة، ثمّ ازدادوا كفرًا حيث كفروا[٢] بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم والقرآنِ، أو كفروا به عليه السلام بعد ما آمنوا به قبل مَبعثِه، ثمّ ازدادوا كفرًا بالإصرار عليه، والطعنِ فيه، والصدِّ عن الإيمان، ونقضِ الميثاق، أو كقومٍ ارتدّوا ولحِقوا بمكّة ثمّ ازدادوا كفرًا بقولهم: نتربّص بهم رَيْبَ المنون، أو نرجِعُ إليه فننافِقُه بإظهار الإيمان.

﴿لَن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ لأنّهم لا يتوبون إلّا عند إشرافِهم على الهلاك، فكُنِي عن عدم توبتِهم بعدم قَبولِها تغليظًا في شأنهم، وإبرازًا لحالهم في صورة الآيسين مِن الرحمة، أو لأنّ توبتهم لا تكون إلّا نفاقًا؛ لارتدادهم وازديادِهم كفرًا، ولذلك لم يدخُلْ فيه الفاء. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ الثابتون على الضلال.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦ﴾ لمّا كان الموتُ على الكفر سببًا لامتناع قَبولِ الفِديةِ زيدت الفاءُ ههنا للإشعار به. وملءُ الشيءِ: ما يُملأ به، و﴿ذَهَبٗا﴾ تمييز. وقُرِئ بالرفع[٣] على أنّه بدل مِن ﴿مِلۡءُ﴾، أو الخبرُ[٤] محذوف.[٥] ﴿وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ﴾ محمول على المعنى، كأنّه قيل: فلن يُقبل مِن أحدهم فدية ولو افتدى بمِلء الأرضِ ذهبًا، أو معطوف على مضمَر، تقديرُه: فلن يقبل مِن أحدهم مِلءُ الأرض ذهبًا لو تصدّق به في الدنيا ولو افتدى به مِن العذاب في الآخرة، أو المرادُ: ولو افتدى بمثلِه،

---

١ ط س – عليه السلام.
٢ ط س – حيث كفروا.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن سراج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٧.
٤ ي: خبر.
٥ ي: لمحذوف.

كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ [الزمر، ٣٩/٤٧]. و"المِثلُ" يحذف ويزاد كثيرًا؛ لأنّ المِثلَين في حكم شيءٍ واحد.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتّصافِهم بالصفات الشنيعة المذكورة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلمٌ. اسم الإشارةِ مبتدأ، والظرف خبرُه، ولاعتماده على المبتدأ ارتفع به ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على الفاعليّة. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ في دفع العذابِ عنهم، أو في تخفيفه. و﴿مِن﴾ مزيدة للاستغراق، وصيغة الجمعِ لمراعاة الضميرِ، أي: ليس لواحد منهم ناصرٌ واحد.

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ مِن "ناله نيلًا" إذا أصابه. والخطابُ للمؤمنين. وهو كلام مستأنَف، سيق لبيان ما ينفعُ المؤمنين ويُقبلُ منهم إثرَ بيانِ ما لا ينفعُ الكفرةَ ولا يُقبل منهم. أي: لن تبلُغوا حقيقةَ البِرِّ الذي يتنافس فيه المتنافسون، ولن تُدركوا شأوَه، ولن تلحَقوا بزُمرة الأبرارِ، أو لن تنالوا برَّ الله تعالى؛ وهو ثوابه ورحمته ورضاه وجنّته ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا﴾ أي: في سبيل الله عزّ وجلّ رغبةً فيما عنده. و﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ تبعيضيّة، ويؤيّده قراءةُ مَن قرأ: "بَعْضَ مَا تُحِبُّونَ".[١] وقيل: بيانية، و"مَا" موصولة أو موصوفة، أي: ممّا تهوَوْن ويُعجبُكم مِن كرائمِ أموالِكم وأحبّها إليكم، كما في قوله تعالى: ﴿أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة، ٢/٢٦٧]، أو ممّا يعُمّها وغيرَها مِن الأعمال والمُهجة، على أنّ المراد بالإنفاق: مطلقُ البذلِ. وفيه مِن الإيذان بعزّة منالِ البرِّ ما لا يخفى.

وكان السلفُ رضي الله تعالى[٢] عنهم أجمعين[٣] إذا أحبّوا شيئًا جعلوه لله عزّ وجلّ.[٤] ورُوي أنّها لمّا نزلت جاء أبو طلحةَ، فقال: «يا رسولَ الله؛ إنّ أحبَّ

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ١/٣٨٥؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٢٦١.
[٢] س ي - تعالى.
[٣] س ي - أجمعين.
[٤] ي: تعالى.

أموالي إليَّ بَيْرَحاء،[١] فضعْها يا رسولَ الله حيث أراك الله»، فقال صلّى الله عليه وسلّم:[٢] «بخٍ بخٍ، ذاك مالٌ رابحٌ -أو رائجٌ- فإنّي أرى أن تجعلَها في الأقربين»، فقسَمها في أقاربه.[٣]

وجاء زيدُ بن حارثةَ بفرسٍ له كان يحبُّها، فقال:[٤] «هذه في سبيل الله»، فحمل عليها رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم[٥] أسامةَ بنَ زيدٍ، فكأنّ زيدًا وجَدَ في نفسه، وقال: «إنّما أردتُ أن أتصدّقَ به»، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:[٦] «أما إنّ الله تعالى قد قبِلها منك».[٧] قيل: وفيه دلالة على أنّ إنفاق أحبِّ الأموالِ على أقربِ الأقاربِ أفضل.

وكتب عمرُ رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه: أن يشتريَ له جاريةً مِن سبْي جَلولاء[٨] يوم فُتِحت مدائنُ كسرى، فلمّا جاءت أعجبتْه، فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فأعتَقها.[٩]

وروي أنّ عمرَ بنَ عبد العزيز رضي الله عنه[١٠] كانت لزوجته جاريةٌ بارعةُ الجمال، وكان عمر راغبًا فيها، وكان قد طلبها منها مرارًا، فلم تُعطِها إيّاه، ثمّ لمّا وُلّيَ الخِلافةَ زيّنَتها وأرسلتها إليه، فقالت: «قد وهبتُكَها يا أميرَ المؤمنين،

---

١ بيرحاء: قال النووي: «اختلفوا في ضبط هذه اللفظة على أوجه»، ثمّ نَقل عن القاضي عياض قولَه: «رَوينا هذه اللفظة عن شيوخنا بفتح الراء وضمّها مع كسر الباء، وبفتح الباء والراء»، وذَكر غيرَ ذلك، ثمّ قال: «وهو حائط يسمّى بهذا الاسم، وليس اسم بئر، والحديث يدلّ عليه». انظر: شرح صحيح مسلم للنووي، ٨٤/٧.

٢ ي: عليه السلام.

٣ ي: أقربائه. | انظر: صحيح البخاري، ١١٩/٢ (١٤٦١)، ١٠٢/٣ (٢٣١٨)؛ وصحيح مسلم، ٦٩٣/٢ (٩٩٨).

٤ ي + له.

٥ ي: عليه السلام.

٦ ي: عليه السلام.

٧ الكشّاف للزمخشري، ٣٨٤/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٨/٢. وانظر: جامع البيان للطبري، ٥٧٧/٥.

٨ جَلولاء: مدينة في العراق في أوّل الجبل، وهي مدينة صغيرة عامرة بها نخل وزروع، ومنها إلى خانقين سبعة وعشرون ميلًا. وعليها كانت الوقيعة بالفُرس أيّام عمر رضي الله عنه، وكان فتحها يسمّى فتح الفتوح، وكانت غنيمة المسلمين فيها أكثر منها يوم القادسيّة، بلغ السهم ستّة آلاف درهم. انظر: معجم البلدان للحموي، ١٥٦/٢؛ والروض المعطار للحميري، ص ١٦٧.

٩ الكشّاف للزمخشري، ٣٨٤/١. وانظر: جامع البيان للطبري، ٥٧٤/٥.

١٠ ط س - رضي الله عنه.

فلتخدُمْك»»، قال: «مِن أين ملكتِها؟» قالت: «جئتُ بها مِن بيت أبي عبدِ الملك»»، ففتّش عن كيفيّة تملُّكِه إيّاها، فقيل: إنّه كان على فلانٍ العاملِ ديونٌ، فلمّا تُوفّيَ أُخِذت مِن ترِكَته، ففتّش عن حال العاملِ وأحضر ورثَته وأرضاهم جميعًا بإعطاء المالِ، ثمّ توجّه إلى الجارية وكان يهواها هوًى شديدًا، فقال: «أنت حرّةٌ لوجه الله تعالى»»، فقالت: «لمَ يا أميرَ المؤمنين وقد أزحْتَ عن أمرها كلَّ شُبهة؟» قال: «لستُ إذن ممّن نهى النفسَ عن الهوى»».[1]

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ﴾ ﴿مَا﴾ شرطيّة جازمة لـ﴿تُنفِقُوا۟﴾، منتصبة به على المفعوليّة، و﴿مِن﴾ تبعيضيّة متعلّقة بمحذوف هو صفة لاسم الشرطِ، أي: أيَّ شيءٍ تنفقوا كائن مِن الأشياء، فإنّ المفرد في / مثل هذا الموضعِ واقع موقعَ [١٠١ظ]
الجمعِ. وقيل: محلّ الجارِّ والمجرور النصبُ على التميز، أي: أيَّ شيءٍ تنفقوا طيّب تحبّونه أو خبيث تكرَهونه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ تعليل لجواب الشرط، واقع موقِعَه، أي: فمجازيكم بحسَبه، جيّدًا كان أو رديئًا، فإنّه تعالى عليم بكلّ شيءٍ تُنفِقونه عِلمًا كاملًا بحيث لا يخفى عليه شيءٌ مِن ذاته وصفاته. وتقديم الجارِّ والمجرور لرعاية الفواصل. وفيه مِن الترغيب في إنفاق الجيّدِ والتحذيرِ عن إنفاق الرديء ما لا يخفى.

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ أي: كلُّ أفرادِ المطعوم، أو كلُّ أنواعِه ﴿كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: حلالًا لهم، فإنّ الحِلّ مصدر نُعت به، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكّر والمؤنّث، كما في قوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [الممتحنة، ١٠/٦٠].

﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ استثناء متّصل مِن اسم ﴿كَانَ﴾، أي: كان كلّ المطعوماتِ حلالًا لبني إسرائيلَ إلّا ما حرّم إسرائيلُ -أي: يعقوبُ عليه السلام- على نفسه، وهو لحوم الإبلِ وألبانها. قيل: كان به وجعُ النَّسا، فنذَرَ:

---

[1] انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر، ١٩٣/٦٨ (٩١٨٤)؛ واعتلال القلوب للخرائطي، ٤٠/١ (٧٢).

لئن شُفِيَ لا يأكلُ أحبَّ الطعامِ إليه، وكان ذلك أحبَّه إليه.[١] وقيل: فعل ذلك للتداوي بإشارة الأطبّاءِ، واحتجّ به مَن جوّز للنبيّ الاجتهادَ. وللمانع أن يقول: كان ذلك بإذنٍ مِن الله تعالى فيه، وهو كتحريمه ابتداءً.

﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ متعلّق بقوله تعالى: ﴿كَانَ حِلًّا﴾، ولا ضيرَ في توسيط الاستثناءِ بينهما، وقيل: متعلِّق بـ﴿حَرَّمَ﴾، وفيه أنّ تقييد تحريمِه عليه السلام بقَبْليّة تنزيلِ التوراة ليس فيه مزيدُ فائدة، أي: كان ما عدا المستثنى حلالًا لهم قبلَ أن تنزّلَ التوراةُ مشتمِلةً على تحريم ما حُرِّم عليهم لظلمهم وبغيهم عقوبةً وتشديدًا. وهو ردٌّ على اليهود في دعواهم البراءةَ عمّا نَعى عليهم قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء، ٤/١٦٠]، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ الآيتين [الأنعام، ٦/١٤٦-١٤٧]، بأن قالوا: لسنا أوّلَ مَن حُرِّمتْ عليه، وإنّما كانت محرّمةً على نوحٍ وإبراهيمَ ومَنْ بعدَهما حتّى انتهى الأمر إلينا فحُرِّمت علينا كما حُرِّمت على مَن قبلنا، وتبكيتٌ لهم في منع النَّسخِ والطَّعنِ في دعوى الرسولِ صلّى الله عليه وسلّم[٢] موافقتَه لإبراهيمَ عليه السلام بتحليله لحومَ الإبلِ وألبانِها.

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾ أُمِر عليه السلام بأن يُحاجَّهم بكتابهم الناطقِ بأنّ تحريم ما حُرِّم عليهم تحريمٌ حادثٌ مترتِّبٌ على ظلمهم وبغيهم، كلّما ارتكبوا معصيةً مِن المعاصي التي اقترفوها حُرِّم عليهم نوع مِن الطيّبات عقوبةً لهم، ويكلّفَهم[٣] إخراجَه وتلاوتَه؛ ليُبكِّتَهم ويُلقِمَهم الحجَرَ ويُظهِرَ كذِبَهم. وإظهار اسم التوراةِ لكون الجملة كلامًا مع اليهود منقطعًا عمّا قبله.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في دعواكم أنّه تحريم قديم. وجواب الشرط محذوف؛ لدلالة المذكور عليه، أي: إن كنتم صادقين فأتوا بالتوراة فاتلوها، فإنّ صدقكم ممّا يدعوكم إلى ذلك البتّةَ. روي أنّهم لم يجسروا

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١/٣٨٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٨. وانظر: جامع البيان للطبري، ٥/٥٧٨.

٢ ي: عليه السلام.

٣ السياق: أمر بأن يُحاجّهم... ويكلّفهم...

على إخراج التوراةِ فبُهتوا وانقلبوا صاغرين،[١] وفي ذلك مِن الحجّة النيّرة على صدق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم،[٢] وجوازِ النَّسخ الذي يجحَدونه ما لا يخفي. والجملة مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها.

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: اختلقه عليه سبحانه بزَعمه أنّه حُرِّم ما ذُكر قبل نزولِ التوراةِ على بني إسرائيلَ ومَنْ تقدّمهم مِن الأمم ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ مِن بعد ما ذُكر مِن أمرهم بإحضار التوراةِ وتلاوتِها، وما ترتّب[٣] عليه مِن التبكيت والإلزامِ. والتقييدُ به للدلالة على كمال القُبحِ. ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافِه بما في حيّز الصلةِ. والجمعُ باعتبار معناه، كما أنّ الإفراد في الصلة باعتبار لفظِه. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعدِ منزلتِهم في الضلال والطُّغيان، أي: فأولئك المُصِرُّون على الافتراء بعد ما ظهرت حقيقةُ الحال وضاقت عليهم حَلْبةُ المُحاجّة والجدالِ ﴿هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ المفرِطون في الظُّلم والعُدوان المُبْعِدون فيهما. والجملة مستأنَفة لا محلّ لها مِن الإعراب، مَسوقةٌ مِن جهته تعالى لبيان كمالِ عُتوّهم. وقيل: هي في محلّ النصبِ داخل تحت القولِ عطفًا على قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.[٤]

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ أي: ظهر وثبت صِدقُه تعالى فيما أنزل في شأن التحريم. وقيل: في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا﴾... إلخ [آل عمران، ٦٧/٣]، أو صَدَق[٥] في كلّ شأنٍ مِن الشئون، وهو داخلٌ في ذلك دخولًا أوّليًا، وفيه تعريضٌ بكذبهم الصريح.

﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: ملّةَ الإسلامِ التي هي في الأصل ملّةُ إبراهيمَ عليه السلام، فإنكم ما كنتم متّبعين[٦] لمِلّته كما تزعُمون، أو فاتّبعوا مثل مِلّته حتّى

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣٨٦/١.
٢ ي: عليه السلام.
٣ ط: يترتّب.
٤ في الآية السابقة.
٥ ط – صدق.
٦ ي: متّبعون.

تتخلّصوا مِن اليهوديّة التي اضطَرَّتْكم إلى التحريف والمُكابرةِ وتلفيقِ الأكاذيبِ لتسوية الأغراضِ الدنيئةِ الدنيويّةِ، وألزمتكم تحريمَ طيّباتٍ محلَّلةٍ لإبراهيمَ عليه السلام ومَن تبِعَه. والفاء للدلالة على أنّ ظهور صدقِه تعالى موجبٌ للاتّباع وتركِ ما كانوا عليه. ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلًا عن الأديان الزائغةِ كلِّها.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: في أمر مِن أمور دينِهم أصلًا وفرعًا. وفيه تعريض بإشراك اليهودِ، وتصريح بأنّه عليه السلام ليس بينه وبينهم علاقةٌ دينيّةٌ قطعًا. والغرض بيانُ أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[١] على دين إبراهيمَ عليه السلام في الأصول؛ لأنّه لا يدعو إلّا إلى التوحيد والبراءة عن كلّ معبود سواه سبحانه وتعالى.[٢] والجملة تذييل لِما قبلها.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ شروع في بيان كفرهم ببعضٍ آخرَ مِن شعائر ملّته عليه السلام إثرَ بيانِ كفرهم بكون كلّ المطعومات حِلًّا له عليه السلام. رُوي أنّهم قالوا: «بيتُ المَقدس أعظمُ مِن الكعبة؛ لأنّه مُهاجَرُ الأنبياء وفي الأرض المقدّسة»، وقال المسلمون: «بل الكعبة أعظم»، فبلغ ذلك رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم،[٣] / فنزلتْ.[٤] أي: إنّ أوّل بيتٍ وُضع للعبادة وجُعِل مُتعبَّدًا لهم، والواضعُ هو الله تعالى، ويؤيّده القراءةُ على البناء للفاعل.[٥] [١٠٢و]

وقوله تعالى: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ خبر لـ﴿إِنَّ﴾. وإنّما أُخبر بالمعرفة مع كون اسمها نكرةً لتخصّصها بسببين: الإضافةِ والوصفِ بالجملة بعدها، أي: لَلبيتُ الذي ببكّة، أي: فيها. وفي ترك الموصوف مِن التفخيم ما لا يخفى. و"بكّة" لغةٌ في مكّة، فإنّ العرب تعاقِبُ بين الباء والميم، كما في قولهم: ضربةُ لازبٍ ولازمٍ، والنَّميط والنَّبيط في اسم موضعٍ بالدَّهناء،[٦] وقولِهم: أمرٌ راتبٌ وراتمٌ، وسبَّد

---

[١] ي: عليه السلام.
[٢] ي - وتعالى.
[٣] ي: عليه السلام.
[٤] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣/١١٤؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ١/٤٧٠.
[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وكِرْداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٨.
[٦] الدهناء: موضع ببلاد تميم، يمدّ ويقصر. الصحاح للجوهري، «دهن».

رأسَه وسمَّدَها،[١] وأغبَطت[٢] الحمّى وأغمَطت.[٣] وهي عَلَم للبلد الحرام، مِن "بَكَّه" إذا زحَمه؛ لازدحام الناس فيه. وعن قتادةَ: «يبُكّ الناسُ بعضُهم بعضًا».[٤] أو[٥] لأنّها[٦] تبُكُّ أعناقَ الجبابرة، أي: تدُقُّها، لم يقصِدْها جبّار إلّا قصمَه الله عزّ وجلّ.[٧]

وقيل: "بكّةُ" اسم لبطن مكّةَ. وقيل: لموضع البيت. وقيل: للمسجد نفسِه، و"مكّةُ" اسم للبلد كلّه. وأيَّد هذا بأنّ التَّباكَّ -وهو الازدحام- إنّما يقع عند الطواف. وقيل: "مكّةُ" اسم للمسجد والمَطاف، و"بكّةُ" اسم للبلد؛ لقوله تعالى: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾. رُوي أنّه عليه السلام سُئل عن أوّل بيت وُضع للنّاس، فقال: «المسجدُ الحرام ثمّ بيتُ المَقدس»، وسئل: كم بينهما؟ فقال: «أربعون سنة».[٨] وقيل: أوّل مَن بناه إبراهيم عليه السلام. وقيل: آدم عليه السلام، وقد استوفينا ما فيه مِن الأقاويل في سورة البقرة.[٩] وقيل: أوّل بيتٍ بالشرف لا بالزمان.

﴿مُبَارَكًا﴾ كثيرَ الخير والنفع؛ لِما يحصُل لمَن حجَّه واعتمره واعتكف دونه وطاف حوله مِن الثواب وتكفيرِ الذنوب. وهو حال مِن المستكِنّ في الظرف؛ لأنّ التقدير: لَلذي ببكّةَ هو. والعامل فيه ما قُدّر في الظرف مِن فعل الاستقرار.

﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنّه قبلتُهم ومُتعبَّدُهم، ولأنّ فيه آياتٍ عجيبةً دالّةً على عظيم قدرتِه تعالى وبالغِ حكمتِه، كما قال:

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

---

١ تَسبيد الرأس: استئصال شَعره. والتسبيد أيضًا: ترك الادّهان. الصحاح للجوهري، «سبد».

٢ ي: وأعطبت.

٣ ي: أعطمت. | أغبطت عليه الحمّى، أي: دامت. وأغمطت: لغة في أغبطت. الصحاح للجوهري، «غبط» «غمط».

٤ تفسير عبد الرزّاق، ١/٤٠٣ (٤٣٢). وتمامه: «وبكّة: يبكُّ الناس بعضُهم بعضًا، الرجال والنساء، يصلّي بعضُهم بين يدَي بعض، ويمرّ بعضهم بين يدَي بعض، لا يصلح ذلك إلّا بمكّة».

٥ ي - أو.

٦ ي: ولأنّها.

٧ ي: تعالى.

٨ صحيح البخاري، ٤/١٤٥ (٣٣٦٦)؛ صحيح مسلم، ١/٣٧٠ (٥٢٠).

٩ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة، ٢/١٢٧].

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ واضحاتٌ، كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الأعصار، ومخالطةِ ضواري السِّباعِ الصُّيودَ في الحرَم مِن غير تعرّضٍ لها، وقهرِ الله تعالى لكلّ جبّارٍ قصَده بسوء كأصحاب الفيل.[١] والجملة مفسِّرة للهدى، أو حال أخرى.

﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: أثرُ قدميه عليه السلام في الصخرة التي كان عليه السلام يقوم عليها وقتَ رفع الحجارة لبناء الكعبة عند ارتفاعه، أو عند غسل رأسِه على ما رُوي أنّه عليه السلام جاء زائرًا مِن الشام إلى مكّةَ، فقالت له امرأة إسماعيلَ عليه[٢] السلام: «انزلْ حتّى أغسِلَ رأسَك»، فلم ينزِل، فجاءته بهذا الحجر فوضعتْه على شقّه الأيمنِ، فوضع قدمَه عليه حتّى غسَلت شِقَّ رأسِه، ثمّ حوّلتْه إلى شِقّه الأيسر حتّى غسلت الشِّقَّ الآخَر، فبقيَ أثرُ قدميه عليه.[٣]

وهو إمّا مبتدأ حُذف خبره، أي: منها مقامُ إبراهيمَ، أو بدَل مِن ﴿ءَايَٰتُۢ﴾[٤] بدلَ البعض مِن الكلّ، أو عطفُ بيانٍ إمّا وحدَه باعتبار كونه بمنزلة آياتٍ كثيرةٍ؛ لظهور شأنِه، وقوّة دلالتِه على قدرة الله تعالى وعلى نبوّة إبراهيمَ عليه السلام، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل، ١٦/١٢٠]، أو باعتبار اشتماله على آياتٍ كثيرةٍ؛ فإنّ كلّ واحدٍ مِن: أثر قدمه في صخرةٍ صمّاءَ، وغوْصِه فيها إلى الكعبين، وإلانةِ بعضِ الصخور دون بعضٍ، وإبقائِه دون سائر آيات الأنبياءِ عليهم السلام، وحفظِه مع كثرة الأعداء ألوفَ سنةٍ؛ آيةٌ مستقلّةٌ.[٥] ويؤيّده القراءة على التوحيد.[٦]

وإمّا[٧] بما يُفهم مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾، فإنّه وإن كان جملةً مستأنَفةً ابتدائيّةً أو شرطيّةً، لكنّها في قوّة أن يقال: وأَمْنُ مَنْ دَخَله،

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٩.
٢ ط: عليهما.
٣ انظر: جامع البيان للطبري، ١٣/٦٩٢؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١/٢٧٠.
٤ ط: آية.
٥ الكشّاف للزمخشري، ١/٣٨٨؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٩.
٦ أي: "فِيهِ آيَةٌ بيّنةٌ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٨.
٧ السياق: أو عطف بيانٍ إمّا وحده... وإمّا بما يُفهم...

فتكون بحسب المعنى والمآلِ معطوفةً على ﴿مَقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾. ولا يخفى أنّ الاثنين نوع مِن الجمع فتكتفي[1] بذلك، أو يُحملُ على أنّه ذُكر مِن تلك الآيات اثنتان، وطُويَ ذِكر ما عداهما دلالةً على كثرتها.

ومعنى أَمْنِ داخِلِه: أمنُه مِن التعرّض له، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت، ٦٧/٢٩]، وذلك بدعوة إبراهيمَ عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم، ٣٥/١٤]، وكان الرجلُ لوْ جَرّ كلّ جريرةٍ ثمّ لجأ إلى الحرَم لم يُطلَب.

وعن عمرَ رضي الله عنه: «لو ظفِرتُ فيه بقاتل الخطّابِ ما مَسَسْتُه حتّى يخرُجَ منه».[2] ولذلك قال أبو حنيفة رحمه الله: «مَن لزِمه القتلُ في الحِلّ بقِصاص أو رِدّةٍ أو زنًا فالتجأ إلى الحرَم لم يُتعرَّض له إلّا أنّه لا يُئوى ولا يُطعَم ولا يُسقى ولا يُبايَع حتّى يُضْطَرَّ إلى الخروج».[3] وقيل: أمنُه مِن النار. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:[4] «مَن مات في أحد الحرَمين بُعث يومَ القيامة آمِنًا».[5] وعنه عليه السلام: «الحَجون والبقيعُ يُؤخذ بأطرافهما ويُنثران في الجنّة»،[6] وهما مقبرتا مكّة والمدينة. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: وقف رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم[7] على ثنيّة الحَجونِ، وليس بها يومئذ مقبرةٌ، فقال: «يَبعث الله تعالى مِن هذه البقعة ومِن هذا الحرَم كلِّه سبعين ألفًا، وجوهُهم كالقمر ليلةَ البدر، يدخُلون الجنّة بغير حساب، يشفعُ كلُّ واحدٍ منهم في سبعين ألفًا، وجوهُهم كالقمر ليلة البدر».[8] وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:[9] «مَن صَبَر على حرّ مكّةَ

---

١ ي: فتكفي.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٣٨٩/١. وأخرجه عبد الرزّاق في المصنَّف، ١٥٢/٥ (٩٢٢٨).

٣ انظر: ردّ المحتار لابن عابدين، ٥٤٧/٦.

٤ ي: عليه السلام.

٥ الكشّاف للزمخشري، ٣٨٩/١. وأخرجه الطبراني في المعجم الصغير، ٨٥/٢ (٨٢٧).

٦ بغير إسناد في الكشف والبيان للثعلبي، ١٥١/٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٨٩/١. قال الزيلعي: «غريب جدًا». تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١٩٩/١.

٧ ي: عليه السلام.

٨ بغير إسناد في الكشف والبيان للثعلبي، ١٥١/٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٨٩/١. قال الزيلعي: «غريب»، وساق شاهدًا له، رواه الدارقطني في غرائب مالك. انظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١٩٩/١.

٩ ي: عليه السلام.

ساعةً مِن نهار تباعدَت منه جهنّمُ مسيرةَ مائتَي عام».[١]

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ جملة مِن مبتدأ هو ﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾، وخبرٍ هو ﴿لِلَّهِ﴾.[٢] وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ متعلِّق بما تعلّق به الخبر مِن الاستقرار، أو بمحذوفٍ هو حال مِن الضمير المستكِنّ في الجارّ، والعاملُ فيه ذلك الاستقرارُ. ويجوز أن يكون ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ هو الخبر، و﴿لِلَّهِ﴾ متعلِّق بما تعلّق به الخبر. ولا سبيل إلى أن يتعلّق بمحذوفٍ هو حال مِن الضمير المستكِنّ في ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لاستلزامه تقديم الحال على العامل المعنويّ. وذلك ممّا لا مساغَ له عند الجمهور،[٣] وقد جوّزه ابنُ مالكٍ إذا كانت هي ظرفًا أو حرفَ جرّ وعاملُها كذلك،[٤] بخلاف الظرف وحرف الجرّ، فإنّهما يتقدّمان على عاملهما المعنويّ. واللام في ﴿ٱلْبَيْتِ﴾ للعهد، و"حجُّه": قصدُه للزّيارة على الوجه المخصوص المعهود. وكسر الحاء لغةُ نجدٍ، وقيل: هو اسم للمصدر، وقُرئ بفتحها.[٥]

﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ / في محلّ الجرّ على أنّه بدل مِن ﴿ٱلنَّاسِ﴾ بدلَ [١٠٢ظ] البعضِ، مخصِّص لعمومه. فالضمير العائد إلى المُبدَل منه محذوف، أي: مَن استطاع منهم. وقيل: بدلَ الكلّ على أنّ المراد بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ هو البعض المستطيعُ فلا حاجةَ[٦] إلى الضمير. وقيل: في محلّ الرفعِ على أنّه خبرُ مبتدأ مضمَرٍ، أي: هم مَن استطاع... إلخ. وقيل: في حيّز النصب بتقدير: "أعني". وقيل: كلمة ﴿مَن﴾ شرطيّة، والجزاء محذوف؛ لدلالة المذكور عليه، وكذا العائد إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾، أي: مَن استطاع منهم إليه سبيلًا فلله عليه حِجُّ البيت. وقد رُجّح هذا بكون ما بعده شرطيّةً. والضمير المجرور في ﴿إِلَيْهِ﴾ راجع إلى ﴿ٱلْبَيْتِ﴾ أو إلى "الحِجّ". والجارّ متعلِّق بـ"السبيل"، قُدِّم عليه اهتمامًا بشأنه، كما في قوله عزّ وجلّ:

---

[١] بغير إسناد في الكشف والبيان للثعلبي، ١٥١/٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٨٩/١. قال الزيلعي: «غريب»، وذكر نحوه مِن الضعفاء للعقيلي؛ والفردوس للديلمي. انظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١٩٩/١.

[٢] ي + تعالى.

[٣] ط - عند الجمهور.

[٤] انظر: شرح التسهيل لابن مالك، ٣٤٣/٢؛ وتوضيح المقاصد للمرادي، ٧١١/٢.

[٥] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٤١/٢.

[٦] ي: فلاحجة.

﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر، ١١/٤٠]، و﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى، ٤٤/٤٢]؛ لِما فيه مِن معنى الإفضاء والإيصالِ، كيف لا وهو عبارة عن الوسيلة مِن مال أو غيرِه؟

فإنّه قد روى أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه،[١] عن رسول الله[٢] صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «السبيلُ الزادُ والراحلة».[٣] وروى ابنُ عمرَ رضي الله عنهما، أنّ رجلًا قال: «يا رسول الله ما السبيل؟»، قال: «الزاد والراحلة».[٤] وهو المراد بما رُوي أنّه عليه السلام فسّر الاستطاعة بالزاد والراحلة، وهكذا رُوي عن ابن عبّاس وابنِ عمرَ رضي الله تعالى[٥] عنهم،[٦] وعليه أكثر العلماء خلا أنّ الشافعي رحمه الله أخذ بظاهره، فأوجب الاستنابةَ على الزَّمِن القادر على أُجرة مَن ينوب عنه.[٧]

والظاهر أنّ عدم تعرّضه عليه السلام لصِحّة البدن لظهور الأمر، كيف لا والمفسَّرُ في الحقيقة هو السبيل الموصِلُ لنفس المستطيع إلى البيت، وذا لا يُتصوَّرُ بدون الصِّحّة؟ وعن ابن الزُّبير أنّه على قدر القوّة.[٨] ومذهب مالك أنّ الرجل إذا وثِق بقوّته لزمه. وعنه ذلك على قدر الطاقة،[٩] وقد يجد الزاد والراحلة مَن لا يقدر على السَّفر، وقد يقدر عليه مَن لا راحلةَ له ولا زادَ. وعن الضحّاك أنّه إذا قدر أن يُؤجِّر نفسه فهو مستطيع.[١٠]

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ وُضع ﴿مَن كَفَرَ﴾ موضع "مَن"[١١] لم يحجّ" تأكيدًا لوجوبه، وتشديدًا على تاركه، ولذلك قال عليه السلام: «مَن مات ولم يحجّ فليمُت

---

١ ط - رضي الله عنه.

٢ ي: النبيّ.

٣ انظر: سنن الدارقطني، ٢١٥/٣ (٢٤١٨)؛ والمستدرك للحاكم، ٦٠٩/١ (١٦١٥).

٤ سنن الترمذي، ١٦٨/٣ (٨١٣)؛ المستدرك للحاكم، ٦٠٩/١ (١٦١٣).

٥ ي - تعالى.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٠/١. وانظر: السنن الكبرى للبيهقي، ٥٤٠/٤-٥٤١ (٨٦٤١)؛ وجامع البيان للطبري، ٦١١/٥.

٧ انظر: المجموع شرح المهذّب للنووي، ٩٤/٧.

٨ جامع البيان للطبري، ٦١٤/٥؛ مصنّف ابن أبي شيبة، ٤٣٣/٣ (١٥٧٠٥).

٩ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٠/١.

١٠ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٠/١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٧٦/٣.

١١ ي - مَن.

إن شاء يهوديًا أو نصرانيًا».[١] ورُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنّه عليه السلام[٢] قال في خُطبته: «أيّها الناس إنّ الله فرض الحجّ على مَن استطاع إليه سبيلًا، ومَن لم يفعل فليمُت على أيّ حال شاء؛ يهوديًا أو نصرانيًا أو مجوسيًا».[٣]

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وعن[٤] عبادتهم، وحيث كان ﴿مَن كَفَرَ﴾ مِن جملتهم داخلًا فيها دخولًا أوّليًا اكتُفي بذلك عن الضمير الرابط بين الشرط والجزاء.

ولقد حازت الآية الكريمة مِن فنون الاعتبارات المُعرِبة عن كمال الاعتناء بأمر الحجّ والتشديد على تاركه ما لا مزيدَ عليه، حيث أُوثِرت صيغة الخبر الدالّة على التحقّق، وأُبرِزت في صورة الجملة الاسميّة الدالّة على الثبات والاستمرار على وجهٍ يُفيد أنّه حقّ واجب لله سبحانه في ذِمَم الناس لا انفكاكَ لهم عن أدائه والخروج عن عهدته. وسُلك بهم مَسلك التعميم ثمّ التخصيص والإبهام ثمّ التبيين والإجمال ثمّ التفصيل؛ لِما في ذلك مِن مزيد تحقيق وتقرير. وعُبّر عن تركه بالكفر الذي لا قبيحَ وراءَه. وجُعل جزاؤه استغناءه تعالى المُؤذِن بشدّة المقت وعِظَم السخط، لا عن تاركه فقط، فإنّه قد ضُرب عنه صفحًا إسقاطًا له عن درجة الاعتبار، واستهجانًا بذِكره؛ بل عن جميع العالمين ممّن فعل وترك؛ ليدلّ على نهاية شدّة الغضب.

هذا وقال ابن عبّاس رضي الله عنه والحسن وعطاء: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: جحَد فرض الحجّ، وزعم أنّه ليس بواجب.[٥]

وعن سعيد بن المسيِّب: نزلت في اليهود، فإنّهم قالوا: الحجّ إلى مكّةَ غيرُ واجب.[٦]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٠/١. وهو بنحوه في سنن الترمذي، ١٦٧/٣ (٨١٢).

٢ ط: عليه الصلاة والسلام.

٣ تفسير السمرقندي، ٢٣٣/١؛ تفسير القرطبي، ١٥٣/٤؛ وبمعناه الحديث السابق.

٤ ي: ومِن.

٥ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٦/٣؛ وجامع البيان للطبري، ٦١٨/٥.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٣٩١/١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٧/٣.

ورُوي أنّه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ جمَع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أهلَ الأديان كلّهم فخطبهم فقال: «إنّ الله تعالى[١] كتَب عليكم الحجّ فحجّوا»، فآمنت به ملّة واحدة، وهم المسلمون، وكفرت به خمس مِلل، قالوا: لا نؤمن به ولا نصلّي إليه ولا نحجّه، فنزل: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾.[٢]

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «حجّوا قبل أن لا تحجّوا، فإنّه قد هُدم البيت مرّتين، ويرفع إلى[٣] السماء في الثالثة».[٤]

وروي: «حجّوا قبل أن يمنع البرُّ جانبَه».[٥]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «حجّوا هذا البيت قبل أن ينبُت في البادية شجرة لا تأكل منها دابّة إلّا نفقَت».[٦]

وعن عمر رضي الله عنه: «لو ترك الناس الحجّ عامًا ما نوظِروا».[٧]

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هم اليهود والنصارى. وإنّما خُوطبوا بعنوان أهليّة الكتابِ الموجِبةِ للإيمان به وبما يصدّقه مِن القرآن العظيم[٨] مبالغةً في تقبيح حالهم في كفرهم بهما. وقوله عزّ وجلّ: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ توبيخ وإنكار لأن يكون لكفرهم بها سبب مِن الأسباب، وتحقيق لِما يوجِب الاجتنابَ عنه بالكلّيّة.

---

١ س - تعالى.

٢ جامع البيان للطبري، ٦٢١/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩١/١.

٣ ي - إلى.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣٩١/١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٧/٣. وهو بنحوه موقوفًا على عبد الله بن عمرو في مصنّف ابن أبي شيبة، ٤٦١/٧ (٣٧٢٣٣).

٥ الكشّاف للزمخشري، ٣٩١/١. قال الزيلعي: «هو هكذا في الفائق لابن غانم التنيسي»، وساق بمعناه حديثًا مِن سنن الدارقطني. انظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٠٦/١.

٦ بغير إسناد في الكشّاف للزمخشري، ٣٩٢/١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٧/٣.

٧ وفي هامش ط س ي: "نفي المناظرة" عبارة عن الإعجال بالعقوبة، أي: لا يناظَر معهم بأن يقال لهم: لِم تركتم الحجّ؟ بل يُهلكون. «منه». | بهذا اللفظ في الكشّاف للزمخشري، ٣٩٢/١. وقال فيه الزيلعي: «غريب». وفي مصنّف عبد الرزّاق، ١٣/٥ (٨٨٢٧): أنّ ابن عبّاس قال: «لو ترك الناس زيارة هذا البيت عامًا واحدًا ما مُطروا». انظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٠٧/١.

٨ ط - مِن القرآن العظيم.

والمراد بـ"آياته تعالى": ما يعُمّ الآياتِ القرآنيّةَ التي مِن جملتها ما تُليَ في شأن الحجّ وغيره، وما في التوراة والإنجيل مِن شواهد نبوّته صلّى الله عليه وسلّم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿تَكۡفُرُونَ﴾، مفيدة لتشديد التوبيخ وتأكيد الإنكار. وإظهار الجلالة في موقع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخَطْب. وصيغة المبالغة في ﴿شَهِيدٌ﴾ للتشديد في الوعيد. وكلمة ﴿مَا﴾ إمّا عبارة عن كفرهم، أو هي على عمومها، وهو داخل فيها دخولًا أوّليًا. والمعنى: لأيّ سبب تكفرون بآياته عزّ وجلّ،[١] والحال أنّه تعالى[٢] مبالِغ في الاطّلاع على جميع أعمالكم وفي مجازاتكم عليها، ولا ريبَ في أنّ ذلك يسُدّ جميعَ أنحاءِ ما تأتونه ويقطع أسبابَه بالكلّيّة؟

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٩﴾

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أمرٌ بتوبيخهم بالإضلال إثرَ توبيخهم بالضلال. والتكرير للمبالغة في حمله عليه السلام على تقريعهم وتوبيخهم. وتركُ عطفِه على الأمر السابق للإيذان باستقلالهما، كما أنّ قطْع قوله تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ عن قوله تعالى: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ﴾[٣] للإشعار بأنّ كلّ واحدٍ مِن "كُفرهم" و"صدِّهم" شناعةٌ على حِيالها مستقِلّةٌ في استتباع اللّائمةِ والتقريعِ. وتكرير الخطاب بعنوان أهليّة الكتابِ لتأكيد الاستقلال وتشديدِ التشنيع، فإنّ / ذلك العنوانَ كما يستدعي [١٠٣و] الإيمانَ بما هو مصدِّق لِما معهم يستدعي ترغيبَ الناس فيه، فصدُّهم عنه في أقصى مراتبِ القَباحة، ولكون صدِّهم في بعض الصورِ بتحريف الكتاب والكفرِ بالآيات الدالّةِ على نبوّته عليه السلام. وقُرئ: "تُصِدُّونَ"،[٤] مِن "أَصَدَّه".

﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: دينه الحقّ الموصِلِ إلى السعادة الأبديّة، وهو التوحيد وملّة الإسلام. ﴿مَنۡ ءَامَنَ﴾ مفعول لـ﴿تَصُدُّونَ﴾، قُدِّم عليه الجارّ والمجرور

---

١ ي: تعالى.
٢ ي: عزّ وجلّ.
٣ في الآية السابقة.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذ القراءات للكرماني، ص ١١٨.

للاهتمام به. كانوا يفتِنون المؤمنين، ويحتالون لصدّهم عنه، ويمنعون مَن أراد الدخولَ فيه بجُهدهم، ويقولون: إنّ صفته عليه السلام ليست في كتابهم، ولا تقدّمت البِشارةُ به عندهم. وقيل: أتت اليهودُ الأوسَ والخزرجَ، فذكّروهم ما كان بينهم في الجاهليّة مِن العداوات والحروب ليعودوا إلى ما كانوا فيه.[١]

﴿تَبۡغُونَهَا﴾ على إسقاط الجارّ وإيصالِ الفعل إلى الضمير، كما في قوله:

فتولّى غلامُهم ثمّ نادى أظَليمًا أصيدُكم أم حِمارا[٢]

بمعنى: أصيدُ لكم. أي: تطلُبون لسبيل الله التي هي أقومُ السبل ﴿عِوَجًا﴾ اعوجاجًا بأن تُلَبِّسوا على الناس وتُوهِموا أنّ فيه مَيلًا عن الحقّ بنفي النَّسخِ وتغييرِ صفة الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن وجهها ونحو ذلك. والجملة حال مِن فاعلِ ﴿تَصُدُّونَ﴾، وقيل: مِن ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُ﴾ حال مِن فاعل ﴿تَصُدُّونَ﴾ باعتبار تقيّدِه بالحال الأولى أو مِن فاعلِ ﴿تَبۡغُونَهَا﴾، أي: والحال أنّكم شهداءُ تشهدون بأنّها سبيل الله لا يحوم حولَها شائبةُ اعوجاجٍ، وأنّ الصدّ عنها إضلال. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أي: شهداءُ أنّ في التوراة: إنّ دين الله الذي لا يُقبل غيرُه هو[٣] الإسلام».[٤] أو وأنتم عدول فيما بينكم يثِقون بأقوالكم، ويستشهدونكم في القضايا وعظائم الأمور.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ اعتراض تذييليّ، فيه تهديد ووعيد شديد. قيل: لمّا[٥] كان صدّهم للمؤمنين بطريق الخُفْية خُتمت الآيةُ الكريمة بما يحسِمُ مادّةَ حِيلتهم مِن إحاطة علمه تعالى بأعمالهم، كما أنّ كفرهم بآياتِ الله تعالى لمّا كان بطريق العلانية خُتمت الآيةُ السابقةُ بشهادته تعالى على ما تعملون.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١/٣٩٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٠.

٢ بغير نسبة في شرح شواهد المغني للسيوطي، ٢/٥٩٦. و"الظَّليم": الذكَر مِن النعام. والشاهد فيه: "أصيدكم"، وأصله: أصيد لكم، فحذفت اللام، واتّصل الضمير بالفعل، فصار منصوبًا بعد أن كان مجرورًا. انظر: شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي، ٤/٣٢٩.

٣ ي: وهو.

٤ تفسير الرازي، ٨/٣٠٨؛ اللباب لابن عادل، ٥/٤٢٤. وأخرج نحوه الطبري في جامع البيان، ٥/٦٢٩، عن قتادة.

٥ ط س: ولمّا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى المؤمنين؛[١] تحذيرًا لهم عن طاعة أهل الكتاب والافتتانِ بفتنتهم[٢] إثرَ توبيخهم بالإغواء والإضلالِ ردعًا لهم عن ذلك. وتعليق الردّ بطاعة فريقٍ منهم للمبالغة في التحذير عن طاعتهم وإيجابِ الاجتنابِ عن مصاحبتهم بالكلّيّة، فإنّه في قوّة أن يُقال: لا تُطيعوا فريقًا... إلخ. كما أنّ تعميم التوبيخ فيما قبله للمبالغة في الزجر، أو للمحافظة على سبب النزول:

فإنّه رُوي أنّ نفرًا مِن الأوس والخزرج كانوا جُلوسًا يتحدّثون، فمرّ بهم شاسُ بنُ قيسٍ اليهوديُّ -وكان عظيمَ الكفر شديدَ الحسَد للمسلمين- فغاظه ما رأى منهم مِن تآلُفِ القلوب واتّحادِ الكلمةِ واجتماعِ الرأي بعد ما كان بينهم ما كان مِن العداوة والشنَآنِ،[٣] فأمَر شابًّا يهوديًّا كان معه بأن يجلِسَ إليهم ويذكِّرَهم يوم بُعاثَ[٤] -وكان ذلك يومًا عظيمًا اقتتل فيه الحيّان، وكان الظفرُ فيه للأوس- ويُنشِدُهم ما قيل فيه مِن الأشعار، ففعل، فتفاخرَ القومُ وتغاضبوا حتّى تواثبوا، وقالوا: «السلاحَ السلاحَ»، فاجتمع مِن القبيلتين خلقٌ عظيم، فعند ذلك جاءهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابُه فقال: «أتدْعون[٥] الجاهليّة وأنا بين أظهُرِكم بعد أن أكرمكم الله تعالى بالإسلام، وقطع به عليكم[٦] أمرَ الجاهليّة، وألّف بينكم؟». فعلِموا أنّها نزغة مِن الشيطان، وكيدٌ مِن عدوّهم، فألقَوُا السلاح، واستغفروا، وعانق بعضُهم بعضًا، وانصرفوا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.[٧]

---

١ ي: للمؤمنين.

٢ ي: والافتتان بفتنهم.

٣ ط ي: والشنعان.

٤ بُعاث: بضمّ أوّله، وهو مَوضع على ميلين مِن المدينة، كان به وقعة بين الأوس والخزرج قُبيل الإسلام. ومنهم مَن ذكره بالغين المعجمة. فتح الباري لابن حجر، ٨٨/١.

٥ ط: أتدّعون.

٦ ي: عنكم.

٧ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٣/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٠/٢. وأخرج القصّة بأطول مِن ذلك الطبري في جامع البيان، ٦٢٧/٥.

قال الإمام الواحدي: «اصطفّوا للقتال فنزلت الآيةُ إلى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾،[١] فجاء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتّى قام بين الصَّفَّين، فقرَأهنّ ورفعَ صوتَه، فلمّا سمعوا صوت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنصَتوا له، وجعلوا يستمعون له، فلمّا فرَغ ألقَوا السلاحَ، وعانق بعضُهم بعضًا، وجعلوا يبكون».[٢]

وقوله تعالى: ﴿كَٰفِرِينَ﴾ إمّا مفعول ثانٍ لـ﴿يَرُدُّوكُم﴾، على تضمين "الردِّ" معنى التصيير، كما في قوله:

رمى الحِدْثانُ[٣] نسوةَ آلِ سعدٍ ... بمقدارٍ سمَدْن له سُمودا[٤]
فردَّ شُعورَهنّ السُّودَ بِيضًا ... وردَّ وجوهَهنّ البيضَ سُودا[٥]

أو حال مِن مفعوله. والأوّل أدخَل في تنزيه المؤمنين عن نِسبتهم إلى الكفر؛ لِما فيه مِن التصريح بكون الكفرِ المفروضِ بطريق القَسر. وإيراد الظرف مع عدم الحاجة إليه -ضرورةَ سبقِ الخطابِ بعنوان المؤمنين، واستحالة تحقّقِ الردِّ إلى الكفر بدون سبقِ الإيمانِ، مع توسيطه بين المفعولين- لإظهار كمالِ شناعةِ الكفرِ، وغايةِ بُعدِه مِن الوقوع، إمّا لزيادة قُبحِه الصارفِ للعاقلِ عن مباشرته، أو لمُمانعة الإيمانِ له، كأنّه قيل: بعد إيمانكم الراسخ. وفيه مِن تثبيت المؤمنين ما لا يخفى.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ استفهام إنكاريّ، بمعنى إنكار الوقوع، كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾... إلخ [التوبة، ٩/٧]، لا بمعنى إنكار الواقع

---

١ آل عمران، ٣/١٠٣.
٢ التفسير الوسيط للواحدي، ١/٤٧٢. وأخرجه بسنده ابن المنذر في تفسيره، ١/٣١٤.
٣ الحِدْثان مِن الدهر: نُوَبُه، كحوادثه وأحداثه. القاموس المحيط للفيروزابادي، «حدث».
٤ قال ابن منظور: «وقيل: السُّمود يكون سرورًا وحزنًا» وأنشد البيتين. لسان العرب لابن منظور، «سمد».
٥ لعبد الله بن الزَّبير -بفتح الزاي- الأسدي في زهر الآداب للقيرواني، ٢/١٤٥٧ والتكملة والذيل للصغاني، ٢/٢٥٤؛ وتاج العروس للزبيدي، «سمد». ولفَضالة بن شريك في عيون الأخبار لابن قتيبة، ٣/٧٦. | و"الحِدثان": نوائب الدهر. و"آل حَرب" المراد بهم: بنو أميّة. و"السُّمود": الغفلة وذهاب القلب عن الشيء. والمعنى: أن نوائب الدهر رمت بسهام الغمّ إلى نسوة آل حربٍ بمقدارٍ صيّرهنّ غافلاتٍ عن كل شيء لِما أصابهنّ مِن شدّة الحزن. انظر: شرح ديوان الحماسة للتبريزي، ١/٣٩٠.

كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾... إلخ [البقرة، ٢/٢٨]. وفي توجيه الإنكار والاستبعادِ إلى كيفيّة الكفر مِن المبالغة ما ليس في توجيهه إلى نفسه بأن يقال: أتكفرون؟ لأنّ كلّ موجودٍ لا بدّ أن يكون وجودُه على حال مِن الأحوال، فإذا أُنكِرَ ونُفيَ جميعُ أحوال وجوده فقد انتفى وجودُه بالكلّيّة على الطريق البرهانيّ.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ جملة وقعت حالًا مِن ضمير المخاطَبين في ﴿تَكْفُرُونَ﴾، مؤكِّدة للإنكار والاستبعادِ بما فيها مِن الشئون الداعية إلى الثبات على الإيمان، الوازعةِ عن الكفر. وقوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ معطوف عليها / داخل في حكمها؛ فإنّ تلاوة آياتِ الله [١٠٣ظ] تعالى عليهم وكونَ رسولِه عليه السلام بين أظهُرِهم يعلِّمهم الكتابَ والحِكمةَ ويزكِّيهم بتحقيق الحقّ وإزاحةِ الشُّبه مِن أقوى الزواجر عن الكفر. وعدمُ إسناد التلاوة إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للإيذان باستقلال كلّ منهما في الباب.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ أي: ومَن يتمسَّكْ بدينه الحقِّ الذي بيَّنه بآياته على لسان رسوله صلّى الله عليه وسلّم؛ وهو الإسلام والتوحيد المعبَّرُ عنه فيما سبق بـ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. ﴿فَقَدْ هُدِىَ﴾ جواب للشرط. و"قد" لإفادة معنى التحقيق،[١] كأنّ الهدَى قد حصل، فهو يُخْبَر عنه حاصلًا. ومعنى التوقّع فيه ظاهر، فإنّ المعتصِم به تعالى متوقِّع للهدى، كما أنّ قاصد الكريم متوقِّع للنَّدى.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصلٍ إلى المطلوب. والتنوين للتفخيم. والوصف بالاستقامة للتصريح بالردّ على الذين يبغون له عِوجًا. وهذا وإن كان هو دينَه الحقَّ في الحقيقة، والاهتداءُ إليه هو الاعتصامَ به بعينه؛ لكن لمّا اختلف الاعتباران وكان العنوان الأخير ممّا يتنافس فيه المتنافسون أُبرز في معرِض الجواب للحثّ والترغيب، على طريقة قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران، ٣/١٨٥].

---

١ ط س: التحقّق.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تكرير الخطاب بعنوان الإيمان تشريف إثرَ تشريف.

﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الاتّقاء: افتعال مِن الوقاية؛ وهي فرْطُ الصِّيانة. ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي: حقَّ تقواه وما يجب منها؛[1] وهو استفراغ الوُسع في القيام بالمَواجب، والاجتنابِ عن المحارم، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن، ١٦/٦٤]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «هو أن يُطاعَ ولا يُعصى، ويُذكَرَ ولا يُنْسَى، ويُشكَرَ ولا يُكْفَر»،[2] وقد رُوي مرفوعًا إليه عليه السلام.[3]

وقيل: هو أن لا تأخذه في الله لومةُ لائمٍ، ويقومَ بالقسط ولو على نفسه أو ابنِه أو أبيه.[4]

وقيل: هو أن يُنزِّهَ الطاعةَ عن الالتفات إليها، وعن توقّع المُجازاة.[5]

وقد مرّ تحقيق الحقّ في ذلك عند قوله عزّ وجلّ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة، ٢/٢]. و"التُّقاةُ" مِن "اتّقى"، كالتُّؤَدة مِن "اتَّأَدَ"، أصلها: وُقَيَة، قلبت واوُها المضمومةُ تاءً، كما في تُهَمة وتُخَمة، وياؤها المفتوحة ألفًا.

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: مخلصون نفوسَكم لله عزّ وجلّ، لا تجعلون فيها شِركةً لِما سواه أصلًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [النساء، ١٢٥/٤]. وهو استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: لا تموتُنَّ على حال مِن الأحوال إلّا حالَ[6] تحقّق إسلامكم وثباتِكم عليه، كما ينبئ عنه[7] الجملة الاسميّة، ولو قيل: "إلّا مسلمين" لم يُفِدْ فائدتها. والعامل في الحال ما قبل ﴿إِلَّا﴾ بعد النقض.

وظاهر النظم الكريم وإن كان نهيًا عن الموت المقيَّد بقيدٍ هو الكون على حالٍ غيرِ حالِ الإسلام؛ لكنّ المقصود هو النهي عن ذلك القيد عند الموت

---

١ ي: عنها.
٢ المعجم الكبير للطبراني، ٩٢/٩ (٨٥٠١)؛ السنن الكبرى للنسائي، ٤٠٤/١٠ (١١٨٤٧).
٣ تفسير ابن أبي حاتم، ٢٢٨/١١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٦١/٣.
٤ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٤/١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٨٥/٣.
٥ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١/٢.
٦ ي - حال.
٧ ي: عليه.

المستلزِمِ للأمر بضدّه الذي هو الكون على حال الإسلام حينئذ. وحيث كان الخطاب للمؤمنين كان المراد إيجابَ الثباتِ على الإسلام إلى الموت. وتوجيه النهي إلى الموت للمبالغة في النهي عن قيده المذكور، فإنّ النهي عن المقيَّد في أمثاله نهيٌ عن القيد ورفعٌ له عن أصله بالكلّيّة، مفيدٌ لِما لا يفيده النهيُ عن نفس القيد، فإنّ قولك: "لا تُصلِّ إلّا وأنت خاشعٌ" يفيد مِن المبالغة في إيجاب الخشوع في الصلاة ما لا يفيده قولُك: "لا تترُكِ الخشوعَ في الصلاة"؛ لِما أنّ هذا نهيٌ عن ترك الخشوع فقط، وذاك نهيٌ عنه وعمّا يقارِنُه، ومفيدٌ لكون الخشوعِ هو العمدةَ في الصلاة، وأنّ الصلاة بدونه حقُّها أن لا تُفعل. وفيه نوع تحذيرٍ عمّا وراءَ الموت.

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

وقوله عزّ وعلا:[١] ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: بدين الإسلام، أو بكتابه؛ لقوله عليه السلام: «القرآن حبلُ الله المتينُ، لا تنقضي عجائبُه، ولا يخلَقُ[٢] عن كثرة الردِّ، مَن قال به صدَقَ، ومَن عمِل به رَشَد، ومَن اعتصم به هُديَ إلى صراط مستقيم»؛[٣] إمّا تمثيل للحالة الحاصلة مِن استظهارهم به ووثوقِهم بحمايته بالحالة الحاصلة مِن تمسّك المتدلّي مِن مكان رفيعٍ بحبل وثيقٍ مأمونِ الانقطاع مِن غير اعتبار مجازٍ في المفردات. وإمّا استعارةٌ للحَبل لِما ذُكر مِن الدين أو الكتابِ، و"الاعتصامُ" ترشيح لها، أو مستعار للوثوق به والاعتمادِ عليه.

﴿جَمِيعًا﴾ حال مِن فاعل ﴿ٱعْتَصِمُواْ﴾، أي: مجتمعين في الاعتصام. ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ أي: لا تتفرّقوا عن الحقّ بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب. أو كما كنتم متفرِّقين في الجاهليّة يحارب بعضُكم بعضًا. أو لا تُحدِثوا ما يوجب التفرّقَ

---

[١] ي: تعالى.

[٢] وفي هامش ط س ي: مِن "أخلَق الثوبُ إذا بَلِي". «منه». | انظر: الصحاح للجوهري، «خلق».

[٣] الكشّاف للزمخشري، ١/٣٩٤. وهو جزء مِن حديث طويل في سنن الترمذي، ٥/١٧٢-١٧٣ (٢٩٠٦).

ويُزيل الأُلفةَ التي أنتم عليها. ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مضافٌ إلى الفاعل. وقوله تعالى: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ متعلِّق به، أو بمحذوف وقع حالًا منه. وقوله تعالى: ﴿إِذۡ كُنتُمۡ﴾ ظرف له، أو للاستقرار في ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: اذكروا إنعامه عليكم، أوِ اذكُروا إنعامه مستقِرًّا عليكم وقتَ كونكم ﴿أَعۡدَآءٗ﴾ في الجاهليّة، بينكم الإِحَنُ والعداواتُ والحروبُ المتواصلة. وقيل: هم الأوسُ والخزرجُ كانا أخوَين لأب وأمٍّ، فوقعت بين أولادهما العداوةُ والبغضاءُ، وتطاولت الحروبُ فيما بينهم مائةً وعشرين سنةً.[١]

﴿فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ﴾ بتوفيقكم للإسلام، ﴿فَأَصۡبَحۡتُم﴾ أي: فصِرْتم ﴿بِنِعۡمَتِهِۦٓ﴾ التي هي ذلك التأليف ﴿إِخۡوَٰنٗا﴾ خبرُ "أصبحتُم"، أي: إخوانًا مُتحابّين مُجتمعين على الأُخوّة في الله، متراحمين متناصحين متّفقين على كلمة الحقّ. وقيل: معنى ﴿فَأَصۡبَحۡتُم﴾: فدخلتم في الصباح، فالباء حينئذ متعلِّقة بمحذوف وقَع حالًا مِن الفاعل، وكذا ﴿إِخۡوَٰنٗا﴾، أي: فأصبحتم ملتبسين بنعمته حالَ كونِكم إخوانًا.

﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ شَفا الحفرةِ وشفَتُها: حَرْفها.[٢] أي: كنتم مشرفين على الوقوع في نار جهنّم لكفركم، إذ لو أدرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم فيها. ﴿فَأَنقَذَكُم﴾ بأن هداكم للإسلام، ﴿مِّنۡهَا﴾ الضميرُ للحُفرة أو للنّار أو / للشّفا. والتأنيث للمضاف إليه كما في قوله: [١٠٤و]

وتَـشْـرَقَ بـالـقـول الـذي قـد أذعـتَـه كما شَـرِقَـتْ صـدرُ القـناةِ مِن الـدمِ[٣]

أو لأنّه بمعنى الشّفة، فإنّ شَفا البئرِ وشفَتَها: جانبُها، كالجانب والجانبة. وأصله: شَفَوٌ، قُلبت الواو ألفًا في المذكّر، وحُذفت في المؤنّث.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١/٣٩٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣١.

٢ ي: طرفها.

٣ للأعشى في لسان العرب لابن منظور، «صدر». | وهو يخاطب عُمير بن عبد الله بن المنذر، وكان بينهما مهاجاة. و"تَشرقَ" بالنصب عطفًا على فعل منصوب في بيت سابق، ومعنى "تَشرَق": ينقطع كلامُك في حلقك، يريد: أنه ينقطع كلامك بسبب ما تذيعه وتنشره مِن السبّ والشتم لي. "كما شَرِقت صدر القناة" يريد: كما يقف الدّم على صدر القناة فيجمُد ولا يذهب. انظر: شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي، ٧/١٠٥.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعلوّ درجة المشارِ إليه وبُعدِ منزلته في الفضل، وكمالِ تميُّزه[١] به عمّا عداه، وانتظامِه بسببه في سلك الأمور المشاهَدة. والكاف مُقحَمة؛ لتأكيد ما أفاده اسمُ الإشارة مِن الفخامة. ومحلّها النصبُ على أنّها صفة لمصدر محذوف، أي: مثل ذلك التبيين الواضحِ.

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: دلائله، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ طلبًا لثباتكم على الهدى، وازديادِكم فيه.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أمرهم الله سبحانه بتكميل الغير وإرشادِه إثرَ أمرهم بتكميل النفس وتهذيبِها بما قبله مِن الأوامر والنواهي تثبيتًا للكلّ على مراعاة ما فيها مِن الأحكام، بأن يقوم بعضُهم بمَواجبها، ويحافظَ على حقوقها وحدودها، ويذكِّرَها الناسَ كافّةً، ويزَعَهم[٢] عن الإخلال بها. والجمهور على إسكان لام الأمرِ، وقد قُرئ بكسرها على الأصل.[٣] وهو مِن "كان" التامّة.

و"مِن" تبعيضيّة متعلِّقة بالأمر، أو بمحذوف وقع حالًا مِن الفاعل، وهو ﴿أُمَّةٌ﴾، و﴿يَدْعُونَ﴾ صفتُها، أي: لِتوجَدْ منكم أمّةٌ داعيةٌ إلى الخير. والأمّة: هي الجماعة التي يؤُمّها فِرَقُ الناس، أي: يقصِدونها ويقتدون بها. أو مِن الناقصة، و﴿أُمَّةٌ﴾ اسمُها، و﴿يَدْعُونَ﴾ خبرُها، أي: لتكن منكم أمّةٌ داعين إلى الخير. وأيًّا ما كان فتوجيه الخطاب إلى الكلّ مع إسناد الدعوة إلى البعض لتحقيق معنى فرضيتِها على الكفاية، وأنّها واجبة على الكلّ لكن بحيث إن أقامها البعضُ سقطت عن الباقين، ولو أخلّ بها الكلُّ أثِموا جميعًا، لا بحيث يتحتّم على الكلّ إقامتُها،

---

[١] ي: تميّز.

[٢] ي: ويردعهم.

[٣] قراءة شاذّة، ضبطها الكرماني بالياء وكسر اللام، وعزاها إلى الحسن وشيبة. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٨.

على ما يُنبئ عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ الآيةَ [التوبة، ١٢٢/٩]، ولأنّها مِن عظائم الأمورِ وعزائمِها التي لا يتولّاها إلّا العلماءُ بأحكامه تعالى ومراتبِ الاحتساب وكيفيّة إقامتِها، فإنّ مَن لا يعلمُها يوشِكُ أن يأمرَ بمنكر[1] وينهى عن معروف، ويُغلِظَ في مقام اللّين، ويُلينَ في مقام الغِلْظة، وينكِرَ على مَن لا يزيده الإنكارُ إلّا التماديَ والإصرارَ.

وقيل: "مِن" بيانيّة،[2] كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم﴾ الآيةَ [الفتح، ٢٩/٤٨]، والأمرُ مِن "كان" الناقصة، والمعنى: كونوا أمّةً يدعون... الآيةَ، كقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران، ١١٠/٣]. ولا يقتضي ذلك كونَ الدعوةِ فرضَ عينٍ، فإنّ الجهاد مِن فروض الكفاية مع ثبوته بالخطابات العامّة.

و"الدعاء إلى الخير": عبارة عن الدعاء إلى ما فيه صلاح دينيّ أو دنيويّ، فعطفُ الأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكر عليه بقوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ مع اندراجهما فيه مِن باب عطف الخاصّ على العامّ؛ لإظهار فضلهما وإنافتهما[3] على سائر الخيرات، كعطف "جبريلَ" و"ميكالَ" على "الملائكة" عليهم السلام.[4] وحذْف المفعول الصريحِ مِن الأفعال الثلاثة إمّا للإيذان بظهوره، أي: يدْعون الناس ويأمُرونهم وينهَونهم، وإمّا للقصد إلى إيجاد نفسِ الفعل، كما في قولك: فلان يعطي ويمنع، أي: يفعلون الدعاءَ إلى الخير والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى "الأمّة" المذكورة باعتبار اتّصافهم بما ذُكر مِن النعوت الفاضلة، وكمالِ تميّزِهم بذلك عمّنْ عداهم، وانتظامِهم بسببه في سلك الأمور المشاهَدة. وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بعلوّ طبقتهم وبُعدِ منزلتهم في الفضل.

---

١ س - بمنكر.

٢ وفي هامش ط س ي: قال الزجّاج: «ولتكونوا كلّكم، و"مِن" لتخصيص المخاطبين مِن بين سائر الأجناس». «منه». | انظر: **معاني القرآن** للزجّاج، ٤٥٢/١.

٣ إنافتهما: شَرفُهما، مِن "أناف على شيء"، أي: أشرَف. انظر: **الصحاح** للجوهري، «نيف».

٤ في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة، ٩٨/٢].

والإفراد في كاف الخطاب إمّا لأنّ المخاطَب كلُّ مَن يصلُح للخطاب، وإمّا لأنّ التعيين غيرُ مقصود، أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكاملة ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم الأخصّاء بكمال الفلاح. و﴿هُمْ﴾ ضمير فصلٍ[١] يفصِلُ بين الخبر والصفة، ويؤكّد النسبةَ، ويفيد اختصاصَ المسنَدِ بالمسنَد إليه. أو مبتدأ خبرُه: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، والجملة خبر لـ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾. وتعريف ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ إمّا للعهد، أو للإشارة إلى ما يعرِفُه كلُّ أحدٍ مِن حقيقة المفلحين.

رُوي عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه سُئل عن خير الناس، فقال: «آمَرُهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله، وأوصلُهم» أي: للرَّحِم.[٢]

وعنه عليه السلام: «مَنْ أمَر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه، وخليفة رسولِه، وخليفة كتابِه».[٣]

وعنه عليه السلام: «والذي نفسي بِيَدِهِ لتأمُرُنّ بالمعروف ولتنهَوُنّ عن المنكر، أو لَيُوشِكَنّ الله أن يَبْعَثَ عَلَيْكُم عذابًا مِن عنده، ثمّ لتَدْعُنَّه فلا يُستجاب لكم».[٤]

وعن عليّ رضي الله عنه: «أفضل الجهاد الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، ومَن شنِئَ الفاسقين وغضِب لله غضِبَ الله له».[٥]

والأمر بالمعروف في الوجوب والندبِ تابعٌ للمأمور به، وأمّا النهي عن المنكر فواجب كلُّه؛ لأنّ جميع ما أنكره الشرع حرامٌ. والعاصي يجب عليه النهيُ عمّا ارتكبه؛ إذ يجب عليه تركُه وإنكارُه، فلا يسقط بترك أحدهما وجوب شيءٍ منهما. والتوبيخ في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة، ٤٤/٢] إنّما هو على نسيان أنفسهم، لا على أمرهم بالبِرّ، وعن السلف:

---

١ ي: للفصل.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٣/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٧/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢/٢. وهو بنحوه في مسند الإمام أحمد، ٤٢١/٤٥ (٢٧٤٣٤).

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٢/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٧/١. وأخرجه نُعيم بن حمّاد عن عبد الله بن نُعيم المَعافري، قال: سمعت المشيخة يقولون: «مَن أمر بمعروف»... فذكره. انظر: الفتن لنُعيم بن حمّاد، ١٠٣/١ (٢٤٥).

٤ مسند الإمام أحمد، ٣٣٢/٣٨ (٢٣٣٠١)؛ سنن الترمذي، ٤٦٨/٤ (٢١٦٩).

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٣/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٧/١.

«مُروا بالخير وإن لم تفعلوا».[١]

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟﴾ هم أهل الكتابَين، حيث تفرّقت اليهود فِرَقًا والنصارى فِرَقًا، ﴿وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ باستخراج التأويلات الزائغة،[٢] وكتمِ الآيات الناطقة وتحريفِها بما أخلدوا إليه مِن حُطام الدنيا الدنيّة، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[٣] أي: الآياتُ الواضحة المبيّنة للحقّ، المُوجِبة للاتّفاق عليه واتّحادِ الكلمة، فالنهي متوجّه إلى المتصدّين للدعوة أصالةً، وإلى أعقابهم تَبَعًا. ويجوز
[١٠٤ظ] تعميم الموصول للمختلِفين / مِن الأمم السالفة المشارِ إليهم بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [البقرة، ٢/٢١٣].

وقيل: هم المبتدِعة مِن هذه الأمّة. وقيل: هم الحَروريّة.[٤] وعلى كلّ تقدير فالمنهيُّ عنه إنّما هو الاختلاف في الأصول دون الفروعِ إلّا أن يكون مخالفًا للنصوص البيّنة أو الإجماعِ؛ لقوله عليه السلام: «اختلافُ أمّتي رحمةٌ»،[٥] وقولِه عليه السلام: «مَن اجتهد فأصاب فله أجران، ومَن أخطأ فله أجر واحد».[٦]

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتّصافِهم بما في حيّز الصِّلة.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١/٣٩٨؛ تفسير الرازي، ٨/٣١٥.

٢ ي: الرائغة.

٣ وفي هامش ط س ي: تذكير الفعل لِما بينه وبين فاعله مِن الفصل. «منه».

٤ أي: الخوارج. قال النووي: «هو بفتح الحاء المهملة وضمّ الراء الأولى، وهي نسبةٌ إلى حَروراء، وهي قرية بقُرب الكوفة، قال السمعاني: هو موضع على مِيلين مِن الكوفة، كان أوّل اجتماع الخوارج به. قال الهروي: تعاقدوا في هذه القرية فنُسبوا إليها». شرح صحيح مسلم للنووي، ٤/٢٧.

٥ قال السيوطي: «أخرجه الشيخ نَصر المقدسي في كتاب الحجّة مرفوعًا، والبيهقي في المدخل عن القاسم بن محمد مِن قوله. وعن عمر بن عبد العزيز قال: ما سرّني لو أنّ أصحابَ محمّد لم يَختلفوا؛ لأنّهم لو لم يختلفوا لم تكن رُخصة». انظر: الدرر المنتثرة للسيوطي، ١/٤٤.

٦ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٢. وفي الصحيحين عن عمرو بن العاص، أنّه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «إذا حكَم الحاكم فاجتهد ثمّ أصاب فله أجران، وإذا حكَم فاجتهد ثمّ أخطأ فله أجر». صحيح البخاري، ٩/١٠٨ (٧٣٥٢)؛ صحيح مسلم، ٣/١٣٤٢(١٧١٦).

وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ خبرُه. وقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مرتفِع بالظرف على الفاعليّة؛ لاعتماده على المبتدأ. أو مبتدأ والظرفُ خبرُه، والجملة خبر للمبتدَأ الأوّل. وفيه مِن التأكيد والمبالغةِ في وعيد المتفرِّقين والتشديدِ في تهديد المشبَّهين بهم ما لا يخفى.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ أي: وجوه كثيرة. وقُرِئ: "تَبْيَاضُّ".[1] ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ كثيرة. وقُرِئ: "تَسْوَادُّ".[2] وعن عطاءٍ: «تبيضُّ وجوهُ المهاجرين والأنصار، وتسْوَدّ وجوهُ بني قرَيظةَ والنَّضير».[3] و﴿يَوْمَ﴾ منصوب على أنّه ظرف للاستقرار في ﴿لَهُمْ﴾، أي: لثبوت العذاب العظيم لهم، أو على أنّه مفعول لمضمَر خوطب به المؤمنون تحذيرًا لهم عن عاقبة التفرّق بعد مجيء البيّنات، وترغيبًا في الاتّفاق على التمسّك بالدِّين، أي: اذكُروا يوم تبيضّ... إلخ. وبياض الوجه وسوادُه كنايتان عن ظهور بهجةِ السرورِ وكآبةِ الخوف فيه. وقيل: يوسَمُ أهلُ الحقّ ببياض الوجه والصحيفةِ وإشراقِ البَشَرة وسعْيِ النورِ بين يديه وبيمينه، وأهلُ الباطل بأضداد ذلك.[4]

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإشارة إليها[5] إجمالًا. وتقديم بيان هؤلاء لِما أنّ المَقام مقامُ التحذير عن التشبّه بهم مع ما فيه مِن الجمع بين الإجمال والتفصيلِ والإفضاءِ إلى ختم الكلامِ بحسن حالِ المؤمنين كما بُدِئ بذلك عند الإجمال.

﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ على إرادة القول، أي: فيقال لهم ذلك. والهمزة للتوبيخ والتعجيبِ مِن حالهم. والظاهر أنّهم أهلُ الكتابين، و"كفرُهم بعد إيمانِهم":

---

١ قراءة شاذّة، وضبطها الكرماني بفتح التاء وكسره، وعزاها للزهري. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٨.

٢ قراءة شاذّة، وضبطها الكرماني بفتح التاء وكسره، وعزاها للزهري. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٨.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٤/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٩/١.

٤ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢/٢.

٥ ي: لها.

كفرُهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد إيمانِ أسلافِهم، أو إيمانِ أنفسِهم به قبل مبعثِه عليه السلام. أو جميعُ الكفرة حيث كفروا بعد ما أقرّوا بالتوحيد يومَ الميثاقِ،[١] أو بعدَ ما تمكّنوا مِن الإيمان بالنظر الصحيح والدلائلِ الواضحة والآياتِ البيّنة. وقيل: المرتدّون. وقيل: أهلُ البِدع والأهواء.

والفاء في قوله عزّ وعلا: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: العذابَ المعهود الموصوف بالعِظَم؛ للدلالة على أنّ الأمر بذَوْق العذاب على طريق الإهانةِ مترتّبٌ على كفرهم المذكور، كما أنّ قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ صريحٌ في أنّ نفس الذوْق معلَّل بذلك. والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبلِ للدلالة على استمرار كفرِهم، أو على مُضيِّه في الدنيا.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ أعني: الجنّةَ والنعيم المخلَّد، عُبّر عنها بالرحمة تنبيهًا على أنّ المؤمِن وإن[٢] استغرق عمرَه في طاعة الله تعالى فإنّه لا يدخُل الجنّة إلّا برحمته تعالى. وقُرِئ: "ابياضّتْ"، كما قُرِئ: "اسوادّتْ".[٣]

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن السِّباق، كأنّه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لا يظعَنون عنها ولا يموتون. وتقديم الظرف للمحافظة على رءوس الآي.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الآيات المشتملة على تنعيم الأبرار وتعذيبِ الكفّار. ومعنى البُعد للإيذان بعلوّ شأنها وسُموّ مكانها في الشرف. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ خبرُه، وقوله تعالى: ﴿نَتْلُوهَا﴾ جملة حاليّة مِن "الآيات"،

---

١ المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف، ١٧٢/٧].

٢ ي: فإن.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي الجوزاء وابن يَعمُر. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٩٦/٣.

والعامل فيها معنى الإشارة. أو هي الخبر، و﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ بدل مِن اسم الإشارة. والالتفات إلى التكلّم بنون العظمة مع كون التلاوةِ على لسان جبريلَ عليه السلام لإبراز كمالِ العنايةِ بالتلاوة. وقُرئ: "يَتْلُوهَا"[1] على إسناد الفعل إلى ضميره تعالى. وقوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلِّق بـ﴿نَتْلُوهَا﴾. وقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال مؤكِّدة مِن فاعل ﴿نَتْلُوهَا﴾، أو مِن مفعوله، أي: ملتبسين، أو ملتبسةً بالحقّ والعدل ليس في حكمها شائبةُ جَوْر بنقص ثوابِ المحسنِ أو بزيادة عقابِ المسيءِ، أو بالعقاب مِن غير جُرْم؛ بل كلُّ ذلك مُوفًّى لهم حسبَ استحقاقهم بأعمالهم بموجَب الوعد والوعيد.

وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ تذييل مقرِّر لمضمون ما قبله على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه. فإنّ تنكير الظلم وتوجيهَ النفي إلى إرادته بصيغة المضارع دون نفسه، وتعليقَ الحكم بآحاد الجمع المعرَّف، والالتفاتَ إلى الاسم الجليل إشعارًا بعلّة الحكمِ؛ بيانٌ لكمال نزاهته عزّ وجلّ عن الظلم بما لا مزيدَ عليه،[2] أي: ما يريد فردًا مِن أفراد الظلم لفردٍ مِن أفراد العالمين في وقت مِن الأوقات فضلًا عن أن يظلِمَهم. فإنّ المضارع كما يفيد الاستمرارَ في الإثبات يفيده في النفي بحسب المقام، كما أنّ الجملة الاسميّة تدلُّ بمعونة المقام على دوام الثبوت، وعند دخول حرفِ النفي تدلّ على دوام الانتفاء، لا على انتفاء الدوام. وفي سَبك الجملة نوعُ إيماءٍ إلى التعريض بأنّ الكفَرة هم ظلَموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس، ١٠/٤٤].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: له تعالى وحدَه مِن غير شِرْكةٍ أصلًا، ما فيهما مِن المخلوقات الفائتة للحصر مُلكًا وخلقًا، إحياءً وإماتةً، وإثابةً وتعذيبًا.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي نَهيك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٩.

[2] وفي هامش س ي: فإنّ وصف الألوهيّة يستدعي نفي الظلم.١ «منه». | ١ ي + مطلقًا.

وإيراد كلمة ﴿مَا﴾ إمّا لتغليب غير العقلاءِ على العقلاء، وإمّا لتنزيلهم منزلةَ غيرهم إظهارًا لحقارتهم في مَقام بيان عظمتِه تعالى.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى حُكمه وقضائه، لا إلى غيره شِرْكةً أو استقلالًا، ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: أمورُهم، فيجازي كلًّا منهم بما وَعد له وأوعده مِن غير دخلٍ في ذلك لأحد قطُّ. فالجملة[١] مقرِّرة لمَضمون ما ورد في جزاء الفريقين. وقيل:
[١٠٥و] هي معطوفة على ما قبلها / مقرِّرة لمَضمونه، فإنّ كون العالمين عبيدَه تعالى ومخلوقَه ومرزوقَه يستدعي إرادةَ الخير بهم.[٢]

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ كلام مستأنَف سِيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه مِن الاتّفاق على الحقّ والدعوة إلى الخير. و﴿كُنتُمْ﴾ مِن "كان" الناقصةِ التي تدلّ على تحقّق شيء بصفة في الزمان الماضي مِن غير دلالة على عدمٍ سابقٍ أو لاحق، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء، ٩٦/٤]. وقيل: كنتم كذلك في عِلم الله تعالى، أو في اللوح، أو فيما بين الأمم السالفة.

وقيل: معناه: أنتم خيرُ أمّة ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ صفة لـ﴿أُمَّةٍ﴾، واللام متعلّقة بـ﴿أُخْرِجَتْ﴾، أي: أظهِرَت لهم. وقيل: بـ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، أي: كنتم خيرَ الناسِ للنّاس، فهو صريح في أنّ الخيريّة بمعنى النفع للناس، وإن فُهم ذلك مِن الإخراج لهم أيضًا، أي: أخرجَتْ لأجلهم ومصلحتهم، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «معناه: كنتم خيرَ الناسِ للنّاس، تأتون بهم في السلاسل، فتُدخِلونهم في الإسلام».[٣] وقال قتادةُ: «هم أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم؛ لم يُؤمَر نبيّ قبله بالقتال، فهم يقاتلون الكفّارَ فيُدخلونهم في الإسلام، فهم خير أمّة للناس».[٤]

---

[١] ط س: والجملة.

[٢] وفي هامش س ي: قال بعضُهم: هذا معطوف على الأوّل، كأنّه يقول: وما الله يريد ظُلمًا للعالمين؛ لأنّ كلّهم عبيدُه ومخلوقُه ومرزوقُه، فلا يريد ظلمهم. تفسير أبي الليث. | تفسير أبي الليث السمرقندي، ٢٣٧/١.

[٣] صحيح البخاري، ٣٧/٦ (٤٥٥٧)؛ جامع البيان للطبري، ٦٧٤/٥.

[٤] الكشف والبيان للثعلبي، ١١٢٧/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤٦٥/٥.

﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ استئناف مبيّن لكونهم خيرَ أمّة، كما يقال: زيدٌ كريمٌ، يُطعِم الناسَ ويَكسوهم ويقوم بمصالحهم. أو خبر ثانٍ لـ﴿كُنتُمۡ﴾. وصيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار. وخطاب المشافهة وإن كان خاصًّا بمَن شاهد الوحيَ مِن المؤمنين، لكنّ حُكمه عامٌّ للكلّ. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «يريد أمّةَ محمّد صلّى الله عليه وسلّم».[١] وقال الزجّاج: «أصلُ هذا الخطابِ لأصحاب رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو يعمُّ سائرَ أمّتِه».[٢]

وروى الترمذيُّ عن بَهزِ بنِ حكيم[٣] عن أبيه عن جدِّه أنّه سمع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول في قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾: «أنتم تُتِمّون سبعين أمّةً أنتم خيرُها وأكرمُها على الله تعالى».[٤] وظاهر أنّ المراد بكلّ أمّةٍ: أوائلُهم وأواخرُهم، لا أوائلُهم فقط، فلا بدّ أن يكون أعقابُ هذه الأمّة أيضًا داخلةً في الحكم. وكذا الحالُ فيما رُوي أنّ مالك بنَ الصيف ووهْبَ بنَ يهودا[٥] اليهوديَّين مرّا بنفرٍ مِن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيهم ابنُ مسعود وأبيُّ بنُ كعبٍ ومعاذُ بنُ جبل وسالمٌ مولى حذيفةَ رضي الله تعالى[٦] عنهم، فقالا لهم: «نحن أفضلُ منكم، ودينُنا خيرٌ ممّا تدعوننا إليه».[٧] وروى سعيدُ بنُ جبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾: الذين هاجروا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة».[٨] ورُوي عن الضحّاك: أنّهم أصحابُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، خاصّةً الرواةُ والدعاةُ الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم.[٩]

---

١ التفسير الوسيط للواحدي، ١/٤٧٧.

٢ معاني القرآن للزجّاج، ١/٤٥٦.

٣ هو بَهز بن حكيم بن معاوية بن حَيدة القشيري البصري، أبو عبد الملك (ت. نحو ١٥٠هـ/٧٧٠م). الإمام المحدّث، له عدّة أحاديث عن أبيه عن جدّه، وعن زُرارة بن أوفى. وثّقه ابن مَعين وعليّ وأبو داود والنسائي. وقال البخاري: يختلفون في بَهز. وقال ابن حِبّان: يخطئ كثيرًا، وهو ممّن أستخير الله فيه. وقال الخطيب: روى عنه الزهري. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٦/٢٥٣؛ وتهذيب التهذيب لابن حجر، ١/٤٩٨.

٤ مسند الإمام أحمد، ١٨/١٣٣ (١١٥٨٧)؛ سنن الترمذي، ٥/٢٢٦ (٣٠٠١).

٥ ي: يهود.

٦ ي - تعالى.

٧ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/١٢٦؛ اللباب لابن عادل، ٥/٤٦٦، عن عكرمة ومقاتل.

٨ مسند الإمام أحمد، ٤/٢٧٢ (٢٤٦٣)؛ جامع البيان للطبري، ٥/٦٧٢.

٩ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/١٢٦؛ جامع البيان للطبري، ٥/٦٦٢.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: إيمانًا متعلِّقًا بكلّ ما يجب أن يؤمَنَ به مِن رسول وكتابٍ وحساب وجزاءٍ، وإنّما لم يصرِّح به تفصيلًا لظهور أنّه الذي يؤمِن به المؤمنون، وللإيذان بأنّه الإيمانُ بالله تعالى حقيقةً، وأنّ ما خلا عن[1] شيء مِن[2] ذلك -كإيمان أهل الكتاب- ليس مِن الإيمان به تعالى في شيء، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء، ٤/١٥٠-١٥١].

وإنّما أُخِّر ذلك عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع تقدّمه عليهما[3] وجودًا ورُتبةً؛ لأنّ دلالتهما على خيريّتهم للنّاس أظهرُ مِن دلالته عليها، وليقترن به قوله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾، أي: لو آمنوا كإيمانكم لكان ذلك خيرًا لهم ممّا هم عليه مِن الرِّياسة واستتباع العوامِّ، ولازدادت رِياستُهم وتمتُّعهم بالحظوظ الدنيويّة مع الفوز بما وُعِدوه على الإيمان مِن إيتاء الأجر مرّتين. وقيل: ممّا هم فيه مِن الكفر، فالخيريّةُ إنّما هي باعتبار زعمِهم. وفيه ضربُ تهكّمٍ بهم. وإنّما لم يتعرَّض للمؤمَنِ به أصلًا للإشعار بظهور أنّه الذي يُطلَق عليه اسمُ الإيمان، لا يذهب الوهمُ إلى غيره. ولو فُصِّل المؤمَنُ به ههنا أو فيما قبلُ لربّما فُهم أنّ لأهل الكتاب أيضًا إيمانًا في الجملة، لكنّ إيمان المؤمنين خيرٌ منه، وهيهاتَ ذلك.

﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ جملة مستأنَفة سِيقت جوابًا عمّا نشأ مِن الشرطيّة الدالّةِ على انتفاء الخيريّةِ لانتفاء الإيمانِ عنهم، كأنّه قيل: هل منهم مَن آمن، أو كلُّهم على الكفر؟ فقيل: منهم المؤمنون المعهودون الفائزون بخير الدارَين، كعبد الله بن سلام وأصحابه. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المتمرِّدون في الكفر، الخارجون عن الحدود.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١﴾

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ استثناء مفرّغ مِن المصدر العامّ، أي: لن يضرّوكم أبدًا ضررًا ما إلّا ضررَ أذًى لا يبالَى به، مِن طعنٍ وتهديد لا أثرَ له.

---

١ س: مِن.

٢ ط: عن.

٣ س: عليها.

﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ أي: ينهزموا مِن غير أن ينالوا منكم شيئًا مِن قتل أو أسرٍ. ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ عطفٌ على الشرطيّة. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرتبة، أي: لا يُنصرون مِن جهة أحدٍ، ولا يُمنعون منكم قتلًا وأخذًا. وفيه تثبيت لمَن آمَن منهم، فإنّهم كانوا يؤذونهم بالتلقّي بهم وتوبيخِهم وتضليلِهم وتهديدِهم، وبشارةٌ لهم بأنّهم لا يقدِرون على أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر يُعبأ به، مع أنّه تعالى[١] وعدَهم الغلَبة عليهم والانتقامَ منهم، وأنّ عاقبة أمرهم الخِذلانُ والذلّ.

وإنّما لم يُعطَف نفيُ منصوريّتهم على الجزاء؛ لأنّ المقصود هو الوعدُ بنفي النصرِ مطلقًا، ولو عُطف عليه لكان مقيّدًا بمقاتلتهم، كتولية الأدبار، وكم بين الوعدين! كأنّه قيل: ثمّ شأنهم الذي أُخبركم عنه وأبشّركم به أنّهم مخذولون مُنتفٍ عنهم النصرُ والقوّةُ،[٢] لا ينهَضون بعد ذلك بجَناحٍ، ولا يقومون على ساق، ولا يستقيم لهم أمرٌ، وكان كذلك[٣] حيث لقيَ بنو[٤] قريظةَ والنضيرِ وبنو[٥] قينُقاع ويهودُ خيبرَ ما لقُوا.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ أي: هدرُ النفسِ والمال والأهل، أو ذلُّ التمسّكِ بالباطل. ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أي: وُجدوا. ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ استثناء مِن أعمّ الأحوال، أي: ضربت عليهم الذِلّة ضربَ القُبّة / على مَنْ هي عليه في [١٠٥ظ]
جميع الأحوال إلّا حالَ كونهم معتصِمين بذِمّة الله أو كتابِه الذي آتاهم[٦] وذِمّةِ المسلمين، أو بذِمّة الإسلام واتّباع سبيل المؤمنين.

---

١ ط س – تعالى.
٢ ي + والقدرة.
٣ ي: ذلك.
٤ س: بنوا.
٥ ي: بنوا.
٦ س ط: أتاهم.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رجعوا به مستوجبين له، والتنكيرُ للتّفخيم والتهويل، و﴿مِن﴾ متعلِّقة بمحذوف وقع صفة لـ"غَضَبٍ"، مؤكِّدةً لِما أفاده التنكير مِن الفخامة والهول، أي: كائنٍ مِن الله عزّ وجلّ.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ فهي محيطة بهم مِن جميع جوانبهم. واليهودُ كذلك في غالب الحال، مساكينُ تحت أيدي المسلمين أو النصارى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر مِن ضَرْب الذِّلّة والمسكنة عليهم، والبَوْءِ بالغضب العظيم. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: ذلك الذي ذُكر كائنٌ بسبب كفرهم المستمرِّ بآيات الله الناطقة بنبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وتحريفِهم لها وبسائر الآيات القرآنيّة.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: في اعتقادهم أيضًا. وإسناد القتل إليهم مع أنّه فعلُ أسلافِهم لرضاهم به، كما أنّ التحريف مع كونه مِن أفعال أحبارِهم يُنسَبُ إلى كلّ مَن يسير بسِيرتهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن الكفر والقتل، ﴿بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ أي: كائنٌ بسبب عصيانهم واعتدائِهم حدودَ الله تعالى على الاستمرار، فإنّ الإصرار على الصغائر يُفضي إلى مباشرة الكبائِر، والاستمرارَ عليها يؤدِّي إلى الكفر. وقيل: معناه: أنّ ضرب الذلّةِ والمسكَنةِ في الدنيا واستيجابَ الغضب في الآخرة كما هو معلَّل بكفرهم وقتلِهم فهو مسبَّب عن عصيانهم واعتدائهم مِن حيث إنّهم مخاطَبون بالفروع مِن حيث المؤاخذة.

﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ جملة مستأنَفة سيقت تمهيدًا لتعداد محاسِن مؤمني أهلِ الكتاب، وتذكيرًا لقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.[١] والضمير في ﴿لَيْسُوا۟﴾ لأهل الكتاب جميعًا، لا للفاسقين منهم خاصّة، وهو اسمُ "ليس"، وخبرُه ﴿سَوَآءً﴾،

---

١ آل عمران، ١١٠/٣.

وإنّما أُفرد لأنّه في الأصل مصدَرٌ. والمراد بنفي المساواة: نفيُ المشاركة في أصل الاتّصاف بالقبائح المذكورة، لا نفيُ المساواة في مراتبِ الاتّصاف بها مع تحقّق المشاركة في أصل الاتّصاف بها، أي: ليس جميع أهل الكتابِ متشاركين في الاتّصاف بما ذُكر مِن القبائح، والابتلاءِ بما يترتّب عليها مِن العقوبات.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ استئناف مبيّن لكيفيّة عدم تساويهم، ومزيلٌ لِما فيه مِن الإبهام، كما أنّ ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الآية،[١] مبيّنٌ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾... إلخ.[٢] ووضعُ ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ موضعَ الضمير العائد إليهم لتحقيق ما به الاشتراكُ بين الفريقين، والإيذانِ بأنّ تلك الأمّة ممّن أوتي نصيبًا وافرًا مِن الكتاب، لا مِن أراذلهم. والقائمة: المستقيمةُ العادلةُ، مِن "أقمتُ العودَ فقام"، بمعنى: استقام.

وهم الذين أسلموا منهم، كعبدِ الله بنِ سلام، وثعلبةَ بنِ سعيد، وأُسَيْدِ بنِ عبيد، وأضرابِهم. وقيل: هم أربعون رجلًا مِن أهلِ نجرانَ، واثنان وثلاثون مِن الحبشة، وثلاثةٌ مِن الروم، كانوا على دين عيسى عليه السلام،[٣] وصدّقوا محمّدًا عليهما السلام، وكان مِن الأنصار فيهم عدّةٌ قبل قدوم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم،[٤] منهم أسعدُ بنُ زُرارة، والبراءُ بن مَعرورٍ، ومحمّد بنُ مسلمةَ،[٥] وأبو قيس صِرمةُ بنُ أنسٍ، كانوا موحّدين يغتسلون مِن الجنابة، ويقومون بما يعرِفون مِن شرائع الحنيفيّةِ حتّى بعث الله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فصدّقوه ونصَروه.[٦]

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ في محلّ الرفع على أنّه صفة أخرى لـ﴿أُمَّةٌ﴾، وقيل: في محلّ النصب على أنّه حال منها؛ لتخصُّصها بالنعت، والعاملُ فيه الاستقرار الذي يتضمّنه الجارُّ، أو مِن ضميرها في ﴿قَآئِمَةٌ﴾، أو مِن المستكِنّ في الجارّ؛ لوقوعه خبرًا لـ﴿أُمَّةٌ﴾. والمراد بـ﴿ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾:[٧] القرآنُ. وقوله تعالى:[٨]

---

١ آل عمران، ٣/١١٠.
٢ آل عمران، ٣/١١٠.
٣ س - عليه السلام.
٤ ط: عليه السلام.
٥ ي: سلمة.
٦ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/١٢٦؛ اللباب لابن عادل، ٥/٤٧٧.
٧ ي - الله.
٨ ي + في.

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ ظرف لـ﴿يَتۡلُونَ﴾، أي: في ساعاته، جمع: أَنًى؛ بزِنة عَصًا، أو إِنًى؛ بزِنة مِعًى، أو أَنْيٍ؛ بزِنة ظَبْيٍ، أو إِنْيٍ؛ بزِنة نِحْيٍ،[1] أو إِنْوٍ؛ بزِنة جِرْوٍ.

﴿وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ أي: يصلّون؛ إذ لا تلاوة في السجود، قال صلّى الله عليه وسلّم: «ألا إنّي[2] نُهيت أن أقرأ راكعًا وساجدًا».[3] وتخصيص السجود بالذكر مِن بين سائر أركان الصلاة؛ لكونه أدلَّ على كمال الخضوع. والتصريح بتلاوتهم آياتِ الله في الصلاة مع أنّها مشتملة عليها قطعًا لزيادة تحقيق المخالفة، وتوضيحِ عدمِ المساواة بينهم وبين الذين وُصفوا آنفًا بالكفر بها، وهو السِّرّ في تقديم هذا النعت على نعت الإيمان.

والمراد بصَلاتهم: التهجّدُ؛ إذ هو أدخلُ في مدحهم، وفيه يَتسنّى لهم التلاوةُ، فإنّها في المكتوبة وظيفةُ الإمام. واعتبار حالِهم عند الصلاة على الانفراد يأباه مقامُ المدحِ، وهو الأنسب بالعدول عن إيرادها[4] باسم الجنسِ المتبادَر منه الصلوات المكتوبة،[5] وبالتعبير عن وقتها بالآناء المبهمة. وقيل: صلاةُ العِشاءِ؛ لأنّ أهل الكتاب لا يصلّونها؛ لِما رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخّرها ليلةً ثمّ خرجَ، فإذا الناسُ ينتظرون الصلاةَ، فقال: «أما إنّه ليس مِن أهل الأديان أحدٌ يذكرُ الله هذه الساعةَ غيرُكم»، وقرأ هذه الآية.[6]

وإيراد الجملة اسميّةً[7] للدلالة على الاستمرار، وتكريرُ الإسناد لتقوية الحكم وتأكيدِه،[8] وصيغةُ المضارع للدلالة على التجدّد. والجملة حال مِن فاعل ﴿يَتۡلُونَ﴾. وقيل: هي مستأنَفة، والمعنى: أنّهم يقومون تارةً ويسجدون أخرى،

---

١ س: نخيٍ.

٢ ي: أنّي.

٣ صحيح مسلم، ٣٤٨/١ (٤٧٩)؛ سنن أبي داود، ١٥٦/٢ (٨٧٦).

٤ ي: إيراده.

٥ أي: لو أورد مدحهم باسم الصلاة لتبادر إلى الذهن أنّ المراد الصلاة المكتوبة، لكنّه عدَل عن ذلك إلى ذكر السجود، فكان الأنسب حمله على التهجّد.

٦ الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٢/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٢/١. وهو في صحيح ابن حبّان، ٣٩٧/٤ (١٥٣٠)؛ ومسند أبي يعلى، ٢٠٦/٩ (٥٣٠٦).

٧ ي: الاسميّة.

٨ وفي هامش ط ي: فإنّ الفعل مُسند إلى فاعله، ثمّ الجملة مُسنَدة إلى الضمير. «منه».

يبتغون الفضل والرحمة بأنواع ما يكون في الصلاة مِن الخضوع لله عزّ وجلّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان، ٦٤/٢٥]. وقيل: المرادُ بالسجود: هو الخضوعُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرعد، ١٥/١٣].

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ صفة أخرى لـ﴿أُمَّةٌ﴾، مبيّنةٌ لمُباينتهم اليهودَ مِن جهة أخرى، أي: يؤمنون بهما على الوجه الذي نطقَ به الشرعُ. والإطلاق للإيذان بالغنى عن التقييد؛ لِظهور أنّه الذي / يُطلق عليه الإيمانُ بهما لا يذهب [١٠٦و]
الوهمُ إلى غيره، وللتّعريض بأنّ إيمان اليهودِ بهما -مع قولهم: "عزيرٌ ابنُ الله"، وكفرِهم ببعض الكتب والرسل، ووصفِهم اليومَ الآخِرَ بخلاف صفتِه- ليس مِن الإيمان بهما في شيء أصلًا، ولو قُيّد بما ذُكر لربّما تُوُهِّم أنّ المنتفيَ عنهم هو القيد المذكور مع جواز إطلاقِ الإيمانِ على إيمانهم بالأصل، وهيهات.

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ صفتان أُخْريان لـ﴿أُمَّةٌ﴾، أُجرِيَتا عليهم تحقيقًا لمخالفتهم اليهودَ في الفضائل المتعلِّقة بتكميل الغير إثْرَ بيانِ مُباينتهم لهم في الخصائص المتعلِّقة[١] بتكميل النفس، وتعريضًا بمُداهَنتهم[٢] في الاحتساب؛ بل بتعكيسهم في الأمر بإضلال الناسِ وصدِّهم عن سبيل الله، فإنّه أمرٌ بالمنكر ونهيٌ عن المعروف.

﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ صفة أخرى لـ﴿أُمَّةٌ﴾، جامعةٌ لفنون المحاسن المتعلِّقة بالنفس وبالغير. و"المسارعةُ في الخير": فرطُ الرغبة فيه؛ لأنّ مَن رغِب في الأمر سارع في تولّيه والقيام به، وآثر الفَورَ على التراخي، أي: يبادرون مع كمال الرغبة في فعل أصناف الخيراتِ اللازمةِ والمتعدّية. وفيه تعريض

---

١ ي - بتكميل الغير إثر بيان مُباينتِهم لهم في الخصائص المتعلّقة.

٢ ي: لمداهنتهم.

بتباطؤ اليهودِ فيها؛ بل بمبادرتهم إلى الشرور. وإيثارُ كلمةِ ﴿فِي﴾ على ما وقع في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾... إلخ [آل عمران، ١٣٣/٣]؛ للإيذان بأنّهم مستقِرّون في أصل الخير، متقلّبون في فنونه[١] المترتّبةِ في طبقات الفضل، لا أنّهم خارجون عنها منتهون إليها.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى "الأمّة" باعتبار اتّصافهم بما فُصّل مِن النعوت الجليلة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعلوّ درجتهم وسُموّ طبقتهم في الفضل. وإيثاره على الضمير للإشعار بعلّة الحُكم والمدح، أي: أولئك المنعوتون بتلك الصفاتِ الفاضلة بسبب اتّصافِهم بها ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: مِن جملة مَن صلَحَت أحوالُهم عند الله عزّ وجلّ، واستحقّوا رضاه وثناءَه.

﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥﴾

﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ كائنًا ما كان ممّا ذُكِر أو لم يُذكَر ﴿فَلَن يُكۡفَرُوهُ﴾ أي: لن يَعدَموا ثوابَه البتّةَ، عبّر عنه بذلك كما عبّر عن تَوفية الثوابِ بالشكر إظهارًا لكمال تنزّهه سبحانه وتعالى عن ترك إثابتهم بتصويره بصورة ما يستحيل صدورُه عنه تعالى مِن القبائح. وتعديتُه إلى مفعولين بتضمين معنى الحرمانِ. وإيثار صيغة البناءِ للمفعول للجري على سَنن الكبرياء. وقُرئ الفِعلان على صيغة الخطاب.[٢]

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ تذييل مقرّر لمضمون ما قبله، فإنّ علمه تعالى بأحوالهم يستدعي تَوْفيةَ أجورِهم لا مَحالة. والمراد بـ"المتّقين" إمّا الأمّةُ المعهودةُ، وُضع موضِعَ الضمير العائدِ إليهم مدحًا لهم، وتعيينًا لعُنوان تعلّق العلمِ بهم، وإشعارًا بمناط إثابتِهم، وهو التقوى المنطوي على الخصائص السالفة.[٣] وإمّا جنسُ المتّقين عمومًا، وهم مندرجون تحت حُكمه اندراجًا أوّليًّا.

---

١ ط س: فنونه.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر ويعقوب وشعبة، وهو أحد الوجهين عن أبي عمرو. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٤١/٢.

٣ ي: السابقة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: بما يجب أن يؤمَن به. قال ابن عبّاس رضي الله تعالى[١] عنهما: «هم بنو[٢] قُريظةَ والنضير، فإنّ معاندتهم كانت لأجل المال».[٣] وقيل: هم مشركو قريشٍ، فإنّ أبا جهلٍ كان كثيرَ الافتخار بماله.[٤] وقيل: أبو سفيان وأصحابُه، فإنّه أنفق مالًا كثيرًا على الكفّار يومَ بدرٍ وأُحُد.[٥] وقيل: هم الكفّار كافّةً،[٦] فإنّهم فاخروا بالأموال والأولاد حيث قالوا: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ، ٣٤/٣٥]، فردَّ الله عزّ وجلّ عليهم وقال: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ﴾ أي: لن يدفَع عنهم ﴿أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن عذابه تعالى ﴿شَيۡـٔٗا﴾ أي: شيئًا يسيرًا منه، أو شيئًا مِن الإغناء. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: مصاحبوها على الدوام وملازموها. ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أبدًا.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧﴾

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بيان لكيفيّة عدمِ إغناء أموالِهم التي كانوا يعوّلون عليها في جلب المنافع ودفعِ المضارّ، ويعلِّقون بها أطماعَهم الفارغةَ. و﴿مَا﴾ موصولة اسميّة، حُذف عائدها، أي: حالُ ما ينفقه الكفرةُ قربةً، أو مفاخرةً وسُمعةً، أو المنافقون رياءً وخوفًا. وقصّته العجيبةُ التي تجري مجرى المَثَل في الغرابة ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: بردٌ شديدٌ، فإنّه في الأصل مصدر وإن شاع إطلاقُه على الريح الباردة، كالصَّرْصَر. وقيل: كلمة "في" تجريديّة،[٧]

---

١ ط س – تعالى.
٢ س: بنوا.
٣ اللباب لابن عادل، ٥/٤٤٨٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٣٤ (آل عمران، ٣/١٠).
٤ اللباب لابن عادل، ٥/٤٤٨٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٣١٤.
٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/١٣٣؛ اللباب لابن عادل، ٥/٤٨٢.
٦ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/١٣٣؛ اللباب لابن عادل، ٥/٤٨٢.
٧ التجريد: هو أن يُنتزع مِن أمر ذي صفة أمرٌ آخر مماثل له في تلك الصفة مبالغةً في كمالها فيه، ويكون بـ"مِن" التجريديّة، نحو: لي مِن فلان صديق حميم. وبالباء التجريديّة نحو: لئن سألت فلانًا لتسألنّ به البحرَ. ويكون بـ"في" التجريديّة، نحو قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ [فصلت، ٤١/٢٨] ويكون بدون توسط حرف. انظر: الكلّيّات لأبي البقاء، ص ٢٧٣.

كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب، ٢١/٣٣].

﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي[١] فباءوا بغضب مِن الله تعالى. وإنّما وُصفوا بذلك؛ لأنّ الإهلاك عن سَخَط أشدُّ وأفظع. ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ عقوبةً لهم، ولم تدَعْ منه أثرًا ولا عِثْيَرًا.[٢] والمراد: تشبيهُ ما أنفقوا في ضَياعه وذهابِه بالكلّيّة مِن غير أن يعودَ إليهم نفعٌ ما بحرْثِ كفّارٍ ضربتْه صِرٌّ فاستأصلتْه، ولم يبقَ لهم فيه منفعةٌ ما بوجه مِن الوجوه. وهو مِن التشبيه المركّب الذي مرّ تفصيله في تفسير قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة، ١٧/٢]؛ ولذلك لم يبالِ بإيلاء كلمةِ التشبيهِ "الريحَ" دون "الحرثِ".[٣] ويجوز أن يراد: مَثَلُ إهلاكِ ما ينفقون كمَثَل إهلاك ريحٍ،[٤] أو مَثَلُ ما ينفقون كمَثَل مهلِكِ ريحٍ،[٥] وهو الحرْث. وقُرِئ: "تُنْفِقُونَ".[٦]

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما بيَّن مِن ضَياع ما أنفقوا مِن الأموال.[٧] ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لِما أنّهم أضاعوها بإنفاقها لا على ما ينبغي. وتقديم المفعول لرعاية الفواصلِ، لا للتّخصيص؛ إذ الكلامُ في الفعل باعتبار تعلّقِه بالفاعل لا بالمفعول، أي: ما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسَهم. وصيغة المضارع للدلالة على التجدّد والاستمرار. وقد جُوِّز أن يكون المعنى: وما ظلم[٨] الله تعالى أصحاب الحرْثِ بإهلاكه، ولكنّهم ظلَموا أنفسهم بارتكاب ما استحقّوا به العقوبةَ.[٩] ويأباه أنّه قد مرّ

---

١ ي: والمغاصي.

٢ العِثْيَر -بتسكين الثاء-: الغبار. **الصحاح** للجوهري، «عثر».

٣ أي: لم يهتمّ بجعل "الريح" بعد كاف التشبيه، والأصل أن يجعل "الحرث" بعدها. قال ابن المنير في **الانتصاف**: «والأقرب: أن يقال: أصل الكلام -والله أعلم-: مثَل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثَل حَرث قوم ظلموا أنفسهم فأصابته ريح فيها صِرّ فأهلكته، ولكن خولف هذا النظم في المثَل المذكور لفائدة جليلة؛ وهو تقديم ما هو أهمّ. لأنّ الريح التي هي مثل العذاب ذِكرُها في سياق الوعيد والتهديد أهمّ مِن ذِكرِ الحَرث، فقدّمت عناية بذكرها، واعتمادًا على أنّ الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة بردّ الكلام إلى أصله على أيسر وجه». انظر: **الانتصاف** لابن المنير، ٤٠٥/١.

٤ ي: الريح.

٥ ي: الريح.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي هرمز. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١١٩.

٧ ط س - مِن الأموال.

٨ ي: ظلمهم.

٩ ذكره البيضاوي في **أنوار التنزيل**، ٣٤/٢.

التعرّض له تصريحًا وإشعارًا. وقُرئ: "لَكِنَّ" بالتشديد[١] على أنّ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ اسمُها، و﴿يَظْلِمُونَ﴾ خبرُها، والعائد محذوف للفاصلة، أي: ولكنّ أنفسَهم يظلِمونها. وأمّا تقدير ضمير الشأن فلا سبيلَ إليه؛ لاختصاصه / بالشعر ضرورةً، كما في قوله: [١٠٦ظ]

ولكنّ مَن يُبصِر جفونَك[٢] يعشَقِ[٣]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ١١٨﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً﴾ بطانة الرجل ووَليجتُه: مَنْ يُعرِّفه أسرارَه ثقةً به، شُبِّه ببطانة الثوب كما شُبِّه بالشِّعار، قال عليه السلام: «الأنصارُ شِعار، والناسُ دِثار».[٤] قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كان رجال مِن المؤمنين يواصلون اليهودَ؛ لِما بينهم مِن القرابة والصداقة والحلف، فأنزل الله تعالى هذه الآيةَ».[٥] وقال مجاهد: «نزلتْ في قوم مِن المؤمنين كانوا يواصِلون المنافقين، فنُهوا عن ذلك»،[٦] ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران، ١١٩/٣]. وهي صفة المنافق.[٧] وأيًّا ما كان فالحكم عامٌّ للكفرة كافّةً.

﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أي: مِن دون المسلمين. وهو متعلّق بـ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾، أو بمحذوف وقعَ صفةً لـ﴿بِطَانَةً﴾، أي: كائنةً مِن دونكم مجاوزةً لكم. ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ جملة مستأنَفة مبيّنة لحالهم، داعيةٌ إلى الاجتناب عنهم. أو صفة لـ﴿بِطَانَةً﴾، يقال: أَلَا في الأمر إذا قصَّرَ فيه، ثمّ استُعمل مُعدًّى إلى مفعولين في قولهم:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٩.

[٢] ي: جوفونك.

[٣] للمتنبي في ديوانه، ص ١٠٧، وتمامه:

وما كنتُ ممّن يَدخُلُ العِشقُ قلبَه
ولكنّ مَن يبصر جفونك يعشَقِ

[٤] صحيح البخاري، ١٥٧/٥ (٤٣٣٠)؛ صحيح مسلم، ٧٣٨/٢ (١٠٦١).

[٥] ي + الكريمة. | اللباب لابن عادل، ٤٩١/٥؛ جامع البيان للطبري، ٧٠٩/٥.

[٦] اللباب لابن عادل، ٤٩١/٥؛ جامع البيان للطبري، ٧٠٩/٥.

[٧] ي: المنافقين.

لا آلوكَ نُصحًا، ولا آلوك جُهدًا، على تضمين معنى المنْع والنقص. و"الخَبال": الفساد، أي: لا يُقصِّرون لكم في الفساد.

﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: تمنَّوا عَنَتَكم، أي: مشقَّتَكم وشدَّةَ ضررِكم. وهو أيضًا استئناف مؤكِّد للنهي، موجب لزيادة الاجتناب عن المنهيّ عنه. ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ استئناف آخرُ مفيدٌ لمزيد الاجتناب عن المنهيّ عنه، أي: قد ظهرت البغضاءُ في كلامهم؛ لِما أنّهم لا يتمالكون -مع مبالغتهم في ضبط أنفسهم وتحامُلِهم عليها- أن ينفلِتَ مِن ألسنتهم ما يُعلم به بغضُهم للمسلمين. وقُرئ: "قَدْ بَدَا البَغْضَاءُ".[1] والأفواهُ: جمعُ "فم"، وأصلُه: فوهٌ، فلامه هاءٌ، يدلّ على ذلك جمعُه على "أفواه"، وتصغيرُه على "فُوَيه"، والنسبة إليه "فوهيٌّ".

﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ ممّا بدا؛ لأنّ بُدُوّه ليس عن[2] رَويّة واختيار.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالّةَ على وجوب الإخلاص في الدين، وموالاةِ المؤمنين، ومعاداةِ الكافرين.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: إن[3] كنتم مِن أهل العقل، أو إن كنتم تعقِلون ما بُيِّن لكم مِن الآيات. والجواب محذوف؛ لدلالة المذكور عليه.

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبرٍ، صُدِّرت بحرف التنبيه إظهارًا لكمال العناية بمضمونها، أي: أنتم أولاءِ[4] المخطِئون في موالاتهم. وقوله تعالى: ﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ بيان لخطئهم في ذلك. وهو خبر ثانٍ لـ"أنتم". أو خبر لـ﴿أُوْلَآءِ﴾، والجملة خبر لـ"أنتم"، كقولك: أنت زيدٌ تحبُّه. أو صلة له. أو حال

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. معاني القرآن للفرّاء، ٢٣١/١؛ جامع البيان للطبري، ٧١٤/٥.

[2] ي - عن.

[3] س - إن.

[4] ط س: هؤلاء.

والعامل معنى الإشارة. ويجوز أن ينتصِب ﴿أُوْلَآءِ﴾ بفعلٍ يفسِّره ما بعده، ويكون الجملة خبرًا.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي: بجنس الكُتب جميعًا، وهو حال مِن ضمير المفعول في ﴿لَا يُحِبُّونَكُمْ﴾. والمعنى: لا يحبّونكم والحالُ أنكم تؤمنون بكتابهم، فما بالُكم تحبّونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم؟ وفيه توبيخ بأنّهم في باطلهم[١] أصلبُ منكم في حقّكم.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ نفاقًا، ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: مِن أجله تأسّفًا وتحسّرًا حيث لم يجدوا إلى التشفّي سبيلًا.

﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاءٌ عليهم بدوام الغيظ وزيادتِه بتضاعف قوّة الإسلامِ وأهلِه إلى أن يهلِكوا به، أو باشتداده إلى أن يهلكهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيعلم ما في صدوركم مِن العداوة والبغضاء والحنَقِ، وهو يحتملُ أن يكون مِن المَقول، أي: وقل لهم: إنّ الله تعالى عليم بما هو أخفى ممّا تُخفونه مِن عضّ الأنامل غيظًا، وأن يكون خارجًا عنه، بمعنى: لا تتعجّب مِن إطْلاعي إيّاك على أسرارهم، فإنّي عليم بذات الصدور. وقيل: هو أمرٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بطيب النفسِ وقوّة الرجاءِ والاستبشار بوعد الله تعالى أن يَهلِكوا غيظًا بإعزاز الإسلامِ وإذلالِهم به مِن غير أن يكون ثمّة قول، كأنّه قيل: حدِّث نفسَك بذلك.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ١٢٠﴾

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ بيان لتناهي عداوتِهم إلى حدِّ حسَدوا ما ينالهم مِن خير ومنفعة، وشمِتُوا بما أصابهم مِن ضرّ وشدّة. وذِكرُ المسّ مع الحسنة والإصابة مع السيّئة إمّا للإيذان بأنّ مدار مساءتِهم

---

[١] ط: باطنهم.

أدنى مراتب إصابة الحسنة، ومناطَ فرحِهم تمامُ إصابة السيّئةِ، وإمّا لأنّ المسّ مستعار لمعنى الإصابة.

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ﴾ أي: على عداوتهم أو على مشاقّ التكاليف،[1] ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ ما حرّم الله تعالى عليكم ونهاكم عنه؛ ﴿لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ﴾ مكرُهم وحيلتُهم التي دبّروها لأجلكم. وقُرئ: "لَا يَضِرْكُمْ" بكسر الضاد وجزم الراء[2] على جواب الشرط، مِن ضارَه يضيرُه، بمعنى: ضَرّه يضُرّه. وضمّة الراء في القراءة المشهورة للإتْباع، كضمّة "مُدُّ".

﴿شَيۡـًٔا﴾ نصب على المصدريّة، أي: لا يضُرُّكم شيئًا مِن الضرَر؛ بفضل الله وحفظه الموعودِ للصّابرين والمتّقين، ولأنّ المُجِدّ في الأمر المتدرِّبَ بالاتّقاء والصبر يكون جريئًا على الخصم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ في عداوتكم مِن الكيد، ﴿مُحِيطٌ﴾ عِلمًا، فيعاقبهم على ذلك. وقُرئ بالتاء الفوقانيّة،[3] أي: بما تعملون مِن الصبر والتقوى، فيجازيكم بما أنتم أهلُه.

﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١﴾

﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ﴾ كلام مستأنَف، سيق للاستشهاد بما فيه مِن استتباع عدم الصبر والتقوى للضّرَر، على أنّ وجودهما مستتبِعٌ لِما وُعد مِن النجاة مِن مضرّة كيد الأعداء. و﴿إِذۡ﴾ نصب على المفعوليّة بمضمَرٍ خوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم خاصّة مع عموم الخطاب فيما قبله وما بعده له وللمؤمنين؛ لاختصاص مضمون الكلامِ به عليه السلام، أي: واذكر لهم وقت غُدُوِّك ليتذكّروا ما وقع
[١٠٧و] فيه مِن الأحوال الناشئة عن عدم الصبر، فيعلموا أنّهم إن لزِموا الصبرَ / والتقوى لا يضرُّهم كيد الكفرة.

---

[1] ي: التكليف.

[2] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن والأعمش وسهل. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٩.

وتوجيه الأمر بالذِّكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مِن الحوادث مع أنّها المقصودة بالذات للمبالغة في إيجاب ذكرها واستحضار الحادثةِ بتفاصيلها كما سلَف بيانه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾... إلخ [البقرة، ٣٠/٢]. والمراد به: خروجُه عليه السلام إلى أُحُد، وكان ذلك مِن منزل عائشةَ رضي الله عنها،[١] وهو المراد بقوله تعالى: ﴿مِنۡ أَهۡلِكَ﴾، أي: مِن عند أهلك.

﴿تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: تُنزلهم، أو تهيّيء وتسوّي لهم ﴿مَقَٰعِدَ﴾، ويؤيّده قراءةُ مَن قرأ: "تُبَوِّئُ لِلمُؤْمِنِينَ".[٢] والجملة حال مِن فاعل ﴿غَدَوۡتَ﴾؛ لكن لا على أنّها حال مقدّرة، أي: ناويًا وقاصدًا للتبوئة كما قيل؛ بل على أنّ المقصود تذكير الزمان الممتدِّ المتّسعِ لابتداء الخروجِ والتبوِئة وما يترتّب عليها؛ إذ هو المُذكِّر للقصّة. وإنّما عُبّر عنه بالغدوّ الذي هو الخروجُ غُدوةً مع كون خروجِه عليه السلام بعد صلاة الجمعة كما ستعرفه؛ إذ حينئذ وقعت التبوِئةُ التي هي العُمدة في الباب؛ إذِ المقصود بتذكير الوقت تذكير مخالفتهم لأمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وتزايُلِهم عن أحيازهم المعيَّنةِ لهم عند التبوِئة وعدمِ صبرهم.

وبهذا يتبيّن خللُ رأي مَن احتجّ به على جواز أداء صلاةِ[٣] الجمعة قبل الزوال.[٤] واللّام في قوله تعالى: ﴿لِلۡقِتَالِ﴾ إمّا متعلّقة بـ﴿تُبَوِّئُ﴾، أي: لأجل القتال، وإمّا بمحذوف وقع صفةً لـ﴿مَقَٰعِدَ﴾، أي: كائنةً. ومقاعد القتال: أماكنه ومواقِفُه، فإنّ استعمال المقعد والمقامِ بمعنى المكانِ اتساعًا شائعٌ ذائعٌ، كما في قوله تعالى: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ﴾ [القمر، ٥٥/٥٤]، وقوله تعالى: ﴿قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل، ٣٩/٢٧].

رُوي أنّ المشركين نزلوا بأُحُد يومَ الأربعاءِ، فاستشار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أصحابَه، ودعا عبدَ الله بنَ أُبيّ بنِ سَلول، ولم يكن دعاه قبل ذلك،

---

١ قاله مجاهد والكلبي والواقدي. الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٧/٣؛ اللباب لابن عادل، ٥٠٨/٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٩/٣.

٣ ي - صلاة.

٤ وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ورُوي عن بعض السلَف. انظر: اللباب لابن عادل، ٥٠٥/٥؛ والمغني لابن قدامة، ٢٦٤/٢.

فاستشاره، فقال عبدُ الله وأكثرُ الأنصار: «يا رسولَ الله أقِم بالمدينة ولا تخرُجْ إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ قطّ إلّا أصاب منّا، ولا دخلها علينا إلّا أصبْنا منه، فكيف وأنت فينا؟ فدَعْهم، فإن أقاموا أقاموا بشرِّ مَحبِس، وإن دخلوا قاتلهم الرجالُ في وجوههم، ورماهم النساءُ والصِّبيانُ بالحِجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين». وقال بعضهم: «يا رسول الله اخرُجْ بنا إلى هؤلاء الأكلُبِ، لا يرَوْن أنّا قد جبُنّا عنهم». وقال عليه السلام: «إني قد رأيت في منامي بقرًا مُذَبَّحةً حولي، فأوّلتُها خيرًا، ورأيت في ذُباب سيفي ثُلَمًا، فأوّلتُه هزيمةً، ورأيتُ كأنّي أدخلتُ يدي في دِرعٍ حصينةٍ، فأوّلتُها المدينة، فإن رأيتم أن تُقيموا بالمدينة فتدعوهم»، فقال رجال مِن المسلمين قد فاتتهم بدْرٌ وأكرمهم الله تعالى بالشهادة يومئذ: «اخرُجْ بنا إلى أعدائنا». وقال النعمانُ بنُ مالكٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه: «يا رسول الله لا تحرِمْني الجنّةَ، فوالذي بعثَك بالحقّ لأدخُلَنَّ الجنّة». ثمّ قال: «بقولي: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّي لا أفِرُّ مِن الزحف». فلم يزالوا به عليه السلام حتّى دخل فلبِس لَأْمتَه، فلمّا رأَوْه كذلك ندِموا، وقالوا: «بئسما صنعنا؛ نشير على رسول الله والوحيُ يأتيه». وقالوا: «اصنعْ يا رسولَ الله ما رأيت»، فقال: «ما ينبغي لنبيّ أن يلبَسَ لَأْمتَه فيضعَها حتّى يقاتل»، فخرج يومَ الجمعة بعد صلاةِ الجمعةِ، وأصبح بالشِّعب مِن أُحُد يوم السبْتِ للنصفِ مِن شوّالٍ لسنةِ ثلاثٍ مِن الهجرة، فمشى على[1] رجليه فجعل يصُفُّ أصحابَه للقتال، فكأنّما يقوّم بهم القِدْحَ؛ إن رأى صدرًا خارجًا قال: «تأخَّرْ»، وكان نزولُه في عُدوة الوادي، وجعَل ظهرَه وعسكرَه إلى أُحُد، وأمَّر عبدَ الله بنَ جُبيرٍ على الرُّماة، وقال لهم: «انضَحُوا عنّا بالنبل، لا يأتونا مِن ورائنا، ولا تبرَحوا مكانكم، فلن نزالَ غالبين ما ثبتُّم مكانكم».[2]

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بضمائركم، والجملة اعتراض؛ للإيذان بأنّه قد صدر عنهم هناك مِن الأقوال والأفعال ما لا ينبغي صدوره عنهم.

---

١ ط – على.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٩/١. وانظر: الدرّ المنثور للسيوطي، ٣٠٤/٢.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٢٢﴾

﴿إِذْ هَمَّت﴾ بدل مِن ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾،[١] مبيّن لِما هو المقصود بالتذكير، أو ظرف لـ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾،[٢] على معنى أنّه تعالى جامع بين سماع الأقوالِ والعلمِ بالضمائر في ذلك الوقت؛ إذ لا وجهَ لتقييد كونِه تعالى سميعًا عليمًا بذلك الوقت. قال الفرّاءُ: «معنى قولِك: "ضربتُ وأكرمتُ زيدًا" أنّ "زيدًا" منصوب بهما، وأنّهما تسلّطا عليه معًا».[٣]

﴿طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ متعلّق بـ﴿هَمَّت﴾، والباء محذوفة، أي: بأن تفشَلا، أي: تجبُنا وتضعُفا، وهما حيّانِ مِن الأنصار بنو[٤] سلمةَ[٥] مِن الخزرج وبنو[٦] حارثةَ[٧] مِن الأوس، وهما الجناحان مِن عسكر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكانوا ألفَ رجل، وقيل: تسعَمائةٍ وخمسين، وَعَدَهم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم الفتحَ إن صبَروا، فلمّا قاربوا عسكرَ الكفَرة -وكانوا ثلاثةَ آلافٍ- انخذل عبدُ الله بنُ أبيّ بثلُث الناسِ، فقال: «يا قومُ، علامَ نَقتُل أنفسَنا وأولادَنا»، فتبِعَهم عمرو بن حزم الأنصاري،[٨] فقال: «أَنشُدكم الله تعالى

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

٣ اللباب لابن عادل، ٥/٥١١؛ الدرّ المصون للسّمين الحلبي، ٣/٣٨٢.

٤ س ي: بنوا.

٥ بنو سَلِمة -بالكسر-: بطن مِن الخَزرج مِن القحطانيّة، وهم بنو سَلِمة بن سعد بن عليّ بن راشد بن سادرة بن تزيد بن جشم بن الخَزرج. قال الجوهري: وليس في العرب "سلِمة" بكسر اللام سِواهم، قال: والنسبة إليهم سلَمي بفتح اللام، منهم أبو قتادة الأنصاري، واسمه البراء بن مَعرور، وجابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما وجماعة كثيرة غيرهما. نهاية الأرب للقلقشندي، ١/٢٩٣. وانظر: الصّحاح للجوهري، «سلم».

٦ س ي: وبنوا.

٧ بنو حارثة: بطن مِن الأَوس مِن الأزْد مِن القحطانيّة، وهم بنو حارثة بن الحارث بن الخَزرج بن عمرو بن النبيت، منهم رافع بن خديج والبراء بن عازب رضي الله عنهما. نهاية الأرب للقلقشندي، ١/٢٢٤.

٨ في البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٣٢٠: «وفي رواية: أبو جابر السلمي». والذي تفيده كتب التراجم أنّ عمرو بن حزم الأنصاري رضي الله عنه لم يشهد أحدًا، وأنّ أوّل مشاهده كانت الخَندق. قال الحافظ ابن حجر في الإصابة، ٧/٣٥٩: «عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان الأنصاري. يُكنى أبا الضحّاك، شهد الخندق وما بعدها، واستعمله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على نَجران». وانظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ٣/١١٧٢.

في نبيِّكم وأنفسِكم»، فقال عبدُ الله: «لو نعلم قتالًا لاتّبعناكم»، فهمّ الحيّانِ باتّباع عبدِ الله، فعصمَهم الله تعالى، فمضَوا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.[١] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أضمَروا أن يرجِعوا، فعزم الله لهم على الرشد فثبَتوا».[٢] والظاهر أنّها ما كانت إلّا هَمّةً وحديثَ نفس قلّما تخلو النفسُ عنه عند الشدائد.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: عاصمهما عن اتّباع تلك الخَطْرة.[٣] والجملة اعتراض. ويجوز أن تكون حالًا مِن فاعل ﴿هَمَّت﴾، أو مِن ضميره في ﴿تَفْشَلَا﴾، مفيدةً لاستبعاد فشلِهما أو همِّهما به مع كونهما في ولاية الله عزّ وجلّ. وقُرئ: "وَاللهُ وَلِيُّهُمْ"،[٤] كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات، ٩/٤٩].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحدَه دون ما عداه مطلقًا[٥] استقلالًا أو اشتراكًا ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في جميع أمورهم، فإنّه حسبُهم. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ للتبرّك به والتعليل؛ فإنّ الألوهيّة مِن موجِبات التوكّل عليه تعالى. واللّام في ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ للجنس، فيدخلُ فيه "الطائفتان" دخولًا / أوّليًّا، وفيه إشعار بأنّ وصف الإيمان مِن دواعي التوكّل وموجِباتِه. [١٠٧ظ]

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ جملة مستأنَفة، سيقت لإيجاب الصبر والتقوى بتذكير ما ترتّب عليهما مِن النصر إثرَ تذكير ما ترتّب على عدمهما مِن الضرر. وقيل: لإيجاب التوكّل على الله تعالى بتذكير ما يوجبه. و"بَدر": اسم ماءٍ بين مكّةَ والمدينة، كان لرجل اسمُه بدرُ بنُ كِلْدةَ فسُمّي باسمِه. وقيل: سمّي به لصفائه كالبدر واستدارته. وقيل: هو اسم الموضِع أو الوادي. وكانت وقعة بدرٍ في السابعَ عشرَ مِن شهر رمضانَ، سنةَ اثنتين مِن الهجرة.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١/٤٠٩؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٣٢٨.
٢ الكشّاف للزمخشري، ١/٤٠٩؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٣٢٨.
٣ س: الخطره.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦١.
٥ س - مطلقًا.

﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ حال مِن مفعول ﴿نَصَرَكُمُ﴾. و﴿أَذِلَّةٌ﴾ جمعُ "ذليل"، وإنّما جُمع جَمْعَ قِلّة للإيذان باتّصافهم حينئذ بوصفَي القِلّة والذِّلّة؛ إذ كانوا ثلاثمائةٍ وبضعةَ عشرَ، وكان ضَعفُ حالِهم في الغاية خرجوا على النواضِح يعتقب النفَرُ منهم على البعير الواحد، ولم يكن في العسكر إلّا فرَسٌ واحدٌ.[١] وقيل: فرَسانِ لمقداد ومرْثَد، وتسعون بعيرًا، وستُّ أدرعٍ، وثمانيةُ سيوفٍ، وكان العدوّ زُهاءَ ألفٍ، ومعهم مائةُ فرَسٍ وشِكّة وشَوْكة.[٢]

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ اقتصر على الأمر بالتقوى -مع كونه مشفوعًا[٣] بالصبر فيما سبَق وما لحِق- للإشعار بأصالته، وكونِ الصبر مِن مباديه اللازمة له؛ ولذلك قُدّم عليه في الذكر. وفي ترتيب الأمر بالتقوى على الإخبار بالنصر إيذانٌ بأنّ نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم، أي: إذا كان الأمر كذلك فاتّقوا الله كما اتّقيتم يومئذ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: راجين أن تشكُروا ما يُنعِم به عليكم بتقواكم مِن النصرة كما شكرتم فيما قبلُ، أو لعلّكم يُنعم الله عليكم بالنصر كما فعل ذلك مِن قبل، فوُضِع الشكرُ موضِعَ سببه الذي هو الإنعام.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿إِذْ تَقُولُ﴾ تلوين للخطاب بتخصيصه برسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ لتشريفه والإيذان بأنّ وقوعَ النصر كان ببشارته عليه السلام. و﴿إِذْ﴾ ظرف لـ﴿نَصَرَكُمُ﴾، قدِّم عليه الأمرُ بالتقوى؛ لإظهار كمال العنايةِ به، والمراد به الوقت الممتدّ الذي وقع فيه ما ذُكر بعده وما طُويَ ذكرُه تعويلًا على شهادة الحالِ ممّا يتعلّق به وجودُ النصرِ. وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضيةِ؛ لاستحضار صورتها، أي: نصركم وقت قولك ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حين أظهروا العجزَ عن المقابلة.

---

١ **الكشّاف للزمخشري**، ١/٤١١؛ **البحر المحيط لأبي حيّان**، ٣/٣٣٠.

٢ **الكشّاف للزمخشري**، ١/٤١١. والشِّكّة والشَّوكة: السلاح. انظر: **القاموس المحيط للفيروزابادي**، «شكك» «شوك».

٣ ط: مشعوفًا.

قال الشعبي: «بلغ المؤمنين أنّ كُرْزَ بنَ جابرٍ الحنفي[١] يريد أن يُمِدّ المشركين، فشقّ ذلك على المؤمنين، فنزَل حينئذ»،[٢] ثمّ حكي ههنا: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ﴾. الكفاية: سدّ الخَلّة، والقيامُ بالأمر. والإمداد في الأصل: إعطاءُ الشيء حالًا بعد حال. قال المفضَّل:[٣] «ما كان منه بطريق التقويةِ والإعانةِ يقال فيه: أَمَدّه يُمِدّه إمدادًا، وما كان بطريق الزيادة يقال فيه:[٤] مَدَّه يمُدّه مدًّا، ومنه: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان، ٢٧/٣١]».[٥] وقيل: المَدّ في الشرّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة، ١٥/٢]، وقولِه: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم، ٧٩/١٩]، والإمدادُ في الخير، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء، ٦/١٧].[٦] والتعرُّضُ لعنوان الربوبيّة ههنا وفيما سيأتي مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين؛ لإظهار العنايةِ بهم، والإشعارِ بعلّة الإمداد. والمعنى إنكارُ عدم كفاية الإمداد بذلك المقدار ونفيُه. وكلمة "لَنْ" للإشعار بأنّهم كانوا حينئذ كالآيسين مِن النصر؛ لضعفهم وقلّتِهم وقوّةِ العدوّ وكثرتهم.

﴿مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ بيان، أو صفة لـ﴿ءَالَٰفٍ﴾، أو لِما أُضيف إليه، أي: كائنين مِن الملائكة. ﴿مُنزَلِينَ﴾ صفة لـ﴿ثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ﴾، وقيل: حال مِن ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾. وقُرئ:

---

١ هو كُرز بن جابر بن حِسْل القرشي الفِهري. كان مِن رؤساء المشركين قبل أن يُسلم، وأغار على سَرح المدينة مرّة فخرج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في طلبه حتى بلغ سفوان وفاتَه كُرز، وهذه هي غزوة بدر الأولى. ثمّ أسلَم وحسُن إسلامه، واستشهد يوم الفتح في طريق مكّة. انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ٤٣٤/٤؛ والإصابة لابن حجر، ٢٥٧/٩.

٢ جامع البيان للطبري، ٢١/٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٤٢/٣.

٣ هو المفضّل بن محمّد بن يعلى الضبّي الكوفي (ت. ١٦٨هـ/٧٨٤م)، اللغوي المُقرئ، سمع سِماك بن حرب، وأبا إسحاق السبيعي، وعاصم بن أبي النّجود، وسليمان الأعمش، وروى عنه الفرّاء، ومحمّد بن عمر القصبي، وأبو كامل الجحدري. كان علامةً راويةً للأدب والأخبار وأيّام العرب، موثّقًا في روايته. قدم بغداد في أيّام هارون الرشيد، ولزِم المهدي، وصنّف له كتابه المفضّليّات. ومِن كتبه الأمثال، ومعاني الشعر، والألفاظ، والعَروض. انظر: إنباه الرواة للقفطي، ٢٩٨/٣؛ وغاية النهاية لابن الجزري، ٣٠٧/٢؛ والأعلام للزركلي، ٢٨٠/٧.

٤ ي + فيه.

٥ معجم الفروق اللغويّة لأبي هلال العسكري، ص ٧٠.

٦ معجم الفروق اللغويّة لأبي هلال العسكري، ص ٧١.

"مُنَزِّلِينَ" بالتشديد؛[١] للتكثير أو للتدريج.[٢] قيل: أمدّهم الله تعالى أوّلًا بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثمّ خمسة آلافٍ. وقُرئ مبنيًّا للفاعل مِن الصيغتين،[٣] أي: مُنزِلين النصرَ.

﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾

﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجاب لِما بعد "لَنْ"، وتحقيق[٤] له، أي: بلى يكفيكم ذلك. ثمّ وعدَ لهم الزيادةَ بشرط الصبر والتقوى حثًّا لهم عليهما وتقويةً لقلوبهم، فقال: ﴿إِن تَصۡبِرُواْ﴾ على لقاء العدوّ ومناهضتِهم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ معصيةَ الله ومخالفةَ نبيّه عليه السلام، ﴿وَيَأۡتُوكُم﴾ أي: المشركون ﴿مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ أي: مِن ساعتهم هذه، وهو في الأصل: مصدرُ: فارَت القِدرُ، أي: اشتدّ غَلَيانُها، ثمّ استُعير للسرعة، ثمّ أُطلق على كلّ حالةٍ لا ريثَ فيها أصلًا. ووصفُه بهذا لتأكيد السرعة بزيادة تعيينِه وتقريبِه.

ونظمُ إتيانهم بسرعة في سلك شَرطَي الإمداد المستتبِعَين له وجودًا وعدمًا -أعني: الصبرَ والتقوى- مع تحقّق الإمداد لا محالةَ سواءً أسرعوا أو أبطَئوا؛ لتحقيق سرعة الإمداد، لا لتحقيق أصلِه، أو لبيان تحقّقه على أيّ حال فُرِض على أبلَغ وجهٍ وآكَدِه بتعليقه بأبعدِ التقادير؛ ليُعلم تحقُّقُه على سائرها بالطريق[٥] الأَولى، فإنّ هجوم الأعداء وإتيانَهم بسرعةٍ مِن[٦] مظانّ عدمِ لُحوق المدَدِ عادةً، فعُلِّق به تحقّقُ الإمداد إيذانًا بأنّه حيث تحقّق مع ما ينافيه عادةً فلأَنْ يتحقّق بدونه أولى وأحرى، كما إذا أردتَ وصفَ دِرع بغاية الحَصانة تقول: إن لبستَها وبارزتَ بها الأعداءَ فضربوك بأيدٍ شِدادٍ وسيوفٍ حِدادٍ لم تتأثّرْ منها قطعًا.

---

[١] قرأ بها ابن عامر الشامي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٢.

[٢] ط: التدريج.

[٣] قراءتان شاذّتان، الأولى بكسر الزاي والتشديد مرويّة عن أبي نَهيك، والثانية بالكسر والتخفيف مرويّة عن الحسَن. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٠.

[٤] ي: وتحقيقًا.

[٥] ي: بطريق.

[٦] ي - مِن.

﴿يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ مِن التسويم الذي هو إظهارُ سيما الشيءِ، أي: مُعْلِمين أنفسَهم أو خيلَهم، فقد رُوي: أنّهم كانوا بعَمائمَ بيضٍ إلّا جبريلَ عليه السلام، فإنّه كان بعمامة صفراءَ على مثال الزبير ابنِ العوّام.[1] ورُوي: أنّهم كانوا على خيل بُلْقٍ.[2] قال عروةُ بنُ الزبير: «كانت الملائكة على خيل بُلْق، عليهم عمائمُ بيضٌ، قد أرسلوها بين أكتافهم».[3] وقال هشام بن عروة:[4]

[١٠٨و] «عمائمُ / صُفر».[5] وقال قتادة والضحّاك: «كانوا قد أُعْلِموا[6] بالعِهْن في نواصي الخيلِ وأذنابِها».[7] رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال لأصحابه: «تسوَّموا فإنّ الملائكة قد تسوَّمت».[8] وقُرئ: "مُسَوَّمِينَ" على البناء للمفعول،[9] ومعناه: مُعْلَمِين مِن جهته سبحانه[10] وتعالى، وقيل: مرسَلين، مِن التسويم بمعنى الإسامة.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ كلام مبتدأ غيرُ داخلٍ في حيّز القول، مَسوقٌ مِن جنابه تعالى لبيان أنّ الأسباب الظاهرةَ بمَعزل مِن التأثير، وأنّ حقيقة النصر مختصٌّ به عزّ وجلّ؛ ليثق به المؤمنون، ولا يقنَطوا منه عند فُقدان أسبابه وأماراتِه. معطوف

---

١ اللباب لابن عادل، ٥/٥٢٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٣٣٥، وقال: «قاله ابن إسحاق والزجّاج».

٢ انظر: المعجم الكبير للطبراني، ١/٣٠٨؛ (٩١٢). والبَلَقُ: سوادٌ وبياضٌ، وكذلك البُلْقة؛ بالضمّ، وفرسٌ أبلَق وفرسٌ بَلْقاء. الصحاح للجوهري، «بلق».

٣ اللباب لابن عادل، ٥/٥٢٣. وأخرجه عبد الرزّاق في التفسير، ١/٤١١.

٤ هو هشام بن عُروة بن الزبير بن العوّام القرشي الأسدي، أبو المنذر (ت. ١٤٦هـ/٧٦٣م). الإمام الثقة، شيخ الإسلام، تابعي مِن أئمّة الحديث. ومِن علماء المدينة، وُلد وعاش فيها. قال وُهيب: قدِم علينا هشام بن عروة، فكان مثل الحسَن وابن سيرين. وقال ابن سعد: كان ثقة، ثَبْتًا، كثير الحديث، حجّة. وقال أبو حاتم الرازي: ثقة، إمام في الحديث. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٦/٣٥؛ الأعلام للزركلي، ٨/٨٧.

٥ اللباب لابن عادل، ٥/٥٢٣. وأخرجه الطبري في جامع البيان، ٦/٣٦.

٦ ي: علموا.

٧ اللباب لابن عادل، ٥/٥٢٣. وانظر: الدرّ المنثور للسيوطي، ٣/٧٥٨. والعِهن: الصوف. الصحاح للجوهري، «عهن».

٨ جامع البيان للطبري، ٦/٣٤؛ مصنَّف ابن أبي شيبة، ٧/٣٥٤ (٣٦٦٦٨).

٩ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٢.

١٠ ي - سبحانه.

على فعل مقدّر ينسحبُ عليه الكلامُ ويستدعيه النظامُ، فإنّ الإخبار بوقوع النصر على الإطلاق وتذكيرَ[١] وقته وحكايةَ الوعد بوقوعه على وجه مخصوصٍ -هو[٢] الإمداد بالملائكة مرّةً بعد أخرى- وتعيينَ وقتِه فيما مضى يقضي بوقوعه حينئذ قضاءً قطعيًا، لكن لم يصرَّحْ به تعويلًا على تعاضُد الدلائل، وتآخُذ الأماراتِ والمخايل؛ إيذانًا بكمال الغِنى عنه، بل احترازًا عن شائبة التكرير، أو عن إيهام احتمالِ الخُلف في الوعد المحتوم، كأنّه قيل عَقيبَ قولِه تعالى: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾:[٣] فأمدَّكم بهم،[٤] وما جعله الله... إلخ.

والجَعل متعدٍّ إلى[٥] واحدٍ، هو الضمير العائد إلى مصدر ذلك الفعل المقدَّر. وأمّا عَوْده إلى المصدر المذكور -أعني: قولَه تعالى: ﴿أَن يُمِدَّكُمْ﴾[٦]- أو إلى المصدر المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾[٧] -كما قيل- فغيرُ حقيقٍ بجزالة التنزيل؛ لأنّ الهليّة[٨] البسيطة متقدّمةٌ على المركّبة؛ فبيان العلّةِ الغائيّةِ لوجود الإمداد كما هو المراد بالنظم الكريم حقُّه أن يكون بعد بيان وجودِه في نفسه، ولا ريب في أنّ المصدرَين المذكورين غيرُ معتبَرَين مِن حيث الوجودُ والوقوعُ كمصدر الفعل المقدّر حتّى يتصدّى لبيان أحكام وجودهما؛ بل الأوّل معتبَر مِن حيث الكفايةُ، والثاني مِن حيث الوعدُ، على أنّ الأوّل هو "الإمداد بثلاثة آلافٍ"، والواقع هو "الإمداد بخَمسة آلاف".

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ العِلل. وتلوين الخطاب لتشريف المؤمنين، وللإيذان بأنّهم المحتاجون إلى البِشارة وتسكينِ القلوب

---

١ س: وتذكر.

٢ ي: وهو.

٣ في الآية السابقة.

٤ وفي هامش ط س: عطفًا على ﴿نَصَرَكُمُ﴾ [آل عمران، ٣/١٢٣] بطريق التفسير. «منه».

٥ ي + مفعول.

٦ آل عمران، ٣/١٢٤.

٧ في الآية السابقة.

٨ في مطبوع: "الهيئة"، وهو تصحيف، والهليّة مصطلح منطقيّ مشتقّ مِن "هل" الاستفهاميّة، فـ"هل" قسمان: الأولى: بسيطة؛ وهي التي يطلب بها وجود الشيء، كقولنا: هل الحركة موجودة؟ والثانية: مركّبة؛ وهي التي يطلب بها وجود شيء لشيء، كقولنا: هل الحركة دائمة؟ انظر: عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي، ٤٤٠/١. ويعني بـ"الهليّة البسيطة" هنا: وجود الإمداد، وبـ"الهليّة المركّبة": العلّة الغائيّة لوجود الإمداد.

بتوفيق الأسباب الظاهرةِ، وأنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غنيّ عنه بما له مِن التأييد الروحانيّ، أي: وما جعل إمدادَكم بإنزال الملائكةِ عِيانًا لشيء مِن الأشياء إلّا للبشرى لكم بأنّكم تُنصَرون.

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ أي: بالإمداد، وتسكُنَ إليه كما كانت السكينة لبني إسرائيلَ كذلك، فكلاهما عِلةٌ غائيّةٌ للجَعل، وقد نُصب الأوّل لاجتماع شرائطِه مِن اتّحاد الفاعل والزمان، وكونِه مصدرًا مَسوقًا للتّعليل، وبقيَ الثاني على حاله لفُقدانها. وقيل: للإشارة أيضًا إلى أصالته في العلِّيّة وأهميّتِه في نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل، ٨/١٦]. وفي قصر الإمداد عليهما إشعار بأنّ الملائكة عليهم السلام لم يباشِروا يومئذ القتالَ، وإنّما كان إمدادهم بتقوية قلوب المباشرين بتكثير السواد ونحوِه، كما هو رأي بعض السلفِ رحمهم الله.[1] وقيل: الجَعل متعدٍّ إلى اثنين، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ استثناء مِن أعمّ المفاعيل، أي: وما جعله الله تعالى شيئًا مِن الأشياء إلّا بِشارةً لكم، فاللام في قوله تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ متعلِّقة بمحذوف، تقديرُه: ولتطمئنّ قلوبُكم به فُعِل ذلك.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ﴾ أي: حقيقة النصر على الإطلاق، فيندرِجُ في حكمه النصرُ المعهودُ اندراجًا أوّليًّا. ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلّا كائنٌ مِن عنده تعالى مِن غير أن يكون فيه شِرْكةٌ مِن جهة الأسباب والعُدَد. وإنّما هي مظاهر له بطريق جَرَيانِ سنّتِه تعالى. أو وما النصرُ المعهودُ إلّا مِن عنده تعالى لا مِن[2] عند الملائكة، فإنّهم بمَعزِل مِن التأثير، وإنّما قُصارى أمرِهم ما ذُكر مِن البِشارة وتقوية القلوب.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: الذي لا يغالَبُ في حكمه وقضيّته. وإجراء هذا الوصف عليه تعالى للإشعار بعلّة اختصاص النصرِ به تعالى، كما أنّ وصفه تعالى بقوله: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: الذي يفعل كلّ ما يفعل حسبما يقتضيه الحِكمة والمصلحة؛

---

١ ي - رحمهم الله.

٢ وفي هامش ط س ي: لم يوجد هذا العطف في كلام العرب العرباء، وإن كثُر في عبارات العلماء. «منه».

للإيذان بعِلّة جعْل النصر بإنزال الملائكة عليهم السلام، فإنّ ذلك مِن مقتَضيات الحِكَم البالغة.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ۝١٢٧﴾

﴿لِيَقْطَعَ﴾ متعلّق بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ﴾،[1] وما بينهما تحقيق لحقيقته، وبيان لكيفيّة وقوعه. والمقصور على التعليل بما ذُكر مِن البُشرى والاطمئنان إنّما هو الإمداد بالملائكة على الوجه المذكور، فلا يقدَح ذلك في تعليل أصلِ النصرِ بالقطع وما عُطف عليه، أو بما تعلّق به الخبرُ في قوله عزّ وعلا: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾،[2] على تقدير كونه عبارةً عن النصر المعهود. وقد أُشير إلى أنّ المعلَّل بالبشارة والاطمئنانِ إنّما هو الإمداد الصوريُّ، لا ما في ضِمنه مِن النصر المعنويّ الذي هو مِلاكُ الأمر.

وأمّا تعلّقه بنفس النصرِ -كما قيل- فمع ما فيه مِن الفصل بين المصدر ومعمولِه بأجنبيّ هو الخبر مُخِلٌّ بسَداد المعنى. كيف لا، ومعناه: قصر النصر المخصوصِ المعلَّلِ بعِلل معيّنةٍ على الحصول مِن جهته تعالى؟ وليس المراد إلّا قصرَ حقيقة النصر أو النصرِ المعهودِ على ذلك. والمعنى:[3] لقد نصركم الله يومئذ، أو[4] وما النصرُ الظاهرُ عند إمداد الملائكة إلّا ثابتٌ مِن عند الله؛ ﴿لِيَقْطَعَ﴾ أي: يُهلِكَ ويَنْقُصَ ﴿طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: طائفة منهم بقتل وأسر. وقد وقع ذلك حيث قُتل مِن رؤسائهم وصناديدِهم سبعون، وأُسِر سبعون.

﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أي: يخزيَهم ويُغيظَهم بالهزيمة، فإنّ الكَبْت: شدّةُ غيظٍ أو وهنٍ يقع في القلب، مِن "كَبَته"، بمعنى: كَبَدَه إذا ضرب كَبِدَه بالغيظ والحُرقة. وقيل: الكَبْتُ: الإصابةُ بمكروه. وقيل: هو الصرعُ للوجه واليدين، فالتاء حينئذ غيرُ مُبدَلةٍ، و﴿أَوْ﴾ للتنويع. ﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾ أي: فينهزموا منقطعي الآمالِ، غيرَ فائزين مِن / مبتغاهم بشيء، كما في قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ [الأحزاب، ٢٥/٣٣]. [١٠٨ظ]

---

[1] آل عمران، ١٢٣/٣.

[2] في الآية السابقة.

[3] وفي هامش ط س ي: على الوجه الأوّل. «منه».

[4] وفي هامش ط س ي: على الوجه الثاني. «منه».

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ اعتراض وُسِّط بين المعطوف عليه المتعلّقِ بالعاجل، والمعطوفِ المتعلّق بالآجل؛ لتحقيق أن لا تأثيرَ للمنصور إثرَ بيان أن لا تأثيرَ للناصرين، وتخصيصُ النفيِ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم على طريق تلوين الخطاب للدلالة على الانتفاء مِن غيره بالطريق الأَولى، وإنّما خُصّ الاعتراض بموقعه لأنّ ما قبله مِن القطع والكَبْتِ مِن مظانّ أن يكون فيه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولسائر مباشري القتالِ مدخَلٌ في الجملة.

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿يَكْبِتَهُمْ﴾،[١] والمعنى: أنّ مالك أمرهم على الإطلاق هو الله عزّ وجلّ،[٢] نصرَكم عليهم ليُهلِكَهم أو يكبتَهم، أو يتوبَ عليهم إن أسلموا، أو يعذِّبَهم إن أصرّوا، وليس لك مِن أمرهم شيءٌ، إنّما أنت عبدٌ مأمورٌ بإنذارهم وجهادهم. والمراد بتعذيبهم: التعذيب الشديد الأخرويّ المخصوص بأشدّ الكفرة كُفرًا، وإلّا فمطلق التعذيب الأخرويّ متحقِّقٌ في الفريقين الأوّلين أيضًا. ونظمُ التوبةِ والتعذيبِ المذكورِ في سلك العلّة الغائيّةِ للنصر المترتّبةِ عليه في الوجود مِن حيث إنّ قَبول توبتِهم فرْعُ تحقُّقها الناشئ مِن علمهم بحقّيّة الإسلام بسبب غلَبة أهله المترتّبةِ على النصر، وأنّ تعذيبهم بالعذاب المذكورِ مترتّبٌ على إصرارهم على الكفر بعد تبيُّن الحقّ على الوجه المذكور.

هذا وقيل: إنّ عُتبة بنَ أبي وقّاصٍ[٣] شجّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يومَ أُحُد وكسَرَ رَباعِيَتَه، فجعل عليه السلام[٤] يمسَح الدمَ عن وجهه، وسالمٌ مولى أبي حُذيفةَ[٥] يغسِلُ عن وجهه الدمَ، وهو يقول: كيف يُفلحُ قوم خضَبوا

---

١ في الآية السابقة.

٢ ي: تعالى.

٣ هو عُتبة بن أبي وقّاص بن أُهيب بن زُهرة القرشي الزهري، أخو سَعد. اختُلف في إسلامه، قال الحافظ ابن حجر: ليس في شيء مِن الآثار ما يدلّ على إسلامه؛ بل فيها ما يصرّح بموته على الكفر، فلا معنى لإيراده في الصحابة. انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ٣/٥٦٥؛ والإصابة لابن حجر، ٨/٣٨٤.

٤ ي - السلام.

٥ هو سالم بن مَعقل، أبو عبد الله (ت. ١٢هـ/٦٣٣م) مولى أبي حذيفة بن عُتبة. كان مِن فُضلاء الصحابة والموالي وكبارهم. فارسيّ الأصل، أعتقته ثُبيتة زوج أبي حذيفة صغيرًا، وتبنّاه أبو حذيفة وزوّجه »

وجهَ نبيّهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربّهم؟ فنزلت: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ الآية.[١] كأنّه نوعُ معاتبةٍ على إنكاره عليه السلام لفلاحهم.

وقيل: أراد أن يدعوَ عليهم، فنهاه الله تعالى؛ لعلمه بأنّ منهم مَن يؤمن،[٢] فقوله تعالى: ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ حينئذ معطوف على ﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾ أو على ﴿شَيۡءٌ﴾ بإضمار "أنْ"، أي: ليس لك مِن أمرهم أو مِن التوبة عليهم أو مِن تعذيبهم شيءٌ، أو ليس لك مِن أمرهم شيءٌ أو التوبةِ عليهم أو تعذيبِهم.

ونُقل عن الفرّاء وابنِ الأنباري:[٣] أنّ ﴿أَوۡ﴾ بمعنى "إلّا أن"،[٤] والمعنى: ليس لك مِن أمرهم شيءٌ إلّا أن يتوب الله عليهم فتفرَحَ به، أو يعذّبَهم فتتشفّى منهم. وأيًّا ما كان فهو كلام مستأنَف سيق لبيان بعض الأمور المتعلّقة بغزوة أُحُدٍ إثرَ بيان بعضِ ما يتعلّق بغزوة بدرٍ؛ لِما بينهما مِن التناسُب الظاهرِ؛ لأنّ كلًّا منهما مبنيٌّ على اختصاص الأمر كلِّه بالله تعالى، ومنبِئٌ عن سلبه عمّن سواه. وأمّا تعلّق كلّ القصّةِ بغزوة أُحُد -على أنّ قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَقُولُ﴾[٥] بدلٌ ثانٍ مِن ﴿إِذۡ غَدَوۡتَ﴾،[٦]

ابنة أخ له. وهو مِن السابقين إلى الإسلام. كان يؤمّ المهاجرين الأوّلين قبل الهجرة في مسجد قُباء وفيهم أبو بكر وعمر. وفي الحديث: «خذوا القرآن مِن أربعة» فذكَره منهم. ويُروى أنّ عمر قال في الشورى: لو كان سالم حيًّا ما جعلتها شورى، أي: لاكتفى برأيه. شهد بدرًا، ثمّ كان معه لواء المهاجرين يوم اليمامة، فقُطعت يمينه، فأخذه بيساره فقُطعت، فاعتنقه إلى أن قُتل. وقد سبقه مولاه أبو حُذيفة، فأوصى أن يُدفن بجانبه. انظر: **أسد الغابة** لابن الأثير، ٢/١٥٥؛ و**الإصابة** لابن حجر، ٤/١٨٨؛ و**الأعلام** للزركلي، ٣/٧٣.

١ **الكشّاف** للزمخشري، ١/٤١٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/٣٧. وأصل الحديث في **صحيح مسلم**، ٣/١٤١٧ (١٧٩١)؛ و**صحيح البخاري**، ٥/٩٩ تعليقًا. وليس فيهما أنّ عُتبة بن أبي وقّاص مَن شجّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

٢ **جامع البيان** للطبري، ٦/٤٤٥؛ **اللباب** لابن عادل، ٥/٥٢٠.

٣ هو محمّد بن القاسم بن محمّد بن بشّار الأنباري، أبو بكر (ت. ٣٢٨هـ/٩٤٠م). مِن أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة، ومِن أكثر الناس حفظًا للشعر والأخبار. قيل: كان يحفظ ثلثمائة ألف بيت شاهد في القرآن. قال أبو عليّ التنوخي: كان ابن الأنباري يُملي مِن حفظه، ما أملى مِن دفتر قطّ. وُلد في الأنبار وتُوفّي ببغداد. مِن كتبه **الزاهر في اللغة**، و**شرح القصائد السبع الطوال**، و**إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجلّ**، وأجلّ كُتبه **غريب الحديث**. انظر: **طبقات النحويّين واللغويّين** للزبيدي، ص ١٥٣؛ و**سير أعلام النبلاء** للذهبي، ١١/٤٨٩؛ و**الأعلام** للزركلي، ٦/٣٣٤.

٤ انظر: **معاني القرآن** للفرّاء، ١/٢٣٤؛ و**اللباب** لابن عادل، ٥/٥٣٠.

٥ آل عمران، ٣/١٢٤.

٦ آل عمران، ٣/١٢١.

وأنّ ما حُكي عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد وقع يومَ أُحُدٍ، وأنّ الإمداد الموعود كان مشروطًا بالصبر والتقوى، فلمّا لم يفعلوا لم يتحقّقِ الموعودُ كما قيل- فلا يساعده النظمُ الكريمُ:

أمّا أوّلًا: فلأنّ المشروط بالصبر والتقوى إنّما هو الإمداد بخمسة آلافٍ، لا بثلاثة آلافٍ، مع أنّه لم يقع الإمدادُ يومئذ ولا بمَلكٍ واحدٍ. وأمّا ثانيًا: فلأنّه كان ينبغي حينئذ أن ينعى عليهم جنايتَهم وحِرمانَهم بسببها تلكَ النعمةَ الجليلة، ودعوى ظهوره مع عدم دلالة السباق والسياقِ عليه -بل مع دلالتهما على خلافه- ممّا لا يكاد يُسمع. وأمّا ثالثًا: فلأنّه لا سبيل إلى جعل الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾... إلخ[١] إلى الإمداد الموعود؛ لأنّه لم يتحقّق، فكيف يبيّنُ علّتَه الغائيّةَ؟ ولا إلى الوعد به على معنى أنّه تعالى إنّما جعل ذلك الوعد لبِشارتكم واطمئنان قلوبكم، فلم تفعلوا ما شرَطَ عليكم مِن الصبر والتقوى، فلم يقع إنجازُ الموعود؛ لِما أنّ قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[٢] صريحٌ في أنّه قد وقع الإمدادُ الموعودُ، لكنّ أثره إنّما هو مجرّد البِشارة والاطمئنان، وقد حصلا، وأمّا النصر الحقيقيّ فليس ذلك إلّا مِن عنده تعالى.

وجعلُه استئنافًا مقرّرًا لعدم وقوع الإمداد -على معنى أنّ النصر الموعود مخصوصٌ به تعالى، فلا ينصُر مَن خالف أمرَه بترك الصبر والتقوى- اعتسافٌ بيّنٌ يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله، على أنّ قوله تعالى: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفًا﴾ الآية[٣] متعلِّق حينئذ بما تعلّق به قولُه تعالى: ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[٤] مِن الثبوت والاستقرار ضرورةَ أنّ تعلُّقه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ﴾... الآية[٥] مع كون ما بينهما مِن التفصيل متعلِّقًا بوقعة أُحُدٍ مِن قبيل الفَصل بين الشجر ولِحائِه، فلا بدّ مِن اعتبار وجود النصرِ قطعًا؛ لأنّ تفصيل الأحكام المترتّبةِ على وجود شيءٍ بصدد بيان انتفائه ممّا لم يُعهد في كلام الناس فضلًا عن الكلام المَجيد.

---

١ آل عمران، ٣/١٢٦.
٢ آل عمران، ٣/١٢٦.
٣ الآية السابقة.
٤ آل عمران، ٣/١٢٦.
٥ آل عمران، ٣/١٢٣.

فالحقّ الذي لا مَحيدَ عنه أنّ قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَقُولُ﴾[١] ظرف لـ﴿نَصَرَكُمُ﴾،[٢] وأنّ ما حُكي في أثنائه إلى قوله تعالى: ﴿خَآئِبِينَ﴾[٣] متعلِّق بيومِ بدرٍ قطعًا، وما بعده محتمل للوجهين المذكورين. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ تعليل على كلّ حال لقوله تعالى: ﴿أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ﴾، مبيّن لكون ذلك مِن جهتهم وجزاء لظلمهم.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كلام مستأنَف سيق لبيان اختصاص ملكوتِ كلّ الكائناتِ به عزّ وجلّ إثرَ بيان اختصاص طرَفٍ مِن ذلك به سبحانه تقريرًا لِما سبق وتكملةً له. وتقديم الجارّ للقصر، وكلمةُ ﴿مَا﴾ شاملة للعقلاء أيضًا تغليبًا، أي: له ما فيهما مِن الموجودات خَلقًا ومُلكًا، لا مدخَلَ فيه لأحد أصلًا، فله الأمر كلُّه. ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يغفرَ له مشيئةً مبنيّةً على الحِكَم والمصالح. ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يعذِّبَه بعمله[٤] مشيئةً كذلك. وإيثار كلمة ﴿مَن﴾ في الموضعين لاختصاص المغفرة والتعذيبِ بالعقلاء، وتقديمُ المغفرة على التعذيب للإيذان بسَبق[٥] رحمته تعالى غضبَه، وبأنّها مِن مقتَضيات الذات دونه، فإنّه مِن مقتضيات سيّئات العُصاة، وهذا صريح في نفي وجوب التعذيبِ، والتقييدُ بالتوبة وعدمِها كالمنافي له.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تذييل مقرِّر لمضمون قوله تعالى: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ مع زيادة، وفي تخصيص التذييلِ به / دون قرينة مِن الاعتناء بشأن المغفرة والرحمةِ [١٠٩و]
ما لا يخفى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ كلام مبتدأ مشتمِل على ما هو مِلاك الأمر

١ آل عمران، ٣/١٢٤.
٢ آل عمران، ٣/١٢٣.
٣ في الآية السابقة.
٤ ي: بعلمه.
٥ ي: لسبق.

في كلّ باب، لاسيّما في باب الجهاد مِن التقوى والطاعة وما بعدهما مِن الأمور المذكورة على نهج الترغيب والترهيب، جيء به في تضاعيفِ القصّةِ مسارعةً إلى إرشاد المخاطَبين إلى ما فيه، وإيذانًا بكمال وجوب المحافظةِ عليه فيما هم فيه مِن الجهاد، فإنّ الأمور المذكورة فيه -مع كونها مناطًا للفوز في الدارين على الإطلاق- عُمدةٌ في أمر الجهاد، عليها يدورُ فلكُ النُّصرة والغلَبة، كيف لا ولو حافظوا على الصبر والتقوى وطاعةِ الرسول عليه السلام لَمَا لقُوا ما لقُوا، ولعلّ إيراد النهي عن[١] الرِّبا في أثنائها لِما أنّ الترغيب في الإنفاق في السرّاء والضرّاء الذي عُمدتُه الإنفاقُ في سبيل الجهاد متضمِّنٌ للترغيب في تحصيل المال، فكان[٢] مظِنّةَ مبادرةِ الناسِ إلى طرق الاكتساب ومِن جملتها الربا، فنُهوا عن ذلك.

والمراد بأكله: أخذُه، وإنّما عُبّر عنه بالأكل لِما أنّه مُعظم ما يقصَد بالأخذ، ولشيوعه في المأكولات مع ما فيه مِن زيادة تشنيعٍ،[٣] وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ ليس لتقييد النهي به؛ بل لمراعاة ما كانوا عليه مِن العادة توبيخًا لهم بذلك؛ إذ كان الرجل يُرْبي إلى أجلٍ، فإذا حلَّ قال للمَدين: زِدْني في المال حتّى أزيدك في الأجل، فيفعلُ، وهكذا عند محلّ كلِّ أجلٍ، فيستغرق بالشيء الطفيف مالَه بالكلّيّة. ومحلّه النصبُ على الحاليّة مِن ﴿ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾، وقُرئ: "مُضَعَّفَةً".[٤] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما نُهيتم عنه مِن الأمور التي مِن جملتها الربا، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ راجين للفلاح.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ١٣١﴾

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بالتحرّز عن متابعتهم، وتعاطي ما يتعاطَوْنه. كان أبو حنيفة رحمه الله يقول: «هي أخوفُ آيةٍ في القرآن»؛[٥] حيث أوعدَ الله المؤمنين بالنار المُعَدّة للكافرين إن لم يتّقوه في اجتناب محارمِه.

---

[١] ي: مِن.
[٢] ي: فكأنّه.
[٣] ي: التشنيع.
[٤] قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٨.
[٥] الكشّاف للزمخشري، ١/٤١٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٣٤١.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٣٢﴾

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ في كلّ ما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ الذي يبلّغكم أوامره ونواهيه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ راجين لرحمته. عقّب الوعيدَ بالوعد ترهيبًا عن المخالفة وترغيبًا في الطاعة، وإيرادُ "لَعَلّ" في الموضعين للإشعار بعِزّة منال الفلاحِ والرحمة. قال محمّد بنُ إسحاقَ: «هذه الآية معاتِبة للذين عصَوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين أمرهم بما أمرهم يومَ أحُد».[١]

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾

﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ عطفٌ على ﴿وَأَطِيعُواْ﴾،[٢] وقُرئ بغير واو على وجه الاستئناف،[٣] أي: بادروا وأقبلوا، وقُرئ: "وَسَابِقُوا"[٤] ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ أي: إلى ما يؤدّي إليهما. وقيل: إلى الإسلام. وقيل: إلى التوبة. وقيل: إلى الإخلاص. وقيل: إلى الجهاد. وقيل: إلى أداء جميع الواجبات وتركِ جميع المنهيّات، فيدخُل فيها ما مرّ مِن الأمور المأمورِ بها والمنهيّ عنها دخولًا أوّليًا. وتقديم المغفرة على الجنّة لِما أنّ التخلية متقدّمة على التحلية، و﴿مِن﴾ متعلّقة بمحذوف وقع صفةً لـ﴿مَغۡفِرَةٖ﴾، أي: كائنةٍ مِن ربّكم. والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين لإظهار مزيدِ اللّطفِ بهم.

وقوله تعالى: ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: كعرضهما؛ صفة لـ﴿جَنَّةٍ﴾،[٥] وتخصيصُ العَرْض بالذكر للمبالغة في وصفها بالسّعة والبسطةِ على طريقة التمثيل، فإنّ العَرْض في العادة أدنى مِن الطول. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كسبع سماواتٍ وسبعِ أرضينَ لو وُصل بعضُها ببعض».[٦]

﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ في حيّز الجرّ على أنّه صفة أخرى لـ﴿جَنَّةٍ﴾، أو في محلّ النصب

---

١ جامع البيان للطبري، ٥٢/٦.
٢ في الآية السابقة.
٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٤٢/٢.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأبيّ رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٠.
٥ ي: الجنّة.
٦ الكشّاف للزمخشري، ٤١٥/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨/٢.

على الحاليّة منها؛ لتخصّصها بالصفة، أي: هُيِّئَتْ لهم. وفيه دليل على أنّ الجنّة مخلوقة الآن، وأنّها خارجة عن هذا العالَم.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ في محلّ الجرّ على أنّه نعت لـ"المتّقين"[١] مادحٌ لهم، أو بدل منه، أو بيان، أو في حيّز النصب أو الرفعِ على المدح. ومفعول ﴿يُنفِقُونَ﴾ محذوف؛ ليتناول كلَّ ما يصلُح للإنفاق، أو متروكٌ بالكلّيّة، كما في قولك: يُعطي ويمنَع.

﴿فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ في حالتي الرخاء والشدّة، واليُسر والعُسر، أو في الأحوال كلّها؛ إذ الإنسان لا يخلو عن مَسَرّة أو مضَرّة، أي: لا يُخِلّون في حالٍ ما بإنفاق ما قدَروا عليه مِن قليل أو كثير.

﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ عطفٌ على الموصول، والعدول إلى صيغة الفاعل للدلالة على الاستمرار، وأمّا الإنفاق فحيث كان أمرًا متجدّدًا عبّر عنه بما يفيد الحدوثَ والتجدّد. والكَظم: الحبسُ، يقال: كَظَم غيظَه، أي: حبَسه. قال المُبرِّد: «تأويله: أنّه كتَمه على امتلائه منه، يقال: كظمتُ السِّقاءَ إذا ملأتَه وشددتَ عليه. أي: المُمْسِكين عليه الكافّين عن إمضائه مع القُدرة عليه، وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن كظَم غيظًا وهو قادر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنًا وإيمانًا».[٢]

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾: أي: التاركين[٣] عقوبةَ مَن استحقّ مؤاخذته. رُوي: «أنّه ينادي منادٍ يومَ القيامة: أين الذين كانت أجورُهم على الله تعالى؟ فلا يقوم إلّا مَن عفا».[٤] وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ هؤلاءِ في أمّتي قليلٌ

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] سنن أبي داود، ١٥٨/٧ (٤٧٧٨)؛ جامع البيان للطبري، ٥٩/٦. وفي السنن عن معاذ بن أنس أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «مَن كَظَم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله عزّ وجلّ على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يُخيّره مِن أيّ الحُور شاء». سنن أبي داود، ١٥٨/٧ (٤٧٧٨)؛ سنن الترمذي، ٦٥٦/٤ (٢٤٩٣).

[٣] ي: تاركين.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٤١٥/١. وهو في شعب الإيمان للبيهقي، ١٣٣/٧ (٤٧٧٧)، عن أبي هريرة مرفوعًا وموقوفًا.

إلّا مَن عصَم الله، وقد كانوا كثيرًا في الأمم التي مَضت».[١]

وفي هذين الوصفين إشعار بكمال حُسنِ موقعِ عفوِه عليه السلام عن الرماة، وتركِ مؤاخذتهم بما فعلوا مِن مخالفة أمره عليه السلام،[٢] وندبٌ له عليه السلام إلى ترك ما عزَم عليه مِن مُجازاة المشركين بما فعلوا بحمزةَ رضي الله عنه حيث قال حين رآه قد مُثِّل به: «لأمثّلنّ بسبعين مكانك».[٣]

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ اللام إمّا للجنس، وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًا، وإمّا للعهد، عُبّر عنهم بـ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إيذانًا بأنّ النعوت المعدودة مِن باب الإحسان الذي هو: الإتيان بالأعمال على الوجه اللّائق الذي هو حُسنها الوصفيُّ المستلزِمُ لحُسنها الذاتيّ، وقد فسّره صلّى الله تعالى[٤] عليه وسلّم بقوله: «أن تعبدَ الله كأنّك / تَراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يَراك».[٥] والجملة[٦] تذييل مقرِّر لمضمون ما قبلها. [١٠٩ظ]

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مرفوع على الابتداء. وقيل: مجرور معطوف على ما قبله مِن صفات المتّقين، وقوله تعالى:[٧] ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٨] اعتراض بينهما مشير إلى ما بينهما مِن التفاوت؛ فإنّ درجة الأوّلين مِن التقوى أعلى مِن درجة هؤلاء، وحظُّهم أوفى مِن حظّهم. أو على نفس المتّقين، فيكونُ التفاوت أكثرَ وأظهرَ.

﴿إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ أي: فعلةً بالغةً في القُبح كالزنا. ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بأن أتَوا ذنبًا أيّ ذنبٍ كان. وقيل: "الفاحشة": الكبيرة، و"ظلمُ النفسِ": الصغيرة. أو "الفاحشة": ما يتعدّى إلى الغير، و"ظلمُ النفس": ما ليس كذلك.

---

١ تفسير ابن أبي حاتم، ٣/٧٦٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/١٦٧.
٢ ط: عليه الصلاة والسلام.
٣ المستدرك للحاكم، ٣/٢١٨ (٤٨٩٤)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٩١ (النحل، ١٦/١٢٦).
٤ س ي – تعالى.
٥ صحيح البخاري، ١/١٩ (٥٠)؛ صحيح مسلم، ١/٣٦ (٨).
٦ ي: الجملة.
٧ ط – تعالى.
٨ في الآية السابقة.

قيل: قال المؤمنون: «يا رسولَ الله؛ كانت بنو إسرائيلَ أكرمَ على الله تعالى منّا؛ كان أحدهم إذا أذنب أصبحت كفّارةُ ذنبِه مكتوبةً في عَتَبة داره: افعلْ كذا»، فأنزل الله تعالى[١] هذه الآيةَ.[٢]

وقيل: إنّ نبهانَ التمّار[٣] أتته امرأةٌ حسناءُ تطلُب منه تمرًا، فقال لها: «هذا التمر ليس بجيّد، وفي البيت أجودُ منه»، فذهب بها إلى بيته فضمّها إلى نفسه وقبّلها، فقالت له: «اتّقِ الله»، فتركها وندِم على ذلك، وأتى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وذكر له ذلك، فنزلت.[٤]

وقيل: جرى مثلُ هذا بين أنصاري وامرأةٍ ثقفي كان بينهما مؤاخاةٌ، فندِم الأنصاري، وحَثا على رأسه الترابَ، وهامَ على وجهه، وجعل يَسيح في الجبال تائبًا مستغفِرًا، ثمّ أتى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فنزلت.[٥]

وأيًّا ما كان فإطلاق اللفظ ينتظم ما فعله الرماة انتظامًا أوّليًّا.

﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ تذكّروا حقَّه العظيمَ، وجلالَه الموجِب للخشية والحياء، أو وعيدَه، أو حُكمَه وعقابَه. ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ بالتوبة والندم. والفاء للدلالة على أنّ ذكره تعالى مستتبع للاستغفار لا محالة.

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ استفهام إنكاريّ. والمراد بـ﴿ٱلذُّنُوبَ﴾: جنسُها، كما في قولك: فلان يلبَس الثياب ويركب الخيل، لا كلُّها حتّى يُخِلّ بما هو المقصود مِن استحالة صدور مغفرةِ فردٍ منها عن[٦] غيره تعالى. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بدل مِن الضمير المستكنّ في ﴿يَغْفِرُ﴾، أي: لا يغفرُ جنس الذنوب أحد إلّا الله، خلا أنّ دلالة الاستفهام عن الانتفاء أقوى وأبلغُ؛ لإيذانه بأنّ كلّ أحدٍ ممّن له حظٌّ مِن الخطاب يعرِف ذلك الانتفاء، فيسارع إلى الجواب به.[٧] والمراد به: وصفُه

---

١ ي - تعالى.

٢ جامع البيان للطبري، ٦/٦٢؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/١٤٨.

٣ ذكره المترجمون ولم يزيدوا في ترجمته عن ذكر هذه القصة وبيان ضعفها. انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ٤/٥٣٣؛ والإصابة لابن حجر، ١١/٤٦.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/١٦٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ١/٤٩٣.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/١٦٨؛ اللباب لابن عادل، ٥/٥٤٣.

٦ ي: مِن.

٧ ي - به.

سبحانه بغاية سَعة الرحمة وعمومِ المغفرة. والجملة معترضة بين المعطوفين، أو بين الحال وصاحبِها؛ لتقرير الاستغفار والحثّ عليه، والإشعارِ بالوعد بالقَبول.

﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ﴾ عطفٌ على ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ﴾، وتأخيره عنه مع تقدّم عدم الإصرار على الاستغفار رتبةً؛ لإظهار الاعتناء بشأن الاستغفار واستحقاقِه للمسارعة إليه عَقيبَ ذكره تعالى. أو حال مِن فاعله، أي: ولم يُقيموا، أو غيرَ مقيمين ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ أي: ما فعلوه مِن الذنوب فاحشةً كانت أو ظلمًا، أو على فعلهم.

رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه: «ما أصرّ مَن استغفر، وإن عاد في اليوم سَبعين[1] مرّةً».[2] وأنّه: «لا كبيرةَ مع الاستغفار، ولا صغيرةَ مع الإصرار».[3]

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿يُصِرُّواْ﴾، أي: لم يُصرّوا على ما فعلوا وهم عالمون بقُبحه وبالنهيِ عنه والوعيدِ عليه. والتقييد بذلك لِما أنّه قد يُعذَر مَن لا يعلم ذلك إذا لم يكن عن تقصيرٍ في تحصيل العِلم به.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين آخِرًا باعتبار اتّصافهم بما مرَّ مِن الصفات الحميدة، وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار ببعد منزلتهم، وعلوّ طبقتِهم في الفضل. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُم﴾ بدلُ اشتمالٍ منه، وقوله تعالى: ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ خبر له. أو ﴿جَزَآؤُهُم﴾ مبتدأ ثانٍ، و﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ خبره، والجملة خبر لـ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾.

وهذه الجملة خبر لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ﴾... إلخ[4] على الوجه الأوّل،[5] وهو الأظهر الأنسبُ بنظم المغفرة المنبئة عن سابقة الذنبِ في سلك الجزاء؛

---

[1] ي - سبعين.

[2] سنن أبي داود، ٦٢٥/٢ (١٥١٤)؛ سنن الترمذي، ٥٥٨/٥ (٣٥٥٩).

[3] الكشّاف للزمخشري، ٤١٦/١. وأخرجه الطبري في جامع البيان، ٦٥١/٦، عن ابن عبّاس موقوفًا؛ والقضاعي في مسند الشهاب، ٤٤/٢ (٨٥٣)، عن ابن عبّاس مرفوعًا.

[4] في الآية السابقة.

[5] وفي هامش ط س ي: وهو أن يكون قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ﴾... إلخ مرفوعَ المحلّ على الابتداء. «منه».

إذ على الوجهين الأخيرين[١] يكون قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾... إلخ جملةً مستأنفةً مبيّنة لِما قبلها، كاشفةً عن حال كلا الفريقين المحسنَين والتائبين،[٢] ولم يُذكَر مِن أوصاف الأوّلين ما فيه شائبةُ الذنبِ حتّى يُذكَرَ في مطلَع الجزاء الشاملِ لهما المغفرةُ. وتخصيص الإشارة[٣] بالآخِرين -مع اشتراكهما في حكم إعدادِ الجنّةِ لهما- تعسُّفٌ ظاهر.

﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ متعلِّق بمحذوف وقع صفةً لـ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ مؤكّدةً لِما أفادها التنوين مِن الفخامة الذاتيّةِ بالفخامة الإضافيّة، أي: كائنةٌ مِن جهته تعالى. والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلّة الحُكمِ والتشريفِ.

﴿وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ عطفٌ على ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾، والتنكير المُشعِر بكونها أدنى مِن الجنّة السابقة ممّا يؤيّد رُجحانَ الوجه الأوّل.[٤] ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدّرة مِن الضمير في ﴿جَزَآؤُهُم﴾؛ لأنّه مفعول به في المعنى؛ لأنّه في قوّة "يجزيهم الله جنّات خالدين فيها"، ولا مَساغَ لأن يكون حالًا مِن ﴿جَنَّٰتٌ﴾ في اللّفظ وهي لأصحابها في المعنى؛ إذ لو كان كذلك لبرَز الضمير.

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف، أي: ونِعم أجرُ العاملين ذلك، أي: ما ذُكر مِن المغفرة والجنّات. والتعبير عنهما بالأجر المشعر بأنّهما تُستحقّان بمقابلة العمل، وإن كان بطريق التفضّل؛ لمزيد الترغيب في الطاعات والزجرِ عن المعاصي. والجملة تذييل مختصٌّ بالتائبين حسبَ اختصاص التذييل السابقِ بالأوّلين، وناهيك مضمونُهما دليلًا على ما بين الفريقين مِن التفاوت النيّر، والتبايُنِ البيّن. شتّانَ بين المحسنين الفائزين بمحبّة الله عزّ وجلّ، وبين العاملين الحائزين لأجرتهم وعمالتِهم.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ رجوع إلى تفصيل بقيّة القصّةِ بعد تمهيد مبادي الرشدِ والصلاح، وترتيبِ مقدّماتِ الفوز / والفلاح. و"الخلوّ": المُضيُّ، و"السُّنن": [١١٠و]

---

[١] وفي هامش ط س ي: وهما كونه مجرورًا معطوفًا على صفات المتّقين، أو على نفسه. «منه».

[٢] وفي هامش ي: تعليل لأظهريّة الوجه الأوّل. «منه».

[٣] وفي هامش س ي: في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. «منه».

[٤] وفي هامش ط ي: هو كون ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مرفوعًا على الابتداء. «منه».

الوقائعُ، وقيل: الأممُ. والظرف إمّا متعلِّق بـ﴿خَلَتْ﴾، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿سُنَنٌ﴾، أي: قد مضت مِن قبل زمانكم أو كائنةً مِن قبلكم وقائعُ سنّها الله تعالى في الأمم المكذِّبة، كما في قوله عزّ وجلّ:[١] ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾... إلخ [الأحزاب، ٣٣/٦١-٦٢].

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ للدلالة على سببيّة خلوّها للسير والنظر، أو للأمر بهما. وقيل:[٢] المعنى على الشَّرط: أي: إن شككتم فسيروا... إلخ. و﴿كَيْفَ﴾ خبر مقدَّم لـ﴿كَانَ﴾، معلِّق لِفعل النظر، والجملة في محلّ النصب بعد نزع الخافضِ؛ لأنّ الأصل استعماله بالجارّ.

﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾

﴿هَـٰذَا﴾ إشارة إلى ما سلَف مِن قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ إلى آخره.[٣]

﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: تبيين لهم، على أنّ اللام متعلِّقة بالمصدر. أو كائن لهم، على أنّها متعلِّقة بمحذوف وقع صفةً له. وتعريف "الناس" للعهد، وهم "المكذِّبون"، أي: هذا إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه مِن التكذيب، فإنّ الأمر بالسير والنظر وإن كان خاصًّا بالمؤمنين، لكنّ العمل بموجبه غيرُ مختصٍّ بواحدٍ دون واحدٍ، ففيه حملٌ للمكذِّبين أيضًا على أن ينظُروا في عواقب مَن قبلَهم مِن أهل التكذيب، ويعتبروا بما يعاينون مِن آثار دَمارهم، وإن لم يكن الكلام مَسوقًا لهم.

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ﴾: أي: وزيادة بصيرةٍ وموعظةٍ لكم. وإنّما قيل: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ للإيذان بعلّة الحُكم؛ فإنّ مدار كونِه هدًى وموعظةً لهم إنّما هو تقواهم. ويجوز أن يُراد بـ"المتّقين": الصائرون إلى التقوى، و"الهدى" و"الموعظة" على ظاهرهما، أي: هذا بيان لمآل أمر الناسِ وسوءِ مَغبّتِه، وهدايةٌ لمَن اتّقى منهم، وزجرٌ لهم عمّا هم عليه مِن التكذيب. وأن يُراد به ما يعُمّهم وغيرَهم مِن المتّقين بالفعل، ويُرادَ بالهدى والموعظةِ أيضًا: ما يعُمّ ابتداءَهما والزيادةَ فيهما.

---

[١] ي: تعالى.

[٢] وفي هامش س ي: أبو البقاء. «منه». | الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣/٤٠٠.

[٣] في الآية السابقة.

وإنّما قُدّم كونه "بيانًا للمكذّبين" -مع أنّه غيرُ مَسوق له- على كونه "هدًى وموعظةً للمتّقين" -مع أنّه المقصودُ بالسياق- لأنّ أوّل ما يترتّب على مشاهدة آثار هلاك أسلافِهم ظهورُ حالِ أخلافهم. وأمّا زيادة الهدى أو أصلُه فأمرٌ مترتّبٌ عليه. وتخصيص البيان بالناس مع شموله للمتّقين أيضًا لِما أنّ المراد به مجرّد البيان العاري عن الهدى والعِظةِ. والاقتصار عليهما في جانب المتّقين مع ترتّبهما على البيان لِما أنّهما المَقصِدُ الأصليّ. ويجوز أن يكون تعريفُ[1] "الناس" للجنس، أي: هذا بيان للناس كافّةً، وهدًى وموعظةٌ للمتّقين منهم خاصّة.

وقيل: كلمةُ ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما لُخِص مِن أمر المتّقين والتائبين والمُصِرِّين، وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ الآية[2] اعتراض للبعث على الإيمان وما يُستحَقّ به ما ذُكر مِن أجر العاملين. وأنت خبير بأنّ الاعتراض لا بدّ أن يكون مقرِّرًا لمَضمون ما وقع في خلاله، ومعاينةُ آثار هلاك المكذّبين ممّا لا تعلّقَ له بحال أحد الأصناف الثلاثة للمؤمنين، وإن كان باعثًا على الإيمان، زاجرًا عن التكذيب. وقيل: إشارة إلى القرآن،[3] ولا يخفي بُعده.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣٩﴾

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾: تشجيع للمؤمنين، وتقوية لقلوبهم، وتسلية عمّا أصابهم يوم أُحُدٍ مِن القتل والقَرحِ. وكان قد قُتل يومئذ خمسةٌ مِن المهاجرين: حمزةُ بنُ عبدِ المطّلب رضي الله عنه، ومصعبُ بنُ عُميرٍ صاحبُ رايةِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وعبدُ الله بنُ جحشٍ[4] ابنُ عمّةِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم،

---

[1] ي: التعريف.

[2] الآية السابقة.

[3] ذكره البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣٩/٢.

[4] هو عبد الله بن جحش بن رياب بن يعمر الأسدي (ت. ٣هـ/٦٢٥م). صحابيّ قديم الإسلام. هاجر إلى بلاد الحبشة، ثمّ إلى المدينة. وشهد بدرًا، وكان مِن أمراء السرايا. وهو صِهر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخو زينب أمّ المؤمنين. استشهد يوم أحد، فدُفن هو وحمزة رضي الله عنهما في قَبر واحد. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ٨٧٧/٣؛ والإصابة لابن حجر، ٥٧/٦؛ والأعلام للزركلي، ٧٦/٤.

وعثمانُ بنُ شمّاس[١] وسعدٌ مولى عُتبةَ[٢] رضي الله عنهم، ومِن الأنصار سبعون رجلًا رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.[٣] أي: لا تضعُفوا عن الجهاد بما نالكم مِن الجراح ولا تحزَنوا على مَنْ قتل منكم.

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾: جملة حاليّة مِن فاعل الفعلين، أي: والحالُ أنكم الأعلَوْن الغالبون دون عدوّكم، فإنّ مصير أمرهم إلى الدَّمار حسبما شاهدتم مِن أحوال أسلافهم، فهو تصريح بالوعد بالنَّصر والغلبة بعد الإشعار به فيما سبق. أو وأنتم المعهودون بغاية علوّ الشّأن، لِما أنكم على الحقّ، وقتالُكم لله عزّ وجلّ، وقَتْلاكم في الجنّة، وهم على الباطل، وقِتالُهم للشيطان، وقَتْلاهم في النار. وقيل: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ حالًا منهم، حيث أصبتم منهم يومَ بدرٍ أكثرَ ممّا أصابوا منكم اليوم.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ متعلّق بالنهي، أو بـ﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾، وجوابه محذوف؛ لدلالة ما تعلَّق به عليه، أي: إن كنتم مؤمنين فلا تهِنوا ولا تحزَنوا، فإنّ الإيمان يوجب قوّة القلب، والثقةَ بصنع الله تعالى، وعدمَ المبالاة بأعدائه. أو إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلَوْن، فإنّ الإيمان يقتضي العلوّ لا محالةَ. أو إن كنتم مصدّقين بوعد الله تعالى فأنتم الأعلَوْن. وأيًّا ما كان فالمقصود تحقيقُ المعلّق بناء على تحقّق المعلّق به، كما في قول الأجير: إن كنتُ عمِلتُ لك فأعطني أجري، ولذلك قيل: معناه: إذ كنتم مؤمنين. وقيل: معناه: إن بقِيتم على الإيمان.

---

١ هو عثمان بن شمّاس بن الشريد المخزومي. ذكره ابن إسحاق فيمَن هاجر إلى المدينة مع مصعب بن عمير. وقال الزبير بن بكّار: استشهد بأُحد. قال الحافظ ابن حجر بعد ترجمته لعثمان بن شمّاس: «وقد تقدّم في حرف الشين شمّاس بن عثمان، فأنا أخشى أن يكون هذا انقلب، ثمّ وجدتُ أبا نُعيم جنَح إلى ذلك ونسب الوهم فيه إلى ابن مَنْدَه». انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ٥٧٢/٣؛ والإصابة لابن حجر، ٩٤/٧.

٢ هو سعد مولى عُتبة بن غزوان. قيل: إنّه شهد بدرًا مع مولاه. ورُوي عن ابن عبّاس أنّه ممّن نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام، ٥٢/٦]. انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ٤٤٦/٢؛ والإصابة لابن حجر، ٣١٧/٤.

٣ ط – أجمعين؛ س: رضي الله عنهم. | الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٢/٣. وفي تفسير ابن أبي حاتم، ٧٧٤/٤، عن أبي الضُّحى: «قُتل منهم يومئذ سبعون، منهم أربعة مِن المهاجرين... وسائرهم مِن الأنصار». ولم يذكر عثمانَ بن شمّاس، وسعدًا مولى عُتبة، وذكر الشمّاس بن عثمان المخزومي.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ "القُرحُ" بالفتح والضمّ لغتان، كالضَّعف والضُّعف، وقد قُرئ بهما.[١] وقيل: هو بالفتح: الجِراحُ، وبالضمّ: ألَمُها. وقُرئ بفتحتين.[٢] وقيل: القَرْح والقَرَح كالطَّرْد والطَّرَد.[٣] والمعنى: إن نالوا منكم يومَ أُحُدٍ فقد نِلتم منهم قبلَه يومَ بدرٍ، ثمّ لم يُضْعِف ذلك قلوبهم، ولم يُثبِّطْهم عن معاودتكم بالقتال، فأنتم أحقّ بأن لا تضعُفوا، فإنّكم ترجون مِن الله ما لا يرجون. وقيل: كلا المَسَّينِ كان يوم أُحُد فإنّ المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمرَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قَتلوا منهم نيّفًا وعشرين رجلًا، منهم صاحبُ لوائهم، وجرحوا عددًا كثيرًا، وعقَروا عامّة خيلِهم بالنَّبْل.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ﴾ إشارة إلى الأيّام الجارية فيما بين الأمم الماضيةِ والآتيةِ كافّةً، لا إلى الأيّام المعهودة خاصّةً مِن يوم بدرٍ ويومِ أُحُدٍ؛ بل / هي داخلة فيها [١١٠ظ]
دخولًا أوّليًّا، والمراد بها: أوقاتُ الظَّفَر والغَلَبة. ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: نُصَرِّفها بينهم، نُديلُ لهؤلاء تارةً، ولهؤلاء أخرى، كقول مَن قال:

فيومًا علينا ويومًا لنا ويومًا نُساءُ ويومًا نُسَرّ[٤]

و"المُداولة" كالمُعاورة، يقال: داولتُه بينهم فتداولوه، أي: عاورْتُه فتعاوروه. واسم الإشارة مبتدأ، و﴿ٱلْأَيَّامُ﴾ إمّا صفة له، أو بدل منه، أو عطف بيانٍ له، فـ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ خبرُه، أو خبر، فـ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ حال مِن ﴿ٱلْأَيَّامُ﴾، والعاملُ معنى اسم الإشارة. أو خبر بعد خبرٍ. وصيغة المضارع الدالّةُ على التجدّد والاستمرار للإيذان بأنّ تلك المداولة سنّةٌ مسلوكةٌ فيما بين الأمم قاطبةً سابقتِها ولاحقتِها.

---

[١] قرأ بالضمّ حمزة والكسائي وخلف وشعبة، وقرأ بالفتح باقي القرّاء العشر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٠.

[٣] الكشّاف للزمخشري، ١/٤١٨؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٣٥٤. والطَّرْد والطَّرَد: الإبعاد. الصحاح للجوهري، «بعد».

[٤] وفي هامش ي: أي: يومًا يكون الأمر علينا ويومًا لنا. «منه». | للنمر بن تولب. انظر: نهاية الأرب للنويري، ٣/٦٧.

وفيه ضرب مِن التسلية.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إمّا مِن باب التمثيل، أي: ليعامِلكم معاملةَ مَن يريد أن يَعلم المخلِصين الثابتين على الإيمان مِن غيرهم، أو العلمُ فيه مجاز عن التمييز بطريق إطلاق اسم السبَبِ على المسبَّب، أي: ليُميّز الثابتين على الإيمان مِن غيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران، ١٧٩/٣]. أو هو على حقيقته معتبَرٌ مِن حيث تعلّقُه بالمعلوم مِن حيث إنّه موجودٌ بالفعل؛ إذ هو الذي يدور عليه فلك الجزاء، لا مِن حيث إنّه موجود بالقوّة.

وإطلاق الإيمان مع أنّ المراد هو الرسوخ والإخلاصُ فيه للإيذان بأنّ اسم الإيمان لا ينطلق على غيره. والالتفات إلى الغَيبة بإسناده إلى اسم الذات المستجمِع للصفات لتربية المهابة والإشعارِ بأنّ صدور كلّ واحدٍ ممّا ذكر بصدد التعليل مِن أفعاله تعالى باعتبار منشأ معيّنٍ مِن صفاته تعالى مغايرٌ لمنشأ الآخَر. والجملة علّة لِما هو فرد مِن أفراد مُطلَق المداولة التي نطقَ بها قوله تعالى: ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ مِن المداولة المعهودةِ الجاريةِ بين فريقَي المؤمنين والكافرين. واللام متعلِّقة بما دلّ عليه المطلَق مِن الفعل المقيَّدِ بالوقوع بين الفريقين المذكورين، أو بنفس الفعل المطلَقِ باعتبار وقوعه بينهما.

والجملة معطوفة على علّة أخرى لها معتبرةٍ إمّا على الخصوص والتعيين، محذوفةٍ لدلالة المذكورةِ عليها لكونها مِن مباديها، كأنّه قيل: نداولها بينكم وبين عدوِّكم ليظهرَ أمرُكم وليَعلَمَ... إلخ، فإنّ ظهور أعمالهم وخروجَها مِن القوّة إلى الفعل مِن مبادي تمييزهم عن غيرهم ومواجبِ تعلّق العلم الأزليّ بها مِن تلك الحيثيّة، وكذا الحال في باب التمثيل، فتأمّلْ. وإمّا[1] على العموم والإبهامِ؛ للتنبيه على أنّ العلل غيرُ منحصِرة فيما عدّد مِن الأمور، وأنّ العبد يسوءه ما يجري عليه مِن النوائب، ولا يشعُرُ[2] بأنّ لله تعالى في ذلك مِن الألطاف الخفيّة

---

١ السياق: إمّا على الخصوص والتعيين... وإمّا على العموم والإبهام...

٢ ي: يشعره.

ما لا يخطرُ بالبال. كأنّه قيل: نداولُها بينكم ليكونَ مِن المصالح كيت وكيت، وليَعلَمَ... إلخ. وفيه مِن تأكيد التسلية ومزيدِ التبصِرة ما لا يخفى.

وتخصيص البيان بعلّة هذا الفردِ مِن مطلق المداولةِ دون سائر أفرادِها الجاريةِ فيما بين بقيّة الأممِ -تعيينًا أو إبهامًا- لعدَم تعلُّق الغرض العلميّ إجمالًا ببيانها. ولك أن تجعل المحذوفَ المبْهَمَ عبارةً عن علل سائر أفرادها؛ للإشارة إجمالًا[١] إلى أنّ كلّ فردٍ مِن أفرادها له علّة داعية إليه، كأنّه قيل: نداولها بين الناس كافّةً؛ ليكونَ كيت وكيت مِن الحِكم الداعية إلى تلك الأفراد، وليَعلمَ... إلخ، فاللام الأولى متعلِّقة بالفعل المطلق باعتبار تقيّدِه بتلك الأفراد، والثانيةُ باعتبار تقيّدِه بالفرد المعهود. وقيل: هي متعلِّقة بمحذوفٍ مؤخَّرٍ تقديرُه: ولِيعلَمَ الله الذين آمنوا فَعَل ذلك.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ جمعُ "شهيدٍ"، أي: ويُكرِمَ ناسًا منكم بالشهادة، وهم شهداء أُحُدٍ. فـ"مِن" ابتدائيّة أو تبعيضيّة، متعلِّقةٌ بـ﴿يَتَّخِذَ﴾، أو بمحذوف وقعَ حالًا مِن ﴿شُهَدَآءَ﴾. أو جمعُ "شاهدٍ"، أي: ويتّخذ منكم شهودًا معدَّلين بما ظهر[٢] منهم مِن الثبات على الحقّ والصبرِ على الشدائد وغيرِ ذلك مِن شواهد الصدق؛ ليشهدوا على الأمم يومَ القيامة. فـ"مِن" بيانيّة؛ لأنّ تلك الشهادة وظيفةُ الكلّ دون المستشهَدين فقط. وأيًّا ما كان ففي لفظ الاتّخاذ المُنبِئ عن الاصطفاء والتقريبِ مِن تشريفهم وتفخيمِ شأنِهم ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اعتراض مقرِّر لمضمون ما قبله. ونفيُ المحبّة كنايةٌ عن البغض. وفي إيقاعه على الظالمين تعريض بمحبّته تعالى لمقابليهم. والمراد بهم إمّا غير الثابتين على الإيمان، فالتقرير مِن حيث إنّ بُغضه تعالى لهم[٣] مِن دواعي إخراج المخلِصينَ المصطفَينَ للشّهادة مِن بينهم، وإمّا الكفَرةُ الذين أُديل لهم. فالتقرير مِن حيث إنّ ذلك ليس بطريق النُّصرة لهم، فإنّها مختصّة بأوليائه تعالى؛ بل لِما ذُكر مِن الفوائد العائدة إلى المؤمنين.

---

١ ط س: إجمالًا.
٢ ي: أظهر.
٣ ي - لهم.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤١﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ليُصَفِّيَهم ويُطهِّرَهم عن الذنوب. عطفٌ على ﴿يَتَّخِذَ﴾، وتكريرُ اللامِ لتذكير التعليل؛ لوقوع الفصل بينهما بالاعتراض. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في موقع الإضمارِ لإبراز مزيد الاعتناء بشأن التمحيصِ. وهذه الأمور الثلاثة عِلَلٌ للمداولة المعهودة باعتبار كونها على المؤمنين، قُدِّمت في الذكر لأنّها المحتاجة إلى البيان.

ولعلّ تأخيرَ العلّةِ الأخيرةِ عن الاعتراض لئلّا يُتوَهَّمَ اندراجُ المذنبين في الظالمين. أو ليقترِنَ بقوله عزّ وعلا: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فإنّ التمحيصَ فيه محوُ الآثار وإزالةُ الأوضار، كما أنّ المَحْق عبارةٌ عن النقص والإذهاب. قال المفضّلُ: «هو أن يذهبَ الشيءُ بالكلّية حتّى لا يُرى منه شيءٌ».[1] ومنه قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي﴾ [البقرة، ٢٧٦/٢]، أي: يستأصله، وهذه علّة للمداولة باعتبار كونها على الكافرين. والمراد بهم: الذين حاربوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومَ أحُدٍ، وأصرّوا على الكفر، وقد محَقَهم الله عزّ وجلّ جميعًا.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ كلام مستأنَف سيق لبيان / ما هي الغاية القصوى مِن المُداولة [١١١و]
والنتيجةُ لِما ذُكر مِن تمييز المخلِصين وتمحيصِهم واتّخاذِ الشهداء وإظهارِ عزة منالها. والخطاب للذين انهزموا يوم أُحُدٍ. و﴿أَمْ﴾ منقطعةٌ، وما فيها مِن كلمة "بل" للإضراب عن التسلية ببيان العلل فيما لقُوا مِن الشدّة إلى تحقيق أنّها مِن مبادي الفوز بالمطلب الأسنى. والهمزة للإنكار والاستبعاد، أي: بل أحسِبتم ﴿أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ وتفوزوا بنعيمها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ حال مِن ضمير تدخُلوا، مؤكِّدةٌ للإنكار، فإنّ رجاء الأجر بغير عملٍ ممّن يعلم أنّه منوط به مستبعَدٌ عند العقول. وعدم العلم كنايةٌ عن عدم المعلوم؛ لِما بينهما مِن اللّزوم المبنيّ

[1] التفسير البسيط للواحدي، ٢٩/٦.

على لزوم تحقّقِ الأوّل لتحقّق الثاني ضرورةَ استحالة تحقّقِ شيءٍ بدون علمه تعالى به. وإيثارُها على التصريح للمُبالغة في تحقيق المعنى المرادِ، فإنّها إثبات لعدم جهادهم بالبرهان، وللإيذان بأنّ مدار ترتّب الجزاءِ على الأعمال إنّما هو علمُ الله تعالى بها، كأنّه قيل: والحال أنّه لم يوجَد الذين جاهدوا منكم.

وإنّما وجِّه النفيُ إلى الموصوفين مع أنّ المنفيّ هو الوصف فقط، وكان يكفي أن يقال: ولمّا يعلمِ الله جهادَكم كنايةً عن معنى: "ولمّا تجاهدوا"؛ للمبالغة في بيان انتفاء الوصف وعدمِ تحقّقه أصلًا. وفي كلمة ﴿لَمَّا﴾ إيذان بأنّ الجهاد متوقَّع منهم فيما يُستقبل إلّا أنّه غيرُ معتبَرٍ في تأكيد الإنكار، وقُرئ: "يَعْلَمَ" بفتح الميم[1] على أنّ أصله "يَعلَمَن"، فحُذفت النون، أو على طريقة إتْباع الميمِ لِما قبلها في الحركة؛ لإبقاء تفخيم اسمِ الله تعالى. و﴿مِنكُمْ﴾ حال مِن ﴿ٱلَّذِينَ﴾.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ منصوب بإضمار "أن"، على أنّ الواو للجمع، كما في قولك: لا تأكُلِ السمكَ وتشرَبَ اللّبن، أي: لا يكن منك أكلُ السمك وشربُ اللّبن. والمعنى: أم حسبتم أن تدخُلوا الجنّة والحالُ أنّه لم يتحقّق منكم الجهاد والصبرُ، أي: الجمعُ بينهما. وإيثار اسم الفاعل على الموصول للدّلالة على أنّ المعتبَر هو الاستمرار على الصبر، وللمحافظة على الفواصل. وقيل: مجزوم معطوف على المجزوم قبله قد حُرِّك لالتقاء الساكنين بالفتح للخِفّة والإتْباع كما مرّ، ويؤيّده القراءةُ بالكسر[2] على ما هو الأصل في تحريك الساكن. وقُرئ: "يَعْلَمُ" بالرفع[3] على أنّ الواو للحال، وصاحبها الموصولُ، والمبتدأ محذوف، أي: وهو يعلمُ الصابرين، كأنّه قيل: ولمّا تُجاهدوا وأنتم صابرون؟

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: تتمنّون الحربَ، فإنّها مِن مبادي الموت.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٠.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن أبي عبلة وعمرو بن عبيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٠.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري وعبد الوارث. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٠.

أو الموتَ بالشهادة. والخطاب للذين لم يشهدوا بدرًا وكانوا يتمنَّون أن يشهدوا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مَشهدًا؛ لينالوا ما ناله شهداء بدرٍ مِن الكرامة، فألحُّوا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الخروج، ثمّ ظهر منهم خلافُ ذلك. ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ﴾ متعلِّق بـ﴿تَمَنَّوۡنَ﴾، مبيِّن لسبب إقدامهم على التمنّي، أي: مِن قبل أن تشاهدوه وتعرِفوا هولَه وشدَّته، وقُرئ: "تُلَاقُوهُ".[١]

﴿فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ﴾ أي: ما تتمنَّونه مِن أسباب الموت. أو الموتَ بمشاهدة أسبابه. وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ حال مِن ضمير المخاطَبين. وفي إيثار الرؤية على الملاقاة وتقييدِها بالنظر مزيدُ مبالغةٍ في مشاهدتهم له. والفاء فصيحةٌ، كأنّه قيل: إن كنتم صادقين[٢] في تمنّيكم ذلك، فقد رأيتُموه معاينين له حين قُتِل بين أيديكم مَنْ قُتِل مِن إخوانكم وأقاربكم وشارفتم أن تُقتَلوا، فلِمَ فعلتم[٣] ما فعلتم؟ وهو توبيخ لهم على تمنّيهم الحربَ وتسبُّبهم لها، ثمّ جُبنِهم وانهزامِهم، لا على تمنّي الشهادة بناءً على تضمُّنها لغلَبة الكفّار؛ لِما أنّ مطلبَ مَن يتمنّاها نيلُ كرامة الشهداء مِن غير أن يخطُر بباله شيءٌ غيرُ ذلك، فلا يستحِقُّ العتابَ مِن تلك الجهة.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ﴾ مبتدأ وخبر. ولا عمل لـ﴿مَا﴾ بالاتّفاق لانتقاض نفيه بـ﴿إِلَّا﴾. وقوله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ صفة لـ﴿رَسُولٞ﴾ منبئة عن كونه في شَرف الخُلوّ، فإنّ خلوَّ مشاركيه[٤] في منصِب الرسالة مِن شواهد خلوِّه عليه السلام[٥] لا محالةَ، كأنّه قيل: قد خلَت مِن قبله أمثالُه، فسيَخلو[٦] كما خلَوا.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٠.

٢ وفي هامش ط س: أي: جادّين فيه، فكان ذلك صادرًا عن صَميم قلوبكم «منه».

٣ وفي هامش ط س: فلمَ انهزمتم؟ تفسير واحدي. «منه». | التفسير الوسيط للواحدي، ١/٤٩٩.

٤ ط: مشاركته.

٥ ط - عليه السلام.

٦ ط: فسيخلوا.

والقصرُ قلبيّ، فإنّهم لمّا انقلبوا على أعقابهم فكأنّهم اعتقدوا أنّه عليه السلام رسول لا كسائر الرسلِ في أنّه يَخلو كما خلَوا، ويجب التمسّكُ بدِينه بعده كما يجب التمسّك بدينهم بعدَهم. فرُدَّ عليهم بأنّه: ليس إلّا رسولًا كسائر الرسلِ، فسيَخلو[١] كما خلَوا، ويجب التمسّك بدينه كما يجب التمسّك بدينهم.

وقيل: هو قصرُ إفرادٍ، فإنّهم لمّا استعظموا عدمَ بقائِه عليه السلام لهم نُزِّلوا منزلةَ المستبعِدين لهلاكه، كأنّهم يعتقدون فيه عليه السلام وصفَين: الرسالة، والبعدَ عن الهلاك، فرُدَّ عليهم بأنّه مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى البُعد عن الهلاك، فلا بدّ حينئذ مِن جعل قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾... إلخ كلامًا مبتدأً مَسوقًا لتقرير عدمِ براءتِه عليه السلام مِن الهلاك، وبيانِ كونِه أُسوةً لمَن قبله مِن الرسل[٢] عليهم السلام. وأيًّا ما كان فالكلامُ مُخرَج على خلاف مقتضى الظّاهرِ.

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ إنكار لارتدادهم وانقلابِهم عن الدِّين بخُلوِّه بموتٍ أو قتلٍ بعد علمِهم بخلوِّ الرسلِ قبله وبقاءِ دينِهم متمسَّكًا به. وقيل: الفاء للسببيّة، والهمزةُ لإنكار أن يجعلوا خُلوَّ الرسلِ قبله سببًا لانقلابهم بعد وفاتِه مع كونه سببًا في الحقيقة لثباتهم على الدِّين.

وإيرادُ "الموتِ" بكلمة "إنْ" مع العلم به البتّةَ لتنزيل المخاطَبين منزلةَ المتردِّدين فيه لِما ذُكر مِن استعظامهم إيّاه، وهكذا الحالُ في سائر المواردِ، فإنّ كلمةَ "إنْ" في كلام الله تعالى لا تجري على ظاهرها قطُّ ضرورة علمِه تعالى بالوقوع أو اللاوقوعِ؛ بل تُحمل على اعتبار حالِ السامعِ أو أمرٍ آخرَ يناسب المقامَ. وتقديم تقديرِ الموتِ مع أنّ تقديرَ القتلِ هو الذي ثار[٣] منه الفتنةُ وعظُم فيه المحنةُ لِما أنّ الموتَ في شَرف الوقوعِ، فزَجرُ الناس عن الانقلاب عنده وحَملُهم على التثبّت هناك أهمّ، ولأنّ الوصف الجامعَ بينه وبين الرسلِ عليهم السلام هو الخلوُّ بالموت، دون القتل.

---

١ ط: سيخلو.
٢ س - مِن الرسل.
٣ ي: سار.

رُوي أنّه لمّا التقى الفئتانِ حمل أبو دجانةَ[1] في نفَرٍ مِن المسلمين على المشركين، فقاتل قِتالًا شديدًا، / وقاتل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قتالًا [١١١ظ] عظيمًا حتّى التوى سيفُه، وكذا سعد بن أبي وقّاص، فقتلوا جماعةً مِن المشركين وهزموهم، فلمّا نظر الرُّماة إليهم ورأوا أنّهم قد انهزموا أقبلوا على النَّهْب، ولم يلتفتوا إلى نهي أميرِهم عبدِ الله بنِ جُبيرٍ، فلم يبقَ منهم عنده إلّا ثمانيةُ نفرٍ، فلمّا رآهم خالد بن وليدٍ قد اشتغلوا بالغنيمة حمَل عليهم في مائتين وخمسين فارسًا مِن المشركين مِن قِبَل الشِّعب، وقَتلوا مَن بقي مِن الرُّماة، ودخلوا خلفَ أقفية[2] المسلمين ففرّقوهم وهزموهم، وحملوا على أصحاب رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم وقاتلوهم حتّى أصيب هناك نحوُ ثلاثين رجلًا، كلٌّ منهم يجثُو بين يديه ويقول: وجهي لوجهك وِقاء، نفسي لنفسك فِداء، وعليك سلامُ الله غيرَ مُودَّع.

ورمى عبدُ الله بن قَميئة الحارثي رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم بحجر فكسر رَباعيَتَه وشجّ وجهَه الكريم، فذبَّ عنه مصعبُ بن عمير رضي الله عنه،[3] وكان صاحبَ الرايةِ حتّى قتله ابنُ قَميئة وهو يزعُم أنّه قتَل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «قتَلتُ محمّدًا»، وصرَخ صارخ -قيل: إنّه إبليس-: «ألَا إنّ محمّدًا قد قُتل»، فانكفأ الناسُ، وجعلَ الرسول صلّى الله عليه وسلّم يدعو: «إليّ عبادَ الله».

قال كعب بن مالك: كنت أوّل مَن عرف رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم مِن المسلمين، فنادَيت بأعلى صوتي: «يا معشرَ المسلمين هذا رسولُ الله عليه السلام»، فانحاز إليه ثلاثون مِن أصحابه، وحمَوه حتّى كشفوا عنه المشركين، وتفرّق الباقون. وقال بعضُهم: «ليت ابنَ أُبيّ يأخذ لنا أمانًا مِن أبي سفيانَ»،

---

١ هو سِماك بن خَرَشة الأنصاري، أبو دُجانة (ت. ١١هـ/٦٣٢م). متّفق على شهوده بدرًا. استشهد باليمامة، وقيل: إنّه ممّن شارك في قتل مسيلمة. وثبت ذكره في صحيح مسلم عن أنس أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أخذ سيفًا يوم أُحد، فقال: مَن يأخذ هذا السيف بحقّه؟ فأخذه أبو دُجانة ففَلق به هامَ المشركين. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ١٢/٢٠٤؛ **والأعلام** للزركلي، ٣/١٣٨.

٢ أقْفِية: جمع "قَفا" على غير قياس، والقفا: مُؤخّر العنُق. انظر: **الصحاح** للجوهري، «قفا». والمراد هنا: دخلوا مِن خلفهم.

٣ ط: رحمه الله.

وقال ناس مِن المنافقين: «لو كان نبيًّا لَمَا قُتل، ارجِعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم». فقال أنسُ بنُ النضر -وهو عمُّ أنس بنِ مالك-: «يا قوم إن كان قُتل محمّد، فإنّ ربّ محمّد حيٌّ لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعدَ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، فقاتِلوا على ما قاتَل عليه، وموتوا كِرامًا[1] على ما مات عليه»، ثمّ قال: «اللّهمّ إنّي أعتذر إليك ممّا يقول هؤلاءِ، وأبرَأُ إليك ممّا جاء به هؤلاء»، ثمّ شدّ بسيفه وقاتل حتّى قُتل.[2]

وتجويزُهم لقتله عليه السلام مع قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة، ٦٧/٥] لِما أنّ كلَّ آيةٍ ليس يسمعها كلُّ أحد، ولا كلُّ مَن يسمعها يستحضِرها في كلِّ مقام، لا سيّما في مثل ذلك المقام الهائل. وقد غفَل عمر رضي الله عنه عن هذه الآية الكريمة عند وفاته صلّى الله عليه وسلّم، وقام في الناس فقال: «إنّ رجالًا مِن المنافقين يزعمون أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم توفّي، وإنّ رسولَ الله ما مات، ولكنّه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بنُ عِمرانَ فغاب عن قومه أربعين ليلةً ثمّ رجع، واللهِ ليرجِعَنَّ رسولُ الله، ولأُقطِّعنّ أيديَ رجالٍ وأرجلَهم يزعُمون أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مات». ولم يزل يكرِّرُ ذلك إلى أن قام أبو بكر رضي الله عنه[3] فحمِد الله عزّ وجلّ[4] وأثنى عليه، ثمّ قال: «أيّها الناسُ؛ مَن كان يعبُد محمّدًا فإنّ محمّدًا قد مات، ومَن كان يعبُد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت»، ثمّ تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ الآية، قال الراوي: «واللهِ لكأنّ الناسَ لم يعلموا أنّ هذه الآيةَ نزلت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى تلاها أبو بكر». وقال عمرُ رضي الله عنه: «واللهِ ما هو إلّا أن سمعتُ أبا بكر رضي الله عنه يتلو فعَقِرتُ[5] حتّى ما يحمِلُني رجلاي، وعرفتُ أنّ رسولَ الله مات صلّى الله عليه وسلّم».[6]

---

١ ي: إكرامًا.

٢ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٧/٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٢٣/١.

٣ ط: عنهما.

٤ ي: تعالى.

٥ وفي هامش ط س ي: العَقَر: أن يفجأه الرّوع فيَدهش، ولا يستطيع أن يتقدّم أو[1] يتأخّر. [2] «منه». | [1] هامش ي - أو. [2] هامش ي: ويتأخّر. | النهاية لابن الأثير، «عقر».

٦ انظر: تفسير ابن المنذر، ٤٠٩/١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٧٨/٣. وأصل القصّة في صحيح البخاري، ١٣/٦ (٤٤٥٤).

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ بإدباره عمّا كان يُقبل عليه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم مِن أمر الجهادِ وغيرِه. وقيل: بارتداده عن الإسلامِ، وما ارتدّ يومئذ أحدٌ مِن المسلمين إلّا ما كان مِن المنافقين. ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ﴾ بما فعل مِن الانقلاب ﴿شَيْـًٔا﴾ أي: شيئًا مِن الضَّرر، وإنّما يضُرُّ نفسَه بتعريضها للسخط والعذاب.

﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: الثابتين على دين الإسلامِ الذي هو أجَلُّ نعمةٍ وأعزُّ معروفٍ. سُمّوا بذلك لأنّ الثبات عليه شكرٌ له وعِرفانٌ لحقّه.[١] وفيه إيماء إلى كُفران المنقلبين. ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ[٢] المراد بهم: الطائعون لله تعالى مِن المهاجرين والأنصارِ.[٣] وعن عليّ رضي الله عنه: أبو بكرٍ وأصحابُه.[٤] وعنه رضي الله عنه أنّه[٥] قال: «أبو بكر مِن الشاكرين، ومِن أحبّاء الله تعالى».[٦] وإظهارُ الاسمِ الجليل في موقع الإضمار لإبراز مزيدِ الاعتناءِ بشأن جزائِهم.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ﴾ كلام مستأنَف سيق للتنبيه على خطئهم فيما فعلوا حذَرًا مِن قتلهم، وبناءً على الإرجاف بقتله صلّى الله عليه وسلّم ببيان أنّ موت كلّ نفسٍ مَنوطٌ بمشيئة الله عزّ وجلّ، لا يكاد يقع بدون تعلّقها به، وإن خوّضت مواردَ الحتوف،[٧] واقتحمتَ مضائقَ كلِّ هائلٍ مَخُوف. وقد أُشيرَ بذلك إلى أنّها لم تكن متعلِّقةً بموتهم في الوقت الذي حذِروه فيه؛ ولذلك لم يُقتلوا حينئذ، لا لإحجامهم عن مباشرة القتالِ. وكلمة ﴿كَانَ﴾ ناقصةٌ، اسمها ﴿أَن تَمُوتَ﴾، وخبرها الظرفُ على أنّه متعلّق بمحذوف.

---

١ وفي هامش ط س ي: في القاموس: الشكر: عِرفان الإحسان ونشره. «منه». | القاموس المحيط للفيروزابادي، «شكر».

٢ ي: كان.

٣ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٠٠/١؛ التفسير البسيط للواحدي، ٤١/٦.

٤ جامع البيان للطبري، ٩٧/٦؛ اللباب لابن عادل، ٥٧٤/٥؛ الدرّ المنثور للسيوطي، ٣٣٨/٢.

٥ ي – أنه.

٦ تفسير الرازي، ٣٧٧/٩. وهو في جامع البيان للطبري، ٩٧/٦، بلفظ: «كان أبو بكر أمينَ الشاكرين، وأمين أحبّاء الله».

٧ ي: الحقوف.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمِّ الأسباب، أي: وما كان[١] الموتُ حاصلًا لنفس مِن النفوس بسببٍ مِن الأسباب إلّا بمشيئته تعالى، على أنّ "الإذنَ" مَجاز منها لكونها مِن لوازمه. أو إلّا بإذنه لمَلَك[٢] الموتِ في قبض روحِها. وسَوْق الكلام مَساقَ التمثيل -بتصوير الموت بالنسبة إلى النّفوس بصورة الأفعالِ الاختياريّةِ التي لا يتسنّى للفاعل إيقاعُها والإقدامُ عليها بدون إذنه تعالى، أو بتنزيل إقدامِها على مَبادِيه -أعني: القتالَ- منزلةَ الإقدام على نفسه- للمبالغة في تحقيق المرام؛ فإنّ موتها حيث استحال وقوعُه عند إقدامِها عليه أو على مباديه وسعْيِها في إيقاعه، فلَأَنْ يستحيلَ عند عدمِ ذلك أولى وأظهر. وفيه مِن التحريض على القتال ما لا يخفى.

﴿كِتَٰبًا﴾ مصدَر مؤكِّد لمَضمون ما قبله، أي: كتَبه الله كتابًا ﴿مُّؤَجَّلًا﴾ مؤقّتًا بوقت معلوم لا يتقدَّم ولا يتأخَّر ولو ساعةً. وقُرئ: "مُوَجَّلًا"[٣] بالواو بدلَ الهمزةِ على قياس التخفيف.

وبعد تحقيقِ أنّ مدار الموت والحياةِ محضُ مشيئةِ الله عزّ وجلّ مِن غير
[١١٢و] أن يكون فيه مدخلٌ لأحدٍ أصلًا / أشير إلى أنّ توفية ثمراتِ الأعمالِ دائرةٌ على إرادتهم؛ ليصرِفوها عن[٤] الأغراض الدنيئةِ إلى المطالب السنيّة، فقيل: ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ أي: بعمله ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ﴾ بنون العظمةِ على طريق الالتفات ﴿مِنْهَا﴾ أي: مِن ثوابها ما نشاء أن نؤتيَه إيّاه، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء، ١٧/١٨]، وهو تعريض بمَن شغلتهم الغنائمُ يومئذ، وقد مرّ تفصيله.

﴿وَمَن يُرِدْ﴾ أي: بعمله ﴿ثَوَابَ ٱلْأَخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: مِن ثوابها ما نشاء مِن الأضعاف حسبما جرى به الوعدُ الكريمُ. ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ نعمةَ الإسلامِ، الثابتين عليه، الصارفين لِما آتاهم الله تعالى مِن القُوى والقُدَر إلى ما خُلِقت

---

١ ط: كانت.

٢ ي: يملك.

٣ قرأ بها أبو جعفر وورش عن نافع. النشر لابن الجزري، ١/٣٩٥.

٤ ي: مِن.

هي لأجله مِن طاعة الله عزّ وجلّ، لا يَلْويهم عن ذلك صارفٌ أصلًا. والمراد بهم إمّا المجاهدون المعهودون مِن الشهداءِ وغيرهم، وإمّا جنسُ الشاكرين، وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًّا. والجملة اعتراض مقرّر لمضمون ما قبله، ووعدٌ بالمزيد عليه. وفي تصديرها بالسين وإبهامِ الجزاءِ مِن التأكيد والدلالة على فَخامة شأنِ الجزاءِ وكونِه بحيث يقصُر عنه البيانُ ما لا يخفى. وقُرئ الأفعالُ الثلاثةُ بالياء.[١]

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾

﴿وَكَأَيِّن﴾ كلامٌ مبتدأ ناعٍ عليهم تقصيرَهم وسوءَ صنيعِهم في صدودهم عن سَنَن الربّانيّين المجاهدين في سبيل الله تعالى[٢] مع الرسل الخالية عليهم السلام.

و﴿كَأَيِّن﴾ لفظة مركّبة مِن كاف التشبيهِ و"أيّ"، حدث فيها بعد التركيب معنى التكثيرِ، كما حدث في "كذا وكذا". والنون تنوين أُثبتت في الخطّ على غير قياسٍ. وفيها خمسُ لغاتٍ: هي إحداهنّ. والثانية: "كَائِنْ" مثلُ: كاعِن.[٣] والثالثة: "كَأْيِنْ" مثل: كَعْيِن.[٤] والرابعة: "كَيْئِنْ"[٥] بياء ساكنة بعدَها همزة مكسورة، وهي قلبُ ما قبلها. والخامسة: "كَإِنْ" مثل: كَعِن.[٦] وقد قُرئ بكلّ منها. ومحلُّها الرفعُ بالابتداء، وقوله تعالى: ﴿مِن نَّبِيٍّ﴾ تمييز لها؛ لأنّها مثلُ "كم" الخبريّة، وقد جاء تمييزُها منصوبًا، كما في قوله:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢١.

٢ س ي – تعالى.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو جعفر، إلّا أنّ أبا جعفر يقرأ بتسهيل الهمزة مع المدّ والقصر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن والأشهَب والأعمش. انظر: المحتسب لابن جنّي، ١/١٧١؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢١.

٥ ط: كَيِأن. | قراءة شاذّة، نسبها أبو حيّان إلى بعض القرّاء في الشواذّ. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٣٦٨؛ والمحرّر الوجيز لابن عطيّة، ١/٥١٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن أيضًا، حكاها عنه أبو عمرو الداني. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ١/٥١٩.

اطــرُد الـيــأسَ بـالـرَّجـا فـكـأيِّـن آمِــلًا[١] حُــمَّ[٢] يـسـرُه بـعـد عُـسـرِ[٣]

وقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ﴾ خبر لها على أنّ الفعل مسندٌ إلى الظاهر، والرابطُ هو الضمير المجرور في ﴿مَعَهُۥ﴾. وقُرئ: "قُتِلَ"[٤] و"قُتِّلَ"[٥] على صيغة المبنيّ للمفعول مخفّفةً ومشدّدةً. و"الرِّبِّيُّ": منسوب إلى الرَّبّ، كالرَّبانيّ، وكسرُ الراء مِن تغييرات النَّسبِ. وقُرئ بضمّها،[٦] وبفتحها أيضًا على الأصل.[٧] وقيل: هو منسوب إلى الرِّبّة؛ وهي الجماعة. أي: كثيرٌ مِن الأنبياء قاتلَ معه لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينِه علماءُ أتقياءُ أو عابدون أو جماعاتٌ كثيرة. فالظرف متعلِّق بـ﴿قَٰتَلَ﴾، أو بمحذوف وقع حالًا مِن فاعله، كما في القراءتين الأخيرتين؛ إذ لا احتمالَ فيهما لتعلّقه بالفعل، أي: قُتِلوا أو قُتِّلوا كائنين معه في القتال لا في القَتل. قال سعيد بن جُبير رضي الله عنه:[٨] «ما سمعنا بنبيّ قُتِل في القتال».[٩] وقال الحسنُ البصري وجماعةٌ مِن العظماء: «لم يقتَلْ نبيّ في حربٍ قطُّ».[١٠]

وقيل: الفعل مسنَد إلى ضمير النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، والظرف متعلِّق بمحذوف وقع حالًا منه، والرابط هو الضمير المجرور الراجع إليه. وهذا واضح على القراءة المشهورة بلا خلاف، أي: كم مِن نبيّ قاتلَ كائنًا معه في القتال رِبّيّون كثير. وأمّا على القراءتين الأخيرتين فغيرُ ظاهر، لا سيّما على قراءة التشديد،

---

١ كذا في الأصول الخطّيّة، وفي مغني اللبيب وشرحي البغدادي والسيوطي: "آلِمًا"، وقالا: "آلِمًا": بالمدّ، اسم فاعل مِن "ألِم يألَم". انظر: مغني اللبيب لابن هشام، ص ٢٤٧؛ وشرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي، ١٦٧/٤؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ٥١٣/٢.

٢ وفي هامش ط ي: أي: قُدِّر. «منه».

٣ قال العيني: لم يُسمّ قائله. و"اليأس" القنوط. و"حُمّ": قُدِّر، بالبناء للمفعول. انظر: شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي، ١٦٧/٤؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ٥١٣/٢.

٤ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٤٢/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن مسعود وابن عبّاس وعكرمة والحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٢.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٢.

٨ ي - رضي الله عنه؛ ي + آخر.

٩ الكشّاف للزمخشري، ٤٢٤/١؛ اللباب لابن عادل، ٥٨٨/٥.

١٠ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٥٢٠/١؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٧/٤ (الصافات، ١٧١/٣٧).

وقد جوّزه بعضُهم، وأيّده بأنّ مدار التوبيخِ انخذالُهم للإرجاف بقتله صلّى الله عليه وسلّم، أي: كم مِن نبيّ قُتِل كائنًا معه في القتل أو في القتال رِبِّيّون... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾ عطفٌ على ﴿قَٰتَلَ﴾ على أنّ المراد به عدمُ الوهن المتوقَّع مِن القتال، كما في قولك: وعظتُه فلم يتَّعِظْ، وصِحْتُ به فلم ينزجِر، فإنّ الإتيان بالشيء بعد ورود ما يوجب الإقلاعَ عنه[1] وإن كان استمرارًا[2] عليه بحسب الظاهر؛ لكنّه بحسب الحقيقة صنعٌ جديد مصحِّح لدخول الفاء المرتِّبة له على ما قبله،[3] أي: فما فتَروا وما انكسرت هِمَّتُهم ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾ في أثناء القتالِ، وهو علّة للمنفيّ دون النفي. نعم يُشعِرُ بعِلّته قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فإنّ كون ذلك في سبيله عزّ وجلّ ممّا يقوِّي قلوبَهم ويُزيلُ وهَنَهم.

و﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة، فإن جُعِل الضميران لجميع الرِّبِّيّين فهي عبارة عمّا عدا القتل مِن الجراح وسائرِ المكارِه المعتريةِ للكلّ، وإن جعلا للبعض الباقين بعد ما قُتل الآخَرون كما هو الأنسب بمقام توبيخِ المنخذِلين بعد ما استُشهد الشهداءُ فهي عبارة عمّا ذُكر مع ما اعتراهم مِن قتل إخوانهم مِن الخوف والحُزْن وغير ذلك. هذا على القراءة المشهورة، وأمّا على القراءتين الأخيرتين: فإن أُسنِدَ الفعلُ[4] إلى الرِّبِّيّين فالضميران للباقين منهم حتمًا، وإن أُسند إلى ضمير النبيّ صلّى الله عليه وسلّم -كما هو الأنسبُ بالتوبيخ على الانخذال بسبب الإرجاف بقتله صلّى الله عليه وسلّم- فهما للباقين أيضًا إن اعتُبر كونُ الرِّبِّيّين مع النبيّ في القتل، وللجميع إن اعتُبر كونُهم معه في القتال.

﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾ عن العدوّ. وقيل: عن الجهاد. وقيل: في الدِّين. ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ أي: وما خضَعوا[5] للعدوّ. وأصلُه: استكَنَ مِن السكون؛ لأنّ الخاضع يسكُن لصاحبه ليفعلَ به ما يريدُه، والألِفُ مِن إشباع الفتحة. أو استكْوَن مِن الكَون؛ لأنّه يطلب أن يكون لمَن يخضَع له. وهذا تعريض بما أصابهم مِن الوهن والانكسارِ

---

[1] ي: منه.

[2] ي: استمرار.

[3] وفي هامش ط س ي: ألا يُرى أنّه أقوى مِن الأوّل. «منه».

[4] وفي هامش ط ي: أي: "قُتِل". «منه».

[5] ي: وما ضعفوا.

عند استيلاء الكفرةِ عليهم والإرجافِ بقتل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وبضَعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين، واستكانتِهم لهم حين أرادوا أن يعتضِدوا بابن أُبيّ المنافِق في طلب الأمان مِن أبي سفيان.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: على مقاساة الشدائدِ ومعاناةِ المكارِه في سبيل الله فينصُرهم ويُعظّم قدرَهم. والمراد بـ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ إمّا المعهودون، والإظهارُ في موضع الإضمار للثناء / عليهم بحسن الصبرِ والإشعارِ بعلّة الحُكم، وإمّا الجنسُ وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًا. والجملة تذييل لِما قبلها. [١١٢ظ]

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ كلام مبيّن لمحاسنهم القوليّة، معطوف على ما قبله مِن الجُمل المبيّنة لمحاسنهم الفعليّة. و﴿قَوْلَهُمْ﴾ بالنصب خبر لـ﴿كَانَ﴾، واسمُها ﴿أَن﴾ وما بعدها في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾. والاستثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأشياء، أي: ما كان قولًا لهم عند لقاء العدوِّ واقتحامِ مضايق الحرابِ وإصابةِ ما أصابهم مِن فنون الشدائد والأهوال شيءٌ مِن الأشياء إلّا أن قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: صغائرَنا ﴿وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ أي: تجاوزَنا الحدَّ في ركوب الكبائرِ.

أضافوا الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربّانيّين بُرَآءَ مِن التفريط في جَنب الله تعالى هَضمًا لها، واستقصارًا لهِمَمهم، وإسنادًا لِما أصابهم إلى أعمالهم. وقدّموا الدعاء بمغفرتها على ما هو الأهمُّ بحسب الحال مِن الدعاء بقولهم: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي: في مواطن الحربِ بالتقوية والتأييدِ مِن عندك، أو ثبّتنا على دينك الحقِّ، ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ تقريبًا له إلى حيّز القَبول؛ فإنّ الدعاء المَقرونَ بالخضوع، الصادرَ عن زكاءٍ وطهارةٍ أقربُ إلى الاستجابة. والمعنى: لم يزالوا مواظِبين على هذا الدعاءِ مِن غير أن يصدُرَ عنهم قول يوهم شائبةَ الجزَعِ والخَوَرِ[١] والتزلزُلِ في مواقف الحربِ ومراصدِ الدِّين.

---

١ ي: والخوار.

وفيه مِن التعريض بالمُنهزمين ما لا يخفى.

وقرأ ابن كثير[١] وعاصم في رواية عنهما برفع "قَوْلُهُمْ"[٢] على أنّه الاسمُ، والخبرُ ﴿أَن﴾ وما في حيّزها، أي: ما كان قولهم حينئذ شيئًا مِن الأشياء إلّا هذا القولَ المُنبئَ عن أحاسنِ المحاسنِ. وهذا كما ترى أقعدُ بحسب المعنى، وأوفق بمقتضى المقام؛ لِما أنّ الإخبار بكون قولِهم المطلَقِ خصوصيّةَ قولِهم المحكيِّ عنهم مفصّلًا -كما تفيده قراءتهما- أكثرُ إفادةً للسامع مِن الإخبار بكون خصوصيّةِ قولِهم المذكورِ قولَهم؛ لِما أنّ مَصبّ الفائدةِ وموقِعَ البيانِ في الجمل الخبريّة هو الخبر، فالأحقُّ بالخبريّة ما هو أكثرُ إفادةً، وأظهرُ دلالةً على الحدَث،[٣] وأوفرُ اشتمالًا على نِسَب خاصّةٍ بعيدةٍ مِن الوقوع في الخارج وفي ذهن السامعِ. ولا يخفى أنّ ذلك ههنا في ﴿أَن﴾ مع ما في حيّزها أتمُّ وأكملُ.

وأمّا ما يفيده الإضافةُ مِن النسبة المطلقة الإجماليّة فحيث كانت سهلةَ الحصولِ خارجًا وذِهنًا كان حقُّها أن تلاحَظَ ملاحظةً إجماليّةً وتُجعَلَ عنوانًا للموضوع، لا مقصودًا بالذات في باب البيانِ. وإنّما اختار الجمهور ما اختاروه لقاعدة صناعيّةٍ[٤] هي أنّه إذا اجتمع معرفتان فالأعرفُ منهما أحقُّ بالاسميّة، ولا ريب في أعرفيّة ﴿أَن قَالُواْ﴾ لدلالته على جهة النسبة وزمان الحدَث، ولأنّه يشبه المضمَرَ مِن حيث إنّه[٥] لا يوصَف ولا يوصَف به، و﴿قَوْلَهُمْ﴾ مضافٌ إلى مضمَر، فهو بمنزلة العَلَم، فتأمّل.[٦]

---

[١] هو عبد الله بن كثير المكّي الداري، أبو معبد (ت. ١٢٠هـ/٧٣٨م). والدار بطن مِن لَخم، وهو مولى عمرو بن علقمة الكِناني، كان عطّارًا بمكّة، وهو مِن أبناء فارس. أحد القرّاء السبعة. كان ورعًا زاهدًا. قال ابن مجاهد: ولم يزل عبد الله هو الإمام المجتمع عليه في القراءة بمكّة حتى مات. انظر: **غاية النهاية** لابن الجزري، ٤٤٣/١؛ **ومعرفة القرّاء** للذهبي، ص ٤٩؛ **والأعلام** للزركلي، ١١٥/٤.

[٢] رواية شاذّة عنهما، وعزاها الكرماني إلى الحسَن وابن أبي إسحاق. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٢٢؛ **والمحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ٥٢٢/١.

[٣] ي: الحدوث.

[٤] هذا توجيه قراءة الجمهور مِن حيث اللغة، والأصل في الاختيار عندهم ثبوت القراءة مِن حيث الرواية.

[٥] ط + لا يضمر.

[٦] ط - فتأمّل.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ بسبب دعائهم ذلك ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: النصرَ والغنيمةَ والعِزَّ والذِّكرَ الجميلَ، ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: وثوابَ الآخرة الحسَنَ، وهو الجنّة والنَّعيم المخلَّد. وتخصيص وصفِ "الحُسن" به للإيذان بفضله ومزيّته، وأنّه المعتدُّ به عنده تعالى.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تذيِيل مقرِّر لمضمون ما قبله؛ فإنّ محبّة الله تعالى للعبد عبارةٌ عن رضاه عنه، وإرادةِ الخيرِ به. فهي مبدأ لكلّ سعادة. واللام إمّا للعهد، وإنّما وُضع المُظهَر موضِعَ ضميرِ المعهودين للإشعار بأنّ ما حُكيَ عنهم مِن الأفعال والأقوال مِن باب الإحسان. وإمّا للجنس، وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًا، وهذا أنسبُ بمقام ترغيب المؤمنين في تحصيل ما حُكي عنهم مِن المناقب الجليلة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ شروع في زجرهم عن متابعة الكفّار ببيان استتباعها لخسران الدنيا والآخرة إثرَ ترغيبهم في الاقتداء بأنصار الأنبياء عليهم السلام ببيان إفضائه إلى فوزهم بسعادة الدارين. وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه لإظهار الاعتناء بما في حيّزه. ووصفُهم بالإيمان لتذكير حالهم وتثبيتهم عليها بإظهار مباينتها لحال أعدائهم، كما أنّ وصف المنافقين بالكفر في قوله تعالى: ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لذلك؛ قصدًا إلى مزيد التنفير عنهم والتحذيرِ مِن طاعتهم. قال عليّ رضي الله عنه: «نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجِعوا إلى إخوانكم وادخُلوا في دينهم».[١]

فوقوعُ قوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ جوابًا للشرط -مع كونه في قوّة أن يقال: إن تُطيعوهم في قولهم: ارجِعوا إلى إخوانكم، وادخُلوا في دينهم

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١/٤٢٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤٢.

يُدخِلوكم في دينهم- باعتبار كونه تمهيدًا لقوله تعالى: ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ أي: للدنيا والآخرة غيرَ فائزين بشيء منهما واقعين[١] في العذاب الخالد، على أنّ الارتداد على العقِب عَلَمٌ في انتكاس الأمرِ، ومَثَل في الحَور بعد الكَور.[٢]

وقيل:[٣] المراد بهم اليهودُ والنّصارى حيث كانوا يستغْوونَهم ويُوقِعون لهم الشُّبَه في الدِّين، ويقولون: لو كان نبيًا حقًّا لَمَا غُلب، ولَمَا أصابه وأصحابَه ما أصابهم، وإنّما هو رجل حالُه كحال غيرِه مِن الناس يومًا عليه ويومًا له. وقيل: أبو سفيان وأصحابه، والمراد بطاعتهم استئمانُهم والاستكانةُ لهم. وقيل: الموصولُ على عمومه، والمعنى: نهيُ المؤمنين عن طاعتهم في أمرٍ مِن الأمور حتّى لا يستجرّوهم إلى الارتداد عن الدين، فلا حاجةَ على هذه التقادير إلى ما مرّ مِن البيان.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ إضراب عمّا يُفهم مِن مضمون الشرطيّة، كأنّه قيل: فليسوا أنصارَكم حتّى تطيعوهم؛ بل الله ناصرُكم لا غيرُه، فأطيعوه واستغنوا به عن مُوالاتهم.[٤] وقُرئ بالنصب،[٥] كأنّه قيل: فلا تطيعوهم؛ بل أطيعوا الله. و﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ نصب على أنّه صفة له. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ فخُصّوه بالطاعة / والاستعانة. [١١٣و]

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾

﴿سَنُلْقِي﴾ بنون العظَمة على طريقة الالتفات جريًا على سَنَن الكبرياءِ لتربية المَهابة. وقُرئ بالياء.[٦] والسينُ لتأكيد الإلقاء. ﴿فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾

---

[١] ط: واقفين.

[٢] وفي هامش ي أ: أي: في الشرّ بعد الخير، والنّقصان بعد الزّيادة. «منه».

[٣] وفي هامش ط: ابن عبّاس رضي الله عنهما «منه». | لم أجده عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، وهو عن الحسَن في الكشّاف للزمخشري، ١/٤٢٥؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٥٧٥.

[٤] ي: مولاتهم.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن النخعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٢.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن أيّوب السّختياني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٢.

بسكون العين، وقُرئ بضمّها على الأصل.[١] وهو ما قُذف في قلوبهم مِن الخوف يوم أُحُد حتّى تركوا القتال ورجعوا مِن غير سبب، ولهم القوّةُ والغلبة. وقيل: ذهبوا إلى مكّةَ، فلمّا كانوا ببعض الطريق قالوا: ما صنعنا شيئًا، قتلنا منهم ثمّ تركناهم ونحن قاهرون، ارجِعوا فاستأصِلوهم، فعند ذلك ألقى الله تعالى في قلوبهم الرُّعب، فأمسكوا. فلا بدّ مِن كون نزول الآيةِ في تضاعيف الحرابِ[٢] أو عَقيب انقضائِه.[٣] وقيل: هو ما أُلقيَ في قلوبهم مِن الرُّعب يومَ الأحزاب.

﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ متعلِّق بـ﴿نُلْقِي﴾ دون ﴿ٱلرُّعْبَ﴾، و﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: بسبب إشراكهم به تعالى، فإنّه مِن موجبات خِذْلانهم ونصرِ المؤمنين عليهم، وكلاهما مِن دواعي الرُّعب. ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ أي: بإشراكه ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجّةً، سمِّيت به لوضوحها وإنارتها، أو لقوّتها، أو لحِدّتها ونفوذِها. وذكرُ عدمِ تنزيلِها مع استحالة تحقّقِها في نفسها مِن قبيل قوله:

ولا ترى الضبَّ بها ينجحِرْ[٤]

أي: لا ضبَّ ولا انجحارَ. وفيه إيذان بأنّ المتّبع في الباب هو البرهان السماويّ، دون الآراءِ والأهواءِ الباطلة.

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾ بيان لأحوالهم في الآخرة إثرَ بيان أحوالِهم في الدنيا، وهي الرُّعب، أي: ما يأوُون إليه في الآخرة. ﴿ٱلنَّارُ﴾ لا ملجأَ لهم غيرَها.

﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: مثواهم، وإنّما وُضع مَوضعَه المُظهَر المذكور[٥] للتغليظ والتعليل والإشعارِ بأنّهم في إشراكهم ظالمون واضعون للشيء في غير موضعِه. والمخصوص بالذمّ محذوف، أي: بئس مثوى الظالمين النارُ،

---

١ قرأ بها ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٦.

٢ وفي هامش ط: على الأوّل. «منه».

٣ وفي هامش ط: على الثاني. «منه».

٤ وفي هامش ي: أوّله:
لا يفزع الأرنبَ أهوالُها
يصف مفازة خاليةً عن الحيوانات، أي: ليس لها أرنب ليُفزعه أهوالها، ولا ضبّ يدخل الجُحر «منه». | لابن أحمر في أساس البلاغة للزمخشري، ص ٢٥٤.

٥ ي: للمذكور.

وفي جعلها مثواهم بعد جعلِها مأواهم نوعُ رمزٍ إلى خلودهم فيها، فإنّ المثوى مكانُ الإقامة المُنبئة عن المُكث. وأمّا المَأوى فهو المكان الذي يأوي إليه الإنسان.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ نصب على أنّه مفعول ثانٍ لـ"صَدَق" صريحًا. وقيل بنزع الجارّ، أي: في وعده. نزلت حين قال ناس مِن المؤمنين عند رجوعهم إلى المدينة: مِن أين أصابنا هذا وقد وعَدنا الله تعالى بالنصر؟ وهو ما وعدهم على لسان نبيّه صلّى الله عليه وسلّم مِن النصر حيث قال للرماة: «لا تبرَحوا مكانكم، فلن نزال غالبين ما ثبتُّم مكانكم».[١] وفي رواية أخرى: «لا تبرَحوا عن هذا المكان، فإنّا لا نزال غالبين ما دمتم في هذا المكان»،[٢] وقد كان كذلك،[٣] فإنّ المشركين لمّا أقبلوا جعل الرماةُ يرشُقونهم والباقون يضرِبونهم[٤] بالسيوف حتّى انهزموا والمسلمون على آثارهم يقتُلونهم قتلًا ذريعًا، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أي: تقتُلونهم قتلًا كثيرًا فاشيًا، مِن "حَسَّه" إذا أبطل حِسَّه. وهو ظرف لـ﴿صَدَقَكُمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بتيسيره وتوفيقِه لتحقيق أنّ قتلهم بما وعدهم الله تعالى مِن النصر. وقيل: هو ما وعدهم بقوله تعالى: ﴿إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ الآية،[٥] وقد مرّ تحقيقُ أنّ ذلك كان يومَ بدر، كيف لا والموعودُ بما ذكر إمدادُه عزّ وجلّ بإنزال الملائكة عليهم السلام، وتقييدُ صدقِ وعدِه تعالى بوقت قتلِهم بإذنه تعالى صريح[٦] في أنّ الموعود هو النصر المعنويّ والتيسير، لا الإمدادُ بالملائكة؟

---

١ جامع البيان للطبري، ١٢٩/٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٣/٣.
٢ اللباب لابن عادل، ٥٩٨/٥، وهو بمعنى ما قبله.
٣ ي: ذلك.
٤ ي: ويضربونهم.
٥ آل عمران، ١٢٥/٣.
٦ ي: صريحًا.

وقيل: هو ما وعده[١] تعالى بقوله: ﴿سَنُلْقِي﴾... إلخ.[٢] وأنت خبير بأنّ إلقاء الرُّعب كان عند تركهم القتالَ ورجوعِهم مِن غير سبب، أو بعد ذلك في الطريق، على اختلاف الروايتين.[٣]

وأيًّا ما كان فلا سبيل إلى كونه مُغيًّى بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ﴾ أي: جَبُنتم وضعُف رأيُكم، أو مِلتم إلى الغنيمة؛ فإنّ الحِرص مِن ضعف القلب. ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ فقال بعضُ الرُّماةِ حين انهزم المشركون وولّوا هاربين والمسلمون على أعقابهم قتلًا وضربًا: فما موقفُنا ههنا بعد هذا؟ وقال أميرهم عبد الله بن جبيرٍ رضي الله عنه: لا نخالف أمرَ الرسول صلّى الله عليه وسلّم فثبَت مكانه في نفر دون العشرةِ مِن أصحابه، ونفَرَ الباقون للنّهب،[٤] وذلك قوله تعالى: ﴿وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ أي: مِن الظَّفَر والغنيمةِ وانهزامِ العدوّ، فلمّا رأى المشركون ذلك حَملوا عليهم مِن قِبَل الشِّعب وقتلوا أميرَ الرُّماةِ ومَن معه مِن أصحابه، حسبما فُصِّل في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾.[٥]

وجوابُ ﴿إِذَا﴾ محذوف، وهو "مَنَعكم نصرَه"، وقيل: هو "امتَحنكم". ويردُّه جعلُ الابتلاء غايةً للصَّرف المترتِّب على منع النصر. وقيل: هو: "انقسمتم إلى قسمين" كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾ وهم الذين تركوا المركزَ وأقبلوا على النَّهب. ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ وهم الذين ثبتوا مكانَهم حتّى نالوا شرف الشهادة. هذا على تقدير كونِ ﴿إِذَا﴾ شرطيّةً و﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائيّةً داخلةً على الجملة الشرطيّة.

وقيل: ﴿إِذَا﴾ اسم كما في قولهم: إذا يقوم زيد إذا يقوم عمرو، و﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف جرٍّ بمعنى "إلى" متعلِّقة بقوله تعالى: ﴿صَدَقَكُمُ﴾ باعتبار تضمُّنِه لمعنى النصرِ، كأنّه قيل: لقد نصركم الله إلى وقت فشلِكم وتنازُعِكم... إلخ. وعلى هذا فقوله تعالى:

---

١ ط + الله.
٢ في الآية السابقة.
٣ انظر تفسير الآية السابقة.
٤ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣/٢. وهو بمعناه في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٧/١.
٥ آل عمران، ١٤٤/٣.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ عطف على ذلك. وعلى الأوّل عطف على الجواب المحذوف كما أشير إليه، والجملتان الظرفيّتان اعتراض بين المتعاطفَين، أي: كفّكم عنهم حتّى حالت الحالُ ودالت الدّولةُ. وفيه مِن اللطف بالمسلمين ما لا يخفى.

﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي: يعاملَكم معاملةَ مَن يَمتحنكم بالمصائب ليَظهرَ ثباتُكم على الإيمان عندها. ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ تفضلًا، ولِما علم مِن ندمكم على المخالفة.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تذييل مقرّر لمضمون ما قبله، ومُؤذِنٌ بأنّ ذلك العفو بطريق التفضّل والإحسان، لا بطريق الوجوب عليه، أي: شأنُه أن يتفضّلَ عليهم بالعفو، أو هو متفضِّل عليهم في جميع الأحوال، أُديلَ لهم أو أُديلَ عليهم، إذ الابتلاء أيضًا رحمة. والتنكير للتفخيم. والمراد بـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إمّا المخاطبون، والإظهارُ في موقع الإضمارِ للتشريفِ والإشعارِ بعلّة الحُكم، / وإمّا الجنس وهم داخِلون في الحُكم دخولًا أوّليًا. [١١٣ظ]

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ متعلِّق بـ﴿صَرَفَكُمْ﴾،[١] أو بقوله تعالى: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾،[٢] أو بمقدّر كـ"اذكروا". والإصعاد: الذهابُ والإبعادُ في الأرض. وقُرئ: "تَصْعَدُونَ"[٣] مِن الثلاثيّ، أي: في الجبل. وقُرئ: "تَصَعَّدُونَ"[٤] مِن التفعّل بطرح إحدى التاءين. وقُرئ: "يَصْعَدُونَ"[٥] بالالتفات إلى الغيبة. ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي: لا تلتفتون إلى ما وراءكم، ولا يقف واحدٌ منكم لواحد. وقُرئ: "تَلُونَ"[٦] بواوٍ واحدةٍ بقلب الواو المضمومةِ همزةً وحذفِها تخفيفًا. وقُرئ: "يَلْوُونَ"[٧] كـ"يَصْعَدُونَ".

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن نوح القاري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن وابن كثير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٣.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن وابن كثير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٣.

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ﴾ كان صلّى الله عليه وسلّم يدعوهم: «إليَّ عبادَ الله، إليَّ عبادَ الله، أنا رسولُ الله، مَن يكرُّ فله الجنّةُ».[1] وإيراده عليه السلام بعنوان الرسالة للإيذان بأنّ دعوته عليه السلام كانت بطريق الرسالة مِن جهته سبحانه إشباعًا في توبيخ المُنهزمين. ﴿فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ في ساقتكم[2] وجماعتِكم الأخرى.

﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ عطفٌ على ﴿صَرَفَكُمۡ﴾، أي: فجازاكم الله تعالى بما صنعتم ﴿غَمَّۢا﴾ موصولًا ﴿بِغَمّٖ﴾ مِن الاغتمام بالقَتل والجَرْحِ وظَفَرِ المشركين والإرجافِ بقَتل الرسولِ صلّى الله عليه وسلّم وفَوْتِ الغنيمة، فالتنكيرُ للتكثير. أو غمًّا بمقابلة غَمّ أذَقتموه رسولَ الله عليه السلام[3] بعِصيانكم له. ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ أي: لتتمرَّنوا على الصبر في الشدائد، فلا تحزَنوا على نفعٍ فاتَ أو ضُرٍّ آتٍ. وقيل: "لا" زائدة، والمعنى: لتتأسّفوا على ما فاتكم مِن الظَّفَر والغنيمة، وعلى ما أصابكم مِن الجراح والهزيمةِ عقوبةً لكم.

وقيل: الضميرُ في "أثابَكم" للرسول صلّى الله عليه وسلّم، أي: واساكم في الاغتمام، فاغتمّ بما نزل عليكم كما اغتمَمتم بما نزل عليه، ولم يُثرِّبْكم[4] على عِصيانكم تسليةً لكم وتنفيسًا[5] عنكم؛ لئلّا تحزنوا على ما فاتكم مِن النصر، وما أصابكم مِن الجِراح وغيرِ ذلك. ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: عالمٌ بأعمالكم وبما قصدتم بها.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ١/٤٢٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤٣. وأوّله في جامع البيان للطبري، ٦/١٤٦.

[2] ساقة الجيش: مؤخّره. الصحاح للجوهري، «سوق».

[3] ي: صلّى الله عليه وسلّم.

[4] التثريب: التّعيير والاستقصاء في اللّوم. الصحاح للجوهري، «ثرب».

[5] ي: وتنصيصًا.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾.[١] والخطاب للمؤمنين حقًّا. ﴿مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ أي: الغمِّ المذكور. والتصريح بتأخُّر الإنزال عنه مع دلالة ﴿ثُمَّ﴾ عليه وعلى تراخيه عنه لزيادة البيان، وتذكيرِ عِظَم النعمة، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ﴾ الآيةَ [النحل، ١١٩/١٦].

﴿أَمَنَةً﴾ أي: أمْنًا، نصب[٢] على المفعوليّة. وقوله تعالى: ﴿نُّعَاسًا﴾ بدل منها، أو عطفُ بيانٍ، وقيل: مفعول له،[٣] أو هو المفعول، و﴿أَمَنَةً﴾ حال منه متقدّمة عليه، أو مفعول له، أو حال مِن المخاطَبين على تقدير مضاف، أي: ذوي أمَنةٍ، أو على أنّه جمعُ "آمِن"، كـ"بارّ وبرَرَة". وقُرئ بسكون الميم،[٤] كأنّها مَرّة مِن الأمْن. وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لِما مرّ غيرَ مرّةٍ مِن الاعتناء بشأن المقدَّم، والتشويقِ إلى المؤخَّر. وتخصيص الخوفِ مِن بين فنون الغمّ بالإزالة لأنّه المهمُّ عندهم حينئذ؛ لِما أنّ المشركين لمّا انصرفوا كانوا يتوعّدون المسلمين بالرجوع، فلم يأمَنوا كرَّتَهم، وكانوا تحت الحَجَفِ[٥] متأهِّبين للقتال، فأنزل الله تعالى عليهم الأمَنة، فأخذهم النعاسُ.[٦]

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «آمنهم يومئذ بنعاس يغشاهم بعد خوف، وإنّما ينعُس مَن أمِن، والخائفُ لا ينام».[٧]

وقال الزّبير رضي الله عنه: «كنتُ مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حين اشتدَّ الخوف، فأنزل الله علينا النومَ، واللهِ إنّي لأسمع قولَ مُعتِّبِ بن قُشَير[٨] والنُّعاسُ

---

١ في الآية السابقة.

٢ ي - نصب.

٣ ط - وقيل: مفعول له.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن ويحيى وإبراهيم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٢٣.

٥ الحَجَف -محرّكةً-: التُّروس مِن جلود بلا خشب ولا عقب، واحدتهما: حَجَفة. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «حجف».

٦ **التفسير البسيط** للواحدي، ٨٧/٦؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٠٦/١.

٧ **جامع البيان** للطبري، ١٦١/٦؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٨٧/٣.

٨ هو مُعتِّب بن قُشَير بن مليل بن زيد الأنصاري الأوسي. ذُكر فيمَن شهد العقبة. قال الحافظ ابن حجر: قيل: إنّه كان منافقًا، وأنّه الذي قال يوم أحد: "لو كان لنا مِن الأمر شيء ما قتلنا ههنا". وقيل: إنّه تاب. وقد ذكَره ابن إسحاق فيمَن شهد بدرًا. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٤٢٩/٣؛ **والإصابة** لابن حجر، ٢٦٤/١٠.

يغشاني، ما أسمعه إلّا كالحُلم، يقول: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾».[١]

وقال أبو طلحةَ رضي الله عنه:[٢] «رفعتُ رأسي يومَ أحُدٍ، فجعلتُ لا أرى أحدًا مِن القوم إلّا وهو يَميدُ[٣] تحت حَجَفَتِه مِن النُّعاس». قال: «وكنتُ ممّن أُلقِيَ عليه النُّعاس يومئذٍ، فكان السيف يسقط مِن يدي فآخذه، ثمّ يسقط السَّوط مِن يدي فآخذه».[٤]

وفيه دلالة على أنّ مِن المؤمنين[٥] مَن[٦] لم يُلْقَ عليه النّعاسُ، كما ينبئ عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾، قال ابن عبّاس رضي الله عنه:[٧] «هم المهاجرون وعامّةُ الأنصار».[٨] ولا يقدَح ذلك في عموم الإنزال للكلّ. والجملة في محلّ النصب على أنّها[٩] صفة لـ﴿نُعَاسًا﴾. وقُرئ بالتاء[١٠] على أنّها[١١] صفة لـ﴿أَمَنَةً﴾. وفيه أنّ الصفة حقُّها أن تتقدّم على البدل وعطفِ البيان، وأن لا يُفصَل بينها وبين الموصوف بالمفعول له، وأنّ المعهود أن يحدَّث عن البدل دون المُبدَل منه.

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: أوقعَتهم في الهموم والأحزان، أو ما بهم إلّا همُّ أنفسِهم وقصدُ خلاصِها، مِن قولهم: أهمّني الشيء، أي: كان مِن هِمّتي وقصدي. والقَصر مستفاد بمعونة المقام. ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ مبتدأ، وما بعدها إمّا خبرها، وإنّما جاز ذلك مع كونها نكرةً لاعتمادها على واو الحال، كما في قوله:

سَرينا ونجمٌ قد أضاء فمُذ بَدا   محيّاكِ أخفى ضوءُه كلَّ شارقِ[١٢]

---

[١] اللباب لابن عادل، ٦١٢/٥. ونحوه في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٨/١، لكن قال: "عن ابن الزبير". وأخرجه الطبري في جامع البيان، ١٦٨/٦، عن عبد الله بن الزبير عن الزبير رضي الله عنهما.

[٢] ط: رحمه الله.

[٣] مادَ الشيء يَميدُ ميدًا: تحرّك. ومادت الأغصان: تمايلت. الصحاح للجوهري، «ميد».

[٤] جامع البيان للطبري، ١٦١/٦؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٠٦/١.

[٥] وفي هامش ط س ي: إذ لا معنى للإخبار بكونهم مِن المؤمنين دون المنافقين. «منه».

[٦] ي - مَن.

[٧] ط س - رضي الله عنه.

[٨] التفسير البسيط للواحدي، ٩١/٦.

[٩] ط: أنّه.

[١٠] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٤٢/٢.

[١١] ي: أنّه.

[١٢] بغير نسبة في مغني اللبيب لابن هشام، ص ٦١٣. | "سَرينا": مِن السُّرى، وهو سير الليل. و"المحيّا": الوجه، لأنه يُحيّى عند رؤيته. و"الشارق": النجم، وكل مضيء، والمراد ذو الشروق. انظر: شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي، ٣٣/٧.

أو لوقوعها في موضع التفصيل، كما في قوله:

إذا ما بكى مِن خَلفها انصرَفَتْ له بِشِقٍّ وشِقٌّ عندنا لم يُحَوَّلِ[١]

وإمّا صفتُها والخبرُ محذوف، أي: ومعكم طائفة، أو وهناك طائفة. وقيل: تقديره: ومنكم طائفة، وفيه أنّه يقتضي دخولَ المنافقين في الخطاب بإنزال الأمَنة. وأيًا ما كان فالجملةُ إمّا حاليّة مبيِّنة لفظاعة الهولِ مؤكِّدةٌ لعِظَم النعمة في الخلاص عنه، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت، ٦٧/٢٩]، وإمّا مستأنَفة مَسوقة لبيان حالِ المنافقين.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ﴾ حال مِن ضمير ﴿أَهَمَّتْهُمْ﴾، أو مِن ﴿طَآئِفَةٌ﴾ لتخصّصها بالصفة، أو صفةٌ أخرى لها، أو خبر بعد خبرٍ، أو استئنافٌ مبيّنٌ لِما قبله. وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ في حُكم المصدرِ، أي: يظنّون به تعالى غيرَ الظنِّ الحقِّ الذي يجب أن يُظَنّ به سبحانه. وقوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدل منه، وهو الظنّ المختصّ بالمِلّة الجاهليّة. والإضافة كما في حاتِم الجُودِ، ورجل صِدْقٍ.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ بدل مِن ﴿يَظُنُّونَ﴾؛ لِما أنّ مسألتَهم كانت صادرةً عن الظنّ، أي: يقولون لرسولِ الله صلّى الله تعالى[٢] عليه وسلّم على صورة الاسترشاد: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: مِن أمر الله تعالى ووعدِه مِن النصر والظفَر ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أي: مِن نصيب قطّ؟ أو هل لنا مِن التدبير مِن شيء؟

وقوله تعالى: ﴿قُلْ / إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: الغلبةَ بالآخرة لله تعالى ولأوليائه، [١١٤و] فإنّ حزب الله هم الغالبون. أو إنّ التدبير كلّه لله تعالى، فإنّه تعالى قد دبّر الأمرَ كما جرى في سابق قضائِه، فلا مردَّ له. وقُرِئ: "كُلُّهُ" بالرفع على الابتداء.[٣]

وقوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ أي: يُضمرون فيها، أو يقولون فيما بينهم بطريق الخُفية ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ استئناف أو حال مِن ضمير ﴿يَقُولُونَ﴾.

---

١ لامرئ القيس في شرح شواهد المغني للسيوطي، ٤٠٢/١. وهو في ديوانه، ص ١٢، بلفظ: "انحرفت" بدل "انصرفت".

٢ س ي - تعالى.

٣ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٤٢/٢.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ﴾... إلخ اعتراض بين الحال وصاحبِها، أي: يقولون ما يقولون مُظْهِرين أنّهم مسترشِدون طالبون للنصر، مُبْطنين الإنكارَ والتكذيبَ.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ استئناف وقَع جوابًا عن سؤال نشأ ممّا قبله، كأنّه قيل: أيّ شيء يُخفون؟ فقيل: يحدِّثون أنفسَهم، أو يقول بعضُهم لبعض فيما بينهم خُفيةً: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ كما وعد محمّد عليه السلام[١] مِن أنّ الغلبةَ لله تعالى ولأوليائه، وأنّ الأمر كلّه لله، أو لو كان لنا مِن التدبير والرأيِ[٢] شيء ﴿مَا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، أي: ما غلبنا، أو ما قُتل مَنْ قُتل منّا في هذه المعركة، على أنّ النفي راجع إلى نفس القتل، لا إلى وقوعه فيها فقط، أو لَمَا بَرِحنا مِن منازلنا كما رآه ابنُ أُبيّ، ويؤيّده تعيينُ مكان القتل، وكذا قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ أي: لو لم تخرجوا إلى أُحُد وقعدتم بالمدينة -كما تقولون- ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾ أي: في اللوح المحفوظِ بسبب مِن الأسباب الداعيةِ إلى البروز ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ إلى مصارعهم التي قدَّر الله تعالى قتلَهم فيها، وقُتلوا هنالك[٣] البتّةَ، ولم ينفَعِ العزيمةُ على الإقامة بالمدينة قطعًا، فإنّ قضاء الله تعالى لا يُرَدّ، وحُكمه لا يُعقَّب.

وفيه مبالغة في ردِّ مقالتهم الباطلة حيث لم يُقتَصر على تحقيق نفسِ القتل، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء، ٧٨/٤]؛ بل عُيِّن مكانُه أيضًا، ولا ريب في تعيُّن زمانه أيضًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف، ٣٤/٧].

رُوي أنّ ملَك الموتِ حضر مجلس سليمان عليهما السلام، فنظر إلى رجل مِن أهل المجلس نَظرةً هائلة، فلمّا قام قال الرجل: «مَن هذا؟» فقال سليمان عليه السلام: «ملَكُ الموت»، قال: «أرسِلْني مع الريح إلى عالَم آخَر، فإنّي رأيتُ منه مرأى هائلًا»، فأمرها عليه السلام فألقتْه في قُطْر سحيق مِن أقطار العالَم، فما لبث أن عاد ملَك الموت إلى سليمان عليهما السلام، فقال: «كنتُ أُمِرتُ

---

١ ي: صلّى الله عليه وسلّم.
٢ ي: الأمن والتدبير.
٣ ي: هناك.

بقبض روح ذلك الرجل في هذه الساعة في أرض كذا، فلمّا وجدتُه في مجلسك قلتُ: متى يصِلُ هذا إليها؟ وقد أرسلتَه بالريح إلى ذلك المكانِ فوجدتُه هناك، فقُضي أمر الله عزّ وجلّ في زمانه ومكانه مِن غير إخلالٍ بشيءٍ مِن ذلك».[١]

وقُرئ: "كَتَبَ" على البناء للفاعل، ونَصبِ "القَتْلَ".[٢] وقُرئ: "كُتِبَ عَلَيهِمُ القِتَالُ".[٣] وقُرئ: "لَبُرِّزَ" بالتشديد على البناء للمفعول.[٤]

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي: لِيعاملَكم معاملةَ مَن يبتلي ما في صدوركم مِن الإخلاص والنفاق، ويُظهر ما فيها مِن السَّرائر. وهو علّة لفعل مقدَّرٍ قبلها معطوفةٌ على عِلَل لها أخرى مطويّةٍ للإيذان بكثرتها، كأنّه قيل: فعَل ما فعَل لمصالحَ جمّةٍ، وليبتليَ... إلخ. وجعلُها عِللًا لِـ"بَرَزَ"[٥] يأباه الذوق السليم، فإنّ مقتضى المقامِ بيانُ حكمة ما[٦] وقع يومئذ مِن الشدّة والهولِ، لا بيانُ حِكمةِ البُروزِ المفروض. أو لفعلٍ مقدَّرٍ بعدها، أي: وللابتلاء المذكورِ فعَل ما فعَل، لا لعدم العنايةِ بأمر المؤمنين ونحو ذلك. وتقدير الفعل مقدَّمًا خالٍ عن هذه المزيّة.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ مِن مَخفيّات الأمورِ، ويكشِفَها أو يُخلِّصَها مِن الوساوس.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: السرائر والضمائرِ الخفيّةِ التي لا تكاد تفارقُ الصدور؛ بل تلازِمها وتصاحبها. والجملة إمّا اعتراض للتنبيه على أنّ الله تعالى غنيّ عن الابتلاء، وإنّما يُبرِز صورةَ الابتلاء لتمرين المؤمنين، وإظهارِ حالِ المنافقين، أو حال مِن متعلَّق الفعلين، أي: فعَل ما فعَل للابتلاء والتمحيص، والحال أنّه تعالى غنيٌّ عنهما محيط[٧] بخفيّات الأمور. وفيه وعدٌ ووعيد.

---

[١] انظر: الزهد للإمام أحمد، ص ٣٧ (٢٢٢)؛ ومصنَّف ابن أبي شيبة، ٧/٧٠ (٢٤٢٦٨)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٩/٧ (السجدة، ١١/٣٢)، وهو موقوف على شَهر بن حَوشَب.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٤.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم وأبي حيوة ويزيد بن قطيب. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٣؛ والكامل للهذلي، ص ٥٢١.

[٥] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٤/٢.

[٦] ي - ما.

[٧] ي: لعلمه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ١٥٥﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ وهم الذين انهزموا يومَ أُحُد حسبما مرّت حكايتهم ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: إنّما كان سببُ انهزامِهم أنّ الشيطان طلب منهم الزلَل ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ مِن الذنوب والمعاصي التي هي: مخالَفة أمرِ النبيّ صلّى الله تعالى[1] عليه وسلّم، وتركُ المَركز، والحِرصُ على الغنيمة أو الحياة، فحُرِموا التأييدَ وقوّةَ القلب. وقيل: استزلالُ الشيطانِ: تولّيهم؛ وذلك بذنوب تقدّمت لهم، فإنّ المعاصيَ يجرّ بعضها إلى بعض كالطاعة. وقيل: استزلّهم بذنوب سبَقتْ منهم، وكرِهوا القتلَ قبل إخلاصِ التوبةِ والخروجِ مِن المَظلمة.

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لتوبتهم واعتذارِهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجِل بعقوبة المذنب ليتوب. والجملة تعليل لِما قبلها على سبيل التحقيق. وفي إظهار الجلالة تربية للمَهابة، وتأكيد للتعليل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١٥٦﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم المنافقون القائلون: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾.[2] وإنّما ذُكر في صدر الصِّلة كفرُهم تصريحًا بمبايَنة حالِهم لحال المؤمنين، وتنفيرًا عن مماثلتهم آثِرَ ذي أثيرٍ.[3] وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ تعيين لوجه الشَّبهِ والمماثلةِ التي نُهوا عنها، أي: قالوا لأجلهم وفي حقّهم، ومعنى أُخوّتِهم: اتّفاقهم نسَبًا أو مذهبًا.

﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافَروا فيها وأبعَدوا للتجارة أو غيرِها. وإيثار "إذا" المفيدةِ لمعنى[4] الاستقبالِ على "إذ" المفيدةِ لمعنى المُضيّ لحكاية الحال الماضية؛

---

[1] س ي - تعالى.
[2] آل عمران، ١٥٤/٣.
[3] آثِرَ ذي أثير، أي: أوّلَ كلّ شيء. الصحاح للجوهري، «أثر».
[4] ي: بمعنى.

إذِ المراد بها: الزمان المستمرّ المنتظِم للحال الذي عليه يدور أمرُ استحضارِ الصورة. قال الزجّاج: «﴿إِذَا﴾ ههنا تنوبُ عمّا مضى مِن الزمان وما يُستقبل».[١] يعني: إنّها لِمجرّد الوقت، أو يُقصد بها / الاستمرار. وظرفيّتُها لقولهم إنّما هي [١١٤ظ] باعتبار ما وقع فيها؛ بل التحقيق أنّها ظرف له، لا لقولهم، كأنّه قيل: قالوا لأجل ما أصاب إخوانَهم حين ضربوا... إلخ.

﴿أَوْ كَانُواْ﴾ أي: إخوانُهم ﴿غُزَّى﴾ جمعُ "غازٍ"، كعُفًّى جمعُ "عافٍ"،[٢] قال:

ومُـغْـبَـرّةِ الآفـاقِ خاشـعةِ الـصُّـوَى لـهـا قُـلُـبٌ عُـفًّـى الـحِـيـاضِ أجُـونُ[٣]

وقُرِئ بتخفيف الزاء[٤] على حذف التاء، مِن غُزاة. وإفراد كونِهم غُزاةً بالذِّكر -مع اندراجه تحت الضرب في الأرض - لأنّه المقصود بيانُه في المقام. وذِكر الضربِ في الأرض توطئة له. وتقديمه لكثرة وقوعِه، على أنّه قد يوجد بدون الضربِ في الأرض؛ إذ المراد به السفر البعيد. وإنّما لم يُقَل: أو غَزَوا؛ للإيذان باستمرار اتّصافِهم بعنوان كونِهم غزاةً أو بانقضاء ذلك، أي: كانوا غُزًّا فيما مضى.

وقوله تعالى: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا﴾ أي: مقيمين ﴿مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ مفعول لـ﴿قَالُواْ﴾، ودليل على أنّ هناك مضمَرًا قد حُذف ثقةً به، أي: إذا ضربوا في الأرض فماتوا، أو كانوا غُزًّا فقُتلوا. وليس المقصود بالنهي عدمَ مماثلتِهم في النُّطق بهذا القول؛

---

١ معاني القرآن للزجّاج، ٤٨٥/١.

٢ عفا المنزل يَعْفو: درَس، والعافي: الدارس. انظر: الصحاح للجوهري، «عفا»؛ معجم ديوان الأدب للفارابي، ٣٨/٤.

٣ وفي هامش س ي: وقبله:

لعَمرُك ما هندٌ وإن سَخِطت بها
نَـوًى غَـربـةٌ عـمّـا أُريـدُ شَـطـونُ
بناقضةٍ عهدي وإن حالَ دونها
حُـزُون بـدا مَـن دُونـهـنّ حُـزُونُ
ومُغبرّة... إلخ(١)

| (١) هامش أ + مِن خطّه أيضًا. | الأبيات لامرئ القيس في ديوانه، ص ٢٨٣. بلفظ:

لعَمرُك ما هندٌ وإن شَخَطت بها
نَـوًى غَـربـةٌ عـمّـا أُريـدُ شَـطـونُ
بناسيةٍ عهدي ولو حالَ دونها
حُـزُون تُـرى مـا دُونَـهـنّ حُـزُونُ
ومُغْبَرّةِ الآفاقِ خاشعةِ الصُّوَى
لها قُلُبٌ عُفُّ الحياضِ أجونُ

وفي البيت يصِف مفازةً بأنّها لم تُسلك قبله. و"الصُّوى" جمع صُوّة، وهي الحجارة تُنصب علَمًا للمَفازة. و"القُلُب" جمع قَليب، وهي البئر القديمة. و"أُجونٌ" جمع أَجِنة، بمعنى: مُتغيِّرة. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٧٤/٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري وأبي حيوة والحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٤.

بل في الاعتقاد بمَضمونه، والحُكمِ بموجَبه، كما أنّه المنكَرُ على قائليه، ألا يُرى إلى قوله عزّ وجلّ:[١] ﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ﴾؟ فإنّه الذي جُعل حسرةً فيها قطعًا، وإليه أشير بذلك، كما نقل عن الزجّاج أنّه «إشارة إلى ظنِّهم أنّهم لو لم يحضروا القتالَ لم يُقتلوا».[٢] وتعلّقُه بـ﴿قَالُواْ﴾ ليس باعتبار نطقِهم بذلك القول؛ بل باعتبار ما فيه مِن الحُكم والاعتقاد.

واللام لام العاقبة، كما في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص، ٢٨/٨]، أي: قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرةً في قلوبهم. والمراد بالتعليل المذكور بيانُ عدمِ ترتُّبِ فائدةٍ ما على ذلك أصلًا. وقيل: هو تعليل للنهي، بمعنى: لا تكونوا مِثلَهم في النطق بذلك القول واعتقادِه؛ ليجعلَه الله تعالى حسرةً في قلوبهم خاصّة، ويصونَ منها قلوبَكم، فذلك كما مرّ إشارة إلى ما دلّ عليه قولهم مِن الاعتقاد، ويجوز أن يكون إشارةً إلى ما دلّ عليه النهي، أي: لا يكونوا[٣] مثلهم؛ ليجعل الله انتفاءَ كونِكم مثلَهم حسرةً في قلوبهم، فإنّ مُضادّتَكم لهم في القول والاعتقادِ ممّا يغُمُّهم ويُغيظُهم.

﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾ ردٌّ لقولهم الباطل إثرَ بيان غائلتِه، أي: هو المؤثِّر في الحياة والممات وحدَه مِن غير أن يكون للإقامة أو السفر مدخلٌ في ذلك، فإنّه تعالى قد يُحيي المسافرَ والغازيَ مع اقتحامهما لموارد الحُتوف،[٤] ويُميت المقيمَ والقاعدَ مع حِيازتهما لأسباب السلامة.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ تهديد للمؤمنين على أن يماثلوهم. وقُرئ بالياء[٥] على أنّه وعيد للذين كفروا. و﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ عامّ متناوِل لقولهم المذكور، ولِمَنشئه الذي[٦] هو اعتقادهم، ولِما ترتَّب على ذلك مِن الأعمال، ولذلك تعرّض لعنوان البصَر، لا لعنوان السمعِ. وإظهار الاسمِ الجليلِ في موقع الإضمارِ لتربية المهابة وإلقاءِ الرَّوْعة، والمبالغةِ في التهديد، والتشديدِ في الوعيد.

---

[١] س: تعالى.
[٢] انظر: معاني القرآن للزجّاج، ٤٨٢/١.
[٣] ي: يكون.
[٤] ي: الحقوف.
[٥] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٤٢/٢.
[٦] ي: الذين.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ شروع في تحقيق أنّ ما يحذرون ترتُّبه على الغزو والسفر مِن القتل والموت في سبيل الله تعالى ليس ممّا ينبغي أن يُحذر؛ بل ممّا يجب أن يتنافسَ فيه المتنافسون إثرَ إبطال ترتُّبه عليهما. واللام هي الموطِّئة للقسَم، وما في قوله تعالى: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾ لامُ الابتداء. والتنوين في الموضعين للتقليل. و﴿مِن﴾ متعلِّقة بمحذوف وقع صفةً للمبتدأ. وقد حُذفت صفةُ ﴿رَحْمَةٌ﴾ لِدلالة المذكور عليها. والجملة جواب للقسَم، سادٌّ مَسدَّ جوابِ الشرط.

والمعنى: إنّ السفر والغزو ليس ممّا يجلُب الموتَ ويقدّم الأجلَ أصلًا، ولئن وقع ذلك بأمر الله تعالى لَنفحةٌ[1] يسيرةٌ مِن مغفرة ورحمة كائنتين مِن الله تعالى بمقابلة ذلك ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ -أي: الكفَرةُ- مِن منافع الدنيا وطيّباتها مدّة أعمارِهم. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «خيرٌ مِن طِلاع الأرضِ ذَهَبةً حمراءَ».[2]

وقُرِئ بالتاء،[3] أي: ممّا تجمعونه أنتم لو لم تموتوا. والاقتصار على بيان خيريّتِهما مِن ذلك بلا تعرّضٍ للإخبار بحصولهما لهم للإيذان بعدم الحاجةِ إليه بناءً على استحالة التخييبِ منه تعالى بعد الإطماع. وقد قيل: لا بدّ مِن حذفٍ آخَر، أي: لَمغفرةٌ[4] لكم مِن الله... إلخ، وحينئذ أيضًا يكون إخراجُ المقدَّرِ مُخرَجَ الصفةِ دون الخبر لِنحو ما ذُكر مِن ادّعاء الظهورِ والغنى عن الإخبار به.[5]

وتغيير الترتيب الواقعِ في قولهم: ﴿مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ المبنيِّ على كثرة الوقوع وقِلّتِه للمبالغة في الترغيب في الجهاد ببيان زيادةِ مزيّةِ القتلِ في سبيل الله وإنافتِه في استجلاب المغفرة والرحمة. وفيه دلالة واضحة على ما مرّ مِن أنّ المقصود بالنهي إنّما هو عدمُ مماثلتِهم في الاعتقاد بمَضمون القولِ المذكور والعملِ بموجَبه، لا في النطق به وإضلالِ الناس به.

---

[1] ط: لنفحة.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٤٣١/١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٠٥/٣. | قال الأصمعي: طِلاع الأرض: ملؤها. الصحاح للجوهري، «طلع».

[3] قرأ بها جمهور القرّاء العشر غير حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢٤٣/٢.

[4] ي: لمغفرةٍ.

[5] س - به؛ ي: الإخبارية.

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ أي: على أيِّ وجهٍ اتّفق هلاكُكم حسب تعلُّقِ الإرادةِ الإلهيّة. وقُرئ: "مِتُّم" بكسر الميم،[١] مِن "مات يَمات". ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى المعبود بالحقّ، العظيمِ الشأنِ، الواسعِ الرحمةِ، الجزيلِ الإحسانِ ﴿تُحْشَرُونَ﴾ لا إلى غيره، فيوفّي أجوركم، ويُجزِل لكم عطاءكم. والكلام في لامَي الجملة كما مرّ في أختها.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلّى الله تعالى[٢] عليه وسلّم. والفاء لترتيب مضمونِ الكلام على ما يُنبئ عنه السباق مِن استحقاقهم اللائمة والتعنيفِ بموجَب الجِبِلّة البشريّة، أو مِن سَعة ساحةِ مغفرتِه تعالى ورحمتِه. والباء متعلِّقة بـ﴿لِنتَ﴾، قُدِّمت عليه للقصر. و﴿مَا﴾ مزيدة للتوكيد، أو نكِرة، و﴿رَحْمَةٍ﴾ بدل منها مُبيِّن لإبهامها. والتنوين للتفخيم. و﴿مِّنَ﴾ متعلِّقة بمحذوف وقع صفةً لـ﴿رَحْمَةٍ﴾، أي: فبرحمةٍ عظيمةٍ لهم كائنةٍ مِن الله تعالى -وهي ربطُه على جأشه، وتخصيصُه بمكارم الأخلاقِ- كنتَ ليِّنَ الجانبِ لهم، وعامَلْتَهم بالرِّفق والتلطُّفِ بهم، حيث اغتمَمْتَ لهم بعد ما كان منهم ما كان مِن مخالفة أمرِك وإسلامِك للعدوّ.

﴿وَلَوْ﴾ لم تكن كذلك؛ بل ﴿كُنتَ فَظًّا﴾ جافيًا / في المعاشرة قولًا وفعلًا. [١١٥و]
وقال الراغب: «الفظُّ: هو الكَرِيهُ الخلُقِ». وقال الواحدي: «هو الغليظُ الجانبِ، السيِّئُ الخلُقِ».[٣] ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ قاسِيَه، وقال الكلبي: «﴿فَظًّا﴾ في القول، ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ في الفعل».[٤] ﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرّقوا مِن عندك ولم يسكُنوا إليك، وتردَّوا في مهاوي الردى.

---

[١] قرأ بها نافع وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٣.
[٢] س ي - تعالى.
[٣] المفردات للراغب الأصفهاني، ص ٦٤٠.
[٤] الكشف والبيان للثعلبي، ٣/١٩٠؛ التفسير الوسيط للواحدي، ١/٥١٢.

والفاء في قوله عزّ وجلّ:[١] ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ لترتيب العفوِ، أو الأمرِ به على ما قبله، أي: إذا كان الأمر كما ذُكر فاعفُ عنهم فيما يتعلّق بحقوقك كما عفا الله عنهم. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الله فيما يتعلّق بحقوقه تعالى إتمامًا للشفقة عليهم، وإكمالًا للبِرّ بهم. ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في أمر الحربِ؛ إذ هو المعهودُ، أو فيه وفي أمثاله ممّا يجري فيه المشاورةُ عادةً استظهارًا بآرائهم، وتطييبًا لقلوبهم، وتمهيدًا لسُنّة المشاورةِ للأمّة. وقُرئ: "وَشاوِرْهُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ".[٢]

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ أي: عَقيبَ المشاورةِ على شيء، واطمأنّتْ به نفسُك ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في إمضاء أمرِك على ما هو أرشد لك وأصلَح، فإنّ عِلمه مختصّ به سبحانه وتعالى. وقُرئ: "فَإِذَا عَزَمْتُ" على صيغة التكلّم،[٣] أي: عَزمتُ لك على شيء وأرشدتُك إليه فتوكّلْ عليّ، ولا تشاوِرْ بعد ذلك أحدًا. والالتفات لتربية المَهابة وتعليلِ التوكُّلِ، أو الأمرِ به، فإنّ عنوان الألوهيّة الجامعةِ لجميع صفات الكمال مستدعٍ للتوكُّل عليه تعالى والأمرِ به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه تعالى، فينصرهم ويُرشِدهم إلى ما فيه خير لهم وصلاح. والجملة تعليل للتوكُّل عليه تعالى.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ جملة مستأنَفة، سيقت بطريق تلوينِ الخطابِ تشريفًا للمؤمنين لإيجاب توكّلِهم عليه تعالى، وحثِّهم على اللَّجأ إليه، وتحذيرِهم عمّا يُفضي إلى خِذلانه، أي: إن ينصُركم كما نصَركم يومَ بدرٍ فلا أحدَ يغلِبُكم، على طريق نفي الجنس المنتظِم لنفي جميع أفرادِ الغالبِ ذاتًا وصفةً. ولو قيل: فلا يغلبكم أحدٌ لَدلّ على نفي الصفة فقط.

---

١ ي: تعالى.

٢ ي: الأمور. | قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي الشعثاء جابر بن يزيد وأبي نَهيك الفراهيدي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٤.

ثمّ المفهوم مِن ظاهر النظم الكريم وإن كان نفيَ مغلوبيّتِهم مِن غير تعرُّضٍ لِنفي المساواة أيضًا، وهو الذي يقتضيه المقام؛ لكنّ المفهوم منه فهمًا قطعيًّا هو نفي المساواة، وإثبات الغالبيّةِ للمخاطَبين. فإذا قلتَ: لا أكرمَ مِن فلان، أو لا أفضلَ منه، فالمفهومُ منه حتمًا أنّه أكرمُ مِن كلّ كريم، وأفضلُ مِن كلّ فاضل، وهذا أمر مطَّرد في جميع اللغات، ولا اختصاصَ له بالنفي الصريح؛ بل هو مطَّرد فيما ورد على طريق الاستفهام الإنكاريّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام، ٩٣/٦] في مواقعَ كثيرةٍ مِن التنزيل. وممّا هو نص قاطع فيما ذكرنا ما وقع في سورة هودٍ حيث قيل بعده في حقِّهم: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود، ٢٢/١١]، فإنّ كونهم أخسرَ مِن كلّ خاسرٍ يستدعي قطعًا كونَهم أظلمَ مِن كلّ ظالم.

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ كما فعَله يومَ أحُد. وقُرِئ: "يُخْذِلْكُمْ"[١] مِن "أخذَله" إذا جعله مَخذولًا. ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم﴾ استفهام إنكاريّ مفيد لانتفاء الناصرِ ذاتًا وصفةً بطريق المبالغة. ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: مِن بعد خِذلانه تعالى، أو مِن بعد الله تعالى، على معنى: إذا جاوزتموه.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تقديم الجارّ والمجرور على الفعل لإفادة قَصره عليه تعالى. والفاء لترتيبه أو ترتيبِ الأمرِ به على ما مرّ مِن غلَبة المخاطَبين على تقدير نُصرتِه تعالى لهم، ومغلوبيّتِهم على تقدير خِذلانِه تعالى إيّاهم، فإنّ العِلم بذلك ممّا يقتضي قصرَ التوكّلِ عليه تعالى لا محالة. والمراد بالمؤمنين إمّا الجنسُ، والمخاطَبون داخلون فيه دخولًا أوّليًّا، وإمّا هم خاصّةً بطريق الالتفاتِ. وأيًّا ما كان ففيه تشريف لهم بعنوان الإيمانِ اشتراكًا أو استقلالًا، وتعليلٌ لتحتّم التوكّل عليه تعالى، فإنّ وصف الإيمان ممّا يوجبه قطعًا.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ أي: وما صحّ لنبيّ مِن الأنبياء عليهم السلام ولا استقامَ له

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن جعفر بن محمد وابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٤.

﴿أَن يَغُلَّ﴾ أي: يخونَ في المغنَم؛ فإنّ النبوّة تنافيه منافاةً بيّنة، يقال: غَلَّ شيئًا مِن المَغنَم يَغُلّ غُلولًا، وأَغلّ إغلالًا، إذا أخذه خُفْيةً.

والمراد إمّا تنزيه ساحةِ رسولِ الله صلّى الله تعالى[1] عليه وسلّم عمّا ظنّ به الرماةُ يومَ أُحُد حين تركوا المركزَ وأفاضوا في الغنيمة، وقالوا: نخشى أن يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن أخذ شيئًا فهو له»، ولا يقسِمَ الغنائمَ كما لم يقسمْها يومَ بدرٍ، فقال لهم النبيّ صلّى الله تعالى[2] عليه وسلّم: «ألَم أعهَدْ إليكم أن لا تتركوا المركزَ حتّى يأتيَكم أمري؟» فقالوا: تركنا بقيّةَ إخوانِنا وقوفًا، فقال عليه السلام: «بل ظننتم أنّا نغُلّ، ولا نقسِمُ بينكم».[3]

وإمّا المبالغة في النهي لرسول الله صلّى الله تعالى[4] عليه وسلّم على ما رُوي أنّه بعَث طلائِعَ فغنِم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[5] بعدهم غنائِمَ فقسمها بين الحاضر، ولم يترك للطلائع شيئًا، فنزلت.[6] والمعنى: ما كان لنبيّ أن يُعطيَ قومًا مِن العسكر ويمنَعَ آخَرين؛ بل عليه أن يقسِمَ بين الكلِّ بالسويّة. وعُبّر عن حِرمان بعضِ الغزاةِ بالغُلول تغليظًا.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المراد تنزيهُه عليه السلام[7] عمّا تفوّه به بعضُ المنافقين -إذ رُوي أنّ قَطيفةً حمراءَ فُقدت يومَ بدر، فقال بعضُ المنافقين: لعلّ رسولَ الله صلّى الله تعالى[8] عليه وسلّم أخذها-[9] فبعيدٌ جدًّا. وقُرئَ على البناء للمفعول،[10] والمعنى: ما كان له أن يوجَد غالًّا، أو يُنسَب إلى الغُلول.

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يأتِ بالذي غلّه بعينه يحمِلُه على عنقه، كما ورد في الحديث الشريف ورُوي أنّه عليه السلام قال: «ألا لا أعرِفَنّ أحدَكم

---

١ س ي - تعالى.
٢ س ي - تعالى.
٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٦/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٣٤/١.
٤ س ي - تعالى.
٥ ي: عليه السلام.
٦ جامع البيان للطبري، ١٩٦/٦؛ مصنَّف ابن أبي شيبة، ٤٩٤/٦ (٣٣٢٣١).
٧ ط: صلّى الله عليه وسلّم.
٨ س ي - تعالى.
٩ انظر: جامع البيان للطبري، ١٩٤/٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٣٤/١.
١٠ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٤٣/٢.

يأتي ببعير له رُغاءٌ، وببقرةٍ لها خُوارٌ، وبشاة لها ثُغاءٌ، فينادي: يا محمّد يا محمّد، فأقول: لا أملِك لك مِن الله شيئًا، فقد بلّغتُك».[١] أو يأتِ بما احتمل مِن إثمه ووبالِه.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾ أي: تعطى وافيًا جزاءَ ما كسبت، خيرًا أو شرًّا، كثيرًا أو يسيرًا. وضَع المكسوب موضعَ جزائِه تحقيقًا للعدْل ببيان ما بينهما مِن تمام التناسُب كمًّا وكيفًا كأنّهما شيء واحد. وفي إسناد التوفية إلى كلّ كاسبٍ / وتعليقِها بكلّ مكسوبٍ -مع أنّ المقصود بيانُ حالِ الغالِّ عند إتيانِه بما غلّه يوم القيامة- مِن الدلالة على فَخامة شأنِ اليومِ وهولِ مطلَعِه والمبالغةِ في بيان فظاعةِ حالِ الغالِّ ما لا يخفى، فإنّه حين وُفّي كلُّ كاسبٍ جزاءَ ما كسبه ولم يُنقَص منه شيء -وإن كان جُرْمه في غاية القِلّة والحَقارة- فلأن لا يُنقَص مِن جزاء الغالِّ شيء -وجُرمُه مِن أعظم الجرائم- أظهرُ وأجلَى. [١١٥ظ]

﴿وَهُمۡ﴾ أي: كلُّ الناس المدلولِ عليهم بـ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾. ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾ بزيادة عقاب، أو بنقص ثواب.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢﴾

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: سعى في تحصيله، وانتحى نحوَه حيثما كان، بفعل الطاعات وترك المنكرات، كالنبيّ ومَن يسير بسيرته، ﴿كَمَنۢ بَآءَ﴾ أي: رجع ﴿بِسَخَطٖ﴾ عظيم لا يقادَرُ قدرُه، كائنٍ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تعالى بسبب مَعاصيه، كالغالّ ومَن يَدين بدينه. والمراد تأكيد نفي الغُلولِ مِن النبيّ عليه السلام،[٢]

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ١/٤٣٤. وهو في الصّحيحين مِن رواية أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: قام فينا النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم، فذكَر الغُلول فعظَّمه وعظَّم أمره، قال: «لا ألفينّ أحدكم يوم القيامة على رقَبته شاة لها ثُغاء، على رقبته فرس له حَمْحَمة، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتُك، وعلى رقبته بعير له رُغاء، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتُك، وعلى رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتُك، أو على رقبته رِقاعٌ تَخفِق، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتُك». صحيح البخاري، ٤/٧٤ (٣٠٧٣)؛ صحيح مسلم، ٣/١٤٦١ (١٨٣١).

[٢] ط: عليه الصلاة والسلام.

وتقريرُه بتحقيق المبايَنة الكلّيّة بينه وبين الغالّ حيث وُصف كلٌ منهما بنقيض ما وُصف به الآخَر، فقوبل رضوانُه تعالى بسَخَطه، والاتّباع بالبَوء.

والجمع بين الهمزة والفاء لتوجيه الإنكار إلى ترتّب توهُّمِ المماثلةِ بينهما، والحُكمِ بها على ما ذُكر مِن حال الغالّ، كأنّه قيل: أَبَعدَ ظهورِ حالِهِ يكونُ مَن ترقّى إلى أعلى عِلّيّين كمَنْ تردّى إلى أسفلِ سافلين؟[١] وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمارِ لإدخال الرَّوعةِ وتربيةِ المَهابة.

﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ إمّا كلام مستأنَف مَسوق لبيان مآلِ أمرِ مَن باء بسَخَطه تعالى،[٢] وإمّا معطوف على قوله تعالى: ﴿بَآءَ بِسَخَطٍ﴾ عطفَ الصِّلة الاسميّة على الفعليّة. وأيًا ما كان فلا محلّ له مِن الإعراب.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ اعتراض تذييليّ، والمخصوص بالذمّ محذوف،[٣] أي: وبئس المصيرُ جهنّمُ. والفرق بينه وبين المرجِع أنّ الأوّل يُعتبر فيه الرجوعُ على خلاف الحالةِ الأولى، بخلاف الثاني.

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

﴿هُمْ﴾ راجع إلى الموصولَين باعتبار المعنى. ﴿دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: طبقات متفاوتة في علمه وحُكمه، شُبّهوا في تفاوت الأحوالِ وتبايُنِها بالدرجات مبالغةً وإيذانًا بأنّ بينهم تفاوتًا ذاتيًا كالدرجات، أو ذَوو درجاتٍ. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ مِن الأعمال ودرجاتِها فيجازيهم بحسبها.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ﴾ جواب قسَمٍ محذوف، أي: واللهِ لقد مَنّ الله، أي: أنعم ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مِن قومه عليه السلام، ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي:

---

[١] ي: السافلين.
[٢] ي – تعالى.
[٣] ي: محذف.

مِن نَسَبهم، أو مِن جنسِهم، عربيًّا مثلَهم؛ ليفقهوا كلامَه بسهولة؛ ويكونوا واقفين على حاله في الصدق والأمانة مفتخرين به، وفي ذلك شرَف لهم عظيم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف، ٤٣/٤٤].

وقُرئ: "مِنْ أَنفَسِهِمْ"،[١] أي: أشرَفِهم، فإنّه عليه السلام كان مِن أشرف قبائلِ العرب وبطونِها. وقُرئ: "لَمِنْ مَنِّ اللهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ"... إلخ،[٢] على أنّه خبر لمبتدأ محذوفٍ، أي: منُّه إذ بعث... إلخ، أو على أنّ ﴿إِذْ﴾ في محلّ الرفعِ على الابتداء، بمعنى: لَمِن منّ الله على المؤمنين وقتُ بعثِه. وتخصيصهم بالامتنان مع عموم نعمةِ البعثةِ للأسود والأحمر لِما مرّ مِن مزيد انتفاعِهم بها.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ متعلّق بمحذوف وقع صفةً لـ﴿رَسُولًا﴾، أي: كائنًا مِن أنفسهم. وقوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ صفة أخرى، أي: يتلو عليهم القرآنَ بعد ما كانوا أهلَ جاهليّة لم يطرُق أسماعَهم شيءٌ مِن الوحي. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿يَتْلُو﴾، أي: يطهِّرهم مِن دنَس الطبائع[٣] وسوءِ العقائد وأوضارِ الأوزار.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: القرآنَ والسنّةَ، وهو صفة أخرى لـ﴿رَسُولًا﴾ مترتّبة في الوجود على التلاوة، وإنّما وُسّط بينهما التزكية التي هي عبارة عن تكميل النفس بحسَب القوّة العمليّة وتهذيبِها المتفرّع على تكميلها بحسَب القوّةِ النظريّة الحاصلِ بالتعليم المترتّب على التلاوة؛ للإيذان بأنّ كلّ واحدٍ مِن الأمور المترتّبة نعمةٌ جليلة على حِيالها مستوجِبة للشكر، فلو رُوعيَ ترتيب الوجود[٤] كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة، ٢/١٢٩] لَتبادَر إلى الفهم عَدُّ الجميع نعمةً واحدة، وهو السرّ في التعبير عن القرآن بالآيات تارةً، وبالكتاب والحكمة أخرى؛

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن كِرداب عن رُوَيس. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٥.

[٢] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون، ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٤٣٦؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٤٣٦.

[٣] ي: الطباع.

[٤] ي: الوجودي.

رمزًا إلى أنّه باعتبار كلّ عنوان نعمةٌ على حِدة، ولا يقدح في ذلك شمولُ الحكمة لِما في مطاوي الأحاديث الكريمة مِن الشرائع، كما سلف في سورة البقرة.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلِ بعثتِه عليه السلام وتزكيتِه وتعليمِه[١] ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بيّن لا ريب في كونه ضلالًا. و﴿إن﴾ هي المخفّفة مِن "إنّ" المثقّلة، وضميرُ الشأن محذوف، واللامُ فارقة بينها وبين النافية. والظرف الأوّل لغو متعلِّق بـ"كان"، والثاني خبرُها، وهي مع خبرها خبر لـ﴿إن﴾ المخفّفة التي حُذف اسمها، أعني: ضميرَ الشأن. وقيل: هي نافية، واللامُ بمعنى "إلّا"، أي: وما كانوا مِن قبلُ إلّا في ضلال مبين. وأيًّا ما كان فالجملة إمّا حال مِن الضمير المنصوبِ في ﴿يُعَلِّمُهُمُ﴾، أو مستأنَفة. وعلى التقديرين فهي مبيّنة لكمال[٢] النعمة وتمامها.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ كلام مبتدأ[٣] مَسوق لإبطال بعضِ ما صدر عنهم مِن الظنون الفاسدة والأقاويل الباطلة الناشئة منها إثرَ إبطال بعضٍ آخرَ منها. والهمزة للتقريع والتقرير. والواو عاطفة لمدخولها على محذوفٍ قبلها. و﴿لَمَّا﴾ ظرف لـ﴿قُلْتُمْ﴾[٤] مضاف إلى ما بعده. و﴿قَدْ أَصَبْتُم﴾ في محلّ الرفعِ على أنّه صفة لـ﴿مُصِيبَةٌ﴾. والمراد بها ما أصابهم يومَ أُحُد مِن قتل سبعين منهم، وبـ﴿مِثْلَيْهَا﴾ ما أصاب المشركين يومَ بدرٍ مِن قتل سبعين منهم وأسْرِ سبعين.

و﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ مقولُ ﴿قُلْتُمْ﴾. وتوسيط الظرف وما يتعلّق به بينه وبين الهمزة -مع أنّه المقصود إنكارُه، والمعطوفُ بالواو حقيقةً- لتأكيد النكير وتشديد التقريع؛ فإنّ فعل القبيحِ في غير وقتِه أقبح، والإنكارَ على فاعله أدخل.

---

١ ي: وتعليم.
٢ ي: لكل.
٣ ي - مبتدأ.
٤ وفي هامش ط س ي: على رأي الفارسي. «منه».

[١١٦و] والمعنى: أحِين أصابكم مِن المشركين نصفُ ما قد / أصابهم منكم قبل ذلك جزِعتم وقلتم: مِن أين أصابنا هذا؟ وقد تقدّم الوعد بالنصر على توجيه الإنكار والتقريع إلى صدور ذلك القولِ عنهم في ذلك الوقتِ خاصّة بناءً على عدم كونه مَظِنةً له داعيًا إليه؛ بل على كونه داعيًا إلى عدمه، فإنّ كونَ مصيبةِ عدوِّهم ضِعفَ مصيبتِهم ممّا يُهوِّن الخطْبَ ويورث السَّلْوة. أو أفَعلتم ما فعلتم ولمّا أصابتكم غائلتُه قلتم: أنّى هذا؟ على توجيه الإنكار إلى استبعادهم الحادثةَ مع مباشرتهم لسببها.

وتذكير اسمِ الإشارة في ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ مع كونه إشارةً إلى المصيبة ليس لكونها عبارةً عن القتل ونحوِه؛ بل لِما أنّ إشارتَهم ليست إلّا إلى ما شاهدوه في المعركة مِن حيث هو هو مِن غير أن يَخطِر ببالهم تسميتُه باسمٍ ما فضلًا عن تسميته باسم المصيبة، وإنّما هي عند الحكاية.

وقوله عزّ وجلّ:[١] ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أمرٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأن يُجيب عن سؤالهم الفاسد إثرَ تحقيق فسادِه بالإنكار والتقريع، ويُبكّتَهم ببيان أنّ ما نالهم إنّما نالهم مِن جهتهم بتركهم المركزَ، وحِرصِهم على الغنيمة.

وقيل: باختيارهم الخروج مِن المدينة،[٢] ويأباه أنّ الوعد بالنصر كان بعد ذلك، كما ذُكر عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ الآية،[٣] وأنّ عمَلَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بموجبه قد رَفَع الخطرَ عنه، وخفّف جنايتَهم فيه، على أنّ اختيار الخروجِ والإصرارَ عليه كان ممّن أكرمهم الله تعالى بالشهادة يومئذ، وأين هم مِن التفوّه بمِثل هذه الكلمة؟ وقيل: بأخذهم الفِداءَ يوم بدر قبل أن يُؤذَن لهم، والأوّل هو الأظهر الأقوى، وربّما يعضُده توسيطُ خطابِ الرسول صلّى الله عليه وسلّم بين الخِطابين المتوجّهَين إلى المؤمنين، وتفويضُ التبكيت إليه عليه السلام، فإنّ توبيخ الفاعل على الفعل إذا كان ممّن نهاه عنه كان أشدَّ تأثيرًا.

---

١ ي: تعالى.

٢ الكشّاف للزمخشري، ١/٤٣٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٤٧.

٣ آل عمران، ٣/١٥٢.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومِن جملته النصر عند الطاعة، والخِذلانُ عند المخالفة، وحيث خرجتم عن الطاعة أصابكم منه تعالى ما أصابكم. والجملة تذييل مقرّر لمضمون ما قبلها داخل تحت الأمر.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ رجوع إلى خطاب المؤمنين إثرَ خطابه عليه السلام لسرّ يقتضيه، وإرشاد لهم إلى حقيقة الحقّ فيما سألوا عنه، وبيان لبعض ما فيه مِن الحِكَم والمصالحِ، ودفعٌ لِما عسى يُتوهَم مِن قوله تعالى: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾[1] مِن استقلالهم في وقوع الحادثة. والعدول عن الإضمار إلى ما ذكر؛ للتهويل وزيادةِ التقرير ببيان وقتِه بقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أي: جمعُكم وجمعُ المشركين ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: فهو كائن بقضائه وتخليتِه الكفارَ، سُمّيَ ذلك إذنًا لكونها مِن لوازمه.

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ عطفَ السبب على المسبَّب.[2] والمراد بالعِلم: التميز والإظهار فيما بين الناس.

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ عطفٌ على ما قبله مِن مثله، وإعادة الفعل لتشريف المؤمنين وتنزيههم عن الانتظام في قَرْن المنافقين، وللإيذان باختلاف حالِ العلم بحسب التعلّق بالفريقين، فإنّه متعلِّق بالمؤمنين على نهج تعلُّقِه السابق، وبالمنافقين على وجه جديد، وهو السرُّ في إيراد الأوّلين بصيغة اسمِ الفاعلِ المنبئة عن الاستمرار، والآخِرين بموصولٍ صِلتُه فعلٌ دالٌّ على الحدوث. والمعنى: وما أصابكم يومئذ فهو كائن ليميّز الثابتين على الإيمان والذين أظهروا النفاق.

---

[1] في الآية السابقة.

[2] ي: السبب.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿نَافَقُواْ﴾، داخل معه في حيّز الصِّلة، أو كلام مبتدأ. قال ابن عبّاس رضي الله تعالى[1] عنهما: «هم عبد الله بن أُبيّ وأصحابُه، حيث انصرفوا يوم أُحُد عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال لهم عبد الله بن عمرو بن حرام:[2] أذكِّرُكم الله، أن تخذُلوا نبيَّكم وقومَكم، ودعاهم إلى القتال»،[3] وذلك قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾ قال السُّدّي: «ادفعوا عنّا العدوَّ بتكثير سوادنا إن لم تقاتلوا معنا».[4] وقيل: أو ادفعوا عن أهلكم وبلدِكم وحريمِكم إن لم تقاتلوا في سبيل الله تعالى. وترك العطفِ بين ﴿تَعَالَوْاْ﴾ و﴿قَٰتِلُواْ﴾ لِما أنّ المقصود بهما واحد، وهو الثاني. وذِكر الأوّل توطئة له وترغيب فيه لِما فيه مِن الدلالة على التظاهر والتعاون.

﴿قَالُواْ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال ينسحب عليه الكلام، كأنّه قيل: فماذا صنعوا حين خُيِّروا بين الخَصْلَتين المذكورتين؟ فقيل: قالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ أي: لو نُحسِن قتالًا ونقدِر عليه. وإنّما قالوه دغَلًا[5] واستهزاءً، وإنّما عُبّر عن نفي القدرة على القتال بنفي العِلم به لِما أنّ القدرة على الأفعال الاختياريّةِ مستلزِمةٌ للعِلم بها، أو لو نعلم ما يصِحّ أن يسمّى قتالًا لاتّبعناكم؛ ولكن ما أنتم بصدَده ليس بقتال أصلًا، وإنّما هو إلقاء النفس إلى التهلُكة. وفي جعلهم التالي مجرّدَ الاتّباعِ دون القتال الذي هو المقصود بالدعوة دليلٌ على كمال تثبُّطِهم عن القتال حيث لا ترضى نفوسُهم بجعله تاليًا لمقدَّم مستحيلِ الوقوعِ.

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ الضمير مبتدأ، و﴿أَقْرَبُ﴾ خبرُه، واللام في ﴿لِلْكُفْرِ﴾ و﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾ متعلِّقة به، وكذا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ و﴿مِنْهُمْ﴾. وعدمُ جوازِ تعلُّقِ حرفين متّحدين لفظًا ومعنًى بعاملٍ واحدٍ بلا عطفٍ أو بدليّةٍ إنّما هو فيما عدا

---

[1] س ي - تعالى.

[2] هو عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام الأنصاري الخزرجي السلمي (ت. ٣هـ/٦٢٥م). والد جابر بن عبد الله الصحابيّ المشهور. مَعدود في أهل العقبة وبدر، وكان مِن النقباء، واستشهد بأحد. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٦/٣٠٤؛ و**الأعلام** للزركلي، ٤/١١١.

[3] **التفسير الوسيط** للواحدي، ١/٥١٨. وأخرجه الطبري في **جامع البيان**، ٦/٢٢٢، عن ابن شهاب الزهري وآخرين.

[4] **التفسير الوسيط** للواحدي، ١/٥١٨؛ **اللباب** لابن عادل، ٦/٤١.

[5] الدَّغَل: الفساد. **الصحاح** للجوهري، «دغل».

أفعلُ التفضيلِ مِن العوامل لاتّحاد حيثيّةِ عملِها، وأمّا أفعلُ التفضيلِ فحيث دلّ على أصل الفعلِ وزيادتِه جرى مَجرى عاملين، كأنّه قيل: قُربُهم للكفر زائدٌ على قربهم للإيمان.

وقيل: تعلُّق الجارّين به لشَبَهِهما بالظرفين، أي: هم للكفر يوم إذ قالوا / ما قالوا أقربُ منهم للإيمان، فإنّهم كانوا قبل ذلك يتظاهرون بالإيمان، وما ظهرت منهم أَمارة مُؤذِنة بكفرهم، فلمّا انخذلوا عن عسكر المسلمين وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا مِن الكفر، وقيل: هم لأهل الكفرِ أقرب نُصرةً منهم لأهل الإيمان؛ لأنّ تقليل سوادِ المسلمين بالانخذال تقويةٌ للمشركين. [١١٦ظ]

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ جملة مستأنَفة مقرِّرة لمضمون ما قبلها. وذِكر الأفواه والقلوب تصوير لِنفاقهم، وتوضيح لمخالفة ظاهرِهم لباطنهم. و﴿مَا﴾ عبارة عن القول، والمراد به إمّا نفس الكلامِ الظاهرِ في اللسان تارةً وفي القلب أخرى، فالمثبَتُ والمنفيُّ متّحِدان ذاتًا وإن اختلفا مَظهرًا، وإمّا القول الملفوظُ فقط، فالمنفيُّ حينئذ منشؤُه الذي لا ينفكّ عنه القول أصلًا، وإنّما عبّر عنه به إبانةً لِما بينهما مِن شدّة الاتّصال، أي: يتفوّهون بقولٍ لا وجود له[١] أو لِمَنشَئه[٢] في قلوبهم أصلًا مِن الأباطيل التي مِن جملتها ما حُكي عنهم آنفًا، فإنّهم أظهروا فيه أمرين ليس في قلوبهم شيءٌ منهما، أحدُهما: عدمُ العِلم بالقتال، والآخَر: الاتّباع على تقدير العِلم به، وقد كذَبوا فيهما كذِبًا بيّنًا حيث كانوا عالِمين به غيرَ ناوين للاتّباع؛ بل كانوا[٣] مُصِرّين مع ذلك على الانخذال عازمين على الارتداد.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ زيادة تحقيقٍ لكفرهم ونفاقهم ببيان اشتغالِ قلوبِهم بما يخالف أقوالَهم مِن فنون الشرّ والفسادِ إثرَ بيان خُلوِّها عمّا يوافقها، وصيغةُ التفضيلِ لِما أنّ بعضَ ما يكتمونه مِن أحكام النفاقِ

---

١ وفي هامش س: على الوجه الأوّل. «منه».

٢ وفي هامش س: على الوجه الثاني. «منه».

٣ ط س ي - غيرَ ناوين للاتّباع؛ بل كانوا ["صح" في هامش ط ي].

وذمِّ المؤمنين وتخطئةِ آرائِهم والشماتةِ بهم وغيرِ ذلك يعلمه المؤمنون على وجه الإجمال، وأنّ تفاصيل ذلك وكيفيّاتِه مختصّةٌ بالعِلم الإلٰهيّ.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ مرفوع على أنّه بدل مِن واو ﴿يَكْتُمُونَ﴾،[١] أو خبر لمبتدأ محذوف، وقيل: مبتدأ خبرُه ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ﴾ بحذف العائد، تقديره: قُل لَهم... إلخ. أو منصوب على الذمّ، أو على أنّه نعت لـ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾،[٢] أو بدل منه. وقيل: مجرور على أنّه بدل مِن ضمير "أفواهِهم" أو[٣] "قلوبِهم"،[٤] كما في قوله:

على جُودِه[٥] لَضنّ بالماء حاتِمِ[٦]

والمراد بهم عبد الله بن أُبيّ وأصحابُه.[٧]

﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أي: لأجلهم، وهم مَن قُتل يومَ أحُد مِن جنسهم أو مِن أقاربهم، فيندَرج فيهم بعضُ الشهداء.

﴿وَقَعَدُواْ﴾ حال مِن ضمير ﴿قَالُواْ﴾ بتقدير "قد"، أي: قالوا وقد قعدوا عن القتال بالانخذال: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ أي: فيما أمرناهم به ووافقونا في ذلك ﴿مَا قُتِلُواْ﴾ كما لم نُقتل. وفيه إيذان بأنّهم أمروهم[٨] بالانخذال حين انخذلوا، وأغوَوهم كما غوَوا.

وحملُ القعودِ على ما استصوبه ابن أُبيّ عند المشاورة مِن الإقامة بالمدينة ابتداءً، وجعلُ الإطاعةِ عبارةً عن قَبول رأيه والعمل به؛ يرُدّه كونُ الجملةِ حاليّةً،

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] ي - أو.

[٤] ي: و"قلوبهم". | في الآية السابقة.

[٥] ي: جود. | وفي هامش ي: أي: مع جوده، وهو حال مِن "حاتِمًا"، أو مِن الضمير المستتر في "القوم"، "حاتِم" بالجرّ؛ لأنّ قافية القصيدة على الجرّ، وهو بدل مِن الهاء في "جُوده". «منه».

[٦] وفي هامش ط س ي: صدره:

على حالةٍ لو أنّ في القوم حاتمًا

«منه». | للفَرزدق في ديوانه، ص ٦٠٣، بلفظ:

على ساعةٍ لو كان في القوم حاتِمٌ

على جُوده ضنَّت به نفسُ حاتِمِ

[٧] التفسير الوسيط للواحدي، ٥١٨/١. وأخرجه الطبري في جامع البيان، ٢٢٢/٦، عن قتادة.

[٨] ي: أمرهم.

فإنّها لتعيين ما فيه العصيان والمخالفة مع أنّ ابن أبيّ ليس مِن القاعدين فيها بذلك المعنى، على أنّ تخصيص عدمِ الطاعة بإخوانهم ينادي باختصاص الأمرِ أيضًا بهم، فيستحيل أن يُحمَل على ما خوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عند المشاورة.

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم وإظهارًا لكذبهم ﴿فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ جواب لشرط قد حُذف تعويلًا على ما بعده مِن قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، كما أنّه شرط حُذف جوابُه لدلالة الجوابِ المذكورِ عليه، أي: إن كنتم صادقين فيما يُنبئ عنه قولُكم مِن أنّكم قادرون على دفع القتلِ عمّن كُتب عليه، فادفعوا عن أنفسكم الموتَ الذي كُتب عليكم مُعلّقًا بسبب خاصّ موقّتًا بوقت معيّنٍ بدفع سببِه، فإنّ أسباب الموتِ في إمكان المدافعةِ بالحِيَل وامتناعِها سواء، وأنفسُكم أعزُّ عليكم مِن إخوانكم، وأمرُها أهمُّ لديكم مِن أمرهم.

والمعنى: إنّ عدم قتلكم كان بسبب أنّه لم يكن مكتوبًا عليكم، لا بسبب أنّكم دفعتموه بالقُعود مع كتابته عليكم، فإنّ ذلك ممّا لا سبيلَ إليه؛ بل قد يكون القتالُ سببًا للنجاة والقعود مؤدّيًا إلى الموت. رُوي أنّه مات يومَ قالوا ما قالوا سبعون منافقًا.[١]

وقيل: أريد ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في مضمون الشرطيّة، والمعنى: أنّهم لو أطاعوكم وقعدوا لَقُتلوا قاعدين كما قُتلوا مقاتِلين، فقوله تعالى: ﴿فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ حينئذ استهزاء بهم، أي: إن كنتم رجالًا دفّاعين لأسباب الموت فادرءوا جميعَ أسبابِه حتّى لا تموتوا كما درأتم في زعمكم هذا السببَ الخاصّ.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان أنّ القتل الذي يَحذَرونه ويُحذِّرون الناس منه ليس مما يُحذَر؛ بل هو مِن أجلّ المطالبِ التي يتنافسُ فيها المتنافسون إثرَ بيان أنّ الحذَر لا يُغني ولا يُجدي.[٢]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٣٨/١؛ تفسير القرطبي، ٢٦٧/٤.

٢ ي + شيئًا.

وقُرِئَ: "وَلَا تَحْسِبَنَّ" بكسر السين.[١] والمراد بهم شهداء أُحُد، وكانوا سبعين رجلًا: أربعة[٢] مِن المهاجرين حمزة بن عبد المطّلب ومُصعب بن عميرٍ وعثمان بن شهابٍ[٣] وعبد الله بن جحشٍ وباقيهم مِن الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.[٤] والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو لكلّ أحدٍ ممّن له حظّ مِن الخطاب.

وقُرِئَ بالياء[٥] على الإسناد إلى ضميره عليه السلام أو ضميرِ مَن يَحسب. وقيل: إلى ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟﴾، والمفعول الأوّل محذوف؛ لأنّه في الأصل مبتدأ جائزُ الحذفِ عند القرينة، والتقدير: ولا يحسَبنَّهم الذين قُتلوا أمواتًا، أي: لا يحسَبنّ الذين قُتلوا أنفسَهم أمواتًا، على أنّ المراد مِن[٦] توجيه النهي إليهم تنبيهُ السامعين على أنّهم أحِقّاء بأن يُسلَّوا بذلك ويُبشَّروا بالحياة الأبديّة والكرامة السنيّة والنعيم المقيم، لكن لا في جميع أوقاتِهم؛ بل عند ابتداءِ القتل؛ إذ بعد تبيُّن حالِهم لهم لا يبقى لاعتبار تسليتِهم وتبشيرِهم فائدة، ولا لتنبيه السامعين وتذكيرهم وجه.

وقُرِئَ: "قُتِّلُوا" بالتشديد[٧] لكثرة المقتولين.

---

[١] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٣٦/٢.

[٢] ط س - أربعة.

[٣] كذا في الأصول الخطيّة، ووقع اسمه في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٠/٣؛ واللباب لابن عادل، ٤٧/٦؛ والدرّ المنثور للسيوطي، ٣٧١/٢: عثمان بن شمّاس. وفي تفسير ابن أبي حاتم، ٨١٢/٣: شمّاس بن عثمان. وهو الصواب. وذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة، ٩٤/٧: عثمان بن شمّاس في حرف العين، ثمّ قال: «وقد تقدّم في حرف الشين: شمّاس بن عثمان، فأنا أخشى أن يكون هذا انقلب، ثمّ وجدت أبا نُعيم جنَح إلى ذلك ونسب الوهم فيه إلى ابن مَنْدَه». وشمّاس بن عثمان بن الشريد المخزومي (ت. ٣هـ/٦٢٥م) مِن المهاجرين الأوّلين. ومِن أبطال الصحابة. شهد بدرًا، واستشهد يوم أُحد. وشبّهه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالجُنّة، أي: التُرس؛ لأنّه كان لا يرمي ببصره يمينًا أو شمالًا إلّا رأى شمّاسًا أمامه يذبّ بسيفه عنه، فلمّا غشي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تَرّس بنفسه دونه حتى قُتل. ورثاه حسّان رضي الله عنهما. انظر: الإصابة لابن حجر، ١٣٧/٥؛ والأعلام للزركلي، ١٧٥/٣. ولم أجد في الصحابة عثمان بن شهاب.

[٤] س: رضي الله عنهم.

[٥] قرأ بها هشام عن ابن عامر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢٤٤/٢.

[٦] ي - مِن.

[٧] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٤٣/٢.

﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ أي: بل هم أحياء. وقُرئ منصوبًا،[١] أي: بلِ احسَبْهم أحياءً، على / أنّ الحُسبان بمعنى اليقين، كما في قوله:[٢] [١١٧و]

حسِبتُ التُّقى والمجدَ خيرَ تجارةٍ رَباحًا إذا ما المرءُ أصبَح ثاقلا[٣]

أو على أنّه واردٌ على طريق المُشاكلة.

﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ في محلّ الرفع على أنّه خبر ثانٍ للمبتدأ المقدّر، أو صفة لـ﴿أَحۡيَآءٌ﴾، أو في محلّ النصبِ على أنّه حال مِن الضمير في ﴿أَحۡيَآءٌ﴾. وقيل: هو ظرف لـ﴿أَحۡيَآءٌ﴾، أو للفعل بعده. والمراد بالعِنديّة: التقرّب والزُّلفى. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّةِ المنبئةِ عن التربية والتبليغِ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم مزيدُ تكرمةٍ لهم.

﴿يُرۡزَقُونَ﴾ أي: مِن الجنّة. وفيه تأكيد لكونهم أحياءً، وتحقيق لمعنى حياتِهم.

قال الإمام الواحدي: «الأصحّ في حياة الشهداء ما رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن أنّ أرواحَهم في أجواف طيرٍ خُضْرٍ وأنّهم يُرزقون ويأكلون ويتنعّمون».[٤]

ورُوي عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «لمّا أصيب إخوانكم بأحُد جعل الله أرواحَهم في أجواف طيرٍ خُضرٍ تدور في أنهار الجنّة -ورُوي: ترِدُ أنهارَ الجنّة... إلخ-، وتأكُل مِن ثِمارها، وتسرَح[٥] مِن الجنّة حيث شاءت، وتأوي إلى قناديلَ مِن ذهب معلّقةٍ في ظلّ العرشِ».[٦]

وفيه دلالة على أنّ روح الإنسان جسم لطيف لا يفنى بخراب البدَن، ولا يتوقّف عليه إدراكُه وتألّمه والتِذاذُه. ومَن قال بتجرّد النفوسِ البشريّة يقول: المراد أنّ نفوسَ الشهداء تتمثّل طيرًا خُضرًا، أو تتعلّق[٧] بها فتلتذّ بما ذُكر.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٥.

٢ س + تعالى.

٣ ي: ثافلًا. | بغير نسبة في شرح التسهيل لابن مالك، ٨١/٢. وهو للَبيد في لسان العرب لابن منظور، «ثقل»، بلفظ:

رأيتُ التُّقى والحمد خيرَ تجارة...

٤ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٢١/١. وانظر الأحاديث التالية.

٥ وفي هامش س ي: ثعلبي. «منه». | الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠١/٣.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٤٤٠/١؛ مسند الإمام أحمد، ٢١٨/٤ (٢٣٨٨)؛ سنن أبي داود، ١٥/٣ (٢٥٢٠).

٧ ي: وتتعلّق.

وقيل: المراد أنّها تتعلّق بالأفلاك والكواكبِ فتلتذّ بذلك وتكتسب زيادةَ كمال.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وهو شرف الشهادة، والفوز بالحياة الأبديّة، والزلفى مِن الله عزّ وجلّ، والتمتّع بالنعيم المخلّد عاجلًا. ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ يُسَرّون بالبِشارة ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم﴾ أي: بإخوانهم الذين لم يُقتلوا بعدُ في سبيل الله فيلحقوا بهم ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ متعلِّق بـ﴿يَلْحَقُوا۟﴾، والمعنى: أنّهم بقُوا بعدهم، وهم قد تقدّموهم. أو بمحذوف وقع حالًا مِن فاعل ﴿يَلْحَقُوا۟﴾، أي: لم[١] يَلحقوا بهم حالَ كونِهم متخلِّفين عنهم باقين في الدنيا.

﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بدل مِن "الذينَ" بدلَ اشتمالٍ مبيّنٍ لكون استبشارِهم بحال إخوانِهم لا بذواتهم. و"أنْ" هي المخفّفة مِن "أنّ"، واسمُها ضمير الشأن المحذوف، وخبرُها الجملة المنفيّة، أي: يستبشرون بما تبيّن لهم مِن حسن حالِ إخوانِهم الذين تركوهم، وهو أنّهم عند قتلِهم يفوزون بحياة أبديّةٍ لا يكدِّرُها خوفُ وقوعِ محذور، ولا حزنُ فواتِ مطلوبٍ، أو لا خوفَ عليهم في الدنيا مِن القتل، فإنّه عينُ الحياة التي يجب أن يُرغَب فيها فضلًا عن أن تُخافَ وتُحذَر، أي: لا يعتريهم ما يوجب ذلك، لا أنّه يعتريهم ذلك لكنّهم لا يخافون ولا يحزنون. والمراد بيان دوامِ انتفاءِ الخوفِ والحزن، لا بيانُ انتفاءِ دوامِهما[٢] كما يوهمه كونُ الخبرِ في الجملة الثانية مضارعًا، فإنّ النفي وإن دخل على نفس المضارع يفيدُ الدوامَ والاستمرارَ بحسب المقام.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ﴾ كُرِّر لبيان أنّ الاستبشار المذكورَ ليس بمجرّد عدم الخوف والحزن؛ بل به وبما يقارِنُه مِن نعمةٍ عظيمةٍ لا يقادَرُ قَدرُها، وهي ثواب أعمالِهم.

---

[١] ي: ولم.

[٢] ي: دوامها.

وقد جُوِّز أن يكون الأوّل متعلِّقًا بحال إخوانِهم، وهذا بحال أنفسِهم بيانًا لبعض ما أُجمل في قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.[١] ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بمحذوف وقع صفةً لـ"نعمةٍ" مؤكِّدةً لِما أفادها التنكيرُ مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: كائنةٍ منه تعالى. ﴿وَفَضْلٍ﴾ أي: زيادة عظيمة كما في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس، ١٠/٢٦].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بفتح ﴿أَنَّ﴾ عطفٌ على ﴿فَضْلٍ﴾ منتظِم معه في سلك المستبشَرِ به. والمراد بـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إمّا الشهداءُ، والتعبيرُ عنهم بـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ للإيذان بسموّ رُتبة الإيمان وكونِه مناطًا لِما نالوه مِن السعادة، وإمّا كافّةُ أهل الإيمان مِن الشهداء وغيرهم، ذُكرت تَوفية أجورِهم على إيمانهم وعُدّت مِن جملة ما يَستبشِر به الشهداء بحكم الأخُوّة في الدِّين. وقُرئ بكسرها[٢] على أنّه[٣] استئناف معترِض دالّ على أنّ ذلك أجرٌ لهم على إيمانهم، مُشعِر بأنّ مَن لا إيمانَ له أعمالُه مُحبَطة لا أجرَ لها. وفيه مِن الحثّ على الجهاد والترغيبِ في الشهادة والبعثِ على ازدياد الطاعة وبشرى المؤمنين بالفلاح ما لا يخفى.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ صفة مادِحة لـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لا مخصِّصة، أو نصب على المدح أو رُفع على الابتداء، والخبرُ قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بجملته. و﴿مِنْ﴾ للبيان. والمقصودُ مِن الجمع بين الوصفين المدحُ والتعليل، لا التقييد؛ لأنّ المستجيبين كلَّهم مُحسنون ومتّقون.

رُوي أنّ أبا سفيان وأصحابَه لمّا انصرفوا مِن أُحُد فبلغوا الرَّوحاءَ[٤] ندِموا وهمّوا بالرجوع فبلغ ذلك رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم فأراد أن يُرهِبهم

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٤.

[٣] ي: أنّها.

[٤] وفي هامش ي: ممدود؛ اسم موضع بين مكّة والمدينة. «منه».

ويُريَهم مِن نفسه وأصحابه قوةً، فندَب أصحابَه للخروج في طلب أبي سفيان، وقال: «لا يخرُجنَّ معنا إلّا مَن حضر يومَنا بالأمس»،[١] فخرج صلّى الله عليه وسلّم مع جماعة حتّى بلغوا حمراءَ الأسدِ[٢] وهي مِن المدينة على ثمانية أميال، وكان بأصحابه القَرْح، فتحاملوا[٣] على أنفسهم حتّى لا يفوتَهم الأجر، وألقى الله الرعبَ في قلوب المشركين فذهبوا، فنزلت.[٤]

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ يعني: الرَّكب الذين استقبلوهم مِن عبد قيس، أو [١١٧ظ] نُعيم بن / مسعود الأشجعي. وإطلاق الناس عليه لِما أنّه مِن جنسهم، وكلامُه كلامُهم، يقال: فلان يركب الخيل ويلبَس الثياب، وما له سوى فرسٍ فردٍ وغير ثوبٍ واحد. أو لأنّه انضمّ إليه ناسٌ مِن المدينة وأذاعوا كلامَه.

﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ رُوي أنّ أبا سفيان نادى عند انصرافِه مِن أحُد: يا محمّد موعدُنا موسمُ بدر لقابل إن شئت، فقال عليه السلام: «إن شاء[٥] الله تعالى»، فلمّا كان القابلُ خرج أبو سفيان في أهل مكّة حتّى نزل مرَّ الظَّهران،[٦] فألقى الله تعالى في قلبه الرعبَ، وبدا له أن يرجِع فمرّ به ركبٌ مِن بني عبدِ قيسٍ يريدون المدينةَ للمِيرة[٧] فشرَط لهم حِملَ بعيرٍ مِن زبيب إن ثبّطوا[٨] المسلمين.[٩]

وقيل: لقيَ نُعيمَ بن مسعود[١٠] وقد قدِم معتمِرًا فسأله ذلك، فالتزم له عشرًا

---

١ وفي هامش ي: أي: وقفتنا بالأمس، وأيام العرب: وقائعهم. «منه».
٢ وفي هامش ي: اسم موضع. «منه».
٣ وفي هامش ي: أي: حملوا المشقّة. «منه».
٤ الكشّاف للزمخشري، ١/٤٤٠؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/٢٠٨.
٥ ي: انشاء.
٦ وفي هامش ي: اسم موضع. «منه».
٧ وفي هامش ي: للطعام. «منه».
٨ وفي هامش ي: أي: منعوا. «منه».
٩ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤٩؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٤٣٦.
١٠ هو نُعيم بن مسعود الغطفاني الأشجعي، أبو سلمة (ت. نحو ٣٠هـ/٦٥٠م). أسلم زمن الخندق، وهو الذي خذّل بين الأحزاب. وكان يسكن المدينة. روى عنه ولداه سلَمة وزينب. وله حديث عند أحمد وغيره. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ٤/١٥٠٨؛ والإصابة لابن حجر، ١١/١٠٨؛ والأعلام للزركلي، ٨/٤١.

مِن الإبل وضمِنها منه سهيلُ بن عمرو،[١] فخرج نُعيمٌ ووجد المسلمين يتجهّزون للخروج، فقال لهم: «أتوكم في دياركم فلم يُفلت منكم أحدٌ إلّا شَريد، أفترَون أن تَخرُجوا وقد جمعوا لكم؟»[٢] ففرّوا، فقال عليه السلام: «والذي نفسي بيده لأخرُجَنَّ ولو لم يخرُج معي أحَد»، فخرج في سبعين راكبًا كلُّهم يقولون: حسبنا الله ونِعم الوكيل.[٣]

قيل: هي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار.[٤]

﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ الضمير المستكِنّ للمَقول، أو لمصدرِ ﴿قَالَ﴾، أو لفاعله إن أُريد به نُعيم وحدَه، والمعنى: أنّهم لم يلتفتوا إلى ذلك؛ بل ثبُت به يقينُهم بالله تعالى، وازداد اطمئنانُهم، وأظهروا حميّةَ الإسلامِ، وأخلصوا النيّةَ عنده. وهو دليل على أنّ الإيمان يتفاوت زيادةً ونقصانًا؛ فإنّ ازدياد اليقينِ بالإلْفِ وكثرةِ التأمّلِ وتناصُرِ الحجج ممّا لا ريب فيه. ويعضُده قول ابنِ عمرَ رضي الله عنهما: قلنا: يا رسولَ الله؛ الإيمانُ يزيدُ وينقص؟ قال: «نعم يزيد حتّى يُدخِلَ صاحبَه الجنّة، وينقُص حتّى يُدخِلَ صاحبَه النار».[٥]

﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: مُحسِبُنا الله وكافينا، مِن "أحسَبه" إذا كفاه. والدليل على أنّه بمعنى المُحسِب: أنّه لا يستفيد بالإضافة تعريفًا في قولك: هذا رجلٌ حَسبُك. ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، أي: نِعم الموكولُ إليه. والمخصوص بالمدح محذوف، أي: الله عزّ وجلّ.

---

[١] هو سُهيل بن عمرو، أبو يزيد (ت. ١٨هـ/٦٣٩م). كان خطيبَ قريش، وفصيحهم، ومِن أشرافهم. تأخّر إسلامه إلى يوم الفتح، ثمّ حسُن إسلامه. وكان سمحًا، جوادًا، مفوّهًا. وكان أميرًا على كُردوس يوم اليرموك. قال المدائني وغيره: استشهد يوم اليرموك. وقال الشافعي والواقدي: مات في طاعون عَمَواس. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٨٥/١؛ والإصابة لابن حجر، ٥١٩/٤؛ والأعلام للزركلي، ١٤٤/٣.

[٢] وفي هامش ي: عند الموسم. «منه».

[٣] الكشّاف للزمخشري، ٤٤١/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩/٢.

[٤] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمّد صلّى الله عليه وسلّم حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾». صحيح البخاري، ٣٩/٦ (٤٥٦٣).

[٥] الكشف والبيان للثعلبي، ٢١١/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٤٢/١.

﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾

﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾ عطفٌ على مقدَّر ينسحب عليه الكلام، أي: فخرجوا إليهم ووافَوا الموعِد. رُوي أنّه عليه السلام وافى بجيشه بدرًا وأقام بها ثمانيَ ليالٍ، وكانت معهم تجاراتٌ، فباعوها وأصابوا خيرًا كثيرًا.[١] والباء في قوله تعالى: ﴿بِنِعۡمَةٖ﴾ متعلّقة بمحذوف وقع حالًا مِن الضمير في ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾، والتنوين للتفخيم، أي: فرَجَعوا مِن مقصِدهم ملتبسين بنعمة عظيمةٍ لا يُقادَر قدرُها.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بمحذوف وقعَ صفةً لـ"نِعمة" مؤكِّدةً لفخامتها الذاتيّة التي يفيدها التنكيرُ بالفخامة الإضافيّة، أي: كائنةٍ مِن الله تعالى؛ وهي العافية والثبات على الإيمان والزيادة فيه وحذَرُ العدوّ منهم.

﴿وَفَضۡلٖ﴾ أي: ربحٍ في التجارة. وتنكيره أيضًا للتفخيم. ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ حال أخرى مِن الضمير في ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾، أو مِن المستكِنّ في الحال، كأنّه قيل: منعَّمين حالَ كونِهم سالمين عن السوء، والحالُ إذا كان مضارعًا منفيًّا بـ"لم" وفيه ضميرُ ذي الحالِ جاز فيه دخولُ الواو، كما في قوله تعالى: ﴿أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ﴾ [الأنعام، ٩٣/٦]، وعدمُه، كما في هذه الآية الكريمة وفي قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗا﴾ [الأحزاب، ٢٥/٣٣].

﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ في كلّ ما أتَوا مِن قول وفعل ﴿رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الذي هو مَناط الفوزِ بخير الدارين. ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ حيث تفضَّل عليهم بالتثبيت، وزيادةِ الإيمان، والتوفيقِ للمبادرة إلى الجهاد، والتصلّبِ في الدين، وإظهارِ الجرأةِ على العدوّ، وحفِظَهم عن كلّ ما يَسوءهم مع إصابة النفع الجليل. وفيه تحسير[٢] لمَن تخلّف عنهم، وإظهار لِخطأ رأيهم حيث حرَموا أنفسَهم ما فاز به هؤلاء. ورُوي أنّهم قالوا: «هل يكون هذا غزوًا؟» فأعطاهم الله عزّ وجلّ ثوابَ الغزوِ ورضي عنهم.[٣]

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٤٤١/١. وبمعناه في الكشف والبيان للثعلبي، ٢١٠/٣.

[٢] ط: تخسير.

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ٢١٤/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٤٢/١.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٥﴾

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى المثبِّط، أو إلى مَن حمَله على التثبيط. والخطاب للمؤمنين. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ إمّا خبرُه، وقوله تعالى: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ جملة مستأنَفة مبيِّنة لشيطَنته، أو حال[1] كما في قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾... إلخ [النمل، ٥٢/٢٧]. وإمّا صفتُه، والجملة خبرُه. ويجوز أن يكون الإشارةُ إلى قوله[2] على تقدير مضافٍ، أي: إنّما ذلكم قول الشيطان، أي: إبليس. والمستكِنّ في ﴿يُخَوِّفُ﴾ إمّا للمقدّر، وإمّا لـ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بحذف الراجعِ إلى المقدَّر، أي: يخوِّف به.

والمراد بـ﴿أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ إمّا أبو سفيان وأصحابُه، فالمفعولُ الأوّل محذوف، أي: يخوِّفكم أولياءَه، كما هو قراءة ابن عبّاس وابنِ مسعودٍ رضي الله تعالى[3] عنهم،[4] ويؤيّده قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أي: أولياءَه ﴿وَخَافُونِ﴾ في مخالفة أمري. وإمّا[5] القاعدون، فالمفعولُ الثاني محذوف، أي: يخوِّفهم الخروجَ مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والضميرُ البارز في ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ لـ﴿ٱلنَّاسَ﴾[6] الثاني، أي: فلا تخافوهم فتقعُدوا عن القتال وتجبُنوا، وخافوني فجاهدوا مع رسولي، وسارعوا إلى ما يأمركم به. والخطاب لفريقَي الخارجين والقاعدين. والفاء لترتيب النهي أو الانتهاءِ على ما قبلَها، فإنّ كونَ[7] المُخوِّف شيطانًا ممّا يوجب عدمَ الخوفِ والنهيَ عنه.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإنّ الإيمان يقتضي إيثارَ خوفِ الله عزّ وجلّ على خوف غيرِه، ويستدعي الأمْنَ مِن شرّ الشيطان وأوليائه.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦﴾

---

١ ي + كما.

٢ ي + تعالى.

٣ س ي - تعالى.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عنهم. انظر: المحتسب لابن جنّي، ١٧٧/١؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٤٠/٣.

٥ السياق: والمراد بـ﴿أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ إمّا أبو سفيان... وإمّا القاعدون...

٦ آل عمران، ١٧٣/٣.

٧ ي: كان.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيه له إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لتشريفه بتخصيصه بالتسلية، والإيذانِ بأصالته في تدبير أمورِ الدينِ، والاهتمامِ بشئونه.

﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي: يقعون فيه سريعًا لغاية حرصِهم عليه وشدّةِ
[١١٨و] رغبتِهم فيه. وإيثار كلمةِ ﴿فِى﴾ على ما وقع في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ / مَغْفِرَةٍ﴾ الآية [آل عمران، ٣/١٣٣] للإشعار باستقرارهم في الكفر، ودوام[١] ملابستهم له في مبدأ المسارعة ومنتهاها، كما في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون، ٢٣/٦١]، فإنّ ذلك مؤذِن بملابستهم للخيرات وتقلّبِهم في فنونها في طرفَي المسارعةِ وتضاعيفِها. وأمّا إيثار كلمة ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾... إلخ [آل عمران، ٣/١٣٣] فلأنّ المغفرة والجنّة منتهى المسارعةِ وغايتُها.

والمراد بالموصول المنافقون مِن المتخلّفين وطائفةٌ مِن اليهود حسبما عُيّن في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ﴾ [المائدة، ٥/٤١]. وقيل: قوم ارتدّوا عن الإسلام، والتعبيرُ عنهم بذلك للإشارة بما في حيّز الصلةِ إلى مَظِنّة وجودِ المنهيِّ عنه واعترائِه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أي: لا يَحْزُنوك بمسارعتهم في الكفر، ومبادرتِهم إلى تمشية أحكامِه، ومُظاهرتِهم لأهله. وتوجيه النهي إلى جهتهم -مع أنّ المقصود نهيُه عليه السلام عن التأثّر منهم للمبالغة في ذلك-[٢] لِما أنّ النهي عن التأثير نهيٌ عن التأثّر بأصله، ونفيٌ له بالمرّة. وقد يوجَّه النهيُ إلى اللازم والمرادُ هو النهي عن الملزوم، كما في قولك: لا أَرَيَنَّك ههنا.

وقُرئ: "لَا يُحْزِنْكَ"،[٣] مِن "أحزَنَ المنقولِ" مِن "حَزِنَ" بكسر الزاء. والمعنى واحد. وقيل: معنى "حَزَنه" جعل فيه حُزْنًا، كما في دَهَنه، أي: جعل فيه دُهْنًا،

---

١ ط – ودوام.

٢ وفي هامش ط س ي: أي: في نهيه عليه السلام عن التأثّر. «منه».

٣ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٤.

ومعنى "أحزَنَه" جعله حزينًا. وقيل: معنى "حَزَنه" أحدث له الحُزْن، ومعنى "أحزَنَه" عرَّضه للحُزْن.

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ تعليل للنهي وتكميل للتسلية بتحقيق نفيِ ضررِهم أبدًا، أي: لن يضرّوا بذلك أولياءَ الله البتّةَ. وتعليق نفي الضررِ به تعالى لتشريفهم والإيذانِ بأنّ مُضارّتَهم بمنزلة مضارّته سبحانه. وفيه مزيدُ مبالغةٍ في التسلية.

وقوله تعالى: ﴿شَيْـًٔا﴾ في حيّز النصبِ على المصدريّة، أي: شيئًا مِن الضرر. والتنكير لتأكيد ما فيه مِن القلّة والحقارةِ. وقيل: على نزع الجارّ، أي: بشيء ما أصلًا. وقيل: المعنى لن يُنقِصوا بذلك مِن ملكه تعالى وسلطانه شيئًا، كما روى أبو ذرّ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «لو أنّ أوّلكم وآخِركم وجِنّكم وإنسكم كانوا على أتقى قلبِ رجُلٍ منكم ما زاد ذلك في مُلك الله شيئًا، ولو أنّ أوّلكم وآخركم وجنّكم وإنسكم كانوا على أفجرِ قلبِ رجُلٍ منكم ما نَقص مِن مُلك الله جناحُ بعوضة».[1] والأوّل هو الأنسب بمقام التسلية والتعليل.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ استئناف مبيّن لسرّ ابتلائهم بما هم فيه مِن الانهماك في الكفر. وفي ذِكر الإرادة مِن الإيذان بكمال خلوص الداعي إلى حِرمانهم وتعذيبهم حيث تعلّقت بهما إرادةُ أرحَمِ الراحمين ما لا يخفى. وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام الإرادة واستمرارِها، أي: يريد الله بذلك أن لا يجعل لهم في الآخرة حظًّا ما مِن الثواب، ولذلك تركهم في طغيانهم يعمهون إلى أن يهلِكوا على الكفر.

﴿وَلَهُمْ﴾ مع ذلك الحِرمانِ الكلّيّ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادَرُ قدرُه، قيل: لمّا دلّت المسارعة في الشيء على عِظَم شأنِه وجلالةِ قدرِه عند المسارع وُصف عذابُه بالعِظَم رعايةً للمناسبة، وتنبيهًا على حقارة ما سارعوا فيه وخَسَاستِه في نفسه. والجملة إمّا مبتدَأة مبيّنة لحظّهم مِن العقاب إثرَ بيان أن لا شيءَ لهم مِن الثواب، وإمّا حال مِن الضمير في لهم، أي: يريد الله حِرمانهم مِن الثواب مُعدًّا لهم عذابٌ عظيم.

---

[1] صحيح مسلم، ١٩٩٤/٤ (٢٥٧٧)؛ المستدرك للحاكم، ٢٦٩/٤ (٧٦٠٦).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٧﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: أخذوه بدلًا منه رغبةً فيما أخذوه وإعراضًا عمّا تركوه. وقد مرّ تحقيق القول في هذه الاستعارة في تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة، ١٦/٢] مستوفًى.

﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ تفسيره كما مرّ، غيرَ أنّ فيه تعريضًا ظاهرًا باقتصار الضررِ عليهم، كأنّه قيل: وإنّما يضُرّون أنفسَهم. فإن جُعل الموصول عبارةً عن المسارعين المعهودين -بأن يُراد باشتراء الكفر بالإيمان إيثارُه عليه، إمّا بأخذه[١] بدلًا مِن الإيمان الحاصلِ بالفعل كما هو حال المرتدّين، أو بالقوّة القريبة منه الحاصلةِ بمشاهدة دلائلِه في التوراة كما هو شأنُ اليهود ومنافقيهم- فالتكريرُ لتقرير الحُكم وتأكيدِه ببيان علّته بتغيير عنوانِ الموضوع، فإنّ ما ذكر في حيّز الصلة مِن الاشتراء المذكور صريحٌ في لُحوق ضرره بأنفسهم وعدم تعدّيه إلى غيرهم أصلًا، كيف لا، وهو عَلَم في الخسران الكلّيّ والحِرمان الأبديّ، دالٌّ على كمال سخافة عقولهم وركاكةِ آرائهم؟ فكيف يتأتّى منهم ما يتوقّف على قوّة الحزم ورزانة الرأي ورصانة التدبير مِن مُضارّة حزبِ الله تعالى، وهي أعزّ مِن الأبلَق[٢] الفرد، وأمنعُ مِن عُقاب الجوّ.[٣]

وإن أُجري الموصول على عمومه -بأن يراد بالاشتراء المذكورِ القدرُ المشترَك الشامل للمعنيَين المذكورَين، ولأخذ الكفرِ بدلًا ممّا نُزّل منزلةَ نفس الإيمان مِن الاستعداد القريبِ له الحاصلِ بمشاهدة الوحي الناطق، وملاحظةِ الدلائلِ المنصوبةِ في الآفاق والأنفس كما هو دأبُ جميع الكفرة- فالجملة مقرِّرة لمضمون ما قبلها تقريرَ القواعدِ الكلّيّة لِما اندرج تحتها مِن جزئيّات الأحكامِ.

---

[١] ي: أخذه.

[٢] وفي هامش ي أ: هو حصن حصين لسموأل[(١)] بن عاديا بناه أبوه. وقيل: بناه سليمان عليه السلام «منه». | [(١)] هامش ي: لسندل. | وفي مجمع الأمثال للميداني، ٤٣/٢: «أعزّ مِن الأبلَق العَقوق» يُضرب في عِزّة الشيء، والعرب كانت تسمّي الوفاء: "الأبلَق العَقوق" لعِزّة وجوده.

[٣] "أمنعُ مِن عُقاب الجوّ" مثَل قاله عمرو بن عديّ لقصير بن سعد في قصّته مع الزباء. انظر: مجمع الأمثال للميداني، ٣٢٣/٢. والعُقاب -بضمّ العين-: طائر يضرب به المَثل في العِزّة والمَنَعة.

هذا وقد جوّز كونُ الموصولِ الأوّل عامًّا للكفّار، والثاني خاصًّا بالمعهودين.[١] وأنت خبير بأنّه مع خلوّه عن النُّكَت المذكورة ممّا لا يليق بفخامة شأن التنزيل؛ لِما أنّ صدور المسارعةِ في الكفر بالمعنى المذكور وكونَها مظِنّةً لإيراث الحُزْن لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم -كما يُفهم مِن النهي عنه- إنّما يُتصوّر ممّن عُلم اتّصافُه بها، وأمّا مَن لا يُعرف حالُه مِن الكفرة الكائنين في الأماكن البعيدة فإسنادُ المسارعة المذكورة إليهم واعتبارُ كونِها مِن مبادي حُزْنِه عليه السلام[٢] ممّا لا وجه له.

/ وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جملة مبتدَأة مبيّنة لكمال فظاعة عذابِهم بذِكر غاية إيلامِه بعد ذكر نهايةِ عِظَمِه. قيل: لمّا جرَت العادة باغتباط[٣] المشتري بما اشتراه، وسرورِه بتحصيله عند كون الصفقة رابحةً، وبتألّمه عند كونها خاسرةً؛ وُصف عذابهم بالإيلام مراعاةً لذلك. [١١٨ظ]

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٧٨﴾

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ﴾ الآية.[٤] والفعل مسند إلى الموصول. و"أنّ" بما في حيّزها سادّة مسدَّ مفعولَيه عند سيبويهِ لتمام المقصود بها؛ وهو تعلّق الفعل القلبيّ بالنسبة بين المبتدأ والخبر، ومسدَّ أحدِهما والآخرُ محذوف عند الأخفش. و"ما" مصدريّة، أو موصولة حُذف عائدُها، ووصلُها في الكتابة لاتّباع الإمام. أي: لا يحسبنّ الكافرون أنّ إملاءنا لهم أو أنّ ما نُمليه لهم خير لأنفسهم، أو لا يحسبنّ الكافرون خيريّةَ إملائِنا لهم أو خيريّةَ ما نُمليه لهم ثابتةً أو واقعةً ومآلُه نهيُهم عن السرور بظاهر إملائه تعالى لهم بناءً على حُسبان خيريّته لهم وتحسيرِهم ببيان أنّه شرّ بحتٌ وضررٌ محضٌ، كما أنّ مآل المعطوف عليه

---

١ أشار إليه الزمخشري في الكشّاف، ١/٤٤٤.

٢ ي: صلّى الله عليه وسلّم.

٣ ي: باغتياط.

٤ آل عمران، ٣/١٧٦.

نهيُ الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن الحُزن بظاهر حال الكفرةِ بناءً على توهّم الضرر مِن قِبَلهم وتسليتِه عليه السلام ببيان عجزِهم عن ذلك بالكلّيّة.

والمراد بالموصول إمّا جنسُ الكفرة، فيندرج تحت حكمه الكلّيّ أحكامُ المعهودين اندراجًا أوّليًا، وإمّا المعهودون خاصّة، فإيثار الإظهار على الإضمار لرعاية المقارنة الدائمة بين الصلة وبين الإملاء الذي هو عبارة عن إمهالهم وتخليتِهم وشأنَهم دهرًا طويلًا، فإنّ المقارِن له دائمًا إنّما هو الكفر المستمرّ، لا المسارعة المذكورة، ولا الاشتراء المذكور، فإنّهما مِن الأحوال المتجدّدة المتقضّيةِ[١] في تضاعيف الكفر المستمرّ.

وقُرئ: "لا تَحْسَبَنَّ" بالتاء،[٢] والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو الأنسب بمقام التسلية، أو لكلّ مَن يَتأتّى منه الحُسبان قصدًا إلى إشاعة فظاعة حالِهم، والموصول مفعول، و﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ إمّا بدل منه، وحيث كان التعويل على البدل -وهو سادٌّ مسدَّ المفعولين كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ [الفرقان، ٤٤/٢٥]- اقتُصر على مفعولٍ واحدٍ، كما في قولك: جعلتُ المتاعَ بعضَه فوق بعضٍ، وإمّا مفعول ثانٍ بتقدير مضافٍ، إمّا فيه، أي: لا تحسبنّ الذين كفروا أصحابَ أنّ الإملاء خير لأنفسهم، أو في المفعول الأوّل، أي: لا تحسبنّ حالَ الذين كفروا أنّ الإملاء خير لأنفسهم. ومعنى التفضيل باعتبار زعمِهم.

﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا﴾ استئناف مبيّن لحكمة الإملاء. و"ما" كافّة. واللام لامُ الإرادة، وعند المعتزلة لامُ العاقبة. وقُرئ بفتح الهمزة ههنا على إيقاع الفعلِ عليه، وكسرِها فيما سبق[٣] على أنّه اعتراض بين الفعل ومعمولِه

---

١ ي: المنقضّية.

٢ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٤.

٣ قراءة شاذّة فيهما، عزاها الزمخشري إلى يحيى بن وثاب، وذكر الكرماني كسر الأولى عن يحيى بن وثاب وأبي حنيفة، وذكرها الهذلي عن أبي حنيفة، ولم يذكرا فتح الثانية. قال أبو حيّان: «والذين نقلوا قراءة يحيى لم يذكروا أنّ أحدًا قرأ الثانية بالفتح إلّا هو [يعني: الزمخشري]، إنّما ذكروا أنّه قرأ الأولى بالكسر. ولكنّ الزمخشري مِن ولوعه بنصرة مذهبه يروم ردَّ كلِّ شيء إليه». انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٤٤٥؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٦؛ والكامل للهذلي، ص ٣٧٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٤٤٦.

مفيدٌ لمزيد الاعتناءِ بإبطال الحسبان وردِّه، على معنى: لا يحسبنّ الكافرون أنّ إملاءنا لهم لازدياد الإثم حسبما هو شأنُهم؛ بل إنّما هو لتَلافي ما فَرَط منهم بالتوبة والدخولِ في الإيمان.

﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لمّا تضمّن الإملاء التمتيعَ بطيّبات الدنيا وزينتِها، وذلك ممّا يستدعي التعززَ والتجبّر؛ وُصف عذابُهم بالإهانة؛ ليكون جزاؤهم جزاءً وفاقًا. فالجملة[1] إمّا مبتدَأة مبيّنة لحالهم في الآخرة إثرَ بيان حالهم في الدنيا، وإمّا حال مِن الواو، أي: ليزدادوا إثمًا مُعَدًّا لهم عذابٌ مهين، وهذا متعيّن على القراءة الأخيرة.

﴿مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

﴿مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ كلام مستأنف مَسوق لوعدِ المؤمنين ووعيدِ المنافقين بالعقوبة الدنيويّة التي هي الفضيحة والخِزْي إثرَ بيانِ عقوبتِهم الأخرويّة. والمراد بـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلِصون.

وأمّا الخطاب فقد قيل: إنّه لجمهور المصدِّقين مِن أهل الإخلاص وأهلِ النفاق، ففيه التِفات في ضمن التلوين.[2] والمراد بـ"ما هم عليه": اختلاط بعضِهم بعضًا واستواؤهم في إجراء أحكام الإسلام عليهم؛ إذ هو القدْر المشترَك بين الفريقين.

وقيل:[3] إنّه للكفّار والمنافقين، وهو قول ابن عبّاس رضي الله عنهما[4] والضحّاك ومُقاتل والكلبي رضي الله عنهم وأكثرِ المفسّرين،[5] ففيه تلوين فقط،

---

[1] ي: والجملة.

[2] وفي هامش ط س ي: حيث وجّه الخطابَ إليهم، وقد كان قبلُ موجَّهًا إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأُدرج فيه المؤمنون إثرَ جريان ذكرهم بطريق الغيبة. «منه».

[3] وفي هامش ي: ثعلبي. «منه».

[4] س - رضي الله عنهما.

[5] انظر: جامع البيان للطبري، ٦/٢٦٣؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣/٢١٨.

ولعلّ "المنافقين" عطفٌ تفسيريٌّ للكفّار، وإلّا فلا شَرِكةَ بين المؤمنين والمجاهرين في أمر مِن الأمور. والمراد بـ"ما هم عليه" ما مرّ مِن القدْر المشترَك، فإنّه كما يجوز نسبته إلى الفريقين معًا يجوز نسبته إلى كلّ منهما، لا الكفرُ والنفاقُ كما قيل،[1] فإنّ المؤمنين ما كانوا مشاركين لهم في ذلك حتّى لا يُتركوا عليه.

وقيل: إنّه للمؤمنين خاصّة، وهو قول أكثرِ أهلِ المعاني، ففيه تلوين والتفات[2] كما مرّ. والتعرّض لإيمانهم قبل الخطاب للإشعار بعلّة الحُكم. والمراد بـ"ما هم عليه" ما مرّ غيرَ مرّة.

والأوّل هو الأقرب، وإليه جنَح المحقّقون مِن أهل التفسير لكونه صريحًا في كون المرادِ بـ"ما هم عليه" ما ذُكر مِن القدْر المشترَك بين الفريقين[3] مِن حيث هو مشترَك بينهما، بخلاف القولين الأخيرين، فإنّهما بمَعزِل مِن ذلك، كيف لا والمفهومُ ممّا عليه المنافقون هو الكفر والنفاق، وممّا عليه المؤمنون هو الإيمان والإخلاص، لا القدْر المشترَك بينهما. ولئن فُهم ذلك فإنّما يفهم مِن حيث الانتسابُ إلى أحدهما، لا مِن حيث الانتسابُ إليهما معًا. وعليه يدور أمر الاختلاط المُحوِج إلى الإفراز.

واللام في ﴿لِيَذَرَ﴾ إمّا متعلّقة بالخبر المقدّر لِـ﴿كَانَ﴾ كما هوْ رأي البَصْريّة، وانتصابُ الفعل بعدها بـ"أن" المقدّرة، أي: ما كان الله مريدًا أو متصدّيًا لأن يذَرَ المؤمنين... إلخ. ففي توجيه النفيِ إلى إرادة الفعل / تأكيد ومبالغة ليست في [١١٩و] توجيهه إلى نفسه. وإمّا مزيدة للتأكيد ناصبة للفعل بنفسها كما هو رأي الكوفيّة، ولا يقدح في ذلك زيادتُها، كما لا يقدح زيادة حروفِ الجرّ في عملها.

---

[1] انظر: تفسير القرطبي، ٢٨٨/٤.

[2] ي: والالتفات.

[3] وفي هامش ي أ: كإجراء أحكام الإسلام عليهم مثلًا، فإنّه مشترَك بين الفريقين؛ لكنّ الخطاب إذا كان لأحدهما يلاحظ انتسابه إلى ذلك الفريق لا إليهما معًا حتى يحتاج إلى التميز؛ أمّا على تقدير كون الخطاب للمؤمنين فظاهر، وأمّا على التقدير الأخير فلأنّ عدم ترك المؤمنين على ما عليه المنافقون وإن كان مُشعرًا بالاشتراك في الجملة؛ لكنّ إشعاره بالاشتراك فيما ذكر ليس أجلى مِن إيهامه للاشتراك فيما هو المتبادَر ممّا هم عليه مِن الكفر والنفاق، فتدبّر. «منه».

وقوله عزّ وجلّ: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ غاية لِما يفيده النفي المذكور، كأنّه قيل: ما يتركهم الله على ذلك الاختلاط؛ بل يقدِّر الأمورَ ويرتّب الأسبابَ حتّى يعزِلَ المنافقَ مِن المؤمن. وفي التعبير عنهما بما ورد به النظم الكريم تسجيلٌ على كلّ منهما بما يليق به، وإشعارٌ بعلّة الحُكم.

وإفراد الخبيث والطيّب -مع تعدّد ما أريد بكلّ منهما وتكثّره، لا سيّما بعد ذكرِ ما أريد بأحدهما -أعني: المؤمنين بصيغة الجمع- للإيذان بأنّ مدار إفرازِ أحدِ الفريقين مِن الآخر هو اتّصافهما بوصفهما، لا خصوصيّةُ ذاتِهما[1] وتعدّدُ آحادِهما، كما في مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ [النساء، ٣/٤]. ونظيره قوله تعالى: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج، ٢/٢٢]، حيث قصد الدلالةَ على الاتّصاف بالوصف مِن غير تعرّضٍ لكون الموصوفِ مِن العقلاء أو غيرِهم.

وتعليق المَيْزِ بالخبيث المعبَّر به عن المنافق -مع أنّ المتبادِر ممّا سبق مِن عدم تركِ المؤمنين على الاختلاط تعليقُه بهم وإفرازُهم عن المنافقين- لِما أنّ المَيْزَ الواقع بين الفريقين إنّما هو بالتصرّف في المنافقين، وتغييرِهم مِن حال إلى حال مغايرةٍ للأُولى مع بقاء المؤمنين على ما كانوا عليه مِن أصل الإيمان وإن ظهر مزيد إخلاصِهم، لا بالتصرّف فيهم وتغييرِهم مِن حال إلى حال أخرى مع بقاء المنافقين على ما هم عليه مِن الاستتار. ولأنّ فيه مزيدَ تأكيد للوعيد، كما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة، ٢٢٠/٢]. وإنّما لم يُنسَبْ عدمُ التركِ إليهم لِما أنّه مُشعِر بالاعتناء بشأن مَن نُسب إليه، فإنّ المتبادِر منه عدمُ الترك على حالة غيرِ ملائمة، كما يشهد به الذوق السليم.

وقُرئ: "حَتَّى يُمَيِّزَ"[2] مِن التمييز.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ تمهيد لبيان المَيزِ الموعودِ على طريق تجريد الخطابِ للمخلِصين تشريفًا لهم.

---

[1] ط: داتهما.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٤٤/٢.

وقوله عزّ وجلّ:[١] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ إشارة إلى كيفيّة وقوعِه على سبيل الإجمال. وإظهار الاسمِ الجليلِ في الموضعين لتربية المهابة. فالمعنى: ما كان الله لِيتركَ المخلِصين على الاختلاط بالمنافقين؛ بل يرتّب المبادي حتّى يُخرِج المنافقين مِن بينهم، وما يفعل ذلك باطّلاعكم على ما في قلوبهم مِن الكفر والنفاقِ، ولكنّه تعالى يوحي إلى رسوله عليه السلام فيخبرُه بذلك وبما ظهر منهم مِن الأقوال والأفعال حسبما حُكي عنهم بعضُه فيما سلَف، فيفضَحهم على رءوس الأشهاد، ويُخلّصكم مِن خِسّة الشركاء، وسوءِ جِوارهم.

والتعرّض للاجتباء للإيذان بأنّ الوقوف على أمثال تلك الأسرار الغيبيّةِ لا يتأتّى إلّا ممّن رشّحه الله تعالى لمَنصِبٍ جليلٍ تقاصرت عنه هِممُ الأمم، واصطفاه على الجماهير لإرشادهم. وتعميم الاجتباء لسائر الرسل عليهم السلام للدلالة على أنّ شأنه عليه السلام في هذا الباب أمرٌ مَتينٌ، له أصل أصيل، جارٍ على سنّة الله تعالى المَسلوكةِ فيما بين الرسل الخالية عليهم السلام.[٢]

وتعميم الأمر في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ مع أنّ سَوق النظمِ الكريم للإيمان بالنبيّ عليه السلام لإيجاب الإيمانِ به بالطريق البرهانيّ والإشعارِ بأنّ ذلك مستلزِم للإيمان بالكلّ، لأنّه مصدِّق لِما بين يديه مِن الرسل، وهم شهداء بصِحّة نبوّتِه عليه السلام.[٣] والمأمور به الإيمانُ بكلّ ما جاء به عليه السلام فيدخُل فيه تصديقُه عليه السلام فيما أخبَر به[٤] مِن أحوال المنافقين دخولًا أوّليًا، هذا هو الذي يقتضيه جزالة النظم الكريم.

وقد جُوّز أن يكون المعنى: لا يترككم مختلطين حتّى يَميز الخبيثَ مِن الطيّب بأن يكلّفَكم التكاليفَ الصعبة التي لا يصبِر عليها إلّا الخُلَّص الذين امتحن الله تعالى قلوبهم، كبَذل الأرواح في الجهاد، وإنفاقِ الأموال في سبيل الله تعالى، فيُجعل ذلك عِيارًا على عقائدكم وشاهدًا بضمائركم حتّى يعلمَ بعضُكم بما في قلب بعض بطريق الاستدلال لا مِن جهة الوقوف على ذات الصدور،

---

[١] ي: تعالى.
[٢] ط: عليهم الصلاة والسلام.
[٣] ي: صلّى الله عليه وسلّم.
[٤] ي - به.

فإنّ ذلك ممّا استأثر الله تعالى به.

وأنت خبير بأنّ الاستدراك باجتباء الرسل المُنبئ عن مزيد مزيّتهم وفضلِ معرفتِهم على الخلق إثرَ بيان قصورِ رُتبتِهم عن الوقوف على خفايا السرائر؛ صريحٌ في أنّ المراد إظهارُ تلك السرائر بطريق الوحي، لا بطريق التكليف بما يؤدّي إلى خروج أسرارهم عن رتبة الخفاء. وأقرب مِن ذلك حملُ الآية الكريمة على أن تكون مسوقةً لبيان الحكمة في إملائه تعالى للكفرة إثرَ بيان شرّيّتِه لهم.

فالمعنى: ما كان الله ليَذر المُخلِصين على الاختلاط أبدًا كما تركهم كذلك إلى الآن لسرٍّ يقتضيه؛ بل يفرُز عنهم المنافقين، ولذلك فعلَه يومئذ حيث خلّى الكفرةَ وشأنَهم، فأبرز لهم صورةَ الغَلَبة، فأظهر مَن في قلوبهم مرضٌ ما فيها مِن الخبائث وافتُضحوا على رءوس الأشهادِ.

وقيل: قال الكافرون: إن كان محمّد صادقًا فليُخبرنا؛ مَن يؤمن منّا ومَن يكفر، فنزلت.[1]

﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟﴾ أي: بما ذكر حقَّ الإيمان، ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ أي: عدمَ مراعاة حقوقه، أو النفاقَ، ﴿فَلَكُمْ﴾ بمقابلة ذلك الإيمان والتقوى ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يُبلغ كُنهُه.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ بيان لحال البخل ووَخامة عاقبته، وتخطئةٌ لأهله في توهّم خيريّته حسَبَ بيانِ حال الإملاء. وإيراد ما بخِلوا[2] به بعنوان إيتاءِ الله تعالى إيّاه مِن فضله للمبالغة في بيان سوء صنيعهم، فإنّ ذلك مِن موجِبات بَذلِه في سبيله، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد، ٧/٥٧].

---

[1] جامع البيان للطبري، ٢٦٤/٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٤٥/١.

[2] ي: يخلوا.

والفعل مسنَد إلى الموصول. والمفعول الأوّل محذوف لدلالة الصلة
[١١٩ظ] عليه. وضمير الفصل راجع إليه، أي: لا يحسَبنّ الباخِلون / بما آتاهم الله مِن فضله مِن غير أن يكون لهم مَدخل فيه أو استحقاق له هو خيرًا لهم مِن إنفاقه. وقيل: الفعل مسنَد إلى ضمير النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أو إلى ضمير مَن يحسَب، والمفعولُ الأوّل هو الموصولُ بتقدير مضافٍ، والثاني ما ذُكر، كما هو كذلك على قراءة الخِطاب،[١] أي: ولا يحسَبَنَّ بخلَ الذين يبخلون بما آتاهم الله مِن فضله هو خيرًا لهم.

﴿بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ﴾ التنصيص على شَرِّيته لهم -مع انفهامها مِن نفي خيريّته- للمبالغة في ذلك. والتنوين للتفخيم. وقوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ بيان لكيفية شَرِّيته، أي: سيلزَمون وبالَ ما بخِلوا به إلزامَ الطَّوق، على أنّه حُذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مُقامه للإيذان بكمال[٢] المناسبة بينهما. ورُوي عن النبيّ عليه السلام[٣] أنّه قال: «ما مِن رجل لا يؤدّي زكاة ماله إلّا جعل الله له شُجاعًا في عنقه يوم القيامة».[٤]

وقيل: يجعل ما بَخل به مِن الزكاة حيّةً في عنقه تَنهشُه مِن قَرنه إلى قدمه وتنقُر رأسَه، وتقول: أنا مالُك. ﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده لا لأحد[٥] غيرِه استقلالًا أو اشتراكًا.

﴿مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: ما يتوارثه أهلُهما مِن مال وغيره مِن الرسالات[٦] التي يتوارثها أهلُ السماواتِ،[٧] فما لهم يبخلون عليه بمُلكه، ولا يُنفقونه في سبيله؟ أو أنّه يرث منهم ما يُمسِكونه، ولا ينفقونه في سبيله تعالى عند هلاكهم وتبقى عليهم الحَسرةُ والندامة.

---

١ أي: "لا تَحْسَبَنّ"، وقرأ بها حمزة الزيّات. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٤.
٢ ي: بكلّ.
٣ ي: صلّى الله عليه وسلّم.
٤ سنن الترمذي، ٥/٢٣٢ (٣٠١٢)؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٥١.
٥ ط: إلى أحد.
٦ ي: الرسالة.
٧ وفي هامش ط ي: كالمُلك والولاية والأحوال التي ينتقل مِن واحد إلى غيره، ولا يعدّ في الشرع مالًا، ولعلّ في أهل السماء مثل ذلك أيضًا. «منه».

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن المنع والبخلِ ﴿خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم على ذلك. وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة. والالتفات للمبالغة في الوعيد، والإشعارِ باشتداد غضبِ الرحمن الناشئ مِن ذكر قبائحهم. وقُرِئ بالياء على الظاهر.[١]

﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١﴾

﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾ قالته اليهود لمّا سمعوا قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [البقرة، ٢/٢٤٥]. ورُوي أنّه عليه السلام كتب مع أبي بكر رضي الله عنه إلى يهودِ بني قَينُقاعَ يدعوهم إلى الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يُقرضوا[٢] الله قَرضًا حسنًا، فقال فِنحاص: «إنّ الله فقير حين سألنا القَرض»، فلطمه أبو بكر رضي الله عنه في وجهه، وقال: «لولا الذي بيننا وبينكم مِن العهد لضربت عُنقَك»، فشكاه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وجحَد ما قاله، فنزلت.[٣] والجمع حينئذ مع كون القائلِ واحدًا لِرضى الباقين بذلك.

والمعنى: أنّه لم يخْفَ عليه تعالى وأعدّ له مِن العقاب كِفاءه. والتعبير عنه بالسماع للإيذان بأنّه مِن الشَّناعة والسَّماجة بحيث لا يرضى قائلُه بأن يسمَعَه سامع. والتوكيد القَسَميّ للتشديد في التهديد، والمبالغةِ في الوعيد.

﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ﴾ أي: سنكتب ما قالوه مِن العظيمة الشَّنعاءِ في صحائف[٤] الحفَظة، أو سنحفظه ونُثبته في علمنا لا ننساه ولا نهمله كما يثبت المكتوب. والسين للتأكيد، أي: لن يفوتنا أبدًا تدوينُه وإثباتُه؛ لكونه في غاية العِظم والهَول، كيف لا وهو كفرٌ بالله تعالى، واستهزاءٌ بالقرآن العظيم والرسولِ الكريمِ؟ ولذلك عُطف عليه قوله تعالى: ﴿وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ﴾ إيذانًا بأنّهما في العِظم أخَوان،

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٥.

٢ ط: يقرض.

٣ الكشّاف للزمخشري، ١/٤٤٧. وأخرج القصّة بأطول مِن ذلك الطبري في جامع البيان، ٦/٢٧٨.

٤ ي: صحيفة.

وتنبيهًا على أنّه ليس بأوّل جريمةٍ ارتكبوها؛ بل لهم فيه سوابق، وأنّ مَن اجترَأ على قتل الأنبياءِ لم يُستبعَد منه أمثالُ هذه العظائم.

والمراد بـ﴿قَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾: رضاهم بفعل أسلافِهم. وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ متعلّق بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿قَتْلَهُمُ﴾، أي: كائنًا بغير حقّ في اعتقادهم أيضًا كما هو في نفس الأمر. وقُرئ: "سَيَكْتُبُ" على البناء للفاعل،[١] و"سَيُكْتَبُ" على البناء للمفعول "وَقَتْلُهُمْ" بالرفع.[٢]

﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: وننتقم منهم بعد الكَتْبة؛ بأن نقول لهم: ذوقوا العذاب المُحرِق كما أذقتم المسلمين الغُصَص. وفيه مِن المبالغات[٣] ما لا يخفى. وقُرئ: "وَيَقُولُ" بالياء،[٤] و"يُقَالُ" على البناء للمفعول.[٥]

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ١٨٢﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى العذاب المذكور. وما فيه مِن معنى البُعدِ للدلالة على عِظَم شأنه، وبُعد منزلته في الهول والفظاعة. وهو مبتدأ، خبرُه قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بسبب ما اقترفتموه مِن قَتل الأنبياءِ والتفوُّهِ بمثل تلك العظيمةِ وغيرِها مِن المعاصي. والتعبير عن الأنفُس بالأيدي لِما أنّ عامّة أفاعيلِها تُزاوَل بهنّ.

ومحلُّ ﴿أَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ الرفعُ على أنّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ. والجملة اعتراض تذييليّ مقرِّر لِمضمون ما قبلها، أي: والأمرُ أنّه تعالى ليس بمعذِّبٍ لعبيده بغير ذنب مِن قِبَلهم. والتعبير عن ذلك بنفي الظلم -مع أنّ تعذيبهم بغير ذنبٍ[٦] ليس بظلم، على ما تقرّر مِن قاعدة أهلِ السنّة، فضلًا عن كونه ظلمًا بالغًا- لبيان كمالِ نزاهتِه تعالى عن ذلك بتصويره

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٦.

٢ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٥.

٣ ط س: المبالغة.

٤ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٦.

٦ ي - بغير ذنب.

بصورة ما يستحيل صدورُه عنه سبحانه مِن الظلم، كما يعبّر عن ترك الإثابة على الأعمال بإضاعتها مع أنّ الأعمال غيرُ موجبةٍ للثواب حتّى يلزَمَ مِن تخلُّفه عنها ضَياعُها.

وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذُكر مِن التعذيب بغير ذنبٍ في صورة المبالغةِ في الظلم، وقيل: هي لرعاية جمعيّةِ العبيد، مِن قولهم: فلان ظالمٌ لعبده، وظلّام لعبيده، على أنّها للمبالغة كمًّا لا كيفًا.

هذا وقد قيل: محلُّ ﴿أَنَّ﴾ الجرُّ بالعطف على "مَا قَدَّمَتْ"، وسببيّتُه[١] للعذاب مِن حيث إنّ نفيَ الظلم مستلزِم للعدل المقتضي لإثابة المُحسِن ومعاقبةِ المُسيء.[٢] وفساده ظاهر، فإنّ ترك التعذيب مِن مستحِقّه ليس بظلم شرعًا ولا عقلًا حتّى ينتهضَ نفيُ الظلم سببًا للتعذيب حسبما ذكره القائل في سورة الأنفال.[٣]

وقيل: سببيّة ذنوبهم لعذابهم مقيَّدة بانضمام انتفاء ظلمِه تعالى إليها؛ إذ لولاه لأمكن أن يعذِّبَهم بغير ذنوبهم. وأنت خبير بأنّ إمكان تعذيبِه تعالى لعبيده بغير ذنبٍ بل وقوعَه[٤] لا ينافي كونَ تعذيبِ هؤلاءِ / الكفرةِ بسبب ذنوبهم حتّى [١٢٠و]
يُحتاجَ إلى اعتبار عدمِه معه، وإنّما يُحتاج إلى ذلك إن لو كان المدَّعَى أنّ جميع تعذيباتِه تعالى بسبب ذنوب المعذَّبين.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ نصب أو رُفع على الذمّ. وهم: كعب بن الأشرف، ومالك بن صيفي، وحُيَيّ بن أخطب، وفِنحاص بن عازوراء،[٥] ووَهْب بن يهودا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَا﴾ أي: أمَرنا في التوراة وأوصانا ﴿أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾

---

[١] ط: وسببيته.

[٢] قاله الزمخشري في الكشّاف، ١/٤٤٧؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢/٥٢.

[٣] يعني: البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢/٦٣ (الأنفال، ٨/٥١).

[٤] ط: وقوعَه.

[٥] ي: عازوا.

كما كان عليه أمرُ أنبياءِ بني إسرائيل حيث كان يُقرَّب بالقُربان، فيقوم النبيّ فيدعو، فتَنزل نار مِن السماء فتأكُله، أي: تُحيله إلى طبعها بالإحراق. وهذا مِن مُفترَياتهم وأباطيلهم، فإنّ أكْل النارِ القُربانَ لم يوجب الإيمان إلّا لكونه معجزة، فهو وسائرُ المعجزات سواء.[١]

ولمّا كان مُحصَّلُ كلامِهم الباطلِ: أنّ عدم إيمانهم برسول الله[٢] صلّى الله عليه وسلّم لعدم إتيانه بما قالوا، ولو تحقّق الإتيان به لَتحقّق الإيمان؛ رُدّ عليهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: تبكيتًا لهم وإظهارًا لكذبهم ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ﴾ كثيرةُ العددِ كبيرةُ المقدار ﴿مِن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات الواضحة ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ بعينه مِن القُربان الذي تأكله النار.[٣] ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: فيما يدلّ عليه كلامكم مِن أنكم تؤمنون لرسول يأتيكم بما اقترحتموه، فإنّ زكريّا ويحيى وغيرَهما مِن الأنبياء عليهم السلام[٤] قد جاءوكم بما قلتم في معجزات أُخَر، فما لكم لم تؤمنوا لهم حتّى اجترَأتم على قتلهم؟

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ شروع في تسلية رسولِ الله صلّى الله تعالى[٥] عليه وسلّم إثرَ ما أوحي إليه ما يُحزنه عليه السلام مِن مقالات الكفَرة مِن المشركين واليهود. وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تعليل لجواب الشرط، أي: فتَسَلَّ فقد كُذّب... إلخ. و﴿مِن﴾ متعلّقة بـ﴿كُذِّبَ﴾، أو بمحذوف هو صفة لـ﴿رُسُلٌ﴾، أي: كائنةٌ مِن قبلك.

﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات الواضحات. صفة لـ﴿رُسُلٌ﴾. ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ هو جمعُ "زَبور"؛ وهو الكتاب المَقصور على الحِكَم، مِن "زَبَرْتُه" إذا حسّنته. وقيل: "الزُّبُر": المواعظُ والزواجرُ، مِن "زبَرتُه" إذا زجَرتَه. ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ قيل:

---

١ ي - سواء ["صح" في الهامش: شرع في ذلك].
٢ ط + تعالى.
٣ ط - النار.
٤ ط: عليهم الصلاة والسلام.
٥ س ي - تعالى.

أي: التوراةِ والإنجيلِ والزبورِ. والكتابُ في عرف القرآن ما يتضمّن الشرائعَ والأحكام، ولذلك جاء "الكتاب" و"الحكمة" متعاطِفَين في عامّة المواقع. وقُرئ: "وَبِالزُّبُرِ"[١] بإعادة الجارِّ؛ دلالةً على أنّها مغايِرة بالذات للبيّنات.

﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾

﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ وعد ووعيد للمصدِّق والمكذِّب. وقُرئ: "ذَائِقَةٌ الْمَوْتَ" بالتنوين[٢] وعدمِه،[٣] كما في قوله:

ولا ذاكـــــرِ الله إلّا قليـــــلا[٤]

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ﴾ أي: تُعطَون أجزية أعمالِكم على التمام والكمال ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: يوم قيامِكم مِن القبور. وفي لفظ "التوفية" إشارة إلى أنّ بعض أجورِهم يصِل إليهم قبله، كما يُنبئ عنه قوله عليه السلام: «القبر روضة مِن رِياض الجنّة، أو حُفرة مِن حُفَر النيران».[٥]

﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ أي: بُعِّد عنها يومئذ ونُجّي. و"الزَّحزَحة" في الأصل: تكرير الزَّحّ؛ وهو الجذب بعجَلة. ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ بالنجاة ونَيل المرادِ. و"الفوز": الظفَر بالبُغية، وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن أحبّ أن يُزَحزَحَ عن النار ويُدخَلَ الجنّة فلتُدرِكْه مَنيّتُه وهو يؤمن بالله واليومِ الآخِر ويؤتِ[٦] إلى الناس ما يحبّ أن يُؤتى إليه».[٧]

---

١ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي حَيوة وأبي البرهم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٦.

٣ قراءة شاذّة، نقلها الزمخشري عن الأعمش. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٤٤٨.

٤ تمامه:

فـألـفـيـتُـه غـيـرَ مُـسـتـعـتِـبٍ
ولا ذاكـــرِ اللهَ إلّا قليـــلا

وهو لأبي الأسود الدؤلي في الكتاب لسيبويه، ١/١٦٩. و"غيرَ مستعتِب" أي: غير راجع بالعتاب عن قبيح ما يفعل. والشاهد: أنه حذَف التنوين مِن "ذاكرٍ" لالتقاء الساكنين، لا للإضافة. شرح أبيات سيبويه للسيرافي، ١/٦٦.

٥ اللباب لابن عادل، ٣/٧٩. وهو في سنن الترمذي، ٤/٦٣٩-٦٤٠ (٢٤٦٠)، بلفظ: "حُفر النار".

٦ كذا في الأصول الخطّيّة، وفي مسند الإمام أحمد: "ويأتي"، وفي سنن النسائي: "وليأتِ".

٧ مسند الإمام أحمد، ١١/٤٠٠ (٦٧٩٣)؛ صحيح ابن حبّان، ١٣/٢٩٥ (٥٩٦١)؛ سنن النسائي، ٧/١٥٢ (٤١٩١).

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي: لَذّاتها وزخارفُها ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ شبِّهت بالمتاع الذي يُدلَّس به على المُستام ويُغرّ حتّى يشتريَه، وهذا لمَن آثرها على الآخرة، فأمّا مَن طلب بها الآخرةَ فهي له متاعُ بلاغٍ. و﴿ٱلْغُرُورِ﴾ إمّا مصدر، أو جمع "غارّ".

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ شروع في تسلية رسول الله صلّى الله تعالى[١] عليه وسلّم ومَن معه مِن المؤمنين عمّا سيلقَونه مِن جهة الكفَرة مِن المَكاره إثرَ تَسليتهم عمّا قد وقع منهم؛ لِيوطِّنوا أنفسهم على احتماله عند وقوعه، ويستعدّوا للقائه، ويقابلوه بحسن الصبر والثباتِ. فإنّ هجوم الأوجالِ ممّا يزلزل أقدامَ الرجال، والاستعدادَ للكروب ممّا يهوِّن الخطوب. وأصلُ الابتلاء: الاختبار، أي: تُطلَب الخِبرة بحال المُختبَر بتعريضه لأمر يشُقّ عليه غالبًا ملابَستُه أو مفارقتُه، وذلك إنّما يُتصوّر حقيقةً ممّن لا وقوفَ له على عواقب الأمور. وأمّا مِن جهة العليم الخبير فلا يكون إلّا مجازًا مِن تمكينه للعبدِ مِن اختيارِ أحد الأمرين أو الأمور قبل أن يرتِّب عليه شيئًا هو مِن مباديه العاديّة كما مرّ.[٢]

والجملة جواب قَسَم محذوف، أي: واللهِ لتُبلوُنَّ، أعني: لتُعامَلُنّ معاملةَ المُختبَر؛ لِيَظهر[٣] ما عندكم مِن الثبات على الحقّ والأعمال الحسنة. وفائدة التوكيد إمّا تحقيق[٤] معنى الابتلاءِ تهوينًا للخَطْب، وإمّا تحقيق وقوع المبتلى به مبالغةً في الحثّ على ما أريد منهم مِن التهيُّؤ والاستعداد.

﴿فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بما يقع فيها مِن ضروب الآفاتِ المؤدّيةِ إلى هلاكها.[٥] وأمّا إنفاقها في سُبُل الخيرِ مطلقًا فلا يليق نظمُه في سلك الابتلاء لِما أنّه مِن باب الإضعاف، لا مِن قبيل الإتلاف. ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالقتل والأسر والجِراحِ وما يرِدُ عليها

---

١ س ي – تعالى.

٢ وفي هامش ط ي: أي: في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة، ٢/١٢٤]. «منه».

٣ ي: ليظر.

٤ ي: تحقّق.

٥ وفي هامش ط س ي: قال سبحانه: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة، ٢/٢٧٦]، وقال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم، ٣٠/٣٩]. «منه».

مِن أصناف المتاعب والمخاوف والشدائد ونحو ذلك. وتقديم الأموال لكثرة وقوع الهلَكة فيها.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: مِن قَبل إيتائِكم القرآن، وهم اليهود والنصارى، عبّر عنهم بذلك للإشعار بمَدار الشِّقاقِ، والإيذانِ بأنّ بعض ما يسمعونه منهم مستنِدٌ على زعمهم إلى الكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾... إلخ [آل عمران، ١٨٣/٣]. والتصريحُ بالقَبْليّة لتأكيد الإشعارِ وتقويةِ المدارِ، فإنّ قِدَم نزولِ كتابِهم ممّا يؤيّد تمسُّكَهم به. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ مِن الطَّعن / في الدين الحنيف، والقَدْح في أحكام الشرعِ الشريف، [١٢٠ظ] وصدِّ مَن أراد أن يؤمِنَ، وتَخطئةِ مَن آمَن، وما كان مِن كعب بنِ الأشرف وأضرابِه مِن هجاء المؤمنين وتحريضِ المشركين على مُضادّة رسولِ الله صلّى الله تعالى[١] عليه وسلّم ونحوِ ذلك ممّا لا خير فيه.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟﴾ أي: على تلك الشدائد والبلوى عند وُرودها، وتقابلوها بحسن التحمُّل، ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ أي: تتبَتَّلوا إلى الله تعالى بالكلّيّة مُعرِضين عمّا سواه بالمرّة، بحيث تساوى عندكم وصولُ المحبوب ولقاءُ المكروه. ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الصبر والتقوى. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ درجتهما وبُعدِ منزلتهما. وتوحيد حرفِ الخطابِ إمّا باعتبار كلّ واحدٍ مِن المخاطَبين، وإمّا لأنّ المراد بالخطاب مجرّدُ التنبيه مِن غير ملاحظة خصوصيّة أحوالِ المخاطَبين.

﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ مِن معزوماتها التي يتنافس فيها المتنافسون، أي: ممّا يجب أن يَعزِمَ عليه كلُّ أحد لِما فيه مِن كمال المزيّة والشرف، أو ممّا عزَم الله تعالى عليه وأمر به وبالَغ فيه، يعني: إنّ ذلك عَزمةٌ مِن عَزَمات الله[٢] لا بدّ أن تصبِروا وتتّقوا. والجملة تعليل لجواب الشرطِ واقعٌ موقِعَه، كأنّه قيل: وإن تصبروا وتتّقوا فهو خير لكم، أو فافعلوا، أو فقد أحسنتم، أو فقد أصبتم، فإنّ ذلك... إلخ. ويجوزُ أن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى صبر المخاطَبين وتقواهم،

---

١ س ي - تعالى.

٢ عَزمة مِن عَزَمات الله، أي: حقّ مِن حقوقه وواجب مِن واجباته. النهاية لابن الأثير، «عزم».

فالجملة حينئذ جوابُ الشرط.

وفي إبراز الأمرِ بالصبر والتقوى في صورة الشرطيّة مِن إظهار كمالِ اللُّطفِ بالعباد ما لا يخفى.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ كلام مستأنَف سيق لبيان بعضِ أذِيّاتِهم، وهو كِتمانهم ما في كتابهم مِن شواهد نبوّته صلّى الله تعالى[١] عليه وسلّم وغيرِها.[٢] و﴿إِذْ﴾ منصوب على المفعوليّة بمضمَر أُمِر به النبيّ صلّى الله[١] عليه وسلّم خاصّة بطريق تجريد الخطاب إثرَ الخطاب الشامل له عليه السلام وللمؤمنين؛ لكون مضمونِه مِن الوظائف الخاصّة به عليه السلام.

وتوجيه الأمرِ بالذِّكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مِن الحوادث مع أنّها المقصودة بالذات للمبالغة[٣] في إيجاب ذكرِها على ما مرّ بيانُه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ﴾... إلخ [البقرة، ٢/٣٠]، أي: اذكر وقت أخذِه تعالى ﴿مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهم علماء اليهود والنصارى. ذُكروا بعنوان إيتاءِ الكتاب مبالغةً في تقبيح حالِهم.

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ حكاية لِما خوطبوا به، والضمير لـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ وهو جواب لقسَم يُنبئ عنه أخذ الميثاقِ، كأنّه قيل لهم: بالله لتُبيِّنُنّه ﴿لِلنَّاسِ﴾ وتُظهِرُنّ جميعَ ما فيه مِن الأحكام والأخبار التي مِن جملتها أمرُ نبوّته صلّى الله عليه وسلّم، وهو المقصود بالحكاية. وقُرئ بالياء؛[٤] لأنّهم غُيَّب.

﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ عطفٌ على الجواب، وإنّما لم يؤكّد بالنون لكونه منفيًّا، كما في قولك: واللهِ لا يقوم زيد. وقيل: اكتُفي بالتأكيد في الأوّل لأنّه تأكيد له.

---

[١] س ي: تعالى.

[٢] ي: وغير.

[٣] ي – للمبالغة.

[٤] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٦.

وقيل: هو حال مِن ضمير المخاطَبين إمّا على إضمار مبتدأ بعد الواوِ، أي: وأنتم لا تكتمونه، وإمّا على رأي مَن جوّز دخول الواو على المضارع المنفيِّ عند وقوعه حالًا،[١] أي: لتبيّنُنّه غيرَ كاتمين. والنهي عن الكتمان بعد الأمر بالبيان إمّا للمبالغة في إيجاب المأمورِ به، وإمّا لأنّ المراد بالبيان المأمورِ به ذكرُ الآياتِ الناطقةِ بنبوّته عليه السلام، وبالكِتمان المنهيِّ عنه إلقاءُ التأويلاتِ الزائغةِ والشبهاتِ الباطلة. وقُرئ بالياء[٢] كما قبله.

﴿فَنَبَذُوهُ﴾ النَّبذ: الرَّمي والإبعاد، أي: طرَحوا ما أُخذ منهم مِن الميثاق الموثَّقِ بفنون التأكيد، وألقَوه ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يراعوه، ولم يلتفتوا إليه أصلًا، فإنّ نبذ الشيءِ[٣] وراء الظهر مَثَلٌ في الاستهانة به والإعراض عنه بالكلّيّة، كما أنّ جعله نُصْبَ العينِ عَلَمٌ في كمال العناية به. وفيه مِن الدلالة على تحتّم بيانِ الحقّ على علماء الدين، وإظهارِ ما مُنِحُوه[٤] مِن العِلم للناس أجمعين، وحُرمةِ كتمانه لغرض مِن الأغراض الفاسدة أو طمع في عرَض مِن الأعراض الفانية الكاسدةِ ما لا يخفى.

وعن النبيّ عليه السلام:[٥] «مَن كتَم عِلمًا مِن أهله أُلجِم بلِجامٍ مِن نار».[٦]

وعن طاوس أنّه قال لوَهب بن منبّه: «إنّي أرى الله سوف يعذّبك بهذه الكتُب».[٧]

وقال: «واللهِ لو كنتَ نبيًّا فكتمتَ العِلم كما تكتُمه لَرأيتُ أنّ الله سيعذّبك».[٨]

وعن محمّد بن كعب: «لا يحِلّ لأحد مِن العلماء أن يسكُت على علمه، ولا يحِلّ لجاهل أن يسكُت على جهله حتّى يَسأل».[٩]

---

١ انظر: شرح التصريح للأزهري، ٦١٢/١. وقال الشهاب الخفاجي: هو مذهب الزمخشري. انظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢٥٥/٣.

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٤٦/٢.

٣ وفي هامش ي: أي: لفظه «منه».

٤ ي: مُنحوا.

٥ ي: صلّى الله عليه وسلّم.

٦ المستدرك للحاكم، ١٨٢/١ (٣٤٦)؛ صحيح ابن حبّان، ٢٩٧/١ (٩٥).

٧ الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/١.

٨ الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/١.

٩ الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/١. ونحوه في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٨/٣.

وعن عليّ رضي الله عنه: «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلّموا حتّى أخذ على أهل العلم أن يُعلِّموا».[١]

﴿وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ﴾ أي: بالكتاب الذي أُمروا ببيانه ونُهوا عن كِتمانه، فإنّ ذِكر نبذِ الميثاقِ يدلّ على ذلك دلالةً واضحةً. وإيقاع الفعل[٢] على الكلّ -مع أنّ المراد به كتمُ بعضِه كدلائل نبوّته عليه السلام ونحوِها- لِما أنّ ذلك كتمٌ للكلّ، إذ به يتمّ الكتاب. كما أنّ رفض بعضِ أركانِ الصلاة رفضٌ لكلّها، أو بمنزلة كَتمِ الكلّ مِن حيث إنّهما سِيّانِ في الشناعة واستجرار العقاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة، ٥/٦٧].

والاشتراء مستعار لاستبدال متاعِ الدنيا بما كتَموا، أي: تركوا ما أُمروا به وأخذوا بدله ﴿ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ أي: شيئًا تافهًا حقيرًا مِن حُطام الدنيا وأعراضِها.

وفي تصوير هذه المعاملة بعقد المعاوضةِ، لاسيّما بالاشتراء المُؤْذِن بالرغبة في المأخوذ والإعراضِ عن المعطى، والتعبيرِ عن المشترَى -الذي هو العُمدة في العقد، والمقصودُ بالمعاملة- بالثمن الذي شأنُه أن يكون وسيلةً إليه، وجعلِ الكتابِ الذي حقُّه أن يتنافسَ فيه المتنافسون مصحوبًا بالباء الداخلةِ على الآلات والوسائل؛ مِن نهاية الجزالةِ والدلالةِ على كمال فظاعةِ حالِهم وغايةِ قبحِها بإيثارهم الدنيءَ الحقير على الشريف الخطير، وتعكيسِهم بجعلهم المقصِدَ / الأصليَّ وسيلةً والوسيلةَ مقصِدًا ما لا يخفى جلالةُ شأنه ورِفعةُ مكانه. [١٢١و]

﴿فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ ﴿مَا﴾ نكرة منصوبة مفسِّرة لفاعل "بئس"، و﴿يَشۡتَرُونَ﴾ صفته، والمخصوص بالذمّ محذوف، أي: بئس شيئًا يشترونه ذلك الثمن.

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨﴾

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾ الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أو لكلّ أحدٍ ممّن

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٣/٢٢٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١/٤٥١.

[٢] وفي هامش ي: اشتراء. «منه».

يصلُح له. ﴿ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ أي: بما فعلوا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ [مريم، ٦١/١٩]، ويدلّ عليه قراءة أُبيّ: "يَفرَحُونَ بِمَا فَعَلُوا".[١] وقُرئ: "بِمَا آتَوا"،[٢] بمعنى: أعطَوا، و"بِمَا أُوتُوا"،[٣] أي: بما أوتوه مِن عِلم التوراة.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هم اليهود حرّفوا التوراةَ وفرِحوا بذلك، وأحبّوا أن يوصفوا بالديانة والفضل».[٤]

ورُوي أن رسولَ الله عليه السلام[٥] سأل اليهود عن شيء ممّا في التوراة فكتموا الحقَّ وأخبروه بخلافه وأرَوْه أنّهم صدّقوه واستحمدوا إليه وفرِحوا بما فعلوا.[٦]

وقيل: فرِحوا بكِتمان النصوصِ الناطقةِ بنبوّته عليه السلام، وأحبّوا أن يُحمَدوا بأنّهم متّبعون ملّةَ إبراهيمَ عليه السلام.

فالموصول عبارة عن المذكورين أو عن مشاهيرهم،[٧] موضوعٌ موضِعَ ضميرهم. والجملة مَسوقة لبيان ما يستَتبعُه أعمالُهم المحكيّةُ مِن العقاب الأخرويّ إثرَ بيان قَباحتها. وقد أُدمج فيها بيانُ بعضٍ آخَر مِن شنائعهم، وهو إصرارهم على ما هم عليه مِن القبائح، وفرَحُهم بذلك، ومحبّتُهم لِأن يوصَفوا بما ليس فيهم مِن الأوصاف الجميلة. وقد نُظم ذلك في سلك الصلةِ التي حقُّها أن تكون معلومةَ الثبوتِ للموصول عند المخاطَب إيذانًا بشهرة اتّصافهم بذلك.

وقيل: هم قوم تخلّفوا عن الغزو ثمّ اعتذروا بأنّهم رأوا المصلحةَ في ذلك واستحمدوا به.

وقيل: هم المنافقون كافّة، وهو الأنسب بظاهر قوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾؛ لشهرةِ أنّهم كانوا يفرحون بما فعلوا مِن إظهار الإيمان

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن النخعي وابن يعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٧.

٤ اللباب لابن عادل، ١٠٨/٦. وهو بنحوه في جامع البيان للطبري ٣٠٣/٦.

٥ ي: صلّى الله عليه وسلّم.

٦ جامع البيان للطبري، ٣٠٥/٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٠/٣.

٧ وفي هامش ط س ي: إشارة إلى أنّ أهل الكتاب الذين أخذ منهم الميثاق شامل للنصارى أيضًا وإن كان أشهرهم اليهود. «منه».

وقلوبُهم مطمئنّةٌ بالكفر، ويستحمِدون إلى المسلمين بالإيمان وهم عن فعله بألفِ منزلٍ، وكانوا يُظهرون محبّةَ المؤمنين وهم في الغاية القاصيةِ مِن العداوة. فالموصول عبارة عن طائفة معهودةٍ مِن المذكورين وغيرِهم، فإنّ أكثر المنافقين كانوا مِن اليهود.

ولعلّ الأَولى إجراءُ الموصول على عمومه شاملًا لكلّ مَن يأتي بشيء مِن الحسنات فيفرحُ به فرَحَ إعجاب، ويوَدُّ أن يمدحَه الناس بما هو عارٍ منه مِن الفضائل منتظمًا للمعهودين انتظامًا أوّليًا.

وأيًا ما كان فهو مفعول أوّلُ لـ﴿تَحْسَبَنَّ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ تأكيد له، والفاء زائدة، والمفعول الثاني قوله تعالى: ﴿بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: ملتبسين بنجاة منه، على أنّ "المفازة" مصدر ميميّ، ولا يضُرّ تأنيثُها بالتاء؛ لما أنّها مبنيّة عليها، وليست للدلالة على الوحدة كما في قوله:

فلولا رجاءُ[1] النصرِ منك ورهبةٌ عقابَك قد كانوا لنا بالمَواردِ[2]

ولا سبيل إلى جعلها اسمَ مكانٍ على أنّ الجارَّ متعلِّق بمحذوف وقع صفةً لها،[3] أي: بمفازة كائنةٍ مِن العذاب؛ لأنّها ليست مِن العذاب. وتقدير فعلٍ خاصّ يصحّ به المعنى، أي: بمفازة مُنْجيةٍ مِن العذاب -مع كونه خلافَ الأصلِ- تعسّفٌ مستغنًى عنه.[4]

وقُرئ بضمّ الباء في الفعلين[5] على أنّ الخطاب شامل للمؤمنين أيضًا. وقُرئ بياء الغَيبة وفتحِ الباءِ فيهما[6] على أنّ الفعل له عليه السلام، أو لكلّ أحد

---

١ ط س: رجال.

٢ بغير نسبة في الكتاب لسيبويه، ١/١٨٩. | و"المَوارد": الطرق، الواحدة مَوردة. المعنى: لولا أنّهم يرجون أن تنصرهم علينا إن حاربناهم، ولولا أنّا نرهب عقابك إن قتلناهم، لقد صاروا لنا أذلّاء نطأهم كما يوطأ الطريق. شرح أبيات سيبويه للسيرافي، ١/٢٦٠.

٣ انظر: اللباب لابن عادل، ٦/١٠٩.

٤ قال ابن عادل: «وفيه الإشكالُ المعروف، وهو أنّه لا يُقدَّر المحذوف في مثله إلّا كَونًا مطلقًا». اللباب لابن عادل، ٦/١٠٩.

٥ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٤٥١.

٦ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٦.

ممّن يتأتّى منه الحُسبان، ومفعولاه كما ذكر. وقُرئ بضمّ الباء في الثاني فقط[١] على أنّ الفعل للموصول، والمفعولَ الأوّل محذوفٌ لكونه عينَ الفاعلِ، والثاني ﴿بِمَفَازَةٍ﴾، أي: لا يحسبَنّ الذين يفرحون أنفسَهم فائزين.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ تأكيد للأوّل، والفاءُ زائدة كما مرّ، ويجوز أن يُحمَل الفعل الأوّل على حذف المفعولين معًا[٢] اختصارًا لدلالة مفعولي الثاني عليهما، على عكس ما في قوله:

بــأيِّ كــتــابٍ أو بــأيّــةِ ســنّــةٍ   تـرى حبَّهم عـارًا علـيَّ وتحسَبُ[٣]

حيث حُذف فيه مفعولا الثاني لدلالة مفعولي الأوّل عليهما. أو على أنّ الفعل الأوّل للرسول صلّى الله عليه وسلّم أو لكلّ حاسب، ومفعولَه الأوّل الموصولُ، والثاني[٤] محذوفٌ لدلالة مفعول الفعلِ الثاني عليه، والفعلُ الثاني مسندٌ إلى ضمير الموصول، والفاءُ للعطف لظهور تفرّع عدم حُسبانهم على عدم حُسبانه عليه السلام، ومفعولاه الضميرُ المنصوبُ وقوله تعالى: ﴿بِمَفَازَةٍ﴾.

وتصدير الوعيدِ بنهيهم عن الحُسبان المذكورِ للتنبيه على بُطلان آرائِهم الركيكة، وقطعِ أطماعهم الفارغة، حيث كانوا يزعُمون أنّهم ينجون بما صنعوا مِن عذاب الآخرةِ كما نجَوا به مِن المؤاخذة الدنيويّة، وعليه كان مبنى فرحِهم، وأمّا نهيُه صلّى الله عليه وسلّم فللتعريض بحُسبانهم المذكور، لا لاحتمال وقوعِ الحُسبانِ مِن جهته صلّى الله عليه وسلّم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بعد ما أُشير إلى عدم نجاتهم مِن مطلق العذاب حُقّق أنّ لهم فردًا منه لا غايةَ له في المدّة والشدّة، كما يلوِّح به الجملة الاسميّة والتنكيرُ التفخيميّ والوصف.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ﴾ أي: خاصّةً ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: السلطانُ القاهر فيهما

---

١ مع ياء الغيبة في الفعلين، قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٦.

٢ ط - معًا.

٣ للكُميت في خزانة الأدب للبغدادي، ٤/٣١٣.

٤ ي - والثاني.

بحيث يتصرّف فيهما وفيما فيهما كيفما يشاء ويريد، إيجادًا وإعدامًا، إحياءً وإماتةً، تعذيبًا وإثابةً، مِن غير أن يكون لغيره شائبة دخلٍ في شيء مِن ذلك بوجه مِن الوجوه. فالجملة مقرِّرة لِما قبلها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ تقرير لاختصاص مُلك العالَم الجُسمانيّ -المعبَّر عنه بقُطريه- به سبحانه وتعالى، فإنّ كونه تعالى قادرًا على الكلّ بحيث لا يشِذّ مِن ملكوته شيءٌ مِن الأشياء يستدعي كونَ ما سواه كائنًا ما كان مقدورًا له، ومِن ضرورته اختصاصُ القدرة به تعالى واستحالةُ / أن يشاركه شيءٌ مِن الأشياء [١٢١ظ]
في القُدرة على شيء مِن الأشياء فضلًا عن المشاركة في مُلك السماوات والأرض.

وفيه تقرير لِما مرّ مِن ثبوت العذابِ الأليمِ لهم وعدمِ نجاتهم منه إثرَ تقرير. وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المهابة والإشعارِ بمَناط الحكم؛ فإنّ شمول القدرة لجميع الأشياء مِن أحكام الألوهيّة مع ما فيه مِن الإشعار باستقلال كلّ مِن الجملتين بالتقرير.

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جملة مستأنفة سيقت لتقرير ما سبَق مِن اختصاصه تعالى بالسلطان القاهر والقُدرة التامّةِ، صُدِّرت بكلمة التأكيد اعتناءً بتحقيق مضمونها، أي: في إنشائها على ما هي عليه في ذواتها وصفاتِها مِن الأمور التي يَحار في فهم أجلاها العقولُ.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على ما هي عليه ذاتًا وصفةً.

﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: في تعاقُبهما في وجه الأرض، وكونِ كلّ منهما خِلْفةً للآخر بحسَب طلوع الشمس وغروبِها التابعَين لحركات السماوات وسكونِ الأرض، أو في تفاوتهما بازدياد كلّ منهما بانتقاص الآخرِ، وانتقاصِه بازدياده، باختلاف حال الشمسِ بالنسبة إلينا قُربًا وبُعدًا بحسب الأزمنة، أو في اختلافهما وتفاوتِهما بحسب الأمكنة، إمّا في الطول والقِصَر؛ فإنّ البلاد القريبة مِن القُطب الشماليّ أيّامُها الصيفيّة أطولُ ولياليها الصيفيّة أقصرُ مِن أيّام البلاد

البعيدةِ منه ولياليها. وإمّا في أنفسها؛ فإنّ كُريّةَ الأرض تقتضي أن يكون بعضُ الأوقات في بعض الأماكن ليلًا، وفي مقابله نهارًا، وفي بعضها صباحًا، وفي بعضها ظهرًا أو عصرًا أو غيرَ ذلك.

و﴿ٱلَّيۡلِ﴾ قيل: إنّه اسمُ جنسٍ يُفرَّق بين واحدِه وجمعِه بالتاء، كتَمْر وتَمْرة، و"الليالي" جمعُ "جمعٍ". والصحيح أنّه مفرد، ولا يُحفظ له جمعٌ، و"الليالي" جمعُ "ليلة"، وهو جمعٌ غريبٌ، كأنّهم توهّموا أنّها لَيلاةٌ، كما في كَيْكة[١] وكَياكي، كأنّها جمعُ "كَيكاة".[٢]

و﴿ٱلنَّهَارِ﴾ اسم لِما[٣] بين طلوع الفجر وغروبِ الشمس، قاله الراغب.[٤] وقال ابن فارس:[٥] «هو ضياءُ ما بينهما».[٦]

وتقديم الليل على النهار إمّا لأنّه الأصل، فإنّ غُرر الشهورِ تظهر في الليالي، وإمّا لتقدّمه في الخلفيّة حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس، ٣٦/٣٧]، أي: نُزيلُه عنه فيخلُفه.

﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾ دخلته اللام لتأخُّره عن خبرها. والتنكير للتفخيم كمًّا وكيفًا، أي: لآياتٍ كثيرةٍ عظيمةٍ لا يُقادَر قدرُها، دالّة على تعاجيب شئونِه التي مِن جملتها ما مرّ مِن اختصاص المُلك العظيم والقدرة التامّة به سبحانه. وعدمُ التعرّضِ لِما ذُكر في سورة البقرة مِن الفُلك والمطرِ وتصريفِ الرياحِ والسحابِ[٧]

---

١ وفي هامش ط س ي: بيضة «منه». انظر: لسان العرب لابن منظور، «كيك».
٢ ي: كيكات.
٣ ي + لما.
٤ المفردات للراغب الأصفهاني، «نهر».
٥ هو أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت. ٣٩٥هـ/١٠٠٤م). العلّامة، اللغويّ، المحدّث، قرأ عليه البديع الهمذاني والصاحب ابن عبّاد وغيرهما مِن أعيان البيان. أصله مِن قزوين، وأقام مدّة في همذان، ثمّ انتقل إلى الريّ فتوفّي فيها، وإليها نِسبته. وله شعر حسن. مِن تصانيفه: مقاييس اللغة، والمجمل، والصاحبيّ، وجامع التأويل في تفسير القرآن، والإتباع والمزاوجة، والحماسة المحدثة، والفصيح، وذمّ الخطأ في الشّعر، واللامات، وأوجز السيَر لخير البشر. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبيّ، ١٧/١٠٣؛ والأعلام للزركلي، ١/١٩٣.
٦ مجمل اللغة لابن فارس، «نهر».
٧ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة، ٢/١٦٤].

لِما أنّ المقصود ههنا بيانُ استبدادِه تعالى بما ذُكر مِن المُلك والقدرة، فاكتُفي بمعظم الشواهدِ الدالّةِ على ذلك. وأمّا هناك فقد قُصِد في ضمن بيانِ اختصاصِه تعالى بالألوهيّة بيانُ اتّصافه تعالى بالرحمة الواسعة، فنُظمت دلائلُ الفضل والرحمة في سِلك دلائل التوحيد، فإنّ ما فُصّل هناك مِن[1] آيات رحمتِه تعالى، كما أنّه مِن آيات ألوهيّتِه ووحدتِه.

﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: لذوي العقول المَجلُوّة الخالصة عن شوائب الحِسّ والوهمِ، المتجرّدِين عن العلائق النفسانيّة، المتخلّصِين عن العوائق الظُّلمانيّة، المتأمّلِين في أحوال الحقائقِ وأحكامِ النعوتِ، المراقبِين[2] في أطوار المُلك وأسرارِ الملكوتِ، المتفكّرِين في بدائع صنائع المَلِكِ الخلّاق، المتدبّرِين في روائع حِكَمِه المودَعةِ في الأنفس والآفاق، الناظرين إلى العالَم بعين الاعتبار والشهود، المتفحّصِين عن حقيقة سرِّ الحقِّ في كلّ موجود، مثابرين على مراقبته وذِكراه، غيرَ ملتفِتين إلى شيء ممّا سواه إلّا مِن حيث إنّه مرآة لمشاهدة جماله، وآلة لملاحظة صفات كماله، فإنّ كلّ ما ظهر في مظاهر الإبداعِ وحضر محاضِرَ التكوينِ والاختراع سبيلٌ سوِيّ إلى عالَم التوحيد، ودليلٌ قويّ على الصانع المجيد، ناطقٌ بآيات قدرته.

فهل مِن سامع واعٍ،[3] ومخبِرٍ بأنباء علمِه وحكمتِه؟ فهل له مِن داعٍ يكلّم الناسَ على قدر عقولهم ويردّ جوابَهم بحسب مقولهم، يحاور تارة بأوضح عبارةٍ، ويلوّح أخرى بألطفِ إشارةٍ، مراعيًا في الحوار إيهامَهم وتصريحَهم، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء، ١٧/٤٤]؟ فتأمّل في هذه[4] الشئون والأسرار، إنّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار.

عن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «هل لك يا عائشةُ أن تأذَني لي[5] الليلةَ في عبادة ربّي؟» فقلت: «يا رسول الله؛ إني لأُحِبُّ

---

[1] وفي هامش ي: خبر "إنّ" «منه».
[2] ي: المتراقبين.
[3] ي: داع.
[4] س: هذا.
[5] ي - لي.

قُربَك وأحِبُّ هواك، قد أذِنت لك». فقام إلى قِربة مِن ماء في البيت، فتوضّأ ولم يُكثر مِن صبّ الماء، ثمّ قام يصلّي، فقرأ مِن القرآن، وجعل يبكي حتّى بلغ الدموعُ حِقْوَيه، ثمّ جلس فحمِد الله تعالى[1] وأثنى عليه وجعل يبكي، ثمّ رفع يديه فجعل يبكي حتّى رأيت دموعَه قد بلّت الأرض، فأتاه بلال يؤذِنه بصلاة الغداةِ فرآه يبكي، فقال له: «يا رسول الله؛ أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدّم مِن ذنبك وما تأخّر؟» فقال: «يا بلال؛ أفلا أكونُ عبدًا شكورًا؟». ثمّ قال: «وما لي لا أبكي وقد أنزل الله تعالى عليّ في هذه الليلةِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾... إلخ؟ ثمّ قال: «ويل لمَن قرأها ولم يتفكّر فيها».[2] ورُوي: «ويلٌ لمَن لاكها بين فكّيه ولم يتأمّلها».[3]

وعن عليّ رضي الله عنه أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان إذا قام مِن الليل يتسوّك،[4] ثمّ ينظر إلى السماء، ثمّ يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾... إلخ.[5]

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ الموصول إمّا موصول بـ"أُولي الألباب"[6] مجرور على أنّه نعت كاشف له بما في حيّز الصِّلة، وإمّا مفصول عنه مرفوع أو منصوب

---

[1] ي - تعالى.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٠/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٢/١؛ صحيح ابن حبّان، ٣٨٧/٢.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٤٥٢/١؛ اللباب لابن عادل، ١١٠/٦. وذكر الزيلعي رواةَ الحديث ثمّ قال: «ولم يذكروا كلّهم الرواية الثانية: "ويل لمَن لاكها بين فكّيه ولم يتأمّلها" لكن روى ابن مَردويه في تفسيره عن عائشة قالت: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم، ٢٢/٣٠] قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "ويحٌ لمَن لاكَها بين لَحيَيه ثمّ لم يتفكّر فيها"». تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٦١/١.

[4] ي: يُسوّك.

[5] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٠/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٣/١؛ وأخرج مسلم وغيره أنّ ابن عبّاس بات عند النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ذات ليلة فقام نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم مِن آخر الليل، فخرج فنظر في السماء، ثمّ تلا هذه الآية في آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [آل عمران، ١٩٠/٣] حتى بلغ ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران، ١٩١/٣]، ثمّ رجع إلى البيت فتسوّك وتوضّأ، ثمّ قام فصلّى، ثمّ اضطجع، ثمّ قام فخرج فنظر إلى السماء فتلا هذه الآية، ثمّ رجع فتسوّك فتوضأ، ثمّ قام فصلّى. صحيح مسلم، ٢٢١/١ (٢٥٦).

[6] في الآية السابقة.

على المدح، أو مرفوع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف. وقيل: هو مرفوع على الابتداء، والخبرُ هو القول المقدَّر قبل قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾. وفيه مِن تفكيك النظم الجليل ما لا يخفى.

[١٢٢و] وأيًّا ما كان فقد أُشير بما في حيّز صِلته أنّ المراد بهم / الذين لا يغفُلون عنه تعالى في عامّة أوقاتِهم لاطمئنان قلوبِهم بذكره، واستغراقِ سرائرِهم في مراقبته، لمّا أيقنوا بأنّ كلّ ما سواه فائض منه وعائد إليه، فلا يشاهدون حالًا مِن الأحوال في أنفسهم -وإليه أُشير بقوله عزّ وجلّ:[١] ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾- ولا في الآفاق -وإليه أُشير بما بعده- إلّا وهُم يعاينون في ذلك شأنًا مِن شئونه تعالى. فالمراد به ذِكرُه تعالى مطلقًا سواءٌ كان ذلك مِن حيث الذاتُ أو مِن حيث الصفاتُ والأفعال، وسواءٌ قارنه الذِّكرُ اللسانيّ أو لا.

وأمّا ما يُحكى عن ابن عمرَ وعروة بن الزبير وجماعةٍ رضي الله عنهم مِن أنّهم خرجوا يوم العيد إلى المصلّى، فجعلوا يذكرون الله تعالى، فقال بعضهم: أمَا قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾، فقاموا يذكرون الله تعالى[٢] على أقدامهم،[٣] فليس مرادهم به[٤] تفسيرَ الآية وتحقيقَ مِصداقها على التعيين، وإنّما أرادوا به التبرّكَ بنوع موافقةٍ لها في ضمن الإتيان بفرد مِن أفرادِ مدلولها.

وأمّا حَمل الذِّكر على الصلاة في هذه الأحوالِ حسب الاستطاعة كما قال عليه السلام لعِمرانَ بنِ الحُصين: «صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جَنب تومئ إيماءً»[٥] فممّا لا يساعده سِباقُ النظم الجليل ولا سياقُه.

و"القيام" و"القعود" جمعُ قائمٍ وقاعد، كـ"نيام" و"رُقود" جمعُ نائمٍ وراقد، وانتصابُهما على الحاليّة مِن ضمير ﴿يَذْكُرُونَ﴾، أي: يذكرونه قائمين وقاعدين. وقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ متعلّق بمحذوف معطوفٍ على الحالَين، أي:

---

١ ي: تعالى.
٢ ط ي - تعالى.
٣ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٣/١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦٩/٣.
٤ س - به.
٥ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٣/١. وهو في صحيح البخاري، ٤٨/٢ (١١١٧)، دون قوله: "تومئ إيماءً".

وكائنين على جنوبهم، أي: مضطجعين. والمراد تعميمُ الذِّكرِ للأوقات كما مرّ، وتخصيصُ الأحوال المذكورةِ بالذِّكر ليس لتخصيص الذِّكر بها؛ بل لأنّها الأحوالُ المعهودةُ التي لا يخلو[١] عنها الإنسان غالبًا.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عطفٌ على ﴿يَذْكُرُونَ﴾، منتظِمٌ معه في حيّز الصِّلة، فلا محلَّ له مِن الإعراب. وقيل: محلّه النصب على أنّه معطوف على الأحوال السابقة، وليس بظاهر.

وهو بيان لتفكّرهم في أفعاله سبحانه إثرَ بيان تفكّرِهم في ذاته تعالى على الإطلاق، وإشارة إلى نتيجته[٢] التي يؤدّي[٣] إليها مِن معرفة أحوالِ المَعادِ حسبما نطقَت به ألسنة الرسل وآيات الكتب، فكما أنّها آياتٌ تشريعيّة هادية للخلق إلى معرفته تعالى ووجوبِ طاعتِه كذلك المخلوقات آياتٌ تكوينيّةٌ مرشدةٌ لهم إلى ذلك. فالأُولى منبِّهاتٌ لهم على الثانية، ودواعٍ إلى الاستشهاد بها، كهذه الآية الكريمة ونحوها ممّا ورد في مواقعَ غيرِ محصورةٍ مِن التنزيل. والثانية مؤيِّداتٌ للأولى وشواهدُ[٤] دالّةٌ على صحّة مضمونها وحقّيّةِ مَكنونها.

فإنّ مَن تأمّل في تضاعيف خلقِ العالَم على هذا النمط البديع قضى باتّصاف خالقِه تعالى بجميع ما نطقَت به الرسلُ والكتب مِن الوجوب الذاتيّ، والوَحدة الذاتيّة، والمُلك القاهر، والقُدرة التامّة، والعِلم الشامل، والحكمة البالغة، وغيرِ ذلك مِن صفات الكمال. وحَكَم بأنّ مَن قدَر على إنشائه بلا مثال يحتذيه أو قانونٍ ينتحيه فهو على إعادته بالبعث أقدَر، وحَكَم بأنّ ذلك ليس إلّا لحكمة باهرةٍ هي جزاءُ المكلَّفين بحسب استحقاقِهم المَنوطِ بأعمالهم، أي: علومِهم واعتقاداتِهم التابعة لأنظارهم فيما نُصب لهم مِن الحُجج والدلائلِ والأَمارات والمَخائلِ وسائرِ أعمالِهم المتفرّعةِ على ذلك، فإنّ العمل غيرُ مختصّ بعمل الجوارح؛ بل متناولٌ للعمل القلبيّ؛ بل هو أشرف أفراده؛ لِما أنّ لكلٍّ مِن القلب والقالَب عملًا خاصًّا به.

---

[١] ي: لا يخ [اختصار مِن "لا يخلو"].
[٢] ي: النتيجة.
[٣] س: تؤدّي.
[٤] ط ي: شواهد.

ومِن قضيّة كونِ الأوّل أشرفَ مِن الثاني كونُ عملِه أيضًا أشرفَ مِن عملِه، كيف لا، ولا عملَ بدون معرفته تعالى التي هي أوّل الواجباتِ على العباد والغايةُ القُصوى مِن الخلق على ما نطَق به قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات، ٥٦/٥١]، أي: ليعرفونِ، كما أعرَب عنه قوله عليه السلام:[١] «كنتُ كنزًا مَخفيًا فأحببتُ أن أُعرَف فخلقتُ الخلقَ لأُعرَف»؟[٢]

وإنّما طريقها النظريّ التفكّر فيما ذُكر مِن شئونه تعالى. وقد رُوي عنه[٣] عليه السلام أنّه قال: «لا تُفضِلوني على يونسَ بنِ متّى، فإنّه كان يُرفع له كلَّ يومٍ مثلُ عملِ أهلِ الأرض».[٤] قالوا: وإنّما كان ذلك التفكّرَ في أمر الله تعالى، ولذلك قال عليه السلام: «لا عبادةَ مِثل التفكّر»،[٥] وقد عرفت أنّه مستتبع لتحقيق ما جاءت به الشريعة الحَقّة، وإلّا لَمَا فسّر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ٧/١١]، بقوله عليه السلام: «أيُّكم أحسنُ عقلًا وأورَعُ عن مَحارم الله تعالى».[٦]

فإنّ التورّع عن مَحارمه سبحانه[٧] موقوفٌ على معرفة الحلالِ والحرامِ المَنوطةِ بالكتاب والسنّة. فحينئذ يتصادقُ الآياتُ التكوينيّة ويتوافق الأدلّةُ العقليّة والسمعيّة، وهو السرّ في نظم ما حُكي عن المتفكّرين مِن الأمور المستدعِية للإيمان بالشريعة في سلك نتيجةِ تفكُّرِهم كما ستقف عليه.

---

[١] ي: صلّى الله عليه وسلّم.

[٢] لا يُعرف له سند. انظر: **كشف الخفاء** للعجلوني، ١٣٢/٢ (٢٠١٦).

[٣] ي: أنّه.

[٤] **الكشّاف** للزمخشري، ٤٥٤/١. وقال الزيلعي: «غريب جدًّا». **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٢٦٤/١. وفي الصحيحين عن ابن عبّاس، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير مِن يونس بن متّى عليه السلام». **صحيح البخاري**، ١٥٣/٤ (٣٣٩٥)؛ **صحيح** مسلم، ١٨٤٦/٤ (٢٣٧٧).

[٥] **الكشّاف** للزمخشري، ٤٥٤/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٤/٢. وأخرجه البيهقي في **شعب الإيمان**، ٣٥٨/٦ (٤٣٢٦) في حديث طويل.

[٦] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٥٩/٥ (هود، ٧/١١)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٨٠/٢ (هود، ٧/١١). وأخرجه الحارث في مسنده. انظر: **بُغية الباحث** لابن أبي أسامة، ٨٠٤/٢ (٨٢٠).

[٧] ي: تعالى.

وإظهار خلقِ السماواتِ والأرضِ -مع كفاية الإضمار- لإبراز كمال العنايةِ ببيان حالِهم، والإيذانِ بكون تفكّرِهم على وجه التحقيق والتفصيل. وعدمُ التعرّض لإدراج اختلافِ المَلَوَين[١] في سلك التفكّر -مع ذكره فيما سلَف-[٢] إمّا للإيذان بظهور اندراجِه فيه لِما أنّ ذلك مِن الأحوال التابعةِ لأحوال السماواتِ والأرضِ كما أُشير إليه، وإمّا للإشعار بمسارعتهم إلى الحُكم بالنتيجة بمجرّد تفكّرِهم في بعض الآياتِ مِن غير حاجةٍ إلى بعض آخَرَ منها في إثبات المطلوب.

و"الخَلقُ" مصدر على حاله، أي: يتفكّرون في إنشائهما وإبداعِهما بما فيهما مِن عجائب المصنوعات. وقيل: بمعنى المخلوق، على أنّ الإضافة بمعنى "في" -أي: يتفكّرون فيما خُلق فيهما- أعمُّ مِن أن يكون بطريق الجزئيّة منهما، أو بطريق الحلول فيهما، أو على أنّها بيانيّة.

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ / كلمةُ ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [١٢٢ظ] متضمّنةً لضربٍ مِن التعظيم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء، ٩/١٧]. والتذكير لِما أنّهما باعتبار تعلّقِ الخَلق بهما في معنى المخلوق. أو إلى "الخَلق" على تقدير كونه بمعنى المخلوق.

و﴿بَٰطِلًا﴾ إمّا صفة لمصدر مؤكِّدٍ محذوف، أو حال مِن المفعول به، أي: ما خلقتَ هذا المخلوقَ البديعَ العظيمَ الشأنِ عبثًا عاريًا عن الحكمة، خاليًا عن المصلحة، كما يُنبئ عنه أوضاعُ الغافلين عن ذلك، المعرِضين عن التفكّر فيه؛ بل منتظِمًا لحِكَم جليلةٍ ومصالحَ عظيمة، مِن جملتها أن يكون مدارًا لمعايش العباد، ومنارًا يُرشدهم إلى معرفة أحوالِ المبدأ والمَعادِ حسبما أفصحت عنه الرسلُ والكتبُ الإلهيّة كما تَحقّقتَه مفصّلًا.

والجملة بتمامها في حيّز النصب بقولٍ مقدّرٍ، هو على تقدير كون الموصولِ نعتًا لـ"أولي الألباب" استئناف مبيّن لنتيجة التفكّر ومدلولِ الآيات، ناشئٌ ممّا سبق،

---

١ المَلَوان: الليل والنهار. الصحاح للجوهري، «ملا».

٢ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ الآيةَ [البقرة، ١٦٤/٢].

فإنّ النفس عند سماع تخصيص الآياتِ المنصوبةِ في خلق العالَم بأولي الألباب ثمّ وصْفِهم بذكر الله تعالى والتفكّرِ في محالِّ تلك الآياتِ تبقى مترقِّبةً لِما يظهر منهم مِن آثارها وأحكامها، كأنّه قيل: فماذا يكون عند تفكّرِهم في ذلك؟ وماذا يترتّب عليه مِن النتيجة؟ فقيل: يقولون: كيتَ وكيتَ، ممّا يُنبئ عن وقوفهم على سرّ الخَلق المؤدِّي إلى معرفة صدق الرسلِ وحقّيّةِ الكتب الناطقةِ[1] بتفاصيل الأحكام الشرعيّة على التفصيل الذي وقفت عليه.

هذا وأمّا جعلُه حالًا مِن المستكِنّ في الفعل -كما أطبَق عليه الجمهور-[2] فممّا لا يساعده جزالةُ النظم الكريم لِما أنّ ما في حيّز الصِّلةِ وما هو قيدٌ له حقُّه أن يكون مِن مبادي الحُكمِ الذي أُجريَ على الموصول ودواعي ثبوتِه له، كذِكرهم لله[3] عزّ وجلّ[4] في عامّة أوقاتهم وتفكّرِهم في خلق السماوات والأرض، فإنّهما ممّا يؤدّي إلى اجتلاء تلك الآياتِ والاستدلالِ بها على المطلوب.

ولا ريب في أنّ قولهم ذلك ليس مِن مبادي الاستدلال المذكورِ؛ بل مِن نتائجها المترتّبة عليه، فاعتبارُه قيدًا لِما في حيّز الصِّلةِ ممّا لا يليق بشأن التنزيل الجليل. نعم هو حال مِن ذلك على تقدير كون الموصول مرفوعًا أو منصوبًا على المدح، أو مرفوعًا على أنّه خبر لمبتدأ محذوف؛ إذ لا اشتباهَ في أنّ قولهم ذلك مِن مبادي مدحِهم ومحاسنِ مناقبهم. وفي إبراز هذا القولِ في معرض الحالِ دون الخبرِ إشعارٌ بمقارنته لتفكّرهم مِن غير تلعثم وتردّدٍ في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ -أي: تنزيهًا لك ممّا لا يليق بك مِن الأمور التي مِن جملتها خلقُ ما لا حِكمةَ فيه- اعتراض مؤكِّد لمضمون ما قبله، ومُمِدٌّ[5] لِما بعده مِن قوله تعالى: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، فإنّ معرفة سرِّ خلقِ العالَم وما فيه مِن الحكمة البالغة والغايةِ الحميدة، والقيامَ بما يقتضيه مِن الأعمال الصالحة، وتنزيهَ الصانع تعالى عن العبث، مِن دواعي الاستعاذة ممّا يَحيق بالمُخلِّين[6] بذلك مِن وجهين:

---

[1] ي: الكتاب الناطق.

[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٤٥٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٥٤.

[3] ي: الله.

[4] ي: تعالى.

[5] كذا في الأصول الخطّيّة، ولعلّ الصواب: "مُمهّد".

[6] ي: بالمختلّين.

أحدهما: الوقوف على تحقّق العذابِ، فالفاءُ لترتيب الدعاء على ما ذُكر، **والثاني**: الاستعداد لقَبول الدعاءِ، فالفاءُ لترتيب المدعوِّ -أعني: الوقايةَ- على ذلك، كأنّه قيل: وإذ قد عرَفنا سرَّك وأطعنا أمرَك ونزّهناك عمّا لا ينبغي فقِنا عذاب النار الذي هو جزاء الذين لا يعرفون ذلك.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن[1] تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ مبالغة في استدعاء الوقايةِ وبيان لسببه. وتصدير الجملةِ بالنداء للمبالغة في التضرّع والجُؤار. وتأكيدُها لإظهار كمال اليقينِ بمضمونها والإيذانِ بشدّة الخوف. وإظهار النار في موضع الإضمار لتهويل أمرِها. وذكرُ الإدخال في مورد العذاب لتعيين كيفيّته وتبيين غاية فظاعتِه.

قال الواحدي: «للإخزاء معانٍ متقاربة؛ يقال: أخزاه الله، أي: أبعده،[2] وقيل: أهانه، وقيل: أهلكه،[3] وقيل: فضَحه.[4] قال ابن الأنباري: الخزيُ لغةً: الهلاكُ بتلَفٍ، أو بانقطاع حجّةٍ، أو بوقوع في بلاء».[5]

والمعنى: فقد أخزيتَه خِزيًا لا غايةَ وراءَه، كقولهم: «مَن أدرك مَرْعى الصمّانِ فقد أدرك»،[6] أي: المرعى الذي لا مرعى بعدَه. وفيه مِن الإشعار بفَظاعة العذاب الروحانيّ ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ تذييل لإظهار نهاية فظاعة حالِهم ببيان خلود عذابهم بفُقدان مَن ينصرهم ويقوم بتخليصهم، وغرضُهم تأكيدُ الاستدعاءِ. ووضعُ الظالمين موضعَ ضميرِ المُدخَلين لذمِّهم والإشعارِ بتعليل دخولِهم النارَ بظلمهم

---

١ وفي هامش ط ي: ﴿مَن﴾ شرطيّة، قدّمت(١) على عاملها(٢) المجزوم بها لِما أنّ لها صدر الكلام، والجملة في محلِّ الرفع خبرًا لـ"إنّ" «منه». | (١) هامش ط - قدّمت. (٢) هامش ط: فعلها.

٢ في التفسير البسيط: قاله الزجّاج.

٣ في التفسير البسيط: قاله المفضّل.

٤ في التفسير البسيط: قاله شَمِر.

٥ التفسير البسيط للواحدي، ٢٥٥/٦.

٦ الصمّان والصمّانة: أرض صلبة ذات حجارة إلى جنب رَمل. وقيل: الصمّان موضع إلى جنب رملٍ عالِج. وإذا أخصَبَت الصمّان رتَعَت العرب جميعها. انظر: لسان العرب لابن منظور، «صمن». وقال الميداني: «ومن كلام حُنَيف قوله: مَن قاظَ الشرف وتربَّع الحَزْن وتشتّى الصمّان فقد أصاب المرعى، فالشرف: في بلاد بني عامر، والحَزْن: مِن زَبالة مصعدًا في بلاد نجد، والصمّان: في بلاد بني تميم». مجمع الأمثال للميداني، ٨٦/١.

ووضعِهم الأشياء في غير مواضعها. وجمعُ "الأنصارِ" بالنظر إلى جمع[١] "الظالمين"، أي: ما لِظالم مِن الظالمين نصيرٌ مِن الأنصار. والمراد به: مَن ينصُر بالمدافعة والقهر، فليس في الآية دلالةٌ على نفي الشفاعة،[٢] على أنّ المراد بالظالمين هم الكفارُ.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝١٩٣﴾

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ حكاية لدعاء آخرَ لهم مبنيٍّ على تأمّلهم في الدليل السمعيّ بعد حكاية دعائِهم السابقِ المبنيّ على التفكّر في الأدلة العقليّة. وتصدير مقدّمةِ الدعاءِ بالنداء لإظهار كمال الضراعةِ والابتهال. والتأكيد للإيذان بصدور المقال عنهم بوفور الرغبة وكمالِ النشاط.

والمراد بالنداء الدعاءُ، وتعديتُهما بـ"إلى" لتضمُّنهما[٣] معنى الإنهاء، وباللام لاشتمالهما[٤] على معنى الاختصاص. والمراد بالمنادي الرسولُ صلّى الله عليه وسلّم، وتنوينُه للتفخيم، وإيثارُه على الداعي للدلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوة وتبليغِها إلى الداني والقاصي لِما فيه مِن الإيذان برفع الصوت.

و﴿يُنَادِى﴾ صفة لـ﴿مُنَادِيًا﴾ عند الجمهور، كما في قولك: سمعتُ رجلًا يقول: كيتَ وكيتَ، ولو كان معرفةً لكان حالًا منه، كما إذا قلت: سمعت زيدًا يقول... إلخ، ومفعولٌ ثانٍ / لـ﴿سَمِعْنَا﴾ عند الفارسي وأتباعِه.[٥] [١٢٣و]

وهذا أسلوب بديع يُصار إليه للمبالغة في تحقيق السماع، والإيذان بوقوعه بلا واسطةٍ عند صدور المسموعِ عن المتكلّم، وللتوسّل به إلى تفصيله واستحضارِ صورتِه. وقد اختصّ النظم الكريم بمزيّة زائدةٍ على ذلك حيث عبّر عن المسموع منه بالمنادى، ثمّ وَصَف بالنداء للإيمان على طريقة قولك: سمعت متكلّمًا يتكلّم بالحِكمة؛ لِما أنّ التفسير بعد الإبهام والتقييدَ بعد الإطلاق أوقعُ عند النفس وأجدرُ بالقَبول.

---

١ ي: جميع.
٢ كما استدلّ على ذلك الزمخشري بناء على مذهبه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٤٥٥.
٣ ي: لتضمّنها.
٤ ي: لاشتمالها.
٥ انظر: الدرّ المصون للسّمين الحلبي، ٣/٥٣٤.

وقيل: "المنادي": القرآن العظيم.

﴿أَنْ ءَامِنُوا۟﴾ أي: آمِنوا، على أنّ ﴿أَنْ﴾ تفسيريّة، أو بأنْ آمِنوا، على أنّها مصدريّة. ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ بمالِككم ومتولّي أمورِكم ومبلِّغِكم إلى الكمال. وفي إطلاق الإيمان ثمّ تقييدِه تفخيمٌ لشأنه. ﴿فَـَٔامَنَّا﴾ أي: فامتثلنا بأمره وأجبنا نداءَه.

﴿رَبَّنَا﴾ تكرير للتضرُّع، وإظهار لكمال الخضوع، وعرضٌ للاعتراف بربوبيّته مع الإيمان به. والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ لترتيب المغفرة أو الدعاءِ بها على الإيمان به تعالى والإقرارِ بربوبيّته، فإنّ ذلك مِن دواعي المغفرة والدعاءِ بها. ﴿ذُنُوبَنَا﴾ أي: كبائرَنا، فإنّ الإيمان يجُبُّ ما قبله.

﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ أي: صغائرَنا فإنّها مكفَّرة عن مُجتنِب الكبائر. ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ أي: مخصوصين بصُحبتهم، مغتنمين بجوارهم، معدودين مِن زُمرتهم. وفيه إشعار بأنّهم كانوا يحبّون لقاءَ الله، «ومَن أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءَه».[1] و﴿ٱلْأَبْرَارِ﴾ جمع بارّ أو بَرّ، كأصحاب وأرباب.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ١٩٤﴾

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ حكاية لدعاءٍ آخرَ لهم مسبوقٍ[2] بما قبله، معطوفٍ عليه لتأخّر التحلية عن التخلية. وتكرير النداء لِما مرّ مكرّرًا. والمراد بالموعود الثوابُ. و﴿عَلَىٰ﴾ إمّا متعلِّقة بالوعد، كما في قولك: وعَد الله الجنّةَ على الطاعة، أي: وعدتَنا على تصديق رسلِك، أو بمحذوف وقع صفةً لمصدر مؤكِّدٍ محذوف، أي: وعدتنا وعدًا كائنًا على ألسنة رسلِك. وقيل: التقديرُ: منزَّلًا على رسلك، أو محمولًا على رسلك،[3] ولا يخفى أنّ تقدير الأفعالِ الخاصّةِ في مثل هذه المواقع تعسُّف.

وجمع الرسلِ مع أنّ المنادي هو الرسول صلّى الله عليه وسلّم وحدَه؛ لِما أنّ دعوته عليه السلام -لا سيّما في باب التوحيد، وما أجمع عليه الكلُّ مِن الشرائع-

---

[1] صحيح البخاري، ٨/١٠٦ (٦٥٠٧)؛ صحيح مسلم، ٤/٢٠٦٥ (٢٦٨٣).

[2] ي: مسوق.

[3] قاله الزمخشري في الكشّاف، ١/٤٥٥.

منطويةٌ[١] على دعوة الكلّ، فتصديقُه تصديقٌ لهم عليهم السلام، كيف لا وقد أخذ منهم الميثاقَ بالإيمان به عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ﴾ الآية [آل عمران، ٨١/٣]؟ وكذا الموعود على لسانه مِن الثواب موعودٌ على ألسنة الكلِّ. وإيثار الجمع لإظهار كمال الثقةِ بإنجاز الموعود بناءً على كثرة الشهود.

﴿وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ قصدوا بذلك تذكيرَ وعدِه تعالى بقوله تعالى:[٢] ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾ [التحريم، ٨/٦٦] مُظْهِرين أنّهم ممّن آمَن معه؛ رجاءً للانتظام في سلكهم يومئذ. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ تعليل لتحقيق ما نَظَموا في سلك الدعاء.

وهذه الدعواتُ وما في تضاعيفها مِن كمال الضراعة والابتهالِ ليست لخوفهم مِن إخلاف الميعاد؛ بل لِخوفهم مِن أن لا يكونوا مِن جملة الموعودين بتغيّر الحال وسوءِ الخاتمةِ والمآلِ. فمرجِعُها إلى الدعاء بالتثبيت، أو للمبالغة في التعبُّد والخشوع.

و﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ الوَعد، وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه البعثُ بعد الموت.[٣] وفي الآثار عن جعفر الصادق:[٤] «مَن حزَبه أمرٌ فقال: "ربّنا ربّنا..." خمسَ مرّاتٍ[٥] أنجاه الله تعالى[٦] ممّا يخاف وأعطاه ما أراد»، وقرأ هذه الآية.[٧]

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾

---

١ ي: المنطوية.
٢ ط س - تعالى.
٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٥/٢.
٤ ط س ي - جعفر الصادق ["صح" في هامش ي]. | وهو في متن أ.
٥ ي: مرّاة.
٦ ط س - تعالى.
٧ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٤/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٧/١.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ الاستجابة بمعنى الإجابة، وقال تاجُ القرّاء:[١] «الإجابة عامّةٌ، والاستجابة خاصّةٌ بإعطاء المسئول»،[٢] ويتعدّى باللام وبنفسها، كما في قوله:

فلم يَستجبْهُ عند ذاك مُجيبُ[٣]

وهو عطفٌ على الاستئناف المقدَّرِ فيما سلَف، مترتِّبٌ على ما في حيّزه مِن الأدعية، كما أنّ قوله عزّ وجلّ:[٤] ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾... إلخ [يونس، ٥٢/١٠] عطفٌ على "قيل" المقدَّرِ قبل ﴿ءَآلۡـَٔنَ﴾ [يونس، ٥١/١٠]، أي: قيل لهم: آلآنَ آمنتم به؟ ﴿ثُمَّ قِيلَ﴾ الآية. وكما أنّ قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [الأعراف، ١٠٠/٧] معطوف على ما دلّ عليه معنى ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾ [السجدة، ٢٦/٣٢]، كأنّه قيل: يغفُلون عن الهداية ونطبَع... إلخ. ولا ضيرَ في اختلافهما صيغةً؛ لِما أنّ صيغةَ المستقبلِ هناك للدلالة على الاستمرار المناسبِ لمقام الدعاءِ، وصيغةَ الماضي ههنا للإيذان بتحقّق الاستجابةِ وتقرّرِها، كما لا ضير في الاختلاف بين قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ﴾ [الأنفال، ٩/٨] وبين ما عُطف عليه مِن قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ [الأنفال، ٩/٨] كما سيأتي.

ويجوز أن يكون معطوفًا على مضمَرٍ ينساق إليه الذهن، أي: دَعَوا بهذه الأدعية فاستجاب... إلخ. وأمّا على تقدير كون المقدّرِ حالًا فهو عطفٌ على ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾[٥] باعتبار مقارنته لِما وقع حالًا مِن فاعله، أعني قولَه: ﴿رَبَّنَا﴾... ﴿رَبَّنَا﴾... إلخ، فإنّ الاستجابة مترتّبة على دَعَواتهم لا على مجرّد تفكّرِهم، وحيث كانت هي مِن أوصافهم الجميلة المترتّبة على أعمالهم بالآخرة استحقّت الانتظامَ في سلك محاسِنهم المعدودة في أثناء مدحهم.

---

١ هو بُرهان الدين محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، أبو القاسم (ت. نحو ٥٠٥هـ/١١١٠م)، المعروف بتاج القرّاء، إمام كبير، محقِّق، ثقة، كبير المحل، قرأ عليه أبو عبد الله نصر بن علي بن أبي مريم. له خط المصاحف، والهداية في شرح غاية ابن مهران، ولباب التفاسير، والبرهان في معاني متشابه القرآن. انظر: غاية النهاية لابن الجزري، ٢٩١/٢؛ والأعلام للزركلي، ١٦٨/٧.

٢ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٦/٣.

٣ لكعبِ بن سعد الغنوي يَرثي أخاه أبا المِغوار. لسان العرب لابن منظور، «جوب».

٤ وفي هامش ط س ي: في سورة يونس عليه السلام «منه».

٥ آل عمران، ١٩١/٣.

وأمّا على تقدير كون الموصول نعتًا لـ"أولي الألبابِ" فلا مَساغَ لهذا العطف أصلًا؛ لِما عرفتَ مِن أنّ حقَّ ما في حيّز الصِّلة أن يكون مِن مبادي جَرَيانِ الحُكمِ على الموصول، وقد عرفت أنّ دَعَواتِهم السابقةَ ليست كذلك، فأين الاستجابة المتأخّرة عنها؟ وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة المنبِئةِ عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم مِن تشريفهم وإظهارِ اللطفِ بهم ما لا يخفى.

﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ أي: بأنّي، وهكذا قرأ أُبيٌّ رضي الله عنه.[1] والباء للسببيّة، كأنّه قيل: فاستجاب لهم ربُّهم بسبب أنّه لا يُضيع عمل عامل منهم، أي: سُنّتُه السنيّة مستمِرّةٌ على ذلك. والالتفات إلى التكلّم والخطابِ لإظهار كمال الاعتناءِ بشأن الاستجابة وتشريفِ الداعين بشرف الخطاب. [١٢٣ظ] والمراد تأكيدُها ببيان سببها، / والإشعارُ بأنّ مَدارها أعمالهم التي قدّموها على الدعاء، لا مجرّدُ الدعاء.

وتعميم الوعد لسائر العاملين -وإن لم يبلُغوا درجةَ أولي الألباب- لتأكيد استجابة الدعواتِ المذكورةِ. والتعبير عن ترْك الإثابة بالإضاعة -مع أنّه ليس بإضاعةٍ حقيقةً، إذ الأعمالُ غيرُ موجِبةٍ للثواب حتّى يلزَمَ مِن تخلّفه عنها ضَياعُها- لبيان كمال نزاهتِه تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدورُه عنه مِن القبائح، وإبرازِ الإثابة في معرض الأمورِ الواجبة عليه.

وقُرئ بكسر الهمزة[2] على إرادة القول، أي: قائلًا: إني... إلخ، فلا التفاتَ حينئذ. وقُرئ: "لَا أُضَيِّعُ" بالتشديد.[3]

و"مِن" متعلّقة بمحذوف وقع صفةً لـ﴿عَٰمِلٖ﴾، أي: عاملٍ كائنٍ منكم. وقوله تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ بيان لـ﴿عَٰمِلٖ﴾ وتأكيد لعمومه. وقوله تعالى: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ جملة معترِضة مبيّنة[4] لسبب انتظام النساءِ في سِلك الرجال في الوعد،

[1] ي: رحمه الله. | قراءة شاذّة. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣/٤٧٦.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٢٧.

[3] قراءة شاذّة، ذكَرها المفسّرون ولم أجد مَن قرأ بها. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١/٤٥٦.

[4] ي - مبيّنة.

فإنّ كون كلّ منهما مِن الآخَر لتشعُّبهما مِن أصل واحد، أو لفَرط الاتّصال بينهما، أو لاتّفاقهما في الدِّين والعمل ممّا يستدعي الشركةَ والاتّحادَ في ذلك.

رُوي أنّ أمّ سلمةَ رضي الله عنها قالت لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّي أسمعُ الله تعالى يذكرُ الرجالَ في الهِجرة ولا يذكرُ النساءَ»، فنزلت.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ ضربُ تفصيلٍ لِما أُجمل في العمل، وتعدادٌ لبعض أحاسنِ أفرادِه على وجه المدح والتعظيم، أي: فالذين هاجَروا الشرك أو[١] الأوطان[٢] والعشائرَ للدين. وقوله تعالى: ﴿وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ على الأوّل عبارة عن نفس الهجرة، وعلى الثاني عن[٣] كيفيّتها وكونها بالقَسر والاضطرار. ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ أي: بسبب إيمانهم بالله ومِن أجله، وهو متناول لكلّ أذيّةٍ نالتهم مِن قِبَل المشركين.

﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ أي: الكفّارَ في سبيل الله تعالى. ﴿وَقُتِلُواْ﴾ استُشهدوا في القتال. وقُرئ بالعكس[٤] لِما أنّ الواو لا تستدعي الترتيب، أو لأنّ المراد قتلُ بعضِهم وقتالُ آخَرين، إذ ليس المعنى على اتّصاف كلِّ فردٍ مِن أفراد الموصول المذكور بكلّ واحدٍ ممّا ذكر في حيّز الصلةِ؛ بل على اتّصاف الكلّ بالكلّ في الجملة، سواء كان ذلك باتّصاف كلّ فرد مِن أفراد[٥] الموصول بواحد مِن الأوصاف المذكورة أو باثنين منها أو بأكثرَ، إمّا بطريق التوزيع، أو بطريق حذف بعضِ الموصولاتِ مِن البَين، كما هو رأيُ الكوفيّين. كيف لا، ولو أُدير الحُكمُ على اتّصاف كلِّ فردٍ بالكلّ لكان قد أُضيع عملُ مَن اتّصف بالبعض؟ وقُرئ: "قُتِّلُوا" بالتشديد.[٦]

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ جواب قَسَمٍ محذوف، أي: واللهِ لأكفِّرنّ. والجملة القَسميّة خبر للمبتدأ الذي هو الموصول. وهذا تصريح بوعد ما سأله الداعون بخصوصه بعد ما وَعَد ذلك عمومًا.

---

١ ط – أو.

٢ ط: والأوطان.

٣ س + عن.

٤ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٦.

٥ ط س ي – أفراد ["صح" في هامش س].

٦ قرأ بها ابن كثير وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٣.

وقوله تعالى: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إشارة إلى ما عبَّر عنه الداعون فيما قبلُ بقولهم: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ وتفسيرٌ له. ﴿ثَوَابًا﴾ مصدر مؤكِّد لِما قبله، فإنّ تكفير السيئات وإدخالَ الجنّةِ في معنى الإثابة. وقوله تعالى: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بمحذوف هو صفة له مبيِّنة لشَرَفه، أي: لَأُثيبنَّهم إثابةً كائنةً -أو تثويبًا كائنًا- مِن عنده تعالى، بالغًا إلى المرتبة القاصية مِن الشرَف.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ اعتراض تذييليّ مقرِّر لمضمون ما قبله. والاسم الجليل مبتدأ، خبرُه ﴿عِندَهُۥ﴾. و﴿حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ مرتفِع بالظرف على الفاعليّة لاعتماده على المبتدأ. أو هو مبتدأ ثانٍ، والظرف خبره، والجملة خبر للمبتدأ الأوّل. والعِنديّة عبارة عن الاختصاص به تعالى، مثلُ كونِه بقدرته تعالى وفضله بحيث لا يقدِرُ عليه غيره بحال شيءٍ يكون بحضرة أحدٍ لا يدَ عليه لغيره. فالاختصاص مستفاد مِن التمثيل، سواءٌ جُعل ﴿عِندَهُۥ﴾ خبرًا مقدَّمًا لـ﴿حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ أو لا.

وفي تصدير الوعد الكريم بعدم إضاعة العملِ ثمّ تعقيبه بمِثل هذا الإحسان الذي لا يُقادَر قدرُه مِن لُطف المسلَكِ المُنبئ عن عِظَم شأن المُحسِن ما لا يخفى.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ١٩٦﴾

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ بيان لقُبح ما أوتي الكفرةُ مِن حظوظ الدنيا، وكشفٌ عن حقارة شأنِها وسوء مَغَبَّتِها إثرَ بيان حُسن ما أوتي المؤمنون مِن الثواب. والخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم على أنّ المراد تثبيته على ما هو عليه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم، ٨/٦٨]، أو على أنّ المراد نهي المؤمنين، كما يُوجَّهُ الخطاب إلى مَدارِهِ[١] القومِ ورؤسائِهِم، والمرادُ أفناؤهم.[٢] أو لكلّ أحد ممّن يصلُح للخطاب مِن المؤمنين.

---

[١] مِدْرَهُ القوم: زعيمهم وخطيبهم والمتكلّم عنهم والدافع عنهم، والجمع مَدارِه. تاج العروس للزبيدي، «دره».

[٢] يقال: هو مِن أفناءِ الناس، إذا لم يعلم ممّن هو. الصحاح للجوهري، «فني». والمراد هنا عامّتُهم.

والنهيُ للمخاطب، وإنّما جُعل للتقلّب مبالغةً، أي: لا تنظُر إلى ما عليه الكفرةُ مِن السَّعة ووفور الحظِّ، ولا تغترَّ بظاهر ما ترى منهم مِن التبسّط في المَكاسب والمَتاجر والمَزارع. رُوي أنّ بعض المؤمنين كانوا يرَوْن المشركين في رَخاء ولِين عيشٍ، فيقولون: إنّ أعداءَ الله تعالى فيما يرى مِن الخير وقد هلَكْنا مِن الجوع والجهد، فنزلت.[١] وقُرئ: "لَا يَغُرَّنْكَ" بالنون الخفيفة.[٢]

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو متاع قليل لا قدرَ له في جنب ما ذُكر مِن ثواب الله تعالى. قال عليه السلام: «ما الدنيا في الآخرة إلّا مثلُ ما يجعل أحدُكم أصبعَه في اليمّ، فلينظُر بمَ يرجِع».[٣] فإذن لا يُجدي وجودُه لواجديه، ولا يضُرُّ فقدانُه لفاقديه.

﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: مصيرُهم الذي يأوون إليه لا يبرَحونه ﴿جَهَنَّمُۚ﴾ التي لا يوصف عذابُها. وقوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ ذمٌّ لها وإيذان بأنّ مصيرهم إليها مما جنَته أنفسُهم وكسبتْه أيديهم. والمخصوص بالذمّ محذوف، أي: بئس ما مَهّدوا لأنفسهم جهنّمُ.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ بيان لكمال حسنِ حالِ المؤمنين غِبَّ بيانٍ،[٤] وتكريرٌ له إثرَ تقرير، مع زيادة خلودِهم في الجنّات ليتمّ بذلك سرورُهم ويزدادَ تبجُّحُهم، ويتكاملَ به سوءُ حال الكفرة.

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٣/٢٣٦؛ الكشّاف للزمخشري، ١/٤٥٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٥٦.

[٢] قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٦.

[٣] صحيح مسلم، ٤/٢١٩٣ (٢٨٥٨)؛ سنن الترمذي، ٤/٥٦١ (٢٣٢٣).

[٤] أي: بَعدَ بيان، مِن "جئتُه غِبَّ الأمر"، أي: بَعْدَه. انظر: لسان العرب لابن منظور، «غبب».

[١٢٤و] وإيراد التقوى في حيّز الصِّلة للإشعار بكون الخِصال المذكورة مِن / باب التقوى، والمراد به: الاتّقاء مِن الشرك والمعاصي. فالموصول مبتدأ، والظرفُ خبرُه، و﴿جَنَّٰتٌ﴾ مرتفِع به على الفاعليّة؛ لاعتماده على المبتدأ. أو الظرف خبر لـ﴿جَنَّٰتٌ﴾، والجملة خبر للموصول. و﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في الجنّات حال مقدَّرة مِن الضمير، أو مِن ﴿جَنَّٰتٌ﴾ لتخصّصها بالوصف، والعاملُ ما في الظرف مِن معنى الاستقرار.

﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وقُرئ بسكون الزاء.[١] وهو ما يُعدّ للنازل مِن طعام وشراب وغيرِهما، قال أبو الشِّعر[٢] الضبّي:[٣]

وكنّا إذا الجبّارُ بالجيش ضافَنا جعلنا القَنا والمرهَفاتِ له نُـزْلا[٤]

وانتصابه على الحاليّة مِن ﴿جَنَّٰتٌ﴾ لتخصّصها بالوصف، والعاملُ فيه ما في الظرف مِن الاستقرار. وقيل: هو مصدر مؤكِّد، كأنّه قيل: رِزقًا أو عطاءً مِن عند الله تعالى.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر. وقوله تعالى: ﴿لِّلْأَبْرَارِ﴾ متعلِّق بمحذوف هو صفة لـ﴿خَيْرٌ﴾، أي: ما عنده تعالى مِن الأمور المذكورة الدائمة خيرٌ كائنٌ للأبرار، أي: ممّا يتقلّب[٥] فيه الفجّارُ مِن المتاع القليل الزائل. والتعبير عنهم بـ"الأبرار" للإشعار بأنّ الصفاتِ المعدودَة مِن أعمال البرّ كما أنّها مِن قبيل التقوى، والجملة تذييل لِما قبلها.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وإبراهيم والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٧.

[٢] في مطبوع للكشّاف: "أبو الشعراء"، وقال الشهاب: «"أبو الشِّعر": لقَب شاعر لكثرة شِعره. "الضبّي"، أي: المنسوب لبني ضبّة، قبيلة معروفة». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٩٣/٣. وفي تاج العروس: «أبو الشِّعر: موسى بن سُحَيم الضبّي». تاج العروس للزبيدي، «شعر».

[٣] هو موسى بن سُحيم الضبّي، أبو الشِّعر، ضبطه الحافظ ابن حجر بفتح المعجمة، وقال: ذكره المستغفري. كان يهاجي الطرماح. انظر: معجم الشعراء للمرزباني، ص ٣٧٧؛ تبصير المنتبه لابن حجر، ٦٨٢/٢.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٤٥٨/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٦/٢. "الجبّار": الملِك المتسلِّط. "ضافَنا": أي: نزَل بنا ضيفًا. والباء في "بالجَيش" للتعدية أو للمصاحبة. يقول: إذا جعل الجيش ضيفًا لنا، أو إذا صار مع الجيش ضيفًا لنا. والمرهَفات: السيوف الباترات، جعل المرهَفات نُزلًا على التهكُّم. فتوح الغيب للطيبي، ٣٩٥/٤.

[٥] ي: يتلقّب.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ١٩٩﴾

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ جملة مستأنفة سيقت لبيان أنّ أهل الكتاب ليس كلُّهم كمَن حُكِيت هَناتُهم[1] مِن نَبذ الميثاق وتحريفِ الكتاب وغير ذلك؛ بل منهم مَن له مناقب جليلة. قيل: هم عبد الله بن سلام وأصحابُه.[2] وقيل: هم أربعون مِن أهل نجران، واثنان وثلاثون مِن الحبَشة، وثمانية مِن الروم، كانوا نصارى فأسلموا.[3]

وقيل: المراد به أَصْحَمة[4] النجاشي، فإنّه لمّا مات نَعاه جبريل عليه السلام[5] إلى النبيّ عليه[6] السلام،[7] فقال عليه السلام: «اخرُجوا فصلُّوا على أخٍ لكم ماتَ بغير أرضكم»، فخرج إلى البقيع، فنظر إلى أرض الحبشة فأبصر سريرَ النجاشيّ، وصلّى عليه واستغفر له، فقال المنافقون: «انظُروا إلى هذا يصلّي على عِلْجٍ نصرانيّ لم يرَه قطُّ وليس على دينه»، فنزلت.[8]

وإنّما دخلت لامُ الابتداء على اسم "إنّ" لفَصل الظرف بينهما، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء، ٧٢/٤].

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ مِن القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ مِن الكتابَين. وتأخير إيمانهم بهما عن إيمانهم بالقرآن في الذِّكر مع أنّ الأمر بالعكس في الوجود لِما أنّه عِيارٌ ومُهيمِن عليهما، فإنّ إيمانهم بهما إنّما يُعتبر بتبعيّة إيمانهم به؛ إذ لا عبرةَ بأحكامهما[9] المنسوخة، وما لم يُنسَخ منها إنّما يُعتبر مِن حيث ثبوتُه بالقرآن، ولتعلّق ما بعده بهما. والمراد بإيمانهم بهما إيمانُهم بهما مِن غير تحريفٍ ولا كتْم،

---

[1] في فلانٍ هَنَاتٌ، أي: خَصلاتُ شرٍّ، ولا يقال ذلك في الخير. الصحاح للجوهري، «هنو».

[2] جامع البيان للطبري، ٣٢٩/٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٨/٣.

[3] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٨/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٩/١.

[4] ي: أضخمت.

[5] س + عليه السلام.

[6] ط: عليهما.

[7] ي: صلّى الله عليه وسلّم.

[8] جامع البيان للطبري، ٣٢٧/٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٨/٣؛ المعجم الأوسط للطبراني، ٥١/٥ (٤٦٤٥).

[9] ي: بأحكامها.

كما هو دَيدَنُ المحرِّفين وأتباعِهم مِن العامّة.

﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ حال مِن فاعل ﴿يُؤْمِنُ﴾، والجمع باعتبار المعنى. ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ تصريح بمخالفتهم للمحرِّفين. والجملة حال كما قبله، ونظمُها في سِلك محاسِنهم ليس مِن حيث عدمُ الاشتراء فقط؛ بل لتضمُّن ذلك لإظهار ما في الكتابَين مِن شواهد نبوّته صلّى الله عليه وسلّم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم مِن حيث اتّصافُهم بما عُدّ مِن صفاتهم الحميدة. وما فيه مِن معنى البعد للدلالة على علوّ رتبتهم وبُعد منزلتهم في الشرف والفضيلة. وهو مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾. وقوله: ﴿أَجْرُهُمْ﴾ أي: المختصّ بهم الموعودُ لهم بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص، ٢٨/٥٤]، وقولِه تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد، ٥٧/٢٨]، مرتفِع بالظرف على الفاعليّة أو على الابتداء، والظرفُ خبره، والجملة خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ نصب على الحاليّة مِن ﴿أَجْرُهُمْ﴾، والمراد به التشريف كالصِّفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لنفوذ علمِه بجميع الأشياء، فهو عالم بما يستحقّه كلُّ عاملٍ مِن الأجر مِن غير حاجة إلى تأمّل.[١] والمراد بيان سرعة وصولِ الأجر الموعود إليهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إثرَ ما بيّن في تضاعيف السورةِ الكريمة فنونَ الحِكَم والأحكام، خُتمت بما يوجب المحافظةَ عليها فقيل: ﴿ٱصْبِرُواْ﴾ أي: على مشاقِّ الطاعات وغيرِ ذلك مِن المكاره والشدائد. ﴿وَصَابِرُواْ﴾ أي: غالِبوا أعداءَ الله تعالى بالصبر في مواطن الحروب، وأعدى عدوّكم بالصبر على مخالفة الهوى. وتخصيص المصابرة بالأمر بعد الأمر بمطلَق الصبر لكونها أشدَّ منه وأشقَّ.

﴿وَرَابِطُواْ﴾ أي: أقيموا في الثغور رابطين خيلَكم فيها مترصِّدين للغزو مستعدّين له، قال تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال، ٨/٦٠].

---

١ ي: التأمّل.

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن رابَط يومًا وليلةً في سبيل الله كان كعَدْل صيامِ شهرِ رمضانَ وقيامه لا يُفطِر ولا يَنفتل[١] عن صلاته إلّا لحاجة».[٢]

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة أمرِه على الإطلاق، فيندرجُ فيه ما ذكر في تضاعيف السورةِ الكريمة اندراجًا أوّليًا. ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ كي تنتظِموا في زُمرة المفلحين الفائزين بكلّ مطلوبٍ، الناجين عن كلّ الكروب.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورةَ آلِ عِمرانَ أُعطي بكلّ آيةٍ منها أمانًا على جسر جهنّم».[٣]

وعنه صلّى الله تعالى[٤] عليه وسلّم:[٥] «مَن قرأ السورةَ التي يُذكر فيها آلُ عمرانَ يوم الجمعة صلّى الله عليه والملائكة[٦] حتّى تجب الشّمس».[٧]

الحمد لله ربّ العالمين.[٨]

---

١ ي: ينفلت.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٦٠/١. ونحوه في سنن النسائي، ٣٩/٦ (٣١٦٧)؛ والمستدرك للحاكم، ٩٠/٢ (٢٤٢٢).

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٦٠/١؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤١١/١. وهو جزء مِن حديث أُبيّ الطويل في فضائل السور، وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات، ٢٣٩/١، وقال: «وهذا حديث فضائل السور مصنوع بلا شكّ».

٤ س ي - تعالى.

٥ ي: عليه السلام.

٦ ي: وملائكته.

٧ الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٦٠/١. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٤٨/١١ (١١٠٠٢)؛ والمعجم الأوسط، ١٩١/٦ (٦١٥٧). قال الهيثمي: «وهو ضعيف». مجمع الزوائد للهيثمي، ١٦٨/٢. قال أبو عبيدة وإبراهيم الحربي: «وجبَت الشمس إذا سقطت لتغيب». تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٦٩/١.

٨ ي - الحمد لله ربّ العالمين. | وفي هامش أ: في أواخر المحرّم الحرام، سنة ٩٦٢.

٣

سُورَةُ آلِ عِمرَان

مدنية، مِائَتان أو إلاّ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿الم﴾ الله أعلم بمراده بذلك. ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ﴿اللهُ لا إلـٰهَ إلاّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ، نَزَّلَ عليكَ﴾ ـ يا محمّد ـ ﴿الكِتابَ﴾: القرآنَ مُلتبِسًا ﴿بِالحَقِّ﴾: بالصدق في أخباره ﴿مُصَدِّقًا لِما بَينَ يَدَيهِ﴾: قبلَه من الكُتب، ﴿وأنزَلَ التَّوراةَ والإنجِيلَ مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِ تنزيله ﴿هُدًى﴾: حال بمعنى: هادِيَينِ من الضلالة ﴿لِلنّاسِ﴾ ممّن تبعهما ـ وعَبّر فيهما بـ«أنزل» وفي القرآن بـ«نزّل» المقتضي للتكرير لأنّهما أُنزلا دُفعةً واحدة بخلافه ـ ﴿وأنزَلَ الفُرقانَ﴾ بمعنى الكُتب الفارقة بين الحقّ والباطل.

سُورَةُ آلِ عِمرَان

قولُه تعالى: ﴿الم اللهُ﴾ فتحُ الميمِ حالةَ الوصلِ في المشهورِ مخفَّفاً مدًّا وقصراً، وقيل: توسُّطاً، وقولُ البيضاويِّ[١]: ـ وقرأَ أبو بكرٍ بسكونِها والابتداءِ بما بعدَها على الأصلِ[٢] ـ غيرُ صحيحٍ، ولعلَّهُ روايةٌ شاذَّةٌ، وقراءةُ بعضِ العوامِّ بتشديدِ الميمِ الثّانيةِ خطأٌ، ثمَّ قولُ البيضاويِّ[٣]: ـ إنَّما فتحُ الميمِ في المشهورِ، وكان حقُّها أن يُوقَفَ عليها لإلقاءِ حركةِ الهمزةِ عليها... إلخ ـ غيرُ معتبَرٍ؛ لأنَّ الإلقاءَ بمعنى النَّقلِ إنَّما يكونُ في همزةِ القطعِ؛ كقولِه تعالى: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ [العنكبوت: ١، ٢] على روايةِ ورشٍ مطلقاً، ووجهٌ لحمزةَ وقفاً[٤]، وهذا كلُّهُ حالَ وصلِ ﴿ألم﴾ بما بعدَهُ، ويجوزُ الوقفُ على ﴿ألم﴾ إجماعاً، فلا عبرةَ بما يُفهَمُ من قولِ البيضاويِّ: (وكانَ حقُّهَا أنْ يُوقَفَ عليها) من الوهمِ أنَّه لا يجوزُ الوقفُ عليها.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٢/ ٥).

(٢) هذه القراءة رواها ابن مجاهد في «السبعة في القراءات» (ص: ٢٠٠).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٢/ ٥).

(٤) انظر: «البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة» لعبد الفتاح القاضي (ص: ٢٤٤).

وذَكَره بعد ذِكر الثلاثة ليعمّ ما عداها. ﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ﴾: القرآنِ وغيره ﴿لَهُم عَذابٌ شَدِيدٌ، واللهُ عَزِيزٌ﴾: غالب على أمره فلا يمنعه شيء من إنجاز وعيده ووعده، ﴿ذُو انتِقامٍ﴾: عقوبةٍ شديدة ممّن عصاه، لا يقدر على مثلها أحد.

٥ ـ ﴿إنَّ اللهَ لا يَخفَى علَيهِ شَيءٌ﴾ كائنٌ ﴿في الأرضِ ولا في السَّماءِ﴾، لعلمه بما يقع في العالم من كلّيّ وجزئيّ ـ وخصَّهما بالذكر لأنّ الحسّ لا يتجاوزهما ـ ٦ ـ ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُم في الأرحامِ كَيفَ يَشاءُ﴾ من ذُكورة وأُنوثة وبياض وسواد، وغير ذلك؟ ﴿لا إلـٰهَ إلاّ هُوَ العَزِيزُ﴾ في مُلكه ﴿الحَكِيمُ﴾ في صُنعه، ٧ ـ ﴿هُوَ الَّذِي أنزَلَ علَيكَ الكِتابَ، مِنهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ﴾: واضحاتُ الدلالة، ﴿هُنَّ أُمُّ الكِتابِ﴾: أصلُه المُعتمَد عليه في الأحكام، ﴿وأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ﴾ لا تُفهم معانيها كأوائل السُّوَر، وجعله كلّه مُحكَمًا في قوله «أُحكِمَتْ آياتُهُ» بمعنى أنه ليس فيه عيب، ومُتشابِهًا في قوله «كِتَابًا مُتَشابِهًا» بمعنى أنه يُشبه بعضه بعضًا في الحُسن والصِّدق.

﴿فأمّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِم زَيغٌ﴾: مَيلٌ عن الحقّ ﴿فيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنهُ ابتِغاءَ﴾: طلبَ ﴿الفِتْنَةِ﴾ لحبّهم لها بوقوعهم في الشُّبهات واللَّبس، ﴿وابتِغاءَ تأوِيلِهِ﴾: تفسيرِه، ﴿وما يَعلَمُ تأوِيلَهُ﴾: تفسيرَه ﴿إلاّ اللهُ﴾ وحده، ﴿والرّاسِخُونَ﴾: الثابتون المتمكّنون ﴿في العِلمِ﴾:........................

قولُه: (وعدِه) في نسخةٍ مؤخَّرٌ عن (وعيدِه)؛ إذ المقامُ يقتضي تقديمَ الوعيدِ، وفي أُخرَى مقدَّمٌ إذْ سبقَتْ رحمتُهُ غضبَهُ.

قولُه: (لا يتَجاوزُهُمَا) أو المرادُ: ما في السُّفليّاتِ والعلويّاتِ.

قولُه: (وغيرِ ذلكَ) من حَسَنٍ وقَبيحٍ وطويلٍ وقصيرٍ وتامٍّ وناقصٍ.

قوله تعالى: (﴿مِنْهُ آيَاتٌ﴾) أي: بعضُهُ ومن جملتِهِ.

قولُه: (كأَوائلِ السُّورِ) أو محتمِلاتٌ لا يتَّضِحُ مقصودُها لإجمالٍ[1] أو مخالفةِ ظاهرٍ إلَّا بالفحصِ والاجتهادِ.

قولُه: (لجُهَّالِهِمْ) بضمِّ الجيمِ وتشديدِ الهاءِ، جمعُ: جاهلٍ، وفي نسخةٍ: لجهالتِهِم بالمصدرِ.

قولُه: (واللَّبسِ) بسببِ التَّعلُّقِ بظاهرِهِ، أو بتأويلٍ باطلٍ، أو مناقضةِ المحكمِ بالمتشابِهِ.

قولُه: (تفسيرِهِ) أي: الَّذي يشتهونَهُ.

---

(١) في (ص): «لاحتمال».

مبتدأ خبرُه ﴿يَقُولُونَ: آمَنَّا بِهِ﴾ أي: بالمُتشابِه أنّه من عند الله ولا نعلم معناه. ﴿كُلٌّ﴾ منَ المُحكَم والمُتشابِه ﴿مِن عِندِ رَبِّنا. وما يَذَّكَّرُ﴾ ـ بإدغام التاء في الأصل في الذال ـ أي: يتّعظ ﴿إلاّ أُولُو الألبابِ﴾: أصحابُ العقول.

ويقولون أيضًا إذا رأوا من يَتّبعه: ٨ ـ ﴿رَبَّنا، لا تُزِغْ قُلُوبَنا﴾: تُمِلْها عن الحقّ بابتغاء تأويله الذي لا يليق بنا كما أزغتَ قُلوب أولئك ﴿بَعدَ إذْ هَدَيتَنا﴾: أرشدْتَنا إليه، ﴿وهَبْ لَنا مِن لَدُنكَ﴾: من عِندك ﴿رَحْمةً﴾: تثبيتًا ـ ﴿إنَّكَ أنتَ الوَهّابُ﴾ ـ ٩ ـ يا ﴿رَبَّنا، إنَّكَ جامِعُ النّاسِ﴾: تجمعُهم ﴿لِيَومٍ﴾ أي: في يومٍ، ﴿لا رَيبَ﴾: شَكَّ ﴿فِيهِ﴾. هو يوم القيامة. فتُجازيهم بأعمالهم كما وعدتَ بذلك. ﴿إنَّ اللهَ لا يُخلِفُ المِيعادَ﴾: موعدَه بالبعث. فيه التفات عن الخطاب، ويحتمل أن يكون من كلامه تعالى. والغرض من الدعاءِ بذلك بيان أنّ همَّهم أمر الآخرة، ولذلك سألوا الثبات على الهداية لينالوا ثوابها.

رَوى الشيخانِ عن عائشةَ قالت: «تلا رَسُولُ اللهِ ﷺ هذه الآيةَ: هُوَ الّذِي أنزَلَ علَيكَ الكِتابَ مِنهُ آياتٌ مُحكَماتٌ، إلى آخِرها، وقالَ: فإذا رأَيتِ الّذِينَ يَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنهُ فأُولَئكَ الّذِينَ سَمَّى اللهُ......

قولُه: (مبتدأٌ) هذا عندَ الجمهورِ، والوقفُ عندَهُم على قولِهِ: ﴿إلَّا اللهُ﴾، وبعضُهُم على أنَّهُ عطفٌ على ﴿اللهُ﴾؛ أي: لا يهتدي إلى تأويلِهِ الحقِّ الّذي يجبُ أن يُحمَلَ عليه إلّا اللهُ، والّذين رَسَخُوا؛ أي: ثبتُوا وتمكَّنُوا وعضُّوا فيه بضرسٍ قاطعٍ.

قولُه: (ولا نعلَمُ معناهُ) هو ثناءٌ منه تعالى عليهِم بالإيمانِ على التَّسليمِ، واعتقادِ الحقيقَةِ بلا كيفٍ، وعدمِ الجزمِ بالمرادِ.

قولُه: (إذَا رأَوا) يعني: خصُوصاً.

قولُه: (إلَيهِ) أي: إلى الحقِّ.

قولُه: (تَثْبيتاً) أي: بالتَّوفيقِ والتَّثبُّتِ.

قولُه: (أي: فِي يومٍ) أو إلى يومٍ، أو لحسابِ يومٍ وجزائِهِ.

قولُه: (فإذَا رَأَيتِ[1]) بكسرِ التَّاءِ، وجُوِّزَ الفتحُ إمَّا لخطابِ العامِّ أو لتنزيلِها منزلةَ الرِّجالِ، ويؤيِّدُه قولُه: «فاحذرُوهُم[2]» مع زيادةِ الجمعيَّةِ للتَّعظيمِ، ويُمكِنُ حملُ الجمعِ على التَّغليبِ، وفي نسخةٍ: «فإذا رآهُمْ».

---

(١) رواه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

(٢) في (م): «فاحذرهم».

قال ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٢١١): قوله: فاحذروهم، في رواية الكشميهني: فاحذرهم بالإفراد والأولى أولى.

فاحذَرُوهُم»، ورَوى الطبرانيّ في «الكبير» عن أبي مالك الأشعريّ أنّه سمع النبيّ ﷺ يقول: «ما أخافُ على أُمّتي إلاّ ثلاثَ خِلالٍ»، وذكر منها «أن يُفتحَ لهُمُ الكِتابُ فيأخُذَهُ المُؤمِنُ يبتَغِي تأوِيلَهُ، ولَيسَ يَعلَمُ تأوِيلَهُ إلاّ اللهُ، والرّاسِخُونَ في العِلمِ يَقُولُونَ: آمَنّا بِهِ كُلٌّ مِن عِندِ رَبِّنا. وما يَذَّكَّرُ إلاّ أُولُو الألبابِ» الحديثَ.

١٠ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغنِيَ﴾: تدفعَ ﴿عَنهُم أموالُهُم ولا أولادُهُم مِنَ اللهِ﴾ أي: عذابه ﴿شَيئًا! وأُولئِكَ هُم وَقُودُ النّارِ﴾، بفتح الواو: ما يُوقد به، دأبُهم ١١ ـ ﴿كَدأبِ﴾: كعادةِ ﴿آلِ فِرعَونَ والَّذِينَ مِن قَبلِهِم﴾ من الأُمم كعادٍ وثمودَ، ﴿كَذَّبُوا بِآياتِنا، فأخَذَهُمُ اللهُ﴾: أهلكهم ﴿بِذُنُوبِهِم﴾. والجملة: مفسّرة لما قبلها. ﴿واللهُ شَدِيدُ العِقابِ﴾.

ونزل لمّا أمر رسول الله ﷺ اليهودَ بالإسلام، مَرجِعَه من بدر، فقالوا له: «لا يَغرَّنَّكَ أن قتلتَ نفرًا من قُرَيشٍ أغمارًا لا يَعرفونَ القِتالَ»: ١٢ ـ ﴿قُلْ﴾ ـ يا محمّد ـ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من اليهود: ﴿سَتُغلَبُونَ﴾ ـ بالتاء والياء ـ في الدنيا بالقتل والأسر وضرب الجزية، وقد وقع ذلك، ﴿وتُحشَرُونَ﴾ ـ بالوجهين ـ.......................................

قولُه: (أي: عذابِهِ) أو رحمتِهِ أو طاعتِهِ؛ يعني: بدلَهُما.

قولُه: (﴿شَيئًا﴾) من الإغناءِ، أو من العذابِ.

قولُه: (بفتحِ الواوِ) فهو اسمٌ، وقُرِئَ بالضَّمِّ[1] وهو مصدرٌ؛ أي: أهلُ وقودِها.

قولُه: (دأبُهُمْ) مبتدأٌ.

قولُه: (والجُمْلَةُ) أي: ﴿كَذَّبُوا﴾.

قولُه: (لِمَا قبلَهَا) أي: دأبُهُم.

قولُه: (أنْ قتلْتَ[2]) بفتحِ الهمزِ وكسرِهِ.

قولُه: (لا يعرِفُونَ) تفسيرٌ لـ(أغماراً).

قولُه: (والياءِ) الغيبةُ لحمزةَ والكسائيِّ[3].

قولُه: (بالوجهَينِ) أي: الخطابِ والغيبةِ.

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٢٦) ونسبت لطلحة بن مصرف.

(٢) رواه أبو داود (٣٠٠١)، والطبري في «تفسيره» (٦٦٦٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٨٦٢٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٠١)، و«حجة القراءات» (ص: ١٥٣).

في الآخرة ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾ فتدخلونها، ﴿وبِئسَ المِهادُ﴾: الفِراشُ هي!

١٣ ـ ﴿قَد كانَ لَكُم آيةٌ﴾: عِبرةٌ ـ وذُكِّر الفِعل للفصل ـ ﴿في فِئَتَينِ﴾: فِرقَتَين ﴿التَقَتا﴾ يوم بدر للقتال، ﴿فِئةٌ تُقاتِلُ في سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: طاعته ـ وهم النبيّ ﷺ وأصحابه، وكانوا ثلاثَمِائَةٍ وثلاثةَ عشَرَ رجلاً، معهم فَرَسانِ وسِتُّ أدرُعٍ وثمانيةُ سُيوفٍ، وأكثرُهم رَجّالة ـ ﴿وأُخرَى كافِرةٌ، يَرَونَهُم﴾ أي: الكُفّارُ ﴿مِثلَيهِم﴾ أي: المسلِمين أي: أكثرَ منهم، وكانوا نحوَ ألف، ﴿رأيَ العَينِ﴾ أي: رُؤيةً ظاهرةً مُعايَنةً. وقد نصرهم الله مع قلَّتهم. ﴿واللهُ يُؤَيِّدُ﴾: يُقوِّي ﴿بِنَصرِهِ مَن يَشاءُ﴾ نَصْرَه. ﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ المذكورِ ﴿لَعِبْرَةً لِأُولِي الأبصارِ﴾: لذوي البصائر، أفلا تعتبرون بذلك فتؤمنون؟

١٤ ـ ﴿زُيِّنَ لِلنّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ﴾: ما تَشتهيه النفس وتدعو إليه، زيّنها اللهُ ابتلاءً أوِ الشيطانُ، ﴿مِنَ النِّساءِ والبَنِينَ، والقَناطِيرِ﴾: الأموال الكثيرة ﴿المُقَنطَرةِ﴾:..........

وقولُه: (فيدخُلونَهَا) كذلك.

قولُه: (الفِرَاشُ) أو ما مهَّدُوا لأنفسِهِم واختارُوا لمقامِهِم.

قولُه: (رجَّالةٌ) بتشديدِ الجيمِ؛ أي: مشاةٌ.

قولُه: (أي: الكفَّارُ) هو بالرفعِ؛ أي: يرى الكفَّارُ المسلِمينَ مثلَي عددِ المسلِمينَ أو مثلَي عددِ المشركينَ ليحصلَ لهم الرُّعبُ فرأَوهُم ألفينِ، أو بالنَّصبِ؛ أي: يرى المؤمنونَ المشركِينَ مثلَي المؤمنينِ ليثبتوا، قالَ البغويُّ[١]: قلَّلَهُمُ اللهُ قبلَ القتالِ في أعينِ المشركينَ ليجترِئَ المشركونَ عليهِم ولا ينصرفُوا، فلمَّا أخذُوا في القتالِ كثَّرَهُمُ اللهُ تعالى في أعينِ المشركينَ ليجبُنُوا، وقلَّلَهُم في أعينِ المؤمنينَ ليجترِئُوا، فذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ...﴾ الآية [الأنفال: ٤٤] انتهى، وقرأَ نافعٌ بالخطابِ[٢]، فالمخاطبُونَ اليهودُ لكونِهِم حاضري الوقعةِ ببدرٍ؛ أي: ترونَ المسلِمينَ مثلَي عددِهِم أو مثلَي عددِ المشركِينَ.

قولُه: (أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ) يحتملُ التَّاءَ والياءَ.

قولُه: (زيَّنَها اللهُ) عليه الجمهورُ.

وقولُه: (أو الشَّيطانُ) مرويٌّ عن الحسنِ[٣]، وفي «الدُّرِّ»[٤] عن عُمرَ بنِ الخطَّابِ قالَ: قال ﷺ: «بُعِثْتُ

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤١٧).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٠١)، و«حجة القراءات» (ص: ١٥٤).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣٢٥٠).

(٤) انظر: «الدر المنثور» (٦/ ٤٢٩).

المجمَّعة ﴿مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ والخَيلِ المُسَوَّمةِ﴾: الحِسانِ ﴿والأنعامِ﴾ أي: الإبل والبقر والغنم ﴿والحَرْثِ﴾: الزرع. ﴿ذلِكَ﴾ المذكورُ ﴿مَتاعُ الحَياةِ الدُّنيا﴾: يُتمتَّع به فيها ثمّ يَفنى، ﴿واللهُ عِندَهُ حُسنُ المآبِ﴾: المَرجِعِ، وهو الجنّة، فينبغي الرغبة فيه دون غيره.

١٥ ـ ﴿قُلْ﴾ ـ يا محمّد ـ لقومك: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾: أأُخبِرُكم ﴿بِخَيرٍ مِن ذلِكُم﴾ المذكورِ من الشهوات؟ استفهام تقرير. ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوا﴾ الشِّركَ ﴿عِندَ رَبِّهِم﴾: خبرٌ مبتدؤه ﴿جَنّاتٌ، تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ، خالِدِينَ﴾ أي: مقدَّرين الخلودَ ﴿فِيها﴾ إذا دخلوها، ﴿وأزواجٌ مُطَهَّرةٌ﴾ من الحَيض وغيره ممّا يُستقذَر، ﴿ورِضْوانٌ﴾ ـ بكسر أوّله وضمّه لغتانِ ـ أي: رضًا كثير ﴿مِنَ اللهِ ـ واللهُ بَصِيرٌ﴾: عالم ﴿بِالعِبادِ﴾، فيُجازي كُلًّا منهم بعمله ـ ١٦ ـ ١٧ ـ ﴿الَّذِينَ﴾: نعت أو بدل مِن «الّذين» قبله ﴿يَقُولُونَ﴾: يا ﴿رَبَّنا، إنَّنا آمَنّا﴾: صدَّقْنا بك وبرسولك.

داعِياً ومبلِّغاً وليسَ إليَّ مِنَ الهدى شيءٌ، وخُلِقَ إبليسُ مُزَيِّناً وليسَ إليه من الضَّلالةِ شيءٌ».

قولُه: (المُجمَّعةِ) ذكرت للتَّأكيدِ كقولِهم: بدْرةٌ[1] مبدَّرةٌ؛ أي: كاملةٌ.

قولُه: (﴿وَالخَيْلِ﴾) عطفٌ على: ﴿النِّسَاءِ﴾.

قولُه: (الحِسَانِ) أو المعلَّمةِ، أو المرعيَّةِ.

قولُه: (استفهَامُ تَقْريرٍ) أي: لحملِ المخاطَبِ على الإقرارِ، يريدُ بِهِ: تقريرَ أنَّ ثوابَ اللهِ خيرٌ من مستلذَّاتِ الدُّنيا.

قولُه: (وضمِّهِ) لأبي بكرٍ في جميعِ القرآنِ ما عدا ثانيَ العقودِ[2].

قولُه: (كثيرٌ) مستفادٌ من التَّنوينِ.

قولُه: (نعْتٌ) أي: جرٌّ صفةٍ للمتَّقِينَ وهو أنسبُ، أو العبادِ وهو أقربُ.

قولُه: (أو بدَلٌ) فيكونُ مجرورَ المحلِّ أيضاً، أو نصبٌ على المدحِ، أو رفعٌ وهو الأظهرُ.

= والحديث رواه الدولابي في «الكنى والأسماء» (٢٠١٧)، وابن بطة في «الإبانة» (١٢٨٣) والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢/ ٨)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٤٧١)، والبيهقي في «القضاء والقدر» (١٦٧).

قال العقيلي: خالد بن عبد الرحمن أبو الهيثم عن سماك، ليس بمعروف بالنقل، حديثه غير محفوظ ولا يعرف له أصل، يعرف بالعسقلاني. وكذلك غمز به ابن عدي.

(١) البدرة: كيس فيه مقدار من المال يتعامل به ويقدم في العطايا ويختلف باختلاف العهود. «المعجم الوسيط» (١/ ٤٣).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٠٢).

﴿فاغفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وقِنا عَذابَ النّارِ، الصّابِرِينَ﴾ على الطاعة وعنِ المَعصية: نعت، ﴿والصّادِقِينَ﴾ في الإيمان، ﴿والقانِتِينَ﴾: المطيعين لله، ﴿والمُنفِقِينَ﴾: المتصدِّقين، ﴿والمُستَغفِرِينَ﴾ اللهَ بأن يقولوا: «اللّهمَّ اغفِرْ لنا» ﴿بِالأسحارِ﴾: أواخرِ الليل. خُصّت بالذكر لأنّها وقتُ الغفلة ولذّة النوم.

١٨ ـ ﴿شَهِدَ اللهُ﴾: بَيَّنَ لِخَلقِه بالدلائل والآيات ﴿أنَّهُ لا إلٰـهَ﴾: معبودَ في الوجود بحقّ ﴿إلاّ هُوَ، و﴾ شهدَ بذلك ﴿المَلائكةُ﴾ بالإقرار ﴿وأُولُو العِلمِ﴾ من الأنبياء والمؤمنين بالاعتقاد واللفظ، ﴿قائمًا﴾ بتدبير مصنوعاته ـ ونصبُه على الحال، والعامل فيها معنى الجملة أي: تفرّدَ ـ ﴿بِالقِسطِ﴾: بالعدل، ﴿لا إلٰـهَ إلاّ هُوَ﴾ كرّره تأكيدًا ﴿العَزِيزُ﴾ في مُلكه ﴿الحَكِيمُ﴾ في صُنعه.

١٩ ـ ﴿إنَّ الدِّينَ﴾ المَرْضِيَّ ﴿عِندَ اللهِ﴾ هو ﴿الإسلامُ﴾ أي: الشرعُ المبعوثُ به الرسل المَبنيُّ على التوحيد ـ..

قولُه: (وعَنِ المَعْصِيةِ) وفي المصيبةِ.

قولُه: (نَعْتٌ) أو نصبٌ على المدحِ.

قولُه: (فِي الإِيمَانِ) في «المداركِ»(١): الصَّادِقِينَ قولاً بإخبارِ الحقِّ، وفعلاً بإحكامِ العملِ، ونيَّةً بإمضاءِ العزمِ.

قولُه: (بِأَنْ يقُولُوا) أي: مثلاً، والأظهرُ بما تقدَّمَ وهو قولُهُ: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾.

قولُه: (أَوَاخِرِ اللَّيلِ) في «الكشّافِ»(٢) السَّحرُ: السُّدسُ الأخيرُ.

قولُه: (ولذَّةِ النَّومِ) أو وقتُ العبَادةِ والحضُورِ وتوهُّمِ العَجبِ والغرورِ بعدَ ما صدرَ منهم عبادةُ اللَّيلِ.

قولُه: (بالدَّلائلِ) الحسِّيَّةِ والآياتِ المعنويَّةِ، أو النَّقليَّةِ والعقليَّةِ، أو الآفاقيَّةِ والنفسيَّةِ.

قولُه: (بالإِقْرَارِ) أي: المطابقِ للتَّصديقِ.

قولُه: (عَلَى الحَالِ) أي: من ﴿هو﴾، أو من ﴿اللهُ﴾.

قولُه: (تَأْكِيداً) واعتناءً لمعرفةِ التَّوحيدِ.

قولُه: (فِي مُلْكِهِ) قدَّمَ ﴿العَزِيزُ﴾ لتقدُّمِ العلمِ بقدرتِهِ على العلمِ بحكمتِهِ، ورفعُهُما على البدلِ من ﴿هوَ﴾.

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (١/ ٢٤١).

(٢) لم يأت قوله هذا عند تفسير هذه الآية من هذه السورة، وإنما عند قوله تعالى: ﴿نجيناهم بسحر﴾[القمر: ٣٤]، انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٣٨).

وفي قراءة بفتح «أنّ» بدل من «أنّه» إلى آخره بدلَ اشتمال ـ ﴿وما اختَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ﴾: اليهودُ والنصارى في الدين بأن وحَّد بعض وكفر بعض، ﴿إلاّ مِن بَعدِ ما جاءَهُمُ العِلمُ﴾ بالتوحيد، ﴿بَغْيًا﴾ منَ الكافرين ﴿بَينَهُم. ومَن يَكفُرْ بِآياتِ اللهِ فإنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ﴾ أي: المُجازاةِ له.

٢٠ ـ ﴿فإنْ حاجُّوكَ﴾: خاصمَك الكُفّار ـ يا محمّد ـ في الدين ﴿فقُلْ﴾ لهم: ﴿أسلَمتُ وَجهِيَ للهِ﴾: انقَدْت له أنا ﴿ومَنِ اتَّبَعَنِي﴾. وخُصّ الوجهُ بالذكر لشرفه، فغيره أولى. ﴿وقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ﴾: اليهودِ والنصارى ﴿والأُمِّيِّينَ﴾: مشركِي العرب: ﴿أأسلَمتُم﴾؟ أي: أسلِموا. ﴿فإنْ أسلَمُوا فقَدِ اهتَدَوا﴾ من الضلال، ﴿وإنْ تَوَلَّوا﴾ عن الإسلام ﴿فإنَّما علَيكَ البَلاغُ﴾: التبليغُ للرسالة. ﴿واللهُ بَصِيرٌ بِالعِبادِ﴾ فمجازيهم بأعمالهم. وهذا قبلَ الأمر بالقتال.

٢١ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ يَكفُرُونَ بِآياتِ اللهِ، ويَقتُلُونَ﴾ ـ وفي قراءة «ويُقاتِلُونَ» ـ ﴿النَّبِيِّينَ بِغَيرِ حَقٍّ، ويَقتُلُونَ الَّذِينَ يأمُرُونَ بِالقِسطِ﴾: بالعدل ﴿مِنَ النّاسِ﴾، وهم اليهود ـ رُوي أنّهم قتلوا ثلاثةً وأربعين نبيًّا، فنهاهم مِائةٌ وسبعون من عُبّادهم فقتلوهم من يومهم ـ ﴿فبَشِّرْهُم﴾:.........

قولُه: (وفي قَراءةٍ) للكِسائيِّ[١]، فلا وقفَ على ما قبلَهُ.

قولُه: (بأنْ وحَّدَ) الأحسنُ: بأن آمنَ؛ ليعمَّ الإيمانَ باللهِ ورسولِه، ولمقابلتِهِ بكفَرَ دونَ أشركَ.

قولُه: (بالتَّوحِيدِ) وبنعتِ النَّبيِّ ﷺ.

قولُه: (مِنَ الكافِرِينَ) أي: حسداً بينهم وطلباً للرِّئاسةِ، لا لشبهةٍ وخفاءٍ في الأمرِ.

قولُه: (أي: أسلِمُوا) يعني: لفظُهُ استفهامٌ ومعناهُ الأمرُ؛ كقولِهِ: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

قولُه: (أي: التَّبليغُ) المتضمِّنُ للثَّوابِ، وعليهم الحجَّةُ والعقابُ.

قولُه: (بأعمَالِهِم) وعدٌ للمسلمِ ووعيدٌ للمعرضِ.

قولُه: (بالقتَالِ) فيه أنَّ ما تقدَّمَ أخبارٌ لا تُنسَخُ.

قولُه: (وفي قِرَاءةٍ) أي: لحمزةَ، لكن في ﴿يَقْتُلُونَ﴾ الثَّاني[٢] كما نصَّ عليه الشَّاطبيُّ[٣].

قولُه: (في يومِهِمْ) وسوقُ بقلِهم قائمةٌ[٤].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٠٢)، و«حجة القراءات» (ص: ١٥٧).

(٢) وهو كما قال، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٠٣)، و«حجة القراءات» (ص: ١٥٨).

(٣) انظر: «حرز الأماني» (ص: ٤٤).

(٤) روى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣٩٩٨)، والدينوري في «المجالسة» (٢٦٩٩) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن بني =

أعلِمْهم ﴿بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾: مؤلم. وذكرُ البشارة تهكّم بهم، ودخلت الفاء في خبر «إنّ» لشَبه اسمها الموصول بالشرط، ٢٢ ـ ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ﴾: بَطَلَتْ ﴿أعمالُهُم﴾: ما عملوا من خير كصدَقة وصِلة رَحِم ﴿في الدُّنيا والآخِرةِ﴾، فلا اعتداد بها لعدم شرطها، ﴿وما لَهُم مِن ناصِرِينَ﴾: مانعِين من العذاب.

٢٣ ـ ﴿أَلَم تَرَ﴾: تنظرْ ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا﴾: حظًّا ﴿مِنَ الكِتابِ﴾ التوراة، ﴿يُدْعَونَ﴾: حالٌ، ﴿إِلَى كِتابِ اللهِ لِيَحكُمَ بَينَهُم، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنهُم، وهُم مُعرِضُونَ﴾ عن قَبول حُكمه. نزل في اليهود، زَنَى منهم اثنان فتحاكموا إلى النبيّ ﷺ، فحكم عليهما بالرجم فأَبَوا، فجيء بالتوراة فوُجد فيها، فرُجِما فغَضِبوا. ٢٤ ـ ﴿ذلِكَ﴾ التولّي والإعراض ﴿بِأَنَّهُم قالُوا﴾ أي: بسبب قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنا النّارُ إِلاّ أيّامًا مَعدُوداتٍ﴾ أربعينَ يومًا مُدّةَ عبادة آبائهم العجلَ، ثمّ تَزولُ عنهم. ﴿وغَرَّهُم في دِينِهِم﴾: متعلّق بقوله: ﴿ما كانُوا يَفتَرُونَ﴾ من قولهم ذلك.

قولُه: (لعَدمِ شَرْطِهَا) وهو الإيمانُ، فينبغِي أن يُفسَّرَ الأعمالَ بما يُشترَطُ في صحَّتِهِ الإيمانُ؛ كالصَّلاةِ والصَّومِ والحجِّ وسائرِ العبادَاتِ، بخلافِ الإحسَانِ إلى الفقراءِ وإطعَامِ الضَّيفِ وصِلَةِ الرَّحِمِ والتَّرحُّمِ على اليَتيمِ ونحوِها.

قولُه: (أي: التَّوراةِ) أو جنسِ الكتبِ، و﴿مِنَ﴾ للتَّبعِيضِ أو البيانِ.

قولُه: (حالٌ) أي: من ﴿الَّذِينَ﴾.

وقولُه تعالى: (﴿إِلَى كِتَابِ اللهِ﴾) أي: التَّوراةِ أو القرآنِ.

وقولُه تعالى: (﴿لِيَحْكُمَ﴾) أي: الكتابُ؛ جُعِلَ حاكماً حيثُ كان سبباً للحكمِ، أو: ليحكمَ النَّبيُّ ﷺ.

وقولُه تعالى: (﴿ثُمَّ﴾) استبعادٌ لتولِّيهم بعد علمِهِم بأنَّ الرُّجوعَ إلى كتابِ اللهِ واجبٌ.

قولُه: (عَن قَبولِ حُكمِهِ) أي: حكمِ الكتَابِ أو النَّبيِّ، والمعنى: وهم جميعٌ عادتُهُم الإعراضُ.

قولُه: (بسَبَبِ قولِهِمْ) وتسهيلِ الأَمْرِ عليهم.

قولُه: (أَرْبَعينَ) أو سبعةَ آلافِ سنةٍ عمرَ الدُّنيا[1].

قولُه: (متعلِّقٌ) أي: ﴿فِي دِينِهِمْ﴾ وقدِّمَ مراعاةً للفاصلةِ.

قولُه: (مِن قولِهِمْ) بيانٌ لـ﴿مَا﴾.

قولُه: (ذلكَ) أي: قولُهُم ﴿لَنْ تَمَسَّنَا﴾.

= إسرائيل كانوا يقتلون في اليوم ثلاث مئة نبي، ثم يقوم سوق بقلهم من آخر النهار.

(١) تقدم في سورة البقرة الآية رقم: (٨٠).

٢٥ ـ ﴿فكَيفَ﴾ حالُهم، ﴿إذا جَمَعْناهُم لِيَومٍ﴾ أي: في يوم ﴿لا رَيبَ﴾: شكَّ ﴿فِيهِ﴾ ـ هو يوم القيامة ـ ﴿ووُفِّيَتْ كُلُّ نَفسٍ﴾ من أهلِ الكتاب وغيرِهم جزاءَ ﴿ما كَسَبَتْ﴾: عمِلتْ من خير وشرّ، ﴿وهُم﴾ أيِ: الناس ﴿لا يُظلَمُونَ﴾ بنقصِ حسنة أو زيادةِ سيّئة؟

ونزل لمّا وَعَدَ النبيّ ﷺ أُمّتَه مُلكَ فارسَ والرومِ، فقال المنافقون: «هَيهاتَ»!: ٢٦ ـ ٢٧ ـ ﴿قُلِ: اللّٰهُمَّ﴾: يا أللهُ، ﴿مالِكَ المُلكِ، تُؤتي﴾: تُعطي ﴿المُلكَ مَن تَشاءُ﴾ من خلقك، ﴿وتَنزِعُ المُلكَ مِمَّن تَشاءُ، وتُعِزُّ مَن تَشاءُ﴾ بإيتائه، ﴿وتُذِلُّ مَن تَشاءُ﴾، بنزعه منه. ﴿بِيَدِكَ﴾: بقُدرتك ﴿الخَيرُ﴾ أي: والشرُّ. ﴿إنَّكَ على كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ﴾: تُدخِلُ ﴿اللَّيلَ في النَّهارِ، وتُولِجُ النَّهارَ﴾: تُدخِلُه ﴿في اللَّيلِ﴾، فيزيد كلّ منهما بما نقَص من الآخَر، ﴿وتُخرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ﴾، كالإنسان والطائر من النُّطفة والبيضة،......

قولُه: (جزاءَ ﴿مَا كَسَبَتْ﴾) أي: وافياً.

قولُه: (أي: النَّاس) أي: اليهودُ وغيرُهم، ففيه تغليبٌ، وقالَ البيضاويُّ[1]: الضَّميرُ لكلِّ نفسٍ على المعنى؛ لأنَّه في معنى كلِّ إنسانٍ.

قولُه: (يا اللهُ) الميمُ عوَضٌ من[2] (يا)؛ ولذلك لا يجتمعانِ، وهو من خصائصِ هذا الاسمِ، كدخولِها عليه مع لامِ التَّعريفِ، وقطْعِ همزتِهِ وتاءِ القسمِ، وقيل: أصلُهُ يا اللهُ أُمَّنا بخيرٍ، فخُفِّفَ بحذفِ حرفِ النِّداءِ ومتعلِّقاتِ الفعلِ وهمزتِهِ.

قولُه: (تُعطِي) فالمُلكُ الأوَّلُ عامٌّ والآخرانِ بعضانِ منه، فقيل: المرادُ مُلكُ العلمِ، أو مُلكُ القناعةِ، أو مُلكُ إحياءِ اللَّيلِ.

قولُه: (بنَزْعِهِ منهُ) وقد يكونُ الأمرُ بالعَكسِ إن كان الملكُ ظاهريًّا؛ ولذا قالَ ابنُ عطاءٍ[3]: ربَّما أعطاكَ فمنعَكَ، وربَّما منعكَ فأعطاكَ.

قولُه: (بقُدرتِكَ) وتصرُّفِكَ.

قولُه: (أي: والشَّرُّ) فيكونُ من بابِ الاكتِفاءِ، أو من طريقِ الأدبِ، أو لأنَّ المقامَ مقامُ المرغُوبِ فيه، أو لأنَّ الخيرَ مقضيٌّ بالذَّاتِ والشَّرَّ مقضِيٌّ بالعرضِ؛ إذ لا يُوجَدُ شرٌّ جزئيٌّ ما لم يتضمَّنَ خيراً كليًّا.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٢/ ١١).

(٢) في (ص): «عن».

(٣) انظر: «الحكم العطائية» (ص: ٦٠) الحكمة الثالثة والثمانون.

﴿وتُخرِجُ المَيْتَ﴾ كالنُّطفة والبيضة ﴿مِنَ الحَيِّ، وتَرزُقُ مَن تَشاءُ بِغَيرِ حِسابٍ﴾، أي: رزقًا واسِعًا.

٢٨ ـ ﴿لا يَتَّخِذِ المُؤمِنُونَ الكافِرِينَ أولِياءَ﴾ يُوالونهم ﴿مِن دُونِ﴾ أي: غيرِ ﴿المُؤمِنِينَ ـ ومَن يَفعَلْ ذلِكَ﴾ أي: يُوالِهم ﴿فلَيسَ مِنَ﴾ دِينِ ﴿اللهِ في شَيءٍ ـ إلاّ أنْ تَتَّقُوا مِنهُم تُقاةً﴾: مصدر: تَقيته، أي: تخافوا مَخافةً، فلكم موالاتُهم باللسان دُون القلب. وهذا قبل عِزّة الإسلام، ويجري فيمن هو في بلد ليس قويًّا فيها. ﴿ويُحَذِّرُكُمُ﴾: يُخوِّفُكم ﴿اللهُ نَفْسَهُ﴾ أن يغضب عليكم، إن والَيتُموهم، ﴿وإلَى اللهِ المَصِيرُ﴾: المَرجِع فيجازيكم.

قولُه: (والبيْضَةِ) وكالعالِمِ من الجاهلِ، والصَّالحِ من الفَاسقِ، والذَّاكرِ من الغَافلِ؛ إذ قالَ ﷺ: «مثلُ الَّذي يذكرُ ربَّهُ والَّذي لا يذكرُ ربَّهُ مثلُ الحيِّ والميِّتِ»[1]، أو المؤمنِ من الكافرِ، وكانَ ﷺ إذا رأى عكرمةَ ابن أبي جهلٍ يقولُ: «﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: ٩٥]»[2].

قولُه: (يُوَالونَهُمْ) الظَّاهرُ: يوالُوهُم؛ لأنَّ ﴿لا﴾ ناهيةٌ.

قولُه: (أي: غَيرِ) أو ﴿دُونِ﴾ بمعنى التَّجاوزِ؛ أي: مجاوِزينَ المؤمنينَ.

قولُه: (يوَالِيهِمْ) الأَولَى: يوالِهم[3] كما في نسخةٍ، وهذا تفسيرٌ بالمعنى، وإلَّا فالإشارةُ في ذلك إلى الاتِّخاذِ.

قولُه: (مصدَرُ تقيتُهُ) في «القاموسِ»[4]: اتَّقيتُ الشَّيءَ وتقيتُهُ تقاةً وتقيَّةً حذِرتُه، والاسمُ: التَّقوى، أصلُهُ: تَقْياً، قلبوهُ للفرقِ بين الاسمِ والصِّفةِ.

قولُه: (وهذَا) أي: الاتِّقاءُ.

قولُه: (ليسَ قويًّا) أي: الإسلامُ، أو هو نفسُهُ.

قولُه: (أنْ يَغْضَبَ) بدلٌ من مفعولِ يحذِّرُ، وفي نسخةٍ: أي: التَّفسيريَّةِ، وهو تصحيفٌ.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه، واللفظ للبخاري.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) «من قوله: يوالوهم...إلى قوله:... الأولى يوالهم»: ليست في (م).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٣٤٤).

٢٩ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إنْ تُخفوا ما في صُدُورِكُم﴾: قُلوبكم من مُوالاتهم، ﴿أو تُبدُوهُ﴾: تُظهروه، ﴿يَعلَمْهُ اللهُ. و﴾ هو ﴿يَعلَمُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ. واللهُ علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾، ومنه تعذيب مَن والاهم.

٣٠ ـ اذكرْ ﴿يَومَ تَجِدُ كُلُّ نَفسٍ ما عَمِلَتْ﴾ـهُ ﴿مِن خَيرٍ مُحضَرًا، وما عَمِلَتْ﴾ـهُ ﴿مِن سُوءٍ﴾: مبتدأ خبرُه ﴿تَوَدُّ لَو أنَّ بَينَها وبَينَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾: غايةً في نهاية البعد، فلا يصل إليها. ﴿ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفسَهُ﴾ ـ كُرّر للتأكيد ـ ﴿واللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبادِ﴾.

ونزل لمّا قالوا: «ما نعبد الأصنام إلاّ حُبًّا للهِ، ليُقرّبونا إليه»: ٣١ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم، يا محمّد: ﴿إنْ كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِي، يُحبِبْكُمُ اللهُ﴾ بمعنى أنه يُثِيبكم، ﴿ويَغفِرْ لَكُم ذُنُوبَكُم. واللهُ غَفُورٌ﴾ لمن اتّبعني ما سلفَ منه قبل ذلك ﴿رَحِيمٌ﴾ به. ٣٢ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَطِيعُوا اللهَ والرَّسُولَ﴾ فيما يأمركم به من التوحيد. ﴿فإنْ تَوَلَّوا﴾: أعرضوا عن الطاعة ﴿فإنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكافِرِينَ﴾. فيه إقامة الظاهر مَقام المُضمر أي: لا يُحبُّهم بمعنى أنه يُعاقبهم. ٣٣ ـ ﴿إنَّ اللهَ اصطَفَى﴾: اختار ﴿آدَمَ ونُوحًا وآلَ إبراهِيمَ وآلَ عِمرانَ﴾ بمعنى: أنفُسَهما ﴿علَى العالَمِينَ﴾ بجعل الأنبياء من نسلهم، ....

قولُه: (﴿و﴾هوَ) إشارةٌ إلى أنَّ ﴿يعلمُ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، وليسَ بعطفٍ على ما قبلَهُ، وإلّا لكانَ مجزوماً.

قولُه: (اذكرْ) وقيل: منصُوبٌ بـ﴿تود﴾.

قولُه: (مُبْتدأٌ) ويجوزُ أن يكونَ عطفاً على: ﴿مَا عَمِلَتْ﴾، و﴿تَوَدُّ﴾ حالٌ من الضَّميرِ في ﴿عَمِلَتْ﴾ أو استئنافٌ.

قولُه: (خبرُهُ ﴿تَوَدُّ﴾) وضميرُ ﴿بَيْنَهُ﴾ لـ﴿مَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ﴾.

قولُه: (للتَّأكيدِ) والتَّذكيرِ ليكونَ على بالٍ، أو الأوَّلُ للموالاةِ والثَّاني لعملِ السُّوءِ.

قولُه: (أعرَضُوا) أو تُعرِضُوا؛ فإنَّهُ يحتملُ الماضِيَ والمضَارعَ.

قولُه: (فيهِ إقامةُ الظَّاهرِ) لقصْدِ العُمومِ والدَّلالةِ على أنَّ التَّولِّي كفرٌ.

قولُه: (بمَعْنَى: أنفسَهما) فالآلُ مقحمةٌ، وقيل: آلُ إبراهيمَ للأنبياءِ بعدهُ، وآلُ عِمرانَ: عيسى وأمُّهُ.

قولُه: (مِن نسلِهِم) أي: اصطفاهُم بالرِّسالةِ والخصائصِ الرُّوحانيَّةِ والفضائلِ الجسمانيَّةِ.

٣٤ـ ﴿ذُرِّيَّةً بَعضُها مِن﴾ ولدِ ﴿بَعضٍ﴾ منهم. ﴿واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

٣٥ـ اذكرْ ﴿إذ قالَتِ امرأةُ عِمرانَ﴾ حَنّةُ، لمّا أسنَّت واشتاقت للولد، فدعَتِ اللهَ وأحسَّت بالحمل: يا ﴿رَبِّ، إنّي نَذَرتُ﴾ أن أجعلَ ﴿لكَ ما في بَطنِي مُحَرَّرًا﴾: عتيقًا خالِصًا من شواغل الدنيا لخِدمة بيتك المُقدّس. ﴿فتَقَبَّلْ مِنِّي. إنَّكَ أنتَ السَّمِيعُ﴾ للدُّعاء ﴿العَلِيمُ﴾ بالنيّات. وهَلَكَ عِمرانُ وهي حامِلٌ.

٣٦ـ ﴿فلَمّا وَضَعَتْها﴾: ولَدَتْها جاريةً، وكانت ترجو أن يكون غُلامًا إذ لم يكن يُحرَّرُ إلاّ الغِلمانُ، ﴿قالَتْ﴾ مُعتذرةً: يا ﴿رَبِّ، إنِّي وَضَعتُها أُنثَى ـ واللهُ أعلَمُ﴾ أي: عالمٌ ﴿بِما وَضَعَتْ﴾: جملةُ اعتراض من كلامه تعالى. وفي قراءة.......................................

قوله تعالى: (﴿ذُرِّيَّةً﴾) حالٌ أو بدلٌ من الآلَين، أو منهما ومن نوحٍ؛ أي: أنَّهم ذرِّيَّةٌ واحدةٌ متشعِّبةٌ بعضها من بعضٍ.

قولُه: (﴿مِن﴾ ولد ﴿بَعْضٍ﴾) وقيل: بعضها من بعضٍ في الدِّينِ.

قولُه: (لمَّا أَسَنَّتْ) بتشديدِ النُّونِ؛ أي: دخلَت في السِّنِّ؛ أي: صارَتْ مُسنَّةً، وفي نسخةٍ: أيسَتْ؛ أي: من الولدِ لكبرِهَا.

قولُه: (واشتَاقَتِ الولدَ) في «القاموسِ»[1]: اشتاقَهُ وإليه بمعنًى.

قولُه: (وأحسَّتْ) وفي نسخةٍ: «فأحسَّتْ»، وهو أولى.

قولُه: (وهلكَ) أي: ماتَ، وهو أنسبُ.

قولُه تعالى: (﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا﴾) الضَّميرُ لما في بَطنِها، وتأنيثُهُ لأنَّهُ كانَ أُنثَى، وجازَ انتصَابُ ﴿أُنثَى﴾ حالاً عنهُ؛ يعني: مؤكِّدةً؛ لأنَّ تأنيثَها عُلِمَ منه؛ فإنَّ الحالَ وصاحِبَها بالذَّاتِ واحدٌ، أو على تأويلِ مؤنَّثٍ كالنَّفسِ والجبلَّةِ والنَّسَمةِ.

قولُه: (أي: عَالِمٌ) الظَّاهرُ أنَّ: ﴿أَعْلَمُ﴾ على بابِهِ.

قولُه: (وفي قِرَاءةٍ) لابنِ عامرٍ وأبي بكرٍ[2].

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٨٩٩).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٠٤)، و«حجة القراءات» (ص: ١٦٠).

بضمّ التاء. ﴿ولَيسَ الذَّكَرُ﴾ الذي طلبتْ ﴿كالأُنثَى﴾ التي وَهَبتُ لأنه يُقصَد للخِدمة وهي لا تصلح لها لضعفها وعَورتها وما يعتريها من الحيض ونحوه ـ ﴿وإنِّي سَمَّيتُها مَريَمَ، وإنِّيَ أُعِيذُها بِكَ وذُرِّيَّتَها﴾: أولادَها ﴿مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ﴾: المطرود. وفي الحديث: «ما مِن مَولودٍ يُولَدُ إلاّ مَسَّهُ الشَّيطانُ حِينَ يُولَدُ، فيَستَهِلُّ صارِخًا [مِن مَسِّهِ إيّاهُ]، إلاّ مَريَمَ وابنَها». رواه الشيخان.

٣٧ ـ ﴿فتَقَبَّلَها رَبُّها﴾ أي: قَبِلَ مريمَ من أُمّها ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ، وأنبَتَها نَباتًا حَسَنًا﴾: أنشأها بِخَلق حسن، فكانت تَنبتُ في اليوم كما ينبت المولود في العام ـ وأتت بها أُمُّها الأحبارَ سَدَنَةَ بيت المقدس، فقالت: دُونَكم هذه النَّذيرةَ فتنافسوا فيها لأنّها بنتُ إمامهم، فقال زكريّاءُ: أنا أحقّ بها لأن خالتها عندي. فقالوا: لا، حتّى نقترعَ. فانطلقوا، وهم تسعة وعشرون، إلى نهر الأُردُنّ وألقَوا أقلامهم، على أنّ مَن ثَبَتَ قلمه في الماء وصعِدَ فهو أَولى بها، فثَبَتَ قلم زكريّاءَ فأخذها، وبنى لها غُرفة في المسجد بِسُلّم، لا يَصعد إليها غيرُه ـ وكان يأتيها بأكلها وشُربها ودُهنها، فيجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، كما قال تعالى ﴿وكَفَلَها زَكَرِيّاءُ﴾: ضمَّها إليه ـ وفي قراءة بالتشديد..........

قولُه: (بضَمِّ التَّاءِ) أي: وسكونِ العينِ على أنَّهُ من كلامِها تسليةً لنَفسِها؛ أي: ولعلَّ للهِ فيه سرًّا والأُنثَى كانَت خيراً.

قولُه: (طلبْتُ) بضمِّ التَّاءِ.

قولُه: (المَطْرودِ) أي: عن الرَّحمةِ، أو الطَّاردِ عن الطَّاعةِ.

قولُه: (فيستَهِلُّ) أي: يرفعُ صوتَهُ، و(صَارِخاً) أي: صائحاً.

قولُه: (بخَلْقٍ) بفتحِ الخاءِ.

قولُه: (سَدَنَة) خدمَةَ وزناً ومعنًى.

قولُه: (دونَكُمْ هذِهِ النَّذِيرةَ) أي: الزَموا المنذورةَ.

قولُه: (فتنَافَسُوا) أي: رغبُوا فيها رغبَةَ الشَّيءِ النَّفيسِ.

قولُه: (ثبَتَ) أي: رسَبَ ونزلَ تحت الماءِ.

قولُه: (وفي قِرَاءةٍ) للكوفيِّينَ[1].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٠٤).

ونصبِ «زكريّـاء» ممدودًا ومقصـورًا، والفاعـلُ اللهُ ـ ﴿كُلَّما دَخَـلَ علَيها زَكَرِيّاءُ المِحـرابَ﴾: الغُرفة ـوهـي أشـرف المَجالـس ـ ﴿وَجَـدَ عِندَهـا رِزقًـا. قـالَ: يا مَريَـمُ، أنّـى﴾: مِن أيـنَ ﴿لَكِ هـذا؟ قالَتْ﴾ وهـي صغيـرةٌ: ﴿هُـوَ مِـن عِنـدِ اللهِ﴾ يأتيني به مـن الجنّـة. ﴿إنَّ اللهَ يَـرزُقُ مَن يَشـاءُ بِغَيرِ حِسـابٍ﴾ رزقًا واسـعًا بلا تَبِعة.

٣٨ ـ ٣٩ ـ ﴿هُنالِكَ﴾ أي: لمّا رأى زكريّاءُ ذلك، وعلم أنّ القادر على الإتيان بالشيء في غير حينه قادرٌ على الإتيان بالولد على الكِبَر، وكان أهل بيته انقرضوا، ﴿دَعا زَكَرِيّاءُ رَبَّهُ﴾ لمّا دخل المِحراب للصلاة جوف الليل، ﴿قالَ: رَبِّ، هَبْ لِي مِن لَدُنْكَ﴾: مِن عِندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾: ولدًا صالحًا. ﴿إنَّكَ سَمِيعُ﴾: مُجيبُ..............................

قولُه: (ونصْبِ ﴿زَكَرِيَّا﴾ ممدُوداً) لأبي بكرٍ، وقوله: (مقصُوراً) لبقيَّة الكوفيِّينَ[١].

قولُه: (والفَاعلُ) يعني: على التَّشديدِ.

قولُه: (الغُرْفَةَ) وفسَّرَ[٢] في (سبأ)[٣] المحرابَ ببناءٍ مرتفعٍ يصعدُ إليه بدرجٍ، وفي (ص)[٤] بالمسجدِ، والجمعُ ممكنٌ.

قال تعالى: (﴿رِزْقًا﴾) عن مجاهدٍ قالَ: علماً، كذا في «الدُّرِّ»[٥]، والأظهرُ الجمعُ.

قولُه: (مِنَ الجنَّةِ) وعلى قولِ مجاهدٍ؛ يعني: علماً لدُنِّيًّا.

قولُه: (بلَا تَبِعَةٍ) وبلا تعَبٍ وبكثرةٍ.

قولُه: (وعلمَ) أي: وقد علمَ لكنَّهُ تذكَّرهُ.

قولُه: (وكانَ أهلُ بيتِهِ) أي: أقاربُهُ.

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) أي: جلال الدين المحلي.

(٣) في الآية رقم: (١٣) وهي قوله تعالى: ﴿يعملون ما يشاء من محاريب...﴾ الآية.

(٤) في الآية رقم: (٢١) وهي قوله تعالى: ﴿... إذ تسوروا المحراب﴾.

(٥) انظر: «الدر المنثور» (٢/ ١٨٦).

والأثر رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٦٤٠).

﴿الدُّعاءِ. فنادَتهُ المَلائكةُ﴾ أي: جبريلُ، ﴿وهُوَ قائمٌ يُصَلِّي في المِحرابِ﴾ أي: المسجدِ ﴿أنَّ﴾ أي: بأنّ ـ وفي قراءة بالكسر بتقدير القول ـ ﴿اللهَ يُبَشِّرُكَ﴾، مثقَّلاً ومخفَّفًا، ﴿بِيَحيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمةٍ﴾ كائنة ﴿مِنَ اللهِ﴾ أي: بعيسى أنه رُوح الله ـ وسُمّي كلمةً لأنّه خُلق بكلمة «كُن» ـ ﴿وسَيِّدًا﴾: متبوعًا ﴿وحَصُورًا﴾: مَنُوعًا من النساء ﴿ونَبِيًّا مِنَ الصّالِحِينَ﴾. رُوي أنه لم يعمل خطيئةً، ولم يَهِمّ بها.

٤٠ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، أنَّى﴾: كيف ﴿يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾: ولد، ﴿وقَد بَلَغَنِيَ الكِبَرُ﴾ أي: بلغتُ نهايةَ السنِّ مِائةً وعشرين سنة، ﴿وامرأتِي عاقِرٌ﴾ بلغتْ ثمانيَ وتسعين سنة؟ ﴿قالَ﴾: الأمرُ ﴿كَذلِكَ﴾ مِن خلقِ غلامٍ منكما. ﴿اللهُ يَفعَلُ ما يَشاءُ﴾ لا يُعجزه عنه شيء. ولإظهار هذه القُدرة العظيمة ألهمَه السؤالَ ليُجابَ بها. ولمّا تاقت نفسه إلى سرعة المُبشَّر به..........................

قولُه تعالى: (﴿فَنَادَتْهُ﴾) حمزةُ والكسائيُّ بالتَّذكيرِ والإمالةِ[١].

قولُه: (أي: جِبْرِيلُ) فالجمعُ للتَّعظيمِ، وقيل: كانَ معه جمعٌ لكن لمَّا كان هو المتكلِّمُ نُسِبَ إليه.

قولُه: (وَفِي قِرَاءةٍ) أي: لحمزةَ وابنِ عامرٍ[٢]، وأمَّا نسبةُ القَاضِي[٣] القراءةَ لنافعٍ فغيرُ صَحيحٍ.

قولُه: (بتَقْدِيرِ القَولِ) أو لأنَّ النِّداءَ نوعٌ منه.

قولُه: (مخفَّفاً) على وزنِ ينصرُ لحمزةَ والكسائيِّ[٤].

قولُه: (أي: بعِيْسَى) أو بكتابِ اللهِ، سُمِّيَ كلمةً كالقَصِيدةِ.

قولُه: (مِنَ النِّساءِ) معَ القُدرةِ ومن الملاهِي، رُوِيَ: أنَّ الصِّبيانَ دعوهُ إلى اللَّعبِ فقال: ما للَّعبِ خُلِقتُ[٥].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٠٥)، و«حجة القراءات» (ص: ١٦٢).

(٢) انظر المصارد السابقة.

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٢/ ١٥).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٠٥)، و«حجة القراءات» (ص: ١٦٣).

(٥) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٨٢٣)، وعبد الرزاق في «التفسير» (٣٩٦)، وأحمد في «الزهد» (٤٦٤)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٥٥) عن معمر قال: بلغني أن الصبيان قالوا ليحيى بن زكريا....

ورواه الحاكم في «تاريخه» كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٨٥) من حديث ابن عباس مرفوعاً.

٤١ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، اجعَلْ لِيَ آيَةً﴾ أي: علامةً على حمل امرأتي. ﴿قالَ: آيتُكَ﴾ عليه ﴿ألاّ تُكَلِّمَ النّاسَ﴾ أي: تمتنعَ من كلامهم، بخلاف ذِكرِ الله ـ تعالى ـ ﴿ثَلاثةَ أيامٍ﴾ أي: بلياليها، ﴿إلاّ رَمزًا﴾: إشارة. ﴿واذكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا، وسَبِّحْ﴾: صلِّ ﴿بِالعَشِيِّ والإبكارِ﴾: أواخرِ النهار وأوائله.

٤٢ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ قالَتِ المَلائكةُ﴾ أي: جِبريلُ: ﴿يا مَريَمُ، إنَّ اللهَ اصطَفاكِ﴾: اختارَكِ ﴿وطَهَّرَكِ﴾ من مسيس الرجال، ﴿واصطَفاكِ علَى نِساءِ العالَمِينَ﴾ أي: أهلِ زمانكِ. ٤٣ ـ ﴿يا مَريَمُ، اقنُتِي لِرَبِّكِ﴾: أطيعِيه، ﴿واسجُدِي واركَعِي مَعَ الرّاكِعِينَ﴾ أي: صلِّي مع المُصلِّين.

٤٤ ـ ﴿ذلِكَ﴾ المذكور من أمر زكريّاءَ ومريمَ ﴿مِن أنباءِ الغَيبِ﴾: أخبار ما غاب عنك، ﴿نُوحِيهِ إلَيكَ﴾ ـ يا محمّد ـ ﴿وما كُنتَ لَدَيهِم إذ يُلقُونَ أقلامَهُم﴾ في الماء، يقترعون ليَظهر لهم ﴿أيُّهُم يَكفُلُ﴾: يُربّي ﴿مَريَمَ﴾؟ وما كُنتَ لَدَيهِم إذ يَختَصِمُونَ﴾ في كفالتها، فتعرفَ ذلك فتُخبِرَ به. وإنما عرَفتَه من جهة الوحي.

٤٥ ـ اذكرْ ﴿إذ قالَتِ المَلائِكةُ﴾ أي جِبريلُ: ﴿يا مَريَمُ، إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمةٍ مِنهُ﴾ أي: ولدٍ ﴿اسمُهُ المَسِيحُ عِيسَى بنُ مَريَمَ﴾ ـ خاطبها بنسبته إليها تنبيهًا على أنها تلده بلا أبٍ، إذْ عادةُ الرجال نسبتُهم إلى آبائهم ـ ﴿وَجِيهًا﴾:...

قولُه: (صلِّ) أو تخصِيصٌ بعدَ تعميمٍ في الذِّكرِ والوَقتِ.

قولُه: (اختَارَكِ) الاصطفَاءُ الأوَّلُ: تقبُّلُهَا من أمِّهَا ولم يقبلْ قبلَهَا أُنثَى، وتفريغُها للعبادةِ وإغناؤُهَا برزقِ الجنَّةِ من غيرِ[1] الكَسبِ، والثَّاني: هدايَتُها وإرسالُ الملائكةِ إليها، وتخصِيصُها بالكرَاماتِ السَّنيَّةِ، وتبرئَتُها ممَّا قذفَتْهُ اليهودُ بإنطاقِ ولَدِها الطِّفلِ، وجَعلُها وابنَها آيةً للعالَمِينَ.

قولُه: (مِنْ مَسِيسِ الرِّجالِ) ومما يُستقذَرُ من النِّساءِ.

قولُه: (فِي المَاءِ) قيلَ: على نهرٍ بحلبَ، كذا في «المبهماتِ»[2].

قولُه: (عادَةُ الرِّجالِ) أي: خصُوصاً، وإلَّا فكذا عادةُ النِّساءِ أيضاً.

---

(١) «غير»: مثبت من (ص).

(٢) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٢٤). ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢١/ ١١) عن سعيد بن إسحاق الدمشقي.

ذا جاه ﴿في الدُّنيا﴾ بالنبوّة ﴿والآخِرةِ﴾ بالشفاعة والدرجات العُلا، ﴿ومِنَ المُقَرَّبِينَ﴾ عند الله، ٤٦ ـ ﴿ويُكَلِّمُ النّاسَ في المَهدِ﴾ أي: طفلاً قبل وقت الكلام ﴿وكَهلاً، ومِنَ الصّالِحِينَ﴾.

٤٧ ـ ﴿قالَتْ: رَبِّ، أنّى﴾: كيفَ ﴿يَكُونُ لِي وَلَدٌ، ولَم يَمسَسْنِي بَشَرٌ﴾ بتزوّج ولا غيرِه؟ ﴿قالَ﴾: الأمرُ ﴿كَذلِكِ﴾ من خلق ولد منك بلا أب. ﴿اللهُ يَخلُقُ ما يَشاءُ، إذا قَضَى أمرًا﴾: أراد خلْقَه ﴿فإنَّما يَقُولُ لَهُ: كُنْ. فيَكُونُ﴾ أي: فهو يكون.

٤٨ ـ ﴿ونُعَلِّمُهُ﴾ ـ بالنون والياء ـ ﴿الكِتابَ﴾: الخطَّ ﴿والحِكْمةَ والتَّوراةَ والإنجِيلَ﴾، ٤٩ ـ ﴿و﴾ نجعلُه ﴿رَسُولاً إلَى بَنِي إسرائيلَ﴾ في الصِّبا أو بعدَ البلوغ. فنفخ جِبريلُ في جَيبِ دِرعها فحَملتْ، وكان من أمرها ما ذُكر في سورة «مريم».

فلمّا بعثه اللهُ إلى بني إسرائيل قال لهم: إني رسول اللهِ إليكم، ﴿أنّي﴾ أي: بأني ﴿قَد جِئتُكُم بِآيةٍ﴾: علامة على صدقي ﴿مِن رَبِّكُم﴾، هي ﴿أنّيَ﴾ ـ وفي قِراءة بالكسر استئنافًا ـ ﴿أخلُقُ﴾: أصوِّر ﴿لكُم مِنَ الطِّينِ كَهَيئةِ الطَّيرِ﴾: مثلَ صورته ـ فالكاف: اسمٌ مفعولٌ ـ ﴿فأنفُخُ فِيهِ﴾........

قولُه: (أي: طِفلاً) إشارةٌ إلى أنَّ الجارَّ والمجرورَ في محلِّ النَّصبِ على أنَّهُ حالٌ.

قالَ تعَالى: (﴿وَكَهْلًا﴾) يفيدُ نزولَهُ قبلَ السَّاعةِ؛ لأنَّهُ رُفِعَ قبلَ الكهُولةِ كما ذكرَهُ المصنِّفُ في (المائدةِ)[1]، أو معناهُ: يكلِّمُهُمْ حالَ كونِهِ طفلاً وكهلاً كلامَ الأنبياءِ من غيرِ تفاوتٍ.

قولُه: (أي: فهُو يَكُونُ) هذا على قراءةِ الرَّفعِ، وقرأ ابنُ عامرٍ بالنَّصبِ جواباً للأمرِ[2].

قولُه: (والياءِ) لنافعٍ وعاصِمٍ[3].

قولُه: (الخَطَّ) أو جِنْسَ الكتبِ.

قولُه: (هيَ ﴿أَنِّي﴾) فيكونُ محلُّهُ رفعاً، وقيل: نصبٌ بدلُ: ﴿أَنِّي قد جئتُكُمْ﴾، وقيل: جرٌّ بدلُ ﴿آيَةٍ﴾.

قولُه: (وفِي قِرَاءةٍ) لنافعٍ[4]، وهو وابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو يفتحونَ الياءَ[5].

قولُه: (اسمٌ) أي: لا حرفٌ (مفعولٌ) أي: لـ(أخلقُ).

---

(١) في الآية رقم: (١١٠).

(٢) انظر: «جامع البيان في القراءات السبع» (٢/ ٨٨٤).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٠٦)، و«حجة القراءات» (ص: ١٦٣).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٠٦)، و«حجة القراءات» (ص: ١٦٤).

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٢٢).

الضميرُ للكاف ﴿فَيَكُونُ طَيرًا﴾، وفي قراءةٍ: «طائرًا»، ﴿بِإذنِ اللهِ﴾: بإرادته ـ فخلق لهم الخُفّاش لأنه أكمل الطير خَلقًا، فكان يطير وهم ينظرونه، فإذا غاب عن أعيُنهم سقط ميّتًا ـ ﴿وأُبرِئُ﴾: أشفي ﴿الأكمَهَ﴾: الذي وُلد أعمى ﴿والأبرَصَ﴾ ـ وخُصّا بالذكر لأنهما داءا إعياء، وكان بعثُه في زمن الطبّ، فأبرأ في يومٍ خمسين ألفًا بالدعاء بشرط الإيمان ـ ﴿وأُحيِي المَوتَى بِإذنِ اللهِ﴾ ـ كرّره لنفي توهّم الألوهيّة فيه. فأحيا عازرَ صديقًا له وابنَ العجوز وابنةَ العاشر، فعاشوا ووُلِدَ لهم، وسامَ بن نوح وماتَ في الحال ـ ﴿وأُنَبِّئُكُم بِما تأكُلُونَ وما تَدَّخِرُونَ﴾: تَخبَؤُون ﴿في بُيُوتِكُم﴾ ممّا لم أُعاينه. فكان يُخبر الشخص بما أكل وبما يأكل بعد. ﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ المذكور ﴿لَآيَةً لَكُم، إنْ كُنتُم مُؤمِنِينَ﴾.

٥٠ ـ ﴿و﴾ جئتكم ﴿مُصَدِّقًا لِما بَينَ يَدَيَّ﴾: قَبلي ﴿مِنَ التَّوراةِ، ولِأُحِلَّ لَكُم بَعضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيكُم﴾ فيها ـ فأحَلَّ لهم من السمك والطير ما لا صِيصِيةَ له. وقيل: أحلّ الجميع، فبعض بمعنى: كلّ ـ ﴿وجِئتُكُم بِآيَةٍ مِن رَبِّكُم﴾ ـ كرّره تأكيدًا ولِيُبنَى عليه:..........

قولُه: (الضَّميرُ للكَافِ) أي: ليكونَ المرجِعُ بحسَبِ اللَّفظِ وإنْ كانَ في التَّحقِيقِ هو الشَّيءُ الموصُوفُ بالمَماثلةِ، وقيل: الضَّميرُ إلى الطِّينِ المهيَّأ.

قولُه: (وفِي قرَاءةٍ) لنافعٍ[1].

قولُه: (داءَا إعيَاءٍ) بالإضافةِ؛ أي: داءانِ عجزَ الأطبَّاءُ عن دوائِهما.

قولُه: (كرَّرَهُ) أي: قولَهُ: ﴿بِإذنِ اللهِ﴾.

قولُه: (لنَفِي توهُّمِ الألوهيَّةِ) فإنَّ الإحياءَ ليس من جنسِ أفعالِ البشرِ.

قولُه: (تخبَّئونَ) أي: تخفونَ، مأخوذٌ من الذَّخيرةِ.

قولُه: (جئتُكُمْ) أي: منصوبٌ بإضمارِ فعلٍ دلَّ عليه: ﴿قَدْ جِئتُكُمْ﴾ لا أنَّهُ معطوفٌ على ﴿رَسُولًا﴾، أو على الأحوالِ الَّتي قبلَهُ؛ لأنَّهُ وجبَ أن يقولَ: (لما بين يديهِ)، فافهَمْ.

قولُه: (صِيصَةَ[2]) بالكَسرِ وهي ما يدفعُ به الطَّيرُ أو السَّمكُ عن نفسِهِ، ويقالُ لشوكةِ الدِّيكِ الَّذي في رجلِهِ: صيصَةٌ، ويقالُ للقَرْنِ أيضاً صيصَةٌ[3].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٠٦)، و«حجة القراءات» (ص: ١٦٤).

(٢) في (ص) هنا والمواضع التالية: «صيصية».

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (١٢/ ١٨٦).

﴿فاتَّقُوا اللهَ، وأطِيعُونِ﴾ فيما آمُرُكم به من توحيد الله وطاعته ـ ٥١ ـ ﴿إنَّ اللهَ رَبِّي ورَبُّكُم. فاعبُدُوهُ. هذا﴾ الذي آمُرُكم به ﴿صِراطٌ﴾: طريق ﴿مُستَقِيمٌ﴾. فكذّبوه ولم يؤمنوا به.

٥٢ ـ ٥٣ ـ ﴿فلَمّا أحَسَّ﴾: عَلِمَ ﴿عِيسَى مِنهُمُ الكُفرَ﴾، وأرادوا قتله، ﴿قالَ: مَن أنصارِيَ﴾: أعواني ذاهبًا ﴿إلَى اللهِ﴾ لأنصرَ دينه؟ ﴿قالَ الحَوارِيُّونَ: نَحنُ أنصارُ اللهِ﴾: أعوان دينه ـ وهم أصفياء عيسى أوّلُ مَن آمنَ به، وكانوا اثنَي عَشَرَ من الحَوَرِ، وهو البياض الخالص. وقيل: كانوا قصّارين يُحوّرون الثياب أي: يُبيّضونها ـ ﴿آمَنّا﴾: صدّقنا ﴿بِاللهِ. واشهَدْ﴾ ـ يا عيسى ـ ﴿بِأنّا مُسلِمُونَ. رَبَّنا، آمَنّا بِما أنزَلتَ﴾ من الإنجيل، ﴿واتَّبَعْنا الرَّسُولَ﴾ عيسى. ﴿فاكتُبْنا مَعَ الشّاهِدِينَ﴾ لك بالوحدانيّة ولرسولك بالصِّدق.

٥٤ ـ قال تعالى: ﴿ومَكَرُوا﴾ أي: كُفّارُ بني إسرائيل بعيسى، إذ وكلوا به من يقتله غِيلة، ﴿ومَكَرَ اللهُ﴾ بهم بأن ألقى شَبَهَ عيسى على مَن قصد قتله فقتلوه، ورُفع عيسى، ﴿واللهُ خَيرُ الماكِرِينَ﴾: أعلمُهم به. ٥٥ ـ اذكرْ ﴿إذ قالَ اللهُ: يا عِيسَى، إنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾: قابضك، ﴿ورافِعُكَ إلَيَّ﴾ من الدنيا من غير موت، ﴿ومُطَهِّرُكَ﴾: مُبعِدك ﴿مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾: صدّقوا بنبُوّتك من المُسلمين والنصارى ﴿فَوقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وهم اليهود، يَعلُونهم بالحُجّة والسيف ﴿إلَى يَومِ القِيامةِ، ثُمَّ إلَيَّ مَرجِعُكُم، فأحكُمُ بَينَكُم فِيما كُنتُم فِيهِ تَختَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

قولُه: (فيمَا آمرُكُمْ) بصيغةِ المتكلِّمِ، وكذا ما بعدَهُ.

قولُه: (داعِياً) وفي نسخةٍ: ذاهباً؛ أي: متوجِّهاً وملتجِئاً، وقيلَ: ﴿إلَى﴾ هنا بمعنى: مع، أو: في، أو اللّامِ.

قولُه: (وقيل: كانُوا قصّارِينَ) وقيل: كانُوا ملوكاً يلبَسونَ البيضَ، استنصَرَ بهم عيسى من اليهودِ.

قولُه: (غِيلَةً) أي: غفلَةً.

قولُه: (﴿ومكر الله﴾ بِهِم بأنْ ألقَى) أي: عاملَهُم معامَلةَ الماكرِ.

قولُه: (قابِضُكَ) أي: آخذُكَ من الأرضِ وافياً لم ينالُوا منك شيئاً، من توفَّيتُ مالِي؛ أي: أخذتُهُ، أو: متوفِّيكَ نائِماً؛ إذ رُوِيَ أنَّهُ رُفِعَ نائماً[1]، أو: مُميتُكَ عن الشَّهواتِ العائقةِ عن العرُوجِ إلى عالمِ الملكُوتِ، وقيل: أماتَهُ اللهُ سبعَ ساعاتٍ ثمَّ رفعَهُ اللهُ إلى السَّماءِ، وإليه ذهبَ النَّصارى.

قولُه: (مِنَ الدُّنيا) الأحسَنُ: إلى محلِّ كرامِتي ومقرِّ ملائكَتِي.

قولُه: (ومُبعِدُكَ) أي: مِن سوءِ جوارِهِم ومَكرِهِم وقصدِهِم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٧١٣٣) عن الربيع.

٥٦ ـ ﴿فأمّا الَّذِينَ كَفَرُوا فأُعَذِّبُهُم عَذابًا شَدِيدًا في الدُّنيا﴾ بالقتل والسبي وأخذ الجِزية ﴿والآخِرةِ﴾ بالنار، ﴿وما لَهُم مِن ناصِرِينَ﴾: مانعين منه، ٥٧ ـ ﴿وأمّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ فيُوَفِّيهِم﴾ ـ بالياء والنون ـ ﴿أُجُورَهُم. واللهُ لا يُحِبُّ الظّالِمِينَ﴾ أي: يُعاقبُهم.

رُوي أنّ الله أرسل إليه سحابة فرفعتْه، فتعلّقتْ به أُمّه وبكت، فقال لها: إنّ القِيامة تجمَعنا. وكان ذلك ليلةَ القدر ببيت المَقدس، وله ثلاث وثلاثون سنة، وعاشت أُمّه بعده ستَّ سِنين. ورَوى الشيخان حديثَ «أنّه يَنزِلُ قُربَ السّاعةِ ويَحكُمُ بِشَريعةِ نَبيِّنا، ويَقتُلُ الدَّجّالَ والخِنزيرَ ويَكسِرُ الصَّليبَ ويَضَعُ الجِزيَةَ». وفي حديث مسلم أنّه يمكثُ سبعَ سنينَ ـ وفي حديثٍ عند أبي داودَ الطيالسيّ: أربعينَ سنة ـ ويُتوفّى ويُصلّى عليه. فيَحتمل أنّ المُراد مجموع لَبثِه في الأرض قبل الرفع وبعده.

٥٨ ـ ﴿ذلِكَ﴾ المذكور من أمر عيسى ﴿نَتلُوهُ﴾: نقصّه ﴿علَيكَ﴾ ـ يا محمّد ـ ﴿مِنَ الآياتِ﴾: حالٌ من الهاء في «نتلوه» وعامِلُه ما في «ذلك» من معنى الإشارة، ﴿والذِّكرِ الحَكِيمِ﴾ المُحكَمِ أيِ: القرآن ٥٩ ـ ﴿إنَّ مَثَلَ عِيسَى﴾: شأنَه الغريبَ ﴿عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾: كشأنه في خلقه من غير أب ـ وهو من تشبيه الغريب بالأغرب، ....

قولُه: (بالياءِ) لحفصٍ[1].

قولُه: (إنَّ اللهَ) وفي نسخةٍ: إنَّ القيامةَ.

قولُه: (ويَضَعُ الجِزْيَةَ[2]) يعني: لا يقبلُها؛ فإنَّ نَبيَّنا ﷺ علَّقَ جوازَ أَخْذِ الجزيةِ إلى زمانِه، لا أَنَّهُ يحكمُ من عندِهِ.

قولُه: (ويُصَلَّى عليهِ[3]) قيل: ويُدفَنُ بين نبيِّنا ﷺ والصِّدِّيقِ رضي الله عنه.

قولُه: (حالٌ مِنَ الهاءِ) أو هو الخبرُ، و﴿نَتْلُوهُ﴾ حالٌ.

قولُه: (المُحكَمِ) أي: الممنوعِ عن تطرُّقِ الخللِ إليه، أو المشتمِلِ على الحكمِ، أو الحاكمِ بين الحقِّ والباطلِ.

قولُه: (أي: القُرآنِ) وقيل: اللَّوحِ.

قولُه: (مِن غَيرِ أبٍ) الظّاهرُ: وغيرِ أمٍّ؛ ليكونَ أغربَ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٠٦)، و«حجة القراءات» (ص: ١٦٤).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٨)، ومسلم (١٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه أبو داود (٤٣٢٤)، وأحمد في «مسنده» (٩٢٧٠)، والطيالسي في «مسنده» (٢٦٩٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ليكون أقطعَ للخصم وأوقع في النفس. ﴿خَلَقَهُ﴾ أي: آدمَ أي: قالَبَهُ ﴿مِن تُرابٍ، ثُمَّ قالَ لَهُ: كُنْ﴾ بَشرًا. ﴿فيَكُونُ﴾ أي: فكان. وكذلك عيسى قال له: كنْ من غير أب. فكان. ٦٠ ـ ﴿الحَقُّ مِن رَبِّكَ﴾: خبرُ مبتدإٍ محذوف أي: أمرُ عيسى. ﴿فلا تَكُنْ مِنَ المُمتَرِينَ﴾: الشاكِّين فيه.

٦١ ـ ﴿فمَن حاجَّكَ﴾: جادلَك من النصارى ﴿فِيهِ مِن بَعدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلمِ﴾ بأمرِهِ ﴿فقُلْ﴾ لهم: ﴿تَعالَوا، نَدْعُ أبناءَنا وأبناءَكُم ونِساءَنا ونِساءَكُم وأنفُسَنا وأنفُسَكُم﴾ فنَجمَعُهم، ﴿ثُمَّ نَبتَهِلْ﴾: نتضرَّعْ في الدعاء، ﴿فنَجعَلْ لَعْنَةَ اللهِ علَى الكاذِبِينَ﴾ بأن نقول: اللّهمّ العنِ الكاذبَ في شأن عيسى. وقد دعا ﷺ وفدَ نجرانَ لذلك لمّا حاجُّوه فيه، فقالوا: حتّى ننظرَ في أمرنا ثمّ نأتيَك. فقال ذو رأيهم: لقد عرفتُم نبوّته، وأنه ما باهَلَ قومٌ نبيًّا إلاّ هَلَكوا. فوادِعوا الرجلَ وانصرِفوا. فأتَوهُ وقد خرج، ومعه الحسن والحسين وفاطمة وعليّ، وقال لهم: «إذا دَعَوتُ فأمِّنُوا»، فأبَوا أن يُباهِلوا، وصالَحوه على الجِزية. وعن ابن عبّاس: لو خرج الذين يباهِلون لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً. وفي رواية: لو خرجوا لاحترقوا.

٦٢ ـ ﴿إنَّ هذا﴾ المذكورَ ﴿لَهُوَ القَصَصُ﴾: الخبر ﴿الحَقُّ﴾: الذي لا شكّ فيه، ﴿وما مِن﴾: زائدةٌ ﴿إلـٰهٍ إلاّ اللهُ، وإنَّ اللهَ لَهُوَ العَزِيزُ﴾ في مُلكه ﴿الحَكِيمُ﴾ في صُنعه. ٦٣ ـ ﴿فإنْ تَوَلَّوا﴾: أعرضوا عنِ الإيمان ﴿فإنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالمُفسِدِينَ﴾ فيُجازيهم. وفيه وضع الظاهر موضع المُضمر.

قولُه: (أي: فكَانَ) فيكونُ حكايةَ حالٍ ماضيةٍ، أو العدولُ للفصلِ.

قوله تعالى: (﴿وَنِسَاءَنَا﴾) أي: بناتِنا (﴿وَأَنفُسَنَا﴾) أي: أقارِبَنا، كما يدلُّ عليه الحديثُ الآتي[١].

قولُه: (فوادِعُوا) أي: صالِحوا.

قولُه: (وعليٌّ) وجهُ تأخيرِهِ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ: رعايةٌ للَّفِّ والنَّشرِ التَّرتيبيِّ، وفيه منقبةٌ عليَّةٌ له حيثُ عبَّرَ عنه بنفسِ النَّبيِّ ﷺ.

قولُه: (فأبَوا) أي: النَّصارى.

قولُه: [﴿مِنْ﴾][٢] زائدةٌ للاستغراقِ.

قولُه: (موضِعَ المُضْمرِ) ليدلَّ على أنَّ التولِّيَ عنِ الحُججِ والإعراضَ عن التَّوحيدِ إفسادٌ للدِّينِ والاعتقادِ المؤدِّي إلى فسادِ النَّفسِ، بل وإلى فسادِ العالَمِ.

---

(١) أي: الحديث الذي ساقه المصنف من رواية أبي نعيم، وهو ما رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ﴿من﴾ ساقطة في كل الأصول إلا أن السياق يدل عليها، ثم قوله: (زائدة) ليست في المتن.

٦٤ ـ ﴿قُلْ: يا أهلَ الكِتابِ﴾: اليهودَ والنصارى، ﴿تَعالَوا إلَى كَلِمةٍ سَواءٍ﴾: مصدرٌ بمعنى مُستَوٍ أمرُها ﴿بَينَنا وبَينكُم﴾، هي ﴿ألاّ نَعبُدَ إلاّ اللهَ ولا نُشرِكَ بِهِ شَيئًا، ولا يَتَّخِذَ بَعضُنا بَعضًا أربابًا مِن دُونِ اللهِ﴾ كما اتّخذتم الأحبارَ والرُّهبان. ﴿فإنْ تَوَلَّوا﴾: أعرضوا عن التوحيد ﴿فقُولُوا﴾ أنتم لهم: ﴿اشهَدُوا بِأنّا مُسلِمُونَ﴾: موحِّدون.

ونزل لمّا قال اليهود: «إبراهيمُ يهوديّ ونحن على دِينه»، وقالت النصارى كذلك: ٦٥ ـ ﴿يا أهلَ الكِتابِ، لِمَ تُحاجُّونَ﴾: تُخاصِمون ﴿في إبراهِيمَ﴾ بزعمكم أنه على دينكم، ﴿وما أُنزِلَتِ التَّوراةُ والإنجِيلُ إلاّ مِن بَعدِهِ﴾ بزمن طويل، وبعد نزولهما حَدثَتِ اليهوديّة والنصرانيّة؟ ﴿أفلا تَعقِلُونَ﴾ بُطلانَ قولكم؟ ٦٦ ـ ﴿ها﴾: للتنبيه ﴿أنتُم﴾: مبتدأ يا ﴿هؤُلاءِ﴾ والخبرُ: ﴿حاجَجتُم، فِيما لَكُم بِهِ عِلمٌ﴾، من أمر موسى وعيسى، وزعمتم أنكم على دينهما. ﴿فلِمَ تُحاجُّونَ، فِيما ليسَ لَكُم بِهِ عِلمٌ﴾ من شأن إبراهيم؟ ﴿واللهُ يَعلَمُ﴾ شأنه، ﴿وأنتُم لا تَعلَمُونَـ﴾ ـهُ.

قال تعالى تبرئةً لإبراهيم: ٦٧ ـ ٦٨ ـ ﴿ما كانَ إبراهِيمُ يَهُودِيًّا ولا نَصرانِيًّا، ولكِنْ كانَ حَنِيفًا﴾: مائلاً عن الأديان كلّها إلى الدين القيِّم ﴿مُسلِمًا﴾: مُوحِّدًا، ﴿وما كانَ مِنَ المُشرِكِينَ. إنَّ أَولَى النّاسِ﴾:

قولُه: (هي ﴿أنْ﴾) أو بدلٌ من (كلمةٍ).

قولُه: (والرُّهبانَ) حيثُ اتَّبعتُمُوهم في تحليلِ ما حُرِّمَ وتحريمِ ما أُحلَّ، رُويَ: أنَّه لمَّا نزلَتْ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] قال عديُّ بنُ حاتمٍ: ما كنَّا نعبدُهُم يا رسولَ اللهِ، قالَ ﷺ: «أليسَ كانُوا يُحلُّونَ لكُم ويحرِّمُونَ فتأخُذُونَ بقولِهِم؟» قالَ: نعم، قالَ: «هو ذاكُم»(١).

قولُه: (والخبرُ) وقيل: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ خبرُهُ، والإشارةُ للتَّحقيرِ، و﴿حَاجَجْتُم﴾ جملةٌ أخرى مبيِّنةٌ للأولى.

قالَ تعالى: (﴿بِهِ عِلْمٌ﴾) أي: في الجملةِ.

قولُه: (موحِّداً) أو منقاداً.

قالَ تعالى: (﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾) لا جليًّا ولا خفيًّا، تعريضٌ بأنَّهم مشركونَ لإشراكِهم به عزيراً والمسيحَ، وردٌّ لادِّعاءِ المشركينَ أنَّهم على ملَّةِ إبراهيمَ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥)، والطبري في «تفسيره» (١٦٦٣٣)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٩٢) (٢١٨)، والثعلبي في «الكشف والبيان» (١٣/ ٣٠٣) (١٤٢٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٠٣٥٠)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٨٦٢)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٢٩)، والواحدي في «الوسيط» (٤٠٦) بألفاظ متقاربة.

قال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث.

أحقُّهم ﴿بِإبراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ في زمانه، ﴿وهذا النَّبِيُّ﴾ محمّدٌ لِمُوافقته له في أكثرِ شرعه، ﴿والَّذِينَ آمَنُوا﴾ مِن أُمّته-فهم الذين ينبغي أن يقولوا: «نحن على دينه» لا أنتم-﴿واللهُ وَلِيُّ المُؤمِنِينَ﴾: ناصرُهم وحافظهم.

ونزل لمّا دعا اليهودُ مُعاذًا وحُذيفةَ وعمّارًا إلى دينهم: ٦٩ ـ ﴿وَدَّتْ طائفةٌ مِن أهلِ الكِتابِ لَو يُضِلُّونَكُم، وما يُضِلُّونَ إلاّ أنفُسَهُم﴾ لأن إثم إضلالهم عليهم والمؤمنون لا يطيعونهم فيه، ﴿وما يَشعُرُونَ﴾ بذلك. ٧٠ ـ ﴿يا أهلَ الكِتابِ، لِمَ تَكفُرُونَ بِآياتِ اللهِ﴾: القرآنِ المشتمل على نعت محمّد، ﴿وأنتُم تَشهَدُونَ﴾: تعلمون أنه حقّ؟ ٧١ ـ ﴿يا أهلَ الكِتابِ، لِمَ تَلبِسُونَ﴾: تخلُطون ﴿الحَقَّ بِالباطِلِ﴾ بالتحريف والتزوير، ﴿وتَكتُمُونَ الحَقَّ﴾ أي: نعتَ النبيّ، ﴿وأنتُم تَعلَمُونَ﴾ أنه حقّ؟

٧٢ ـ ﴿وقالَتْ طائفةٌ مِن أهلِ الكِتابِ﴾ اليهودِ لبعضهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: القرآنِ ﴿وَجهَ النَّهارِ﴾: أوّلَه، ﴿واكفُرُوا﴾ به ﴿آخِرَهُ، لَعَلَّهُم﴾ أي: المُؤمنين ﴿يَرجِعُونَ﴾ عن دينهم. إذ يقولون: ما رَجَعَ هؤلاء عنه بعد دخولهم فيه، وهم أولو عِلم، إلاّ لعِلمهم بُطلانَه.

٧٣ ـ وقالوا أيضًا: ﴿ولا تُؤمِنُوا﴾: تُصدِّقوا ﴿إلاّ لِمَن﴾ اللام زائدةٌ ﴿تَبِعَ﴾: وافق ﴿دِينَكُم﴾ ـ قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم، يا محمّد: ﴿إنَّ الهُدَى هُدَى اللهِ﴾ الذي هو الإسلام وما عداه ضلال. والجملة: اعتراض ـ ﴿أنْ﴾ أي: بأن ﴿يُؤتَى أحَدٌ مِثلَ ما أُوتِيتُم﴾ من الكِتاب والحِكمة والفضائل..........

قولُه: (شَرْعِهِ) أي: ما شرعَ له على الأصالةِ لا على التَّبعيَّةِ.

قالَ تعالى: (﴿آمَنُوا﴾) أي: أظهَرُوا الإيمانَ.

قولُه: (أوَّلَهُ) سُمِّي وجهاً؛ لأنَّهُ أوَّلُ ما يواجهُهُ النَّاظرُ.

قولُه: (تُصدِّقُوا) أي: لا تقرُّوا عن تصديقِ قلبٍ إلا لأهلِ دينِكُم، أو لا تُظهِروا إيمانَكُم وجهَ النَّهارِ إلَّا لمن كان على دينِكُم، أو لرجُوعِ من تبعَ دينكُم قبلَ هذا ثمَّ أسلمَ؛ فإنَّ رجوعَهُم أرجَى وأهمُّ.

قولُه: (اللَّامُ زائدةٌ) الظَّاهرُ: أنَّها للتَّعديةِ؛ فإنَّ (آمنَ) إذا كانَ بمعنى: صدَّقَ، يتعدَّى تارةً باللَّامِ وتارةً بالباءِ، وأمَّا إذا كانَ بمعنى: جعلَهُ ذا أمنٍ، فيتعدَّى بنفسِه؛ كقولِه تعالى: ﴿وَآمَنَهُمْ مِن خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤] ثمَّ رأيتُ المصنِّفَ ذكرَ في قولِه تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١] أنَّ اللَّامَ زائدةٌ للفرقِ بين إيمانِ التَّسليمِ وغيره، والله أعلمُ.

قولُه: (اعتِرَاضٌ) يدلُّ على أنَّ كيدَهُم لا يُجدِي بطائلٍ.

قولُه: (أي: بأَنْ) فيكونُ متعلِّقاً بـ﴿لَا تُؤْمِنُوا﴾ أي: ولا تُظهِرُوا إيمانَكُم بأَنْ يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتِيتُم إلَّا لأشياعِكُم، ولا تفشُوهُ إلى المسلِمينَ لئلَّا يزيدَ ثباتُهُم، ولا إلى المشركينَ لئلَّا يدعُوهُم إلى الإسلامِ.

وأنْ: مفعول «تؤمنوا»، والمُستثنى منه «أحدٌ» قُدّم عليه المُستثنى. المعنى: لا تُقِرّوا بأن أحدًا يُؤتى ذلك إلاّ مَن تبعَ دِينكم، ﴿أو﴾ أن ﴿يُحاجُّوكُم﴾ أيِ: المؤمنون يغلبوكم ﴿عِندَ رَبِّكُم﴾ يوم القيامة لأنّكم أصحّ دينًا. وفي قراءة: «أأنْ» بهمزة التوبيخ أي: أإيتاءُ أحدٍ مثلَه تُقِرّون به؟

قال تعالى: ﴿قُلْ: إنَّ الفَضلَ بِيَدِ اللهِ، يُؤتِيهِ مَن يَشاءُ﴾. فمِن أين لكم أنه لا يُؤتَى أحد مِثلَ ما أوتيتم؟ ﴿واللهُ واسِعٌ﴾: كثير الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهله، ٧٤ ـ ﴿يَختَصُّ بِرَحمتِهِ مَن يَشاءُ، واللهُ ذُو الفَضلِ العَظِيمِ﴾.

٧٥ ـ ﴿ومِن أهلِ الكِتابِ مَن إنْ تأمَنْهُ بِقِنطارٍ﴾ أي: بمال كثير ﴿يُؤَدِّهِ إلَيكَ﴾ لأمانته كعبدالله بن سلام، أودعه رجل ألفًا ومِائَتَي أُوقيّةٍ ذهبًا فأدّاها إليه، ﴿ومِنهُم مَن إنْ تأمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إلَيكَ﴾ لخِيانته ﴿إلاّ ما دُمتَ علَيهِ قائمًا﴾ لا تفارقه. فمتى فارقتَه أنكره ككعب بن الأشرف، استودعه قرشيٌّ دينارًا فجحده.

﴿ذلِكَ﴾ أي: تركُ الأداء ﴿بِأنَّهُم قالُوا﴾ بسبب قولهم: ﴿لَيسَ علَينا في الأُمِّيِّينَ﴾ أي: العربِ ﴿سَبِيلٌ﴾ أي: إثم. لاستحلالهم ظلمَ من خالفَ دِينهم، ونسبوه إليه تعالى. قال تعالى: ﴿ويَقُولُونَ علَى اللهِ الكَذِبَ﴾ في نِسبة ذلك إليه، ﴿وهُم يَعلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون. ٧٦ ـ ﴿بَلَى﴾ عليهم فيهم سبيلٌ،..........

قولُه: (﴿إلَّا لِمَنْ تَبِعَ﴾) فاللّام غيرُ زائدةٍ، وهذا يصلُحُ أن يكون إعراباً آخرَ، وفي بعضِ النُّسخِ: «إلَّا مَن تبعَ» ولا وجهَ له؛ إذ الإقرارُ لا يتعدَّى إلَّا باللّامِ، اللّهمَّ إلَّا أن يُجعَلَ مستثنًى من قولِه: (أحداً).

قولُه: (وفي قِرَاءةٍ) لابنِ كثيرٍ[1]، وهوَ على أصلِهِ في تسهيلِ الثَّانيةِ.

قولُه: (إيتاءُ) الظَّاهرُ؛ أي: بإيتاءٍ.

قولُه: (لأمَانتِهِ) أي: لسببِهَا.

قولُه: (لا تفَارقُهُ) الظَّاهرُ ما قالهُ البيضَاويُّ[2]: أي: إلَّا مدَّةَ دوامِكَ ـ يعني: أيُّها الطَّالبُ ـ قائماً على رأسِهِ مبالغاً في مطالبتِهِ بالتَّقاضِي والتَّرافعِ وإقامةِ البيِّنةِ.

قولُه: (أي: تركُ الأداءِ) المدلولُ عليه بقولِهِ: ﴿لَا يُؤَدِّهِ﴾.

قولُه: (عَليهِم) أي: القائلينَ.

قولُه: (فِيهِم) أي: الأمِّيِّينَ.

قولُه: (سَبِيلٌ) أي: ذمٌّ وعتابٌ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٠٧).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٢/ ٢٤).

﴿مَن أَوفَى بِعَهدِهِ﴾ الذي عاهد عليه أو بعهد الله إليه من أداء الأمانة وغيره، ﴿واتَّقَى﴾ اللهَ بتركِ المعاصي وعملِ الطاعات، ﴿فإنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ﴾. فيه وضع الظاهر موضع المُضمر أي: يُحبّهم بمعنى: يُثيبهم.

ونزل في اليهود لمّا بدّلوا نعتَ النبيّ وعهدَ اللهِ إليهم في التوراة، أو فيمن حلفَ كاذبًا في دعوَى أو في بيعِ سِلعةٍ: ٧٧ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ يَشتَرُونَ﴾: يستبدلون ﴿بِعَهدِ اللهِ﴾ إليهم في الإيمانِ بالنبيّ وأداءِ الأمانة ﴿وأيمانِهِم﴾: حلفِهم به ـ تعالى ـ كاذبًا ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من الدُّنيا، ﴿أُولئِكَ لا خَلاقَ﴾: نصيبَ ﴿لَهُم في الآخِرةِ، ولا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾ غضبًا عليهم، ﴿ولا يَنظُرُ إلَيهِم﴾: يرحمهم ﴿يَومَ القِيامةِ، ولا يُزَكِّيهِم﴾: يُطهّرهم، ﴿ولَهُم عَذابٌ أَلِيمٌ﴾: مؤلِم.

٧٨ ـ ﴿وإنَّ مِنهُم﴾ أي: أهلِ الكتاب ﴿لَفَرِيقًا﴾: طائفةً ككعب بن الأشرف ﴿يَلْوُونَ أَلسِنَتَهُم بِالكِتابِ﴾ أي: يعطفونها بقراءته عن المُنزَل إلى ما حرّفوه، من نعت النبي ﷺ ونحوه، ﴿لِتَحسِبُوهُ﴾ أيِ: المُحرَّفَ ﴿مِنَ الكِتابِ﴾ الذي أنزله الله، ﴿وما هُوَ مِنَ الكِتابِ، ويَقُولُونَ: هُوَ مِن عِندِ اللهِ. وما هُوَ من عِندِ اللهِ، ويقُولُونَ علَى اللهِ الكَذِبَ، وهُم يَعلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون.

ونزل لمّا قال نصارى نجران: «إنّ عيسى أمرَهم أن يتّخذوه ربًّا» أو لمّا طلب بعض المسلمين السُّجود له ﷺ: ٧٩ ـ ﴿ما كانَ﴾: ينبغي ﴿لِبَشَرٍ أن يُؤتِيَهُ اللهُ الكِتابَ والحُكمَ﴾ أيِ: الفهمَ للشريعة ﴿والنُّبُوَّةَ، ثُمَّ يَقُولَ لِلنّاسِ: كُونُوا عِبادًا لِي مِن دُونِ اللهِ. ولكِنْ﴾ يقول: ﴿كُونُوا رَبّانِيِّينَ﴾: عُلماءَ عاملِين ـ منسوب إلى الربّ بزيادة ألف ونون تفخيمًا ـ ﴿بِما كُنتُم تَعلَمُونَ﴾، ....

قولُه: (الَّذي عاهَدَ) فالضَّميرُ لـ﴿مَنْ﴾.

قولُه: (موضِعَ المُضمرِ) وهو الرَّابطُ، أو: عمومُ المتَّقينَ نابَ عن الرَّاجعِ من الجزاءِ إلى ﴿مَنْ﴾.

قولُه: (إليهم) أو بما عاهَدُوا عليه مِن الإيمانِ.

قولُه: (كَاذِباً) أي: حلفاً ذا كذبٍ، وفي نسخةٍ: «كذباً» وهو ظاهرٌ.

قولُه: (غَضَباً) أو كلامَ لطفٍ.

قولُه: (يرحَمُهُم) الأظهرُ: نظرَ رحمةٍ.

قولُه: (يطهِّرُهُم) الظَّاهرُ: لا يُثني عليهم.

قولُه: (أي: الفَهمَ) أو الحكمةَ، أو إمضاءَ الحكمِ من اللهِ تعالى.

بالتخفيف والتشديد، ﴿الكِتابَ وبِما كُنتُم تَدرُسُونَ﴾ أي: بسبب ذلك: فإنّ فائدته أن تعملوا. ٨٠ ـ ﴿ولا يأمُرَكُم﴾، بالرفعِ استئنافًا أي: اللهُ، والنصبِ عطفًا على «يقولَ» أي: البشرُ ﴿أنْ تَتَّخِذُوا المَلائكةَ والنَّبِيِّينَ أربابًا﴾ كما اتّخذتِ الصابئةُ الملائكةَ، واليهودُ عُزَيرًا، والنصارى عيسى. ﴿أيأمُرُكُم بِالكُفرِ بَعدَ إذ أنتُم مُسلِمُونَ﴾؟ لا ينبغي له هذا.

٨١ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ﴾: حينَ ﴿أخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ﴾: عهدَهم ﴿لَما﴾ ـ بفتحِ اللام للابتداء وتوكيد معنى القسم الذي في أخذِ الميثاقِ، ....

قولُه: (بالتَّخفِيفِ) من بابِ (علِمَ) لنافعٍ وابن كثيرٍ وأبي عَمرٍو[١].

قولُه: (بِسَببِ ذلكَ) أي: الدَّرسِ؛ وهو القراءةُ والحفْظُ، ويمكنُ أن يكونَ التَّقديرُ: وبما تدرسُونَهُ على النَّاسِ.

قولُه: (فإنَّ فَائدَتَهُ أَنْ تعْمَلُوا) بتقديمِ الميمِ إشعاراً بأنَّ المرادَ بالدَّرسِ هو العملُ والكمَالُ، كما أنَّ المرادَ بالتَّعليمِ الإكمَالُ.

قولُه: (أي: اللهُ) أو البشرُ.

قولُه: (والنَّصبِ) لابن عامرٍ وعاصمٍ وحمزةَ[٢].

قولُه: (المَلائكةَ) وقيل: الكَواكبَ.

قولُه: (أو تَوكِيدِ معنَى القَسَمِ) وفي بعضِ النُّسخِ: «وتوكيدِ» بالواوِ، وهو سهوٌ، فاللَّامُ موطِّئةٌ للقسمِ، كأنَّها وطَّأت طريقَ جوابِ القسمِ؛ أي: سهَّلَت لفهمِهِ الجوابَ، وقيل: هي الَّتي تدخلُ على الشَّرطِ بعد القسمِ لفظاً أو تقديراً ليؤذنَ أنَّ الجوابَ له لا للشَّرطِ.

قولُه: (في أخذِ المِيْثاقِ) لأنَّ أخذَ الميثاقِ بمعنى: الاستخلافِ؛ أي: استخلافِ النَّبيِّينَ؛ أي: عَهدَ اللهُ إيَّاهُم، وحينئذٍ (ما) تحتملُ الشَّرطيَّةَ، و﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ سادٌّ مسدَّ جوابِ القَسمِ والشَّرطِ، وتحريرُه: أنَّهُ جوابُ القَسمِ ومغنٍ عن جوابِ الشَّرطِ؛ لتصريحِهِم بأنَّ الشَّرطَ إذا تأخَّرَ عن القَسمِ حُذِفَ جوابُهُ استغناءً عنه بجوابِ القَسمِ، ويحتملُ الخبريَّةَ؛ أي: كونُها موصُولةً، فهي مبتدأٌ والعائدُ محذوفٌ ـ أي: آتيتكمُوهُ ـ لامتناعِ خلوِّ الصِّلةِ عن العائدِ، و﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ سادٌّ مسدَّ جوابِ القسمِ وخبرِ المبتدأِ، وعلى التحقيقِ الخبرُ محذوفٌ؛ أي: تؤمنُونَ به، وأمَّا على تقديرِ الشَّرطِ فهي مفعولُهُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٣)، و«حجة القراءات» (ص: ١٦٧).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٣)، و«حجة القراءات» (ص: ١٦٨).

وكسرِها متعلّقةٌ بـ«أخذَ»، وما: موصولة على الوجهين ـ أي: لَلّذي ﴿آتيتُكم﴾ إيّاه، وفي قراءة: «آتيناكُم»، ﴿مِن كِتابٍ وحِكمةٍ، ثُمَّ جاءَكُم رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُم﴾ من الكتاب والحِكمة ـ وهو محمّد ـ ﴿لَتُؤمِنُنَّ بِهِ ولَتَنصُرُنَّهُ﴾: جوابُ القسم، إن أدركتُموه، وأممُهم تَبَعٌ لهم في ذلك. ﴿قالَ﴾ تعالى لهم: ﴿أَأَقرَرتُم﴾ بذلك، ﴿وأَخَذتُم﴾: قَبِلتم ﴿عَلَى ذَلِكُم إصرِي﴾: عهدي؟ ﴿قالُوا: أقرَرْنا. قالَ: فاشهَدُوا﴾ على أنفُسكم وأتباعكم بذلك، ﴿وأنا مَعَكُم مِنَ الشّاهِدِينَ﴾، عليكم وعليهم. ٨٢ ـ ﴿فمَن تَوَلَّى﴾: أعرض ﴿بَعدَ ذَلِكَ﴾ الميثاقِ ﴿فأُولئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ﴾.

٨٣ ـ ﴿أفغَيرَ دِينِ اللهِ يَبغُونَ﴾ بالياءِ أيِ: المتولّون، والتاءِ، ﴿ولَهُ أسلَمَ﴾: انقاد ﴿مَن في السَّماواتِ والأرضِ طَوعًا﴾: بلا إباءٍ ﴿وكَرْهًا﴾ بالسيفِ ومُعاينةِ ما يُلجئُ إليه، ﴿وإلَيه تُرجَعُونَ﴾؟ بالتاء والياء....

قولُه: (وكسرِهَا) أي: وبكسرِها قراءةُ حمزةَ[1].

قولُه: (عَلى الوَجْهينِ) أي: الفتحِ والكسرِ.

قولُه: (وفِي قِرَاءةٍ) لنافعٍ[2]، وقولُهُ تعالى: ﴿مِنْ كِتَابٍ﴾ بيانيَّةٌ.

قولُه: (وهوَ مُحَمَّدٌ) فالتَّنكيرُ للتَّعظيمِ، وقيل: أيُّ رسولٍ.

قولُه: (فِي ذَلِكَ) أي: الميثاقِ المذكورِ، أو الاتِّباعِ بطريقِ الأولى؛ ولذا قالَ ﷺ: «لو كانَ موسى حيًّا لَمَا وسعَهُ إلَّا اتِّباعِي»[3].

قولُه: (بالياءِ) أي: الغيبةِ لأبي عَمرٍو وحفصٍ[4].

قولُه: (ومعاينةِ ما يُلجئُ إليهِ) أي: إلى الإسلامِ كنتقِ الجبلِ وإدراكِ الغرقِ والإشرافِ على الموتِ، أو مختارينَ كالملائكةِ والمؤمنينَ، ومسخَّرِينَ كالكفرةِ؛ فإنَّهُم لا يقدرُونَ أن يمتنعُوا عمَّا قُضيَ عليهم.

قولُه: (بالياءِ) ـ أي: الغيبةِ ـ حفصٌ[5] على أنَّ الضَّميرَ لـ﴿مَنْ﴾.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٣)، و«حجة القراءات» (ص: ١٦٨).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٤)، و«حجة القراءات» (ص: ١٦٩).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (١٥١٥٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٦٤٢١)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٤٩٧) من حديث جابر رضي الله عنه.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٧٤): فيه مجالد بن سعيد ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما.

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٤)، و«حجة القراءات» (ص: ١٧٠).

(٥) انظر المصادر السابقة.

والهمزةُ للإنكار. ٨٤ـ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿آمَنّا بِاللهِ وما أُنزِلَ علَينا، وما أُنزِلَ علَى إبراهِيمَ وإسماعِيلَ وإسحاقَ ويَعقُوبَ والأسباطِ﴾: أولادِه، ﴿وما أُوتِيَ مُوسَى وعِيسَى والنَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِم، لا نُفَرِّقُ بَينَ أحَدٍ مِنهُم﴾ بالتصديق والتكذيب، ﴿ونَحنُ لَهُ مُسلِمُونَ﴾ مُخلصون في العبادة.

ونزل فيمن ارتدّ ولحق بالكفّار: ٨٥ ـ ﴿ومَن يَبتَغِ غَيرَ الإسلامِ دِينًا فلَن يُقبَلَ مِنهُ، وهُوَ في الآخِرةِ مِنَ الخاسِرِينَ﴾ لمصيره إلى النار المؤبّدة عليه.

٨٦ ـ ﴿كَيفَ﴾ أي: لا ﴿يَهدِي اللهُ قَومًا كَفَرُوا بَعدَ إيمانِهِم وشَهِدُوا﴾ أي: وشهادتِهم ﴿أنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ، و﴾ قد ﴿جاءَهُمُ البَيِّناتُ﴾: الحججُ الظاهرات على صدق النبيّ، ﴿واللهُ لا يَهدِي القَومَ الظّالِمِينَ﴾ أي: الكافرين؟ ٨٧ ـ ﴿أُولئِكَ جَزاؤُهُم أنَّ علَيهِم لَعنَةَ اللهِ والمَلائكةِ والنّاسِ أجمَعِينَ، ٨٨ ـ ﴿خالِدِينَ فِيها﴾ أي: اللعنةِ أو النار المدلولِ بها عليها، ﴿لا يُخَفَّفُ عَنهُمُ العَذابُ، ولا هُم يُنظَرُونَ﴾: يُمهَلون، ٨٩ ـ ﴿إلاّ الَّذِينَ تابُوا مِن بَعدِ ذلِكَ وأصلَحُوا﴾ عملَهم. ﴿فإنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ لهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

ونزل في اليهود: ٩٠ ـ ٩١ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعيسى ﴿بَعدَ إيمانِهِم﴾ بموسى، ﴿ثُمَّ ازدادُوا كُفرًا﴾ بمحمّد، ﴿لَن تُقبَلَ تَوبَتُهُم﴾ إذا غرغَرُوا..

قولُه: (والهَمْزةُ) في: ﴿أفَغَيرَ﴾ وتقديمُ المفعولِ لأنَّهُ المقصودُ بالإنكارِ؛ فإنَّ الإنكارَ متوجِّهٌ إلى المعبودِ بالباطلِ، وفي «البحرِ»[1]: الإنكارُ لا يتوجَّهُ إلَّا إلى الأفعالِ لا إلى الذَّواتِ، والتَّقديمُ هنا من بابِ الاتِّساعِ.

قولُه: (أي: لا) فـ(كيفَ) استبعادُ أن يهديَهُمُ اللهُ؛ فإنَّ الحائدَ عن الحقِّ بعدما وضحَ له منهمكٌ في الضَّلالِ بعيدٌ عن الرَّشادِ، وقيل: نفيٌ وإنكارٌ له، وذلك يقتضِي أن لا يقبلَ توبةَ المرتدِّ، وفيه أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ يأبى ذلك، فيقيَّدُ بوقتِ تصميمِهم وإصرارِهم على كفرِهم، أو بمن عَلِمَ اللهُ عدمَ رجوعِهم.

قولُه: (وشَهَادتِهم) إشارةٌ إلى أنَّ: ﴿شَهِدُوا﴾ عطفٌ على ما في إيمانِهم من معنَى الفعلِ، كأنَّهُ قيلَ: من بعدِ أن آمنُوا وشهِدُوا، وقيل: ﴿شهِدُوا﴾ حالٌ بإضمارِ (قد) من ضميرِ ﴿كَفَرُوا﴾ وهو على الوجهَينِ دليلٌ على أنَّ الإقرارَ باللِّسانِ خارجٌ عن حقيقةِ الإيمانِ؛ لأنَّ الأصلَ في العطفِ التَّغايرُ.

قولُه: (يُمْهَلُونَ) تقدَّم مثلُهُ.

قولُه: (إذَا غَرْغَرُوا) لقولِهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبدِ ما لَمْ يغرغرْ»[2].

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٣/ ٢٤٦).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأحمد في «مسنده» (٦١٦٠)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥٦٠٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٨)، والحاكم في «المستدرك» (٧٦٥٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. =

أو ماتوا كفّارًا، ﴿وأُولئِكَ هُمُ الضّالُّونَ. إنّ الَّذِينَ كَفَرُوا، وماتُوا وهُم كُفّارٌ، فلَن يُقبَلَ مِن أحَدِهِم مِلْءُ الأرضِ﴾: مقدارُ ما يملؤها ﴿ذَهَبًا، ولَوِ افتَدَى بِهِ﴾ ـ أدخل الفاء في خبر «إنّ» لشَبه «الذين» بالشرط وإيذانًا بتسبّب عدم القبول عن الموت على الكفر ـ ﴿أُولئِكَ لَهُم عَذابٌ ألِيمٌ﴾: مُؤلم، ﴿وما لَهُم مِن ناصِرِينَ﴾: مانِعِين منه.

٩٢ ـ ﴿لَن تَنالُوا البِرَّ﴾ أي: ثوابَه ـ وهو الجنّة ـ ﴿حَتَّى تُنفِقُوا﴾: تَتَصَدَّقوا ﴿مِمّا تُحِبُّونَ﴾ من أموالكم، ﴿وما تُنفِقُوا مِن شَيءٍ فإنّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيُجازي عليه.

ونزل لمّا قال اليهود: «إنّكَ تزعمُ أنك على مِلّة إبراهيمَ، وكان لا يأكل لُحومَ الإبلِ وألبانَها»:

٩٣ ـ ﴿كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلًّا﴾: حَلالاً ﴿لِبَنِي إسرائيلَ، إلاّ ما حَرَّمَ إسرائيلُ﴾: يعقوبُ ﴿علَى نَفسِهِ﴾ ـ وهو الإبِلُ،..

قولُه: (أو ماتُوا كفّاراً) أي: إذا تابُوا في الآخرةِ عند مُعاينةِ العذابِ لقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] وقيل: لن تُقبلَ توبتُهُم لأنّهُم لا يتوبونَ، أو لأنّ توبتَهُم لا تكونُ إلّا نفاقاً.

قولُه: (مَا يَملؤُهَا) فالملءُ مصدرٌ بمعنى الفاعلِ.

قولُه: (عَدمِ القَبُولِ) أي: لمَّا كانَ الموتُ على الكفرِ سبباً لامتناعِ قَبُولِ الفِدْيةِ؛ أدخلَ الفاءَ هاهنا للإشعَارِ به.

قولُه: (أي: ثوابَهُ) فالبرُّ هو الطَّاعةُ، أو: لن تبلغُوا حقيقةَ البرِّ، أو: لن تنالُوا برَّ اللهِ الَّذي هو الرِّضا.

قولُه: (تصَدَّقُوا) أصلُهُ: تتصدَّقُوا.

قولُه: (مِنْ أموالِكُم) أو ما يعمُّها وغيرَها؛ كبذلِ الجاهِ في معاونةِ النَّاسِ، والبدنِ في طاعةِ اللهِ، والمهجةِ في سبيلِهِ وتعليمِ العلمِ.

قولُه: (حَلالاً) وهو مصدرٌ نُعت به، فإطلاقُهُ على المطعومِ بمعنى المفعولِ؛ أي: محلَّلاً، أو على حذفِ المضافِ؛ أي: ذا حلٍّ.

قولُه: (وهوَ الإبلُ) أي: وألبانُها، وأنت تأكلُها فلستَ أنت على ملَّتِهِ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «كانَ ذلكَ حلالاً لإبراهيمَ» فقالُوا: كلُّ ما نحرِّمُهُ اليومَ كان ذلك حراماً على نوحٍ وإبراهيمَ حتَّى انتهى التَّحريمُ إلينا، كذا في «البغويِّ»[1].

- قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

(١) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٤٦٩).

والحديث ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٨/ ٥٠٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١١٥) عن أبي روق والكلبي.

لمّا حصَل له عِرقُ النَّسا، بالفتح والقصر، فنَذرَ إن شُفي لا يأكلها فحُرِّم عليهم ـ ﴿مِن قَبلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوراةُ﴾. وذلك بعد إبراهيم، ولم يكن على عهده حرامًا كما زعموا. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿فأْتُوا بِالتَّوراةِ فاتلُوها﴾ ليتبيّن صِدق قولكم، ﴿إنْ كُنتُم صادِقِينَ﴾ فيه. فبُهِتوا ولم يأتوا بها. ٩٤ ـ قال تعالى: ﴿فَمَنِ افتَرَى علَى اللهِ الكَذِبَ مِن بَعدِ ذَلِكَ﴾، أي: ظهورِ الحُجّة بأنّ التحريم إنّما كان من جهة يعقوب لا على عهد إبراهيم، ﴿فأُولئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ﴾: المتجاوزُون الحقَّ إلى الباطل. ٩٥ ـ ﴿قُلْ: صَدَقَ اللهُ﴾ في هذا كجميع ما أخبر به. ﴿فاتَّبِعُوا مِلّةَ إبراهِيمَ﴾ التي أنا عليها ﴿حَنِيفًا﴾: مائلاً عن كلّ دِين إلى الإسلام، ﴿وما كانَ مِنَ المُشرِكِينَ﴾.

ونزل لمّا قالوا: «قِبلتُنا قَبلَ قِبلتكم»: ٩٦ ـ ﴿إنَّ أوَّلَ بَيتٍ وُضِعَ﴾ مُتعبَّدًا ﴿لِلنّاسِ﴾ في الأرض ﴿لَلَّذِي بِبَكّةَ﴾ ـ بالباء لُغةٌ في «مكّة»، سُمّيتْ بذلك لأنّها تَبُكُّ أعناق الجبابرة، أي: تدقّها..........

قولُه: (النَّسَا بالفتحِ والقَصرِ) عرقٌ يخرجُ من الوركِ فيستبطنُ الفَخِذَ، وربَّما ينزلُ إلى الكعبِ، وقد يمتدُّ إلى الأصَابعِ[1].

قولُه: (لا يأكلُهَا) أي: لا يأكلُ أحبَّ الطَّعامِ إليه، وكانَ ذلكَ أحبَّهُ إليه، رواهُ أحمدُ والحاكمُ وغيرُهما[2]، فيكونُ من بابِ الرِّياضةِ ومن كفِّ النَّفسِ، وقيل: فعلَ ذلك للتَّداوي بإشارةِ الأطبَّاءِ، واحتجَّ به من جوَّزَ للنَّبيِّ أن يجتهدَ، وللمانعِ أن يقولَ: ذلك التَّحريمُ المطلقُ أو الخاصُّ بإذنٍ من اللهِ، فهو كتحريمِهِ ابتداءً.

قولُه: (فَحُرِّمَ عَلَيهِم) أي: تبعاً له.

قولُه: (﴿للنَّاسِ﴾) أي: أصالةً، ولغيرهم من الملائكةِ والجنِّ تبعاً.

قولُه: (لُغَةٌ فِي مَكَّةَ) وقيل: هي موضعُ المسجدِ، وقيل: الكعبةُ، من بكَّهُ إذا زحمَهُ، حيثُ يبكُّ النَّاسُ بعضُهُم بعضاً، وأمَّا مكَّةُ سُمِّيَتْ بذلكَ لقلَّةِ مائِها، من قولِ العربِ: ملكَّ الفصيلُ ضرعَ أمِّهِ، إذا امتصَّ كلَّ ما فيه من اللَّبنِ، وتُدعَى أمَّ رُحْمٍ؛ لأنَّ الرَّحمةَ تنزلُ بها[3].

---

(١) انظر: «الطب النبوي» لابن القيم (ص: ٥٥).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٢٤٧١)، والحاكم في «المستدرك» (٣١٥٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه عند أحمد: «...فنذر لله نذرا لئن شفاه الله من سقمه، ليحرمن أحب الشراب إليه، وأحب الطعام إليه، فكان أحب الطعام إليه، لحمان الإبل...» الحديث.

(٣) انظر: «غريب الحديث» للخطابي (٣/ ٧١).

بناه الملائكة قبل خلقِ آدم، ووُضع بعده الأقصى، وبينهما أربعون سنة كما في حديث الصحيحين. وفي حديثِ «أنه أوّلُ ما ظهرَ على وجهِ الماءِ، عِندَ خَلقِ السّماواتِ والأرضِ، زُبدةً بَيضاءَ، فدُحِيَتِ الأرضُ من تَحتِهِ» ـ ﴿مُبارَكًا﴾: حالٌ من «الذي» أي: ذا بركة ﴿وهُدًى لِلعالَمِينَ﴾ لأنه قِبلتهم ٩٧ ـ ﴿فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ﴾، منها ﴿مَقامُ إبراهِيمَ﴾ أي: الحجَرُ الذي قام عليه عند بناء البيت..........

قولُه: (بَنَاهُ المَلَائِكَةُ) وكان يُقالُ له: الضُّراحُ، يطوفُ به الملائكةُ، فلمَّا أُهبِطَ آدمُ أُمِرَ بأن يحجَّهُ ويطوفَ حولَهُ، ورُفِعَ في الطُّوفانِ إلى السَّماءِ الرَّابعةِ يطوفُ به ملائكةُ السَّماواتِ، كذا قيلَ، وهو لا يلائمُ ظاهرَ الآيةِ والحديثَ الصَّحيحَ[1] كما لا يخفَى، مع أنَّ موضعَ التَّشريفِ إنَّما هو تلك الجهةُ المعيَّنةُ، والجهةُ لا يمكنُ رفعُها؛ ولذا قيلَ: أوَّلُ من بناهُ آدمُ، فانطمسَ في الطُّوفانِ، ثمَّ بناه إبراهيمُ، وقيل: أوَّلُ من بناهُ إبراهيمُ، ثمَّ هُدِمَ، فبناهُ قومٌ من جُرهمَ، ثمَّ العمالقةُ وهم ملوكُ مصرَ، وقيل: ملوكُ الشَّامِ، ثمَّ قريشٌ، ثمَّ بناهُ ابن الزُّبيرِ، ثمَّ غيَّرهُ الحجَّاجُ.

قولُه: (كَمَا فِي حَدِيثِ الصَّحِيحَينِ) رُويَ أنَّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ سُئلَ عن أوَّلِ بيتٍ وُضعَ للنَّاسِ فقال: «المسجدُ الحرامُ، ثمَّ بيتُ المقدسِ»، وسُئلَ: كم بينَهُما؟ فقال: «أربعونَ سنةً»[2].

اعلم أنَّ ظاهرَ الحديثِ أنَّهُ من وضعِ إبراهيمَ، وهو معارضٌ لبعضِ الأقوالِ، إلَّا أن يُحمَلَ الوضعُ على التَّجديدِ، ويضعِّفُ قولَ الزَّجَّاجِ[3] أنَّ بيتَ المقدسِ من بناءِ سليمانَ، وأين زمانُ سليمانَ من زمنِ إبراهيمَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ؟! اللَّهمَّ إلَّا أن يُحمَلَ فعلُهُ على التَّجديدِ أيضاً.

قولُه: (حَالٌ مِنَ الَّذِي) والظَّاهرُ أنَّهُ من المستكنِّ في الظَّرفِ، أو من ضميرِ ﴿وُضِعَ﴾.

قولُه: (أَيْ: ذَا بَرَكَةٍ) أي: كثيرَ الخيرِ والنَّفعِ لمن حجَّهُ واعتمرَهُ واعتكفَ دونَهُ وطافَ حولَهُ وأقامَ عندهُ وتوجَّهَ إليه حالَ عبادتِهِ وغيرها حيًّا وميِّتاً.

قولُه: (لأَنَّهُ قِبلَتُهُم) ومتعبَّدُهُم، ولأنَّ فيه آياتٍ كانحرافِ الطُّيورِ عن موازاةِ البيتِ على مدى الأعصارِ، وأنَّ ضَواريَ السِّباعِ تخالطُ الصُّيودَ في الحرمِ ولا تتعرَّضُ لها، وأنَّ كلَّ جبارٍ قصدهُ بسوءٍ قهرَهُ كأصحابِ الفيلِ.

قولُه: (مِنْهَا) أي: من جملتِها، فـ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ مبتدأٌ حُذفَ خبرُهُ، أو بدلٌ من ﴿آيَاتٌ﴾ بدلُ البعضِ، وقيل: عطفُ بيانٍ على أنَّ المرادَ بالآياتِ أثرُ القدمِ في الصَّخرةِ الصَّمَّاءِ وغوصُها فيها إلى الكعبينِ، وتخصيصُها بهذه الإلانةِ من بينِ الصِّخارِ، وإبقاؤه دونَ سائرِ آثارِ الأنبياءِ، وحفظُهُ مع كثرةِ أعدائِهِ ألوفَ السنين، ويؤيِّده أنَّه قُرِئَ: ﴿آيةٌ بينةٌ﴾ على التَّوحيدِ[4].

---

(١) وهو الحديث الآتي.

(٢) رواه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» (١/ ٤٤٥).

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شوذا القرآن» (ص: ٢٨) ونسبت لمجاهد وأبي.

فأثَّرَ قدماه فيه، وبقي إلى الآنَ مع تطاوُلِ الزمان وتداوُلِ الأيدي عليه، ومنها تضعيف الحسنات فيه وأنّ الطير لا يعلوه، ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾: لا يُتعرَّض إليه بقتل أو ظلم أو غير ذلك ـ ﴿ولِلهِ علَى النّاسِ حِجُّ البَيتِ﴾ واجبٌ ـ بكسر الحاء وفتحها، لغتانِ في مصدر: حَجَّ، بمعنى: قَصَدَ ـ ويُبدَلُ من «الناس» ﴿مَنِ استَطاعَ إلَيهِ سَبِيلاً﴾: ....

قولُه: (فَأَثَّر قَدَمَاهُ) وسببُ هذا الأثرِ أنَّه لمَّا ارتفعَ بنيانُ الكعبةِ قامَ على هذا الحجرِ ليتمكَّنَ من رفعِ الحجارةِ، فغاصَت فيه قدماهُ.

قولُه: (ومِنهَا تَضعِيفُ الحَسَنَاتِ) في عدِّهِ آيةً مسامحةٌ[1].

قولُه: (وأَنَّ الطَّيرَ لَا يَعْلُوْهُ... إلخ) الظَّاهرُ أنَّ هذا كانَ في الجاهليَّةِ، وأنَّ المصنِّفَ جعلَ قولَهُ تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ﴾ عطفاً على (تضعيفِ)؛ أي: ومن جملةِ الآياتِ أنَّ من دخلَهُ ـ أي: حرمَ البيتِ أو نفسَ البيتِ ـ لا يُتعرَّضُ له، وقيل: خبرٌ معناهُ الأمرُ؛ أي: أمِّنوهُ، وتوهَّمَ بعضُ العامَّةِ فرجَّعَ الضَّميرَ إلى المقامِ، وهو باطلٌ؛ إذ المقامُ نفسُه في زمانِ نزولِ الآيةِ وبعدَها غيرُ قابلٍ للدُّخولِ.

قولُه: (أَو غَيْرِ ذَلِكَ) من إخراجٍ، أو إقامةٍ من مكانِهِ، أو إغارةٍ، وذلك بدعاءِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ حيثُ قال: ﴿ربِّ اجعلْ هذا بلداً آمناً﴾، وكانت العربُ في الجاهليَّةِ يقتلُ بعضُهم بعضاً، ويغيرُ بعضُهم على بعضٍ، ومن دخلَ الحرمَ أمنَ من القتلِ والغارةِ.

وقالَ أبو حنيفةَ[2]: إنَّ من وجبَ عليه قصاصٌ أو حدٌّ فالتجأَ إلى الحرمِ لا يُستَوفَى منه فيه، لكن لا يُطعَمُ ولا يُبايَعُ ولا يُشارَى حتَّى يخرجَ، وهو قولُ ابن عبَّاسٍ[3]، وقيل: معناهُ من دخلَهُ معظِّماً له متقرِّباً إلى الله عزَّ وجلَّ كانَ آمناً يومَ القيامةِ من العذابِ.

قولُه: (بِكَسْرِ الحَاءِ) لحمزةَ والكسائيِّ وحفصٍ[4].

قولُه: (قَصَدَ) أي: معظِّماً.

قولُه: (ويُبْدَلُ) بدلَ بعضٍ مخصِّصاً.

قالَ تعالى: (﴿إلَيْهِ﴾) أي: إلى البيتِ أو الحجِّ.

---

(١) في (د): «مسامحة».

(٢) انظر: «الجامع الصغير وشرحه» (ص: ٥١٧).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٧٤٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣٨٥٠).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٤)، و«حجة القراءات» (ص: ١٧٠).

طريقًا، فسَّره ﷺ بالزاد والراحلة، رواه الحاكم وغيره. ﴿ومَن كَفَرَ﴾ بالله أو بما فرضه من الحجّ ﴿فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عَنِ العالَمِينَ﴾: الإنسِ والجنّ والملائكة وعن عِبادتهم.

٩٨ - ﴿قُلْ: يا أهلَ الكِتابِ، لِمَ تكفُرُونَ بِآياتِ اللهِ﴾: القرآنِ، ﴿واللهُ شَهِيدٌ علَى ما تعمَلُونَ﴾، فيُجازيكم عليه؟ ٩٩ - ﴿قُلْ: يا أهلَ الكِتابِ، لِمَ تَصُدُّونَ﴾: تَصرِفون ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: عن دِينه ﴿مَن آمَنَ﴾ بتكذيبكم النبيَّ وكتم نَعته، ﴿تبغُونَها﴾ أي: تطلبون السبيل ﴿عِوَجًا﴾: مصدرٌ بمعنى:....

قولُه: (وغَيرُهُ) أي: التِّرمذيُّ وحسَّنهُ[1]، وهو يؤيِّدُ قولَ الشَّافعيِّ[2] أنَّها بالمالِ، وقالَ مالكٌ[3]: بالبدنِ، وقالَ أبو حنيفةَ[4]: بهما.

قولُه: (أَو بِمَا فَرَضَهُ) أي: بإنكارِه، أو باستحلالِ تركِهِ، أو شابَهَ الكفرةَ في تركِهِ الحجَّ، أو قاربَ الكفرَ؛ فإنَّ المعاصيَ بريدُ الكفرِ، أو يُخشى عليه الموتُ على الكفرِ، أو تهديدٌ وتغليظٌ وتشديدٌ؛ ولذا قالَ ﷺ: «مَنْ ماتَ ولَمْ يحجَّ فليمُتْ إنْ شاءَ يهوديًّا أو نصرانيًّا»[5].

قولُه: (الإِنْسِ... إلخ) فوضعَ الظَّاهرَ موضعَ المضمرِ لما فيه من مبالغةِ التَّعميمِ.

قولُه: (القُرآنِ) أو الآياتِ النَّقليَّةِ والعقليَّةِ، وتخصيصُ أهلِ الكتابِ لأنَّ كفرَهُم أقبحُ.

قولُه: (تَصرِفُونَ) أي: تمنعُونَ، فالصَّدُّ متعدٍّ، ومفعولُهُ: ﴿مَنْ آمَنَ﴾.

وقولُه: (بِتَكْذِيبِكُم) متعلِّقٌ بـ﴿تَصُدُّونَ﴾.

قولُه: (السَّبِيلَ) يذكَّرُ ويؤنَّثُ، وجملةُ ﴿تَبْغُونَهَا﴾ حالٌ من فاعلِ ﴿تَصُدُّوْنَ﴾ يعني: ليسَ فيها اعوجاجٌ، لكن تطلبُونَ أن يوهَمَ النَّاسُ العِوجَ.

---

(١) رواه الترمذي (٨١٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «الحاوي الكبير» (٤/ ٦).

(٣) انظر: «المعونة» (ص: ٥٠٠).

(٤) انظر: «البناية» (٤/ ١٤٤).

(٥) رواه الترمذي (٨١٢) بنحوه من حديث علي رضي الله عنه، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي إسناده مقال، وهلال بن عبد الله مجهول، والحارث يضعف في الحديث.

ورواه الدارمي في «السنن» (١٨٢٦)، وأبو يعلى في «معجمه» (٢٣٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨٦٦٠) بنحوه أيضاً من وجه آخر من حديث عبد الرحمن بن سابط، عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً، وقال البيهقي: هذا وإن كان إسناده غير قوي فله شاهد من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

مُعْوَجَّةً أي: مائلةً عن الحقّ، ﴿وأنتُم شُهَداءُ﴾: عالمون بأنّ الدين المَرْضِيَّ هو القَيِّمُ دينُ الإسلام كما في كتابكم؟ ﴿وما اللهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعمَلُونَ﴾ من الكُفر والتكذيب، وإنّما يُؤخّركم إلى وقتكم فيُجازيكم.

ونزل لمّا مرَّ بعض اليهود على الأوس والخزرج فغاظه تآلفهم، فذكَّرهم بما كان بينهم في الجاهليّة من الفتن، فتشاجروا وكادوا يقتتلون: ١٠٠ ـ ١٠١ ـ ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، إنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ يَرُدُّوكُم بَعدَ إيمانِكُم كافِرِينَ، وكَيفَ تَكفُرُونَ﴾ ـ استفهام تعجيب وتوبيخ ـ ﴿وأنتُم تُتلَى عَلَيكُمْ آياتُ اللهِ، وفِيكُم رَسُولُهُ؟ ومَن يَعتَصِمْ﴾: يتمسّكْ ﴿بِاللهِ فقَد هُدِيَ إلَى صِراطٍ مُستَقِيمٍ﴾.

١٠٢ ـ ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ﴾ بـ «أن يُطاعَ فلا يُعصَى، ويُشكَرَ فلا يُكفَرَ، ويُذكَرَ فلا يُنسَى» ـ فقالوا: يا رسول الله، ومَن يقوى على هذا؟ فنُسخ بقوله تعالى: «فاتَّقُوا اللهَ ما استَطَعتُم» ـ ﴿ولا تَمُوتُنَّ إلاّ وأنتُم مُسلِمُونَ﴾: موحّدون، ١٠٣ ـ ﴿واعتَصِمُوا﴾: تمسّكوا ﴿بِحَبلِ اللهِ﴾، أي: دِينه

قولُه: (وكَادُوا يقتَتِلُونَ) وقالُوا: السِّلاحَ السِّلاحَ، واجتمعَ من القبيلتينِ خلقٌ عظيمٌ، فتوجَّه إليهم رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُه وقالَ: «أتدعُونَ الجاهليَّةَ وأنَا بينَ أظهرِكُم بعدَ أنْ أكرمَكُمُ اللهُ تعالى بالإسلامِ وقطعَ بِهِ عنكُم أمرَ الجاهليَةِ وألَّفَ بينكُم» فعلمُوا أنَّها نزغةٌ من الشَّيطانِ وكيدٌ من عدوِّهِم، فألقَوا السِّلاحَ واستغفرُوا، وعانَقَ بعضُهم بعضاً، وانصرفُوا مع رسولِ اللهِ ﷺ(١).

قولُه: (﴿مَا اسْتَطَعْتُم﴾) وهو استفراغُ الوسعِ في القيامِ بالواجبِ والاجتنابِ عن المحارمِ، ومن جعلَ الحديثَ(٢) تفسيراً للكمالِ فلا نسخَ، وقيل: هو أن ينزِّهَ الطَّاعةَ عن الالتفاتِ إليها وعن توقُّعِ المجازاةِ عليها.

قولُه: (دِيْنِهِ) أو كتابِهِ لقولِهِ ﷺ: «القرآنُ حبلُ اللهِ المتينُ»(٣)، استُعِيرَ لأحدِ معاني الحبلِ من حيثُ إنَّ التمسُّكَ به سببٌ للنَّجاةِ من هلاكِهِ وعذابِهِ، والصُّعودِ من بئرِ غوايتِهِ إلى شرفِ هدايتِهِ، كما أنَّ التَّمسُّكَ بالحبلِ سببٌ للسَّلامةِ عن التَّردِّي والخروجِ من بئرٍ غائرٍ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٧٥٢٤) عن محمد بن إسحاق، قال: حدثني الثقة، عن زيد بن أسلم، مطولًا.

وكذلك رواه ابن المنذر في «تفسيره» (٧٥٩) من قول محمد بن إسحاق.

(٢) رواه البيهقي في «القضاء والقدر» (٢٩٤)، وفي «الزهد الكبير» (٨٧٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه الترمذي (٢٩٠٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٠٠٧)، والدارمي في «السنن» (٣٣٧٤)، والبزار في «مسنده» (٨٣٦)، وابن عدي في «الكامل» (٥/ ٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٨٨)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٩٣) من حديث علي رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال.

﴿جَمِيعًا، ولا تَفَرَّقُوا﴾ بعد الإسلام، ﴿واذكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ﴾: إنعامَه ﴿عليكُم﴾ ـ يا معشر الأوس والخزرج ـ ﴿إذ كُنتُم﴾ قبل الإسلام ﴿أعداءً، فألَّفَ﴾: جمعَ ﴿بَينَ قُلُوبِكُم﴾ بالإسلام، ﴿فأصبَحتُم﴾: فصِرتم ﴿بِنِعْمَتِهِ إخوانًا﴾ في الدِّين والوِلاية، ﴿وكُنتُم على شَفا﴾: طرفِ ﴿حُفرةٍ مِنَ النارِ﴾، ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلاّ أن تموتوا كُفّارًا، ﴿فأنقَذَكُم مِنها﴾ بالإيمان. ﴿كَذلِكَ﴾: كما بَيَّن لكم ما ذُكِر ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لكُم آياتِهِ، لَعَلَّكُم تَهتَدُونَ﴾.

١٠٤ ـ ﴿ولتَكُنْ مِنكُم أُمَّةٌ، يَدعُونَ إلَى الخَيرِ﴾: الإسلام، ﴿ويأمُرُونَ بِالمَعرُوفِ ويَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ ـ وأُولئِكَ﴾ الداعون الآمرون الناهون ﴿هُمُ المُفلِحُونَ﴾: الفائزون. ومِن: للتبعيض لأنّ ما ذُكر فرضُ كِفايةٍ لا يَلزم كلَّ الأُمّة، ولا يليق بكلّ أحد كالجاهل. وقيل: زائدة. أي: لتكونوا أُمّةً.
١٠٥ ـ ١٠٦ ـ ١٠٧ ـ ﴿ولا تَكُونُوا كالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ عن دينهم، ﴿واختَلَفُوا﴾ فيه ﴿مِن بَعدِ ما جاءَهُمُ البَيِّناتُ﴾، وهم اليهود والنصارى. ﴿وأُولئِكَ لَهُم عَذابٌ عَظِيمٌ، يَومَ تَبيَضُّ وُجُوهٌ وتَسوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿فأمّا الَّذِينَ اسوَدَّتْ وُجُوهُهُم﴾ ـ وهم الكافرون ـ فيُلقَون في النار، ويُقال لهم توبيخًا: ﴿أكَفَرتُم بَعدَ إيمانِكُم﴾ يومَ أخذِ الميثاقِ؟ ﴿فذُوقُوا العَذابَ بِما كُنتُم تَكفُرُونَ. وأمّا الَّذِينَ ابيَضَّتْ وُجُوهُهُم﴾ ـ وهم المؤمنون ـ ﴿فَفِي رَحمةِ اللهِ﴾ أي: جَنّته. ﴿هُم فِيها خالِدُونَ﴾.

١٠٨ ـ ﴿تِلكَ﴾ أي: هذه الآيات ﴿آياتُ اللهِ، نَتلُوها عليكَ﴾ ـ يامحمّد ـ ﴿بِالحَقِّ. وما اللهُ يُرِيدُ ظُلمًا لِلعالَمِينَ﴾ بأن يأخذهم بغير جُرم،..........................

وقولُه تعالى: (﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾) أصلُه: تتفرَّقُوا، وقرأ البزِّيُّ في الوصلِ بالتَّشديدِ[1].

قولُه: (بالإِيمَانِ) أي: خلَّصَكُم من النَّارِ بسببِ إيمانِكُم.

قولُه: (الإِسْلامِ) أو ما فيه صلاحٌ دينيٌّ ودنيويٌّ، فيكونُ ما بعدهُ تخصيصاً بعد تعميمٍ.

قولُه: (ومِنْ للتَّبعيضِ) وقيل: زائدةٌ، وقيل: بيانيَّةٌ.

قولُه: (كالجَاهِلِ) أي: بالمسائلِ مطلقاً، أو بالخلافيَّاتِ، أو بمراتبِ الاحتسابِ.

قولُه: (أي: جنَّتِهِ) عبَّر بها عنها تنبيهاً على أنَّ المؤمنَ وإن استغرقَ عمرَهُ في طاعةِ اللهِ لا يدخلُ الجنَّةَ إلَّا برحمتِهِ وفضلِهِ.

قولُه: (بأَنْ يَأْخُذَهُمْ بِغَيرِ جُرْمٍ) وفيه أنَّهُ لو أخذَهُم بغيرِ جرمٍ لم يكنْ من بابِ ظلمٍ، إلَّا أنَّه ما أرادَهُ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٨٣)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٠٦).

١٠٩ ـ ﴿وَلِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرضِ﴾ مُلكًا وخلقًا وعبيدًا، ﴿وَإِلَى اللهِ تُرجَعُ﴾: تَصِير ﴿الأُمُورُ﴾.

١١٠ ـ ﴿كُنتُم﴾ ـ يا أُمّة محمّد ـ في علم الله تعالى ﴿خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ﴾ أي: أُظهرتْ ﴿لِلنَّاسِ، تَأمُرُونَ بِالمَعرُوفِ وَتَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ، وَتُؤمِنُونَ بِاللهِ. وَلَو آمَنَ أَهلُ الكِتَابِ لَكَانَ﴾ الإيمانُ ﴿خَيرًا لَهُم. مِنهُمُ المُؤمِنُونَ﴾ كعبدِ الله بن سلام وأصحابِه، ﴿وَأَكثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ﴾: الكافرون.

١١١ ـ ﴿لَن يَضُرُّوكُم﴾ أي: اليهودُ ـ يا معشرَ المسلمين ـ بشيء ﴿إِلَّا أَذًى﴾ باللسان من سبّ ووعيد، ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُم يُوَلُّوكُمُ الأَدبَارَ﴾ منهزمين، ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ عليكم، بل لكم النصر عليهم.

١١٢ ـ ﴿ضُرِبَتْ عَلَيهِمِ الذِّلَّةُ، أَينَمَا ثُقِفُوا﴾: حيثُما وُجدوا فلا عزَّ لهم ولا اعتصام ﴿إِلَّا﴾ كائنينَ ﴿بِحَبلٍ مِنَ اللهِ وَحَبلٍ مِنَ النَّاسِ﴾: المؤمنين ـ وهو عهدهم إليهم بالأمان على أداء الجزية ـ أي: لا عِصمة لهم غيرُ ذلك، ﴿وَبَاؤُوا﴾: رجَعوا ﴿بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ، وَضُرِبَتْ عَلَيهِمِ المَسكَنَةُ. ذَلِكَ بِأَنَّهُم﴾ أي: بسبب أنهم ﴿كَانُوا يَكفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ، وَيَقتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيرِ حَقٍّ. ذَلِكَ﴾: تأكيدٌ ﴿بِمَا عَصَوا﴾ أمر الله، ﴿وَكَانُوا يَعتَدُونَ﴾: يتجاوزون الحلال إلى الحرام.

قولُه: (تَصِيرُ) هذا تفسيرُ قراءةِ المعلومِ، وهي لابنِ عامرٍ وحمزةَ والكسائيِّ[1]، وأمّا تفسيرُ المجهولِ: تُرَدُّ.

قولُه: (فِي عِلْمِ اللهِ) أو في اللَّوحِ، أو فيما مضى بين الأممِ المتقدِّمينَ، وقيل: (كانَ) زائدٌ؛ أي: أنتُم، قالَ الكافيجيُّ[2]: فإن قلتَ: لا شكَّ أنَّ نبيَّنا ﷺ خيرُ من أُوحِيَ إليه بالإجماعِ؛ فهل آيةٌ من القرآنِ تدلُّ عليه؟ قلتُ: نعمْ؛ فإنَّ قولَه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾[آل عمران: ١١٠] تدلُّ عليه بدلالةِ النَّصِّ.

قولُه: (أُظهِرَتْ) أي: أنتم خيرُ النَّاسِ وأنفعُ النَّاسِ للنَّاسِ، وقولُه تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ﴾ استئنافٌ بيَّن به كونَهُم خيرَ أمَّةٍ، وقولُه: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ أُخِّر للتَّرقِّي، وقولُه تعالى: ﴿وَلَو آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أي: مثلَكُم، أو إيماناً كما ينبغي.

قولُه: (كَائِنِينَ) الأَولى معتصمينَ، والمرادُ بالحبلِ: الذِّمَّةُ والعهدُ والأمانُ.

قولُه: (تَأْكِيدٌ) إذ الكفرُ والقتلُ بسببِ عصيانِهم؛ فإنَّ الإصرارَ على الصَّغائرِ يفضي إلى الكبائرِ، والاستمرارَ عليها يؤدِّي إلى الكفرِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ١٨١)، و«حجة القراءات» (ص: ١٣٠).

(٢) هو محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الحنفي، محيي الدين أبو عبد الله الكافيجي، فقيه حنفي نحوي مفسر، اشتهر بمصر ولازمه السيوطي ١٤ سنة، وعرف بالكافيجي لكثرة اشتغاله بالكافيه في النحو (ت: ٨٧٩ هـ). انظر: «الأعلام» (٦/ ١٥٠).

١١٣ ـ ﴿لَيسُوا﴾ أي: أهلُ الكتاب ﴿سَواءً﴾: مُستَوِين. ﴿مِن أهلِ الكِتابِ أُمّةٌ قائمةٌ﴾: مُستقيمة ثابتة على الحقّ كعبد الله بن سلام وأصحابه، ﴿يَتلُونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيلِ﴾ أي: في ساعاته، ﴿وهُم يَسجُدُونَ﴾: يُصَلُّون ـ حالٌ ـ ١١٤ ـ ﴿يُؤمِنُونَ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ، ويأمُرُونَ بِالمَعرُوفِ ويَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ، ويُسارِعُونَ في الخَيراتِ. وأُولئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكِرَ ﴿مِنَ الصّالِحِينَ﴾، ومنهم مَن ليسوا كذلك وليسوا من الصالحين. ١١٥ ـ ﴿وما تَفعَلُوا﴾ ـ بالتاء أيُّها الأُمّة، وبالياء أي: الأُمّةُ القائمة ـ ﴿مِن خَيرٍ فلَن تُكفَرُوهُ﴾، بالوجهين أي: تَعدَموا ثوابه، بل تُجازَون عليه. ﴿واللهُ عَلِيمٌ بِالمُتَّقِينَ﴾.

١١٦ ـ ١١٧ ـ ﴿ إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغنِيَ﴾: تدفعَ ﴿عَنهُم أموالُهُم ولا أولادُهُم مِنَ اللهِ﴾ أي: عذابِه ﴿شَيئًا﴾ ـ وخصّهما بالذكر لأنّ الإنسان يدفع عن نفسه تارةً بفداء المال وتارة بالاستعانة بالأولاد ـ ﴿وأُولئِكَ أصحابُ النّارِ، هُم فِيها خالِدُونَ، مَثَلُ﴾: صفةُ ﴿ما يُنفِقُونَ﴾ أيِ: الكُفّارُ، ﴿في هذِهِ الحَياةِ الدُّنيا﴾ في عداوةِ النبيّ أو صدَقةٍ ونحوِها، ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ﴾: حَرّ أو برد شديد، ﴿أصابَتْ حَرْثَ﴾: زرعَ ﴿قَومٍ ظَلَمُوا أنفُسَهُم﴾ بالكُفر والمعصية، ﴿فأهلَكَتْهُ﴾ فلم ينتفعوا به.........

قولُه: (مُستَوِينَ) في المساويْ.

قولُه: (أي: فِي سَاعَاتِهِ) الظّاهرُ من آناءِ اللّيلِ الاستيعابُ، وقيل: المرادُ الاستيعابُ من المجموعِ لا مِن كلِّ واحدٍ، وقيل: المرادُ صلاةُ العشاءِ.

قولُه: (حَالٌ) من ضميرِ: ﴿يَتْلُونَ﴾.

قولُه: (وَمِنهُم) عطفٌ مقدَّرٌ على قولِه: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ حُذِفَ لدلالةِ الأوّلِ عليه.

قولُه: (وبالياءِ) الغيبةُ لحمزةَ والكسائيِّ وحفصٍ[1].

قولُه: (أي: عَذَابِهِ) شيئاً؛ أي: من العذابِ، أو من الإغناءِ، فيكونُ مصدراً، وقولُ البيضاويِّ[2]: (مِنَ الغنى[3]) غيرُ ملائمٍ في المعنى.

قولُه: (ونَحوِهَا) كصلةِ الرَّحمِ وبرِّ اليتيمِ وإطعامِ الضَّيفِ؛ يعني: رياءً وتفاخراً.

قولُه: (حَرٌّ) أي: سمومٌ، أو بردٌ شديدٌ، وعليه أكثرُ المفسِّرينَ.

قولُه: (بالكُفرِ) أو بالرِّياءِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٥)، و«حجة القراءات» (ص: ١٧٠).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٢/ ٣٤).

(٣) في «أنوار التنزيل» (٢/ ٣٤): «أو من الغَنَاء فيكون مصدراً» فلا استدراك عليه، والله أعلم.

فكذلك نفقاتُهم ذاهبة لا ينتفعون بها. ﴿وما ظَلَمَهُمُ اللهُ﴾ بضياع نفقاتهم، ﴿ولكِنْ أنفُسَهُم يَظلِمُونَ﴾ بالكفر المُوجِب لضياعها.

١١٨ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً﴾: أصفياءَ تُطلعونهم على سِرّكم ﴿مِن دُونِكُم﴾ أي: غيرَكُم من اليهود والنصارى والمنافقين. ﴿لا يألُونَكُم خَبالاً﴾ ـ نُصب بنزع الخافض ـ أي: لا يُقصّرون جُهدَهم لكم في الفساد، ﴿وَدُّوا﴾: تمنَّوا ﴿ما عَنِتُّم﴾ أي: عَنَتَكُم ـ وهو شِدّة الضرر ـ ﴿قَد بَدَتِ﴾: ظهرتِ ﴿البَغضاءُ﴾: العداوةُ لكم ﴿مِن أفواهِهِم﴾ بالوقيعة فيكم وإطلاع المشركين على سِرّكم، ﴿وما تُخفِي صُدُورُهُم﴾ من العداوة ﴿أكبَرُ. قَد بَيَّنّا لَكُمُ الآياتِ﴾ على عداوتهم، ﴿إنْ كُنتُم تَعقِلُونَ﴾ ذلك فلا تُوالُوهم.

١١٩ ـ ﴿ها﴾: للتنبيه ﴿أنتُم﴾ يـا ﴿أُولاءِ﴾ المؤمنين ﴿تُحِبُّونَهُم﴾ لقرابتهم منكم وصداقتهم، ﴿ولا يُحِبُّونَكُم﴾ لمخالفتهم لكم في الدين، ﴿وتُؤمِنُونَ بِالكِتابِ كُلِّهِ﴾ أي: بالكُتب كلّها ولا يؤمنون بكِتابكم، ﴿وإذا لَقُوكُم قالُوا: آمَنّا. وإذا خَلَوا عَضُّوا عَلَيكُمُ الأنامِلَ﴾: أطراف الأصابع ﴿مِنَ الغَيظِ﴾: شِدّة الغضب لِما يَرَون مِن ائتلافكم. ويُعبَّر عن شِدّة الغضب بِعَضِّ الأنامل مجازًا، وإن لم يكن ثَمَّ عضّ. ﴿قُلْ: مُوتُوا بِغَيظِكُم﴾ أي: ابقَوا عليه إلى الموت فلن تَروا ما يسرّكم. ﴿إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾: بما في القلوب، ومنه ما يُضمره هؤلاء.

١٢٠ ـ ﴿إنْ تَمسَسْكُم﴾: تُصِبْكم ﴿حَسَنَةٌ﴾: نعمة كنصر وغنيمة ﴿تَسُؤْهُم﴾: تُحزِنْهم، ﴿وإنْ تُصِبْكُم سَيِّئَةٌ﴾ كهزيمة وجدب ﴿يَفرَحُوا بِها﴾ ـ ....

قولُه: (أي: عَنَتَكُم) إشارةٌ إلى أنَّ ما مصدريَّةٌ.

قولُه: (وإطلَاعِ) بالتَّخفيفِ؛ أي: إظهارِ.

قولُه تعالى: (﴿أَكبَرُ﴾) أي: ممَّا بدا؛ لأنَّ بدوَّهُ ليس عن رؤيةٍ واختيارٍ.

قولُه: (المُؤمنِينَ) أي: المخطئينَ في موالاةِ الكفَّارِ.

قولُه: (ابْقَوا) بفتحِ القافِ: صيغةُ أمرٍ.

وقولُه: (عَلَيهِ) أي: على الغيظِ، فهو دعاءٌ عليهم بدوامِ الغيظِ وزيادتِهِ بتضاعفِ قوَّةِ الإسلامِ وأهلِهِ حتَّى يموتُوا.

قولُه: (جَدْب) بفتحِ الجيمِ ضدُّ: الخِصبِ؛ بكسرِ الخاءِ[1]، فحقُّهُ أن يُذكرَ ضدُّهُ في مقابلِهِ.

---

(١) انظر: «مختار الصحاح» (ص: ٥٣).

وجُملة الشرط مُتّصلة بالشرط قبلُ، وما بينهما اعتراض. والمعنى أنهم مُتناهون في عداوتكم. فلِمَ تُوالونهم؟ فاجتنبوهم ـ ﴿وإنْ تَصبِرُوا﴾ على أذاهم، ﴿وتَتَّقُوا﴾ اللهَ في مُوالاتهم وغيرها، ﴿لا يَضِرْكُم﴾ ـ بكسر الضاد وسُكون الراء، وضمِّهما وتشديدها ـ ﴿كَيدُهُم شَيئًا! إنَّ اللهَ بِما يَعمَلُونَ﴾، بالياء والتاء، ﴿مُحِيطٌ﴾: عالم فيُجازيهم به.

١٢١ ـ ﴿و﴾ اذكر ـ يا محمّد ـ ﴿إذ غَدَوتَ مِن أهلِكَ﴾ من المدينة، ﴿تُبَوِّئُ﴾: تُنزِل ﴿المُؤمِنِينَ مَقاعِدَ﴾: مراكزَ يقفون فيها ﴿لِلقِتالِ. واللهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم. وهو يومُ أُحد، خرج النبيّ ﷺ بألف أو إلاّ خمسين رجلاً، والمشركون ثلاثة آلاف، ونزل بالشِّعب يومَ السبت سابعَ شوّال سنةَ ثلاث من الهجرة، وجعل ظهرَه وعسكرِه إلى أُحُد، وسوَّى صفوفهم، وأجلس جيشًا من الرُّماة، وأَمَّر عليهم عبدَ الله بن جُبير بسفح الجبل، وقال: «انضَحُوا عَنّا بالنَّبلِ لا يأتُونا مِن وَرائنا،...........

قولُه: (قَبْلُ) أي: قبلَ: ﴿قُلْ مُوتُوا﴾.

قولُه: (ومَا بَينَهُمَا) هو: ﴿قُلْ مُوتُوا﴾... إلخ.

قولُه: (بكَسْرِ الضَّادِ وسُكُونِ الرَّاءِ) للحرميَّين والبصريِّ[1] من ضارَ يضيرُ ضيراً: لغةٌ في ضرَّ، ومنه قالُوا: لا ضيرَ.

قولُه: (وضَمِّهَا) الأولى: وبضمِّهَا؛ أي: ضمِّ الضَّادِ، وتشديدِها، أي: تشديدِ الرَّاءِ مضمومةً، وهي ضمَّةُ بناءٍ للإتباعِ لا ضمةُ رفعٍ؛ لأنَّه مجزومٌ.

قولُه: (باليَاءِ والتَّاءِ) العشرةُ متَّفقُونَ على الغيبةِ، والخطابُ إنَّما هو للحسنِ البصريِّ والمطَّوِّعيِّ عن الأعمشِ، فهو شاذٌّ بلا خلافٍ[2]، فمَا كان يليقُ ذكرُهُ إلَّا بصيغةِ التَّمريضِ، كما قالَ البيضاويُّ[3]: (وقُرِئَ).

قولُه: (مِنَ المَدِينَةِ) الأظهرُ: بالمدينةِ؛ والمعنى: إذ ذهبْتَ من عند أهلِكَ الَّذين في المدينةِ.

قولُه: (بِسَفحِ الجَبَلِ) أي: أصلِهِ أو أسفلِهِ.

قولُه: (انْضَحُوا) أي: ارمُوا وادفعُوا.

قولُه: (بالنَّبْلِ) أي: بالسِّهامِ العربيَّةِ، مفردُ اللَّفظِ مجموعُ المعنى.

قولُه: (لا يَأْتُونَا) مجزومٌ على جوابِ الأمرِ.

قولُه: (مِن وَرَائِنَا) أي: خلفِنا.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٥)، و«حجة القراءات» (ص: ١٧١).

(٢) انظر: «شواذ القراءات» (ص: ١١٩).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٢/ ٣٦).

ولا تبرَحُوا غُلِبْنا أو نُصِرْنا».

١٢٢ ـ ﴿إذ﴾: بدلٌ من «إذ» قبله ﴿هَمَّتْ طائفتانِ مِنكُم﴾ بنو سَلِمةَ وبنو حارثةَ جَناحا العسكر ﴿أنْ تَفشَلا﴾: تجبُنا عن القِتال وترجِعا، لمّا رجَع عبد الله بن أُبيٍّ المُنافقُ وأصحابه، وقال: عَلامَ نَقتلُ أنفُسَنا وأولادَنا؟ وقال لأبي جابرِ السَّلَميّ القائلِ له: «أنشُدُكمُ اللهَ في نَبِيّكم وأنفُسِكم»: «لو نعلمُ قِتالاً لاتّبعناكم». فثبّتهما الله ولم ينصرفا، ﴿واللهُ وَلِيُّهما﴾: ناصرهما. ﴿وعلَى اللهِ فلْيَتَوكَّلِ المُؤمِنُونَ﴾: لِيثقوا به دون غيره.

ونزل لمّا هُزموا، تذكيرًا لهم بنعمة الله: ١٢٣ ـ ﴿ولَقَد نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدرٍ﴾: موضعٍ بين مكّة والمدينة، ﴿وأنتُم أذِلّةٌ﴾ بِقلّة العدد والسلاح ـ ﴿فاتّقُوا اللهَ، لَعَلَّكُم تَشكُرُونَ﴾ نِعَمَه ـ ١٢٤ ـ ﴿إذ﴾: ظرفٌ لـ«نَصَرَكم» ﴿تَقُولُ لِلمُؤمِنينَ﴾ تُوعِدُهم تَطمينًا: ﴿ألَن يَكفِيَكُم أنْ يُمِدَّكُم﴾: يُعينكم ﴿رَبُّكُم بِثَلاثةِ آلافٍ مِنَ المَلائكةِ مُنْزَلِينَ﴾؟ بالتخفيف والتشديد.

قولُه: (ولا تَبْرَحُوا) أي: لا تزالُوا مكانَكُم ولا تفارِقُوهُ.

قولُه: (بَدَلٌ) أو متعلِّقٌ بقولِهِ: ﴿سميعٌ عليمٌ﴾ بطريقِ التَّنازعِ، وقيل: معمولُ ﴿تبوِّئُ﴾.

قولُه: (بَنُو سَلِمَةَ) من الخزرجِ (وبَنُو حَارِثَةَ) من الأوسِ.

قولُه: (عَلامَ) أصلُهُ (مَا) الاستفهاميَّةُ، دخلَ عليها حرفُ الجرِّ، فحُذفَتِ الألفُ، وكُتبَت الياءُ بالألفِ.

قولُه: (وقَالَ) أي: ابنُ أُبيٍّ.

قولُه: (لَو نَعلَمُ) أي: نحسنُ.

قولُه: (فثَبَّتَهُمَا) أي: الطَّائفتَينِ.

قولُه: (دُوْنَ غَيرِهِ) مستفادٌ من تقديمِ الجارِّ.

قولُه: (مَوضِع) أو ماء كان لرجلٍ يسمى بدراً فسُمِّي به.

قولُه: (بِقلَّةِ العَدَدِ) بفتحِ العينِ، (والسِّلاحِ) بالكسرِ، والجملةُ حالٌ من الضَّميرِ.

قولُه: (تُوعِدُهُم) الظاهرُ: تعدُهُم.

قولُه: (والتَّشدِيدِ) لابنِ عامرٍ[1] للتكثيرِ أو التَّدريجِ أو التَّعديةِ، والكلُّ بفتحِ الزَّايِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٥).

١٢٥ ـ ﴿بَلَى﴾ يكفيكم ذلك. وفي «الأنفال»: «بألفٍ» لأنه أمدَّهم أوّلاً بها، ثمّ صارت ثلاثة، ثمّ صارت خمسة كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَصبِرُوا﴾ على لقاء العدوّ، ﴿وتَتَّقُوا﴾ الله في المُخالفة، ﴿ويأتوكُم﴾ أي: المشركون ﴿مِن فَورِهِم﴾: وقتِهم ﴿هذا، يُمدِدْكُم رَبُّكُم بِخَمسةِ آلافٍ مِنَ المَلائكةِ مُسَوِّمِينَ﴾، بكسر الواو وفتحها، أي: مُعلِّمين. وقد صبروا وأنجز الله وعده بأن قاتلتْ معهم الملائكة على خيلٍ بُلقٍ، عليهم عمائمُ صُفرٌ أو بِيض، أرسلوها بين أكتافهم. ١٢٦ ـ ﴿وما جَعَلَهُ اللهُ﴾ أي: الإمدادَ ﴿إلاّ بُشرَى لَكُم﴾ بالنصر، ﴿ولِتَطمَئِنَّ﴾: تسكنَ ﴿قُلُوبُكُم بِهِ﴾، فَلا تجزعَ من كثرة العدوّ وقلّتكم. ﴿وما النَّصرُ إلاّ مِن عِندِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾ يؤتيه من يشاء، وليس بكثرة الجُند.

١٢٧ ـ ﴿لِيَقطَعَ﴾: متعلّق بـ «نَصَركم» أي: لِيُهلِكَ ﴿طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر، ﴿أو يَكبِتَهُم﴾: يُذلَّهم بالهزيمة، ﴿فينقَلِبُوا﴾: يَرجِعوا ﴿خائبِينَ﴾ لم ينالوا ما راموه.

ونزَلَ لمّا كُسرت رباعِيَتُه ﷺ وشُجّ وجهُه يوم أُحُد، ....

قولُه: (وَقْتِهِم) أي: ساعتِهم هذه قبلَ أن يسكنُوا، والمعنى: أن يأتوكُم في الحالِ، وفي «الدُّرِّ»[1] أي: من غضبِهم؛ يعني: من فورانِ غيظِهم.

قولُه: (بكَسرِ الوَاوِ) للمكّيِّ والبصريِّ وعاصمٍ[2].

قولُه: (وَعْدَهُ) وفي نسخةٍ: «وعدَهُم» بالإضافةِ إلى الفاعلِ أو المفعولِ.

قولُه: (بُلْقٍ) جمعُ: أبلقَ، ما فيه سوادٌ وبياضٌ.

قولُه: (أَرْسَلُوهَا) أي: أطرافها.

قولُه: (أي: الإِمْدَادَ) المأخوذَ من: ﴿يُمِدَّكُم﴾.

قولُه: (مُتَعلّقٌ بِنَصَرَكُم) أو: ﴿ومَا النَّصرُ﴾ إن كان لامُهُ للعهدِ؛ لأنَّ كلَّ نصرٍ لا يفيدُ ذلك.

قولُه: (يُذِلَّهُمْ) الكبتُ: شدَّةُ غيظٍ[3]، أو وهنٌ يقعُ في القلبِ، و﴿أو﴾ للتَّنويعِ.

قولُه: (مَا رَامُوهُ) أي: قصدُوهُ.

قولُه: (رَبَاعِيَتُهُ) على زنةِ ثمانيةٍ: السِّنُّ التي بين الثَّنيَّةِ والنَّابِ[4]، والثَّنايا: الأسنان المتقدِّمةُ[5].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» (٢/ ٣٠٩).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٦).

(٣) انظر: «الغريبين» (٥/ ١٦٠٧).

(٤) انظر: «الصحاح» (٣/ ١٢١٤).

(٥) انظر: «المغرب» (ص: ٧١).

وقال: «كَيفَ يُفلِحُ قَومٌ خَضَبُوا وَجهَ نَبِيِّهِم بالدَّمِ»؟: ١٢٨ ـ ﴿لَيسَ لَكَ مِنَ الأَمرِ شَيءٌ﴾ بلِ الأمر لله ـ فاصبرْ ـ ﴿أو﴾ بمعنى: إلى أن ﴿يَتُوبَ علَيهِم﴾ بالإسلام ﴿أو يُعَذِّبَهُم ـ فإنَّهُم ظالِمُونَ﴾ بالكُفر ـ ١٢٩ ـ ﴿ولله ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ﴾ مُلكًا وخلقًا وعبيدًا، ﴿يَغفِرُ لِمَن يَشاءُ﴾ المغفرةَ له، ﴿ويُعَذِّبُ مَن يَشاءُ﴾ تعذيبَه. ﴿واللهُ غَفُورٌ﴾ لأوليائه ﴿رَحِيمٌ﴾ بأهل طاعته.

١٣٠ ـ ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، لا تأكُلُوا الرِّبا أضعافًا مُضاعَفَةً﴾ ـ بألِفٍ ودُونِها ـ بأن تزيدوا في المال عِند حُلول الأجل وتُؤخِّروا الطلب، ﴿واتَّقُوا اللهَ﴾ بتركِه، ﴿لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ﴾: تفوزون، ١٣١ ـ ﴿واتَّقُوا النّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلكافِرِينَ﴾ أن تُعذَّبوا بها، ١٣٢ ـ ﴿وأطِيعُوا اللهَ والرَّسُولَ، لَعَلَّكُم تُرحَمُونَ﴾.

١٣٣ ـ ﴿وسارِعُوا﴾ ـ بواو ودُونِها ـ..

قولُه: (بِمَعْنَى: إِلَى أَنْ) أو إلا أن.

قولُه: (ودُوْنَها) أي: بدونِ الألفِ مع تشديدِ العينِ للمكِّيِّ والشَّاميِّ(١).

قولُه: (بِأَنْ تَزِيْدُوا... إلخ) والتَّخصيصُ بحسبِ الواقعِ، فلا مفهومَ له عندَ من يقولُ به، بل لزيادةِ التَّوبيخِ، وللتَّنبيهِ على أنَّهُم كانوا على هذه الطَّريقةِ المذمُومةِ الَّتي ربَّما يستصحِبُها(٢) أكلةُ الرِّبا أيضاً؛ إذ ربَّما يستغرقُ بالشَّيءِ القليلِ مالَ المديونِ.

قولُه: (أَنْ تُعَذَّبُوا) بفتحِ أن مفعولُ: ﴿اتَّقُوا﴾.

قولُه: (بالوَاوِ) أي: الأُولى.

قولُه: (ودُونِهَا) نافعٌ وابنُ عامرٍ(٣)؛ يعني: سابِقُوا بالأعمالِ الصَّالحةِ، قالهُ سعيدُ بنُ جبيرٍ(٤)، وعن أنسٍ: بالتَّكبيرةِ الأولى(٥)، كذا في «الدُّرِّ»(٦)، وقال البيضاويُّ(٧): بادِروا إلى ما تُستحَقُّ به المغفرةُ كالإسلامِ والتَّوبةِ والإخلاصِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ١٨٤).

(٢) في الأصول: «يستقبحها» ولم أفهم سياقها، ولعل ما أثبته هو الصواب.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٦)، و«حجة القراءات» (ص: ١٧٤).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤١٥٤).

(٥) رواه ابن المنذر في «تفسيره» (٩٢١).

(٦) انظر: «الدر المنثور» (٢/ ٣١٤).

(٧) انظر: «أنوار التنزيل» (٢/ ٣٨).

﴿إِلَى مَغفِرةٍ مِن رَبِّكُم، وجَنَّةٍ عَرضُها السَّماواتُ والأرضُ﴾ أي: كعرضهما، لو وُصلت إحداهما بالأُخرى ـ والعرض: السَّعة ـ ﴿أُعِدَّتْ لِلمُتَّقِينَ﴾ اللهَ بعمل الطاعات وترك المعاصي، ١٣٤ ـ ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ في طاعة الله ﴿فِي السَّرّاءِ والضَّرّاءِ﴾: اليُسر والعُسر، ﴿والكاظِمِينَ الغَيظَ﴾: الكافِّينَ عن إمضائه مع القُدرة، ﴿والعافِينَ عَنِ النّاسِ﴾ ممّن ظلمهم، أي: التاركين عُقوبتَه ـ ﴿واللهُ يُحِبُّ المُحسِنِينَ﴾ بهذه الأفعال، أي: يُثيبهم ـ ١٣٥ ـ ﴿والَّذِينَ إذا فَعَلُوا فاحِشةً﴾: ذنبًا قبيحًا كالزِّنى، ﴿أو ظَلَمُوا أنفُسَهُم﴾ بما دُونه كالقُبلة، ﴿ذَكَرُوا اللهَ﴾ أي: وعيدَه، ﴿فاستَغفَرُوا لِذُنُوبِهِم، ومَن﴾ أي: لا أحد ﴿يَغفِرُ الذُّنُوبَ إلاّ اللهُ؟ ولَم يُصِرُّوا﴾: يُدِيموا ﴿عَلَى ما فَعَلُوا﴾ بل أقلعوا عنه، ﴿وهُم يَعلَمُونَ﴾ أنّ الذي أتَوه معصية..

قولُه: (كعَرْضِهِمَا) فيكونُ تشبيهاً بليغاً، كما يقالُ: أبو يوسفَ أبو حنيفةَ؛ للتَّصريحِ في آيةِ (الحديدِ)[1] لا أنها عينُهُما، فلا مستمسكَ للمعتزلةِ.

قولُه: (والعَرْضُ السَّعَةُ) أي: ذكرَ العرضَ للمُبالغةِ في وصفِها بالسَّعةِ؛ لأنَّ العرضَ دونَ الطُّولِ، والظَّاهرُ: أنَّ المرادَ بالعرضِ منه[2] الطُّول؛ ليفيدَ المبالغةَ.

قالَ تعالى: (﴿أُعِدَّتْ﴾) أي: هُيِّئت لهم، فالجنَّةُ بالذَّاتِ للمتَّقينَ، وبالعَرَضِ لفسَّاقِ المؤمنينَ.

وفيه دليلٌ على أنَّ الجنَّةَ مخلوقةٌ، وأنَّها خارجةٌ عن هذا العالمِ؛ لأنَّهُ لا يسعُها.

وقولُه تعالى: (﴿الَّذِيْنَ يُنْفِقُونَ﴾) صفةٌ مادحةٌ، أو مدحٌ مرفوعٌ، أو منصوبٌ.

قولُه: (اليُسْرِ) أي: حالتي اليسرِ والعسرِ، أو الأحوالِ كلِّها؛ إذ الإنسانُ لا يخلُو عن مسرَّةٍ أو مضرَّةٍ.

قولُه: (بِهَذِهِ الأَفعَالِ) فاللَّامُ للعهدِ، ويحتملُ الجنسَ، ويدخلُ هؤلاءِ دخولاً أوَّليًّا.

قولُه: (كالقُبْلَةِ) أو الثَّاني أعمُّ من الأوَّلِ، أو الفاحشةُ ما يتعدَّى إلى الغيرِ والظُّلمُ ما يكونُ قاصراً على نفسِهِ.

قولُه: (أَي: وَعِيدَهُ) أو حكمَهُ، أو حقَّهُ العظيمَ.

قالَ تعالى: (﴿فَاسْتَغْفَرُوا﴾) أي: بالنَّدمِ.

قولُه: (أَي: لَا) استفهامٌ بمعنى النَّفي معترِضٌ بين المعطوفَينِ، تقديرُهُ: فاستغفَرُوا لذنوبِهِم ولم يصرُّوا.

قولُه: (بَلْ أَقْلَعُوا) الإقلاعُ: الكفُّ.

---

(١) رقم: (٢١).

(٢) كذا في كل الأصول.

١٣٦ ـ ﴿أولئِكَ جَزاؤُهُم مَغفِرةٌ، مِن رَبِّهِم وجَنّاتٌ تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ، خالِدِينَ فِيها﴾: حالٌ مُقدَّرة، أي: مقدَّرين الخلودَ فيها إذا دخلوها. ﴿ونِعمَ أجرُ العامِلِينَ﴾ بالطاعة هذا الأجرُ!

ونزل في هزيمة أُحُد: ١٣٧ ـ ﴿قَد خَلَتْ﴾: مضت ﴿مِن قَبلِكُم سُنَنٌ﴾: طرائقُ في الكُفّار بإمهالِهم ثمّ أخذِهم. ﴿فسِيرُوا﴾ ـ أيُّها المُؤمنون ـ ﴿في الأرضِ، فانظُرُوا: كَيفَ كانَ عاقِبةُ المُكَذِّبِينَ﴾ الرُّسلَ أي: آخرُ أمرهم من الهلاكِ؟ فلا تحزنوا لغلبتهم، فأنا أُمهِلُهم لِوقتهم ـ ١٣٨ ـ ﴿هذا﴾ القرآنُ ﴿بَيانٌ لِلنّاسِ﴾ كلّهم ﴿وهُدًى﴾ من الضلالة ﴿ومَوعِظةٌ لِلمُتَّقِينَ﴾ منهم ـ ١٣٩ ـ ﴿ولا تَهِنُوا﴾: تَضعُفوا عن قتال الكُفّار، ﴿ولا تَحزَنُوا﴾ على ما أصابكم بأُحُد، ﴿وأنتُمُ الأعلَونَ﴾ بالغلبة عليهم، ﴿إنْ كُنتُم مُؤمِنِينَ﴾ حقًّا، وجوابه دلّ عليه مجموع ما قبله.

١٤٠ ـ ﴿إنْ يَمسَسْكُم﴾: يُصِبْكم بأُحُدٍ ﴿قَرْحٌ﴾، بفتح القاف وضمّها: جَهدٌ من جَرح ونحوه، ﴿فقَد مَسَّ القَومَ﴾: الكُفّارَ ﴿قَرْحٌ مِثلُهُ﴾ ببدرٍ، ﴿وتِلكَ الأيّامُ نُداوِلُها﴾: نُصرِّفها ﴿بَينَ النّاسِ﴾ يومًا لِفرقة ويومًا لأُخرى،..

قولُه: (كُلِّهِم) حجَّةٌ عليهِم.

قولُه: (مِنْهُم) خُصُّوا لأنَّهم المنتفِعُونَ بالهدايةِ والموعظةِ.

قولُه: (عَن قِتَالِ الكُفَّارِ) بما أصابَكُم من غلبةِ الكفّارِ.

قولُه: (بأُحُدٍ) أو: على من قُتِلَ منكم.

قولُه: (بالغَلَبَةِ) أي: وحالُكُم أنَّكم أعلى منهُم شأناً؛ فإنَّكُم على الحقِّ وإنَّهُم على الباطلِ، وقتالُكُم للهِ وقتالُهُم للشَّيطانِ، وقتلاكُم في الجنَّةِ وقتلاهُم في النَّارِ، أو: لأنَّكُم أصبتُم منهم يومَ بدرٍ أكثرَ ممَّا أصابوا منكُم اليومَ، أو: أنتُم الأعلَونَ في العاقبةِ، فيكونُ بشارةً لهم بالنُّصرةِ والغلبةِ.

قولُه: (مَجمُوعُ مَا قَبلَهُ) من طلبِ التَّركِ، لا الجملةُ الحاليَّةُ.

قولُه: (وَضَمِّهَا) حمزةُ والكسائيُّ وشعبةُ[1] لغتانِ، أو: بالفتحِ الجراحُ، وبالضمِّ ألَمُها.

قولُه: (جُهْدٌ) بالضمِّ، ويفتحُ؛ أي: مشقَّةٌ.

قولُه: (وَيَوماً لِأُخرَى) كقولِهِ[2]:

فيومـاً علينـا ويومـاً لـنـا ... ويوماً نُسَـاءُ ويومـاً نُسَـرُّ

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٦)، و«حجة القراءات» (ص: ١٧٤).

(٢) قائله: الصحابي النَّمر بن تَوْلَب العُكْلي رضي الله عنه. انظر «ديوانه» (ص: ٦٥).

لِيتّعظوا ﴿وليَعلَمَ اللهُ﴾ عِلمَ ظُهورٍ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أخلصوا في إيمانهم من غيرهم، ﴿ويَتَّخِذَ مِنكُم شُهَدَاءَ﴾ يُكرمُهم بالشهادة ـ ﴿واللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾: الكافرين، أي: يُعاقبهم، وما يُنعِم به عليهم استدراجٌ ـ ١٤١ ـ ﴿ولِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: يُطهّرهم من الذُّنوب بما يُصيبهم، ﴿ويَمحَقَ﴾: يُهلِكَ ﴿الكافِرِينَ﴾.

١٤٢ ـ ﴿أم﴾: بل أ ﴿حَسِبتُم أنْ تَدخُلُوا الجَنَّةَ، ولَمَّا﴾: لم ﴿يَعلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنكُم﴾ عِلمَ ظُهورٍ، ﴿ويَعلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ في الشدائد؟ ١٤٣ ـ ﴿ولَقَد كُنتُم تَمَنَّونَ﴾ ـ فيه حذف إحدى التاءين في الأصل ـ ﴿المَوتَ مِن قَبلِ أنْ تَلقَوهُ﴾، حيث قلتم: ليت لنا يومًا كيوم بدر لننال ما نال شُهداؤه. ﴿فقَد رأَيتُمُوهُ﴾ أي: سَبَبَهُ الحربَ، ﴿وأنتُم تَنظُرُونَ﴾ أي: بُصراءُ تتأمّلون الحال كيف هي؟ فلِمَ انهزمتم؟

والمداولةُ كالمعاودةِ، و﴿الأيّامُ﴾ تحتملُ الوصفَ والخبرَ، و﴿نداولُها﴾ يحتملُ الخبرَ والحالَ، والأظهرُ هو الأوَّلُ، والمرادُ بها: أوقاتُ النَّصرِ والغلبةِ.

قولُه: (لِيَتَّعِظُوا) قدَّرَ ليعطِفَ عليه: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾.

قولُه: (عِلْمَ ظُهُوْرٍ) أي: علماً يتعلَّقُ به الجزاءُ؛ يعني: أنَّ له تعالى علمَينِ؛ أزليًّا ويُسمَّى علمَ بطونٍ، وهو ما يكونُ في الأزلِ، وعلماً يتعلَّقُ به الجزاءُ ويُسمَّى علمَ ظهورٍ، وهو العلمُ بالشَّيءِ الموجودِ؛ فإنَّ الجزاءَ لا يتعلَّقُ بشيءٍ معدومٍ، ولو لم يوجدِ الإيمانُ لم يتعلَّقْ به الجزاءُ، ويتوقَّفُ على وجودِ ذلك الشَّخصِ، والمرادُ بعلمِ اللهِ هنا هو الثَّاني، ويُسَمَّى العلمَ التَّنجيزيَّ أيضاً.

قولُه: (ومَا يُنعِمُ بِهِ عَلَيهِم) على خلافٍ أنَّهُ هل يُسمَّى نعمةً أم لا؟ وهو اعتراضٌ.

قولُه: (بَلْ أَحَسِبتُم) معناهُ: الإنكارُ.

قولُه: (عِلْمَ ظُهُورٍ) والقصدُ في مثلِهِ ـ نفياً وإثباتاً ـ ليس إلى إثباتِ علمِهِ ونفيِهِ؛ فإنَّ علمَ اللهِ تعالى إذا تعلَّقَ بشيءٍ لزمَ أن يوجدَ ذلك الشَّيءُ، وعدمُ تعلُّقِهِ به ينافيهِ، بل إلى إثباتِ المعلومِ ونفيِهِ على طريقِ البرهانِ؛ ولذا فسَّرَ البيضاويُّ[1] قولَهُ: ﴿لَمَّا يَعْلَمِ﴾... إلخ بلمَّا يجاهِدوا.

قالَ تعالى: (﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِيْنَ﴾) نُصِبَ بإضمارِ أن، والواوُ بمعنى الجمعِ، نحوَ: لا تأكل السَّمكَ وتشربَ اللَّبنَ؛ أي: لم يكن العلمُ بالمجاهدينَ والعلمُ بالصَّابرينَ.

قولُه: (الحَربَ) بدلٌ.

قولُه: (بُصَراء تَتَأَمَّلُونَ) جمعَ بين الحقيقةِ والمجازِ، وهو لا يجوزُ عندنا[2]، فتأمَّل.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٢/ ٤٠).

(٢) انظر: «رد المحتار» (٢/ ١٩٢).

ونزل في هزيمتهم لمّا أُشيعَ أنّ النبيَّ قُتل، وقال لهم المُنافقون: «إن كان قُتل فارجِعوا إلى دِينكم»:
١٤٤ ـ ﴿وما مُحَمَّدٌ إلاّ رَسُولٌ، قَد خَلَتْ مِن قَبلِهِ الرُّسُلُ. أفإنْ ماتَ أو قُتِلَ﴾ كغيره ﴿انقَلَبتُم على أعقابِكُم﴾: رجَعتم إلى الكُفر؟ والجملة الأخيرة محلّ الاستفهام الإنكاريّ، أي: ما كان معبودًا فترجِعوا، ﴿ومَن يَنقَلِبْ علَى عَقِبَيهِ فلَن يَضُرَّ اللهَ شَيئًا﴾! وإنما يضرّ نفسه، ﴿وسَيَجزِي اللهُ الشّاكِرِينَ﴾ نِعمَه بالثبات.

١٤٥ ـ ﴿وما كانَ لِنَفسٍ أنْ تَمُوتَ إلاّ بِإذنِ اللهِ﴾: بقضائه، ﴿كِتابًا﴾: مصدرٌ، أي: كَتَبَ اللهُ ذلك، ﴿مُؤَجَّلاً﴾: مُؤقّتًا لا يتقدّم ولا يتأخّر. فلِمَ انهزمتم، والهزيمةُ لا تدفع الموتَ، والثباتُ لا يقطع الحياة؟ ﴿ومَن يُرِدْ﴾ بعمله ﴿ثَوابَ الدُّنيا﴾ أي: جزاءَه منها ﴿نُؤتِهِ مِنها﴾ ما قُسم له ولا حظَّ له في الآخرة، ﴿ومَن يُرِدْ ثَوابَ الآخِرةِ نُؤتِهِ مِنها﴾ أي: من ثوابها. ﴿وسَنَجزِي الشّاكِرِينَ﴾.

١٤٦ ـ ﴿وكَأَيِّنْ﴾: كم ﴿مِن نَبِيٍّ قُتِلَ﴾ ـ وفي قراءة: «قاتَلَ» والفاعل ضميره ـ ﴿مَعَهُ﴾: خبرٌ مبتدؤه ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾:..............................

قولُه: (بالثَّباتِ) على الإسلامِ أو الجهادِ.

قولُه: (مَصْدَرٌ) أي: مؤكّدٌ لمضمونِ الجملةِ السَّابقِ.

قولُه: (ذَلِكَ) أي: الموتَ.

قولُه: (أي: جَزَاءَهُ) أي: جزاءَ عملِهِ من الدُّنيا.

قولُه تعالى: (﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِيْنَ﴾) بالزِّيادةِ على ثوابِها؛ أي: فضلاً وإحساناً، أو بأن يُثابوا في الدُّنيا أيضاً.

قولُه: (كَم) وفي قراءةِ المكِّيِّ: ﴿كَائِن﴾ على زنةِ فاعلٍ[1].

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) أي: للشَّاميِّ والكوفيِّ[2].

قولُه: (والفَاعِلُ ضَمِيرُهُ) أي: ضميرٌ راجعٌ إلى ﴿نَبِيٍّ﴾، ويمكنُ أن يكونَ فاعلُهُ ﴿رِبِّيُّونَ﴾ والجملةُ صفةُ ﴿نَبِيٍّ﴾.

قولُه: (خَبَرٌ مُبتَدَؤُهُ) والجملةُ حالٌ من ضميرِ النبيِّ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٦)، و«حجة القراءات» (ص: ١٧٤).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٧).

جموعٌ كثيرة، ﴿فما وَهَنُوا﴾: جَبُنوا، ﴿لِما أصابَهُم في سَبِيلِ اللهِ﴾ من الجراحِ وقتلِ أنبيائهم وأصحابهم، ﴿وما ضَعُفُوا﴾ عنِ الجهاد، ﴿وما استَكانُوا﴾: خضعوا لعدوّهم كما فعلتم حين قيل: قُتل النبيّ! ـ ﴿واللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ على البلاء، أي: يُثيبهم ـ ١٤٧ ـ ١٤٨ ـ ﴿وما كانَ قَولَهُم﴾ عند قتل نبيّهم مع ثباتهم وصبرهم ﴿إلاّ أنْ قالُوا: رَبَّنا، اغفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وإسرافَنا﴾: تجاوُزَنا الحدَّ ﴿في أمرِنا﴾ إيذانًا بأنّ ما أصابهم لسوء فعلهم وهضمًا لأنفسهم، ﴿وثَبِّتْ أقدامَنا﴾ بالقوّة على الجِهاد، ﴿وانصُرْنا على القَومِ الكافِرِينَ. فآتاهُمُ اللهُ ثَوابَ الدُّنيا﴾: النصرَ والغنيمةَ، ﴿وحُسنَ ثَوابِ الآخِرةِ﴾ أي: الجنّةَ. وحُسنه: التفضّل فوق الاستحقاق. ﴿واللهُ يُحِبُّ المُحسِنِينَ﴾.

١٤٩ ـ ١٥٠ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، إنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيما يأمرونكم به ﴿يَرُدُّوكُم على أعقابِكُم﴾ إلى الكُفر، ﴿فتَنقَلِبُوا خاسِرِينَ. بَلِ اللهُ مَولاكُم﴾: ناصركم، ﴿وهُوَ خَيرُ النّاصِرِينَ﴾. فأطيعوه دونهم. ١٥١ ـ ﴿سَنُلقِي في قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾، بسكُون العين وضمّها: الخوفَ ـ وقد عزموا بعد ارتحالهم من أُحُد على العَود واستئصال المسلمين، فرُعِبُوا ولم يرجِعوا ـ ﴿بِما أشرَكُوا﴾: بسبب إشراكهم ﴿بِاللهِ ما لَم يُنزِلْ بِهِ سُلطانًا﴾: حُجّة على عبادته ـ وهو الأصنام ـ ﴿ومأواهُمُ النّارُ، وبِئسَ مَثوَى﴾: مأوى ﴿الظّالِمِينَ﴾: الكافرين هي!

قولُه: (جُمُوعٌ) فالرِّبِّيُّ منسوبٌ إلى الرِّبَّةِ، وهي الجماعةُ[١]، وجُمعَ للمبالغةِ، أو معناهُ: ربَّانيُّونَ علماءُ أتقياءُ، أو عابدُونَ لربِّهِم، وهذا المعنى أظهرُ.

قولُه: (كَمَا فَعَلْتُم) فقالَ بعضُهم: ليتَ ابنَ أُبيٍّ يأخذُ لنا أماناً من أبي سفيانَ، وقالَ أناسٌ من المنافقينَ: لو كانَ نبيًّا لما قُتِلَ، ارجعُوا إلى إخوانِكُم ودينِكُم، فقالَ أنسُ بنُ النَّضرِ عمُّ أنسِ بن مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُما: يا قومُ! إن كانَ قُتِلَ محمَّدٌ فإنَّ ربَّ محمدٍ حيٌّ لا يموتُ، وما تصنعُونَ بالحياةِ بعدهُ، فقاتِلُوا على ما قاتلَ عليه، ثمَّ قال: اللَّهمَّ إنِّي أعتذرُ إليك ممَّا يقولُونَ، وأبرأُ منه، وشدَّ بسيفِهِ فقاتلَ حتَّى قُتِلَ[٢].

قولُه: (وَضَمِّهَا) للشَّاميِّ والكسائيِّ[٣].

قولُه: (هِيَ) أي: النَّارُ؛ مخصوصٌ بالذَّمِّ.

---

(١) انظر: «لسان العرب» (١/ ٤٠٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٧٩٤٣) بنحوه عن السدي مطولًا.

(٣) انظر «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٧)، و«حجة القراءات» (ص: ١٧٦).

١٥٢ ـ ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ إيّاكم بالنصر، ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾: تقتلونهم ﴿بِإِذْنِهِ﴾: بإرادته، ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُم﴾: جبُنتم عن القتال، ﴿وَتَنَازَعْتُم﴾: اختلفتم ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ أي: أمرِ النبيّ بِالمُقام في سفح الجبل للرمي ـ فقالَ بعضُكم: نَذهبُ فقد نُصِرَ أصحابنا. وبعضُكم: لا نُخالِفُ أمرَ النبيّ ـ ﴿وَعَصَيْتُم﴾ أمره فتركتم المركز لأجل الغنيمة ﴿مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم﴾ اللهُ ﴿مَّا تُحِبُّونَ﴾ من النصر. وجواب «إذا» دلّ عليه ما قبله أي: منعكم نصرَه ـ ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ فترك المركز للغنيمة، ......

قولُه: (إيَّاكُم) بتحتيَّةٍ مشدَّدةٍ: إشارةٌ إلى أنَّ المصدرَ مضافٌ إلى فاعلِهِ.

قولُه: (بالنَّصْرِ) أي: بشرطِ التَّقوى والصَّبرِ.

قولُه: (تَقْتُلُونَهُم) من حَسَّهُ: إذا أبطلَ حِسَّهُ؛ يعني: أوَّلَ الأمرِ يومَ أُحُدٍ.

قولُه: (وَبَعْضُكُم) عطفٌ على (بعضُكُم) فثبتَ مكانَهُ أميرُهم في نفرٍ دونَ العشرةِ، ونَفَرَ الباقُونَ للنَّهبِ، وهو المعنيُّ بقولِهِ: ﴿وَعَصَيْتُم﴾.

قولُه: (أَي: مَنَعَكُم نَصْرَهُ) أو: امتحنَكُم بالكسرِ ليتميَّزَ المؤمنُ والمنافقُ.

قولُه: (لِلغَنِيْمَةِ) نُقِلَ عن ابنِ مسعودٍ: ما كنتُ أظنُّ أنَّ أحداً من أصحابِ النَّبيِّ ﷺ يريدُ الدُّنيا حتَّى نزلت هذه الآيةُ[1]، وقالَ بعضُ العارفينَ: لا نظنُّ أنَّهُم كانُوا يريدُونَ الدُّنيا للدُّنيا، بل إنَّما كان بعضُهم يريدُ الدُّنيا للآخرةِ، وبعضُهم ما كانُوا يريدُونَها لها أيضاً، كما قالَ عيسى عليه السَّلامُ:

يـا طالـبَ الدُّنيـا لتبـرَّ تـرْكُكَ للدُّنيـا أبـرُّ[2]

ولمَّا سمعَ الشِّبليُّ هذهِ الآيةَ قال: آهِ، فأينَ من يريدُ اللهَ؟[3].

قلتُ: الجوابُ بلسانِ العبارةِ: أنَّ من يريدُ الآخرةَ شاملٌ لمن يريدُ اللهَ؛ لأنَّ بعضَهُم يريدُونَ الآخرةَ لها، وبعضَهُم يريدُونَها لما فيها من قرَّةِ أعينٍ، وبلسانِ الإشارةِ: أنَّ من يريدُ اللهَ ليس منكُم بل منَّا بل هو غائبٌ فانٍ من البينِ واصلٌ باقٍ بالعينِ، فلا يقالُ في حقِّهِ: أين؟ ولذا قال بعضُهم بلسانِ الفارسيِّ مضمونُه:

نحـنُ غبْنَـا عـنِ العَينِ وعُدِمْنَـا وفنِيْنَـا عـنِ البَيْـنِ
فـي طلَـبِ الحـيِّ الَّذي هــوَ حـيَـاةُ الـعَـيـنِ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مسنده» (٤٣٠)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٢٠٣)، والطبري في «تفسيره» (٨٠٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤٣٣٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٢٢٨).

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ٤٢٧) من قول سفيان الثوري، ولفظه: قال المسيح: إنما تطلب الدنيا لتبر فتركها أبر.

(٣) ذكره السلمي في «حقائق التفسير» (١/ ١٢٣).

﴿ومِنكُم مَن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ فثبَتَ به حتّى قُتل كعبد الله بن جُبير وأصحابه ـ ﴿ثُمَّ صَرَفَكُم﴾: عطفٌ على جواب «إذا» المُقدّر، ردَّكم بالهزيمة ﴿عَنهُم﴾ أي: الكُفّارِ، ﴿لِيَبتَلِيَكُم﴾: ليَمتحنكم فيَظهَرَ المخلصُ من غيره ـ ﴿ولَقَد عَفا عَنكُم﴾ ما ارتكبتموه. ﴿واللهُ ذُو فَضلٍ علَى المُؤمِنِينَ﴾ بالعفو ـ اذكروا

١٥٣ ـ ﴿إذ تُصعِدُونَ﴾: تُبعِدون في الأرض هاربين، ﴿ولا تَلوُونَ﴾: تُعَرِّجون ﴿علَى أحَدٍ، والرَّسُولُ يَدعُوكُم في أُخراكُم﴾ أي: من ورائكم، يقول: «إليَّ عِبادَ اللهِ، إليَّ عِبادَ اللهِ»، ﴿فأثابَكُم﴾: فجازاكم ﴿غَمًّا﴾ بالهزيمة ﴿بِغَمٍّ﴾: بسبب غمِّكم الرسولَ بالمُخالفة ـ وقيل: الباء بمعنى: على، أي: مُضاعَفًا، على غمِّ فَوتِ الغنيمة ـ ﴿لِكَيلا﴾، متعلّق بـ«عفا»، أو بـ «أثابكم» فـ«لا»: زائدة، ﴿تَحزَنُوا علَى ما فاتَكُم﴾ من الغنيمة ﴿ولا ما أصابَكُم﴾ من القتل والهزيمة. ﴿واللهُ خَبِيرٌ بِما تَعمَلُونَ﴾.

١٥٤ ـ ﴿ثُمَّ أنزَلَ علَيكُم مِن بَعدِ الغَمِّ أمَنَةً﴾: أمْنًا، ﴿نُعاسًا﴾: بدلٌ ﴿يَغشَى﴾ ـ بالياء والتاء ـ ﴿طائفَةً مِنكُم﴾ وهم المؤمنون، فكانوا يَميدون تحت الحَجَفِ وتسقط السيوف منهم، ﴿وطائفَةٌ قَد أهَمَّتهُم أنفُسُهُم﴾ أي: حَملتْهم على الهمّ، فلا رغبةَ لهم إلاّ نجاتُها ....

ولذا لم يخبرْ عنّا أحدٌ من السّالكينَ، ولا يشيرُ إلينا واحدٌ[1] من الطّالبينَ.

قالَ تعالى: (﴿عَلَى أَحَدٍ﴾) قُرِئَ بضمّتينِ[2].

قولُه: (إليَّ) أي: تعالَوا إليَّ عبادَ اللهِ.

قولُه: (والتّاءِ) أي: التّأنيثُ لحمزةَ والكِسائيِّ ردًّا على الأمَنَةِ، والباقُونَ بالتّذكيرِ ردًّا على النُّعاسِ[3].

قولُه: (يَمِيدُونَ) أي: يميلُونَ، كما في نسخةٍ.

قولُه: (الحَجَفِ) بفتحِ الحاءِ المهملةِ والجيمِ: التُّرُوسُ[4].

قولُه: (مِنْهُم) أي: من أيدِيهِم.

قولُه: (عَلَى الهَمِّ) أي: همِّ الهزيمةِ.

قولُه: (فَلا رَغْبَةَ لَهُم) أي: فلا مرغوبَ لتلك الطّائفةِ.

قولُه: (إلّا نَجَاتُهَا) بالرّفعِ؛ أي: نجاةُ أنفسِها.

---

(١) في (م): «أحد».

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ١٢٣) ونسبت للحسن، وجاءت عن عائشة وعن أبي بكر رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٧)، و«حجة القراءات» (ص: ١٧٦).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٧٩٨).

دُونَ النبيّ وأصحابه، فلم يناموا ـ وهم المنافقون ـ ﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ﴾ ظنًّا ﴿غَيرَ﴾ الظنّ ﴿الحَقِّ، ظَنَّ﴾ أي: كظنّ ﴿الجاهِلِيَّةِ﴾، حيث اعتقدوا أنّ النبيّ قُتل أو لا يُنصر، ﴿يَقُولُونَ: هَل﴾ ما ﴿لَنا مِنَ الأمرِ﴾ أي: النصرِ الذي وُعِدْناه ﴿مِن﴾: زائدةٌ ﴿شَيءٍ؟ ـ قُلْ﴾ لهم: ﴿إنَّ الأمرَ كُلَّهُ﴾ بالنصبِ: توكيدًا، والرفعِ: مبتدأ خبره: ﴿للهِ﴾ أي: القضاءَ له يفعل ما يشاء ـ ﴿يُخفُونَ في أنفُسِهِم ما لا يُبدُونَ﴾: يُظهرون ﴿لَكَ، يَقولُونَ﴾ بيانٌ لما قبله: ﴿لَو كانَ لَنا مِنَ الأمرِ شَيءٌ ما قُتِلنا هٰهُنا﴾ أي: لو كان الاختيار إلينا لم نخرج فلم نُقتل. لكن أُخرجنا كُرهًا.

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَو كُنتُم في بُيُوتِكُم﴾، وفيكم من كَتبَ اللهُ عليه القتل، ﴿لَبَرَزَ﴾: خرج ﴿الَّذِينَ كُتِبَ﴾: قُضِي ﴿عَلَيهِمِ القَتلُ﴾ منكم ﴿إلَى مَضاجِعِهِم﴾: مَصارعهم فيقتلوا، ولم يُنجهم قُعودُهم، لأنّ قضاءه ـ تعالى ـ كائن لا محالة، ﴿و﴾ فُعِل ما فُعِل بأُحُد، ﴿لِيَبتَلِيَ﴾: يَختبرَ ﴿اللهُ ما في صُدُورِكُم﴾: قُلوبكم من الإخلاص والنفاق، ﴿ولِيُمَحِّصَ﴾: يَميزَ ﴿ما في قُلُوبِكُم، واللهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾: بما في القُلوب، لا يخفى عليه شيء، وإنّما يَبتلي لِيُظهِر لِلناس.

١٥٥ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوا مِنكُم﴾ عن القتال ﴿يَومَ التَقَى الجَمعانِ﴾: جمعُ المسلمين وجمع الكافرين بأُحُد ـ وهم المسلمون..

قولُه: (دُوْنَ النَّبِيِّ... إلخ) أي: غير نجاتِهِم.

قولُه: (فَلَمْ يَنَامُوا) أي: الطَّائفةُ.

قولُه: (وَهُمُ المُنَافِقُونَ) ورئيسُهُم عبدُ اللهِ بن أُبيٍّ.

قولُه: (والرَّفْعِ) للبصريِّ[1].

قولُه: (مُبْتَدَأٌ) والجملةُ خبرُ إنَّ.

قولُه: (لا مَحَالَةَ) بالضمِّ والفتحِ.

قولُه: (يَخْتَبِرَ) ويُظهِرَ للنَّاسِ.

قولُه: (يُمَيِّزَ) ويكشفَ، أو يخلصَهُ ويطهِّرَهُ من الوسواسِ.

قولُه: (وَهُمْ) راجعٌ إلى: ﴿الَّذينَ تَوَلَّوا﴾.

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٧)، و«حجة القراءات» (ص: ١٧٧).

إلاّ اثني عشر رجلاً ـ ﴿إنّما استزَلّهُمُ﴾: أزلّهم ﴿الشّيطانُ﴾ بوسوسته، ﴿بِبَعضِ ما كَسَبُوا﴾ من الذُّنوب، وهو مُخالفة أمر الرسول، ﴿ولَقَد عَفا اللهُ عَنهُم. إنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ للمُؤمنين ﴿حَلِيمٌ﴾: لا يُعجّل على العُصاة.

١٥٦ ـ ﴿يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا، لا تَكُونُوا كالّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: المنافقين، ﴿وقالُوا لإخوانِهِم﴾ أي: في شأنهم، ﴿إذا ضَرَبُوا﴾: سافروا ﴿في الأرضِ﴾ فماتوا﴿أو كانُوا غُزًّى﴾: جمع غازٍ، فقُتلوا: ﴿لَو كانُوا عِندَنا ما ماتُوا، وما قُتِلُوا﴾. أي: لا تقولوا كقولهم، ﴿لِيَجعَلَ اللهُ ذلِكَ﴾ القول في عاقبة أمرهم ﴿حَسْرَةً في قُلُوبِهِم. واللهُ يُحيِي ويُمِيتُ﴾، فلا يمنع عن الموت قعودٌ، ﴿واللهُ بِما تَعمَلُونَ﴾ ـ بالتاء والياء ـ ﴿بَصِيرٌ﴾ فيُجازيكم به.

١٥٧ ـ ﴿ولَئِن﴾: لامُ قسم ﴿قُتِلتُم في سَبِيلِ اللهِ﴾ أيِ: الجِهاد، ﴿أو مُتُّم﴾ ـ.......................

قولُه: (إلّا اثنَي عَشَرَ) وقالَ البغويُّ[1]: إلّا ثلاثةَ عشرَ رجلاً، ستّةٌ من المهاجرينَ؛ وهم: أبو بكرٍ وعُمرُ وعليٌّ وطلحةُ وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ وسعدُ بنُ أبي وقّاصٍ.

قولُه: (أَزَلَّهم) هذا على أنَّ استزلَّ وأزلَّ بمعنًى، وقيل: طلبَ زلّتَهم، أو حملَهم على الزَّلّةِ.

قولُه: (وَهُو مُخَالَفَةُ أَمرِ النَّبِيِّ) يعني: بتركِ المركزِ، وقيل: بشؤمِ ذنوبِهم الّتي تقدَّمَت لهم؛ فإنَّ المعاصِي تجرُّ إلى المعاصِي كالطّاعةِ، قيلَ: الاستزلالُ ببعضِ المعاصي؛ فإنَّ البعضَ معفوٌّ، فلا تكونُ المعاقبةُ الدُّنيويّةِ إلّا لبعضٍ لم يعفُ عنهُ، ثمَّ عفَا عنهم وحطَّ عنهم التَّبعاتِ في الدُّنيا والآخرةِ.

قولُه: (جَمْعُ غَازٍ) فوزنُهُ فُعَّل كرُكّع جمعُ: راكعٍ، ويُكتَبُ بالياءِ، ونصبُهُ تقديريٌّ.

قولُه: (فِي عَاقِبَةِ أَمرِهِم) أشارَ إلى أنَّ اللّامَ للعاقبةِ، مثلُها في: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، و:

لِــدُوا للمــوتِ وابنُــوا للخــرابِ[2]

لكن على هذا: الأحسنُ أنّه متعلّقٌ بـ﴿قَالُوا﴾ المذكورِ، معناهُ: قالوا ذلك واعتَقدوا.

قولُه: (باليَاءِ) الغيبةُ لابن كثيرٍ وحمزةَ والكسائيِّ[3].

قولُه: (لَامُ قَسَمٍ) أي: موطِّئةٌ للقسمِ.

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٥٢٥).

(٢) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥١٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٢٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وساق الحديث، وفيه: وملك بباب آخر ينادي: يا بني آدم، فذكره، واللفظ لأبي الشيخ.

وهو ضعيف على ما في «الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة» للمصنف (ص: ٢٧٦).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٧)، و«حجة القراءات» (ص: ١٧٧).

بضم الميم وكسرها من: ماتَ يَموتُ ويَماتُ ـ أي: أتاكم الموت فيه، ﴿لَمَغفِرَةٌ﴾ كائنةٌ ﴿مِنَ اللهِ﴾ لذنوبكم ﴿ورَحْمَةٌ﴾ منه لكم على ذلك، واللام ومدخولها جواب القسم، وهو في موضع الفعل مبتدأ خبره: ﴿خَيْرٌ مِمَّا تَجمَعُونَ﴾ من الدنيا، بالتاء والياء، ١٥٨ ـ ﴿ ولَئِن﴾: لامُ قسم ﴿مُتُّم﴾، بالوجهين، ﴿أو قُتِلتُم﴾ في الجِهاد أو غيره ﴿لَإِلَى اللهِ﴾ لا غيرِه ﴿تُحشَرُونَ﴾ في الآخرة فيُجازيكم.

١٥٩ ـ ﴿فبِما﴾ ما: زائدةٌ ﴿رَحْمةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿لَهُم﴾: أي: سَهّلتَ أخلاقَك إذ خالفوك، ﴿ولَو كُنتَ فَظًّا﴾: سيّئ الخُلق ﴿غَلِيظَ القَلبِ﴾: جافيًا فأغلظت لهم ﴿لَانفَضُّوا﴾:.........

قولُه: (بضَمِّ المِيْمِ) لابنِ كثيرٍ وأبي عَمرٍو وابنِ عامرٍ وأبي بكرٍ، ووافقَهُم حفصٌ فيه وفيما بعدَهُ فقط[1].

قولُه: (مِنْ مَاتَ يَمُوتُ) فمَاتَ مفتوحُ العينِ[2]، نُقلَ إلى مضمومِها[3] كما في قلتُ، و(يماتُ) فالماضي مكسورُ العينِ[4] كخِفتُ.

قولُه: (فِيْهِ) أي: في سبيلِ اللهِ.

قولُه: (مِنْهُ) أي: من اللهِ.

قولُه: (جَوَابُ القَسَمِ) وهو سادٌّ مسدَّ الجزاءِ، والمعنى: أنَّ السَّفرَ والغزوَ[5] ليس ممَّا يجلبُ الموتَ ويقدِّمُ الأجلَ، ولو وقعَ الموتُ والقتلُ في سبيلِ اللهِ فما تنالُونَ من المغفرةِ والرَّحمةِ خيرٌ ممَّا تجمعونَ من الدُّنيا ومنافِعِها لو لم تموتُوا.

قولُه: (وَهُو فِي مَوْضِعِ الفِعْلِ) إشارةٌ إلى أنَّ الأصلَ في الجوابِ أن يكونَ فعلاً، ونظيرُهُ ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ [١٠٣] في البقرةِ، وتقدَّمَ تحقيقُهُ.

قولُه: (بالتَّاءِ واليَاءِ) الغيبة لحفصٍ[6].

قولُه: (لا غَيْرِهِ) الحصرُ مستفادٌ من تقديمِ الجارِّ.

قولُه: (﴿ما﴾) زائدةٌ للتَّأكيدِ.

قولُه: (جَافِياً) أي: مباعداً أو قاسياً.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٨)، و«حجة القراءات» (ص: ١٧٨).

(٢) لأن أصلها: (مَوَتَ).

(٣) أي: مضموم الفاء.

(٤) لأن أصلها: (مَوِتَ).

(٥) انظر: «جمهرة اللغة» (٢/ ٨٢٠).

(٦) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٨).

تفرّقوا ﴿مِن حَولِكَ. فاعفُ﴾: تجاوزْ ﴿عَنهُم﴾ ما أتوه، ﴿واستَغفِرْ لَهُم﴾ ذَنبَهم حتّى أغفِرَ لهم، ﴿وشاوِرْهُم﴾: استخرِجْ آراءهم ﴿في الأمرِ﴾ أي: شأنِك من الحرب وغيره، تَطييبًا لقلوبهم وليُستنّ بك ـ وكان ﷺ كثير المُشاورة لهم ـ ﴿فإذا عَزَمتَ﴾ على إمضاء ما تُريد بعد المُشاورة ﴿فتَوَكَّلْ علَى اللهِ﴾: ثِقْ به لا بالمُشاورة. ﴿إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه.

١٦٠ ـ ﴿إنْ يَنصُرْكُمُ اللهُ﴾: يُعِنْكم على عدوّكم كيوم بدر ﴿فلا غالِبَ لَكُم، وإنْ يَخذُلْكُم﴾: يَترك نصركم كيوم أُحُد ﴿فمَن ذا الَّذي يَنصُرُكُم مِن بَعدِهِ﴾ أي: بعدِ خِذلانه؟ أي: لا ناصرَ لكم. ﴿وعلَى اللهِ﴾ لا غيرِه ﴿فلْيَتَوَكَّلِ﴾: لِيَثِقِ ﴿المُؤمِنُونَ﴾.

ونزل لمّا فُقِدتْ قَطيفةٌ حمراء يومَ بدر، فقال بعضُ الناس: «لعلّ النبيَّ أخذَها»: ١٦١ ـ ﴿وما كانَ﴾: ما ينبغي ﴿لِنَبِيٍّ أنْ يَغُلَّ﴾: يخونَ في الغنيمة ـ فلا تظنّوا به ذلِك. وفي قراءة بالبناء للمفعول أي: يُنسبَ إلى الغُلول ـ ﴿ومَن يَغلُلْ يأتِ بِما غَلَّ يَومَ القِيامةِ﴾ حاملاً له على عُنقه، ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفسٍ﴾ الغالُّ وغيرُه جزاءَ ﴿ما كَسَبَتْ﴾: عملت، ﴿وهُم لا يُظلَمُونَ﴾ شيئًا.

١٦٢ ـ ﴿أفمَنِ اتَّبَعَ رِضوانَ اللهِ﴾، فأطاع ولم يَغُلّ، ﴿كَمَن باءَ﴾: رَجَع ﴿بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ﴾ لِمعصيته وغلوله، ﴿ومأواهُ جَهَنَّمُ، وبِئسَ المَصِيرُ﴾: المرجِعُ هي؟ لا ....

قولُه: (تَفرَّقُوا) عنك ولم يسكنُوا إليك.

قولُه: (تَجَاوَزْ) فيما يختصُّ بك من سوءِ أدبٍ.

قولُه: (ذَنْبَهُم) فيما للهِ.

قولُه: (يَتْرُكْ) بالياءِ التحتيَّةِ أو بالموحَّدةِ.

قولُه: (أي: بَعْدَ خِذْلانِهِ) أو من بعدِ اللهِ؛ أي: غيرُهُ.

قولُه: (بَعْضُ النَّاسِ) أي: بعضُ المنافقينَ.

قولُه: (مَا يَنْبَغِي) أي: ما يجوزُ ولا يصحُّ، بل ولا يمكنُ.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ والشَّاميِّ وحمزةَ والكسائيِّ[1].

قولُه: (شَيْئًا) من زيادةِ عذابٍ أو نقصِ ثوابٍ.

قولُه: (هِيَ) أي: جهنَّمُ.

قولُه: (لا) أي: لا يستويانِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٨)، و«حجة القراءات» (ص: ١٧٩).

١٦٣ ـ ﴿هُم دَرَجاتٌ﴾ أي: أصحابُ درجاتٍ ﴿عِندَ اللهِ﴾ أي: مختلفو المنازل، فلِمَن اتّبع رضوانه الثوابُ، ولِمَن باء بسَخَطه العِقابُ، ﴿واللهُ بَصِيرٌ بِما يَعمَلُونَ﴾ فيُجازيهم به.

١٦٤ ـ ﴿لَقَد مَنَّ اللهُ علَى المُؤمِنِينَ إذ بَعَثَ فِيهِم رَسُولاً مِن أنفُسِهِم﴾ أي: عربيًّا مِثلَهم، ليفهموا عنه ويَشرُفوا به، لا مَلَكًا ولاعَجميًّا، ﴿يَتلُو علَيهِم آياتِهِ﴾: القرآنَ، ﴿ويُزَكِّيهِم﴾: يُطهّرهم من الذّنوب، ﴿ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ﴾: القرآنَ ﴿والحِكْمَةَ﴾: السُّنّةَ، ﴿وإنْ﴾ مُخففةٌ أي: إنّهم ﴿كانُوا مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِ بَعثه ﴿لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾: بيِّن.

١٦٥ ـ ﴿أوَلَمّا أصابَتكُم مُصِيبةٌ﴾ بأُحُد بقتل سبعين منكم، ﴿قَد أصَبتُم مِثلَيها﴾ ببدر بقتل سبعين وأسر سبعين منهم، ﴿قُلتُم﴾ مُتعجّبين: ﴿أنّى﴾: من أين لنا ﴿هذا﴾ الخِذلانُ، ونحن مسلمون، ورسول الله فينا؟ والجملة الأخيرة: محلّ الاستفهام الإنكاريّ. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿هُوَ مِن عِندِ أنفُسِكُم﴾ لأنكم تركتم المركز، فخُذِلتم..

قولُه: (أي: أَصْحَابُ دَرَجَاتٍ) يعني: ضميرُ (هم) لـ﴿مَنِ اتَّبعَ﴾ ولـ﴿مَنْ باءَ﴾، والمضافُ مقدَّرٌ، ففيه تغليبُ الدَّرجاتِ على الدَّركاتِ؛ أي: أنَّهم ذوو منازلَ متفاوتةٍ، وذوو أحوالٍ مختلفةٍ، وقيل: إنَّهُ تشبيهٌ بليغٌ؛ أي: أهلُ الخيرِ والشَّرِّ كدرجاتٍ في التَّفاوتِ.

قولُه: (عَرَبِيًّا) أو بشراً، وهو الأظهرُ لظاهرِ القرآنِ من تعميمِ المؤمنينَ.

قولُه: (ويَشْرُفُوا) بضمِّ الرَّاءِ؛ أي: يحصلَ لهم الشَّرفُ.

قولُه: (مِنَ الذُّنوبِ) ومن سائرِ العيوبِ الاعتقاديَّةِ والأخلاقِ الرَّديَّةِ.

قولُه: (مُخَفَّفَةٌ) من الثقيلةِ واللَّامُ هي الفارقةُ.

قولُه: (أي: إِنَّهُم) الظَّاهرُ: أنَّ الشَّأنَ.

قولُه: (بيِّنٌ) ظاهرٌ.

قولُه: (والجُملَةُ الأَخِيرَةُ) أي: ﴿قلتُم أنَّى هذا﴾، و﴿لمَّا﴾ حينيَّةٌ هنا، وتوهَّمَ صاحبُ «المغني»[1] في جعلِها جازمةً.

قولُه: (تَرَكْتُم المَرْكَزَ) وعن عليٍّ[2]: باختيارِكُمُ الفداءَ يومَ بدرٍ قبلَ أن يأذنَ لكم.

---

(١) لم أقف عليه في «مغني اللبيب».

(٢) لم أقف عليه هكذا، وإنما روى الترمذي (١٥٦٧)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٦٠٨)، والبزار في «مسنده» (٥٥١) عن علي: أن رسول الله ﷺ قال: «إن جبرائيل هبط عليه، فقال له: خيرهم ـ يعني: أصحابك ـ في أسارى بدر القتل أو الفداء على =

﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه النصرُ ومنعُه، وقد جازاكم بخِلافكم.

١٦٦ ـ ﴿وما أصابَكُم يَومَ التَقَى الجَمْعانِ﴾ بأُحُد ﴿فَبِإذنِ اللهِ﴾: بإرادته، ﴿وليَعلَمَ﴾ اللهُ عِلمَ ظُهورِ ﴿المُؤمِنِينَ﴾ حقًّا، ١٦٧ ـ ﴿وليَعلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا و﴾ الذين ﴿قِيلَ لَهُم﴾ لمّا انصرفوا عن القتال، وهم عبدالله بن أُبيّ وأصحابه: ﴿تَعالَوا قاتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ﴾ أعداءه، ﴿أوِ ادفَعُوا﴾ عنّا القوم بتكثير سُوادكم، إن لم تُقاتلوا. ﴿قالُوا: لَو نَعلَمُ﴾: نُحسِنُ ﴿قِتالاً لاتَّبَعْناكُم﴾.

قال تعالى تكذيبًا لهم: ﴿هُم لِلكُفرِ يَومَئذٍ أقرَبُ مِنهُم لِلإيمانِ﴾ بما أظهروا من خِذلانهم للمؤمنين، وكانوا قبلُ أقربَ إلى الإيمان من حيث الظاهرُ. ﴿يَقُولُونَ بِأفواهِهِم ما لَيسَ في قُلُوبِهِم﴾، ولو علموا قتالاً لم يتّبعوكم، ﴿واللهُ أعلَمُ بِما يَكتُمُونَ﴾ منَ النِّفاق، ١٦٨ ـ ﴿الَّذِينَ﴾: بدلٌ من «الذين» قبله أو نعت ﴿قالُوا لإخوانِهِم﴾ في الدِّين، ﴿و﴾ قد ﴿قَعَدُوا﴾ عن الجِهاد: ﴿لَو أطاعُونا﴾ أي: شُهداءُ أُحُد أو إخواننا، في القُعود ﴿ما قُتِلُوا. قُلْ﴾ لهم: ﴿فادرَؤُوا﴾: ادفعوا ﴿عَن أنفُسِكُمُ المَوتَ، إنْ كُنتُم صادِقِينَ﴾ في أن القعود يُنجي منه.

قولُه: (بِخِلافِكُم) أي: بمخالفتِكُم.

قولُه: (﴿و﴾الَّذِينَ) يعني: ﴿قِيلَ﴾ عطفٌ على: ﴿نَافَقُوا﴾ داخلٌ في الصِّلةِ، وقيل: كلامٌ مبتدأٌ، وهو الأظهرُ، والقائلُ ذلك عبدُ اللهِ والدُ جابرٍ، كذا في «المبهماتِ»(١).

قولُه: (وَهُم عَبدُ اللهِ) فيكونُ تخصيصاً بعد تعميمٍ.

قولُه: (عَنَّا) والأظهرُ: عن أنفسِكُم ولو لم تكونُوا مؤمنينَ؛ ليكون قولُه: (لو نحسنُ) جواباً شاملاً.

قولُه: (أَوْ نَعتٌ) لـ﴿الَّذينَ نافقُوا﴾ فيكونُ منصوباً على التَّبعيَّةِ، أو بدلٌ من واو ﴿يَكتُمُونَ﴾، أو نصبٌ أو رفعٌ على الذَّمِّ.

قولُه: (فِي الدِّينِ) أي: لأجلِهم، يريدُ من قُتِلَ يومَ أُحُدٍ مطلقاً، أو من أقاربِهِم، أو: قالُوا لإخوانِهِم من المنافقينَ، أو من جنسِهِم.

قولُه: (﴿وَ﴾قَدْ) أي: الواو للحالِ، و(قد) مقدَّرةٌ؛ أي: قالُوا قاعدِينَ.

قولُه: (فِي القُعُودِ) أو الانصرافِ، متعلِّقٌ بـ﴿أَطَاعُونَا﴾.

= أن يقتل منهم قابلاً مثلهم»، قالوا: الفداء ويقتل منا.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من حديث الثوري لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة.

(١) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٢٧).

ونزل في الشهداء: ١٦٩ ـ ﴿ولا تحسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ ـ بالتخفيف والتشديد ـ ﴿في سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: لأجل دِينه ﴿أمواتًا. بَل﴾ هم ﴿أحياءٌ عِندَ رَبِّهِم﴾ أرواحهم في حَواصلِ طُيور خُضر، تسرح في الجنَّة حيث شاءت كما ورد في حديث، ﴿يُرزَقُونَ﴾: يأكلون من ثِمار الجنّة، ١٧٠ ـ ﴿فَرِحِينَ﴾: حالٌ من ضمير «يُرزقون» ﴿بِماآتاهُمُ اللهُ مِن فَضلِهِ، و﴾ هم ﴿يَستَبشِرُونَ﴾: يفرحون ﴿بِالَّذِينَ لَم يَلحَقُوا بِهِم مِن خَلفِهِم﴾ من إخوانهم المؤمنين، ويُبدل من «الذين»: ﴿أنْ﴾ أي: بأن ﴿لا خَوفٌ عليهِم﴾ أي: الذين لم يلحقوا بهم، ﴿ولا هُم يَحزَنُونَ﴾ في الآخرة ـ المعنى: يفرحون بأمنهم وفرحهم ـ ١٧١ ـ ﴿يَستَبشِرُونَ بِنِعمَةٍ﴾: ثواب ﴿مِنَ اللهِ وفَضلٍ﴾:..

قولُه: (وَنَزَلَ) أي: نزلَتْ في شهداءِ أُحُدٍ، وهم سبعُونَ: أربعةٌ من المهاجرينَ، وسائرُهُم من الأنصارِ، كذا في «المبهماتِ»[١]، وقيل: في شهداءِ بدرٍ، والخطابُ للنَّبيِّ ﷺ أو لكلِّ أحدٍ، وقرأ هشامٌ بالياءِ بخلافٍ عنه[٢] على إسنادِهِ إلى ضميرِ الرَّسولِ، أو كلِّ من يحسبُ.

قولُه: (والتَّشْدِيدِ) للشَّاميِّ بكمالِهِ هنا، ولهشامٍ في قولِهِ: ﴿مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨] فيما سبقَ[٣].

قولُه: (لِأَجْلِ) ففي تعليليَّةٌ.

قولُه: (يَأْكُلُونَ) وهو تأكيدٌ لكونِهِم أحياءً.

قولُه: (يَفرَحُونَ ﴿بالَّذِينَ﴾) أي: بمجيئِهِم.

قولُه: (مِنْ إِخْوَانِهِم) أي: مِن خلفِهِم زماناً أو رتبةً.

قولُه: (ويُبْدَلُ) بدلَ اشتمالٍ، والمعنى: يستبشرُونَ بعدمِ الخوفِ والحزنِ على الَّذينَ خلفَهُم من المؤمنينَ، بشَّرهُمُ اللهُ بذلك.

قولُه: (أَنْ؛ أَي: بِأَنْ) فيه أنَّ نونَ (أن) غيرُ مرسومةٍ.

قولُه: (﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ﴾) الَّذي هو بيانٌ لقولِهِ: ﴿أَلَّا خَوفٌ﴾، ويجوزُ أن يكونَ الاستبشارُ الأوَّلُ بحالِ إخوانِهِم، وهذا بحالِ أنفسِهِم.

قولُه: (ثَوَابِ) كرَّرهُ للتَّوكيدِ وليتعلَّقَ به.

---

(١) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٢٧).

والأثر رواه سعيد بن منصور في «السنن» (٢٨٩٤) عن أبي الضحى.

(٢) انظر: «جامع البيان في القراءات السبع» (٣/ ٩٩٤).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٩١).

زيادةٍ عليه، ﴿وأنَّ﴾ ـ بالفتحِ عطفًا على «نعمة» والكسرِ استئنافًا ـ ﴿اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المُؤمِنِينَ﴾، بل يأجُرهم.

١٧٢ ـ ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ ﴿استَجابُوا لِلهِ والرَّسُولِ﴾ دُعاءه بالخُروج للقِتال لمّا أراد أبو سفيان وأصحابه العَودَ، وتواعدوا مع النبيّ سُوقَ بَدر العامَ المُقبل من يوم أُحُد، ﴿مِن بَعدِ ما أصابَهُمُ القَرحُ﴾ بأُحُد، وخبرُ المبتدأِ: ﴿لِلَّذِينَ أحسَنُوا مِنهُم﴾ بطاعته ﴿واتَّقَوا﴾ مُخالفَته ﴿أجرٌ عَظِيمٌ﴾ هو الجَنّة، ١٧٣ ـ ﴿الَّذِينَ﴾: بدلٌ من «الذين» قبله أو نعت ﴿قالَ لَهُمُ النّاسُ﴾ أي: نُعيم بن مسعود الأشجعيّ: ﴿إنَّ النّاسَ﴾: أبا سُفيان وأصحابه ﴿قَد جَمَعُوا لَكُم﴾ الجُموعَ لِيستأصلوكم. ﴿فاخشَوهُم﴾ ولا تأتوهم. ﴿فزادَهُم﴾ ذلك القولُ ﴿إيمانًا﴾: تصديقًا بالله ويقينًا، ﴿وقالُوا: حَسبُنا اللهُ﴾: كافِينا أمرَهم، ﴿ونِعمَ الوَكِيلُ﴾: المُفوَّضُ إليه الأمرُ هو! وخرجوا مع النبيّ فوافَوا سُوقَ بدر، وألقى الله الرُّعب في قلب أبي سفيان وأصحابه فلم يأتوا، وكان معهم تجارات، فباعوا وربحوا.

قولُه: (زِيَادَةٍ عَلَيهِ) كقولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وتنكيرُهما للتَّعظيمِ.

قولُه: (عَلَى نِعْمَةٍ) أي: استبشَرُوا لما عاينُوا من وفاءِ الموعودِ.

قولُه: (والكَسْرِ) للكسائيِّ(١).

قولُه: (اسْتِئْنَافاً) أو حالاً.

قولُه: (مُبْتَدَأٌ) أو صفةٌ للمؤمنينَ، أو بدلُ البعضِ، أو نصبٌ على المدحِ.

قولُه: (العَامَ) بالنَّصبِ على الظَّرفِ.

قولُه: (أَو نَعْتٌ) أو خبرٌ لمبتدأٍ مقدَّرٍ هو (هم)، أو نصبٌ أو رفعٌ على المدحِ.

قولُه: (الأَشْجَعِيُّ) أسلمَ يومَ الخندقِ، أو أُطلقَ عليهِ ﴿النَّاسُ﴾؛ لأنَّهُ من جنسِهِ، كما يقالُ: (فلانٌ يركبُ الخيلَ) وما له إلَّا فرسٌ واحدٌ، أو لأنَّهُ انضمَّ إليه ناسٌ من المدينةِ وأذاعُوا كلامَهُ، وقيل: الرَّكبُ الَّذين استقبلَهُم من عبدِ قيسٍ.

قولُه: (فَوَافَوا) بفتحِ الفاءِ؛ أي: وافقُوا وصادفُوا.

قولُه: (ورَبِحُوا) الدِّرهم درهمينِ، كذا في «المواهبِ»(٢).

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٩).

(٢) انظر: «المواهب اللدنية» (١/ ٢٧٧).

١٧٤ ـ قال الله تعالى: ﴿فانقَلَبُوا﴾: رجَعوا من بَدر، ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفَضلٍ﴾: بسلامة وربح، ﴿لَم يَمسَسْهُم سُوءٌ﴾ من قتل أو جَرح، ﴿واتَّبَعُوا رِضوانَ اللهِ﴾ بطاعته ورسولَه في الخُروج. ﴿واللهُ ذُو فَضلٍ عَظِيمٍ﴾ على أهل طاعته. ١٧٥ ـ ﴿إنَّما ذلِكُمُ﴾ أي: القائلُ لكم «إنّ الناس» إلى آخره ﴿الشَّيطانُ، يُخَوِّفُـ﴾ـكم ﴿أولياءَهُ﴾: الكُفّارَ. ﴿فلا تَخافُوهُم وخافُونِيَ﴾ في ترك أمري، ﴿إنْ كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾ حقًّا.

١٧٦ ـ ﴿ولا يُحزِنْكَ﴾ ـ بضمّ الياء وكسر الزاي، وبفتحها وضمّ الزاي من: حَزَنَه، لغةٌ في: أحزَنَه ـ ﴿الَّذِينَ يُسارِعُونَ في الكُفرِ﴾: يقعون فيه سريعًا بنُصرته ـ وهم أهل مكّة والمنافقون ـ أي: لا تَهتمَّ لكُفرهم. ﴿إنَّهُم لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيئًا﴾ بفِعلهم! وإنّما يضرّون أنفسَهم. ﴿يُرِيدُ اللهُ ألاّ يَجعَلَ لَهُم حَظًّا﴾: نصيبًا ﴿في الآخِرةِ﴾ أي: في الجنّة ـ فلذلك خذلهم ـ ﴿ولَهُم عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ في النار. ١٧٧ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ اشتَرَوُا الكُفرَ بِالإيمانِ﴾ أي: أخذوه بدَلَه ﴿لَن يَضُرُّوا اللهَ﴾ بكُفرهم ﴿شَيئًا! ولَهُم عَذابٌ ألِيمٌ﴾: مؤلم.

١٧٨ ـ ﴿ولا يَحسِبَنَّ﴾ ـ بالياء والتاء ـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أنَّ ما نُملِي﴾..........

قولُه: (يُخَوِّفُكُم) فـ﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾ مفعولٌ ثانٍ ليخوِّف، والأوّلُ محذوفٌ، ويدلُّ عليه قراءةُ أُبيِّ بن كعبٍ: ﴿يخوِّفُكم بأوليائِهِ﴾، كذا في «الوسيطِ»[1]؛ يعني: بإيهامِكُم أنَّهُم ذو قوَّةٍ وبأسٍ، يريدُ: أبا سفيانَ وأصحابَهُ، وقيل: يخوِّفُ أولياءَهُ القاعدينَ عن الخروجِ مع الرَّسولِ ﷺ، وهم المنافقُونَ.

قولُه: (في تَرْكِ أَمْرِي) أبو عَمرٍو يُثبِتُ ياءَ ﴿خَافُونِي﴾ وصلاً[2].

قولُه: (وَكَسْرِ الزَّايِ) لنافعٍ حيثُ جاءَ غير سورةِ الأنبياءِ[3].

قولُه: (فِيْهِ) الضَّميرُ في (فيهِ) و(نصرتِهِ) للكفرِ.

قولُه: (أَوِ المُنَافِقُونَ) أو قومٌ ارتدُّوا.

قولُه: (والتَّاءِ) الخطابُ لحمزةَ[4]، وأمَّا قولُ البيضاويِّ[5]: ـ قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو وعاصمٌ والكسائيُّ ويعقوبُ بالياءِ؛ أي: الغيبةِ ـ فخطأٌ؛ لأنَّ مفهومَهُ أنَّ الباقينَ كلَّهُم بالخطابِ، وهم نافعٌ وابنُ عامرٍ وحمزةُ،

---

(١) انظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (١/ ٥٢٤).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٢٣).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٩).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٢٠).

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (٢/ ٥٠).

أي: إملاءنا ﴿لَهُم﴾ بتطويل الأعمار وتأخيرهم ﴿خَيرٌ لِأنفُسِهِم﴾. و«أنّ» ومعمولاها سدّت مسدّ المفعولين في قراءة التحتانيّة ومسدّ الثاني في الأُخرى. ﴿إنَّما نُملِي﴾: نُمهل ﴿لَهُم لِيَزدادُوا إثمًا﴾ بكثرة المعاصي، ﴿ولَهُم عَذابٌ مُهِينٌ﴾: ذو إهانة في الآخرة.

١٧٩ ـ ﴿ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ﴾: ليترك ﴿المُؤمِنِينَ علَى ما أنتُم﴾ ـ أيُّها النّاس ـ ﴿علَيهِ﴾ من اختلاط المنافق بغيره، ﴿حَتَّى يَمِيزَ﴾، بالتخفيف والتشديد: يَفصِلَ ﴿الخَبِيثَ﴾: المُنافقَ ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾: المؤمنِ بالتكاليف الشاقّة المبيِّنة لذلك، ففعل ذلك يوم أُحُد، ﴿وما كانَ اللهُ لِيُطلِعَكُم علَى الغَيبِ﴾، فتعرفوا المُنافقَ من غيره قبل التمييز، ﴿ولكِنَّ اللهَ يَجتَبِي﴾: يختارُ ﴿مِن رُسُلِهِ مَن يَشاءُ﴾، فيُطلِعُه على غَيبه كما أَطلع النبيَّ على حال المُنافقين. ﴿فآمِنُوا باللهِ ورُسُلِهِ. وإنْ تُؤمِنُوا وتَتَّقُوا﴾ النفاق ﴿فلَكُم أجرٌ عَظِيمٌ﴾.

١٨٠ ـ ﴿ولا تَحسَبَنَّ﴾ ـ بالتاء والياء ـ ﴿الَّذِينَ يَبخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِن فَضلِهِ﴾ أي: بزكاته ﴿هُوَ﴾ أي: بُخلَهم ﴿خَيرًا لَهُم﴾: مفعول ثان والضمير للفصل، والأوّل «بُخلَهم» مقدّرًا ....

وليس الأمرُ كذلك كما صرَّحَ به الشَّاطبيُّ[1] و[ابن] الجزريِّ[2]، كذا الكلامُ في الموضعِ الآتي.

قولُه: (أي: إِمْلاءَنَا) أشارَ إلى أنَّ ما مصدريَّةٌ، وفي نسخةٍ: (أي: نمهلُ) إيماءً إلى معنى الإملاءِ[3].

قولُه: (وتَأْخِيرِهَا) وفي نسخةٍ: «وتأخيرِهِم».

قولُه: (والتَّشْدِيدِ) لحمزةَ والكسائيِّ[4].

قولُه: (والتَّاءِ) الخطابُ لحمزةَ[5].

قولُه: (بُخْلَهُم) أي: بخلَ الَّذين، وإنَّما قدَّرَهُ ليتطابقَ مفعولاهُ.

قولُه: (بُخْلَهُم مُقَدَّراً) فيه مسامحةٌ؛ إذ قبلَ الموصولِ (بخلَ) مقدَّرٌ لا (بخلَهم)، وأيضاً الأوَّلُ مذكورٌ، غايتُهُ أنَّهُ قدَّرَ المضافَ للتَّطابقِ؛ أي: ولا تحسبنَّ بخلَ الَّذين يبخلُونَ هو خيراً لهم.

---

(١) انظر: «حرز الأماني» (ص: ٤٦).

(٢) انظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٤٤).

(٣) في (ص): «الإجلاء».

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٢٠)، و«حجة القراءات» (ص: ١٨٢).

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٢٠)، و«حجة القراءات» (ص: ١٨٣).

قبل المَوصول على الفوقانيّة، وقبل الضمير على التحتانيّة. ﴿بَل هُوَ شَرٌّ لَهُم، سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ﴾ أي: بزكاته من المال ﴿يَومَ القِيامةِ﴾ بأن يُجعل حيّة في عُنقه تَنهشه كما ورد في الحديث، ﴿و للهِ ميراثُ السَّماواتِ والأرضِ﴾ يَرِثُهما بعد فناء أهلهما، ﴿واللهُ بِما تَعمَلُونَ﴾ ـ بالتاء والياء ـ ﴿خَبيرٌ﴾ فيُجازيكم به.

١٨١ ـ ﴿لَقَد سَمِعَ اللهُ قَولَ الَّذِينَ قالُوا: إنَّ اللهَ فَقِيرٌ، ونَحنُ أغنياءُ﴾، وهم اليهود قالوه لمّا نزل «مَن ذا الَّذِي يُقرِضُ اللهَ قَرضًا حَسَنًا»؟ وقالوا: لو كان غنيًّا ما استقرَضَنا. ﴿سَنَكتُبُ﴾: نأمر بكتب ﴿ما قالُوا﴾ في صحائف أعمالهم ليُجازَوا عليه ـ وفي قراءة بالياء مبنيًّا للمفعول ـ ﴿و﴾ نكتبُ ﴿قَتلَهُمُ﴾، بالنصب والرفع، ﴿الأنبياءَ بِغَيرِ حَقٍّ، ونَقُولُ﴾ بالنون، والياء أي: اللهُ لهم في الآخرة على لسان الملائكة: ﴿ذُوقُوا عَذابَ الحَرِيقِ﴾: النار. ويقال لهم إذا أُلقوا فيها: ١٨٢ ـ ﴿ذلِكَ﴾ العذاب ﴿بِما قَدَّمتْ أيدِيكُم﴾ ـ عُبّر بهما عن الإنسان لأنّ أكثر الأفعال ....

قولُه: (عَلَى الفَوقَانيَّةِ) وكذا من قرأ بالتَّحتانيَّةِ إن جعلَ الفاعلَ ضميراً لِلرسولِ، أو من يحسبُ، وإن جُعِلَ للمَوصُولِ كما اختارَهُ المصنِّفُ كان المفعولُ الأوَّلُ محذوفاً لدلالةِ يبخلونَ عليه؛ أي: ولا يحسبَنَّ البخلاءُ بخلَهُم هو خيراً لهم.

وقولُه تعالى: (﴿بَلْ هُوَ﴾) أي: البخلُ ﴿شَرٌّ لَهُمْ﴾ لاستجلابِ العقابِ عليهم، وبيانُهُ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾... إلخ.

قولُه: (بالياءِ) الغيبةُ مكّيٌّ وبصريٌّ[1].

قولُه: (فيُجَازِيْكُم) الأَولى: فيجازي، أو: فتُجازَونَ؛ لتعمَّ القراءتينِ.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ[2].

وقولُه: (﴿و﴾نَكْتُبُ) بالوجهينِ.

وقولُه: (بالنَّصبِ والرَّفعِ) لفٌّ ونشرٌ.

قولُه: (واليَاءِ) الغيبةُ لحمزةَ[3].

وقولُه: (أَي) بيانُ الفاعلِ على هذه القراءةِ.

قولُه: (بِهَا) وفي نسخةٍ: «بهِمَا».

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٢٠)، و«حجة القراءات» (ص: ١٨٤).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٢١)، و«حجة القراءات» (ص: ١٨٤).

(٣) انظر المصادر السابقة.

تُزاوَل بهما ـ ﴿وأنَّ اللهَ لَيسَ بِظَلاّمٍ﴾ أي: بذي ظُلم ﴿لِلعَبِيدِ﴾، فيُعذِّبهم بغير ذنب.

١٨٣ ـ ﴿الَّذِينَ﴾ نعتٌ لـ«الذين» قبله ﴿قالُوا﴾ لمحمّد: ﴿إنَّ اللهَ عَهِدَ إلَينا﴾ في التوراة ﴿ألاّ نُؤمِنَ لِرَسُولٍ﴾: نصدِّقَه، ﴿حَتَّى يأتِيَنا بِقُربانٍ تأكُلُهُ النّارُ﴾، فلا نُؤمنُ لك حتّى تأتينا به. وهو ما يُتقرَّبُ به إلى الله من نَعَمٍ وغيرِها. فإن قُبل جاءت نار بيضاء من السماء فأحرقته، وإلاّ بقي مكانه. وعَهِدَ إلى بني إسرائيل ذلك إلاّ في المسيح ومحمّد. قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم توبيخًا: ﴿قَد جاءَكُم رُسُلٌ مِن قَبلِي بِالبَيِّناتِ﴾: بالمُعجزات ﴿وبِالَّذِي قُلتُم﴾ كزكريّاء ويحيى، فقتلتموهم. والخِطاب لمن في زمن نبيّنا، وإن كان الفعل لأجدادهم لرضاهم به. ﴿فلِمَ قَتَلتُمُوهُم، إنْ كُنتُم صادِقِينَ﴾ في أنكم تؤمنون عند الإتيان به؟ ١٨٤ ـ ﴿فإنْ كَذَّبُوكَ فقَد كُذِّبَ رُسُلٌ مِن قَبلِكَ، جاؤُوا بالبَيِّناتِ﴾: المُعجزات ﴿والزُّبُرِ﴾ كصُحف إبراهيم ﴿والكِتابِ﴾ ـ وفي قراءة بإثبات الباء فيهما ـ ﴿المُنِيرِ﴾: الواضح ـ هو التوراة والإنجيل ـ فاصبرْ كما صبروا.

١٨٥ ـ ﴿كُلُّ نَفسٍ ذائقةُ المَوتِ، وإنَّما تُوَفَّونَ أُجُورَكُم﴾: جزاءَ أعمالكم ﴿يَومَ القِيامةِ. فمَن زُحزِحَ﴾: بُعِّدَ ﴿عَنِ النّارِ وأُدخِلَ الجَنّةَ فقَد فازَ﴾: نال غاية مطلوبه، ﴿وما الحَياةُ الدُّنيا﴾ أيِ: العيشُ فيها ﴿إلاّ مَتاعُ الغُرُورِ﴾: الباطلِ، يُتمتّع به قليلاً ثم يفنى.

قولُه: (تُتَداوَلُ) وفي نسخةٍ: «تُزاوَلُ».

قولُه: (بِذِي ظُلْمٍ) فالتَّشديدُ ليس للمبالغةِ بل للنِّسبةِ كتمَّارٍ، وقيل: لمقابلةِ الجمعِ بالجمعِ، وقيل: للمبالغةِ في النَّفيِ، وقيل: إشارةٌ إلى أنَّه لو كانَ يتصوَّرُ وجودُ الظُّلمِ في حقِّهِ لكان ظَلّاماً؛ لأنَّ أوصافَه كلَّها إنَّما تكونُ بصيغةِ الكمالِ.

قولُه: (فيُعَذِّبَهُم بِغَيرِ ذَنْبٍ) إذ الظُّلمُ وضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعِهِ، وأمَّا الظُّلمُ بمعنى التَّصرُّفِ في ملكِ الغيرِ فلا يُتصوَّرُ في حقِّهِ تعالى.

قولُه: (نَعْتٌ لـ: الَّذِينَ قَبْلَهُ) أو مرفوعٌ أو منصوبٌ على الذَّمِّ؛ وهم اليهودُ.

قولُه: (وعَهِدَ...) إلخ، كلامُ المصنِّفِ لا من مقولِهِم، فتأمَّل.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لابنِ عامرٍ في الأوَّلِ، ولهشامٍ في الثَّاني[1].

قولُه: (جَزَاءَ أَعْمَالِكُم) جزاءً وافياً.

قولُه: (ثُمَّ يَفنَى) عن عليٍّ: أنت نعمَ الدَّارُ لمن لم يرضَ بك داراً[2].

---

(١) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ١٦٠).

(٢) لم أقف عليه.

١٨٦ ـ ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾، حُذف منه نونُ الرفع لتوالي النونات، والواوُ ضمير الجمع لالتقاء الساكنين: لتُختبَرُنَّ ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ بالفرائض فيها والجوائحِ ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالعبادات والبلاء، ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ اليهودِ والنصارى، ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ من العرب ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ من السبِّ والطعن والتشبيب بنسائكم. ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ على ذلك ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: من مَعزوماتها التي يُعزَم عليها لوجوبها.

١٨٧ ـ ﴿وَ﴾ اذكرْ ﴿إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: العهدَ عليهم في التوراة، ﴿لَيُبَيِّنُنَّهُ﴾ أي: الكتابَ ﴿لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ﴾ ـ بالياء والتاء في الفعلين ـ ﴿فَنَبَذُوهُ﴾: طرحوا المِيثاق ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فلم يعملوا به، ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ﴾: أخذوا بدَله ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الدنيا من سَفِلتهم برياستهم في العلم، فكتموه خوفَ فَوتِه عليهم. ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾: شراؤهم هذا!

١٨٨ ـ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ ـ بالتاء والياء ـ ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا﴾: فَعلوا من إضلال الناس، ﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ من التمسّك بالحقّ، وهم على ضلال، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ ـ بالوجهين تأكيدٌ ـ ﴿بِمَفَازَةٍ﴾: بمكانٍ ينجُون فيه ﴿مِّنَ الْعَذَابِ﴾ في الآخرة، بل هم في مكان يُعذَّبون فيه وهو جهنّم....

قولُه: (نُونُ الرَّفعِ) أصلُهُ: لتبلوونَنَّ.

وقولُه: (والوَاوُ) عطف على (نون)؛ أي: وحُذِفَ الواوُ الَّذي هو ضميرُ الجمعِ.

قولُه: (والتَّشبِيبِ) أي: الغزلِ.

قولُه: (باليَاءِ) الغيبةُ لمكيٍّ وبصريٍّ وشعبةَ[1].

قولُه: (والتَّاءِ) الخطابُ للكوفيِّ[2].

قولُه: (بالوَجْهَينِ) ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو بياءِ الغيبةِ مع ضمِّ الباءِ[3].

قولُه: (تَأكِيدٌ) للأوَّلِ.

قولُه: (بمَكَانٍ) الأظهرُ: أنّه مصدرٌ ميميٌّ بمعنى الفاعلِ، ثاني مفعولَي ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ أي: لا يحسبنَّ الَّذين يفرحونَ فائزِينَ بالنَّجاةِ من العذابِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٢١)، و«حجة القراءات» (ص: ١٨٥).

(٢) أي: ﴿لا تحسبن﴾، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٢٠)، و«حجة القراءات» (ص: ١٨٦).

(٣) أي: ﴿يحسبنهم﴾ انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٩)، و«حجة القراءات» (ص: ١٨٧).

﴿ولَهُم عَذابٌ أَلِيمٌ﴾: مؤلم فيها ـ ومفعولا «يحسب» الأُولى دلّ عليهما مفعولا الثانية على قراءة التحتانيّة، وعلى الفوقانية حُذف الثاني فقط ـ ١٨٩ ـ ﴿و للهِ مُلكُ السَّماواتِ والأرضِ﴾: خزائنِ المطر والرزق والنبات وغيرها، ﴿واللهُ علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾، ومنه تعذيب الكافرين وانجاء المؤمنين.

١٩٠ ـ ﴿إنَّ في خَلقِ السَّماواتِ والأرضِ﴾ وما فيهما من العجائب، ﴿واختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ﴾ بالمجيء والذَّهاب والزِّيادة والنُّقصان، ﴿لآيَاتٍ﴾: دلالات على قدرته ـ تعالى ـ ﴿لِأُولِي الألبابِ﴾: لذوي العُقول، ١٩١ ـ ﴿الَّذِينَ﴾: نعتٌ لما قبله أو بدل ﴿يَذكُرُونَ اللهَ قِيامًا وقُعُودًا وعلَى جُنُوبِهِم﴾: مُضطجعِين، أي: في كلّ حال ـ وعن ابن عبّاس: يُصلّون كذلك حَسَبَ الطاقة ـ ﴿ويَتَفَكَّرُونَ في خَلقِ السَّماواتِ والأرضِ﴾، ليستدلّوا به على قُدرة صانعهما، يقولون:

١٩٢ ـ ﴿رَبَّنا، ما خَلَقتَ هذا﴾ الخلقَ الذي نراه ﴿باطِلاً﴾: حالٌ، عَبثًا بل دليلاً على كمال قُدرتك. ﴿سُبحانَكَ﴾: تنزيهًا لك عن العبث! ﴿فقِنا عَذابَ النّارِ. رَبَّنا، إنَّكَ مَن تُدخِلِ النّارَ﴾ للخُلود فيها ﴿فقَد أخزَيتَهُ﴾: أهنته، ﴿وما لِلظّالِمِينَ﴾: الكافرين ـ فيه وضع الظاهر موضعَ المُضمر..........

قولُه: (يَحْسبُ الأُوْلَى) أي: الكلمةِ الأولى.

قولُه: (والنُّقصَانِ) والنُّورِ والظُّلمةِ.

قولُه: (أَو بَدَلٌ) أو مدحٌ مرفوعٌ أو منصوبٌ.

قولُه: (مُضطَجِعِينَ) يعني: ﴿قياماً﴾ مصدرٌ بمعنى الفاعلِ ﴿وَقُعُودًا﴾، يحتملُ أن يكون جمعُ قاعدٍ ﴿وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ بمعنى: مضطجعينَ عطفٌ على: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا﴾.

قولُه: (لِيَسْتَدِلُّوا...) إلخ، وعن النَّبيِّ ﷺ: «ويلٌ لِمَنْ قرأَهَا ولم يتفكَّرْ» رواهُ ابنُ مردويه وابنُ حبَّانَ في «صحيحِهِ»[1].

قولُه: (يَقُولُونَ) أو قائلينَ.

قولُه: (حَالٌ) من ﴿هذا﴾، أو صفةُ مصدرٍ محذوفٍ.

قولُه: (تَنْزِيهاً) أي: أنزِّهُ.

قولُه: (عَنِ العَبَثِ) وخلقِ الباطلِ، وهو اعتراضٌ.

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

إشعارًا بتخصيص الخِزي بهم ـ ﴿مِن﴾: زائدةٌ ﴿أنصارٍ﴾: يمنعونهم من عذاب الله.

١٩٣ ـ ﴿رَبَّنا، إنَّنا سَمِعْنا مُنادِيًا يُنادِي﴾: يدعو الناسَ ﴿لِلإيمانِ﴾ أي: إليه ـ وهو مُحمّد أو القُرآن ـ ﴿أنْ﴾ أي: بأن ﴿آمِنُوا بِرَبِّكُم. فآمَنّا﴾ به. ﴿رَبَّنا، فاغفِرْ لَنا ذُنُوبَنا، وكَفِّرْ﴾: غَطِّ ﴿عَنّا سَيِّئاتِنا﴾ فلا تُظهِرْها بالعِقاب عليها، ﴿وتَوَفَّنا﴾: اقبِض أرواحنا ﴿مَعَ﴾: في جُملة ﴿الأبرارِ﴾: الأنبياء والصالحين

ـ ١٩٤ ـ ﴿رَبَّنا ـ وآتِنا﴾: أعطِنا ﴿ما وَعَدْتَنا﴾ به ﴿عَلَى﴾ ألسنة ﴿رُسُلِكَ﴾ من الرحمة والفضل ـ وسُؤالُهم ذلك، وإن كان وعدُه ـ تعالى ـ لايُخلَف، سؤالُ أن يجعلهم من مُستحِقّيه لأنهم لم يتيقّنوا استحقاقهم له، وتكرير «ربّنا» مبالغةٌ في التضرّع ـ ﴿ولا تُخزِنا يَومَ القِيامةِ. إنَّكَ لا تُخلِفُ المِيعادَ﴾: الوعدَ بالبعث والجزاء.

١٩٥ ـ ﴿فاستَجابَ لَهُم رَبُّهُم﴾ دُعاءهم ﴿أنّي﴾ أي: بأني ﴿لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنكُم مِن ذَكَرٍ أو أُنثَى. بَعضُكُم﴾ كائنٌ ﴿مِن بَعضٍ﴾، أي: الذكور من الإناث وبالعكس........................

قولُه: (إِشْعَاراً بتَخْصِيصِ الخِزْيِ) وفي هذا دليلٌ على أنَّ المرادَ بالدُّخولِ الخلودُ؛ لأنَّ للدَّاخِلينَ من المؤمنينَ أنصاراً أو شفعاءَ.

قولُه: (أي: إِلَيهِ) النِّداءُ والدُّعاءُ يُعدَّى بإلى واللَّامِ لتضمُّنِهما معنى الانتهاءِ والاختصاصِ.

قولُه: (أي: بأَنْ) أو أي: آمنوا.

قولُه: (بِهِ) أي: فامتثلْنَا.

قالَ تعالى: (﴿ذنوبَنَا﴾) كبائرنَا و(﴿سيئاتنا﴾) صغائرنَا.

قولُه: (والصَّالِحِينَ) وفيه تنبيهٌ على أنَّهم يحبُّونَ لقاءَ اللهِ، و«مَن أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءَهُ»[1]، والأبرارُ جمعُ: برٍّ أو بارٍّ.

قولُه: (﴿عَلَى﴾ أَلْسِنَةِ) أو على تصديقِ رسلكَ من الثَّوابِ.

قولُه: (وَتَكْرِيرُ ﴿رَبَّنَا﴾) في الآثارِ: من حزَبَهُ أمرٌ فقال خمسَ مرَّاتٍ: (ربَّنَا) أنجاهُ اللهُ ممَّا يخافُ[2].

قولُه: (دُعَاءَهُم) أشارَ إلى أنَّ المفعولَ محذوفٌ، وقالَ البيضاويُّ[3]: إلى طلبتِهِمْ، وهو أخصُّ من أجابَ، ويُعدَّى بنفسهِ واللَّامِ.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٨)، ومسلم (٢٦٨٦) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) رواه عمار الدهني كما في «الكشف والبيان» للثعلبي (٩/ ٥٦٩) عن جعفر الصادق.

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٢/ ٥٥).

والجملة: مؤكِّدة لِما قبلها، أي: هم سواء في المُجازاة بالأعمال وترك تضييعها. نزلتْ لمّا قالت أُمّ سَلَمَةَ: يا رسول الله، إنّي لا أسمع ذِكر النساء في الهجرة بشيء.

﴿فالَّذِينَ هاجَرُوا﴾ من مكّة إلى المدينة، ﴿وأُخرِجُوا مِن دِيارِهِم، وأُوذُوا في سَبِيلِي﴾: ديني، ﴿وقاتَلُوا﴾ الكُفّارَ، ﴿وقُتِلُوا﴾ - بالتخفيف والتشديد. وفي قراءة بتقديمه - ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنهُم سَيِّئاتِهِم﴾: أسترُها بالمغفرة، ﴿ولَأُدخِلَنَّهُم جَنّاتٍ تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ، ثَوابًا﴾: مصدرٌ من معنى: «لَأُكفرَنّ» مؤكِّد له ﴿مِن عِندِ اللهِ﴾. فيه التفات عن التكلّم. ﴿واللهُ عِندَهُ حُسنُ الثَّوابِ﴾: الجزاءِ.

ونزل لمّا قال المسلمون: «أعداءُ الله فيما نرى من الخير، ونحن في الجَهدِ»: ١٩٦ - ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: تصرُّفُهم ﴿في البِلادِ﴾ بالتجارة والكسب. ١٩٧ - هو ﴿مَتاعٌ قَلِيلٌ﴾ يتمتّعون به في الدنيا يسيرًا ويفنى، ﴿ثُمَّ مأواهُم جَهَنَّمُ، وبِئسَ المِهادُ﴾: الفِراشُ هي! ١٩٨ - ﴿لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوا رَبَّهُم لَهُم جَنّاتٌ، تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ، خالِدِينَ﴾ أي: مقدّرين الخلودَ ﴿فِيها، نُزُلًا﴾ هو ما يُعَدّ للضيف - ونصبُهُ على الحال من «جنّات» والعاملُ فيها معنى الظرف - ﴿مِن عِندِ اللهِ، وما عِندَ اللهِ﴾،...

قولُه: (والتَّشدِيدِ) للمكّيِّ والشّاميِّ[1] للتّكثيرِ.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكسائيِّ[2].

وقولُه: (بتَقْدِيمِه) أي: بتقديمِ ﴿قُتِلُوا﴾ على ﴿قَاتَلُوا﴾؛ لأنَّ الواو لا تُوجِبُ ترتيباً، أو لأنَّ المرادَ: لمّا قُتِلَ منهم قومٌ قاتلَ الباقونَ ولم يضعفُوا.

قولُه: (مُؤَكِّدٌ لَهُ) أي: لأُثيبَنَّهم بذلك إثابةً تفضُّلاً.

قولُه: (عن التَّكَلُّمِ) أي: إلى الغيبةِ، بل فيه وضْعُ الظَّاهرِ موضعَ المضمرِ.

قولُه: (هُوَ) أي: تصرُّفُهم، فـ﴿مَتَاعٌ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ.

قولُه: (ويَفْنَى) أي: ذلك التَّقلُّبُ، ﴿فهو متاعٌ قليلٌ﴾ لقصرِ مدَّتِهِ، أو في جنبِ ما أعدَّ اللهُ للمؤمنينَ.

قولُه: (والعَامِلُ فِيهِ مَعنَى الظَّرْفِ) لأنَّ ﴿جَنَّاتٌ﴾ فاعلُ الظَّرفِ لاعتمادِهِ على المبتدأِ، وإن جُعِلَت ﴿جَنَّاتٌ﴾ مبتدأً والظَّرفُ خبراً مقدَّماً، فهو حالٌ من الضَّميرِ الَّذي في الظَّرفِ، وقيل: إنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ، والتَّقديرُ: أُنزِلوها نُزُلاً.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٢١).

(٢) انظر المصدر السابق.

من الثواب، ﴿خَيْرٌ لِلأبرارِ﴾ من متاع الدنيا.

١٩٩ - ﴿وإنَّ مِن أهلِ الكِتابِ لَمَن يُؤمِنُ باللهِ﴾ كعبدالله بن سلام وأصحابه والنجاشيّ ﴿وما أُنزِلَ إلَيكُم﴾ أي: القرآنِ، ﴿وما أُنزِلَ إلَيهِم﴾ أي: التوراةِ والإنجيل، ﴿خاشِعِينَ﴾: حالٌ من ضمير «يؤمن» مُراعًى فيه معنى «مَن» أي: مُتواضعين ﴿للهِ، لا يَشتَرُونَ بِآياتِ اللهِ﴾ التي عندهم في التوراة والإنجيل من نعت النبيّ ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من الدنيا بأن يكتموها خوفًا على الرياسة كفِعل غيرهم من اليهود. ﴿أُولئِكَ لَهُم أجرُهُم﴾: ثوابُ أعمالهم ﴿عِندَ رَبِّهِم﴾، يُؤتَونه مرّتين كما في «القَصص». ﴿إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ﴾ يحاسب الخلق في قدْر نصف نهار من أيّام الدنيا.

٢٠٠ - ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، اصبِرُوا﴾ على الطاعات والمصائب وعن المعاصي، ﴿وصابِرُوا﴾ الكُفّارَ فلا يكونوا أشدّ صبرًا منكم، ﴿ورابِطُوا﴾: أقيموا على الجِهاد، ﴿واتَّقُوا اللهَ﴾ في جميع أحوالكم، ﴿لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ﴾: تَفوزون بالجنّة وتنجون من النار.

قولُه: (مِنَ الثَّوابِ ﴿خَيْرٌ﴾) أي: لكثرتِه ودوامِه.

قولُه: (مِن مَتَاعِ الدُّنيَا) الَّتي يتقلَّبُ فيها الفجّارُ لقلَّةِ بقائِها وكثرةِ عنائِها وسرعةِ فنائِها وخسَّةِ شركائِهَا.

قولُه: (كَمَا فِي القَصَصِ) أي: سورتِهِ؛ وهو قولُه: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤].

قولُه: (أَي: أَقِيمُوا عَلَى الجِهَادِ) في منازلِ السَّائرينَ: اصبِرُوا في البليَّةِ، وصابِرُوا عن المعصيةِ، ورابِطُوا[١] في الطَّاعةِ[٢]، وقيل: اصبِرُوا على بلائِي، وصابِروا على نعمائِي، ورابِطُوا في دارِ أعدائِي، واتَّقوا محبَّةَ سوائِي[٣]، واللهُ أعلمُ.

***

(١) قوله: «على الجهاد في منازل السائرين اصبروا في البلية وصابروا عن المعصية ورابطوا»: ليس في (د).

(٢) انظر: «منازل السائرين» (ص: ٥٠).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٩).

سورة آل عمران

وهي مئتا آية.

أخرج ابنُ الضُّريس والنحاس والبيهقيُّ من طرقٍ عن ابن عباس ﵄ أنها نزلت بالمدينة[1]، واسمها في التوراة ـ كما روى سعيد بن منصور[2] ـ طيبة. وفي «صحيح مسلم» تسميتُها والبقرةَ الزهراوين[3].

وتسمَّى الأمان والكنز والمُغنية والمجادلة وسورة الاستغفار.

ووجه مناسبتها لتلك السورة: أن كثيراً من مُجمَلاتها تُشرح بما في هذه السورة، وأن سورة البقرة بمنزلة إقامة الحجَّة وهذه بمنزلة إزالة الشبهة؛ ولهذا تكرَّر فيها ما يتعلَّق بالمقصود الذي هو بيان حقِّيَّة الكتاب من إنزال الكتاب وتصديقه للكتب قبله والهدى إلى الصراط المستقيم.

وتكرَّرت آية ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ﴾ [البقرة: ١٣٦] بكمالها ولذلك ذكر في هذه ما هو تالٍ لِمَا ذكر في تلك، أو لازمٌ له، فذكر هناك خلقَ الناس، وذكر هنا تصويرَهم في الأرحام. وذكر هناك مبدأ خَلْق آدم، وذكر هنا مبدأ خلق أولاده. وألطفُ من ذلك أنه افتتح البقرةَ بقصة آدم وخلقِه من ترابٍ ولا أمٍّ، وذكر في هذه نظيرَه في الخلق من غير أبٍ وهو عيسى، ولذلك ضرب له المثلَ بآدم.

واختصَّت البقرة بآدم لأنها أول السُّور، وهو أول في الوجود وسابقٌ، ولأنها الأصل، وهذه كالفرع والتتمةِ لها فاختصَّت بالأغرب، ولأنها خِطاب لليهود الذين قالوا في مريم ما قالوا، وأنكروا وجودَ ولدٍ بلا أب، ففُوتحوا بقصة آدم لتَثْبُتَ في

(١) فضائل القرآن لابن الضُّريس ص٣٤، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٣٣٩.
(٢) في سننه (٥٥٣ - تفسير).
(٣) صحيح مسلم (٨٠٤)، وأخرجه أحمد (٢٢١٤٦)، وهو من حديث أبي أمامة ﵁.

أذهانهم، فلا تأتي قصة عيسى إلا وقد ذُكِر عندهم ما يشهَد لها من جنسها، ولأن قصة عيسى قِيست على قصة آدم، والمَقيسُ عليه لابد وأن يكون معلوماً لتتمَّ الحُجَّة بالقياس؛ فكانت قصة آدم والسورة التي هي فيها جديرةً بالتقديم.

وقد ذكر بعضُ المُحققين من وجوه التلازم بين السورتين: أنه قال في «البقرة» في صفة النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [الآية: ٢٤] مع افتتاحها بذكر المتَّقين والكافرين معاً، وقال في آخر هذه: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الآية: ١٣٣] فكأن السورتين بمنزلة سورةٍ واحدة.

وممَّا يقوِّي المناسبةَ والتلازُمَ بينهما: أن خاتمةَ هذه مناسِبةٌ لفاتحة تلك؛ لأن الأولى افتتحت بذكر المتَّقين وأنهم المفلحون، وختمت هذه بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الآية: ١٣٠]، وافتتحت الأولى بقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الآية: ٤] وخُتمت آل عمران بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [الآية: ١٩٩].

وقد ورَد أن اليهود قالوا لمَّا نزل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ الآية [البقرة: ٢٤٥]: يا محمد، افتقر ربُّك يسأل عبادَه القرضَ؟ فنزل ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١](١). وهذا مما يقوِّي التلازمَ أيضاً. ومثلُه أنه وقع في البقرة حكايةُ قول إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الآية: ١٢٩]، وهنا ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الآية: ١٦٤]، إلى غير ذلك.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾ قرأ أبو جعفر، والأعشى(٢) والبرجمي(٣)

---

(١) أخرجه الطبري ٦/ ٢٨٠ عن الحسن البصري وقتادة.

(٢) في الأصل: الأعمش، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في جامع البيان للداني ٢/ ٧٠. والأعشى: هو يعقوب بن محمد بن خليفة أبو يوسف التيمي الكوفي من أجل أصحاب أبي بكر شعبة. غاية النهاية ٢/ ٣٩٠.

(٣) عبد الحميد بن صالح بن عجلان التيمي، أبو صالح الكوفي، أخذ القراءة عن أبي بكر بن عياش، مات سنة (٢٣٠هـ). غاية النهاية ١/ ٣٦٠.

عن أبي بكر عن عاصم بسكون الميم وقطع الهمزة[1]، ولا إشكال فيها، لأن طريقَ التلفُّظ فيما لا تكون من هذه الفواتح مفردةً كـ ﴿ص﴾ ولا مُوازِنةً لمفردٍ كـ ﴿حم﴾ حسبما ذكر في «الكتاب»[2] الحكايةُ فقط ساكنة الأعجاز على الوقف، سواءٌ جُعلت أسماءً، أو مسرودةً على نمط التعديد، وإن لزمها التقاء الساكنين؛ لِما أنهُ مغتفَرٌ في باب الوقف قطعاً، ولذا ضُعِّفت قراءة عمرو بن عُبيد بكسر الميم[3].

والجمهور يفتحون الميم ويطرحون الهمزة من الاسم الكريم، قيل: وإنَّما فُتحت لإلقاء حركةِ الهمزة عليها ليدلَّ على أنَّها في حكم الثابت؛ لأنَّها أُسقطَت للتخفيف لا للدَّرْج، فإنَّ الميم في حكم الوقف كقوله: واحد اثنان[4]، لا لالتقاء الساكنَين كما قال سيبويه[5]؛ فإنَّه غيرُ محذورٍ في باب الوقف، ولذلك لم تحرَّك في «لام». وإلى ذلك ذهب الفرَّاء[6]. وفي «البحر»: أنَّه ضعيفٌ لإجماعهم على أنَّ الألف الموصولة في التعريف تسقط في الوصل، وما يسقطُ لا تُلْقَى حركته، كما قاله أبو علي[7].

وقولهم: إنَّ الميم في حكم الوقف وحركتُها حركة الإلقاء مخالفٌ لإجماع العرب والنحاة أنَّه لا يُوقَف على متحرِّكٍ البتة، سواء في ذلك حركةُ الإعراب والبناء والنقل والتقاء الساكنَين والحكاية والإتباع، فلا يجوز في ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ [المؤمنون: ١] إذا حذفتَ الهمزةَ ونقلتَ حركتَها إلى الدال أنْ تقفَ على دال «قد» بالفتحة، بل تُسكِّنها قولاً واحداً.

وأمَّا تنظيرهم بـ «واحد اثنان» بإلقاء حركة الهمزة على الدال، فإنَّ سيبويه[8] ذكر أنَّهم يُشِمُّون آخر «واحد» لتمكُّنه، ولم يحكِ الكسر لغةً، فإنْ صحَّ الكسرُ فليس «واحد» موقوفاً عليه كما زعموا، ولا حركته حركة نقلٍ من همزة الوصل، ولكنَّه

---

(١) وهي غير المشهورة عن أبي جعفر وعاصم.
(٢) ٤/ ١٥٣.
(٣) القراءات الشاذة ص١٩.
(٤) بإلقاء حركة الهمزة على الدال لتدل عليها. ينظر البحر ٢/ ٣٧٥.
(٥) في الكتاب ٤/ ١٥٣.
(٦) في معاني القرآن ١/ ٩.
(٧) في الحجة في القراءات السبعة ٣/ ٩.
(٨) في الكتاب ٣/ ٢٦٥.

موصولٌ بقولهم: اثنان فالتقى ساكنان: دالُ واحد وثاءُ اثنين، فكُسرت الدال لالتقائهما، وحُذفت الهمزة لأنَّها لا تثبت في الوصل.

وأمَّا قولهم: إنَّه غير محذورٍ في باب الوقف، ولذلك لم يحرّك في «لام».

فجوابه: أنَّ الذي قال: إنَّ الحركة لالتقاء الساكنَين، لم يُرِدْ بهما التقاءَ الياء والميم من «ألم» في الوقف، بل أراد الميم الأخير من «ألم» ولام التعريف، فهو كالتقاء نون «مِنْ» ولام الرَّجل، إذا قلت: مِنَ الرجل.

على أنَّ في قولهم تَدافُعاً؛ فإنَّ سكون آخر الميم إنَّما هو على نِيَّة الوقف عليها، وإلقاءُ حركة الهمزة عليها إنَّما هو على نية الوصل، ونيةُ الوصل توجبُ حذفَ الهمزة، ونيةُ الوقف على ما قبلها توجبُ ثباتَها وقَطْعَها، وهذا متناقضٌ[(١)].

ولذا قال الجاربردي[(٢)]: الوجه ما قاله سيبويه والكثيرُ من النُّحاة أنَّ تحريك الميم لالتقاء الساكنَين، واختيارُ الفتح لخفَّته وللمحافظة على تفخيم الاسم الجليل، واختار ذلك ابنُ الحاجب، وادَّعى أنَّ في مذهب الفرَّاء حملاً على الضعيف؛ لأنَّ إجراء الوصل مجرَى الوقف ليس بقويٍّ في اللغة.

وقال غير واحدٍ: لا بدَّ من القول بإجراء الوصل مجرى الوقف، والقولُ بأنَّه ضعيفٌ غيرُ مسلَّمٍ، ولئن سُلِّم فغيرُ ناهضٍ؛ لأنَّه قويٌّ فيما المطلوبُ منه الخفَّةُ كـ: ثلاثة أربعة، وهاهنا الاحتياج إلى التخفيف أمسُّ، ولهذا جعلوه من موجِبات الفتح، وإنَّما قيل ذلك لأنَّ هذه الأسماء من قَبِيلِ المُعْرَبات، وسكونُها سكونُ وقفٍ لا بناء، وحقُّها أنْ يوقفَ عليها، و«ألم» رأسُ آية، ثم إنْ جُعلت اسمَ السورة فالوقفُ عليها لأنَّها كلامٌ تامٌّ، وإنْ جُعلت على نمط التعديد لأسماء الحروف ـ إمَّا قرعاً للعصا أو مقدمةً لدلائل الإعجاز ـ فالواجب أيضاً القطعُ والابتداءُ بما بعدها؛ تفرقةً بينها وبين الكلام المستقِلِّ المفيد بنفسه.

---

(١) البحر ٢/ ٣٧٤ ـ ٣٧٦.

(٢) أحمد بن الحسن بن يوسف، التقى بالبيضاوي وأخذ عنه، له: شرح منهاج البيضاوي، وشرح تصريف ابن الحاجب، وحاشية على الكشاف، توفي سنة (٧٤٦هـ). طبقات الشافعية الكبرى ٩/ ٨، والدرر الكامنة ١/ ١٤٢.

فإذن القول بنقل الحركة هو المقبول؛ لأنَّ فيه إشعاراً بإبقاء أثرِ الهمزة المحذوفة للتخفيف المؤذِنِ بالابتداء والوقف، ولا كذلك القولُ بأنَّ الحركة لالتقاء الساكنين، وحيث كانت حركة الميم لغيرها كانت في حكم الوقف على السكون دون الحركة كما توهِّم؛ لئلَّا يلزم المحذُور[1].

وكلامُ الزمخشريِّ في هذا المقام مضطرب؛ ففي «الكشاف»[2] اختار مذهبَ الفرَّاء، وفي «المفصَّل» اختار مذهبَ سيبويه، ولعلَّ الأول مبنيٌّ على الاجتهاد، والثاني على التقليد والنقلِ لما في «الكتاب»؛ لأن «المفصَّل» مختصرُه، فتدبَّر.

وقد تقدَّم الكلام على ما يتعلَّق بالفواتح من حيث الإعرابُ وغيره، وفيه كفاية لمن أخذت العنايةُ بيده.

والاسم الجليل مبتدأٌ وما بعدَه خبرُه، والجملة مستأنفة، أي: هو المستحِقُّ للعبودية[3] لا غيره. و«الحيُّ القيوم» خبرٌ بعد خبر له، أو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، أي: هو الحيُّ القيوم لا غير، وقيل: هو صفةٌ للمبتدأ، أو بدلٌ منه، أو من الخبر الأول، أو هو الخبر وما قبله اعتراضٌ بين المبتدأ والخبر ومقرِّرٌ لما يُفيده الاسم الكريم، أو حالٌ منه على رأيِ مَن يَرَى صحة ذلك، وأيًّا ما كان فهو كالدليل على اختصاص استحقاقِ المعبوديَّة به سبحانه.

وقد أخرج الطبرانيُّ وابنُ مردويه من حديث أبي أمامة مرفوعاً: «إنَّ اسم الله الأعظمَ في ثلاث سُورٍ: سورةِ البقرة وآل عمران وطه» وقال أبو أمامة: فالتمستُها فوجدت في «البقرة»: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [الآية: ٢٥٥] وفي آل عمران ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [الآية: ٢] وفي طه: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾ [الآية: ١١١][4].

---

(١) في (م): المحذر.
(٢) ١/ ٤١٠.
(٣) في الأصل: للمعبودية.
(٤) المعجم الكبير (٧٧٥٨)، والأوسط (٨٣٦٧) دون قولِ أبي أمامة: فالتمستها...، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ١/ ٣٢٥، وعنه نقل المصنف، وعزاه لابن مردويه أيضاً ابن كثير عند تفسير آية الكرسي، ولكن نُسب فيه قول أبي أمامة عقب الحديث لهشام بن =

وقَرأ عمر وابن مسعود وأبيٌّ وعلقمة: «الحي القيَّام»[١]. وهذا ردٌّ على النصارى الزَّاعمين أنَّ عيسى عليه السلام كان ربًّا؛ فقد أخرج ابن إسحاق وابنُ جرير وابنُ المنذر[٢]، عن محمد بنِ جعفر بن الزبير قال: قدم على النبيِّ ﷺ وفدُ نجرانَ وكانوا ستِّينَ راكباً فيهم أربعةَ عشر رجلاً من أشرافهم، فكلَّم رسولَ الله ﷺ منهم أبو حارثةَ بنُ علقمة والعاقبُ وعبد المسيح[٣] والأيهم السيدُ، وهو[٤] من النصرانية على دين الملك مع اختلاف أمرهم، يقولون: هو الله، ويقولون: هو ولد الله؛ ويقولون: هو ثالثُ ثلاثة، كذلك[٥] قول النصرانية.

وهم يحتجُّون لقولهم، يقولون: هو الله؛ فإنَّه كان يُحيي الموتى، ويُبرئ الأسقام، ويُخبر بالغيوب، ويَخلُق من الطين كهيئة الطير فينفخُ فيه فيكونُ طيراً.

ويحتجُّون في قولهم: إنَّه ولد الله، بأنَّه لم يكن له أبٌ يُعلَم، وقد تكلَّم في المهد وصنَع ما لم يَصْنَعْه[٦] أحدٌ مِن ولد آدم قبلَه.

ويحتجُّون في قولهم: إنَّه ثالث ثلاثة، أنَّ الله تعالى يقول: فَعَلْنا، وأَمَرْنا، وخلَقنا، وقضَينا، فلو كان واحداً ما قال إلا: فعلتُ، وأمرتُ، وخلقتُ، وقضيتُ، ولكنَّه هو وعيسى ومريم، ففي كلٍّ ذلك من قولهم نزل القرآن، وذكر الله تعالى لنبيِّه ﷺ فيه قولهم.

= عمار أحد رجال الإسناد. وأخرج المرفوع أيضاً ابن ماجه (٣٨٥٦)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٧٦) و(١٧٧). وفي الباب عن أسماء بنت يزيد عند أحمد (٢٧٦١١)، وأبي داود (١٤٩٦)، والترمذي في (٣٤٧٨).

(١) القراءات الشاذة ص١٩، والمحتسب ١/ ١٥١، والبحر ٢/ ٣٧٧.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٥٧٣-٥٧٦، وتفسير الطبري ٥/ ١٧١-١٧٤، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٢/ ٣.

(٣) كذا في الأصل و(م) والدر، والذي في السيرة وتفسير الطبري: والعاقب عبد المسيح، وهو الصواب.

(٤) في السيرة: وهم.

(٥) في السيرة وتفسير الطبري: وكذلك.

(٦) جاء بدل قوله: وصنع مالم يصنعه أحد، في السيرة: وهذا لم يصنعه أحد، وفي تفسير الطبري: شيء لم يصنعه أحد، وفي الدر: شيئاً لم يصنعه أحد.

فلمَّا كلَّمه الحبران ـ وهما العاقِبُ والسيد، كما في رواية الكلبي والربيع عن أنس ـ قال لهما رسولُ الله ﷺ: «أسلِما» قالا: قد أسلمنا قبلك. قال: «كذبتما، منعكما من الإسلام دعاؤكما لله تعالى ولداً، وعبادتُكما الصَّليبَ، وأكْلُكما الخنزير» قالا: فَمَن أبوه يا محمد؟ فصمَت[1] فلم يُجب شيئاً، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم واختلافِ أمرِهم كلِّه صدرَ سورةِ آل عمران إلى بِضْعٍ وثمانينَ آيةً منها، فافتتح السورة بتنزيه نفسه مما قالوا، وتوحيدِهِ إيَّاها بالخلقِ والأمرِ، لا شريكَ له فيه، وردَّ عليهم ما ابتَدعوا من الكفر، وجعَلوا معه من الأنداد، واحتجَّ عليهم بقولهم في صاحبهم ليُعَرِّفَهم بذلك ضلالتَهم فقال: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ أي: ليس معه غيره شريك في أمره، «الحي» الذي لا يموت وقد مات عيسى عليه السلام في قولهم. «القيُّوم» القائم على سلطانه لا يزول، وقد زال عيسى.

وفي رواية ابنِ جرير عن الربيع قال: إنَّ النصارَى أتَوا رسولَ الله ﷺ، فخاصموه في عيسى ابن مريم وقالوا له: مَن أبوه؟ وقالوا على الله تعالى الكذبَ والبهتان. فقال لهم النبيُّ ﷺ «ألستُم تعلمون أنَّه لا يكونُ وَلَدٌ إلا وهو يُشْبِهُ أباه» قالوا: بلى. قال: «ألستمُ تعلمون أنَّ ربَّنا حيٌّ لا يموت، وأنَّ عيسى يأتي عليه الفناءُ؟» قالوا: بلى. قال: «ألستُم تعلمون أنَّ ربَّنا قيِّمٌ على كلِّ شيءٍ يَكْلَؤه ويحفظُه ويرزقهُ؟» قالوا: بلى. قال: «فهل يَملكُ عيسى من ذلك شيئاً؟» قالوا: لا. قال: «ألستُم تَعلمون أنَّ الله تعالى لا يخفَى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء؟» قالوا: بلى. قال: «فهل يَعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما عُلِّم؟» قالوا: لا. قال: «ألستُم تعلمون أنَّ ربَّنا صوَّر عيسى في الرَّحم كيف شاء، وأن ربَّنا لا يأكلُ الطعامَ ولا يشرب الشرابَ ولايُحدِثُ الحدثَ؟» قالوا: بلى. قال: «ألستُم تعلمون أنَّ عيسى حَمَلته أمُّه كما تحمل المرأةُ، ثم وضعتْه كما تَضع المرأةُ ولدها، ثم غُذِّي كما يغذَّى الصبيُّ، ثم كان يأكل الطعام ويشربُ الشرابَ ويُحدِث الحدث؟» قالوا: بلى. قال: «فكيف يكون هذا كما زعمتُم؟» فعرفوا ثم أبَوا إلا جحوداً، فأنزل: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[2].

---

(١) في الأصل و(م): وصمت، والمثبت من المصادر.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ١٧٤ ـ ١٧٥، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٢/ ٣.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآنَ الجامع للأصول والفروع، ولِمَا كان وما يكونُ إلى يوم القيامة. وفي التعبير عنه باسم الجنس إيذانٌ بتفوُّقه على بقيَّة الأفراد في الانطواء على كمالات الجنس، كأنَّه هو الحقيق بأن يُطلَق عليه اسمُ الكتاب دون ما عَداه، كما يلوِّح إليه التصريحُ باسم التوراة والإنجيل.

وفي الإتيان بالظرف، وتقديمِه على المفعول الصَّريح، واختيارِ ضميرِ الخطاب، وإيثار «على» على «إلى» ما لا يخفَى من تعظيمه ﷺ، والتنويهِ برفعة شأنه عليه الصلاة والسلام. والجملةُ إمَّا مستأنَفةٌ، أو خبرٌ آخَرُ للاسم الجليل، أو هي الخبر وما قبلُ كلُّه اعتراضٌ أو حال، و«الحيُّ القيوم» صفة أو بدل.

وقرأ الأعمش: «نَزَل» بالتخفيف، ورفع «الكتاب»[1]. والجملةُ حينئذ منقطعةٌ عمَّا قبلها، وقيل: متعلِّقة به بتقديرِ: مِن عندهِ.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصِّدق في أخباره، أو بالعدل كما نصَّ عليه الرَّاغب[2]، أو بما يحقِّق[3] أنَّه من عند الله تعالى مِن الحُجَج القطعية. وهو في موضع الحال، أي: متلبِّساً بالحقِّ، أو مُحِقّاً، وفي «البحر»: يحتمل أنْ تكونَ الباء للسببية، أي: بسبب إثبات الحق[4].

﴿مُصَدِّقًا﴾ حالٌ من الكتاب إثرَ حالٍ، أو بدلٌ من موضع الحال الأول، أو حالٌ من الضمير في المجرور، وعلى كلِّ حال فهي حالٌ مؤكِّدة.

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: الكتب السَّالفة، والظرفُ مفعولُ «مصدِّقاً»، واللامُ لتقوية العمل. وكيفيةُ تَصْديقِه لِمَا تقدَّم تقدَّمَت.

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ ذكرهما تعييناً لـ «ما بين يديه»، وتبييناً لِرفعة محلِّه، وبذلك[5] تأكيدٌ لِما قبلُ وتمهيدٌ لما بعدُ، ولم يذكر المنزَل عليه فيهما لأنَّ الكلام

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٩، والمحتسب ١/ ١٦٠.
(٢) في مفرداته (حقق).
(٣) في الأصل: تحقق.
(٤) البحر ٢/ ٣٧٧.
(٥) في (م): بذلك، والمثبت من الأصل وهو الصواب.

في الكتابَين لا فيمَن أنزلَا عليه. والتعبير بـ «أنزل» فيهما للإشارة إلى أنَّه لم يكن لهما إلا نزولٌ واحد، وهذا بخلاف القرآن فإنَّ له نزولَين: نزولٌ من اللوح المحفوظ إلى بيت العزَّة من سماء الدنيا جملةً واحدةً، ونزولٌ من ذلك إليه ﷺ منجَّماً في ثلاثٍ وعشرين سنةً على المشهور، ولهذا يقال فيه: «نزّل» و«أنزل»، وهذا أولَى مما قيل: إنَّ «نزّل» يقتضي التدريج، و«أنزل» يقتضي الإنزالَ الدَّفْعي؛ إذ يُشكل عليه: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]حيث قرن «نزّل» بكونه جملةً، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ١٤].

وذكرَ بعضُ المحققين لهذا المقام: أنَّ التدريج ليس هو التكثير، بل الفعل شيئاً فشيئاً كما في: تسلسَل، والألفاظ لا بدَّ فيها من ذلك، فصيغة «نزَّل» تدلُّ عليه، والإنزال مطلَقٌ، لكنَّه إذا قامت القرينة يُراد بالتدريج التنجيم، وبالإنزال الذي قد قُوبل به خلافُه أو المطلَق بحسب ما يقتضيه المقام.

واختلف في اشتقاق التوراة والإنجيل، فقيل: اشتقاق الأول من وَرِي الزنادُ: إذا قدَح فظهر منه النارُ؛ لأنَّها ضياء ونورٌ بالنسبة لِما عدَا القرآن، تَجلو ظلمةَ الضَّلال.

وقيل: من ورَّى في كلامه: إذا عرَّض؛ لأنَّ فيها رموزاً كثيرة وتلويحاتٍ جليلة.

ووزنها عند الخليل وسيبويه «فَوْعَلة» كـ: صَوْمَعة[1]، وأصلُه وَوْرَيَة بواوَين، فأُبدلَت الأولى تاء وتحرَّكت الياء وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً فصارت «توراة»، وكتبت بالياء تنبيهاً على الأصل، ولذلك أُميلت.

وقال الفرَّاء: وزنها «تَفعِلة» بكسر العين، فأبدلت الكسرة فتحة وقلبت الياء ألفاً، وفعل ذلك تخفيفاً كما قالوا في توصية: «توصاة».

واعترضه البصريون بأنَّ هذا البناء قليلٌ، وبأنَّه يَلْزمُ منه زيادةُ التاء أولاً، وهي لا تزاد كذلك إلا في مواضع ليس هذا منها. وذهب بعضُ الكوفيين إلى أنَّ وزنها «تَفْعَلة» بفتح العين، فقلبت الياء ألفاً.

---

(١) قولهما في البحر ٢/ ٣٧١، وحاشية الشهاب ٣/ ٣، والكلام منه.

وقيل: اشتقاق الثاني من «النَّجْل» بفتحٍ فسكون، وهو الماء الذي ينزُّ من الأرض، ومنه النَّجيل لما ينبت فيه، ويطلق على الوالد والولد، وهو أعرفُ، فهو ضدٌّ كما قاله الزجَّاج[١]، وهو من: نَجل بمعنى: ظَهَر، سمِّي به لأنَّه مستخرَجٌ من اللوح المحفوظ وظاهرٌ منه، أو من التوراة.

وقيل: من النَّجَل وهو التوسعة، ومنه: عينٌ نجلاء لسَعتها؛ لأنَّ فيه توسعةَ ما لم يكن في التوراة؛ إذ حُلِّل فيه بعضُ ما حُرِّم فيها.

وقيل: مشتقٌّ من التناجُل وهو التنازُع، يقال: تناجَل الناسُ: إذا تنازَعوا، وسمي به لكثرة التنازع فيه، كذا قيل.

ولا يخفى أنَّ أمرَ الاشتقاق والوزن على تقديرِ عربيةِ اللفظَين ظاهرٌ، وأمَّا على تقدير أنَّهما أعجميان أَولهُما عبرانيٌّ والآخرُ سريانيٌّ ـ وهو الظاهر ـ فلا معنًى له على الحقيقة؛ لأنَّ الاشتقاق من ألفاظٍ أُخَر أعجميةٍ مما لا مجال لإثباته، ومن ألفاظٍ عربية كما سمعت استنتاجٌ للضَّب من الحوت، فلم يبقَ إلا أنَّه بعد التعريب أجْرَوه مجرى أبنيتِهم في الزيادة والأصالة، وفرَضوا له أصلاً ليتعرَّف ذلك، كما أشَرنا إليه فيما قبلُ.

والاستدلالُ على عربيَّتِهما بدخول اللام ـ لأنَّ دخولها في الأعلام الأعجمية[٢] محلُّ نظر ـ محلُّ نظرٍ؛ لأنَّهم ألزموا بعضَ الأعلام الأعجمية الألفَ واللام علامةً للتعريف، كما في: الإسكندرية، فإنَّ أبا زكريا التبريزيَّ قال[٣]: إنَّه لا يُستعمل بدونها مع الاتفاق على أعجميته. ومما يؤيِّد أعجمية «الإنجيل» ما روي عن الحسن أنَّه قرأه بفتح الهمزة[٤]. و«أَفعيل» ليس من أبنية العرب.

﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلِّق بـ «أنزل» أي: أنزلَهما من قبل تنزيل الكتاب، وقيل: من قبلك. والتصريحُ به مع ظهور الأمر للمبالغة في البيان، كذا قالوا برُمَّتهم.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وفي حاشية الشهاب ٣/ ٣ والكلام منه: الزجاجي.

(٢) في (م): العجمية.

(٣) قوله في حاشية الشهاب ٣/ ٣، والكلام الذي قبله منه.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٩، والمحتسب ١/ ١٥٢.

وأنا أقولُ: التصريحُ به للرَّمز إلى أنَّ إنزالهما متضمِّنٌ للإرهاص لبعثته ﷺ حيث قيَّد الإنزال المقيَّد بـ «مِن قبلُ» بقوله سبحانه: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أي: أنزلهما كذلك لأجل هداية الناس الذينَ أُنزلا عليهم إلى الحقِّ الذي من جملته الإيمانُ به ﷺ واتِّباعه حين يُبعث؛ لِمَا اشتمَلَتا عليه من البشارة به والحثِّ على طاعته عليه الصلاة والسلام، والهدايةُ بهما بعد نسخ أحكامهما بالقرآن إنَّما هي من هذا الوجه لا غير. والقولُ بأنَّه يُهتدَى بهما ـ أيضاً ـ فيما عدا الشرائع المنسوخة من الأمور التي يصدِّقها القرآن، ليس بشيء؛ لأنَّ الهداية إذ ذاك بالقرآن المصدِّق لا بهما، كما لا يخفى على المنصِف.

ويجوزُ أنْ ينتصب «هدى» على أنَّه حالٌ منهما، والإفرادُ لِمَا أنَّه مصدر، جُعِلا نفسَ الهدى مبالغةً، أو حُذفَ منه المضاف، أي: ذَوَي هدًى، وجعلُه حالاً من «الكتاب» مما لا ينبغي أنْ يُرتكبَ فيه.

﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أخرج عبد بن حميد عن قتادة[1] أنَّه القرآن فرَّق به بين الحقِّ والباطل، فأحلَّ فيه حلاله وحرَّم حرامه، وشَرَّعَ شرائعه وحدَّ حدوده، و[فرض فيه] فرائضه، وبيَّن به بيانه، وأمرَ بطاعته ونَهَى عن معصيته. وذُكِر بهذا العنوان بعد ذِكره باسم الجنس تعظيماً لشأنه ورفعاً لمكانه.

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير: أنَّه الفاصل بين الحقِّ والباطل فيما اختلَف فيه الأحزابُ مِن أمر عيسى عليه السلام وغيره[2]. وأُيِّد هذا بأنَّ صدر السورة ـ كما قدَّمنا ـ نزلَت في محاجَّة النصارَى للنبيِّ ﷺ في أمر أخيه عيسى عليه السلام. وعليه يكون المراد بـ «الفرقان» بعضَ القرآن، ولم يكتفِ باندراجه في ضمن الكلِّ اعتناءً به. ومثلُ هذا القول ما روي عن أبي عبد الله رضي الله عنه: أنَّ المراد به كلُّ آيةٍ مُحْكَمةٍ.

وقيل: المراد به جنسُ الكتب الإلهية، عبَّر عنها بوصفٍ شامل لما ذكر منها وما لم يُذكر، على طريق التتميم بالتعميم إثرَ تخصيصِ بعض مشاهيرها بالذِّكر.

---

(١) كما في الدر المنثور ٢/ ٣، وأخرجه أيضاً الطبري ٥/ ١٨٣، وما سيأتي بين حاصرتين منهما.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ١٨٢ ـ ١٨٣.

وقيل: نفسُ الكتب المذكورة أُعيدَ ذِكرُها بوصفٍ خاصٍّ لم يُذكر فيما سبق على طريق العطف بتكرير لفظ الإنزال؛ تنزيلاً للتغاير الوصفي منزلةَ التغاير الذاتي.

وقيل: المُراد به الزبورُ، وتقديمُ الإنجيل عليه مع تأخُّره عنه نزولاً؛ لقوَّة مناسبته للتوراة في الاشتمال على الأحكام وشيوع اقترانهما في الذِّكر.

واعتُرض بأنَّ الزبور مواعظُ، فليس فيه ما يفرِّق بين الحقِّ والباطل من الأحكام؟

وأُجيبَ بأنَّ المواعظِ لِما فيها من الزَّجر والترغيب فارقةٌ أيضاً، ولخفاء الفرق فيها خُصَّت بالتوصيف به.

وأُورِدَ عليه بأن ذِكر الوصف دون الموصوف يقتضي شهرتَه به، حتى يُغني عن ذكر موصوفه، والخفاءُ إنَّما يقتضي إثبات الوصف دون التعبير به.

وقيل: المرادُ به المعجزاتُ المقرونة بإنزال الكتب المذكورة، الفارقةُ بين المحقِّ والمبطل.

وعلى أيِّ تقديرٍ كان فهو مصدرٌ في الأصل كالغفران أُطلِق على الفاعل مبالغة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أنْ تكون الإضافة للعهد إشارةً إلى ما تقدَّم من آيات الكتب المنزلة، ويحتملُ أنْ تكون للجنس، فتَصْدُقُ الآياتُ على ما يتحقَّق في ضمن ما تقدَّم وعلى غيره كالمعجزات(١)، وأضافها إلى الاسم الجليل تعييناً لحيثيّة كفرِهم وتهويلاً لأمرهم وتأكيداً لاستحقاقهم العذابَ. والمراد بالموصول إمَّا مَن تقدَّم في سبب النزول، أو أهلُ الكتابين، أو جنسُ الكَفَرة، وعلى التقديرَين يَدخل أولئك فيه دخولاً أوليّاً.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ابتداءٌ وخبر في موضع خبر «إنَّ»، ويجوز أنْ يرتفع العذاب بالظرف. والتنكيرُ للتفخيم، ففيه إشارةٌ إلى أنَّه لا يُقدَر قدرُه، وهو مَناط الحصر المستفاد من تقديم الظرف، والتعليقُ بالموصول الذي هو في حكم المشتقِّ يُشعر بالعلِّية، وهو معنَى تضمُّنِهِ الشرطَ، وتُرك فيه الفاء لظهوره، فهو أبلغُ إذا اقتضاه المقام.

---

(١) في الأصل: في المعجزات.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي غالبٌ على أمره يَفعل ما يشاء ويَحكم ما يريد.

﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ افتعال من النِّقمة، وهي السَّطوة والتسلُّط؛ يقال: انتقم منه، إذا عاقبه بِجنايته، ومجرَّده: نقم بالفتح والكسر، وجعلَه بعضُهم بمعنى كرِه لا غير. والتنوينُ للتفخيم. واختار هذا التركيب على منتقم مع اختصاره؛ لأنَّه أبلغُ منه، إذ لا يقال: صاحبُ سيفٍ، إلا لمن يُكثر القتلَ، لا لمن معه السيف مطلقاً. والجملة اعتراضٌ تذييلي مقرِّرٌ للوعيد مؤكِّدٌ له.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾ استئنافٌ لبيان سَعة علمِهِ سبحانه وإحاطتِهِ بجميع ما في العالَم الذي مِن جملته إيمانُ مَنْ آمن وكفرُ من كفَر، إثر بيان كمالِ قدرته وعظيم عزَّته، وفي بيان ذلك تربيةٌ للوعيد، وإشارةٌ إلى دليل كونه حيّاً، وتنبيهٌ على أنَّ الوقوف على بعض المغيَّبات ـ كما وقع لعيسى عليه السلام ـ بمعزلٍ مِن بلوغ رُتبة الصِّفات الإلهية.

والمرادُ من الأرض والسماء العالَمُ بأسرِه، وجعَلَه الكثيرُ مجازاً من إطلاق الجزء وإرادة الكلِّ. ومَن قال: إنَّه لا يصحُّ في كلِّ كلٍّ وجزءٍ، بناءً على اشتراط التركيب الحقيقيِّ وزوالِ ذلك الكلِّ بزوال ذلك الجزء، جَعَل المذكورَ كنايةً لا مجازاً.

وتقديمُ الأرض على السماء؛ إظهاراً للاعتناء بشأن أحوال أهلها، واهتماماً بما يشير إلى وعيد ذوي الضَّلالة منهم، وليكونَ ذِكرُ السماء بعدُ من باب العروج، قيل: ولذا وسَّط حرف النفي بينهما.

والجملة المنفية خبر لـ «إنَّ»، وتكريرُ الإسناد لتقوية الحكم، وكلمة «في» متعلِّقة بمحذوفٍ وقع صفة لـ «شيء» مؤكِّدةً لعمومه المستفادِ من وقوعه في سياق النفي، أي: لا يخفَى عليه شيءٌ ما كائنٌ في العالَم بأسره، كيفما كانت الظرفية. والتعبيرُ بعدم الخفاء أبلغُ من التعبير بالعلم، وجوَّز أبو البقاء تعلُّق الظرف بـ «يخفى»[1].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ على الصحيح، ناطقةٌ ببعض أحكام قيُّوميَّته تعالى، مشيرةٌ إلى تقرير عِلمه مع زيادةِ بيانٍ لتعلُّقه بالأشياء قبل وجودها.

---

(١) الإملاء ٢/ ٢٣ ـ ٢٤.

والتصوير: جعلُ الشيء على صورةٍ لم يكن عليها، والصورة هيئةٌ يكون عليها الشيءُ بالتأليف.

و«الأرحام»: جمع رَحِم، وهي معلومةٌ وكأنَّها أُخذت من الرَّحمة؛ لأنَّها مما يُتراحم بها ويتعاطف.

وكلمة «في» متعلِّقة بـ «يصوِّر»، وجوِّز أنْ يكون حالاً من المفعول، أي: يصوركم وأنتم في الأرحام مُضَغٌ.

و«كيف» في موضع نصب بـ «يشاء»، وهو حال، والمفعولُ محذوف تقديرُه: يشاء تصويرَكم.

وقيل: «كيف» ظرفٌ لـ «يشاء»، والجملةُ في موضع الحال، أي: يُصوِّركم على مشيئته ـ أي: مريداً ـ إنْ كان الحالُ من الفاعل، أو: يصوركم متقلِّبين على مشيئته تابعين لها في قبول الأحوال المتغايرة من كونكم نُطفاً، ثم عَلَقاً، ثم مُضَغاً، ثم وثم، وفي الاتِّصاف بالصِّفات المختلفة من الذكورة والأنوثة، والحُسْنِ والقبح، وغير ذلك.

وفيه من الدَّلالة على بطلان زَعْمِ مَن زَعَم ربوبيةَ عيسى عليه السَّلام مع تقلُّبه في الأطوار، ودَوره في فَلَك هذه الأدوار حَسْبَما شاءه الملكُ القهَّار، ورَكاكةِ عقولهم = ما لا يخفى.

وقرأ طاوس: «تَصَوَّرَكم» على صيغة الماضي[1] من التفعُّل، أي: اتَّخذ صورَكم لنفسه وعبادتِه، فهو من باب: توسَّد الترابَ، أي: اتَّخذَه وسادةً، فما قيل: كأنَّه من تصوَّرْتُ الشيء، بمعنى: توهَّمتُ صورتَه، فالتصديق أنَّه توهُّمٌ محضٌ.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦﴾ كرَّر الجملة الدالَّةَ على نفي الإلهية عن غيره تعالى وانحصارِها فيه توكيداً لِما قبلها، ومبالغةً في الرَّد على مَن ادَّعى إلهيةَ عيسى عليه السلام، وناسب مجيئُها بعد الوصفَين السَّابقَين من العلم والقدرة، إذ مَن هذان الوصفان له هو المتَّصفُ بالألوهية لا غيرُه، ثم أتَى بوصف العزَّة الدالَّة

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٩، والبحر ٢/ ٣٨٠.

على عدم النظير، أو التناهي في القدرة والحكمة؛ لأنَّ خلْقهم على ما ذُكِر من النمط البديع أثرٌ من آثار ذلك.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ استئنافٌ لإبطال شُبَهِ الوفد وإخوانِهم الناشئةِ عمَّا نطَق به القرآنُ في نعت المسيح عليه السلام إثرَ بيان اختصاص الرُّبوبية ومناطها به سبحانه.

قيل: إنَّ الوفد قالوا لرسولِ الله ﷺ: ألستَ تزعمُ أنَّ عيسى كلمةُ الله تعالى وروحٌ منه؟ قال: «بلى» قالوا: فحَسْبُنا ذلك[1]. فنفَى سبحانه عليهم زَيْفَهم وفتنتهم، وبيَّن أنَّ الكتاب مؤسَّسٌ على أصولٍ رصينة وفروعٍ مَبنيَّةٍ عليها، ناطقةٍ بالحقِّ، قاضيةٍ ببطلان ما هُم عليه، كذا قيل. ومنه يُعلم وجهُ مناسبةِ الآية لما قبلها.

واعتُرض بأنَّ هذا الأثرَ لم يوجد له أثرٌ في الصحاح ولا سندٌ يعوَّل عليه في غيرها، وقُصارى ما وُجد عن الربيع أنَّ المراد بالموصول الآتي الوفد.

وفيه: أنَّ الأثر بعينه أخرجه في «الدر المنثور» عن ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع[2]، فافهم[3].

وعن بعضهم أنَّ الآية نزلَت في اليهود، وذلك حين مرَّ أبو ياسر بن أخطب في رجالٍ من يهودَ برسول الله ﷺ وهو يَتلو فاتحةَ سورة البقرة ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ فأتَى أخاه حُيَيَّ بنَ أخطب في رجال من يهود، فقال: أتعلمون؟ واللهِ لقد سمعتُ محمداً يتلو فيما أُنزل عليه ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾. فقال: أنت سمعتَه؟ قال: نعم. فمشَى حييٌّ في أولئك النَّفر إلى رسول الله ﷺ، فقال: ألم يُذكر أنَّك تَتلو فيما أُنزل عليك: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؟ فقال: «بلى» فقال: لقد بعَث اللهُ تعالى قبلَك أنبياءَ ما نَعْلَمه بيَّن لنبيٍّ منهم ما مدَّةُ ملكِه وما أجلُ أُمَّته غيرك، الألفُ واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنةً، هل مع هذا غيرُه؟ قال: «نعم ﴿الٓمٓصٓ﴾» قال: هذه أثقلُ وأطولُ: الألف واحدةٌ، واللام

---

(١) أخرجه الطبري ٥/ ٢٠٥-٢٠٦، وابن أبي حاتم ٢/ ٥٩٦ عن الربيع.
(٢) الدر المنثور ٢/ ٦، وسلف تخريج الأثر آنفاً.
(٣) قوله: فافهم، ليس في (م).

ثلاثون، والميم أربعون، والصادُ تسعون، فهذه مئةٌ وإحدى وستون سنةً، هل مع هذا غيرهُ؟ قال: «نعم ﴿الٓر﴾» قال: هذه أثقلُ وأطولُ، هل مع هذا غيرهُ؟ قال: «بلى ﴿الٓمٓر﴾» قال: هذه أثقلُ وأطول! ثم قال: لقد لبِّس علينا أمرُك حتى ما ندري أقليلاً أعطيتَ أم كثيراً؟ ثم قال: قوموا، ثم قال أبو ياسر لأخيه ومَن معه: وما يُدريكم لعلَّه قد[1] جُمع هذا كلُّه لمحمدٍ؟ فقالوا: لقد تشابه علينا أمرُه.

وقد أخرج ذلك البخاريُّ في «التاريخ» وابنُ جرير وغيرُهما عن ابن عباس ﷺ، إلا أنَّ فيه: فيزعمون أنَّ هذه الآيات نزلَت فيهم[2] وهو مؤذنٌ بعدم الجزم بذلك، ومع هذا يُبعده ما تقدَّم[3] من رواية: أنَّ الله تعالى أنزل في شأن أولئك الوفد من صدر[4] آل عمران إلى بضع وثمانين آية.

وعلى تقدير الإغماض عن هذا يحتمل أنْ يكون وجهُ اتِّصال الآية بما قبلها أنَّ في المتشابه خفاء، كما أنَّ تصويرَ ما في الأرحام كذلك، أو أنَّ في هذه تصويرُ الروح بالعلم وتكميلُه به، وفيما قبلها تصويرُ الجسد وتسويتُه، فلِمَا أنَّ في كلٍّ منهما تصويراً وتكميلاً في الجملة ناسَب ذكره معه، ولِمَا أنَّ بين التصوير الحقيقي الجسماني والذي ليس هو كذلك من الروحاني من التفاوت والتباين، تَرَكَ العطف.

وقوله سبحانه: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ﴾ الظرفُ فيه خبرٌ مقدَّمٌ، و«آياتٌ» مبتدأ مؤخَّر، أو بالعكس، ورجِّح الأول بأنَّه الأوفقُ بقواعد الصناعة، والثاني بأنَّه أدخلُ في جَزَالة المعنَى، إذ المقصود الأصلي انقسامُ الكتاب إلى القسمَين المعهودَين، لا كونُهما من الكتاب.

والجملةُ إمَّا مستأنَفَةٌ أو في حيِّز النصب على الحالية من الكتاب، أي: هو الذي أَنزل عليك الكتاب كائناً على هذه الحالة، أي: منقسماً إلى مُحْكَمٍ وغيره. أو الظرفُ وحدَه حالٌ، و«آيات» مرتفعٌ به على الفاعلية.

---

(١) في الأصل و(م): لقد، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٢) التاريخ الكبير ٢/ ٢٠٨، وتفسير الطبري ١/ ٢٢١-٢٢٢ من طريق ابن إسحاق، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله بن رئاب، وهو في سيرة ابن هشام ١/ ٥٤٥ ـ ٥٤٦، والدر المنثور ٢/ ٥.

(٣) ص ١٠-١١ من هذا الجزء.

(٤) في (م): مصدر، وهو تصحيف.

﴿مُّحْكَمَٰتٌ﴾ صفةُ «آيات» أي: واضحة[1] المعنىَ، ظاهرةُ الدلالة، مُحْكَمةُ العبارة، محفوظةٌ من الاحتمال والاشتباه.

﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: بأصله والعمدةُ فيه يُردُّ إليها غيرها، والعرب تسمِّي كلَّ جامع يكون مرجعاً أُمّاً. والجملة إمَّا صفةٌ لما قبلها أو مستأنفة، وإنَّما أفرد «الأم» مع أنَّ «الآيات» متعدِّدةٌ لِما أنَّ المراد بيانُ أصلية كلٍّ واحدةٍ منها، أو بيان أنَّ الكلَّ بمنزلة آيةٍ واحدة.

﴿وَأُخَرُ﴾ نعتٌ لمحذوف معطوفٍ على «آيات» أي: وآياتٌ أُخَر، وهي كما قال الرَّضي: جمعُ أُخرى التي هي مؤنَّث آخَر، ومعناه في الأصل: أشدُّ تأخُّراً، فمعنَى جاءني زيدٌ ورجلٌ آخر: جاءني زيدٌ ورجلٌ أشدُّ تأخُّراً منه في معنًى من المعاني، ثم نُقل إلى معنًى غيرِهِ، فمعنَى رجل آخر: رجلٌ غيرُ زيد، ولا يُستعمل إلا فيما هو من جنس المذكور أولاً، فلا يُقال: جاءني زيدٌ وحمارٌ آخَر، ولا: امرأة أُخرى، ولمَّا خرَج عن معنَى التفضيل استُعمل من دون لوازم أفعل التفضيل، أعني «مِن» والإضافةَ واللام، وطوبق بالمجرَّد عن اللام والإضافةِ ما هو له، نحو: رجلان آخران، ورجال آخرون، وامرأةٌ أخرى، وامرأتان أُخريان، ونسوة أُخَر.

وذهب أكثرُ النحويين إلى أنَّه غير منصرفٍ؛ لأنَّه وصفٌ معدولٌ عن الآخَر، قالوا: لأنَّ الأصل في أفعلَ التفضيل أنْ لا يُجمع إلا مقروناً بالألف واللام، كالكبر والصغر، فعُدل عن أصله وأُعطي من الجمعية مجرَّداً مالا يعطى غيرُه إلا مقروناً.

وقيل: الدليل على عدل «أُخر» أنَّه لو كان مع «مِن» المقدَّرةِ كما في «الله أكبر» للزِم أنْ يُقال: بنسوةٍ آخر، على وزن أَفْعَل؛ لأنَّ أفعل التفضيل ما دام بـ «من» ظاهرةٍ أو مقدَّرةٍ لا يجوزُ مطابقته لمن هو له، بل يجب إفراده، ولا يجوز أنْ يكون بتقدير الإضافة، لأنَّ المضاف إليه لا يُحذَف إلا مع بناء المضاف، أو مع سادٍّ مسدَّ المضاف إليه، أو مع دلالةِ ما أضيفَ إليه تابعُ المضاف أَخْذاً من استقراء كلامهم، فلم يَبْقَ إلا أنْ يكون أصلُه اللام.

واعتَرض عليه أبو عليٍّ بأنَّه لو كان كذلك وَجَب أنْ يكون معرفةً كـ : سَحَر.

---

(١) في الأصل: واضحات.

وأُجيبَ بأنَّه لا يلزم في المعدول عن شيء أنْ يكون بمعناه من كلِّ وجهٍ، وإنَّما يلزم أنْ يكون قد أُخرج عمَّا يَستحقُّه وما هو القياسُ فيه إلى صيغةٍ أُخرى، نعم قد تُقْصَدُ إرادةُ تعريفه بعد النقل إمَّا بألفٍ ولام تَضمَّن[1] معناها فيُبْنَى، وإمَّا[2] بعَلَميةٍ كما في«سَحَر» فيُمنع مِن الصرف، ولمَّا لَم يُقصد في «أُخر» إرادةُ الألف واللام أعرب، ولا يصحُّ إرادةُ العلَمية؛ لأنَّها تُضادُّ الوصفيةَ المقصودةَ منه.

وقال ابن جنِّي: إنَّه معدولٌ عن: آخَر مِن، وزَعَم ابنُ مالك أنَّه التحقيق، وظاهرُ كلام أبي حيان اختيارُه، واستدلُّوا عليه بما لا يَخلو عن نظر.

ووُصِفَ «أُخَر» بقوله سبحانه: ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ وهي في الحقيقة صفةٌ للمحذوف[3]، أي: محتملاتٌ لمعانٍ متشابهات لا يمتازُ بعضُها عن بعضٍ في استحقاق الإرادة، ولا يتَّضحُ الأمر إلا بالنظر الدقيق، وعدم الاتِّضاح قد يكونُ للاشتراك، أو للإجمال، أو لأنَّ ظاهره التشبيه، فالتَّشابُه[4] في الحقيقة: وصفٌ لتلك المعاني، وَصَفَ به الآيات على طريقة وصفِ الدالِّ بما هو وصفٌ للمدلول، فسقط ما قيل: إنَّ واحد «متشابهات»: متشابهة، وواحدَ «أُخر»: أخرى، والواحدُ هنا لا يصحُّ أنْ يُوصف بهذا الواحد، فلا يقال: أُخرى متشابهة، إلا أنْ يكون بعضُ الواحدة يُشبه بعضاً، وليس المعنىَ على ذلك، وإنَّما المعنىَ: أنَّ كلَّ آية تشبه آيةً أُخرى، فكيف صحَّ وصف الجمع بهذا الجمع ولم يصحَّ وصفُ مفرده بمفرده؟! ولا حاجةَ إلى ما تُكلِّف في الجواب عنه، بأنَّه ليس من شرطِ صحَّة وصف المثنَّى والمجموع صحةُ بسطِ مفردات الأوصاف على أفراد الموصوفات، كما أنَّه لا يلزم من الإسناد إليهما صحةُ إسناده إلى كلِّ واحدٍ كما في ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ [القصص: ١٥] إذ الرَّجلُ لا يَقْتَتِلُ.

وقيل: إنَّه لمَّا كان مِن شأن الأمور المتشابهة أنْ يَعجز العقلُ عن التمييز بها

---

(١) في(م): يضمن، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٣/ ٦، والكلام منه.

(٢) في (م): أو إما، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب.

(٣) في الأصل و(م): لمحذوف، والمثبت من تفسير أبي السعود ٢/ ٧، والكلام منه، والمقصود بالمحذوف ما مرَّ من أن «أخر» نعت له، أي: آياتٌ أُخر متشابهات.

(٤) في(م): فالمتشابه، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.

سُمِّي كلُّ ما لا يهتدي العقلُ إليه متشابهاً وإنْ لم يكن ذلك بسبب التَّشابُه، كما أنَّ المُشْكِلَ في الأصل ما دخَل في أشكاله وأمثاله ولم يُعلم بعينه، ثم أطلق على كلِّ غامضٍ وإنْ لم يكن غُموضُه من تلك الجهة، وعليه يكون المتشابه مجازاً أو كناية عمَّا لا يتَّضح معناه مثلاً، فيكون السؤال مغالطةً غيرَ واردة رأساً.

وهذا الذي ذُكر[1] في تفسير المحكَم والمتشابه هو مذهبُ كثير من الناس، وعليه الشافعيةُ. وتقسيمُ «الكتاب» إليهما من تقسيم الكلِّ إلى أجزائه، بناءً على أنَّ المرادَ من «الكتاب» ما بين الدُّفتين، ولامُه لتعريف العهد، وحينئذٍ إمَّا أنْ يُرادَ بالكتاب الثاني المضاف إليه «أمّ»[2] الأولُ الواقع مقسَّماً كما يُشعر به حديثُ إعادة الشيء معرفةً، ويكون وضْعُ المُظْهَر موضعَ المضمَر اعتناءً بشأن المُظْهَر وتفخيماً له، والإضافةُ على معنى «في»، كما في: واحدُ العشرةِ، فلا يلزم كونُ الشيءِ أصلاً لنفسه؛ لأنَّ المعنَى على أنَّ الآيات المحكمات التي هي جزءٌ مما بين الدُّفتين أصلٌ فيما بين الدُّفتين يرجع إليه المتشابه منه، واعتبارُ ظرفية الكلِّ للجزء يَدفع توهُّم لزومِ ظرفية الشيءِ لنفسه، وهذا أولَى من القول بتقدير مضافٍ بين المتضايفَين بأنْ يقالَ: التقدير: أمُّ بعضِ الكتاب، فإنَّه وإنْ بقي فيه الكتابُ على حاله، إلا أنَّه لا يَخلو عن تكلُّفٍ.

وإمَّا أنْ يُراد به الجنس، فإنَّه كالقرآن يُطلق على القَدْرِ المشترك بين المجموع وبين كلِّ بعضٍ منه له به نوعُ اختصاصٍ كما بُيِّن في الأصول، ويُراد من هذا الجنس ما هو في ضمن الآيات المتشابهات، فاللامُ حينئذٍ للجنس، والإضافةُ على معنى اللام، ولا يعارضه حديث الإعادة إذ هو أصلٌ كثيراً ما يُعدل عنه، ولا يُتوهَّم منه كونُ الشيءِ أمًّا لنفسه أصلاً، ولا أنَّ المقامَ مقامُ الإضمار ليحتاج إلى الجواب عن ذلك.

وبعضُ فضلاءِ العصر ـ العاصرين حُمَيًّا[3] العلمِ من كَرْمِ أذهانهم الكريمة أحسنَ عصرٍ ـ جوَّز كونَ الإضافة لاميَّة، و«الكتاب» المضاف إليه هو الكتاب الأول بعينه، وليس في الكلام مضافٌ محذوف، وما يلزم على ذلك من كون الشيء أمًّا

---

(١) في(م): ذكره.

(٢) بعدها في الأصل: الكتاب.

(٣) حميا الشيء: شدته، ومن الشباب: أوله ونشاطه. القاموس (حمي).

لنفسه وأصلاً لها لا يضرُّ؛ لاختلاف الاعتبار، فإن أمومته لغيره من المتشابه باعتبار ردِّه إليه وإرجاعه له، وأمومته لنفسه باعتبار عدمِ احتياجه ـ لظهور معناه ـ إلى شيءٍ سوى نفسه.

ولا يخفى عليك أن «الأم» إن كانت في كلا الاعتبارَين حقيقةً لزِم استعمالُ المشترك في معنييه، وإن كانت في كليهما مجازاً لزِم الجمع بين معنيين مجازيين، وإن كانت حقيقةً في الأصل باعتبار ما يرجع إليه غيره ـ كما يفهم من بعض عباراتهم ـ مجازاً في الأصل بمعنى المستغني عن غيره، لزِم الجمعُ بين الحقيقة والمجاز، ولا مخلص عن ذلك إلا بارتكاب عموم المجاز.

هذا وجوِّز أن يكون التقسيم إلى القسمين المحكم والمتشَابِه من تقسيم الكلِّي إلى جزئياته، فـ «أل» في «الكتاب» للجنس أوَّلاً وآخراً، إلا أنَّ المراد من الكتاب في الأول الماهية من حيث هي كما هو الأمر المعروف في مثل هذا التقسيم، وفي الثاني الماهية باعتبار تحقُّقها في ضمن بعضِ الأفراد، وهو المتشابه. ويجوز أن يراد من الثاني أيضاً مجموعُ ما بين الدُّفتين، والكلام فيه حينئذٍ على نحو ما سَبَق، قيل: وقُصارى ما يلزم من هذا التقسيم ـ بعد تحمُّل القول بأنه خلاف الظاهر ـ صدقُ الكتاب على الأبعاض، وهو ممالا يُتَحاشى منه، بل هو غَرَضُ مَن فسَّر «الكتابَ» بالقَدْرِ المشتَرك، وأنت تعلم أنَّ فيه غيرَ ذلك، إلا أنَّه يُمكن دفعُه بالعناية، فتدبَّر.

وذهب ساداتنا الحنفية إلى أنَّ المحكم: الواضحُ الدلالةِ الظاهرُ[1]، الذي لايحتملُ النسخَ، والمتشابه: الخفيُّ الذي لا يُدْرَك معناه عقلاً ولا نقلاً وهو ما استأثر اللهُ تعالى بعلمه، كقيام السَّاعة، والحروفِ المقطَّعة في أوائل السُّور.

وقيل: المحكمُ الفرائضُ والوعدُ والوعيد، والمتشابهُ القصصُ والأمثال، أخرج ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: «المحكمات»: ناسخه وحلالهُ وحرامهُ وحدودهُ وفرائضه، و«المتشابهات»: ما يؤمَنُ به ولا يُعْمَلُ به[2].

---

(١) في الأصل: الظاهرة.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٥٩٢ ـ ٥٩٣. وهو عند الطبري ٥/ ١٩٣.

وأخرج الفريابيُّ عن مجاهد، قال: «المحكمات»: ما فيه الحلالُ والحرام، وما سِوى ذلك متشابه[١].

وأخرج عبد بن حميد[٢] عن الضحاك قال: «المحكمات»: ما لم يُنسخ، والمتشابهات: ما قد نُسِخ.

وقال: الماورديُّ: المحكم ما كان معقولَ المعنىَ، والمتشابه بخلافه، كأعداد الصلوات، واختصاص الصيام برمضان دون شعبان[٣].

وقيل: المحكم ما لم يتكرَّر ألفاظه، والمتشابه ما يقابلُه. وقيل غيرُ ذلك.

وهذا الخلاف في المحكم والمتشابه هنا، وإلا فقد يُطلَق المحكَم بمعنى المتقَنِ النَّظْمِ، والمتشابه على ما يشبه بعضهُ بعضاً في البلاغة، وهما بهذا المعنَى يُطلَقان على جميع القرآن، وعلى ذلك خرِّج قولهُ تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] وقوله سبحانه: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي عدولٌ عن الحقِّ وميلٌ عنه إلى الأهواء. وقال الراغب[٤] الزيغُ: الميلُ عن الاستقامة إلى أحدِ الجانبَين، وزاغ وزال ومال متقاربةٌ، لكنْ زاغ لا يقال إلا فيما كان عن حقٍّ إلى باطل، ومصدره: زَيْغاً وزَيْغُوغةً وزَيَغاناً وزُيُوغاً.

والمراد بالموصول نصارى نجران، أو اليهود، وإليه ذهب ابن عباس. وقيل: مُنْكِرو البعث. وقيل: المنافقون.

وأخرج الإمام أحمد وغيره عن أبي أمامة عن النبيِّ ﷺ أنَّهم الخوارج[٥].

---

(١) عزاه للفريابي السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٤، وهو في تفسير مجاهد ١/ ١٢١، وتفسير الطبري ٥/ ١٩٦.
(٢) في الأصل و(م): عبيد بن عمير، وهو خطأ، والمثبت من الإتقان ١/ ٦٤١، وعنه نقل المصنف، وأخرجه أيضاً الطبري ٥/ ١٩٥ـ ١٩٦.
(٣) النكت والعيون ١/ ٣٧٠.
(٤) في مفرداته (زيغ).
(٥) مسند أحمد (٢٢٢٥٩)، والمعجم الكبير (٨٠٣٣) و(٨٠٤٦)، وأخرجه الطبري موقوفاً =

وظاهرُ اللفظ العمومُ لسائر مَن زاغَ عن الحقِّ، فليُحْمَلْ ما ذُكر على بيان بعضِ ما صَدَقَ عليه العامُّ دون التخصيص.

وفي جَعْل قلوبهم مَقرّاً للزيغ مبالغةٌ في عُدولِهم عن سَنَن الرَّشاد، وإصرارهم على الشرِّ والفساد. و«زيغ» مبتدأ أو فاعل.

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ أي: يتعلَّقون بذلك وحدَه بأنْ لا يَنظروا إلى ما يطابقه من المحكَم ويردُّوه إليه، وهو إمَّا بأخْذ ظاهرِه الغيرِ المراد له تعالى، أو أَخْذِ أحدِ بطونه الباطلة، وحينئذٍ يضربون القرآنَ بعضَه ببعضٍ ويُظهرون التناقضَ بينَ معانيه إلحاداً منهم وكفراً، ويَحملون لفظَه على أحدِ مُحتملاته التي تُوافق أغراضَهم الفاسدة في ذلك، وهذا هو المرادُ بقوله سبحانه: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: طَلَبَ أنْ يفتنوا المؤمنينَ والمؤمنات عن دِينهم بالتشكيك والتلبيس، ومناقضةِ المحكَم بالمتشابه كما نقل عن الواقدي، وطلبَ أن يؤوِّلوه حَسْبمَا يشتهون، فالإضافة في «تأويله» للعهد، أي: بتأويل مخصوصٍ، وهو ما لم يوافق المحكَم، بل ما كان موافقاً للتشهِّي.

والتأويل: التفسيرُ، كما قاله غير واحد، وقال الراغب: إنَّه من الأَوْل: وهو الرجوع إلى الأصل، ومنه المَوْئِل للموضع الذي يُرجع إليه، وذلك هو ردُّ الشيء إلى الغاية المُرَادة منه، عِلماً كان أو فعلاً، ومن الأَوَّلِ ما ذُكر هنا، ومن الثاني قولُه:

ولـلـنَّـوَى قـبـل يـوم الـبَـيْـنِ تـأويـلُ[1]

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣] أي: بيانه الذي هو غايتُه المقصودة منه، وقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] قيل: أحسن ترجمةً ومعنًى، وقيل: أحسن ثواباً في الآخرة[2]، انتهى.

= ٥/ ٦٦٥. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي، ومعناه صحيح.

(١) وصدره: وللأحبَّة أيامٌ تَذَكَّرُها، والبيت لعبدة بن الطبيب كما في المفضليات ص١٣٦، ومنتهى الطلب ٣/ ٣٣. قوله: تذَكَّرُها، أي: تتذكرها أنت. والنوى: وجهة القوم التي ينوونها. شرح اختيارات المفضل للتبريزي ٢/ ٦٤٦.

(٢) مفردات الراغب (أول).

وجوِّز في هاتين الطلبتين أن تكونا على سبيل التوزيع بأنْ يكون «ابتغاء الفتنة» طلبةَ بعضٍ، وابتغاء التأويل حسب التشهِّي طلبةَ آخرين.

ويجوز أنْ يكون الاتِّباعُ لمجموع الطلبتين، وهو الخَليقُ بالمعاندِ؛ لأنَّه لقوَّة عناده ومزيد فَسَاده يتشبَّثُ بهما معاً. وأنْ يكون ذلك لكلٍّ واحدة منهما على التعاقب، وهو المناسب بحال الجاهل؛ لأنه متحيِّرٌ، تارةً يتَّبع ظاهرَه وتارةً يؤوِّله بما يشتهيه؛ لكونه في قبضة هواه يتبعه كلَّما دعاه.

ومن الناس مَن حَمل الفتنةَ على المال؛ فإنَّ الله سبحانه قد سمَّاه فتنةً في مواضعَ من كلامه، ولا يخفى أنَّه ليس بشيءٍ مدَّعًى ودليلاً.

وفي تعليل الاتِّباع بـ «ابتغاء تأويله» دون نفسِ تأويله، وتجريدِ التأويل عن الوصف بالصحَّة والحقِّية، إيذانٌ بأنَّهم ليسوا من التأويل في عِيرٍ ولا نَفير، ولا قَبيل ولا دبير، وأنَّ ما يتَّبعونه ليس بتأويلٍ أصلاً، لا أنَّه تأويلٌ غيرُ صحيح قد يُعذَرُ صاحبه.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ في موضع الحال من ضمير «يتَّبعون» باعتبار العلَّة الأخيرة، أي: يتبعون المتشابهَ لابتغاء تأويلِه، والحالُ أنَّ التأويل المطابق للواقع ـ كما يشعر به التعبير بالعلم والإضافةُ إلى الله تعالى ـ مخصوصٌ به سبحانه وبمن وفَّقه عزَّ شأنُه من عباده الرَّاسخين في العلم، أي: الذين ثبتوا وتمكَّنوا فيه، ولم يتزلزلوا في مَزَالِّ الأقدام ومداحضِ الأفهام دونهم، حيث إنَّهم بمعزلٍ عن تلك الرتبة، هذا ما يقتضيه الظاهرُ في تفسير الراسخين.

وأخرج ابنُ عساكر من طريق عبد الله بن يزيد الأَوْديِّ[1]، قال: سمعتُ أنس بنَ مالك يقول: سُئل رسولُ الله ﷺ عن الرَّاسخين في العلم فقال: «مَن صَدَقَ حديثُه، وَبرَّ في يمَينِهِ، وعفَّ بطنُه وفرْجُه، فذلك الراسخون في العلم»[2] ولعلَّ ذلك بيانُ علامتِهم وما ينبغي أنْ يكونوا عليه.

---

(١) في الأصل و(م): الأزدي، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٢) تاريخ ابن عساكر ٥٥/١٩٦، وأخرجه أيضاً الطبري ٥/ ٢٢٣ـ ٢٢٤، والطبراني في الكبير (٧٦٥٨)، وفيهما: عن أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٢/ ٧. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٢٤: عبد الله بن يزيد ضعيف. اهـ. وقال عنه أحمد: أحاديثه موضوعة، وقال الجوزجاني: أحاديثه منكرة. الميزان ٢/ ٥٢٦.

والمراد بالعلم: العلمُ الشرعيُّ المقتبس[١] من مشكاة النبوَّة، فإنَّ أهله هم الممدوحون.

﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ استئنافٌ موضِّحٌ لحال الراسخين، ولهذا فُصل، والنحاةُ يقدِّرون له مبتدأً دائماً، أي: هم يقولون. وقد قيل: إنَّه لا حاجةَ إليه، ولم يُعرف وجهُ التزامهم لذلك، فلينظَر. وجوِّز أنْ يكون حالاً من «الراسخين».

والضمير المجرور راجعٌ إلى المتشابه، وعدمُ التعرُّض لإيمانهم بالمحكَم لظهوره، وإنْ رجع إلى «الكتاب» فله وجهٌ أيضاً؛ لأنَّ مآله: كلٌّ مِن أجزاء الكتاب أو جزئياته، وذلك لا يخلو عن الأمرَين.

ثم هذا القول وإنْ لم يخصَّ الراسخين لكنْ فيه تعريضٌ بأنَّ مقتضى الإيمان به أنْ لا يُسلَك فيه طريقٌ لا يَليقُ مِن تأويله على ما مرَّ، فكأنَّ غيرهم ليس بمؤمن.

﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ من تمام مقولهم، مؤكِّدٌ لِمَا قبله ومقرِّرٌ له، أي: كلُّ واحدٍ منه ومن المحكم، أو كلُّ واحدٍ من متشابهه ومُحْكَمِه منزَّلٌ من عند الله[٢] تعالى لا مخالفةَ بينهما.

وفي التعبير بـ «الرب» إشارةٌ إلى سرِّ إنزال المتشابه والحكمةِ فيه؛ لِما أنَّه متضمِّنٌ معنَى التربية والنظرِ في المصلحة والإيصال إلى معارج الكمال أولاً فأولاً. وقد قالوا: إنَّما أُنزل المتشابه لذلك ليظهرَ فضلُ العلماء، ويزدادَ حرصُهم على الاجتهاد في تدبُّره وتحصيلِ العلوم التي نِيطَ بها استنباطُ ما أُريد به من الأحكام الحقيقية، فينالوا بذلك وبإتعاب القرائح واستخراج المقاصد الرائقة والمعاني اللائقة المدارجَ العالية، ويعرجوا بالتوفيق بينه وبين المحكَم إلى رَفْرَفِ الإيقان وعرش الاطمئنان، ويفوزوا بالمشَاهِد السَّامية، وحينئذٍ ينكشفُ لهم الحجابُ، ويَطيبُ لهم المقامُ في رياضِ الصَّواب، وذلك من التربية والإرشاد أقصى غاية، ونهايةٌ في رعاية المصلحةِ ليس وراءَها نهاية.

---

(١) في (م): المتقبس.

(٢) في (م): من عنده.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ عطفٌ على جملة «يقولون» سيق من جهته تعالى مدحاً للراسخين بجودة الذِّهن وحسنِ النظر؛ لِما أنَّهم قد تجرَّدت عقولُهم عمَّا يَغشاها من الرُّكون إلى الأهواء الزائغةِ المكدِّرة لها، واستعدُّوا إلى الاهتداء إلى معالم الحقِّ، والعروجِ إلى معارج الصدق، وللإشارة إلى ذلك وُضِع الظاهرُ موضعَ الضمير.

هذا على تقديرِ أنَّ يكون الوقفُ على «الراسخون» وهو الذي ذهب إليه الشافعيةُ وسائرُ مَن فسَّر المتشابه بما لم يتَّضح معناه.

وأمَّا على تقدير أنْ يكون الوقف على «إلا الله» وهو الذي ذهب إليه الحنفيةُ القائلون بأنَّ المتشابه ما استأثر اللهُ تعالى بعلمه، فـ «الراسخون» مبتدأٌ وجملة «يقولون» خبرٌ عنه.

ورجِّح الأول بوجوه:

أمَّا أولاً: فلأنَّه لو أُريد بيانُ حظِّ الراسخين مقابلاً لبيان حظِّ الزائغين، لكان المناسب أنْ يقال: وأمَّا الراسخون فيقولون.

وأمَّا ثانياً: فلأنَّه لا فائدةَ حينئذٍ في قيد الرسوخ، بل هذا حكم العالمين كلِّهم.

وأمَّا ثالثاً: فلأنَّه لا ينحصر حينئذٍ «الكتاب» في المحكم والمتشابه على ما هو مقتضَى ظاهرِ العبارة، حيث لم يقل: ومنه متشابهات؛ لأنَّ ما لا يكون متضِّح المعنَى ويهتدي العلماء إلى تأويله وردِّه إلى المحكَم لا يكون محكماً ولا متشابهاً بالمعنَى المذكور، وهو كثيرٌ جداً.

وأمَّا رابعاً: فلأنَّ المحكم حينئذٍ لا يكون أمّ الكتاب بمعنى رجوعِ المتشابه إليه، إذ لا رجوعَ إليه فيما استأثر اللهُ تعالى بعلمه كعدد الزبانية مثلاً.

وأمَّا خامساً: فلأنَّه قد ثبت في الصحيح أنَّه ﷺ دَعَا لابن عباس فقال: «اللهم فقِّههُ في الدِّين وعلِّمه التأويل»(١)، ولو كان التأويل مما لا يَعلمه إلا اللهُ تعالى لَمَا كان للدعاء معنًى.

---

(١) صحيح البخاري (١٤٣)، وصحيح مسلم(٢٤٧٧)، ولفظ مسلم: «اللهم فقهه»، ولفظ البخاري: «اللهم فقِّهه في الدين». وأخرجه بتمامه أحمد (٢٣٩٧).

وأمَّا سادساً: فلأنَّ ابن عباس ﵄ كان يقول: أنا ممن يعلم تأويله.

وأمَّا سابعاً: فلأنَّه سبحانه وتعالى مدَح الراسخين بالتذكُّر في هذا المقام، وهو يُشعر بأنَّ لهم الحظَّ الأوفر من معرفة ذلك.

وأمَّا ثامناً: فلأنَّه يَبعدُ أنْ يخاطِبَ اللهُ تعالى عبادَه بمالا سبيلَ لأحدٍ من الخلق إلى معرفته.

والقول: بأنَّ «أمَّا» للتفصيل فلا بدَّ في مقابلة الحكم على الزائغين من حكمٍ على الراسخين ليتحقَّق التفصيل، غايةُ الأمر أنَّه حُذفت أمَّا والفاء، وبأنَّ الآية من قبيل الجمع والتقسيم والتفريق، فالجمع في قوله سبحانه: ﴿أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، والتقسيم في قوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾، والتفريق في قوله عزَّ شأنُه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ إلخ، فلا بدَّ في مقابلة ذلك من حكمٍ يتعلَّق بالمحكم، وهو أنَّ الراسخينَ يَتَّبعونه ويُرجعون المتشابه إليه على ما هو مضمونُ قوله سبحانه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ إلخ.

مجابٌ عنه بأنَّ كون «أمَّا» للتفصيل أكثريٌّ لا كلِّيٌّ، ولو سُلِّم فليس ذكرُ المقابل في اللفظ بلازم، ثم لو سُلِّم بأنَّ الآية من قبيل الجمع والتقسيم والتفريق فذِكرُ المقابل على سبيل الاستئناف أو الحال، أعني: «يقولون» إلخ كافٍ في ذلك.

و رُجِّح الثاني بأنَّه مذهب الأكثرين من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين وأتباعهم خصوصاً أهل السنَّة، وهو أصحُّ الروايات عن ابن عباس ﵄، ولم يذهب إلى القول الأول إلا شِرذمةٌ قليلةٌ بالنسبة إلى الأكثرين كما نصَّ عليه ابن السمعاني[١] وغيرُه، ويدُ الله تعالى مع الجماعة.

ويدلُّ على صحَّة مذهبهم أخبارٌ كثيرةٌ:

الأول: ما أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» والحاكم في «مستدرَكه» عن ابن عباس أنَّه كان يقرأ: «وما يعلم تأويله إلا الله ويقولُ الراسخون في العلم آمنَّا به»[٢]. فهذا يدلُّ على أنَّ الواو للاستئناف؛ لأنَّ هذه الروايةَ وإنْ لم تثبت بها

(١) ينظر تفسير السمعاني ١/ ٢٩٦.
(٢) تفسير عبد الرزاق ١/ ١١٦، والمستدرك ٢/ ٢٨٩.

القراءةُ فأقلُّ درجاتها أنْ تكون خبراً بإسنادٍ صحيح إلى تَرجمان القرآن، فيقدَّم كلامُه على مَن دونه، وحكى الفرَّاء أنَّ في قراءة أبيٍّ بنِ كعب أيضاً: «ويقول الراسخون في العلم»(١).

وأخرج ابن أبي داود في «المصاحف» من طريق الأعمش قال: في قراءة ابن مسعود: «وإنْ تأويلُه إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به»(٢).

الثاني: ما أخرج الطبراني في الكبير، عن أبي مالك الأشعري أنَّه سمعَ رسول الله ﷺ يقول: «لا أخاف على أُمَّتِي إلا ثلاثَ خلال: أن يَكثر لهم المالُ فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يُفتح لهم الكتابُ فيأخذه المؤمنُ يبتغي تأويلَه، وما يعلم(٣) تأويله إلا الله تعالى»(٤).

الحديث الثالث: ما أخرجه(٥) ابن مردويه من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه، عن رسول اللهِ ﷺ أنه قال: «إنَّ القرآن لم ينزل ليكذِّب بعضُه بعضاً، فما عرفتُم منه فاعمَلوا به، وما تَشابَه فآمِنوا به»(٦).

الرابع: ما أخرج الحاكم عن ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ قال: «الكتاب الأول يَنزل من بابٍ واحد على حرفٍ واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة [أحرف]: زاجر وآمر، وحلال وحرام، ومحكَم ومتشابِه، وأمثال، فأحِلُّوا حلالَه وحرِّموا حرَامه، وافعلوا ما أُمرتم به، وانتهوا عمَّا نُهيتم عنه، واعتبِروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: آمنا به كلٌّ من عند ربنا»(٧).

---

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ١٩١.

(٢) المصاحف ١/ ٣٠٩، وذكرها أيضاً الفراء في معاني القرآن ١/ ١٩١، والطبري ٥/ ٢٢١- ٢٢٢، والبحر ٢/ ٣٨٤، ووقع في المصاحف: «وإن حقيقة تأويله...».

(٣) في الأصل و(م): يبتغي، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٤) المعجم الكبير (٣٤٤٢)، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٢/ ٥. وفي إسناده محمد بن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف. ينظر مجمع الزوائد ١/ ١٢٨و٤٥.

(٥) في(م): أخرج.

(٦) ذكره عن ابن مردويه ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وأخرجه بنحوه الحارث (٧٣٥- بغية الباحث).

(٧) المستدرك ١/ ٥٥٣، وما سلف بين حاصرتين منه وهو من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن بن =

وأخرج البيهقيُّ في«الشعب» نحوه عن أبي هريرة[١].

الخامس: ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس مرفوعاً: «أُنزل القرآنُ على أربعة أحرفٍ: حلال وحرام لا يُعذر أحدٌ بجهالته، وتفسير تفسِّره العلماءُ، ومتشابه لا يعلمه إلا اللهُ تعالى، ومَن ادَّعى علمَه سوى اللهِ تعالى فهو كاذب»[٢].

إلى غير ذلك من الأخبار الدَّالَّة على أنَّ المتشابه مما لا يعلم تأويلَه إلا اللهُ تعالى.

ذهب بعضُ المحققين إلى أن كلّاً من الوقف والوصل جائز، ولكلٍّ منهما وجهٌ وجيه. وبيَّن ذلك الراغبُ[٣] بأن القرآن عند اعتبار بعضه ببعضٍ ثلاثةُ أضرب: محكمٌ على الإطلاق، ومتشابه على الإطلاق، ومحكمٌ من وجهٍ متشابه من وجه.

فالمتشابه في الجملة ثلاثةُ أضرب: متشابه من جهة اللفظ فقط، ومن جهة المعنى، ومن جهتهما معاً.

فالأول ضربان: أحدهما يرجع إلى الألفاظ المفردة: إما من جهة الغرابة، نحو: الأبّ ويَزِفُّونَ، أو الاشتراك كاليد والعين. وثانيهما يرجع إلى جملة الكلام المركَّب، وذلك ثلاثة أضرب: ضربٌ لاختصار الكلام نحو: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء: ٣] وضربٌ لبَسْطِه، نحو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]لأنه لو قيل: ليس مثلَه شيءٌ كان أظهرَ للسَّامع. وضربٌ لنظم الكلام نحو: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١-٢] إذ تقديره: أنزل على عبده الكتابَ قيِّماً ولم يجعل له عوجاً.

= عوف عن ابن مسعود به. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وتعقبه الحافظ في الفتح ٩/ ٢٩ بقوله: في تصحيحه نظر؛ لانقطاعه بين أبي سلمة وابن مسعود، وقد أخرجه البيهقي من وجه آخر عن الزهري عن أبي سلمة مرسلاً وقال: هذا مرسل جيد.

(١) شعب الإيمان (٢٢٩٣)، وفي إسناده معارك بن عباد، قال البخاري: منكر الحديث، وقال الدارقطني وغيره: ضعيف. الميزان ٤/ ١٣٣.

(٢) تفسير الطبري ١/ ٧٠، وفي إسناده الكلبي، قال ابن كثير في مقدمة تفسيره: الكلبي متروك الحديث، لكن قد يكون إنما وهم في رفعه، ولعله من كلام ابن عباس. اهـ. وقد أخرجه بإسناد آخر عن ابن عباس موقوفاً الطبري ١/ ٧٠.

(٣) في مفرداته (شبه).

والمتشابه من جهة المعنى: أوصافُ الله تعالى وأوصاف يوم القيامة؛ فإن تلك الصفات لا تُتصوَّرُ لنا؛ إذ لا يحصل في نفوسنا صورةُ ما لم نحسَّه، [أو][1] ما ليس من جنسه.

والمتشابه من جهتهما خمسة أضرب:

الأول: من جهة الكمّية كالعُموم والخصوص، نحو: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥].

والثاني: من جهة الكيفية كالوجوب والندب في نحو﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣].

والثالث: من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ نحو: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

والرابع: من جهة المكان والأمور التي نزلت فيها الآية، نحو: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] و﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧].

فإنَّ من لا يعرف عادتهم في الجاهلية يتعذَّر عليه تفسيرُ هذه.

والخامس: من جهة الشروط التي يصحُّ بها الفعل أو يفسد[2]، كشرط الصلاة والنكاح.

ثم قال: وهذه الجملة إذا تُصوِّرت علم أن كلَّ ما ذكره المفسِّرون في تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم. ثم جميع المتشابه على ثلاثة أضرب:

ضرب لا سبيل للوقوف عليه، كوقت السَّاعة وخروجِ الدَّابة وغيرِ ذلك.

وقسم للإنسان سبيل إلى معرفته، كالألفاظ الغريبة والأحكام الغَلِقة.

وضرب مُتَردِّدٌ بين الأمرين يختصُّ بمعرفته بعضُ الراسخين في العلم ويَخْفَى على مَن دونهم، وهو المشارُ إليه بقوله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «اللهم فقِّهه في الدِّين وعلِّمْه التأويل»[3].

---

(١) زيادة يقتضيها السياق، والعبارة في مفردات الراغب: أو لم يكن من جنس ما نحسه.

(٢) في الأصل و(م): ويفسد، بدل: أو يفسد، والمثبت من مفردات الراغب.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٢٣٩٧)، وأخرجه البخاري (١٤٣) دون قوله: «وعلمه التأويل»، وهو عند مسلم بلفظ: «اللهم فقهه»، وسلف ص ٢٩ من هذا الجزء.

وإذا عرفتَ هذا ظَهَر لك جوازُ الأمرين الوقف على «إلا الله»، والوقفُ على «والراسخون».

وقال بعض أئمة التحقيق: الحقُّ أنه أريد بالمتشابه ما لا سبيل إليه للمخلوق، فالحقُّ الوقف على «إلا الله» وإنْ أريد ما لايتضح بحيث يتناول المجملَ ونحوَه، فالحقُّ العطفُ، ويجوز الوقف أيضاً لأنه لا يعلم جميعه أو لا يعلمه بالكُنه إلا الله تعالى. وأما إذا فسِّر بما دَلَّ القاطعُ ـ أي: النصُّ النقليُّ أو الدليل الجازم العقليُّ ـ على أن ظاهره غيرُ مراد، ولم يقم دليلٌ على ما هو المرادُ، ففيه مذهبان:

فمنهم مَن يجوِّز الخوضَ فيه وتأويلَه بما يرجع إلى الجادَّة في مثله، فيجوز عنده الوقف وعدمُه.

ومنهم من يمنع الخوضَ فيه، فيمتنع تأويله ويجب الوقف عندَه.

والذاهبون إلى الوقف من السَّادة الحنفية أجابوا عمَّا ذكره غيرُهم في ترجيح ما ذهبوا إليه من الوجوه السَّابقة[1]:

فعَن الأول: بأنه أريد بيان حظِّ الراسخين مقابلاً لبيان حظِّ الزائغين، إلا أنه لم يقل: وأما الراسخون، مبالغةً في الاعتناء بشأن الراسخين، حيث لم يَسلك بهم سبيلَ المعادلة اللفظية لهؤلاء الزائغين، وصِينوا عن أن يُذكروا معهم كما يُذكر المتقابلان في الأغلب في مثل هذه المقامات، وقريبٌ من هذا قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧] حيث لم يقل: والطاغوتُ أولياء الذين كفروا، ولا: الذين آمنوا وليُّهم الله؛ تعظيماً لشأنه تعالى ورعايةً للاعتناء بشأن المؤمنين.

وعن الثاني: بأن فائدة قيد الرسوخ المبالغةُ في قصر علم تأويل المتشابه عليه تعالى؛ لأنه إذا لم يعلموه هم ـ كما يُشْعِر به الحكمُ عليهم بأنهم يقولون: آمنَّا به ـ فغيرُهم أولى بعدم العلم، فلم يبقَ عالِمٌ به إلا اللهُ تعالى.

وعن الثالث: بأنه يلتزم القول بعدم الحصر. وفي «الإتقان»[2]: أنَّ بعضاً قال:

---

(١) قوله: السابقة، ليس في (م).

(٢) ١/ ٦٣٩-٦٤٠.

إن الآية لا تدلُّ على الحصر في الشيئين؛ إذ ليس فيها شيءٌ من طُرُقه، ولولا ذلك لأشكل قولُه تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] لأن المحكَم لا تتوقف معرفتُه على البيان، والمتشابِهَ لا يرجى بيانُه، فما هذا الذي يبيِّنه النبيُّ ﷺ؟

وعن الرابع: بالتزام أنَّ إضافة «أمّ» إلى «الكتاب» على معنى «في»، والمحكَمُ أمٌّ في الكتاب، ولكن لا للمتشابه الذي استأثر اللهُ تعالى بعلمه، بل هو أمٌّ وأصلٌ في فهم العبادات الشرعية، كوجوب معرفته، وتصديقِ رُسلِه، وامتثالِ أوامره، واجتناب نواهيه، وعلى تقدير القول بأن الإضافة لامية يلتزم الأمومة للكتاب باعتبار بعضِه وهو الواسطة بين القسمين؛ لأن متَّضِحَ الدلالة كثيراً ما يُرجَع إليه في خفيِّها مما لم يصل إلى حدِّ الاستئثار.

وعن الخامس: بأن التأويل الذي دعا به رسولُ الله ﷺ لابن عباس لا يتعيَّن حملُه على تأويل ما اختصَّ علمُه به تعالى، بل يجوز حمله على تفسير ما يَخْفَى تفسيرُه من القسم المتردِّد بين الأمرين اللذين ذكرَهما الراغب كما ذكره.

وعن السادس: بأن الرواية عن ابن عباس أنه قال: أنا ممن يعلمُ تأويلَه. معارَضةٌ بما هو أصحُّ منها بدرجات، فتسقط عن درجة الاعتبار. وعلى تقدير تسليم اعتبارها يُمكن أن يقال: مُراده رضي الله عنه: أنا ممن يَعلم تأويلَه ـ أي: المتشابهِ ـ في الجملة حسبما دعا لي به رسول الله ﷺ، وهذا وإن قيل: إنه متشابه، لكنه في الحقيقة واسطةٌ بين المحكَم والمتشابه بالمعنى المراد.

وعن السابع: بأن مَدْح الراسخين بالتذكُّر ليس لأن لهم حظًّا في معرفته، بل لأنهم اتَّعظوا فخالفوا هواهم، ووقفوا عند ما حَدَّ لهم مولاهم، ولم يَسلكوا مسلكَ الزائغين، ولم يخوضوا مع الخائضين، ويمكن ـ على بُعد ـ أنْ يراد بالتذكُّر الانتفاعُ مجازاً، أي: إن الراسخين هم الذين يَنتفعون به، حيث يؤمنون به لخلوص عقولهم عن غشاوة الهوى كما أنهم آمنوا بالغيب، وهذا بخلاف الزائغين حيث صار المتشابِه ضرراً عليهم ووبالاً لهم؛ إذ ضلُّوا فيه كثيراً، وأضلُّوا عن سواء السبيل، وقد قال سبحانه من قبلُ فيما ضربه من المثل: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وعن الثامن: بأنه لا بُعْدَ في أن يخاطب اللهُ تعالى عبادَه بما لا سبيلَ لأحدٍ من

الخلق إلى معرفته، ويكون ذلك من باب الابتلاء كما ابتلَى سبحانه عبادَه بتكاليفَ كثيرةٍ وعبادات وفيرةٍ لم يعرف أحدٌ حقيقةَ السِّر فيها، والسرُّ في هذا الابتلاء قصُّ جناحِ العقل، وكسرُ سَوْرَةِ الفكر، وإذهاب عُجبِ طاوسِ النفس؛ ليتوجَّه القلبُ بشراشره[1] تجاهَ كعبةِ العبودية، ويخضعَ تحت سرادقات الرُّبوبية، ويعترفَ بالقصور، ويقرَّ بالعجز عن الوصول إلى ما في هاتيك القصور، وفي ذلك غايةُ التربية ونهاية المصلحة، هذا إذا أُريد بما لا سبيل لأحدٍ من الخَلق إلى معرفته: ما لا سبيل لأحدٍ منهم إلى معرفته من طريق الفكر، وأمَّا إذا أُريد: ما لا سبيل إلى معرفته مطلقاً، سواء كانت على الإجمال أو التفصيل بالوحي أو بالإلهام لنبيٍّ أو لوليٍّ، فوجودُ مثل هذا المخاطب به في القرآن في حَيِّز المنع، ولعلَّ القائل بكون المتشابه مما استأثر اللهُ تعالى بعلمه لا يمنع تعليمه للنبيِّ ﷺ بواسطة الوحي مثلاً، ولا إلقاءه في روع الوليِّ الكامل مفصَّلاً، لكن لا يصلُ إلى درجة الإحاطة كعلْم اللهِ تعالى. وإنْ لم يكن مفصَّلاً فلا أقلَّ من أن يكون مجملاً، ومنعُ هذا وذاك مما لا يَكاد يقولُ به مَن يعرف رتبةَ النبيِّ ﷺ، ورتبةَ أولياء أُمتهِ الكاملين، وإنَّما المنعُ من الإحاطة، ومِن معرفته على سبيل النظر والفكر، وهو الطريق المعتاد والسبيلُ المسلوك في معرفة المشكلات واستحصال النظريات، ولتبادُرِ هذا المعنى من «يعلم» إذا أسنِد إلى الراسخين مُنِع إسنادُه إليهم، ومتى أُريد منه العلم لا من طريق الفكر صحَّ الإسناد وجاز العطفُ، ولكن دون توهُّمِ هذه الإرادة من ظاهر الكلام خَرْطُ القَتَاد، فلهذا شاع القولُ بعدمِ العطف وكان القَول به أسلم.

ويؤيِّد ما قلنا ما ذكَره الإمام الشَّعرانيُّ[2] قال: أخبرني شيخُنا عليٌّ الخَوَّاص قدِّس سِرُّه: أنَّ اللهَ تعالى أطلَعه على معاني سورةِ الفاتحة، فخرَّج منها مئتي ألف علمٍ وأربعين ألفَ علم وتسعَ مئةٍ وتسعين علماً، وكان يقول: لا يسمَّى عالماً ـ أي: عندَ أهل الله تعالى ـ إلَّا مَن عَرَف كلَّ لفظٍ جاءت به الشريعةُ.

وقال في «الكشف» في نحو ﴿ق﴾ ﴿ص﴾ ﴿حم﴾ ﴿طس﴾: لعلَّ إدراك ما تحته

---

(١) أي: بجميعه، إذ الشراشر: النفس والأثقال والمحبة وجميع الجسد، الواحدة شُرْشُرة. القاموس (شرر).

(٢) في كتابه الدرر المنثورة في بيان زُبد العلوم المشهورة ص٣١-٣٢.

عند أهله كإدراكِنا للأوَّليات، ولا يُسْتَبعد، ففيضُ الباري ـ عمَّ نوالُه ـ غيرُ محصورٍ، واستعدادُ الإنسان الكاملِ عن القبول غيرُ محسور، ومَن لم يصدِّق إجمالاً بأن وراء مدركات الفكرة ومباديها طوراً أو أطواراً، حظُّ العقل منها حظُّ الحسِّ من المعقولات، فهو غيرُ متخلِّص عن مَضيق التعطيل أو التشبيه، وإنْ لَمْ يتدارك حالَه بقي ـ بعد كشف الغطا ـ في هذا التِّيه، ولتتحقَّقَ من هذا أنَّ المراتب مختلفة، وأن الإحاطة على الحقائق الإلهية كما هي مستحيلةٌ إلا للباري جلَّ ذِكرُه، وأنه لابدَّ للعارف ـ وإنْ وصَل إلى أعلى المراتب ـ أن يبقى له ما يجبُ الإيمان به غيباً، وهو من المتشابه الذي يقول الراسخون فيه: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فهذا ما يجب أن يعتقد كي لا يلحد.

ثم اعلم أن كثيراً من الناس جعَل الصفاتِ النقلية من الاستواء واليد والقَدَم والنزول إلى السَّماء الدنيا والضَّحك والتعجُّب وأمثالِها من المتشابِه، ومذهب السلف[1] ـ والأشعريُّ رحمه الله تعالى مِن أعيانهم، كما أبانت عن حاله «الإبانة» ـ أنها صفاتٌ ثابتة وراءَ العقل[2]، ما كلِّفنا إلا اعتقادَ ثبوتها مع اعتقاد عدمِ التجسيم والتشبيه؛ لئلَّا يضادَّ النقل العقل[3].

وذهب الخلَفُ إلى تأويلها وتعيين مرادِ الله تعالى منها، فيقولون: الاستواءُ ـ مثلاً ـ بمعنى الاستيلاء والغلبةِ، وذلك أثرٌ من آثار بعضِ الصِّفات الثمانية التي ليس لله تعالى عندهم وراءَها صفة، حتى ادَّعى السّكوتي ـ وليته سَكَت ـ أنَّ ما وراء ذلك ممتنِعٌ؛ إذ لا يلزم من نفيه محالٌ، وكلُّ ما لا يلزم من نفيه محال لا يكون واجباً، والله تعالى لا يتَّصفُ إلا بواجب.

وذكر الشعراني في «الدُّرر المنثورة»[4] أن مذهب السَّلف أسلمُ وأحكم؛ إذ المؤوِّل انتقل عن شرح الاستواء الجسماني على العرش المكاني بالتنزيه عنه إلى التشبيه السُّلطاني الحادث، وهو الاستيلاء على المكان، فهو انتقال عن التشبيه بمحدَثٍ ما إلى التشبيه بمحدَثٍ آخر، فما بلغ عقلُه في التنزيه مبلغَ الشرع فيه في

(١) في الأصل: وهذا مذهب السلف.
(٢) في الأصل: العقلية.
(٣) الإبانة ص٣٣.
(٤) ص٤٩.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ألا ترى أنه استشهد في التنزيه العقلي في الاستواء بقول شاعر:

قد استوى بشرٌ على العراق من غير سيف ودم مهراقِ[١]

وأين استواءُ بشرٍ على العراق مِن استواءِ الرَّحمن على العرش.

ونهايةُ الأمر يَحتاجُ إلى القول بأن المراد استيلاءٌ يَليقُ بشأن الرَّحمن جلَّ شأنُه، فليقل مِن أول الأمر قبلَ تحمُّل مؤنةِ هذا التأويل: استواءٌ يليق بشأنِ مَن عزَّ شأنه، وتعالى عن إدراك العقول سلطانُه، وهذا أليقُ بالأدب، وأوفقُ بكمال العبودية، وعليه درَج صدرُ الأُمة وساداتُها، وإياها اختار أئمةُ الفقهاء وقاداتها، وإليها دعا أئمةُ الحديث في القديم والحديث، حتى قال محمدُ بن الحسن كما أخرجه عنه اللالكائي[٢]: اتفقَ الفقهاء كلُّهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه.

وورد عن سليمان بن يسار أن رجلاً يقال له صبيغ قدِم المدينةَ، فجعل يَسأل عن متشابِهِ القرآن، فأرسل إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد أعدَّ له عراجين النخل، فقال: مَن أنت؟ فقال: أنا عبد الله صبيغ، فأخذ عمر عُرجوناً من تلك العراجين فضربه حتى أدمى رأسَه. وفي رواية: فضربه بالجريد حتى ترك ظهرَه دبرة، ثم تركه حتى برئ، ثم عاد إليه، ثم تركه حتى برئ، فدعا به ليعود، فقال: إن كنت تريد قتلي[٣] فاقتلني قتلاً جميلاً، فأذِن له إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن لا يجالسَه أحدٌ من المسلمين[٤].

---

(١) نسب للأخطل كما في المحرر الوجيز ١/ ١١٥، وتاج العروس (سوى)، ونسبه المرزوقي في الأزمنة والأمكنة ١/ ٣٨ للبعيث، وهو دون نسبة في الصحاح (سوى)، والحلل للبطليوسي ص٣٠٩، ويتيمة الدهر ٥/ ٢٧٦. وقال ابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة ص٣٥٩: وهو غير معروف في شيء من دواوين العرب وأشعارهم التي يرجع إليها.

(٢) في شرح أصول الاعتقاد (٧٤٠).

(٣) في (م) قتلتي.

(٤) أخرجه الدارمي (١٤٤)، وابن وضاح في البدع ص٥٦، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١١٣٧). ووقع اسم الرجل في الأصل و(م): ضبيع، وهو خطأ. ينظر الإصابة ٥/ ١٦٨.

لا يقال: إن تركت أمثالَ هذه المتشابهات على ظواهرها دلَّت على التجسيم، وإنْ لم تُرِدْ ظواهرها فقد أوَّلت؛ لأن التأويل على ما قالوا: إخراجُ الكلام عن ظاهره.

لأنا نقول: نختارُ الشقَّ الثاني، ولا نسلِّم أن التأويل إخراج الكلام عن ظاهره مطلقاً، بل: إخراجه إلى معنًى معيَّنٍ معلوم، كما يقال: الاستواء ـ مثلاً ـ بمعنى الاستيلاء، على أن للتأويل معنيين مشهورَين لا يَصْدُقُ شيءٌ منهما على نفي الظاهر من غير تعيينٍ للمراد، أحدهما: ترجمة الشيء وتفسيره الموضح له. وثانيهما: بيان حقيقتِه وإبرازُها إمَّا بالعلم أو بالعقل. فإنَّ من قال بعد التنزيه: لا أدري من هذه المتشابهات سِوى أنَّ الله تعالى وصفَ بها نفسَه وأراد منها معنى لائقاً بجلالِهِ جلَّ جلالُهُ، ولا أعرفُ ذلك المعنى، لم يُقَلْ في حقِّه أنه ترجَم وأوضَح، ولا بيَّن الحقيقة وأبرَز المراد، حتى يقال: إنه أوَّل.

ومَن أمعن النظرَ في مأخذ التأويل لم يشكَّ في صحَّة ما قلنا، نعم ذهَبت شرذمةٌ قليلة من السَّلف إلى إبقاء نحو المذكورات على ظواهرها، إلا أنهم يَنفون لوازمَها المنقدحةَ للذهن الموجبةَ لنسبة النقص إليه عزَّ شأنُه، ويقولون: إنما هي لوازم لا يصحُّ انفكاكها عن ملزوماتها في صفاتنا الحادثة، وأما في صفات مَن ليس كمثله شيء فليست بلوازم في الحقيقة، ليكون القول بانفكاكها سفسطةً، وأين الترابُ من ربِّ الأرباب؟! وكأنهم إنما قالوا ذلك ظنًّا منهم أن قولَ الآخرين من السلف تأويلٌ، والراسخون في العلم لا يذهبون إليه، أو أنَّهم وجدوا بعضَ الآثار يُشعرُ بذلك، مثل ما حكى مقاتلٌ والكلبيُّ عن ابن عباس في «استوى» أنه بمعنى استقرَّ، وما أخرجه أبو القاسم من طريق قرَّة بن خالد، عن الحسن، عن أمِّه، عن أمِّ سَلمة في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] أنها قالت: الكيفُ غيرُ معقول، والاستواءُ غير مجهول، والإقرارُ به من الإيمان، والجحودُ به كفر(١).

وقريبٌ من هذا القول مايصرِّح به كلامُ كثير من ساداتنا الصوفية، فإنهم قالوا: إن هذه المتشابهات تجري على ظواهرها، مع القول بالتنزيه الدَّال عليه قولهُ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ حيث إن وجود الحقِّ تعالى شأنه لا تقيده الأكوان وإن تجلَّى

---

(١) شرح أصول الاعتقاد (٦٦٣). قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٥/ ٣٦٥: روي عنها موقوفاً ومرفوعاً، ولكن ليس إسناده مما يعتمد عليه.

فيما شاء منها؛ إذ له كمالُ الإطلاق حتى عن قيدِ الإطلاق، ولا يخفى أن إجراء المتشابهات على ظاهرِها مع التنزيه اللائق بجلال ذاته سبحانه طور ما وراء طورِ العقل، وبحرٌ لا يسبح فيه إلا مَن فاز بقرَب النوافل.

وذكر بعضُ أئمة التدقيق أنَّ العقلَ سبيله في العلم بالصفات الثمانية المشهورة كعلمه بتلك الصفات التي يدَّعي الخلف رجوعَها إليها إذا أحدَّ النظر، فقد قام البرهان وشاهد العيان على عدم المماثلة ذاتاً وصفاتٍ أيضاً، لكنْ صفاتُه المتعالية وأسماؤه الحسنى قسمان:

قسمٌ يناسب ما عندنا من الصفات نوعَ مناسَبةٍ وإن كانت بعيدة، ولا يقال: فلا بدَّ فيه في أفهامنا معاشرَ الناقصين من أن يسمَّى بتلك الأسماء المشتَهِرة عندنا، فيسمى علماً مثلاً، لا دواةً ولا قلماً.

وقسم ليس كذلك، وهو المشارُ إليه بقوله ﷺ: «أو استأثرتَ به في علم الغيب عندَك»(١) فقد يذكر له أسماء مشوقة؛ لأن منه ما للإنسان الكامل منه نصيبٌ بطريق التخلُّق والتحقُّق، فيذكر تارةً اليدَ والنزول والقَدَمَ ونحو ذلك من المخيلات، مع العلم البرهاني والشهود الوجداني بتنزُّهه تعالى عن كلِّ(٢)كمالٍ يتصوره الإنسانُ ويحيط به، فضلاً عن النقصان، فيعلم أنه أشار إلى ذلك القسم الذي علم بالإجمال، ويتوجَّه إذْ ذاك بكلِّيته شطرَ كعبة الجلال والجمال، فيفاض عليه من ينبوع الكمال ما يستأنس(٣) عنده وينكشف له جليةُ الحال، وإذ ليس له مناسبة بما عندنا، لا توجد عبارة يُترجم عنها إلا على سبيل الخيال، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «مَن عَرَفَ اللهَ تعالى كَلَّ لسانُه»(٤)، وأخرى بين مقصد الكلّ، ومَن أحبَّه سبحانه ما يُصان عن تُهمة إدراك الأغيار من نحو تلك الفواتح، ولعلَّ إدراكها عند أهلها

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٣٧١٢)، والحاكم ١/ ٥٠٩ ـ ٥١٠ عن عبد الله بن مسعود ﷺ. وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٣٩) عن أبي موسى الأشعري ﷺ، وحديث ابن مسعود حسنه الحافظ ابن حجر كما في الفتوحات الربانية لابن علان ٤/ ١٣، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند.

(٢) قوله: كل، ليس في الأصل.

(٣) في الأصل: يستأمن.

(٤) ذكره الملا علي القاري في المصنوع ص١٨٩، وقال: قال النووي: ليس بثابت.

كإدراك الأوليات، إلا أنه لا إحاطة بل لا بدَّ من بقاء شيء كما أشير إليه، وعلى هذا أيضاً الأليقُ أن يوقف؛ لأنه شعارُ مَن لنا فيهم الأسوةُ الحسنة، مع ظهور وجهه، لكن لا تجعل الآية حجةً على مَن تأوَّل نحو: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] مثلاً؛ إذ لا يُسلَّم أنه داخلٌ في ذلك المتشابِه، والحملُ على المجاز الشائع في كلام العرب، والكناية البالغةِ في الشُّهرة مبلغَ الحقيقة، أظهرُ من الحمل على معنى مجهولٍ. نعم لو قيل: إن تصوير العظمة على هذا الوجه دالٌّ على أن العقل غيرُ مستقلٍّ بإدراكِها، وأنها أَجلُّ من أن تحيط بها العقولُ، فالكنهُ من المتشابِه الذي دلَّت الآية عليه ويجب الإيمان به، كان حسناً وجمعاً بين ما عليه السلفُ ومشَى عليه الخلَفُ، وهو الذي يجب أن يُعتقد كَيلا يلزم ازدراءٌ بأحدِ الفريقين، كما فعل ابنُ القيم حتى قال: لام الأشعرية(١) كنون اليهودية، أعاذنا اللهُ تعالى من ذلك.

وعلى هذا يجب أن يفسَّر المتشابه في الآية بما يعمُّ القسمين، والمحكمُ أمٌّ يُرجع إليه في تمييز القسمين، أحدهما فرعه الإيماني، والثاني فرعه الإيقاني، وابنُ دقيق العيد توسَّط في مسألة التأويل، ويحتمل أنه لم يخرج ما قاله هذا المدقِّق أخيراً من المتشابه، فقال(٢): إذا كان التأويل قريباً من لسان العرب لم ينكر، أو بعيداً توقَّفنا عنه وآمنَّا بمعناه على الوجه الذي أريد به مع التنزيه، وما كان معناه من هذه الألفاظ ظاهراً معهوداً مِن تَخاطُب العرب قلنا به من غير توقف(٣) كما في قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] فنحمله على حقِّ الله تعالى وما يجب له. فليفهم هذا المقام؛ فكم زلَّت فيه أقوامٌ بعد أقوام.

---

(١) ذِكْر الأشعرية في هذا الموضع وهم، والذي في قصيدة ابن القيم:

أُمر اليهود بأن يقولوا حطة ... فأبوا وقالوا حنطة لهوان

وكذلك الجهمي قيل له استوى ... فأبى وزاد الحرف للنقصان

ينظر شرح قصيدة ابن القيم ٢/ ٢٦. وقد ذكر ابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة ص٣٦٥ أن أئمة السنة متفقون على أن تفسير الاستواء بالاستيلاء إنما هو متلقًّى عن المعتزلة والجهمية والخوارج، وذكر ص٣٥٢ أن الأشعري حكاه عن الجهمية وبدَّعهم وضلَّلهم، ثم ذكر عن الأشعري أنه حكى إجماع أهل السنة على بطلان تفسير الاستواء بالاستيلاء. وينظر الإبانة للأشعري ص ٣١ وما بعدها.

(٢) قوله في الإتقان ١/ ٦٥١.

(٣) في الإتقان: توقيف.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ يَحتمل أن يكون من تمام مقالة الراسخين، ويحتمل أن يكون على معنى التعليم، أي: قولوا ربَّنا لا تُزِغْ قلوبنا عن نهج الحقِّ إلى اتِّباع المتشابِهِ بتأويلٍ لا تَرْتَضيه ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ إلى معالم الحقِّ من التفويض في المتشابه، أو الإيمان بالقسمين، أو التأويل الصحيح، ويَؤُول المعنى إلى لا تضلَّنا بعد الهداية؛ لأن زَيْغَ القلوب في مقابلة الهداية، ومقابلة الهداية الإضلال، وصحَّة نسبة ذلك إلى الله تعالى ـ على مذهب أهل السنة في أفعال العباد ـ ظاهرةٌ، والمعتزلة يؤوِّلون ذلك بنحو: لا تَبْلُنا ببلايا تَزيغُ بسببها قلوبُنا، ولا تمنعْنا ألطافَك بعد أن لَطَفْتَ بنا.

وإنَّما دَعَوْا بذلك، أو أُمروا بالدعاء به؛ لأن القلوب تتقلَّب، ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو: «يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك» قلت: يا رسول الله، ما أكثرَ ما تدعوا بهذا الدعاء؟ فقال: «ليس من قلبٍ إلَّا وهو بين إصبعين من أصابع الرَّحمن، إن شاء أن يُقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه»[(١)].

وأخرج الحكيم الترمذي من طريق عتبة بن عبد الله بن خالد بن معدان، عن أبيه، عن جدِّه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الإيمانُ بمنزلة القميص، مرَّة تقمصُه، ومرَّةً تنزعه»[(٢)].

والروايات بمعنى ذلك كثيرة، هي تدلُّ على جواز عروض الكفر بعد الإيمان بطروِّ الشكِّ مثلاً، والعياذ بالله تعالى. وفي كلام الصحابة رضي الله عنهم أيضاً ما يدلُّ على ذلك، فقد أخرج ابن سعد[(٣)] عن أبي عطاف أنَّ أبا هريرة كان يقول: أيْ ربِّ لا أَزنينَّ، أي ربِّ لا أسرقنَّ، أي ربِّ لا أكفُرَنَّ. قيل له: أوَ تخافُ؟ قال: آمنتُ بمحرِّف القلوب، ثلاثاً.

وأخرج الحكيم الترمذيُّ عن أبي الدرداء، قال: كان عبد الله بن رواحة إذا لقيني قال: اجلس يا عويمر فلنؤمن ساعةً. فنجلس فنذكرُ اللهَ تعالى على ما يشاء،

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٦٠٤)، والنسائي في الكبرى (٧٦٩٠).
(٢) نوادر الأصول ص٧٤، وهو حديث مرسل.
(٣) كما في الدر المنثور ٢/ ٩، وأخرجه أيضاً ابن عساكر في تاريخه ٦٧/ ٣٦٩.

ثم قال: يا عويمر هذه مجالسُ الإيمان، إنَّ مثل الإيمان ومثلك كمثل قميصك بينا أنت قد نزعتَه إذ لبسته، وبينا أنت قد لبستَه إذ نزعته، يا عويمر لَلْقلبُ أسرعُ تقلُّباً من القدْر إذا استجمعَت غلياناً[1].

وعن أبي أيوب الأنصاري: ليأتين على الرجل أحايين وما في جلده موضع إبرةٍ من النِّفاق، ولَيَأتِينَّ عليه أحايين وما في جلده موضعُ إبرة من إيمان[2].

وادَّعى بعضهم أن هذا بالنسبة إلى الإيمان الغير الكاملِ، وما رجَع مَن رجع إلَّا من الطريق، وأمَّا بعد حصول الإيمان الكامل والتصديق الجازم والعلم الثابت المطابِقِ، فلا يُتصور رجعة وكفرٌ أصلاً؛ لئلَّا يلزم انقلابُ العلم جهلاً، وهو محالٌ، والتزَمَ تأويلَ جميع ما يدلُّ على ذلك. ولا يخفى أن هذا القول مما يَكاد يَجُرُّ إلى الأمن مِن مَكْر الله تعالى، والتزامُ تأويلِ النصوص لشبهة اختلَجت في الصَّدر هي أَوْهَنُ من بيت العنكبوت ـ في التحقيق ـ مما لا يقدُم عليه مَن له أدنى مُسْكَة، كما لا يخفى، فتدبَّر.

و«بَعْدَ» منصوب على الظرفية والعاملُ فيه «تُزغ»، و«إذ» مضافٌ إليه، وهي متصرِّفة كما ذكَره أجلَّة النحويين، وأمَّا القولُ بأنها بمعنى «أنْ» المصدريةِ المفتوحةِ الهمزة، والمعنى: بعد هِدايتنا، فممَّا ذكره الحوفي في إعراب القرآن ولم يُرَ لغيره، والمذكور في النحو أنها تكون حرف تعليل فتؤوَّل مع ما بعدها بالمصدر، نحو ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ [الزخرف: ٣٩] أي: لظلمكم، فإن كان أَخذَه[3] من هذا فهو كما ترى. وقرئ: «لا تَزِغ» بالياء والتاء ورفع القلوب[4].

﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ﴾ كلا الجارَّين متعلِّق بـ «هَبْ»، وتقديم الأول اعتناءً به وتشويقاً إلى الثاني، ويجوز تعلُّق الثاني بمحذوفٍ هو حال من المفعول، أي: كائنةً من لدنك. و«من» لابتداء الغاية المجازية.

---

(١) نوادر الأصول ص٧٤، وأخرجه بنحوه ابن المبارك في الزهد (١٣٩٥).
(٢) نوادر الأصول ص٧٤.
(٣) في الأصل و(م): أخذ، والمثبت من حاشية الشهاب ٣/ ٨، والكلام منه، والضمير يعود على الحوفي.
(٤) القراءات الشاذة ص ١٩، والمحتسب ١/ ١٥٤.

و«لدن» ظرف، وهي لأول غايةِ زمانٍ أو مكانٍ، أو غيرهما من الذَّوات، نحو: مِن لَدُنْ زيدٍ، وليست مرادفةً لـ «عند»، بل قد تكون بمعناها، وبعضهم يقيِّدها بظرف المكان، وهي ملازمةٌ للإضافة فلا تنفكُّ عنها بحالٍ، فتارة تضاف إلى المفرد، وتارةً إلى الجملة الاسمية أو الفعلية، وقلَّما تخلو عن «من». وفيها لغتان: الإعراب ـ وهي لغة قيس ـ والبناء، وهي اللغةُ المشهورة، وسببهُ شَبَهُها بالحرف في لزوم استعمالٍ واحدٍ وامتناعِ الإخبار بها، بخلاف «عند» و«لدى»؛ فإنهما لا يلزمان استعمالاً واحداً؛ إذ يكونان فضلةً وعُمدة، وغايةً وغيرَ غاية. قيل: ولقوَّة هذا الشَّبَه لا تعرب إذا أضيفت في المشهور.

واللغتان المذكورتان من الإعراب والبناء مختصَّان بـ «لَدُن» المفتوحةِ اللَّام المضمومة الدَّال الواقعِ آخرها نون، وأمَّا بقية لغاتها فإنها فيها مبنية عند جميع العرب، وفيها لغات، المشهورةُ منها ما تقدَّم، ولَدَن ولَدِن بفتح الدال وكسرها، ولَدْن ولُدْن بفتح اللام وضمها مع سكون الدال، ولَدُ[1] بفتح اللام وضمِّ الدال، و[لَتْ] بإبدال الدال تاءً ساكنة، ومتى أضيفت المحذوفة النون إلى ضمير وَجَب ردُّ النون.

﴿رَحۡمَةً﴾ مفعول لـ «هَبْ» وتنوينُه للتفخيم، والمرادُ بالرحمة الإحسان والإنعام مطلقاً، وقيل: الإنعام المخصوص، وهو التوفيق للثبات على الحقِّ، وفي سؤال ذلك بلفظ «الهبة» إشارةٌ إلى أن ذلك منه تعالى تفضُّلٌ مَحْضٌ من غير شائبةِ وجوبٍ عليه عزَّ شأنه، وتأخيرُ المفعول الصريح للتشويق.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨﴾ تعليل للسؤال أو لإعطاء المسؤول، و«أنت» إمَّا مبتدأ، أو فصل، أو تأكيد لاسم «إنَّ». وحذف المعمول لإفادة العموم، كما في قولهم: فلان يعطي. واختيار صيغة المبالَغة على «فعَّال» قيل: لمناسبَةِ رؤوسِ الآي.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾ أي: المكلَّفين وغيرهم ﴿لِيَوۡمٍ﴾ أي: لحسابِ يومٍ، أو: لجزاءِ يوم، فحذِف المضافُ وأقيم المضاف إليه مقامه تهويلاً لما يقع فيه.

وقيل: اللام بمعنى «إلى» أي: جامِعُهم في القبور إلى يوم.

---

(١) في الأصل و(م): لدن، والمثبت هو الصواب، وهو الموافق لما في الدر المصون ٣/ ٣٤، والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ أي: لا ينبغي أن يُرتاب في وقوعه ووقوعِ ما فيه من الحشر والحساب والجزاء. وقيل: الضمير المجرور للحُكم، أي: لاريب في هذا الحكم، فالجملة على الأول صفةٌ ليوم، وعلى الثاني لتأكيد الحكم. ومقصودُهم من هذا ـ كما قال غيرُ واحد ـ عرضُ كمالِ افتقارِهم إلى الرَّحمة، وأنها المقصد الأسنى عندهم. والتأكيدُ لإظهار ما هم عليه من كمال الطمأنينة وقوَّةِ اليقين بأحوال الآخرة لمزيد الرَّغبة في استنزال طائر الإجابة. وقرئ: «جامعٌ الناسَ» بالتنوين[١].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ⑨﴾ تعليلٌ لمضمون الجملة المؤكِّدة، أو لانتفاء الرَّيب. وقيل: تأكيد بعد تأكيد للحكم السَّابق. وإظهارُ الاسم الجليل مع الالتفات؛ للإشارة إلى تعظيم الموعود، والإجلال الناشئ من ذِكر اليوم المهيب الهائل، وللإشعار بعلَّة الحكم، فإن الألوهية منافية للإخلاف، وهذا بخلاف ما في آخر السورة، حيث أتى بلفظ الخطاب فيه لِمَا أنَّ مقامه مقامُ طلبِ الإنعام.

وقال الكرخي: الفرق بينهما أنَّ ما هنا متصلٌ بما قبله اتصالاً لفظيًّا فقط، وما في الآخِر متَّصلٌ اتصالاً معنوياً ولفظياً، لتقدُّم لفظ الوعد.

وجوِّز أن تكون هذه الجملة من كلامه تعالى لتقرير قول الراسخين لا من كلام الراسخين، فلا التفاتَ حينئذٍ، قال السفاقسي: وهو الظاهر.

و«الميعاد» مصدر ميمي بمعنى الحَدث لا بمعنى الزمان والمكان، وهو اللائق بمفعولية «يخلف»، وياؤه منقلبة عن واوٍ لانكسار ما قبلها.

واستَدَلَّ بها الوعيديةُ[٢] على وجوب العقاب للعاصي عليه تعالى وإلا يلزم الخُلف.

وأجيب عنه بأن وعيد الفسَّاق مشروطٌ بعدم العفو بدلائل منفصلة، كما هو مشروط بعدم التوبة وفاقاً. وقيل: هو إنشاء فلا يلزم محذورٌ في تخلُّفه. وقيل: ما في الآية ليس محلًّا للنزاع؛ لأن الميعاد فيه مصدرٌ بمعنى الوعد، ولا يلزم من عدم خلف الوعد عدمُ خلف الوعيد؛ لأن الأول مقتضى الكرم كما قال:

وإني إذا أَوْعَدْتُه أووَعَدْتُهُ لَمخْلِفُ إيعادي ومُنجزُ موعدي[٣]

---

(١) القراءات الشاذة ص١٩ عن الحسن ومسلم بن جندب.

(٢) وهم المعتزلة القائلون بوجوب الثواب والعقاب. حاشية الشهاب ٣/ ٨.

(٣) البيت لعامر بن الطفيل، وهو في ديوانه ص٩٤.

واعتُرِض بأن الوعيد الذي هو محلُّ النزاع داخلٌ تحتَ الوعد بدليل قوله تعالى: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤].

وأجيب بأنَّا لا نسلِّم الدخول، والآيةُ من باب التهكم، فهي على حدِّ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

و اعتُرِض أيضاً بأنَّ كون الخُلف في الإيعاد مقتضى الكرم لا يجوِّز الخُلفَ على الله تعالى؛ لأنه يلزم حينئذٍ صحَّةُ أن يُسَمَّى الله تعالى مكذِّبَ نفسِه، وهو مما لايقدم عليه أحدٌ من المسلمين. وأجيب عنه بما تَرْكُه أَصْوَبُ مِن ذِكْره، فالحقُّ الرجوعُ إلى الجواب الأول.

❀ ❀ ❀

هذا ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿الٓمٓ﴾ تقدَّم الكلام عليه، وذكر بعضُ ساداتنا فيه: أنه أُشير به إلى كلِّ الوجود من حيث هو كلّ؛ لأن «أ» إشارة إلى الذَّات الذي هو أول الوجود، وهو مرتبة الإطلاق، و«ل» إلى العقل المسمَّى بجبريل الذي هو وسط الوجود، الذي يَستفيض من المبدأ ويُفيض إلى المنتهى، و«م» إلى محمد ﷺ الذي هو آخِرُ الوجود، وبه تتمُّ دائرتُه، ولهذا كان الختم.

وقال بعضهم: إن «ل» ركِّبت من أَلِفَيْن، أي: وضعت بإزاء الذَّات مع صفة العلم اللذين هما عالَمان من العوالم الثلاثة الإلهية التي أشرنا إليها، فهو اسم من أسمائه تعالى، وأما «م» فهي إشارة إلى الذَّات مع جميع الصِّفات والأفعال التي احتَجَبت بها في الصورة المحمَّدية، التي هي اسمُ الله تعالى الأعظم، بحيث لا يَعرِفها إلا مَن يعرفها، ألا ترى أنّ«أ» التي هي لصورة الذَّات كيف احتجبت فيها، فإن الميم فيها الياء وفي الياء ألف.

ولتضمُّن «ألم» الإشارةَ إلى مراتب الوجود والحقيقة المحمَّدية ناسَب أن تفتتح بها هذه الآياتُ المتضمِّنة للرَّدِّ على النَّصارى الذين أخطؤوا في التوحيد، ولم يَعرفوه على وجهه، ولهذا أَردفه سبحانه بقوله: ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا موجودَ في سائر العوالم حقيقةً إلا هو، إذ لا أحدَ أَغْيَرُ من الله تعالى جلَّ جلالهُ ﴿الْحَيُّ﴾ أي: المتَّصف بالحياة الكامِلة على وجهٍ يليق بذاته ﴿الْقَيُّومُ﴾ القائم بتدبير الأعيان الثابتة بظهوره فيها حسب استعدادِها الأزلي الغير المجعول.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو: العِلْمُ المفيد لمقام الجمع، وهو التوحيد الذي تفنى فيه الكثرةُ، ولا يشاهَد فيه التعدُّد متلبِّساً بالحقِّ، وهو الثابت الذي لا يَعتريه تغيُّرٌ في ذاته ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوحيد الأول الأزلي السَّابق، المعلوم في العهد الأول، المخزون في غَيبِ الاستعداد ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ إلى معالم التوحيد ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ وهو التوحيد التفصيليُّ الذي هو الحقُّ باعتبار الفَرْق، وهو منشأُ الاستقامة ومبدأ الدعوة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: احتَجَبوا عن هذين التوحيدين بالمَظَاهر والأكوان ورؤيةِ الأغيار، ولم يؤمنوا ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تعالى الدالة على أنَّ له سبحانه رتبةَ الإطلاق، وله الظهور والتجلِّي بما شاء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في البُعد والحرمان عن حظائر العرفان ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ قاهر ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ شديدٍ بمقتضى صفاتِه الجلالية.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ﴾ في أرحام الوجود ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ لأنكم المظاهر لأسمائه والمجلِّي لذاته ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القاهرُ للأعيان الثابتة، فلا تَشمُّ رائحةَ الوجود بنفسها أبداً ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يُظهرُها بوجوده الحقِّ، ويتجلَّى بها حسبما تقتضيه الحكمةُ.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ متنوِّعاً في الظهور ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ أُحكمت مِن أن يتطرَّق إليها الاحتمالُ والاشتباه، فلا تحتمل إلا معنًى واحداً ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ والأصلُ ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ تحتمل معنيين فأكثر، ويقعُ فيها الاشتباهُ؛ وذلك أنَّ الحقَّ تعالى له وجهٌ واحدٌ وهو المطلَقُ الباقي بعد فناء خَلْقِه، لا يَحتملُ التكثُّر من ذلك الوجه، وله وجوه متكثِّرة بحسب المرايا والمَظَاهر بها يقع الاشتباه، فوَرَد التنزيلُ كذلك.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: ميلٌ عن الحقِّ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ﴾ لاحتجابِهم بالكثرة عن الوحدة ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ الذي يرجع إليه إلا الله، ويعلمه الراسخون في العلم الذين لم يَحتجبوا بأحدِ الأمرين عن الآخر، بعلمه الذي مُنحوه بواسطة قُربِ النوافل، لا بالعلم الفكريِّ الحاصل بواسطة الأقيسة المنطقية؛ وبهذا يَحصل الجمعُ بين الوقف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ والوقف على ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ بذلك العلم الواحد المفصَّل في التفاصيل المتشابهة المتكثِّرة ﴿إِلَّآ

أُولُوا الأَلْبَٰبِ﴾ الذين صَفَتْ عقولُهم بنور الهداية، وتجرَّدت عن قِشْرِ الهوى والعادة.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ بالنظر إلى الأكوان، والاحتجابِ بها عن مُكوِّنها ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ بنورك إلى صراطك المستقيم، ومشاهدتك في مراتب الوجود والمرايا المتعدِّدة ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ خاصَّةً تَمحو صفاتِنا بصفاتك وظُلماتِنا بأنوارك ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ المعطي للقوابل حسب القابليَّات.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ﴾ على اختلاف مراتبهم ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو يومُ الجَمعِ الذي هو الوصولُ إلى مقام الوحدة عند كشف الغطا، وطلوعِ شمس العِيان ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ لتظهر صفاتُه الجمالية والجلالية، ولذلك خَلَق الخلقَ وتجلَّى للأعيان، فأظهرها كيف شاء.

❁ ❁ ❁

هذا ثمَّ لمَّا بيَّن سبحانه الدِّين الحقَّ والتوحيد، وذَكَر أحوالَ الكتبِ الناطقة به، وشرَح حالَ القرآن العظيم وكيفيةَ إيمان الراسخين به، أَردَف ذلك ببيان حالِ مَن كَفَر به بقوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الظاهرُ أنَّ المراد بهم جنسُ الكَفَرة الشاملُ لجميع الأصناف، وقيل: وفد نجران، أو اليهودُ من قريظة والنضير؛ وحكي عن ابن عباس رضي الله عنهما. أو مشركو العرب.

﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ أي: لن تنفعهم، وقرئ بالتذكيرِ وسكون الياء[١]، وهو من الجدِّ في استثقال الحركة على حروف اللِّين ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ التي أَعدُّوها لدفع المضارِّ وجلبِ المصالح﴿وَلَا أَوْلَادُهُم﴾ الذين يَتناصرون بهم في الأمور المهمَّة، ويُعوِّلون عليهم في الملمَّات المدلَهِمَّة. وتأخيرهم عن الأموال مع توسيط حرف النفي - كما قال شيخ الإسلام[٢] - إما لعَرَاقتِهم في كشف الكروب، أو لأن الأموالَ أولُ عدَّةٍ يُفزع إليها عند نزول الخطوب.

﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: من عذابه تعالى، فـ «من» لابتداء الغاية كما قال المبرِّد، وقوله تعالى: ﴿شَيْئًا﴾ نصب على المصدرية، أي: شيئاً من الإغناء. وجوَّز أن يكون مفعولاً به؛ لما في «أغنى» من معنى الدفع، و«مِن» للتبعيض، وهي متعلِّقة

(١) القراءات الشاذة ص١٩ عن علي رضي الله عنه.
(٢) هو أبو السعود في تفسيره ٢/ ١٠.

بمحذوف وقع صفة له، إلا أنها قدِّمت عليه فصارت حالاً. وأن يكون مفعولاً ثانياً، بناءً على أنَّ معنى أغنى عنه: كفاه، ولا يخفى ما فيه.

وقال أبو عبيدة[(١)]: «من» هنا بمعنى عند، وهو ضعيف.

وقال غيرُ واحدٍ: هي بدليةٌ مثلها في قوله:

فليت لنا من ماءِ زمزمَ شَربةً ... مبرَّدةً باتت على طَهَيان[(٢)]

ومن ذلك قوله ﷺ: «ولا ينفعُ ذا الجدِّ منك الجدُّ»[(٣)] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزخرف: ٦٠] والمعنى: لن تغني عنهم بدلَ رحمة الله تعالى ـ أو بدلَ طاعته سبحانه ـ أموالُهم ولا أولادُهم.

ونَفَى ذلك سبحانه مع أنَّ احتمالَ سدِّ أموالِهم وأولادهم مسدَّ رحمةِ الله تعالى وطاعته عزَّ شأنُه مما يَبعد، بل لا يَكادُ يَخطرُ ببالٍ حتى يتصدَّى لنفيه، إشارةً إلى أن هؤلاء الكفار قد أَلْهتهم أموالُهم وأولادهم عن الله تعالى والنظرِ فيما ينبغي له، إلى حيثُ يخيَّل للرائي أنهم ممن يَعتقد أنها تسدُّ مسدَّ رحمة الله تعالى وطاعته، وقريبٌ من ذلك قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧].

واعتُرض بأن أكثرَ النحاةِ ـ كما في «البحر»[(٤)] ـ ينكرون إثباتَ البدلية لـ «مِن»، مع أنَّ الأول هو الأليقُ في الظاهر بتهويل أمر الكَفَرة، والأنسبُ بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾ وكذا بما بعدُ.

والوَقود بفتح الواو، وهي قراءة الجمهور: الحطبُ، أي: أولئك المتَّصفون بالكفر، المبعَدون عن عزِّ الحضور، حطبُ النار التي تُسَعَّر به لكفرهم.

وقيل: الوَقود بالفتح لغةٌ في الوُقود بالضم ـ وبه قرأ الحسن[(٥)] ـ مصدرٌ بمعنى

---

(١) في مجاز القرآن ١/ ٨٦.

(٢) البيت ليعْلَى الأحول الأزْدي كما في الأغاني ٢٢/ ١٤٧، والخزانة ٥/ ٢٧٦ و٩/ ٤٥٣، ونسبه ياقوت في معجم البلدان ٤/ ٥٢ للأحول الكندي، قال البغدادي: هذا خلاف ما عليه الرواة؛ فإنهم قالوا: إن البيت آخر قصيدة ليعلى الأزدي. وطهيان: جبل.

(٣) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. وأخرجه أحمد (١١٨٢٨)، ومسلم (٤٧٧) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) ٢/ ٣٨٨.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٥٨، وهي في القراءات الشاذة ص١٩ عن طلحة بن مصرف.

الإيقاد، فيقدَّر حينئذٍ مضاف، أي: أهل وقودِها. والأول هو الصحيح.

وإيثارُ الجملة الاسمية للدلالة على تحقُّق الأمر وتقرُّرِه، أو للإيذان بأنَّ حقيقة حالِهم ذلك، وأنهم في حال كونهم في الدنيا وقودُ النار بأعيانهم، وهي إما مستأنفةٌ مقرِّرةٌ لعدم الإغناء، أو معطوفة على الجملة الأولى الواقعة خبراً لـ «إنَّ»، و«هم» يحتملُ أن يكون مبتدأ، ويحتمل أن يكون فصلاً.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الدأبُ: العادةُ والشأن، وأصلُه مِن دَأَب في الشيء دأباً ودؤوباً: إذا اجتَهد فيه وبالغَ، أي: حالُ هؤلاء في الكفر واستحقاقِ العذاب كحالِ آل فرعون، فالجارُّ والمجرور خبرٌ لمبتدأ محذوف، والجملة منفصلة عمَّا قبلها مستأنَفَةٌ استئنافاً بيانيّاً، بتقدير: ما سبب هذا؟ على ما قاله بعضُ المحققين.

ومن الناس مَن جوَّز أن يكون الجارُّ متعلِّقاً بمحذوفٍ وقع صفةً لمصدرِ «تغني»، أي: إغناءً كائناً كعَدَمِ إغناءٍ، أوبـ «وقود»، أي: توقدُ بهم كما توقد بأولئك.

ولا يَخْفَى ما في الوجهين:

أما الأول: فقد قال فيه أبو حيان[1]: إنه ضعيف؛ للفصل بين العامل والمعمول بالجملة التي هي: «وأولئك..» إلخ إذا قدِّرت معطوفة، فإن قدِّرت استئنافية ـ وهو بعيدٌ ـ جاز.

وأما الثاني: فقد اعترضه الحلبي[2]: بأن«الوَقود» على المشهور الأظهرُ فيه [أنه] اسمٌ لِمَا يوقَد به، وإذا كان اسماً فلا عمل له، فإن قيل: إنه مصدر ـ كما في قراءة الحسن ـ صحَّ، لكنه لم يصحَّ.

وأُورد عليهما معاً أنهما خلاف الظاهر؛ لأن المذكور في تفسير«الدأب» إنما هو التكذيب والأخذ، من غير تعرُّض لعدم الإغناء ـ لا سيَّما على تقدير كون «مِن» بدلية ـ ولا لإيقاد النار، فليفهم.

﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهم كفار الأمم الماضية، فالضمير لآل فرعون، وقيل: لـ «الذين كفروا» والمراد بالموصول مُعاصِرو رسولِ الله ﷺ.

---

(١) في البحر ٢/ ٣٨٩.

(٢) في الدر المصون ٣/ ٣٨، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ تفسير لدأبهم الذي فعلوا على سبيل الاستئناف البياني، والمراد بالآيات إما المتلوَّة في كُتب الله تعالى، أو العلامات الدالَّة على توحيد الله تعالى وصدق أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ تفسير لدأبهم الذي فُعِلَ بهم، أي: فعاقَبَهم اللهُ تعالى، ولم يجدوا من بأس اللهِ تعالى مَحيصاً.

وقيل: إن جملة «كذَّبوا . .» إلخ في حيِّز النصب على الحال من «آل فرعون والذين من قبلهم» بإضمار«قد». ويجوز ـ على بُعدٍ ـ أن تكون في حيِّز الرفع على أنها خبرٌ عن «الذين». والالتفاتُ للتكلُّم أولاً في«آياتنا» للجري على سَنَن الكبرياء، وإلى الغيبة ثانياً بإظهار الجلالة؛ لتربية المهابة وإدخال الرَّوعة.

﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بسببها، أو متلبِّسين بها غير تائبين، والمراد من الذنوب ـ على الأول ـ التكذيبُ بالآيات المتعددة، وجيء بالسببية تأكيداً لِمَا تفيده الفاء، وعلى الثاني سائرُ الذنوب، وفي ذلك إشارةٌ إلى أن لهم ذُنوباً أُخَر. وأصلُ الذَّنْبِ: التِّلْوُ والتابع، ثم أُطلق على الجريمة لأنها يتلو ـ أي: يتبع ـ عقابُها فاعلَها.

﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ لمن كفرَ بآياته، والجملة تذييل مقرِّرةٌ لمضمون ما قَبْلَها من الأخذ.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ روى أبو صالح عن ابن عباس ﵄: أنَّ يهودَ أهل المدينة قالوا لمَّا هزَم اللهُ تعالى المشركين يوم بَدر: هذا واللهِ النبيُّ الأميُّ الذي بشَّرَنا به موسى عليه الصلاة والسلام، ونجدُه في كتابنا بنعتِه وصفته، وأنه لا يُردُّ له رايةٌ، وأرادوا تصديقَه واتِّباعه، ثم قال بعضُهم لبعض: لا تعجَلوا حتى تنظروا إلى وقعةٍ له أُخرى، فلمَّا كان يومُ أحدٍ ونُكِب أصحاب رسول الله ﷺ، شكُّوا وقالوا: لا واللهِ ما هو به، وغَلَب عليهم الشقاءُ فلم يُسلموا، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد إلى مدة، فنقضوا ذلك العهدَ، وانطلق كعبُ بن الأشرف في ستين راكباً إلى أهل مكة أبي سفيان وأصحابِه، فوافقوهم وأجمعوا أمْرهم وقالوا: لتكونَنَّ كلمتنا واحدةً. ثم رجعوا إلى المدينة، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية.

وأخرج ابن جرير وابن اسحاق والبيهقيُّ عن ابن عباس ﵄ أيضاً: أن رسول الله ﷺ لـمَّا أصاب ما أصاب من بدرٍ ورجع إلى المدينة، جمع اليهودَ في

سوق بني قينقاع، وقال: «يا معشرَ يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم اللهُ تعالى بما أصاب قريشاً» فقالوا: يا محمد، لا يغرنَّك من نفسك أنْ قتلتَ نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يَعرِفون القتالَ، إنك واللهِ لو قاتَلْتنا لعرفت أنَّا نحنُ الناس وأنك لم تكن مثلنا. فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[1].

فالمرادُ من الموصولِ اليهود، والسينُ لقُرْبِ الوقوع، أي: تُغلبون عن قريب، وأريد منه: في الدنيا، وقد صدَق اللهُ تعالى وعدَه رسولَه ﷺ فقتل ـ كما قيل ـ من بني قريظة في يومٍ واحد ستُّ مئةٍ جَمَعهم في سوق بني قينقاع، وأمر السَّياف بضرْبِ أعناقهم، وأمر بحفر حفيرة ورميهم فيها، وأجلى بني النضير، وفتح خيبر وضرَب الجزيةَ عليهم، وهذا من أوضح شواهد النبوَّةِ.

﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ عطف على «ستغلبون»، والمراد: في الآخرة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ وهي غايةُ حشرِهم ومنتهاه، فـ «إلى» على معناها المتبادِر. وقيل: بمعنى «في»، والمعنى: أنهم يُجمَعون فيها. والآية كالتوكيد لِمَا قبلها؛ فإنَّ الغَلَبة تحصل بعدم الانتفاع بالأموال والأولاد، والحشرُ إلى جهنم مبدأُ كونهم وقوداً لها.

وقرأ أهل الكوفة غير عاصم: «سيغلبون ويحشرون» بالياء، والباقون بالتاء[2]، وفرِّق بين القراءتين بأن المعنى على تقدير تاء الخطاب: أَمْرُ النبيِّ ﷺ أن يُخبرهم من عند نفسه بمضمون الكلام، حتى لو كذَّبوا كان التكذيب راجعاً إليه، وعلى تقدير ياء الغيبة: أمره بأن يؤدِّي ما أخبر اللهُ تعالى به من الحكم بأنهم سيغلبون، بحيث لو كَذَّبوا كان التكذيب راجعاً إلى الله تعالى.

وقوله سبحانه: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢﴾ إمَّا من تمام ما يقال لهم، أو استئنافٌ لتهويل جهنم وتفظيع حالِ أهلها. ومهاد: كفِرَاش لفظاً ومعنًى، والمخصوص بالذمِّ مقدَّرٌ وهو: جهنم، أو ما مَهَدوه لأنفسهم.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ من تتمة القول المأمور به، جيء به لتقرير مضمون ما قبله

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٤٧، وتفسير الطبري ٥/٢٣٩ـ ٢٤٠، ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ١٧٣ ـ ١٧٤، وأخرجه أيضاً أبو داود (٣٠٠١).

(٢) وهي قراءة خلف من العشرة. التيسير ص٨٦، والنشر ٢/٢٣٨.

وتحقيقِه، والخطاب لليهود أيضاً، واختاره شيخ الإسلام[1]، وذهب إليه البلخي، أي: قد كان لكم أيها اليهودُ المغترُّون بعُددهم وعَددهم ﴿ءَايَةٌ﴾ أي: علامةٌ عظيمةٌ دالَّةٌ على صدق ما أقول لكم أنكم ستغلبون ﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾ أي: فرقتين أو جماعتين من الناس، كانت المغلوبةُ منهما مُدِلَّةً بكثرتها معجَبةً بعِزَّتها، فأصابها ما أصابها ﴿ٱلْتَقَتَا﴾ يومَ بدرٍ ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فهي في أعلى درجات الإيمان، ولم يقل: مؤمنةٌ؛ مدحاً لهم بما يَليقُ بالمقام، ورمزاً إلى الاعتداد بقتالهم، وقرئ: «يقاتل» على تأويل الفئة بالقوم أو الفريق[2] ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ بالله تعالى، فهي أبعدُ من أن تقاتل في سبيله، وإنما لم توصف بما يقابل صفةَ الفئة الأولى إسقاطاً لقتالهم عن درجة الاعتبار، وإيذاناً بأنه لم يتصدَّوا له لِمَا عراهم من الهيبة والوَجَل.

و«كان» ناقصة، وعليه جمهورُ المعربين، و«آيةٌ» اسمها، وترك التأنيث في الفعل لأن المرفوع غيرُ حقيقيِّ التأنيث، ولأنه مفصولٌ، لأن الآية والدليل بمعنى. وفي الخبر وجهان: أحدهما: «لكم»، و«في فئتين» نعت لـ «آية». والثاني أن الخبر هو هذا النعت، و«لكم» متعلِّق بـ «كان» على رأي مَن يرى ذلك. وجوِّز أن يكون «لكم» في موضع نصبٍ على الحال، وقد تقدَّم مراراً أن وصف النكرة إذا قدِّم عليها كان حالاً.

و«التقتا» في حيِّز الجرِّ نعتٌ لـ «فئتين»، و«فئةٌ» خبرٌ لمحذوف، أي: إحداهما فئة، و«أخرى» نعت لمقدَّر، أي: وفئة أخرى. والجملة مستأنفة لتقرير ما في الفئتين من الآية.

وقيل: «فئة» وما عُطف عليها بدلٌ من الضمير في «التقتا»، وما بعدهما صفة، فلا بدَّ من ضمير محذوفٍ عائد إلى المبدَل منه، مسوِّغٍ لوصف البدل بالجملة العارية عن ضمير، أي: فئة منهما تقاتل إلخ. وجوِّز أن يكون كلٌّ من المتعاطفين مبتدأً وما بعدهما خبر، أي: فئة منهما تقاتل إلخ، وفئة أخرى كافرة. وقيل: كلٌّ منهما مبتدأ محذوف الخبرِ، أي: منهما فئة إلخ.

وقرئ: «فئةً» «وأخرى كافرةً» بالنصب فيهما[3]، وهو على المدح في الأولى

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٢/ ١٢.

(٢) البحر٢/ ٣٩٥.

(٣) القراءات الشاذة ص١٩، والبحر ٢/ ٣٩٤.

والذم في الثانية. وقيل: على الاختصاص، واعترضه أبو حيان[١]: بأن المنصوب عليه لا يكون نكرة؟ وأجيب: بأن القائل لم يعنِ الاختصاصَ المبوَّب له في النحو كما في: «نحنُ معاشرَ الأنبياءِ لا نُورث»[٢] وإنما على النصب بإضمار فعلٍ لائقٍ، وأهلُ البيان يسمُّون هذا النحو اختصاصاً كما قاله الحلبي[٣]. وجوِّز أن يكونا حالَيْن، كأنه قيل: التقتا مؤمنةً وكافرةً، و«فئة» و«أخرى» على هذا توطئةٌ للحال.

وقرئ بالجرِّ فيهما[٤] على البدلية من «فئتين» بَدَلَ بعضٍ من كلٍّ، والضمير العائد إلى المبدل منه مقدَّر على نحو ما مرَّ، ويسمَّى بدلاً تفصيليًّا كما في قوله:

وكنت كذي رجلين رجلٍ صحيحة ورجلٍ رماها صائب الحَدثَان[٥]

وقوله سبحانه: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ في حيِّز الرفع صفة للفئة الأخيرة، أو مستأنفة مبيِّنة لكيفية الآية. والمراد كما قال السدي: ترى الفئةُ الأخيرة الكافرةُ الفئةَ الأولى المؤمنةَ مِثْلَيْ عددِ الرَّائين، وقد كانوا تسعَ مئةٍ وخمسين مقاتلاً كلُّهم شاكُو السِّلاح.

وعن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهه وابنِ مسعود: كانوا ألفاً، وسقفُ بيت حَلِّهم ورَبْطِهم عتبة بنُ ربيعة بن عبد شمس، وفيهم من صناديد قريش ورؤساء الضلال أبو جهل وأبو سفيان وغيرُهما، ومن الإبل والخيل سبعُ مئةٍ بعير ومئة فرس.

روى محمد بن أبي الفرات عن سعد بن أوس[٦] أنه قال: أسر المشركون رجلاً من المسلمين، فسألوه: كم كنتم؟ قال: ثلاثَ مئة وبضعةَ عشر، قالوا: ما كنا نراكم إلا تضعفون علينا! وأرادوا ألفاً وتسع مئة، وهو المراد من «يَرونَهم مِثْلَيهم».

---

(١) في البحر ٢/ ٣٩٤.
(٢) سلف ٢/ ٢٨٧.
(٣) في الدر المصون ٣/ ٤٦.
(٤) القراءات الشاذة ص١٩، والبحر ٢/ ٣٩٣.
(٥) البيت ليزيد بن مفرِّغ الحميري، وهو في ديوانه ص١٥٥، وتفسير الطبري ٥/ ٢٤٣، ونسبه أبو زيد في النوادر ص١٠، والبطليوسي في الحلل ص٢٨ للنجاشي.
(٦) في الأصل و(م): محمد بن الفرات عن سعيد بن أوس، والصواب ما أثبتناه، ينظر الجرح والتعديل ٨/ ٦١، وتهذيب الكمال ١٠/ ٢٥١-٢٥٢، وتفسير أبي السعود ٢/ ١٣، وعنه نقل المصنف.

وزعم الفرَّاء(١): أنه يحتمل إرادةَ ثلاثةِ أمثالِهِم؛ لأنك إذا قلت: عندي ألفٌ وأحتاجُ إلى مثلَيْها، فإنما تريد: إلى ألفين مضافين إليها، لا بدلاً منها، فهم كانوا يَرونهم ثلاثةَ أمثالهم. وأنكر هذا الوجهَ الزجَّاجُ(٢) لمخالفته لظاهر الكلام.

أو مثلي عدد المرئيين، أي: ستَّ مئة ونيفاً وعشرين، حيث كانوا عدَّة المرسلين، سبعة وسبعون رجلاً من المهاجرين، ومئتان وستة وثلاثون من الأنصار، وكان صاحبَ لواء رسولِ الله ﷺ والمهاجرين عليٌّ الكرَّارُ كرَّم الله تعالى وجهه، وصاحبَ راية الأنصار سعد بن عبادة، وكان معهم من الإبل سبعون بعيراً، ومن الخيل فَرَسان: فرسٌ للمقداد بن عمرو، وفرسٌ لمرثد بن أبي مرثد، ومن السِّلاح ستُّ أدْرُعٍ وثمانيةُ سيوف، وكان أكثرُهم رَجَّالةً، واستُشهد منهم يومئذٍ أربعة عشر رجلاً: ستَّةٌ من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، وقد مرَّت إليه الإشارةُ(٣).

وإنما أراهم اللهُ تعالى كذلك ـ مع أنهم ليسوا كذلك ـ ليَهَابوهم ويَجْبنُوا عن قتالهم، وهو نوعٌ من التأييد والمدد المعنوي، وكان ذلك عند تَدَاني الفئتين، بعد أن قلَّلهم اللهُ تعالى في أعينهم عند التراائي ليجترؤوا عليهم، ولا يرهبوا فيهرُبوا حيث ينفع الهربُ.

وذهب جماعةٌ من العلماء إلى أن المراد: ترى الفئةُ المؤمنة الفئةَ الكافرة مثلي أنفسِهم مع كونهم ثلاثة أمثالهم؛ ليَثْبتوا ويطمئنُّوا بالنصر الموعود في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦].

قال شيخ الإسلام مولانا مفتي الديار الرومية(٤): والأول هو أَولى؛ لأن رؤية المثلين غير متعيِّنةٍ من جانب المؤمنين، بل قد وقعت رؤية المثل بل وأقل منه أيضاً، فإنه روي أنَّ ابن مسعود ﷺ قال: نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً(٥).

---

(١) في معاني القرآن ١/ ١٩٤.
(٢) في معاني القرآن ١/ ٣٨١-٣٨٢.
(٣) ٣/ ٤٧ و٣٦٠.
(٤) هو أبو السعود في تفسيره ٢/ ١٣.
(٥) أخرجه الطبري ٥/ ٢٤٥.

ثم قلَّلهم اللهُ تعالى أيضاً في أعينهم حتى رأوهم عدداً يسيراً أقلَّ من أنفسهم، قال ابن مسعود ﷺ: لقد قلِّلوا في أعيننا يومَ بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة، فأسرنا منهم رجلاً، فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً[1]. فلو أريد رؤيةُ المؤمنين المشركين أقلَّ من عددهم في نفس الأمر ـ كما في «الأنفال» ـ لكانت رؤيتهم إياهم أقلَّ من أنفسهم أحقَّ بالذكر في كونها آيةً من رؤيتهم مثليهم، على أنَّ إبانة آثار قدرة الله تعالى وحكمته للكفرة بإراءتهم القليل كثيراً والضعيفَ قويّاً، وإلقاء الرُّعب في قلوبِهم بسبب ذلك، أَدْخَلُ في كونها آيةً لهم وحجةً عليهم، وأقربُ إلى اعتراف المخاطَبين بذلك؛ لكثرة مخالطتهم للكَفَرة المشاهِدِينَ للحال، وكذا تعلُّق الفعل بالفاعلِ أشدُّ من تعلُّقه بالمفعول، فجَعْلُ أقربِ المذكورين السابقين فاعلاً وأبعدِهما مفعولاً ـ سواء جعل الجملة صفة أو مستأنفة ـ أولى من العكس. انتهى.

ويمكن أن يُقال من طَرَف الجمهور الذَّاهبين إلى أن المراد رؤيةُ المؤمنين المشركين مثلَي أنفسهم: بأنه التفسير المأثور عن ابن مسعود ﷺ، ولا نسلِّم أن رؤيتهم إياهم أقلَّ من أنفسهم أحقُّ بالذِّكر في كونها آيةً من رؤيتهم مثليهم؛ لجواز أن تكون الآيةُ والعلامة لليهود على أنهم سيُغلبون قتالَ المؤمنين لهؤلاء المشركين وغلبتهم عليهم مع وجود السبب العادي للجُبن، وهو رؤيةُ المؤمنين إياهم أكثرَ من أنفسهم وأوفرَ من عددهم، فكأنه قيل: يا معشر اليهود تحقَّقوا قتالَ المسلمين لكم وغلبتَهم عليكم ولا تغترُّوا بعلمهم بقلَّتهم وكثرتكم، فإنهم يُقْدِمون على قتال مَن يرونه أكثر منهم عدداً، ولا يَجْبُنون ولا يَهابون ويَنتصرون، فما ذاك إلا لأنَّ اللهَ تعالى قد مَلأَ قلوبَهم إيماناً وشدَّةً على مَن خالفهم، وأحاطَهم بتأييده ونَصرِه، ووعدَهم الوعدَ الجميل.

لا يقال: إن الأوفقَ لهذا الغَرض أن يرى المؤمنون المشركين على ما هم عليه من كون المشركين ثلاثة أمثالهم، أو يرونهم أكثرَ من ذلك؛ لأن إقدامهم حينئذٍ على قتالهم أدلُّ على سبب الغلَبة على اليهود.

لأنَّا نقول: نَعم، الأمر كما ذُكر، إلا أن هذه الرؤية لوفائها بالمقصود مع

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٤/ ٣٧٤، والطبري ٥/ ٢٥١.

تضمُّنها مدحَ المؤمنين بالثبات الناشئ من قوة الإيمان بالنصر الموعود آخِراً بقوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦]اختيرت على ما ليس فيها إلا أمرٌ واحدٌ غير متضمِّن لذلك المدح المخصوص، وعلى هذا لا يُحتاج إلى التزام كون التثنية مجازاً عن التكثير، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤]ولا إلى القول بأن ضمير «مثليهم» راجعٌ إلى الفئة الأخيرة، أي: ترى الفئة المؤمنة الفئةَ الكافرة مثلي عدد الفئة الكافرة، أعني: قريباً من ألفين، وإن ذهب إلى ذلك البعض.

ويَرِدُ أيضاً على قوله: على أن إبانة.. إلخ، بعد تسليم أن الإراءةَ نفسها كانت هي الآيةُ: أنَّ إراءة القليل كثيراً لم تقع لليهود المخاطَبين بصدرِ الآية، لتكون إبانةُ آثارِ قدرته تعالى بذلك أدخلَ في كونها آيةً لهم وحجَّةً عليهم، وكون ذلك أقربَ لاعترافهم لكثرة مخالطتهم الكفرةَ الرائين يتوقفُ على أنَّ الرائين قد أخبروهم بذلك، وأنهم صدَّقوا به ولم يحملوه على أنه خيِّل لهم لخوفهم بسبب عدم علمهم بالحرب، والخائف يُخَيَّل إليه أن أشجار البيداء شجعانٌ شاكية، وأُسْدٌ ضارية، وإثبات كلٍّ من هذه الأمور صعب، على أنَّ فيما روى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما - من أنَّ اليهود قالوا له ﷺ بعد تلك الوقعة: لا يغرَّنك أنك لقيت قوماً أغماراً لا عِلْمَ لهم بالحرب فأصبتَ منهم فرصة، ولئن قاتلتَنا لعلمتَ أنا نحنُ الناس[1] - ما يُشعِرُ في الجملة بأنهم لو أخبروهم بذلك وصدَّقوا لَحملوه على نحو ما ذكرنا.

وما ذَكَرَ من أن تعلُّق الفعل بالفاعل أشدُّ.. إلخ، فمسَلَّم، إلَّا أنَّا لا نسلِّم أنه يستدعي أولويةَ جَعْلِ أولِ المذكورَيْنِ السَّابقَيْنِ فاعلاً وأبعدِهما مفعولاً من العكس مطلقاً، بل ذلك إذا لم يكن في العكس معنًى لطيفٌ تَحسُنُ مراعاتُه نظراً للمقام، وهنا قد كان ذلك، لا سِيَّما وقد سبق مدحُ الفئة الأولى بالمقاتَلةِ في سبيل الله تعالى، وعدل عن مدحهم بالإيمان الذي هو الأساس إليه، ولا شكَّ أن مقاتلتَهم للمشركين مع رؤيتهم إياهم أكثر من أنفسهم ومثليهم أمدحُ وأمدح كما لا يخفى.

وقرأ نافع ويعقوب: «تَرَوْنَهم» بالتاء[2].

---

(١) سلف ص ٥١-٥٢ من هذا الجزء.

(٢) التيسير ص٨٦، والنشر ٢/ ٢٣٨، وهي قراءة أبي جعفر أيضاً.

واستشكلت ـ على تقدير كون الخطاب لليهود ـ بأنهم لم يروا المؤمنين مثلَي أنفسهم ولا مثلي الكافرين، ولم يروا الكافرين أيضاً مثلي أنفسهم ولا مثلي المؤمنين.

وأجيب: بأنه يصحُّ أن يقال: إنهم رأوا المؤمنين مثلي أنفسهم أو مثلي الكافرين على سبيل المجاز، حيث نزِّلت رؤية المشركين منزلةَ رؤيتهم؛ لِمَا بينهم من الاتحاد في الكفروالاتفاق في الكلمة، لا سِيَّما بعدما وقع بينهم بواسطة كعب بن الأشرف من العهد والميثاق، فأسندت الرؤية إليهم مبالغةً في البيان، وتحقيقاً لعُروضِ مثلِ تلك الحالة لهم.

وكذا يصحُّ أن يقال: إنهم رأوا حقيقةَ الكافرين مثلي المؤمنين، وتُحمل الرؤية على العلم والاعتقاد الناشئ عن الشهرة والتواتر، ويُلتزم كونُ الآيةِ لهم قتالَ المؤمنين الكافرين، وغلبةَ الأوَّلين الآخِرين مع كونهم أكثر منهم، إلا أنه اقتصر على أقلِّ اللازم، ويُعلم منه كونُ قتالِ المؤمنين وغلبتهم على الفئة الكافرة مع كونها ثلاثةَ أمثالهم في نفس الأمر المعلوم لهم أيضاً آيةً من باب أَوْلى.

ولِمَا في هذين الجوابين ـ كيفما كان ـ التزم بعضهم كون الخطاب من أول الأمر للمشركين؛ ليتَّضح أمرُ هذه القراءة، وأوجب عليه أن يكون قوله سبحانه: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ خطاباً لهم بعد ذلك، ولا يكون داخلاً تحت الأمر، بناءً على أن الوعيد كان بوقعة بدرٍ، ولا معنى للاستدلال بها قبل وقوعها، وجعلُ ذلك داخلاً في مفعول الأمر ـ إلا أنه عبَّر عن المستقبل بلفظ الماضي لتحقُّق وقوعه ـ لا يخلو عن شيء.

وجَعَل بعضُهم الخطابَ في قراءة نافع للمؤمنين، والتزم كون الخطاب السَّابق لهم أيضاً على أنه ابتداءُ خطابٍ في معرض الامتنان عليهم بما سبق الوعد به.

وقيل: إنه لجميع الكفرة.

وقال بعضُ أئمة التحقيق: القول بأن الخطاب عامٌّ للمؤمنين واليهود ومشركي مكة هو الذي يَقتضيه المقامُ؛ لئلَّا يُقتطع الكلام، ويقعُ التذييلُ بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ﴾ إلخ موقعَ المسكِ في الختام.

ثم إنَّ مَن عَدَّ التعبير عن جماعة بطريقٍ من الطرق الثلاثة، مع التعبير بعدُ عن البعض بطريق آخر يخالفُه منها = من الالتفات، قال بوجوده في الآية على بعض احتمالاتها، ومَن لم يَعُدَّ ذلك منه ـ كما هو الظاهر ـ أنكر الالتفاتَ فيها، وبهذا يجمع بين أقوال الناظرين في الآية من هذه الحيثية، واختلافِهم في وجود الالتفات وعدمه فيها، فأَمْعِنِ النظر، فإنه لِمثْلِ هذا المبحث كلهُ يُدَّخَر.

وقرأ ابن مصرف: «يُرَونهم» على البناء للمفعول بالياء والتاء(١)، أي: يريهم اللهُ تعالى ذلك بقدرته.

﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ مصدر مؤكِّد لـ «يرونه» على تقدير جَعْلِها بَصَرِيَّة، فـ «مثليهم» حينئذٍ حال، ويجوز أن يكون مصدراً تشبيهيّاً على تقديرِ جَعْلِها عِلْميةً اعتقادية، أي: رأياً مثلَ رأي العين، فـ «مثليهم» حينئذْ مفعولٌ ثانٍ. وقيل: إنَّ «رَأْيَ» منصوبٌ على الظرفية، أي: في رَأْي العين.

﴿وَاللَّهُ﴾ المتَّصفُ بصفات الجمال والجلال ﴿يُؤَيِّدُ﴾ أي: يقوِّي ﴿بِنَصْرِهِ﴾ أي: بعونه، وقيل: بحجَّته، وليس بالقوي. ﴿مَن يَشَاءُ﴾ أن يؤيِّده من غير توسُّطِ الأسباب المعتادة، كما أيَّد الفئة المقاتلة في سبيله، وهو من تمام القول المأمور به.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من النصر، وقيل: من تلك الرؤية ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي اتعاظاً ودلالة، وهي «فِعْلة» من العبور ـ كالرِّكْبة والجِلْسة ـ وهو: التجاوز، ومنه: عبرتُ النهرَ، وسمي الاتعاظ عبرةً لأن المتَّعظَ يعْبُر من الجهل إلى العلم، ومن الهلاك إلى النجاة. والتنوينُ للتعظيم، أي: عبرةً عظيمةً كائنة ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ ۝١٣﴾ جمع بَصر بمعنى بصيرة مجازاً أو بمعناه المعروف، أي: لذوي العقول والبصائر، أو لمن أبصَرهم ورآهم بعيني رأسِه. وهذه الجملةُ إما من تمام الكلام الداخلِ تحت القول مقرِّرة لِمَا قبلها بطريق التذييل، وإمَّا واردة من جهته تعالى تصديقاً لمقالة رسولِ الله ﷺ.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ كلام مستأنف سيق للتنفير عن الحظوظ النفسانية التي كثيراً ما يقع القتالُ بسببها، إثرَ بيان حالِ الكفرة، والتنصيصِ على عدم نَفْعِ أموالهم وأولادهِم لهم وقد كانوا يتعزَّزون بذلك، والمراد من الناس الجنسُ.

---

(١) القراءتان في البحر ٢/ ٣٩٤، والأولى في القراءات الشاذة ص١٩، والمحتسب ١/ ١٥٤.

﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ أي: المشهيَّات، وجَعَلها نفسَ الشهوات إشارةً إلى ما رُكز في الطباع من محبتها والحرص عليها، حتى كأنهم يَشتهون اشتهاءها، كما قيل لمريض: ما تشتهي؟ فقال: أشتهي أنْ أشتهي. أو تنبيهاً على خِسَّتها لأن الشهوات خسيسةٌ عند الحكماء والعقلاءِ، ففي ذلك تنفيرٌ عنها وترغيبٌ فيما عند الله تعالى.

والمزيِّن هو اللهُ تعالى، كما أخرجه ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1]. وروي عن الحسن: الشيطان واللهِ زيَّنها لهم؛ لأنَّا لا نعلمُ أحداً أذمَّ لها من خالقها[2].

وفي «الانتصاف»: التزيين للشهوات يُطلَقُ ويراد به خَلْقُ حُبِّها في القلوب، وهو بهذا المعنى مضافٌ إليه تعالى حقيقة، لأنه لا خالقَ إلا هو. ويطلق ويُراد به الحضُّ على تعاطي الشهوات المحظورة، فتزيينها بالمعنى الثاني مضافٌ إلى الشيطان، تنزيلاً لوسوسته وتحسينه منزلةَ الأمر بها والحضِّ على تعاطيها، وكلام الحسن رحمه الله تعالى محمولٌ على التزيين بالمعنى الثاني، لا بالمعنى الأول فإنه يُتحاشى أن يُنسب خَلْقُ الله تعالى إلى غيره[3].

والإسنادُ في كلٍّ حقيقةٌ كما أشرنا إليه فيما تقدم، ومَن قال: الظاهرُ أنه من قَبيل: أَقْدَمَني بلدكَ حقٌّ لي عليك، إذ لا إقدامَ هنا بل قدومٌ محضٌ أُثبِتَ له مُقْدِمٌ للمبالغة، والمراد أنَّ الشهوات زُيِّنت في أعينهم لنقصانهم ـ ولا زينة لها في الحقيقة ـ مِن غير أن يكون هناك مُزَيِّن، إلا أنه أُثبت مُزَيِّنٌ مبالغةً في الزينة، وتنزيلاً لسبب الزينة منزلة الفاعل = فقد تعسَّف وتصلَّف.

ومَن قال: المزيِّن في الحقيقةُ هو الشيطانُ؛ لأن التزيين صفة تقوم به، والقائل بأنه هو اللهُ تعالى لأنه الخالق للأفعال والدواعي مخطئٌ في الدعوى وغيرُ مصيب في الدليل = فالمخطئ ابنُ أخت خالته.

وقرأ مجاهد: زَيَّنَ، بالبناء للفاعل ونصب «حُبَّ»[4].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦٠٦ ـ٦٠٧، وأخرجه أيضاً الطبري ٥/ ٢٥٤، وعلقه البخاري قبل الحديث (٦٤٤١).

(٢) الكشاف ١/ ٤١٦، وأخرجه بنحوه ابن أبي حاتم ٢/ ٦٠٧.

(٣) الانتصاف على هامش الكشاف ١/ ٤١٦.

(٤) القراءات الشاذة ص١٩، والمحتسب١/ ١٥٥.

﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ في محلِّ النصب على الحال من «الشهوات»، وهي مفسِّرة لها في المعنى، وقيل: «من» لبيان الجنس. وقدّم النساء لعراقتهن في معنى الشهوة، وهنَّ حبائل الشيطان، وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «ما تَرَكتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء»[1]. ويقال: فيهن فتنتان: قطعُ الرَّحم، وجمعُ المال من الحلال والحرام. وثنَّى بالبنين لأنهم من ثَمرات النساء في الفتن، وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «الولد مبخلة مجبنة»[2].

ويقال: فيهم فتنةٌ واحدة وهي جمع المال.

ولم يتعرَّض لذكر البنات لعدم الاطِّراد في حبِّهن، وقيل: إن «البنين» تشملهن على سبيل التغليب.

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ جمع قِنطار، وهو: المال الكثير، كما أخرجه ابن جرير عن الضحاك[3].

وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «القنطارُ اثنا عَشَرَ ألفَ أُوقيَّة»[4].

وأخرج الحاكم عن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «القنطار ألف أوقية»[5] وفي رواية ابن أبي حاتم عنه: «القنطار ألف دينار»[6].

وأخرج ابن جرير عن أبيٍّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «القنطار ألف أوقية ومئتا دينار»[7].

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٧٤٦)، والبخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٥٦٢)، وابن ماجه (٣٦٦٦) من حديث يعلى العامري رضي الله عنه.

(٣) تفسير الطبري ٥/ ٢٦٠.

(٤) مسند أحمد (٨٧٥٨)، وهو حديث مضطرب سنداً ومتناً، وينظر الكلام عليه في علل الدارقطني ٨/ ١٦٩ وحاشية المسند.

(٥) المستدرك ٢/ ١٧٨، وفيه: ألفا أوقية، وكذا ذكره المناوي في فيض القدير ٤/ ٥٤٠ وقال: قال الحاكم: على شرطهما، ورده الذهبي بأنه خبر منكر.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦٠٨.

(٧) كذا في الأصل و(م)، والذي في تفسير الطبري ٥/ ٢٥٥: «... ومئتا أوقية» وكذا نقله عنه السيوطي في الدر المنثور ٢/ ١٠.

وعن معاذ: ألف ومئتا أوقية. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: اثنا عشر ألف درهم، أو ألف[1] دينار. وفي رواية أخرى عنه: ألف ومئتا دينار، ومن الفضة ألف ومئتا مثقال. وعن أبي سعيد الخدري: ملءُ جلدِ الثَّور ذهباً. وعن مجاهد: سبعون ألف دينار. وعن ابن المسيّب: ثمانون ألفاً. وعن أبي صالح: مئة رطل. وعن قتادة قال: كنَّا نحدَّث أن القنطار مئة رطلٍ من الذهب، أو ثمانون ألفاً من الورق. وعن أبي جعفر: خمسةَ عَشَرَ ألفَ مثقال، والمثقالُ أربعةٌ وعشرون قيراطاً.

وقيل: القنطار عند العرب وزنٌ لا يُحدُّ. وقيل: ما بين السماء والأرض من مال. وقيل[2] غير ذلك.

ولعلَّ الأولى ـ كما قيل ـ ما روي عن الضحاك، ويحملُ التنصيص على المقدار المعيَّن في هذه الأقوال على التمثيل لا التخصيص، والكثرة تختلف بحسب الاعتبارات والإضافات.

واختلف في وزنه فقيل: فعلال، وقيل: فنعال[3]، فالنون على الأول أصلية وعلى الثاني زائدة، ولفظ «المقنطرة» مأخوذٌ منه، ومن عادة العرب أن يَصِفوا الشيء بما يُشتق منه للمبالغة كـ «ظل ظليل» وهو كثير في وزن فاعل، ويَرِدُ في المفعول كـ ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢] و﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣].

وقيل: المقنطرة: المضعَّفة، وخصَّها بعضُهم بتسعة قناطير. وقيل: المقنطرةُ المحكَمة المحصَّنة، مِن قنطرتُ الشيء: إذا عقدتَه وأحكمتَه. وقيل: المضروبة دنانيرَ أو دراهم. وقيل: المنضَّدة التي بعضُها فوق بعضٍ. وقيل: المدفونة المكنوزة.

﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ بيانٌ للقناطير، وهو موضع الحال منها. والذهب

---

(١) في الأصل و(م): وألف، بدل: أو ألف، والمثبت من تفسير الطبري ٥/ ٢٥٥، وكذا أخرجه البيهقي ٧/ ٢٣٣.

(٢) قوله: قيل، ليس في (م).

(٣) في الأصل: فعنلال، وفي (م): فعنلان، وكلاهما تصحيف، والمثبت هو الصواب، وهو الموافق لما في الدر المصون ٣/ ٥٨، وتفسير أبي السعود ٢/ ١٥.

مؤنَّثٌ؛ يقال: هي الذهب الحمراء، ولذلك يصغَّر على ذُهَيْبة. وقال الفرَّاء: وربما ذكِّر[١]. ويقال في جمعه: أَذْهاب وذُهوب وذهبان. وقيل: إنه جمع على المعنى لذَهَبَة، واشتقاقه من الذَّهاب.

والفضة تُجْمَعُ على فِضَض، واشتقاقه من انفضَّ الشيءُ: إذا تفرَّق.

و﴿ٱلْخَيْلِ﴾ عطف على «النساء» أو «القناطير» لا على «الذهب والفضة»؛ لأنها لاتسمَّى قنطاراً، وواحدُه: خائل، وهو مشتقٌّ من الخُيلاء، مثل: طائر وطير.

وقال قوم: لا واحدَ له من لفظه، بل هو اسمُ جمعٍ واحده: فرس، ولفظهُ لفظُ المصدر. وجوِّز أن يكون مخفَّفاً من خَيِّل[٢].

﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ أي: الراعية؛ قاله ابن عباس ﵄ في إحدى الرِّوايات عنه، فهي من سوَّم ماشيتَه: إذا أَرسلها في المرعى.

أو المُطهَّمة[٣] الحِسان؛ قاله مجاهد، فهي من السيما بمعنى الحُسن.

أو المُعلمة ذات الغُرَّة والتحجيلِ؛ قاله عكرمة، فهي من السِّمة أو السُّومة بمعنى العَلامة.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: الإبل والبقر والغنم، وسمِّيت بذلك لنعومة مَشْيِها ولِينه، والنَّعَمُ مختصَّةٌ بالإبل.

﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ مصدر بمعنى المفعول، أي: المزروع، سواءٌ كان حبوباً أم بقلاً أم ثمراً.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما زُيِّن لهم من المذكور، ولهذا ذكِّر وأُفرِد اسم الإشارة، ويصحُّ أن يكون «ذلك» لتذكير الخبر وإفراده، وهو: ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ما يُتمتَّع به أياماً قلائل ثم يزول عن صاحبه.

---

(١) المذكر والمؤنث للفراء ص ١٩.

(٢) نحو مَيْت في ميِّت، وهَيْن في هَيِّن. قال السمين في الدر المصون ٣/ ٥٩: وفيه نظر؛ لأن كل ما سمع فيه التخفيف سمع فيه التثقيل، وهذا لم يسمع إلا مخفَّفاً.

(٣) المطهَّم: التام من كل شيء، والبارع الجمال. القاموس (طهم).

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ أي: المرجع الحَسَن، فالمآب مَفْعَل مِن آب يؤوب، أي: رجع، وأصلُه: مَأْوَب، فنُقلت حركة الواو إلى الهمزة السَّاكنة قبلها ثم قُلبت ألفاً، وهو اسمُ مصدرٍ، ويقع اسم مكان وزمان، والمصدر: أَوْبٌ وإياب.

أخرج ابن جرير[1] عن السُّدِّيِّ أنه قال: ﴿حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾: حُسنُ المنْقَلَب وهي الجَنَّةُ.

وفي تكرير الإسناد إلى الاسم الجليل زيادةُ تأكيد وتفخيم، ومزيدُ اعتناءٍ بالترغيب فيما عندَ الله تعالى من النعيم المقيم، والتزهيد في ملاذِّ الدنيا السَّريعة الزوال.

ومن غريب ما استُنبط من الآية ـ كما قال أبو حيان ـ وجوبُ الزكاة في الخيل السائمة لذكرها مع ما تجب فيه الصدقةُ أو النفقة، والثاني النساء والبنون[2]. ولا يخفى ما فيه.

﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ﴾ تقريرٌ وتثبيتٌ لِمَا فُهم مما قَبْلُ من أن ثوابَ الله تعالى خيرٌ من مستلَذَّات الدنيا، والمراد من الإنباء: الإخبارُ. و«ذلكم» إشارة إلى المذكورِ من النساء وما معه.

والقرَّاءُ فيما إذا اجتمع همزتان أولاهما مفتوحة والثانية مضمومة كما هنا وكما في سورة ص: ﴿أَءُنزِلَ﴾ [الآية: ٨] وسورة القمر: ﴿أَءُلۡقِيَ﴾ [الآية: ٢٥] على خمس مراتب:

إحداها: مرتبة قالون، وهي تسهيل الثانيةِ بينَ بينٍ، وإدخالُ ألفٍ بين الهمزتين[3].

الثانية: مرتبة ورش وابن كثير، وهي تسهيل الثانية أيضاً بينَ بين من غير إدخالِ ألفٍ بينهما.

الثالثة: مرتبة الكوفيين وابن ذكوان عن ابن عامر، وهي تحقيق الثانية من غيرِ إدخالِ ألفٍ.

---

(١) في التفسير ٥/ ٢٦٧.
(٢) يعني: النساء والبنون فيهم النفقة، وباقيها فيها الصدقة. البحر ٢/ ٣٩٨.
(٣) التيسير ص٣٢، والنشر ١/ ٣٧٤ ـ٣٧٥، وهي قراءة أبي جعفر.

الرابعة: مرتبة هشام وهي أنه روي عنه ثلاثة أوجه؛ الأول: التحقيق وعدمُ إدخال ألفٍ بين الهمزتين. الوجه الثاني: التحقيقُ وإدخال ألفٍ بينهما في السُّور الثلاث. الوجه الثالث: التفرقة بين السور، فيحقِّق ويَقْصُر هنا، ويمدُّ في الأخيرتين.

الخامسة: مرتبة أبي عمرو، وهي تسهيل الثانية مع إدخالِ الألف وعدمه[1].

والظرف الأول متعلِّق بالفعل قبله، والثاني متعلِّق بأَفْعَل التفضيل، ولا يجوز أن يكون صفةً كما قال أبو البقاء[2]؛ لأنه يوجب أن تكون الجنةُ وما فيها ـ مما رغبوا فيه ـ بعضاً لما زهِدوا عنه من الأموال ونحوها.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾ استئنافٌ مبيِّن لذلك الخير المبهَم، على أن «للذين» خبرٌ مقدَّم، «وجنَّاتٌ» مبتدأ مؤخَّر، و«عند ربِّهم» يحتمل وجهين: كونه ظرفاً للاستقرار، وكونَه صفة للجنات في الأصل قدِّم فانتصب حالاً منها.

وفي ذكر ذلك إشارة إلى علوِّ رتبة الجنات ورفعةِ شأنها. وفي التعرُّض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المتَّقين إيذانٌ بمزيد اللطف بهم، والمرادُ منهم المتبتِّلون إليه تعالى، المعرِضون عمَّن سواه، كما ينبئ عن ذلك الأوصافُ الآتية. وتعليقُ حصول الجنات وما يأتي بعدُ بهذا العنوان؛ للترغيب في تحصيله والثبات عليه.

وجوِّز أن تكون اللام متعلِّقة بـ «خير» أيضاً، أو بمحذوف صفة له، و«جنَّاتٌ» حينئذٍ خبرٌ لمحذوف، أي: هي جناتٌ، والجملة مبيِّنة لـ «خير». و«عند ربهم» حينئذٍ إمَّا أن يتعلَّق بالفعل على معنى: ثبَتَ تقواهم عنده، شهادةً لهم بالإخلاص. وجاز أن يُجعل خبراً مقدَّماً، فلا يُحتاج إلى حذف المبتدأ.

واعتُرض بأنه يقال: عند الله تعالى الثوابُ، ولا يقال: عند الله تعالى الجَنَّةُ، وبذلك يصرِّح كلامُ السَّعد وغيره، وفي النفس منه شيء.

وقرئ: «جنَّاتٍ» بكسر التاء[3]، وفيه وجهان: أحدهما أنه مجرورٌ على البدلية من لفظ «خير»، وثانيهما أنه منصوب على إضمار «أعني» مثلاً، أو البدلية من محلِّ «بخير».

---

(١) تنظر هذه القراءات في التيسير ص٣٢، والنشر ١/ ٣٧٤-٣٧٦.

(٢) في الإملاء ٢/ ٤٠، ويعني بالظرف الأول: «بخير»، وبالثاني: «من ذلكم».

(٣) القراءات الشاذة ص١٩.

﴿تَجۡرِي﴾ في محلِّ الرفع أو النصب أو الجرِّ صفةٌ لـ «جنَّات» على القراءتين ﴿مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ تقدَّم ما فيه ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدَّرة من المستكنِّ في «للَّذين» والعامل ما فيه من معنى الاستقرار، وجوَّز أبو البقاء كونه حالاً من الهاء في «تحتها»، أو من الضمير في «اتقوا»[1]، ولا يخفى ما فيه.

﴿وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ أي: منزَّهة مما يُسْتَقْذَرُ من النساء خَلْقاً وخُلُقاً، والعطف على «جنَّاتٌ» على قراءة الرفع، وأمَّا على قراءة النصب فلا بدَّ من تقدير «لهم» في الكلام.

﴿وَرِضۡوَٰنٞ﴾ أي: رضًى عظيمٌ، على ما يُشعِرُ به التنوين، وقرأه عاصم بضم الراء، وهما لغتان وقراءتان سبعيتان في جميع القرآن، إلا في قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦] فإنه بالكسر بالاتفاق[2].

وقيل: المكسور اسم والمضموم مصدرٌ، وهو قولٌ لاثبْتَ له.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صفةٌ لـ «رضوان» مؤكِّدةٌ لِمَا أفاده التنوين من الفَخَامة ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥﴾ أي: خبير بهم وبأحوالهم وأفعالهم، فيثيب المحسنَ فضلاً ويعاقبُ المسيء عدلاً، أو: خبيرٌ بأحوال الذين اتقَوا فلذلك أعدَّ لهم ما أعدَّ. فالعبادُ على الأول عامٌّ، وعلى الثاني خاصٌّ.

وقد بدأ سبحانه في هذه الآية أولاً بذكر المَقَرِّ، وهو الجنات، ثم ثنَّى بذكر ما يحصل به الأُنْسُ التامُّ، وهو الأزواج المطهَّرة، ثم ثلَّث بذكرِ ما هو الإكْسيرُ الأعظم، والروحُ لفؤاد الوالِه المغْرَم، وهو رضا اللهِ عزَّ وجلَّ.

وفي الحديث أنه سبحانه يسأل أهلَ الجنة: «هل رضَيتم؟ فيقولون: مالنا لانَرضى ياربِّ وقد أعطيتَنا ما لم تعطِ أحداً من خلْقك؟ فيقول جلَّ شأنُه: ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولون: ياربِّ، وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك؟ قال: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أَسْخَطُ عليكم أبداً»[3].

---

(١) الإملاء ٢/ ٤٢، وينظر الدر المصون ٣/ ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) التيسير ص٨٦، والنشر ٢/ ٢٣٨، وقراءة عاصم المذكورة هي من رواية شعبة عنه.

(٣) أخرجه أحمد (١١٨٣٥)، والبخاري(٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ يجوز أن يكون في محل الرفع على أنه خبرٌ لمحذوف، كأنه قيل: مَن أولئك المتقون؟ فقيل: هم الذين إلخ، وأن يكون في موضع نصب على المدح، وأن يكون في حَيّز الجرِّ على أنه تابعٌ لـ «الذين اتقوا» نعتاً أو بدلاً، أو «العباد» كذلك.

واعتُرض كونه نعتاً للعباد، بأن فيه تخصيصَ الإبصار ببعض العِباد، وفيه أن ذلك التخصيصَ لا يوهم الاختصاصَ لظهور الأمر، بل يفيد الاهتمامَ بشأنهم ورِفعة مكانهم.

واعتُرض أيضاً كونه تابعاً للمتقين بأنه بعيدٌ جدًّا، لا سِيَّما إذا جُعل اللام متعلِّقاً بـ «خير»؛ لكثرة الفواصل بين التابع والمتبوع. وأجيب بأنه لا بأس بهذا الفصل كما لا بأس بالفصل بين الممدوح والمدح؛ إذ الصِّفة المادحة المقطوعة تابعةٌ في المعنى، ولهذا يلزم حذفُ الناصب أو المبتدأ لئلَّا يخرج الكلام عن صورة التبعية، فالفرق بين هذه وسائر التوابع ـ في قبح الفصل وعدمِهِ ـ خفيٌّ لابدَّ له من دليل نبيل. وفيه أن قياس التبعية لفظاً ومعنًى فقط مما لا ينبغي من جاهل فضلاً عن عالم فاضل، والتزام حذف الناصب أو المبتدأ في صورة القطع للمدح أو للذمِّ قد يقال: إنه لدفع توهُّم الإخبار ولمقصود الإنشاء، لا لئلَّا يخرجَ الكلام عن صورة التبعية. وتأكيد الجملة لإظهار أن إيمانهم ناشئ مِن وفُور الرغبة وكمالِ النشاط.

وفي ترتيبِ طلبِ المغفرة في قوله تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ على مجرَّد الإيمان دليلٌ على كفايته في استحقاق المغفرة والوقاية من النار، من غير توقُّفٍ على الطاعات، والمرادُ من الذنوب الكبائرُ والصغائر.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يجوز أن يكون مجروراً وأن يكون منصوباً صفة لـ «الذين» إن جعلته في موضع جرٍّ أو نصب، وإذا جعلته في محلِّ رفع كان هذا منصوباً على المدح.

والمرادُ بالصبر: الصبرُ على طاعة الله تعالى، والصبرُ عن محارمه؛ قاله قتادة. وحذفُ المتعلِّق يشعرُ بالعموم، فيشملُ الصبرَ على البأساء والضرَّاء وحين البأس.

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في نيَّاتهم وأقوالهم سرّاً وعلانية، وهو المروي عن قتادة أيضاً.

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي: المطيعين؛ قاله ابن جبير. أو المداوِمين على الطاعة والعبادة؛ قاله الزَّجَّاج[١]. أو القائمين بالواجبات؛ قاله القاضي.

﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ من أموالهم في حقِّ الله تعالى؛ قاله ابن جبير أيضاً.

﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ قال مجاهد والكلبي وغيرهما: أي: المصلِّين بالأسحار.

وأخرج ابن أبي شيبة عن زيد بن أسلم قال: هم الذين يشهدون صلاةَ الصبح[٢].

وأخرج ابن جرير عن ابن عمر أنه كان يحيي الليل صلاةً ثم يقول: يا نافعُ، أسْحَرْنا؟ فيقول: لا. فيُعَاوِدُ الصلاةَ، فإذا قال: نعم. قَعَدَ يستغفرُ اللهَ تعالى ويدعو حتى يصبح[٣].

وأخرج ابن مردويه، عن أنس بن مالك قال: أمرَنارسولُ الله ﷺ أن نستغفرَ بالأسحار سبعين استغفارة[٤].

وروى الرِّضا، عن أبيه، عن أبي عبد الله: أنَّ مَن استغفَرَ اللهَ تعالى في وقت السَّحَرِ سبعين مرَّة فهو من أهل هذه الآية.

والباء في «بالأسحار» بمعنى «في»، وهي جمع سَحَر بفتح الحاء المهملة وسكونها، سمِّيت أواخرُ الليالي بذلك لِمَا فيها من الخَفَاء، كالسِّحر: للشيء الخفي. وقال بعضهم: السَّحَر من ثلث الليل الأخير إلى طلوع الفجر.

وتخصيصُ الأسحار بالاستغفار لأنَّ الدعاء فيها أقربُ إلى الإجابة؛ إذ العبادةُ حينئذٍ أشقُّ، والنفْسُ أصفى، والرَّوْعُ أجمعُ، وفي الصحيح أنه تعالى وتنزَّه عن سِماتِ الحدوث: «ينزِل إلى سماء الدنيا في ثلث الليل الأخير فيقول: من يَدْعوني فأَسْتَجيبَ له، مَن يسألُني فأُعْطيَه، مَن يستغفرني فأَغْفِرَ له، فلا يزال كذلك حتى يطلعَ الفجرُ»[٥].

---

(١) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ١/ ٣٨٥.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٤٩٨، وأخرجه أيضاً الطبري ٥/ ٢٧٥.
(٣) تفسير الطبري ٥/ ٢٧٤.
(٤) الدر المنثور ٢/ ١١-١٢، وهو في تفسير الطبري ٥/ ٢٧٥ بلفظ: أُمرنا أن نستغفر...
(٥) صحيح البخاري (١١٤٥)، وصحيح مسلم (٧٥٨)، وهو عند أحمد (٩٤٣٦)، وهو من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلفت قطعة منه ١/ ٣٢٦.

وأخرج ابن جرير وأحمد عن سعيد الجريري قال: بَلَغَنا أنَّ داودَ عليه الصلاة والسلام سأل جبريلَ عليه السلام، فقال: يا جبريل، أيُّ الليل أفضلُ؟ قال: يا داود ما أدري سِوى أنَّ العرش يهتزُّ في السَّحَرِ[١].

وتوسيط[٢] الواو بين هذه الصِّفات المذكورة إمَّا لأن الموصوف بها متعدِّد، وإما للدلالة على استقلال كلٍّ منها وكمالِهم فيها، وقول أبي حيَّان[٣]: لا نعلم أنَّ العطف في الصفة بالواو يدلُّ على الكمال، ردَّه الحلبيُّ[٤] بأن علماء البيان علِمُوه، وَهُمْ هم.

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ يا معشر السَّالكين إلى مقصد الكلِّ ﴿ءَايَةٌ﴾ دالَّةٌ على كمالِكم وبلوغكم إلى ذروة التوحيد ﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ للحربِ: ﴿فِئَةٌ﴾ منهما، وهي فئةُ القوى الرُّوحانية التي هي جندُ اللهِ تعالى ﴿تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وطريقِ الوصول إليه. ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ منهما، وهي جنود النفس وأعوانُ الشيطان ﴿كَافِرَةٌ﴾ ساتِرةٌ للحقِّ، محجوبةٌ عن حَظائرِ الصِّدق، ترى الفئةُ الأخيرة الفئةَ الأولى لحَوَل عينٍ بصيرتها ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ عند الالتقاء في معركة البدَن، رؤيةً مكشوفةً ظاهرة لاخفاءَ فيها مثلَ رؤيةِ العين، وذلك لتأييد الفئة المؤمنة بالأنوار الإلهية والإشراقات الجَبَروتية، وخذلانِ الفئة الكافرة بما استولَى عليها من تَراكُمِ ظلمات الطبيعة، وذلِّ البُعدِ عن الحضرة.

﴿وَٱللَّهُ﴾ تعالى ﴿يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ تأييدَه لقَبولِ استعداده لذلك ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ التأييد ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: اعتباراً أو أمراً يُعتَبَرُ به في الوصول إلى حيثُ المأمول للمستبصرين الفاتحين أعينَ بصائرِهم لمشاهدة الأنوار الأزَلية في آفاق المظاهر الإلهية.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ بسبب ما فيهم من العالَم السُّفلي، والغشاوة الطبيعية، والغَوَاشي البَدَنية ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وهي النفوس ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ وهي الخَيالات

---

(١) الزهد لأحمد ص٨٩، ولم نقف عليه عند الطبري، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٠٠.
(٢) في الأصل: توسط.
(٣) في البحر ٢/ ٤٠٠.
(٤) في الدر المصون ٣/ ٧١.

المتولِّدة منها، الناشئةُ عنها ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ وهي العلوم المتداوَلة وغيرُ المتداولة، أو الأصول والفروع ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ وهي مراكبُ الهوى وأفراسُ اللهوِ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهي رواحلُ جمعِ الحطام، وأسبابُ جلبِ المنافعِ الدنيوية ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ وهو زرعُ الحِرْصِ وطولِ الأمل ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الزائلُ عمَّا قليل بالرجوع إلى المبدأ الأصلي والموطن القديم.

ولك أن تبقي هذه المذكورات على ظواهرها، فإن النفوس المنغمسةَ في أَوْحَالِ الطبيعية لها ميلٌ كلِّي إلى ذلك أيضاً.

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ النظرَ إلى الأغيار ﴿جَنَّٰتٌ﴾ جنةُ يقين، وجنةُ مكاشَفة، وجنة مشاهَدةٍ، وجنةُ رِضًى، وجنةٌ لا أقولها، وهي التي فيها ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلبِ بشر، وليس في تلك الجنة عند العارفين إلا الله عزَّ وجلَّ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ أنهارُ التجلِّيات المُتْرَعةُ بماء الغيوب ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ببقائهم بعدَ فنائهم ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ وهي الأرواح المقدَّسةُ عن أدناس الطبيعة، المقصورةُ في خيام الصِّفات الإلهية ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لا يُقدر قدْرُه.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ في تقلُّب أرواحِهم في عالَم الملكوت محترقاتٍ من سطوات أنوار الجبروت؛ حُبّاً لجِواره وشوقاً إلى لقائه، يجازيها بقَدْرِ هُمومها في طلب وجهه الأزلي وجَماله الأبدي.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ بأنوار أفعالِك وصفاتك ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبَ وجوداتنا بذاتك ﴿وَقِنَا عَذَابَ﴾ نارِ الحِرمان ووجودِ البقيّة.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مَضَضِ المجاهدة والرِّياضة ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في المحبَّة والإرادة ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ في السُّلوك إليه ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ ما عداه فيه﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ من ذنوبِ تلوُّناتِهم وتعيُّناتهم في أسحَارِ التجلِّيات.

ويقال: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الذين صبروا على الطَّلب، ولم يحتشموا من التعب، وهجروا كلَّ راحةٍ وطَرَب، فصبروا على البلوى، ورفضوا الشكوى، حتى وصلوا إلى المولى، ولم يقطعهم شيءٌ من الدنيا والعُقْبَى ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ الذين صَدَقوا في

الطلب فوَردوا، ثم صَدَقوا فشهِدوا، ثم صَدَقوا فوجدوا، ثم صدقوا ففُقِدوا، فحالُهم قصدٌ، ثم وُرود، ثم شهود، ثم وُجود، ثم خمود ﴿وَٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ الذين لازموا البابَ، وداوموا على تجرُّع الاكتئاب وتركِ المحَابِّ، إلى أنْ تحقَّقوا بالاقتراب ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ الذين جادوا بنفوسهم من حيث الأعمال، ثم جادوا بميسُورهم من الأموال، ثم جادوا بقُلوبهم لصدق الأحوال، ثم جادوا بكلِّ حظٍّ في العاجل والآجل، استهلاكاً في أنوار الوصال ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ هم الذين يَستغفرون عن جميع ذلك إذا رجعوا إلى الصَّحو وقتَ نزول الربِّ إلى السماء الدنيا، وإشراقِ أنوار جَمالِه على آفاق النَّفْس، ونِدائه: هل من سائلٍ، هل مِن مستغفرٍ، هل من كذا، هل من كذا.

❁ ❁ ❁

ثم لمَّا مدَح سبحانه أحبابَه أربابَ الدِّين، وذمَّ أعداءَه الكافرين، عقَّب ذلك ببيان الدِّين الحقِّ والعُروةِ الوثقى على أتمِّ وجهٍ وآكدِه، فقال سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال الكلبي: لمَّا ظَهَر رسولُ الله ﷺ بالمدينة، قدم عليه حَبْرَان من أحبار أهلِ الشام، فلمَّا أبصرا المدينةَ قال أحدُهما لصاحبه: ما أشبهَ هذه المدينة بصفة مدينةِ النبيِّ - ﷺ - الذي يَخرج في آخر الزمان! فلمَّا دخَلَا على رسولِ الله ﷺ عَرَفاه بالصِّفة والنَّعْتِ، فقالا له: أنتَ محمدٌ؟ قال: «نعم» قالا: أنت أحمد؟ قال: «نعم» قالا: إنا نَسألُك عن شهادةٍ، فإنْ أنت أخبرتنا بها آمنَّا بك وصدَّقناك. فقال لهما رسول الله ﷺ: «سَلَاني» فقالا له: أَخبِرْنا عن أعظمِ شهادةٍ في كتاب الله تعالى؟ فأنزَل اللهُ تعالى الآية، وأسلما(١).

وقيل: نزلت في نصارى نجران لمَّا حاجُّوا في أمر عيسى عليه السَّلام، وهو الذي يُشعر به ما أشرنا إليه قبلُ من الآثار، ويميلُ إليه كلامُ محمد بن جعفر بن الزبير.

وقيل: نزلت في اليهود والنصارى لمَّا تركوا اسمَ الإسلام وتسمَّوا باليهودية والنصرانية. وقيل: إنهم قالوا: ديننا أفضلُ من دينك، فنزلت.

والجمهور على قراءة: «شَهِدَ» بلفظ الماضي، وفتح همزة «أنه» على معنى:

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٩٢، وزاد المسير ١/ ٣٦٢.

بأنه، أو: على أنه. وقرئ: «إنه» بكسر الهمزة[1]، إما بإجراء «شهد» مجرى«قال»، وإمَّا بجعل الجملة اعتراضاً، وإيقاعِ الفعل على«أنَّ الدِّين» إلخ على قراءة مَن يفتح الهمزة كما ستراه، والضميرُ راجعٌ إليه تعالى، ويحتمل أن يكون ضميرَ الشأن.

وقرئ: «شهداء لله» بالنصب والرفع[2] على أنه جمع شهيد، كظرفاء في جمع ظريف، أو جمع شاهد، كشعراء في جمع شاعر، والنصب إمَّا على الحالية من المذكورين، وإمَّا على المدح، والرفعُ على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوف ومآله المدح، أي: هم شهداء، والاسم الجليل في الوجهين مجرور باللام متعلِّق بما عنده.

وقرئ: «شهداءُ اللهِ» بالرفع والإضافة[3].

وفي «شهد» مسنداً إلى الله تعالى استعارةٌ تصريحيّة تبعية؛ لأن المراد أنه سبحانه دلَّ على وحدانيته، بل وسائرِ كمالاتِه بأفعاله الخاصَّة التي لا يقدر عليها غيرُه، وما نَصَبه من الدلائل التكوينية في الآفاق والأنْفُسِ، وبما أوحى من آياته الناطقة بذلك، كسورة الإخلاص، وآية الكرسي وغيرِهما، فشبَّه سبحانه تلك الدلالةَ الواضحة بشهادة الشاهدِ في البيان والكشف، ثم استعير لفظ المشبَّه به للمشبَّه، ثم سَرت الاستعارةُ من المصدر إلى الفعل، وجوّز أن يكون هناك مجازٌ مرسَلٌ تَبَعي لِما أنَّ البيان لازمٌ للشهادة، وقد ذُكر اللفظ الدالُّ عن الملزوم وأُريد به اللازم، وهذا الحمل ضروريٌّ على قراءة الجمهور دون القراءة الشاذة.

﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ عطفٌ على الاسم الجليل، ولا بدَّ حينئذٍ من حمل الشهادة على معنًى مَجازيٍّ شاملٍ لِمَا يُسند إلى هذين الجمعين بطريق عموم المجاز، أي: أقرَّ الملائكةُ بذلك وآمن العلماءُ به واحتجُّوا عليه، وبعضهم قدَّر في كلٍّ من المعطوفين لفظَ «شهد» مراداً منه ما يصحُّ نسبتُه إلى ما أُسند إليه، ولعلَّ القولَ بعموم المجاز أولى منه.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٩ عن ابن عباس.

(٢) ذكر الوجهين النحاس في إعراب القرآن ١/ ٣٦٢ عن أبي المهلَّب، وذكر ابن جني عنه وجه النصب فقط في المحتسب ١/ ١٥٥.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٢ عن أبي المهلب أيضاً.

قيل: والمراد بـ«أولوا العلم» الأنبياءُ عليهم السلام. وقيل: المهاجرون والأنصار.

وقيل: علماءُ مؤمني الكتاب. وقيل: جميع علماء المؤمنين الذين عرَفوا وحدانيته تعالى بالدلائلِ القاطعة والحجج الباهرة.

وقدم الملائكة لأنَّ فيهم مَن هو واسطة لإفادة العلمِ لذويه. وقيل: لأن علمهم كلَّه ضروريٌّ بخلاف البشر، فإن علمهم ضروريٌّ واكتسابي.

ثم إن ارتفاع هذين المرفوعين ـ على ما شذَّ من القراءة[1] ـ على الابتدائية، والخبر محذوفٌ لدلالة الكلام عليه، أي: والملائكة وأولو العلم شهداءُ بذلك.

وقيل: بالعطف على الضمير في شهداء، وصحَّ ذلك للفصل، واعتُرض بأن ذلك على قراءة النصب على الحالية يؤدِّي إلى تقييد حالِ المذكورينَ بشهادة الملائكة وأولي[2] العلم، وليس فيه كثير فائدة كما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ﴾ بيان لكماله تعالى في أفعاله إثرَ بيان كماله في ذاته. و«القسط»: العدلُ، والباء للتعدية، أي: مقيماً بالعدل.

وفي انتصاب «قائماً» وجوه:

الأول: أن يكون حالاً لازمةً من فاعل «شهد»، ويجوز إفراد المعطوف عليه بالحال دون المعطوف إذا قامت قرينةٌ تعيِّنه معنوية أو لفظية، ومنه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] وأخِّرت الحال عن المعطوفينِ للدلالة على علوِّ مرتبتهما وقربِ منزلتهما، والمسارعةِ إلى إقامة شهود التوحيد اعتناءً بشأنه، ولعلَّه[3] السرُّ في تقديمه على المعطوفينِ مع الإيذان بأصالته تعالى في الشهادة به.

والثاني أن يكون منصوباً على المدح، وهو وإن كان معروفاً في المعرفة لكنه ثابتٌ في غيرها أيضاً.

والثالث: أن يكون وصفاً لاسم «لا» المبنيِّ، واستُبعد بأنهم إنما يتسعون بالفصل بين الموصوف والصفة بفاصلٍ ليس أجنبيًّا من كلِّ وجه، والمعطوف على

---

(١) يعني قراءة: «شهداء لله» بالرفع والنصب.

(٢) في الأصل و(م). وأولو، والمثبت من تفسير أبي السعود ٢/ ١٧، والكلام منه.

(٣) في الأصل: ولعل، والمثبت من (م)، وهو الصواب.

فاعل «شهد» أجنبيٌّ مما هو في صلة «أنَّ» لفظاً ومعنى، وبأنه متلبِّس بالحال، فينبغي على هذا أن يرفع حملاً على محل اسم «لا» رفعاً للالتباس.

والرابع: أن يكون مفعولَ العلم، أي: وأولو المعرفة قائماً بالقسط، ولا يخفى بعدُه.

الخامس: ولعلَّه الأوجه: أن يكون حالاً من الضمير، والعاملُ فيها معنى الجملة، أي: تفرَّد أو أَحُقُّه(١)، لأنها حالٌ مؤكِّدة، ولا يضرُّ تخلُّل المعطوفين هنا بخلافه في الصفة؛ لأن الحال المؤكِّدة في هذا القسم جاريةٌ مجرى جملة مفسِّرة نوعَ تفسير، فناسب أن يقدم المعطوفان لأن المشهود به واحد، فهو نوعٌ من تأكيده تمِّم بالحال المفسِّرة، وعلى تقدير الحاليةِ من الفاعل والمفعوليةِ للعلم لا يندرج في المشهود به، وعلى تقدير النصب على المدح يَحتمل الاندراج وعدمه، وعلى التقديرين الأخيرين يندرج لا مَحالة.

وقرأ عبد الله: «القائمُ بالقسط»، على أنه خبر لمبتدأ محذوف، وكونه بدلاً من «هو» لا يخلو عن شيء.

وقرأ أبو حنيفة: «قيِّماً بالقسط»(٢).

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تكرير للمشهود به للتأكيد، وفيه إشارةٌ إلى مَزيد الاعتناء بمعرفة أدلَّته؛ لأنَّ تثبيت المدَّعى إنما يكون بالدليل، والاعتناء به يقتضي الاعتناءَ بأدلَّته، ولينبني عليه قولُه تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾ فيعلم أنه المنعوت بهما.

وقيل: لا تكرار؛ لأنَّ الأول شهادةُ الله تعالى وحدَه، والثاني شهادةُ الملائكة وأولي العلم، وهو ظاهرٌ عند مَن يرفع «الملائكة» بفعل مضمَرٍ.

ووجه الترتيب تقدُّم العلم بقدرته التي يُفهمها «العزيز» على العلم بحكمته تعالى التي يُؤذن بها «الحكيم». وجَعَل بعضُهم «العزيز» ناظراً إلى قوله سبحانه: «لا إله إلا هو»، و«الحكيم» ناظراً إلى قوله تعالى: «قائماً بالقسط».

---

(١) قال أبو حيان في البحر ٢/ ٤٠٤: إن كان المتكلِّم مخبراً عن نفسه فيقدر الفعل «أحق» مبنياً للمفعول، نحو: أنا عبد الله شجاعاً، أي: أُحَقُّ شجاعاً، وإن كان مخبراً عن غيره قدرته مبنياً للفاعل، نحو: هو زيد شجاعاً، أي: أحقُّه.

(٢) القراءتان في الكشاف ١/ ٤١٧، والبحر ٢/ ٤٠٣.

ورَفْعُهما على الخبرية لمبتدأ محذوف، أو البدلية من «هو»، أو الوصفيةِ له؛ بناءً على ما ذهب إليه السكاكيُّ[(١)] من جواز وصف ضمير الغائب. وجعلُهما نعتاً لفاعلِ «شهد» بعيد.

وقد روي في فضل الآية أخبار؛ أخرج الديلمي عن أبي أيوب الأنصاري مرفوعاً: «لما نزلت الحمد لله ربِّ العالمين، وآية الكرسي، و(شَهِدَ ٱللَّهُ) و(قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ) إلى (بِغَيْرِ حِسَابٍ) تعلَّقن بالعرش، وقُلْنَ: أتنزِلُنا على قومٍ يعملون بمعاصيك؟ فقال: وعزَّتي وجلالي وارتفاع مكاني لا يتلوكنَّ عبدٌ عند دُبرِ كلِّ صلاة مكتوبةٍ إلا غفرتُ له ما كان فيه، وأسكنتُه جنةَ الفردوس، ونظرتُ له كلَّ يومٍ سبعين مرَّة، وقضيتُ له سبعين حاجةً أدناها المغفرة»[(٢)].

وأخرج ابن عَديٍّ والطَّبرَانيُّ والبَيْهقيُّ ـ وضعَّفه ـ والخطيب وابنُ النجار، عن غالب القطَّان قال: أتيتُ الكوفة، فنزلت قريباً من الأعمش، فلمَّا كان ليلةُ أردتُ أن أنحدِرَ قام فتهجَّد من الليل، فمرَّ بهذه الآية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ إلخ، فقال: وأنا أشهدُ بما شهِدَ اللهُ تعالى به، وأستودِعُ اللهَ تعالى هذه الشهادةَ، وهي لي وديعةٌ عند الله تعالى. قالها مراراً، فقلتُ: لقد سمع فيها شيئاً! فسألته فقال: حدثني أبو وائل بن عبد الله، قال: قال: رسولُ الله ﷺ: «يُجاء بصاحبها يومَ القيامة، فيقول الله تعالى: عبدي عَهِدَ إليَّ عهداً وأنا أحقُّ مَن وفَّى بالعهد، أَدخِلوا عبدي الجنة»[(٣)].

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والذي في البحر ٢/ ٤٠٧، والدر المصون ٣/ ٨٢: الكسائي.

(٢) ذكره السيوطي في اللآلئ ١/ ٢٠٩-٢١٠، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن بحير بن ريسان، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٦٢١: اتهمه ابن عدي، وقال ابن يونس: ليس بثقة، وقال أبو بكر الخطيب: كذاب.
وأخرجه بنحوه من حديث عليٍّ كرم الله وجهه ابن السني في عمل اليوم والليلة (١٢٣) والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق ٢/ ٤٢٦-٤٢٧، والواحدي في الوسيط ١/ ٤٢٦، وابن حبان في المجروحين ١/ ٢٢٣، وابن الجوزي في الموضوعات (٤٨٠). وفيه الحارث ابن عمير يروي عن الأثبات الموضوعات، وهذا حديث موضوع كما قال ابن حبان وابن الجوزي.

(٣) الكامل لابن عدي ٦/ ٢٠٣٥، والمعجم الكبير (١٠٤٥٣)، والشعب (٢٤١٤)، وتاريخ بغداد ٧/ ١٩٣ـ١٩٤، وعزاه لابن النجار االسيوطي في الدر المنثور ٢/ ١٢، وهو عند ابن =

وروي عن سعيد بن جبير: أنه كان حَوْلَ المدينة ثلاثُ مئةٍ وستُّون صنماً، فلمَّا نزلت هذه الآيةُ الكريمة خُرْن سجَّداً للكعبة[1].

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ جملة مبتدأةٌ وقعَت تأكيداً للأولى، وتعريفُ الجزءين للحصر، أي: لا دين مَرْضيٌّ عند اللهِ تعالى سوى الإسلام، وهو على ما أخرج ابنُ جرير[2] عن قتادة: شهادةُ أنْ لا إله إلا اللهُ تعالى، والإقرارُ بما جاء من عند الله تعالى، وهو دِينُ اللهِ تعالى الذي شَرَع لنفْسه، وبَعث به رُسُلَه، ودَلَّ عليه أولياءَه، لا يَقبلُ غيرَه، ولا يَجْزي إلا به.

وروى عليُّ بن إبراهيم، عن أمير المؤمنين كرَّم اللهُ تعالى وجهه أنه قال في خُطبة له: «لأَنْسبَنَّ الإسلام نسبةً لم يَنسبها أحدٌ قبلي: الإسلام هو التسليمُ، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرارُ هو الأداء، والأداء هو العمل، ثم قال: إنَّ المؤمن أخَذ دِينه عن ربِّه ولم يأخذه عن رأيه، إن المؤمن مَن يُعْرف إيمانه في عمله، وإن الكافر يُعْرَف كفره بإنكاره، أيُّها الناس دِينكم دينكم؛ فإنَّ السيئةَ فيه خيرٌ من الحسنة في غيره، إنَّ السيئة فيه تُغْفَرُ، وإن الحسنة في غيره لا تُقبل»[3].

وقرأ أبي: «إن الدِّين عند الله للإسلام»[4]. والكسائي: «أنَّ الدِّين» بفتح الهمزة[5]، على أنه بدلُ الشيء من الشيء إن فسِّر الإسلام بالإيمان، وأريد به الإقرارُ بوحدانية الله تعالى والتصديقُ بها الذي هو[6] الجزء الأعظم، وكذا إن فسِّر

= الجوزي في العلل (١٤٦ ـ١٤٨). قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، تفرد به عمر بن المختار، وعمر يحدث بالأباطيل. وقال الذهبي في الميزان ٣/ ٣٣١: الآفة فيه من عمر؛ فإنه متهم بالوضع، فما أنصف ابن عدي في إحضاره هذا الحديث في ترجمة غالب.

(١) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٣٦٢، والقرطبي في جامعه ٥/ ٦٣، والسيوطي في الدر المنثور ٢/ ١٢، ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذرِ. والله أعلم بصحته.

(٢) في التفسير ٥/ ٢٨١ ـ ٢٨٢.

(٣) مجمع البيان للطبرسي ٣/ ٣٩.

(٤) الكشاف ١/ ٤١٩، وتفسير أبي السعود ٢/ ١٨.

(٥) التيسير ص٨٧، والنشر ٢/ ٢٣٨.

(٦) في الأصل: وهو، بدل: الذي هو.

بالتصديق بما جاء به النبيُّ ﷺ مما عُلم من الدِّين بالضرورة؛ لأن ذلك عينُ الشَّهادة بما ذكر باعتبار ما يَلزمها، فهي عينه مآلاً. وأمَّا إذا فسِّر بالشريعة فالبدل بدلُ اشتمال؛ لأن الشريعة شاملةٌ للإيمان والإقرارِ بالوحدانية، وفسَّرها بعضُهم بعلم الأحكام، وادَّعى أولويَّة هذا الشقِّ نظراً لسياق الكلام، مستدِلًّا بأنه لم يقيد علم الأصول بالعندية؛ لأنها أمورٌ بحسب نفس الأمر لا تدور على الاعتبار، ولهذا تتَّحدُ فيها الأديان الحقَّةُ كلُّها، وقيد كون الدِّين الإسلامَ بالعندية لأن الشرائع دائرة على اعتبار الشارع، ولهذا تغيَّر وتبدَّل بحسب المصالح والأوقات، ولا يخفى ما فيه.

أو على أنَّ «شَهِدَ» واقعٌ عليه، على تقدير قراءة: «إنه» بالكسر كما أشير إليه[1]. و«عند» على كلٍّ تقدير ظرفٌ، العاملُ فيه الثبوتُ الذي تشير إليه الجملة.

وقيل: متعلِّق بكون خاصٍّ ينساق إليه الذهن يقدَّر معرفةً وقع صفةً لـ «الدِّين»، أي: إن الدِّينَ المَرْضيَّ عند الله الإسلامُ. وقيل: متعلِّق بمحذوف وقع حالاً من «الدِّين». وقيل: متعلِّق به. وقيل: متعلِّق بمحذوف وقع خبراً عن مبتدأ محذوف، والجملة معترضة، أي: هذا الحكم ثابتٌ عند الله. وأرى الكلَّ ليس بشيء:

أما الأول: فلأنه خلافُ القاعدة المعروفة في الظروف إذا وقعت بعد النكرات.

وأما الثاني: فلأن المشهور أنَّ «إنَّ» لا تعمل في الحال.

وأما الثالث: فلأنَّه لا وجه للتعلُّق بلفظ «الدِّين» إلا أنْ يُكتَفَى بأنه في الأصل بمعنى الجَزَاءِ.

وأما الرابع: فلأنَّ التكلُّف فيه المستغنَى عنه أظهرُ من أنْ يَخْفَى.

هذا وقد اختُلف في إطلاق الإسلام على غير ما جاء به نبيُّنا ﷺ، والأكثرون على الإطلاق، وأظنُّ أنه بعدَ تحريرِ النزاع لا ينبغي أن يقع اختلافٌ.

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ قيل: المراد بهم اليهودُ، واختلفوا فيما عَهِد إليهم موسى عليه الصلاة والسلام؛ أخرج ابن جرير[2]، عن الربيع قال: إنَّ موسى

---

(١) ينظر ما سلف ص٧٢ من هذا الجزء.

(٢) في التفسير ٥/ ٢٨٣-٢٨٤.

عليه الصلاة والسلام لمَّا حضره الموتُ دعا سبعين حَبراً من أحبار بني إسرائيل، فاستودَعهم التوراةَ وجعلهم أمناءَ عليها، واستخلف يوشع بنَ نون، فلمَّا مضى القرن الأول والثاني والثالثُ وقعت الفُرقةُ بينهم، وهم الذين أوتوا العلم من أبناء السبعين، حتى أَهْرَاقوا بينهم الدماءَ، ووقع الشرُّ طلباً لسلطان الدنيا وملكِها وخزائنها وزخرفها، فسلَّط الله تعالى عليهم جبابرتهم.

وقيل: النصارى، واختلفوا في التوحيد.

وقيل: المراد بالموصول اليهود والنصارى، وبالكتاب الجنسُ، واختلفوا في التوحيد، وقيل: في نبوَّته ﷺ. وقيل: في الإيمان بالأنبياء.

والظاهر أن المراد من الموصول ما يعمُّ الفريقين، والذي اختلفوا فيه الإسلامُ، كما يُشعر به السياقُ، والتعبيرُ عنهم بهذا العنوان زيادةُ تقبيحٍ لهم؛ فإن الاختلافَ بعد إتيان الكتاب أقبحُ، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ زيادةٌ أُخرى، فإن الاختلاف بعد مجيء العلم أَزْيَدُ في القَباحة.

والاستثناء مفرَّغ من أعمِّ الأحوال أو أعمِّ الأوقات، والمراد من مجيء العلم التمكُّنُ منه لسطوع براهينه، أو المراد منه حصولُ العلم بحقيقة الأمر لهم بالفعل. ولم يقل: علموا ـ مع أنه أَخْصَرُ ـ إشارةً إلى أنه عُلم بسبب الوحي.

وقوله سبحانه: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ زيادةُ تشنيع، والاسمُ المنصوب مفعولٌ له لِمَا دلَّ عليه «ما» و«إلا» من ثبوت الاختلاف بعد مجيء العلم، كما تقول: ما ضربتُ إلا ابني تأديباً، فلا دلالةَ للكلام على حصر الباعث، وادَّعاه بعضُهم، أي: إنَّ الباعث لهم على الاختلاف هو البغيُ والحسدُ لا الشبهةُ وخفاءُ الأمر، ولعلَّ انفهامَ ذلك من المقام، أو من الكلام؛ بناءً على جواز تعدُّدِ الاستثناء المفرَّغ، أي: ما اختلفوا في وقتٍ لغرَضٍ إلا بعد العلم لغرَضِ البغي، كما تقول: ما ضرَب إلا زيدٌ عمراً، ما ضرب أحدٌ أحداً إلا زيد عمراً.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قيل: المراد بها حججه. وقيل: التوراة. وقيل: هي والإنجيل. وقيل: القرآن. وقيل: آياته الناطقة بأن الدِّين عند الله الإسلامُ. والظاهرُ العموم، أي: أيَّة آيةٍ كانت. والمراد بـ «مَن» أيضاً أعمّ من المختلفين المذكورين وغيرهم، ولك أن تخصَّه بهم.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٩﴾ قائم مقام جواب الشرط علَّة له، أي: ومَن يكفر يُعاقِبْه اللهُ تعالى ويُجازِه عن قريب؛ فإنه سريع الحساب، أي: يأتي حسابُه عن قريب، أو يتمُّ ذلك بسرعة. وقيل: إن سرعة الحساب تقتضي إحاطة العلم والقدرة، فتفيد الجملةُ الوعيدَ، وباعتباره ينتظمُ الشرطُ والجزاءُ من غير حاجةٍ إلى تقدير، ولعلَّه أولى وأدقُّ نظراً.

وفي إظهار الاسم الجليل تربيةٌ للمهابة وإدخال الرَّوعة، وفي ترتيب العقاب على مطلق الكفر إثرَ بيانِ حال أولئك المذكورين إيذانٌ بشدَّة عقابهم.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ أي: جادلوك في الدِّين بعد أن أقمتَ الحجج، والضميرُ للذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى؛ قاله الحسن. وقال أبو مسلم: لجميع الناس. وقيل: وفد نصارى نجران؛ وإلى هذا يشير كلامُ محمد بن جعفر بن الزبير.

﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ أي: أخلصتُ وخضعتُ بقلبي وقالبي «لله» لا أشرك به غيرَه.

وفيه إشارة إلى أن الجدال معهم ليس في موقعه؛ لأنه إنما يكون في أمر خفيٍّ، والذي جادلوا به أمرٌ مكشوف، وحُكْمُ حاله معروف، وهو الدِّين القويم، فلا تكون المحاجَّةُ والمجادلة إلا مكابرةً، وحينئذٍ يكون هذا القول إعراضاً عن مجادلتهم.

وقيل: إنه محاجَّة، وبيانُه أن القوم كانوا مقرِّين بوجود الصانع وكونِه مستحقاً للعبادة، فكأنه قال: هذا القول متفقٌ عليه بين الكلِّ، فأنا مستمسِكٌ بهذا القَدْرِ المتفَقِ عليه، وداعي الخَلْقَ إليه، وإنما الخلاف في أمورٍ وراء ذلك؛ فاليهود يدَّعون التشبيهَ والجسمية، والنصارى يدَّعون إلهية عيسى عليه السلام، والمشركون يدَّعون وجوب عبادة الأوثان، فهؤلاء هم المدَّعون فعليهم الإثبات، ونظير ذلك: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ٦٤].

وعن أبي مسلم: أنَّ الآية في هذا الموضع كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] فكأنه قيل: فإنْ

نازَعُوك يا محمد في هذه التفاصيل، فقل: أنا متمسك بطريق إبراهيم عليه السلام، وأنتم معترِفون بأنه كان محقًّا في قوله صادقاً في دِينه، فيكون من باب التمسُّك بالإلزامات، وداخلاً تحت قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولعلَّ القول بالإعراض أَوْلى؛ لِمَا فيه من الإشارة إلى سوء حالهم وحطِّ مقدارهم.

وعبَّرَ عن الجملة بـ «الوجه» لأنه أشرف الأعضاء الظاهرةِ، ومظهرُ القُوى والمشاعر، ومَجْمَعُ معظمِ ما يَقع به العبادة، وبه يَحصل التوجُّه إلى كلِّ شيء.

وفتح الياءَ نافعٌ وابن عامر وحفص، وسكَّنها الباقون[١].

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ عطف على الضمير المتصل في «أسلمتُ» وحَسُنَ للفصل، أو مفعولٌ معه. وأُورد عليهما: أنهما يَقتضيان اشتراكهم معه ﷺ في إسلام وجهه، وليس المعنى: أسلمتُ وجهي وهم أسلَموا وجوهَهم؛ إذ لا يصحُّ: أكلتُ رغيفاً وزيدٌ، أو: وزيداً، وقد أكَل كلٌّ منهما رغيفاً، فالواجب أن يكون «مَن» مبتدأ والخبر محذوفٌ، أي: «ومن اتبعن» كذلك. أو يكون معطوفاً على الجلالة، وإسلامُه ﷺ لمن اتبعه بالحفظ والنصيحة.

وأجيب بأن فهمِ المعنى وعدمَ الإلباس يسوِّغ كِلا الأمرين، ويستغنى بذلك عن مؤونة الحذف، وتكلُّفِ خلافِ الظاهر جدّاً.

وأثبت الياء في «اتَّبعني» على الأصل أبو عمرو ونافع[٢]. وحذفَها الباقون. وحَذْفُها أحسن لموافقة خطِّ المصحف، وقد جاء الحذفُ في مثل ذلك كثيراً كقول الأعشى:

فهل يَمْنَعَنّي ارتيادي البِلا ... دَ مِنْ حَذَرِ الموتِ أنْ يأتِيَنْ[٣]

---

(١) التيسير ص٩٣، والنشر ٢/ ٢٤٧، وفتح الياء أيضاً أبو جعفر.
(٢) أي: وصلاً، وأثبتها في الوصل أيضاً أبو جعفر، وأثبتها وصلاً ووقفاً يعقوب، وحذفها الباقون. التيسير ص٩٣، والنشر ٢/ ٢٤٧.
(٣) ديوان الأعشى ص٢٠٥.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ عطف على الجملة الشرطية، والمعنى: فإن حاجَّك أهلُ الكتاب فقابِلْهم بذلك، فإنْ أَجدَى فعمِّم الدعوةَ وقل للأَسْوَد والأحمر: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ متَّبعين لي كما فعَل المؤمنون، فإنه قد جاءكم من الآيات ما يُوجبه ويَقتضيه، أم أنتم على كفركم بآيات اللهِ تعالى، وإصرارِكم على العناد؟ وهذا كما تقول إذا لخَّصتَ لسائلٍ مسألةً، ولم تَدَعْ من طرق البيان مسلكاً إلا سلكتَه: فهل فهمتَها؟ على طَرْزِ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] إثْرَ تفصيل الصوارف عن تعاطي ما حرّم تعاطيه، وفي ذلك تعييرٌ لهم بالمعاندة وقلَّة الإنصاف، وتوبيخٌ بالبَلادة وجمود القريحة. والكثيرون على أنَّ الاستفهامَ للتقرير وفي ضمنه الأمرُ.

ووضع الموصول موضع الضمير لرعاية التقابُل بين المتعاطفين. والمراد من «الأميين»: الذين لا يكتبون من مشركي العرب؛ قاله ابن عباس وغيره.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟﴾ أي: اتَّصفوا بالإسلام والدِّين الحقِّ ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ على تضمين معنى الخروج، أي: اهتدوا خارجين من الضَّلال، كذا قيل، وبعضٌ يفسِّر الاهتداء باللازم وهو النفع، أي: فقد نفعوا أنفسَهم، قالوا: وسبب إخراجِهِ عن ظاهره أنَّ الإسلام عينُ الاهتداء، فإنْ فُسِّر على الأصل اتَّحد الشرط والجزاء، وفيه منع ظاهر.

﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: أَعْرَضوا عن الإسلام ولم يقبلوا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ قائمٌ مقام الجواب، أي: لا يضرُّك شيئاً؛ إذ ما عليك إلا البلاغُ وقد أدَّيتَهُ على أكمل وجهٍ وأَبْلَغِه، وهذا قبل الأمر بالقتال، فهو منسوخ بآية السيف.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ تذييلٌ فيه وعدٌ على الإسلام، ووعيدٌ على التولِّي عنه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أيَّةِ آيةٍ كانت، ويَدخل فيهم الكافرون بالآيات الناطقةِ بحَقِّيَّة الإسلام دخولاً أوَّليّاً. ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ هم أهلُ الكتاب الذين كانوا في عصره ﷺ؛ إذ لا معنى لإنذار الماضي.

قال القطب: وإسنادُ القتل إليهم ولم يَصدر منهم قتلٌ لوجهين:

أحدهما: أن هذه الطريقة لمَّا كانت طريقةَ أسلافهم صحَّت إضافتُها إليهم؛ إذ صُنْعُ الأبِ قد يُضاف إلى الابن، لا سِيَّما إذا كان راضياً به.

الثاني: أن المراد: من شأنهم القتلُ إن لم يوجد مانع.

والتقييدُ بـ «غير حقٍّ» لِمَا تقدم، وتُركت «أل» هنا دون ما سبق لتفاوت مخرج الجملتين. وقد مرَّ ما ينفعك في هذه الآية فتذكَّر[١].

وقرأ الحسن: «يقتِّلون النبيين»[٢].

﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: بالعدل، ولعلَّ تكرير الفعل للإشعار بما بين القتلين من التفاوت، أو باختلافهما في الوقت. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة بن الجراح، قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُّ عذاباً يومَ القيامة؟ قال: «رجلٌ قتلَ نبيّاً أو رجلاً أمَرَ بالمعروف ونهى عن المنكر» ثم قرأ الآية، ثم قال ﷺ: «يا أبا عبيدة قَتَلتْ بنو إسرائيل ثلاثةً وأربعين نبيًّا أولَ النهار في ساعةٍ واحدةٍ، فقام مئة رجلٍ وسبعون رجلاً من عُبَّادِ بني إسرائيل فأمَروا مَن قتلَهم بالمعروف، ونَهَوهم عن المنكر، فقُتلوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذَكَر اللهُ تعالى»[٣].

وقرأ حمزة: «ويقاتلون الذين»[٤]. وقرأ عبد الله: «وقاتَلوا» وقرأ أبيٌّ: «ويقتلون النبيين والذين يأمرون»[٥].

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ خبر «إنَّ»، ودَخَلت الفاءُ فيه لتضمُّن الاسم معنى الشرط، ولا يمنع الناسخُ الذي لم يغيِّر معنى الابتداء من الدخول، ومتى غيَّر كـ «ليت، ولعلَّ» امتنع ذلك إجماعاً. وسيبويه والأخفش يمنعانه عند النسخ مطلقاً، فالخبر عندهما قولُه تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ وجملة «فبشرهم» معترضة بالفاء، كما في قولك: زيدٌ ـ فافهم ـ رجلٌ صالح، وقد صرَّح به النحاة في قوله:

فاعلمْ فعلمُ المرء ينفعه … أنْ سوف يأتي كلُّ ما قُدِرا[٦]

---

(١) ينظر ما سلف ٢/ ٢١١.

(٢) الكشاف ١/ ٤٢٠، والبحر ٢/ ٤١٣.

(٣) تفسير الطبري٥/ ٢٩١، وتفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦٢٠ ـ٦٢١. قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص٢٥: فيه أبو الحسن مولى بني أسد، وهو مجهول.

(٤) التيسير ص٨٧، والنشر ٢/ ٢٣٨.

(٥) قراءة عبد الله وقراءة أبيٍّ في الكشاف ١/ ٤٢٠، والبحر ٢/ ٤١٤.

(٦) سلف ١/ ٤٢٨.

ومَن لم يفهم هذا قال: إنَّ الفاء جزائية وجوابُها مقدَّمٌ من تأخير، والتقدير: زيد رجلٌ صالح، وإذا قلنا لك ذلك فافهم.

وعلى الأول هو استئناف[1]، و«أولئك» مبتدأ، وما فيه من البُعد ـ على المشهور ـ للإيذان ببعد منزلتِهم في فظاعة الحال، والموصول خبرُه، أي: أولئك المتَّصفون بتلك الصِّفات الشنيعة، الذين بطلَت أعمالهم وسقطت عن حيِّز الاعتبار، وخَلَت عن الثمرة في الدنيا، حيث لم تُحقَنْ دماؤهم وأموالهم، ولم يَسْتحقُّوا بها مَدْحاً وثناءً، وفي الآخرة حيث لم تدفع عنهم العذابَ، ولم ينالوا بسببها الثواب، وهذا شاملٌ للأعمال المتوقِّفة على النية، ولغيرها.

ومن الناس مَن ذهَب إلى أنَّ العمل الغيرَ المتوقِّف على النية كالصدقة وصلة الرَّحم ينتفع به الكافر في الآخرة ولا يحبط بالكفر، فالمراد بالأعمال هنا ما كان من القسم الأول، وإن أُريدَ ما يشمل القسمين التُزِمَ كونُ هذا الحكم مخصوصاً بطائفة من الكفار، وهم الموصوفون بما تقدَّم من الصفات، وفيه تأمُّل.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ يَنصرونهم من بأس اللهِ تعالى وعذابه في أحدِ الدَّارين، وجُمع «الناصر» لرعاية ما وقع في مقابلته، لا لنفي تعدُّدِ الأنصار لكلِّ واحدٍ منهم، وقد يُدَّعى أن مجيء الجمع هنا أحسن من مجيء المفرد لأنه رأس آية. والمرادُ من انتفاء «الناصرين» انتفاءُ ما يترتَّب على النصر من المنافع والفوائد، وإذا انتفت من جمعٍ فانتفاؤها من واحدٍ أولى.

ثم إن هذا الحكم وإن كان عامًّا لسائر الكفار كما يؤذِن به قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠] إلا أنَّ له هنا موقعاً، حيث إن هؤلاء الكَفَرةَ وُصِفوا بأنهم يقتلون الذين يأمرون بالقسط ـ وهم ناصِرو الحقِّ، على ما أشار إليه الحديث[2] ـ ولا يوجد فيهم ناصرٌ يَحول بينهم وبين قتلِ أولئك الكرام؛ فقُوبلوا لذلك بعذابٍ لا ناصرَ لهم منه، ولا معينَ لهم فيه.

ومن الناس مَن زعمَ أنَّ في الآية مقابلةَ ثلاثةِ أشياءٍ بثلاثة أشياء: الكفر بالعذاب، وقتل الأنبياء بحبْطِ الأعمال، وقتل الآمِرين بانتفاء الناصر، وهو كما ترى.

---

(١) أي: جملة «أولئك.. إلخ» استئناف على القول بأن جملة «فبشرهم» هي خبر «إن». ينظر تفسير أبي السعود ٢/ ٢٠.

(٢) يعني حديث أبي عبيدة رضي الله عنه الذي سلف قريباً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تعجيبٌ للنبيِّ ﷺ أو لكلِّ مَن يتأتَّى منه الرؤيةُ من حالِ أهل الكتاب، وأنهم إذا عضَّتهم الحجَّةُ فرُّوا إلى الضجَّة، وأعرَضوا عن المَحَجَّة. وفيه تقريرٌ لِما سبق من أنَّ الاختلاف إنَّما كان بعد مجيء العلم.

وقيل: إنه تنويرٌ لنفي الناصر لهم حيث يصيرون مغلوبين عند تحكيم كتابهم.

والمراد بالموصول: اليهود، وبالنصيب: الحظُّ. و«مِن» إمَّا للتبعيض، وإمّا للبيان على معنى: نصيباً هو الكتاب، أو نصيباً منه؛ لأن الوصول إلى كُنهِ كلامهِ تعالى متعذِّر، فإنْ جعل بياناً كان المراد إنزالَ الكتاب عليهم، وإن جعل تبعيضاً كان المراد هدايتهم إلى فَهْمِ ما فيه. وعلى التقديرين اللامُ في «الكتاب» للعهد، والمراد به التوراة، وهو المرويُّ عن كثير من السَّلف. والتنوين للتكثير.

وجوِّز أن يكون اللام في «الكتاب» للعهد، والمراد به اللوح. وأن يكون للجنس، وعليه: النصيب: التوراةُ. و«مِن» للابتداء في الأول ويحتملها، والتبعيضِ في الثاني، والتنوينُ للتعظيم، ولك أن تجعله على الوجه السَّابق أيضاً كذلك.

وجوِّز ـ على تقدير أن يراد بالنصيب ما حصل لهم من العلم ـ أن يكون التنوين للتحقير. واعتُرض بأنه لا يساعده مقامُ المبالغة في تقبيح حالِهم؟ وأجيب بأنه يحتمل أن يكون المقصود تعييرَهم بتمرُّدهم واستكبارهم بالنصيب الحقيرِ عن متابعة مَن له علمٌ لا يوازنهُ علومُ المرسلين كلِّهم.

والتعبير عمَّا أوتوه بالنصيب؛ للإشعار بكمال اختصاصه بهم، وكونِه حقًّا من حقوقهم التي يجب مراعاتها والعمل بموجبها.

وقوله تعالى: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ إمَّا جملةٌ مستأنفةٌ مبيِّنةٌ لمحلِّ التعَجُّب، وإمَّا حالٌ من الموصول، والمراد بكتاب اللهِ التوراةُ، والإظهار في مقام الإضمار لإيجاب الإجابة، والإضافةُ للتشريف وتأكيدِ وجوبِ المراجعة، وإلى ذلك ذهب ابن عباس ﵄ وغيره.

وقد أخرج ابن إسحاق وجماعةٌ عنه قال: دخلَ رسولُ الله ﷺ بيتَ المِدْراس على جماعةٍ من يهود، فدعاهم إلى الله تعالى، فقال النعمان بن عمرو والحارث بن زيد: على أيِّ دِينٍ أنت يا محمد؟قال: «على ملَّة إبراهيم ودِينِه» قالا: فإنَّ إبراهيم

كان يهوديّاً؟ فقال لهما رسولُ الله ﷺ: «فهلمَّا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم» فأبَيا عليه، فأنزَل اللهُ تعالى الآية(١).

وفي «البحر»: زَنَى رجلٌ من اليهود بامرأة ولم يكن بعدُ في ديننا الرجمُ، فتحاكموا إلى رسول الله ﷺ تخفيفاً على الزانيين لشرفهما، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أحكمُ بكتابكم» فأنكروا الرجمَ، فجيء بالتوراة، فوضع حبرُهم ابنُ صوريا يدَه على آية الرَّجم، فقال عبدُ الله بن سلام: جاوزها يا رسول الله. فأظهرَها، فرجما، فغضبت اليهودُ فنزلت(٢). وهو المرويُّ عن ابن جريج، وحكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً.

وذهب الحسنُ وقتادة إلى أنَّ المراد بكتاب الله تعالى القرآنُ، دُعوا إليه لأنَّ ما فيه موافقٌ لِما في التوراة من أصول الدِّيانة وأركان الشريعة، والصِّفةِ التي تقدَّمت البشارةُ بها، أو لأنهم لا يَشكُّون في أنه كتاب الله تعالى المنزَّل على خاتم رسله.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ قيل: أي: ليَفصل الحقَّ من الباطل بين الذين أوتوا وهم اليهود، وبين الداعي لهم وهو النبيُّ ﷺ، في أمر إبراهيم عليه السلام، أو في حكم الرجم، أو في شأن الإسلام، أو بين مَن أسلم منهم ومَن لم يسلم، حيثُ وقع بينهم اختلاف في الدِّين الحقِّ، وعلى هذا ـ وهو المرضيُّ عند البعض وإن لم يوافق سببَ النزول، وربَّما أحوجَ إلى ارتكاب مجازٍ في مرجعِ الضمير ـ لا يتعيَّنُ أن يكون الداعي رسول الله ﷺ.

وقرئ: «ليُحْكَم» على البناء للمفعول(٣)، ونسب ذلك إلى أبي حنيفة.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ عطف على «يُدْعَوْن»، و«ثم» للتراخي الرُّتبي، وفيه استبعادُ تولِّيهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه، و«منهم» صفة لـ «فريق»، ولعلَّ المراد بهذا

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٥٥٢ـ٥٥٣، وأخرجه الطبري ٥/٢٩٣و٢٩٤. وفي إسناده محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت وهو مجهول الحال كما في التقريب. قوله: بيت المدْراس، هو البيت الذي يدرسون فيه. النهاية (درس).

(٢) البحر ٢/٤١٦ عن الكلبي، وذكره عنه الواحدي في أسباب النزول ص٩٣. مختصراً. وأخرجه بنحوه البخاري (٣٦٣٥)، ومسلم (١٦٩٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما دون ذكر نزول الآية.

(٣) هي قراءة أبي جعفر. النشر ٢/٢٢٧.

الفريق أكثرُهم علماً؛ ليُعلم تَولّي سائرِهم من باب الأولى، قيل: وهذا سبب العدول عن«ثم يتولون». وقيل: الذين لم يُسْلموا، ووجهُ العدول عليه ظاهرٌ، فتدبَّر.

﴿وَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ جوِّز أن تكون صفةً معطوفة على الصِّفة قبلها، فالواو للعطف، وأن تكون في محلِّ نصب على الحال من الضمير المستكِنِّ في «منهم»، أو من «فريق» لتخصيصه بالصِّفة، فالواو حينئذٍ للحال وهي إما مؤكِّدة لأنَّ التولِّيَ والإعراضَ بمعنًى، وإمَّا مبيِّنة؛ لاختلاف متعلَّقيهما بناءً على ما قيل: إنَّ التولِّي عن الدَّاعي والإعراضَ عن المدعوِّ إليه، أو التولِّي بالبدن والإعراض بالقلب، أو الأول كان من العلماء والثاني من أتباعهم.

وجوِّز أن لا يكون لها محلٌّ من الإعراب، بأن تكون تذييلاً أو معترِضة، والمراد: وهم قوم دَيدَنُهم الإعراض. وبعضهم فسَّر الجملة بهذا مع اعتبار الحالية، ولعلَّه رأى أنه لا يمنع عنها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من التولِّي والإعراض، وهو مبتدأ خبرُه قولهُ تعالى: ﴿بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ﴾ أي: حاصلٌ لهم بسبب هذا القول الذي رَسَخ اعتقادُهم له، وهوَّنوا به الخطوب، ولم يبالوا معه بارتكاب المعاصي والذنوب. والمراد بالأيام المعدودات أيامُ عبادتِهم العِجْلَ، وجاء هنا «معدودات» بصيغة الجمع دون ما في «البقرة»، فإنه ﴿مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ [الآية: ٨٠] بصيغة المفرد، تفنُّناً في التعبير، وذلك لأن جمع التكسير لغير العاقل يجوز أن يُعامل معاملة الواحدة المؤنثة تارةً ومعاملة جمع الإناث أخرى، فيقال: هذه جبالٌ راسية، وإن شئت قلت: راسيات، وجمالٌ ماشيةٌ، وإن شئت: ماشيات. وخصَّ الجمع هنا لِمَا فيه من الدلالة على القلَّة كموصوفه، وذلك أليقُ بمقام التعجيب والتشنيع.

﴿وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم﴾ أي: أَطْمَعَهم في غير مَطْمَع وخَدعهم ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤﴾ أي: افتراؤهم وكذبُهم، أو الذي كانوا يَفترونه من قولهم: «لن تمسَّنا النار» إلخ؛ قاله مجاهد. أو من قولهم: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: ١٨] قاله قتادة. أو مما يشمل ذلك ونحوَه من قولهم: إنَّ آباءنا الأنبياء يَشفعون لنا، وإن الله تعالى وعَد يعقوبَ أنْ لا يعذِّب أبناءه إلا تحلَّة القسم. والظرف متعلِّق بما عنده، أو بـ «يفترون». واعترضه الخطيبُ بأن ما بعدَ الموصول لا يعمل فيما قبلَه. وأجيب بالتوسُّع.

﴿فَكَيْفَ﴾ استعظامٌ وتهويل وهدمٌ لِما استَنَدوا إليه، وكلمة الاستفهام في موضع نصب على الحال، والعاملُ فيه محذوف؛ أي: كيف تكون حالهم(١)، أو: كيف يصنعون، أو: كيف يكونون. وجوِّز أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف، أي: كيف حالُهم.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ﴾ ظرف محضٌ من غيرِ تضمينِ شرطٍ، والعامل فيه العامل في «كيف» إنْ قدِّر أنها منصوبة بفعل مقدَّر، وإن قلنا: إنها خبرٌ لمبتدأ مضمرَ، كان العاملُ في «إذا» ذلك المقدَّر، أي: كيف حالهم في وقت جمعهم ﴿لِيَوْمٍ﴾ أي: في يومٍ، أو: لجزاءِ يومٍ ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في وقوعه ووقوعِ ما فيه، روي أنَّ أول رايةٍ ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار رايةُ اليهود، فيفضحُهم الله تعالى على رؤوس الأشهاد، ثم يأمر بهم إلى النار(٢).

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: ما عملت من خير أو شرٍّ، والمرادُ: جزاءَ ذلك، إلا أنه أقيم المكسوبُ مقامَ جزائه؛ إيذاناً بكمال الاتصال والتلازم بينهما، حتى كأنهما شيء واحد.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ شيئاً، فلا يُنقَصون من ثوابهم، ولا يُزادون في عذابهم، بل يُعطى كلٌّ منهم مقدار ما كسبه، والضمير راجعٌ إلى كلِّ إنسان، المُشْعِرِ به «كلُّ نفس»، و«كلّ» يجوز مراعاةُ معناه فيجمع ضميره، ووجه التذكير ظاهرٌ.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ تأكيدٌ لِمَا تُشْعِرُ به الآية السابقةُ من مزيد عظمته تعالى وعظيمِ قدرته، وفيه أيضاً إفحامٌ لمَن كذَّب النبيَّ ﷺ وردَّ عليه، لا سِيَّما المنافقين الذين هم أسوأُ حالاً من اليهود والنصارى، وبشارةٌ له ﷺ بالغَلَبة الحسية على مَن خالفه، كغلبته بالحُجَّة على مَن جادله، وبهذا تنتظم هذه الآيةُ الكريمة بما قبلها.

روى الواحديُّ عن ابن عباس وأنس بن مالك، أنه لمَّا افتتح رسولُ الله ﷺ مكةَ وعدَ أُمته ملكَ فارس والروم، فقالت المنافقون واليهود: هيهاتَ هيهاتَ، من

---

(١) وهذا على تقدير الكون تاماً، أما على تقديره ناقصاً فإن «كيف» تكون في محل نصب خبر. الدر المصون ٣/ ٩٧.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف١/ ٤٢١، والبيضاوي في تفسيره ٢/ ١١، وأبو السعود ٢/ ١٢.

أين لمحمد ملكُ فارس والروم؟! هم أعزُّ وأَمْنَعُ من ذلك، أَلَمْ يَكْفِ محمداً مكة والمدينة حتى يطمعَ في ملك فارس والروم؟! فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيَةَ(١).

وروى أبو إسحاق(٢) الثعالبي، عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، قال: حدثني أبي، عن أبيه، قال: خطَّ رسولُ الله ﷺ الخندق عامَ الأحزاب، ثم قطع لكلِّ عشرة أربعين ذراعاً، قال عمرو بن عوف: كنت أنا وسلمان الفارسي وحذيفةُ والنعمان بن مقرِّن المزني وستةٌ من الأنصار في أربعين ذراعاً، فحفرنا، فأخرج الله تعالى من بطن الخندق صخرةً مدوَّرةً كسرت حديدنا وشقَّت علينا، فقلنا: يا سليمان، ارْقَ إلى رسول الله ﷺ وأخبره خبرَ هذه الصخرة، فإمَّا أنْ نَعْدِلَ عنها، أو يأمرنا فيها بأمره، فإنَّا لا نحبُّ أن نجاوز خطَّه. قال: فرَقَي سلمانُ إلى رسول الله ﷺ وهو ضاربٌ عليه قُبَّةً تُركيةً، فقال: يا رسول الله، خرَجت صخرةٌ بيضاء مدوَّرةٌ من بطن الخندق، وكسرت حديدنا وشقَّت علينا حتى ما يَحيك فيها قليل ولا كثير، فمُرنا فيها بأمرٍ، فإنا لا نحبُّ أن نجاوز خطَّك. فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان الخندقَ والتسعةُ على شفير الخندق، فأخذَ رسول الله ﷺ المِعولَ من سلمان، فضربها ضربةً صدَعها، وبرَقَ منها برقٌ أضاء ما بين لابَتَيْها، حتى لكأنَّ مصباحاً في جوف بيت مظلم، وكبَّر رسولُ الله ﷺ تكبيرةَ فتحٍ، فكبَّر المسلمون، ثم ضربها ﷺ الثانيةَ فبرقَ منها برقٌ أضاء ما بين لابتيها، حتى لكأنَّ مصباحاً في جوف بيت مظلم، وكبَّر ﷺ تكبيرة فتحٍ، وكَبَّرَ المسلمون، ثم ضربها عليه الصلاة والسلام الثالثة فكسرها وبرق منها برقٌ كذلك، فكبر ﷺ تكبيرَ فتحٍ، وكبَّر المسلمون، وأخذ بيد سلمان ورَقي، فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد رأيتُ شيئاً ما رأيت مثلَه قطُّ! فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم، فقال: «رأيتم ما يقول سلمان؟» قالوا: نعم يا رسول الله. قال: «ضربتُ ضربتي الأولى فبرَق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصورُ الحيرة ومدائنُ كسرى كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربتُ الثانية فبرق لي الذي رأيتم، أضاءت لي منها

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٩٣، والكشاف ١/ ٤٢١. قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص٢٥: لم أجد له إسناداً.

(٢) في الأصل و(م): أبو الحسن، وهو خطأ، وينظر التعليق الذي بعده.

القصورُ الحمر من أرض الروم كأنَّها أنياب الكلاب، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربتُ ضربتي الثالثة، فبرق لي الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشِروا» فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله، موعد صدق، وُعِدنا النصر بعد الحصر. فقال المنافقون: ألا تعجبون، يَعِدُكم الباطلَ ويُخبركم أنه يبصر من يثربَ قصورَ الحيرةِ ومدائنَ كسرى، وأنها تُفتح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفَرَق، لا تستطيعون أن تَبْرُزوا للقتال؟ فأنزل الله تعالى القرآن ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢] وأنزل هذه الآية ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ إلخ[1].

وأصل «اللهم»: يا ألله، فحذفت «يا» وعوِّض عنها الميم، وأوثرت لقربها من الواو التي هي حرفُ علَّة، وشدِّدت لكونها عوضاً عن حرفين. وجَمْعُها مع «يا» كما في قوله:

إنِّـي إذا مـا حـدَثٌ أَلَـمـا
أقـولُ يـا الـلـهُـمَّ يـا الـلـهُـمَّ[2]

شاذٌّ، وهذا من خصائص الاسم الجليل، كعدم حذفِ حرفِ النداءِ منه من غير ميم، ودخوله عليه مع حرف التعريف، وقطع همزته، ودخولِ تاء القسم عليه،

(١) تفسير أبي إسحاق الثعلبي ٣/ ٤٠، ومن طريقه أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٩٤-٩٦، وأخرجه ابن سعد في الطبقات ٤/ ٨٢-٨٤، والطبري ١٩/ ٣٩-٤٢ من طريق كثير بن عبد الله به، دون ذكر آية آل عمران. وكثير قال عنه الحافظ في التقريب: ضعيف أفرط من نسبه إلى الكذب. اهـ. وقصة الصخرة أخرجها النسائي في المجتبى ٦/ ٤٣ من حديث سلمان رضي الله عنه. وأخرجها أحمد (١٨٦٩٤)، والنسائي في الكبرى (٨٨٠٧) من حديث البراء رضي الله عنه.

(٢) نسب هذا الرجز أبو زيد في نوادره ص١٦٥، والعيني في شرح الشواهد الكبرى على هامش الخزانة ٤/ ٢١٦ لأبي خراش الهذلي، وردَّ هذه النسبة البغدادي في الخزانة ٢/ ٢٩٥ وقال: لا يعرف قائله ولا بقيَّته. وهو دون نسبة في الزاهر لابن الأنباري ١/ ٥١، وسر صناعة الإعراب لابن جني ١/ ٤١٩و٤٣٠، وتهذيب اللغة ٦/ ٤٢٦، وشرح المفصل ٢/ ١٦، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٣٤٠، والإنصاف ١/ ٣٤١.

واللامِ في القسم التعجُّبي نحو: للهُ لا يؤخِّر الأجلُ!، ودخول «ايمُن» و«يمين» عليه في القَسم أيضاً، وميم في «م» «الله»، ووقوع همزة الاستفهام خلفاً عن حرف القسم نحو: آللهِ، وحرف التنبيه في نحو: لا ها اللهِ ذا[1]، وغير ذلك، فسبحانه من إلهٍ كلٌّ شأنه غريب.

وزعم الكوفيون أنَّ أصله: يا الله أُمَّنا بخير، أي: اقصُدْنا به، فخفِّف بحذف حرف النداء ومتعلِّقاتِ الفعل وهمزتهِ، ويجوز الجمع عندهم بين «يا» والميم بلا بأسٍ. ولا يخفى ما فيه، ويَقتضي أنْ لا يلي هذه الكلمة أمرٌ دعائي آخر إلا بتكلُّفِ الإبدال من ذلك الفعل، أو العطفِ عليه بإسقاط حرف العطف.

و «أل» في «المُلْكِ» للجنس أو الاستغراق، و«المُلْك» بالضم ـ على ما ذكره بعضُ أئمة التحقيق ـ نسبة بين مَن قام به ومَن تعلَّق، وإن شئت قلت: صفة قائمةٌ بذاته، متعلِّقة بالغير تعلُّق التصرُّف التام المقتضي استغناء المتصرِّف وافتقارَ المتصرَّف فيه؛ ولهذا لم يصحَّ على الإطلاق إلَّا لله تعالى جَدُّهُ، وهو أخصُّ من المِلْك بالكسر؛ لأنه تعلّق باستيلاء مع ضبط، وتمكّن من التصرف في الموضوع اللغوي، وبزيادة كونه حقًّا في الشرع من غير نظر إلى استغناء وافتقار، فـ «مالك الملك» هو المَلِكُ الحقيقيُّ المتصرِّف بما شاء كيف شاء إيجاداً وإعداماً، إحياءً وإماتة، وتعذيباً وإثابة، من غير مشارِك ولا ممانع، ولهذا لا يقال: مَلِك المُلْكِ، إلا على ضربٍ من التجوُّز، وحملُ «الملك» على هذا المعنى أوفقُ بمقام المدح.

وقيل: المراد منه النبوة، وإليه ذهب مجاهد. وقيل: المال والعبيد. وقيل: الدنيا والآخرة.

وانتصاب «مالك» على الوصفية عند المبرِّد والزجَّاج[2]، وسيبويه[3] يوجب كونَه

---

(١) قال المبرد في المقتضب ٢/ ٣٢١-٣٢٢: واعلم أن للقسم تعويضات من أدواته. . . فمن هذه الحروف الهاء التي هي للتنبيه؛ تقول: لا ها اللهِ ذا، وإن شئت قلت: لا هلّلهِ ذا، فتكون في موضع الواو إذا قلت: والله. فأما قولك: «ذا»، فهو الشيء الذي تقسم به، فالتقدير: لا والله هذا ما أقسم به، فحذفتَ الخبر لعلم السامعين به.

(٢) المقتضب ٤/ ٢٣٩، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٣٩٤.

(٣) ينظر الكتاب ٢/ ١٩٦-١٩٧.

نداءً ثانياً، ولا يجوز أن يكون صفة لـ «اللهم»؛ لأنه لاتصال الميم به أَشْبَه أسماء الأصوات، وهي لا توصف.

ونُقض دليل سيبويه بـ «سيبويه»؛ فإنه مع كونه فيه اسم صوت يوصف.

وأجيب: بأن اسم الصوت تركَّب معه وصار كبعض حروف الكلمة، بخلاف ما نحن فيه، ومن هنا قال أبو علي[1]: قولُ سيبويه عندي أصحُّ؛ لأنه ليس في الأسماء الموصوفة شيء على حدِّ «اللهم» ولذلك خالف سائر الأسماء، ودخل في حيِّز ما لايوصف، نحو: حَيَّهل، فإنهما صارا بمنزلة صوت مضموم إلى اسم فلم يوصف. والعلَّامة التَّفْتَازاني على هذا، وأيَّد أيضاً بأن وقوع خَلَفِ حرفِ النداء بين الموصوف والصفة كوقوع حرف النداء بينهما، فلو جاز الوصفُ لكان مكان الخلف بعده.

﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مبيِّنة لبعض وجوه التصرُّف الذي يستدعيه مالكيةُ الملك، وجوِّز جَعْلُها حالاً من المنادى، وفي انتصاب الحال عنه خلاف، وصحِّح الجواز لأنه مفعول به، والحالُ تأتي منه كما تأتي من الفاعل، وجَعْلُ الجملةِ خبراً لمبتدأ محذوف، أي: أنت تؤتي ـ وإن اختاره أبو البقاء[2] ـ ليس فيه كثيرُ نفع.

﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ عطف على «تؤتي» وحكمُه حكمُه، ومفعول «تشاء» في الموضعين محذوفٌ، أي: مَن تشاءُ إيتاءَه إياه، وممَّن تشاءُ نَزْعَه منه، و«الملك» الثالث هو الثاني، واللام فيهما للجنس، أو العهد، وليسا هما عينَ الأول؛ لأنَّ الأول عند المحقِّقين حقيقيٌّ عامٌّ، ومملوكيتُه حقيقية، والآخران مَجازيَّان خاصَّان، ونسبتهما إلى صاحبهما مجازيةٌ.

واعتبرَ بعضُهم في التفرقة كونَ المرادِ من الأول الجميع، ومن الآخَرَينِ البعض؛ ضرورةَ أن المُؤْتَى لا يمكن أن يكون الجميع، والمنزوع هو ذاك لأنه معرفة معادة، ويراد بها ـ إنْ لم يمنع مانعٌ ـ عينُ الأول، ولأنه إذا لم يُمْكِنْ إيتاءُ الكلِّ لم يُمكن نزعُ الكلِّ؛ لأن الثاني مسبوق بالأول.

---

(١) هو الفارسي، وكلامه في المحرر الوجيز ١/ ٤١٧، والدر المصون ٣/ ١٠٠-١٠١.

(٢) في الإملاء ٢/ ٥٠.

ومن الناس مَن حمل «الملك» هنا على النبوة، ومعنى نَزْعِها هنا: نقلُها من قوم إلى قوم، أي: تؤتي النبوة بني إسرائيل، وتنقلها منهم إلى العرب.

وقيل: المعنى: تعطي أسباب الدنيا محمداً ﷺ وأُمَّتَه، وتسلبها من الروم وفارس، فلا تقوم الساعة حتى يفتح[1] بلادَهم ويملك ما في أيديهم المسلمون؛ وروي ذلك عن الكلبي. وقيل: تنزعه من صناديد قريش.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ أن تعزَّه في الدنيا أو الآخرة[2]، أو فيهما، بالنصر والتوفيق.

﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ أن تذلَّه في إحداهما، أو فيهما، من غير ممانعة الغير.

وقيل: المراد: تعزُّ محمداً ﷺ وأصحابَه بأن تدخلَهم مكة ظاهرين، وتُذلُّ أبا جهلٍ وأضغاثَ الشركِ بالقتل والإلقاء في القَلِيب.

وقال عطاء: تعزُّ المهاجرين والأنصار، وتذلُّ فارس والروم.

وقيل: تعزُّ المؤمنين بالظَّفَر والغنيمة، وتذلُّ اليهود بالقتل والجزية.

وقيل: تعزُّ بالإخلاص، وتذلُّ بالرِّياء. وقيل: تعزُّ الأحباب بالجنَّة والرؤية، وتذلُّ الأعداء بالنَّار والحِجاب. وقيل: تعزُّ بالقناعة والرِّضا، وتذلُّ بالحرص والطمع. وقيل وقيل، وينبغي حملُ سائر الأقوال على التمثيل؛ لأنه لا مخصِّص في الآية.

و«تعزُّ» مضارعُ أَعَزَ ضدّ أذلَّ. والمجرَّدُ من الهمزة منه: عَزَّ، ومضارعُه يَعِزُّ بكسر العين، ومنه ما في دعاء قنوت الشافعية، وله استعمالان آخران: الضم والفتح، وقد نَظَم ذلك الإمام السُّيوطيُّ بقوله:

يا قارئاً كُتُبَ الآدابِ كُنْ يَقِظاً ... وحَرِّر الفَرْقَ في الأفعال تَحريرا
«عَزَّ» المُضاعَفُ يأتي في مضارعه ... تَثْليثُ عينٍ بِفَرْقٍ جاء مشهوراً
فما كـ: قَلَّ، وضِدّ الذلِّ مع عِظَمٍ ... كذا: كَرُمْتَ علينا، جاء مكسورا
وما كـ: عَزَّ علينا الحال، أيْ: صَعُبَتْ ... فافتَحْ مضارِعَهُ إن كنت نِحْريرا

---

(١) في (م) تفتح.
(٢) في (م): والآخرة.

وهـذه الـخـمـسـة الأفـعـال لازمـةٌ واضْـمُـمْ مضارعَ فِعْلٍ ليس مقصورا
عَزَزْت زيداً، بمَعْنى: قد غَلَبت، كذا أَعَـنْـتَـهُ، فَـكِـلا ذا جـاء مـأثـورا
وقُلْ إذا كُنت في ذِكْرِ القنوتِ: ولا يَـعِـزُّ يـارَب مَـن عـادَيْـت، مـكـسـورا
واشكر لأهل علومِ الشرعِ إذْ شَرَحوا لـكَ الـصَّـواب وأَبْـدَوا فـيـه تـذكـيـرا[1]

﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ جملة مستأنفة، وأجراها بعضُهم على طِرْزِ ما قَبْلَها. وتعريفُ الخير للتعميم، وتقديمُ الخبر للتخصيص، أي: بيدك التي لا يُكْتَنه كُنهها، وبقدرتك التي لا يُقْدَر قَدْرُها، الخيرُ كلُّه، تتصرَّف به أنت وحدَك حَسْبَ مشيئتك، لا يتصرَّف به أحدٌ غيرُك، ولا يملكه أحدٌ سواك.

وإنما خصَّ الخيرَ بالذِّكر تعليماً لمراعاة الأدب، وإلا فذِكْرُ الإعزاز والإذلال يدلُّ على أن الخير والشرَّ كلاهما بيده سبحانه، وكذا قولُه تعالى المَسوقُ لتعليل ما سبق وتحقيقِه: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ فلا يبعد أن تكون الآية من باب الاكتفاء.

وقيل: إنما اقتصر عليه لِما أنَّ سبب نزول الآية ما آتى الله تعالى نبيَّه ﷺ من البشارة بالفتوح وترادُف الخيرات.

وقيل: لِما أن الأشياء باعتبار الشرِّ وعدمِه تنقسم إلى خمسة أقسام:

الأول: مالا شرَّ فيه أصلاً.

والثاني: ما يغلب خيرُه على شرِّه.

والثالث: ما يكون شرًّا محضاً.

والرابع: ما يكون شرُّه غالباً على خيره.

والخامس: ما يتساوى الخير والشرُّ فيه.

والموجودُ من هذه الأقسام في العالم القسم الأول والثاني. والشرُّ الذي فيه غيرُ مقصود بالذات، بل إنما قضاه اللهُ تعالى لحكمةٍ بالغة، وهو وسيلةٌ إلى خيرٍ أعظمَ وأعمَّ نفعاً، والشرُّ اليسير متى كان وسيلةً إلى الخير الكثير، كان ارتكابه مصلحةً

---

(١) ذكر هذه الأبيات عن السيوطي الدمياطي في إغاثة الطالبين ١/ ١٥٩.

تقتضيها الحكمةُ ولا يأباها الكرَم المطلقُ، ألا ترى أن الفصد والحجامة، وشُرْبَ الدواء الكريهِ، وقَطْعَ السلعة، ونحوَها من الأمور المؤلمة، لكونه وسيلةً إلى حصول الصِّحة يَحْسُنُ ارتكابه في مقتضى الحكمة، ويعدُّ خيراً لا شرًّا، وصحةً لا مرضاً، وكلُّ قضاء الله تعالى بما نراه شرًّا من هذا القبيل، ولهذا ورد في الحديث: «لا تتَّهم الله على نفسك»[1] وورد: «لا تكْرَهوا الفتنَ فإنَّ فيها حصادَ المنافقين»[2].

وجاء: «لو لم تُذنبوا لَخِفتُ عليكم ما هو أكبَرُ من ذلك العُجْبَ العجبَ»[3].

ومن هنا قيل: يا من إفسادُه صلاحٌ. فما قدِّر من المفاسد لتضمُّنه المصالحَ العظيمة، اغتُفِر ذلك القدرُ اليسير في جنبها؛ لكونه وسيلةً إليها، وما أدى إلى الخير فهو خيرٌ. فكلُّ شرٍّ قدَّره اللهُ تعالى، لكونه لم يُقصد بالذَّات؛ لأن أحكام القضاء والقدر ـ كما قالوا ـ جاريةٌ على سَنَن ما اتفقت عليه الشرائعُ كلُّها من النظر إلى جلب المصالح وذبِّ المفاسد، بل بالعَرَض لما يستلزمه من الخير الأعظم والنفع الأتم = يصدقُ عليه بهذا الاعتبار أنه خير، فدخل في قوله سبحانه: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾، فلذا اقتصر على الخير على وجهِ أنه شاملٌ لِما قُصد أصلاً، ولِما وقَع استلزاماً، وهذا من باب: ليس في الإمكان أبدعُ مما كان. وقد دَرَج حكماءُ الإسلام عليه، ولا يُعبأ بمن وجَّه سهامَ الطَّعنِ إليه.

وفي «شرح الهياكل»[4]: أنَّ الشرَّ مقضيٌّ بالعَرَض وصادرٌ بالتَّبع، لِمَا أنَّ بعضَ ما يتضمَّن الخيرات الكثيرة قد يستلزم الشرَّ القليل، فكان تركُ الخيرات الكثيرة

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد(١٧٨١٤) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال السندي كما في حاشية المسند: كأن المراد: فوِّض أمرك إليه، ثم لا تَرَيَنَّه فَعَلَ بك شيئاً من الشدة من غير استحقاق منك به، أي فوِّض أمرك إليه، ثم كن راضياً منه بما فعل.

(٢) ذكره الحافظ في التهذيب ٢/ ٤٥٥ في ترجمة عبد الله بن وهب، وذكر أنه قيل لابن وهب: إن فلاناً يحدث عنك عن النبي ﷺ قال: «لا تكرهوا...» فقال ابن وهب: أعماه الله إن كان كاذباً، فذُكر أن الرجل عمي. وأخرج نحوه أبو نعيم في طبقات المحدثين بأصبهان ٣/ ٥٤١ من حديث علي رضي الله عنه؛ ولفظه: «لا تكرهوا الفتنة آخر الزمان فإنها تُبين المنافقين» قال الحافظ في الفتح ١٣/ ٤٤: في سنده ضعيف ومجهول.

(٣) أخرجه البزار (٣٦٣٣-كشف)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) هو شرح هياكل النور للسهروردي في الحكمة، لجلال الدين الصديقي الدواني، ونقله المصنف عن حاشية الشهاب ٣/ ١٦.

لأجل ذلك الشرِّ القليل شرًّا كثيراً، فصدر عنك ذلك الخيرُ فلزمه حصول ذلك الشرِّ، وهو من حيثُ صدورُه عنك خيرٌ؛ إذ عدمُ صدوره شرٌّ؛ لتضمُّنه فوات ذلك الخير، فأنت المنزَّه عن الفحشاء، مع أنه لا يجري في ملكك إلا ما تشاء.

وليس هذا من القول بوجوب الأصلح، ولا ينافيه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] إذ لا يَفعلُ ما يسأل عنه؛ كرماً وحكمةً وجوداً ومِنَّة، ولو اطَّلعتم على الغيب لاخترتم الواقع.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ الولوجُ في الأصل: الدخولُ، والإيلاج: الإدخال، واستُعير لزيادة زمان النهار في الليل وعكسه، بحسب المطالع والمغارب في أكثر البلدان؛ وروي ذلك عن ابن عباس والحسن ومجاهد، ولا يضرُّ تساوي الليل والنهار دائماً عند خطِّ الاستواء؛ لأنه يكفي الزيادة والنقصان فيهما في الأغلب.

وقال الجبائي: المراد بإيلاج أحدهما في الآخر: إيجاد كلٍّ واحدٍ منهما عَقيب الآخر.

والأولُ أقرب إلى اللفظ، وعلى التقديرين الظاهرُ من الليل والنهار ليلُ التكوير ونهاره، وهما المشهوران عند العامة الذين يفهمون ظاهرَ القول، ووراء ذلك أيامُ السلخ التي يعرفها العارفون، وأيامُ الإيلاج الشأنية التي يعقلها العلماء الحكماء. وبيان ذلك على وجه الاختصار:

أنَّ اليوم على ما ذكره القوم الإلهيون[1]: عبارةٌ عن دورة واحدة من دورات فلكَ الكواكب، وهو من النَّطْح إلى النَّطح، ومن الشَّرَطَيْن إلى الشَّرطَيْن[2]، ومن

(١) نقل المصنف ما سيأتي من رسالة أيام الشأن لمحيي الدين بن عربي ص٦-١٢.

(٢) الشَّرطان من منازل القمر، وهما كوكبان بينهما في رأي العين قَدْرُ ذراع، وهما قرنا الحمل، ويسمونها أيضاً: النَّطح أو الناطح، وللقمر ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل في كل ليلة منها بمنزل، فإذا صار في آخرها عاد إلى أولها، فيقطع الفَلَكَ في ثمان وعشرين ليلة، ثم يستسر، ثم يطلع هلالاً، فيعود في قطع الفلك على المنازل. وينظر في أسماء منازل القمر وشرحها الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ١/ ١٧٧، والعمدة لابن رشيق ٢/ ٢٥٤، وتفسير القرطبي ١٧/ ٤٤٦.

البُطَين إلى البطين[1]، وهكذا إلى آخر المنازل، ومن درجة المنزلة ودقيقتها إلى دَرجةِ المنزلة ودقيقتها، وأخفى من ذلك إلى أقصى ما يمكن الوقوفُ عنده، وما من يوم من الأيام المعروفة عند العامة ـ وهي من طلوع الشمس إلى طلوع الشمس، أو من غروبها إلى غروبها، أو من استوائها إلى استوائها، أو ما بين ذلك إلى ما بين ذلك ـ إلا وفيه نهايةُ ثلاثِ مئةٍ وستِّين يوماً، فاليوم طولُه ثلاثُ مئةٍ وستون درجةً؛ لأنه يظهر فيه الفلك كلُّه وتعمُّه الحركة، وهذا هو اليوم الجسماني، وفيه اليوم الروحاني فيه تأخذ العقولُ معارفها، والبصائر مشاهدَها، والأرواحُ أسرارَها، كما تأخذ الأجسام في هذا اليوم الجسماني أغذيتها وزيادتها ونموَّها، وصحَّتها وسقمَها، وحياتها وموتَها.

فالأيامُ من جهة أحكامها الظاهرة في العالم، المنبعثة من القوة الفعَّالة للنفس الكلِّية، سبعةٌ: من يوم الأحد إلى آخره، ولهذه الأيام أيامٌ روحانية لها أحكامٌ في الأرواح والعقول، تنبعث من القوة العلامة للحقِّ الذي قامت به السماوات والأرض وهو الكلمةُ الإلهية، وعلى هذه السَّبعة الدوَّارة يَدور فَلَكُ البَحْث، فنقول: قال الله تعالى في المشهود من الأيام المحسوسة: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [الزمر: ٥]. وأبان عن حقيقتين من طريق الحكم بَعْدَ هذا، فقال في آية: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧] فهذه أنبأتْ أنَّ الليل أصلٌ والنهارَ كان غيباً فيه ثم سُلِخ، وليس معنى السَّلخ معنى التكوير، فلا بد أن يُعرف ليلُ كلِّ نهار من غيره؛ حتى يُنسب كل ثوبٍ إلى لابسه، ويردَّ كلُّ فرعٍ إلى أصْله، ويلحقَ كلُّ ابن بأبيه، وقال في الآية الكريمة كاشفاً عن حقيقة أُخرى: (تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ) فجعَل بين الليل والنهار نِكاحاً معنويًّا لمَّا كانت الأشياء تتولَّدُ منهما معاً، وأكَّد هذا المعنى بقوله عزَّ قائلاً: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤] ولهذا كان كلٌّ منهما مُولِجاً ومولَجاً فيه، فكلٌّ واحدٍ منهما لصاحبه أصلٌ[2] وبَعْلٌ، فكلُّ ما تولَّد في النهار فأمُّه النهار وأبوه الليل، وكلُّ ما تولَّد في الليل فأمُّه

---

(١) منزل من منازل القمر، وهو ثلاثة كواكب صغار، وهو على إثر الشَّرَطين. الأزمنة والأمكنة ١/ ١٧٧، والقاموس (بطن).

(٢) في أيام الشأن ص٧: أهل.

الليل وأبوه النهار، فليس إذاً حكمُ الإيلاج حكمَ السَّلخ؛ فإن السلخ إنما هو في وقت أن يرجع النهار من كونه مولِجاً ومولَجاً فيه، والليلُ كذلك، إلا أنه ذكر السَّلْخَ الواحد ولم يذكر السلخ الآخر من أجل الظاهر والباطن، والغيب والشهادة، والروح والجسم، والحرف والمعنى، وشِبْهِ ذلك، فالإيلاج روحٌ كلِّه والتكويرُ جسمُ هذا الروح الإيلاجي، ولهذا كرَّر الليل والنهار في الإيلاج كما كرَّرهما في التكوير، هذا في عالَم الجسم وهذا في عالَم الرُّوح، فتكويرُ النَّهار لإيلاج الليل وتكويرُ الليل لإيلاج النهار، وجاء السَّلخ واحداً للظاهر لأربابه.

وقد اختلف العجَمُ والعرَب في أصالة أيِّ المكوَّرَيْنِ على الآخر، فالعجمُ يقدِّمون النهار على الليل وزمانُهم شمسيٌّ، فليلةُ السبت عندَهم مثلاً الليلةُ التي يكون صَبيحتَها يومُ الأحد وهكذا، والعربُ يقدِّمون الليلَ على النهار، وزمانُهم قمريٌّ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢] فليلة الجمعة عندهم مثلاً هي الليلة التي يكون صبيحتها يوم الجمعة، وهم أقرب من العجم إلى العلم، فإنه يَعضدهم السَّلخ في هذا النظر، غير أنهم لم يعرِفوا الحكم، فنَسبوا الليلةَ إلى غير يومها كما فعل أصحابُ الشمس، وذلك لأن عوامَّهم لا يعرفون إلا أيام التكوير، والعارفون من أهل هذه الدولة، وورثةُ الأنبياء، يَعلمون ما وراء ذلك من أيام السَّلخ وأيام الإيلاج الشَّأني، ولمَّا كانت الأيام شيئاً، وكلُّ شيء عندهم: ظاهرٌ وباطن، وغيب وشهادة، وروح وجسم، ومُلك وملكوت، ولطيفٌ وكثيف، قالوا: إن اليوم نهارٌ وليل في مقابلة باطنٍ وظاهر، والأيامُ سبعة ولكلِّ يوم نهارٌ وليل من جنسه، والنهار ظلُّ ذلك الليل وعلى صورته، لأنه أصلُه المدرَجُ هو فيه، والمنسلخُ هو منه بالنفخة(١) الإلهية، وقد أطلقَ سبحانه في آية السلخ ولم يبيِّن أيَّ نهار سلخ من أيَّة ليلة، ولم يقل: ليلةُ كذا سلِخ منها نهارُ كذا؛ ليعقلَها مَن ألهمَه اللهُ تعالى رُشْدَه فينالَ فَصْلَ الخِطاب. فعَلَى المفهوم من اللسان العربي بالحساب القَمَري أنَّ ليلة الأحد سلَخ اللهُ تعالى منها نهارَ الأربعاء، وسلخ من ليلة الإثنين نهارَ الخميس، ومن ليلة الثلاثاء نهارَ الجمعة، ومن ليلة الأربعاء نهار السبت، ومن ليلة الخميس نهار الأحد، ومن ليلة الجمعة نهارَ الإثنين، ومن ليلة

---

(١) في الأصل: بالنفحة.

السبت نهار الثلاثاء، فجعل سبحانه بين كلٍّ ليلة ونهارها المسلوخ منها ثلاثَ ليالٍ وثلاثةَ نهارات، فكانت ستةً وهي نشأتك ذات الجهات، فالليالي منها للتحتِ والشمال والخَلْف، والنهاراتُ منها للفوق واليمين والأمام، فلا يكون الإنسان نهاراً ونوراً تُشرِقُ شمسُه وتشرق به أرضُه حتى ينسلخَ من ليل شهوته، ولا يُقبِلُ على مَن لا يَقْبل الجِهات؛ حتى يَبعدَ عن جهات هيكلِه، وإنما نَسبوا هذه النِّسبة من جهة الاشتراك في الشأن الظاهر؛ لستر(١) الحكمة الإلهية على يدِ الموكَّلين بالساعات، وفي اليوم الإيلاجيِّ الشأنيِّ يَعتبرون ليلاً ونهاراً أيضاً، وهو عندهم أربعٌ وعشرون ساعةً قد اتَّحد فيها الشأن، فلم يَنبعث فيها إلا معنىً واحدٌ، ويتنوع في الموجودات بحسب استعداداتها، ولهذا قال سبحانه: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩] ولم يقل: في شؤون، وتنوينه للتعظيم الظاهر باختلاف القوابل وتكثُّرِ الأشخاص، فإذاً: ساعاتُ ذلك اليوم تحت حكمٍ واحدٍ، ونظرِ والٍ واحد قد ولَّاه مَن لا يكون في ملكه إلا ما يشاء، وتولَّاه وخصَّه بتلك الحركة، وجعلَه أميراً في ذلك، والمتصرِّفُ الحقيقي هو اللهُ تعالى، لا هو من حيث هو، فاليومُ الشأني ما كانت ساعاته كلُّها سواء، ومتى اختلفت فليس بيومٍ واحدٍ، ولا يوجد هذا في أيام التكوير وكذا في أيام السَّلخ إلا قليلاً، فطلبنا ذلك في الأيام الإيلاجية فوجدناه مستوفًى فيه، وقد أرسل سبحانه آية الإيلاج ولم يقل: يولج الليلَ الذي صبيحتُه الأحد في الأحد، ولا النهارَ الذي مساؤه ليلة الإثنين في الإثنين، فإذاً لا يلتزم أن ليلةَ الأحد هي ليلة الكَوْر ولا ليلة السَّلخ، وإنما يطلب وحدانية اليوم من أجل أحدية الشأن، فلا ينظر إلا إلى اتِّحاد الساعات، والحاكم المُوَلَّى من قبل المَوْلَى، فليلة الأحد الإيلاجي مركَّبةٌ من الساعة الأولى من ليلة الخميس، والثامنة(٢) منها، والثالثة من يوم الخميس، والعاشرة منها، والخامسة من ليلة الجمعة، والثانية عشرة منها، والسابعة من يوم الجمعة، والثانية من ليلة السبت، والتاسعة منها، والرابعة من يوم السبت، والحادية عشرة منه، والسادسة من ليلة الأحد، فهذه ساعاتُ ليلِهِ.

(١) في الأصل: لسرٍّ.

(٢) في (م): والثانية. والمثبت من الأصل وأيام الشأن، وهو الصواب.

وأما ساعات نهاره من أيام التكوير، فالأولى من يوم الأحد والثامنة [منه][(١)]، والثالثةُ من يوم الإثنين والعاشرة منه، والخامسة من يوم الإثنين والثانية عشرة منه، والسابعة من ليلة الثلاثاء، والثانية من يوم الثلاثاء، والتاسعة منه، والرابعة من ليلة الأربعاء، والحادية عشرة منها، والسادسة من يوم الأربعاء.

فهذه أربعةٌ وعشرون ساعة ظاهرة كالشمس ليوم الأحد الإيلاجي الشأنيِّ، كلُّها كنفسٍ واحدة لأنها من معدن واحد، وهكذا تقول في سائر الأيام حتى تكمل سبعةَ أيام متميِّزةٍ بعضها من بعض؛ مولَجةٍ بعضها في بعض، نهارها في ليلها وليلها في نهارها، لحكمةِ التَّوالد والتناسل، وذلك كسريان الحكم الواحد في الأيام، ويظهر ذلك من أيام التكوير.

وقد ذكر مولانا الشيخُ الأكبر ـ قدِّس سِرُّه ـ الشأنَ في كلِّ يوم في رسالته المسمَّاة بالشأن الإلهي[(٢)]، ولعلِّي إن شاء اللهُ تعالى أذكُر ذلك عند قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩].

وهذه الأيامُ أيضاً غير يوم المثل وهو عمرُ الدنيا، ويوم الربِّ، ويوم المعارج، ويوم القمر، ويوم الشمس، ويوم زُحَل، ويوم الحَمَل، ولكلِّ كوكب من السيارات والبروج يومٌ، وقد ذكر كلَّ ذلك في «الفتوحات»[(٣)].

وإنما تعرَّضنا لهذا المقدار وإنْ كان الاستقصاءُ في بيان مَشْرَب القوم ليس بِدْعاً في هذا الكتاب؛ تعليماً لبعض طلَبة العلم ما الليل والنهار، إذ قد ظَنُّوا لجهلهم ـ بسبب بحثٍ جرَىَ ـ بِنا الظُّنون، وفي هذا كفايةٌ لمن ألقى السمعَ وهو شهيد، فحمداً لك اللهمَّ على ما علَّمتَ، ولك الشكرُ على ما أنعمتَ.

﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾: أي تكوِّن الحيوانات من موادِّها أو من النُّطفة، وعليه ابن عباس وابن مسعود وقتادة ومجاهد والسدِّيُّ، وخلقٌ كثير. ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾ أي: النطفة من الحيوانات، كما قال عامَّة السَّلف.

وأخرج ابن مردويه من طريق أبي عثمان النَّهدي، عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا خَلق اللهُ تعالى آدمَ عليه السلام أخرجَ ذريَّته فقبَضَ قبضةً

---

(١) ما بين حاصرتين من رسالة أيام الشأن ص ١٠.

(٢) ينظر رسالة أيام الشأن ص١٢-١٦.

(٣) ينظر الفتوحات المكية ١/ ١٤٠.

بيمينه، فقال: هؤلاء أهلُ الجنة ولا أبالي، وقبَضَ بالأخرى قبضةً فجاء فيها كلُّ رديء، فقال: هؤلاء أهلُ النار ولا أبالي، فخلط بعضهم ببعض فيخرج الكافرُ من المؤمن والمؤمنُ من الكافر»[1] فذلك قولُه تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ الآية، وإلى هذا ذهب الحسن، وروي عن أئمة أهل البيت.

فالحيُّ والميت مَجازيَّان، ولُطف هذه الجملة بعد الأولى لا يخفى، والقائلون بعموم المجاز قالوا: المراد: تُخرج الحيوانات من النطف والنطف من الحيوانات، والنخلة من النَّواة والنَّواة من النَّخلة، والطيِّبَ من الخبيث والخبيثَ من الطيب، والعالم من الجاهل والجاهل من العالم، والذَّكيَّ من البليد والبليد من الذكيِّ، إلى غير ذلك. ولا يَلزم من الآية أن يكون إخراج كلِّ حيٍّ من ميت وكلِّ ميت من حيٍّ؛ ليلزَم التسلسل في جانب المُبدئ[2]؛ إذ غايةُ ما تُفهِمه الآيةُ أن لله تعالى هذه الصِّفة، وأمَّا أنه لا يَخْلُق شيئاً إلا من شيء فلا، كما لا يخفى.

وقرئ: «الميْت» بالتخفيف في الموضعين[3].

﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧﴾ الظرف في محلِّ الحال من المفعول، أي: تَرزقُ مَن تشاء غيرَ محاسبٍ له. أو من الفاعل، أي: ترزقه غيرَ محاسِب له، أو غير مُضيِّقٍ عليه. وجوِّز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف، أو مفعولٍ محذوف، أي: رِزقاً غيرَ قليل.

وفي ذكر هذه الأفعال العظيمة التي تحيِّر العقول ونسبتها إليه تعالى دلالةٌ على أن من يقدر على ذلك لا يُعجزه أن يَنزِع المُلك من العجم ويذلَّهم، ويؤتيه العربَ ويعزَّهم، بل هو أهونُ عليه من كلِّ هيِّن.

هذا وقد تقدَّم ما يشير إلى فضل هذه الآية، وقد أخرج ابنُ أبي الدُّنيا عن معاذ بن جبل قال: شكوتُ إلى النبيِّ ﷺ دَيْناً كان عليَّ، فقال: «يا معاذ، أتحبُّ

---

(١) الدر المنثور ٢/ ١٥، وحديث القبضتين ذكره السيوطي في الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة ص٢٨، والكتاني في زياداته على الأزهار المتناثرة ص١٢٨، وينظر مجمع الزوائد ٧/ ١٨٥-١٨٧.

(٢) في الأصل: المبدأ.

(٣) وهي قراءة ابن كثير وابن عامر وأبي عمرو وعاصم في رواية أبي بكر. التيسير ص٨٧، والنشر ٢/ ٢٢٤-٢٢٥.

أن يُقْضَى دَيْنُك؟» قلت: نعم. قال: «قل: اللهم مالكَ الملكِ، تؤتي الملك مَن تشاء، وتنزعُ الملكَ ممَّن تشاء، وتعزُّ مَن تشاء، وتذلُّ من تشاء، بيدك الخير إنك على كلِّ شيء قدير، رحمنَ الدنيا والآخرة ورحيمَهما، تُعطِي منهما من تشاء، وتمنع منهما مَن تشاء، اقض عنِّي ديني، فلو كان عليك ملءُ الأرض ذَهَباً أُدِّي عنك»[1] وفي رواية للطبراني الآية بتمامها[2].

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في هذه الآيات: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: أَبَان بدلائل الآفاق والأنفسِ أنه لا إله في الوجود سواه، أو شهِد بذاته في مقام الجمع على وحدانيته، حيث لا شاهِدَ ولا مشهودَ غيره، ﴿وَ﴾ شهِد ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ بذلك، وهي شهادة مَظاهرِه سبحانه في مقام التفصيل. ومِن القوم مَن فرَّق بين الشهادتين: بأنَّ شهادةَ الملائكة من حيث اليقين، وشهادة أولي العلم من حيث المشاهدة. وأيضاً قالوا: شهادةُ الملائكة من رؤية الأفعال، وشهادة أولي العلم من رؤية الصِّفات. وقيل: شهادة الملائكة من رؤية العَظَمة، ولذا يغلب عليهم الخوف، وشهادةُ العلماء من رؤية الجَمَال، ولذا يغلب عليهم الرَّجاء.

وشهادةُ العلماء متفاوتة؛ فشهادةُ بعضٍ من الحالات، وشهادةُ آخرين من المقامات، وشهادةُ طائفة من المكاشفات، وشهادة فرقة من المشاهدات.

وخَواصُّ أهل العلم يشهدون به له بنعت إدراك القِدم وبُروز نورِ التوحيد من جَمَال الوحدانية، فشهادتهم مستغرقة في شهادة الحقِّ؛ لأنهم في محلِّ المحوِ.

﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: مقيماً للعدل بإعطاء كلٍّ من الظهور ما هو له بحسب الاستعداد، فيتجلَّى عليه على قَدْر دعائه.

---

(١) الدر المنثور ٢/ ١٤ عن كتاب الدعاء لابن أبي الدنيا، وأخرجه بهذا اللفظ الطبراني في مسند الشاميين (٢٣٩٨)، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٢٠٤ من طريق عطاء الخراساني عن معاذ به. قال أبو نعيم: غريب من حديث عطاء أرسله عن معاذ. اهـ. وأخرجه بنحوه من طريق آخر عن معاذ الطبراني في الصغير (٥٥٨) وفيه: «.. رحمن الدنيا والآخرة، تعطيهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك» قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٨٦: رجاله ثقات.

(٢) المعجم الكبير ٢٠/ (٣٢٣) و(٣٣٢).

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فلا يَصلُ أحدٌ إلى معرفة كنهه وكنهِ معرفته. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يُدبِّر كلَّ شيء، فيعطيه من مراتب الكمال[1] ما يُطيق.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ﴾ المَرْضي ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ وهو المقامُ الإبراهيمي المُشار إليه بقوله: ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ﴾ [آل عمران: ٢٠] أي: نَفْسي وجُمْلتي، وانخلَعتُ عن أنِيَّتي لله تعالى، ففنِيْتُ فيه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهم المَحْجُوبون عن الدِّين، والساترون للحقِّ بالمَيْل مع الشهوات ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الدَّاعين إلى التوحيد وهم العبادُ الواصلون الكامِلون ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ وهو نفيُ الأغيار، وقصرُ الوجود الحقِّ على الله تعالى﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

ويَحتمل أن يشار بالذين كفروا إلى قوى النفس الأمَّارة، وبالنبيين إلى أنبياء القلوب المُشرَّفة بوحي إلهام الغيوب، وبالآمرين بالقسط: القوى الروحانية التي هي من جنود أولئك الأنبياء وأتباعِهم. فبشِّر أولئك الكافرين ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وهو عذابُ الحِجاب والبُعدِ عن حضرة ربِّ الأرباب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ﴾ أي: بَطَلتْ وانحطَّت عن حيِّز الاعتبار ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ لعدم شرطها، وهو التوحيد﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ وهي عالم الشهادة ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ وهي عالمُ الغيب ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ لسُوء حظِّهم وقلَّة استعدادهم.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ كعُلماء السُّوء، وأحبار الضَّلال ﴿يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ الناطق بمقام الجَمْع والفَرْق ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ وبين الموحِّدين. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ عن قَبول الحقِّ؛ لفرْط حِجابهم واغترارِهم بما أوتوا.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ نارُ البعد ﴿إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ﴾ أي: قليلة يسيرة ﴿وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم﴾ الذي هم عليه ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ من القضايا والأقْيِسة التي جاءت بها عقولُهم المَشوبة بظلمات الوَهْم والخَيال.

﴿فَكَيۡفَ﴾ يكون حالُهم ﴿إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ﴾ بعد تفرُّقهم في صحراء الشُّكوك، وتمزيق سِباعِ الأوهام لهم ﴿لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ وهو يوم القيامة الكبرى، الذي يظهر

---

(١) في (م): التوحيد.

فيه الحقُّ لمُنْكِره ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ صالحةٍ وطالحةٍ ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ بواسطة استعدادها، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ جزاء ذلك.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ أي: المَلك المتصرِّف في مَظاهِرك من غير مُعارِض ولا مُدافع، حَسْبَما تقتضيه الحِكمةُ ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ وهو مَن اخترته للرِّياسة الباطنة، وجعلته متصرِّفاً بإرادتك وقدرتك ﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ بأن تنقله إلى غيره باستيفاء مدَّةِ إقامته في عالم الأجسام وتكميل النشأة، أو تَحرِمُ من تشاء عن إيتاء ذلك الملك؛ لظُلْمه المانعِ له من أن ينالَ عهدك، أو يُمنح رِفدَك.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾ بإلقاء نورٍ من أنوار عزَّتك عليه؛ فإن العزَّة لله جميعاً ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ بسَلْبِ لباسِ عزَّتك عنه، فيبقى ذليلاً ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ كلُّه وأنت القادرُ مطلقاً، تُعطي على حسب مشيئتك، وتتجلَّى طِبقَ إرادتك، وتَمنحُ بقدْرِ قابليةِ مَظاهِرِكَ.

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ تُدْخِلُ ظُلمةَ النفس في نور القلب فيُظلم﴿وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ وتُدخل نورَ القلب في ظلمة النفس فتستنيرُ، وتخلطهما معاً مع بُعد المناسبة بينهما، وتُخرج حيَّ القلب من ميت النَّفْس، وميتَ النفسِ من حيِّ القلب، أو تخرج حيَّ العلم من ميت الجهل، وميتَ الجهل من حيِّ العلم ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ﴾ من النِّعم الظاهرة والباطنةِ، أو من إحداهما فقط﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ إذ لا حَجْرَ عليك.

❁ ❁ ❁

هذا ولمَّا بيَّن سبحانه أن إعطاء المُلك والإعزازِ من الله تعالى، وأنه على كل شيء قدير، نبَّه المؤمنين على أنه لا يَنبغي أن يُوالوا أعداء الله تعالى لقرابةٍ أو صَداقةٍ جاهلية أو نحوهما، أو أنْ لا يَسْتَظْهِروا بهم؛ لأنه تعالى هو المُعِزُّ والقادر المُطْلَق = بقوله عزَّ قائلاً: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ قال ابن عباس: كان الحَجَّاج بن عمرو وكَهْمَس بن أبي الحَقيق، وقيس بن زيد ـ والكلُّ من اليهود ـ يُباطِنُون نفراً من الأنصار ليفتنوهم عن دِينهم، فقال رفاعةُ بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعد[1] بن خَيْثَمة لأولئك النَّفر: اجتنبوا هؤلاء اليهودَ، واحذَروا لزومَهم ومُباطَنَتَهم؛ لا يفتنوكم عن دِينكم، فأبى أولئك النفرُ إلَّا مباطنتهم وملازمتَهم، فأنزَل الله هذه الآية[2].

---

(١) في الأصل و(م): وسعيد، والمثبت هو الصواب. ينظر الإصابة ٤/ ١٤٠.

(٢) أخرجه الطبري ٥/ ٣١٦، وهو في أسباب النزول للواحدي ص٩٦.

وقال الكلبيُّ: نزلَت في المنافقين عبد الله بن أبيٍّ وأصحابه، كانوا يتولَّون اليهود والمشركين، ويأتونهم بالأخبار، ويرجون أن يكون لهم الظَّفرُ على رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى الآية، ونهى المؤمنين عن فِعلِهم.

وروى الضَّحاكُ عن ابن عباس أنها نزلت في عُبادةَ بن الصَّامت الأنصاريِّ، وكان بدريًّا نقيباً، وكان له حُلفاء من اليهود، فلمَّا خرجَ رسول الله ﷺ يومَ الأحزاب، قال عبادة: يا نبيَّ الله إنَّ معي خمسَ مئةٍ من اليهود، وقد رأيتُ أن يخرجوا معي فأستظهر بهم على العدوِّ، فأنزل الله تعالى ﴿لَّا يَتَّخِذِ﴾ إلخ[1].

والفعل مجزوم بلا الناهية، وأجاز الكسائيُّ فيه الرفع على الخبر؛ والمعنى على النهي أيضاً. وهو متعدٍّ لمفعولين، وجوِّز أن يكون متعدِّياً لواحد. فـ «أولياءَ» مفعولٌ ثان، أو حال، وهو جمعُ وليٍّ بمعنى المُوالي، من الوَلْيِ وهو القُرْب.

والمراد: لا يُراعوا أموراً كانت بينهم في الجاهلية، بل يَنبغي أن يُراعوا ما هم عليه الآن مما يقتضيه الإسلامُ من بُغْضٍ وحُبٍّ شَرْعيَّيْن يصحُّ التكليف بهما، وإنَّما قيَّدنا بذلك لِمَا قالوا: إن المَحبَّة لقرابةٍ أو صداقة قديمةٍ أو جديدةٍ خارجة عن الاختيار معفوَّةٌ ساقطة عن درجة الاعتبار.

وحَمْلُ الموالاة على ما يعمُّ الاستعانة بهم في الغزو مما ذهب إليه البعض، ومذهبنا ـ وعليه الجمهور ـ أنه يجوز، ويُرْضَخ لهم، لكنْ إنَّما يُستعان بهم على قتال المشركين لا البُغاة، على ما صرَّحوا به. وما روي عن عائشة ﵂ أنها قالت: خرجَ رسول الله ﷺ لبدرٍ، فتبعه رجلٌ مشرك كان ذا جراءة ونجدة، ففرح أصحابُ النبيِّ ﷺ حين رأوه، فقال له النبيُّ ﷺ: «ارجع فلن أستعين بمشرك»[2] فمنسوخٌ بأنَّ النبيَّ ﷺ استعانَ بيهود بني قَيْنُقاع ورضَخ لهم[3]، واستعان بصفوان بن أمية في هَوَازِن[4].

(١) أسباب النزول للواحدي ص٩٦-٩٧ من طريق جويبر عن الضحاك به، وجويبر متروك.
(٢) أخرجه أحمد (٢٥١٥٨)، ومسلم (١٨١٧) مطولاً.
(٣) أخرجه الشافعي في الأم ٧/ ٣١١ من طريق الحسن بن عمارة عن مقسم عن ابن عباس، وقال البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٣٠٧: لم أجده إلا من حديث الحسن بن عمارة، وهو ضعيف.
(٤) قطعة من خبر طويل أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٥٤٣-٥٤٤ عن الزهري. وقال ابن عبد البر في التمهيد ١٢/ ١٩: لا أعلمه يتصل من وجه صحيح، وهو حديث مشهور معلوم عند أهل السير، وابن شهاب إمام أهلها، وشهرة هذا الحديث أقوى من إسناده.

وذكر بعضُهم جوازَ الاستعانة بشرط الحاجة والوثوقِ، أمَّا بدونهما فلا تجوز، وعلى ذلك يُحمل خبرُ عائشة، وكذا ما رواه الضَّحاك عن ابن عباس في سبب النزول، وبه يَحصل الجمعُ بين أدلَّة المنع وأدلَّة الجواز.

على أن بعض المحققِّين ذكَر أن الاستعانة المنهيَّ عنها إنما هي استعانةُ الذليل بالعزيز، وأما إذا كانت من باب استعانة العزيز بالذَّليل فقد أُذن لنا بها، ومن ذلك اتِّخاذ الكفار عبيداً وخَدَماً، ونكاح الكتابيات منهم، وهو كلامٌ حسن كمالا يخفى.

ومن الناس مَن استدلَّ بالآية على أنه لا يَجوز جَعْلُهم عمَّالاً، ولا استخدامهم في أمور الديوان وغيره. وكذا أدخلوا في المُوالاة المنهيِّ عنها السلام والتعظيم، والدعاء بالكُنية، والتوقير بالمَجالس. وفي «فتاوى» العلامة ابن حجر جوازُ القيام في المجلس لأهل الذِّمة[1]، وعدَّ ذلك من باب البِر والإحسان المأذون به في قوله تعـالـى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

ولعلَّ الصحيح أنَّ كلَّ ما عدَّه العُرْفُ تعظيماً، وحَسِبه المسلمون موالاةً، فهو منهيٌّ عنه ولو مع أهل الذِّمة، لا سيَّما إذا أوقع شيئاً في قلوب ضعفاء المؤمنين، ولا أرى القيامَ لأهلِ الذِّمة في المجلس إلا من الأمور المحظورة؛ لأن دلالته على التعظيم قويَّةٌ، وجعلُه من الإحسان لا أراه من الإحسان، كما لا يخفى.

﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: حال من الفاعل، أي: مُتجاوزين المؤمنين إلى الكافرين استقلالاً أو اشتراكاً، ولا مفهوم لهذا الظرف، إمَّا لأنه ورَد في قوم بأعيانهم والَوا الكفَّار دون المؤمنين، فهو لبيان الواقع، أو لأنَّ ذِكْرَه للإشارة إلى أنَّ الحقيق بالموالاة هم المؤمنون، وفي موالاتهم مندوحةٌ عن موالاة الكفار.

وكونُ هذه النُّكتة تقتضي أن يقال: مع وجود المؤمنين، دون «من دون المؤمنين» في حيِّز المنع، وكونُه إشارة إلى أنَّ وِلايتهم لا تُجامع ولاية المؤمنين؛ في غاية الخفاء.

وقيل: الظرف في حيِّز الصفة لـ «أولياء». وقيل: متعلِّق بفعل الاتِّخاذ، و«من» لابتداء الغاية، أي: لا تجعلوا ابتداء الولاية من مكانٍ دون مكانِ المؤمنين.

---

(١) لم نقف على هذا الكلام في كتاب الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: الاتخاذَ، والتعبيرُ عنه بالفعل ـ كما قال شيخ الإسلام ـ للاختصار، أو لإيهام الاستهجان بِذكْره[١]. و«مَن» شرطية، و«يفعل» فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ والكلام على حذف مضاف، أي: من ولايته، أو من دِينه. والظَّرف الأول حال من «شيء» والثاني خبر «ليس». وتنوين «شيء» للتحقير، أي: ليس في شيء يصحُّ أن يُطلق عليه اسم الولاية أو الدِّين؛ لأن موالاة المتضادين مما لا تكادُ تدخل خيمة الوقوع، ولهذا قيل:

تَــوَدُّ عَــدُوِّي ثُــمَّ تَــزْعُــمُ أَنَّــنــي ... صديقُكَ لَيْسَ النّوك عنك بعازِبِ[٢]

وقيل أيضاً:

إذا والــى صــديــقُــك مَــن تُــعــادي ... فــقــد عــاداكَ وانــقــطــعَ الــكــلامُ[٣]

والجملة معترضة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟﴾ ـ على صيغة الخطاب بطريق الغيبة ـ استثناءٌ مفرَّغ من أعمِّ الأحوال، والعامل فيه فعلُ النهي معتبراً فيه الخطاب، أي: لا تتخذوهم أولياء في حالٍ من الأحوال، إلا حال اتِّقائكم. وقيل: استثناء مفرَّغ من المفعول لأجله، أي: لا يتَّخذ المؤمن الكافرَ وليًّا لشيء من الأشياء إلا للتقية.

﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من جهتهم. و«من» للابتداء، متعلِّق بمحذوف وقع حالاً من قوله تعالى: ﴿تُقَىٰةً﴾؛ لأنه نعت النكرة وقد تقدَّم عليها، والمراد بـ «التُّقاة» ما يُتَّقى منه، وتكون بمعنى: اتِّقاء، وهو الشائع، فعلى الأول يكون مفعولاً به لـ «تتَّقوا»، وعلى الثاني مفعولاً مطلقاً له.

و«منهم» متعلِّق به، وتعدَّى بـ «مِن» لأنه بمعنى خاف، وخاف يتعدَّى بها نحو: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ [النساء: ١٢٨] و﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/ ٢٣.

(٢) البيت لبشار بن برد، وهو في ديوانه ١/ ٣٦٤. النوك بالضم والفتح: الحمق. والعازب: البعيد. القاموس (نوك) و(عزب).

(٣) ذكره ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ٦٨٩، وأبو إسحاق الوطواط في غرر الخصائص الواضحة ص٤٣٢.

جَنَفًا﴾ [البقرة: ١٨٢] والمجرورُ في موضع أحد المفعولين، وترك المفعول الآخر للعلم به، أي: ضرراً ونحوه.

وأصل تقاة: وُقَيَة، بواوٍ مضمومة وياءٍ متحرِّكة بعد القاف المفتوحة، فأُبدلت الواو المضمومة تاءً كتُجَاه، وأبدلت الياء المتحركة ألفاً لتَحَرُّكها وانفتاحِ ما قبلها، ووزنه: فُعَلَة؛ كتُخَمَة وتؤَدَة، وهو في المصادر غيرُ مَقِيس وإنما المقيسُ اتقاء كاقتدار.

وقرأ أبو الرَّجاء وقتادة: «تقِيَّة»، بالياء المشددة[1]، ووزنُها فعيلة، والتاء بدل من الواو أيضاً.

وفي الآية دليلٌ على مشروعية التَّقِيّة، وعرَّفوها بمحافظة النَّفْس، أو العِرض، أو المال، من شرِّ الأعداء.

والعَدوُّ قسمان: الأول: من كانت عداوته مَبْنيَّةً على اختلاف الدِّين، كالكافر والمسلم. والثاني: من كانت عداوته مبنيَّةً على أغراض دنيوية، كالمال والمَتاع والملك والإمارة.

ومن هنا صارت التقية قسمين: أما القسم الأول: فالحكمُ الشرعيُّ فيه أنَّ كلَّ مؤمنٍ وقَع في محلٍّ لا يمكن له أن يُظهِر دِينَه لتعرُّض المخالِفِينَ، وجَب عليه الهجرةُ إلى محلٍّ يقدر فيه على إظهار دِينه، ولا يجوز له أصلاً أن يبقى هناك ويُخفيَ دينَه ويتشبَّثَ بعذرِ الاستضعاف؛ فإنَّ أرضَ الله تعالى واسعةٌ.

نعم إن كان ممَّن لهم عذرٌ شرعيٌّ في تَرْك الهجرة، كالصبيان والنساء والعميان والمحبوسين، والذين يُخوِّفهم المخالفون بالقتل، أو قتلِ الأولاد، أو الآباءِ، أو الأمهات، تخويفاً يُظنُّ معه إيقاعُ ما خوّفوا به غالباً ـ سواء كان هذا القتل بضرب العُنُق، أو بحبس القوت، أو بنحو ذلك ـ فإنه يجوز له المُكثُ مع المخالف، والموافقةُ بقَدْرِ الضرورة، ويجب عليه أن يسعى في الحِيلة للخروج والفِرار بدِينه.

ولو كان التخويف بفوات المنفعة، أو بلُحوق المشقَّة التي يمكنه تَحمُّلها، كالحبس مع القوت، والضربِ القليل الغير المهلك، لا يجوز له موافقتهم.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤١٩، والبحر ٢/ ٤٢٤، وهي قراءة يعقوب من العشرة. النشر ٢/ ٣٢٩.

وفي صورة الجواز أيضاً موافقتُهم رُخصة، وإظهارُ مذهبه عزيمةٌ، فلو تَلِفت نفسُه لذلك فإنه شهيدٌ قطعاً. ومما يدلُّ على أنها رخصة ما رُوي عن الحسن: أنَّ مسيلمةَ الكذَّابَ أخذ رجلين من أصحاب رسولِ الله ﷺ، فقال لأحدهما: أتشهدُ أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. فقال: أتشهدُ أنِّي رسول الله؟ قال: نعم. ثم دعا بالآخر، فقال له: أتشهدُ أن محمداً رسولُ الله؟ قال: نعم. فقال: أتشهد أنِّي رسول الله؟ قال: إنِّي أَصمُّ. قالها ثلاثاً، وفي كلٍّ يُجيبه بـ: إنِّي أَصَمُّ، فضرب عُنُقَه، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: «أمَّا هذا المقتولُ فقد مضىَ على صِدْقِهِ ويقينه، وأخذَ بفضله فهنيئاً له، وأمَّا الآخر فقد رَخَّصه اللهُ تعالى فلا تَبِعَةَ عليه»(١).

وأمَّا القسم الثاني: فقد اختلف العلماء في وجوب الهجرة وعدمه فيه؛ فقال بعضهم: تجب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وبدليل النهي عن إضاعة المال.

وقال قوم: لا تجب؛ إذ الهجرةُ عن ذلك المقام مصلحةٌ من المصالح الدنيوية، ولا يعود مِن تَرْكها نقصان في الدِّين؛ لاتِّحاد المِلَّة. وعدوُّه القويُّ المؤمنُ لا يَتَعرَّض له بالسوء من حيث هو مؤمن.

وقال بعضهم: الحقُّ أن الهجرة هنا قد تجب أيضاً إذا خاف هلاكَ نفسه أو أقارِبِه أو هَتْكَ حُرمَته بالإفراط، ولكن ليست عبادةً وقُربةً حتى يترتَّب عليها الثوابُ، فإنَّ وجوبها لمَحْضِ مصلحةٍ دنيوية لذلك المهاجر، لا لإصلاح الدِّين ليترتب عليها الثوابُ، وليس كلُّ واجب يُثاب عليه؛ لأنَّ التحقيق أنَّ كلَّ واجبٍ لا يكون عبادة، بل كثير من الواجبات مالا يترتَّب عليه ثوابٌ، كالأكل عند شدَّة المَجَاعة، والاحترازِ عن المَضَرَّات المعلومة أو المظنونة في المرض، وعن تناول السُّموم في حال الصحَّة، وغير ذلك، وهذه الهجرة أيضاً من هذا القبيل، وليست هي كالهجرة إلى الله تعالى ورسوله ﷺ لتكون مستوجِبَةً بفضل الله تعالى لثواب الآخرة.

وعدَّ قوم من باب التقيةِ مداراةَ الكفَّار والفَسَقة والظَّلَمة، وإلانة الكلام لهم، والتبسُّم في وجوههم، والانبساط معهم، وإعطاءهم لكفِّ أذاهم وقطعِ لسانهم

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (٣٢٦).

وصيانةِ العِرْض منهم، ولا يُعَدُّ ذلك من باب الموالاة المنهيِّ عنها، بل هي سنَّةٌ وأمر مشروع.

فقد روى الدَّيْلمي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ الله تعالى أمرَني بمُداراةِ الناس كما أمرني بإقامة الفرائض»(١). وفي رواية: «بعثت بالمداراة»(٢).

وفي الجامع: «سيأتيكم ركبٌ مُبْغَضون فإذا جاؤوكم فرحِّبوا بهم»(٣).

وروى ابن أبي الدنيا: «رأس العقل بعد الإيمان بالله تعالى مداراةُ الناس»(٤).

وفي رواية البيهقي: «رأسُ العقل المداراةُ»(٥). وأخرج الطبراني: «مدارةُ الناس صدقةٌ»(٦). وفي رواية له: «ما وَقَى به المؤمن عِرْضَه فهو صدقة»(٧).

وأخرج ابنُ عديٍّ وابن عساكر: «مَن عاش مُدارياً مات شهيداً؛ قُوا بأموالكم أعْرَاضكم، وليصانع أحدُكم بلسانه عن دِينه»(٨).

---

(١) الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ١٧٦، وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٢/ ٤٤٧-٤٤٨، وهو من حديث عائشة ﵂. وفي إسناده بشر بن عبيد الدارسي، كذبه الأزدي، وقال ابن عدي: منكر الحديث عن الأئمة، بيِّن الضعف جدًّا. الميزان ١/ ٣٢٠.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٨٤٧٥) من حديث جابر ﵁، وضعفه.

(٣) جامع الأصول ٤/ ٦٥٠، وأخرجه أبو داود (١٥٨٨) من حديث جابر بن عتيك ﵁.

(٤) قضاء الحوائج لابن أبي الدنيا (١٧) وأخرجه أيضاً أحمد في العلل ومعرفة الرجال ٢/ ٢٨٣، وهو من طريق سعيد بن المسيب عن النبي ﷺ، وهو بالإضافة إلى إرساله فيه علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف، ويرويه عن علي بن زيد هشيم، ولم يسمعه منه، كما قال الإمام أحمد.

(٥) شعب الإيمان (٨٤٤٦) من طريق سعيد بن المسيب عن أبي هريرة ﵁ مرفوعاً. قال البيهقي: وَصْلُه منكر، وإنما يروى منقطعاً، ثم أخرجه من طريق سعيد بن المسيب عن النبي ﷺ، وقد سلف الكلام عليه في التعليق السابق.

(٦) المعجم الأوسط (٤٦٦)، وأخرجه أيضاً ابن حبان (٤٧١)، وابن الجوزي في العلل (١٢١٥)، وهو من حديث جابر ﵁، قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وإنما يعرف بالمسيب بن واضح، وهو في مقام المجهول.

(٧) أخرجه عبد بن حميد (١٠٨١)، وابن عدي ٥/ ١٩٥٨، والدارقطني (٢٨٩٥)، والحاكم ٢/ ٥٠ وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: فيه عبد الحميد (وهو ابن الحسن الهلالي) ضعفوه.

(٨) الكامل لابن عدي ٢/ ٧٧٤، وتاريخ ابن عساكر ٤/ ٣٢٦ من حديث عائشة ﵂، دون قوله: «من عاش مدارياً مات شهيداً». وفي إسناده الحسين بن المبارك الطبراني، قال عنه ابن عدي: أحاديثه مناكير. وقوله: من عاش مدارياً مات شهيداً، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٥/ ١٨٣-١٨٤ عن مكحول قوله، بلفظ: من مات مدارياً...

وعن عروة[١] عن عائشة رضي الله عنها، قالت: استأذن رجلٌ على رسول الله ﷺ وأنا عندَه، فقال رسول الله ﷺ: «بئس ابن العشيرة» ـ أو «أخو العشيرة» ـ ثم أَذِن له فألَانَ له القول، فلما خَرَج قلتُ: يارسول الله، قلتَ ما قلت ثم ألنتَ له القولَ؟ فقال: «يا عائشة إنَّ من أَشَرِّ الناس مَن يتركه الناسُ ـ أو يَدعه الناسُ ـ اتِّقاءَ فُحْشِهِ»[٢].

وفي البخاري عن أبي الدرداء: إنَّا لنَكْشِرُ في وجوهِ أقوامٍ وإن قلوبنا لتلعنُهم[٣]. وفي رواية الكشميهنيِّ: وإن قلوبنا لتقليهم[٤]. وفي رواية ابن أبي الدنيا وإبراهيم الحربي[٥] بزيادة: ونضحك إليهم[٦].

إلى غير ذلك من الأحاديث، لكن لا تنبغي المداراة إلى حيث يُخدَش الدِّين، ويُرتكب المنكرُ، وتسيء الظنون.

ووراء هذا التحقيق قولان لفئتين متباينتين من الناس، وهم الخوارج والشيعة:

أمَّا الخوارج فذهبوا إلى أنه لا تجوز التقيةُ بحالٍ، ولا يُراعى المالُ وحِفظُ النفس والعِرض في مقابلة الدِّين أصلاً، ولهم تشديداتٌ في هذا الباب عجيبة، منها أن أحداً لو كان يصلي وجاء سارقٌ أو غاصبٌ ليسرِقَ أو يغصبَ مالَه الخطيرَ، لا يقطعُ الصلاة، بل يَحرم عليه قطعها.

وطعنوا على أبي بَرْزَةَ[٧] الأسلمي صحابيِّ رسول الله ﷺ بسبب أنه كان يُحافظ

---

(١) في الأصل و(م): بردة، والمثبت هو الصواب.
(٢) أخرجه أحمد (٢٤١٠٦)، والبخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١).
(٣) علقه البخاري بصيغة التمريض قبل الحديث(٦١٣١). وقال الحافظ في الفتح ١٠/ ٥٢٨: الكشر ظهور الأسنان، وأكثر ما يطلق عند الضحك.
(٤) ذكرها الحافظ في الفتح ١٠/ ٥٢٨.
(٥) في الأصل و(م): الحرمي، والمثبت هو الصواب. ينظر فتح الباري ١٠/ ٥٢٨، وتغليق التعليق ٥/ ١٠٣، وقد عزا الحافظ فيهما هذه الرواية لإبراهيم الحربي في غريب الحديث.
(٦) الحلم لابن أبي الدنيا (١٠٩)، وأخرجه بهذه الرواية هناد في الزهد (١٢٥٠)، والحافظ في تغليق التعليق ٥/ ١٠٣.
(٧) وقع في الأصل و(م): بريدة، بدل: أبي برزة، والمثبت هو الصواب.

[على][(1)] فَرَسه في صلاته كي لا يهرب[(2)]، ولا يخفى أنَّ هذا المذهب من التَّفريط بمكان.

وأمَّا الشيعةُ فكلامهم مضطربٌ في هذا المقام، فقال بعضهم: إنَّها جائزةٌ في الأقوال[(3)] كلِّها عند الضرورة، وربَّما وجبَت فيها لضربٍ من اللُّطف والاستصلاح، ولا تجوز في الأفعال كقتل المؤمنِ، ولا فيما يُعلم ـ أو يَغلب على الظنِّ ـ أنه إفسادٌ في الدِّين، وقال المفيد[(4)]: إنها قد تجب أحياناً، وقد يكون فعلُها في وقت أفضلَ من تَرْكِها، وقد يكون تَرْكُها أفضل من فعلها.

وقال أبو جعفر الطوسيُّ: إن ظاهرَ الرِّوايات يدلُّ على أنها واجبةٌ عند الخوف على النفس[(5)].

وقال غيره: إنَّها واجبةٌ عند الخوف على المال أيضاً، ومستَحبَّةٌ لصيانة العِرض، حتى يُسَنُّ لِمَن اجتمع مع أهل السُّنَّة أن يوافقهم في صلاتهم وصيامهم وسائرِ ما يدينون به، ورووا عن بعض أئمة أهل البيت: مَن صلَّى وراءَ سُنِّيٍّ تَقيَّةً فكأنما صلَّى وراء نبيٍّ، وفي وجوب قضاء تلك الصلاة عندَهم خلافٌ، وكذا في وجوب قضاء الصوم على مَن أفطر تقيةً ـ حيثُ لا يَحلُّ الإفطار ـ قولان أيضاً.

وفي أفضلية التقية من سُنِّيٍّ واحد ـ صيانةً لمذهب الشيعة عن الطَّعن ـ خلافٌ أيضاً، وأفتى كثير منهم بالأفضلية.

ومنهم مَن ذهب إلى جواز ـ بل وجوب ـ إظهار الكفر لأدنى مخافةٍ أو طمع، ولا يخفى أنه من الإفراط بمكان.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) أخرجه البخاري (١٢١١) من طريق شعبة عن الأزرق بن قيس قال: كنا بالأهواز نقاتل الحرورية، فبينا أنا على جرف نهر، إذا رجل يصلي وإذا لجام دابته بيده، فجعلت الدابة تنازعه، وجعل يتبعها ـ قال شعبة: هو أبو برزة الأسلمي ـ فجعل رجل من الخوارج يقول: اللهم افعل بهذا الشيخ. . .

(٣) كذا في الأصل و(م)، وفي مجمع البيان٣/ ٥٦ (والكلام منه): الأحوال.

(٤) هو عبد الجبار بن عبد الله، أبو الوفا المقري الرازي شيخ الطبرسي. ينظر طبقات أعلام الشيعة في القرن السادس ص١٥٢. وذكر قوله الطبرسي في مجمع البيان ٣/ ٥٦.

(٥) مجمع البيان ٣/ ٥٦.

وحَمَلوا أكثرَ أفعال الأئمة ـ مما يوافق مذهبَ أهل السنة، ويقوم به الدليل على ردِّ مذهب الشيعة ـ على التقية، وجعلوا هذا أصلاً أصيلاً عندهم، وأسَّسوا عليه دِينَهم، وهو الشائع الآن فيما بينهم، حتى نَسبوا ذلك للأنبياء عليهم السلام؛ وجُلُّ غَرَضهم من ذلك إبطال خلافة الخلفاء الراشدين ﷺ، ويَأبى اللهُ تعالى ذلك؛ ففي كتبهم ما يُبطل كونَ أمير المؤمنين عليٍّ كرَّم الله وجهه وبَنِيه ﷺ ذوي تقيةٍ، ويُبطل أيضاً فضلها الذي زَعموه.

ففي كتاب «نهج البلاغة» الذي هو أصحُّ الكتب بعد كتاب الله تعالى ـ في زعمهم ـ أن الأمير كرَّم الله تعالى وجهَه قال: علامةُ الإيمان إيثارُك الصِّدق حيثُ يضرُّك على الكذب حيثُ ينفعك. وأين هذا من تفسيرهم قوله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] بأكثركم تَقيَّة؟!

وفيه أيضاً: أنه كرَّم الله تعالى وجهه قال: إنِّي واللهِ لو لقيتُهم واحداً وهم طِلاعُ الأرض كلِّها ما باليتُ ولا استوحشتُ، وإنِّي من ضَلالتهم التي هم فيها، والهُدى الذي أنا عليه، لَعَلى بصيرةٍ من نفْسي ويقينٍ من ربِّي، وإلى لقاء الله تعالى وحسنِ ثوابه لمنتظرٌ راجٍ. وفي هذا دلالةٌ على أنَّ الأمير لم يَخَف وهو منفردٌ من حرب الأعداء وهم جموعٌ، ومثلهُ لا يُتصوَّرُ أن يتأتَّى فيما فيه هدم الدِّين.

وروى العياشيُّ عن زرارة بن أعين، عن أبي بكر بن حزم أنه قال: توضأ رجلٌ ومسح على خفَّيْه، فدخل المسجد، فجاء عليٌّ كرم الله تعالى وجهه فوجأ على رقبته فقال: ويلك، تصلِّي وأنت على غير وضوء؟! فقال: أَمَرَني عمرُ. فأخذ بيده فانتهى به[1] إليه ثم قال: انظر ما يقول هذا عنك. ورفع صوته على عمر رضي الله عنه، فقال عمر: أنا أمرتُه بذلك. فانظر كيف رَفَعَ الصوت وأنكر ولم يتأقَّ.

وروى الراوندي شارح «نهج البلاغة»[2] ومعتقِدُ الشيعة عن سلمان الفارسيِّ أنَّ

---

(١) قوله: به، ليس في (م).

(٢) واسم هذا الشرح: منهج البلاغة، لأبي الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسن، المعروف بقطب الدين الراوندي، من أعظم علماء الإمامية ومحدثيهم، من كتبه: خلاصة التفاسير، وفقه القرآن، وقصص القرآن، وغيرها، توفي سنة (٥٧٣هـ) ودفن بقم. مصادر نهج البلاغة وأسانيده لعبد الزهراء الحسيني الخطيب ١/ ٢٠٧.

عليًّا بلغه عن عمر أنه ذكر شيعته، فاستقبله في بعض طرقات المدينة وفي يد عليٍّ قوسٌ فقال: يا عمر، بلغني عنك ذِكْرُك لشيعتي. فقال: ارْبَعْ على ظلعك[1]. فقال عليٌّ: إنك هاهنا. ثم رمى بالقوس على الأرض، فإذا هي ثعبانٌ كالبعير فاغراً فاه وقد أقبل نحو عمر ليبتلعه، فقال عمر: الله الله يا أبا الحسن، لا عُدْتُ بعدها في شيءٍ. فجعل يتضرَّع، فضرب بيده على الثعبان فعادت القوس كما كانت، فمضى عمر إلى بيته. قال سلمان: فلمَّا كان الليل دعاني عليٌّ فقال: سِرْ إلى عمر فإنه حُمِلَ إليه مالٌ من ناحية المشرق وقد عزم أن يخبِّئه، فقل له: يقول لك عليٌّ: أَخْرِج ما حُمِلَ إليك من المَشْرِق ففرِّقه على مَن هو لهم، ولا تُخَبِّه فأفضحَك. قال سلمان: فمضيتُ إليه وأدَّيتُ الرسالة، فقال: أخبرني عن أمر صاحبك، من أين عَلِمَ به؟ فقلت: وهل يَخْفَى عليه مثْل هذا؟ فقال: يا سلمان، اقبَلْ عنِّي ما أقول لك، ما عليٌّ إلا ساحرٌ، وإنِّي لمستيقنٌ بك، والصوابُ أن تفارقه وتصيرَ من جملتنا. قلت: ليس كما قلتَ، لكنه وَرِثَ من أسرار النبوَّة ما قد رأيتَ منه، وعنده أكثر من هذا. قال: ارجع إليه فقل: السمعُ والطاعةُ لأمرك. فرجعتُ إلى عليٍّ فقال: أحدِّثكَ عمَّا جرى بينكما؟ فقلت: أنت أعلمُ منِّي. فتكلَّمَ بما جرى بيننا، ثم قال: إنَّ رُعْبَ الثعبان في قلبه إلى أن يموت. وفي هذه الرواية ضَرْبُ عنق التقيَّةِ أيضاً؛ إذ صاحبُ هذه القوس تُغنيه قوسُه عنها، ولا تُحْوِجُه أن يزوِّج ابنته أمَّ كلثومٍ من عمر خوفاً منه وتقيَّةً.

وروى الكُليني عن معاذ بن كثير، عن أبي عبد الله أنه قال: إنَّ الله عزَّ وجل أنزل على نبيِّه ﷺ كتاباً، فقال جبريل: يا محمد، هذه وصيتُك إلى النُّجباء. فقال: «ومن النجباءُ يا جبريل؟» فقال: عليّ بن أبي طالب وولدُه. وكان على الكتاب خواتمُ من ذهب، فدفعه رسول الله ﷺ إلى عليٍّ وأمره أن يفكَّ خاتماً منه فيعملَ بما فيه ثم دفَعه إلى الحسن ففكَّ منه خاتماً فعمل بما فيه، ثم دفعه إلى الحسين ففكَّ خاتماً، فوجد فيه: أنِ اخرجْ بقومك إلى الشَّهادة، فلا شهادة لهم إلا معك، واشترِ نفسَك لله تعالى، ففعل. ثم دفعَه إلى عليِّ بن الحسين، ففكَّ خاتماً فوجَد فيه: أن

(١) أي: ارفق بنفسك وكُفَّ. ووقع في الأصل و(م): صلعتك، وهو تصحيف. ينظر الصحاح واللسان والتاج (ربع).

أطْرِق واصمُت، والزم منزلَك، واعبُدْ ربَّك حتى يأتيك اليقين، ففعل. ثم دفعه إلى ابنه محمد بن عليٍّ ففكَّ خاتماً، فوجد فيه: حدِّث الناسَ وأَفْتِهم، وانشرْ علومَ أهل بيتِك، وصدِّق آباءك الصَّالحين، ولا تَخافنَ أحداً إلا الله تعالى، فإنه لا سبيل لأحدٍ عليك. ثم دفعَه إلى جعفر الصادقِ ففكَّ خاتماً فوجد فيه: حدِّث الناس وأَفْتِهم ولا تخافنَّ إلا الله تعالى، وانشُر علومَ أهل بيتك، وصدِّق آباءك الصالحين؛ فإنك في حِرْزٍ وأمان، ففعل، ثم دفعه إلى موسى، وهكذا إلى المَهْدي.

ورواه من طريق آخر عن معاذ أيضاً، عن أبي عبد الله، وفي الخاتم الخامس: وقل الحقَّ في الأمنِ والخوف، ولا تخشَ إلا الله تعالى. وهذه الروايةُ أيضاً صريحةٌ بأنَّ أولئك الكرام ليس دِينُهم التَّقية كما تزعمه الشيعة.

وروى سليم بن قيس الهلاليُّ الشيعيُّ من خبرٍ طويل: أنَّ أمير المؤمنين قال: لمَّا قُبِض رسولُ الله ﷺ ومالَ الناسُ إلى أبي بكر فبايَعوه، حملتُ فاطمةَ وأخذتُ بيدِ الحسن والحسين، ولم نَدَعْ أحداً من أهل بدرٍ وأهل السَّابقة من المهاجرين والأنصار إلا ناشدتهم الله تعالى حقِّي. ودَعوتُهم إلى نُصرتي، فلم يَستجب لي من جميع الناس إلا أربعة: الزبيرُ وسلمان وأبو ذرٍّ والمقداد. وهذه تدلُّ على أن التَّقِيَّة لم تكن واجبةً على الإمام؛ لأن هذا الفعل عند من بايع أبا بكرٍ رضي الله عنه فيه ما فيه.

وفي كتاب أبان بن عياش: أنَّ أبا بكر بعثَ إلى عليٍّ قُنْفُذاً حين بايعه الناسُ ولم يبايعه عليٌّ، وقال: انطلق إلى عليٍّ وقل له: أجبْ خليفةَ رسولِ الله ﷺ. فانطلق فبلَّغه، فقال له: ما أسرعَ ما كَذَبتم على رسولِ الله ﷺ وارتَدَدْتم، واللهِ ما استخلفَ رسولُ الله ﷺ غيري.

وفيه أيضاً أنه لمَّا لم يُجِبْ عليٌّ غضب عمرُ، وأضرمَ النارَ بباب عليٍّ وأحرقه ودخَل، فاستقبلته فاطمة وصاحت: يا أبتاه ويا رسولَ الله، فرفَع عمر السيفَ وهو في غمده، فَوَجَأ به جنبَها المبارَك، ورفع السوطَ فضرب به ضِرعها، فصاحت: يا أبتاه. فأخذ عليٌّ بتلابيب عُمَرَ وهزَّه ووجأ أنفَه ورقبته.

وفيه أيضاً أنَّ عمر قال لعليٍّ: بايِع أبا بكر. قال: إنْ لم أفعل ذلك؟ قال: إذاً

واللهِ تعالى لأضربنَّ عُنُقَك. قال: كذبتَ واللهِ يا ابن صُهاك[1] لا تقدرُ على ذلك، أنت ألْأَمُ وأضعفُ من ذلك.

فهذه الروايات تدلُّ صريحاً أن التَّقيةَ بمراحل عن ذلك الإمام؛ إذ لا معنى لهذه المناقشة والمُسَابَّة مع وجوب التقية.

وروى محمد بن سنان أنَّ أمير المؤمنين قال لعمر: يا مغرورُ، إنِّي أراك في الدنيا قتيلاً بجراحةٍ من عبد أمِّ معمر، تحكُمُ عليه جوراً فيقتلك ويَدخلُ بذلك الجِنان على رَغم منك.

وروي أيضاً أنَّه قال لعُمَرَ مرَّةً: إنَّ لك ولصاحبك الذي قمت مقامه هَتْكاً وصَلْباً، تُخرجان من جِوار رسول الله ﷺ فتُصلبان على شجرةٍ يابسة، فتُورق فيفتتن بذلك مَن وَالاكُما، ثم يُؤتَى بالنار التي أُضرمت لإبراهيم، ويأتي جرجيس ودانيال وكلُّ نبيٍّ وصِدِّيق فتُصْلَيان فيها، فتُحْرَقان وتَصيران رَماداً، ثم تأتي ريحٌ فتَنْسِفُكما في اليمِّ نَسْفاً.

فانظُر باللهِ تعالى عليك مَن يَروي هذه الأكاذيبَ عن الإمام كرَّم الله تعالى وجهه، هل ينبغي له أن يقولَ بنِسبة التَّقية إليه؟ سبحان الله تعالى، هذا العَجَب العُجاب والداءُ العُضال!

وممَّا يَرُدُّ قولَهم أيضاً: أنَّ التَّقية لا تكون إلا لخوف؟ والخوف قسمان:

الأول: الخوفُ على النفس، وهو مُنْتَفٍ في حقِّ حَضَرَات الأئمة بوجهين:

أحدهما: أنَّ موتهم الطبيعيَّ باختيارهم، كما أثبت هذه المسألةَ الكلينيُّ في «الكافي» وعقَد لها باباً، وأجمع عليها سائرُ الإمامية.

وثانيهما: أن الأئمة يكون لهم عِلْمٌ بما كان وما يكون، فهم يَعلمون آجالَهم وكيفيات موتِهم وأوقاته بالتفصيل والتخصيص، فقَبْلَ وَقْتِه لا يخافون على أنفسهم، ويُتَّاقون في دِينهم، ويَغُرُّون عوامَّ المؤمنين.

---

(١) صُهاك كغراب: من أعلام النساء. التكملة للصاغاني (صهك) والتاج (صهك). ويدعي الشيعة أن صُهاك هو اسم جدة عمر ﷺ. ينظر الاحتجاج للطبرسي ص٧٢.

القسم الثاني: خوف المَشَقَّةِ والإيذاء البَدَني، والسَّبِّ والشَّتم وهتكِ الحُرمة، ولا شكَّ أن تحمُّل هذه الأمورِ والصبرَ عليها وظيفةُ الصلحاء، فقد كانوا يتحمَّلون البلاءَ دائماً في امتثال أوامرِ الله تعالى، وربَّما قابلوا السَّلاطين الجبابرة، وأهلُ البيت النبويِّ أَولى بتحمُّل الشدائد في نُصرة دِين جدِّهم ﷺ.

وأيضاً لو كانت التقيةُ واجبةً لم يتوقف إمامُ الأئمة عن بَيْعة خليفةِ رسول الله ﷺ ستةَ أشهر، وماذا منعَه من أداء الواجب أولَ وَهْلَةٍ؟

وممَّا يَرُدُّ قولَهم في نِسبة التَّقية إلى الأنبياء عليهم السَّلام بالمعنى الذي أرادوه[1] قولُه تعالى في حقِّهم: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩] وقولُه سبحانه لنبيِّه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] إلى غير ذلك من الآيات.

نعم لو أرادوا بالتقية المداراةَ التي أشرنا إليها، لكان لنسبتها إلى الأنبياء والأئمة وجهٌ، وهذا أحدُ مَحْمَلين لِمَا أخرجه عبد بن حميد عن الحسن أنه قال: التقيةُ جائزةٌ إلى يوم القيامة[2]. والثاني حَمْلُ التَّقية على ظاهرها، وكونُها جائزةً إنَّما هوعلى التفصيل الذي ذَكَرْناه.

ومن الناس من أوجب نوعاً من التقية خاصًّا بخواصِّ المؤمنين، وهو حفظ الأسرار الإلهية عن الإفشاء للأغيار الموجبِ لمفاسدَ كلِّيةٍ، فتراهم متى سئلوا عن سرٍّ أَبهموه وتكلَّموا بكلامٍ لو عُرِض على العامة - بل وعلى علمائهم - ما فهموه، وأَفرغوه بقوالبَ لا يَفْهَمُ المرادَ منها إلا مَن حَسَا من كأسهم، أو تعطَّرَت أرجاءُ فؤادِه من عَبير عَنْبَرِ أنفاسهم، وهذا وإنْ ترتَّب عليه ضلالُ كثيرٍ من الناس، وانجرَّ إلى الطَّعن بأولئك السَّادةِ الأكياس، حتى رمَى الكثيرَ منهم بالزندقة، وأفتى بقتلهم مَن سمع كلامَهم وما حقَّقه، إلا أنهم رأوا هذا دون ما يترتَّب على الإفشاء من

(١) في (م): أراده.

(٢) ذكره عن عبد بن حميد السيوطي في الدر المنثور ٢/ ١٦، وعلقه البخاري قبل الحديث (٦٩٤٠)، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٣٥٩.

المفاسد التي تعمُّ الأرضَ، وحنانيك، بعضُ الشرِّ أهونُ من بعض، وكتمُ الأسرار عن أهلها فيه فواتُ خيرٍ عظيم وموجبٌ لعذاب أليم.

وقد يقال: ليس هذا من باب التَّقية في شيء، إلَّا أنَّ القوم تكلَّموا بما طَفَح على ألسنتِهم وظهرَ على علانيتهم، وكانت المعاني المرادةُ لهم بحيث تَضيقُ عنها العبارةُ، ولا يحومُ حوْلَ حِماها سوى الإشارة، ومَن حَذَا حذوَهم واقتفى في التجرُّد أثرَهم، فَهِم ما قالوا، وتحقَّق ما إليه مالوا، ويؤيِّد هذا ما ذكره الشعرانيُّ قدِّس سِرُّه في «الدُّرَر المنثورة في بيان زُبَدِ العلوم المشهورة»[1] مما نصُّه: وأمَّا زُبْدةُ علمِ التصوف الذي وضَع القومُ فيه رسائلَهم، فهو نتيجةُ العملِ بالكتاب والسُّنَّة، فمَن عمِل بما علِم تكلَّم كما تكلَّموا، وصار جميعُ ما قالوه بعضَ ما عنده؛ لأنه كلَّما ترقَّى العبدُ في باب الأدب مع الله تعالى دقَّ كلامُه على الأفهام، حتى قال بعضهم لشيخه: إنَّ كلامَ أخي فلان يَدقُّ عَلَيَّ فَهْمُه؟ فقال: لأنَّ لك قميصين وله قميصٌ واحد، فهو أعلى مرتبةً منك. وهذا هو الذي دعا الفقهاءَ ونحوَهم من أهل الحجاب إلى تسمية علم الصوفية بعلم الباطن، وليس ذلك بباطن؛ إذ الباطنُ إنَّما هو علم الله تعالى، وأمَّا جميع ما عَلِمَه الخَلْقُ على اختلاف طبقاتهم فهو من علم الظاهر؛ لأنَّه ظهر للخلق، فاعلم ذلك. انتهى.

فعلى هذا، الإنكارُ على القوم ليس في محلِّه.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: عقابَ نَفْسِه؛ قاله ابن عباس ﵄. وفيه تهديدٌ عظيم مشعِرٌ بتناهي المنهيِّ عنه في القُبح، حيث علَّق التحذيرَ بنفسه.

وإطلاقُ النفْس عليه تعالى بالمعنى الذي أَراده جائزٌ من غير مشاكلةٍ على الصحيح، وقيل: النفس بمعنى الذَّات، وجوازُ إطلاقه حينئذٍ بلا مشاكلةٍ ممَّا لا كلامَ فيه عند المتقدِّمين، وقد صرَّح بعضُ المتأخرين بعدم الجواز ـ وإنْ أُريدَ به الذاتُ ـ إلا مشاكلة.

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ أي: المَرْجِعُ. والإظهارُ في مقام الإضمار لتربية المهابة وإدخال الرَّوعة، قيل: والكلام على حذفِ مضافٍ، أي: إلى حُكمهِ أو

(١) ص٥٦.

جزائه، وليس باللازم. والجملةُ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبْلَه، ومحقِّقٌ لوقوعه حَتماً.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي: تُسِرُّوا ما في قلوبكم من الضمائر التي من جملتها ولايةُ الكفَّار، وإنما ذَكَر الصَّدرَ لأنه محلُّ القلب ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ أي: تُظْهِروه فيما بينكم ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ فيؤاخِذْكم به عند مصيركم إليه، ولا ينفعكم إخفاؤه. وتقديمُ الإخفاء على الإبداء قد مرَّت الإشارةُ إلى سرِّه[1].

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من إيراد العامِّ بعد الخاص تأكيداً له وتقريراً. والجملة مستأنفة غير معطوفةٍ على جواب الشَّرط.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ إثباتٌ لصفة القدرة بعد إثبات صفةِ العلم، وبذلك يكمل وَجْهُ التَّحذير، فكأنَّه سبحانه قال: ويحذِّركم اللهُ نفسَه؛ لأنَّه متَّصف بعلم ذاتيٍّ محيطٍ بالمعلومات كلِّها، وقدرةٍ ذاتية شاملةٍ للمقدورات بأسرها، فلا تَجسُروا على عِصيانه وموالاةِ أعدائهِ؛ إذ ما من معصية ـ خفيةً كانت أو ظاهرة ـ إلَّا وهو مطَّلعٌ عليها، وقادرٌ على العقاب بها. والإظهار في مقام الإضمار لِمَا علمتَ.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس المكلَّفة ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ في الدنيا ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ وإن كان مثقالَ ذرة ﴿مُّحْضَرًا﴾ لديها، مشاهَداً في الصُّحف. وقيل: ظاهراً في صُوَرٍ. وقيل: تجدُ جزاءَ أعمالِها محضَراً بأمر الله تعالى. وفيه من التهويل ما ليس في «حاضراً»، وهو مفعول ثان.

﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ عطف على «ما عملت»، و«مُحْضَراً» مُحْضَرٌ فيه معنىً، إلا أنه خُصَّ بالذِّكر في «الخير» للإشعار بكون الخير مراداً بالذات، وكونِ إحضار الشرِّ من مقتضيات الحكمة التشريعية، كما قال شيخ الإسلام[2]. وتقديرُ «محضراً» في النَّظْم وحذفُه للاقتصار بقرينة ذِكْره في الأول ممَّا قاله الأكثرون، ويكون من العطف على المفعولَين وهو جائز، كما في «الدرِّ المَصُون»[3]، ولم يَجعلوه من قبيل: علمتُ زيداً فاضلاً وعمراً، وهو ليس من باب الاقتصار على المفعول

---

(١) ٣/ ٥٠٨.

(٢) هو أبو السعود في تفسيره ٢/ ٢٤.

(٣) ٣/ ١١٧.

الأول، بل من قبيل: زيد قائم وعمرو، وهو مما حذف فيه الخبرُ كما صرَّحوا به، فيلزم الاقتصارُ ضرورةً، والفرقُ بين المبتدأ والمفعول في هذا الباب وهمٌ[(١)].

ولك أن تجعل «تجد» بمعنى تُصيب، فيتعدَّى لواحد، و«محضَراً» حال.

﴿تَوَدُّ﴾ أي: تتمنَّى، وهو عاملٌ في الظرف، أي: تتمنَّى يومَ ذلك ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ﴾ أي: بين ذلك اليوم ﴿أَمَدًا بَعِيدًا﴾. وقيل: الضمير لـ «ما عملت» لقُربه، ولأنَّ اليوم أُحضر فيه الخير والشرُّ، والمتمنَّى بُعْدُ الشرِّ، لا ما فيه مطلقاً، فلا يَحسن إرجاعُ الضمير لـ «اليوم»، وإلى ذلك ذهب في «البحر»[(٢)]، ورُدَّ بأنه أبلغُ؛ لأنه يودُّ البُعْدَ بينه وبين اليوم مع ما فيه من الخير؛ لئلا يَرَى ما فيه من السوء.

والأمد: غايةُ الشيء ومُنتهاه، والفرق بينه وبين الأَبَدِ: أنَّ الأبد مدَّةٌ من الزمان غيرُ محدودة، والأمد مدةٌ لها حدٌّ مجهول. والمراد هنا: الغايةُ الطويلة. وقيل: مقدارُ العمر. وقيل: قَدْرُ ما يُذهب به من المشرق إلى المغرب.

وذهب بعضهم[(٣)] إلى أنَّ المرادَ بالأمد البعيد: المسافةُ البعيدة. ولعلَّه الأظهر، فالتمنِّي هنا من قبيل التمنِّي في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ [الزخرف: ٢٨]. وهذا الذي ذكر في نظم الآية هو ما ذهب إليه كثيرٌ من أئمة التفسير، وقال أبو حيان[(٤)]: إنه الظاهر في بادئ الرأي، مبنيٌّ على أمرٍ اختلَف النحاةُ في جوازه، وهو كون الفاعل ضميراً عائداً على ما اتَّصل به معمول الفعل المتقدِّم، نحو: غلامَ هند ضرَبَتْ هي، والآية من هذا القبيل على ذلك التخريج؛ لأن الفاعل بـ «تودُّ» عائدٌ على شيء اتَّصل بمعمول «تودُّ»، وهو «يوم» لأنه مضافٌ إلى «تَجِدُ كل نفس»، والتقدير: تودُّ كلُّ نفسٍ يومَ وِجْدانِها ما عملت من خيرٍ وشرٍّ محضراً لو أنَّ بينها.. إلخ، وجمهورُ البصريين على جواز ذلك، وهو الصحيح، ومنه قوله:

---

(١) حاشية الشهاب ٣/ ١٧.

(٢) ٢/ ٤٢٧.

(٣) هو الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٢٣.

(٤) في البحر ٢/ ٤٢٦.

أجلَ المرءِ يَسْتَحِثُّ ولا يَدْ ... ري إذا يبتغي حُصُولَ الأماني[١]

أي: المرء في وقتِ ابتغائه حصول الأماني يَسْتَحِثُّ أجلَه ولا يدري، والفرَّاءُ والأخفش[٢] وغيره من البصريين على عدم الجواز؛ لأن هذا المعمول فضلةٌ فيجوز الاستغناءُ عنه، وعَوْدُ الضميرِ على ما اتَّصل به يُخرجه عن ذلك؛ لأنه يلزم ذكر المعمول ليعودَ الضميرُ الفاعل على ما اتَّصل به، ولا يَخْفَى وهنُه.

وفي الآية أَوْجُهٌ أُخَر؛ منها: أنَّ ناصب الظرف «قدير»، ولا يرِد عليه تقييدُ قدرتِه سبحانه بذلك اليوم؛ لأنه إذا[٣] قَدَر في مثله عُلِم قُدْرَتُه في غيره بالطريق الأَولى. ومنها: أنه منصوب بـ «المصير»، أو باذكروا[٤] أو بـ «يحذِّركم» مقدَّراً، فيكون مفعولاً به، أو بالعقاب المضاف الذي أَشعر به كلامُ ابن عباس رضي الله عنهما.

وصرَّحوا بأنه على تقدير تعلُّقه بنحو «اذكروا»، يجوز في «ما عملت» أن يكون مبتدأً خبرُه جملةُ «تودُّ»، وأن يكون معطوفاً على «ما» الأُولى، وجملةُ «تودُّ» إمَّا مستأنَفةٌ جواباً لسؤالٍ مقدَّر، كأنَّ سائلاً قال حين أُمروا بذكر ذلك اليوم: فماذا يكون إذ ذاك؟ فقيل: «تودُّ لو أنَّ بينها» إلخ. أو حال من فاعل«تجد»، أي: اذكروا يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملت من خير وشرٍّ محضراً وادَّةً تباعُدَ ما بينها وبينه.

وجوِّز أن يكون حالاً من ضمير «عملت» لقُرْبه.

واعتُرض بأن «الوداد» إنَّما هو وقتَ وِجدانِ العمل حاضراً في الآخرة، لاوقتَ العمل في الدنيا، والحاليةُ من ضمير «عملت» تقتضيه، فلا وجهَ لها.

وأجيب بأنها حالٌ مقدَّرة على معنى: يوم تجد كل نفس كذا مقدَّراً وِدادُه، أي: حالَ كونه ثابتاً في قَدَرِنا ودادُه، فالودادُ وإنْ لم يكن مقارِناً للعمل، إلا أنَّ كون الوداد ثابتاً في قَدَر الله تعالى وقضائه مقارنٌ له، وهذا مثل ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢].

---

(١) البحر ٢/ ٤٢٧، والدر المصون ٣/ ١١٦، وحاشية الشهاب ٣/ ١٧.
(٢) ذكر قولهما: أبو حيان في البحر ٢/ ٤٢٦.
(٣) في (م): إذ.
(٤) في (م): بالذكر.

واعتُرِض أيضاً بأنه على تقدير الحالية من ضمير «عملت» يلزم تخصيصُ العمل، والمقامُ لا يناسب. وأجيب بأنه ليس القصد التخصيص، بل بيانُ سوء حالِهم وحسرتِهم، ولا بأس به.

وجوَّز أيضاً أبو البقاء[١]: أن تكونَ «ما» في ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ شرطيةً، وإلى ذلك مال السَّفاقسي، ورَفْعُ «تودُّ» ليس بمانع؛ لأنه إذا كان الشرط ماضياً والجزاء مضارعاً، جاز في الجزاء الرفعُ والجزم من غير تفرقةٍ بين «إنْ» الشرطية وأسماءِ الشرط.

واعتُرض بأنَّ رَفْعَ المضارع في الجزاء شاذٌّ، كرَفْعِه في الشرط، كما نصَّ عليه المبردُ[٢] وشهِدَ به الاستعمالُ؛ حيثُ لم يوجد إلا في قول زُهَيْر:

وإنْ أتاه خليلٌ يومَ مَسْغَبةٍ ... يقول لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ[٣]

فلا يُستسهل تخريج القراءة المتفَق عليها عليه، نعَم لا بأس بتخريج الشواذِّ كقراءة «أينما تكونوا يدرِكُكم الموت» [النساء: ٧٨] ـ برفع «يدرِكُ»[٤] ـ عليه؟

وأجيب بأنَّا لا نسلِّم الشذوذ، وقد ذكر أبو حيان[٥] أن الرفع مسموعٌ كثيراً في لسان العرب، حتى ادَّعى بعضُ المغاربة أنه أحسنُ من الجزم، وبيت زهير مثلُه قولُ أبي صخر:

ولا بالذي إن بان عنه[٦] حبيبُهُ ... يقولُ ويُخْفي الصَبْرَ إني لجازِعُ[٧]

وقول الآخر:

---

(١) في الإملاء على هامش الفتوحات الإلهية ٢/ ٥٢.

(٢) ينظر المقتضب ٢/ ٧٠ ـ ٧١.

(٣) شرح ديوان زهير ص١٥٣، والكتاب ٣/ ٦٦. قال الشنتمري في شرح شواهد الكتاب ص٤١٠: الخليل: المحتاج ذو الخَلَّة.

(٤) القراءات الشاذة ص٢٧، والمحتسب ١/ ١٩٣.

(٥) في البحر ٢/ ٤٢٩.

(٦) في (م): منه.

(٧) البيت ليس في ديوان الهذليين، وهو في البحر ٢/ ٤٢٩، والدر المصون ٣/ ١١٩، واللباب لابن عادل الحنبلي ٥/ ١٥١ ـ ١٥٢.

إن يُسألوا الخيرَ يُعْطُوهُ وإنْ خُبروا في الجَهْد أُدرِك منهم طِيْب أخْبارِ[(١)]

برفع أُدْرِكُ وهو مضارعٌ وقع جوابَ الشَّرط[(٢)]، وقوله:

وإنْ بَعُدُوا لا يأمنون اقترابَهُ تَشَوُّفَ أهلِ الغائبِ المُتنَظَّرِ[(٣)]

إلى غير ذلك. وفي «البحر»[(٤)] أنَّ ضعفَ تخريجِ الرَّفع على ذلك ليس بذلك؛ لِمَا علمت، ولكن يَمتنعُ أن يكون ما في الآية جزاءً، لمَا ذكَر سيبويه أنَّ النيةَ في المرفوع التقديمُ، ويكون إذ ذاك دليلاً على الجواب لا نفس الجواب، وحينئذٍ يؤدِّي إلى تقديم[(٥)] المضمر على ظاهره في غير الأبواب المستثناة [في العربية]؛ لأن ضمير «وبينه» عائدٌ على اسم الشرط وهو «ما»، فيصير التقدير: تودُّ كلُّ نفسٍ لو أنَّ بينها وبينه أمداً بعيداً ما عَمِلتْ من سوء، وذلك لا يجوز.

وردَّه السَّفَاقسي بأنَّا لو تنزَّلنا على مذهب سيبويه لا يَلزم محذورٌ أيضاً؛ لأنَّ الجملة لاشتمالها على ضمير الشرط يلزمُ تأخيرُها وإن كانت متقدمةً في النية، ألا ترى أنَّ الفاعل إذا اشتمَل على ضميرٍ يعود على المفعول يَمتنع تقديمُه عليه عند الأكثر، وإن كان متقدِّماً عليه في النِّية.

وقرأ عبد الله: «وَدَّت»[(٦)]. وعليها يَرتفعُ مانعُ الارتفاع بالإجماع وتصحُّ

---

(١) البيت للعرندس الكلابي كما في أمالي القالي ١/ ٢٣٩، ومعجم الشعراء للمرزباني ص١٧٣، قال المرزباني: وقيل: هو أبو العرندس. اهـ. وقد نسبه المرزوقي في شرح ديوان الحماسة ٤/ ١٥٩٣ لعبيد بن العرندس، وهو دون نسبة في البحر ٢/ ٤٢٩.

(٢) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٢/ ١٨، وقال السمين في الدر ٣/ ١٢٠: هكذا ساق (يعني أبا حيان) هذا البيت في جملة الأبيات الدالة على رفع المضارع... وهذا البيت ليس من ذلك في وِرْدٍ ولا صَدْرٍ. اهـ. والظاهر أن كلام السمين مبني على أن «أُدرِك» هو ماض مبني للمجهول من أدْرَكَ، وليس مضارعاً مرفوعاً.

(٣) البيت لعروة بن الورد، وهو في ديوانه ص٣٧ برواية: إذا بعدوا...، وهو برواية المصنف في الأصمعيات ص٤٦، والبحر ٢/ ٤٢٩، والدر المصون ٣/ ١١٩. وكذا رواه ابن السكيت: فإن بعدوا، وقال في شرحه: يقول: إنْ بَعُدَ أعداؤه لم يَهُلْه بعدُهم أن يغزوهم، ولا يأمنون ذلك منه، فهم ينتظرونه في كل ساعة كما ينتظر أهل الغائب غائبهم. ينظر ديوان عروة شرح ابن السكيت ص٧٣.

(٤) في البحر ٢/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٥) في البحر: تقدُّم، وهو أشبه.

(٦) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٠٧، والكشاف ١/ ٤٢٣، والبحر ٢/ ٤٣٠.

الشرطيةُ، إلَّا أنَّ العلَّامة الثاني[1] قال: إن في الصحَّة كلاماً؛ لأن الجملة على تقدير الموصولية حالٌ أو عطف على «تجد»، والشرطية لا تقع حالاً، ولا مضافاً إليها الظرف، فلم يبق إلا عطفُها على «اذكر»، وهو بتقدير صحَّته يُخلُّ بالمعنى، وهو كونُ هذه الحالة والودادة في ذلك اليوم، ولا مَحِيص سوى جَعْلِها حالاً بتقدير مبتدأ، أي: وهي ما عملت من سوء ودَّت. ولا يخفى ما فيه، فإنهم أعرَبوا أنْ الوصلية مع جملتها على الحالية، ولم ينصَّ النُّحاةُ على منع الإضافة إليها.

وقال غير واحد من الأئمَّة: إنَّ الموصولية أوفقُ بقراءة العامَّة، وأجْرَى على سَنَن الاستقامة؛ لأنه كلامٌ لحكاية[2] الحال الكائنة في ذلك اليوم؛ فيجب أن يُحمل على ما يُفيدُ الوقوع، ولا كذلك الشرطية، على أنها تفيد الاستقبالَ، ولا عملَ سوءٍ في استقبال ذلك اليوم، وهذا لا يَنفي الصحَّة، لأنها وإنْ لم تدلَّ على الوقوع لا تنافيه، وحديث الاستقبال يدفعه تقدير: وما كان[3] عملت، كما في نظائرَ له. فتدبَّر وافهم فَعَلَّك لا يقطعك عن اختيار الموصولية شيءٌ.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ قيل: ذَكَره أوَّلاً للمنع عن موالاة الكُفَّار، وهنا حَثّاً على عمل الخير، والمنعِ من عمل السُّوء مطلَقاً. وجوِّز أن يكون معطوفاً على «تودُّ» أي: تَهابُ من ذلك اليوم ومن العمل السَّيِّئ ويحذِّركم الله نفسَه بإظهار قَهَّاريَّتِه، وهو مما لا يَكاد ينبغي أن يخرَّج الكتابُ العزيز عليه. وأهونُ منه عطفُه على «تجد»، والظرف معمول لـ «اذكروا» أي: اذكروا ذلك اليومَ واذكروا يومَ يُحذِّركم اللهُ نفسَه بإظهار كبريائه وقهَّاريته.

وقد يقال: إنه تكرارٌ لِمَا سَبق وإعادةٌ له، لكن لا للتأكيد فقط، بل لإفادة ما يفيده قولُه[4] تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌۢ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ من أنَّ تحذيرَه تعالى نفسَه من رحمته الواسعة للعباد؛ لأنهم إذا عرَفوه وحذِروه جَرَّهم ذلك إلى طلب رضاه

(١) هو سعد الدين التفتازاني، مسعود بن عمر، ونقل المصنف كلامه عن حاشية الشهاب ٣/ ١٨.
(٢) في (م): كحكاية، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٣/ ١٨، والكلام منه.
(٣) في حاشية الشهاب: وما كانت.
(٤) في (م): وقوله، والمثبت من الأصل، وهو الصواب.

واجتنابِ سخطه، وذلك هو الفوزُ العظيم. أو من أنَّ تحذيره سبحانه ليس مبنياً على تناسي صِفةِ الرَّحمة، بل هو متحقِّقٌ مع تحقُّقها أيضاً.

فالجملة على الأول تذييل، وعلى الثاني حالٌ، وإلى الأول يُشير كلامُ الحسن رضي الله عنه[1].

و«أل» في «العباد» للاستغراق. وتكرير الاسم الجليل لتربية المَهابة وإذهاب الغَفْلة ليتوجهَ[2] الذِّهنُ إلى هذا الحكم أتمَّ توجُّه.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ ذهب عامَّةُ المتكلِّمين إلى أن المحبَّة نوعٌ من الإرادة، وهي لا تَتعلَّق حقيقةً إلا بالمعاني والمنافعِ؛ فيستحيل تعلُّقها بذاته تعالى وصفاتِه، فهي هنا بمعنى: إرادة العبد اختصاصَه تعالى بالعبادة. وذلك إمَّا من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم، أو من باب الاستعارة التبعية بأن شبَّه إرادة العبد ذلك، ورغبتَه فيه، بميل قلب المُحِبِّ إلى المحبوب ميلاً لا يَلتفتُ معه إلا إليه. أو من باب مجاز النقص، أي: إن كنتم تحبون طاعةَ اللهِ تعالى أو ثوابَه فاتبعوني فيما آمرُكم به وأنهاكم عنه. كذا قيل، وهو خلافُ مذهب العارفين من أهل السُّنة والجماعة؛ فإنهم قالوا: المحبَّة تتعلَّق حقيقةً بذات الله تعالى، وينبغي للكامل أن يُحبَّ اللهَ سبحانه لذاته، وأمَّا محبَّةُ ثوابه فدرَجةٌ نازلةٌ.

قال الغزاليُّ عليه الرحمةُ في«الإحياء»[3]: الحُبُّ عبارةٌ عن ميلِ الطبع إلى الشيء الملذِّ، فإن تأكَّد ذلك الميلُ وقوِي سُمِّي عشقاً. والبغضُ عبارةٌ عن نَفْرةِ الطبع عن المؤلِم المُتْعِب، فإذا قوي سمِّي مقتاً.

ولا يُظنّ أنَّ الحبَّ مقصورٌ على مُدْرَكات الحواسِّ الخمس حتى يقال: إنه سبحانه لا يدرَك بالحواسِّ ولا يَتمثَّل بالخيال فلا يُحَبُّ؛ لأنه ﷺ سمَّى الصلاةَ قُرَّةَ عين[4]، وجعلَها أبلغَ المحبوبات، ومعلومٌ أنه ليس للحواسِّ الخمسِ فيها حظٌّ، بل

(١) وقوله هو: من رأفته بهم أن حذَّرهم نفسه. البحر ٢/ ٤٣١.

(٢) في (م): بتوجه.

(٣) ٤/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٢٢٩٣) عن أنس رضي الله عنه، وسلف ١/ ٣٦٥.

حِسٌّ سادسٌ مَظِنَّته القلبُ. والبصيرةُ الباطنة أقوى من البصر الظاهر، والقلبُ أشدُّ إدراكاً من العين، وجمالُ المعاني المدرَكة بالعقل أعظمُ من جمال الصُّور الظاهرة للأبصار، فتكون لا مَحالة لذَّةُ القلوب بما تُدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تَجلُّ أن تُدركَها الحواس أتمَّ وأبلغَ، فيكون ميلُ الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى. ولا معنى للحبِّ إلا المَيلُ إلى ما في إدراكه لذَّةٌ، فلا يُنِكرُ إذاً حُبَّ اللهِ تعالى إلا مَن قعَد به القصورُ في درجة البهائم؛ فلم يَجُزْ إدراكُه الحواسَّ أصلاً. نعم هذا الحبُّ يَستلزم الطاعة كما قال الورَّاق:

تَعصي الإلهَ وأنت تُظهِرُ حُبَّه ... هذا لَعمري في القياس بَديعُ
لو كان حبُّك صادقاً لأطعتَه ... إن المُحِبَّ لِمن يُحبُّ مطيعُ[(١)]

والقولُ بأن المحبَّة تقتضي الجنسيةَ بين المحِبِّ والمحبوب فلا يُمكن أن تتعلَّق بالله تعالى، ساقطٌ من القول؛ لأنها قد تتعلَّق بالأعراض بلا شُبهةٍ، ولا جنسيةَ بين العَرَض والجَوْهر.

﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ جواب الأمر، وهو رأيُ الخليل. وأكثرُ المتأخِّرين على أنَّ مثل ذلك جوابُ شرطٍ مقدَّر، أي: إنْ تتَّبعوني يُحبِبكم، أي: يقرِّبكم، رواه ابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينة[(٢)]. وقيل: يَرْضَ عنكم. وعبَّر عن ذلك بالمحبَّة على طريق المجاز المرْسَل، أو الاستعارةِ، أو المشاكلة، وجعل بعضُهم نسبةَ المحبَّة لله تعالى من المتشابِه الذي لا يَعلم تأويلَه إلا اللهُ تعالى.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي: يَتجاوز لكم عنها. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٣١﴾ أي: لِمَن تَحبَّب إليه بطاعته، وتقرَّب إليه باتِّباع نبيِّه ﷺ. والجملةُ تذييلٌ مقرِّرٌ لِمَا سبَقَ مع زيادة وَعْدِ الرحمة. ووضع الاسم الجليل موضع[(٣)] الإضمار لِمَا مرَّ، وللإشعار باستتباع وصفِ الألوهية للمغفرة والرَّحمة.

---

(١) ديوان محمود الوراق ص٢٢٧، ورواهما البيهقي في الشعب (٤٩١) عن الحسن بن محمد بن الحنفية، و(٤٩٣) عن أبي العتاهية، وهما في ديوانه ص٥٧٥، ورواهما ابن عساكر في تاريخه ٣٢/ ٤٦٩ عن عبد الله بن المبارك، ونسبا أيضاً للنابغة في ديوانه ص٨٦.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦٣٣.

(٣) في الأصل و(م): مع، بدل: موضع، والمثبت من تفسير أبي السعود ٢/ ٣٥، والكلام منه.

وقرئ: «تَحبُّون»[(١)]، و«يَحبَّكم» و«يَحْبِبْكم» من حَبَّه يَحبُّه[(٢)]، ومنه قولُه:

أحبُّ أبا ثروان من حُبِّ تمرِهِ وأعلم أن الرِّفق بالجارِ أرفقُ
وواللهِ لولا تمرُهُ ما حَببتُه ولا كان أدنى من عُبَيْد ومُشْرِقِ[(٣)]

ومناسبةُ الآية لِمَا قبلها كما قال الطِّيْبِيُّ[(٤)]: أنه سبحانه لمَّا عظَّم ذاتَه وبيَّن جلالةَ سلطانه بقوله جلَّ وعلا: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ إلخ، تعلَّق قلبُ العبد المؤمن بمولًى عظيم الشأن، ذي المُلك والمَلَكوت والجلال والجبروت، ثم لمَّا ثنَّى بنهي المؤمنين عن مُوالاة أعدائه، وحذَّر عن ذلك غايةَ التحذير بقوله عزَّ قائلاً: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ إلخ، ونبَّه على استئصال تلك المُوالاة بقوله عزَّ شأنُه: ﴿إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ الآية، وأكَّد ذلك بالوعيد الشديد، زاد ذلك التعلُّق أقصى غايته، فاستأنفَ قولَه جلَّ جلاله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ ليشيرَ إلى طريق الوصول إلى هذا المولى جلَّ وعلا، فكأنَّ قائلاً يقول: بأيِّ شيء يُنال كمال المحبَّة ومُوالاة الربِّ؟ فقيل: بعدَ قطعِ مُوالاة أعدائنا، تنالُ تلك الدرجة بالتوجُّه إلى متابعة حبيبنا؛ إذ كلُّ طريقٍ سِوى طريقِه مسدودٌ، وكلُّ عملٍ سوى ما أَذِن به مردودٌ.

واختُلف في سبب نزولها، فقال الحسن وابن جُريْجٍ: زعَم أقوامٌ على عهد رسول الله ﷺ أنهم يُحِبُّون الله تعالى، فقالوا يا محمد: إنَّا نحِبُّ ربَّنا. فأنزَل اللهُ تعالى هذه الآية.

وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: وقف النبيُّ ﷺ على قريش في المسجد

---

(١) في الأصل و(م): تحبوني، والمثبت هو الصواب، وهو الموافق لما في الكشاف ١/ ٤٢٤، والكلام منه. وكذا ذكرها أبو حيان في البحر ٢/ ٤٣١ ونسبها لأبي رجاء العطاردي.

(٢) بضم الحاء وكسرها في المضارع، كما ذكر السمين في الدر المصون ٣/ ١٢٦، والقراءتان بالإدغام وبفكِّه في القراءات الشاذة ص٢٠ عن أبي رجاء، والكشاف ١/ ٤٢٤ والكلام منه.

(٣) البيتان لغيلان بن شجاع النهشلي كما في اللسان والتاج (حبب)، وشرح شواهد المغني للبغدادي ٦/ ١١٦، وهما دون نسبة في المخصص ١٢/ ٢٤٢، وأمالي اليزيدي ص٦٥، والزاهر لابن الأنباري ١/ ٣٣١، والبيت الثاني في الكامل للمبرد ١/ ٤٣٨، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٦٧، وتهذيب اللغة ٤/ ٨، والخصائص ٢/ ٢٢٠، وروايته في الكامل: وكان عياضٌ منه أدنى ومُشرقُ، وعلى هذه الرواية لا يكون فيه إقواء. وعبيد ومشرق ابنا الشاعر كما ذكر البغدادي، ثم قال: وما أكثر اختلاف الروايات في كلمات هذين البيتين.

(٤) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

الحرام ـ وقد نَصبوا أصنامهم وعلَّقوا عليها بيضَ النِّعام، وجعلوا في آذانها الشُّنُوف[(١)]، وهم يسجدون لها ـ فقال: «يا معشرَ قريش، لقد خالَفتُم ملَّةَ أبيكم إبراهيمَ وإسماعيل، ولقد كانا على الإسلام» فقالت قريش: يا محمد، إنَّما نعبد هذه حبًّا لله تعالى لتقرِّبَنا إلى الله سبحانه زُلفى، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ﴾ إلخ[(٢)].

وفي رواية أبي صالح: أنَّ اليهود لمَّا قالوا: نحنُ أبناءُ اللهِ وأحبَّاؤه، أنزَل هذه الآيَةَ، فلمَّا نزلت عرَضها رسولُ الله ﷺ على اليهود فأبَوا أن يقبلوها[(٣)].

وروى محمد بنُ إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، قال: نزلت في نصارى نجران؛ وذلك أنهم قالوا: إنما نُعظِّم المسيحَ ونعبده حبًّا لله تعالى، وتعظيماً له، فأنزل اللهُ هذه الآية ردًّا عليهم[(٤)].

يروى أنها لمَّا نزَلت قال عبد الله بن أبيٍّ: إن محمداً يَجعلُ طاعته كطاعة اللهِ تعالى، ويَأمرُنا أن نُحبَّه كما أَحبَّ النصارى عيسى، فنزلَ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ أي: في جميع الأوامر والنَّواهي، ويدخل في ذلك الأمرُ السَّابق دخولاً أوَّليًا. وإيثارُ الإظهار على الإضمار بطريق الالتفات، لتعيين حيثيَّة الإطاعة والإشعار بعلَّتها. وفيه إشارةٌ إلى ردِّ شبهة المنافق، كأنه يقول: إنَّما أوجب الله تعالى عليكم متابعتي، لا لِمَا يقولُ النصارى في عيسى، بل لكوني رسولَ اللهِ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: أعرَضوا. أو: تُعْرِضوا، على أن تكون إحدى التائين محذوفةً، فيكون حينئذٍ داخلاً في حيِّز المَقُول، وفي ترك ذكرِ احتمال الإطاعة تلويحٌ إلى أنَّها غير محتمَلة منهم.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: لا يقرِّبهم، أو: لا يَرضى عنهم، بل يُبعدهم عن جِوار قُدسِه وحظائر عزِّه، ويَسْخَط عليهم يومَ رضاه عن المؤمنين.

---

(١) جمع شَنْف: وهو ما علِّق في أسفل الأذن. القاموس (شنف).
(٢) أسباب النزول للواحدي ص٩٧ من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس به، وجويبر متروك.
(٣) أسباب النزول ص٩٧ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به، والكلبي متهم بالكذب كما ذكر الحافظ في التقريب.
(٤) أسباب النزول ص ٩٧-٩٨، وأخرجه بنحوه الطبري ٥/ ٣٢٦.

والمرادُ من «الكافرين»: مَن تولَّى، ولم يعبِّر بضميرهم للإيذان بأنَّ التولِّيَ عن الطاعة كفرٌ، وبأن محبَّته عزَّ وجلَّ مخصوصةٌ بالمؤمنين؛ لأنَّ نَفْيَها عن هؤلاء الكفار ـ المستلزِمَ لنفيها عن سائرهم لاشتراك العلَّة ـ يَقتضي الحصر في ضِدِّهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ اليهود قالوا: نحن أبناءُ إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ونحن على دينهم، فنزلت.

وقيل: إنَّ نصارى نجران لمَّا غَلَوا في عيسى عليه الصلاة والسلام، وجعلوه ابنَ اللهِ سبحانه، واتَّخذوه إلهاً، نزلت ردًّا عليهم، وإعلاماً لهم بأنَّه من ذُرِّية البشر المنتقِلين في الأطوار المستحيلة على الإله، وهذا وجهُ مناسبةِ الآيةِ لِمَا قبلها.

وقال شيخ الإسلام[1] رحمه الله تعالى في وجه المناسبَة: إنَّه سبحانه لمَّا بيَّن أن الدِّين عند الله الإسلام، وأنَّ اختلاف أهل الكتابين فيه إنَّما هو للبَغْي والحَسَد، وأن الفَوْز برضوانه ومغفرته ورحمته مَنُوطٌ باتِّباع الرسولِ ﷺ، شَرَع في تحقيق رسالته، وأنَّه من أهل بيت النبوَّة القديمة، فبدأ ببيان جلالةِ أقدارِ الرُّسل عليهم الصلاة والسلام، وأَتْبَعه ذِكْرَ مبدأ عيسى وأُمِّه، وكيفية دعوته الناسَ إلى الإيمان؛ تحقيقاً للحقِّ وإبطالاً لِمَا عليه أهلُ الكتابين من الإفراط والتفريط في شأنهما، ثم بيَّن [بطلانَ] محاجَّتهم في إبراهيم وادِّعائهم الانتماءَ إلى مِلَّته، ونزَّه ساحته العَلِيَّة عمَّا هُم عليه من اليهودية والنصرانية، ثم نصَّ على أنَّ جميع الرسل دعاةٌ إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، وأنَّ أُممهم قاطبةً مأمورون بالإيمان بمَن جاءهم من رسولٍ مصدِّقٍ لِما معهم؛ تحقيقاً لوجوب الإيمان بالرسول ﷺ، وتحتُّم الطاعةِ له، حَسْبَما يأتي تفصيلُه. انتهى، وهو وجهٌ وجيه.

وبدأ بآدم عليه الصلاة والسلام لأنه أولُ النوعِ، وثنَّى بنوح عليه الصلاة والسلام لأنه آدمُ الأصغرُ، والأبُ الثاني، وليس أحدٌ على وجهِ البسيطة إلَّا مِن نَسْله؛ لقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] وذكرَ آل إبراهيم لترغيب المعترِفين باصطفائهم في الإيمان بنبوةِ واسطةِ قلادتِهم، واستمالتهم نحوَ

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٢/ ٢٥-٢٦، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

الاعتراف باصطفائه بواسطة كونه من زُمرتهم، وذكَر آلَ عمران مع اندراجهم في الآلِ الأُوَل؛ لإظهار مَزيدِ الاعتناء بأمر عيسى عليه الصلاة والسلام، لكمال رسوخ الاختلاف في شأنه، وهذا هو الدَّاعي إلى إضافة «الآل» في الأخيرَين دون الأَوَّلَين.

وقيل: المرادُ بـ «الآل» في الموضعين بمعنى النفس، أي: اصطفى آدمَ ونوحاً وإبراهيم وعمران، وذكر «الآل» فيهما اعتناء بشأنهما، وليس بشيء.

والمراد بآل إبراهيم كما قال مقاتل: إسماعيلُ وإسحاقُ ويعقوب والأسباط. وروي عن ابن عباس والحسن ﷺ: أنَّهم مَن كان على دِينه، كآل محمدٍ ﷺ في أحدِ الإطلاقات.

والمراد بآل عمران عيسى عليه الصلاة والسلام وأُمُّه مريم بنت عمران بن ماثان من ولد سليمان بن داود عليهما السلام؛ قاله الحسن ووهب. وقيل: المراد بهم موسى وهارون عليهما السلام، فعِمران حينئذٍ هو عمران بن يَصْهُر أبو موسى؛ قاله مقاتل. وبين العمرانين ألفٌ وثمانُ مئةِ سنة.

والظَّاهرُ هو القول الأول؛ لأنَّ السورة تسمَّى آل عمران. ولم تُشرَح قصةُ عيسى ومريم في سورة أبسط من شرحها في هذه السورة، وأمَّا موسى وهارون فلم يُذكر من قصتهما فيها طرفٌ، فدلَّ ذلك على أن عمران المذكور هو أبو مريم.

وأيضاً يرجِّح كونَ المراد به أبا مريم أنَّ الله تعالى ذكرَ اصطفاءها بعدُ ونصَّ عليه، وأنَّه قال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ [الآية: ٣٥] إلخ. والظاهر أنَّه شرحٌ لكيفية الاصطفاء المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ فيكون من قبيل تكرار الاسم في جملتين، فيسبق الذهن إلى أنَّ الثاني هو الأول، نحو: أَكْرِمْ زيداً إنَّ زيداً رجلٌ فاضل، وإذا كان المراد بالثاني غير الأول كان في ذلك إلباسٌ على السامع.

وترجيحُ القول الأخير بأنَّ موسى يُقرَن كثيراً[1] بإبراهيم في الذِّكر، ليس في القوة كمرجِّح الأول كما لا يخفى.

---

(١) قوله: كثيراً، ليس في (م).

والاصطفاءُ: الاختيارُ، وأصلُه: أخْذُ صفوةِ الشيء، كالاستصفاء، ولتضمينه معنى التفضيل عُدِّي بـ «على». والمراد بـ «العالمين» أهلُ زمان كلِّ واحدٍ منهم، أي: اصطفى كلَّ واحدٍ منهم على عالَمِي زمانه. ويدخل المَلَك في ذلك، والتأويل خلاف الأصل، ومن هنا استدلَّ بعضُهم بالآية على أفضليَّةِ الأنبياء على الملائكة.

ووجهُ الاصطفاء في جميع الرُّسل، أنه سبحانه خصَّهم بالنفوس القدسية، وما يَليقُ بها من المَلَكات الروحانية والكمالات الجِسمانية، حتى إنهم امتازوا ـ كما قيل ـ على سائر الخَلْق خَلْقاً وخُلُقاً، وجُعلوا خزائن أسرار الله تعالى، ومَظْهَرَ أسمائه وصفاته، ومحلَّ تجلِّيه الخاصِّ من عباده، ومَهْبِطَ وحْيِه، ومبلِّغي أمره ونهيه، وهذا ظاهرٌ في المصطَفَين المذكورين في الآية من الرُّسل، وأمَّا مريمُ فلها الحظُّ الأوفرُ من بعض ذلك.

وقيل: اصطفى آدمَ بأنْ خلَقه بيديه، وعلَّمه الأسماءَ، وأَسجد له الملائكة، وأَسكَنه جِوارَه. واصطفى نوحاً بأنه أولُ رسولٍ بُعث بتحريم البنات والأخوات، والعمَّات، والخالات، وسائرِ ذوي المحارم، وأنه أبُ الناس بعد آدم، وباستجابة دعوته في حقِّ الكفَرة والمؤمنين. واصطفى آلَ إبراهيم بأنْ جعل فيهم النبوة والكتاب، ويكفيهم فخراً أنَّ سيدَ الأصفياء منهم. واصطفى عيسى وأُمَّه بأن جعلهما آيةً للعالمين.

وإن أريد بـ «آل عمران» موسى وهارون فوجهُ اصطفاءِ موسى عليه الصلاة والسلام تكليمُ الله تعالى إيَّاه، وكتابةُ التوراة له بيده. ووجهُ اصطفاء هارون جَعْلُه وزيراً لأخيه. وأمَّا اصطفاءُ إبراهيم عليه الصلاة والسلام فمفهومٌ بطريق الأولى، وعدم التصريح به للإيذان بالغنى عنه لكمال شُهرة أمرِه بالخلَّة، وكونِه شيخَ الأنبياء وقدوةَ المرسلين. وأمَّا اصطفاء نبيِّنا ﷺ، فَيُفهم من دخوله في «آل إبراهيم» كما أشَرْنا إليه، وينضمُّ إليه أنَّ سِياق هذا المبحث لأجله، كما يدلُّ عليه بيانُ وجه المناسبة في كلام شيخ الإسلام، وروي عن أئمة أهل البيت أنهم يقرؤون: «وآل محمد على العالمين»[1]، وعلى ذلك لا سؤال.

---

(١) مجمع البيان ٣/ ٦٢، وعزاها أبو حيان في البحر ٢/ ٤٣٥ لابن مسعود رضي الله عنه.

ومن الناس مَن قال: المراد بآل إبراهيم محمدٌ ﷺ، جُعل كأنه كلُّ الآل مبالغةً في مدحه. وفيه أنَّ نبينا وإن كان في نفس الأمر بمنزلة الأنبياء كلِّهم ـ فضلاً عن آل إبرهيم فقط ـ إلَّا أنَّ هذه الإرادة هنا بعيدةٌ.

ويُشْبِهُ ذلك في البُعد ـ بل يزيدُ عليه ـ ما ذكَرَه بعضُهم في الآية: أنه سبحانه لمَّا أمَرهم بمتابعته ﷺ وإطاعته، وجعَل إطاعته ومتابعته سبباً لمحبَّةِ الله تعالى إياهم، وعدَم إطاعته سبباً لسخط الله تعالى عليهم، وسلبِ محبَّته عنهم، أكَّد ذلك بتعقيبه بما هو عادةُ الله تعالى من اصطفاء أنبيائه على مُخالفيهم، وقَمْعِهم وتذليلهم وإعدامهم لهم، تخويفاً لهؤلاء المتمرِّدين عن متابعته ﷺ، فذكَر اصطفاءَ آدم على العالم الأعلى ـ فإنه رجَّحه على سائر الملائكة وجعلهم ساجدين له، وجعَل الشيطان في لعنةٍ لتمرُّدِه ـ واصطفاءَ نوحٍ على العالم مع نهاية كثرتهم، فأهلكهم بالطوفان وحَفِظَ نوحاً وأتباعه، واصطفاءَ آل إبراهيم على العالم مع أنَّ العالَم كانوا كافرين، فجعل دينهم شائعاً وذلَّل مخالفيهم، واصطفاءَ موسى وهارون على العالَم، فجعل السَّحرةَ مع كثرتهم مغلوبين لهما، وفرعون مع عظمته وغَلَبةِ جنوده مغلوباً وأهلَكهم. ولذا خصَّ آدم بالذِّكر ونوحاً والآلَين، ولم يذكر إبراهيم ونبيَّنا ﷺ؛ إذ إبراهيم لم يَغْلِبْ، وهذا الكلامُ لبيان أن نبيَّنا ﷺ سيَغْلِبُ، وليس المراد الاصطفاءَ بالنبوة حتى يَخْفَى وجهُ التخصيص، وبهذا ظهرَ ضعفُ الاستدلال به على فضلهم على الملائكة. انتهى.

وفيه أنَّ المتبادر من الاصطفاء الاجتباءُ والاختيار لا النصر على الأعداء، على أنَّ المقام بمراحل عن هذا الحَمْلِ، وقد أخرجَ ابنُ عساكر وغيرُه عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنَّه فَسَّر الاصطفاء هنا بالاختيار للرسالة[1]. ومثلُه فيما أخرجه ابنُ جرير عن الحسن[2].

وأيضاً حَمْلُ «آل عمران» على موسى وهارون ممَّا لا ينساق إليه الذِّهن كما علِمْتَ، وكأن القائل لمَّا لم يتيسَّر له إجراءُ الاصطفاء بالمعنى الذي أَراده في عيسى عليه الصلاة والسلام وأُمِّه اضطُرَّ إلى الحَمْل على خلاف الظاهر، وأنت تعلمُ أنَّ الآية غنيَّةٌ عن الوُلوج في مثل هذه المضائق.

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٧٠/ ٧٧، وأخرجه أيضاً إسحاق بن بشر، كما في الدر المنثور ٢/ ١٨.
(٢) تفسير الطبري ٥/ ٣٢٩.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ﴾ نصب على البدلية من الآلَيْن، أو الحالية منهما. وقيل: بدل من «نوح» وما بعده.

وجوّز أن يكون بدلاً من «آدم» وما عُطِفَ عليه. وردَّه أبو البقاء بأنَّ آدم ليس بذرِّية[1]. وأجيب بأنَّه مبنيٌّ على ما صرَّح به الراغب[2] وغيرُه من أنَّ الذُّرِّيَّة تُطلَق على الآباء والأبناء؛ لأنه من الذَّرْءِ بمعنى الخَلْق، والأبُ ذُرِئ منه الولدُ، والولد ذُرِئَ من الأب، إلّا أن المتبادِر من الذرِّية النَّسْل، وقد تقدَّم الكلامُ عليه[3].

والمعنى: أنهم ذرِّيَّةٌ واحدةٌ متشعِّبةُ البعض من البعض في النسب، كما يُنْبِئ عنه التعرُّض[4] لكونهم ذريةً، وروي عن أبي عبد الله ﷺ، واختاره الجبائي[5]. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: ﴿بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ﴾ في النِّية والعملِ والإخلاص والتوحيد[6]. و«من» على الأول ابتدائية والاستمالة تقريبيَّة، وعلى الثاني اتصالية والاستمالةُ برهانية. وقيل: هي اتصاليَّة فيهما.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال العباد ﴿عَلِيمٌ ٣٤﴾ بأفعالهم وما تُكنُّه صدورهم، فيصطفي مَن يَشاءُ منهم. والجملةُ تذييل مقرِّر لمضمون ما قبلها.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ تقريرٌ للاصطفاء وبيانٌ لكيفيته، والظرفُ في حيِّز النصب على المفعولية بفعلٍ محذوف، أي: اذكر لهم وقتَ قولها. وقيل: هو منصوبٌ على الظرفية لِمَا قبله، وهو: «سميع عليم» على سبيل التنازع، أو لـ «سميع» ولا يَضرُّ الفصلُ بينهما بالأجنبي لتوسُّعهم في الظروف.

وقيل: هو ظرفٌ لمعنى الاصطفاء المدلول عليه بـ «اصطفى» المذكور، كأنه

---

(١) الإملاء ٢/ ٥٢.

(٢) نقل المصنف قوله عن حاشية الشهاب ٣/ ٢٠، وينظر مفردات الراغب (ذرو).

(٣) ٢/ ٤٢٧-٤٢٨.

(٤) في الأصل: التعريض، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في تفسير أبي السعود ٢/ ٢٧، والكلام منه.

(٥) نقله عنه الطبرسي في مجمع البيان ٣/ ٦٣.

(٦) ذكره عن عبد بن حميد السيوطي في الدر المنثور ٢/ ١٨، وأخرجه أيضاً الطبري ٥/ ٣٣٠، وابن أبي حاتم ٢/ ٦٣٥.

قيل: واصطفى آل عمران «إذ قالت» إلخ، فكان مِن عَطْفِ الجُمَل على الجُمَل، لا المفردات على المفردات؛ ليلزم كونُ اصطفاء الكلِّ في ذلك الوقت.

وامرأةُ عمران هي حَنَّة بنت فاقوذا ـ كما رواه إسحاق بن بشر عن ابن عباس رضي الله عنهما[(١)]، والحاكم عن أبي هريرة[(٢)] ـ وهي جدَّةُ عيسى عليه الصلاة والسلام، وكان لها أخت اسمها إيشاع تزوَّجها زكريا عليه الصلاة والسلام هي أم يحيى؛ فعيسى ابن بنت خالة يحيى، كما ذكر ذلك غيرُ واحدٍ من الإخباريين. ويُشْكِلُ عليه ما أخرجه الشيخان في حديث المعراج من قوله ﷺ: «فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا»[(٣)] وأجاب صاحب «التقريب»[(٤)] بأنَّ الحديث مُخَرَّج على المجاز؛ فإنَّه كثيراً ما يُطلِق الرَّجلُ اسم الخالة على بنت خالته لكرامتها عليه، والغرضُ أنَّ بينهما عليهما الصلاة والسلام هذه الجهة من القرابة؛ وهي جهةُ الخُؤولة.

وقيل: كانت إيشاع أخت حنَّة من الأم، وأخت مريم من الأب، على أنَّ عِمران نَكَحَ أوَّلاً أمَّ حَنَّة فولدت له إيشاع، ثم نكَحَ حَنَّة ـ بناءً على حِلِّ نكاح الرَّبائب في شريعتهم ـ فولدت مريم، فكانت إيشاع أختَ مريم من الأب وخالتَها من الأم؛ لأنَّها أختُ حَنة من الأمِّ، وفيه أنه مخالف لِمَا ذكره مُحيي السُّنة[(٥)] من أنَّ إيشاع وحَنة بنتا فاقوذا، على أنَّه بعيدٌ لعدم الرِّواية في الأمرين.

أخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ حَنَّة امرأة عمران كانت جلست[(٦)] عن الوَلد والمَحيض، فبينا هي ذات يومٍ في ظلِّ شجرة، إذ نظرَت إلى طيرٍ يَزقُّ فرخاً له، فتحرَّكت نفسُها للولد، فدَعَت الله تعالى أن يَهَبَ لها ذَكَراً، فحاضت

---

(١) أخرجه مطولاً ابن عساكر في تاريخه ٧٠/ ٧٧ من طريق إسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس.

(٢) المستدرك ٢/ ٥٩٢-٥٩٣، ولفظه: حنة ولدت مريم، ومريم ولدت عيسى.

(٣) صحيح مسلم (١٦٢)، وهو عند أحمد (١٢٥٠٥)، وهو من حديث أنس رضي الله عنه، وأخرج البخاري (٣٤٩) حديث أنس، وليس فيه اللفظ الذي ذكره المصنف.

(٤) لعله «تقريب التفسير» في تلخيص الكشاف لقطب الدين محمد بن مسعود السيرافي الفالي الشقار، وكان حيًّا سنة (٧١٢هـ). كشف الظنون ٢/ ١٤٨١، وهدية العارفين ٢/ ١٤٢.

(٥) وهو البغوي في التفسير ١/ ٢٩٥.

(٦) في (م): حبست، والمثبت من الأصل، وهو الموافق لما في المصادر على ما يأتي.

من ساعتها، فلمَّا طهُرت أتاها زوجها، فلمَّا أيقنَتْ بالولد قالت: لَئِن نجَّاني الله تعالى ووضَعتُ ما في بطني لأجعلنه محرَّراً ـ ولم يكن يُحَرَّر في ذلك الزَّمان إلا الغلمانِ ـ فقال لها زوجُها: أرأيتِ إن كان ما في بطنك أنثى ـ والأنثى عورةٌ ـ فكيف تصنعين؟ فاغتمَّت لذلك، فقالت عند ذلك: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾(١). وهذا في الحقيقة استدعاءٌ للولد الذَّكر؛ لعدم قبول الأنثى، فيكون المعنى: ربِّ إنِّي نذرتُ لك ما في بطني، فاجعله ذَكَراً، على حدِّ: أعتق عبدكَ عنِّي(٢). وجعَله بعضُ الأئمة تأكيداً لنذرها، وإخراجاً له عن صورة التعليق إلى هيئة التَّنجيز.

واللام من «لك» للتعليل، والمراد: لخدمة بيتك. والمُحَرَّر: مَن لا يَعمل للدنيا ولا يَتزوَّج، ويَتفرَّغ لعمل الآخرة، ويَعبُد الله تعالى ويكون في خدمة الكنيسة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال مجاهد: المحرَّر: الخادم للبِيعة. وفي رواية عنه: الخالِصُ الذي لا يُخالطه شيءٌ من أمر(٣) الدنيا.

وقال محمد بن جعفر بن الزبير: أرادتْ: عَتيقاً خالصاً لطاعتك، لا أصرِفُه في حوائجي.

وعلى كلٍّ هو من الحرِّية، وهي ضربان: أن لا يَجري عليه حكمُ السَّبي، وأن لا تتملَّكه الأخلاقُ الرديئة والرذائل الدنيوية.

وانتصابُه على الحالية من «ما» والعاملُ فيه «نذرت». وقيل: من الضمير الذي في الجار والمجرور؛ والعاملُ فيه حينئذٍ الاستقرارُ. ولا يخفى رجحان الوجه

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٧٠/ ٧٧، وذكره السيوطي في الدر المنثور٢/ ١٨، وهو قطعة من خبر ابن عباس السالف في ذكر اسم امرأة عمران أمِّ مريم، وأخرجه بنحوه الطبري ٥/ ٣٣٢ عن ابن إسحاق قوله.

(٢) يعني إذا قال الرجل لآخر: أعتق عبدك هذا عني بألف درهم، فأعتقه، يكون العتق من الآمرِ كأنه قال: بع عبدك لي بألف درهم، ثم كن وكيلاً لي في الإعتاق. وهو ما يسمى: اقتضاء النص. التعريفات للجرجاني ص٥٠.

(٣) في الأصل: أمور.

الأول، والحالُ إمَّا مقدَّرة أو مصاحِبة[١]. وجوَّز أبو حيان[٢] أن ينصب على المصدر، أي: تحريراً؛ لأنه بمعنى النَّذر.

وتأكيدُ الجملة للإيذان بوفور الرَّغبة في مضمونها، وتقديمُ الجارِّ والمجرور لكمال الاعتناء به، والتعبير عن الولد بـ «ما» لإبهام أمرِه، وقصورِه عن دَرَجة العُقلاء.

والتَّقبُّل: أخذ الشيء على وجه الرِّضا، وأصله: المقابلةُ بالجزاء، و«تَقَبَّلْ» هنا بمعنى: اقبَلْ.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لسائر المَسْمُوعات، فتسمعُ دعائي ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ بما كان ويكون، فتعلم نِيَّتي، وهو تعليلٌ لاستدعاء القَبول من حيث إنَّ عِلْمه تعالى بصحَّة نيَّتها وإخلاصها مُسْتدع لذلك تفضُّلاً وإحساناً. وتأكيدُ الجملة لغرَضِ قوَّة يقينها بمضمونها، وقصْرُ صِفتَي السَّمع والعلم عليه تعالى لغرَض اختصاص دُعائها، وانقطاع حبْلِ رَجائها عمَّا عداه سبحانه بالكُلِّية؛ مبالغةً في الضَّراعة والابتهال؛ قاله شيخ الإسلام[٣]. وتقديمُ صفةِ السَّمع لأن متعلَّقاتها وإنْ كانت غير متناهية، إلا أنها ليست كمتعلِّقات صفة العِلم في الكَثْرة.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ الضمير لـ «ما»، ولمَّا علِم المتكلِّمُ أن مدلولها مؤنَّث جاز له تأنيث الضمير العائد إليه وإن كان اللفظ مذكَّراً، وأمَّا التأنيث في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ فليس باعتبار العلم، بل باعتبار أنَّ كلَّ ضمير وقع بين مذكَّرٍ ومؤنَّث هما عبارتان عن مدلول واحدٍ جاز فيه التذكيرُ والتأنيث، نحو: الكلامُ يسمَّى جملة، و«أنثى» حال بمنزلة الخبر؛ فأنَّث العائد إلى «ما» نظراً إلى الحال، من غير أن يعتبر فيه معنى الأنوثة؛ ليلزم اللغو. أو باعتبار التأويل بمؤنَّثٍ لفظيٍّ يصلح للمذكَّر والمؤنث، كالنَّفْس، والحَبَلة[٤]، والنَّسمة، فلا يُشكل التأنيثُ، ولا يلغو «أنثى» بل هي حالٌ مبيِّنة.

---

(١) يعني إذا كان حالاً من «ما»، فهو حالٌ مقدَّرة إن كان المراد بقوله: «محرَّراً» خادماً للكنيسة، وحالٌ مصاحبة إن كان المراد: عتيقاً؛ لأن عتق ما في البطن يجوز. البحر ٢/ ٤٣٧.

(٢) في البحر ٢/ ٤٣٧.

(٣) تفسير أبي السعود ٢/ ٢٨.

(٤) بفتحتين، وهي النتاج. حاشية الشهاب ٣/ ٢١، والكلام منه.

كذا قيل، ولا يخلو عن نظر، فالحقُّ أنَّ الضمير لـ «ما في بطني»، والتأنيثُ في الأول لِمَا أنَّ المقام يَستدعي ظهورَ أنوثته، واعتباره في حيِّز الشرط؛ إذ عليه يترتَّب جواب «لمَّا» لا على وضع ولدٍ ما. والتأنيث في الثاني للمُسَارعة إلى عرْض مادَهَمَها من خَيْبَةِ الرَّجاء وانقطاع حَبْلِ الأمل، و«أنثى» حال مؤكِّدة من الضمير، أو بدلٌ منه، وليس الغرض من هذا الكلام الإخبار ـ لأنه إما للفائدة أو لِلازِمها، وعلمُ الله تعالى مُحيطٌ بهما ـ بل لمجرَّد التحسُّر والتحزُّن، وقد قال الإمام المَرزُوقي: إنه قد يرِدُ الخبرُ صورةً لأغراضٍ سوى الإخبار[1]، كما في قوله:

قَـوْمـي هُـمُ قَـتَـلُـوا أُمَـيْـمَ أخـي ... فـإذا رَمَـيْـتُ يُـصـيـبُـنـي سَـهْـمـي[2]

فإنَّ هذا الكلام تحزُّنٌ وتفجُّع وليس بإخبار[3]، وحاصلُ المعنى هنا على ما قرِّر: فلمَّا وضعَت بنتاً تحسَّرت إلى مولاها وتفجَّعت؛ إذ خاب منها رَجَاها، وعلى هذا لا إشكال أصلاً في التأنيث ولا في الجَزاء نفسه، ولا في ترتُّبه على الشرط.

وما قيل: إنه يحتمل أن يكون فائدةُ هذا الكلام التحقيرَ للمحرَّر استجلاباً للقَبول؛ لأنه مَن تواضع لله تعالى رفعَه اللهُ سبحانه = فمستَحْقَرٌ من القول بالنسبة إلى ما ذَكَرنا.

والتأكيدُ هنا قيل: للردِّ على اعتقادها الباطل، وربما أنه يَعودُ إلى الاعتناء والمبالغةِ في التحسُّر الذي قَصَدته، والرمزِ إلى أنه صادرٌ عن قلبٍ كسير، وفؤادٍ بقيود الحِرمان أسير.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ ليس المرادُ الردَّ عليها في إخبارها بما هو سبحانه أعلم به ـ كما يتراءى من السِّياق ـ بل الجملةُ اعتراضيةٌ سِيقَتْ لتعظيم المولود الذي وضَعَته، وتفخيم شأنه، والتجهيل لها بقدْرِه، أي: والله أعلم بالشيء الذي وضَعَته

(١) ذكر المصنف هذه العبارة عن المرزوقي نقلاً عن حاشية الشهاب ٣/ ٢١.
(٢) البيت للحارث بن وعلة الذهلي، كما في المؤتلف والمختلف للآمدي ص٣٠٣، ودلائل الإعجاز ص٢٥٣، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٢٠٤، وللتبريزي ١/ ١٠٧.
(٣) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٢٠٤، وقال في شرحه للبيت: يقول: قومي يا أميمة هم الذين فجعوني بأخي، فإذا رمت الانتصار منهم عاد ذلك بالنكاية في نفسي؛ لأن عز الرجل بعشيرته.

وما علِّق به من عظائم الأمور، ودقائق الأسرار، وواضح الآيات، وهي غافلةٌ عن ذلك كلِّه، و«ما» على هذا عبارةٌ عن الموضوعة، قيل: والإتيان بها دون «مَن» يلائم التجهيل؛ فإنَّها كثيراً ما يُؤتَى بها لِمَا يُجهل به. وجَعْلُها عبارة عن الواضعة، أي: واللهُ تعالى أعلم بشأن أمِّ مريم حين تحسُّرِها وتحزُّنها من توهُّم خيبة رجاها، وأنها ليست من الوَلْي إلى الله تعالى في شيء؛ إذ لها مرتبةٌ عُظمى، وتحريرها تحريرٌ لا يوجد منه = ممَّا لا وجهَ له، وجزالةُ النظم تأباه.

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «بما وَضَعْتِ»[1] على خِطاب الله تعالى لها، والمرادُ به تعظيمُ شأنِ الموضوع أيضاً، أي: إنَّك لا تعلَمِين قَدْرَ ما وَضَعْتِه، وما أَودَعَ اللهُ تعالى فيه.

وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، ويعقوب: «بما وَضَعْتُ»[2] على أنَّه من كلامها، قالته اعتذاراً إلى الله تعالى حيث وضعَتْ مولوداً لا يصلُح للغرض، أو تسليةً لنفسها، أي: ولعلَّ للهِ تعالى في ذلك سرًّا وحكمةً، ولعلَّ هذه الأنثى خيرٌ من الذَّكر، فالجملة حينئذٍ لنفي العلم لا للتجهيل؛ لأنَّ العبدَ ينظرُ إلى ظاهر الحال ولا يقف على مافي خِلاله من الأسرار. وحملُ قراءةِ ابن عباس رضي الله عنهما على هذا المعنى، بجعل الخطاب منها لنفسِها، في غاية البُعدِ. ووضع الظاهر موضعَ ضمير المخاطب إظهاراً لغاية الإجلال.

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ اعتراضٌ آخر مبيِّنٌ لِمَا اشتمل عليه الأول من التعظيم، وليس بياناً لمنطوقه حتى يلحق بعطف البيان الممتنع فيه العطف.

واللام في «الذَّكر» و«الأنثى» للعهد؛ أمَّا التي في «الأنثى» فلِسَبْقِ ذِكْرِها صريحاً في قوله سبحانه حكاية: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، وأمَّا التي في «الذَّكَر» فلقولها: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ﴾ إلخ، إذ هو الذي طلبَته، والتحريرُ لا يكون إلا للذَّكر. وسمِّي هذا: العهدَ التقديريَّ، وهو غيرُ الذِّهني؛ لأنَّ قولها: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ صالحٌ للصِّنْفَين، وقولها: ﴿مُحَرَّرًا﴾ تمنٍّ لأنْ يكون ذكراً، فأشير إلى ما في البَطن حَسْبَ رَجائها.

---

(١) القراءات الشاذة ص٢٠.

(٢) التيسير ص٨٧، والنشر ٢/ ٢٣٩.

وجوّز أن تكون الجملة من قولها، فيكون مرادُها نفيَ مماثلةِ الذَّكر للأنثى، فاللَّام للجنس كما هو الظاهر؛ لأنه لم يقصد خصوص ذَكرٍ وأنثى، بل إنَّ المراد أنَّ هذا الجنس ليس كهذا الجنس.

وأُورد عليه: أنَّ قياس كونِ ذلك من قولها أن يكون: وليست الأنثى كالذَّكر، فإن مقصودها تنقيصُ الأنثى بالنسبة إلى الذَّكر، والعادةُ في مثله أن يُنْفى عن الناقص شَبَهُه بالكامل لا العكس.

وأجيب: بأنه جارٍ على ما هو العادةُ في مثله أيضاً؛ لأنَّ مراد أمِّ مريم ليس تفضيلَ الذَّكر على الأنثى، بل العكس، تعظيماً لعَطيَّة الله تعالى على مطلوبها، أي: وليس الذَّكر الذي هو مطلوبي كالأنثى التي وهَبَها اللهُ تعالى لي، علماً منها بأنَّ ما يَفْعله الرَّبُّ خيرٌ ممَّا يريده العبد. وفيه نظر:

أمَّا أولاً: فلأنَّ اللام في الذَّكر والأنثى على هذا يكون للعهد، وهو خلافُ الظاهر الذي ذهبَ إليه أكثرُ المفسِّرين.

وأمَّا ثانياً: فلأنه يُنافي التحسُّر والتحزُّن المستَفَاد من قولها: (رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ)؛ فإنَّ تحزُّنها ذلك إنَّما هو لترجيحها الذَّكرَ على الأنثى، والمفهومُ من هذا الجواب ترجيحُها الأنثى على الذَّكر. اللهمَّ إلا أنْ يُحمل قولُها ذلك على تَسلية نفْسِها بعدَما تحزَّنت على هِبة الأنثى بدلَ الذَّكر الذي كانت طلَبَته، إلا أنه تبقى مخالفةُ الظاهر على ما هي.

فالأَوْلى في الجواب عدمُ الخروجِ عمَّا هو الظاهر، والبحثِ فيما اقتضته العادةُ، فقد قال في «الانتصاف» بعد نقلِ الإيراد وذِكْرِ القاعدة[1]: وقد وجدتُ الأمرَ في ذلك مختلفاً، فلم يَثْبُتْ لي تَعيُّنُ ما قالوه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]فنَفَى عن الكامل شَبَهَ الناقص، لأنَّ الكمال لأزواج النبيِّ ﷺ ثابتٌ بالنسبة إلى عموم النساء، وعلى ذلك جاءت عبارةُ امرأةِ عمران، ومنه أيضاً: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]. انتهى.

---

(١) يعني بعد ذكر ما سلف من القول بجواز أن تكون الجملة من قولها، ثم الإيراد عليه أن قياس كون ذلك من قولها أن يكون: وليست الأنثى كالذكر. . . لا العكس. الانتصاف على هامش الكشاف ١/ ٤٢٥-٤٢٦.

وتمامُ الكلام في هذا المقام ما ذَكَره بعضُ المحقِّقين(١): إنه إذا دخل نفيٌ بـ «لا» أو غيرها، أو ما في معناه، على تشبيهٍ مصرَّحٍ بأركانه، أو ببعضها، احتمَلَ معنيين: تفضيلَ المشبَّه، بأن يكون المعنى أنه لا يُشبَّه بكذا؛ لأنَّ وجهَ الشَّبه فيه أولى وأقوى، كقولك: ليس زيدٌ كحاتم في الجود. ويَحتمل عكسَه بأن يكون المعنى أنَّه لا يُشبَّه به لبعد المسافة بينهما، كقول العرب: ماءٌ ولا كصَدَّاء، ومَرْعًى ولا كالسَّعدانِ، وفتى ولا كمالِك(٢)، وقوله:

طَـرَق الـخَـيَـالُ ولا كَـلَـيْـلَـة مُـدْلِـجِ(٣)

ووقع في شروح المَقَامات(٤) وغيرها، أن العرب لم تستعمل النفي بـ «لا» على هذا الوجه، إلا للمعنى الثاني، وأن استعماله لتفضيل المشبَّه من كلام المولَّدين، حتى اعترضوا على قول الحريري في قوله: غدوت ولا اغتداء الغراب(٥).

وعِيْبَ قولُ صاحب «التلويح» في خُطبته: نال حظًّا من الاشْتهار ولا اشتهارَ الشمسِ نِصفَ النَّهار. ومَبْنَى الاعتراضِ على هذا، ولعلَّه ليس بلازم كما أشار إليه صاحب «الانتصاف» بما أَوْرَدَ من الآيات(٦). وممَّا أورده الثعالبيُّ من خلافه أيضاً في كتابه «المنتخب»: فلانٌ حَسَنٌ ولا القمر، وجَوَادٌ ولا المطر، على أنه لو سلِّم

(١) هو الشهاب في حاشيته ٣/ ٢٢.

(٢) تنظر هذه الأمثال في المستقصى ٢/ ١٨٠و٣٣٩و٣٤٤، ومجمع الأمثال ٢/ ٧٨ و٢٧٥و٢٧٧، والكامل ١/ ١٤-١٥. ومالك هو ابن نويرة، وتقدم شرح المثلين الأولين. وقال المبرد عن هذه الأمثال: تضرب للشيء الذي فيه فضل، وغيره أفضل منه.

(٣) وعجزه: سَدِكاً بأَرْحُلِنا ولَمْ يَتعرَّج، والبيت للحارث بن حلزة اليَشْكُري، كما في المفضليات ص٢٥٥، وأمالي القالي ١/ ٢٠٥، والتاج (سدك) و(رحل). المدلج: الذي أسرى الليل كله. ولم يتعرج: لم يأخذ يمنة ولا يسرة. والسَّدِك: المولع بالشيء. سمط اللآلي ١/ ٤٩١، والتاج (سدك).

(٤) ينظر شرح مقامات الحريري للشريشي ١/ ٨٥، والكلام من حاشية الشهاب ٣/ ٢٢.

(٥) وتمام الجملة: غدوت قبل استقلال الركاب، ولا اغتداءَ الغراب، أراد أن اغتداءه كان قبل أن يغتدي الغراب، والغراب أكثر الطيور بكوراً. واستقلال الركاب: ارتحالها. ينظر مقامات الحريري ص٣٩، وشرحها للشريشي ١/ ٨٥.

(٦) سلف قوله قريباً.

ما ذَكَروه فالمعاني لا حجْرَ فيها، على أنَّ ما ورَد في النفي بـ «لا» المعترِضة بين الطَّرفين، لا في كلِّ نفي، انتهى[١].

وهو كما قال[٢]: من نفائس المعاني التي ينبغي حفظُها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ عطفٌ على (إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ) المنصوبةِ المحلِّ على المفعولية للقول، وما بينهما ـ كما علمتَ ـ اعتراضٌ بجملتين غيرِ محكيَّتين، الثانيةُ من تتمة الأولى معنًى على ما بُيِّن، ولهذا أجراه البعضُ مجرى الاعتراض في الاعتراض، فجَعَله نظيرَ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦].

واعترُض: بأنه كيف يَجوزُ الاعتراضُ بين كلامَي أمِّ مريم، وكلامُ متكلِّمٍ لا يجوز أن يكون معترضاً بين كلامي متكلِّم آخر؟

وأجيب: بأنَّ كلام أمِّ مريم من كلام الله تعالى نقلاً عن أمِّ مريم، ولا بُعْدَ في أن يكون كلامُه تعالى اعتراضاً بين كلامَيْها اللذين هما من كلام الله تعالى نقلاً عنها، هذا على تقديرِ أنْ لا تكون تانِكَ الجملتان من كلام أمِّ مريم، وأمَّا إذا كانتا من كلامها بناءً على ما سبق من القراءة والاحتمال، فلا اعتراض.

قيل: والغَرَض من عَرْض التَّسمية على علَّام الغيوب التقرُّبُ إليه تعالى، واستدعاءُ العِصْمة لها؛ فإن «مريم» في لغتهم بمعنى العابدة.

ولا يَخْفَى بعدُه؛ إذ مجرَّدُ ذِكْرِ تسميتها مريم لا يكاد يكون مقرِّباً لها إليه تعالى؛ لأنَّ التقرُّبَ إليه تعالى إنَّما يكون بسبب العبادة، ومجرَّدُ عرْضِ التسميةِ ليس بعبادة، فكيف يكون مقرِّباً؟ اللهم إلَّا أنْ يقال: إنَّ التقرُّب إلى الله تعالى بحبِّها للعبادة الذي أَشْعَر به تسميتُها بنتها عابدةً، أو: اعتقادِ أنَّ الله تعالى مُسْتَعَاذٌ يجير مَن يَستعيذُ به عمَّا يخافه.

واعتُرض بأن هذا لا يدفع الشبهةَ، بل هي باقيةٌ أيضاً؛ لأن المقرِّب حينئذٍ ما في القلب من الحُبِّ والاعتقاد، لا عَرْضُ ذلك على مَن لا تخفى عليه خافية.

---

(١) حاشية الشهاب ٣/ ٢٢.

(٢) يعني الشهاب.

والأَولى أن يُقال: إنَّ الغَرَض من ذلك إظهارُ أنَّها غيرُ راجعةٍ عن نيَّتها وإن كان ما وضعتْه أنثى، وأنَّها وإنْ لم تكن خليقةً بسدَانة بيت المقدس، فلتكن من العابدات فيه.

واستقلالُها بالتسمية لكون أبيها قد مات وأمُّها حامِلٌ بها، فتقديم المسنَد إليه للتخصيص، يعني: التسميةُ منِّي لا يُشاركُني فيها أبوها. قيل: وفي ذلك تعريضٌ بيُتْمِها؛ استعطافاً له تعالى، وجَعْلاً ليُتْمِها شفيعاً لها.

والقول: بأنَّ فائدة عرْض تسميتها التحسُّرُ والتحزُّن أيضاً، أي: إنِّي سمَّيتُها لا أبوها؛ لعدم احتفاله بها والتفاته إليها، لكراهة الرِّجال في الغالب البنات، فمَع أنَّه خلافُ ما دلَّ عليه أكثرُ الآثار ونطقت به غالب الأخبار من موت أبيها وهي حَمْلٌ، يَجُرُّ إلى ما ينبغي أن تُنزَّه عنه ساحةُ الرَّجلِ الصالح عِمران، كما لا يخفى.

وقد تقدَّم الكلام في «مريم» وزناً ومعنى(١)، وقد اختار بعضُ المتأخرين أنَّها معرَّبةُ مارية، بمعنى: جارية، ويقرُب أن يكون القولَ المعوَّل عليه.

واستدلَّ بالآية على جوازِ تسمية الأطفال يومَ الولادة لا يومَ السَّابع؛ لأنَّ الظَّاهر أنَّها إنَّما قالت ذلك بإثْرِ الوضع. واستدِلَّ بتغاير المفعولين على تغاير الاسم والمسمَّى، وقد تقدَّم البحثُ فيه(٢).

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ عطفٌ على «إنِّي سمَّيتُها» وأتى هنا بخبر «إنَّ» فعلاً مضارعاً دلالةً على طلبها استمرار الاستعاذة دون انقطاعها، وهذا بخلافِ «وَضَعْتُها» و«سَمَّيْتُها» حيث أتى بالخبرين ماضيين لانقطاعهما. وقدَّم المعاذ به على المعطوف الآتي اهتماماً به.

ومعنى «أعيذها بك»: أمنعُها وأُجيرُها بحفظك، وأصلُ العَوْذِ ـ كما قال الرَّاغب(٣) ـ الالتجاءُ إلى الغير والتعلُّق به، يقال: عاذ فلان بفلان: إذا استجَار به، ومنه أُخذت العُوذة وهي التَّمِيمة والرُّقْية.

---

(١) ٢/ ٢٩٧-٢٩٨.

(٢) ١/ ٢١٣ وما بعده.

(٣) في مفرداته (عوذ)، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في حاشيته ٣/ ٢٢.

وقرأ أبو جعفر ونافع: «إِنِّيَ» بفتح ياء المتكلم[١]، وكذا في سائر المواضع التي بعد الياء ألفٌ مضمومة، إلَّا في موضعين: ﴿بِعَهْدِيَ أُوفِ﴾ [البقرة: ٤٠] و﴿ءَاتُونِيَ أُفْرِغْ﴾ [الكهف: ٩٦].

﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ عطف على الضمير المنصوب، وفي التنصيص على إعاذتها وإعاذة ذرِّيتها رمزٌ إلى طلب بقائها حَيَّةً حتى تَكْبُر، وطلبٌ للتناسل منها، هذا إذا أُريد بالإعاذة ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ - أي: المطرود، وأصلُ الرَّجم: الرميُ بالحجارة - الحفظُ من إغوائه المُوقِعِ في الخطايا؛ لأنَّه إنَّما يكون بعد البلوغ، إذ لا تكليف قبلَه. وأمَّا إذا أُريد منها الحفظُ منه مطلَقاً، فيفهم طلبُ الأمرين من الأمر الأخير، ويؤيِّد هذا ما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولودٍ يُولَدُ إلَّا والشيطانُ يمسُّه حين يُولد، فيستهلُّ مِن مَسِّه صارخاً، إلا مريم وابنها»[٢]. وفي بعض طرقه أنه: «ضُرب بينه وبينهما[٣] حِجابٌ، وأنَّ الشَّيطان أَراد أن يطعَن بإصبعه فوقعت الطَّعنة في الحِجاب»[٤].

وفي رواية إسحاق بنِ بشر، عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ وَلِدِ آدم ينالُ منه الشيطانُ، يَطعنُه حين يقع بالأرض بإصبعه، ولهذا يَستَهلُّ، إلا ما كان من مريم وابنِها، فإنه لم يَصِلْ إبليسُ إليهما»[٥].

وطعَن القاضي عبدُ الجبار[٦] بإصبع فِكْرِه في هذه الأخبار بأنَّها خبرُ واحدٍ على خلاف الدليل، وذلك أنَّ الشيطانَ إنَّما يَدعو إلى الشرِّ مَن له تمييز. ولأنَّه لو تمكَّن من هذا الفعل لجاز ان يُهْلِكَ الصالحين. وأيضاً: لِمَ خُصَّ عيسى وأمُّه دون سائر الأنبياء؟ وأنه: لو وُجد المسُّ أو النخس لدام أثرُه، وليس فليس.

---

(١) التيسير ص٩٣، والنشر ٢/ ٢٤٧.
(٢) صحيح البخاري(٤٥٤٨)، وصحيح مسلم (٢٣٦٦)، وهو عند أحمد (٧١٨٢).
(٣) في (م): وبينها، والمثبت من الأصل وتفسير الطبري ٥/ ٣٤٢، وهو الصواب.
(٤) أخرجه بهذا اللفظ الطبري ٥/ ٣٤٢ من طريق قتادة عن النبي ﷺ مرسلاً، وهو بنحوه عند أحمد (١٠٧٧٣)، والبخاري (٣٢٨٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٥) أخرجه ابن عساكر ٧٠/ ٧٧-٧٨ من طريق إسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس مطولاً، وقد سلف بعضه ص١٣٣ من هذا الجزء.
(٦) قوله في تفسير الرازي ٨/ ٣٠، والبحر ٢/ ٤٤٠.

والزمخشريُّ زَعَم أنَّ المعنى على تقدير الصحَّة: أنَّ كلَّ مولودٍ يَطْمعُ الشيطانُ في إغوائه، إلَّا مريمَ وابنها فإنَّهما كانا معصوميْن، وكذلك كلُّ مَن كان في صفتهما، كقوله تعالى: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠] واستهلالُه صارخاً من مسِّه تخييلٌ وتصويرٌ لطمَعِه فيه، كأنه يمسُّه ويضرِبُ بيده عليه، ونحوه من التخييل قولُ ابن الروميِّ:

لِمَا تؤذن الدُّنيا به مِن صُرُوفِها ... يكونُ بكاءُ الطفل ساعةَ يولَدُ[(١)]

وأمَّا حقيقةُ النَّخْسِ والمسِّ ـ كما يتوهَّمُ أهلُ الحشو ـ فكلَّا، ولو سلِّط إبليس على الناس ينخسُهم لامتلأت الدنيا صُرَاخاً وعيَاطاً مما يُبْلَون به من نَخْسِه[(٢)]. انتهى.

ولا يَخْفَى أن الأخبار في هذا الباب كثيرةٌ، وأكثرُها مدوَّن في الصِّحاح، والأمر لا امتناع فيه، وقد أخبر به الصَّادق عليه الصلاة والسلام؛ فليُتَلقَّ بالقبول.

والتخييلُ الذي رَكَنَ إليه الزمخشريُّ ليس بشيء؛ لأنَّ المسَّ باليد ربَّما يصلح لذلك، أمَّا الاستهلالُ صارخاً فلا، على أنَّ أكثر الرِّوايات لا يجري فيها مثلُ ذلك.

وقوله: لامتلأت الدُّنيا عِياطاً قلنا: هي مليئة، فما من مَوْلودٍ إلا يَصْرُخ، ولا يلزم من تمكُّنه من تلك النَّخسة تمكُّنه منها في جميع الأوقات، كيف وفي الصَّحيح: «لولا أنَّ الملائكة يَحفظُونكم لا حتوَشَتْكُم الشياطينُ كما يَحْتوِشُ الذبابُ العَسَلَ». وفي رواية: «لَاخْتَطفَتْكُم الجِنُّ»[(٣)]. وفُسِّر قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ [الرعد: ١١] في أحدِ الوجوه به.

وبهذا يَندَفعُ أيضاً قولُ القاضي مِن أنَّه لو تمكَّن من هذا الفعل لَجاز أن يُهْلِك الصالحين، وبقاءُ الأثر ـ بل وحصولهُ أيضاً ـ ليس أمراً ضروريًّا للمسِّ ولا للنَّخس، والحصرُ باعتبار الأغْلب، والاقتصارُ على عيسى عليه السلام وأُمِّه إيذاناً باستجابة

---

(١) ديوان ابن الرومي ٢/ ٥٨٦.
(٢) الكشاف ١/ ٤٢٦.
(٣) الحديث ليس في الصحيح، وأخرج نحوه الطبري ١٣/ ٤٦٦ عن كعب الأحبار قوله.

دعاءِ امرأةِ عمران على أتمِّ وجهٍ؛ ليتوجَّه أربابُ الحاجِ إلى الله تعالى بشراشِرِهم[(١)]، أو يقدَّر له ما يخصِّصه.

وعلى التقديرين يَخرج النبيُّ ﷺ من العموم، فلا يلزم تفضيلُ عيسى عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في هذا المعنى، ويؤيِّده خروجُ المتكلِّم من عموم كلامه، وقد قال به جمعٌ، ويَشهد له ما رَوى الجلالُ في «البَهجة السَّنية»[(٢)] عن عِكْرِمة قال: لمَّا وُلد النبيُّ ﷺ أَشْرَقت الأرضُ نوراً، فقال إبليس: لقد وُلِدَ الليلة وَلَدٌ يُفْسِد علينا أمرَنا. فقالت له جنودُه: لو ذهبتَ إليه. فجاءَه، فرَكَضَه جبريلُ عليه السلام فوقعَ بَعَدن. وهذا أولى من إبقاء العامِّ على عمومه، والقولِ بأنَّه لا يَبْعُدُ اختصاصُ عيسى وأُمِّه بهذه الفضيلة دون الأنبياء عليهم السلام، ولا يلزم منه تفضيلُه عليهم ـ عليهم السَّلام ـ إذ قد يوجد في الفاضل ما لا يُوجد في الأفضل، وعلى كِلا الأمرين الفاضل والمفضول لا إشكال في الأخبار من تلك الحيثيَّة.

نعم، قد يُشكل على ظاهرها أنَّ إعاذة أمِّ مريم كانت بعد الوضع، فلا يصحُّ حملُها على الإعاذة من المسِّ الذي يكون حين الولادة؟

وأجيب بأنَّ المسَّ ليس إلا بالانفصال وهو الوضع ومعه الإعاذة، غايته أنه عبَّر عنه بالمضارع كما أشرنا إليه لقصد الاستمرار، فلْيُتَأَمَّلْ.

و العَجَبُ من بعض أهل السُّنة كيف يَتْبَع المعتزلةَ في تأويل مثل هذه الأحاديث الصحيحة لمجرَّد المَيْلِ إلى تُرَّهات الفلاسفة، مع أنَّ إبقاءها على ظاهرها ممَّا لا يُرَنِّق[(٣)] لهم شِرباً، ولا يُضيِّق عليهم سِرباً، نسألُ اللهَ تعالى أن يوفِّقنا لمَرَاضيه، ويجعل مستقبلَ حالنا خيراً من ماضيه.

﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ أي: رَضي بمريم في النَّذر مكان الذَّكر، ففيه تشبيهُ النَّذْرِ بالهَديَّة، ورضوان الله تعالى بالقبول.

﴿رَبُّهَا﴾ أي: ربُّ مريم المبلغُ لها إلى كمالها اللائق بها.

---

(١) أي: بهمومهم وأعبائِهم. المعجم الوسيط (شرشر).

(٢) ذكره عنه الشهاب في الحاشية ٣/ ٢٣. والجلال هو جلال الدين السيوطي، وينظر كشف الظنون ١/ ٩٣٥.

(٣) أي: يكدر. المعجم الوسيط (رنق).

وقيل: الضميرُ لامرأة عمران، بدليل أنَّها التي خاطبت ونادت بقولها: «رب إني وضعتها» إلخ، والأولُ أولى.

﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ الباءُ مثلُها في: كتبت بالقلم. والقَبُول: ما يُقْبَلُ به الشيءُ، كالسَّعُوط واللَّدُود[1]: مايُسْعَطُ به ويُلَدُّ. أي: تَقَبَّلها بوجهٍ حَسَنٍ تُقْبَلُ به النَّذائر، وهو اختصاصُه سبحانه إياها بإقامتها مقامَ الذَّكَر في النَّذْر، ولم يَقبَلْ قَبْلَها أنثى، أو تسلَّمها من أمِّها عَقِبَ الولادة قبل أن تَنْشَأ وتصلح للسِّدانة والخِدْمَة.

فقد روي عن ابن عباس ﷺ أنه قال: لمَّا وضعَتها خَشِيت حَنَّة أن لا تُقبل الأنثى محرَّرة، فلفَّتها في الخرقة ووضعتها في بيت المقدس عند القُرَّاء، فتَسَاهَم القرَّاءُ عليها ـ لأنَّها كانت بنتَ إمامهم ـ أيُّهم يأخذها، فقال زكريا وهو رأس الأحبار: أنا آخذها وأنا أحقُّهم بها؛ لأنَّ خالتها عندي، فقالت القرَّاء: ولكنَّا نَتَسَاهمُ عليها، فمَن خرَج سهمُه فهو أحقُّ بها. فدعوا بأقلامهم التي يَكتبون بها الوحيَ، وجمعوها في موضعٍ ثم غطَّوها، وقال زكريا لبعضٍ من الغلمان الذين لم يبلغوا الحُلم ممَّن في بيت المقدس: أَدخِل يدك فأخرِج. فأدخل يدَه فأخرج قلمَ زكريا، فقالوا: لا نرضى، ولكن نُلقي الأقلام في الماء، فمَن خرَجَ قلمُه في جرية الماء ثم ارتفع فهو يَكْفُلها. فألقوا أقلامهم في نهر الأردن، فارتفع قَلَمُ زكريا في جري الماءِ، فقالوا: نَقْتَرعُ الثالثة، فَمنْ جرى قَلَمُه فهو يَكْفُلها. فألقوا أقلامَهم فجرى قلمُ زكريا مع الماء، وارتفعت أقلامُهم في جرية الماء، وقَبَضَها عند ذلك زكريا[2].

ويجوز أن تكون الباء للملابسة. والقَبُول مصدر ـ وهو من المصادر الشَّاذة ـ وهناك مضافٌ محذوف، والمعنى: رضي بها متلبِّسةً بأمرٍ ذي قبول، ووجهٍ ذي رضا، وهو ما يقيمُها مقام الذُّكور لِمَا اختُصَّت به من الإكرام.

ويجوز أن يكون تَفَعَّل بمعنى استفعل ـ كتعجَّل بمعنى استعجل ـ والمعنى:

---

(١) اللدود: ما يصب بالمسعط في أحد شقي الفم. القاموس (لدد).

(٢) أخرجه عن ابن عباس ابن عساكر في تاريخه ٧٠/ ٧٨-٧٩، وأخرجه الطبري ٥/ ٣٤٩ بنحوه عن السدي. وعلَّق البخاري بصيغة الجزم عن ابن عباس: اقترعوا فجرت الأقلام مع الجِرْية، وعال قلم زكرياء الجِرية، فكفلها زكرياءَ. عال: ارتفع. ينظر الفتح ٥/ ٢٩٢-٢٩٤.

فاستقبلها ربُّها وتلقَّاها من أول وَهْلَةٍ من ولادتها بقبولٍ حسن، وأظهَرَ الكرامة فيها حينئذٍ، وفي المثل: خُذِ الأَمْرَ بقوابِلِهِ[1].

وجوِّز أن تكون الباء زائدة، والقَبول مصدر مؤكِّد للفعل السَّابق بحذف الزوائد، أي: قَبِلَها قَبولاً حَسَناً، وعدل عن الظَّاهر للإيذان بمقارنة التقبُّل لكمال الرِّضا، وموافقته للعناية الذَّاتية؛ فإنَّ صيغة التفعُّل مشعِرةٌ ـ بحَسَب أصلِ الوضع ـ بالتكلُّف، وكونِ الفعل على خلاف طبع الفاعل، وإن كان المراد بها في حقِّه تعالى ما يترتَّب عليه من كمال قوَّة الفعل وكثرته.

ويحتمل ـ على بُعْدٍ بعيد ـ أن تكون الباء للمصاحبة بمعنى مع، أي: تقبَّل نَذْرَها مع قبول حسنٍ لدعاء أمِّها في حقِّها وحقِّ ذرِّيتها، حيث أعاذهما من الشيطان الرجيم من أول الولادة إلى خاتِمة الحياة.

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي: ربَّاها الربُّ تربيةً حسنة في عبادةٍ وطاعة لربِّها؛ قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وفي رواية عنه: أنه سوَّى خلْقَها فكانت تَشُبُّ في يومٍ ما يَشبُّ غيرُها في عامٍ[2].

وقيل: تَعهَّدها بما يُصلِحها في سائر أحوالها، ففي الكلام استعارةٌ تمثيلية أو مجازٌ مرسَلٌ بعلاقة اللزوم؛ فإنَّ الزَّارع يَتعهَّدُ زَرْعَه بِسَقْيِه عند الاحتياج، وحمايتِه عن الآفات، وقلعِ ما يَخْنُقه من النَّبات.

و«نباتاً» هنا مصدرٌ على غير لفظ الفعل المذكور، وهو نائبٌ عن إنبات، وقيل: التقدير: فنبَتَتْ نباتاً، والنبات والنَّبْت بمعنًى، وقد يعبَّر بهما عن النَّابت.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ وهو من وَلَدِ سليمان بنِ داودَ عليهما الصَّلاة والسلام، أي: ضمَّها اللهُ تعالى إليه، وجعلَه كافلاً لها وضَامِناً لمَصَالحها ـ على ما ذُكِر في حديث ابن عباس ـ وكلٌّ ذلك من آثار قُدرته تعالى، ولم يكن هناك وحيٌ إليه بذلك.

---

(١) أي: بمقدماته، وهو يضرب مثلاً في الأمر باستقبال الأمور، والباء بمعنى «في»، أي: فيما يستقبلك منه، يعني دبِّره قبل أن يفوتك تدبيره. مجمع الأمثال ١/ ٢٣١.

(٢) تفسير البغوي ١/ ٢٩٦، ومجمع البيان ٣/ ٦٨، وهذا الكلام على سبيل المبالغة، وقد ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٢٥ أن المراد بالمعنى: حسن النشأة، وسرعة الجودة فيها في خلقةٍ وخُلق.

وقرأ بتشديد الفاء حمزةُ والكسائيُّ وعاصمٌ، وقَصَروا «زكريا» غيرَ عاصمٍ في رواية ابن عياش. وهو مفعولٌ به لـ «كفَّلَها». وقرأ الباقون بتخفيف الفاء ومدُّوا «زكرياء» ورفعوه على الفاعلية(١). وفيه لغتان أُخرَيان: إحداهما: «زَكَرِيّ» بياء مشددة من غير ألف، وثانيتهما: «زَكْر»(٢) من غير ياء.

ومنعُه من الصَّرف للعَلَميَّة والعُجْمة، وقيل: لألف التأنيث. وقرأ أُبيٌّ: «وأَكْفَلَها»(٣) وقرأ مجاهد: «فتقبَّلْها رَبَّها» و«أَنبِتْها» و«كفِّلْها» على صيغة الدعاءِ في الأفعال الثلاثة، ونصب «رَبَّها» على النداء(٤)، أي: فاقْبَلَها يا رَبَّها وربِّها، واجعَلْ زكريا كافلاً لها.

وقد استَجاب الله تعالى دعاءها في جميع ذلك، والذي عليه الأكثرون وشهدت له الأخبار أنَّ كفالة زكريا كانت من أول أمرها، وزعَم بعضُهم أنه كَفِلها بعد أن فُطِمَت ونَبَتت النَّباتَ الحَسَن، وليس بالقوي.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ بيانٌ لقبولها، ولهذا لم يعطف. و«المحرابُ» على ما روي عن ابن عباس ﵄: غرفةٌ بنيت لها في بيت المقدس، وجعلت بابها في وسط الحائط، وكانت لا يُصْعَدُ عليها إلا بسلَّم مثل باب الكعبة.

وقيل: المرادُ به: المسجد؛ إذ قد كانت مساجدهم تسمَّى المحاريب. وقيل: أشرفُ مواضعِه ومقدَّمها، وهو مقامُ الإمام من المسجد في رأي.

وأصله: مِفْعال، صيغة مبالغةٍ كمِطْعان، فسمِّي به المكان لأنَّ المُحاربينَ نفوسَهم كثيرون فيه. وقيل: إنَّه يكون اسمَ مكانٍ، وسمِّي به لأنَّ محلَّ محاربةِ الشيطان فيه، أو لتنافُسِ الناس عليه. ولبعضِ المَغاربة في المدْح(٥):

جَمَعَ الشجاعةَ والخشوعَ لربِّه ... ما أَحْسَنَ المِحْرابَ في المِحْرابِ

---

(١) التيسير ص٨٧، والنشر ٢/ ٢٣٩.
(٢) بزنة: عمرو، ذكرها السمين في الدر المصون ٣/ ١٤٤ عن الأخفش.
(٣) الكشاف ١/ ٤٢٧.
(٤) القراءات الشاذة ص٢٠.
(٥) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٣/ ٢٣-٢٤، والبيت لابن حيوس الغنوي الدمشقي، وهو في ديوانه ١/ ٩٩، وذكره أبو شامة في الروضتين ١/ ٣٧، وابن الأثير في الكامل ١١/ ٤٠٣، وسيذكره المصنف على الصواب عند تفسير الآية (١٣) من سبأ.

وتقديم الظَّرف على الفاعل لإظهار كمالِ العناية بأمرها، ونصب «المحراب» على التوسُّع، إذ حقُّ الفعل أن يتعدَّى بـ «في» أو بـ «إلى». وإظهار الفاعل قيل: لفصل الجملة.

و«كلما» ظرفٌ على أنَّ «ما» مصدرية، والزمان محذوفٌ، أو نكرة موصوفة معناها: الوقت، والعائد محذوف، والعامل فيها جوابُها بالاتفاق؛ لأنَّ ما في حيِّز المضاف إليه لا يَعمل في المضاف، ولا يَجري فيها الخلافُ المذكور في أسماء الشرط. ومن الناس مَن وَهِم فقال: إنَّ ناصبه فعلُ الشرط، وادَّعى أنه الأنسب معنًى، فزاد في الشطرنج جَمَلاً[(١)]، والمعنى: كلَّ زمان دَخل عليها أو كلَّ وقت دخَل عليها فيه.

﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ أي: أصاب ولَقِيَ بحضرتها ذلك، أو: ذلك كائناً بحضرتها، أخرج ابن جرير[(٢)] عن الربيع قال: إنه كان لا يَدخُل عليها غيره، وإذا خَرَج أُغلق عليها سبعة أبواب، فكان يجد عندها فاكهةَ الصيف في الشتاء، وفاكهةَ الشتاء في الصيف.

والتنوين للتعظيم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ ذلك من ثِمَارِ الجنة[(٣)]. والذي عليه الجُلُّ أنَّ ذلك عِوَضٌ لها عن الرضاعة، فقد روي أنَّها لم ترضع ثدياً قطُّ.

وقيل: إنَّ هذا كان بعد أن تَرَعْرَعت، ففي روايةِ ابن بِشْرٍ[(٤)] عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ زكريا عليه الصلاة والسلام استأجر لها ظِئْراً، فلمَّا تمَّ لها حَوْلان فُطِمَت وتُرِكت في المِحْرَاب وحدَها، وأغلقت عليها الباب، ولم يتعهَّد أمرَها سواه.

﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ﴾ استئنافٌ بياني ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أي: من أين لكِ هذا الرِّزق الذي لا يُشبِهُ أرزاقَ الدنيا، والأبوابُ مغلقةٌ دونَك. ومجيءُ «أنَّى» بمعنى: من أين، أو كيف، تقدَّم الكلام عليه[(٥)] واستُشهد للأول بقوله:

---

(١) في مجمع الأمثال ١/ ٣٢٧، ويتيمة الدهر للثعالبي ٤/ ٩٤: زاد في الشطرنج بغلة، ويضرب لمن يذكر زيادة لا يحتاج إليها كما ذكر الثعالبي.

(٢) في تفسيره ٥/ ٣٥٦ و٣٥٩.

(٣) تفسير الطبري ٥/ ٣٥٦.

(٤) هو إسحاق بن بشر، وأخرجه من طريقه ابن عساكر ١٠/ ٧٧-٧٩، وسلفت قطعة منه ص١٤٢ من هذا الجزء.

(٥) ٣/ ٢٧٣.

تـمـنَّـى بـوادي الـرَّمْـثِ زَيْـنَـبَ ضَـلَّـةً فكيفَ ومن أنّى بذي الرَّمْث تَطْرُقُ[(١)]

وللثاني بقوله:

أنَّـى ومـن أيـن آبَـكَ الـطَّـرَبُ مِـن حـيـث لا صَـبْـوةٌ ولا رِيَـبُ[(٢)]

وحذف حرف الجرِّ من «أنى» نحو حذف «في» من الظروف اللازمة للظرفية من نحو: مَعَ وسَحَرَ[(٣)]، لأنَّ الشيء إذا عُلِم في موضعٍ جاز حذفه.

والتحقيقُ أنَّ الظروف محلُّ التوسُّع لكثرة استعمالهم إياها، وكلُّ ظرفٍ يُستعمل مع حرفِ صلته التي يَكثر معها استعمالها؛ لأنَّ اتصالها بمظروفها بذلِك الحرف[(٤)]، فجاز حذفُها كما جاز حذفُ «في»، إلا أنها لمَّا كانت الأصلَ لوضعها للظرفية، اطَّرد حذفُها من المتصرِّفة وغير المتصرِّفة، وغيرُها من صِلات الظروف لا يحذف إلَّا مع ما يَكثرُ من غير المتصرِّفة حظًّا لرتبتها عن رتبة «في» كما في «الكشف».

واستُدلَّ بالآية على جواز الكرامة للأولياء؛ لأنَّ مريم لا نبوة لها على المشهور، وهذا هو الذي ذهَب إليه أهلُ السُّنة والشيعة، وخالَف مع ذلك المعتزلةُ، وأجاب البلخيُّ منهم عن الآية: بأنَّ ذلك كان إرهاصاً وتأسيساً لنبوَّة عيسى عليه الصلاة والسَّلام. وأجاب الجبائيُّ[(٥)] بأنه كان معجزةً لزكريا عليه الصلاة والسلام. ورُدَّ الأخير بأنَّ اشتباهَ الأمرعليه يأبى ذلك، ولعلَّهُ مبنيٌّ على الظاهر وإلَّا ففي اقتضاء هذه العبارة ـ في نفس الأمر ـ الاشتباهَ نظرٌ؛ لأنه يجوز أن يكون لإظهار ما فيها من العَجَب بتكلُّمها ونحوه. والقولُ بأنَّ اشتباه زكريا في أنها معجزة لا ينافي كونَها معجزةً؛ لاشتباه أنه من الجنَّة أو من بساتين الدُّنيا، ليس بشيء كما لا يَخفى.

---

(١) البيت لنصيب بن رباح، وهو في ديوانه ص١٠٩ برواية: خلة، بدل: ضلَّة. ووادي الرمث: واد لبني أسد. معجم البلدان ٣/ ٦٨.

(٢) البيت للكميت، وهو في شرح هاشميات الكميت ص١٠٠، قال أبو رياش القيسي الشارح: آبك: أتاك ليلاً، يقول: إنما طربك إلى بني هاشم لا صبوةٌ في صبا، ولا ريب، أي: لا ريبة.

(٣) وهو ظرف لا ينصرف ولا يتصرف إذا أَرَدْت به سَحَر يومٍ بعينه، ويلزم النصب على الظرفية. أمالي ابن الشجري ٢/ ٥٧٧ـ٥٧٨.

(٤) في (م): بتلك الحروف.

(٥) ذكر قوله الرازي ٨/ ٣٣، وذكره مع قول البلخي قبله الطبرسي في مجمع البيان ٣/ ٦٩.

﴿قَالَتْ﴾ استئنافٌ كالذي قبله ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ قيل: أرادت من الجنَّة. وقيل: ممَّا رَزَقَنِيه هو لا بواسطة البَشر، فلا تَعْجَبْ ولا تَسْتَبعد. وقيل: تكلَّمت بذلك صغيرةً[١] كعيسى عليه الصلاةُ والسلام. وقد جُمع مَن تكلَّم كذلك فبلَغوا أحدَ عشر نفْساً، وقد نظمَهم الجلالُ السُّيوطي فقال:

تكلَّم في المهد النبيُّ محمَّد ... ويحيى وعيسى والخليلُ ومريَمُ
ومُبْرِي جريج ثم شاهدُ يوسفٍ ... وطفلٌ لذي الأخدود يَرويه مُسْلِمُ
وطفلٌ عليه مُرَّ بالأَمَة التي ... يقال لها تَزْني ولا تتكلَّمُ
وماشطةٌ في عهد فرعون طفلُها ... وفي زمن الهادي المبارَكُ يختمُ[٢]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده أنْ يرزقَه ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ تقدَّم معناه[٣]. والجملة تعليلٌ لكونه من عند الله، والظاهرُ أنَّها من كلامِ مريم، فحينئذٍ تكون في محلِّ النصب داخلةً تحت القول.

وقال الطبريُّ[٤]: إنَّها ليست من كلامها، بل هي مستأنَفةٌ من كلامه تعالى إخباراً لنبيه ﷺ. والأولُ أولى، وقد أخرج أبو يَعْلَى عن جابر: أنَّ رسول الله ﷺ أقام أياماً لم يَطْعَمْ طعاماً، حتى شَقَّ ذلك عليه، فطاف في منازل أزواجه، فلم يَجِد عند واحدةٍ منهنَّ شيئاً، فأتى فاطمة فقال: «يا بنيَّةُ، هل عندك شيءٌ آكلُه فإنِّي جائع؟» فقالت: لا واللهِ، فلَمَّا خرَج من عندها بعثت إليها جارةٌ لها برغيفين وقطعةِ لحم، فأخذته منها فوضعَتْه في جَفْنَةٍ لها، وقالت: لأُوثِرَن بهذا رسولَ الله ﷺ على

(١) في الأصل: وقد تكلمت كما قيل صغيرة، بدل: وقد تكلمت بذلك صغيرة.
(٢) ذكرها عن السيوطي الخفاجي في حاشيته ٣/ ٢٤، وابن علان في دليل الفالحين ١/ ١٩٧. وقوله: يرويه مسلم، هو عند مسلم مطولاً (٣٠٠٥)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٣٩٣١). وقصة جريج وكذلك قصة الطفل الذي مُرَّ عليه بالأمة وردتا في حديث أبي هريرة ﷺ عند البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠). وقوله: المبارك، يعني به مبارك اليمامة، حيث أخرج البيهقي في دلائله ٦/ ٥٩ من حديث معرِّض بن معيقيب اليماني أن مبارك اليمامة تكلم يوم ولد وشهد للنبي ﷺ بالرسالة، إن صحت فيه الرواية كما قال البيهقي، وينظر ما سيأتي عند تفسير الآية (٢٦) من سورة يوسف.
(٣) ٣/ ٢٢٠.
(٤) في التفسير ٥/ ٣٥٩ بنحوه.

نفْسي ومَن عندي. وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعة طعام، فبعثت حَسَناً أو حُسيناً إلى رسول الله ﷺ، فرجع إليها فقالت له: بي أنت وأمّي، قد أتى الله بشيءٍ قد خبَّأتُه لك. قال: «هلمّي يابنية بالجَفْنة» فكشفت عن الجفنة، فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً، فلمَّا نظرَت إليها بهتت وعَرفَت أنها بركةٌ من الله تعالى، فحمدتِ اللهَ تعالى وقدَّمته إلى النبيِّ ﷺ، فلمَّا رآه حمِدَ اللهَ تعالى، وقال: «من أينَ لك هذا يا بنية؟» قالت: يا أَبتي، هو من عند الله إنَّ الله يرزق مَن يشاء بغير حساب. فحمِد اللهَ سبحانه، ثم قال: «الحمدُ لله الذي جعَلكِ شبيهةَ سيدةِ نساء بني إسرائيل، فإنَّها كانت إذا رَزَقها اللهُ تعالى رزقاً فسئلت عنه، قالت: هو من عندِ الله إنّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يشاء بغير حساب» ثم جَمع عليّاً والحسَن والحسين، وجمع أهلَ بيته، حتى شبِعوا وبقي الطعامُ كما هو، فأوسعت فاطمةُ رضي الله عنها على جيرانها[١].

❁ ❁ ❁

هـذا ومـن بـاب الإشـارة فـي الآيـات: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نهيٌ عن مُوالاة المؤمنين الكافرين لعدم المناسبة بينهم في الحقيقة، والفرقِ بين الظُّلمةِ والنّور والظلِّ والحَرُور، والولاية تقتضي المناسبة، ومتى لم تحصل كانت الولايةُ عن مَحْضِ رياءٍ أو نفاق، واللهُ تعالى لا يُحبُّ المُرائين ولا المنافقين، ومن هنا نهى أهلُ اللهِ تعالى المُريدين عن موالاة المُنْكِرِين، لأنَّ ظُلْمَة الإنكار ـ والعياذُ بالله تعالى ـ تُحاكي ظلمةَ الكفْر، وربَّما تراكمت فسدَّت طريقَ الإيمان، ومَن يَفعل ذلك فليس من ولاية اللهِ تعالى في شيء مُعتَدٍّ به، إذ ليس فيه نوريةٌ صافية يناسب بها الحضرةَ الإلهية.

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ فحينئذٍ تَجوزُ الموالاة ظاهراً، وهذا بالنِّسبة للضُّعفاء، وأمَّا مَن قَوِيَ يَقينُه فلا يَخشى إلا الله تعالى.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: يدعوكم إلى التوحيد العِياني، لئلّا يكون خوفُكم من غيره ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلا تَحْذَروا إلّا إيَّاه، والأكثرون على أنَّ هذا خطابٌ

(١) لم نقف عليه في مسند أبي يعلى، ولعله في مسنده الكبير، وذكره بتمامه ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية، والسيوطي في الدر ٢/ ٢٠. قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص٢٥: وهو من رواية ابن لهيعة عن ابن المنكدر عن جابر، والمتن ظاهر النكارة.

للخَوَاصِّ العارفين، إذ لا يُحذِّر نفْسَه مَن لا يعرفه، وقد حذَّر مَن دونهم بقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] قال إبراهيم الخوَّاص[١]: وعلامةُ الخوف في القلب دوامُ المُرَاقبة، وعلامةُ المراقبة التفقُّدُ للأحوال النازلة.

﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ من الموالاة ﴿أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ لأنه مع كلِّ نَفَسٍ وخَطْرَة ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى﴾ سماوات الأرواح وأرضِ الأجسام ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ، ولا يُقيِّده مظهرٌ عن مظهر.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ لأنَّ كلَّ ما يعملُه الإنسان أو يقوله يَنْتَقِشُ منه أثرٌ في نفسه، ويُسَطَّر في صحائف النفوس السَّماوية، إلا أنه لاشتغاله بالشواغل الحسِّية والإدراكات الوَهْمية والخيالية لا يَرى تلك النقوشَ، ولا يُبصرُ هاتيك السُّطور، فإذا تجرَّد عن عالم الكثافة بَصُرَ ورأى، وشاهدَ ما به قلَمُ الاستعداد جرَى. فإذا وجد سوءاً ﴿تَوَدُّ﴾ نفْسُه وتتمنَّى ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ لِتَعذُّبها به ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ كرَّره تأكيداً، لئلَّا يَعملوا ما يَستحقُّون به عِقابَه ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: بسائرهم، فلهذا حذَّرهم، أو بمَن اتَّصف بمقام العبودية وانْقَطع إليه بالكلِّية.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ لأني سيدُ المُحِبِّين ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ وحقيقةُ المحبَّة عند العارفين احتراقُ القلب بنيران الشَّوق، ورَوْحُ الرُّوحِ بلذَّة العشق، واستغراقُ الحواسِّ في بحْرِ الأُنس، وطهارةُ النفس بمياهِ القُدس، ورؤيةُ الحبيب بعين الكُلِّ، وغَمْضُ عينِ الكلِّ عن الكونين، وطَيرانُ السِّرِّ في غيبِ الغيب، وتخلُّق المحبِّ بخلُقِ المحبوب، وهذا أصلُ المحبَّة. وأمَّا فَرْعُها فهو موافقةُ المحبوب في جميع ما يرضاه، وتقبُّلُ بلائه بنعت الرِّضا، والتسليم في قضائه وقَدَرِه بشرط الوفاء، ومتابعة سُنَّةِ المصطفى ﷺ. وأمَّا آدابها فالانقطاع عن الشَّهوات واللذَّات المُباحة، والسُّكون في الخَلَوات والمراقبات، واستنشاقُ نَفَحات الصِّفات، والتواضعُ والذُّل في الحرَكات والسَّكنات:

(١) أبو إسحاق، إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل، أوحد المشايخ في وقته، من أقران أبي القاسم الجنيد، مات بالري سنة (٢٩١هـ). طبقات الصوفية ص٢٨٤.

مساكينُ أهلُ العشقِ حتى قبورُهم   عليها ترابُ الذُّلِّ بين المقابرِ[(١)]

وهذا لا يكونُ إلَّا بعدَ أن تَرى الروحُ بعين السِّر مشاهدةَ الحقِّ بنَعْتِ الجَمَال وحُسْنِ القِدَم، لا بنعت الآلاء والنِّعم، لأنَّ المحبَّة متى كانت مِن تولُّد رؤيةِ النَّعماء كانت معلولةً، وحقيقةُ المحبَّة ما لا عِلَّة فيها بين المحبِّ والحبيب سِوى ذاتِ الحبيب، ولذا قالوا: لا تصحُّ المحبة ممَّن يُميِّز بين النار والجَنَّة، وبين السُّرور والمِحنة، وبين الفرْض والسُّنة، وبين الاعتواض والاعتراض، ولا تصحُّ إلا ممَّن نسي الكلَّ واستغرق في مشاهدة المحبوب وفني فيه:

خَليليَّ لو أَحْبَبْتُما لَعَلمْتُما   مَحلَّ الهوى من مُغْرَمِ القَلْبِ صَبِّهِ
تذكَّرَ والذِّكرى تَشُوقُ وذُو الهوى   يَتُوقُ ومَنْ يَعْلَقْ به الحُبُّ يُصْبِه
غَرامٌ على يَأْسِ الهوى ورَجَائه   وشَوْقٌ على بُعْدِ المَزَارِ وقرْبِهِ[(٢)]

وقد يقال: المحبَّةُ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: محبَّةُ العوامِّ وهي مطالَعةُ المِنَّة من رؤية إحسان المُحسِن، جُبِلت القلوبُ على محبَّة مَن أحسن إليها، وهو حبٌّ يتغيَّر، وهو لمتابعي الأعمال الذين يطلبون أجراً على ما يعملون، وفيه يقول أبو الطَّيِّب:

وما أنا بالباغي على الحُبِّ رِشْوَةً   ضَعيفٌ هوًى يُرْجَى عليه ثوابُ[(٣)]

والقسم الثاني: محبَّة الخوَاصِّ المتَّبعين للأخلاق، الذين يُحبُّونه إجلالاً وإعظاماً، ولأنه أهلٌ لذلك، وإلى هذا القسم أشار ﷺ بقوله: «نِعْمَ العبدُ صُهَيْبٌ، لو لم يَخَفِ الله لم يَعْصِه»[(٤)]. وقالت رابعةُ رَحمَها اللهُ تعالى:

---

(١) مصارع العشاق ١/ ١٣٠.
(٢) الأبيات لأحمد بن محمد التغلبي المعروف بابن الخياط الدمشقي، وهي في وفيات الأعيان لابن خلكان ١/١٤٦، والوافي بالوفيات ٨/٦٨، والكشكول ١/ ٢٤٧. ووقع في (م): على بُعْد المراد..
(٣) ديوان المتنبي ص٤٨١، وفيه: يُبْغَى، بدل: يُرجى. وقوله: ضعيف، خبر مقدم.
(٤) ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة ص ٤٤٩، والملا علي القاري في المصنوع وقال: لا أصل له كما صرَّح به الحافظ. وسلف ١/ ٤٩٢.

أُحـبُّـك حـبَّـيـن حـبَّ الـهـوى وحـبًّـا لأنـك أهـلٌ لـذاكـا[١]

وهذا الحبُّ لا يتغيَّر إلى الأبد، لبقاء الجَمَال والجلال إلى السَّرمد.

والقسم الثالث: محبةُ خواصِّ الخواصِّ المتَّبِعين للأحوال، وهي الناشئةُ من الجَذْبة الإلهية في مكامن: «كنت كنزا مخفيًا»[٢]. وأهلُ هذه المحبَّة هم المستعدُّون لكمال المعرفة، وحقيقتُها أنْ يَفْنَى المحبُّ بسطوتها فيبقى بلا هو، وربَّما بقي صاحبُها حيرانَ سكران، لا هو حيٌّ فيُرجى، ولا هو[٣] ميت فَيُبْكى، وفي مِثْلِ ذلك قيل:

يقولون إنَّ الحبَّ كالنار في الحشا ألَا كَذَبـوا فـالـنـارُ تـذكـو وتـخـمـدُ
ومـا هـو إلا جـذوةٌ مَـسَّ عـودَهـا نـدًى فـهـي لا تـذكـو ولا تـتـوقَّـد[٤]

ويكفي في شرح الحبِّ لفظُه، فإنه حاءٌ وباء، والحاءُ من حروف الحَلْق، والباء شفوية، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ الهَوى مالم يَسْتَوْلِ على قلبه ولسانه، وباطنِهِ وظاهرِه، وسرِّه وعلَنه، لا يقال له: حُبٌّ، وشرحُ ذلك يطول.

وهذه محبَّةُ العبدِ لربِّه، وأمَّا محبَّة ربِّه سبحانه له فمختلفةٌ أيضاً، وإن صدرت من محلٍّ واحد، فتعلَّقت بالعوامِّ من حيث الرحمةُ، فكأنه قيل لهم: اتَّبعوني بالأعمال الصالحة يَخصُّكم اللهُ تَعالى برحمته. وتعلَّقت بالخَوَاصِّ من حيث الفضلُ، فكأنه قيل لهم: اتَّبعوني بمكارم الأخلاق يخصُّكم بتجلِّي صفاتِ الجَمَال. وتعلَّقت بخَوَاصِّ الخَوَاصِّ من حيثُ الجذبة، فكأنه قيل لهم: اتَّبعوني ببذْل الوجود يخصُّكم بجَذْبِه لكم إلى نفسه، وهناك يرتفع البَوْنُ من البَيْن، ويظهرُ الصُّبح لذي عينين، والقطرةُ من هذه المحبَّة تُغني عن الغدير:

وفي سَكْـرةٍ مـنـهـا ولـو عُـمْـرَ سـاعـةٍ تَرَى الدهرَ عبداً طائعاً ولك الحكمُ[٥]

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي: مَعاصِيكم التي سلَفت منكم على خلافِ المتابعة،

(١) ذكره أبو قاسم النيسابوري في عقلاء المجانين ص١٥٢، والمقري في نفح الطيب ٥/ ٢٨.
(٢) سلف ١/ ١٩٩، وذكرنا ثمة أنه لا أصل له.
(٣) قوله: هو، ليس في (م).
(٤) ذكرهما ابن خلكان في وفيات الأعيان ٥/ ١٩٧، واليوسي في زهر الأكم ٢/ ٣٠٩.
(٥) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص١٤٣. ووقع في (م): وله الحكم، وهو تصحيف.

ولا يعاقبكم عليها، أو: يَغْفِر لكم ذنوبَكم بسترِ ظُلمَة صفاتكم بأنوار صفاته، أو: يغفر لكم ذنوبَ وجودِكم ويثيبكم مكانَه وجوداً لا يَفنى، كما قال: «فإذا أحبَبْتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به وبصرَه الذي يُبصِرُ به» الحديث[1].

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ يكفِّرُ خطاياكم، ويَمحو ذنوبَ صفاتِكم ووجودِكم. ﴿رَّحِيمٌ﴾ يهبُ لكم عِوَضَ ذلك حسناتٍ وصفاتٍ ووجوداً حقَّانية خيراً من ذلك.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فإنَّ المريدَ يلزمه متابعةُ المراد ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: فإن أعرَضوا فهم كفَّارٌ منكِرون محجوبون، و﴿اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ لقُصورِ استعدادهم عن ظهور جَمَاله فيهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ الاصطفاء أعمُّ من المحبَّة والخُلَّة، فيشمل الأنبياء كلَّهم، وتتفاضَلُ فيه مراتبُهم كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فأخصُّ المراتب هو المحبَّة، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ثم الخلَّة، وفي لفظها إشارة إلى ذلك من طريق مخارج الحروف، وأعمُّها الاصطفاء، فاصطفى آدمَ بتعليم الصِّفات وجمْعِ اليدين وإسجاد الأكوان له، ونوحاً الذي هو الأبُ الثاني بتلك الأبوة، وبما كان لَه مع قومه، واصطفى آل إبراهيم ـ وهم الأنبياء من ذريته ـ بظهورِ أنوارِ تجلِّيهِ الخاصِّ على آفاق وجودهم، وآلَ عمران بجَعْلِهم آيةً للعالمين، ذرية بعضُها من بعض في الدِّين والحقيقة؛ إذ الولادة قسمان: صورية ومعنوية، وكلُّ نبيٍّ تبع نبيًّا في التوحيد والمعرفة وما يتعلَّق بالباطن من أصول الدين، فهو ولده ـ كأولاد المشايخ ـ والولدُ سرُّ أبيه.

ويمكن أن يقال: آدمُ هو الرُّوح في أول مقامات ظهورها، ونوحٌ هو هي في مقامها الثاني من مقامات التنزُّل، وإبراهيم هو القلبُ الذي ألقاه نمرودُ النفسِ في نيرانِ الفِتن، ورماه فيها بمنجنيق الشَّهوات، وإلهُ القوى الرُّوحانية، وعِمرانُ هو العقلُ الإمام في بيت مقدس البَدَن، وآلُهُ: التابعون له في ذلك البيت مقتدون به، وكلُّ ذلك ذريَّةٌ بعضُها من بعض، لوحدة المَوْرِد واتِّفاق المَشْرَب.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ عن رِقِّ النفس، مخلصاً

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وسلف ١/ ١٣٢.

في عبادتك عن المَيْل إلى السّوى. ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ قال الواسطي[(١)]: محفوظ عن إدراك الخَلْق ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ حيثُ سقاها من مياه القدرة، وأثمرَها شجرةَ النبوة ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ لطهارةِ سرِّه، وشبيهُ الشيء منجذبٌ إليه.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ هو ما عَلِمْتَ، ويجوزُ أن يُراد الرزقُ الرُّوحانيُّ من المعارف والحقائق والعلوم والحِكَم الفائضة عليها من عندِ الله تعالى؛ إذ الاختصاص بالعِنْدية يدلُّ على كونه أشرفَ من الأرزاق البدنية، وأخرج ابن أبي حاتم[(٢)] من بعض الطُّرق، عن مجاهدٍ أنه قال: رزقاً، أي: علماً.

وقد يقال على النحو الأول ليتمَّ تطبيقُ ما في الآفاق على ما في الأنفس: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ ـ وهي النَّفْس في أول مراتب طاعتِها ـ لعمران العقل: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ وهو غلامُ القلب ﴿مُحَرَّرًا﴾ ليس في رقِّ شيء من المخلوقات ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ وهي نَفْسٌ أيضاً، إلّا أنها أَكْمَلُ منها في المرتبة، والجِنس يلدُ الجنسَ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ لعلمه أنه سيَظْهَرُ من هذه الأنثى العَجَبُ العُجاب، وغيره سبحانه تَخْفَى عليه الأسرارُ ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ وهي العابدة ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ وهو الشَّهوات النفسانية الحاجبةُ للنفس القدسية عن رِياض المَلَكوت.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ وهو اختصاصُه إياها بإفاضة أنواره عليها ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ ورقَّاها فيما تكمُلُ به نشأتُها ترقِّياً حَسَناً غيرَ مشوبٍ بالعوائق والعلائق. ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ الاستعداد ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا﴾ وتوجَّه نحوَها في مِحْرَابِ تعبُّدِها، المبنيِّ لها في بيت مقدِس القلْبِ ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ تتغذَّى به الأرواحُ في عالَم الملكوت ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ الرزقُ العظيم؟ ﴿قَالَتْ هُوَ﴾ مُفاضٌ ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ منزَّهٌ عن الحَمْلِ بيَدِ الأفكار ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الجامعَ لصفاتِ الجَمال والجَلال ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ ويُفيض عليهم من عِلْمِه حَسْبَ قابليَّتهم ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فسبحانه من إلهٍ جَوادٍ كريم وهَّاب.

❁ ❁ ❁

(١) أبو بكر، أحمد بن موسى، من قدماء أصحاب الجنيد، توفي بمرو سنة (٣٢٠هـ). طبقات الصوفية للسلمي ص٣٠٢.

(٢) في تفسيره ٢/ ٦٤٠.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ قِصَّة مستقلَّةٌ سِيقت في أثناء قِصَّة مريم لكمال الارتباط، مع ما في إيرادها مِن تقريرِ ما سِيقَت له، «وهنا» ظرفُ مكانٍ، واللام للبعد، والكاف للخطاب، أي: في ذلك المكان، حيثُ هو قاعدٌ عند مريم في المحراب، وهي ظرفٌ ملازِمٌ للظرفية، وقد تجرَّدَ بـ «من» و«إلى»، وجوِّز أن يراد بها الزمان مَجازاً، فإنَّ «هنا» و«ثَمَّ» و«حيث» كثيراً ما تُستعارُ له. وهي متعلِّقة بـ «دعا».

وتقديمُ الظرف للإيذان بأنه أَقْبَل على الدُّعاء من غير تأخير. وقال الزَّجَّاج[1]: إنَّ «هنا» هنا مستعارةٌ للجهة والحال، أي: من تلك الحال دَعَا زكريا، كما تقول: من هاهنا قلتُ كذا، ومن هنالك قلت كذا، أي: من ذلك الوجه وتلك الجهةِ.

أخرج ابن بِشْرٍ وابن عساكر عن الحسن قال: لمَّا وَجَد زكريا عند مريم ثَمَرَ الشتاء في الصَّيف وثَمَر الصَّيف في الشتاء يأتيها به جبريلُ، قال لها: أنَّى لك هذا في غير حِينه؟ قالت: هو رزقٌ من عند الله يأتيني به اللهُ، إنَّ الله يَرزقُ مَن يشاء بغير حساب، فطَمِع زكريا في الوَلَد، فقال: إنَّ الذي أتى مريمَ بهذه الفاكهة في غَيْرِ حينها لَقَادِرٌ على أن يُصلح لي زوجتي، ويهبَ لي منها ولداً. فعند ذلك دعا ربَّه، وذلك لثلاثِ ليالٍ بَقِين من المحرَّم، قام زكريا فاغتَسَل ثم ابتَهَل في الدعاء إلى الله تعالى[2].

وقيل: إنما طمع[3] في الولد فدَعَا، مع أنه كان شيخاً فانياً، وكانت امرأته عاقراً، لِمَا أنَّ الحال نبَّهته على جواز وِلادَةِ العاقر من الشيخ من وجوه:

الأول: ما أشار إليه الأثر من حيث إنَّ الولدَ بمنزلة الثمَرَ، والعُقْرَ بمنزلةِ غيرِ أوانِه.

والثاني: أنَّه لمَّا رأى تقبُّل أنثى مكان الذَّكر تنبَّه لأنه يَجوز أن يقومَ الشَّيخُ مقامَ الشابِّ والعاقرُ مقامَ الناتج.

---

(١) في معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٠٤ بنحوه.

(٢) الدر المنثور ٢/ ٢٠-٢١، وهو في تاريخ ابن عساكر ٧٠/ ٨٤ من طريق إسحاق بن بشر عن سعيد عن قتادة عن الحسن به.

(٣) في (م): وقيل أطمعه.

والثالث: أنه لمَّا رأى تقبُّلَ الطفل مقامَ الكبير للتحرير تنبَّه لذلك.

والرابع: أنه لمَّا رأى تكلُّم مريم في غيرِ أوانه تنبَّه لجواز أن تلد امرأته في غير أوانه.

والخامس: أنه لمَّا سمِع من مريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ تنبَّه لجواز أن تَلِدَ من غير استعداد.

ولا يخفى ما في بعض هذه الوجوه من الخَدْشِ، وعلى العلَّات ليس ما رأى فقط علَّةً مُوجبة للإقبال على الدُّعاء، بل كان جزءاً من العلَّة التامَّة التي من جملتها كِبَرُ سِنِّه عليه السَّلام، وضعفُ قُواه، وخوفُ مَوَاليه، حَسْبَما فصِّل في سورة مريم.

﴿قَالَ﴾ شرحٌ للدُّعاء وبيانٌ لكيفيته ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ الجارَّان متعلِّقان بما قبلهما، وجاز لاختلاف المعنى. و«من» لابتداء الغاية مجازاً، أي: أعطني مِن عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي: مباركةً كما قال السُّدِّي. وقيل: صالحةً تقيَّةً نقيَّةَ العمل.

ويجوز أن يتعلَّقَ الجارُّ الأخير بمحذوفٍ وقع حالاً من «ذرية».

وجاء الطَّلب بلفظ الهِبة، لأنَّ الهِبَةَ إحسانٌ مَحْضٌ ليس في مقابلة شيء، وهو يناسبُ ما لا دَخْلَ فيه للوالد لِكبَرِ سنِّه، ولا للوالدة لكونها عاقرةً لا تَلِدُ، فكأنه قال: أعطني ذريَّةً من غير وسط معتاد.

والذرِّيةُ في المشهور: النَّسْلُ، تقعُ على الواحد والجمع، والذَّكرِ والأنثى. والمراد هاهنا ولدٌ واحد، قال الفرَّاء[1]: وأنث «الطيِّبة» لتأنيث لفظ الذُّرية. والتأنيث والتذكير تارةً يجيئان على اللفظ، وأُخرى على المعنى، وهذا في أسماء الأجناس كما في قوله:

أبـوكَ خـلـيـفـةٌ ولـدتـهُ أُخـرى وأنـت خـلـيـفـةٌ ذاك الـكَـمَـالُ[2]

بخلاف الأعلام فإنه لا يجوز أن يقال: جاءت طلحةُ، لأنَّ اسمَ العَلَمِ لا يفيدُ إلَّا ذلك الشخص، فإذا كان مذكَّراً لم يَجُز فيه إلا التذكير.

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٢٠٨.

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٠٨، وتفسير الطبري ٥/ ٣٦٢، ونسبه ابن الأنباري في المذكر والمؤنث ٢/ ١٦٣ لنصيب. قال الفراء: قال: أخرى، لتأنيث اسم الخليفة، والوجه أن تقول: وَلَدَه آخر.

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾ أراد: كثير الإجابة لمَن يَدعوك مِن خَلْقك، وهو تعليلٌ لِما قَبْلَه، وتحريكٌ لسلسلة الإجابة. وفي ذلك اقتداءٌ بجَدِّه الأعلى إبراهيم عليه السلام، إذ قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

قيل: قد ذَكَر اللهُ تعالى في كيفية دعائه ثلاثَ صِيَغ: إحداها هذه، والثانية: ﴿إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ إلخ [مريم: ٤]، والثالثة: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ إلخ [الأنبياء: ٨٩]، فدلَّ على أنَّ الدعاء تكرَّر منه ثلاث مرَّات كلّ مرَّة بصِيغةٍ، ويدلُّ على أن بين الدعاء والإجابة زماناً، ويُصرِّح به ما نُقِل في بعض الآثار أنَّ بينهما أربعين سَنَةً.

وفيه منعٌ ظاهرٌ، لجواز أن تكون الصِّيَغ الثلاث حكايةً لدعاءٍ واحد: مرَّةً على سبيل الإيجاز، وتارةً على سبيل الإسهاب، وأُخرى على سبيل التوسُّط.

وهذه الحكاية في هذه الصِّيغ إنَّما هي بالمعنى إذ لم يكن لسانهم عربيًّا، ولهذا ورَد عن الحسن أنه عليه السَّلام حين دعا قال: يا رازق مريمَ ثِمَارَ الصَّيف في الشتاء وثمَار الشتاء في الصَّيف، هبْ لي من لَدُنك ذرِّيةً. ولم يذكر في الدعاء «يا رب».

قيل: ويدلُّ على أنه دعاءٌ واحد متعقَّبٌ بالتبشير العطفُ بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وفي قوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. وظاهرُ قوله جلَّ شأنه في «مريم»: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم: ٧] اعتقابُ التبشير الدعاءَ لا تأخُّره عنه. وأَثَرُ: أنَّ بين الدعاء والإجابة أربعين سَنَةً، لم نجد له أثراً في الصِّحاح، نعم ربَّما يُشعر بعضُ الأخبار الموقوفة أنَّ بين الولادة والتبشير مدةً، كما سنشير إلى ذلك قريباً إن شاء الله تعالى.

والمرادُ من الملائكة جبريلُ عليه السلام؛ فإنه المنادي وحدَه كما أخرجه ابنُ جرير عن ابن مسعود: وذكر عبد الرحمن بن أبي حمَّاد أنه كان يقرأ: «فناداه جبريل»(١). فالجمع هنا مجازٌ عن الواحد للتعظيم. أو يكون هذا من إسناد فعلِ البعض للكلِّ.

وقيل: الجمع فيه مثلُه في قولك: فلان يركب الخَيْلَ ويلبس الديباج. واعتُرض

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٣٦٤، وذكرها أبو حيان في البحر ٢/ ٤٤٦.

بأنَّ هذا إنما يصحُّ إذا أريد واحدٌ لا بعينه وهاهنا أُريد المعيَّن، فلعلَّ ما تقدَّم أولى بالإرادة.

وقيل: الجمع على حاله، والمنادى كان جملةً من الملائكة.

وقرأ حمزة والكسائي «فناديه» بالإمالة والتذكير[١]. وأخرج ابن المنذر وابنُ مردويه، عن ابن مسعود أنه قال: ذكِّروا الملائكةَ، ثم تلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢٧] وكان يقرؤها: «فناداه الملائكة» ويذكِّر في جميع القرآن[٢]. وأخرج الخطيب عنه أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقرأ كذلك[٣].

﴿وَهُوَ قَآئِمٌ﴾: جملةٌ حاليَّة من مفعول النداء، مقرِّرة لِمَا أشارت إليه الفاءُ على ما أشرنا إليه. وقوله تعالى: ﴿يُصَلِّى﴾ حالٌ من المستكِنِّ في «قائم»، أو حالٌ أُخرى من المفعول على القول بجواز تعدُّدها من غير عطفٍ ولا بدَلية، أو خبرٌ ثانٍ للمبتدأ على رأي مَن يرى مثلَ ذلك. وقيل: الجملة صفة لـ «قائم».

والمرادُ بالصلاة ذاتُ الأقوال والأفعال كما هو الظاهر، وعليه أكثرُ المفسرين، وأخرج ابن المنذر، عن ثابت قال: الصلاةُ خِدمةُ اللهِ تعالى في الأرض، ولو عَلِم اللهُ تعالى شيئاً أفضلَ من الصلاة ما قال: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى﴾[٤].

وقيل: المراد بها الدعاءُ. والأولُ يدلُّ على مشروعية الصلاة في شريعتهم.

﴿فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي: في المسجد، أو في موقف الإمام منه، أو في غرفة مريم، والظرفُ متعلِّق بـ «يصلِّي»، أو بـ «قائمٌ» على تقدير كون «يصلي» حالاً من ضمير «قائم»؛ لأنَّ العامل فيه وفي الحال شيء واحد، فلا يَلزم الفصلُ بالأجنبي كما يَلزم على التقادير الباقية، كذا قالوا. والذي يظهَرُ أنَّ المسألة من باب التنازع؛ فإنَّ كلًّا من «قائم» و«يصلي» يصحُّ أن يتسلَّط على «في المحراب» على أيِّ وجهٍ تقدَّم من وجوه الإعراب، فتدبَّر.

---

(١) التيسير ص٨٧، والنشر ٢/ ٢٣٩، وهي قراءة خلف من العشرة.

(٢) الدر المنثور ٢/ ٢١.

(٣) تاريخ بغداد ٤/ ١٣٢، قال الخطيب: غريب لم أكتبه إلا من هذا الوجه. اهـ. قلنا: في إسناده أحمد بن الخليل البغدادي، قال عنه الدارقطني: ضعيف لا يحتج به. الميزان ١/ ٩٦.

(٤) الدر المنثور ٢/ ٢١، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم ٢/ ٦٤١.

ثم اعلمْ أنَّ الصَّلاة في المَحاريب المشهورة الموجودةِ الآن في مساجد المسلمين قد كَرِهها جماعةٌ من الأئمة، وإلى ذلك ذهَب عليٌّ كرَّم اللهُ وجهه وإبراهيم رَحِمَهُ اللهُ، فيما أخرجه عنهما ابنُ أبي شيبة[١]، وهي من البِدَع التي لم تكن في العَصْر الأول، فعن موسى[٢] الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزالُ أمتي بخيرٍ ما لم يَتَّخذوا في مساجدهم مذابحَ كمذابحِ النَّصارى»[٣].

وعن سالم[٤] بن أبي الجَعد قال: كان أصحابُ محمَّدٍ ﷺ يقولون: إنَّ مِن أشراط السَّاعة أن تتَّخذ المذابح في المساجد.

وعن ابن عمرو[٥] ﵄ أنَّ النبي ﷺ قال: «اتقوا هذه المذابح» يعني المحاريب[٦]، والرواياتُ في ذلك كثيرة، وللإمام السُّيوطي رسالة مستقلَّةٌ فيها[٧].

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ﴾ أي: بأنَّ الله، وبعد إسقاط حرف الجرِّ المطَّرد في «أنَّ» و«أنْ» يجوزُ في المُنْسَبك اعتبارُ النصب واعتبار الجرِّ، والأول مذهب سيبويه والثاني مذهب الخليل[٨].

---

(١) في المصنف ٢/ ٥٩، ولفظه: عن علي أنه كره الصلاة في الطاق، ومثله عن إبراهيم.

(٢) في الأصل و(م): أبي موسى، والمثبت هو الصواب، وهو الموافق لما في المصادر على ما يأتي.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٥٩، وذكره السيوطي في الدر ٢/ ٢١، وفي إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب ص١٦، وهو حديث مرسل.

(٤) في الأصل و(م): عبد الله، وفي الدر المنثور ٢/ ٢١ عبيد، والمثبت من مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٥٩.

(٥) في الأصل و(م): عمر، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٦) أخرجه البيهقي ٢/ ٤٣٩، والطبراني كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٦٠، وذكره السيوطي في إعلام الأريب ص١٤. وقال الهيثمي: المحاريب صدور المجالس، كذلك ذكره ابن الأثير في مادة حرب. اهـ. وهو في النهاية (حرب)، وبه جزم المناوي في فيض القدير ١/ ١٤٤، وردَّ على السيوطي في استدلاله بهذا الحديث على النهي عن اتخاذ المحاريب في المساجد.

(٧) واسمها: إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب، كما ذكرناه آنفاً.

(٨) كذا ذكر المصنف، والذي في الكتاب ٣/ ١٢٧-١٢٨ عكسه، فقد نقل سيبويه عن الخليل القول بالنصب، ثم قال: ولو قال إنسان إن «أن» في موضع جر في هذه الأشياء، ولكنه حرف كثر في كلامهم فجاز فيه حذف الجار، لكان قولاً قويًّا.

وقرأ حمزة[١] وابن عامر بكسر همزة: «إن»، وخرِّج على إضمار القول، وهو مذهب البصريين، أو على إجراء النِّداء مجرى القول؛ لأنه نوع منه، وهو مذهب الكوفيين.

وقرأ حمزة والكسائيُّ: «يُبْشِرُكَ» من الإبشار، وقرئ: «يَبْشُرُكَ» من الثلاثي[٢]. أخرج ابن جرير عن معاذ الكوفي قال: مَن قرأ يُبَشِّر مثقَّلةً فإنه من البشارة، ومَن قرأ يَبْشُرُ مخفَّفة بنصب الياء، فإنه من السُّرور[٣].

و«يحيى» اسمٌ أعجميٌ على الصحيح، وقيل: عربيٌّ منقولٌ من الفعل، والمانعُ له من الصَّرف على الأول العَلَميَّةُ والعُجْمَة، وعلى الثاني العَلَميَّة ووزن الفعل. والقولُ بأنَّه لا قاطعَ لمنع صَرْفِه؛ لاحتمالِ أنْ يكون مبنيًّا بجعلِ العَلَمِ جملةً بأنْ يكون فيه ضميرٌ كما في قوله:

نُبِّئْتُ أخوالي بني يزيدُ[٤]

ليس بشيء؛ لِمَا في ذلك الاحتمال من التكلُّف المستغْنى عنه ما يكادُ يكون دليلاً قطعيًّا للقطع.

والقائلون بعَرَبيَّته منهم مَن وجَّه تسميتَه بذلك بأنَّ الله تعالى أَحيا به عُقْرَ أُمِّه،

---

(١) في الأصل و(م): نافع، والمثبت من السبعة ص٢٠٥، والتيسير ص٨٧، والنشر ٢/ ٢٣٩.
(٢) كذا قال، والصواب أن «يَبْشُرك» بفتح الياء وإسكان الباء وضم الشين من الثلاثي المخفف هي قراءة حمزة والكسائي كما في التيسير ص٨٧ والنشر ٢/ ٢٣٩، وحجة القراءات لابن زنجلة ص١٦٣. أما قراءة: «يُبْشِركَ» من الرباعي: أبشر، فهي قراءة ابن مسعود وحميد بن قيس ومجاهد، وهي في القراءات الشاذة ص ٢١، والمحتسب ٢/ ١٦١، والبحر ٢/ ٤٤٧.
(٣) تفسير الطبري ٥/ ٣٦٩، والدر المنثور ٢/ ٢١ وعنه نقل المصنف.
(٤) الرجز في شرح المفصل ١/ ٢٨، ومغني اللبيب ص٨١٧، والخزانة ١/ ٢٧٠، واللسان (زيد). قال ابن سيده كما في اللسان: ضمَّن الفعل الضمير فصار جملة فاستوجبت الحكاية لأن الجمل إذا سمِّي بها فحكمها أن تحكى. وقال البغدادي: هذا البيت في غالب كتب النحو، ولم يعزُه أحد إلا العيني، فإنه قال: هو لرؤبة بن العجاج، وقد تصفحت ديوانه فلم أجده فيه. اهـ. وهو في ملحقات ديوان رؤبة ص١٧٢.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما. ومنهم مَن وجَّه ذلك بأن الله تعالى أَحيا قَلْبَه بالإيمان، وروي عن قتادة.

وقيل: سمِّي بـ «يحيى» لأنه في عِلْمِ اللهُ سبحانه أنَّه يُستَشْهَد؛ والشهداءُ أحياءٌ عند ربِّهم يرزقون. وقيل: لأنَّه يحيا بالعلْم والحِكْمة اللتَيْن يُؤتاهما. وقيل: لأنَّ الله يُحيي به الناسَ بالهدى. قال القرطبيُّ: كان اسمُه في الكتاب الأول حَيَا[١].

ورأيتُ في إنجيل متى[٢] أنه عليه السَّلام كان يُدعى يُوحنَّا المَعْمَداني، لِمَا أنه كان يعمِّد الناس في زمانه، على ما تحكيه كتب النصارى.

وجَمْعُ «يحيى»: يَحْيَوْنَ رفعاً، ويَحْيَيْنَ جرًّا ونصباً، وتثنيتُه كذلك يَحْيَيانِ ويَحْيَيْنِ، ويقال في النَّسب إليه: يَحْيِيٌّ بحذف الألف، ويَحْيَوِيّ بقَلْبِها واواً، ويَحْيَاويّ بزيادة ألف قبلَ الواو المنقلبةِ عن الألف الأصلية، وفي تصغيره: يُحَيَّى بوزن فُعَيْل.

قال مولانا شيخ الإسلام[٣]: وينبغي أن يكون هذا الكلام إلى آخره محكيّاً بعبارةٍ من الله عزَّ وجلَّ على منهاج: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الزمر: ٥٣]، كما يلوِّحُ به مراجعتُه عليه السَّلام في الجواب إليه تعالى بالذَّات لا بواسطة الملَك. والعدولُ عن إسناد التبشير بنون العظمة ـ حسبما وقع في سورة مريم ـ للجَري على سنَن الكبرياء، كما في قول الخلفاء: أميرُ المؤمنين يَرْسُم لك كذا، وللإيذان بأن ما حُكي هناكَ من النداء والتبشير، وما يترتَّب عليه من المُحَاورة، كان كلُّ ذلك بواسطة الملَكِ بطريق الحكاية منه سبحانه، لا بالذَّات كما هو المتبادِر، وبهذا يتَّضِحُ اتِّحادُ المعنى في السُّورتين الكريمتين، فتأمَّل. انتهى.

وكأن الدَّاعي إلى اعتبار ما هنا محكيًّا بعبارةٍ من الله تعالى ظهورُ عدمِ صحَّةِ كونِ ما في سورةِ مريم من عبارة الملَك غيرَ محكيٍّ من الله تعالى، وأنَّ الظاهر اتحاد الدُّعاءين، وإلا فما هنا ممَّا لا يَجبُ حَمْلُه على ما ذُكِر لولا ذلك، والملوحُ

---

(١) تفسير القرطبي ٥/ ١١٥.

(٢) ينظر ص٤١-٤٢ منه.

(٣) هو أبو السعود في تفسيره ٢/ ٣٢.

غيرُ موجب، كما لا يخفى. ولا بدَّ في الموضعين من تقدير مضاف كالولادة؛ إذ التبشيرُ لا يتعلَّق بالأعيان، ويَؤُولُ في المعنى إلى ما هناك، أي: إنَّ الله يُبَشِّرُكَ بولادةِ غلامٍ اسمُه يحيى.

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ نصب على الحال المقدَّرة من «يحيى»، والمراد بالكلمة عيسى عليه السلام، وهو المَرْويُّ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة، وعليه أَجِلَّةُ المفسِّرين. وإنما سمِّي عيسى عليه السلام بذلك لأنه وُجِدَ بكلمةِ «كن» من دون توسُّطِ سببٍ عاديٍّ، فشابه البديعيات التي هي عالَمُ الأمر.

و«من» لابتداء الغاية مجازاً، متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «كلمة»، أي: بكلمةٍ كائنةٍ منه تعالى، وأُريد بهذا التصديقِ الإيمانُ، وهو أولُ مَن آمن بعيسى عليه السلام، وصدَّق أنه كلمةُ الله تعالى وروحٌ منه، في المشهور. أخرج أحمد عن مجاهد قال: قالت امرأة زكريا لمريم: إنِّي أجدُ الذي في بطني يتحرَّكُ للَّذي في بطنِك[(١)].

وأخرج ابن جَرِيرٍ من طريق ابن جُرَيْجٍ عن ابن عباس قال: كان يحيى وعيسى ابنَيْ خالةٍ، وكانت أمُّ يحيى تقول لمريم: إنِّي أَجِدُ الذي في بَطني يَسْجُدُ للذي في بَطْنِك. فذلك تصديقُه له[(٢)].

وكان أكبرَ من عيسى بستةِ أشهر كما قال الضَّحاك وغيرُه. وقيل: بثلاث سنين.

قيل: وعلى كلِّ تقدير يكون بين ولادة يحيى وبين البشارة بها زمانٌ مديدٌ؛ لأنَّ مريم وَلَدتْ وهي بنتُ ثلاثَ عشرةَ سَنةً، أو بنت عشر سنين.

واعتُرِض بأن هذا إنَّما يتمُّ لو كان دعاء زكريا عليه السلام زمن طفولية مريم قبل العشر أو الثلاث عشرة، وليس في الآية سوى ما يُشعِر بأنَّ زكريا عليه السلام لمَّا تكرَّر منه الدخولُ على مريم، ومشاهدتُه الرِّزقَ لديها، وسؤالُه لها وسماعُه منها ذلك الجواب، اشتاق إلى الولد فَدعا بما دَعا، وهذا الدعاءُ كما يُمكن أن يكون في مبادئ الأمر يُمكنُ أن يكون في أواخره قُبيل حَمْلِ مريم، وكونُه في الأواخر غيرُ

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢١ لكتاب الزهد لأحمد، ولم نقف عليه في المطبوع منه، وأخرجه الطبري ٥/ ٣٧١.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٣٧٢. ومعنى السجود هنا الخضوع والتعظيم، كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٤٤٢.

بعيد؛ لِمَا أنَّ الرَّغبة حينئذٍ أوفر حيث شاهد ـ عليه السلام ـ دوامَ الأمر وثباتَه زمنَ الطفولية وبعدَها، وهذا قلَّما يوجد في الأطفال؛ إذ الكثير منهم قد يُلقي الله تعالى على لسانه في صِغَره ما قد يكون عنه بمراحلَ في كِبَره، فليس عندنا ما يَدلُّ صريحاً على أنَّ بين الولادةِ والتبشير مدةً مديدة، ولا بين الدعاءِ والتبشير أيضاً، نعم عندنا ما يدلُّ على أنَّ يحيى أكبرُ من عيسى عليهما السَّلام، وهو ممَّا اتَّفق عليه المسلمون وغيرُهم؛ ففي «إنجيل متى» ما يصرِّح بأنه وُلِد قبلَه، وقتلَه هيرودس قبل رَفْعِه، وأنَّه عمَّد المسيح[1]. واللهُ تعالى أعلمُ بحقيقة الحال.

وحُكي عن أبي عُبَيْدَةَ أنَّ معنى «بكلمة من الله»: بكتابٍ منه[2]. والمراد به الإنجيل، وإطلاقُ «الكلمة» عليه كإطلاقها على القصيدة في قولهم: كلمة الحُوَيْدِرة[3]، للعَيْنِيَّة المعروفة بالبلاغة.

﴿وَسَيِّدًا﴾ عطف على «مصدِّقاً»، وفسَّره ابن عباس بالكريم، وقتادةُ بالحليم، والضَّحاكُ بالحَسَنِ الخُلُق، وسالمٌ بالتَّقي، وابن زيد بالشَّريف، وابن المسيب بالفقيه العالِم، وأحمد بن عاصم بالرَّاضي بقضاء الله تعالى، والخليلُ بالمطاع الفائق أقرانَه، وأبو بكر الوراقُ بالمتوكِّل، والترمذيُّ بالعظيم الهِمَّة، والثوريُّ بمَن لا يَحْسُد، وأبو إسحاق[4] بمَن يَفوق بالخير قومَه، وبعضُ أهلِ اللغة بالمَالِك الذي تَجِبُ طاعتُه، إلى غير ذلك من الأقوال.

وكلُّ ما فيها من الأوصاف ممَّا يَصلُح ليحيى عليه السلام؛ لأنها صفاتُ كمَال، وأحقُّ الناس بصفات الكمال النبيُّون، إلَّا أنَّ أصل معنى «السَّيد» مَن يَسودُ قومَه ويكون له أتباعٌ، ثم أُطلق على كلِّ فائقٍ في دينٍ أو دُنيا، ويَجوز أنْ يراد به هنا: الفائقُ في الدِّين، حيث إنَّه عليه السَّلام لم يهمَّ بمعصيةٍ أصلاً كما ورَد ذلك من طرقٍ عديدة.

---

(١) ينظر إنجيل متى ص٤٢ و ص٧٧.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٩١، **وقد ردَّ قوله الطبري ٥/ ٣٧٣**، وذكر أن ذلك جهل منه بتأويل الكلمة، واجتراءٌ **على ترجمة القرآن بالرأي**.

(٣) هو قطبة بن أوس بن محصن، **ويسمَّى أيضاً الحادرة**، ومعناه الضخم، وهو شاعر جاهلي مُقِلٌّ. وقد روي أن الحويدرة ذُكر لحسان فقال: لعن الله كلمته تلك، يعني قصيدته. ينظر الأغاني ٣/ ٢٧٠، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٣٩، والكشاف ١/ ٤٢٨.

(٤) هو الزجَّاج، وكلامه في معاني القرآن له ١/ ٤٠٦.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كلُّ ابنِ آدمَ يَلْقَى اللهَ بذَنْبٍ قد أذنبه، يعذِّبُه عليه إنْ شاء أو يرحمُه، إلَّا يحيى بن زكريا»(١).

وجوِّز أن يراد ما هو أصلُ معناه، فإنه عليه السَّلام كان سيدَ قومه وله أتباعٌ منهم، غايةُ الأمر أنَّ تلك رياسةٌ شرعية، والإتيان به إثرَ قوله تعالى: «مصدِّقاً»؛ للإشارة إلى أنه نبيٌّ كعيسى عليه السلام، وليس من أُمَّتِه كما يُفْهِمُه ظاهراً قولُه سبحانه: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَحَصُورًا﴾ عطفٌ على ما قبله، ومعناه: الذي لا يأتي النِّساءَ مع القُدرة على ذلك؛ قاله ابن عباس في إحدى الرِّوايات عنه. وفي بعضها: أنه العِنِّين الذي لا ذَكَرَ له يَتَأتى به النِّكاح، ولا يُنزِل. وروى الحفَّاظُ عن رسول الله ﷺ أنَّ ما معه عليه السلام كان كالأُنملة. وفي بعض الرِّوايات: كالقَذَاة، وفي أُخرى: كالنَّواة، وفي بعضٍ كهُدْبة الثَّوب(٢).

قيل: والأصحُّ الأول؛ إذ العِنَّةُ عَيْبٌ لا يجوز على الأنبياء، وبتسليم أنها ليست بعَيْبٍ فلا أقلَّ أنَّها ليست بصفةِ مدحٍ، والكلامُ مخرجٌ مخرجَ المدح، وما أخرجه

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦٤٤ (٣٤٧٠)، وتاريخ ابن عساكر ٦٤/ ١٩٤، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٦٥٥٢)، وابن عدي٢/ ٦٥١. وهو من طريق حجاج بن سليمان الرعيني، عن الليث بن سعد، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة به.
قال ابن أبي حاتم: قال أبي: لم يكن هذا الحديث عند أحد غير الحجاج، ولم يكن في كتاب الليث [ابن سعد]. وقال الذهبي في الميزان ١/ ٤٦٢: حجاج بن سليمان الرعيني عن الليث، قال ابن يونس: في حديثه مناكير، وقال أبو زرعة: منكر الحديث، ومشاه ابن عدي.

(٢) وردت معاني هذه الروايات في حديث أبي هريرة السالف، وفي حديث أخرجه الطبراني ٥/ ٣٧٧- ٣٧٨، وابن أبي حاتم في العلل ٢/ ١٤٠، وفي التفسير ٢/ ٦٤٣، والحاكم ٢/ ٣٧٣.
وقد اضطربت الروايات في راويه، فوقع في بعض المصادر: عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وفي بعضها: عن عمرو بن العاص وفي تفسير ابن أبي حاتم: عن ابن العاص، لا يُدْرَى عبد الله أو عمرو. وأخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٦١، وأحمد في الزهد ص١١٤، وابن أبي حاتم ٢/ ٦٤٣ عن عبد الله بن عمرو موقوفاً، قال ابن كثير: وهو أقوى إسناداً من المرفوع، بل وفي صحة المرفوع نظر.

الحُفَّاظُ ـ على تقدير صحَّته ـ يمكن أن يقال: إنه من باب التمثيل والإشارةِ إلى عدَم انتفاعه عليه السَّلام بما عنده لعدمِ مَيْلِه للنِّكاح؛ لِمَا أنه في شُغلٍ شاغِلٍ عن ذلك.

ومن هنا قيل: إنَّ التبتُّل لنوافل العبادات أفضلُ من الاشتغال بالنِّكاح، استدلالاً بحالِ يحيى عليه السَّلام. ومن ذهب إلى خلافه احتجَّ بما أخرجه الطبرانيُّ عن أبي أُمامة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أربعةٌ لُعِنوا في الدُّنيا والآخرة وأَمَّنَتِ الملائكةُ: رجلٌ جَعَلَه اللهُ ذَكَراً فأنَّث نَفْسَه وتَشَبَّه بالنساء، وامرأةٌ جعلها اللهُ أنثى فتذكَّرَت وتشبَّهت بالرِّجال، والذي يُضِلُّ الأعمى، ورجلٌ حَصُورٌ؛ ولم يَجْعَلِ اللهُ حَصُوراً إلا يَحْيَى بنَ زكريَّا»[1].

وفي رواية: «لعَنَ اللهُ والملائكةُ رجلاً تَحَصَّر بعد يحيى بن زكريا»[2].

ويجوز أن يراد بالحَصُور: المُبالغُ في حَصْرِ النَّفْسِ وحَبْسِها عن الشهوات مع القدرة، وقد كان حالُه عليه السلام أيضاً كذلك؛ أخرج عبدُ الرزاق عن قتادة موقوفاً[3]، وابنُ عساكر عن معاذ بن جبل مرفوعاً: أنَّه عليه السلام مرَّ في صِباه بصِبيان يَلعبون، فدَعَوه إلى اللَّعب فقال: مالِلَّعبِ خُلِقْتُ[4].

﴿وَنَبِيًّا﴾ عطفٌ على ما قبلَه مترتِّبٌ على ما عُدِّد من الخِصَال الحميدة.

﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩﴾ أي: ناشئاً منهم، أو معدوداً في عِدادهم، فـ «مِن» على الأول للابتداء، وعلى الثاني للتبعيض. قيل: ومعناه على الأول: ذو نَسَب، وعلى الثاني: معصوم. وعلى التقديرين لا يَلغو ذِكْرُه بعد «نبيًّا».

وقال يقال[5]: المرادُ من الصَّلاح ما فوقَ الصَّلاح الذي لا بدَّ منه في منصبِ

---

(١) المعجم الكبير (٧٨٢٧)، وفي إسناده علي بن يزيد الألهاني، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ٦٤/ ١٩٦ من طريق معاوية بن صالح عن بعضهم رَفَع الحديث.

(٣) كذا نقل المصنف عن السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٦١، والصواب أن عبد الرزاق رواه من قول معمر، كما في تفسير عبد الرزاق ١/ ١٢٠ و٢/ ٤، وكذا رواه أحمد في الزهد ص ١١٤ عن عبد الرزاق عن معمر.

(٤) تاريخ ابن عساكر ٦٤/ ١٨٣.

(٥) هو قول أبي السعود في تفسيره ٢/ ٣٢.

النبوَّة البتة من أقاصي مراتبه، وعليه مَبْنَى دعاءِ سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] ولعلَّه أولى مما قبل[١].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ استئنافٌ مبني على السؤال، كأنه قيل: فماذا قال زكريا عليه السلام حينئذٍ؟ فقيل: «قال رب» إلخ. وخاطب عليه السَّلام ربَّه سبحانه ولم يخاطب الملك المنادي طَرْحاً للوسائط مبالغةً في التضرُّع وجدًا في التَّبتُّل.

و«أنَّى» بمعنى: كيف، أو: مِن أين. و«كان» يجوز أن تكون تامَّة وفاعلُها «غلام» و«أنَّى» واللام متعلقان بها. ويجوز أن تكون ناقصةً و«لي» متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقَع حالاً؛ لأنه لو تأخَّر لكان صفةً، وفي الخبر حينئذٍ وجهان: أحدهما: «أنى» لأنها بمعنى كيف، أو من أين، والثاني: أنَّ الخبرَ الجارُّ، و«أنَّى» منصوبٌ على الظرفية.

وفي التنصيص على ذِكْر الغلام دلالةٌ على أنه قد أُخبر به عند التبشير، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧].

﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ حالٌ من ياء المتكلِّم، أي: أَدْرَكَني الكِبَرُ وأثَّر فيَّ، وأُسند البلوغ إلى الكِبَرِ توسُّعاً في الكلام، كأنَّ الكِبَر طالِبٌ له وهو المطلوب؛ روي عن ابن عباس: أنَّه كان له عليه السلام حين بشِّر بالولد مئةٌ وعشرون سَنةً، وكانت امرأته بنتَ ثمانٍ وتسعين سنة، وقيل: كان له من العمرِ تسعٌ وتسعون سنةً. وقيل: اثنتان وتسعون، وقيل: خمس وثمانون، وقيل: خمس وسبعون، وقيل: سبعون، وقيل: ستون.

﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ جملةٌ حاليةٌ أيضاً؛ إمَّا من ياء «لي» أو ياءِ «بلغني». والعاقرُ: العقيمُ التي لا تَلِدُ، من العُقر، وهو: القَطْعُ، لأنَّها ذات عُقْرٍ من الأولاد، وصيغةُ «فاعِل» فيه للنَّسب وهو في المعنى مفعول، أي: معقورة، ولذلك لم تلحق تاء التأنيث؛ قاله أبو البقاء[٢].

وكانت الجملة الأولى فعليَّةً لأنَّ الكِبَر يتجدَّد شيئاً فشيئاً، ولم يكن وَصْفاً لازماً، وكانت الثانية اسميةً لأنَّ كونَها عاقراً وصفٌ لازمٌ لها، وليس أمراً طارئاً عليها.

---

(١) في الأصل: قيل.

(٢) في إملاء ما من به الرحمن ٢/ ٦١.

وإنما قال ذلك عليه السلام ـ مع سَبْقِ دعائه بذلك، وقوَّة يقينه بقدرةِ الله تعالى عليه، لا سيَّما بعد مشاهدته عليه السلام الشواهدَ السَّالفة ـ استفساراً عن كيفيَّة حصول الولد: أَيُعْطاهُ على ما هو عليه من الشَّيب ونكاحِ امرأةٍ عاقر، أمْ يتغيَّر الحالُ؟ قاله الحسن.

وقيل اشتَبه عليه الأمرُ: أَيُعطَى الولدَ من امرأته العجوزِ، أم من امرأةٍ أُخرى شابَّةٍ؟ فقال ما قال.

وقيل: قال ذلك على سبيل الاستعظام لقُدرة الله تعالى، والتَّعجُّب الذي يَحْصُلُ للإنسان عند ظهور آيةٍ عظيمة، كمن يقول لغيره: كيف سمَحَتْ نفْسُك بإخراج ذلك المُلْكِ النفيس من يدك؟! تعجُّباً من جُوده.

وقيل: إنَّ الملائكة لمَّا بشَّرته بيحيى، لم يعلم أنه يُرزق الولد من جهة التَّبني، أو من صُلبه؟ فذَكَر ذلك الكلامَ ليزول هذا الاحتمالُ.

وقيل: إنَّ العبدَ إذا كان في غاية الاشتياق إلى شيء، وطَلبَه من السَّيِّد، ووعَدَه السيدُ بإعطائه، ربَّما تكلَّم بما يستدعي إعادة الجواب؛ ليلتذَّ بالإعادة، وتسكنَ نفْسُه بسماع تلك الإجابة مرَّةً أخرى، فيحتمل أن يكون كلامُ زكريا عليه السلام هذا مِن هذا الباب.

وقيل: قال ذلك استبعاداً من حيثُ العادة، لأنه لمَّا دعا كان شابًّا، ولمَّا أُجيب كان شيخاً، بناءً على ما قيل: إنَّ بيْن الدُّعاء والإجابةِ أربعين سنةً، أو ستين سنةً، كما حُكي عن سُفيان بن عُيَيْنة، وكان قد نَسي دعاءه.

ولا يخفى ما في أكثر هذه الأقوال من البُعْدِ.

وأبعدُ منها ما نقل عن السُّدِّيِّ: أنَّ زكريا عليه السلام جاءه الشيطان عند سماعِ البِشارة، فقال: إنَّ هذا الصَّوت من الشَّيطان وقد سَخِرَ منك، فاشتبه الأمر عليه فقال: «ربِّ أنَّى يكون لي غلام»[1] وكان مقصودُه من ذلك أن يُريه الله تعالى آيةً تدلُّ على أنَّ ذلك الكلام من الوحي لا من الشيطان.

---

(١) في الأصل و(م): ولد، والمثبت من تفسير الطبري ٥/ ٣٨٢، وتفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦٤٥، والدر المنثور ٢/ ٢٢، وتفسير الرازي ٨/ ٤١ وعنه نقل المصنف.

ومثلُه ما رَوَى ابنُ جرير عن عِكْرِمَة أنه قال: أتاه الشيطان فأراد أن يُكَدِّر عليه نِعمةَ ربِّه، فقال: هل تدري مَن ناداك؟ قال: نعم، ناداني ملائكةُ ربِّي. قال: بل ذلك الشيطانُ، ولو كان هذا مِن ربِّك لأخفاه إليك كما أخفيتَ نداءك. فقال: «ربِّ اجعل لي آية»[1].

واعترضَه القاضي[2] وغيرُه: بأنه لا يجوزُ أن يَشتبه كلامُ الملائكة بكلامِ الشَّيطان عند الوحي على الأنبياء عليهم السَّلام؛ إذ لو جوَّزنا ذلك لارتفعَ الوثوقُ عن كلِّ الشرائع.

وأجيبَ: بأنه يُمكن أن يقال: إنه لمَّا قامت المعجزاتُ على صِدق الوحي في كلِّ ما يتعلَّق بالدِّين، فلا جَرَمَ يحصل الوثوقُ هناك بأنَّ الوحي من الله تعالى بواسطة الملك، ولا يدخل الشيطانُ فيه، وأمَّا فيما يتعلق بمصالح الدُّنيا ـ والولدُ أشبه شيءٍ بها ـ فربَّما لم يتأكَّد ذلك بالمُعْجِز، فلا جَرَمَ بقي احتمال كون ذلك الكلامِ من الشيطان، ولهذا رجع إلى الله تعالى في أن يزيل عن خاطره ذلك الاحتمال.

وأنت تعلم أنَّ الاعتراض ذكرٌ والجواب أنثى، ولعل هذا المبحث يأتيك إن شاء الله تعالى مستوفى عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ الآية [الحج: ٥٢].

وبالجملة: القول باشتباه الأمر على زكريا عليه السلام في غاية البُعد، لا سيما وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة أنه قال: إن الملائكة شافهته عليه السلام بذلك مُشَافَهَةً، فبشَّرته بيحيى[3].

﴿قَالَ﴾ أي: الربُّ، والجملَة استئناف على طِرْزِ ما مرَّ ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ أي: يفعلُ الله ما يشاء أن يفعلَه من الأفعال العجيبة الخارقةِ للعادة، فعلاً مثلَ ذلك الفعل العجيب والصنعِ البديع، الذي هو خَلْقُ الولدِ مع الحالة التي

(١) في الأصل و(م): رب أنى يكون لي ولد إلخ، والمثبت من تفسير الطبري ٥/ ٣٨٣، والدر المنثور ٢/ ٢٢.
(٢) هو القاضي عبد الجبار، والكلام من تفسير الرازي ٨/ ٤١.
(٣) تفسير الطبري ٥/ ٣٦٩ و٣٨٦، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢٢، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق ١/ ١٢٠.

يُستَبْعَدُ معها الخَلْقُ بحسب العادة، فالكاف في محلِ نصبٍ على أنها صفةٌ لمصدرٍ محذوف، والإشارة لذلك المصدر، وقدِّم الجارُّ لإفاد القَصْرِ بالنسبة إلى ما هو أدنى من المُشار إليه، واعتبرت الكاف مُقْحَمةً لتأكيد الفَخَامة المُشْعِر بها اسمُ الإشارة، على ما أشير إليه من قبلُ في نظيره[1].

ويَحتمل الكلام أوجهاً أُخَر:

الأول: أن يكون الكاف في موضع الحالِ من ضميرِ المصدرِ المقدَّرِ معرفةً، أي: يفعلُ الفعلَ كائناً مثلَ لك.

الثاني: أن يكون في موضع الرَفعِ على أنه خبرٌ مقدَّم، و«الله» مبتدأ مؤخَّر، أي: كهذا الشأنِ العجيبِ شأنُ اللهِ تعالى، وتكون جملة «يفعل ما يشاء» بياناً لذلك الشأن المبهَم.

الثالث: أن يكون «كذلك» في موضع الخبر لمبتدأ محذوفٍ، أي: الأمرُ كذلك، وتكون جملةُ «الله يفعل ما يشاء» بياناً أيضاً.

الرابع: أن يكون ذلك إشارةً إلى المذكور من حال زكريا عليه السلام، كأنه قال: ربِّ على أيِّ حال يكون لي الغلام؟ فقيل له: كما أنت يكون الغلام لك، وتكون الجملة حينئذٍ تعليلاً لمَا قبلها. كذا قالوا، ولا يخفى ما في بعض الأوجه من البُعد، وعلى كلِ تقديرٍ التعبيرُ بالاسم الجليل رَوماً للتعظيم.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ أي: عَلامةً تدلُّني على العُلوق[2]، وإنما سألها استعجالاً للسُّرور؛ قاله الحسن. وقيل: ليتلقَّى تلك النعمةَ بالشكر حين حصولها، ولا يؤخِّرَ حتى تظهر ظهوراً معتاداً، ولعلَّ هذا هو الأنسبُ بحال أمثاله عليه السلام.

وقولُ السدي: إنه سأل الآية، ليتحقَّق أنَّ تلك البشارةَ منه تعالى لا من الشيطان، ليس بشيء كما أشرنا إليه آنفاً.

والجَعْلُ إمَّا بمعنى التصيير فيتعدَّى إلى مفعولين أوَّلهما «آيةً»، وثانيهما «لي»

---

(١) ينظر ما سلف ٣/ ٨، عند قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، والكلام من تفسير أبي السعود ٢/ ٣٣.

(٢) من قولهم: عَلِقت المرأة، أي: حَبِلَت. اللسان (علق).

والتقديم لأنه المسوّغ لكون «آية» مبتدأً عند الانحلال. وإمَّا بمعنى الخَلْقِ والإيجاد فيتعدَّى إلى مفعولٍ واحد وهو «آيةً» و«لي» حينئذٍ في محلِّ نصبٍ على الحال من «آيةً»؛ لأنَّه لو تأخّر عنها كان صفةً لها، وصفةُ النَّكرة إذا تقدَّمت عليها أُعربتْ حالاً منها، كما تقدَّمت الإشارةُ إليه غير مرَّةٍ. ويجوز أن يكون متعلِّقاً بما عنده[1]، وتقديمُه للاعتناء به والتشويقِ لِمَا بعده.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أنْ لا تقدِرَ على تكليمهم من غير آفةٍ، وهو الأنسب بكونه آيةً، والأوفقُ لِمَا في سورة مريم، وأخرج ابنُ جرير وابن أبي حاتم عن جبير بن نُفيرٍ[2] قال: رَبَا لسانه في فيه حتى مَلأَه فمَنَعَه الكلام. والآيةُ فيه عدمُ منعِه من الذكرِ والتسبيح. وعلى كِلَا التقديرين عدمُ التكليم اضطراري.

وقال أبو مسلم[3]: إنه اختياريٌّ، والمعنى: آيتك أن تصير مأموراً بعدم التكلُّم إلا بالذِّكر والتسبيحِ. ولا يخفى بُعْدُه هنا، وعليه وعلى القولين قبلَه يَحتملُ أن يراد من عدم التكليم ظاهرُه فقط ـ وهو الظاهر ـ ويحتمل أن يكون كنايةً عن الصِّيام؛ لأنهم كانوا إذ ذاك إذا صاموا لم يكلِّموا أحداً، وإلى ذلك ذهب عطاء، وهو خلافُ الظاهر، ومع هذا يتوقّف قَبولُه على توقيف. وإنَّما خصَّ تكليم الناس للإشارة إلى أنه غيرُ ممنوعٍ من التكلُّم بذكر الله تعالى.

﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي: متوالية. وقال بعضهم: والمرادُ: ثلاثة أيام ولياليها. وقيل: الكلام على حذف مضاف، أي: لياليَ ثلاثة أيام؛ لقوله سبحانه في سورة مريم: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾ [الآية: ١٠]. والحقُّ أنَّ الآية كانتْ عدَمَ التكليم ستةَ أفرادٍ، إلَّا أنه اقتَصر تارةً على ذكر ثلاثة أيام منها، وأُخرى على ثلاث ليال، وجُعِلَ مالم يُذكر في كلٍّ تبعاً لِمَا ذكر. قيل: وإنما قدّم التعبير بالأيام لأنَّ يومَ كلِّ ليلة قبلَها في حساب الناس يومَئذٍ، وكونُه بعدها إنما هو عند العرب خاصَّةً كما تقدمت الإشارة إليه[4].

(١) يعني بـ «اجعل». ينظر الدر المصون ٣/ ١٦٤، وتفسير أبي السعود ٢/ ٣٤.
(٢) في الأصل و(م): معتمر، والمثبت من تفسير الطبري ٥/ ٣٨٧، وتفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦٤٦، والدر المنثور ٢/ ٢٢، والكلام منه.
(٣) قوله في تفسير الرازي ٨/ ٤٣.
(٤) ص٩٧ من هذا الجزء.

واعتُرض بأنَّ آيةَ الليالي متقدِّمةٌ نزولاً؛ لأنَّ السُّورة التي هي فيها مكيةٌ، والسورةُ التي فيها آية الأيام مدنيةٌ. وعليه يكون أولُ ظهورِ هذه الآية ليلاً، ويكون اليومُ تبعاً للَّيلة التي قبلها على ما يقتضيه حسابُ العرب، فتدبَّر فالبحثُ محتاجٌ إلى تحريرٍ بعدُ.

وإنما جُعل عَقْلُ اللسان آيةَ العُلوق لتَخْلُصَ المدة لِذِكْر الله تعالى وشكْرِه قضاءً لحقِّ النعمة، كأنه قيل له: آيةُ حصولِ النِّعمة أن تُمْنَع عن الكلام إلا بشكرها، وأحسن الجواب على ما قيل ما أُخذ من السؤال، كما قيل لأبي تمَّام: لِمَ تقولُ ما لا نفهمُ؟ فقال: لِمَ لا نفهمُ ما يُقال! وهذا مبنيٌّ على أنَّ سؤال الآية منه عليه السلام إنما كان لتلقِّي النعمة بالشكر، ولعلَّ دلالة كلامه على ذلك بواسطة المقام، وإلَّا ففي ذلك خَفاءٌ كما لا يخفى.

وأخرج عبد الرزاق وغيرُه عن قتادة أن حَبْسَ لسانه عليه السلام كان من باب العقوبة؛ حيثُ طلَب الآية بعد مُشافهة الملائكة له بالبِشارة[1]. ولعلَّ الجِناية حينئذٍ من باب: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقرَّبين، ومع هذا حُسنُ الظنِّ يَميلُ إلى الأول، ومذهب قتادة لا آمنُ على الأقدام الضعيفة قَتَادَهُ[2].

﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: إيماءً، وأصلُه التحرُّك، يقال: ارْتَمَزَ، أي: تحرَّك، ومنه قيل للبحر: الرَّاموز، وأخرج الطستيُّ[3] عن ابن عباس: أنَّ نافع بن الأزرق سأله عن الرَّمز، فقال: الإشارةُ باليد والوحيُ بالرأس[4]، فقال: وهل تعرفُ العربُ ذلك؟ قال: نعم، أمَا سمعتَ قولَ الشاعر:

ما في السماء من الرحمن مرتمز[5] إلَّا إليه وما في الأرض من وَزَر

وعن مجاهد أن «الرَّمْز» هنا كان تحريكَ الشفتين، وقيل: الكتابة على الأرض.

---

(١) تفسير عبد الرزاق ١/ ١٢٠، وأخرجه أيضاً الطبري ٥/ ٣٨٦، وابن أبي حاتم ٢/ ٦٤٥.
(٢) القتاد: شجرٌ صُلْبٌ له شوكة كالإبر.
(٣) في مسائله، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٢٣، وأخرجه أيضاً ابن الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٧٦.
(٤) في إيضاح الوقف والابتداء: الوحي بالحاجب، بدل: الإشارة باليد والوحي بالرأس.
(٥) في إيضاح الوقف والابتداء: من رمزٍ، بدل: مرتمز.

وقيل: الإشارة بالمسبِّحة. وقيل: الصوت الخَفي. وقيل: كلُّ ما أَوْجَبَ اضطراباً في الفَهْم كان رَمزاً.

وهو استثناءٌ منقطع بناءً على أنَّ الرَّمز: الإشارةُ والإفهامُ من دون كلام، وهو حينئذٍ ليس من قبيل المستثنى منه.

وجوِّز أن يكون متَّصلاً بناءً على أنَّ المراد بالكلام: ما فُهم منه المَرَامُ، ولا رَيْب في كون الرمز من ذاك القبيل، ولا يخفى أنَّ هذا التأويل خلافُ الظاهر، ويلزمُ منه أن لا يكون استثناءٌ منقطعٌ في الدنيا أصلاً؛ إذ ما من استثناء إلَّا ويمكن تأويله بمثل ذلك، ممَّا يجعله متَّصلاً، ولا قائل به.

وتعقَّب ابنُ الشَّجريِّ النصب على الاستثناء هنا مطلقاً، وادَّعى أنَّ «رَمْزاً» مفعول به منتصبٌ بتقدير حذف الخافِضِ، والأصل: أنْ لا تكلِّم الناسَ إلا برمزٍ، فالعامل الذي قبل «إلَّا» مفرَّغ في هذا النحو للعمل فيما بعدها، بدليل أنَّك لو حذفت «إلَّا» وحَرف النفي استقامَ الكلامُ، تقول في نحو ما لقيتُ إلَّا زيداً: لقيتُ زيداً، وفي ما خرج إلَّا زيد: خرج زيدٌ، وكذا لو قلت: آيتك أن تكلِّم الناس رمزاً، استقام. وليس كذلك الاستثناء، فلو قلت: ليس القوم في الدار إلَّا زيداً، أو: إلا زيد، ثم حذفت النفي وإلا، فقلتَ: القومُ في الدار زيداً، أو زيد، لم يستقم، فكذا المنقطع نحو: ما خرج القومُ إلَّا حماراً، لو قلت: خرَجَ القوم حماراً، لم يستقم[(١)]. قاله السفاقسيُّ.

وقرأ يحيى بن وثَّاب: «إلَّا رُمُزاً» بضمتين[(٢)] جمع رَموز كرَسول ورُسُل. وقُرئ: «رَمَزاً» بفتحتين[(٣)] جمع رامِزٍ، كخادِمٍ وخَدَم، وهو من نادرِ الجَمْع، وعلى القراءتَيْن يكون حالاً من الفاعل والمفعولِ معاً، أي: مُتَرَامِزين. ومثلُه قولُ عَنْتَرة:

مـتـى مَـا تَـلْـقـنـي فَـرْدَيْـنِ تَـرْجُـفْ ... روانِـفُ أَلْـيَـتَـيْـك وتُـسْـتَـطَـارا[(٤)]

---

(١) أمالي ابن الشجري ٣/ ١٧٤.

(٢) القراءات الشاذة ص٢٠، وهي في المحتسب ١/ ١٦١ عن الأعمش.

(٣) القراءات الشاذة ص٢٠، عن الأعمش.

(٤) ديوان عنترة ص٤٣. قوله: روانف، جمع رانفة: وهي ناحية الألية، وقيل: أسفل الألية. اللسان (رنف).

وجوز أبو البقاء[(١)] أن يكون «رُمُزاً» على قراءة الضمِّ مصدراً[(٢)]، وجعلَه مسكَّنَ الميم في الأصل، والضمُّ عارِضٌ للإتباع، كاليُسْر واليُسُر، وعليه لا يختلفُ إعرابُه، فافهم.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ أي: في أيام الحبسة شكراً لتلك النِّعمة، كما يُشعر به التعرُّض لعنوان الربوبية. وقيل: يحتمل أن يكون الأمر بالذِّكر شكراً للنعمة مطلَقاً لا في خصوص تلك الأيام، وأن يكون جميعَ أيام الحمل لتعودَ بركاته إليه، والمُنساقُ إلى الذِّهن هو الأول.

والجملة مؤكِّدةٌ لِما قبلها، مبينةٌ للغرض منها. واستَشْكل العطف من وجهين: الأول: عطف الإنشاء على الإخبار، والثاني: عطف المؤكِّد على المؤكَّد؟ وأُجيبَ بأنه معطوفٌ على محذوف، أي: اشكر واذكر، وقيل: لا يبعد أن يجعل الأمر بمعنى الخبر عطفاً على «لا تكلم»، فيكون في تقدير: أنْ لا تكلِّم وتذكُرَ ربَّك، ولا يَخْفى ما فيه.

﴿كَثِيرًا﴾ صفةٌ لمصدرٍ محذوف، أو زمانٍ كذلك، أي: ذكراً كثيراً، أو زماناً كثيراً.

﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ﴾ وهو من الزَّوال إلى الغروب؛ قاله مجاهد، وقيل: من العصر إلى ذهاب صدر الليل.

﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ أي: وقته، وهو من الفجر إلى الضحى. وإنّما قدِّر المضافُ لأنَّ الإبكار بكسر الهمزة مصدرٌ لا وقت، فلا تَحْسُنُ المقابلة، كذا قيل، وهو مبنيٌّ على أنَّ العشيَّ جمعُ عشيةٍ، الوقت المخصوص، وإليه ذهب أبو البقاء[(٣)]. والذي ذهب إليه المعظم أنه مصدرٌ أيضاً على فعيل، لا جمع، وإليه يشير كلام الجوهريِّ[(٤)]، فافهم.

وقرئ: «والأبكار» بفتح الهمزة[(٥)]، فهو حينئذٍ جمع بَكَر كسَحَر لفظاً ومعنى، وهو نادرُ الاستعمال.

---

(١) في الإملاء ٢/ ٦٢.
(٢) بعدها في الأصل: أيضاً.
(٣) في الإملاء ٢/ ٦٢.
(٤) ينظر الصحاح (عشا).
(٥) القراءات الشاذة ص٢٠.

قيل: والمرادُ بالتسبيح الصلاةُ، بدليلِ تقيُّده بالوقت كما في قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]. وقيل: الذِّكرُ اللسانيُّ، كما أنَّ المراد بالذِّكر الذكرُ القلبيُّ. وعلى كِلا التقديرين لا تكرارَ في ذِكرِ التسبيح مع الذِّكر.

و«أل» في الوقتين للعموم، وأَبعَدَ مَن جعلَها للعهد، أي: عشيّ تلك الأيام الثلاثة وأبكارها. والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بما عنده، وليس من باب التنازع في المشهور، وجوَّزه بعضهم، فيكون الأمرُ بالذِّكر مقيَّداً بهذين الوقتين أيضاً.

وزعَم بعضهم[1] أن تقييده بالكثرة يدلُّ على أنه لا يفيد التكرار. وفيه ـ بعد تسليم أنه مقيَّدٌ به فقط ـ أنَّ الكثرة أخصُّ من التكرار.

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب البُطون في الآيات: أنَّ زكريا عليه السّلام كان شيخاً همّاً[2]، وكان مرشداً للناس، فلمَّا رأى ما رأى تحرَّكت غَيْرَةُ النبوّة، فطلب من ربِّه ولداً حقيقيّاً يقوم مقامه في تربية الناس وهدايتهم، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي: مُطهَّرةً من لَوْث الاشتغال بالسِّوى، منفردةً عن إرادتها، مقدَّسة من شهواتها.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ﴾ على ساق الخدمة ﴿يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ وهو محلُّ المراقبة ومُحاربةِ النفس: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ وسمِّي به لأنَّ مَن شاهد الحقَّ في جمال نبوته يحيا قلبُه من موت الفَتْرة، أو لأنه هو يحيا بالنبوة والشهادة ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهو ما ينزلُ به الملك على القلوب المقدَّسة.

﴿وَسَيِّدًا﴾ وهو الذي غلب عليه نورُ هيبةِ عزَّةِ الحقِّ.

وقال الصادق: هو المُبَاينُ للخلق وصفاً وحالاً وخُلُقاً.

وقال الجنيد: هو الذي جاد بالكونَيْن طلباً لربِّه.

وقال ابنُ عطاء: هو المتحقِّق بحقيقة الحقِّ.

وقال ابن منصور: هو من خلا عن أوصاف البشرية، وحَلِي بنعوت الربوبية.

وقال محمد بن علي: هو مَن استوت أحوالُه عند المَنْع والإعطاء والردِّ والقَبول.

(١) هو البيضاوي، ينظر حاشية الشهاب ٣/ ٢٥.

(٢) هو الشيخ الفاني. القاموس (همم).

﴿وَحَصُورًا﴾ وهو الذي حُصِر ومُنِع عن جميع الشهوات، وعُصم بالعصمة الأزلية.

وقال الإسكندَراني: هو المنزَّه عن الأكوان وما فيها.

﴿وَنَبِيًّا﴾ أي: مرتفِعَ القَدْر بهبوط الوحي عليه، ومعدوداً ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهم أهلُ الصَّفِّ الأول من صفوف الأرواح المجنَّدة المشاهِدة للحقِّ في مَرَايا الخَلْق.

﴿قَالَ﴾ استعظاماً للنِّعمة: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَ﴾ الحالُ ﴿قد بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ وهو أحدُ الموانع العادية ﴿وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ وهو مانعٌ آخر ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ حسْبما تقتضيه الحِكمةُ ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ على العُلُوق؛ لأشكرَك على هذه النعمة؛ إذ شكرُ المنعِم واجبٌ، وبه تدوم المواهبُ الإلهية.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ بأنْ يُحْصَرَ لسانُك عن محادثتهم؛ ليتجرَّد سرُّك لربِّك، ويكونَ ظاهرُك وباطنك مشغولاً به. ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ تدفع به ضِيقَ القلب عند الحاجة، وحقيقةُ الرَّمز عند العارفين: تعريضُ السِّر إلى السرِّ، وإعلامُ الخاطر للخاطر، بنعت تحريك سلسلةِ المُواصلة بين المخاطَب والمخاطِب.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ بتخليص النِّية عن الخَطَرات، وجمع الهموم بنعت تصفية السِّر في المناجاة، وتحيُّر الرُّوح في المشاهدات ﴿وَسَبِّحْ﴾ أي: نزِّه ربَّك عن الشِّرْكة في الوجود ﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ بالفناء والبقاء.

وإن أردتَ تطبيق ما في الآفاق على ما في الأنفس فتقول: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا﴾ الاستعدادِ ﴿رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ وهي النفسُ الطَّاهرةُ المقدَّسةُ عن النَّقائص ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ ممَّن صدَق في الطَّلَب. ﴿فَنَادَتْهُ﴾ ملائكةُ القوى الرَّوحانيةِ ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ﴾ منتهِضٌ لتكميل النَّشأة ﴿يُصَلِّى﴾ ويدعو في مِحْراب التضرُّع إلى الله تعالى، المفيض على القوابل بحسب القابليَّات: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ وهو الرُّوحُ الحيُّ بروح الحقِّ والصفاتِ الإلهية ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهي ما تُلقيها ملائكةُ الإلهام من قِبَل الفيَّاض المُطْلَق ﴿وَسَيِّدًا﴾ لم تَمْلِكه الشهوات النفسانيةُ ﴿وَحَصُورًا﴾ أي: مبالغاً في الامتناع عن اللذائذ الدنيوية ﴿وَنَبِيًّا﴾ بما يتلقَّاه من عالم الملكوت، ومعدوداً ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لهاتيك الحضرة، القائمين بحقوق الحقِّ والخلق لاتِّصافه بالبقاء بعد الفناء.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ﴾ أي: كيف ﴿يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ وضعفُ القوى الطبيعية ﴿وَٱمْرَأَتِي﴾ وهي النفس الحيوانية ﴿عَاقِرٌ﴾ عَقِيمٌ عن ولادة مثل هذا الغلام؛ إذ لا تَلِدُ الحيَّةُ إلا حيَّةً.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ﴾ في غَرابة الشأن ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ من العجائب التي يَستبعدُها مَن قيَّده النظرُ إلى المألوفات، وبقي أسيراً في سجن العادات.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ على ذلك لأشكُرَك مُسْتَمْطِراً زيادةَ نِعَمِك التي لا منتهى لها. ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ وهم ما يأنسُ به من اللذائذ المُباحة ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ وهي يومُ الفناء بالأفعال، ويومُ الفناء بالصفات، ويومُ الفناء بالذات ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: قَدْراً يسيراً تدعو الضرورة إليه ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ الذي ربَّاك حتى أوصلك إلى هذه الغاية ﴿كَثِيرًا﴾ حيث مَنَّ عليك بخيرٍ كثير ﴿وَسَبِّحْ﴾ أي: نزِّه ربَّك عن نقائص التقيُّد بالمظاهر ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أي: وقتي الصَّحو والمَحْو.

وبعضُ الملتزمين لذكر البطون ذكر في تطبيق ما في الآفاق على ما في الأنفس: أنَّ القوى البدنية امرأةُ عمران الروح، نذرت ما في قوتها من النَّفس المطمئنة، فوضَعت أنثى النفسِ، فكفلها[١] زكريا الفِكر، فدخل عليها زكريا محراب الدِّماغ، فوجد عندها رزقاً من المعاني الحدسية التي انكشفت لها بصفائها، فهنالك دعا زكريا الفكر بتركيب تلك المعاني، واستوهب ولداً مقدَّساً عن[٢] لَوْث الطبيعة، فسمع الله تعالى دعاءه، فنادته ملائكة القوى الروحانية، وهو قائمٌ في أمره بتركيب المعلومات، يُناجي ربَّه باستنزال الأنوار في محراب الدِّماغ[٣]: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ العقلِ ﴿مُصَدِّقًا﴾ بعيسى القلب، الذي هو كلمةٌ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لتقدُّسه عن عالم الأجرام ﴿وَسَيِّدًا﴾ لجميع أصناف القوى ﴿وَحَصُورًا﴾ عن مباشرة الطبيعة ﴿وَنَبِيًّا﴾ بالإخبار عن المعارف والحقائق وتعليم الأخلاق، ومنتظِماً في سِلك الصالحين، وهم المجرَّدات ومقرَّبو الحضرة.

---

(١) في تفسير ابن عربي ١/١٢٦ (والكلام منه): فكفَّلها الله.

(٢) في الأصل و(م): من، والمثبت من تفسير ابن عربي.

(٣) في تفسير ابن عربي: يناجي ربه باستنزال الأنوار، ويتقرب إليه بالتوجه إلى عالم القدس في محراب الدماغ.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ ذلك ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ﴾ كِبَرُ منتهى الطَّور ﴿وَٱمْرَأَتِي﴾ وهي طبيعةُ الروح النفسانية ﴿عَاقِرٌ﴾ بالنور المجرَّد. فطلب لذلك علامةً، فقيل له: علامة ذلك الإمساكُ عن مُكالمة القوى البدنية في تحصيل مآربهم من اللذائذ ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ كلُّ يومٍ عَقْدٌ تامٌّ من أطوار العمر، وهو عشْرُ سنين ﴿إِلَّا﴾ بالإشارة الخفية، وأُمِر بالذِّكر في هذه الأيام التي هي مع العشْر الأُوَل ـ التي هي سِنُّ التمييز ـ أربعون سنةً. انتهى، وهو قريبٌ مما ذكرته، ولعلَّ ما ذكرتُه ـ على ضَعْفي ـ أولى منه، وباب التأويل واسعٌ، وبطونُ كلامِ الله تعالى لا تُحْصَى.

❁ ❁ ❁

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تتمةٌ لشرح أحكام اصطفاء آل عمران، ووقعت قصَّةُ زكريا ويحيي عليهما السلام في البين؛ لِمَا فيها مما يؤكِّد ذلك الاصطفاء، «وإذ» في المشهور منصوب بـ «اذكر»، والجملةُ معطوفة على الجملة السَّابقة عطف القصَّة على القصة وبينهما كَمَالُ المناسبة؛ لأنَّ تلك مَسُوقةٌ أولاً وبالذات لشرح حال الأمِّ، وهذه لشرح حال البنت، والمرادُ من الملائكة رئيسُهم جبريل عليه السَّلام، والكلامُ هنا كالكلام فيما تقدَّم. وجوَّز أبو البقاء كونَ الظرف معطوفاً على الظرف السابق(١)، وناصبه ناصبه. والأوّلُ أولى، والمرادُ: اذْكُر ـ أيضاً ـ من شواهد اصطفاء أولئك الكرام وقتَ قولِ الملائكة عليهم السَّلام:

﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أي: اختارك من أول الأمر، ولطف بكِ وميَّزَك على كلِّ محرَّرٍ، وخصَّكِ بالكرامات السَّنِيَّة، والتأكيدُ اعتناء بشأن الخبر.

وقولُ الملائكة لها ذلك كان شفاهاً على ما دلَّت عليه الأخبار ونَطَقت به الظواهرُ، وفي بعض الآثار ما يَقتضي تكرُّر هذا القول من الملائكة لها؛ فقد أخرج ابنُ جرير عن ابن إسحاق أنه قال: كانت مريم حبيساً في الكنيسة ومعها فيها غلامٌ اسمُه يوسف، وقد كان أمُّه وأبوه جعلاه نذيراً حبيساً، فكانا في الكنيسة جميعاً، وكانت مريمُ إذا نفد ماؤها وماءُ يوسف أخذا قُلَّتيْهما فانطَلَقا إلى المفازة التي فيها الماء، فيملآن ثم يَرجِعان، والملائكة في ذلك مقبِلَةٌ على مريم بالبشارة: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ الآية. فإذا سمع ذلك زكريا ـ عليه السَّلام ـ قال: إنَّ لابنةِ عِمرانَ لشأناً(٢).

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ كما في الإملاء ٢/ ٦٢.
(٢) تفسير الطبري ٥/ ٣٩٧.

وقيل: إن الملائكة عليهم السَّلام ألْهموها ذلك. ولا يخفى أنَّ تفسير القول بالإلهام وإسنادَه للملائكة خلافُ الظاهر، وإن كان لا منْعَ من أن يكون بواسطتهم أيضاً، على أنه قولٌ لا يَعضده خبرٌ أصلاً.

وعلى القول الأول يكون التكليمُ من باب الكرامة التي يمُنُّ بها الله سبحانه على خواصِّ عباده، ومَن أنكرها زَعَم أنَّ ذلك إرهاصٌ وتأسيسٌ لنبوَّة عيسى عليه السلام، أو معجزةٌ لزكريا عليه السلام.

وأُوْرِدَ على الأول: أنَّ الإرهاص في المشهور أن يتقدَّم على دعوى النبوة ما يُشبه المعجزة، كإظلال الغمام لرسول الله ﷺ، وتكلُّم الحَجَر معه، وهذا بظاهره يقتضي وقوعَ الخارق على يدِ النبيِّ، لكن قبل أن يُنَبَّأ، لا على يد غيره كما فيما نحن فيه. ويمكن أن يدفع بالعناية.

وأُورد على الثاني بأنه بعيد جدّاً، إذ لم يقع الكلام مع زكريا عليه السلام، ولم يقترن ذلك بالتحدِّي أيضاً، فكيف يكون معجزةً له؟

واستَدلَّ بهذه الآية مَن ذهب إلى نبوة مريم؛ لأنَّ تكليم الملائكة يقتضيها، ومنعه اللقانيُّ(١) بأنَّ الملائكة قد كلَّموا من ليس بنبيٍّ إجماعاً، فقد روي أنهم كلَّموا رجلاً خرج لزيارة أخٍ له في الله تعالى، وأخبروه أنَّ الله سبحانه يُحبُّه كحبِّه لأخيه فيه(٢). ولم يقل أحدٌ بنبوته، وادَّعى أنَّ مَن توهَّم أنَّ النبوة مجرَّدُ الوحي ومكالمةِ المَلَك فقد حاد عن الصواب.

ومن الناس(٣) مَن استدلَّ على عدم استنباء النساء بالإجماع، وبقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ [الأنبياء: ٧]. ولا يخفى ما فيه.

أمَّا أولاً: فلأن حكاية الإجماع في غاية الغرابة، فإن الخلاف في نبوة نسوة ـ كحواء، وآسية، وأم موسى، وسارة، وهاجر، ومريم ـ موجودٌ، خصوصاً مريم؛

---

(١) هو القاضي برهان الدين، إبراهيم بن محمد بن محمد، أبو إسحاق المالكي، توفي سنة (٨٩٦ هـ). الضوء اللامع ١/ ١٦١، وشذرات الذهب ٩/ ٥٣٩.

(٢) أخرجه أحمد (٧٩١٩)، ومسلم (٢٥٦٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) هو البيضاوي، ينظر حاشية الشهاب ٣/ ٢٥.

فإن القول بنبوتها شهيرٌ، بل مال الشيخ تقيُّ الدين السّبكيُّ في الحلبيات وابن السيد إلى ترجيحه[1]، وذُكر أنَّ ذِكْرَها مع الأنبياء في سورتهم[2] قرينةٌ قوية لذلك.

وأمَّا ثانياً: فلأن الاستدلال بالآية لا يصحُّ؛ لأنَّ المذكور فيها الإرسالُ، وهو أخصُّ من الاستنباء على الصحيح المشهور، ولا يلزم من نفي الأخصِّ نفيُ الأعمِّ، فافهم.

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي: من الأدناس والأقذار التي تَعْرِض للنساء، مثل الحيْض والنفاس، حتى صِرْتِ صالحةً لخدمة المسجد؛ قاله الزجاج[3]. وروي عن الحسن وابن جبير أنَّ المراد: طهَّرك بالإيمان عن الكفر، وبالطاعة عن المعصية. وقيل: نزَّهك عن الأخلاق الذميمة والطبائع[4] الرديئة. والأَوْلى الحملُ على العموم، أي: طهَّرك من الأقذار الحسِّيَّة والمعنوية والقلبية والقالبية.

﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ يَحتمل أن يراد بهذا الاصطفاء غيرُ الاصطفاء الأول، وهو ما كان آخِراً من هبة عيسى عليه السلام لها من غير أبٍ، ولم يكن ذلك لأحدٍ من النساء، وجَعْلِها وإياه آيةً للعالمين. ويحتمل أن يراد به الأول، وكرِّر للتأكيد وتبيين من اصطفاها عليهنّ.

وعلى الأول يكون تقديم حكاية هذه المقاوَلة على حكاية بشارتها بعيسى ـ عليه السَّلام ـ للتنبيه على أنَّ كلًّا منهما مستحِقٌّ للاستقلال بالتذكير، وله نظائر قد مرَّ بعضُها، وعلى الثاني لا إشكال في الترتيب، وتكون حكمةُ تقدُّم هذه المقاولة على البشارة الإشارةَ إلى كونها ـ عليها السلام ـ قبل ذلك مستعدَّةً لفيضان الروح عليها بما هي عليه من التبتل والانقياد حسب الأمر، ولعلَّ الأوَّلَ أولى كما قال الأمام[5]؛ لِمَا أنَّ التأسيس خيرٌ من التأكيد.

---

(١) ذكر قولهما الشهاب في الحاشية ٣/ ٢٥.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

(٣) في معاني القرآن ١/ ٤١٠.

(٤) في (م): والطباع.

(٥) هو الرازي في تفسيره ٨/ ٤٦.

والمرادُ من «نساء العالمين» قيل: جميع النساء في سائر الأعصار، واستُدِل به على أفضليَّتها على فاطمةَ وخديجةَ رضي الله تعالى عنهن، وأيِّد ذلك بما أخرجه ابن عساكر في أحدِ الطُّرق، عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سيدةُ نساءِ أهلِ الجَنَّة مريم بنت عمران، ثم فاطمة، ثم خديجة، ثم آسية امرأةُ فرعون»[1].

وبما أخرجه ابن أبي شيبة عن مكحول ـ وقريبٌ منه ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نساءٍ رَكِبْن الإبلَ نساءُ قريش، أحناه على ولدٍ في صغره، وأرعاه على بَعْلٍ في ذات يده، ولو علمتُ أنَّ مريم ابنةَ عمران ركِبَت بعيراً ما فضَّلتُ عليها أحداً»[2].

وبما أخرجه ابن جرير عن فاطمة صلى الله تعالى على أبيها وعليها وسلَّم، أنها قالت: قال لي رسولُ الله ﷺ: «أنتِ سيدةُ أهلِ الجَنَّة إلا مريمَ البَتُولَ»[3].

وقيل: المراد نساءُ عالَمِها فلا يلزم منه أفضليتُها على فاطمة رضي الله عنها، ويؤيِّده ما أخرجه ابنُ عساكر من طريق مقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أربع نسوة ساداتُ عالَمِهن: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، وأفضلُهن عالَما فاطمة»[4].

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٧٠/١٠٧، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (١٢١٧٩). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/٢٠١: رواه الطبراني في الأوسط والكبير، ورجال الكبير رجال الصحيح.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٢/١٧٤، وأخرجه مرفوعاً متصلاً بهذا اللفظ ابن أبي عاصم في السنة (١٥٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه أحمد (٧٦٥٠)، والبخاري (٥٠٨٢)، ومسلم (٢٥٢٧) دون قوله: «ولو علمت أن مريم....» وذكر أحمد ومسلم في آخره قول أبي هريرة: ولم تركب مريم بنت عمران بعيراً قط. وذكره البخاري تعليقاً (٣٤٣٤). قال الحافظ في الفتح ٩/١٢٥: فكأنه (يعني أبا هريرة) أراد إخراج مريم من هذا التفضيل، فلا يكون تفضيل نساء قريش عليها.

(٣) تفسير الطبري ٥/٣٩٦، وأخرجه أيضاً الترمذي (٣٨٧٣) و(٣٨٩٣)، والنسائي في الكبرى (٨٣٠٨) و(٨٤٥٩) و(٨٤٠٦).

(٤) تاريخ ابن عساكر ٧٠/١٠٧-١٠٨، ومقاتل هو ابن سليمان، قال الحافظ في التقريب: كذَّبوه وهَجَروه.

وما رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» بسندٍ صحيح لكنه مرسل: «مريم خير نساء عالَمِها»(١).

وإلى هذا ذهب أبو جعفر رضي الله عنه(٢)، وهو المشهور عن أئمة أهل البيت.

والذي أميلُ إليه: أنَّ فاطمة البتولَ أفضلُ النساء المتقدِّمات والمتأخِّرات من حيث إنها بَضْعَةُ رسول الله ﷺ، بل ومن حيثيَّاتٍ أُخَرَ أيضاً، ولا يُعكِّر على ذلك الأخبارُ السَّابقة؛ لجواز أن يراد بها أفضليةُ غيرها عليها من بعض الجهات، وبحيثيةٍ من الحيثيات، وبه يُجمع بين الآثار، وهذا سائغٌ على القول بنبوَّة مريم أيضاً؛ إذ البضْعِيَّة من رُوح الوجود وسيدِ كلِّ موجود لا أراها تُقَابَل بشيء، وأين الثُّريا من يد المتناوِل؟.

ومن هنا يُعلم أفضليتُها على عائشة رضي الله عنها، الذاهبُ إلى خلافها الكثيرُ محتجِّين بقوله ﷺ: «خذوا ثُلُثَيْ دِينكم عن الحُمَيْراء»(٣)، وقوله عليه الصلاة والسلام: «فضْلُ عائشةَ على النِّساءِ كَفَضْلِ الثَّريدِ على الطعام»(٤). وبأنَّ عائشة يوم القيامة في الجنة مع زوجها رسولِ الله ﷺ، وفاطمة يومئذٍ فيها مع زوجها عليٍّ كرم الله وجهه، وفرْقٌ عظيم بين مقامِ النبيِّ ﷺ ومقام عليٍّ كرم الله تعالى وجهه.

وأنت تعلم ما في هذا الاستدلال، وأنَّه ليس بنصٍّ على أفضليَّة الحميراءِ على الزهراء:

أمَّا أولاً: فلأنَّ قُصارى ما في الحديث الأول على ـ تقديرِ ثبوتِه ـ إثباتُ أنَّها عالِمةٌ إلى حيثُ يؤخذ منها ثُلثا الدِّين، وهذا لا يدلُّ على نفي العلم المماثل لعلمها عن بضْعَته عليه الصلاة والسلام. ولعِلْمه ﷺ أنَّها لا تَبقى بعدَه زمناً مُعتدّاً به يمكنُ أخذُ الدِّين منها فيه، لم يقل فيها ذلك، ولو عَلِم لربَّما قال: خذوا كلَّ دِينكم عن

---

(١) مسند الحارث (٩٩٠ـ زوائد الهيثمي) من طريق عروة بن الزبير عن النبي ﷺ، وتمامه (وفاطمة خير نساء عالمها)، وهو مرسل صحيح الإسناد كما ذكر المصنف، وينظر المطالب العالية ٤/ ٦٨.

(٢) وهو محمد بن علي بن الحسين، أبو جعفر الباقر، وذكر قوله الطبرسي في مجمع البيان ٣/ ٧٧.

(٣) هذا حديث باطل كما ذكر ابن القيم في المنار المنيف ص٥٩-٦١، وقال الملا علي القاري في المصنوع ص٩٨: لا يعرف له أصل. وقال ابن حجر: لا أعرف له إسناداً، ولا رأيته في شيء من كتب الحديث، إلا في النهاية لابن الأثير. ينظر كشف الخفاء ١/ ٤٤٩-٤٥٠.

(٤) أخرجه أحمد (١٢٥٩٧)، والبخاري (٣٧٧٠)، ومسلم (٢٤٤٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

الزَّهراء، وعدمُ هذا القول في حقِّ مَن دلَّ العقلُ والنقلُ على عِلْمه لا يدلُّ على مفضُوليَّته، وإلا لكانت عائشة أفضلَ من أبيها ﷺ، لأنه لم يُرْوَ عنه في الدِّين إلا قليلٌ؛ لقلَّة لُبثه وكثرةِ غائلته بعد رسول الله ﷺ، على أنَّ قوله عليه الصلاة والسلام: «إنِّي تاركٌ فيكم الثَّقَلَين: كتابَ الله تعالى وعِتْرتي، لا يفترقان حتى يَرِدا عليَّ الحوض»[1] يقوم مقام ذلك الخبَر وزيادة، كما لا يخفى، كيف لا وفاطمةُ ﷺ سيدةُ تلك العِتْرة؟!

وأمَّا ثانياً: فلأنَّ الحديث الثاني معارَضٌ بما يدلُّ على أفضلية غيرها ﷺ عليها، فقد أخرج ابن جرير، عن عمَّار بن سَعدٍ أنَّه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «فُضِّلت خديجةُ على نساء أُمَّتي، كما فضِّلت مريم على نساءِ العالَمين»[2]. بل هذا الحديث أظهرُ في الأفضلية وأكملُ في المدح عند مَن انْجَابَ عن عين بصيرته غَيْنُ[3] التعصُّب والتعسُّف؛ لأن ذلك الخبَرَ وإنْ كان ظاهراً في الأفضلية، لكنَّه قيل ولو على بُعد: إن «أل» في النساء فيه للعهد؛ والمرادُ بها الأزواجُ الطاهرات الموجودات حين الإخبار، ولم يقل مثل ذلك في هذا الحديث.

وأمَّا ثالثاً: فلأنَّ الدليل الثالثَ يَستدعي أن يكون سائر زوجات النبي ﷺ أفضلَ من سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام؛ لأنَّ مقامهم بلا رَيبٍ ليس كمقام صاحب المقام المحمود ﷺ، فلو كانت الشركة في المنزل مستدعيةً للأفضلية لزم ذلك قطعاً، ولا قائلَ به.

وبعد هذا كلِّه، الذي يَدور في خَلَدي أنَّ أفضل النساء فاطمةُ، ثم أمُّها، ثم عائشة، بل لو قال قائل: إنَّ سائر بناتِ النبيِّ ﷺ أفضلُ من عائشة، لا أرى عليه بأساً، وعندي بيْنَ مريم وفاطمة توقُّفٌ، نظراً للأفضلية المُطلقة، وأمَّا بالنظر إلى الحيثيَّة فقد علمتَ ما أميلُ إليه، وقد سئل الإمام السُّبكيُّ عن هذه المسألة فقال:

---

(١) أخرجه أحمد (١١١٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. وأخرجه الترمذي (٣٧٨٨)، والنسائي في الكبرى (٨٠٩٢) من حديث زيد بن أرقم ﷺ. وله شاهد عند مسلم (٢٤٠٨) من حديث زيد بن أرقم دون قوله: «لا يفترقان» وينظر التعليق عليه في حاشية مسند أحمد.

(٢) تفسير الطبري ٥/٣٩٦.

(٣) الغين: الغيم، يقال: غِين على قلبه غَيناً، أي: غُطِّي عليه وأُلْبس، أو أحاط به الرَّيْن. القاموس (غين).

الذي نختاره ونَدينُ اللهَ تعالى به أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ ﷺ أفضلُ، ثم أمُّها، ثم عائشة. ووافقه في ذلك البلقيني. وقد صحَّح ابنُ العماد أنَّ خديجةَ أيضاً أفضلُ من عائشة، لِمَا ثبت أنه عليه الصلاة والسلام قال لعائشة حين قالت: قد رَزَقك اللهُ تعالى خيراً منها، فقال لها: «لا والله ما رزقني اللهُ تعالى خيراً منها، آمَنَتْ بي حين كذَّبني الناسُ، وأَعْطَتْني مالَها حين حَرَمني الناس»(١)، وأيِّد هذا بأن عائشة أَقْرَأها السَّلام النبيُّ ﷺ من جبريل(٢)، وخديجةَ أَقْرَأها السلامَ جبريلُ من ربِّها(٣). وبعضهم لمَّا رأى تعَارُضَ الأدلة في هذه المسألة توقَّف فيها، وإلى التوقُّف مال القاضي أبو جعفر الأسْرُوشَنيُّ(٤) منَّا، وذهب ابنُ جَمَاعة(٥) إلى أنَّه المذهبُ الأسلم.

وأشكلُ ما في هذا الباب حديثُ الثريد، ولعلَّ كثرةَ الأخبارِ الناطقةِ بخِلافِه تهوِّن تأويله، وتأويلُ واحدٍ لكثيرٍ أهونُ من تأويل كثيرٍ لواحدٍ واللهُ تعالى هو الهادي إلى سَوَاءِ السبيل.

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ الظاهرُ أنه من مَقول الملائكة أيضاً؛ وصَّوْها بالمحافظة على الصلاة بعد أن أخبروها بعُلوِّ درجتها وكمالِ قُرْبِها إلى الله تعالى؛ لئَلَّا تَفْتُر ولا تغفل عن العبادة، وتكريرُ النداء للإشارة إلى الاعتناء بما يَرِدُ بعدُ، كأنه هو المقصود بالذات وما قبله تمهيدٌ له.

والقنوت: إطالةُ القيام في الصَّلاة؛ قاله مجاهد. أو إدامةُ الطاعة؛ قاله قتادة، وإليه ذهب الراغب(٦). أو الإخلاص في العبادة؛ قاله سعيد بن جبير. أو أصلُ القيام في الصلاة؛ قاله بعضهم.

---

(١) أخرجه مطولاً أحمد (٢٤٨٦٤) من حديث عائشة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٢٨١)، والبخاري (٣٢١٧)، ومسلم (٢٤٤٧) من حديث عائشة ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد (٧١٥٦)، والبخاري (٣٨٢٠)، ومسلم(٢٤٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) في الأصل و(م): الاستروسني، والمثبت من الأنساب للسمعاني ١/ ٢٣٢، ومعجم البلدان ١/ ١٧٧، وقيدها السمعاني بضم الهمزة، وياقوت بفتحها، وهي بلدة كبيرة وراء سمرقند كما ذكر السمعاني، وأبو جعفر هو محمد بن عمرو، أحد قضاة بخارى وسمرقند، توفي سنة (٤٠٤هـ). الجواهر المضيَّة ٣/ ٢٩٢.

(٥) محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، قاضي القضاء بدر الدين أبو عبد الله الكناني الحموي الشافعي، توفي سنة (٧٣٣ هـ). الوافي بالوفيات ٢/ ١٨.

(٦) في مفرداته (قنت).

والتعرُّض لعنوان الربوبية للإشعار بعلَّة وجوب امتثال الأوامر.

﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ يحتمل أن يكون المراد من ذلك كلِّه الأمرَ بالصلاة، إلا أنه أمر سبحانه لها بذكر أركانها مبالغةً في إيجاب المحافظة عليها؛ لِمَا أنَّ في ذِكْر الشيءِ تفصيلاً تقريراً ليس في الإجمال.

ولعلَّ تقديم السجود على الركوع لأنه كذلك في صلاتهم. وقيل: لأنه أفضل أركان الصَّلاة، وأقصى مراتبِ الخضوع، وفي الخبر: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجد»[1]. أو للتنبيه على أنَّ الواو لا توجب الترتيب، أو ليقترن «اركعي» بالرَّاكعين؛ للإيذان بأنَّ مَن ليس في صلاتهم ركوعٌ ليسوا مُصَلِّين.

وكلٌّ من هذه الأوجه لا يَخلو عن دغدغة:

أمَّا أولاً: فلأنَّه إنَّما يتمُّ على القول بأنَّ القيام ليس أفضلَ من السجود، كما نُقل عن الإمام الشافعي.

وأمَّا الثاني: فلأنَّ خطاب القرآن مع مَن يَعلم لغةَ العرب لا مع مَن يتعلَّم منه اللغة.

وأمَّا الثالث: فلأنَّ تَمامِيَّته تتوقف على بيان وجهِ أنه لِمَ لَمْ يعبر بالساجدين تنبيهاً على أنَّ مَن لا سجدةَ في صلاته ليس من المصلِّين؟ وكأنَّ وجه ذلك ما يُستفاد من كلام الزمخشريِّ، حيث قال: ويحتمل أن يكون في زمانها مَن كان يقوم ويسجدُ في صلاته ولا يركع، وفيه مَن يركع، فأُمِرَت بأن تركع مع الراكعين ولا تكون مع مَن لا يركع[2]. فالنكتة في التعبير ما جعلت نكتة في ذكر: ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

واعترضه أيضاً بعضُهم: بأنه إذا قدِّم الركوع، وقيل: واركعي مع الراكعين واسجدي، يحصلُ ذلك المقصود، ولا مَدخلَ للتقديم والتأخير في إفادة ذلك.

وقيل: المراد بالسجود وحدَه الصلاةُ، كما في قوله تعالى ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠] والتعبيرُ عن الصلاة بذلك من التعبير بالجزء عن الكلِّ. ويرادُ بالركوع

---

(١) أخرجه أحمد (٩٤٦١)، ومسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) الكشاف ١/ ٤٢٩.

الخشوعُ والتواضع، وكان أمرُها بذلك حفظاً لها من الوقوع في مَهاوي التكبُّر والاستعلاء بما لها من علوِّ الدرجة.

والاحتمالُ الأولُ هو الظاهر[1]، ويؤيِّده ما أخرجه ابن جرير عن الأوزاعي قال: كانت تقوم حتى يسيل القيحُ من قدَميها[2]. وما أخرجه ابن عساكر في الآية عن أبي سعيد قال: كانت مريم تصلِّي حتى تَرِمَ قدماها[3].

والأكثرون على أنَّ فائدة قوله سبحانه: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ الإرشادُ إلى صلاة الجماعة، وإليه ذهب الجبائي[4].

وذكر بعضُ المحقِّقين أنَّ نكتة التعبير بذلك في هذا المقام دون: واسجدي مع الساجدين، الإشارةُ إلى أنَّ مَن أدرك الركوع مع الإمام فقد أدرك رَكعةً من الصلاة. وعُورض بأنه لو قيل: واسجدي مع الساجدين، لربَّما كان فيه إشارة إلى أنَّ مَن أدرك السجود مع الإمام فقد أدرك الجماعة، ولعلَّ هذه الإشارة أولَى من الأُولى في هذا المقام، واستلزامُ ذلك أنَّ مَن أدرك ما بعد السجود معه لا يُدرك الجماعة في حيِّز المنع. ولا يخفى أنَّ المعارِض والمعارَض ليسا بشيء عند المنصِفين، وأحسنُ منهما ما أشار إليه صاحب «الكشاف».

وزعم بعضهم[5]: أن «مع» مجازٌ عن الموافقة في الفعل فقط دون اجتماع، أي: افعلي كفعل الراكعين وإن لم تُوْقِعي الصلاة معهم، قال: لأنَّها كانت تصلِّي في محرابها، وأيضاً إنَّها كانت شابةً، وصلاةُ الشَّوَابِّ في الجماعة مكروهة.

واعترض بأنه ارتكابٌ للتجوُّز الذي هو خلافُ الأصل من غير داعٍ، وكونُها كانت تصلِّي في محرابها أحياناً مسلَّمٌ، لكنْ لا يدلُّ على المدَّعى أيضاً؛ لجواز اقتدائها وهي في المحراب، وكراهةُ صلاة الشابَّة في الجماعة لم يتحقَّق عندنا ثبوتُها

---

(١) ويعني به القولَ بأن المرادَ هو الأمر بالصلاة، وأن ذكر الأركان هو للمبالغة في إيجاب الحفاظ عليها، كما سلف في بداية تفسير الآية.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٣٩٩.

(٣) تاريخ ابن عساكر ٧٠/ ١٠٠، وأخرجه عبد الرزاق ١/ ١٢٠، والطبري ٥/ ٣٩٩ عن مجاهد. ووقع في (م): تورم، بدل: ترم.

(٤) ذكر قوله الطبرسي في مجمع البيان ٣/ ٧٧.

(٥) هو أبو حيان في البحر ٢/ ٤٥٧.

في شرعِ مَن قبلنا، على أنَّ الماتُريديَّ نفى كراهةَ صلاةِ مريم في الجماعة وإن كانت شابّةً - وقلنا بكراهة صلاة الشَّوابِّ في شرعهم أيضاً- وعلَّله بكون القوم الذين كانت تصلِّي معهم كانوا ذوي قَرابةٍ ورَحِم، ولذلك اختصموا في ضمِّها وإمساكها[1]. وربَّما يعلَّل بعدمِ خشيةِ الفتنة وإن كانوا أجانب، ويُستأنس لهذا بذهابها مع يوسف لملء القُلَّة في المفازة، ولعلَّ أولئك الذين تركع معهم من هذا القبيل. وإن قلنا: إنَّها تقتدي وهي في مِحرابها إمَّا وحدَها أو مع نسوة، زال الإشكالُ.

وجاء ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ دون الراكعات لأنَّ هذا الجمع أعمُّ؛ إذ يشمل الرِّجالَ والنساء على سبيل التغليب، ولمناسبة رؤوس الآي، ولأنَّ الاقتداء بالرِّجال أفضل إن قلنا: إنَّها مأمورةٌ بصلاة الجماعة.

وادَّعى بعضهم أنَّ في التعبير بذلك مدحاً ضمنيًّا لمريم عليها السَّلام، ولم يقيِّد الأمرين الأخيرين بما قيد به الأمر الأول، اكتفاءً بالتقييد من أول وَهْلةٍ.

وقال شيخ الإسلام: إنَّ تجريد الأمر بالركنين الأخيرين عمَّا قيِّد به الأول لِمَا أنَّ المراد تقييدُ الأمر بالصلاة بذلك، وقد فعل حيث قيِّد به الركن الأول منها[2]. ولعلَّ ما ذكرناه أَولى لأنَّه مطَّرد على سائر الأقوال في القنوت.

وأخرج ابن أبي داود في «المصاحف»[3] عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأ: «واركعي واسجدي في السَّاجدين».

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّم ذِكْرُه من تلك الأخبار البديعة الشأن، المُرْتَقيةِ من الغَرَابة إلى أعلى مكان، وهو مبتدأ خبرُه قولُه تعالى: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: من أخبار ما غاب عنك وعن قومك ممَّا لا يُعرَف إلَّا بالوحي، على ما يُشير إليه المقام، والجملةُ مستأنفَةٌ لا محلَّ لها من الإعراب.

وقوله تعالى: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ جملةٌ مستقلَّة مبيِّنةٌ للأولى، والإيحاءُ: إلقاء المعنى إلى الغير على وجهٍ خفيّ، ويكون بمعنى إرسال المَلَك إلى الأنبياء وبمعنى الإلهام، والضمير في «نوحيه» عائدٌ إلى «ذلك» في المشهور، واستُحسن عودُه إلى

---

(١) تأويلات أهل السنة لأبي منصور الماتريدي ١/ ٢٦٨، والبحر المحيط ٢/ ٤٥٧.
(٢) تفسير أبي السعود ٢/ ٣٥.
(٣) برقم (١٦٥).

الغيب؛ لأنه حينئذٍ يَشملُ ما تقدَّم من القصص، وما لم يتقدَّم منها، بخلافِ ما إذا عاد إلى «ذلك» فإنه حينئذٍ يُوهم الاختصاصَ بما مضى، وجوَّز أن تكون هذه الجملة خبراً عن المبتدأ قبلها، و«من أنباء الغيب» إمَّا متعلِّق بـ «نوحيه»، أو حال من مفعوله، أي: نوحيه حالَ كونه بعضَ أنباءِ الغيب. وجَعْلُه حالاً من المبتدأ رأيُ البعض[١]. وجوَّز أبو البقاء[٢] أن يكون التقدير: الأمرُ ذلك، فيكون «ذلك» خبراً لمبتدأ محذوف، والجارُّ والمجرور حالٌ منه، وهو وجهٌ مَرْذُولٌ لا ينبغي أن يخرَّج عليه كلامُ الملِكِ الجليل.

وصيغةُ الاستقبال عند قومٍ للإيذان بأنَّ الوحي لم ينقطع بعدُ.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: عند المتنازِعِينَ، فالضميرُ عائدٌ إلى غير مذكور دلَّ عليه المعنى، والمقصود من هذه الجملة تحقيقُ كونِ الإخبار بما ذُكر عن وحيٍ على سبيل التَّهكُّم بمُنْكِريه، كأنه قيل: إنَّ رسولَنا أخبركم بما لا سبيلَ إلى معرفته بالعقل، مع اعترافكم بأنه لم يَسمعه ولم يقرأه في كتاب، وتنكرون أنَّه وحيٌ، فلم يَبْقَ مع هذا ما يحتاج إلى النفي سوى المشاهَدةِ التي هي أظهرُ الأمور انتفاءً؛ لاستحالتها المعلومة عند جميع العقلاء.

ونبَّه على ثبوت قصَّة مريم مع أنَّ ما عُلِم بالوحي قصَّةُ زكريا عليه السلام أيضاً؛ لِمَا أنَّ تلك هي المقصودةُ بالإخبار أولاً، وإنما جاءت القصَّةُ الأُخرى على سبيل الاستطراد، ولاندراج بعضِ قصَّةِ زكريا في ذكرِ مَن تكفَّل، فما خلَت الجملةُ عن تنبيهٍ على قصَّتِه في الجملة.

وروي عن قتادة: أنَّ المقصود من هذه الجملة تعجيبُ اللهِ سبحانه نبيَّه عليه الصلاة والسلام من شدَّة حرصِ القومِ على كَفَالة مريمَ والقيامِ بأمرها، وسيق ذلك تأكيداً لاصطفائها عليها السلام. ويَبْعُدُ هذا الفصلُ بين المؤكِّد والمؤكَّد، ومع هذا هو أولى ممَّا قيل: إنَّ المقصود منها التعجيبُ من تدافُعِهم لكفالتها؛ لشدَّةِ الحال ومزيدِ الحاجة التي لَحِقَتهم، حتى وفِّق لها خيرُ الكُفلاء زكريا عليه السلام[٣]، بل

(١) ذكره السمين في الدر المصون ٣/ ١٧٠.

(٢) في الإملاء ٢/ ٦٣.

(٣) ذكر هذا القول وقول قتادة قبله الطبرسي في مجمع البيان ٣/ ٧٩.

يكاد يكون غيرَ صحيح درايةً ورواية، وعلى كلِّ تقدير لا يُشْكِلُ نفيُ المشاهدةِ مع ظهور انتفائها عند كلٍّ أحد.

﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ أي: يَرْمُونها ويَطرحونها للاقتراع، والأقلامُ جمعُ قلم، وهي التي كانوا يكتبون بها التوراةَ، واختاروها تبرُّكاً بها. وقيل: هي السِّهام من النُّشاب وهي القِدَاح. وحكى الكازرونيُّ أنها كانت من نُحاسٍ، وهي مأخوذةٌ من القَلْم بمعنى القَطْعِ، ومنه قُلامةُ الظُّفر، وقد تقدَّم بيانُ كيفية الرَّمي[1]. وفي عِدَّة الأقلام خلافٌ، وعن الباقر أنها كانت ستةً. والظرف معمولٌ للاستقرار العاملِ في «لديهم»، وجَعْلُه ظرفاً لـ «كان» ـ كما قال أبو البقاء[2] ـ ليس بشيء.

﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ من تتمَّة الكلام الأول، وجَعْلُه ابتداءَ استفهامٍ مفسدٌ للمعنى، ولمَّا لم يصلح «يلقون» للتعلُّق بالاستفهام لَزِم أن يقدَّر ما يرتبط به النِّظام، فذكَر الجُلُّ له ثلاثةَ أوجه:

أحدها: أن يقدَّر: يَنظرون أيُّهم يكفلُ، وحيث كان النظر ممَّا يؤدِّي إلى الإدراك، جاز أن يتعلَّق باسم الاستفهام كالأفعال القلبية، كما صرَّح به ابن الحاجب وابن مالك في «التسهيل»[3].

وثانيها: أن يقدَّر: ليعلموا أيهم يكفل.

وعلى الأول الجملةُ حالٌ ممَّا قَبْلَها، وعلى الثاني في موضع المفعول له، ولا يخفى أنَّ الإلقاء سببٌ لنفْس العلم، لكنه سببٌ بعيد، والقريب هوالنظر إلى ما ارتفع من الأقلام.

وثالثها: أن يقدَّر: يقولون، أو: ليقولوا أيهم... إلخ. واعتُرض بأنه لا فائدةَ يُعتدُّ بها في تقدير: يقولون، ولا يَنْساقُ المعنى إليه، بل هو مجرَّد إصلاحٍ لفظيٍّ

---

(١) ص١٤٥ من هذا الجزء.

(٢) في الإملاء ٢/ ٦٣، وهو قول أبي علي الفارسي أيضاً، وهذا القول لا يتحقق على اعتبار أن كان الناقصة قد سُلبت الدلالة على الحدث وتجردت للزمان، فكيف تعمل في الظرف والظرف وعاء للحدث؟ إلا إذا اعتبرت «كان» هنا تامة، بحيث يكون المعنى: وما وُجد في ذلك الوقت. ينظر البحر ٢/ ٤٥٨، والدر المصون ٣/ ١٧١.

(٣) ص٧٢، ونقل المصنف هذا القول عن ابن الحاجب وابن مالك عن حاشية الشهاب ٣/ ٢٦.

لموقع «أيُّهم»؟ وأجيبَ بأنه مفيد وينساق المعنى إليه بناءً على أنَّ المراد بالقول القولُ للبيان والتعيين[١].

واعتُرض أيضاً تقديرُ القول مقروناً بلام التعليل، بأنَّ هذا التعليل هنا ممَّا لا معنى له؟ وأجيب بتأويله كما أوِّل في سابقه. وقيل: يؤوَّل بالحكم، أي: ليقولوا ولِيَحْكموا أيُّهم. . . إلخ.

والسّكاكي[٢] يقدِّر هاهنا: ينظرون ليعلموا، ولعلَّ ذلك لمراعاة المعنى واللفظ، وإلا فتقديرُ النظرِ أو العلم يُغني عن الآخر.

وبعضُ المحقِّقين لم يقدِّر شيئاً أصلاً، وجَعَل «أيُّهم» بدلاً عن ضمير الجمع، أي: يلقي كلُّ مَن يقصدُ الكفالةَ وتتأتَّى منه. ولا يخفى أنه من التكلُّف بمكان.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ في شأنها تنافساً على كَفَالتها، وكان هذا الاختصامُ بعد الاقتراع في رأيٍ، وقبله في آخر، وتكريرُ «ما كنت لديهم» مع تحقُّقِ المقصود بعطفِ «إذ يختصمون» على «إذ يلقون»؛ للإيذان بأنَّ كلَّ واحدٍ من عدم الحضور عند الإلقاء، وعدمِ الحضور عند الاختصام، مستقلٌّ بالشهادة على نبوَّته ﷺ، لا سِيَّما على الرأي الثاني في وقت الاختصام؛ لأنَّ تغيير الترتيب في الذِّكر مؤكِّد لذلك، قاله شيخ الإسلام[٣].

واختلف في وقت هذا الاقتراع والتَّشَاحِّ على قولين:

أحدهُما وهو المشهور المعوَّل عليه: أنَّه كان حين ولادتِها وحَمْلِ أمِّها لها إلى الكنيسة، على ما أشرنا إليه من قبلُ[٤].

وثانيهما: أنَّه كان وقتَ كِبَرِها وعجزِ زكريا عليه السلام عن تربيتها، وهو قولٌ مرجوح، وأوهنُ منه قولُ مَن زعمَ أن الاقتراع وقع مرتين: مرَّةً في الصِّغر، وأُخرى في الكِبر.

---

(١) أي: ليبينوا أو يعيِّنوا الكافل. حاشية الشهاب ٣/ ٢٦.

(٢) في مفتاح العلوم ص٢٧٩.

(٣) تفسير أبي السعود ٢/ ٣٦.

(٤) ص١٤٥ من هذا الجزء.

وفي هذه الآية دلالةٌ على أنَّ القرعة لها دَخْلٌ في تمييز الحقوق، وروي عن الصادق رضي الله عنه أنه قال: ما تَقارَع قومٌ ففوَّضوا أمرهم إلى الله عز وجل، إلا خرج سهْمُ المُحِقِّ. وقال: أيُّ قضية أعدلُ من القضية إذا فوِّض الأمرُ إلى الله سبحانه، أليس الله تعالى يقول: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١]؟

وقال الباقر رضي الله عنه: أولُ مَن سُوهِم عليه مريمُ بنتُ عمران ثم تلا: (وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ).

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ شروعٌ في قصَّةِ عيسى عليه السلام، والمرادُ بالملائكة جبريلُ عليه السلام على المشهور، والقولُ شفاهيٌّ كما رواه ابنُ أبي حاتم عن قتادة[١]. و«إذ» المضافةُ إلى ما بعدها بدلٌ من نظيرتها السَّابقةِ بدلَ كلٍّ من كلٍّ، وقيل: بدل اشتمال. ولا يضرُّ الفصل إذ الجملةُ الفاصلةُ بين البدلِ والمبدلِ منه اعتراضٌ جيء به تقريراً لِمَا سبق، وتنبيهاً على استقلاله وكونِه حقيقاً[٢] بأن يعدَّ على حياله من شواهد النبوَّة. قالوا: وترك العطف بناءً على اتِّحاد المخاطَب والمخاطِب، وإيذاناً بتقارُن الخِطابين، أو تقَارُبهما في الزمان.

وجوَّز أبو البقاء[٣] كونَ الظرف منصوباً بـ «اذكر» مقدَّراً، وأن يكون ظرفاً لـ «يختصمون».

وقيل: إنَّه بدل من «إذ» المضافةِ إليه. واعتُرض بأنَّ زمنَ الاختصام قبلَ زمن البشارة بمدَّةٍ، فلا تصحُّ هذه البدلية، والتزام أنَّه بدلُ غلطٍ غلطٌ؛ إذ لا يقع في فصيح الكلام.

وأجيب: بأنه يعتبر زمانٌ ممتدٌّ يقع الاختصام في بعضه والبشارةُ في بعضٍ آخر، وبهذا الاعتبار يصحُّ أن يقال: إنَّهما في زمانٍ واحدٍ، كما يقال: وقع القتالُ والصُّلح في سنةٍ واحدة، مع أنَّ القتال واقعٌ في أوَّلها مثلاً والصلح في آخرها. قيل: ولا يحتاج إلى هذا على الاحتمال الثاني ممَّا ذكره أبو البقاء؛ بناءً على ما روي عن الحسن أنَّها عليها السَّلام كانت عاقلةً في حال الصغر، فيحتمل أنها وردت عليها البُشرى إذ ذاك، وفيه بُعْدٌ، بل الآثار ناطقةٌ بخلافه.

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦٥٠.
(٢) في الأصل و(م): حقيقاً، والمثبت من تفسير أبي السعود ٢/ ٣٦، والكلام منه.
(٣) في الإملاء ٢/ ٦٤.

﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ﴾ كلمة «من» لابتداء الغاية مجازاً، وهي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع صفة لـ «كلمة»، وإطلاقُ «الكلمة» على مَن أُطلقت عليه باعتبار أنَّه خُلِق من غير واسطةِ أبٍ، بل بواسطةِ«كن» فقط على خلاف أفراد بني آدم، فكان تأثير «الكلمة» في حقِّه أظهرُ وأكمل، فهو كقولك لمن غَلَبَ عليه الجودُ مثلاً: مَحْضُ الجود، وعلى ذلك أكثر المفسِّرين، وأيَّدوا ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقيل: أطلق عليه ذلك لأنَّ الله تعالى بشَّر به في الكتب السَّالفة، ففي التوراة في الفصل العشرين من السِّفر الخامس: أقبل اللهُ تعالى من سِيْنا، وتجلَّى من ساعير، وظهر من جبال فاران[١]. وسينا جبلُ التجلِّي لموسى، وساعير جبلُ بيت المقدس وكان عيسى يتعبَّد فيه، وفاران جبلُ مكَّة، وكان متَحنَّثَ سيدِ المرسلين ﷺ، وهذا كقولِ مَن يُخبر بالأمر إذا خرج موافقاً لِمَا أَخبر به: قد جاء كلامي.

وقيل: لأنَّ الله تعالى يهدي به كما يهدي بكلمته.

ومن الناس مَن زعم أنَّ «الكلمة» بمعنى البشارة، كأنه قيل: ببشارة منه، ويُبعده ظاهرُ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ [النساء: ١٧١] ولعلَّه يرجِّح أول الأقوال كما يرجِّحه عدمُ اطِّراد الأقوال الأُخَر، وإن لم يكن لازماً في مثل ذلك.

وفي «يُبشِّركِ» هنا من القراءات مثل ما فيها فيما تقدَّم.

﴿ٱسۡمُهُ﴾ الضميرُ راجعٌ إلى «الكلمة»، وذكَّره رعايةً للمعنى لكونها عبارةً عن مذكَّر، و«اسم» مبتدأ خبرُه: ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿عِيسَى﴾ يحتمل أن يكون بدلاً، أو عطفَ بيان، أو توكيداً بالمرادف كما أشار إليه الدنوشريُّ[٢]، أو خبراً آخَرَ. أو خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أو

---

(١) العهد القديم، سفر تثنية الاشتراع ص٤١١.

(٢) عبد الله بن عبد الرحمن الشافعي المصري، النحوي اللغوي، له تآليف كثيرة في النحو، منها: حاشية على شرح التوضيح، توفي سنة(١٠٢٥ هـ). خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ٣/ ٥٢.

منصوباً بإضمار: أعني، مَدْحاً، وحَذْفُ المبتدأ والفعل؛ قيل: على سبيل الجواز. ومقتضَى ما ذكروه في النَّعت المقطوع أن يكون على سبيل الوجوب.

وقوله تعالى: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ صفة لـ «عيسى»، وعلى تقدير كونه منصوباً يُلتزم القولُ بالقطع على أنه خبر لمبتدأ محذوف(١).

ومَن جعل هذه الثلاثة أخباراً عن المبتدأ أَورد عليه بأنَّ الاسم في الحقيقة «عيسى»، و«المسيح» لقبٌ، و«ابن» صفةٌ، فكيف جعلت الثلاثة خبراً عنه؟

وأجيب: بأنَّ المراد بالاسم معناه المصطلَحُ، وهو العلَمُ مطلقاً، وليس هو بمعنى مقابل اللقب، بل ما يعمُّه وغيره، وأنَّ إضافته تفيد العموم؛ لأنَّ إضافة اسم الجنس قد يُقصَد بها الاستغراق، وأنَّ إطلاقه على «ابن مريم» على طريق التغليب.

وقيل: المراد بالاسم معناه اللغويُّ ـ وهو السِّمةُ والعلامة المميزة ـ لا العلَم، ولا مانع حينئذٍ من جَعْلِ مجموع الثلاثة خبراً؛ إذ التمييز بذلك أشدُّ من التمييز بكلِّ واحد، فيَؤُولُ المعنى إلى قولك: الذي يُعْرَفُ به ويُميَّز به عما سواه مجموعُ الثلاثة.

وبهذا ـ كما في «الانتصاف»(٢) ـ خلاصٌ من إشكال يُوردونه فيقولون: «المسيح» في الآية إنْ أُريدَ به التسمية ـ وهو الظاهر ـ فما موقع «عيسى ابن مريم» والتسميةُ لا توصف بالنبوة؟ وإنْ أُريد به المسمَّى بهذه التسميةِ لم يلتئم مع قوله سبحانه: (ٱسۡمُهُ). ووجه الخلاص ظاهرٌ، ولعدم ظهور هذا التوجيه لبعضهم التزم الخلاص من ذلك بأنَّ المسيحَ خبرٌ عن قوله تعالى: «اسمه» والمرادُ التسميةُ، وأمَّا «عيسى ابن مريم» فخبرُ مبتدأ محذوفٍ تقديره: هو، ويكون الضمير عائداً إلى المسمَّى بالتسمية المذكورة، منقطعاً عن «المسيح».

والمشهورُ أنَّ «المسيح» لقبُه عليه السلام، وهو له من الألقاب المشرَّفة كالفاروق، وأصله بالعِبْريَّة مشيحا، ومعناه: المبارك. وعن إبراهيم النخعيِّ: الصِّدِّيق. وعن أبي عمرو بن العلاء: الملِك.

---

(١) يعني على تقدير كون «عيسى» منصوباً بفعل محذوف، يلتزم القول بأن «ابن» خبرٌ لمبتدأ محذوف.

(٢) ١/ ٤٣٠ على هامش الكشاف، وما قبله هو قول الزمخشري.

و«عيسى» معرَّب أيشوع، ومعناه السَّيد.

وعن كثير من السَّلف: أنَّ «المسيح» مشتقٌّ من المَسْحِ. واختلفوا في وجهِ إطلاقه على عيسى عليه السَّلام؛ فقيل: لأنَّه مُسِح بالبركة واليُمن، وروي ذلك عن الحسن وابن جبير.

وقيل: لأنه كان يَمْسَح عَيْنَ الأَكْمَه فيبصر، وروي ذلك عن الكلبي.

وقيل: لأنه كان لا يمسح ذا عاهةٍ بيده إلا بَرِىء؛ ورواه عطاء والضحاك عن ابن عباس.

وقال الجبائي: لأنه كان يمسح بدُهنِ زيتٍ بورك فيه، وكانت الأنبياء تتمسَّح به.

وقيل: لأنَّ جبريل مسحه بجناحيه وقت الولادة ليكون عوذةً من الشيطان الرجيم.

وقيل: لأنه حين مَسَح الله تعالى ظَهْر آدم عليه السلام فاستخرج منه ذرَّات[1] ذرِّيته، لم يَرُدَّه إلى مقامه كما فعل بباقي الذرَّات، بل حَفِظه عنده حتى ألقاه إلى مريم، فكان قد بقي عليه اسمُ المسيح، أي: المَمْسُوح.

وقيل وقيل، وهذه الأقوالُ تُشعر بأنَّ اللفظ عربيٌّ لا عِبْري، وكثير من المحقِّقين على الثاني، واختاره أبو عبيدة[2]، وعليه لا اشتقاقَ؛ لأنَّه لا يَجري على الحقيقة في الأسماء الأعجمية.

وفي «الكشف»: أنَّ الظاهر فيه الاشتقاقُ؛ لأنه عربيٌّ دَخَل عليه خواصُّ كلامهم، جُعِل لقبَ تشريف له عليه السلام، كالخليل لإبراهيم. وجَعْلُه معرَّباً ثم إجراؤه مجرى الصِّفات في إدخال اللام لأنه في كلامهم بمعنى الوصف، خلافُ الظاهر.

ومن الناس مَن ادَّعى أن دخول اللام لا ينافي العُجْمة، فإنَّ التوراة والإنجيل والإسكندر لم تُسمع إلا مقرونةً بها مع أنَّها أعجمية، ولعل ذلك لا ينافي أظهريَّة

---

(١) في الأصل: ذوات.

(٢) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: أبو عبيد، كما في تهذيب اللغة ٤/ ٣٤٨، وتفسير القرطبي ٥/ ١٣٦، والبحر ٢/ ٤٦٠.

كونِ محلِّ النزاع عربيًّا. نعم قيل في عيسى: إنَّه مشتقٌّ من العيس، وأنَّه إنَّما سمِّي به عليه السلام لأنه كان في لونه عيسٌ، أي: بياضٌ تعلوه حُمرة، كما يشير إليه خبرُ: «كأنما خرج من ديماس»[1].

إلا أنَّ المعوَّل عليه فيه أنه لااشتقاقَ له، وأن القائل به كالرَّاقم على الماء.

وهذا الخلافُ إنما هو في هذا المسيح، وأمَّا المسيح الدَّجال فعربيٌّ إجماعاً، وسمِّي به لأنه مُسِحَت إحدى عينيه، أو لأنه يَمْسَحُ الأرضَ، أي: يقطعها في المدَّة القليلة. وفرَّق النخعي بين لقب روحِ الله وعدوِّه: بأن الأول بفتح الميم والتخفيف، والثاني بكسر الميم وتشديد السين كشرِّير، وأنكره غيرُه وهو المعروف.

ثم القائلون باللَّقَبِيَّة في الآية، وكونِ عيسى بدلاً مثلاً، خَصَّ الكثيرُ منهم مَنْعَ تقديمِ اللقب على الاسم بما إذا لم يكن أَشْهَرَ منه حقيقةً أو ادِّعاءً، أمَّا إذا كان أشهرَ كما هنا، فإنه يجوز التقديمُ كما نصَّ عليه ابنُ الأنباري[2]، ولا يختصُّ بغير الفصيح كما فيما إذا لم يكن كذلك.

والمشهور فيما إذا كان الاسمُ واللقب مفرَدَيْن إضافةُ الأول للثاني، وفي «المفصَّل» تَعيُّنها[3]، وصنيعُ سيبويه يشير إلى ذلك[4]. ومَن جوَّز التَّبعية استدلَّ بقولهم: هذا يحيى عينان؛ إذ لو أُضيف لقيل: عينين، وحَمْلُه على لغةِ مَن يُلْزِمُ المثنى الألفَ يردُّه أنَّ الرواية بضمِّ النون، ولو كانت الروايةُ بالكسر لأَمْكَنَ ذلك الحَمْلُ، فلا يتمُّ الاستدلال، وكذا لو كانت بالفتح؛ لأنَّه يمكنُ حينئذٍ أن يكون اللقب مجروراً بالإضافة إلا أنَّ الفتحة فيه نائبةٌ عن الكسرة بناءً على القول بأنَّ المسمَّى به يجوز أن يُعرب كما لا ينصرف، لكن أنت تعلم أنَّ قُصارى ما يثبتُه هذا الاستدلال الورودُ في هذا الجزئيِّ، وأمَّا أنَّه يثبت الاطِّراد فلا، ولعلَّ المانع إنَّما يمنع ذلك، ويدَّعي أنَّ المطَّرد هو الإضافةُ لكنْ بشرطِ أنْ لا يمنع منها مانعٌ؛

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٧٨٩)، والبخاري (٣٣٩٤)، ومسلم (١٦٨) عن أبي هريرة ﷺ.
(٢) ذكر قوله أبو حيان في البحر ٢/ ٤٦٠.
(٣) ينظر شرح المفصل لابن يعيش ١/ ٣٣.
(٤) الكتاب ٣/ ٢٩٤.

فلا تجوز فيما إذا قارنت «أل» الوضعَ؛ لمنعها عن ذلك، فلا يقال: الحارث كُرْزٍ بالإضافة، وكذا إذا كان اللَّقبُ وصفاً في الأصل، نحو: إبراهيمُ الخليل، على ما نصَّ عليه ابن الحاجب في «شرح المفصل»؛ لأنَّ الموصوف لا يضاف إلى صفته في المشهور. ومن الناس مَن جعل ما نحن فيه من هذا القبيل، وهو مبنيٌّ على مذهبِ من يقول: إنَّ المسيح صفةٌ في العربية، ومع هذا في المسألة خلافُ ابنِ هشام؛ فإنَّه يجوِّز الإضافة في هذا القِسْمِ أيضاً، وتمامُ البحث في كتبنا النَّحْوية فليُفْهم.

وإنَّما قيل: «ابنُ مريم» مع كون الخطاب لها؛ تنبيهاً على أنه يولد من غير أبٍ، ولو كان له أبٌ لنُسب إليه، وفي ذلك رمزٌ إلى تفضيل الأمِّ أيضاً. وقيل: إنَّ في ذلك ردّاً للنصارى. وأَبْعَدَ مَن ادَّعى أنَّ هذه الإضافة لمدح عيسى عليه السلام؛ لأنَّ الكلام حينئذٍ في قوَّة: ابن عابدة.

هذا واعلم أنَّ لفظ «ابن» في الآية يُكتب بغير همزةٍ؛ بناءً على وقوعه صفةً بين عَلَمين؛ إذ القاعدةُ أنه متى وقع كذلك لم تُكتب همزته، بل تُحذف في الخطِّ تبعاً لحذفها في اللفظ لكثرة استعماله كذلك، ومتى تقدَّمه عَلَمٌ لكنْ أضيف إلى غير عَلَم كـ: زيد ابنُ السُّلطان، أو تقدَّمه غيرُ علَم، وأضيف إلى علم كـ: السلطان ابن زيد، أو وقع بين ما ليسا علَمَيْن كـ: زيد العاقل ابن الأمير عمرو، كتبت الألف ولم تُحذف في الخطِّ في جميع تلك الصُّور، والكُتَّاب كثيراً ما يخطئون في ذلك، فيحذفون الهمزة منه في الكتاب أينما وقع، وقد نصَّ على خطئهم في ذلك ابنُ قتيبة[1] وغيره. ومن هنا قيل: إنَّ الرسم يرجِّح التَّبعية، نعم في كون ذلك مطَّرِداً فيما إذا كان المضاف إليه عَلَمَ الأمِّ خلافٌ، والذي أختاره الحذفَ أيضاً إذا كان ذلك مشهوراً.

﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ الوجيهُ: ذو الجاه والشَّرَف والقَدْر. وقيل: الكريم على مَن يسأله، فلا يُردُّ لكَرَم وجهه عنده، خلاف مَن يبذل وجهَه للمسألة فيُرَدُّ.

ووجاهته في الدنيا بالنبوة والتقدُّم على الناس، وفي الآخرة بقَبول شفاعته وعلوِّ درجته.

---

(١) في أدب الكاتب ص٢١٦ ـ ٢١٧.

وقيل: وجاهته في الدُّنيا بقبول دعائه بإحياء الموتى، وإبراءِ الأكمَه والأبرص. وقيل: بسبب أنه كان مبرَّءاً من العيوب التي افتراها اليهودُ عليه، وفي الآخرة ما تقدَّم.

وليست الوجاهة بمعنى الهيئة والبزة؛ ليقال: كيف يكون وجيهاً في الدنيا، مع أنَّ اليهود قاتلهم الله عامَلوه بما عاملوه؟ على أنَّه لو كان المعنى على ذلك لا تَقْدَح تلك المعامَلَةُ فيه، كما لا تقدح على التقادير الأُوَل، كما لا يخفى على المتأمل.

ونصب«وجيهاً» على أنه حالٌ مقدَّرةٌ من «كلمة»، وسوَّغ مجيءَ الحالِ منها ـ مع أنَّها نكرةٌ ـ وصفُها بما بعدها، والتذكيرُ باعتبار المعنى كما أُشير إليه، وجُعلت الحال مقدَّرةً لأنَّ الوجاهة كانت بعد البشارة.

ومن الناس مَن جعل الحالَ من «عيسى»، وقال أبو البقاء: لا يجوزُ ذلك، وكذا لا يجوز جَعْلُه حالاً من «المسيح» أو من «ابن مريم» لأنَّها أخبار، والعاملُ فيها الابتداء، أو المبتدأ، أو هما، وليس شيءٌ من ذلك يعمل في الحال، وكذا لا يجوز أيضاً أن يكون حالاً من الهاء في «اسمُه» للفصل الواقع بينهما، ولعُدْمِ العاملِ في الحال(١).

والظرفُ متعلِّق بما عنده؛ لِمَا فيه من معنى الفعل(٢).

﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: عند الله يومَ القيامة؛ قاله قتادة. وقيل: هو إشارةٌ إلى رَفْعِه إلى السماء وصُحْبتِه الملائكةَ. وقيل: من المقرَّبين من الناس بالقبول والإجابة، وهو معطوفٌ على «وجيهاً»، أي: ومقرَّباً من جملة المقرَّبين.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ عطفٌ على الحال الأولى أيضاً، وعطفُ الفعل على الاسمِ لتأويله به سائغٌ شائع، وهو في القرآن كثير(٣)، والظرفُ حالٌ من

---

(١) الإملاء ٢/ ٦٦، وقوله: ولعدم العامل، يريد به أن الحال لا تجيء من المضاف إليه، وهو مذهب أبي البقاء كما ذكر السمين في الدر ٣/ ١٧٩.

(٢) يعني أن قوله: «في الدنيا» متعلِّق بـ «وجيهاً». الدر المصون ٣/ ١٧٩.

(٣) كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩] أي: وقابضات. الدر المصون ٣/ ١٧٨.

الضمير المُسْتَكنِّ في الفعل، ولم يُجعل ظرفاً لغواً متعلقاً به مع صحَّته؛ لعَطْفِ «وكهلاً» عليه، والمراد: يكلِّمهم حالَ كونه طفلاً وكهلاً، والمقصودُ التسويةُ بين الكلام في حال الطفولية وحال الكهولة، وإلا فالكلام في الثاني ليس ممَّا يختصُّ به عليه السلام، وليس فيه غرابة. وعلى هذا فالمجموعُ حالٌ، لا كلٌّ على الاستقلال.

وقيل: إنَّ كلًّا منهما حالٌ، والثاني تبشيرٌ ببلوغ سِنِّ الكهولة وتحديدٌ لعمره.

والمهدُ: مقرُّ الصَّبي في رضاعه، وأصلُه مصدرٌ سمِّي به، وكان كلامُه في المهد ساعةً واحدة بما قصَّ الله تعالى لنا، ثم لم يتكلَّم حتى بلغَ أوانَ الكلام؛ قاله ابن عباس. وقيل: كان يتكلَّم دائماً، وكان كلامه فيه تأسيساً لنبوَّته وإرهاصاً لها؛ على ما ذهب إليه ابن الإخشيد[1]، وعليه يكون قوله: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] إخباراً عمَّا يؤول إليه. وقال الجبائيُّ: إنَّه سبحانه أكمَل عقلَه عليه السلام إذ ذاك، وأوحى إليه بما تكلَّم به مقروناً بالنبوة.

وجوَّز أيضاً أن يكون ذلك كرامةً لمريم دالَّة على طهارتها وبراءةِ ساحتها مما نسَبَه أهلُ الإفك إليها. والقولُ بأنه معجزةٌ لها بعيد، وإنْ قلنا بنبوَّتها.

وزعمت النصارى أنه عليه السلام لم يتكلَّم في المهد ولم ينطق ببراءة أمِّه صغيراً، بل أقام ثلاثين سنةً واليهودُ تقذفُ أمُّه بيوسف النَّجار، وهذا من أكبر فضائحهم الصَّادِحة بردٍّ ماهم عليه من دعوى الألوهية له عليه السلام، وكذا تنقُّله في الأطوار المختلفة المتنافية؛ لأنَّ مَن هذا شأنه بمعْزلٍ عن الألوهية. واعترضوا بأنَّ كلامه في المهد من أعجب الأمور، فلو كان لنُقِل، ولو نُقل لكان النصارى أَولى الناسِ بمعرفته!

وأُجيبَ: بأن الحاضرينَ إذ ذاك لم يبلغوا مبلغَ التواتر، ولمَّا نقلوا كُذِّبوا، فسَكَتوا، وبقي الأمر مكتوماً إلى أن نطق القرآنُ به، وهذا قريبٌ على قول ابن عباس: إنه لم يتكلَّم إلا ساعةً من نهار، وعلى القول الآخَر ـ وهو أنه بقي يتكلَّم ـ

---

(١) أحمد بن علي بن بيغجور، أبو بكر، العلامة شيخ المعتزلة صاحب التصانيف، من كتبه: نقل القرآن، وكتاب المعونة في الأصول، توفي سنة (٣٢٦ هـ). السير ١٥/ ٢١٧. وقوله في مجمع البيان ٣/ ٨٣.

يقال: إنَّ الناس اشتغلوا بعدُ بنقل ما هو أعجبُ من ذلك من أحواله، كإحياء الموتى، وإبراءِ الأكمه والأبرص، والإخبارِ عن الغيوب، والخَلْقِ من الطين كهيئة الطير، حتى لم يَذكرِ التكلُّمَ منهم إلا النزرُ، ولا زال الأمر بقلَّةٍ حتى لم يبقَ مُخْبِرٌ عن ذلك[1]، وبقي مكتوماً إلى أن أظهره القرآن.

وبعد هذا كلِّه لك أن تقول: لا نسلِّم إجماعَ النصارى على عَدَم تكلُّمه في المهد، وظاهرُ الأخبار ـ وقد تقدم بعضُها ـ يشير إلى أنَّ بعضهم قائلٌ بذلك، وبفرضِ إجماعهم نهايةُ ما يلزم الاستبعادُ، وهو بعدَ إخبار الصادق لا يُسمِنُ ولا يُغني من جوع عند مَن رَسَخ إيمانُهُ، وقَوِيَ إيقانه، وكم أجمع أهل الكتابين على أشياء نطقَ القرآن الحقُّ بخلافها، والحقُّ أحقُّ بالاتِّباع، ولعلَّ مرامهم من ذلك ﴿أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

والكهلُ ما بين الشابِّ والشيخ، ومنه اكتهل النبتُ: إذا طال وقَوِيَ، وقد ذكر غيرُ واحدٍ: أنَّ ابنَ آدم ما دام في الرَّحم فهو جنين، فإذا وُلد فهو وليد، ثم ما دام يرضع فهو رَضيعٌ، ثم إذا قُطِع اللبن فهو فَطيم، ثم إذا دبَّ ونَمَا فهو دارِجٌ، فإذا بلغَ خمسة أشبار فهو خُماسي، فإذا سقطت رواضِعُه فهو مَثْغُور، فإذا نبتت أسنانه فهو مُثَّغِر ـ بالتاء والثاء[2] كما قال أبو عمرو ـ فإذا قاربَ عَشْرَ سنين أو جاوزها فهو مُتَرَعرِع وناشئ، فإذا كاد يبلغ الحلم أو بلَغه فهو يافع ومُرَاهق، فإذا احتلم واجتمعت قوَّته فهو حَزَوَّر، واسمه في جميع هذه الأحوال غُلام، فإذا اخضرَّ شاربُه وأخذ عِذارُه[3] يسيل قيل: قد بَقَل وجهُه، فإذا صار ذا فَتَاءٍ فهو فتى وشارخ، فإذا اجتمعت لحيته وبلغ غايةَ شبابه فهو مجتمع، ثم مادام بين الثلاثين والأربعين فهو شابٌّ، ثم كهلٌ إلى أن يستوفي الستين.

ويقال لمَن لاحت فيه أماراتُ الكِبَر: وَخَطَه الشَّيْبُ، ثم يقال: شابَ، ثم

---

(١) في الأصل: بذلك، بدل: عن ذلك.

(٢) وأصله اثْتَغَرَ، وهو افْتَعَل من الثَّغر، فمنهم مَن يقلب تاء الافتعال ثاءً ويدغم فيها الثاء الأصلية، ومنهم مَن يقلب الثاء الأصلية تاءً ويدغمها في تاء الافتعال. ينظر اللسان والتاج (ثغر).

(٣) عِذَار الغلام: جانب لحيته. المعجم الوسيط (عذر).

شَمِطَ[١]، ثم شاخ، ثم كَبُرَ، ثم هَرِم، ثم دَلَف[٢]، ثم خَرِف، ثم أُهْتِر، **ومحا ظلُّه**: إذا مات.

وهذا الترتيبُ إنَّما هو في الذكور، وأمَّا في الإناث فيقال للأنثى مادامت صغيرة: طفلة، ثم وليدة إذا تحرَّكت، ثم كاعِبٌ إذا كَعَبَ ثديُها، ثم ناهِدٌ، ثم مُعْصِرٌ إذا أدركت، ثم عانسٌ إذا ارتفعت عن حدِّ الإعصار، ثم خَوْدٌ إذا توسَّطت الشباب، ثم مُسْلِفٌ إذا جاوزت الأربعين، ثم نَصَفٌ إذا كانت بين الشباب والتعجيز، ثم شهلةٌ كهلةٌ إذا وجدت من الكبر وفيها بقيةٌ وجَلَد، ثم شَهْرَبَةٌ إذا عجزت وفيها تماسكٌ، ثم حيزبون إذا صارت عالية السِّنِّ ناقصةَ العقل، ثم قلعمٌ ولِطْلِطٌ إذا انحنى قدُّها وسقطت أسنانها.

وعلى ما ذكر في سن الكهولة يراد بتكليمه ـ عليه السلام ـ كهلاً تكليمُه لهم كذلك بعد نزوله من السماء، وبلوغه ذلك السنَّ؛ بناءً على ما ذهب إليه سعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وغيرهما: أنه عليه السلام رُفع إلى السماء وهو ابن ثلاث ثلاثين سنة، وأنه سينزلُ إلى الأرض ويبقى حيًّا فيها أربعاً وعشرين سنة، كما رواه ابن جرير بسندٍ صحيحٍ عن كعب الأحبار[٣]، ويؤيِّد هذا ما أخرجه ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال: قد كلَّمهم عيسى في المهد، وسيُكلِّمهم إذا قتل الدَّجال وهو يومئذٍ كهلٌ[٤].

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: ومعدوداً في عدَادِهم، وهو معطوف على الأحوال السابقة.

﴿قَالَتْ﴾ استئناف مبنيٌّ على السؤال، كأنه قيل: فماذا كان منها حين قالت لها الملائكة ذلك؟ فقيل: قالت: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ يحتمل أن يكون الاستفهامُ مجازيًّا، والمرادُ التعجُّبُ من ذلك والاستبعادُ العادي، ويحتمل أن يكون حقيقيًّا على معنى أنه يكون بتزوُّجٍ أو غيرِه.

---

(١) الشَّمَط: بياض الرأس يخالط سواده. القاموس (شمط).

(٢) دلف: مشى رويداً مُقارِبَ الخطْو كمشي المقيَّد، وهو فوق الدبيب. معجم متن اللغة (دلف).

(٣) تفسير الطبري ٥/ ٤٤٩.

(٤) تفسير الطبري ٥/ ٤١٤.

وقيل: يحتمل أن يكون استفهاماً عن أنه: من أيِّ شخصٍ يكون؟ وإعرابُ هذه الجملة على نحو إعراب الجملة السابقة في قصَّة زكريا عليه السلام.

﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ محقِّقةٌ لِما مرَّ ومقوِّيةٌ له، والمَسيسُ هنا كناية عن الوطء، وهذا نفيٌ عامٌّ للتزوُّج وغيره.

والبَشَرُ يطلَق على الواحد والجمع، والتنكيرُ للعموم، والمرادُ عمومُ النَّفي لا نفيُ العموم، وسمِّي بشراً لظهور بشرته، أو لأنَّ الله تعالى باشَرَ أباه وخلَقَه بيديه.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ كسابقه، والفاعلُ ضميرُ الرَّبِّ، والملَكُ حكى لها المَقُولَ ـ وهو قولُه سبحانه: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ـ إمَّا بلا تغيير فيكون فيه التفاتٌ، وإمَّا بتغيير. وقيل: إنَّ الله تعالى قال لها ذلك بلا واسطةِ ملكٍ. والأولُ مبنيٌّ على أنه تعالى لم يكلِّم غيرَ الأنبياء، بل غَيْرَ خاصَّتهم عليهم الصلاة والسلام.

وقيل: القائلُ جبريلُ عليه السلام، وليس على سبيل الحكاية، والقرينةُ عليه ذِكْرُ الملائكة ـ عليهم السلام ـ قبله، وحَمْلُ «ربِّ» ـ فيما تقدَّم ـ على ذلك أَبْعدُ بَعيدٍ.

وقد مرَّ عليك الكلام في مثل هذه الجملة، خلا أنَّ التعبير هنا بـ «يخلق» وهناك بـ «يفعل» لاختلاف القصَّتين في الغرابة، فإن الثانية أغرب، فالخلْقُ المُنْبِئُ عن الاختراع أنسبُ بها، ولهذا عقَّبه ببيان كيفيته فقال سبحانه: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي: أراد شيئاً، فالأمرُ واحدُ الأمور، والقضاءُ في الأصل: الإحكام، وأُطلق على الإرادة الإلهيةِ القَطْعيَّة المتعلِّقة بإيجاد المعدوم وإعدام الموجود، وسمِّيت بذلك لإيجابها ما تعلَّقت به البتة، ويطلق على الأمر، ومنه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: ٢٣].

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ أي: فهو يكون، أي: يحدث، وهذا عند الأكثرين تمثيلٌ لتأثيرِ قدرته في مراده بأمرِ المُطاع للمطيع في حصول المأمورِ من غير امتناعٍ وتوقُّفٍ وافتقارٍ إلى مزاولةِ عملٍ واستعمالِ آلةٍ، فالممثَّل: الشيءُ المكوَّن بسرعةٍ من غير عملٍ وآلة، والممثَّلُ به: أمرُ الآمرِ المُطاع لمأمورٍ به مطيعٍ على الفور[1]، وهذا اللَّفظُ مستعارٌ لذلك منه.

---

(١) في الأصل: على سبيل الفور.

وأنت تعلم أنه يجوز فيه أن يكون حقيقةً بأن يُراد تعلُّقُ الكلامِ النفسيِّ بالشي الحادث على أن كيفية الخَلْق على هذا الوجه.

وعلى كِلا التقديرين المرادُ من هذا الجوابِ بيانُ أنَّ الله تعالى لا يُعجزه أن يَخْلُق ولداً بلا أب، لأنه أمرٌ ممكنٌ في نفسِه، فيصحُّ أن يكون متعلَّقَ الإرادة والقدرة. كيف لا، وكثيراً ما نشاهد حدوثَ كثيرٍ من الحيوانات على سبيل التولُّد، كحدوث الفأر عن المَدَر، والحيَّات عن الشعر المتعفِّن، والعقارب عن الباذروج[1]، والذباب عن الباقلاء، إلى غير ذلك، غايته الاستبعادُ، وهو لا يوجب ظنّاً فضلاً عن علْمٍ، وبعدَ إخبار الصادقِ عن وجود ذلك الممكنِ يجبُ القطع بصحَّته.

والقول: بأنَّ المادَّة فيما عُدَّ ونحوِه موجودةٌ، وبعدَ وجودها لا ريب في الإمكان دون ما نحن فيه؛ لأن مادة الآدميِّ مَنِيَّان، وليس هناك إلا مَنيٌّ واحدٌ، أو لا منيَّ أصلاً، فكيف يُمكن الخلق؟ ليس بشيء؛ أمَّا على مذهبنا: فلأنَّ الإيجاد لا يتوقف على سبق المادة، وإلا لتسلسل الأمرُ، وأمَّا على مذهب المنكرين: فيجوز أن يكون منيُّ الأنثى بنفسه، أو بما ينضمُّ إليه ممَّا لا يعلمه إلا الله تعالى، بحالةٍ يَصلح أن يكون مادةً، وقصارى ما يلزم من ذلك الاستبعادُ، وهو لا يُجدي نفعاً في أمثال هذه المقامات.

ويجوز أيضاً أن يقيم الله تعالى غير المنيِّ مقامَ المنيِّ، وأيُّ مُحالٍ يلزمُ من ذلك؟ ألا ترى كيف أقيم التراب مقامَ المنيِّ في أصل النوع؟

ودعوى أنَّ الإقامة مشروطة بكون ذلك الغيرِ خارجَ الرَّحِم، وأمَّا الإقامةُ في الرَّحم فممّا لا إمكان لها، غيرُ بيِّنةٍ ولا مبينة، بل العقلُ لا يفرِّق بين الأمرين في الإمكان، وإنما يفرِّق بينهما في موافقة العادة وعدمها، وهو أمرٌ وراءَ ما نحن فيه.

ومن الناس[2] مَن بيَّن هذا المطلبَ: بأنَّ التخيُّلات الذهنيةَ كثيراً ما تكون

---

(١) في الأصل و(م): البادورج، والمثبت من غرائب القرآن للنيسابوري ٣/ ١٩٣، وعنه نقل المصنف، وتفسير الرازي ٨/ ٥١ والكلام فيه بنحوه. وما ذكروه مخالف لحقائق العلم فلا يصح الاحتجاج به. والباذروج نبات. ينظر المعتمد ليوسف بن عمر ص ١٤، واللسان (حبق) و(حوك) و(صمر).

(٢) هو النيسابوري في غرائب القرآن ٣/ ١٩٣.

أسباباً لحدوث الحوادث، كتصوُّر حضور المنافي للغضب، وكتصوُّر السُّقوط لحصول(١) السقوط للماشي على جِذعٍ ممدودٍ فوق فضاء، بخلافه لو كان على قرار من الأرض، وقد جعلت الفلاسفةُ هذا كالأصل في بيان جواز المعجزات والكرامات، فما المانعُ أن يقال: إنَّها لمَّا تخيَّلت صورةَ جبريل، كفى ذلك في عُلوق الولد في رحمها؛ لأنَّ منيَّ الرجل ليس إلَّا لأَجلِ العَقْد، فإذا حصل الانعقادُ لمنيِّ المرأة بوجهٍ آخر أمكن علوقُ الولد. انتهى.

وليس بشيءٍ؛ لأنه يعود بالنقص لحضرة البتول، وإنها لَتُنَزَّه ساحتُها عن مثل هذا التخيُّل كما لا يخفى، وفي جواب هذه الطاهرة ليوسف النجار ما يؤيِّد ما قلناه؛ فقد أخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر(٢)، عن وهب أنَّه قال: لمَّا استقرَّ حملُ مريم وبشَّرها جبريل وَثِقتْ بكرامة الله تعالى، واطمأنَّت وطابت نفساً، وأولُ مَن اطَّلع على حمْلِها ابنُ خالٍ لها يقال له يوسف، واهتمَّ لذلك وأَحْزَنَه، وخَشِي البليَّةَ منه؛ لأنه كان يخدمها، فلمَّا رأى تغيُّرَ لونها وكِبَرَ بطنِها عظُمَ عليه ذلك، فقال معرِّضاً لها: هل يكون زَرْعٌ من غيرِ بَذْرٍ؟! قالت: نعم. قال: وكيف يكون ذلك؟ قالت: إنَّ الله تعالى خلَق البذرَ الأولَ من غير نباتٍ، وأنبت الزرعَ الأول من غيرِ بَذرٍ، ولعلَّك تقول: لَمْ يَقْدِرْ أن يَخْلُق الزرعَ الأول إلَّا بالبذر؟ ولعلَّك تقول: لولا أن استعان الله تعالى عليه بالبذر لغلبه، حتى لا يقدر على أن يَخلقه ولا يُنْبِته؟ قال يوسف: أعوذ بالله أن أقولَ ذلك، قد صَدَقْتِ وقلتِ بالنورِ والحِكَم، وكما قَدَرَ أن يخلُق الزرع الأولَ ويُنبتَه من غيرِ بذرٍ يَقْدِرُ أن يجعل زرعاً من غير بذر، فأخبريني: هل يَنْبُتُ الشجرُ من غير ماءٍ ولا مطر؟ قالت: ألم تعلم أنَّ للبذر والماء والمطر والشجر خالقاً واحداً؟ فلعلَّك تقول: لولا الماءُ والمطر لم يقدر على أن يُنْبِتَ الشجرَ؟ قال: أعوذ بالله أن أقولَ ذلك، قد صَدَقْتِ فأخبريني خَبَرَكِ، قالت: بشَّرني اللهُ تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فعلم يوسف أنَّ ذلك أمرٌ من الله تعالى لسببِ خيرٍ أراده بمريم، فسَكَت عنها، فلم تَزَلْ على ذلك حتى ضربها الطَّلْق، فنوديت: أن اخرجي من المحراب، فخرجت.

---

(١) في (م): بحصول، والمثبت من الأصل، وهو الموافق لما في غرائب القرآن.

(٢) في تاريخه ٧٠/ ٨٩.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ عطفٌ على «يبشِّركِ»، أي: إنَّ الله يبشِّرُكِ بكلمة، ويُعلِّم ذلك المولودَ المعبَّرَ عنه بالكلمة الكتابَ، ولا يَرِدُ عليه طولُ الفَصْلِ؛ لأنَّه اعتراضٌ لا يضرُّ مثلُه. أو على «يخلق» أي: كذلك اللهُ يخلق ما يشاء ويعلِّمه. أو على «يكلِّم» فتكون في محلِّ نصبٍ على الحال، والتقدير: يبشِّركِ بكلمةٍ مكلماً للناس ومعلِّماً الكتابَ. أو على «وجيهاً».

وجوِّز أن تكون جملةً مستأنفةً ليست داخلةً في حيِّز قولِ الملائكة عليهم السلام، والواو تكونُ للاستئناف وتقع في ابتداء الكلام كما صرَّح به النحاةُ، فلا حاجة ـ كما قال الشِّهاب[1] ـ إلى التأويل بأنها معطوفةٌ على جملةٍ مستأنفةٍ سابقةٍ، وهي «وإذ قالت» إلخ، ولا إلى مقدَّرة، ولا إشكالَ في العطف كما قال النِّحرير، وكذا لا يُدَّعَى أنَّ الواو زائدة، كما قال أبو حيان[2].

فهذه أوجُهٌ من الإعراب مختلفةٌ بالأولوية، وأغربُ ما رأيتُه ما نقلَه الطبرسيُّ عن بعضهم: أنَّ العطف على جملة «نوحيه إليك»[3]، بل لا يَكادُ يَستَطِيبهُ مَن سَلِم له ذوقُه.

و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مصدرٌ بمعنى الكتابة، أي: يعلِّمه الخط باليد؛ قاله ابن عباس، وإليه ذهب ابن جريج، ورُوي عنه أنه قال: أعطى اللهُ تعالى عيسى عليه السلام تسعةَ أجزاءٍ من الخط، وأعطى سائرَ الناس جزءاً واحداً.

وذهب أبو عليٍّ الجبائيُّ إلى أنَّ المراد بعضُ الكتب التي أنزلها اللهُ تعالى على أنبيائه عليهم السلام سوى التوراةِ والإنجيل، مثل الزبورِ وغيرِه[4].

وذهب كثيرون: إلى أنَّ «أل» فيه للجنس، والمراد جنس الكتب الإلهية. إلَّا أنَّ المأثور هو الأول.

والقولُ بأن المراد بالكتب الجنسُ، لكنْ في ضمن فردَيْن هما التوراةُ

---

(١) في الحاشية ٣/ ٢٧.
(٢) في البحر ٢/ ٤٦٣، والكلام من حاشية الشهاب ٣/ ٢٧.
(٣) مجمع البيان ٣/ ٨٥، ولم يُجزْه الطبرسي لأنها ـ كما قال ـ تخرج من معنى البشارة لمريم.
(٤) مجمع البيان ٣/ ٨٦.

والإنجيل، وتُجعل الواو فيما بعدُ[١] زائدةً مقحَمةً، وما بعدها بدلاً أو عطفَ بيان = من الهذيان بمكان.

وقرأ أهل المدينة وعاصمٌ ويعقوب وسهل: «ويعلِّمه» بالياء[٢]، والباقون بالنون، قيل: وعلى ذلك لا يَحْسنُ بعض تلك الوجوهِ إلا بتقديرِ القول، أي: إنَّ الله يبشِّركِ بعيسى ويقول: «نعلمه»، أو: وجيهاً ومَقولاً فيه: نعلِّمه الكتاب.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: الفقهَ وعلمَ الحلالِ والحرام؛ قاله ابن عباس. وقيل: جميعَ ما عُلِّمه من أمور الدِّين، وقيل: سنَن الأنبياء عليهم السلام. وقيل: الصوابَ في القول والعمل، وقيل إتقانَ العلوم العقلية، وقد تقدَّم الكلام على ذلك.

﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ أُفردا بالذِّكر على تقديرِ أنْ يُراد بالكتاب ما يشملهما؛ لوفورِ فَضْلِهما وسموِّ شَأْوِهما على غيرهما.

وتعليمُه ذلك قيل: بالإلهام، وقيل: بالوحي، وقيل: بالتوفيق والهداية للتعلُّم. وقد صحَّ أنه عليه السلام لمَّا ترَعْرَع ـ وفي روايةِ الضَّحَّاك عن ابن عباس: لمَّا بلَغ سبعَ سنين ـ أَسْلَمتْه أمَّه إلى المعلِّم، لكن الروايات متضافرة أنه جعَل يسألُ المعلِّمَ كلمَّا ذكَر له شيئاً عمَّا هو بمعزلٍ عن أن ينبض فيه ببنتِ شَفَةٍ، وذلك يؤيِّد أنَّ عِلْمَه مَحْضُ موهبةٍ إلهيةٍ وعطيةٍ ربَّانية.

وذكر «الإنجيل» لكونه كان معلوماً عند الأنبياء والعلماء، متحقِّقاً لديهم أنه سينزل.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ منصوبٌ بمضمَرٍ يَجرُّ إليه المعنى معطوفاً على «نعلِّمه»، أي: ونجعلُه رسولاً، وهو الذي اختاره أبو حيان[٣]، وقيل: أنه منصوبٌ بمضمرٍ معمولٍ لقولٍ مضمرٍ معطوفٍ على «يعلِّمه»، أي: ويقول عيسى: أُرسلتُ رسولاً، ولا يَخْفَى أنَّ عطفَ هذا القول على «يعلِّمه» إذا كان مستأنفاً ممَّا ليس فيه كثيرُ بأسٍ، وأمَّا على تقديرِ عَطْفِه على «يبشرك» أو «يخلق» فقد طعن فيه العلَّامة التفتازاني بأنه يكون التقدير: إنَّ الله يبشِّركِ ـ أو: إنَّ الله يخلق ما يشاء ـ ويقولُ

---

(١) يعني في قوله: «والتوراة». البحر ٢/ ٤٦٣.

(٢) التيسير ص ٨٨، والنشر ٢/ ٢٤٠ عن عاصم ونافع وأبي جعفر ويعقوب.

(٣) في البحر ٢/ ٤٦٤-٤٦٥.

عيسى كذا، وفيه العطف على الخبر، ولا رابطَ بينهما إلا بتكلُّفٍ عظيمٍ. وفي «البحر»[(١)]: أنَّ هذا الوجهَ مطلقاً ضعيفٌ؛ إذ فيه إضمارُ شيئين: القولُ ومعمولُهُ، والاستغناءُ عنهما باسمٍ منصوب على الحال المؤكِّدة.

واختار بعضُهم عَطْفَه على الأحوال المتقدِّمة مضمَّناً معنى النُّطْقِ، فلا يضرُّ كونُها في حكم الغيبة مع كونِ هذا في حكم التكلُّم؛ إذ يكون المعنى: حالَ كونه وجيهاً ورسولاً ناطقاً بكذا.

والرسول على سائر التقادير صفةٌ كشَكُور وصَبور، وفَعول هنا بمعنى مُفْعَل. واحتمالُ أنَّ يكون مصدراً كما قال أبو البقاء[(٢)] ـ مثلُه في قول الشاعر:

[أَلَا] أبْـلِـغْ أَبَـا سَـلْـمـى رسـولاً تَـرُوعُـه[(٣)]

ويُجعل معطوفاً على «الكتاب» أي: ويعلِّمه رسالةً ـ بعيدٌ لفظاً ومعنًى؛ أمَّا الأول: فلِإنَّ المتبادر الوصفيةُ لا المصدرية. وأما ثانياً: فلأنَّ تعليم الرسالة ممَّا لا يكاد يوجد في كلامهم.

والظرف إمَّا متعلِّق بـ «رسولاً»، أو بمحذوفٍ وقع صفة له، أي: رسولاً كائناً إلى بني أسرائيل، أي: كلِّهم. قيل: وتخصيصُهم بالذِّكر للإيذان بخصوصِ بعثته، أو للرَّد على مَن زعَم من اليهود أنه مبعوثٌ إلى غيرهم.

ولي في نسبة هذا الزعم لبعض اليهود تردُّدٌ، وليس ذلك في الكتب المشهورة، والذي رأيناه فيها أنهم في عيسى الذي قصَّ اللهُ تعالى علينا من أمره ما قصَّ فرقتان:

فرقةٌ ترميه ـ وحاشاه ـ بأفظع ما رَمَتْ به أمَّةٌ نبيَّها، وهم أكثر اليهود.

---

(١) ٢/ ٤٦٤.

(٢) في الإملاء ٢/ ٦٨.

(٣) وعجزه: ولو حلَّ ذا سدرٍ وأهلي بعَسْجَل، والبيت للعباس بن مرداس السلمي، كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٤٣٣، ومعجم البلدان ٤/ ١٢١، ومعجم ما استعجم ٣/ ٩٢١ وما بين حاصرتين منه، وفيه: بعثجل، بدل بعسجل. قال المرزوقي: يقول: أدِّ إلى أبي سلمى رسالة تفزِّعه، على ما بيننا من البعد، وذو سِدْرٍ موضع فيه السِّدر، وعَسْجَل موضع من حرَّة بني سليم، وبينهما مسافة بعيدة.

وفرقةٌ يقال لهم العنَانيَّة أصحاب عنان بن داود رأس الجالوت[١]، يصدِّقونه في مواعظه وإشاراته، ويقولون: إنَّه لم يخالف التوراةَ البتة، بل قرَّرها ودعا الناسَ إليها، وإنَّه من المستجيبين لموسى عليه السلام، ومن بني إسرائيل المتعبِّدين [بالتوراة] وليس برسولٍ ولا نبيٍّ، ويقولون: إنَّ سائر اليهود ظلَموه: حيث كذَّبوه أولاً ولم يعرفوا مُدَّعاه، وقتلوه آخِراً ولم يعرفوا مرامه ومَغْزَاه.

نعم: من اليهود فرقةٌ يقال لهم العيسوية ـ أصحاب أبي عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهانيِّ، الذي يسمِّيه بعضُهم بعوفيد[٢] ألوهيم ـ يزعمون أنَّ الله تعالى رسولاً بعد موسى عليه السلام يسمى المسيح، إلا أنه لم يأت بعد، ويدَّعون أنَّ له خمسةً من الرُّسل يأتون قبلَه واحداً بعد واحدٍ، وأنَّ صاحبهم هذا أحدُ رسله.

وكلٌّ من هذه الأقوال بعيدٌ عمَّا ادَّعاه صاحبُ القيلِ بمراحل، ولعلَّه وجد ما يُوافق دعواه، ومَن حَفِظ حجَّةٌ على مَن لم يَحْفَظ.

هذا واختُلف في زمن رسالته عليه السَّلام، فقيل: في الصِّبا وهو ابن ثلاثِ سنين. وفي «البحر»: أن الوحي أتاه بعدَ البلوغ وهو ابنُ ثلاثين سنة، فكانت نبوَّتُه ثلاثَ سنين، قيل: وثلاثةَ أشهرٍ وثلاثةَ أيام، ثم رُفع إلى السماء، وهو القولُ المشهور. وفيه: أنَّ أول أنبياءِ بني إسرائيل يوسف، وقيل: موسى، وآخرهم عيسى على سائرهم أفضل الصلاة وأكمل السلام[٣].

---

(١) رأس الجالوت هو رئيس اليهود، كما أن الأسقف رأس النصارى، والموبذ رأس المجوس. ثمار القلوب للثعالبي ص ٣٢٢، والعنانية فرقة تخالف سائر اليهود في السبت والأعياد وينهون عن أكل الطير والظباء والسمك والجراد، ويذبحون الحيوان على القفا. الملل والنحل ١/ ٢١٥، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٢) في الأصل و(م): بعرقيد، والمثبت من الملل والنحل، ومعنى عوفيد ألوهيم: عابد الله. وإسحاق بن يعقوب كان في زمن المنصور، وقد اتبعه بشر كثير من اليهود، وادّعوا له آيات ومعجزات، وزعم أنه نبي، وأنه رسول المسيح المنتظر، وقيل: إنه قتل مع أصحابه لما حارب أصحاب المنصور بالري. الملل والنحل ١/ ٢١٥ ـ ٢١٦.

(٣) البحر ٢/ ٤٦٥.

وقرأ اليزيدي: «ورسولٍ» بالجرِّ[١] على أنَّه معطوفٌ على «كلمة»، أي: يبشِّركِ بكلمةٍ وبرسول.

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم﴾ معمولٌ لـ «رسولاً»؛ لِمَا فيه من معنى النُّطق، وجوَّز أبو البقاء[٢] كونَه معمولاً لمحذوفٍ وقع صفةً لـ «رسولاً»، أي: رسولاً ناطقاً - أو مُخْبِراً - بأني، وكونَه بدلاً من «رسولاً» إذا جعلته مصدراً، أي: ونعلِّمه أنِّي قد جئتكم، أو خبراً لمبتدأ محذوفٍ على تقدير المصدرية أيضاً، أي: هو أنِّي، فالمُنْسَبِكُ إمَّا في محلِّ جرٍّ أو نصبٍ أو رفع.

وقولُه تعالى: ﴿بِئَايَةٍ﴾ في موضع الحال، أي: محتجًّا أو مُلْتبساً بآية، أو متعلِّقٌ بـ «جئتكم» والباء للمُلابَسَة أو للتعدية، والتنوين للتفخيم دون الوحدة لظهور ما ينافيها[٣] وقرئ: «بآيات»[٤].

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «آيةٍ»، وجوِّز تعلُّقه بـ «جئتُ»، و«من» في التقديرين لابتداء الغاية مَجازاً. والتعرُّضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين؛ لتأكيد إيجابِ الامتثالِ لِمَا سيأتي من الأوامر، أو لأنَّ وصف الربوبية يناسبُ حالَ الإرسال إليهم.

﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ﴾ بدلٌ من قوله سبحانه: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم﴾، أو من «آية»، أو منصوبٌ على المفعولية لمحذوفٍ، أي: أعني، أو مرفوعٌ على أنه خبرٌ لمقدَّرٍ، أي: هي أني... إلخ. وقرأ نافع: «إني» بكسر الهمزة على الاستئناف[٥].

والمرادُ بالخلق: التصوير والإبراز على مقدارٍ معيَّن، لا الإيجادُ من العدم كما يشير إليه ذكر المادة.

---

(١) القراءات الشاذة ص ٢٠.
(٢) في الإملاء ٢/ ٢٩.
(٣) أي: ما ينافي الوحدة، وهو تعدُّد الآيات وكثرتها. ينظر تفسير أبي السعود ٢/ ٣٨.
(٤) القراءات الشاذة ص٢٠-٢١ عن ابن مسعود ﷺ.
(٥) التيسير ص٨٨، والنشر ٢/ ٢٤٠.

والهيئة مصدرٌ بمعنى المُهيَّأ، كالخلق بمعنى المخلوق. وقيل: إنها اسمٌ لحال الشيء وليست مصدراً، وإنما المصدرُ التهيُّؤ والتَّهييءُ[1]، فهي على الأول جوهرٌ وعلى الثاني عَرَضٌ، وفسروها بالكيفية الحاصلة من إحاطة الحد الواحدِ أو الحدود بالجسم، والمعنى: أني أقدِّر ـ لأُجْل تحصيل إيمانكم، ودفعِ تكذيبكم إياي ـ من الطين شيئاً مثل الطير المهيَّأ، أو هيئةً كائنةً كهيئته.

والكاف إمَّا اسمٌ ـ كما ذهب إليه أبو الحسن[2] ـ في موضع نصبٍ على المفعولية لـ «أخلق»، أو نعت لمفعولٍ محذوفٍ له[3]. وإما حرفٌ ـ كما ذهب إليه الجمهور ـ فتتعلق بمحذوفٍ وقع نعتاً أيضاً لِمَا وقع هو نعتاً له على تقدير الاسمية. وقرأ يزيد وحمزةُ: «كهيَّة» بتشديد الياء[4]. وكان ابن المقسم يقول: بلغني أنَّ خلفاً يقول: إنَّ حمزة يترك الهمزة ويحرِّك الياء بحركتها. وقرأ أهل المدينة ويعقوب: «الطائر» ومثله في «المائدة»[5].

﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للهيئة المقدَّرة في نظم الكلام، لكن بمعنى الشيء المهيَّأ، لا بمعنى العرَض القائم به؛ إذ لا يصحُّ أن يكون ذلك محلًّا للنفخ، وذكَّر الضمير هنا مراعاةً للمعنى كما أنَّث في المائدة مراعاةً للَّفظ، قيل: وصحَّ هذا لعدم الالتباس[6]، ووقع في كلام غير واحدٍ كونُ الضمير للكاف بناءً على أنها اسم، ويعود ذلك في الحقيقة إلى عَوْد الضمير إلى الموصوف بها، واعترضه ابنُ هشام[7]: بأنه لو كان كما زعموا لسُمع في الكلام: مررتُ بكالأسَدِ. وبعضهم[8]: بأنَّ عود الضمير إليها غيرُ معهود. وقرئ: «فيها»[9].

---

(١) في (م): الهيء والتهيؤ. وينظر الدر المصون ٣/ ١٩٢، واللباب في علوم الكتاب ٥/ ٢٤٢.
(٢) هو الأخفش، كما في الدر المصون ٣/ ١٩٣.
(٣) أي: لـ «أخلق»، والتقدير: أني أخلق لكم هيئة مثل هيئة الطير. الدر المصون ٣/ ١٩٢.
(٤) هي قراءة حمزة وقفاً، كما في التيسير ص٣٩ ـ ٤٠، ويزيد هو ابن القعقاع أبو جعفر والقراءة عنه في النشر ١/ ٤٠٥.
(٥) وهي قراءة أبي جعفر وحده من العشرة، كما في النشر ٢/ ٢٤٠.
(٦) في (م): الإلباس.
(٧) في المغني ص٢٣٩.
(٨) هو الشهاب في الحاشية ٣/ ٢٨.
(٩) تفسير أبي السعود ٢/ ٣٩.

﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ حيّاً طيّاراً كسائر الطيور. وقرأ المفضل: «فتكون» بتاء التأنيث[١]، ويعقوب وأبو جعفر ونافع: «طائراً»[٢].

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ «يكون»، أو بـ «طيراً»، والمراد: بأمر الله، وأشار بذلك إلى أنَّ إحياءه من الله تعالى، ولكن بسبب النفخ. وليس ذلك لخصوصيةٍ في عيسى عليه السلام، وهي تكوُّنُه من نَفْخِ جبريل عليه السلام، وهو روحٌ محضٌ ـ كما قيل[٣] ـ بل لو شاء الله تعالى الإحياءَ بنفخِ أيِّ شخصٍ كان، لَكان من غير تخلُّفٍ ولا استعصاء. قيل: وفي هذه المعجزة مناسبةٌ لخلْقِه من غير أبٍ.

واختلف هل كان ذلك بطلبٍ واقتراح، أم لا؟ فذهب المعْظَمُ إلى الأول؛ قالوا: إنَّ بني إسرائيل طلَبوا منه على سبيل التعنُّت ـ جرياً على عادتهم مع أنبيائهم ـ أن يخلق لهم خفاشاً، فلمَّا فعل قالوا: ساحرٌ. وإنما طلبوا هذا النوعَ دون غيره لأنه أكملُ الطير خلقاً، وأبلغ دلالةً على القدرة؛ لأنَّ له ناباً وأسناناً، ويَحيضُ ويلد، ويطير بغير ريش، وله آذان وثَدْيٌ وضَرْعٌ يخرج منه اللبَن، ويُرى ضاحكاً كما يضحكُ الإنسان، ولا يبصر في ضوء النهار، ولا في ظلمة الليل، وإنّما يرى في ساعتين: بعد غروب الشمس ساعة، وبعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يُسفر جدّاً.

والمشهورُ أنه لم يخلُق غير الخفاش، وأخرجه أبو الشيخ عن ابن عباس[٤]. قال وهب: كان يطيرُ ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً؛ ليتميَّز عن خلقِ الله تعالى بلا واسطة. وقيل: خلق أنواعاً من الطير.

وذهب بعضهم إلى الثاني، فقد أخرج ابنُ جرير[٥] عن ابن إسحاق: أن عيسى عليه السلام جلس يوماً مع غِلْمانٍ من الكتَّاب، فأخذ طِيناً ثم قال: أجعلُ لكم من هذا الطِّين طائراً؟ قالوا: أو تستطيعُ ذلك؟! قال: نَعَم، بإذن ربِّي. ثم هيَّأه حتى إذا

---

(١) لم نقف عليها.

(٢) التيسير ص٨٨، والنشر ٢/ ٢٤٠.

(٣) هو قول الرازي في تفسيره ٨/ ٦٠.

(٤) كما في الدر المنثور ٢/ ٣٢.

(٥) في تفسيره ٥/ ٤١٩.

جعله في هَيْئة الطائر نفخ فيه، ثم قال: كُنْ طائراً بإذن الله تعالى، فخرَج يطير من بين كَفّيه، وخرج الغِلْمانُ بذلك من أَمْرِه، فذكروه لمعلِّمهم وأَفْشَوه في الناس.

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ عطفٌ على «أَخْلُق»، فهو داخلٌ في حيِّز «أنِّي». والأكمهُ: هو الذي وُلد أعمى، أخرجه ابنُ جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس[1].

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عطاءٍ عنه: أنَّه الممسوحُ العين[2]، الذي لم يُشقَّ بصرُه، ولم يُخلق له حَدَقة. قيل: ولم يكن في صَدر هذه الأُمة أكمهُ بهذا المعنى غير قتادة بن دعامة السَّدُوسيِّ صاحبِ التفسير.

وعن مجاهد: أنَّه الذي يُبصر بالنهار ولا يبصر بالليل. وعن عكرمةَ: أنه الأعمش[3].

أي: أُخلِّص الأكمَهَ من الكَمَه ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ وهو الذي به الوَضَحُ المعروف، وتخصيصُ هذَيْن الأمرين لأنَّهما أمران مُعْضِلان أعْجَزا الأطباء، وكانوا في غاية الحذاقة مع كثرتهم في زَمَنِه، ولهذا أراهم اللهُ تعالى المعجزةَ من جنس الطِّب، كما أرى قومَ موسى عليه السلام المعجزة بالعصا واليدِ البيضاء، حيث كان الغالبُ عليهم السِّحر، والعربَ المعجزةَ بالقرآن حيث كان الغالبُ عليهم عصْرَ رسول الله ﷺ البلاغة.

والاقتصارُ على هذيْن الأمرَيْن لا يدلُّ على نفي ما عداهما، فقد روي أنَّه عليه السَّلام أبرأ أيضاً غيرهما، وروي عن وهب أنه ربَّما اجتمع على عيسى عليه السلام من المَرْضى خمسون ألفاً، مَن أطاق منهم أن يَبلغه بلَغه، ومَن لم يُطِق ذلك منهم أتاه عيسى عليه السلام فمَشَى إليه، وكان يُداويهم بالدعاء إلى الله تعالى بشرط الإيمان.

وكان دعاؤه الذي يَدعو به للمرضى والزَّمنى والعميان والمجانين وغيرهم: اللهمَّ أنت إلهُ مَن في السماء وإلهُ مَن في الأرض، لا إلهَ فيهما غيرُك، وأنت جبَّارُ مَن في السماء وجبارُ مَن في الأرض، لا جبَّارَ فيهما غيرُك، وأنت مَلِكُ مَن في السماء وملك

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٤٢٢.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦٥٥.

(٣) أخرجهما الطبري ٥/ ٤٢١ و٤٢٣، وابن أبي حاتم ٢/ ٦٥٥.

مَن في الأرض، لا ملكَ فيهما غيرُك، قدرتُك في الأرض كقدرتك في السماء، وسلطانُك في الأرض كسلطانك في السماء، أسألُك باسمك الكريم، ووجهِك المنير، وملكك القديم، إنك على كلِّ شيء قدير. ومن خواصِّ هذا الدعاء ـ كما قال وهب ـ أنه إذا قرئ على الفَزِع والمجنون، وكُتب له وسُقي منه، نَفَع إن شاء الله تعالى.

﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ عطفٌ على خبر «أنّي»، وقيَّد الإحياءَ بالإذن كما فعل في الأول؛ لأنَّه خارِقٌ عظيم يكادُ يُتوهَّم منه ألوهيةُ فاعِلِه؛ لأنه ليس من جنس أفعال البشر. وكان إحياؤه بالدعاء، وكان دعاؤه: يا حي يا قيوم.

وخبرُ: أنه كان إذا أراد أن يحيي الموتى صلى رَكعتين، يقرأ في الأولى: تبارك الذي بيده الملك، وفي الثانية: تنزيل «السجدة»، فإذا فرَغ مدَح اللهَ تعالى وأثنى عليه، ثم دعا بسبعة أسماء: يا قديم، يا خفيُّ، يا دائمُ، يا فَرْدُ، يا وِتْرُ، يا أحدُ، يا صَمَد = قال البيهقي: ليس بالقوي[(١)].

وقيل: إنَّه كان إذا أراد أن يُحيي ميتاً ضرَب بعصاه الميت، أو القبرَ، أو الجمجمة، فيحيا بإذن الله تعالى، ويكلِّمه ويموت سريعاً.

وأخرج مُحيي السُّنة[(٢)] عن ابن عباس أنه قال: قد أحيا عليه السَّلام أربعةَ أنفس: عازر[(٣)] وابنَ العجوز وابنةَ العاشِرِ وسامَ بنَ نوح، فأمَّا عازر فكان صَديقاً له، فأرسلت أختُه إلى عيسى: أنَّ أخاك عازر مات، وكان بينه وبين عازر مسيرةُ ثلاثة أيام، فأتاه هو وأصحابه، فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام، فقال لأخته: انطلقي بنا إلى قبره، فانطلقت معهم إلى قبره، فدعا اللهَ تعالى عيسى، فقام عازر ووَدَكُهُ يَقْطُر، فخرج من قبره وبقي زماناً ووُلِد له.

---

(١) الأسماء والصفات (١٦١)، وهو من طريق محمد بن طلحة عن رجل قال... وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٤١ من طريق محمد بن طلحة بن مصرف، عن أبي بشر، عن أبي الهذيل قوله. قال ابن كثير عند تفسير الآية (١١٠) عن سورة المائدة: وهذا أثر عجيب جداً.

(٢) هو البغوي في تفسيره ١/ ٣٠٣، وقد ذكره دون إسناد، وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٣٩٦ دون نسبة.

(٣) قيده صاحب القاموس (عزر) على وزن هاجر.

وأمَّا ابنُ العجوز فمُرَّ به ميتاً على عيسى عليه السلام على سريرٍ يُحمل، فدعا اللهَ تعالى عيسى، فجلس على سريره، ونزل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه، وحمل السريرَ على عنقه، ورجع إلى أهله فبقي زماناً ووُلد له.

وأمَّا ابنةُ العاشِرِ فكان أبوها رجلاً يأخذ العشور ماتت له بنتٌ بالأمس، فدعا اللهَ تعالى وأحياها، وبقيت زماناً ووُلد لها.

وأمَّا سام بن نوح فإنَّ عيسى عليه السلام جاء إلى قبره، فدعا باسم الله تعالى الأعظم، فخرج من قبره وقد شاب نصفُ رأسه خوفاً من قيام السَّاعة، ولم يكونوا يَشيبون في ذلك الزَّمان، فقال: أَقَدْ قامت الساعةُ؟ قال: لا، ولكن دعوتُك باسم الله تعالى الأعظم. ثم قال له: مُتْ، قال: بشرطِ أن يعيذني اللهُ تعالى من سكَرَات الموت. فدعا اللهَ تعالى له، ففعل.

وفي بعض الآثار: أنَّ إحياءه ساماً كان بعد قولهم له عليه السلام: إنك تُحيي مَن كان قريبَ العهد من الموت، ولعلَّهم لم يموتوا بل أصابتهم سكتةٌ، فأحْيِ لنا سام بنَ نوحٍ. فأحياه، وكان بينه وبين موته أكثرُ من أربعة آلاف سنة، فقال للقوم: صدِّقوه فإنَّه نبيٌّ، فآمَنَ به بعضُهم وكذَّبه آخرون، فقالوا: هذا سحرٌ فأرِنا آيةً. فنبَّأهم بما يأكلون وما يدَّخرون[1].

وقد وَرَد أيضاً أنه عليه السلام أحيا ابن ملِكٍ ليستخلِفَه في قصَّة طويلة، وأحيا خِشْفاً[2] وشاةً وبقرة. ولفظ «الموتى» يعمُّ كلَّ ذلك.

﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ «ما» في الموضعين موصولةٌ، أو نكرةٌ موصوفة، والعائدُ محذوف، أي: تأكلونه وتدَّخرونه، والظرفُ متعلِّق بما عنده وليس من باب التنازع.

والادِّخارُ: الخَبْءُ، وأصلُ «تدَّخرون»: تَذْتَخِرون بذالٍ مُعجَمةٍ فتاءٍ، فأُبْدِلتْ التاءُ دالاً، ثم أُبدلت الذَّالُ دالاً وأُدغِمَتْ، ومن العرب مَن يقلب التاء ذالاً ويُدْغِم.

---

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٢٦٩.

(٢) هو ولد الظبي أول ما يولد، أو أول مشيه. القاموس (خشف).

وقد كان هذا الإخبارُ بعد النبوة وإحيائه الموتى عليه السلام على ما في بعض الأخبار. وقيل: قبلُ، فقد أخرج ابن عساكر، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنَّه قال: كان عيسى عليه السلام وهو غلامٌ يلعب مع الصبيان، يقول لأحدهم: تريد أن أخبرك ما خبَّأتْ لك أمُّك؟ فيقول: نعم. فيقول: خبَّأت لك كذا وكذا، فيذهب الغلامُ منهم إلى أمِّه فيقول لها: أطعميني ما خبَّأتِ لي، فتقول: وأيُّ شي خبَّأتُ لك؟! فيقول: كذا وكذا. فتقول: مَن أخبرك؟! فيقول: عيسى ابن مريم، فقالوا: والله لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع عيسى ليفسدنَّهم. فجمعوهم في بيت وأغلقوه عليهم، فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم، حتى سمع ضوضاءهم في بيت، فسأل عنهم فقال: ما هؤلاء، كأنَّ هؤلاء الصبيانُ؟ قالوا: لا، إنما هي قردةٌ وخنازير قال: اللهم اجعلهم قردةً وخنازير، فكانوا كذلك(١).

وذهب بعضهم أنَّ ذلك كان بعد نزول المائدة، وأيِّد بما أخرجه عبد الرزاق وغيره عن عمار بن ياسر رضي الله عنه في الآية أنه قال: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ من المائدة ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾ منها، وكان أخذ عليهم في المائدة حين نزلت أن يأكلوا ولا يدَّخروا، فادَّخروا وخانوا، فجُعلوا قردةً وخنازير(٢). ويمكن أن يقال: إنَّ كلَّ ذلك قد وقع.

وعلى سائر التقادير فالمرادُ الإخبارُ بخصوصيَّة هذين الأمرين كما يُشعِرُ به الظاهرُ. وقيل: المرادُ الإخبار بالمغيَّبات، إلا أنه قد اقتصر على ذكر أمرين منها، ولعلَّ وجه تخصيص الإخبار بأحوالهم؛ لتيقُّنهم بها، فلا يبقى لهم شُبهةٌ، والسرُّ في ذكر هذين الأمرين بخصوصهما أن غالب سعي الإنسان وصَرْفِه(٣) ذهنَه لتحصيل الأكلِ الذي به قِوَامُه، والادِّخارِ الذي يطمئنّ به أكثرُ القلوب، ويسكن منه غالب النفوس، فليُفهم.

وقرئ: «تَذْخَرون» بالذال المعجَمة والتخفيف(٤).

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٤٧/ ٣٧٣، والدر المنثور ٢/ ٣٥.

(٢) تفسير عبد الرزاق ١/ ١٢١ - ١٢٢، وأخرجه بنحوه الترمذي (٣٠٦١) مرفوعاً وموقوفاً، وقال: ولا نعلم للحديث المرفوع أصلاً.

(٣) في (م): وصرف.

(٤) القراءات الشاذة ص٢٠، والبحر ٢/ ٤٦٧ عن الزهري ومجاهد.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور من الخوارق الأربعة العظيمة، وهذا من كلام عيسى عليه السلام حكاه الله تعالى عنه. وقيل: هو من كلام الله تعالى سِيق للتوبيخ.

﴿لَآيَةً﴾ أي: جنسَها، وقرئ: «لآيات»[1]. ﴿لَكُم﴾ دالَّةً على صحَّة الرسالة دلالةً واضحةً، حيث لم يكن ذلك بتخلُّلِ آلاتٍ، وتوسُّطِ أسبابٍ عاديةٍ، كما يفعله الأطباء والمنجِّمون.

ومن هنا يُعلم أن علم الجَفْر[2] وعلمَ الفَلَكِ ونحوَهما، لمَّا كانت مقرونةً بأصولٍ وضوابطَ، لا يقال عنها: إنَّها علْمُ غيبٍ أبداً؛ إذ علمُ الغيب شرطُه أن يكون مجرَّداً عن الموادِّ والوسائط الكونية، وهذه العلوم ليست كذلك؛ لأنها مرتَّبةٌ على قواعدَ معلومةٍ عند أهلها، لولاها ما عُلِمت تلك العلوم، وليس ذلك كالعلم بالوحي؛ لأنه غير مكتسب، بل اللهُ تعالى يَختصُّ به من يشاء، وكذا العلم بالإلهام فإنَّه لا مادةَ له إلا الموهبةُ الإلهيةُ، والمنحةُ الأزلية.

على أن بعضهم ذهب إلى أن تلك العلوم لا يحصل بها العلم المقابل للظنِّ، بل نهاية ما يحصل الظنُّ الغالب، وبينه وبين علم الغيب بونٌ بعيد. وسيأتي لهذا تتمةٌ إن شاء الله تعالى.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٤٩﴾ فيه مجازُ المشارَفة، أي: إن كنتم موفَّقين للإيمان، ويحتمل أن يكون المعنى: إنْ كنتم مصدِّقين، وجوابُ الشرط على التقديرين محذوفٌ، أي: انتفعتم بذلك.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ عطفٌ إمَّا على المضمر الذي تعلَّق به قوله تعالى: «بآية»، أي: قد جئتكم محتجّاً ـ أو متلبِّساً ـ بآية.. إلخ، ومصدقاً لِمَا.. إلخ، وإمَّا على «رسولاً» وفيه معنى النُّطقِ مثله. وجوِّز أن يكون منصوباً بفعلٍ دلَّ عليه «قد جئتكم»، أي: وجئتكم مصدقاً.. إلخ.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٤٠ـ ٤٤١، والبحر ٢/ ٤٦٨ عن ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) زعموا أنه علم يتعلق بالقضاء والقدر، وأن الإمام عليًا رضي الله عنه هو أول من وضعه، ثم توارثه أهل البيت ومَن ينتمي إليهم، وكانوا يكتمونه عن غيرهم! ينظر كشف الظنون ١/ ٥٩١.

وقوله سبحانه: ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ في موضع نصبٍ على الحال من الضمير المستترِ في الظرف، والعامل فيه الاستقرار، أو الظرفُ نفسُه لقيامه مقامَ الفعل، ويجوز أن يكون حالاً من «ما» فيكون العامل فيه «مصدِّقاً».

ومعنى تصديقه عليه السلام للتوراة: الإيمانُ بأن جميع ما فيها حِكْمَةٌ وصَواب. وقيل: إنَّ تصديقه لها مجيئُه رسولاً طبقَ ما بشَّرتْ به.

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾ معمولٌ لمقدَّرٍ بعد الواو، أي: وجئتكم لأُحِلَّ، فهو من عَطْفِ الجملةِ على الجملة. أو معطوفٌ على «بآية» من قوله سبحانه: «جئتكم بآية»؛ لأنه في معنى: لأُظهرَ لكم آيةً ولأُحلَّ، فلا يَرِدُ أنه لا يصحُّ عطفُ المفعول له على المفعول به. أو معطوفٌ على «مصدقاً»، ويُلتزمُ التأويل بما يجعلهما من باب واحد وإن كان الأول حالاً والثاني مفعولاً له، فكأنه قيل: جئتكم لأصدِّق ولأُحِلَّ. وقيل: لابدَّ من تقديرِ: جئتكم فيها كلِّها؛ إذ لا يُعطف نوعٌ من المعمولات على نوعٍ آخر.

﴿بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في شريعة موسى عليه السلام؛ أخرج ابن جرير وابنُ أبي حاتم عن الربيع أنه قال: كان الذي جاء به عيسى أَلْيَنَ ممَّا جاء به موسى عليهما السلام، وكان قد حرِّم عليهم فيما جاء به موسى عليه السلام لحومُ الإبل والثُّروبُ، فأحلَّها لهم على لسان عيسى، وحرِّمت عليهم شحومُ الإبل فَأُحِلَّت لهم فيما جاء به عيسى، وفي أشياء من السَّمك، وفي أشياءَ من الطَّير ممَّا لا صِيصِيَةَ له، وفي أشياءَ أُخَر حرَّمها عليهم وشدَّد عليهم فيها، فجاء عيسى بالتَّخفيف منه في الإنجيل[١]. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله[٢].

وهذا يدلُّ على أنَّ الإنجيل مشتمِلٌ على أحكام تُغايرُ ما في التوراة، وأنَّ شريعة عيسى نَسَخت بعض شريعةِ موسى، ولا يُخلُّ ذلك بكونه مصدِّقاً للتوراة؛ فإنَّ النَّسخ بيانٌ لانتهاءِ زمان الحكم الأولِ، لا رفعٌ وإبطال، كما تقرَّر، وهذا مثلُ نسخِ القرآن بعضِه ببعض.

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٤٣٢، وتفسير ابن أبي حاتم٢/ ٦٥٧ ـ٦٥٨. قوله: الثُّروب، جمع ثَرْب: وهو شحم رقيق يغشِّي الكَرِش والأمعاء. وقوله: صيصية، هي شوكة الديك التي في رجليه. التاج (ثرب) و(صيص).

(٢) الدر المنثور ٢/ ٣٥، وأخرجه أيضاً الطبري ٥/ ٤٣١ ـ٤٣٢.

وذهب بعضهم إلى أنَّ الإنجيل لم يخصَّ أحكاماً، ولا حوى حلالاً ولا حراماً، ولكنَّه رُموزٌ وأمثال، ومواعظُ وزَواجِرُ، وما سوى ذلك من الشرائع والأحكام فمُحَالَةٌ على التوراة، وإلى أنَّ عيسى عليه السلام لم يَنسخ شيئاً ممَّا في التوراة، وكان يَسْبِت ويُصلِّي نحو بيت المقدس ويحرِّم لحمَ الخنزير، ويقول بالختان، إلا أنَّ النَّصارى غيَّروا ذلك بعد رَفْعِه، فاتَّخذوا يوم الأحد بدلَ يومِ السبت لِمَا أنه أولُ يوم الأسبوع ومبدأ الفيض، وصلَّوا نَحْوَ المَشْرِق لِمَا تقدَّم، وحملوا الختان على ختان القلب وقَطْعِه عن العلائق الدنيوية، والعوائق عن الحضرة الإلهية، وأحلُّوا لحم الخنزير، مع أنَّ مرقس حكى في إنجيله أنَّ المسيح أتلف الخنزير، وغرَّق منه في البحر قطيعاً كبيراً[١]. وقال لتلامذته: لا تعطوا القدس الكلابَ، ولا تُلقوا جواهركم قدَّامَ الخنازير[٢]. فقرَنها بالكلاب. وسببُ ذلك زعمُهم أنَّ بطرس رأى في النَّوم صحيفةً نزلت من السماء، وفيها صُوَرُ الحيوانات وصورةُ الخنزير، وقيل له: يا بطرس كُلْ منها ما أحببتَ.

ونُسب هذا القولُ إلى وهب بنِ مُنبِّهٍ، والذاهبون إليه أوَّلوا الآية بأنَّ المراد: ما حرَّمه علماؤهم تشهِّياً، أو خطأً في الاجتهاد، واستدلُّوا على ذلك بأنَّ المسيح عليه السلام قال في الإنجيل: ما جئتُ لأُبطِلَ التوراة، بل جئت لأُكمِلها[٣]. ولا يخفى أنَّ تأويل الآية بما أوَّلوه به بعيدٌ في نفسه، ويزيده بُعداً أنه قرئ: «حرَّم» بالبناء للفاعل[٤]، وهو ضميرُ «ما بين يدي» أو الله تعالى. وقرئ أيضاً: «حَرُم» بوزن كَرُم[٥]. وأنَّ ما ذكروه من كلام المسيح عليه السلام لا ينافي النسخَ؛ لِمَا علمتَ أنَّه ليس بإبطال، وإنَّما هو بيانٌ لانتهاء الحكم الأول، ومعنى التكميلِ ضمُّ السياسة الباطنة التي جاء بها إلى السياسة الظاهرة التي جاء بها موسى عليه السلام - على ما قيل - أو نسخُ بعضِ أحكام التوراة بأحكامٍ هي أوفقُ بالحكمة وأولى بالمصلحة وأنسبُ بالزمان، وعلى هذا يكون قولُ المسيحِ حجَّةً للأوَّلين لا عليهم،

---

(١) إنجيل مرقس ص١٤١، وإنجيل متى ص٥٩-٦٠.

(٢) إنجيل متى ص٥٥.

(٣) إنجيل متى ص٤٧، وفيه: لا تظنوا أني جئت لأبطل الشريعة أو الأنبياء، ما جئت لأُبطِلَ بل جئت لأُكمل.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٤٤١، والبحر ٢/ ٤٦٨ عن عكرمة.

(٥) القراءات الشاذة ص٢٠، وتفسير القرطبي ٥/ ١٤٧.

ولعلَّ ما ذهبوا إليه هو المعوَّلُ عليه كما لا يخفي على ذوي العرفان.

﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الكلام فيه كالكلام في نظيره، وقرئ: «بآيات»[١]. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في عدمِ قبول ما جئتكم به ﴿وَأَطِيعُونِ ۝٥٠﴾ فيما آمركم به وأنهاكم بأمر الله تعالى.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٥١﴾ بيانٌ للآية المأتيِّ بها على معنى: هي قولي: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾، ولمَّا كان هذا القولُ ممَّا أجمع الرُّسل على حَقِّيَّته، ودَعَوا الناس إليه، كان آية دالَّةً على رسالته، وليس المراد بالآية على هذا المعجزةَ ليَرِدَ أنَّ مثل هذا القولِ قد يَصدرُ عن بعض العوامِّ، بل المرادُ أنه بعدَ ثبوت النبوَّةِ بالمعجزة كان هذا القولُ ـ لكونه طريقةَ الأنبياء عليهم السلام ـ علامةً لنبوَّته تطمئنُّ به النفوسُ. وجوِّز أن يُراد من الآية المعجزة، على طرْزِ ما مرَّ.

ويقال: إنَّ حصول المعرفةِ والتوحيدِ والاهتداءِ للطريق المستقيم في الاعتقادات والعبادات عمَّن نشأ بين قومٍ غيَّروا دِينَهم، وحرَّفوا كُتب الله تعالى المُنزلةَ، وقتلوا أنبياءهم، ولم يكن ممَّن تعلَّم من بقايا أخبارهم[٢]، مِن أعظم المعجزات وخوارق العادات.

أو يقال: من الجائز أن يكون قد ذكَر اللهُ تعالى في التوراة: إذا جاءكم شخصٌ من نَعْتِهِ كذا وكذا، ويَدعوكم[٣] إلى كيت وكيت، فاتَّبعوه فإنَّه نبيٌّ مبعوثٌ إليكم. فإذا قال: أنا الذي ذُكرتُ بكذا وكذا من النُّعوت، كان من أعظم الخوارق.

وقرئ: «أنَّ الله»[٤] بفتح همزةِ «أنَّ» على أنَّ المُنسَبِكَ بدلٌ من «آية»، أو أنَّ المعنى: جئتكم بآيةٍ دالةٍ على أنَّ الله إلخ، ومثل هذا محتملٌ على قراءة الكسر أيضاً، لكن بتقدير القول[٥]، وعلى كلا التقديرين يكون قوله تعالى: (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) اعتراضاً.

---

(١) القراءات الشاذة ص٢٠ ـ٢١.
(٢) في الأصل: أحبارهم.
(٣) في (م): يدعوكم.
(٤) القراءات الشاذة ص٢٠.
(٥) والتقدير: وجئتكم بآية من ربكم قولي: إن الله، فقولي بدل من «آية». الدر المصون ٣/ ٢٠٥.

وقد ذكر غيرُ واحد: أنَّ الظاهر أنَّ هذه الجملة معطوفةٌ على جملة «جئتكم» الأولى، وكرِّرت ليتعلَّق بها معنًى زائدٌ، وهو قولُه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى﴾ أو للاستيعاب كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤]، أي: جئتكم بآيةٍ بعد أخرى ممَّا ذكرتُ لكم، من خلق الطير، وإبراء الأكمه والأبرص، والإحياء، والإنباء بالمَخْفيَّات، ومن ولادتي بغير أبٍ، ومن كلامي في المهد، ونحو ذلك. والكلام الأول لتمهيد الحُجَّة عليهم، والثاني لتقريبها إلى الحكم، وهو إيجابُ حكمِ تقوى الله تعالى وطاعته، ولذلك جيء بالفاء في «فاتقوا الله» كأنه قيل: لما[(١)] جئتكم بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة فاتقوا الله . . .إلخ. وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ إلخ. ابتداءَ كلامٍ، وشروعاً في الدعوة ـ المشار إليها[(٢)] ـ بقولٍ مُجمَلٍ؛ فإنَّ الجملة الاسمية المؤكَّدة بـ «إنَّ» للإشارة إلى استكمالِ القوة النظرية بالاعتقاد الحقِّ الذي غايته التوحيد، وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ إشارة إلى استكمال القوة العملية؛ فإنه بملازمة[(٣)] الطاعة التي هي الإتيانُ بالأوامر، والانتهاءُ عن المناهي. وتعقيبُ هذَيْن الأمرين بقوله سبحانه: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ تقريرٌ لِمَا سبق، ببيانِ أنَّ الجمع بين الأمرين: الاعتقادِ الحق، والعملِ الصالح، هو الطريقُ المشهودُ له بالاستقامة.

ومعنى قراءة الفتح على ما ذُكر: لأنَّ الله ربِّي وربُّكم فاعبدوه، فهو كقوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ إلخ.

والإشارةُ إمَّا إلى مجموع الأمرين، أو إلى الأمر الثاني المعلول للأمر الأول، والتنوينُ إمَّا للتعظيم أو للتبعيض. وجملةُ «هذا» إلخ ـ على ما قيل ـ استئنافٌ لبيانِ المقتضي للدعوة.

❁ ❁ ❁

هذا والإشارةُ في هذه الآيات ظاهرةٌ كالعبارة، سِوى أنَّ تطبيق ما في الآفاق على ما في الأنفس يحتاج إلى بيانٍ، فنقول:

---

(١) بكسر اللام وتخفيف الميم، ويجوز فتح اللام وتشديد الميم. ينظر حاشية الشهاب ٣/ ٢٩.
(٢) قوله: المشار إليها، يعني في قوله: «وأطيعون»، أي: وأطيعوني فيما أدعوكم إليه. تفسير البيضاوي ٢/ ٢١.
(٣) في (م): ملازمة، والمثبت من الأصل وتفسير البيضاوي ٢/ ٢١، والكلام منه.

قال الله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: ملائكةُ القوى الروحانية لمريم النفْسِ الطاهرة الذَّكية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ لكمال استعدادِك، ووفور قابليَّتك ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ عن الرذائل والأخلاق الرديَّة ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ﴾ النفوسِ الشهوانية المتدرِّعةِ بجلباب الأفعال الذميمة.

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ أي: دَاومي على الطاعة له بالائتمار بما أَمَر، والانزجارِ عمَّا نَهى ﴿وَٱسْجُدِى﴾ في مساجد الذلِّ ﴿وَٱرْكَعِى﴾ في محاريب الخضوع مع الخاضعين، فإنَّ في ذلك إقامةَ مَراسمِ العبودية، وأداءَ حقوقِ الربوبية، ولله تعالى دَرُّ مَن قال:

وَيَحْسُنُ إظهارُ التجلُّدِ للعدى ... ويقبُحُ إلا العَجْزُ عند الحَبَائِبِ[1]

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: من أخبار غيب وجودك ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يا نبيَّ الروح ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي لدى القوى الروحانية والنفسانية، والمراد ما كنت ملتفتاً إليهم، بل كنت في شغل شاغل عنهم ﴿إِذْ يُلْقُونَ﴾ أقلامَ استعداداتهم التي يَكتبون بها صُحفَ أحوالهم وتوراة أطوارهم، ويطرحونها في بَحْر التدبير ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ﴾ ويدبِّر ﴿مَرْيَمَ﴾ النفسِ بحَسَب رأيه ومقتضى طبعهِ ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ في مقام الصَّدر، الذي هو محلُّ اختصام القوى في طلَب الرياسة قبل الرِّياضة، وفي حالها ﴿إِذْ قَالَتِ﴾ ملائكةُ القوى الروحانية حين غلبت: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ بمقتضى التوجُّه إليه ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ جامعةٍ لحروف الأكوان، وهو القلب المحيطُ بالعوالم ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾ لأنه يَمْسحُك بالنور، أو لأنَّه مُسِحَ به ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ لتدبيره أمرَ المعاش، فيطيعُه إنسُ القوى الظاهرة وجِنُّ القوى الباطنة، ووجيهاً في الآخرة لقيامه بتدبير المَعَاد، فيطيعهُ ملكوتُ سماء الأرواح. أو شريفاً مرفوعاً في الدنيا، وهي عبارةٌ عن تجلِّي الأفعال، وفي الآخرة وهي عبارةٌ عن تجلِّي الأسماء.

﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: المعدودين من جملة مقرَّبي الحضرةِ القابلين لتجلِّي الذات، وفي الخبر: «ما وسعتني أرضي ولا سمائي، ولكن وسعني قلْبُ عبدي المؤمن»[2].

---

(١) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص٥٠ برواية: . . . ويقبح غير العجز عند الأحبة.

(٢) قال ابن تيمية كما في تنزيه الشريعة ١/ ١٤٨، والمصنوع ص١٦٤: هو موضوع. وقال ملا علي القاري: لا يعرف له إسناد مرفوع. . . وقال الزركشي: وضعته الملاحدة.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ بما يرشدهم في مَهْد البدَن وقت تغذِّيه بلبان السُّلوك إلى مَلِك الملوك ﴿وَكَهْلًا﴾ بالغاً طَوْرَ شيخِ الروح، وواصلاً وسط الطريق.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ مثلَ هذا ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ وهو تعجُّبٌ من ولادتها ذلك من غير تربيةِ معلِّم بشريٍّ؛ لِمَا أنَّ العادة جرَت بأنَّ الوصول إلى المقامات العليَّة إنما هو بواسطة شيخ مرشِدٍ يعرف الطريقَ ويدفع الآفات، وقد شاع أنَّ الإنسان متى سلك بنفسه ضَلَّ، أو لم يَفُز بكثير، ومن كلامهم: الشجرةُ التي تَنْبُتُ بنفسها لا تُثْمِر.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ فلهُ أن يصطفي مَن شاء من غير تربيةِ مُربٍّ، ولا إرشادِ مُرْشِدٍ، بل بمجرَّدِ الجذبةِ الإلهية، وهذا شأنُ المُرادِينَ وبعضِ المُريدين:

رُبَّ شَخصٍ تقودُهُ الأقدارُ ... للمَعالي وما لذاك اختيارُ
غافلٍ والسعادةُ احتضنتهُ ... وهو عنها مُستوحِشٌ نفَّارُ(١)

﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ بالتعليم الإلهيِّ الغنيِّ عمَّا يُعهد من الوسائط، كتاب العلوم المعقولة، وحِكَمَ الشرائع، ومعارف الكتب الإلهية من توراة الظاهر، وإنجيل الباطن، ويجعلُه رسولاً إلى الروحانيين من بني إسرائيل الروح، قائلاً: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم﴾ من عالم الغيب بآيةٍ عظيمة، وهي: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم﴾ بالتربية من طين النفوس البشرية ﴿كَهَيْـَٔةِ﴾ الطائر إلى جناب القُدْسِ بجناحي الرَّجاء والخوف ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ بنفث العِلم الإلهيِّ، ونفسِ الحياةِ الحقيقية ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ أي: نفساً حيَّةً طائرةً في فضاء الجمال والجلال إلى رياض جناب الحقِّ سبحانه ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ أي: الأعمى المحجوبَ برؤية الأغيار عن رؤية نور الأنوار ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ المُبتلى بأمراض الرذائل والعقائد الفاسدة التي أوجبت مخالفة لون بشرته الفطرية ﴿وَأُحْيِ﴾ موتى الجهل بحياة العِلم الحقيقية ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: تتناولون من الشهوات واللذات ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾ في بيوت نيَّاتكم من الآمال التي هي كَسَرابٍ بقيعة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكورِ ﴿لَأٓيَةً لَّكُمْ﴾ نافعةً ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) البيتان للشيخ عبد الغني النابلسي، وهما في ديوانه ص٢٠٨.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ﴾ توراة الظاهرِ؛ فإنه أحدُ المظاهر ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ بسبب عِنادكم وقَصْرِكم الحقَّ على بعض مظاهره، وأشير بذلك إلى علْم الباطن، والمرادُ من البعض: إمَّا الكلُّ، على حدِّ ما قيل في قوله تعالى: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، وإمَّا ظاهِرُ معناه، فيكون إشارةً إلى أنَّ مِن الباطن ما يَحْرُم كشْفُه، فقد قال مولانا زينُ العابدين:

ورُبَّ جوهر علْم لو أبوح به ... لقيل لي: أنت ممَّن يَعْبدُ الوَثَنا
ولَاسْتَحلَّ أناسٌ مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونهُ حَسَنا
وقد تقدَّم في هذا أبو حسن ... إلى الحسين وأوصى قبله الحسنا(١)

﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾ بعد أخرى ﴿مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفتي ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما فيه كمال نشأتكم ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ فهو الذي يوصلكم إلى ما فيه كمالُكم ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ بالذلِّ والانكسار والوقوف على بابه بالعجز والافتقار، وامتثلوا أمرَه ونهيه ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾: يوصلُكم إليه ويَفِدُ بكم عليه.

❁ ❁ ❁

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ شروعٌ في بيان مآلِ أحواله عليه السلام، وما قبلُ(٢) يحتمل أن يكون كلُّه من قِبَل الملائكة شرحاً لطرفٍ منها داخلاً تحت القول، ويحتمل أن يكون الكلام قد تمَّ عند قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، ولا يكون ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم﴾ إلخ متعلِّقاً بما قبله، ولا يكون داخلاً تحت القول، ويكون المحذوف هناك: فجاء عيسى كما بشَّر الله تعالى رسولاً إلى بني إسرائيل بـ ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية، والفاء هنا مفصِحةٌ بمثل المقدَّر هناك على التقدير الثاني.

وأصلُ الإحساس: الإدراكُ بإحدى الحواسِّ الخمْسِ الظاهرة، وقد استعير هنا استعارةً تبعيةً للعلم بلا شبهة. وقيل: إنه مجازٌ مرسل عن ذلك، من باب ذِكْر

---

(١) طبقات الشافعية ٢/ ٢٣١، ونسبها الخطيب في تاريخ بغداد ١٢/ ٤٨٩ لكلثوم بن عمرو العتابي.
(٢) في (م): وقيل، بدل: وما قبل، والمثبت من الأصل، وهو الصواب.

الملزوم وإرادة اللازم، والدَّاعي لذلك أنَّ الكفر ممَّا لا يُحَسُّ، والقولُ بأنَّ المراد إحساسُ آثار الكفرِ، ليس بشيء.

والمرادُ من الكفر إصرارُهم عليه وعتوُّهم فيه، مع العزيمة على إيقاع مكروهٍ به عليه السلام، وقد صحَّ أنه عليه السلام لقي من اليهود ـ قاتلهم الله تعالى ـ شدائد كثيرة؛ أخرج إسحاق بنُ بشر وابن عساكر[1] من طرقٍ عن ابن عباس ﷺ قال: كان اليهود يَجتمعون على عيسى عليه السلام ويستهزؤون به، ويقولون له: يا عيسى، ما أَكَل فلانٌ البارحةَ، وما ادَّخر في بيته لغَدٍ؟ فيخبرُهم ويسخرون منه، حتى طالَ ذلك به وبهم، وكان عيسى عليه السلام ليس له قرَارٌ ولا موضع يُعرف، إنَّما هو سائحٌ في الأرض، فمرَّ ذات يوم بامرأةٍ قاعدةٍ عند قبر وهي تبكي، فسألها فقالت: ماتت ابنةٌ لي لم يكن لي ولدٌ غيرها، فصلَّى عيسى ركعتين ثم نادى: يا فلانةُ قومي بإذن الرَّحمن فاخرجي. فتحرَّك القبرُ، ثم نادى الثانية فانْصَدَعَ القبر، ثم نادى الثالثة فخرجت وهي تَنْفُض رأسهَا من التراب.

فقالت: يا أمَّاه ما حمَلَك على أن أذوق كربَ الموت مرتين؟ يا أمَّاه اصبري واحتسبي فلا حاجة لي في الدنيا، يا روحَ الله سَلْ ربِّي أن يَردَّني إلى الآخرة، وأن يهوِّن عليَّ كُرَب الموت. فدعا ربه، فقبضها إليه، فاستوت عليها الأرضُ. فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضباً.

وروي عن مجاهد: أنهم أرادوا قتله ولذلك استنصر قومَه.

و«من» لابتداء الغاية متعلِّقٌ بـ «أحس»، أي: ابتدأ الإحساس من جهتهم، وجوَّز أبو البقاء[2] أن يتعلق بمحذوفٍ على أنه حالٌ من الكفر، أي: لمَّا أحسَّ الكفر حالَ كونه صادراً منهم.

﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ المقولُ لهم الحواريون، كما تشير إليه آية الصف: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ الآية [الصف: ١٤]. وكونُه جميعَ بني إسرائيل لقوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤] ليس بشيء؛ إذ

---

(١) في تاريخه ٤٧/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣.
(٢) في الإملاء ٢/ ٧٣.

الآيةُ ليست بنصٍّ في المدَّعى؛ إذ يكفي في تحقُّق الانقسام بلوغُ الدعوة إلى الجميع.

والأنصارُ جمعُ نَصير، كالأشراف جمع شريف. وقال قومٌ: هو جمعُ نَصْرٍ، وضعَّفه أبو البقاء، إلا أن يقدَّر فيه مضافٌ، أي: مَن صاحبُ نَصْري، أو تجعله مصدراً وُصِف به[١].

والجارُّ والمجرور إمَّا أن يتعلَّق بمحذوفٍ وقع حالاً من الياء، وهي مفعولٌ به معنى، والمعنى: مَن ينصرني حالَ كوني مُلتجئاً إلى الله تعالى، أو ذاهباً إلى الله. وإمَّا أن يتعلَّق بـ «أنصاري» مضمَّناً معنى الإضافة، أي: مَن الذين يضيفون أنفسهم إلى الله في نَصْري؟[٢].

وفي «الكشاف» في تفسير سورة الصف ما حاصِلُه ممَّا يُخالف ما ذكره هنا: أنَّ إضافةَ «أنصار» للياء إضافةُ ملابَسةٍ، أي: مَن حزبي ومشارِكيَّ في توجُّهي لنُصرة الله تعالى، ليطابق جوابَهم الآتي، ولا يصحُّ أن يكون معناه: مَن ينصرني مع الله، لعدم المطابقة[٣].

وفيه: أنَّ عدمَ المطابقة غيرُ مسلَّم؛ إذ نصرةُ الله تعالى في الجواب ليست على ظاهرها، بل لا بدَّ من تجوُّزٍ أو إضمارٍ في نصرِهم لله تعالى، ويُضمَر ما تحصل به المطابقةُ. نعم كونُ «إلى» بمعنى «مع» لا يخلو عن شيء، فقد ذكَر الفرَّاءُ أنَّها إنَّما تكون كذلك إذا ضُمَّ شيءٌ إلى آخر، نحو: الذودُ إلى الذَّود إبل[٤]، أي: إذا ضمَمْتَه إليه صَارَ إبلاً، ألا تراك تقول: قدم زيد ومعه مالٌ، ولا تقول: وإليه مالٌ، وكذا نظائرُه[٥].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ذكر هذين الوجهين الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٣٢، وينظر ما سيأتي.

(٣) الكشاف ٤/ ١٠١، ونقله المصنف عن حاشية الشهاب ٣/ ٢٩.

(٤) الذَّود: ثلاثة أبعرة إلى العشرة، أو خمس عشرة، أو عشرين، أو ثلاثين، أو ما بين الثنتين والتسع، ولا يكون إلا من الإناث، وقولهم: الذَّود إلى الذَّوْد إبل، يدل على أنها في موضع اثنتين؛ لأن الثنتين إلى الثنتين جمع. القاموس (ذود).

(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ٢١٨، ونقله المصنف عن حاشية الشهاب ٣/ ٢٩.

فالسَّالمُ عن هذا الحَمْلِ من التفاسير ـ مع اشتماله على قلَّة الإضمار ـ أولى، ومن هنا اختار بعضهم كون «إلى» بمعنى اللام، وآخرون كونها بمعنى «في».

وقال في «الكشف»: لعلَّ الأشبه في معنى الآية ـ والله تعالى أعلم ـ أن يُحمل على معنى: مَن ينصرني مُنْهِياً نصره إلى الله تعالى، كما يقتضيه حرفُ الانتهاء دون تضمينٍ، كأنه عليه السلام طَلَب منهم أن ينصروه لله تعالى لا لغرضٍ آخر، مُدمجاً أنَّ نصرة الله تعالى في نُصرة رسوله، وجوابُهم المحكيُّ عنهم بقوله سبحانه: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ شديد الطِّباق له، كأنهم قالوا له[1]: نحن ناصِروكَ لأنه نصرُ الله تعالى للغرض الذي رمزَ إليه، ولو قالوا مكانه: نحن أنصارك، لَمَا وقع هذا الموقع. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ جَعْل «إلى» بمعنى اللام أو «في» التعليليتين يحصل طِلبة المسيح التي أُشير إليها على وجهٍ لعلَّه أقلُّ تكلُّفاً ممَّا ذكر[2]، وكأنَّ اختيار ذلك لِمَا قاله الزجَّاج من أنه لا يجوز أن يقال: إنَّ بعض الحروف من حروف المعاني بمعنى الآخر، ولكنَّ الحرفَيْن قد يتقاربان في الفائدة، فيَظنُّ الضعيفُ العلمِ باللغة أنَّ معناهما واحد، وليس بذلك[3]. فليفهم.

والحواريون: جمع حَوَارِيٍّ، يقال: فلانٌ حواريُّ فلانٍ، أي: خاصَّتُه من أصحابه وناصِرُه، وليس الحَوَاريُّ جمعاً ككَراسيّ ـ على ما وُهِم ـ بل هو مفرَدٌ منصرفٌ كما صرَّح به المحقِّقون. وذكر العلَّامةُ التفتازاني أنه مفردٌ وأَلِفُه من تغييرات النَّسب.

وفيه أنَّ الألف إذا زيدتْ في النسبة وغيَّرت بها تخفَّفُ الياء في الأفصح في أمثاله، والحَوَاريُّ بخلافه[4]؛ لأنَّ تخفيف يائه شاذٌّ كما صرَّحوا به، وبه قرئ في الآية[5].

---

(١) قوله: له. ليس في (م).

(٢) في الأصل: ذكره.

(٣) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ١/ ٤١٦.

(٤) حاشية الشهاب ٣/ ٢٩.

(٥) القراءات الشاذة ص٢١، والمحتسب ١/ ١٦٢.

وأصله من التحوير، أي: التبييض، ومنه الخُبْزُ الحُوَّارَى: الذي نُخِل مرَّة بعد أُخرى. والحواريات للحضريات نساءِ المدن والقرى؛ لِمَا أنه يَغلب فيهنَّ البياضُ لعدم البروز للشمس، ويطلق الحَوَاريُّ على القصَّارِ أيضاً؛ لأنَّه يبيِّض الثيابَ. وهو بلغة النَّبط: هُوَّارَى بضم الهاء وتشديد الواو وفتح الراء؛ قاله الضحاك.

واختُلف في سبب تسمية أولئك القوم بذلك؛ فقيل: سُمُّوا بذلك لبياض ثيابهم، وهو المروي عن سعيد بن جبير. وقيل: لأنهم كانوا قصَّارين يُبيِّضون الثيابَ للناس، وهو المَرْويُّ عن مقاتل وجماعة. وقيل: لنَقَاءِ قلوبهم وطهارةِ أخلاقهم؛ وإليه يشير كلامُ قتادة.

وفي تعيين أنهم من أيِّ الطوائف من الناس خلافٌ أيضاً؛ فقيل: قوم كانوا يصطادون السَّمك فيهم يعقوب وشمعون ويوحنا، فمرَّ بهم عيسى عليه السلام فقال لهم: أنتم تصيدون السَّمك، فإن اتَّبعتموني صِرْتم بحيث تصيدون الناسَ بالحياة الأبدية؟ فقالوا له: مَن أنت؟ قال: عيسى ابنُ مريم عبدُ الله ورسولُه. فطلبوا منه المعجزة، وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة فما اصطاد شيئاً، فأمر عيسى عليه السلام بإلقائها في الماء مرَّةً أُخرى، ففعل، فاصطاد ما ملأ سفينتين، فعند ذلك آمنوا به عليه السَّلام.

وقيل: هم اثنا عشر رَجُلاً، أو تسعةٌ وعشرون من سائر الناس، اتَّبعوا عيسى عليه السلام، وكانوا إذا جاعوا قالوا: يا روحَ الله جعنا. فيضربُ بيده على الأرض فيخرج لكلِّ واحدٍ رغيفان، وإذا عطشوا قالوا: عَطِشنا، فيضرب بيده على الأرض فيخرج الماء فيشربون. فقالوا: مَن أفضلُ منا؛ إذا شئنا أطعمتنا، وإذا شئنا أسقيتنا، وقد آمنَّا بك؟ فقال: أفضلُ منكم مَن يعمل بيده ويأكل مِن كَسْبِه، فصاروا يَغسلون الثياب بالكِرَاء ويأكلون.

وقيل: إنَّ واحداً من الملوك صنَع طعاماً وجمع الناس عليه، وكان عيسى عليه السلام على قصعة، فكانت القصعة لا تَنقص، فذكِر ذلك للملك، فذهب إليه المَلِك مع أقاربه فقالوا له: مَن أنت؟ قال: عيسى ابنُ مريم. فقال الملك: إنِّي تاركٌ مُلكي ومتَّبِعُك، فتبعه مع أقاربه فأولئك هم الحواريون.

وقيل: إنَّ أمَّه دفعته إلى صَبَّاغٍ، فكان إذا أراد أن يعلِّمه شيئاً وجَدَه أعلمَ به

منه، فغاب الصَّبَّاغ يوماً لمُهمٍّ، وقال له: هاهنا ثيابٌ مختلفة، وقد جعلتُ على كلٍّ منها علامةً، فاصبغها بتلك الألوان. فطبخ عيسى عليه السلامُ حُبًّا[1] واحداً وجعل الجميع فيه، وقال: كُوني بإذن الله كَمَا أُريد، فرجع الصَّباغُ فأخبره بما فعل، فقال: أفسدت علي الثياب، قال: قم فانظر، فكان يخرج ثوباً أحمر وثوباً أخضر وثوباً أصفر، كما كان يريد، فتعجَّب الحاضرون منه وآمنوا به، وكانوا الحواريين.

ونقل جمعٌ عن القفَّال: أنه يجوز أن يكون بعضهم من الملوك، وبعضهم من الصيادين، وبعضهم من القصَّارين، وبعضهم من الصبَّاغين، وبعضهم من سائر الناس، وسُمُّوا جميعاً بالحواريين لأنهم كانوا أنصارَ عيسى عليه السلام، والمخلِصين في محبَّته وطاعته.

والاشتقاق كيف كانوا هو الاشتقاق، ومأخذه إمَّا أن يؤخذ حقيقيًّا وإما أن يؤخذ مجازياً، وهو الأوفقُ بشأن أولئك الأنصار.

وقيل: إنَّه مأخوذ من حَارَ بمعنى رَجَع، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق: ١٤] وكأنهم سُمّوا بذلك لرجوعهم إلى الله تعالى.

ومن الناس من فسَّر الحواريَّ بالمجاهد[2]، فإنْ أريد بالجهاد ما هو المتبادر منه أشكل ذلك، حيث إنه لم يصحَّ أن عيسى عليه السلام أمر به، وادَّعاه بعضهم مستدلًّا بقوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] ولا يَخْفَى أنَّ الآية ليست نصًّا في المقصود؛ لجواز أن يراد بالتأييد: التأييدُ بالحجَّة وإعلاء الكلمة.

وإنْ أريد بالجهاد جهادُ النفس بتجريعها مَرَائرَ التكاليف لم يُشْكِل ذلك.

نعم استَشْكل أنَّ عيسى عليه السلام إذا لم يكن مأموراً بالقتال، فما معنى طلَبِه الأنصار؟

وأُجيبَ: بأنَّه عليه السلام لمَّا علم أنَّ اليهود يُريدون قتلَه استنصر للحِمَاية

---

(١) الحُبّ: الجرة، أو الضخمة منها. القاموس (حبب).

(٢) ذكره ابن الأنباري في الزاهر ١/ ٢٨، واستدل مَن قاله بقول الشاعر:

ونحن أناس يملأ البيضَ هامُنا ونحن حواريون حين نزاحف

والبيت لمسكين الدارمي كما في البرصان والعرجان للجاحظ ص٥١٥.

منهم ـ كما قاله الحسن ومجاهد ـ ولم يستنصر للقتال معهم على الإيمان بما جاء به، وهذا هو الذي لم يُؤمر به لا ذلك. بل رُبَّما يُدَّعَى أنَّ ذلك مأمورٌ به لوجوب المحافظة على حِفْظ النفس، وقد روي أن اليهود لمَّا طلبوه ليقتلوه قال للحواريين: أيُّكم يُحبُّ أن يكون رفيقي في الجنة على أن يُلْقَى فيه شَبَهي فيُقْتَل مكاني؟ فأجابه إلى ذلك بعضُهم[1]. وفي بعض الأناجيل أنَّ اليهود لمَّا أخذوا عيسى عليه السلام سَلَّ شمعون سيفَه فضرَبَ به عبداً كان فيهم لرَجُلٍ من الأحبار عظيم، فرمى بأُذنِه، فقال له عيسى عليه السلام: حَسْبُكَ، ثم أدْنَى أُذُنَ العبدِ فردَّها إلى موضعها، فصارتْ كما كانت[2].

وقيل: يجوز أن يكون طلب النصرة للتمكين من إقامة الحجَّة، ولتمييز الموافق من المخالف، وذلك لا يستدعي الأمرَ بالجهاد كما أمر نبيُّنا روحُ جسدِ الوجود ﷺ، وهو الظاهر لمَن أنصَف.

والمراد من أنصار الله: أنصارُ دِينه ورسولِه وأعوانُهما، على ما هو المشهور.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ مستَنَدٌ لتلك الدَّعوى، جاريةٌ مجرى العلَّة لها ﴿وَٱشْهَدْ﴾ عطف على «آمنا»، ولا يضرُّ اختلافُهما إنشائيةً وإخباريةً؛ لِمَا تحقَّق في محلِّه.

وقيل: إنَّ «آمنا» لإنشاء الإيمان أيضاً فلا اختلاف.

﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: مُنقادون لِمَا تُريده منَّا، ويَدخل فيه دخولاً أوَّليّاً نُصرتُهم له. أو: بأنَّ ديننا الإسلام الذي هو دِين الأنبياء مِن قَبلك، فهو إقرارٌ معنًى بنبوَّةِ مَن قبلَه عليه السَّلام، وهذا طلبٌ منهم شهادتَه ـ عليه السلام ـ لهم يوم القيامة حين تشهد الرُّسلُ لقومهم وعليهم، إيذاناً ـ كما قال الكَرْخيُّ ـ بأنَّ مَرْمَى غَرَضِهم السعادةُ الأخروية.

وجاء في «المائدة»: ﴿بِأَنَّنَا﴾ [الآية: ١١١]؛ لأنَّ ما فيها ـ كما قيل ـ أولُ كلام الحواريين، فجاء على الأصل، وما هنا تكرارٌ له بالمعنى، فناسبَ فيه التخفيف؛ لأنَّ كلًّا من التخفيف والتكرار فرْعٌ، والفرعُ بالفرع أوْلى.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ عَرْضٌ لحالِهم عليه تعالى بعدَ عرْضِها على رسولِه؛ استمطاراً لسحائب إجابة دعائهم الآتي. وقيل: مبالغةٌ في إظهار أمرِهم.

---

(١) سيأتي الخبر مطولاً ص٢٣١ من هذا الجزء.

(٢) ينظر إنجيل لوقا ص٢٧١، وإنجيل يوحنا ص٣٤٩-٣٥٠.

﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ أي: امتثلنا ما أتى به منك إلينا.

﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: محمدٍ ﷺ وأمَّتِه؛ لأنهم يشهدون للرُّسل بالتبليغ، ومحمدٌ ﷺ يَشهدُ لهم بالصدق؛ رواه عكرمة عن ابن عباس ﵄. وروى أبو صالح عنه: أنَّهم مَن آمَنَ من الأمم قبلهم.

وقيل: المراد من «الشاهدين»: الأنبياءُ؛ لأنَّ كلَّ نبيٍّ شاهدٌ لأُمته وعليها.

وقال مقاتل: هم الصَّادقون.

وقال الزَّجَّاج[1]: هم الشاهدون للأنبياء بالتصديق.

وقيل: أَرَادوا: مع المستغرِقين في شهود جلالك، بحيثُ لا نُبالي بما يَصل إلينا من المشاقِّ والآلام، فيسهُل علينا الوفاءُ بما التزَمنا من نُصرة رسولِك.

وقيل: أرادوا: اكتب ذِكْرَنا في زُمرة مَن شَهِدَ حضرتَك من الملائكة المقرَّبين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]. ولا يخفى ما في هذا الأخير من التكلُّف. والمعنى على ما عَداه: أَدخِلْنا في عِداد أولئك، أو في عداد أتباعِهم. وعبَّروا عن فِعْل الله تعالى ذلك بهم بلفظ: «فاكتبنا»؛ إذ كانت الكتابةُ تقيِّد وتضبط ما يُحتاج إلى تحقيقه وعِلْمه في ثاني حالٍ.

وقيل: المراد: اجعل ذلك وقدِّره في صحائف الأزَل. ومن الناس مَن جعل الكتابة كنايةً عن تثبيتهم على الإيمان في الخاتمة. والظرف متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من مفعول «اكتبنا».

﴿وَمَكَرُوا۟﴾ أي: الذين أحسَّ منهم الكفرَ؛ إذ وكَّلُوا به من يَقتله غِيلَةً ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ بأن أَلْقَى شَبَهه عليه السَّلام على غيره فصُلِب، ورَفَعَه إليه؛ قال ابن عباس: لمَّا أراد مِلِكُ بني إسرائيل قتلَ عيسى عليه السلام، دخلَ خوخةً وفيها كُوَّة، فرفعه جبريل عليه السلام من الكوَّة إلى السماء، فقال المِلكُ لرجل منهم خبيثٍ: ادخل عليه فاقتله. فدخل الخوخةَ، فألقى اللهُ تعالى عليه شَبَهَ عيسى عليه السلام، فخرج إلى أصحابه يُخبرهم أنه ليس في البيت، فقتلوه وصلَبوه وظنُّوا أنه عيسى[2].

---

(١) في معاني القرآن ١/٤١٨.

(٢) ذكره مطولاً البغوي ١/٣٠٧ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

وقال وهب: أسَرُوه ونصَبوا خشبةً ليصلبوه، فأظلمت الأرضُ، فأرسل اللهُ الملائكة فحالوا بينه وبينهم، فأخذوا رجلاً يقال له: يهوذا، وهو الذي دلَّهم على عيسى، وذلك أنَّ عيسى جمعَ الحواريين تلك الليلةَ وأوصاهم، ثم قال: لَيَكْفُرَنَّ بي أحدُكم قبل أن يصيح الديكُ، فيبيعني بدراهم يسيرة، فخرَجوا وتفرَّقوا وكانت اليهود تطلبه، فأتى أحدُ الحواريين إليهم وقال: ما تجعلون لي إن دَلَلتكم عليه؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً، فأخذها ودلَّهم عليه، فألقى اللهُ تعالى عليه شَبه عيسى عليه السلام، فأُدخل البيت، ورُفع عيسى، فأخذوه وقال: أنا الذي دَلَلتُكم عليه. فلم يلتفتوا إلى قوله وصَلَبوه وهم يظنُّون أنه عيسى، فلمَّا صُلِب شَبَهُ عيسى وأتى على ذلك سبعةُ أيام، قال اللهُ تعالى لعيسى: اهبط على مريم، ثم لتجمع لك الحواريين، وبثَّهم في الأرض دُعاةً، فهبط عليها واشتعل الجبلُ نوراً، فجمعت له الحواريين فبثَّهم في الأرض دُعاةً، ثم رَفَعه اللهُ سبحانه، وتلك الليلة هي الليلة التي تدخِّن فيها النَّصارى، فلما أصبح الحواريون قصد كلٌّ منهم بلدةَ من أرسله عيسى إليهم(١).

وروي عن غير واحد: أنَّ اليهود لمَّا عزَموا على قتله عليه السلام اجتمع الحواريون في غُرفة، فدخل عليهم المسيحُ من مِشْكَاة الغُرْفة، فأخبرَ بهم إبليسُ جمعَ اليهود، فركب منهم أربعةُ آلاف رجلٍ فأخذوا بابَ الغرفةِ، فقال المسيح للحواريين: أيُّكم يَخرج ويُقْتل ويكون معي في الجنة؟ فقال واحد منهم: أنا يا نبيَّ الله. فألقى عليه مِدْرَعةً من صوف وعمامةً من صوف وناوله عكَّازه، وأُلْقي عليه شَبَهُ عيسى عليه السَّلام، فخرَج على اليهود فقتلوه وصلَبوه، وأمَّا عيسى عليه السلام فكَساه اللهُ النورَ وقطع عنه شهوةَ المَطْعَمَ والمشْرَب ورفعَه إليه. ثم إنَّ أصحابه لمَّا رأوا ذلك تفرَّقوا ثلاث فِرَقٍ، فقالت فرقةٌ: كان اللهُ فينا فصعد إلى السماء. وقالت فرقة أخرى: كان فينا ابنُ الله عز وجل ثم رفَعه اللهُ سبحانه إليه. وقالت فرقة أخرى منهم: كان فينا عبد الله ورسولُه ما شاء الله ثم رفعه إليه. وهؤلاء هم المسلمون، فتظاهرت عليهم الفرقتان الكافرتان فقتلوهم، فلم يزل الإسلام مُنْدَرِسَ الآثار إلى أن بَعثَ اللهُ تعالى محمداً ﷺ(٢).

---

(١) الخبر في تفسير البغوي ١/ ٣٠٧، ووقع في آخره: فلما أصبح الحواريون حدَّث كلٌّ واحد منهم بلغة مَن أرسله عيسى إليهم.

(٢) أخرجه بنحوه النسائي في الكبرى(١١٥٢٧)، وابن أبي حاتم ٤/ ١١١٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما

وروي عن ابن إسحاق: أنَّ اليهود عذَّبوا الحواريين بعد رفع عيسى عليه السلام، ولقوا منهم الجهد، فبلغ ذلك مِلِكَ الروم، وكان ملكُ اليهود من رعيَّته واسمُه داود بن نوذا، فقيل له: إنَّ رجلاً من بني إسرائيل ممَّن تحت أمرِك كان يُخبرهم أنه رسولُ الله تعالى، وأراهم إحياءَ الموتى وإبراءَ الأكمهِ والأبرص، وفعَل وفعَل. فقال: لو علمتُ ذلك ما خلَّيت بينهم وبينه، ثم بعث إلى الحواريين فانتزَعَهم من أيديهم وسألهم عن عيسى عليه السلام فأخبروه، فبايعهم على دِينهم وأنزلَ المصلوبَ فغيَّبه، وأخذ الخشبة فأَكْرَمها، ثم غَزَا بني إسرائيل، فَقَتل منهم خَلقاً عظيماً، ومنه ظهر أصلُ النصرانية في الرُّوم، ثم جاء بعده مِلِكٌ آخر يقال له ططيوس[1]، وغزا بيتَ المَقْدسِ بعد رفعِ عيسى عليه السلام بنحوٍ من أربعين سنة، فقَتَل وسَبَى ولم يترك في بيت المقدس حَجَراً على حجر، فخرج عند ذلك قريظةُ والنضير إلى الحجاز.

هذا وأصلُ المَكْر قيل: الستر[2]، ومنه: مَكَر الليلُ، إذا أظلم. وقيل: الالتفاف[3]، ومنه المُكور: لضربٍ من الشجر ذي التفاف[4]، واحدُه مَكْر، والمَمْكورةُ من النساء: للملتفَّة الخَلْقِ مَطْويَّتِهِ.

وفسَّره البعضُ: بصرف الغير عمَّا يقصده بحيلة.

وآخرون: باختداع الشخص لإيقاعه في الضرر، وفرَّقوا بينه وبين الحيلة بأنَّها قد تكون لإظهار ما يَعْسُر من الفعل من غير قصدٍ إلى الإضرار، والمكرُ حيلةٌ على الشخص تُوقعه في مثل الوَهَق[5]، وقالوا: لا يُطلق على الله تعالى إلا بطريق المُشاكلة؛ لأنه منزَّه عن معناه، وغيرُ محتاج إلى حِيلة، فلا يقال ابتداءً: مكر الله

= قوله، وقال ابن كثير عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة النساء: هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس.

(١) في (م): طيطوس، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٢/ ٤٣، والكلام منه.

(٢) في (م): الشر، وهو تصحيف.

(٣) في الأصل و(م): الالتفات، والمثبت هو الصواب، ينظر الدر المصون ٣/ ٢١٢.

(٤) في الأصل و(م): ذي التفات، والمثبت هو الصواب.

(٥) الوَهَق محركة ويسكَّن: الحبل يُرمى في أنشوطة، فتؤخذ به الدابة والإنسان. القاموس (وهق).

سبحانه، وإلى ذلك ذهب العضُد[١] وجماعةٌ، وخالَفَهم الأبهريُّ وغيرُه فجوَّزوا الإطلاق بلا مشاكلةٍ، مستدلِّين بقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩] فإنه نُسب إليه سبحانه ابتداء.

ونُقل عن الإمام[٢]: أن المَكْرَ إيصالُ المكروهِ إلى الغير على وجهٍ يَخْفَى فيه، وأنَّه يَجُوزُ صدورُه عنه تعالى حقيقةً. وقال غيرُ واحد: إنَّه عبارةٌ عن التدبير المحكَم، وهو ليس بممتنع عليه تعالى؛ وفي الحديث: «اللهم امكُرْ لي ولا تَمْكُرْ بي»[٣].

ومَن ذهب إلى عدم الإطلاق إلَّا بطريقِ المُشاكلة أجاب عن الاستدلال بالآية ونحوِها: بأنَّ ذلك من المشاكلة التقديرية كما في قوله تعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨]. ولا يخفى ما فيه.

فالأَولى القول بصحَّة الإطلاقِ عليه سبحانه ابتداءً بالمعنى اللائق بجلاله جلَّ جلالُه، وممَّا يؤيِّد ذلك قولُه سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ أي: أقواهم مَكْراً واشدُّهم، أو أنَّ مَكْرَه أحسن وأوقعُ في محلِّه لبعده عن الظلم، فإنه يُبعد المشاكلة.

﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ﴾ ظرف لـ «مَكَر»، أو لمحذوفٍ نحو: وقع ذلك، ولو قُدِّر: «اذكر» كما في أمثاله لم يَبْعُد. وتعلُّقه بالماكرين بعيدٌ؛ إذ لا يظهر وجهٌ حسنٌ لتقييد قوَّةِ مكْره تعالى بهذا الوقت.

﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أخرج ابن أبي حاتم[٤] عن قتادة قال: هذا من المقدَّم والمؤخَّر، أي: رافعُك إليَّ ومتوفِّيك. وهذا أحدُ تأويلاتٍ اقتضاها مخالفةُ ظاهر الآية للمشهور المُصرَّح به في الآية الأُخرى، في قوله ﷺ: «إنَّ عيسى لم يَمُتْ، وإنَّه راجعٌ إليكم قبلَ يومِ القيامة»[٥].

---

(١) هو عضد الدين الأيجي، وذكر قوله الشهاب في الحاشية ٣/ ٣٠.
(٢) هو الرازي في تفسيره ٨/ ٧١، ونقله المصنف عن حاشية الشهاب ٣/ ٣٠.
(٣) ذكره بهذا اللفظ ابن الأثير في النهاية (مكر). وهو قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٩٩٧)، وأبو داود (١٥١٠)، والترمذي (٣٥٥١) عن ابن عباس ﷺ برواية: «. . . ولا تمكر عليَّ». قال الترمذي: حسن صحيح.
(٤) في تفسيره ٢/ ٦٦١.
(٥) أخرجه الطبري ٥/ ٤٤٨، وابن أبي حاتم ٤/ ١١١٠ من طريق الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً.

وثانيها: أنَّ المراد: إنِّي مستوفي أجلك ومميتُك حَتْفَ أنفِك، لا أسلِّط عليك مَن يَقتلك. فالكلام كنايةٌ عن عصمته من الأعداء وما هم بصدده من الفَتْكِ به عليه السَّلام؛ لأنه يلزم من استيفاءِ اللهِ تعالى أجلَه، وموتِه حتف أنفِه ذلك.

وثالثها: أنَّ المراد: قابضُك ومستوفي شخصك من الأرض، مِن توفَّى المالَ، بمعنى: استوفاه وقَبَضَه.

ورابعها: أنَّ المراد بالوفاة هنا النومُ؛ لأنهما أَخَوَان ويُطْلَق كلٌّ منهما على الآخر.

وقد روي عن الربيع: أنَّ الله تعالى رفَع عيسى عليه السَّلام إلى السماء وهو نائمٌ رِفْقاً به. وحكي هذا القولُ والذي قبله أيضاً عن الحسن.

وخامسها: أنَّ المراد: أجعلُك كالمتوفَّى لأنه بالرفع يُشْبِهه.

وسادسها: أنَّ المراد: آخذُك وافياً بروحك وبَدَنِك، فيكون: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ كالمفسِّر لِمَا قبله.

وسابعها: أنَّ المراد بالوفاة موتُ القوى الشهوانية العائقةِ عن إيصاله بالملكوت.

وثامنها: أنَّ المراد: مُسْتَقبلٌ عملك.

ولا يخلو أكثرُ هذه الأوجه عن بُعدٍ، لا سيما الأخير.

وقيل: الآيةُ محمولةٌ على ظاهرها، فقد أخرج ابنُ جرير عن وهب أنه قال: توفَّى اللهُ تعالى عيسى ابنَ مريم ثلاثَ ساعات من النَّهار حتى رَفَعَه إليه[(١)].

وأخرح الحاكم عنه: أنَّ الله تعالى توفَّى عيسى سبع ساعاتٍ ثم أحياه، وأنَّ مريم حمَلَت به ولها ثلاثَ عشرةَ سنةً، وأنَّه رُفع وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثين، وأنَّ أمَّه بقيت بعد رَفْعِه ستَّ سنين[(٢)]. ووَرَد ذلك في روايةٍ ضعيفة عن ابن عباس.

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٤٥٠.

(٢) المستدرك ٢/ ٥٩٦، وقد ذكر وهب هذا على أنه مِن زَعْم النصارى.

والصحيح كما قال القرطبي[١]: أنَّ الله تعالى رَفَعَه من غير وفاةٍ ولا نوم. وهو اختيارُ الطبري[٢]، والروايةُ الصحيحةُ عن ابن عباس. وحكايةُ أنَّ الله تعالى توفَّاه سبع ساعات، ذَكَر ابنُ إسحاق أنها مِن زَعْمِ النَّصارى[٣].

ولهم في هذا المقام كلامٌ تَقْشَعرُّ منه الجلود، ويزعمون أنَّه في الإنجيل، وحاشا لله ما هو إلا افتراءٌ وبهتان عظيم، ولا بأس بنقله وردِّه، فإنَّ في ذلك ردَّ دعواهم فيه عليه السلام الربوبيةَ على أتمِّ وجه، فنقول:

قالوا: بينما المسيحُ مع تلاميذه جالسٌ ليلةَ الجمعة لثلاثَ عشرةَ ليلةً خَلَت من شهر نيسان، إذ جاء يَهُوذَا الإسْخريوطي أحدُ الاثْنَيْ عشر[٤] ومعه جماعةٌ معهم السيوفُ والعِصيُّ من عند رؤساء الكَهَنة ومشايخ الشعب، وقد قال لهم يهوذا: الرجلِ الذي أُقَبِّلُ هو هو فأمسِكوه. فلمَّا رأى يهوذا المسيح قال: السلام عليك يا معلِّم. ثم أمْسَكوه، فقال يسوع: مثل ما يُفعل باللصوص خرجتم لي بالسيوف والعصيِّ وأنا عندكم في الهيكل كلَّ يوم أعلِّم فلم تتعرَّضوا لي، لكن هذه ساعةُ سلطان الظُّلَمة. فذَهَبوا به إلى رئيس الكهنة حيث تجتمع الشيوخ، وتبعهُ بُطْرُس من بعيد ودخلَ معه الدارَ ليلاً، وجلسَ ناحيةً منها متنكراً ليرى ما يَؤُولُ أمرُه إليه، فالتمس المشايخُ على يسوع شهادةً يقتلونه بها، فجاء جماعةٌ من شهود الزُّور، فشهد منهم اثنان أنَّ يسوع قال: أنا أقدرُ أن أنقضَ هيكل الله تعالى وأبنيه في ثلاثة أيام، فقال له الرئيس: ما تجيب عن نفسك بشيء؟ فسكت يسوع، فأقسم عليه رئيسُ الكَهَنة: بالله الحيِّ أنت المسيحُ؟ فقال: أنت قلتَ ذاك وأنا أقول لكم من الآن: لا ترون ابنَ الإنسان حتى تَروه جالساً عَنَ يمين القوَّة[٥]، وآتياً في سحاب السماء،

---

(١) في تفسيره ٥/ ١٥٣.

(٢) في تفسيره ٥/ ٤٥٢.

(٣) أخرجه عنه الطبري ٥/ ٤٥٠-٤٥١.

(٤) يعني أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر، وهو الذي حدَّث المسيح بخيانته كما سلف ص٢٣١ من هذا الجزء. وينظر إنجيل متى ص١٠٩و١١١، وإنجيل لوقا ص٢٧١، وإنجيل مرقس ص١٧٠، وإنجيل يوحنا ص٣٤٩.

(٥) في إنجيل متى ص١١٢: عن يمين القدير، وجاء في حاشيته أن الترجمة اللفظية: عن يمين القدرة.

وإنَّ ناساً من القيام هاهنا لا يذوقون الموت حتى يرون ابن الإنسان آتياً في ملكوته.

فلمَّا سمع رئيس الكهنة ذلك شقَّ ثيابَه وقال: ما حاجتُنا إلى شهادة يهوذا، قد سمعتم، ماذا ترون في أمره؟ فقالوا: هذا مستوجبُ الموت. فحينئذٍ بصقوا في وجه البعيد ولطموه وضرَبوه وهزؤوا به، وجعلوا يلطمونه ويقولون: بيِّنْ لنا مَن لَطَمك. ولمَّا كان من الغد أسلموه لفيلاطس القائد، فتصايَحَ الشعبُ بأسْرِه: يُصلَب يُصْلَب. فتحرَّج فيلاطس من قتله، وقال: أيُّ شرٍّ فعل هذا؟ فقال الشيوخ: دمُه عليهم وعلى أولادهم[1]، فحينئذٍ ساقه جندُ القائد إلى الإبروطوريون، فاجتمع عليه الشعبُ ونزعوه ثيابه وألبسوه لباساً أحمر، وضَفَروا إكليلاً من الشَّوك وتركوه على رأسه، وجعلوا في يده قصبة، ثم جَثَوا على ركبهم يهزؤون به ويقولون: السلام عليك يا ملك اليهود، وشرَعوا يَبصقون عليه ويضربونه في رأسه، ثم ذهبوا به وهو يحمل صليبَه إلى موضعٍ يعرف بالجُمْجُمة، فصلبوه وسمَّروا يديه على الخشبة، فسألهم شَرْبةَ ماء، فأعطوه خلًّا مدافاً بمرٍّ، فذاقه ولم يسغه، وجلس الشُّرَط فاقتسموا ثيابه بينهم بالقُرعة، وجعلوا عند رأسه لوحاً مكتوباً: هذا يسوع ملك اليهود؛ استهزاءً به، ثم جاؤوا بلصَّين فجعلوهما عن يمينه وشماله تحقيراً له.

وكان اليهود يقولون له: يا ناقضَ الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام خلِّص نفسك، وإنْ كنتَ ابنَ الله كما تقولُ انزل عن الصليب، وقال اليهود: هذا يزعمُ أنه خلَّص غيرَه، فكيف لم يَقْدِرْ على خلاص نفسه؟! إن كان متوكِّلاً على الله تعالى فهو ينجيه ممَّا هو فيه. ولمَّا كان ست ساعات من يوم الجمعة صرَخ يسوع وهو على الصليب بصوتٍ عظيم: ألُوي ألُوي إيما صاصا[2]، أي: إلهي إلهي لِمَ تَركتَني وخذلتني؟ وأخذ اليهود إسفنجة فيها خلٌّ ورفعها أحدُهم على قصبةٍ وسقاه، وقال آخر: دعوه حتى نرى مَن يخلِّصه. فصرخَ يسوع وأمال رأسَه وأسلم الروح.

وانشقَّ حجاب الهيكل، وانشقَّت الصخور، وتفتَّحت القبور، وقام كثيرٌ من القِدِّيسين من قبورهم، ودخلوا المدينة المقدَّسة، وظهروا للناس. ولمَّا كان المساء

---

(١) يعني على الشعب الذي صاح: يصلب، وجاء في إنجيل متى ص١١٥: فأجاب الشعب بأجمعه: دمُه علينا وعلى أولادنا.

(٢) كذا في الأصل و(م)، وفي الأناجيل: لمَّا شَبَقْتاني، بدل: إيما صاصا.

جاء رجلٌ من الرَّامة[(١)] يسمَّى يوسف بلفائف نقية، وتركه في قبرٍ كان قد نحته في صخرة، ثم جعل على باب القبر حَجَراً عظيماً، وجاء مشايخ اليهود من الغد الذي بعد الجمعة إلى فيلاطس القائد فقالوا: ياسيِّدي ذَكَرنا أنَّ ذلك الضالَّ كان قد ذَكَر لتلاميذه: أنا أقومُ بعد ثلاثة أيام، فلو أمرتَ مَن يَحْرُس القبرَ حتى تمضي المدةُ؛ كي لا تأتي تلاميذه ويَسْرِقوه، ثم يُشيعون في الشعب أنه قام، فتكون الضلالة الثانية شرًّا من الأولى، فقال لهم القائد: اذهبوا وسدُّوا عليه واحرسوه كماتريدون، فمضَوا وفعلوا ما أرادوا، وفي عشية يوم السبت جاءت مريمُ المَجْدلانيةُ ومريمُ رفيقتُها لينظرن إلى القبر.

وفي إنجيل مرقص[(٢)] إنَّما جاءت مريم يومَ الأحد بغَلَس، وإذا مَلَكٌ قد نزَل من السماء برجَّةٍ عظيمة فألقى الحجر عن القبر، وجلس عنده وعليه ثيابٌ بيضٌ كالبرق، فكاد الحرَس أن يموتوا من هيبته، ثم قال للنسوة: لا تخافا قد علمتُ أنكما جئتما تطلبان يسوعَ المصلوبَ، ليس هو هنا إنه قد قام، تعالَيْنَ انظرن إلى المكان الذي كان فيه الربُّ، واذهبا وقولا لتلاميذه: إنه سبقكم إلى الخليل[(٣)]. فمضتا وأخبرَتا التلاميذ، ودخلَ الحرَّاسُ وأخبروا رؤساء الكهنةِ الخبرَ، فقالوا: لاتنطقوا بهذا، ورَشَوْهم بفضَّةٍ على كتمان القضية فقبلوا ذلك منهم، وأشاعوا أنَّ التلاميذ جاؤوا وسرَقوه، ومهدت المشايخُ عذرَهم عند القائد، ومضت الأحد عشر تلميذاً إلى الخليل[(٤)] وقد شكَّ بعضُهم، وجاء لهم يسوع وكلَّمهم وقال لهم: اذهبوا فعمِّدوا كلَّ الأمم وعلِّموهم ما أوصيكم به، وهو ذا أنا معكم إلى انقضاء الدهر. انتهى.

وهاهنا أمور:

---

(١) في الأصل و(م): من ألزامه، والمثبت من إنجيل متى ص١١٧، وإنجيل لوقا ص٢٧٦ وفيه: وهي مدينة لليهود. وفي معجم البلدان ٣/ ١٨: هي من قرى بيت المقدس، بها مقام إبراهيم الخليل.

(٢) ص١٧٧.

(٣) في الأناجيل: إلى الجليل.

(٤) في إنجيل متى ص١١٩: فذهبوا إلى الجليل، إلى الجبل الذي أمرهم يسوع أن يذهبوا إليه. وليست في باقي الأناجيل.

الأول: أنه يقال للنصارى: ما ادَّعيتُموه من قتل المسيح وصَلْبِه، أتنقلونه تَواتُراً أو آحاداً؟ فإن زعموا أنه آحاداً لم تتمَّ بذلك حجَّةٌ، ولم يثبت العلم؛ إذ الآحاد لم يُؤمَنْ عليهم السَّهو والغفلةُ والتواطؤ على الكذب، وإذا كان الآحاد يَعْرِضُ لهم ذلك، فكيف يُحتجُّ بقولهم في القطعيَّات؟

وإن عَزَوا ذلك إلى التواتُر، قلنا لهم: أحدُ شروط التواتر استواءُ الطرَفين فيه، والواسطةُ بأن يكون الإخبار في كلِّ طبقة ممَّن لا يمكن مواطأته على الكذب، فإنْ زعمتم أنَّ خبرَ قتلِ المسيح كذلك، أكَذَبتُم نصوصَ الإنجيل الذي بأيديكم؛ إذ قال نَقَلَتُه الذين دوَّنوه لكم، وعليه معوَّلكم: إنَّ المأخوذ للقتل كان في شرذمةٍ قليلة من تلامذته، فلمَّا قُبض عليه هرَبوا بأسْرِهم، ولم يتبعه سوى بطرس من بعيدٍ، فلما دخل الدارَ حيث اجتمعوا نظرت جاريةٌ منهم إليه فعرفته فقالت: هذا كان مع يسوعَ، فحلف أنه لا يعرف يسوع ولا يقول بقوله، وخادعهم حتى تركوه وذهب، ولم يكد يذهب. وأنَّ شابًّا آخر تبعه وعليه إزارٌ، فتعلَّقوا به فترك إزارَه بأيديهم وذهب عرياناً.

فهؤلاء أصحابُه وأتباعه لم يحضر أحدٌ منهم بشهادة الأناجيل[1]. وأمَّا أعداؤه اليهود الذين تزعمون أنهم حضَروا الأمر، فلا نسلِّم أنهم بلغوا عددَ التواترِ، بل كانوا آحاداً، وهم أعداءٌ يمكن تواطؤهم على الكذب على عدوِّهم؛ إيهاماً منهم أنهم ظفروا به وبلغوا منه أمانيهم، فانخرَم شرطُ التواتر.

ويؤيِّد هذا أنَّ رؤساء الكَهَنة فيما زعمتم رَشَوا الحُرَّاسَ، فلا يبعدُ أن تكون هذه العصابة من اليهود صلَبوا شخصاً من أصحاب يسوع، وأوهموا الناسَ أنه المسيحُ؛ لتتمَّ لهم أغراضُهم، على أن الإخباريين ذكروا أنَّ بختنصَّر قَتل علماءَ اليهود في مشارق الأرض ومغاربها لأنهم حرَّفوا التوراةَ وزادوا فيها ونقصوا، حتى لم يبقَ منهم إلا شرذمةٌ، فالمخبِرون لم يَبلغوا حدَّ التواتر في الطبقة الوسطى أيضاً.

الثاني: أنَّ في مثل هذا الفصل ما تحكمُ البَداهةُ بكذبه، وما تَضحكُ الثَّكلَى منه، وما يُبعده العقلُ، مثل قولِهِ للكهنة: إنَّكم من الآن لا ترون ابنَ الإنسان.

---

(١) في (م): الإنجيل، وينظر إنجيل متى ص١١٣، وإنجيل مرقس ص١٧٢-١٧٣، وإنجيل لوقا ص٢٧١-٢٧٢.

يريدون بالإنسان الرَّبَّ سبحانه، فإنه لم يَرِد إطلاقُ ذلك عليه جلَّ شأنُه في كتاب.

وقولِه: إنَّ ناساً من القيام هاهنا. . .إلخ، فإنه لم يَرَ أحدٌ من القيام هناك ـ قبل موته ـ عيسى عليه السلام آتياً في ملكوته.

وقولِ المَلَك للنسوة: تعالَيْن فانظرن إلى الموضع الذي كان فيه الرَّبُّ، فإنه يقال فيه: أَرَبٌّ يُقْبَرُ وإلهٌ يُلْحَد! أفٌّ لترابٍ يَغْشَى وجْهَ هذا الإله، وتبًّا لكفَن سَتَرَ محاسِنَه، وعَجَباً للسماء كيف لم تَبِد وهو سامِكُها، وللأرض لم تَمِد وهو ماسِكُها، وللبحار كيف لم تغِض وهو مُجْرِيها، وللجبال كيف لم تَسِر وهو مُرْسِيها، وللحيوان كيف لم يُصْعَق وهو مُشْبِعُه، وللكون كيف لم يُمْحَق وهو مُبْدِعُه! سبحانَ الله كيف استقام الوجودُ والرَّبُّ في اللُّحُود، وكيف ثبت العالَم على نظامٍ والإلهُ في الرَّغَام؟! إنا لله وإنا إليه راجعون على المصيبة بهذا الرَّبِّ، والرَّزِيةِ بهذا الإله، لقد ثكلته أُمُّه، وعَدِمه ـ لا أبا لك ـ قومُه!.

وقولِه: إلهي إلهي لِمَ خَذَلْتني، فإنه يُنافي الرِّضا بمُرِّ القضاء، ويناقضُ التسليمَ لأحكام الحكيم، وذلك لا يَليقُ بالصالحين فضلاً عن المُرْسَلين، على أنه يُبطِل دعوى الرُّبوبية التي تزعمونها، والألوهيةِ التي تَعتقدونها.

وقولهم: إنه قام كثيرٌ من القدِّيسين من قبورهم. .إلخ، فإنه كذبٌ صريح؛ لأنه لو كان صحيحاً لأطبق الناسُ على نَقْله، ولزَالَ الشكُّ عن تلك الجموع في أمر يسوع.

وقولهم: مضَت الأحدَ عشر تلميذاً إلى الخليل[١]. .إلخ، فإنه قد انطفأ فيه سراجُ التلميذ الثاني عشر على ما يَقتضيه قولُ المسيح: ويلٌ لمن يُسلم ابنَ الإنسان[٢]، مع أنَّ يسوع بزعمكم قال لتلاميذه الاثني عشر، وفيهم يهوذا الإسخَرْيوطيُّ الذي أَسْلَمه للقتل: إنكم ستجلسون يومَ القيامة على اثني عشر كرسياً تدينون اثني عشر سبط بني إسرائيل[٣].

(١) سلفت الإشارة إلى أنها في الأناجيل: الجليل.
(٢) ينظر إنجيل مرقس ص١٧٠.
(٣) إنجيل متَّى ص٩١.

وقولهم: إنه سألَهم شربةَ ماءٍ، فإنه في غاية البُعْد؛ لأنَّ الإنجيل مصرِّحٌ بأنَّ المسيح كان يَطْوي أربعين يوماً وأربعين ليلةً[1]، ومثلهُ لا يَجْزَع من فِراق الماء ساعةً، لا سيَّما وقد كان يقول لتلاميذه: إنَّ لي طعاماً لا تعرفونه، إلى غير ذلك.

الثالث: إنَّ ما ذكروا من قيام المسيح من قبره ليلةَ السبت مع صَلْبه يوم الجمعة مخالفٌ لِمَا رواه متى في إنجيله، فإنه قال فيه: سأل اليهودُ المسيحَ أن يُريهم آيةً، فقال: الجيلُ الشرِّير الفاسقُ يَطلُب آيةً، فلا يُعطى إلَّا آية يونيان[2] النبيِّ - يعني يونس عليه السلام - لأنه أقام في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، وكذلك ابنُ الإنسان يُقيم في بطن الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال.

الرابع: أنَّ في هذه القصَّة ما يدلُّ دلالة واضحةً على أنَّ المصلوب هو الشَّبه، وأنَّ الله تعالى حَمَى المسيحَ عليه السلام عن الصَّلْب، كما سيتَّضحُ لك ذلك مع زيادةِ تحقيقٍ عند قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

هذا وإنَّما أكَّد الحكم السَّابق اعتناءً به، أو لأنَّ تسلُّط الكفار عليه جعل المقام مقامَ اعتقادِ أنهم يقتلونه.

وأراد سبحانه بقوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: رافعُك إلى سمائي. وقيل: إلى كرامتي. وعلى كلٍّ فالكلام على حذفِ مضافٍ، إذ من المعلوم أن الباري سبحانه ليس بمتحيِّز في جهة. وفي رفعه إلى أيِّ سماء خلافٌ، والذي اختاره الكثير من العارفين أنه رُفِع إلى السماء الرابعة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه رَفَعه إلى السماء الدنيا، فهو فيها يُسَبِّحُ مع الملائكة، ثم يُهبطه اللهُ تعالى عندَ ظهور الدَّجال على صخرة بيت المقدس[3].

وفي «الخازن»[4] أنَّه سبحانه لمَّا رَفَعه - عليه السلام - إليه كَسَاه الرِّيش وألبسه النورَ، وقطع عنه لذَّة المطعم والمَشْرب، فطارَ مع الملائكة فهو معهم حوْلَ العرش، وصار إنسيًّا مَلَكيًّا أرضيًّا سماويًّا.

---

(١) ينظر إنجيل متى ص٤٣.

(٢) في إنجيل متى ص٧١: يونان.

(٣) كذا ذكر، والذي في حديث نزول المسيح عند مسلم (٢٩٣٧) الذي يرويه النواس بن سمعان رضي الله عنه أنه ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق.

(٤) ١/ ٣٥٥.

وأورَد بعضُ الناس هاهنا إشكالات، وهي: أنَّ الله تعالى كان قد أيَّده بجبريل عليه السلام كما قال سبحانه: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، ثم إنَّ طرَف جَناحٍ من أجنحة جبريل كان يكفي للعالَم، فكيف لم يكف في منع أولئك اليهود عنه؟!

وأيضاً: أنه عليه السلام لمَّا كان قادراً على إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، فكيف لم يقدر على إماتتهم ودفع[١] شوكتهم، أو على إسقامهم وإلقاءِ الزَّمانة والفَلَج عليهم، حتى يصيروا عاجزين من التعرُّض له؟

وأيضاً: لمَّا خلَّصه من الأعداء بأنْ رَفَعه إلى السماء، فما الفائدة في إلقاء شَبَهه على الغير؟

وأجيب عن الكلِّ: بأنَّ بناء التكليف على الاختيار، ولو أَقْدرَ اللهُ تعالى جبريلَ أو عيسى عليهما السلام على دفع الأعداء، أو رَفَعَه من غير إلقاء شَبَهه إلى السماء، لَبَلَغت معجزته إلى حدِّ الإلجاء.

والقولُ بأنَّ فَتْحَ بابِ إلقاء الشَّبهِ يوجب ارتفاع الأمانِ عن المحسوسات[٢]، وأنه يُفضي إلى سقوط الشرائع، وإبطال التواتر[٣]، وأيضاً إنَّ في ذلك الإلقاء تمويهاً وتخليطاً، وذلك لا يليق بحكمة الله تعالى = ليس بشيء.

أمَّا أوَّلاً: فلِأَنَّ إلقاء شَبهِ شخصٍ على آخر، وإنْ كان ممكناً في نفسه إلَّا أنَّ الأصل عدمُ الإلقاء، واستقلالُ كلٍّ من الحيوان بصورته التي هي له، نعم لو أَخبر الصَّادقُ بإلقاء صورة شخصٍ على آخر قلنا به واعتقدناه، فحينئذٍ لا يرتفع الأمان عن المحسوسات، بل هي باقيةٌ على الأصل فيها فيما لم يُخْبر الصادقُ بخلافه. على أنَّ إبطال التواتر بفتح هذا الباب ممنوع؛ لأنه لم يُشترط في الخبر أن يكون

(١) في الأصل: ورفع.
(٢) جاء في شرح هذا المعنى في تفسير الرازي ٨/ ٧٤: فإني إذا رأيت ولدي، ثم رأيته ثانياً، فحينئذ أجوِّز أن يكون هذا الذي رأيته ثانياً ليس بولدي، وكذا الصحابة الذين رأوا محمداً يأمرهم وينهاهم وجب أن لا يعرفوا أنه محمد؛ لاحتمال أنه ألقي شبهه على غيره.
(٣) لأن مدار الأمر في الأخبار المتواترة أن يكون المخبر الأول إنما أخبر عن المحسوس، فإذا جاز وقوع الغلط في المبصرات، كان سقوط خبر التواتر أولى. تفسير الرازي ٨/ ٧٤، وغرائب القرآن للنيسابوري ٣/ ٢٠٥.

عن أمرٍ ثابت في نفس الأمر، بل يكفي فيه كونُه عن أمرٍ محسوسٍ على ما قاله بعضُ المحقِّقين.

وأمَّا ثانياً: فلأنَّ التَّمويه والتلبيس إنْ كان إلى الأعداء، فلا نسلِّم أنه ممَّا لا يليق بالحكمة، وإن كانت النجاةُ ممَّا تُمْكِن بدون الإلقاء. وإن كان ذلك على أوليائه فلا نسلِّم أنَّ في الإلقاء تمويهاً، لأنهم كانوا عارفين يقيناً أنَّ المصلوب[1] الشَّبَهُ لا عيسى عليه السلام، كما ستعرفه إن شاء الله تعالى.

والقولُ بأنَّ المصلوب قد ثبت بالتواتر أنه بقي حيًّا زماناً طويلاً، فلولا أنه كان عيسى لأظهر الجزَع وعرَّف نفسَه، ولو فعل ذلك لاشتهر وتواتر، ليس بشيء أيضاً:

أمَّا أولاً: فلأنَّ دعوى تواتُرِ بقاءِ المصلوبِ حيًّا زماناً طويلاً ممَّا لم يُثبتها برهانٌ، والثابتُ أنَّ المصلوب إنَّما صُلب في الساعة الثانية من يوم الجمعة ومات في الساعة السادسة من ذلك اليوم، وأُنزل ودُفن، ومقدارُ أربع ساعات لا يُعدُّ زماناً طويلاً كما لا يخفى.

وأمَّا ثانياً: فلأنَّ عدمَ تعريفِ المصلوب نفسَه: إمَّا لأنه أدركته دهشةٌ منعته من البيان والإيضاح، أو لأنَّ الله تعالى أخذ على لسانه فلم يستطع أن يُخبر عن نفسه، صوناً لنبيِّه عليه السلام أن يفصحَ الرَّجلُ عن أمره، أو لأنه لصدِّيقيَّته آثرَ المسيحَ بنفسه وفعل ذلك بعَهْدٍ عَهِده إليه رغبةً في الشهادة، ولهذا ورَّى في الجواب الذي نَقَلته النصارى في القصة، وقد وعد المسيحَ عليه السلام التلاميذُ ـ على ما نَقَلوا قبلُ ـ بقولهم: لو دُفعنا إلى الموت معك لمتنا، والشَّبهُ في جملتهم، فوفَّى بما وعَد من نفسه على عادة الصدِّيقين من أصحاب الأنبياء عليهم السلام، فهو من: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. ومَن ذهب إلى أنَّ الشَّبه كان من الأعداء لا من الأولياء، روى أنه جعَل يقول لليهود عند الصَّلْب: لستُ المسيح وإنَّما أنا صاحبُكم، لكنه لم يُسمع ولم يُلتفت إلى قوله وصَلَبوه. والقولُ بأنه لو كان ذلك لتواتر، لا يخفى ما فيه لمَن أحاط بما ذَكَرناه خبراً، فتأمَّلْ.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَحْتَملُ أن يكون تطهيره عليه السلام بتبعيده

---

(١) في (م): المطلوب، في الموضعين، وهو تصحيف.

منهم بالرَّفع، ويحتمل أن يكون بنجاته ممَّا قصدوا فِعْله به من القتل، وفي الأول جعَلَهم كأنهم نجاسة، وفي الثاني جعَل فعلَهم كذلك، والأول هو الظاهر، وإلى الثاني ذهب الجبائي.

والمرادُ من الموصول اليهودُ، وأتى بالظاهر ـ على ما قيل ـ دون الضمير إشارةً إلى علَّة النجاسة وهي الكفر.

وأخرج ابن جرير وابنُ أبي حاتم عن الحسن، أنَّ المراد من الموصول: اليهودُ والنصارى والمجوس وكفارُ قومه[1].

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ قال قتادة والحسن وابن جريج وخلقٌ كثير: هم أهلُ الإسلام، اتَّبعوه على ملَّته وفِطرته من أُمَّة محمدٍ ﷺ.

﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ وهم اليهود، أو سائر مَن شمَله هذا المفهوم، فإنَّ المؤمنين يَعْلُونهم بالحجَّة أو السيف في غالب الأمر.

وأخرج ابنُ جرير عن ابن زيد أنَّ المراد من الموصول الأول النصارى، ومن الثاني اليهودُ، وقد جعَل سبحانه النَّصارى فوقَ اليهود، فليس بلدٌ فيه أحدٌ من النصارى إلا وهم فوقَ اليهود في شرق الدُّنيا وغربِها[2]. وعلى هذا يكون المرادُ من الاتِّباع مجرَّدَ الادِّعاء والمحبَّة، ولا يضرُّ في غَلَبتهم على اليهود غلبةُ المسلمين عليهم.

وإذا أريد بالاتِّباع ما يشمل اتِّباع المسلمين، وهذا الاتباعُ يصحُّ أن يراد بالمتَّبعين ما يشملُ المسلمين والنصارى مطلقاً؛ مَن آمن به قبل مجيء نبيِّنا ﷺ ونسخِ شريعته، ومَن آمن به ـ بزَعْمِه ـ بعد ذلك. وقد يرادُ من الاتِّباع الاتِّباعُ بالمعنى الأول، فيجوز أن يُراد من المتَّبِعين المسلمون والقِسْمُ الأول من النصارى.

وتخصيصُ المتَّبعين بهذه الأمة، وحملُ الاتِّباع على المجيء بعدُ، ممَّا لا ينبغي أن يخرَّج عليه الكتابُ الكريم، كجَعْل الخِطاب للنبيِّ ﷺ، وأنَّ الوقف على «الذين كفروا»[3].

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٤٥٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦٦٢.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٤٥٥.

(٣) يعني: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. ينظر الدر المصون ٣/ ٢١٣.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متعلِّق بالجَعْل، أو بالاستقرار المقدَّر في الظرف. وليس المراد أنَّ ذلك ينتهي حينئذٍ ويتخلَّص «الذين كفروا» من الذِّلة، بل المراد أنَّ المتَّبعين يَعلونهم إلى تلك الغاية، فأمَّا بعدَها فيفعلُ اللهُ تعالى ما يُريد.

ومن الناس مَن حملَ الفوقية على العلوِّ الرتبي والفوقيةِ بحَسَبِ الشرف، وجعل التقييد بـ «يوم القيامة» للتأبيد، كما في قولهم: ما دامت السماءُ، وما دار الفَلَكُ؛ بناءً على ظنٍّ أنَّ عدمَ انتهاء علوِّ المؤمنين وذلَّة الكافرين إلى ذلك اليوم موجبٌ لهذا الجَعْل، وليس بذلك.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مصيرُكم بعد يوم القيامة ورجوعُكم، والضمير لعيسى عليه السَّلام والطائفتين، وفيه تغليبٌ على الأظهر. و«ثم» للتراخي، وتقديمُ الظرفِ للقَصْر المفيدِ لتأكيد الوعد والوعيد. ويحتمل أن يكون الضمير لمَن اتَّبع وكفر فقط، وفيه التفاتٌ للدلالة على شدَّة إرادة إيصال الثواب والعقاب، لدلالة الخطاب على الاعتناء.

﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: فأقضي بينكم إثرَ رجوعِكم إليَّ، ومصيركم بين يديّ. ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ من أمور الدِّين، أو من أمر عيسى عليه السَّلام، والظرف متعلِّق بما بعده، وقدِّم رعايةً للفواصل.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تفسيرٌ للحكم المدلول عليه بقوله سبحانه: (فَأَحْكُمُ)، وتفصيلٌ له على سبيل التقسيم بعد الجمع، وإلى ذلك ذهب كثيرٌ من المحقِّقين.

واعتُرض بأنَّ الحكم مرتَّبٌ على الرجوع إلى الله تعالى، وذلك في القيامة لا محالة، فكيف يصحُّ تفسيره بالعذاب المقيَّد بقوله تعالى: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾؟ وأُجيبَ بوجوه:

الأول: أنَّ المقصود التأبيدُ وعدمُ الانقطاع من غير نظرٍ إلى الدنيا والآخرة.

الثاني: أنَّ المراد بالدنيا والآخرة مفهومهما اللغوي، أي: الأول والآخر، ويكون ذلك عبارةً عن الدوام، وهذا أبعدُ من الأول جدًّا.

الثالث: ما ذكر صاحبُ «الكشف»: من أنَّ المرجع أعمُّ من الدنيوي

والأخروي، وقولُه سبحانه: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ غايةُ الفوقيةِ لا غايةُ الجَعْل، والرجوعُ مُتَراخٍ عن الجَعْل وهو غير محدود، على وِزان قولِك: سأعِيرُك سُكنى هذا البيت إلى شهر، ثم أخلع عليك بثوب من شأنه كذا وكذا. فإنه يلزمُ تأخُّر الخَلْع عن الإعارة لا الخَلْعِ، وعلى هذا توفيةُ الأجر لغُنْم الدَّارَين.

ولا يخفى أنَّ في لفظِ «كنتم» في قوله جلَّ وعلا: ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ بعضُ نَبْوَةٍ عن هذا المعنى، وأن المعنى: أحكمُ بينكم في الآخرة فيما كنتم فيه تختلفون في الدنيا.

الرابع: أنَّ العذاب في الدنيا هو الفوقيةُ عليهم، والمعنى: أَضمُّ إلى عذاب الفوقية السابقة عذابَ الآخرة؛ قال في «الكشف»: وفيه تقابُلٌ حسن، وأنَّ هذه الفوقية مقدِّمةُ عذابِ الآخرة ومؤكِّدته، وإدماج أنها فوقيةُ عدلٍ لا تسلُّط وجود.

ولا يخفى أنه بعيدٌ من اللفظ جدًّا؛ إذ معنى أعذِّبه في الدُّنيا والآخرة ليس إلَّا: أنِّي أفعل عذابَ الدَّارين، إلَّا أن يقال: إنَّ إيجاد الكلِّ لا يلزم أن يكون بإيجاد[1] كلِّ جزء، فيجوز أن يُفعل في الآخرة تعذيب الدَّارين بأنْ يُفعل به عذاب الآخرة، وقد فُعل في الدنيا عذابُ الدنيا، فيكون تمامُ العذابين في الآخرة.

الخامس: أنَّ «في الدنيا والآخرة» متعلِّق بـ «شديد» تشديداً لأمر الشدَّة. وليس بشيء كما لا يخفى.

والأَولى من هذا كلِّه ما ذكره بعضُ المحقِّقين، أن يُحمل معنى «ثم» على التَّراخي الرُّتبي، والترقِّي من كلام إلى آخر، لا على التراخي في الزمان، فحينئذٍ لا يلزم أن يكون رجوعهم إلى الله تعالى متأخِّراً عن الجَعْل في الزمان، سواء كان قولُه جلَّ شأنه: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ غايةً للجَعْل أو الفوقية، فلا محذور. ثم إنَّ المرادَ بالعذاب في الدنيا إذلالُهم بالقتل والأسرِ والسَّبي وأَخْذِ الجزية ونحو ذلك، ومَن لم يُفعل معه شيءٌ من وجوه الإذلال فهو على وَجَل؛ إذ يَعلم أن الإسلام يَطلبه، وكفى بذلك عذاباً. وبالعذاب في الآخرة عقابُ الأبد في النار.

---

(١) في الأصل و(م): إن اتخاذ الكل لا يلزم أن يكون باتخاذ، والمثبت من حاشية الشهاب ٣/ ٣١ والكلام منه.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٥٦﴾ أي: أعوانٍ يدفعون عنهم عذابَ الله. وصيغة الجمع ـ كما قال مولانا مفتي الروم[١] ـ لمقابلة ضمير الجمع، أي: ليس لكلٍّ واحدٍ منهم ناصرٌ واحد.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيانٌ لحال القِسْم الثاني، وبدأ بقِسْم الذين كفروا؛ لأنَّ ذِكْر ما قَبْلَه من حُكم الله تعالى بينهم، أولُ ما يتبادر منه في بادئ النظر التهديدُ، فناسَبَ البداءةَ بهم، ولأنهم أقربُ في الذِّكر لقوله تعالى: (فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟)، ولكون الكلام مع اليهود الذين كفروا بعيسى عليه السلام وهمُّوا بقَتْله.

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: فيوفِّر عليهم ويُتمِّم جزاءَ أعمالِهم القَلْبية والقالبية، ويُعطيهم ثوابَ ذلك وافياً من غير نقص. وزعم بعضهم[٢] أنَّ تَوْفِيَةَ الأجور هي قَسْمُ المنازل في الجَنَّة، والظاهرُ أنها أعمُّ من ذلك.

وعلَّق التوفية على الإيمان والعمل الصالح، ولم يعلِّق العذابَ بسوى الكفر؛ تنبيهاً على درجة الكمال في الإيمان، ودعاءً إليها، وإيذاناً بعِظَم قُبح الكُفر.

وقرأ حفص، ورويس عن يعقوب: «فيوفيهم» بياء الغيبة، وزاد رويس ضمَّ الهاء، وقرَأ الباقون بالنون[٣] جَرْياً على سَنَن العظمة والكبرياء ولعلَّ وجهَ الالتفات إلى الغيبة على القراءة الأولى الإيذانُ بأنَّ توفية الأجر ممَّا لا يقتضي لها نَصَب نَفْس؛ لأنها من آثار الرحمة الواسعة، ولا كذلك العذاب.

والموصول في الآيتين مبتدأ خبرُه ما بعد الفاء، وجوَّز أن يكون منصوباً بفعلٍ محذوفٍ يفسِّره ما ذُكر. وموضعُ المحذوف بعد الصلة كما قال أبو البقاء[٤]، ولا يجوز أن يقدَّر قبل الموصول؛ لأنَّ «أمَّا» لا يَليها الفعلُ[٥].

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٢/ ٤٤-٤٥.
(٢) هو ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٤٥.
(٣) التيسير ص٨٨، والنشر ٢/ ٢٤٠.
(٤) في الإملاء ٢/ ٧٥-٧٦.
(٥) فيكون التقدير: فأما الذين كفروا أعذِّب فأعذِّبهم، وتكون المسألة من باب الاشتغال؛ قال السمين في الدر ٣/ ٢١٥: وهذا ينبغي ألا يجوز؛ لعدم الحاجة إليه، مع ارتكاب وجه ضعيف جدًّا في أفصح الكلام.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: لا يُريد تعظيمهم، ولا يرحمهم ولا يُثني عليهم. أو المراد: يُبغضهم، على ما هو الشائع في مثل هذه العبارة، والجملة تذييلٌ لِمَا قبله[١]، مقرِّر لمضمونه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور من أمر عيسى عليه السَّلام. والإتيانُ بما يدلُّ على البعد؛ للإشارة إلى عِظَم شأن المُشار إليه، وبُعْدِ منزلته في الشَّرَف.

﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ أي: نَسْرُده ونذكره شيئاً بعد شيء، والمراد: تَلَوْناه، إلَّا أنه عَبَّر بالمضارع استحضاراً للصورة الحاصلة، اعتناءً بها. وقيل: يُمكن الحَمْلُ على الظاهر؛ لأنَّ قصَّة عيسى عليه السلام لم يُفرغ منها بعدُ.

﴿مِنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: الحججِ الدالَّةِ على صِدْقِ نبوَّتِك؛ إذ أَعْلَمتَهم بما لا يعلمُه إلا قارئُ كتابٍ أو معلِّمٌ، ولستَ بواحدٍ منهما، فلم يبق إلا أنَّك قد عرَفْتَه من طريق الوحي.

﴿وَٱلذِّكْرِ﴾ أي: القرآن. وقيل: اللوح المحفوظ، وتفسيرُه به لاشتماله عليه. و«مِن» تبعيضية على الأول، وابتدائية على الثاني، وحملُها على البيانِ وإرادة بعضٍ مخصوصٍ من القرآن بعيدٌ.

﴿ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ أي: المُحْكَم المتقن نظمُه، أو الممنوع من الباطل. أو صاحب الحكمة؛ وحينئذٍ يكون استعماله لِمَا صدرَ عنه ممَّا اشتمل على حكمته، إمَّا على وجه الاستعارة التبعية في لفظ «حكيم»، أو الإسناد المجازيِّ بأنْ أُسند للذِّكر ما هو لسببه وصاحبُه. وجَعْلُه من باب الاستعارة المَكْنية التخييلية ـ بأن شبَّه القرآن بناطقٍ بالحكمة، وأثبت له الوصف بـ «حكيم» تخييلاً ـ مُحْوِجٌ إلى تكلُّفٍ مشهورٍ في دفعِ شُبْهَةِ ذكْر الطرفين حينئذٍ، فتأمل.

وجوِّز في الآية أوجهٌ من الإعراب:

الأول: أنَّ «ذلك» مبتدأ، و«نتلوه» خبرُه، و«عليك» متعلِّق بالخبر، و«من الآيات» حالٌ من الضمير المنصوب، أو خبرٌ بعد خبر، أو هو الخبرُ وما بينهما حالٌ

---

(١) في (م): قبل.

من اسم الإشارة، على أنَّ العامل فيه معنى الإشارة لا الجارّ والمجرور، قيل: لأنَّ الحال لا يتقدَّم العاملَ المعنوي.

الثاني: أن يكون «ذلك» خبراً لمحذوف، أي: الأمرُ ذلك، و«نتلوه» في موضع الحال من «ذلك»، و«من الآيات» حالٌ من الهاء.

الثالث: أن يكون «ذلك» في موضع نصبٍ بفعلٍ دلَّ عليه «نتلو»، فيكون «من الآيات» حالاً من الهاء أيضاً.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ ذَكَر غيرُ واحدٍ أنَّ وَفْدَ نجران قالوا لرسول الله ﷺ: مالك تشتمُ صاحبَنا؟ قال: «ما أقول؟» قالوا: تقول: إنه عبد الله. قال: «أجلْ هو عبدُ اللهِ ورسولُه وكلمتُه ألقاها إلى العَذْرَاء البتول» فغضبوا وقالوا: هل رأيتَ إنساناً قطُّ من غير أب؟ فإن كنتَ صادقاً فأَرِنا مثلَه. فأنزل اللهُ تعالى هذه الآية[(١)].

وأخرَج البيهقيُّ في «الدلائل»[(٢)] من طريق سلمة بن عبد يسوع، عن أبيه، عن جدِّه: أنَّ رسول الله ﷺ كَتَب إلى أهل نجران قبلَ أن ينزل عليه ﴿طس﴾ سليمان: «بسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب[(٣)]، من محمَّدٍ رسولِ الله إلى أسقُف نجران وأهلِ نجران، إنْ أسلمتم فإنِّي أحمَدُ الله إليكم إلهَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وأمَّا بعدُ: فإنِّي أدعوكم إلى عبادة الله تعالى من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإنْ أبَيْتُم فالجزيةُ، فإن أبيتم فقد أُذنتُم[(٤)] بحربٍ. والسَّلام» فلمَّا قرَأ الأسقف الكتاب فَظِعَ به، وذعر ذُعراً شديداً، فبعث إلى رجلٍ من أهل نجران يقال له: شُرحْبيل بن وَدَاعة، فدفع إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرَأه، فقال له الأسقف: ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وَعد الله تعالى إبراهيم في ذرِّية إسماعيل من

---

(١) أخرجه الطبري ٥/ ٤٦٠ - ٤٦٢ عن ابن عباس وقتادة والسدي وعكرمة وابن زيد وابن جريج.

(٢) ٥/ ٣٨٥-٣٨٩ مطولاً، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية وقال: فيه غرابة.

(٣) قال ابن القيم في زاد المعاد ٣/ ٦٤٢: أما قوله: إنه ﷺ كتب إلى نجران: باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فلا أظن ذلك محفوظاً، وقد كتب إلى هرقل: بسم الله الرحمن الرحيم، وهذه كانت سنَّته في كتبه إلى الملوك. اهـ. وقوله في الخبر: قبل أن ينزل عليه: ﴿طس﴾ سليمان، قال ابن القيم: وذلك غلط على غلط؛ فإن هذه السورة مكية باتفاق.

(٤) في الدلائل وزاد المعاد وتفسير ابن كثير: آذنتكم.

النبوة، فما يُؤْمَن أنْ يكون هذا الرَّجلُ نبيًّا، وليس لي في النبوَّة رَأيٌ، لو كان أمرٌ من أمر الدنيا أشرتُ عليك فيه، وجهدتُ لك. فبعث الأسقفُ إلى واحدٍ بعد واحد من أهل نجران، فكلُّهم قال مثل قول شرحبيل، فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا شُرَحَبيل وعبدَ الله بن شُرَحبيل وجَبَّار بنَ فيض، فيأتونهم بخَبَرِ رسول الله ﷺ، فانطلق الوفدُ حتى أَتَوا رسولَ الله ﷺ، فسألهم وسألوه، فلم تزل به وبهم المسألةُ حتى قالوا: ما تقولُ في عيسى ابنِ مريم؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما عندي فيه شيءٌ يومي هذا؟ فأقيموا حتى أُخبرَكم بما يقال لي في عيسى صبحَ الغَدَاة» فأنزل اللهُ هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فأبَوْا أن يُقرُّوا بذلك، فلما أصْبَح رسولُ الله ﷺ الغدَ بعْدَ ما أَخبرَهم الخبرَ، أقبل مشتمِلاً على الحسن والحسين في خميلةٍ له وفاطمةُ تمشي عند ظَهْرِهِ للمُلاعَنَةِ؟ وله يومئذٍ عِدَّةُ نِسوة، فقال شرحبيلُ لصاحبيه: إنِّي أرى أَمْراً مقبلاً[(١)]، إن كان هذا الرجل نبيًّا مرسلاً فلاعَنَّاهُ لا يبقى على ظهر الأرض منَّا شعرٌ ولا ظفرٌ إلا هلَك، فقال له: ما رأيك؟ فقال: رأيي أن أُحكِّمهُ؛ فإنِّي أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً، فقالا له: أنت وذاك. فتلقَّى شرحبيلُ رسولَ الله ﷺ، فقال: إنِّي رأيت خيراً من ملاعنتك. قال: «وما هو؟» قال: حُكمك اليوم إلى الليل وليلك إلى الصباح، فما حَكَمتَ فينا فهو جائز، فرجع رسولُ الله ﷺ ولم يُلاعنهم وصالَحهم على الجزية. وروي غير ذلك كما سيأتي قريباً.

والمَثَل هنا ليس هو المَثَلَ المستعملَ في التشبيه والكاف زائدة ـ كما قيل به ـ بل بمعنى الحال والصفة العجيبة، أي: إنَّ صفة عيسى.

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في تقديره وحُكمه، أو فيما غاب عنكم ولم تَطَّلعوا على كنههِ. والظَّرفُ متعلِّق فيما تعلَّق به الجارُّ في قوله سبحانه: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أي: كصفته وحالِه العجيبة التي لا يَرتابُ فيها مرتابٌ.

﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ جملةٌ ابتدائيةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، مبيِّنةٌ لوجه الشبَهِ باعتبار أنَّ في كلٍّ الخروجُ عن العادة، وعدمُ استكمال الطرفين، ويحتمل أنه جيء

---

(١) في (م) وتفسير ابن كثير: ثقيلاً، والمثبت من الأصل وباقي المصادر.

بها لبيان أنَّ المشبَّه به أغرب وأخرقُ للعادة، فيكون ذلك أقطعَ للخصم وأحسمَ لمادة شُبْهته. و«مِن» لابتداء الغاية متعلِّقة بما عندها، والضميرُ المنصوبُ لـ «آدم»، والمعنى: ابتدأ خَلْقَ قالَبِه من هذا الجنس.

﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ أي: صِرْ بشراً فصارَ، فالتراخي على هذا زمانيٌّ، إذ بين إنشائه ممَّا ذكر وإيجاد الروح فيه وتصييرِه لحماً ودماً زمانٌ طويل، فقد روي أنَّه بعد أن خلق قَالَبه بقي ملقًى على باب الجنة أربعين سنةً لم تُنفخ فيه الروحُ. والتعبيرُ بالمضارع مع أنَّ المقام مقامُ المُضيِّ؛ لتصوير ذلك الأمر الكامل بصورة المشاهَد الذي يَقع الآن؛ إيذاناً بأنه من الأمور المستغرَبةِ العجيبة الشأن. وجوِّز أن يكون التعبير بذلك لِما أنَّ الكون مستقبلٌ بالنظر إلى ما قبلَه.

وذهب كثيرٌ من المحقِّقين إلى أنَّ «ثم» للتراخي في الإخبار لا في المخبَر به(١)، وحمَلوا الكلام على ظاهره، ولا يضرُّ تقدُّم القول على الخلق في هذا الترتيب والتراخي، كما لا يخفى.

والضميرُ المجرور عائدٌ على ما عاد عليه الضميرُ المنصوب، والقولُ بأنَّه عائد على عيسى ليس بشيء؛ لِمَا فيه من التفكيك الذي لا داعي إليه، ولا قرينةَ تدلُّ عليه.

قيل: وفي الآية دلالةٌ على صحَّة النظر والاستدلال؛ لأنه سبحانه احتجَّ على النصارى، وأثبت جَواز خَلْقِ عيسى عليه السلام من غير أبٍ بخَلْقِ آدم عليه السلام من غير أبٍ ولا أمٍّ، ثم إنَّ الظاهر أنَّ عيسى عليه السلام خَلَقه الله سُبحانه من نطفةِ مريم عليها السلام بجَعْلِها قابلةً لذلك ومستعدَّة له، كما أشرنا إليه فيما تقدَّم.

والقول بأنه خُلِق من الهواء كما خلق آدم من التراب، ممَّا لا مُستَنَدَ له من عقلٍ ولا نقل، و﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] لا يدلُّ عليه بوجهٍ أصلاً.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ خبرٌ لمحذوف، أي: هو الحقُّ، وهو راجعٌ إلى البيان والقَصَصِ المذكورِ سابقاً، والجارُّ والمجرور حالٌ من الضمير في الخبر. وجوِّز أن

---

(١) وهذا كما نقول: أخبرك أني أعطيك اليوم ألفاً، ثم أخبرك أني أعطيتك أمسِ قبله ألفاً. فأمس متقدم على اليوم، وإنما جاء بثم لأن خبر اليوم متقدم على خبر أمس، وجاء خبر أمس بعد مُضيِّ خبر اليوم. وينظر تفصيل هذه المسألة في الدر المصون ٣/ ٢١٩-٢٢٠.

يكون «الحق» مبتدأ، و«من ربك» خبره. ورجّح الأولُ بأنَّ المقصود الدلالةُ على كون عيسى مخلوقاً كآدم عليهما السلام هو الحقُّ، لا ما يزعمه النصارى، وتطبيقُ كونهما مبتدأ وخبراً على هذا المعنى لا يتأتَّى إلا بتكلُّفِ إرادة أنَّ كلَّ حقٍّ - أو جِنسه - من الله تعالى، ومن جملتِه هذا الشأنُ، أو حَمْل اللام على العهد بإرادة «الحق» المذكور.

ولا يخفى ما في التعرُّض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من اللَّطافة الظاهرة.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾ خطابٌ له ﷺ، ولا يضرُّ فيه استحالةُ وقوع الامتراءِ منه عليه الصلاة والسلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥]، بل قد ذكروا في هذا الأسلوب فائدتين:

إحداهما: أنه ﷺ إذا سمِع مثلَ هذا الخطاب تحرَّكت منه الأريحيَّة، فيَزْدادُ في الثبات على اليقين نوراً على نور.

وثانيتهما: أنَّ السامع يتنبَّه بهذا الخطاب على أمرٍ عظيم، فينزع وينزجرُ عمَّا يُورِثُ الامتراءَ؛ لأنه ﷺ مع جلالته التي لا تصل إليها الأماني إذا خوطب بمثله فما يُظنُّ بغيره؟ ففي ذلك زيادةُ ثباتٍ له صلوات الله تعالى وسلامه عليه ولطف بغيره. وجوِّز أن يكون خطاباً لكلِّ مَن يقف عليه ويَصلُح للخطاب.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ أي: جادَلَك وخاصَمك مِن وفْدِ نصارى نجران؛ إذ هم المُتَصدُّون لذلك. ﴿فِيهِ﴾ أي: في شأن عيسى عليه السلام؛ لأنه المحدَّث عنه وصاحب القصة. وقيل: الضمير للحقِّ المتقدِّم؛ لقربه وعدمِ بُعد المعنى.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: الآيات المُوجبة للعلم، وإطلاقُ العلم عليها إمَّا حقيقة؛ لأنها - كما قيل - نوع منه، وإمَّا مجاز مرسل، والقرينة عليه ذكر المحاجَّة المقتضية للأدلة.

والجارُّ والمجرور الأخير حالٌ من فاعلِ «جاءك» الراجع إلى «ما» الموصولةِ، و«من» من ذلك تبعيضية، وقيل: لبيان الجنس.

﴿فَقُلْ﴾ أي: لمَن حاجك ﴿تَعَالَوْا﴾ أي: أَقبِلوا بالرَّأي والعزيمة، وأصلُه: طلبُ الإقبال إلى مكان مرتَفعٍ، ثم تُوسِّع فيه فاستعمل في مجرَّد طلب المجيء ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي: يَدْعُ كلٌّ منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسَه للمباهَلَة، وفي تقديم مَن قدِّم على النَّفس في المباهلة مع أنَّها مِن مظانِّ التَّلف، والرجلُ يخاطر لهم بنفسه؛ إيذانٌ[1] بكمالِ أَمْنِه ﷺ، وكمال يَقينه في إحاطة حفظِ الله تعالى بهم، ولذلك ـ مع رعاية الأصل في الصِّيغة فإنَّ غيرَ المتكلِّم تبعٌ له في الإسناد ـ قدَّم ﷺ جانبَه على جانِب المخاطَبين.

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي: نَتَباهل، فالافتعال هنا بمعنى المُفاعلة، وافتعل وتفاعل أخوان في كثيرٍ من المواضع، كاشتوَرَ وتَشاور، واجتور وتجاورَ. والأصلُ في البهلة ـ بالضم والفتح ـ كما قيل: اللعنةُ والدعاء بها، ثم شاعت في مطلَق الدعاء، كما يقال: فلان يَبتَهِلُ إلى الله تعالى في حاجته.

وقال الرَّاغب[2]: بَهْلُ الشيءِ والبعير: إهمالُه وتخليتُه، ثم استُعمِل في الاسترسال في الدعاء سواءٌ كان لعناً أوْ لا، إلَّا أنه هنا يُفَسَّر باللعن؛ لأنه المراد الواقع فيه، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَٰذِبِينَ ٦١﴾ ـ أي: في أمر عيسى عليه السلام ـ فإنه معطوفٌ على «نَبتهل» مفسِّرٌ للمراد منه، أي: نقول: لعنةُ الله على الكاذبين، أو: اللهمَّ الْعَنِ الكاذبين.

أخرج البخاريُّ ومسلم أنَّ العاقِبَ والسيد أَتَيا رسول الله ﷺ، فأراد أن يُلاعنهما، فقال أحدُهما لصاحبه: لا تُلاعِنه، فوالله لَئِن كان نبيًّا فلاعَنَنَا لا نفلحُ نحن ولا عَقِبُنا من بعدنا. فقالوا له: نعطيك ما سألتَ، فابعث معنا رجلاً أميناً. فقال: «قم يا أبا عبيدة» فلما قام، قال: «هذا أمين هذه الأمة»[3].

وأخرج أبو نعيم في «الدلائل»[4] من طريق عطاء والضَّحاك عن ابن عباس: أنَّ

(١) في الأصل و(م): إيذانا، والصواب ما أثبتناه. ينظر تفسير أبي السعود ٢/ ٤٦.
(٢) في مفرداته (بهل)، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٣/ ٣٢.
(٣) صحيح البخاري (٤٣٨٠)، وصحيح مسلم (٢٤٢٠) من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ، وأخرجه أحمد (٢٣٢٧٢)، وقصة الملاعنة ليست عند أحمد ومسلم.
(٤) كما في الدر المنثور ٢/ ٣٩، ولم نقف عليه في المطبوع من الدلائل.

ثمانيةً من أساقفة أهل نجران قدِموا على رسول الله ﷺ منهم العاقب والسيد، فأنزل الله تعالى (قُلْ تَعَالَوْا) الآية، فقالوا: أخِّرنا ثلاثة أيام. فذهبوا إلى بني قريظة والنضير وبني قينقاع، فاستشاروهم فأشاروا عليهم أن يُصالحوه ولا يُلاعنوه، قالوا: هو النبيُّ الذي نجده في التوراة. فصالَحوا النبي ﷺ على ألف حُلَّةٍ في صفر، وألفٍ في رجب، ودراهم.

وروي أنهم صالَحوه على أن يعطوه في كلِّ عامٍ ألفي حُلَّةٍ وثلاثاً وثلاثين درعاً، وثلاثة وثلاثين بعيراً، وأربعاً وثلاثين فرساً[١].

وأخرج في «الدلائل» أيضاً[٢] من طريق الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس: أن وفد نَجْرَان من النصارى قدِموا على رسول الله ﷺ وهم أربعةَ عشر رجلاً من أشرافهم منهم السيد وهو الكبير، والعاقب وهو الذي يكون بعده وصاحبُ رأيهم، فقال رسول الله ﷺ: «أَسْلِما» قالا: أسلمنا. قال: «ما أسلمتما» قالا: بلى قد أسلمنا قبلَك. قال: «كذبتُما، يَمنعكما من الإسلام ثلاثٌ فيكما: عبادتكما الصليبَ، وأكلُكما الخنزيرَ، وزعمكما أن لله ولداً» ونزل (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ) الآية. فلمَّا قرأها عليهم قالوا: ما نعرف ما تقول. ونزل (فَمَنْ حَآجَّكَ) الآية، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى قد أمرني إن لم تقبلوا هذا أن أباهلكم» فقالوا: يا أبا القاسم، بل نَرْجعُ فننظر في أمرنا ثم نأتيك. فخَلا بعضُهم ببعض وتصَادَقوا فيما بينهم، قال السيد للعاقب: قد واللهِ عَلِمتم أن الرَّجُل نبيٌّ مرْسَلٌ ولئن لاعنتموه إنه لَاسْتِئصالُكم، وما لاعَنَ قومٌ نبيًّا قطُّ فبقي كبيرُهم ولا نبت صغيرُهم، فإن أنتم لن تتَّبعوه، وأبيتم إلا إلْفَ دِينكم، فوَادِعوه وارْجعوا إلى بلادكم. وقد كان رسولُ الله ﷺ خرَج ومعه عليٌّ والحسنُ والحسين وفاطمةُ، فقال رسول الله ﷺ: «إن أنا دعوتُ فأمِّنوا أنتم». فأبوا أن يُلاعنوه وصالَحوه على الجزية.

---

(١) قطعة من خبر أخرجه الطبري ٥/ ٤٧١ عن السدي، وأخرجه بنحوه أبو داود (٣٠٤١) من طريق السدي عن ابن عباس، قال المنذري كما في نصب الراية ٣/ ٤٤٥: في سماع السدي من ابن عباس نظر. وأخرجه أبو عبيد في الأموال (٥٠٢) عن أبي المليح الهذلي.

(٢) برقم (٢٤٥)، وهو في الدر المنثور ٢/ ٣٩.

وعن الشعبي: فقال رسولُ الله ﷺ: «لقد أتاني البشيرُ بهلكة أهلِ نجران، حتى الطيرُ على الشجر، لو تمُّوا على الملاعنة»(١).

وعن جابر: «والذي بعثني بالحقِّ لو فَعَلَا لأمطر الوادي عليهما ناراً»(٢).

وروي أنَّ أَسْقُفَ نجران لمَّا رأى رسول الله ﷺ مقبِلاً ومعه عليٌّ وفاطمةُ والحسنان ﵃، قال: يا معشرَ النَّصارى، إنِّي لأَرى وجوهاً لو سألوا الله تعالى أن يُزيلَ جَبَلاً من مكانه لأزاله، فلا تُباهلوا وتهلكوا(٣).

هذا وإنَّما ضمَّ رسولُ الله ﷺ إلى النفس الأبناءَ والنساءَ، مع أنَّ القَصْدَ من المباهلة تبيُّنُ الصَّادقِ من الكاذب، وهو يختصُّ به وبمن يباهله؛ لأنَّ ذلك أتمُّ في الدلالة على ثقته بحاله، واستيقانه بصدقه، وأكملُ نكايةً بالعدوِّ، وأوفرُ إضراراً به لو تمَّت المباهلة.

وفي هذه القصة أوضح دليل على نبوَّته ﷺ، وإلَّا لَمَا امتنعوا عن مباهلته، ودلالتها على فضل آل اللهِ ورسوله ﷺ ممَّا لا يَمتري فيها مؤمنٌ، والنصب جازم الإيمان.

واستدلَّ بها الشيعة على أولويَّة عليٍّ ـ كرَّم الله تعالى وجهه ـ بالخلافة بعدَ رسولِ الله ﷺ، بناءً على رواية مجيء عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه مع رسول الله ﷺ، ووجَّه أنَّ المراد حينئذٍ بأبنائنا الحسنُ والحسين، وبنسائنا فاطمةُ، وبأنفسنا الأميرُ، وإذا صار نفسَ الرسول ـ وظاهرٌ أنَّ المعنى الحقيقيَّ مستحيل ـ تعيَّن أن يكون المراد المساواة، ومَن كان مساوياً للنبيِّ ﷺ فهو أفضلُ وأولى بالتصرُّف من غيره، ولا معنى للخليفة إلَّا ذلك.

وأجيبَ عن ذلك:

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٤/ ٥٤٩، والطبري ٥/ ٤٦٩-٤٧٠. وأخرج أحمد (٢٢٢٥) بإسناد صحيح من حديث ابن عباس ﵄ عن النبي ﷺ: «.... ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لايجدون مالاً ولا أهلاً».

(٢) أخرجه مطولاً أبو نعيم في الدلائل (٢٤٤).

(٣) ذكره بهذا اللفظ الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٣٤، وأخرجه بنحوه الحاكم ٢/ ٥٩٣-٥٩٤ عن جابر ﵁.

أمَّا أولاً: فبأنَّا لا نسلِّم أنَّ المراد بـ «أنفسنا»: الأمير، بل المراد نفسُه الشريفة ﷺ، ويجعل الأمير داخلاً في الأبناء، وفي العُرف يُعدُّ الخَتَن ابناً من غير ريبة، ويُلتزم عمومُ المجاز إن قلنا: إنَّ إطلاق الابن على ابن البنت حقيقة. وإن قلنا: إنَّه مجاز، لم يَحْتَجْ إلى القول بعمومه، وكان إطلاقه على الأمير وابنيه رضي الله عنهم على حدٍّ سواء في المجازيَّة.

وقولُ الطبرسي[1] وغيره من علمائهم: إنَّ إرادة نفْسِه الشريفةِ ﷺ من «أنفسنا» لا تجوز؛ لوجود «نَدْعُ» والشخصُ لا يدعو نفسَه = هذيانٌ من القول؛ إذ قد شاع وذَاعَ في القديم والحديث: دَعَته نفْسُه إلى كذا، ودعوتُ نفسي إلى كذا، وطوَّعتْ له نفْسُه، وأمرْتُ نفسي، وشاورْتُها، إلى غير ذلك من الاستعمالات الصحيحة الواقعة في كلام البُلَغاء، فيكون حاصلُ «نَدْعُ أنفسَنا»: نُحْضِر أنفُسَنا، وأيُّ محذورٍ في ذلك؟ على أنَّا لو قرَّرنا الأمير من قِبل النبيِّ ﷺ لمصداق «أنفسنا»، فمَن نقرِّره من قِبَل الكفار؟ مع أنهم مشتركون في صيغة «نَدْعُ»؛ إذ لا معنى لدعوة النبيِّ ﷺ إياهم وأبناءَهم ونساءَهم بعد قوله: ﴿تَعَالَوْا﴾ كما لا يخفى.

وأمَّا ثانياً: فبأنَّا لو سلَّمنا أنَّ المراد بـ «أنفسنا» الأمير، لكن لا نسلِّم أنَّ المراد من النفس ذاتُ الشخص؛ إذ قد جاء لفظُ النفسِ بمعنى القريبِ والشَّريك في الدِّين والملَّة، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤]، ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] فلعلَّه لمَّا كان للأمير اتصالٌ بالنبيِّ ﷺ في النَّسب والمصاهرة، واتحادٌ في الدِّين، عبَّر عنه بالنَّفس، وحينئذ لا تلزَم المساواة التي هي عمادُ استدلالِهم. على انَّه لو كان المراد مساواتِه في جميع الصفات، يَلزَمُ الاشتراكُ في النبوة والخاتمية والبعثةِ إلى كافَّة الخلق، ونحو ذلك، وهو باطلٌ بالإجماع؛ لأنَّ التابع دون المتبوع، ولو كان المراد المساواة في البعض لم يَحصل الغرض؛ لأنَّ المساواةَ في بعض صفاتِ الأفضل والأولى بالتصرُّف لا تَجعلُ مَن هي له أفضلَ وأولى بالتصرُّف بالضرورة.

(١) في مجمع البيان ٣/ ١٠٢.

وأمَّا ثالثاً: فبأنَّ ذلك لو دلَّ على خلافةِ الأمير ـ كما زعموا ـ لزم كونُ الأمير إماماً في زمَنِه ﷺ، وهو باطلٌ بالاتفاق، وإن قيِّد بوقتٍ دون وقت، فمع أنَّ التقييد ممَّا لا دليل عليه في اللفظ، لايكون مفيداً للمدَّعي؛ إذ هو غيرُ متنازَعٍ فيه؛ لأنَّ أهل السُّنَّة يُثبتون إمامته في وقتٍ دون وقت، فلم يكن هذا الدليل قائماً في محلِّ النزاع.

ولضَعْفِ الاستدلالِ به في هذا المطلَب، بل عدم صحَّته، كالاستدلال به على أفضلية الأمير عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه على الأنبياء والمرسلين عليهم السَّلام لزَعْمِ ثبوتِ مساواته للأفضل منهم فيه = لم يُقِمْه محقِّقو الشيعةِ على أكثر من دعوى كونِ الأمير والبتول والحسنين أعزَّةً على رسول الله ﷺ، كما صنَع عبدُ الله المشهديُّ في كتابه «إظهار الحق».

وقد أخرج مسلم والترمذيُّ وغيرهما عن سعد بن أبي وقَّاص قال: لمَّا نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ﴾ إلخ، دعا رسولُ الله ﷺ عليًّا وفاطمة وحَسَناً وحُسَيناً فقال: «اللهمَّ هؤلاءِ أَهْلي»(١).

وهذا الذي ذَكَرْناه من دعائه ﷺ هؤلاء الأربعة المتناسبَةَ رضي الله عنهم هو المشهورُ المعوَّلُ عليه لدى المحدِّثين. وأخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمد، عن أبيه رضي الله عنهما: أنَّه لمَّا نزلت هذه الآية جاء بأبي بكر وولده، وبعمر وولده، وبعثمان وولده، وبعليٍّ وولده(٢). وهذا خلافُ ما رواه الجمهور.

واستدلَّ ابن أبي علان من المعتزلة(٣) بهذه القصَّة أيضاً على أنَّ الحَسَنَيْن كانا مكلَّفين في تلك الحال؛ لأنَّ المباهلة لا تجوز إلَّا مع البالغين. وذهب الإماميةُ إلى أنه يُشترط فيها كمالُ العقل والتمييز، وحصولُ ذلك لا يتوقَّف على البلوغ، فقد يَحصل كمالٌ قبلَه ربمَّا يزيد على كمال البالغين. فلا يمتنع أن يكن الحَسَنان إذ ذاك غيرَ بَالغيْن، إلا أنَّهما في سِنٍّ لا يمتنع معها أن يكونا كامِلَي العقل، على أنَّه يجوز أن يخرق اللهُ تعالى العادات لأولئك السَّادات ويَخصَّهم بما لا يشاركهم فيه غيرُهم،

(١) صحيح مسلم (٢٤٠٤): (٣٢)، وسنن الترمذي (٢٩٩٩)، واللفظ له، وهو عند أحمد (١٦٠٨).
(٢) تاريخ ابن عساكر ٣٩/ ١٧٧.
(٣) عبد الله بن أبي علان أبو محمد قاضي الأهواز، صنف الكتب الكثيرة في علم الكلام وغيره، توفي سنة (٤٠٩هـ). النجوم الزاهرة ٤/ ٢٤٣. وقوله في مجمع البيان ٣/ ١٠١.

فلو صحَّ أنَّ كمال العقل غيرُ معتاد في تلك السنِّ لَجاز ذلك فيهم إبانةً لهم عمَّن سواهم، ودلالةً على مكانهم من الله تعالى واختصاصهم به[1]، وهم القومُ الذين لا تُحصى خصائصُهم.

وذهب النواصبُ[2] إلى أنَّ المباهلَة جائزةٌ لإظهار الحقِّ إلى اليوم، إلَّا أنَّه يُمنع فيها أن يُحْضَر الأولاد والنساء، وزعموا ـ رفعَهم اللهُ تعالى لا قَدْراً، وحطَّهم ولا حطَّ عنهم وِزْراً ـ أنَّ ما وقَع منه ﷺ كان لمجرَّد إلزام الخَصْم وتَبْكِيته، وأنه لا يدلُّ على فضل أولئك الكرام، على نبيِّنا وعليهم أفضل الصلاة وأكملُ السَّلام، وأنت تعلم أنَّ هذا الزعم ضربٌ من الهَذَيان، وأثرٌ من مسِّ الشيطان:

وليس يَصِحُّ في الأذهانِ شيءٌ إذا احتاج النَّهارُ إلى دليلِ[3]

ومَن ذهب إلى جواز المباهلة اليوم على طِرْز ما صنَع رسول الله ﷺ، واستدلَّ بما أخرجه عبد بنُ حميد[4]، عن قيس بن سعد: أنَّ ابن عباس رضي الله عنهما كان بينه وبين آخر شيء، فدعاه إلى المباهلة وقرأ الآية ورفع يديه فاستقبل الرُّكن. وكأنه يُشير بذلك رضي الله عنه إلى كيفية الابتهال، وأنَّ الأيديَ تُرفع فيه، وفيما أخرجه الحاكم[5] تصريحٌ بذلك، وأنها تُرفع حذوَ المناكبِ.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: المذكور في شأن عيسى عليه السلام؛ قاله ابن عباس ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ جملةٌ اسمية خبرُ «إنَّ». ويجوز أن يكون «هو» ضميرَ فصْلٍ لا محلَّ له من الإعراب، و«القصص» هو الخبر، وضميرُ الفصل يُفيد القصرَ الإضافيَّ كما يفيده تعريف الطَّرفين. و«الحقُّ» صفةُ «القصص» وهو المقصودُ بالإفادة، أي: إنَّ هذا هو

---

(١) مجمع البيان ٣/ ١٠١.

(٢) هم قوم يتدينون ببغضة علي رضي الله عنه، ويزعمون أنه لم يكن مصيباً في حروبه. فتح الباري ١/ ٥٤٣، واللسان (نصب).

(٣) البيت للمتنبي، وهو في شرح ديوانه ٣/ ٢١٥ برواية: وليس يصح في الأفهام...

(٤) كما في الدر المنثور ٢/ ٤٠.

(٥) في المستدرك ٤/ ٣٢٠ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «هكذا الإخلاص» يشير بأصبعه التي تلي الإبهام، «وهذا الدعاء» فرفع يديه حذو منكبيه، «وهذا الابتهال» فرفع يديه مدًّا، قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي بقوله: ذا منكرٌ بمَرَّة.

الحقُّ، لا ما يدَّعيه النصارى من كون المسيح عليه السلام إلهاً، أو ابن الله، سبحانه وتعالى عمَّا يقوله الظالمون علوًّا كبيراً.

وقيل: إنَّ الضمير للقصر والتأكيد لو لم يكن في الكلام ما يفيد ذلك، وإن كان كما هنا فهو لمجرَّد التأكيد. والأول هو المشهور، وعليه الجمهور، ولعلَّه الأَوْجَه.

واللام لامُ الابتداء، والأصلُ فيها أن تدخل على المبتدأ، إلَّا أنهم يزحلِقونها إلى الخبر لئلَّا يتوالى حرفا تأكيدٍ، وإذا جاز دخولُها على الخبر كان دخولُها على الفصل أَجوَزَ؛ لأنه أقرب إلى المبتدأ، فافهم.

و﴿ٱلْقَصَصُ﴾ على ما في «البحر» مصدر[1] قولهم: قصَّ فلانٌ الحديثَ يقصُّه قصًّا وقَصَصاً، وأصلُه: تتبّع الأثر، يقال: خرَج فلان يقصُّ أثرَ فلان، أي: يتتبَّعه ليعرفَ أين ذهب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١]، أي: تتبَّعي أثرَه، وكذلك القاصُّ في الكلام لأنه يَتتبَّع خبراً بعد خبر، أو يتتبَّع المعاني ليورِدَها. وهو هنا فَعَلٌ بمعنى مفعول، أي: المقصوص الحقُّ. وقرئ: «لَهْو» بسكون الهاء[2].

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ردٌّ على النصارى في تثليثهم، وكذا فيه ردٌّ على سائر الثَّنوية. و«مِن» زائدة للتأكيد كما هو شأن الصِّلات، وقد فهم أهلُ اللسان ـ كما قال الشهاب[3] ـ أنها لتأكيد الاستغراقِ المفهوم من النكرة المَنْفيَّة لاختصاصها بذلك في الأكثر، وقد توقَّف محبُّ الدِّين[4] في وجه إفادة الكلمات المزيدة للتأكيد بأيِّ طريق هي، فإنها ليست وضعيَّةً، وأجاب بأنَّها ذوقية يَعرِفها أهلُ اللسان. واعتُرض بأنَّ هذا حوالةٌ على مجهول فلا تفيد، فالأَولى أن يقال: إنَّها وضعيةٌ، لكنه من باب الوضع النوعي، فتدبَّر.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب غلبةً تامَّةً، أو القادر قدرةً كذلك، أو الذي لا نظيرَ له. ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ أي: المتقِنُ فيما صنَع، أو المحيط بالمعلومات.

---

(١) البحر ٢/ ٤٨٢، وما بعده من الدر المصون ٣/ ٢٢٩.

(٢) في الأصل و(م) بسكون الواو، والمثبت هو الصواب. والقراءة بسكون الهاء وردت عن أبي عمرو والكسائي وأبي جعفر وقالون. التيسير ص٧٢، والنشر ٢/ ٢٠٩.

(٣) في حاشيته ٣/ ٣٢.

(٤) لعله محمد بن أحمد الحنفي المدعو بمولانا زاده، المتوفى سنة (٨٥٩هـ)، اختصر الكشاف، وله حاشية على مفتاح العلوم للسكاكي. كشف الظنون ٢/ ١٤٨١، وهدية العارفين ٢/ ٢٠١.

والجملةُ تذييلٌ لِمَا قبلها، والمقصود منها أيضاً قصرُ الإلهية عليه تعالى ردًّا على النصارى، أي: قصر إفرادٍ، فالفصل والتعريف هنا كالفصل والتعريف هناك، فما قيل: إنهما ليسا للحصْر؛ إذ الغالبُ على الأغيار لا يكون إلَّا واحداً، فيلغو القصر فيه إلا أن يُجعل قصرَ قلبٍ والمقامُ لا يلائمه = ممَّا لا عصام له كما لا يخفى.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن اتِّباعك وتصديقك بعد هذه الآيات البيِّنات، وهذا على تقدير أن يكون الفعل ماضياً، ويحتمل أن يكون مضارعاً وحُذفت منه إحدى التاءين تخفيفاً، وأصله: تتولَّوا.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: بهم، أو: بكم، والجملةُ جوابُ الشرط في الظاهر، لكن المعنى على ما يترتَّب على علمه بالمفسدين من معاقبته لهم، فالكلام للوعيد. ووضع الظاهر موضعَ الضمير تنبيهاً على العلَّة المقتضية للجزاء والعقاب، وهي الإفساد.

وقيل: المعنى على أنَّ الله عليم بهؤلاء المجادلين بغير حقٍّ، وبأنهم لا يُقْدمون على مُباهلتك؛ لمعرفتهم نبوَّتك وثبوت رسالتك. والجملةُ على هذا أيضاً ـ عند التحقيق ـ قائمةٌ مقامَ الجواب، إلا أنه ليس الجزاءَ والعقاب، والكلامُ مُنْسَاقٌ لتسليته ﷺ. ولا يخفى ما فيه.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ﴾ أي: شاهَدَ ﴿عِيسَىٰ﴾ بواسطة النور الإلهي المُشرِقِ عليه ﴿مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: ظُلْمتَه، أو نفسَه، فإنَّ المعاني تَظْهَر للكُمَّلِ على صوَر مختلفةٍ باختلافها فيرونها، وحكي عن الباز قدِّس سره أنه قال: إنَّ الليل والنهار يأتياني فيُخبِرَاني بما يَحْدُث فيهما! وعن بعض العارفين أنه يشاهد أعمال العباد كيف تَصْعَدُ إلى السماء، ويرى البلاءَ النازلَ منها.

﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ﴾ في حال دعوتي ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه، بأن يَلتفت إلى الاشتغال بتكميل نفْسه وتهذيبِ أخلاقها، حتى يَصْلُح لتربية الناقصين، فينصرني ويُعينني في تكميل الناقص وإرشاد الضَّالِّ.

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ المبيِّضون ثيابَ وجودِهم بمياه العبادة، ومطرقةِ المجاهدة، وشمسِ المراقبة: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: أعوان الفانين فيه الباقين به، ومنهم عيسى

عليه السَّلام ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الإيمانَ الكامل، فاشهد ﴿بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ أي: منقادون لأمرك حيث إنه أمرُ الله سبحانه.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ﴾ وهو ما نوَّرت به قلوب أصفيائك من علوم غَيبك ﴿وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ﴾ فيما أَظْهر من أوامرك ونواهيك؛ رجاءَ أن يوصلنا ذلك إلى محبَّتِك. ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: مع مَن يَشهدك ولا يشهد معك سواك، أو الحاضرين لك المراقبين لأمرك.

﴿وَمَكَرُواْ﴾ أي: الذين أحسَّ منهم الكفرَ، واحتالوا مع أهلِ الله بتدبير النفس، فكان مكرُهم مكرَ الحقِّ عليهم، لأنه المُزيِّن ذلك لهم، كما قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٠٨]فهو الماكِرُ في الحقيقة، وهذا معنى: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ عند بعضٍ، والأولى القولُ باختلاف المَكْرَيْن على ما يقتضيه مقامُ الفرْق، وقد سئل بعضُهم: كيف يَمْكُر الله؟ فصَاح وقال: لا علَّة لصُنْعه، وأنشأ يقول:

فديْتكَ قد جُبِلْتُ على هَواكا ... ونَفْسي لا تُنازِعُني سِواكا
أُحبُّك لا ببعضي بل بكُلِّي ... وإن لم يُبْقِ حُبُّك لي حَرَاكا
ويَقْبُحُ مِن سِواك الفعلُ عندي ... وتفعلُه فيحسُنُ منك ذاكا[1]

﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ عن رَسْمِ الحُدوثية ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ بنعْتِ الرُّبوبية ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بشغل سرِّك عن مطالَعة الأغيار. أو: متوفِّيك عنك، وقابضُك منك، ورافعُك عن نُعوت البشرية، ومطهِّرُك من إرادتك بالكلية.

وقيل: إنَّ عيسى عليه الصلاة والسلام لمَّا أحسَّ منهم الكفر، وعَلِمَ أنَّهم بَعَثوا مَن يَقتلُه، قال للحواريين: إنِّي ذاهبٌ إلى أبي وأبيكم السَّماويِّ، أي: متَّصِلٌ بروح القدس، ومتطهِّر من علاقة عالَم الرِّجس، فأُمِدُّكم بالفيض كي تستجاب دعوتُكم الخلْقَ بعدي. فشبِّه للقوم صورةٌ جَسَدانيةٌ هي مَظْهر عيسى روحِ الله تعالى بصورة حقيقةِ عيسى، فظنُّوها هو، فصلبوها ولم يعلموا أنَّ الله تعالى رفعَه إلى السماء الرابعة التي هي فلك الشمس، وحكمةُ رفعِه إلى ذلك أنَّ روحانيته عبارةٌ عن إسرافيل عليه الصلاة والسلام، ويشاركه المسيح في سرِّ النفخ.

---

(١) الأبيات لأبي نواس، وهي في ديوانه ص٤٧٧.

ومَن قال: إنه رُفِع إلى السماء الدنيا بيَّن الحكمة: بأنَّ إفاضة روحه كانت بواسطة جبريل عليه السلام وهو عبارةٌ عن روحانية فلَك القمر، وبأنَّ القمر في السماء الدنيا، وهو آيةٌ ليليةٌ تناسب علْمَ الباطن الذي أُوتيه المسيحُ عليه السلام.

ولم يَعتبر الصوفيةُ قدَّس اللهُ تعالى أسرارهم القولَ بأنه يَدور حوْلَ العرش؛ لأنَّ ذلك مقامُ النهاية في الكمال، ولهذا لم يَعرج إليه سوى صاحب المقام المحمود ﷺ الجامعُ بين الظاهر والباطن.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ في أنَّ كلًّا منهما خارقٌ للعادة خارجٌ عن دائرتها، وإن افترَقا في أنَّ عيسى عليه الصلاة والسلام بلا ذَكَرٍ، بل من نطفةِ أنثى فقط، كان في بعضها قوَّةُ العقدِ وفي البعض الآخَر قوَّة الانعقاد، كسائر النُّطف المركَّبة من مَنِيَّين في أحدهما القوةُ العاقِدة وفي الآخر المُنْعَقِدة، وأنَّ آدم عليه الصلاة والسلام بلا ذكَرَ ولا أنثى، ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ أي: صوَّر قالَبه من ذلك ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ إشارة إلى نفخ الروح فيه، وكونِه من عالَم الأمر، نظراً إلى روحه المقدَّسة التي لم تَرْتَكِض في رَحِم.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ أي: الحقِّ، أو في عيسى عليه السَّلام بالحُجَج الباطلة ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾ إلخ، أي: فادعُه إلى المباهلة بالهيئة المذكورة.

قال بعض العارفين: اعلم أنَّ لمباهلة الأنبياء عليهم السلام تأثيراً عظيماً سببُه اتصالُ نفوسهم بروح القدس، وتأييدُ الله تعالى إياهم به، وهو المؤثِّر بإذن الله تعالى في العالم العنصري، فيكون انفعالُ العالم العنصري منه كانفعال أبداننا من روحنا بالعَوَارض الواردة عليه، كالغضب والخوف والفِكر في أحوال المعشوق وغير ذلك، وانفعالُ النفوسِ البشرية منه كانفعال حواسِّنا وسائر قوانا من عوارض أرواحنا، فإذا اتَّصل نفسٌ قدسيٌّ به، أو ببعض أرواح الأجرام السماوية والنفوس الملكوتية، كان تأثيرها في العالم عند التوجُّه الاتصاليِّ تأثيرَ ما يتَّصل به، فينفعل أجرامُ العناصر والنفوسُ الناقصة الإنسانية منه بما أراد حسب ذلك الاتصال؛ ولذا انفَعَلت نفوسُ النصارى من نفْسه عليه الصلاة والسلام بالخوف، وأَحْجَمَت عن المباهلة وطلَبت المُوَادعة بقبول الجزية. انتهى.

وادَّعى بعضُهم أنَّ لكلِّ نفس تأثيراً، لكنه يختلف حَسْبَ اختلاف مراتبِ

النفوس، وتفاوت مراتب التوجُّهات إلى عالم التجرُّد. وفيه كلامٌ طويل، ولعلَّ النَّوبة تُفضي إلى تحقيقه. وهذا وتطبيق ما في الآفاق على ما في الأنفُس ظاهرٌ لمَن أحاط خُبْراً بما قدمناه في الآيات الأُوَل، واللهُ تعالى الموفِّقُ.

❁ ❁ ❁

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ نزلت في وفد نصارى نجْران؛ قاله السُّدِّيُّ والحسن وابن زيد ومحمد بن جعفر بن الزبير. وروي عن قتادة والربيع وابن جُرَيجٍ: أنها نزلت في يهودِ المدينة. وذهب أبو عليٍّ الجبائيُّ[1] أنها نزلت في الفريقين من أهل الكتاب، واستظهره بعضُ المحقِّقين لعمومه.

﴿تَعَالَوْا۟﴾ أي: هَلُمُّوا ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ أي: كلام، كما قال الزَّجَّاج[2]، وإطلاقُها على ذلك في كلامهم من باب المَجاز المُرسَل، وعلاقتُه تُجوِّز إطلاقَها على المركَّب الناقص، إلا أنَّه لم يوجد بالاستقراء. وقيل: إنه من باب الاستعارة، وليس بالبعيد.

وقرئ: «كِلْمة» بكَسْرِ الكاف وإسكان اللام على التخفيف والنقل[3].

﴿سَوَآءٍ﴾ أي: عَدْلٍ؛ قاله ابنُ عباس والربيع وقتادة. وقيل: إنَّ «سواء» مصدرٌ بمعنى مستوية، أي: لا يختلف فيها التوراةُ والإنجيل والقرآن، أو: لا اختلافَ فيها بكلِّ الشرائع. وهو في قراءة الجمهور مجرورٌ على أنه نعت لـ «كلمة»، وقرئ بنصبه على المصدر[4].

﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ متعلِّق بـ «سواء» ﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾ أي: نحن وأنتم ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بأن نوحِّده بالعبادة ونُخْلِصَ فيها. وفي موضع «أن» وما بعدها وجهان ـ كما قال أبو البقاء[5] ـ الأول: الجرُّ على البدلية من «كلمة»، والثاني: الرفع على الخبر لمحذوف، أي: هي أنْ لا نعبد إلَّا الله، ولولا عملُ «أنْ» لجاز أن تكون تفسيرية.

---

(١) كما في مجمع البيان ٣/ ١٠٥.

(٢) في معاني القرآن ١/ ٤٢٤.

(٣) القراءات الشاذة ص٢١، والبحر ٢/ ٤٨٢ عن أبي السَّمال، وذكر عنه أبو حيان أيضاً: «كَلْمة» كضَرْبة.

(٤) القراءات الشاذة ص٢١ عن الحسن.

(٥) في الإملاء ٢/ ٨٠-٨١.

وقيل: إنَّ الكلام تمَّ على «سواء»، ثم استؤنف فقيل: بيننا وبينكم أن لا نعبد، فالظرف خبرٌ مقدَّمٌ، و«أن» وما بعدها مبتدأ مؤخَّر.

﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ من الأشياء، على معنى: لا نَجعل غيرَه شريكاً له في استحقاق العبادة، ولا نَراه أهلاً لأن يُعبد، وبهذا المعنى يكون الكلام تأسيساً، والظاهر أنه تأكيدٌ لِمَا قبلَه، إلا أنَّ التأسيس أكثرُ فائدة.

وقيل: المراد: ولا نشرك به شيئاً من الشِّرك. وهو بعيد جدًّا.

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يُطيع بعضُنا بعضاً في معصية الله تعالى؛ قاله ابن جريج. ويؤيِّده ما أخرجه الترمذيُّ وحَسَّنَهُ من حديث عديٍّ بن حاتم أنَّه لمَّا نزلت هذه الآية قال[1]: ما كُنَّا نَعبدهم يا رسول الله! فقال ﷺ: «أما كانوا يُحَلِّلون لكم ويحرِّمون فتأخذون بقولهم؟» قال: نعم. فقال عليه الصلاة والسلام: «هو ذاك». قيل: وإلى هذا أشار سبحانه بقوله عزَّ مِن قائل: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وعن عكرمة: أنَّ هذا الاتِّخاذ هو سجود بعضِهم لبعض.

وقيل: هو مِثْلُ اعتقاد اليهود في عُزير أنه ابن الله، واعتقادِ النصارى في المسيح نحوَ ذلك.

وضمير «نا» على كلِّ تقدير للناس، لا للمُمْكن ـ وإن أمكن ـ حتى يشمل الأصنام؛ لأنَّ أهل الكتاب لم يَعبدوها.

وفي التعبير بالبعض نكتةٌ، وهي الإشارة إلى أنهم بعضٌ من جِنْسِنا، فكيف يكونون أرباباً؟!.

فإن قلت: إنَّ المخاطَبين لم يَتَّخذوا البعضَ أرباباً من دون الله، بل اتَّخذوهم آلهةً معه سبحانه؟

---

(١) كذا ذكر المصنف، والذي في سنن الترمذي (٣٠٩٥) ـ والخبر فيه بنحوه ـ أن هذا كان لما سمع عدي بنُ حاتم رسولَ الله ﷺ يقرأ قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.
أما قول المصنف بأن الترمذي حسنه فلعله تبع فيه الشهاب في حاشيته على البيضاوي ٣/ ٣٣، والصواب أن الترمذي لم يحسنه، وإنما قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث.

أجيب: بأنه أريد: من دون الله وحده. أو يقال: بأنه أتى بذلك للتنبيه على أن الشِّرك لا يجامِع الاعترافَ بربوبيته تعالى عقلاً؛ قاله بعضهم.

وللنصارى ـ سوَّد اللهُ تعالى حظَّهم ـ الحظُّ الأوفر من هذه المنهيَّات، وسيأتي إن شاء الله تعالى بيانُ فرَقِهم وتفصيل كفرِهم على أتمِّ وجه[1].

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ المراد: فإن تولَّوْا عن مُوافَقَتِكم فيما ذُكِر ممَّا اتُّفق عليه الكتبُ والرسلُ بعد عرضه عليهم، فاعلموا أنهم لزمتهم الحجَّةُ، وإنَّما أبوا عِناداً، فقولوا لهم: أنصِفوا واعترفوا وأقرُّوا بأنَّا على الدِّين الحقِّ. وهو تعجيزٌ لهم أو هو تعريضٌ بهم؛ لأنهم إذا شهدوا بالإسلام لهم فكأنهم قالوا: إنَّا لسْنا كذلك، وإلى هذا ذهب بعضُ المحقِّقين.

وقيل: المراد: فإن تولَّوا فقولوا: إنَّا لا نَتَحاشى عن الإسلام، ولا نُبالي بأحدٍ في هذا الأمر، فاشهدوا بأنَّا مسلمون، فإنَّا لا نُخفي إسلامنا كما أنَّكم تخافون وتُخفون كُفْرَكم ولا تعترفون به؛ لعدم وُثُوقِكم بنصر الله تعالى. ولا يخفى أنَّ هذا على ما فيه إنَّما يَحْسُنُ لو كان الكلام في منافقي أهلِ الكتاب؛ لأنَّ المنافقين هم الذين يَخافون فيُخفون، وأمَّا هؤلاء فهم معترفون بما هم عليه كيف كان، فلا يحسن هذا الكلامُ فيهم.

و «تولَّوا» هنا ماضٍ، ولا يجوز أن يكون التقدير: تتولوا؛ لفساد المعنى؛ لأنَّ «فقولوا» خِطابٌ للنبيِّ ﷺ والمؤمنين، و«تتولوا» خطابٌ للمشركين، وعند ذلك لا يبقى في الكلام جواب.

﴿يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ﴾ خطاب لليهود والنصارى. ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: تُنازِعون وتُجادِلون فيه، ويدَّعي كلٌّ منكم أنه عليه السَّلام كان على دينه؛ أخرج ابنُ إسحاق وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبارُ يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلَّا يهوديًّا. وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلَّا نصرانيًّا. فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية[2].

---

(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَٰثَةٌ﴾ [النساء: ١٧١].

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٥٥٣، وتفسير الطبري ٥/ ٤٨١.

والظرفُ الأول متعلِّقٌ بما بعده، وكذا الثاني، و«ما» استفهامية، والغرض الإنكار والتعجُّبُ عند السمين[1]، وحذفت ألفُها لمَّا دخل الجارُّ، للفَرْق بينها وبين الموصولة. والكلام على حذف مضافٍ، أي: [في] دِين إبراهيم، أو شريعته؛ لأنَّ الذوات لا مجادَلة فيها.

﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ﴾ على موسى عليه السلام ﴿وَٱلۡإِنجِيلُ﴾ على عيسى عليه السلام ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ حيث كان بينه وبين موسى عليهما السَّلام خمسُ مئةٍ وخمسٌ وستون سنة. وقيل: سبعُ مئة. وقيل: ألفُ سنة. وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألفٌ وتسعُ مئةٍ وخمسٌ وعشرون سنة، وقيل: ألفا سنةٍ، وهناك أقوال أُخَر.

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥﴾ الهمزةُ داخلةٌ على مقدَّر، هو المعطوف عليه بالعاطف المذكور على رأيٍ، أي: ألا تتفكَّرون فلا تعقلون بطلانَ قولِكم. أو: أتقولون ذلك فلا تعقلون بُطْلانَه. وهذا تجهيلٌ لهم في تلك الدعوى وتَحْمِيق، وهو ظاهرٌ إن كانوا قد ادَّعوا ـ كما قال الشهاب[2] ـ أنه عليه السَّلام منهم حقيقة، وإن كان مدَّعاهم أنَّ دِين إبراهيم يوافق دين موسى أو دين عيسى، فهو يهوديٌّ أو نصراني بهذا المعنى، فتجهيلُهم ونفيُ العقل عنهم بنزول التوراة والإنجيل بعدَه مُشْكِلٌ، إلا أنْ يُدَّعى بأنَّ المراد: أنه لو كان الأمر كذلك لَمَا أوتي موسى عليه السلام التوراةَ ولا عيسى عليه السلام الإنجيل، بل كانا يُؤمران بتبليغ صُحُف إبراهيم؛ كذا قيل.

وأنت تعلم أنَّ هذا لا يَشفي الغليلَ؛ إذ لقائلٍ أن يقول: أيُّ مانعٍ من اتِّحاد الشريعة مع إنزال هذَيْن الكتابين لغرَضٍ آخرَ غيرِ بيانِ شريعةٍ جديدةٍ؟ على أنَّ الصحف لم تكن مشتملةً على الأحكام، بل كانت أمثالاً ومواعظ كما جاء في الحديث[3]. ثم ما قاله الشهاب وإنْ كان وجهُ التجهيل عليه ظاهراً، إلا أنَّ صدور تلك الدَّعوى من أهل الكتاب في غاية البُعد؛ لأنَّ القوم لم يكونوا بهذه المثابة من الجَهالة، وفيهم أحبار اليهود ووفدُ نجران، وقد ذُكِر أنَّ الأخيرَيْن كانت لهم شدَّة

(١) في الدر المصون ٣/ ٢٣٥، وما سيأتي بين حاصرتين منه.
(٢) في الحاشية ٣/ ٣٤.
(٣) أخرجه مطولاً ابن حبان (٣٦١) من حديث أبي ذر ﷺ.

في البحث؛ فقد أخرج ابن جرير عن عبد الله بن الحارث الزبيدي أنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «ليت بيني وبين أهل نجران حِجاباً، فلا أراهم ولا يَرَوْني» من شدَّة ما كانوا يُمارون النبيَّ ﷺ[1].

اللهمَّ إلَّا أن يقال: إنَّ الله تعالى أعمَى بصائرهم في هذه الدعوى ليكونوا ضحكةً لأطفال المؤمنين. أو: إنهم قالوا ذلك على سبيل التعنُّت والعناد؛ ليَغيظ كلٌّ منهم صاحبَه، أو ليُوهموا بعض المؤمنين ظنًّا منهم أنهم ـ لكونهم أُمِّيين غير مطَّلعين على تواريخ الأنبياء السالِفين ـ يزلزلهم مثلُ ذلك، ففضَحهم اللهُ تعالى، أو أنَّ القوم في حدِّ ذاتهم جَهَلَةٌ لا يعلمون وإن كانوا أهل كتاب، وما ذَكَره ابن الحارث لا يدلُّ على عِلْمهم كما لا يخفى.

وقيل: إنَّ مراد اليهود بقولهم: إنَّ إبراهيم عليه السلام كان يهوديًّا، أنَّه كان مؤمناً بموسى عليه السلام قبلَ بعثته على حدِّ ما يقوله المسلمون في سائر المرسَلين عليهم الصلاة والسلام، من أنهم كانوا مؤمنين بنبيِّنا ﷺ قبلَ بعثته، كما يدلُّ عليه تبشيرهم به، وأنَّ مراد النصارى بقولهم: إنَّ إبراهيم كان نصرانياً نحو ذلك، فردَّ اللهُ تعالى ذلك[2] عليهم بقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ أي: ومن شأن المتأخِّر أن يشتمل على أخبار المتقدِّم، لاسيما مثل هذا الأمر المهم، والمَفْخَر العظيم، والمنَّةِ الكبرى. ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ ما فيهما؛ لتعلَموا خلوَّهما عن الإخبار بيهوديَّته ونصرانيَّته اللَّتَين زعمتموهما.

ثم نبَّه سبحانه على حماقتهم بقوله جلَّ وعلا: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أنتم هؤلاء الحمقى ﴿حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ كأمْرِ موسى وعيسى عليهما السلام ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾ وهو أمرإبراهيم عليه السَّلام، حيث لا ذِكْرَ لدينه في كتابكم، أو لا تعرُّض لكونه آمنَ بموسى وعيسى قبل بعثتيهما أصلاً، وليس المراد وصفَهم بالعلم حقيقة، وإنَّما المراد: هَبْ أنكم تحاجُّون فيما تدَّعون عِلْمه على ما يَلوح لكم من خلال عبارات كتابكم وإشاراته في زعْمِكم، فكيف تحاجُّون فيما لا عِلْمَ لكم به ولا ذِكْرَ ولا رمزَ له في كتابكم البتة؟!

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٤٦٦، وهو في مسند البزار (٣٧٨٦)، وفي إسناده ابن لهيعة.

(٢) قوله: ذلك، ليس في (م).

و«ها» حرفُ تنبيه، واطَّرد دخولها على المبتدأ إذا كان خبرُه اسم إشارة، نحو: هاأنا ذا، وكرِّرت هنا للتأكيد.

وذهب الأخفش أنَّ الأصل: أأنتم، على الاستفهام فقُلبت الهمزة هاءً، ومعنى الاستفهام عنده التعجُّبُ من جَهالتهم. وتعقَّبه أبو حيان: بأنَّه لا يَحسُن ذلك؛ لأنه لم يُسمع إبدال همزة الاستفهامِ هاءً في كلامهم إلا في بيت نادر[١]. ثم الفصلُ بين الهاء المُبْدَلَةِ وهمزةِ «أنتم» لا يناسب؛ لأنَّه إنَّما يُفصل لاستثقال اجتماع الهمزتين، وهنا قد زال الاستثقال بإبدال الأولى هاءً.

والإشارة للتحقير والتنقيص، ومنها فُهم الوصف الذي يَظهر به فائدةُ الحَمْل. وجملة «حاججتم» مستأنفةٌ مبيِّنة للأولى[٢].

وقيل: إنها حاليَّةٌ؛ بدليل أنه يقع الحال موقعها كثيراً، نحو: ها أناذا قائماً، وهذه الحال لازمة.

وقيل: إنَّ الجملة خبر عن «أنتم»، و«هؤلاء» منادى حُذف منه حرف النداء.

وقيل: «هؤلاء» بمعنى الذين خبر المبتدأ، وجملة «حاججتم» صلته، وإليه ذهب الكوفيون، وقرَّاؤهم يقرؤون: «ها أنتم» بالمد والهمز، وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو بغير همزٍ ولا مدٍّ إلا بقَدْرِ خروج الألف الساكن، وقرأ ابن كثير ويعقوب بالهمز والقصر بغير مدٍّ، وقرأ ابن عامر بالمدِّ دون الهمز[٣].

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ حالَ إبراهيم وما كان عليه. ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٦﴾ ذلك. ولك أن تعتبر المفعولَ عامًّا، ويدخل المذكور فيه دخولاً أوَّليًّا.

والجملة تأكيدٌ لنفي العلم عنهم في شأن إبراهيم عليه السَّلام، ثم صرَّح بما نطقَ به البرهانُ المقرّر، فقال سبحانه:

---

(١) وهو قول الشاعر:

وأتى صواحبها فقلن هذا الذي ... منح المودة غيرنا وجفانا

يريد: أذا الذي. ينظر البحر ٢/ ٤٨٦، والمغني ص٤٥٥، والدر المصون ٣/ ٢٣٧، وشرح المفصل ١٠/ ٤٢.

(٢) والتقدير: أنتم هؤلاء الأشخاصُ الحمقى، وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم حاججتم...، وعلى هذا الوجه يكون: «أنتم» مبتدأ، و«هؤلاء» خبره. الدر المصون ٣/ ٢٤٠.

(٣) تفسير الرازي ٨/ ٧٤ دون ذكر يعقوب، وفي نسبة بعض هذه القراءات خلاف عما في النشر ١/ ٤٠٠.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا﴾ كما قالت اليهود ﴿وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ كما قالت النصارى، ﴿وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً عن العقائد الزائغة، ﴿مُّسْلِمًا﴾ أي: مُنْقاداً لطاعة الحقّ، أو موحّداً، لأنَّ الإسلام يَرِدُ بمعنى التوحيد أيضاً، قيل: ويَنصره قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: عَبَدة الأصنام، كالعرب الذين كانوا يَدَّعون أنهم على دينه، أو سائرِ المشركين ليعمَّ أيضاً عبدةَ النار كالمجوس، وعبدةَ الكواكب كالصابئة. وقيل: أراد بهم اليهود والنصارى؛ لقول اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ وقولِ النصارى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً. وأصل الكلام: وما كان منكم، إلا أنه وضَع المُظْهَرَ موضعَ المُضمَرِ للتعريض بأنهم مشركون، والجملةُ حينئذٍ تأكيدٌ لِما قبلها.

وتفسيرُ الإسلام بما ذُكِر هو ما اختاره جمعٌ من المحقِّقين، وادَّعوا أنه لا يصحُّ تفسيره هنا بالدِّين المحمَّدي؛ لأنه يَرِد عليه أنه كان بعدَه بكثير، فكيف يكون مسلماً؟ فيكون كادِّعائهم تهوُّده وتنصُّره المردودَ بقوله سبحانه: ﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ﴾ فَيرِد عليه ما وَرَد عليهم، ويشترك الإلزامُ بينهما. وفسَّره بعضهم بذلك، وأجاب عن اشتراك الإلزام بأنَّ القرآن أخبرَ بأنَّ إبراهيم كان مسلماً، وليس في التوراة والإنجيل أنه عليه الصلاة والسلام كان يهوديًّا أو نصرانيًّا، فظهر الفرْقُ.

وقال العلامة النَّيْسابوريُّ[1]: فإن قيل: قولُكم: إنَّ إبراهيم عليه السلام على دين الإسلام، إنْ أردتُم به الموافقة في الأصول فليس هذا مختصًّا بدين الإسلام، وإن أردتم في الفروع لزِم أن لا يكون نبيُّنا ﷺ صاحبَ شريعة بل مقرِّرٌ لشَرْع مَن قبله، قيل: يُختار الأول والاختصاصُ ثابتٌ؛ لأنَّ اليهود والنصارى مخالِفون للأصول في زماننا؛ لقولهم بالتثليث وإشراكِ عزير عليه السلام، إلى غير ذلك. أو الثاني ولا يلزم ما ذُكر؛ لجواز أنه تعالى نَسَخ تلك الفروعَ بشرعِ موسى عليه السلام، ثم نَسَخ نبيُّنا ﷺ شرعَ موسى بشريعته التي هي موافقةٌ لشريعة إبراهيم صلواتُ الله تعالى وسلامه عليه، فيكون عليه الصلاةُ والسلام صاحبَ شريعةٍ، مع موافقة شرعِه شرْعَ إبراهيم في معظم الفروع. انتهى.

---

(١) في غرائب القرآن ٣/ ٢١٧.

ولا يخفى ما في الجواب على الاختيار الثاني مِن مزيد البُعد، بل عدمِ الصحَّة؛ لأنَّ نسْخَ شريعةِ إبراهيم بشريعة موسى، ثم نسخَ شريعة موسى بشريعة نبيِّنا عليهم الصلاة والسلام الموافقةِ لشريعة إبراهيم، لا يجعَل نبيَّنا صاحب شريعة جديدة، بل يقال له أيضاً: إنه مقرِّرٌ لشرعِ مَن قبلَه وهو إبراهيم عليه السلام، وأيضاً موافقةُ جميع فروع شريعتنا لجميع فروع شريعة إبراهيم ممَّا لا يمكن بوجهٍ أصلاً؛ إذ من جملة فروع شريعتنا فرضيةُ قراءة القرآن في الصلاة، ولم ينزل على غير نبيِّنا ﷺ بالبديهة، ونحو ذلك كثير.

وموافقة المُعظَم في حيِّز المنع، ودون إثباتها الشُّمُّ الرَّاسيات، وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣] ليس بالدليل على الموافقة في الفروع؛ إذ الملَّة فيه عبارة عن التوحيد، أو عنه وعن الأخلاق، كالهدى في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

واعترَض الشهاب[1] على الجواب على الاختيار الأول بالبُعد، كاعتراضه على الجواب على الاختيار الثاني بمجرَّده أيضاً، وذكر أنَّ ذلك سببُ عدولِ بعض المحقِّقين عمَّا يقتضيه كلامُ هذا العلَّامة، من أنَّ المراد بكون إبراهيم «مسلماً» أنه على ملَّة الإسلام، إلى أنَّ المراد بذلك أنَّه مُنقَادٌ بحَمْلِ الإسلام على المعنى اللغوي، وادَّعى أنه سالمٌ من القدح.

ونُظِر فيه: بأنَّ أخْذَ الإسلام لغويًّا لا يناسب بحثَ الأديان والكلامَ فيه، فلا يخلو هذا الوجهُ عن بعد، ولعلَّه لا يقصر عمَّا ادَّعاه من بُعدِ الجواب الأول، كما لا يخفى على صاحب الذوق السليم.

هذا وفي الآية وجهٌ آخر ـ ولعلَّه يخرج من بين فَرْثٍ ودَمٍ ـ وهو أنَّ أهل الكتاب لمَّا تنازعوا؛ فقالت اليهود: إبراهيم منَّا، وقالت النصارى: إنَّه منَّا، أرادت كلُّ طائفةٍ أنه عليه السلام كان إذ ذاك على ما هم عليه الآن من الحال، وهو حالٌ مخالفٌ لِمَا عليه نبيُّهم في نفس الأمر، موافقٌ له زعماً على معنى موافقة الأصول للأصول، أو الموافقة فيما يُعدُّ في العُرْف موافقةً ولو لم تكن في المعظم، وليست هذه الدَّعوى من

(١) في الحاشية ٣/ ٣٥.

البطلان بحيث لا تخفى على أحدٍ، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله سبحانه: (وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ) أي: وليسا مشتمِلَيْن على ذلك، وهو من الحَرِيِّ بالذِّكر لو كان، ثم أشار سبحانه إلى ما هم عليه من الحَمَاقة على وجهٍ أتمَّ، ثم صرَّح سبحانه بما أشار أولاً فقال: (مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا) أي: من الطائفة اليهودية المخالفة لِما جاء به موسى عليه السلام في نفس الأمر، (وَلَا نَصْرَانِيًّا) أي: من الطائفة النصرانية المخالِفة لِمَا جاء به عيسى عليه السلام كذلك، (وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا) أي: على دين الإسلام الذي ليس عند الله دِينٌ مرضيٌّ سواه، وهو دين جميع الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ أولئك اليهودَ والنصارى ليسوا من الدِّين في شيء؛ لمخالفتهم في نفس الأمر لِمَا عليه النبيَّان بل الأنبياء، ثم أشار إلى سبب ذلك بما عرَّض به من قوله سبحانه: (وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ). فعلى هذا يكون المسلم ـ كما قال الجصاص[(١)]، وأشرنا إليه فيما مرَّ مراراً ـ: المؤمنَ ولو من غير هذه الأمَّة، خلافاً للسيوطي في زعمه أنَّ الإسلام مخصوصٌ بهذه الأمة[(٢)]. هذا ما عندي في هذا المقام، فتدبَّر فلمَسْلَك الذِّهن اتِّساع.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾ «أولى»: أفعلُ تفضيلٍ من: وَلِيَه يَلِيْه وَلْياً، وألفُه منقلِبةٌ عن ياء؛ لأنَّ فاءه واوٌ فلا تكون لامُه واواً؛ إذ ليس في الكلام ما فاؤه ولامُه واوان إلا واو[(٣)]. وأصلُ معناه: أقرب، ومنه ما في الحديث: «لأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَر»[(٤)]. ويكون بمعنى: أَحَقّ، كما تقول: العالِمُ أَولى بالتقديم، وهو المراد هنا، أي: أقربُ الناس وأخصُّهم بإبراهيم ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ أي: كانوا على شريعته في زمانه، أو اتَّبعوه مطلقاً، فالعطف في قوله سبحانه: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾ من عَطْفِ الخاصِّ على العام، وهو معطوفٌ على الموصول قبله الذي هو خبرُ «إنَّ».

---

(١) في أحكام القرآن ٢/ ١٦.

(٢) في رسالة له بعنوان: إتمام النعمة في اختصاص الإسلام بهذه الأمة. وهي في كتاب الحاوي للفتاوى ص٢١٣ وما بعدها.

(٣) يعني اسمَ حرف التهجي، أو اسمَ حرف المعنى كواو النسق. ينظر الإملاء ٢/ ٨٣، والدر المصون ٣/ ٢٤٣.

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٦٥٧)، والبخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وتمامه: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر».

وقرئ بالنصب عطفاً على الضمير المفعول، والتقدير: لَلّذين اتّبعوا إبراهيم واتَّبعو هذا النبيَّ. وقرئ بالجر عطفاً على إبراهيم[(١)]، أي: إنَّ أولى الناس بإبراهيمَ وهذا النبيِّ لَلّذين اتَّبعوه، واعترُض بأنه كان ينبغي أن يُثَنّى ضمير «اتَّبعوه» ويقال: اتَّبعوهما. وأجيب بأنه من باب: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] إلّا أنَّ فيه ـ على ما قيل ـ الفصلَ بين العامل والمعمول بأجنبيٍّ، وقوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا) إن كان عطفاً على «الذين اتَّبعوه» يكون فيه ذلك أيضاً، وإن كان عطفاً على «هذا النبي» فلا فائدة فيه، إلّا أن يُدَّعى أنها للتنويه بذكرهم، وأمَّا التزامُ أنه من عطف الصِّفات بعضِها على بعض حينئذٍ، فهو كما ترى.

ثم إنَّ كون المتَّبعين لإبراهيم عليه السلام في زمانه أَولى الناسِ به ظاهرٌ، وكون نبيِّنا ﷺ أولاهم به لموافقة شريعته للشريعة الإبراهيمية أكثر من موافقةِ شرائع سائر المرسَلين لها، وكون المؤمنين من هذه الأُمة كذلك لتبعيَّتهم نبيَّهم فيما جاء به ومنه الموافق.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٨﴾ يَنصرهم ويُجازيهم بالحسنى، كما هو شأن الوَلي، ولم يقل: وليُّهم؛ تنبيهاً على الوصف الذي يكون اللهُ تعالى به وليًّا لعباده، وهو الإيمان؛ بناءً على أن التعليق بالمشتقِّ يقتضي عِلِّيَّة[(٢)] مبدأ الاشتقاق.

ومن ذلك يُعلم ثبوتُ الحكم للنبيِّ بدلالة النصِّ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رؤساء اليهود: والله يا محمد لقد علمتَ أنَّا أولى بدِين إبراهيم منك ومن غيرك، وأنه كان يهوديًا، وما بك إلَّا الحسد، فأنزل اللهُ تعالى هذه الآية[(٣)].

وأخرج عبد بن حميد من طريق شَهْر بنِ حَوْشَب قال: حدَّثني ابن غَنْم[(٤)]: أنَّه

---

(١) القراءتان في القراءات الشاذة ص٢١.

(٢) في (م): عليه، والمثبت من الأصل، وهو الصواب، وينظر حاشية الشهاب ٣/ ٣٦.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص١٠٠.

(٤) هو عبد الرحمن بن غنم، كما في أسباب النزول للواحدي ص١٠٠، وقد نقله المصنف عن الدر المنثور ٢/ ٤١-٤٢، وله شاهد من حديث أم سلمة رضي الله عنها أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ١/ ٣٣٤، وأحمد (١٧٤٠)، وآخر من حديث ابن مسعود عند أحمد (٤٤٠٠)، وثالث من حديث أبي موسى في طبقات ابن سعد ٤/ ١٠٦، ومسند عبد بن حميد (٥٥٠)، وأخرجه أبو داود (٣٢٠٥) مختصراً، ورابع من حديث جعفر عند الطبراني في الكبير (١٤٧٨).

لمَّا خرَج أصحابُ النبيِّ ﷺ إلى النَّجاشيِّ أدرَكهم عمرو بنُ العاص وعمارة بنُ أبي معيط(١)، فأرادوا عَنَتَهم والبغيَ عليهم، فقدموا على النَّجاشيِّ وأخبروه أنَّ هؤلاء الرَّهْط الذين قدموا عليك من أهل مكة يريدون أن يحيلوا(٢) عليك ملكك، ويُفسدوا عليك أرضَك، ويَشتموا ربَّك. فأرسَل إليهم النجاشيُّ، فلمَّا أن أتوْه قال: ألا تسمعون ما يقول صاحباكم هذان - لعمرو بن العاص وعمارة بن أبي مُعَيْط - يَزعمان أنَّما جئتم لتحيلوا عليَّ ملكي، وتُفسدوا عليَّ أرضي؟ فقال عثمان بن مظعون وحمزة: إن شئتم خَلُّوا بين أحدِنا وبين النجاشيِّ فليكلِّمه أيُّنا أحدثكم سِنًّا(٣)، فإن كان صواباً فالله يأتي به، وإن كان أمراً غير ذلك قلتم: رجل شابٌّ، لكم في ذلك عذرٌ، فجمع النجاشيُّ قسِّيسيه ورهبانيته وتراجمته، ثم سألهم: أرأيتكم صاحبكم هذا الذي من عنده جئتم، ما يقول لكم، وما يأمركم به، وما ينهاكم عنه، هل له كتاب يقرؤه؟ قالوا: نعم، هذا الرجل يقرأ ما أنزل الله تعالى عليه وما قد سمع منه، ويأمر بالمعروف، ويأمر بحُسن المجاورة، ويأمر باليتيم، ويأمر بأن يُعبد الله وحدَه، ولا يُعبد معه إلهٌ آخر، فقرأ عليه سورة الروم والعنكبوت، وأصحاب الكهف ومريم، فلمَّا أنْ ذكر عيسى في القرآن أراد عمرو أن يُغضبه عليهم، قال: واللهِ إنهم يَشتمون عيسى ويَسبُّونه. قال النجاشي: ما يقول صاحبُكم في عيسى؟ قال: يقول: إنَّ عيسى عبدُ الله ورسولُه وروحه، وكلمتُه ألقاها إلى مريم، فأخذ النجاشيُّ نفثةً من سواكه قَدْرَ ما يقذي العين، فَحلف: ما زاد المسيحُ على ما يقول صاحبكم بما يَزِن ذلك القذى في يده من نَفْثِهِ سواكه، فأبشِروا

---

(١) كذا في الدر المنثور وأسباب النزول، والصواب أنه عمارة بن الوليد أو عبد الله بن أبي ربيعة؛ قال ابن كثير في البداية والنهاية ٤/ ١٨٨-١٨٩: والذي وقع في سياق ابن إسحاق أنهما عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة والذي ذكره موسى بن عقبة والأموي وغير واحد أنهما عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بن المغيرة... وقد قيل: إن قريشاً بعثت إلى النجاشي في أمر المهاجرين مرتين؛ الأولى مع عمرو بن العاص وعمارة والثانية مع عمرو وعبد الله بن أبي ربيعة.

(٢) وقع في الدر المنثور: يخبلوا، وكذا في الموضع الثاني: لتخبلوا.

(٣) في الدر المنثور: فلنكلمه فأنا أحدثكم سنًّا، وذكر حمزة ﷺ في هذا الموضع وهم؛ فحمزة ﷺ لم يكن فيمن هاجر إلى الحبشة، والذي في الروايات السابقة أن الذي تكلم عند النجاشي هو جعفر ﷺ. وينظر البداية والنهاية ٤/ ١٦٥ وما بعدها.

ولا تخافوا فلا دهونةَ ـ يعني بلسان الحبشة: اللوم ـ على حزب إبراهيم. قال عمرو بن العاص: ما حزبُ إبراهيم؟ قال: هؤلاء الرَّهْط وصاحبُهم الذي جاؤوا من عنده، ومَن اتَّبعهم. فأنزلت ذلك اليوم في خصومتهم على رسول الله ﷺ وهو بالمدينة: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ الآية.

﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ المشهورُ أنَّها نزلت حين دعا اليهودُ حذيفة وعمَّاراً ومعاذاً إلى اليهودية، فالمراد بأهل الكتاب اليهود. وقيل: المراد بهم ما يَشمل الفريقين. والآيةُ بيانٌ لكونهم دعاةً إلى الضلالة إِثْرَ بيانِ أنَّهم ضالُّون، وأخرج ابن المنذر عن سفيان أنه قال: كلُّ شيءٍ في «آل عمران» من ذِكْرِ أهل الكتاب فهو في النَّصارى(١). ولعلَّه جارٍ مَجْرَى الغالب.

و«من» للتبعيض، والطائفةُ رؤساؤهم وأحبارهم. وقيل: لبيان الجنس، والطائفةُ جميعُ أهل الكتاب، وفيه بُعْدٌ. و«لو» بمعنى أنْ المصدرية، والمُنْسَبك مفعولُ «ودَّ»، وجوَّز إقرارُها على وضْعِها، ومفعول «ودَّ» محذوف، وكذا جواب «لو» والتقدير: ودَّت إضلالَكم ولو يضلونكم لَسُرُّوا بذلك.

ومعنى «يُضِلُّونكم»: يَرِدُّونكم إلى كفركم، قاله ابن عباس. أو يهلكونكم؛ قاله ابن جَرِيرٍ الطبري(٢). أو يوقعونكم في الضلال، ويُلقون إليكم ما يُشكِّكونكم به في دِينكم؛ قاله أبو علي، وهو قريب من الأول.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ الواو للحال، والمعنى على تقدير إرادة الإهلاك من الإضلال: أنهم ما يُهلكون إلا أنفسَهم؛ لاستحقاقهم بإيثارهم إهلاكَ المؤمنين سخطَ اللهِ تعالى وغضبَه.

وإن كان المرادُ من الإهلاك الإيقاعَ في الضلال فيحتاج إلى تأويل؛ لأنَّ القوم ضالُّون، فيؤدِّي إلى جَعْلِ الضالِّ ضالًّا، فيقال: إنَّ المراد من الإضلال: ما يَعود مِن وَبالِه، إمَّا على سبيل المجاز المُرْسَل، أو الاستعارة، أي: ما يتخطَّاهم الإضلالُ، ولا يعود وبالُه إلا إليهم؛ لِمَا أنَّهم يضاعف به عذابهم. أو المراد

---

(١) الدر المنثور ٢/ ٤٢، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم ٢/ ٦٧٦.

(٢) في تفسيره ٥/ ٤٨٩.

بأنفسهم أمثالُهم المجانِسون لهم، وفيه ـ على ما قيل ـ الإخبارُ بالغيب، فهو استعارةٌ أو تشبيهٌ بتقديرِ: أمثالَ أنفُسِهم؛ إذ لم يتهوَّد مسلمٌ ولله تعالى الحمدُ.

وقيل: إنَّ معنى إضلالِهم أنفسَهم: إصرارُهم على الضلال بما سوَّلت لهم أنفسهم، مع تمكُّنهم من اتِّباع الهدى بإيضاح الحُجَج، ولا يخلو عن شيء.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٦٩﴾ أي: وما يَفطُنون بكون الإضلال مختصًّا بهم لِمَا اعترى قلوبَهم مِن الغشاوة؛ قاله أبو علي. وقيل: وما يشعرون بأنَّ الله تعالى يُعلِم المؤمنين بضلالهم وإضلالهم. وفي نفي الشعور عنهم مبالغةٌ في ذمِّهم.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝٧٠﴾ أي: لِمَ تكفرون بما يُتلى عليكم من آيات القرآن، وأنتم تعلمون ما يدلُّ على صحتها ووجوبِ الإقرار بها من التوراة والإنجيل.

وقيل: المراد: «لِمَ تكفرون» بما في كتبكم من الآيات الدالَّة على نبوَّته ﷺ، «وأنتم تشهدون» الحُججَ الدالَّة على ذلك.

أو: «لِم تكفرون» بما في كتبكم من أنَّ الدِّين عند الله الإسلام، وأنتم تشاهدون ذلك.

أو: «لم تكفرون» بالحجج الدالَّة على نبوَّته ﷺ «وأنتم تشهدون» أنَّ ظهور المعجزة يدلُّ على صِدْقِ مدَّعي الرسالة، أو أنتم تشهدون إذا خَلَوتم بصحَّة دِين الإسلام.

أو: «لِمَ تكفرون بآيات الله» جميعاً، وأنتم تعلمون حقِّيتها[1] بلا شبهةٍ بمنزلةِ علمِ المشاهدةَ.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ أي: تَستُرونه به، أو تخلطونه به، والباء صِلة. وفي المراد أقوال:

أحدها: أنَّ المراد تحريفُهم التوراةَ والإنجيل؛ قاله الحسن وابن زيد.

وثانيها: أنَّ المراد إظهارُهم الإسلامَ وإبطانُهم النفاق؛ قاله ابن عباس وقتادة.

---

(١) في الأصل: حقيقتها، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٢/ ٣٦، والكلام منه.

وثالثها: أنَّ المراد الإيمانُ بموسى وعيسى، والكفرُ بمحمَّدٍ عليهم الصلاة والسلام.

ورابعها: أنَّ المراد ما يَعلمونه في قلوبهم من حَقِّية[1] رسالته ﷺ، وما يُظهِرُونه من تكذيبه؛ عن أبي عليٍّ وأبي مسلم.

وقرئ: «تُلَبِّسُون» بالتشديد، وهو بمعنى المخفَّف.

وقرأ يحيى بن وثّاب: «تَلْبَسون»[2]، وهو من لبستُ الثوبَ، والباء بمعنى مع، والمراد من اللُّبْس: الاتصافُ بالشيء والتلبُّسُ به، وقد جاء ذلك فيما رواه البخاريُّ في الصحيح عن عائشة[3]، أنَّه ﷺ قال: «المتشبِّعُ بما لم يُعْطَ كلابِسِ ثَوْبَيْ زُوْرٍ».

﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ أي: نبوَّةَ محمَّدٍ ﷺ، وما وجدتموه في كُتبكم من نَعْتِه والبشارةِ به ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ أنه حقٌّ.

وقيل: تعلمون الأمورَ التي يصحُّ بها التكليف. وليس بشيء.

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ﴾ أي: جماعةٌ، وسمِّيت بها لأنه يُسوَّى بها حَلْقةٌ يُطاف حولها. ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ ـ أي: اليهود ـ لبعضهم: ﴿ءَامِنُوا۟﴾ أي: أَظْهِروا الإيمانَ ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهم أصحابُ رسول الله ﷺ. وقيل: النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه. ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: أوَّلَه، كما في قول الربيع بن زياد:

مَن كان مسروراً بمقتلِ مالكٍ   فليأتِ نِسْوتَنا بوجْهِ نهارِ[4]

وسمِّي وجهاً لأنَّه أولُ ما يُواجِهك منه، وقيل: لأنه كالوجه في أنه أعلاه

---

(١) في الأصل: حقيقة.

(٢) هذه القراءة والتي قبلها في الكشاف ١/٤٣٦، والبحر ٢/٤٩١.

(٣) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٣/٣٦، والصواب أن الحديث عند البخاري (٥٢١٩) عن أسماء بنت أبي بكر ﵄، وهو في مسند أحمد (٢٦٩٢١)، وصحيح مسلم (٢١٣٠). وأخرجه من حديث عائشة ﵂ أحمد (٢٥٣٤٠)، ومسلم (٢١٢٩).

(٤) مجاز القرآن ١/٩٧، وتفسير الطبري ٥/٤٩٨، ومعاني القرآن للزجاج ١/٤٢٩، والأغاني ١٧/١٩٦، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/٩٩٥ وفيه: ساحتنا، بدل: نسوتنا، وقد تعجب أبو الفضل ابن العميد ـ كما نقل المرزوقي ـ من إيراد أبي تمام للفظ «نسوتنا» وقال: وهذه لفظة شنيعة. ومالك هو ابن زهير العبسي.

وأشرفُ ما فيه. وذكر الثعالبيُّ أنه في ذلك[1] استعارةٌ معروفة.

﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ بسبب هذا الفعل عن اعتقادِ[2] حقِّيةِ ما أُنزل عليهم. قال الحسن والسدي: تواطأ اثنا عشر رجلاً من أحبارِ يهودِ خيبرَ وقُرى عرينةَ، وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دِين محمَّدٍ أولَ النهار باللسان دون اعتقاد[3]، واكفُروا آخرَ النهار، وقولوا: إنَّا نظَرنا في كتبنا وشاوَرْنا علماءَنا فوجدنا محمَّداً ليس بذاك، وظهَر لنا كذبُه وبطلانُ دِينِه. فإذا فعلتُم ذلك شكَّ أصحابُه في دِينهم وقالوا: إنَّهم أهل الكتاب وهم أعلمُ به، فيرجعون عن دِينهم إلى دِينكم.

وقال مجاهد ومقاتل والكلبي: كان هذا في شأن القِبلة؛ لمَّا حوِّلت إلى الكعبة شقَّ ذلك على اليهود، فقال كعب بن الأشرف لأصحابه: آمِنوا بالذي أُنزل على محمَّدٍ مِن أمرِ الكعبة وصلُّوا إليها أولَ النهار، وارجعوا إلى قِبْلَتكم آخِرَه لعلهم يشكُّون.

والتعبيرُ بـ «ما أُنزل» بناءً على ما يقوله المؤمنون، وإلا فهم يكذِّبون ولا يصدِّقون أنَّ الله تعالى أنزَل شيئاً على المؤمنين.

وظاهرُ الآية يدلُّ على وقوع أمرٍ بعضِهم لبعضٍ أن يقولوا ذلك. وأمَّا امتثالُ الأمرِ من المأمور فمسكوتٌ عن بيانِ وقوعِه وعدمِه. وعن بعضهم: أنَّ في الأخبار ما يدلُّ على وقوعه.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ في نَظْمِ الآيةِ ومعناها أوجهٌ لَخَّصها الشهابُ من كلام بعض المحقِّقين[4]:

أحدها أنَّ التقدير: ولا تؤمنوا بأنْ يُؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم ـ وهم المسلمون أوتوا كتاباً سماويًّا كالتوراة ونبيًّا مرسلاً كموسى ـ وبأنْ يُحاجُّوكم ويَغلِبوكم بالحجَّة يوم القيامة، إلا لأتباعكم. وحاصلُه أنهم نَهَوْهم عن إظهار هذَيْن الأمرين

(١) يعني في استعارته ليكون بمعنى الأول، وذكره عن الثعالبي الشهاب في الحاشية ٣/ ٣٦.
(٢) في (م): اعتقادهم.
(٣) في (م): الاعتقاد.
(٤) هو القزويني صاحب كتاب الكشف على الكشاف، والكلام في حاشية الشهاب ٣/ ٣٧.

للمسلمين، لئلَّا يَزدادوا تصلُّباً، ولمشركي العرب لئلَّا يبعثَهم على الإسلام، وأتى بـ «أو» على وزانِ ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] وهو أبلغ، والحملُ على معنى «حتى» صحيحٌ مرجوح[١]. وأتى بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ معترضاً بين الفعل ومتعلَّقه، وفائدةُ الاعتراض الإشارةُ إلى أنَّ كيدهم غيرُ ضارٍّ لمَن لَطَفَ اللهُ تعالى به بالدخول في الإسلام، أو زيادةِ التصلُّب فيه. ويُفيد أيضاً أنَّ الهدى هداه، فهو الذي يتولَّى ظهوره ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الصف: ٨]. فالمراد بالإيمان إظهارُه كما ذكَرَه الزمخشريُّ[٢]، أو الإقرارُ اللسانيُّ كما ذكَرَه الواحدي[٣]، والمراد من التابعين المتصلِّبُ منهم، وإلا وقع ما فرُّوا منه.

وثانيها أنَّ المراد: ولا تؤمنوا هذا الإيمانَ الظاهر الذي أَتَيْتُم به وجْهَ النهار إلَّا لمَن كان تابعاً لدِينكم أوَّلاً ـ وهم الذين أسلَموا منهم ـ أي: لأَجْلِ رجوعِهم؛ لأنه كان عندهم أهمَّ وأوقع، وهم فيه أرغبُ وأطمع، وعند هذا تمَّ الكلام، ثم قيل: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي: فمَن يَهدي اللهُ فلا مضِلَّ له، ويكون قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ﴾ إلخ على هذا معلَّلاً لمحذوف، أي: لِأنْ يُؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم، ولمَا يَتصلُ به من الغلَبة بالحجَّة يوم القيامة دبَّرتم ما دبَّرتم، وحاصلُه: أنَّ داعِيَكم إليه ليس إلا الحَسَد، وإنَّما أتى بـ «أو» تنبيهاً على استقلال كلٍّ من الأمرين في غيظهم وحَمْلِهم على الحسد حتى دبَّروا ما دبَّروا، ولو أتى بالواو لم تقع هذا الموقعَ، للعِلْم بلزوم الثاني للأول؛ لأنه إذا كان ما أُوتوا حقّاً غلَبوا يوم القيامة مُخالِفَهم لا مَحالَة، فلم يكن فيه فائدةٌ زائدة، وأمَّا «أو» فتُشْعِرُ بأنَّ كلّاً مستقلٌّ في الباعثية على الحسد والاحتشاد في التدبير، والحملُ على معنى «حتى» ليس له موقعٌ يَروع السامع وإن كان وجهاً ظاهراً.

ويؤيِّد هذا الوجه قراءة ابن كثير: «أَأَنْ يُؤتى» بزيادةِ همزةِ الاستفهام[٤]، للدلالة على انقطاعه عن الفعل واستقلاله بالإنكار. وفيه تقييدُ الإيمانِ بالصادر أولَ النهار

---

(١) يعني حَمْل (أو) على معنى حتى.
(٢) في الكشاف ١/ ٤٣٧.
(٣) في الوسيط ١/ ٤٥٠.
(٤) التيسير ص٨٩، والنشر ٢/ ٢٤٠.

بقرينة أَنَّ الكلام فيه، وتخصيصُ «مَن تَبِعَ» بمُسلميهم بقرينة المُضيِّ؛ فإنَّ غيرهم متَّبعٌ دِينَهم الآن أيضاً، وعن الزمخشريِّ[1] أنَّ «أن يؤتى» إلخ من جملة المَقُول، كأنه قيل: قلْ لهم هذَيْن القولين، ومعناه: أكِّد عليهم أنَّ الهدى ما فَعَلَ اللهُ تعالى مِن إيتاء الكتاب غيرَكم، وأَنْكِر عليهم أن يَمْتَعِضوا مِن أن يؤتى أحدٌ مثلَه، كأنه قيل: قل: إنَّ الهدى هدى الله، وقل: لِأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم قلتم ما قلتم وكذَّبتم ما كذبتم[2].

وثالثها: أن يقرَّر «ولا تؤمنوا» على ما قُرِّر عليه الثاني، ويُجعلَ «أن يُؤتى» خبر «إنَّ»، و«هُدى الله» بدل من اسمها، و«أو» بمعنى حتى على أنها غاية سببية، وحينئذٍ لا يَنبغي أن يُخصَّ «عند ربكم» بـ «يوم القيامة» بل بالمحاجَّة الحقَّةِ كما أشير إليه في «البقرة»[3]، ولو حُملت على العطف لم يلتئم الكلام.

ورابعها: أن يكون «ولا تؤمنوا إلا لمن» إلخ باقياً على إطلاقه، أي: واكفروا آخرَه واستمِرُّوا على ما كنتم فيه من اليهودية ولا تقرُّوا لأحدٍ إلا لمَن هو على دِينكم، وهو من جملة مَقولِ الطائفة، ويكون «قل إن الهدى» إلخ أمراً للنبيِّ ﷺ أن يقول ذلك في جوابهم، على معنى: قل إنَّ الهدى هدى اللهِ فلا تُنْكِروا أن يؤتى حتى تحاجُّوا، وقرينةُ الإضمارِ أنَّ «ولا تؤمنوا» إلخ تقريرٌ على اليهودية، وأنه لا دِينَ يساويها، فإذا أُمِر ﷺ أن يجيبهم، عُلِم أنَّ ما أنكروه غير منكرٍ وأنه كائن، وحَمْلُ «أو» على معناها الأصلي حينئذٍ أيضاً حسنٌ؛ لأنه تأييدٌ للإيتاء، وتعريضٌ بأنَّ مَن أوتي مثلَ ما أوتوا هم الغالبون.

وقرئ: «إن يؤتى» بكسرِ همزةِ «إنْ» على أنها نافية[4]، أي: قولوا لهم: ما يؤتى..، وهو خطابٌ لمَن أسلَم منهم رجاءَ العَوْد، والمعنى: لا إيتاءَ ولا محاجَّة، فـ «أو» بمعنى «حتى»، وقدِّر «قولوا» توضيحاً وبياناً؛ لأنه ليس استئنافاً

---

(١) لم نقف عليه عند الزمخشري، وقد وقع في حاشية الشهاب بدلاً منه: وعن المصنف، ولعله يعني صاحب الكشف.

(٢) في (م): وكذتم ما كدتم، والمثبت من الأصل، وهو الموافق لما في حاشية الشهاب.

(٣) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (٧٦) من سورة البقرة.

(٤) القراءات الشاذة ص٢١.

تعليلاً، وقوله تعالى: «قل إن الهدى» إلخ اعتراضٌ ذُكر قبل أن يتمَّ كلامهم؛ للاهتمام ببيانِ فسادِ ما ذهبوا إليه.

وأرجحُ الأوجه الثاني لتأيُّده بقراءةِ ابن كثير، وأنه أفيدُ من الأول وأقلُّ تكلُّفاً من باقي الأوجه، وأقربُ إلى المساق. انتهى[1].

وأقول: ما ذكره في الوجه الرابع من تقدير: فلا تنكروا أن يؤتى... إلخ، هو قول قتادة والربيع والجبائي، لكنهم لم يجعلوا «أو» بمعنى «حتى» وهو أحد الاحتمالَيْن اللذَيْن ذكرهما.

وكذا القول بإبدال «أن يؤتى» من «الهدى» قولُ السديِّ وابنِ جريج، إلا أنهم قدَّروا «لا» بين «أن» و«يؤتى»، واعترَض عليهما أبو العباس المبرِّد بأنَّ «لا» ليست ممَّا تحذف هاهنا، والتَزَم تقديرَ مضافٍ شاع تقديره في أمثال ذلك، وهو: كراهة، والمعنى: إنَّ الهدى كراهة أنْ يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم، أي: ممَّن خالَفَ دِينَ الإسلام؛ لأنَّ الله لا يَهدي مَن هو كاذبٌ كَفَّار، فهُدى اللهِ تعالى بعيدٌ من غير المؤمنين[2]. ولا يخفىَ أنه معنىً متوعِّرٌ وليس بشيء.

ومثله ما قاله قومٌ من أنَّ «أن يؤتى» إلخ تفسيرٌ لـ «الهدى»، وأنَّ المؤتَى هو الشرع، وأنَّ «أو يحاجوكم» عطفٌ على «أوتيتم»، وأنَّ ما يُحاجُّ به العقلُ، وأنَّ تقدير الكلام: إن هدى الله تعالى ما شرَع أو ما عهِد به في العقل.

ومِن الناس مَن جعل الكلام مِن أول الآية إلى آخرها مِن الله تعالى خطاباً للمؤمنين، قال: والتقدير: ولا تؤمِنوا أيها المؤمنون إلا لمَن تَبع دِينكم، وهو دِين الإسلام، ولا تصدِّقوا أن يؤتَى أحدٌ مثل ما أوتيتم من الدِّين، فلا نبيَّ بعدَ نبيِّكم عليه الصلاة والسلام، ولا شريعةَ بعد شريعتكم إلى يوم القيامة، ولا تصدِّقوا بأن يكون لأحدٍ حجَّةٌ عليكم عند ربكم؛ لأن دِينكم خيرُ الأديان، وجعل «قل إنَّ الهدى هدى الله» اعتراضاً للتأكيد وتعجيلِ المَسَرَّة. ولا يَخْفَى ما فيه، واختيارُ

(١) من قوله: لتأيُّده بقراءة ابن كثير. .إلخ لم نقف عليه في المطبوع من حاشية الشهاب.

(٢) ينظر قول المبرد في المحرر الوجيز ١/ ٤٥٦، ومجمع البيان ٣/ ١١٧، والبحر ٢/ ٤٩٥، والدر المصون ٣/ ٢٥٥.

البعض له، والاستدلالُ عليه بما قاله الضحاك[1]: إن اليهود قالوا: إنَّا نَحُجُّ عند ربنا مَن خالفنا في دِيننا، فبيَّن اللهُ تعالى لهم أنهم هم المُدْحضون المغلوبون، وأنَّ المؤمنين هم الغالِبون = ليس بشيء؛ لأن هذا البيان لا يتعيَّن فيه هذا الحملُ كما لا يخفى على ذي قلبٍ سليم. والضميرُ المرفوعُ من «يحاجوكم» على كلِّ تقديرٍ عائدٌ إلى «أحد» لأنه في معنى الجمع؛ إذ المراد به غير أتباعهم.

واستَشْكَلَ ابنُ المنير[2] قَطْعَ «أن يؤتى» عن «لا تؤمنوا» على ما في بعض الأوجه السابقة بأنه يلزم وقوع «أحد» في الواجب؛ لأنَّ الاستفهام هنا إنكار، واستفهام الإنكار في مثله إثبات، إذ حاصلُه أنه أنكر عليهم ووبَّخهم على ما وقع منهم -وهو إخفاء الإيمان- بأنَّ النبوة لا تخصُّ بني إسرائيل لأجل العلَّتين المذكورَتَيْن، فهو إثبات محقَّقٌ، ثم قال: ويمكن أن يقال: رُوعيتْ صيغةُ الاستفهام وإن لم يكن المراد حقيقتَه، فحسُن دخول «أحد» في سياقه لذلك، وفيه تأمُّلٌ. فتأمَّلْ وتدبَّر، فقد قال الواحدي: إنَّ هذه الآية من مشكلات القرآن وأصعبه تفسيراً.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ ردٌّ وإبطالٌ لِمَا زعموه بأوضح حجَّةٍ. والمراد من الفضل: الإسلام؛ قاله ابن جريج. وقال غيره: النبوَّةُ. وقيل: الحُجَجُ التي أُوتيها النبيُّ ﷺ والمؤمنون. وقيل: نِعَمُ الدِّين والدنيا، ويدخل فيه ما يناسب المقام دخولاً أوَّليًا.

﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: مِن عباده ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ رحمةً، وقيل: واسعُ القدرةِ يفعل ما يشاء ﴿عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ بمصالح العباد. وقيل: يعلم حيث يجعل رسالته.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ قال الحسن: هي النبوة. وقال ابن جريج: الإسلام والقرآن. وقال ابن عباس: هو وكثرةُ الذِّكر لله تعالى. والباءُ داخلةٌ على المقصور، وتدخل على المقصور عليه، وقد نظَم ذلك بعضُهم فقال:

والباءُ بعد الاختصاصِ يكثر ... دخولها على الذي قد قَصَروا
وعكسُه مستعملٌ وجيِّد ... ذكره الحَبْرُ الإمامُ السَّيِّدُ

---

(١) ذكر قوله الطبرسي في مجمع البيان ٣/ ١١٧، وهو الذي استدل به على هذا القول.
(٢) في الانتصاف على هامش الكشاف ١/ ٤٣٧.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ قال ابن جُبير: يعني الوافر.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ شروعٌ في بيانِ نوعٍ آخرَ من مَعايِبِهم. و«تأمنه» من أَمِنته بمعنى ائتمنتُه. والباء قيل: بمعنى على، وقيل: بمعنى في، أي: في حِفْظِ قنطار. والقنطارُ تقدَّم قنطارٌ مِن الكلام فيه.

يُروى أنَّ عبد الله بن سلام استودعه قرَشيٌّ ألفاً ومئتي أُوقيةٍ ذهباً فأدَّاه إليه. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ كفنحاص بن عازوراء؛ فإنَّه يُروى أنه استودعه قُرَشيٌّ آخَرُ ديناراً فجحده.

وقيل: المأمونُ على الكثير النصارى؛ إذ الغالب فيهم الأمانة، والخائنون في القليل اليهودُ إذ الغالبُ عليهم الخيانة، وروي هذا عن عكرمة.

والدينارُ لفظٌ أعجميٌّ وياؤه بدلٌ عن نون، وأصله: دِنَّار، فأُبدل أولُ المِثْلَين ياءً لوقوعه بعد كسرة، ويدلُّ على الأصل جمعُه على دنانير؛ فإنَّ الجمع يَردُّ الشيءَ إلى أصله، وهو في المشهور: أربعةٌ وعشرون قيراطاً، والقيراط: ثلاثُ حَبَّات من وسَط الشعير، فمجموعه: اثنتان وسبعون حبَّة. قالوا: ولم يختلف جاهليةً ولا إسلاماً.

ومن الغريب ما أخرجه ابن أبي حاتم[1] عن مالك بن دينار أنه قال: إنَّما سمِّي الدِّينار ديناراً لأنه دينٌ ونار، ومعناه: أنَّ مَن أخذه بحقِّه فهو دينُه، ومَن أخذه بغير حقِّه فلَه النارُ. ولعلَّه إبداءُ إشارةٍ من هذا اللفظ، لا أنه في نفس الأمر كذلك، كما لا يخفى على[2] مالِكِ درهمٍ من عقلٍ، فضلاً عن مالِكِ دينار.

وقرئ: «يؤدِّهِ» بكسر الهاء مع وَصْلِها بياءٍ في اللفظ، وبالكسر من غير ياء، وبالإسكان إجراءً للوصل مجرَى الوقف[3]، وبضمِّ الهاء ووَصْلِها بواوٍ في اللفظ، وبضمِّها من غير واو[4].

(١) في تفسيره ٢/ ٦٨٣.

(٢) في الأصل: عن.

(٣) وهذه قراءة أبي عمرو وشعبة وحمزة وأبي جعفر، والتي قبلها وهي قراءة الكسر من غير ياء قرأ بها يعقوب وقالون، وهشام بخلفٍ عنه. والباقون بإشباع الكسرة، وهو الوجه الثاني لهشام. ينظر التيسير ص٨٩، والنشر ١/ ٣٠٥

(٤) القراءتان في إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٨، والبحر ٢/ ٥٠٠.

﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ استثناءٌ من أعمِّ الأحوال أو الأوقات، أي: لا يؤدِّه إليك في حالٍ من الأحوال، أو في وقت من الأوقات، إلا في حالِ دوامِ قيامك، أو في وقتِ دوامِ قيامِك. والقيامُ مَجازٌ عن المبالغة في المطالَبة، وفسَّره ابنُ عباس رضي الله تعالى عنهما بالإلحاح، والسديُّ: بالملازمة والاجتماع معه، والحَسنُ: بالملازمة والتَّقاضي.

والجمهورُ على ضمِّ دالِ «دُمت»، فهو عندهم كـ «قُلت»، وقرئ بكسر الدال[1]، فهو حينئذٍ على وزان: خِفْت، وهو لغة. والمضارع على اللغة الأولى: يدوم كـ «يقوم»، وعلى الثانية: يَدام كـ «يَخاف».

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ترْكُ الأداء المدلولِ عليه بقوله سبحانه وتعالى: «لا يؤده» ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ ضميرُ الجمع عائدٌ على «مَنْ» في «مَن إن تأمنه بدينار»، وجُمِع حَمْلاً على المعنى، والباء للسببية، أي: بسببِ قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ أي: ليس علينا فيما أَصَبْناه من أموال العرب عتابٌ وذمٌّ.

أخرج ابنُ جرير عن ابن جريج قال: بايَع اليهودَ رجالٌ من المسلمين في الجاهلية، فلمَّا أسلَموا تَقاضَوهم عن بيوعهم، فقالوا: ليس [لكم] علينا أمانةٌ، ولا قضاءَ لكم عندنا؛ لأنكم تركتُم دِينكم الذي كنتم عليه، وادَّعَوا أنهم وَجَدوا ذلك في كتابهم، فقال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾[2] أي: أنهم كاذبون.

وقال الكلبي: قالت اليهود: الأموال كلُّها كانت لنا، فما في أيدي العرب منها فهو لنا، وإنهم ظلَمونا وغَصَبونا، فلا إثم علينا في أخذ أموالنا منهم.

وأخرج ابن المنذر وغيرُه عن سعيد بن جبير قال: لـمَّا نزلت ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ قال النبيُّ ﷺ: «كذب أعداءُ الله، ما من شيءٍ كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميَّ هاتين، إلا الأمانة فإنها مؤدَّاةٌ إلى البَرِّ والفاجر»[3].

---

(١) القراءات الشاذة ص٢١.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٥١٢، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٤٤، وأخرجه أيضاً الطبري ٥/ ٥١١، وابن أبي حاتم ٢/ ٦٨٤.

والجارُّ والمجرور متعلِّق بـ «يقولون»، والمراد: يَفْتَرون. ويجوز أن يكون حالاً من الكذب مقدَّماً عليه. ولم يجوِّز أبو البقاء[1] تعلُّقَه به؛ لأن الصِّلة لا تتقدم على الموصول، وأجازه غيرُه؛ لأنه كالظَّرف يُتوسَّع فيه ما لا يتوسَّع في غيره.

﴿بَلَىٰ﴾ جوابٌ لقولهم: «ليس علينا في الأميين سبيل» وإيجابٌ لِمَا نَفَوه، والمعنى: بلى عليهم في الأميين سبيل.

﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ استئنافٌ مقرِّر للجملة التي دلَّت عليها «بلى» حيثُ أفادت بمفهومها المخالِفِ ذمَّ مَن لم يَفِ بالحقوق مطلقاً، فيدخلون فيه دخولاً أولياً. و«مَن» إمَّا موصولةٌ أو شرطية، و«أوفى» فيه ثلاث لغات: إثباتُ الهمزة، وحذفُها مع تخفيف الفاء وتشديدها، والضميرُ في «عهدِه» عائدٌ على «مَن»، وقيل: يعود على «الله»، فهو على الأول مصدرٌ مضافٌ لفاعله، وعلى الثاني مصدرٌ مضاف لمفعوله أو لفاعله.

ولا بدَّ من ضميرٍ يعودُ على «مَن» من الجملة الثانية، فإمَّا أن يقام الظاهر مقامَ المضمَر في الربط إن كان «المتقين»: «مَن أوفى»، وإمَّا أن يُجعل عمومُه وشمولُه رابطاً إن كان «المتقين» عاماً. وإنَّما وُضع الظاهرُ موضع المضمر على الأول تسجيلاً على المُوفين بالعهد بالتقوى، وإشارةً إلى علَّة الحكم، ومراعاةً لرؤوس الآي، ورجِّح الأول بقوة الربط فيه.

وقال ابنُ هشام[2]: الظاهرُ أنَّه لا عموم، وأنَّ «المتقين» مساوٍ لمَن تقدَّم ذِكْرُه، والجوابُ لفظاً أو معنًى محذوفٌ، تقديره: يحبُّه الله، ويدلُّ عليه: «فإن الله» إلخ. واعترضَه الحلبيُّ بأنَّه تكلُّفٌ لا حاجةَ إليه[3].

وقوله: الظاهر أنه لا عموم. . . ، في حيِّز المنع، فإنَّ ضمير «بعهده» إذا كان لله، فالالتفات عن الضمير إلى الظاهر لإفادة العموم كما هو المعهود في أمثاله؛ قاله بعضُ المحققين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أخرج الستةُ وغيرُهم عن ابن

---

(١) في الإملاء ٢/ ٨٩.

(٢) في المغني ص ٦٥٩-٦٦٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٣/ ٣٨.

(٣) الدر المصون ٣/ ٢٦٩.

مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن حَلَفَ على يَمينٍ هو فيها فاجرٌ ليقطعَ بها مالَ امرئ مسلمٍ لَقِيَ اللهَ وهو عليه غَضْبَانُ» فقال الأشعثُ بن قيس: فِيَّ واللهِ كان ذلك، كان بيْني وبينَ رجلٍ من اليهود أرضٌ، فجَحَدني، فقدَّمته إلى النبيِّ ﷺ، فقال لي رسولُ الله ﷺ: «أَلَكَ بيِّنةٌ؟» قلت: لا. فقال لليهودي: «احْلِف». فقلت: يا رسول الله، إذاً يَحْلِف فيذهبُ مالي، فأنزَل اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ إلخ[1].

وأخرج البخاريُّ وغيرُه عن عبد الله بن أبي أوفى: أنَّ رجلاً أقام سِلْعةً له في السوق فحلَف بالله لقد أَعْطَى بها ما لم يُعْطِه، ليُوْقِعَ فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت هذه الآية[2].

وأخرج أحمد وابن جرير - واللفظ له - عن عدي بن عميرة قال: كان بين امرئ القيس ورجلٍ من حَضْرَمَوتَ خصومةٌ، فارْتَفَعا إلى النبيِّ ﷺ، فقال للحضرَميِّ: «بيِّنَتك وإلا فَيَمِينُه» قال: يا رسولَ الله، إن حلَف ذهَب بأرضي! فقال رسولُ الله ﷺ: «مَن حَلَفَ على يمينٍ كاذبةٍ ليقتطعَ بها حقَّ أخيه، لَقِيَ اللهَ تعالى وهو عليه غَضْبانُ» فقال امرؤ القيس: يا رسولَ الله فما لِمَن ترَكها وهو يعلَم أنها حقٌّ؟ قال: «الجَنَّة» قال: فإنِّي أُشهدك أني قد تَركتُها. فنزلت[3].

وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال: نزلت هذه الآية في أبي رافع وكنانة[4] بنِ أبي الحُقَيق وكعب بن الأشرف وحُيَيِّ بنِ أخطب، حرَّفوا التوراة، وبدَّلوا نعتَ رسولِ الله ﷺ، وحُكْمَ الأمانات وغيرَهما، وأخذوا على ذلك رِشوةً[5]. وروي غير ذلك، ولا مانع من تعدُّدِ سبب النزول كما حقَّقوه.

---

(١) صحيح البخاري (٢٤١٦، ٢٤١٦)، وصحيح مسلم (١٣٨)، وسنن أبي داود (٣٢٤٣)، سنن الترمذي (١٢٦٩)، وسنن النسائي الكبرى(٥٩٤٨)، وسنن ابن ماجه (٢٣٢٣)، وهو عند أحمد (٣٥٩٧).

(٢) صحيح البخاري (٢٠٨٨).

(٣) مسند أحمد (١٧٧١٦)، وتفسير الطبري ٥/٥١٨. وامرؤ القيس هو ابن عابس بن المنذر الكندي. الإصابة ١/ ١٠٠.

(٤) في الأصل و(م) ولبابة، والمثبت هو الصواب، وهو الموافق لما في المصادر.

(٥) تفسير الطبري ٥/ ٥١٦ دون قوله: حرفوا التوراة وبدلوا. . .، وذكره بتمامه الواحدي في أسباب النزول ص ١٠٧-١٠٨، وأبو السعود ٢/ ٥١، وعنه نقل المصنف.

والمراد بـ «يشترون»: يستبدلون. وبالعهد: أمرُ الله تعالى، وما يلزم الوفاءُ به. وقيل: ما عَهِدَه إلى اليهود في التوراة مِن أمْرِ النبيِّ ﷺ. وقيل: ما في عقل الإنسان من الزَّجر عن الباطل والانقياد إلى الحقِّ. وبالأيمان: الأيمانُ الكاذبة. وبالثَّمَن القليل: الأعْواضُ النَّزرةُ أو الرشا، ووصف ذلك بالقلّة لقلّته في جَنْبِ ما يَفوتُهم من الثواب، ويَحْصل لهم من العقاب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب لهم من نَعيمها بسبب ذلك الاستبدال.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: بما يَسُرُّهم، بل بما يسوؤهم وقتَ الحسابِ لهم؛ قاله الجبائيُّ. أو لا يكلِّمهم بشيء أصلاً، وتكون المحاسبةُ بكلام الملائكة لهم بأمرِ الله تعالى إياهم؛ استهانةً بهم. وقيل: المراد أنَّهم لا يَنتفعون بكلمات الله تعالى وآياته، ولا يخفى بُعْدُه. واستُظْهِر أن يكون هذا كنايةً عن غضبه سبحانه عليهم.

﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: لا يعطف عليهم ولا يَرْحمُهم، كما يقول القائل: انظر إليَّ، يريد: ارحمني. وجعله الزمخشريُّ مجازاً عن الاستهانة بهم والسُّخط عليهم، وفرَّق بين استعماله فيمَن يجوز عليه النظر المفسَّر بتقليب الحَدَقة وفيمَن لا يجوز عليه ذلك، بأنَّ أصله - فيمَن يجوز عليه - الكناية؛ لأنَّ مَن اعتدَّ بالإنسان التفتَ إليه وأعاره نظَرَ عينيه، ثم كثُر حتى صار عبارةً عن الاعتداد والإحسان مجازاً، وإن لم يكن ثَمَّ نظَرٌ، ثم جاء فيمَن لا يجوز عليه النظر مجرَّداً لمعنى الإحسان مجازاً عمَّا وقع كنايةً عنه فيمَن يجوز عليه النظر(١).

وفي «الكشف»: إنَّ في هذا تصريحاً بأنَّ الكناية يُعتبَر فيها صُلوحُ إرادة الحقيقة وإن لم تُرَدْ، وأنَّ الكنايات قد تَشْتَهِرُ حتى لا تبقى تلك الجهةُ ملحوظة، وحينئذٍ تلحقُ بالمجاز، ولا تُجعل مجازاً إلا بعد الشُّهرة؛ لأنَّ جهة الانتقال إلى المعنى المجازيِّ أولاً غير واضحة، بخلاف المعنى المَكْنيِّ عنه(٢).

وبهذا يندفعُ ما ذكَرَه غيرُ واحد من المخالفة بين قولَي الزمخشريِّ في جَعْلِ بَسْطِ اليد في قوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] مجازاً عن الجُود تارةً

---

(١) الكشاف ١/ ٤٣٩.

(٢) حاشية الشهاب ٣/ ٣٩.

وكنايةً أُخرى؛ إذ حاصلُه أنه إن قطع النظر عن المانع الخارجيِّ كان كنايةً ثم أُلحق بالمجاز، فيُطلق عليه أنه كنايةٌ باعتبار أصله قبل الإلحاق، ومجازٌ بعده، فلا تناقضَ بينهما كما توهموه[1]، فتدبَّر. والظرفُ متعلِّقٌ بالفعلين، وفيه تهويلٌ للوعيد.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: ولا يحكم عليهم بأنهم أزكياء، ولا يُسمِّيهم بذلك، بل يحكم بأنهم كَفَرةٌ فَجَرَة؛ قاله القاضي. وقال الجبائيُّ: لا يُنزلهم منزلةَ الأزكياء. وقيل: لا يطهِّرهم عن دنس الذنوب والأوزارِ بالمغفرة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ أي: مؤلِم موجِعٌ، والظاهر أنَّ ذلك في القيامة، إلا أنه لم يقيّد به اكتفاءً بالأول. وقيل: إنه في الدنيا بالإهانة وضرْبِ الجزية؛ بناءً على أنَّ الآية في اليهود.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ أي: إن مِن أهل الكتاب الخائنين لَجماعةً ﴿يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَٰبِ﴾ أي: يحرِّفونه؛ قاله مجاهد. وقيل: أصلُ اللَّيِّ الفتلُ، من قولك: لَوَيْت يدَه، إذا فتلتَها، ومنه: لويتُ الغريمَ، إذا مَطَلْتَه حقَّه. قال الشاعر:

تُطيلينَ لَيَّاني وأنتِ مَليَّةٌ وأُحْسِنُ يا ذاتَ الوِشَاحِ التَّقاضيا[2]

وفي الخبر: «لَيُّ الواجِدِ ظُلْمٌ»[3]. فالمعنى: يَفتلون أَلْسِنَتَهم في القراءة بالتحريف في الحَرَكات ونحوِها تغييراً يتغيَّرُ به المعنى، ويرجع هذا في الآخرة إلى ما قاله مجاهد[4]. وقريبٌ منه ما قيل: إنَّ المراد: يُميلون الألسنةَ بمُشابِهِ الكتاب.

والألسنةُ جمعُ لسان، وذكَر ابنُ الشحنة[5] أنه يذكَّر ويؤنَّث، ونقل عن أبي عمرو بن العلاء أنَّ مَن أنَّثه جمعَه على ألسُن، ومَن ذكَّره جمعَه على أَلْسِنة.

---

(١) المصدر السابق، وينظر الكشاف ١/ ٦٢٧.

(٢) البيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ٢/ ١٣٠٦ برواية: تسيئين لَيَّاني...

(٣) أخرجه أحمد (١٧٩٤٦)، وأبو داود (٣٦٢٨)، والنسائي في المجتبى ٧/ ٣١٦ من حديث الشريد بن سويد الثقفي ﷺ، وعلَّقه البخاري قبل الحديث (٢٤٠١)، ولفظه عندهم: «ليُّ الواجد يُحِل عِرضَه وعقوبته». وفي البخاري: قال سفيان: «عرضه»: يقول: مَطَلْتَني، وعقوبته: الحبس.

(٤) أخرجه عنه الطبري ٥/ ٥٢٢ بلفظ: يحرِّفونه.

(٥) أحمد بن نعمة بن حسن الحجار الخياط الرُّحَلة المعمر، شهاب الدين أبو العباس، توفي سنة (٧٣٠هـ). الوافي بالوفيات ٨/ ٢١٨.

وعن الفرَّاء أنه قال: اللِّسان بعينه لم أسمعه من العرب إلا مذكَّراً[١]. ولا يخفى أنّ المُثبِتَ مقدَّم على النافي.

والباءُ صلة، أو للآلة، أو للظرفية، أو للمُلابَسة، والجارُّ والمجرورُ حالٌ من الألسنة، أي: مُلْتَبِسةً بالكتاب.

وقرأ أهل المدينة: «يلوُّون» بالتشديد[٢]، فهو على حدِّ: ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ [المنافقون: ٥]. وعن مجاهد وابن كثير: : «يَلُون» على قَلْبِ الواو المضمومةِ همزةً، ثم تخفيفها بحذفها وإلقاءِ حركتها على الساكن قبلها[٣]، كذا قيل. واعتُرض عليه: بأنه لو نُقلت ضمةُ الواو لِمَا قبلها فحذفت لالتقاء الساكنين كفى في التوجيه، فأيُّ حاجةٍ إلى قلب الواو همزة؟ ورُدَّ بأنه فُعِلَ ذلك ليكون على القاعدة التصريفية، بخلاف نَقْلِ حركة الواو ثم حذفها على ما عُرِف في التصريف. ونظر فيه بعض المحقِّقين[٤] بأنَّ الواو المضمومة إنَّما تُبدَل همزةً إذا كانت ضمَّتُها أصلية، فهو مخالف للقياس أيضاً. نعم قرئ: «يَلْؤُون» بالهمز في الشواذِّ وهو يؤيِّده، وعلى كلٍّ ففيه اجتماعُ إعلالين، ومِثْلُه كثير. وأمَّا جعله من الوَلْي بمعنى القُرْب، أي: يقرِّبون ألسنتَهم بمَيْلها إلى المحرَّف، فبعيد من الصحيح قريبٌ إلى المحرَّف.

﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: لتظنُّوا أيها المسلمون أنَّ المحرَّف المدلولَ عليه باللَّيِّ ـ أو المشابِهَ ـ مِن كتاب الله تعالى المُنزلِ على بعض أنبيائه عليهم الصلاة والسلام. وقرئ: «ليحسبوه» بالياء[٥]، والضمير أيضاً للمسلمين.

﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ ولكنه من قِبَل أنفسهم.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: ويزعمون صريحاً ـ غيرَ مُكتفينَ بالتورية والتَّعريض ـ أنَّ المحرَّف أو المشابِهَ نازلٌ من عند الله ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: وليس هو نازلاً من عند اللهِ تعالى. والواو للحال، والجملة حالٌ من ضمير المبتدأ في الخبر.

---

(١) المذكر والمؤنث للفراء ص١٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٨٩، والكشاف ١/ ٤٣٩، والمحرر الوجيز ١/ ٤٦٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٠، والكشاف ١/ ٤٣٩، وذكر القراءة أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢١، وقراءة ابن كثير المشهورة عنه كقراءة الجماعة.

(٤) هو الشهاب في الحاشية ٣/ ٤٠، والكلام السابق منه.

(٥) القراءات الشاذة ص٢١.

وفي جملة «ويقولون» إلخ تأكيدٌ للنفي الذي قبلها، وليس الغرض التأكيد فقط، وإلّا لَمَا توجَّه العطف، بل التشنيع أيضاً بأنهم لم يَكتفوا بذلك التعريض، حتى ارْتَكبوا هذا التصريحَ، وبهذا حصلت المغايرةُ المقتضيةُ للعطف، والإظهارُ في موضع الإضمار لتهويل ما أقدموا عليه.

واستدلَّ الجبائيُّ والكعبيُّ بالآية على أنَّ فِعْلَ العبد ليس بخَلْق الله تعالى، وإلّا صَدَقَ أولئك المحرِّفون بقولهم: «هو من عند الله» لكن الله تعالى كذَّبهم.

ورُدَّ بأنَّ القوم ما ادَّعوا أنَّ التحريف مِن عند الله وبخَلْقِه، وإنما ادَّعوا أنَّ المحرَّف منزَلٌ من عند الله، أو حكمٌ من أحكامه، فتوجَّه تكذيبُ الله تعالى إياهم إلى هذا الذي زَعَموا.

والحاصل: أنَّ المقصود بالنفي ـ كما أشرنا إليه ـ نزوله من عنده سبحانه، وهو أخصُّ من كونه من فِعْلِه وخَلْقِه، ونفيُ الخاصِّ لا يستلزم نفيَ العام، فلا يدلُّ على مذهب المعتزلة القائلين بأنَّ أفعال العباد مخلوقةٌ لهم لا لله تعالى.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: في نِسْبَتِهم ذلك إلى الله تعالى تعريضاً وتصريحاً.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝﴾ أنهم كاذبون عليه سبحانه، وهو تسجيلٌ عليهم بأنَّ ما افترَوه عن عمْدٍ لا خطأ. وقيل: «يعلمون» ما عليهم في ذلك من العقاب.

روى الضحاك عن ابن عباس: أنَّ الآية نزلت في اليهود والنصارى جميعاً؛ وذلك أنهم حرَّفوا التوراة والإنجيل، وألْحَقوا بكتاب الله تعالى ما ليس منه.

وروى غير واحد: أنَّها في طائفةٍ من اليهود، وهم كعب بن الأشرف ومالك وحيي بن أخطب وأبو ياسر وشعبة بن عمرو الشاعر، غَيَّروا ما هو حجَّةٌ عليهم من التوراة.

واختلف الناسُ في أنَّ المحرَّف هل كان يُكتبُ في التوراة أم لا؟ فذهب جمعٌ إلى أنه ليس في التوراة سِوى كلامِ الله تعالى، وأنَّ تحريف اليهود لم يكن إلا تغييراً وقتَ القراءة، أو تأويلاً باطلاً للنصوص، وأمَّا أنهم يكتبون ما يرومون في التوراة على تعدُّد نُسَخِها، فلا.

واحتجُّوا لذلك بما أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن وهب بن منبِّه أنه قال: إنَّ التوراة والإنجيل كما أنزلهما اللهُ تعالى لم يغيَّر منهما حرف، ولكنهم

يُضِلُّون بالتحريف والتأويل، وكُتُبٍ كانوا يكتبونها من عند أنفسهم، ويقولون: إنَّ ذلك من عند الله. وما هو من عند الله، فأما كتب الله تعالى فإنَّها محفوظةٌ لا تُحوَّل[١]. وبأنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول لليهود إلزاماً لهم: «ائتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين»[٢] وهم يَمْتنعون عن ذلك، فلو كانت مغيَّرة إلى ما يُوافق مَرَامَهم ما امتنعوا، بل وما كان يقول لهم ذلك رسولُ الله ﷺ؛ لأنه يعود على مَطلَبه الشريف بالإبطال.

وذهب آخرون إلى أنهم بدَّلوا وكتبوا ذلك في نفْس كتابهم، واحتجُّوا على ذلك بكثير من الظواهر، ولا يمنع من ذلك تعدُّد النُّسَخ، إمَّا لاحتمال التواطُؤ، أو فعل ذلك في البعض دون البعض، وكذا لا يمنع منه قولُ الرسول لهم ذلك؛ لاحتمال عِلْمِه ﷺ ببقاء بعضٍ ما يَفي بغَرَضه سالِماً عن التغيير، إمَّا لجهلهم بوجه دلالته، أو لصرْف الله تعالى إياهم عن تغييره، وأمَّا ما رُوي عن وهب فهو - على تقدير ثُبوته عنه - يحتمل أن يكون قولاً عن اجتهاد، أو ناشئاً عن عدم استقراءٍ تامٍّ، وممَّا يؤيِّد وقوعَ التغيير في كُتب الله تعالى، وأنها لم تبقَ كيوم نزلت، وقوعُ التناقضِ في الأناجيل وتعارُضُها وتَكَاذُبُها وتَهافُتُها ومصادمتُها بعضها ببعض، فإنَّها أربعةُ أناجيل:

الأول: إنجيل «متَّى» وهو من الاثني عشر الحواريين، وإنجيلُه باللغة السّريانية، كَتَبه بأرض فلسطين بعد رفْعِ المسيح إلى السماء بثماني سنين، وعدَّةُ إصحاحاته: ثمانيةٌ وستُّون إصحاحاً.

والثاني: إنجيل «مرْقس» وهو من السبعين، وكتب إنجيله باللغة الفرنجية بمدينة رومِيَّة بعد رفع المسيح باثنتي عشرة سنة، وعدَّةُ إصحاحاته: ثمانية وأربعون إصحاحاً.

والثالث: إنجيل «لوقا» وهو من السبعين أيضاً، كتب إنجيله باللغة اليونانية بمدينة الاسكندرية بعد ذلك، وعدةُ إصحاحاته: ثلاثة وثمانون إصحاحاً.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦٨٩، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٤٦.
(٢) أخرجه البخاري (٧٥٤٣)، ومسلم (١٦٩٩) من حديث ابن عمر ﵄.

والرابع: إنجيل «يوحنا» وهو حبيب المسيح، كتب إنجيله بمدينة إقسس من بلاد رومية بعد رفع المسيح بثلاثين سنة، وعدَّةُ إصحاحاته في النُّسخ القبطية: ثلاثة وثلاثون إصحاحاً.

وقد تضمَّن كلُّ إنجيل من الحكايات والقصص ما أَغْفَله الآخر، واشتمل على أمور وأشياء قد اشتمل الآخَرُ على نَقيضها أو ما يُخالفها، وفيها ما تحكُم الضرورةُ بأنه ليس مِن كلام الله تعالى أصلاً، فمِن ذلك أن متَّى ذكَر أن المسيح صُلِب وصُلِب معه لصَّان أحدهما عن يَمينه والآخر عن شماله، وأنهما جميعاً كانا يهزءان بالمسيح مع اليهود ويعيِّرانه[1].

وذكر لوقا خلافَ ذلك فقال: إنَّ أحدهما كان يَهزأ به، والآخر يقول به: أمَا تتَّقي الله تعالى، أمَّا نحن فقد جُوزينا، وأمَّا هذا فلم يَعمل قَبيحاً، ثم قال للمسيح: يا سيدي اذكُرني في ملكوتك. فقال: حقاً إنك تكون معي اليوم في الفردوس[2].

ولا يخفى أنَّ هذا يَؤُولُ إلى التناقض، فإنَّ اللِّصين عند متَّى كافران، وعند «لوقا» أحدُهما مؤمِن والآخرُ كافر، وأَغْفَل هذه القصةَ مرقس ويوحنا.

ومنه أنَّ لوقا ذكَر أنه قال يسوع: إنَّ ابن الإنسان لم يأتِ ليُهْلِك نفوسَ الناس ولكن ليُحيي. وخالفه أصحابُه، وقالوا: بل قال: إنَّ ابن الإنسان لم يأتِ ليلقي على الأرض سلامةً لكن سيفاً، ويُضْرِم فيها ناراً[3]. ولا شك أنَّ هذا تناقضٌ؛ أحدهما يقول: جاء رحمة للعالمين، والآخر يقول: جاء نقمةً على الخلائق أجمعين.

ومن ذلك أنّ متَّى قال: قال يسوع للتلاميذ الاثني عشر: أنتم الذين تكونون في الزمن الآتي جلوساً على اثني عشر كرسيّاً تَدينون اثني عشر سبط إسرائيل[4]. فشهِد للكلِّ بالفوز والبِرِّ عامَّةً في القيامة. ثم نقَض ذلك متَّى وغيرُه وقال: مضى واحدٌ من

(١) إنجيل متى ص١١٦.
(٢) إنجيل لوقا ص٢٧٥.
(٣) ينظر إنجيل متى ص٦٥، وإنجيل لوقا ص٢٣٩.
(٤) إنجيل متى ص٩١، ووقع في الأصل: بني إسرائيل.

التلاميذ الاثني عشر - وهو يهوذا صاحب صندوق الصدقة - فارتشى على يسوع بثلاثين درهماً، وجاء بالشرطي فسلَّم إليهم يسوعَ، فقال يسوعُ: الويل له، خيرٌ له أن لا يولد[1].

ومنه أنَّ متَّى أيضاً ذكَر أنه لمَّا حُمِل يسوع إلى فيلاطس القائد قال: أيُّ شرٍّ فعَل هذا؟ فصرَخ اليهود وقالوا: يُصْلَب يصلَب. فلمَّا رأى عزْمَهم، وأنه لا ينفع فيهم، أخذ ماء وغسل يديه، وقال: أنا بريء من دم هذا الصدِّيق وأنتم أَبْصَرُ[2]. وأكذبَ يوحنا ذلك فقال: لمَّا حُمِل يسوع إليه قالَ لليهود: ما تريدون؟ قالوا: يُصْلَب، فضرَب يسوعَ ثم سلَّمه إليهم[3].

إلى غير ذلك ممَّا يَطول، فإذا وقع هذا التغيير والتحريف في أصول القوم ومتقدِّميهم، فما ظنُّك في فروعهم ومتأخِّريهم:

وإذا كان في الأنابيب حَيْفٌ وقَع الطَّيْشُ في صدُورِ الصعاد[4]

و يا ليت شعري، هل تنبَّه ابنُ منبِّه لهذا، أمْ لم يتنبَّه، فقال: إنَّ التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله تعالى؟ سبحان الله هذا من العَجَب العُجاب!

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾ تنزيهٌ لأنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام إثْرَ تنزيه الله تعالى عن نِسْبة ما افترَاه أهلُ الكتاب إليه. وقيل: تكذيبٌ وردٌّ على عَبَدة عيسى عليه السلام.

وأخرج ابن إسحاق وغيرُه[5] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو رافع القرظيُّ

---

(١) إنجيل متى ص١١٠-١١٤، وإنجيل يوحنا ص٣٤٩، وإنجيل لوقا ص٢٦٩ و٢٧١، وإنجيل مرقس ص١٦٩-١٧٢.

(٢) إنجيل متى ص١١٥.

(٣) إنجيل يوحنا ص٣٥٢، وإنجيل مرقس ص١٧٤.

(٤) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٢/ ١٣٤ برواية: خلف، بدل: حيف. قال الشارح: أنابيب الرمح: ما بين كل عقدتين، والخلف الاختلاف، والطيش هنا بمعنى الاضطراب، والصعاد جمع صعدة، وهي قناة الرمح، أي: إذا اختلفت أنابيب الرمح اضطرب صدره، فلم يستقم عند الطعن.

(٥) هو في سيرة ابن هشام ١/ ٥٥٤، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الطبري ٥/ ٥٢٤، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٣٨٤.

حين اجتمعت الأحْبَارُ من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ وَدَعاهم إلى الإسلام: أتريدُ يا محمدُ أن نعبدك كمَا تعبدُ النَّصارى عيسى ابنَ مريم؟ فقال رجلٌ من أهل نَجْرَان نصرانيٌّ يقال له الرئيس[١]: أو ذاك تريدُ مِنَّا يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَعَاذَ الله أن نعبدَ غيرَ اللهِ أو نأمرَ بعبادة غيره، ما بذلك بَعَثَني ولا بذلك أمرَني» فأنزل الله تعالى الآية.

وأخرج عبد بن حُميد عن الحسن قال: بلَغني أن رجلاً قال: يا رسول الله، نسلِّم عليك كما يسلِّم بعضُنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «لا ولكنْ أَكْرِموا نبيَّكم واعْرِفوا الحقَّ لأهله، فإنَّه لا ينبغي أن يُسجَد لأحدٍ من دون الله تعالى» فنزلت[٢].

وأخرج ابن أبي حاتم [عن ابن جريج] قال: كان ناس من يهود يتعبدون الناسَ مِن دون ربِّهم بتحريفهم كتاب الله تعالى عن موضعه، فقال: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾[٣] إلخ.

والمعنى: ما يصحُّ، وقيل: ما ينبغي. وقيل: لا يجوز لأحدٍ. وعبَّر بالبشر إيذاناً بعلَّة الحكم؛ فإنَّ البشرية مُنافيةٌ للأمر الذي أسنده الكفَرَةُ إلى أولئك الكرام عليهم الصلاة والسلام.

والجارُّ خبرٌ مقدَّم لـ «كان»، والمنسبكُ من «أنْ» والفعلِ بعدُ اسمُها، ولا بدَّ لاستقامة المعنى من ملاحظة العطف؛ إذ لو سكت عنه لم يصحَّ؛ لأنَّ الله تعالى قد آتى كثيراً من البشر الكتاب وأَخَويه. وعطفَ الفعل على منصوب «أنْ» بـ «ثم» تعظيماً لهذا القول، فإنَّه إذا انتفى بعد مهلة كان انتفاؤه بدونها أولى وأَحْرَى، فكأنه قيل: إن هذا الإيتاءَ العظيمَ لا يُجامِعُ هذا القول أصلاً، وإن كان بعد مهلة من هذا الإنعام. و«الحكمُ» بمعنى الحكمة، وقد تقدَّم معناها.

والعباد جمع عبد، قال القاضي: وهو هنا من العبادة، ولم يقل: عبيداً لأنه من العبودية، وهي لا تمتنع أن تكون لغير الله تعالى، ولهذا يقال: هؤلاء عبيد زيدٍ،

---

(١) في مصادر التخريج: الرِّبِّيس، ووقع بعده في سيرة ابن هشام: ويروى الربِّس والرئيس.
(٢) الدر المنثور ٢/ ٤٦-٤٧.
(٣) الدر المنثور ٢/ ٤٦، وما سلف بين حاصرتين منه، والخبر في تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦٩١ وتفسير الطبري ٥/ ٥٢٥.

ولا يقال: عباده، والظرف الذي بعده متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً له، أي: عباداً كائنين «لي». و«من دون الله» متعلِّق بلفظِ «عباداً» لِمَا فيه من معنى الفعل، ويجوز أن يكون صفةً ثانية، وأن يكون حالاً؛ لتخصيص النكرة بالوصف، أي: مُتَجاوزين الله تعالى إشراكاً أو إفراداً، كما قال الجبائي، فإنَّ التجاوز متحقِّقٌ فيهما حَتْماً، ثم إنَّ هذا الإيتاء في الآية حقيقةٌ على الروايتين الأُوْلَيَيْن، مجازٌ على الرواية الأخيرة، كما لا يخفى.

﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ إثباتٌ لِمَا نُفي سابقاً، وهو القولُ المنصوب بـ «أَنْ»، كأنه قيل: ما كان لذلك البشر أن يقولَ ذلك، لكن يقولَ: كونوا ربَّانيين، فالفعل هنا منصوبٌ أيضاً عطفاً عليه، وجوِّز رَفْعُه [عطفاً][1] على المعنى؛ لأنه في معنى: لا يقول. وقيل: يصحُّ عدم تقدير القول على معنى: لا تكونوا قائلين لذلك، ولكن كونوا ربَّانيين.

وفسَّر عليٌّ كرَّم الله وجهه وابنُ عباس الرَّبانيَّ بالفقيه العالِم. وقتادةُ والسديُّ: بالعالِم الحكيم. وابنُ جبير: بالحكيم التقي. وابن زيد: بالمدبِّرِ أمرَ الناس. وهي أقوالٌ متقاربة. وهو لفظٌ عربيٌّ لا سريانيٌّ على الصحيح، وزعم أبو عبيدة[2] أنَّ العرب لا تعرفه.

وهو منسوبٌ إلى الرَّبِّ كـ: إلهيّ، والألفُ والنون يزادان في النسب للمبالغة كثيراً، كـ: لِحْيَاني لعظيم اللِّحية، والجُمَّاني لوافِرِ الجُمَّة[3]، ورَقَباني بمعنى غليظ الرَّقبة. وقيل: إنه منسوب إلى ربَّان ـ صفةٌ كعَطْشان ـ بمعنى مُربِّي.

﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ الباءُ للسببية متعلِّقةٌ بـ «كونوا»، أي: كونوا كذلك بسببِ مثابَرَتِكم على تعليمكم الكتابَ ودراستِكم له، والمطلوبُ أن لا ينفكَّ العلْم عن العمل؛ إذ لا يعتدُّ بأحدهما بدون الآخر.

وقيل: متعلِّقة بـ «ربَّانيين» لأنَّ فيه معنى الفعل، وقيل: بمحذوفٍ وقع صفةً له.

---

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٣/ ٤٠، والكلام منه.

(٢) في مجاز القرآن ١/ ٩٧.

(٣) وهي مجتمع شعر الرأس. القاموس (جمم).

والدِّراسةُ: التكرار، يقال: درَس الكتابَ، أي: كرَّره، وتُطْلَق على القراءة. وتكريرُ «بما كنتم» للإشعار باستقلال كلٍّ من استمرار التعليم واستمرارِ القراءة ـ المُشْعِرِ به جَعْلُ خبرِ «كان» مضارعاً ـ بالفضل وتحصيل الربَّانية.

وقدَّم تعليمَ الكتاب على دراسته لوفور شرَفِه عليها، أو لأنَّ الخطاب الأول لرؤسائهم، والثاني لمَن دونهم.

وقيل: لأنَّ متعلَّقَ التعليم الكتابُ، بمعنى: القرآن، ومتعلَّق الدراسة الفقهُ، وفيه بُعْدٌ بعيد وإنْ أشعر به كلامُ بعض السلف.

وقرأ نافع وابن كثير ويعقوب وأبو عمرو ومجاهد: «تَعْلَمون»[(١)] بمعنى: عالِمِين. وقرئ: «تُدرِّسون» بالتشديد[(٢)]، من التدريس. و: «تُدْرِسون»[(٣)] من الإدراس بمعناه، ومجيء أَفْعلَ بمعنى فعَّل كثيرٌ، وجوِّز كونُ القراءة المشهورة أيضاً بهذا المعنى، على أن يكون المراد: تُدرِّسونه للناس.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وعاصم ويعقوب: «ولا يأمرَكم» بالنصب[(٤)] عطفاً على «يقولَ»، و«لا»: إمَّا مَزيدةٌ لتأكيد معنى النفي الشائع في الاستعمال، سِيَّما عند طول العهد وتخلُّل الفصل، والمعنى: ما كان لبشر أن يؤتيَه اللهُ تعالى ذلك، ويرسلَه للدعوة إلى اختصاصه بالعبادة وتركِ الأنداد، ثم يأمرَ الناسَ بأن يكونوا عباداً له، ويأمرَكم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً، فهو كقولك: ما كان لزيد أن أُكرِمَه ثم يُهينَني ولا يَسْتَخِفَّ بي.

وإمَّا غير زائدة؛ بناءً على أنه ﷺ كان ينهى عن عبادة الملائكة والمسيح وعزيرٍ عليهم السَّلام، فلمَّا قيل له: أنتَّخذُك ربّاً؟ قيل لهم: ما كان لبشر أن يتَّخِذَه اللهُ تعالى نبيًّا، ثم يأمر الناسَ بعبادته ويَنهاهم عن عبادة الملائكة والأنبياء، مع أنَّ مَن يريد أن يستعبدَ شخصاً يقول له: يَنبغي أن تعبدَ أمثالي وأكفائي. وعلى هذا يكون المقصودُ من عدم الأمر النهيَ وإن كان أعمّ منه؛ لكونه أمسَّ بالمقصود وأَوْفَقَ للواقع.

---

(١) التيسير ص٨٩، والنشر ٢/ ٢٤٠.

(٢) القراءات الشاذة ص٢١.

(٣) المحتسب ١/ ١٦٣.

(٤) التيسير ص٨٩، والنشر ٢/ ٢٤٠.

وقرأ باقي السبعةِ: «ولا يأمُرُكم» بالرفع[1] على الاستئناف، ويحتمل الحاليةَ؛ قيل: والرفعُ على الاستئناف أظهر، وينصرُه قراءةُ: «ولن يأمركم»[2]، ووجِّهت الأظهرية بالخلوِّ عن تكلُّفِ جَعْلِ عدم الأمرِ بمعنى النهي، وبأنَّ العطف يستدعي تقديمه على «لكنْ»، وكذا الحالية أيضاً.

وقرئ بإسكان الراء[3] فراراً من توالي الحركات.

وعلى سائر القراءات ضميرُ الفاعل عائدٌ على «بشر»، وجوِّز عودُه في بعضها على «الله» تعالى، وجوِّز الأمران أيضاً في قوله تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾ والاستفهام فيه للإنكار، وكونُ مَرْجعِ الضمير في أحدِ الاحتمالين نكِرةً يجعلُه عاماً.

﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ استدلَّ به الخطيب على أنَّ الآية نزلَت في المسلمين القائلين: أفلا نسجد لك[4]؟ بناءً على الظاهر. ووجِّه كونُ الخطابِ للكفار، وأنَّ الآية نزلت فيهم، بأنه يجوز أن يقال لأهل الكتاب: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ـ أي: منقادون مستعدُّون للدِّين الحقِّ ـ إرخاءً للعِنان واستدراجاً.

والقول: بأنَّ كلَّ مصدِّقٍ بنبيِّه مسلمٌ، ودعواه أنه أمره نبيُّه بما يوجب كفرَه دعوى أنه أمرَه بالكفر بعد إسلامه، فدلالة هذا على أنَّ الخطاب للمسلمين ضعيفةٌ في غاية السقوط كما لا يخفى.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ الظرفُ منصوبٌ بفعلٍ مقدَّرٍ مخاطَبٍ به النبيُّ ﷺ، أي: اذكر وقتَ ذلك، واختار السمينُ كونَه معمولاً لـ «أقررتم» الآتي[5]، وضعَّفه عبدُ الباقي بأنَّ خطاب «أأقررتم» بعد تحقُّق أخذ الميثاق، وفيه

---

(١) عدا أبا عمرو، فإنه قرأ بإسكان الراء واختلاسها. التيسير ص٨٩، والنشر ٢/ ٢٤٠-٢٤١.

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٢٤، وتفسير الطبري ٥/ ٥٣٣.

(٣) وهي قراءة أبي عمرو كما سلفت الإشارة إليه.

(٤) ينظر الكشاف ١/ ٤٤٠، وتفسير الرازي ٨/ ٢٢١، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٣/ ٤١، وتفسير أبي السعود ٢/ ٥٣.

(٥) كذا ذكر، والذي في الدر المصون ٣/ ٢٨٣ أن العامل فيه «قال» من قوله: «قال أأقررتم» قال السمين: وهو واضح جداً، وكذا ذكره أبو حيان في البحر ٢/ ٥٠٨ وقال: وهو حسن إذ لا تكلُّفَ فيه.

ترددٌ. وعطفُه على ما تقدَّم من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ـ كما نقله الطبرسي[(١)] ـ بعيدٌ.

واختلف في المراد من الآية؛ فقيل: إنَّها على ظاهرها، ويؤيِّد ذلك ما أخرجه ابنُ جرير عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه قال: لم يبعث الله تعالى نبياً، آدم فمَن بعدَه، إلا أخذ عليه العهد في محمَّدٍ ﷺ: لَئِن بُعث وهو حيٌّ لَيؤمِنَنَّ به ولَينصرَنَّه، ويأمره فيأخذ العهدَ على قومه، ثم تلا الآية[(٢)]. وعدمُ ذِكرِ الأمم فيها حينئذٍ، إمَّا لأنهم معلومون بالطريق الأولى، أو لأنَّه استغنى بذكرِ النبيين عن ذِكْرهم، ففي الآية اكتفاءٌ[(٣)]، وليس فيها الجمع بين المتنافيَيْن.

وقيل: إن إضافة الميثاق إلى النبيين إضافةٌ إلى الفاعل[(٤)]، والمعنى: وإذ أخذ اللهُ الميثاقَ الذي وثَّقه النبيُّون على أُمَمِهم؛ وإلى هذا ذهب ابن عباس، فقد أخرج ابن المنذر وغيرُه عن سعيد بن جبير، أنه قال: قلتُ لابن عباس: إن أصحاب عبدَ الله يقرؤون: «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لما آتيتكم» إلخ، ونحنُ نقرأ: ﴿مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؟! فقال ابن عباس: إنَّما أخذ الله تعالى ميثاق النبيين على قومِهم[(٥)]. وأشار بذلك ﷺ إلى أنه لا تناقضَ بين القراءتين كما توهَّم حتى ظنَّ أنَّ ذلك منشأُ قولِ مجاهد ـ فيما رواه عنه ابنِ المنذر وغيره ـ أن ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ خطأ من الكتَّاب، وأنَّ الآية كما قرأ عبدُ الله[(٦)]، وليس كذلك؛ إذ لا يصلح ذلك وحدَه منشأ، وإلا لزِم الترجيحُ بلا مرجِّح، بل المنشأ لذلك ـ إن صحَّ ولا أظنُّ ـ ما يُعلم بعد التأمُّل فيما أَسْلَفناه في المقدِّمات، وبسَطنا الكلامَ عليه في «الأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية».

(١) في مجمع البيان ٣/ ١٣٠.
(٢) تفسير الطبري ٥/ ٥٤٠.
(٣) وهو أن يقتضي المقام شيئين بينهما تلازمٌ وارتباط، فيكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة. الإتقان ٢/ ٨٣٠.
(٤) في الأصل: من إضافة المصدر إلى الفاعل.
(٥) الدر المنثور ٢/ ٤٧، وقوله: إنما أخذ الله ميثاق. . .إلخ أخرجه الطبري ٥/ ٥٣٩.
(٦) الدر المنثور ٢/ ٤٧، وهو في تفسير الطبري ٥/ ٥٣٨. قال أبو حيان في البحر ٢/ ٥٠٨: وهذا لا يصح عنه؛ لأن الرواة الثقات نقلوا عنه أنه قرأ: (النبيين)، كعبد الله بن كثير وغيره. وإن صح ذلك عن غيره فهو خطأ مردود بإجماع الصحابة على مصحف عثمان.

وقيل: المراد: أممِ النبيِّين، على حذف المضاف؛ وإليه ذهب الصادق رضي الله عنه.

وقيل: المضاف المحذوفُ: أولاد، والمراد بهم على الصحيح: بنو إسرائيل؛ لكثرة أولاد الأنبياء فيهم، وأنَّ السياق في شأنهم، وأيِّد بقراءة عبد الله المُشارِ إليها، وهي قراءة أبيّ بن كعب أيضاً(١).

وقيل: المراد: وإذ أخذ الله ميثاقاً مثلَ ميثاقِ النبيين، أي: ميثاقاً غليظاً على الأمم، ثم جعل ميثاقهم نفسَ ميثاقهم بحذف أداة التشبيه مبالغة.

وقيل: المراد من النبيين: بنو إسرائيل، وسمَّاهم بذلك تهكُّماً؛ لأنهم كانوا يقولون: نحن أَوْلى بالنبوَّة من محمَّدٍ، لأنَّا أهل الكتاب والنبيون كانوا منَّا، وهذا كما تقول لمَن ائتمنتَه على شيء فَخَان فيه، ثم زعم الأمانة: يا أمينُ ماذا صنعتَ بأمانتي؟ وتعقَّبه الحلبيُّ بأنه بعيد جدًّا؛ إذ لا قرينة تبيِّن ذلك(٢). وأجيب بأن القائل به لعلَّه اتَّخذ مقالهم المذكور قرينةً حالية.

وقيل: إنَّ الإضافة للتعليل لأدنى مُلابَسةٍ، كأنه قيل: وإذ أخذ الله الميثاقَ على الناس لأجْلِ النبيِّين، ثم بيَّنه بقوله سبحانه: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾ إلخ. ولا يخفى أنَّ هذا أيضاً من البُعد بمكان؛ وقال الشهاب: لم نَرَ مَن ذَكَر أنَّ الإضافة تفيد التعليلَ في غير كلام القائل(٣).

واختار كثيرٌ من العلماء القولَ الأول. وأخْذُ الميثاق من النبيين له ﷺ - على مادلَّ عليه كلامُ الأمير كرَّم الله تعالى وجهه - مع علْمِه سبحانه أنهم لا يدركون وقته، لا يمنع من ذلك، لِمَا فيه - مع ما عَلِمَه الله تعالى من التعظيم له ﷺ، والتفخيم ورفعةِ الشأن والتنويه بالذِّكر - ما لا ينبغي إلا لذلك الجَنَاب، وتعظُمُ الفائدةُ إذَا كان ذلك الأخذ عليهم في كُتبهم لا في عالَم الذَّرِّ، فأنه بعيد كبُعد ذلك الزمان كما عليه البعضُ.

ويؤيِّد القولَ بأَخْذِ الميثاقِ من الأنبياء، الموجبِ لإيمان مَن أدركه عليه الصلاة

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٥٣٩، والكشاف ١/ ٤٤١.

(٢) الدر المصون ٣/ ٢٨٤.

(٣) حاشية الشهاب ٣/ ٤١.

والسلام منهم به، ما أخرجه أبو يعلى عن جابر قال: قال رسول الله تعالى عليه وسلم: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنّهم لن يَهدُوكم وقد ضَلُّوا، فإمَّا أن تُصدِّقوا بباطل، وإمَّا أن تُكَذِّبوا بحقٍّ، وإنه واللهِ لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حَلَّ له إلَّا أن يَتَّبعني»[1]. وفي معناه أخبارٌ كثيرة وهي تؤيِّد بظاهرها ما قلنا، ومن هنا ذهب العارفون إلى أنه ﷺ هو النبيُّ المطلَق والرسولُ الحقيقيُّ والمشرِّع الاستقلاليُّ، وأنَّ مَن سواه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في حكم التبعيَّةِ له ﷺ.

هذا وقد عدُّوا هذه الآيةَ من مشكلات القرآن إعراباً، وقد غاص النحويون في تحقيق ذلك وشقُّوا الشعر فيه. ولنذكر بعضَ الكلام في ذلك فنقول: قال غير واحد: اللام في (لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم) على قراءة الفتح والتخفيف ـ وهي قراءةُ الجمهور ـ موطِّئةٌ للقسم المدلول عليه بأخذ الميثاق؛ لأنه بمعنى الاستحلاف، وسمِّيت بذلك لأنَّها تسهِّل تفهُّم الجواب على السامع، وعرَّفها النحاة كما قال الشهاب[2]: بأنَّها اللام التي تدخل على الشرط ـ سواءٌ «إنْ» وغيرُها، لكنَّها غلبت في إنْ ـ بعد تقدُّم القسم لفظاً أو تقديراً؛ لتُؤذِنَ أنَّ الجواب له لا للشرط، كقولك: لئن أَكْرَمْتَني لأُكْرِمنَّك، ولو قلت: أُكرِمْك، أو: فإنِّي أكرمُك، أو ما أَشْبَهه ممَّا يجاب به الشرط، لم يَجُزْ على ما صرَّح به ابن الحاجب، وخالفه الفرَّاء فيه فجوَّز أن يجاب الشرطُ مع تقدُّم القسم عليه، لكنَّ الأول هو المصحَّح.

وكونُها يجب دخولها على الشرط هو المشهور، وخالف فيه بعضُ النحاة؛ قال: يجوز دخولها على غير الشرط؛ إمَّا مطلقاً أو بشرطِ مشابهته للشرط ك «ما» الموصولةِ دون الزائدة. وقال الزمخشريُّ في سورة هود: إنه لا يجب دخولها على كَلِم المجازاة[3]، ونقله الأزهري عن الأخفش، وذكر أن ثعلباً غلَّطه فيه[4]، فالمسألة خلافيَّة.

---

(١) مسند أبي يعلى (٢١٣٥)، وهو عند أحمد (١٤٦٣١) قال الحافظ في الفتح ١٣/ ٥٢٥: في سنده مجالد بن سعيد وهو لين.

(٢) في الحاشية ٣/ ٤١.

(٣) ينظر الكشاف ٢/ ٢٩٥، وينظر أيضاً١/ ٤٤١.

(٤) ينظر تهذيب اللغة ١٥/ ٤١١.

و«ما» شرطيةٌ في موضع نصب بـ «آتيتُ»، والمفعولُ الثاني ضميرُ المخاطَب، و«مِن» بيانٌ لـ «ما»، واعتُرِضَ بأنَّ حَمْلَ «مِن» على البيان شائعٌ بعد الموصولة وأمَّا بعد الشرطية فيحتاج إلى النقل، ومثلُ ذلك القولُ بزيادتها؛ لأنَّ زيادتها بعد الموصولة أيضاً كزيادتها بعد الشرطية محتاجٌ لِمَا ذكر.

وأجيب بأنَّ السمين نقل ما يدل على الوقوع عند الأئمة[1]، وفي «جنى الداني»: ومِن الناس مَن قال: إنَّ «من» تزاد بالشروط في غير باب التمييز، وأمَّا فيه فتزاد وإن لم تستوف الشروط، نحو: لله درُّكَ مِن رجلٍ[2]. ومن هنا قال مولانا عبد الباقي: يجوزُ أن تكون «مِن» تبعيضيةً ذُكرت لبيانِ «ما» الشرطية، أو زائدةً داخلةً على التمييز.

و«لَتُؤمِنُنَّ» جوابُ القسم وحدَه على الصحيح، ولدلالته على جواب الشرط، واتحادِ معناهما، تَسامح بعضهم فجعله سادًّا مَسَدَّ الجوابين، ولم يُرِدْ أنه جوابُ القسم وجواب الشرط؛ لتَنَافيهما من حيث إنَّ الأول لا محلَّ له، والثاني له محل، والقول: بأنَّ الجملة الواحدة قد يحكم عليها بالأمرين باعتبارين، التزامٌ لِمَا لا يَلْزَمُ.

وجوَّزوا كونَ «ما» موصولةً، واللامُ الداخلةُ عليها حينئذٍ لامُ الابتداء، ويُشعر كلام البعض أنَّ اللام بعدُ موطِّئةٌ، وكأنه مبنيٌّ على مذهبِ مَن جوَّز دخول الموطِّئة على غير الشرط من النحاة كما مرَّ. وهي على هذا التقدير مبتدأ، والخبر إمَّا مقدَّر أو جملةُ «لتؤمنن» مع القسم المقدَّر، والكلام في مثله شهير.

وأُورد عليه أنَّ الضمير في «به» إن عاد على المبتدأ ـ على ما هو ظاهر ـ كان الميثاق هو إيمانهم بما آتاهم، والمقصودُ من الآية أخذُ الميثاق بالإيمان بالرسول ﷺ ونصرته، وإن عاد على الرسول كالضمير الثاني المنصوبِ العائدِ عليه مطلقاً دفعاً للزوم التفكيك، خلت الجملة التي هي خبرٌ عن العائد.

وأجيب بأنَّ الجملة المعطوفةَ لَمَّا كانت مشتملةً على ما هو بمعنى المبتدأ الموصول ـ ولذلك استغني عن ضميره فيها مع لزومه في الصِّلتين المتعاطفتين في

---

(١) ينظر الدر المصون ٢/ ٥٧ ـ ٥٨ و٣/ ٢٨٦.

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني، لبدر الدين حسن بن قاسم المرادي ص٥٤.

المشهور ـ وكان ضمير «به» راجعاً للرسول، مع ملاحظةِ «مصدِّقٌ لِمَا معكم» القائمِ مقامَ الضميرِ العائدِ على «ما» = اكتفى بمجرَّد ذلك عن ضميرٍ في خبرها؛ لارتباط الكلام بعضِه ببعض، وإلى ذلك يشير كلام الإمام السُّهَيْليِّ في «الروض الأُنُف»[1].

ولا يخفى أنه ـ مع ما فيه من التكلُّفِ ـ مبنيٌّ على اتحاد ما أوتوه، وما هو معهم، وفي ذلك إشكالٌ؛ لأن «آتيناكم» و«جاءكم» إن كان كلاهما مستَقْبلين، فالظاهر أنَّ المراد بـ «ما آتيتكم»[2]: القرآنُ؛ لأنه الذي يؤتَوْه في المستقبل باعتبار إيتائه للرسول الذي كلِّفوا باتِّباعه، وبما معهم: الكتب التي أوتوها، وحَمْلُه على القرآن يأباه الذوق؛ لأنه مع كونه ليس معهم بحَسَب الظاهر لا يَظْهَرُ حُسْنٌ لكون القرآن مصدِّقاً للقرآن، وهو لازمٌ على ذلك التقدير. وإن كانا ماضيين ظهر الفسادُ من جهة أنَّ هذا الرسولَ الذي أوجب الله تعالى عليهم الإيمان به ونصرتَه لم يَجِئْ إذِ ذاك.

وإن كان الفعل الأول ماضياً والثاني مستقبَلاً، جاء عدمُ التناسُبِ بين المعطوفَيْنِ وهما ماضيان لفظاً، وفيه نوعُ بُعْدٍ. ولعلَّ المجُيبَ يختار هذا الشقَّ، ويتحمَّل هذا البعدَ؛ لِمَا أنَّ «ثُم» مع كونه لا يُعبأ بمثله لضَعْفِه تهون أمره.

وجوَّز أبو البقاء على ذلك التقدير[3] كونَ الخبر «من كتاب»، أي: الذي آتيتكُمُوه من الكتاب، وجَعَلَ النكرة هنا كالمعرفة، وسوَّغ كونَ العائد على الموصول من المعطوف محذوفاً، أي: جاءكم به، مع عَدَم تحقُّقِ شروطِ حذفِ مثلِ هذا الضمير عند الجمهور، بل مع خللٍ في المعنى؛ لأنَّ المُؤتَى كتابُ كلِّ نبيٍّ في زمانِ بعثته وشريعته، والجائي به الرسولُ هو القرآنُ ـ بحَسَب الظاهر ـ لا كتابُ كل نبيٍّ، وعَودُ الضمير المقدَّرِ يستدعي ذلك، وعلى تقديرِ التزامِ كونِ المُؤتَى القرآنَ أيضاً ـ كما يقتضيه حَمْلُ الفعلين على الاستقبال ـ يَرِدُ أنه لا معنى لمجيء الرسول إليهم بالقرآن بعد إيتائهم القرآن بمهلة، والعطفُ بـ «ثُم» كالنصِّ بهذا المعنى، وعلى تقديرِ التزامِ كونِ الجائي به الرسولُ هو كتابُ كلِّ نبيٍّ بنوعٍ من التكلُّف، يكون وصفُ الرسول بكونه مصدِّقاً لِمَا معكم كالمستغنَى عنه، فتدبر.

---

(١) ١/ ٢٦٥.

(٢) في(م): آتيناكم.

(٣) يعني على تقدير «ما» موصولة. وموضعها رفع بالابتداء، واللام لام الابتداء.

وقرأ حمزة: «لِماَ آتيتكم» بكسر اللام[1]، على أن «ما» مصدرية، واللامُ جارَّةٌ أجْليَّةٌ متعلِّقةٌ بـ «لتُؤمِنُنَّ»، أي: لأَجْلِ إيتائي إياكم بعضَ الكتاب ثم مَجيءِ رسولٍ مصدقٍ له أخذ الله الميثاق: لَتؤمنُنَّ به ولتنصرنَّه[2]. واعتُرض: بأن فيه إعمالَ ما بعد لام القسم فيما قبلها، وهو لا يجوز. وأُجيبَ بأنه غيرُ مجمَع عليه؛ فإن ظاهر كلام الزمخشريِّ يُشْعِر بجوازه، ولعل مَن يمنعُه يخصُّه فيما[3] إذا لم يكن المعمولُ المتقدِّم ظرفاً؛ لأن ذاك يُتوسَّع فيه ما لا يُتوسَّع في غيره، نعم الأَوْلى - حَسْماً للنزاع - تعلُّقه بأُقْسِم المحذوف.

وجوِّز أن تكون «ما» في هذه القراءة موصولةً أيضاً، والجارُّ متعلِّقٌ بـ «أَخذ». وروى عبد بن حُمَيْد عن سعيد بن جبير أنه قرأ: «لَمَّا آتيتكم» بالتشديد[4]. وفيها احتمالان:

الأول: أن تكون ظرفيةً بمعنى حين - كما قاله الجمهور - خلافاً لسيبويه[5]، وجوابها مقدَّرٌ من جنس جواب القسم - كما ذهب إليه الزمخشريُّ[6] - أي: لمَّا آتيتكم بعضَ الكتاب والحكمة ثم جاءكم رسولٌ مصدِّق وجب عليكم الإيمانُ به ونصرته.

وقدَّره ابن عطية[7] من جنس ما قبلها، أي: لمَّا كنتم بهذه الحالِ رؤساءَ الناسِ وأماثلَهم أَخَذَ عليكم الميثاق. وكذا وقع في تفسير الزجَّاج[8]. ومَآلُ معناها التعليل.

---

(١) التيسير ص ٨٩، والنشر ٢/ ٢٤١.

(٢) والمعنى: أخذ الله ميثاقهم: لتؤمنُنَّ بالرسول ولتنصرنه لأجل أن آتيتكم الحكمة، وأن الرسول الذي آمركم بالإيمان به ونصرته موافق لكم غير مخالف. الكشاف ١/ ٤٤١، والدر المصون ٣/ ٢٨٨.

(٣) في (م): بما.

(٤) الدر المنثور ٢/ ٤٨، ونسبها ابن جني في المحتسب ١/ ١٦٤ للأعرج بلفظ: «لمَّا آتيناكم».

(٥) ومذهب سيبويه في «لما» المقتضية جواباً - كما ذكر أبو حيان في البحر ٢/ ٥١٢ - أنها حرف وجوب لوجوب، وليست ظرفية بمعنى حين، ولا بمعنى غيره. وينظر الكتاب ٤/ ٢٣٤.

(٦) في الكشاف ١/ ٤٤١.

(٧) في المحرر الوجيز ١/ ٤٦٥.

(٨) وتقديرها عنده: لمَّا آتيناكم الكتاب والحكمة أخذ عليكم الميثاق. معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٣٧. قال السمين في الدر ٣/ ٢٩١: وهذه العبارة لا يؤخذ منها كون لما ظرفية ولا غير ذلك، إلا أن فيه عاضداً لتقدير ابن عطية جوابها من جنس ما تقدَّمها.

الثاني: أن أصلها: لَمِن ما[1]، فأُبدلت النون ميماً لمشابهتها إياها، فتوالت ثلاث ميمات، فحُذفت الثانية لضعفها بكونها بدلاً وحصولِ التكرير بها، ورجَّحه أبو حيان في «البحر». وزعم ابن جني أنَّها الأُولى[2]، ونظر فيه الحَلَبيُّ[3]. و«من» إمَّا مَزيدة في الإيجاب على رأي الأخفش[4]، وإمَّا تعليلية على ما اختاره ابن جني[5]، قيل: وهو الأصح؛ لاتِّضاح المعنى عليه وموافقته لقراءة التخفيف. واللام إما زائدة، أو موطِّئة بناءً على عدم اشتراط دخولها على أداة الشرط.

وقرأ نافع: «آتيناكم»[6] على لفظ الجمع للتعظيم، والباقون: «آتيتُكم» على التوحيد، ولكلٍّ من القراءتين حُسْنٌ من جهة، فافهم ذاك فبعيدٌ أن تظفر بمثله يداك.

﴿قَالَ﴾: أي الله تعالى للنبيين، وهو بيانٌ لأخْذِ الميثاق، أو مقولٌ بعده للتأكيد﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ بذلك المذكور ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾: أي: قبلتم، على حدِّ: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: ٤١].

وقيل: معناه: هل أخذتم ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيۖ﴾ على الأمم. والإصرُ بكسر الهمزة: العهد كما قال ابن عباس، وأصلُه من الإصار وهو ما يُعقد به ويشدُّ به. وكأنه إنما سمِّي العهد بذلك لأنه يُشَدُّ به. وقرئ بالضم[7]، وهو إمَّا لغةٌ فيه كعِبْر وعُبْر في قولهم: ناقةٌ عِبْرُ أسفار[8]. أو هو بالضمَّ جمعُ إصار استُعيرَ للعهد، وجُمع

---

(١) في الأصل و(م): من ما، والمثبت هو الصواب. ينظر المحتسب ١/ ١٦٤، والكشاف ١/ ٤٤١، والإملاء ٢/ ٩٥، والبحر٢/ ٥١٢، والدر المصون ٣/ ٢٩١، وحاشية الشهاب ٣/ ٤٢، والكلام منه.

(٢) المحتسب ١/ ١٦٤، وترجيح أبي حيان لحذف الثانية ذكره الشهاب في الحاشية ٣/ ٤٢ ولم ينسبه للبحر، ولم نقف عليه فيه. وقد قال أبو حيان في البحر ٢/ ٥١٢: وهذا التوجيه في قراءة التشديد في غاية البعد، وينزَّه كلام العرب أن يأتي فيه مثله،؛ فكيف كلام الله تعالى؟!

(٣) في الدر المصون ٣/ ٢٩١؛ وقال السمين: الصحيح في نواظره إنما هو حذف الثواني.

(٤) ذكره عن ابن جني في المحتسب ١/ ١٦٤.

(٥) كذا ذكر المصنف، والصواب أنه اختيار الزمخشري. ينظر الكشاف١/ ٤٤١، والبحر ٢/ ٥١٢ وحاشية الشهاب ٣/ ٤٢.

(٦) التيسير ص٨٩، والنشر ٢/ ٢٤١، وقرأ بها أيضاً أبو جعفر من العشرة.

(٧) القراءات الشاذة ص٢١.

(٨) أي أنها لا يزال يسافَر عليها. حاشية الشهاب ٣/ ٤٢.

إمَّا لتعدُّد المعاهدين وهو الظاهر، أو للمبالغة.

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال، كأنه قيل: فماذا قالوا عند ذلك؟فقيل: قالوا: ﴿أَقْرَرْنَاۚ﴾، وكان الظاهرُ في الجواب: أقررنا [وأخذنا][1] على ذلك إصرك، لكنَّه لم يذكر الثاني اكتفاءً بالأول.

﴿قَالَ﴾: أي: الله تعالى لهم ﴿فَٱشْهَدُواْ﴾ أي: فليَشْهدْ بعضكم على بعض بذلك الإقرار، فاعتبر المُقِرّ بعضاً، والشاهد بعضاً آخر؛ لئلَّا يتَّحد المشهودُ عليه والشاهد.

وقيل: الخطاب فيه للأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقط، أُمروا بالشهادة على أممهم. ونُسب ذلك إلى عليٍّ كرم الله تعالى وجهه. وقيل: للملائكة، فيكون ذلك كنايةً عن غيرِ مذكور. ونُسب إلى سعيد بن المسيب.

﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١﴾ أي: على إقراركم وتَشَاهُدِكم، على ما يقتضيه المعنى؛ لأنه لا بد في الشهادة من مشهود عليه، وهنا ما ذكرناه للمقام. وعن ابن عباس: أنَّ المراد: اعلموا وأنا معكم أعلم. وعلى كلِّ تقديرٍ فيه توكيدٌ وتحذير عظيم. والجارُّ والمجرورُ خبرُ «أنا» و«معكم» حال، والجملةُ مستأنَفةٌ لا محل لها من الإعراب. وجوَّز أن تكون في محلِّ نصبٍ على الحال من ضميرِ «فاشهدوا».

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾: أي أَعْرَضَ عن الإيمان بمحمدٍ ﷺ ونصرتِه؛ قاله عليٌّ كرم الله تعالى وجهه ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: الميثاق والإقرار والتوكيد بالشهادة﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى «مَنْ» مراعًى معناها، كما رُوعي من قبلُ لفظُها[2] ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٨٢﴾ أي: الخارِجون في الكفر إلى أَفْحشِ مراتبه.

والمشهورُ عدمُ دخولِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في حُكْمِ هذه الشَّرْطية، أو ما هي في حكمها، لأنهم أجلُّ قَدْراً من أن يُتَصوَّر في حقهم ثبوتُ المقدَّم ليتَّصفوا ـ وحاشاهم ـ بما تضمَّنه التالي، بل هذا الحكم بالنسبة إلي أتباعهم. وجوِّز أن يراد العموم، والآية من قبيل: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

---

(١) ما بين حاصرتين من البحر ٢/ ٥١٣، والدر المصون ٣/ ٢٩٤.
(٢) يعني في قوله: «تولَّى» حيث روعي فيه الإفراد.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ ذكر الواحديُّ عن ابن عباس أنه قال: اختصم أهلُ الكتابين إلى رسول الله ﷺ فيما اختلفوا بينهم من دين إبراهيم عليه السلام، كلُّ فرقةٍ زعمت أنها أَوْلَى بدينه، فقال النبيُّ ﷺ: «كِلَا الفريقين بريءٌ من دين إبراهيم» فغضبوا وقالوا: واللهِ ما نرضى بقضائك، ولا نأخذ بدينك. فأنزل الله تعالى هذه الآية[١].

والجملةُ في النَّظْم معطوفةٌ على مجموع الشرط والجزاء. وقيل: على الجزاء فقط، وعَطْفُ الإنشاء على الإخبار مغتفرٌ هنا عند المانعينَ. والهمزة على التقديرين متوسطةٌ بين المعطوف والمعطوفِ عليه للإنكار.

وقيل: إنَّها معطوفة على محذوفٍ تقديره: أيتولَّوْن فغيرَ دين الله يبغون.

قال ابن هشام[٢]: والأول مذهبُ سيبويه والجمهور، وجزم به الزمخشريُّ في مواضع، وجوَّز الثاني في بعضٍ[٣]. ويضعِّفُهُ[٤] ما فيه من التكلُّف، وأنه غيرُ مطَّردٍ. وأمَّا الأول[٥]: فلِدعْوى حَذْفِ الجملة، فإن قُوبل بتقديم بعض المعطوف[٦]، فقد يقال: إنه أسهل منه؛ لأنَّ المتجوَّز فيه على قولهم[٧] أقلُّ لفظاً، مع أنَّ في هذا التجوُّز تنبيهاً على أصالة شيء في شيء، أي أصالة الهمزة في التصدُّر. وأمَّا الثاني: فلأنَّه غيرُ ممكنٍ في نحو: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] انتهى.

وتعقَّبه الشمس بن الصائغ[٨] بأنَّه أيُّ مانعٍ من تقدير: أَلَا مدبِّر للموجودات،

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص١٠٨، وذكره أبو الليث في تفسيره ١/ ٢٨١-٢٨٢ عن الكلبي.

(٢) في المغني ص٢٢-٢٣.

(٣) ينظر الكشاف ١/ ٤٤١ و٢/ ٦٨ و٤/ ٥٥، وقد جوَّز الزمخشري في الموضع الأول الوجهين - يعني العطف على ما قبلها أو العطف على جملة مقدَّرة محذوفة - وجزم بالأول في الموضعين الآخرين.

(٤) يعني الثاني.

(٥) يعني ما فيه من التكلف.

(٦) أي: فإن عورض بأنْ قيل: كما أن فيه حذفاً وهو خلاف الأصل، كذلك فإنَّ ما قلتموه فيه تقديم الهمزة التي هي جزء من المعطوف، وهو خلاف الأصل. حاشية الدسوقي على المغني ١/ ١٣.

(٧) يعني سيبويه والجمهور.

(٨) محمد بن عبد الرحمن بن علي النحوي الحنفي، من كتبه: شرح ألفية ابن مالك، وشرح مشارق الأنوار، توفي سنة(٧٧٦هـ). الدرر الكامنة ٥/ ٢٤٨.

فَمَن هو قائمٌ على كلِّ نفس؟ على الاستفهام التقريريِّ المقصودِ به تقريرُ ثبوتِ الصانع، والمعنى: أينتفي المدبِّرُ فلا أحدَ قائمٌ على كلِّ نفس، لا يمكن ذلك، بل المدبِّر موجودٌ، فالقائم على كلِّ نفسٍ هو، وهو أولى من تقديرِ البدر ابن الدماميني: أهم ضالُّون فمَن هو قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبت لَمْ يوحِّدوه، وجَعْلِه الهمزةَ للإنكار التوبيخيِّ.

وعلى العلَّات يوشك أن يكون التفصيل في هذه المسألة أولى، بأن يقال: إنِ انساقَ ذلك المقدَّرُ للذهن قيل بالتقدير، وإلا قيل بما قاله الجماعة.

وتقديم المفعول لأنه المقصودُ بالإنكار، لا للحصر كما تُوهِّم لأن المنكَر اتخاذُ غير الله ربّاً ولو معه. ودعوى أنه إشارةٌ إلى أنَّ دينَ غيرِ الله لا يجامعُ دينَه في الطلب، فالتقديم للتخصيص، والإنكارُ متوجِّهٌ إليه، أي: أيَخُصُّون غير دينِ الله بالطلب؟ = تكلُّفٌ.

وقول أبي حيان: إنَّ تعليل التقديم بما تقدَّم[1] لا تحقيق فيه؛ لأن الإنكار الذي هو معنى الهمزة لا يتوجَّه إلى الذوات، وإنَّما يتوجَّه إلى الأفعال التي تتعلق بالذوات، فالذي أُنكر إنَّما هو الابتغاءُ الذي متعلَّقه غيرُ دين الله، وإنَّما جاء تقديمُ المفعولِ [هنا] من باب الاتِّساع، ولشَبَه «يبغون» بالفاصلة[2] = لا تحقيقَ فيه عند ذوي التحقيق؛ لأنَّا لم نَدَّعِ توجُّه الإنكار إلى الذَّوات كما لا يخفى.

وقرأ ابن عمرو، وعاصمٌ في روايةٍ لحفص، ويعقوب: «يبغون» بالياء التحتية[3]. وقرأ الباقون بالتاء الفوقانية، على معنى: أتتولَّوْن ـ أو: أتفسقون وتكفرون ـ فغير دين الله تبغون. وذهب بعضُهم إلى أنَّه التفاتٌ، فعنده لا تقدير، وعلى تقدير التقدير يجيءُ قَصْدُ الإنكار فيما أشير إليه، ولا ينافيه لأنه منسحبٌ عليه.

﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جملةٌ حالية مؤكِّدة للإنكار، أي: كيف يبغون ويطلبون غيرَ دينه والحالةُ هذه؟

---

(١) يعني القول بأنه قدِّم لأنه المقصود بالإنكار، وهو قول الزمخشري، حيث قال: وقدَّم المفعول على فعله لأنه أهم، من حيث إن الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجِّه إلى المعبود بالباطل. ينظر الكشاف ١/ ٤٤١ـ٤٤٢، والبحر ٢/ ٥١٥.

(٢) البحر ٢/ ١٥، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) التيسير ص٨٩، والنشر ٢/ ٢٤١.

﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ مصدران في موضع الحال، أي: طائعينَ وكارهين. وجوَّز أبو البقاء[1] أن يكونا مَصْدَرين على غير المصدر؛ لأن أسلم بمعنى: انقاد وأطاع. قيل: وفيه نظر؛ لأنَّه ظاهرٌ في «طوعاً» لموافقةِ معناه ما قبله، لا في «كرهاً»، والقول: بأنه يغتفر في الثواني مالا يغتفر في الأوائل، غيرُ نافع، وقد يُدفع بأنَّ الكره فيه انقياد أيضاً.

والطَّوْع: مصدر طاع يَطُوْعُ، كالإطاعة مصدر أطاع يُطِيعُ، ولم يفرِّقوا بينهما. وقيل: طاعَه يَطُوعُه: انقاد له، وأطاعه يُطِيعُه بمعنى: مضى لأمرِه، وطاوَعَه بمعنى: وافَقَه.

وفي معنى الآية أقوال:

الأول: أنَّ المراد من الإسلام بالطوع: الإسلامُ الناشئ عن العلم مطلقاً، سواءٌ كان حاصلاً بالاستدلال[2] ـ كما في الكثير منَّا ـ أو بدون استدلالٍ وإعمالِ فِكْرٍ، كما في الملائكة. ومن الإسلام بالكره: ما كان حاصلاً بالسيف، ومُعاينةِ ما يُلْجِئ إلى الإسلام.

الثاني: أنَّ المراد: انقادوا له تعالى مُختارِينَ لأمره كالملائكة والمؤمنين، ومسخَّرين لإرادته كالكَفَرة؛ فإنَّهم مسخَّرون لإرادة كُفْرِهم؛ إذ لا يقع ما لا يريده تعالى، وهذا لا ينافي ـ على ما قيل ـ الجزء الاختياريَّ حتى لا يكون لهم اختيارٌ في الجملة، فيكون قولاً بمذهب الجبرية، ولا يستدعي عَدَمَ توجُّه تعذيبهم على الكفر، ولا عَدَمَ الفَرْقِ بين المؤمن والكافر بناء على أن الجميع لا يفعلون إلا ما أراده الله تعالى بهم، كما وُهم.

الثالث: ما أشار إليه بعض ساداتنا الصوفية نفعنا الله تعالى بهم، أنَّ الإسلام طوعاً: هو الانقياد والامتثال لِمَا أَمَرَ الله تعالى من غيرِ معارضةِ ظُلْمةٍ نَفْسانيةٍ، وحيلولةِ حُجُبِ الأنانية. والإسلام كَرْهاً: هو الانقياد مع توسُّطِ المعارضاتِ والوساوس، وحيلولة الحُجُبِ والتعلُّق بالوسائط. والأولُ مثلُ إسلام الملائكة

---

(١) في الإملاء ٢/٩٦-٩٧.

(٢) في (م): للاستدلال.

وبعضِ مَن في الأرض من المصطفَيْنَ الأخيار، والثاني مثل إسلام الكثير ممَّن تقلِّبه الشكوكُ جنباً إلى جنب، حتى غدا يقول:

لقد طُفْتُ في تلك المعاهد كلِّها وسرَّحتُ طَرْفي بين تلك المعالِم
فلم أرَ إلا واضعاً كفَّ حائرٍ على ذقنٍ أو قارعاً سِنَّ نادِمِ(1)

و الكفارُ من القسم الثاني عند أهل الله تعالى؛ لأنهم أثبتوا صانعاً أيضاً، إلَّا أنَّ ظُلْمة أنفسهم حالت بينهم وبين الوقوف على الحق، فلم يؤمنوا بالله إلَّا وَهُمْ مشركون ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وإلى هذا يشير كلام مجاهد(2).

وأخرج ابن جرير وغيرُه عن أبي العالية أنه قال: كلُّ آدميٍّ أقرَّ على نفسه بأنَّ الله تعالى ربِّي وأنا عبدُه، فَمن أشركَ في عبادته فهذا الذي أسلم كرهاً، ومَن أَخْلَصَ لله تعالى العبودية فهو الذي أسلم طوعاً(3).

وقرأ الأعمش: «كُرْهاً» بالضم.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: إلى جزائه تَصيرون ـ على المشهور ـ فبادروا إلى دينه، ولا تُخالفوا الإسلام. وجوَّزوا في الجملة أن تكون مستأنفةً للإخبار، بما تضمَّنته من التهديد، وأن تكون معطوفة على «وله أسلم» فهي حاليةٌ أيضاً.

وقرأ عاصم بياء الغيبة(4)، والضمير لـ «مَن» أو لمَن عاد إليه ضمير «يبغون»، فإن قرئ بالخطاب فهو التفاتٌ. وقرأ الباقون بالخطاب، والضمير عائدٌ لمَن عاد إليه ضمير «يبغون»، فعلى الغيبة فيه التفاتٌ أيضاً.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أمرٌ للرسول ﷺ أن يخبر عن نفسه والمؤمنين بالإيمان بما ذكر، فضميرُ آمنَّا للنبيِّ ﷺ والأمة، وقال المولى عبد الباقي: لـمَّا أخذ الله

---

(1) البيتان لابن سينا، كما في وفيات الأعيان ٢/ ١٦١، ونسبا للشيخ محمد بن عبد الكريم الشهرستاني كما في شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٣١٧برواية: لعمري لقد طفت المعالم كلها. . .
(2) أخرجه الطبري ٥/ ٥٤٩.
(3) تفسير الطبري ٥/ ٥٤٩، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم ٢/ ٦٩٦-٦٩٧.
(4) هي رواية حفص عن عاصم، ووافقه يعقوب ولكن بفتح الياء، أي: «يَرْجعون». التيسير ص٨٩، والنشر ٢/ ٢٤١.

تعالى الميثاقَ من النبيِّين أنفسِهم أن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام وينصروه، أَمَرَ محمداً أيضاً ﷺ أن يؤمن بالأنبياء المؤمنين به وبكتبهم، فيكون «آمنَّا» في موضعِ: آمنتُ؛ لتعظيم نبيِّنا عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام. أو لمَّا عهد مع النبيين وأممهم أن يؤمنوا أَمَرَ محمداً عليه الصلاة والسلام وأُمَّتَه أن يؤمنوا بهم وبكتبهم.

والحاصلُ أَخْذُ الميثاق من الجانبين على الإيمان على طريقةٍ واحدة، ولم يتعرَّض هنا لحكمةِ الأنبياء السالفين؛ إمَّا لأنَّ الإيمان بالكتاب المنزل إيمانٌ بما فيه من الحكمة، أو للإشارة إلى أن شريعتهم منسوخةٌ في زمن هذا النبي ﷺ، وكلاهما على تقديرِ كونِ الحكمةِ بمعنى الشريعة. ولم يتعرَّض لنصرته عليه الصلاة والسلام لهم؛ إذ لا مجالَ بوجهٍ لنصرة السلف.

ويؤيِّد دعوى أخذِ الميثاق من الجانبين ما أخرجه عبد الرزاق وغيره عن طاوس أنه قال: أَخَذَ الله تعالى ميثاقَ النبيين أن يصدِّق بعضُهم بعضاً[1].

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ وهو القرآن المنزَلُ عليه ﷺ أولاً، وعليهم بواسطة تبليغِه إليهم، ومن هنا أتى بضمير الجمع، وقد يُعتبر الإنزال عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وحده، ولكن نسب إلى الجمع ما هو منسوب لواحدٍ منه مجازاً، على ما قيل. ويحتمل أن تكون النون نونَ العظمة لا ضميرَ الجماعة.

وعدِّي الإنزال هنا بـ «على» وفي «البقرة» بـ «إلى»؛ لأنَّ[2] له جهةَ علوٍّ باعتبارِ ابتدائه، وانتهاءٍ باعتبارِ آخره، وقد جُعل الخطاب هنا للنبيِّ ﷺ فناسَبه الاستعلاءُ، وهناك للعموم فناسبَ الانتهاء، كذا قيل.

وَيرِدُ عليه قولُه تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران: ٧٢]. والتحقيق أنه لا فَرْقَ بين المعدَّى بإلى والمعدَّى بعلى إلَّا بالاعتبار، فإن اعتبرتَ مبدأه عدَّيته بعلى؛ لأنه فَوْقانيٌّ، وإن اعتبرتَ انتهاءه إلى مَن هو له عدَّيته بإلى، ويلاحظ أحد الاعتبارين تارةً والآخَرُ أخرى تفنُّناً بالعبارة.

---

(١) تفسير عبد الرزاق ١/ ١٢٤، وأخرجه أيضاً الطبري ٥/ ٥٤٣.

(٢) في (م): لأنه.

وفرَّق الراغب[1]: بأنَّ ما كان واصلاً من الملأ الأعلى بلا واسطةٍ كان لفظُ «على» المختصُّ بالعلوِّ أولى به، وما لم يكن كذلك كان لفظ «إلى» المختصُّ بالإيصال أولى به. وقيل: «أنزل عليه» يُحْمَلُ على أَمْرِ المُنزَلِ عليه أن يبلِّغه غيرَه، و«أنزل إليه» يُحمَلُ على ما خُصَّ به [في] نفسه؛ لأن إليه انتهاءَ الإنزال. وكِلَا القولين لا يخلو عن نظر.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ قيل: خصَّ هؤلاء الكرام بالذكر لأنَّ أهل الكتاب يعترفون بنبوَّتهم وكتبهم، والمرادُ بالموصول الصحفُ كما هو الظاهر، وقدم المنزل عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على المنزلِ عليهم، إمَّا لتعظيمه والاعتناء به، أو لأنه المعرَّف له، ومعرفةُ المعرِّف تتقدَّم على معرفةِ المعرَّف.

والأسباط: الأحفاد لا أولاد البنات، والمراد بهم على رأيٍ أبناءُ يعقوب الاثنا عشر وذراريهم، وليس كلُّهم أبناءَ خلافاً لِزاعِمِه.

﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من التوراة والإنجيل وسائرِ المعجزات، كما يُشعِر به إيثارُ الإيتاء على الإنزال الخاصِّ بالكتاب. وقيل: هو خاصٌّ بالكتابين، وتغييرُ الأسلوب للاعتناء بشأن الكتابين. وتخصيصُ هذين النبيَّين بالذكر لِمَا أنَّ الكلام مع اليهود والنصارى.

﴿وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ عطفٌ على موسى وعيسى، أي: وبما أوتي النبيون، على تعدُّد أفرادهم واختلافِ أسمائهم. ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ متعلِّق بـ «أوتي». وفي التعبير بالربِّ مضافاً إلى ضميرهم ما لا يخفى من اللطف.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: بالتصديق والتكذيب، كما فعل اليهود والنصارى، والتفريقُ بغير ذلك ـ كالتفضيل ـ جائزٌ.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: مستسلمون بالطاعة والانقيادِ في جميع ما أَمر به ونهى عنه، أو: مُخْلِصون له في العبادة. وعلى التقديرين لا تكون هذه الجملة مستدركةً بعد جملة الإيمان، كما هو ظاهر.

---

(١) ذكر قوله أبو حيان في البحر ٢/ ٥١٩، والسمين في الدر المصون ٣/ ٢٩٨، وما سيأتي بين حاصرتين منهما.

وقيل: إنَّ أهل المِلَلِ المُخالِفةِ للإسلام كانوا كلهم يقرُّون بالإيمان، ولم يكونوا يقرُّون بلفظة الإسلام؛ فلهذا أردف تلك الجملة بهذه.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ نزلت في جماعة ارتدُّوا وكانوا اثني عشر رجلاً، وخرجوا من المدينة وأتوا مكة كفاراً، منهم الحارث بن سويد الأنصاريُّ[1].

والإسلامُ، قيل: التوحيدُ والانقياد. وقيل: شريعةُ نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، بيَّن تعالى أنَّ مَن تحرَّى بعد مَبْعثِه ﷺ غيرَ شريعته فهو غيرُ مقبولٍ منه. وقبولُ الشيء هو الرضا به وإثابةُ فاعِله عليه.

وانتصابُ «ديناً» على التمييز من «غيرَ»، وهي مفعولُ «يبتغي». وجوِّز أن يكون «ديناً» مفعولُ «يبتغي»، و«غيرَ» صفةٌ قدِّمت فصارت حالاً. وقيل: هو بدل مِّن «غير الإسلام».

والجمهور على إظهار الغَينَين، وروي عن أبي عمرو الإدغام، وضعَّفه أبو البقاء بأن كسرة الغين الأولى تدلُّ على الياء المحذوفة[2].

﴿وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ إمَّا معطوفةٌ على جواب الشرط، فتكون في محلِّ جزم، وإمَّا في محلِّ الحالِ من الضمير المجرور، فتكون في محل نصبٍ، وإمَّا مستأنَفة فلا محلَّ لها من الإعراب. و«في الآخرة» متعلِّقٌ بمحذوفٍ يدلُّ عليه ما بعده، أي: وهو خاسرٌ في الآخرة، أو متعلِّق بـ «الخاسرين» على أنَّ الألف واللام ليست موصولةً بل هي حرفُ تعريف.

والخسران في الآخرة: هو حرمان الثواب وحصولُ العقاب. وقيل: أصل الخسران: ذهابُ رأسِ المال، والمرادُ به هنا: تضييعُ ما جُبل عليه من الفطرة السليمة المشارِ إليها في حديثٍ: «كلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرة»[3] وعدمُ الانتفاع بذلك وظهوره بتحقُّق ضده ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

---

(١) أخرج قصته الطبري ٥/٥٥٨ عن مجاهد، وفيه أن الحارث عاد إلى الإسلام بعد نزول الآيات، وأخرج القصة النسائي في المجتبى ٧/١٠٧ عن ابن عباس دون ذكر اسم الرجل.

(٢) الإملاء ٢/٩٧، وينظر التيسير ص٢١.

(٣) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧١٨١)، والبخاري (١٣٥٨)، ومسلم(٢٦٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والتعبير بالخاسرين أبلغ من التعبير بخاسر كما أشرنا إليه فيما قبل، وهو منزَّلٌ منزلةَ اللازم ولذا تُرك مفعوله، والمعنى: وهو من جملة الواقعين في الخسران. واستُدلَّ بالآية على أنَّ الإيمان هو الإسلام؛ إذ لو كان غيرَه لم يُقْبَل، واللازمُ باطلٌ بالضرورة فالملزوم مثله،

وأجيب: بأن «فلن يُقبَلَ منه» ينفي قبولَ كلِّ دينٍ يباين الإسلام، والإيمانُ وإن كان غيرَ الإسلام لكنه لا يغايرُ دين الإسلام، بل هو هو بحسب الذات، وإن كان غيرَه بحسب المفهوم.

وذكر الإمام أنَّ ظاهر هذه الآية يدلُّ على عدم المغايرة، وقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات: ١٤] يدل على المغايرة، ووجهُ التوفيق بينهما أنْ تُحمَل الآية الأولى على العرف الشرعيِّ، والثانيةُ على الوضع اللغوي(١).

﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ﴾ إلى الدِّين الحقِّ ﴿قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ أخرج عبد بن حميد وغيره عن الحسن أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، رأوا نعتَ محمدٍ ﷺ في كتابهم، وأقرُّوا وشهدوا أنه حقٌّ، فلمَّا بُعث مِن غيرهم حسدوا العرب على ذلك، فأنكروه وكفروا بعد إقرارهم حسداً للعرب حين بُعث من غيرهم(٢).

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق العَوْفي عن ابن عباس مثله(٣).

وقال عكرمة: هم أبو عامر الراهب والحارث بن سويد في اثني عشر رجلاً، رجعوا عن الإسلام ولحقوا بقريش، ثم كتبوا إلى أهلهم: هل لنا من توبة؟ فنزلت الآية فيهم(٤). وأكثر الروايات على هذا.

والمراد من الآية استبعادُ أن يهديهم، أي: يدلَّهم دلالةً موصلةً، لا مطلق الدلالة؛ قاله بعضهم(٥).

---

(١) تفسير الرازي ٨/ ١٣٤.
(٢) الدر المنثور ٢/ ٤٩، وهو في تفسير الطبري ٥/ ٥٦٠-٥٦١.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦٩٩.
(٤) تفسير الطبري ٥/ ٥٦٠.
(٥) هو الشهاب في الحاشية ٣/ ٤٣.

وقيل: إنَّ المعنى: كيف يسْلكُ بهم سبيلَ المَهديِّين بالإثابة لهم والثناءِ عليهم وقد فعلوا ما فعلوا.

وقيل: إنَّ الآية على طريق التبعيد، كما يقال: كيف أهديك إلى الطريق وقد تركتَه؟ أي: لا طريق يهديهم به إلى الإيمان إلَّا من الوجه الذي هداهم به، وقد تركوه ولا طريقَ غيره.

وقيل: إنَّ المراد: كيف يهديهم إلى الجنة ويثيبُهم والحال ما ترى؟

﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ﴾ وهو محمدٌ ﷺ ﴿حَقٌّ﴾ لا شكَّ في رسالته.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي البراهين والحُجَج الناطقة بحقِّية ما يدَّعيه. وقيل: القرآن. وقيل: ما في كتبهم من البشارة به عليه الصلاةُ والسلام.

و«شهدوا» عطف على ما في «إيمانهم» من معنى الفعل، لأنه بمعنى: آمنوا، والظاهرُ أنَّه عطف على المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ﴾[1] [الحديد: ١٨] لا على التوهُّم كما تُوهِّم[2].

واختار بعضُهم تأويلَ المعطوف ليصحَّ عطفُه على الاسم الصريح قبلَه بأنْ يقدَّر معه «أن» المصدرية، أي: وأن شهدوا، أي: وشهادتهم، على حدِّ قوله:

ولُبْسُ عباءَةٍ وتَقرَّ عيني أَحَبُّ إليَّ مِن لُبْسِ الشُّفُوفِ[3]

وإلى هذا ذهب الراغب وأبو البقاء[4].

---

(١) يعني: إن الذين صدقوا وأقرضوا. الدر المصون ٣/ ٣٠٢.

(٢) قوله: على التوهم، هو كما في قول الشاعر:

مشائيمُ ليسوا مُصْلحين عشيرةً ولا ناعبٍ إلا ببَيْنٍ غرابها

فقال النحاة: توهَّم وجود الباء في قوله: ناعبٍ، فجرَّ. وقد استدل الزمخشري بالبيت السابق وبقوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ [المنافقون: ١٠] على القول بعطف «شهدوا» على ما في «إيمانهم» من معنى الفعل. قال السمين: وجهُ تنظيره ذلك بالآية والبيت توهُّم وجود ما يسوِّغ العطف عليه في الجملة. ينظر الدر المصون ٣/ ٣٠٢، والكشاف ١/ ٤٤٢.

(٣) البيت لميسون بنت بحدل الكلبية، كما في الخزانة ٨/ ٥٠٣، وهو في الكتاب ٣/ ٤٥ دون نسبة.

(٤) في الإملاء ٢/ ٩٩، وقول الراغب ذكره الشهاب في الحاشية ٣/ ٤٤.

وجُوِّز عطفُه على «كفروا»، وفسادُ المعنى يَدفعه أنَّ العطف لا يقتضي الترتيبَ، فليكن المنْكَرُ الشهادةَ المقارنة بالكفر أو المتقدِّمة عليه. واعتُرض بأنَّ الظاهر تقييدُ المعطوف بما قيِّد به المعطوف عليه، وشهادتُهم هذه لم تكن بعد إيمانهم، بل معه أو قبله؟ وأجيب بالمنع لأنه لا يلزم تقييدُ المعطوف بما قيِّد به المعطوف عليه، ولو قصد ذلك لأخِّر.

وقيل: يمنع من ذلك العطفِ أنهم ليسوا جامعينَ بيْن الشهادة والكفر. وأجيب بالمنع، بل هم جامعون وإن لم يكن ذلك معاً.

ومن الناس من جعله معطوفاً على «كفروا» ولم يتكلَّف شيئاً مما ذُكِر، وزعم أنَّ ذلك في المنافقين، وهو خلاف المنقول والمعقول.

والأكثرون من المحقِّقين على اختيار الحاليةِ من الضمير في «كفروا» و«قد» معه مقدَّرةٌ، ولا يجوز أن يكون العامل «يهدي» لأنه يهدي مَن شهد أنَّ الرسول حق. وعليه وعلى تقدير العطف على الإيمان استُدلَّ على أنَّ الإقرار باللسان خارجٌ عن حقيقة الإيمان، ووجهُ ذلك أنَّ العطف يقتضي بظاهره المغايَرةَ بين المعطوف والمعطوف عليه، وأنَّ الحالية تقتضي التقييد، ولو كان الإقرارُ داخلاً في حقيقة الإيمان لخلا ذِكْرُه عن الفائدة، ولو كان عينَه يلزم تقييد الشيء بنفسه، ولا يخفى ما فيه.

وادَّعى بعضُهم أنَّ المراد من الإيمان الإيمانُ بالله، ومن الشهادة المذكورة الإيمانُ برسوله ﷺ، والأمرُ حينئذٍ واضحٌ، فتدبَّر.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: الكافرين الذين ظلَموا أنفسهم بالإخلال بالنظر، ووضعِ الكفر موضع الإيمان، فكيف مَن جاءه الحقُّ وعرَفه ثم أعرض عنه. ويجوز حملُ الظلم على مُطْلَقِه فيدخل فيه الكفر دخولاً أوليًّا، والجملة اعتراضيةٌ أو حالية.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: المذكورون المتَّصفون بأشنع الصفات، وهو مبتدأ، وقوله سبحانه: ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ أي: ـ جزاءُ فِعْلهم ـ مبتدأٌ ثان، وقولُه عزَّ شأنُه: ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾﴾ خبرُ المبتدأ الثاني، وهو وخبرُه خبرُ المبتدأ الأول.

قيل: وهذا يدلُّ بمنطوقه على جواز لَعْنِهم، ومفهومُه ينفي جوازَ لعنِ غيرهم، ولعلَّ الفرق بينهم وبين غيرهم ـ حتى خصَّ اللعن بهم ـ أنهم مطبوعٌ على قلوبهم،

ممنوعون بسبب خباثةِ ذواتهم وقُبحِ استعدادهم مِن الهدى، آيِسون من رحمة الله تعالى، بخلاف غيرهم.

والخلافُ في لَعْنِ أقوامٍ بأعيانهم ممَّن ورد لعنُ أنواعِهم - كشارب خمرٍ معيَّنٍ مثلاً - مشهورٌ. والنوويُّ[1] على جوازه استدلالاً بما ورد: أنه ﷺ مرَّ بحمارٍ وُسم في وجهه فقال: «لَعَنَ اللهُ مَن فَعَلَ هذا»[2]. وبما صح أنَّ الملائكة تلعنُ مَن خرجت من بيتها بغيرِ إذنِ زوجِها[3].

وأجيبَ بأنَّ اللعن هناك للجنس الداخل فيه الشخص أيضاً، واعترض بأنه خلاف الظاهر كتأويل «إنَّ وراكبَها» بذلك[4]، والاحتياط لا يخفى.

والمراد من «الناس»: إمَّا المؤمنون لأنهم هم الذين يلعنون الكَفَرة، أو المُطْلَقُ لأنَّ كلَّ واحدٍ يلعن مَن لم يتَّبع الحقَّ وإن لم يكن غير متَّبعٍ بناءً على زعمه.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ والعامل فيه الاستقرار، والضمير المجرور لِلَّعنة أو للعقوبة، أو للنار وإن لم يَجْرِ لها ذكرٌ، اكتفاءً بدلالة اللعنة عليها.

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: لا يُمْهَلون، ولا يؤخَّر عنهم العذابُ من وقتٍ إلى وقت آخر، أو: لا ينظر إليهم ولا يعتدُّ بهم.

والجملةُ إمَّا مستأنفة، أو في محلِّ نصبٍ على الحال.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: أي: الكفرِ الذي ارتكبوه بعد الإيمان ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ أي: دخلوا في الصَّلاح، بناءً على أنَّ الفعل لازمٌ من قبيل «أصبحوا»، أي: دخلوا في الصباح.

ويجوز أن يكون متعدِّياً والمفعولُ محذوف، أي: أَصْلَحوا ما أَفْسَدوا، ففيه

(١) في المجموع ٦/ ١٨٠.
(٢) أخرجه أحمد (١٤١٦٤)، ومسلم (٢١١٧) من حديث جابر ﷺ.
(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥١٧) من حديث ابن عمر ﷺ. وفي إسناده سويد بن عبد العزيز، وهو ضعيف كما في التقريب.
(٤) كلمة لعبد الله بن الزبير ﷺ قالها جواباً لرجل أتاه فلم يعطه شيئاً فقال الرجل: لعن الله ناقة ساقتني إليك. و«إنَّ» هنا بمعنى نعم. ينظر سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٨٣، ومغني اللبيب ص٥٧.

إشارة - كما قيل - إلى أنَّ مجرد الندم على ما مضى من الارتداد، والعزمِ على تَرْكِه في الاستقبال، غيرُ كافٍ لِمَا أخلُّوا به من الحقوق.

واعتُرض: بأنَّ مجرَّد التوبة يوجب تخفيفَ العذاب، ونَظَرَ الحقِّ إليهم، فالظاهرُ أنه ليس تقييداً، بل بيانٌ لأن يصلح ما فسد.

وأجيبَ: بأنه ليس بواردٍ، لأن مجرد الندم والعزم على ترك الكفر في المستقبل لا يخرجه منه، فهو بيان للتوبة المعتدِّ[1] بها، فالمآل واحد عند التحقيق.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ أي: فيغفر كفرَهم ويثيبُهم، وقيل: «غفور» لهم في الدنيا بالستر على قبائحهم «رحيم» بهم في الآخرة بالعفو عنهم[2]. ولا يخفى بعدُه. والجملة تعليلٌ لِمَا دلَّ عليه الاستثناء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ قال عطاء وقتادة: نزلت في اليهود؛ كفروا بعيسى عليه السلام والإنجيلِ بعد إيمانهم بأنبيائهم وكتبهم، ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ والقرآن.

وقيل: في أهل الكتاب؛ آمنوا برسول الله ﷺ قبل مبعثه، ثم كفروا به بعد مبعثه، ثم ازدادوا كفراً بالإصرار والعناد والصدِّ عن السبيل. ونُسب ذلك إلى الحسن.

وقيل: في أصحاب الحارث بن سويد، فإنَّه لمَّا رجع قالوا: نقيم بمكة على الكفر ما بدا لنا، فمتى أردنا الرجعة رجعنا، فينزل فينا ما نزل في الحارث.

وقيل: في قوم من أصحابه ممَّن كان يكفر ثم يراجع الإسلام، وروي ذلك عن أبي صالح مولى أمِّ هانئ.

و«كفراً» تمييزٌ محوَّلٌ عن فاعل. والدالُ الأُولى في «ازدادوا» بدلٌ من تاءِ الافتعال لوقوعها بعد الزاي.

﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ قال الحسن وقتادة والجبائي: لأنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت والمُعايَنة، وعند ذلك لا تقبل توبة الكافر.

---

(١) في الأصل: المقيد، والمثبت من (م)، وحاشية الشهاب ٢/ ٤٤، والكلام منه.

(٢) في الأصل: عنها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لأنها لم تكن عن قَلْبٍ، وإنَّما كانت نفاقاً.

وقيل: إنَّ هذا من قبيل:

ولا تـرى الـضـبَّ بـهـا يَـنْـجَـحِـر[1]

أي: لا توبةَ لهم حتى تُقبل؛ لأنهم لم يوفَّقوا لها، فهو من قبيل الكناية ـ كما قال العلَّامة ـ دون المَجاز، حيث أريد بالكلام[2] معناه لينتقل منه إلى الملزوم، وعلى كلِّ تقديرٍ لا يُنافي هذا ما دلَّ عليه الاستثناء، وتقرَّر في الشرع، كما لا يخفى.

وقيل: إنَّ هذه التوبة لم تكن عن الكفر، وإنَّما هي عن ذنوبٍ كانوا يفعلونها معه، فتابوا عنها مع إصرارهم على الكفر، فرُدَّت عليهم لذلك. ويؤيِّده ما أخرجه ابن جرير عن أبي العالية قال: هؤلاء اليهود والنصارى؛ كفروا بعد إيمانهم، ثم ازدادوا كفراً بذنوبٍ أذنبوها، ثم ذهبوا يتوبون من تلك الذنوب في كفرهم، فلم تقبل توبتهم، ولو كانوا على الهدى قُبلت ولكنهم على ضلالة[3]. وتجيءُ على هذا مسألةُ تكليفِ الكافر بالفروع، وقد بُسِطَ الكلام عليها في الأصول.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ عطفٌ إمَّا على خبرِ «إنَّ» فمحلُّها الرفع، وإمَّا على «إنَّ» مع اسمها، فلا محلَّ لها.

و«الضالون»: المُخْطِئون طريقَ الحقِّ والنجاةِ. وقيل: الهالكون المعذَّبون. والحصرُ باعتبارِ أنهم كاملون في الضلال، فلا ينافي وجودَ الضلال في غيرهم أيضاً.

---

(١) وصدره: لا تُفْزِعُ الأرنبَ أهوالُها، والبيت لعمرو بن أحمر، كما في ديوان المفضليات بشرح ابن الأنباري ١/ ٩٩، والخزانة ١٠/ ١٩٢، وهو دون نسبة في الخصائص لابن جني ١/ ١٦٥، وأمالي ابن الشجري ١/ ٢٩٨. قال البغدادي: المنفي في البيت الضبُّ والانجحار (وهو الدخول في الجحر) جميعاً لا الانجحار فقط؛ إذ المراد وصف هذه المفازة بكثرة الأهوال، بحيث لا يمكن أن يسكنها حيوان.

(٢) في حاشية الشهاب ٣/ ٤٤ (والكلام منه): باللازم.

(٣) بنحوه في تفسير الطبري ٥/ ٥٦٥ـ٥٦٦، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٢/ ٤٩.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: على كفرهم ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ﴾ مِن مشرِقها إلى مغربها ﴿ذَهَبًا﴾ نصب على التمييز. وقرأ الأعمش: «ذهبٌ» بالرفع[1]، وخرِّج على البدلية من «ملء»، أو عطفِ البيان، أو الخبرِ لمحذوفٍ. وقيل عليه: إنه لا بدَّ من تقديرِ وصفٍ ليَحْسُنَ البدلُ ولا دلالةَ عليه، ولم يُعهَدْ بيانُ المعرفة بالنكرة، وجَعْلُه خبراً إنَّما يَحْسُنُ إذا جُعلت الجملة صفةً أو حالاً، ولا يَخلو عن ضَعْفٍ.

ومِلءُ الشيءِ بالكسر: مقدارُ ما يَمْلَؤه، وأمَّا مَلْء بالفتح فهو مصدرُ مَلأه مَلأً، وأمَّا المُلاءة بالضم والمدِّ فهي المِلْحَفة.

وهاهنا سؤالٌ مشهورٌ: وهو أنه لِمَ دخلَت الفاء في خبر «إنَّ» هنا ولم تدخل في الآية السابقة، مع أنَّ الآيتين سواءٌ في صحَّةِ إدخالِ الفاء؛ لتصوُّر السببية ظاهراً؟

وأجاب غيرُ واحد: بأن الصِّلة في الآية الأولى الكفر وازديادُه، وذلك لا يترتَّب عليه عدمُ قبول التوبة، بل إنَّما يترتَّب على الموت عليه؛ إذ لو وَقَعتْ على ما ينبغي لقُبِلت، بخلاف الموت على الكفر في هذه الآية؛ فإنَّه يترتَّب عليه ذلك، ولذلك لو قال: مَن جاءني له درهمٌ، كان إقراراً، بخلافِ ما لو قرَنه بالفاء[2]، كما هو معروف بين الفقهاء. ولا يَرِد أنَّ ترتُّب الحكم على الوصف دليل على السببية، لأنَّا لا نسلِّم لزومه، لأنَّ التعبير بالموصول قد يكون لأغراض، كالإيماء إلى تحقُّق[3] الخبر، كقوله:

إنَّ الـتـي ضـرَبَـتْ بـيـتـاً مُـهـاجِـرةً ... بكوفةِ الجُنْدِ غالَتْ دُونَها غُولُ[4]

وقد فصِّل ذلك في المعاني.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٤٣.

(٢) يعني أن دخول الفاء يدل على أن الكلام مبني على الشرط والجزاء، وعند عدم الفاء لا يفهم من الكلام كونه شرطاً وجزاء، وإنما هو مبتدأ وخبر، فقولك: مَن جاءني له درهم، لا يفيد أن الدرهم حصل له بسبب المجيء، فإذا قلت: فله درهم، فهذا يفيد أن الدرهم حصل له بسبب المجيء. ينظر الكشاف ١/ ٤٤٣ وتفسير الرازي ٨/ ١٤١.

(٣) في الأصل: تحقيق، والمثبت من (م)، وحاشية الشهاب ٣/ ٤٥، والكلام منه.

(٤) البيت لعبدة بن الطبيب، وهو في المفضليات ص١٣٦ برواية: غالت ودَّها غول. قوله: ضربت بيتاً، أي: بَنَتْه، مهاجرة: هاجرت من الأعراب إلى الأمصار. قوله: بكوفة الجند، يريد نزلت الأمصار. وقوله: غالت ودَّها غول، أي: أهلكته وذهبت به، والغول اسم ما اغتال غيره. شرح المفضليات للأنباري ١/ ٣٤٠، وللتبريزي ٢/ ٦٤٧.

وقرئ: «فلن يَقْبَلَ من أحدهم ملءَ الأرضِ» على البناء للفاعل ـ وهو اللهُ تعالى ـ ونَصْبِ «مِلْء»[١]. و: «مِل لَرْضِ» بتخفيف الهمزتين[٢].

﴿وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ قال ابن المنير في «الانتصاف»[٣]: إنَّ هذه الواوَ المُصاحِبةَ للشرط تستدعي شرطاً آخر تَعْطفُ عليه الشرطَ المقترنةَ به ضرورةً، والعادةُ في مثل ذلك أن يكون المنطوقُ به منبِّهاً على المسكوت عنه بطريق الأولى، مثالُه قولك: أَكْرِمْ زيداً ولو أساء، فهذه الواو عَطَفت المذكورَ على محذوفٍ تقديره: أكرم زيداً لو أَحْسَنَ ولو أساء، إلَّا أنك نبَّهتَ بإيجاب إكرامه وإنْ أساء على أنَّ إكرامه إنْ أَحْسَنَ بطريق الأَولى، ومنه: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النساء: ١٣٥] فإنَّ معناه واللهُ تعالى أعلم: لو كان الحقُّ على غيركم ولو كان عليكم، ولكنه ذكَر ما هو أَعْسرُ عليهم فأَوْجَبَه؛ تنبيهاً على أنَّ ما كان أسهلَ أولى بالوجوب.

ولمَّا كانت هذه الآيةُ مخالِفةً لهذا النَّمط من الاستعمال؛ لأنَّ قوله سبحانه: ﴿وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ يقتضي شرطاً آخر محذوفاً يكون هذا المذكورُ منبِّهاً عليه بطريق الأَوْلَى، والحالة المذكورة ـ أعني حالةَ افتدائهم بملء الأرض ذهباً ـ هي أجدرُ الحالات بقبول الفدية، وليس وراءها حالةٌ أخرى تكون أولى بالقبول منها = خاض المفسِّرون بتأويلها؛ فذكر الزمخشريُّ ثلاثة أوجه:

حاصل الأول: أنَّ عَدَم قبول ملء الأرض كنايةٌ عن عدم قبول فديةٍ ما، لدلالة السياق على أنَّ القبول يراد للخلاص، وإنَّما عدَل تصويراً للتكثير لأنه الغاية التي لا مطمحَ[٤] وراءها في العُرف، وفي الضمير يراد «ملء الأرض» على الحقيقة، فيصير المعنى: لا تقبل منه فديةٌ ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، ففي الأول نظرٌ إلى العموم وسدّه مسدَّ فديةٍ ما، وفي الثاني إلى الحقيقة أو لكثرة المبالغة من غير نظرٍ إلى القيام مقامها.

---

(١) القراءات الشاذة ص٢١، والكشاف ١/ ٤٤٤.

(٢) الكشاف ١/ ٤٤٤، وقراءة: «ملُ» بطرح الهمزة ونقل حركتها إلى الساكن قبلها وردت عن ابن وردان كما في النشر ١/ ٤١٤.

(٣) على هامش الكشاف ١/ ٤٤٤.

(٤) في الأصل: مطمع.

وحاصل الثاني: أنَّ المراد: ولو افتدى بمثله معه، كما صرَّح به في آيةٍ أُخرى[١]، ولأنه علم أنَّ الأول فدية أيضاً، كأنه قيل: لا يُقبل ملء الارض فدية ولو ضُوعِف، ويرجع هذا إلى جَعْلِ الباءِ بمعنى مع، وتقديرِ «مِثْل» بعدَه، أي مع مِثْلِه.

وحاصل الثالث: أنه يقدَّر وصفٌ يعيِّنه المَسَاقُ، من نحو: كان متصدِّقاً به، وحينئذٍ لا يكون الشرط المذكور من قبيل ما يُقْصَدُ به تأكيدُ الحكم السابق، بل يكون شرطاً محذوفَ الجواب، ويكون المعنى: لا يُقبل منه ملءُ الأرض ذهباً لو تصدَّق، ولو افتدى به أيضاً لم يُقبل منه. وضمير «به» للمال من غير اعتبارِ وصفِ التصدُّق، فالكلام من قبيل: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ [فاطر: ١١]، وعندي درهم ونصفه. انتهى[٢]. ولا يخفى ما في ذلك من الخفاء والتكلُّف.

وقريبٌ من ذلك ما قيل: إنَّ الواو زائدة، ويؤيِّد ذلك أنه قرئ في الشواذِّ بدونها[٣]. وكذا القولُ بأنَّ «لو» ليست وصليةً بل شرطية، والجواب ما بعدُ، أو هو سادٌّ مسدَّه.

وذكَر ابنُ المنير[٤] في الجواب مدَّعياً أنَّ تطبيق الآية عليه أسهلُ وأقربُ، بل ادَّعى أنه من السَّهل الممتنِع: أنَّ قبول الفدية التي هي ملء الأرض ذهباً يكون على أحوالٍ، تارةً تؤخذ قهراً كأخذ الدية، وكرَّةً يقولُ المفتدي: أنا أفدي نفسي بكذا، ولا يفعل، وأخرى يقول ذلك والفدية عتيدة[٥]، ويسلِّمها لمَن يُؤمِّل قبولَها منه، فالمذكورُ في الآية أبلغُ الأحوال وأجدرُها بالقبول، وهو أن يفتدي بملء الأرض ذهباً افتداءً محقَّقاً بأنْ يقدِرَ على هذا الأمر العظيم ويسلِّمه اختياراً، ومع ذلك لا يقْبَل منه، فَلأنْ لا يُقبلَ منه مجرَّدُ قوله: أبذلُ المال وأقدر عليه ـ أو ما يجري هذا المجرى ـ بطريق الأَولى فتكون الواوُ والحالةُ هذه على بابها تنبيهاً على أنَّ ثَمَّ

---

(١) ينظر الآية (٣٦) من سورة المائدة، والآية (٤٧) من سورة الزمر.

(٢) الكلام بنحوه مختصراً في الكشاف ١/ ٤٤٣ـ٤٤٤، وبعضه في حاشية الشهاب ٣/ ٤٥.

(٣) البحر ٢/ ٢٥٠، وحاشية الشهاب ٣/ ٤٥.

(٤) في الانتصاف على هامش الكشاف ١/ ٤٤٤ـ٤٤٥.

(٥) أي: حاضرة مهيأة. القاموس (عتد).

أحوالاً أُخَر لا يقع فيها القبول بطريق الأَولى، بالنسبة إلى الحالة المذكورة، وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣٦] مصرِّح بذلك، والمراد به أنه لا خلاص لهم من الوعيد، وإلا فقد علم أنهم في ذلك اليوم أفلسُ من ابن المُذَلَّقِ[١] لا يقدرون على شيء، ونظير هذا قولك: لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلَّمتَها إليَّ في يدي. انتهى.

وقريبٌ منه ما ذكرَه أبو حيان[٢] قائلاً: إنَّ الذي يَقتضيه هذا التركيبُ وينبغي أن يُحمل عليه: أنَّ الله تعالى أَخبَر أنَّ مَن مات كافراً لا يُقبل منه ما يملأ الأرضَ من ذهبٍ على كلِّ حال يقصدها، ولو في حال افتدائه من العذاب؛ لأنَّ حالة الافتداء لا يَمتنُّ فيها المفتدي على المُفْتَدَى منه؛ إذ هي حالةُ قهرٍ من المُفْتَدَى منه، وقد قرَّرنا في نحو هذا التركيب أنَّ «لو» تأتي منبِّهة على أنَّ ما قبلها جاء على سبيل الاستقصاء، وما بعدها جاء تنصيصاً على الحالة التي يُظنُّ أنها لا تندرج فيما قبلها، كقوله عليه الصلاة والسلام: «أعطوا السائلَ ولو جاء على فَرَسٍ»[٣]، و: «رُدُّوا السائلَ ولو بِظِلْفٍ مُحرَّق»[٤]، كأن هذه الأشياء ممَّا لا ينبغي أن يؤتى بها؛ لأنَّ كون السائلِ على فرس يُشْعِرُ بغناه، فلا يناسب أن يعطَى، وكذلك الظِّلْفُ المحرَّق لا غناءَ فيه، فكان يناسب أن لا يردَّ السائلُ به، وكذلك حالة الافتداء يناسب أن يُقبل منه ملء الأرض ذهباً، لكنه لا يقبل، ونظيره: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] لأنهم نَفوا أن يصدِّقهم على كلِّ حال حتى في حالة صِدْقِهم، وهي الحالةُ التي يَنبغي أن يصدَّقوا فيها [فلفظ] «ولو» [هنا] لتعميم النفي والتأكيد له.

---

(١) رجل من بني عبد شمس فقير مدقع كان لا يجد في أكثر أوقاته في بيته قوت ليلة واحدة، وآباؤه وأجداده كذلك. جمهرة الأمثال ٢/ ١٠٧، والمستقصى ١/ ٢٧٥، ومجمع الأمثال ٢/ ٨٣.

(٢) في البحر ٢/ ٥٢١، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٩٦ عن زيد بن أسلم عن النبي ﷺ. قال ابن عبد البر في التمهيد ٥/ ٢٩٤: لا أعلم في إرسال هذا الحديث خلافاً بين رواة مالك، وليس في هذا اللفظ مسند يحتج به فيما علمت. اهـ. وينظر حديث الحسين بن علي عند أحمد (١٧٣٠)، وأبي داود (١٦٦٥). وحديث علي عند أبي داود (١٦٦٦).

(٤) أخرجه أحمد (١٦٦٤٨)، والنسائي ٥/ ٨١، وسلف ١/ ٣٧٤.

هذا وقد أخرج الشيخان وابنُ جرير ـ واللفظ له ـ عن أنسٍ، عن النبي ﷺ قال: «يُجاء بالكافر يومَ القيامة، فيقال له: أرأيت لو كان لك ملءُ الأرضِ ذَهباً، أكنتَ مفتدياً به؟ فيقول: نعم. فيقال: لقد سُئلتَ ما هو أَيْسَرُ من ذلك فلم تفعل، فذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾»(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ اسم الإشارة مبتدأ والظرفُ خبرٌ، ولاعتماده على المبتدأ رَفَع الفاعلَ(٢)، ويجوز أن يكون «لهم» خبراً مقدماً، و«عذاب» مبتدأ مؤخَّراً، والجملة خبر عن اسم الإشارة، والأول أحسن، وفي تعقيب ما ذكر بهذه الجملة مبالغةٌ في التحذير والإقناط، لأنَّ مَن لا يُقبل منه الفداء ربَّما يُعفى عنه تكرُّماً.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٩١﴾ في رفع العذاب أو تخفيفه، و«من» مزيدةٌ بعد النفي للاستغراق، وتزاد بعده سواءٌ دخلت على مفردٍ أو جمعٍ، خلافاً لِمَن زعم أنَّ ذلك مخصوصٌ بالمفرد. وصيغةُ الجمع لمراعاة الضمير، وفيها تَوافُقُ الفواصل، والمراد ليس لواحدٍ منهم ناصرٌ واحدٌ.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ وهي كلمة التوحيد، وتركُ اتِّباعِ الهوى والميلِ إلى السِّوى، فإنَّ ذلك لم يَختلف فيه نبيٌّ ولا كتاب قَطُّ.

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ الخليلُ ﴿يَهُودِيًّا﴾ متعلِّقاً بالتشبيه ﴿وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ قائلاً بالتثليث ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الكون برؤية المكوِّن ﴿مُّسْلِمًا﴾ منقاداً عند جريان قضائه وقَدَره، أو ذاهباً إلى ما ذهَب إليه المسلمون المصطفَوْن، القائلون: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ بشرط التجرُّد عن الكونَيْن، ومنعِ االنفوس عن الالتفات إلى العالمين، فإنَّ الخليل لمَّا بلغ حضرةَ القُدس زاغ بصرُه عن

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٣٨)، وصحيح مسلم (٢٨٠٥)، وتفسير الطبري ٥/ ٥٧١، وهو عند أحمد (١٣٢٨٨)، ولفظ الطبري موافق للفظ البخاري وأحمد.

(٢) والتقدير: أولئك استقر لهم عذابٌ أليم. الدر المصون ٣/ ٣٠٩.

عرائس المُلك والملكوت، فقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩].

﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ العظيمُ، يعني محمَّداً عليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأكملُ التسليم، أولى أيضاً بمتابعة أبيه الخليلِ، وسلوكِ منهجه الجليل؛ لأنه زُبدة مَخِيضِ محبَّتِه، وخلاصةُ حقيقة فِطرته ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ به ﷺ، وأشرقت عليهم أنوارُه، وأينَعَت في رياض قلوبهم أسرارُه ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كافَّةً، يحفظهم من آفات القهر، ويُدخلهم في قِباب العِصمة، ويُبيحُ لهم ديارَ الكَرَامة.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ جعلَه أهلُ اللهِ سبحانه خِطاباً للمؤمنين، كما قال بذلك بعضُ أهل الظاهر، أي: لا تُفشوا أسرارَ الحقِّ إلَّا إلى أهله، ولا تُقِرُّوا بمعاني الحقيقة للمحجوبين من الناس، فيقعون فيكم ويَقصِدون سفكَ دمائكم.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ﴾ أعني ﴿هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ مِن علْم الباطن، ﴿أَوْ﴾ مثل ما ﴿يُحَآجُّوكُمْ﴾ به في زعمهم ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾، وهو علْمُ الظاهر. وحاصل المعنى: أنَّ «الهدى»: الجمعُ بين الظاهر والباطن، وأمَّا الاقتصارُ على عِلْمِ الظاهر وإنكارُ الباطن فليس بهدى.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ فيتصرَّف به حَسْبَ مشيئته التابعةِ لعِلْمِه التابعِ للمعلوم في أزل الآزال ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فكيف يتقيَّد بالقيود؟ بل يتجلَّى حَسْبَما تقتضيه الحكمةُ في المظاهر لأهل الشُّهود.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾ الخاصَّةِ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، وهي المَعْرِفةُ به، وهي فوقَ مكاشفةِ غيبِ الملكوت، ومشاهدة سرِّ الجبروت ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي لا يُكْتَنَه.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ وهو عهدُ الروح بنعت الكشْف، وعهدُ القلب بتلقِّي الخطاب، وعهدُ العقل بامتثال الأوامر والنواهي ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ من خَطَرات النفوس وطَوارق الشهوات ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: فهو بالغٌ مقامَ حقيقةِ المحبَّة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية إشارةٌ إلى مَن مال إلى خُضرة الدنيا، وآثَرها على مشاهدة حَضرة المولى، وزيَّن ظاهرَه بعبادة المقرَّبين،

ومزجها بحبِّ الرِّياسة، فذلك الذي سَقَط عن رؤية اللقاء، ومخاطبةِ الحقِّ في الدنيا والآخرة.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لأنَّ الاستنباء لا يكون إلا بعد الفناء في التوحيد، فمَن مَحا اللهُ تعالى بشريَّته بإفنائه عن نفسه، وأثابه وجوداً نورانيًا حقيًا قابلاً للكتاب والحكمة العقلية، لا يمكن أن يَدعوَ إلى نفْسه؛ إذ الدَّاعي إليها لا يكون إلا مَحجوباً بها، وبيْن الأمرين تناقضٌ ﴿وَلَٰكِن﴾ يقول: ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾ أي: منسوبين إلى الرَّبِّ، والمراد: عابدينَ مُرْتاضِينَ بالعلْم والعمل، والمواظبةِ على الطاعات؛ لتَغْلبَ على أسراركم أنوارُ الربِّ.

ولهم في الرَّبانيِّ عباراتٌ كثيرة؛ فقال الشبليُّ[1]: الربَّانيُّ الذي لا يأخذ العلوم إلا من الربِّ، ولا يرجع في شيء إلا إليه. وقال سهل: الربانيُّ الذي لا يَختار على ربِّه حالاً. وقال القاسم: هو المتخلِّق بأخلاق الربِّ عِلْماً وحُكماً. وقيل: هو الذي مُحِقَ في وجوده ومُحِق عن شهوده. وقيل: هو الذي لا تؤثِّر فيه تصاريف الأقدار على اختلافها. وقيل وقيل، وكلُّ الأقوال تَرِدُ من منْهَلٍ واحد.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا﴾ فإنها بعضُ مظاهره، وهو سبحانه المطلَق حتى عن قيد الإطلاق ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: أيأمركم بالاحتجاب برؤية الأشكال، والنظرِ إلى الأمثال، بعد أنْ لاح في أسراركم أنوارُ التوحيد، وطلعتْ في قلوبكم شُموسُ التفريد.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ الآية، فيه إشارةٌ إلى أنه سبحانه أَخذ العهدَ من نُوَّابِ الحقيقة المحمَّدية في الأزل بالانقياد والطاعة والإيمان بها، وخصَّهم بالذِّكر لكونهم أهلُ الصفِّ الأول، ورجالُ الحضرة.

وقيل: إنَّ الله تعالى أخذ عليهم ميثاقَ التعارُفِ بينهم، وإقامةِ الدِّين، وعدم التفرُّق، وتصديقِ بعضِهم بعضاً، ودعوةِ الخلْق إلى التوحيد، وتخصيصِ العبادة بالله تعالى وطاعةِ النبيِّ، وتعريفِ بعضهم بعضاً لأممهم، وهذا غير الميثاق العامِّ المشارِ

---

(١) أبو بكر البغدادي، قيل: اسمه دُلَف بن جحدر، وقيل: جعفر بن يونس، وقيل: جعفر بن دلف، كان حاجباً للموفق، فتاب وصحب الجنيد وغيره، وكان فقيهاً عارفاً بمذهب مالك، توفي سنة (٣٨٤هـ) السير ١٥/ ٣٦٧.

إليه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ إلخ [الأعراف: ١٧٢].

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد ما علِمَ عهْدَ الله تعالى مع النبيين، وتبليغ الأنبياء إليه ما عُهِد إليهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن دين الله تعالى، ولا دينَ غيره معتدًّا به في الحقيقة إلا توهُّماً.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مَن في عالَم الأرواح وعالَم النفوس، أو مَن في عالَم الملكوت وعالم الملك ﴿طَوْعًا﴾ باختياره وشعوره ﴿وَكَرْهًا﴾ من حيث لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، بسبب احتجابه برؤية الأغيار، ولهذا سقط عن درجة القَبول ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ في العاقبة حين يُكْشَف عن ساق.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ وهو التوحيد ﴿دِينًا﴾ له ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ لعَدَم وصوله إلى الحقِّ، لمكان الحجاب ﴿وَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ ويوم القيامة الكبرى ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الذين خسِروا أنفسَهم.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا﴾ الآية، استبعادٌ لهداية مَن فطَرَه اللهُ على غير استعدادِ المعْرفة، وحكَم عليه بالكفر في سابق الأزل؛ فإنَّ مَن لم يكن له استعدادٌ لم يقع في أنوار التجلِّي، ومَن خاض في بحر القهر، ولَزِم قعرَ بُعْدِ البُعْدِ، لم يكن له سبيلٌ إلى ساحل قُرْبِ القرب ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١] ولله درُّ مَن قال:

إذا المرءُ لَم يُخلَق سعيداً تَحيَّرتْ ظُنونُ[(١)] مربِّيه وخاب المؤمِّلُ
فمُوسى[(٢)] الَّذي رَبَّاهُ جبريلُ كَافرٌ وموسى الَّذي رَبَّاهُ فرعونُ مُرسَلُ

هذا، واللهُ تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

❁ ❁ ❁

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ كلامٌ مستأنفٌ لبيان ما يَنفع المؤمنين ويُقبل منهم إثرَ بيان ما لا يَنفع الكفارَ ولا يُقبل منهم. و«تنال» مِن نال نَيْلاً: إذا أصاب ووَجَد. ويقال: نال العلمَ: إذا وصَل إليه واتَّصف به.

---

(١) في الأصل: فنون.
(٢) هو السامري كما سيأتي عند تفسير الآية (٨٥) من سورة طه.

و«البر» الإحسانُ وكمالُ الخير. وبعضُهم يفرِّق بينه وبين الخير: بأنَّ البرَّ هو النفعُ الواصلُ إلى الغير مع القصدِ إلى ذلك، والخير هو النفع مطلَقاً وإن وقع سهواً. وضدُّ البرِّ العقوقُ، وضدُّ الخير الشرُّ. و«أل» فيه إمَّا للجنس والحقيقةِ، والمراد: لن تكونوا أبراراً حتى تنفقوا، وهو المرويُّ عن الحسن. وإمَّا لتعريف العهد، والمراد: لن تصيبوا برَّ اللهِ تعالى يا أهلَ طاعته حتى تنفقوا؛ وإلى ذلك ذهب مقاتل وعطاء.

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود ﷺ تفسيرَ البرِّ بالجنة[1]. وروي مثله عن مسروق والسدي وعمرو بنِ ميمون.

وذهب بعضهم إلى أنَّ الكلام على حذف مضاف، أي: لن تنالوا ثوابَ البرِّ.

و«حتى» بمعنى «إلى»، و«من» تبعيضية؛ ويؤيِّده قراءة عبد الله: «بعضَ ما تحبون»[2]. وقيل: بيانية، وعليه أيضاً لا تخالُفَ بين القراءتين معنى. و«ما» موصولة أو موصوفة، وجَعْلُها مصدريةً والمصدرُ بمعنى المفعولِ جائزٌ على رأي أبي علي[3].

وفي المراد من قوله سبحانه: ﴿مَا تُحِبُّونَ﴾ أقوال: فقيل: المال وكَنى بذلك عنه لأنَّ جميع الناس يُحبُّونه. وقيل: نفائس الأموال وكرائمها. وقيل: ما يعمُّ ذلك وغيره من سائر الأشياء التي يحبُّها الإنسان ويَهواها، والإنفاق على هذا مجازٌ، وعلى الأوَّلَين حقيقةٌ.

وكان السلَف ﷺ إذا أَحبُّوا شيئاً جَعَلوه لله تعالى؛ فقد أخرج الشيخان والترمذيُّ والنسائيُّ، عن أنس ﷺ قال: كان أبو طلحة أكثرَ الأنصار نخلاً بالمدينة، وكان أحبَّ أمواله إليه بَيْرُحَاءَ، وكانت مستقبلةَ المسجدِ، وكان النبيُّ ﷺ يَدخلُها ويَشْرَبُ مِن ماءٍ فيها طيِّب، فلمَّا نزلت: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: يا رسولَ الله إنَّ الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ

(١) لم نقف عليه عند الطبري، وعزاه السيوطي في الدر ٢/ ٤٩ لابن المنذر وابن أبي حاتم، وهو في تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٧٠١. وأخرجه الطبري ٥/ ٥٧٣ عن السدي وعمرو بن ميمون.

(٢) الكشاف ١/ ٤٤٥، قال السمين في الدر المصون ٣/ ٣١٠: وهذه عندي ليست قراءة، بل تفسير معنى.

(٣) ذكر قوله العكبري في الإملاء ٢/ ٩٩.

تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ بَيْرُحاءَ، وإنَّها صدقةٌ لله تعالى أرجو بِرَّها وذُخْرَها عند الله تعالى، فضَعْها يا رسول الله حيثُ أراكَ اللهُ تعالى. فقال رسولُ الله ﷺ: «بخْ بخْ، ذلك مالٌ رابح، وقد سمعت ما قلتَ، وإنِّي أرى أن تجعلَها في الأقرَبين» فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله. فقَسَمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمِّه[1].

وفي روايةٍ لمسلم وأبي داود: فجعلها بين حسان بن ثابت، وأبيِّ بن كعب[2].

وأخرج ابن أبي حاتم وغيرُه عن محمد بن المنكدر قال: لمَّا نزلَت هذه الآية جاء زيد بن حارثة بفرسٍ يقال لها سبلٌ، لم يكن له مالٌ أحبَّ إليه منها، فقال: هي صدقةٌ، فقبِلَها رسولُ الله ﷺ وحمل عليها ابنَه أسامة، فرأى رسولُ الله ﷺ ذلك في وجهِ زيد فقال: «إن الله تعالى قد قَبِلها منك»[3].

وأخرج عبد بنُ حميد عن ابن عمر قال: حَضَرتْني هذه الآيةُ: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ﴾ إلخ، فذكرتُ ما أعطاني اللهُ تعالى فلم أجد أحبَّ إليَّ من مرجانة ـ جارية لي رومية ـ فقلت: هي حرَّةٌ لوجهِ الله تعالى، فلو أنِّي أعود في شيء جَعَلْتُه لله تعالى لنكحتها، فأنكحتُها نافعاً[4].

وأخرج ابن المنذر عن نافع قال: كان ابن عمر ﵄ يشتري السُّكَّر يتصدَّقُ به، فنقول له: لو اشتريتَ لهم بثمنه طعاماً كان أنفعَ لهم من هذا. فيقول: أنا أعرفُ الذي تقولون، ولكن سمعتُ اللهَ تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن ابن عمر يحبُّ السُّكَّر[5].

---

(١) صحيح البخاري (٤٥٥٤)، وصحيح مسلم (٩٩٨): (٤٢)، وسنن الترمذي (٢٩٩٧)، وسنن النسائي ٦/ ٢٣١، وهو عند الترمذي والنسائي بنحوه.

(٢) صحيح مسلم (٩٩٨): (٤٣)، وسنن أبي داود (١٦٨٩)، وهذه الرواية عند أحمد (٤٠٣٦).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٧٠٤، وأخرجه أيضاً سعيد بن منصور (٥٠٧ ـ تفسير). وأخرجه عبد الرزاق ١/ ١٢٦، والطبري ٥/ ٥٧٧ عن أيوب، وأخرجه الطبري أيضاً عن عمرو بن دينار. وجميعها مرسلة.

(٤) الدر المنثور ٢/ ٥٠، وفيه: فأنكحها نافعاً. وأخرجه دون هذه العبارة البزار (٢١٩٤ ـ كشف).

(٥) الدر المنثور ٢/ ٥١.

وظاهرُ هذه الأخبار يدلُّ على أنَّ الإنفاق في الآية يعمُّ المستحَبَّ، وروي عن ابن عباس أنَّ المراد به إخراجُ الزكاة الواجبة وما فرَضه اللهُ تعالى في الأموال، فكأنه قيل: لن تنالوا البرَّ حتى تُخرجوا زكاةَ أموالِكم، وهو مبنيٌّ على أنَّ المراد مِن «ما تحبون»: المالُ لا كَرَائمُه، فقول النيسابوريِّ: إنه يَرِدُ عليه أنه لا يجب على المزكِّي أن يُخرج أشرف أمواله وأكرمها[1]، ناشئٌ من قلَّةِ التأمُّل، ولو تأمَّل ما اعترَض على ترجمان القرآن وحبرِ الأمة.

ونقل الواحديُّ[2] عن مجاهد والكلبي أنَّ الآية منسوخة بآية الزكاة، وضعَّف بأن إيجاب الزكاة لا ينافي الترغيب في بذل المحبوب في سبيل الله تعالى.

واستشكلت هذه الآية بأنَّ ظاهرها يستدعي أنَّ الفقير الذي لم ينفق طولَ عمره ممَّا يحبُّه لعدم إمكانه لا يكون بارًّا، أو لا يناله برُّ الله تعالى بأهل طاعته، مع أنه ليس كذلك.

وأجيب: بأنَّ الكلام خارجٌ مخرجَ الحثِّ على الإنفاق وهو مقيَّدٌ بالإمكان، وإنَّما أطلق على سبيل المبالغة في الترغيب.

وقيل: الأَوْلَى أن يكون المراد: لن تنالوا البر الكامل الواقع على أشرف الوجوه حتى تنفقوا مما تحبون، والفقيرُ الذي لم ينفق طولَ عمره لا يَبْعُد القولُ بأنه لا يكون بارًّا كاملاً، ولا يناله برُّ الله تعالى الكامل بأهل طاعته.

وقيل: الأَوْلَى من هذا الأَوْلَى أن يقال: إنَّ المراد: لن تنالوا البر على الإنفاق حتى تنفقوا مما تحبون. وحاصلُه: أن الإنفاق من المحبوب يترتَّب عليه نيل البرِّ، وأنَّ الإنفاق ممَّا عداه لا يترتَّب عليه نيلُ البرِّ، وليس في الآية ما يدلُّ على حَصْرِ ترتُّبِ البرِّ على الإنفاق من المحبوب، ونَفْيِ ترتُّبِ البرِّ على فعلٍ آخرَ من الأفعال المأمورِ بها، وحينئذٍ لا يبعد أن يكون الفقير الغيرُ المنفِقِ بارًّا أو نائلاً برَّ الله تعالى بأهلِ طاعته من جهة أخرى، وربما تستدعي أفعالُه الخاليةُ عن إنفاق المال من البرِّ ما هو أكمل وأوفر ممَّا يستدعيه الإنفاق المجرَّد منه؛ وينجرُّ الكلام إلى مسألة

---

(١) غرائب القرآن ٤/ ٦.

(٢) كما في تفسير الرازي ٨/ ١٤٤، وغرائب القرآن ٤/ ٦، وعنه نقل المصنف.

تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر، وهي مسألة طويلةُ الذيل قد أُلِّفت فيها الرسائل.

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ﴾ أي: أيَّ شيء تنفقوا من الأشياء، أو: أيَّ شيء تنفقوا طيِّب تحبُّونه، أو خبيث تكرهونه، و«من» على الأول متعلِّقة بمحذوف وقع صفةً لاسم الشرط، وعلى الثاني في محلِّ نصبٍ على التمييز.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ تعليلٌ لجواب الشرط واقعٌ مَوْقِعَه، أي: فيجازيكم بحَسَبِه، فإنه تعالى عليم بكلِّ ما تنفقونه. وقيل: إنَّه جواب الشرط، والمراد: أن الله تعالى يعلمه موجوداً على الحدِّ الذي تفعلونه من حُسنِ النية وقُبحها، وتقديم الظرف لرِعاية الفواصل.

وفي الآية ترغيبٌ وترهيبٌ، قيل: وفيها إشارةٌ إلى الحثِّ على إخفاء الصدقة.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ روى الواحديُّ[1] عن الكلبيِّ أنه حين قال النبي ﷺ: «أنا على ملَّة إبراهيم» قالت اليهود: كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها؟ فقال النبي ﷺ: «كان ذلك حلالاً لإبراهيم عليه السلام فنحن نُحِلُّه» فقالَتْ اليهود: كلُّ شيءٍ أصبحنا اليوم نُحرِّمه فإنه كان محرَّماً على نوحٍ وإبراهيم، حتى انتهى إلينا. فأنزل الله تعالى هذه الآية تكذيباً لهم.

والطعام بمعنى المطعوم، ويراد به هنا المطعومات مطلقاً أو المأكولات، وهو لكونه مصدراً منعوتاً به معنًى يستوي فيه الواحد المذكَّر وغيرُهُ، وهو الأصل المطَّرد، فلا ينافيه قول الرضي: إنه يقال: رجل عدلٌ ورجلان عدلان؛ لأنه رعايةٌ لجانب المعنى. وذكر بعضهم أنَّ هذا التأويل[2] يجعل «كلًّا» للتأكيد؛ لأنَّ الاستغراق شأنُ الجمع المعرَّف باللام.

والحِلُّ مصدرٌ أيضاً أُريد منه: حلالاً، والمراد الإخبار عن أَكْل الطعام بكونه حلالاً، لا نفس الطعام؛ لأنَّ الحِلَّ كالحُرمة مما لا يتعلَّق بالذوات، ولا يُقدَّر نحو

(١) في أسباب النزول ص ١١٠.

(٢) أي: جَعْل الطعام بمعنى المطعومات. ينظر حاشية الشهاب ٣/ ٤٦.

الإنفاق، وإن صحَّ أن يكون متعلِّق الحِلِّ، وربما توهِّم بقرينةِ ما قبله؛ لأنه خلافُ الغرض المسوق له الكلام.

وإسرائيل: هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وعن أبي مِجْلَز: أنَّ ملكاً سمَّاه بذلك بعد أن صَرَعه وضرب على فخذه.

﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ قال مجاهد: حرَّم لحوم الأنعام، وروى عكرمة عن ابن عباس: أنه حرَّم زائدتي الكبد والكليتين والشحم إلا ما كان على الظهر.

وعن عطاء: أنه حرَّم لحومَ الإبل وألبانَها. وسببُ تحريم ذلك كما في الحديث الذي أخرجه الحاكم وغيره بسند صحيح عن ابن عباس، أنه عليه الصلاة والسلام كان به عِرْقُ النَّسَا، فنذر إن شُفي لم يأكل أحبَّ الطعام إليه، وكان ذلك أحبَّه إليه(١).

وفي رواية سعيد بن جبير عنه، أنه كان به ذلك الداءُ، فأكل من لحوم الإبل فبات بليلةٍ يزقو، فحلف أن لا يأكله أبداً(٢).

وقيل: حرَّمه على نفسه تعبُّداً، وسأل الله تعالى أن يجيز له، فحرَّم سبحانه على ولده ذلك. ونُسب هذا إلى الحسن.

وقيل: إنه حرَّمه وكفَّ نفسه عنه، كما يحرِّم المستظهر في دينه من الزُّهَّاد اللذائذَ على نفسه.

---

(١) في (م): أحب إليه، والمثبت من الأصل وتفسير البيضاوي ٢/ ٣١ وعنه نقل المصنف الخبر، أما عزوه للحاكم فقد تبع فيه الشهاب في الحاشية ٣/ ٤٦، وليس هذا لفظ الحاكم. والذي في المستدرك ٢/ ٢٩٢ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أن إسرائيل أخذه عرق النسا، فجعل إنْ شفاه الله أنْ لا يأكل لحماً فيه عروق. . .، وهذا غير القول بأن الذي حرَّمه على نفسه هو لحوم الإبل وألبانها، وكلاهما مروي عن ابن عباس، وينظر التعليق الذي بعده. ولفظ المصنف أخرجه الطبري ٥/ ٥٨٤ عن عبد الله بن كثير قوله.

(٢) أخرج هذه الرواية الطبري ٥/ ٥٨٥، من طريق سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد به. ثم أخرج من طريق الأعمش، عن حبيب، عن سعيد، عن ابن عباس قال: حرم العروق ولحم الإبل. . .، قال الطبري: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول ابن عباس الذي رواه الأعمش؛ لأن اليهود مجمعة إلى اليوم على ذلك من تحريمهما. اهـ. قوله: يزقو، أي: يصيح. اللسان (زقا).

وذهب كثيرٌ إلى أنَّ التحريم كان بنصٍّ ورد عليه. وقال بعضٌ: كان ذلك عن اجتهاد. ويؤيِّده ظاهر النظم، وبه استُدلَّ على جوازه للأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

والاستثناء متصلٌ؛ لأنَّ المراد على كلِّ تقدير: أنه حرَّمه على نفسه وعلى أولاده، وقيل: منقطع، والتقدير: ولكن حرَّم إسرائيلُ على نفسه خاصة ولم يحرِّمه عليهم. وصُحِّح الأول.

﴿مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ﴾ الظاهر أنه متعلِّقٌ بقوله تعالى: (كَانَ حِلًّا) ولا يضرُّ الفصل بالاستثناء؛ إذ هو فَصْلٌ جائز، وذلك على مذهب الكسائيِّ وأبي الحسن في جواز أن يعمل ما قبل «إلا» فيما بعدها إذا كان ظرفاً أو جارًّا ومجروراً أو حالاً.

وقيل: متعلِّقٌ بـ «حرَّم». وتعقَّبه أبو حيان بأنه بعيدٌ؛ إذ هو من الإخبار بالواضح المعلوم ضرورة، ولا فائدة فيه[1]. واعتُذر عنه بأنَّ فائدة ذلك بيانُ أنَّ التحريم مقدَّمٌ عليها، وأنَّ التوراةَ مشتملةٌ على محرَّماتٍ أُخَر حدثت عليهم حَرَجاً وتضييقاً[2].

واختار بعضُهم أنه متعلِّقٌ بمحذوف، والتقدير: كان حلًّا من قبل أن تُنزَّل التوراة. في جواب سؤالٍ نشأ من سابق المستثنَى، كأنه قيل: متى كان حِلًّا؟ فأُجيب به، والذي دعاه إلى ذلك عدمُ ظهور فائدةِ تقييد التحريم، ولزومُ قَصْرِ الصفة قبل تمامها على تقدير جَعْله قيداً للحِلِّ. ولا يخفى ما فيه.

والمعنى على الظاهر: أنَّ كلَّ الطعام ما عدا المستثنى كان حلالاً لبني إسرائيل قبل نزول التوراة مشتملةً على تحريم ما حُرِّم عليهم لظلمهم، وفي ذلك ردٌّ لليهود في دعواهم البراءةَ مما[3] نُعي عليهم [في] قوله تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ [النساء: ١٦٠] وقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا﴾ الآيتين [الأنعام: ١٤٦] وتبكيتٌ لهم في منع النسخ، ضرورةَ أنَّ تحريم

---

(١) البحر ٣/ ٤.

(٢) حاشية الشهاب ٣/ ٤٧.

(٣) في الأصل و(م): فيما، والمثبت من تفسير البيضاوي ٢/ ٣١، والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه.

ما كان حلالاً لا يكون إلا به، ودَفْعُ الطَّعن في دعوى الرسول ﷺ موافقته لأبيه إبراهيم عليه السلام، على ما دلَّ عليه سبب النزول.

وذهب السُّدِّيُّ إلى أنه لم يُحرَّمْ عليهم عند نزول التوراة إلا ما كان يحرِّمونه قبل نزولها اقتداءً بأبيهم يعقوب عليه السلام.

وقال الكلبي: لم يحرِّم سبحانه عليهم ما حرَّم في التوراة، وإنما حرَّمه بعدها بظلمهم وكفرهم، فقد كانت بنو إسرائيل إذا أصابت ذنباً عظيماً حرَّم الله تعالى عليهم طعاماً طيباً، وصبَّ عليهم رجزاً.

وعن الضحاك: أنه لم يحرِّم الله تعالى عليهم شيئاً من ذلك في التوراة ولا بعدها، وإنما هو شيءٌ حرَّموه على أنفسهم؛ اتِّباعاً لأبيهم، وإضافةُ تحريمه إلى الله تعالى مجاز، وهذا في غاية البعد.

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾ أمرٌ له ﷺ بأن يحاجَّهم بكتابهم الناطق بصحة ما يقول في أمر التحليل والتحريم، وإظهارُ اسم التوراة لكون الجملة كلاماً مع اليهود منقطعاً عما قبله.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: في دعواكم، شَرْطٌ حُذف جوابه لدلالة ما قبله عليه، أي: إن كنتم صادقين فَأْتُوا بالتوراة فاتلوها. روي أنهم لم يجسروا على الإتيان بها، فبُهتوا وأُلقموا حجراً.

وفي ذلك دليلٌ ظاهرٌ على صحة نبوة نبيِّنا ﷺ؛ إذ عَلِمَ بأنَّ ما في التوراة يدلُّ على كذبهم وهو لم يقرأها ولا غيرَها من زُبُر الأولين، ومثلُهُ لا يكون إلا عن وحي.

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: اخترع ذلك بزعمه أنَّ التحريم كان على الأنبياء وأممهم قبل نزول التوراة. فـ «مَن» عبارةٌ عن أولئك اليهود، ويحتمل أن تكون عامة، ويدخلون حينئذ دخولاً أوَّلياً. وأصل الافتراء: قطعُ الأديم، يقال: فَرَى الأديمَ يفْرِيه فَرْياً: إذا قطعه، واستُعمل في الابتداع والاختلاق.

والجملة يحتمل أن تكون مستأنفة، وأن تكون منصوبةَ المحلِّ معطوفةً على جملة «فأتوا» فتدخل تحت القول. و«مَن» يجوز أن تكون شرطية، وأن تكون موصولة، وقد روعي لفظُها ومعناها.

﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: أَمْرِهم بما ذُكر، وما يترتَّبُ عليه من قيام الحجة وظهورِ

البيِّنة. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المفترون المبعَدون عن عزِّ القُرْب ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ لأنفسهم بفعلِ ما أَوجب العقابَ عليهم. وقيل: هم الظالمون لأنفسهم بذلك، ولأشياعهم بإضلالهم لهم، بسبب إصرارهم على الباطل وعدم تصديقهم رسولَ الله ﷺ.

وإنما قيّد بالبعدية ـ مع أنه يستحقُّ الوعيد بالكذب على الله تعالى في كلِّ وقتٍ وفي كلِّ حال ـ للدلالة على كمال القبح.

وقيل: لبيان أنه إنما يؤاخَذ به بعد إقامة الحجة عليه، ومَنْ كذب فيما ليس بمحجوج فيه، فهو بمنزلة الصبي الذي لا يستحقُّ الوعيدَ بكذبه، وفيه تأمُّل.

ثم مناسَبةُ هذه الآية لِمَا قبلها أنَّ الأكل إنفاقٌ مما يحبُّ، لكن على نفسه، وإلى ذلك أشار عليُّ بن عيسى. وقيل: إنه لمَّا تقدَّم محاجَّتهم في ملَّة إبراهيم عليه السلام، وكان مما أنكروا على نبيِّنا ﷺ أكل لحوم الإبل، وادَّعوا أنه خلاف ملَّة إبراهيم، ناسبَ أن يُذكر ردُّ دعواهم ذلك عقيب تلك المحاجَّة.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ أي: ظهر وثبت صدقه في أنَّ كلَّ الطعام كان حِلًّا لبني إسرائيل إلا ما حرَّم إسرائيل على نفسه. وقيل: في أنَّ محمداً ﷺ على دين إبراهيم عليه السلام، وأنَّ دينه الإسلام. وقيل: في كلِّ ما أَخبر به، ويدخل ما ذكر دخولاً أَوّليًّا. وفيه ـ كما قيل ـ تعريضٌ بكذبهم الصريح.

﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهي دين الإسلام، فإنكم غيرُ متَّبعين مِلَّته كما تزعمون. وقيل: اتَّبعوا ملَّته حتى تخلصوا عن اليهودية التي اضطرَّتكم إلى الكذب على الله، والتشديدِ على أنفسكم. وقيل: اتَّبعوا ملَّته في استباحة أكل لحوم الإبل وشرب ألبانها، مما كان حِلًّا له.

﴿حَنِيفٗا﴾ أي: مائلاً عن سائر الأديان الباطلة إلى دين الحق، أو مستقيماً على ما شرعه الله تعالى من الدين الحق في حجِّه ونسكه ومأكله وغير ذلك.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: في أمرٍ من أمور دينهم أصلاً، وفيه تعريضٌ بشرك أولئك المخاطَبين، والجملة تذييل لما قبلها.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أخرج ابن المنذر وغيره عن ابن جريج قال: بلغنا أنَّ اليهود قالت: بيت المقدس أعظم من الكعبة؛ لأنه مُهاجَرُ الأنبياء، ولأنه في

الأرض المقدَّسة. فقال المسلمون: بل الكعبة أعظم. فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فنزلت إلى (مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ)[1]. وروي مثل ذلك عن مجاهد.

ووجهُ رَبْطِها بما قبلها: أنَّ الله تعالى أمر الكفرة بإتِّباع ملَّة إبراهيم، ومن ملَّته تعظيمُ بيت الله تعالى الحرام، فناسَبَ ذكر البيت وفضله وحرمته لذلك. وقيل: وجه المناسبة أنَّ هذه شبهة ثانية ادَّعوها، فأكذبهم الله تعالى فيها كما أكذبهم في سابقتها.

والمعنى: إنَّ أول بيت وُضع لعبادة الناس ربِّهم، أي: هُيِّء وجُعل متعبَّداً.

والواضع هو الله تعالى كما يدلُّ عليه قراءةُ مَن قرأ: «وَضَع» بالبناء للفاعل[2]؛ لأنَّ الظاهر حينئذٍ أن يكون الضمير راجعاً إلى الله تعالى، وإنْ لم يتقدَّم ذكرهُ سبحانه صريحاً في الآية بناءً على أنها مستأنفة. واحتمالُ عَوْدِه إلى إبراهيم عليه السلام لاشتهاره ببناء البيت، خلافُ الظاهر.

وجملة «وضع» في موضع جرٍّ على أنها صفة «بيت»، و«للناس» متعلِّقٌ به، واللام فيه للعلة.

وقوله تعالى: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ خبر «إنَّ» واللام مزحْلَقة، وأخبر بالمعرفة عن النكرة لتخصيصها، وهذا في باب «إنَّ».

وبكة: لغة في مكة عند الأكثرين، والباء والميم تُعْقِبُ إحداهما الأخرى كثيراً، ومنه: نميطٌ ونبيط، ولازمٌ ولازب، وراتب وراتم[3].

وقيل: هما متغايران؛ فبكَّة: موضعُ المسجد، ومكة: البلد بأسرها.

وأصلها من البَكِّ بمعنى الزَّحْم، يقال: بَكَّه يبكُّه بكّاً، إذا زَحمهُ، وتباكَّ الناس: إذا ازدحموا، وكأنها إنما سُمِّيت بذلك لازدحام الحجيج فيها.

وقيل: بمعنى الدَّقِّ، وسُمِّيت بذلك لِدقِّ أعناق الجبابرة إذا أرادوها بسوء، وإذلالِهم فيها، ولذا تراهم في الطواف كآحاد الناس، ولو أمكنهم الله تعالى من تخلية المطاف لفعلوا.

---

(١) الدر المنثور ٢/ ٥٢، وأخرجه الأزرقي في تاريخ مكة ١/ ٧٥.

(٢) هي قراءة عكرمة وابن السميفع. الكشاف ١/ ٤٤٦، والبحر المحيط ٣/ ٦.

(٣) النبيط: أول ما يظهر من ماء البئر. واللازب: اللازم الثابت. والراتب: الثابت لم يتحرك. القاموس (نمط) و(لزب) و(رتب).

وقيل: إنها مأخوذة من بكَأت الناقة أو الشاة: إذا قلَّ لبنها، وكأنها إنما سُمِّيت بذلك لِقلَّة مائها وخصبها، وقيل: ومن هنا سُمِّيت البلد مكة أيضاً، أَخْذاً لها من: أَمْتَكَ الفَصيل ما في الضَّرع، إذا امتصَّه ولم يُبقِ فيه من اللبن شيئاً. وقيل: هي من مَكَّهُ الله تعالى: إذا استقصاه بالهلاك.

ثم المراد بالأوليةِ: الأوليةُ بحسب الزمان. وقيل: بحسب الشرف. ويؤيِّد الأولَ ما أخرجه الشيخان عن أبي ذرٍّ ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ عن أول بيتٍ وُضع للناس، فقال: «المسجد الحرام، ثم بيت المقدس» فقيل: كم بينهما؟ فقال: «أربعون سنة»[1].

واستشكل ذلك بأنَّ باني المسجد الحرام إبراهيم عليه السلام، وباني الأقصى داود ثم ابنه سليمان عليهما السلام، ورَفَع قبَّته ثمانية عشر ميلاً، وبين بناء إبراهيم وبنائهما مدة تزيد على الأربعين بأمثالها.

وأجيب: بأنَّ الوضع غيرُ البناء، والسؤال عن مدَّةٍ ما بين وَضْعَيهما، لا عن مدَّة ما بين بنائهما، فيحتمل أنَّ واضع الأقصى بعضُ الأنبياء قبل داود وابنه عليهما السلام، ثم بنياه بعد ذلك، ولابدَّ من هذا التأويل. قاله الطحاويّ[2].

وأجاب بعضهم على تقدير أن يُراد من الوضع البناء، بأنَّ باني المسجد الحرام والمسجد الأقصى هو إبراهيم عليه السلام، وأنه بنى الأقصى بعد أربعين سنةً من بنائه المسجد الحرام، وادَّعى فَهْمَ ذلك من الحديث، فتدبر.

وورد في بعض الآثار أنَّ أولَ مَن بنى البيت الملائكة، وقد بنوه قبل آدم عليه السلام بألفي عام، وعن مجاهد وقتادة والسُّدِّي ما يؤيد ذلك.

وحُكي أنَّ بناء الملائكة له كان من ياقوتةٍ حمراء، ثم بناه آدم، ثم شيث، ثم إبراهيم، ثم العمالقة، ثم جُرْهم، ثم قُصي، ثم قريش، ثم عبد الله بن الزبير، ثم الحجَّاج، واستمرَّ بناءُ الحجاج إلى الآن، إلا في الميزاب والباب والعَتَبة، ووقع الترميم في الجدار والسقف غيرَ مرَّةٍ، وجُدِّد فيه الرخام.

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٦)، وصحيح مسلم (٥٢٠)، وهو عند أحمد (٢١٣٣٣).
(٢) في شرح مشكل الآثار ١/ ١١٠.

وقيل: إنه نزل مع آدم من الجنة، ثم رُفع بعد موته إلى السماء. وقيل: بني قبله ورُفع في الطوفان إلى السماء السابعة، وقيل: الرابعة. وذهب أكثر[١] أهل الأخبار أنَّ الأرض دُحيت من تحته، وقد أسلفنا لك ما ينفعك هنا فتذكَّر.

﴿مُبَارَكًا﴾ أي: كثير الخير، لما أنه يضاعَف فيه ثوابُ العبادة، قاله ابن عباس.

وقيل: لأنه يُغفر فيه الذنوب لمن حجَّه وطاف به واعتكف عنده.

وقال القفَّال: يجوز أن تكون بركته ما ذكره في قوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: ٥٧] وقيل: بركته دوامُ العبادة فيه ولزومُها.

وقد[٢] جاءت البركة بمعنيين: النمو، وهو الشائع. والثبوت ومنه البِرْكَة؛ لثبوت الماء فيها، والبَرْك: الصَّدْر؛ لثبوت الحفظ فيه، وتبارك الله سبحانه بمعنى: ثبت ولم يزل.

ووجَّه الكرمانيُّ كونَه مباركاً بأن الكعبة كالنقطة، وصفوف المتوجهين إليها في الصلوات كالدوائر المحيطة بالمركز، ولا شكَّ أنَّ فيهم أشخاصاً أرواحُهم علويَّة، وقلوبهم قُدسية، وأسرارُهم نورانية، وضمائرهم ربانيَّة، ومن كان في المسجد الحرام يتصل أنوار تلك الأرواح الصافية المقدسة بنور روحه، فتزداد الأنوار الإلهية في قلبه، وهذا غاية البركة.

ثم إنَّ الأرض كُرَيَّة، وكلُّ آنٍ يُفرَض فهو صبحٌ لقوم ظُهْرٌ لثانٍ عَصرٌ لثالث، وهَلُمَّ جرًّا، فليست الكعبة منفكَّةً قطُّ عن توجُّه قومٍ إليها لأداء الفرائض، فهو دائماً كذلك.

والمنصوب حالٌ من الضمير المستتر في الظرف الواقع صلة، وجوَّز أبو البقاء[٣] جَعْلَه حالاً من الضمير في «وضع».

﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: هادٍ لهم إلى الجهة[٤] التي أرادها سبحانه، أو هادٍ إليه جلَّ شأنه بما فيه من الآيات العجيبة، كما قال تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ كإهلاك

---

(١) قوله: أكثر، ليس في الأصل.

(٢) في الأصل: وقيل.

(٣) في الإملاء ٢/ ١٠١.

(٤) في «م»: الجنة. والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٣/ ٤٨ والكلام منه.

مَن قصده من الجبابرة بسوءٍ؛ كأصحاب الفيل وغيرهم، وعدمِ تعرُّض ضواري السباع للصُّيود فيه، وعدم نَفْرة الطير من الناس هناك، وأنَّ أيَّ رُكنٍ من البيت وقع الغيث في مقابلته كان الخِصْب فيما يليه من البلاد، فإذا وقع في مقابلة الركن اليماني، كان الخصب باليمن، وإذا كان في مقابلة الركن الشامي، كان الخصب بالشام، وإذا عمَّ البيت كان في جميع البلدان، وكقلَّة[١] الجمرات على كثرة الرماة، إلى غير ذلك.

وعَدُّوا منه انحرافَ الطير عن موازاته على مدى الأعصار، وفيه كلامٌ للمحدِّثين؛ لأنَّ منها ما يعلوه. وقيل: لا يعلوه إلا ما به عِلَّةٌ للاستشفاء. واعترض بأنَّ العُقاب علته لأخذ الحية[٢]. وقيل: إنَّ الطير المُهدرَ دمُها تعلوه، والحمام مع كثرته لا يعلوه. وبه جَمَعَ بعضُهم بين الكلامين، ومع هذا في القلب منه شيء، فقد نقل بعض الناس أنه شاهد أنَّ الطير مطلقاً تعلوه في بعض الأحايين.

والضمير المجرور عائدٌ على البيت، والظرفيةُ مجازيةٌ، وإلَّا لَمَا صحَّ عدُّ هذه الآيات، والجملة إما مستأنفةٌ جيء بها بياناً وتفسيراً للهدى، وإما حالٌ أخرى، ولا بأس في ترك الواو في الجملة الاسميّة الحاليّة، على ما أشار إليه عبد القاهر وغيره، وجوَّز أن تكون حالاً من الضمير في «العالمين» والعاملِ فيه «هدى»، أو من الضمير في مباركاً وهو العامل فيها، أو يكون صفة لـ «هدى» كما أنَّ «العالمين» كذلك.

وقوله تعالى: ﴿مَقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ مبتدأ محذوف الخبر، أو خبر محذوف المبتدأ، أي: منها أو أحدها مقامُ إبراهيم، واختار الحلبي الأخير[٣]. وقيل: بدل البعض من الكل، وإليه ذهب أبو مسلم.

وجوَّز بعضهم أن يكون عطفَ بيان، وصحَّ بيانُ الجمع بالمفرد بناءً على اشتمال المقام على آياتٍ متعدِّدة؛ لأنَّ أثر القدمين في الصخرة الصَّمَّاء آية، وغوصهما فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض هذا النوع دون بعض آية، وإبقاؤه على ممرِّ الزمان آية، وحفظه من الأعداء آية.

---

(١) في الأصل: وقلة.

(٢) تنظر قصة العقاب الذي اختطف الحية التي كانت تخرج من بئر الكعبة في سيرة ابن هشام ١/ ١٩٣، والروض الأنف ١/ ٢٢٥، وينظر كذلك البحر ٣/ ٧.

(٣) الدر المصون ٣/ ٣٢٠.

أو على أن هذه الآية الواحدة ـ لظهور شأنها وقوةِ دلالتها على قدرة الله تعالى ونبوة إبراهيم عليه السلام ـ مُنزَّلةٌ منزلةَ آيات كثيرة، وأُيِّد ذلك بما أخرجه ابن الأنباريِّ عن مجاهد أنه كان يقرأ: «فيه آيةٌ بينة» بالتوحيد(١). وفيه أنَّ هذا وإن ساغ معنًى، إلا أنه يَرِدُ عليه أن «آيات» نكرة، و«مقام إبراهيم» معرفة، وقد صرح أبو حيان(٢) أنه لا يجوز التخالُف في عطف البيان بإجماع البصريين والكوفيين.

ثم إن سبب هذا الأثر في هذا المقام ما ورد في الأثر عن سعيد بن جبير أنه لمَّا ارتفع بنيان الكعبة قام على هذا الحجر ليتمكَّن من رفع الحجارة، فغاصت فيه قدماه. وقد تقدَّم غير ذلك في ذلك أيضاً.

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ الضمير المنصوب عائدٌ إلى مقام إبراهيم بمعنى الحرم كلِّه على ما قاله ابن عباس، لا موضع القدمين فقط، ويمكن أن يكون هناك استخدام(٣). وقال الجصاص: أورد الآيات المذكورات في الحرم، ثم قال: «ومَن دخله» إلخ فيجب أن يكون المراد جميع الحرم(٤).

والجملة إما ابتدائية وليست بشرطية، وإما شرطية عطفت ـ كما قال غير واحد ـ من حيث المعنى على «مقام»؛ لأنه في المعنى: أمْنُ مَنْ دخله، أي: ومنها ـ أو: ثانيها ـ أمْنُ مَن دخله، أو: فيه آيات مقام إبراهيم، وأَمْنُ مَن دخله. وعلى هذا لا حاجة إلى ما تُكُلِّف في توجيه الجمعيَّة؛ لأنَّ الآيتين نوعٌ من الجملة؛ كالثلاثة والأربعة. ويجوز أن يُذكر هاتان الآيتان ويطوى ذِكْر غيرهما؛ دلالةً على تكاثر الآيات، ومثل هذا الطيِّ واقعٌ في الأحاديث النبوية والأشعار العربية؛ فالأول كرواية: «حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث: الطِّيب، والنساء، وجُعلت قرَّة عيني في الصلاة»(٥) على ما هو الشائع؛ وإن

---

(١) القراءات الشاذة ص٢٢ عن مجاهد وأبيّ.
(٢) في البحر المحيط ٣/ ٩.
(٣) هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً المعنى الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.
(٤) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٢٠.
(٥) أخرجه أحمد (١٢٢٩٣) و(١٢٢٩٤) من حديث أنس ﷺ، دون لفظ «ثلاث». وينظر التعليق الذي بعده.

صحَّحوا عدم ذكر ثلاث[١]، وأما الثاني فمنه قول جرير:

كـانـت حـنـيـفـة أثـلاثـاً فـثُـلْـثُـهُـمْ مـن الـعـبـيـد وثـلـثٌ مـن مـوالـيـهـا[٢]

و«من» إما للعقلاء، أَوْ لهم ولغيرهم على سبيل التغليب؛ لأنه يأمن فيه الوحش والطير، بل والنبات، فحينئذ يراد بالأمن ما يصحُّ نسبته إلى الجميع بضَرْبٍ من التأويل، وعلى التقدير الأول يحتمل أن يراد بالأمن الأمنُ في الدنيا من نحو القتل والقطع وسائر العقوبات، فقد أخرج ابن أبي حاتم[٣] عن الحسن في الآية أنه قال: كان الرجل في الجاهلية يقتل الرجل ثم يدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول أو أبوه فلا يحركه.

وأخرج ابن المنذر[٤] عن عمر بن الخطاب أنه قال: لو وَجَدْتُ فيه قاتِلَ الخطاب، ما مَسَسْتُه حتى يخرج منه.

وأخرج ابن جرير عن ابنه أنه قال: لو وجدت قاتل عمر في الحرم ماهِجْتُه. وعن ابن عباس: لو وجدت قاتل أبي في الحرم لم أتعرَّض له[٥]. ومذهبه في ذلك أنَّ مَن قَتَلَ أو سرق في الحِلِّ ثم دخل الحرم، فإنه لا يجالَس ولا يُكلَّم ولا يؤوى[٦]، ولكنه يُناشَد حتى يخرج، فيُؤخذ فيُقام عليه ما جرَّ، فإن قَتَل أو سَرَقَ في الحرم أُقيم عليه في الحرم، والروايات عنه في ذلك كثيرة[٧]. وقد تقدم تفصيل الأقوال في المسألة.

---

(١) قال المناوي في فيض القدير ٣/ ٣٧٠: زاد الزمخشري والقاضي لفظ «ثلاث» وهذا وهم. قال الحافظ العراقي في أماليه: لفظ «ثلاث» ليست في شيء من كتب الحديث وهي تفسد المعنى. وقال الزركشي: لم يرد فيه لفظ «ثلاثة». وينظر الكشاف ١/ ٤٤٧، وتفسير البيضاوي ٢/ ٣٢.

(٢) البيت في ديوانه ٢/ ٥٤٥. وفيه: صارت. بدل: كانت.

(٣) كما في الدر المنثور ٢/ ٥٥.

(٤) كما في الدر المنثور ٢/ ٥٤.

(٥) تفسير الطبري ٥/ ٦٠٣ ـ ٦٠٤، والأول أخرجه أيضاً عبد الرزاق في مصنفه (٩٢٢٩) وفيه: ندهته. بدل: هجته.

(٦) في (م): يؤذى. والمثبت من الأصل، وهو موافق لما أخرجه الطبري في تفسيره ٥/ ٦٠٤ عن ابن عباس ﵄.

(٧) تفسير الطبري ٥/ ٦٠٣ ـ ٦٠٤.

وإما أن يراد به كما ذهب إليه الصادق ﷺ: الأمنُ في الآخرة من العذاب، فقد أخرج عبد بن حميد(١) وغيره عن يحيى بن جعدة أنَّ مَنْ دخله كان آمناً من النار.

وأخرج البيهقيُّ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن دَخَلَ البيتَ دخل في حسنة، وخرج من سيئة مغفوراً له»(٢).

وروي من غير طريق عنه ﷺ أنه قال: «مَن مات في أحد الحرمين، بُعث من الآمنين يوم القيامة»(٣).

وفي روايةٍ عن ابن عمر قال: مَن قُبِر بمكة مسلماً بُعث آمناً يوم القيامة(٤).

ويجوز إرادةُ العموم بأن يُفسَّر بالأمن في الدنيا والآخرة، ولعله الظاهر من إطلاق اللفظ.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ جملةٌ ابتدائية، المبتدأ فيها «حِجُّ» والخبر «لله»، و«على الناس» متعلِّقٌ بما تعلَّق به الخبر، أو بمحذوفٍ وقع حالاً من المستتر في الجارِّ والمجرور، والعامل فيه الاستقرار.

وجُوِّز أن يكون «على الناس» خبراً، و«لله» متعلِّقٌ بما تعلَّق به، ولا يجوز أن يكون حالاً من المستكنِّ في «الناس»؛ لأنَّ العامل في الحال حينئذ يكون معنًى، والحال لا يتقدم على العامل المعنويِّ عند الجمهور، وجوَّزه ابن مالك إذا كان الحال ظرفاً أو حرفَ جرٍّ، وعامِلُه كذلك(٥)، بخلاف الظرف وحرف الجرِّ فإنهما لا يتقدمان على عاملهما المعنوي. وجُوِّز أن يرتفع «الحِجُّ» بالجارِّ الأول أو الثاني.

---

(١) كما في الدر المنثور ٢/ ٥٥. وأخرجه أيضاً الطبري في التفسير ٥/ ٦٠٦.
(٢) السنن الكبرى ٥/ ١٥٨، وقال البيهقي: تفرد به عبد الله بن المؤمل وليس بالقوي.
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٦١٠٤) من حديث سلمان ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٣١٩: فيه عبد الغفور بن سعيد، وهو متروك. اهـ. وأخرجه أبو داود الطيالسي ص ١٢-١٣، والبيهقي ٥/ ٢٤٥ من طريق رجل من آل عمر عن عمر. قال البيهقي: هذا إسناد مجهول.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٥٥، وعزاه للجندي.
(٥) ينظر التسهيل لابن مالك ص ١١١، والدر المصون ٣/ ٣٢٣.

وهو في اللغة: مُطْلَقُ القصد، أو كَثْرَتُهُ، إلى مَن يُعظَّم، والمراد به هنا: قصدٌ مخصوصٌ غلب فيه حتى صار حقيقةً شرعية، وأل في «البيت» للعهد، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص: «حِج» بالكسر[1]؛ كعِلْم، وهو لغةُ نجد.

﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ بدل من «الناس» بدلَ البعض من الكل، والضمير في البدل مقدَّر، أي: منهم.

وقيل: بدلُ الكل من الكلِّ، والمراد من «الناس» خاصٌّ، ولا يحتاج إلى ضمير.

وقيل: خبرٌ لمحذوف، أي: هم مَن استطاع، أو: الواجب عليه مَن استطاع.

وجُوِّز أن يكون منصوباً بإضمار فعل، أعني: أعني. وأن يكون فاعلَ المصدر، وهو مضافٌ إلى مفعوله، أي: ولله على الناس أن يحجَّ مَن استطاع منهم البيت، وفيه مناقشةٌ مشهورة. و«مَنْ» على هذه الأوجه موصولة.

وجُوِّز أن تكون شرطيةً، والجزاء محذوفٌ يدلُّ عليه ما تقدم، أو هو نفسه على الخلاف المقرَّر بين البصريين والكوفيين، ولابدَّ من ضميرٍ يعود من جملة الشرط على «الناس»، والتقدير: مَن استطاع منهم إليه سبيلاً فلِلّهِ عليه أن يحجّ، ويترجَّح هذا بمقابلته بالشرط بعده، والضميرُ المجرور للبيت أو للحج؛ لأنه المحدَّث عنه، وهو متعلِّقٌ بالسبيل لِمَا فيه من معنى الإفضاء، وقُدِّم عليه للاهتمام بشأنه.

والاستطاعة في الأصل: استدعاءُ طواعية الفعل وتَأتِّيه، والمراد بالاستدعاء: الإرادة، وهي تقتضي القدرة، فأُطلقت على القدرة مطلقاً، أو بسهولة فهي أخصُّ منها، وهو المراد هنا، وسيأتي تحقيقه قريباً إن شاء الله تعالى.

والقدرة إما بالبدن أو بالمال أو بهما، وإلى الأول ذهب الإمام مالك، فيجب الحجُّ عنده على مَن قَدَرَ على المشي والكَسْبِ في الطريق، وإلى الثاني ذهب الإمام الشافعيُّ، ولذا أوجد الإستنابة على الزَّمِن إذا وجد أُجرةَ مَن ينوب عنه، وإلى الثالث ذهب إمامنا الأعظم رضي الله عنه، ويؤيِّده ما أخرجه البيهقي[2] وغيره عن ابن

---

(١) وهي قراءة أبي جعفر وخلف، وقرأ الباقون بفتح الحاء. التيسير ص ٩٠، والنشر ٢/ ٢٤١.

(٢) في السنن الكبرى ٤/ ٣٣١.

عباس ﷺ أنه قال: السبيل أن يصحَّ بدنُ العبد، ويكون له ثمنُ زادٍ وراحلة، من غير أن يجحف به.

واستدلَّ الإمام الشافعيُّ ﷺ بما أخرجه الدار قطنيّ عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلَتْ هذه الآية ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قام رجل فقال: يا رسول الله ما السبيل؟ قال: «الزاد والراحلة»(١). وروي هذا من طرقٍ شتَّى(٢)، وهو ظاهرٌ فيما ذهب إليه الشافعي، حيث قَصَرَ الاستطاعة على المالية دون البدنية، وهو مخالفٌ لما ذهب إليه الإمام مالك مخالفةً ظاهرة. وأما إمامنا فيؤوِّل ما وقع فيه بأنه بيانٌ لبعض شروط الاستطاعة، بدليل أنه لو فَقَدَ أَمْنَ الطريق - مثلاً - لم يجب عليه، والظاهر أنه ﷺ لم يتعرض لصحّة البدن؛ لظهور الأمر، كيف لا والمفسَّر في الحقيقة هو السبيل الموصل لنفس المستطيع إلى البيت، وذا لا يتصوَّر بدون الصحة.

وممَّا يؤيِّد أنَّ ما في الحديث بيانٌ لبعض الشروط، أنه ورد في بعض الروايات الاقتصار على واحد مما فيه، فقد أخرج الدارقطنيُّ أيضاً عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنَّ النبي ﷺ سئل عن السبيل فقال: «أن تجد ظهر بعير»(٣) ولم يذكر الزاد.

هذا، واستُدلَّ بالآية على أنَّ الاستطاعة قبل الفعل، وفسادِ القول بأنها معه، ووجهُ الاستدلال ظاهر.

وأُجيب: بأنَّ الاستطاعة التي ندَّعي أنها مع الفعل هي حقيقةُ القدرة التي يكون بها الفعل، وتطلق الاستطاعة على معنى آخر: هو سلامة الأسباب والآلات والجوارح، أي: كون المكلف بحيث سَلِمتْ أسبابه وآلاته وجوارحه، ولا نزاع لنا

---

(١) سنن الدار قطني (٢٤١٣)، وفي إسناده محمد بن عبد الله بن عبيد الليثي، قال الزيلعي في نصب الراية ٣/ ١٠: تركوه وأجمعوا على ضعفه، وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) وليس فيها إسناد يحتج به، كما في نصب الراية ٣/ ١٠، وقال الحافظ في التلخيص الحبير ٢/ ٢٢١: قال عبد الحق: إن طرقه كلها ضعيفة، وقال أبو بكر ابن المنذر: لا يثبت الحديث في ذلك مسنداً، والصحيح من الروايات رواية الحسن المرسلة. اهـ. قلنا: أخرج رواية الحسن المرسلة البيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٣٣٠، وقال: هذا هو المحفوظ: عن قتادة عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٣) سنن الدارقطني (٢٤٢٨).

في أنَّ هذه الاستطاعة قبل الفعل، وهي مناط صحة التكليف، وما في الآية بهذا المعنى. كذا قالوا.

وتحقيق الكلام في هذا المقام على ما قالوا: أنَّ المشهور عن الأشعريِّ أنَّ القدرة مع الفعل بمعنى أنها توجَدُ حالَ حدوثه، وتتعلق به في هذه الحال، ولا توجد قبله فضلاً عن تعلُّقها به، ووافقه على ذلك كثيرٌ من المعتزلة كالنجار، ومحمد بن عيسى، وابن الراوندي[1]، وأبي عيسى الورَّاق[2]، وغيرهم.

وقال أكثر المعتزلة: القدرة قبل الفعل، وتتعلق به حينئذ، ويستحيل تعلُّقها به قبل حدوثه[3]. ثم اختلفوا في بقاء القدرة؛ فمنهم مَن قال ببقائها حال وجود الفعل وإن لم تكن القدرة الباقية قدرةً عليه، ومنهم مَن نفاه، ودليلهم على ذلك وجوه:

الأول: أنَّ تعلُّق القدرة بالفعل معناه الإيجاد، وإيجاد الموجود محال لأنه تحصيل الحاصل، بل يجب أن يكون الإيجاد قبل الوجود، ولهذا صحَّ أن يقال: أَوْجَدَه فوُجد.

وأجيب بأنَّ هذا مبنيٌّ على أنَّ القدرة الحادثة مؤثِّرةٌ، وهو ممنوع، وعلى تقدير تسليمه يقال: إيجادُ الموجود بذلك الوجود الذي هو أثر ذلك الإيجاد جائزٌ، بمعنى أن يكون ذلك الوجود الذي هو به موجودٌ في زمان الإيجاد، مستنداً إلى الموجِد، ومتفرِّعاً على إيجاده، والمستحيل هو إيجاد الموجود بوجود آخر، وتحقيقه أنَّ التأثير مع حصول الأثر بحسب الزمان، وإن كان متقدِّماً عليه بحسب الذات، وهذا التقدُّم هو المصحّح لاستعمال الفاء بينهما.

الثاني: إن جاز تعلُّق القدرة حال الحدوث، يلزم القدرة على الباقي حالَ

---

(١) أحمد بن يحيى بن الراوندي الملحد، قال ابن عقيل: عجبي كيف لم يقتل وقد صنف «الدامغ» يدمغ به القرآن، و«الزمردة» يزري بها على النبوات، توفي سنة (٣٠١هـ). شذرات الذهب ٤/ ٧.

(٢) هو محمد بن هارون، له تصانيف على مذهب المعتزلة، مات سنة (٢٤٧هـ). لسان الميزان ٥/ ٤١٢.

(٣) كذا في الأصل و(م)، والذي في شرح المواقف لعلي بن محمد الجرجاني ٦/ ٩٣ (والكلام منه): حال حدوثه، وهو الصواب.

بقائه، والتالي باطل. بيان الملازمة أنَّ المانع من تعلُّق القدرة به[١] ليس إلا كونه متحقِّق الوجود، والحادثُ حال حدوثه متحقِّق الوجود أيضاً.

وأجيب: بأنَّا نلتزمه لدوام وجوده بدوام تعلُّق القدرة به، أو نفرِّق[٢] بما تبطل به الملازمة، من احتياج الموجود عن عدمه إلى المقتضي دون الباقي[٣]، فلو لم تتعلَّق القدرة بالأول لبقي على عدمه وقد فُرض وجوده، هذا خُلْفٌ، ولو لم تتعلَّق بالثاني لبقي على الوجود، وهو المطابق للواقع.

أو ننقض الدليل؛ أولاً: بتأثير العلم أو العالِميّة بالإتقان[٤]، فإنَّ ذلك مشروطٌ حالَ حدوث الفعل دون بقائه. وثانياً: بتأثير الفعل في كون الفاعل فاعلاً، فإنَّ الفعل مؤثِّرٌ في ذلك حالَ الحدوث، وبتقدير كون الفعل باقياً لا يؤثِّر حالَ البقاء. وثالثاً: بمقارنة الإرادة؛ إذ يوجبونها حال الحدوث دون البقاءِ، فكذا الحال في القدرة.

الثالث: أنَّ كون القدرة مع الفعل يوجب حدوث قدرة الله تعالى، أو قِدَم مقدوره، وكلاهما باطلان، بل قدرته أزليّةٌ، وتعلُّقُها في الأزل بمقدوراته، فقد ثبت تعلُّقُ القدرة بمقدوراتها قبل الحدوث، ولو كان ممتنعاً في القدرة الحادثة لكان ممتنعاً في القدرة القديمة، وليس فليس.

وأجيب: بأنَّ القدرة القديمة الباقية مخالفةٌ في الماهية للقدرة الحادثة التي لا يجوز بقاؤها عندنا، فلا يلزم من جواز تقدُّمها على الفعل جوازُ تقدُّم الحادثة عليه، ثم إنَّ القديمة متعلِّقةٌ في الأزل بالفعل تعلُّقاً معنويًّا لا يترتب عليه وجود الفعل، ولها تعلُّقٌ آخرُ به حالَ حدوثه موجبٌ لوجوده، فلا يلزم من قِدَمها مع تعلُّقها المعنويِّ قِدَمُ آثارها.

---

(١) يعني بالباقي. كما في شرح المواقف.
(٢) يعني بين الحادث والباقي كما في شرح المواقف.
(٣) في شرح المواقف: احتياج الموجود عن عدم إلى المقتضي لوجوده دون الباقي.
(٤) في (م): بالإتفاق، وهو تصحيف، وفي شرح المواقف: بتأثير العلم في الإتقان فإن المؤثر في إتقان الفعل وإحكامه هو العلم أو العالمية عندهم...

الرابع: أنه يلزم على ذلك التقدير[1] أن لا يكون الكافر في زمان كفره مكلَّفاً بالإيمان؛ لأنه غير مقدور له في تلك الحالة المتقدِّمة عليه، بل نقول: يلزم أن لا يُتصوَّر عصيانٌ من أحدٍ؛ إذ مع الفعل لا عصيان، وبدونه لا قدرة، فلا تكليف، فلا عصيان، وأيضاً أقوى أعذار المكلَّف التي يجب قبولها لدفع المؤاخذة عنه هو كون ما كُلِّف به غيرَ مقدور له، فإذا لم يكن قادراً على الفعل قبله، وجب رفع المؤاخذة عنه بعدم الفعل المكلف به، وهو باطل بإجماع الأمة. وأيضاً لو جاز تكليف الكافر بالإيمان مع كونه غيرَ مقدور له، فليُجَز تكليفُهُ بخَلْق الجواهر والأعراض.

وأجيب: بأنه يجوز تكليف المحال عندنا، فيلتزم جواز التكليف بالخلق المذكور، ولنا أن نفرِّق بأنَّ ترك الإيمان إنما هو بقدرته، بخلاف عدم الجواهر والأعراض، فإنه ليس مقدوراً له أصلاً، فلا يلزم من جواز التكليف بالإيمان جواز التكليف بخَلْقها.

وبالجملة فكونُ الشيء مقدوراً ـ الذي هو شرطُ التكليف عندنا ـ أن يكون الشيء أو ضدُّه متعلّقاً للقدرة، وهذا حاصلٌ في الإيمان؛ لأنَّ تركه لتلبُّسه بضدِّه مقدورٌ له حال كفره، بخلاف إحداث الجواهر والأعراض، فإنه غير مقدور له أصلاً، لا فعلاً ولا تركاً، فلا يجوز التكليف به، وأمّا ما ذُكر من قضية الأعذار ووجوب قبولها، فمبنيٌّ على قاعدة التحسين والتقبيح العقليين، وقد أُقيمت الأدلة على بطلانهما في محلِّه كذا في «المواقف» و«شرحه»[2].

ودليل ما شاع عن الأشعري قيل: هو أنَّ القدرة عَرَضٌ يخلقه الله تعالى في الحيوان، يفعل به الأفعال الاختيارية، فيجب أن تكون مقارِنةً للفعل بالزمان، لا سابقةً عليه، وإلا لزم وقوعُ الفعل بلا قدرة، لِمَا بُرْهِنَ عليه من امتناع بقاء الأعراض.

واعتُرض عليه بما في أدلة امتناع بقاء الأعراض من النظر القوي، وأنه قد يقال

---

(١) أي: على تقدير كون القدرة على الفعل معه لا قبله. شرح المواقف ٦/ ٩٦.

(٢) المواقف ص ١٥١ ـ ١٥٢، وشرح المواقف ٦/ ٩٣ ـ ٩٨.

ـ على تقدير تسليم الامتناع المذكور ـ: لا نزاع في إمكان تجدُّد الأمثال عقيب الزوال، فمن أين يلزم وقوع الفعل بدون القدرة؟

وأجيب: بأنّا إنما ندَّعي لزوم ذلك إذا كانت القدرة التي بها الفعل هي القدرة السابقة، وأما إذا جعلتموها المِثْلَ المتجدِّد المقارن، فقد اعترفتم بأنَّ القدرة التي بها الفعل لا تكون إلا مقارنة، ثم إن ادَّعيتم أنه لابدَّ لها من أمثال تقع حتى لا يمكن الفعل بأول ما يحدث من القدرة، فعليكم البيان.

وفيه أنَّ هذا قولٌ بأنَّ نفي وجود المثل السابق ليس داخلاً في دعوى الأشعري، وهو خلافُ ما علم مما تقدم في تقرير مذهبه، وذكر في «المواقف» دليلاً آخر للأشعري على ما ادَّعاه ونَظَر فيه أيضاً. هذا كلامهم.

والحق عندي في هذه المسألة أنَّ شرط التكليف هو القوة التي تصير مؤثِّرة بإذن الله تعالى عند انضمام الإرادة التابعة لإرادة الله تعالى، لقوله سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وإيضاحُه أنه تعالى كما أنه غنيٌّ بالذات عن العالمين، كذلك حكيمٌ جواد، وكما أنَّ غناه الذاتيَّ أن يفعل ما يشاء، ويحكمَ ما يريد، كذلك مقتضى جوده ورحمته مراعاة ما اقتضته حكمته سبحانه، كما أشار إليه العضد في «عيون الجواهر»، وأطال الكلام فيه أبو عبد الله الدمشقي في «شفاء العليل»(١).

ومن المعلوم أنَّ الحكمة لا تقتضي أن يُؤمر بالفعل مَن لا يَقْدِرُ على الامتثال، ويُنهى عنه مَن لا يقدر على الاجتناب، فلابدَّ بمقتضى الحكمة التي رعاها(٢) سبحانه فيما خَلَق وأمر فضلاً ورحمة، أن يكون التكليف بحسب الوسع، وإذا كان كذلك كان شَرْطُ التكليف هو القوة التي تَصيرُ مؤثِّرةً إذا انضم إليها الإرادة، وهذه قبل الفعل، والقدرةُ التي هي مع الفعل هي القدرة المستَجْمِعةُ لشرائط التأثير التي(٣)

---

(١) هو كتاب: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية.
(٢) في الأصل: راعاها.
(٣) في الأصل: التي هي.

من جملتها انضمامُ الإرادة إليها، وبهذا جمع الإمام الرازي ـ كما في المواقف[١] ـ بين مذهب الأشعريِّ القائل بأنَّ القدرة مع الفعل، والمعتزلةِ القائلين بأنها قبله، وقال: لعلَّ الأشعريَّ أراد بالقدرة القوةَ المستَجْمِعةَ لشرائط التأثير، فلذلك حكم بأنها مع الفعل وأنها لا تتعلَّق بالضِّدَّين، والمعتزلة أرادوا بالقدرة مجرَّدَ القوة العضلية، فلذلك قالوا بوجودها قبل الفعل، وتعلُّقها بالأمور المتضادَّة. وهو جمعٌ صحيح، وقولُ السيد قُدِّس سرُّه ـ في توجيه البحث الذي ذكره صاحبُ «المواقف» فيه ـ بأنَّ القدرة الحادثة ليست مؤثرةً عند الشيخ، فكيف يصحُّ أن يقال: إنه أراد بالقدرة القوةَ المستجمعةَ لشرائط التأثير؟ مدفوعٌ بما تبيَّن في «الإبانة»[٢] التي هي آخر مصنفاته، والمعتمدُ من كتبه. كما صرَّح به ابن عساكر[٣] والمجد بن تيمية وغيرهما، أنَّ الشيخ قائلٌ بالتأثير للقدرة المستَجْمِعةِ للشرائط، لكن لا استقلالاً، كما يقوله المعتزلة، بل بإذن الله تعالى، وهو معنى الكَسْبِ عنده.

وأما قوله في «شرح المواقف»: إنَّ أفعال العباد الاختيارية واقعةٌ بقدرة الله تعالى وحدها، ليس لقدرتهم تأثيرٌ فيها، بل الله تعالى أجرى عادته بأنْ يوجِد في العبد قدرةً واختياراً، فإذا لم يكن هناك مانعٌ أَوْجَدَ فيه فِعْلَه المقدور مقارِناً لهما، فيكون فعلُ العبد مخلوقاً لله تعالى إبداعاً وإحداثاً، ومكسوباً للعبد، والمراد بكسبه إياه مقارنتُه لقدرته وإرادته من غير أن يكون هناك منه تأثيرٌ ومدخلٌ في وجوده سوى كونه محلًّا له، وهو مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري[٤] = ففيه بحثٌ من وجوه:

أما أولاً: فَلأنَّ هذا ليس مذهبَ الشيخ المذكورَ في آخر تصانيفه التي استقرَّ عليها الاعتماد؛ وذِكْرُه في غيره ـ إنْ سلِّم ـ لا يعوَّل عليه، لكونه مرجوحاً مرجوعاً عنه.

وأما ثانياً: فَلِأنَّ التكليف في صرائح الكتاب والسنَّة إنما تَعلَّق أمراً أو نهياً بالأفعال الاختيارية أنفسِها، لا بمقارنة القدرة والإرادة لها، فمكسوبُ العبد نفسُ الفعل الاختياري، والمراد بكسبه إياه تحصيلُه إياه بتأثير قدرته بإذن الله تعالى

---

(١) ينظر المواقف ص ١٥٤، وشرح المواقف ٦/ ١٠٥، والكلام منه.
(٢) ينظر الإبانة عن أصول الديانة ص ٩ و٤٤ وما بعدها.
(٣) ينظر تبيين كذب المفتري ص ٢٨ و١٦٣.
(٤) شرح المواقف ٨/ ١٤٥ ـ ١٤٦.

لا مستقلًّا. فالقول بأن المراد بكسب العبد للفعل هو مقارنةُ الفعل لقدرته وإرادته من غير تأثير، لا يوافق ما اقتضاه صرائح الكتاب والسنة ونصوص «الإبانة».

ويزيدُه وضوحاً حديث أبي هريرة: أنه لمَّا نزل: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] اشتدَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جَثَوا على الرُّكَب فقالوا: يا رسول الله، كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق؛ الصلاةَ والصيامَ والجهادَ والصدقة، وقد أُنزل عليك هذه الآيةُ ولا نطيقها، الحديث[1]، فإنه صريحٌ بأنَّ الذي كُلِّفوا به ما يطيقونه من نفس الأعمال، وهو نفسُ الصلاة وأخواتها، لا مقارنتها لقدرتهم وإرادتهم، وأقرَّهم ﷺ على ذلك.

وأما ثالثاً: فلأنَّ مقارنة الفعل لقدرة العبد وإرادته لو كانت هي الكسب، لكانت هي المكلَّف بها، ولو كانت كذلك لكان التكليف بما لا يطاق واقعاً؛ لأنَّ المقارنة أمرٌ يترتَّب على فعل الله تعالى، أي: على إيجاد الله تعالى الفعلَ الاختياريَّ مقارناً لهما، وما يترتَّب على فعل الله تعالى ليس مقدوراً للعبد أصلاً؛ لأنَّ معنى كون الشيء مقدوراً له: أن يكون ممكنَ الإيقاع بقدرته عند تعلُّق مشيئته به الموافقةِ لمشيئةِ الله تعالى، كما هو واضحٌ من حديث: «مَن كظم غيظه وهو قادرٌ على أنْ يُنْفِذَه»[2] وما يترتَّب على فعل الله تعالى لا يكون مقدوراً للعبد بهذا المعنى، إذ لو كان مقدوراً له ابتداءً لزم أن لا يكون مترتِّباً على فعل الله تعالى، أو بواسطةٍ لزم أن يكون فعلُ الله تعالى المترتِّبُ عليه هذا مقدوراً للعبد، واللازم باطلٌ بشِقَّيه بعد القول بنفي التأثير أصلاً، فكذا الملزوم.

وأما رابعاً: فلأنَّ المقارنة لكونها مترتِّبةً على فعل الله تعالى، لا تختلف بالنسبة إلى العبد صعوبةً وسهولة، فلو كانت هي المكلَّف بها لاستوى بالنسبة إلى العبد التكليفُ بأشقِّ الأعمال والتكليف بأسهلها، مع أنَّ نصَّ الكتابِ التكليفَ بحسب الوُسْع، ونصَّ السنة أنَّ المملوك لا يكلَّف إلا ما يُطيق، شاهدان على التفاوت، كما أنَّ البديهة تشهد بذلك. واعترض هذا من وجوه:

---

(١) أخرجه أحمد (٩٣٤٤)، ومسلم (١٢٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٦١٩)، وأبو داود (٤٧٧٧)، والترمذي (٢٠٢١)، وابن ماجه (٤١٨٦) من حديث معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه. قال الترمذي: حسن غريب.

الأول: أنَّ القول بأنَّ من المعلوم أنَّ الحكمة لا تقتضي أن يُؤمر بالفعل مَن لا يقدر على الامتثال، يقتضي أنَّ أفعال الله تعالى وأحكامه لابدَّ فيها من حكمة ومصلحة، وهو مُسلَّم، لكن لا نسلِّم أنه لابدَّ أن تظهر هذه المصلحة لنا؛ إذ الحكيم لا يلزمه إطْلاعُ مَنْ دونه على وجه الحقيقة، كما قاله القفَّال في «محاسن الشريعة»[1]، وحينئذ فما المانع من أن يقال: هناك مصلحةٌ لم نطَّلع عليها.

ويجاب: بأنَّا لم ندَّعِ سوى أنَّ الله تعالى قد راعى الحكمة فيما أَمَر وخَلَقَ تفضُّلاً ورحمةً لا وجوباً، وهذا ثابتٌ بقوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] وقولِه سبحانه: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، وبالإجماع المعصوم عن الخطأ بفضل الله تعالى، وأنَّ مقتضَى الحكمة أن لا يطلب حصول شيء إلا ممن يتمكَّن منه ويقدر عليه، كما تشهد له النصوص. ولم ندَّعِ وجوبَ ظهور وجه الحكمة في جميع أفعاله وأحكامه، ولا ما يستلزم ذلك، وبيانُ الحكمة لحُكم واحد لا يستلزم دعوى الكلِّية، ويَؤُولُ هذا إلى أنَّ الله تعالى أطلعنا على الحكمة في هذا، مع عدم وجوب الإطلاع عليه.

والثاني: أنَّ القول بأنَّ التكليف في صرائح الكتاب والسنَّة إنما تعلَّق إلخ، فيه أنه ليس المراد مُطْلَقَ المقارنة، بل المقارنة على جهة التعلُّق، فالكسب عبارةٌ عن تعلُّق القدرة الحادثة بالمقدور من غير تأثير، كما في عبارةِ غيرِ واحدٍ، فالأوامر والنواهي متعلِّقةٌ بالأفعال التي هي اختياريةٌ في الظاهر، باعتبار هذا التعلُّق الذي لا تأثير معه، وادِّعاءُ أنها صرائحُ في التعلُّق مع التأثير ممنوعٌ، بل هي محتملةٌ، ولو سُلِّم أنها ظاهرةٌ في التأثير، فالظاهر قد يُعدَل عنه لدليلِ خلافه.

والقول بأنَّا لا نفهم من تعلُّق القدرة إلا تأثيرها، وإلا فليست بقدرة، فكيف يثبت للقدرة تعلُّقٌ بلا تأثير؟ سؤالٌ مشهور، وجوابه: ما في «شرح المواقف» وغيره: من أنَّ التأثير من توابع القدرة، وقد ينفك عنها[2].

---

(١) محاسن الشريعة في فروع الشافعية، للإمام أبي بكر محمد بن علي المعروف بالقفال الشاشي، مشتملة على مسائل غريبة، لكنها قليلة الوجود، منها نسخة موقوفة بالمدرسة الفاضلية في القاهرة. كشف الظنون ٢/ ١٦٠٨.

(٢) شرح المواقف ٦/ ٨٤.

ويجاب: بأنَّ تفسير الكسب بالتعلُّق الذي لا تأثير معه مراداً به التحصيلُ بحَسب ظاهر الأمر فقط، مصادمٌ للنصوص الناطقة بأنَّ العبد متمكِّنٌ من إيجاد أفعاله الاختيارية بإذن الله تعالى، ولا دليلٍ على خلافه يوجب العدول، والله خالقُ كلِّ شيء لا ينافي التأثير بالإذن، على أنَّ تعلُّق القدرة تابعٌ للإرادة، وتعلُّقها على القول بنفي التأثير بالكلية غير صحيح، كما يشير إليه كلام الجلال الدَّوَاني في بيان مَبادي الأفعال الاختيارية، ويوضِّحه كلام حجة الإسلام الغزالي في كتاب التوحيد والتوكُّل من «الإحياء»[1].

وأما ما في «شرح المواقف» وغيره من أنَّ التأثير قد ينفُكُّ عن القدرة، فنحن نقول به؛ إذ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وإنما الإنكارُ على نفي التأثير بالكلِّية عن القدرة الحادثة.

والاستدلال بما ذكره حجة الإسلام في «الاقتصاد»[2] من أنَّ القدرة الأزلية متعلِّقةٌ في الأزل بالحادث ولا تؤثِّر إلا على وفق الإرادة، والإرادةُ تعلَّقت أزلاً بإيجاد الأشياء بالقدرة في أوقاتها اللائقة بها في الحكمة، فعدمُ تأثيرها قبل الوقت لكونها مؤثِّرةً على وفق الإرادة لا مطلقاً، فلا يجب تأثيرها قبل الوقت، ويجب تأثيرها فيه، والقدرة الحادثة على القول بنفي تأثيرها بالكلية لا يَصْدُق عليها أنها تؤثر وفق الإرادة، فلا يصحُّ قياسها على القديمة.

والحاصل: أنَّ كلَّ تعلُّق للقديمة على وفق الإرادة، لا ينفكُّ عنه التأثير في وقته، بخلاف الحادثة، فإنه لا تأثير لها أصلاً على القول بنفي التأثير عنها كلِّيًّا، فلا تعلُّق لها بالتأثير على وفق الإرادة.

والثالث: أنَّ القول في الاعتراض الثالث، أنه لو كانت كذلك لكان التكليف بما لا يطاق واقعاً إلخ. يقال عليه: نلتزم وقوعه عند الأشعريِّ، ولا محذور فيه، ويجاب: بأنه قد حُقِّق في موضعه أنَّ الإمام الأشعريَّ لم ينصَّ على ذلك، ولا يصحُّ أَخْذُه من كلامِهِ فالتزامُ وقوعِه عنده التزامُ ما لم يَقُلْ به، لا صريحاً ولا التزاماً. والقول بأنه لا محذور فيه، إنما يصحُّ بالنظر إلى الغِنَى الذاتيِّ، وأما بالنظر إلى أنه تعالى جواد حكيم، فالتزامه مُصادَمةٌ للنص، وأيُّ محذور أشنع من هذا؟!

---

(١) ٤/٢٤٣.

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد ص١٣٦.

والرابع: أنَّ القول هناك أيضاً: إنَّ المقارنةَ لو كانت هي الكسب لكانت هي المكلَّف بها. غيرُ لازم، فإنَّ الكسب يطلق على المعنى المصدري، ويطلق على المفعول، أي: المكسوب، وهو نفس الأمر، لا الكسب بمعنى المقارنة، أو تعلق القدرة الحادثة بالفعل، فمعنى «كسب»: تعلَّقتْ قدرتُه بالفعل، وإن شئت قلت: قارنَتْ قدرتُه الفعل، فكان الفعل مكسوباً، وهو المكلف به.

ويجاب: بأنَّ الكسب الحقيقيَّ الوارد في الكتاب والسُّنة معناه: تحصيل العبد ما تعلقت به إرادته التابعة لإرادة الله تعالى بقدرته المؤثِّرة بإذنه، وإنَّ مكسوبه ما حصَّله بقدرته المذكورة، فمعنى كون الفعل المكسوب مكلَّفاً به، هو أنَّ العبد المكلَّف مطلوبٌ منه تحصيله بالكسب بالمعنى المصدري؛ لأنَّ المكسوب هو الحاصل بالمصدر، فإذا كان المكسوب مكلَّفاً به، كان الكسب بالمعنى المصدري مكلّفاً به قطعاً؛ لامتناع حصول المكسوب من غير قيام المعنى المصدري بالمكلَّف، ضرورةَ انتفاء الحاصل بالمصدر عند انتفاء قيام المصدر بالمكلَّف، فظهرت الملازمة في الشرطية.

والخامس: أنَّ القول في الاعتراض أنَّ المقارنة لكونها أمراً مترتباً على فعل الله تعالى لا تختلف إلخ، فيه أمران:

الأول: أنَّا لا نسلِّم التلازُمَ بين كون المقارنة هي المكلَّف بها، وبين عدم الاختلاف، وأيُّ مانع من أن تكون مختلفةً باعتبار أحوال الشخص عندها، فتارةً يخلق الله تعالى فيه صبراً وعزماً، وتارة جزعاً وفتوراً، إلى غير ذلك مما يرجع إلى سلامة البنية ومقابله أو غيرهما من الأعراض والأحوال التي يخلقها الله تعالى، ويصرِّف عبده فيها كيف شاء، مما يوجب ألماً أو لذة.

الثاني: أنَّ ما ذكرتموه مشتركُ الإلزام؛ إذ يقال: إذا كانت قدرة العبد مؤثِّرةً بإذن الله تعالى، فبأيِّ وجهٍ وقع الاختلاف حتى كان هذا سهلاً وهذا صعباً، وكلاهما مقدور، وهما متساويان في الإمكان؟

ويجاب: أما عن الأول: بأنَّ التلازُم بين كونها مترتِّبةً على فعل الله تعالى وبين عدم اختلافها متحقِّقٌ؛ لأنها إذا كانت الكسبَ بالمعنى الصدري، كانت تحصيلاً للمكسوب، والتحصيلُ لكونه قائماً بالمكلَّف تتفاوت درجاته صعوبةً

وسهولةً قطعاً، ولهذا قال النبي ﷺ: «صلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإنَّ لم تستطع فعلى جَنْب»[1] والمقارنةُ لكونها أمراً مرتَّباً على فعل الله تعالى، ليست قائمة بالعبد، فلا تتفاوت بالنسبة إليه أصلاً، والإيراد بتجويز اختلافها بكون بعضِها بخَلْقِ الله تعالى عنده صبراً في العبد إلخ، خارجٌ عن المقصود؛ لأنَّ العبارة صريحةٌ في أنَّ المقصود عدمُ اختلافها بالنسبة إلى العبد صعوبةً وسهولة، لا مطلق الاختلاف.

وأما عن الثاني: فبأنه قد دلَّت النصوص على تفاوت درجات القوة والبطش؛ كقوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ﴾ [غافر: ٨٢] وقوله سبحانه: ﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا﴾ [غافر: ٢١] وقوله عز شأنه: ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ [الزخرف: ٨] وباختلاف درجات ذلك في الأقوياء، التابع لاستعداداتهم الذاتية الغير المجعولة، وقع الاختلاف في الأعمال صعوبةً وسهولة.

هذا ما ظفرنا به من تحقيق الحقِّ من كتب ساداتنا قَدَّس الله تعالى أسرارهم، وجَعَل أعلى الفردوسِ قرارَهم، وإنما استطردت هذا المبحث هنا، مع تقدُّم إشاراتٍ جزئية إلى بعضٍ منه؛ لأنه أمرٌ مهمٌّ جدًّا لا تنبغي الغَفْلةُ عنه، فاحفظه فإنه من بنات الحقاق، لا من حوانيت الأسواق، والله تعالى الموفق لا ربَّ غيره.

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ يحتمل أن يراد بـ «من كفر»: مَن لم يحجَّ، وعبَّر عن ترك الحج بالكفر تغليظاً وتشديداً على تاركه، كما وقع مثل ذلك فيما أخرجه سعيد بن منصور وأحمد وغيرهما عن أبي أمامة من قوله ﷺ: «مَن مات ولم يحجَّ حجَّة الإسلام، لم يمنعه مرضٌ حابِسٌ، أو سلطانٌ جائر، أو حاجةٌ ظاهرة، فليمتْ على أيِّ حالةٍ شاء، يهوديًّا أو نصرانيًّا»[2].

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٨١٩)، والبخاري (١١١٧) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.
(٢) الحديث في سنن سعيد بن منصور والإيمان لأحمد، كما في التلخيص الحبير ٢/ ٢٢٢، والدر المنثور ٢/ ٥٦ وعنه نقل المصنف، وأخرجه أيضاً الدارمي (١٧٨٥)، والبيهقي ٤/ ٣٣٤، وابن الجوزي في الموضوعات (٩٧٦) و(٩٨٧)، جميعهم من طريق شريك عن ليث بن أبي سليم، عن ابن سابط، عن أبي أمامة به. قال ابن حجر: ليث ضعيف وشريك سيئ الحفظ، وقد خالفه سفيان فأرسله. اهـ. وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح. وينظر التعليق الذي بعده.

ومثله ما روي بسندٍ صحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لقد هممتُ أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار، فلينظروا كلَّ مَن كان له جِدَةٌ فلم يحج، فيضربوا عليهم الجزية، ما هم بمسلمين، ما هم بمسلمين(١).

ويحتمل إبقاء الكفر على ظاهره بناءً على ما أخرج ابن جرير وعبد بن حميد وغيرهما عن عكرمة: أنه لمَّا نزلت ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا﴾ الآية [آل عمران: ٥٨] قال اليهود: فنحن مسلمون. فقال لهم النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله تعالى فرض على المسلمين حجَّ البيت» فقالوا: لم يكتب علينا، وأبوا أن يحجُّوا فنزل ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ الآية(٢).

ومن طريق الضحاك: أنه لم نزلت آية الحج، جمع رسول الله ﷺ أهل الملل؛ مشركي العرب والنصارى واليهود والمجوس والصابئين فقال: «إن الله تعالى قد فرض عليكم الحجَّ فحجُّوا البيت» فلم يقبله إلا المسلمون. وكفرت به خمس ملل قالوا: لا نؤمن به ولا نصلِّي إليه ولا نستقبله. فأنزل الله سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ إلخ(٣).

وإلى إبقائه على ظاهره ذهب ابن عباس، فقد أخرج البيهقيُّ عنه أنه قال في الآية: ومن كفر بالحجِّ، فلم يرَ حجَّه برًّا ولا تركه مأثماً(٤).

وروى ابن جرير أنَّ الآية لما نزلت قام رجل من هذيل فقال: يا رسول الله، مَن تَرَكَه كفر؟ قال: «مَن تَرَكَه لا يخاف عقوبته، ومَن حجَّ لا يرجو ثوابه، فهو ذاك»(٥).

وعلى كلا الاحتمالين لا تصلح الآية دليلاً لمن زعم أنَّ مرتكب الكبيرة كافر.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن الجوزي في التحقيق في أحاديث الخلاف (١٢١٣)، وبنحوه ابن أبي شيبة ص ٣٣٧ (نشرة العمروي) والبيهقي ٤/ ٣٣٤، وهو شاهد لحديث أبي أمامة كما ذكر البيهقي، وقال ابن حجر: وإذا انضم هذا الموقوف إلى مرسل ابن سابط علم أن لهذا الحديث أصلاً، ومحمله على مَن استحل الترك، وتَبيَّنَ بذلك خطأُ مَن ادَّعى أنه موضوع. وينظر نصب الراية ٤/ ٤١٠ ـ ٤١٢.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٥٥٦. وأخرجه ـ أيضاً ـ الشافعي في الأم ٢/ ٩٣. ونقله المصنف عن الدر المنثور ٢/ ٥٧.

(٣) تفسير الطبري ٥/ ٦٢٢.

(٤) السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٣٢٤.

(٥) تفسير الطبري ٥/ ٦٢٠ ـ ٦٢١ عن نفيع بن الحارث مرسلاً، ونفيع متروك، كما ذكر الحافظ في التقريب.

و«مَن» تَحْتَمِلُ أن تكون شرطية، وهو الظاهر، وأن تكون موصولة، وعلى الاحتمالين استغني فيما بعد الفاء عن الرابط بإقامة الظاهر مقام المضمر؛ إذ الأصل: فإنَّ الله غنيٌّ عنهم.

ويجوز أن يبقى الجمع على عمومه، ويُكتَفَى عن الضمير الرابط بدخول المذكورين فيه دخولاً أوليًا. والاستغناء في هذا المقام كناية عن السخط على ما قيل، ولهذا صحَّ جَعْلُه جزاءً، وإن أبيتَ فهو دليله.

وفي الآية ـ كما قالوا ـ فنونٌ من الاعتبارات المعرِبة عن كمال الاعتناء بأمر الحج، والتشديدِ على تاركه، ما لا مَزيدَ عليه، وعدُّوا من ذلك إيثارَ صيغة الخبر وإبرازَها في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والدوام، على وجه يفيد أنه حقٌّ واجبٌ لله تعالى في ذمم الناس، وتعميمُ الحكم أولاً وتخصيصُه ثانياً، وتسميةُ تَرْكِ الحج كفراً من حيث إنه فعلُ الكفرة، وذكر الاستغناء والعالمين.

وذكر الطيبيُّ أنَّ في تخصيص اسم الذات الجامع، وتقديم الخبر، الدلالةُ على أنَّ ذلك عبادةٌ لا ينبغي أن تختصَّ إلا بمعبودٍ جامعٍ للكمالاتِ بأسرها، وأنَّ في إقامة المُظْهَر ـ وهو البيت ـ مقام المُضْمَر بعد سَبْقِه منكَّراً المبالغةُ في وصفه أقصى الغاية، كأنه رتَّب الحكم على الوصف المناسب، وكذا في ذكر الناس بعد ذكره معرَّفاً الإشعارُ بعِلِّيَّة الوجوب، وهو كونهم ناساً، وفي تذييل ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنها في المعنى تأكيدُ الإيذان بأنَّ ذلك هو الإيمان على الحقيقة، وهو النعمة العظيمة، وأنَّ مُباشِرَه مستأهِلٌ لأنَّ الله تعالى بجلالته وعظمته يرضى عنه رضاً كاملاً، كما كان ساخطاً على تاركه سخطاً عظيماً. وفي تخصيص هذه العبادة وكونها مبيِّنة لمِلَّة إبراهيم عليه السلام بعد الردِّ على أهل الكتاب فيما سبق من الآيات، والعَودِ إلى ذكرهم بعدُ، خَطْبٌ جليلٌ وشأنٌ خطير لتلك العبادة العظيمة[1].

واستأنس بعضهم لكونه عبادة عظيمة بأنه من الشرائع القديمة بناءً على ما روي

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

أنَّ آدم عليه السلام حجَّ أربعين سنة من الهند ماشياً[١]، وأنَّ جبريل قال له: إنَّ الملائكة كانوا يطوفون قبلك بهذا البيت سبعة آلاف سنة.

وادَّعى ابن إسحاق أنه لم يبعث الله تعالى نبيًّا بعد إبراهيم إلا حجّ، والذي صرَّح به غيره أنه ما من نبيٍّ إلا حجَّ، خلافاً لمن استثنى هوداً وصالحاً عليهما الصلاة والسلام.

وفي وجوبه على مَنْ قَبْلَنا وجهان، قيل: الصحيح أنه لم يجب إلا علينا، واستُغرب.

وادَّعى جَمعٌ أنه أفضل العبادات؛ لاشتماله على المال والبدن. وفي وقت وجوبه خلاف، فقيل: قبل الهجرة. وقيل: أول سِنِيِّها، وهكذا إلى العاشرة، وصُحِّح أنه في السادسة، نعم حجَّ ﷺ قبل النبوة وبعدها، وقبل الهجرة، حججاً لا يُدرَى عددها، والتسمية مجازيةٌ باعتبار الصورة، بل قيل: ذلك في حجَّة الصدِّيق ﷺ أيضاً في التاسعة، لكِنَّ الوجه خلافه؛ لأنه ﷺ لا يؤمر إلا بحجٍّ شرعيٍّ، وكذا يقال في الثامنة التي أمر فيها عتَّاب بن أسيد أمير مكة، وبعد ذلك حجة الوداع لا غير.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ خاطَبَهم بعنوان أهلية الكتاب الموجبة للإيمان به وبما يصدِّقه، مبالغةً في تقبيح حالهم في تكذيبهم بذلك، والاستفهامُ للتوبيخ والإشارةِ إلى تعجيزهم عن إقامة العذر في كفرهم، كأنه قيل: هاتوا عذركم إن أمكنكم.

والمراد من الآيات مطلق الدلائل الدالة على نبوة رسوله ﷺ، وصِدْقِ مدَّعاه الذي من جملته الحج وأمرُهُ به، وبه تظهر مناسبة الآية لما قبلها.

وسبب نزولها ما أخرجه ابن إسحاق وجماعة عن زيد ابن أسلم قال: مرَّ شاس[٢] بن قيس ـ وكان شيخاً قد عسا[٣] في الجاهلية، عظيمَ الكفر شديدَ الضِّغن على المسلمين، شديدَ الحسد لهم ـ على نَفَرٍ من أصحاب النبيِّ ﷺ من الأوس

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٣٥ من قول ابن عباس مطولاً، وأخرجه البيهقي في الشعب (٣٩٨٧) عن عطاء.

(٢) في الأصل و«م»: شماس. وهو تصحيف، وكذا فيما سيأتي.

(٣) أي: كبر. القاموس (عسا).

والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدَّثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتِهم وجماعتهم وصلاحِ ذاتِ بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية. فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيلَة بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤُهم بها من قرار. فأمر فتىً شابًّا معه من يهود فقال: اعْمِدْ إليهم فاجلس معهم، ثم ذكِّرهم يوم بُعاث وما كان قبله، وأنشِدْهم بعض ما كانوا تقاوَلُوا فيه من الأشعار. وكان يومُ بُعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظَّفَر فيه للأوس على الخزرج، ففعل، فتكلَّم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا، حتى تواثَبَ رجلان من الحيَّين على الرُّكَب: أوس بن قيظي أحدُ بني حارثة من الأوس، وجبَّار[1] بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاوَلا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن. وغضب الفريقان جميعاً، وقالوا: قد فعلنا، السلاحَ السلاحَ، موعدكم الظاهرة - والظاهرة: الحرة - فخرجوا إليها، وانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض، على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فخرج إليهم فيمَن معه من المهاجرين من أصحابه، حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين اللهَ اللهَ، أبدَعوى الجاهلية وأنا بين أظهُرِكم بعد إذ هداكم الله تعالى إلى الإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألَّف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً» فعرف القوم أنها نزغةٌ من الشيطان وكيدٌ لهم من عدوهم، فألقَوا السلاح من أيديهم، وبكَوا، وعانق الرجال بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله تعالى عنهم كيد عدوِّ الله تعالى شاس، وأنزل الله تعالى في شأن شاس وما صنع: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وأنزل في أوس بن قيظي وجبار[2] ومَن كان معهما من قومهما، الذين صنعوا ما صنعوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ﴾ الآية[3].

---

(١) في الأصل و(م): هبار. وهو تصحيف.

(٢) في الأصل و(م): هبار. وهو تصحيف.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٥٥٥ - ٥٥٧، وتفسير الطبري ٥/ ٦٢٧ - ٦٢٩، وأسباب النزول للواحدي ص ١١١ - ١١٢.

وعلى هذا يكون المراد من أهل الكتاب ظاهراً اليهود. وقيل: المراد منه ما يشمل اليهود والنصارى.

﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝٩٨﴾ جملةٌ حاليةٌ، العامل فيها «تكفرون»، وهي مفيدةٌ لتشديد التوبيخ، والإظهارُ في موضع الإضمار لما مرَّ غيرَ مرَّة.

والشهيد: العالم المطَّلع، وصيغة المبالغة للمبالغة في الوعيد، وجَعْلُ الشهيد بمعنى الشاهد تكلُّفٌ لا داعي إليه.

و«ما» إما عبارة عن كفرهم، وإما على عمومها، وهو داخلٌ فيها دخولاً أوَّليًّا، والمعنى: لأيِّ سببٍ تكفرون، والحال أنه لا يَخْفَى عليه بوجهٍ من الوجوه جميعُ أعمالكم، وهو مجازيكم عليها على أتمِّ وجه، ولامرية في أنَّ هذا مما يسدُّ عليكم طرق الكفر والمعاصي، ويقطع أسباب ذلك أصلاً.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾ أي: تصرفون ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: طريقه الموصلة إليه، وهي مِلَّة الإسلام ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ أي: بالله وبما جاء من عنده، أو: مَن صدَّق بتلك السبيل وآمَنَ بذلك الدين بالفعل، أو بالقوة[1] القريبة منه، بأنْ أراد ذلك وصمَّم عليه، وهو مفعولٌ لـ «تصدون» قُدِّم عليه الجارُّ للاهتمام به.

﴿تَبْغُونَهَا﴾ أي: السبيل ﴿عِوَجًا﴾ أي: اعوجاجاً وميلاً عن الاستواء، ويستعمل مكسورُ العين في الدِّين والقول والأرض، ومنه ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧] ويُستعمل المفتوح في مَيل كلِّ شيء منتصب؛ كالقناة والحائط مثلاً. وهو أحد مفعولي «تبغون»؛ فإنَّ «بغى» يتعدَّى لمفعولين؛ أحدهما بنفسه والآخر باللام، كما صرَّح به اللغويون. وتعديته للهاء من باب الحذف والإيصال، أي: تبغون لها، كما في قوله:

فتولَّى غلامهم ثم نادى أَظَلِيماً أَصِيدُكم أم حمارا[2]

أراد: أصيدُ لكم.

وقال ابن المنير: الأحسن جَعْلُ الهاء مفعولاً من غير حاجة إلى تقدير الجار،

---

(١) القوة: التهيُّؤ الموجود في الشيء، وضده الفعل: وهو بروز ذلك الشيء. معجم متن اللغة (قوي).

(٢) ذكره ابن هشام في المغني ص ٢٩١.

و«عوجاً» حالٌ وقع موقع الاسم مبالغة؛ كأنهم طلبوا أن تكون الطريقة القويمة نفسَ المعوجِّ[1]. وادَّعى الطيبيُّ أنَّ فيه نظراً؛ إذ لا يستقيم المعنى إلا على أن يكون «عوجاً» هو المفعول به؛ لأنه مطلوبُهم، فلا بدَّ من تقدير الجارّ. وفيه تأمل.

وقيل: «عوجاً» حالٌ من فاعل «تبغون» والكلام فيه كالكلام في سابقه. وجملة «تبغون» على كلِّ حالٍ؛ إما حالٌ من ضمير «تصدُّون»، أو من «السبيل»، وإما مستأنفةٌ جيء بها كالبيان لذلك الصدِّ.

والأكثرون على أنه كان بالتحريش والإغراء بين المؤمنين، لتختلف كلمتُهم ويختلَّ أمرُ دينهم، كما دلَّ عليه ما أوردناه في بيان سبب النزول، فعلى هذا يكون المراد بأهل الكتاب هم اليهود أيضاً، والتعبير عنهم بهذا العنوان لِمَا تقدم، وإعادة الخطاب والاستفهام مبالغةٌ في التقريع والتوبيخ لهم على قبائحهم وتفصيلها، ولو قيل: لِمَ تكفرون بآيات الله وتصدُّون عن سبيل الله، لربَّما تُوهِّم أنَّ التوبيخ على مجموع الأمرين.

وقيل: الخطاب لأهل الكتاب مطلقاً، وكان صدُّهم عن السبيل بُهْتُهم وتغييرُهم صفةَ النبي ﷺ، وإلى هذا ذهب الحسن وقتادة. وعن السُّدِّي: كانوا إذا سألهم أحدٌ: هل تجدون محمداً في كتبكم؟ قالوا: لا. فيصدُّونه عن الإيمان به، وهذا ذمٌّ لهم بالإضلال إثرَ ذمِّهم بالضلال.

وقرىء: «تُصِدُّون»[2] من أَصدّ.

﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ حالٌ إما من فاعل «تصدون» أو من فاعل «تبغون»، والاستئناف خلاف الظاهر. أي: كيف تفعلون هذا وأنتم علماء عارفون بتقدُّم البشارة به ﷺ، مطَّلعون على صحة نبوته، أو: وأنتم عدولٌ عند أهل مِلَّتكم، يثقون بأقوالكم ويستهدونكم في القضايا، وصفتكم هذه تقتضي خلافَ ما أنتم عليه.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٩٩﴾ تهديدٌ لهم على ما صنعوا، قيل: لمَّا كان كفرهم ظاهراً، ناسبَ ذكر الشهادة معه في الآية السابقة؛ لأنها تكون لِمَا يَظْهَر

---

(١) الانتصاف ٤/٤٤٩، ونقله المصنف عنه بواسطة الطيبي في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية، وما سيأتي منه.

(٢) القراءات الشاذة ص ٢٢.

ويُعْلَم، أو ما هو بمنزلته، وصدُّهم عن سبيل الله، وما معه، لمَّا كان بالمكر والحيلة الخفيَّة التي تَرُوجُ على الغافل، ناسَبَ ذكرَ الغفلة معه في هذه الآية، فلهذا ختم كلًّا من الآيتين بما ختم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ خطابٌ للأوس والخزرج، على ما يقتضيه سبب النزول، ويدخل غيرُهم من المؤمنين في عموم اللفظ. وخاطبهم الله تعالى بنفسه بعد ما أمرَ رسوله ﷺ بخطاب أهل الكتاب؛ إظهاراً لجلالة قَدْرهم، وإشعاراً بأنهم هم الأحِقَّاء بأنْ يخاطبهم الله تعالى ويكلِّمهم، فلا حاجة إلى أن يقال: المخاطَب الرسول ﷺ بتقدير: قل لهم.

والمراد من الفريق: بعضٌ غيرُ معيَّن، أو هو شاس[1] بن قيس اليهوديُّ، وفي الاقتصار عليه مبالغةٌ في التحذير، ولهذا على ما قيل حُذِفَ متعلِّقُ الفعل. وقال بعضهم: هو على معنى: إن تطيعوهم في قبول قولهم بإحياء الضغائن التي كانت بينكم في الجاهلية.

و«كافرين» إما مفعولٌ ثان لـ «يردوكم» على تضمين الردِّ معنى التصيير، كما في قوله:

رمى الحَدَثان نسوة آل سعد ... بمقدارٍ سَمَدْنَ له سُمُودا
فردَّ شُعورَهنَّ السُّودَ بيضاً ... وردَّ وجوهَهن البيضَ سُودا[2]

أو حالٌ من مفعوله، قالوا: والأول أَدْخَلُ في تنزيه المؤمنين عن نسبتهم إلى الكفر، لِمَا فيه من التصريح بكون الكفر المفروض بطريق القَسْر.

و«بعد» يجوز أن يكون ظرفاً لـ «يردُّوكم» وأن يكون ظرفاً لـ «كافرين»، وإيرادُه مع عدم الحاجة إليه ـ لإغناء ما في الخطاب عنه، واستحالة الردِّ إلى الكفر بدون

(١) في الأصل و(م): شماس وهو تصحيف.
(٢) البيتان لعبد الله بن الزبير الأسدي، كما في الحلل للبطليوسي ص ٧٠، والوافي بالوفيات ١٧/ ١٨٠، وخزانة الأدب ٢/ ٢٦٤. قال البطليوسي: ويقال: إنه للكميت بن معروف الأسدي. والسُّمود كما في الخزانة: تغير الوجه من الحزن. والحَدَثان بالتحريك: الحادثة ونائبة الدهر. والمقدار: ما قدَّره الله تعالى. وفيه قلب، أي: رمى تقدير الله تعالى نسوة آل حرب بحدثان.

سَبْقِ الإيمان ـ وتوسيطه بين المنصوبين؛ لإظهار كمال شناعة الكفر، وغايةِ بُعْدِه من الوقوع، إما لزيادة قُبْحه أو لممانعة الإيمان له، كأنه قيل: بعد إيمانكم الراسخ، وفي ذلك من تثبيتِ المؤمنين ما لا يخفى.

وقَدَّم توبيخ الكفار على هذا الخطاب؛ لأنَّ الكفار كانوا كالعِلَّة الداعية إليه.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ أي: على أيِّ حالٍ يقع منكم الكفر ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الدالَّةُ على توحيده ونبوَّة نبيِّه ﷺ.

﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ يعني: محمداً ﷺ، يعلِّمكم الكتاب والحكمة، ويزكِّيكم بتحقيق الحقِّ وإزاحة الشُّبَه. والجملة وقعت حالاً من ضمير المخاطبين في «تكفرون»، والمراد استبعادُ أن يقع منهم الكفر، وعندهم ما يأباه.

وقيل: المراد التعجيب، أي: لا ينبغي لكم أن تكفروا في سائر الأحوال، لا سيما في هذه الحال التي فيها الكفر أفظعُ منه في غيرها، وليس المراد إنكار الواقع كما في ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ الآية [البقرة: ٢٨].

وقيل: المراد بكفرهم: فعلُهم أفعال الكفرة؛ كدعوى الجاهلية، فلا مانع من أن يكون الاستفهام لإنكار الواقع. والأول أولى، وفي الآية تأييسٌ لليهود ممَّا رامُوه.

والأكثرون على تخصيص هذا الخطاب بأصحاب رسول الله ﷺ، أو الأوس والخزرج منهم، ومنهم مَن جعله عامًّا لسائر المؤمنين وجميع الأمة، وعليه: معنى كونه ﷺ فيهم، أنَّ آثاره وشواهدَ نبوته فيهم؛ لأنها باقيةٌ حتى يأتي أمر الله.

ولم يُسْنِدْ سبحانه التلاوة إلى رسوله عليه الصلاة والسلام إشارة إلى استقلال كلٍّ من الأمرين في الباب، وإيذاناً بأنَّ التلاوة كافيةٌ في الغرض من أيِّ تالٍ كانت.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ إما أن يُقدَّر مضاف، أي: ومَن يعتصم بدين الله. والاعتصامُ بمعنى التمسُّك، استعارة تبعية، وإما أن لا يقدَّر، فيجعل الاعتصام بالله استعارةً للالتجاء إليه سبحانه.

قال الطيبيُّ: وعلى الأول تكون الجملة معطوفة على «وأنتم تتلى عليكم» أي: كيف تكفرون والحالُ[1] أنَّ القرآن يتلى عليكم وأنتم عالمون بحال المعتصم به جلَّ

---

(١) في (م): أي والحال، والمثبت من الأصل وحاشية الطيبي على الكشاف.

شأنه. وعلى الثاني تكون تذييلاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ﴾ إلخ؛ لأنَّ مضمونه أنكم إنما تطيعونهم لِمَا تخافون من شرورهم ومكايدهم، فلا تخافوهم، والتجئوا إلى الله تعالى في دفع شرورهم، ولا تطيعوهم، أما علمتم أنَّ مَن التجأ إلى الله تعالى كفاه شرَّ مايخافه، فعلى الأول جيء بهذه الجملة لإنكار الكفر مع هذا الصارف القوي المفهومِ من قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ إلخ، وعلى الثاني للحثِّ على الالتجاء، ويحتمل على الأول التذييل، وعلى الثاني الحال أيضاً. فافهم.

و«مَن» شرطية، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ جواب الشرط، ولكونه ماضياً مع «قد» أفاد الكلامُ تحقُّقَ الهدى حتى كأنه قد حصل.

قيل: والتنوين للتفخيم، ووصفُ الصراط بالاستقامة للتصريح بالردِّ على الذين يبغون له عوجاً. والصراطُ المستقيم وإن كان هو الدِّين الحقّ في الحقيقة، والاهتداءُ إليه هو الاعتصام به بعينه، لكنْ لمَّا اختلف الاعتباران وكان العنوان الأخير مما يتنافس فيه المتنافسون أُبرز في معرض الجواب للحثِّ والترغيب، على طريقةِ قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] انتهى.

وأنت تعلم أنَّ هذا على ما فيه، إنما يُحتاج إليه على تقدير أنْ يكون المراد من الاعتصام بالله: الإيمان به سبحانه والتمسُّكُ بدينه، كما قاله ابن جريج، وأما إذا كان المراد منه الثقةَ بالله تعالى والتوكُّلَ عليه والالتجاءَ إليه كما روي عن أبي العالية، فَيَبْعد الاحتياج إليه[١]، وعلى هذا يكون المراد من الاهتداء إلى الصراط المستقيم: النجاةُ والظفر بالمَخْرَج، فقد أخرج الحكيم الترمذيُّ عن الزهري قال: أوحى الله تعالى إلى[٢] داود عليه السلام: ما مِن عبدٍ يعتصم بي مِن دون خَلْقي، وتَكيدُه السماوات والأرض، إلا جعلتُ له من ذلك مخرجاً، وما من عبد يعتصم بمخلوقٍ من دوني إلا قطعتُ أسباب السماء بين يديه وأَسَخْتُ الأرض من تحت قدميه[٣].

(١) قوله: إليه. ساقط من (م).
(٢) قوله: إلى، ساقط من (م).
(٣) نوادر الأصول في الأصل السابع والثمانين والمئة، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٢/ ٥٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كرّر الخطاب بهذا العنوان تشريفاً لهم، ولا يخفى ما في تكراره من اللطف بعد تكرار خطاب الذين أوتوا الكتاب.

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي: حقَّ تقواه، روى غير واحد عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً: هو أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر[١].

وادَّعى كثيرٌ نَسْخَ هذه الآية، وروي ذلك عن ابن مسعود. وأخرج ابن أبي حاتم[٢] عن سعيد بن جبير قال: لمَّا نزلت اشتدَّ على القوم العمل، فقاموا حتى وَرِمَتْ عراقيبُهم وتقرَّحت جباههم، فأنزل الله تعالى تخفيفاً على المسلمين ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] فنَسَخَت الآية الأولى. ومثله عن أنس وقتادة، وإحدى الروايتين عن ابن عباس.

وروى ابن جرير[٣] من بعض الطرق عنه أنه قال: لم تُنسخ، ولكن «حق تقاته»: أن يجاهدوا في الله حقَّ جهاده، ولا تأخذهم في الله تعالى لومةُ لائم، ويقوموا لله سبحانه بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم.

ومَن قال بالنسخ جنح إلى أنَّ المراد من «حق تقاته»: ما يحقُّ له ويليق بجلاله وعظمته، وذلك غير ممكن: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٦٧].

ومَن قال بعدم النسخ جنح إلى أنَّ «حق» من: حقَّ الشيءُ بمعنى: وجب وثبت، والإضافة من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، وأنَّ الأصل: اتقوا الله اتِّقاءً حقّاً، أي: ثابتاً وواجباً، على حدِّ: ضربتُ زيداً[٤] شديدَ الضَّرب، تريد: الضَّرْبَ الشديد، فيكون قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] بياناً لقوله تعالى: (ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ).

---

(١) أخرجه موقوفاً النسائي في الكبرى (١١٨٤٧)، وابن المبارك في الزهد ص ٨، وعبد الرزاق في تفسيره ١/ ١٢٩، وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩٧، والطبري ٥/ ٦٣٧، وابن أبي حاتم ٣/ ٧٢٢، والحاكم ٢/ ٢٩٤ وصححه. وأخرج المرفوع أبو نعيم في الحلية ٧/ ٢٣٨ - ٢٣٩. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: والأظهر أنه موقوف.

(٢) في تفسيره ٣/ ٧٢٢.

(٣) في تفسيره ٥/ ٦٤٠.

(٤) في الأصل و(م): زيد، والمثبت هو الصواب، وينظر البحر ٣/ ١٧.

وادَّعى أبو علي الجُبَّائي أنَّ القول بالنسخ باطلٌ؛ لِمَا يلزم عليه من إباحة بعض المعاصي.

وتعقَّبه الرُّمانيُّ[1] بأنه إذا وُجِّه قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ على أن يقوموا بالحقِّ في الخوف والأمن، لم يدخل عليه ما ذكره؛ لأنه لا يمتنع أن يكون أوجب عليهم أن يتَّقوا الله سبحانه وتعالى على كلِّ حال، ثم أباح تَرْكَ الواجب عند الخوف على النفس، كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وأنت تعلم أنَّ ما ذكره الجُبَّائيُّ إنما يخطر بالبال ـ حتى يجاب عنه ـ إذا فُسِّر «حق تقاته» على تقدير النسخ بما فسَّره هو به مِن تَرْكِ جميع المعاصي ونحوه، وإن لم يُفسَّر بذلك بل فُسِّر بما جنح إليه القائل بالنسخ، فلا يكاد يخطر ما ذكره ببال ليحتاج إلى الجواب، نعم يكون القول بإنكار النسخ حينئذ مبنيًّا على ما ذهب إليه المعتزلة من امتناع التكليف بما لا يطاق ابتداءً كما لا يخفى.

وأصل «تقاة»: وُقَيَة، قُلبت واوها المضمومة تاءً كما في تُهَمَة وتُخَمَة، وياؤها المفتوحة ألفاً، وأجاز فيها الزجَّاج[2] ثلاثة أوجهٍ: تُقاة، ووُقاة، وأُقاة.

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي: مخلصون نفوسكم لله عز وجل، لا تجعلون فيها شِرْكَةً لسواه أصلاً، وذكر بعض المحققين أنَّ الإسلام في مثل هذا الموضع لا يراد به الأعمال، بل الإيمان القَلبيُّ؛ لأنَّ الأعمال حالَ الموت مما لا تكاد تتأتَّى، ولذا ورد في دعاء صلاة الجنازة: «اللهم مَن أحييته منَّا فأَحْيِهِ على الإسلام، ومَن أمتَّه منَّا فأمِتْهُ على الإيمان»[3]، فَأَخْذُ الإسلام أولاً والإيمان ثانياً، لِمَا أنَّ لكلِّ مقامٍ مقالاً.

والاستثناء من أعمِّ الأحوال، أي: لا تموتنَّ على حالٍ من الأحوال إلا على حالِ تَحقُّق إسلامكم وثباتِكم عليه، كما تفيده الجملة الإسمية، ولو قيل: إلا مسلمين لم يقع هذا الموقع. والعامل في الحال ما قَبْلَ «إلا» بعد النقض، والمقصودُ النهيُ

---

(١) هو علي بن عيسى الرماني، كان إماماً في العربية، علاَّمة في الأدب، معتزليًّا، توفي سنة (٣٨٤هـ). بغية الوعاة ٣/ ١٨٠.

(٢) في معاني القرآن له ١/ ٤٤٩.

(٣) أخرجه أحمد (٨٨٠٩)، وأبو داود (٣٢٠١)، والترمذي (١٠٢٤). وابن ماجه (١٤٩٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

عن الكون على حالٍ غيرِ حال الإسلام عند الموت، ويَؤُول إلى إيجاب الثبات على الاسلام إلى الموت، إلا أنه وجَّه النهي إلى الموت للمبالغة في النهي عن قيده المذكور، وليس المقصود النهيُ عنه أصلاً؛ لأنه ليس بمقدورٍ لهم حتى يُنهَوا عنه.

وفي «التحبير» للإمام السيوطي: ومن عجيب ما اشتَهر في تفسير «مسلمون» قول العوام: أي: متزوِّجون، وهو قولٌ لا يُعرف له أصل، ولا يجوز الإقدام على تفسير كلام الله تعالى بمجرَّد ما يحدث في النفس، أو يُسمع ممن لا عُهْدَةَ عليه. انتهى.

وقرأ أبو عبد الله رضي الله عنه: «مسلِّمون» بالتشديد. ومعناه: مستسلمون لما أتى به النبيُّ ﷺ منقادون له[1]. وفي هذه الآية تأكيدٌ للنهي عن إطاعة أهل الكتاب.

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾ أي: القرآن. وروي ذلك بسند صحيح عن ابن مسعود[2].

وأخرج غير واحد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض»[3].

وأخرج أحمد[4] عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: «إني تاركٌ فيكم خليفتين: كتاب الله عز وجل [حبل] ممدودٌ ما بين السماء والأرض، وعِترتي أهلَ بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يَرِدا عليَّ الحوض» وورد بمعنى ذلك أخبار كثيرة.

وقيل المراد بحبل الله: الطاعة والجماعة، وروي ذلك عن ابن مسعود أيضاً؛ أخرج ابن أبي حاتم[5] من طريق الشعبيِّ عن ثابت بن قُطْبَةَ المدني[6] قال: سمعت ابن مسعود يخطب وهو يقول: أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة، فإنهما حبلُ الله تعالى الذي أمر به.

---

(١) مجمع البيان ٤/ ١٥٧.
(٢) أخرجه سعيد بن منصور (٥١٩ ـ تفسير)، والطبري ٥/ ٦٤٦، والطبراني في الكبير (٩٠٣٢).
(٣) أخرجه أحمد (١١١٠٤).
(٤) في المسند (٢١٥٧٨). وما سيأتي بين حاصرتين منه.
(٥) في تفسيره ٣/ ٧٢٣، وأخرجه ـ أيضاً ـ أبو نعيم في الحلية ٩/ ٢٤٩.
(٦) في الأصل و(م): ثابت بن قطنة المزني، والصواب ما أثبتناه. ينظر توضيح المشتبه ٧/ ٢٢٩.

وفي رواية عنه: حبل الله تعالى: الجماعة[١]، وروي ذلك أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وعن أبي العالية: أنه الإخلاص لله تعالى وحده. وعن الحسن أنه طاعة الله عز وجل. وعن ابن زيد أنه الإسلام. وعن قتادة أنه عهد الله تعالى وأمره. وكلها متقاربة.

وفي الكلام استعارةٌ تمثيلية بأنْ شُبِّهت الحالةُ الحاصلة للمؤمنين من استظهارهم بأحد ما ذكر ووثوقهم بحمايته، بالحالة الحاصلة من تمسُّك المتدلِّي من مكان بحبلٍ وثيقٍ مأمونِ الانقطاع، من غير اعتبار مجازٍ في المفردات، واستعير ما يُستعمل في المشبَّه به من الألفاظ للمشبَّه.

وقد يكون في الكلام استعارتان مترادفتان، بأن يُستعار الحبل للعهد مثلاً استعارةً مصرِّحة أصلية، والقرينةُ الإضافةُ، ويُستعار الاعتصام للوثوق بالعهد والتمسُّك به على طريق الاستعارة المصرحة التبعية، والقرينةُ اقترانُها بالاستعارة الثانية.

وقد يكون في «اعتصموا» مجازٌ مرسلٌ تبعيٌّ بعلاقة الإطلاق والتقييد، وقد يكون مجازاً بمرتبتين لأجل إرسال المجاز، وقد تكون الاستعارة في الحبل فقط، ويكون الاعتصام باقياً على معناه ترشيحاً لها على أتمِّ وجه، والقرينة قد تختلف بالتصرُّف، فباعتبارٍ قد تكون مانعةً، وباعتبار آخر قد لا تكون، فلا يَرِدُ أنَّ احتمال المجازية يتوقَّفُ على قرينةٍ مانعةٍ عن إرادة الموضوع[٢] له، فمع وجودها كيف يتأتَّى إرادة الحقيقة ليصحَّ الأمران في «اعتصموا»؟

وقد تكون الاستعارتان غير مستقلَّتين، بأن تكون الاستعارة في الحبل مكنيَّةً، وفي الاعتصام تخييلية؛ لأنَّ المكنيةَ مستلزمةٌ للتخييلية. قاله الطيبيُّ[٣]، ولا يخفى أنه أبعد من العيُّوق.

وقد ذكرنا في حواشينا على رسالة ابن عصام ما يَرِدُ على بعض هذه الوجوه مع الجواب عن ذلك، فارجع إليه إن أردته.

﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ من فاعل «اعتصموا» كما هو الظاهر المتبادر، أي: مجتمعين

---

(١) أخرجه الطبري ٥/ ٦٤٤، والطبراني في الكبير (٩٠٣٣).

(٢) في (م): الموضع.

(٣) في حاشيته على الكشاف عند هذه الآية.

عليه، فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ تأكيداً، بناءً على أنَّ المعنى: ولا تتفرَّقوا عن الحق الذي أُمرتم بالاعتصام به.

وقيل: المعنى: لا يقعْ بينكم شقاقٌ وحروبٌ كما هو مراد المذكِّرين لكم بأيام الجاهلية الماكرين بكم.

وقيل: المعنى: لا تتفرقوا عن رسول الله ﷺ، وروي ذلك عن الحسن.

﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: جنسَها، ومن ذلك الهدايةُ والتوفيق للإسلام المؤدِّي إلى التآلُف وزوال الأضغان.

ويحتمل أن يكون المراد بها ما بيَّنه سبحانه بقوله: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾ أي: في الجاهلية ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بالإسلام.

و«نعمة» مصدرٌ مضافٌ إلى الفاعل، و«عليكم» إما متعلِّقٌ به أو حالٌ منه، و«إذ» إما ظرفٌ للنعمة أو للاستقرار في «عليكم» إذا جعلته حالاً.

قيل: وأراد سبحانه بما ذكر: ما كان بين الأوس والخزرج من الحروب التي تطاولت مئةً وعشرين سنة، إلى أن أَلَّف سبحانه بينهم بالإسلام فزالت الأحقاد. قاله ابن إسحاق، وكان يومُ بُعاث آخرَ الحروب التي جرت بينهم، وقد فصّل ذلك في «الكامل»(١).

وقيل: أراد ما كان بين مشركي العرب من التنازع الطويل والقتال العريض، ومنه حرب البَسوس، ونُقل ذلك عن الحسن رضي الله عنه.

﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَانًا﴾ أي: فصِرْتُم بسبب نعمته التي هي ذلك التأليفُ متحابِّين، فـ «أصبح»، ناقصة، و«إخواناً» خبره.

وقيل: «أصبحتم» أي: دخلتم في الصباح، فالباء حينئذ متعلِّقةٌ بمحذوف وقع حالاً من الفاعل، وكذا «إخواناً» أي: فأصبحتم متلبِّسين بنعمته حالَ كونكم إخواناً.

والإخوان جمع أخ، وأكثر ما يجمع أخو الصداقة على ذلك، على الصحيح، وفي «الإتقان»: الأخ في النسب جَمْعُه: إخوة، وفي الصداقة: إخوان، قاله ابن فارس، وخالفه غيرُه وأَوْرَدَ في الصداقة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وفي النسب:

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٦٨٠.

﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾ [النور: ٦١][1].

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: وكنتم على طَرَف حفرة من جهنم؛ إذ لم يكن بينكم وبينها إلا الموت. وتفسير الشَّفا بالطَّرَف مأثورٌ عن السُّدِّيِّ في الآية، ووارِدٌ عن العرب، ويثنَّى على شَفَوان، ويُجمع على أَشْفاء، ويضاف إلى الأعلى كـ ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩] وإلى الأسفل، قيل: كما هنا.

وكون المراد من النار ما ذكرنا هو الظاهر، وحَمْلُها على نار الحرب بعيد.

﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ أي: بمحمد ﷺ؛ قاله ابن عباس. والضمير المجرور عائدٌ إما على النار، أو على «حفرة»، أو على «شفا» لأنه بمعنى الشفة، أو لاكتسابه التأنيث من المضاف إليه، كما في قوله:

وتَشْرَقَ بالقول الذي قد أذَعْتَه ... كما شَرِقَتْ صَدْرُ القناة من الدَّمِ[2]

فإنَّ المضاف يكتسب التأنيث من المضاف إليه إذا كان بعضاً منه، أو فعلاً له أو صفةً كما صرَّحوا به، وما نحن فيه من الأول، ومَن أطلق لزمه جواز: قامت غلام هند.

واختار الزمخشريُّ الاحتمال الأخير[3]. وقال ابن المنير: وعَوْدُ الضمير إلى الحفرة أتمُّ؛ لأنها التي يمتنُّ بالإنقاذ منها حقيقةً، وأمَّا الامتنانُ بالإنقاذ من الشَّفا فلِمَا يستلزمه الكونُ على الشَّفا غالباً من الهويِّ إلى الحفرة، فيكون الإنقاذ من الشفا إنقاذاً من الحفرة التي يتوقَّع الهويُّ فيها، فإضافة المِنَّة إلى الإنقاذ من الحفرة أبلغ وأوقع، مع أنَّ اكتساب التأنيث من المضاف إليه قد عدَّه أبو عليٍّ في التعاليق من ضرورة الشعر خلاف رأيه في «الإيضاح»، وما حمل الزمخشريَّ على إعادة الضمير إلى الشَّفا إلا أنه هو الذي كانوا عليه، ولم يكونوا في الحفرة حتى يمتنَّ عليهم بالإنقاذ من الحفرة، وقد عُلم أنهم كانوا صائرين إليها لولا الإنقاذُ الربَّاني، فبُولغ في الامتنان بذلك، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «الراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه»[4]، وإلى قوله تعالى: ﴿أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ

(١) الإتقان ١/ ١٩٣، وقول ابن فارس في مجمل اللغة ١/ ٩٠.

(٢) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ١٨٣ (طبعة دار صادر).

(٣) الكشاف ١/ ٤٥١.

(٤) أخرجه أحمد (١٨٣٧٤)، والبخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩] فانظر كيف جعل تعالى كونَ البنيان على الشَّفا سبباً مؤدِّياً إلى انهياره في نار جهنم، مع تأكيد ذلك بقوله سبحانه: ﴿هَارٍ﴾ انتهى[1].

ومنه يُعلم ما في قول أبي حيان من أنه لا يَحْسُنُ عَوْدُه إلا إلى الشَّفا؛ لأنَّ كينونتهم عليه هو أحد جزأي الإسناد، فالضمير لا يعود إلّا إليه، لا على الحفرة؛ لأنها غيرُ محدَّثٍ عنها، ولا على النار؛ لأنه إنما جيء بها لتخصيص الحفرة. وأيضاً فالإنقاذ من الشَّفا أبلغُ من الإنقاذ من الحفرة ومن النار، والإنقاذ منهما لا يستلزم الإنقاذَ من الشَّفا، فعَوْدُه على الشَّفا هو الظاهر من حيث اللفظ ومن حيث المعنى[2].

نعم ما ذكره من أنَّ عودَه على الشَّفا هو الظاهر من حيث اللفظ ظاهرٌ، بناءً على أنَّ الأصل أن يعود الضمير على المضاف دون المضاف إليه إذا صلح لكلٍّ منهما ولو بتأويل، إلا أنه قد يترك ذلك فيعود على المضاف إليه؛ إما مطلقاً ـ كما هو قول ابن المنير ـ أو بشرطِ كونه بعضَه، أو كبعضه؛ كقول جرير:

أرى مرَّ السنين أَخَذْنَ منِّي[3]

فإنَّ مرَّ السنين من جنسها، وإليه ذهب الواحديُّ[4]، والشرط موجودٌ فيما نحن فيه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك التبيين الواضح ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: دلائله فيما أمركم به ونهاكم عنه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: لكي تدوموا على الهدى وازديادِكم فيه كما يشعر به كون الخطاب للمؤمنين، أو صيغة المضارع من الافتعال.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أمرهم سبحانه بتكميل الغير إثر أمرهم بتكميل النفس؛ ليكونوا هادين مهديِّين، على ضدِّ أعدائهم، فإنَّ ما قصَّ الله تعالى من حالهم فيما سبق يدلُّ على أنهم ضالُّون مضلُّون.

---

(١) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ١/ ٤٥١ بهامش الكشاف.
(٢) البحر المحيط ٣/ ١٩.
(٣) وعجزه: كما أَخَذَ السِّرارُ من الهلال، وهو في ديوانه ٢/ ٥٤٦.
(٤) في تفسيره ١/ ٤٧٤.

والجمهور على إسكان لام الأمر، وقرئ بكسرها على الأصل[1].

و«تكن»: إما من «كان» التامَّة، فتكون «أمةٌ» فاعلاً وجملةُ «يدعون» صفتَه، و«منكم» متعلِّقٌ بـ «تكن»، أو بمحذوفٍ على أن يكون صفة لـ «أمة» قُدِّم عليها فصار حالاً. وإما من «كان» الناقصة فتكون «أمة» اسمَها، و«يدعون» خبرها، و«منكم» إما حالٌ من أمة، أو متعلِّقٌ بـ «كان» الناقصة.

والأمة: الجماعة التي تُؤَمُّ، أي: تقصد لأمرٍ ما، وتُطْلَق على أتباع الأنبياء لاجتماعهم على مقصدٍ واحد، وعلى القدوة، ومنه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، وعلى الدِّين والمِلَّة، ومنه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] وعلى الزمان، ومنه: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، إلى غير ذلك من معانيها.

والمراد من الدعاء إلى الخير: الدعاء إلى ما فيه صلاحٌ دينيٌّ أو دنيوي، فعَطْفُ الأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكر عليه في قوله سبحانه: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ من بابِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ، إيذاناً بمزيد فضلهما على سائر الخيرات، كذا قيل.

وقال[2] ابن المنير: إنَّ هذا ليس من تلك الباب؛ لأنه ذَكَر بعد العامِّ جميعَ ما يتناوله؛ إذ الخير المدعوُّ إليه: إما فعلُ مأمور، أو تركُ منهيّ، لا يعدو واحداً من هذين حتى يكون تخصيصُهما بتميُّزهما عن بقية المتناولات، فالأولى أن يقال: فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عامًّا، ثم مفصَّلاً، وفي تثنية الذكر على وجهين ما لا يخفى من العناية، إلا إنْ ثبت عُرْفٌ يخصُّ الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر ببعض أنواع الخير، وحينئذ يتمُّ ما ذَكَر، وما أرى هذا العُرْفَ ثابتاً[3] انتهى.

وله وجهٌ وجيه؛ لأنَّ الدعاء إلى الخير لو فُسِّر بما يشمل أمورَ الدنيا ـ وإن لم يتعلَّق بها أمرٌ أو نهي ـ كان أعمَّ من فرض الكفاية، ولا يخفى ما فيه، على أنه قد

---

(١) هي قراءة الحسن والزهري وأبي عبد الرحمن وعيسى بن عمر وأبو حيوة. المحرر الوجيز ١/ ٤٨٥.

(٢) ضرب عليها في الأصل وكُتب في الهامش: وزعم.

(٣) الانتصاف ١/ ٤٥٣.

أخرج ابن مردويه[١] عن الباقر رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ ثم قال: «الخيرُ اتِّباعُ القرآن وسُنَّتي» وهذا يدلُّ أنَّ الدعاء إلى الخير لا يشمل الدعاء إلى أمور الدنيا.

ومن الناس مَن فسَّر الخير بمعروفٍ خاصٍّ، وهو الإيمان بالله تعالى، وَجعَلَ المعروف في الآية ما عَدَاه من الطاعات، فحينئذ لا يتأتَّى ما قاله ابن المنير أيضاً، ويؤيِّده ما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل أنَّ الخير: الإسلام، والمعروف: طاعة الله، والمنكر: معصيته[٢].

وحذف المفعول الصريح من الأفعال الثلاثة؛ إما للإعلام بظهوره، أي: يدعون الناس ولو غيرَ مكلَّفين، ويأمرونهم وينهونهم، وإما للقصد إلى إيجاد نفس الفعل على حدِّ: فلانٌ يعطي، أي: يفعلون الدعاءَ والأمرَ والنهيَ ويُوْقِعونها.

والخطاب، قيل: متوجِّهٌ إلى مَنْ توجَّه الخطاب الأول إليه في رأي، وهم الأوس والخزرج، وأخرج ابن المنذر[٣] عن الضحاك أنه متوجِّهٌ إلى أصحاب رسول الله ﷺ خاصةً، وهم الرواة، والأكثرون على جَعْله عامّاً، ويدخل فيه مَنْ ذُكر دخولاً أوَّلياً.

و«مِن» هنا قيل: للتبعيض، وقيل: للتبيين وهي تجريدية، كما يقال: لفلانٍ من أولاده جندٌ، وللأمير من غِلمانه عَسْكر. يراد بذلك جميعُ الأولاد والغلمان.

ومنشأ الخلاف في ذلك أنَّ العلماء اتفقوا على أنَّ الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر من فروض الكفايات، ولم يخالف في ذلك إلا النَّزْر، ومنهم الشيخ أبو جعفر[٤] من الإمامية قالوا: إنها من فروض الأعيان.

واختلفوا في أنَّ الواجب على الكفاية، هل هو واجبٌ على جميع المكلَّفين، ويسقط عنهم بفعل بعضهم، أو هو واجبٌ على البعض؟

---

(١) كما في الدر المنثور ٢/ ٦٢.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٧٢٧.
(٣) كما في الدر المنثور ٢/ ٦٢. وأخرجه ـ أيضاً ـ الطبري في التفسير ٥/ ٦٢٢.
(٤) الطوسي، محمد بن الحسن بن علي، وذكر قوله الطبرسي في مجمع البيان ٤/ ١٦٠.

ذهب الإمام الرازي[1] وأتباعه إلى الثاني؛ للاكتفاء بحصوله من البعض، ولو وجب على الكلِّ لم يكتف بفعل البعض؛ إذ يُستبعد سقوط الواجب على المكلَّف بفعل غيره.

وذهب إلى الأول الجمهور، وهو ظاهر نصِّ الإمام الشافعي في «الأم». واستدلُّوا على ذلك بإثم الجميع بتَرْكه، ولو لم يكن واجباً عليهم كلهم لما أَثِموا بالترك.

وأجاب الأولون عن هذا بأنَّ إثمهم بالترك لتفويتهم ما قُصد حصوله من جهتهم في الجملة، لا للوجوب عليهم.

واعتُرض عليه من طرف الجمهور بأنَّ هذا هو الحقيق بالاستبعاد، أعني: إثم طائفة بتَرْكِ أخرى فعلاً كُلِّفت به. والجواب عنه بأنه ليس الإسقاط عن غيرهم بفعلهم أولى من تأثيم غيرهم بتركهم. يقال فيه: بل هو أولى؛ لأنه قد ثبت نظيرُهُ شرعاً من إسقاطِ ما على زيدٍ بأداء عمرو، ولم يثبت تأثيمُ إنسانٍ بتَرْك آخر، فيتمُّ ما قاله الجمهور.

واعتُرض القول بأنَّ هذا هو الحقيق بالاستبعاد بأنه إنما يتأتَّى لو ارتبط التكليف في الظاهر بتلك الطائفة الأخرى بعينها وحدها، لكنه ليس كذلك، بل كلتا الطائفتين متساويتان في احتمال الأمر لهما، وتعلُّقُه بهما من غير مزيَّةٍ لإحداهما على الأخرى، فليس في التأثيم المذكور تأثيمُ طائفةٍ بتَرْك أخرى فعلاً كُلِّفت به؛ إذ كون الأخرى كُلِّفتْ به غيرَ معلوم، بل كلتا الطائفتين متساويتان في احتمال كلٍّ أن تكون مكلفةً به، فالاستبعاد المذكور ليس في محلِّه، على أنه إذا قلنا بما اختاره جماعةٌ من أصحاب المذهب الثاني، من أنَّ البعض مبهمٌ، آلَ الحالُ إلى أنَّ المكلَّف طائفةٌ لا بعينها، فيكون المكلَّف القَدْرَ المشتركَ بين الطوائف الصادقَ بكلِّ طائفة، فجميع الطوائف مستويةٌ في تعلُّق الخطاب بها بواسطة تعلُّقه بالقَدْر المشترك المستوي فيها، فلا إشكال في إثم الجميع، ولا يصير النزاع بهذا بين الطائفتين لفظيًّا، حيث إنَّ الخطاب حينئذ عمَّ الجميع على القولين، وكذا الإثم عند الترك، لِمَا أنَّ في

(١) في تفسيره ٨/ ١٧٨.

أحدهما دعوى التعليق بكلٍّ واحد بعينه، وفي الآخر دعوى تعلُّقه بكلٍّ بطريق السراية من تعلُّقه بالمشترك.

وثمرةُ ذلك أنَّ مَنْ شَكَّ أنَّ غيرَهُ هل فعل ذلك الواجب، لا يلزمه على القول بالسراية، ويلزمه على القول بالابتداء، ولا يسقط عنه إلا إذا ظنَّ فِعْلَ الغير، ومن هنا يُستغنَى عن الجواب عما اعترض به من طرف الجمهور، فلا يضرُّنا ما قيل فيه.

على أنه يقال على ما قيل: ليس الدَّين نظيرَ ما نحن فيه كلِّيًّا، لأنَّ دَين زيدٍ واجبٌ عليه وحده بحسب الظاهر، ولا تعلُّق له بغيره، فلذا صحَّ أن يَسقط عنه بأداء غيره، ولم يصحَّ أن يأثم غيرُهُ بترك أدائه، بخلاف ما نحن فيه، فإنَّ نسبة الواجب في الظاهر إلى كلتا الطائفتين على السواء فيه، فجاز أن يأثم كلُّ طائفة بتَرْك غيرها لتعلُّق الوجوب بها بحسب الظاهر، واستوائها مع غيرها في التعلُّق.

وأما قولهم: ولم يثبت تأثيم إنسان بأداء آخر، فهو لا يطابق البحث؛ إذ ليس المدَّعى تأثيمُ أحدٍ بأداء غيره، بل تأثيمه بتَرْك، فالمطابق: ولم يثبت تأثيم إنسان بترك أداءِ آخر، ويتخلَّص منه حينئذ بأنَّ التعلُّق في الظاهر مشتركٌ في سائر الطوائف، فيتمُّ ما ذهب إليه الإمام الرازي وأتباعه، وهو مختار ابن السبكي، خلافاً لأبيه.

إذا تحقق هذا، فاعلم أنَّ القائلين بأنَّ المكلَّف البعضُ، قالوا: إنَّ «من» للتبعيض، وأنَّ القائلين بأنَّ المكلَّف الكلُّ، قالوا: إنها للتبيين، وأيَّدوا ذلك بأنَّ الله تعالى أثبت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكلِّ الأمة في قوله سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ولا يقتضي ذلك كونَ الدعاء فرضَ عين، فإنَّ الجهاد من فروض الكفاية بالإجماع، مع ثبوته بالخطابات العامة. فتأمل.

﴿وَأُولَئِكَ﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات الكاملة ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ أي: الكاملون في الفلاح، وبهذا صحَّ الحَصْرُ المستفاد من الفصل وتعريف الطرفين.

أخرج الإمام أحمد وأبو يعلى عن دُرَّة بنت أبي لهب قالت: سئل رسول الله ﷺ مَنْ خير الناس؟ قال: «آمَرُهُم بالمعروف، وأنهاهُم عن المنكر، وأتقاهم لله تعالى، وأوصلُهم للرَّحم»(١).

---

(١) مسند أحمد (٢٧٤٣٤).

وروى الحسن: مَنْ أَمَرَ بالمعروف ونهى عن المنكر، فهو خليفة الله تعالى وخليفة رسوله ﷺ وخليفة كتابه[١].

وروي: لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتَنْهَونَّ عن المنكر، أو ليُسلِّطَنَّ الله تعالى عليكم سلطاناً ظالماً، لا يُجلُّ كبيرَكُم، ولا يرحَمُ صغيركم، ويدعو خيارُكُم فلا يُستجابُ لهم، وتَسْتَنصِرون فلا تنصَرون[٢].

والأمر بالمعروف يكون واجباً ومندوباً على حَسَب ما يؤمر به، والنهي عن المنكر كذلك أيضاً إن قلنا: إنَّ المكروه منكرٌ شرعاً، وأما إن فُسِّر بما يستحقُّ العقاب عليه، كما أنَّ المعروف ما يستحقُّ الثواب عليه، فلا يكون إلا واجباً، وبه قال بعضهم، إلا أنه يَرِدُ أنهما ليسا على طرفي نقيض.

والأظهرُ أنَّ العاصي يجب عليه أن يَنْهَى عمَّا يَرتَكبه؛ لأنه يجب عليه نهيُ كلِّ فاعل، وتَرْكُ نهي بعضٍ ـ وهو نفسه ـ لا يُسقط عنه وجوبَ نهي الباقي، وكذا يقال في جانب الأمر، ولا يعكِّر على ذلك قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢] لأنه مؤوَّلٌ بأنَّ المراد نهيُهُ عن عدم الفعل، لا عن القول، ولا قوله سبحانه: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] لأنَّ التوبيخ إنما هو على نسيان أنفسهم، لا على أمرهم بالبر، وعن بعض السلف: مُروا بالخير وإن لم تفعلوا.

نعم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروطٌ معروفة في[٣] محلِّها، والأصل فيهما: افعل كذا، ولا تفعل كذا. والقتالُ ليمتثلَ المأمورُ والمنهيُّ أَمْرٌ وراءَ ذلك، وليس داخلاً في حقيقتهما ـ وإنْ وجب على بعضٍ، كالأمراء في بعض الأحيان ـ لأنَّ ذلك حكمٌ آخر، كما يُشعر به قوله ﷺ: «مُروا أولادكم بالصلاة وهم أبناءُ سبعِ سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرِّقوا بينهم في المضاجع»[٤].

---

(١) أخرجه علي بن معبد في كتاب الطاعة كما ذكر ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٣٠، وأخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢١٠٤ من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه مرفوعاً، وفيه كادح العرني، وهو ساقط كما قال الحافظ.

(٢) ذكره ابن عبد البر في الاستذكار ٢٧/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤ من حديث أبي الدرداء موقوفاً.

(٣) قوله: في. ساقط من (م).

(٤) أخرجه أحمد (٦٦٨٩) وأبو داود (٤٩٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟﴾ وهم اليهود والنصارى، قاله الحسن والربيع. وأخرج ابن ماجه[١] عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «افْتَرَقَتِ اليهودُ على إحدى وسبعين فِرْقَةً، فواحدةٌ في الجنة وسبعون في النار. وافترقت النصارى على ثِنْتَينِ وسبعين فِرْقة، فإحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة. والذي نفسي بيده، لتفترِقَنَّ أُمَّتي على ثلاثٍ وسبعين فرقة، فواحدةٌ في الجنة وثنتان وسبعون في النار» قيل: يا رسول الله، مَن هم؟ قال: «الجماعة».

وفي رواية أحمد عن معاوية مرفوعاً: «إنَّ أهل الكتاب تفرَّقوا في دينهم على ثنتين وسبعين مِلَّةً، وتفترقُ هذه الأمة على ثلاثٍ وسبعين، كلُّها في النار إلا واحدة»[٢].

وفي رواية له أخرى عن أنس مرفوعاً أيضاً: «إنَّ بني إسرائيل تفرَّقت إحدى وسبعين فرقة، فهلكت سبعون فرقة، وخَلَصَتْ فرقة واحدة، وإنَّ أمَّتي ستفترقُ على اثنتين وسبعين فرقة، تهلك إحدى وسبعون فرقة، وتَخْلُصُ فرقة»[٣].

ولا تَعارُضَ بين هذه الروايات؛ لأنَّ الافتراق حَصَلَ لمن حَصَلَ على طِبْقِ ما وقع فيها في بعض الأوقات، وهو يكفي للصدق، وإن زاد العدد أو نقص في وقت آخر.

﴿وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ في التوحيد والتنزيه وأحوال المعاد، قيل: وهذا معنى «تفرَّقوا» وكرَّره للتأكيد، وقيل: التفرُّق بالعداوة، والاختلاف بالديانة.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: الآيات والحجج المبيِّنة للحقِّ، الموجبةُ لاتِّحاد الكلمة. وقال الحسن: التوراة. وقال قتادة وأبو أمامة: القرآن.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين باعتبار اتِّصافهم بما في حيِّز الصلة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ لا يُكْتَنَهُ، على تفرُّقهم واختلافهم المذكور، وفي ذلك وعيدٌ لهم وتهديدٌ للمتشبِّهين بهم؛ لأنَّ التشبيه بالمغضوب عليه يستدعي الغضب.

---

(١) في سننه (٣٩٩٢).
(٢) مسند أحمد (١٦٩٣٧). وأخرجه ـ أيضاً ـ أبو داود (٤٥٩٧).
(٣) مسند أحمد (١٢٤٧٩).

ثم إنَّ هذا الاختلافَ المذمومَ محمولٌ ـ كما قيل ـ على الاختلاف في الأصول دون الفروع، ويؤخَذُ هذا التخصيص من التشبيه.

وقيل: إنه شاملٌ للأصول والفروع؛ لِمَا نرى من اختلاف أهل السُّنَّة فيها كالماتريديِّ والأشعري، فالمراد حينئذ بالنهي عن الاختلاف: النهيُ عن الاختلاف فيما ورد فيه نصٌّ من الشارع، أو أُجمع عليه، وليس بالبعيد.

واستُدلَّ على عدم المنع من الاختلاف في الفروع بقوله عليه الصلاة والسلام: «اختلافُ أمَّتي رحمة»[1]. وبقوله ﷺ: «مهما أوتيتم من كتاب الله تعالى فالعمل به، لاعذْرَ لأحدٍ في تَرْكه، فإن لم يكن في كتاب الله تعالى، فسنَّةٌ منِّي ماضية، فإن لم يكن سنَّةٌ منِّي، فما قال أصحابي، إنَّ أصحابي بمنزلة النجوم في السماء، فأيُّما أخذتم به اهتديتم، واختلافُ أصحابي لكم رحمة»[2].

وأراد بهم ﷺ خواصَّهم البالغين رتبةَ الاجتهاد، والمقصودُ بالخطاب مَنْ دونَهم، فلا إشكال فيه خلافاً لمن وَهَم، والروايات عن السلف في هذا المعنى كثيرة:

فقد أخرج البيهقيُّ في «المدخل» عن القاسم بن محمد قال: اختلاف أصحاب محمد رحمةٌ لعباد الله تعالى[3]. وأخرجه ابن سعد في «طبقاته»[4] بلفظ: كان اختلافُ أصحاب محمد رحمةً للناس.

وفي «المدخل» عن عمر بن عبد العزيز قال: ما سرَّني لو أنَّ أصحابَ محمدٍ لم يختلفوا؛ لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصةٌ[5].

---

(١) لم نقف عليه مسنداً بهذا اللفظ، وقال السيوطي في الجامع الصغير (٢٨٨): ولعله خُرِّج في بعض كتب الحفَّاظ التي لم تَصِلْ إلينا. وأورده ملّا علي القاري في الأسرار المرفوعة (١٧) وقال: زعم كثير من الأئمة أنه لا أصل له، لكن ذكره الخطابي في غريب الحديث مستطرداً، وأشْعَر بأن له أصلاً عنده، وينظر كشف الخفاء ١/ ٦٦.

(٢) أخرجه البيهقي في المدخل (١٥٢) من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً. وجويبر متروك، والضحاك عن ابن عباس منقطع.

(٣) لم نقف عليه في المدخل، وذكره العجلوني في كشف الخفاء ١٠/ ٦٦ وعزاه إلى المدخل أيضاً.

(٤) ٥/ ١٨٩.

(٥) لم نقف عليه في المدخل، وعزاه إليه أيضاً العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٦٦، وأخرجه بهذا اللفظ الخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ٥٩، وبنحوه الدارمي (٦٢٨).

واعترض الإمام السبكيُّ بأنَّ: «اختلاف أمَّتي رحمة» ليس معروفاً عند المحدِّثين، ولم أقف له على سندٍ صحيح ولا ضعيف ولا موضوع، ولا أظنُّ له أصلاً إلا أن يكون من كلام الناس، بأنْ يكون أحدٌ قال: اختلافُ الأمة رحمة. فأخذه بعضُهم فظنَّه حديثاً، فجعله من كلام النبوة، وما زلتُ أعتقد أنَّ هذا الحديث لا أصل له.

واسَتدَلَّ على بطلانه بالآيات والأحاديث الصحيحة الناطقة بأنَّ الرحمة تقتضي عدمَ الاختلاف، والآياتُ أكثر من أن تحصى، ومن الأحاديث قوله ﷺ: «إنما هلكت بنو إسرائيل بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم»[١]. وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تختلفوا فتَخْتَلِفَ قلوبُكم»[٢] وهو وإن كان وارداً في تسوية الصفوف، إلا أنَّ العبرةَ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم قال: والذي نَقْطَعُ به أنَّ الاتفاقَ خيرٌ من الاختلاف، وأنَّ الاختلافَ على ثلاثة أقسام:

أحدها: في الأصول. ولا شكَّ أنه ضلالٌ وسببُ كلِّ فساد، وهو المشار إليه في القرآن.

والثاني: في الآراء والحروب ويشير إليه قولُه ﷺ لمعاذٍ وأبي موسى الأشعريِّ لمَّا بعثهما إلى اليمن: «تَطاوَعا ولا تَخْتَلَفا»[٣]. ولا شكَّ أيضاً أنه حرامٌ لِمَا فيه من تضييع المصالح الدينية والدنيوية.

والثالث: في الفروع؛ كالاختلاف في الحلال والحرام ونحوهما، والذي نقطع به أنَّ الاتفاق خيرٌ منه أيضاً، لكن هل هو ضلال كالقسمين الأولين أم لا؟ فيه خلاف:

فكلام ابن حزم ومَن سَلَكَ مَسْلَكَه ممن يمنع التقليد يقتضي الأول، وأما نحن فإنَّا نجوِّز التقليد للجاهل، والأخذَ عند الحاجة بالرخصة من أقوال بعض العلماء

---

(١) أخرجه أحمد (٧٣٦٧)، والبخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أحمد (١٧١٠٢)، ومسلم (٤٣٢) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.
(٣) أخرجه أحمد (١٩٦٩٩)، والبخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

من غير تتبُّع الرخص، وهو يقتضي الثاني، ومن هذا الوجه قد يصحُّ أن يقال: الاختلاف رحمة، فإنَّ الرُّخَص منها بلا شبهة، وهذا لا ينافي قطعاً القطعَ بأنَّ الاتفاقَ خيرٌ من الاختلاف، فلا تَنافي بين الكلامين؛ لأنَّ جهة الخيرية تختلف، وجهة الرحمة تختلف، فالخيرية في العلم بالدِّين الحقِّ الذي كلَّف الله تعالى به عباده، وهو الصواب عنده، والرحمةُ في الرخصة له وإباحة الإقدام بالتقليد على ذلك، و«رحمة» نكرةٌ في سياق الإثبات لا تقتضي العموم، فيُكْتَفَى في صحته أن يحصل في الاختلاف رحمةٌ ما في وقتٍ ما في حالةٍ ما على وجهٍ ما، فإن كان ذلك حديثاً فيخرَّج على هذا، وكذا إن لم يَكُنْهُ. وعلى كلِّ تقدير لا نقول إنَّ الاختلاف مأمورٌ به.

والقولُ بأنَّ الاتفاق مأمورٌ به يلتفتُ إلى أنَّ المصيب واحدٌ أم لا؟ فإن قلنا: إنَّ المصيب واحدٌ، وهو الصحيح، فالحقُّ في نفس الأمر واحدٌ، والناسُ كلُّهم مأمورون بطلبه، واتفاقُهم عليه مطلوب، والاختلافُ حينئذ منهيٌّ عنه، وإن عُذر المخطىء وأُثيب على اجتهاده وصَرْفِ وُسْعِهِ لطلب الحق.

فقد أخرج البخاريُّ ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه[1] من حديث عمرو بن العاص: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ، فله أجر». وكذلك إذا قلنا بالشَّبه[2] كما هو قول بعض الأصوليين.

وأما إذا قلنا: كلُّ مجتهدٍ مصيبٌ، فكلُّ أحدٍ مأمورٌ بالاجتهاد وباتِّباع ما غلب على ظنِّه، فلا يلزم أن يكونوا كلُّهم مأمورين بالإتفاق، ولا يكون اختلافهم منهيًّا عنه، وإطلاق الرحمة على هذا التقدير في الاختلاف أقوى من إطلاقها على قولنا: المصيب واحد.

هذا كلُّه إذا حملنا الاختلاف في الخبر على الاختلاف في الفروع، وأما إذا قلنا: المراد الاختلاف في الصنائع والحِرَف، فلا شك أنَّ ذلك من نِعَم الله تعالى

---

(١) البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦)، وأبو داود (٣٥٧٤)، والنسائي في المجتبى ٨/ ٢٢٣ - ٢٢٤، وابن ماجه (٢٣١٤). وهو عند أحمد (١٧٧٧٤).

(٢) في الأصل: بالأشبه.

التي يُطلب من العبد شكرها، كما قال الحليميُّ في «شعب الإيمان»[1]، لكن كان المناسب على هذا أن يقال: اختلاف الناس رحمة؛ إذ لا خصوصية للأمة بذلك، فإنَّ كلَّ الأمم مختلفون في الصنائع والحِرَف، لا هذه الأمة فقط، فلابدَّ لتخصيص الأمة من وجه، ووجَّهه إمام الحرمين بأنَّ المراتبَ والمناصب التي أُعطيتها أمته ﷺ لم تُعطَها أمة من الأمم، فهي من رحمة الله تعالى لهم وفضلِهِ عليهم، لكنه لا يسبق من لفظ الاختلاف إلى ذلك، ولا إلى الصنائع والحِرَف، فالحِرْفة الإبقاءُ على الظاهر المتبادر، وتأويل الخبر بما تقدم.

هذه خلاصة كلامه، ولا يخفى أنه مما لا بأس به، نعم كونُ الحديث ليس معروفاً عند المحدِّثين أصلاً لا يخلو عن شيء، فقد عزاه الزركشيُّ في «الأحاديث المشتهرة» إلى كتاب «الحجة» لنصر المقدسي، ولم يذكر سنده ولا صحَّته، لكن ورد ما يقوِّيه في الجملة مما نقل من كلام السلف، والحديثِ الذي أوردناه قبلُ، وإن رواه الطبريُّ والبيهقيُّ في «المدخل» بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما. على أنه يكفي في هذا الباب الحديثُ الذي أخرجه الشيخان وغيرُهما.

فالحقُّ الذي لا محيدَ عنه: أنَّ المراد اختلافُ الصحابة رضي الله عنهم ومَنْ شاركهم في الاجتهاد، كالمجتهدين المعتدِّ بهم من علماء الدين الذين ليسوا بمبتدعين، وكونُ ذلك رحمةً لضعفاء الأمة ومَن ليس في درجتهم، مما لا ينبغي أن يَنْتَطِحَ فيه كبشان، ولا يتنازعَ فيه اثنان، فليفهم.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ نصب بما في «لهم» من معنى الاستقرار، أو منصوب بـ «اذكر» مقدَّراً.

وقيل: العامل فيه «عذاب». وضُعِّف بأنَّ المصدر الموصوف لا يعمل.

وقيل: «عظيم» وأُورد عليه بأنه[2] يلزم تقييدُ عظمته بهذا، ولا معنى له. ورُدَّ بأنه إذا عَظُم فيه، وفيه كلُّ عظيم، ففي غيره أولى، إلا أن يقال: إن التقييد ليس بمراد.

والمراد بالبياض معناه الحقيقي، أو لازِمُه من السرور والفرح، وكذا يقال في

(١) المنهاج في شعب الإيمان ٢/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥.
(٢) في «م»: أنه.

السواد، والجمهور على الأول، قالوا: يوسَم أهلُ الحقِّ ببياض الوجه وإشراق البشرة؛ تشريفاً لهم، وإظهاراً لآثار أعمالهم في ذلك الجمع، ويوسَم أهل الباطل بضدِّ ذلك، والظاهر أنَّ الابيضاض والاسوداد يكون لجميع(١) الجسد، إلا أنهما أُسندا للوجوه؛ لأنَّ الوجه أولُ ما يلقاك من الشخص وتراه، وهو أشرف أعضائه.

واختلف في وقت ذلك فقيل: وقت البعث من القبور. وقيل: وقت قراءة الصُّحف. وقيل: وقت رجحان الحسنات والسيئات في الميزان. وقيل: عند قوله تعالى شأنه: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]. وقيل: وقت أن يؤمر كلُّ فريق بأن يتَّبع معبودَه.

ولا يَبْعُدُ أن يقال: إنَّ في كلِّ موقفٍ من هذه المواقف يحصل شيءٌ من ذلك، إلى أن يصل إلى حدٍّ اللهُ تعالى أعلم به؛ إذ البياض والسواد من المشكك دون المتواطىء، كما لا يخفى، وقرئ: «تِبْيَضّ» و«تِسْوَدُّ»(٢) بكسر حرف المضارعة، وهي لغة. و: «تَبْياضُّ» و«تَسْوادُّ»(٣).

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ تفصيلٌ لأحوال الفريقين، وابتدأ بحال الذين اسودَّت وجوههم لمجاورته «وتَسْودُّ وجوهٌ» وليكون الابتداء والاختتام بما يسرُّ الطَّبعَ ويشرح الصدر.

﴿أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ على إرادةِ القول المقرون بالفاء، أي: فيقال لهم ذلك، وحذفُ القول واستتباعُ الفاء له في الحذف أكثر من أن يحصى، وإنما الممنوع حذفُها وحدها في جواب أما. والاستفهامُ للتوبيخ والتعجيبِ من حالهم، والكلام حكايةٌ لما يقال لهم، فلا التفاتَ فيه، خلافاً للسمين(٤).

والظاهر من السياق والسباق أنَّ هؤلاء أهلُ الكتاب، وكفرُهم بعد إيمانهم

---

(١) في الأصل: بجميع.
(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٩، والكشاف ١/ ٤٥٣، والبحر ٣/ ٢٢.
(٣) القراءات الشاذة ص ٢٢، والمحرر الوجيز ١/ ٤٨٧.
(٤) الدر المصون ٣/ ٣٤٤.

كفرُهم برسول الله ﷺ بعد الإيمان به قبل مبعثه. وإليه ذهب عكرمة، واختاره الزَّجَّاج(١) والجُبّائيّ.

وقيل: هم جميع الكفار؛ لإعراضهم عما وجب عليهم من الإقرار بالتوحيد حين أشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وروي ذلك عن أبيٍّ بن كعب.

ويحتمل أن يُراد بالإيمان الإيمانُ بالقوة والفطرة، وكُفْرُ جميع الكفار كان بعد هذا الإيمان؛ لتمكُّنهم بالنظر الصحيح، والدلائل الواضحة، والآياتِ البينة، من الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ.

وعن الحسن أنهم المنافقون، أَعْطَوْا كلمة الإيمان بألسنتهم وأنكروها بقلوبهم وأعمالهم، فالإيمان على هذا مجازيٌّ.

وقيل: إنهم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة، وروي ذلك عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه وأبي أمامة وابن عباس وأبي سعيد الخدري ﷺ.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي: المعهودَ الموصوف بالعِظَم، والأمرُ للإهانة لِتَقرُّر المأمور به وتحقُّقه. وقيل: يحتمل أن يكون أمرَ تسخير بأن يذوق العذابَ كلُّ شعرة من أعضائهم، نعوذ بالله تعالى من غضبه.

والفاء للإيذان بأنَّ الأمر بذَوْقِ العذاب مترتِّبٌ على كفرهم المذكور، كما يصرِّح به قوله سبحانه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ فالباء للسببية. وقيل: للمقابلة من غير نظرٍ إلى التسبُّب، وليست بمعنى اللام، ولعله سبحانه أراد: بعد إيمانكم. والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار كفرهم، أو على مُضِيِّه في الدنيا.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي: الجنة، فهو من التعبير بالحال عن المحلِّ، والظرفيةُ حقيقيةٌ. وقد يراد بها الثواب، فالظرفية حينئذ مجازية، كما يقال: في نعيم دائم، وعيش رَغَد، وفيه إشارةٌ إلى كثرته وشمولِهِ للمذكورين شمولَ الظرف. ولا يجوز أن يُراد بالرحمة ما هو صفة له تعالى؛ إذ لا يصحُّ فيها

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٤٥٥.

الظرفية، ويدلُّ على ما ذكر مقابَلَتُها بالعذاب ومقارَنتُها للخلود في قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾ وإنما عَبَّر عن ذلك بالرحمة، إشعاراً بأنَّ المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى، فإنه لا ينال ما ينال إلا برحمته تعالى، ولهذا ورد في الخبر: «لن يُدخل أحدَكم الجنةَ عملُه» فقيل له: حتى أنت يا رسول الله؟ فقال: «حتَّى أنا، إلَّا أنْ يَتَغمَّدني اللهُ تعالى برحمته»[(١)].

وجملة «هم فيها خالدون» استئنافيةٌ وقعت جواباً عمَّا نشأ من السياق، كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فأجيب بما ترى. وفيها تأكيدٌ في المعنى لما تقدم.

وقيل: خبرٌ بعد خبر. وليس بشيء.

وتقديمُ الظرف للمحافظة على رؤوس الآي، والضمير المجرور للرحمة، ومِنَ أبْعَدِ البعيد جَعْلُهُ للدعوة إلى الخير والأمرِ بالمعروف والنهيِ عن المنكر، خلافاً لمن قال به، وجَعَلَ الكلامَ عليه بياناً لسبب كونهم في رحمة الله تعالى، وكونِ مُقابِلِهم في العذاب، كأنه قيل: ما بالهم في رحمة الله تعالى؟ فأجيب بأنهم كانوا خالدين في الخيرات. وقرىء: «ابيْاضَّتْ» و«اسوادَّتْ»[(٢)].

﴿تِلْكَ﴾ أي: التي مرَّ ذكرها وعَظُمَ قَدْرُها ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ أي: نقرؤها شيئاً فشيئاً، وإسنادُ ذلك إليه تعالى مجازٌ؛ إذ التالي جبريل عليه السلام بأمره سبحانه وتعالى. وفي عدوله عن الحقيقة مع الالتفات إلى التكلُّم بنون العظمة، ما لا يخفى من العناية بالتلاوة والمتلوِّ عليه.

والجملةُ الفعليةُ في موضع الحال من الآيات، والعامل فيها معنى الإشارة. وجُوِّز أن تكون في موضع الخبر لـ «تلك» و«آيات» بدلٌ منه.

وقرىء: «يتلوها» على صيغة الغيبة[(٣)].

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: متلبِّسة، أو متلبِّسين بالصدق أو بالعدل، في جميع ما دلَّت عليه تلك الآيات ونطقت به، فالظرف في موضع الحال المؤكِّدة من الفاعل أو المفعول.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٤٧٩)، والبخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) (٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هي قراءة أبي الجوزاء وابن يعمر. البحر المحيط ٣/ ٢٦.

(٣) هي قراءة أبي نهيك كما البحر المحيط ٣/ ٢٦.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٨﴾ بأن يُحمِّلهم[1] من العقاب ما لا يستحقُّونه عدلاً، أو ينقصهم من الثواب عمَّا استحقُّوه فضلاً. والجملة مقرِّرةٌ لمضمون ما قبلها على أتمِّ وجه، حيث نكَّر «ظلماً» ووجَّهَ النفي إلى إرادته بصيغة المضارع المفيد ـ بمعونة المقام ـ دوامَ الانتفاء، وعَلَّق الحكم بآحاد الجمع المعرَّف، والتفتَ إلى الاسم الجليل.

والظلم: وضعُ الشيء في غير موضعه اللائق به، أو تركُ الواجب، وهو مستحيل[2] عليه تعالى، للأدلة القائمة على ذلك، ونفيُ الشيء لا يقتضي إمكانَه، فقد يُنفى المستحيلُ كما في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣].

وقيل: الظاهر أنَّ المراد أنَّ الله لا يريد ما هو ظُلمٌ من العباد فيما بينهم، لا أنَّ[3] كلَّ ما يفعل ليس ظلماً منه؛ لأنَّ المقام مقامُ بيانِ أنه لا يُضيع أجر المحسنين، ولا يهمل الكافر ويجازيه بكفره، ولو كان المراد أنَّ كلَّ ما يفعل ليس ظلماً، لا يستفاد هذا. وفيه ما لا يخفى.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: له سبحانه وحده ما فيهما من المخلوقات مُلكاً وخَلقاً وتصرُّفاً. والتعبير: بـ «ما» للتغليب، أو للإيذان بأنَّ العقلاء[4] بالنسبة إلى عظمته كغيرهم.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝١٠٩﴾ أي أمورُهم، فيجازي كلًّا بما تقتضيه الحكمة من الثواب والعقاب، وتقديم الجارِّ للحصر، أي: إلى حكم الله تعالى وقضائه، لا إلى غيره شِرْكةً أو استقلالاً. والجملةُ مقرِّرةٌ لمضمون ما ورد في جزاء الفريقين، وقيل: معطوفةٌ على ما قبلها مقرِّرةٌ لمضمونه، والإظهار في مقام الإضمار لتربية المهابة.

وقرأ يحيى بن وثاب: «تَرجِع» بفتح التاء وكسر الجيم في جميع القرآن[5].

---

(١) في (م): يحلهم.
(٢) في (م): يستحيل.
(٣) في الأصل: أنه.
(٤) في (م): غير العقلاء، والمثبت من الأصل، وهو الصواب.
(٥) وهي قراءة متواترة، فقد قرأ بها في جميع القرآن أيضاً ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر ٢/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾ كلامٌ مستأنفٌ سِيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق والدعوة إلى الخير، كذا قيل.

وقيل: هو من تتمَّة الخطاب الأول في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وتوالتْ بعد هذا خطاباتُ المؤمنين من أوامر ونواهٍ، واستطرد بين ذلك مَن يَبْيَضُّ وجهه ومَن يَسْودُّ، وشيءٌ من أحوالهم في الآخرة، ثم عاد إلى الخطاب الأول تحريضاً على الانقياد والطواعية.

و«كان» ناقصة، ولا دلالة لها في الأصل على غير الوجود في الماضي، من غير دلالة على انقطاعٍ أو دوام، وقد تستعمل للأزلية كما في صفاته تعالى نحو: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠] وقد تستعمل للزوم الشيء وعدمِ انفكاكه نحو: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٤] وذهب بعض النحاة إلى أنها تدلُّ بحسب الوضع على الانقطاع، كغيرها من الأفعال الناقصة، والمصحَّح هو الأول، وعليه لا تُشعر الآيةُ بكون المخاطبين ليسوا خيرَ أمة الآن.

وقيل: المراد: كنتم في علم الله تعالى، أو في اللوح المحفوظ، أو فيما بين الأمم ـ أي: في علمهم ـ كذلك.

وقال الحسن: معناه: أنتم خير أمة. واعتُرض بأنه يستدعي زيادة «كان» وهي لا تزاد في أول الجملة.

﴿أُخۡرِجَتۡ﴾ أي: أُظهرت، وحُذف الفاعل للعلم به ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلِّقٌ بما عنده، وقيل: بـ «خير أمة»، وجملة «أخرجت» صفةٌ لـ «أمة» وقيل: لـ «خير»، والأول أولى.

والخطاب قيل: لأصحاب رسول الله ﷺ خاصةً، وإليه ذهب الضحاك. وقيل: للمهاجرين من بينهم، وهو أحدُ خبرين عن ابن عباس(١)، وفي آخرَ أنه عامٌّ لأمة محمد ﷺ، ويؤيِّده ما أخرجه الإمام أحمد بسند حسنٍ عن أبي الحسن كرَّم الله تعالى وجهه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيتُ ما لم يُعْطَ أحدٌ من الأنبياء: نُصِرْتُ بالرُّعب، وأُعطِيْتُ مفاتيحَ الأرض، وسُمِّيتُ أحمد، وجُعل التراب لي طَهوراً، وجُعلت أمَّتي خيرَ الأمم»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٦٣).

(٢) مسند أحمد (٧٦٣).

وأخرج ابن أبي حاتم[١] عن أبي جعفر رضي الله عنه، أنَّ الآية في أهل بيت النبيِّ ﷺ.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة: أنها نزلت في ابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة وأبيِّ بن كعب ومعاذ بن جبل[٢].

والظاهر أنَّ الخطاب وإن كان خاصًّا بمَنْ شاهدَ الوحي من المؤمنين، أو ببعضهم، لكنَّ حُكْمَهُ يصلح أن يكون عامًّا للكلِّ، كما يشير إليه قول عمر رضي الله عنه فيما حكاه قتادة: يا أيها الناس: مَنْ سرَّه أن يكون من تِلْكُم الأمة، فليؤدِّ شَرطَ الله تعالى منها[٣]. وأشار بذلك إلى قوله سبحانه: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ فإنه وإن كان استئنافاً مبيِّناً لكونهم خيرَ أمة، أو صفةً ثانية لـ «أمة» على ما قيل، إلا أنه يُفْهِم الشرطية.

والمتبادِرُ من المعروف الطاعاتُ، ومن المنكر المعاصي التي أنكرها الشرع، وأخرج ابن المنذر وغيره عن ابن عباس في الآية أنَّ المعنى: تأمرونهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويُقِرُّوا بما أنزل الله تعالى، وتقاتلونهم عليه، ولا إله إلا الله هو أعظم المعروف، وتنهونهم عن المنكر، والمنكر هو التكذيب، وهو أَنكر المنكر[٤]. وكأنه رضي الله عنه حَمَلَ المطلَقَ على الفرد الكامل، وإلا فلا قرينة على هذا التخصيص.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أُريد بالإيمان به سبحانه الإيمانُ بجميع ما يجب الإيمان به؛ لأنَّ الإيمان إنما يُعتدُّ به ويَستأهِلُ أن يقال له إيمان، إذا آمن بالله تعالى على الحقيقة، وحقيقة الإيمان بالله تعالى أن يستوعب جميعَ ما يجب الإيمان به فلو أَخَلَّ بشيء منه، لم يكن من الإيمان بالله تعالى في شيء، والمقام يقتضيه لكونه تعريضاً بأهل الكتاب، وأنهم لا يؤمنون بجميع ما يجب الإيمان به، كما يشعر بذلك التعقيب بنفي الإيمان عنهم مع العلم بأنهم مؤمنون في الجملة، وأيضاً المقامُ مقامُ مدحٍ للمؤمنين بكونهم «خير أمة أخرجت للناس».

---

(١) في تفسيره ٣/ ٧٣٣.
(٢) تفسير الطبري ٥/ ٦٧٢، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٢/ ٦٣.
(٣) أخرجه الطبري ٥/ ٦٧٢ - ٦٧٣، وقتادة لم يسمع من عمر.
(٤) الدر المنثور ٢/ ٦٤، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ٥/ ٦٧٦.

وهذه الجملة معطوفةٌ على ما قبلها المعلِّل للخَيْرية، فلو لم يُرِدِ الإيمانَ بجميع ما يجب الإيمان به لم يكن مدحاً، فلا يصلح للتعليل، والعطفُ يقتضيه.

وإنما أُخِّر الإيمان عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع تقدُّمه عليهما وجوداً ورتبة كما هو الظاهر؛ لأنَّ الإيمان مشتركٌ بين جميع الأمم، دون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهما أَظْهَرُ في الدلالة على الخيرية.

ويجوز أن يقال: قدَّمهما عليه للاهتمام، وكونِ سَوق الكلام لأجلهما، وأما ذكره فكالتَّتيم[١].

ويجوز أيضاً أن يكون ذلك للتنبيه، على أنَّ جدوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدين أَظْهَرُ مما اشتمل عليه الإيمان بالله تعالى؛ لأنه من وظيفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ولو قيل: قُدِّما، وأُخِّر للاهتمام، وليرتبط بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ لم يَبْعُد، أي: لو آمنوا إيماناً كما ينبغي لكان ذلك الإيمان خيراً لهم مما هم عليه من الرياسة: في الدنيا لدفع القتل والذل عنهم، والآخرةِ لدفع العذاب المقيم.

وقيل: لو آمن أهل الكتاب بمحمد ﷺ لكان خيراً لهم من الإيمان بموسى وعيسى فقط عليهما السلام.

وقيل: المفضَّلُ عليه ما هم فيه من الكفر، فالخيرية إنما هي باعتبار زَعْمِهم، وفيه ضربُ تهكُّمٍ بهم.

وهذه الجملة معطوفةٌ على «كنتم خير أمة» مرتبطةٌ بها على معنى: ولو آمن أهل الكتاب كما آمنتُم، وأَمَروا بالمعروف كما أَمَرْتُم، ونَهَوا عن المنكر كما نَهيتُم، لكان خيراً لهم.

﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبد الله بن سلام، وأخيه، وثعلبة بن سعية[٢].

---

(١) هو أن يؤتَى في كلام لا يوهِمُ غير المراد بفضِلةٍ تفيد نكتة. الإتقان ٢/ ٨٧١.
(٢) في (م): شعبة، وهو تصحيف، وينظر الإصابة ١/ ٤٨.

﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ أي: الخارجون عن طاعة الله تعالى، وعَبَّر عن الكفر بالفسق؛ إيذاناً بأنهم خرجوا عما أوجبه كتابهم، وقيل: للإشارة إلى أنهم في الكفار بمنزلة الكفار في العصاة؛ لخروجهم إلى الحال الفاحشة التي هي منهم أشنع وأفظع.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ استثناءٌ متَّصل؛ لأنَّ الأذى بمعنى الضرر اليسير كما يشهد به مواقع الاستعمال، فكأنه قيل: لن يضرُّوكم ضرراً ما إلا ضرراً يسيراً.

وقيل: إنه منقطعٌ؛ لأنَّ الأذى ليس بضررٍ. وفيه نظر.

والآية كما قال مقاتل: نزلت لمَّا عَمَدَ رؤساء اليهود مثل كعب وأبي رافع وأبي ياسر وكنانة وابن صوريا إلى مؤمنيهم؛ كعبد الله بن سلام وأصحابه، فآذوهم لإسلامهم[١]. وكان إيذاءً قوليًّا على ما يُفهمه كلام قتادة وغيرِه، وكان ذلك الافتراءَ على الله تعالى، كما قاله الحسن.

﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ أي: ينهزموا من غير أن يظفروا منكم بشيء، وتوليةُ الأدبار كناية عن الانهزام معروفةٌ.

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ عطفٌ على جملة الشرط والجزاء، و«ثم» للترتيب والتراخي الإخباري، أي: لا يكن لهم نصرٌ من أحد، ثم عاقِبَتُهُم العجزُ والخذلان إن قاتلوكم أو لم يقاتلوكم. وفيه تثبيتٌ للمؤمنين على أتمِّ وجه.

وقرىء: «ثم لا ينصروا»[٢] والجملة حينئذٍ معطوفةٌ على جزاء الشرط، و«ثم» للتراخي في الرتبة بين الخبرين، لا في الزمان؛ لمقارنته. وجوَّز بعضُهم كونَها للتراخي في الزمان على القراءتين بناءً على اعتباره بين المعطوف عليه وآخِر[٣] أجزاء المعطوف، وقراءةُ الرفع أبلغُ لخلوِّها عن القيد.

وفي هذه الآية دلالةٌ واضحةٌ على نبوَّة نبيِّنا ﷺ لكونها[٤] من الإخبار بالغيب

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص١١٤.
(٢) تفسير البيضاوي ٢/ ٣٧.
(٣) قوله: آخر، ليس في الأصل.
(٤) في (م): ولكونها.

الذي وافقه الواقع؛ لأنَّ يهود بني قينقاع وبني قريظة والنضير ويهود خيبر حاربوا المسلمين ولم يثبتوا، ولم ينالوا شيئاً منهم، ولم تَخْفُقْ لهم بعد ذلك رايةٌ، ولم يستقم لهم[1] أمر، ولم ينهضوا بجناح.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ أي: ذلةُ هَدْرِ النفس والمال والأهل، وقيل: ذلَّةُ التمسُّك بالباطل وإعطاء الجزية. قال الحسن: أَذلَّهم الله تعالى فلا مَنَعة لهم، وجعلهم تحت أقدام المسلمين. وهذا من ضَرْبِ الخيام والقباب كما قاله أبو مسلم، قيل: ففيه استعارةٌ مكنيةٌ تخييليةٌ، وقد يُشبَّه إحاطةُ الذلَّة واشتمالُها عليهم بذلك على وجه الاستعارة التبعية.

وقيل: هو من قولهم: ضَرَبَ فلانٌ الضريبة على عبده، أي: ألزمها إياه، فالمعنى: أُلزموا الذِّلَّة وثبتت فيهم، فلا خلاصَ لهم منها.

﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أي: وُجدوا، وقيل: أُخذوا وظُفر بهم، و«أينما» شرط، و«ما» زائدة، و«ثُقفوا» في موضع جزمٍ، وجوابُ الشرط محذوفٌ يدلُّ عليه ما قبله، أو هو بنفسه على رأي.

﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ استثناءٌ مُفرَّغٌ من أَعمِّ الأحوال، والمعنى على النفي، أي: لا يَسْلَمون من الذلة في حالٍ من الأحوال، إلا في حالِ أن يكونوا مُعْتَصِمين بذمة الله تعالى، أو كتابِه الذي آتاهم وذمةِ المسلمين، فإنهم بذلك يَسْلَمون من القتل والأسر وسبي الذراري واستئصال الأموال.

وقيل: أي: إلا في حالِ أن يكونوا متلبِّسين بالإسلام واتِّباع سبيل المؤمنين، فإنهم حينئذٍ يرتفع عنهم ذلُّ التمسُّك والإعطاء.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رجعوا به، وهو كنايةٌ عن استحقاقهم له واستيجابهم إياه، من قولهم: باء فلانٌ بفلان، إذا صار حقيقاً أن يُقتل به، فالمراد: صاروا أَحِقَّاء بغضبه سبحانه، والتنوين للتفخيم، والوصفُ مؤكِّدٌ لذلك.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ فهم في الغالب مساكين، وقلَّما يوجد يهوديٌّ يُظْهِرُ الغنى.

---

(١) قوله: لهم. ساقط من «م».

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور من المذكورات ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالَّةِ على نبوَّة محمد ﷺ.

﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أصلاً، ونسبةُ القتل إليهم مع أنه فِعْلُ أسلافهم على نحو ما مرَّ غير مرَّة.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ إشارةٌ إلى كُفْرهم وَقتْلهم الأنبياءَ عليهم السلام على ما يقتضيه القُرْبُ، فلا تكرار.

وقيل: معناه أنَّ ضَرْبَ الذلة وما يليه، كما هو معلَّلٌ بكُفْرهم وقَتْلهم، فهو معلَّلٌ بعصيانهم واعتدائهم، والتعبير بصيغة الماضي والمضارع لِمَا مرَّ.

ثم إنَّ جملة «منهم المؤمنون» وكذا جملة «لن يضروكم» وما عُطف عليها، واردتان على سبيل الاستطراد، ولذا لم يُعطفا على الجملة الشرطية قبلهما، وإنما لم يُعطف الاستطرادُ الثاني على الأول؛ لتباعُدِهما وكونِ كلٍّ منهما نوعاً من الكلام.

وقال بعض المحقِّقين: إنَّ هاتين الجملتين مع ما بعدهما مرتبطٌ بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ﴾ مبيِّنٌ له، فقوله سبحانه: ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ مبيِّنٌ لذلك باعتبار أنَّ المفروضَ إيمانُ الجميع، وإلا فبعضُهم مؤمنون؛ رَفْعاً لسوء الظنِّ بالبعض، وقوله عزَّ شأنه: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾ بيانٌ لما هو خيرٌ لهم، وهو أنهم لعدم إيمانهم مُبْتَلَوْن بمشقَّة التدبير لإضراركم، وبالحُزن على الخيبة وتدبير الغلبة عليكم بالمقابلة والغلبة لكم، وفي طلب الرياسة بمخالفتكم، وضَرَبَ الله تعالى عليهم الذلة لتلك المخالفة، وفي طلب المال بأخذ الرشوة بتحريف كتابهم وضَرَبَ الله عليهم المسكنة، ولو آمنوا لنجوا من جميع ذلك. انتهى.

ولا يخفى أنَّ هذا ـ على تقديرِ قبوله وتَحمُّل بُعْدِه ـ لا يأبى القولَ بالاستطراد؛ لأنه: أنْ يُذكر في أثناء الكلام ما يناسبه وليس السياق له، وإنما يأبى الاعتراضَ ولا نقول به فتأمل.

❁ ❁ ❁

هذا، ومن باب الإشارة: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ الذي هو القُرْبُ من الله تعالى ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي: بعضه، والإشارة به إلى النفس، فإنها إذا أنفقت في سبيل الله زال الحجاب الأعظم، وهان إنفاق كلٍّ بعدها ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ فينبغي تحرِّي ما يرضيه.

ويحكى عن بعضهم أنه قال: المنفقون على أقسام: فمنهم مَن ينفق على ملاحظة الجزاء والعِوَض ومنهم مَن ينفق على مراقبة رفعِ البلاء والمحن. ومنهم مَن ينفق اكتفاءً بعلمه. ولله تعالى درُّ مَنْ قال:

ويهتزُّ للمعروف في طلب العُلا لِتُذْكَرَ يوماً عند سلمى شمائلُه[1]

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ قيل: فائدةُ الإخبار بذلك، تعليمُ أهل المحبة أن يتركوا ما حُبِّب إليهم من الأطعمة الشهية واللذائذ الدنيوية، رغبةً فيما عند الله تعالى.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ وهو الكعبة التي هي من أعظم المظاهر له تعالى، حتى قالوا: إنها للمحمديين كالشجرة لموسى عليه السلام ﴿مُبَارَكًا﴾ بما كساه من أنوار ذاته ﴿وَهُدًى﴾ بما[2] كساه من أنوار صفاته ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ على حَسَب استعدادهم.

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ المشتملُ على الرضا والتسليم والانبساط واليقين، أو المكاشفة[3] والمشاهَدَة والخلَّة والفُتوَّة، أو المعرفة والتوحيد والفناء والبقاء والسُّكر والصَّحو، أو جميع ذلك ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ من غوائل نفسه؛ لأنه مقام التمكين.

وتطبيق ذلك على ما في الأنفسِ، أنَّ البيت إشارةٌ إلى القلب الحقيقي، ويُحمل ما ورد أنَّ البيت أول ما ظهر على وجه الماء عند خَلْقِ السماء والأرض، وخُلِقَ قبل الأرض بألفي عام، وكان زبدةً بيضاء على وجه الماء فدُحيت الأرضُ تحته

(١) البيت للأحوص الأنصاري وهو في ديوانه ص ٢٢٣. وفيه: لِتُحمد بدل: لتذكر.
(٢) في الأصل: لما.
(٣) في (م): والمكاشفة.

على ذلك، وظهورُهُ على الماء حينئذٍ تعلُّقه بالنطفة عند خَلْقِ سماء الروح الحيوان[١] وأرض البدن، وخَلْقُهُ قبل الأرض إشارةٌ إلى قِدَمه وحدوث البدن، وتقييدُ ذلك بألفي عام إشارةٌ إلى تقدُّمه على البدن بطَورين؛ طَوْر النفس وطَوْر القلب، تقدُّماً بالرتبة؛ إذِ الألف رتبةٌ تامةٌ، وكونهُ زبدةً بيضاء إشارةٌ إلى صفاء جوهره، ودَحْوُ الأرض تحته إشارةٌ إلى تكوُّن البدن من تأثيره وكون أشكاله وصور أعضائه تابعة لهيئاته.

ولا يخفى أنَّ محلَّ تعلُّق الروح بالبدن واتصال القلب الحقيقي به أولاً هو القلب الصنوبري، وهو أول ما يتكوَّن من الأعضاء، وأولُ عضوٍ يتحرَّك، وآخرُ عضوٍ يسكن، فيكون ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ للصدر صورة. أو أول متعبَّد وُضع لهم للقلب الحقيقي الذي هو ببكة الصدر المعنوي الذي هو أشرفُ مقام في النفس وموضعُ ازدحام القوى إليه[٢].

ومعنى كونه مباركاً: أنه ذو بركةٍ إلهيةٍ بسبب فيض الخير عليه، وكونِه هدى أنه يُهتدى به إلى الله تعالى، والآيات التي فيه هي العلوم والمعارف والحِكَم والحقائق.

و﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ إشارةٌ إلى العقل الذي هو مقام قَدَم إبراهيم الروح، يعني: محل اتصال نوره من القلب، ولا شكَّ أنَّ مَنْ دَخَلَ ذلك ﴿كَانَ ءَامِنًا﴾ من إغواء سِعالَى[٣] المتخيلة، وعفاريت أحاديث النفس، واختطاف شياطين الوهم وجنِّ الخيالات، واغتيال سِباع القوى النفسانية وصفاتها.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وهم أهل معرفته عزَّ شأنه، وأما الجاهلون به فلا قاموا ولا قعدوا.

يحكى عن بعضهم أنه قال: قلت للشّبلي: إني حجَجْتُ. فقال: كيف فعلتَ؟ فقلت: اغتسلتُ وأَحرمْتُ وصلَّيتُ ركعتين ولبَّيت.

فقال لي: عَقَدْتَ به الحج؟ فقلت: نعم. قال: فَسَخْتَ بعقدك كلَّ عقدٍ عقدت

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وفي تفسير ابن عربي ١/ ١٣٧ (والكلام منه): الحيواني.

(٢) في تفسير ابن عربي: المتوجهة إليه.

(٣) السِّعالَى: جمع سعلاة وسعلاء وهي الغول أو ساحرة الجن. القاموس المحيط (سعل). ووقع في (م): أعداء سعالى، والمثبت من الأصل وتفسير ابن عربي.

منذ خُلقت، مما يضادُّ هذا العقد؟ قلت: لا. قال: فما عَقَدْتَ.

ثم قال: نزعتَ ثيابك؟ قلت: نعم. قال: تجرَّدتَ عن كلِّ فِعْلٍ فَعَلْتَ؟ قلت: لا. قال: ما نزعت.

فقال: تَطهَّرْتَ؟ قلت[1]: نعم. قال: أَزَلْتَ عنك كلَّ عِلَّة؟ فقلت: لا. قال: فما تطهَّرت.

قال: لَبَّيت؟ قلت: نعم. قال: وَجَدتَ جواب التلبية مِثْلاً بمثل؟ قلت: لا. قال: ما لبَّيت.

قال: دخلتَ الحرم؟ قلت: نعم. قال: اعتقدتَ بدخولك تَرْك كلِّ محرَّم؟ قلت: لا. قال: ما دخلت.

قال: أَشْرَفْتَ على مكة؟ قلت: نعم. قال: أشرفَ عليك حالٌ من الله تعالى؟ قلت: لا. قال: ما أشرفت.

قال: دخلتَ المسجد الحرام؟ قلت: نعم. قال: دخلت الحضرة؟ قلت: لا. قال: ما دخلت المسجد الحرام.

قال: رأيت الكعبة؟ قلت: نعم. قال: رأيتَ ما قصدتَ له؟ قلت: لا. قال: ما رأيتَ الكعبة.

قال: رَمَلْتَ وسعيت؟ قلت: نعم. قال: هربتَ من الدنيا ووجدت أمناً مما هربت؟ قلت: لا. قال: ما فعلت شيئاً.

قال: صافحتَ الحجر؟ قلت: نعم. قال: مَن صافح الحجر فقد صافح الحقَّ، ومَن صافح الحقَّ ظهر عليه أثرُ الأمن، أَفَظَهَرَ عليك ذلك؟ قلت: لا. قال: ما صافحت.

قال: أصلَّيت ركعيتن بعدُ؟ قلت: نعم. قال: أَوَجَدْتَ نفسَك بين يدي الله تعالى؟ قلت: لا. قال: ما صلَّيت.

قال: خرجت إلى الصفا؟ قلت: نعم. قال: أكبَّرت؟ قلت: نعم. فقال: أصفا

---

(١) في (م): قال.

سِرُّك وصَغُرت في عينك الأكوان؟ قلت: لا. قال: ما خرجتَ ولا كبَّرتَ.

قال هَرْوَلْتَ في سعيك؟ قلت: نعم. قال: هربتَ منه إليه؟ قلت لا. قال: ما هرولت.

قال: وقفتَ على المروة؟ قلت: نعم. قال: رأيتَ نزول السكينة عليك وأنت عليها؟ قلت: لا. قال: ما وقفتَ على المروة.

قال: خرجتَ إلى مِنى. قلت: نعم. قال: أُعطيت ما تمنَّيت؟ قلت: لا. قال: ما خرجت.

قال: دخلتَ مسجد الخِيف؟ قلت: نعم. قال: تجدَّد لك خوف؟ قلت: لا. قال: ما دخلت.

قال: مضيت إلى عرفات؟ قلت: نعم. قال: عرفت الحال الذي خُلقت له، والحالَ الذي تصيرُ إليه؟ وهل عرفتَ مِن ربِّك ما كنت منكراً له؟ وهل تعرَّف الحقُّ إليك بشيء؟ قلت: لا. قال: ما مَضَيْتَ.

قال: نفرتَ إلى المشعر الحرام؟ قلت: نعم. قال: ذكرتَ الله تعالى فيه ذكراً أنساك ذِكْرَ ما سواه؟ قلت: لا. قال: ما نَفَرْت.

قال: ذبحت؟ قلت: نعم. قال: أَفنيتَ شهواتك وإرادتك في رضاء الحق؟ قلت: لا. قال: ما ذبحت.

قال: رميت؟ قلت: نعم. قال: رميتَ جهلك منك بزيادة علمٍ ظهر عليك؟ قلت: لا. قال: ما رميت.

قال: زُرْتَ؟ قلت: نعم. قال: كُوشِفْتَ عن الحقائق؟ قلت: لا. قال: ما زرت.

قال: أَحْلَلْتَ؟ قلت: نعم. قال: عزمتَ على الأكل من الحلال قَدْرَ ما تحفظ به نفسك؟ قلت: لا. قال: ما أَحْلَلْتَ.

قال: ودَّعت؟ قلت: نعم. قال: خرجت من نفسك وروحك بالكلِّية؟ قلت: لا. قال: ما ودَّعت ولا حَجَجْتَ، وعليك العَوْدُ إن أحببت، وإذا حججت فاجتهد أن تكونَ كما وصفتُ لك. انتهى.

فهذا الذي ذكره الشِّبليُّ هو الحجُّ الذي يستأهل أن يقال له حجّ، ولله تعالى عبادٌ أَهَّلهمْ لذلك، وأَقْدَرَهم على السلوك في هاتيك المسالك، فحجُّهم في الحقيقة منه إليه، وله فيه، فمطافُهم حظائرُ القربة على بساط الحشمة، وموقفُهم عرفةُ العرفان على ساق الخدمة، ليس لهم غرضٌ في الجدران والأحجار، وهيهات هيهات، ما غَرَضُ المجنون من الديار إلا الديار، ومَنْ كَفَرَ وأَعْرَضَ عن المولى بهوى النفس فإنَّ الله غنيٌّ عن العالمين، فهو سبحانه غنيٌّ عنه، لا يلتفت إليه.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالَّة على توحيده ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ إذ هو أقرب من حبل الوريد.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بالإنكار على المؤمنين ﴿مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ بإيراد الشُّبَه الباطلة ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ عالمون بأنها حقٌّ لا اعوجاج فيها ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم به.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ الإيمان الحقيقيَّ ﴿إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ خوفاً من إنكارهم ما أنتم عليه من الحقيقة والطريق الموصل إليه سبحانه ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ الراسخ فيكم ﴿كَٰفِرِينَ﴾ لأنَّ إنكار الحقيقة كفرٌ كإنكار الشريعة.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: مَن يعتصم به منه فقد اهتدى إليه به، قال الواسطيُّ: ومَن زعم أنه يعتصم به من غيره، فقد جهل عظمة الربوبية.

وحقيقةُ الاعتصام عند بعضهم: انجذابُ القلب عن الأسباب التي هي الأصنام المعنوية، والتبرِّي إلى الله تعالى من الحَوْل والقوة. وقيل: الاعتصام للمحبِّين هو اللجأ بطَرْح السِّوى، ولأهل الحقائق رفع الاعتصام لمشاهدتهم أنهم في القبضة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ بصَوْنِ العهود، وحِفْظِ الحدود، والخمودِ تحت جريان القضاء بنعت الرضا. وقيل: حقُّ التقوى عدم رؤية التقوى.

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: لا تموتن إلا على حالِ إسلامِ الوجود له، أي: ليكن موتكم هو الفناء في التوحيد.

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ وهو عهده الذي أخذه على العباد يوم ﴿أَلَسْتُ

﴿بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ باختلاف الأهواء ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالهداية إلى معالم التوحيد المفيد للمحبة في القلوب ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾ لاحتجابكم بالحُجُب النفسانية والغواشي الطبيعية ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بالتَّحابِّ في الله تعالى لتنوُّرها(١) بنوره ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ﴾ عليكم ﴿إِخْوَٰنًا﴾ في الدين.

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وهي مهوى الطبيعة الفاسقة، وجهنم الحرمان ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بالتواصل الحقيقي بينكم إلى سدرة مقام الروح، وروحِ جنة الذات.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ كالعلماء العارفين أرباب الاستقامة في الدين ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي: يُرشدون الناس إلى الكمال المطلق من معرفة الحقِّ تعالى والوصول إليه ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ المقرِّب إلى الله تعالى ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ المبعِد عنه تعالى ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الذين لم يبقَ لهم حجابٌ، وهم خلفاء الله تعالى في أرضه.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟﴾ واتَّبعوا الأهواء والفتن(٢) والبدع ﴿وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الحججُ العقليةُ والشرعيةُ الموجبةُ للاتحاد واتفاقِ الكلمة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذاب الحرمان من الحضرة.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قالوا: ابيضاضُ الوجه عبارةٌ عن تنوُّر وجه القلب بنور الحق المتوجِّه إليه، والإعراضِ عن الجهة السفلية النفسانية المظلمة، ولا يكون ذلك إلا بالتوحيد، واسودادُهُ ظلمةُ وجه القلب بالإقبال على النفس الطالبة لحظوظها، والإعراض عن الجهة العلوية النورانية.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيقال لهم ﴿أَكَفَرْتُم﴾ أي: احتجبتم عن الحق بصفات النفس ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ أي تنوُّركم(٣) بنور الاستعداد وصفاء الفطرة وهداية العقل ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ وهو عذاب الاحتجاب عن الحق ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ به.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ الخاصة التي هي شهودُ الجمال ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ باقون بعد الفناء.

---

(١) في تفسير ابن عربي: لتتنور.

(٢) قوله: والفتن، ليس في (م).

(٣) في الأصل: تنور قلوبكم، والمثبت من (م) وتفسير ابن عربي.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ من مكامن الأزل ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: لنفعِهم ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الموصِل إلى مقام التوحيد ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وهو القول بتحقُّق الكثرة على الحقيقة. ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ كإيمانكم ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ مما هم عليه.

﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كإيمانكم ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن حرم الحق.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ وهو الإنكارُ عليكم بالقول ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ﴾ ولم يكتفوا بذلك الإيذاء ﴿يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ ولا ينالون منكم شيئاً لقوة بَوَاطِنِكم وضَعْفِهم ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ لا ينصرهم أحدٌ أصلاً، بل يبقون مخذولين لعدم ظهور أنوار الحق عليهم، والله تعالى الموفق.

❁ ❁ ❁

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أخرج ابن إسحاق والطبرانيُّ والبيهقيُّ وغيرهم عن ابن عباس قال: لمَّا أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسِيد بن سعية[1] وأسد[2] بن عبيد، ومن أسلم من يهود معهم، فآمنوا وصدَّقوا ورغبوا في الإسلام، قالت أحبار يهود وأهلُ الكفر منهم: ما آمن بمحمدٍ وتَبِعَهُ إلا أشرارنا، ولو كانوا مِن خِيارِنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره. فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[3].

والجملة ـ على ما قاله مولانا شيخ الإسلام ـ تمهيدٌ لِتَعْدادِ مَحاسِن مؤمني أهل الكتاب، وضميرُ الجمع لأهل الكتاب جميعاً، لا للفاسقين خاصة، وهو اسمُ «ليس» و«سواءٌ» خبرُه، وإنما أُفْرِدَ لكونه في الأصل مصدراً، والوقف هنا تامٌّ على

---

(١) في (م): شعبة، في الموضعين وهو تصحيف، وقد ترجمه الحافظ ابن حجر في الإصابة ١/ ٤٨ باسم: أسد بن سَعْية، ثم ترجمه ١/ ٧٤ باسم: أسيد بن سَعْية وقال: حكى ابن ماكولا [الإكمال ١/ ٥٣] الخلاف فيه، هل هو بالفتح أو بالضم؟ وصحح أنه بالفتح تبعاً للدارقطني [المؤتلف والمختلف ٣/ ١٣٨٥] وقد اختلف في ذلك عن ابن إسحاق. واختلف أيضاً في اسم أبيه فقيل: سعنة. وقيل بالياء التحتانية. وانظر الاستيعاب ١/ ١٨١-١٨٢، وتوضيح المشتبه ٥/ ٣٣٤.

(٢) في (م): أسيد، والمثبت من الأصل والإصابة ١/ ٤٨ ومصادر التخريج على ما يأتي.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٥٥٧، والمعجم الكبير (١٣٨٨)، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤، وأخرجه أيضاً الطبري ٥/ ٦٩١. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٢٧: رجاله ثقات.

الصحيح، والمراد بنفي المساواة نفيُ المشاركة في أصل الاتِّصاف بالقبائح، لا نفيُ المساواة في الاتِّصاف بمراتبها مع تحقُّقِ المشاركة في أصل الاتِّصاف[(١)]. ومثله كثيرٌ في الكلام.

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لكيفية عدم التساوي، ومزيلٌ لما فيه من الإبهام، وقال أبو عبيدة: إنه مع الأول كلامٌ واحد، وجَعَل «أمةٌ» اسمَ «ليس» والخبر «سواء» فهو على حدّ: أكلوني البراغيث[(٢)]. وقيل: «أمة» مرفوع بـ «سواء». وضَعْفُ كلا القولين ظاهر[(٣)].

ووَضَع «أهل الكتاب» موضعَ الضمير زيادةً في تشريفهم والاعتناء بهم.

و«القائمة» مِن قام اللازِمِ بمعنى: استقام، أي: أمةٌ مستقيمةٌ على طاعة الله تعالى، ثابتةٌ على أمره، لم تنزع عنه وتتركه كما تركه الآخرون وضيَّعوه، وحُكي عن ابن عباس وغيره.

وزعم الزَّجّاج أنَّ الكلامَ على حذف مضاف، والتقدير: ذو أمة قائمة، أي: ذو طريقة مستقيمة[(٤)]. وفيه أنه عدولٌ عن الظاهر من غير دليل.

والمراد من هذه الأمة: مَنْ تقدَّم في سبب النزول، وجَعَلَ بعضُهم أهل الكتاب عامًّا لليهود والنصارى، وعَدَّ من الأمة المذكورة نحوَ النجاشيِّ وأصحابه ممن أسلم من النصارى.

﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفةٌ لـ «أمة» بعد وصفها بـ «قائمة»، وجُوِّز أن تكون حالاً من الضمير في «قائمة» أو من الأمة؛ لأنها قد وُصفت، أو من الضمير في الجارِّ الواقع خبراً عنها.

والمراد: يقرؤون القرآن ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: ساعاته، وواحده أَنًى بوزن عصا[(٥)]،

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/ ٧٢ ـ ٧٣.

(٢) الكلام بنحوه في مجاز القرآن ١/ ١٠١.

(٣) ينظر القولان والرد عليهما في إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤٠١، وقد ذكر النحاس القول الثاني عن الفراء.

(٤) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٥٨.

(٥) في (م): كعصا، بدل: بوزن عصا.

وقيل: إنَّى كمِعًى، وقيل: أَنْيٌ بفتحٍ فسكون، أو كسرٍ فسكون، وحكى الأخفش[١]: إِنْوٌ كجِرو؛ فالهمزة منقلبةٌ عن ياء أو واو. وهو متعلقٌ بـ «يتلون» أو بـ «قائمة»، ومنع أبو البقاء تعلُّقه بالثاني بناءً على أنه قد وُصف، فلا يعمل فيما بعد الصفة[٢].

﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ حالٌ من ضمير «يتلون» على ما هو الظاهر، والمراد: وهم يصلُّون؛ إذ من المعلوم أنْ لا قراءةَ في السجود، وكذا الركوع، بل وقع النهيُ عنها فيهما كما في الخبر[٣]. والمراد بصلاتهم هذه: التهجُّد، على ما ذهب إليه البعض، وعُلِّل بأنه أَدْخَلُ في المدح، وفيه تتيسَّر لهم التلاوة؛ لأنها في المكتوبة وظيفة الإمام، واعتبار حالهم عند الصلاة على الانفراد يأباه مقام المدح، وهو الأنسب بالعدول عن إيرادها باسم الجنس المُتبادر منه الصلوات المكتوبة، وبالتعبير عن وقتها بالآناء المبهمة، وإنما لم يعبِّر على هذا بالتهجُّد؛ دفعاً لاحتمال المعنى اللغويِّ الذي لا مَدْح فيه.

والذي عليه بعض السلف أنها صلاة العتمة، واستُدلَّ عليه بما أخرجه الإمام أحمد والنسائي وابن جرير والطبرانيُّ بسند حسن، واللفظ للأخيرين، عن ابن مسعود ﷺ قال: أَخَّر رسول الله ﷺ ليلةً صلاةَ العشاء، ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: «أمَا إنَّه لا يصلِّي هذه الصلاةَ أحدٌ من أهل الكتاب» قال: وأنزلت هذه الآية ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ حتى بلغ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾[٤]. وعليه تكون الجملة معطوفةً على جملة «يَتْلُون».

وقيل: مستأنفةٌ، ويكون المدح لهم بذلك لتميُّزهم واختصاصهم بتلك الصلاة الجليلة الشأن، التي لم يتشرَّف بأدائها أهل الكتاب كما نطق به الحديث، بل

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٤١٨.

(٢) إملاء ما منَّ به الرحمن ٢/ ١١١.

(٣) أخرجه أحمد (١٩٠٠)، ومسلم (٤٧٩) من حديث ابن عباس ﷺ، وفيه: «ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً...».

(٤) مسند أحمد (٣٧٦٠)، وسنن النسائي الكبرى (١١٠٠٧)، وتفسير الطبري ٥/ ٦٩٧، والمعجم الكبير للطبراني (١٠٢٠٩)، أو لفظ أحمد والنسائي: «أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله الساعة غيرَكم».

ولا سائرُ الأمم، فقد روى الطبرانيُّ بسند حسن أيضاً عن المنكدر أنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات ليلة، وأنه أخَّر صلاة العشاء حتى ذهب من الليل هُنَيهَةٌ أو ساعة، والناس ينتظرون في المسجد فقال: «أما إنكم لن تزالوا في صلاة ما انتظرتموها» ثم قال: «أمَا إنَّها صلاةٌ لم يُصَلِّها أحدٌ مِمَّن كان قبلكم من الأمم»[(١)]. ولعلَّ هذا هو السِّرُّ في تقديم هذا الحكم على الحكم بالإيمان.

ولا يَرِدُ عليه أنَّ التلاوة لا تتيسَّر لهم إلا بصلاتهم منفردين، ولا تمدُّحَ في الإنفراد مع أنه خلافُ الواقع من حال القوم على ما يشير إليه الخبران؛ لأنه لم تُقيَّد التلاوة فيه بالصلاة، وإنما يلزم التقييد لو كانت الجملة حالاً من الضمير كما سبق، وليس فليس.

والتعبير عن الصلاة بالسجود؛ لأنه أدلُّ على كمال الخضوع، وهو سِرُّ التعبير به عنها في قوله ﷺ لمن طلب أن يدعو له بأن يكون رفيقه في الجنة لفَرْطِ حبِّه له، وخوفِ حيلولة الفراق يوم القيامة: «أعِنِّي بكثرة السجود»[(٢)] وكذا في كثير من المواضع.

وقيل: المراد بها الصلاة ما بين المغرب والعشاء الآخرة، وهي المسماة بصلاة الغفلة.

وقيل: المراد بالسجود سجودُ التلاوة. وقيل: الخضوع كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥]. واختيرت الجملة الاسمية للدلالة على الاستمرار، وكَرَّر الإسنادَ تقويةً للحكم وتأكيداً له، واختيار صيغة المضارع للدلالة على التجدُّد.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ صفةٌ أخرى لـ «أمة»، وجُوِّز أن تكون حالاً على طرز ما قبلها، وإن شئت ـ كما قال أبو البقاء[(٣)] ـ استأنفتها.

---

(١) المعجم الكبير ٢٠/(٨٤٦)، والمعجم الأوسط (٧٤٦٧)، والمنكدر هو ابن عبد الله بن الهُدير التيمي. الإصابة ٩/ ٢٩٢.

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٩)، وأبو داود (١٣٢٠) من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه.

(٣) في إملاء ما منَّ به الرحمن ٢/ ١١٢.

والمراد بهذا الإيمانِ: الإيمانُ بجميع ما يجب الإيمان به على الوجه المقبول، وخصَّ الله تعالى اليوم الآخر بالذكر؛ إظهاراً لمخالفتهم لسائر اليهود فيما عسى أن يتوهَّم متوهِّمٌ مشاركتَهم لهم فيه؛ لأنهم يدَّعون أيضاً الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، لكنْ لمَّا كان ذلك مع قولهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وكفرهم ببعض الكتب والرسل، ووَصْفِهم اليومَ الآخِرَ بخلافِ ما نطقت به الشريعة المصطفوية، جُعل هو والعدم سواء.

﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ إشارةٌ إلى وُفور نصيبهم من فضيلة تكميل الغير، إثر الإشارة إلى وفوره من فضيلة تكميل النفس، وفيه تعريضٌ بالمداهنين الصادِّين عن سبيل الله تعالى.

﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي يبادرون إلى فعل الخيرات والطاعات خوفَ الفَوَات بالموت مثلاً، أو يعملون الأعمال الصالحة راغبين فيها غيرَ متثاقلين؛ لِعِلمهم بجلالة موقعها وحُسْنِ عاقبتها، وهذه صفةٌ جامعةٌ لفنون الفضائل والفواضل، وفي ذكرها تعريضٌ بتباطؤ اليهود وتثاقُلِهم عن ذلك.

وأصل المسارعة: المبادرةُ. وتستعمل بمعنى الرغبة، واختيارُ صيغة المفاعلة للمبالغة، قيل: ولم يعبِّر بالعجلة للفرق بينها وبين السرعة، فإنَّ السرعةَ: التقدُّمُ فيما يجوز أن يُتقدَّم فيه، وهي محمودةٌ، وضدُّها الإبطاء وهو مذمومٌ. والعجلة: التقدُّم فيما لا ينبغي أن يتقدَّم فيه، وهي مذمومة، وضدُّها الأناة، وهي محمودة.

وإيثارُ «في» على «إلى» وكثيراً ما تتعدَّى المسارعة بها؛ للإيذان كما قال شيخ الإسلام: بأنهم مستقرُّون في أصل الخير، متقلِّبون في فنونه، لا أنهم خارجون مُنْتَهون إليها(١). وصيغةُ جمعِ القلَّة هنا تُغني عن جمع الكثرة كما لا يخفى.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات الجليلةِ الشأنِ، بسبب اتِّصافهم بها ـ كما يشعر به العدول عن الضمير ـ ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤﴾ أي: من عداد الذين صلحت عند الله تعالى حالُهم، وهذا ردٌّ لقول اليهود: ما آمن به إلا شرارُنا.

وقد ذهب الجُلُّ إلى أنَّ في الآية استغناءٌ بذكر أحد الفريقين عن الآخر، على

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/ ٧٤.

عادة العرب من الاكتفاء بذكر أحد الضِّدَّين عن الآخر، والمراد: ومنهم مَن ليسوا كذلك.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: طاعةٍ متعدِّيةٍ أو سارية ﴿فَلَن تُكْفَرُوهُ﴾[(١)] أي: لن تُحْرَموا ثوابَه البتَّة. وأصل الكفر: الستر، ولتفسيره بما ذكرنا تعدَّى إلى مفعولين، والخطاب قيل: لهذه الأمة، وهو مرتبطٌ بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ وجميع ما بينهما استطراد، وقيل: لأولئك الموصوفين بالصفات المذكورة، وفيه التفات، ونكتتُه الخاصة هنا الإشارةُ إلى أنهم لاتِّصافهم بهذه المزايا أهلٌ لِأَنْ يُخاطبوا.

وقرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر بالياء في الفعلين[(٢)]، والباقون بالتاء فيهما غيرَ أبي عمرو؛ فإنه روي عنه أنه كان يخيِّر بهما[(٣)].

وعلى قراءة الغيبة يجوز أن يُراد من الضمير ما أُريدَ من نظائره فيما قبل، ويكون الكلام حينئذ على وتيرة واحدة، ويحتمل أن يعود للأمة ويكون العدول إلى الغيبة مراعاةً للأمة، كما روعيت أولاً في التعبير بـ «أُخْرِجَتْ» دون أُخْرِجْتُم، وهذه طريقةٌ مشهورةٌ للعرب في مثل ذلك.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ أي: بأحوالهم فيجازيهم، وهذا تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله.

والمراد بـ «المتقين» إما عامٌّ، ويدخل المخاطَبون دخولاً أوَّليًّا، وإمَّا خاصٌّ بالمتقدِّمين، وفي وضع الظاهر موضع المضمَر إيذانٌ بالعلة، وأنه لا يفوز عنده إلا أهلُ التقوى، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ مؤكِّداً لذلك، ولهذا فُصل.

والمراد من الموصول: إمَّا سائرُ الكفار، فإنهم فاخَروا بالأموال والأولاد حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] فردَّ الله تعالى عليهم

---

(١) بالتاء في الفعلين، وقرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بالياء فيهما كما سيرد.

(٢) التيسير ص ٩٠، والنشر ٢/ ٢٤١، وهي قراءة حفص وحمزة والكسائي وخلف.

(٣) قال مكي في الكشف ١/ ٣٥٤: والمشهور عن أبي عمرو بالتاء. وقال ابن الجزري في النشر ٢/ ٢٤١: الوجهان صحيحان... إلا أن الخطاب أكثر وأشهر، وعليه الجمهور من أهل الأداء.

بما ترى. وإما بنو قريظة وبنو النضير، حيث كانت معاندتهم[1] بالأموال والأولاد. وروي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل: مشركو قريش. وقيل وقيل، ولعلَّ مَن ادَّعى العموم ـ وهو الظاهر ـ قال بدخول المذكورين دخولاً أوَّلياً.

والمراد من الإغناء: الدفع، ويقال: أغنى عنه، إذا دفع عنه ضرراً لولاه لنزل به، أي: لن تدفع عنهم يوم القيامة أموالُهم التي عوَّلوا عليها في المُهِمَّات، ولا مَنْ هو أرجى من ذلك وأعظمُ عندهم، وهم أولادهم، من عذاب الله تعالى لهم شيئاً يسيراً منه.

وقال بعضهم: المراد بالإغناء: الإجزاء، ويقال: ما يغني عنك هذا، أي: ما يُجْزِئُ عنك وما ينفعك، و«من» للبدل أو الابتداء، و«شيئاً» مفعولٌ مطلقٌ، أي: لن يُجزىء عنهم ذلك من عذاب الله تعالى شيئاً من الإجزاء. وعلى التفسير الأول للإغناء، وجَعْلِ هذا معنًى حقيقيًّا له دونه، يقال بالتضمين، وأَمْرُ المفعولية عليه ظاهرٌ لتعدِّيه حينئذ.

﴿وَأُولَٰٓئِكَ﴾ ـ أي: الموصوفون بالكفر ـ بسبب كفرهم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ أي: مُلازِموها، وهو معنى الأصحاب عرفاً.

﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦﴾ تأكيدٌ لما يراد من الجملة الأولى، واختيارُ الجملة الاسمية للإيذان بالدوام والاستمرار وتقديمُ الظرف محافظةٌ على رؤوس الآي.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ كالدليل لعدم إغناء الأموال، ولعلَّ عدمَ بيان إغناءِ الأولاد ظاهرٌ؛ لأنهم إن كانوا كفاراً ـ وهو الظاهر ـ كان حُكْمُهم حُكْمَهم، وإن كانوا مسلمين، كانوا عليهم لا لهم في الدنيا، وبُغْضُهم لهم في الآخرة يومَ تُبْلَى السرائر ويُكْشَفُ عن ساق، وتَبرِّيهم منهم حين يفرُّ المرء من أمه وأبيه، أَظْهَرُ من أن يَخْفَى.

و«ما» موصولةٌ والعائد محذوف، أي: ينفقونه، والإشارة للتحقير، والمراد تمثيلُ جميع صدقات الكفار ونفقاتهم كيف كانت، وهو المرويُّ عن مجاهد.

---

(١) في «م»: معالجتهم، والمثبت من الأصل وهو الصواب، وينظر تفسير أبي السعود ٢/ ٧٥، واللباب ٥/ ٤٨٢.

وقيل: مَثَلٌ لِمَا ينفقه الكفار مطلقاً في عداوة الرسول ﷺ. وقيل: لِمَا أنفقه قريش يومَ بدر وأُحد، لمَّا تَظَاهروا عليه عليه الصلاة والسلام. وقيل: لما أنفقه سفلة اليهود على علمائهم المحرِّفين.

أي: حالُ ذلك وقصَّته العجيبة ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: بردٌ شديد. قاله ابن عباس ﵄ وجماعة. وقال الزجاج: الصِّرٌّ صوتُ لهيب النار، وقد كانت في تلك الريح[1].

وقيل: أصل الصِّرِّ كالصَّرْصَر: الريحُ الباردة، وعليه يكون معنى النَّظْم: ريحٌ فيها ريحٌ باردة. وهو كما ترى محتاجٌ إلى التوجيه، وقد ذُكر فيه أنه واردٌ على التجريد كقوله:

ولـولا ذاك قـد سـوَّمـتُ مُـهـري وفي الـرحـمـن لـلـضـعـفـاء كـافِ[2]

أي: هو كافٍ، وَمَنَع بعضُهم كونَه في الأصل الريحَ الباردة، وإنما هو مصدرٌ بمعنى البرد، كما قال الحبر. واستعماله فيما ذُكر مجازٌ، وليس بمراد.

وقيل: إنه صفةٌ بمعنى بارد، إلا أنَّ موصوفه محذوف، أي: بَرْدٌ بارد، فهو من الإسناد المجازي؛ كـ: ظِلٌّ ظليل، وفيه بُعد؛ لأنَّ المعروف في مثله ذِكْرُ الموصوف، وأما حَذْفُه وتقديره فلم يُعهد.

وقيل: هو في الأصل صوتُ الريح الباردة، من صَرَّ القلمُ والبابُ صريراً: إذا صوَّت، أو من الصَّرَّة: الضجة والصيحة، وقد استعمل هنا على أصله، وفيه أنَّ هذا المعنى مما لم يُعهد في الاستعمال.

والريح واحدة الرياح، وفي «الصحاح»: والأرياح، وقد تُجمع على أرواح؛ لأنَّ أصلها الواو، وإنما جاءت بالياء لانكسار ما قبلها، فإذا رجعوا إلى الفتح

(١) الكلام بنحوه في معاني القرآن ١/ ٤٦١.
(٢) البيت لأبي خالد القَنَاني من الخوارج كما في الكامل للمبرد ٣/ ١٠٨٢، ونسبه المرزباني في معجم الشعراء ص ٩٥ لعيسى بن عاتك، ونسب أيضاً لعمران بن حطان الشيباني، كما في الحماسة البصرية ١/ ٢٧٣، وقال البصري: وأبو رياش نسبها إلى محمد بن عبد الله الأزدي، وتروى لابن العربية اليشكري.

عادت إلى الواو؛ كقولك: أَرْوَحَ الماءُ، وتروَّحْتُ بالمِروَحة، ويقال أيضاً: ريحٌ وريحةٌ، كما قالوا: دارٌ ودارةٌ[١]. وسيأتي إن شاء الله تعالى ما[٢] للعلماء من الكلام في هذا المقام.

وأفرد الريح لما في «البحر» أنها مختصَّةٌ بالعذاب، والجمعُ مختصٌّ بالرحمة، ولذلك روي: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»[٣].

﴿أَصَابَتْ حَرْثَ﴾ أي: زَرْعَ ﴿قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي، فباؤوا بغضبٍ من الله تعالى، وإنَّما وُصفوا بذلك لما قيل: إنَّ الإهلاك عن سخطٍ أشدُّ وأفظع، أو لأنَّ المراد الإشارةُ إلى عدم الفائدة في الدنيا والآخرة، وهو إنَّما يكون في هلاك مال الكافر، وأما غيره فقد يثابُ على ما هلك له لِصَبْره.

وقيل: المراد: ظلموا أنفسهم بأن زرعوا في غير موضع الزراعة وفي غير وقتها.

﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ عن آخره ولم تَدَعْ له عيناً ولا أثراً، عقوبةً لهم على معاصيهم. وقيل: تأديباً من الله تعالى لهم في وضع الشيء في غير موضعه الذي هو حقُّه.

وهذا من التشبيه المركَّب الذي توجد فيه الزبدة من الخلاصة والمجموع، ولا يلزم فيه أن يكون ما يلي الأداة هو المشبَّه به كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [يونس: ٢٤] وإلا لوجب أن يقال: كَمَثل حَرْثٍ؛ لأنه المشبَّه به المنفَق.

وجُوِّز أن يراد: مَثَلُ إهلاكِ ما ينفقون كَمَثَل إهلاك ريح، أو: مَثَلُ ما ينفقون كمُهْلَك ريح، والمُهْلَكُ اسمُ مفعول هو الحرث.

والوجه عند كونه مركَّباً قلةُ الجدوى والضياع. ويجوز أن يكون من التشبيه المفرد[٤]، فيُشبَّه إهلاك الله تعالى بإهلاك الريح، والمُنفَقُ بالحَرْث، وجعل الله تعالى أعمالهم هباءً منثوراً بما في الريح الباردة من جَعْلِه حُطاماً.

---

(١) الصحاح (روح).

(٢) قوله: ما. ساقط من (م).

(٣) البحر ١/ ٣٧، والحديث أخرجه الشافعي في مسنده ١/ ١٧٥ عن ابن عباس مرفوعاً، وسنده ضعيف. وقد سلف ٣/ ٧١، وينظر الكلام عليه هناك.

وقرىء: «تنفقون» بالتاء(١).

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الضمير إما للمنفقين، أي: ما ظلمهم بضَياعِ نفقاتهم التي أنفقوها على غير الوجه اللائق المعتدِّ به، وإما للقوم المذكورين، أي: ما ظلم الله تعالى أصحاب الحَرْث بإهلاكه؛ لأنهم استحقُّوا ذلك، وحينئذ يكون هذا النفي مع قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ تأكيداً لما فُهم من قبلُ إشعاراً وتصريحاً. وقرىء: «ولكنَّ»(٢) بالتشديد على أنَّ «أنفسهم» اسمُها، وجملة «يظلمون» خبرُها والعائد محذوف، والتقدير: يظلمونها. وليس مفعولاً مقدَّماً ـ كما في قراءة التخفيف ـ واسمُها ضمير الشأن؛ لأنه لا يُحذف إلا في الشعر، كقوله:

وما كنتُ ممن يَدْخُلُ العِشقُ قلبَه ... ولكنَّ مَن يُبْصِرْ جفونَكِ يعشقِ(٣)

وتعيَّن حذفُه فيه لمكان «مَن» الشرطية التي لا تدخل عليها النواسخ.

وتقديم «أنفسَهم» على الفعل للفاصلة لا للحصر، وإلا لا يتطابق الكلام؛ لأنَّ مقتضاه: وما ظلمهم الله ولكن هم يظلمون أنفسهم، لا أنهم يظلمون أنفسَهم لا غيرهم، وهو في الحصر لازمٌ، وصيغةُ المضارع للدلالة على التجدُّد والاستمرار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ أخرج ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس قال: كان رجالٌ من المسلمين يواصلون رجالاً من يهود؛ لِمَا كان بينهم من الجوار والحِلْف في الجاهلية، فأنزل الله تعالى فيهم ينهاهم عن مُباطنتهم تخوُّفَ الفتنة عليهم هذه الآية(٤).

وأخرج عبد بن حميد(٥) أنها نزلت في المنافقين من أهل المدينة، نُهي المؤمنون أن يتولَّوهم. وظاهر ما يأتي يؤيِّده.

---

(١) في الأصل و(م): المفرق، والمثبت من حاشية الشهاب ٣/ ٥٧ والكلام منها.

(٢) هي قراءة الأعرج وعيسى. القراءات الشاذة ص ٢٢، والمحرر الوجيز ١/ ٤٥٩.

(٣) الكشاف ١/ ٤٥٨.

(٤) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ص ٣٤٥، وحاشية الشهاب ٣/ ٥٧-٥٨، والكلام منه.

(٥) سيرة ابن هشام ١/ ٥٥٨، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الطبري ٥/ ٧٠٩.

والبِطانة: خاصَّةُ الرجل الذين يستبطنون أمره، مأخوذة من بطانة الثوب: للوجه الذي يلي البدن لقُرْبه، وهي نقيضُ الظِّهارة، ويسمَّى بها الواحد والجمع والمذكَّر والمؤنث.

و«من» متعلِّقةٌ بـ «لا تتخذوا»، أو بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «بطانة». وقيل: زائدة.

و«دون» إما بمعنى غير، أو بمعنى الأَدْون والدَّني، وضمير الجمع المضافُ إليه للمؤمنين، والمعنى: لا تتخذوا الكافرين كاليهود والمنافقين أولياءَ وخواصَّ من غير المؤمنين، أو ممن لم تبلغ منزلته منزلتكم في الشرف والديانة، والحكم عامٌّ وإن كان سبب النزول خاصًّا، فإنَّ اتخاذ المخالف وليًّا مَظِنَّةُ الفتنة والفساد، ولهذا ورد تفسير هذه البطانة بالخوارج[1].

وأخرج البيهقيُّ وغيره عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تنقشوا في خواتيمكم عربيًّا، ولا تستضيؤوا بنار المشركين» فذُكر ذلك للحسن فقال: نعم لا تنقشوا في خواتيمكم: محمد رسول الله، ولا تستشيروا[2] المشركين في شيء من أموركم. ثم قال الحسن: وتصديقُ ذلك من كتاب الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾[3].

---

(١) عن مجاهد، كما في الدر المنثور ٢/ ٦٦، وأخرجه - أيضاً - الطبري ٥/ ٧٠٩.
(٢) وروي مرفوعاً، فقد أخرجه ابن أبي حاتم ٣/ ٧٤٢، والطبراني في الكبير (٨٠٤٧) من حديث أبي أمامة ﷺ، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ الآية، قال: «هم الخوارج». وفي إسناده أبو غالب حزور، قال الذهبي في الميزان ٤/ ٥١٠: فيه شيء. وقال ١/ ٤٧٦: ضعفه النسائي، وقال ابن حبان: لا يحتج به، وقد صحح له الترمذي.
(٣) في (م): تستسروا.
(٤) السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ١٢٧، وشعب الإيمان (٩٣٧٥)، وأخرجه أيضاً الطبري ٥/ ٧١٠، والضياء في المختارة ٤/ ٣٧٩ - ٣٨٠.
وأخرجه أحمد (١١٩٥٤)، والبخاري في التاريخ الكبير ١/ ٤٥٥، والنسائي في الكبرى (٩٤٦٤) دون تفسير الحسن. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهذا التفسير [أي تفسير الحسن] فيه نظر، ومعناه ظاهر: لا تنقشوا في خواتيمكم عربيًّا، أي: بخط عربي لئلا يشابه نقش خاتم النبي ﷺ، فإنه كان نقشه: محمد رسول الله... وأما الاستضاءة بنار المشركين فمعناه: لا تقاربوهم في المنازل بحيث تكونون معهم في بلادهم بل تَباعَدوا منهم وهاجروا من بلادهم.

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أصل الألْو: التقصير، يقال: أَلَا ـ كغَزَا ـ يألُو ألْواً: إذا قَصَّر وفتَرَ وضَعُف، ومنه قول امرئ القيس:

وما المرء ما دامت حُشاشةُ نفسه بمُدركِ أطرافِ الخُطوب ولا آلي[1]

أراد: ولا مُقصِّر في الطلب.

وهو لازمٌ يتعدَّى إلى المفعول بالحرف. وقد يستعمل متعدِّياً إلى مفعولين في قولهم: لا آلوك نُصْحاً، ولا آلوك جهداً، على تضمين معنى المنع، أي: لا أمنعك ذلك. وقد يجعل بمعنى[2] الترك، فيتعدَّى إلى واحد، وفي «القاموس»[3]. ما أَلَوْتُ الشيء، أي: ما تَرَكْتُه.

والخَبال في الأصل: الفساد الذي يلحق الإنسان فيُوْرِثُه اضطراباً؛ كالمرض والجنون، ويستعمل بمعنى الشر والفساد مطلقاً.

ومعنى الآية على الأول: لا يُقصِّرون لكم في الفساد والشرِّ، بل يَجْهَدون في مَضَرَّتكم؛ وعليه يكون الضمير المنصوب والاسم الظاهر منصوبين بنزع الخافض، وإليه ذهب ابن عطية[4].

وجُوِّز أن يكون الثاني منصوباً على الحال، أي: مخبِّلين، أو على التمييز.

واعتُرض ذلك بأنه لا إيهامَ في نسبة التقصير إلى الفاعل، ولا يصح جعلُهُ فاعلاً إلا على اعتبار الإسناد المجازي والنصب بنزع الخافض، ووقوعُ المصدر حالاً ليس بقياس إلا فيما يكون المصدر نوعاً من العامل، نحو: أتاني سرعة وبُطْءاً، كما نصَّ عليه الرضي في بحث المفعول به والحال واعتمده السيالكوتي.

ونقل أبو حيان[5] أنَّ التمييز هنا محوَّلٌ عن المفعول، نحو: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ

---

(١) ديوان امرىء القيس ص ٣٩، ومعنى البيت: أن الإنسان ما دام حيًّا فإنه لا يدرك أواخر الأمور ولا ينال غاية الآمال، ولا يتأتى له كل ما يريد، وهو مع ذلك لا يألو، أي: لا يترك جهداً في الطلب.

(٢) في (م): بمنع، وهو تصحيف.

(٣) مادة (ألو).

(٤) المحرر الوجيز ١/٤٩٦.

(٥) في البحر المحيط ٣/٣٨.

عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢]. وهو من الغرابة بمكان؛ لأنَّ المفروضَ أنَّ الفعلَ لازمٌ، فمن أين يكون له مفعولٌ ليُحَوَّل عنه؟! وملاحظة تعدِّيه إليه بتقدير الحرف قولٌ بالنصب على نزع الخافض، وقد سمعتَ ما فيه.

وأجيب بالتزام أحد الأمرين: الحالية، أو كونه منصوباً على النزع، مع القول بالسماع هنا.

والمعنى على الثاني: لا يمنعونكم خبالاً، أي: أنهم يفعلون معكم ما يَقْدِرون عليه من الفساد، ولا يُبْقُون عندهم شيئاً منه في حقِّكم وهو وجهٌ وجيه، والتضمينُ قياسيٌّ على الصحيح، والخلاف فيه واهٍ لا يلتفت إليه.

والمعنى والإعراب على الثالث ظاهران بعد الإحاطة بما تقدم.

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: أَحبُّوا عَنَتَكُم، أي: مشقَّتكم الشديدة وضرركم. وقال السُّدِّي: تمنَّوا ضلالتكم عن دينكم، وروي مثله عن ابن جريج[1].

﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، أي: ظهرت أمارات العداوة لكم من فلتات ألسنتهم وفَحوَى كلماتهم؛ لأنهم لشدَّة بُغضهم لكم لا يملكون أنفسهم، ولا يقدرون أن يحفظوا ألسنتهم.

وقال قتادة: ظهور ذلك فيما بينهم، حيث أبدى كلٌّ منهم ما يدلُّ على بغضه للمسلمين لأخيه، وفيه بُعدٌ؛ إذ لا يناسبه ما بعده.

والأفواه جمع فَم، وأصله: فُوه، فلامُه هاء، والجموع تَرُدُّ الأشياءَ إلى أصولها، ويدلُّ على ذلك أيضاً تصغيرُهُ على: فُوَيْه، والنسبة إليه: فوهِيّ.

وقرأ عبد الله: «قد بدا البغضاء»[2].

﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ﴾ من البغضاء ﴿أَكْبَرُ﴾ أي: أعظم مما بدا؛ لأنه كان عن فَلْتة، ومثله لا يكون إلا قليلاً.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: أَظْهَرْنا لكم الآيات الدالَّة على النهي عن مُوالاة

---

(١) في (م): ابن جرير. والأثر أخرجه ابن جرير الطبري ٥/ ٧١١ عن ابن جريج.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٧٩، والكشاف ١/ ٤٥٨.

أعداء الله تعالى ورسولِه ﷺ. أو: قد أظهرنا لكم الدلالات الواضحات التي يتميز بها الوليُّ من العدو.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ أي: إن كنتم من أهل العقل، أو: إن كنتم تعلمون الفصل[1] بين الولي والعدو، أو: إن كنتم تعلمون مواعظَ الله تعالى ومنافعها، وجواب «إنْ» محذوفٌ لدلالة الكلام عليه.

ثم إنَّ هذه الجمل ـ ما عدا «وما تخفي صدورهم أكبر» لأنها حالٌ لا غير ـ جاءت مستأنفات جواباً عن السؤال عن النهي، وتُرِكَ العطف بينها إيذاناً باستقلال كلٍّ منها في ذلك.

وقيل: إنها في موضع النعت لـ «بطانة»، إلا «قد بيَّنَّا» لظهور أنها لا تَصْلُح لذلك.

والأول أحسن؛ لما في الاستئناف من الفوائد، وفي الصفات من الدلالة على خلاف المقصود، أو إيهامِه لا أقلَّ وهو تقييدُ النهي، وليس المعنى عليه.

وقيل: إنَّ «ودُّوا ما عنتُّم» بيانٌ وتأكيدٌ لقوله: «لا يألونكم خبالاً» فحُكْمُهُ حكمُهُ، وما عدا ذلك مستأنفٌ للتعليل على طريق الترتيب، بأن يكون اللاحقُ علةً للسابق، إلى أن تكون الأولى علةً للنهي، ويتمُّ التعليل بالمجموع، أي: لا تتخذوهم بطانة؛ لأنهم لا يألونكم خبالاً؛ لأنهم يودُّون شدَّة ضرركم، بدليل أنهم قد تبدو البغضاء من أفواههم وإن كانوا يخفون الكثير، ولابدَّ على هذا من استثناء «قد بيَّنَّا» إذ لا يصلح تعليلاً لبدوِّ البغضاء، ويصلح تعليلاً للنهي. فافهم.

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ تنبيهٌ على أنَّ المخاطَبين مخطئون في اتِّخاذهم بطانة. وفي إعراب مثل هذا التركيب مذاهبُ للنحويين، فقال الأزهريُّ وابن كيسان وجماعة: إنَّ «ها» للتنبيه؛ و«أنتم» مبتدأ وجملة «تحبونهم» خبره و«أولاء» منادى أو منصوب على الاختصاص. وضُعِّف بأنه خلافُ الظاهر، والاختصاص لا يكون باسم الإشارة.

---

(١) في (م): الفضل، والمثبت من الأصل، وهو الصواب.

وقيل: «أنتم» مبتدأ، و«أولاء» خبره، والجملة بعدُ مستأنفة. ويؤيِّد ذلك ما قاله الرضيُّ من أنه ليس المراد من «ها أنا ذا أفعل، وها أنت ذا تفعل» تعريفَ نفسِكَ، أو المخاطَب؛ إذ لا فائدة فيه، بل استغرابُ وقوع مضمون الفعلِ[1] المذكورِ بعدُ من المتكلِّم أو المخاطَب، فالجملةُ بعد اسم الإشارة لازمةٌ لبيان الحال المستغرَبة، ولا محلَّ لها إذ هي مستأنفة.

وقال البصريون: هي في محلِّ النصب على الحال، أي: ها أنت ذا قائلاً، والحال هاهنا لازمة؛ لأنَّ الفائدة معقودةٌ بها، وبها تتمّ، والعامل فيها حرف التنبيه أو اسم الإشارة.

واعترضه الرضيُّ بأنه لا معنى للحال؛ إذ ليس المعنى: أنت المشار إليه في حال فعلك.

ولا يخفى أنَّ ما قاله البصريون هو الظاهرُ من كلام العرب؛ لأنهم قالوا: ها أنت ذا قائماً. فصرَّحوا بالحالية، وإن كان المعنى على الإخبار بالحال؛ لأنه المقصود بالاستبعاد، ومدلولُ الضمير واسم الإشارة متَّحدٌ، واعتبارُ معنى الإشارة لمجرَّد تصحيح العمل، لا أنَّ المعنى عليه، وبه يندفع بحثُ الرضي، على أنه قد أُجيب عنه بغير ذلك.

وقال الزجَّاج[2]: يجوز أن يكون «أولاء» بمعنى «الذين» خبراً عن المبتدأ، و«تحبونهم» في موضع الصلة. وليس بشيء.

وقيل: «أنتم» مبتدأٌ أول و«أولاء» مبتدأ ثانٍ، و«تحبونهم» خبرُ المبتدأ الثاني، والجملة خبرُ المبتدأ الأول على حدِّ: أنت زيدٌ تحبُّه.

وقيل: إنَّ «أولاء» هو الخبر، وجملة[3] ما بعده خبرٌ ثان.

وقيل: «أولاء» في محلِّ نصبٍ بفعلٍ يفسِّره ما بعده، والجملةُ خبرُ المبتدأ.

---

(١) قبلها في الأصل و(م): وقوع، والمثبت من حاشية الشهاب ٣/ ٥٩.

(٢) في معاني القرآن له ١/ ٤٦٣.

(٣) في (م): والجملة.

والإشارةُ للتحقير، فاستعملت هنا للتوبيخ، كأنه ازدُري بهم لظهور خطئهم في ذلك الاتخاذ.

والمراد بمحبة المؤمنين لهم: المحبةُ العاديَّة الناشئة من نحو الإحسان والصداقة، ومثلُها وإن كان غريباً يُلام عليه إذا وقع من المؤمنين في حقِّ أعداء الدين الذين يتربَّصون بهم ريبَ المَنون، لكن لا يصل إلى الكفر، وإنما يَصِلُ[1] إليه باعتبارٍ آخَرَ لا يكاد يقع من أولئك المخاطبين.

وقيل: المراد: تحبُّونهم لأنكم تريدون الإسلام لهم، وتدعونهم إلى الجنة، ولا يحبُّونكم؛ لأنهم يريدون لكم الكفر والضلال، وفي ذلك الهلاك. ولا يخفى ما فيه.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي: بالجنس كلِّه. وجَعْلُ ذلك من قبيل: أنت الرجل، أي: الكامل في الرجولية، ويكون الكتاب حينئذ إشارة إلى القرآن = تعسُّفٌ.

والجملة حالٌ من ضمير المفعول في «لا يحبونكم». واعترضه في «البحر»[2] بأنَّ المضارع المثبَت إذا وقع حالاً لا تدخل عليه واو الحال، ولهذا تأوَّلوا: قمتُ وأصكُّ عينيه، على حذف المبتدأ، أي: قمتُ وأنا أصكُّ عينيه. ومثل هذا التأويل وإن جاء هنا، أي: ولا يحبُّونكم وأنتم تؤمنون بالكتاب كلِّه، إلا أنَّ العطف على «تحبُّونهم» أولى لسلامته من الحذف.

وفيه أنَّ الكلام في معرِض التخطئة، ولا كذلك الإيمان بالكتاب كلِّه، فإنه محضُ الصواب. والحمل على أنكم تؤمنون بالكتاب كله وهم لا يؤمنون بشيء منه؛ لأنّ إيمانهم كَلَا إيمانٍ فلا يجامع المحبة، سديدٌ كما قال العلَّامة الثاني[3] في تقرير الحالية دون العطف، وبهذا يندفع ما في «البحر» من الاعتذار، والمعنى: لا[4] يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم، فما بالكم تحبُّوهم وهم لا يؤمنون بكتابكم.

---

(١) في (م): وإنما لم يصل.
(٢) ٣/ ٤١.
(٣) هو مسعود بن عمر المشهور بسعد الدين التفتازاني.
(٤) قوله: لا. ساقط من (م).

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ نفاقاً ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ أي: خلا بعضهم ببعض ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ﴾ أي: لأجلكم ﴿ٱلْأَنَامِلَ﴾ أي: أطرافَ الأصابع ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: لأجلِ الغضب والحنق لِمَا يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم ونصرةِ الله تعالى إياهم، بحيث عجز أعداؤهم عن أن يجدوا سبيلاً إلى التشفِّي، واضْطُروا إلى مداراتهم.

وعضُّ الأنامل عادةُ النادم الأَسِفِ[1] العاجز، ولهذا أُشير به إلى حال هؤلاء، وليس المراد أنَّ هناك عضًا بالفعل.

﴿قُلْ﴾ يا محمد بلسانك، وقيل: المراد: حدِّث نفسك بإذلالهم وإعزازِ الإسلام، من غير أن يكون هناك قول. وقيل: هو خطابٌ لكلِّ مؤمن، وتحريضٌ لهم على عداوتهم، وحثٌّ لهم على خطابهم خطابَ الخُصَماء، فإنه لا أقطع للمحبَّة من جراحة اللسان، فالمقصودُ على هذا من قوله تعالى: ﴿مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ مجرَّدُ الخطاب بما يكرهونه.

والصحيحُ الذي اتفقت عليه كلمتهم أنه دعاءٌ عليهم. وكونُ ذلك مما فيه خفاء؛ إذ لا يخاطب المدعوُّ عليه، بل اللهُ تعالى ويُسأل منه ابتلاؤه، لا خفاءَ في خفائه، وأنه غفلةٌ عن قولهم: قاتلك الله تعالى، وقولهم: دُمْ بِعِزٍّ، وبِتْ قريرَ عين، وغيره مما لا يحصى.

والمراد كما قيل: الدعاءُ بدوام الغيظ وزيادتِه بتضاعُفِ قوة الإسلام وأهله حتى يهلكوا به. وهذا عند العلَّامة الثاني من كناية الكناية، حيث عبَّر بدعاء موتهم بالغيظ عن ملزومه الذي هو دعاء ازدياد غيظهم إلى حين الهلاك، وبه عن ملزومه الذي هو قوة الإسلام وعزُّ اسمه، وذلك لأنَّ مجرَّد الموت بالغيظ أو ازدياده ليس مما يحسن أن يُطلب ويدعَى به.

وتُعُقِّب بأنَّ المجاز على المجاز مذكورٌ، وأمَّا الكنايةُ على الكناية فنادرة، وقد صرَّح بها السبكيُّ في قواعده الأصولية، ونقل فيها خلافاً، ومع هذا الفرقُ بين الكناية بالوسائط والكنايةِ على الكناية مما يحتاج إلى التأمُّل الصادق، ولعله فرقٌ اعتباري.

(١) في (م): الأسيف، وكلاهما صواب.

وأيضاً ما ذكره من أنَّ مجرد الموت بالغيظ. . إلخ، مدفوعٌ بأنه يمكن أن يكون المحسِّنُ لذلك ما فيه من الإشارة إلى ذمِّهم، حيث إنهم قد استحقُّوا هذا الموت الفظيع والحالَ الشنيع.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ أي: بما خفي فيها، وهذا يحتمل أن يكون من تتمة المقول، أي: قل لهم: إن الله تعالى عليمٌ بما هو أخفى مما تُخفونه من عضِّ الأنامل إذا خلوتم، فيجازي به. وأن يكون خارجاً عنه، أي: قل لهم ما تقدم، ولا تتعجبَّ من إطْلاعي إياك على أسرارهم، فإني عليمٌ بالأخفى من ضمائرهم. والنهيُ عن التعجُّب حينئذ إمَّا خارجٌ مخرج العادة مجازاً، بناءً على أنَّ المخاطب عالِمٌ بمضمون هذه الجملة، وإما باقٍ على حقيقته إن كان المخاطَب غير ذلك ممن يقف على هذا الخطاب، فلا إشكال على التقديرين خلافاً لمن وهم في ذلك.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿حَسَنَةٌ﴾ نعمةٌ من ربكم كالألفة واجتماع الكلمة والظَّفَر بالأعداء ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ أي: تُحْزِنْهم وتُغِظْهم ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: محنةٌ كإصابة العدو منكم، واختلافِ الكلمة فيما بينكم ﴿يَفْرَحُوا۟﴾ أي: يبتهجوا ﴿بِهَا﴾ وفي ذلك إشارةٌ إلى تَناهي عداوتهم إلى حدِّ الحسد والشماتة.

والمسُّ قيل: مستعارٌ للإصابة، فهما هنا بمعنى، وقد سوَّى بينهما في غير هذا الموضع؛ كقوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ [التوبة: ٥٠] وقوله سبحانه: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠-٢١] والتعبير هنا بالمسِّ مع الحسنة، وبالإصابة مع السيئة، لمجرد التفنُّن في التعبير.

وقال بعض المحققين: الأحسن والأنسب بالمقام ما قيل: إنه للدلالة على إفراطهم في السرور والحزن؛ لأنَّ المسَّ أقلُّ من الإصابة كما هو الظاهر، فإذا ساءهم أقلُّ خيرٍ نالهم، فغيرُهُ أولى منه، وإذا فرحوا بأعظم المصائب مما يرثي له الشامت ويرقُّ الحاسد، فغيره أولى، فهم لا تُرجى موالاتهم أصلاً، فكيف تتخذونهم بطانة؟!

والقول بأنه لا يَبْعُد أن يقال: إنَّ ذلك إشارةٌ إلى أنَّ ما يصيبهم من الخير بالنسبة إلى لطف الله تعالى معهم خيرٌ قليل، وما يصيبهم من السيئة بالنسبة لما يقابل به من الأجر الجزيل عظيم = بعيدٌ كما لا يخفى.

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ﴾ على أذاهم أو على طاعة الله تعالى ومَضَضِ الجهاد في سبيله ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ ما حُرِّم عليكم ﴿لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ﴾ أي: مَكْرُهم. وأصل الكيد: المشقة.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب: «لا يَضِرْكم» بكسر الضاد وجزم الراء[1]، على أنه جواب الشرط، من ضارَه يضيرُهُ بمعنى: ضرَّه يضرُّه. وضمُّ الراء في القراءة المشهورة؛ لإتباع ضمة الضاد، كما في الأمر المضاعَف المضموم العين كـ «مُدّ»، والجزمُ مقدَّرٌ، وجوَّزوا في مثله الفتحَ للخِفة، والكسرَ لأَجْلِ تحريك الساكن. وقيل: إنه مرفوع بتقدير الفاء، وهو تكلُّفٌ مستغنًى عنه.

﴿شَيۡـًٔاۗ﴾ نصبٌ على المصدر، أي: لا يضرُّكم كيدهم شيئاً من الضرر، لا كثيراً ولا قليلاً، ببركة الصبر والتقوى لكونهما من محاسن الطاعات ومكارم الأخلاق، ومَن تَحلَّى بذلك كان في كَنَف الله تعالى وحمايته من أن يضرَّه كيدُ عدوٌّ.

وقيل: لا يضرُّكم كيدهم؛ لأنه إن[2] أحاط بكم فلكم الأجر الجزيل، وإن بطل فهو النعمة في[3] الدنيا، فأنتم لا تُحرمون الحسنى على كلتا الحالتين، وفيه بعدٌ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ من الكيد. وقرأ الحسن وأبو حاتم: «تعملون» بالتاء الفوقانية[4]، وهو خطابٌ للمؤمنين، أي: ما تعملون من الصبر والتقوى ﴿مُحِيطٞ ١٢٠﴾ علماً، أو بالمعنى اللائق بجلاله، فيعاقبهم به، أو فيثيبكم عليه.

﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ﴾ أي: واذكر إذ خرجتَ غدوةً ﴿مِنۡ﴾ عند ﴿أَهۡلِكَ﴾. والخطابُ للنبيِّ ﷺ خاصة، والكلام مستأنفٌ سيق للاستشهاد بما فيه من استتباع عدم الصبر والتقوى للضرر، على أنَّ وجودهما مستتبعٌ لِمَا وعد من النجاة عن مضرَّة كيد الأعداء، وكان الخروج من حجرة عائشة ﵂.

﴿تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: تُوطِّنهم؛ قاله ابن جبير. وقيل: تُنْزِلهم. وقيل: تسوِّي

(١) التيسير ص٩٠، والنشر ٢/ ٢٤٢.
(٢) قوله: إن، ساقط من (م).
(٣) قوله: في، ساقط من (م).
(٤) القراءات الشاذة ص ٢٢، والمحرر الوجيز ١/ ٤٩٩.

وتُهيِّىء لهم، ويؤيِّده قراءة «للمؤمنين»[١]؛ إذ ليس محلَّ التقوية، والزيادةُ غير فصيحة.

﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي: مَواطِنَ ومَواقفَ ومَقاماتٍ له. وأصل المَقْعَدِ والمَقَام: محلُّ القعود والقيام، ثم تُوسِّع فيه فأُطلق بطريق المجاز على المكان مطلقاً وإن لم يكن فيه قيامٌ وقعود، وقد يطلق على مَنْ به، كقولهم: المجلس السامي، والمقام الكريم.

وجملة «تبوِّئ» حالٌ من فاعل «غدوت». ولكون المقصود تذكيرُ الزمان الممتدِّ المتَّسع لابتداء الخروج والتَّبوِئة وما يترتَّب عليها؛ إذ هو المذكِّر للقصة، لم يحتَجْ إلى القول بأنها حال مقدَّرة، أي: ناوياً وقاصداً للتَّبْوِئة.

و«مقاعد» مفعولٌ ثانٍ لـ «تُبوِّئ»، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بالفعل قبله، أو بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «مقاعد»، ولا يجوز ـ كما قال أبو البقاء[٢] ـ أن يتعلَّق به؛ لأنَّ المراد به المكان، وهو لا يعمل.

روى ابن إسحاق[٣] وجماعةٌ عن ابن شهاب ومحمد بن يحيى والحصين بن عبد الرحمن وغيرهم ـ وكلٌّ قد حدَّث بعض الحديث ـ: أنه لمَّا أُصيب يومَ بدر من كفار قريش أصحابُ القَلِيب، ورجع فَلُّهم[٤] إلى مكة، ورجع أبو سفيان بن حرب بِعِيره، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمةُ بن أبي جهل، وصفوان بن أمية في رجالٍ من قريش ممن أُصيبت آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يومَ بدر، فكلَّموا أبا سفيان ومَن كانت له في تلك العِير من قريش تجارةٌ، فقالوا: يا معشر قريش، إنَّ محمداً قد وَتَركم[٥] وقَتَل أخياركم، فأعينونا بهذا المال على حَرْبه، لعلَّنا نَدرِكُ به ثأرنا بمن أصاب منَّا، ففعلوا.

---

(١) هي قراءة ابن مسعود. المحرر الوجيز ١/ ٥٠١، والبحر ٣/ ٤٦.
(٢) في الإملاء ٢/ ١١٦.
(٣) في السير والمغازي ص ٣٢٢ مطولاً، وهو في سيرة ابن هشام ٢/ ٦٠، وما سيأتي بين حاصرتين منهما.
(٤) الفَلُّ: المنهزم، يقال للواحد والجمع. القاموس المحيط (فلل).
(٥) وَتَره: قَتَل حميمَه، وأدركه بمكروه. المعجم الوسيط (وتر).

فاجتمعت قريشٌ لحرب رسول الله ﷺ وخرجت بحدِّها وحديدها[١] وأحابيشها، ومَن تابَعَها من بني كنانة وأهلِ تِهامة، وخرجوا معهم بالظُّعْن التماسَ الحفيظة[٢]، وأنْ لا يَفِرُّوا، وخرج أبو سفيان وهو قائد الناس بهند بنتِ عتبة، وخرج آخرون بنساءٍ أيضاً، فأقبلوا حتى نزلوا بعَيْنَين: جبلٍ[٣] ببطن السَّبْخة من قناةٍ على شفير الوادي مقابل المدينة.

فلمَّا سمع بهم رسول الله ﷺ والمسلمون قد نزلوا حيث نزلوا، قال رسول الله ﷺ: «إنِّي رأيت بقراً تُنحر، ورأيت في ذُباب سيفي ثَلْماً، ورأيت أنِّي أدخلتُ يدي في درعٍ حَصينة فأوَّلتُها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتَدَعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشَرِّ مقامٍ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها».

وكان رأي عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول مع رأي رسول الله ﷺ، يرى رأيه في ذلك أن لا يخرج إليهم، وكان ﷺ يكره الخروج، فقال رجال من المسلمين ممن أكرمه الله تعالى بالشهادة يوم أحد، وغيرُهم ممن كان فاته يوم بدر: اخرج بنا رسول الله إلى أعدائنا، لا يرون أنَّا جَبُنَّا عنهم وضعُفنا. فقال عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول: يا رسول الله، أقِمْ بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوٍّ لنا قطُّ إلا أصاب منَّا، ولا دخل علينا إلا أصبنا منه، فَدَعْهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشرِّ مَحْبِس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال [في وجههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة] من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا. فلم يَزَلِ الناس برسول الله ﷺ الذين كان من أَمْرهم حبُّ لقاء القوم[٤]، حتى دخل رسول الله ﷺ فلَبِسَ لأْمة[٥] حَرْبه، وذلك يومَ الجمعة حين فرغ من الصلاة، ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا: استَكْرَهْنا رسول الله ﷺ ولم يكن لنا ذلك، فإن شئتَ فاقعد صلى الله تعالى عليك وسلم. فقال: «ما ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأمَتهُ أن يضعها حتى يقاتل».

---

(١) في (م): بجدها وجديدها. وفي سيرة ابن هشام ٢/ ٦١: بحدِّها وجَدِّها وحديدها.

(٢) الحفيظة: الغضب والحمية. الصحاح (حفظ).

(٣) في الأصل و(م): بجبل.

(٤) في السير والمغازي: حب لقاء الله. والمثبت موافق لما في سيرة ابن هشام.

(٥) اللأمة: الدرع، وربما سمي السلاح كله لأمة. الإملاء المختصر في شرح المغازي والسير لأبي ذر الخشني ٢/ ١٠٣ ـ ١٠٤.

فخرج ﷺ بألفٍ من أصحابه وقد وعدهم الفتح إن يصبروا، واستعمل ابنَ أمِّ مكتوم على الصلاة بالناس، حتى إذا كان بالشَّوْط بين المدينة وأحد، انخذلَ عنه عبد الله بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، وما ندري علامَ نقتلُ أنفسنا هاهنا أيها الناس؟! فرجع بمن تبعه من قومه من أهل النفاق والرِّيَب، واتَّبعهم عبد الله بن عمرو بن حَرام أخو بني سلمة يقول: يا قوم، أُذكِّركم الله تعالى أن تخذلوا قومكم ونبيَّكم عند ما حَضَر من عدوهم، قال[1]: لو نعلم أنكم تقاتلون لَمَا أسلمناكم، ولكنَّا لا نرى أنه يكون قتال. فلما استَعْصَوْا عليه وأَبَوا إلا الانصراف، قال: أَبْعَدَكم الله تعالى أعداءَ الله، فيسيُغني الله تعالى عنكم نبيَّه ﷺ.

ومضى رسول الله ﷺ حتى سلك في حَرَّة بني حارثة، فذبَّ فرسٌ بذَنَبه فأصاب كُلَّابَ سيفٍ[2] فاستلَّه، فقال ﷺ ـ وكان يحبُّ الفأل ولا يعتاف[3] ـ لصاحب السيف: «شِمْ سيفك[4]، فإنِّي أرى السيوف ستُسلُّ اليوم».

ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشِّعب من أُحد من عُدْوة الوادي إلى الجبل، فجعل ظهره وعسكره إلى أُحد وقال: «لا يقاتِلْ أحدٌ حتى نأمره بالقتال».

وتعبَّأ رسول الله ﷺ للقتال ومشى على رجليه، وجعل يصفُّ أصحابه، فكأنما يقوِّم بهم القِدْحَ[5]، إن رأى صدراً خارجاً قال: «تأخَّر» وهو في سبع مئة رجل، وأَمَّر على الرماة عبد الله بنَ جبير، وهو مُعلَّمٌ يومئذ بثيابٍ بيض، وكانوا خمسين رجلاً، وقال: «انضح الخيل عنَّا بالنَّبل لا يأتونا من خلفنا، إن كان علينا أو لنا فاثبت مكانك، لا نؤتَينَّ من قِبلِكَ». وظاهَرَ رسول الله ﷺ بين درعين[6]، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير.

---

(١) في المصادر: قالوا.
(٢) الكُلّاب والكَلْب: مسمار يكون في قائم السيف، وقيل هي الحلقة التي تكون في مسمار قائم السيف. الإملاء المختصر ٢/ ١٠٤.
(٣) أي: لا يتطيَّر. الإملاء المختصر ٢/ ١٠٤.
(٤) أي: أغمِدْه، وهو من الأضداد. الإملاء المختصر ٢/ ١٠٤.
(٥) القِدْح: هو السهم يقوَّم بعد أن يُبرى وقبل أن يُراشَ ويركَّب نصله. ينظر النهاية (قدح).
(٦) أي: لبس درعاً فوق درع. الإملاء المختصر ٢/ ١٠٤.

وتعبَّأت قريشٌ وهم ثلاثةُ آلاف، فيهم مئتا فرس، قد جَنَبوها[1]، ووقع القتال، وكان ذلك يومَ السبت للنصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة، وكان ما كان.

وأشار الله تعالى إلى هذا اليوم بهذه الآية، والقولُ بأنها إشارة إلى يوم بدر، كقول مقاتل بأنها إشارة إلى يوم الأحزاب، خلافُ ما عليه الجمهور.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لسائر المسموعات ويدخل ما وقع في هذه الغزوة من الأقوال دخولاً أوّليًّا ﴿عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ بسائر المعلومات، ومنها ما في ضمائر القوم يومئذ، والجملة اعتراضٌ للإيذان بأنه قد صدر[2] من الأقوال والأفعال ما لا ينبغي صدوره منهم، ومن ذلك قولُ أصحاب عبد الله بن جبير حين رأوا غلبة المسلمين على كفار قريش: قد غَنَم أصحابنا ونبقى بلا غنيمة! وجعلوا ينسلُّون رجلاً فرجلاً، حتى أَخْلَوا مراكزهم، ولم يبق مع عبد الله سوى اثني عَشَرَ رجلاً، مع إيصاء رسول الله ﷺ بثبوتهم مكانَهم.

﴿إِذْ هَمَّت﴾ قيل: بدلٌ من «إذ غدوت» مبيِّنٌ لِمَا هو المقصودُ بالتذكير.

وجُوِّز أن يكون ظرفاً لـ «تبوِّىء» أو لـ «غَدَوْتَ»، أو لـ «سميع عليم» على سبيل التنازع، أوْ لهما معاً في رأي، وليس المراد تقييدَ كونه سميعاً عليماً بذلك الوقت.

﴿طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ أي: فرقتان من المسلمين، وهما حيَّان من الأنصار؛ بنو سَلِمةَ من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحَي عَسكر رسول الله ﷺ. قاله ابن عباس وجابر بن عبد الله والحسن وخَلْقٌ كثير[3].

وقال الجُبَّائي: همَّت طائفةٌ من المهاجرين، وطائفة من الأنصار.

﴿أَن تَفْشَلَا﴾ أي: تضعُفا وتَجْبُنا حين رأوا انخذال عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول مع مَنْ معه عن رسول الله ﷺ، والمُنْسَبِكُ من «أن» والفعل متعلِّقٌ بـ «همت» والباء محذوفة، أي: همَّت بالفشل. وكأن المراد به هنا لازِمُهُ؛ لأنه[4] الفعلُ الاختياريُّ الذي يتعلَّق الهمُّ به، والظاهر أنَّ هذا الهمَّ لم يكن عن عزمٍ وتصميم على مخالفة

(١) أي: قادوها. الإملاء المختصر ٢/ ١٠٤.
(٢) في (م): قدر. والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٢/ ٧٨ والكلام منه.
(٣) تفسير الطبري ٦/ ١٤. وقول جابر أخرجه البخاري (٤٥٥٨)، ومسلم (٢٥٠٥).
(٤) في (م): لأن.

النبي ﷺ ومفارقته؛ لأنَّ ذلك لا يَصْدُر مثلُهُ عن مؤمن، بل كان مجرَّد حديثِ نفسٍ ووسوسةٍ كما في قوله:

أقولُ لها إذا جَشأتْ وجاشَتْ مكانَكِ تُحمَدي أو تستريحي[١]

ويؤيِّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ أي: ناصِرُهما. والجملةُ اعتراضٌ، وجُوِّز أن تكون حالاً من فاعل «همت» أو من ضميره في «تفشلا» مفيدةٌ لاستبعاد فشلهما أو همِّهما مع كونهما في ولاية الله تعالى.

وقرأ عبد الله: «والله وليهم»[٢] بضمير الجمع على حدِّ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ أي: عليه سبحانه لا على غيره، كما يُؤْذِن به تقديم المعمول، وإظهارُ الاسم الجليل للتبرُّك به والتعليل، وأل في «المؤمنون» للجنس، ويدخل فيه الطائفتان دخولاً أوَّليًّا، وفي هذا العنوان إشعارٌ بأنَّ الإيمان بالله تعالى من موجبات التوكُّل عليه، وحُذف متعلَّق التوكُّل ليفيد العموم، أي: ليتوكَّلوا عليه عزَّ شأنه في جميع أمورهم؛ جليلِها وحقيرها سَهلِها وحَزْنِها.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ بيانٌ لِمَا يترتَّب على الصبر والتقوى إثرَ بيان ما ترتَّب على عدمهما، أو مُساقةٌ لإيجاب التوكُّلِ على الله تعالى بتذكير ما يوجبه.

وبدر ـ كما قال الشعبي ـ بئرٌ لرجل من جهينة يقال له: بدر، فُسمِّيت به[٣]. وقال الواقدي: اسمٌ للموضع. وقيل: للوادي. وكانت ـ كما قال عكرمة ـ متجراً في الجاهلية.

وقال قتادة: إنَّ بدراً ماءٌ بين مكة والمدينة، التقى عليه النبيُّ ﷺ والمشركون، وكان أولَ قتال قاتله النبيُّ ﷺ، وكان ذلك في السابع عشر من شهر رمضان يوم الجمعة، سنة اثنتين من الهجرة. والباء بمعنى «في»، أي: نصركم الله في بدر.

---

(١) البيت لعمرو بن الإطنابة، وهو في الكامل للمبرد ٣/ ١٤٣٤، والخصائص ٣/ ٣٥، ومجالس ثعلب ص ٦٧، ومعجم الشعراء للمرزباني ص٩، والبحر ٣/ ٤٦، والمغني ص ١٦٨، ووقع في جميع هذه المصادر: وقولي كلما جشأت...

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٥٠١، والكشاف ١/ ٤٦١.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٦/ ١٧.

﴿وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞ﴾ حالٌ من مفعول «نصركم»، و«أذلة» جمعُ قلَّةٍ لذليل، واختير على «ذلائل» ليدلَّ على قِلَّتهم مع ذِلَّتهم، والمراد بها عدمُ العِدَّة لا الذلُّ المعروف، فلا يُشْكِلُ دخول النبيِّ ﷺ في هذا الخطاب إن قلنا به.

وقيل: لا مانع من أن يراد المعنى المعروف، ويكون المراد: وأنتم أذلةٌ في أعين غيركم، وإن كنتم أعزَّةً في أنفسكم، وقد تقدم الكلام على عددهم وعددِ المشركين إذ ذاك.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ باجتناب معاصيه والصبرِ على طاعته، ولم يصرِّح بالأمر بالصبر اكتفاءً بما سَبَقَ وما لَحِقَ، مع الإشعار ـ على ما قيل ـ بشرف التقوى وأصالتها، وكونِ الصبر من مباديها اللازمة لها، وفي ترتيب الأمر بها على الإخبار بالنصر إعلامٌ بأنَّ نَصْرَهم المذكور كان بسبب تقواهم، فمعنى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣﴾: لعلكم تقومون بشكر ما أنعم به عليكم من النصر القريب بسبب تقواكم إياه.

ويحتمل أن يكون كنايةً أو مجازاً عن نيل نعمةٍ أخرى توجب الشكر، كأنه قيل: فاتقوا[1] لعلكم تنالون نعمة من الله تعالى، فتشكرونه عليها، فوضع الشكر موضعَ الإنعام؛ لأنه سببٌ له ومُسْتَعْدٍ إياه.

﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ظرفٌ لـ «نَصَرَكم»، والمراد به وقتٌ ممتدٌّ، وقُدِّم عليه الأمر بالتقوى إظهاراً لكمال العناية. وقيل: بدلٌ ثانٍ من «إذ غدوت».

وعلى الأول يكون هذا القول ببدر، وعلى ذلك الحسن وغيره. وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما عن الشعبيِّ أنَّ المسلمين بلغهم يوم بدر أنَّ كُرْزَ بن جابر المحاربيَّ يريد أن يمدَّ المشركين، فشقَّ ذلك عليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ﴾ إلخ، فبلغت كُرْزاً الهزيمةُ، فلم يمدَّ المشركين[2].

وعلى الثاني: يكون القول بأُحد، وكان مع اشتراط الصبر والتقوى عن المخالفة، ولم يوجدا منهم، فلم يُمَدُّوا، ونُسب ذلك إلى عكرمة، وقتادةَ في إحدى الروايتين عنه.

---

(١) في (م): فاتقوا الله.

(٢) الدر المنثور ٢/ ٦٩، وهو في مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٣٥٨. وأخرجه ـ أيضاً ـ الطبري ٦/ ٢٠، وابن أبي حاتم ٣/ ٧٥٢.

﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ الكفاية: سدُّ الحاجة، وفوقها الغنى، بناءً على أنه الزيادة على نفي الحاجة.

والإمداد في الأصل: إعطاءُ الشيء حالاً بعد حال، ويقال: مَدَّ في السير: إذا استمرَّ عليه، وامتدَّ بهم السير: إذا طال واستمرَّ، وعن بعضهم: ما كان بطريق التقوية والإعانة يقال فيه: أَمَدَّهُ يُمِدُّه إمداداً، وما كان بطريق الزيادة يقال فيه: مدَّه مدًّا. وقيل: يقال: مدَّه في الشر، وأمدَّه في الخير.

والهمزة لإنكار أن لا يكفيهم ذلك، وأتى بـ «لن» لتأكيد النفي بناءً على ما ذهب إليه البعض، وفيه إشعارٌ بأنهم كانوا حينئذ كالآيسين من النصر لقلَّة عَددهم وعُدَدهم، وفي التعبير بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين ما لا يخفى من اللطف وتقويةِ الإنكار.

و«أن يمدَّكم» في تأويل المصدر فاعل بـ «يكفيكم»، و«من الملائكة» بيانٌ أو صفةٌ لـ «آلاف» أو لِمَا أُضيف إليه.

و«منزلين» صفةٌ لـ «ثلاثة آلاف»، وقيل: حالٌ من الملائكة، وفي وَصْفهم بذلك إشارةٌ إلى أنهم من أشرف الملائكة، وقد أُنزلوا على - ما ذكره الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه - من السماء الثالثة، وذَكَر سرَّ ذلك في «الفتوحات»(١).

وقرىء: «منزَّلين» بالتشديد(٢)؛ للتكثير أو للتدريج، وقرىء مبنيًّا للفاعل من الصيغتين(٣)، على معنى: منزِلينَ الرعبَ في قلوب أعدائكم، أو النصرَ لكم.

والجمهور على كسر التاء من «ثلاثة»، وقد أُسكنت في الشواذ(٤)، وَوُقف عليها بإبدالها هاءً أيضاً(٥)، على أنه أُجري الوصل مُجرى الوقف فيهما، ويُضعِّف ذلك أنَّ المضاف والمضاف إليه كالشيء الواحد.

---

(١) ١/ ١٤٥.

(٢) هي قراءة ابن عامر. التيسير ص٩٠، والنشر ٢/ ٢٤٢.

(٣) القراءات الشاذة ص ٢٢.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٥٠٣، والبحر ٣/ ٥٠ ـ ٥١.

(٥) المحتسب ١/ ١٦٥.

﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجابٌ لِمَا بعد «لن»، أي: بلى يكفيكم ذلك، ثم وَعَدَهم الزيادةَ بالشرط فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَصْبِرُواْ﴾ على مضضِ الجهاد وما أُمرتم به ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ ربَّكم بالاجتناب عن معاصيه وعدمِ المخالفة له ﴿وَيَأْتُوكُم﴾ أي: المشركون أو أصحاب كُرْز، كما قال الشعبي.

﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أصلُ الفور: مصدرٌ من فارَتِ القِدْرُ: إذا اشتدَّ غليانها، ومنه: «إنَّ شدَّة الحرِّ من فَوْر جهنم»[(١)]. ويطلق على الغضب لأنه يُشْبِه فَوْرَ القِدر، وعلى أول كلِّ شيء، ثم إنه استُعير للسرعة، ثم أُطلق على الحالة التي لا بُطْءَ فيها ولا تَراخِيَ، والمعنى: ويأتوكم في الحال، ووُصف بهذا لتأكيد السرعة بزيادة التعيين والتقريب.

ونَظَم إتيانَهم بسرعةٍ في سِلْكِ شَرْطَي الإمداد ومَدارَيه ـ مع تحقُّق الإمداد لا محالةَ أسرَعوا أو أبطَؤوا ـ إيذاناً بتحقُّق سرعة الإمداد، لا لتحقيق أصله، أو لبيان تحقُّقه على أيِّ حالٍ فُرض على أبلغ وجه وآكَدِه، حيث علَّقه بأبعد التقادير ليُعلم تحقُّقه على سائرها بالأَوْلى، فإنَّ هجوم الأعداء بسرعةٍ من مظانِّ عدم لُحوق المَددِ عادةً، فمتى عُلِّق به تحقُّقُ الإمداد مع منافاته له، أفاد تحقُّقَه لا محالةَ مع ما هو غيرُ مُنافٍ له، كذا قيل[(٢)]، وربما يُفهم منه أنَّ الإمداد المرتَّب على الشرط في قوله تعالى: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ وقع لهم، وفي ذلك ترديدٌ وتردُّد؛ لأنَّ هذا الكلام إن كان في غزوة أحد، فلا شبهةَ في عدم وقوع ذلك ولا بمَلَكٍ واحد؛ لعدم وقوع الشرط، ولذا وقعت الهزيمة. وإن كان في غزوة بدر كما هو المعتمد، فقد وقع الاختلاف في أنهم أُمِدُّوا بهذه الخمسة الآلاف أوْ لا. فذهب الشعبيُّ إلى أنهم أُمدُّوا بغيرها ولم يُمَدُّوا بها، بناءً على تعليق الإمداد بها بمجموع الأمور الثلاثة؛ وهي الصبر والتقوى وإيتاء[(٣)] أصحاب كُرْز، وقد فُقد الأمر الثالث كما نقلناه أوَّلاً، فلم يوجد المجموع لانعدامه بانعدام بعض أجزائه، فلم يوجد الإمداد المذكور كما صرَّح به الشعبيُّ[(٤)].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٨٥٨٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) هو قول أبي السعود في تفسيره ٢/ ٨٠.
(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: وإتيان.
(٤) أخرج قوله ابن أبي شيبة ٤/ ٣٥٨، والطبري ٦/ ٢٠.

نعم ذهب جمعٌ إلى خلافه، ولعله مَبْنَى صاحبِ القيل. لكن يبقى أنَّ تفسير الفَوْر بما فُسِّر به غيرُ متعيِّن، بل لم يوجد صريحاً في كلام السلف، والذي ذهب إليه عكرمة ومجاهد وأبو صالح مولى أمِّ هانىء أنه بمعنى الغضب، فحينئذٍ تكون «من» للسببية، أي: يأتوكم بسبب غضبهم عليكم، والإشارةُ إما لتعظيم ذلك الغضب من حيث إنه شديدٌ ومتمكِّن في القلوب، وإما لتحقيره من حيث إنه ليس على الوجه اللائق والطريق المحمود، فإنه إنما كان على مخالفة المسلمين لهم في الدين، وتسفيهِ آرائهم وذمِّ آلهتهم، أو على ما أَوقعوا فيهم وحطَّموا رؤوس رؤسائهم يوم بدر، وإلى الثاني ذهب عكرمة، وهو مبنيٌّ على أنَّ هذا القول وقع في أُحد.

وذهب ابن عباس ـ فيما أخرجه عنه ابن جرير[1] ـ إلى تفسيره بالسَّفر، أي: ويأتوكم من سفرهم هذا، قيل: وهو مبنيٌّ أيضاً على ما بُني عليه سابقه؛ لأنَّ الكفار في غزوة أُحد ندموا بعد انصرافهم، حيث لم يَعْبُروا على المدينة، وهمُّوا بالرجوع، فأوحى الله تعالى إلى نبيِّه ﷺ أن يأمر أصحابه بالتهيُّؤ لهم[2]، ثم قال: إن صبرتم على الجهاد واتَّقيتم وعادُوا إليكم من سفرهم هذا، أَمدَّكم اللهُ تعالى بخمسة آلاف من الملائكة، فأخذوا في الجهاد وخرجوا يتبعون الكفار على ما كان بهم من الجراح، فأَخبر المشركين مَن مرَّ برسول الله ﷺ أنه خرج يتبعكم، فخاف المشركون إن رجعوا أن تكون الغَلَبة للمسلمين، وأن يكون قد التأم إليهم مَن كان تأخَّر عنهم، وانضمَّ إليهم غيرُهم، فدسُّوا نُعيماً الأشجعيَّ حتى يصدَّهم بتعظيم أمر قريش، وأسرعوا بالذهاب إلى مكة، وكفى الله تعالى المسلمين أمرهم، والقصة معروفة.

ثم إنَّ تفسير الفَوْر بالسفر، مما لم نظفر به فيما بين أيدينا من الكتب اللغوية، فلعلَّ الفَور بمعنى: الحال التي لا بطء فيها، وهذا التفسير بيانٌ لحاصل المعنى.

---

(١) في تفسيره ٦/ ٣٠.

(٢) في (م): إليهم.

وذهب الحسن والربيع والسُّدِّيُّ وقتادة وغيرهم إلى[1] أنَّ «من فورهم» بمعنى: وجههم، وليس بنصٍّ فيما ذهب إليه متأخِّرو المفسرين أصحابُ القيل؛ لأنه يحتمل أن يكون المراد من الوجه: الجهةَ التي يقصدها المسافر، ويحتمل أن يكون من وجه الدهر بمعنى أوَّلِه. اللهمَّ إلا أن يقال: إنه وإن لم يكن نصًّا، لكنه ظاهرٌ قريبٌ من النصّ؛ لأنَّ كون الوجه بمعنى الجهة المذكورة، وإن جاء في اللغة، إلا أنَّ كون الفَور كذلك في حيِّز المنع، واحتمالُ كونِه من وجه الدهر بمعنى أوَّلِه يَرْجِعُ إلى ما قالوا، فتدبر.

واعلم أنَّ هذا الإمداد وقع تدريجاً، فكان أوَّلاً بألفٍ، ثم صاروا ألفين، ثم صاروا ثلاثةَ آلاف، ثم صاروا خمسةَ ألاف لا غير، فمعنى يمددكم بخمسة آلاف: يمددكم بتمام خمسة آلاف، وإليه ذهب الحسن.

وقال غيره: كانت الملائكة ثمانيةَ آلاف، فالمعنى: يُمدِدْكم بخمسة آلاف أُخَر.

﴿مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ من التسويم: وهو إظهارُ علامة الشيء، والمراد: معلِّمين أنفسَهم أو خيلَهم. وقد اختلفت الروايات في ذلك، فعن عبد الله بن الزبير أنَّ الزبير كان عليه عمامةٌ صفراء مُعْتَجِراً بها، فنزلت الملائكة وعليهم عمائم صفر[2].

وأخرج ابن إسحاق والطبراني عن ابن عباس أنه قال: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاً، قد أرسلوها في ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمراً[3].

وفي روايةٍ أخرى عنه، لكن بسند ضعيف: أنها كانت يوم بدر بعمائم سود، ويوم أُحد بعمائم حمر[4].

وأخرج ابن أبي شيبة وغيره عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنه قال: كانت

---

(١) قوله: إلى ليس في (م).

(٢) أخرجه الطبري ٦/ ٣٦ ـ ٣٧ عن عبد الله بن الزبير، وأخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/ ١٠٣ عن عروة بن الزبير.

(٣) في الأصل و(م): بيض... حمر، والمثبت من المصادر، والخبر في سيرة ابن هشام ١/ ٦٣٣، والمعجم الكبير (١٢٠٨٥)، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٢/ ٧٠.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٤٦٩). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٢٧: فيه عبد القدوس بن حبيب وهو متروك.اهـ. ونقله المصنف عن الدر المنثور ٢/ ٦٩ ـ ٧٠.

سيما الملائكة يوم بدر الصُّوف الأبيض في نواصي الخيل وأذنابها[١].

وكانوا ـ كما قال الربيع ـ على خيلٍ بُلْقٍ.

وأخرج ابن أبي حاتم[٢] عن أبي هريرة أنهم كانوا مسوّمين بالعِهْن الأحمر.

وأخرج ابن جرير وغيره عن مجاهد أنه قال: كانوا معلّمين، مجزوزةً أذنابُ خيولهم ونواصيها، فيها الصُّوف والعِهْن[٣].

وأنت تعلم أنه لا مانع من أن يكونوا معلِّمين أنفسَهم وخيولَهم أيضاً، وهذا على قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم: «مسوِّمين» بكسر الواو[٤]، وأمَّا على قراءة الباقين: «مسوَّمين» بفتح الواو على أنه اسمُ مفعولٍ، فقيل: المراد به: معلَّمين من جهة الله تعالى. وقيل: مرسَلين مُطْلَقين، ومنه قوله: ناقةٌ سائمةٌ، أي: مرسَلةٌ في المرعى، وإليه ذهب السُّدِّيُّ. والمتبادر على هذه القراءة أنَّ الإسامة لهم، وأمَّا أنها كانت لخيلهم فغيرُ ظاهر.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: الإمداد المفهومُ من الفعل المقدَّر المدلولِ عليه بقوة الكلام، كأنه قيل: فأمدَّكم الله تعالى بما ذكر، وما جعل الله تعالى ذلك الإمداد ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾.

وقيل: الضمير للوعد بالإمداد، وقيل: للتسويم، أو للتنزيل، أو للنصر المفهوم من «نَصَركم» السابق، ومتعلّقُ البشارة غيره. وقيل: للإمداد المدلول عليه بأحد الفعلين، والكلُّ ليس بشيء كما لا يخفى.

والبشرى إما مفعولٌ له، و«جَعَلَ» متعدِّية لواحد، أو مفعولٌ لها إن جُعلت متعديةً لاثنين، وعلى الأول الاستثناءُ مفرَّغٌ من أعمِّ العلل، أي: وما جعل إمدادكم بإنزال الملائكة لشيءٍ من الأشياء، إلا للبشارة لكم بأنكم تُنصرون، وعلى الثاني: مفرَّغٌ من أعمِّ المفاعيل، أي: وما جعله الله تعالى شيئاً من الأشياء إلا بشرى لكم.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٢٦١، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٧٥٤.
(٢) في تفسيره ٣/ ٧٥٤.
(٣) تفسير الطبري ٦/ ٣٤ ـ ٣٥.
(٤) التيسير ص ٩٠، والنشر ٢/ ٢٤٢، وقرأ بها أيضاً من العشرة يعقوب.

والجملةُ ابتداءُ كلامٍ غيرُ داخل في حيِّز القول، بل مسوقٌ من جنابه تعالى لبيان أنَّ الأسباب الظاهرةَ بمعزل عن التأثير بدون إذنه سبحانه وتعالى، فإنَّ حقيقة النصر مختصٌّ به عزَّ اسمُهُ، ليثقَ به المؤمنون ولا يقنطوا منه عند فقدان أسبابه وأماراته، وهي معطوفةٌ على فعلٍ مقدَّرٍ كما أشرنا إليه.

ووجَّه الخطابَ نحوَ المؤمنين؛ تشريفاً لهم وإيذاناً بأنهم هم المحتاجون لِمَا ذكر، وأمَّا رسولُه ﷺ فغنيٌّ عنه بما منَّ به عليه من التأييد الروحاني والعلم الربَّاني.

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ أي: ولتَسْكُنَ قلوبكم بالإمداد، فلا تخافوا كثرةَ عَدَدِ العدوِّ وقلَّةَ عددِكم، وهذا إمَّا معطوفٌ على «بشرى» باعتبار الموضع، وهو كالمعطوف عليه علَّةٌ غائيةٌ للجَعْلِ، إلَّا أنه نَصب الأول لاجتماع شرائطه، ولم ينصب الثاني لفقدانها[١]. وقيل: للإشارة أيضاً إلى أصالته في العِلِّيَّة وأهميتِه في نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨].

وإما متعلِّقٌ بمحذوفٍ معطوفٍ على الكلام السابق، أي: ولتطمئنَّ قلوبكم به فَعَلَ ذلك، وهو أولى من تقدير «بشَّركم» كما فَعَلَ أبو البقاء[٢]، والثاني متعيِّنٌ على الاحتمال الثاني في الأول.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ﴾ أي: على الإطلاق، فيندرج فيه النصر المعهود دخولاً أوَّليًّا ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ المودِعِ في الأسباب بمقتضى الحكمة قوةً لا تؤثِّر إلا به، أو: وما النصر المعهود إلا من عنده سبحانه وتعالى، لا من الملائكة؛ لأنَّ قُصارى أمرهم ما ذُكر من البشارة وتقويةِ القلوب، ولم يقاتلوا. أو: لأنَّ قُصارى أمرهم أنهم قاتلوا بتمكين الله تعالى لهم، ولم يكن لهم فعلٌ استقلالاً، ولو شاء الله تعالى ما فعلوا، على أنَّ مجرَّد قتالهم لا يستدعي النصر، بل لابدَّ من انضمام ضَعْف المقابِلينَ المقاتلينَ، ولو شاء الله تعالى لسلَّطهم عليهم، فحيث أَضْعَفَ وقوَّى ومكَّن وما مكَّن، وبه حصل النصر، كان ذلك منه سبحانه وتعالى، والآيةُ على هذا لا تكون دليلاً لمن

---

(١) وهو اختلاف الفاعل؛ لأن فاعل «بشرى» هو الله، وفاعل «تطمئن» هو «قلوبكم». البحر ٣/ ٥١.
(٢) في الإملاء ٢/ ١١٩.

زعم أنَّ المسبَّبات عند الأسباب لا بها، وقد مرَّ تحقيقه[1]، فتذكَّر.

وكذا لا دليل فيها على وقوع قتالهم ولا على عَدَمِه؛ لاحتمالها الأمرين، وبكلٍّ قال بعض. والمختار ما روي عن مجاهد: أنَّ الملائكة لم يقاتلوا في غزواته ﷺ، إلا في غزوة بدر، وإنما حضروا في بعضها بمقتضَى ما عَلِمَ الله تعالى من المصلحة، مثل حضورهم حِلَقَ أهل الذِّكر، وربما أعانوا بغير القتال كما صنعوا في غزوة أحد على قول؛ فعن ابن اسحاق أنَّ سعد بن مالك كان يرمي في غزوة أحد، وفتًى شابٌّ كان ينبل له، كلما فني النَّبْل أتاه به وقال له: ارْم أبا إسحاق ارمِ أبا إسحاق، فلما انجلت المعركة سأل عن ذلك الرجل فلم يُعرف[2].

وأنكر أبو بكر الأصمّ الإمدادَ بالملائكة، وقال[3]: إنَّ الملك الواحد يكفي في إهلاك سائر أهل الأرض، كما فعل جبريل عليه السلام بمدائن قوم لوط، فإذا حضر هو مأموراً بالقتال، فأيُّ حاجةٍ إلى مقاتلة الناس مع الكفار؟

وأيضاً: أيُّ فائدة في إرسال سائر الملائكة معه، وهو القويُّ الأمين.

وأيضاً: إنَّ أكابر الكفار الموجودين في غزوة القتال قاتِلُ كلٍّ منهم من الصحابة معلوم، ولم يُعلم أنَّ أحداً من الملائكة قتل أحداً منهم.

وأيضاً: لو قاتلوا فإما أن يكونوا بحيث يراهم الناس أوْ لا، وعلى الأول يكون المشاهَد من عَسكر الرسول ﷺ في غزوة بدر ألوفاً عديدة، ولم يقل بذلك أحد، وهو أيضاً خلافُ قوله تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤] ولو كانوا في غير صورة ابن آدم لزِمَ وقوعُ الرعب الشديد في قلوب الخلق، ولم ينقل ذلك، ولو كان لنُقل البتَّة.

وعلى الثاني: يلزم حزُّ الرؤوس وتمزيقُ البطون ونحو ذلك من الكفار، من غير

---

(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾.
(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٧٠ لعبد بن حميد، وابن إسحاق المذكور هو عمير بن إسحاق مولى بني هاشم، والخبر مرسل.
(٣) ينظر كلامه والرد عليه في تفسير الرازي ٨/ ٢٢٦-٢٢٧، واللباب لابن عادل الحنبلي ٥/ ٥١٨، وغرائب القرآن للنيسابوري ٤/ ٥٨.

مشاهَدةِ فاعلٍ لهذه الأفعال. ومثلُ هذا يكون من أعظم المعجزات، وقد وقع بين جَمعين؛ سالمٍ ومكسَّر، فكان يجب أن يتواتر ويَشْتَهِر لدى الموافق والمخالف، فحيث إنه لم يَشْتَهِر، دلَّ على أنه لم يكن.

وأيضاً: أنهم لو كانوا أجساماً كثيفة وجب أن يراهم الكلُّ، وإن كانوا أجساماً لطيفةً هوائيةً تعذَّر ثبوتُهم على الخيل. انتهى.

ولا يخفى أنَّ هذه الشُّبه لا يليق إيرادُها بقوانين الشريعة، ولا بمَن يعترف بأنه تعالى قادرٌ على ما يشاء فعَّالٌ لما يريد، فما كان يليق بالأصمِّ إلا أن يكون أخرسَ عن ذلك؛ إذ نصُّ القرآن ناطقٌ بالإمداد، ووروده في الأخبار قريبٌ من المتواتر[(١)]، فكأنَّ الأصمَّ أصمُّ عن سماعه، أو أعمى عن رؤية رباعه، وقد روى عبيد بن عُمير[(٢)] قال: لمَّا رجعتْ قريشٌ من أُحد، جعلوا يتحدَّثون في أنديتهم بما ظفروا ويقولون: لم نَرَ الخيلَ البُلْقَ ولا الرجالَ البيضَ الذين كنَّا نراهم يومَ بدر.

والتحقيق في هذا المقام كما قال بعض المحققين[(٣)]: أنَّ التكليف ينافي الإلجاء، وأنه تعالى شأنه وإن كان قادراً على إهلاك جميع الكفار في لحظة واحدة بملَكٍ واحد، بل بأدنى من ذلك، بل بلا سببٍ، وكذا هو قادرٌ على أن يجبرهم على الإسلام ويقسرهم، لكنه سبحانه أراد إظهارَ هذا الدين على مَهَلٍ وتدريج، وبواسطة الدعوة، وبطريق الابتلاء والتكليف، فلا جَرَمَ أجرى الأمور على ما أَجرى، فله الحمدُ على ما أَوْلَى، وله الحُكْمُ في الآخرة والأُولى. وبهذا يندفع كثيرٌ من تلك الشُّبَه.

وإهلاك قوم لوط عليه الصلاة والسلام كان بعد انقضاء تكليفهم، وهو حين نزول البأس، فلا جَرَم أَظهَرَ الله تعالى القدرةَ وجَعَلَ عالِيَها سافِلَها، وفي غزوة أحد كان الزمان زمان تكليف، فلا جَرَمَ أَظهرَ الحكمة ليتميَّز الموافق عن المنافق،

---

(١) ينظر حديث ابن عباس عند مسلم (١٧٦٣)، وأحمد (٢١٨)، وينظر أيضاً ما ورد من أخبار في نزول الملائكة يوم بدر في تفسير القرطبي ٥/ ٢٩٦ وما بعدها.

(٢) في الأصل و(م): عبد بن عمير، والمثبت من مغازي الواقدي ١/ ٢٣٤، وغرائب القرآن ٤/ ٥٨، وتحرف في تفسير الرازي ٨/ ٢٢٧ إلى: عبد الله بن عمر، وفي اللباب ٥/ ٥١٩ إلى: عبد الله بن عمير.

(٣) هو النيسابوري في غرائب القرآن ٤/ ٥٨.

والثابتُ عن المضطرب، ولو أُجري الأمر فيها كما أُجري في بدر، أَشبهَ أن يفضي الأمر إلى حدِّ الإلجاء، ونافَى التكليف ونوطَ الثواب والعقاب.

ثم لا يخفى أنَّ الملائكة إما أجسامٌ لطيفةٌ نورانيةٌ، وإما أرواح شريفةٌ قدسيةٌ وعلى التقديرين لهم الظهورُ في صور بني آدم مثلاً من غير انقلابِ العين وتبدُّلِ الماهية، كما قال ذلك العارفون من المحققين في ظهور جبريل عليه السلام في صورة دِحية الكلبي(١).

ومثل هذا مَنْ وجَّه ـ ولله تعالى المثلُ الأعلى ـ ما صحَّ مِن تجلِّي الله تعالى لأهل الموقف بصورة، فيقول لهم: أنا ربُّكم، فينكرونه، فإنَّ الحكم في تلك القضية صادقٌ، مع أنَّ الله تعالى وتقدَّس وراء ذلك، وهو سبحانه في ذلك التجلِّي باقٍ على إطلاقه، حتى عن قيد الإطلاق.

ومَن سلَّم هذا ـ ولا يسلِّمه إلا ذو قلبٍ سليم ـ لم يُشْكِلْ عليه الإمدادُ بالملائكة، وظهورُهم على خيول غيبية ثابتين عليها، حَسْبَما تقتضيه الحكمة الإلهية والمصلحة الربَّانية، ولا يلزم من ذلك رؤيةُ كلِّ ذي بصرٍ لهم، لجوازِ إحداث أمرٍ مانع عنها؛ إما في الرائي أو في المَرْئيِّ، ولا مانع من أنهم يُرَون أحياناً ويَخْفَوْن أحياناً، ويُرى البعض ويَخْفَى البعض، وزمامُ ذلك بيد الحكيم العليم، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والشيءُ متى أَمْكَن وورد به النصُّ عن الصادق وجب قبولُه، ومجرَّدُ الاستبعاد لا يجدي نفعاً، ولو ساغ التأويل لذلك لزم تأويل أكثر هذه الشريعة، بل الشرائع بأسرها، وربما أفضى ذلك إلى أمر عظيم، فالواجبُ تسليمُ كلِّ ممكنٍ جاء به النبيُّ ﷺ، وتفويضُ تفصيل ذلك وكيفيته إلى الله تعالى.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: الغالب الذي لا يُغالَب فيما قضى به، وقيل: القادر على انتقامه من الكفار بأيدي المؤمنين، وفي إجراء هذا الوصف هنا عليه تعالى إيذانٌ بعِلَّة اختصاص النصر به سبحانه.

---

(١) ينظر حديث جابر عند أحمد (١٤٥٨٩)، ومسلم (١٦٧)، وحديث أم سلمة عند البخاري (٣٦٣٣)، ومسلم (٢٤٥١)، وحديث ابن عمر عند أحمد (٥٨٥٧).

﴿ٱلْحَكِيمِ ١٢٦﴾ أي: الذي يضع الأشياء مَوَاضِعَها، ويفعل على ما تقتضيه الحكمة في سائر أفعاله، ومن ذلك نصرُه للمؤمنين بواسطة إنزال الملائكة، وفي الإتيان بهذا الوصف ردٌّ على أمثال الأصم في إنكارهم ما نطقت به الظواهر، فسبحانه من عليم حكيم وعزيز حليم.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ متعلِّقٌ بقوله تعالى: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ) وما بينهما تحقيقٌ لِحَقِّيَّته وبيانٌ لكيفية وقوعه، وإلى ذلك ذهب جمعٌ من المحققين، وهو ظاهرٌ على تقدير أن يُجعل «إذ تقول» ظرفاً لـ «نصركم» لا بدلاً من «إذ غدوت» لئلا يُفصل بأجنبيّ، ولأنه كان يوم أُحد.

والظاهر أنَّ هذا في شأن بدر، والمقصورُ على التعليل بما ذكر من البشرى والاطمئنان إنما هو الإمداد بالملائكة على الوجه المذكور، فلا يقدح في تعليل أصل النصر بالقطع وما عُطف عليه.

وجُوِّز أن يتعلَّق بما تعلَّق به الخبر في قوله سبحانه: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ على تقدير كونه عبارةً عن النصر المعهود، والمعلَّلُ بالبشارة والاطمئنان إنما هو الإمداد الصوري، لا ما في ضمنه من النصر المعنوي الذي هو ملاكُ الأمر وعمودُه.

وقيل: هو متعلِّقٌ بنفس النصر(١)، واعتُرض عليه بأنه ـ مع ما فيه مِن الفصل بين المصدر ومعموله بأجنبيٍّ هو الخبر ـ مُخِلٌّ بسداد المعنى، كيف لا ومعناه قَصْرُ النصر المخصوص المعلَّل بعلَّةٍ معيَّنة على الحصول من جهته تعالى، وليس المراد إلا قَصْرُ حقيقة النصر كما في الأول، أو النصرِ المعهود ـ كما في الثاني ـ على ذلك. والقول بأنه متعلِّقٌ بمحذوف والتقدير: فَعَلَ ذلك التدبير ـ أو: أمدَّكم بالملائكة ـ ليقطع، منقطعٌ عن القَبول.

والقطع: الإهلاك، والمراد من «الطَّرَف» طائفةٌ منهم؛ قيل: ولم يعبِّر عن تلك الطائفة بالوسط بل بالطَّرَف؛ لأنَّ أطراف الشيء يُتوصَّل بها إلى توهينه وإزالته.

وقيل: لأنَّ الطرف أقربُ إلى المؤمنين، فهو كقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣].

---

(١) في الأصل و(م): الصبر. والمثبت من تفسير أبي السعود ٢/ ٨٢ والكلام منه.

وقيل: للإشارة إلى أنهم كانوا أشرافاً، ففي «الأساس»: هو من أطراف العرب أي: أشرافها[(١)].

ولعلَّ إطلاق الأطراف على الأشراف لتقدُّمهم في السَّير، ومن ذلك قالوا: الأطرافُ منازل الأشرافِ. فلا يَرِدُ أنَّ الوسط أيضاً يُشعر بالشرف، فالمعنى: ليُهْلِكَ صناديدَ الذين كفروا ورؤساءَهم المتقدِّمين فيهم بقَتْلٍ وأَسْر، وقد وقع ذلك في بدر كما قال الحسن والربيع وقتادة. فقد قُتل من أولئك سبعون وأُسر سبعون. واعتبار ذلك في أُحدٍ حيث قُتل فيه ثمانية عشر رجلاً من رؤسائهم، قولٌ لبعضهم، وقد استبعدوه كما أشرنا إليه.

﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أي: يخزيهم. قاله قتادة والربيع، ومنه قول ذي الرُّمة:

لم أَنْسَ من شَجَنٍ لم أنسَ موقفنا ... في حَيرةٍ بين مسرور ومكبوت[(٢)]

وقال الجُبَّائيُّ والكلبيُّ: أي: يردّهم منهزمين. وقال السُّدِّي: أي: يلعنهم.

وأصل الكبت: الغيظُ والغمُّ المؤثِّر، وقيل: صَرْعُ الشيء على وجهه.

وقيل: إنَّ «كَبَتَهُ» يكون بمعنى: كَبَدَهُ، أي: أصاب كَبِدَه؛ كـ «رآه» بمعنى: أصاب رئته، ومنه قول المتنبي:

لأَكْبِتَ حاسداً وأرى عدوًّا ... كأنهما وَدَاعُكَ والرَّحيلُ[(٣)]

والآية محمولةٌ على ذلك، ويؤيِّد هذا القول أنه قرىء: «أو يكبدهم»[(٤)].

و«أو» للتنويع دون الترديد؛ لوقوع الأمرين.

﴿فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي: فينهزموا مُنْقَطِعي الآمال، فالخيبة انقطاعُ الأملِ، وفرَّقوا بينها وبين اليأس بأنَّ الخيبة لا تكون إلا بعد الأمل، واليأس يكون بعده وقبله، ونقيضُ الخيبة الظَّفَر، ونقيض اليأس الرجاء.

---

(١) أساس البلاغة للزمخشري (طرف).
(٢) لم نقف عليه في ديوانه، وهو في سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٨ برواية: ما أَنْسَ من شجن لا أَنْسَ موقفنا . . .
(٣) ديوان المتنبي ٢/ ١٣٦.
(٤) البحر المحيط ٣/ ٥٢.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أخرج غير واحد أنَّ رَبَاعِيَةَ رسول الله ﷺ السفلى اليمنى أصيبت يوم أحد، أصابها عتبة بنُ أبي وقاص، وشجَّه في وجهه، فكان سالم مولى أبي حذيفة ـ أو عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه ـ يغسل الدم، والنبيُّ ﷺ يقول: «كيف يفلح قوم صنعوا هذا بنبيِّهم» فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

وأخرج أحمد والبخاريُّ والترمذيُّ والنسائيُّ وغيرُهم عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ يوم أحد: «اللهم الْعَنْ أَبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سهيل بن عمرو، اللهم العن صفوان بن أمية» فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلخ. فتِيب عليهم كلِّهم[2].

وعن الجُبَّائي أنه ﷺ استأذن يومَ أُحد أن يدعو على الكفار لمَّا آذَوْه ـ حتى إنه ﷺ صلى الظهر ذلك اليوم قاعداً من الجراح، وصلى المسلمون وراءه قعوداً ـ فلم يؤذن له، ونزلت هذه الآية[3].

وقال محمد بن إسحاق والشعبيُّ: لمَّا رأى النبيُّ ﷺ والمسلمون ما فعل الكفار بأصحابه وبعمِّه حمزة، من جدع الأنوف والآذان وقطع المذاكير، قالوا: لئن أدالنا الله تعالى منهم لنفعلنَّ بهم مثلَ ما فعلوا بنا، ولنمثِّلنَّ بهم مُثْلةً لم يمثِّلْها أحدٌ من العرب قط. فنزلت[4].

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ولكن دون ذكر علي ﷺ ابن سعد ٢/ ٤٥، وعبد الرزاق ١/ ١٣١، والطبري ٦/ ٤٦ عن قتادة مرسلاً. وأصله عند أحمد (١١٩٥٦)، ومسلم (١٧٩١) من حديث أنس بن مالك ﷺ. والرباعية، كثَمَانِية: السِّنُّ التي بين الثنية والناب. القاموس المحيط (ربع).

(٢) أخرجه أحمد (٥٦٧٤) من طريق سالم عن ابن عمر، والبخاري (٤٠٧٠) عن سالم مرسلاً، وليس فيهما ذكر أبي سفيان، وأخرجه البخاري (٤٠٦٩)، والنسائي في الكبرى (١١٠٠٩) دون ذكر الأسماء، وأخرجه الترمذي (٣٠٠٤) دون ذكر سهيل، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٢/ ٧١.

(٣) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٤/ ١٩٣.

(٤) ذكره بنحوه عن ابن إسحاق ابن حجر في العجاب في بيان الأسباب ٢/ ٧٥٢، والذي في سيرة ابن هشام ٢/ ٩٥-٩٦ عن ابن إسحاق أن هذا هو سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، وكذا أخرجه الطبري ١٤/ ٤٠٢-٤٠٣ عن الشعبي، وهذا هو المشهور في هذه المسألة، ينظر حديث أبي بن كعب عند الترمذي (٣١٢٩)، وحديث أبي هريرة وابن عباس في دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٢٨٨، وأسباب النزول للواحدي ص٢٩٠-٢٩٢.

وعن ابن مسعود ﷺ: أراد رسول الله ﷺ أن يدعوَ على المنهزمين عنه من أصحابه يوم أحد، فنهاه الله تعالى عن ذلك وتاب عليهم، ونزلت هذه الآية[(١)].

وهذه الروايات كلها متضافرةٌ على أنَّ الآية نزلت في أُحد، والمعوَّل عليه منها أنها بسبب المشركين.

وعن مقاتل أنها نزلت في أهل بئر معونة، وذلك أنَّ رسول الله ﷺ أرسل أربعين، وقيل: سبعين رجلاً من قرَّاء أصحابه، وأمَّر عليهم المنذر بن عمرو، إلى بئر معونة على رأس أربعة أشهر من أُحد ليعلِّموا الناسَ القرآن والعلم، فاستصرخ عليهم عدوُّ الله عامرُ بن الطفيل قبائل من سليم، من عصية ورعل وذكوان، فأحاطوا بهم في رحالهم، فقاتلوا حتى قُتلوا من عند آخرهم، إلا كعبَ بن زيد أخا بني النجار فإنهم تركوه وبه رَمَقٌ، فلمَّا علم بذلك رسول الله ﷺ وَجَد وَجْداً شديداً، وقَنَتَ عليهم شهراً يلعنهم، فنزلت هذه الآية، فترك ذلك[(٢)]، والمعنى: ليس لك من أمر هؤلاء شيءٌ وإن قلَّ.

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ عطفٌ إما على «الأمر» أو على «شيء» بإضمار «أنْ»، أي: ليس لك من أمرهم[(٣)]، أو من التوبةِ عليهم، أو من تعذيبهم شيءٌ. أو: ليس لك من أمرهم شيءٌ، أو التوبةُ عليهم، أو تعذيبُهم.

وفرَّقوا بين الوجهين: بأنه على الأول سَلَبَ ما يتبع التوبة والتعذيب منه ﷺ بالكلِّية؛ من القبول والرَّدِّ والخلاصِ من العذاب والمنع من النجاة.

وعلى الثاني سَلَبَ نفسَ التوبة والتعذيب منه عليه الصلاة والسلام، يعني: لا يَقْدِر أن يجبرهم على التوبة ولا يمنعهم عنها، ولا يقدرُ أن يعذِّبهم ولا أن يعفوَ عنهم، فإنَّ الأمور كلها بيد الله تعالى.

---

(١) ذكره ابن حجر في العجاب في بيان الأسباب ٢/ ٧٥٢ وعزاه للثعلبي.
(٢) ذكره عن مقاتل مختصراً الحافظ في العجاب ٢/ ٧٥١، وأصله في البخاري (٤٥٦٠)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، والقصة دون ذكر الآية أخرجها البخاري (٤٠٩٠) من حديث أنس ﷺ.
(٣) بعدها في الأصل و(م): شيء، والمثبت من البحر ٣/ ٥٣، والكلام منه، ومثله في الدر المصون ٣/ ٢٩٣.

وعلى التقديرين هو مِن عَطْفِ الخاصِّ على العام ـ كما قال العلامة الثاني ـ لكن في مجيء مثلِ هذا العطف بكلمة «أو» نظر.

وتعقَّبه بعضهم بأنَّ هذا إذا كان الأمر بمعنى الشأن، ولك أن تجعله بمعنى التكليف والإيجاب، أي: ليس ما تأمرهم به من عندك، وليس الأمر بيدك، ولا التوبةُ ولا التعذيب، فليس هناك عطفُ الخاصِّ على العام. وفيه أنَّ الحمل على التكليف تكلُّف، والحملُ على الشأن أرفعُ شأناً.

ونُقل عن الفراء وابن الأنباري[1] أنَّ «أو» بمعنى «إلا أن»، والمعنى: ليس لك من أمرهم شيءٌ إلا أن يتوب الله تعالى عليهم بالإسلام فتفرح، أو يعذِّبهم فتشتفي بهم.

وأيّاًما كان، فالجملة كلامٌ مستأنفٌ سِيق لبيان بعض الأمور المتعلِّقة بغزوة أحد أو ما يشبهها، إثر بيان ما يتعلَّق بغزوة بدر، لما بينهما من التناسب من حيث إنَّ كلًّا منهما مبنيٌّ على اختصاص الأمر كلِّه بالله تعالى، ومبنيٌّ على سَلْبِه عمَّن سواه[2].

وقيل: إنَّ كلَّ ما في هذه الآيات في غزوة أحد على ما أشرنا إليه.

وقيل: إنَّ قوله تعالى: «أو يتوب» إلخ عطفٌ على «ينقلبوا»، أي: يكون ثمرةُ خزيهم انقلابَهم خائبين، أو التوبَ عليهم، أو تعذيبهم.

أو عطفٌ على «يكبتهم»، و«ليس لك من الأمر شيء» اعتراضٌ وُسِّط بين المعطوف عليه المتعلِّق بالعاجل، والمعطوفِ المتعلِّق بالآجل، لتحقيق أنْ لا تأثير للمنصور إثْرَ بيانِ أنْ لا تأثير للناصرين، وتخصيصُ النفي برسول الله ﷺ على طريق تلوين الخطاب؛ للدلالة على الانتفاء من غيره من باب أَوْلى، وإنما خصَّ الاعتراض بموقعه؛ لأنَّ ما قبله من القَطْع والكَبْت من مِظانٍّ أن يكون فيه لرسول الله ﷺ ولسائر مباشري القتال مدخلٌ في الجملة، والمعنى: إنَّ مالِكَ أَمرهم على الإطلاق ـ وهو الله تعالى ـ نَصَركُم عليهم ليُهلكهم أو يَكْبِتَهم، أو يتوبَ عليهم

---

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٤، والبيان في غريب إعراب القرآن لأبي البركات ابن الأنباري ٢/ ٢٢١.

(٢) في تفسير أبي السعود ٢/ ٨٣ (والكلام منه): ومنبيء عن سلبه عمن سواه.

إن أسلموا، أو يعذِّبهم إن أصرُّوا، وليس لك من أمرهم شيءٌ، إنْ أنت إلا عبدٌ مأمور بإنذارهم وجهادهم.

والمراد بتعذيبهم: التعذيبُ الشديد الأخروي المخصوصُ بأشدِّ الكَفَرة كُفراً، وإلا فمطلق التعذيب الأخروي متحقِّقٌ في الفريقين الأولين. وحَمْلُه على التعذيب الدنيويِّ بالأسر واستيلاء المؤمنين عليهم خلافُ المتبادر من التعذيب عند الإطلاق، وكذا لا يلائم ظاهرَ قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ فإنه في مقام التعليل لهذا التعذيب، وأكثر ما يعلل به التعذيبُ الأخروي. نعم حَمْلُه على التعذيب الدنيوي أوفقُ بالمعنى الذي ذكره الفرَّاء وابنُ الأنباري؛ لأنَّ التشفِّي في الغالب إنما يكون في الدنيا.

ونَظْمُ التوبةِ والتعذيبِ الأخرويِّ في سلك العلَّة الغائيَّةِ للنصر المترتِّبةِ عليه في الوجود، من حيث إنَّ قبول توبتهم فرعُ تحققِها الناشيء من عِلْمِهم بحقِّية الإسلام بسبب غلبة أهله المترتِّبة على النصر الذي هو من الآيات الغرِّ المحجَّلة، وأنَّ تعذيبَهم المذكور شيءٌ مسبَّبٌ على إصرارهم على الكفر بعد تبيُّن الحقِّ على الوجه المذكور، كما ينبىء عن ذلك قوله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] وإن فُسِّر بالأسر مثلاً كان أمرُ التسبُّب مكشوفاً لا مِرْيةَ فيه.

واستَشْكَلتْ هذه الآية بناءً على أنها تدلُّ ـ على ما في بعض الروايات ـ على أنه ﷺ كان فَعَلَ فعلاً ومُنع منه: بأنه إن كان ذلك الفعلُ من الله تعالى فكيف مَنَعَه منه، وإن لم يكن فهو قادحٌ بالعصمة ومنافٍ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣].

وأجيب: بأنَّ ما وقع كان من باب خلافِ الأَوْلى نظراً إلى منصبه ﷺ، والنهيُ المفهوم من الكلام من باب الإرشاد إلى اختيار الأفضل، ولا يُعدُّ ذلك من الهوى في شيءٍ بناءً على القول بأنه يصحُّ للنبيِّ أن يجتهد ويعمل بما أدَّى إليه اجتهاده المأذونُ به.

وجُوِّز أن يكون ذلك الفعل نفسُهُ عن وحي وإذنٍ من الله تعالى له ﷺ به، وأنَّ النهي عن ذلك كان نسخاً لذلك الإذن.

وأيّاً ما كان لا ينافي العصمةَ الثابتة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فافهم.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيق لبيان اختصاص ملكية جميع الكائنات به تعالى، إثر بيان اختصاص طرفٍ من ذلك به عزَّ شأنه؛ تقريراً لِمَا سبق وتكملةً له، وتقديمُ الخبر للقَصْر. و«ما» عامةٌ للعقلاء وغيرهم تغليباً، أي: له سبحانه ما في هذين النوعين، أو ما في هاتين الجهتين مُلكاً ومِلكاً وخَلْقاً واقتداراً، لا مدخل لأحدٍ معه في ذلك، فالأمر كلُّه له، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أنْ يغفر له من المذنبين[1]، فلا يعاقبه على ذنبه فضلاً منه ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أنْ يعذِّبه عدلاً منه.

وإيثارُ كلمة «من» في الموضعين لاختصاص المغفرة والتعذيب بالعقلاء، وتقديمُ المغفرة على التعذيب للإيذان بسَبْق رحمته تعالى على غضبه.

وظاهر الآية يدلُّ على أنَّ مغفرةَ الله تعالى وتعذيبَهُ غيرُ مقيَّدين بشيء، بل قد يُدَّعى أنَّ التقييد منافٍ للسَّوق؛ إذ هو لإثبات أنه سبحانه المالكُ على الإطلاق، فله أن يفعل ما يشاء، لا مانع له من مشيئته، ولو كانت مغفرتُه مقيَّدةً بالتوبة وتعذيبُهُ بالظلم، لم يكن فاعلاً لِمَا يشاء، بل لِمَا تستدعيه التوبة أو الظلم، فالآية ظاهرةٌ في نفي الوجوب على الله تعالى، وأنه يجوز أن يغفر سبحانه للمذنب ويعذِّب المصلح، وهو مذهب الجماعة.

وذهب المعتزلة إلى أنَّ المغفرةَ مشروطةٌ بالتوبة، فَمَن[2] لم يَتُبْ لا يجوز أن يغفر له أصلاً، وتمسَّكوا في ذلك بوجهين:

الأول: الآياتُ والأحاديث الناطقةُ بوعيد العصاة.

الثاني: أنَّ المذنبَ إذا علم أنه لا يُعاقَب على ذنبه، كان ذلك تقريراً له وإغراءً للغير عليه، وهذا ينافي حكمةَ إرسال الرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم.

وحَمَلوا هذه الآيةَ على التقييد، وخَصُّوا أمثالها من المطلقات بالصغائر، أو الكبائرِ المقرونةِ بالتوبة، وقالوا: إنَّ المراد: يغفر لمن يشاء إذا تاب. وجعلوا

---

(١) في (م): المؤمنين.
(٢) في الأصل: فما.

القرينة على ذلك أنه تعالى عقَّب قوله سبحانه: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ بقوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ وهو دليلٌ على أنَّ الظُّلم هو السبب الموجب، فلا تعذيبَ بدونه ولا مغفرة مع وجوده، فهو مفسِّرٌ لـ «مَن يشاء».

وأَيَّدوا كونَ المراد ذلك بما روي عن الحسن في الآية: يغفر لمن يشاء بالتوبة، ولا يشاء أن يغفر إلا للتائبين، ويعذِّبُ مَن يشاء، ولا يشاء أن يعذِّب إلا المستوجِبين[1]. وبما روي عن عطاء: يغفر لمن يتوب إليه[2]، ويعذِّب مَن لَقِيَهُ ظالماً.

والجماعة تمسَّكوا بإطلاق الآيات، وأجابوا عن متمسَّك المخالف:

أمَّا عن الأول: فبأنَّ تلك الآيات والأحاديث على تقدير عمومها، إنما تدلُّ على الوقوع دون الوجوب، والنزاع فيه، على أنَّ كثرةَ النصوص في العفو تُخصِّص المذنبَ المغفورَ عن عمومات الوعيد.

وأما عن الثاني: فبأنَّ مجرَّد جواز العفو لا يوجب ظنَّ عدم العقاب، فضلاً عن الجزم به، وكيف يوجبُ جوازُ العفو العلمَ بعدم العقاب والعموماتُ الواردة في الوعيد، المقرونةُ بغايةٍ من التهديد، ترجِّح جانبَ الوقوع بالنسبة إلى كلِّ واحد، وكفى به زاجراً، فكيف يكون العلم بجواز العفو تقريراً وإغراءً على الذنب مع هذا الزاجر؟!

وأيضاً إنَّ الكثير من المعتزلة خصُّوا مثلَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] بالصغائر، فلو كان جوازُ العفو مستلزماً ـ كما زعموا ـ للعلم بعدم العقاب، لزم اشتراك الإلزام بأن يقال: إنَّ المرتكبَ للصغائر إذا علم أنه لا يعاقَب على ذنبه كان ذلك تقريراً له وإغراءً للغير عليه، وفيه من الفساد ما فيه.

وما جعلوه قرينةً على التقييد معارَضٌ بما يدلُّ على الإطلاق، أعني قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فإنه معطوفٌ معنًى على قوله جلَّ اسمه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ويدلُّ ذلك على أنَّ له سبحانه التصرُّفَ المطلق، وهو على خلاف ما يقولون، حيث جعلوا تصرُّفه ومشيئَتَهُ مقيَّداً بأن يكون على مقتضى الحكمة، والحكمةُ تقتضي عدمَ غفران مَن لم يَتُبْ. ولا يخفى أنه في حيِّز المنع؛

---

(١) في الأصل و(م): للمستوجبين، والمثبت من الكشاف ١/ ٤٦٣.

(٢) في الأصل و(م): عليه، والمثبت من الكشاف.

لأنَّ المشيئة والحكمة كلاهما من صفاته تعالى، لا تَتْبَع إحداهما الأخرى، وبتقدير الاستتباع لا نسلِّم أنَّ الحكمة تقتضي عدمَ غفران مَن لم يتب.

على أنَّ تعقيب ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ بقوله عزَّ وجل: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ لا يدلُّ على أكثر من أنَّ الظلم مفضٍ إلى التعذيب، ومَن يمنعُ الإفضاء؟ إنما المنعُ على أن يكون تفسيراً لـ «من يشاء»، وأين الدلالة على أن كلَّ ظُلم كذلك؟ ولا عمومَ للَّفظ، ولا هو من قبيل مفهوم الصفة ليَصْلُحَ متمسَّكاً في الجملة.

وما نقل عن الحسن وعطاء لا يُعرف له سندٌ أصلاً، ومَن ادَّعاه فليأتِ به إن كان من الصادقين، ومما يدلُّ على كذبه أنَّ فيه حَجْراً على الرحمة الواسعة، وتضييق مسالكها من غير دليلٍ قطعي، ولا يُظَنُّ بمثل الحَسَن هذا القبيحُ، سلَّمنا الصدق وعدم لزوم ما ذُكر، لكنَّ قولَ الحسن ونحوَه لا يُترك له ظاهر الكتاب، والحقُّ أحقُّ بالاتِّباع.

فإن قال الخصم: نحن نتمسَّك في هذا المطلب بلزوم الخُلْف. قلنا: يكون رجوعاً إلى الاستدلال بالمعقول، وقد أذقناكم الموتَ الأحمر فيه، لا بالآيات، فتبقى دلالةُ هذه الآية على عمومها، وهو مطلوبنا هنا.

على أنَّ هذه الآية واردةٌ في الكفار على أكثر الروايات، ومُعتقَدُ الجماعة أنَّ المغفرةَ في حقِّهم مشروطةٌ بالتوبة من الكفر والرجوع إلى الإيمان، كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وليسوا محلَّ خلافٍ بين الطائفتين، فمن استدلَّ بها من المعتزلة على غرضه الفاسد، فقد ضلَّ سواء السبيل.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمون قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ مع زيادة، وفي تخصيص التذييل به إشارةٌ إلى ترجيح جهة الإحسان والإنعام، وفيه ما يؤيِّدُ مذهب الجماعة.

❁ ❁ ❁

هذا، ومن باب الإشارة: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ من حيث الاستعدادُ وظهورُ الحق فيهم. ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ﴾ الذين ظهرت فيهم نقوش الكتاب الإلهي الأزلي ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ بالله

تعالى له ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: يُظْهِرون للمستعدِّين ما فاضَ عليهم من الأسرار ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ أوقاتَ ليلِ الجهالة وظُلمة الحَيرة ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يخضعون لله تعالى، ولا يُحدث فيهم الأنانيةَ أنهم عالمون، وأنَّ مَنْ سواهم جاهلون.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: بالمبدأ والمعاد ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ حَسْبَما اقتضاه الشرع، ولِكَون ما تقدَّم نظراً للخصوص؛ لأنَّ إيداعَ الأسرار عند الأحرار، وهذا بالنظر إلى العموم؛ لأنَّ الشريعةَ أوسعُ دائرةً من الحقيقة، قَدَّم وأَخَّر.

﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ من تكميل أنفسهم وغيرهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ القائمين بحقوق الحقِّ والخَلْق.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ يقرِّبكم إلى الله تعالى ﴿فَلَن تُكْفَرُوهُ﴾ فقد جاء: «مَن تقرَّب إليَّ شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً، ومَن تقرَّب إليَّ ذراعاً تقرَّبتُ إليه باعاً، ومَن أتاني يمشي أتيتُه هرولةً»(١). ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين اتَّقوا ما يحجبهم عنه، فيتجلَّى لهم بقَدْرِ زوال الحجاب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ واحتجبوا عن الحقِّ برؤية الأغيار، وأشركوا بالله تعالى ما لا وجودَ له في عيرٍ ولا نفير ﴿لَن تُغْنِىَ﴾ لن تدفع ﴿عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: عذابِه ﴿شَيْـًٔا﴾ من الدفع؛ لأنها من جملة أصنامهم التي عبدوها ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وهي الحجاب والبعد عن الحضرة ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لاقتضاء صفة الجلال مع استعدادهم ذلك.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الفانية الدنيَّةِ ولذَّاتها السريعة الزوال، طَلَباً للشهوات ومحمدةِ الناس، لا يطلبون به وجه الله تعالى ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: برد شديد ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالشرك والكفر ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ عقوبةً لهم من الله تعالى لظلمهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بإهلاك حَرْثهم ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لسوء استعدادهم الغير المقبول.

---

(١) أخرجه أحمد (٩٣٥١)، والبخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ. وسلف ٢/ ١٩٥.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً﴾ أي: خاصَّة تطلعونه على أسراركم ﴿مِّن دُونِكُمۡ﴾ كالمنكرين المحجوبين؛ إذ المحبة الحقيقية لا تكون إلا بين الموحِّدين، لكونها ظِلَّ الوحدة، ولا تكون بين المحجوبين لكونهم في عالم التضادِّ والظلمة، ولا يتأتَّى الصفاء والوفاق الذي هو ثمرة المحبة في ذلك العالم، فلذا ترى محبَّة غير أهل الله تعالى تدور على الأغراض، ومن هنا تتغير؛ لأنَّ اللَّذَّات النفسانية لا تدوم، فإذا كان هذا حالُ المحجوبين بعضهم مع بعض، فكيف تتحقَّق المحبة بينهم وبين مَن يخالفهم في الأصل والوصف، وأنَّى يتجانسُ النور والظلمة، وكيف يتوافق مُشَرِّقٌ ومُغَرِّب؟!

أيُّها المُنكِحُ الثريَّا سُهيلاً عَمْرَكَ اللهَ كيف يلتقيان
هي شاميَّةٌ إذا ما استقلَّتْ وسُهيلٌ إذا استقلَّ يَماني(١)

ففي الحقيقة، بينهما عداوةٌ حقيقيةٌ وبُعْدٌ كُلِّيٌّ إلى حيث لا تتراءى ناراهما، وآثارُ ذلك ظاهرةٌ كما بيَّن الله تعالى بقوله سبحانه: ﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ لامتناع إخفاء الوصف الذاتي ﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ﴾ لأنه المنشأ لذلك، فهو نارٌ وذاك شرارٌ، وهو جبلٌ والظاهرُ غبار ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ وهي العلامات الدالةُ على المحبة والعداوة وأسبابهما ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ وتفهمون من فحوى الكلام.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ﴾ بمقتضى ما عندكم من التوحيد؛ لأنَّ الموحِّد يحبُّ الناسَ كلَّهم بالحقِّ للحقِّ، ويرى الكلَّ مَظْهَراً لحبيبه جلَّ شأنه، فيرحم الجميع، ويعلم أنَّ البعض منهم قد اشتغل بباطل نظراً إلى بعض الحيثيات، وابتُلي بالقدر، وهذا لا ينافي ما قدَّمنا آنفاً عند التأمل ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ بمقتضى الحجاب والظلمة التي ضُربت عليهم ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: جنسه ﴿كُلِّهِۦ﴾ لِمَا أنتم عليه من التوحيد المقتضي لذلك وهم لا يؤمنون بذلك للاحتجاب بما هم عليه.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ لما فيهم من النفاق المستجلِبِ للأغراض العاجلة ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾ الكامن في صدورهم.

---

(١) البيتان لعمر بن أبي ربيعة، وهما في ملحقات ديوانه ص ٥٠٣، والكامل للمبرد ٢/ ٧٨٠، والخزانة ٢/ ٢٨.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ كآثار تجلِّي الجمال ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ ويحزنوا لها ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: ما يظنون أنه سيئة، كآثار تجلِّي الجلال ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ على ما ابتُليتم به، وتثبتوا على التوحيد ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الاستعانة بالسِّوى ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ لأنَّ الصابرَ على البلاء، والمتوكِّلَ على الله تعالى، المستعينَ به، المعرِضَ عمَّن سواه، ظافرٌ بطلبته غالبٌ على خصمه، محفوفٌ محفوظٌ بعناية الله تعالى، والمخذولُ مَن استعان بغيره وقصده سواه، كما قيل:

مَن استعانَ بغيرِ الله في طَلَبٍ فإنَّ ناصِرَه عَجْزٌ وخِذلانُ[(١)]

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من المكايد ﴿مُحِيطٌ﴾ فيبُطلها ويُطفىء نارها.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ لله تعالى تحت ظِلِّ الكبرياء والعظمة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ذلك وبالشكر تزداد النعم.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لِمَا رأيت من حالهم ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ «منزِلين» ـ على صيغة اسم الفاعل[(٢)] ـ السكينةَ عليكم، أو ﴿مُنزَلِينَ﴾ ـ على صيغة اسم المفعول ـ من جانب الملكوت إليكم.

﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا﴾ على صدمات تجلِّيه سبحانه ﴿وَتَتَّقُوا﴾ مَن سواه ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: بلا بُطءٍ ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ على صيغة الفاعل، أي: معلِّمين أرواحَكم بعلائم الطمأنينة، أو ﴿مُسَوَّمين﴾ ـ على صيغة المفعول ـ بعمائمَ بيض، وهي إشارةٌ إلى الأنوار الإلهية الظاهرة عليهم.

وتخصيصُ الخمسة آلاف بالذكر، لَعلَّه إشارةٌ إلى إمداد كلٍّ لطيفة من اللطائف الخمس بألف، والألفُ إشارةٌ إلى الإمداد الكامل، حيث إنها نهايةُ مراتب الأعداء، وشَرَطَ ذلك بالصبر والتقوى؛ لأنَّ النصر على الأعداء ـ وأعدى أعدائك نفسُك التي بين جنبيك ـ لا يكون إلا عند تقوى القلب، وكذا سائر جنود الروح، بل والروحُ نفسُها أيضاً، بتأييد الحق والتنوُّر بنور اليقين، فتحصل المناسبة بين القلب مثلاً وبين ملكوت السماء، وبذلك التناسُب يستنزل قواها وأوصافها في

---

(١) البيت لأبي الفتح البستي علي بن محمد بن الحسين، وهو في ديوانه ص ١٨٧.

(٢) وهي قراءة شاذة كما سلف ص ٤١٩ من هذا الجزء.

أفعاله، وربما يستمدُّ من قوى قَهْرِها على مَن يغضب عليه، وذلك عبارةٌ عن نزول الملائكة، وهذا لا يكون إلا بالصبر على تحمُّل المكروه طلباً لرضا الله تعالى، والتقوى من مخالفة أمر الحق والميل إلى نحو النفع الدنيوي واللَّذَّات الفانية.

وأما إذا جزع وهلع ومالَ إلى الدنيا، فلا يحصل له ذلك؛ لأنَّ النفس حينئذ تستولي عليه وتحجبُهُ بظلمة صفاتها عن النور، فلم تَبْقَ تلك المناسبة، وانقطع المدد ولم تنزل الملائكة.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ أي: إلا لتستبشروا به، فيزداد نشاطكم في التوجُّه إلى الحق ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ فيتحقَّق الفيضُ بقَدْرِ التصفية ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا من عند الملائكة، فلا تحتجبوا بالكثرة عن الوحدة، وبالخلق عن الحق، فالكلُّ منه تعالى وإليه ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ فلا يُعْجِزُه الظهورُ بما شاء وكيف شاء ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي ستر نصره بصور الملائكة لحكمة.

﴿لِيَقْطَعَ﴾ أي: يهلك ﴿طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وهم أعداء الله تعالى ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ يخزيهم ويُذلَّهم ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ فيرجعوا غير ظافرين بما أملوا.

﴿لَيْسَ لَكَ﴾ من حيث أنت ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ وكلُّه لك من حيثية أخرى ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إذا أسلموا فتفرح؛ لأنك المُظهِرُ للرحمة الواسعة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ لأجلك فتشتفي بهم من حيث إنهم خالفوا الأمر الذي بُعثتَ به إلى الناس كافة ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ بتلك المخالفة.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من عالَم الأرواح ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من عالم الطبيعيات، يتصرَّف فيهما كيفما يشاء ويختار ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ لأنَّ له التصرُّف المطلقَ في الملك والملكوت ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كثير المغفرة والرحمة. نسأل الله تعالى أن يغفر لنا ويرحمنا.

❁ ❁ ❁

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ ابتداءُ كلامٍ مشتملٍ على أمرٍ ونهي وترغيبٍ وترهيبٍ، تتميماً لِمَا سلف من الإرشاد إلى ما هو الأصلحُ في أمر الدِّين وفي باب الجهاد، ولعلَّ إيرادَ النهي عن الربا بخصوصه هنا، لِمَا أنَّ الترغيب في الإنفاق في السَّرَّاء والضَّرَّاء الذي عُمْدَتُهُ الإنفاق في سبيل الجهاد متضمِّنٌ للترغيب

في تحصيل المال، فكان مِظَنَّةَ مبادرة الناس إلى طُرُق الاكتساب، ومن جملتها بل أسهلها الربا، فَنُهُوا عنه.

وقدَّمه على الأمر اعتناءً به، وليجيء ذلك الأمر بعد سدِّ ما يخدشه.

وقال القفال: يحتمل أن يكون هذا الكلام متَّصلاً بما قبله من جهة أنَّ أكثرَ أموال المشركين قد اجتمعت من الربا، وكانوا ينفقون تلك الأموال على العساكر، وكان من الممكن أن يصير ذلك داعياً للمسلمين إلى الإقدام عليه كي يجمعوا الأموال وينفقوها على العساكر أيضاً، ويتمكَّنوا من الانتقام من عدوِّهم، فَوَرَدَ النهيُ عن ذلك رحمةً عليهم ولطفاً بهم.

وقيل: إنه تعالى شأنه لمَّا ذَكَرَ أنَّ له التعذيبَ لمن يشاءُ والمغفرةَ لمن يشاء، وصل ذلك بالنهي عما لو فعلوه لاستحقُّوا عليه العقاب، وهو الربا، وخَصَّه بالنهي؛ لأنه كان شائعاً إذ ذاك، وللاعتناء بذلك لم يَكْتَفِ بما دلَّ على تحريمه مما في سورة البقرة، بل صرَّح بالنهي وساق الكلام له أولاً وبالذات؛ إيذاناً بشدَّة الحظر.

والمراد من الأكل: الأخذُ، وعبَّر به عنه لِمَا أنه مُعْظَمُ ما يقصد به، ولشيوعه في المأكولات، مع ما فيه من زيادة التشنيع، وقد تقدَّم الكلام في الربا[1].

﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ حالٌ من الربا. والأضعافُ: جمعُ ضِعْفٍ، وضِعفُ الشيء مِثْلُه، وضِعفاه مِثْلاه، وأضعافُهُ أمثالُهُ. وقال بعض المحققين[2]: الضِّعف اسمُ ما يُضعَّفُ الشيءَ؛ كالثِّنْيِ اسمُ ما يُثنِّيه، من ضَعَفْتُ الشيءَ ـ بالتخفيف ـ فهو مَضْعُوف، على ما نقله الراغب[3]، بمعنى ضعَّفتُهُ، وهو اسمٌ يقع على العدد بشرط أن يكون معه عددٌ آخر فأكثر، والنظر فيه إلى فوق، بخلاف الزوج فإنَّ النظر فيه إلى ما دونه، فإذا قيل: ضِعف العشرة، لزم أن تجعلها عشرين بلا خلاف؛ لأنه أولُ مراتب تضعيفها، ولو قال: له عندي ضِعفُ درهم، لزمه درهمان، ضرورةَ الشرط المذكور، كما إذا قيل: هو أخو زيد، اقتضى أن يكون زيدٌ أخاه، وإذا لزم

---

(١) عند تفسير الآية (٢٧٥) من سورة البقرة وما بعدها.

(٢) هو صاحب الكشف، كما في حاشية الشهاب ٣/ ٦٢، والكلام منه.

(٣) في مفردات ألفاظ القرآن (ضعف)، والكلام من حاشية الشهاب ٣/ ٦٢ـ ٦٣.

المزاوجة دخل في الإقرار، وعلى هذا: له ضِعفا درهم، منزَّلٌ على ثلاثة دراهم، وليس ذلك بناءً على ما يتوهَّم أنَّ ضِعف الشيء موضوعُهُ مثلاه، وضِعْفَيْهِ ثلاثةُ أمثاله، بل ذلك لأنَّ موضوعَهُ المِثْل بالشرط المذكور.

وهذا مغزى[1] الفقهاء في الأقارير والوصايا، ومن البيِّن أنهم ألزموا في ضعفي الشيء ثلاثةَ أمثاله، ولو كان موضوعُ الضِّعْفِ المثلين، لكان الضعفان أربعةَ أمثال، وليس مبناه العرفُ العاميُّ ـ بل الموضوعُ اللغوي ـ كما قال الأزهريُّ[2].

ومن هنا ظهر أنه لو قال: له عليَّ الضِّعفان دِرهمٌ ودرهم، أو الضِّعفان من الدراهم، لم يلزم إلا درهمان، كما لو قال: الأخَوَان. ثم قال[3]: والحاصل أنَّ تضعيف الشيء ضمُّ عددٍ آخَرَ إليه، وقد يزاد، وقد يُنظر إلى أول مراتبه؛ لأنه المتيقَّن، ثم إنه قد يكون الشيء المضاعَف مأخوذاً معه، فيكون ضعفاه ثلاثةً، وقد لا يكون فيكون اثنين، وهذا كلُّه موضوعٌ له في اللغة لا عُرْفٌ[4].

وليس هذه الحال لتقييد المنهيِّ عنه، ليكون أصلُ الربا غيرَ منهيٍّ، بلِ لمراعاة الواقع، فقد روى غير واحد[5] أنه كان الرجل يُرْبي إلى أَجَل، فإذا حلَّ قال للمَدين: زِدْني في المال حتى أَزيدَك بالأجل، فيفعل، وهكذا عند كلِّ أجل، فيستغرق بالشيء الطفيف[6] مالَهُ بالكلِّية، فنُهُوا عن ذلك، ونزلت الآية. وقرئ: «مُضعَّفة» بلا ألف مع تشديد العين[7].

﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ أي فيما نُهيتم عنه، ومن جملته أكلُ الربا ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ أي: لكي تفلحوا، أو راجين الفلاح، فالجملة حينئذٍ في موضع الحال، قيل:

---

(١) في (م): معزى، والمثبت من الأصل، وهو الموافق لما في حاشية الشهاب.
(٢) في تهذيب اللغة ١/ ٤٨٠، حيث ذكر أن الوصايا يستعمل فيها العرف الذي يذهب إليه وهمُ الموصي والموصَى إليه، وإن كانت اللغة تحتمل غيره.
(٣) هو صاحب الكشف.
(٤) في (م): العرف، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب.
(٥) ينظر تفسير الطبري ٦/ ٥٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٧٥٩.
(٦) في الأصل و(م): الضعيف. والمثبت من الكشاف ١/ ٤٦٣، وتفسير البيضاوي ٢/ ٤٢، وتفسير أبي السعود ٢/ ٨٤.
(٧) هي قراءة ابن كثير وابن عامر وأبي جعفر ويعقوب. التيسير ص ٨١، والنشر ٢/ ٢٢٨.

ولا يخفى أنَّ اقترانَ الرجاء بالتخويف يفيد أنَّ العبدَ ينبغي أن يكون بين الرجاء والخوف، فهما جناحاه اللذان يطير بهما إلى حضائر القدس.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أي: احترزوا عن متابعة المُرابِينَ، وتَعَاطي ما يتعاطَوْنه من أكل الربا المفضي إلى دخول النار ﴿الَّتِي أُعِدَّتْ﴾ أي: هُيِّئَتْ ﴿لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ وهي الطبقة التي اشتدَّ حرُّها وتَضَاعَفَ عذابها، وهي غيرُ النار التي يدخلها عصاةُ أمة محمد ﷺ، فإنها دون ذلك.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ أَكَلَةَ الربا على شفا حفرة الكَفَرة، ويحتمل أن يقال: إنَّ النار مطلقاً مخلوقةٌ للكافرين، معدَّةٌ لهم أوَّلاً وبالذَّات، وغيرُهم يدخلها على وجه التَّبَع، فالصفة ليست للتخصيص، وإلى هذا ذهب الجلُّ من العلماء؛ روي عن الإمام الأعظم رضي الله عنه أنه كان يقول: إنَّ هذه الآية هي أَخوفُ آية في القرآن، حيث أَوْعَدَ الله تعالى المؤمنين بالنار المعدَّة للكافرين إن لم يتَّقوه في اجتناب مَحارِمه. وليس بنصٍّ في التخصيص.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ في جميع ما أَمَرَكم به ونهاكم عنه، فلا يتكرَّر مع الأمر بالتقوى السابق ﴿وَالرَّسُولَ﴾ أي: الذي شَرَعَ لكم الدِّينَ، وبلَّغكم الرسالة، فإنَّ طاعته طاعةُ الله تعالى.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ أي: لكي تنالوا رحمة الله تعالى، أو: راجين رحمته، وعقَّب الوعيدَ بالوعد ترهيباً عن المخالفة وترغيباً في الطاعة.

قال محمد بن إسحاق: هذه الآية معاتِبَةٌ للذين عَصَوْا رسول الله ﷺ حين أمرهم بما أمرهم في أحد[1]، ولعلَّهم الرُّماةُ الذين فارقوا المركز.

﴿وَسَارِعُوا﴾ عطفٌ على «أطيعوا» أو «اتقوا». وقرأ نافعٌ وابن عامر بغير واو[2]، على وجه الاستئناف، وهي قراءة أهل المدينة والشام، والقراءة المشهورة قراءة أهل مكة والعراق، أي: بادروا وسابقوا، وقُرئ بالأخير[3].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٠٩.

(٢) التيسير ص ٩٠، والنشر ٢/ ٢٤٢، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة.

(٣) هي قراءة أبي وعبد الله كما في الكشاف ١/ ٤٦٣، والبحر ٣/ ٥٧، قرآ: «وسابقوا».

﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ أي: أسبابهما من الأعمال الصالحة، وعن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: سارعوا إلى أداء الفرائض. وعن ابن عباس: إلى الإسلام. وعن أبي العالية: إلى الهجرة. وعن أنس بن مالك: إلى التكبيرة الأولى. وعن سعيد بن جبير: إلى أداء الطاعات. وعن يمان: إلى الصلوات الخمس. وعن الضحاك: إلى الجهاد. وعن عكرمة: إلى التوبة.

والظاهر العمومُ، ويدخل فيه سائر الأنواع، وتقديمُ المغفرة على الجنة لِمَا أنَّ التخليةَ مقدَّمةٌ على التحلية، وقيل: لأنها كالسبب لدخول الجنة.

و«من» متعلقةٌ بمحذوفٍ وقع نعتاً لـ «مغفرة»، والتعرُّضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين؛ لإظهار مزيد اللُّطف بهم، ووصْفُ المغفرة بكونها من الربِّ دون الجنة؛ تعظيماً لأمرها وتنويهاً بشأنها.

وسبب نزول الآية على ما أخرجه عبد بن حميد[1] وغيرُه عن عطاء بن أبي رباح أنَّ المسلمين قالوا: يا رسول الله، بنو إسرائيل كانوا أكرمَ على الله تعالى منَّا؟ كانوا إذا أذنب أحدهم ذنباً، أصبحت كفَّارةُ ذنبه مكتوبةً في عتبة داره: اجْدَعْ أنفك اجْدَعَ أذنَك، افعل كذا وكذا. فسكت ﷺ، فنزلت هذه الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ الآية فقال النبي ﷺ: «ألا أخبركم بخيرٍ من ذلكم؟» ثم تلاها عليهم.

والتنوين في «مغفرة» للتعظيم، ويؤيِّده الوصف، وكذا في «جنة» ويؤيِّده أيضاً وصفُها بقوله سبحانه: ﴿عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ والمراد: كعَرْضِ السماوات والأرض، فهو على حدِّ قوله:

حَسِبْتَ بُغامَ راحلتي عَناقاً ... وما هي وَيْبَ غيرِكَ بالعَناقِ[2]

---

(١) كما في الدر المنثور ٢/ ٧٢، وأخرجه ـ أيضاً ـ الطبري في تفسيره ٦/ ٦٢ ـ ٦٣.

(٢) نسبه أبو زيد في النوادر ص١١٦ لذي الخِرَق الطُّهَوِيِّ، ونسبه ابن الأعرابي كما في اللسان (عنق) لقُريط بن أنيف، وهو دون نسبة في مجالس ثعلب ١/ ٦١، ودلائل الإعجاز ص ٣٠١. وبغام الناقة: صوتٌ لا تُفصح به. والعناق: الأنثى من المعز. والويب كلمة مثل الويل، تقول: ويبك، وويب زيد، كما تقول: ويلك. يخاطب الشاعر ذئباً تبعه في طريقه. اللسان (عنق) و(بغم) و(ويب).

فإنه أراد: كصوت عَناق. والعَرْضُ أقصرُ الامتدادين، وفي ذكره دون ذكر الطُّول مبالغةٌ، وزاد في المبالغة بحذف أداة التشبيه وتقدير المضاف، فليس المقصود تحديد عَرضها حتى يمتنع كونُها في السماء، بل الكلام كنايةٌ عن غاية السّعة بما هو في تصوُّر السامعين، والعرب كثيراً ما تصف الشيءَ بالعَرْض إذا أرادوا وصفه بالسعة، ومنه قولهم: أَعرضَ في المكارم، إذا توسَّع فيها.

والمراد من «السماوات والأرض»: السماوات السَّبع والأرضون السَّبع، فعن ابن عباس من طريق السُّدِّي أنه قال: تُقرن السماوات السبعُ والأرضون السبع كما تُقرن الثياب بعضُها ببعض، فذاك عَرْضُ الجنة[١].

والأكثرون على أنها فوقَ السماوات السبع تحت العرش، وهو المرويُّ عن أنس بن مالك[٢].

وقيل: إنها في السماء الرابعة. وإليه ذهب جماعة.

وقيل: إنها خارجةٌ عن هذا العالم حيث شاء الله تعالى، ومعنى كونها في السماء: أنها في جهة العُلو، ولا مانع عندنا أن يخلق الله تعالى في العلوِّ أمثالَ السماوات والأرض بأضعافٍ مضاعفة، ولا ينافي هذا خبرُ أنها في السماء الرابعة إن صحَّ[٣]، ولا ما حكي عن الأكثر؛ لأن ذلك مثل قولك: في الدار بستان، إذا كان له بابٌ منها يُشْرَعُ إليه مثلاً، فإنه لا ينافي خروج البستان عنها وعلى هذا التأويل لا ينافي الخبرَ أيضاً كونُ عَرْض الجنة كعرض السماوات والأرض، من غير حاجة إلى القول بأنه ليس المراد من «السماوات» السماوات السبع كما قيل به.

ومِن الناس مَن ذهب إلى أنها في السماء تحت العرش، أو الرابعة، إلا أنَّ هذا العَرْضَ إنما يكون يوم القيامة، حيث يزيد الله تعالى فيها ما يزيد. وحكي ذلك عن

---

(١) أخرجه الطبري ٦/ ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) ذكره الفخر الرازي في تفسيره ٩/ ٦، وأخرج أحمد (٢٢٦٩٥) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ: «الجنة مئة درجة ما بين كل درجتين مسيرة مئة عام... والعرش من فوقها...» وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة (١٣٤) موقوفاً من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، وفيه أبو الزعراء عبد الله بن هانئ، قال عنه البخاري: لا يتابع على حديثه. الميزان ٢/ ٥١٧.

أبي بكر أحمد بن علي[١]، قيل: وبذلك يُدفع السؤال بأنه إذا كان عَرْضُ الجنة كعرض السماوات والأرض، فأين تكون النار؟ ووجه الدفع أنَّ ذلك يومَ القيامة، وأما الآن فهي دون ذلك بكثير، ويوم يثبت لها ذلك لا تكون فيه السماوات والأرض كهذه السماوات والأرض المشبَّهِ بعَرْضهما عَرْضُها.

ولا يخفى أنّ القول بالزيادة في السعة يوم القيامة وإن سلم، إلا أنَّ كونَها اليومَ دون هذه السماوات والأرض بكثير في حَيِّز المنع، ولا يكادُ يُقبل، والسؤال المذكور أجاب عنه رسول الله ﷺ بغير ذلك.

فقد أخرج ابن جرير عن التنوخيِّ رسولِ هِرَقْلِ قال: قدِمْتُ على رسول الله ﷺ بكتاب هرقل، وفيه: إنك كتبتَ تدعوني إلى جنة عَرْضُها السماوات والأرض فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار»[٢].

ولعلَّ المقصود من الجواب إسقاطُ المسألة، وبيانُ أنَّ القادر على أن يُذهبَ الليلَ حيث شاء، قادرٌ على أن يخلق النار حيث شاء، وإلى ذلك يشير خبر أبي هريرة رضي الله عنه[٣].

وذهب أبو مسلم الأصفهاني إلى أنَّ العَرْض هاهنا ليس مقابل الطُّول، بل هو من قولك: عَرَضْتُ المتاعَ للبيع، والمعنى: أنَّ ثمنها لو بيعت كثمن السماوات والأرض، والمراد بذلك عِظَمُ مقدارها وجلالة قَدْرها، وأنه لا يساويها شيءٌ وإن عَظُم، فالعَرْضُ بمعنى ما يُعرض من الثمن في مقابلة المبيع، وربما يُستغنَى ـ على

---

(١) ذكره عنه الطبرسي في مجمع البيان ٤/ ٢٠٠، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٠٩ عن أبي بكر بن فورك، واسمه محمد بن الحسن.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٥٤، وأخرجه ـ أيضاً ـ أحمد (١٥٦٥٥). وقد أسلم التنوخي بعد موت النبي ﷺ، فهو تابعي اتفاقاً، وحديثه ليس بمرسل بل موصول. ينظر تدريب الراوي ١/ ٢٢٠.

(٣) أخرجه البزار (٢١٩٦ـ كشف)، وابن حبان (١٠٣)، والحاكم ١/ ٣٦، وفيه: أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أرأيت جنةً عرضها السماوات والأرض فأين النار؟ فقال النبي ﷺ: «أرأيت هذا الليل قد كان ثم ليس شيء أين جُعل؟» قال: الله أعلم. قال: «فإن الله يفعل ما يشاء».

قال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين ولا أعلم له علة، ولم يخرجاه.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٢٧: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

هذا ـ عن تقدير ذلك المضاف. ولا يخفى أنه على ما فيه من البعد خلافُ المأثور عن السلف الصالح، من أنَّ المراد وصفُها بأنها واسعة.

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ أي: هُيِّئت للمطيعين لله تعالى ولرسوله ﷺ، وإنما أُضيفت إليهم للإيذان بأنهم المقصودون بالذات، وإنَّ دخولَ غيرهم ـ كعصاة المؤمنين والأطفال والمجانين ـ بطريق التَّبَع.

وإذا حُملت التقوى في غير هذا الموضع ـ وأمَّا فيه فبعيد ـ على التقوى عن الشرك، لا ما يعمُّه وسائرَ المحرَّمات، لم نستغن عن هذا القول أيضاً؛ لأنَّ المجانين مثلاً لا يتَّصفون بالتقوى حقيقةً ولو كانت عن الشرك، كما لا يخفى.

وجُوِّز أن يكون هناك جنَّاتٌ متفاوتة، وأنَّ هذه الجنةَ للمتقين الموصوفين بهذه الصفات لا يشاركهم فيها غيرُهم، لا بالذات ولا بالتَّبَع، ولعلها الفردوسُ المصرَّحُ بها في قوله ﷺ: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس»[1]، وفيه تأمُّل.

والآيةُ ظاهرةٌ في أنَّ الجنة مخلوقةٌ الآن، كما يدلُّ عليه الفعل الماضي، وجَعْلُه من باب ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩] خلافُ الظاهر، ولا داعي إليه كما بُيِّن في محله، ومثل ذلك: «أُعِدَّتْ» السابقُ في حقِّ النار، وأما دلالة الآية على أنَّ الجنة خارجةٌ عن هذا العالم بناءً على أنها تقتضي أنَّ الجنة أعظمُ منه فلا يمكن أن يكون محيطاً بها، ففيه نظر، كما يرشدك إليه النظر فيما تقدم.

والجملة في موضع جرٍّ على أنها صفةٌ لـ «جنة»، وجُوِّز أن تكون في موضع نصبٍ على الحالية منها؛ لأنها قد وُصفت، وجُوِّز أيضاً أن تكون مستأنفةً. قال أبو البقاء[2]: ولا يجوز أن تكون حالاً من المضاف إليه لثلاثة أمور:

أحدها: أنه لا عامل[3] له، وما جاء من ذلك متأوَّلٌ على ضَعْفه.

والثاني: أنَّ العَرْض هنا لا يراد به المصدر الحقيقيُّ، بل المسافة.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٤١٩)، والبخاري (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه أحمد (٢٢٦٩٥)، والترمذي (٢٥٣١) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) في الإملاء ٢/ ١٢٠ ـ ١٢١.

(٣) في الأصل و«م»: عمل، والمثبت من الإملاء، ومثله في الدر المصون ٣/ ٣٩٤.

والثالث: أنَّ ذلك يلزم منه الفصلُ بين الحال وصاحبها.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ في محلِّ الجرِّ على أنه نعتٌ لـ «المتقين» مادحٌ لهم، وقيل: مخصِّصٌ، أو بدلٌ أو بيانٌ، أو في محلِّ نصبٍ على إضمار الفعل، أو رفعٍ على إضمار «هم»، ومفعولُ «ينفقون» محذوفٌ ليتناول كلَّ ما يصلح للإنفاق المحمود، أو متروكٌ بالكلية كما في قولهم[1]: فلانٌ يعطي.

﴿فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: في اليسر والعسر؛ قاله ابن عباس[2].

وقيل: في حال السرور والاغتمام.

وقيل: في الحياة وبعد الموت بأن يوصي.

وقيل: فيما يسرُّ كالنفقة على الولد والقريب، وفيما يضرُّ كالنفقة على الأعداء. وقيل: في ضيافة الغني والإهداء إليه، وفيما ينفقه على أهل الضُّرِّ ويتصدَّق به عليهم.

وأصل السَّرَّاء: الحالةُ التي تسرُّ، والضَّرَّاء: الحالة التي تضرّ.

والمتبادِرُ ما قاله الحبر، والمراد إما ظاهرُهما أو التعميم كما عُهد في أمثاله، أي: لا يَخْلُون في حال ما بإنفاق ما قدروا عليه من كثير أو قليل، وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها تصدَّقت بحبَّة عنب[3]، وعن بعض السلف أنه تصدَّق ببصلة، وفي الخبر: «اتقوا النار ولو بشِقِّ تمرة»[4] و«رُدُّوا السائل ولو بِظِلْفٍ مُحرَّق»[5].

﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ أصل الكَظْم شَدُّ رأس القِرْبة عند امتلائها، ويقال: فلان كظيم، أي: ممتلئ حزناً.

---

(١) في الأصل: على حد، بدل: كما في قولهم.
(٢) أخرجه الطبري ٦/ ٥٧، وابن أبي حاتم ٣/ ٧٦٢.
(٣) أخرجه ابن سعد ٨/ ٤٩٠، وأبو عبيد في الأموال (٩١٠)، وهو من بلاغات مالك في الموطأ ٢/ ٩٩٧.
(٤) أخرجه أحمد (١٨٢٥٣)، والبخاري (٦٠٢٣)، ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.
(٥) أخرجه أحمد (١٦٦٤٨) وسلف ١/ ٣٧٤.

والغيظ: هَيَجان الطَّبع عند رؤية ما يُنكَر. والفرق بينه وبين الغضب على ما قيل: أنَّ الغضب يتبعه إرادةُ الانتقام البتَّة، ولا كذلك الغيظ.

وقيل: الغضب ما يظهر على الجوارح والبشرة من غير اختيار، والغيظ ليس كذلك. وقيل: هما متلازمان، إلا أنَّ الغضب يصحُّ إسناده إلى الله تعالى، والغيظ لا يصحُّ فيه ذلك.

والمراد: والمتجرِّعين للغيظ(١)، المُمْسِكين عليه عند امتلاء نفوسهم منه، فلا ينتقمون(٢) ممن يُدخِل الضرر عليهم، ولا يُبدون له ما يَكره، بل يصبرون على ذلك مع قدرتهم على الإنفاذ والانتقام، وهذا هو الممدوح، فقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن أبي هريرة مرفوعاً: «مَن كَظَمَ غيظاً وهو يقدر على إنفاذه، ملأ الله تعالى قلبه أمناً وإيماناً»(٣).

وأخرج أحمد عن [معاذ بن] أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من كظم غيظاً وهو قادرٌ على أن ينفذه، دعاه الله تعالى على رؤوس الخلائق حتى يخيِّره الله تعالى من أيِّ الحور شاء»(٤).

وفي الأول جزاءٌ من جنس العمل، وفي الثاني ما هو من توابعه.

وهذا الوصف معطوفٌ على ما قبله، والعدولُ إلى صيغة الفاعل هنا للدلالة على

---

(١) في الأصل: الغيظ.

(٢) في (م): ينقمون.

(٣) تفسير عبد الرزاق ١/ ١٣٢، وتفسير الطبري ٦/ ٥٩ من طريق عبد الجليل عن عمه عن أبي هريرة به. وعبد الجليل، قال عنه البخاري: لا يتابع عليه. الميزان ٢/ ٥٣٥. وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ٣١: مجهول.
وأخرجه أبو داود (٤٧٧٨) من طريق سويد بن وهب عن رجل من أبناء أصحاب النبي ﷺ، عن أبيه، عن النبي ﷺ. قال ابن طاهر كما في تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي ١/ ٢٢٤: وهذا الإسناد أصلح من إسناد عبد الرزاق.

(٤) مسند أحمد (١٥٦١٩)، وأخرجه أيضاً أبو داود (٤٧٧٧)، والترمذي (٢٠٢١) و(٢٤٩٣) وقال: حسن غريب، وما بين حاصرتين من هذه المصادر. ومعاذ بن أنس الجهني صحابي كان بمصر والشام، روى عن النبي ﷺ أحاديث، وله رواية عن أبي الدرداء وكعب الأحبار. الإصابة ٩/ ٢١٨.

الاستمرار، وأما الإنفاق فحيث كان أمراً متجدِّداً عبَّر عنه بما يفيد التجدُّد والحدوث.

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ أي: المتجاوزين عن عقوبةِ مَن استحقُّوا مؤاخَذَته إذا لم يكن في ذلك إخلالٌ بالدِّين. وقيل: عن المملوكينَ إذا أساؤوا، والعمومُ أولى.

أخرج ابن جرير عن الحسن أنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: «لِيَقُمْ من كان له على الله تعالى أجر، فلا يقوم إلا إنسانٌ عفا»(١).

وأخرج الطبرانيُّ عن أُبيِّ بن كعب أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن سرَّه أن يُشرَف له البنيان، وتُرفَع له الدرجات، فليعفُ عمَّن ظَلَمه، ويُعْطِ مَنْ حَرَمه، ويصلْ مَنْ قَطَعه»(٢).

وأخرج الديلميُّ في «مسند الفردوس» عن أنس بن مالك في الآية: «إنَّ هؤلاء في أمتي قليل، إلا مَن عَصَمَ الله تعالى، وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مَضَت»(٣).

والاستثناء منقطعٌ إن كانت القِلَّة على ظاهرها، ومُتَّصِلٌ إن كانت بمعنى العَدَم، وكونُ بعض الخصائص كثيراً في الأمم السابقة لا يقتضي تفضيلَهم على هذه الأمة من كلِّ الوجوه، ومَنْ ظَنَّ ذلك تكلَّفَ في توجيه الحديث: بأنَّ المراد أنَّ الكاظمين الغيظَ في أمتي قليلٌ إلا بعصمة الله تعالى؛ لغلبة الغيظ عليهم، وقد كانوا كثيراً في الأمم السالفة لقلَّة حميَّتهم، ولذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينهم قليلاً، ولمَّا تمرَّنت هذه الأمة في الغضب لله تعالى، والتزموا الاجتناب عن المداهنة، صار إنفاذ الغيظ عادتَهم، فلا يكظمون إذا ابتُلوا إلا بعصمة الله تعالى، فالقليل في الخبر هم الذين يكظمون لقِلَّة الحمية، وهم الكثيرون في الأمم السالفة، فلا اختصاصَ لهم بمزيةٍ ليُتوهَّم تفضيلُهم على هذه الأمة ولو من بعض الوجوه. ولا يخفى أنَّ هذا التوجيه مما تأباه الإشارة والعبارة.

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٥٩.

(٢) المعجم الكبير (٥٣٤) والمعجم الأوسط (٢٦٠٠). وأخرجه ـ أيضاً ـ الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٩٥ وصححه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٨٩: فيه أبو أمية بن يعلى، وهو ضعيف.

(٣) بنحوه في مسند الفردوس (٨١٢٠)، وأخرجه بهذا اللفظ ابن أبي حاتم ٣/ ٧٦٣ عن مقاتل بن حيان قال: بلغني أن النبي ﷺ قال عند ذلك، فذكره.

وأحسنُ منه ـ بل لا نسبة ـ أنَّ الكثرة نظراً إلى مجموع الأمم لا بالنسبة إلى كلِّ أمة أمة، ولا يضرُّ قلَّةُ وجود الموصوفين بتلك الصفة فينا بالنظر إلى مجموع الخلائق من لَدُنْ آدمَ عليه السلام إلى أن بُعث نبيُّنا ﷺ؛ لأنَّ هذه الأمة بأسرها قليلةٌ بالنظر إلى مجموع الأمم فضلاً عن خيارها، فتدبر.

وفي ذكر هذين الوصفين كما قال بعضُ المحقِّقين: إشعارٌ بكمال حُسْنِ موقع عَفْوِه عليه الصلاة والسلام عن الرماة، وتَرْك مُؤاخَذَتِهم بما فعلوا من مخالفة أمره ﷺ، وندبٌ له عليه الصلاة والسلام إلى ترك ما عزم عليه من مجازاة المشركين بما فعلوا بحمزة رضي الله عنه حتى قال حين رآه قد مُثِّل به: «لأُمثِّلنَّ بسبعين مكانك»[1]. ولعلَّ التعبير هنا بصيغة الفاعل أيضاً دون الفعل لأنَّ العفو أشبهُ بالكَظْم منه بالإنفاق.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ تذييلٌ لمضمون ما قبله، و«أل» إما للجنس والمذكورون داخلون فيه دخولاً أوَّليًّا، وإما للعهد وعبَّر عنهم بالمحسنين ـ على ما قيل ـ إيذاناً بأنَّ النعوت المعدودةَ من باب الإحسان، الذي هو الإتيانُ بالأعمال على الوجه اللائق الذي هو حُسنها الوصفيُّ المستلزمُ لحسنها الذاتي، وقد فسَّره النبيُّ ﷺ بـ: «أنْ تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2].

ويمكن أن يقال: الإحسان هنا بمعنى الإنعامِ على الغير على وجهٍ عارٍ عن وجوه القبح، وعبَّر عنهم بذلك للإشارة إلى أنهم في جميع تلك النعوت محسنون إلى الغير، لا في الإنفاق فقط.

ومما يؤيد كونَ الإحسان هنا بمعنى الإنعام ما أخرجه البيهقيُّ[3] أنَّ جاريةً لعليِّ بن الحسين رضي الله عنهما جعلت تسكب عليه الماء ليتهيّأ للصلاة، فسقط الإبريق من يدها فشجَّه، فرفع رأسه إليها، فقالت: إنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَالْكَاظِمِينَ

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/ ١٣-١٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/ ١٨٣ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وينظر الفتح ٧/ ٣٧١-٣٧٢.

(٢) قطعة من حديث جبريل الطويل أخرجه أحمد (١٨٤)، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وسلف ١/ ٢٩٥.

(٣) في شعب الإيمان (٨٣١٧).

﴿ٱلْغَيْظَ﴾ فقال لها: قد كظمتُ غيظي. قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ قال: قد عفا الله تعالى عنك. قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال: اذهبي فأنت حرَّةٌ لوجه الله تعالى.

ورجَّح بعضهم العهدَ على الجنس بأنه أدْخَلُ في المدح وأنسَبُ بذكره قبل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ من تتمَّة ما نزل حين قال المسلمون لرسول الله ﷺ: «بنو إسرائيل كانوا أكرم على الله تعالى منَّا..إلخ»(١) على ما أشرنا إليه فيما تقدم. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه ذَكَر عند رسول الله ﷺ حال بني إسرائيل، فنزلت هذه الآية(٢)، ولم يذكر صدر الآية.

وفي رواية الكلبي أنَّ رجلين أنصاريًّا وثقفيًّا آخى رسولُ الله ﷺ بينهما، فكانا لا يفترقان، فخرج رسول الله ﷺ في بعض مغازيه، وخرج معه الثقفيُّ وخلَّفَ الأنصاريَّ في أهله وحاجته، فكان يتعاهَدُ أهلَ الثقفي، فأقبل ذاتَ يومٍ فأبصر امرأةَ صاحبِه قد اغتسلت وهي ناشرةٌ شعرَها، فوقعت في نفسه، فدخل ولم يستأذن حتى انتهى إليها، فذهب لِيَلْثِمَها فوضعت كفَّها على وجهها، فقبَّل ظاهرَ كفِّها، ثم ندم واستحيا فأدبر راجعاً، فقالت: سبحان الله تعالى، خُنْتَ أمانتك وعصيتَ ربَّك، ولم تَصِلْ إلى حاجتك. قال: وندم على صنيعه، فخرج يَسيحُ في الجبال ويتوب إلى الله تعالى من ذنبه، حتى وافى الثقفيُّ، فأخبرتْه أهلُه بفعله، فخرج يطلبه حتى دُلَّ عليه، فوافقه ساجداً وهو يقول: ربِّ ذنبي ذنبي، قد خُنْتُ أخي، فقال له: قمْ يا فلان، فانطلقْ إلى رسول الله ﷺ فاسأله عن ذنبك، لعلَّ الله تعالى أن يجعل لك فرجاً وتوبة. فأقبل معه حتى رجع إلى المدينة، وكان ذات يومٍ عند صلاة العصر نزل جبريل عليه السلام بتوبته، فتلا ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟﴾ إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، ألهذا الرجل خاصة أم للناس

---

(١) سلف ص٤٤٤ من هذا الجزء.

(٢) ذكره البغوي في التفسير ١/ ٣٥٢، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥١٠، وأخرج الطبري ٦٣/٢ من طريق علي بن زيد بن جدعان عن ابن مسعود قال: كانت بنو إسرائيل إذا أذنبوا أصبح مكتوباً على بابه الذنب وكفارته، فأعطينا خيراً من ذلك هذه الآية. وعلي بن زيد ضعيف، ولم يدرك ابن مسعود.

عامة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «بل للناس عامة»[١].

وفي رواية عطاء عن ابن عباس أنَّ نبهان[٢] التَّمَّار أتته امرأةٌ حسناء تبتاع منه تمراً، فضمَّها إلى نفسه وقبَّلها، ثم ندم على ذلك، فأتى النبيَّ ﷺ وذكر ذلك له، فنزلت هذه الآية[٣].

وأنت تعلم أنه لا مانع من تعدُّد سبب النزول، وأيًّا ما كان، فبإطلاق اللفظ ينتظم ما فعله الرماة انتظاماً أوَّليًّا، وأخرج الترمذيُّ[٤] عن عَطَّاف بن خالد أنه قال: بلغني أنها لما نزلت، صاحَ إبليس بجنوده، وحثا على رأسه التراب، ودعا بالويل والثبور حتى جاءته جنوده من كل بَرٍّ وبحر فقالوا: ما لك يا سيدنا؟ قال: آيةٌ نزلت في كتاب الله، لا يَضُرُّ بعدها أحداً من بني آدم ذنبٌ. قالوا: وما هي؟ فأخبرهم، قالوا: نفتح لهم بابَ الأهواء فلا يتوبون ولا يستغفرون، ولا يرون إلا أنهم على الحق، فرضي منهم بذلك.

والموصول إما مفصولٌ عمَّا قبله على أنه مبتدأ. وقيل: إنه معطوفٌ على ما قبله من صفات المتقين، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ اعتراضٌ بينهما مشيرٌ إلى ما بينهما من التفاوت، فإنَّ درجة الأولين من التقوى أعلى، وحظُّهم أوفى؛ أو على «المتقين» فيكون التفاوت أظهر وأكثر.

والفاحشة: الكبائر، وظُلْمُ النفس: الصغائر، قاله القاضي عبد الجبار الهمداني.

وقيل: الفاحشة: المعصية الفعلية، وظلم النفس: المعصية القولية.

وقيل: الفاحشة: ما يتعدَّى، ومنه إفشاء الذنب؛ لأنه سببُ اجتراء الناس عليه ووقوعهم فيه، وظلم النفس: ما ليس كذلك.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ١١٨ ـ ١١٩، وتفسير البغوي ١/ ٣٥٢.

(٢) في الأصل و(م): تيهان. وهو تصحيف.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص١١٨، وهذا الحديث أخرجه ابن بشكوال مطولاً في غوامض الأسماء المبهمة ١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦ من طريق عبد الغني بن سعيد الثقفي، عن موسى بن عبد الرحمن، عن ابن جريج عن عطاء به. وذكره الحافظ في الإصابة ١٠/ ١٤٠ وذكر له طريقاً آخر عن مقاتل بن سليمان، عن الضحاك، عن ابن عباس ثم قال: مقاتل متروك، والضحاك لم يسمع من ابن عباس، وعبد الغني وموسى هالكان.

(٤) كما في الدر المنثور ٢/ ٧٧ والترمذي هو الحكيم.

وقيل: الفاحشة: كلُّ ما يشتدُّ قبحُه من المعاصي والذنوب، وتقال لكلِّ خصلة قبيحة من الأقوال والأفعال، وكثيراً ما تَرِدُ بمعنى الزنا. وأصل الفحش: مجاوزةُ الحدِّ في السوء، ومنه قول طرفة:

عقيلةَ مالِ الفاحشِ المتُشدِّد[1]

يعني: الذي جاوز الحدَّ في البخل، فلعلَّ المراد منها هنا: المعصية البالغة في القبح. والظلم: الذنب مطلقاً، وذِكْرُهُ بعدها من ذكر العامِّ بعد الخاص.

و«أو» على كلِّ[2] الوجوه للتنويع، ولا يَرِدُ أنه على بعض الوجوه الترديدُ بين الخاصِّ والعام، وقد توقِّف في قبوله، لأنهم قالوا: إنَّ هذا ترديدٌ بين فرقتين: مَن يستغفرُ للفاحشة، ومَن يستغفرُ لأيِّ ذنب صدر عنه[3]، وكم بينهما.

وجواب «إذا» قوله تعالى شأنه: ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: تذكَّروا حقَّه العظيم ووعيده، أو ذكروا العَرْضَ عليه، أو سؤالَه عن الذنب يوم القيامة، أو نهيَه، أو غفرانه.

وقيل: ذكروا جمالَه فاستَحْيَوْا، وجلالَه فهابُوا.

وقيل: ذكروا ذاته المقدَّسة عن جميع القبائح، وأحبُّوا التقرُّبَ إليه بالمناسبة له بالتطهير من الذمائم. وعلى كلِّ تقدير، ليس المراد مجرَّد ذكر اسمه عزَّ اسمُهُ.

﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟﴾ أي: طلبوا المغفرة منه تعالى ﴿لِذُنُوبِهِمْ﴾ كيفما كانت، ومفعولُ «فاستغفروا» محذوفٌ لفَهْمِ المعنى، أي: استغفروه، وليس المراد مجرَّدَ طلب المغفرة، بل مع التوبة، وإلا فَطَلَبُ المغفرة مع الإصرار كالاستهزاء بالرَّبِّ جلَّ شأنه، ومن هنا قالت رابعة العدوية: استغفارنا هذا يحتاج إلى استغفار.

---

(١) صدره: أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي. . .، وهو في ديوان طرفة ص ٣٤. قال النحاس في شرح المعلقات ١/ ٨٣: يصطفي: يأخذ خيرته وصفوته، وعقيلة المال: أكرمه وأنفسه عند أهله. والمتشدد: البخيل.

(٢) قوله: كل، ليس في (م).

(٣) في الأصل: منه.

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ اعتراضٌ بين المعطوفين، أو بين الحال وذيها[١]، والتركيب على ما أفاده بعض المحققين يدلُّ على أمور من جهة الله تعالى، وأمور من جهة العبد:

أما الأول فعلى وجوه:

أحدها: دلالة اسم الذات بحسب ما يقتضيه المقام من معنى الغفران الواسع، وإيراد التركيب على صيغة الإنشاء دون الإخبار، بأنْ لم يقل: وما يغفر الذنوب إلا الله، تقريرٌ لذلك المعنى وتأكيدٌ له، كأنه قيل: هل تعرفون أحداً يقدر على غفران[٢] الذنوب كلِّها صغيرِها وكبيرها سالفها[٣] وغابرها غيرَ مَن وَسِعَتْ رحمتُهُ كلَّ شيء؟

وثانيها: تقديمه عن مكانه وإزالته عن مقرِّه؛ لأنه اعتراضٌ بين المبتدأ وهو «الذين» والخبر الآتي، ثم بين المعطوف والمعطوف عليه، أو الحال وصاحبه؛ للدلالة على شدَّة الاهتمام به[٤]، والتنبيهِ على أنه كلما وُجد الاستغفار لم يتخلَّف الغفران.

وثالثها: الإتيان بالجمع المحلَّى باللام إعلاماً بأنَّ التائب إذا تقدَّم بالاستغفار يُتَلَقَّى بغفران ذنوبه كلِّها، فيصير كَمن لا ذنب له.

ورابعها: دلالة النفي بالحصر والإثبات على أنه لا مَفْزَعَ للمذنبين إلا كرمُهُ وفضلُهُ، وذلك أنَّ مَنْ وسعتْ رحمتُهُ كلَّ شيءٍ لا يشاركه أحدٌ في نشرها كَرماً وفضلاً.

وخامسها: إسنادُ غفران الذنوب إلى نفسه سبحانه، وإثباتُه لذاته المقدَّس بعد وجود الاستغفار وتنصُّلِ عبيده، يدلُّ على تحقُّق ذلك قطعاً؛ إما بحسب الوعد كما نقول، أو بحسَب العدل كما يزعمه المعتزلة.

وأما الثاني ففيه وجوه أيضاً:

---

(١) أي: وصاحبها، كما في البحر ٣/ ٥٩.
(٢) في (م): غفر.
(٣) في الأصل: وسالفها.
(٤) قوله: به، من (م)، وليس في الأصل.

الأول: أنَّ في إبداء سعة الرحمة واستعجال المغفرة بشارةً عظيمة وتطييباً للنفوس.

والثاني: أنَّ العبد إذا نظر إلى هذه العناية الشديدة والاهتمام العظيم في شأن التوبة، يتحرَّك نشاطه ويهتزُّ عِطْفُه، فلا يتقاعدُ عنها.

والثالث: أنَّ في ضمن معنى الاستغراق قلعَ اليأس والقنوط، ولهذا علَّل سبحانه النهيَ في قوله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] بقوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

والرابع: أنه أُطلقت الذنوب وعُمِّمت[١] بعد ذكر الفاحشة وظلم النفس، وترك مقتضى الظاهر ليدلَّ به على عدم المبالاة في الغفران، فإنَّ الذنوب وإن كبُرت فعفو الله تعالى أكبر.

والخامس: أنَّ الاسم الجامع في التركيب كما دلَّ على سعة الغفران بحسب المقام، يدلُّ أيضاً مع إرادة الحصر على أنه تعالى وحده معه مصحِّحات المغفرة من كونه عزيزاً ليس فوقه أحد فيرُدَّ عليه حُكْمَه، وكونه حكيماً يغفر لمن تقتضي حكمته غفرانه.

وقد التزم بعضهم كونَ «أل» في «الذنوب» للجنس؛ لتُفيد الآيةُ امتناعَ صدور مغفرةِ فردٍ منها من غيره تعالى، وهذا ـ على ظنِّه ـ لا تفيده الآيةُ على تقديرِ إرادةِ كلِّ الذنوب، وحينئذ يزداد أمرُ المبالغة. وأما جَعْلُ الجملة حاليةً بتقدير «قائلين ذلك» فتعسُّفٌ يذهب بكثير من هذه الوجوه اللطيفة كما لا يخفى.

و«مَنْ» مبتدأ و«يغفر» خبرُه، والاسم الجليل بدلٌ من المستكنِّ في «يغفر»، أو فاعلٌ له.

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ عطفٌ على «فاستغفَروا»، أو حالٌ من فاعله، أي: لم يقيموا ـ أو غيرَ مقيمين ـ على الذي فعلوه من الذنوب فاحشةً كانت أو ظلماً، أو على فعلهم.

---

(١) في (م): وعمت.

وأصل الإصرار: الشَّدُّ، من الصَّرِّ، وقيل: الثبات على الشيء، ومنه قول الحُطَيئة يصف الخيل[(١)]:

عوابسَ بالشُّعْثِ الكُماة إذا ابتغوا   عُلالتَها بالمُحصَدات أصرَّتِ

ويستعمل شرعاً بمعنى الإقامة على القبيح من غير استغفارٍ ورجوعٍ بالتوبة، والظاهرُ أنه لا يصحُّ إرادة هذا المعنى هنا لئلا يتكرَّر ما في المفهوم مع ما في المنطوق، فلعلَّه فيه بمعنى الإقامة. وإذا حُمل الاستغفار على مجرَّد طلب المغفرة فقط كان هذا مشيراً للتوبة التي هي مِلاكُ الأمر، إلا أنه قَدَّم الاستغفار لأنه دالٌّ عليها في الظاهر. وإذا حُمل على الحال الذي ينضمُّ إليه التوبة، كان هذا تصريحاً ببعض ما أُريد منه إشارةً إلى الاعتناء به، كما قالوا في ذكر الخاصِّ بعد العام.

أخرج البيهقيُّ[(٢)] عن ابن عباس موقوفاً: كلُّ ذنب أصرَّ عليه العبد كبير، وليس بكبير ما تاب منه العبد.

وأخرج أحمد، والبخاريُّ في الأدب المفرد عن ابن عمرو[(٣)] مرفوعاً: «ارْحَموا تُرْحَموا، واغْفِروا يُغفَرْ لكم، ويلٌ لأقماعِ القول، ويلٌ للمُصِرِّين»[(٤)].

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ قيل: الجملة حالٌ من ضمير «استغفَروا». وفيه بعدٌ لفظي، والمشهورُ أنها حالٌ من ضمير «أصرُّوا»، ومفعولُ «يعلمون» محذوفٌ، أي: يعلمون قُبْحَ فِعْلِهم. وقد ذُكر أنَّ الحال بعد الفعل المنفي، وكذا جميعُ القيود، قد

---

(١) البيت في ديوانه ص ٣٤١، وجاء في شرحه ص ٣٤٥: العوابس: الخيل القاطبة الوجوه. والكماة: جمع كَمِيّ، وسمي بذلك لأنه يتكمَّى الأقرانَ، أي: يتعمَّدهم ويقصد إليهم. والعُلالة: الجريُ يُطلب منها بعدما يذهب جريها. والمحصدات: سياط شديدة الفتل.

(٢) في شعب الإيمان (٧١٤٩).

(٣) في الأصل و(م): ابن عمر، والمثبت هو الصواب، وهو الموافق لمصادر التخريج على ما يأتي.

(٤) مسند أحمد (٦٥٤١)، والأدب المفرد (٣٨٠). قال ابن الأثير في النهاية ١٠٩/٤: الأقماع جمع قِمَع، كضِلَع، وهو الإناء الذي يُترك في رؤوس الظُّروف لتُملأ بالمائعات من الأشربة والأدهان. شبَّه أسماع الذين يستمعون القول ولا يَعُونه ويحفظونه ويعملون به بالأقماع التي لا تعي شيئاً مما يُفرَغ فيها، فكأنه يَمرُّ عليها مجازاً، كما يَمرُّ الشراب في الأقماع اجتيازاً.

يكون راجعاً إلى النفي قيداً له دون المنفي، مثل: ما جئتك مشتغلاً بأمورك، بمعنى: تركتُ المجيءَ مشتغلاً بذلك، وقد يكون راجعاً إلى ما دخله النفي، مثل: ماجئتك راكباً، ولهذا معنيان: أحدهما ـ وهو الأكثر ـ أن يكون النفي راجعاً إلى القيد فقط، ويثبت أصل الفعل، فيكون المعنى: جئت غير راكب، وثانيهما: أن يُقصَدَ نفيُ الفعل والقيدِ معاً، بمعنى انتفاءِ كلٍّ من الأمرين، فالمعنى في المثال: لا مجيءَ ولا ركوب، وقد يكون النفي متوجِّهاً للفعل فقط من غير اعتبارٍ لنفي القيد وإثباته.

قيل: وهذه الآية لا يصحُّ فيها أن يكون «وهم يعلمون» قيداً للنفي لعدم الفائدة؛ لأنَّ ترك الإصرار موجبٌ للأجر والجزاء، سواءٌ كان مع العلم بالقبح أو مع الجهل، بل مع الجهل أولى، ولا يصحُّ أيضاً فيها أن يتوجَّه النفيُ إلى القيد فقط مع إثبات أصل الفعل؛ إذ ليس المعنى على إثبات الإصرار ونفي العلم، وكذا لا يصحُّ توجُّهه إلى الفعل والقيد معاً؛ إذ ليس المعنى على نفي العلم، والظاهر أنَّ المناسب فيها تَوَجُّهُه إلى الفعل فقط من غير اعتبارٍ لنفي القيد وإثباته، والمراد: لم يصرُّوا عالِمين، بمعنى أنَّ عدم الإصرار متحقِّقٌ البتة.

ولك أن تقول: لِمَ لا يجوز أن يكون الحال هنا قيداً للنفي، ويكون المعنى: تركوا الإصرار على الذنب لعلمهم بأنَّ الذنب قبيح، فإنَّ الحال قد يجيءُ في معرض التعليل؟ وحديثُ: أنَّ تَرْكَ الإصرار موجبٌ للأجر والجزاء سواءٌ كان مع العلم بالقبح أو مع الجهل، فلا دَخْلَ لمضمون الحال في إيجاب الأجر، مجابٌ عنه بأنه ليس المقصود من ذكر الحال تقييدُ الإصرار بها لإيجاب الأجر حتى يَرِدَ عليه ما ذكر، بل المراد مدحُهم بأنَّ تَرْكَهم الإصرار على الذنب لأَجْل أنَّ فيهم ما هو زاجرٌ عنه وهو علمُهم بقبح الذنب، فيكون مدحاً لهم بأنَّ من صفاتهم التحرُّزَ عن القبائح.

وادَّعى بعض المتأخِّرين تعيُّنَ كون الحال قيداً للمنفي، وأنَّ النفي راجعٌ إلى القيد، والمعنى: لم يكن لهم الإصرار مع العلم بقبح الجزاء؛ لأنَّ المُصِرَّ مع عدم العلم بالقبح لا يُحْرم الجزاء، وغير المصرِّ لكسالةٍ أو لعدم ميل الطبع لا يبلغه؛ لأنَّ الجزاء على الكفِّ لا على العدم، وإلا لكان لكلِّ أحدٍ أجزيةٌ لا تتناهى لعدم فِعْلِ قبائحَ لا تتناهى لم تخطر بباله.

ولا يخفى ما في قوله: وغير المُصِرِّ. .إلخ، وقوله: لأنَّ الجزاء. .إلخ، من النظر، وكأنَّ مَنْ جَعَلَهُ حالاً من ضمير «استغفروا» أراد الفرار من هذه الدغدغة.

وأنا أقول: إنَّ الحال قيدٌ للنفي، ومتعلِّقُ العلم ليس[1] هو القبحُ، بل: أنه يغفر لمن استغفر ويتوب على مَن تاب، وهو المرويُّ عن مجاهد كما أخرجه جماعة عنه[2]، وحكي عن الضحاك أيضاً، والمعنى: أنهم تركوا الإقامة على الذنب عالمين بأنَّ الله تعالى يقبل التوبة من عباده ويغفر لهم، وهو إيذانٌ بأنهم لا ييأسون من رَوح الله سبحانه.

ولا يَرِدُ على هذا دعوى عدمِ الفائدة كما أُورد أوَّلاً؛ إذ من المعلوم الذي لا شبهة فيه أنَّ تَرْكَ الإصرار إنما يوجب الأجرَ إذا لم يكن معه يأس، فإنه لا ييأس من رَوْحِ الله إلا القومُ الكافرون، ولعلَّ مدحهم بأنهم يعلمون ذلك أولى من مدحهم بأنهم يعلمون قُبحَ الفعل، وربما يقال: إنَّ الجملة سِيقت معترِضةً لذلك، كما سيقت كذلك جملة «ومَن يغفر الذنوب إلا الله» لِمَا سيقت له، وأما جَعْلُها معطوفةً على جملةِ «لم يصرُّوا» ورُبَّ شيءٍ يصحُّ تبعاً ولا يصح استقلالاً، فليس بالذي تميل النفس إليه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين أخيراً باعتبار اتِّصافهم بما تقدَّم من الصفات الحميدة، والبعدُ للإشعار ببُعْدِ منزلتهم في الفضل، وإلى هذا ذهب المعظم.

وقيل: هو إشارةٌ إلى المذكورين، وهم طائفة واحدة.

وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُم﴾ بدلُ اشتمال منه، أو مبتدأٌ ثانٍ، وقوله تعالى: ﴿مَّغۡفِرَةٌ﴾ خبر «أولئك» أو خبر المبتدأ الثاني، والجملة خبرُ الأول، وهذه الجملة خبر «والذين إذا فعلوا» إلخ على الوجه الأول[3]. وادَّعى مولانا شيخ الإسلام[4] أنه الأَظْهَرُ الأنسب بِنَظْم المغفرة المُنبِئة عن سابقة الذنب في سلك

---

(١) في (م): وليس، والمثبت من الأصل وهو الصواب.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٣/ ٧٦٧ بلفظ: ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه يغفر لمن استغفر ويتوب على مَن تاب.

(٣) أي: على القول بأن الموصول في قوله تعالى: «والذين إذا فعلوا» مبتدأ، كما سلف ص٤٥٣.

(٤) هو أبو السعود في تفسيره ٢/ ٨٧.

الجزاء؛ إذ على الوجهين الأخيرين[1] «أولئك» إلخ جملةٌ مستأنفةٌ مبيِّنةٌ لما قبلها، كاشفةٌ عن حال كلا الفريقين؛ المحسنين والتائبين، ولم يُذكر من أوصاف[2] الأولين ما فيه شائبةُ الذنب حتى يُذكَرَ في مطلع الجزاء الشامل لهما المغفرة، وتخصيصُ الإشارة بالأخيرين مع اشتراكهما في حكم إعداد الجنة لهما تعسُّفٌ ظاهر. انتهى.

والذي يُشعر به ظاهرُ ما أخرجه ابن جرير عن الحسن أنه قرأ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الآية ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً﴾ الآية فقال: إنَّ هذين النعتين لَنَعْتُ رجلٍ واحد[3] = أحدُ الوجهين الأخيرين اللَّذَين أشار إليهما، بل الأول منهما، وتكون هذه الإشارة كما قال صاحب القِيل[4]. وهذه المغفرة هي المغفرة التي أُمر جميعُ المؤمنين، مَنْ له ذنبٌ ومَن لا ذنبَ له منهم، بالمسارعة إلى ما يؤدِّي إليها، فلا يضرُّ وقوعُها في مطلع الجزاء.

﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً للمغفرة مؤكِّدةً لِمَا أفاده التنوينُ من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية، أي: مغفرةٌ عظيمةٌ كائنةٌ من جهته تعالى، والتعرُّضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلَّة الحكم مع التشريف.

﴿وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ عطفٌ على «مغفرة»، والمراد بها: جناتٌ في ضمن تلك الجنة التي أخبر سبحانه أنَّ عَرْضها السماواتُ والأرض، وليس جناتٍ وراءها على ما يقتضيه كلام صاحب القيل، إلا أنه لم يَكْتَفِ بإعداد ما وُصف أولاً تنصيصاً على وصفها باشتمالها على ما يزيدها بهجةً من الأنهار الجارية بعد وصفها بالسعة، والإخبار بأنها جزاؤهم وأجرهم الذي لابدَّ - بمقتضى الفضل - أن يصلَ إليهم، وهذا فوق الإخبار بالإعداد، أو مؤكِّدٌ له، فالتنوين للتعظيم على طرز ما ذكر في المعطوف عليه.

---

(١) أي: على القول بعطف الموصول في «والذين إذا فعلوا» إما على ما قبله من صفات المتقين، وإما على «المتقين».

(٢) في الأصل و(م): ولم يذكر ما هو من أوصاف، والمثبت من تفسير أبي السعود.

(٣) تفسير الطبري ٦/ ٦٠.

(٤) يشير إلى ما سلف قريباً من قوله: وقيل هو إشارة للمذكورين وهم طائفة واحدة.

وادَّعى شيخُ الإسلام[١] أنَّ التنكير يُشعر بكونها أدنى من الجنة السابقة، وأنَّ ذلك مما يؤيِّد رجحان الوجه الأول الذي أشار إليه. وفيه تردُّد.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ مقدَّرةٌ من الضمير المجرور في «جزاؤهم» لأنه مفعولٌ به معنًى؛ إذ هو في قوة: يجزيهم الله جناتٍ خالدين فيها، ولا مساغ لأن يكون حالاً من «جنات» في اللفظ، وهي لأصحابها في المعنى؛ إذ لو كان كذلك لأبرز الضمير على ما عليه الجمهور.

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝١٣٦﴾ المخصوص بالمدح محذوفٌ، أي: وَنِعْمَ أجرُ العاملين الجنةُ، وعلى ذلك اقتصر مقاتل، وذهب غير واحد أنه: ذلك، أي: ما ذكر من المغفرة والجنات.

وفي الجملة ـ على ما نصَّ عليه بعض المحققين ـ وجوهٌ من المحسِّنات:

أحدها: أنها كالتذييل للكلام السابق، فيفيد مزيدَ تأكيدٍ للاستلذاذ بذكر الوعد.

وثانيها: في إقامة الأجر موضعَ ضمير الجزاء؛ لأنَّ الأصل: ونِعْم هو، أي: جزاؤهم، إيجابُ إنجاز هذا الوعد، وتصوير صورة العمل في العمالة تنشيطاً للعامل.

وثالثها: في تعميم العاملين وإقامتِه مُقامَ الضمير الدلالةُ[٢] على حصول المطلوب للمذكورين بطريقٍ برهاني.

والمراد من الكلام السابق الذي جُعل هذا كالتذييل له؛ إما الكلام الذي في شأن التائبين، أو جميع الكلام السابق على الخلاف الذي ذكرناه آنفاً، ومَن ذهب إلى الأول قال: وكفاك في الفَرْق بين القبيلين، وهما المتقون الذين أتوا بالواجبات بأسرها واجتنبوا المعاصي بِرمَّتها، والمستغفرون لذنوبهم بعدما أذنبوا وارتكبوا الفواحش والظُّلم، أنه تعالى فَصَلَ آية الأولين بقوله سبحانه وتعالى: (وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ) المُشْعِرِ بأنهم مُحْسِنون محبوبون عند الله تعالى، وفَصَلَ آية الآخرين بقوله جلَّ وعلا: (وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ) المُشْعِرِ بأنَّ هؤلاء أُجَرَاءُ، وأنَّ ما أُعطوا من

(١) في تفسيره ٢/ ٨٧.
(٢) في الأصل: للدلالة.

الأجر جزاءٌ لتدارُكهم بعضَ ما فوَّتوه على أنفسهم، وأين هذا من ذاك ؟ وبعيدٌ ما بين السَّمْكِ والسِّمَاك[١].

ولا يخفى أنه على تقديرِ كونِ النعتين نعتَ رجلٍ واحد، كما حكي عن الحسن، يمكن أن يقال: إنَّ ذِكْرَ هذه الجملة عقيب تلك لِمَا ذكره بعض المحققين، وأيُّ مانعٍ من الإخبار بأنهم محبوبون عند الله تعالى، وأنَّ الله تعالى منجزٌ ما وعدهم به ولا بدَّ؟ وكونُهم إذا أذنبوا استغفروا وتابوا لا ينافي كونَهم محسنين: أما إذا أُريد من الإحسان الإنعام على الغير فظاهر، وأما إذا أُريد به الإتيانُ بالأعمال على الوجه اللائق، أو «أنْ تعبدَ الله تعالى كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» كما صرَّح به في الصحيح[٢]، فلأنَّ ذلك لو نافى لزم أن لا يَصْدُق المحسن إلا على نحو المعصوم، ولا يَصْدُقَ على مَنْ عَبَدَ الله تعالى وأطاعه مدَّةً مديدة على ألْيَقِ وجه وأحسنِه، ثم عصاه لحظة فندم أشدَّ الندم واستغفر سيِّد الاستغفار؛ ولا أظنُّ أحداً يقول بذلك. فتدبر.

ثم إنَّ في هذه الآيات ـ على ما ذهب إليه المُعظَم ـ دلالةً على أنَّ المؤمنين ثلاثُ طبقات؛ مُتَّقون وتائبون ومُصِرُّون، وعلى أنَّ غير المصرِّين تُغفَرُ ذنوبهم ويدخلون الجنة، وأما أنها تدلُّ على أنَّ المصرِّين لا تُغفر ذنوبهم ولا يدخلون الجنة كما زعمه البعض فلا؛ لأنَّ السكوت عن الحكم ليس بياناً لحكمهم عند بعض، ودالٌّ على المخالفة عند آخرين، وكفى في تحقُّقها أنهم متردِّدون بين الخوف والرجاء، وأنهم لا يَخْلُون عن تعنيفٍ أقلُّه تعييرُهم بما أذنبوه مفصَّلاً، ويا له من فضيحة! وهذا ما لابدَّ منه على ما دلَّت عليه نصوص الكتاب والسنة، وحينئذٍ لم يتمَّ لهم المغفرة الكاملة كما للتائبين.

على أنَّ مقتضى ما في الآيات أنَّ الجنة لا تكون جزاءً للمُصِرّ، وكذلك المغفرة، أما نفيُ التفضُّل بهما فلا، وهذا على أصل المعتزلة واضحٌ للفرق بين الجزاء والتفضُّل وجوباً وعَدَمَ وجوب، وأما على أصل أهل السنة فكذلك؛ لأنَّ

(١) السِّماك: نجم، والسَّمْك: السَّقف. اللسان (سمك).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٤)، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ. وأخرجه ـ أيضاً ـ البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة ﷺ. وقد سلف ١/ ٢٩٥، وص٤٥١ من هذا الجزء.

التفضُّل قسمان: قسمٌ مترتِّبٌ على العمل ترتُّبَ الشِّبَع على الأكل، يسمَّى أجراً وجزاءً، وقسمٌ لا يترتَّب على العمل، فمنه ما هو تتميمٌ للأجر كمًّا أو كيفاً كما وعده من الإضعاف وغير ذلك، ومنه ما هو محضُ التفضُّل حقيقةً واسماً، كالعفو عن أصحاب الكبائر، ورؤيةِ الله تعالى في دار القرار، وغيرِ ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى. قاله بعض المحققين.

وذكر العلَّامة الطيبيُّ[1] أنَّ قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٠] وردت خطاباً لآكلي الربا من المؤمنين، ورَدْعاً لهم عن الإصرار على ما يؤدِّيهم إلى دركات الهالكين من الكافرين، وتحريضاً على التوبة والمسارعة إلى نيل الدرجات مع الفائزين من المتَّقين والتائبين، فإدراجُ المصرِّين في هذا المقام بعيدُ المرمى؛ لأنه إغراءٌ وتشجيعٌ على الذنب، لا زجرٌ وترهيب[2]، فبيَّن بالآيات معنى المتَّقين؛ للترغيب والترهيب، ومزيدِ تصوير مقامات الأولياء ومراتبهم ليكون حثًّا لهم على الانخراط في سلكهم، ولابدَّ من ذكر التائبين واستغفارِهم وعدمِ الإصرار، ليكون لطفاً لهؤلاء، وجميع الفوائد التي ذكرت في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ تدخل في المعنى، فعُلم من هذا أنَّ دلالة ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ مهجورةٌ؛ لأنَّ مقامَ التحريض والحثِّ أخرج المصرِّين.

والحاصل أنَّ شَرْطَ دلالة المفهوم هنا منتفٍ، فلا يصحُّ الاحتجاج بذلك للمعتزلة أصلاً.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾

---

(١) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٢) في الأصل و(م): ولا ترهيب، والمثبت من حاشية الطيبي.

﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ أي: مضت ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ أي: وقائعُ في الأمم المكذِّبة أجراها الله تعالى حَسْبَ عادته.

وقال المفضَّل: إنَّ المراد بها الأمم، وقد جاءت السُّنَّة بمعنى الأمة في كلامهم، ومنه قولُه:

ما عاينَ الناسُ من فضلٍ كفَضْلِكُمُ ولا رَأَوْا مِثْلَكم في سالف السُّنَنِ[1]

وقال عطاء: المراد بها الشرائع والأديان، فالمعنى: قد مضت من قبلكم سننٌ وأديانٌ نُسخت.

ولا يخفى أنَّ الأول أنسبُ بالمقام؛ لأنَّ هذا إما مُساقٌ لحمل المكلَّفين وآكلي[2] الربا على فعل الطاعة، أو على التوبة من المعصية، أو على كليهما بنوعٍ غيرِ ما سبق كما قيل، وإما عَودٌ إلى تفصيل بقية القصة بعد تمهيد مبادي الرشد والصلاح، وترتيب مقدِّمات الفوز والفلاح على رأي، وذِكْرُ مُضِيِّ الأديان ليس له كثيرُ ارتباط بذلك، وإن زعم بعضُهم أنَّ فيه تثبيتاً للمؤمنين على دين النبيِّ ﷺ لئلَّا يَهِنوا بقول اليهود: إنَّ دينَ موسى عليه السلام لا يُنسخ، ولا يجوز النسخ على الله تعالى لأنه بَداء. وتحريضاً لليهود وحثًّا على قبول دين الإسلام، وإنذاراً لهم من أن يقع عليهم مثل ما وقع على المكذِّبين، وتقويةً لقلوب المؤمنين بأنه سينصرهم على المكذِّبين. نعم إطلاق السُّنة على الشريعة أقربُ من إطلاقها على الوقعة؛ لأنها في الأصل الطريقةُ والعادة، ومنه قولهم: سنةُ النبيِّ ﷺ.

---

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٥٤، وتفسير القرطبي ٥/ ٣٣٣، والبحر ٣/ ٥٦.

(٢) في (م): أو آكلي.

والجارُّ والمجرور إما متعلِّقٌ بـ «خلت»، أو بمحذوفٍ وقع حالاً من «سنن»، أي: سنن كائنة من قبلكم.

﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بأقدامكم أو بأفهامكم ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ أي: تأمَّلوا ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ أي: آخرُ أمرهم الذي أدَّى إليه تكذيبُهم لأنبيائهم، والفاءُ للإيذان بسببية الخلوِّ للسير والنظر، أو الأمرِ بهما.

وقيل: المعنى على الشرط، أي: إن شكَكْتُم فسيروا إلخ.

والخطاب على كلِّ تقديرٍ مُساقٌ للمؤمنين، وقال النقاش: للكفار. وفيه بُعْد.

و«كيف» خبرٌ مقدَّم لـ «كان» معلِّق لفعل النظر، والجملة في محلِّ النصب بعد نزع الخافض؛ لأنَّ الأصلَ استعمالهُ بالجارِّ، وتجريدُ الفعل عن تاء التأنيث؛ لأنَّ المرفوع مجازيُّ التأنيث.

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ الإشارةُ إما إلى القرآن، وهو المرويُّ عن الحسن وقتادة(١)، وخُدش بأنه بعيدٌ عن السياق.

وإما إلى ما لُخِّص من أمر الكفار والمتقين والتائبين.

وقولُه سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ الآية اعتراضٌ للحثِّ على الإيمان والتقوى والتوبة كما قيل، ووَجْهُ الاعتراض ـ لدفع الاعتراض بأنَّ المعترِضة مؤكِّدةٌ للمعتَرَض فيه، وهنا ليس كذلك ـ بأنَّ تلك الآيات واردةٌ على سبيل الترغيب والترهيب لآكلي الربا، وهذه الآيةُ دلَّتْ على الترهيب، ومعناه راجعٌ إلى الترغيب بحَسَبِ التضادِّ، كما أنَّ بعض الآيات الواردة في الرحمن للوعيد تُعَدُّ من الآلاء بحسب الزجر عن المعاصي، فيتأتَّى التوكيد دون نقص. واعتُرض عليه بأنه تعسُّف.

وإما إلى ما سلف من قوله سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ إلخ، وهو المرويُّ عن ابن إسحاق(٢)، واختاره الطبريُّ والبلخيُّ وكثيرٌ من المتأخرين.

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٧٤.

(٢) في الأصل و(م): أبي إسحاق، والمثبت هو الصواب، ينظر تفسير الطبري ٦/ ٧٤-٧٥، والبحر ٣/ ٦١.

و«أل» في الناس للعهد، والمراد بهم المكذِّبون، والظرف إما متعلِّقٌ بـ «بيان»، أو بمحذوفٍ وقع صفة له[١]، أي: إيضاحٌ لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب، فإنَّ الأمر السابقَ وإن كان خاصًّا بالمؤمنين على المختار، لكنَّ العمل بموجبه غيرُ مختصٍّ بهم، ففيه حملٌ للمكذِّبين أيضاً على أن ينظروا في عاقبة أسلافهم ليعتبروا بذلك.

والموعظة: ما يُلين القلبَ ويدعو إلى التمسُّك بما فيه طاعةٌ. والهدى: بيانُ طريق الرشد ليُسْلَكَ دون طريق الغيّ، والفرق بينه وبين البيان أنَّ الثاني إظهارُ المعنى كائناً ما كان، ولكون المراد به هنا ما كان عارياً عن الهدى والعِظَة خصَّه بالناس، مع أنَّ ظاهره شاملٌ للمتقين، والمراد بهم مقابل المكذِّبين، وكأنه وُضع موضعَ الضمير بناءً على أنَّ المعنى: وزيادةُ بصيرةٍ وموعظةٍ لكم؛ للإيذان بعِلَّة الحكم، فإنَّ مدار[٢] كونِه هدًى وموعظةً لهم. إنما هو تقواهم وعدمُ تكذيبِهم.

وقُدِّم بيانُ كونه بياناً للمكذِّبين مع أنه غيرُ مسوقٍ له، على بيان كونه هدًى للمتقين مع أنه المقصود بالسياق؛ لأنَّ أولَ ما يترتَّب على مشاهدة آثار هلاك أسلافهم ظهورُ حال أخلافهم، وأما الهدى فأمرٌ مترتِّبٌ عليه، والاقتصارُ على الأمرين في جانب المتقين، مع ترتُّبهما على البيان؛ لِمَا أنهما المقصدُ الأصلي.

وقيل: «أل» في «الناس» للجنس. والمراد: بيانٌ لجميع الناس، لكنَّ المنتفِعَ به المتقون؛ لأنهم يهتدون به وينتجعون بوعظه، وليس بالبعيد.

وجَوَّز بعضُهم أن يُراد من «المتقين»: الصائرون إلى التقوى، فيبقى الهدى والموعظة بلا زيادة، وأن يُراد بهم ما يعمُّهم وغيرَهم من المتقين بالفعل، فيحتاج الهدى وما عُطف عليه إلى اعتبار ما يعمُّ الابتداءَ والزيادة فيه.

ولا يخفى ما في الثاني من زيادة البُعْد؛ لارتكاب خلافِ الظاهر في موضعين، وأما الأول ففيه بُعدٌ من جهة الارتكاب في موضع واحد، وهو وإن شارك ما قلناه

---

(١) في الأصل و(م): لهم، والمثبت هو الصواب، وهو الموافق لما في الدر المصون ٣/ ٤٠١، وتفسير أبي السعود ٢/ ٨٨.

(٢) بعدها في الأصل و(م): ذلك، وهي زيادة لا تستقيم بها العبارة، والمثبت موافق لما في تفسير أبي السعود ٢/ ٨٨، والكلام منه.

من هذه الحيثية، إلا أنَّ ما ارتكبناه يهدي إليه في الجملة التنوينُ الذي في الكلمة، ولا كذلك ما ارتكبوه، بل اعتبارُ الكمالِ المُشْعِرِ به الإطلاق ربَّما يأباه، ولعلَّه لمجموع الأمرين هانَ أمرُ نزعِ الخف.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أخرج الواحديُّ عن ابن عباس أنه قال: انهزم أصحاب رسول الله ﷺ يومَ أحد، فبينما هم كذلك إذ أقبلَ خالد بن الوليد بخيل المشركين يريدون أن يَعْلُوا عليهم الجبلَ، فقال النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ لا قوةَ لنا إلا بك، اللهمَّ ليس يَعبدُكَ بهذه البلدة غيرُ هؤلاء النفر». فأنزل الله تعالى هذه الآية، وثاب نفرٌ من المسلمين فصَعِدوا الجبل، وَرَمَوا خيلَ المشركين حتى هزموهم[1].

وعن الزهريِّ وقتادةَ أنها نزلت تسليةً للمسلمين، لِمَا نالهم يوم أحد من القتل والجراح[2].

وعن الكلبيِّ أنها نزلت بعد يوم أحد، حين أمر رسول الله ﷺ أصحابه ﷺ بطلب القوم، وقد أصابهم من الجراح ما أصابهم، وقال ﷺ: «لا يخرج إلا مَنْ شهد معنا بالأمس» فاشتدَّ ذلك على المسلمين، فأنزل الله تعالى هذه الآية[3].

وأيًّا ما كان فهي معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بحَسَبِ اللَّفظ ومرتبطةٌ به بحسب المعنى إن قلنا: إنه عَودٌ إلى التفصيل، وبما تقدم من قصة أحد إن لم نقل ذلك، وبه قال جمعٌ، وجَعَلوا توسيطَ حديث الربا استطراداً أو إشارةً إلى نوعٍ آخَرَ من عداوة الدين ومحاربة المسلمين، وبه يظهر الربط، وقد مرَّ توجيهه بغير ذلك أيضاً.

ومن الناس مَن جَعَل ارتباط هذه الآية لفظاً بمحذوفٍ، أي: كونوا مجدِّين ولا تَهِنوا، ومعنًى[4] على الخلاف، وهو تكلُّفٌ مستغنًى عنه.

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ١٢٠ عن ابن عباس دون إسناد، وأخرجه الطبري ٦/ ٧٨ عن ابن جريج مرسلاً، وأخرج نحوه عن ابن عباس مختصراً، وإسناده ضعيف جدًّا.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٧٧.

(٣) ذكره أبو حيان في البحر ٣/ ٦١، وهو بنحوه في سيرة ابن هشام ٢/ ١٠١ عن ابن إسحاق، دون ذكر الآية.

(٤) في (م): ومضى.

والوَهْن: الضعف، أَي: لا تضعفوا عن قتال أعدائكم والجهاد في سبيل الله تعالى بما نالكم من الجراح، ولا تحزنوا على ما أصبتم من قتل الأعزَّة. وقد قتل في تلك الغزوة خمسة من المهاجرين: حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير صاحب راية رسول الله ﷺ، وعبد الله بن جحش ابن عمة النبيِّ ﷺ، وعثمان بن شمَّاس[١]، وسعدٌ مولى عتبة[٢]، رضي الله عنهم، وسبعون من الأنصار.

وقيل: لا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة. ولا يخفى بُعدُه.

والظاهر أنَّ حقيقة النهي غيرُ مرادة هنا، بل المرادُ التسلية والتشجيع، وإن أُريدت الحقيقة فلعلَّ ذلك بالنسبة إلى ما يترتَّب على الوَهْن والحزن من الآثار الاختيارية، أي: لا تفعلوا ما يترتَّب على ذلك.

﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ جملةٌ حاليةٌ من فاعل الفعلين، أي: والحال أنكم الأَعْلَوْن الغالبون دون أعدائكم، فإنَّ مصيرَهم مصيرُ أسلافهم المكذِّبين، فهو تصريحٌ بعد الإشعار بالغلبة والنصر.

وحكى القرطبيُّ[٣] أنهم لم يخرجوا بعد ذلك إلا ظفروا في كلِّ عسكرٍ كان في عهده عليه الصلاة والسلام، وكذا في كلِّ عسكر كان بعدُ، ولو لم يكن فيه إلا واحدٌ من الصحابة رضي الله عنهم.

أو المراد: والحال أنكم أعلى منهم شأناً، فإنكم على الحق، وقتالُكم لإعلاء كلمة الله تعالى، وقتلاكم في الجنة، وأنهم على الباطل وقتالُهم لنصرة كلمة

---

(١) كذا نقل المصنف اسمه عن أبي السعود ٢/ ٨٨، وقد انقلب عليه، فاسمه شماس بن عثمان، كما في مغازي الواقدي ١/ ٣٠٠، وسيرة ابن هشام ٢/ ١٢٢، والتجريد للذهبي ص ٢٥٩، والإصابة ٥/ ٨٤. وكان اسمه عثمان بن عثمان كما ذكر ابن إسحاق في المغازي والسير ص٢٢٥، وابن هشام في السيرة ١/ ٣٢٦، وذكر ابن هشام قصة في سبب تسميته شماساً.

(٢) كذا نقل المصنف عن أبي السعود، والذي في كتب السيرة أن الذي استشهد يوم أحد هو سعد بن خَوْليّ مولى حاطب بن أبي بلتعة. ينظر مغازي الواقدي ١/ ٣٠٠، والتجريد ص٢١٣، والاستيعاب على هامش الإصابة ٤/ ١٣٨، والإصابة ٤/ ١٣٩. أما ابن إسحاق فلم يذكره فيمن استشهد بأحد من المهاجرين، ولم يذكر سوى الأربعة الذين قبله. ينظر سيرة ابن هشام ٢/ ١٢٢.

(٣) في تفسيره ٥/ ٣٣٤ نقلاً عن أبي الليث السمرقندي في تفسيره ١/ ٣٠١.

الشيطان، وقتلاهم في النار، واشتراكُهم على هذا في العلوّ بناءً على الظاهر وزَعْمِهم، وإذا أُخذ العلوُّ بمعنى الغلبة لا يحتاج إلى هذا، لِمَا أنَّ الحرب سجال، وأنَّ العاقبة للمتقين.

وقيل: المراد: وأنتم الأعلون حالاً منهم، حيث أصبتم منهم يوم بدر أكبر مما أصابوا منكم اليوم.

ومن الناس مَن جوَّز كونَ الجملة لا محلَّ لها من الإعراب، وجَعَلَها معترِضةً بين النهي المذكور وقولِه سبحانه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ لأنه متعلِّقٌ به معنًى، وإن كان الجواب محذوفاً، أي: إن كنتم مؤمنين فلا تَهِنوا ولا تحزنوا، فإنَّ الإيمان يوجب قوةَ القلب ومزيدَ الثقة بالله تعالى، وعدمَ المبالاة بأعدائه.

ولا يخفى أنَّ دعوى التعلُّق مما لا بأس بها، لكنَّ الحكم بكون تلك الجملة معترضةً، مُعتَرَضٌ بالبعد.

ويحتمل أن يكون هذا الشرط متعلِّقاً بـ «الأعلون»، والجواب محذوفٌ أيضاً، أي: إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون، فإنَّ الإيمان بالله تعالى يقتضي العلوَّ لا محالة. ويحتمل أن يراد بالإيمان: التصديقُ بوعد الله تعالى بالنصرة والظَّفَر على أعداء الله تعالى، ولا اختصاصَ لهذا الاحتمال بالاحتمال الأخير من احتمالَي التعلُّق كما يوهمه صنيع بعضهم.

وعلى كلِّ تقديرٍ المقصودُ من الشرط هنا تحقيقُ المعلَّق به كما في قول الأجير: إن كنتُ عملتُ لك فأعطني أجري. أو من قبيل قولك لولدك: إن كنتَ ابني فلا تَعْصِني.

وحَمَلَ بعضُهم الشرطَ على التعليل، أي: لا تَهِنوا ولا تحزنوا لأَجْلِ كونكم مؤمنين، أو: وأنتم الأعلون لأجل ذلك. والقول بأنَّ المراد: إن بقيتم على الإيمان، ليس له كمالُ ملاءمةٍ للمقام.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عياش عن عاصم بضم القاف، والباقون بالفتح[1]، وهما لغتان كالدَّف والدُّف،

---

(١) التيسير ص٩٠، والنشر ٢/ ٢٤٢.

والضَّعْف والضُّعْف. وقال الفراء[١]: القَرْح بالفتح: الجِراحةُ، وبالضم أَلَمُها.

ويُقرأ بضم القاف والراء على الإتباع[٢]، كاليُسْر واليُسُر، والظُّنْب والطُّنُب. وقرأ أبو السَّمَّال بفتحهما[٣].

وهو مصدر قَرِحَ يَقْرح: إذا صار له قُرْحةٌ. والمعنى: إن نالوا منكم يومَ أُحدٍ فقد نلتُم منهم قبله يومَ بدر، ثم لم يُضْعِفْ ذلك قلوبَهم، ولم يثبِّطهم عن معاودتكم بالقتال، وأنتم أحقُّ بأن لا تَضْعُفوا، فإنكم تَرْجُون من الله تعالى ما لا يرجون.

والمضارع على ما ذهب إليه العلَّامة التفتازاني لحكاية الحال؛ لأنَّ المساس مضى، وأما استعمال «إنْ» فبتقدير: «كان»، أي: إن كان مَسَّكم قَرْحٌ، و«إنْ» لا تتصرَّف في «كان» لقوة دلالته على المضيّ، أو على ما قيل: إنَّ «إنْ» قد تجيءُ لمجرَّد التعليق من غير نَقْلِ فِعْلِه من الماضي إلى المستقبل. وما وقع في موضع جواب الشرط ليس بجوابٍ حقيقةً؛ لتحقُّقه قبل هذا الشرط، بل دليلُ الجواب، والمراد: إن كان مَسَّكم قَرْحٌ فذلك لا يصحِّحُ عُذْرَكم وتقاعُدَكم عن الجهاد بعدُ[٤]؛ لأنه قد مسَّ أعداءكم مثلُه وهم على ما هم عليه، أو يقال: إن مسَّكم قَرْحٌ فَتَسَلَّوا، فقد مسَّ القومَ قَرْحٌ مثلُه.

والمِثليةُ باعتبارِ كثرةِ القتلى في الجملة، فلا يَرِدُ أنَّ المسلمين قتلوا من المشركين يومَ بدرٍ سبعين وأَسروا سبعين، وقتل المشركون من المسلمين يوم أُحد خمسةً وسبعين وجرحوا سبعين. والتزم بعضُهم تفسيرَ القَرْح بمجرد الانهزام دون تكثير القتلى فراراً من هذا الإيراد.

وأَبعَدَ بعضٌ في توجيه الآية، وحَمَلَها على ما لا ينبغي أن يُحمل عليه كلام الله تعالى، فقال: الأوجَهُ أن يقال: إنَّ المراد: إن يمسسكم قَرْحٌ فلا تَهِنوا؛ لأنه مَسَّ القومَ، أي: الرجالَ، قَرْحٌ مثله، والقرح للرجال لا للنساء، فمَن هو مِن زمرة الرجال ينبغي أن لا يُعرِضَ عما هو سِمَته، بل ينبغي أن يسعى له. وبهذا يظهر بقاء

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٢٣٤.
(٢) ذكرها السمين في الدر المصون ٢/ ٢٠٤.
(٣) القراءات الشاذة ص٢٢.
(٤) قوله: بعد، من (م)، وليس في الأصل.

وجه التعبير بالمضارع وأنه على ظاهره، وكذا يندفع ما قيل: إنَّ قَرْحَ القوم لم يكن مثلَ قرحهم، ولا يحتاج إلى ما تقدَّم من الجواب.

وقيل: إنَّ كِلَا المسَّين كان في أُحد، فإنَّ المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله ﷺ، فإنهم قتلوا منهم نيِّفاً وعشرين رجلاً أحدُهم صاحبُ لوائهم، وجرحوا عدداً كثيراً، وَعَقَروا عامَّةَ خيلهم بالنَّبْل.

وقيل: إنَّ ذلك القرح الذي مسَّهم أنهم رجعوا خائبين، مع كثرتهم وغلبتهم، بحفظ الله تعالى للمؤمنين.

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ﴾ اسمُ الإشارة مُشار به إلى ما بعده كما في الضمائر المبهمة التي يفسِّرها ما بعدها نحو: رُبَّه رجلاً[1]، ومثله يفيد التفخيم والتعظيم.

والأيام: بمعنى الأوقات لا الأيام العُرْفيَّةُ، وتعريفها للعهد إشارة إلى أوقات الظَّفَر والغلبة الجارية فيما بين الأمم الماضية والآتية، ويوما بدرٍ وأُحدٍ داخلان فيها دخولاً أوليًّا.

﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ نصرِّفها بينهم، فنُدِيلُ لهؤلاء مرةً ولهؤلاء أخرى، كما وقع ذلك يوم بدر ويوم أحد، والمداولةُ نقلُ الشيء من واحد إلى آخر، يقال: تَدَاوَلَتْه الأيدي: إذا انتقل من واحد إلى واحد. و«الناس» عامٌّ، وفسَّره ابن سيرين بالأمراء.

واسم الإشارة مبتدأ، و«الأيام» خبره، و«نُداولها» في موضع الحال، والعامل فيها معنى الإشارة، أو خبرٌ بعد خبر، ويجوز أن تكون «الأيام» صفةً أو بدلاً أو عطفَ بيان، و«نداولها» هو الخبر.

و«بين الناس» ظرفٌ لـ «نُداولها»، وجُوِّز أن يكون حالاً من الهاء، وصيغةُ المضارع الدالَّةُ على التجدُّد والاستمرار للإعلام بأنَّ تلك المداولةَ سُنَّةٌ مسلوكةٌ

---

(١) قال المالقي في رصف المباني ص ١٩٠: إن دخلت «رُبَّ» على مضمرٍ فلا يكون إلا مفسَّراً بنكرة منصوبة نحو: رُبَّه رجلاً. وهذا الضمير نكرةٌ أبداً بدليل تفسيره بالنكرة، ولا التفات فيه لكونه مضمراً، إذ من المضمرات ما يعود على نكرة ومنها ما يعود على معرفة.

فيما بين الأمم قاطبةً إلى أن يأتي أمر الله تعالى. ومن كلامهم: الأيام دُوَلٌ، والحربُ سِجَالٌ. وفي هذا ضربٌ من التسلية للمؤمنين. وقرئ: «يداولها»[١].

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تعليلٌ لما هو فردٌ من أفرادِ مطلق المداولة المشار إليها فيما قَبْلُ، وهي المداولةُ المعهودةُ الجاريةُ بين فريقي المؤمنين والكافرين، واللامُ متعلِّقةٌ بما دلَّ عليه المطلق من الفعل المقيَّد بالوقوع بين الفريقين المذكورين، أو بنفس الفعل المطلق باعتبار وقوعه بينهما، والجملة معطوفةٌ على علةٍ أخرى لها معتبرةٍ: إما على الخصوص والتعيين لدلالة[٢] المذكورة عليها؛ كأنه قيل: نُداوِلُها بينكم وبين عدوِّكم ليَظْهَرَ أمرُكم وليَعْلَم إلخ، وإما على العموم والإبهام، للتنبيه على أنَّ العلل غيرُ منحصرة فيما عَدَّ من الأمور، وأنَّ العبد يسوؤه ما يجري عليه، ولا يشعر بما لله في طيِّه من الألطاف، كأنه قيل: نجعلها دولاً بينكم لتكون حِكماً وفوائد جمَّة، وليعلم، إلخ، وفيه من تأكيد التسلية ما لا يخفى.

وتخصيصُ البيان بعلَّة هذا الفرد من مطلق المداولة دون سائر أفرادها الجارية بين بقية الأمم تعييناً أو إبهاماً؛ لعدم تعلُّق الغرض العلمي ببيانها، ولك أن تجعل المحذوف المبهمَ عبارةً عن عللِ سائرِ أفرادِها، للإشارة إجمالاً إلى أنَّ كلَّ فردٍ من أفرادها له علةٌ داعيةٌ في الظاهر إليه، كأنه قيل: نداولها بين الناس كافة ليكون كيت وكيت من الحِكَم الداعية إلى تلك الأفراد، وليعلم. . إلخ، فاللام الأولى متعلقةٌ بالفعل المطلق باعتبار تقييده بتلك الأفراد، والثانية باعتبار تقييده بالفرد المعهود. قاله مولانا شيخ الإسلام[٣].

وجوَّزوا أن يكون الفعل معطوفاً على ما قبله باعتبار المعنى، كأنه قيل: داولتُ بينكم الأيام لأنَّ هذه عادتنا، وليعلم إلخ.

وقيل: إنَّ الفعل المعلَّل به محذوفٌ، ويقدَّرُ مؤخَّراً، والتقدير: وليعلم الله الذين آمنوا، فَعَلَ ذلك.

ومنهم مَن زعم زيادةَ الواو، وهو من ضيق المجال.

---

(١) البحر المحيط ٣/ ٦٣، والدر المصون ٣/ ٤٠٦.
(٢) في الأصل و(م): للدلالة، والمثبت من تفسير أبي السعود ٢/ ٨٩، والكلام منه.
(٣) تفسير أبي السعود ٢/ ٩٠.

والكلام من باب التمثيل، أي: ليعاملكم معاملةَ مَن يريد أن يعلم المخلصين الثابتين على الإيمان من غيرهم، أو العلمُ[(١)] فيه مجازٌ عن التمييز، من باب إطلاق اسم السبب على المسبَّب، أي: ليميز الثابتين على الإيمان من غيرهم. وحَمْلُ العلم على التمييز في حال التمثيل تطويلٌ من غير طائل، واختار غير واحد حملَ العلم على التعلُّق التنجيزي المترتِّب عليه الجزاء. وقد تقدم بعض الكلام على ذلك في «البقرة». وبالجملة لا يَرِدُ لزومُ حدوثِ العلم الذي هو صفةٌ قائمةٌ بذاته تعالى.

وإطلاق الإيمان مع أنَّ المراد هو الرسوخ والإخلاص فيه؛ للإشعار بأنَّ اسمَ الإيمان لا ينطلق على غيره.

وزعم بعضُهم أنَّ التقدير: ليعلم اللهُ المؤمنَ من المنافق، إلا أنه استغنى بذكر أحدهما عن الآخر. ولا حاجة إليه، ومثله: القول بحذف المضاف، أي: صَبْرَ الذين.

والالتفاتُ إلى الغيبة بإسناده إلى الاسم الجليل؛ لتربية المهابة والإشعارِ بأنَّ صدور كلٍّ واحدٍ مما ذُكر بصَدَدِ التعليل من أفعاله تعالى باعتبار منشأ معيَّنٍ من صفاته التي استجمعها هذا الاسم الأعظم، مغايرٍ لمنشأ الآخر.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ جمع شهيد وهو قتيل المعركة، وأراد بهم شهداء أُحد، كما قاله الحسن وقتادة وابن إسحاق. و«من» ابتدائية أو تبعيضية متعلِّقة بـ «يتخذ» أو بمحذوفٍ وقع حالاً من «شهداء».

وقيل: جمع شاهد، أي: ويتخذ منكم شهوداً معدَّلين بما ظهر من الثبات على الحق، والصبرِ على الشدائد، وغير ذلك من شواهد الصدق، وليشهدوا على الأمم يوم القيامة، و«مِن» على هذا بيانيةٌ؛ لأنَّ تلك الشهادةَ وظيفةُ الكلِّ كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ويؤيِّد الأولَ ما أخرجه ابن أبي حاتم[(٢)] عن عكرمة قال: لمَّا أبطأ على النساء الخبرُ خرجْنَ يستخبرنَ، فإذا رجلان مقتولان على دابة، أو على بعير، فقالت امرأةٌ من الأنصار: مَن هذان؟ قالوا: فلانٌ وفلانٌ، أخوها وزوجها، أو زوجها وابنها،

(١) في (م): والعلم، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٢/ ٨٩، والكلام منه.
(٢) في تفسيره ٣/ ٧٧٤.

فقالت: ما فَعَلَ رسول الله ﷺ؟ قالوا: حيٌّ. قالت: فلا أبالي، يتَّخذ الله تعالى من عباده الشهداء. ونزل القرآن على ما قالت ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾.

وكنى بالاتخاذ عن الإكرام؛ لأنَّ مَن اتَّخذ شيئاً لنفسه فقد اختاره وارتضاه. فالمعنى: ليُكرِم أناساً منكم بالشهادة.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ أي: يبغضهم، والمراد من «الظالمين»: إما المنافقون كابن أبيٍّ وأتباعِه الذين فارقوا جيش الإسلام، على ما نقلناه فيما قبلُ، فهُم في مقابلة المؤمنين فيما تقدم، المفسَّرِ بالثابتين على الإيمان الراسخين فيه، الذين تُوافِقُ ظواهرُهم بواطنَهم، وإما بمعنى الكافرين المجاهرين بالكفر.

وأيّاً ما كان، فالجملة معترضةٌ لتقرير مضمون ما قبلها، وفيها تنبيهٌ على أنه تعالى لا ينصر الكافر على الحقيقة، وإنما يُغلِّبه أحياناً استدراجاً له وابتلاءً للمؤمن، وأيضاً لو كانت النصرة دائماً للمؤمنين لكان الناس يدخلون في الإيمان على سبيل اليُمن والفأل، والمقصود غير ذلك.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ليُطهِّرهم من الذنوب ويُصفِّيَهم من السيئات. وأصل التمحيص كما قال الخليل: تخليصُ الشيء من كلِّ عيب. يقال: مَحَصْتُ الذهبَ: إذا أَزَلْتَ خبثه. والجملة معطوفةٌ على «يتَّخذ»، وتكريرُ اللام للاعتناء بهذه العلة، ولذلك أُظهرَ الاسمَ الجليل في موضع الإضمار، أو لتذكير التعليل؛ لوقوع الفصل بينهما بالاعتراض.

وهذه الأمور الثلاثة ـ كما قال مولانا شيخ الإسلام[١] ـ عِلَلٌ للمداولة المعهودة باعتبار كونها على المؤمنين، قُدِّمت في الذكر لأنها المحتاجة إلى البيان، ولعل تأخير العلة الأخيرة عن الاعتراض لئلّا يُتوهَّم اندارجُ المذنبين في الظالمين، أو لتقترن بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ لِمَا بينهما من المناسبة، حيثُ إنَّ في كلٍّ من التمحيص والمَحْقِ إزالةً، إلا أنَّ في الأول إزالةُ الآثار وإزاحةُ الأوضار[٢]، وفي الثاني إزالةُ العين وإهلاكُ النفس.

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٢/ ٩١.

(٢) الوَضَر: وسخُ الدَّسم واللبن، أو غُسالة السِّقاء والقصعة ونحوهما. القاموس المحيط (وضر).

وأصل المحق: تنقيصُ الشيء قليلاً قليلاً، ومنه المحاق[١].

والمعنى: ويهلك الكافرين، ولا يُبقي منهم أحداً ينفخ النار. وهذا علةٌ للمداولة باعتبار كونها عليهم. والمراد منهم هنا طائفةٌ مخصوصةٌ، وهم الذين حاربوا رسول الله ﷺ يوم أحد، وأصرُّوا على الكفر، فإنَّ الله تعالى مَحَقَهم جميعاً.

وقيل: يجوز أن يكون هذا علةً للمداولة باعتبار كونها على المؤمنين أيضاً، فإنَّ الكفار إذا غَلبوا أحياناً اغترُّوا، وأوقعهم الشيطان في أوحال الأمل، ووسوسَ لهم فبقُوا مصرِّين على الكفر، فأهلكهم الله تعالى بذنوبهم وخلَّدهم في النار.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ خطابٌ للمنهزمين يومَ أحد، وهو كلامٌ مستأنَفٌ لبيان ما هي الغاية القصوى من المداولة، والنتيجةُ لِمَا ذُكر من العلل الثلاث الأُوَل، و«أم» منقطعةٌ مقدَّرة بـ «بل» وهمزة الاستفهام الإنكاري، وكونُها متَّصلة وعديلُها مقدَّرٌ، تكلُّفٌ، والإضرابِ[٢] عن التسلية ببيان العلل فيما لقوا من الشدة إلى تحقيق أنها من مبادي الفوز بالمطلب الأسنى والمقام الأعلى. والمعنى: بل لا ينبغي منكم أن تظنُّوا أنكم تدخلون الجنة، وتفوزون بنعيمها وما أعَدَّ الله تعالى لعباده فيها ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ حالٌ من ضمير «تدخلوا» مؤكِّدةٌ للإنكار، فإنَّ رجاء الأجر من غير عملٍ ممن يَعلم أنه منوطٌ به مُسْتَبْعَدٌ عند العقول، ولهذا قيل:

تَرْجُو النجاةَ ولم تَسْلُكْ مَسَالِكَها ... إنَّ السفينةَ لا تَجْري على اليَبَسِ[٣]

وورد عن شهر بن حوشب: طَلَبُ الجنة من غير عمل ذنبٌ من الذنوب، وانتظارُ الشفاعة بلا سببٍ نوعٌ من الغرور، وارتجاءُ الرحمة ممن لا يُطاع حمقٌ وجهالة.

---

(١) المحاق: آخر الشهر، أو ثلاث ليال من آخره، أو أن يستسرَّ القمرُ فلا يُرى غُدوةً ولا عشيةً، سُمِّي بذلك لأنه طلع مع الشمس فمحقته. القاموس المحيط (محق).

(٢) قولهُ: والإضراب، معطوف على قوله: لبيان ما هي...

(٣) البيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص ١٩٤، وهو في الشعر المنسوب للإمام علي رضي الله عنه ص٥٧.

ونفيُ العلم باعتبار تعلُّقه التنجيزيِّ كما مرَّ في الإثبات على رأي.

ويجوز أن يكون الكلام كنايةً عن نفي تحقُّق ذلك؛ لأنَّ نفي العلم من لوازم نفي التحقُّق؛ إذ التحقُّق ملزومُ علم الله تعالى، ونفيُ اللازم لازمُ نفي الملزوم، وكثيراً ما يقال: ما علم الله تعالى في فلانٍ خيراً، ويراد: ما فيه خيرٌ حتى يعلمه.

وهل يجري ذلك في نفي عِلْمِنا أم لا؟ فيه تردُّد، والذي قطع به صاحب «الانتصاف» الثاني(١).

وإيثارُ الكناية على التصريح للمبالغة في تحقيق المعنى المراد، وهو عدمُ تحقُّق الجهاد الذي هو سببٌ للفوز الأعظم منهم، لِمَا أنَّ الكلام عليها كدَعْوَى الشيء ببيِّنة، وفي ذلك رمزٌ أيضاً إلى ترك الرياء، وأنَّ المقصود علم الله تعالى لا الناس، وإنما وُجِّه النفيُ إلى الموصوفين مع أنَّ المنفيَّ هو الوصف الذي هو الجهاد؛ للمبالغة في بيان انتفاء ذلك وعدمِ تحقُّقه أصلاً، وكيف تُحَقَّقُ صفةٌ بدون موصوف؟

وفي اختيار «لمّا» على «لم» إشارةٌ إلى أنَّ الجهاد متوقَّعٌ منهم فَيما يُستقبل، بناءً على ما يُفهَم من كلام سيبويه، أنَّ «لمّا» تدلُّ على توقُّع الفعل المنفيِّ بها. وقد ذكر الزجَّاج(٢) أنه إذا قيل: قد فعل فلانٌ، فجوابه: لـمَّا يفعل، وإذا قيل: فعل، فجوابه: لم يفعل، فإذا قيل: لقد فعل، فجوابه: ما فعل؛ كأنه قال: والله لقد فعل. فقال المجيب: والله ما فعل، وإذا قيل: هو يفعل، يريد ما يستقبل، فجوابه: لا يفعل، وإذا قيل: سيفعل، فجوابه: لن يفعل.

فقول أبي حيان: إنَّ القول بأنَّ «لـمَّا» تدلُّ على توقُّع الفعل المنفيِّ بها فيما يستقبل، لا أعلم أحداً من النحويين ذكره(٣) = غير معتدٍّ به، نعم هذا التوقُّع هنا غيرُ معتَبر في تأكيد الإنكار.

وقرئ: «يعلمَ» بفتح الميم(٤)، على أنَّ أصلَه: يعلَمَنْ، بنونٍ خفيفة، فحذفت

---

(١) الانتصاف ١/ ٤٦٦-٤٦٧.

(٢) في معاني القرآن له ١/ ٤٧٢-٤٧٣، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٣/ ٦٧.

(٣) البحر المحيط ٣/ ٦٦.

(٤) هي قراءة يحيى بن وثاب وإبراهيم النخعي. المحرر الوجيز ١/ ٥١٥.

في الدَّرْج، وقد أجازوا حَذْفَهَا إما بشرطِ ملاقاةِ ساكنٍ بعدها أو مطلقاً، ومن ذلك قولُهُ:

إذا قلتُ قَدْني قال بالله حَلْفَةً لَتُغنيَ عنّي ذا إنائِكَ أجمعا[1]

على رواية فتح اللام.

وقيل: إنَّ فتح الميم لإتباع اللام، ليبقى تفخيم اسم الله عزَّ اسمه.

و«منكم» حالٌ من «الذين» و«مِن» فيه للتبعيض، فيُؤذِنُ بأنَّ الجهاد فرضُ كفاية.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ نصب بإضمار «أنْ»، وقيل: بـ «واو» الصرف[2]، والكلام على طرز: لا تأكلِ السمكَ وتشربَ اللبن، أي: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة والحالُ أنه لم يتحقَّق منكم الجهاد والصبر، أي: الجمع بينهما، وإيثارُ «الصابرين» على الذين صبروا؛ للإيذان بأنَّ المعتَبر هو الاستمرارُ على الصبر، وللمحافظة على رؤوس الآي.

وقيل: الفعل مجزومٌ بالعطف على المجزوم قبله، وحُرِّك لالتقاء الساكنين بالفتحة؛ للخِفَّة والإتْباع، ويؤيد ذلك قراءة الحسن: «ويعلمِ الصابرين» بكسر الميم[3].

وقرىء: «ويعلمُ» بالرفع[4] على أنَّ الواو للاستئناف أو للحالُ بتقدير: وهو يعلم، وصاحبُ الحال الموصولُ؛ كأنه قيل: ولمَّا تجاهدوا وأنتم صابرون.

---

(١) البيت لحريث بن عنَّاب الطائي، وهو في مجالس ثعلب ص ٥٣٨، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٥٥٩، وشرح المفصل لابن يعيش ٣/ ٨، والخزانة ١١/ ٤٣٤. وقوله: لَتُغنيَ، روي أيضاً بكسر اللام، وفيه رواية أخرى وهي: لَتُغْنِنَّ، ولا شاهد فيه على هاتين الروايتين. ومعنى البيت: أن الضيف يقول للمضيف: قدني، أي: حسبي ما أكلت أو شربت، فيقول له المضيف: لَتغنينَّ عني جميع ما في الإناء ولا ترده، يصف رجلاً مضيافاً. والعرب تقول: أغن وجهك عني، أي: اجعله بحيث يكون غنيًّا عني لا يحتاج إلى رؤيتي. قاله ابن يعيش.

(٢) يعني أنه كان من حقِّ هذا الفعل أن يعرب بإعراب ما قبله، فلما جاءت الواو صرفته إلى وجهٍ آخر من الإعراب، وهذا مذهب الكوفيين، والنصب بأنْ المضمرة هو مذهب البصريين. الدر المصون ٣/ ٤١١.

(٣) القراءات الشاذة ص ٢٢.

(٤) المصدر السابق.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ خطابٌ لطائفةٍ من المؤمنين لم يشهدوا غزوة بدر، لعدم ظنِّهم الحربَ حين خرج رسول الله ﷺ إليها، فلما وقع ما وقع ندموا، فكانوا يقولون: ليتنا نُقتل كما قُتل أصحاب بدر، ونُسْتَشْهَدُ كما استُشْهِدوا. فلمَّا أَشهدهم الله تعالى أُحداً لم يلبث إلا مَن شاء الله تعالى منهم[1].

فالمراد بالموت هنا: الموتُ في سبيل الله تعالى، وهي الشهادة، ولا بأس بتمنِّيها، ولا يَرِدُ أنَّ في تمنِّي ذلك تمنِّي غلبةِ الكفار؛ لأنَّ قَصْدَ المتمنِّي الوصولُ إلى نيل كرامة الشهداء لا غير، ولا يذهب إلى ذلك وهمُهُ، كما أنَّ مَنْ يشرب دواءَ النصرانيِّ مثلاً يقصد[2] الشفاءَ لا نَفْعَه ولا ترويجَ صناعته، وقد وقع هذا التمنِّي من عبد الله بن رواحة من كبار الصحابة، ولم يُنكَر عليه[3].

ويجوز أن يُراد بالموت الحربُ، فإنها من أسبابه، وبه يُشعر كلام الربيع وقتادة، فحينئذ المتمنَّى الحربُ لا الموت.

﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ متعلِّقٌ بـ «تمنَّون» مبيِّنٌ لسبب إقدامهم على التمنِّي، أي: من قبل أن تشاهدوا وتعرفوا هَوْله، وقرئ بضم اللام على حذف المضاف إليه ونيةِ معناه[4]، و«أن تلقوه» حينئذ بدلٌ من «الموت» بدلَ اشتمال، أي: كنتم تَمنَّون الموت أن تلقوه من قبلِ ذلك.

وقرئ: «تلاقوه»[5] من المفاعلة التي تكون بين اثنين، وما لَقِيَك فقد لقيتَه، ويجوز أن يكون من باب: سافَرت.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٧٧٦بنحوه عن ابن عباس، والطبري في تفسيره ٦/ ٩٣-٩٤ بنحوه عن مجاهد.

(٢) في الأصل: بقصد.

(٣) أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٧٣، وأبو نعيم في الحلية ١/ ١١٩ عن عروة بن الزبير، أنه لما تجهز الناس وتهيؤوا للخروج إلى مؤتة قال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين، فقال عبد الله بن رواحة أبياتاً أولها:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربةً ذات فَرْغٍ تقذف الزبدا

(٤) أي: «من قبلُ» وهي قراءة مجاهد. القراءات الشاذة ص ٢٢.

(٥) القراءات الشاذة ص٢٢، والمحتسب ١/ ١٦٧.

والضمير عائد إلى الموت. وقيل: إلى العدو المفهوم من الكلام، وليس بشيء.

﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أي: ما تمنَّيتُموه من الموت بمشاهدة أسبابِه، أو أسبابَه، والفاء فصيحةٌ، كأنه قيل: إن كنتم صادقين في تمنِّيكم ذلك فقد رأيتموه، وإيثار الرؤية على الملاقاة؛ إما للإشارة إلى انهزامهم، أو للمبالغة في مشاهدتهم له؛ كتقييد ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ لأنه في موضع الحال من ضمير المخاطَبين، أي: رأيتموه معاينين له. وهذا على حدِّ قولك: رأيتُهُ وليس في عيني عِلَّة، أي: رأيته رؤيةً حقيقيةً لا خفاء فيها ولا شبهة.

وقيل: «تنظرون» بمعنى: تتأمَّلون وتتفكرون، أي: وأنتم تتأملون الحال كيف هي. وقيل: معناه: وأنتم تنظرون إلى محمد ﷺ.

وعلى كل حال فالمقصود من هذا الكلام عتابُ المنهزمين على تمنِّيهم الشهادة، وهم لم يَثْبُتوا حتى يُسْتَشْهَدوا، أو على تمنِّيهم الحرب وتسبُّبِهم لها، ثم جُبْنِهم وانهزامهم، لا على تمنِّي الشهادة نفسها؛ لأنَّ ذلك مما لا عتاب عليه كما وُهِم.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ روي أنه لـمَّا التقى الفئتان يوم أحد وحميت الحرب، قال رسول الله ﷺ: «مَن يأخذُ هذا السيف بحقِّه، ويضرب به العدو حتى ينحني»؟ فأخذه أبو دجانة سِماك بن خَرَشة الأنصاري، ثم تعمَّم بعمامة حمراء وجعل يتبختر ويقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسَّفْح لدى النخيل
أن لا أقومَ الدهرَ في الكَيُّول أضربْ بسيف الله والرسول

فقال رسول الله ﷺ: «إنها لَمَشيةٌ يبغضُها اللهُ تعالى ورسولُه إلَّا في هذا الموضع» فجَعَل لا يَلْقَى أحداً إلا قتله[1].

وقاتل عليٌّ كرم الله تعالى وجهه قتالاً شديداً حتى التوى سيفُه، وأنزل الله تعالى

---

(١) الخبر ذكره ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٢/٦٦-٦٩، وأصله في مسند أحمد (١٢٢٣٥) وصحيح مسلم (٢٤٧٠) من حديث أنس ﷺ. قوله: الكيُّول بالتشديد والتخفيف: آخر الصفوف في الحرب. الإملاء المختصر ٢/١٠٥ وقال ابن هشام: ويروى: في الكُبول: وهي القيود.

النصر على المسلمين، وأدبر المشركون، فلمَّا نظر الرماةُ إلى القوم قد انكشفوا والمسلمون ينتهبون الغنيمة، خالفوا أَمْرَ رسول الله ﷺ إلا قليلاً منهم، فانطلقوا إلى العسكر، فلمَّا رأى خالد بن الوليد قِلَّة الرماة واشتغالَ الناس بالغنيمة، ورأى ظهورَهم خالية، صاح في خيله من المشركين، وحمل على أصحاب رسول الله ﷺ من خلفهم في مئتين وخمسين فارساً، ففرَّقوهم وقتلوا نحواً من ثلاثين رجلاً، ورمى عبد الله بن قَميئة الحارثيُّ رسولَ الله ﷺ بحجر فكسر ربَاعيته وشجَّ وجهه الكريم، وأقبل يريد قتله فذبَّ عنه مصعب بن عمير صاحب الراية رضي الله عنه حتى قتله ابن قميئة ـ وقيل: إنَّ الرامي عتبة بن أبي وقاص ـ فرجع وهو يرى أنه قتل رسول الله ﷺ فقال: إني قتلت محمداً، وصرخ صارخٌ ـ لا يُدرَى مَن هو حتى قيل: إنه إبليس ـ: ألا إنَّ محمداً قد قتل. فانكفأ الناسُ وجعل رسول الله ﷺ يدعو: «إليَّ عباد الله» فاجتمع إليه ثلاثون رجلاً فَحَمَوْهُ حتى كَشَفوا عنه المشركين.

ورمى سعد بن أبي وقاص حتى اندقَّت سِيَةُ قوسه، ونَثَل له رسول الله ﷺ كنانته وكان يقول له: «ارمِ فداك أبي وأمي»[١].

وأصيبت يد طلحة بن عبيد الله فيبست، وعينُ قتادة[٢] حتى وقعت على وَجْنَته، فأعادها رسول الله ﷺ، فعادت كأَحْسَنِ ما كانت.

فلما انصرف رسول الله ﷺ أَدْرَكَهُ أُبيُّ بن خلف الجُمَحيُّ وهو يقول: لا نجوتُ إن نجوتَ. فقال القوم: يا رسول الله، ألا يَعْطفُ عليه رجلٌ منَّا؟ فقال: «دعوه» حتى إذا دنا منه تناول رسولُ الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصِّمَّة، ثم استقبله فطعنه في عنقه، وخدشه خدشةً فتدأدأ[٣] من فرسه وهو يخور كما يخور الثور، وهو

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٥٥)، ومسلم (٢٤١٢) من حديث سعد رضي الله عنه. قوله: نثل...، قال صاحب القاموس: نثل الكنانة: استخرج نبلها فنثرها. وسية القوس: ما عطف من طرفيه. القاموس (سيا).

(٢) هو قتادة بن النعمان بن زيد أخو أبي سعيد الخدري لأمه، وجاء في بعض الروايات أن الغزوة التي أصيبت بها عينه هي غزوة بدر. ينظر الإصابة ٨/ ١٣٨.

(٣) في الأصل: فتدهدأ، وفي (م): فتدهدى، والمثبت من السيرة ٢/ ٨٤، والدلائل للبيهقي ٣/ ٢٣٨، ومعناها كما قال ابن هشام: تقلب عن فرسه فجعل يتدحرج. وقال صاحب النهاية (دأدأ): ويجوز أن يكون دهده، فقلبت الهمزة هاء.

يقول: قتلني محمد. وكان أُبيٌّ قبل ذلك يلقى رسول الله ﷺ فيقول: عندي رَمَكة[١] أعلفها كلَّ يوم فَرْقَ ذُرة أقتلك عليها. ورسول الله ﷺ يقول له: «بل أنا أقتلك إن شاء الله تعالى» فاحتمله أصحابه وقالوا: ليس عليك بأس. قال: بلى، لو كانت هذه الطعنة بربيعة ومُضَر لقتلتهم، أليس قال لي: أقتلك؟ فلو بَزَقَ عليَّ بعد تلك المقالة قتلني. فلم يلبث إلا يوماً حتى مات بموضعٍ يقال له سَرِف[٢].

ولما فشا في الناس أنَّ رسول الله ﷺ قد قتل، قال بعض المسلمين: ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبيٍّ فيأخذ أماناً من أبي سفيان، وبعضهم جلسوا وأَلْقَوا بأيديهم. وقال أناس من أهل النفاق: إن كان محمدٌ قد قُتل فالْحَقُوا بدينكم الأول، فقال أنس بن النضر عمُّ أنس بن مالك: إن كان محمدٌ قد قُتل فإنَّ ربَّ محمدٍ لم يقتل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟! فقاتِلوا على ما قاتَلَ عليه، وموتوا على ما مات عليه، ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ وأبرأ إليك مما[٣] قال هؤلاء ـ يعني المنافقين ـ ثم شدَّ بسيفه فقاتل حتى قتل رضي الله عنه[٤].

وروي أنَّ أولَ من عَرف رسولَ الله ﷺ كعبُ بن مالك قال: عرفتُ عينيه تحت المِغْفَر تَزْهَرَان[٥]، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله ﷺ. فأشار إليَّ: أن اسكت، فانحازت إليه طائفةٌ من أصحابه رضي الله عنهم، فلامهم النبيُّ ﷺ على الفرار، فقالوا: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأبنائنا، أتانا الخبرُ بأنك قتلتَ، فرعبت قلوبنا، فولَّينا مُدبرين. فأنزل الله تعالى هذه الآية[٦].

---

(١) أي: فرس. القاموس (رمك).

(٢) موضع على ستة أميال من مكة. معجم البلدان ٣/ ٢١٢.

(٣) في (م): عما.

(٤) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٢٨٠٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين...

(٥) أي: تضيئان، ومن رواه: تَزِرَّان، فمعناه: تتوقدان. الإملاء المختصر ٢/ ١١٢.

(٦) ينظَر ما سلف من أخبار عن غزوة أحد في سيرة ابن هشام ٢/ ٦٦، وتاريخ الطبري ٢/ ٥١٠، ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٢٠٦، والبداية والنهاية ٥/ ٣٩٩.

و«محمد» عَلَمٌ لنبيِّنا ﷺ، منقولٌ من اسم المفعول، من «حَمَّدَ» المضاعف لغة، سمَّاه به جدُّه عبد المطلب لسابع ولادته لموت أبيه قبلها، ولما سئل عن ذلك قال لرؤية رآها: رجوتُ أن يُحمد في السماء والأرض[(١)].

ومعناه قبل النقل: مَنْ يُحمد كثيراً، وضدُّه المذمَّم، وفي الخبر أنه ﷺ قال: «أَلَمْ تَرَوْا كيف صرف الله تعالى عني لَعْنَ قريش وشَتْمَهُم، يشتمون مُذمَّماً وأنا محمد»[(٢)].

وقد جمع هذا الاسم الكريم من الأسرار ما لا يحصى، حتى قيل: إنه يشير إلى عِدةِّ الأنبياء؛ كإشارته إلى المرسلين منهم عليهم الصلاة والسلام، وعبَّر عنه ﷺ بهذا الاسم هنا؛ لأنه أول أسمائه وأشهرُها، وبه صرخ الصارخ، وهو مرفوعٌ على الابتداء، وخبرُه ما بعد «إلا»، ولا عمل لـ «ما» بالاتفاق لانتقاض نفيه بـ «إلا».

واختلفوا في القَصْرِ، هل هو قصرُ قَلْبٍ أم قصرُ إفراد؟ فذهب العلَّامة الطيبيُّ وجماعةٌ إلى أنه قَصْرُ قلب؛ لأنه جعل المخاطبين ـ بسبب ما صدر عنهم من النكوص على أعقابهم عند الإرجاف بقتل النبيِّ ﷺ ـ كأنهم اعتقدوا أنَّ محمداً ﷺ ليس حُكْمُه حكمَ سائر الرسل المتقدِّمة، في وجوب اتِّباع دينهم بعد موتهم، بل حُكْمُه على خلاف حكمهم، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، وبيَّن أنَّ حكمَ النبيِّ ﷺ حكمُ مَنْ سبق من الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين، في أنهم ماتوا وبقي أتباعُهم متمسِّكين بدينهم ثابتين عليه[(٣)]، فتكون جملة «قد خلت» إلخ صفةً لـ «رسول» منبئةً عن كونه ﷺ في شرف الخلوِّ، فإنَّ خلوَّ مُشارِكيه في منصب الرسالة من شواهد خلوِّه لا محالة؛ كأنه قيل: قد خلتْ من قبله أمثالُه، فسَيَخْلو كما خَلَوْا، والقصر منصبٌّ على هذه الصفة، فلا يَرِدُ أنه يلزم من قصر القلب أن يكون المخاطَبون منكِرين للرسالة؛ لأنَّ ذلك ناشئٌ من الذهول عن الوصف.

وقيل: الجملة في موضع الحال من الضمير في «رسول» والانصباب هو الانصباب.

---

(١) الروض الأنف ١/ ١٨٢.
(٢) أخرجه أحمد (٧٣٣١)، والبخاري (٣٥٣٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٣) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

وذهب صاحب «المفتاح»[١] إلى أنه قصرُ إفراد إخراجاً للكلام على خلاف مقتضى الظاهر، بتنزيل استعظامهم عدمَ بقائه ﷺ منزلةَ استبعادهم إياه وإنكارهم له، حتى كأنهم اعتقدوا فيه وصفَين؛ الرسالة والبعد عن الهلاك، فَقُصِرَ على الرسالة نفياً للبعد عن الهلاك.

واعتُرض بأنه يتعيَّن على هذا جَعْلُ جملة «قد خَلَتْ» مستأنفةً لبيان أنه ﷺ ليس بعيداً عن عدم البقاء كسائر الرسل؛ إذ على اعتبار الوصف لا يكون إلا قَصْرَ قَلْبٍ؛ لانصباب القصر عليه. وكونُ الجملة مستأنفةً بعيدٌ لمخالفته القاعدة في الجمل بعد النكرات[٢]. وأجيب بأنَّ ذلك ليس بمتعيِّن؛ لجواز أن تكون صفةً أيضاً مؤكِّدةً لمعنى القصر، متأخِّرة عنه في التقدير. وقرأ ابن عباس: «رُسُلٌ» بالتنكير[٣].

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾ الهمزة للإنكار، والفاء استئنافيةٌ أو لمجرَّد التعقيب، والانقلابُ على الأعقاب في الأصل: الرجوعُ القَهقَرَى، وأُريد به الارتدادُ والرجوعُ إلى ما كانوا عليه من الكفر في المشهور، والغرضُ إنكارُ ارتدادِهم عن الدِّين بخلوِّه ﷺ بموتٍ أو قتلٍ بعد عِلْمِهم بخلوِّ الرسل قبله وبقاءِ دينهم متمسَّكاً به.

واستشكل بأنَّ القوم لم يرتدُّوا، فكيف عبَّر بالانقلاب على الأعقاب المتبادِرِ منه ذلك؟

وأجيب بأنه ليس المرادُ ارتداداً حقيقة، وإنما هو تغليظٌ عليهم فيما كان منهم من الفرار والانكشاف عن رسول الله ﷺ، وإسلامهم إياه للهلك.

وقيل: الإنكار هنا بمعنى أنه لم يكن ذلك ولا ينبغي، لا إنكارٌ لِمَا وقع.

وقيل: هو إخبارٌ عمَّا وقع لأهل الردة بعد موته ﷺ، وتعريضٌ بما وقع من الهزيمة، لشَبَهِه به.

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٢٨٩.

(٢) قال ابن هشام في مغني اللبيب ص ٥٦٠: يقول المعربون على سبيل التقريب: الجمل بعد النكرات صفات، وبعد المعارف أحوال.

(٣) المحتسب ١/١٦٨.

وحَمَلَ بعضُهم الانقلابَ هنا على نقص الإيمان لا الكفر بعده؛ احتجاجاً بما أخرجه ابن المنذر[١] عن الزهري قال: لمَّا نزلت هذه الآية: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ﴾ قالوا: يا رسول الله، قد علمنا أنَّ الإيمان يزداد، فهل ينقص؟ قال: «إي والذي بعثني بالحق، إنه لينقص» قالوا: فهل لذلك دلالةٌ في كتاب الله؟ قال: «نعم» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾ والانقلابُ نقصانٌ لا كفر.

ولا يخفى أنَّ هذا الخبر ليس من القوة إلى حيث يُحتَجُّ به، وإنِّي لا أجد عليه طلاوةَ الأحاديث الصحيحة.

وذهب بعضهم إلى أنَّ الفاء معلِّقةٌ للجملة الشرطية بالجملة التي قبلها على معنى التسبُّب، والهمزة لإنكار ذلك، أي: لا ينبغي أن تجعلوا خُلُوَّ الرسل قبله سبباً لانقلابكم على أعقابكم بعد موته أو قَتْلِه، بل اجعلوه سبباً للتمسُّك بدينه كما هو حكمُ سائرِ الأنبياء عليهم السلام، ففي انقلابكم على أعقابكم تعكيسٌ لموجب القضية المحقَّقة، التي هي كونُه رسولاً يخلو كما خلت الرسل.

وإيراد الموت بكلمة «إنْ» مع العِلْمِ البتَّة؛ لتنزيل المخاطَبين منزلة المتردِّدين فيه، لِمَا ذكر من استعظامهم إياه، قال المولى[٢]: وهكذا الحال في سائر الموارد، فإن كلمة «إنْ» في كلام الله تعالى لا تجري على ظاهرها أصلاً، ضرورةَ علمه تعالى بالوقوعِ أو اللاوقوع، بل تُحمَل على اعتبار حالِ السامع، أو أَمْرٍ آخرَ يناسب المقام.

والمراد من «الموت»: الموتُ على الفراش، وبـ «القتل»: الموتُ بواسطة نقض البنية، وقدَّم تقدير الموت مع أنَّ تقدير القتل هو الذي كاد يجرُّ الموت الأحمر؛ لِمَا أنَّ الموتَ في شرف الوقوع، فَزَجْرُ الناس عن الانقلاب عنده، وحَمْلُهم على الثبات هناك أهم، ولأنَّ الوصفَ الجامع في نفس الأمر بينه ﷺ وبين الرسل عليهم الصلاة والسلام هو الموت دون القتل، خلافاً لمن زعمه مستدلًّا

(١) كما في الدر المنثور ٢/ ٨٢.

(٢) هو أبو السعود، والكلام في تفسيره ٢/ ٩٢-٩٣ وما قبله منه.

بما ورد من أَكْلة خيبر[(١)]، وإن كان قد وقع فيهم قتل وموت. وإنما ذكر القتل مع علمه سبحانه أنه لا يُقتل؛ لتجويز المخاطَبين له، وآية ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] على تقدير نزولها قبل أُحُد يحتمل أنها لم تَصِلْ هؤلاء المنهزمين، وبتقدير وصولها احتمالُ أنْ لا تَحْضُرَهم قائمٌ في مثل ذلك المقام الهائم.

وقد غفل عمر ﷺ عن هذه الآية يومَ توفِّي رسول الله ﷺ، فقد روى أبو هريرة أنه ﷺ قام يومئذ فقال: إنَّ رجالاً من المنافقين يزعمون أنَّ رسول الله ﷺ توفِّي، وإنَّ رسول الله ﷺ والله ما مات، ولكن ذهب إلى ربِّه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات، والله ليرجعنَّ رسول الله ﷺ كما رجع موسى، فليقطعنَّ أيديَ رجالٍ وأَرْجُلَهم زعموا أنَّ رسول الله ﷺ مات.

فخرج أبو بكر فقال: على رِسْلك يا عمر، أَنْصِتْ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس مَن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومَن كان يعبد الله تعالى فإنَّ الله تعالى حيٌّ لا يموت، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ إلى آخرها. فوالله لكأنَّ الناس لم يعلموا أنَّ هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ، فأخذها الناس من أبي بكر.

وقال عمر: فوالله ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكر تلاها، فعَقِرْتُ[(٢)] حتى وقعتُ إلى الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفتُ أنَّ رسول الله ﷺ قد مات[(٣)].

---

(١) يشير إلى ما رواه البخاري (٤٤٢٨) معلقاً عن يونس الأيلي، عن الزهري، قال عروة: قالت عائشة: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوانُ وجدتُ انقطاعَ أبهري من ذلك السم». وينظر في قصة الشاة المسمومة التي أهديت له ﷺ حديث امرأة كعب بن مالك عند أحمد (٢٣٩٣٣)، وحديث أبي هريرة عند أحمد (٩٨٢٧)، والبخاري (٣١٦٩)، وينظر كذلك فتح الباري ٧/ ١٣١.

(٢) العَقَر بفتحتين: أن تُسْلِم الرجلَ قوائمُه من الخوف. وقيل: هو أن يَفْجأه الرَّوعُ فيدهشَ ولا يستطيع أن يتقدم أو يتأخر. النهاية (عقر).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة بهذا اللفظ ابن المنذر كما في الدر المنثور ٢/ ٨١، وبنحوه ابن سعد ٢/ ٢٦٨، وهو بنحوه في صحيح البخاري (٣٦٦٧) و(٣٦٦٨) و(٤٤٥٤) من حديث عائشة وابن عباس ﷺ.

والاعتذار باختصاص فَهْم آية العصمة بالعلماء من الصحابة وذوي البصيرة منهم، مع ظهور معنى اللفظ، كما اعتذر به الزمخشريُّ[(١)]، لا يخفى ما فيه.

وكونُ المراد منها العصمةَ من فتنة الناس وإضلالِهم لا يخفى بُعدُه؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لا يُظَنُّ به ذلك، وإنما يَرِدُ مثله في معرض الإلهاب والتعريض.

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ﴾ بما فَعَلَ من الانقلاب؛ لأنه تعالى لا تجوز عليه المضارُّ ﴿شَيْـًٔا﴾ من الضرر وإن قلَّ، وإنما يضرُّ نفسَه بتعريضها للسخط والعذاب، أو بحرمانها مزيدَ الثواب، ويشير إلى ذلك توجُّهُ النفي إلى المفعول، فإنه يفيد أنه يضرُّ غير الله تعالى، وليس إلا نفسه.

﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ أي: سيُثيبُ الثابتين على دين الإسلام، ووضع الشاكرين موضعَ الثابتين لأنَّ الثباتَ عن ذلك ناشئٌ عن تيقُّن حقِّيَّتِهِ، وذلك شكرٌ له، وفيه إيماءٌ إلى كفران المنقلبين.

وإلى تفسير الشاكرين بالثابتين، ذهب عليٌّ كرم الله وجهه، وقد رواه عنه ابن جرير[(٢)]، وكان يقول: الثابتون هم أبو بكر وأصحابه، وأبو بكر رضي الله عنه أمير الشاكرين.

وعن ابن عباس أنَّ المراد بهم: الطائعون من المهاجرين والأنصار.

وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار؛ للإعلان بمزيد الاعتناء بشأن جزائهم، واتصال هذا بما قبله اتصال الوعد بالوعيد.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ سِيق للحضِّ على الجهاد، واللَّومِ على تَرْكِه خشيةَ القتل، مع قَطْعِ عذر المنهزمين خشيةَ ذلك بالكلية. ويجوز أن يكون تسليةً عمَّا لحق الناس بموت النبيِّ ﷺ، وإشارةً إلى أنه عليه الصلاة والسلام كغيره لا يموت إلا بإذن الله تعالى، فلا عُذْرَ لأحدٍ بتركِ دينه بعد موته.

والمراد بالنفس: الجنسُ، وتخصيصُها بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام كما روي

---

(١) في الكشاف ١/ ٤٦٨.

(٢) في تفسيره ٦/ ٩٧-٩٨.

عن ابن إسحاق[١]، ليس بشيء. والموت هنا أعمُّ من الموت حَتْفَ الأنف والموتِ بالقتل كما سنحقِّقه.

و«كان» ناقصةٌ، اسمُها «أن تموت» و«لنفسٍ» متعلِّقٌ بمحذوف وقع خبراً لها، والاستثناء مفرَّغٌ من أعمِّ الأسباب.

وذهب أبو البقاء إلى أنَّ «بإذن الله» خبرُ «كان» و«لنفس» متعلِّقٌ بها، واللام للتبيين، ونَقَلَ عن بعضهم أنَّ الجارَّ متعلِّقٌ بمحذوف تقديره: «الموتُ لنفس» و«أن تموت» تبيينٌ للمحذوف، وحَكَى عن الزجَّاج - وبعضٌ عن الأخفش - أنَّ التقدير: وما كان نفسٌ لتموت، ثم قُدِّمت اللام[٢]. وكلٌّ هذه الأقوال أوهنُ من الوهن، لا سيَّما الأخير.

والمعنى: ما كان الموتُ حاصلاً لنفسٍ من النفوس مطلقاً، بسببٍ من الأسباب، إلا بمشيئة الله تعالى وتيسيره، والإذنُ مجازٌ عن ذلك لكونه من لوازمه. وظاهرُ التركيب يدلُّ على أنَّ الموت من الأفعال التي يُقدَمُ عليها اختياراً، فقد شاع استعمال: ما كان لزيد أن يفعل كذا، فيما إذا كان الفعل اختياريًّا، لكنَّ الظاهر هنا متروكٌ بأنْ يُجعل ذلك من باب التمثيل، بأنْ صُوِّر الموتُ بالنسبة إلى النفوس بصورة الفعل الاختياريِّ الذي لا يُقدَمُ عليه إلا بالإذن، والمراد عدمُ القدرة عليه، أو بتنزيل إقدام النفوس على مَباديه - كالقتال مثلاً - منزلةَ الإقدام عليه نفسِه؛ للمبالغة في تحقيق المرام، فإنَّ موتَها لمَّا استحال وقوعُهُ عند إقدامها عليه أو على مباديه، وسَعْيِها في إيقاعه، فَلأَنْ يستحيل عند عدم ذلك أولى وأظهر، ويجوز على هذا أن يبقى الإذن على حقيقته، ومفعولُهُ مقدَّرٌ للعلم به، والمراد بإذنه تعالى: إذنُهُ لمَلَكِ الموت، فإنه الذي يقبض روح كلّ ذي روح؛ بشراً كان أوْ لا، شهيداً كان أو غيرَ شهيد، بَرًّا أو بحراً، حتى قيل: إنه يقبض روح نفسه، واستثنى بعضُهم أرواحَ شهداء البحر، فإنَّ الله تعالى هو الذي يقبضها بلا واسطة، واستدلَّ بحديث جويبر، وهو ضعيف جدًّا، وفيه من طريق الضحاك انقطاعٌ[٣].

(١) كما في سيرة ابن هشام ٢/ ١١١.

(٢) الإملاء ٢/ ١٢٧-١٢٨، وقول الأخفش ذكره البغوي ١/ ٣٥٩.

(٣) وأخرجه ابن ماجه (٢٧٧٨) من حديث أبي أمامة ﷺ، وإسناده ضعيف كما ذكر البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ١١٢.

وذهب المعتزلة إلى أنَّ ملك الموت إنما يقبض أرواح الثَّقَلَيْن دون غيرهم. وقال بعض المبتدعة: إنه يقبض الجميع سوى أرواح البهائم، فإنَّ أعوانه هم الذين يقبضونها.

ولا تَعارُضَ بين: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] و﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] و﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] لأنَّ إسناد ذلك له تعالى بطريق الخَلْقِ والإيجاد الحقيقي، وإلى الملك لأنه المباشِرُ له، وإلى الرسل لأنهم أعوانُهُ المعالِجون للنَّزع من العَصَب والعَظْمِ واللحم والعروق.

﴿كِتَٰبًا﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لعامله المستفادِ من الجملة السابقة، والمعنى: كُتب ذلك الموتُ المأذونُ فيه كتاباً ﴿مُّؤَجَّلًا﴾ أي: موقَّتاً بوقتٍ معلوم لا يتقدم ولا يتأخَّر. وقيل: حُكْماً لازماً مبرماً. وهو صفةُ «كتاباً»، ولا يضرُّ التوصيف بكون المصدر مؤكِّداً، بناءً على أنه معلومٌ مما سبق، وليس كلُّ وصف يُخرج عن التأكيد.

ولكَ ـ لِمَا في ذلك من الخفاء ـ أن تجعل المصدر ـ لوصفه ـ مبيِّناً للنوع، وهو أولى من جَعْلِه مؤكِّداً، وجَعْلِ «مُوجَّلاً» حالاً من الموت لا صفةً له، لبُعد ذلك غايةَ البعد، فتدبَّر.

وقرئ: «مُوَجَّلاً» بالواو بدلَ الهمزة[١] على قياس التخفيف.

وظاهر الآية يؤيِّدُ مذهبَ أهل السنة والجماعة[٢] القائلين: إنَّ المقتول ميِّتٌ بأَجَله، أي: بوقته المقدَّر له، وأنه لو لم يُقتل لجاز أن يموت في ذلك الوقت وأن لا يموت، من غير قَطْعٍ بامتداد العمر ولا بالموت بدل القتل، إذ على تقدير عدم القتلِ لا قَطْعَ بوجود الأَجل وعدمه، فلا قَطْعَ بالموت ولا بالحياة.

وخالفَ في ذلك المعتزلة، فذهب الكعبيُّ[٣] منهم إلى أنَّ المقتول ليس بميِّت؛ لأنَّ القتل فعلُ العبد، والموتَ فعلُ الله سبحانه، أي: مفعوله وأثر صُنْعِه[٤]، وأنَّ

---

(١) هي قراءة ورش وأبي جعفر، وقرأ بها حمزة وقفاً. التيسير ص ٣٤ و٤٠، والنشر ١/ ٣٩٥.

(٢) قوله: والجماعة، ليس في (م).

(٣) هو عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي من متكلمي المعتزلة، صنف في الكلام كتباً كثيرة، توفي سنة (٣١٩هـ). تاريخ بغداد ٩/ ٣٨٤.

(٤) في الأصل و(م): صفته، والمثبت من شرح المقاصد ٤/ ٣١٥، والكلام منه.

للمقتول أجلين: أحدهما القتل، والآخر الموت، وأنه لو لم يُقتَل لعاش إلى أجله الذي هو الموت.

وذهب أبو الهذيل[١] إلى أنَّ المقتول لو لم يقتل لمات البتَّة في ذلك الوقت.

وذهب الجمهور منهم إلى أنَّ القاتل قد قَطَعَ على المقتول أجله، وأنه لو لم يُقتل لعاش إلى أمدٍ هو أجلُه الذي عَلِمَ الله تعالى موتَه فيه لولا القتل.

وليس النزاع بين الأصحاب والجمهور لفظيًّا كما رآه الأستاذ وكثيرٌ من المحقِّقين حيث قالوا: إنه إذا كان الأجل زمانَ بطلان الحياة في علم الله تعالى، لكان المقتول ميتاً بأجله بلا خلافٍ من المعتزلة في ذلك؛ إذ هم لا ينكرون كونَ المقتول ميتاً بالأجَلِ الذي عَلِمَه الله تعالى، وهو الأجل بسبب القتل، وإنْ قيِّد بطلان الحياة بأنْ لا يترتَّب على فعلٍ من العبد، لم يكن كذلك بلا خلاف من الأصحاب فيه؛ إذ هم يقولون بعدم كون المقتول ميتاً بالأجل غير المرتَّب على فعل العبد = لأنَّا نقول: حاصل النزاع أنَّ المراد بأجل المقتول المضاف إليه زمان بطلان حياته بحيث لا محيصَ عنه ولا تقدُّمَ ولا تأخُّرَ، على ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] ويرجع الخلاف إلى أنه: هل يتحقق[٢] ذلك في حقِّ المقتول، أم المعلومُ في حقِّه أنه إن قُتل مات وإن لم يقتل يَعِشْ؟ كذا في «شرح المقاصد»[٣].

ولعله جوابٌ باختيار الشق الأول؛ وهو أنَّ المراد زمانُ بطلان الحياة في علم الله تعالى، لكنه لا مطلقاً، بل على ما عَلِمَهُ تعالى وقدَّره بطريق القَطْع، وحينئذ يصلح محلًّا للخلاف؛ لأنه لا يلزم من عدم تحقُّق ذلك في المقتول ـ كما يقوله المعتزلة ـ تخلُّف العلم عن المعلوم، لجواز أن يعلم تقدُّم موته بالقتل مع تأخُّر الأجل الذي لا يمكن تخلُّفه عنه.

---

(١) محمد بن الهذيل البصري العلاف، رأس المعتزلة، صاحب التصانيف، من ضلالاته إنكار الصفات المقدسة لله تعالى حتى العلم والقدرة، مات سنة (٢٢٧هـ). سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٤٣.

(٢) في (م): تحقق. والمثبت من الأصل والمصدر.

(٣) ٤/ ٣١٥-٣١٧.

وقد يقال: إنه يمكن أن يكون جواباً باختيار شقٍّ ثالث، وهو المقدَّر بطريق القطع؛ إذ لا تَعرُّضَ في تقرير الجواب للعلم، والمقدَّر أَخصُّ من الأجل المعلوم مطلقاً، والفرق بينه وبين كونه جواباً باختيار الأول ـ لكن لا مطلقاً ـ اعتبارُ قيد العلم في الأجل الذي هو محلُّ النزاع على تقدير اختيار الأول، وعَدَمُ اعتباره[1] فيه على اختيار الثالث، وإن كان معلوماً في الواقع أيضاً، فافهم.

ثم إنَّ أبا الحسين ومَن تابعه يدَّعون الضرورة في هذه المسألة، وكذا الجمهور في رأي البعض، وعند البعض الآخر هي عندهم استدلاليةٌ.

واحتجُّوا على مذهبهم بالأحاديث الواردة في أنَّ بعض الطاعات تزيد في العمر[2]، وبأنه لو كان المقتول ميتاً بأجله لم يستحقَّ القاتلُ ذماً ولا عقاباً، ولم يتوجَّه عليه قصاصٌ ولا غُرْمُ دية، ولا قيمة في ذبح شاة الغير؛ لأنه لم يقطع أجلاً، ولم يُحدِثْ بفعله موتاً، وبأنه ربما يُقتل في الملحمة والحرب ألوفٌ تقضي العادة بامتناع[3] اتفاق موتهم في ذلك الوقت بآجالهم.

وتمسَّك أبو الهذيل بأنه لو لم يمت المقتول لكان القاتل قاطعاً لأجلٍ قَدَّره الله تعالى ومغيِّراً لأمرٍ عَلِمَهُ وهو محال، والكعبيُّ بقوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ حيث جعل القتل قسيماً للموت بناءً على أنَّ المراد بالقتل المقتولية، وأنها نفسُ بطلان الحياة، وأنَّ الموت خاصٌّ بما لا يكون على وجه القتل، ومتى كان الموت غير القتل كان للمقتول أجلان: أحدهما القتل، والآخر الموت.

وأجيب عن متمسَّك الأوَّلَيْنِ الأوَّلِ: بأنَّ تلك الأحاديثَ أخبارُ آحادٍ فلا تُعارِضُ الآيات القطعيةَ؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

---

(١) في الأصل: اختياره.

(٢) منها حديث أنس ﷺ الذي أخرجه أحمد (١٣٥٨٣)، والبخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧) أن النبي ﷺ قال: «من أحبَّ أن يوسَّع الله عليه في رزقه، ويَنسأ له في أثره، فليَصِلْ رحمه»، ومنها حديث سلمان عند الترمذي (٢١٣٩) ولفظه: «لا يردُّ القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»، ومثله من حديث ثوبان عند ابن ماجه (٩٠).

(٣) في الأصل: امتناع.

أو بأنَّ المراد من أنَّ الطاعة تزيد في العمر أنها تزيد فيما هو المقصود الأهمُّ منه، وهو اكتساب الكمالات والخيرات والبركات التي بها تستكمل النفوس الإنسانية، وتفوز بالسعادة الأبدية.

أو بأنَّ العمر غيرُ الأجل؛ لأنه لغةُ الوقت، وأجلُ الشيء يقال لجميع مُدَّته ولآخرها، كما يقال: أَجلُ الدَّين شهران، أو آخرُ شهر كذا، ثم شاع استعماله في آخر مدَّة الحياة، ومن هنا يُفسَّر بالوقت الذي عَلِمَ الله تعالى بطلانَ حياة الحيوان عنده على ما قرَّرناه.

والعمر لغة: مدة الحياة؛ ك : عمرُ زيدٍ كذا، ومدَّة البقاء؛ كعمر الدنيا، وكثيراً ما يُتجوَّز به عن مدَّة بقاءِ ذِكْرِ الناسِ الشخصَ بالخير[1] بعد موته، ومنه قولهم: ذِكْرُ الفتى عمرُه الثاني؛ ومن هنا يقال لمن مات وأعقب ذِكْراً حسناً وأثراً جميلاً: ما مات، فلعلَّه أراد ﷺ أنَّ تلك الطاعات تزيد في هذا العمر، لمَا أنها تكون سبباً للذكر الجميل، وأكثر ما ورد ذلك في الصدقة وصلة الرحم، وكونُهُما مما يترتَّب عليهما ثناءُ الناس مما لا شبهة فيه، قيل: ولهذا لم يقل ﷺ في ذلك: إنه يزيد في الأجل.

أو بأنَّ الله تعالى كان يعلم أنَّ هذا المطيع لو لم يفعل هذه الطاعة لكان عمره أربعين مثلاً، لكنه علم أنه يفعلها ويكون عمره سبعين سنة، فنِسْبةُ هذه الزيادة إلى تلك الطاعة[2] بناءً على علم الله تعالى أنه لولاها لَمَا كانت هذه الزيادة، ومُحصِّل هذا أنه سبحانه قدَّر عمره سبعين، بحيث لا يُتصوَّر التقدُّمُ والتأخُّرُ عنه، لعِلْمِه بأنَّ طاعته تصير سبباً لثلاثين، فتصير مع أربعين من غير الطاعة سبعين، وليس محصِّلُ ذلك أنه تعالى قدَّره سبعين على تقدير، وأربعين على تقدير، حتى يلزم تعدُّد الأجل، والأصحاب لا يقولون به.

والثاني: بأنَّ استحقاق الذم والعقاب، وتوجُّهَ القصاص أو غُرْمِ الدية مثلاً على القاتل، ليس بما يثبت في المحل من الموت، بل هو بما اكتسبه وارتكبه من الإقدام

---

(١) في (م): للخير.
(٢) في الأصل: الطاعات.

على الفعل المنهيِّ عنه الذي يخلق الله تعالى به الموت، كما في سائر الأسباب والمسبَّبات، لا سيَّما عند ظهور أمارات البقاء وعُدْمِ ما يُظنُّ معه حضورُ الأجل، حتى لو علم موتَ شاة بإخبارِ صادقٍ معصوم، أو ظهرت الأمارات المفيدةُ لليقين، لم يُضمن عند بعض الفقهاء.

والثالث: بأنَّ العادة منقوضةٌ أيضاً بحصول موت ألوفٍ في وقتٍ واحد من غير قتال ولا محاربة، كما في أيام الوباء مثلاً، على أنَّ التمسُّك بمثل هذا الدليل في مثل هذا المطلب في غاية السقوط.

وأُجيب عن متمسَّك أبي الهذيل بأنَّ عدم القتل إنما يُتصوَّر على تقدير علم الله تعالى بأنه لا يُقتل، وحينئذ لا نُسلِّم لزومَ المحال، وبأنه لا استحالة في قَطْع الأجل المقدَّر الثابت لولا القتل؛ لأنه تقريرٌ للمعلوم لا تغييرٌ له.

وعن متمسَّك الكعبيِّ المخالف للمعتزلة والأشاعرة في إثبات الأجلين، بأنَّ القتل قائمٌ بالقاتل وحالٌ له لا للمقتول، وإنما حالَةُ الموتُ وانزهاقُ الروح الذي هو بإيجاد الله تعالى وإذنه ومشيئته، وإرادةُ المقتوليةِ المتولِّدة عن قتل القاتل بالقتل، وهي حال المقتول[1] إذ هي بطلان الحياة، والتخصيصُ بما لا يكون على وجه القتل على ما يُشعر به ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِـلَ﴾ خلافُ مذهبه من إنكار القضاء والقدر في أفعال العباد؛ إذ بطلانُ الحياة المتولِّدُ من قتل القاتل أَجَلٌ قَدَّره الله تعالى وعيَّنه وحدَّده، ومعنى الآية كما أشرنا إليه: أفئن مات حَتْفَ أنفه بلا سبب، أو مات بسبب القتل. فتدلُّ على أنَّ مجرد بطلان الحياة موتٌ، ومن هنا قيل: إنَّ في المقتول معنيين: قتلاً هو مِن فِعْلِ الفاعل، وموتاً هو من الله تعالى وحده.

وذهبت الفلاسفة إلى مثل ما ذهب إليه الكعبيُّ من تعدُّد الأجل فقالوا: إنَّ للحيوان أجلاً طبيعيًّا بتحلُّل رطوبته، وانطفاء حرارته الغريزيتين، وآجالاً اخترامية تتعدَّدُ بتعدُّدِ أسبابٍ لا تُحصى من الأمراضِ والآفات، وبيانه أنَّ الجواهر التي غلبت عليها الأجزاء الرطبة رُكِّبت مع الحرارة الغريزية، فصارت لها بمنزلة الدُّهن للفتيلة المشعلة، وكلما انتقصت تلك الرطوبات، تبعتها الحرارة الغريزية في ذلك،

---

(١) في الأصل: للمقتول.

حتى إذا انتهت في الانتقاص وتزايُد الجفاف، انطفأت الحرارة كانطفاء السراج عند نفاد دُهنه، فحصل الموت الطبيعيُّ، وهو مختلِفٌ بحسب اختلاف الأمزجة، وهو في الإنسان في الأغلب تمامُ مئة وعشرين سنة وقد يَعْرِضُ من الآفات، مثلُ البرد المجمِّد، والحرِّ[1] المذوِّب، وأنواع السموم، وأنواعِ تفرُّق الاتِّصال وسوء المزاج، ما يفسد البدن ويخرجُه عن صلاحه لقبول الحياة ـ إذ شرطُها اعتدالُ المزاج ـ فيهلك بسببه، وهذا هو الأجل الاخترامي.

ويردُّ ذلك أنه مبنيٌّ على قواعدهم من تأثير الطبيعة والمزاج، وهو باطلٌ عندنا؛ إذ لا تأثير إلَّا له سبحانه، وتلك الأمور عندنا أسبابٌ عادية لا عقلية كما زعموا.

وادَّعى بعضُ المحققين أنَّ النزاع بيننا وبين الفلاسفة كالنزاع بيننا وبين المعتزلة ـ على رأي الأستاذ ـ لفظيٌّ، إذ هم لا ينكرون القضاء والقدر، فالوقت الذي علم الله تعالى بطلان الحياة فيه بأيِّ سبب كان واحدٌ عندهم أيضاً، وما ذكروه من الأجل الطبيعي نحن لا ننكره أيضاً، لكنهم يجعلون اعتدال المزاج واستقامة الحرارة والرطوبة ونحو ذلك شروطاً حقيقيةً عقليةً لبقاء الحياة، ونحن نجعلها أسباباً عادية، وذلك بحثٌ آخر، وسيأتي تتمةُ الكلام على هذه المسألة؛ إذ الأمور مرهونة لأوقاتها، ولكلِّ أجلٍ كتاب.

﴿وَمَن يُرِدْ﴾ أي: بعمله كالجهاد ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ كالغنيمة ﴿نُؤْتِهِۦ﴾ بنون العظمة على طريق الالتفات ﴿مِنْهَا﴾ أي: شيئاً من ثوابها إن شئنا، فهو على حدِّ قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] وهذا تعريضٌ بمن شغلتهم الغنائم يومَ أُحدٍ عن مصلحة رسول الله ﷺ، وقد تقدَّم تفصيل ذلك.

﴿وَمَن يُرِدْ﴾ أي: بعمله كالجهاد أيضاً، والذبِّ عن رسول الله ﷺ ﴿ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ مما أعدَّ الله تعالى لعباده فيها من النعيم ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: من ثوابها ما نشاء حَسْبَما جرى به قلم الوعد الكريم. وهذا إشارةٌ إلى مَدْحِ الثابتين يومئذ مع رسول الله ﷺ.

والآية وإن نزلت في الجهاد خاصة، لكنها عامةٌ في جميع الأعمال.

---

(١) في (م): والحرب، وهو تصحيف.

﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ يحتمل أنه أُريد بهم: المريدون للآخرة، ويحتمل أنه أُريد بهم جنسُ الشاكرين، وهم داخلون فيه دخولاً أوليًا.

والجملة تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، ووعدٌ بالمزيد عليه، وفي تصديرها بالسين وإبهامِ الجزاء من التأكيد والدلالة على فخامة شأن الجزاء، وكونِه بحيث يضيقُ عنه نطاق البيان، ما لا يخفى، وبذلك جبر اتحاد العبارتين[(١)] في شأن الفريقين، واتَّضح الفرقُ لذي عينين. وقُرئت الأفعال الثلاثة بالياء[(٢)].

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ إما إشارةٌ إلى الأمر بالتوكُّل على الله تعالى في طلب الرزق والانقطاع إليه، أو رمزٌ إلى الأمر بالإحسان إلى عباد الله المحتاجين من غير طلبِ نفعٍ منهم، فقد ورد في بعض الآثار أنَّ القَرْض أفضلُ من الصدقة[(٣)]، أو إيماءٌ إلى عدم طلب الأجر على الأعمال بأن يفعلها محضاً لإظهار العبودية.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ مِن أَكْلِ الربا ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: تفوزون بالحقّ ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: اتَّقوني في النار؛ لأنَّ إحراقَها وعذابَها منِّي، وهذا سرُّ عين الجمع، قالوا: ويرجع في الحقيقة إلى تجلِّي القهر، وهو بظاهره تخويفٌ للعوامِّ، والتخويفُ الأول للخواصِّ، وقليلٌ ما هم.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهي سترُ أفعالكم التي هي حجابُكم الأعظمُ عن رؤية الحقِّ ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ وهي جنةُ توحيد الأفعال، وهو

---

(١) في (م): العبادتين.

(٢) القراءات الشاذة ص ٢٢.

(٣) أخرجه الطيالسي (١١٤١) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وفي إسناده جعفر بن الزبير، كذبه شعبة، وقال البخاري: تركوه، وقال ابن معين: ليس بثقة. الميزان ١/ ٤٠٦.
وأخرجه ابن ماجه (٢٤٣١) من حديث أنس رضي الله عنه، وفي إسناده خالد بن يزيد، ضعفه أحمد وابن معين والنسائي والدارقطني. ينظر الميزان ١/ ٦٤٥. وأخرجه البيهقي ٥/ ٣٥٤ بإسناد آخر من طريق ثابت عن أنس رفعه قال: «قرض الشيء خير من صدقته» ونقل البيهقي عن الإمام أحمد قوله: وجدته في المسند مرفوعاً فهِبْتُه، فقلت: رفعه.

توحيد عالم الملك، ولذا ذكر سبحانه السماوات والأرض، وذكر العَرْض دون الطول؛ لأنَّ الأفعال باعتبار السلسلة العَرْضية ـ وهي توقُّفُ كلٍّ فعلٍ على آخر ـ تنحصر في عالم الملك الذي تصل إليه أفهام الناس ويقدِّرونه، وأما باعتبار الطُّول فلا تنحصر فيه، ولا يُقْدَر قَدْرُها؛ إذ الفعل مظهرُ الوصف، والوصفُ مظهرُ الذات، والذاتُ لا نهاية لها ولا حدّ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] فالمحجوبون عن الذات والصفات لا يرون إلا هذه الجنة، وأما البارزون لله الواحد القهار، فَعَرْضُ جنَّتهم عينُ طولها، ولا حدَّ لطولها، فلا يُقْدَرُ قَدْرُها طولاً وعرضاً ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ حَجْبَ أفعالِهم وشِرْكَ[1] نسبة الأفعال إلى غير الحق جلَّ جلاله.

ويحتمل أنه سبحانه دعا خَلْقَه على اختلاف مراتبهم إلى فِعْلٍ ما يؤدِّي إلى المغفرة على اختلاف مراتبها، فإنَّ الذنب مختلفٌ، وذنبُ المعصوم قِلَّةُ معرفته بربِّه بالنظر إلى عَظَمَة جماله وجلاله في نفس الأمر، وفي الخبر عن سيد العارفين ﷺ: «سبحانك ما عرفناك حقَّ معرفتك»[2]. فما عَرَفه العارفون من حيث هو، وإنما عرفوه من حيث هم، وفَرْقٌ بين المعرفتين، ولهذا قيل: ما عَرَفَ الله تعالى إلا اللهُ تعالى.

ودعاهم أيضاً إلى ما يجرُّهم إلى الجنة. والخطابُ بذلك إن كان للعارفين، فهو دعاءٌ إلى عين الجمع ليتجلَّى لهم بالوسائط، لبقائهم في المعرفة، وفي الحقيقة معرفتُه قُربتُه وجنَّتُه مشاهدتُه، وفي حقيقة الحقيقة هي الذات الجامع التي لا يصل إليها الأغيار، ومن هنا قيل: ليس في الجنة إلا الله تعالى.

وإن كان الخطاب بالنظر إلى آحاد المؤمنين، فالمراد بها أنواع التجلِّيات الجمالية، أو ظاهرُها الذي أفصحَ به لسان الشريعة، ودعاؤهم إليها[3] من باب التربية وجَلْبِ النفوس البشرية التي لم تُفْطَم بَعْدُ من رَضْع ثدي اللذائذِ إلى ما يرغِّبها في كسب الكمالات الإنسانية، والترقِّي إلى ذروة المعارج الإلهية، الذين ينفقون نفائسَ نفوسهم لمولاهم في السراء والضراء، في حالتي الجمال والجلال.

---

(١) في (م): وترك، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل، وتفسير ابن عربي ١/ ١٤٦، والكلام منه.
(٢) لم نقف عليه.
(٣) في (م): إليه.

ويحتمل أن يراد الذين لا تمنعهم الأحوال المتضادَّةُ عن الإنفاق فيما يرضي الله تعالى، لصحة توكُّلهم عليه سبحانه برؤية جميع الأفعال منه.

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ الذي يَعرِضُ للإنسان بحسب الطبيعة البشرية، وكظمُهم له قد يكون بالشدِّ عليه بوِكاءِ[1] التسليم والرضا، وذلك بالنظر لمن هو في مقام جنة الصفات، وأما مَنْ دونَهم فكَظْمُهم دون هذا الكَظْم، وسببُ الكظم أنهم يرون الجناية عليهم فِعْلَ الله تعالى، وليس للخَلْقِ مَدْخَلٌ فيها.

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ إما لأنهم في مقام توحيد الأفعال، أو لأنهم في مقام توحيد الصفات ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ حَسْبَ مراتبهم في الإحسان.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ أي: كبيرةً من الكبائر، وهي رؤيةُ أفعالهم المحرَّمةِ عليهم تحريمَ رؤية الأجنبيات بشهوة ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بنَقْصِهم حقوقَها والتثبُّطِ عن تكميلها ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: تذكَّروا عظمتَهُ، وعلموا أنه لا فاعل في الحقيقة سواه ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: طلبوا سَتْرَ أفعالهم عنهم بالتَّبرِّي عن الحول والقوة إلا بالله ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ وهي رؤية الأفعال، أو النظرُ إلى سائر الأغيار ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وهو الملك العظيم الذي لا يتعاظمه شيء ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟﴾ في غفلتهم ونَقْصِ حقِّ نفوسهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة الأمر، وأنْ لا فِعْلَ لغيره.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وهو سترُه لوجودهم بوجوده، وترقِّيهم من مقام توحيد الأفعال إلى ما فوقه ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ أي: أشياءُ خفيَّةٌ، وهي جناتُ الغيب وبساتينُ المشاهَدةِ والمُداناةِ التي هي عيونُ صفات الذات ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تجري منها أنهارُ الأوصاف الأزلية ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ بلا مُكثٍ ولا قَطْع، ولا خطرِ الزمان ولا حُجُبِ المكان ولا تغيُّرٍ ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ ومنهم الواقفون بشرط الوفاء في العشق على الحضرة القديمة، بلا نقضٍ للعهود ولا سهوٍ في الشهود.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ بطشاتٌ ووقائع في الذين كذَّبوا الأنبياء في دعائهم إلى التوحيد ﴿فَسِيرُوا۟﴾ بأفكاركم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾ وتأملوا في آثارها لتَعْلَموا

---

(١) الوكاء: الخيط الذي تُشَدُّ به الصرة أو الكيس وغيرهما.

﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: آخِرُ أمرهم ونهايتُه التي استدعاها التكذيب، ويحتمل أن يكون هذا أمراً للنفوس بأن تنظر إلى آثار القوى النفسانية التي في أرض الطبيعة، لتَعْلَم ماذا عَرَاها، وكيف انتهى حالها، فلعلَّها تَرْقَى بسبب ذلك عن حضيض اللحوق بها.

﴿هَـٰذَا﴾ أي: كلام الله تعالى ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ يبين لهم حقائق أمور الكونين ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ﴾ يُتوصَّل به[1] إلى الحضرة الإلهية ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وهم أهل الله تعالى وخاصَّتُه.

واختلف الحال لاختلاف استعداد المستمعين للكلام؛ إذ منهم قومٌ يسمعونه بأسماع العقول، ومنهم قوم يسمعونه بأسماع الأسرار، وحظُّ الأولين منه الامتثال والاعتبار، وحظُّ الآخِرين مع ذلك الكشفُ وملاحظةُ الأنوار، وقد تَجلَّى الحق فيه لخواصِّ عباده ومقرَّبي أهل اصطفائه، فشاهَدوا أنواراً تَجلَّى، وصفةً قديمة وراء عالم الحروف تُتْلَى.

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أي: لا تضعفوا في الجهاد ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما فاتكم من الفتح ونالكم من قتل الإخوان ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ في الرتبة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: موحِّدين، حيثُ إنَّ الموحِّدَ يرى الكلَّ من مولاه، فأقلُّ درجاته الصبر.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ ولم يبالوا مع أنهم دونكم ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ﴾ أي: الوقائع ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ فيومٌ لطائفة وآخَرُ لأخرى ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ليَظْهَر علمُه التفصيليُّ التابعُ لوقوع المعلوم ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ وهم الذين يشهدون الحقَّ فيذهلون عن أنفسهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: الذين ظلموا أنفسَهم وأضاعوا حقَّها، ولم يكملوا نشأتها.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ليخلِّصهم من الذنوب والغواشي التي تُبعدهم من الله تعالى بالعقوبة والبلية ﴿وَيَمْحَقَ﴾ أي: يهلك ﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ بنار أنانيتهم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: تَلِجُوا عالَم القدس ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ أي: ولم يَظْهَر منكم مجاهَداتٌ تُوْرِثُ المشاهَدات،

---

(١) في الأصل: بها.

وصبرٌ على تزكية النفوس وتصفيةِ القلوب على وفق الشريعة وقانون الطريقة، ليتجلَّى للأرواح أنوار الحقيقة.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ أي: موتَ النفوس عن صفاتها ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ بالمجاهَدات والرياضات ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ برؤية أسبابه، وهي الحربُ مع أعداء الله تعالى ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي: تعلمون أنَّ ذلك الجهاد أحد أسباب موت النفس عن صفاتها.

ويحتمل أن يقال: إنَّ الموقِنَ إذا لم يكن يقينُه مَلَكَةً تَمنَّى أموراً، وادَّعى أحوالاً، حتى إذا امتُحن ظهر منه ما يخالف دعواه وينافي تمنِّيه، ومن هنا قيل:

وإذا ما خلا الجبان بأرضٍ طلب الطَّعن وحده والنزالا[1]

ومتى رسخ ذلك اليقين وتمكَّن، وصار مَلَكَةً ومقاماً ولم يَبْقَ حالاً، لم يختلف الأمر عليه عند الامتحان، والآيةُ تشير إلى توبيخ المنهزمين بأنَّ يقينَهم كان حالاً ولم يكن مقاماً.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: أنه بشرٌ كسائر إخوانه من المرسلين، فكما خَلَوا من قبله، سيخلو هو من بعدهم ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ ورجعتم القَهقَرى، والإشارةُ في ذلك إلى أنه تعالى عاتَب مَنْ تَزلزل لذهاب الواسطة العظمى عن البين، وهو منافٍ لمشاهدة الحق ومعاينته، ولهذا قال الصدِّيق الأكبر رضي الله عنه: مَن كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات، ومَن كان يعبد الله تعالى فإنَّ الله تعالى حيٌّ لا يموت[2].

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا﴾ لفنائه الذاتي ﴿وَسَيَجْزِى اللَّهُ﴾ بالإيمان الحقيقي ﴿الشَّٰكِرِينَ﴾ بالإيمان التقليدي، بأداء حقوقه من الائتمار بأوامر الشرع والانتهاء عن نواهيه.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ﴾ هذا الموتَ المعلوم، أو الموت عن أوصافها الدنيَّة وأخلاقِها الرَّديَّة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومشيئته، أو جَذْبِه بإشراق نوره.

---

(١) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٣/ ٢٦٢.

(٢) سلف تخريجه ص ٢٦ من هذا الجزء.

﴿وَمَن يُرِدْ﴾ بمقتضى استعداده ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ جزاءً لعمله ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ حَسْبَما تقتضيه الحكمة ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ جزاءً لعمله ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ولعلَّهم الذين لم يريدوا الثَّوابَيْنِ، ولم يكن لهم غرضٌ سوى العبودية، وأبهم جزاءَهم للإشارة إلى أنه أَمْرٌ وراء العبارة، ولعله تجلِّي الحقِّ لهم، وهذا غاية مُتَمنَّى المحبِّين، ونهايةُ مطلبِ السالكين، نسأل الله تعالى رضاه وتوفيقه.

❁ ❁ ❁

﴿وَكَأَيِّن﴾ كلامٌ مبتدأٌ سِيق توبيخاً للمنهزمين أيضاً، حيث لم يستنُّوا بسَنَن الربانيين المجاهدين مع الرسل عليهم الصلاة والسلام، مع أنهم أولى بذلك حيث كانوا خيرَ أمة أخرجت للناس.

وقد اختلف في هذه الكلمة؛ فقيل: إنها بسيطةٌ وُضعت كذلك ابتداءً، والنون أصلية، وإليه ذهب أبو حيان[1] وغيرُه، وعليه فالأمر ظاهرٌ موافقٌ للرسم.

وقيل ـ وهو المشهور ـ إنها مركبةٌ من «أيٍّ» المنوَّنةِ، وكافِ التشبيه. واختلف في «أيٍّ» هذه؛ فقيل: هي «أي» التي في قولهم: أيُّ الرجال، وقال ابن جنِّي: إنها مصدرُ أَوَى يأوي: إذا انْضَمَّ واجتمع، وأصله «أَوْيٌ» فاجتمعت الواو والياء وسُبقت إحداهما بالسكون، فقُلبت وأُدغمت، مثل: طَيٍّ وشَيٍّ، وحدث فيها بعدَ التركيب معنى التكثير المفهومِ من «كَمْ»، كما حدث في «كذا» بعد التركيب معنًى آخَرُ، فـ «كم» و«كأيِّن» بمعنًى واحد.

قالوا: وتشاركها في خمسة أمور: الإبهام، والافتقار إلى التمييز، والبناء، ولزوم التصدير، وإفادة التكثير [تارةً] وهو الغالب، والاستفهام [أخرى] وهو نادر، ولم يُثْبِتْه إلا ابن قتيبة وابن عصفور وابن مالك، واستُدِلَّ عليه بقول أُبيٍّ بن كعب لابن مسعود[2] ﵄: كأيِّن تقرأ سورةَ الأحزاب آيةً؟ فقال: ثلاثاً وسبعين.

---

(١) في البحر ٣/ ٦٥.

(٢) كذا نقل المصنف عن ابن هشام في المغني ص ٢٤٦، وما سلف بين حاصرتين منه، وصاحب القاموس (كان)، والصواب: لزر بن حبيش، كما ذكر صاحب التاج، وكذا أخرجه أحمد (٢١٢٠٧) عن زر بن حبيش أن أبيًّا قال له. . .

وتخالفها في خمسة أمور أيضاً:

أحدها: أنها مركَّبة في المشهور و«كم» بسيطةٌ فيه، خلافاً لمن زعم أنها مركَّبةٌ من الكاف و«ما» الاستفهامية، ثم حذفت أَلِفُها لدخول الجارّ، وسُكِّنت [ميمها][1] للتخفيف؛ لثقل الكلمة بالتركيب.

والثاني: أنَّ مُميِّزها مجرور بـ «من» غالباً، حتى زعم ابن عصفور لزومَ ذلك، ويردُّه نصُّ سيبويه على عدم اللزوم، ومن ذلك قوله:

اطـرُدِ الـيـأس بـالـرجـا فـكـأيِّـن ... آلـمـاً حُـمَّ يُـسْـرُهُ بـعـد عُـسْـرِ[2]

والثالث: أنها لا تقع استفهامية عند الجمهور.

والرابع: أنها لا تقع مجرورة، خلافاً لابن قتيبة وابن عصفور أجازا: بكأيِّن تبيع الثوب؟.

والخامس: أنَّ خبرَها لا يقع مفرداً.

وقالوا: إنَّ بينها وبين «كذا» موافقةٌ ومخالفةٌ أيضاً، فتوافقها «كذا» في أربعة أمور: التركيب، والبناء، والإبهام، والافتقار إلى التمييز. وتخالفها في ثلاثة أمور:

الأول: أنها ليس لها الصَّدر، تقول: قبضتُ كذا وكذا درهماً.

الثاني: أنَّ تمييزها واجبُ النصب، فلا يجوز جرُّه بـ «مِن» اتفاقاً ولا بالإضافة، خلافاً للكوفيين؛ أجازوا في غير تكرارٍ ولا عطفٍ أن يقال: كذا ثوبٍ وكذا أثوابٍ؛ قياساً على العدد الصريح، ولهذا قال فقهاؤهم: إنه يلزم بقول القائل: له عندي كذا درهم، مئة، وبقوله: كذا دراهم، ثلاثة، وبقوله: كذا كذا درهماً، أحد عشر، وبقوله: كذا درهماً، عشرون، وبقوله: كذا وكذا درهماً، أحد وعشرون؛ حَمْلاً على المحقَّق من نظائرهنَّ من العدد الصريح؛ ووافقهم على هذا التفصيل - غير مسألتي الإضافة - المبرِّدُ والأخفش والسيرافيُّ وابن عصفور. ووهم ابن السِّيد في نقل الإجماع على إجازة ما أجازه المبرِّد ومَنْ ذُكر معه.

---

(١) ما بين حاصرتين من مغني اللبيب ص ٢٤٦، وعنه نقل المصنف.

(٢) البحر ٣/ ٦٥، والمغني ص٢٤٧، قوله: حم، أي: قدِّر وقضي، وهو من الأفعال التي لم تستعمل إلا مجهولة. شرح أبيات المغني للبغدادي ٤/ ١٦٧.

الثالث: أنها لا تستعمل غالباً إلا معطوفاً عليها كقوله:

عِدِ النفسَ نُعمى بعدَ بُؤسك[(١)] ذاكراً   كـذا وكـذا لـطـفاً بـه نُـسـي الـجُـهـدُ

وزعم ابن خروف أنهم لم يقولوا: كذا درهماً [ولا: كذا كذا درهماً]، وذكر ابن مالك أنه مسموعٌ لكنه قليل. قاله ابن هشام[(٢)].

ثم إنَّ إثبات تنوين «كأيٍّ» على القول المشهور في الوقف والخطِّ على خلاف القياس، لِمَا أنه نُسخ أصلها، وفيه لغات وكلُّها قد قرئ به:

أحدها: «كأيِّنْ» بالتشديد على الأصل، وهي اللغة المشهورة، وبها قرأ الجمهور.

والثانية: «كائِنْ» بألف بعدها همزة مكسورة من غير ياء على وزن «كَاعِنْ» كاسم الفاعل، وبها قرأ ابن كثير[(٣)]، ومن ذلك قوله:

وكـائـنْ لـنـا فـضـلاً عـلـيـكـم ومـنَّـةً   قـديـماً ولا تـدرون ما مَـنُّ مُـنْـعِـمِ[(٤)]

واختُلف في توجيهها؛ فعن المبرِّد أنها اسمُ فاعل من «كان يكون». وهو بعيد الصحة؛ إذ لا وجهَ لبنائها حينئذ ولا لإفادتها التكثير. وقيل: أصلها المشدَّدة، فقُدِّمت الياء المشدَّدة على الهمزة، وصار: كَيَّئِن بكاف وياء مفتوحتين وهمزةٍ مكسورة ونون، ووزنه «كَعْلَفِ» - ونظير هذا التصرُّفِ في المفرد تصرُّفهم في المركَّب، كما ورد في لغةٍ نادرة «رَعْملي» بتقديم الراء في «لَعَمْري» - ثم حذفت الياء الأولى للتخفيف، فقلبت الثانية ألفاً لتحرُّكها وانفتاحِ ما قبلها، أو حذفت الياء الثانية لثقلها بالحركة والتضعيف، وقلبت الياء الساكنة ألفاً كما في «آية»، ونظيره في حذف إحدى الياءين وقلب الأخرى ألفاً «طائِيّ» في النسبة إلى طَيِّئ اسم قبيلة، فإنَّ أصله طَيِّئِيّ بياءين مشدَّدتين بينهما همزة، فحذفت إحدى الياءين وقلبت الأخرى ألفاً.

---

(١) في المغني: بؤساك، وكذا في شرحه للبغدادي ٤/ ١٦٩، وللسيوطي ٢/ ٥١٤، قال السيوطي: بؤس بضم الموحدة: الشدة، مثل البأساء.

(٢) في المغني: ص ٢٤٦-٢٤٩، وما بين حاصرتين منه.

(٣) التيسير ص ٩٠، والنشر ٢/ ٢٤٢، وكذا قرأ أبو جعفر ولكن بتسهيل الهمزة بعد الألف كما في النشر١/ ٤٠٠.

(٤) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ١٨٥ (دار صادر).

والثالثة: «كَأْيِن» بياء بعد الهمزة، وبها قرأ ابن محيصن[(١)]، ووجهُها أنها حذفت الياء الثانية وسكِّنت الهمزة لاختلاط الكلمتين وجَعْلِهما كالكلمة الواحدة، كما سكَّنوا الهاء في لَهْوَ وفَهْوَ، وحرِّكت الياء لسكون ما قبلها.

والرابعة: «كَيْئِن» بياء ساكنة بعدها همزة مكسورة[(٢)].

والخامسة: «كَئِنْ»، بكاف مفتوحة وهمزة مكسورة ونون، ووزنه «كعٍ»[(٣)]، وورد ذلك في قوله:

كَئِنْ من صديقٍ خِلْتُه صادقَ الإخا ... أبانَ اختباري إنه لمُداهِنُ[(٤)]

ووجهُه أنه حذفت إحدى الياءين ثم حذفت الأخرى للتنوين، أو حذفتا دفعةً واحدة، واحتمل ذلك لمَّا امتزج الحرفان.

والكاف لا متعلَّق لها؛ لخروجها عن معناها، ومَن قال به كالحَوْفي[(٥)] فقد تعسَّف، وموضعهما رفع بالابتداء، وقوله تعالى: ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ تمييزٌ له كتمييزِ «كم»، وقد تقدم آنفاً الكلام في ذلك. ولعلَّ المراد من النبيِّ هنا الرسول، وبه صرَّح الطبرسيُّ[(٦)].

﴿قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي: جموعٌ كثيرة، وهو التفسير المشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما، واستَشهد له ـ كما رواه ابن الأنباري[(٧)] ـ حين سأله نافع بن الأزرق بقول حسان:

وإذا معشَرٌ تجافَوا عن القَصْـ ... ـدِ أملنا عليهمُ رِبِّيَّا[(٨)]

---

(١) المحتسب ١/ ١٧٠، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢٢ لقتادة.

(٢) وقرئ بها في الشواذ، كما ذكر أبو حيان في البحر ٣/ ٧٢.

(٣) نسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥١٩ لابن محيصن.

(٤) البحر ٣/ ٧٢، والدر المصون ٣/ ٤٢٤، وحاشية الشهاب ٣/ ٦٩، وعندهم: أبان اختباري أنه لي مداهن.

(٥) هو علي بن إبراهيم الحَوفي، صنف: البرهان في تفسير القرآن، وعلوم القرآن، والموضّح في النحو. توفي سنة (٤٣٠هـ). وفيات الأعيان ٣/ ٣٠٠، وبغية الوعاة ٢/ ١٤٠.

(٦) في مجمع البيان ٤/ ٢٢٣.

(٧) في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٧٨، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٢/ ٨٣.

(٨) لم نقف عليه في ديوانه وهو في إيضاح الوقف والابتداء برواية:

وإذا معشرٌ تجافَوْا عن الحـ ... ـقِّ حملنا عليهم ربِّيَّا

وعليه فهو منسوبٌ إلى رِبَّة بكسر الراء - وكونُ الضَّمِّ فيها لغةً غيرُ متحقِّق - وهي الجماعة؛ للمبالغة، وخصَّها الضحاك بأَلْفٍ[١].

وأخرج سعيد بن منصور[٢] عن الحسن أنهم العلماء الفقهاء. وأخرجه [ابن جرير من طريق سعيد] بن جبير عن ابن عباس أيضاً[٣]. وعليه فهو منسوبٌ إلى الرَّبِّ كرَبَّاني على خلاف القياس؛ كقراءة الضم، والموافقُ له الفتح وبه قرئ[٤].

وقال ابن زيد: الرِّبِّيُّون هم الأتباع، والرَّبَّانيُّون الولاة.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: «قُتِل» بالبناء للمفعول[٥].

وفي خبر المبتدأ أَوْجُهٌ:

أحدها: أنه الفعل مع الضمير المستتر فيه الراجع إلى «كأيِّن» أو إلى «نبي» وحينئذ فـ «معه رِبِّيون» جملةٌ حاليةٌ من الضمير، أو من «نبيّ» لتخصيصه معنًى، أو«معه» حالٌ و«ربِّيون» فاعله.

وثانيها: أنه جملة معه «ربِّيون» فحينئذ تكون جملة الفعل مع مرفوعه صفةً لـ «نبي».

وثالثها: أنه محذوفٌ وتقديره «مضى» ونحوه، وحينئذٍ يجوز أن يكون الفعل صفة لـ «نبي» و«معه رِبِّيون» حالاً على ما تقدَّم، ويجوز أن يكون الفعل مسنداً لـ «ربِّيون»، فلا ضمير فيه، والجملة صفة لـ «نبي».

ورابعها: أن يكون «رِبِّيون» مرفوعاً بالفعل، فلا ضمير، والجملة هي الخبر.

وقرئ: «قُتِّل» بالتشديد. قال ابن جنِّي: وحينئذ فلا ضمير في الفعل، لِمَا في التضعيف من الدلالة على التكثير، وهو ينافي إسناده إلى الواحد[٦].

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور (٥٣٣ - تفسير) بلفظ: الرِّبَّة الواحدة أَلْفٌ.

(٢) في سننه (٥٣١ - تفسير).

(٣) الدر المنثور ٢/ ٨٢، وما بين حاصرتين منه، والخبر في تفسير الطبري ٦/ ١١٣ بلفظ: علماءُ كثيرٌ.

(٤) القراءتان بضم الراء وبفتحها في القراءات الشاذة ص ٢٢، والمحتسب ١/ ١٧٣.

(٥) التيسير ص ٩٠، والنشر ٢/ ٢٤٢.

(٦) المحتسب ١/ ١٧٣.

وأجيب: بأنه لا يمتنع أن يكون فيه ضمير الأول؛ لأنه في معنى الجماعة[١].

واعتُرض بأنه خلاف الظاهر، ومن هنا قيل: إنَّ هذه القراءة تؤيِّد إسناد «قُتِل» إلى الربيِّين، ويؤيِّدُها أيضاً ما أخرجه ابن المنذر[٢] عن ابن جبير أنه كان يقول: ما سمعنا قطُّ أنَّ نبيًّا قُتل في القتال، وقول الحسن وجماعة: لم يقتل نبيٌّ في الحرب قطُّ.

ثم إنَّ من ادَّعى إسناد القتل إلى النبي وأنه في الحرب أيضاً على ما يُشعر به المقام، حَمَلَ النصرة الموعودَ بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] على النصرة بإعلاء الكلمة ونحوه، لا على الأعداء مطلقاً، لئلّا تتنافى الآيتان، وهذا أحد أجوبةٍ في هذا المقام تقدَّمت الإشارةُ إليها، فتذكَّر.

والتنوين في «نبيٌّ» للتعظيم، وزعم الأُجهوري أنه للتكثير.

﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ عطفٌ على «قاتل» على أنَّ المراد عدمُ الوهن المتوقَّع من القتال، والتلبُّس بالشيء بعد ورود ما يستدعي خلافه، وإن كان استمراراً عليه بحسب الظاهر، لكنه بحسب الحقيقة ـ كما قال مولانا شيخ الإسلام ـ صنعٌ جديد، ومن هنا صحَّ دخول الفاء المؤذِنة بترتُّب ما بعدها على ما قبلها، ومن ذلك قولهم: وَعظْتُهُ فلم يتَّعظ، وزجرتُه فلم ينزجر[٣].

وأصل الوَهْن: الضَّعْفُ، وفسَّره قتادة وأبو مالك[٤] هنا بالعجز، والزَّجَّاج بالجُبْن، أي: فما عجزوا، أو: فما جَبَنوا[٥].

﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في أثناء القتال، وهذا عِلَّةٌ للمنفي لا للنفي، نعم

---

(١) ينظر إملاء ما منَّ به الرحمن ٢/ ١٣٣ بهامش الفتوحات الإلهية.

(٢) كما في الدر المنثور ٢/ ٨٢، وأخرجه أيضاً سعيد بن منصور في سننه (٥٢٩ - تفسير).

(٣) تفسير أبي السعود ٢/ ٩٥.

(٤) في الأصل و(م): وابن أبي مالك. والمثبت من تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٧٨١، والدر المنثور ٢/ ٨٢.

(٥) الذي في معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٧٦: معنى «فما وهنوا» فما فتروا «وما ضعفوا» وما جبنوا عن قتال عدوهم، وهذا خلاف ما ذكره عنه المصنف في معنى «وهنوا»، وما سيذكره في معنى «ضعفوا».

يُفهَم المنفيُّ من تقييد المثبت بهذا الظرف، و«ما» موصولة أو موصوفة، فإن جُعل الضميران لجميع الرِّبِّيِّين، فهي عبارةٌ عمَّا عدا القتل من مكاره الحروب التي تعتري الكل، وإن جُعلا للبعض الباقين بعد قتل الآخرين، وهو الأنسب ـ كما قيل ـ بمقام توبيخ المنخذلين بعد ما استُشهد الشهداء، فهي عبارةٌ عن ذلك أيضاً، مع ما اعتراهم بعد قتل إخوانهم من نحو الخوف والحزن. هذا على القراءة المشهورة.

وأما على القراءتين الأخيرتين، أعني: «قُتِل» و«قُتِّل» على صيغة المبني للمفعول مخفَّفة ومشدَّدة، فقد قالوا: إنْ أُسند الفعل إلى الظاهر فالضميران للباقين حتماً، والكلام حينئذ من قبيل: قُتل بنو فلان، إذا وقع القتل فيهم ولم يستأصلهم. وإن أُسند إلى الضمير ـ كما هو الظاهرُ الأنسبُ عند البعض بالتوبيخ على الانخذال بسبب الإرجاف بقتله ﷺ ـ وإليه ذهب قتادة والربيع وابن أبي إسحاق والسُّدِّي كما قيل، فهما للباقين أيضاً إن اعتبر كون الرِّبِّيِّين مع النبيِّ في القتل، وللجميع إن اعتبر كونهم معه في القتال.

﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ أي: ما فَتَروا عن الجهاد؛ قاله الزَّجَّاج[1]. وقيل: ما عراهم ضعفٌ في الدِّين بأنْ تغيَّر اعتقادهم لعدم النصر.

﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ۗ﴾ أي: ما ارتدُّوا عن بصيرتهم ولا عن دينهم؛ قاله قتادة.

وقيل: ما خضعوا لعدوِّهم، وإليه يشير كلام ابن عباس. وكثيراً ما يستعمل «استكان» بهذا المعنى، وكذا بمعنى: تضرَّع. واختُلف فيه: هل هو من السكون فوزنه: «افتعل»؛ لأنَّ الخاضع يسكنُ لمن خضع له، فَأَلِفُه للإشباع وهو كثيرٌ وليس بخطأ، خلافاً لأبي البقاء[2]، ولا يختصُّ بالشعر خلافاً لأبي حيان[3]. أو من الكون فوزنُه «استفعل» وألفُه منقلبةٌ عن واو، والسينُ مزيدةٌ للتأكيد، كأنه طلب من نفسه أن يكون لمن قهره. وقيل: لأنه كالعدم فهو يطلب من نفسه الوجود.

---

(١) الذي في معاني القرآن له ١/ ٤٧٦: وما ضعفوا: وما جبنوا عن قتال عدوهم.

(٢) في الإملاء ٢/ ١٣٤.

(٣) في البحر ٣/ ٧٥.

وجُوِّز أن يكون من قول العرب: بات فلان بِكَيْنَةِ سوء، أي: بحالة سوء، أو من كانَه يَكِينُه: إذا أذلَّه، وعُزي ذلك إلى الأزهري وأبي علي[١]. وحينئذ فَأَلِفُهُ منقلبةٌ عن ياء.

والجمهور على فتح الهاء من «وَهَنوا»، وقرئ بكسرها وهي لغة[٢]، والفتح أشهر، وقرئ بإسكانها على تخفيف المكسور[٣]. وفي الكلام تعريضٌ لا يخفَى.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ على مقاساة الشدائد ومعاناةِ المكارِهِ في سبيله، فينصرهم ويعظِّم قَدْرَهم.

والمراد بالصابرين: إما الرِّبِّيون، والإظهارُ في موضع الإضمار للتصريح بالثناء عليهم بالصبر الذي هو مِلاك الأمر، مع الإشعار بعلَّة الحكم، وإما ما يعمُّهم وغيرَهم، وهم داخلون في ذلك دخولاً أوليًّا.

والجملة على التقديرين تذييلٌ لِمَا قبلها، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ كالتتميم والمبالغة في صلابتهم في الدين، وعدم تطرُّق الوَهْن والضَّعْف إليهم بالكلية، وهو معطوفٌ على ما قبله.

وقيل: كلامٌ مبيِّنٌ لمحاسنهم القولية إثر بيان محاسنهم الفعلية.

و«قولَهم» بالنصب خبرٌ لـ «كان»، واسمُها المصدرُ المتحصِّلُ من «أنْ» وما بعدها في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾، والاستثناءُ مفرَّغٌ من أعمِّ الأشياء، أي: ما كان قولهم في ذلك المقام واشتباكِ أسنَّةِ الشدائد والآلام إلا أن قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: صغائرنا ﴿وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ أي: تجاوُزَنا عن الحدِّ، والمراد: كبائرنا، وروي ذلك عن الضحاك.

وقيل: الإسراف تجاوزٌ في فعل ما يجب، والذنبُ عامٌّ فيه وفي التقصير.

---

(١) ذكره عنهما أبو حيان في البحر ٣/ ٧٥، وفي تهذيب اللغة ١٠/ ٣٧٤-٣٧٥: قال أبو سعيد: يقال: أكانَهُ الله يكينه إكانةً، أي: أخضعه حتى استكان، وقد أدخل عليه من الذل ما أكانه.
(٢) هي قراءة أبي نهيك والحسن وأبي السَّمَّال. القراءات الشاذة ص ٢٢، والمحتسب ١/ ١٧٤.
(٣) نسبها النحاس في إعراب القرآن ١/ ٤١١ لأبي السَّمَّال.

وقيل: إنه يقابل الإسراف، وكلاهما مذموم، وسيأتي في هذه السورة إن شاء الله تعالى إطلاق الذنوب على الكبائر(١). فافهم.

والظَّرْف متعلِّقٌ بما عنده أو حالٌ منه، وإنَّما أضافوا ذلك إلى أنفسهم مع أنَّ الظاهر أنهم بُرآء من التفريط في جَنْبِ الله تعالى، هَضْماً لأنفسهم، واستقصاراً لهممهم(٢)، وإسناداً لِمَا أصابهم إلى أعمالهم.

على أنه لا يَبْعُدُ أن يراد بتلك الذنوب وذلك الإسراف ما كان ذنباً وإسرافاً على الحقيقة، لكنْ بالنسبة إليهم، وحسناتُ الأبرار سيئاتُ المقرَّبين.

وقيل: أرادوا من طلب المغفرة طلبَ قبول أعمالهم، حيث إنه لا يجب على الله تعالى شيء. وفيه ما لا يخفى.

وقدَّموا الدعاء بالمغفرة على ما هو الأهم بحَسَب الحال من الدعاء بقوله سبحانه: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي: عند جهاد أعدائك، بتقوية قلوبنا وإمدادِنا بالمدد الروحاني من عندك ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ = تقريباً له إلى حيِّز القبول، فإنَّ الدعاء المقرونَ بالخضوع الصادرَ عن زكاءٍ وطهارة أقربُ إلى الاستجابة.

ومن الناس مَن قال: المراد من «ثبِّت أقدامنا» ثبِّتنا على دينك الحق. فيكون تقديمُ طلبِ المغفرة على هذا التثبيت من باب تقديم التخلية على التحلية، وتقديمُهما على طلب النصرةِ لِمَا تقدم.

وقيل: إنهم طلبوا الغفران أوَّلاً ليستحقُّوا طلبَ النصر على الكافرين بترجُّحهم بطهارتهم عن الذنوب عليهم، وهم مُحاطون بالذنوب.

وفي طلبهم النصرَ مع كثرتهم المُفْرِطةِ ـ التي دلَّ عليها ما سبق ـ إيذانٌ بأنهم لا ينظرون إلى كثرتهم ولا يعوِّلون عليها، بل يُسندون ثباتَ أقدامهم إلى الله تعالى، ويعتقدون أنَّ النصر منه سبحانه وتعالى.

---

(١) عند تفسير الآية (١٩٣) منها.

(٢) في الأصل: واستصغاراً لهممهم، وفي (م): واستقصاراً لهم، والمثبت موافق لما في تفسير أبي السعود ٢/ ٩٦، والكلام منه.

وفي الإخبار عنهم بأنه ما كان قولَهم إلا هذا، دون ما فيه شائبةُ جَزَعٍ وخَوَرٍ وتزلزُلٍ، من التعريض بالمنهزمين ما لا يخفى.

وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية عنهما برفع «قولُهم»[1] على أنه الاسم، والخبر «أنْ» وما في حيِّزها، أي: ما كان قولُهم شيئاً من الأشياء إلا هذا القولَ المُنْبِئَ عن أحاسِنِ المحاسن.

قال مولانا شيخ الإسلام: وهذا كما ترى أَقْعَدُ بحسب المعنى، وأوفقُ بمقتضى المقام، لِمَا أنَّ الإخبار بكون قولهم المطلقِ خصوصيةَ قولهم المحكيِّ عنهم مفصَّلاً كما تفيده قراءتهما أكثرُ إفادةً للسامع من الإخبار بكون خصوصية قولهم المذكور «قولهم»؛ لِمَا أنَّ مَصَبَّ الفائدة وموقعَ البيان في الجمل الخبرية هو الخبر، فالأَحقُّ بالخبرية ما هو أكثرُ إفادةً وأظهرُ دلالةً على الحدث، وأوفرُ اشتمالاً على نِسَبٍ خاصَّةٍ بعيدةٍ من الوقوع في الخارج وفي ذهن السامع، ولا يخفى أنَّ ذلك هاهنا في «أنْ» مع ما في حيِّزها أَتمُّ وأكمل، وأما ما تفيده الإضافة من النسبة المطلقة الإجمالية، فحيث كانت سهلةَ الحضور[2] خارجاً وذهناً كان حقُّها أن تلاحَظ ملاحظةً إجمالية، وتُجعَلَ عنواناً للموضوع، لا مقصوداً بالذات في باب البيان، وإنما اختار الجمهور ما اختاروا بِقاعدة صناعية هي أنه: إذا اجتمع معرفتان فالأعرف منهما أحقُّ بالاسمية، ولا ريب في أعرفية «أن قالوا» لدلالته على جهة النسبة وزمان الحدث، ولأنه يشبه المُضْمَر من حيث إنه لا يوصَفُ ولا يوصَفُ به، و«قولهم» مضافٌ إلى مُضْمَرٍ فهو بمنزلة العَلَم، فتأمَّل[3]. انتهى.

وقال أبو البقاء: جَعْلُ ما بعد «إلا» اسماً لـ «كان» والمصدرَ الصريحَ خبراً لها أقوى من العكس لوجهين:

أحدهما: أنَّ «أنْ قالوا» يشبه المُضْمَر في أنه لا يُوصَف وهو أعرف.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/٤١١، والمحرر الوجيز ١/٥٢٢، والقراءات الشاذة ص ٢٣، وتفسير أبي السعود ٢/٩٦، والكلام منه، والمشهور عنهما النصب.

(٢) في تفسير أبي السعود: الحصول.

(٣) تفسير أبي السعود ٢/٩٦-٩٧.

والثاني: أنَّ ما بعد «إلا» مثبتٌ، والمعنى: كان قولُهم: ربنا اغفر لنا ذنوبنا إلخ دأبَهم في الدعاء[1].

وقال العلَّامة الطِّيبيُّ: كأنَّ المعنى: ما صحَّ ولا استقام من الربانيين في ذلك المقام إلا هذا القول، وكأنَّ غيرَ هذا القول منافٍ لحالهم، وهذه الخاصِّيَّةُ يفيدها إيقاع «أنْ» مع الفعل اسماً لـ «كان». وتحقيقه: ما ذكره صاحب «الانتصاف» من أنَّ فائدة دخول «كان» المبالغةُ في نفي الفعل الداخل عليه بتعديد جهة فعله، عموماً باعتبار الكون، وخصوصاً باعتبار خصوصية المقام[2]، فهو نفيٌ مرَّتين.

ثم قال: فعلى هذا لو جعلتَ ربَّ الجملة «أن قالوا» واعتمدت عليه، وجعلت «قولهم» كالفضلة، حصل لك ما قصدته، ولو عكستَ ركبتَ التعسُّف، ألا ترى إلى أبي البقاء كيف جعل الخبر نسياً منسيًّا في الوجه الثاني، واعتمد على ما بعد «إلا»[3]. انتهى.

ومنه يُعلم ما في كلام مولانا شيخ الإسلام، فإنه متى أَمْكَنَ اعتبارُ جزالة المعنى مع مراعاة القاعدة الصناعية، لا يُعدَلُ عن ذلك إلى غيره، لا سيَّما وقد صرَّحوا بأنَّ جَعْلَ الاسم غيرَ الأعرف ضعيفٌ، قال في «المغني»[4]: واعلم أنهم حكموا لـ «أنْ» و«أنَّ» المقدَّرتين بمصدرٍ معرَّف بحكم الضمير؛ لأنه لا يوصَف، كما أنَّ الضمير أيضاً كذلك، فلهذا قرأتِ السبعة: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ [الجاثية: ٤٥] ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ [النمل: ٥٦] والرفعُ ضعيفٌ كضعف الإخبار بالضمير عما دونه في التعريف. انتهى. وعلَّل بعضهم أعرفيَّةَ المصدر المؤوَّل بأنه لا ينكَّر.

وقد اعترضوا على كلٍّ من تعليلَي ابن هشام والبعض؛ أما الاعتراض على الأول: فبأنَّ كونَه لا يوصَف لا يقتضي تنزيله منزلةَ الضمير، فـ «كم» اسم لا يوصَف، بل ولا يوصَف به، وليس بتلك المنزلة؟

---

(١) الإملاء ٢/ ١٣٥.

(٢) في (م): المقال، والمثبت من الأصل وحاشية الطيبي على الكشاف.

(٣) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٤) ص ٥٩٠.

وأجيب: بأنه جاز أن يكون في ذلك الاسم مانعٌ من جَعْله بمنزلة الضمير؛ لأنَّ عدمَ المانع ليس جزءاً من المقتضى، ولا شرطاً في وجوده.

وأما الاعتراض على الثاني: فبأنه غيرُ مُسلَّم؛ لأنه قد يُنكَّر كما في ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ﴾ [يونس: ٣٧] أي: افتراءً قاله الشهاب[1].

وأجيب بأنَّ مراد مَن قال: إنَّ المصدر المؤوَّل لا يُنكَّر، أنه في مثل هذا الموضع لا يُنكَّر، لا أنَّ الحرفَ المصدريَّ لا يؤوَّل بمصدرٍ مُنكَّرٍ أصلاً، ويُستأنس لذلك بتقييد المصدر بالمعرَّف في عبارة «المغني»، حيث يُفهم منها أنَّ «أنْ» و«أنَّ» تارةً يقدَّران بمصدرٍ معرَّف، وتارةً بمصدر مُنكَّر، وأنهما إذا قُدِّرا بمصدرٍ معرَّف كان له حكمُ الضمير، ومن هنا قال صاحب «المطلع» في معنى ذلك التعليل: إنَّ قولَ المؤمنين إن اختُزل عن الإضافة يبقى مُنكَّراً بخلاف «أنْ قالوا».

بقي في كلام «المغني» أمور: الأول: أنَّ التقييد بـ «أنْ» و«أنَّ» هل هو اتفاقيٌّ أم احترازي؟ الذي ذهب إليه بعض المحققين الأول؛ احتجاجاً بأنه أَطلق في الجهة السادسة من الباب الخامس أنَّ الحرفَ المصدريَّ وصِلَتَه في نحو ذلك معرفة، فلا يقع صفة للنكرة[2]. ولم يَخصَّ بـ «أنْ» و«أنَّ». وللذاهب إلى الثاني أن يقول: فرقٌ بين مطلق التعريف وكونِه في حكم الضمير كما لا يخفى، وابن هشام قد أخذ المطلق في المطلق وقيَّد المقيَّد بالمقيَّد، فلا بأس بإبقاء كِلَا العبارتين على ما يتراءى منهما.

الثاني: أنه يُفهم من ظاهره أنَّ الأداتين لو قُدِّرتا بمصدرٍ مُنكَّر لا يكون في حكم الضمير، وظاهرُ هذا أنه يجوز الوصف حينئذ، وفيه تردُّدٌ؛ لأنه قد يقال: لا يلزم من عدم ثبوت مرتبة الضمير لذلك جوازُ الوصف؛ لأنَّ امتناعَ الوصف أعمُّ من مرتبة الضمير، ونفي الأخصِّ لا يستلزم نفيَ الأعم.

الثالث: أنه يُفهم من كلامه أنَّ المصدرَ المقدَّر المعرَّف بالإضافة سواءٌ أُضيف إلى ضميرٍ أو غيره، بمثابة الضمير، ولم يصرِّح أحدٌ من الأئمة بذلك، لكن حيث إنَّ ابنَ هشام ثقةٌ وإمامٌ في الفنِّ، ولم ينقل عن أئمَّته ما يخالفه، يُقبل منه ما يقول.

---

(١) في حاشيته على تفسير البيضاوي ٣/ ٧٠.

(٢) المغني ص ٧٤٦.

الرابع: أنَّ ما حَكم به من أنَّ الرفع ضعيفٌ كضعف الإخبار بالضمير عما دونه في التعريف، بينه وبين ما ذهب إليه ابن مالك[١] ـ من جواز الإخبار بالمعرفة عن النكرة المحضَةِ في باب النواسخ ـ بونٌ عظيم، ويؤيِّد كلامَ ابن مالك قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٢] وكأنه لتحقيق هذا المقام، ولِمَا أشرنا إليه أولاً في تحقيق معنى الآية قال المولى قُدِّس سرُّه: فتأمل[٢]، فتأمل.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: بسبب قولهم ذلك كما تؤذِنُ به الفاء ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: النصرَ والغنيمة، قاله ابن جريج. وقال قتادة: الفتحَ والظهور والتمكُّن والنصر على عدوِّهم. قيل: وتسمية ذلك ثواباً؛ لأنه مترتِّبٌ على طاعتهم، وفيه إجلالٌ لهم وتعظيم. وقيل: تسميةُ ذلك ثواباً مجاز؛ لأنه يحاكيه.

واستشكل تفسير ابن جريج بأنَّ الغنائم لم تحلَّ لأحد قبل الإسلام، بل كانت الأنبياء إذا غنموا مالاً، جاءت نارٌ من السماء فأخذته، فكيف تكون الغنيمة ثواباً دنيويًّا ولم يصل للغانمين منها شيء؟!

وأجيب: بأنَّ المال الذي تأخذه النار غير الحيوان، وأما الحيوان فكان يبقى للغانمين دون الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكان ذلك هو الثواب الدنيوي.

﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: وثوابَ الآخرة الحَسَنَ، وهو عند ابن جريج: رضوانُ الله تعالى ورحمته، وعند قتادة: هي الجنة. وتخصيص الحُسْن بهذا الثواب للإيذان بفضله ومزيَّته، وأنه المعتدُّ به عنده تعالى، ولعلَّ تقديمَ ثواب الدنيا عليه مراعاةٌ للترتيب الوقوعي، أو لأنه أنسبُ بما قبله من الدعاء بالنصر على الكافرين.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لِمَا قبله، فإنَّ محبَّة الله سبحانه للعبد مبدأُ كلِّ خيرٍ وسعادة، واللام إما للعهد، ووُضع الظاهرُ موضعَ المضمَر إيذاناً بأنَّ ما حكي عنهم من باب الإحسان، وإما للجنس وهم داخلون فيه دخولاً أوَّليًّا، وفيه على كِلَا التقديرين ترغيبٌ للمؤمنين في تحصيل ما حُكي من المناقب الجليلة.

---

(١) في التسهيل ص ٥٤.

(٢) تفسير أبي السعود ٢/ ٩٧، وقد سلف كلامه قريباً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ شروعٌ في زجر المؤمنين عن متابعة الكفار ببيان مضارِّها، إثْرَ ترغيبهم في الاقتداء بأنصار الأنبياء عليهم السلام ببيان فضائله، وتصديرُ الخطاب بالنداء والتنبيه لإظهار الاعتناء بما في حيِّزه، ووصفُهم بالإيمان لتذكيرهم بحالٍ ينافي تلك الطاعة، فيكون الزجرُ على أكمل وجه.

والمراد من «الذين كفروا»: إما المنافقون؛ لأنَّ الآية نزلت ـ كما روي عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه ـ حين قالوا للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم. والتعبير عنهم بذلك قصداً إلى مزيد التنفير عنهم والتحذيرِ عن طاعتهم.

وإما أبو سفيان وأصحابه، وحينئذ فالمراد بإطاعتهم: الاستكانةُ لهم، وطلبُ الأمان منهم، وإلى ذلك ذهب السدي.

وإما اليهود والنصارى فالمراد حينئذ: لا تنتصحوا اليهود والنصارى على دينكم، ولا تصدِّقوهم بشيء في ذلك، وإليه ذهب ابن جريج. وحكي أنهم كانوا يُلْقُون إليهم الشُّبَهَ في الدِّين ويقولون: لو كان محمدٌ نبيًّا حقًّا لَمَا غُلب، ولَمَا أصابه وأصحابَهُ ما أصابهم، وإنما هو رجلٌ حالُه كحال غيره من الناس، يوماً عليه ويوماً له، فنُهوا عن الالتفات إليها.

وإما سائر الكفار، وذهب إلى جواز ذلك بعضُ المتأخرين.

وأتى بـ «إنْ» للإيذان بأنَّ الإطاعة بعيدةُ الوقوع من المؤمنين.

﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أي: يُرجعوكم إلى أول أمركم وهو الشرك بالله تعالى، والفعل جواب الشرط، وصحَّ ذلك بناءً على المأثور عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه[1]، مع أنَّ الكلام معه في قوةِ: إن تطيعوا الذين كفروا في قولهم: ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم يدخلوكم في دينهم، ويؤول إلى قولك: إن تدخلوا في دينهم تدخلوا في دينهم. وفيه اتحادُ الشرط والجزاء بناءً على أنَّ الارتداد على العَقِب عُلِمَ في انتكاس الأمر، ومُثِّل في الحَوْر بعد الكَوْر.

---

(١) سلف قريباً.

وقيل: إنَّ المراد بالإطاعة الهمُّ بها والتصميمُ عليها، أي: إن تصمِّموا على إطاعتهم في ذلك تُردُّوا وترجعوا إلى ما كنتم عليه من الكفر. وهذا أبلغُ في الزجر، إلا أنه بعيدٌ عن اللفظ.

وجُوِّز أن تكون جوابيَّته باعتبار كونه تمهيداً لقوله تعالى: ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ أي: فترجعوا خاسرين لخير الدنيا وسعادة الآخرة، وذلك أعظم الخسران.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ إضرابٌ وتركٌ للكلام الأول من غير إبطال، والمعنى: ليس الكفار أولياءَ فيطاعوا في شيء، ولا ينصرونكم، بل الله ناصركم لا غيره، وهو مبتدأٌ وخبر.

وقرىء بنصب الاسم الجليل(١) على أنه مفعولٌ لفعل محذوف، والمعنى: فلا تطيعوهم بل أطيعوا الله مولاكم.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ لأنه القويُّ الذي لا يُغلب، والناصرُ في الحقيقة، فينبغي أن يُخصَّ بالطاعة والاستعانة، والجملة معطوفةٌ على ما قبلها.

وجُوِّز على القراءة الشاذة الاستئنافُ والحالية.

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ كالبيان لِمَا قبلُ، وعبَّر بنون العظمة على طريق الالتفات جرياً على سَنَن الكبرياء لتربية المهابة، والسينُ لتأكيد الإلقاء. والرُّعْب بسكون العين: الخوف والفزع، أي: سنقذف ذلك في قلوبهم.

والمراد من الموصول أبو سفيان وأصحابه، فقد أخرج ابن جرير(٢) عن السُّدِّي قال: لمَّا ارتحل أبو سفيانَ والمشركون يوم أُحد متوجِّهين نحو مكة، انطلق أبو سفيانَ حتى بلغ بعض الطريق، ثم إنهم ندموا فقالوا: بئس ما صنعتم، إنكم قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشَّريد تركتموهم، ارجعوا فاستأصلوا(٣)، فقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب فانهزموا، فلقُوا أعرابيًّا فجعلوا له جُعْلاً، فقالوا له: إن لقيتَ محمداً ﷺ وأصحابَه، فأخبرهم بما قد جمعنا لهم، فأخبر الله تعالى

(١) القراءات الشاذة ص ٢٢.
(٢) في تفسيره ٦/١٢٨.
(٣) في تفسير الطبري: فاستأصلوهم.

رسوله ﷺ، فَطَلَبَهم حتى بلغ حمراء الأسد، فأنزل الله تعالى في ذلك هذه الآية، يذكُر فيها أمرَ أبي سفيان وأصحابِه.

وقيل: إنَّ الآية نزلت في يوم الأحزاب.

وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «نُصرتُ بالرُّعْب على العدو»(١)، وأخرج أحمد وغيره من حديث أبي أمامة: «نُصرت بالرعب مسيرة شهر، يُقذف في قلوب أعدائي»(٢).

وقرىء: «سيُلقي» بالياء(٣). وقرأ أبو جعفر وابن عامر والكِسائي: «الرُّعُبَ» بضم العين(٤)، وهي لغة فيه، وقيل: الضم هو الأصل، والسكون للتخفيف. وقيل: الأصل السكون، والضمُّ للإتْباع.

﴿بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: بسبب إشراكهم بالذات الواجب الوجود، المستجمِع لجميع صفات الكمال، ولإشعار هذا الاسم بالعظمة المنافية للشركة أتى به. والجارُّ الأول متعلِّقٌ بـ «سنلقي» دون «الرعب»، ولا يمنع من ذلك تعلُّق «في» به؛ لاختلاف المعنى، والثاني متعلِّقٌ بما عنده. وكان الإشراك سبباً لإلقاء الرعب؛ لأنه من موجبات خذلانهم ونصرِ المؤمنين عليهم، وكلاهما من دواعي الرعب.

﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ﴾ أي: بإشراكه، وقيل: بعبادته، و«ما» نكرةٌ موصوفةٌ، أو موصولةٌ اسميةٌ، وليست مصدريةً.

﴿سُلۡطَٰنٗاۖ﴾ أي: حجةً، والإتيانُ بها للإشارة بأنَّ المتَّبَع في باب التوحيد هو البرهان السماوي، دون الآراء والأهواء الباطلة، وسُمِّيت بذلك لأنه بها يتقوَّى على الخصم ويتسلط عليه، والنون زائدة، وقيل: أصلية، وذِكْرُ عدمِ إنزالِ الحجَّة مع

---

(١) صحيح مسلم (٥٢٣)، وهو عند أحمد (٩٣٣٧).
(٢) مسند أحمد (٢٢١٣٧)، وأخرجه أحمد أيضاً (١٤٢٦٤)، والبخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (٧٠٦٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٣) القراءات الشاذة ص ٢٢.
(٤) التيسير ص ٩١، والنشر ٢/٢١٦.

استحالةِ تحقُّقها من باب انتفاءِ المقيَّد لانتفاء قيده اللازم، أي: لا حُجَّة حتى ينزلها، فهو على حَدِّ قوله في وصف مَفَازةٍ:

لا يُفْزِعُ الأرنبَ أهوالُها ولا ترى الضَّبَّ بها يَنْجَحِر[1]

إذ المراد: لا ضبَّ بها حتى ينجحر، فالمراد نفيُهما جميعاً، وهذا كقولهم: السالبة لا تقتضي وجود الموضوع.

وما ذكرنا من استحالة تحقُّق الحجة على الإشراك، يكاد يكون معلوماً من الدين بالضرورة؛ أما في الإشراك بالربوبية فظاهر؛ إذ كيف يأمر الله سبحانه باعتقاد أنَّ خالق العالم اثنان مشترِكان في وجوب الوجود والاتِّصافِ بكلِّ كمال، وأما الإشراك في الألوهية الذي عليه أكثر المشركين في عهد رسول الله ﷺ، فلأنه يفضي إلى الأمر باعتقاد أشياء خلاف الواقع، مما كان المشركون يعتقدونه في أصنامهم، وقد ردَّه عليهم، فقولُ عصام الملَّة: ونحن نقول: الحجة على الإشراك تحت قدرته تعالى، لو شاء أنزلها؛ إذ لو أمر بإشراك الأصنام به في العبادة، لوجبت العبادة. لا أراه إلا حلًّا لعصام الدين؛ لأنَّ «لا إله إلا الله» المخاطَبَ بها الثَّنَويةُ[2] والوثنيةُ تأبى إمكان ذلك، كما لا يخفى على مَن اطَّلع على معنى هذه الكلمة الطيبة، رَزَقنا الله تعالى الموتَ عليها، ولا جَعَلَنا ممن أشركوا بالله تعالى ما لم ينزِّل به سلطاناً.

﴿وَمَأْوَنهُمُ﴾ أي: ما يأوون إليه في الآخرة ﴿ٱلنَّارُ﴾ لا مأوى لهم غيرها ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ أي: مثواهم، وإنما وضع الظاهر موضعَ الضمير للتغليظ والتعليل، والإشعارِ بأنهم في إشراكهم ظالمون واضعون للشيء في غير موضعه.

والمثوى: مكانُ الإقامة، على وزن مَفْعَل من ثَوَيْتُ، ولامه ياء. والمخصوص بالذم محذوف، أي: بئس مثواهم النارُ، ولم يعبِّر بالمأوى للإيذان بالخلود؛ إذ الإقامة مأخوذة في المثوى دونه.

---

(١) البيت لابن الأحمر، وهو في ديوانه ص ٦٧ وفيه: لا تُفزع...

(٢) هم قوم قالوا: صانع العالم اثنان، ففاعل الخير نور، وفاعل الشر ظلمة، وهما قديمان لم يزالا ولن يزالا قويين حساسين، سميعين بصيرين... تلبيس إبليس ص ٤٥.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أخرج الواحديُّ[(١)] عن محمد بن كعب قال: لمَّا رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا، وقد وَعَدَنا الله تعالى النصر؟ فأنزل الله تعالى الآية.

و«وعْده» مفعولٌ ثانٍ لـ «صَدَقَ» صريحاً، فإنه يتعدَّى إلى مفعولين في مثل هذا النحو، وقد يتعدَّى إلى الثاني بحرف الجر، فيقال: صدقتُ زيداً في الحديث، ومن هنا جوَّز بعضهم أن يكون نصباً بنزع الخافض.

والمراد بهذا الوعد ما وَعَدَهم سبحانه من النصر بقوله عزَّ اسمه: ﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٢٥] إلخ، أو على لسان نبيِّه ﷺ حيث قال للرماة: «لا تبرحوا مكانكم، فلن نزالَ غالبينَ ما ثبتُّم مكانكم»[(٢)] وفي رواية أخرى: «لا تبرحوا عن هذا المكان، فإنَّا لا نزال غالبين ما دمتم في هذا المكان».

وأُيِّد الأول بما أخرجه البيهقيُّ في «الدلائل»[(٣)] عن عروة قال: كان الله تعالى وعدهم على الصبر والتقوى أن يمدَّهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين، وكان قد فعل، فلما عَصَوا أَمْرَ الرسول، وتركوا مصافَّهم، وتركت الرماةُ عهدَ الرسول ﷺ إليهم أن لا يبرحوا منازلهم، وأرادوا الدنيا، رفع الله تعالى مدد الملائكة.

واختار مولانا شيخ الإسلام الثاني[(٤)]، وقد تقدم لك ما ينفعك هنا.

والقول بأنَّ المراد ما وَعَده جلَّ شأنه بقوله سبحانه: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ ليس بشيء كما لا يخفى.

وأخرج الإمام أحمد وجماعة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما نصر الله تعالى نبيَّه في موطن، كما نصره يوم أحد. فأنكروا ذلك، فقال ابن عباس: بيني وبين مَن أنكر ذلك كتابُ الله تعالى، إنَّ الله تعالى يقول يوم أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ

---

(١) في أسباب النزول ص ١٢١.
(٢) أخرجه الطبري مطولاً ٦/ ١٢٩ عن السدي.
(٣) ٣/ ٢٥٦.
(٤) تفسير أبي السعود ٢/ ٩٨.

وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أي: تقتلونهم[١]. وهو التفسير المأثور، واستَشْهَدَ عليه الحبر بقول عتبة الليثي:

نحسُّهم بالبِيض حتى كأننا نُفلِّقُ منهم بالجماجم حَنْظَلا[٢]

وبقوله:

ومنَّا الذي لاقَى بسيفِ محمد فحسَّ به الأعداءَ عرض العساكر[٣]

وأصل معنى حَسَّه: أصاب حاسَّته بآفةٍ فأَبطَلها، مثل: كَبَدَه[٤]، ولذا عبَّر به عن القتل، ومنه: جرادٌ محسوس، وهو الذي قتله البرد، وقيل: هو الذي مسَّته النار. وكثيراً ما يستعمل الحَسُّ بالقتل على سبيل الاستئصال.

والظَّرف متعلِّقٌ بـ «صدقكم»، وجوَّز أبو البقاء[٥] أن يكون ظرفاً للوعد.

﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بتيسيره وتوفيقه، والتقييد به لتحقيق أنَّ قَتْلهم بما وعدهم الله تعالى من النصر.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي: فَزِعْتُم وجَبُنْتُم عن عدوِّكم ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: أمرِ الحرب، أو أمرِه ﷺ لكم في سدِّ ذلك الثغر على ما تقدم تفسيره[٦].

﴿وَعَصَيْتُم﴾ إذ لم تَثْبتُوا هناك ومِلْتُم إلى الغنيمة ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من انهزام المشركين وغَلَبتِكُم عليهم.

قال مجاهد: نَصَرَ الله تعالى المؤمنين على المشركين، حتى ركب نساءُ المشركين

---

(١) مسند أحمد (٢٦٠٩) مطولاً، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (١٠٧٣١)، والحاكم ٢/ ٢٩٦-٢٩٧ وصححه، والبيهقي في الدلائل ٣/ ٢٦٩-٢٧١.

(٢) البيت في المعجم الكبير للطبراني (١٠٥٩٧) ١٠/ ٢٥٦ ضمن جواب ابن عباس عن سؤالات نافع بن الأزرق. قوله: البِيض، جمع أبيض وهو السيف. القاموس المحيط (بيض).

(٣) البيت ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٨٥ ضمن جواب ابن عباس عن سؤالات نافع بن الأزرق، وعزاه للطستي في مسائله، ومن طريقه أخرجه السيوطي في الإتقان ١/ ٣٩٣.

(٤) أي: ضرب كَبِدَه. القاموس المحيط (كبد).

(٥) في الإملاء ٢/ ١٣٧.

(٦) في الأصل: تفصيله.

على كلِّ صعبٍ وذلول، ثم أُديل عليهم المشركون بمعصيتهم للنبي ﷺ[1]. وروي أنَّ خالد بن الوليد أقبل بخيل المشركين ومعه عكرمة بن أبي جهل، فأرسل رسول الله ﷺ إلى الزبير رضي الله عنه أن احْمِلْ عليه، فحمل عليه فهزمه ومَن معه، فلما رأى الرماةُ ذلك انكفؤوا إلا قليلاً، ودخلوا العسكر، وخالفوا الأمر، وأخلوا الخلَّة التي كانوا فيها، فدخلت خيول المشركين من ذلك الموضع على الصحابة رضي الله عنهم، فضرب بعضُهم بعضاً والتبَسوا، وقُتل من المسلمين أناسٌ كثيرٌ بسبب ذلك[2].

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم الرماةُ الذي طمعوا في النهب وفارقوا المركز له ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ كعبد الله بن جبير أميرِ الرماة، ومَن ثبت معه ممتثلاً أَمرَ رسول الله ﷺ حتى استشهد.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي: كفَّكم عنهم حتى تحوَّلت الحال من الغلبة إلى ضدِّها ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي: ليعاملكم معاملةَ مَن يَمتحن ليَبين أَمرُكم وثباتُكم على الإيمان، ففي الكلام استعارة تمثيلية، وإلا فالامتحان مُحالٌ على الله تعالى.

وفي «حتى» هنا قولان:

أحدهما: أنها حرفُ جرٍّ بمنزلة «إلى»، ومتعلَّقها «تحسُّونهم» أو«صَدَقَكم»، أو محذوفٌ تقديره: دام لكم ذلك.

وثانيهما: أنها حرف ابتداءٍ دخلت على الجملة الشرطية من «إذا» وما بعدها. وجوابُ «إذا» قيل: «تنازعتم» والواو زائدة، واختاره الفراء[3]. وقيل: «صرفكم» و«ثم» زائدة، وهو ضعيفٌ جدًّا.

والصحيح أنه محذوف، وعليه البصريون، وقدَّره أبو البقاء[4]: بانَ أمرُكم،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/٧٨٨، وينظر حديث البراء في صحيح البخاري (٤٠٤٣). ومعنى أُديل: غلب، والإدالة: الغَلَبَة. القاموس المحيط (دول).

(٢) أخرج أوله - وهو قصة هزيمة الزبير لخالد ومن معه - الطبري٦/ ١٣٠-١٣١ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وباقي الخبر هو قطعة من حديث ابن عباس عند أحمد (٢٦٠٩)، وقد سلفت قطعة منه قريباً.

(٣) في معاني القرآن له ١/٢٣٨.

(٤) في الإملاء ٢/١٣٧.

وأبو حيان[١]: انقسمتم إلى قسمين، بدليل ما بعده، والزمخشريُّ[٢]: مَنَعَكم نَصْرَه. وابن عطية[٣]: انهزمتم. ولكلٍّ وجهة. وبعضُ المتأخرين: امتحنكم، ورُدَّ بجعل الابتداء[٤] غايةً للصرف المترتِّب على منع النصر، وعلى كلِّ تقدير يكون «صرفكم» معطوفاً على ذلك المحذوف.

وقيل: إنَّ «إذا» اسمٌ، كما في قولهم: إذا يقوم زيدٌ إذا يقوم عمرو، و«حتى» حرف جرٍّ بمعنى «إلى» متعلِّقةٌ بـ «صدقكم» باعتبار تضمُّنه معنى النصر؛ كأنه قيل: لقد نصركم الله تعالى إلى وقتِ فشَلِكُم وتَنازُعِكم إلخ، و«ثم صرفكم» حينئذ عطفٌ على ذلك، وهاتان الجملتان الظرفيتان[٥] اعتراضٌ بين المتعاطِفَين.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ بمَحْضِ التفضُّل، أو: لِمَا علم من عظيم ندمكم على المخالفة، قيل: والمراد بذلك: العفوُ عن الذنب، وهو عامٌّ لسائر المنصرفين، ويؤيد ذلك ما أخرجه البخاريُّ[٦] عن عثمان بن مَوْهَب قال: جاء رجلٌ إلى ابن عمر رضي الله عنهما فقال: إني سائلك عن شيء فحدِّثني به، أَنشُدُكَ بحُرمة هذا البيت، أَتعلَم أنَّ عثمان بن عفان فرَّ يوم أحد؟ قال: نعم، قال: فتعلمه تغيَّب عن بدر فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: فتعلم أنه تخلَّف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم، فكبَّر، فقال ابن عمر: تعال لأخبركَ ولأُبيِّنَ لك عما سألتني عنه؛ أما فرارُهُ يومَ أُحد، فأَشهد أنَّ الله تعالى عفا عنه، وأما تغيُّبُهُ عن بدر فإنه كان تحتَهُ بنتُ رسول الله ﷺ وكانت مريضةً، فقال له رسول الله ﷺ: «إنَّ لك أجرَ رجلٍ ممن شَهِدَ بدراً وسَهْمَه» وأما تغيُّبُهُ عن بيعة الرضوان، فلو كان أحدٌ أعزَّ ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث عثمانَ، فكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال النبيُّ ﷺ بيده اليمنى ـ فضرب بها على يده ـ فقال: «هذه يد عثمان» اذهب بها الآن معك.

---

(١) في البحر ٣/ ٧٩.
(٢) في الكشاف ١/ ٤٧١.
(٣) في المحرر الوجيز ١/ ٥٢٤.
(٤) في الأصل: الابتلاء، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٢/ ٩٩، والكلام منه.
(٥) أي: «منكم مَن يريد الدنيا ومنكم مَن يريد الآخرة». البحر ٣/ ٧٩، والدر المصون ٣/ ٤٣٧.
(٦) في صحيحه (٤٠٦٦). ونقله المصنف عن الدر المنثور ٢/ ٨٦.

وقال البلخيُّ: إنه عفوٌ عن الاستئصال. وروي ذلك عن ابن جريج. وزعم أبو علي الجُبائي أنه خاصٌّ بمَن لم يَعْصِ الله تعالى بانصرافه. والكلُّ خلافُ الظاهر.

وقد يقال: الداعي لقول البلخي أنَّ العفو عن الذنب سيأتي ما يدلُّ عليه بأَصْرَحِ وَجْهٍ، والتأسيسُ خيرٌ من التأكيد، وكلام ابن عمر رضي الله عنهما ليس فيه أكثر من أنَّ الله تعالى عفا عن ذنب الفارِّين، وهو صريحُ الآية الآتية، وأمَّا أنه يُفهم منه - ولو بالإشعار - أنَّ المراد من العفو هنا العفوُ عن الذنب، فلا أظنُّ منصفاً يدَّعيه.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، وفيه إيذانٌ بأنَّ ذلك العفو - ولو كان بعد التوبة - بطريق التفضُّل لا الوجوب، أي: شأنه أن يتفضَّل عليهم بالعفو، أو في جميع الأحوال، أُديلَ لهم أو أُديلَ عليهم؛ إذ الابتلاء أيضاً رحمة. والتنوين للتفخيم. والمراد بالمؤمنين: إما المخاطبون والإظهارُ في مقام الإضمار للتشريف والإشعارِ بعلَّة الحكم، وإما الجنس، ويدخلون فيه دخولاً أوليًّا، ولعلَّ التعميم هنا وفيما قبله أولى من التخصيص، وتخصيصُ الفضل بالعفو أولى من تخصيصه بعدم الاستئصال كما زعمه البعض.

﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ﴾ متعلِّقٌ بـ «صرفكم» أو بـ «يبتليكم»، وتعلُّقه بـ «عفا» كما قال الطبرسيُّ(١)، ليس بشيء، ومثله تعلُّقه - كما قال أبو البقاء(٢) - بـ «عصيتم» أو «تنازعتم» أو «فشلتم».

وقيل: متعلِّقٌ بمقدَّر كـ «اذكر»، واستُشكل بأنه يصير المعنى: اذكر يا محمد إذ تصعدون، وفيه خطابان بدون عطف، فالصواب: اذكروا.

وأجيب بأنَّ المراد بـ «اذكر» جنس هذا الفعل، فيقدَّر «اذكروا» لا «اذكر»، ويحتمل أنه من قَبيل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١] ولا يخفى أنه خلاف الظاهر، وأجاب الشهاب بأنَّ «اذكر» متضمِّنٌ لمعنى القول، والمعنى: قل لهم يا محمد: حين تصعدون إلخ، ومثله لا مَنْعَ فيه، كما تقول: [قل] لزيد: أتقول

---

(١) في مجمع البيان ٤/ ٢٣٣.
(٢) في الإملاء ٢/ ١٣٨.

كذا، فإنَّ الخطاب المحكيَّ مقصودٌ لفظُه، فلا ينافي القاعدة المذكورة، وهم غفلوا عنه، فتأمل[1]. ولا يخفى أنَّ هذا خلافُ الظاهر أيضاً.

والإصعاد: الذهاب والإبعادُ في الأرض، وفرَّق بعضهم بين الإصعاد والصعود: بأنَّ الإصعاد في مستوى الأرض، والصعود في ارتفاع.

وقيل: لا فرق بين أَصْعَدَ وصَعِدَ سوى أنَّ الهمزةَ في الأول للدخول، نحو: أصبح، إذا دخل في الصباح. والأكثرون على الأول.

وقرأ الحسن فيما أخرجه ابن جرير[2] عنه: «تَصْعَدون» بفتح التاء والعين، وحمله بعضُهم على صعود الجبل.

وقرأ أبو حيوة: «تَصعَّدون» بفتح التاء وتشديد العين[3]، وهو إما من: تصعَّد في السُّلَّم، إذا رَقِيَ، أو من: صعَّد في الوادي تصعيداً، إذا انحدر فيه، فقد قال الأخفش[4]: أَصْعَدَ في الأرض، إذا مضى وسار، وأصعد في الوادي وصعَّد فيه، إذا انحدر، وأنشد:

فإمَّا تَرَيني اليومَ مُزجي ظَعينتي أُصعِّدُ طَوْراً في البلاد وأُفرِعُ[5]

وقال الشَّمَّاخ:

فإنْ كَرِهْتَ هجائي فاجتنبْ سَخَطي لا يدهمنَّك إفراعي وتصعيدي[6]

---

(١) حاشية الشهاب ٣/ ٧١، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) في تفسيره ٦/ ١٤٥.

(٣) القراءات الشاذة ص ٢٣.

(٤) في معاني القرآن ١/ ٤٢٤، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (صعد).

(٥) الصحاح (صعد)، والبيت ليس في معاني القرآن للأخفش، وقائله عبد الله بن همَّام السلولي، كما في الكتاب ٣/ ٥٧، واللسان (صعد)، والخزانة ٩/ ٣٣، وفيه: الإزجاء: السَّوْق، يقال: أزجيت الإبل إذا سقتها. والظعينة: المرأة ما دامت في الهودج. اهـ. وأُفرِع: أصعد، وهو من الأضداد، وكذلك صعَّد، وفي اللسان: مَن جعل «أصعِّد» في البيت الإصعاد، كان «أُفرِع» بمعنى الانحدار، ومَن جعله بمعنى الانحدار كان «أُفرِع» بمعنى الإصعاد.

(٦) الصحاح (صعد)، وهو في ديوان الشماخ ص ١١٥ برواية: . . . لا يُدْرِكَنَّك تفريعي وتصعيدي.

وورد عن غير واحد أنَّ القوم لمَّا امتُحنوا، ذهبوا فراراً في وادي أُحد، وقال أبو زيد[١]: يقال: صَعِد في السُّلَّم صعوداً، وصَعَّد في الجبل أو على الجبل تصعيداً، ولم يعرفوا فيه صَعِدَ.

وقرأ أبيٌّ: «إذ تُصعدون في الوادي»[٢] وهي تؤيِّد قولَ مَن قال: إنَّ الإصعاد: الذهابُ في مستوى الأرض، دون الارتفاع.

وقرئ: «يَصْعَدون» بالياء التحتية[٣]، وأَمْرُ تعلُّق «إذ» بـ «اذكر» عليه ظاهر.

﴿وَلَا تَلْوُنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي: لا تُقيمون على أحد، ولا تعرجون، وهو من لوى بمعنى عَطَف، وكثيراً ما يستعمل بمعنى وقف وانتظر؛ لأنَّ من شأن المنتظر أن يلويَ عُنقه، وفُسِّر أيضاً بـ «لا ترجعون» وهو قريبٌ من ذلك، وذكر الطبرسيُّ أنَّ هذا الفعل لا يُذكر إلا في النفي، فلا يقال: لَوَيتُ على كذا[٤].

وقرأ الحسن: «تَلُون» بواو واحدة[٥] بقلبِ الواو المضمومة همزةً وحذفها تخفيفاً.

وقرئ: «تُلوون» بضم التاء[٦]، على أنه من أَلوى لغة في لوى، و«يَلوون» بالياء[٧] كـ «يَصعدون».

قال أبو البقاء: ويقرأ: «على أُحُد» بضمتين، وهو الجبل[٨]. والتوبيخُ عليه غيرُ ظاهر، ووجَّهه بعضُهم بأنَّ المراد: أصحاب أُحُد، أو مكان الوقعة، وفيه إشارةٌ إلى

(١) هو سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري، وكلامه في الصحاح (صعد). وينظر النوادر في اللغة ص ٢٠٠.
(٢) القراءات الشاذة ص٢٣.
(٣) القراءات الشاذة ص ٢٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٦، والكشاف ١/ ٤٧١، والبحر ٣/ ٨٢.
(٤) مجمع البيان ٤/ ٢٣٣.
(٥) القراءات الشاذة ص ٢٣، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٢، والكشاف ١/ ٤٧١، والبحر ٣/ ٨٢.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٢، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٦، والبحر ٣/ ٨٣.
(٧) القراءات الشاذة ص ٢٣، والبحر ٣/ ٨٢.
(٨) الإملاء ٢/ ١٣٨ ونسبها أبو حيان في البحر ٣/ ٨٣ لحميد بن قيس.

إبعادهم في استشعار الخوف، وجِدِّهم في الهزيمة حتى لا يلتفتون إلى نفس المكان.

﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ أي: يناديكم في ساقَتكم[(١)]، أو جماعتكم الأخرى، أو يدعوكم من ورائكم، فإنه يقال: جاء فلانٌ في آخر الناس وأخرتهم وأخراهم، إذا جاء خلفهم. وإيرادُه عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة للإيذان بأنَّ دعوتَه ﷺ كانت بطريق الرسالة من جهته تعالى، مبالغة في توبيخ المنهزمين، روي أنه ﷺ كان ينادي: «إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله، أنا رسول الله، مَن يكرَّ فله الجنة»[(٢)] وكان ذلك حين انهزم القوم وجدُّوا في الفرار قبل أن يصلوا إلى مدًى لا يُسمع فيه الصوت، فلا ينافي ما تقدَّم عن كعب بن مالك أنه لمَّا عَرَفَ رسولَ الله ﷺ ونادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أَبْشِروا، هذا رسول الله ﷺ، أشار إليه رسول الله عليه الصلاة والسلام أنْ أَنْصِتْ، لأنَّ ذلك كان آخرَ الأمرِ حيث أَبْعدَ المنهزمون، والجملة في موضع الحال.

﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ عطفٌ على «صَرَفَكم»، والضمير المستتر عائدٌ على الله تعالى، والتعبير بالإثابة من باب التهكُّم على حدِّ قوله:

تحيةُ بَيْنِهم ضَرْبٌ وجيعُ[(٣)]

أو أنها مجازٌ عن المجازاة، أي: فجازاكم الله تعالى بما عصيتم.

﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ أي: كرباً بكرب. والأكثرون على أنه لا فرق بين الغمِّ والحزن. والباء إما للمصاحبة والظرفُ مستقرٌّ، أي، جازاكم غَماً متصلاً بغم. والغمُّ الأول: ما حصل لهم من القتل والجرح وغلبة المشركين عليهم، والغمُّ الثاني: ما حصل لهم من الإرجاف بقتل النبيِّ ﷺ وفَوْت الغنيمة، وإلى هذا ذهب قتادة والربيع، وقيل: الغمُّ الثاني: إشرافُ أبي سفيان وأصحابه عليهم وهم مع رسول الله ﷺ على

---

(١) ساقة الجيش: مؤخَّرُه. القاموس المحيط (سوق).

(٢) أخرجه الطبري ٦/ ١٤٦-١٤٨ عن ابن عباس وقتادة والربيع والسدي، دون قوله: أنا رسول الله من يكر فله الجنة. وهو بلفظ المصنف في عمدة القاري ١٤/ ٢٨٣.

(٣) وصدره: وخيلٍ قد دلفت لها بخيل، والبيت لعمرو بن معدي كرب، كما في الكتاب ٣/ ٥٠، والنوادر لأبي زيد ص ١٥٠، والخزانة ٩/ ٢٦٥، وقال البغدادي: ولم أره في شعره.

الصخرة، وحكي ذلك عن السُّدِّي. وقيل: المراد مجرَّدُ التكثير، أي: جازاكم بغمومٍ كثيرة متَّصلٍ بعضُها ببعض.

وإما للسببية، والظرف متعلِّقٌ بـ «أثابكم»، والغمُّ الأول للصحابة ﷺ بالقتل ونحوه، والغمُّ الثاني للرسول ﷺ بمخالفة أمره، أي: أثابكم غمًّا بسبب غمٍّ أذقتموه رسولَ الله ﷺ بعصيانكم له ومخالفتكم أمره.

وقال الحسن بن علي المغربي: الغمُّ الأول للمشركين بما رأوا من قوة المسلمين على طلبهم وخروجهم إلى حمراء الأسد، والغمُّ الثاني للمؤمنين بما نيل منهم، أي: فجازاكم بغمٍّ أعدائكم المشركين بسبب غمٍّ أذاقوه إياكم. وقيل: الباء على هذا للبدلِ، وكلا القولين بعيد، والعطف عليه غيرُ ظاهر.

وأبعدُ من ذلك ما روي عن الحسن: أنَّ الغمَّ الأول للمؤمنين بما أصابهم يوم أحد، والغمَّ الثاني للمشركين بما نالهم يوم بدر، والمعنى: فجازاكم غمًّا يوم أُحد بالقتل والجرح، بسبب غمٍّ أذقتموه المشركين يوم بدر كذلك. واعترض عليه بأنَّ ما لحق المشركينَ يوم بدر من جهة المسلمين، إنما يوجب المجازاة بالكرامة دون الغمّ.

وقيل: الضمير المستكنُّ في «أثابكم» للرسول ﷺ، وأثابكم بمعنى آساكم، أي: جعلكم أسوة له متساويين في الحزن، فاغتمَّ ﷺ بما نزل عليكم، كما اغتممتم بما نزل عليه، ولم يُثَرِّبْكم على عصيانكم تسليةً لكم وتنفيساً عنكم.

واعتُرض عليه بأنه خلافُ الظاهر؛ للزوم التفكيك على تقدير أن يكون العطف على «صرفكم»، وعَدَمِ ظهورِ الترتُّب إلا بتكلُّفٍ إن كان العطف على «يدعوكم»، نعم التعليل عليه بقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ ظاهرٌ؛ إذ المعنى: آساكم بذلك لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر، ولا ما أصابكم من الشدائد، وكذا على ما ذهب إليه المغربي. وأما على الأوجه الأُخر، فالمعنى: لتتمرَّنوا على الصبر في الشدائد، فلا تحزنوا على نفعٍ ما فات، أو ضرٍّ آت، وإنما احتيج إلى هذا التأويل؛ لأنَّ المجازاة بالغمِّ إنما تكونه سبباً للحزن لا لعدمه.

وقيل: «لا» زائدة، والمعنى: لكي تَأسَفُوا على ما فاتكم من الظَّفَر والغنيمة، وعلى ما أصابكم من الجراح والهزيمة عقوبةً لكم، فالتعليل حينئذ ظاهر. ولا يخفى أنَّ تأكيد «لا» وتكريرَها يُبْعِدُ القولَ بزيادتها.

وقيل: التعليل على ظاهره، و«لا» ليست زائدة، والكلام متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ أي: ولقد عفا الله تعالى عنكم لئلّا تحزنوا إلخ، فإنَّ عفوَ الله تعالى يُذهب كلَّ حزن. ولا يخفى ما فيه.

وربما يقال: إنَّ أمر التعليل ظاهرٌ أيضاً، على ما حكي عن السدي من غير حاجة إلى التأويل، ولا القولِ بزيادة «لا»، ويوضِّح ذلك ما أخرجه ابن جرير[1] عن مجاهد قال: أصابَ الناسَ غمٌّ وحزنٌ على ما أصابهم في أصحابهم الذين قُتلوا، فلما اجتمعوا في الشِّعب وقف أبو سفيان وأصحابه بباب الشِّعب، فظنَّ المؤمنون أنهم سوف يميلون عليهم فيقتلونهم أيضاً، فأصابهم حزنٌ أنساهم حُزنَهم في أصحابهم فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَثَبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ إلخ.

وحديث: أنَّ المجازاة بالغمِّ إنما تكون سبباً للحزن لا لعدمه، غير مُسلَّمٍ على الإطلاق، وأيُّ مانع من أن يكون غمٌّ مخصوصٌ سبباً لزوال غمٍّ آخرَ مخصوصٍ أيضاً، بأن يَعْظُمَ الثاني فيُنسى الأول؟ فتدبر.

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ عليمٌ بأعمالكم وبما قصدتم بها، وفي «المقصد الأسنى»: الخبير بمعنى العليم، لكن العلم إذا أُضيف إلى الخفايا الباطنة سُمِّي خبرة، وسُمِّي صاحبها خبيراً[2]. وفيه ترغيبٌ في الطاعة وترهيبٌ عن المعصية.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾ عطفٌ على «فأثابكم» والخطاب للمؤمنين حقًّا، والمعنى: ثم وهب لكم أيها المؤمنون ﴿مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ الذي اعتراكم، والتصريحُ بتأخُّر الإنزال عنه، مع دلالة «ثم» عليه وعلى تراخيه عنه؛ لزيادة البيان وتذكيرِ عِظَم المِنَّة.

﴿أَمَنَةً﴾ مصدرٌ كالمَنَعَة، وهو مفعول «أنزل»، أي: ثم أنزل عليكم أمناً ﴿نُّعَاسًا﴾ بدلُ اشتمالٍ منها، وقيل: عطف بيان.

---

(١) في تفسيره ٦/١٥٦.
(٢) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى للإمام الغزالي ص ١٠٣.

وجوّز أن يكون «نعاساً» منصوباً على المفعولية و«أَمَنة» حالٌ منه، والمراد: ذا أَمَنةٍ، ولا يضرُّ كونُها من النكرة لتقدُّمها، أو حالٌ من المخاطَبين على تقدير مضاف، أي: ذوي أَمَنة أو على أنه جمعُ آمِنٍ ك «بارٍّ» وبَرَرَةٍ.

وقيل: إنَّ «أمنة» مفعولٌ له لـ «نعاساً».

واعتُرض بأنه يلزم على ظاهره تقديم معمول المصدر عليه، وإن التزم تقدير فعل، أي: نعستم أَمَنة، وَرَدَ أنه ليس للفعل موقعٌ حسن.

وقيل: إنه مفعول له لـ «أنزل».

واعترض بأنه فاسدٌ لاختلال شرطه، وهو اتحادُ الفاعل؛ إذ فاعل «أنزل» هو الله تعالى، وفاعل «الأمنة» هو المنزَلُ عليهم.

ورُدَّ بأنَّ الأَمَنة كما يكون مصدراً لمن وقع به الأمنُ، يكون مصدراً لمن أوقعه، والمراد هنا الثاني، كأنه قيل: أنزل عليكم النعاس ليؤمِّنكم به، وحينئذ لا شبهة في اتحاد الفاعل.

وقرئ بسكون الميم[1]، كأنَّها لوقوعها في زمنٍ يسيرٍ مرَّةٌ من الأمن، فلا ينافي كونَ المقصود مطلقَ الأمن.

وتقديم الظرفين على المفعول الصريح للاعتناء بشأن المقدَّم، والتشويقِ إلى المؤخَّر، وتخصيصُ الخوف من بين فنون الغمِّ بالإزالة؛ لأنه المهمُّ عندهم في ذلك المقام، فقد أخرج ابن جرير[2] عن السُّدِّي أنَّ المشركين انصرفوا يوم أُحدٍ بعد الذي كان من أَمرهم وأَمْر المسلمين، فواعَدوا النبيَّ ﷺ بدراً من قابِلٍ، فقال لهم: «نعم» فتخوَّف المسلمون أن ينزلوا المدينة، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً فقال: «انظر، فإن رأيتَهم قد قعدوا على أثقالهم وجَنَبوا خيولهم[3]، فإنَّ القوم ذاهبون، وإن رأيتهم قد قعدوا على خيولهم وجَنَبوا أثقالهم، فإنَّ القوم ينزلون المدينة، فاتقوا الله تعالى واصبروا» ووطَّنهم على القتال، فلما أَبصرهم الرسول قعدوا على

(١) هي قراءة ابن محصن والنخعي. القراءات الشاذة ص ٢٣، والمحرر الوجيز ١/ ٥٢٧.

(٢) في تفسيره ٦/ ١٦٠-١٦١.

(٣) أي: قادوها. سبل الهدى والرشاد ٤/ ٤٠٧.

الأثقال سراعاً عِجالاً، نادى بأعلى صوته بذهابهم، فلما رأى المؤمنون ذلك صدَّقوا نبيَّ الله ﷺ، فناموا، وبقي أُناسٌ من المنافقين يظنُّون أنَّ القوم يأتونهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾ إلخ. وعن ابن عباس في الآية قال: أمَّنهم الله تعالى يومئذ بنُعاسٍ غشَّاهم، وإنما ينعسُ مَن يأمن[1]. والخائف لا ينام.

وأخرج خلقٌ كثير عن أنس أنَّ أبا طلحة قال: غَشِيَنا النعاس يوم أحد ونحن في مصافِّنا، وكنت ممن غَشِيَه النعاس يومئذ، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخُذُه، ويسقط وآخذه[2]. وفي رواية أخرى عنه أنه قال: رفعتُ رأسي يوم أحد فجعلت أنظر وما منهم من أحد إلا وهو يميد تحت حَجَفَته ـ أي: ترسه ـ من النعاس[3]. وعن الزبير بن العوام مثله[4]، قيل: وهذه عادة الله تعالى مع المؤمنين، جَعْلُ النعاس في الحرب علامةً للظَّفر، وقد وقع كذلك لعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه في صِفِّين، وهو من الواردات الرحمانية والسكينة الإلهية.

﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ قال ابن عباس: هم المهاجرون وعامة الأنصار، وفيه إشعارٌ بأنه لم يَغْشَ الكلَّ، ولا يقدحُ ذلك في عموم الإنزال للكلِّ، والجملةُ في موضع نصبٍ على أنها صفةٌ لـ «نعاساً».

وقرأ حمزة والكسائي: «تَغْشى» بالتاء الفوقانية[5]، على أنَّ الضمير للأَمَنة، والظاهر أنَّ الجملة حينئذٍ مستأنفةٌ وقعت جواباً لسؤالٍ تقديره: ما حُكْمُ هذه الأَمَنَة؟ فأُجيب بأنها تغشى طائفة.

وقيل: إنها في موضع الصفة لـ «أَمَنة». واعترُض بأنَّ الصفة حقُّها أن تتقدَّم على البدل وعطفِ البيان، وأن لا يُفْصَلَ بينها وبين الموصوف بالمفعول له[6]، وأنَّ

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ١٦١.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٣٥٧)، والبخاري (٤٥٦٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٠٧)، والنسائي في الكبرى (١١١٣٤). قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٠٠٧)، وأبو يعلى (١٤٢٣). قال الترمذي: حديثٌ حسن صحيح.

(٥) التيسير ص ٩١، والنشر ٢/ ٢٤٢، وهي قراءة خلف من العشرة.

(٦) يعني «نعاساً»، لأنه مفعول من أجله لـ «أنزل» أو بدلٌ أو عطف بيان عندما يكون قوله: =

المعهود أن يُحدَّث عن البدل دون المبَدل منه.

﴿وَطَآبِفَةٌ﴾ وهم المنافقون ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: جعلتهم ذوي هَمٍّ، وأَوْقعتهم فيه، أو: ما يهمُّهم إلا أنفسُهم، لا النبيُّ ﷺ ولا غيره، مِن أَهمَّه بمعنى: جعله مهمًّا له ومقصوداً، والحصرُ مستفادٌ من المقام، وذكر بعضُهم أنَّ العرب تطلق هذا اللفظ على الخائف الذي شغله همُّ نفسه عن غيره.

و«طائفة» مبتدأٌ، وجملة «قد أهمَّتهم» إلخ خبره، وجاز ذلك مع كونها نكرةً لوقوعها بعد واو الحال، كما في قوله:

سَرَيْنا ونجمٌ قد أضاءَ فمذْ بدا ... محيَّاك أَخْفَى ضوؤه[1] كلَّ شارِقِ

أو لوقوعها موقع التفصيل كما في قوله:

إذا متُّ كان الناسُ صنفانِ شامتٌ ... وآخرُ مُثْنٍ بالذي أنا صانع[2]

وجُوِّز أن تكون الجملة نعتاً لها، والخبر حينئذ محذوفٌ، أي: ومعكم، أو: وهناك طائفة، وتقدير: ومنكم طائفة، يقتضي أن يكون المنافقون داخلين في الخطاب بإنزال الأَمَنة، وأيّاً ما كان فالجملة إما حاليةٌ مبيِّنةٌ لفظاعة الهول مؤكِّدةٌ لعِظَم النعمة في الخلاص عنه، وإما مستأنفةٌ مسوقةٌ لبيان حال المنافقين، فالواو إما حالية وإما استئنافية. وكونُها بمعنى «إذ» ليس بشيء، كما نصَّ عليه أبو البقاء[3].

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ في موضع الحال من ضمير «أهمَّتهم»، لا من «طائفة» وإن تخصَّصت؛ لِمَا في مجيء الحال من المبتدأ من المقال، وجُوِّز أن تكون صفةً بعد صفة لـ «طائفة»، أو خبراً بعد خبر، أو هي الخبر و«قد أَهمَّتهم» صفة، أو مستأنفة مبيِّنة لِمَا قبلها.

= «أمنة» مفعولاً به، وضعف أبو حيان في البحر ٣/ ٨٦ كونه مفعولاً من أجله لاختلال شرط اتحاد الفاعل بين الإنزال والنعاس.

(١) في الأصل: ضوئه، وفي (م): ضوء، والمثبت من مغني اللبيب ص ٦١٣، وشرح ابن عقيل ١/ ٢٢١.

(٢) البيت للعُجير السلولي، وهو في زهر الأكم ١/ ٣٥٤، وخزانة الأدب ٩/ ٧٢، وفيهما: أصنع، بدل: صانع.

(٣) في الإملاء: ٢/ ١٣٩-١٤٠.

و«غير» منصوبٌ على المصدرية المؤكِّدة؛ لأنه مضافٌ إلى مصدرٍ محذوف، وهو بحَسب ما يضاف إليه، أي: غيرَ الظنِّ الحقِّ، وهو الذي يحقُّ أن يُظَنَّ به تعالى، وقال بعضهم: إنه مفعولٌ مطلقٌ نوعيٌّ.

وقوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدلٌ مما قبله، وقال ابن الحاجب: «غيرَ الحقِّ» و«ظنَّ» مصدران؛ أحدهما للتشبيه، والآخرُ تأكيدٌ لغيره، أي: يقولون غيرَ الحقِّ.

ومفعولا «يظنُّون» محذوفان، أي: يظنون أنَّ إخلافَ وعده سبحانه حاصلٌ، وأبو البقاء يجعل «غيرَ الحق» مفعولاً أوَّلاً، أي: أمراً غيرَ الحق، و«بالله» في موضع المفعول الثاني[1].

وإضافة «ظنَّ» إلى الجاهلية، قيل: إما من إضافة الموصوف إلى مصدرِ صفته، ومعناها الاختصاصُ بالجاهلية؛ كرجلِ صدقٍ وحاتم الجود، فهي على معنى اللام، أي: المختصّ بالصدق والجود، فالياء مصدرية، والتاء للتأنيث اللازم له. وإما من إضافة المصدر إلى الفاعل على حذف المضاف، أي: ظنَّ أهلِ الجاهلية، أي: الشرك والجهل بالله تعالى، وهي اختصاصيةٌ حقيقية أيضاً.

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: يقول بعضُهم لبعض على سبيل الإنكار: هل لنا من النصر والفتح والظَّفَر نصيبٌ، أي: ليس لنا من ذلك شيء؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى لا ينصر محمداً ﷺ.

أو: يقول الحاضرون منهم لرسول الله ﷺ على صورة الاسترشاد: هل لنا من أمر الله تعالى ووَعْدِه بالنصر شيءٌ؟ واختاره بعض المحققين.

والجملة قيل: إما حالٌ، أو خبرٌ إثْرَ خبرٍ، أو صفةٌ إثْرَ صفةٍ، أو مستأنَفةٌ مبيِّنةٌ لما قبلها، أو بدلٌ من «يظنُّون» وهو بدلُ الكلِّ بحَسَبِ الصدق، وبدلُ الاشتمالِ بحَسَب المفهوم. واستشكل بأنَّ قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا﴾ إلخ تفسيرٌ لـ «يظنُّون» وترجمةٌ له، والاستفهامُ لا يكون ترجمةً للخبر، كما لا يصحُّ أن تقول: أخبرَني زيد قال: لا تذهب، أو أمرني قال: لا تضرب، أو نهاني قال: اضرب، فإنَّ المطابقة بين الحكاية والمحكي واجبة.

---

(١) الإملاء ٢/ ١٤٠.

وحاصل الإشكال أنَّ متعلّق الظنِّ النسبةُ التصديقية، فكيف يقع استفهامٌ ترجمةً له؟

وأجيب بأنَّ الاستفهام طلبُ علم فيما يُشَكُّ ويُظَنُّ، فجاز أن يكون متعلّقَ الظّنِّ، وتحقيقُهُ أنَّ الظنَّ أو العلمَ يتعلّق بما يقال في جواب ذلك الاستفهام، على ما ذُكر في باب تعليق أفعال القلوب باستفهام.

ولا يخفى أنَّ هذا إنما هو على تقدير كون الاستفهام حقيقيًّا، وأما على تقدير كونه إنكاريًّا فلا إشكال، ولا قيل ولا قال؛ لأنه خبرٌ فيتطابق مع ما قبله في الخبرية.

وبعضُ من جَعَلَه إنكاريًّا ذهب إلى أنَّ المعنى: إنَّا منعنا تدبيرَ أنفسنا وتصريفَها باختيارنا، فلم يبقَ لنا من الأمر شيء، وقد قال ذلك عبد الله بن أبيٍّ حين أخبره المنافقون بقَتْلِ بني الخزرج[1]، ثم قال: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل[2]، قيل: وظنُّهم السوء على هذا تصويبهم رأيَ عبد الله ومَن تبعه.

وقيل: الاستفهام على ظاهره، والمعنى: هل يزول عنَّا هذا القهرُ فيكون لنا من الأمر شيء، ولا يخفى أنه خلافُ الظاهر.

و«من» الثانية سيف خطيب[3]، و«شيء» في موضع رفعٍ على الابتداء، وفي خبره ـ كما قال أبو البقاء[4] ـ وجهان، أحدهما: «لنا» فـ «من الأمر» حال، والثاني: «من الأمر» فـ «لنا» تبيينٌ، وبه تتم الفائدة.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: إنَّ الشأن والغلبة الحقيقية لحزب الله تعالى وأوليائه، فينصر رسولَه ﷺ وأصحابه، ويخذل أعداءه ويقهرهم، وكنى بكون الغلبة لله تعالى عن كونها لأوليائه؛ لكونهم من الله سبحانه بمكان، أو أنَّ القضاء أو التدبير له تعالى مخصوصٌ به لا يشاركه فيه غيرُهُ، فيفعل ما يشاء ويُجري الأمور

---

(١) أخرجه الطبري ٦/ ١٦٧ عن ابن جريج.
(٢) أخرجه أحمد (١٥٢٢٣)، والبخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) (٦٣) من حديث جابر ﷺ وقد وقع هذا القول من عبد الله بن أبي في غزوة المريسيع، كما ذكر الحافظ في الفتح ٦/ ٥٤٧.
(٣) أي: زائدة. ينظر الدر المصون ٣/ ٤٤٨.
(٤) في الإملاء ٢/ ١٤٠.

حَسْبَما جرى به القلم في سابق القضاء، وعلى هذا لا كناية في الكلام، وجاء مؤكَّداً لِمَا أنَّ الكلامَ الذي وقع هو في مقابلته كذلك.

واستظهر في «البحر»[1] من هذا الأمر كونَ الاستفهام فيما تقدَّمه باقياً على حقيقته؛ إذ لو كان معناه نفيَ أن يكون لهم شيءٌ من الأمر، لم يجابوا بإثبات أنَّ الأمر كلَّه لله، اللهم إلَّا أن يُقدَّر مع جملة النفي جملةٌ ثبوتية، ليكون المعنى: ليس لنا من الأمر شيء، بل لغيرنا ممن حَمَلَنا على الخروج وأَكْرَهَنا عليه، فحينئذ يمكن أن يكون ذلك جواباً لهذا المقدَّر.

وفيه أنه لا حاجة إلى هذا التقدير على ذلك التقدير أيضاً، أمَّا إذا كان مرادُهم نفي نصر الله تعالى نبيَّه ﷺ ومَن معه، فواضحٌ؛ لأنَّ في هذا القول إثباتُ ذلك النصر على أتمِّ وجه، وأما إذا كان مرادُهم أنه لم يبق لهم من الأمر شيءٌ حيث مُنعوا تدبير أنفسهم، فلأنَّ في ذلك النفي إشعاراً بأنَّ لهم تدبيراً، وأنهم لو تُركوا وتدبيرَهم ما غُمزت قناتُهم، وهذا الإثبات متكفِّلٌ بردِّ ذلك وإبطاله على وجهٍ لا[2] سترة عليه كما لا يخفى، فلا أرى التقدير على ما فيه إلا من ضيق العَطَن.

وقرأ أبو عمرو ويعقوب: «كلُّه» بالرفع على الابتداء[3]، والجارُّ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع خبراً له، والجملة خبر «إنَّ»، وأما على قراءة النصب ف «كلَّ» توكيدٌ لاسم «إنَّ» و«لله» خبرُها.

وزعم أبو البقاء[4] أنه يجوز أن يكون «كلَّه» بدلاً من «الأمر» وفيه بُعْدٌ.

﴿يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ أي: يُضْمِرون فيها، أو: يُسرُّون فيما بينهم ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ﴾ أي: ما لا يستطيعون إظهارَه لك، والجملة إما استئنافٌ أو حالٌ من ضمير «يقولون»، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ اعتراضٌ بين الحال وصاحبها، أي: يقولون ما يقولون مُظهرين أنهم مسترشدون طالبون للنصر مبطنين الإنكار والتكذيب، وهذا ظاهرٌ على الاحتمال الثاني في الآية الأولى، والذاهب إلى حمل

---

(١) ٣/ ٨٨.

(٢) قوله: لا. ساقط من (م).

(٣) التيسير ص ٩١، والنشر ٢/ ٢٤٢.

(٤) في الإملاء: ٢/ ١٤٠.

الاستفهام فيها على الإنكار يتعيَّن عنده الاستئناف، أو يجوز الخبرية ونحوها أيضاً على ما مرَّ، والجملةُ الجوابيةُ اعتراضيةٌ في كلِّ حالٍ سوى احتمال الاستئنافية على الصحيح، وأما جَعْلُ هذه الجملة حالاً من ضمير «قل» والرابط «لك» فلا يخفى حاله.

﴿يَقُولُونَ﴾ أي: في أنفسهم، أو خِفْيةً لبعضهم؛ إذ لو كان القول جهاراً لم يكونوا منافقين. والجملة إما بدلٌ من «يُخفون»، أو استئنافٌ وقع جواباً عن سؤالٍ نشأ مما قبله، كأنه قيل: ما الذي أَخْفَوه؟ فقيل ذلك، ورجَّحه بعض المحققين بأنه أكثرُ فائدةً، وبأنَّ القولَ إذا حُمل على ظاهره لم يتفاوت القولان؛ لأنَّ قولَهم: «هل لنا» للمؤمنين ليس في حال قولهم: «لو كان لنا» لأصحابهم، وبدلُ الحال حال.

وأنت تعلم أنَّ هذا الأخيرَ مبنيٌّ على أنَّ القول الأول كان للمؤمنين، وقد علمتَ أنه غيرُ متعيِّن.

وقيل: لأنه لا يجتمع قولان من متكلِّمٍ واحد. وفيه أنَّ زمانَ الحال المقارِن ليس مبنيًّا على التضييق كما لا يخفى. ومن هنا علَّل بعضُ الفضلاء نفيَ المقارَنة بترتُّب هذا على ما قبله، وعَدَل عن هذا التعليل، فإنَّ: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ على معنى: لو كان لنا شيءٌ من ذلك كما وَعَدَ محمدٌ وادَّعى أنَّ الأمر كلَّه لله تعالى ولأوليائه ما قتلنا، فكأنَّ هذا في زعمهم ردٌّ لِمَا أُجيبوا به أولاً. ويحتمل أن يكون المراد: لو كان لنا اختيارٌ وتدبيرٌ لم نبرح، كما كان رأي ابن أُبيٍّ وأتباعه.

ومعنى «ما قتلنا»: ما غُلبنا؛ لأنَّ القائلين ليسوا ممن قُتل؛ لاستحالته. ويحتمل أن يكون الإسناد مجازيًّا بإسناد ما للبعض للكلّ، فالمعنى: لو كان لنا شيءٌ من ذلك ما قُتل مَنْ قُتل منَّا في هذه المعركة.

ثم لا يخفى أنَّ القول بالتَّرتُّب يستدعي سَبْقَ نزول الآية الجوابية وسماعَهم لها، حتى يتأتَّى القولُ بزَعْم ردِّها بهذه الشبهة الفاسدة، والظاهر من الآثار عدمُ نزولها إذ ذاك، فقد أخرج ابن أَبي حاتم[1] عن الحسن أنه سئل عن هذه الآية فقال: لمَّا قُتل

(١) في تفسيره ٣/ ٧٩٥.

مَنْ قُتل من أصحاب محمد ﷺ، أَتَوا عبدَ الله ابن أبيّ فقالوا له: ما ترى، فقال: إنَّا والله ما نُؤامَر، لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتلنا هاهنا.

وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن جرير[(١)] وخَلْقٌ كثيرٌ عن الزبير ﷺ قال: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتدَّ الخوف علينا، أرسل الله تعالى علينا النوم، فما منَّا من رجل إلا ذَقْنُهُ في صدره، فوالله إنِّي لأسمع قولَ مُعتِّب بن قُشَير، ما أسمعه إلا كالحُلم: لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتلنا هاهنا. فحفِظْتُها منه، وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ﴾ إلى ﴿هَٰهُنَا﴾.

وقد يقال: إنَّ هذا القول منهم كالاستدلال على القول الأول، وإنَّ كلا القولين وقع منهم ابتداءً، وقصَّه الله تعالى علينا رادًّا له، وهذا ظاهرٌ على تقدير أن يكون الاستفهام إنكاريًّا، وأما على تقدير أن يكون حقيقيًّا، ففيه خفاءٌ، فتأمل.

﴿قُل﴾ يا محمد في جواب ذلك ﴿لَّوْ كُنتُمْ﴾ أيها المنافقون ﴿فِى بُيُوتِكُمْ﴾ ومنازلكم بالمدينة ولم تخرجوا للقتال بجملتكم ﴿لَبَرَزَ﴾ أي: لخرج لسببٍ من الأسباب الداعية إلى البروز ﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ﴾ في اللوح المحفوظ، أو قُدِّر في سابق علم الله تعالى ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾ في تلك المعركة ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: مَصارِعهم التي علم الله تعالى وقدَّر قَتْلَهم فيها، وقُتلوا هناك البتَّة، فإنَّ قضاء الله تعالى لا يُردُّ وحكمه لا يُعقَّب، وفيه من المبالغة في ردِّ مقالتهم الباطلة ما لا يخفى.

وزعم بعضٌ أنَّ الظاهر الأبلغَ أن يُراد بمَنْ كُتب عليهم القَتْل الكفارُ القاتلون، أي: لَخرج الذي يَقْتُلون مِن بين قومهم إلى مضاجع المقتولين، ولم ينجُ أحدٌ منهم مع تحصُّنهم بالمدينة وتحفُّظهم في بيوتهم. ولا يخفى بُعْدُه، لِمَا فيه من التفكيك، ولأنَّ الظاهر من «عليهم» أنهم مقتولون لا قاتلون.

وقيل: المعنى: لو لزمتم منازلكم أيها المنافقون والمرتابون وتخلَّفتم عن القتال، لخرج إلى البِراز المؤمنون الذين فُرض عليهم القتال، صابرين محتسبين، فيَقتُلون ويُقتَلون، ويَؤُولُ إلى قولنا: لو تخلَّفتم عن القتال لا يتخلَّفُ المؤمنون.

---

(١) كما في الدر المنثور ٢/ ٨٨، وهو في تفسير الطبري ٦/ ١٦٨، وأخرجه - أيضاً - ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٧٩٥، والبيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢٧٣.

والمضاجع: جمع مَضْجَع، فإن كان بمعنى المرقد، فهو استعارةٌ للمَصْرع، وإن كان بمعنى محل امتداد البدن مطلقاً للحي والميت، فهو حقيقة.

وقرئ: «كَتَبَ» بالبناء للفاعل، ونَصْبِ «القتل»(١)، و«كُتب عليهم القتال»(٢)، و«لَبُرِّز» بالتشديد على البناء للمفعول(٣).

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي: ليختبر الله تعالى ما في صدوركم بأعمالكم، فإنه قد عَلِمَهُ غيباً، ويريد أن يعلمه شهادة، لتقع المجازاة عليه. قاله الزجَّاج(٤). أو: ليعاملكم معاملة المبتلَى الممتَحَن؛ قاله غير واحد.

وهو خطابٌ للمؤمنين، واللام للتعليل، ومدخولُها علَّةٌ لفعلٍ مقدَّرٍ قبلُ، معطوفٌ(٥) على عللٍ أخرى مطويةٍ للإيذان بكثرتها، كأنه قيل: فَعَلَ ما فَعَلَ لمصالحَ جمَّةٍ وليبتلي إلخ، أو لِفِعْلٍ مقدَّر بَعْدُ، أي: وللابتلاء المذكور فَعَلَ ما فَعَلَ، لا لعدم العناية بشأن أوليائه وأنصارِ نبيِّه ﷺ مثلاً، والعطف على هذا عند بعض المحققين على قوله تعالى: (أَنزَلَ عَلَيْكُم) والفصل بينهما مغتَفرٌ؛ لأنَّ الفاصل من متعلِّقات المعطوف عليه لفظاً أو معنى.

وقيل: إنه لا حَذْفَ في الكلام، وإنما هو معطوفٌ على قوله تعالى: (لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا) أي: أثابكم بالغمِّ لأمرين؛ عدم الحزن والابتلاء، واستُبعد بأنَّ توسُّط تلك الأمور مُحتاجٌ إلى نكتةٍ حينئذ، وهي غيرُ ظاهرة.

وأَبعدُ منه ـ بل لا يكاد يُقبل ـ العطفُ على قوله تعالى: (لِيَبْتَلِيَكُمْ) أي: صَرَفكم عنهم ليبتليكم وليبتلي ما في صدوركم.

وجَعَله بعضُهم معطوفاً على عِلَّةٍ محذوفة، وكلتا العِلَّتين لـ «برز الذين»، كأنه

(١) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢٣ لابن عباس.
(٢) هي قراءة الحسن والزهري. المحرر الوجيز ١/ ٥٢٩، والبحر ٣/ ٩٠.
(٣) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢٣ لأبي حيوة.
(٤) في معاني القرآن ١/ ٤٨٠.
(٥) أي: المدخول، وفي تفسير أبي السعود ٢/ ١٠٢ (والكلام منه): معطوفة، أي: العلة، وكلاهما صواب.

قيل: لَبَرَزَ الذين كُتب عليهم القتل إلى مضاجعهم؛ لنفاذ القضاء، أو لمصالحَ جمَّةٍ وللابتلاء.

واعتُرض بأنَّ الذوق السليم يأباه، فإنَّ مقتضى المقام بيانُ حكمة ما وقع يومئذٍ من الشدة والهول، لا بيانُ حكمة البروز المفروض.

وإنما جُعل الخطاب للمؤمنين؛ لأنهم المعتدُّ بهم، ولأنَّ إظهارَ حالهم مُظْهِرٌ لغيرهم.

وقيل: إنَّه لهم وللمنافقين، أي: ليبتلي ما في سرائركم من الإخلاص والنفاق. وقيل: للمنافقين خَاصة؛ لأنَّ سَوْق الآية لهم.

وظاهر قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ـ أي: ليخلِّص ما فيها من الاعتقاد من الوسواس ـ يُرجِّح الأول؛ لأنَّ المنافقين لا اعتقادَ لهم ليُمحَّص من الوساوس ويُخلَّص منها، ولعلَّ القائلين بكون الخطاب للمنافقين فقط، أو مع المؤمنين، يفسِّرون التمحيص بالكشف والتمييز[1]، أي: ليكشف ما في قلوبكم من مخفيَّات الأمور أو النفاق ويميِّزها، إلا أنَّ حَمْلَ التمحيص على هذا المعنى يجعل هذه الجملة كالتأكيد لما قبلها.

وإنما عبَّر بالقلوب هنا ـ كما قيل ـ لأنَّ التمحيصَ متعلِّقٌ بالاعتقاد على ما أشرنا إليه، وقد شاع استعمال القلب مع ذلك، فيقال: اعتقد بقلبه، ولا تكاد تسمعهم يقولون: اعتقد بصدره، أو آمن بصدره، وفي القرآن: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢] وليس فيه: كَتَبُ في صدورهم الإيمان، نعم يُذكَر الصدر مع الإسلام كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الزمر: ٢٢].

ومن هنا قال بعض السادات: القلب مَقَرُّ الإيمان، والصَّدر محلُّ الإسلام، والفؤاد مَشْرِق المشاهدة، واللُّبُّ مقامُ التوحيد الحقيقي.

ولعلَّ الآية على هذا تؤُولُ إلى قولنا: ليبتلي إسلامَكم، وليمحِّص إيمانكم.

وربما يقال: عبَّر بذلك مع التعبير فيما قبلُ بالصدور للتفنُّن، بناءً على أنَّ المراد بالجمعين واحد.

---

(١) من قوله: يرجح الأول، إلى هذا الموضع من (م)، وليس في الأصل.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ أي: بما في القلوب التي في الصدور من الضمائر الخفيَّة، ووُصفت بذلك لأنها لتمكُّنها من الصدور جُعلت كأنها مالكةٌ لها، فـ «ذات» بمعنى: صاحبة، لا بمعنى ذات الشيء ونفسه. وفي الآية وعدٌ ووعيدٌ، أو أحدُهما فقط، على الخلاف في الخطاب.

وفيها تنبيهٌ على أنَّ الله تعالى غنيٌّ عن الابتلاء، وإنما يُبرز صورةَ الابتلاء لِحِكَم يعلمها؛ كتمرين المؤمنين، أو إظهارِ حال المنافقين. واختار الصُّدورَ ها هنا؛ لأنَّ الابتلاء الغنيَّ عنه سبحانه كان متعلِّقاً بما فيها، والتمحيص على المعنى الأول تصفيةٌ وتطهيرٌ، وليس ذلك مما تُشعر به هذه الجملة بأنه سبحانه غنيٌّ عنه، وإنما فَعَلَه لحكمة، نعم إذا أُريد به الكشف والتمييز، يصحُّ أن يقال: إنَّ هذه الجملةَ مشعرةٌ بأنه تعالى غنيٌّ أيضاً.

ومن هنا جوَّز بعض المحققين كونَها حالاً من متعلِّق الفعلين، أي: فَعَلَ ما فَعَلَ للابتلاء والكَشْفِ والحالُ أنه تعالى غنيٌّ عنهما محيطٌ بخفيَّات الأمور. إلا أنه لا يظهر حينئذ سِرُّ التعبير عن الأسرار والخفيَّات بذات الصدور دون ذات القلوب، مع أنَّ التعبير الثاني أولى بها، لأنَّ القلوبَ محلُّها بلا واسطة، ومَحَلِّيَّةُ الصدور لها بحسب الظاهر بواسطة القلوب، اللهم إلا أن يقال: إنَّ ذات الصدور بمعنى الأشياء التي لا تكاد تفارق الصدور لكونها حالَّةً فيها، بل تُلازِمُها وتُصاحِبُها، أشملُ من ذات القلوب؛ لصِدْق الأُولى على الأسرار التي في القلوب، وعلى القلوب أنفسها؛ لأنَّ كلًّا من هذين الأمرين مُلازمٌ للصدور باعتبار كونه حالًّا فيها دون الثانية؛ لأنها لا تَصْدُقُ إلا على الأسرار؛ لأنها الحالَّةُ فيها دون الصدور، فحينئذ يمكن أن يُراد من ذات الصدور هذا المعنى الشامل، ويكون التعبير بها لذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ الدُّبُرَ عن المشركين بأُحد ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المسلمون، أو: إنَّ الذين هربوا منكم إلى المدينة ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ وهما جمعُ رسول الله ﷺ، وجمع أبي سفيان.

﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: طلب منهم الزَّلل ودعاهم إليه ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ من ذنوبهم، يعني: إنَّ الذين تولَّوا كان السببُ في تَوْلِيَتِهم أنهم كانوا

أطاعوا الشيطان، فاقترفوا ذنوباً، فمنِعُوا من التأييد وتقوية القلوبِ حتى تَولَّوا، وعلى هذا لا يكون الزلل هو التولِّي، بل الذنوبُ المفضية إليه.

وجُوِّز أن يكون الزلل الذي أوقعهم الشيطان فيه ودعاهم إليه هو التولِّي نفسُهُ. وحينئذ يُراد ببعض ما كسبوا:

إما الذنوب السابقة، ومعنى السببية: انجرارها إليه، لأنَّ الذنب يجرُّ الذنب، كما أنَّ الطاعة تجرُّ الطاعة.

وإما قبول ما زَيَّن لهم الشيطان من الهزيمة، وهو المرويُّ عن الحسن.

وإما مخالفة أمره ﷺ بالثبات في المركز، فجرَّهم ذلك إلى الهزيمة.

وإما الذنوب السابقة، لا بطريق الانجرار، بل لكراهة الجهاد معها، فقد قال الزجَّاج: إنَّ الشيطان ذكَّرهم خطايا لهم كرهوا لقاء الله تعالى معها، فأخَّروا الجهاد وتولَّوا حتى يُصلحوا أمرهم، ويجاهدوا على حالٍ مُرْضِيةٍ[(١)].

والتركيب على الوجهين من باب تحقيق الخبر؛ كقوله:

إنَّ التي ضَربتْ بيتاً مهاجرةً بكوفةِ الجُند غالتْ وُدَّها غُول[(٢)]

وليس من باب أنَّ الصفةَ علةٌ للخبر؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ [لقمان: ٨] لأنَّ «ببعض ما كسبوا» يأباه، ويحقِّق التحقيق، وهو أيضاً من باب الترديد للتعليق كقوله:

صفراءُ لا تنزلُ الأحزانُ ساحتَها لو مَسَّها حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ[(٣)]

لأنَّ «إنما استزلَّهم» إلخ خبر «إنَّ».

وزِيد «إنَّ» للتوكيد وطول الكلام، و«ما» لتكفُّها عن العمل، وأصل التركيب: إنَّ الذين تولَّوا منكم يوم التقى الجمعان، إنما تولَّوا لأنَّ الشيطان استزلَّهم

(١) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٨١.
(٢) البيت لعبدة بن الطبيب، وهو في المفضليات ص ١٣٦، والإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ١/ ٣٨. وسلف ٤/ ٣١٧.
(٣) البيت لأبي نواس، وهو في ديوانه ص ٧.

ببعض إلخ. فهو كقولك: إنَّ الذي أكرمك إنما أكرمك لأنك تستحقُّه.

وذكر «بعض» للإشارة إلى أنَّ في كسبهم ما هو طاعة لا يوجب الاستزلال، أو لأنَّ هذه العقوبة ليست بكلِّ ما كسبوا، لأنَّ الكلَّ يستدعي زيادةً عليها، لكنه تعالى منَّ بالعفو عن كثير: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أعاد سبحانه ذكر العفو تأكيداً لطمع المذنبين فيه، ومَنْعاً لهم عن اليأس وتحسيناً للظنون بأتمِّ وجه، وقد يقال: هذا تأسيسٌ لا تأكيد، فتذكَّر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب صغائرِها وكبائرها ﴿حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ لا يعاجِلُ بعقوبة المذنب، وقد جاءت هذه الجملة كالتعليل للعفو عن هؤلاء المتولِّين، وكانوا أكثرَ القوم، فقد ذكر أبو القاسم البلخيُّ[1] أنه لم يبق مع النبيِّ ﷺ يومَ أُحدٍ إلا ثلاثةَ عَشَرَ نفساً، خمسة من المهاجرين: أبو بكر وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، والباقون من الأنصار ﷺ أجمعين.

ومن مشاهير المنهزمين: عثمان، ورافع بن المعلَّى، وخارجةُ بن زيد، وأبو حذيفة بن عُتبة، والوليد بن عقبة، وسعد وعقبة ابنا عثمان من الأنصار من بني زُريق، وروي عن ابن عباس أنَّ الآيةَ نزلت في الثلاثة الأُوَل[2]، وعن غيره غيرُ ذلك، ولم يوجد في الآثار تصريحٌ بأكثرَ من هؤلاء، ولعلَّ الاقتصار عليهم؛ لأنهم بالغوا في الفرار، ولم يرجعوا إلا بعد مضيِّ وقتٍ إلى رسول الله ﷺ، حتى إنَّ منهم مَن لم يرجع إلا بعد ثلاث، فزعموا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لقد ذهبتم بها عريضةً»[3].

---

(١) عبد الله بن أحمد بن محمود البلخي الحنفي، صاحب التصانيف وعلم الكلام، من متكلمي المعتزلة البغداديين، من كتبه: المقالات، والمجالس، والتفسير الكبير، توفي سنة (٣١٩هـ). طبقات المفسرين ١/ ٢٢٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٨٨، وعزاه لابن منده في معرفة الصحابة.

(٣) السير والمغازي لابن إسحاق ص ٣٣٢، وعنه الطبري ٦/ ١٧٤، وفيهما: فيها، بدل: بها. وقوله: عريضة، أي: واسعة. النهاية (عرض).

وأما سائر المنهزمين فقد اجتمعوا في ذلك اليوم على الجبل، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان من هذا الصِّنف كما في خبر ابن جرير[1]، خلافاً للشيعة، وبفرض التسليم لا تعييرَ بعد عفو الله تعالى عن الجميع، ونحن لا ندَّعي العصمة في الصحابة رضي الله عنهم، ولا نشترطها في الخلافة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم المنافقون كعبد الله بن أبيٍّ وأصحابه، قاله السُّدِّي ومجاهد. وإنما ذَكر في صدر الجملة كفرَهم تصريحاً بمباينة حالهم لحال المؤمنين، وتنفيراً عن مماثلتهم، وهم هم. وفيه دليلٌ على أنَّ الإيمان ليس عبارةً عن مجرَّد الإقرار باللسان كما يقوله الكرَّامية[2]، وإلا لما سمَّى المنافقَ كافراً.

وقيل: المراد بالذين كفروا سائر الكفار على العموم، أي: لا تكونوا كالكَفَرة في نفس الأمر.

﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ في المذهب أو النسب، واللام تعليلية، أي: قالوا لأَجْلِهم، وجعلها ابن الحاجب بمعنى «عن»، ولا يجوز أن يكون المراد مخاطبة الإخوان كما هو المتبادر؛ لدلالة ما بعده[3] على أنهم كانوا غائبين حين هذا القول.

وقولُ بعضهم: يصحُّ أن يكون جَعْلُ القول لإخوانهم باعتبار البعض الحاضرين، والضربُ الآتي لضربٍ آخر، تكلُّفٌ لا حاجة إليه سوى كثرة الفضول.

﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافروا فيها لتجارة أو طلب معاش فماتوا؛ قاله السُّدِّي. وأصل الضرب: إيقاعُ شيءٍ على شيء، واستعمل في السَّير لِمَا فيه من ضرب الأرض بالرِّجل، ثم صار حقيقة فيه. وقيل: أصل الضرب في الأرض: الإبعادُ في السَّير، وهو ممنوع.

وخَصَّ الأرضَ بالذكر؛ لأنَّ أكثرَ أسفارهم كان في البَرّ.

---

(١) في تفسيره ٦/ ١٧٢.

(٢) هم أصحاب محمد بن كرَّام، كان يثبت الصفات وينتهي فيها إلى التجسيم والتشبيه، وهم طوائف بلغ عددهم اثنتي عشرة فرقة. الملل والنحل ١/ ١٠٨.

(٣) في (م): بعد.

وقيل: اكتفى بذكر الأرض مراداً عن ذكر البحر.

وقيل: المراد من الأرض ما يشمل البرَّ والبحر. وليس بالبعيد.

وجيء بـ «إذا» وحقُّ الكلام «إذ» ـ كما قالوا ـ لـ «قالوا» الدالِّ بهيئته على الزمان المنافي للزمان الدالة عليه «إذا»، مراعاةً لحكاية الحال الماضية، ومعنى ذلك: أن تُقدِّر نفسَك كأنك موجودٌ في ذلك الزمان الماضي، أو تُقدِّر ذلك الزمان كأنه موجودٌ الآن، وهذا كقولك: قالوا ذلك حين يضربون، والمعنى: حين ضربوا، إلا أنك جئتَ بلفظ المضارع استحضاراً لصورة ضَرْبِهم في الأرض.

واعترض بوجهين: الأول: أنَّ حكاية الحال إنما تكون حيث يُؤتَى بصيغة الحال، وهذه صيغةُ استقبال؛ لأنَّ معنى «إذا ضربوا»: حين يضربون فيما يستقبل.

الثاني: أنَّ قولهم: لو كانوا عندنا، إنما هو بعد موتهم، فكيف يتقيَّد بالضرب في الأرض.

وأجيب عن الأول: بأنَّ «إذا ضربوا» في معنى الاستمرار، كما في: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ١٤] فيفيد[١] الاستحضار نظراً للحال.

وعن الثاني بأنَّ «قالوا لإخوانهم» في موقع جزاء الشرط من جهة المعنى، فيكون المعنى: لا تكونوا كالذين كفروا، وإذا ضرب إخوانُهم فماتوا، أو كانوا غُزًّا فقُتِلوا، قالوا: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا. فالضرب والقتل كلاهما في معنى الاستقبال، وتقييدُ القول بالضرب إنما هو باعتبار الجزء الأخير وهو الموت والقتل، فإنه وإن لم يُذكر لفظاً لدلالة ما في القول عليه، فهو مرادٌ معنًى، والمعتبرُ المقارَنةُ عرفاً كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨] وكقولك: إذا طلع هلال المحرَّم، أتيتك في منتصفه.

وقال الزجَّاج: «إذا» هنا تنوبُ عمَّا مضى من الزمان وما يُستَقبل، يعني أنها لمجرَّد الوقت، أو لقَصْدِ الاستمرار[٢].

(١) في (م): فيفسد، وهو تصحيف.

(٢) تفسير أبي السعود ٢/١٠٣.

والذي يقتضيه النظر الصائب أن لا يجعل «إذا ضربوا» ظرفاً لـ «قالوا»، بل ظرفٌ لِمَا يحصل للإخوان حين يقال لأَجْلِهم وفي حقِّهم ذلك، كأنه قيل: قالوا لأَجْل الأحوال العارضة للإخوان إذا ضربوا، بمعنى: حين كانوا يضربون. قاله العلامة الثاني.

وأنت تعلم أنَّ تجريد «إذا» عن معنى الاستقبال، وجَعْلَها بمعنى الوقت مطلقاً كافٍ في توجيه الآية مزيلٌ لإشكالها، وقَصْدُ الاستمرار منها لا يدفع الاعتراض عن ذلك التوجيه؛ لأنها إذا كانت للاستمرار تشمل الماضي، فلا تكون لحكاية الحال، وكذا إذا كان «قالوا» جواباً؛ إذ يصير مستقبلاً، فلا تتأتّى فيه الحكاية المذكورة أيضاً.

ويَرِدُ على ما اقتضاه النظر الصائب أنَّ دونَ إثباتِ صحةِ مثله في العربية خَرْطُ القتاد. وأَقعدُ منه ـ وإن كان بعيداً ـ ما قاله أبو حيان من أنه يمكن إقرار «إذا» على الاستقبال بأن يُقدَّر العامل فيها مضافاً مستقبلاً على أنَّ ضميرَ «لو كانوا» عائدٌ على «إخوانهم» لفظاً لا معنًى، على حدِّ: عندي درهمٌ ونصفه، والتقدير: وقالوا مخافةَ هلاك إخوانهم إذا ضربوا أو كانوا غُزًّا: لو كانوا ـ أي: إخواننا الآخرون الذين تقدَّم موتُهم وقتلُهم ـ عندنا ما ماتوا وما قتلوا، فتكون هذه المقالة تثبيطاً لإخوانهم الباقين عن السفر والغزو، لئلّا يصيبهم ما أصاب الأوَّلين[1].

وإنما لم يحملوا «إذا» هنا على الحال كما قيل بحملها عليه بعد القسم نحو: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل: ١] لتصفوَ لهم دعوى حكايةِ الحال عن الكَدَر؛ لأنَّ ذلك غيرُ مسلَّمٍ عند المحققين هناك، فقد صحَّحوا فيه بقاءها على الاستقبال من غير محذور.

وجُوِّز في الآية كون «قالوا» بمعنى يقولون، وقد جاء في كلامهم استعمالُ الماضي بمعنى المستقبل، ومنه قولُه:

وإنِّـي لآتـيـكـم تَـشَـكُّـرَ مـا مـضـى ... من الأمر واستيجابَ ما كان في غَدِ[2]

وكذا جُوِّز بقاؤه على معناه، وحملُ «إذا» على الماضي، فإنها تجيء له

---

(١) البحر ٣/ ٩٢-٩٣، ونقله عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٣/ ٧٥. وقال أبو حيان: ويكون العامل في «إذا»: هلاك، وهو مضارع ينحلُّ: إلى«أنْ» والمضارع، أي: مخافة أن يهلك إخوانهم إذا ضربوا. . . إلخ.

(٢) البيت للطرماح، وهو في ديوانه ص ٥٧٢.

كما جاءت «إذ» للمستقبل في قول البعض، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]، وقوله:

ونـدمـانٍ يـزيـدُ الـكـأسَ طِـيـبـاً سَـقَـيْـتُ إذا تـغـوَّرتِ الـنـجـوم[١]

وحينئذ لا منافاة بين زمانَي القيد والمقيَّد، فتدبَّر ذلك كلَّه.

والجملة المعيِّنة لوَجْهِ الشَّبَهِ والمماثلةِ التي نُهوا عنها، هي الجملة المعطوفة على جملة الصلة، والمعنى: لا تتشبَّهوا بالكفار في قولهم لإخوانهم إذا سافروا.

﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ جمع غازٍ، كعافٍ وعُفًّى، وهو من نوادر الجمع في المعتلّ، واستَشهد عليه بعضهم بقول امرئ القيس:

ومُـغـبـرَّةِ الآفـاق خـاشـعـةِ الـصُّـوَى لـهـا قُـلُـبٌ عُـفًّـى الـحـيـاض أُجُـونُ[٢]

ويُجمَع على غُزاة، كقاضٍ وقُضاة، وعلى غَزِيٍّ مثل حاجٍّ وحَجيج، وقاطِنٍ وقَطِين، وعلى غُزَّاء مثل فاسق وفُسَّاق، وأنشدوا له قول تأبَّط شرًّا:

فـيـومـاً بـغُـزَّاءٍ ويـومـاً بـسُـرْيـةٍ ويوماً بخشخاشٍ من الرَّجل هَيْضَلِ[٣]

وعلى غازون، مثل ضارب وضاربون. وهو منصوبٌ بفتحةٍ مقدَّرة على الألف المنقلبة عن الواو المحذوفة لالتقاء الساكنين؛ إذ أصله غُزَّواً، تحرَّكت الواو وانفتح ما قبلها، فقُلبت ألفاً ثم حذفتْ.

وقرئ بتخفيف الزاي[٤]، قال أبو البقاء: وفيه وجهان؛ الأول: أنَّ أصله غزاة،

---

(١) البيت لعمرو بن شأس، كما في منتهى الطلب من أشعار العرب ٨/ ٧٦. ونسبه صاحب الأغاني ١٤/ ١١ للبُرْج بن الجُلاس الطائي، وفيه: وقد، بدل: إذا.

(٢) ديوان امرئ القيس ص ٢٨٣، وحاشية الشهاب ٣/ ٧٥، ووقع في الديوان: عفُّ الحياض. وقال الشهاب في شرح البيت: يصف مفازة بأنها لم تسلك قبله، والصُّوى جمع صُوَّة، وهي الحجارة تُنصب عَلَماً للمفازة، والقُلُب جمع قَليب: وهي البئر القديمة. وعُفًّى: دارسات. وفي شرح الديوان: الأجون المياه المتغيرة. والمغبرَّة: الأرض. وخاشعة: مستوية ملساء لاصقة بالأرض.

(٣) ديوان تأبط شرًّا ص١٧٧، واللسان (غزا). الخشخاش: الجماعة في سلاح ودروع. والرَّجْل: الراجلون. والهيضل: الجيش الكثير. القاموس (خشخش) و(هضل).

(٤) هي قراءة الحسن والزهري. القراءات الشاذة ص ٢٣، والمحتسب ١/ ١٧٥.

فحذفت الهاء تخفيفاً؛ لأنَّ التاء دليلُ الجمع، وقد حصل من نفس الصيغة. والثاني: أنه أُريد قراءة الجمهور، فحذفت إحدى الزايين كراهية التضعيف(١).

وذكر هذا الشِّقَّ مع دخوله فيما قبله؛ لأنه المقصود في المقام، وما قبله توطئةٌ له. على أنه قيل: قد يوجد بدون الضرب في الأرض، بناءً على أنَّ المراد به السفرُ البعيد، فبين الضرب على هذا وكونِهم غزاةً عمومٌ من وجه.

وإنما لم يقل: أو غَزَوْا، للإيذان باستمرار اتِّصافهم بعنوان كونهم غزاة، أو لانقضاء ذلك، أي: كانوا غزاةً فيما مضى.

﴿لَّوْ كَانُوا۟﴾ مقيمين ﴿عِندَنَا﴾ بأن لم يسافروا أو يغزوا ﴿مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ بل كانوا يبقَوْنَ زيادةً على ما بقُوا، والجملة الامتناعية في محلِّ النصب مفعولٌ لـ «قالوا»، ودليلٌ على أنَّ في الكلام السابق مُضْمَراً قد حُذف، أي: إذا ضربوا في الأرض فماتوا أو كانوا غزًّى فقُتلوا، وتقدير: فماتوا أو قتلوا، في كلٍّ من الشِّقَّين خلافُ الظاهر.

﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ متعلِّقٌ بـ «قالوا» داخلٌ في حيِّز الصلة، ومن جملة المشبَّه به، والإشارةُ إلى القول لكن باعتبار ما فيه من الاعتقاد، واللام لامُ العاقبة، والمعنى: لا تكونوا مثلَهم في القول الباطل والمعتَقَدِ الفاسد، المؤَدِّيَين إلى الحسرة والندامة والدمار في العاقبة، وإلى هذا يشير كلام الزجَّاج(٢) وأبي علي.

وقيل(٣): متعلِّقٌ بـ «لا تكونوا» على أنه علةٌ للنهي، فهو خارجٌ عن جملة المشبَّه به، لكنَّ القول والمعتقدَ داخلان فيه، أي: لا تكونوا مثلهم في النطق بذلك القول واعتقاده، ليجعل انتفاءَ كونكم معهم في ذلك القول والاعتقاد حسرةً في قلوبهم خاصة.

واعترضه أبو حيان بأنه قولٌ لا تحقيقَ فيه؛ لأنَّ جَعْلَ الحسرة لا يكون سبباً للنهي، إنما يكون سبباً لحصول امتثال النهي، وهو انتفاءُ المماثلة، فحصولُ ذلك

(١) الإملاء ٢/ ١٤١-١٤٢.

(٢) في معاني القرآن ١/ ٤٨٢.

(٣) هو قول الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٧٤، وينظر الدر المصون ٣/ ٤٥٤-٤٥٥.

الانتفاءِ والمخالفة فيما يقولون ويعتقدون يحصل عنه ما يغيظهم ويغمُّهم إذ لم يوافقوهم فيما قالوه واعتقدوه، فيتركوا[(١)] الضربَ في الأرض والغزوَ، وكأنَّ القائل التبَسَ عليه استدعاءُ انتفاءِ المماثلة بحصول الانتفاء، وفَهْمُ هذا فيه خفاءٌ ودقة[(٢)].

وتعقَّبه السفاقسيُّ بأنه يلزمُ على هذا الاعتراضِ أنْ لا يجوزَ نحوُ: لا تعصِ لتدخلَ الجنة؛ لأنَّ النهيَ ليس سبباً لدخول الجنة، وكذا لا يجوز: أَطع اللهَ تعالى لتدخَل الجنة؛ لأنَّ الأمرَ ليس سبباً لدخولها، ثم قال: والحقُّ أنَّ اللام تتعلَّقُ بالفعل المنهيِّ عنه والمأمور به، على معنى أنَّ الكَفَّ عن الفعل، أو الفعل[(٣)] المأمور به، سببٌ لدخول الجنة ونحوه، وهذا لا إشكال فيه.

وقيل: متعلِّقٌ بـ «لا تكونوا» والإشارة إلى ما دلَّ عليه النهيُ، والكلُّ خارجٌ عن المشبَّه به، والمعنى: لا تكونوا مِثْلَهم ليجعل الله انتفاءَ كونكم مثلهم حسرةً في قلوبهم[(٤)]. وعلى هذا يكون «وقالوا» ابتداء كلامٍ معطوفاً على مقدَّراتٍ شتَّى، كما يقتضيه أقوالُ المنافقين وأحوالُهم وأفعالُهم، ووَجْهُ اتصاله بما قبله أنه لمَّا وقع التنبيه على عدم الكون مثلهم، عمَّ جميع ما يتصلُ بهم من الرذائل، وخصَّ المذكورَ لكونه أشنعَ وأبينَ لنفاقهم، أي: أنهم أعداءُ الدين لم يُقصِّروا في المضارَّة والمضادَّة، بل فعلوا كيت وكيت، وقالوا كذا وكذا، ومن هذا يُعلم ما في تلك المقدَّرات.

وعلى كلٍّ من الأوجه الثلاثة يكون الضمير المجرور في «قلوبهم» عائداً إلى الكافرين. وذَكَرَ القلوبَ مع أنَّ الحسرةَ لا تكون إلا فيها؛ لإرادة التمكُّن والإيذان بعدم الزوال.

---

(١) في (م): فيترك.
(٢) البحر: ٣/ ٩٢.
(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: أو فعل.
(٤) ذكر هذا القول الزمخشري أيضاً في الكشاف ١/ ٤٧٤، وهو مماثل لما ردَّ به أبو حيان القول السابق كما نبه على ذلك السمين في الدر المصون ٣/ ٤٥٥، وتعقب اعتراض أبي حيان على ذلك القول بقوله: ولا أدري ما وجه تثبيج كلام أبي القاسم (يعني الزمخشري)، وكيف رد عليه ـ على زعمه ـ بكلامه.

وجوَّز ابنُ تمجيدٍ رجوعَ الضمير إلى المؤمنين، واللامُ متعلِّقةٌ بـ «قالوا» حينئذٍ لا غير. ووجَّه الآية بما يقضي منه العجب.

﴿وَاللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾ ردٌّ لقولهم الباطل إثر بيانِ غائلته، أي: والله هو المؤثِّرُ الحقيقيُّ في الحياة والممات وحده، لا الإقامة أو السفر، فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازيَ مع اقتحامهما مواردَ الحتوف، ويميتُ المقيمَ والقاعد وإن كانا تحت ظلال النعيم. وليس المراد أنه تعالى يوجِدُ الحياةَ والممات، وإن كان هو الظاهر؛ لأنَّ الكلامَ ليس فيه، ولا يَحصُلُ به الردُّ، وإنما الكلام في إحداث ما يؤثرهما.

وقيل: المراد أنه تعالى يحيي ويميت في السفر والحضر عند حضور الأجل، ولا مؤخِّرَ لِمَا قَدَّمَ ولا مقدِّمَ لِمَا أَخَّرَ، ولا رادَّ لِمَا قضى، ولا محيصَ عمَّا قدَّر، وفيه منعُ المؤمنين عن التخلُّف في الجهاد لخشية القتل.

والواو للحال، فلا يَرِدُ أنه لا يصحُّ عطفُ الإخبار على الإنشاء.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ ترغيبٌ في الطاعة وترهيبٌ عن المعصية، أو تهديدٌ[١] للمؤمنين على أن يماثلوا الكفار؛ لأنَّ رؤيةَ الله تعالى كعِلْمِه تُستَعمل في القرآن للمجازاة على المرئيِّ كالمعلوم، والمؤمنون وإن لم يماثلوهم فيما ذُكر، لكنَّ ندمهم على الخروج من المدينة يقتضيه.

وقرأ ابن كثير، وأهلُ الكوفة ـ غيرَ عاصم ـ: «يعملون» بالياء[٢]، وضميرُ الجمع حينئذ للكفار، والعمل عامٌّ متناولٌ للقول المذكور، ولمنشئه الذي هو الاعتقاد الفاسد، ولِمَا ترتَّب على ذلك من الأعمال، ولذلك تعرَّض لعنوان البصر، لا لعنوان السمع، وإظهار الاسم الجليل لما مرَّ غيرَ مرة، وكذا تقديم الظرف.

❋ ❋ ❋

هذا ومن باب الإشارة: ﴿وَكَأَيِّن﴾ وكم ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ مرتفعِ القَدْرِ جليلِ الشأن، وهو في الأنفس الروحُ القدسية ﴿قَـٰتَلَ مَعَهُۥ﴾ عدوَّ الله تعالى، أعني النفسَ الأمَّارة

---

(١) في الأصل: وتهديد.

(٢) التيسير ص ٩١، والنشر ٢/ ٢٤٢.

﴿رِبِّيُّونَ﴾ متخلِّقون بأخلاق الرَّبِّ، وهم القُوى الروحانية ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وطريقِ الوصول إليه من تعبِ المُجاهَدات ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ في طلب الحقِّ ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ وما خضعوا للسِّوى ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ على مقاساة الشدائد في جهاد النفس.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ استُرْ لنا وجُوداتِنا بإفاضة أنوار الوجود الحقيقيِّ علينا ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ أي: تجاوُزَنا حدودَ ظاهر الشريعة عند صدمات التجلِّيات ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في مواطن حروب أنفسنا ﴿وَانصُرْنَا﴾ بتأييدك وإمدادك ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ الساترين لربوبيتك.

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ﴾ بسبب دعائهم بألسنة الاستعدادات والانقطاع إليه تعالى ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾وهو مرتبةُ توحيد الأفعال وتوحيدِ الصفات ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾وهو مقامُ توحيد الذات ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ في الطلب،الذين لا يلتفتون إلى الأغيار.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الإيمانَ الحقيقيَّ ﴿إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم النفوسُ الكافرة وصفاتها ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ إلى أسفلِ سافلين، وهو سجِّينُ البهيمية ﴿فَتَنقَلِبُوا﴾ ترجعوا القَهْقَرى ﴿خَاسِرِينَ﴾ أنفسَكم.

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ لمن عوَّل عليه وقَطَعَ نظره عمَّن سواه.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي: الخوفَ ﴿بِمَا أَشْرَكُوا﴾ أي: بسبب إشراكهم ﴿بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ﴾ أي: بوجوده ﴿سُلْطَانًا﴾ أي: حُجَّة؛ إذ لا حُجَّةَ على وجوده حتى ينزلها، لتحقُّق عَدَمه بحسَبِ ذاته.

وجعل سبحانه إلقاءَ الرعب في قلوبهم مسبَّباً عن شِرْكهم؛ لأنَّ الشجاعةَ وسائرَ الفضائل اعتدالاتٌ في قوى النفس عند تنوُّرها بنور القلب المنوَّر بنور التوحيد، فلا تكونُ تامةً حقيقيةً إلا للموحِّد الموقن، وأما المشركُ فمحجوبٌ عن منبع القوة بما أشرك ما لا وجودَ ولا ذاتَ في الحقيقة له، فهو ضعيفٌ عاذَ بِقَرْمَلة[1].

---

(١) ضعيف عاذ بِقَرْمَلة: هو مثل يُضرب لذليل لجأ إلى مثله. والقَرْمَلة: شجرة لا ذرى لها ولا ملجأ. المستقصى في أمثال العرب ١/ ١٣٥ و٢/ ٨٦، وانظر لسان العرب (قرمل).

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ وهي نارُ الحرمان ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذي وضعوا الشيءَ في غير موضعه، وعبدوا أسماءً سمَّوها، ما أنزل الله تعالى بها من كتاب.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ المشروطَ بالصبر والتقوى ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أي: تقتلون جنود الصفات البشرية قتلاً ذريعاً ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ وأمرِه، لا على وَفق الطَّبع ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جَبُنتم عند تجلِّي الجلال ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ وخالفتُم في أمر الطلب ﴿وَعَصَيْتُم﴾ المرشدَ المربِّي ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من الفوز بأنوار الحضرة ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ لقصور هِمَّته وضَعْفِ رأيه ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ لطول باعه وقوةِ عقله.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي: عن أعداء نفوسكم وجنودها ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي: يمتحنكم بالستر بعد التجلِّي بأنوار المشاهدات، والصَّحْوِ بعد السُّكْر بأقداح الواردات، والفِطام بعد إرضاع ألبان الملاطَفات، كما يقتضي ذلك الجلال.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ بعد ذلك، فانقطعتم إليه كما هو مقتضَى الجمال ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ على المؤمنين في طوري التقريب والإبعاد، وما ألطفَ قولَ مَن قال:

فَقَسا لِيَزدجروا ومَنْ يكُ حازماً   فَلْيَقْسُ أحياناً على مَن يَرْحَمُ(١)

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ في جبل التوجُّه إلى الحق ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ﴾ أي: لا تلتفتون ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ من الأمرين؛ الدنيا والآخرة ﴿وَٱلرَّسُولُ﴾ أي رسول الواردات ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إليَّ عبادَ الله إليَّ عباد الله.

﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ فجازاكم بدلَ غمِّ الدنيا والآخرة بغمِّ طلب الحق ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من زخارف الدنيا ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ من صدمات تجلِّي القهر ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لأنه سبحانه أقربُ إليكم منكم.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ أي: وارداً من ألطافه ظهر في صورة النعاس، وهو السكينة الرحمانية ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ وهم الصادقون في الطلب

(١) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ٣/ ٢٠٠ بشرح الخطيب التبريزي.

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ وهم أربابُ النفوس، فإنهم لا هَمَّ لهم سوى حظِّ نفوسهم واستيفاء لذَّاتها ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ بمقتضى سوء استعدادهم ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: إنَّ الخلق حالوا بيننا وبين التدبير، ولو لم يَحُولوا لفعلنا ما به صلاحُنا.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ فهو المتصرِّف وحده حَسْبَما يقتضيه الاستعداد، فلا تدبير مع تدبيره، ولا وجودَ لأحدٍ سواه.

﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ الخبيثةِ ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ﴾ بزعمهم لك أيها المرشد الكامل ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا﴾ بسيف الشهوات ﴿هَٰهُنَا﴾ أي: في هذه النشأة ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ وهي منازل العدم الأصلي قبل ظهور هذه التعيُّنات ﴿لَبَرَزَ﴾ على حَسَب العلم ﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾ في لوح الأزل ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ وهي بيداءُ الشهوات، فقد قال سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢] أي: نُظْهِرَها بهذا التعيُّن.

وإنما فعل سبحانه ما فعل لِحِكَم شتَّى ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ﴾ تعالى ﴿مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي: ليمتحن ما في استعدادكم من الصدق والإخلاص والتوكُّل، ونحو ذلك من الأخلاق، ويخرجها من القوة إلى الفعل ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يخلِّص ما برز من مكمن الصدر إلى مخزن القلب من غشِّ الوساوسِ وخواطر النفس، فإنَّ البلاء سوطٌ يسوق الله تعالى به عباده إليه، ولهذا ورد: «أشدُّ الناس بلاءً، الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل»[1] ولله تعالى درُّ مَن قال:

لله درُّ النائباتِ فإنها ... صَدأ اللئام وصيقلُ الأحرار
ما كنتُ إلا زُبرة فطَبَعْنَني ... سيفاً وأَطلَعَ صرفهنَّ غراري[2]

وذلك لأنهم حينئذ ينقطعون إلى الحقِّ، ولا يظهر على كلٍّ منهم إلا ما في مكمن استعداده، كما قيل: عند الامتحان يُكرم الرجل أو يهان.

(١) أخرجه أحمد (١٤٨١) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ، وفيه: الصالحون، بدل: الأولياء.
(٢) البيتان ينسبان للأمير قرواش بن المقلد العقيلي، وهما في وفيات الأعيان ٥/ ٢٦٤.

والخطاب في كلا الموضعين للمؤمنين، وقيل: إنَّ الخطابَ الأول للمنافقين، والثاني للمؤمنين، وإنه سبحانه إنما خصَّ الصدورَ بالأوَّلينَ؛ لأنَّ الصَّدْر معدِنُ الغِلِّ والوسوسة، فهو أَوفقُ بحال المنافقين، وخَصَّ القلوب بالآخِرين؛ لأنَّ القلبَ مقرُّ الإيمان والاطمئنان، وهو أَوفقُ بحال المؤمنين، وأنَّ نسبةَ الإسلام باللسان إلى الإيمان بالجنان كنسبة الصَّدر إلى القلب، قيل: ولهذا قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بناءً على أنَّ المراد به الترهيبُ والتحذير عن الاتصال بما لا يرضَى من تلك الصفات التي يكون الصدر مكمناً لها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمعُ الروح وقواها، وجمعُ النفس وقواها ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ من الذنوب؛ لأنها تُورِثُ الظلمة، والشيطانُ لا مجالَ له على ابن آدم بالتزيين والوسوسة إلا إذا وَجَدَ ظُلمةً في القلب. ولك أن تُبقي الجمعين على ظاهرهما، وباقي الإشارة بحاله ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ حين استنارت قلوبهم بنور الندم والتوبة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ وبمقتضى ذلك ظَهرت المخالفات، وأُردفت بالتوبة، ليكون ذلك مرآةً لظهور صفات الله تعالى، ومن هنا جاء: «لو لم تذنبوا، لأتى الله تعالى بقومٍ يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»(١).

وحُكي أنَّ إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه أَكْثَرَ ليلةً في الطواف من قوله: اللهمَّ اعْصِمْني من الذنوب. فسمع هاتفاً من قلبه يقول: يا إبراهيم، أنت تسأله العصمة، وكلُّ عباده يسألونه العصمة، فإذا عَصَمَكم على مَن يتفضَّل، وعلى مَن يتكرَّم؟.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ برؤية الأغيار واعتقادِ تأثير السِّوى ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ لأَجْلِ إخوانهم ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذا فارقوهم بتَرْك ما هم عليه، وسافروا في أرض نفوسهم، وسَلَكوا سبيل الرشاد ﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾ أي: مجاهدين مع أعدى أعدائهم، وهي نفوسُهم التي بين جنوبهم، وقواها وجنودُها من الهوى والشيطان ﴿لَّوْ كَانُواْ﴾مقيمين ﴿عِندَنَا﴾ موافِقينَ لنا ﴿مَا مَاتُواْ﴾ بمقاساة الرياضة ﴿وَمَا قُتِلُواْ﴾ بسيف المجاهدة، ولاستراحوا من هذا النَّصَب.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٠٨٢)، ومسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ أي: عدمَ الكون مثلَهم ﴿حَسْرَةً﴾ يومَ القيامة ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾ حين يَرَوْن ما أَعدَّ الله تعالى لكم ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ﴾ مَن يشاء بالحياة الأبدية ﴿وَيُمِيتُ﴾ مَن يشاء بموت الجهل والبُعْدِ عن الحضرة. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تحذيرٌ عن الميل إلى قول المنكرين واعتقادهم.

❁ ❁ ❁

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في الجهاد ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ حَتْفَ الأنف، وأنتم متلبِّسون به فعلاً أو نيةً ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ أي: الكفارُ من منافع الدنيا ولذَّاتها مدَّةَ أعمارهم، وهذا ترغيبٌ للمؤمنين في الجهاد، وأنه مما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون، وفيه تعزيةٌ لهم وتسليةٌ مما أصابهم في سبيل الله تعالى إثر إبطال ما عسى أن يثبِّطهم عن إعلاء كلمة الله تعالى.

واللام الأولى هي الموطِّئة للقسم، والثانية واقعة في جواب القسم، وجوابُ الشرط محذوفٌ لدلالة جواب القسم عليه ووفائه بمعناه، و«مغفرة» مبتدأ و«من» متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لها، ووُصفت بذلك إظهاراً للاعتناء بها، ورمزاً إلى تحقُّق وقوعها، وذهب غيرُ واحدٍ إلى تقدير صفةٍ أخرى، أي: لمغفرةٌ لكم من الله، وحذفت صفة «رحمة» لدلالة المذكور عليها، والتنوين فيهما للتقليل، ولا ينافي ذلك ما يشير إليه الوصف.

وثبوتُ أصلِ الخيريَّةِ لِمَا يجمعه الكفار كما يقتضيه أفعلُ التفضيل، إما بناءً على أنَّ الذي يجمعونه في الدنيا قد يكون من الحلال الذي يُعَدُّ خيراً في نفس الأمر، وإما أنَّ ذلك واردٌ على حَسَبِ قولهم ومعتَقَدِهم أنَّ تلك الأموال خير.

وجُوِّز في «ما» أن تكونَ موصولة، أو نكرةً موصوفة، والعائد محذوف، أو مصدريةً ويكون المفعول حينئذ محذوفاً، أي: من جَمْعِهم المالَ.

وقرأ نافع وأهلُ الكوفة غيرَ عاصم: «مِتُّم» بالكسر، ووافقهم حفصٌ في سائر المواضع إلا هاهنا(١)، وقرأ الباقون بضم الميم، وهو على الأول من مات يَمات،

---

(١) يعني في موضعي هذه السورة، فقد قرأ حفص فيهما بالضم. التيسير ص ٩١، والنشر ٢/ ٢٤٣.

مثل: خِفتُم، من خاف يَخاف، وعلى الثاني من مات يموت، مثل: كنتم، من كان يكون.

وقرأ حفصٌ عن عاصم: «يجمعون» بالياء على صيغة الغيبة، وقرأ الباقون: «تجمعون» بالتاء على صيغة الخطاب، والضمير للمؤمنين(١).

وقُدِّم القتل على الموت لأنه أكثرُ ثواباً وأعظمُ عند الله تعالى، فترتُّبُ المغفرة والرحمة عليه أقوى، وعُكِس في قوله سبحانه: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ لأنَّ الموتَ أكثرُ من القتل، وهما مُستوِيان في الحشر، والمعنى: أنكم بأيِّ سببٍ اتَّفقَ هلاكُكم تُحشرون إلى الله تعالى، لا إلى غيره، فيجزِي كلًّا منكم كما يستحقُّ، فيجازي المحسنَ على إحسانه، والمسيءَ على إساءته، وليس غيرُهُ يُرجى منه ثواب، أو يُتوقَّعُ منه دَفْعُ عقابٍ، فآثِروا ما يقرِّبكم إليه ويجرُّ لكم رضاه، من العمل بطاعته والجهادِ في سبيله، ولا تَرْكَنوا إلى الدنيا، ومما يُنسب للحسين رضي الله عنه:

فإن تكنِ الأبدانُ للموت أُنشِئَتْ فَقَتْلُ امرئٍ بالسيف والله أفضلُ(٢)

والكلام في اللامين كالكلام في أختيهما بلا مَين(٣)، وإدخالُ لام القسم على المعمول المقدَّم مُشعِرٌ بتأكيد الحصر والاختصاصِ بأنَّ ألوهيَّته تعالى هي التي تقتضي ذلك.

وادَّعى بعضُهم أنَّ تقديم هذا المعمول لمجرَّد الاهتمام، ويزيده حُسْناً وقوعُ ما بعده فاصلة، وما أشرنا إليه أولاً أولى.

قالوا: ولولا هذا التقديم لوجبَ توكيدُ الفعل بالنون؛ لأنَّ المضارعَ المثبَتَ إذا كان مستقبلاً، وجب توكيدُهُ مع اللام، خلافاً للكوفيين، حيث يُجوِّزون التعاقبَ بينهما.

وظاهر صنيع بعض المحققين يُشعر بأنَّ في هذه الجملة مقدَّراً بقرينةِ ما قبله، أي: ولئن مُتُّمْ أو قتلتم في سبيل الله. ولعلَّ الحمل على العموم أولى.

---

(١) التيسير ص ٩١، والنشر ٢/ ٢٤٢-٢٤٣.

(٢) البيت في الديوان المنسوب لعلي رضي الله عنه ص ١٠٦.

(٣) أي: بلا كذب. لسان العرب (مين).

وزعم بعضٌ أنَّ في الآية تقسيمُ مقامات العبودية إلى ثلاثة أقسام: فَمَنْ عَبَدَ الله تعالى خوفاً من ناره آمَنَهُ مما يخاف، وإليه الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ومَنْ عَبَدَ الله تعالى شوقاً إلى جنَّته أناله ما يرجو، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَرَحۡمَةٌ﴾ لأنَّ الرحمة من أسماء الجنة، ومَن عَبَدَ الله تعالى شوقاً إلى وجهه الكريم لا يريد غيره، فهو العبد المخلص الذي يتجلَّى عليه الحقُّ جلَّ جلاله في دار كرامته، وإليه الإشارة بقوله عزَّ اسمه: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾. ولا يخفى أنه من باب التأويل لا من قَبيل التفسير.

﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ خطابٌ للنبيِّ ﷺ، والفاءُ لترتيب مضمون الكلام على ما يُنْبِئ عنه السياق من استحقاق الفارِّين الملامةَ والتعنيفَ منه ﷺ بمقتضى الجِبِلَّة البشرية، حَيث صَدَروا عنه وحياضُ الأهوال مُتْرَعةٌ، وشمَّروا للهزيمة والحربُ قائمةٌ على ساق، أو من سَعَة فضاء مغفرته ورحمته.

والباء متعلِّقة بـ «لنت»، والتقديم للقصر. و«ما» مزيدةٌ للتأكيد، وعليه أَجِلَّةُ المفسرين، وهو المأثور عن قتادة، وحكى الزجَّاجُ الإجماعَ عليه[(١)]. وفيه نظر، فقد قال الأخفش وغيره: يجوز أن تكون نكرة بمعنى شيء، و«رحمة» بدلٌ منها[(٢)]. وجُوِّز أن تكون صفة لها. وقيل: إنها استفهاميةٌ للتعجُّب، والتقدير: فبأيِّ رحمة لِنْتَ لهم؟ والتنوين في «رحمة» على كلِّ تقدير للتفخيم، و«من» متعلقةٌ بمحذوف وقع صفة لها، أي: فبما رحمةٍ عظيمةٍ كائنةٍ من الله تعالى كنتَ لَيِّنَ الجانب لهم، ولم تُعنِّفهم.

ولعلَّ المراد بهذه الرحمة ربطُهُ سبحانه وتعالى على جأشه ﷺ، وتخصيصُهُ له بمكارم الأخلاق. وجُعِلَ الرفق ولين الجانب مسبَّباً عن ربط الجأش؛ لأنَّ مَنْ مَلَكَ نفسَهُ عند الغضب كان كاملَ الشجاعة.

قيل: وأفاد الكلام في هذا المقام فائدتين: إحداهما ما يدلُّ على شجاعته ﷺ، والثانية ما يدلُّ على رِفْقه، فهو من باب التكميل، وقد اجتمعت فيه ﷺ هاتان

---

(١) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٨٢.

(٢) ذكَره عن الأخفش العكبري في الإملاء ٢/ ١٤٣، والذي في معاني القرآن للأخفش ١/ ٤٢٧ أن «ما» زائدة.

الصفتان يوم أُحد، حيث ثبتَ حتى كرَّ عليه أصحابه، مع أنه عراه ما عراه، ثم ما زجرهم ولا عنَّفهم على الفرار، بل آساهم في الغمِّ.

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ أي: خَشِنَ الجانب، شَرِسَ الأخلاق، جافياً في المعاشرة قولاً وفعلاً ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ أي: قاسِيَه.

وقال الكلبيُّ: فظّاً في الأقوال، غليظَ القلب في الأفعال.

وذكر بعضُهم أنَّ الفَظَّ: سيءُ الخُلُق في الأمور الظاهرة من الأقوال والأفعال، وغليظ القلب: السيئ في الأمور الباطنة، والثاني سببٌ للأول، وقُدِّم المسبَّب لظهوره؛ إذ هو الذي يُطَّلع عليه.

ويمكن أن يقال: المراد: لو كنتَ على خلاف تينك الصفتين المعبَّرِ عنهما بالرحمة، وهو التهوُّر المشارُ إليه بالفظاظة، وسوءُ الأخلاق المرموزُ إليه بغِلَظِ القلب، فإنَّ قساوةَ القلب وعدمَ تأثُّره يتبعُها كلُّ صفة ذميمة، ولهذا ورد: أبعدُ القلوب عن الله تعالى القلوبُ القاسية. وكأنه لِبُعْده صُدِّر بـ «يمكن».

وعلى كلِّ تقديرٍ، في الكلام حَذْفٌ، أي: ولو كنتَ فظًّا غليظَ القلب، فلم تَلِنْ لهم وأغلظتَ عليهم ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي: لتفرَّقوا عنك ونفروا منك ولم يسكنوا إليك، وتَرَدَّوا في مهاوي الرَّدى، ولم ينتظم أَمرُ ما بُعثت به من هدايتهم وإرشادهم إلى الصراط.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ مترتِّبٌ على ما قبله، أي: إذا كان الأمر كذلك، فاعفُ عنهم فيما يتعلَّق بحقوقك ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الله تعالى فيما يتعلَّق بحقوقه سبحانه وتعالى؛ إتماماً للشفقة وإكمالاً للتربية.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في الحرب؛ أخرجه ابن أبي حاتم(١) من طريق ابن سيرين عن عبيدة، وهو المناسب للمقام. أو: فيه وفي أمثاله مما تجري فيه المشاورة عادةً، وإليه ذهب جماعة.

واختلف في مشاورته ﷺ لأصحابه ﷺ في أمر الدين إذا لم يكن هناك وحيٌ، فمَن أَبى الاجتهادَ له ﷺ ذهبَ إلى عدم جوازها، ومَن لا يأباه ـ وهو الأصح ـ ذهب

(١) في تفسيره ٣/ ٨٠٢.

إلى جوازها. وفائدتُها: الاستظهارُ برأيهم، ويؤيِّدُ ذلك ما أخرجه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن غُنْم أنَّ رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر: «لو اجتمعتما في مشورةٍ ما خالفتُكُما»(١).

أو التطييب لأنفسهم، وإليه ذهب قتادة، فقد أخرج ابن جرير(٢) عنه أنه قال: أَمَرَ الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يشاور أصحابه في الأمور، وهو يأتيه وحيُ السماء؛ لأنه أَطيبُ لأنفُسِ القوم.

أو أن تكون سُنَّةً بعده لأمَّته، وإليه ذهب الحسن، فقد أخرج البيهقيُّ(٣) عنه أنه قال في الآية: قد علم الله تعالى ما به إليهم حاجةٌ، ولكن أراد أن يَسْتَنَّ به مَن بعدَه.

ويؤيِّدُه ما أخرجه ابن عديٍّ والبيهقيُّ في «الشُّعَب» بسندٍ حسنٍ عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أمَا إنَّ الله ورسولَه لَغَنيَّان عنها، ولكنْ جعلها الله تعالى رحمةً لأُمتي، فمن استشار منهم لم يُعْدَم رشداً، ومَن تَرَكَها لم يُعدَمْ غيًّا»(٤).

وقيل: فائدةُ ذلك أن يمتحنَهم فيتميَّز الناصحُ من الغاشِّ. وليس بشيء.

وادَّعى الجصَّاص(٥): أنَّ كونَ الأمر بالمشاورة على جهة تطييب النفوس مثلاً غيرُ جائز؛ لأنه لو كان معلوماً عندهم أنهم إذا استفرغوا مجهودَهم في استنباط الصواب عما سُئلوا عنه، ثم لم يكن معمولاً، لم يكن في ذلك تطييبُ نفوسهم، بل

---

(١) مسند أحمد (١٩٥٩٤) من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم به، وحديث عبد الرحمن بن غنم عن النبي ﷺ مرسل، وشهر بن حوشب ضعيف.

(٢) في تفسيره ٦/ ١٨٨.

(٣) في سننه ١٠/ ١٠٩.

(٤) الكامل ٤/ ١٦٤٤، وشعب الإيمان (٧٥٤٢)، وفيه: لم يعدم عناءً. ونقله المصنف عن الدر المنثور ٢/ ٩٠.
قال البيهقي: بعض هذا المتن يروى عن الحسن البصري من قوله، وهو مرفوعاً غريب، والحديث ذكره المناوي في فيض القدير ٥/ ٤٤٣ وعزاه للبيهقي وقال: قال ابن حجر: غريب.

(٥) في أحكام القرآن ٢/ ٤١، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٣/ ٧٦.

فيه إيحاشهم بأنَّ آراءهم[1] غيرُ مقبولة ولا معوَّل عليها؛ وجزم بأنه لابدَّ أن يكون لمشاورته ﷺ إياهم فائدةٌ هي الاستظهارُ بما عندهم، وأن يكون للنبيِّ ﷺ معهم ضَرْبٌ من الاجتهاد، فما وافَقَ رأيه عَمِلَ به، وما خالفه تَرَكَ من غير لوم. وفيه إرشادٌ للاجتهاد وجوازه بحضرته ﷺ، وإشعارٌ بمنزلة الصحابة وأنهم كلّهم أهلُ اجتهادٍ، وأنَّ باطنَهم مرضيٌّ عند الله تعالى. انتهى.

وفيه نظرٌ؛ إذ لاخفاء على مَنْ راجعَ وجدانه أنَّ في قول الكبير للصغير: ماذا ترى في أمر كذا؟ وماذا عندك، فيه؟ تطييباً لنفسه، وتنشيطاً لها لاكتساب الآراءِ وإعمالِ الفكر، لا سيَّما إذا صادف رأيُهُ رأيَ الكبير أحياناً، وإن لم يكن العمل برأيه الموافِق، بل العمل بالرأي الموافَق.

وما ادَّعاه من أنَّ الرأي إذا لم يكن معمولاً به كان فيه إيحاشٌ، غيرُ مُسَلَّم لا سيما فيما نحن فيه؛ لِعِلم الصحابة رضي الله عنهم بعلوِّ شأن رسول الله ﷺ، وأنَّ عقولَهم بالنسبة إلى عقله الشريف كالسُّها[2] بالنسبة إلى شمس الضحى.

على أنَّ مَنْ قال: إنَّ فائدة المشاورة تطييبُ النفس أشارَ إلى أنَّ الوحيَ يأتيه، فهو غنيٌّ عنها، وحينئذٍ يكون قَصْدُ التطييب أتمَّ وأظهر، لِمَا في المشاورة إذ ذاك من تعريضهم لِمَا يمكن أن يوافق الوحي، والإيحاش بعدم العمل هنا أبعد؛ لأنَّ مستَنَدَه اتباعُ الوحي، ومعلومٌ لديهم أنه أولى بالاتِّباع لأنه من قِبَلِ الله تعالى اللطيف الخبير، كما لا يخفى.

ثم ما ذكر من أنَّ في ذلك إشعاراً بأنَّ الصحابة كلَّهم أهلُ اجتهادٍ، في حيِّز المنع؛ لأنَّ أَمْرَ السلطان مثلاً لعامله أن يشاور أهل بلده في أموره لا يستدعي أن يشاور كلَّ واحدٍ واحدٍ منهم في ذلك، بل لا يكاد أن يكون ذلك مراداً أصلاً، بل المراد أن يشاور أهلَ الآراء منهم والمتدرِّبين فيهم، وكونُ الصحابةِ كلِّهم كذلك أوَّلُ المدَّعى، ودون إثباته وقعةُ الجمل وحربُ صِفِّين.

---

(١) في أحكام القرآن: إيحاشهم وإعلامهم بأن آراءهم، وفي حاشية الشهاب: إيحاشهم لأن آراءهم.

(٢) السُّها: كوكبٌ خفيٌّ في نجوم بنات نعشٍ الكبرى، والناس يمتحنون به أبصارهم. الصحاح (سها).

ويُؤيِّد كونُ المراد من الصحابة المأمورِ ﷺ بمشاورتهم أهلَ الرأي والتدبير لا مطلقاً، بما أخرجه الحاكم وصححه، والبيهقيُّ في «سننه» عن ابن عباس أنه قال في ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾: أبو بكر وعمر[١].

ومن طريق الكلبيِّ عن أبي صالح عن الحبر أنَّ الآية نزلت فيهما[٢].

نعم لو كانت المشاورة لمجرَّد تطييب النفوس دون الاستظهار، كان لمشاورة أيِّ واحد منهم وإن لم يكن من أرباب الرأي وجهٌ، لكنَّ الجصَّاص لم يَبْنِ كلامه على ذلك.

بقي أنَّ بينَ ما أخرجه الإمام أحمد من قوله ﷺ للعُمَرين رضي الله عنهما: «لو اجتمعتما على مشورةٍ ما خالفتُكما» وما أخرجه ابن عديٍّ والبيهقيُّ من قوله عليه الصلاة والسلام عند نزول الآية: «أمَا إنَّ الله ورسولَه لَغنيَّان عنها، ولكنْ جَعَلَها الله تعالى رحمةً لأُمَّتي» تنافياً، إلَّا أنْ يُحمل خبرُ عدم مخالفتهما لو اجتمعا على الإشارة إلى رفعة قَدْرِهما وعلوِّ شأنهما، وأنَّ اجتماعَهُما على أمر لا يكون إلا موافقاً لِمَا عند الله تعالى، وهو الذي عليه المعوَّل وبه العمل، وكأنَّ في قوله ﷺ: «ما خالفتُكما» دون: لَعَملْتُ بقولكما مثلاً، نوعُ إشعار بما قلنا، فتدبر.

وقرأ ابن عباس كما أخرج البخاريُّ في «الأدب المفرد» عنه: «وشاورهم في بعض الأمر»[٣].

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ أي: إذا عَقَدْتَ قلبكَ على الفعل وإمضائه بعد المشاورة، كما تؤذِنُ به الفاء ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فاعتَمِدْ عليه وثِقْ به وفوِّضْ أَمْرَك إليه، فإنه الأعلم بما هو الأصلح.

وأصل التوكُّل: إظهارُ العجز، والاعتمادُ على الغير، والاكتفاءُ به في فِعْل ما يحتاج إليه. وهو عندنا على الله سبحانه لا ينافي مراعاةَ الأسباب، بل يكون

---

(١) المستدرك ٣/ ٧٠، والسنن الكبرى للبيهقي ١٠/١٠٨-١٠٩.
(٢) الدر المنثور ٢/ ٩٠.
(٣) الأدب المفرد (٢٥٧).

بمراعاتها مع تفويض الأمر إليه تعالى شأنه، و«اعقلها وتوكَّل»[١] يرشدُ إلى ذلك.

وعند ساداتنا الصوفية: هو إهمالُ التدبير بالكلية.

وعن جابر[٢] بن زيد أنه قرأ: «فإذا عزمتُ» بصيغة المتكلِّم، والمعنى: فإذا قطعتُ لك بشيء، وعيَّنتُهُ لك، فتوكَّل عليَّ ولا تشاوِرْ به أحداً.

والالتفاتُ لتربية المهابة وتعليلِ التوكُّل والأمرِ به، فإنَّ عنوان الألوهية الجامعةِ لجميع صفات الكمال مستدعٍ[٣] للتوكُّل عليه سبحانه والأمرِ به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩﴾ عليه الواثقين به، المنقطعين إليه، فينصرُهم ويُرشدُهم إلى ما هو خيرٌ لهم، كما تقتضيه المحبة، والجملة تعليلٌ للتوكُّل عليه سبحانه.

وقد رُوعيَ في الآية حُسْنُ الترتيب، وذلك لأنه ﷺ أُمر أولاً بالعفو عنهم فيما يتعلَّق بخاصَّة نفسه، فإذا انتهَوا إلى هذا المقام أُمر أن يستغفر لهم ما بينهم وبين الله تعالى، لتنزاح عنهم التَّبعتان[٤]، فلما صاروا إلى هنا أُمر بأن يُشاورهم في الأمر؛ إذ صاروا خالصين من التبعتين، مُصَفَّيْنَ منهما، ثم أُمر ﷺ بعد ذلك بالتوكُّل على الله تعالى والانقطاع إليه؛ لأنه سبحانه السَّند الأقوم والملجأ الأعظم، الذي لا تؤثِّر الأسباب إلا به، ولا تنقضي الحاجُ[٥] إلا عند بابه.

﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ سِيقت بطريق تلوين الخطاب تشريفاً للمؤمنين؛ لإيجاب التوكُّل عليه، والترغيبِ في طاعته التي تُسْتَحَقُّ بها

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٧) من حديث أنس بن مالك ﵁. وقال: غريب من حديث أنس، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. اهـ. وأخرجه ابن حبان (٧٣١) من حديث عمرو بن أمية الضمري ﵁.

(٢) في الأصل و(م): خالد، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٦، والقراءات الشاذة ص ٢٣، والمحتسب ١/ ١٧٦، والمحرر الوجيز ١/ ٥٣٤، والبحر ٣/ ٩٩.

(٣) في (م): لجميع صفات الكلام مستدعى، وهو تصحيف للعبارة، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٢/ ١٠٥ والكلام منه.

(٤) في الأصل: التبعات.

(٥) جمع حاجة. الصحاح (حوج).

النُّصرةُ، والتحذيرِ عن معصيته التي يُستحقُّ بها الخذلان، أي: إنْ يُرِدْ نَصْرَكم كما أراده يومَ بدر فلا أحد يغلبكم، على طريق نفي الجنس المنتظِم لجميع أفراد الغالب ذاتاً وصفة، فهو أبلغُ من: لا يغلبكم أحد؛ لدلالته على نفي الصفة فقط.

ثم المفهوم من ظاهر النظم الكريم ـ كما قال شيخ الإسلام(١) ـ وإن كان نفيَ مغلوبيَّتهم من غير تعرُّضٍ لنفي المساواة أيضاً، وهو الذي يقتضيه المقام، لكنَّ المفهوم منه فهماً قطعيًّا هو نفيُ المساواة، وإثباتُ الغالبية للمخاطَبين، فإذا قلت: لا أَكْرَمَ من فلان، ولا أَفْضَلَ منه، فالمفهوم منه حتماً أنه أكرمُ من كلِّ كريم، وأفضلُ من كلِّ فاضل، وهذا أَمْرٌ مُطَّردٌ في جميع اللغات، ولا اختصاصَ [له] بالنفي الصريحِ، بل هو مُطَّردٌ فيما ورد على طريق الاستفهام الإنكاري، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ١٤٤] في مواقع كثيرة من التنزيل. وقد أشرنا إلى هذا المبحث فيما تقدم.

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ أي: وإن يُرِدْ خذلانكم ويَمنعْكم معونتَه كما فَعَلَ يومَ أحد.

وقرئ: «يُخْذِلْكُم»(٢) من أَخْذَلَهُ إذا جعله مخذولاً.

﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ مفيدٌ لانتفاءِ الناصر على نحو انتفاء الغالب، قيل(٣): وجاء جواب الشرط في الأول صريحَ النفي، ولم يَجِئ في الثاني كذلك تلطُّفاً بالمؤمنين، حيث صرَّح لهم بعدم الغَلَبة ولم يصرِّح بأنه لا ناصر لهم، وإن كان الكلام مفيداً له.

﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد خذلانه، أو من بعد الله تعالى، على معنى: إذا جاوزتموه، فعلى الأول: «بعد» ظرفُ زمان، وهو الأصل فيها، وعلى الثاني: مستعارٌ للمكان.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره، كما يُؤْذِنُ بذلك تقديمُ المعمول ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ المراد بهم إما جنسُ المؤمنين، والمخاطَبون داخلون فيه دخولاً

---

(١) في تفسيره ٢/ ١٠٥-١٠٦، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٢) الكشاف ١/ ٤٧٥، والبحر ٣/ ١٠٠ عن عبيد بن عمير.

(٣) في (م): وقيل.

أوليًا، وإما المخاطَبون خاصَّةً بطريق الالتفات، وعلى التقديرين لا يخفى ما في ذلك من تشريف المخاطَبين، مع الإيماء إلى تعليل تحتُّم التوكُّل عليه تعالى.

والفاء كما قالوا: لترتيب ما بعدها، أو الأمرِ به على ما مرَّ من غَلَبة المؤمنين ومغلوبيَّتهم، على تقدير نَصْرِ اللهِ تعالى لهم وخذلانه إياهم[(١)]، فإنَّ العلم بذلك مما يستدعي قَصْرَ التوكُّلِ عليه سبحانه لا محالة.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ﴾ أي: ما صحَّ ولا استقام لنبيٍّ من الأنبياء أن يخون في المغنم، لأنَّ الخيانة تنافي النبوة. وأصل الغلِّ: الأخذُ بخفْيَةٍ، ولذا اسُتعمل في السرقة، ثم خُصَّ في اللغة بالسرقة من المغنم قبل القِسْمة، وتسمَّى غُلولاً أيضاً، قيل: وسُمِّيت بذلك لأنَّ الأيدي فيها مغلولة، أي: ممنوعةٌ مجعولٌ فيها غُلٌّ، وهي الحديدة التي تجمع يَدَ الأسير إلى عنقه، ويقال لها: جامعةٌ أيضاً.

وقال الرُّمَّاني وغيره: أصل الغُلول من الغَلَل: وهو دخول الماء في خَلَل الشجر، وسُمِّيت الخيانة غُلولاً لأنها تجري في الملك على خفاءٍ من غير الوجه الذي يحلّ، ومن ذلك الغِلُّ للحقد، والغَليل لحرارة العطش، والغِلالة للشِّعار[(٢)].

والمراد: تنزيهُ ساحة النبيِّ ﷺ على أبلغ وجهٍ عمَّا ظَنَّ به الرماةُ يوم أحد، فقد حكى الواحديُّ[(٣)] عن الكلبيِّ ومقاتل: أنَّ الرماةَ حين تركوا المركز يومئذ طلباً للغنيمة قالوا: نخشى أن يقول النبيُّ ﷺ: مَنْ أخذ شيئاً فهو له، وأن لا يقسم الغنائم كما لمْ يَقْسِمْ يومَ بدر، فقال النبيُّ ﷺ: «ظننتُم أنَّا نَغُلُّ ولا نَقْسِمُ لكم» ولهذا نزلت الآية.

أو تنزيهُه ﷺ عمَّا اتُّهمه به بعضُ المنافقين يومَ بدر، فقد أخرج أبو داود والترمذيُّ وابن جرير وحَسَّنَاه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: نزلت هذه الآية في قَطيفة حمراء فُقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعلَّ رسول الله ﷺ أخذها[(٤)].

---

(١) يعني: على ما مر من غلبة المؤمنين على تقدير نصرته تعالى لهم، ومغلوبيتهم على تقدير خذلانه تعالى إياهم. تفسير أبي السعود ٢/ ١٠٦.

(٢) الشِّعار ككتاب: ما تحت الدِّثار من اللباس، وهو يلي شعر الجسد. القاموس (شعر) و(غلل).

(٣) في أسباب النزول ص ١٢٣.

(٤) سنن أبي داود (٣٩٧١)، وسنن الترمذي (٣٠٠٩)، وتفسير الطبري ٦/ ١٩٤ وهو من طريق

والروايةُ الأولى أَوْفَقُ بالمقام، وارتباطُ الآية بما قبلها عليها أتمُّ، لأنَّ القصة أُحُديَّة، إلا أنَّ فيها إشعاراً بأنَّ غنائم بدر لم تُقْسَم، وهو مخالفٌ لما سيأتي في «الأنفال»، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيقه. والرواية الثانية أولى بالقبول عند أرباب هذا الشأن.

ويحتمل أن يكون المراد المبالغةَ في النهي عن الغلول، فقد أخرج ابن أبي شيبة في «المصنف»، وابن جرير مرسلاً عن الضحاك قال: بعث رسول الله ﷺ طلائع، فغنم النبيُّ ﷺ غنيمةً، فَقَسَم بين الناس ولم يقسم للطلائع شيئاً، فلما قَدِمَتِ الطلائع قالوا: قسم النبيُّ ﷺ ولم يقسم لنا، فأنزل الله تعالى الآية[1]. فالمعنى: ما كان لنبيٍّ أن يُعطى قوماً من العسكر ويمنع آخرين، بل عليه أن يقسم بين الكلِّ بالسَّوية، وعبَّر سبحانه عن حرمان بعض الغزاة بالغُلول فَطْماً[2] عن هذا الفعل بالكلية، أو تعظيماً لشأنه ﷺ.

وجعل بعضُهم الكلام على هذا الاحتمال على حدِّ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] خوطب به ﷺ وأريد غيره ممن يفعل مثل هذا بعد النهي عنه. ولا يَخْفى بُعْدُه.

والصيغة على الاحتمال الأول إخبارٌ لفظاً ومعنًى، لكنها لا تخلو عن رمز إلى نهي عن اعتقاد ذلك في تلك الحضرة المقدَّسة، وعلى الاحتمال الأخير خبرٌ أُجري مُجرى الطلب، وقد وردت هذه الصيغة نهياً في مواضعَ من التنزيل؛ كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ [الأنفال: ٦٧] ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وكذا للامتناع العقلي؛ كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥] و﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النمل: ٦٠].

= خصيف، عن مقسم، عن ابن عباس. قال الترمذي: حديث حسن غريب... وروى بعضهم هذا الحديث عن خصيف عن مقسم، ولم يذكر فيه: عن ابن عباس.

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٤١٣، وتفسير الطبري ٦/ ١٩٦.

(٢) أي: قطعاً. القاموس (فطم).

وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب: «أن يُغَلَّ» على صيغة البناء للمفعول[١]، وفي توجيهها ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون ماضِيَه: أَغللته، أي: نَسَبْتُه إلى الغُلول، كما تقول: أَكْفَرْتُه، أي: نَسْبتُه إلى الكفر، قال الكُميت:

وطائفة قد أَكْفَرَتْني بحبِّكم   وطائفة قالت مُسيءٌ ومُذْنبٌ[٢]

والمعنى: ما صحَّ لنبيٍّ أن ينسبه أَحدٌ إلى الغُلول.

وثانيها: أن يكون من: أَغللتُه، إذا وجدته غالًّا؛ كقولهم: أَحمدتُه وأَبخلتُه وأَجبنتُه، بمعنى: وجدتُه كذلك، والمعنى: ما صحَّ لنبيٍّ أن يُوجَد غالًّا.

وثالثها: أنه من غُلَّ، إلا أن المعنى: ما كان لنبيٍّ أن يَغُلَّه غيرُه، أي: يخونه ويسرق من غنيمته.

ولعلَّ تخصيص النبيِّ بذلك ـ وإن كان لا يجوز أن يَغُلَّ غيرُهُ من إمام أو أمير ـ إما لِعِظَمِ خيانته، أو لأنه القائم بأمر الغنائم فإذا حُرِّمت الخيانة عليه وهو صاحب الأمر فحرمتُها على غيره أولى. كذا قيل. وأنت تعلم أنه لا حاجة إلى توجيه التخصيص بما ذُكر بعد الالتفات إلى سبب النزول، والنظر إلى ما سيأتي بعد.

ومن الناس مَن زعم أنَّ الآية نزلت في أداء الوحي؛ قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ القرآن وفيه عَيْبُ دينهم وسبُّ آلهتهم، فسألوه أن يطوي ذلك، فأنزل الله تعالى الآية[٣]، ولا يَخفَى أنه بعيدٌ جدًّا، ولا أدري كيف سَنَدُ هذه الرواية، ولا أظنُّ الخبر إلا موضوعاً، ويزيده بُعْداً بل لا يكاد يجوِّزه قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وهو جملةٌ شرطيةٌ مستأنفةٌ، لا محلَّ لها من الإعراب، و«ما» موصولة، والعائد محذوف، أي: بالذي غَلَّه، وجُوِّز أن تكون حالاً، ويكون التقدير: في حال علم الغالِّ بعقوبة الغُلول.

---

(١) التيسير ص ٩١، والنشر ٢/ ٢٤٣، وقرأ بها أيضاً من العشرة خلف وأبو جعفر.
(٢) البيت في شرح هاشميات الكميت ص ٥٣، وخزانة الأدب ٤/ ٣١٤.
(٣) ذكره الرازي في تفسيره ٩/ ٧٠.

وظاهِرُ الآثار يدلُّ على أنَّ الإتيان على ظاهره، فقد أخرج الشيخان، والبيهقيُّ في «الشُّعَب» عن أبي هريرة ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً فذكَر الغُلُولَ، فعظَّمه وعظَّم أمره ثم قال: أَلَا لا أُلْفِيَنَّ أحدَكُم يجيءُ يومَ القيامةِ على رقبتِه بعيرٌ له رُغاءٌ فيقول: يا رسولَ الله أَغِثْني، فأقولُ: لا أملكُ لكَ من الله تعالى شيئاً، قد أبلغتُك. لا أُلْفِيَنَّ أحدَكُم يومَ القيامة على رقبتهِ رِقاعٌ تَخفِق فيقول: يا رسولَ الله أَغِثْني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك. لا أُلفِيَنَّ أحدَكم يجيءُ يوم القيامة على رقبته صامتٌ فيقول: يا رسولُ الله أَغِثْني، فأقولُ: لا أملكُ مِن الله تعالى شيئاً، قد أبلغتُك»[1].

والأخبارُ بهذا المعنى كثيرةٌ، ولعلَّ السِّرَّ في ذلك أن يُفضَح به على رؤوس الأشهاد زِيادةً في عقوبته، وإلى هذا ذهب الجُبَّائيُّ، ولا مانع من ذلك عقلاً، والاستبعادُ غيرُ مفيد، وقد وقع ما يُشعر بالاستبعاد قديماً، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أنَّ رجلاً قال له: أرأيتَ قولَ الله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هذا يَغلُّ ألفَ درهم وألفي درهم يأتي بها، أرأيت مَن يَغُلُّ مئةَ بعير أو مئتي بعير، كيف يصنع بها؟ قال: أرأيت مَن كان ضِرْسُهُ مثل أُحد، وفَخِذُهُ مثل وَرِقان، وساقُه مثل بيضاءَ، ومجلسه ما بين الرَّبَذة إلى المدينة، ألا يحمل مثلَ هذا[2]؟

وورد في بعض الأخبار أنَّ الإتيان بالغُلول من النار، فحينئذ يكون في الآية حذفٌ، أي: يأتِ بما غلَّ من النار، فقد أخرج ابن مردويه والبيهقيُّ عن بُريدةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الحجر لَيَزِنُ سبع خَلِفات، فيُلقى في جهنم فيهوي فيها

---

(١) صحيح البخاري (٣٠٧٣)، وصحيح مسلم (١٨٣١)، وشعب الإيمان (٤٣٣٠)، وهو عند أحمد (٩٥٠٣). والمراد بالرِّقاع: ما عليه من الحقوق المكتوبة في الرقاع، وخفوقها حركتها. والصامت: الذهب والفضة. النهاية (رقع) و(صمت).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٨٠٥، وأخرجه ـ أيضاً ـ هناد في الزهد (٢٩٧). قوله: وَرِقان، هو جبل أسود بين العَرْج والرويثة على يمين المُصعد من المدينة إلى مكة. وبيضاء: ثنية التنعيم بمكة. والربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عِرْق على طريق الحجاز. معجم البلدان ١/ ٥٣٠ و٣/ ٢٤ و٥/ ٣٧٢.

سبعين خريفاً، ويؤتَى بالغُلول فيُلقى معه، ثم يكلَّف صاحبه أن يأتي به، وهو قول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾»[١].

وأخرج ابن أبي حاتم[٢] عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لو كنت مُسْتَحِلًّا من الغُلول القليل، لاستحللتُ منه الكثير، ما من أحد يَغُلُّ إلا كُلِّف أن يأتي به من أسفل دَرْك جهنم.

وقيل: الإتيان به مجازٌ عن الإتيان بإثمه؛ تعبيراً بما عَمِلَ عمَّا لزمه من الإثم، أي: يأتِ بما احْتَملَ من وَبالِه وإثمه. واختاره البلخيُّ وقال: يجوز أن يكون ما تضمَّنته الأخبار جارٍ[٣] على وجهِ المَثَل، كأنَّ الله تعالى إذ فضح الغالَّ وعاقبه العقوبة الشديدة، جرى مجرى أن يكون آتياً به وحاملاً له، وله صوت. ولا يخفى أنَّ جواب أبي هريرة للرجل يأبى هذا التأويل.

وقيل: إنَّ المعاني تظهر في صور جسمانية يوم القيامة، كما يُؤْذِنُ بذلك خبرُ مجيء الموت في صورة كبش[٤]، وتلقِّي القرآنِ صاحبَه في صورة الرجل الشاحب حين ينشقُّ عنه القبر[٥]، إلى غير ذلك.

وقد ذكر غيرُ واحدٍ أنه لا يَبْعُدُ ظهور الأعمال من الطاعات والمعاصي بصورٍ تناسبها، فحينئذٍ يمكن أن يقال: إنَّ معصية كلِّ غالٍّ تظهر يوم القيامة في صورة غلوله، فيأتي بها هناك، وعليه تكون الأخبار على ظاهرها من غير حاجة إلى ارتكاب التمثيل، وجواب أبي هريرة لا يأباه، وإلقاؤه في النار غيرُ مُشْكِلٍ.

وأهل الظاهر لعلَّهم يقولون: إنه يُلقى من غير تعذيب[٦]. وبتقديره لا محذورَ

(١) شعب الإيمان (٤٣٣٤)، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٢/ ٩٢. قوله: خَلِفات: جمع خَلِفة، وهي الحامل من النوق. النهاية (خلف).
(٢) في تفسيره ٣/ ٨٠٥.
(٣) في (م): جاء.
(٤) أخرجه أحمد (١١٠٦٦)، والبخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٥) أخرجه أحمد (٢٢٩٧٦)، وابن ماجه (٣٧٨١) من حديث بريدة رضي الله عنه.
(٦) بعدها في الأصل: له.

أيضاً فيه؛ لأنَّ الله تعالى لا يجب عليه بشيء، وقد ورد في بعض الأخبار أنه تعالى يخلقُ خَلْقاً حين قول جهنم: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠] فيضعهم فيها[١]. ومع هذا وتسليمِ صحة الخبر لابدَّ من القول باستثناء بعض الغُلول عن الإلقاء؛ إذ قد يكون الغُلول مُصْحَفاً، ولا أظنُّ أحداً يتجاسر على القول بإلقائه.

﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: تُعطى كلُّ نفسٍ مكلَّفةٍ جزاءَ ما عملت من خيرٍ أو شرٍّ، تامًّا وافياً، ففي الكلام مضافٌ محذوفٌ، أو أنه أُقيم المكسوبُ مُقام جزائه، وفي تعليق التوفية بكلِّ مكسوبٍ ـ مع أنَّ المقصودَ بيانُ حال الغالِّ عند إتيانه بما غلَّ يوم القيامةِ ـ من الدلالة على فخامة شأن اليوم، والمبالغةِ في بيان فظاعةِ حالِ الغالِّ ما لا يخفى، فإنه إذا كان كلُّ كاسبٍ مجزيًّا بعمله لا ينقص منه شيء وإن كان جُرْمه في غايةِ القلَّة والحقارة، فالغالُّ مع عِظَمِ جُرْمه بذلك أولى، وهذا سبب العدول عمَّا يقتضيه الظاهر من نحو: ثم يوفَّى ما كَسَب؛ لأنه اللائق بما قبله.

وقيل: يحتمل أن يكون المراد: ثم توفَّى منه كلُّ نفس لها حقٌّ في تلك الغنيمة ما كسبت من نقصان حقِّها من غلِّه، فحينئذ يكون النَّظْمُ على مقتضى الظاهر.

وكلمة «ثمّ» للتفاوت بين حمله ماغَلَّ وبين جزائه، أو للتراخي الزماني، أي: بعد حَمْله ما غَلَّه بمدَّة مديدة، وجَعلِه منتظراً فيما بين الناس مفتضحاً حاملاً ماغَلَّه، تُوَفَّى منه كلُّ نفس، ولا يخفى أنَّ مثل هذا الاحتمال مما يُصان عنه كلام الملك المتعال، فالحقُّ الذي لا ينبغي العدول عنه، هو القول الأول، المتضمِّنُ لنكتة العدول، وأَمْرُ «ثم» عليه ظاهرٌ، سواءٌ جُعلت للتراخي الزماني، أو التراخي الرُّتبي:

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وفيه: «... وإنه ينشئ للنار من يشاء فيُلقَوْن فيها...»، ولكن جاء في رواية أخرى لهذا الحديث عند البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦): (٣٦): «... وأما الجنة فإن الله عز وجل ينشئ لها خَلقاً» ومثله من حديث أنس عند البخاري (٧٣٨٤)، ومسلم (٢٨٤٨): (٣٨). قال ابن حجر في الفتح ١٣/ ٤٣٧ في شرحه للرواية التي ذكرناها أولاً عن أبي هريرة ﷺ: وقد قال جماعة من الأئمة: إن هذا الموضع مقلوب، وجزم ابن القيم بأنه غلط، واحتج بأن الله تعالى أخبر بأن جهنم تمتلئ من إبليس وأتباعه، وكذا أنكر الرواية شيخنا البلقيني، واحتج بقوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ثم قال: وحَمْلُه على أحجار تلقى في النار أقرب من حمله على ذي روح يعذب بغير ذنب.

أما الأول: فلأنَّ الإتيان بما غَلَّ عند قيامه من القبر على ما هو الظاهر، والجزاءُ بعد ذلك بكثير.

وأما الثاني: فلأنَّ جزاء الغالِّ وعقوبتَه أشدُّ فظاعةً من حَمْل ما غلَّه والفضيحةِ به، بل لا يبعد أن يكون ذلك الحمل كالعلاوة على الحمل، بل يكاد أن يكون نعيماً بالنسبة إلى ما يَلقى بعدُ.

والجملة على كلٍّ تقدير معطوفةٌ على الجملة الشرطية.

﴿وَهُمْ﴾ أي: كلُّ الناس المدلولِ عليهم بـ «كلُّ نفس» ﴿لَا يُظْلَمُونَ ١٦١﴾ أي: لا ينقص بمقتضى الحكمة والعدل ثوابُ مُطيعهم، ولا يُزاد عقابُ عاصيهم.

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ أي: سعى في تحصيله وانتحى نحوه ﴿كَمَنْ بَآءَ﴾ أي: رجع ﴿بِسَخَطٍ﴾ أي: غضبٍ عظيم جدًّا، وهو بفتحتين مصدرٌ قياسيٌّ، ويقال: بضمٍّ فسكون، وهو غير مَقيسٍ. والجارُّ متعلِّقٌ بالفعل قبله، وجُوِّز أن يكون حالاً، فيتعلَّقُ بمحذوف، أي: رجع مصاحباً لسَخَطٍ ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: كائنٍ منه تعالى.

وفي المراد من الآية أقوال:

أحدها: أنَّ المعنى: أفمن اتَّبع رضوان الله في العمل بالطاعة، كَمَن باء بسَخَطٍ منه سبحانه في العمل بالمعصية، وهو المرويُّ عن ابن إسحاق[(١)].

ثانيها: أنَّ معناه: أفمن اتَّبع رضوان الله في ترك الغُلول؛ كالنبيِّ ومَن يَسيرُ بسيرته، كَمَن باء بسَخَطٍ من الله تعالى بفعل الغُلول، وروي ذلك عن الحسن والضحاك، واختاره الطبريُّ[(٢)]، لأنه أوفقُ بالمقام.

ثالثها: أنَّ المراد: أفمن اتَّبع رضوان الله تعالى بالجهاد في سبيله، كمن باء بسَخَطٍ منه جلَّ جلاله في الفرار عنه، ونُقل ذلك عن الجُبَّائي والزجَّاج، قيل[(٣)]: وهو المطابق لِمَا حكي في سبب النزول أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا أمر بالخروج إلى

(١) كما في سيرة ابن هشام ٢/ ١١٧، ونقله المصنف عن الطبرسي في مجمع البيان ٤/ ٢٥٢.
(٢) في تفسيره ٦/ ٢٠٩، والكلام من مجمع البيان ٤/ ٢٥٣.
(٣) القائل هو الطبرسي في مجمع البيان ٤/ ٢٥٣، وعنه نقل المصنف قول الجبائي والزجاج، وينظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٨٦.

أُحدٍ، قَعَدَ عنه جماعةٌ من المنافقين، واتَّبعه المؤمنون، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وفيه بُعْدٌ.

وإظهارُ الاسم الجليل في موضع الإضمار لما قُرِّر[1] غيرَ مرَّة.

﴿وَمَأْوَنٰهُ جَهَنَّمُ﴾ أي: مصيرُه ذلك، وفي الجملة احتمالان:

الأول: أن تكون مستأنفةً مسوقةً لبيان مآل[2] مَنْ باء بسَخَط، ويُفهَم مِن مُقابِلِه أنَّ مَن اتَّبع الرضوان كان مأواه الجنة، ولم يذكر ذلك ليكون أَبلغَ في الزجر. وقيل: لم يذكر مع الرضوان الجنةَ، لأنَّ رضوان الله تعالى أكبرُ، وهو مستلزمٌ لكلِّ نعيم؛ وكونُ السَّخَطِ مستلزماً لكلِّ عقاب فيقتضي أن تُذكر معه جهنم في حَيِّز المنع، لسبق الجمالِ الجلالَ، فافهم.

والثاني: أنها داخلةٌ في حَيِّز الموصول، فتكون معطوفةً على «باء بسخط» عطفَ الصِّلة الاسمية على الصلة الفعلية.

وعلى كلا الاحتمالين لا محلَّ لها من الإعراب.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾ إما تذييلٌ، أو اعتراضٌ، أو معطوفٌ على الصلة بتقدير: ويقال في حقِّهم ذلك، وأيًّا ما كان فالمخصوص بالذمِّ محذوفٌ، أي: جهنمُ.

والمصير: اسمُ مكان، ويحتمل المصدريةَ، وفرَّقوا بينه وبين المرجع بأنَّ المصير يقتضي مخالفةَ ما صار إليه من جهنم لِمَا كان عليه في الدنيا؛ لأنَّ الصيرورة تقتضي الانتقال من حالٍ إلى حال أخرى؛ ك: صار الطينُ خَزَفاً، والمرجع انقلابُ الشيء إلى حالٍ قد كان عليها؛ كقولك: مرجعُ ابن آدم إلى التراب، وأما قولهم: مرجع العباد إلى الله تعالى؛ فباعتبار أنهم ينقلبون إلى حالٍ لا يملكون فيها لأنفسهم شيئاً كما كان قبلَ ما مَلَكوا.

﴿هُمْ﴾ عائدٌ على الموصولَيْنِ باعتبار المعنى، وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ خبرُهُ، والمراد: هم متفاوتون؛ إطلاقاً للملزوم على اللازم، أو شَبَّههم

---

(١) في (م): لما مر.
(٢) في (م): حال.

بالدَّرَج في تفاوتهم علوًّا وسفلاً على سبيل الاستعارة، أو جَعَلَهم نفسَ الدرجات مبالغةً في التفاوت، فيكون تشبيهاً بليغاً بحذف الأداة.

وقيل: إن الكلام على حذف مضافٍ، ولا تشبيه، أي: هم ذوو درجات، أي: منازلَ، أو أحوالٍ متفاوتة، وهذا معنى قول مجاهد والسُّدِّي: لهم درجات. وذهب بعضهم أنَّ في الآية حينئذٍ تغليبُ الدرجاتُ على الدَّرَكات؛ إذ الأول للأول، والثاني للثاني.

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في علمه وحُكمه، والظَّرفُ متعلِّقٌ بـ «درجاتٍ» على المعنى، أو بمحذوفٍ وقع صفةً لها.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٦٣﴾ من الأعمال ودرجاتها، فيجازيهم بحَسَبها، والبصير كما قال حجَّةُ الإسلام[١]: هو الذي يُشاهِدُ ويرى، حتى لا يَعْزُب عنه ما تحت الثرى، وإبصارُهُ أيضاً منزَّهٌ عن أن يكون بَحدَقةٍ وأجفان، ومقدَّسٌ عن أن يرجع إلى انطباعِ الصور والألوان في ذاته، كما ينطبع في حَدَقة الإنسان، فإنَّ ذلك من التغيير والتأثُّر المقتضي للحدثان، وإذا نُزِّه عن ذلك كان البصرُ في حقِّه تعالى عبارةً عن الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت المبصرات، وذلك أوضحُ وأجلى مما نفهمه من إدراك البصرِ القاصر على ظواهر المرئيات، انتهى.

ويُفهم منه أنَّ البصرَ صفةٌ زائدة على العلم، وهو الذي ذهب إليه الجمهور منَّا ومن المعتزلة والكرَّامية؛ قالوا: لأنَّا إذا علمنا شيئاً عِلماً جليًّا، ثم أبصرناه، تجدُ فرقاً بين الحالتين بالبديهة، وأنَّ في الحالة الثانية حالةٌ زائدةٌ هي الإبصار.

وقال الفلاسفة، والكعبيُّ، وأبو الحسين البصريُّ، والغزالي عند بعضٍ وادَّعى أنَّ كلامه هذا مشيرٌ إليه: إنَّ بصره تعالى عبارةٌ عن علمه تعالى بالمبصَرات، ومثل هذا الخلاف في السمع.

والحقُّ أنهما زائدان على صفة العلم، وأنهما لا يُكيَّفان ولا يُحَدَّان، والإقرارُ بهما واجبٌ كما وصف بهما سبحانه نفسه، وإلى ذلك ذهب السلف الصالح، وإليه ينشرح الصدر.

---

(١) في المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص ٩١.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: أَنْعَمَ وتفضَّل، وأصل المنِّ: القطعُ، وسُمِّيت النعمةُ مِنَّةً لأنه يُقطَع بها عن البلية، وكذا الاعتداد بالصنيعة مَنًّا لأنه قَطْعٌ لها عن وجوب الشكر عليها. والجملة جوابُ قسم محذوفٍ، أي: والله لقد منَّ الله.

﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من قومه، أو من العرب مطلقاً، أو من الإنس، وخيرُ الثلاثة الوسط، وإليه ذهبت عائشة ﵂، فقد أخرج البيهقيُّ وغيره عنها أنها قالت: هذه للعرب خاصة[1]. والأولُ خيرٌ من الثالث.

وأيًّا ما كان، فالمراد بهم على ما قال الأُجْهُوريُّ: المؤمنون من هؤلاء في علم الله تعالى، أو الذين آلَ أمرهم إلى الإيمان.

﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ﴾ أي: بينهم ﴿رَسُولًا﴾ عظيمَ القَدْر جليلَ الشأن ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: من نَسَبهم، أو من جنسهم، عربيًّا مثلهم، أو من بني آدم، لا مَلَكاً ولا جنيًّا.

و«إذ» ظرفٌ لـ «مَنَّ»، وهو وإن كان بمعنى الوقت، لكن وقع في مَعرض التعليل كما نصَّ عليه مُعظَمُ المحققين. والجارُّ إما متعلِّقٌ بـ «بعث»، أو بمحذوف وقع صفةً لـ «رسولاً».

والامتنانُ بذلك إما لحصول الأُنس بكونه من الإنس، فيَسْهُلُ التلقِّي منه، وتزولُ الوحشة والنفرة الطبيعية التي بين الجنسين المختلفين. وإما ليفهموا كلامه بسهولة، ويفتخروا على سائر أصناف نوع بني آدم. وإما ليفهموا ويفتخروا ويكونوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة، فيكون ذلك أقربُ إلى تصديقه والوثوق به ﷺ.

وتخصيص المؤمنين بالامتنان مع عموم نعمة البعثة كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] لمزيد انتفاعهم على اختلاف الأقوال فيهم بها، ونظير ذلك قولُه تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقرئ: «لَمِنْ مَنِّ الله»[2] بـ «مِنْ» الجارَّة و«مَنِّ» المشدَّدة النون، على أنه خبرٌ

---

(١) شعب الإيمان (١٦١٥)، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم ٣/٨٠٨.

(٢) القراءات الشاذة ص ٢٣، والكشاف ١/٤٧٧، والبحر ٣/١٠٣-١٠٤، والدر المصون ٣/٤٧١.

لمبتدأ محذوف، مثل: مَنُّه أو بَعْثُه، وحُذف لقيام الدلالة. وجوَّز الزمخشريُّ[1] أن تكون «إذ» في محلِّ الرفع كإذا في قولك: أَخْطَبُ ما يكون الأمير إذا كان قائماً، بمعنى: لَمِنْ منِّ الله تعالى على المؤمنين وقتُ بَعْثِه.

ولا يخفى عليك أنَّ هذا يقتضي أن تكون «إذ» مبتدأ، والجارُّ والمجرور خبراً. وقد اعتُرِضَ ذلك بأنه لم يُعلم أنَّ أحداً من النحويين قال بوقوع «إذ» كذلك، وما في المثال «إذا» لا «إذ» وهي أيضاً فيه ليست مبتدأ أصلاً، وإنما جوَّزوا فيها وجهين: النصبُ على أنَّ الخبر محذوفٌ وهي سادَّةٌ مَسَدَّه، والرفع على أنها هي الخبر، وعلى الأول: يكون الكلام من باب: جَدَّ جَدّه، لأنَّ الأمير أَخطَبُ في حال القيام لا كونه، وعلى الثاني من باب: نهاره صائم. والوجهُ الأول هو المشهور، وجوَّز الثاني عبد القاهر[2] تمسُّكاً بقول بعضهم: أخطبُ ما يكون الأمير يومُ الجمعة، بالرفع، فكأنَّ الزمخشريَّ قاس «إذ» على «إذا» والمبتدأ على الخبر.

وانتصر بعضهم للزمخشري، بأنه قد صرَّح جماعةٌ من محققي النحاة بخروج «إذ» عن الظرفية، فتكون مفعولاً به، وبدلاً من المفعول، وهذا في قوة تصريحهم بوقوعها مبتدأً وخبراً مثلاً؛ إذ هو قولٌ بتصرُّفها، ومتى قيل به كانت جميع الأحوال مستويةً في جواز الإقدام عليها من غير تفرقةٍ بين حالٍ وحالٍ إلا لمانع يمنع من ذلك الحال فيها وفي غيرها من سائر الأسماء، وهو أمرٌ آخرُ وراءَ ما نحن فيه.

نعم حكى الشَّلوبين في «شرح الجزولية»[3] عن بعضهم: أنَّ مأخذَ التصرُّف في الظروف هو السماع، فإنْ كان هذا حكم أصل التصرُّف فقط دون أنواعه، ارتفع الغبار عمَّا قاله الزمخشريُّ بناءً على ما ذكرنا بلا خفاء، وإن كان حكم الأنواع أيضاً كذلك، فلا يُقْدَمُ على الفاعلية بمجرَّد ثبوت المفعولية، ولا على الابتدائية بمجرَّد ثبوت الخبرية ـ مثلاً ـ إلا بورود سماع في ذلك، ففي صحَّة كلام الزمخشريِّ تردُّدٌ بيِّن؛ لأنَّ مجرَّدَ تصريحهم حينئذ بوقوع «إذ» مفعولاً وبدلاً، وبوقوع «إذا» خبراً مثلاً لا يجدي نفعاً، لجواز ورود السماع بذلك دون غيره، كما لا يخفى.

---

(١) في الكشاف ١/ ٤٧٧.
(٢) نقل المصنف قوله عن مغني اللبيب ص ١١٣.
(٣) ٢/ ٧١٧.

وفي قراءة رسول الله وفاطمةَ صلى الله تعالى عليه وعليها وسلم: «من أنفَسِهم» بفتح الفاء[1]، أي: من أشرفهم؛ لأنه ﷺ من أشرف القبائل وبطونها، وهو أمرٌ معلومٌ غنيٌّ عن البيان، ينبغي اعتقاده لكلِّ مؤمن.

وقد سئل الشيخ وليُّ الدين العراقي: هل العلم بكونه ﷺ بشراً ومن العرب شرطٌ في صحة الإيمان، أو من فروض الكفاية؟

فأجاب: بأنه شرطٌ في صحة الإيمان، ثم قال: فلو قال شخصٌ: أُؤمِنُ برسالة محمد ﷺ إلى جميعِ الخلق، لكن لا أدري هل هو من البشر أو من الملائكة أو من الجنّ، أو لا أدري هل هو من العرب أو من العجم؟ فلا شكَّ في كفره لتكذيبه القرآنَ وجَحْدِه ما تلقَّته قرون الإسلام خَلَفاً عن سَلَفٍ، وصار معلوماً بالضرورة عند الخاصِّ والعام، ولا أعلم في ذلك خلافاً، فلو كان غبيًّا لا يعرف ذلك وجب تعليمه إياه، فإنْ جَحَدَهُ بعد ذلك حَكَمْنا بكفره. انتهى.

وهل يقاس اعتقادُ أنه ﷺ من أشرف القبائل والبطون على ذلك، فيجب ذلك في صحة الإسلام، أو لا يقاس، فحينئذ يصحُّ إيمان مَن لم يَعرف ذلك لكنه منزَّهٌ تلك الساحةَ العليةَ عن كلِّ وَصْمة؟ فيه تأمل، والظاهر الثاني وهو الأوفق بعوامِّ المؤمنين.

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ إما صفةٌ، أو حالٌ، أو مستأنفةٌ وفيه بُعْدٌ، أي: يتلو عليهم ما يوحَى إليه من القرآن بعد ما كانوا أهلَ جاهلية، لم يَطرُق أسماعَهم شيءٌ من الوحي، أو بعد ما كان بعضُهم كذلك، وبعضهم متشوِّفاً متشوِّقاً إليه، حيث أَخبر كتابه الذي بيده بنزوله وبشَّر به.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يدعوهم إلى ما يكونون به زاكِين طاهرين مما كان فيهم من دَنَسِ الجاهلية، أو من خبائث الاعتقادات الفاسدة، كالاعتقادات التي كان عليها مشركو العرب وأهل الكتابين. أو يشهد بأنهم أزكياء في الدين. أو يأخذ منهم الزكاة التي يطهِّرهم بها قاله الفراء[2]، ولا يخفى بُعْدُه، ومِثْلُه القريبُ إليه.

---

(١) القراءات الشاذة ص ٢٣، والكشاف ١/ ٤٧٦.

(٢) في معاني القرآن ١/ ٢٤٦.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قد تقدَّم الكلام في ذلك[1]. وهذا التعليم معطوفٌ على ما قبله، مترتِّبٌ على التلاوة، وإنما وسَّط بينهما التزكية ـ التي هي عبارةٌ عن تكميل النفس بحسب القوة العملية، وتهذيبِها المتفرِّغ على تكميلها بحسب القوة النظرية، الحاصل بالتعليم، المترتِّب على التلاوة ـ للإيذان بأنَّ كلَّ واحدٍ من الأمور المترتِّبة نعمةٌ جليلةٌ على حيالها، مستوجبةٌ للشكر، ولو رُوعيَ ترتيبُ الوجود كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] لتبادر إلى الفهم عدُّ الجميع نعمةً واحدةً، وهو السِّرُّ في التعبير عن القرآن بالآيات تارة، وبالكتاب والحكمة أخرى، رمزاً إلى أنه باعتبار كلِّ عنوانٍ نعمةٌ على حدة. قاله مولانا شيخ الإسلام[2].

وقد يقال: المراد من تلاوة الآيات تلاوةُ ما يوحَى إليه ﷺ من الآيات الدالة على التوحيد والنبوة، ومن التزكية الدعاءُ إلى الكلمة الطيبة المتضمِّنة للشهادة لله تعالى بالتوحيد، ولنبيِّه عليه الصلاة السلام بالرسالة، وبتعليم الكتاب تعليمُ ألفاظ القرآن وكيفية أدائه ليتهيَّأ لهم بذلك إقامة عُماد الدين، وبتعليم الحكمة الإيقافُ على الأسرار المخبوءة في خزائن كلام الله تعالى، وحينئذٍ أَمْرُ ترتيب هذه المتعاطِفات ظاهرٌ؛ إذ حاصلُ ذلك أنه ﷺ يمهِّد سُبلَ التوحيد ويدعو إليه، ويعلِّم ما يلزم بعد التلبُّس به ويزيد على الزُّبْد شَهْداً، فتقديم التلاوة؛ لأنها من باب التمهيد، ثم التزكية؛ لأنها بعده، وهي أولُ أمرٍ يحصل منه صفةٌ يتلبَّس بها المؤمنون، وهي من قبيل التخلية المقدَّمة على التحلية؛ لأنَّ دَرْءَ المفاسد أولى من جَلْبِ المصالح، ثم التعليم؛ لأنه إنما يُحتاج إليه بعد الإيمان، بقي أَمْرُ تقديم التعليم على التزكية في آية «البقرة»، ولعلَّه كان إيذاناً بشرافة التحلية كما أشرنا إليه هناك. فتأمل.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بعثة الرسول ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ ظاهر، و«إنْ» هي المخفَّفة، واللام هي الفارقة، والمعنى: وإن الشأنَ كانوا من قبل إلخ. وإلى هذا ذهب بعض المحققين، وذكر مثله مكِّي إلا أنه قال: التقدير: وإنهم كانوا من قبلُ. فجَعَل اسمَها ضميراً عائداً على المؤمنين.

---

(١) عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة البقرة.

(٢) هو أبو السعود في تفسيره ٢/ ١٠٨.

قال أبو حيان[1]: وكلا الوجهين لا نعرف نَحْويًّا ذهب إليه، وإنما تقرَّر عندنا في كتب النحو ومن الشيوخ، أنك إذا قلت: إنَّ زيداً قائمٌ، ثم خَفَّفتَ، فمذهبُ البصريين فيها وجهان: أحدهما: جواز الإعمال، ويكون حالُها وهي مخفَّفةٌ كحالها وهي مشدَّدة، إلا أنها لا تعمل في مُضْمَر، ومنع ذلك الكوفيون، وهم محجوجون بالسماع الثابت من لسان العرب. والوجه الثاني وهو الأكثر عندهم: أن تُهمَل فلا تُعْمَل، لا في ظاهرٍ ولا مُضْمَر، لا ملفوظٍ ولا مقدَّرٍ البتَّة، فإنْ وَلِيها جملةٌ اسميةٌ ارتفعت بالابتداء والخبر، ولزمت اللامُ في ثاني مصحوبيها إن لم يُنْفَ، وفي أوَّلهما إن تأخَّر، فتقول: إنْ زيدٌ لقائم، ومدلولُه مدلولُ: إنَّ زيداً قائم، وإن وَلِيَها جملةٌ فعليةٌ، فلابدَّ عند البصريين أن تكون من نواسخ الابتداء، وإن جاء الفعل من غيرها فهو شاذٌّ لا يقاس عليه عند جمهورهم.

وأجاب الحلبيُّ عمَّن قدَّر الشأنَ بأنه تفسيرُ معنًى لا بيان إعراب[2]. وقال عصام المِلَّة: إنَّ مَن قال: إن الشأن، لم يُرِدْ تقدير ضمير الشأن، بل جعل الجملة حالاً بتأويل القصة، ذلك لئلَّا يختلف زمان الحال والعامل، فإنَّ زمان الكون في «ضلالٍ مبين» قبل زمان التعليم، لكنَّ كونَ القصة ذلك مستمرٌّ، ثم قال: وهذا تأويلٌ شائعٌ مشهورٌ في الحال الذي يتقدَّم زمانُ تحقُّقه زمانَ تحقُّق العامل، فاحفظه ولا تلفظه. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ ما ذكره الحلبيُّ خلاف الظاهر، وكلام عصام الملة منظورٌ فيه؛ لأنَّ المناسب لِمَا ذكره على تقدير تعيُّنه تقدير الشأن قبل «إن» لا بعدها كما لا يخفى.

وجوَّز بعضُهم كونَ الجملة مستأنفةً لا محلَّ لها من الإعراب، والأكثرون على الحالية، وعلى التقديرين، فهي مبيِّنةٌ لكمال النعمة وتمامها.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ كلامٌ مبتدأٌ مسوقٌ لإبطال بعض ما نشأ من الظنون الفاسدة إثر إبطال بعضٍ آخر، والهمزة

---

(١) في البحر ٣/ ١٠٥، وما قبله منه.

(٢) الدر المصون ٣/ ٤٧٢.

للتقريع والتقرير، والواو عاطفةٌ لمدخولها على محذوفٍ قبلَها، و«لمَّا» ظرفٌ بمعنى حين، مضافةٌ إلى ما بعدها مستعملةٌ في الشرط، كما ذهب إليه الفارسي[١]، وهو الصحيح عند جمع من المحققين، وناصبُها «قلتم» وهو الجزاء، و«قد أصبتم» في محلِّ الرفع على أنه صفة لـ «مصيبة»، وجَعْلُه في محلِّ نصبٍ على الحال يحتاج إلى تكلُّفٍ مستغنًى عنه.

والمراد بالمصيبة ما أصابَهم يومَ أُحدٍ من قَتْل سبعين منهم، وبـ «مِثليها» ما أصاب المشركين يومَ بدرٍ من قَتْل سبعين منهم وأَسْر سبعين، وجَعْلُ ذلك مِثلين بجعل الأَسر كالقتل، أو لأنهم كانوا قادرين على القتل، وكان مرضيَّ الله تعالى، فَعَدَمُهُ كان مِن عندهم، فتَرْكُه مع القدرة لا ينافي الإصابة.

وقيل: المراد بالمثلين: المثلان في الهزيمة، لا في عدد القتلى، وذلك لأنَّ المسلمين هزموا الكفار يومَ بدر، وهزموهم أيضاً يومَ أُحد أولَ الأمر، وعليه يكون المراد بالمصيبة: هزيمةُ الكفار للمسلمين بعد أن فارقوا المركز.

و«أنى هذا» جملةٌ اسميةٌ مقدَّمةُ الخبر، والمعنى: من أين هذا، لا: كيف هذا؛ لدلالة الجواب مفعولِ القول.

وقيل: «أنَّى» منصوبةٌ على الظرفية لـ «أصابنا» المقدَّرِ، و«هذا» فاعلٌ له.

والجملةُ مقولُ «قلتم»، وتوسيطُ الظرف وما يتعلَّقُ به بينه وبين الهمزة ـ مع أنه المقصود إنكارُه، والمعطوفُ بالواو حقيقةً ـ لتأكيد النكير وتشديدِ التقريع، فإنَّ فِعْلَ القبيح في غير وقته أقبحُ، والإنكار على فاعله أَدْخَل، والمعنى: أَحِينَ نالَكم من المشركين نصفُ ما قد نالهم[٢] منكم قبل ذلك، رجعتم وقلتم: من أين هذا، ونحن مسلمون نقاتل غضباً لله تعالى وفينا رسولُهُ، وهؤلاء مشركون أعداء الله تعالى ورسوله ﷺ؟ أو: قد وعدنا الله تعالى النصر؟ وإليه ذهب الجُبَّائي[٣].

---

(١) ينظر كتاب الشعر له ص ٧٠، ومغني اللبيب ص ٣٦٩، والبحر ٣/١٠٦.

(٢) في الأصل: نصف ما قدرنا لهم.

(٣) ذكره عنه الطبرسي في مجمع البيان ٤/٢٥٦، وفيه: وقيل: إنهم إنما استنكروا ذلك لأنه وعدهم بالنصر من الله إن أطاعوه، عن الجبائي.

وهذا على تقدير توجيه الإنكار والتقريع إلى صدور ذلك القول عنهم في ذلك الوقت خاصة، بناء على عدم كونه مظنَّةً له داعياً إليه، بل على كونه داعياً إلى عدمه، فإنَّ كونَ مصيبةِ عدوِّهم مِثْلَي مصيبتهم مما يهوِّن الخطب ويُوْرِثُ السلوة.

أو: أَفَعَلْتم ما فعلتم من الفشل والتنازع، أو الخروج من المدينة، والإلحاح على النبيِّ ﷺ، ولمَّا أصابتكم غائلةُ ذلك قلتم: أَنَّى هذا؟ وهذا على تقدير توجيه الإنكار لاستبعادهم الحادثةَ مع مباشرتهم لسببها.

وجُوِّز أن يكون المعطوفُ عليه القولَ، إشارةً إلى أنَّ قولهم كان غيرَ واحد، بل قالوا أقوالاً لا ينبغي أن يقولوها.

وذهب جماعةٌ إلى أن المعطوف عليه ما مضى من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٥٢] إلى هنا، وللتعلُّق بقصةٍ واحدة لم يتخلَّل بينهما أجنبيٌّ ليكون القول بذلك بعيداً كما ادَّعاه أبو حيان(١)، والهمزة حينئذٍ متخلِّلةٌ بين المتعاطفين للتقرير بمعنى التثبيت أو الحملِ على الإقرار والتقريع على مضمون المعطوف، والمعنى: أكان من الله تعالى الوعد بالنصر بشرط الصبر والتقوى، فحين فشلتم وتنازعتم وعصيتم وأصابكم الله تعالى بما أصابكم، قلتم: أنى هذا؟

والجمهور على أنَّ الهمزةَ مقدَّمةٌ من تأخير، والواو أصلها التقديم ـ وهو مذهب سيبويه وغيرِه ـ والجملة الاستفهامية معطوفةٌ على ما قبلها، واختار هذا في «البحر»(٢).

وإسنادُ الإصابة إلى المصيبة مجازٌ، وإلى المخاطبين حقيقةٌ، ولم يؤتَ بالإسنادين من باب واحد زيادةً في التقريع. وتذكير اسم الإشارة في «أنى هذا» مراعاة لمعنى المصيبة المشار إليها، وهو المشهور، أو لِمَا أنَّ إشارتهم ليست إلا لِمَا شاهدوه في المعركة من حيث هو هو، من غير أن يخطر ببالهم تسميته باسمٍ ما، فضلاً عن تسميته باسم المصيبة، وإنما هي عند الحكاية.

---

(١) في البحر ٣/ ١٠٦، وقوله هو: أما العطف على ما مضى من قصة أحد من قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ ففيه بُعدٌ، وبعيد أن يقع مثله في القرآن. وينظر حاشية الشهاب ٣/ ٧٨.

(٢) ٣/ ١٠٦.

وفي الآية ـ على ما قيل ـ جوابٌ ضمنيٌّ عن استبعادهم تلك الإصابة، يعني أنَّ أحوال الدنيا لا تدوم عل حالة واحدة، فإذا أصبتم منهم مثلَ ما أصابوا منكم وزيادةً، فما وجهُ الاستبعاد؟

لكن صرَّح بجواب آخر يُبرئ العليل ويشفي الغليل وتُطأطِئ منه الرؤوس فقال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد في جواب سؤالهم الفاسد: ﴿هُوَ﴾ أي: هذا الذي أصابكم كائنٌ ﴿مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: أنها السبب له حين خالفَ الرماة أَمْرَ رسول الله ﷺ بتَرْكهم المركز، وحرصوا على الغنيمة، فعاقبهم الله تعالى بذلك، قاله عكرمة.

أو: حيث إنكم قد اخترتم قبلُ أن يُقتل منكم سبعون في مقابلة الفداء الذي أخذتموه من أُسارى بدر، وعُزي هذا إلى الحسن، ويدلُّ عليه ما أخرجه ابن أبي شيبة والترمذيُّ وحسَّنه، والنسائي وآخرون عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه قال: جاء جبريل إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا محمد إنَّ الله تعالى قد كره ما فعل قومك في أَخْذِهم الأسارى، وقد أمرك أن تخيِّرهم بين أمرين: إما أن يُقَدَّموا فتُضربَ أعناقهم، وإما أن يأخذوا الفداء على أن يُقتل منهم عِدَّتهم، فدعا رسول الله ﷺ الناس فذكر لهم ذلك فقالوا: يا رسول الله عشائرنا وإخواننا نأخذ فداءهم، نتقوَّى به على قتال عدوِّنا، ويُستشهد منَّا عدَّتهم، فليس ذلك ما نكره، فقتل منهم يوم أُحدٍ سبعون رجلاً عدَّة أسارى أهل بدر[1].

أو: حيث اخترتُم الخروج من المدينة ولم تَبْقَوا حتى تقاتلوا المشركين فيها. قاله الربيع وغيره؛ وأخرج ابن جرير عن قتادة أنه قال: ذُكر لنا أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال لأصحابه يوم أحد حين قدم أبو سفيان والمشركون: «إنَّا في جُنَّةٍ حصينةٍ» يعني بذلك المدينة «فَدَعُوا القوم يدخلوا علينا نقاتلْهم» فقال له ناسٌ من الأنصار: إنَّا نكرهُ أن نُقتَل في طرق المدينة، وقد كنَّا نمتنع من ذلك في الجاهلية، فبالإسلام أحقُّ أن نمتنعَ، فابرزْ بنا إلى القوم. فانطلقَ فَلبسَ لأْمَتَهُ، فتلاوَمَ القوم فقالوا:

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٣٦٨-٣٦٩، وسنن الترمذي (١٥٦٧)، وسنن النسائي الكبرى (٨٦٠٨) من طريق عَبيدةَ السلماني عن علي ﷺ. وأخرجه ابن أبي شيبة ١٤/ ٣٦٨، والطبري ٦/ ٢١٩ عن عبيدة مرسلاً، قال الدار قطني في العلل ٤/ ٣١: والمرسل أشبه بالصواب.

عرَّض نبيُّ الله ﷺ بأمْرٍ وعرَّضتم بغيره، اذهب يا حمزة فقل له: أَمْرُنا لأمرك تَبَعٌ، فأتى حمزةُ، فقال له: «إنه ليس لنبيٍّ إذا لَبِسَ لأْمَتَهُ أن يضعها حتى يُناجزَ، وإنه سيكون فيكم مصيبة» قالوا: يا نبيَّ الله، خاصةٌ أو عامةٌ؟ قال: «سترونها»(١).

واعتُرض هذا القول بأنه يأباه أنَّ الوعد بالنصر كان بعد اختيار الخروج، وأنَّ عمل النبيِّ ﷺ بموجبه قد رفع الخطر عنه، وخفَّف جنايتهم فيه، على أنَّ اختيار الخروج والإصرارَ عليه كان ممَّن أكرَمهم الله تعالى بالشهادة يومئذ، وأين هم من التفوُّه بمثل هذه الكلمة؟

وأجيب: بأنَّ الإباء المذكورَ في حيِّز المنع، كيف والنصر الموعود كان مشروطاً بما يَعلم الله تعالى عَدَمَ حصوله؟

وبأنَّ النبيَّ ﷺ وإن كان قد عمل بموجبه، لكن لم تكن نفسُهُ الكريمة ﷺ منبسطةً لذلك، ولا قلبُه الشريفُ مائلاً إليه، وكأنَّ سهام الأقدار نفذت حين خالفوا رأيه السامي، وَعَدَلوا عن الورود من عَذْب بحر عقله الطامي، كما يرشدك إلى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام بعد أن لبس لأْمَتَهُ: «وإنه سيكون فيكم مصيبة»، وقولُه في جواب الاستفهام عنها: خاصة أو عامة؟: «سترونها»، فإنَّ ذلك كالصريح في عدم الرضا، والفصيحِ في استيجاب ذلك الاختيار نزول القضاء.

وبأنَّ الخطاب في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ ليس نصًّا في أنَّ المتسبِّبين هم المتفوِّهون بتلك الكلمة ليَضُرَّ استشهاد المختارين للخروج في المقصود، لجواز أن يكون من قبيل قولك لقبيلة: أنتم قتلتم فلاناً، والقاتل منهم أناسٌ مخصوصون لم يُوجَدوا وقتَ الخطاب، ومثل ذلك كثيرٌ في المحاورات، على أنَّ كونَ مصيبة المتفوِّهين هي قتل أولئك المستشهدين نصٌّ في التأسُّف عليهم، فيناسبه التعريض بهم بنسبة القصور إليهم، ليهون هذا التأسُّف، وليعلموا أنَّ شؤمَ الانحراف عن سَمْتِ إرادة رسول الله ﷺ يعمُّ الكبير والصغير، بل ربَّما يقال: إنَّ استشهادَ أولئك المصرِّين شاهدٌ على أنَّهم هم الذين كانوا سبباً في تلك المصيبة، لهذا استشهدوا ليذهبوا إلى ربهم على أحسن حال.

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٢١٥-٢١٦. والجُنة بالضم: السترة والوقاية. اللسان (جنن).

هذا ولا يخفى أنَّ هذا الجواب لا يخلو عن تكلُّف، وكأنَّ الداعي إليه أنَّ الذاهبين إلى تفسير «من عند أنفسكم» بالخروج من المدينة وتبعيةِ أبي سفيان وقومِه، جماعةٌ أجلَّاء يَبْعدُ نسبةُ الغلط إليهم، فقد أخرجه ابن جرير[١] وابن أبي حاتم عن الحسن وابن جريج، وأخرجه ابن المنذر[٢] من طريق ابن جريج عن ابن عباس. فتدبر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ ومن جملته النصرُ عند الموافقة، والخذلانُ عند المخالفة، وحين خالفتم أصابكم سبحانه بما أصابكم، والجملة تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبلها، داخلٌ تحت الأمر.

وقيل: المراد منها تطييبُ أنفسهم، ومزجُ مرارة التقريع بحلاوة الوعد، أي: أنه سبحانه قادرٌ على نُصْرَتكم بَعْدُ؛ لأنه على كلِّ شيء قدير، فلا تيأسوا من رَوْح الله.

واعتناءً بشأن التطييب، وإرشاداً لهم إلى حقيقة الحال فيما سألوا عنه، وبياناً لبعض ما فيه من الحِكَم، ورفعاً[٣] لما عسى أن يُتوهَّم من الجواب من استقلالهم في وقوع الحادثة، رَجَعَ إلى خطابهم برفع الواسطة، وجوابِ سؤالهم بأبسط عبارة، فقال سبحانه:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ أيها المؤمنون من النكبة بقَتْل مَنْ قُتل منكم ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: جَمْعُكم وجَمْعُ أعدائكم المشركين. والمراد بذلك اليومِ يومُ أحد، وقول بعضهم: لا يبعد أن يُراد به يوم أحد ويوم بدر. بعيدٌ جدًّا. ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بإرادته، وقيل: بتخليته.

و«ما» اسمٌ موصولٌ بمعنى الذي في محلِّ رفع بالابتداء، وجملة «أصابكم» صلتُه، و«بإذن الله» خبره. والمراد: بإذن الله يكون ويحصل، ودخول الفاء لتضمُّن معنى الشرط، ووجهُ السببية ليس بظاهر؛ إذ الإصابة ليست سبباً للإرادة ولا للتخلية،

---

(١) في تفسيره ٦/٢١٧.
(٢) كما في الدر المنثور ٢/٩٣.
(٣) في الأصل: ودفعاً.

بل الأمر بالعكس، فهو من قبيل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] أي: ذلك سببٌ للإخبار بكونه من الله؛ لأنَّ قيدَ الأوامر قد يكون للمطلوب وقد يكون للطالب، وكذا الأخبار، وإلى هذا ذهب كثيرٌ من المحققين.

وادَّعى السَّمين[1] أنَّ في الكلام إضماراً، أي: فهو بإذن الله، ودخولُ الفاء لما تقدَّم، ثم قال: وهذا مشكلٌ على ما قرَّره الجمهور؛ لأنه لا يجوز عندهم دخول هذه الفاءِ زائدةً في الخبر إلا بشروط، منها أن تكون الصلة مستقْبَلةً في المعنى، وذلك لأنَّ الفاء إنما دخلت للشَّبَهِ بالشرط، والشرطُ إنما يكون في الاستقبال لا في الماضي، فلو قلت: الذي أتاني أمس فله درهمٌ، لم يصحَّ، و«أصابكم» هنا ماضٍ معنًى، كما أنه ماضٍ لفظاً؛ لأنَّ القصة ماضيةٌ، فكيف جاز دخول هذه الفاء؟

وأجابوا عنه بأنه يحمل على التبيين[2]، أي: وما يتبيَّن إصابته إياكم فهو بإذن الله، كما تأوَّلوا: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٧] بذلك، ثم قال: وإذا صحَّ هذا التأويل فَلْيُجْعَل «ما» هنا شرطاً صريحاً، وتكون الفاء داخلةً وجوباً لكونها واقعة جواباً للشرط. انتهى. ولا يخفى ما فيه.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ عطفٌ على «بإذن الله» من عطف السَّبب على السَّبَب[3]، والمراد: ليَظْهَرَ للناس، ويَثْبُتَ لديهم إيمانُ المؤمن ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ۚ﴾ كعبد الله بن أبيٍّ وأصحابه، وهذا عطفٌ على ما قبله من مِثْلِه.

وإعادةُ الفعل إما للاعتناء بهذه العلة، أو لتشريف المؤمنين وتنزيههم عن الانتظام في قَرْن المنافقين، وللإيذان باختلاف حالِ العلم بحسب التعلُّق بالفريقين، فإنه متعلِّقٌ بالمؤمنين على نهج تعلُّقه السابق، وبالمنافقين على نهجٍ جديد، وهو السِّرُّ ـ كما قال شيخ الإسلام[4] ـ في إيراد الأوَّلينَ بصيغة اسم الفاعل المُنبئةِ عن الاستمرار، والآخِرين بموصولٍ صِلَتُهُ فِعْلٌ دالٌّ على الحدوث.

---

(١) في الدر المصون ١/ ٤٧٤-٤٧٥.
(٢) في (م): التبين. والمثبت من الأصل والدر المصون.
(٣) في الأصل و(م): المسبب، والمثبت هو الصواب، وهو الموافق لما في البحر ٣/ ١٠٩، والدر المصون ٣/ ٤٧٥، وحاشية الشهاب ٣/ ٧٩، أي أنه عطف السبب على سبب آخر.
(٤) هو أبو السعود في تفسيره ٢/ ١٠٩، وما قبله منه.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ عطفٌ على «نافقوا» مؤذِنٌ بأنَّ ذلك كان نفاقاً خاصًّا أظهروه في ذلك المقام.

وقيل: ابتداءُ كلام معطوف على مجموع ما قبله عَطْفَ قصةٍ على قصة، ووَجْهُه: أنه جلَّ شأنه لمَّا ذكر أحوال المؤمنين وما جرى لهم وعليهم فيما تقدَّم من الآيات، وبيَّن أنَّ الدائرة إنما كانت للابتلاء، وليتميَّز المؤمنون عن المنافقين، وليَعْلَم كلٌّ واحدٍ من الفريقين أنَّ ما قدَّره الله تعالى من إصابة المؤمنين كائنٌ لا محالة، أَوْرَدَ قصةً من قصصهم مناسِبةً لهذا المقام مستطرِدةً، وجيء بالواو لأنها ملائمةٌ لأصل الكلام، والنفاقُ على هذا مُطْلَقٌ متعارَف.

وجُوِّز أن يكون كلاماً مبتدأً على سبيل الاعتراض، للتنبيه على كيفية ظهور نفاقهم، أو عدم ثباتهم على الإيمان.

وعلى كلِّ تقديرٍ، القائل إما رسول الله ﷺ، وإليه ذهب الأصمّ، وإما عبد الله بن عمرو بن حرام من بني سلمة، وإليه ذهب الأكثر، ومقول القول قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ قال السُّدِّي وابن جريج: أو ادفعوا عنَّا العدوَّ بتكثير السواد، وهو المرويُّ عن ابن عباس.

وقيل: إنهم خُيِّروا بين أن يقاتلوا للآخرة، أو لدفع الكفار عن أنفسهم وأموالهم، أو بين الأول وبين دفع المؤمنين عن ذلك، كأنه قيل: قاتلوا لله تعالى أو للنفاق الدافع عن أنفسكم وأموالكم.

وتُرِكَ العاطفُ الفاءُ أو الواو بين «تعالوا» و«قاتلوا» لِمَا أنَّ المقصود بهما واحدٌ، وهو الثاني، وذُكر الأول توطئةً له وترغيباً فيه، لِمَا فيه من الدلالة على التظاهر والتعاون.

وقيل: تُرك العاطفُ للإشارة إلى أنَّ كلَّ واحدٍ من الجملتين مقصودٌ بنفسه.

وقيل: الأمر الثاني حالٌ. ولا يخفى بعدُه.

﴿قَالُوا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: فما صنعوا حين قيل لهم ذلك؟ فقيل: قالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ أي: لو كنَّا نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم،

ولكن لا نرى أن يكون قتال. أخرجه ابن جرير وغيرُه عن ابن شهاب[1].

وقيل: أرادوا: إنَّا لا نُحْسِنُ القتال ولا نقدر عليه؛ لأنَّ العلم بالفعل الاختياري من لوازم القدرة عليه، فعبَّر بنفيه عن نفيها، ويحتمل أنهم جعلوا نفيَ علم القتال كنايةً عن أنَّ ما هم فيه ليس قتالاً، بناءً على نفي العلم بنفي المعلوم؛ لأنَّ القتال يستدعي التكافؤ من الجانبين مع رجاءِ مدافعةٍ أو مغالبة، ومتى لم يتحقَّق ذلك كان إلقاءَ الأنفس إلى التهلكة.

ومن الناس مَن جوَّز أن يكون المراد: لو نعلم قتالاً في سبيل الله لاتَّبعناكم، أو: لو نعلم قتالاً معنا لاتَّبعناكم، لكن ليس للمخالف معنا مضادَّةٌ ولا قصدٌ له إلا معكم.

ولا يخفى أنَّ هذا الكلام على جميع تقاديره يصلح وقوعُه جواباً لما قيل لهم على جميع تقاديره ما عدا الأول، وعلى الأول، يصلح هذا جواباً له على جميع تقاديره ما عدا الثاني؛ إذ عَدَمُ المعرفة بالقتال لا يكون عذراً في عدم تكثير السواد إلا على بُعْد، ومن كلامهم:

إذا لـم تـقـاتـلْ يـا جـبـانُ فـشـجِّـعِ[2]

والمراد بالاتِّباع: إما الذهاب للقتال، ولم يعبِّروا به لأنَّ ألسنتَهم لكمال تثبُّط[3] قلوبهم عنه لا تساعدهم على الإفصاح به، وإما الذهابُ مع المؤمنين مطلقاً، سواءٌ كان للقتال أو للدفع وتكثير السواد. وحَمْلُهُ على امتثال الأمر، أي: لو كنَّا نعلم قتالاً لامتثلنا أَمْرَكم، لا يخلو عن بُعْد.

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ أي: هم يوم إذ قالوا: «لو نعلم» إلخ أقربُ للكفر منهم قبل ذلك؛ لظهور أمارته عليهم بانخذالهم عَن نصرة المؤمنين، واعتذارهم لهم على وجه الدَّغَل والاستهزاء.

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٢٢٢، وهو في السير والمغازي لابن إسحاق ص ٣٢٥.

(٢) وصدره: أعنِّي بإطماع الوصال على النوى، والبيت لابن شرف القيرواني، وهو في ديوانه ص ٧١. ووقع في الأصل و(م): إن لم، والمثبت من الديوان.

(٣) في الأصل: تثبيط.

والظروف كلُّها في المشهور عند المعربين متعلِّقةٌ بـ «أقرب»، ومن قواعدهم أنه لا يتعلَّق حرفا جرٍّ أو ظرفان بمعنًى بمتعلَّقٍ واحد إلا في ثلاث صور:

إحداها: أن يتعلَّق أحدهما به مطلقاً، ثم يتعلَّق به الآخر بعد تقييده بالأول.

وثانيتها: أن يكون الثاني تابعاً للأول ببدلية ونحوها.

وثالثتها: أن يكون المتعلَّق أفعلَ تفضيل لتضمُّنه الفاضل والمفضول الذي يجعله بمنزلة تعدُّد المتعلَّق، كما في المقيَّد والمطلق، وما نحن فيه من هذا القبيل، كأنه قيل: قُرْبُهُمْ من الكفر يزيدُ على قُرْبهم من الإيمان.

واللام الجارَّة في الموضعين بمعنى «إلى» بناءً على ما قيل: إنَّ صلة القُرْبِ تكونُ «من» و«إلى» لا غير، تقول: قَرُبَ منه وإليه، ولا تقول: له، أو على حالها بناءً على ما في «الدر المصون»[1] أنَّ القُرْبَ الذي هو ضدُّ البعد يتعدَّى بثلاثة حروف: اللام، وإلى، ومن.

وقيل: إنَّ «أقرب» هنا من القَرَب بفتح الراء وهو طلب الماء، ومنه القارِبُ لسفينة[2]، وليلة القَرَب، أي: الورود، والمعنى: هم أَطْلَبُ للكفر، وحينئذ يتعدَّى باللام اتفاقاً.

وزعم بعضهم أنَّ اللام هنا للتعليل، والتقدير: هم لأجل كفرهم يومئذ أقربُ من الكافرين منهم من المؤمنين لأجل إيمانهم. ولا ينبغي أن يُخرَّج كلام الله تعالى عليه لمزيد بُعْدِهِ وركاكة نَظْمه لو صُرِّح بما حُذف فيه.

وجُوِّز أن يُقدَّر في الكلام مضافٌ وهو: أهل، واللام متعلِّقةٌ بتمييزٍ محذوف، وهو: نصرة، والمعنى: هم لأهل الكفر أقربُ نصرةً منهم لأهل الإيمان؛ إذ كان انخذالُهم ومقالهم تقويةً للمشركين وتخذيلاً للمؤمنين، وهذا كما تقول: أنا لزيدٍ أَشدُّ ضرباً منِّي لعمرو.

وأنت تعلم أنه يمكن تعلُّق اللام بالتمييز عند عدم اعتبار حذف المضاف أيضاً.

---

(١) ٣/ ٤٧٧.

(٢) في (م): لسفينته، والمثبت من الأصل. وفي التاج (قرب): القارب: السفينة الصغيرة تكون مع أصحاب السفن الكبار البحرية كالجنائب لها، تُستخفُّ لحوائجهم.

وادَّعى الواحديُّ أنَّ[1] في الآية دليلاً على أنَّ الآتي بكلمة التوحيد لا يكفُر؛ لأنه تعالى لم يُظهر القول بتكفيرهم. وقال الحسن: إذا قال الله تعالى: أقرب، فهو لليقين بأنهم مشركون. ولا يخفى أنَّ الآية كالصريح في كفرهم، لكنهم مع هذا لا يستحقُّون أن يعامَلوا بذلك معاملَة الكفار، ولعلَّه لأمرٍ آخر.

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مبيِّنةٌ لحالهم مطلقاً، لا في ذلك اليوم فقط، ولذا فُصِلَتْ. وقيل: حالٌ من ضمير «أقرب».

وتقييدُ القول بالأفواه إما بيانٌ لأنه كلامٌ لفظيٌّ لا نفسي، وإما تأكيدٌ على حدِّ: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، والمراد أنهم يُظهرون خلافَ ما يُضمرون.

وقال شيخ الإسلام[2]: إنَّ ذِكْرَ الأفواه والقلوب تصويرٌ لنفاقهم، وتوضيحٌ لمخالفة ظاهرهم لباطنهم، وإنَّ «ما» عبارةٌ عن القول، والمراد به: إما نفس الكلام الظاهر في اللسان تارةً وفي القلب أخرى، فالمثبَتُ والمنفيُّ متَّحدان ذاتاً وصفة، وإن اختلفا مظهراً، وإما القول الملفوظ فقط، فالمنفيُّ حينئذٍ منشؤه الذي لا ينفكُّ عنه القول أصلاً، وإنما عَبَّر عنه به إبانةً لما بينهما من شدَّة الاتصال، والمعنى: يتفوَّهون بقولٍ لا وجود له أو لمنشئه في قلوبهم أصلاً من الأباطيل التي من جملتها ما حُكي عنهم آنفاً، فإنهم أظهروا فيه أمرين ليس في قلوبهم شيءٌ منهما؛ أحدهما: عدم العلم بالقتال، والآخر: الاتِّباع على تقدير العلم به، وقد كذَبوا فيهما كذباً بيِّناً، حيث كانوا عالِمين به [غير ناوِينَ للاتِّباع، بل كانوا] مصرِّين مع ذلك على الانخذال، عازمين على الارتداد.

واختار بعضهم كونَ «ما» عبارةً عن القول الملفوظ، ومعنى كونه ليس في قلوبهم: أنه غيرُ معتَقَدٍ لهم ولا متصوَّرٍ عندهم إلا كتصوُّر زوجية الثلاثة مثلاً، والحكم عام، ويدخل فيه حكمُ ما تفوَّهوا به من مجموع القضية الشرطية، لا خصوص المقدَّم فقط، ولا خصوص التالي فقط، ولا الأمران معاً دون الهيئة الاجتماعية المعتبرة في القضية، ولعل ما ذكره الشيخ أولى.

---

(١) في الأصل: واستدل الواحدي بأن، وهذا القول ذكره عن الواحدي أبو حيان في البحر ٣/ ١١٠ وعزاه للوسيط، ولم نقف عليه في تفسير الوسيط للواحدي.

(٢) هو أبو السعود في تفسيره ٢/ ١١٠، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ زيادةُ تحقيق لكفرهم ونفاقهم، ببيان اشتغال قلوبهم بما يخالف أقوالَهم من فنون الشر والفساد، إثر بيان خلوِّهم عمَّا يوافقها، والمراد: أَعلمُ من المؤمنين؛ لأنه تعالى يعلَمه مفصَّلاً بعلمٍ واجب، والمؤمنون يعلمونه مجملاً بأمارات. ويجوز أن تكون الجملةُ حاليةً للتنبيه على أنهم لا ينفعهم النفاق، وأنَّ المراد: أَعلم منهم؛ لأنَّ الله تعالى يعلم نتيجةَ إسرارِهم وآمالهم.

﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ مرفوعٌ على أنه بدلٌ من واو «يكتمون»، كأنه قيل: والله أعلم بما يكتم الذين قالوا، أو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، أي: هم الذين. وقيل: مبتدأ خبرُه: «قل فادرؤوا» بحذف العائد، أي: قل لهم إلخ، أو منصوبٌ على الذَّمِّ، أو على أنه نعتٌ للذين نافقوا، أو بدلٌ منه، أو مجرورٌ على أنه بدلٌ من ضمير «أفواههم»، أو «قلوبهم»، وجاء إبدالُ المظهر من ضمير الغيبة في كلامهم، ومنه قول الفرزدق:

على حالةٍ لو أنَّ في القوم حاتماً ... على جُوده لضنَّ بالماء حاتمِ[1]

بجرِّ «حاتم» بدلاً من ضمير «جوده» لأنَّ القوافي مجرورة. والمعنى: يقولون بأفواه الذين قالوا، أو: يقولون بأفواههم ما ليس في قلوب الذين قالوا، والكلام على الوجهين من باب التجريد كقوله:

يا خيرَ مَن يَرْكَبُ المطيَّ ولا ... يشربُ كأساً مِن كفِّ مَن بَخِلا[2]

والقائل ـ كما قال السُّدِّيُّ وغيره ـ هو عبد الله بن أبيٍّ وأصحابُه، وقد قالوا ذلك في يوم أُحد.

﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي: لأجل إخوانهم الذين خرجوا مع النبيِّ ﷺ، وقُتلوا في ذلك اليوم، والمراد: لذوي قرابتهم، أو لِمَنْ هو من جنسهم.

﴿وَقَعَدُوا﴾ حالٌ من ضمير «قالوا» و«قد» مرادةٌ، أي: قالوا وقد قعدوا عن القتال بالانخذال، وجُوِّز أن يكون معطوفاً على الصلة، فيكون معترضاً بين «قالوا»

---

(١) البيت بهذه الرواية في الدر المصون ٣/٤٧٩، وشرح شذور الذهب لابن هشام ص ٥٧٢، وهو في ديوان الفرزدق ٢/٢٩٧ برواية:

على ساعة لو كان في القوم حاتمٌ ... على جوده ضنَّتْ به نفسُ حاتم

(٢) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ١٧١.

ومعمولها، وهو قوله تعالى: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ أي: في تَرْك القتال ﴿مَا قُتِلُوا۟﴾ كما لم نُقتَل، وفيه إيذانٌ بأنهم أمروهم بالانخذال حين انخذلوا.

ويؤيِّد ذلك ما أخرجه ابن جرير عن السُّدِّي قال: خرج رسول الله ﷺ في ألف رجل، وقد وعدهم الفتحَ إن صبروا، فلمَّا خرجوا رجع عبد الله بن أبيٍّ في ثلاثِ مئةٍ، فتبعهم أبو جابر السُّلميُّ يدعوهم، فلما غلبوه وقالوا له: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ قالوا له: ولئن أطعتنا لترجعنَّ معنا، فذكر الله تعالى نعيَ قولهم: لئن أطعتنا لترجعنَّ معنا، بقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟﴾ إلخ[1].

وبعضُهم حَمَلَ القعود على ما استصوبه ابنُ أُبيٍّ عند المشاورة، من المقامة بالمدينة ابتداءً، وجعلَ الإطاعةَ عبارةً عن قَبول رأيه والعمل به، ولا يخلو عن شيء، بل قال مولانا شيخ الإسلام[2]: يردُّه كونُ الجملة حالية، فإنها لتعيين ما فيه العصيان والمخالفة، مع أنَّ ابن أُبيٍّ ليس من القاعدين فيها بذلك المعنى، على أنَّ تخصيصَ عدم الطاعة بإخوانهم ينادي باختصاص الأمر أيضاً بهم، فيستحيل أن يُحمَل على ما خوطب به النبيُّ ﷺ عند المشاورة.

﴿قُلْ﴾ يا محمد تبكيتاً لهم وإظهاراً لكذبهم ﴿فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: فادفعوا عنها ذلك، وهو جوابٌ لشرطٍ قد حُذف لدلالة قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ عليه، كما أنه شَرْطٌ حُذف جوابه لدلالة «فادرؤوا» عليه، ومَن جوَّز تَقدُّمَ الجواب، لم يَحْتَجْ لما ذُكر.

ومتعلِّقُ الصدق هو ما تضمَّنه قولُهم من أنَّ سبب نجاتهم القعود عن القتال، والمراد: أنَّ ما ادَّعيتموه سببَ النجاة ليس بمستقيم، ولو فُرض استقامتهُ فليس بمفيدٍ؛ أما الأول: فلأنَّ أسباب النجاة كثيرةٌ، غايته أنَّ القعود والنجاة وُجدا معاً، وهو لا يدلُّ على السببية، وأما الثاني: فلأنَّ المهروب عنه بالذات هو الموت الذي القتلُ أحدُ أسبابه، فإن صحَّ ما ذكرتم فادفعوا سائرَ أسبابه، فإنَّ أسباب الموت في إمكان المدافعة بالحِيَل وامتناعِها سواء، وأنفسُكم أعزُّ عليكم، وأَمْرُها أهمُّ لديكم.

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٢٢٣، وأبو جابر السلمي هو عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر بن عبد الله الصحابي المشهور. الإصابة ٦/ ١٧٤.

(٢) هو أبو السعود في تفسيره ٢/ ١١١.

وقيل: متعلِّقُ الصدق ما صرَّح به من قولهم: «لو أطاعونا ما قتلوا» والمعنى: أنهم لو أطاعوكم وقعدوا لقُتلوا قاعدين كما قتلوا مقاتلين، وحينئذ يكون «فادرؤوا» إلخ استهزاءً بهم، أي: إن كنتم رجالاً دفَّاعين لأسباب الموت فادرؤوا جميعَ أسبابه حتى لا تموتوا، كما دَرَأْتُم بزعمكم هذا السببَ الخاص، وفي «الكشاف»: روي أنه مات يومَ قالوا هذه المقالة منهم، سبعون منافقاً بعَدد مَنْ قتل بأُحد[1].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ أخرج الإمام أحمد وجماعة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لـمَّا أُصيبَ إخوانُكم بأُحدٍ جَعَلَ الله تعالى أرواحَهم في أجوافِ طيرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أنهار الجنة، وتأكلُ من ثمارها، وتأوي إلى قناديلَ من ذهبٍ معلَّقةٍ في ظلِّ العرش، فلما وجدوا طِيْبَ مَأكَلِهم ومَشْرَبِهم، وحُسْنَ مَقِيلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صَنَع اللهُ تعالى لنا» وفي لفظ: «قالوا: مَن يُبلِّغ إخوانَنا أننا أحياءٌ في الجنة نُرزَقُ، لئلَّا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكُلُوا عن الحرب، فقال الله تعالى: أنا أُبلِّغهم عنكم. فأنزل هؤلاء الآيات»[2].

وأخرج الترمذي وحسَّنه، والحاكم وصححه، وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال: لقيني رسول الله ﷺ فقال: «يا جابر، مالي أراك مُنْكَسِراً؟» فقلت: يا رسول الله استُشهد أبي وترك عيالاً ودَيناً. فقال: «ألا أُبشِّرك بما لقي الله تعالى به أباك؟» قلت: بلى، قال: «ما كَلَّمَ الله تعالى أحداً قطُّ إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلَّمه كِفَاحاً وقال: يا عبدي تمنَّ عليَّ أُعْطِكَ. قال: يا ربِّ تحييني فأُقتل فيك ثانيةً، قال الربُّ تعالى: قد سَبَقَ منِّي أنهم لا يرجعون. قال: أيْ ربي، فأَبْلِغْ مَن ورائي، فأنزل الله تعالى هذه الآية»[3].

ولا تَنافي بين الروايتين، لجواز أن يكون كِلَا الأمرين قد وقع، وأنزل الله تعالى الآية لهما، والأخبارُ متضافرةٌ على نزولها في شهداء أحد.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٧٨، وذكره أبو الليث في تفسيره ١/ ٣١٤ عن بعض المفسرين بسمرقند.
(٢) مسند أحمد (٢٣٨٨)، وسنن أبي داود (٢٥٢٠)، والأولى رواية أحمد، والثانية لأبي داود.
(٣) سنن الترمذي (٣٠١٠)، والمستدرك ٣/ ٢٠٣-٢٠٤، وأخرجه أحمد (١٤٨٨١) مختصراً.
قوله: كفاحاً: أي مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول. النهاية (كفح).

وفي رواية ابن المنذر عن إسحاق ابن أبي طلحة قال: حدَّثني أنسٌ في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم النبيُّ عليه الصلاة والسلام إلى بئر معونة، وساق الحديث بطوله إلى أن قال: وحدَّثني أنَّ الله تعالى أنزل فيهم قرآناً: «بلِّغوا عنَّا قومَنا أنَّا قد لقينا ربَّنا، فرضيَ عنَّا ورضينا عنه» ثم نُسخت فرُفعت بعد ما قرأناه زماناً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ إلخ[1].

ومن هنا قيل: إنَّ الآية نزلت فيهم، وأنت تعلم أنَّ الخبر ليس نصًّا في ذلك.

وزعم بعضُهم أنها نزلت في شهداء بدر[2]، وادَّعى العلَّامة السيوطيُّ أنَّ ذلك غلط، وأنَّ آية «البقرة» هي النازلةُ فيهم.

وهي كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ إثرَ بيان أنَّ الحذر لا يُسمِنُ ولا يغني، لبيان أنَّ القتل الذي يَحْذَرونه ويَحْذَرون منه ليس مما يُحذَر، بل هو من أَجَلِّ المطالب التي يتنافس فيها المتنافسون.

والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكلِّ مَن يقف على الخطاب مطلقاً، وقيل: من المنافقين الذي قالوا: لو أطاعونا وقعدوا[3]، وإنما عبَّر عن اعتقادهم بالظَّنِّ؛ لعدم الاعتداد به.

وقرئ: «يحسبنَّ» بالياء التحتانية[4] على الإسناد إلى ضمير النبيِّ ﷺ، أو ضمير مَن يحسب على طرز ما ذُكر في الخطاب.

وقيل: إلى الذين قُتلوا، والمفعول الأول محذوف؛ لأنه في الأصل مبتدأ جائزُ الحذف عند القرينة، أي: ولا يحسبنَّ الذين قُتلوا أنفسَهم أمواتاً.

---

(١) الدر المنثور ٢/ ٩٥، وأخرجه ـ أيضاً ـ الطبري ٦/ ٢٣٤-٢٣٥ من طريق عكرمة عن إسحاق به، وهو في مسند أحمد (١٣١٩٥)، وصحيح البخاري (٢٨٠١) من طريق همام بن يحيى العوذي عن إسحاق عن أنس، دون قوله: فأنزل الله: «ولا تحسبن».

(٢) أخرجه الطبري ٦/ ٢٣١-٢٣٢ عن الربيع قال: ذكر لنا عن بعضهم في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ قال: هم قتلى بدر وأحد.

(٣) في حاشية الشهاب ٣/ ٨٠ (والكلام منه): لو قعدوا ما ماتوا.

(٤) التيسير ص ٩١، والنشر ٢/ ٢٤٤ وهي قراءة هشام بخلف عنه.

واعترضه أبو حيان[١]: بأنه إنما يتمشَّى على رأي الجمهور، فإنهم يُجوِّزون هذا الحذف، لكنه عندهم عزيزٌ جدًّا، ومنعه إبراهيم بن ملكون الإشبيلي[٢] البتة، وما كان ممنوعاً عند بعضهم عزيزاً عند الجمهور ينبغي أن لا يُحمل عليه كلامُ الله تعالى.

وفيه أنَّ هذا من باب التعصب؛ لأنَّ حَذْفَ أحد المفعولين في باب الحسبان لا يُمنع اختصاراً على الصحيح، بل اقتصاراً، وما هنا من الأول فيجوز، مع أنه جوَّز الاقتصارَ بعضُهم، ويكفي للتخريج مثله. وذكر العلَّامة الطيبيُّ[٣] أنَّ حَذْفَ أحد المفعولين في هذا الباب مذهبُ الأخفش.

وظاهر صنيع البعض يُفهَم منه تقديره مضمَراً، أي: ولا يحسبنَّهم الذين قُتلوا، والمراد: لا يحسبنَّ أنفسهم.

واعترضه أبو حيان[٤] بشيء آخر أيضاً، وهو أنَّ فيه تقديمَ المضمَر على مفسِّره، وهو محصورٌ في أماكنَ ليس هذا منها.

وردَّه السَّفاقسيُّ بأنه وإن لم يكن هذا منها، لكنَّ عَوْدَ الضمير على الفاعل لفظاً جائز؛ لأنه مقدَّمٌ معنًى، وتعدِّي أفعالِ القلوب إلى ضمير الفاعل جائز، وقد نصَّ[٥] السِّيرافيُّ وغيره على جواز: ظَنَّه زيدٌ منطلقاً، وظنَّهما الزيدان منطلقتين، وهذا نظير ما ذكره هذا البعض، فالاعتراضُ عليه في غاية الغرابة.

ثم المراد من توجيه النهي إلى المقتولينَ تنبيهُ السامعين على أنهم أحقَّاءُ بأن يتسلَّوا بذلك، ويُبَشَّروا بالحياة الأبدية والنعيم المقيم، لكن لا في جميع أوقاتهم، بل عند ابتداء القتل؛ إذ بعد تبيُّن حالهم لهم، لا تبقى لاعتبار تسليتهم وتبشيرهم فائدةٌ، ولا لتنبيه السامعين وتذكيرهم وجهٌ. قاله شيخ الإسلام[٦].

---

(١) في البحر ٣/ ١١٢.
(٢) هو إبراهيم بن محمد بن ملكون الحضرمي الإشبيلي، أستاذ نحوي جليل، ألَّف شرح الحماسة، والنكت على تبصرة الصيمري. توفي سنة (٥٨٤هـ). بغية الوعاة ١/ ٤٣١.
(٣) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.
(٤) في البحر ٣/ ١١٢.
(٥) في (م): ظن، وهو تصحيف.
(٦) في تفسيره ٢/ ١١٢.

وقيل: هو نهيٌ في معنى النفي، وقد ورد ذلك، وإن قلَّ. أو هو نهيٌ عن حسبانهم أنفسَهم أمواتاً في وقتٍ ما، وإن كانوا وقت الخطاب عالِمين بحياتهم.

وقرئ: «ولا تحسِبنَّ» بكسر السين[١]، وقرأ ابن عامر: «قُتِّلوا» بالتشديد[٢] لكثرة المقتولين.

﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ أي: بل هم أحياءٌ مستمرُّون على ذلك. وقرئ بالنصب[٣]، وخرَّجه الزجَّاج[٤] على أنه مفعولٌ لمحذوف، أي: بل احسبْهُمْ أحياءً، وردَّه الفارسيُّ بأنَّ الأمر يقينٌ، فلا يُؤمر فيه بحسبانٍ، وإضمارُ غير فعل الحسبان؛ كاعتَقِدْهُم أو اجْعَلْهُم ضعيفٌ؛ إذ لا دلالة عليه. على أنَّ تقديرَ: اجعلهم، قال فيه أبو حيان[٥]: إنه لا يصحُّ البتَّة، سواءٌ جعلته بمعنى اخْلُقْهُم أو صَيِّرهم أو سَمِّهم أو الْقَهُم.

نعم قال السفاقسيُّ: يصحُّ إذا كان بمعنى اعْتَقِدْهم، لكن يبقى حديثُ عدم الدلالة على حاله، وأجاب الحلبي[٦] بأنَّ عدم الدلالة اللفظية مُسَلَّمٌ، لكن إذا أَرشد المعنى إلى شيءٍ، قُدِّر من غير ضَعْف وإن كانت دلالةُ اللفظ أحسن.

وقال العلَّامة الثاني: لا مَنْعَ من الأمر بالحسبان؛ لأنه ظنٌّ لا شك، والتكليف بالظَّنِّ واقعٌ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢] أَمْراً بالقياس وتحصيل الظَّنِّ.

وقال بعضهم: المراد اليقين، ويُقدَّرُ: احسبهم؛ للمشاكلة. ولا يخفى أنه تعسُّفٌ؛ لأنَّ الحذف في المشاكلة لم يُعهد.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في محلِّ رفع على أنه خبرٌ ثانٍ للمبتدأ المقدَّر، أو صفةٌ لـ «أحياء».

---

(١) التيسير ص ٨٤، والنشر ٢/ ٢٣٦، وهي قراءة الكسائي وابن كثير ونافع وأبي عمرو وخلف ويعقوب، وقرأ الباقون بفتح السين.
(٢) التيسير ص ٩١، والنشر ٢/ ٢٤٣.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٥٤٠، والكشاف ١/ ٤٧٩، والبحر ٣/ ١١٣.
(٤) في معاني القرآن له ١/ ٤٨٨.
(٥) في البحر المحيط ٣/ ١١٣، وعنه نقل المصنف قول الفارسي.
(٦) في الدر المصون ٣/ ٤٨٢-٤٨٣.

أو في محلِّ نصبٍ على أنه حالٌ من الضمير في «أحياء»، وجوَّز أبو البقاء[1] كونه ظرفاً له، أو للفعل الذي بعده.

و«عند» هنا ليست للقرب المكاني؛ لاستحالته، ولا بمعنى: في عِلْمِه وحُكْمِه، كما تقول: هذا عند أبي حنيفة ﷺ كذا؛ لعدم مناسبته للمقام، بل بمعنى القرب والشرف، أي: ذوو زُلْفى ورتبةٍ ساميةٍ.

وزعم بعضهم أنّ معنى: في علم الله تعالى مناسبٌ للمقام؛ لدلالته على التحقُّق، أي: إنَّ حياتَهم متحقِّقةٌ لا شبهةَ فيها، ولا يخفى أنَّ المقام مقامُ مدحٍ، فتفسيرُ العِنْديَّة بالقرب أنسبُ به، وفي الكلام دلالةٌ على التحقُّق، من وجوهٍ أُخَر. وفي التعرُّض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم مزيدُ تكرمةٍ لهم.

﴿يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ صفةٌ لـ «أحياء»، أو حالٌ من الضمير فيه، أو في الظرف، وفيه تأكيدٌ لكونهم أحياء، وقد تقدَّم الكلام في حياتهم على أتمِّ وجه.

والقول بأنَّ أرواحَهم تتعلَّقُ بالأفلاك والكواكب، فَتَلْتَذُّ بذلك وتكتسب زيادةَ كمالٍ، قولٌ هابط إلى الثرى، ولا أظنُّ القائل به قَرَعَ سمعَهُ الروايات الصحيحة والأخبار الصريحة، بل لم يَذُقْ طَعْمَ الشريعة الغرَّاء، ولا تراءى له منهجُ المحجة البيضاء، وخبرُ القناديل لا ينوِّر كلامه، ولا يزيل ظلامه، فلَعَمْري إنَّ حال الشهداء وحياتهم وراء ذلك.

﴿فَرِحِينَ﴾ جُوِّزَ أن يكون حالاً من الضمير في «يُرزَقون»، أو من الضمير في «أحياء» أو من الضمير في الظَّرف، وأن يكون نَصْباً على المدح، أو الوصفية لـ «أحياء» في قراءة النصب، ومعناه: مسرورين.

﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ بعد انتقالهم من الدنيا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ متعلِّقٌ بـ «آتاهم»، و«من» إما للسببية، أو لابتداء الغاية. أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من الضمير المحذوف العائدِ على الموصول، و«من» للتبعيض، والتقدير: بما آتاهُموه حالَ كونه كائناً بعضَ فضله.

---

(١) في الإملاء ٢/ ١٥٠.

والمراد بهذا المؤتَى ضروبُ النِّعمَ التي ينالها الشهداء يوم القيامة، أو بعد الشهادة، أو نفسُ الفوز بالشهادة في سبيل الله تعالى.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يُسَرُّون بالبشارة، وأصل الاستبشار: طلبُ البشارة، وهو الخبر السَّارُّ، إلا أنَّ المعنى هنا على السرور استعمالاً لِلَّفظ في لازمِ معناه. وهو استئنافٌ، أو معطوفٌ على «فرحين» لتأويله بـ: يفرحون.

وجُوِّز أن يكون التقدير: وهم يستبشرون، فتكون الجملة حالاً من الضمير في «فرحين»، أو من ضمير المفعول في «آتاهم». وإنما احتيج إلى تقدير مبتدأ عند جَعْلها حالاً؛ لأنَّ المضارع المثبَتَ إذا كان حالاً لا يقترن بالواو.

﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم﴾ أي: بإخوانهم الذين لم يُقتلوا بعدُ في سبيل الله تعالى فيلحقوا بهم ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ متعلِّقٌ بـ «يلحقوا»، والمعنى: أنهم بَقُوا بعدهم وهم قد تقدَّموهم، ويجوز أن يكون حالاً من فاعل «يلحقوا»، أي: لم يلحقوهم متخلِّفين عنهم، باقين بَعْدُ في الدنيا.

﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ بدلٌ من «الذين» بدلَ اشتمالٍ مبيِّنٌ لكون استبشارهم بحال إخوانهم لا بذواتهم، أي: يستبشرون بما تبيَّن لهم من حُسْن حالِ إخوانهم الذين تركوهم أحياءً، وهو أنهم عند قَتْلِهم في سبيل الله تعالى يفوزون كما فازوا، ويحوزون من النعيم كما حازوا، وإلى هذا ذهب ابن جُريج وقتادة.

وقيل: إنه منصوبٌ بِنَزْع الخافض، أي: لئلَّا، أو: بأنْ لا، وهو معمولٌ لـ «يستبشرون»، واقعٌ موقعَ المفعول من أجله، أي: يستبشرون بقدوم إخوانهم الباقين بعدهم إليهم؛ لأنهم لا خوفٌ عليهم إلخ، فالاستبشار حينئذ ليس بالأحوال، ويؤيِّد هذا ما روي عن السُّدِّي أنه يؤتى الشهيدُ بكتابٍ فيه ذِكْرُ مَن يَقْدَمُ عليه من إخوانه، يُبشَّر بذلك، فيستبشر كما يستبشر أهل الغائب بقدومه في الدنيا.

فضمير «عليهم» وما بعده على هذا راجعٌ إلى «الذين» الأول، وعلى الأول إلى الثاني.

ومن الناس مَنْ فَسَّر «الذين لم يلحقوا» بالمتخلِّفين في الفضل عن رتبة الشهداء، وهم الغزاة الذي جاهدوا في سبيل الله تعالى ولم يُقتَلوا، بل بقوا حتى

ماتوا في مضاجعهم، فإنهم وإن لم ينالوا مراتب الشهداء، إلا أنَّ لهم أيضاً فضلاً عظيماً، بحيث لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، لمزيدِ فضل الجهاد. ولا يخفى أنه خلافُ الظاهر من الآية، وإن كان فَضْلُ الغزاة وإن لم يقتلوا مما لا يتناطح فيه كبشان.

و«أنْ» على كلِّ تقدير هي المخفَّفة، واسمُها ضمير الشأن، وخبرُها الجملة المنفية، والمعنى: لا خوفٌ عليهم فيمَن خلَّفوه من ذرِّيَّتهم، فإنَّ الله تعالى يتولَّاهم، ولا هم يحزنون على ما خلَّفوا من أموالهم؛ لأنَّ الله تعالى قد أجزل لهم العوض. أو: لا خوفٌ عليهم فيما يقدمون عليه؛ لأنَّ الله تعالى مَحَّصَ ذنوبهم بالشهادة، ولا هم يحزنون على مفارقة الدنيا فرحاً بالآخرة. أو: لا خوفٌ عليهم في الدنيا من القتل، فإنه عينُ الحياة التي يجب أن يُرغَبَ فيها، فضلاً عن أن يُخافَ ويُحذَر، ولا هم يحزنون على المفارقة.

وقيل: إنَّ كلا هذين المنفيين فيما يتعلق بالآخرة، والمعنى: أنهم لا يخافون وقوعَ مكروهٍ من أهوالها، ولا يحزنون من فوات محبوبٍ من نعيمها، وهو وجهٌ وجيه.

والمراد: بيان دوام انتفاء ذلك، لا بيانُ انتفاء دوامه، كما يوهمه كونُ الخبر في الجملة الثانية مضارعاً، فإنَّ النفيَ وإن دخل على نفسِ المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام، وقد تقدَّمت الإشارة إليه.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ مكرَّرٌ للتأكيد، وليتعلَّق به قوله تعالى: ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ فحينئذٍ يكون بياناً وتفسيراً لقوله سبحانه: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لأنَّ الخوف: غَمٌّ يلحق الإنسان مما يتوقَّعه من السُّوء، والحزن: غَمٌّ يلحقه من فوات نافع أو حصول ضارٍّ. فَمَنْ كان متقلِّباً في نعمةٍ من الله تعالى وفَضْلٍ منه سبحانه، فلا يحزن أبداً، ومَن جُعلت أعماله مشكورةً غيرَ مضيَّعة، فلا يخاف العاقبة. ويجوز أن يكون بيانُ ذلك النفي بمجرد قوله جلَّ وعلا: ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ من غير ضمِّ ما بعده إليه.

وقيل: الاستبشار الأول بدفع المضارِّ، ولذا قُدِّم، والثاني بوجود المسارِّ. أو: الأول لإخوانهم، والثاني لهم أنفسهم.

ومِن الناس مَن أعربَ «يستبشرون» بدلاً من الأول، ولذا لم تدخل واو العطف عليه.

و«من الله» متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفة لـ «نعمة» مؤكدةً لِمَا أفاده من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية.

وجُمِعَ الفضلُ والنعمةُ مع أنهما كثيراً ما يُعبَّر بهما عن معنًى واحد؛ إما للتأكيد، وإما للإيذان بأنَّ ما خَصَّهم به سبحانه ليس نعمةً على قَدْرِ الكفاية من غيره مضاعفةِ سرور ولذَّة، بل زائدٌ عليها مضاعفٌ فيها ذلك، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وعَطْفُ «وأنَّ» على «فَضْلٍ» أو على «نعمة»، وعلى التقديرين مضمونُ ما بعدها داخلٌ في المستبشَر به.

وقرأ الكسائيُّ: «وإنَّ» بكسر الهمزة[(١)]، على أنه تذييلٌ لمضمون ما قبله من الآيات السابقة، أو اعتراضٌ بين التابع والمتبوع، بناءً على أنَّ الموصول الآتي تابعٌ للذين لم يلحقوا.

والمراد من المؤمنين: إما الشهداء، والتعبير عنهم بذلك للإعلام بسُموِّ مرتبة الإيمان، وكونِه مناطاً لما نالوه من السعادة، وإمَّا كافةُ المؤمنين، وذُكرتْ توفيةُ أُجورهم، وعُدَّت من جملة المستبشَر به على ما اقتضاه العطف، بحكم الأُخوَّة في الدين، واختار هذا الوجه كثيرٌ، ويؤيِّده ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن زيد: أنَّ هذه الآية جمعت المؤمنين كلَّهم سوى الشهداء، وقلَّما ذكر الله تعالى فضلاً ذكر به الأنبياء وثواباً أعطاهم، إلا ذكر سبحانه ما أعطى الله تعالى المؤمنين من بعدهم[(٢)].

وفي الآية إشعارٌ بأنَّ مَن لا إيمان له أعمالُهُ محبَطَةٌ وأُجورُه مضيَّعة.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾ أي: أطاعوا ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ بامتثال الأوامر ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ أي: نالهم الجراح يومَ أُحد. والموصولُ في موضع جرٍّ صفة لـ «المؤمنين»، أو: في موضع نصبٍ بإضمار: أعني، أو: في موضع رَفع على

---

(١) التيسير ص ٩١، والنشر ٢/ ٢٤٤.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٨١٥.

إضمار «هم» أو: مبتدأٌ أول، وخبره جملة قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ قال الطبرسيُّ: وهو الأشبه[1].

و«منهم» حالٌ من الضمير في «أحسنوا» و«من» للتبعيض، وإليه ذهب بعضهم، وذهب غيرُ واحدٍ إلى أنها للبيان، فالكلام حينئذٍ فيه تجريدٌ، جُرِّد من الذين استجابوا لله والرسول المحسنُ المتَّقي، والمقصود من الجمع بين الوصفين المدحُ والتعليل لا التقييد؛ لأنَّ المستجيبين كلّهم محسنون ومتَّقون.

قال ابن إسحاق وغيرُه[2]: لمَّا كان يوم الأحد لِستَّ عَشْرةَ ليلةً مضتْ من شوال - وكانت وقعةُ أُحدٍ يوم السبت للنصف منه - أذَّنَ مؤذِّنُ رسول الله ﷺ بِطَلَبِ العدو، وأن لا يخرجَ معنا أحدٌ إلا أحدٌ حضر يومنا بالأمس، فكلَّمه جابر بن عبد الله بن حرام فقال: يا رسول الله، إنَّ أبي كان خلَّفني على أخواتٍ لي سبع، وقال: يا بُنيَّ، لا ينبغي لي ولا لكَ أن نترك هؤلاء النسوةَ لا رجلَ فيهنَّ، ولستُ بالذي أوثركَ بالجهاد مع رسول الله تعالى عليه وسلم على نفسي، فتخلَّفْ على أخواتك، فتخلَّفتُ عليهنَّ، فأَذِنَ له رسول الله ﷺ.

فخرج رسول الله ﷺ إرهاباً للعدو، حتى انتهى إلى حمراء الأسد على ثمانية أميال من المدينة، فأقام بها يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة وقد مرَّ به مَعْبَدُ بن أبي معبد الخزاعي، وكانت خزاعة مُسلمهُم ومشركُهم عَيْبَة[3] نُصْحِ رسول الله ﷺ بتهامة، صَفْقَتُهم معه، لا يُخفون عنه شيئاً كان بها، ومَعْبَدٌ يومئذٍ مشركٌ، فقال: يا محمد، أمَا واللهِ لقد عزَّ علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أنَّ الله تعالى عافاك فيهم.

ثم ذهب ورسولُ الله ﷺ بحمراء الأسد، حتى لقي أبا سفيان ومَن معه بالرَّوحاء، وقد أجمعوا الرَّجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وقالوا: أَصَبْنا أَجلَّ أصحابه وقادتَهم

---

(١) مجمع البيان ٤/ ٢٦٨. وقد ذكر مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ١٧٩ وجهاً آخر، وهو أن يكون «الذين استجابوا» بدلاً من «الذين لم يلحقوا بهم»، وأجاز السمين قياساً على ذلك أن يكون نعتاً له أيضاً. الدر المصون ٣/ ٤٨٨.

(٢) ينظر سيرة ابن هشام ٢/ ١٠١، وتفسير الطبري ٦/ ٢٤٦، وتاريخ الطبري ٢/ ٥٣٤.

(٣) عيبة الرجل: موضع سِرِّه. لسان العرب (عيب).

وأشرافهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم! لنكرَّنَّ عليهم، فَلْنَفْرغَنَّ منهم.

فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمدٌ قد خرج في أصحابه يطلبُكم في جمع لم أرَ مثلَه قطُّ، وهم يتحرَّقون عليكم تحرُّقاً، وقد اجتمع معه مَنْ كان تخلَّف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحَنقَ عليكم شيءٌ لم أَرَ مثله، قال: ويلك ما تقول؟ قال: ما أرى والله أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل. قال: فوالله لقد أجمعنا الكرَّة عليهم لنستأصل بقيَّتهم. قال: فإني أنهاك عن ذلك، ووالله لقد حملني ما رأيتُ على أن قلتُ فيهم أبياتاً من الشعر، قال: وما قلتَ؟ قال: قلتُ:

كادتْ تُهَدُّ من الأصوات راحلتي ... إذ سالت الأرضُ بالجُرْد الأبابيلِ[1]

تَرْمي[2] بأُسْدٍ كرام لا تنابلةٍ ... عند اللِّقاء ولا مِيلٍ معازيلِ[3]

فظلْتُ عَدْواً كأنَّ[4] الأرضَ مائلةٌ ... لمَّا سَمَوا برئيسٍ غير مخذولِ

وقلتُ ويلَ ابنِ حَرْبٍ من لقائهمُ ... إذا تَغَطمطتِ البطحاء بالخَيلِ[5]

إنِّي نذيرٌ لأهل النبل[6] ضاحيةً ... لكلِّ [ذي] إربةٍ[7] منهم ومعقولِ

من خيل[8] أحمد لا وخشٍ تنابلةٍ[9] ... وليس يُوصَفُ ما أنذرتُ بالقيلِ

---

(١) تهد: تسقط لهول ما رأت من أصوات الجيش وكثرته، والجرد: الخيل العتاق، والأبابيل: الجماعات. الإملاء المختصر في شرح غريب السير لأبي ذر الخشني ٢/ ١١٧-١١٨.

(٢) في السيرة وتاريخ وتفسير الطبري: تَرْدي، ومعناه: تسرع، الإملاء المختصر ٢/ ١١٨.

(٣) التنابلة: القصار، والمِيْلُ جمع أميَل، وهو الذي لا رمح معه، وقيل: هو الذي لا ترس معه، وقيل: هو الذي لا يثبت على السرج. والمعازيل: الذين لا سلاح معهم. الإملاء ٢/ ١١٨.

(٤) في السيرة وتاريخ وتفسير الطبري: أظن، بدل: كأن.

(٥) في السيرة وتاريخ وتفسير الطبري: بالجيل، وهو الصنف من الناس. وذكرها برواية المصنف السهيلي في الروض الأنف ٣/ ١٨٠. وقوله: تغطمطت، أي: اهتزت وارتجت. والبطحاء: السهل من الأرض. الإملاء المختصر ٢/ ١١٨.

(٦) في المصادر: البسل، وهو الحرام، وأراد بأهل البسل قريشاً؛ لأنهم أهل مكة، ومكة حرام. الإملاء المختصر ٢/ ١١٨.

(٧) أي: عقل. الإملاء المختصر ٢/ ١١٨. وما بين حاصرتين من المصادر.

(٨) في المصادر: جيش.

(٩) الوخش: رذالة الناس وأخسَّاؤهم. وجاء في بعض المصادر: وخشٍ قنابلة، جمع قنبلة: وهي القطعة من الخيل. الإملاء المختصر ٢/ ١١٨.

فثَنى عند ذلك أبو سفيان[1] ومَن معه، ومرَّ به ركبٌ من عبد القيس فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة. قال: ولمَ؟ قالوا: نريد المِيرة[2]. قال: فهل أنتم مبلِّغون عنِّي محمداً رسالةً أُرسلكم بها إليه، وأُحمِّل هذه لكم غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها[3]؟ قالوا: نعم. قال: إذا وافيتموه فأخبروه أنْ قد أَجْمَعْنا السَّير إليه وإلى أصحابه، لنستأصل بقيَّتهم. فمرَّ الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابُه، فقال: حَسْبُنا الله ونعم الوكيل.

وأخرج ابن هشام[4] أنَّ أبا سفيان لما أراد الرجوع إلى حرب رسول الله ﷺ قال لهم صفوان بن أمية بن خلف: لا تفعلوا، فإنَّ القوم قد حَرِبوا[5]، وقد خشينا أن يكون لهم قتالٌ غير الذي كان، فارجعوا إلى محالِّكم. فرجعوا، فلما بلغ رسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد أنهم همُّوا بالرَّجعة قال: والذي نفسي بيده، لقد سُوِّمت لهم حجارة، لو صُبِّحوا بها لكانوا كأمسِ الذاهب.

ثم رجع رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وأنزل الله تعالى هذه الآيات. وإلى هذا ذهب أكثر المفسرين، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ بدلٌ من «الذين استجابوا» أو صفة، والمراد من الناس الأول: رَكْبُ عبد قيس، ومن الثاني: أبو سفيان ومن معه، فـ «أل» فيهما للعهد، والناس الثاني غير الأول.

وروي عن مجاهد وقتادة وعكرمة وغيرهم أنهم قالوا ـ والخبرُ متداخِلٌ ـ: نزلت هذه الآيات في غزوة بدرٍ الصغرى، وذلك أنَّ أبا سفيان قال يوم أحدٍ حين أراد أن ينصرف: يا محمد موعدُ ما بيننا وبينك موسم بدر القابل إن شئت. فقال رسول الله ﷺ: «ذلك بيننا وبينك إن شاء الله تعالى». فلما كان العام المقبل، خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مَجنَّة من ناحية مرِّ الظهران، وقيل: بلغ عُسْفان،

(١) في المصادر: فثنى ذلك أبا سفيان، أي: صرفه وردَّه. الإملاء المختصر ٢/ ١١٨.
(٢) المِيرة: جلب الطعام. القاموس المحيط (مير).
(٣) في الأصل و(م): وافيتموه. والمثبت من المصادر.
(٤) في السيرة ٢/ ١٠٤ عن عبيدة.
(٥) أي: غضبوا. الإملاء المختصر ٢/ ١١٨.

فألقى الله تعالى عليه الرعب فبدا له الرجوع، فلقي نُعيم بن مسعود الأشجعيَّ، وقد قَدِمَ معتمراً، فقال له أبو سفيان: إني واعدتُ محمداً وأصحابه أن نلتقي بموسم بدر، وإنَّ هذه عامُ جَدْبٍ، ولا يصلحنا إلا عامٌ نرعي فيه الشجر ونشرب فيه اللبن، وقد بدا لي [أن لا أخرج إليهم](١)، وأكره أن يخرج محمدٌ ولا أخرجَ أنا فيزيدهم ذلك جرأة، فالْحقِ المدينةَ فتثبِّطهم ولك عندي عشرةٌ من الإبل أضعُها على يَدَي سهيل بن عمرو.

فأتى نُعيمٌ المدينةَ، فوجد الناسَ يتجهَّزون لميعاد أبي سفيان، فقال لهم: بئس الرأيُ رأيُكم، أَتوكم في دياركم وقرارِكم، فلم يُفْلِت منكم إلا شريدٌ، فتريدون أن تخرجوا إليهم وقد جمعوا لكم عند الموسم، فوالله لا يفلتُ منكم أحدٌ. فكرهَ أصحابُ رسول الله ﷺ الخروجَ، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لأخرجنَّ ولو وحدي» فخرج ومعه سبعون راكباً يقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل. حتى وافى بدراً، فأقام بها ثمانيةَ أيام ينتظر أبا سفيان، وقد انصرف أبو سفيان ومَن معه من مَجنَّة إلى مكة، فسمَّاهم أهلُ مكة جيشَ السويق، يريدون أنكم لم تفعلوا شيئاً سوى شُربِ السويق، ولم يلقَ رسولُ الله ﷺ أحداً من المشركين، فَكَرَّ راجعاً إلى المدينة(٢). وفي ذلك يقول عبد الله بن رواحة، أو كعب بن مالك:

وَعَدْنا أبا سفيانَ وَعْداً فلم نَجِدْ ... لميعاده صِدْقاً وما كان وافيا
فأُقسمُ لو وافيتَنا فلقِيْتَنا ... لأُبْتَ ذميماً وافتقدتَ المَواليا
تركنا به أوصالَ عُتبةَ وابنهِ ... وعمراً أبا جهل تركناه ثاويا
عصيتُم رسولَ الله أُفٍّ لدينكم ... وأَمركم السَّيءُ الذي كان غاويا
وإنِّي وإنْ عنَّفتُموني لقائلٌ ... فِدىً لرسول الله أهلي وماليا
أطعناه لم نَعْدِلْهُ فينا بغيره ... شهاباً لنا في ظُلْمةِ الليل هادياً(٣)

(١) ما بين حاصرتين من تفسير البغوي ١/ ٣٧٤.

(٢) تفسير البغوي ١/ ٣٧٤ عن مجاهد وعكرمة، وأخرجه عنهما بنحوه دون ذكر نعيم بن مسعود الطبري ٦/ ٢٥٠-٢٥١، وابن أبي حاتم ٣/ ٨١٨-٨١٩. وقوله: فخرج ومعه سبعون راكباً يقولون، جاء بدلاً منه في المصادر: فأما الجبان فإنه رجع، وإما الشجاع فإنه تأهب للقتال وقال.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢١٠-٢١١، وهي في ديوان كعب بن مالك ص ٢٢٢.

فعلى هذا، المراد من الناس الأول: نُعيم، وأُطلق ذلك عليه كما يُطلق الجمع واسمُ الجمع المحلَّى بأل الجنسية على الواحد منه مجازاً، كما صرَّحوا به، أو باعتبار أنَّ المذيعين له كالقائلين لهم، لكن في كون القائل نُعيماً مقال، وقد ذكره ابن سعد في «طبقاته»[1]، وذكر بعضهم أن القائلين أناسٌ من عبد قيس.

﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ الضمير المستكنُّ للمقول، أو لمصدرِ «قال»، أو لفاعِله إن أُريد به نُعيمٌ وحده، أو لله تعالى.

وتَعقَّبَ أبو حيان[2] الأولَ بأنه ضعيفٌ من حيث إنه لا يزيد إيماناً إلا النطقُ به، لا هو في نفسه، وكذا الثالث بأنه إذا أُطلق على المفرد لفظُ الجمع مجازاً، فإنَّ الضمائر تجري على ذلك الجمع لا على المفرد، فيقال: مَفارِقُهُ شابتْ، باعتبار الإخبار عن الجمع، ولا يجوز: مَفارِقه شابَ، باعتبار: مَفْرِقه شاب.

وفي كِلَا التعقيبين نظر:

أمَّا الأول: فقد نَظَر فيه الحلبي[3] بأنَّ المقول هو الذي في الحقيقة حَصَل به زيادة الإيمان.

وأما الثاني: فقد نظر فيه السَّفاقسي بأنه لا يَبْعُدُ جوازه بناءً على ما عُلم من استقراء كلامهم فيما له لفظٌ وله معنى، من اعتبار اللفظ تارةً والمعنى أخرى.

والمراد أنهم لم يلتفتوا إلى ذلك، بل ثبت به يقينهم بالله تعالى، وازدادوا طمأنينة، وأظهروا حميَّة الإسلام.

واستدلَّ بذلك مَن قال: إنَّ الإيمان يتفاوتُ زيادةً ونقصاناً، وهذا ظاهرٌ إنْ جعلت الطاعة من جملة الإيمان، وأمَّا إنْ جُعل الإيمانُ نفسَ التصديق والاعتقاد،

---

(١) ٢/ ٥٩. ونقل الشهاب في الحاشية ٣/ ٨٢ عن ابن حجر قوله: هذا لم أره مسنداً وإن نقله الثعلبي عن مجاهد وعكرمة، وقال الواقدي وابن إسحاق: إنهم أناس من عبد قيس، ورووه بسند فيه انقطاع وإبهام، فانحصرت تسميته نعيماً في مقاتل وهو متروك. وكلام ابن حجر بنحوه في موسوعة الحافظ ابن حجر الحديثية ٤/ ٤١٢، وقال فيه أيضاً: وقد وقع لي أصل القصة بسند قوي، والمبلِّغ فيها أيضاً مبهم.

(٢) في البحر ٣/ ١١٨.

(٣) في الدر المصون ٣/ ٤٨٩.

فقد قالوا في ذلك: إنَّ اليقين مما يزداد بالإلف وكثرة التأمُّل وتناصُر الحجج بلا ريب. ويعضد ذلك أخبارٌ كثيرة[(١)].

ومَنْ جَعَل الإيمانَ نفسَ التصديق، وأنكر أن يكون قابلاً للزيادة والنقصان يؤوِّل ما ورد في ذلك باعتبار المتعلّق. ومنهم مَن يقول: إنَّ زيادته مجازٌ عن زيادة ثمرتهِ وظهور آثاره، وإشراق نوره وضيائه في القلب، ونقصانه على عكس ذلك، وكأنَّ الزيادة هنا مجازٌ عن ظهور الحمية، وعدم المبالاة بما يثبِّطهم.

وأنت تعلم أنَّ التأويل الأول هنا خفيٌّ جدًّا؛ لأنه لم يتجدَّد للقوم بحسب الظاهر عند ذلك القول شيءٌ يجب الإيمان به ـ كوجوب صلاة أو صوم مثلاً ـ ليقال: إنَّ زيادة إيمانهم باعتبار ذلك المتعلّق، وكذا التزامُ التأويل الثاني في الآيات والآثار التي لم تَكَدْ تتمنطقُ بمنطقة الحَصْرِ بعيدٌ غايةَ البعد.

فالأَوْلى القولُ بقَبول الإيمان الزيادةَ والنقصان من غير تأويل، وإن قلنا إنه نفس التصديق. وكونُه إذا نقص يكون ظنًّا أو شكًّا، ويخرج عن كونه إيماناً وتصديقاً، مما لا ظنَّ ولا شكَّ في أنه على إطلاقه ممنوعٌ.

نعم قد يكون التصديق بمرتبةٍ إذا نزل عنها يخرج عن كونه تصديقاً، وذاك مما لا نزاعَ لأحدٍ في أنه لا يَقْبَلُ النقصان مع بقاء كونه تصديقاً؛ وإلى هذا أشار بعض المحققين.

﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: مُحْسِبُنا وكافينا، مِن أَحْسَبَهُ: إذا كفاه، والدليل على أنَّ حَسْب بمعنى «مُحْسِب» اسم فاعل وقوعُهُ صفةً للنكرة في: هذا رجلٌ حَسْبُك، مع إضافته إلى ضمير المخاطَب، فلولا أنه اسم فاعل وإضافتُهُ لفظيةٌ لا تفيده تعريفاً ـ كإضافة المصدر ـ ما صحَّ كونُه صفةً لرجل، كذا قالوا، ومنه يُعلم أنَّ المصدر المؤوَّل باسم الفاعل له حكمُه في الإضافة، والجملة الفعلية معطوفةٌ على الجملة التي قبلها.

---

(١) منها ما أخرجه ابن أبي شيبة ١١/٢٦ عن زر قال: كان عمر مما يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول: قم بنا نزدد إيماناً. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ٣٤: ورجاله ثقات ولكنه منقطع.

﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ أي: الموكولُ إليه، ففعيل بمعنى مفعول، والمخصوصُ بالمدح محذوفٌ هو ضميره تعالى، والظاهر عطفُ هذه الجملة الإنشائية على الجملة الخبرية التي قبلها، والواوُ إما من الحكاية، أو من المَحْكيِّ، فإنْ كان الأول وقلنا بجواز عطف الإنشاء على الإخبار فيما له محلٌّ من الإعراب لكونهما حينئذ في حكم المفردين، فَأَمْرُ العطف ظاهرٌ من غير تكلُّفِ التأويل؛ لأنَّ الجملة المعطوفَ عليها في محلٍّ نصبِ مفعولِ «قالوا»، لكنَّ القول بجواز هذا العطف بدون التأويل عند الجمهور ممنوعٌ لابدَّ له من شاهد، ولم يثبت.

وإن كان الثاني وقلنا بجواز عطف الإنشاء على الإخبار مطلقاً ـ كما ذهب إليه الصفار[1] ـ أو قلنا بجواز عطف القصة على القصة، أعني: عطف حاصل مضمون إحدى الجملتين على حاصل مضمون الأخرى من غير نظر إلى اللفظ ـ كما أشار إلى ذلك العلَّامة الثاني ـ فالأمر أيضاً ظاهر، وإن قلنا بعدم جواز ذلك كما ذهب إليه الجمهور، فلابدَّ من التأويل؛ إما في جانب المعطوف عليه، أو في جانب المعطوف.

والذاهبون إلى الأول قالوا: إنَّ الجملة الأولى وإن كانت خبريةً صورةً، لكنَّ المقصود منها إنشاءُ التوكُّل أو الكفاية، لا الإخبارُ بأنه تعالى كافٍ في نفس الأمر.

والذاهبون إلى الثاني اختلفوا، فمنهم مَن قَدَّر: قلنا، أي: وقلنا نِعْمَ الوكيل. واعتُرض بأنه تقديرٌ لا ينساق الذهن إليه، ولا دلالةَ للقرينة عليه، مع أنه لا يوجَد بين الإخبار بأنَّ الله تعالى كافيهم، والإخبار بأنهم قالوا: نِعْمَ الوكيل، مناسَبةٌ معتدٌّ بها يَحْسُنُ بسببها العطفُ بينهما.

ومنهم مَن جعل مدخول الواو معطوفاً على ما قبله بتقدير المبتدأ: إما مؤخَّراً لتناسب المعطوف عليه، فإنَّ «حسبنا» خبر، و«الله» مبتدأ، بقرينة ذكره في المعطوف عليه، ومجيء حذفه في الاستعمال، وانتقال الذهن إليه، وإما مقدَّماً رعايةً لقرب المرجع مع ما سبق.

---

(١) هو قاسم بن علي بن محمد البَطَلْيوسيّ الشهير بالصفار، صحب الشلوبين وابن عصفور، وشرح كتاب سيبويه شرحاً حسناً، مات بعد الثلاثين وست مئة. بغية الوعاة ٢/ ٢٥٦.

واعتُرض بأنه لا يخفى أنه بعد تقدير المبتدأ، لو لم يؤوَّل «نِعْمَ الوَكيل» بـ: مَقول في حقِّه ذلك، تكون الجملة أيضاً إنشائية؛ إذ الجملةُ الاسمية التي خبرُها إنشاءٌ إنشائية، كما أنَّ التي خبرُها فِعْلٌ فعليةٌ بحسب المعنى، كيف لا، ولا فرق بين: نِعْمَ الرجلُ زيدٌ، و: زيدٌ نِعْمَ الرجُل، في أنَّ مدلولَ كلٍّ منهما نسبةٌ غيرُ مُحتَمِلةٍ للصدق والكذب، وبعد التأويل لا يكون المعطوف جملةَ «نعم الوكيل» بل جملة متعلَّقُ خبرِها «نعم الوكيل»، والإشكالُ إنما هو في عطف «نعم الوكيل»، إلا أنْ يقال: يُختار هذا، ويقال: الجواب عن شيءٍ قد يكون بتقدير ذلك الشيء وإبداءِ شيءٍ آخر، وقد يكون بتغيير ذلك الشيء، وما هاهنا من الثاني، فمن حيث الظاهرُ المعطوفُ هو جملة «نعم الوكيل»، فيعود[1] الإشكال، ومن حيث الحقيقة هو جملة: هو مقولٌ، فلا إشكال، لكنْ يَرِدُ أنه بعد التأويل يفوت إنشاءُ المدح العام الذي وضع أفعال المدح له، بل يصير للإخبار بالمدح الخاص، وهو أنه مقولٌ في حقِّه: نعم الوكيل، وأيضاً مقوليةُ المقول المذكور فيه إنما تكون بطريق الحمل والإخبار عنه بـ«نعم الوكيل»، فلابدَّ من تقديرِ: مقول في حقِّه، مرَّةً أخرى، ويلزم تقديراتٌ غيرُ متناهية، وكأنه لهذا لم يؤوِّل الجمهور الإنشاء الواقع خبراً بذلك، وإنما هو مختارُ السَّعد رحمه الله تعالى.

وقد جوَّز بعضهم على تقدير كون الواو من المحكي عطفَ «نعم الوكيل» على «حسبنا» باعتبار كونه في معنى الفعل، كما عطف «جَعَلَ» على «فالق» في قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام:٩٦] على رأي، فحينئذ يكون مِنْ عطف الجملة التي لها محلٌّ من الإعراب على المفرد؛ لأنه إذ ذاك خبرٌ عن المفرد، وبعض المحققين يجوِّزون ذلك لا مِن عطف الإنشاء على الإخبار، وهذا وإن كان في الحقيقة لا غبار عليه، إلا أنَّ أَمْر العطف على الخبر بناءً على ما ذكره الشيخ الرضي من أنَّ نِعْمَ الرجل بمعنى المفرد وتقديرِه، أي: رجلٌ جيدٌ، أَظهرُ كما لا يخفى.

ومن الناس مَن ادَّعى أنَّ الآيةَ شاهدٌ على جواز عطف الإنشاء على الإخبار فيما له محلٌّ من الإعراب بناءً على أنَّ الواو من الحكاية لا غير.

---

(١) في الأصل: فيرد.

ولا يخفى عليك أنه بعد تسليم كون الواو كذلك فيها، لا تصلح شاهداً على ما ذُكر، لجواز أن يكون «قالوا» مقدَّراً في المعطوف، بقرينة ذِكْره في المعطوف عليه، فيكون من عَطْفِ الجملة الفعلية الخبرية، على الجملة الفعلية الخبرية.

ثم إنَّ الظاهر كما يقتضي أن يكون في الآية عطفٌ على الإخبار ـ وفيه الخلافُ الذي عرفتَ ـ كذلك يقتضي عطفَ الفعلية على الاسمية، وفيه أيضاً خلاف مشهورٌ كعكسه، ومما ذكرنا في أمر الإنشاء والإخبار يُستخرج الجواب عن ذلك.

وقد أطال العلماء الكلام في هذا المقام، وما ذكرناه قليلٌ من كثير، ووَشَلٌ[1] من غدير.

ثم إنَّ هذه الكلمةَ كانت آخرَ قول إبراهيم عليه السلام حين أُلقى في النار، كما أخرجه البخاريُّ [والبيهقي] في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس ﵄[2]، وعبد الرزاق وغيره عن ابن عمرو[3] ﵄.

وأخرج ابن مردويه[4] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل».

وأخرج ابن أبي الدنيا[5] عن عائشة ﵂، أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا اشتدَّ غمُّه مسح بيده على رأسه ولحيته، ثم تنفس الصُّعداء وقال: «حسبيَ الله ونِعْمَ الوكيل».

وأخرج أبو نعيم[6] عن شدَّاد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «حسبي الله ونِعْمَ الوكيل، أمانُ كلِّ خائف».

---

(١) الوَشَل: هو الماء القليل يَتحلَّبُ من جبلٍ أو صخرةٍ، ولا يتَّصل قَطْرُه. القاموس (وشل).

(٢) صحيح البخاري (٤٥٦٤)، والأسماء والصفات (١٤٦). وما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، وهو الموافق لما في الدر المنثور ٢/ ١٠٣.

(٣) في الأصل و(م): عمر، والمثبت من تفسير عبد الرزاق ١/ ١٤٠، ومصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٣٥٣، وتفسير الطبري ٦/ ٢٥٢، والدر المنثور ٢/ ١٠٣.

(٤) كما في الدر المنثور ٢/ ١٠٣.

(٥) في الذكر كما في الدر المنثور ٢/ ١٠٣.

(٦) في أخبار أصبهان ١/ ٢٨٣.

﴿فَانقَلَبُوا﴾ عطفٌ على مقدَّر دلَّ عليه السياق، أي: فخرجوا إليهم ورجعوا ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ في موضع الحال من الضمير في «انقلبوا»، وجُوِّز أن يكون مفعولاً به. والباء على الأول للتعدية، وعلى الثاني للمصاحبة[١]، والتنوين على التقديرين للتفخيم، أي: بنعمةٍ عظيمةٍ لا يُقْدَر قَدْرُها.

﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ صفةٌ لـ «نعمة» مؤكِّدةٌ لفخامتها، والمراد منها السلامة كما قاله ابن عباس. أو الثباتُ على الإيمان وطاعةِ الله تعالى ورسوله ﷺ، كما قاله الزجَّاج[٢]. أو إذلالُهم أعداءَ الله تعالى على بُعْدٍ كما قيل. أو مجموعُ هذه الأمور على ما نقول.

﴿وَفَضْلٍ﴾ وهو الربح في التجارة، فقد روى البيهقيُّ عن ابن عباس أنَّ عيراً مرَّت، وكان في أيام الموسم، فاشتراها رسول الله ﷺ، فربح مالاً، فقسمه بين أصحابه، فذلك الفضل[٣].

وأخرج ابن جرير عن السُّدِّي قال: أعطى رسول الله ﷺ حين خرج في غزوة بدر الصغرى ببدرٍ أصحابَه دراهم ابتاعوا بها في الموسم، فأصابوا تجارة.

وعن مجاهد: الفَضْل ما أصابوا من التجارة والأجر[٤].

﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ أي: لم يصبهم قَتْلٌ، وهو المرويُّ عن السُّدِّي. أو لم يُؤْذِهم أحدٌ، وهو المرويُّ عن الحبر. والجملة في موضع النصب على الحال من فاعل «انقلبوا»، أو من المتسكنِّ في «بنعمة» إذا كان حالاً، والمعنى: فانقلبوا منعَّمين مبرَّئين من السوء، والجملة الحالية إذا كان فعلُها مضارعاً منفيًّا بـ «لم» وفيها ضمير ذي الحال، جاز فيها دخول الواو وعدمُه.

﴿وَاتَّبَعُوا﴾ عطفٌ على «انقلبوا» وقيل: حالٌ من ضميره بتقدير «قد»، أي: وقد اتَّبعوا في كلِّ ما أُوتوا، أو في الخروج إلى لقاء العدو ﴿رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ الذي هو مناطُ كلِّ خير ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ حيث تفضَّل عليهم بما تفضَّل.

---

(١) كذا وقع، والصواب العكس، أي أن الباء على الأول وهو القول بالحالية للمصاحبة، وعلى الثاني وهو القول بالمفعولية للتعدية. ينظر الدر المصون ٣/ ٤٩٠.

(٢) في معاني القرآن ١/ ٤٩٠، قال: هي نعمة الإيمان والنصر على عدوهم.

(٣) دلائل النبوة ٣/ ٣١٨.

(٤) تفسير الطبري ٦/ ٢٥٣-٢٥٤.

وفيما تقدَّم مع تذييله بهذه الآية المشتملة على الاسم الكريم الجامع، وإسناد «ذو فضل» إليه، ووصف الفضل بالعِظَم، إيذانٌ بأنَّ المتخلِّفين فوَّتوا على أنفسهم أمراً عظيماً لا يُكتَنَهُ كُنْهُهُ، وهم أحقَّاءُ بأن يتحسَّروا عليه تحسُّراً ليس بعده.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ الإشارة إلى المثبِّط بالذات أو بالواسطة، والخطاب للمؤمنين، وهو مبتدأ، وقوله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ـ بمعنى إبليس؛ لأنه عَلَمٌ له بالغَلَبة ـ خبرُهُ على التشبيه البليغ. وقوله تعالى: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مبيِّنةٌ لشيطنته، أو حالٌ كما في قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾ [النمل: ٥٢].

ويجوز أن يكون الشيطان صفةً لاسم الإشارة على التشبيه أيضاً، ويحتمل أن يكون مجازاً حيث جعله هو، و«يخوِّف» هو الخبر.

وجُوِّز أن يكون «ذا» إشارةً إلى قول المثبِّط، فلابدَّ حينئذٍ من تقدير مضاف، أي: قولُ الشيطان، والمراد به إبليس أيضاً، ولا تجوُّزَ فيه على الصحيح، وإنما التجوُّز في الإضافة إليه؛ لأنه لما كان القول بوسوسته وسببه جُعل كأنه قولَه، والمستكنُّ في «يخوِّف» إما للمقدَّر، وإما للشيطان بحذف الراجع إلى المقدَّر، أي: يخوِّف به.

والمراد بأوليائه: إما أبو سفيان وأصحابه، فالمفعول الأول لـ «يخوِّف» محذوفٌ، أي: يخوِّفكم أولياءَه بأن يعظِّمهم في قلوبكم، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف: ٢] وبذكر هذا المفعول قرأ ابن عباس(١). وقرأ بعضهم: «يخوِّفُكم بأوليائه»(٢). وعلى هذا المعنى أكثر المفسرين، وإليه ذهب الزجَّاج(٣) وأبو علي الفارسي وغيرهما، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أي: فلا تخافوا أولياءه الذين خوَّفكم إياهم ﴿وَخَافُونِ﴾ في مخالفة أمري.

وإما المتخلِّفون عن رسول الله ﷺ، فـ «أولياءه» هو المفعول الأول، والمفعول الثاني إما متروكٌ أو محذوفٌ للعلم به، أي: يوقعهم في الخوف، أو يخوِّفهم من

(١) المحتسب ١/ ١٧٧.
(٢) هي قراءة أبيّ بن كعب والنخعي. المحرر الوجيز ١/ ٥٤٤، والبحر المحيط ٣/ ١٢٠.
(٣) في معاني القرآن له ١/ ٤٩٠.

أبي سفيان وأصحابه. وعلى هذا لا يصحُّ عَوْدُ ضمير «تخافوهم» إلى الأولياء، بل هو راجعٌ إلى «الناس» الثاني؛ كضمير «اخشوهم» فهو ردٌّ له، أي: فلا تخافوا الناس وتقعدوا عن القتال وتَجْبُنوا، وخافون فجاهدوا مع رسولي، وسارعوا إلى امتثال ما يأمركم به، وإلى هذا الوجه ذهب الحسن والسُّدِّي، وادَّعى الطيبيُّ[1] أنَّ النظم يساعد عليه، والخطاب حينئذ لفريقَي الخارجين والمتخلِّفين، والقصدُ التعريضُ بالطائفة الأخيرة.

وقيل: الخطاب لها، و«أولياءه» إذ ذاك من وضع الظاهر موضع المضمر، نعياً عليهم بأنهم أولياء الشيطان.

واستَظْهَر بعضُهم هذا القيل مطلقاً، معلِّلاً له بأنَّ الخارجين لم يخافوا إلا الله تعالى، وقالوا: حسبنا الله، وأنت تعلم أنَّ قيام احتمال التعريض يمرض هذا التعليل.

والفاء لترتيب النهي أو الانتهاء على ما قبلها، فإنَّ كونَ المخوِّف شيطاناً أو قولاً له، مما يوجب عدم الخوف والنهيَ عنه.

وأثبت أبو عمرو ياء «وخافون» وصلاً وحَذَفَها وقفاً، والباقون يحذفونها مطلقاً[2]، وهي ضمير المفعول.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ إن كان الخطابُ للمتخلِّفين فالأمرُ فيه واضحٌ، وإن كان للخارجين كان مُساقاً للإلهاب والتهييج لهم، لتحقُّق إيمانهم، وإن كان للجميع ففيه تغليب، وأيًّا ما كان، فالجزاء محذوف.

وقيل: إن كان الخطاب فيما تقدَّم للمؤمنين الخُلَّص لم يفتقر إلى الجزاء، لكونه في معنى التعليل، وإن كان للآخرين افتقر إليه، وكأنَّ المعنى: إن كنتم مؤمنين فخافوني وجاهدوا مع رسولي؛ لأنَّ الإيمان يقتضي أن تُؤْثروا خوفَ الله تعالى على خوف الناس.

* * *

(١) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.
(٢) التيسير ص ٩٣، والنشر ٢/ ٢٤٧.

هذا ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بسيف المحبة ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ بالموت الاختباري(١) ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: سترٌ لوجودكم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾ منه تعالى بتحلِّيكم بصفاته عزَّ وجلّ ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: أهل الكثرة.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: باتِّصافك برحمةٍ رحيمية، أي: رحمةٍ تابعةٍ لوجودك الموهوب الإلهي، لا الوجود البشري ﴿لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ موصوفاً بصفات النفس؛ كالفظاظة والغلظ ﴿لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ ولم يتحملوا مؤنة ذلك.

أو يقال: لو لم تَغْلِبْ صفاتُ الجمال فيك على نعوت الجلال، لتفرَّقوا عنك ولَمَا صبروا معك.

أو يقال: لو سقيتَهم صِرْفَ شراب التوحيد غير ممزوج بما فيه لهم حظٌّ، لتفرَّقوا هائمين على وجوههم، غير مطيقين الوقوف معك لحظة.

أو يقال: لو كنتَ مدقِّقاً عليهم أحكامَ الحقائق، لضاقت صدورهم ولم يتحمَّلوا أثقالَ حقيقة الآداب في الطريق، ولكن سامحتَهم بالشريعة والرُّخَص.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يتعلَّق بك من تقصيرهم معك، لعلوِّ شأنك وكونِك لا ترى في الوجود غيرَ الله ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما يتعلَّق بحقِّ الله تعالى، لاعتذارهم، أو استغفر لهم ما يجري في صدورهم من الخطرات التي لا تليق بالمعرفة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ إذا كنت في مقام الفعل اختباراً لهم وامتحاناً لمقامهم.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ وذلك إذا كنت في مقام مشاهدة الربوبية، والخروج من التفرقة إلى الجمع ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه حسبُك فيما يريد منك وتريد منه.

وذكر بعض المتصوِّفة أنه يمكن أن يُفهم من الآية كونُ الخطاب مع الروح الإنساني، وأنه لانَ لصفات النفسِ وقواها الشهوية والغضبية، لتستوفي حظَّها، ويرتبط بذلك بقاءُ النسل وصلاح المعاش، ولولا ذلك لاضمحلَّت تلك القوى وتلاشت، واختلَّت الحكمة، وفُقدت الكمالات التي خُلق الإنسان لأجلها.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ تحقيقٌ لمعنى التوكُّل والتوحيد في الأفعال،

(١) في الأصل: الاختياري.

وقد ذكر بعض السادة قدَّس الله تعالى أسرارهم أنَّ نصر الله تعالى لعباده متفاوتُ المراتب، فَنَصْرُه المريدين بتوفيقهم لقمع الشهوات، ونصرُه المحبِّين بنعت المداناة، ونصرُهُ العارفين بكشف المشاهدات.

وقد قيل: إنما يُدرِك نَصْرَ الله تعالى مَنْ تبرَّأ من حوله وقوَّته، واعتصم بربِّه في جميع أسبابه.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ لكمال قُدسه وغايةِ أمانته، فلم يُخْفِ حقَّ الله تعالى عن عباده، وأعطى عِلْمَ الحقِّ لأهل الحقّ، ولم يضع أسراره إلا عند الأُمنَاء من أُمَّته.

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ أي: النبيّ في مقام الرضوان التي هي جنة الصفات، لاتِّصافه بصفات الله تعالى ﴿كَمَنْ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهو الغالُّ المحتجب بصفات نفسه ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ وهي أسفلُ حضيض النفس المظلمة.

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: كلٌّ من أهل الرضا والسخط متفاوتون في المراتب حَسْبَ الاستعدادات.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ إذ هو ﷺ مرآةُ الحق، يتجلَّى منه على المؤمنين، ولو تجلَّى لهم صِرْفاً لاحترقوا بأول سَطوات عظمته. ومعنى كونه عليه الصلاة والسلام ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ كونُه في لباس البشر ظاهراً بالصورة التي هم عليها.

وحَمْلُ المؤمنين على العارفين، والرسول على الروح الإنساني المنوَّر بنور الأسماء والصفات، المبعوثِ لإصلاح القوى، غيرُ بعيدٍ في مقام الإشارة. ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ في أثناء السير في الله تعالى، وهي مصيبةُ الفترة بالنسبة إليكم ﴿قَدْ أَصَبْتُم﴾ قوى النفس ﴿مِّثْلَيْهَا﴾ مرَّةً عند وصولكم إلى مقام توحيد الأفعال، ومرةً عند وصولكم إلى مقام توحيد الصفات ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ﴾ أصابنا ﴿هَٰذَا﴾ ونحن في بَيداء السير في الله عزَّ وجلّ.

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ لأنه بقي فيها بقية ما من صفاتها، ولا ينافي قولَه سبحانه: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] لأنَّ السبب الفاعليَّ في الجميع هو الحقُّ جلَّ شأنه، والسبب القابلي أنفسُهم، ولا يفيض من الفاعل إلا ما يليق

بالاستعداد ويقتضيه، فباعتبار الفاعل يكون من عند الله، وباعتبار القابل يكون من عند أنفسهم.

وربَّما يقال: ما يكون من أنفسهم أيضاً يكون من الله تعالى، نظراً إلى التوحيد إذ لا غيرَ ثمَّة.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سواء قتلوا بالجهاد الأصغر وبَذْل الأنفس، طلباً لرضا الله تعالى، أو بالجهاد الأكبر وكَسْرِ النفس وقمع الهوى بالرياضة ﴿أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بالحياة الحقيقية مقرَّبين في حضرة القدس ﴿يُرْزَقُونَ﴾ من الأرزاق المعنوية، وهي المعارفُ والحقائق.

وقد ورد في بعض الأخبار أنَّ أرواح الشهداء في أجواف طيرٍ خُضْرٍ تدور في أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديلَ من ذهب معلَّقة في ظلِّ العرش[١]. ونقل ذلك بهذا اللفظ بعض الصوفية[٢]، وجَعَلَ الطيرَ الخُضْرَ إشارةً إلى الأجرام السماوية، والقناديلَ من ذهب إشارةً إلى الكواكب، وأنهارَ الجنة منابعَ العلوم ومشارعها، وثمارَها الأحوالَ والمعارف. والمعنى: أنَّ أرواح الشهداء تتعلق بالنَّيِّرات من الأجرام السماوية بنزاهتها، وتَرِدُ مَشارعَ العلوم، وتكتسب هناك المعارف والأحوال.

ولا يخفى أنَّ هذا مما لا ينبغي اعتقاده كما أشرنا إليه فيما سبق، فإنْ كان ولابدَّ من التأويل، فليُجْعَلِ الطيرُ إشارةً إلى الصُّور التي تظهر بها الأرواح بناءً على أنها جواهرُ مجرَّدةٌ، وأُطلق اسم الطير عليها إشارة إلى خِفَّتها ووصولها بسرعةٍ حيث أُذن لها.

ونظير ذلك في الجملة قوله ﷺ في حديث: «الأطفال هم دعاميص الجنة»[٣] والدعاميص: جمع دُعْمُوص، وهي دُوَيبّة تكون في مستنقع الماء، كثيرةُ الحركة،

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٧) من حديث ابن مسعود ﷺ، وأحمد (٢٣٨٨)، وأبو داود (٢٥٢٠) من حديث ابن عباس ﷺ.

(٢) هو ابن عربي في تفسيره ١/١٥٣.

(٣) أخرجه أحمد (١٠٣٢٥)، ومسلم (٢٦٣٥) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «صغارهم دعاميص الجنة...».

لا تكاد تستقرُّ، ومن المعلوم أنَّ الأطفال ليسوا تلك الدُّويبّة في الجنة، لكنه أراد ﷺ الإخبارَ بأنهم سيَّاحون في الجنة، فعبَّر بذلك على سبيل التشبيه البليغ.

وَوَصْفُ الطير بالخضر، إشارة إلى حُسنها وطراوتها، ومنه خبر: «إنَّ الدنيا حلوةٌ خَضِرَةٌ»(١) وقول عمر ﷺ: إنَّ الغزوَ حلوٌ خَضِرٌ. ومن أمثالهم: النفْسُ خضراء. وقد يريدون بذلك أنها تميل لكلِّ شيء وتشتهيه.

وأَمْرُ الظرفية في الخبر سَهْلٌ، وباقي ما فيه إما على ظاهره، وإما مؤوَّل، وعلى الثاني: يُراد من الجنة الجنةُ المَنْوِيَّةُ(٢)، وهي جنةُ الذات والصفات، ومن أنهارها ما يحصل من التجلِّيات، ومن ثمارها ما يعقب تلك التجلِّيات من الآثار، ومن القناديل المعلَّقة في ظلِّ العرش مقاماتٌ لا تُكْتَنَهُ معلَّقةٌ في ظلِّ عَرْشِ الوجود المطلق المحيط، وكونُها من ذهب إشارةٌ إلى عظمتها، وأنها لا تُنال إلا بشقِّ الأنفس.

وحاصل المعنى على هذا: أنَّ أرواح الشهداء الذين جادوا بأنفسهم في مرضاة الله تعالى، أو قَتَلَهم الشوق إليه عزَّ شأنه، تتمثَّلُ صُوراً حَسَنةً ناعمةً طريةً، يستحسنها مَنْ رآها، تطيرُ بجناحَي القبول والرضا في أنواع التجليات الإلهية، وتكتسب بذلك أنواعاً من اللذائذ المعنوية التي لا يُقْدَر قدرُها، ويتجدَّد لها في مقدارِ كلِّ ليلة مقامٌ جليلٌ لا يُنال إلا بمثل أعمالهم، وذلك هو النعيم المقيم والفوز العظيم، وكأنَّ مَن أَوَّلَ هذا الخبر وأمثاله، قَصَدَ سدَّ باب التناسُخ، ولعلَّه بالمعنى الذي يقول به أهل الضلال غير لازم، كما أشرنا إليه في آية «البقرة»(٣).

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من الكرامة والنعمة والزُّلفى عنده ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ وهم الغزاة الذين لم يُقتَلوا بعد، أو السالكون المجاهدون أنفسَهم، الذين لم يبلغوا درجتهم إلى ذلك الوقت ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لفوزهم بالمأمن الأعظم، والحبيب الأكرم.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٠٥٥) من حديث خولة بنت قيس الأنصارية. وأخرجه مسلم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) في الأصل: المعنوية.

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عظيمةٍ، وهي جنة الصفات ﴿وَفَضْلٍ﴾ أي: زيادة عليها، وهي جنة الذات، ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ﴾ إيمانَ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذي هو جنةُ الأفعال وثوابُ الأعمال.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ بالفناء بالوحدة الذاتية والقيام بحقِّ الاستقامة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ أي: كَسْرُ النفس ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾ وهم الثابتون في مقام المشاهَدة ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ النظرَ إلى نفوسهم لهم ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وراء أجر الإيمان.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ المنكرون قبل الوصول إلى المشاهدة ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ وتحشَّدوا للإنكار عليكم ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ واتركوا ما أنتم عليه ﴿فَزَادَهُمْ﴾ ذلك القول ﴿إِيمَٰنًا﴾ أي: يقيناً وتوحيداً بنفي الغير وعدم المبالاة به، وتوصَّلوا بنفي ما سوى الله تعالى إلى إثباته ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ فشاهدوه ثم رجعوا إلى تفاصيل الصفات بالاستقامة، وقالوا: ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي: رجعوا بالوجود الحقَّاني في جنة الصفات والذات ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ لم يؤذهم أحدٌ؛ إذ لا أَحَدَ إلا الأحد ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ في حال سلوكهم حتى فازوا بجنة الذات المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ كما أشرنا إليه.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ المحجوبين بأنفسهم، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ المنكرين ﴿وَخَافُونِ﴾ إذ ليس في الوجود سواي ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: موحِّدين توحيداً حقيقيًّا. والله تعالى الموفق للصواب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

❀ ❀ ❀

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ خطابٌ للنبيِّ ﷺ، وتوجيهُهُ إليه تشريفاً له بالتسلية، مع الإيذان بأنه الرئيس المعتنَى بشؤونه.

والمراد من الموصول: إما المنافقون المتخلِّفون، وإليه ذهب مجاهد وابن إسحاق. وإما قومٌ من العرب ارتدُّوا عن الإسلام لمقاربة عَبَدَة الأوثان، وإليه

ذهب أبو عليٍّ الجُبَّائي. وإما سائر الكفار، وإليه ذهب الحسن. وإما المنافقون وطائفةٌ من اليهود حسبما عُيِّن في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ﴾ [المائدة: ٤١] وإليه ذهب بعضهم.

ومعنى «يسارعون في الكفر»: يقعون فهي سريعاً لغاية حرصهم عليه، وشدَّةِ رغبتهم فيه. ولتضمُّن المسارعة معنى الوقوع تعدَّت بـ «في» دون «إلى» الشائع تعديتُها بها كما في ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وغيره، وأوثر ذلك على ما[1] قيل للإشعار باستقرارهم في الكفر[2]، ودوام ملابستهم له في مبدأ المسارعة ومنتهاها، كما في قوله سبحانه ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠] في حقِّ المؤمنين، وأما إيثار كلمة «إلى» في آيتها، فلأنَّ المغفرة والجنة منتهى المسارعة وغايتُها.

والموصول فاعلُ «يحزنك»، وليست الصلة علةً لعدم الحزن كما هو المعهود في مثله؛ لأنَّ الحزنَ من الوقوع في الكفر هو الأمر اللائق؛ لأنه قبيحٌ عند الله تعالى يجب أن يحزن من مشاهدته، فلا يصحُّ النهيُ عن الحزن من ذلك، بل العلة هنا ما يترتب على تلك المسارعة من مراغمة المؤمنين، وإيصال المضرَّة إليهم، إلا أنه عَبَّر بذلك مبالغةً في النهي، والمراد: لا يحزنك خوفُ أن يضرُّوك ويُعينوا عليك، ويدلُّ على ذلك إيلاءُ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ ردًّا وإنكاراً لِظَنِّ الخوف، والكلام على حذف مضاف، والمراد: أولياء الله مثلاً؛ للقرينة العقلية عليه، وفي حذف ذلك وتعليقِ نفي الضرر به تعالى تشريفٌ للمؤمنين، وإيذانٌ بأنَّ مضارَّتهم بمنزلة مضارَّته سبحانه وتعالى، وفي ذلك مزيدُ مبالغةٍ في التسلية.

و«شيئاً» في موضع المصدر، أي: لن يضرُّوه ضرراً ما، وقيل: مفعولٌ بواسطة حرف الجرِّ، أي: لن يضرُّوه بشيءٍ ما أصلاً. وتأويل «يضرُّوا» بما يتعدَّى بنفسه إلى مفعولين مما لا داعي إليه، ولعلَّ المقام يدعو إلى خلافه.

وقرأ نافع: «يُحزِن» بضم الياء وكسر الزاي في جميع القرآن، إلا قوله تعالى:

---

(١) قوله: على ما، ليس في (م).
(٢) في الأصل: بالكفر.

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] فإنه فَتَحَها وضمَّ الزاي، وقرأ الباقون كما قرأ نافع في المستثنى، وقرأ أبو جعفر عكس ما قرأ نافع[١].

والماضي على قراءة الفتح حَزَنَ، وعلى قراءة الضم من أَحْزَن، ومعناهما واحد، إلا أنَّ أحزن[٢] لغة قليلة[٣]. وقيل: حَزَنْتُهُ بمعنى أحدثتُ له حُزْناً، وأَحْزَنْتُهُ بمعنى عرَّضتُه للحُزْن، وقال الخليل: حَزَنْتُهُ بمعنى جعلتُ فيه حُزْناً، كَدَهَنْتُهُ بمعنى جعلتُ فيه دهناً، وأَحْزَنْتُهُ بمعنى جعلته حزيناً.

وقرئ: «يُسْرِعون» بغير ألف من أسرع[٤]، و«يسارعون» بالإمالة والتفخيم[٥].

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ استئنافٌ لبيان الموجب لمسارعتهم، كأنه قيل: لِمَ يسارعون في الكفر مع أنهم لا ينتفعون به؟ فأجيب بأنه تعالى يريد أنْ لا يجعل لهم نصيباً ما من الثواب في الآخرة، فهو يريد ذلك منهم، فكيف لا يُسارعون. وفيه دليلٌ على أنَّ الكفر بإرادة الله تعالى، وإنْ عاقب فاعلَه وذمَّه؛ لأنَّ ذلك لسوء استعداده المقتضي إفاضةَ ذلك عليه.

وذكر بعض المحققين[٦] أنَّ في ذكر الإرادة إيذاناً بكمال خُلوص الداعي إلى حرمانهم وتعذيبهم، حيث تعلَّقت بهما إرادة أرحم الراحمين.

وزعم بعضهم أنه مبنيٌّ على مذهب الاعتزال، وليس كذلك كما لا يخفى؛ لأنه لم يقل: لم يُرِدْ كفرَهم، ولا رَمَزَ إليه.

وصيغةُ المضارع للدلالة على دوام الإرادة واستمرارِها، ويرجع إلى دوام واستمرار منشأ هذا المراد، وهو الكفر، ففيه إشارةٌ إلى بقائهم على الكفر حتى يهلكوا فيه.

---

(١) التيسير ص ٩١-٩٢، والنشر ٢/ ٢٤٤.

(٢) في الأصل و(م): حزن. والمثبت هو الصواب، ينظر إعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٩، والإملاء للعكبري ٢/ ١٥٥، والدر المصون ٣/ ٤٩٥.

(٣) قال السمين في الدر ٣/ ٤٩٥: والحق أن حزنه وأحزنه لغتان فاشيتان لثبوتهما متواترتين.

(٤) نسبها ابن جني في المحتسب ١/ ١٧٧ في كل القرآن للحر النحوي، وهو: ابن عبد الرحمن، سمع أبا الأسود الدؤلي، وعنه طلب القرآن. بغية الوعاة ١/ ٤٩٣.

(٥) قرأ بالإمالة في «ويسارعون» الكسائي في رواية الدوري. التيسير ص٤٩، والنشر ٢/ ٣٨.

(٦) هو الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٨٢.

﴿وَلَهُمْ﴾ مع هذا الحرمان من الثواب بالكلية ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ لا يُقْدَر قَدْرُهُ، نُقل عن بعضهم أنه لما دلَّت المسارعة في الشيء على عِظَم شأنه وجلالة قَدْره عند المسارع، وُصِفَ عذابُهُ بالعِظَم رعايةً للمناسبة، وتنبيهاً على حقارة ما سارعوا فيه، وخساسته في نفسه.

وقيل: إنه لما دلَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ على عِظَم قَدْرِ مَن قصدوا إضراره، وصَفَ العذابَ بالعِظَم إيذاناً بأنَّ قَصْدَ إضرار العظيم أمرٌ عظيم يترتَّب عليه العذاب العظيم.

والجملة إما حالٌ من الضمير في «لهم»، أي: يريد الله تعالى حرمانهم من الثواب مُعَدّاً لهم عذابٌ عظيمٌ، وإما مبتدأة مبيِّنة لحظِّهم من العذاب إثرَ بيان أنْ لا شيء لهم من الثواب.

وزعم بعضُهم أنَّ هاتين الجملتين في موضع التعليل للنهي السابق، وأنَّ المعنى: ولا يحزنك أنهم يسارعون في إعلاء الكفر وهدم الإسلام، لا خوفاً على الإسلام ولا ترحُّماً عليهم، أما الأول فلأنهم لن يضرُّوا الله شيئاً، فلا يقدرون على هدم دينه الذي يريد إعلاءه، وحينئذ لا حاجةَ إلى إرادة أولياء الله، وأما الثاني فلأنه يريد الله أن لا يجعل لهم حظًّا في الآخرة، ولهم عذاب عظيم.

واستَأنس له بأنه كثيراً ما وقع نهيُ النبيِّ ﷺ عن إيقاعه نفسَه الكريمةَ في المشقة لهدايتهم وعن كونه ضَيِّقَ الصَّدر لكفرهم، وخوطب بأنه ما عليك إلا البلاغ و﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢٢]. ولا يخلو عن بُعْد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: أخذوا الكفر بدلاً من الإيمان رغبةً فيما أخذوا، وإعراضاً عمَّا تركوا، ولهذا وضع «اشتروا» موضع «بدَّلوا» فإنَّ الأول أظهرُ في الرغبة وأدلُّ على سوء الاختيار.

وقوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ تقدَّم الكلام فيه، وفيه هنا تعريضٌ ظاهرٌ باقتصار الضرر عليهم، كأنه قيل: وإنما يضرُّون أنفسهم.

والمراد من الموصول هنا ما أريد منه هناك، والتكرير لتقرير الحكم وتأكيده ببيان علَّته بتغيير عنوان الموضوع، فإنَّ ما ذُكر في حَيِّز الصلة لكونه عَلَماً في

الخسران الكلِّي والحرمان الأبدي، صريحٌ في لحوق ضرره بأنفسهم، وعدم تعدِّيه إلى غيرهم أصلاً، ودالٌّ على كمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم، فكيف يتأتَّى منهم ما يتوقَّف على قوة الحزم ورزانةِ الرأي ورصانةِ التدبير، من مُضارَّة أولياء الله تعالى الذين تكفَّل سبحانه لهم بالنصر، وهي أعزُّ من حَليمة[1]، وأمنعُ من لهاة الليث[2].

وجُوِّز أن يُراد بالموصول هنا عام، ويراد به هناك خاصٌّ، وهو ما عدا ما ذهب إليه الحسن فيه، والجملة مقرِّرةٌ لمضمون ما قبلها تقرير القواعد الكلية لِمَا انْدَرَج تحتها من جزئيات الأحكام.

وجَوَّز الزمخشريُّ[3] أن يكون الأول عامًّا للكفار، وهذا خاصًّا بالمنافقين. وأُفردوا بالذكر لأنهم أَشدُّ منهم في الضرر والكيد.

واعتُرض بأنَّ إرادة العامِّ هناك مما لا يليق بفخامة شأن التنزيل، لِمَا أنَّ صدور المسارعة في الكفر بالمعنى المذكور، وكونَها مظنَّةً لإيراث الحزن لرسول الله ﷺ كما يُفْهَمُ من النهي عنه، إنما يُتَصوَّر ممَّن عَلِمَ اتِّصافه بها، وأما مَن لا يُعرف حاله من الكفرة الكائنين في الأماكن البعيدة، فإسناد المسارعة المذكورة إليهم، واعتبارُ كونها من مبادي حزنه عليه الصلاة والسلام، مما لا وجهَ له.

ويمكن أن يقال: إنَّ القائل بالعموم في الأول لم يُرِد بالكفار مقابلَ المؤمنين حيث كانوا، وعلى أيِّ حالٍ وُجدوا، بل ما يشمل المتخلِّفين والمرتدِّين مثلاً ممن يتوقع إضرارهم له ﷺ، وحينئذٍ لا يَرِدُ هذا الاعتراض.

وقيل: المراد من الأول المنافقون أو مَن ارتدَّ، وممَّا هنا اليهود.

والمراد من الإيمان إما الإيمانُ الحاصل بالفعل كما هو حال المرتدِّين، أو بالقوة القريبة منه الحاصلةِ بمشاهدة دلائله في التوراة، كما هو شأن اليهود مثلاً،

---

(١) هي بنت الحارث بن أبي شمر الغساني الأعرج ملك عرب الشام، والمثل في المستقصى ١/ ٢٤٦، ومجمع الأمثال ٢/ ٤٥.

(٢) هذا المثل مأخوذ من بيت لأبي حية النميري كما في مجمع الأمثال ٢/ ٣٢٥، وهو قوله:

وأصبحتْ كلهاة الليث من فمه ومَن يحاول شيئاً من فم الأسد

(٣) في الكشاف ١/ ٤٨٢، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٣/ ٨٣.

وإما الإيمان الإستعداديُّ الحاصل بمشاهدة الوحي الناطق، والدلائلِ المنصوبة في الآفاق والأنفس كما هو دأب جميع الكفرة مما عدا ذلك، وإما القَدْرُ المشترك بين الجميع، كما هو دأب الجميع، فتفطَّن.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٧﴾ أي: مؤلم، والجملةُ مبتدأةٌ، مبيِّنةٌ لكمال فظاعة عذابهم بذكر غايةِ إيلامِه بعد ذكر نهاية عِظَمِه، أو مقرِّرةٌ للضَّرر الذي آذنتْ به الجملة الأولى، قيل: لمَّا جرت العادة باغتباط المشتري بما اشتراه، وسروره بتحصيله عند كون الصفقة رابحة، وبتألُّمه عند كونها خاسرة، وَصَفَ عذابهم بالإيلام مراعاةً لذلك، نقله مولانا شيخ الإسلام[1].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ﴾ والفعل مُسْنَدٌ إلى الموصول، و«أنَّ» وما عملت فيه سادٌّ مسدَّ مفعوليه عند سيبويه لحصول المقصود، وهو تعلُّقُ أفعال القلوب بنسبةٍ بين المبتدأ والخبر، وعند الأخفش: المفعولُ الثاني محذوفٌ.

و«ما» إما مصدريةٌ، أو موصولةٌ، وكان حقُّها في الوجهين أن تُكتَب مفصولةً، لكنها كتبت في الإمام[2] موصولة، واتِّباع الإمام لازمٌ، ولعلَّ وجهَه مشاكلةُ ما بعده، والحملُ على الأكثر فيها.

و«خير» خبرٌ، وقرئ: «خيراً» بالنصب[3] على أن يكون «لأنفسهم» هو الخبر، و«لهم» تبيينٌ، أو حالٌ من «خير».

والإملاء في الأصل: إطالةُ المدة، والمليُّ: الحين الطويل، ومنه المَلَوَان لِلَّيلِ والنهارِ لطول تعاقُبِهما، وأما إملاء الكتاب فَسُمِّي بذلك لطول المدة بالوقوف عند كلِّ كلمة.

وقيل: الإملاء التخلية والشأن، يقال: أَمْلَى لفرسه، إذا أرخى له الطِّوَل[4] ليرعى كيف شاء.

---

(١) أبو السعود في تفسيره ٢/ ١١٧.

(٢) هو المصحف العثماني في اصطلاح القراء والمفسرين. حاشية الشهاب ٣/ ٨٤.

(٣) الإملاء للعكبري ٢/ ١٥٦، والبحر ٣/ ١٢٣.

(٤) الطِّوَل: هو الحبل الذي يُطوَّل للدابة فترعى فيه. الصحاح (طول).

وحاصل التركيب: لا يحسبنَّ الكافرون أنَّ إملاءنا لهم ـ أو أنَّ الذي نُمليه ـ خيرٌ لأنفسهم، أو: لا يحسبنَّ الكافرون خيريَّةَ إملائنا لهم ـ أو خيريَّةَ الذي نمليه لهم- ثابتةً أو واقعة، ومآل ذلك نهيُهم عن السرور بظاهر إطالة الله تعالى أعمارَهم، وإمهالهم على ما هم فيه، أو بتخليتهم وشأنهم بناءً على حسبان خيريَّته لهم، وتحسيرُهم ببيان أنه شرٌّ بحتٌ وضررٌ محضٌ.

وقرأ حمزة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاء[1]، والخطابُ إمَّا لرسول الله ﷺ، وهو الأنسب بمقام التسلية، إلا أنَّ المقصودَ التعريضُ بهم؛ إذ حسبوا ما ذكر، وإما لكلِّ مَن يتأتَّى منه الحسبان قصداً إلى إشاعة فظاعة حالهم، والموصول مفعول، و«أنَّ ما نملي» إلخ بدلُ اشتمال منه، وحيث كان المقصود بالذات هو البدل، وكان هنا مما يسدُّ مسدَّ المفعولين، جاز الاقتصار على مفعولٍ واحد، وإلا فالاقتصار لولا ذلك غيرُ صحيح على الصحيح. ويجوز أن يكون «أنَّما نُملي» مفعولاً ثانياً، إلا أنه لكونه في تأويل المصدر لا يصحُّ حملُه على الذوات، فلابدَّ من تقديرٍ: إما في الأول، أي: لا تحسبنَّ حالَ الذين كفروا وشأنهم، وإما في الثاني، أي: لا تحسبنَّ الذين كفروا أصحابَ أنما نملي لهم، إلخ.

وإنما قيَّد الخير بقوله تعالى: ﴿لِّأَنفُسِهِمْ﴾ لأنَّ الإملاءَ خيرٌ للمؤمنين، لما فيه من الفوائد الجمَّة، ومَنْ جَعَلَ خيراً فيما نحن فيه أَفْعَلَ تفضيل، وجعل المفضَّل عليه القتلَ في سبيلِ الله تعالى، جعل التفضيل مبنيًّا على اعتبار الزعم والمماشاة.

والآية نزلت في مشركي مكة، وهو المرويُّ عن مقاتل، أو في قريظة والنضير، وهو المرويُّ عن عطاء.

﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا﴾ استئنافٌ بما هو العلة للحكم قبلها، والقائلون بأنَّ الخير والشَّرَّ بإرادته تعالى يُجوِّزون التعليل بمثل هذا، إما لأنه غرضٌ، وإما لأنه مُرادٌ مع الفعل، فيُشْبِهُ العلةَ عند مَن لم يجوِّز تعليل أفعاله بالأغراض.

وأما المعتزلة فإنهم وإن قالوا بتعليلها، لكنَّ القبيح ليس مراداً له تعالى عندهم ومطلوباً وغرضاً، ولهذا جعلوا ازدياد الإثم هنا باعثاً، نحو: قعدتُ عن الحرب

(١) التيسير ص ٩٢، والنشر ٢/ ٢٤٤.

جُبْناً، لا غَرَضاً يُقْصَدُ حصوله، ولمَّا لم يكن الازدياد متقدِّماً على الإملاء هنا، والباعث لابدَّ أن يكون متقدِّماً، جعلوه استعارةً بناءً على أنَّ سَبْقَه في علم الله تعالى القديم الذي لا يجوز تخلُّف المعلوم عنه شبَّهه بتقدُّم الباعث في الخارج. ولا يخفى تعسُّفُه، ولذا قيل: إنَّ الأسهل القولُ بأنَّ اللام للعاقبة.

واعترض بأنه وإن كان أقلَّ تكلفاً إلا أنَّ القول بها غيرُ صحيح؛ لأنَّ هذه الجملة تعليلٌ لما قبلها، فلو كان الإملاء لغرضٍ صحيح يترتَّبُ عليه هذا الأمر الفاسد القبيح، لم يصحَّ ذلك، ولم يصلح هذا تعليلاً لنهيهم عن حسبان الإملاء لهم خيراً، فتأمل، قاله بعض المحققين.

وقرأ يحيى بن وثاب بفتح «أنَّما» هذه وكَسْرِ الأولى، وبياء الغيبة في «يحسبنَّ»[(١)] على أنَّ «الذين كفروا» فاعلُ «يحسبن»، و«أنَّ ما نُملي لهم ليزدادوا إثماً» قائمٌ مقام مفعولي الحسبان، والمعنى: ولا يحسبنَّ الذين كفروا أنَّ إملاءنا لهم لازدياد الإثم بل للتوبة والدخول في الإيمان، وتدارُكِ ما فات، و«إنَّ ما نملي لهم خير لأنفسهم» اعتراضٌ بين الفعل ومعموله، ومعناه: إنَّ إملاءنا خيرٌ لهم إن انتبهوا وتابوا.

والفرق بين القراءتين: أنَّ الإملاء على هذه القراءة لإرادة التوبة، والإملاء للازدياد منفي، وعلى القراءة الأخرى هو مُثبَت، والآخر منفيٌّ ضمناً، ولا تعارُضَ بينهما؛ لأنه عند أهل السنَّة يجوز إرادةُ كلٍّ منهما، ولا يلزم تخلُّف المراد عن الإرادة؛ لأنه مشروطٌ بشروطٍ كما علمت.

وزعم بعضهم أنَّ جملة «إنَّ ما نملي لهم خير» إلخ حاليةٌ، أي: لا يحسبنَّ في هذه الحالة هذا، وهذه الحالة منافية له، وليس بشيء.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ جملةٌ مبتدأةٌ مبيِّنةٌ لحالهم في الآخرة إثر بيان حالهم في الدنيا، أو حالٌ من الواو، أي: ليزدادوا إثماً مُعَدًّا لهم عذابٌ مهين، وهذا متعيِّنٌ في القراءة الأخيرة كما ذهب إليه غيرُ واحد من المحققين، ليكون مضمونُ ذلك داخلاً في حيِّز النهي عن الحسبان بمنزلة أن يقال: ليزدادوا إثماً وليكون لهم عذابٌ.

---

(١) القراءات الشاذة ص ٢٣.

وجَعَلَها بعضُهم معطوفةً على جملة «ليزدادوا»، بأن يكون «عذاب مهين» فاعلَ الظرف بتقدير: ويكون لهم عذاب مهين، وهو من الضَّعف بمكان. نعم قيل بجوازً كونها اعتراضيةً، وله وجهٌ في الجملة.

هذا وإنما وُصِفَ عذابُهم بالإهانة؛ لأنه[1] لمَّا تضمَّن الإملاءُ التمتُّعَ بطيبات الدنيا وزينتها، وذلك مما يستدعي التعزُّزَ والتجبُّر، وَصَفَهُ به ليكون جزاؤهم جزاءً وفاقاً. قاله شيخ الإسلام[2].

ويمكن أن يقال: إن ذلك إشارةٌ إلى ردِّ ما يمكن أن يكون منشأً لحسابهم، وهو أنهم أَعزَّةٌ لديه عزَّ وجلَّ إثر الإشارة إلى ردِّه بنوعٍ آخر.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لوعد المؤمنين ووعيدِ المنافقين بالعقوبة الدنيوية، وهي الفضيحةُ والخزي، إثر بيان عقوبتهم الأخروية، وقدَّم بيانَ ذلك لأنه أَمَسُّ بالإملاء لازدياد الآثام، وفي هذا الوعد والوعيد أيضاً ما لا يخفى من التسلية له ﷺ كما في الكلام السابق.

وقيل: الآيةُ مسوقةٌ لبيان الحكمة في إملائه تعالى للكفرة إثرَ بيان شَرِّيَّته لهم، ولا يخفى أنه بعيدٌ فضلاً عن كونه أقرب.

والمراد من المؤمنين: المخلصون، والخطابُ على ما يقتضيه الذوق لعامَّة المخلصين والمنافقين، ففيه التفاتٌ في ضمن التلوين، والمراد بما هم عليه: اختلاطُ بعضهم ببعض، واستواؤهم في إجراء أحكام الإسلام عليهم، وإلى هذا جنح المحققون من أهل التفسير.

وقال أكثرهم: إنَّ الخطاب للمنافقين ليس إلا[3]، ففيه تلوينٌ فقط.

وذهب أكثر أهل المعاني إلى أنه للمؤمنين خاصة، ففيه تلوينٌ والتفاتٌ أيضاً.

---

(١) بعدها في (م): كما قال: شيخ الإسلام.

(٢) أبو السعود في تفسيره ٢/ ١١٨.

(٣) في الأصل: الخطاب ليس إلا للمنافقين.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عليٍّ عن ابن عباس، وابنُ جرير وغيرُه عن قتادة أنه للكفار[١]. ولعل المراد بهم المنافقون، وإلا فهو بعيدٌ جداً.

واللام في «ليَذَر» متعلقةٌ بمحذوف هو الخبر لـ «كان»، والفعل منصوبٌ بأنْ مضمرةٍ بعدها كما ذهب إليه البصريون، أي: ما كان الله مريداً لأن يَذَرَ المؤمنين إلخ.

وقال الكوفيون: اللام مزيدةٌ للتأكيد وناصبةٌ للفعل بنفسها، والخبر هو الفعل، ولا يقدحُ في عملها زيادتُها، إذ الزائد قد يعمل كما في حروف الجر المزيدة، فلا ضَعْف في مذهبهم من هذه الحيثية كما وُهِم.

وأصل يذر: يَوْذَر فحذفت الواو منها تشبيهاً لها بـ «يَدَع»، وليس لحذفها علةٌ هناك؛ إذ لم تقع بين ياء وكسرة، ولا ما هو في تقدير الكسرة، بخلاف يَدَع، فإنَّ الأصل: يَوْدِع، فحذفت الواو لوقوعها بين الياء وما هو في تقدير الكسرة، وإنما فتحت الدال؛ لأنَّ لامه حرفٌ حلقي، فيُفتح له ما قبله، ومثله: يَسَع ويَطَأ ويَقَع. ولم يستعملوا من «يذر» ماضياً ولا مصدراً ولا اسم فاعل مثلاً، استغناءً بتصرُّف مرادفه وهو «يترك».

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ غايةٌ لِمَا يُفهمه النفي السابق، كأنه قيل: ما يتركهم على ذلك الاختلاف، بل يُقدِّر الأمور ويرتِّب الأسباب حتى يعزل المنافق من المؤمن، وليس غايةً للكلام السابق نفسه؛ إذ يصير المعنى أنه تعالى لا يترك المؤمنين على ما أنتم عليه إلى هذه الغاية، ويُفهَمُ منه - كما قال السَّمين[٢] - أنه إذا وُجدت الغايةُ تَرَكَ المؤمنين على ما أنتم عليه، وليس المعنى على ذلك.

وعَبَّر عن المؤمن والمنافق بالطيب والخبيث، تسجيلاً على كلٍّ منهما بما يليق به، وإشعاراً بعلَّة الحكم، وأفرد الخبيثَ والطيبَ مع تعدُّد ما أُريد بكلٍّ إيذاناً بأنَّ

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٢٦٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٨٢٤، وأخرجه ابن أبي حاتم أيضاً عن قتادة، وعلي هو ابن أبي طلحة.

(٢) في الدر المصون ٣/ ٥٠٨.

مدار إفراز أحد الفريقين من الآخر هو اتِّصافهما بوصفهما، لا خصوصيةُ ذاتهما وتعدُّدُ آحادهما، وتعليقُ المَيْز بالخبيث ـ مع أنَّ المتبادر مما سبق من عدم ترك المؤمنين على الاختلاط تعليقُه بهم وإفرازهم عن المنافقين ـ لِمَا أنَّ المَيْزَ الواقعَ بين الفريقين إنما هو بالتصرُّف في المنافقين، وتغييرِهم من حالٍ إلى حال أخرى، مع بقاء المؤمنين على ما كانوا عليه من أصل الإيمان، وإن ظهر مزيدُ إخلاصهم، لا بالتصرُّف فيهم وتغييرهم من حال إلى حال مع بقاء المنافقين على ما هم عليه من الاستتار، وإنما لم يُنسب عدم الترك إليهم لِمَا أنه مشعرٌ بالاعتناء بشأن مَن نُسب إليه، فإنَّ المتبادر منه عدمُ الترك على حالةٍ غير ملائمة، كما يشهد به الذوق السليم. قاله بعض المحققين[1].

وقيل: إنما قدَّم الخبيث على الطيب وعلَّق به فعل المَيْز إشعاراً بمزيد رداءة ذلك الجنس، فإنَّ المُلقَى من الشيئين هو الأَدْوَنُ.

وقرأ حمزة والكسائيُّ: «يُميِّز» بالتشديد[2]، وماضيه ميَّز، وماضي المخفَّف ماز، وهما كما قال غير واحد: لغتان بمعنًى واحد، وليس التضعيفُ لتعدِّي الفعل كما في فَرِحَ وفرَّحَ؛ لأنَّ ماز وميَّز يتعدَّيان إلى مفعول واحد، ونظير ذلك عاض وعوَّض.

وعن ابن كثير أنه قرأ: «يُميز» بضم أوله مع التخفيف[3] على أنه من أَمَازَ، بمعنى: مَيَّزَ.

واختلف بمَ يحصل هذا المَيْز؟ فقيل: بالمِحَنِ والمصائب كما وقع يوم أحد. وقيل: بإعلاء كلمة الدين وكسر شوكة المخالفين.

وقيل: بالوحي إلى النبي ﷺ، ولهذا أردفه سبحانه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ومن هنا جعل مولانا شيخ الإسلام ما قبل الاستدراك تمهيداً لبيان المَيْز الموعود به على طريق تجريد الخطاب

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٢/ ١١٩.

(٢) التيسير ص ٩٢، والنشر ٢/ ٢٤٤، وهي قراءة يعقوب وخلف من العشرة.

(٣) القراءات الشاذة ص ٢٣، والكشاف ١/ ٤٨٣.

للمخلصين تشريفاً لهم، والاستدراك إشارة إلى كيفية وقوعه على سبيل الإجمال، وأنَّ المعنى: ما كان الله ليتركَ المخلصين على الاختلاط بالمنافقين، بل يرتِّب المبادئ حتى يُخرج المنافقين من بينهم، وما يفعل ذلك بإطلاعكم على ما في قلوبهم من الكفر والنفاق، ولكنه تعالى يوحي إلى رسوله ﷺ فيخبره بذلك، وبما ظهر منهم من الأقوال والأفعال حَسْبما حَكَى عنهم بعضَه فيما سلف، فيفضحهم على رؤوس الأشهاد، ويخلِّصكم مما تكرهون.

وذَكَر أنه قد جُوِّز أن يكون المعنى: لا يترككم مختلطين حتى يميز الخبيث من الطيب، بأنْ يكلِّفكم التكاليفَ الصعبة التي لا يصبر عليها إلا الخُلَّص الذين امتحن الله تعالى قلوبهم؛ كبذل الأرواح في الجهاد، وإنفاقِ الأموال في سبيل الله تعالى، فيجعل ذلك عياراً على عقائدكم وشاهداً بضمائركم، حتى يعلم بعضكم بما في قلب بعض بطريق الاستدلال، لا من جهة الوقوف على ذات الصدور، فإنَّ ذلك مما استأثر الله تعالى به.

وتعقَّبه بأنَّ الاستدراك باجتباء الرسل المُنْبِئ عن مزيد مزيَّتهم وفَضْلِ معرفتهم على الخلق، إثر بيان قصور رتبتهم عن الوقوف على خفايا السرائر، صريحٌ في أنَّ المراد إظهارُ تلك السرائر بطريق الوحي، لا بطريق التكليف بما يؤدِّي إلى خروج أسرارهم عن رتبة الخفاء[1].

وأنت تعلم أنَّ دعوى أنَّ الاستدراك صريحٌ فيما ادَّعاه من المراد، مما لا يكاد يُثبته الدليل، ولهذا قيل: إنَّ حاصل المعنى: ليس لكم رتبةُ الاطِّلاع على الغيب، وإنما لكم رتبةُ العلم الاستدلاليِّ الحاصل من نَصْبِ العلامات والأدلة، والله تعالى سيمنحكم بذلك، فلا تطمعوا في غيره، فإنَّ رتبةَ الاطِّلاع على الغيب لمن شاء من رسله، وأين أنتم من أولئك المصطفين الأخيار؟

نعم ما ذكره هذا المولى أَظْهَرُ وأَوْلَى، وقد سبقه إليه أبو حيان[2].

والمراد من قوله سبحانه: ﴿لِيُطْلِعَكُمْ﴾ إما: ليؤتي أحدَكم علمَ الغيب، فيطَّلع

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/ ١١٩-١٢٠.
(٢) في البحر ٣/ ١٢٦.

على ما في القلوب، أو: ليُطلع جميعكم، أي أنه تعالى لا يُطْلِعُ جميعَكم على ذلك، بل يختصُّ به مَن أراد.

وأُيِّد الأول بأنَّ سببَ النزول أكثرُ ملاءمةً له، فقد أخرج ابن جرير[1] عن السُّدِّي أنَّ الكَفَرة قالوا: إن كان محمدٌ صادقاً، فليخبرنا مَن يؤمن منَّا ومَن يكفر، فنزلت.

ونقل الواحديُّ[2] عن السُّدِّيِّ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «عُرضتْ عليَّ أمتي في صُورها، كما عُرضتْ على آدم، وأُعلِمتُ مَنْ يؤمنُ بي ومن يكفر». فبلغ ذلك المنافقين فاستهزؤوا وقالوا: يزعمُ محمدٌ أنه يعلمُ مَنْ يؤمن به ومَنْ يكفر، ونحن معه ولا يعرفنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال الكلبيُّ: قالت قريش: تزعم يا محمد أنَّ مَنْ خالفَكَ فهو في النار، والله تعالى عليه غضبان، وأنَّ من اتَّبعك على دينك فهو من أهل الجنة، والله تعالى عنه راضٍ، فأخبرنا بمن يؤمن بك ومَن لا يؤمن، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وأُيِّد الثاني: بأنَّ ظاهرَ السَّوقِ يقتضيه، قيل: والحقُّ اتِّباع السَّوق، ويكفي أدنى مناسبةٍ بالقصَّة في كونها سبباً للنزول، على أنَّ في سند هذه الآثار مقالاً، حتى قال بعض الحفَّاظ في بعضها: إنِّي لم أقف عليه[3]. وقد روي عن أبي العالية ما يخالفها، وهو أنَّ المؤمنين سألوا[4] أن يُعطَوا علامةً يُفرِّقون بها بين المؤمن والمنافق. فنزلت.

والاجتباء: الاستخلاص كما روي عن أبي مالك، ويَؤُولُ إلى الاصطفاء والاختيار، وهو المشهور في تفسيره، ويقال: جَبَوْتُ المال وجَبَيْتُه، بالواو والياء، فياءُ يجتبي هنا؛ إما على أصلها، أو منقلبة عن[5] واوٍ لانكسار ما قبلها، وعبَّر به

---

(١) في تفسيره ٦/ ٢٦٤.

(٢) في أسباب النزول ص ١٢٧.

(٣) هو السيوطي كما في حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٣/ ٨٥.

(٤) في الأصل و(م): سئلوا، والمثبت من أسباب النزول للواحدي ص ١٢٧، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٣٤.

(٥) في (م): من.

للإيذان بأنَّ الوقوف على الأسرار الغيبية لا يتأتَّى إلا ممن رشَّحه الله تعالى لمنصبٍ جليلٍ تقاصَرَتْ عنه همم الأمم، واصطفاه على الجماهير لإرشادهم.

و«من» لابتداء الغاية، وتعميمُ الاجتباء لسائر الرسل عليهم السلام للدلالة على أنَّ شأنه عليه الصلاة والسلام في هذا الباب أَمْرٌ مبيَّن[1] له أصلٌ جارٍ على سنَّة الله تعالى المسلوكة فيما بين الرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم.

وقيل: إنها للتبعيض، فإنَّ الاطِّلاع على المغيَّبات مختصٌّ ببعض الرسل، وفي بعض الأوقات، حَسْبَما تقتضيه مشيئته تعالى، ولا يخفى أنَّ كونَ ذلك في بعض الأوقات مُسَلَّمٌ، وأما كونه مختصًّا ببعض الرسل ففي القلب منه شيء، ولعلَّ الصوابَ خلافُهُ. ولا يُشْكِلُ على هذا أنَّ الله تعالى قد يُطْلِعُ على الغيب بعضَ أهل الكشف ذوي الأنفس القدسية؛ لأنَّ ذلك بطريق الوراثة، لا استقلالاً، وهم يقولون: إنَّ المختصَّ بالرسل عليهم السلام هو الثاني، على أنه إذا كان المراد ما أَيَّده السَّوق بَعُدَ هذا الاستشكال.

وإظهار الاسم الجليل في الموضعين لتربية المهابة، ومثلُه على ما قيل ما في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ والمراد: آمنوا بصفة الإخلاص، فلا يضرُّ كونُ الخطاب عامًّا للمنافقين، وهم مؤمنون ظاهراً.

وتعميم الأمر مع أنَّ سَوْقَ النَّظم الكريم للإيمان بالنبيِّ ﷺ؛ لإيجاب الإيمان به بالطريق البرهاني، والإشعارِ بأنَّ ذلك مستلزمٌ للإيمان بالكلِّ؛ لأنه ﷺ مصدِّقٌ لما بين يديه من الرسل، وهم شهداءُ بصحَّة نبوَّته، والمأمور به الإيمان بكلِّ ما جاء به عليه الصلاة والسلام، فيدخل فيه تصديقُه فيما أَخبر به من أحوال المنافقين دخولاً أوليًّا.

وقد يقال: إنَّ المراد من الإيمان بالله تعالى أن يعلَموه وحده مُطَّلِعاً على الغيب، ومن الإيمان برسله أن يَعلَموهم عباداً مُجْتَبيْنَ، لا يعلمون إلا ما علَّمهم الله تعالى، ولا يقولون إلا ما يوحى إليهم في أمر الشرائع.

---

(١) في تفسير أبي السعود ٢/ ١١٩ (والكلام منه): متين.

وكونُ المرادِ من الإيمان بالله تعالى: الإيمانَ بأنه سبحانه وتعالى لا يترك المخلَصين على الاختلاط حتى يَميز الخبيث من الطيب بنصب العلامات وتحصيل العلم الاستدلالي بمعرفة المؤمن والمنافق، ومن الإيمان برسله: الإيمان بأنهم المترشِّحون للاطِّلاع على الغيب لا غيرهم، بعيدٌ كما لا يخفى.

﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ﴾ أي: بالله تعالى ورسله حقَّ الإيمان ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ المخالفةَ في الأمر والنهي، أو تتقوا النفاق ﴿فَلَكُمْ﴾ بمقابلة ذلك فضلاً من الله تعالى ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ لا يُكْتَنَهُ ولا يُحَدُّ في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ بيانٌ لحال البخل وسوء عاقبته، وتخطئةٌ لأهله في دعواهم خيريَّته حَسْبَ بيان حال الإملاء، وبهذا ترتبط الآية بما قبلها.

وقيل: وجهُ الارتباط، أنه تعالى لمَّا بالغ في التحريض على بذل الأرواح في الجهاد وغيره، شَرَعَ هاهنا في التحريض على بذل المال، وبيَّن الوعيد الشديد لمن يبخل.

وإيرادُ ما بخلوا به بعنوان إيتاء الله تعالى إياه من فضله، للمبالغة في بيان سوء صنيعهم، فإنَّ ذلك من موجبات بذله في سبيله سبحانه.

وفِعْلُ الحسبان مُسْنَدٌ إلى الموصول، والمفعول الأول محذوف لدلالة الصلة عليه.

واعتُرِض بأنَّ المفعول في هذا الباب مطلوبٌ من جهتين: من جهة العامل فيه، ومن جهة كونه أحدَ جزأي الجملة، فلما تكرَّر طلبُهُ، امتنع حذفه. ونُقِض ذلك بخبر «كان» فإنه مطلوبٌ من جهتين أيضاً، ولا خلاف في جواز حذفه إذا دلَّ عليه دليل.

ونقل الطيبيُّ عن صاحب «الكشاف» أنَّ حذف أحد مفعولي «حسب» إنما يجوز إذا كان فاعلُ «حسب» ومفعولاه شيئاً واحداً في المعنى[1]؛ كقوله تعالى: «ولا يحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً» على القراءة بالياء التحتية، ثم قال: وهذه الآية ليست كذلك، فلابدَّ من التأويل بأن يقال: إن «الذين يبخلون» الفاعل

(١) الكشاف ٣/ ٧٤، عند تفسير الآية (٥٧) من سورة النور.

لمَّا اشتمل على البخل كان في حكم اتحاد الفاعل والمفعول، ولذلك حذف[١].

وقيل: إنَّ الزمخشريَّ كنى عن قوة القرينة بالاتحاد الذي ذكره. وكلا القولين ليسا بشيء، والصحيح أنَّ مدار صحة الحذف القرينةُ، فمتى وجدت جاز الحذف، ومتى لم توجد لم يجز.

والقول بأنَّ «هو» ضميرُ رفعٍ استُعير في مكان المنصوب، وهو راجعٌ إلى البخل أو الإيتاء على أنه مفعولٌ أول، تعسُّفٌ جدًّا لا يليق بالنَّظْم الكريم، وإن جوَّزه المولى عصام الدين تبعاً لأبي البقاء، حتى قال في «الدر المصون»: إنه غلط[٢]. والصحيح أنه ضمير فصلٍ بين مفعولي «حَسِبَ» لا توكيدٌ للمُظْهَر كما توهِّم.

وقيل: الفعل مسندٌ إلى ضمير النبيِّ ﷺ، أو ضميرِ مَن «يحسب»، والمفعول الأول هو الموصول بتقدير مضاف، أي: بُخْلَ الذين، والثاني: خيراً، كما في الوجه الأول. وهو خلاف الظاهر، نعم إنه متعيِّنٌ على قراءة الخطاب.

وعلى كلِّ تقدير يُقدَّر بين الباء ومجرورها مضافٌ، أي: لا يحسبنَّ ـ أو: لا تحسبنَّ ـ الذين يبخلون بإنفاقِ أو زكاةِ ما آتاهم الله من فضله هو صفةً حسنة، أو خيراً لهم من الإنفاق ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ﴾ عظيم ﴿لَهُمْ﴾ والتنصيصُ على ذلك مع علمه مما تقدم للمبالغة.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بيانٌ لكيفية شَرِّيَّته لهم، والسين مَزيدةٌ للتأكيد، والكلام عند الأكثرين محمول[٣] على ظاهره، فقد أخرج البخاريُّ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن آتاهُ اللهُ تعالى مالاً فَلَم يؤدِّ زكاتَه، مُثِّلَ له شجاعٌ أقرعُ له زبيبتان، يُطوِّقه يومَ القيامة، فيأخذ بِلِهْزِمَتَيه يقول: أنا مالُكَ، أنا كَنْزُكَ» ثم تلا هذه الآية[٤].

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٢) الدر المصون ٣/ ٥١١، وقول أبي البقاء في الإملاء ٢/ ١٦٠-١٦١.

(٣) في (م): إما محمول.

(٤) صحيح البخاري (١٤٠٣)، وهو عند أحمد (٨٦٦١). قال ابن حجر في فتح الباري ٣/ ٢٧٠: الشجاع: الحية الذكر، والأقرع: الذي تقرَّع رأسه أي تمعَّط لكثرة السم. وبلهزمتيه، أي: بشدقيه.

وأخرج غير واحد عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ما من ذي رَحِمٍ يأتي ذا رَحِمه، فيسأله من فَضْل ما أعطاه الله تعالى إياه، فيبخلُ عليه، إلا خَرج له يوم القيامة من جهنم شجاعٌ يتلمَّظ حتى يطوِّقه» ثم قرأ الآية[١].

وأخرج عبد الرزاق وغيره عن إبراهيم النخعي أنه قال: يُجعل ما بخلوا به طَوْقاً من نارٍ في أعناقهم[٢].

وذهب بعضهم إلى أنَّ الظاهر غيرُ مراد، والمعنى كما قال مجاهد: سيُكلَّفون أن يأتوا بمثل بما بخلوا به من أموالهم يوم القيامة، عقوبةً لهم، فلا يأتون.

وقال أبو مسلم: سيُلزمون وَبالَ ما بخلوا به إلزامَ الطَّوق، على أنه حُذفَ المضاف وأُقيم المضاف إليه مُقامه؛ للإيذان بكمال المناسبة بينهما، ومن أمثالهم: تقلَّدها طوقَ الحمامة[٣].

وكيفما كان فالآية نزلت في مانعي الزكاة كما روي ذلك عن الصادق وابن مسعود والشعبيِّ والسُّدِّيِّ وخلقٍ آخرين، وهو الظاهر.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس: أنها نزلت في أهل الكتاب الذين كتموا صفةَ رسول الله ﷺ ونبوَّته التي نطقت بها التوراة[٤]. فالمراد بالبخل: كتمانُ العلم، وبالفضل: التوراة التي أُوتوها، ومعنى «سيطوَّقون» ما قاله أبو مسلم، أو المراد أنهم يطوَّقون طوقاً من النار جزاءَ هذا الكتمان، فالآية حينئذٍ نظيرُ

(١) أخرجه الطبري ٦/ ٢٧١ من طريق أبي قزعة ـ واسمه سويد بن حجير ـ عن رجل عن النبي ﷺ. وأخرجه أيضاً من وجه آخر عن أبي قزعة عن أبي مالك العبدي موقوفاً، ثم أخرجه من وجه آخر عن أبي قزعة مرسلاً. قوله: يتلمظ، أي: يخرج لسانه، في القاموس (لمظ): تلمظت الحية: أخرجت لسانها.

(٢) تفسير عبد الرزاق ١/ ١٤١، وتفسير الطبري ٦/ ٢٧٥.

(٣) جمهرة الأمثال ١/ ٢٧٥، والمستقصى ٢/ ٣٠، ومجمع الأمثال ١/ ١٤٥-١٤٦. قال العسكري: يقال ذلك للرذيلة يأتيها الإنسان فيلزمه عارها. اهـ وجعل الزمخشري الهاء كناية عن النعمة، فقال: أي تقلَّد النعمة تقلُّداً لازماً باقياً.

(٤) تفسير الطبري ٦/ ٢٧٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٨٢٦.

قوله ﷺ: «مَن سُئِلَ عن عِلْمٍ فكتَمه، أُلجِمَ بلجامٍ من نار»(١) وعليه يكون هذا عوداً إلى ما انجرَّ منه الكلام إلى قصة أُحد، وذلك هو شرح أحوال أهل الكتاب، قيل: ويعضده أنَّ كثيراً من آياتٍ بقية السورة فيهم.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ أي: لله تعالى وحده لا لأحدٍ غيره، استقلالاً أو اشتراكاً، ما في السماوات والأرض مما يُتَوارث من مالٍ وغيره؛ كالأحوال التي تنتقل من واحد إلى آخر؛ كالرسالات التي يتوارثها أهل السماء مثلاً، فما لهؤلاء القوم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله وابتغاء مرضاته، فالميراث مصدرٌ كالميعاد، وأصله: مِوْراث، فقلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها، والمراد به ما يُتَوارث، والكلام جارٍ على حقيقته ولا مجاز فيه.

ويجوز أنه تعالى يَرِثُ من هؤلاء ما في أيديهم مما بخلوا به، وينتقل منهم إليه حين يهلكهم ويفنيهم، وتبقى الحسرةُ والندامة عليهم، ففي الكلام على هذا مجازٌ، قال الزجَّاج(٢): أي: أنَّ الله تعالى يفني أهلهما، فيبقيان(٣) بما فيهما، ليس لأحدٍ فيهما ملك، فخوطبوا بما يعلمون؛ لأنهم يجعلون ما يرجع إلى الإنسان ميراثاً ملكاً له.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المنع والبخل ﴿خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ فيجازيكم على ذلك، وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة، والالتفاتُ إلى الخطاب للمبالغة في الوعيد؛ لأنَّ تهديدَ العظيم بالمواجهة أشدُّ، وهي قراءة نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي، وقرأ الباقون بالياء على الغيبة(٤).

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم(٥) من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر رضي الله عنه

---

(١) أخرجه أحمد (٧٥٧١)، وأبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الترمذي: حديث حسن.

(٢) في معاني القرآن له ١/ ٤٩٣، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٣/ ٨٥.

(٣) في حاشية الشهاب: فيفنيان، وتحرفت العبارة في مطبوع معاني القرآن إلى: يغني أهلهما فيغنيان. . .

(٤) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب. التيسير ص ٩٢، والنشر ٢/ ٢٤٥.

(٥) سيرة ابن هشام ١/ ٥٥٨-٥٥٩، وتفسير الطبري ٦/ ٢٧٨-٢٧٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٨٢٨-٨٢٩. وأخرجه - أيضاً - الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٨٣٠).

بيت المِدراس[١]، فوجد يهودَ قد اجتمعوا إلى رجلٍ منهم يقال له فِنْحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، فقال أبو بكر: ويحك يا فِنْحاص، اتَّقِ الله تعالى وأسلم، فوالله إنك لتَعلَمُ أنَّ محمداً رسولُ الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة. فقال فِنْحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله تعالى من فَقْر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرَّع إليه كما تضرَّع إلينا، وإنَّا عنه لأغنياء، ولو كان غنيًّا عنَّا ما استقرض منَّا كما يزعم صاحبكم، وإنه ينهاكم عن الربا ويعطينا[٢]، ولو كان غنيًّا عنَّا ما أعطانا الربا. فغضب أبو بكر ﷺ، فضرب وجه فِنْحاص ضربةً شديدةً وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهدُ الذي بيننا وبينك لضربتُ عنقك يا عدوَّ الله تعالى. فذهب فِنْحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، انظر ما صنع صاحبك بي. فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر ﷺ: «ما حملَك على ما صنعتَ؟» قال: يا رسول الله، قال قولاً عظيماً، يزعم أنَّ الله تعالى شأنُه فقير وهم عنه أغنياء! فلما قال ذلك غضبتُ لله تعالى مما قال، فضربتُ وجهه. فجحد فنْحاص فقال: ما قلتُ ذلك. فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص تصديقاً لأبي بكر ﷺ هذه الآية، وأنزل في أبي بكر وما بلغه في ذلك من الغضب: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ الآية [آل عمران: ١٨٦].

وأخرج ابن المنذر[٣] عن قتادة أنه قال: ذُكر لنا أنها نزلت في حُيَيّ بن أخطب، لمَّا أنزل الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال: يستقرضنا ربُّنا، إنما يستقرضُ الفقيرُ الغنيَّ.

وأخرج الضياء وغيره من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أتت اليهود رسولَ الله ﷺ حين أنزل الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فقالوا: يا محمد، فقيرٌ ربُّك يسأل عباده القَرْضَ؟ فأنزل الله تعالى الآية[٤].

والجمع على الراويتين الأُوليين مع كون القائل واحداً؛ لرضا الباقين بذلك،

---

(١) المِدْراس: هو البيت الذي يدرس اليهود فيه. النهاية ٢/ ١١٣.
(٢) في سيرة ابن هشام وتفسير الطبري وشرح مشكل الآثار: يعطيناه.
(٣) كما في الدر المنثور ٢/ ١٠٦، وأخرجه أيضاً الطبري ٦/ ٢٨٠.
(٤) الأحاديث المختارة ١٠/ ١١٢-١١٣، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم ٢/ ٤٦٠ و٣/ ٨٢٨.

وتخصيصُ هذا القول بالسماع مع أنه تعالى سميعٌ لجميع المسموعات كنايةٌ تلويحية عن الوعيد؛ لأنَّ السماعَ لازمُ العلم بالمسموع، وهو لازمُ الوعيد في هذا المقام، فهو سماعُ ظهورٍ وتهديدٍ لا سماع قبول ورضًى كما في: سمع الله لمن حمده، وإنما عَبَّر عن ذلك بالسماع للإيذان بأنه من الشناعة والسماجة بحيثُ لا يرضى قائله بأن يسمعه سامعٌ، ولهذا أنكروه، ولكون إنكارهم القولَ بمنزلة إنكار السمع، أكَّده تعالى بالتأكيد القَسَمِيِّ، وفيه أيضاً من التشديد في التهديد والمبالغة في الوعيد ما لا يخفى.

والعاملُ في موضع «إنَّ» وما عملتْ فيه «قالوا»، فهي المحكيةُ به، وجُوِّز أن يكون ذلك معمولاً لـ «قول» المضاف؛ لأنه مصدر، قال أبو البقاء: وهذا يُخرَّج على قول الكوفيين في إعمال الأول، وهو أصلٌ ضعيفٌ، ويزداد هنا ضَعْفاً بأنَّ الثاني فِعْل والأول مصدرٌ، وإعمالُ الفعل لكونه أقوى أولى[1].

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ أي: سنكتبه في صحائف الكَتَبة، فالإسناد مجازيٌّ والكتابةُ حقيقة، أو: سنحفظه في عِلْمنا ولا نهمله، فالإسناد حقيقةٌ والكتابةُ مجاز، والسين للتأكيد، أي: لن يفوتنا أبداً تدوينُه وإثباتُه؛ لكونه في غاية العِظَم والهول، كيف لا وهو كُفْرٌ بالله تعالى، سواءٌ كان عن اعتقاد أو استهزاء بالقرآن؟ وهو الظاهر، ولذلك عطف عليه قوله تعالى: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ إيذاناً بأنهما في العِظَم أَخَوان، وتنبيهاً على أنه ليس بأول جريمة ارتكبوها ومعصيةٍ استباحوها، وأنَّ مَن اجترأ على قتل الأنبياء بغير حقٍّ في اعتقاده أيضاً كما هو في نفس الأمر، لم يُستبعد منه أمثال هذا القول.

ونسبةُ القتل إلى هؤلاء القائلين، باعتبار الرضا بفعل القاتلين من أسلافهم.

وقيل: المعنى: سنجمع ما قالوا وقَتْلَهم الأنبياء في مقام العذاب، ونجزيهما جزاءً مماثلاً، لَتشارُكِهما في أنَّ في كلٍّ منهما إبطالاً لما جاء به المرسلون. ولا يخفى أنه مما لا ينبغي تخريجُ كلام الله تعالى عليه.

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ أي: وننتقم منهم بواسطة هذا القول الذي لا يقال إلا وقد وُجد العذاب.

---

(١) الإملاء ٢/ ١٦٢.

والحريق بمعنى المُحْرِق، وإضافةُ العذاب إليه من الإضافة البيانية، أي: العذاب الذي هو المُحْرِق؛ لأنَّ المعذِّب هو الله تعالى لا الحريق، أو الإضافة للسبب لتنزيله منزلةَ الفاعل، كما قاله بعض المحققين.

والذَّوْق ـ كما قال الراغب[١] ـ وجود الطَّعم في الفم؛ وأَصله فيما يَقِلُّ تناوله دون ما يكثر، فإنه يقال له: أَكْل، ثم اتُّسع فيه فاستُعمل لإدراك سائر المحسوسات والحالات. وذَكَره هنا ـ كما قال ناصر الدِّين ـ لأنَّ العذاب مرتَّبٌ على قولهم الناشئ عن البخل والتهالُكِ على المال، وغالبُ حاجة الإنسان إليه لتحصيل المطاعم، ومعظمُ بخله للخوف من فقدانه، ولذلك كَثُرَ ذِكْرُ الأكل مع المال[٢].

ولك أن تقول: إنَّ اليهود لمَّا قالوا ما قالوا، وقتلوا مَنْ قتلوا، فقد أذاقوا المسلمين وأَتباعَ الأنبياء غُصَصاً، وشبُّوا في أفئدتهم نارَ الغيرة والأسف، وأَحرقوا قلوبَهم بلهبِ الإيذاء والكَرْب، فعوِّضوا هذا العذاب الشديد، وقيل لهم: ذوقوا عذاب الحريق كما أذقتم أولياء الله تعالى في الدنيا ما يكرهون. والقائل لهم ذلك ـ كما قال الضحاك ـ خَزَنَةُ جهنم، فالإسنادُ حينئذٍ مجازيٌّ.

وفي هذه الآية مبالغاتٌ في الوعيد، حيث ذُكِرَ فيها العذابُ والحريقُ والذوقُ المنبئُ عن اليأس، فقد قال الزجَّاج: ذُقْ: كلمةٌ تقال لمن أَيسَ عن العفو، أي: ذُقْ ما أنت فيه، فلست بمتخلِّصٍ منه[٣]. والمؤذِنُ بأنَّ ما هم فيه من العذاب والهوان يعقبه ما هو أشدُّ منه وأدهى، والقول للتشفِّي المنبئ عن كمال الغيظ والغضب، وفيما قبلها ما لا يخفى أيضاً من المبالغات.

وقرأ حمزة: «سيُكتَب» بالياء والبناء للمفعول «وقتلُهم» بالرفع «ويقول» بصيغة الغيبة[٤].

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى العذاب المحقَّق المنزَّل منزلةَ المحسوس المشاهَد، وللإشارة إلى عِظَمِ شأنه وبُعْدِ منزلته في الهَوْل والفظاعة أتى باسم الإشارة مقروناً

(١) في مفردات ألفاظ القرآن (ذوق).
(٢) تفسير البيضاوي ٢/ ٥٧.
(٣) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٩٤.
(٤) التيسير ص ٩٢، والنشر ٢/ ٢٤٥.

باللام والكاف، وهو مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بسبب أعمالكم التي قدَّمتموها، كقتل الأنبياء، وهذا القول الذي تكاد السماوات يتفطَّرن منه.

والمراد من الأيدي: الأنفس، والتعبير بها عنها من قبيل التعبير عن الكلِّ بالجزء الذي مدارُ جُلِّ العمل عليه.

ويجوز ألا يُتَجوَّزَ في الأيدي، بل يُجعلَ تقديمُها الذي هو عملُها عبارةً عن جميع الأعمال التي أكثرُها أو الكثيرُ منها يُزاوَلُ باليد على طريق التغليب.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ عطفٌ على «ما قَدَّمَتْ»، فهو داخلٌ تحت حكم باء السببية، وسببيته للعذاب من حيث إنَّ نفيَ الظُّلم يستلزمُ العدلَ المقتضي إثابةَ المحسن ومعاقبةَ المسيء، وإليه ذهب الفحول من المفسرين، وتعقَّبه مولانا شيخ الإسلام بقوله: وفساده ظاهرٌ، فإنَّ تَرْكَ التعذيب من مستحقِّه ليس بظلمٍ شرعاً ولا عقلاً حتى ينتهض نفيُ الظلم سبباً للتعذيب[1].

وخلاصته المعارضةُ بطريق القياس الاستثنائي، بأنه لو كان تَرْكُ التعذيب ظلماً، لكان نفيُ الظلم سبباً للتعذيب، لكنَّ تَرْكَ التعذيب ليس بظلم، فنفيُ الظُّلم لا يكون سبباً له.

وأُجيب بأنَّ منشأَ هذا الاعتراض عدمُ الفرق بين السبب والعلة الموجبة، والفرق مثل الصبح ظاهر، فإنَّ السبب وسيلةٌ محضةٌ لا يوجب حصولَ المسبَّب، كما أنَّ القلمَ سببُ الكتابة غيرُ موجبٍ إياها، والعدل اللازم من نفي الظلم سببٌ لعذاب المستحقِّ، وإن لم يوجبه، فالاستدلال بعدم الإيجاب على عدم السببية فاسدٌ جداً.

وأما قولهم في العدل المقتضي إلخ، فهو بيانٌ لمقتضاه إذا خُلِّيَ وطَبْعَه، وتقريرٌ لكونه وسيلةً، ولا يلزمُ منه إيجابُ الإثابة والمعاقبة على ما ينبئ عنه قوله سبحانه في الحديث القدسي: «سبقت رحمتي غضبي»[2].

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/ ١٢٢.

(٢) أخرجه أحمد (٧٥٠٠)، والبخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١) وسلف ١/ ١١٤.

وخلاصة هذا: أنَّ الملازمةَ بين المقدَّم والتالي في القياس الاستثنائي ممنوعةٌ بأنه لِمَ لا يجوز أن لا يكون تَرْكُ التعذيب ظلماً، ويكون نفيُ الظلم سبباً بأن يكون السببُ سبباً غيرَ موجبٍ ولا محذورٍ حينئذ.

لا يقال: يحتمل أن يكون مبنى ذلك الاعتراض على المفهوم المعتبر عند الشافعي، لا على كون السبب موجباً.

لأنَّا نقول: إن أُريد بالمفهوم مفهومُ قوله سبحانه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ إلخ، فنقول: حاصله أنَّ العَدْل سببٌ لعذاب المستحقِّين، والمفهومُ منه أنَّ العدلَ لا يكون سبباً لعذاب غير المستحقين، وهو معنًى متَّفقٌ عليه لانزاع فيه.

وإن أُريد أنَّ المفهومَ من قولنا سببُ تعذيبهم كونه تعالى غير ظالم: أنه تعالى لو لم يعذِّبهم لكان ظالماً، فنقول: هو مع بُعْده عن سياق كلام المعترض من قبيل الاستدلال بانتفاء السبب على انتفاء المسبَّب، فيكون مبنيًّا على كون المراد بالسبب السبب الموجب كما قلنا، ويَرِدُ عليه ما أوردناه، ولا يكون من باب المفهوم في شيء، وإن أُريد غير هذا وذاك، فليُبيَّنْ حتى نتكلَّم عليه.

ومن الناس مَن دفع الاعتراض بأنَّ حاصلَ معنى الآية: وَقَعَ العذاب عليكم ولم يُتْرَكْ بسبب أنَّ الله تعالى ليس بظلَّام للعبيد، وهو بمنطوقه يدلُّ على أنَّ نفي الظلم لا يكون سبباً لترك التعذيب من مستحقِّه، ولا يدلُّ على كون الظلم سبباً لترك التعذيب، بل له سببٌ آخر، وهو لُطْفه تعالى، فلا يَرِدُ الاعتراض.

وأنت تعلم بأنَّ هذا ذهولٌ عن مقصود المعترض أيضاً، فإنَّ دلالةَ الكلام على كون الظلم سبباً لترك التعذيب وعدمه[1]، خارجٌ عن مَطْمَحِ نظره على ما عرفتَ من تقرير كلامِهِ، على أنه إذا كان المراد بالسبب السببُ الموجبُ على ما هو مبنى كلام ذلك المولى، فدلالتُه عليه ظاهرةٌ، فإنَّ وجودَ السبب الموجب كما يكون سبباً لوجود المسبَّب، يكون عدمُه سبباً لعدمه، كما في طلوع الشمس ووجود النهار، فالعدل ـ أعني: نفيَ الظلم ـ إذا كان سبباً لتعذيب المستحقِّ، يكون عدمُهُ ـ أعني الظلم ـ سبباً لعدم التعذيب.

---

(١) في (م): وعدمها.

وقيل: إنه عَطْفٌ على «ما قدَّمتْ» للدلالة على أنَّ سببيةَ ذنوبهم لعذابهم مقيَّدةٌ بانتفاء ظُلمه تعالى، إذ لولاه لأمكن أن يعذِّبهم بغير ذنوبهم، لا أنْ لا يعذبهم بذنوبهم.

وتعقَّبه أيضاً مولانا شيخ الإسلام بقوله: وأنت خبيرٌ بأنَّ إمكانَ تعذيبه تعالى لعبيده بغير ذنب، بل وقوعه، لا ينافي كونَ تعذيب هؤلاء الكَفَرة بسبب ذنوبهم، حتى يحتاج إلى اعتبار عَدَمه معه، وإنما يحتاج إلى ذلك إن كان المدَّعى أنَّ جميع تعذيباته تعالى بسبب ذنوب المعذَّبين. انتهى[1].

ولا يخفى عليك أنَّ: أنْ[2] لا يعذِبهم بذنوبهم، في كلام القيل معطوفٌ على قوله: أن يعذِّبهم، والمعنى: أنَّ ذِكْرَ هذا القيد رَفَعَ احتمال أن يعذِّبَهم بغير ذنوبهم، لا احتمالَ[3] أن لا يعذهم بذنوبهم، فإنه أمرٌ حسنٌ شرعاً وعقلاً، وقوله: للدلالة على أن سببية ذنوبهم لعذابهم مقيَّدة إلخ، أراد به أنَّ تعيُّنه للسببية إنما يحصل بهذا القيد؛ إذ بإمكان تعذيبه بغير ذنب يحتملُ أن يكون سببُ التعذيب إرادةَ العذاب بلا ذنب، فيكون حاصل معنى الآية: إنَّ عذابكم هذا إنما نشأ من ذنوبكم، لا من شيءٍ آخر.

فإذا علمتَ هذا، ظهرَ لك أنَّ تزييفَ المولى كلامَ صاحب القيل بأنَّ إمكان تعذيبه تعالى إلخ، ناشيءٌ عن الغفلة عن مراده، فإنَّ كلامَهُ ليس في منافاة هذين الأمرين بحسب ذاتهما، بل في منافاة احتمال التعذيب بلا ذنب، لتعيُّن سببية الذنوب له.

وكذا قولُه عقيب ذلك: وإنما يحتاج إلى ذلك إن كان المدَّعى إلخ، ناشيءٌ عن الغفلة أيضاً؛ لأنَّ الاحتياج إلى ذلك القيد في كلٍّ من الصورتين إنما هو لتقريع المخاطَبين وتبكيتهم في الاعتراف بتقصيراتهم بأنه لا سببَ للعذاب إلا من قِبَلِهِمْ. فالقول بالاحتياج في صورةٍ وعدمِهِ في صورة ركيكٌ جدًّا.

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/ ١٢٢.
(٢) في الأصل: أنَّ لا أنْ.
(٣) في (م): لاحتمال، بدل: لا احتمال.

ثم إنه لا تَدافُعَ بين هذا القيل وبين ما نُقل أولاً عن فحول المفسِّرين، حيث جعل المعطوفُ هناك سبباً وهاهنا قيداً للسبب؛ لأن المراد بالسبب الوسيلةُ المحضةُ كما أشرنا إليه فيما سبق، فهو وسيلةٌ سواء اعتُبر سبباً مستقلًّا أو قيداً للسبب، نعم بينهما على ما سيأتي إن شاء الله تعالى تدافعٌ يتراءى من وجهٍ آخر، لكنه أيضاً غيرُ واردٍ كما سنحقِّقه بحوله تعالى.

والحاصل أنَّ العَطْفَ هنا مما لا بأس به، وهو الظاهر، وإليه ذهب مَنْ ذهب.

ويجوز أن يُجعل ـ وإليه ذهب شيخ الإسلام[1] ـ «أنَّ» وما بعدها في محل الرفع على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوف، والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبلها، أي: والأمرُ أنه تعالى ليس بمعذِّبٍ لعبيده بغير ذنب من قِبَلِهِم، والتعبير عن ذلك بنفي الظلم مع أنَّ تعذيبَهم بغير ذنبٍ ليس بظلمٍ على ما تقرَّر من قاعدة أهل السنة، فضلاً عن كونه ظلماً[2] بالغاً، لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورةِ ما يستحيل صدورُه عنه تعالى من الظلم، كما يُعبَّر عن تَرْك الإثابة على الأعمال بإضاعتها، مع أنَّ الأعمال غيرُ موجبةٍ للثواب حتى يَلزمَ من تخلُّفه عنها إضاعتُها، وصيغةُ المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذُكر من التعذيب بغير ذنبٍ في صور ة المبالغة في الظلم.

ومن هنا يُعلَم الجواب عما قيل: إنَّ نفيَ نفس الظُّلم أبلغُ من نفي كثرته، ونفيُ الكثرة لا ينفي أَصلَه، بل ربَّما يُشعر بوجوده.

وأُجيب عن ذلك أيضاً بأنه نفيٌ لأصلِ الظلم وكثرته باعتبار آحاد مَن ظلم، فالمبالغة في «ظلَّام» باعتبار الكمية لا الكيفية، وبأنه إذا انتفى الظلم الكثير انتفى القليل؛ لأنَّ مَن يَظْلم يَظلِمْ للانتفاع بالظلم، فإذا تَرَك كثيره مع زيادة[3] نفعِه في حقِّ مَن يجوز عليه النفع والضر، كان لقليله مع قلَّة نفعه أكثرَ تركاً، وبأنَّ «ظلَّام» للنَّسَب كعطَّار، أي: لا يُنسَبُ إليه الظلم أصلاً، وبأنَّ كلَّ صفةٍ له تعالى في أكمل المراتب، فلو كان تعالى ظالماً سبحانه لكان ظلَّاماً، فنفي اللازم لنفي الملزوم.

---

(١) أبو السعود في تفسيره ٢/ ١٢١-١٢٢.

(٢) في الأصل و(م): ظالماً، والمثبت من تفسير أبي السعود.

(٣) في (م): زيادته.

واعترض بأنه لا يلزم من كون صفاته تعالى في أقصى مراتب الكمال كونُ المفروضِ ثبوتُه كذلك، بل الأصل في صفات النقص على تقدير ثبوتها أن تكون ناقصة.

وأجيب بأنه إذا فُرض ثبوتُ صفةٍ له تعالى تُفْرَضُ بما يلزمها من الكمال، والقول بأنَّ هذا في صفات الكمال دون صفات النقص إنما يوجب عدم ثبوتها، لا ثبوتَها ناقصة، وسيأتي إن شاء الله تعالى تتمَّةُ الكلام في هذا المقام.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ نَصْبٌ أو رَفْعٌ على الذَّمِّ، وجُوِّز أن يكون في موضع جرٍّ على البدلية من نظيره المتقدِّم.

والمراد من الموصول جماعةٌ من اليهود، منهم كعب بن الأشرف ومالك بن الصَّيْف ووهب بن يهوذا وزيد بن التابوه وفِنْحاص بن عازوراء وحُيَيّ بن أخطب، أتوا النبيَّ ﷺ فقالوا هذا القول(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ أي: أمرَنا في التوراة وأوصانا ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ﴾ أي: بأنْ لا نصدِّقَ ونعترفَ ﴿لِرَسُولٍ﴾ يدَّعي الرسالة إلينا من قِبَلِ الله تعالى ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ﴾ وهو ما يُتقرَّب به إلى الله تعالى من نَعَمٍ وغيرها، كما قاله غير واحد. وقرئ: «بقُرُبان» بضمتين(٢).

﴿تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ أُريد به نارٌ بيضاء تنزلُ من السماء ولها دويٌّ، والمراد من أكل النار للقربان: إحالتُها له إلى طَبْعها بالإحراق، واستعماله في ذلك إما من باب الاستعارة أو المجاز المرسل، وقد كان أَمْرُ إحراق النار للقربان إذاً قبلُ شائعاً في زمن الأنبياء السالفين، إلا أنَّ دعوى أولئك اليهود هذا العهدَ من مفترياتهم وأباطيلهم؛ لأنَّ أَكْلَ النار القُربانَ لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزةً، فهو وسائرُ المعجزات شرعٌ في ذلك.

ولمَّا كان مَرامُهم من هذا الكلام الباطل عدم الإيمان برسول الله ﷺ لعدم إتيانه

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ١٢٩ عن الكلبي.

(٢) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢٣، وابن جني في المحتسب ١/١٧٧ لعيسى بن عمر.

بما قالوا، ولو تحقَّق الإتيان به لتحقَّق الإيمانُ بزعمهم، ردَّ الله تعالى عليهم بقوله سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء القائلين تبكيتاً لهم وإظهاراً لكذبهم ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ﴾ كثيرةُ العدد كبيرةُ المقدار، مثل زكريا ويحيى وغيرهم ﴿مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات الواضحة، والحجج الدالَّة على صدقهم وصحة رسالتهم، وحَقِّيَّة قولهم، كما كنتم تقترحون عليهم وتطلبون منهم ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ بعينه، وهو القربان الذي تأكله النار ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ أي: فمالكم لم تؤمنوا بهم حتى اجترأتم على قَتْلهم، مع أنهم جاؤوا بما قلتم مع معجزاتٍ أُخَر؟ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ أي: فيما يدلُّ عليه كلامكم من أنكم تؤمنون لرسولٍ يأتيكم بما اقترحتموه.

والخطاب لمن في زمن نبيِّنا ﷺ - وإن كان الفعل لأسلافهم - لرضاهم به، على ما مرَّ غيرَ مرَّة، وإنما لم يَقطع سبحانه عُذْرَهم بما سألوه من القربان المذكور، لعلمه سبحانه بأنَّ في الإتيان به مفسدةٌ لهم، والمعجزات تابعةٌ للمصالح.

ونُقل عن السُّدِّيِّ أنَّ هذا الشرط جاء في التوراة هكذا: مَن جاء يزعم أنه رسول الله تعالى، فلا تصدِّقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار، إلا المسيح ومحمداً عليهما الصلاة والسلام، فإذا أتياكم فآمنوا بهما فإنهما يأتيان بغير قربان. والظاهر عدم ثبوت هذا الشرط أصلاً.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ فيما جئتهم به ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ جاؤوا بمثل ما جئت به، والجملة جوابٌ للشرط باعتبارِ لازِمِها الذي دلَّ عليه المقام، فإنه لتسليته ﷺ من تكذيب قومه واليهود له، واقتصر مجاهدٌ على الثاني. كأنه قيل: فإن كذَّبوك فلا تحزن، وتَسَلَّ.

وجَعَل بعضُهم الجوابَ محذوفاً، وهذا تعليلاً له، ومثله كثيرٌ في الكلام.

وقال عصام الملَّة: لا حاجة إلى التأويل والقولِ بالحذف؛ إذ المعنى: إن يكذِّبوك فتكذيبُكَ تكذيبُ رُسُلٍ من قبلك، حيث أَخبروا ببعثتك. وفي ذلك كمالُ توبيخهم وتوضيحُ صدقه ﷺ، وتسليةٌ له ليس فوقها تسلية.

ونُظِرَ فيه بأنَّ التسلية على ما ذهب إليه الجمهور أَتمُّ؛ إذ عليه تكون المشاركة بينه ﷺ وبين إخوانه المرسلين عليهم الصلاة والسلام في تكذيب المكذِّبين شفاهاً

وصريحاً، وعلى الثاني لا شِرْكَةَ إلا في التكذيب، لكنه بالنسبة إليه ﷺ شفاهيٌّ وصريح، وبالنسبة إلى المرسلين ليس كذلك، ولا شكَّ لذي ذَوْقٍ أنَّ الأول أبلغُ في التسلية، وعليه يجوز في «مِنْ» أن تتعلَّق بـ «كُذِّب» وأن تتعلَّق بمحذوفٍ وقع صفة لـ «رسل»، أي: كائنة من قبلك، وعلى الثاني يتعيَّن الثاني.

ويُشعر بالأول الذي عليه الجمهور وصفُ الرسل بقوله سبحانه: ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات الواضحات الباهرات ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ جمع زَبور؛ كالرسول والرُّسل، وهو الكتاب المقصورُ على الحِكَم، من زَبَرْتُهُ بمعنى حسَّنته. قاله الزجَّاج[1].

وقيل: الزُّبُر: المواعظُ والزواجر من زَبَرْته إذا زَجَرته.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ أي: الموضِّح، أو الواضح المستنير. أخرج ابن أبي حاتم[2] عن السُّدِّيِّ: أنه القرآن، ومعنى مجيء الرسل به: مجيئُهم بما اشتمل عليه من أصول الدين، على ما يشير إليه قوله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] على وجه.

وعن قتادة: أنَّ المراد به الزُّبُر، والشيءُ يضاعَف بالاعتبار وهو واحد.

وقيل: المراد به التوراة والإنجيل والزبور، وهو في عُرْف القرآن: ما يتضمَّن الشرائعَ والأحكامَ، ولذلك جاء هو والحكمة متعاطفين في عامة المواقع.

ووجهُ إفراد الكتاب بناءً على القول الأول ظاهر، ولعلَّ وجهَ إفراده بناءً على القول الثاني والثالث ـ وإن أُريد منه الجنسُ الصادقُ بالواحد والمتعدِّدِ ـ الرمزُ إلى أنَّ الكتب السماوية، وإن تعدَّدت فهي من بعض الحيثيات كشيءٍ واحد.

وقرأ ابن عامر: «وبالزُّبُر» بإعادة الجارّ[3]؛ للدلالة على أنها مُغايرةٌ للبينات بالذات، بأنْ يراد بها المعجزاتُ غير الكتب؛ لأنَّ إعادةَ العامل تقتضي المغايرة، ولولاها لجاز أن يكون من عَطْفِ الخاصِّ على العام.

---

(١) في معاني القرآن للزجاج ١/ ٤٩٥: الزبر جمع زبور، والزبور كل كتاب ذو حكمة، ويقال: زبرت: إذا كتبت، وزبرت: إذا قرأت.

(٢) كما في الدر المنثور ٢/ ١٠٧.

(٣) التيسير ص ٩٢، والنشر ٢/ ٢٤٥.

ومن الغريب القولُ بأنَّ المراد بالبينات: الحروفُ باعتبار أسمائها؛ كألفٍ ولام، وبالزُّبر الحروفُ باعتبار مسمَّياتها ورَسْمها؛ ك : أ ب، وبالكتاب الحروفُ المجتمعةُ المتلفَّظ بها كلمةً وكلاماً.

وادَّعى أهلُ هذا القول أنَّ لكلٍّ من ذلك معانيَ وأسراراً لا يعقلها إلا العالمون، فهم يبحثون عن الكلمة باعتبار لفظها، وباعتبار كلِّ حرفٍ من حروفها المرسومة، وباعتبار اسمِ كلِّ حرفٍ منها، الذي هو عبارةٌ عن ثلاثة حروف، ولا يخفى أنَّ هذا اصطلاحٌ لا ينبغي تخريجُ كلام الله تعالى عليه.

والظاهرُ مِن تتبُّعِ الآثار الصحيحة أنه لم يثبت فيه عن الشارع الأعظم ﷺ شيءٌ، ودون إثبات ذلك الموتُ الأحمر.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ أي: نازلٌ بها لا محالةَ، فكأنها ذائقتُه، وهو وعدٌ ووعيدٌ للمصدِّق والمكذِّب، وفيه تأكيدٌ للتسلية له ﷺ؛ لأنَّ تَذَكُّرَ الموتِ واستحضارَهُ مما يزيل الهموم والأشجان الدنيوية.

وفي الخبر: «أَكثِروا ذكرَ هاذم اللذات، فإنه ما ذُكر في كثير إلا وقلَّله، ولا في قليلٍ إلّا وكثَّره»[1].

وكذا العلم بأنَّ وراء هذه الدار داراً أخرى يتميَّز فيها المحسن عن المسيء، ويرى كلٌّ منهما جزاءَ عمله، وهذه القضية الكلِّيةُ لا يمكن إجراؤها على عمومها لظاهر قوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ [الزمر: ٦٨] وإذا أُريد بالنفس الذات، كثرت المستثنيات جدًّا.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في الأوسط (٥٧٧٦)، والقضاعي في مسند الشهاب (٦٧١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٥٨) من حديث ابن عمر ﵄. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٠٩: إسناده حسن.
وأخرجه أحمد (٧٩٢٥)، والترمذي (٢٣٠٧) من حديث أبي هريرة ﵁ دون قوله: فإنه ما ذكر في كثير. . . إلخ. قال الترمذي: حسن غريب.
قوله: هاذم، أي: قاطع، وقال السندي في شرح سنن ابن ماجه ٢/ ٥٦٥: ويحتمل أن يكون بالدال المهملة، والمراد على التقديرين الموت، فإنه يقطع لذات الدنيا قطعاً.

وهل تدخل الملائكة في هذا العموم؟ قولان، والجمهور على دخولهم، فعن ابن عباس أنه قال: لمَّا نزل قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمن: ٢٦] قالت الملائكة: مات أهلُ الأرض، فلمَّا نزل قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ قالت الملائكة: مُتنا[(١)].

ووقوع الموت للأنفس في هذه النشأة الحيوانية الجسمانية مما لا ريب فيه، إلا أنَّ الحكماء بَنَوا ذلك على أنَّ هذه الحياة لا تحصل إلا بالرطوبة والحرارة الغريزيَّتين. ثم إنَّ الحرارةَ تؤثِّرُ في تحليل الرطوبة، فإذا قلَّتِ الرطوبةُ ضَعُفَتِ الحرارة، ولا تزال هذه الحال مستمرَّةً إلى أن تَفْنَى الرطوبة الأصلية، فتنطفىء الحرارةُ الغريزيةُ ويحصل الموت، ومن هنا قالوا: إنَّ الأرواحَ المجرَّدةَ لا تموت ولا يُتصوَّر موتها؛ إذ لا حرارة هناك ولا رطوبة. وقد ناقشهم المسلمون في ذلك، والمدارُ عندهم على حرارة الكاف ورطوبة النون، ولعلَّهم يفرِّقون بين موت وموت.

وقد استُدلَّ بالآية على أنَّ المقتول ميِّتٌ، وعلى أنَّ النفس باقيةٌ بعد البدن؛ لأنَّ الذائقَ لابدَّ أن يكون باقياً حالَ حصول المذوق[(٢)]، فتدَّبر.

وقرأ اليزيديُّ: «ذائقةٌ الموتَ» بالتنوين ونَصْبِ الموت على الأصل، وقرأ الأعمش: «ذائقةُ الموتَ» بطرح التنوين مع النصب[(٣)] كما في قوله:

فألفيتُه غيرَ مُسْتَعتبٍ ولا ذاكرَ اللهَ إلا قليلا[(٤)]

وعلى القراءات الثلاث: «كلُّ نفسٍ» مبتدأٌ، وجاز ذلك وإن كان نكرةً لِمَا فيه من العموم، و«ذائقة» الخبر، وأُنِّثَ على معنى «كلّ»؛ لأنَّ «كلّ نفسٍ»: نفوسٌ، ولو ذُكِّر في غير القرآن على لفظِ «كلّ» جاز.

---

(١) ذكره الرازي في تفسيره ٩/ ١٢٥.

(٢) تفسير الرازي ٩/ ١٢٥، وغرائب القرآن للنيسابوري ٤/ ١٤١ـ وعنه نقل المصنف ـ وفيهما: الذوق، بدل: المذوق.

(٣) القراءتان في القراءات الشاذة ص ٢٣، والكشاف ١/ ٤٨٥.

(٤) البيت لأبي الأسود الدؤلي، وهو في ديوانه ص ٥٤.

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ أي: تُعْطَون أَجْزِيةَ أعمالكم وافيةً تامة ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: وقتَ قيامكم من القبور، فالقيامة مصدرٌ، والوحدة لقيامهم دَفعةً واحدة.

وفي لفظ التوفية إشارةٌ إلى أنَّ بعضَ أجورهم من خيرٍ أو شرٍّ تصلُ إليهم قبل ذلك اليوم، ويؤيِّده ما أخرجه الترمذيُّ عن أبي سعيد الخدريِّ، والطبرانيُّ في «الأوسط» عن أبي هريرة مرفوعاً: «القبر روضةٌ من رياض الجنة، أو حفرةٌ من حُفَرِ النيران»(١).

وقيل: النكتةُ في ذلك أنه قد يقع الجزاء ببعض الأعمال في الدنيا، ولعلَّ مَن يُنكر عذابَ القبر تتعيَّن عنده هذه النكتة.

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ أي: بعُد يومئذٍ عن نار جهنَّم، وأصلُ الزحزحة: تكرير الزَّحِّ، وهو الجَذْبُ بعَجَلة، وقد أُريد هنا المعنى اللازم.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي: سَعِدَ ونجا، قاله ابن عباس. وأصل الفوز: الظَّفَرُ بالبُغية، وبعض الناس قدَّر له هنا متعلَّقاً، أي: فاز بالنجاة ونَيْلِ المراد، ويحتمل أنه حُذف للعموم، أي: بكلِّ ما يريد، وفي الخبر: «لَمَوْضعُ سَوْطِ أحدكم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها» ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية(٢).

وأخرج أحمد ومسلم عن عبد الله بن عمرو(٣) قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أَحبَّ أن يُزحزَح عن النار ويُدْخَلَ الجنة، فَلْتُدْرِكْه منيَّتُهُ وهو يؤمنُ بالله واليوم الآخر، ويأتي إلى الناس ما يحبُّ أن يُؤتَى إليه»(٤).

وذَكَرَ دخولَ الجنة بَعْدَ البُعْدِ عن النار؛ لأنه لا يلزم من البُعْدِ عنها دخولُ الجنة كما هو ظاهر.

---

(١) سنن الترمذي (٢٤٦٠)، والمعجم الأوسط (٨٦٠٨)، والحديثان ضعيفان كما قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ٣٥.

(٢) أخرجه أحمد (٩٦٥١)، والترمذي (٣٠١٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وأخرجه أحمد (١٥٥٦٤)، والبخاري (٢٨٩٢) من حديث سهل بن سعد ﷺ، دون قوله: ثم قرأ...

(٣) في الأصل و(م): عمر. والمثبت من مصادر التخريج.

(٤) مسند أحمد (٦٧٩٣)، وصحيح مسلم (١٨٤٤) مطولاً.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي: لذَّاتها وشهواتُها وزينتها ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ المتاع: ما يُتمتَّع به ويُنْتَفعُ به، مما يباع ويُشْتَرى، وقد شبَّهها سبحانه بذلك المتاع الذي يُدَلَّس به على المُسْتام ويُغَرُّ[١] حتى يشتريه، إشارةً إلى غايةِ رداءتها عند مَن أَمْعَنَ النظر فيها:

إذا امتحنَ الدنيا لبيبٌ تكشَّفتْ له عن عدوٍّ في ثيابِ صديقِ[٢]

وعن قتادة: هي متاعٌ متروكٌ أَوشَكَتْ والله أن تَضمحِلَّ عن أهلها، فخذوا من هذا المتاع طاعةَ الله تعالى إن استطعتُم، ولا قوةَ إلا بالله.

وعن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: هي لَيِّنٌ مَسُّها قاتلٌ سُمُّها.

وقيل: الدنيا ظاهرُها مَظِنَّةُ السرور وباطنُها مَطِيَّةُ الشرور.

وذكر بعضهم أنَّ هذا التشبيهَ بالنسبة لمن آثرَهَا على الآخرة، وأما مَن طلب بها الآخرة فهي له متاعُ بلاغ[٣]، وفي الخبر: «نِعْمَ المال الصالحُ للرجل الصالح»[٤]، والغرور مصدرٌ، أو جمعُ غارٍّ.

﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ جوابُ قسمٍ محذوفٍ، أي: واللهِ لَتُخْتَبَرُنَّ، والمراد: لَتُعامَلُنَّ معاملةَ المختَبَرِ، لِيَظْهَرَ ما عندكم من الثبات على الحق والأفعالِ الحسنةِ، ولا يصح حملُ الابتلاء على حقيقته؛ لأنه مُحالٌ على علّام الغيوب كما مرّ.

والخطابُ للمؤمنين، أو: لهم معه ﷺ، وإنما أَخبرهم سبحانه بما سيقع ليُوَطِّنوا أنفسهم على احتماله عند وقوعه، ويستعدُّوا للقائه، ويقابلوه بحُسْن الصبر والثبات، فإنَّ هجوم البلاء مما يزيد في اللأْواء، والاستعدادَ للكرب مما يُهوِّن الخَطْب، ولتحقيق معنى الابتلاء لهذا التهوين، أتى بالتأكيد. وقد يقال: أتى به لتحقيق وقوع المبتَلى به، مبالغةً في الحثِّ على ما أُريدَ منهم من التهيُّؤ والاستعداد.

---

(١) في (م): يغير. والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٢/ ١٢٣، والكشاف ١/ ٤٨٦.
(٢) البيت لأبي نواس، وهو في ديوانه ص ٤٦٥.
(٣) أي: تبليغ وإيصال إلى الآخرة، كما ذكر الشهاب في الحاشية ٣/ ٨٧، وهذا الكلام ذكره الزمخشري ١/ ٤٨٦ عن سعيد بن جبير.
(٤) أخرجه أحمد (١٧٧٦٣) مطولاً من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وعلى أيِّ وجهٍ فالجملةُ مسوقةٌ لتسلية أولياء الله تعالى عمَّا سيَلْقَونه من جهة أعدائه سبحانه إثرَ تسليتهم عمَّا وقع منهم.

وقيل: إنما سِيقَتْ لبيان أنَّ الدنيا دارُ محنةٍ وابتلاء، وأنها إنما زُويتْ عن المؤمنين ليصبروا فيُؤجَروا، إثر بيان أنها متاع الغرور، ولعل الأول أولى كما لا يخفى.

والواو المضمومة ضميرُ الرفع، ولام الكلمة محذوفةٌ لِعِلَّةٍ تصريفية، وإنما حُرِّكت هذه الواو دَفْعاً للثِّقَل الحاصل من التقاء الساكنين، وكان ذلك بالضَّمِّ ليدلَّ على المحذوف في الجملة، ولم تُقْلب الواو أَلِفاً مع تحرُّكها وانفتاحِ ما قَبلَها؛ لَعروض ذلك.

﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ بالفرائض فيها والجوائح، واقتَصر بعضٌ على الثاني مدَّعياً أنَّ الأولَ - الممثَّلَ في كلامهم بالإنفاق المأمور به في سبيل الله تعالى والزكاةِ - لا يليقُ نَظْمُهُ في سلك الابتلاء، لِمَا أنه من باب الإضعاف لا من قبيل الإتلاف، وفيه نظرٌ تقدَّم في «البقرة» الإشارةُ إليه[1].

وعن الحسن الاقتصارُ على الأول. والأولى القول بالعموم.

﴿وَ﴾ في ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ بالقتل والجراح والأَسْر والأمراض وفَقْد الأقارب، وسائر ما يَرِدُ عليها من أصناف المتاعب والمخاوف والشدائد.

وقَدَّمَ الأموال على الأنفس للترقِّي إلى الأشرف، أو لأنَّ الرزايا في الأموال أكثرُ من الرزايا في الأنفس.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: من قَبْلِ إيتائكم القرآن، وهم اليهود والنصارى، والتعبير عنهم بذلك؛ إما للإشعار بمدار الشِّقاق، والإيذانِ بأنَّ ما يسمعونه منهم مستنِدٌ على زعمهم إلى الكتاب، وإما للإشارة إلى عِظَم صدور ذلك المسموع منهم، وشدَّة وَقْعِهِ على الأسماع، حيث إنه كلامٌ صَدَرَ ممَّن لا يُتوَقَّع صدوره منه لوجود زاجرٍ عنه معه، وهو إيتاؤه الكتاب كما قيل.

---

(١) عند تفسير الآية (١٥٥) منها.

والتصريح بالقَبْليَّةِ إما لتأكيد الإشعار وتقويةِ المدار، وإمَّا للمبالغة في أمْر الزاجر عن صدور ذلك المسموع من أولئك المُسْمِعين.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ وهم كفَّار العرب ﴿أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾ كالطَّعْن في الدين، وتخطئةِ مَن آمن، والافتراءِ على الله تعالى ورسوله ﷺ، والتشبيب بنساء المؤمنين.

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ﴾ على تلك الشدائد عند ورودها ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ أي: تتمسَّكوا بتقوى الله تعالى وطاعته والتبتُّل إليه بالكلية، والإعراض عمَّا سواه بالمرَّة، بحيث يستوي عندكم وصولُ المحبوب ولقاءُ المكروه.

﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكور ضِمناً من الصبر والتقوى. وما فيه من معنى البعد؛ إما لكونه غيرَ مذكورٍ صريحاً على ما قيل، أو للإيذان بعلوِّ درجة هذين الأمرين وبُعْدِ منزلتهما.

وتوحيدُ حَرْف الخطاب؛ إما باعتبارِ كلِّ واحدٍ من المخاطَبين اعتناءً بشأن المخاطَب به، وإما لأنَّ المراد بالخطاب مجرَّدُ التنبيه من غير خصوصيةِ أحوالِ المخاطبين.

﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ أي: من[1] الأمور التي ينبغي أن يعزمها كلُّ أحدٍ، لِمَا فيه من كمال المزيَّة والشَّرف والعِزّ، أو مما عَزَمه الله تعالى وأوجبه على عباده، وعلى كلا التقديرين فالعزمُ مصدرٌ بمعنى المعزوم، وهو مأخوذٌ من قولهم: عَزَمْتُ الأمرَ، كما نقله الراغب[2]، والأشهر: عزمتُ على الأمر، ودَعْوَى أنه لم يُسْمَعْ سواه، غيرُ مسموعة، كدعوى عدم صحَّة نسبة العزم إليه تعالى؛ لأنه توطينُ النفس وعقدُ القلب على ما يرى فعله، وهو مُحَالٌ عليه تعالى.

ومما يؤيِّد صحة النسبة أنه قرئ: «فإذا عزمتُ» بضم التاء[3]، وهو حينئذ بمعنى الإرادة والإيجاب. ومنه قولُ أُمِّ عطيةَ ﵂: نُهينا عن اتِّباع الجنائز، ولم

---

(١) قوله: من، ليس في (م).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (عزم).

(٣) القراءات الشاذة ص ٢٣، والمحتسب ١/ ١٧٦ عن جابر بن زيد وأبي نهيك وعكرمة وجعفر بن محمد.

يُعْزَمْ علينا[١]. وما في حديثٍ آخر: يُرغِّبنا في قيام رمضان من غير عزيمة[٢].

وقولهم: عَزَمات الله تعالى، كما نقله الأزهريُّ[٣].

ومن هذا الباب قولُ الفقهاء: تَرْكُ الصلاة زمنَ الحيض عزيمةٌ.

والجملة تعليلٌ لجوابٍ واقعٍ موقعه، كأنه قيل: وإن تصبروا وتتَّقوا فهو خيرٌ لكم، أو: فقد أحسنتم ـ أو نحوهما ـ فإنَّ ذلك.. إلخ.

وجُوِّز أن يكون «ذلك» إشارةً إلى صبر المخاطَبين وتقواهم، فحينئذٍ تكون الجملةُ بنفسها جوابَ الشرط. وفي إبراز الأمر بالصَّبر والتقوى في صورة الشرطية من إظهار كمال اللطف بالعباد ما لا يخفى.

وزعم بعضُهم أنَّ هذا الأمرَ الذي أشارتْ إليه الآيةُ كان قبلَ نزول آية القتال، وبنزولها نُسخ ذلك. وصُحِّحَ عدمُ النسخ، وأنَّ الأمر بما ذُكر كان من باب المداراة التي لا تنافي الأمر بالقتال.

وسبب نزول هذه الآية في قولٍ، ما تقدَّمتِ الإشارة إليه.

وأخرج الواحديُّ عن عروةَ بن الزبير أنَّ أسامة بن زيد أخبره أنَّ رسول الله ﷺ ركب على حمارٍ على قطيفة فَدَكيَّة[٤]، وأردف أسامة بن زيد وسار يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، حتى مرَّ بمجلسٍ فيه عبد الله بن أبيٍّ ـ وذلك قبل أن يُسلم عبد الله ـ فإذا في المجلس أخلاطٌ من المسلمين والمشركين عَبَدةِ الأوثان واليهود، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشي المجلسَ عَجاجةُ الدابة خمَّر عبد الله بنُ أبيٍّ أنفه بردائه، ثم قال: لا تُغبِّروا علينا. فسلَّم رسول الله ﷺ ثم وقف، فنزل ودعاهم إلى الله تعالى، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبيٍّ: أيُّها المرءُ، إنه لا أَحْسَنَ مما تقول إن كان حقًّا، فلا تُؤْذِنَا به

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٣٠٣)، والبخاري (١٢٧٨)، ومسلم (٩٣٨).

(٢) أخرجه النسائي في المجتبى ٤/ ١٢٩ من قول أبي هريرة ﷺ.

(٣) في تهذيب اللغة ٢/ ١٥٤.

(٤) أي: كساء غليظ، منسوب إلى فدك بفتح الفاء والدال، وهي بلد مشهور على مرحلتين من المدينة. الفتح ٨/ ٢٣١.

في مجالسنا، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصُصْ عليه. فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله، فاغْشَنا به في مجالسنا، فإنَّا نُحبُّ ذلك. واستبَّ المسلمون والمشركون واليهود، حتى كادوا يتثاورون[1]، فلم يَزَلِ النبيُّ ﷺ يُخَفِّضُهم حتى سكنوا. ثم ركب رسول الله ﷺ دابته، فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال له: «يا سعد، ألم تسمع ما قال أبو حُباب - يريد عبد الله بنَ أُبيٍّ - قال كذا وكذا» فقال سعد: يا رسول الله، اعفُ عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاء الله تعالى بالحق الذي نزل عليك، وقد اصطلح أهل هذه البُحيرة[2] على أن يتوِّجوه ويُعصِّبوه بالعِصابة، فلما ردَّ الله تعالى ذلك بالحقِّ الذي أعطاكه، شَرِقَ فغصَّ بذلك، فعفا عنه رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى الآية[3].

وروى الزهريُّ عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه، أنَّ كعب بن الأشرف اليهوديَّ كان شاعراً، وكان يهجو النبيَّ ﷺ، ويحرِّض عليه كفَّار قريش في شعره، وكان النبي ﷺ قَدِمَ المدينةَ وأهلُها أخلاطٌ، منهم المسلمون، ومنهم المشركون، ومنهم اليهود، فأراد النبيُّ ﷺ أن يستَصْلِحَهم كلَّهم، فكان المشركون واليهود يؤذونه ويؤذون أصحابه أشدَّ الأذى، فأمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بالصَّبر على ذلك، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ الآية[4].

وفي رواية أخرى عن الزهري أنَّ كعباً هذا كان يهجو النبيَّ ﷺ ويشبِّب بنساء المؤمنين، فقال ﷺ: «مَن لي بابن الأشرف؟» فقال محمد بن مسلمة: أنا يا رسول الله، فخرج هو ورضيعه أبو نائلة مع جماعة، فقتلوه غِيلةً وأتوا برأسه إلى النبيِّ ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلي[5].

---

(١) أي: يتواثبون، أي: قاربوا أن يثب بعضهم على بعض فيقتتلوا. الفتح ٨/ ٢٣٢.

(٢) البُحيرة: مدينة رسول الله ﷺ، وهو تصغير البحرة، والعرب تسمي المدن والقرى البحار. النهاية (بحر).

(٣) أسباب النزول ص ١٣٠-١٣١. وأخرجه أحمد (٢١٧٦٧)، والبخاري (٤٥٦٦)، ومسلم (١٧٩٨) دون قوله: فأنزل الله هذه الآية.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٠٠٠)، والواحدي في أسباب النزول ص١٢٩-١٣٠.

(٥) أخرجه مطولاً البخاري (٤٠٣٧)، ومسلم (١٨٠١) من حديث جابر ﷺ دون ذكر هجاء كعب للنبي ﷺ وتشبيبه بنساء المسلمين.

ثم إنه سبحانه بيَّن بعضَ أذِيَّات أهل الكتاب بقوله عزَّ قائلاً: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ والمراد بهم: إما أحبار اليهود خاصةً، وإليه ذهب ابن جبير، وهو المرويُّ عن ابن عباس من طريق عكرمة[1]، وإمَّا ما يشملهم وأحبارَ النصارى، وهو المرويُّ عنه من طريق علقمة[2].

وإنما ذُكروا بعنوان إيتاء الكتاب مبالغةً في تقبيح حالهم. وقيل: رمزاً إلى أنَّ أَخْذَ الميثاق كان في كتابهم الذي أُوتوه.

وروى سعيد بن جبير أنَّ أصحاب عبد الله يقرؤون: «وإذ أخذ ربُّك من الذين أُوتوا الكتابَ ميثاقهم»[3].

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ جوابُ «ميثاق» لتضمُّنه معنى القَسَم، والضمير للكتاب، أي: بالله لتُظهِرُنَّ جميعَ ما فيه من الأحكام والأخبار التي من جملتها أَمْرُ نبوَّة محمد ﷺ، وهو المقصود بالحكاية، وظاهر كلام السُّدِّيِّ وابن جبير أنَّ الضمير لمحمد ﷺ[4]، وإن لم يصرَّح باسمه الشريف عليه الصلاة والسلام.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية ابن عياش: «لَيُبَيِّنُنَّه» بياء الغيبة[5]، وقد قرَّر علماء العربية أنك إذا أخبرتَ عن يمينٍ حُلف بها، فلك في ذلك ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون بلفظ الغائب كأنك تُخْبِرُ عن شيءٍ، كأن تقول: استحلفتُه ليقُومنَّ.

الثاني: أن تأتي بلفظ الحاضر تريد اللفظَ الذي قيل له، فتقول: استحلفته لتقومنَّ، كأنك قلتَ: قلتُ له: لتقومنَّ.

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٢٩٤.
(٢) هو ابن وقاص الليثي، والخبر عن ابن عباس من طريق علقمة أخرجه ابن أبي حاتم ٣/ ٨٣٦، وأخرجه عنه البخاري (٤٥٦٨) من طريق علقمة أيضاً إلا أنه لم يذكر فيه سوى اليهود.
(٣) تفسير الطبري ٦/ ٢٩٧.
(٤) أخرج قولهما الطبري ٦/ ٢٩٥.
(٥) التيسير ص ٩٣، والنشر ٢/ ٢٤٦.

الثالث: أن تأتي بلفظ المتكلِّم فتقول: استحلفتُه لأقومنَّ، ومنه قوله تعالى: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ٤٩] بالنون والياء والتاء[1]؛ ولو كان: تقاسموا أمراً، لم يجىء فيه الياء الحتية؛ لأنه ليس بغائب؛ قاله بعض المحققين.

﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ عَطْفٌ على الجواب، وإنما لم يؤكَّد بالنون لكونه منفيًّا، وقال أبو البقاء[2]: اكتفاءً بالتوكيد في الفعل الأول.

وجُوِّز أن يكون حالاً من ضمير المخاطبين؛ إما على إضمار مبتدأ بعد الواو، أي: وأنتم لا تكتمونه، وإما على رأي مَن يُجوِّز دخول الواو على المضارع المنفي عند وقوعه حالاً، أي: لَتُظْهِرَنَّه غير كاتمين.

والنهيُ عن الكتمان بعد الأمر بالبيان للمبالغة في إيجاب المأمور به، كما ذهب إليه غير واحد، أو لأنَّ المراد بالبيان المأمورِ به ذِكْرُ الآيات الناطقة بنبوَّته ﷺ، وبالكتمان المنهي عنه إلقاء[3] التأويلات الزائغة والشبهات الباطلة كما قيل.

وأخرج ابن جرير[4] عن الحسن أنه كان يفسِّر «لتبيِّنُنَّه للناس ولا تكتمونه» بقوله: لَتتكلَّمُنَّ بالحقِّ ولَتُصَدِّقُنَّه بالعمل. وأَمْرُ النهي بعد الأمر على هذا ظاهرٌ أيضاً، ولعلَّ الكلام عليه أَفْيَدُ.

وقرأ ابن كثير ومن معه: «ولا يكتمونه» بالياء[5] كما في سابقه.

﴿فَنَبَذُوهُ﴾ أي: طرحوا ما أُخذ منهم من الميثاق ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يراعوه ولم يلتفتوا إليه أصلاً، فإنَّ النَّبْذ وراء الظهرِ تمثيلٌ واستعارةٌ لترك الاعتداد وعدمِ الالتفات، وعَكْسُه جَعْلُ الشيء نصبَ العين ومقابلها.

﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ﴾ أي: بالكتاب الذي أُمروا ببيانه ونُهوا عن كتمانه، وقيل: الضمير للعهد. والأولُ أولى.

---

(١) القراءة بالتاء قراءة حمزة والكسائي وخلف، وبالنون قرأ باقي العشرة. التيسير ص ١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨ والقراءة بالياء نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١١٠ لمجاهد.

(٢) الإملاء ٢/ ١٦٨.

(٣) في (م): إلغاء. والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٢/ ١٢٥ والكلام منه.

(٤) في تفسيره ٦/ ٢٩٧.

(٥) التيسير ص ٩٣، والنشر ٢/ ٢٤٦.

والمعنى: أخذوا بدله ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من حطام الدنيا الفانية وأغراضها الفاسدة.

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ أي: بئس شيئاً يشترونه ذلك الثمن، فـ «ما» نكرةٌ منصوبةٌ مفسِّرةٌ لفاعل «بئس» وجملة «يشترونه» صفته، والمخصوص بالذم محذوف.

وقيل: «ما» مصدرية فاعل «بئس»، والمخصوص محذوف، أي: بئس شراؤهم هذا الشراء؛ لاستحقاقهم به العذاب الأليم.

واستُدلَّ بالآية على وجوب إظهار العلم وحرمة كتمان شيءٍ من أمور الدين لغرضٍ فاسد؛ من تسهيلٍ على الظَّلَمة، وتطييبٍ لنفوسهم، واستجلابٍ لمسارِّهم، واستجذابٍ لمبارِّهم، ونحو ذلك، وفي الخبر: «مَن سُئل عن علمٍ فكتمه، أُلجم بلجامٍ من نار»[(١)].

وروى الثعلبيُّ بإسناده عن الحسن بن عمارة قال: أتيتُ الزهريَّ بعد أن ترك الحديث، فألفيتُه على بابه، فقلت: إن رأيتَ أن تحدِّثني؟ فقال: أمَا علمتَ أنِّي تركتُ الحديث؟ فقلت: إمَّا أن تحدِّثني، وإمَّا أن أُحدِّثك؟ فقال: حدِّثني. فقلت: حَدَّثني الحَكَمُ ابن عُتيبة[(٢)] عن يحيى بن الجزَّار[(٣)] قال: سمعتُ عليَّ بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهه يقول: ما أَخذ الله تعالى على أهل الجهل أن يتعلَّموا، حتى أَخذ على أهل العلم أن يُعلِّموا، قال: فحدَّثني أربعين حديثاً[(٤)].

وأخرج عبد بن حميد[(٥)] عن أبي هريرة: لولا ما أَخَذَ الله تعالى على أهل الكتاب ما حدَّثتكم. وتلا هذه الآية.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٥٧١)، وأبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ. وسلف تخريجه ص١٦٧ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل و(م): عيينة، والمثبت هو الصواب.

(٣) في الأصل و(م): عن نجم الخراز، والمثبت هو الصواب، ينظر تهذيب الكمال ٣١/ ٢٥٢.

(٤) تفسير الثعلبي ٣/ ٢٢٨، وتفسير البغوي ١/ ٣٨٣، وتفسير القرطبي ٥/ ٤٥٨، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٥٢١، والزمخشري في الكشاف ١/ ٤٨٦ قول علي ﷺ دون القصة.

(٥) كما في الدر المنثور ٢/ ١٠٨، وأخرجه ـ أيضاً ـ ابن حبان (٥٦٨٤)، والحاكم ١/ ١٠٨ وصححه.

وأخرج ابن سعد[١] عن الحسن: لولا الميثاق الذي أخذه الله تعالى على أهل العلم، ما حدَّثتكم بكثيرٍ مما تَسألون عنه.

ويؤيد الاستدلال بالآية ـ على ما ذُكر ـ ما أخرجه ابن جرير عن أبي عبيدة قال: جاء رجلٌ إلى قومٍ في المسجد وفيهم عبد الله بن مسعود، فقال: إنَّ كعباً يُقرئكم السلام، ويبشِّركم أنَّ هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلخ ليست فيكم، فقال له عبد الله: وأنت فَأَقرِئه السلام [وأخبره] أنها نزلت وهو يهوديٌّ[٢]. وأراد ابن مسعود رضي الله عنه، أنَّ كعباً لم يعرفْ ما أشارت إليه، وإن نزلت في أهل الكتاب.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ خطابٌ لرسول الله ﷺ، أو لكلِّ أحدٍ ممن يصلح للخطاب، أي: لا تَظُنَّنَّ ﴿ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ أي: بما فعلوا، وبه قرأ أبيّ. وقرئ: «بما آتَوْا»، و: «بما أُوتُوا»، وروي الثاني عن عليٍّ كرَّم الله وجهه[٣].

﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟﴾ أي: أن يَحمَدهم الناس، وقيل: المسلمون. وقيل: رسول الله ﷺ.

﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ قال ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن أبي حاتم[٤] من طريق العوفي: هم أهل الكتاب، أُنزل عليهم الكتاب فحكموا بغير الحق، وحرَّفوا الكلام عن مواضعه، وفرحوا بذلك، وأَحبُّوا أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا من الصلاة والصيام.

وفي رواية البخاريِّ وغيره عنه أنَّ رسول الله ﷺ سألهم عن شيءٍ فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فخرجوا وقد أَرَوْهُ أنْ قد أَخبروه بما سألهم عنه، واستَحْمَدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أَتَوا من كتمان ما سألهم عنه[٥].

---

(١) في الطبقات ٧/ ١٥٨.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٢٩٦، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) ذكر هذه القراءات ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢٣-٢٤.

(٤) في تفسيره ٣/ ٨٣٨، وأخرجه أيضاً الطبري ٦/ ٣٠٣ واللفظ له.

(٥) صحيح البخاري (٤٥٦٨)، وصحيح مسلم (٢٧٧٨)، وهو عند أحمد (٢٧١٢).

وأخرج ابن جرير[١] عن سعيد بن جبير: أنهم يفرحون بكتمانهم صفةَ رسولِ الله ﷺ التي نطق بها كتابهم، ويُحبُّون أن يُحمَدوا بأنهم متَّبِعون دينَ إبراهيم عليه السلام.

فعلى هذا يكون الموصول عبارةً عن المذكورينَ سابقاً، الذين أُخذ ميثاقهم[٢]، وقد وُضع موضعَ ضميرهم، وسِيقت الجملةُ لبيان ما يَستتبعُ أعمالَهم المحكيةَ من العذاب إثر بيان قباحتها، وفي ذلك من التسلية أيضاً ما لا يخفى، وقد أُدمج فيها بيانُ بعضٍ آخرَ من شنائِعهم وفضائحهم، وهو إصرارُهم على القبيح وفرحُهم بذلك، ومحبَّتُهم لأنْ يُوصَفوا بما ليس فيهم من الأوصاف الجميلة، وأخرج سبحانه ذلك مخرجَ المعلوم إيذاناً بشهرة اتِّصافهم به.

وقيل: إنَّ الموصولَ عبارةٌ عن أناسٍ منافقين، وهم طائفةٌ معهودونَ من المذكورين وغيرهم، وأُيِّد ذلك بما أخرجه الشيخان، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه: أنَّ رجالاً من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلَّفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلافَ رسول الله ﷺ، فإذا قَدِمَ رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا، وأَحبُّوا أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا. فنزلت هذه الآية[٣].

وروي مثل ذلك عن رافع بن خديج وزيد بن ثابت[٤] وغيرهما.

وقيل: المراد بهؤلاء: المنافقون كافَّة، وقد كان أكثرُهم من اليهود. وادَّعى بعضهم أنه الأنسبُ بما في حيِّز الصلة، لشهرة أنهم كانوا يفرحون بما فعلوا من إظهار الإيمان وقلوبُهم مطمئنَّة بالكفر، ويستحمدون إلى المسلمين بالإيمان وهم عن فعله بألفِ منزل، وكانوا يُظهرون محبَّةَ المؤمنين وهم في الغاية القاصية من العداوة.

---

(١) في تفسيره ٦/ ٣٠٣.
(٢) في (م): ميثاقكم.
(٣) صحيح البخاري (٤٥٦٧)، وصحيح مسلم (٢٧٧٧)، وشعب الإيمان (٤٧٨٢).
(٤) أخرجه عنهما عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٢/ ١٠٨.

ولا يخفى عليك أنه وإن سلِّم كونُه أنسب، إلا أنه لم يوجَد فيما نعلم من الآثار الصحيحة ما يؤيده، ومن هنا يُعلم بُعْدُ القول بأنَّ الأَوْلى إجراءُ الموصول على عمومه، شاملاً لكلِّ مَن يأتي بشيءٍ من الحسنات فيفرحُ به فرحَ إعجاب، ويودُّ أن يمدحه الناسُ بما هو عارٍ منه من الفضائل، منتظماً للمعهودين انتظاماً أوّلياً، على أنه قد اعتُرض بأنَّ انتظام المعهودين مطلقاً، فضلاً عن كونه أوَّليًا غيرُ مُسلَّم إلا إذا عُمِّم ما في «بما أَتوا» بحيث يشمل الحسنات الحقيقية وغيرها، أما إذا خُصَّ بالحسنات كما يوهمه ظاهرُ هذا القول، فلا يسلم الانتظام؛ لأنَّ أولئك الفرحين لم يأتوا بحسنةٍ في نفس الأمر ليفرحوا بها فرحَ إعجاب كما لا يخفى، ولعلَّ الأمر في هذا سهلٌ، نعم يزيده بُعداً ما أخرجه الإمام أحمد والبخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ والنسائيُّ والبيهقيُّ في «الشعب»[1] من طريق حُميد بن عبد الرحمن، أنَّ مروان قال لبوَّابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل: لئن كان كلُّ امرئٍ منَّا فَرِحَ بما أُوتي وأَحَبَّ أن يُحمَد بما لم يفعل مُعذَّباً، لَنُعَذَّبَنَّ أجمعون. فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية؟ إنما أُنزلت هذه الآية في أهل الكتاب. ثم تلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى آخر الآيتين.

فإنه لو كان الأَولى إجراءُ الموصول على عمومه، لأجراه حَبْرُ الأمة وترجمان القرآن، وأزالَ الإشكال بتقييد الفرح بفرح الإعجاب، كما فعل صاحب هذا القول.

ولا يلزم من كلام الحبر على هذا عدمُ حُرمةِ الفرحِ فرحَ إعجاب، وحبِّ الحمد بما لم يفعل بالمرة، بل قصارى ما يلزم منه عدمُ كون ذلك مفادَ الآية كما قيل، وهو لا يستلزم عدمَ كونه مفاد شيءٍ أصلاً ليكون ذلك قولاً بعدم الحرمة، كيف وكثيرٌ من النصوص ناطقٌ بحرمة ذلك، حتى عدَّه البعض من الكبائر، فليُفهم.

وأيًّا ما كان، فالموصولُ مفعولٌ أولُ لـ «تحسبنَّ»، وقولُه تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ تأكيدٌ له، والعربُ ـ كما قال الزجَّاج[2] ـ إذا طالت[3] القصة تُعيد «حسبت»

---

(١) مسند أحمد (٢٧١٢)، وصحيح البخاري (٤٥٦٨)، وصحيح مسلم (٢٧٧٨)، وسنن الترمذي (٣٠١٤)، وسنن النسائي الكبرى (١١٠٢٠)، وشعب الإيمان (٧٠١٩).

(٢) في معاني القرآن ١/ ٤٩٨.

(٣) في (م): أطالت، والمثبت من الأصل ومعاني القرآن.

وما أشبهها؛ إعلاماً بأنَّ الذي جرى متَّصلٌ بالأول، وتوكيدٌ له، فتقول: لا تَظُنَّنَّ زيداً إذا جاءك وكلَّمك بكذا وكذا، فلا تظنَّنه صادقاً، فتعيد[1] «لا تظننَّ» توكيداً وتوضيحاً. والفاء زائدةٌ كما في قوله:

فإذا هلكتُ فعند ذلك فاجزعي[2]

والمفعول الثاني في قوله سبحانه: ﴿بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: متلبِّسين بنجاةٍ منه، على أنَّ المفازة مصدرٌ ميميٌّ بمعنى الفَوز، والتاء ليست للوَحدة لبناء المصدر عليه، و«من العذاب» متعلِّقٌ به.

وجُوِّز أن تكون المفازة اسمَ مكان، أي: محلّ فوزٍ ونجاة، وأن يُستعار من المفازة للقَفْر، وحينئذٍ يكون «من العذاب» صفةً له؛ لأنَّ اسمَ المكان لا يعمل، ولابدَّ من تقدير المتعلَّق خاصًّا، أي: منجيةٍ من العذاب. وتقديره عامًّا ـ أي: بمفازةٍ كائنةٍ من العذاب ـ غيرُ صحيح؛ لأنَّ المفازةَ ليست من العذاب. واعتُرض بأنَّ تقديرَه خاصًّا مع كونه خلافَ الأصل، تعسُّفٌ مستغنًى عنه.

وقُرئ بضمِّ الباء الموحَّدة في الفعلين[3]، على أنَّ الخطاب شاملٌ للمؤمنين أيضاً، وبياء الغيبة وفتح الباء فيهما[4]، على أنَّ الفعل له عليه الصلاة والسلام، أو لكلِّ مَن يتأتَّى منه الحسبان، ومفعولاه في القراءتين كما ذُكر من قبل.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير بالياء وفتح الباء في الفعل الأول، وبالياء وضمِّ الباء في الفعل الثاني[5]، على أنَّ فاعلَ «لا يَحْسِبَن»: «الذينَ» بعده، ومفعولاه محذوفان، يدلُّ عليهما مفعولا مؤكِّده، وفاعلُ مؤكِّده ضميرُ الموصول، ومفعولاه ضميرُ «هم» و«بمفازة»، أي: لا يَحْسِبَنَّ الذي يفرحون بما أَتوا، فلا يَحْسِبُنَّ أنفسَهم بمفازة.

---

(١) في (م): فلا تظنه صادقاً فيفيد، والمثبت من الأصل ومعاني القرآن.

(٢) هذا عجز بيت للنمر بن تولب، وهو في الكتاب ١/ ١٣٤، والكامل للمبرد ٣/ ١٢٢٩، والخزانة ١/ ٣١٤، وصدره: لا تجزعي إن مُنْفِساً أَهلكتُه.

(٣) نسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٥٥٣ للضحاك.

(٤) الكشاف ١/ ٤٨٦.

(٥) مع كسر السين فيهما. التيسير ص ٩٢-٩٣، والنشر ٢/ ٢٤٦.

ويجوز أن يكون المفعولُ الأولُ لـ «لا يَحْسِبَنَّ» محذوفاً، والمفعول الثاني مذكوراً، أعني[١] «بمفازة»، أي[٢]: لا يَحْسِبَنَّ الذين يفرحون أنفسَهم فائزين، وقوله تعالى: ﴿فلا يَحْسِبُنَّهم﴾ مؤكِّدٌ، والفاء زائدةٌ كما مرَّ.

وأنْ يكون كلا مفعولي «لا يَحسِبَنَّ» مذكوراً؛ الأول ضميرُهم المتصلُ بالفعل الثاني، والثاني «بمفازة»، وهو مبنيٌّ على جَعْلِ التأكيد هو الفعلُ والفاعلُ فقط على ما هو الأنسب؛ إذ ليس المذكور سابقاً سواهما.

ورُدَّ بأنَّ فيه اتِّصالَ ضميرِ المفعول بغير عامله، أو فاعلِه المتصل بعامله، ولم يقل به أحدٌ من النحاة، وإن كان فيه تحاشٍ عن الحذف في هذا الباب.

وفيه نظر؛ إذ قد صرَّح كثيرٌ بجواز ذلك، وقد أُفردتْ هذه المسألةُ بالتدوين.

وجُوِّزَ أيضاً أن يكون الفعل الأول مسنَداً إلى ضمير النبيِّ ﷺ، أو كلِّ حاسِبٍ، والمفعول الأول الموصول، والمفعول الثاني محذوفاً لدلالة مفعول الفعل الثاني عليه، والفعل الثاني مسنَداً إلى ضمير الموصولِ، والفاء للعطف؛ لظهور تفرُّع عدم حسبانهم على عَدَمِ حسبانِه عليه الصلاة والسلام، أو عَدَمِ حسبان كلِّ حاسب، ومفعولاه الضميرُ المنصوب و«بمفازة».

وتصديرُ الوعيد بنهيهم عن الحسبان المذكور ـ على ما قال شيخ الإسلام[٣] ـ للتنبيه على بطلان آرائهم الركيكة، وقطع أطماعهم الفارغة، حيث كانوا يزعمون أنهم ينجون بما صنعوا من عذاب الآخرة كما نَجَوْا به من المؤاخذة الدنيوية، وعليه كان مَبْنَى فرحِهم، وأما نهيه ﷺ فللتعريض بحسبانهم المذكور، لا لاحتمال وقوع الحسبان من جهته ﷺ.

وأنت تعلم أنَّ تعليل التصدير بما ذُكر على تقدير إجراء الموصول على عمومه ـ على ما مرَّ ـ غيرُ ظاهر، إلا أن يقال بالتغليب.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ بيانٌ لثبوت فرْدٍ من العذاب لا غايةَ له في المدة

---

(١) قبلها في (م): أي، والمثبت من الأصل، وهو الصواب.
(٢) في (م): أن، والمثبت من الأصل، وهو الصواب.
(٣) أبو السعود في تفسيره ٢/١٢٦، وما قبله منه.

والشدة، إثر ما أُشير إليه من عدم نجاتهم من مطلق العذاب، ويلوِّح بذلك الجملةُ الاسميةُ، والتنكيرُ التفخيميُّ، والوصف.

وجُوِّز أن يكون هذا إشارةً إلى العذاب الأخرويِّ، ويُحمل نفيُ النجاة من العذاب فيما تقدَّم على نفي العذاب العاجل، وهو كونُهم مذمومينَ مردودينَ فيما بين الناس؛ لأنَّ لباس الزُّور لا يبقى، وينكشفُ حالُ صاحبه ويفتضح.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقريرٌ لِمَا قبله، حيث أفاد أنَّ لله وحده السلطانُ القاهرُ في جميع العالم يتصرَّفُ فيه كيفما يشاء ويختار، إيجاداً وإعداماً، إحياءً وإماتةً، تعذيباً وإثابةً، ومَن هو كذلك فهو مالكُ أَمرِهم، لا رادَّ له عمَّا أراد بهم.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ تقريرٌ إثرَ تقرير، والإظهارُ في مقام الإضمار لتربية المهابة مع الإشعار بمناطِ الحكم، فإنَّ شمول القدرة لجميع الأشياء من أحكام الألوهية، والرمزِ إلى استقلال كلٍّ من الجملتين بالتقرير.

وقيل: مجموعُ الجملتين مسوقٌ لردِّ قول اليهود السابق: إنَّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء. وضُعِّف بالبُعد، ولو قيل: وفيه ردٌّ، لهانَ الأمر.

❁ ❁ ❁

هذا، ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ لتوقُّع الضرر، أو لشدَّة الغيرة ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ لحجابهم الأصلي وظلمتهم الذاتية ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ فإنَّ ساحة الكبرياء مقدَّسةٌ عن هجوم ظِلال الضَّلال، أو المراد: لن يضرُّوك أيُّها المَظْهَرُ الأعظم، إلا أنه تعالى أَقام نفسَه مُقام نفسِه ﷺ، وفي الآية إشارةٌ إلى الفَرْق والجمع[1].

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ إظهاراً لصفة قهره ﴿أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لِعِظَم حجابهم ونَظَرهم إلى الأغيار.

---

(١) الفرق ما نسب إليك، والجمع ما سلب منك، ومعناه أن ما يكون كسباً للعبد من إقامة وظائف العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وابتداء لطف وإحسان فهو جمع، ولابد للعبد منهما، فإن مَن لا تفرقة له لا عبودية له، ومَن لا جمع له لا معرفة له. التعريفات للجرجاني ص ١٠٥.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ﴾ وأخذوه ﴿بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ بدله؛ لقُبْح استعدادهم وسوء اختيارهم الغير المجعول ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ ولكنْ يضرُّون أنفسَهم لحرمانها تجلِّي الجمال ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لكونهم غدَوا بذلك مَظْهَرَ الجلال.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ ونزيدُ في مَدَدهم ﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ ينتفعون به في القُرْب إلينا ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ بسبب ذلك، لازديادهم حجاباً على حجاب، وبُعْداً على بُعْد ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لفرط بُعْدِهم عن منبع العزِّ.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من ظاهر الإسلام وتصديق اللسان ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ﴾ من صفات النفس وحظوظِ الشيطان ودواعي الهوى ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ وهو صفات القلب كالإخلاص، واليقين، والمكاشفة، ومشاهدة الروح، ومناغاة السِّرِّ ومُسامَراته، وذلك بوقوع الفتن والمصائب بينكم.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ أي: غيبِ وجودكم من الحقائق الكامنة فيكم، بلا واسطةِ الرسولِ؛ للبعد وعدم المناسبة، وانتفاءِ استعداد التلقِّي منه سبحانه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فيطلعه على ذلك ويهديكم إلى ما غاب عنكم من كنوز وجودكم وأسراره، للجنسية التي بينكم وبينه ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ بالتصديق والتمسُّك بالشريعة ليُمكنكم التلقِّي منهم ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ﴾ بعد ذلك الإيمانَ الحقيقيَّ الحاصلَ بالسلوك والمتابعة في الطريقة ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الحُجُبَ والموانع ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ من كَشْف الحقيقة.

وقد يقال: إنَّ للهِ تعالى غيوباً: غيبَ الظاهر، وغيبَ الباطن، وغيبَ الغيب، وسرَّ الغيب، وغيبَ السِّرِّ.

فغيبُ الظاهر: هو ما أخبر به سبحانه عن[1] أَمْر الآخرة. وغيبُ الباطن: هو غيبُ المقدرات المكنونة عن قلوب الأغيار. وغيبُ الغيب: هو سرُّ الصفات في الأفعال. وسِرُّ الغيب: هو نور الذات في الصفة. وغيبُ السِّرِّ: هو غيبُ القِدَم وسرُّ الحقيقة.

---

(١) في الأصل: من.

والاطِّلاع بالواسطة ـ على ما عدا الأخير ـ واقعٌ للسالكين على حَسَبِ مراتبهم، وأما الاطِّلاع على الأخير فغير واقعٍ لأحدٍ أصلاً، فإنَّ الأزلية منزَّهةٌ عن الإدراك وخاصة بنبينا ﷺ، من ذلك المعنى رؤيته بنعت الكَشْف له، وابتسامُ صباح الأزل في وجهه، لا بنعت الإحاطة والإدراك.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من المال، أو العلم، أو القدرة، أو النفس، فلا ينفقونه في سبيل الله على المستحقِّين، أو المستعدِّين، أو الأنبياء والصِّدِّيقين في الذَّبِّ عنهم، أو في الفناء في الله تعالى ﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ﴾ لاحتجابهم به ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ ويُلزَمون وَباله، ويبقى ذلك حسرةً في قلوبهم عند هلاكهم على ما يشير إليه[1] قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾.

وقد ذكر بعض العارفين أنَّ من أعظم أنواع البخل كَتْمَ الأسرار عن أهلها، وعدمَ إظهار مواهب الله تعالى على المريدين، وإبقاءهم في مهامِهِ الطريق مع التمكُّن من إرشادِهم.

ويقال: إنَّ مبنى الطريق على السخاء، وإنَّ السخاء بالمال وصفُ المريدين، والسخاء بالنفس وصفُ المحبِّين، وبالروح وصفُ العارفين.

وقال ابن عطاء: السخاءُ: بذلُ النفس والسِّرِّ والروح والكلّ، ومَن بَخِلَ في طريق الحقِّ بماله، حُجب وبقي معه، ومَن نظر إلى الغير حُرم فوائدَ الحقِّ وسواطعَ أنوار القرب.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ﴾ وهم اليهود حيث سمعوا الاستقراض ولم يفهموا سرَّه، فوقعوا فيما وقعوا، وقالوا ما قالوا. وهذا القول إنما يجرُّ إليه الطغيان وغلبةُ الصفات الذميمة، واستيلاءُ سلطان الهوى على النفس الأمَّارة، فتطلب حينئذٍ الارتداءَ برداء الربوبية، ومن هنا تقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] أحياناً، مع حجابها وبُعدها عن الحضرة.

(١) قوله: إليه، ليس في (م).

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ قيل: إنه روي أنَّ أنبياءَ بني إسرائيل كانت معجزتهم أن يأتوا بقُربان فيدعوا الله تعالى، فتأتي نارٌ من السماء فتأكله، وتأويله أن يأتوا بنفوسهم يتقرَّبون بها إلى الله تعالى، ويدعون بالزهد والعبادة، فتأتي نارُ العشق من سماء الروح، فتأكله وتفنيه في الوحدة، وبعد ذلك تصحُّ نبوَّتهم وتظهر، فلما سمع بذلك عوامُّ بني إسرائيل اعتقدوا ظاهره الممكنَ في عالم القدرة، فاقترحوا على كلِّ نبيٍّ تلك الآية، إلى أن جاء نبيُّنا ﷺ، فاقترحوا عليه، ونقَلَ الله تعالى ذلك لنا، وردَّه عليهم.

وأَوْلى من هذا في باب التأويل: أنَّ يهودَ صفاتِ النفس البهيمية والشيطانية قالوا لرسول الخاطر الرحمانيِّ والإلهام الرباني: لانَنقادُ لك ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ﴾ هو الدنيا وما فيها، تجعلها نسيكةً لله عزَّ وجلَّ، فتأكلها نارُ المحبة.

﴿قُلۡ﴾ يا وارد الحق ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي﴾ أي: واردات الحق ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجج الباهرة ﴿وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ﴾ وهو جَعْلُ الدنيا وما فيها قرباناً ﴿فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ﴾ أي: غلبتموهم ومحوتموهم حتى لم تُبقوا أثراً لتلك الواردات ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في أنكم تؤمنون لمن يأتيكم بذلك.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ خطابٌ للرسول الأعظم ﷺ ﴿فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ للعوام ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ للمتوسِّطين ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ للخواصِّ.

ويحتمل أن يكون الأول إشارةً إلى توحيد الأفعال، والثاني إلى توحيد الصفات، والثالث إلى توحيد الذات المشارِ إليه بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥] ولهذا أتى بالكتاب مفرداً، ووصفه بالمنير.

وجُوِّز أن يكون الخطابُ للوارد الرحماني، والرسلُ إشارةٌ إلى الواردات المختلفة المتنوِّعة.

﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ حكمٌ شاملٌ لجميع الأنفس، مجرَّدةً كانت أو بسيطة، بحَمْل الموت على ما يشمل الموت الطبيعي والفناء في الله سبحانه وتعالى ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ﴾ على اختلافها يوم القيامة ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ أي: نار الحجاب، أو ما يعمُّها والنار المعروفة ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ المتنوِّعة إلى ما قدَّمناه

غيرَ مرَّة، أو الجنة بالمعنى الأعم ﴿فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ﴾ ولذاتها الفانية ﴿إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ﴾ لأنها الحجاب الأعظم لمن نظر إليها من حيث هي.

﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ أي: لَتُختبرُنَّ ﴿فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بإيجاب إنفاقها مع ميلكم إليها ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بتعريضها لما(١) يكاد يجرُّ إلى إتلافها مع حبِّكم لها.

وقال بعض العارفين: إنَّ الله تعالى أظهرَ النفسَ وزيَّنها بكسوة الربوبية، ومَلأَها باللُّطف والقهر، وكساها زينةَ الملك من الأموال ابتلاءً وامتحاناً.

فمن نظر إلى نفسه بعين زينة الربوبية فَنِيَتْ نفسُه فيها، ونطق لسانُ الربوبية منه، وصار كشجرة موسى عليه السلام حيث نطق الحقُّ منها، وذلك مثل الحلَّاج القائل: أنا الحقُّ(٢).

ومَن نظر إلى زينة الأموال التي هي زينةُ الملك، صار حالُهُ كحال سليمان عليه السلام حيث كان ينظر إلى عِظَم جلال المولى من خلال تلك الزينة.

ومَن نظر إلى نفسه من حيث إنها نفسه واغترَّ بالسَّراب، ولم يحقق بالذوق ما عنده، صار حاله كحال فرعون إذ نادى ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

ومَن نظر إلى خضرة الدنيا، وحسا كأسَ شهواتها، وسَكِرَ بها، صار كبلعام ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦] وهذا وجهُ الابتلاء بالأموال والأنفس، وأيُّ ابتلاءٍ أعظمُ من رؤية الملك، ورؤية الربوبية في الكون الذي هو محلُّ الالتباس.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهم أهل مقام الجمع ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ وهم أهل الكثرة ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ لنطقهم بما يخالف مشربكم.

---

(١) في الأصل: إلى ما.

(٢) الحلاج هو الحسين بن منصور بن محمي الفارسي، وكان جده محمي مجوسيًا، وقد تبرأ منه سائر الصوفية والمشايخ والعلماء بسبب سوء سيرته ومروقه، ومنهم مَن نسبه إلى الحلول، ومنهم مَن نسبه إلى الزندقة. سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣١٣. وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٢/ ٤٨٠: مَن اعتقد ما يعتقده الحلاج من المقالات التي قتل الحلاج عليها فهو كافر مرتد باتفاق المسلمين؛ فإن المسلمين إنما قتلوه على الحلول والاتحاد ونحو ذلك من مقالات أهل الزندقة والإلحاد، كقوله: أنا الله، وقوله: إله في السماء وإله في الأرض.

والخطاب للمتوسِّطين من السالكين، فإنهم ينكرون على أهل مقام الجمع وعلى أهل الكثرة جميعاً، ما داموا غير واصلين إلى توحيد الذات، وغير كارعين من بحار الفرق بعد الجمع.

﴿وَأَن تَصْبِرُواْ﴾ على مجاهدة أنفسكم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ النظر إلى الأغيار ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: من الأمور المطلوبة التي تجرُّ إلى المقصود والفوزِ بالمطلوب.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ الظاهر هنا عدمُ صحة إرادة المعنى الذي أُريد من الذين أوتوا الكتاب آنفاً، ومَن حَمَلَه عليه تكلَّف جدًّا، فلعلَّه باقٍ على ظاهره، أو أنه إشارةٌ إلى العلماء مطلقاً، وضمير ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ إلخ راجعٌ إليهم باعتبار البعض، فتدبَّر.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ أي: يُعجَبون بما فعلوا من طاعة، ويُحجبون برؤيته ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ﴾ أي: يحمدهم الناس، فهم محجوبون بغرض الحمد والثناء من الناس، أو أن يكونوا محمودين عند الله ﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ بل فَعَلَه الله تعالى على أيديهم؛ إذ لا فِعْلَ حقيقةً إلا لله تعالى ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو عذابُ الحرمان والحجاب.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ ليس لأحدٍ فيهما شيء، وهو المتصرِّف فيها وفيما اشتملتا عليه، فكيف يعجب مَنْ ظَهَرَ على يده فِعْلٌ بما ظهر ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يقدر سواه على فعلٍ ما حتى يُحجَب برؤيته.

❁ ❁ ❁

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تأكيدٌ لِمَا قبله، وإقامةُ دليلٍ عليه، ولذا لم يُعطَف، وأتى بكلمة «إنَّ» اعتناءً بتحقُّق مضمون الجملة، أي: إنَّ في إيجادهما وإنشاءهما على ما هما عليه من العجائب والبدائع.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: تَعاقُبِهما، ومجيءِ كلٍّ منهما خلفَ الآخر، بحسب طلوع الشمس وغروبها التابعَيْنِ لسباحتها في بحر قدرته سبحانه حَسبَ

إرادته، وخبرُ الخرزتين[١] خارجٌ عن سِلْك القبول، وبفرض نَظْمه فيه مؤوَّلٌ، وثقبُ التأويل واسعٌ.

وكونُ ذلك تابعاً لحركة السماوات وسكون الأرض ـ كما قاله مولانا شيخ الإسلام[٢]ـ مخالفٌ لما ذهب إليه جمهور أهل السنَّة من المحدِّثين وغيرهم، من سكون السماوات وتحرُّك النجوم أنفسِها بتقدير الله تعالى العليم، وما ذهب إليه هو مذهب الحكماء المشهورُ بين الناس.

وقد ذكر مولانا الشيخ الأكبر قُدِّس سِرُّه ما يخالفه أيضاً، حيث قال: إنَّ الله سبحانه جعل هذه السماوات ساكنةً، وخَلَق فيها نجوماً تَسْبَحُ بها، وجَعَلَ لها في سباحتها حركاتٍ مقدَّرةً لا تزيد ولا تنقص، وجعلها تسيرُ في جِرْم السماء الذي هو مساحتها، فتخرق الهواء المماسَّ لها، فيحدث بسيرها أصواتٌ ونغماتٌ مُطربةٌ لكون سيرها على وزنٍ معلوم، فتلك نغماتُ الأفلاك الحادثةُ من قَطْع الكواكب المسافات السماوية، وجعل أصحاب علم الهيئة للأفلاك ترتيباً ممكناً في حكم العقل، وجعلوا الكواكب في الأفلاك كالشَّامات على سطح الجسم، وكلُّ ما قالوه يعطيه ميزانُ حركاتها، وإنَّ الله تعالى لو فعل ذلك كما ذكروه لكان السيرُ السيرَ بعينه، ولذلك يصيبون في علم الكسوفات ونحوه، وقالوا: إنَّ السماوات كالأُكَر[٣] وإن الأرض في جوفها، وذلك كلُّه ترتيبٌ وضعيٌّ يجوز في الإمكان غيره، وهم مصيبون في الأوزان، مخطئون في أنَّ الأمر كما رتَّبوه، فليس الأمر إلا على ما ذكرناه شهوداً. انتهى.

ويؤيد دعوى أنه يجوز في الإمكان غيره، ما ذهب إليه أصحاب الزِّيج[٤]

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٩١٢) عن سلمان قال: الليل موكل به ملك يقال له شراهيل، فإذا جاء وقت الليل أخذ خرزة سوداء فدلاها من قبل المغرب، فإذا نظرت إليها الشمس وجبت في أسرع من طرفة عين... فلا تزال الخرزة معلقة حتى يجيء ملك آخر يقال له هراهيل بخرزة بيضاء فيعلقها من قبل المطلع... إلخ.

(٢) أبو السعود في تفسيره ٢/ ١٢٧.

(٣) الأُكَر: الحُفَرُ في الأرض، والأُكْرَة: الحفرة في الأرض يجتمع فيها الماء فيُعرف صافياً. لسان العرب (أكر).

(٤) الزِّيج: كتاب يحسب فيه سير الكواكب، وتستخرج التقويمات. التاج (زيج).

الجديد من أنَّ الشمس ساكنةٌ لا تتحرَّك أصلاً، وأنها مركزُ العالم، وأنَّ الأرض وكذا سائر السيارات والثوابت تتحرَّك عليها، وأقاموا على ذلك الأدلةَ والبراهين بزعمهم، وبنوا عليه الكسوف والخسوف ونحوهما، ولم يتخلَّف شيءٌ من ذلك، فهذا يُشعرُ بأنه لا قَطْعَ فيما ذهب إليه أصحاب الهيئة.

ويحتمل أن يُراد باختلاف الليل والنهار: تفاوتُهما بازدياد كلٍّ منهما بانتقاص الآخر، وانتقاصه بازدياده، باختلاف حال الشمس بالنسبة إلينا قرباً وبُعْداً بحسب الأزمنة.

أو في اختلافهما وتفاوتهما بحسب الأمكنة: إما في الطُّول والقِصَر، فإنَّ البلاد القريبة من قُطْب الشمال أيامُها الصيفيةُ أطول، ولياليها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها، وإما في أنفسهما فإنَّ كُرَيَةَ الأرض تقتضي أن يكون بعض الأوقات في بعض الأماكن ليلاً، وفي مقابله نهاراً، وفي بعضها صباحاً، وفي بعضها ظهراً أو عصراً أو غير ذلك.

وهذا مما لا شبهةَ فيه عند كثير من الناس، وذكره شيخ الإسلام[1] أيضاً، وليس بالبعيد، بل اختلاف الأوقات في الأماكن مشاهَدٌ محسوسٌ لا يختلف فيه اثنان، إلا أنَّ في كُرية الأرض اختلافاً، فقد ذكر مولانا الشيخ الأكبر قُدِّس سِرُّه أنَّ الله تعالى بعد أن خلق الفلك المُكوكَبَ في جوف الفلك الأطلس، خلق الأرض سَبْعَ طبقات، وجعل كلَّ أرضٍ أصغرَ من الأخرى، ليكون على كلِّ أرض قُبَّةُ سماء، فلما تمَّ خَلْقُها وقَدَّر فيها أقواتها، واكتسى الهواءُ صورةَ البخار الذي هو الدخان، فَتَقَ ذلك الدخانَ سبعَ سماوات طباقاً، وأجساماً شفافةً، وجعلها على الأرضين كالقِباب، على كلِّ أرضٍ سماءٌ أطرافُها عليها نصفُ كرة، وكرةُ الأرض لها كالبساط، فهي مَدْحيةٌ دحاها من أجل السماء أن تكون عليها، وجعل في كلِّ سماءٍ من هذه واحدة من الجواري على الترتيب المعروف. انتهى.

والقلب يميل إلى الكرية، والله لا يستحيي من الحق؛ وما ذهب إليه الشيخ الأكبر قُدِّس سِرُّه أمرٌ شهوديٌّ، وفيه الموافق والمخالف لما ذهب إليه معظم المحدِّثين وأكثر علماء الدين.

---

(١) في تفسيره ٢/ ١٢٧.

والذي قطع به بعض المحققين أنه لم يَجِئْ في الأحاديث الصحيحة المرفوعة ما يُفَصِّل أَمْرَ السماوات والأرض أتمَّ تفصيل؛ إذ ليست المسألةُ من المهمَّات في نظر الشارع ﷺ، والمهمُّ في نظره منها واضحٌ لا مِرْية فيه، وسبحان مَن لا يتعاصى قدرتَه شيءٌ.

والليل واحدٌ بمعنى جَمْع، وواحده ليلة، مثل تمرةٍ وتمرٍ، وقد جُمع على ليالٍ، فزادوا فيها الياء على غير قياس، ونظيره أَهلٌ وأهالٍ. ويقال: كان الأصل فيها ليلاةٌ، فحذفت؛ لأنَّ تصغيرها لُيَيْلية. كذا في الصحاح[1].

وصحَّح غيرُ واحدٍ أنه مفرَدٌ، ولا يُحفَظُ له جمع، وأنَّ القولَ بأنه جمعٌ، والليالي جمعُ جمعٍ، غيرُ مرضيٍّ. فافهم.

وقد تقدَّم الكلامُ مستوفًى في الليل والنهار، ووجه تقديم الأول على الثاني[2].

﴿لَآيَٰتٍ﴾ أي: دلالات على وحدة الله تعالى وكمالِ علمه وقدرته، وهو اسمُ «إنَّ» وقد دخله اللامُ لتأخُّره عن خبرها، والتنوين فيه للتفخيم كمًّا وكيفاً، أي: آياتٍ كثيرةٍ عظيمة، وجَمْعُ القِلَّة هنا قائمٌ مقام جَمْع الكثرة، قيل: وفي ذلك رمزٌ إلى أنَّ الآيات الظاهرة وإن كانت كثيرةً في نفسها، إلا أنها قليلةٌ في جنب ما خفي منها في خزائن العلم ومكامن الغيب، ولم يظهر بعد.

﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ أي: لأصحاب العقول الخالصة عن شوائب الحسِّ والوَهْم، ومنه خبر: «إنَّ الله تعالى منع منِّي بني مُدْلج، لِصِلَتِهم الرَّحِمَ، وطَعْنِهم في ألباب الإبل»[3] أي: خالص إبلهم وكرائمها، ويقال: لَبَّ يَلَبُّ، كَعَضَّ يَعَضُّ، إذا صار لبيباً، وهي لغة أهل الحجاز، وأهل نجدٍ يقولون: لَبَّ يَلِبُّ كَفَرَّ يفِرُّ. ويقال: لَبِبَ الرجل بالكسر، يَلْبَبُ[4] بالفتح، إذا صار ذا لُبٍّ، وحُكي: لَبُبَ بالضم، وهو نادرٌ لا نظير له في المضاعَف.

(١) مادة (ليل).
(٢) عند تفسير الآية (١٦٤) من سورة البقرة.
(٣) ذكره أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٢٩-٣٠، والزمخشري في الفائق ١/ ٣٠، وابن الأثير في النهاية ٤/ ٢٢٢.
(٤) في (م): يلب.

ووجهُ دلالةِ المذكورات على وحدته تعالى: أنها تدلُّ على وجود الصانع لتغيُّرها المستلزم لحدوثها واستنادِها إلى مؤثِّرٍ قديم، ومتى دَلَّتْ على ذلك لَزِمَ منه الوحدة.

ووجه دلالتها على ما بعدُ: أنها في غاية الإتقان ونهاية الإحكام لمَن تأمَّل فيها، وتفكَّر في ظاهرها وخافيها، وذلك يستدعي كمالَ العلم والقدرة كما لا يخفى.

وللمتكلِّمين في الاستدلال على وجود الصانع بمثل هذه المذكورات طريقان: أحدهما طريق التغيُّر، والثاني طريق الإمكان، والأكثرون على ترجيح الثاني، والبحث مفصَّلٌ في موضعه.

وإنما اقتصر سبحانه هنا على هذه الثلاثة بعد ما زاده في «البقرة»[(١)]؛ لأنَّ الآيات على كثرتها منحصرةٌ في السماوية والأرضية والمركَّبة منهما، فأشار إلى الأوَّلَيْنِ بخلق السماوات والأرض، وإلى الثالثة باختلاف الليل والنهار؛ لأنهما من دَوَران الشمس على الأرض، أو لأنهما بواسطة مُفيضٍ بحسب الظاهر وهو الجِرْمُ العلويُّ، وقابلٍ للإفاضة وهو الجِرْمُ السفليُّ القابلُ للظُّلْمة والضياء. قاله بعضهم.

وقال ناصرُ الدين[(٢)]: لعلَّ ذلك لأنَّ مناطَ الاستدلال هو التغيُّر، وهذه الثلاثةُ متعرِّضةٌ لجملة أنواعه، فإنه إنما يكون في ذات الشيء كتغيُّر الليل والنهار، أو جزئه كتغير العناصر بتبدُّل صُوَرها، أو الخارج عنه كتغيُّر الأفلاك بتبدُّل أوضاعها.

واعتُرض بأنه مبنيٌّ على مذهب الحكماء في إثبات الهَيُولَى[(٣)] والصورة والأوضاع الفلكية، فلا يناسب تخريج كتاب الله تعالى عليه.

ولعلَّ الأولى من هذا وذاك، ما قاله شيخ الإسلام في عدم التعرُّض لما ذُكر في تلك السورة، من أنَّ المقصود هاهنا بيانُ استبداده تعالى بما ذكر من المُلْك

(١) الآية (١٦٤).

(٢) هو البيضاوي، والكلام في تفسيره مع حاشية الشهاب ٣/ ٨٩.

(٣) الهَيُولَى: لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة، وفي الاصطلاح: هو جوهر في الجسم قابل لمَا يَعْرِضُ لذلك الجسم من الاتصال والانفصال، أو هو موجود بلا كمية ولا كيفية، ولم يقترن به شيء من سمات الحدث، ثم حلت به الصنعة واعترضت به الأعراض فحدث منه العالم. ينظر التعريفات للجرجاني ص٣٢١، والقاموس (هال).

والقدرة، والثلاثةُ المذكورةُ معظمُ الشواهد الدالَّةِ على ذلك، فاكتفى بها، وأما هناك فقد قَصَدَ في ضمن بيان اختصاصه تعالى بالألوهية بيانَ اتِّصافه تعالى بالرحمة الواسعة، فنُظمت دلائل الفضل والرحمة في سلك دلائل التوحيد، فإنَّ ما فُصِّل هناك من آيات رحمته تعالى كما أنه من آيات ألوهيَّته ووحدته[1].

ومما يؤيِّد كونَ المذكورات معظمُ الشواهد الدالَّةِ على التوحيد، ما أخرجه الطبرانيُّ وابن مردويه وغيرُهما عن ابن عباس أنه قال: أَتتْ قريشٌ اليهودَ فقالوا: ما جاءكم به موسى من الآيات؟ قالوا: عصاهُ، ويدهُ بيضاءُ للناظرين. وأتوا النصارى فقالوا: كيف كان عيسى فيكم؟ قالوا: كان يبرئُ الأَكْمَه والأبرصَ ويُحيي الموتى. فأتوا النبيَّ ﷺ فقالوا: ادعُ لنا ربك يجعل لنا الصَّفا ذهباً. فدعا ربَّــه فــنــزلــت: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾[2].

وأخرج ابن حبان في صحيحه وابن عساكر وغيرهما عن عطاء قال: قلت لعائشة ﵂: أخبريني بأعجبِ ما رأيت من رسول الله ﷺ، قالت: وأيُّ شأنِه لم يكن عجباً؟ إنه أتاني ليلةً فدخل معي في لحافي ثم قال: «ذَريني أتعبَّد لربِّي»، فقام فتوضَّأ ثم قام يصلِّي، فبكى حتى سالت دموعُه على صدره، ثم ركع فبكى، ثم سجد فبكى، ثم رفع رأسه فبكى، فلم يَزَلْ كذلك حتى جاء بلال فآذَنه بالصلاة، فقلت: يا رسول الله، ما يبكيك وقد غفر الله تعالى لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً؟ ولِمَ لا أفعل وقد أنزل الله تعالى عليَّ في هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾» ثم قال: «ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكَّر فيها»[3].

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/١٢٨.

(٢) المعجم الكبير (١٢٣٢٢)، وأخرجه أحمد (٢١٦٦) بنحوه.

(٣) صحيح ابن حبان (٦٢٠)، وأخرج أحمد (٢٤٨٤٤)، والبخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) عن عائشة ﵂ أن نبيَّ الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

وكان ﷺ ـ على ما روي عن عليٍّ كرَّم الله وجهه ـ إذا قام من الليل تسوَّك، ثم ينظر إلى السماء ثم يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآية[1].

وأخرج الشيخان وأبو داود والنسائي وغيرهم عن ابن عباس قال: بتُّ عند خالتي ميمونة، فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل، أو قبله بقليل، أو بَعْدَهُ بقليل، ثم استيقظ فجعل يمسح النوم عن وجهه بيديه، ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة آل عمران حتى ختم[2].

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ في موضع جرٍّ على أنه نعتٌ لـ «أولي»، ويجوز أن يكون في موضع رفعٍ أو نصبٍ على المدح، وجَعْلُه مبتدأ والخبر محذوف تقديره: يقولون: ربَّنا آمنَّا، بعيدٌ؛ لِمَا فيه من تفكيك النَّظْم، ويزيده بُعْداً ما أخرجه الأصبهانيُّ في «الترغيب»[3] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ينادي منادٍ يومَ القيامة: أين أُولو الألباب؟ قالوا: أيَّ أولي الألباب تريدُ؟ قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ إلخ عُقد لهم لواءٌ، فاتَّبع القوم لواءَهم، وقال لهم: ادخلوها خالدين».

والظاهر أنَّ المراد من الذكر الذكرُ باللسان، لكنْ مع حضور القلب؛ إذ لا تمدُّح بالذكر بدونه، بل أجمعوا على أنه لا ثوابَ لذاكرٍ غافل، وإليه ذهب كثير، وعدَّ ابن جُريج قراءةَ القرآن ذِكراً، فلا تُكره للمُضطَجِع القادر، نعم نصَّ بعضُ الشافعية على كراهتها له إذا غطَّى رأسه للنوم.

وقال بعض المحققين: المراد به ذكره تعالى مطلقاً، سواءٌ كان ذلك من حيث الذات أو من حيث الصفات والأفعال، وسواء قارَنَه ذكرُ اللسان أَوْ لا، والمعنى

---

(١) أخرجه الثعلبي كما ذكر ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ٣٦، وقال: وأصله في المتفق عليه من حديث ابن عباس. اهـ. وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) صحيح البخاري (١٨٣)، وصحيح مسلم (٧٦٣): (١٨٢)، وسنن أبي داود (١٣٦٧)، وسنن النسائي ٢/ ٢١٠-٢١١. وهو عند أحمد (٢١٦٤).

(٣) كما في الدر المنثور ٢/ ١١٠، والأصبهاني هو إسماعيل بن محمد الملقب بـ «قِوام السنة»، سمع بمكة وجاور سنةً، وأملى وصنَّف، وجرح وعدَّل، وكان من أئمة العربية أيضاً، صنف: الترغيب والترهيب وغيره. توفي سنة (٥٣٥هـ). سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٨٠.

عليه: الذين لا يغفلون عنه تعالى في عامَّة أوقاتهم، باطمئنانِ قلوبهم بذكره، واستغراقِ سرائرهم في مراقبته، وعليه فيُحمل ما حكي عن ابن عمر رضي الله عنهما وعروة بن الزبير، وجماعة رضي الله عنهم من أنهم خرجوا يوم العيد إلى المصلَّى، فجعلوا يذكرون الله تعالى، فقال بعضهم: أما قال الله تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا﴾ فقاموا يذكرون الله تعالى على أقدامهم[1]. على أنَّ مرادَهم بذلك التبرُّكُ بنوعِ موافقةٍ للآية في ضمن فَردٍ من أفراد مدلولها، وليس مرادُهم به تفسيرها وتحقيقَ مصداقها على التعيين، وإلا لاضطجعوا وذكروا أيضاً، ليتمَّ التفسيرُ وتحقيق المصداق.

وأخرج ابن أبي حاتم والطَّبَرانيُّ من طريق جُوَيْبرٍ عن الضَّحاك عن ابن مسعودٍ في الآية أنه قال: إنَّما هذا في الصلاة: إذا لم تستَطِعْ قائماً فقاعداً، وإنْ لم تستطع قاعداً فعلى جَنْبٍ[2].

وكذلك أمر ﷺ عمرانَ بنَ حُصين، وكانت به بواسير، كما أخرجه البخاريُّ عنه[3]. وبهذا الخبر احتجَّ الإمامُ الشافعيُّ رضي الله عنه على أنَّ المريض يصلِّي مضطجعاً على جنبه الأيمن، مستقبلاً بَمقادِمِ بدنه، ولا يجوز له أن يستلقي على ظهره على ما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه.

وجَعْلُ الآية حجةً على ذلك بناءً على أنه لمَّا حُصِرَ أَمْرُ الذاكر في الهيئات المذكورة، دلَّ على أنَّ غيرها ليس من هيئته، والصلاةُ مشتملةٌ على الذكر، فلا ينبغي أن تكون على غير هيئته، محلُّ تأمُّل، وتخصيصُ ابن مسعود الذكرَ بالصلاة لا ينتهض حجةً، على أنه بعيدٌ من سياق النَّظْم الجليل وسباقه.

والقيام والقعود جمع قائمٍ وقاعد، كنيام ورقودٍ، جَمْعُ نائم وراقد، وانتصابُهما على الحالية من ضمير الفاعل في «يذكرون»، ويحتمل أن يكونا مصدرين مُؤَوَّلين بـ: قائمينَ وقاعدين، لتتأتَّى الحالية.

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ١/٤٨٨.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٣/٨٤١، والمعجم الكبير للطبراني (٩٠٣٤). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/٣٢٩-٣٣٠: إسناده منقطع، وفيه جويبر وهو متروك.

(٣) صحيح البخاري (١١١٧)، وهو عند أحمد (١٩٨١٩).

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ معطوفٍ عل الحال، أي: وكائنين على جنوبهم، أي: مضطجعين، وجُوِّز أن يُقدَّر المتعلِّقُ المعطوف خاصًا، أي: ومضطجعين على جنوبهم.

والمراد من ذكر هذه الأحوال الإشارةُ إلى الدوام، وانفهامُه منها عُرْفاً مما لا شبهةَ فيه، وليس المراد الدوامَ الحقيقيَّ لاستحالته، بل في غالب أحوالهم، وبعضُهم يأخذ الدوامَ من المضارع الدالِّ على الاستمرار، وكيفما كان فالمراد: يذكرون الله تعالى كثيراً.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عطفٌ على «يذكرون»، وعَطْفُهُ على الأحوال السابقة غيرُ ظاهر، وتقديمُ الذِّكر في تلك الحالات على التفكُّر لِمَا أنَّ فيهما الاعترافَ بالعبودية، والعبد مركَّبٌ من النفس الباطنة والبدن الظاهر، وفي الأول إشارةٌ إلى عبودية الثاني، وفي الثاني إشارةٌ إلى عبودية الأول؛ لأنَّ التفكُّر إنما يكون بالقلب والروح، وفي بيان العبودية بعد الفراغ من آيات الربوبية ما لا يخفى من اللُّطف.

وقيل: قَدَّم الأول لأنه إشارةٌ إلى النظر في الأنفس، وأَخَّر الثاني لأنه إشارةٌ إلى النظر في الآفاق، ولا شبهة في تقدُّم الأول على الثاني.

وصرَّح مولانا شيخ الإسلام بأنَّ هذا بيانٌ للتفكُّر في أفعاله تعالى، وما تقدَّم بيانٌ للتفكُّر في ذاته تعالى على الإطلاق[١].

والذي عليه أئمةُ التفسير أنه سبحانه إنما خصَّص التفكُّر بالخلق للنهي عن التفكُّر في الخالق، لعدم الوصول إلى كُنْهِ ذاته وصفاته جلَّ شأنه وعزَّ سلطانه، وقد ورد هذا النهيُ في غير ما حديث، فقد أخرج أبو الشيخ والأصبهانيُّ عن عبد الله بن سلام قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يتفكَّرون، فقال: «لا تَفكَّروا في الله تعالى، ولكن تفكَّروا فيما خَلَق»[٢].

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/ ١٢٩.

(٢) العظمة (٢١)، والترغيب والترهيب للأصبهاني كما في الدر المنثور ٢/ ١١٠، وأخرجه ـ أيضاً ـ ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٨٤٢، وفي إسناده عبد الجليل بن عطية، وهو صدوق يهم، وشهر بن حوشب، وهو صدوق كثير الإرسال والأوهام.

وعن عمرو بن مرَّة قال: مرَّ رسول الله ﷺ على قومٍ يتفكَّرون فقال: «تفكَّروا في الخَلْقِ، ولا تفكّروا في الخالق»[١].

وعن ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «تفكَّروا في آلاء الله تعالى، ولا تفكَّروا في الله تعالى»[٢].

وعن ابن عباس: تفكَّروا في كلِّ شيءٍ ولا تفكَّروا في ذات الله تعالى[٣]. إلى غير ذلك.

ففي كون الأول بياناً للتفكُّر في ذاته سبحانه على الإطلاق نظرٌ، على أنَّ بعضَ الفضلاء ذكر في تفسيره أنَّ التفكُّر في الله سبحانه محالٌ، لِمَا أنه يستدعي الإحاطة بمن هو بكلِّ شيءٍ محيط. فتدبَّر.

وقيل: قَدَّم الذِّكر على الدوام على التفكُّر؛ للتنبيه على أنَّ العقل لا يفي بالهداية ما لم يتنوَّر بنور ذِكر الله تعالى وهدايته، فلابدَّ للمتفكِّر من الرجوع إلى الله تعالى ورعايةِ ما شَرَعَ له، وأنَّ العقل المخالفَ للشرع لَبِسَ الضلال، ولا نتيجة لفِكْره إلا الضلال.

والخلق: إما بمعنى المخلوق، على أنَّ الإضافة بمعنى «في»، أي: يتفكَّرون فيما خُلق في السماوات والأرض أعمّ من أن يكون بطريق الجزئية منهما، أو بطريق الحلولِ فيهما. أو على أنها بيانية، أي: في المخلوق الذي هو السماوات والأرض.

وإما باقٍ على مصدريته، أي: يتفكَّرون في إنشائهما وإبداعهما بما فيهما من عجائب المصنوعات، ودقائق الأسرار، ولطائف الحِكَم، ويستدلُّون بذلك على

---

(١) أخرجه هناد في كتاب الزهد (٩٤٥) وهو مرسل. وأخرجه أبو الشيخ في كتاب العظمة (٥) من طريق عمرو بن مرة عن رجل عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، وفي إسناده مبهم. وأخرج المرفوع منه أبو الشيخ أيضاً (٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وفي إسناده سيف بن محمد الكوفي، قال عنه الحافظ في التقريب: كذبوه.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٣١٥)، وأبو الشيخ في العظمة (١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٨١: فيه الوازع بن نافع وهو متروك. وقد ذكر صاحب كشف الخفاء ١/ ٣٧٢ طرقاً أخرى ضعيفة للحديث وقال: لكن اجتماعها يكسبه قوة، ومعناه صحيح. وينظر حديث أبي هريرة عند مسلم (١٣٤).

(٣) أخرجه أبو الشيخ (٢).

الصانع ووحدته الذاتية، وأنه الملك القاهر، والعالم القادر، والحكيم المتقِنُ، إلى غير ذلك من صفات الكمال، ويجرُّهم ذلك إلى معرفة صدق الرسل، وحَقِّيَّة الكتب الناطقة بتفاصيل الأحكام الشرعية، وتحقيق المعاد، وثبوت الجزاء.

ولشرافة هذه الثمرة الحاصلةِ من التفكُّر مع كونه من الأعمال المخصوصة بالقلب، البعيدة عن مظانِّ الرياء، كانَ من أفضل العبادات.

وقد أخرج أبو الشيخ في «العظمة» عن ابن عباس قال: تفكُّرُ ساعة خيرٌ من قيام ليلة(١). وأخرج ابن سعد(٢) عن أبي الدرداء مثلَه. وأخرج الديلميُّ عن أنس مرفوعاً مثله(٣).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فِكْرةُ ساعةٍ خيرٌ من عبادة ستين سنة»(٤).

وعنه أيضاً مرفوعاً: «بينما رجلٌ مُسْتَلْقٍ ينظر إلى النجوم وإلى السماء، فقال: والله إنِّي لأعْلَمُ أنَّ لكِ ربًّا وخالقاً، اللهم اغفر لي، فنظر الله تعالى له، فغَفَرَ له»(٥).

وأخرج ابن المنذر(٦) عن عون قال: سألت أمَّ الدرداء، ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت: التفكُّر والاعتبار.

---

(١) العظمة (٤٣).

(٢) في الطبقات ٧/ ٣٩٢.

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٧٠، قال ملا علي القاري في المصنوع (٩٤): ليس بحديث، وإنما هو من كلام السري السقطي رحمه الله. وكذا قال الفاكهاني كما في كشف الخفاء ١/ ٣٧٠. وسيأتي لفظه في الصفحة التالية.

(٤) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٤٤)، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ١٧٩.
وفي إسناده عثمان بن عبد الله القرشي، قال عنه ابن حبان في المجروحين ٢/ ١٠٢: يضع الحديث، كتب عنه أصحاب الرأي، لا يحل كتابة حديثه إلا على سبيل الاعتبار.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (١٠٦)، وفي إسناده عبد الله بن جعفر أبو علي بن المديني، قال عنه ابن معين: ليس بشيء، وقال أبو حاتم: منكر الحديث جدًا. تهذيب التهذيب ٢/ ٣١٥.

(٦) كما في الدر المنثور ٢/ ١١١، وأخرجه ـ أيضاً ـ ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٠٧، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٠٨.

وأخرج ابن أبي الدنيا[1] عن عامر بن قيس قال: سمعتُ غيرَ واحدٍ ـ لا اثنين ولا ثلاثة ـ من أصحاب محمد ﷺ يقولون: إنَّ ضياء الإيمان ـ أو نور الإيمان ـ التفكُّر.

واقتصر سبحانه على ذِكْر التفكُّر في خَلْق السماوات والأرض، ولم يتعرَّض جلَّ شأنه لإدراج اختلاف الليل والنهار في ذلك السِّلك ـ مع ذكْره فيما سلف، وشرفِ التفكُّر فيه أيضاً كما يقتضيه التعليلُ وظاهرُ ما أخرجه الديلميُّ[2] عن أنسٍ مرفوعاً: «تفكُّر ساعةٍ في اختلاف الليل والنهار، خيرٌ من عبادة ثمانين سنة» ـ إما للإيذان بظهور اندراج ذلك فيما ذُكر؛ لِمَا أنَّ الاختلاف من الأحوال التابعة لأحوال السماوات والأرض على ما أُشيرَ إليه، وإما للإشعار بمسارعة المذكورين إلى الحكم بالنتيجة، لمجرَّد تفكُّرهم في بعض الآيات من غير حاجة إلى بعضٍ آخرَ منها في إثبات المطلوب.

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ الإشارةُ إلى السماوات والأرض لِمَا أنهما باعتبارِ تعلُّق الخلق بهما في معنى المخلوق، أو إلى الخلق على تقدير كونه بمعنى المخلوق، وقيل: إليهما باعتبار المتفكَّر فيه. وعلى كلٍّ فَأَمْرُ الإفراد والتذكير واضحٌ.

والعدولُ عن الضمير إلى اسم الإشارة؛ للإشارة إلى أنها مخلوقاتٌ عجيبة، يجب أن يُعتنَى بكمال تمييزها استعظاماً لها، ونظيرُ ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

والباطل: العبث، وهو ما لا فائدة فيه مطلقاً، أو: ما لا فائدة فيه يُعتدُّ بها، أو: ما لا يُقصد به فائدة. وقيل: الذاهبُ الزائلُ الذي لا يكون له قوةٌ وصلابة، ولا يخفى أنه قولٌ لا قوةَ له ولا صلابة.

وهو إما صفةٌ لمصدرٍ محذوف، أي: خَلْقاً باطلاً، أو حالٌ من المفعول، والمعنى: ربنا ما خلقتَ هذا المخلوقَ، أو المتفكَّر فيه العظيمَ الشأن، عارياً عن الحكمة، خالياً عن المصلحة، كما ينبئ عنه أوضاع الغافلين عن ذلك، المعرِضينَ

---

(١) كما في الدر المنثور ٢/ ١١١.

(٢) في الفردوس ٢/ ٧٠، وسلف الكلام عليه في الصحيفة السابقة.

عن التفكُّر فيه، العادِمين من جناح النظر قُدَاماه وخَوَافيه، بل خَلَقْتَهُ مشتملاً على حِكَم جليلةٍ، منتظماً لمصالحَ عظيمةٍ، تقف الأفكار حَسْرى دون الإحاطة بها، وتَكِلُّ أقدام الأذهان دون الوقوف عليها بأسرها، ومن جملتها أن يكون مداراً لمعايش العباد، ومناراً يُرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد، حَسْبَما نطقتْ به كُتبكَ وجاءت به رسلك.

والجملة بتمامها في حيِّز النصب بقولٍ مقدَّرٍ، أي: يقولون ربَّنا إلخ. وجملةُ القول حالٌ من المستكنِّ في «يتفكَّرون»، أي: يتفكَّرون في ذلك قائلين: ربَّنا ما خلقتَ هذا باطلاً، وإلى هذا ذهب عامة المفسرين.

واعتُرِض بأنَّ النَّظْمَ الكريم لا يساعده، لما أنَّ ما في حيِّز الصِّلة، وما هو قيدٌ له، حقُّه أن يكون من مبادي الحُكم الذي أُجريَ على الموصول، ودواعي ثبوته له، كذكرهم لله تعالى في عامة أوقاتهم، وتفكُّرهم في خلق السماوات والأرض، فإنهما مما يؤدِّي إلى اجتلاء تلك الآيات والاستدلالِ بها على المطلوب، ولا ريب في[1] أنَّ قولهم ذلك ليس من مبادي الاستدلال المذكور، بل من نتائجها المترتِّبة عليه، فاعتبارُه قيداً لما في حيِّز الصِّلة مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل، فاللائق أن تكون جملةُ القول استئنافاً مبيِّناً لنتيجة التفكُّر، ومدلولِ الآيات، ناشئاً مما سبق، فإنَّ النفس عند سماع تخصيص الآيات المنصوبة في خلق العالم بأُولي الألباب، ثم وَصْفِهم بذكر الله تعالى والتفكُّر في مجال تلك الآيات، تبقى مترقِّبة لما يظهر منهم من آثارها وأحكامها، كأنه قيل: فماذا يكون عند تفكُّرهم في ذلك، وما يترتَّب عليه من النتيجة؟ فقيل: يقولون كَيْتَ وكَيْت، مما يُنبئ عن وقوفهم على سرِّ الخلق المؤدِّي إلى معرفة صدق الرسل وحَقِّيةِ الكتب الناطقة بتفاصيل الأحكام الشرعية. وهذا على تقدير كون الموصول موصولاً نعتاً لـ «أولي»، وأما على تقدير كونه مفصولاً منصوباً أو مرفوعاً على المدح مثلاً، فتأتي الحالية من ذلك؛ إذ لا اشتباه في أنَّ قولهم هذا من مبادي مَدْحِهم ومحاسن مناقبهم، ويكون في إبراز هذا القول في مَعرِض الحال إشعارٌ بمقارنته لتفكُّرهم من غير تردُّدٍ وتلعثُمٍ في ذلك. انتهى.

---

(١) قوله: في، ليس في (م)، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٢/ ١٣١، والكلام منه.

وهو كلامٌ تلوحُ عليه أماراتُ التحقيق ومخايلُ التدقيق، والقولُ بأنَّ الحاليةَ تجتمع مع كون القول المذكور من النتائج، لا يخفى ما فيه.

ثم كونُ هذا القول من نتائج التفكُّر ما لا يكاد ينكره ذو فكر. وتوضيح ذلك ـ على رأي ـ أنَّ القوم لمَّا تفكَّروا في مخلوقاته سبحانه، ولا سيما السماوات مع ما فيها من الشمس والقمر والنجوم والأرض، وما عليها من البحار والجبال والمعادن، عرفوا أنَّ لها ربًّا وصانعاً، فقالوا: «ربَّنا».

ثم لمَّا اعترفوا بأنَّ[1] في كلٍّ من ذلك حِكَماً ومقاصدَ وفوائدَ لا تحيط بتفاصيلها الأفكار قالوا: «ما خلقتَ هذا باطلاً».

ثم لمَّا تأمَّلوا وقاسُوا أحوالَ هذه المصنوعات إلى صانعها، رأوا أنه لابدَّ وأن يكون الصانع منزَّهاً عن مشابهة شيءٍ منها، فإذن هو ليس بِجِسْمٍ ولا عَرَضٍ ولا في حيِّزٍ ولا بمفتقرٍ، ولا، ولا، فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لكَ مما لا يليق بك.

ثم لمَّا استغرقوا في بحار العَظَمة والجلال، وبلغوا هذا المبلغ الأعظم، وتحقَّقوا أنَّ مَنْ قَدَرَ على ما ذُكر من الإنشاء بلا مثال يحتذيه أو قانون ينتحيه، واتَّصف بالقدرة الشاملة والحكمة الكاملة، كان على إعادة مَنْ نطقتِ الكتب السماوية بإعادته أَقدر، وأنَّ ذلك ليس إلا لحكمةٍ باهرةٍ هي جزاء المكلفين بحسب استحقاقهم المنوط بأعمالهم القلبية والقالبية، طلبوا النجاةَ مما يحيق بالمقصِّرين ويليق بالمُخِلِّين، فقالوا: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ أي: فوفِّقنا للعمل بما فهمنا من الدلالة، ومن هنا قيل: إنَّ الفاء لِتَرتُّب الدعاء بالاستعاذة من النار، على ما دلَّ عليه «ربنا ما خلقت هذا باطلاً» من وجوب الطاعة واجتناب المعصية، كأنه قيل: فنحن نطيعك، فقِنا عذابَ النار التي هي جزاءُ مَن عصاك.

و«سبحانك» مصدرٌ منصوبٌ بفعل محذوف، والجملةُ معترضةٌ لتقوية الكلام وتأكيده، ولا ينافي ذلك كونَها مؤكِّدةً لنفي العبث عن خَلْقِه.

وبعضهم قال بهذا التأكيد ولم يقل بالاعتراض، وجَعَل ما بعد الفاء مترتِّباً على التنزيه المدلول عليه بـ«سبحانك»، وادَّعى أنه الأظهر؛ لاندراج تنزُّهه تعالى عن ردِّ

---

(١) في (م): في أن.

سؤال الخاضعين الملتجئين إليه فيه، ولا يخفى تفرُّع المسألة على التنزيه عن خيبة رجاء الراجين.

وقيل: إنه جوابُ شرطٍ مقدَّر، وإنَّ التقدير: إذا نزَّهناك أو وحَّدناك، فقنا عذاب النار الذي هو جزاء الذين لم ينزِّهوا أو لم يوحِّدوا.

واستدل الطبرسيُّ بالآية على أنَّ الكفر والضلال والقبائح ليست خَلْقاً للهِ تعالى؛ لأن هذه الأشياء كلّها باطلةٌ بالإجماع، وقد نفى الله سبحانه ذلك حكايةً عن أولي الألباب الذين رضي قولَهم بأنه لا باطل فيما خلقه سبحانه، فيجب بذلك القَطْعُ بأنَّ القبائحَ كلَّها ليست مضافةً إليه عزَّ شأنه، ومنفيةٌ عنه خلقاً وإيجاداً(١).

وفيه نظر؛ لأنَّ الأشياء كلَّها سواءٌ من حيث إنها خَلْقُ الله تعالى ومشتملةٌ على المصالح والحِكَم كما ينبئ عن ذلك قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وتفاوتُها إنما هو باعتبار نسبة بعضها إلى بعض، وكون بعضِها متعلِّقَ الأمر والبعض الآخر متعلِّق النهي مثلاً، لا باعتبار كون البعض مشتملاً على الحِكمة والبعض الآخر عارياً عنها، فالقبائح من حيث إنها خَلْقُ الله تعالى ليست باطلة؛ لأنَّ الباطلَ كما علمتَ هو ما لا فائدةَ فيه مطلقاً، أو ما لا فائدة فيه يُعتدُّ بها، أو ما لا يُقصَد به فائدة، وهي ليست كذلك؛ لاشتمالها في أنفسها على الحِكَم والفوائد الجمَّة التي لا يَبْعدُ قَصْدُ اللهِ تعالى لها، مع غناه الذاتيِّ عنها، ولا يشترط كونُ تلك الفوائد لمن صدرت على يده، وإلا لزم خلوُّ كثيرٍ من مخلوقاته تعالى عن الفوائد. وتسميتها قبائح إنما هو(٢) باعتبار كونها متعلِّق النهي لحكمةٍ أيضاً، وهو لا يستدعي كونها خاليةً عن الحكمة، بل قصارى ذلك أنه يستلزم عدم رضاه سبحانه بها شرعاً، المستدعي ذلك للعقاب عليها بسبب أنَّ إفاضتَها كانت حَسْبَ الاستعداد الأزلي، فدعوى أنَّ هذه الأشياء كلَّها باطلةٌ، باطلةٌ كدعوى الإجماع على ذلك، وكأنَّ القائل لم يفهم معنى الباطل فقال ما قال.

---

(١) مجمع البيان ٤/٣٠١-٣٠٢.

(٢) في «م»: هي.

واستدلَّ بها بعضُهم أيضاً على أنَّ أفعال الله تعالى معلَّلةٌ بالأغراض، وهو مبنيٌّ ظاهراً على أنَّ الباطل: العبث بالمعنى الثالث، وقد علمتَ أنَّ معنى العبث ليس محصوراً فيه، وبفرض الحصر لا بأس بهذا القول على ما ذهب إليه[١] كثيرٌ من المحققين، لكن مع القول بالغنى الذاتي وعدم الاستكمال بالغير، كما أشرنا إليه في «البقرة»[٢].

واحتجَّ حكماء الإسلام بها على أنه سبحانه وتعالى خلق الأفلاك والكواكب، وأَودَع فيها قوًى مخصوصةً، وجعلها بحيث يحصل من حركاتها واتصالِ بعضها ببعض مصالحُ في هذا العالم؛ لأنها لو لم تكن كذلك لكانت باطلة، ولا يمكن أن تُقْصَرَ منافعُها على الاستدلال بها على الصانع فقط؛ لأنَّ كلَّ ذرَّةٍ من ذرَّات الماء والهواء يشاركها في ذلك، فلا تبقى لخصوصياتها فائدة، وهو خلاف النص.

وناقشهم المتكلِّمون في ذلك بأنه يجوز أن تكون الفَلَكِيَّاتُ أسباباً عادية للأرضيات، لا حقيقيةً، وأنَّ التأثيرَ عندها لا بها، ويكفي ذلك فائدةً لخَلْقها. وأنت تعلم أنَّ القول بإيداع القوى في الفَلَكِيَّات، بل وفي جميع الأسباب، مع القولِ بأنها مؤثِّرةٌ بإذن الله تعالى، مما لا بأس به، بل هو المذهبُ المنصور الذي دَرَجَ عليه سلفُ الأمة، وحقَّقناه فيما قبلُ، وهو لا ينافي استناد الكلِّ إلى مسبِّب الأسباب، ولا يُزاحِم جريان الأمور كلِّها بقضائه وقَدَره تعالى شأنه. نَعَمْ القولُ بأنَّ الفَلَكِيَّات ونحوها مؤثِّرةٌ بنفسها ولو لم يأذن الله تعالى ضلالٌ، واعتقادُهُ كُفْر، وعلى ذلك يخرَّج ما وقع في الخبر: «مَن قال: أُمطِرنا بنَوْءِ كذا فهو كافرٌ بالله تعالى مؤمنٌ بالكوكب، ومَن قال: أُمطِرنا بفضل الله تعالى، فهو مؤمنٌ بالله تعالى كافرٌ بالكوكب»[٣]. فليُحفظ.

---

(١) قوله: إليه، ساقط من (م).

(٢) ٢/ ١٧.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٠٦١)، والبخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١) من حديث زيد بن خالد الجهني ﷺ. ومعنى النَّوء سقوط نجم في المغرب من النجوم الثمانية والعشرين التي هي منازل القمر وطلوع آخر يقابله من ساعته في المشرق، وكانوا إذا سقط نجم منها وطلع آخر، وكان عند ذلك مطر أو ريح أو بَرْد أو حرّ نسبوه إلى الساقط إلى أن يسقط الذي بعده. ينظر أدب الكاتب ص٨٧، وفتح الباري ٢/ ٥٢٣-٥٢٤.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ مبالغةٌ في استدعاء الوقاية من النار، وبيانٌ لسببه، وصُدِّرت الجملة بالنداء مبالغةً في التضرُّع إلى معوِّدِ الإحسان، كما يُشعر به لفظُ الربِّ، وعن ابن عباس أنه كان يقول: اسم الله تعالى الأكبر: ربِّ ربِّ[1].

والتأكيد بـ «إنَّ» لإظهار كمال اليقين بمضمون الجملة، والإيذانِ بشدَّة الخوف، وَوَضْعُ الظاهر موضعَ الضمير[2] للتهويل، وذِكْرُ الإدخال في مورد العذاب؛ لتعيين كيفيته، وتبيين غاية فظاعته.

والإخزاء ـ كما قال الواحديُّ ـ جاء لمعانٍ متقاربة، فعن الزجَّاج: يقال: أخزى الله تعالى العدوَّ، أي: أبعده وقيل: أهانه، وقيل: فَضَحه، وقيل: أهلكه، ونُقل هذا عن المفضَّل، وقيل: أَحَلَّه محلًّا وأوقفه موقفاً يستحي منه. وقال ابن الأنباري: الخزي في اللغة: الهلاك بتلفٍ أو بانقطاع حُجَّةٍ أو بوقوعٍ في بلاء[3].

والمراد: فقد أخزيته خزياً لا غاية وراءه. ومن القواعد المقرَّرة أنه إذا جُعل الجزاءُ أمراً ظاهرَ اللزوم للشرط، سواء كان اللزومُ بالعموم والخصوص، كما في قولهم: مَنْ أدرك مرعى الصَّمَّان[4] فقد أدرك، أو بالاستلزام كما في هذه الآية، يُحمَل على أعظم أفراده وأَخَصِّها لتربية الفائدة، ولهذا قُيِّد الخزيُ بما قُيِّد.

واحتجَّ حكماء الإسلام بهذه الآية على أنَّ العذابَ الروحانيَّ أقوى من العذاب الجسماني، وذلك لأنه رتَّب فيها العذابَ الروحاني وهو الإخزاء بناءً على أنه الإهانةُ والتخجيل على الجسماني الذي هو إدخال النار، وجَعَلَ الثاني شرطاً والأولَ جزاءً، والمراد من الجملة الشرطية الجزاءُ، والشرطُ قيدٌ له، فيُشعر بأنه أقوى وأفظع، وإلا لَعَكَسَ كما قال الإمام الرازيُّ[5].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٢٧٣.

(٢) يعني ضمير النار. والكلام من تفسير أبي السعود ٢/ ١٣١.

(٣) ذكر هذه الأقوال الرازي في التفسير ٩/ ١٤١، وأبو السعود ٢/ ١٣١.

(٤) الصمان اسم موضع، وهي أرض فيها غلظ وارتفاع، وفيها قيعان واسعة ورياض معشبة، وإذا أخصبت رتعت العرب جميعها، وكانت الصمان في قديم الدهر لبني حنظلة. اللسان (صمم).

(٥) التفسير الكبير ٩/ ١٤٣.

وأيضاً المفهوم من قوله تعالى: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ طلبُ الوقاية منه، وقوله سبحانه: ﴿رَبَّنَآ﴾ إلخ دليلٌ عليه، فكأنه طلب الوقاية من المذكور، لترَتُّب الخزي عليه، فيدلُّ على أنه غاية ما[1] يُخاف منه، كما قاله بعض المحققين.

واحتجَّ بها المعتزلة على أنَّ صاحب الكبيرة ليس بمؤمن؛ لأنه إذا أدخله الله تعالى النار فقد أخزاه، والمؤمنُ لا يُخزَى لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨].

وأُجيب: بأنه لا يلزم من أن لا يكون مَنْ آمن مع النبيِّ ﷺ مخزيًّا أن لا يكون غيرُه وهو مؤمنٌ كذلك، وأيضاً الآية ليست عامةً؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١-٧٢] فتُحمل على مَنْ أُدخل النار للخلود، وهم الكفَّار، وهو المرويُّ عن أنسٍ وسعيد بن المسيب وقتادة وابن جريج.

وأيضاً يمكن أن يقال: إنَّ كلَّ من يدخلها مخزيٌّ حالَ دخوله، وإن كانت عاقبةُ أهل الكبائر منهم الخروج، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى﴾ إلخ نُفي الخزيُ فيه على الإطلاق، والمطلق يكفي في صِدقه صورةٌ واحدةٌ، وهو نفيُ الخزي المخلَّد.

وأيضاً يحتمل أن يقال: الإخزاء مشترَكٌ بين التخجيل والإهلاك، والمثبتُ هو الأول، والمنفيُّ هو الثاني، وحينئذ لا يلزم التنافي.

واحتجَّت المرجئة بها على أنَّ صاحب الكبيرة لا يدخل النار؛ لأنه مؤمنٌ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨] وقوله سبحانه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩] والمؤمن لا يُخزَى لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ [التحريم: ٨] إلخ، والمُدْخَلُ في النار مَخزيٌّ لهذه الآية.

وأجيب بمنع المقدِّمات بأسرها: أما الأولى فباحتمال أن لا يسمَّى بعد القتل مؤمناً، وإن كان قبلُ مؤمناً، وأما الأُخريان فبخصوص المحمول وجزئية الموضوع كما تقرَّر آنفاً، والمبحثُ مفصَّلٌ في موضعه[2].

---

(١) قوله: ما، ليس في (م)، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٣/ ٩٠، والكلام منه.
(٢) قوله: والمبحث مفصل في موضعه، ليس في (م).

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ١٩٢﴾ أي: ليس لكلٍّ منهم ناصرٌ ينصره ويخلِّصه مما هو فيه، والجملة تذييلٌ لإظهار فظاعة حالهم، وفيه تأكيدٌ للاستدعاء، ووضع الظالمين موضعَ ضمير المدخَلين لذمِّهم والإشعار بتعليل دخولهم النار بظلمهم.

وتمسَّكت المعتزلةُ بنفي الأنصار على نفي الشفاعة لسائر المدخَلين.

وأُجيب: بأنَّ الظالم على الإطلاق هو الكافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقيل: نفيُ الناصر لا يمنع نفيَ الشفيع؛ لأنَّ النصر دفعٌ بقوةٍ، والشفاعة تخليصٌ بخضوع وتضرُّع. وله وجهٌ، والقولُ بأنَّ العرف لا يساعده غيرُ متَّجِهٍ.

وقال في «الكشف»: الظاهر من الآية أنَّ مَن دخل النار لا ناصر له من دخولها، أمَّا أنه لا ناصر له من الخروج بعد الدخول فلا، وذلك لأنه عامٌّ في نفي الأفراد، مُهمَلٌ بحسب الأوقات، والظاهر التقييد بما يُطْلَبُ النصرُ أوَّلاً لأجله، كَمَنْ أُخِذ يعاقَبُ فقلتَ: ماله من ناصرٍ. لم يُفهَم منه أنَّ العقاب لا ينتهي بنفسه، وأنه بعد العقاب لم يُشْفَعْ [له]، بل فُهِم منه: لم يَمنعه أحدٌ مما حلَّ به، ثم إنْ سَلِمَ التساوي لم يدلَّ على النفي(١).

وأجاب غيرُ واحدٍ على تقدير عموم الظالم وعدم الفرق بين النصر والشفاعة، بأنَّ الأدلة الدالةَ على الشفاعة ـ وهي أكثرُ من أن تُحصى ـ مخصِّصةٌ للعموم، وقد تقدَّم ما ينفعك هنا(٢).

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ على معنى القول أيضاً، وهو كما قال شيخ الإسلام: حكايةٌ لدعاءٍ آخر مبنيٍّ على تأمُّلهم في الدليل السمعيّ، بعد حكاية دعائهم السابق المبنيِّ على تَفَكُّرهم في الأدلة القطعية(٣). ولا يخفى أنَّ ذلك التفكُّر مستدع في الجملة لهذا القول.

وفي تصدير مقدِّمة الدعاء بالنداء إشارةٌ إلى كمال توجُّههم إلى مولاهم، وعدم

---

(١) حاشية الشهاب ٣/ ٩٠، وما بين حاصرتين منه.

(٢) عند تفسير الآية (٢٧٠) من سورة البقرة.

(٣) تفسير أبي السعود ٢/ ١٣١.

غفلتهم عنه، مع إظهار كمال الضَّراعة والابتهال إلى معوِّد الإحسان والإفضال، وفي التأكيد إيذانٌ بصدور ذلك عنهم بوفور الرغبة ومزيد العناية وكمال النشاط.

والمراد بالمنادي رسولُ الله ﷺ، وهو المرويُّ عن ابن مسعود وابن عباس وابن جريج، واختاره الجُبَّائيُّ وغيره.

وقيل: المراد به القرآن، وهو المحكيُّ عن محمد بن كعب القرظي وقتادة، واختاره الطبريُّ[1] معلِّلاً ذلك بأنه ليس يسمعُ كلُّ واحدٍ النبيَّ ﷺ ولا يراه، والقرآن ظاهرٌ باقٍ على ممرِّ الأيام والدهور، يسمعه مَن أدرك عصرَ نزوله ومَن لم يدرك.

ولأهل القول الأول أن يقولوا: مَنْ بَلَغه بعثةُ الرسول ﷺ ودعوتُه جاز له أن يقول: سمعنا منادياً. وإن كان فيه ضَرْبٌ من التجوُّز.

وأيضاً المرادُ بالنداء الدعاء، ونسبتُه إليه ﷺ أشهَرُ وأظهَرُ، فقد قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥] ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [يوسف: ١٠٨] ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب ٤٦] وهي إليه عليه الصلاة والسلام حقيقة، وإلى القرآن على حدِّ قوله:

تناديك أجداثٌ وهنَّ صموتُ ... وسكَّانها تحت التراب سكوتُ[2]

والتنوينُ في «المنادي» للتفخيم، وإيثارُه على «الداعي» للإشارة إلى كمال اعتنائه بشأنِ الدعوة وتبليغِها إلى القريب والبعيد، لما فيه من الإيذان برفع الصوت، وقد كان شأنه الرفيعُ ﷺ في الخُطَب ذلك الرَّفْعَ حقيقةً، ففي الخبر: كان ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتدَّ غضبه، كأنه منذرُ جيشٍ يقول: صبَّحكم ومسَّاكم[3].

ولما كان النداء مخصوصاً بما يؤدِّي له ومنتهياً إليه، تعدَّى باللام و«إلى» تارةً

---

(١) في تفسيره ٦/ ٣١٥.

(٢) البيت لأبي العتاهية وهو في ديوانه ص ٨١ بلفظ:

تناجيك أمواتٌ وهنَّ سكوتُ ... وسكَّانها تحت التراب خفوتُ

(٣) أخرجه أحمد (١٤٩٨٤)، ومسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، ولفظ أحمد: وكان إذا ذكر الساعة احمرَّت...

وتارةً، فاللام في «للإيمان» على ظاهرها، ولا حاجة إلى جَعْلها بمعنى «إلى» أو الباء، ولا إلى جَعْلها بمعنى العلة، كما ذهب إليه البعض.

وجملة «ينادي» في موضع المفعول الثاني لـ «سمع» على ما ذهب إليه الأخفش وكثيرٌ من النحاة مِن تعدِّي «سمع» هذه إلى مفعولين، ولا حَذْفَ في الكلام. وذهب الجمهور إلى أنها لا تتعدَّى إلَّا إلى واحد، واختاره ابن الحاجب؛ قال في أماليه: وقد يُتَوهَّم أنَّ السماع متعدٍّ إلى مفعولين من جهة المعنى والاستعمال، أما المعنى فلِتَوَقُّفِه على مسموع، وأما الاستعمال فلقولهم: سمعتُ زيداً يقول ذلك، وسمعتُه قائلاً، وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ [الشعراء: ٧٢] ولا وجه له؛ لأنه يكفي في تعلُّقه المسموعُ دون المسموعِ منه، وإنما المسموعُ منه كالمشمومِ منه، فكما أنَّ الشَّمَّ لا يتعدَّى إلا إلى واحد، فكذلك السماع، فهو مما حُذفَ فيه المضافُ وأُقيم المضاف إليه مُقامه للعلم به، ويُذْكَرُ بعده حالٌ تبيِّنه، ويُقدَّر في «يسمعونكم إذ تدعون»: يسمعون أصواتكم. انتهى.

والزمخشريُّ جعل المسموع صفةً بعد النكرة، وحالاً بعد المعرفة[١]. وهو الظاهر، وادَّعى بعض المحققين أنَّ الأوْفَقَ بالمعنى فيما جَعَلَه حالاً أو وصفاً أنْ يُجعل بدلاً بتأويل الفعل بالمصدر على ما يراه بعض النحاة، لكنه قليلٌ في الاستعمال، فلذا أُوْثِرَتِ الوصفيةُ أو الحالية.

وزعم بعضُهم أنَّ السماع إذا وقع على غير الصوت، فلابدَّ أن يُذكر بعده فعلٌ مضارع يدلُّ على الصوت، ولا يجوز غيره. وهو غير صحيح؛ لوقوع الظرف واسم الفاعل كما سمعته.

وفي تعليق السماع بالذات مبالغةٌ في تحقيقه والإيذانِ بوقوعه بلا واسطةٍ عند صدور المسموع عن المتكلم.

وفي إطلاق المنادي أولاً حيث قال سبحانه: ﴿مُنَادِيًا﴾ ولم يذكر ما دَعَى له، ثم قوله عزَّ شأنه بعدُ: ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ ما لا يخفى من التعظيم لشأن المنادي والمنادَى له، ولو قيل من أول الأمر: «منادياً للإيمان» لم يكن بهذه المثابة.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٨٩.

وحَذْفُ المفعول الصريح لـ «ينادي» إيذاناً بالعموم، أي: ينادي كلَّ واحد.

﴿أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ أي: أن آمنوا به، على أنَّ «أَنْ» تفسيرية، أو: بأنْ آمنوا، على أنها مصدرية. وعلى الأول: فـ «آمِنوا» تفسيرٌ لـ «ينادي»؛ لأن نداءَه عينُ قوله: «آمنوا»، والتقدير: ينادي للإيمان أي يقول آمنوا، وليس تفسيراً للإيمان كما تُوهِّم. وعلى الثاني: يكون «بأن آمنوا» متعلِّقاً بـ «ينادي» لأنه المنادَى به، وليس بدلاً من الإيمان كما زعمه البعض.

ومن المحققين مَن اقتصر على احتمال المصدرية؛ لما أنَّ كثيراً من النحاة يأبى التفسيرية، لما فيها من التكلُّف. ومَن اختارها قال: إنَّ المصدرية تستدعي التأويل بالمصدر، وهو مفوِّتٌ لمعنى الطلب المقصود من الكلام.

وأجيب بأنه يُقدَّر الطلب في التأويل إذا كانت داخلةً على الأمر، وكذا يُقدَّر ما يناسب الماضي والمستقبل إذا كانت داخلةً عليهما، ولا ينبغي أن يُجعل الحاصل من الكلِّ بمجرَّد(١) معنى المصدر، لئلّا يفوت المقصود من الأمر وأَخَويه.

وفي التعرُّض لعنوان الربوبية إشارةٌ إلى بعض الأدلة عليه سبحانه وتعالى، ورَمْزٌ إلى نعمته جلَّ وعلا على المخاطَبين ليذكروها فيسارعوا إلى امتثال الأمر، وفي إطلاق الإيمان ثم تقييدِه تفخيمٌ لشأنه.

﴿فَـَٔامَنَّاۚ﴾ عطفٌ على «سمعنا»، والعطفُ بالفاء مؤذِنٌ بتعجيل القَبول وتسبُّبِ الإيمان عن السماع من غير مُهْلة، والمعنى: فآمنَّا بربِّنا لمَّا دُعينا إلى ذلك. قال أبو منصور(٢): فيه دليلٌ على بطلان الاستثناء في الإيمان. ولا يخفى بُعْدُهُ.

﴿رَبَّنَا﴾ تكريرٌ ـ كما قيل ـ للتضرُّع، وإظهارٌ لكمال الخضوع، وعَرْضٌ للاعتراف بربوبيته تعالى مع الإيمان به.

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ مرتَّبٌ على الإيمان به تعالى والإقرارِ بربوبيته، كما تدلُّ عليه الفاء، أي: فاستُرْ لنا ﴿ذُنُوبَنَا﴾ أي: كبائرنا ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ أي: صغائرنا.

وقيل: المراد من الذنوب ما تقدَّم من المعاصي، ومن السيئات ما تأخَّر منها.

---

(١) في الأصل: لمجرد.

(٢) هو الماتريدي، وكلامه في تأويلات أهل السنة ١/ ٣٤٦.

وقيل: الأول ما أتى به الإنسان مع العلم بكونه معصيةً، والثاني ما أتى به مع الجهل(١) بذلك.

والأول هو التفسير المأثور عن ابن عباس، وأُيِّد بأنه المناسب لِلُّغة؛ لأنَّ الذَّنْبَ مأخوذٌ من الذَّنَبِ بمعنى الذَّيل، فاستُعمل فيما تُسْتَوخَم عاقبته وهو الكبيرة؛ لما يَعقُبها من الإثم العظيم، ولذلك يُسمَّى تَبِعة، اعتباراً بما يتبعه من العقاب كما صرَّح به الراغب(٢). وأما السيئة فمن السوء وهو المستقبَح، ولذلك تقابَل بالحسنة فتكون أخفَّ.

وتأييدُهُ بأنَّ الغفران مختصٌّ بفعل الله تعالى، والتكفير قد يُستعمل في فعل العبد ـ كما يقال: كَفَّر عن يمينه ـ وهو يقتضي أن يكون الثاني أخفَّ من الأول، على تحمُّلِ ما فيه، إنما يقتضي مجرَّد الأَخَفِّية، وأما كونُ الأولِ الكبائرَ والثاني الصغائر بالمعنى المراد فلا يجوز أن(٣) يراد بالأول والثاني ما ذُكر في القول الثالث، فإنَّ الأَخَفِّية وعدمَها فيه مما لا سترة عليه كما لا يخفى. ثم المفهوم من كثيرٍ من عبارات اللغويين عدمُ الفرق بين الغفران والتكفير، بل صرَّح بعضُهم بأنَّ معناهما واحد.

وقيل: في التكفير معنًى زائدٌ، وهو التغطيةُ للأمن من الفضيحة.

وقيل: إنه كثيراً ما يُعتَبر فيه معنى الإذهابِ والإزالةِ، ولهذا يُعدَّى بـ «عن»، والغفران ليس كذلك.

وفي ذِكْر «لنا» و«عنَّا» في الآية ـ مع أنه لو قيل: فاغفر ذنوبنا وكفِّر سيئاتنا لأفاد المقصود ـ إيماءٌ إلى وفورِ الرغبة في هذين الأمرين.

وادعى بعضهم أنَّ الدعاء الأول متضمِّنٌ للدعاء بتوفيق الله تعالى للتوبة؛ لأنه السبب لمغفرة الكبائر، وأنَّ الدعاء الثاني متضمِّنٌ لطلب التوفيق منه سبحانه للاجتناب عن الكبائر، لأنه السبب لتكفير الصغائر. وأنت تعلم أنَّ المغفرةَ غيرُ

---

(١) في (م): من الجهل.

(٢) في مفرداته (ذنب)، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٣/ ٩١.

(٣) قوله: أن. ساقط من (م).

مشروطة بالتوبة عند الأشاعرة، وأنَّ بعضَهم احتجَّ بهذه الآية على ذلك، حيث إنهم طلبوا المغفرة بدون ذكر التوبة بل بدون التوبة، بدلالة فاء التعقيب، كذا قيل، وسيأتي تحقيق ما فيه، فتدبَّر.

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ أي: مخصوصين بالانخراط في سلكهم والعدِّ من زمرتهم، ولا مجال لكون المعيَّة زمانيةً؛ إذ منهم مَن مات قبلُ، ومَن يموت بَعدُ، وفي طلبهم التوفِّي وإسنادهم له إلى الله تعالى إشعارٌ بأنهم يُحبُّون لقاء الله تعالى، ومَن أَحَبَّ لقاء الله تعالى، أحب الله تعالى لقاءه.

والأبرار جَمْعُ بَرٍّ، كأَرباب جمعُ رَبّ، وقيل: جمع بارٍّ، كأصحاب جمع صاحب، وضُعِّف بأنَّ فاعلاً لا يُجمَع على أفعال، وأصحاب جمع صَحْب بالسكون، أو صَحِبٍ بالكسر، مخفَّف صاحب بحذف الألف، وبعضُ أهل العربيْة أثبته وجعله نادراً.

ونكتةُ قولهم: «مع الأبرار» دون «أبراراً» التذلُّلُ، وأنَّ المراد: لسنا بأبرارٍ، فاسلكنا معهم، واجعلنا من أتباعهم، وفي «الكشف»: إنَّ في ذلك هَضْماً للنفس، وحُسْنَ أدبٍ مع إدماج مبالغة؛ لأنه من باب: هو من العلماء، بدل: عالم.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا﴾ أي: بعد التوفِّي ﴿مَا وَعَدتَّنَا﴾ أي: به، أو: إياه، والمراد بذلك الثواب ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ إما متعلِّقٌ بالوعد، أو بمحذوفٍ وقع صفةً لمصدرٍ مؤكِّدٍ محذوف، وعلى التقديرين في الكلام مضافٌ محذوفٌ، والتقدير على التقدير الأول: وعدتنا على تصديق أو امتثال رُسُلك، وهو كما يقال: وَعَدَ اللهُ تعالى الجنةَ على الطاعة، وعلى الثاني: وعدتنا وَعْداً كائناً على أَلسنة رسلك. ويجوز أن يتعلَّق الجارُّ على تقدير الألسنة بالوعد أيضاً، فتخفُّ مؤنة الحذف. وتعلُّقهُ بـ «آتنا» كما جوَّزه أبو البقاء[1]، خلافُ الظاهر.

وبعض المحقِّقين جوَّز التعلُّقَ بكَوْنٍ مقيَّدٍ هو حالٌ من «ما»، أي: منزلاً أو محمولاً على رُسُلك.

---

(١) في الإملاء ٢/ ١٧٥.

واعترضه أبو حيان[1] بأنَّ القاعدة: أنَّ متعلَّق الظرف إذا كان كوناً مقيداً لا يجوز حذفُه، وإنما يُحذَف إذا كان كوناً مطلقاً، وأيضاً الظَّرفُ هنا حالٌ، وهو إذا وقع حالاً أو خبراً أو صفةً، يتعلَّقُ بكَوْنٍ مُطْلَقٍ لا مقيَّد.

وأجيب بمنع انحصار التعلُّق في كَوْنٍ مُطلَقٍ، بل يجوز التعلُّق به أو بمقيَّد، ويجوز حذفُهُ إذا كان عليه دليل. ولا يَخْفَى متانةُ الجواب، وأنَّ إنكارَ أبي حيان ليس بشيء، إلا أنَّ تقدير كونٍ مقيَّدٍ فيما نحن فيه تعسُّفٌ مستغنًى عنه.

وزعم بعضُهم جواز كون «على» بمعنى «مع»، وأنه متعلِّقٌ بـ «آتنا» ولا حَذْفَ لشيءٍ أصلاً، والمراد: آتنا مع رُسُلك، وشارِكْهم معنا في أَجْرِنا، فإنَّ الدَّالَّ على الخير كفاعله. وفائدةُ طلب تشريكهم معهم أداءُ حقِّهم وتكثيرُ فضيلهم ببركةِ مشاركتهم.

ولا يخفى أنَّ هذا مما لا ينبغي تخريجُ كلام الله تعالى الجليلِ عليه، بل ولا كلامِ أحدٍ من فُصَحاء العرب. وتكريرُ النداء لِمَا مرَّ غيرَ مرَّة.

وجَمَعَ الرُّسُلَ مع أنَّ المنادى هو واحدُ الآحاد ﷺ وحدَه؛ لِمَا أنَّ دعوته ـ لا سيَّما على منبر التوحيد وما أجمع عليه الكلُّ من الشرائع ـ منطويةٌ على دعوة الكلِّ، فتصديقُهُ ﷺ تصديقٌ لهم عليهم السلام، وكذا الموعودُ على لسانه عليه الصلاة والسلام من الثواب موعودٌ على لسانهم، وإيثارُ الجمع على الأول لإظهار الرغبة في تيار فَضْل الله تعالى؛ إذ من المعلوم أنَّ الثواب على تصديق رسلٍ أَعظَمُ من الثواب على تصديق رسولٍ واحد، وعلى الثاني: لإظهار كمال الثقة بإنجاز الموعود، بناءً على كثرة الشهود.

وتأخيرُ هذا الدعاءِ بناءً على ما ذكرنا في تفسير الموصول ـ ويكاد يكون مقطوعاً به ـ ظاهرٌ؛ لأنَّ الأمرَ أُخرويّ.

وأما إذا فُسِّر بالنصر على الأعداء كما قيل، فتأخيرُه عمَّا قبله: إما لأنه من باب التحلية والآخرُ من باب التخلية، والتحليةُ متأخِّرةٌ عن التخلية، وإما لأنَّ الأول مما يترتَّب على تحقُّقه النجاةُ في العقبى، وعلى عَدَمه الهلاك فيها، والثاني ليس كذلك ـ كما لا يخفى ـ فيكون دونه، فلهذا أُخِّر عنه.

---

(١) في البحر المحيط ٣/ ١٤٢.

وأُيِّد كونُ المرادِ النصرَ لا الثوابَ الأخرويَّ تعقيبُ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لأنَّ طلب الثواب يغني عن هذا الدعاء؛ لأنَّ الثواب متى حصل كان الخزيُ عنهم بمراحل، وهذا بخلاف ما إذا كان المراد من الأول الدعاءَ بالنصر في الدنيا، فإنَّ عدم الإغناء عليه ظاهرٌ، بل في الجمع بين الدعاءَين حينئذٍ لطافةٌ؛ إذ مآل الأول: لا تخزنا في الدنيا بغَلَبة العدوِّ علينا، فكأنهم قالوا: لا تخزنا في الدنيا ولا تخزنا في الآخرة، وغايَروا في التعبير فعبَّروا في طلب كلٍّ من الأمرين بعبارة، للاختلافِ بين المطلوبين أنفسهما.

وأُجيب بأَنَّ فائدةَ التعقيب على ذلك التقديرِ الإشارةُ إلى أنهم طلبوا ثواباً كاملاً لم يتقدَّمه خزيٌ ووقوعٌ في بلاء، وكأنهم لمَّا طلبوا ما هو المتمنَّى الأعظم، وغايةُ ما يرجوه الراجون في ذلك اليوم الأيوَم(١)، وهو الثواب، التفتوا إلى طلب ما يَعظُم به أمره، ويرتفع به في ذلك الموقف قَدْرُه، وهو تركُ العذاب بالمرّة، وفي الجمع بين الأمرين على هذا من اللطف ما لا يخفى.

وأيضاً يحتمل أن يقال: إنهم طلبوا الثواب أولاً باعتبار أنه يندفع به العذاب الجسماني، ثم طلبوا دفع العذاب الروحانيِّ بناءً على أنَّ الخزيَ الإهانةُ والتخجيل، فيكون في الكلام تَرَقٍّ من الأدنى إلى الأعلى، كأنهم قالوا: ربَّنا ادفع عنَّا العذاب الجسمانيَّ وادفع عنَّا ما هو أشدُّ منه، وهو العذاب الروحاني.

وإن أنت أَبيتَ هذا وذاك، وادَّعيتَ التلازُم بين الثواب وتَرْك الخزي، فلنا أن نقول: إنَّ القوم لمزيد حِرْصهم وفَرْطِ رغبتهم في النجاة في ذلك اليوم الذي تظهر فيه الأهوال وتشيب فيه الأطفال لم يكتفوا بأحد الدُّعاءين، وإن استلزم الآخَرَ، بل جمعوا بينهما ليكون ذلك من الإلحاح، والله تعالى يحبُّ الملحِّين في الدعاء(٢)، فهو أَقربُ إلى الإجابة، وقدَّموا الأول لأنه أوفقُ بما قبله صيغةً.

ومن الناس مَن يؤوِّل هذا الدعاء بأنه طلبُ العصمة عمَّا يقتضي الإخزاء، وجُعل ختم الأدعية ليكون ختامها مسكاً؛ لأنَّ المطلوب فيه أمرٌ عظيم.

---

(١) أي: الشديد، وهذا كما قالوا: ليلة ليلاء. أساس البلاغة (يوم)، والصحاح (يوم).
(٢) أخرج الطبراني في الدعاء (٢٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٠٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحبُّ الملحِّين في الدعاء».

والظرف متعلِّقٌ بما عنده معنًى ولفظاً، ويجب ذلك قطعاً إن كان الكلام مؤوَّلاً، أو كان الموصولُ عبارةً عن النصر، ويترجَّح ـ بل يكاد يجب أيضاً ـ إذا كان الموصولُ عبارةً عن الثواب، واحتمال أنه مما تنازع فيه «آتنا» و«لا تخزنا» على ذلك التقدير، هو كما ترى.

﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ تذييلٌ لتحقيق ما نظموا في سلك الدعاء، وقيل: متعلِّقٌ بما قبل الأخير، اللازمِ له، وإليه يشير كلام الأجهوري.

والميعاد: مصدرٌ ميميٌّ بمعنى الوعد، وقيَّده الكثير هنا بالإثابة والإجابة، وهو الظاهر، وأما تفسيرُهُ بالبعث بعد الموت ـ كما روي عن ابن عباس ـ فصحيحٌ؛ لأنه ميعادُ الناس للجزاء، وقد يرجع إلى الأول.

وتَرْكُ العطف في هذه الأدعية المفتَتَحة بالنداء بعنوان الربوبية؛ للإيذان باستقلال المطالب وعلوِّ شأنها، وقد أشرنا إلى سرِّ تكرار النداء بذلك الاسم.

وفي بعض الآثار أنَّ موسى عليه السلام قال مرَّة: يا رب. فأجابه الله تعالى: لبَّيك يا موسى. فعجب موسى عليه السلام من ذلك فقال: يا ربِّ، أهذا لي خاصَّة؟ فقال: لا، ولكن لكلِّ مَن يدعوني بالربوبية.

وعن جعفر الصادق ﵁: مَن أحزنه أمرٌ فقال: ربَّنا ربَّنا، خمسَ مرَّات، نجَّاه الله تعالى مما يخاف، وأعطاه ما أراد. وقرأ هذه الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال: ما من عبدٍ يقول: يا ربِّ، ثلاث مرات، إلا نظر الله تعالى إليه. فذُكر للحسن فقال: أما تقرأ القرآن: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ إلخ[1].

فإن قلتَ: إنَّ وَعْدَ الله تعالى واجبُ الوقوع؛ لاستحالة الخُلْف في وَعْده سبحانه إجماعاً، فكيف طلب القومُ ما هو واقعٌ لا محالة؟

قلتُ: أجيب بأنَّ وَعْدَ الله تعالى لهم ليس بَحَسَبِ ذواتهم، بل بحَسَبِ أعمالهم، فالمقصود من الدعاء التوفيقُ للأعمال التي يصيرون بها أهلاً لحصول الموعود.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٨٤٤.

أو المقصود مجرَّد الاستكانة والتذلُّل لله تعالى بدليل قولهم: «إنك لا تخلف الميعاد» وبهذا يلتئم التذييل أتمَّ التئام، واختار هذا الجُبَّائيُّ وعليُّ بن عيسى.

أو الدعاء تعبُّديٌّ؛ لقوله سبحانه: ﴿ٱدۡعُونِيٓ﴾ [غافر: ٦٠] فلا يضرُّ كونُه متعلِّقاً بواجب الوقوع، وما يستحيل خلافُه، ومن ذلك: ﴿رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

وقيل: إنَّ الموعود به هو النصر لا غير، والقوم قد علموا ذلك، لكنهم لم يُوقَّتْ لهم في الوعد ليعلموه، فرغبوا إلى الله تعالى في تعجيل ذلك لما فيه من السرور بالظَّفَر، فالموعود غيرُ مسؤول، والمسؤول غيرُ موعود، فلا إشكال.

وإلى هذا ذهب الطبريُّ، وقال: إنَّ الآيةَ مختصَّةٌ بمن هاجر من أصحاب النبيِّ ﷺ، واستبطؤوا النصر على أعدائهم بعد أن وُعدوا به، وقالوا: لا صَبْرَ لنا على أناتك وحِلْمك. وقوَّى بما بعدُ من الآيات(١). وكلامُ أبي القاسم البلخيِّ يشير إلى هذا أيضاً، وفيه كلامٌ يُعلَم مما قدَّمنا.

وقيل: ليس هناك دعاءٌ حقيقة، بل الكلام مخرَّجٌ مخرجَ المسألة، والمراد منه الخبر. ولا يخفى أنه بمعزِلٍ عن التحقيق، ويزيده وَهْناً على وَهْنٍ قوله سبحانه:

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ الاستجابة: الإجابة، ونُقل عن الفرَّاء أنَّ الإجابةَ تُطلَق على الجواب ولو بالردّ، والاستجابةُ: الجوابُ بحصول المراد؛ لأنَّ زيادة السين تدلُّ عليه؛ إذ هو لطلب الجواب، والمطلوب ما يوافقُ المرادَ لا ما يخالفه.

وتتعدَّى باللام وهو الشائع، وقد تتعدَّى بنفسها كما في قوله:

وداعٍ دعا يا مَن يجيب إلى النَّدا ... فلم يستجبْهُ عند ذاك مجيبُ(٢)

وهذا ـ كما قال الشهاب(٣) وغيره ـ في التعدية إلى الداعي، وأما إلى الدعاء فشائعٌ بدون اللام مثل: استجاب الله تعالى دعاءه، ولهذا قيل: إنَّ هذا البيت على حذْف مضافٍ أي: لم يستجب دعاءه.

---

(١) تفسير الطبري ٦/٣١٨.
(٢) البيت لكعب بن سعد الغنوي، وهو في الحماسة البصرية ١/٢٣٤، وخزانة الأدب ١٠/٤٣٦.
(٣) في الحاشية ٣/٩٢، وما قبله منه.

والفاء للعطف، وما بعده معطوفٌ إما على الاستئناف المقدَّر في قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ ولا ضيرَ في اختلافهما صيغةً؛ لِمَا أنَّ صيغة المستقبل هناك للدلالة على الاستمرار المناسب لمقام الدعاء، وصيغةُ الماضي هنا للإيذان بتحقيق الاستجابة وتقرُّرها.

ويجوز أن يكون معطوفاً على مقدَّر ينساقُ إليه الذهن، أي: دَعَوْا بهذه الأدعية فاستجاب.. لهم إلخ.

وإن قُدِّر ذلك القولُ المقدَّر حالاً، فهو عَطْفٌ على «يتفكَّرون» باعتبار مقارنته لِمَا وقع حالاً من فاعله، أعني قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا﴾ إلخ، فإنَّ الاستجابة مترتِّبةٌ على دعواتهم، لا على مجرَّد تفكُّرهم، وحيث كانت من أوصافهم الجميلةِ المترتِّبةِ على أعمالهم بالآخرة، استحقَّت الانتظام في سلك محاسنهم المعدودة في أثناء مدحهم، وأما على كون الموصول نعتاً لأولي الألباب، فلا مساغَ لهذا العطف لما عرفت سابقاً، وقد أوضح ذلك مولانا شيخ الإسلام[١].

والمشهور: العطفُ على المُنساق إلى الذهن، وهو المنساق إليه الذهن.

وفي ذِكْر الربِّ هنا مضافاً ما لا يخفى من اللُّطف، وأخرج الترمذيُّ والحاكم وخلقٌ كثيرٌ عن أم سلمة قالت: قلت: يا رسول الله، لا أسمع الله تعالى ذَكَر النساءَ في الهجرة بشيء. فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ﴾ إلى آخر الآية. فقالت الأنصار: هي أولُ ظعينةٍ قَدِمَتْ علينا[٢]. ولعل المراد أنها نزلت تتمَّةً لِمَا قبلها.

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/ ١٣٣، وفيه: فلا مساغ لهذا العطف أصلاً لما عرفت من أن حق ما في حيز الصلة أن يكون من مبادي جريان الحكم على الموصول، وقد عرفت أن دعواتهم السابقة ليست كذلك، فأين الاستجابة المتأخرة عنها. وينظر ما سلف ص٢١١ من هذا الجزء.

(٢) سنن الترمذي (٣٠٢٣)، والمستدرك ٢/ ٣٠٠. قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. وقوله: فقالت الأنصار...، ليس فيهما، وذكره بهذه الزيادة السيوطي في الدر المنثور ٢/ ١١٢ وعنه نقل المصنف، ونسب هذه الزيادة ابن كثير عند تفسير هذه الآية لسعيد بن منصور. وأخرج الترمذي (٣٠٢٢) عن مجاهد قوله: وكانت أم سلمة أول ظعينة قدمت المدينة مهاجرة.

وأخرج ابن مردويه[(١)] عنها أنها قالت: آخرُ آيةٍ نزلت هذه الآية: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ أي: بأني، وهكذا قرأ أبيّ[(٢)]، واختلف في تخريجه، فخرَّجه العلَّامةُ شيخ الإسلام على أنَّ الباء للسببية، كأنه قيل: فاستجاب لهم بسببِ أنه لا يُضِيعُ عَمَلَ عاملٍ منهم، أي: سُنَّتُه السَّنِيَّةُ مستمرَّةٌ على ذلك. وجَعَل التكلُّمَ في «أنِّي» والخطابَ في «منكم» من باب الالتفات، والنكتةُ الخاصَّةُ فيه إظهارُ كمال الاعتناء بشأن الاستجابة، وتشريفُ الداعين بشرف الخطاب. والتعرُّض لبيان السبب لتأكيد الاستجابة، والإشعارِ بأنَّ مدارَها أعمالُهم التي قدَّموها على الدعاء لا مجرَّدُ الدعاء[(٣)].

وقال بعض المحققين: إنها صلةٌ لمحذوفٍ وقع حالاً إمَّا من فاعل «استجاب»، أو من الضمير المجرور في «لهم»، والتقدير: مخاطَباً لهم بأنِّي، أو: مخاطبين بأنِّي إلخ.

وقيل: إنها متعلِّقةٌ بـ «استجاب» لأنَّ فيها معنى القول، وهو مذهب الكوفيين.

ويؤيِّد القولين أنه قرئ: «إنِّي» بكسر الهمزة[(٤)]، وفيها يتعيَّن إرادةُ القول، وموقعُه الحال، أي: قائلاً إنِّي، أو مقولاً لهم إنِّي إلخ، وتَوَافُقُ القراءتين خيرٌ من تَخالُفِهما، وهذا التوافقُ ظاهرٌ على ما ذهب إليه البعض وصاحبُ القيل، وإن اختلف فيهما شدَّةً وضَعْفاً، وأما على ما ذكره العلَّامة فالظُّهور لا يكاد يظهر، على أنه في نفسه غيرُ ظاهر كما لا يخفى. وقرئ: «لا أُضيِّع» بالتشديد[(٥)].

وفي التعرُّض لوعد العاملين على العموم مع الرمز إلى وعيد المُعْرِضين غايةُ اللطف بحال هؤلاء الدَّاعِينَ، لا سيَّما وقد عَبَّر هناك عن تَرْك الإثابة بالإضاعة، مع أنه ليس بإضاعةٍ حقيقةً؛ إذ الأعمال غيرُ موجبةٍ للثواب حتى يلزمَ من تخلُّفه عنها إضاعتُها، ولكن عبَّر بذلك تأكيداً لأمر الإثابة، حتى كأنها واجبةٌ عليه تعالى.

---

(١) كما في الدر المنثور ٢/ ١١٢.

(٢) البحر المحيط ٣/ ١٤٣، وتفسير أبي السعود ٢/ ١٣٣.

(٣) تفسير أبي السعود ٢/ ١٣٣.

(٤) القراءات الشاذة ص ٢٤.

(٥) المصدر السابق.

كذا قيل، والمشهورُ أنَّ الإضاعة في الأصل الإهلاكُ، ومثلُها التضييع، ويقال: ضاع يَضِيع ضَيْعَةً وضَياعاً، بالفتح: إذا هلك، واستُعملت هنا بمعنى الإبطال، أي: لا أُبطل عملَ عامل كائنٍ منكم.

﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيانٌ لـ «عامل» وتأكيدٌ لعمومه؛ إما على معنى: شخص عامل، أو على التغليب. وجوّز أن يكون بدلاً من «منكم» بدلَ الشيء من الشيء؛ إذ هما لعينٍ واحدة، وأن يكون حالاً من الضمير المستكنِّ فيه.

وقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ مبتدأٌ وخبر، و«من» إما ابتدائيةٌ بتقدير مضاف، أي: من أصل بعض، أو بدونه؛ لأنَّ الذَّكر من الأنثى والأنثى من الذَّكر. وإما اتِّصالية، والاتِّصال إما بحسب اتِّحاد الأصل، أو المراد به الاتِّصالُ في الاختلاط، أو التعاون، أو الاتحاد في الدين، حتى كأنَّ كلَّ واحدٍ من الآخر لِمَا بينهما من أُخوَّة الإسلام.

والجملةُ مستأنفةٌ معترضةٌ مبيِّنةٌ لسبب انتظام النساء في سلك الدخول مع الرجال في الوعد، وجُوِّز أن تكون حالاً أو صفةً.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ ضَرْبُ تفصيلٍ لما أُجمل في العمل، وتعدادٌ لبعض أَحاسن أفراده مع المدح والتعظيم.

وأصل المهاجَرة من الهجرة: وهو التركُ، وأكثر ما تُستعمل في المهاجَرة من أرضٍ إلى أرض، أي: تَرْك الأولى للثانية مطلقاً، أو للدِّين على ما هو الشائع في استعمال الشرع، والمتبادِرُ في الآية هو هذا المعنى، وعليه يكون قوله تعالى: ﴿وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ عطفُ تفسير، مع الإشارة إلى أنَّ تلك المهاجَرة كانت عن قَسْرٍ واضطرار؛ لأنَّ المشركين آذَوْهم وظلموهم، حتى اضْطُرُّوا إلى الخروج.

ويحتمل أن يكون المراد: هاجروا الشِّرْك وتركوه، وحينئذٍ يكون «وأُخرجوا» إلخ تأسيساً.

﴿وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾ أي: بسبب طاعتي وعبادتي وديني، وذلك سبيلُ الله تعالى، والمراد من الإيذاء ما هو أعمُّ من أن يكون بالإخراج من الديار، أو غيرِ ذلك مما كان يصيب المؤمنين من قِبَلِ المشركين.

﴿وَقَـٰتَلُواْ﴾ أي: الكفارَ في سبيل الله تعالى ﴿وَقُتِلُواْ﴾ استُشهدوا في القتال، وقرأ حمزةُ والكسائي بالعكس[1]، ولا إشكال فيها؛ لأنَّ الواو لا توجب ترتيباً، وقَدَّم القتل لفضله بالشهادة، هذا إذا كان القتل والمقاتلة من شخصٍ واحد، أما إذا كان المراد: قُتلَ بعضٌ آخر، ولم يضعفوا بقَتْل إخوانهم، فاعتبار الترتيب فيها أيضاً لا يضرّ، وصحَّح هذه الإرادةَ أنَّ المعنى ليس على اتِّصافِ كلِّ فردٍ من أفراد الموصول المذكور بكلِّ واحدٍ مما ذُكر في حيِّز الصلة، بل على اتِّصاف الكلِّ بالكلِّ في الجملة، سواءٌ كان ذلك باتِّصاف كلِّ فردٍ من الموصول بواحدٍ من الأوصاف المذكورة، أو باثنين منها، أو بأكثر، فحينئذٍ يتأتَّى ما ذُكر إمَّا بطريق التوزيع، أي: منهم الذين قُتلوا ومنهم الذين قاتلوا، أو بطريق حَذْفِ بعض الموصولات من البين، كما هو رأي الكوفيين، أي: والذين قُتلوا والذين قاتلوا.

ويؤيِّد كونَ المعنى على اتِّصاف الكلِّ بالكلِّ في الجملة، أنه لو كان المعنى على اتِّصاف كلِّ فردٍ بالكلِّ، لكان قد أُضيع عملُ مَن اتَّصف بالبعض، مع أنَّ الأمر ليس كذلك.

والقول بأنَّ المراد: قُتلوا وقد قاتلوا، فـ «قد» مضمرةٌ، والجملةُ حالية، مما لا ينبغي أن يُخرَّج عليه الكلام الجليل.

وقرأ ابن كثير وابن عامر: «قُتِّلوا» بالتشديد للتكثير[2].

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ جوابُ قسمٍ محذوفٍ، أي: والله لأُكَفِّرَنَّ، والجملة القَسَميةُ خبرٌ للمبتدأ الذي هو الموصول، وزعم ثعلبٌ أنَّ الجملةَ [القَسَمية] لا تقع خبراً، ووجهه أنَّ الخبر له محلٌّ، وجوابُ القَسَم لا محلَّ له، وهو إنشائي[3]، فإما أن يقال: إنَّ له محلًّا من جهة الخبرية، ولا محلَّ له من جهة الجوابية، أو الذي لا محلَّ له الجوابُ، والخبرُ مجموعُ القَسَم وجوابِه، ولا يضرُّ كونُ الجملة إنشائيةً لتأويلها بالخبر، أو بتقدير قولٍ كما هو معروفٌ في أمثاله.

---

(١) التيسير ص ٩٣، والنشر ٢/ ٢٤٦.

(٢) التيسير ص ٩٣، والنشر ٢/ ٢٤٣.

(٣) في (م): الثاني: والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٣/ ٩٣، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه.

والتكفير في الأصل: السَّتر، كما أشرنا إليه فيما مرَّ، ولاقتضائه بقاءَ الشيء المستور ـ وهو ليس بمرادٍ ـ فسَّره هنا بعضُ المحققين بالمحو؛ والمراد من محوِ السيئات: محوُ آثارِها من القلب، أو من ديوان الحَفَظة، وإثباتُ الطاعة مكانَها كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: ٧٠].

والمراد من السيئات فيما نحن فيه الصغائر؛ لأنها التي تُكَفَّر بالقُرُبات كما نقله ابنُ عبد البرِّ عن العلماء[١]، لكنْ بشرط اجتناب الكبائر، كما حكاه ابن عطيةَ عن جمهور أهل السنة[٢]، واستدلُّوا على ذلك بما في الصحيحين من قوله ﷺ: «الصَّلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلى رمضان، مكفِّراتٌ لِمَا بينها ما اجتُنِبَتِ الكبائر»[٣].

وقالت المعتزلة: إنَّ الصغائر تقع مكفَّرةً بمجرَّد اجتناب الكبائر، ولا دَخْلَ للقُرُبات في تكفيرها، واستدلُّوا عليه بقوله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النساء: ٣١] وحَمَلَهُ الجمهور على معنى: نكفِّر عنكم سيئاتكم بحسناتكم، وأوردوا على المعتزلة أنه قد ورد: صومُ عرفة كفارة سنتين، وصوم يوم عاشوراء كفارة سنة[٤]. ونحو ذلك من الأخبار كثير، فإذا كان مجرَّدُ اجتناب الكبائر مكفِّراً، فما الحاجةُ لِمُقاساة هذا الصوم مثلاً؟

وإنما لم تُحمَل السيئات على ما يعمُّ الكبائر؛ لأنها لابدَّ لها من التوبة، ولا تكفِّرها القرباتُ أصلاً في المشهور، لإجماعهم على أنَّ التوبةَ فرضٌ على الخاصة والعامة، لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [النور: ٣١] ويلزمُ من تكفير الكبائر بغيرها بطلانُ فَرْضِيَّتها، وهو خلافُ النص.

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ٤/ ٤٨-٤٩.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤.

(٣) صحيح مسلم (٢٣٣): (١٦) من حديث أبي هريرة ﵁، ولم نقف عليه عند البخاري، وهو عند أحمد (٩١٩٧).

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٥١٧) بنحوه، ومسلم (١١٦٢) من حديث أبي قتادة ﵁.

وقال ابن الصلاح في «فتاويه»: قد يكفِّر بعضُ القربات ـ كالصلاة مثلاً ـ بعضَ الكبائرِ إذا لم يكن صغيرةٌ[١].

وصرَّح النوويُّ[٢] بأنَّ الطاعات لا تكفِّر الكبائر، لكن قد تخفِّفها.

وقال بعضهم: إنَّ القُرْبَةَ تمحو الخطيئة، سواء كانت كبيرة أو صغيرة، واستدلَّ عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] وقوله ﷺ: «وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها»[٣].

وفيه بحثٌ؛ إذا الحسنةُ في الآية والحديثِ بمعنى التوبة إن أُخذت السيئة عامة، ولا يمكن على ذلك التقدير حملُها على الظاهر، لما أنَّ السيئةَ حينئذٍ تشمل حقوق العباد، والإجماعُ على أنَّ الحسنات لا تُذهبها، وإنما تُذهبها التوبةُ بشروطها المعتبرة المعلومة.

وأيضاً لو أُخذ بعموم الحكم لترتَّب عليه الفسادُ من عدم خوفٍ في المعاد.

على أنَّ في سبب النزول ما يُرشد[٤] إلى تخصيص كلٍّ من الحسنة والسيئة، فقد روى الشيخان عن ابن مسعود أنَّ رجلاً أصابَ من امرأةٍ قُبلةً، ثم أتى النبيَّ ﷺ، فذكر له ذلك، فسكت النبيُّ ﷺ حتى نزلت الآية، فدعاه فقرأها عليه، فقال رجلٌ: هذه له خاصَّةً يا رسول الله؟ فقال: «بل للناس عامَّةً»[٥].

ووجهُ الإرشاد: أما إلى تخصيص الحسنة بالتوبة، فهو أنه جاءه تائباً، وليس في الحديث ما يدلُّ على أنه صَدَرَ منه حسنةٌ أخرى، وأما على تخصيص السيئة بالصغيرة، فلأنَّ ما وقع منه كان كذلك، لأنَّ تقبيل الأجنبية من الصغائر كما صرَّحوا به.

---

(١) فتاوى ابن الصلاح ص٣٥.

(٢) في شرحه على صحيح مسلم ٣/ ١١٣.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٣٥٤)، الترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٤) في الأصل: يرشدك.

(٥) صحيح البخاري (٥٢٦)، وصحيح مسلم (٢٧٦٣)، وهو في مسند أحمد (٣٦٥٣).

وقال بعض أهل السنَّة: إنَّ الحسنة تكفِّرُ الصغيرةَ ما لم يصرَّ عليها، سواءٌ فَعَلَ الكبيرةَ أم لا، مع القول الأصحِّ بأنَّ النوبةَ من الصغيرة واجبةٌ ولو لم يأت بكبيرة؛ لجوازِ تعذيب الله سبحانه بها، خلافاً للمعتزلة.

وقيل: الواجبُ الإتيانُ بالتوبة أو بمكفِّرها من الحسنة. وفي المسألة كلامٌ طويل، ولعلَّ التوبةَ إن شاء الله تعالى تُفضي إلى إتمامه.

هذا، وربَّما يقال: إنَّ حَمْلَ السيئات هنا على ما يعمُّ الكبائر سائغٌ، بناءً على أنَّ المهاجَرة تركُ الشرك، وهو إنما يكون بالإسلام، والإسلام يجبُّ ما قبله، وحينئذ يُعتبر في السيئات شبه التوزيع، بأن يُؤخَذ من أنواع مَدلولها مع كلٍّ وصفٍ ما يناسبه، ويكون هذا تصريحاً بوعد ما سأله الداعون من غفران الذنوب وتكفير السيئات بالخصوص، بعد ما وعد ذلك بالعموم.

واعترض بأنَّ هذا على ما فيه مبنيٌّ على أنَّ الإسلام يجبُّ ما قبله مطلقاً، وفيه خلاف، فقد قال الزركشيُّ: إنَّ الإسلام المقارِن للنَّدم، إنما يُكفِّر وِزْرَ الكفر لا غير، وأما غيرُه من المعاصي فلا يُكفَّر إلا بتوبةٍ عنه بخصوصه، كما ذكره البيهقي، واستدلَّ عليه بقوله ﷺ: «إنْ أَحْسَنَ في الإسلام لم يؤاخَذ بالأول ولا بالآخِر، وإنْ أساء في الإسلام أُخِذَ بالأول والآخِر»(١). ولو كان الإسلام يكفِّر سائر المعاصي لم يؤاخَذ بها إذا أسلم.

وأُجيب بأنه مع اعتبار ما ذُكر من شبه التوزيع، يهون أَمْرُ الخلاف كما لا يخفى على أرباب الإنصاف. فتدبر.

﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ إشارةٌ إلى ما عبَّر عنه الداعون فيما قبلُ بقولهم: «وآتنا ما وعدتنا على رسلك» على أحد القولين، أو رمزٌ إلى ما سألوه بقولهم: «ولا تُخزنا يوم القيامة» على القول الآخر.

﴿ثَوَابٗا﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لما قبله؛ لأنَّ معنى الجملة: لأُثيبنَّهم بذلك، فَوَضَعَ ثواباً موضعَ الإثابة، وإن كان في الأصل اسماً لِمَا يُثاب به، كالعطاء لِمَا يُعطى. وقيل:

---

(١) سنن البيهقي الكبرى ٩/ ١٢٣، وشعب الإيمان (٢٣) من حديث ابن مسعود ﷺ، وأخرجه ـ أيضاً ـ أحمد (٣٨٨٦)، والبخاري (٦٩٢١)، ومسلم (١٢٠).

إنه تمييزٌ، أو حالٌ من «جنات» لوصفها، أو من ضمير المفعول، أي: مُثاباً بها، أو مثابين. وقيل: إنه بدلٌ من «جنات». وقال الكسائيُّ: إنه منصوبٌ على القطع.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ صفةٌ لـ «ثواباً»، وهو وصفٌ مؤكِّدٌ؛ لأنَّ الثوابَ لا يكون إلا من عنده تعالى، لكنه صرَّح به تعظيماً للثواب وتفخيماً لشأنه، ولا يَرِدُ أنَّ المصدر إذا وُصف كيف يكون مؤكِّداً؟ لِمَا تقرَّر في موضعه أنَّ الوصف المؤكِّدَ لا ينافي كونَ المصدر مؤكِّداً.

وقيل: إنه متعلِّقٌ بـ «ثواباً» باعتبار تأويله باسم المفعول.

وقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، والاسم الجليل مبتدأ، خبره «عنده»، و«حسنُ الثواب» مرتفعٌ بالظَّرف على الفاعلية لاعتماده على المبتدأ، أو هو مبتدأٌ ثانٍ والظَّرفُ خبره، والجملةُ خبرُ المبتدأ الأول، والكلام مخرَّجٌ مخرجَ قول الرجل: عندي ما تريد، يريد اختصاصه به وتملُّكه له وإن لم يكن عنده، فليس معنى «عنده حسن الثواب» أنَّ الثوابَ بحضرته وبالقرب منه، على ما هو حقيقةُ لفظ «عنده»، بل مثَّل هناك كونَه بقدرته وفضله بحيث لا يقدِرُ عليه غيرُه بحالِ الشيء يكون بحضرةِ أحدٍ لا يَدَ عليه[1] لغيره، والاختصاصُ مستفادٌ من هذا التمثيل، حتى لو لم يجعل «حسن الثواب» مبتدأً مؤخَّراً كان الاختصاص بحاله.

وقد أفادت الآيةُ مزيدَ فَضْلِ المهاجرين ورِفْعةَ شأنهم، وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ والبيهقي[2] وغيرهم عن ابن عمرو[3] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أول ثلةٍ[4] يدخلون الجنة لَفقراءُ المهاجرين، الذين تُتَّقى بهم المكارِهُ، إذا أُمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كانت لرجل منهم حاجةٌ إلى السلطان لم تُقْضَ حتى يموتَ وهي في صدرِهِ، وإنَّ الله تعالى يدعو يوم القيامة الجنة، فتأتي بزُخْرفها

(١) في «م»: يدعيه. والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٢/ ١٣٤ والكلام منه.
(٢) تفسير الطبري ٦/ ٣٢٣، وشعب الإيمان (٤٢٥٩)، وأخرجه أيضاً أحمد (٦٥٧١)، والحاكم ٢/ ٧١-٧٢، وصححه.
(٣) في الأصل و(م): ابن عمر. والمثبت من مصادر التخريج.
(٤) في الأصل و(م) والشعب: ثلاثة، والمثبت من باقي المصادر.

وزينتها، فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وأُوذوا في سبيلي وجاهدوا في سبيلي، ادخلوا الجنة. فيدخلونها بغير عذابٍ ولا حساب، وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون: ربَّنا نحن نُسبِّح لك الليل والنهار ونقدِّس لك، ما[1] هؤلاء الذين آثَرْتَهم علينا؟ فيقول: هؤلاء عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وأُوذوا في سبيلي. فتدخل الملائكة عليهم من كلِّ باب: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]».

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾ الخطابُ للنبيِّ ﷺ، والمراد منه أُمَّته، وكثيراً ما يخاطَبُ سيِّدُ القوم بشيءٍ ويُراد أتباعُه، فيقوم خطابه مقام خطابهم. ويحتمل أن يكون عامًّا للنبيِّ ﷺ وغيرِه بطريق التغليب؛ تطييباً لقلوب المخاطَبين.

وقيل: إنه خطابٌ له عليه الصلاة والسلام، على أنَّ المراد تثبيتُهُ ﷺ على ما هو عليه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨] وضُعِّف بأنه عليه الصلاة والسلام لا يكون منه تزلزلٌ حتى يُؤمَر بالثبات، وفيه نظرٌ لا يخفى.

والنهيُ في المعنى للمخاطَب، أي: لا تغترَّ بما عليه الكَفَرةُ من التبسُّط في المكاسب والمتاجر والمزارع ووفورِ الحظّ.

وإنما جُعل النهيُ ظاهراً للتقلُّب؛ تنزيلاً للسَّبب منزلةَ المسبَّب، فإنَّ تغريرَ التقلُّب للمخاطَب سببٌ، واغتراره به مسبَّب، فَمَنَعَ السبب بورود النهي عليه، ليمتنع المسبَّب الذي هو اغترار المخاطَب بذلك السبب على طريقٍ برهانيٍّ، وهو أَبلغُ من ورود النهي على المسبَّب من أول الأمر، قالوا: وهذا على عكس قول القائل: لا أَرينَّك هنا، فإنَّ فيه النهيَ عن المسبَّب، وهو الرؤيةُ، ليمتنع السبب وهو حضور المخاطب.

وأُورد عليه أنَّ الغارِّيَّة والمغروريَّة متضايفان، وقد صرَّحوا بأنَّ القَطْعَ والانقطاع ونحوَ ذلك - مثلاً - متضايفان، وحُقِّق أنَّ المتضايفين لا يصحُّ أن يكون أحدهما سبباً للآخر، بل هما معاً في درجةٍ واحدة، فالأَولى أن يقال: علَّق النهيَ بكون التقلُّب غارًّا، ليفيد نهيَ المخاطَبِ عن الاغترار؛ لأن نفيَ أحدِ المتضايفين يستلزم نفيَ

(١) كذا في الأصل و(م)، والذي في المصادر: من.

الآخر، ولا يخفى أنَّ هذا مبنيٌّ على ما لم يقع الإجماع عليه، ولعلَّ النظرَ الصائبَ يقضي بخلافه.

وفُسِّر الموصول بالمشركين من أهل مكة، فقد ذكر الواحديُّ[١] أنهم كانوا في رخاءٍ ولينٍ من العيش، وكانوا يتَّجرون ويتنعَّمون، فقال: بعضُ المؤمنين: إنَّ أعداءَ الله تعالى فيما نرى من الخير، وقد هَلَكْنا من الجوع والجهد، فنزلت الآية.

وبعضٌ فَسَّره باليهود، وحكى أنهم كانوا يَضْرِبون في الأرض ويُصيبون الأموال، والمؤمنون في عَناءٍ، فنزلت، وإلى ذلك ذهب الفراء[٢].

والقولُ الأول أظهرُ، وأيًّا ما كان، فالجملةُ مسوقةٌ لتسلية المؤمنين وتصبيرهم، ببيان قُبْحِ ما أُوتي الكفرةُ من حظوظ الدنيا، إثرَ بيان حُسْنِ ما سينالونه من الثواب الجزيل والنعيم المقيم.

وقرأ يعقوبُ برواية رُويس وزيد: «لا يَغرَّنْكَ» بالنون الخفيفة[٣].

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو ـ يعني تقلُّبهم ـ متاعٌ قليل، وقِلَّتُه إما باعتبار قِصَرِ مدَّته، أو بالقياس إلى ما فاتهم مما أَعدَّ الله تعالى للمؤمنين من الثواب، وفيما رواه مسلمٌ مرفوعاً: «ما الدنيا في الآخرةِ إلَّا مِثْلُ ما يجعلُ أحدُكم إصبعه في اليمِّ، فينظر بمَ ترجع»[٤].

وقيل: إنَّ وَصْفَ ذلك المتاع بالقِلَّة، بالقياس إلى مؤنة السعي وتحمُّل المشاقِّ، فضلاً عمَّا يَلْحَقُه من الحساب والعقاب في دار الثواب. ولا يخفى بُعدُه.

﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ﴾ أي: مصيرُهم الذي يأوون إليه ويستقرُّون فيه بعد انتقالهم من الأماكن التي يتقلَّبون فيها ﴿جَهَنَّمُۚ﴾ التي لا يوصف عذابها ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ أي: بئس ما مَهدوا لأنفسهم وفَرشُوا جهنمُ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مصيرَهم إلى تلك الدار مما جَنَتْهُ أنفسُهم، وكسبتْهُ أيديهم.

---

(١) في أسباب النزول ص ١٣٤.
(٢) في معاني القرآن ١/ ٢٥١.
(٣) النشر ٢/ ٢٤٦.
(٤) صحيح مسلم (٢٨٥٨) من حديث المستورد بن شداد ﵁، وهو عند أحمد (١٨٠٠٨).

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ «لـكـن» للاستدراك عند النحاة، وهو رَفْعُ توهُّمٍ ناشئ من السابِق، وعند علماء المعاني: لِقَصْر القَلْب وردِّ اعتقاد المخاطَب.

وتوجيه الآية على الأول: أنه لمَّا وصفَ الكفَّار بقِلَّةِ نفع تقلُّبهم في التجارة، وتصرُّفهم في البلاد لأجلها، جاز أن يَتوهَّم متوهِّمٌ أنَّ التجارةَ من حيثُ هي مقتضيةٌ لذلك، فاستدرك: أنَّ المتقين وإنْ أَخذوا في التجارة لا يضرُّهم ذلك، وأنَّ لهم ما وُعِدُوا به.

أو يقال: إنه تعالى لمَّا جَعَلَ تمتُّع المتقلِّبين قليلاً مع سعة حالهم أَوْهَم ذلك أنَّ المسلمينَ الذين لا يزالون في الجهد والجوع في متاعٍ في كمال القِلَّة، فدُفع بأنَّ تمتُّعهم للاتِّقاء وللاجتناب عن الدنيا، ولا تَمَتُّع من الدنيا فوقَه؛ لأنه وسيلةٌ إلى نعمةٍ عظيمةٍ أبديةٍ هي الخلودُ في الجنات.

وعلى الثاني: ردٌّ لاعتقاد الكَفَرة أنهم متمتِّعون من الحياة، والمؤمنون في خُسرانٍ عظيم.

وعلَّل بعضُ المحققين جَعْلَ التقوى في حيِّز الصِّلة، بالإشعار بكون الخصال المذكورة من باب التقوى، والمراد بها الاتِّقاء عن الشِّرك والمعاصي.

والموصول مبتدأٌ، والظرفُ خبرُه، و«جنَّات» مرتفعٌ به على الفاعلية لاعتماده على المبتدأ، أو مرتفعٌ بالابتداء والظَّرفُ خبرُه، والجملة خبرُ المبتدأ.

«خالدين» حالٌ مقدَّرةٌ من الضمير المجرور في «لهم»، أو من «جنات» لتخصيصها بجملة الصفة، والعاملُ ما في الظرف من معنى الاستقرار.

وقرأ أبو جعفر: «لكنَّ» بتشديد النون(١).

﴿نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾ النُّزُل بضمَّتين، وكذا النُّزْل بضمٍّ فسكون: ما يُعَدُّ للضَّيْف أوَّلَ نزوله من طعام وشراب وصِلَة، قال الضَّبِّي:

وكنَّا إذا الجبارُ بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفَاتِ له نُزْلا(٢)

---

(١) النشر ٢/٢٤٧.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ١/٤٩١، والقرطبي ٢٠/٢٠٦.

ويستعمل بمعنى الزاد مطلقاً، ويكون جَمْعاً بمعنى النازلين، كما في قول الأعشى:

أو ينزلون فإنَّا مَعْشَرٌ نُزُلُ[١]

وقد جوَّز ذلك أبو عليٍّ في الآية، وكذا يجوز أن يكون مصدراً. قيل: وأصل معنى النُّزُل مفرداً: الفَضْل والرَّيع في الطعام، ويُستَعار للحاصل عن الشيء.

ونَصْبُه هنا إما على الحالية من «جنات» لتخصيصها بالوَصْف، والعاملُ فيه ما في الظرف من معنى الاستقرار، إن كان بمعنى: ما يُعَدُّ إلخ، وجَعْلُ الجنة حينئذٍ نفسها نُزلاً، من باب التجوُّز، أو بتقديرِ مضافٍ، أي: ذات نُزل.

وإما على الحالية من الضمير في «خالدين» إن كان جمعاً.

وإما على أنه مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ محذوفٍ إن كان مصدراً، وهو حينئذٍ: بمعنى النزول، أي: نزلوها نُزلاً، وجُوِّز على تقدير مصدريته أن يكون[٢] بمعنى المفعول، فيكون حالاً من الضمير المجرور في «فيها»، أي: منزولة.

والظرف صفةُ «نُزلاً» إن لم تجعله جمعاً، وإن جَعَلْتَه جمعاً ففيه ـ كما قال أبو البقاء[٣] ـ وجهان: أحدهما: أنه حالٌ من المفعول المحذوف؛ لأنَّ التقدير: نُزُلاً إياها. والثاني: أن يكون خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: ذلك من عند الله، أي: بفضله.

وذهب كثيرٌ من العلماء على أنَّ النُّزُل بالمعنى الأول، وعليه تمسَّك بعضُهم بالآية على رؤية الله تعالى؛ لأنه لمَّا كانت الجنةُ بِكُلِّيَّتِها نُزلاً، فلابدَّ من شيءٍ آخر يكونُ أصلاً بالنسبة إليها، وليس وراءَ الله تعالى شيءٌ، وهو كما ترى، نعم فيه حينئذٍ إشارةٌ إلى أنَّ القومَ ضيوفُ الله تعالى، وفي ذلك كمالُ اللُّطف بهم.

---

(١) وصدره: قالوا الركوب فقلنا تلك عادتُنا، والبيت في ديوان الأعشى ص ١٤٩.

(٢) الكلام من هذا الموضع، إلى قوله: بما يضوع منه مسك التمسك بما مضى، ص ٢٤٠ ساقط من الأصل.

(٣) في الإملاء ٢/١٧٨.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الأمور المذكورة الدائمة لكثرته ودوامه ﴿خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ١٩٨﴾ مما يتقلَّبُ فيه الفجّار من المتاع القليل الزائل؛ لقِلَّته وزواله، والتعبير عنهم بالأبرار وَوَضْعُ الظاهر مَوْضِعَ الضمير كما قيل؛ للإشعار بأنَّ الصِّفات المعدودة من أعمال البرِّ كما أنها من قَبيل التقوى. والجملة تذييلٌ، وزعم بعضُهم أنَّ هذا مما يحتمل أن يكون إشارةً إلى الرؤية؛ لأنَّ فيه إيذاناً بمقام العِنْديَّة والقُرْب الذي لا يوازيه شيءٌ من نعيم الجنة.

والموصولُ مبتدأ، والظرفُ صلته، و«خيرٌ» خبره، و«للأبرار» صفة «خير». وجُوِّز أن يكون «للأبرار» خبراً، والنية به التقديم، أي: والذي عند الله مستقِرٌّ للأبرار، و«خير» على هذا خبرٌ ثانٍ.

وقيل: «للأبرار» حالٌ من الضمير في الظرف، و«خيرٌ» خبرُ المبتدأ، وتعقَّبه أبو البقاء(١) بأنه بعيدٌ؛ لأنَّ فيه الفصلَ بين المبتدأ والخبر بحالٍ لغيره، والفصلَ بين الحال وصاحب الحال بخبر(٢) المبتدأ، وذلك لا يجوز في الاختيار.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ أخرج ابن جرير عن جابر أنَّ النبيَّ ﷺ قال لمَّا مات النَّجاشيُّ: «اخرجوا فصلُّوا على أخٍ لكم» فخرج فصلّى بنا، فكبَّر أربعَ تكبيرات، فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يُصلِّي على عِلْجٍ نصرانيٍّ لم يره قط، فأنزل الله تعالى هذه الآية(٣). وروي ذلك أيضاً عن ابن عباس وأنس وقتاده(٤).

وعن عطاء: أنَّها نزلت في أربعين رجلاً من أهل نجران من بني الحارث بن كعب؛ اثنين وثلاثين من أرض الحبشة، وثمانيةٍ من الروم، كانوا جميعاً على دين عيسى عليه السلام، فآمنوا بالنبيِّ ﷺ(٥).

(١) في الإملاء ٢/ ١٧٨-١٧٩.
(٢) في (م): غير، وسقط هذا الموضع من المخطوط، والمثبت من الإملاء، ومثله في الدر المصون ٣/ ٥٤٨ نقلاً عن أبي البقاء.
(٣) تفسير الطبري ٦/ ٣٢٧. وقصة صلاة النبي ﷺ على النجاشي أخرجها أحمد (٩٦٤٦)، والبخاري (١٢٤٥)، ومسلم (٩٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٤) أسباب النزول للواحدي ص ١٣٤-١٣٥، وأخرجه عن أنس ابن أبي حاتم ٣/ ٨٤٦، وعن قتادة الطبري ٦/ ٣٢٨.
(٥) ذكره الرازي في تفسيره ٩/ ١٥٤، وأبو حيان في البحر ٣/ ١٤٨.

وروي عن ابن جريج وابن زيد وابن إسحاق: أنها نزلت في جماعةٍ من اليهود أسلموا، منهم عبد الله بن سلام ومَن معه[١].

وعن مجاهد: أنها نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلِّهم[٢].

وأشهر الروايات أنها نزلت في النجاشي، وهو بفتح النون على المشهور كما قال الزركشيُّ ـ ونقل ابن السِّيد كَسْرَها، وعليه ابن دحية[٣] ـ وفتحِ الجيم مخفَّفةً، وتشديدُها غلط. وآخرهُ ياءٌ ساكنةٌ، وهو الأكثر روايةً لأنها ليست للنسبة، ونقل ابن الأثير تشديدها[٤]، ومنهم مَنْ جعله غلطاً. وهو لقبُ كلِّ مَنْ ملك الحبشة.

واسمه أَصْحَمة، بفتح الهمزة وسكونِ الصاد المهملة وحاءٍ مهملة، والحبشةُ يقولونه بالخاء المعجمة، ومعناه عندهم: عطيةُ الصنم. وذكر مقاتل في «نوادر التفسير» أنَّ اسمه مكحول بن صِصِهْ[٥]. والأول هو المشهور، وقد توفي في رجبٍ سنة تسع.

والجملةُ مستأنَفةٌ سِيقت لبيانِ أنَّ أهل الكتاب ليس كلُّهم كَمَنْ حُكيتْ صفاتهم، من نَبْذِ الميثاق وتحريف الكتاب وغير ذلك، بل منهم مَن له مناقبُ جليلةٌ، وفيها أيضاً تعريضٌ بالمنافقين الذين هم أقبحُ أصناف الكفار، وبهذا يحصل رَبْطٌ بين الآية وما قبلها من الآيات، وإذا لاحظتَ اشتراك هؤلاء مع أولئك المؤمنين فيما عند الله تعالى من الثواب، قويَتِ المناسبة، وإذا لاحظ[٦] أنَّ فيما تقدَّم مدحَ المهاجرين، وفي هذا مَدْحاً للمهاجَر إليهم من حيثُ إنَّ الهجرة الأولى كانت إليهم، كان أَمْرُ

---

(١) أخرجه عن ابن جريج الطبري ٦/ ٣٢٩.
(٢) أخرجه الطبري ٦/ ٣٣٠.
(٣) العلَّامة المحدِّث الرحَّال مجد الدين أبو الخطاب عمر بن حسن الكلبي الداني ثم السبتي، وكان يذكر أنه من ولد دحية ﷺ، قال الذهبي في السير ٢/ ٣٩١: كان صاحب فنون وتوسع ويد في اللغة، وفي الحديث على ضعف فيه، توفي سنة (٦٣٣هـ).
(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/ ٢٢.
(٥) بصادين مهملتين مكسورتين، ثم هاء ساكنة، كما في توضيح المشتبه ٣/ ١٠٩. وتصحف في (م) إلى صعصعة، وهذا الموضع ساقط من الأصل.
(٦) كذا في (م)، وسقط هذا الموضع من الأصل، والصواب: لاحظتَ.

المناسبة أقوى، وإذا اعتُبر تفسيرُ الموصول في قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ باليهود، زادتْ قوةً بَعْدُ.

ولامُ الابتداء داخلةٌ على اسم «إنَّ»، وجاز ذلك لِتَقدُّم الخبر.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن العظيم الشأن ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الإنجيل والتوراة، أو منهما، وتأخيرُ إيمانهم بذلك عن إيمانهم بالقرآن في الذِّكر، مع أنَّ الأمر بالعكس في الوجود، لما أنَّ القرآن عيارٌ[1] ومهيمنٌ عليهما[2]، فإنَّ إيمانَهم بذلك إنما يُعتبر بتبعية إيمانهم بالقرآن، إذ لا عبرةَ بما في الكتابين من الأحكام المنسوخة، وما لم ينسخ إنما يعتبر من حيث ثبوتُه بالقرآن، ولِتَعلُّق ما بعدُ بذلك.

وقيل: قَدَّمَ الإيمان بما أُنزل على المؤمنين تعجيلاً لإدخال المسرَّة عليهم، والمراد من الإيمان بالثاني الإيمانُ به من غير تحريف ولا كَتْم، كما هو شأنُ المحرِّفين والكاتمين وأتباعِ كلٍّ من العامة.

﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ أي: خاضعين له سبحانه، وقال ابن زيد: خائفين متذلِّلين. وقال الحسن: الخشوع: الخوفُ اللازمُ للقلب من الله تعالى.

وهو حالٌ من فاعل «يؤمن»، وجُمع حَمْلاً على المعنى بعد ما حُمل على اللفظ أولاً. وقيل: حالٌ من ضمير «إليهم» وهو أقربُ لفظاً فقط. وجيء بالحال تعريضاً بالمنافقين الذي يؤمنون خوفاً من القتل.

و«لله» متعلِّقٌ بـ «خاشعين». وقيل: هو متعلِّقٌ بالفعل المنفيِّ بعده، وهو في نية التأخير، كأنه قال سبحانه: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لأجل الله تعالى. والأول أولى.

وفي هذا النفي تصريحٌ بمخالفتهم للمحرِّفين، والجملةُ في موضع الحال أيضاً، والمعنى: لا يأخذون عِوَضاً يسيراً على تحريف الكتاب وكتمان الحق، من الرِّشا والمآكل، كما فعله غيره[3] ممَّن وصفه سبحانه فيما تقدَّم.

---

(١) العيار: هو الصحيح التام الوافي. لسان العرب (عير).

(٢) في (م): عليه. والمثبت من تفسير أبي السعود ٢/ ١٣٦ والكلام منه.

(٣) كذا في (م)، والصواب: غيرهم.

ووَصْفُ الثمن بالقليل؛ إما لأنَّ كلَّ ما يؤخذ على التحريف كذلك ولو كان مِلءَ الخافقين، وإما لمجرَّد التعريض بالآخِذين.

ومَدْحُهم بما ذُكر ليس من حيث عدمُ الأخذ فقط، بل لِتَضَمُّنِ ذلك إظهارَ ما في الآيات من الهدى وشواهد نبوَّته ﷺ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بما ذُكر من الصفات الحميدة. واختيارُ صيغة البُعْدِ للإيذان بعلوِّ مرتبتهم وبُعْدِ منزلتهم في الشَّرف والفضيلة.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثوابُ أعمالهم، وأَجْرُ طاعتهم، والإضافةُ للعهد، أي: الأجرُ المختصُّ بهم، الموعودُ لهم بقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤] وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

وفي التعبير بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم ما لا يخفى من اللُّطف.

وفي الكلام أوجهٌ من الإعراب، فقد قالوا: إنَّ «أولئك» مبتدأٌ، والظَّرف خبرُهُ، و«أَجرُهم» مرتفعٌ بالظَّرف. أو: الظَّرف خبرٌ مقدَّم، و«أَجرهم» مبتدأٌ مؤخَّر، والجملةُ خبرُ المبتدأ. و«عند ربهم» نصب على الحالية من «أجرهم». وقيل: متعلِّقٌ به بناءً على أنَّ التقدير: لهم أن يُؤجَروا عند ربهم.

وجُوِّز أن يكون «أجرهم» مبتدأ، و«عند ربهم» خبره، و«لهم» متعلِّقٌ بما دلَّ عليه الكلام من الاستقرار والثبوت؛ لأنه في حكم الظَّرف.

والأَوْجَهُ من هذه الأَوْجُهِ هو الشائعُ على أَلْسِنةِ المُعْرِبين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ١٩٩﴾ إما كنايةٌ عن كمال علمه بمقادير الأُجور ومراتب الاستحقاق، وأنه يُوفِّيها كلَّ عاملٍ على ما ينبغي وَقَدْرَ ما ينبغي، وحينئذٍ تكون الجملةُ استئنافاً وارداً على سبيل التعليل لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، أو تذييلاً لبيان عِلَّةِ الحكم المفاد بما ذُكر.

وإما كنايةٌ عن قُرْبِ الأَجْر الموعود، فإنَّ سرعةَ الحساب تستدعي سرعةَ الجزاء، وحينئذٍ تكون الجملةُ تكميلاً لما قبلها؛ فإنه في معنى الوعد، كأنه قيل: لهم أَجرٌ عِند ربِّهم عن قريب. وفُصِلَتْ لأنَّ الحُكْمَ بقُرْب الأجر مما يؤكِّد ثبوته.

ثم لمَّا بيَّن سبحانه في تضاعيف هذه السورة الكريمة ما بيَّن من الحِكَم والأحكام، وشَرَح أحوالَ المؤمنين والكافرين، وما قاساه المؤمنون الكرامُ من أُولئك اللئام من الآلام، خَتَمَ السورةَ بِما يَضُوع منه مِسْكُ التمسُّك بما مضى[١]، ويضيع بامتثال ما فيه مكايدُ الأعداء ولو ضاق لها الفضا، فقال عزَّ من قائل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ﴾ أي: احبسوا نفوسَكم عن الجَزَع مما ينالها، والظاهر أنَّ المرادَ الأمرُ بما يعمُّ أقسام الصبر الثلاثة، المتفاوتة في الدرجة، الواردة في الخبر، وهو الصَّبر على المصيبة، والصَّبر على الطاعة، والصَّبر على المعصية.

﴿وَصَابِرُواْ﴾ أي: اصبروا على شدائد الحرب مع أعداء الله تعالى صَبْراً أكثرَ من صَبْرهم، وذَكَره بعد الأمر بالصبر العامِّ لأنه أَشدُّ، فيكون أفضل، فالعطف كعطف جبريل على الملائكة[٢]، والصلاة الوسطى على الصلوات، وهذا وإن آل إلى الأمر بالجهاد إلا أنه أبلغُ منه.

﴿وَرَابِطُواْ﴾ أي: أقيموا في الثغور رابطين خيولكم فيها، حابسين لها مترصِّدين للغزو، مستعدِّين له، بالغين في ذلك المبلغَ الأَوْفَى أكثرَ من أعدائكم.

والمرابطةُ أيضاً نوعٌ من الصبر، فالعطفُ هنا كالعَطْف السابق.

وقد أخرج الشيخان عن سهل بن سعد أنَّ رسول الله ﷺ قال: «رباطُ يوم في سبيل الله، خيرٌ من الدنيا وما عليها»[٣].

وأخرج ابن ماجه بسندٍ صحيح عن أبي هريرة ﵁ عن رسول الله ﷺ قال: «مَن مات مرابطاً في سبيل الله تعالى، أُجريَ عليه أَجْرُ عملِه الصالح الذي كان يعمل، وأُجْريَ عليه رزقُه، وأَمِنَ من الفتَّان، وبَعثَهُ الله تعالى آمناً من الفزع»[٤].

---

(١) إلى هذا الموضع ساقط من الأصل.

(٢) يعني قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨].

(٣) صحيح البخاري (٢٨٩٢)، وصحيح مسلم (١٨٨١)، وهو عند أحمد (٢٢٨٧٢)، ولفظ مسلم: «غدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها».

(٤) سنن ابن ماجه (٢٧٦٧)، وأخرجه أحمد (٩٢٤٤) بنحوه، وله شاهد من حديث سلمان ﵁ عند أحمد (٢٣٧٢٨)، ومسلم (١٩١٣). قوله: الفتَّان، قال السندي في شرح =

وأخرج الطبراني بسندٍ لا بأس به عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن رابَطَ يوماً في سبيل الله تعالى جعل الله تعالى بينه وبين النار سَبْعَ خنادق، كلُّ خندقٍ كسبع سماوات وسبع أرضين»[١].

وأخرج أبو الشيخ عن أنس مرفوعاً: «الصلاة بأرض الرباط بألفي ألف[٢] صلاة».

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ الرباط أفضلُ من الجهاد؛ لأنه حَقْنُ دماء المسلمين، والجهادُ سَفْك دماء المشركين.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أمره على الإطلاق، فيندرج فيه جميعُ ما مرَّ اندراجاً أوَّليًّا.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ أي: لكي تَظفروا وتفوزوا بنيل المُنْيَة، ودَرْك البُغْية، والوصولِ إلى النُّجْح في الطِّلْبة، وذلك حقيقة الفلاح.

وهذه الآية على ما سمعتَ مشتملةٌ على ما يُرشد المؤمن إلى ما فيه مصلحةُ الدِّين والدنيا، ويَرْقَى به إلى الذِّروة العليا.

وقرَّر ذلك بعضهم بأنَّ أحوالَ الإنسان قسمان: الأول: ما يتعلَّقُ به وَحدَهُ، والثاني: ما يتعلَّقُ به من حيثُ المشاركةُ مع أهل المنزل والمدينة.

وقد أَمَرَ سبحانه ـ نظراً إلى الأول ـ بالصَّبر، ويندرجُ فيه الصبرُ على مشقَّة النظر والاستدلال في معرفة التوحيد والنبوة والمعاد، والصبرُ على أداء الواجبات والمندوبات والاحتراز عن المنهيات، والصبرُ على شدائد الدنيا وآفاتها ومخاوفها.

= سنن ابن ماجه ٢/ ١٧٥: بضم فتشديد جمع فاتن، وقيل: بفتح فتشديد للمبالغة، وفسِّر على الأول بمنكر ونكير، والمراد أنهما لا يجيئان إليه للسؤال، وعلى الثاني بالشيطان ونحوه ممن يوقع الإنسان في فتنة القبر، أي: عذابه، أو بملك العذاب.

(١) المعجم الأوسط (٤٨٢٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٨٩: فيه عيسى بن سليمان أبو طيبة، وهو ضعيف.

(٢) في الأصل و(م): بألف ألفي. والمثبت من الدر المنثور ٢/ ١١٥ نقلاً عن كتاب الثواب لأبي الشيخ.

وأَمَرَ ـ نظراً إلى الثاني ـ بالمصابرة، ويدخل فيها تحمُّل الأخلاق الرديَّة من الأقارب والأجانب، وتَرْكُ الانتقام منهم، والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، والجهادُ مع أعداء الدِّين باللسان والسِّنان.

ثم إنه لمَّا كان تكليفُ الإنسان بما ذُكر لابدَّ له من إصلاح القوى النفسانية الباعثةِ على أضداد ذلك، أَمَرَهُ سبحانه بالمرابطةِ، أَعمّ من أن تكون مرابطةَ ثغرٍ أو نفس. ثم لمَّا كانت ملاحظةُ الحقِّ جلَّ وعلا لابدَّ منها في جميع الأعمال والأقوال، حتى يكون معتدًّا بها، أَمَرَ سبحانه بالتقوى. ثم لمَّا تمَّت وظائفُ العبودية، ختمَ الكلامَ بوظيفة الربوبية، وهو رجاءُ الفلاح منه. انتهى.

ولا يخفى أنه على ما فيه تمحُّلٌ ظاهرٌ، وتعسُّفٌ لا ينكره إلا مُكابِرٌ، وأولى منه أن يقال: إنه تعالى أَمَرَ بالصَّبر العام أولاً؛ لأنه ـ كما في الخبر ـ بمنزلة الرأس من الجسد[1]، وهو مفتاح الفرج[2].

وقال بعضهم: لكلِّ شيءٍ جوهر، وجوهرُ الإنسان العقل، وجوهرُ العقل الصبر.

وادَّعى غيرُ واحدٍ أنَّ جميع المراتب العَليَّةِ والمراقِي السَّنية، الدينية والدنيوية، لا تُنال إلا بالصبر، ومن هنا قال الشاعر:

لأَستسهلَنَّ الصَّعبَ أو أُدركَ المنى ... فما انقادتِ الآمالُ إلا لصابرِ[3]

ثم إنه تعالى أَمَرَ ثانياً بنوعٍ خاصٍّ من الصبر، وهي المجاهدةُ التي يحصل بها النفع العام والعزُّ التام، وقد جاء عن رسول الله ﷺ: «إذا تركتُم الجهاد، سلَّط الله تعالى عليكم ذُلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[4].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٤٧، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٧١٨) من قول علي رضي الله عنه ولفظه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان.

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٢٧ وقال: رواه الديلمي عن الحسن بن علي مرفوعاً. وينظر الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٤١٥.

(٣) البيت في زهر الأكم في الأمثال والحكم ٣/ ٨٢ دون نسبة.

(٤) أخرجه أحمد (٤٨٢٥)، وأبو داود (٣٤٦٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ثم ترقَّى إلى نوعٍ آخرَ من ذلك هو أعلى وأغلى، وهو المرابطةُ التي هي الإقامةُ في ثَغْرٍ لدفع سوءٍ مترقَّب ممَّن وراءه.

ثم أمر سبحانه آخِرَ الأمر بالتقوى العامَّة؛ إذ لولاها لأوْشَكَ أن يُخالط تلك الأشياء شيءٌ من الرياء والعُجْب ورؤيةِ غير الله سبحانه فيفسدها.

وبهذا تمَّ المعجون الذي يُبرئ العِلَّة، ورُوِّق الشراب الذي يروي الغُلَّة. ومن هنا عقَّب ذلك بقوله عزَّ شأنه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وهذا مبنيٌّ على ما هو المشهور في تفسير الآية.

وقد روي في بعض الآثار غيرُ ذلك، فقد أخرج ابن مردويه(١) عن سلمةَ بنِ عبد الرحمن قال: أقبل عليَّ أبو هريرة يوماً فقال: أتدري يا ابن أخي فيم أُنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا﴾ إلخ؟ قلت: لا. قال: أمَا إنه لم يكن في زمان النبيِّ ﷺ غزوٌ يُرابطون فيه، ولكنَّها نزلت في قوم يَعمُرون المساجدَ، يُصلُّون الصلاة في مواقيتها، ثم يذكرون الله تعالى فيها، ففيهم أُنزلت. أي: اصبروا على الصلوات الخمس، وصابروا أنفسَكم وهواكم، ورابطوا في مساجدكم، واتقوا الله فيما علَّمكم لعلَّكم تفلحون.

وأخرج مالكٌ والشافعيُّ وأحمدُ ومسلمٌ عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «ألا أخبِرُكم بما يمحو الله تعالى به الخطايا، ويرفعُ به الدرجات؟ إسباغُ الوضوء على المكاره، وكثرةُ الخُطا إلى المساجد، وانتظارُ الصلاة بعد الصلاةِ، فذلكم الرِّباط، فذلكم الرِّباط، فذلكم الرِّباط»(٢).

ولعلَّ هذه الروايةَ عن أبي هريرةَ أَصحُّ من الرواية الأولى، مع ما في الحُكْم فيها بأنه لم يكن في زمان النبيِّ ﷺ غزوٌ يُرابطون فيه من البُعْدِ، بل لا يكاد يسلم ذلك له، ثمَّ إنَّ هذه الروايةَ وإن كانت صحيحةً، لا تنافي التفسيرَ المشهورَ لجواز أن تكون اللامُ في «الرِّباط» فيها للعهد، ويُراد به الرباطُ في سبيل الله تعالى، ويكون قوله عليه الصلاة والسلام: «فذلكم الرِّباط» من قبيل: زيدٌ أَسدٌ، والمراد تشبيهُ ذلك بالرِّباط على وجه المبالغة.

---

(١) كما في الدر المنثور ٢/ ١١٣.

(٢) الموطأ ١/ ١٦١، ومسند أحمد (٨٠٢١)، وصحيح مسلم (٢٥١).

وأخرج عبد بن حميد[(١)] عن زيد بن أسلم أنَّ المراد: اصبروا على الجهاد، وصابروا عدوَّكم، ورابطوا على دينكم.

وعن الحسن أنه قال: اصبروا على المصيبة، وصابروا على الصلوات، ورابطوا في الجهاد في سبيل الله تعالى[(٢)].

وعن قتادة أنه قال: اصبروا على طاعة الله تعالى، وصابروا أهلَ الضلال، ورابطوا في سبيل الله[(٣)].

وهو قريبٌ من الأول، والأولُ أولى.

❁ ❁ ❁

هذا، ومن باب الإشارة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: العالم العلويِّ والعالم السفليّ ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الظُّلمة والنور ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وهم الناظرون إلى الخَلْق بعين الحق.

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا﴾ في مقام الروح بالمشاهدة ﴿وَقُعُودًا﴾ في محلِّ القلب بالمكاشفة ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي: تقلُّباتهم في مكامن النفس بالمجاهدة.

وقال بعضهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا﴾ أي: قائمين باتِّباع أوامره ﴿وَقُعُودًا﴾ أي: قاعدين عن زواجره ونواهيه ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي: ومجتنبين مطالعات المخالفات بحال.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ بألبابهم الخالصة عن شوائب الوهم ﴿فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وذلك التفكُّر على معنيين؛ الأول: طلبُ غيبة القلوب في الغيوب التي هي كنوزُ أنوار الصفات، لإدراك أنوار القُدْرة التي تبلِّغ الشاهدَ إلى المشهود. والثاني: جَوَلان القلوب بنعتِ التفكُّر في إبداع المُلْك، طلباً لمشاهدة المَلِك في المُلْك،

---

(١) كما في الدر المنثور ٢/ ١١٤، وأخرجه ـ أيضاً ـ الطبري في تفسيره ٦/ ٣٣٤، وابن أبي حاتم ٣/ ٨٤٨، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٢٠٥).

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٢/ ١١٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٨٤٨.

(٣) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٢/ ١١٤، وتفسير الطبري ٦/ ٣٣٢.

فإذا شاهدوا قالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ بل هو مرايا لأسمائك، ومظاهرُ لصفاتك، ويُفْصِحُ بالمقصود قولُ لبيد:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ(١)

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك من أن يكون في الوجود سواك ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ وهي نارُ الاحتجاب بالأكوان عن رؤية المكوِّن.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ﴾ وتحجبه عن الرؤية ﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ وأذللته بالبُعد عنك ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين أشركوا ما لا وجودَ له في العِير ولا النفير ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ لاستيلاء التجلِّي القهريِّ عليهم.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا﴾ بأسماع قلوبنا ﴿مُنَادِيًا﴾ من أسرارنا التي هي شاطئُ وادي الروح الأيمن ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ العياني ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ أي: شاهِدوا ربَّكم فشاهدنا.

أو ﴿إِنَّنَا سَمِعْنَا﴾ في المقام الأول ﴿مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ والمراد به هو الله تعالى حين خاطبَ الأرواح في عالم الذَّرِّ بقوله سبحانه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فإنَّ ذلك دعاءٌ لهم إلى الإيمان ﴿فَـَٔامَنَّا﴾ يعنُون قولهم: ﴿بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] حين شاهدوه هناك سبحانه.

﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: ذنوبَ صفاتنا بصفاتك ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا﴾ سيِّئات أفعالنا برؤية أفعالك ﴿وَتَوَفَّنَا﴾ عن ذواتنا بالموت الاختياري ﴿مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ وهم القائمون على حدِّ التفريد والتوحيد.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ﴾ ألسنة ﴿رُسُلِكَ﴾ بقولك: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بأن تحجبنا بنعمتك عنك ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ لكمال رحمته ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ﴾ القلبُ وعَمَلُه مثلُ الإخلاص واليقين ﴿أَوْ أُنثَىٰ﴾ النفسُ وعملُها إذا تزكَّت

(١) ديوان لبيد ص ٢٥٦.

المجاهداتُ والطاعات القالبية ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۖ﴾ إذ يجمعكم أَصلٌ واحدٌ وهو الروح الإنسانية.

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ من غير الله تعالى، إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ وهي مألوفات أنفسهم ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ بما قَاسَوْا من المنكِرين.

وعن بعض العارفين: أنَّ القوم إذا لم يذوقوا مرارةَ إيذاء المنكِرين، لم يفوزوا بحلاوة كأس القُرْب من الله تعالى، ولهذا قال الجنيد قُدِّسَ سِرُّه: جزى الله تعالى إخواننا عنَّا خيراً، رَدُّونا بجفائهم إلى الله تعالى، وقاتلوا أنفسَهم في وَهْي أعدى أعدائهم، وقُتلوا بسيف الفناء.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ الصغائر والكبائر من بقايا صفاتهم وذواتهم ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ ثلاث، وهي جنةُ الأفعال، وجنةُ الصفات، وجنةُ الذات ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أنهارُ العلوم والتجلِّيات ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ الجامع لجميع الصفات ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ فلا يكون بيد غيره ثوابٌ أصلاً.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي حُجبوا عن التوحيد ﴿فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ في المقامات الدنيوية والأحوال ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ لسرعة زواله وعدم نفعه ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ﴾ الحرمان ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الذي اختاروه بحسب استعدادهم.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ بأن تجرَّدوا كمالَ التجرُّد ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ ثلاثُ عِوَضُ ذلك ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾ مُعدًّا لهم ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من نعيم[1] المشاهدة، ولطائف القُرْبةِ، وحلاوة الوصلة ﴿خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ ويحقِّق التوحيد الذاتي ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من علم التوحيد والاستقامة ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من علم المبدأ والمعاد ونيل الدرجات ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ للتجلِّي الذاتي، وما تجلَّى الله تعالى لشيءٍ إلا خضع له ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تعالى وهي تَجلِّيات صفاته ﴿ثَمَنًا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ وهي تلك الجنات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فيُوصل إليهم أجرهم بلا إبطاء.

---

(١) في (م): نعم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ عن المعاصي ﴿وَصَابِرُوا﴾ على الطاعات ﴿وَرَابِطُوا﴾ الأرواح بالمشاهدة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ من مشاهدة الأغيار ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بالتجرُّد عن همومكم وخطراتكم.

أو ﴿اصْبِرُوا﴾ في مقام النفس بالمجاهدة ﴿وَصَابِرُوا﴾ في مقام القلب مع التجلِّيات ﴿وَرَابِطُوا﴾ في مقام الروح ذواتكم، حتى لا تعتريكم فترةٌ أو غفلةٌ، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ عن المخالفة والإعراضِ والجفاء ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تفوزون بالفلاح الحقيقي.

نسأل الله تعالى أن يجعل لنا الحظَّ الأوفى من امتثال هذه الأوامر وما يترتَّب عليها بمَنِّه وكرمه.

❁ ❁ ❁

وهذه الآياتُ العشْرُ كان يقرؤها ﷺ كلَّ ليلة، كما أخرج ذلك ابن السّنِّي وأبو نعيم وابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه[(١)].

وأخرج الدارميُّ عن عثمان بن عفان قال: من قرأ آخرَ آل عمران في ليلةٍ، كتب الله تعالى له قيام ليلة[(٢)].

وأخرج الطبرانيُّ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «مَن قرأ السورة التي يُذكر فيها آلُ عمران يوم الجمعة، صلى الله تعالى عليه وملائكته حتى تَجِبَ الشمس»[(٣)].

وخبرُ: «مَن قرأ سورة آل عمران، أُعطي بكلِّ آيةٍ أماناً على جسر جهنم»[(٤)] موضوعٌ مختَلَقٌ على رسول الله ﷺ، وقد عابوا على مَن أَورده من المفسِّرين.

---

(١) عمل اليوم والليلة لابن السني (٦٨٨)، وتاريخ دمشق ٢٢/ ٣٩٣، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٦٧٧٣)، وفي إسناده مظاهر بن أسلم، قال البخاري: ضعَّفه أبو عاصم. وقال يحيى: ليس بشيء. وقال النسائي ضعيف، وأما ابن حبان فذكره في الثقات. الميزان ٤/ ١٣١. وله شاهد من حديث ابن عباس رضي الله عنه عند البخاري (١٨٣)، ومسلم (٧٦٣)، وسلف ص٢٠٥ من هذا الجزء.

(٢) سنن الدارمي (٣٣٩٦).

(٣) المعجم الكبير (١١٠٠٢)، والأوسط (٦١٥٣). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ١٦٨: فيه طلحة بن زيد الرقي، وهو ضعيف.

(٤) أخرجه الواحدي في الوسيط ١/ ٤١١ من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

نسأل الله تعالى أن يعصمنا عن الزَّلل، ويحفَظَنا من الخطأ والخَطَل، إنه جوادٌ كريمٌ، رؤوف رحيم.

وليكن هذا خاتمة ما أَمليته من تفسير الفاتحة والزهراوين، وأنا أرغب إلى الله تعالى بالإخلاص أن يُوْصِلني إلى تفسير المعوِّذتين، وهو الجِلْدُ الأول من روح المعاني، ويتلوه إن شاء الله تعالى الجِلْدُ الثاني[1].

(١) جاء بعدها في الأصل: فرغ من تحريره أقل الورى وخادم الفقرا سيد محمد أمين خطيب الحضرة القادرية وواعظها، في غرة محرم الحرام ابتداء السنة الرابعة والخمسين بعد الألف والمئتين من هجرة سيد الكونين ﷺ. كتب على مسودة مؤلفه: وقد قابله هو، والله تعالى الموفق لا رب غيره.
وجاء في (م): وكان الفراغ منه في غرة محرم الحرام سنة ١٢٥٤ ألف ومئتين وأربعة وخمسين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين، آمين.

(سورة آل عمران)

نزلت (بالمدينة وهي مائتا آية)

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ﴾ حُرّكت الميم لالتقاء الساكنين أعني سكونها وسكون لام «الله» **(وفُتِحَت لخفّة الفتحة، ولم تُكسَر للياء)** وكسر الميم قبلها تحاميًا عن توالي الكسرات، **(وليس فتح الميم لسكونها وسكون ياء قبلها)** إذ لو كان كذلك لوجب فتحها في «حَم». ولا يصحّ أن يقال: إن فتح الميم هو فتحة همزة «الله» نقلت إلى الميم لأن تلك الهمزة همزة وصل تسقط في الدرج وتسقط معها حركتها، ولو جاز نقل حركتها لجاز إثباتها، وإثباتها غير جائز. وأسْكَن **(يزيد)** و**(الأعشى)** الميم وقطعا الألف، والباقون بوصل الألف وفتح الميم «والله» مبتدأ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبره وخبر «لا» مضمر والتقدير: لا إلـه في الوجود إلا هو، «وهو» في موضع الرفع بدل من موضع «لا»، واسمه ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله: (سورة آل عمران مدنية) باتّفاق. اهـ خطيب. **قوله:** (وهي مائتا آية) وثلاثة آلاف وأربعمائة وثمانون كلمة وأربعة عشر ألفًا وخمسمائة وعشرون حرفًا. اهـ خطيب. **قوله:** (وفُتِحت لخفّة الفتحة) وللمحافظة على تفخيم لفظ الله. **قوله:** (ولم تُكسر للياء) وهي أخت الكسرة، وقيل: هذه الياء كسرة. **قوله:** (وليس فتح الميم لسكونها وسكون ياء قبلها)؛ لأن ذلك مغتفر في باب الوقف. **قوله:** (يزيد) هو أبو جعفر المدني، وليس من السبعة. **قوله:** (الأعشى) هو أبو يوسف يعقوب بن خليفة بن سعد بن هلال عن أبي بكر شعبة عن عاصم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الحيّ، أو بدل من «هو» و«القيوم» فيعول من قام وهو القائم بالقسط والقائم على كل نفس بما كسبت.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾﴾

﴿نَزَّلَ﴾ أي هو نزل ﴿عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال أي نزله حقًّا ثابتًا ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما قبله ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ (**هما اسمان أعجميان وتكلّف اشتقاقهما من الورى والنجل**)، ووزنهما بتفعلة وافعيل إنما يصحّ

قوله: (**هما اسمان أعجميان وتكلّف اشتقاقهما من الورى**) بفتح الواو وسكون الراء. **قوله:** (**والنَّجْل**) بفتح فسكون الخ... إشارة إلى أن الناس اختلفوا في هذين اللفظين، هل يدخلهما الاشتقاق والتصريف، أو لا يدخلهما لكونهما اسمين أعجميَّيْن عبرانيَّيْن لهذين الكتابين الشريفين، والمصنّف رحمة الله عليه اختار الثاني، ومَنْ قال باشتقاقهما قال: التوراة مشتقّة من قولهم: وري الزند إذا قدح، فظهر منه نار، ووري الزند وأوريته أنا. قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الواقعة: الآية ٧١]، فثلاثيه لازم ورباعيه متعدّي، قال الله تعالى: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾﴾ [العَاديَات: الآية ٢]، فلمّا كانت التوراة فيها ضياء ونور يخرج به المرء من الضلال إلى الهدى، كما يخرج من الظلام إلى النور، سمّي هذا الكتاب بالتوراة، ويؤيّد هذا القول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾ [الأنبياء: الآية ٤٨]، وهذا قول الفرّاء وجمهور الناس. وقال: وزنها تفعلة ـ بكسر العين ـ فأُبدلت الكسرة فتحة، وهي لفظة طائيّة يقولون في الناصية: ناصاة، وفي جارية: جاراة، وفي ناجية: ناجاة، وقيل: وزنها تفعلة بفتح العين. وقيل في الإنجيل: إنه مشتقّ من النَّجْل وهو الأصل، يقال: لعن الله ناجليه، أي والديه سُمّي هذا الكتاب بهذا الاسم لأنه الأصل المرجوع إليه في ذلك الدين، وقيل في الإنجيل: إنّه مشتقّ من النّجل مأخوذ من قول العرب: نجلت الشيء إذا استخرجته وأظهرته، ويقال للماء الذي يخرج من البئر: نجل، ومنه **النجل** للولد، وسمّي الإنجيل به لأنه مُستخرج من اللّوح المحفوظ؛ فالنَّجل من الأضداد حيث يطلق على الولد والوالد والفرع والأصل، وقيل: إنه من النجل الذي هو سعة العين، يقال: عين نجلاء لسعتها، وظبية نجلاء. سمّي الإنجيل بذلك لأن فيه توسعة ليست في التوراة؛ إذ حللت فيه أشياء محرّمة في التوراة.

بعد كونهما عربيين. وإنما قيل: «نزل الكتاب» و«أنزل التوراة والإنجيل» لأن القرآن نزل (**منجمًا**) ونزل الكتابان جملة.

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾﴾

﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ لقوم موسى وعيسى أو لجميع الناس ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي جنس الكتب لأن الكل يفرق بين الحق والباطل، (**أو الزبور**)، أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له تفخيمًا لشأنه ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من كتبه المُنَزَّلة وغيرها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ ذو عقوبة شديدة لا يقدر على مثلها منتقم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾﴾ أي في العالم (**فعبَّر عنه بالسماء والأرض**) أي هو مُطَّلع على كفر مَن كفر وإيمان مَن آمَن وهو مُجازيهم عليه.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ (كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من **الصور**) المختلفة ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ في سلطانه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبيره. رُوِيَ أنه لمَّا (**قَدِمَ وفد بني نجران**) وهم ستون راكبًا.

قوله: (منجمًا) أي متفرّقًا.

قوله: (أو الزبور)؛ لقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: الآية ١٦٣].

قوله: (فعبَر عنه بالسماء والأرض) لأنهما العالم كلّه بالنظر الظاهر.

قوله: (﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من الصور) يعني أنه في موضع الظرف، والمعنى في أيّ صورة، وعلى أيِّ هيئة يشاء يصوّركم، يقال: صوّره صورة حسنة فتصوّر، أي صار ذا صورة. **قوله**: (قدم) بالكسر. **قوله**: (وفد) جمع وافد، في مختار الصِّحاح: وفد فلان على الأمير، أي ورد رسولًا، وبابه وعد، فهو وافد، والجمع وَفْد مثل صاحب وصَحْب، انتهى. (بني نجران) كذا في التيسير، وفي حاشية تفسير البيضاوي للعلامة شيخ زاده رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفد نجران. اهـ. وفي تفسير الخطيب:

(أميرهم العاقب وعمدتهم السيد وأسقفهم وحَبْرهم أبو حارثة) ـ خاصموا في أن عيسى إن لم يكن ولدًا لله فمَن أبوه؟ فقال ﷺ: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ قالوا: بلى. قال: ألم تعلموا أن الله تعالى حيٌّ لا يموت وعيسى يموت، وأن ربّنا قَيِّم على العباد يحفظهم ويرزقهم وعيسى لا يقدر على ذلك، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وعيسى لا يعلم إلا ما علم، وأنه صَوَّر عيسى في الرَّحم كيف شاء فحملته أُمه ووضعته وأرضعته، وكان يأكل ويحدِّث وربّنا مُنَزَّه عن ذلك كله؟ فانقطعوا فنزل فيهم صدر سورة آل عمران إلى **(بضع وثمانين)** آية.

وفد نصارى نجران. اهـ. وفي لسان العرب: نجران بلد، وهو من اليمن. اهـ. وأيضًا فيه: وفي الحديث أنه كفّن في ثلاثة أثواب نجرانيّة، هي منسوبة إلى نجران، وهو موضع معروف بين الحجاز والشام واليمن، وفي الحديث: قدِم عليه نصارى نجران. اهـ.

قوله: (أميرهم العاقب) أي يقال له العاقب، واسمه عبد المسيح. **قوله: (وعمدتهم السيد)** أي مشيرهم ووزيرهم، كانوا يقولون له السيد واسمه الأيْهَم. **قوله: (وأسقفهم وحبرهم)** وصاحب مِدراسهم **(أبو حارثة)** بن علقمة أخو بكر بن وائل. في المصباح: الأسْقُف للنصارى رئيس منهم بالتثقيل والتخفيف، والجمع أساقفة. اهـ. وأيضًا فيه: الحبر ـ بالكسر ـ العالم، والجمع أحبار، مثل حمل وأحمال، والحبر ـ بالفتح ـ لغة فيه وجمعه حبور، مثل فلس وفلوس، واقتصر ثعلب على الفتح وبعضهم أنكر الكسر. اهـ.

قوله: (بضع وثمانين). في المصباح: بضع في العدد بالكسرة، وبعض العرب يفتح، واستعماله من الثلاثة إلى التسعة. وعن ثعلب: من الأربعة إلى التسعة يستوي فيه المذكّر والمؤنّث، فيقال: بضع رجال وبضع نسوة، ويُستعمل أيضًا من ثلاثة عشر إلى تسعة عشر لكن تثبت الهاء مع المذكّر وتُحذف مع المؤنث؛ كالنيِّف، ولا يُستعمل فيما زاد على العشرين، وأجازه بعض المشائخ، فيقول: بضعة وعشرون رجلًا وبضع وعشرون امرأة، وهكذا قال أبو زيد. وقالوا: على هذا معنى البضع والبضعة في العدد قطعة مُبهمة غير محدودة. اهـ.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾

(﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾) القرآن (﴿مِنْهُ﴾) من الكتاب (﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾) أُحْكِمَت عبارتها بأن حُفِظَت من الاحتمال والاشتباه (﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾) أصل الكتاب تحمل المتشابهات عليها وترد إليها (﴿وَأُخَرُ﴾) وآيات أُخر (﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾) مشتبهات محتملات. مثال ذلك ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: الآية ٥] فالاستواء يكون بمعنى الجلوس وبمعنى القدرة والاستيلاء، ولا يجوز

قـــولـــه: (﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾) . . . الخ ذكر الإمام الزاهدي في بيان نزول هذه الآية: أنه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ [البقرة: الآية ١] أوّله اليهود بقاعدة أبجد، وقالوا: بأنّ الألف يُراد به الواحد، واللام يُراد به ثلاثون، والميم يراد به الأربعون؛ فكان بقاء أُمّة محمّد إحدى وسبعين سنة، فكيف نتّبع هذا الدين؟ فتبسّم النبيّ ﷺ، فقالوا: هل غير هذا؟ فقال: ﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾﴾ [الأعراف: الآية ١]، فقالوا: هذا أكثر من الأوّل، فهو مائة وأحد وسبعون[(١)]، فقالوا: هل غير هذا؟ فقال: ﴿الٓمٓر﴾ [الرعد: الآية ١]، فقالوا: خلطت الأمر علينا، فلا ندري بأيّها نأخذ؟ فنزل في حقّهم هذه الآية المذكورة. وقيل: لمّا نزلت الآيات المتشابهات مثل قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [الواقعة: الآية ٥٧]، ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾ [الواقعة: الآية ٦٠]، ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾ [الزخرف: الآية ٣٢]، قال أهل الكتاب: وافق هذا قولنا إنه ثالث ثلاثة؛ لأن الإخبار بذكر الجمع لا يصح إلّا عن الجمع؛ فأنزل الله هذه الآية، هذا حاصل كلامه. ومعنى الآية: أني أنزلت الكتاب قسمين بعضه منه آيات محكمات، أي محكمة عباراتها محفوظة من الاحتمال والاشتباه، وهنّ أمّ الكتاب، أي أصله بحيث يحمل المتشابهات عليها وتُردّ إليها، وبعضٌ آخر منه، (﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾)، أي متشابهات محتملات مثل ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: الآية ٥]، فإنّ الاستواء قد يكون بمعنى الجلوس، وقد يكون بمعنى الاستيلاء، والأوّل لا يجوز أن يُحمل على الله تعالى

---

(١) الصواب ستون، كما لا يخفى. ١٢ ح عمّ فيضهم.

الأول على الله تعالى بدليل المُحكَم وهو قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١].

بدليل المُحكم، وهو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١]، فيُحمل على الثاني ردّ المتشابه إلى المُحكم، ومثل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البَقَرة: الآية ١] وغير ذلك. فأمّا الذين في قلوبهم زيغ، أي مَيْل عن الحق وهم أهل البدع والأهواء، فلا يعملون على المحكم ولا يردّون المتشابه إليه، بل يتّبعون ما تشابه منه، أي يدينون ويتمسّكون بالمتشابهات التي يكون ظاهرها ما لا يُطابق المحكم ويحدث البدعة، وإنْ كانت تحتمل أن تطابق المحكم وترفع البدعة بردّها إليه. وإنّما يتبعون ذلك ابتغاءَ للفتنة، أي لأجل طلب أن يفتنون الناس عن دينهم ويُضلّونهم بإحداث بدعة مُضِلّة في الإسلام، وهو إثبات المكان والجهة مثلًا من قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طـه: الآية ٥]، وإثبات أن دين محمّد ﷺ لا يتجاوز زمن مدّة قليلة، مثلًا من ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البَقَرة: الآية ١] و(﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾) [آل عمران:الآية ٧]، أي تطلب أن يأوّلوه بالتأويل الذي يشتهونه بالأهواء النفسانية من غير رعاية الحقّ والواقع، والحال أنه ما يعلم تأويله الحقّ الذي يجب الحمل عليه إلّا الله وحده، (﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ كل مَنْ كان، أو عبد الله بن سلام وأحزابه لم يشتغلوا بالتأويل ولا يصرفوه إلى ظاهر المعنى، بل يعتقدون بحقّية ما يُراد به منه، ويقولون: آمنّا بما يُراد به، وكلّ من المتشابه والمحكم كائن من عند ربّنا الحكيم الذي لا يتناقض كلامه، وأيضًا من جملة مقولهم، قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨]، أي لا تُمِلْ قلوبنا عن الحقّ بخلق المَيْل في القلوب ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨] للعمل بالمُحكم والتسليم للمتشابه ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨] نعمة بالتوفيق والتثبيت، هذا هو مضمون الآية بحسب ما ذكر صاحب المدارك مع إطالة تقرير منّي. لا يقال: إنّ هذه الآية تدلّ على كون القرآن مُحكمًا ومتشابهًا. وقوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ﴾ [هود: الآية ١] يدلّ على أن كلّه مُحكم، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٣] يدلّ على أنّ كلّه متشابهًا، فكيف التوفيق؟ لأنّا نقول: معنى قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هُود: الآية ١] حُفِظت من فساد المعنى وركاكة اللفظ، ومعنى قوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٣] يشبه

....

بعضه بعضًا في صحة المعنى، وجزالة اللّفظ، هكذا ذكر القاضي الأجلّ البيضاوي وغيره.

والكلام هٰهنا في شيئين: الأول: إنّه ما معنى المُحكم والمتشابه؟ وما المراد بهما هٰهنا؟ فقال بعضهم: المُحكم ما عُرِف المراد منه، إمّا بالظهور أو التأويل والمتشابه ما لا طريق لدَرْكه؛ كقيام الساعة وخروج الدجّال والدابّة والحروف المقطّعة في أوائل السور. وقال بعضهم: المُحكم ما لا يحتمل من التأويل إلّا وجهًا واحدًا والمتشابه ما احتمل وجوهًا. وقيل: المحكم ما كان ناسخًا، والمتشابه ما كان منسوخًا. وقيل: المحكم ما لم يتكرّر ألفاظه، والمتشابه ما تكرّر ألفاظه. وقيل: المُحكم ما كان معقول المعنى، والمتشابه ما كان غير معقول المعنى؛ كأعداد الركعات والصلاة في الأوقات المخصوصة وفرضية صوم رمضان دون شعبان. وقيل: المُحكم الفرائض والوعد والوعيد والمتشابه القصص والأمثال، **وقيل**: ما أمر الله به في كلّ كتاب أنزله، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: الآية ١٥١] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: الآية ٢٣]. والمُتشابه ما أمر الله في القرآن خاصّة، وجملة الأقوال فيه ترتقي إلى سبع عشر قولًا ذكرها صاحب الإتقان في كتابه على مذهب الشافعي بالتفصيل، وقد أورد منها قولًا عجيبًا، وهو أن المُحكم إن وضح المراد به، فهو الظاهر، وإنْ زاد على ذلك فهو النص، وإن زاد على ذلك فهو المفسّر، وكذا المتشابه إنْ خَفِيَ المراد به فهو الخفي، وإنْ زاد على ذلك فهو المشْكل، وإنْ زاد على ذلك فهو المُجْمل؛ فجعل كلّاً من الظاهر والنصّ والمفسّر داخلًا تحت المُحْكم، وكلّاً من الخفيّ والمشكل والمجمل داخلًا تحت المتشابه، هكذا ذكر عضد الملّة والدِّين، ولعلّه إنما ارتكب ذلك؛ لأنّ الله تعالى لمّا جعل كل الكتاب قسمين: مُحكمًا ومتشابهًا لم يُبْقِ قسم سواهما خارجًا عنهما، ولكن في الكلام ليس ما يدلّ على الحصر، بل كلمة التبعيض بما فيه، تأمّل[1]. والذي جرى عليه

---

(١) وجه التأمّل أن التبعيض إنما ينافي الحصر، لو قيل: محكمات ومنه متشابهات. وأما إن قيل: منه محكمات وأُخر متشابهات، عُلِم أن بعضًا منه محكم والبواقي متشابهات. ١٢ منه عمّ فيضهم.

....

اصطلاح أهل الأصول، وتعامل الفقهاء الفحول، هو أن المُحكم ما يظهر منه المعنى، ويكون مسوقًا، ولم يحتمل التأويل والتخصيص وأحكم المراد به عن احتمال النسخ والتبديل، يعني ازداد وضوحًا على المفسّر الذي ازداد وضوحًا على النصّ الذي ازداد وضوحًا على الظاهر وحكمه وجوب العمل به من غير احتمال؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١]، والمتشابه اسم لما انقطع رجاء معرفة المراد منه بأن ازداد اختفاء على المجمل الذي ازداد اختفاء على المشكل الذي ازداد اختفاء على الخفيّ وحكمه اعتقاد الحقّية قبل الإصابة، وهو مثل المقطعات في أوائل السور، ومثل قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القِيَامَة: الآيتان ٢٢، ٢٣]، فإنّ هذه الآية محكمة في حقّ وجوب رؤية الله تعالى جلّ وعلا للمسلمين بعد دخول الجنّة متشابهة في حقِّ الكيفيّة؛ إذ يلزم منه الجهة والمكان لله تعالى فرددناها إلى المحكم، وهو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١]، فقلنا: لا نعلم كيفيّة الرؤية ونعتقد أصل الرؤية، هكذا ذكر الشيخ الإمام فخر الإسلام البزدوي، فعُلِم من هٰهنا ومما ذكرنا سابقًا أن المتشابه إمّا لا يُفهم منه معنًى أصلًا، مثل: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البَقَرَة: الآية ١] وغير ذلك، وسمّى هذه مقطَعات. وإمّا أن يُفهم منه معنى بحسب وضع اللغة، ولكن لا يعلم ما أراد منه المتكلّم؛ لأن معناه الظاهر منه يكون مخالفًا للمحكم؛ كقوله تعالى: ﴿وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١١٥] وأمثاله، ويسمّي هذه آيات الصّفات. أمّا المقطَعات في أوائل السور، فتسعة وعشرون، واحدٌ منها ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ [الآية ١] في الأعراف، وواحد منها ﴿الٓمٓرۚ﴾ [الآية ١] في الرعد، وواحد منها ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [لآية ١] في مريم، وواحدٌ منها ﴿طسٓۚ﴾ [الآية ١] في النمل، وواحدٌ منها ﴿صٓۚ﴾ [الآية ١]، وواحدٌ منها ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ [الآيتان ١، ٢] في الشورى، وواحدٌ منها ﴿نٓۚ﴾ [القلَم: الآية ١]، وواحدٌ منها ﴿قٓۚ﴾ [ق: الآية ١]، وواحدٌ منها ﴿طه ۝١﴾ [الآية ١]، وواحدٌ منها ﴿يسٓ ۝١﴾ [الآية ١]، واثنان منها ﴿طسٓمٓ ۝١﴾ [الآية ١] في الشعراء والقصص، وخمسة منها ﴿الٓرۚ﴾ [الآية ١] في يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر، وستّة منها ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [الآية ١] في البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة الأُولى

....

وستّة ﴿حمٓ ۝١﴾ [الآية ١] في المؤمن والسجدة الثانية وزخرف والدخان والجاثية والأحقاف. وأمّا آيات الصِّفات، فكثيرة في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طـه: الآيـة ٥]، و﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طـه: الآيـة ٣٩]، و﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القَصَص: الآية ٨٨]، ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٢٧]، و﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفَتح: الآية ١٠]، ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٧]، ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٥٦]، ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: الآيـة ٤٢]، ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنـعـام: الآيـة ١٨]، ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [قَ: الآيـة ١٦]، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾ [الـذاريـات: الآيـة ٢١]، ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ مُّحِيطُۢ﴾ [فُصِّلَت: الآيـة ٥٤]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الـفـجـر: الآيـة ٢٢]، ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٨]، ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ [الذاريات: الآية ٣٤]، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣]، ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ١١٥]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحَديد: الآية ٤]، ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحِجر: الآية ٢٩]، ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١﴾ [الرحمٰن: الآية ٣١]، ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النُّور: الآية ٣٥]، ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢﴾ [القِيامَة: الآية ٢٢] ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ۝٢٣﴾ [القِيامَة: الآية ٢٣]؛ فإنّ هذه كلها متشابهات وقفت عليها من كتب التفاسير. وقال الإمام فخر الدِّين الرازي: جميع الأعراض النفسانية، مثل الرحمة والغضب والحياء والمكر والاستهزاء كلّما وقع في القرآن على الله متشابهات تُردّ إلى المحكم.

الثاني: أنه هل يمكن الاطّلاع على علمه لأحدٍ سوى الله، أو لا؟ فقال بعض الناس، ومنهم المعتزلة والشافعي: يعلم الراسخون في العلم تأويله، ولهذا لن يجب الوقف على قوله تعالى: (﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾)، بل يكون العبارة ح: «**إلا الله والراسخون في العلم**»، وقوله تعالى: (﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾) حال عن قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾، وعليه رواية مجاهد عن ابن عباس أنه قال: «**أنا من يعلم تأويله**»، ورواية ابن أبي حاتم عن الضحّاك أنّه قال: «**الراسخون في العلم يعلمون تأويله**»؛ إذ لو لم يعلموا تأويله لم يعلموا ناسخه من منسوخه، ولا حلاله من حرامه، وذهب الأكثرون من الصَّحابة والتابعين وأتباعهم من بعدهم خصوصًا أهل السنّة والحنفية إلى أنه يجب الوقف على قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ حتى يكون الراسخون

....

في العلم خارجين عن عِلْمه بدليل بعض القراءة الصحيحة، ويقول الراسخون في العلم: آمنّا به، وبعض قراءة أخرى وإن تأويله إلّا عند الله، وبعض أخرى: الراسخون في العلم بدون الواو، وعلى هذه الوجوه كلّها يكون الراسخون جملة مستأنفة. وأيضًا يدلّ عليه رواية الحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه، ورواية البيهقي عن أبي هريرة عن النبيّ عليه السلام أنّه قال: «**كان الكتاب الأوّل ينزل من بابٍ واحد على حرفٍ واحد، وينزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زاجر، وآمر، وحلال، وحرام، ومُحكم، ومُتشابه، وأمثال؛ فأحلّوا حلاله وحرِّموا حرامه، وافعلوا ما أُمِرْتم به، وانتهوا عمّا نُهِيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمُحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: آمنّا به كلٌّ من عند ربّنا**»، وسوى ذلك أحاديث كثيرة تدلّ على عدم اطلاعه للرّاسخين. وذكر في التوضيح: أنّ مذهب علمائنا أَلْيَق بنظم القرآن حيث جعل اتّباع المتشابهات حظّ الزائغين، والإقرار بحقّيّتها مع العجز عن دَرْكها حظّ الراسخين، واللائق بهذا المقام أن يكون قوله تعالى: (﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾) سؤالًا للعصمة عن الزّيْغ السابق ذكره الداعي إلى اتّباع المتشابهات المُوقِع لصاحبه في الفتنة والضّلالة.

واعترض عليه صاحب التلويح بأنه لا يخفى على الرّاسخين في العربية أن اللائق ح أن يقول: وأما الرّاسخون في العلم، ويُعلم من الفوائد الضيائية شرح الكافية أنّ المقابل لأما السابقة مقدّر في الكلام؛ كأنّه قيل: وأمّا الذين ليس في قلوبهم زيغ فيتّبعون المُحكمات ويردّون إليها المتشابهات. فإن قلت: فما الفائدة في إنزال المتشابهات؟ فالجواب: إنّ في إنزالها ابتلاء للراسخين ونَهْيهم عن متمنّاهم، فكما أن الجاهل يبلى بالتعلّم جبر على خلاف هواه، كذلك العلماء يُبتلون بالتوقف على اعتقاد حقّية المراد على خلاف متمنّاهم الذي هو الحرص على زيادة علم كل شيء، وهذا هو عند المتقدّمين[1]. وأمّا المتأخّرون، فلمّا عاينوا فساد الزّمان حيث يحمل بعض الملاحدة آيات الصّفات على ظاهر معانيها التي يلزم

---

(١) ينبغي أن يُعلم أن المراد من المتقدّمين والمتأخرين: متقدّمو الحنفية ومتأخروهم، فلا يرد ما قيل في التلويح بالمتقدمين من الصحابة في الصدر الأول، أيضًا يقولون بتأويل المتشابهات، فلا وجه للتخصيص بالمتأخرين. ١٢ منه عمّ فيضهم.

....

منها الجهة والمكان والعورة لله تعالى، وكون آدم عين روح الله وغيره، وعاينوا ضعف اعتقاد الأنام من الشرائع أفْتَوْا بجواز تأويلاتها بمعاني تُخرجُ الآيات عن العقائد الفاسدة، وتوافق عقائد أهل السنّة التي عليها الصحابة والتابعون على ما نصّ به في بعض كتب الأُصول، فقالوا مثلًا: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: الآية ٢٩]، أي روح مخلوق الله؛ ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: الآية ٣٥]، أي منوّر السمٰوات والأرض؛ ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: الآية ١٠]، أي قدرته فوق قدرتهم؛ ﴿وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١١٥]، أي ذات الله؛ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: الآية ٢٢]، أي أمر ربك؛ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥]، أي استولى على العرش، فكان مستوليًا على كل شيء؛ ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: الآية ٥٦]، أي في جوار رحمته وقرب حضرته؛ ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: الآية ٢١]، أي آياته في أنفسكم دون ذاته في ذواتكم؛ وهكذا القياس في البواقي.

وكذا يأوّلون المقطعات، وإن لم يلزم منْ ترك تأويلها ما يلزم منْ ترك تأويل آيات الصفات، فقالوا مثلًا في ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البقرة: الآية ١] ألف الله، ولام جبريل، وميم محمّد، يعني أرسل الله جبريل إلى محمّد بالقرآن؛ أو الألف أنا، واللام الله، والميم أعلم، يعني أنا الله أعلم. وكذا ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ [الأعراف: الآية ١]، يعني أنا الله أفصل بين الحقّ والباطل؛ وكذا ﴿الٓر﴾ [الحجر: الآية ١]، يعني أنا الله أرى؛ وكذا ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم: الآية ١] الكاف من كريم، والهاء من هاد، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من الصادق؛ وكذا ﴿طه ۝١﴾ [طه: الآية ١]، قيل: إنه قسم بطهارة أهل البيت، وقيل: إن الطاء طلب الغزاة والهاء هرب الكافرين، وقيل غير ذلك.

وكذا ﴿طسٓمٓ ۝١﴾ [الشعراء: الآية ١] قيل: إنّ الطاء من ذي الطّول، والسين من القدوس، والميم من الرحمٰن. وكذا ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ [الشورى: الآيتان ١، ٢] الحاء والميم من الرحمٰن، والعين من العليم، والسين من القدّوس، والقاف من القاهر؛ وكذا ﴿نٓ﴾ [القلم: الآية ١] أنه مفتاح اسمه نور وناصر؛ وكذا ﴿قٓ﴾ [قٓ: الآية ١] أنه مفتاح اسمه قادر وقاهر، وكذا القياس في البواقي.

أو المحكم ما أمر الله به في كل كتاب أنزله نحو **(قوله:** ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ **[الأنعام: الآية ١٥١] الآيات)**.

والمفسّرون سيّما قاضي البيضاوي قد ذكروا في بيان حروف المقطّعات كلامًا طويلًا بيَّن فيه أسرار عجيبة وفوائد غريبة ومذاهب عديدة، فطالعها إن شئت.

وبالجملة ما من متشابه في القرآن، سواء كانت حروف المقطَعات أو آيات الصّفات إلّا وقد أوّله المتأخّرون من الحنفية تأويلًا ظنّيًا، فلا خلاف بيننا وبين الشافعي رحمه الله، ولعلّه لذلك صرّح صاحب المدارك بأن المعنى قوله تعالى: (﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ﴾) وما يعلم تأويله الحقّ الذي يجب أن يحمل عليه إلّا الله وحده، وصرّح أيضًا هو وقاضي البيضاوي جميعًا بأنّ مَنْ وقفه على قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فسّر المتشابه بما استأثر الله بعلمه؛ كقيام الساعة وخروج الدابّة والدجّال وأمثال ذلك، لأنه لا عِلْم بها لأحد إجماعًا لا قطعًا وظنًّا، وإن أمعنت النظر لم تجد بين قول أبي حنيفة رضي الله عنه وغيره خلافًا في المعنى من وجهٍ آخر؛ لأن أبا حنيفة رضي الله عنه فسّر المحكم والمتشابه بالمعنى الخاصّ، وغيره قد جعل كلًّا منهما بالمعنى الأعمّ كما مرّ، وهذا غاية ما يتيسّر لي في تفسير المُحكم والمتشابه نقلًا من كتب السّلف، ولم يسبقني أحد إلى مثل هذا التحقيق والتدقيق، تأمّل وأنصف.اهـ التفسيرات الأحمدية.

قوله: (﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ **[الآية ١٥١] الآيات)** في سورة الأنعام: (﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ﴾ [الآية ١٥١]) أقرأ (﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الآية ١٥١]) أنْ مفسّرة (﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [الآية ١٥١]) وأحسنوا (﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم﴾ الآية ١٥١]) بالوأد من أجل (﴿إِمۡلَٰقٖ﴾ [الآية ١٥١]) فقر تخافونه (﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ [الآية ١٥١]) الكبائر كالزّنا (﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ﴾ [الآية ١٥١]) أي: علانيتها وسرّها، (﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الآية ١٥١]) كالقود وحدّ الردّة ورجم المحصن (﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ [الآية ٩٥]) المذكور (﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الآية ١٥١]) تتدبّرون. (﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي﴾ [الآية ١٥٢]) أي بالخصلة التي (﴿هِيَ أَحۡسَنُ﴾

(﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: الآية ٢٣] **الآيات**).

[الآية ١٥٢]) وهي ما فيه صلاحه حتى يبلغ[1] أشدّه بأن يحتلم (﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الآية ١٥٢]) بالعدل وترك البَخْس (﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الآية ١٥٢]) طاقتها في ذلك، فإن أخطأ في الكَيْل والوزن والله يعلم صحة نيّته، فلا مؤاخذة عليه؛ كما ورد في حديث. (﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ [الآية ١٥٢]) في حكم أو غيره (﴿فَٱعْدِلُواْ﴾ [الآية ١٥٢]) بالصدق، ولو كان المقول له أو عليه (﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الآية ١٥٢]) قرابة لكم (﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الآية ١٥٢]) بالتشديد تتعظون، والسكون (﴿وَأَنَّ﴾ [الآية ٧٢]) بالفتح على تقدير اللام والكسر استئنافًا (﴿هَٰذَا﴾ [الآية ٧]) الذي وصَّيْتكم به (﴿صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الآية ١٥٣]) حال (﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الآية ١٥٣]) الطرق المخالفة له (﴿فَتَفَرَّقَ﴾ [الآية ١٥٣]) فيه حذف إحدى التائين تميل (﴿بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الآية ١٥٣]) دينه (﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الآية ١٥٣]).اهـ جلالين.

قوله: (﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ **[الآية ٢٣] الآيات**) في سورة الإسراء: (﴿وَقَضَىٰ﴾ [الآية ٢٣]) أمر (﴿رَبُّكَ أَلَّا﴾ [الآية ٢٣]) أي بأنْ (﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الآية ٢٣]) وأن تُحسنوا (﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الآية ٢٣]) بأن تبرّوهما (﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ﴾ [الآية ٢٣]) فاعل (﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الآية ٢٣])، وفي قراءة: يبلغان، فأحدهما بدل من ألفه (﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الآية ٢٣]) بفتح الفاء[2] وكسرها[3] منوّنًا وغير منوّن مصدر بمعنى تبًّا وقبحًا (﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الآية ٢٣]) تزجرهما (﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الآية ٢٣]) جميلًا ليّنًا (﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الآية ٢٤]) ألِنْ[4] لهما جانبك الذليل (﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الآية ٢٤])، أي لرقّتك عليهما (﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ [الآية ٢٤]) كما رحماني حين (﴿رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ [الآيتان ٢٤، ٢٥]) من إضمار البرّ والعقوق (﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾

---

(١) أي لحفظه، ١٢ منه.

(٢) من غير تنوين لابن كثير وابن عامر وبه في الشاذ.اهـ كمالين. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(٣) قوله: وكسرها منونًا لنافع وحفص وغير منوّن للباقين.اهـ كمالين. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(٤) بزنة الأمر من الإلانة. ١٢ منه عمّ فيضهم.

والمتشابه ما وراءه أو ما لا يحتمل إلا وجهًا واحدًا، وما احتمل أوجهًا، أو ما يعلم تأويله وما لا يعلم تأويله، أو الناسخ الذي يعمل به والمنسوخ الذي لا

[الآية ٢٥]) طائعين لله تعالى، (﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ﴾ [الآية ٢٥]) للأوّابين الراجعين إلى طاعته (﴿غَفُورًا﴾ [الآية ٢٥]) لما صدر منهم في حقّ الوالدين من بادرة[1]، وهم لا يضمرون عقوقًا (﴿وَءَاتِ﴾ [الآية ٢٦]) أعْطِ (﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الآية ٢٦]) القرابة (﴿حَقَّهُۥ﴾ [الآية ٢٦]) من البرّ والصّلة (﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الآية ٢٦]) بالإنفاق في غير طاعة الله تعالى، (﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الآية ٢٧]) أي على طريقتهم، (﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الآية ٢٧]) شديد الكفر لنعمه، فكذلك أخوه المبذّر. (﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ [الآية ٢٨])، أي المذكورين من ذي القربى وما بعده، فلم تُعْطِهم (﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ [الآية ٢٨])، أي لطلب رزق تنتظره يأتيك فتعطيهم منه (﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الآية ٢٨]) ليّنًا سهلًا بأن تَعِدَهم بالإعطاء عند مجيء الرّزق، (﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الآية ٢٩])، أي لا تُمسكها عن الإنفاق كلَّ المَسْك (﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ [الآية ٢٩]) في الإنفاق كلّ البسط ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ [الآية ٢٩]) راجع للأوّل (﴿مَّحْسُورًا﴾ [الآية ٢٩]) منقطعاً لا شيء عندك راجع للثاني. (﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ [الآية ٣٠]) يوسّعه (﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الآية ٣٠]) يضيّقه لمن يشاء (﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الآية ٣٠]) عالماً ببواطنهم وظواهرهم فيرزقهم على حسب مصالحهم، (﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ [الآية ٣١]) بالوأد (﴿خَشْيَةَ﴾ [الآية ٣١]) مخافة (﴿إِمْلَٰقٍ﴾ [الآية ٣١]) فقر (﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا﴾ [الآية ٣١]) إثماً (﴿كَبِيرًا﴾ [الآية ٣١]) عظيماً (﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الآية ٣٢]) أبلغ مِنْ لا تأتوه (﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الآية ٣٢]) قبحاً (﴿وَسَآءَ﴾ [الآية ٣٢]) بئس (﴿سَبِيلًا﴾ [الآية ٣٢]) طريقاً هو، (﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ [الآية ٣٣]) لوارثه (﴿سُلْطَٰنًا﴾ [الآية ٣٣]) تسلّطًا على القاتل (﴿فَلَا يُسْرِف﴾ [الآية ٣٣]) يتجاوز الحدّ (﴿فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ [الآية ٣٣]) بأن يقتل غير قاتله أو بغير ما قتل به (﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ﴾ [الآيتان ٣٣، ٣٤]) إذا عاهدتم الله أو الناس (﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الآية ٣٤]) عنه (﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾

---

(١) ما يبدر من حديثك في الغضب. ١٢ منه عمّ فيضهم.

يعمل به. وإنما لم يكن كل القرآن مُحكَمًا لما في المتشابه من الابتلاء به والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، و(**لما في تقادح العلماء وإتعابهم القرائح**) في استخراج معانيه وردّه إلى المُحكَم (**من الفوائد الجليلة**) والعلوم (**الجَمَّة**) ونَيْل الدرجات عند الله تعالى. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ مَيْل عن الحق وهم أهل البِدَع ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ﴾ فيتعلقون بالمتشابه الذي يحتمل ما يذهب إليه المبتدع مما لا يطابق المُحكَم ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق ﴿مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ طلب أن يفتتنوا الناس عن دينهم ويضلوهم (﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾) وطلب أن يؤوِّلوه التأويل الذي يشتهونه (﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾) أي لا يهتدي إلى تأويله الحق الذي يجب أن يحمل عليه إلا الله (﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾) والذين رسخوا أي ثبتوا فيه وتمكّنوا (**وعضوا عليه بضرس**) قاطِع مُستأنَف عند الجمهور، والوقف عندهم على

[الآية ٣٥]) أتمّوه (﴿إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الآية ٣٥]) والميزان السويّ (﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الآية ٣٥]) مآلًا (﴿وَلَا تَقْفُ﴾ [الآية ٣٦]) تتّبع (﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ﴾ [الآية ٣٦]) القلب (﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الآية ٣٦]) صاحبه ماذا فعل به (﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الآية ٣٧])، أي ذا مرح بالكبر والخيلاء (﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ [الآية ٣٧]) تثقبها حتى تبلغ آخرها بكبرك، (﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الآية ٣٧])، المعنى أنك لا تبلغ هذا المبلغ، فكيف تختال؟ (﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ [الآية ٣٨]) المذكور كان سيّئة (﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الآيتان ٣٨، ٣٩]) يا محمد (﴿رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الآية ٣٩]) الموعظة (﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الآية ٣٩]) مطرودًا عن رحمة الله. اهـ. جلالين.

قوله: (لمّا في تقادح العلماء وإتعابهم القرائح) تفسير تقادح. **قوله: (القرائح)** جمع القريحة بمعنى الطبيعة. **قوله: (من الفوائد الجليلة)**... الخ بيان ما، **وقوله: (الجَمة)** بمعنى الكثيرة. **قوله: (وعضوا فيه بضرس)** قاطع. في لسان العرب: العضّ الشدّ بالأسنان على الشيء، وفي حديث العِرْباض: «**عضوا عليها بالنّواجذ**»، هذا مثل في شدّة الاستمساك بأمر الدِّين؛ لأنّ العضّ بالنواجذ عضّ بجميع الفمّ والأسنان، وهي أواخر الأسنان. وقيل: هي التي بعد الأنياب. اهـ باختصار.

قوله: «إلا الله» وفسَّروا المتشابه (**بما استأثره**) الله (**بعلمه**)، وهو مبتدأ عندهم والخبر «يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِۦ» وهو ثَناء منه تعالى عليهم بالإيمان على التسليم واعتقاد الحَقِّيَّة بلا تكييف، وفائدة إنزال المتشابه الإيمان به، واعتقاد حَقِّيَّة ما أراد الله به، ومعرفة قصور أفهام البشر عن الوقوف على ما لم يجعل لهم إليه سبيلًا، و(**يعضده**) قراءة (**أبي**) «ويقول الراسخون» و(**عبد الله**) «إن تأويله إلا عند الله». ومنهم مَن لا يقف عليه ويقول بأن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه و«يقولون» كلام مُستَأنَف مُوَضِّح لحال الراسخين بمعنى هؤلاء العالمون بالتأويل يقولون آمنّا به أي بالمتشابه أو بالكتاب ﴿كُلٌّ﴾ من متشابهه ومحكمه ﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ من عند الله الحكيم الذي لا يتناقض كلامه ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ وما يتّعظ وأصله يتذكّر ﴿إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

والضّرس ـ بالكسر ـ السِّنّ مذكّر ج ضُروس وأضراس. اهـ قاموس. **قوله: (بما استأثره**[1]**)** الله (**بعلمه**) أي تفرّد بعلمه. **قوله: (يعضده)**. في مختار الصِّحاح: عَضَده من باب نصر أعانه. اهـ.

قوله: (أُبيّ) بن كعب السيّد القارىء الأنصاريّ الخزرجي النجاري ـ بالنون ـ شهد أُبيّ رضي الله تعالى عنه العقبة الثانية في السبعين من الأنصار رضي الله تعالى عنهم، وشهد بدرًا وغيرها من المشاهد مع رسول الله ﷺ. رُوِيَ له عن رسول الله ﷺ مائة حديث وأربعة وستّون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم على ثلاثة، وانفرد البخاريّ بثلاثة، ومسلم بسبعة. توفّي أُبيّ رضي الله تعالى عنه بالمدينة، ودُفِنَ بها قبل سنة ثلاثين في خلافة عثمان رضي الله تعالى عنه. قال أبو نعيم الأصبهاني: وهذا هو الصحيح.

قوله: (عبد الله) بن مسعود، هو أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن مسعود بن غافل ـ بالغين المعجمة والفاء ـ ابن حبيب، وأُمّه أُمّ عبد بنت عبد ودّ بن سواء أسلمت وهاجرت، فهو صحابيّ ابن صحابية، أسلم عبد الله قديمًا حين أسلم سعيد بن زيد قبل عمر بن الخطّاب **بزمان**، وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة وشهد مع رسول الله ﷺ بدرًا وأُحدًا والخندق وبيعة الرّضوان وسائر المشاهد، وشهد اليرموك وهو الذي أجهز على أبي جهل يوم بدر، وشهد له رسول الله ﷺ

---

(١) أي انفرد واستبدّ به. ١٢ منه عمّ فيضهم.

أصحاب العقول، وهو مدح للراسخين بإلقاء الذِّهن وحُسْن التأمّل. وقيل: «يقولون» حال من الراسخين.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ لا تملها عن الحق بخلق المَيل في القلوب ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ للعمل بالمُحكَم والتسليم للمتشابه ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ من عندك نعمة بالتوفيق والتثبيت ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ كثير الهبة، والآية من مَقول الراسخين ويحتمل الاستئناف أي قولوها وكذلك التي بعدها وهي ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ **(أي تجمعهم)** لحساب يوم أو لجزاء يوم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك في وقوعه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ (ٱلْمِيعَادَ)﴾ **الموعد. والمعنى أن الإلـهية تنافي خلف الميعاد)** كقولك: «إن الجواد لا يخيب سائله» أي لا يخلف ما وعد المسلمين والكافرين من الثواب والعقاب.

بالجنّة، وهو صاحب نعل رسول الله ﷺ كان يُلْبِسه إيّاها إذا قام، فإذا خلعها وجلس جعلها ابن مسعود في ذراعه، وكان كثير الولوج على رسول الله ﷺ والخدمة له، وكان يُعرف بصاحب السواد والسواك والنعل. رُوِي له عن رسول الله ﷺ ثماني مائة وثمانية وأربعون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم منها على أربعة وستّين، وانفرد البخاري بإحدى وعشرين، ومسلم بخمسة وثلاثين. توفّي سنة ثنتين وثلاثين، وقيل: سنة ثلاث وثلاثين، وهو ابن بضع وستّين سنة رضي الله تعالى عنه.

قوله: (أي تجمعهم)، يعني: أنه من إضافة اسم الفاعل إلى المفعول وليوم متعلّق به على حذف المضاف؛ لأن الجمع ليس لليوم نفسه على طريقة: كنت أعدّك لهذا الوقت، ولا اللام أيضًا للتوقيت؛ كما في قوله تعالى: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: الآية ٧٨]، وهو ظاهر فتعيّن حذف الحساب أو الجزاء، كما في قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن: الآية ٩]، أي لحسابه أو جزائه؛ إذ ليس المعنى إلّا هذا. **قوله: (﴿ٱلْمِيعَادَ﴾ الموعد)** بمعنى المصدر، لأنه اللائق بمفعولية يخلف لا الزمان أو المكان. **قوله: (والمعنى أن الإلـهية تنافي خلف الميعاد)**، يعني أن

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ برسول الله ﴿لَن تُغْنِيَ﴾ تنفع أو تدفع ﴿عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من عذابه ﴿شَيْـًٔا﴾ من الأشياء ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ حطبها ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الدأب مصدر دأب في العمل **(إذا كدح فيه)** فوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله. والكاف مرفوع المحلّ تقديره **(دأب هؤلاء الكفرة)** في تكذيب الحق كدأب مَن قبلهم من آل فرعون وغيرهم، أو منصوب المحل بـ «لن تغني» أي لن تُغني عنهم مثل ما لم تُغنِ عن أولئك. «كداب» بلا همز حيث كان: **(أبو عمرو)**. ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تفسير لدأبهم مما فعلوا، أو فعل بهم على أنه جواب سؤال مقدّر عن حالهم، ويجوز أن يكون حالًا أي قد كذبوا ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ بسبب ذنوبهم يقال أخذته بكذا أي جازيته عليه ﴿وَٱللَّهُ (شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ **شديد عقابه فالإضافة غير محضة)**.

العدول عن المُضمر المخاطب على ما هو الظاهر إلى الاسم المُظهر بغير لفظه المتقدم وهو ربّنا، للدلالة على أن الحكم مرتّب على ما يدلّ عليه اسم الله تعالى.

قوله: (إذا كدح فيه) الكَدْح العمل والسعي والكدّ والكسب. اهـ. مختار الصحاح: أي أتعب النفس في العمل. **قوله: (دأب هؤلاء الكفرة)**، أي شأنهم وحالهم. **قوله: (أبو عمرو)** البصري، من القرّاء السبعة. **قوله:** (﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾) الفاعل مضاف إلى الفاعل أي **(شديدٌ عقابه)**، وقيل: شديد هنا بمعنى مشدّده فعيل قد يكون بمعنى مُفعل ومفعّل، فيكون على هذا مضافًا إلى المفعول. اهـ الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد. **(فالإضافة[1] غير محضة)** وأيضًا اسمها لفظية ومجازية وتسميتها مجازية ليست بمعنى المجاز المتعارف حتى تحتاج لعلاقة وقرينة، بل المراد أنها إضافة في الظاهر والصورة لا الحقيقة والمعنى.

(١) إذا كان الصفة مضافة إلى معمولها، أي إلى مرفوعها أو منصوبها يكون إضافتها إلى معمولها غير محضة، وتسمى أيضًا لفظيّة ومجازية، وإذا كان إضافتها لا إلى معمولها يكون إضافتها محضة وتسمّى أيضًا معنوية وحقيقية. ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم مُشركو مكة ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ يوم بدر ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ (من الجهنام وهي بئر عميقة. وبالياء فيهما: حمزة وعلي) ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ المُستَقَر جهنم.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾﴾

(﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾) الخطاب لمُشركي قريش ﴿(فِى فِئَتَيْنِ) ٱلْتَقَتَا﴾ يوم بدر ﴿فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم المؤمنون ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ وفئة أخرى

فـائدة:

اسم الفاعل المضاف إذا كان بمعنى الماضي فقط كانت إضافته حقيقية لنقص مشابهته المضارع التي هي العلّة في عمله، وإذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال فقط كانت إضافته غير حقيقية لتمام المشابهة. وأمّا إذا[1] كان بمعنى الاستمرار، ففي إضافته اعتباران اعتبار المضيّ، فتكون محضة فيقع صفة للمعرفة، ولا يعمل، واعتبار الحال والاستقبال، فتكون غير محضة، فتقع صفة للنكرة ويعمل فيما أضيف إليه، انتهى الدّماميني باختصار.

قوله: (**من الجُهنَام، وهي بئرٌ عميقة**) في القاموس: ركيته جُهُنَام مثلّثة وجهنّمُ كعَمَلَّس بعيدة القَعْر، وبه سمّيت جهنّم أعاذنا الله منها. اهـ. **قوله:** (**وبالياء**) التحتية (**فيهما**) أي سيغلبون ويُحشرون (**حمزة وعلي**) الكسائي. والباقون بالخطاب.

قوله: (﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾) جواب قسم محذوف، وآية اسم كان، ولم يؤنّث الفعل لأن تأنيث الآية غير حقيقيّ، ولوجود الفصل بلكم، فإنّ الفاصل يقوم مقام علامة التأنيث، ولكم خبر كان قُدّم على اسمه، وقوله: (﴿فِى فِئَتَيْنِ﴾) في

---

(١) قوله: وأما إذا كانت بمعنى الاستمرار... الخ. لأن الاستمرار صادق بالجميع، فيجوز قصد أحد الاعتبارين بما يترتّب عليه من تعريف التابع أو تنكيره. ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين ألفين، أو مثلي عدد المسلمين ستمائة (**ونيفًا وعشرين**)، أراهم الله إياهم مع قلّتهم أضعافهم ليَهابوهم ويَجبُنُوا عن قتالهم. (﴿تَرَوْنَهُمْ﴾ [**الأعراف: الآية ٢٧**] **نافع**) أي ترون يا مُشركِي قريش المسلمين مثلي فئتكم الكافرة، أو مثلي أنفسهم. ولا يناقض هذا ما قال في سورة الأنفال ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الآية ٤٤] لأنهم قُلّلوا أولًا في أعينهم حتى اجترؤوا عليهم، فلما اجتمعوا كثروا في أعينهم حتى غلبوا فكان التقليل والتكثير في حالتين مختلفتين ونظيره من المحمول على اختلاف الأحوال ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمـٰن: الآية ٣٩]، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصَّافات: الآية ٢٤]. وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى في أعينهم أبلغ في القدرة وإظهار الآية. و«مثليهم» نصب على الحال لأنه من رؤية العين بدليل قوله: ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ (**يعني رؤية ظاهرة**) مكشوفة لا لَبْسَ فيها ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ كما أيَّد أهل بدر بتكثيرهم في أعيُن العدو ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ في تكثير القليل ﴿لَعِبْرَةً﴾ (**لعظة**) ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ لذوي البصائر.

محل الرفع نعت لآية، ولا وجه لكون فئتين خبر كان لأن حكم اسم كان حكم الابتداء، فلا يجوز أن يكون اسمًا لها إلّا ما جاز الابتداء به، وهٰهنا لو جعلت آية مبتدأ وما بعدها خبرًا لم يجز؛ إذ لا مسوّغ للابتداء بهذه النَّكرة بخلاف ما إذا جعلت لكم الخبر، فإنه جائز لوجود المسوّغ، وهو تقديم الخبر المجرور بحرف الجرّ. **قوله: (ونيّفًا وعشرين)** في مختار الصِّحاح: النيّف بوزن الهيِّن الزيادة يخفّف ويشدّد، يقال: عشرة ونيّف ومائة ونيّف، وكلّ ما زاد على العقد فهو نيّف حتى يبلغ العقد الثاني.اهـ. وفي المصباح: النيّف الزيادة والتثقيل أفصح. وفي التهذيب: وتخفيف النيّف عند الفصحاء لحن. وقال أبو العباس: الذي حصّلناه من أقاويل البصريّين والكوفيّين أن النيّف من واحد إلى ثلاث، والبضع من أربع إلى تسع، ولا يقال نيّف إلّا بعد عقد نحو عشرة ونيّف ومائة ونيّف وألف ونيّف.اهـ. **قوله:** (﴿تَرَوْنَهُمْ﴾ [**الأعراف: الآية ٢٧**]) بتاء الخطاب (**نافع**) وكذا أبو جعفر المدنيّ، وليس من السبعة؛ والباقون بياء الغيبة، **قوله: (يعني رؤية ظاهرة)** إشارة إلى أن رأي العين منصوب على أنه مفعول مطلق لقوله: (﴿يَرَوْنَهُم﴾)، يقال: رأيت رأيًا ورؤية ورأيته في المنام رؤيا حسنة، فالرؤيا تختصّ بالمنام. **قوله: (لَعِظَةٌ)** يَتَّعِظُ به

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ **(المُزيِّن هو الله)** عند الجمهور **(للابتلاء)** كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا

ذوو البصائر ويعلمون أن النصر والظفر إنما يحصلان بتأييد الله تعالى ونصره، لا بكثرة العدد والشَّوْكة والسلاح، والمعتبر هو الذي يعبّر من منزلة الجهل إلى أوج العلم، فإنّ أصل العبرة من العبور، وهو النفوذ من أحد الجانبين إلى الآخر، أو من العبارة وهي الكلام الذي يعبّر به المعنى إلى المخاطَب. **قوله: (المزيّن هو الله تعالى)** عند أهل السنّة: بناءً على أن الخالق لجميع الأفعال والدَّواعي هو الله تعالى، وأيضًا لو كان **المزيّن** هو الشيطان فمن الذي زيّن الكفر والبدعة للشيطان؟ فإنْ كان ذلك شيطانًا آخر لَزِم التسلسل، وإنْ وقع ذلك من نفس ذلك الشيطان، فليكن في الإنسان كذلك، وإنْ كان من الله فهو الحقّ فليكن في حقّ الإنسان كذلك، ويؤيّده قوله تعالى في سورة القصص: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [القَصص: الآية ٦٣]، يعني إن اعتقد أحد أنّا أغويناهم، فمَن الذي أغوانا؟ ثم التزّيين من الله تعالى تزيين في الطِّباع بأن ركّب في طباع البشر المستلذّات والمَيْل إليها والطبع يرغب فيما يتلذّذ به ويشتهي، وإن لم يكن حسنًا في نفسه، وتلك الرغبة والمَيلان بخلق الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعَام: الآية ١٠٨]، وتزيين في العقول ولا يتزيّن الشيء في العقل ولا يحسن إلا إذا كان حسنًا في نفسه أو حُمِدت عاقبته أو تعلّق به أمر النهي ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية ٧]، وكذلك التكريه أيضًا يقع على وجهين، أحدهما: في الطباع، وهو تنفيرها عن الشيء، وذلك بخلق النُّفرة والكراهة فيها. وثانيهما: في العقول، وإن كانت الطِّباع تميل إليها، كما قال **تعالى**: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحُجرَات: الآية ٧]، فالطبع يميل ويرغب إلى ما هو ألذّ وأشهى وأخفّ عليه، وينفر عمّا يضره ويثقل عليه، والعقل لا ينفر عمّا سوى القبيح في نفسه ويرغب فيما هو الحسن في نفسه، وقوله عليه السلام: «**حُفَّت الجنّة بالمكاره والنار بالشهوات**» ليس محمولًا على كراهة العقل وشهوة العقل، بل هو محمول على كراهة الطبع وشهوته، فكل واحد

﴿مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ﴾ [الكهف: الآية ٧]. دليله قراءة (**مجاهد**) «زين للناس» على تسمية الفاعل. وعن (**الحسن**:) الشيطان ﴿حُبُّ (ٱلشَّهَوَٰتِ)﴾ الشهوة

ممّا في الطباع والعقول من التزيين والتكريه، فهو من الله تعالى عندنا. وقولهم: إن الشيطان هو الذين يزيّن المشتهيات لهم، إنْ عَنَوْا بذلك أنه يرغبهم فيها ويدعوهم إليها ويُريهم زينتها، وهو حسن، ظاهرها: فنعم الأمر كذلك. وإنْ عَنَوْا أن الشيطان له قدرة إنشاء التزيين وإحداث الحسن، فلا؛ إذ الأفعال مخلوقة لله وهو يدعوهم إلى ما خلق الله حسنه في الطباع ويُريهم ما جعله الله حرامًا عندهم، فكان فعله هو الدّعاء لا الإحداث، ولكن مع هذا الحبّ الحذر من دعوته غاية الحذر؛ إذ هو يرانا ولا نراه، ولا يتحقّق الحذر من مثل هذا العدوّ إلّا بالفزع إلى الله تعالى والاستعاذة منه. اهـ شيخ زاده رحمه الله.

قوله: (للابتلاء) يعني أنه تعالى زيّنه ليظهر أنه هل يتبع لشهوته رعاية لهواه، أو ينقاد لأمر ربّه فيما أمره ونهاه ويُجازى على حسب نيّته وحاله.

قوله: (مجاهد) بن جبر الإمام المشهور، وهو تابعي إمام متّفق على جلالته وإمامته وتوثيقه، وهو إمام في اللغة والتفسير والحديث مناقبه كثيرة مشهورة.

قوله: (الحسن)، هو الإمام المشهور المُجمع على جلالته في كل فنّ، أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار التابعي البصري ـ بفتح الباء وكسرها ـ الأنصاري أدرك من أصحاب رسول الله ﷺ مائة وثلاثين، مناقبه كثيرة مشهورة. توفي سنة عشر ومائة رحمه الله. **قوله**: (﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾) جمع شهوة بسكون العين فحُرِّكت في الجمع، والشهوة مصدر معناها مَيْل النفس وتوقانها إلى الشيء، يقال: اشتهى يشتهي شهوة، والمراد هٰهنا بالشهوات المشتهيات؛ إذ لو أُريد بها المعنى المصدري لما جمع، ويدلّ أيضًا بيانها بالمشتهيات حيث قيل: (﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ﴾) الآية، وسمّيت شهوات للمبالغة في نزوع النفس إليها بحيث كأنها صارت عين النزوع والميلان، كما يقال: رجل عدل للمبالغة في عدالته إيماءً إلى كمال محبّتهم إيّاها، فإن الإنسان قد يحب شيئًا لكنه يحب أن لا يحبّه كمسلم يميل طبعه إلى بعض المحرّمات، لكنه يحبّ أن لا يحبّ. وأمّا مَنْ أحبّ شيئًا وأحبّ أن يحبّه، فذلك كمال المحبّة؛ كما في قوله تعالى حكايةً عن سليمان على نبيّنا

(**تَوقان النفس**) إلى الشيء، جَعْل الأعيان التي ذكرها شهوات مُبالَغَة في كونها مُشتَهاة، أو كأنه أراد تخسيسها بتسميتها شهوات إذ الشهوة مُسْتَرذَلَة عند الحكماء، مذموم مَن اتّبعها، شاهد على نفسه بالبهيمية (﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾) والإماء داخلة فيها ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ جمع ابن (**وقد يقع في غير هذا الموضع على الذكور والإناث، وهنا أُريد به الذّكور**) فهم المُشتَهون في (**الطّباع**) والمُعَدُّون (**للدفاع**) ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾ جمع قنطار وهو المال الكثير. قيل: (**ملء مسك ثور**) أو مائة ألف (**دينار**)، ولقد جاء الإسلام وبمكة مائة رجل قد قنطروا ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾

وعليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ [صَ: الآية ٣٢]، ومعناه أحب الخير وأحب أن أكون محبًا للخير. اهـ شيخ زاده رحمه الله. **قوله: (توقان النفس)** بفتح الواو. في مختار الصحاح: تاقت نفسه إلى الشيء اشتاقت إليه، وبابه قال: وتَوَقانًا أيضًا بفتح الواو. اهـ. **قوله:** (﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾) قدّم النساء على الكلّ لكثرة تشوّق النفس إليهنّ، لأنهنّ حبائل الشيطان وفتنة الرجال، قال عليه الصّلاة والسّلام: «**ما تركت بعدي فتنةً أضرّ على الرجال من النساء**»، ثم ثنّى بالولد الذّكر لأن حبّه أتمّ وأقوى من حبّ الأنثى، وفي تزيين حبّ الأنثى والولد في قلب الإنسان حكمة بالغة، ولولا هذا الحبّ لما حصل التوالد والتناسل، وهذه المحبّة أقوى في جميع طباع الحيوانات. اهـ شيخ زاده رحمه الله. **قوله: (وقد يقع في غير هذا الموضع على الذكور والإناث، وهنا أُريد به الذكور)**، في القاموس: الابن الوَلَد أصله بني أو بنو. اهـ. وفي المصباح: الوَلَد ـ بفتحتين ـ كل ما ولده شيء ويُطلق على الذكر والأُنثى، والمثنى والمجموع. اهـ. **قوله: (الإناث)** مثل كتاب، جمع الأنثى. **قوله: (الطباع)** في مختار الصحاح: الطَّبْع السَّجيّة التي جُبِل عليها الإنسان، وهو في الأصل مصدر، والطبيعة مثله، وكذا الطِّباع بالكسر. اهـ. **قوله: (للدفاع)** في لسان العرب: الدَّفْع الإزالة بقوّة دفعه يدفعه دفعًا ودفاعًا. **قوله: (ملء مسك ثور من ذهب أو فضّة)** الملأ ـ بالكسر ـ ما يأخذه الإناءُ إذا امتلأ. اهـ مختار الصحاح. وفي المصباح: مِلْؤه ـ بالكسر ـ ما يملأه وجَمْعه إمْلاء، مثل حمل وأحمال. اهـ. والمسك ـ بفتح فسكون ـ الجلد والثور الذَّكر من البقر. **قوله: (دينار)** في المصباح: الدينار معروف، والمشهور في الكتب أن أصله دنّار بالتضعيف، فأُبدل حرف علّة للتخفيف، ولهذا يُرَدّ في الجمع إلى أصله، فيقال:

(المنضدة) أو المدفونة (﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾) سُمِّي ذهبًا لسُرعة ذهابه بالإنفاق، وفضة لأنها تتفرق بالإنفاق والفَضّ التفريق ﴿وَٱلْخَيْلِ﴾ سُمِّيَت به (لاختيالها) في مشيها ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلّمة من (السومة) وهي العلامة أو المرعية من أسام الدابة وسومها ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ (هي الأزواج الثمانية) ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ الزرع (﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور) ﴿مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يتمتع به في الدنيا ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ المرجع. ثم زَهَّدهم في الدنيا فقال:

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ من الذي تقدَّم ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ﴾ كلام مُستَأنَف فيه دلالة على بيان ما هو خير من ذلكم، فـ «جنات» مبتدأ و«للذين اتقوا» خبره ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ صفة لـ «جنات»، ويجوز أن يتعلق اللام بـ «خير» واختصَّ المُتَّقين لأنهم هم المُنتفعون به. ويرتفع «جنات» على هو جنات

دنانير، وبعضهم يقول: هو فيعال، وهو مردود بأنه لو كان كذلك لوجدت الياء في الجمع كما ثبتت في ديماس ودياميس، والدينار وزان إحدى وسبعين شعيرة ونصف شعيرة تقريبًا بناءً على أن الدانق ثماني حبات وخمسا حبة، وإن قيل: الدَّانق ثماني حبّات، فالدينار ثمان وستون وأربعة أسباع حبّة، والدِّينار هو المثقال. اهـ. **قوله:** (المنضدة) في مختار الصحاح: نضد متاعه وضع بعضه على بعض، وبابه ضرب، ومنه قوله تعالى: ﴿مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هُود: الآية ٨٢]، ونضد تنضيدًا أيضًا للمبالغة في وضعه متراصعًا. اهـ.

قوله: (لاختيالها) في مختار الصحاح: الخيلاء ـ بضم الخاء وكسرها ـ الكِبْر تقول منه: اختال. اهـ. وفي المصباح: سمّيت خيلًا لاختيالها وهو إعجابها بنفسها مَرَحًا، ومنه يقال: اختيال الرجل وبه خُيَلاء، وهو الكبر والإعجاب. اهـ. **قوله:** (السومة) بالضمّ. **قوله:** (هي الأزواج الثمانية) الذَّكر والأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز. **قوله:** (﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور) يريد بيان وجهه تذكير اسم الإشارة وإفراده مع كون الإشارة إلى جميع ما سبق، وقد جوّزوا في الضمير الإفراد والتذكير والتأنيث بالنظر إلى الخبر. اهـ تفتازاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(وتنصره قراءة مَن قرأ ﴿جناتٍ﴾ بالجر على البدل من ﴿خير﴾) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ (وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ)﴾ أي رضا الله ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ عالِم بأعمالهم فيُجازيهم عليها أو بصير بالذين اتقوا وبأحوالهم فلذا أعدَّ لهم الجنَّات.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ (نصب على المدح أو رفع أو جرّ صفة للمتقين أو للعباد) ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ إجابة لدعوتك ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ إنجازًا لوعدك ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ بفضلك.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ١٧﴾

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الطاعات والمصائب وهو نصب على المدح ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قولًا بإخبار الحق، وفعلًا بإحكام العمل، ونيَّة بإمضاء العزم ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ الدَّاعين

قوله: (وتنصره قراءة من قرأ ﴿جنات﴾ **بالجرّ على البدل من** ﴿خير﴾) وهو يعقوب بن إسحٰق الحضرمي البصري رحمه الله. **قوله:** (﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾) قرأ شعبة بضمّ الراء والباقون بكسرها، وهما لغتان: الكسر لغة الحجاز، والضمّ لغة تميم. وقيل: بالكسر اسم وبالضمّ مصدر.

تنبيـــه:

قد نبّه سبحانه وتعالى في هذه الآية على نِعَمِه، فأدناها متاع الحياة الدنيا، وأعلاها رضوان الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: الآية ٧٢]، وأوسطها الجنّة ونعيمها. اهـ خطيب باختصار.

قوله: (**نصب على المدح**) أي بإضمار، أعني أو أمدح. **قوله:** (**أو رفع**) أي مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، كأنه قيل: من هؤلاء المتقون؟ فقيل: هم الذين يقولون كيت وكيت. **قوله:** (**أو جرّ صفة للمتقين**)، أي لقوله الذين اتّقوا. **قوله:** (أو) صفة (**للعباد**) واستضعف أبو البقاء جعله صفة للعباد، قال: لأن فيه تخصيصًا لعلم الله تعالى، ولا محذور فيه؛ لأن علمه تعالى بإنابتهم إلى الله تعالى ومقدار مشقّتهم في العبادة والطاعة كناية عن مُجازاتهم عليها على حسب ما وعده. اهـ، شيخ زاده رحمه الله.

أو المُطيعين ﴿وَٱلۡمُنفِقِينَ﴾ المتصدِّقين ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ (بِٱلۡأَسۡحَارِ)﴾ المُصَلِّين أو طالِبين المغفرة، وخَصَّ الأسحار لأنه وقت إجابة الدعاء، ولأنه وقت الخلوة، قال (**لقمان**) لابنه: يا بُنَيَّ لا يكن (**الديك**) أكيس منك ينادي بالأسحار وأنت نائم. والواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم في كل واحدة منها، وللإشعار بأن كل صفة مستقلة بالمدح.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

(﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾) أي حَكَم أو قال ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي بأنه (﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾) بما عاينوا من عظيم قدرته (﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾) أي الأنبياء والعلماء (﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ **مقيمًا للعدل**) فيما يقسم به الأرزاق والآجال ويُثيب ويُعاقب، وما يأمر به عباده من إنصاف بعضهم لبعض والعمل على السَّوِيَّة فيما بينهم. (**وانتصابه على أنه حال مؤكدة من اسم الله تعالى أو من «هو»، وإنما جاز إفراده بنصب الحال**) دون

قوله: (﴿بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾) الباء بمعنى في، والأسحار جمع سَحَر وهو الوقت الذي قبل طلوع الفجر. **قوله:** (لقمان) الحكيم اتّفقوا على أنه كان حكيمًا ولم يكن نبيًّا، إلّا عكرمة، فإنّه قال: كان لقمان نبيًّا، وتفرّد بهذا القول، وقيل: كان عبدًا أسود. وعن ابن المسيّب: أنه كان خيّاطًا. اهـ كمالين. وفي تفسير الجلالين: كان يُفتي قبل بعث داود وأدرك زمنه وأخذ منه العلم وترك الفتيا، وقال في ذلك: لا أكتفي إذ أكفيت. اهـ. **قوله:** (الدِّيك) ذكر الدجاج. اهـ مصباح.

قوله: (مقيمًا للعدل) إشارة إلى أن الباء للتعدية كالهمزة. **قوله:** (وانتصابه على أنه حال مؤكّدة من اسم الله تعالى)، والحال قسمان: مؤكّدة، وهي التي تكون لازمة لذى الحال. ومنتقلة، ويقال: متحوّلة، وهي التي تزول عنه مرّة وتثبت له أخرى، وقائمًا على تقدير كونه حالًا من فاعل شهد تكون حالًا مؤكّدة؛ لأن القيام بالعدل لازم لله تعالى لا ينتقل عنه. **قوله:** (أو من هو)، أي يجوز أن يكون قائمًا حالًا من هو في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. **قوله:** (وإنما جاز إفراده بنصب الحال)... الخ مع أن النُّحاة لم يجوّزوا اختصاص أحد الأُمور المتعاطفة بانتصاب الحال منه دون الباقين بناءً على أنهم منعوا ذلك في موضع الالتباس، كما جاز

المعطوفين عليه ولو قلت: «جاء زيد وعمرو راكبًا» لم يجُز لعدم الإلباس فإنك لو قلت: «جاءني زيد وهند راكبًا» جاز لتميّزه بالذُّكورة أو على المدح. وكرر (﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾) للتأكيد (﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾) رفع على الاستئناف أي هو العزيز وليس بوصف لـ «هو» لأن الضمير لا يُوصَف يعني أنه العزيز الذي لا يغالب، الحكيم الذي لا يعدل عن الحق.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

﴿(إِنَّ ٱلدِّينَ) عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ **(جملة مستأنفة)**. وقرىء «أن الدين» على البدل من قوله: «أنه لا إلـه إلا هو» أي شهد الله **(أن الدين عند الله الإسلام. قال عليه السلام: «مَن قرأ الآية عند منامه)** خلق الله تعالى منها سبعين ألف خلق يستغفرون له إلى يوم القيامة، ومَن قال بعدها: وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة يقول الله تعالى يوم القيامة: إن لعبدي عندي عهدًا وأنا أحقّ مَن وفّى بالعهد أدخِلوا عبدي الجنة».

ذلك لعدم الالتباس في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: الآية ٧٢]، فإنّ نافلة انتصب حالًا من يعقوب كذلك.

قوله: (جملة مستأنفة) أي مبتدأة لا استئنافًا بيانًا. **قوله:** (﴿إِنَّ ٱلدِّينَ﴾) بفتح الهمزة (عليّ) الكسائي (على البدل) أي بدل كلّ. والباقون بالكسر على الاستئناف. **قوله:** (قال عليه السلام: «مَن قرأ الآية عند منامه»)... الخ قال العلامة الشهاب عليه رحمة الله الوهّاب بعد نقل هذا الحديث عن المدارك: الحديث ضعيف، لكنه في الفضائل. اهـ. وأخرج ابن عدي والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان وضعّفه والخطيب في تاريخه وابن النجار عن غالب القطّان، قال: أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريبًا من الأعمش، فلما كانت ليلة أردت أن أنحدر قام فتهجّد من الليل فمرّ بهذه الآية: (﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾) إلى قوله: (﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾)، فقال: وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لي وديعة عند الله، قالها مرارًا، فقلت: لقد سمع فيها شيئًا، فسألته، فقال: حدّثني أبو وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي أهل الكتاب من اليهود والنصارى، واختلافهم أنهم تركوا الإسلام وهو التوحيد **(فثلثت النصارى)** وقالت اليهود: عزير ابن الله ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ أنه الحق الذي **(لا محيد عنه)** ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ أي ما كان ذلك الاختلاف إلا حسدًا بينهم وطلبًا منهم للرياسة وحظوظ الدنيا واستتباع كل فريق ناسًا **(لا شبهة)** في الإسلام. وقيل: هو اختلافهم في نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام حيث آمن به بعض وكفر به بعض. وقيل: هم النصارى واختلافهم في أمر عيسى بعد ما جاءهم العلم أنه عبد الله ورسوله ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ **(بحججه)** ودلائله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ سريع المُجازاة.

صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**يُجاء بصاحبها يوم القيامة، فيقول الله: عبدي عهد إليّ وأنا أحقّ من وفَى بالعهد، أدْخِلوا عبدي الجنّة**». اهـ الدرّ المنثور للعلامة الجلال السيوطي رحمه الله.

وأيضًا فيه: وأخرج أبو الشيخ في العَظَمة عن حمزة الزيّات، قال: خرجت ذات ليلة أُريد الكوفة، فآواني اللّيل إلى خِربة فدخلتها، فبَيْنا أنا فيها إذ دخل عليّ عفريتان من الجنّ، فقال أحدهما لصاحبه: هذا حمزة بن حبيب الزيّات الذي يُقرىء الناس بالكوفة، قال: نعم، والله لأقتلنّه، قال: دع المسكين يعيش، قال: لأقتلنّه، فلمّا أزمع[1] على قتلي، قلت: بسم الله الرحمٰن الرحيم (﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾)، وأنا على ذلك من الشاهدين، فقال له صاحبه: دونك الآن فاحفظه راغمًا إلى الصباح. اهـ.

قوله: (فثلّثت النصارى) وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [المائدة: الآية ٧٣]، والآخران عيسى وأُمّه وهم فرقة من النصارى. **قوله: (لا محيد عنه)** في مختار الصحاح: حادَ عنه يحيد حيدة وحُيُودًا وحَيْدُودة، أي مال وعدل. اهـ.

قوله: (لا شبهة) أي لا لشبهته **قوله: (بحججه)** في المصباح: الحُجّة الدّليل والبرهان، والجمع حُجج مثل غرفة وغرف. اهـ.

---

(١) في القاموس: أزْمعتُ الأمر وعليه أجمعت. اهـ. ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَٰبَ وَالْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُۗ وَاللَّهُ بَصِيرُۢ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ فإن جادلوك في أن دين الله الإسلام والمراد بهم وفد بني نجران عند الجمهور ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ **(أي أخلصت نفسي وجملتي)** لله وحده لم أجعل فيها لغيره شريكًا بأن أعبده وأدعو إلهًا معه، يعني أن ديني دين التوحيد وهو الدين القويم الذي ثبتت عندكم صحته كما ثبتت عندي وما جئت بشيء بديع حتى تجادلوني فيه ونحوه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: الآية ٦٤]. فهو دفع للمحاجة بأن ما هو عليه ومَن معه من المؤمنين هو اليقين الذي لا شك فيه فما معنى المَحاجَّة فيه! ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِۗ﴾ عطف على التاء في «أسلمت» أي أسلمت أنا ومَن اتبعني **(وحسن للفاصل)**، ويجوز أن يكون الواو بمعنى «مع» فيكون مفعولًا معه. («ومَن اتبعني» **في الحالين)**: سهل ويعقوب وافق أبو عمرو **(في الوصل**. «**وجهي**»: **مدني وشامي وحفص والأعشى والبرجمي)**. ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَٰبَ﴾

قوله: (أي أخلصت نفسي وجملتي) فيه إشارة إلى أن الوجه مجاز عن نفس الشيء وذاته، أي جملة الشخص، أي النفس بمعنى جملة الشيء لا بمعنى الروح، فقوله: جملتي تفسير لنفسي احتراز عن كون المراد الروح. **قوله: (وحسن للفاصل)** أي وحسن لوجود الفصل بالمفعول. **قوله: (ومن اتَّبعني)** بإثبات ياء بعد النون **(في الحالين)** أي الوصل والوقف، سهل بن محمد البصري السجستانيّ ويعقوب بن إسحٰق البصري الحضرمي، وليسا من السبعة. وافق أبو عمرو البصري، وكذا نافع المدني وأبو جعفر المدني، وليس من السبعة. **(في الوصل)** خاصّة. والباقون بالحذف وصلًا ووقفًا. **قوله: (وجهي)** بفتح ياء الإضافة، **(مدني)** أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني. **(وشامي)** أي ابن عامر الشامي، **(وحفص)** عن عاصم **(والأعشى)** أي أبو يوسف يعقوب بن خليفة بن سعد بن هلال الأعشى، عن أبي بكر شعبة عن عاصم. **(والبرجمي)** أي عبد الحميد بن صالح البرجمي، عن أبي بكر شعبة عن عاصم، والبُرْجمي - بضم الباء وسكون الراء وضمّ الجيم - نسبة إلى البراجم، وهي قبيلة من تميم. وسكّنها الباقون.

من اليهود والنصارى ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ والذين لا كتاب لهم من مُشركي العرب (﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ بهمزتين: كوفي)، يعني أنه قد أتاكم من البينات ما يقتضي حصول الإسلام فهل أسلمتم أم أنتم (بعد) على كفركم؟ وقيل: لفظه لفظ الاستفهام ومعناه الأمر أي أسلموا كقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: الآية ٩١] أي انتهوا ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ فقد أصابوا الرشد حيث خرجوا من الضلال إلى الهدى ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أي لم يضرّوك فإنك رسول منبّه ما عليك إلا أن تبلغ الرسالة وتنبّه على طريق الهدى ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فيجازيهم على إسلامهم وكفرهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١)﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ هم أهل الكتاب رضوا أن يقتل آباؤهم الأنبياء ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ حال مؤكدة لأن قتل النبي لا يكون حقًّا ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ﴾ (و«يقاتلون»: حمزة) ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ أي سوى الأنبياء. قال عليه السلام: «قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيًّا في

قوله: (﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ **بهمزتين: كوفي**) في غيث النفع قرأ هشام بخلف عنه والحرميان والبصري بتحقيق الأُولى وتسهيل الثانية، ورُوِي عن ورش أيضًا إبدالها ألفًا، والباقون بتحقيقهما، وهو الطريق الثاني لهشام، وأدخل بينهما ألفًا قالون وبصري وهشام، والباقون بعدم الإدخال. اهـ. وفي الإتحاف: قرأ ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ بتسهيل الثانية وإدخال ألف قالون، وأبو عمرو وأبو جعفر وهشام بخلفه، وقرأ ورش من طريق الأصبهاني والأزرق في أحد وجهيه، وابن كثير ورُوَيس بالتسهيل بلا إدخال ألف، والثاني للأزرقي إبدالها ألفًا مع المدّ للساكنين. والباقون ومنهم هشام في ثانيه بالتحقيق بلا ألف، ولهشام وجه ثالث وهو التحقيق مع الألف اهـ. **قوله: (بعد)** في منتخب اللغات: بعد - بالفتح - هنوز وپس يزى، انتهى. والمراد هنا الأوّل، يعني هنوز بمعنى إلى الآن.

قوله: (ويقاتلون) بضم الياء وألف بعد القاف وكسر التاء من المُقاتلة. **(حمزة)**. والباقون بفتح الياء وإسكان القاف بغير ألف وضمّ التاء من القتل. **قوله:**

أول النهار في ساعة واحدة فقام مائة واثنا عشر رجلًا من (عُبّاد) بني إسرائيل فأمروا قتلتهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعًا في آخر النهار من ذلك اليوم» ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ دخلت الفاء في خبر «إن» (لتضمن اسمها معنى الجزاء) كأنه قيل: الذين يكفرون فبشِّرهم بعذاب أليم بمعنى مَن يكفر فبشِّرهم، وهذا لأن «إن» لا تغيِّر معنى الابتداء فهي للتحقيق فكأن دخولها كلا دخول (ولو كان مكانها «ليت» أو «لعل» لامتنع دخول الفاء).

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي ضاعت ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فلهم اللعنة والخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ جمع لوقف رؤوس الآي وإلا فالواحد النكرة في النفي يعمّ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ يريد أحْبار اليهود وأنهم حصَّلوا نصيبًا وافرًا من التوراة. «ومن» للتبعيض أو للبيان ﴿يُدْعَوْنَ﴾ حال من «الذين» ﴿إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي التوراة أو القرآن ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ جعل حاكمًا حيث كان سببًا للحكم أو ليحكم النبي. رُوِيَ أنه عليه السلام دخل (مدراسهم) فدعاهم فقال له (نعيم بن عمرو والحارث بن زيد): على أيّ دين أنت؟ قال النبي عليه السلام: على ملّة إبراهيم. قالا: إن إبراهيم كان يهوديًا قال لهما: إن بيننا وبينكم التوراة (فهلموا) إليها فأبَيَا ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ استبعاد لتولّيهم بعد علمهم بأن الرجوع إلى كتاب الله واجب ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ وهم قوم لا يزال الإعراض (ديدنهم).

(عُبّاد) جمع عابد مثل كافر وكفّار. اهـ مصباح باختصار. قوله: (لتضمن اسمها معنى الجزاء)، أي الشرط وهو السببية مع عدم المانع. قوله: (ولو كان مكانها ليت أو لعلّ لامتنع دخول الفاء)، لتغيّر معنى الابتداء لنقلهما الكلام إلى الإنشاء.

قوله: (مدراسهم) المدراس بيت العلم والدّراسة. قوله: (نعيم بن عمرو) من أحبار اليهود. قوله: (والحارث بن زيد) من أحبار اليهود. قوله: (فهلمّوا) أي تعالوا وأقبلوا. قوله: (ديدنهم) أي عادتهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ أي ذلك التولّي والإعراض بسبب تسهيلهم على أنفسهم أمر العقاب وطمعهم في الخروج من النار بعد أيام قلائل وهي أربعون يومًا أو سبعة أيام و«ذلك» مبتدأ و«بأنهم» خبره ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي غرّهم افتراؤهم على الله وهو قولهم: «نحن أبناء الله وأحباؤه فلا يعذّبنا بذنوبنا إلا مدة **(يسيرة)**».

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ﴾ فكيف يكون حالهم في ذلك الوقت ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ **(جزاء ما كسبت)** ﴿وَهُمْ﴾ يرجع إلى كل نفس على المعنى لأنه في معنى كل الناس ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة في سيئاتهم ونقصان في حسناتهم.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾

(﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾) الميم **(عوض من)** «يا» **(ولذا لا يجتمعان)**، وهذا **(بعض خصائص هذا الاسم كما اختصّ بالتاء في القسم وبدخول حرف النداء عليه، وفيه لام التعريف وبقطع همزته في «يا الله» وبالتفخيم**

قوله: (يسيرة) أي قليلة. **قوله: (جزاء ما كسبت)** يعني أن في الكلام مضافًا مُقدّرًا.

قوله: (﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾) الميم **(عوض من)** يا، فإن أصل اللّهمّ عند البصريّين: يا الله، فحذف حرف النداء، وعوّض عنه هذه الميم المشدّدة لكونها عوضًا عن حرفين. **(ولذا لا يجتمعان)**، فلا يقال: يا اللّهمّ، وهذا ـ أي تعويض الميم المشدّدة عن حرف النداء ـ **(بعض خصائص هذا الاسم)** الشريف، فلا يجوز التعويض المذكور في غيره، فلا يُقال: زيدمّ عمرومّ، **(كما اختصّ بالتاء في القسم، وبدخول حرف النداء عليه، وفيه لام التعريف)** أي بدخول يا عليه مع كونه مُعرّفًا بلام التعريف، **(وبقطع همزته في: يا الله، وبالتفخيم)** وقال الكوفيّون: أصله

مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ **تملك جنس الملك فتتصرف فيه تصرّف الملاك فيما يملكون وهو نداء ثانٍ أي يا مالك الملك)** ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ تعطي مَن تشاء النصيب الذي قسمت له من المُلْك ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ أي تنزعه فالمُلْك الأول عامٌّ والمُلْكان الآخران خاصّان بعضان من الكل. رُوِيَ أنه ﷺ حين فتح مكة وعد

يا الله آمنّا بخير، أي اقصدنا بخير من قولك: أمّيت زيدًا، أي قصدته، ومنه: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المَائدة: الآية ٢]، أي قاصديه، وعليه لو كانت الميم مشدّدة بقية فعل محذوف لما صحّ أنْ يقال: اللّهمّ اغفر لنا إلّا بحرف العطف؛ لأن التقدير: يا الله آمنا بخير واغفر لنا وارحمنا، ولم نجد أحدًا يذكر هذا الحرف العاطف. وأجاب عنه الكوفيّون بأن العاطف تُرِك بين الفعلين بناءً على أن الفعل الثاني ليس مطلوبًا مغايرًا للفعل الأوّل، بل الثاني تفسير الأوّل؛ فكأنه قيل: يا الله آمنّا بخير بأن تغفر لنا، فجعل الثاني عطف بيان للأوّل. (﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: الآية ٢٦] **تملك جنس الملك، فتتصرّف فيه تصرّف المُلاكَ فيما يملكون)** المُلّاك جمع مالك، مثل كافر وكفّار. اهـ مصباح. **(وهو نداءٌ ثانٍ)** بحذف حرف النداء، أي **(يا مالك الملك)** وكذا قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزُمَر: الآية ٤٦]، ولا يجوز أن يكون نعتًا لقوله اللّهم: لأن قولنا: اللّهمّ مجموع الحرف والاسم، وهذا المجموع لم يكن له صفة. وقال المبرد والزجّاج: إنّ مالك وصف للمنادى المفرد؛ لأن هذا الاسم ومعه الميم بمنزلته، ومعه ياء النداء، فلا تمتنع الصفة مع الميم كما لا تمتنع مع يا.

فائدة عظيمة:

روى الإمام الواحدي في الوسيط عن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ فاتحة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من آل عمران:** ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الآية ١٨] و﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ﴾ **إلى قوله:** ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ **مشفّعات فيمن يتلوهنّ، يقول الله تعالى: لا يقروؤكن أحد من عبادي دُبُر كل صلاة مكتوبة إلّا جعلت الجنّة مأواه، وإلّا أسكنته حظيرة قدسي، وإلا قضيت له كلّ يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة**» اللّهمّ اجعلني ممّن يعمل بهذا الحديث، فأنال سعادة الفضائل التي وعدتها للعاملين. اهـ شيخ زاده رحمه الله.

أُمته مُلْك فارس والروم فقالت اليهود والمنافقون: (هيهات هيهات) من أين لمحمد مُلْك فارس والروم هم أعزّ وأمنع من ذلك فنزلت ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ بالمُلْك ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ بنزعه منه ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ أي الخير والشر فاكتُفِي بذِكْر أحد الضِّدَّين عن الآخر، أو لأن الكلام وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين وهو الذي أنكرته (الكَفَرَة) فقال: بيدك الخير تؤتيه أولياءك على (رغم) من أعداءك ﴿إِنَّكَ

وفي الجزء الخامس من جمع الجوامع عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**إنّ فاتحة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من آل عمران:** ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الآية ١٨] و﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ **إلى** ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الآيتان ٢٦، ٢٧] **معلّقات بالعرش ما بينهنّ وبين الله حجاب، قلن: تهبطنا إلى أرضك وإلى منْ يعصيك، فقال الله عزّ وجلّ: حلفت لا يقرؤكنّ أحد من عبادي دُبُر كل صلاة إلا جعلت الجنّة مثواه على ما كان منه وإلّا أسكنته حضرة القدس، وإلّا نظرت إليه بعيني المكنونة كل يوم سبعين نظرة، وإلّا قضيت له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة، وإلّا أُعيذه من كل عدوّه ونصرته منه» حب** يعني ابن حبان في الضعفاء. **ابن السني** في عمل يوم وليلة. وأبو منصور في الأربعين، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات، وقال: تفرّد به الحارث بن عمير، وكان يروي الموضوعات من الأثبات، وأورده الحافظ ابن حجر في أماليه. وقال الحارث: لم نرَ للمتقدِّمين فيه طعنًا، بل أثنى عليه حمّاد بن زيد، وهو أكبر منه، ووثّقه النقّاد ابن معين وأبو حاتم والنسائي، وأخرج له خ - يعني البخاري - تعليقًا وأصحاب السنن، وذكره حب - يعني ابن حبان - في الضعفاء، فأفرط في توهينه. وأمّا مَنْ فوقه فلا يُسأل عن حالهم لجلالتهم، قال: وقد أفرط ابن الجوزي فذكر هذا الحديث في الموضوعات، ولعلّه استعظمه لما فيه من الثواب، والأفحال رواته كما ترى، انتهى.

قوله: (**هيهات هيهات**) الغالب في الاستعمال أن تُستعمل هذه الكلمة مكرّرة، والثانية توكيد لفظي للأولى، وهي اسم للفظ الفعل، أي اسم مدلوله لفظ الفعل، أي بَعُد بَعُد، أو اسم للمصدر أي اسم مدلوله لفظ المصدر أي بُعْد بُعْد. **قوله:** (**الكفَرة**) جمع كافر. **قوله:** (**رغم**) في لسان العرب: الرَّغْم والرُّغْم والرِّغْم الكُرْه والذُّلّ والتراب. اهـ.

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ولا يقدر على شيء أحد غيرك إلا بإقدارك. وقيل: المراد بالمُلْك مُلْك العافية أو مُلْك القناعة. قال ﷺ: «**ملوك الجنة من أمتي القانعون بالقُوت يومًا فيومًا**» أو مُلْك قيام الليل. وعن **(الشبلي)**: الاستغناء بالمكوّن عن الكونين تعزّ بالمعرفة أو بالاستغناء بالمُكوّن أو بالقناعة وتذلّ بأضدادها. ثم ذكر قدرته **(الباهرة)** بذِكْر حال الليل والنهار في المعاقبة بينهما، وحال الحي والميت في إخراج أحدهما من الآخر، وعطف عليه رزقه بغير حساب بقوله:

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ فالإيلاج إدخال الشيء في الشيء وهو مجاز هنا أي تنقص من ساعات الليل وتزيد في النهار، وتنقص من ساعات النهار وتزيد في الليل ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ الحيوان من النطفة، أو **(الفرخ)** من **(البيضة)**، أو المؤمن من الكافر ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ النطفة من الإنسان، أو البيض من الدجاج، أو الكافر من المؤمن ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا يعرف الخلق عدده ومقداره وإن كان معلومًا عنده، ليدلّ على أن مَن قدّر على تلك الأفعال العظيمة المحيّرة للأفهام، ثم قدّر أن يرزق بغير

قوله: (الشبلي) هو أبو بكر دُلَف ـ بضمّ المهملة وفتح اللام ـ ابن جَحْدَر الشبلي نسبة إلى شبلة قرية من قرى أُسروشنة ـ بضم الهمزة وإسكان المهملة وضمّ الراء وإسكان المعجمة ـ بغداديّ المولد والمنشأ، وأصله من أُسروشنة، صحب الجُنيد ومَنْ في عصره، وكان نسيج وَحْدِه أي لا نظير له في وقته حالًا وظُرفًا ـ بضم الظاء المعجمة ـ من الظرافة، وهي الكياسة، وعلمًا مالكي المذهب عاش سبعًا وثمانين سنة، ومات في ذي الحجّة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وقبره ببغداد رحمه الله. **قوله: (الباهرة)** الغالبة.

قوله: (الفرخ) من كل بائض، كالولد من الإنسان. اهـ مصباح. **قوله: (البيضة)** من الطير، كذا في بعض النسخ، وفي النسخ الصحيحة: البيض من الدجاج، والدجاج معروف، وفتح الدال أفصح من كسرها، الواحدة دجاجة ذكرًا كان أو أنثى، والهاء للإفراد كحمامة وبطةٍ. اهـ مختار الصحاح. والمراد هنا الثاني.

حساب مَن يشاء من عِباده فهو قادر على أن ينزع المُلْكَ من العجم ويذلّهم ويُؤتيه العرب ويعزّهم. (وفي بعض الكتب: أنا الله ملك الملوك، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي، فإنِ العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمة، وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبة، فلا تشغَلوا بسبِّ الملوك ولكن توبوا إليَّ أعطفهم عليكم). وهو معنى قوله ﷺ: («كما تكونوا يُولّى عليكم،

قوله: (وفي بعض الكتب: أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي، فإن العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمة، وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبة، فلا تشغلوا) ـ بفتح الغين ـ (بسبِّ الملوك، ولكن توبوا إليَّ أعطفهم عليكم)، كذا في التفسير الكشاف.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي الدّرداء رضي الله تعالى عنه، قال: (قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله تعالى يقول) أي في الحديث القدسيّ (أنا الله) قال الطيبي: على أسلوب أنا أبو النجم، أي أنا المعروف المشهور بالوحدانية أو المعبود (لا إلٰه إلّا أنا) حال مؤكّدة لمضمون هذه الجملة (مالِك الملوك وملك الملوك، قلوب الملوك بيدي، وإن العباد) الواو فيه بمنزلة الفاء التفصيلية، وقد روي: فإن العباد، (إذا أطاعوني) أي أكثرهم (حوّلت قلوب ملوكهم) أي قلبت قلوب ظلمتهم عليهم (بالرَّحمة والرّأفة، وإن العباد إذا عصوني حوّلت قلوبهم) أي قلوب ملوكهم العادلين عليهم، ولعلّ حذف عليهم للإشارة إلى أنهم إذا صبروا لا يضرّهم (بالسَّخطة) بفتح أوله، أي الكراهة وعدم الرّضاء بالشيء، (والنِّقمة) بكسر أوّله، أي الكراهة والعقوبة، (فساموهم) بضم الميم المخفّفة من السَّوْم بمعنى التكليف، على ما في النهاية، أي: كلّفوهم وعذّبوهم وأذاقوهم سوء العذاب، أي أشدّه. ومنه قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٤٩]. (فلا تشغلوا) بفتح الغين (أنفسكم بالدعاء على الملوك، ولكن اشغلوا أنفسكم بالذِّكر والتضرّع كَيْ أكْفِيَكم) بالنصب (ملوككم). اهـ بزيادة من شرح مشكاة المصابيح للعلّامة علي القاري، عليه رحمة الله الباري.

قوله: («كما تكونوا يُولّى عليكم»)، أي إن كنتم أهل طاعة يُولّى عليكم أهل الرحمة، وإن كنتم أهل المعصية يُولّى عليكم أهل العقوبة، وهذا الحديث أخرجه الدَّيلمي في مسند الفردوس عن أبي بكرة، والطبراني في معجمه الكبير، والبيهقي

الحيّ من الميت والميتِ من الحيّ» بالتشديد حيث كان: مدني وكوفي غير أبي بكر).

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ **(نُهوا أن يُوالوا الكافرين)** لقرابة بينهم أو لصداقة قبل الإسلام أو غير ذلك، وقد كرر ذلك في القرآن والمحبة في الله

في شعب الإيمان عن أبي إسحٰق السَّبِيعي مرسلًا، ولفظ رواية الديلمي: «**كما تكونون يُولَّ عليكم**»، بإثبات النون وحذف الياء، والرواية بحذف النون وإثبات الياء في يُولّى، وما مصدرية أُعملت حملًا على أنّ المصدرية، كما أُهملت أن حملًا على ما. اهـ عزيزي. وأفاد العلامة الشيخ محمد الحفني رحمة الله عليه: قوله: «**كما تكونوا**» نصب بما حملا على أن كما أهملت أن حملًا على ما، ولهذا الحديث لمّا سمع إنسان آخر يسب الحجّاج قال له: لا تفعل، وذكر الحديث. بل ينبغي الدعاء بنحو: اللّهمّ لا تسلّط علينا بذنوبنا مَنْ لا يخافك، ولا يرحمنا؛ كما كان يفعل ﷺ فإذا وُلِّي عليكم ظالم فارجعوا لأنفسكم ولوموها، فإنه بسبب ظلمكم لبعض. اهـ. **قوله: (الحيّ من الميت، والميت من الحيّ بالتشديد)** أي بتشديد الياء مكسورة **(حيث كان مدنيّ)** أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني، وليس من السبعة، **(وكوفي غير أبي بكر)** شعبة عن عاصم، أي حفص وحمزة والكسائي وخلف، وكذا يعقوب البصريّ، والباقون بياء مخفّفة ساكنة.

قوله: (نهوا أن يوالوا الكافرين) إشارة إلى أن لا يتّخذ نهي مجزوم بكسر الذال لالتقاء الساكنين، والموالاة ضدّ المعاداة، وكون المؤمن مواليًا للكافر يحتمل ثلاثة أوجه: أن يكون راضيًا بكفره ويُواليه لأجله، والمؤمن يكفر بهذا الوجه من الموالاة؛ لأن الرضى بالكفر وتصويبه كفر، والكفر ينافي الإيمان.

وثانيها: المعاشرة الجميلة في الدنيا بحسب الظاهر، وذلك غير ممنوع منه.

وثالثها: وهو الوجه المتوسّط بين الوجهين الأوّلين، وهو أن يوالي الكفّار على وجه الركون إليهم والمعاونة والمظاهرة والنصرة على الوجه الذي يتوالى به المتوادّون من أهل القرابات بالتعظيم والمحبّة والاستشارة في مهمّ، مع اعتقاد أن

والبُغْض في الله باب عظيم في الإيمان. (﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾) يعني أن لكم في مُوالاة المؤمنين (مندوحة) عن مُوالاة الكافرين فلا تُؤثروهم عليهم ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي ومَن يُوالِ الكَفَرَة فليس من وِلاية الله في شيء لأن مُوالاة الوالي ومُوالاة عدوه متنافيان ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ (إلا أن تخافوا من جهتهم أمرًا يجب اتّقاؤه) أي إلا أن يكون للكافر عليك سلطان فتخافه على نفسك ومالك فحينئذ يجوز لك إظهار المُوالاة وإبطان المُعاداة ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي ذاته فلا تتعرضوا لسخطه بمُوالاة أعدائه وهذا وَعيد شديد ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي مصيركم إليه والعذاب مُعَدٌّ لديه وهو وعيد آخر.

دينه باطل؛ فهذا لا يوجب الكفر، إلّا أنه منهيٌّ عنه؛ لأن الموالاة بهذا الوجه قد تجرّه إلى استحسان طريقته والرضى بدينه، وذلك يُخرجه عن الإسلام، فلذلك هدّد الله تعالى فيه، فقال: (﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾)، أي من ولاية الله في شيء يقع عليه اسم الولاية، يعني أنه مُنسلخ من ولاية الله تعالى رأسًا، وهذا أمرٌ معقول، فإنّ موالاة الولي وموالاة عدوّه ضدّان، قالوا:

تـودّ عـدوّي ثـم تـزعـم أنّـنـي صديقك ليس النوك عنك بعازب

النّوك ـ بضم النون والكاف ـ الحماقة، وعازب ـ بالمعجمة ـ بمعنى بعيد وغائب، أي ليس الحمق عنك ببعيد. وكتب بعضهم إلى صديقٍ له في جملة ما كتب إليه أنه: مَنْ والى عدوّك فقد عاداك، ومن عادى عدوّك فقد والاك.

قوله: (﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾) معناه من غير المؤمنين؛ لأن لفظة دون اسم لمكان هو أسفل من مكان آخر، تقول: زيد جلس دون عمرو، أي في مكان أسفل من مكانه، ومَنْ كان مباينًا لغيره في المكان فهو مغاير له، فجعل لفظة دون مستعملة في معنى غير.

قوله: (مندوحة) بفتح الميم، أي سعة وفسحة. اهـ مصباح. **قوله:** (**إلا أن تخافوا من جهتهم أمرًا يجب اتّقاؤه**) والاحتراز منه، إشارة إلى أن تقاة منصوبة على أنها مفعول به، وذلك على أن يكون تتقوا بمعنى تخافوا، وأن يكون تُقاة مصدرًا واقعًا موقع المفعول به، حيث وضع قوله: أمرًا يجب اتّقاؤه موضع تقاة، ووضع قوله: من جهتهم موضع منهم، إشارة إلى أن مَنْ ابتدائيّة متعلّقة الفعل قبلها.

﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن
سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ من ولاية الكفّار أو غيرها مما لا يرضى الله ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ ولم يخف عليه وهو أبلغ وعيد ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ استئناف وليس بمعطوف على جواب الشرط أي هو الذي يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض فلا يخفى عليه سرّكم وعلنكم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيكون قادرًا على عقوبتكم.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ «يوم» منصوب بـ «تود» والضمير في «بينه» لليوم أي يوم القيامة حين تجد كل نفس خيرها وشرّها حاضرين، تتمنى لو أن بينها وبين ذلك اليوم وهو له أمدًا بعيدًا أي مسافة بعيدة، أو بـ «اذكر» ويقع «تجد» على «ما عملت» وحده ويرتفع «وما عملت» على الابتداء و«تود» خبره أي والذي عملته من سوء تودّ هي لو تباعد ما بينها وبينه، ولا يصحّ أن تكون «ما» شرطية لارتفاع «تود»، نعم الرفع جائز إذا كان الشرط ماضيًا لكن الجزم هو الكثير. وعن **(المبرد)** أن الرفع شاذّ. وكرر قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ **(ليكون على بال منهم)** لا يغفلون عنه ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ ومن رأفته بهم أن حذّرهم نفسه حتى لا

قوله: (المبرّد) بضم الميم وفتح الباء الموحدة والراء مشدّدة بعدها دال مهملة، وهو لقب عُرِف به أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر البصري النحوي، نزل بغداد وكان إمامًا في النّحو واللغة وله التواليف النافعة في الأدب، منها كتاب الكامل، ومنها الروضة والمقتضب وغير ذلك. توفي يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجّة، وقيل: ذي القعدة، سنة ستّ وثمانين، وقيل: خمس وثمانين ومائتين ببغداد، ودُفِن في مقابر باب الكوفة في دار اشْتُرِيت له وصلّى عليه أبو محمد يوسف بن يعقوب القاضي رحمه الله تعالى. **قوله: (ليكون على بال منهم)** البال القلب، والبال الحال والشأن، والبال الخاطر، ومن أسماء النفس البال. اهـ لسان العرب ملتقطًا.

يتعرضوا لسخطه، ويجوز أن يريد أنه مع كونه محذورًا لكمال قدرته مرجوٌّ لسعة رحمته كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصّلت: الآية ٤٣]. ونزل حين قال اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ محبة العبد لله إيثار طاعته على غير ذلك، ومحبة الله العبد أن يرضى عنه ويحمد فِعْله. وعن (**الحسن**): زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبّون الله فأراد أن يجعل لقولهم تصديقًا من عمل، فمَن ادَّعى محبّته وخالف سُنَّة رسوله فهو كذاب وكتاب الله يكذِّبه. وقيل: محبة الله معرفته ودوام خشيته ودوام اشتغال القلب به وبذكره ودوام الأُنس به. وقيل: هي اتّباع النبي عليه السلام في أقواله وأفعاله وأحواله إلا ما خصّ به. وقيل: علامة المحبة أن يكون دائم التفكير، كثير الخلوة، دائم (**الصمت**)، لا يُبصِر إذا نظر، ولا يسمع إذا نُودِي، ولا يحزن إذا أُصيب، ولا يفرح إذا أصاب، ولا يخشى أحدًا ولا يرجوه ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ قيل: هي علامة المحبة ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أعرَضوا عن قبول الطاعة، ويحتمل أن يكون مضارعًا أي فإن تتولّوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لا يحبهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

(﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾) اختار ﴿ءَادَمَ﴾ أبا البشر ﴿وَنُوحًا﴾ شيخ المرسلين ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إسماعيل وإسحٰق وأولادهما ﴿وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ موسى وهارون هما ابنا

قوله: (الحسن) البصري التابعي رحمه الله. **قوله:** (الصَمت) السكوت.

قوله: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾) الآية دالّة على تفضيل البشر على الملائكة؛ وذلك لأن الله تعالى صرّح بتفضيل آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، وآدم ونوح من الأنبياء، وآل إبراهيم وآل عمران إن كان بمعنى نفس إبراهيم ونفس عمران، فإبراهيم نبيّ وعمران غيره، وإن كان بمعنى ذرّية إبراهيم وذرّية عمران فلا خفاء أنّ منهم أنبياء، ومنهم ليسوا كذلك، وقيل: آل إبراهيم إسماعيل وإسحٰق ويعقوب وأولادهما، ودخل فيه الرّسول عليه السّلام،

عمران بن (يصهر). وقيل: عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان (وبين عِمرانين) ألف وثمانمائة سنة ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على عالمي زمانهم.

وآل عمران موسى وهارون ابنا عمران، أو عيسى ومريم بنت عمران، وكان بين عمرانين ألف وثمانمائة سنة، وبالجملة يفهم تفضيل الأنبياء وغيرهم على تمام العالم، والملائكة من العالم، فظهر تفضيل البشر على الملائكة، ثم فيه تفضيل وهو أن رسل البشر أفضل من رسل الملائكة، ورسل الملائكة أفضل من عامّة البشر، وعامّة البشر أفضل من عامّة الملائكة، والمقصود من الآية بيان تفضيل جنس البشر على جنس الملائكة. ألا ترى أن رسلهم أفضل من رسل الملائكة وعامّتهم أفضل من عامّتهم، وإن كان رسل الملائكة أفضل من عامّة البشر بعارض كونهم رسلًا، وكون البشر عامّة، فهو عامّ مخصوص البعض، لكنه يكفي لحكم ظنّي وهو تفضيل البشر على الملائكة، هكذا قال سعد الملّة والدِّين، وتمسك به القاضي أيضًا. وقد يُستدلّ على تفضيل رسل البشر على رسل الملائكة لقصة آدم وتعليمه وجعله مسجودًا للملائكة، وأمثال ذلك. وقالت المعتزلة وبعض الأشاعرة والفلاسفة بتفضيل الملائكة مطلقًا؛ لأنهم معصومون والبشر مذنبون بالذات الحسّية والشهوات النفسية، ولقوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: الآية ١٧٢]، فإنّ أسلوبه الترقي من الأدنى إلى الأعلى، ونحوه من النصوص.

والجواب: أن الكمال هو التوقّي عن الذنوب مع كمال القدرة عليه، وهم ليسوا من أهله، وأن الترقّي في الآية إنما هو في كونه بلا أب وأُمّ، فإنّ المسيح غير ذي أب وهم غير ذي أبّ وأُمّ، والكلام فيه طويل يُعرف في علم الكلام. اهـ التفسيرات الأحمديّة.

قوله: (يَصْهُر) بن قاهَث. **قوله:** (وبين عِمْرانين) يعني عمران أبا موسى، وعمران أبا مريم، وعمران المذكور في النظم يحتملهما، ورجّح في الانتصاف القول الثاني بأن السورة تسمّى آل عمران، ولم تشرح قصة عيسى عليه الصّلاة والسّلام، ومريم في سورة أبسط من شرحها في هذه السورة. وأمّا موسى وهارون، فلم يذكر من قصّتهما في هذه السورة طرف، فدلّ ذلك على أن عمران المذكور هٰهنا هو أبو مريم. انتهى.

﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾

(﴿ذُرِّيَّةَۢ﴾) بدل من «آل إبراهيم وآل عمران» ﴿بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾ مبتدأ وخبره في موضع النصب صفة لـ «ذرية» يعني أن الآلين **(ذرية واحدة)** متسلسلة بعضها متشعّب من بعض: موسى وهارون من عمران، وعمران من يصهر، ويصهر من قاهث، وقاهث من لاوي، ولاوي من يعقوب، ويعقوب من إسحٰق، وكذلك عيسى ابن مريم بنت عمران بن ماثان وهو يتصل بيهودا بن يعقوب بن إسحٰق، وقد دخل في آل إبراهيم رسول الله ﷺ. وقيل: بعضها من بعض في الدين ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم مَن يصلح للاصطفاء، أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيّتها.

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾

﴿إِذۡ قَالَتِ﴾ (و«إذْ» **منصوب به**) أو بإضمار «اذكر». ﴿ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ﴾ هي امرأة عمران بن ماثان أُم مريم جدّة عيسى وهي **(حنّة)** بنت فاقوذا ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ﴾ أوجبت ﴿مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾ هو حال من «ما» وهي بمعنى الذي أي معتقًا لخدمة بيت المقدس لا يَدَ لي عليه ولا أستخدمه، **(وكان هذا النوع من النذر مشروعًا عندهم)** أو مخلصًا للعبادة يقال: «طين حرّ» أي خالص (﴿فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ﴾) «منّيَ»

قوله: (﴿ذُرِّيَّةَۢ﴾) . . . الخ قال الإمام الزاهد: ولد بعضها من بعض، وهذا شهادة من الله تعالى على طهارة نسب الأنبياء، وفيه دليل على أن أنكحة الكفار صحيحة على أيِّ وجه يعتقدون فيما بينهم، وهذا لفظه. ووجه التمسّك ظاهر بالتأمل. اهـ التفسيرات الأحمدية. **قوله: (ذرية واحدة)** الوحدة مستفادة من التاء.

قوله: (وإذ منصوب به) أي بسميع عليم على التنازع، أو بسميع بمعنى أنه يسمع مقالتها، ولا يضرّ الفصل بينهما بالأجنبي لتوسعهم في الظروف. **قوله: (حَنّة)** ـ بفتح الحاء المهملة ونون مشدّدة وتاء تأنيث ـ اسم عبراني. **قوله: (وكان هذا النوع من النذر مشروعًا عندهم)**؛ وذلك لأنه كان الأمر في دينهم أن الولد إذا صار بحيث يمكن استخدامه كان يجب عليه خدمته الأبوين، فكانوا بالنذر يتركون الحكم ثم يخيّر بين الذهاب والمقام، فإذا أراد أن يذهب ذهب، وإن اختار المقام فليس له بعد ذلك خيار. **قوله:** (﴿فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ﴾) بفتح

(**مدني وأبو عمرو**)، والتقبّل: أخذ الشيء على الرِّضا به ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ الضمير لـ «ما في بطني» وإنما أُنِّث على تأويل الحبلة أو النفس أو النسمة ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ «أنثى» حال من الضمير في «وضعتها» أي وضعت الحبلة أو النفس أو النسمة أُنثى، وإنما قالت هذا القول لأن التحرير لم يكن إلا للغلمان فاعتذرت عمّا نذرت وتحزنت إلى ربها ولتكلمها بذلك على وجه التحزن والتحسر قال الله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ (**تعظيمًا لموضوعها**) أي والله أعلم بالشيء الذي وضعت وما علق به من (**عزائم الأمور**. «**وضعتُ**»: **شامي وأبو بكر**) بمعنى ولعل لله فيه سرًّا وحكمة، وعلى هذا يكون داخلًا في القول. وعلى الأول يوقف عند قوله: «أُنثى» وقوله: «والله أعلم بما وضعت». ابتداء إخبار من الله تعالى ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ﴾ الذي طلبت ﴿كَٱلْأُنثَىٰ﴾ التي وهبت لها واللام فيهما للعهد ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ معطوف على «إني وضعتها أُنثى» وما بينهما جملتان معترضتان. وإنما ذكرت حنة تسميتها مريم لربها لأن مريم في لغتهم العابدة، فأرادت بذلك التقرّب والطلب إليه أن يعصمها حتى يكون فِعْلها مطابقًا لاسمها وأن يصدق فيها ظنها بها، ألا ترى كيف أتبعته طلب الإعاذة لها ولولدها من الشيطان

الياء (**مدني**) أي نافع المدني، وأبو جعفر المدني، وليس من السبعة. (**وأبو عمرو**) البصري. والباقون بالإسكان.

قوله: (تعظيمًا لموضوعها) أي المولود الذي وضعته، يعني ليس المراد الردّ عليها في إخبار الله بما هو أعمّ به، كما يتراءى من السياق، وما موصولة والعائد محذوف تقديره: ما وضعته. **قوله: (عزائم الأمور)** جمع عزيمة، وهي الأمر الواجب والخصلة التي يعزمها الرجل، أي الأُمور المعزومة اللازمة لحصول رضوانه تعالى. **قوله: (وضعت)** بإسكان العين وضمّ التاء للتكلّم من كلام أُمّ مريم. (**شامي**) أي ابن عامر الشامي، (**وأبو بكر**) شعبة عن عاصم، وكذا يعقوب البصري، وليس من السبعة. والباقون بفتح العين وبتاء التأنيث الساكنة من كلام

بقوله: (﴿وَإِنِّ﴾ «وإنّيَ» مدني ﴿أُعِيذُهَا بِكَ﴾) أجيرها (﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾) أولادها (﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾) الملعون (في الحديث «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسّه حين يولد فيستهلّ صارخًا من مسّ الشيطان إيّاه إلا مريم وابنها»).

الباري تعالى. **قوله:** (وإنّيَ) بفتح الياء (مدني) أي نافع المدني، والباقون بالإسكان.

قوله: (في الحديث: «ما من مولود يولد إلّا والشيطان يمسّه حين يولد»)، أي حين تمّت ولادته، وقوله: يُولد للاستمرار مع قطع النظر عن المضيّ والاستقبال، وهذا الحديث أخرجه الشيخان. وفي إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للعلامة القسطلاني في باب (﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسّه») ابتداء للتسليط عليه، وفي صفة إبليس وجنوده من بدء الخلق كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه («حين يولد فيستهلّ صارخًا من مسّ الشيطان إيّاه») صارخًا نصب على المصدر؛ كقوله: قم، («إلا مريم وابنها») عيسى فحفظها الله تعالى ببركة دعوة أُمّها حيث قالت: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، ولم يكن لمريم ذرّية غير عيسى عليه الصّلاة والسّلام، وزاد في باب صفة إبليس: ذهب يطعن فطعن في الحجاب، والمراد به الجلدة التي يكون فيها الجنين، وهي المشيمة.

ونقل العيني أن القاضي عياضًا أشار إلى أن جميع الأنبياء يشاركون عيسى عليه الصّلاة والسّلام في ذلك. قال القرطبي: وهو قول مجاهد. (ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا) بالواو، ولأبي ذرّ: اقرؤوا (إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾)، وهذا فيه من حيث إن سياق الآية يدلّ على أن دعاء حنّة أُمّ مريم بإعاذتها وذرّيتها من الشيطان المفسّر في الحديث بأن يعصمهما من مسّ الشيطان عند ولادتهما متأخّر عن وضعها مريم، ولم أرَ مَنْ نبّه على هذا، والذي يظهر لي أن تكون حنّة علمت أنوثة مريم قبل تمام وضعها عند بروزها إلى ما يعلم منه ذلك، فقالت حينئذ: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، و﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا﴾، فاسْتُجيب لها ثم تكامل وضعها، فأراد الشيطان التمكّن من مريم، فمنعه الله تعالى منها ببركة دعاء أُمّها، والتعبير عن البعض بالكل سائغ شائع، وليس في الآية دليل على أنه تعالى

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿(فَتَقَبَّلَهَا) رَبُّهَا﴾ قَبِل الله مريم ورضي بها في النَّذر مكان الذَّكَر ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ (**قيل: القبول اسم ما يقبل به الشيء كالسعوط لما يسعط به**) وهو اختصاصه لها بإقامتها مقام الذَّكَر في النَّذْر ولم تُقبَل قبلها أُنثى في ذلك، أو بأن تسلمها من أُمها عقيب الولادة قبل أن تنشأ (**وتصلح للسدانة**). رُوِيَ أن حنة لمّا ولَدَت مريم لفَّتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحْبار أبناء هارون وهم في (**بيت المقدس كالحَجَبَة**) في الكعبة فقالت لهم: (**دونكم هذه النَّذيرة، فتنافسوا**)

استجاب دعاءها، بل الضمير في قوله تعالى:

(﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾) لمريم، أي فرَضِيَ بها ربّها في النذر مكان الذَّكر. نعم الحديث يدلّ على الإجابة، فتأمّل. اهـ باختصار. **قوله: (قيل: القبول اسم ما يُقبل به الشيء)**؛ فبيَّن أن فعولًا يكون للآلة التي يفعل بها الفعل (**كالسعوط**) الفتح اسم (**لما يُسْعط به**)، والسعوط ـ بالفتح ـ الدواء الذي يُصبّ في الأنف، والمُسْعُطُ ـ بضم الميم والعين ـ الإناء الذي يُجعل فيه السَّعوط، وهو أحد ما جاء بالضم مما يُعْتمل به. **قوله: (تصلح)** بابه دخل **قوله: (للسدانة**[1]) بالكسر[2] مصدر بمعنى الخدمة. **قوله: (بيت المقدس)** يخفّف ويشدّد، والنسبة إليه مَقْدِسِيّ بوزن مَجْلِسِيّ، ومُقَدَّسي بوزن مُحَمَّدِيّ. اهـ مختار الصحاح. **قوله: (كالحجبة)** جمع حاجب بمعنى البوّاب. اهـ قاموس. وفي المصباح: حجبة حجبًا من باب قتل منعه، ومنه قيل للستر حجاب؛ لأنه يمنع المشاهدة. وقيل للبواب حاجب لأنه يمنع من الدخول. اهـ. **قوله: (دونكم هذه النذيرة)** معنى المنذورة، أي خذوها. **قوله: (فتنافسوا**[3]) التنافس: الرغبة في الشيء النفيس والتخاصم فيه.

---

(١) بمعنى خدمة المسجد. اهـ شيخ زاده رَحِمَهُ اللَّهُ. وفي القاموس: سَدَن سَدْنًا وسَدانة خدم الكعبة أو بيت الصنم. اهـ. وفي مختار الصحاح: السادن خادم الكعبة وبيت الأصنام، والجمع السَّدَنة، وقد سَدَن من باب قصر وكتب. اهـ. منه.

(٢) كذا في المصباح. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(٣) أي تنازعوا.

فيها لأنها كانت بنت (إمامهم **وصاحب قُربانهم**)، وكان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم فقال لهم زكريا: (**أنا أحقّ بها، عندي أُختها**). فقالوا: لا حتى (**نقترع**) عليها. فانطلقوا ـ وكانوا سبعة وعشرين (**إلى نهر**) ـ فألقوا فيه (**أقلامهم**) فارتفع قلم زكريا فوق الماء و(**رسبت**) أقلامهم فتكفّلها. وقيل: هو مصدر على تقدير حذف المضاف أي فتقبّلها بذي قَبول حسن أي بأمر ذي قَبول حسن وهو الاختصاص ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ مجاز عن التربية الحسنة.

قوله: (إمامهم) عمران بن ماثان، وكان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وملوكهم، فهذا أوجه كونه إمامهم، وإنْ لم يكن نبيًا؛ فالمراد بالإمام الرئيس. **قوله: (وصاحب قربانهم)** القُربان ـ بالضم ـ ما يُتقرَّب به إلى الله تعالى، وهو في الأصل مصدر قرب يقرب، ثم جُعِل اسمًا لذلك، وهذه الأُمّة يتقرّبون إلى الله تعالى بأن يذبحوا ذبيحة لله تعالى ويقسموها بين الفقراء، وقربان تلك الأُمّة شيء يضعونه في بيت لتنزل نار سماوية وتأكله؛ كما قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٣]، وصاحب القربان: من يتولّى أمر القرابين من المتقرّبين في البيت الذي تنزل فيه النار من السماء.

قوله: (أنا أحقّ بها عندي أُختها)، أي إيشاع بنت عمران بن ماثان أخت مريم، فيكون عيسى ابن مريم ويحيىٰ بن زكريا ابني خالة لأب، كما ورد في الحديث الصحيح، وإنما كانتا لأب لأنهما بنتا عمران لكن مريم من حنة وإيشاع من غيرها، لكن ما ورد في بعض الروايات من أن زكريّا قال: أنا أحقّ بها عندي خالتها، يدلّ على أنها خالتها لا أختها؛ فمنهم مَنْ وفّق بينهما بأن حنّة وإيشاع بنتا فاقوذا، فمريم بنت أخت إيشاع وبنت الأخت يُطلق عليها أخت إطلاقًا متعارفًا، فيكونان ابني خالة مجازًا، ومنهم مَنْ قال: كان عمران تزوّج أُمّ حنّة، فولدت له إيشاع، وكانت حنّة ربيبته فتزوّجها، وكان ذلك جائزًا في شريعتهم، فولدت مريم، فتكون إيشاع أخت مريم من الأب وخالتها أيضًا. **قوله: (نقترع)** في المصباح: تقارع القوم واقترعوا والاسم القُرْعَة. اهـ. **قوله: (إلى نهر)** جارٍ، قيل: هي الأردن. **قوله: (أقلامهم)** التي كانوا يكتبون بها التوراة، (وكانت من نحاس). **قوله: (رسبت)** أي نزلت في قعر الماء. في مختار الصحاح: رَسَب الشيءُ في الماء سَفَل وبابه دخل. اهـ.

قال (**ابن عطاء**): ما كانت ثمرته مثل عيسى فذاك أحسن النبات. «**ونباتًا**» مصدر على خلاف الصدر أو التصدير فنبتت نباتًا ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ وكفَلها: قبلها أو ضمن القيام بأمرها. («وكفّلها»: كوفي) أي (**كفلها الله زكريا يعني جعله كافلا لها وضامنًا لمصالحها** ﴿زَكَرِيَّاۖ﴾ بالقصر: **كوفي غير أبي بكر في كل القرآن**. وقرأ أبو بكر) بالمدّ (**والنصب هنا**. غيرهم بالمد والرفع) كالثانية والثالثة ومعناه في (**العبري**): دائم الذِّكر والتسبيح ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ قيل: بنى لها زكريا محرابًا في المسجد أي غرفة تصعد إليها بسُلَّم. وقيل: المحراب أشرف المجالس ومقدّمها كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس. وقيل: كانت مساجدهم تسمى المحاريب وكان لا يدخل عليها إلا هو وحده ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ﴾ كان رزقها ينزل عليها من الجنة ولم ترضع (ثديًا قطّ) فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا وهو آتٍ في غير حينه؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ فلا تستبعد. قيل: تكلمت وهي صغيرة كما تكلم عيسى وهو في المهد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾

قوله: (**ابن عطاء**)، هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمي من كبار مشائخ الصوفيّة وعلمائهم، كان الحراز يعظّم شأنه، وهو من أقران الجُنَيْد وصحب إبراهيم المارستانيّ. مات سنة تسع وثلاثمائة. والآدمي ـ بفتح الهمزة والمهملة ـ نسبة إلى بيع الأدم، جمع أديم.

قوله: (**وكفّلها**) بتشديد الفاء. (كوفي) أي عاصم وحمزة والكسائي وخلف، على أن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى، والهاء لمريم مفعوله الثاني، وزكريا مفعوله الأول، أي (**كفلها الله زكريا، يعني جعله كافلا لها وضامنًا لمصالحها**). والباقون بالتخفيف من الكفالة على إسناد الفعل إلى زكريا، والهاء مفعوله، ولا مخالفة بينهما؛ لأن الله تعالى لمّا كفّلها إيّاه كَفَلها. **قوله**: (﴿زَكَرِيَّاۖ﴾ بالقصر) من غير همز (**كوفي غير أبي بكر**) شعبة عن عاصم، أي حفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف، (**في كل القرآن**، وقرأ أبو بكر) عن عاصم بالمدّ (**والنصب هنا غيرهم بالمد والرفع**). **قوله**: (العبريّ) بوزن المِصْريّ العبراني وهو لغة اليهود.اهـ مختار الصحاح. **قوله**: (ثديًا) الثدي يُذكّر ويؤنث وهو للمرأة والرجل أيضًا.اهـ مختار الصحاح. **قوله**: (**قطّ**) أي أبدًا.

من جملة كلام مريم أو من كلام ربّ العالمين ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير لكثرته أو تفضّلًا بغير محاسبة ومُجازاة على عمل.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿هُنَالِكَ﴾ **(في ذلك المكان)** حيث هو قاعد عند مريم في المحراب أو في ذلك الوقت **(فقد يُستعار «هنا» و«حيث» و«ثم» للزمان)**. لما رأى حال مريم في كرامتها على الله ومنزلتها رغب أن يكون له من **(إيشاع)** ولد مثل ولد أُمها حنة في الكرامة على الله، وإن كانت عاقرًا عجوزًا فقد كانت أُمها كذلك. وقيل: لما رأى الفاكهة في غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً﴾ ولدًا **(والذرية يقع على الواحد والجمع)** ﴿طَيِّبَةً﴾ مباركة والتأنيث للفظ الذرية ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ **(مُجيبه)**.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قيل: ناداه جبريل عليه السلام. وإنما قيل: «الملائكة» لأن المعنى أتاه النداء **(من هذا الجنس)** كقولهم: «فلان يركب الخيل».

قوله: (في ذلك المكان) يعني أن هنا ظرف مكان، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، وهو وزان ذلك. **قوله: (فقد يُستعار هنا وحيث وثَمّ)** بالفتح والتشديد **(للزّمان)** جوّز حمله على الزمان، وهو معنًى مجازيّ لهنالك مع جواز حمله على معناه الحقيقيّ الذي هو المكان تكثيرًا للفائدة؛ لأن دعاءه في زمان رؤية ما رآه من أمر مريم عليها السلام، يستلزم دعاءه في مكان تلك الرؤية بخلاف الدعاء في ذلك المكان، فإنه لا يستلزم الدعاء في ذلك الزمان. **قوله: (إيشاع)** بنت عمران بن ماثان. **قوله: (والذُّرية يقع على الواحد)** وهو المراد هنا، **(والجمع)** هنا ذرّية بعضها من بعض. **قوله: (مجيبه)** فسّر السميع بالمجيب؛ لأن السميع ورد بمعنى القبول كثيراً.

قوله: (من هذا الجنس) أي وصل إليه النداء من جنس الملائكة دون غيرهم من الأجناس، فإنّ حكم الواحد من الجنس قد يُنسب إلى الجنس نفسه، نحو: فلان يركب الخيل، وإنما يركب أحدًا من أفراده والخيل والإبل ونحوهما من أسماء

(«فناديه» بالياء والإمالة: حمزة وعلي) ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ وفيه دليل على أن المرادات تطلب بالصلوات، وفيها إجابة الدعوات وقضاء الحاجات. وقال (ابن عطاء): ما فتح الله تعالى على عبد حالة (سنية) إلا باتّباع الأوامر وإخلاص الطاعات ولزوم المحاريب (إن الله) بكسر الألف: (شامي وحمزة وعلى إضمار القول، أو لأن النداء قول). الباقون: بالفتح أي بأن الله (﴿يُبَشِّرُكَ﴾) «يبشرك» (وما بعده: حمزة وعلي من بشره) والتخفيف والتشديد لغتان ﴿بِيَحْيَىٰ﴾ هو غير منصرف إن كان عجميًّا وهو الظاهر فللتعريف والعجمة كموسى وعيسى، وإن كان عربيًّا فللتعريف ووزن الفعل كـ «يعمر» ﴿مُصَدِّقًا﴾ (حال منه) ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي مصدقًا بعيسى مؤمنًا به فهو أول مَن آمَن به. وسُمِّي عيسى كلمة الله لأن تكون بـ «كن» بلا أب، (أو مصدقًا بكلمة من الله مؤمنًا بكتاب منه) ﴿وَسَيِّدًا﴾ هو الذي

الجموع، ويقال؛ بنو فلان قتلوا زيدًا، والقائل واحدٌ منهم، ومثله في القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٣]، وهم نعيم بن مسعود أن الناس ـ يعني أبا سفيان ـ والعطف بالفاء في قوله: (﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾) يؤذِن بأنّ التبشير وقع عقيب الدعاء، ولفظ الملائكة لمّا كان جمعًا مكسرًا جاز في الفعل المُسنَد إليه التذكير باعتبار الجمع، والتأنيث باعتبار الجماعة.

قوله: («فناديه» بالياء والإمالة)، أي بألف مُمالة بعد الدال (حمزة وعليّ) الكسائي. والباقون بتاء التأنيث ساكنة بعدها والفتح. **قوله:** (ابن عطاء) أي أبو العباس أحمدِ بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمي رحمه الله. **قوله:** (سنية) أي رفيعة.

قوله: (﴿إن الله﴾) بكسر الألف (شامي) أي ابن عامر الشامي (وحمزة على إضمار القول) على مذهب البصريّين (أو لأن النداء قول) على مذهب الكوفيّين. الباقون بالفتح على حذف حرف الجرّ، أي بأنّ الله. **قوله:** (﴿يُبَشِّرُكَ﴾ وما بعده) بفتح الياء وإسكان الباء وضم الشين مخففة (حمزة وعلي، مِنْ بِشْره) من البشر، وهو البشارة[1]. والباقون بضم الياء وفتح الباء وكسر الشين مشدّدة من بشّر المضعف. **قوله:** (حال منه) أي حال مقدّرة من يحيىٰ. **قوله:** (أو مصدّقًا بكلمة من الله مؤمنًا بكتابٍ منه)، أي ويحتمل أن يُراد بالكلمة كتاب الله تعالى وآياته؛

---

(١) بالكسر والضمّ. ١٢ منه عمّ فيضهم.

يسود قومه أي يفوقهم في الشرف، وكان يحيىٰ فائقًا على قومه لأنه لم يركب سيئة (**قطّ**) و(**يا لها**) من سيادة. وقال (**الجنيد**): هو الذي جاد بالكونين عوضًا عن المكوّن ﴿وَحَصُورًا﴾ (**هو الذي لا يقرب النساء مع القدرة حصرًا لنفسه**) أي منعًا لها من الشهوات ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ناشئًا من الصالحين لأنه كان من أصلاب الأنبياء أو كائنًا من جملة الصالحين.

كالتوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله تعالى المنزّلة، فعبّر عن الجمع ببعضه، كما تقول العرب: أنشدني كلمة فلان، أي قصيدته التي قالها وإن طالت، قال عليه السلام: «**أصدق كلمة قالها لبيد:**

ألا كل شيء ما خلا الله باطل»

وذكر لحسّان رضي الله تعالى عنه الحويدرة الشاعر فقال: لعن الله كلمته، يعني قصيدته. والحُويدرة تصغير الحادرة ـ بالمهملات ـ وهو لقب شاعر جاهلي اسمه قطبة بن محصن[١] بن خردل، وأصل معنى الحادرة الضخم المنكبين، وهي قصيدة عينيّة معروفة عند الرواة مشهورة بالبلاغة. **قوله:** (**قطّ**) أي أبدًا. **قوله:** (**يا لها**) من سيادة نداء تعجّب، والضمير في لها مبهم يفسّره ما بعده.

قوله: (**الجنيد**) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد سيّد هذه الطائفة وإمامهم، أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق، وأبوه كان يبيع الزجاج، فلذلك يقال له: القواريري، وكان فقيهًا على مذهب أبي ثور، وكان يفتي في حلقته بحضرته، وهو ابن عشرين سنة، صحب خاله السريّ والحارث المحاسبي ومحمد بن علي القصاب، مات سنة سبع وتسعين ومائتين رحمه الله. اهـ الرسالة القشيرية.

قوله: (**هو الذي لا يقرب النساء مع القدرة حصرًا لنفسه**) إشارة إلى أن مَنْ لا يقربهنّ لعدم المَيْل أو القدرة لا يسمّى حصورًا. اهـ تفتازاني رحمه الله. واستدلّ به على فضل العزوبة على التزوجّ. اهـ شهاب رحمه الله.

---

(١) كذا في حاشية البيضاوي للعلامة الشهاب رحمة الله عليهما. وفي تاج العروس شرح القاموس: قطبة بن الحسين الغطفاني. ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ استبعاد من حيث العادة واستعظام للقدرة لا تشكك ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ كقولهم: «أدركته (السن) العالية» أي أثر فِيَّ الكبر وأضعفني وكان له تسع وتسعون سنة ولامرأته ثمان وتسعون ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ لم تلد ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ من الأفعال العجيبة.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ (ٱجْعَل) لِّيٓ﴾ «لي» (مدني وأبو عمرو) ﴿ءَايَةً﴾ **(علامة أعرف بها الحَبَل)** لأتلقى النعمة بالشكر إذا جاءت ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أي لا تقدر على تكليم الناس ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ إلا إشارة بيد أو رأس أو عين أو حاجب وأصله التحرك، يقال ارتمز إذا تحرك. واستثنى الرمز وهو ليس من جنس الكلام لأنه لما أدّى مؤدّى الكلام وفهم منه ما يفهم منه سمّي كلامًا، أو هو استثناء منقطع. وإنما خصَّ تكليم الناس ليعلم أنه يحبس لسانه عن القدرة عن تكليمهم خاصة مع إبقاء قدرته على التكلّم بذِكر الله ولذا قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أي في أيام عجزك عن تكليم الناس وهي من الآيات الباهرة والأدلة الظاهرة، وإنما حبس لسانه عن كلام الناس ليخلص المدة لذكر الله لا يشغل لسانه بغيره كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له: آيتك أن تحبس

قوله: (السن) في المصباح: السنّ إذا عنيت بها العمر مؤنّثة، لأنها بمعنى المدّة. اهـ. وفي القاموس: السنّ ـ بالكسر ـ مقدار العُمُر مؤنّثة في الناس وغيرهم.

قوله: (اجعل) لي بفتح ياء لي (مدني) أي نافع المدني (وأبو عمرو). والباقون بالإسكان. **قوله: (علامة أعرف بها الحَبَل)** أي حصول العلوق؛ وذلك لأن العلوق لا يظهر في أوّل الأمر، وذُكِر لمعرفته ثلاث فوائد: المسرّة والبشاشة بوصول العطية المُبشَّر بها، وازدياد العبادة شكرًا لله تعالى على إنعامه وزوال مشقة الانتظار إلى ظهور إمارات العلوق وعلاماته.

لسانك إلا عن الشكر، (وأحسن الجواب ما كان منتزعًا من السؤال). والعشي من حين الزوال إلى الغروب، والإبكار من طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَإِذْ﴾ عطف على «إذ قالت امرأة عمران» أو التقدير واذكر إذا ﴿قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ﴾ رُوِيَ أنهم (كلموها شفاهًا) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أولًا حين تقبلك من أُمك وربّاك واختصّك بالكرامة السَّنِيَّة ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ مما يستقذر من الأفعال ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ﴾ آخرًا ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بأن وهب لك عيسى من غير أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء.

قوله: (وأحسن الجواب) أي أوقعه وأكثر حسنًا (ما كان منتزعًا من السؤال) أي أخذ منه وانتزع بأن يكون يناسبه لفظًا ومعنًى، لأنه لمّا سأل آية لأجل الشكر أُجيب بأنه أن لا يقدر إلّا على الشكر كما قيل لأبي تمام: لِمَ تقول ما لا نفهم؟ فقال: لِمَ لا نفهم ما يُقال؟

قوله: (كلموها شفاهًا) في لسان العرب: شافَهَه أدنى شفته من شفته، فكلَّمه مشافهة جاؤوا بالمصدر على غير فعله، وليس في كلّ شيء قيل مثل هذا لو قلت: كلّمته مفاوهة لم يجز، إنما يُحْكَى في ذلك ما سمع، هذا قول سيبويه. قال الجوهريّ: المشافهة المخاطبة من فيك إلى فيه.اهـ.

فائــــدة:

واعلم أنّ مريم ما كانت من الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف: الآية ١٠٩]، وإذا كان كذلك كان إرسال جبريل إليها إمّا أن يكون لكرامة لها، وهو مذهب مَنْ يجوّز كرامات أولياء الله تعالى، وإرهاصًا لعيسى عليه الصّلاة والسّلام، وذلك جائز عند الكعبيّ من المعتزلة. ومعجزة لزكريّا عليه الصّلاة والسّلام، وهو قول جمهور المعتزلة. ومن الناس مَنْ قال: إنّ ذلك كان على سبيل النَّفْث في الرَّوْع والإلهام والإلقاء في القلب، كما في حقّ أُم موسى عليه الصّلاة والسّلام في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: الآية ٧]، والإرهاص من الرّهص ـ بالكسر ـ وهو الصفّ الأسفل من الجدار، وهو في

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ۝٤٤﴾

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أديمي الطاعة أو أطيلي قيام الصلاة ﴿وَٱسۡجُدِي﴾ وقيل: أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود لكونهما من هيئات الصلاة، ثم قيل لها: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي ولتكن صلاتك مع المُصَلِّين أي في الجماعة، أو وانظمي نفسك في جملة المُصلِّين وكوني في عدادهم ولا تكوني في عداد غيرهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من قصة حنة وزكريا ويحيىٰ ومريم ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾ يعني أن ذلك من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾ **(أزلامهم)** وهي **(قِداحهم)** التي طرحوها في النهر مُقترِعين، أو هي الأقلام التي كانوا يكتبون التوراة بها اختاروها للقرعة تبرّكًا بها ﴿أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ **(متعلق بمحذوف)** دلَّ عليه «يلقون» كأنه قيل: يلقونها ينظرون أيّهم يكفل مريم أو ليعلموا أو يقولون: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ في شأنها **(تنافسًا)** في التكفّل بها.

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٥﴾

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي اذكر ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ﴾ أي بعيسى ﴿مِّنۡهُ﴾ في موضع جر صفة لكلمة ﴿ٱسۡمُهُ﴾ مبتدأ وذكر ضمير الكلمة لأن

الاصطلاح تقدّم ما يشبه المعجزة على دعوى النبوّة، كإظلال الغمام لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وتكلّم الحجر والمدر وغير ذلك.

قوله: (أزلامهم) قال الزجاج: الأقلام هٰهنا القداح جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم على جهة القرعة، وسمّى السهم قلمًا لأنه يقلم أي يبرى، وكلّ ما قطعت منه شيئًا، فقد قلمته. اهـ تفتازاني رحمه الله. وفي مختار الصِّحاح: الزَّلَم ـ بفتحتين ـ القِدح، وكذا الزُّلم ـ بضم الزاي ـ والجمع الأزْلام، وهي السِّهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها. اهـ. **قوله: (قداحهم)** جمع القدح ـ بكسر القاف وسكون الدال ـ وهو سهم يُوضع للميسر. اهـ شهاب رحمه الله. **قوله: (متعلق بمحذوف)** منصوب المحلّ به. **قوله: (تنافسًا)** أي رغبةً.

المسمَّى بها مذكَّر ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ خبره والجملة في موضع جر صفة لـ «كلمة». والمسيح (**لقب من الألقاب المشرّفة**) كالصديق والفاروق وأصله «مشيحًا» بالعبرانية ومعناه المبارك كقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: الآية ٣١]. وقيل: سُمِّي مسيحًا لأنه كان لا يمسح ذا (**عاهة**) إلا (**برأ**)، أو لأنه كان يمسح الأرض بالسياحة لا يستوطن مكانًا ﴿عِيسَى﴾ بدل من المسيح ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو ابن مريم، ولا يجوز أن يكون صفة لعيسى لأن اسمه عيسى (**فحسْب**) وليس اسمه عيسى ابن مريم، وإنما قال: «ابن مريم» إعلامًا لها أنه يولد من غير أب فلا يُنسَب إلا إلى أُمه ﴿وَجِيهًا﴾ ذا جاه وقدر ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بالنبوّة والطاعة ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ بعلو الدرجة والشفاعة ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ برفعه إلى السماء، وقوله: «وجيهًا» حال من «كلمة» لكونها موصوفة وكذا «ومن المقرّبين» أي وثابتًا من المقرَّبين.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾

وكذا ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ أي ومكلّمًا الناس ﴿فِي ٱلْمَهْدِ﴾ حال من الضمير في «يكلم» أي ثابتًا في المهد (**وهو ما يمهّد**) للصبي من مضجعه سُمِّي بالمصدر ﴿وَكَهْلًا﴾ عطف عليه أي (**ويكلّم الناس طفلًا وكهلًا أي يكلِّم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء**) من غير تفاوت بين حال الطفولة وحالة الكهولة التي

قوله: (لَقَب من الألقاب المشرّفة) ـ بكسر الراء المشدّدة ـ أي المفيدة للمدح، ويصح فتحها. **قوله: (عاهة)** أي آفة. **قوله: (برأ)** في مختار الصحاح: بَرِئَ من المرض ـ بالكسر ـ بُراء ـ بالضمّ ـ وعند أهل الحجاز: بَرَء من المرض **من** باب قَطَعَ. اهـ. **قوله: (فحسب)** أي فقط.

قوله: (وهو ما يمهد). . . الخ يقال: مهدت الفراش مهدًا بسطته ووطأته وتمهيدُ العُذْرِ بسطه. **قوله: (ويكلم الناس طفلًا وكهلًا)**؛ لأن المراد أنه يكلّم الناس في الحالة التي يكون الصبيّ فيها في المهد، لا أنه يكلّمهم حال كونه مضجعًا في المهد حقيقة. والكهل الذي اجتمع قوّته وتمّ شبابه، وأوّل سنّ الكهولة ثلاثون، وقيل: اثنان وثلاثون، وقيل: أربعون. وآخر سنّها خمسون، وقيل: ستّون، ويدخل في سنّ الشيخوخة. **قوله: (أي يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء)** إشارة إلى جواب ما يقال: تكلُّمه حال كونه في المهد من

يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء ﴿وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ حال أيضًا والتقدير يبشّرك به موصوفًا بهذه الصفات.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ أي إذا قدّر تكون شيء كوّنه من غير تأخير لكنه عبّر بقوله «كن» إخبارًا عن سرعة تكوّن الأشياء بتكوينه (﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ مدني وعاصم) وموضعه حال معطوفة على «وجيهًا». الباقون: بالنون على أنه (كلام مبتدأ) ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي الكتابة وكان أحسن الناس خطًّا في زمانه. وقيل: كتب الله ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ بيان الحلال والحرام أو الكتاب الخط باليد. والحكمة: البيان باللسان ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

المعجزات. وأمّا تكلّمه في حال الكهولة، فليس من المعجزات؛ فما الفائدة في ذكره؟ وتقديره أنّ تكلّمه في حال الطفولية والكهولة على حدّ واحد وصفة واحدة من غير تفاوت بأن يكون كلامه في حال الطفوليّة مثل كلام الأنبياء والحكماء لا شكّ أنه من أعظم المعجزات.

قوله: (﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾) بياء الغيب مناسبة لقوله قضى، (مدني) أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني، وليس من السبعة. (وعاصم) بن بهدلة الأسدي، توفي سنة ثمان وعشرين ومائة.

قوله: (كلام مبتدأ) أي مُستأنف لا محلّ له من الإعراب، سواء كان استئناف إخبار من الله، أو عن الله تعالى على اختلاف القرائن، ولا يلزم أن تكون الواو عاطفة البتّة؛ لأن النحويّين نصّوا على أن الواو قد تكون للاستئناف، بدليل أنّ الشعراء يأتون بها أوائل أشعارهم من غير تقدّم شيء يكون ما بعدها معطوفًا عليه ويسمّونها واو الاستئناف. ومَنْ ذهب إلى أنّ الواو لا تكون غير عاطفة البتّة قدّر أنّ الشاعر عطف كلامه على شيء هو في نفسه، ولكن الأوّل أشهر القولين.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾

﴿وَرَسُولًا﴾ أي ونجعله رسولًا أو يكون في موضع الحال أي وجيهًا في الدنيا والآخرة ورسولًا ﴿إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي﴾ بأني ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ بدلالة تدل على صدقي فيما أدّعيه من النبوّة ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم﴾ **(نصب بدل من** ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم﴾) أو جر بدل من «آية» **(أو رفع على هي** ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم﴾. «إِنِّي»: **نافع)** على الاستئناف ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ (كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ)﴾ أي أقدّر لكم شيئًا مثل صورة الطير) ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للكاف أي في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير ﴿فَيَكُونُ طَيۡرَۢا﴾ فيصير طيرًا كسائر الطيور. «طائرًا»: **(مدني)** ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ بأمره. قيل: **(لم يخلق شيئًا غير الخفاش)** ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ﴾ الذي ولد أعمى ﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ

قوله: (نصب بدل من ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم﴾)، فإنّه منصوب بنزع الخافض. **قوله: (أو رفع على هي** ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم﴾)، أي على أنها خبر مبتدأ محذوف وتقديره **هي** ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم﴾، أي الآية التي جئت بها ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم﴾. **قوله:** («**إنّي**») بكسر الهمزة (**نافع**)، وكذا أبو جعفر المدني، والباقون بالفتح. قوله: (أي أقدّر لكم شيئًا مثل صورة الطّير)، فإنّ الخلق في الأصل هو التقدير؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: الآية ١٤]، أي المقدّرين، وقد ثبت أن العبد لا يكون خالقًا بمعنى التّكوين والإبداع، فوجب أن يكون بمعنى التقدير والتسوية، وقوله لكم متعلّق بأخلق، واللام للعلّة، أي لأجلكم، بمعنى لتحصيل إيمانكم ودفع تكذيبكم، أي أن الكاف في قوله: (﴿كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾) في محل النصب على أنه صفة مفعول محذوف. **قوله:** («**طائرًا**») بألف بعد الطاء وهمزة مكسورة بعد الألف. (**مدني**) أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني، والباقون بياء ساكنة بين الطاء والراء. **قوله: (قيل: لم يخلق شيئًا غير الخفّاش)** - بضم الخاء وتشديد الفاء - كذا في حياة الحيوان. رُوِيَ أنّ عيسى عليه الصّلاة والسلام لمّا ادّعى النبوّة وأظهر المعجزات طالبوه بخلق خفّاش تعنتًا، فأخذ طينًا فصوّره ثم

﴿ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ كرر «بإذن الله» دفعًا لوهم مَن يتوهَّم فيه (اللاهوتية). رُوِيَ أنه (أحيا سام بن نوح عليه السلام) وهم ينظرون إليه فقالوا: هذا سحر مُبين فأرِنا آية فقال: يا فلان أكلت كذا ويا فلان (خبِّيء) لك كذا وهو قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ و«ما» فيهما معنى «الذي»، أو مصدرية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما سبق ﴿لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

نفخ فيه، فإذا هو يطير بين السماء والأرض ، قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتًا ليتميّز فعل الخلق من فعل الله تعالى، قيل: إنما طلبوا منه خلق الخفّاس لأنه أعجب من سائر الخلق، ومن عجائبه أنه لحم ودم يطير بغير ريش، ويلد كما يلد الحيوان، ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور، ويكون له الضّرع ويخرج منه اللبن، ولا يُبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل، وإنما يرى في ساعتين: ساعة بعد غروب الشمس، وساعة بعد طلوع الفجر، قبل أن يُسفر جدًّا، ويضحك كما يضحك الإنسان، ويحيض كما تحيض المرأة. ثم اختلف الناس، فقال بعض إنه لم يخلق غير الخفّاش، ويؤيّده قراءة نافع وأبي جعفر: «فيكون طائراً» بالألف على التوحيد. وقال آخرون: إنه خلق أنواعًا من الطَّيْر، ويؤيّده قراءة الباقين: ﴿طيرًا﴾ على الجمع، فإنّ الطَّيْر اسم جنس يقع على الواحد وعلى الجمع، ولما دلّ القرآن على أنه عليه الصّلاة والسّلام إنما تولّد من نفخ جبريل عليه الصّلاة والسّلام في مريم، وجبريل عليه السّلام روح محض وروحاني محض، فلا جرم كانت نفخة عيسى سببًا للحياة والروح.

قوله: (اللاهوتيّة) أي الألوهيّة، وفي لسان العرب: حُكِي عن بعضهم: لَاهَ اللهُ الخلق يلوههم: خلقهم، وذلك غير معروف. اهـ. وأيضًا فيه: وأمّا لاهوتُ، فإنْ صحّ أنه من كلام العرب فيكون اشتقاقه من لاه ووزنه فَعَلوت مثل رَغَبوت ورَحَموت، وليس بمقلوب كما كان الطاغوت مقلوبًا. اهـ. وقال في الكلّيات: اللاهوت الخالق، والناسوت المخلوق، وربما يُطلق الأوّل على الروح، والثاني على البدن، وربما يُطلق الأوّل أيضًا على العالم العلويّ، والثاني على العالم السفلي، وعلى السبب والمسبّب، وعلى الجنّ والإنس. اهـ. **قوله: (أحيا سام بن نوح عليه السلام)**، قيل: الصواب كعب بن حام. اهـ تفتازاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ. **قوله: (خبىء)** في المصباح: خبَأت الشيء خبَأ مهموز من باب نفع ستَرتُه، ومنه الخابية، وترك

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي قد جئتكم باية وجئتكم مصدقًا ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (رد على قوله: ﴿بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾) أي جئتكم بآية من ربكم ولأحلّ لكم. وما حرَّم الله عليهم في شريعة موسى عليه السلام الشحوم ولحوم الإبل والسمك وكل ذي ظفر فأحلَّ لهم عيسى بعض ذلك ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كـرَّر لـلتأكيد ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في تكذيبي وخلافي ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في أمري ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ إقرار بالعبودية ونفي للربوبية عن نفسه بخلاف ما يزعم النصارى ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ دوني ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ يؤدي صاحبه إلى النعيم المقيم.

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ علم من اليهود كفرًا علمًا لا شُبْهَة فيه كعلم ما يدرك بالحواس ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ﴾ («أنصاريّ» مدني) وهو جمع ناصر كأصحاب أو جمع نصير كأشراف ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ يتعلق بمحذوف حال من الياء أي من أنصاري ذاهبًا إلى الله مُلتجئًا إليه ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ حوارِيّ الرجل (صفوته) وخاصَّته ﴿نَحْنُ

الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال، وربما همزت على الأصل وخبّأته حفظته، والتشديد تكثير ومبالغة، والخَبْءُ بالفتح اسم لما خُبِيءَ. اهـ.

قوله: (**ردّ على قوله**: ﴿بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾)، أي منتظم معه معطوف عليه ظاهرًا، لكنه في التحقيق من عطف الجمل، أي جئتكم بآية، وجئتكم لأُحِلّ؛ إذ لا وجه لعطف المفعول له على المفعول به. اهـ. تفتازاني رحمه الله.

قوله: (**«أنصاري»**) بفتح ياء الإضافة (**مدنيّ**) أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني. وسكّنها الباقون.

قوله: (**صَفْوته**) في مختار الصحاح: صَفْوة الشيء خالصه، يقال: محمّد ﷺ صفوة الله تعالى من خلقه ومصطفاه. اهـ.

﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ (أعوان دينه) ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ﴾ يا عيسى ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ إنما طلبوا شهادته بإسلامهم تأكيدًا لإيمانهم لأن الرُّسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم، وفيه دليل على أن الإيمان والإسلام واحد.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ أي رسولك عيسى ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم، أو مع الذين يشهدون لك بالوحدانية، أو مع أمة محمد ﷺ لأنهم شهداء على الناس. ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ أي كفّار بني إسرائيل الذين أحسَّ عيسى منهم الكفر حين أرادوا قتله وصلبه ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ أي جازاهم على مكرهم بأن رفع عيسى إلى السماء وألقى شبهه على مَن أراد (اغتياله) حتى قتل، **(ولا يجوز إضافة المكر إلى الله تعالى إلا على معنى الجزاء، لأنه مذموم عند الخلق وعلى هذا الخداع والاستهزاء كذا في شرح التأويلات)**. ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أقوى المجازين وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب.

قوله: (أعوان دينه) قدّر المضاف؛ لأن نصرة الله تعالى في الحقيقة مُحال.

قوله: (اغتياله) في مختار الصّحاح: اغتاله قتله غيلة، وأصله الواو. اهـ. وأيضًا فيه الغيلة ـ بالكسر ـ الاغتيال، يقال: قتله غَيلة، وهو أن يخدعه فيذهب به إلى موضع فيقتله فيه. اهـ. **قوله: (ولا يجوز إضافة المكر إلى الله تعالى إلّا على معنى الجزاء؛ لأنه مذموم عند الخلق، وعلى هذا الخداع والاستهزاء، كذا في شرح التأويلات)**. عبارة التأويلات: (﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾)، أي يُجزيهم جزاء مكرهم، وإلا حرف المكر مذموم عند الخلق، فلا يجوز أن يسمّى الله به إلّا في موضع الجزاء، على ما ذكره عزّ وجلّ تعالى في موضع الجزاء؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٤]، والاعتداء منهم غير جائز لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٠]، فلا يوصف الله أنه يأمر به، فكأن قوله: ﴿فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٤] فهو جزاء الاعتداء، فيجوز؛ فعلى ذلك المكر والخديعة والاستهزاء، ولا يجوز أن يُسمّى الله

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ ظرف لمكر الله ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي مُستوفي أجلَك ومعناه أني عاصِمك من أن يقتلك الكُفَّار (ومُميتك حتف أنفك) لا قتلًا بأيديهم ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ إلى سمائي ومقرّ ملائكتي ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من سوء جِوارهم وخبث صُحبتهم. وقيل: مُتوفِّيك قابِضك من الأرض من توفَّيت مالي على فلان إذا استوفيته، أو مُميتك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن، إذ الواو لا تُوجِب الترتيب. قال النبي ﷺ: «ينزل عيسى خليفة على أُمتي (يدقّ الصليب) ويقتل الخنازير (ويلبث أربعين سنة)، ويتزوج ويُولَد له ثم يتوفَّى وكيف تهلك أُمة أنا في أولها وعيسى في آخرها والمهدي من أهل بيتي في وسطها» أو مُتَوَفِّي نفسك

تعالى به، فيقال: يا ماكر، ويا خادع، ويا مستهزىء؛ لأنها حروف مذمومة عند الناس يشتم بعضهم بعضًا بذلك، لذلك لا يجوز أن يُسمّى الله تعالى إلّا في موضع الجزاء، وبالله العصمة. اهـ بحروفها.

قوله: (ومُميتك حتف أنفك) الحتف: الهلاك، قال ابن فارس وتبعه الجوهري: ولا يُبْنى منه فعل، يقال: مات حَتْف أنفه إذا مات من غير ضرب ولا قتل، وزاد الصغاني: ولا غرق ولا حرق. وقال الأزهري: لم أسمع للحَتْف فعلًا، وحكاه ابن القوطية فقال: حَتَفَهُ الله يَحْتِفه حَتْفًا، أي من باب ضرب إذا أماته، ونَقْل العَدْل مقبول، ومعناه: أن يموت على فراشه فيتنفس حتى ينقضيَ رَمَقُه، ولهذا خُصّ الأنفُ، ومنه يقال للسمَك يموت في الماء ويطفو: مات حَتْف أنفِهِ، وهذه الكلمة تكلّم بها أهل الجاهليّة. قال السموأل: وما مات منّا سيّد حَتْف أنفه. اهـ مصباح. قوله: (يدقّ) أي يكسر (الصليب) وهو المربّع من الخشب للنصارى يدّعون أن عيسى عليه السلام صُلِب على خشبة على تلك الصورة، وقيل: هو مثلّث كالتمثال يعبده النصارى. اهـ كمالين. قوله: (ويلبث أربعين سنة) كذا في حديث أبي داود الطيالسي، وقد وقع ذلك عند أحمد عن أبي هريرة بسندٍ صحيح، كما في الإصابة.

بالنوم ورافعك وأنت نائم حتى لا يلحقك خوف وتستيقظ وأنت في السماء آمِن مُقَرَّب ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ أي المسلمين لأنهم مُتَّبِعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بك ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يعلونهم بالحجة وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ وتفسيرُ الحكم هاتان الآيتان (﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ **حفص**) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى وغيره وهو مبتدأ ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ خبره ﴿مِنَ ٱلْآيَٰتِ﴾ خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف ﴿وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ القرآن (**يعني المحكم**)، أو كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه. ونزل لما قال وفد بني نجران هل رأيت ولدًا بلا أب.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أي إن شأن عيسى وحاله الغريبة كشأن آدم عليه السلام ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ (**قدّره جسدًا من طين**) وهي جملة مفسّرة

قوله: (﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾) بياء الغيبة على الالتفات (**حفص**) عن عاصم. والباقون بالنون. **قوله: (يعني المحكم)**؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: الآية ١] إلّا أن الفعيل بمعنى المفعل قليل جدًّا، نحو: عقدت العسل فهو عقيد ومقعد، وحبست الفرس في سبيل الله، فهو حبيس ومحبس.

قوله: (قدّره جسدًا من طين)... الخ جواب عمّا يقال: ظاهر نظم الآية يقتضي أن يكون خلق آدم وتكوينه مُقدّمًا على قول الله: ﴿كُن﴾، ولا وجه له. وتقرير الجواب الأوّل: أن الخلق ليس بمعنى التكوين والإنشاء، بل بمعنى التقدير والتسوية، ويرجع معناه إلى علم الله تعالى بكيفيّة وقوعه وإرادته لإيقاعه على الوجه

لحالة شبه عيسى بآدم ولا موضع لها أي خلق آدم من تراب ولم يكن ثمَّة أب ولا أُم، فكذلك حال عيسى مع أن الوجود من غير أب وأُم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب، فشبَّه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم و(**أحسم**) لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه، وعن بعض العلماء أنه (**أسرَ**) بالروم فقال لهم: لِمَ تعبدون عيسى؟ قالوا: لأنه لا أب له قال: فآدم أولى لأنه لا أبوين له. قالوا: كان يُحيي الموتى. قال: (**فحزقيل**) أولى لأن عيسى أحيا أربعة نفر وحزقيل ثمانية آلاف. فقالوا: كان يُبرىء الأكمه والأبرص.

المخصوص، وكل ذلك مقدَّم على قوله: ﴿كُن﴾. والجواب الثاني: أن المحذور إنما يلزم أن لو كانت كلمة ثمّ لتراخي المخبر عن الخبر، وليست كذلك، بل هو متقدّم على وجود آدم تقدّم الأزليّ عن المُحدث، فإنّ قوله: ﴿كُن﴾ عبارة عن إدخاله في الوجود، فصحّ أنّ خلق آدم متقدّم عليه لتراخي الخبر؛ فالله تعالى أخبرنا أولًا أنه خلق آدم لا من ذكرٍ ولا أُنثى، ثم ابتدأ خبرًا آخرًا فقال: إني مخبركم أيضًا بعد خبري الأول أنّي إنما خلقته بأن قلت له: كُنْ، كما تقول: أعطيت زيدًا اليوم ألفًا ثمّ أعطيه أمس ألفين، ومرادك أن تقول: أعطيته ألفًا ثم أنا أخبركم أنّي قد أعطيته أمس ألفين؛ فكذا الحال في قوله: (﴿خَلَقَكُمْ مِن تُرَابٍ﴾) أي صيّره خلقًا سويًا، ثم قال: إني أخبركم أني خلقته بأن قلت له كن، فالتراخي في الخبر على هذا الوجه، لا في المخبر.

وقوله: (احسم) أي اقطع. **قوله: (أسر)** أي قيّد. **قوله: (فحِزقيل)** بن بوري، ويلقّب بابن العجوز، وإنّما لقّب بابن العجوز لأن أُمّه سألت الله تعالى الولد وهي عجوز، وقد كَبُرت وعقمت عن الولد، فوهبه الله تعالى لها، وهو الذي أحيا الله تعالى به القوم الذين خرجوا من ديارهم، وهم ألوف حذر الموت، فأحياهم الله تعالى بعد موتهم بدعوته في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٣] الآية. قال أكثر المفسّرين: كانت قرية يقال لها داوردان قرية قبل واسط وقع بها الطاعون، فخرج منها طائفة هاربين من الطاعون وبقيت طائفة، فهلك أكثر من بقي في القرية وسَلِم الذين خرجوا، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين، فقال الذين بقوا: إن أصحابنا كانوا أحزم منّا لو صنعنا كما صنعوا، ولئن وقع بها الطاعون ثانية لنخرجنّ إلى الأرض

....

التي لا وباء فيها، فوقع الطاعون من قابل، فهرب عامّة أهلها وخرجوا حتى نزلوا واديًا أفيح، فلمّا نزلوا المكان الذي يبتغون فيه النجاة والحياة إذا هم بملك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه يناديهم كل واحد منهما: أن فماتوا فموتوا جميعًا. عن محمّد بن زكريا قال: سمعت الأصمعيّ يقول: لمّا وقع الطاعون بالبصرة خرج رجل من أهلها عنها على حمارٍ له ومعه ولده وخلفه عبدٌ حبشيّ يسوق الحمار، فطفق العبد يرتجز ويقول:

لن يبسق الله على حمار ولا على ذي منعة حظار
قد أصبح الله أمام الساري

فرجع الرجل لما سمع من قوله بعياله. وروى عبد الرحمٰن بن عوف عن رسول الله ﷺ أنّه قال: **«إذا سمعتم بالوباء في بلدة فلا تقدموا عليه، وإذا وقع وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه»**. وقال الضحاك ومقاتل الكلبي: إنما فرّ هؤلاء من الجهاد، وذلك أن ملكًا من ملوك بني إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوّهم، فخرجوا فعسكروا ثم جبنوا وكرهوا الموت واعتلّوا، وقالوا لملكهم: إن في الأرض التي تأتيها الوباء، فلا نأتيها حتى ينقطع الوباء عنها؛ فأرسل الله عليهم الموت، فلما رأوا أنّ الموت قد كَثُر فيهم خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت، فلما رأى الملك ذلك قال: اللّهمّ ربّ يعقوب وإلٰه موسى قد ترى معصية عبادك، فأرهم آية في أنفسهم حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفرار من حكمك وقضائك، فلمّا خرجوا قال الله لهم: موتوا، فماتوا جميعًا، وماتت دوابّهم كموتهم موتة رجلٍ واحد، فما أتى عليهم ثلاثة أيام حتى انفجروا وأروحوا وأروحت أجسامهم، فخرج إليهم الناس فعجزوا عن دفنهم، فحظروا عليهم حظيرة دون السباع وتركوهم فيها، واختلفوا في مبلغ عددهم، فقال عطاء الخراساني: كانوا ثلاثة آلاف، وقال ابن عبّاس ووهب: كانوا أربعة آلاف، وقال مقاتل والكلبي: ثمانية آلاف، وقال أبو روق: عشرة آلاف. وقال أبو مالك: ثلاثين ألفًا، وقال السديّ: بضعًا وثلاثين ألفًا، وقال ابن جريج: أربعين ألفًا، وقال عطاء بن أبي رباح: سبعين ألفًا، قال: فأتى على ذلك مدّة وقد بَلِيَت أجسادهم وعُرِّيت عظامهم وتقطّعت أوصالهم، فمرّ عليهم حِزْقيل النبيّ عليه

....

الصّلاة والسّلام، فوقف متفكّرًا متعجّبًا، فأوحى الله تعالى إليه: يا حِزْقيل تريد أن أُريك كيف أُحيي الموتى، قال: نعم يا ربّ، فأحياهم الله جميعًا، هذا قول السدّي وجماعة من المفسّرين. وقال مقاتل والكلبي: بل كانوا قوم حزقيل، فلمّا أصابهم ذلك بكى حزقيل وقال: يا ربّ كنت في قومٍ يعبدونك ويذكرونك، فبقيت وحيدًا لا قومَ لي، فلو شئتَ أحييت هؤلاء فيعمرون بلادك ويعبدونك، قال الله تعالى: أوَتحبّ أن أفعل ذلك؟ قال: نعم يا ربّ، قال الله: قد جعلت حياتهم إليك، فقال لهم حزقيل: احيوا بإذن الله، فعاشوا وقال وهب: أصابهم بلاء وشدّة من الزّمان، فشكوا ما أصابهم وقالوا: يا ليتنا قد متنا واسترحنا ممّا نحن فيه، فأوحى الله إلى حزقيل: إنّ قومك قد ضجّوا من البلاء وزعموا أنهم ودّوا لو ماتوا استراحوا، وأيّ راحة لهم في الموت؟ أيظنّون أني لا أقدر أبعثهم بعد الموت، فانطلق إلى جبانة كذا، فإنّ فيها أقوامًا ماتوا، فأتاهم فأوحى الله تعالى إليه: يا حزقيل قم فنادهم، وكانت أجسادهم وعظامهم قد تفرّقت ومزّقتها الطير والسباع، فنادى حزقيل: أيّتها العظام إنّ الله يأمرك أن تعودي وتكتسي اللحم، فاكتست جميعًا اللّحم وبعد اللّحم جلودًا ودمًا وعصبًا وعروقًا، فكانت أجسادًا، فنادى: أيّتها الأرواح إنّ الله تعالى يأمركِ أن تعودي إلى أجسادكِ، فقاموا جميعًا وعليهم ثيابهم التي ماتوا فيها وكبّروا تكبيرة واحدة. وروى منصور بن المعتمر عن مجاهد أنهم قالوا حين أحيوا: سبحانك اللّهمّ ربّنا وبحمدك لا إلٰه إلّا أنت، فرجعوا إلى قومهم وتناسلوا بعدما أحياهم الله وعاشوا دهرًا يعرفون أنهم كانوا موتى سحنة[١] الموت على وجوههم لا يلبسون ثوبًا إلا عاد رميمًا مثل الكفن حتى ماتوا لآجالهم التي كتب الله لهم. قال ابن عباس: فإنه ليوجد في ذلك السّبط من اليهود تلك الريح، قال قتادة: مقتهم الله على فرارهم من الموت وتقصيرهم في الجهاد، فأماتهم الله عقوبة لهم ثم بعثهم لبقيّة آجالهم ليوفوها، ولو كانت آجال القوم قد جاءت ما بُعِثُوا بعد موتهم، فلمّا أحياهم الله تعالى أمرهم بالجهاد، قال: وقاتِلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم. اهـ العرايس.

---

(١) في القاموس السحنة: الهيئة واللون، ١٢ منه عمّ فيضهم.

قال: **(فجرجيس)** أولى لأنه طبخ وأحرق ثم قام سالمًا ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ أي أنشأه بشرًا ﴿فَيَكُونُ﴾ أي فكان **(وهو حكاية حال ماضية)**، و«ثم» لترتيب الخبر على الخبر لا لترتيب المُخبَر عنه.

قوله: (فجرجيس) في القاموس ولسان العرب: جِرْجِيس اسم نبيّ عليه السلام.اهـ. وفي العرائس: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الضبّي بإسناده عن وهب بن منبه اليماني، قال: كان في الموصل ملك يقال له زادانه، وكان قد ملك الشام كلّها ودان له أهلها، وكان جبّارًا عاتيًا وكان يعبد صنمًا يقال له أفلون، وكان جرجيس عبدًا صالحًا من أهل فلسطين قد أدرك بقايا من حواري عيسى ابن مريم عليه السلام، وكان تاجرًا كثير المال عظيم الصدقة، وكان لا يأمن ولاية المشركين عليه مخافة أن يفتنوه عن دينه، فخرج يومًا يريد ملك الموصل، ومعه مال يريد أن يهديه إليه لئلّا يجعل لأحد من تلك الملوك سلطانًا عليه دونه، فجاءه وقد برز في مجلس له وأمر بصنمه أفلون فنُصب والناس يعرضون عليه وهو يعذب من خالفه بأنواع العذاب، وقد أوقد نارًا عظيمة، فمن لم يسجد لأفلون ألقي في تلك النّار، فلما رأى جرجيس عليه السلام ما يصنع فظع منه وهاله. وأعظمه وحدّث نفسه بجهاده، وألقى الله في نفسه بغضه ومجاهدته له، فعمد إلى المال الذي أراد أن يهديه له فقسمه في أهل ملّته حتى لم يبق منه شيء، وكره أن يُجاهده بالمال، وأحبّ أن يلي ذلك بنفسه، فأقبل عليه وقال له: اعلم أنك عبدٌ مملوك لا تملك لنفسك شيئًا ولا لغيرك، وإن لك ربًّا هو الذي يملكك وغيرك، وهو الذي خلقك ورزقك ويُحييك ويُميتك ويضرّك وينفعك، وإذا قال لشيء كُنْ فيكون، وإنك إنما عمدت إلى خلق من خلقه أصمّ لا يسمع ولا يُبصر ولا ينطق ولا يُغني عنك شيئًا من الله، فزيّنته بالذّهب والفضّة وجعلته فتنةً للناس ثم عبدته من دون الله، فكان من جواب الملك له أن سأله عن حاله وأمره، ومَنْ هو؟ ومن أين هو؟ فقال جرجيس: أنا عبد الله وابن عبده وابن أمته أذلّ عباده وأفقرهم إليه من التراب خُلِقْت وإليه أصير، فقال له الملك: لو كان ربّك الذي تزعم كما تقول لرُؤِيَ أثره عليك كما رُؤِيَ أثري على مَنْ حولي ومَنْ هو في طاعتي؛ فأجابه جرجيس بتحميد الله وتعظيم أمره، ثم قال له: أتعدل أفلون الأصمّ الأبكم الذي لا يُغني عنك شيئًا بربِّ العالمين الذي قامت السمٰوات والأرض بأمره، أم تعدل طوفليًا وما نال

....

بولايتك، فإنه عظيم قومك بما نال إلياس من ولاية الله تعالى؟ فإن إلياس كان في بدوّ أمره آدميًا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، فأكرمه الله تعالى حتى أنبت له الرّيش وكساه النور، فصار إنسيًا ملكيًا سماويًا أرضيًا يطير مع الملائكة، أم تعدل مخلطيس وما نال بولايتك، فإنه عظيم قومك بالمسيح ابن مريم، وما نال بولاية الله تعالى، فإن الله تعالى فضّله على رجال العالمين وجعله وأُمّه آية للمعتبرين؟ أم تعدل هذه الروح الطيّبة التي اختارها الله بكلمته وفضّلها على إمائه وما نالت بولاية الله بإربيل، وما نالت بولايتك، فإنها كانت من شيعتك وعلى ملّتك، فأسلمها الله مع عظيم ملكها حتى اقتحمت عليها الكلاب في بيتها، فانتهشت لحمها وولغت في دمها وقطّعت الضّباع أوصالها؟ فقال له الملك: إنك لتحدّثنا بشيءٍ ليس لنا به علم، فائتِنا بالرجلين اللذين ذكرتهما حتى أنظر إليهما، فإني أنكر أن يكون هذا من أمر البشر، فقال له جرجيس: إنما جاءك الإنكار من قبل الغرّة بالله تعالى. وأمّا الرجلان، فلن تراهما ولن يرياك إلّا أن تعمل بعملهما، فتنزل منازلهما، فقال له الملك: أمّا نحن فقد أعذرنا إليك وتبيّن لنا كذبك، لأنك فخرت بأُمور عجزت عنها ولم تأْتِ بتصديقها. ثمّ إن الملك خيّر جرجيس بين العذاب وبين السجود لأفلون، فقال له جرجيس: إنْ كان أفلون هو الذي رفع السماء ووضع الأرض فقد أصبت ونصحت لي، فإلا فاخسأ أيها النجس الملعون؛ فلمّا سمعها الملك غضب وشتمه وسبّ إلٰهه وأمر بخشبة فنُصِبَت له وجعل عليها أمشاط الحديد فخدش بها جَسَده حتّى تقطّع لحمه وجلده وعروقه، ونضح عليه في خلال ذلك بالخلّ والخردل، فحفظه الله من ذلك الألم والهلاك، فلمّا رأى الملك أنّ ذلك لم يقتله أمر بستّ مسامير من حديد، فأُحميت حتى جُعِلت نارًا فسمّر بها رأسه حتى سال دماغه، فحُفِظ من الألم والهلاك، فلمّا رأى ذلك أنه لم يقتله أمر بحوض من نحاس فأوقد عليه حتى إذا جعله نارًا أمر به فأُدخل في جوفه وأطبق عليه، فلم يزل فيه حتى برد حرّه، فلمّا رأى ذلك لم يقتله دعا به، فقال له: يا جرجيس أمَا تجد ألم هذا العذاب الذي تُعذّب به؟ فقال: إنّ ربي الذي أخبرتك به حمل العذاب عنّي وصبّرني لأحتجّ عليك، فلمّا قال له ذلك أيقن بالشرّ وخافه على نفسه وملكه وأجمع رأيه على أن يخلّده في السّجن، فقال له الملأ من قومه: إنك إن تركته

....

طليقًا في السجن يكلّم الناس أوشك أن يميل بهم عليك، ولكن مُرْ له بعذاب في السجن فيشغله عن كلام الناس، فأمر به فبُطِح[١] على وجهه ثم أوتده في يديه ورجليه أربعة أوتاد من حديدٍ في كل ركنٍ منها وتد، وأمر بأسطوانة من رخام فوُضِعت على ظهره ثم إنه حُمِل على تلك الأسطوانة ثمانية عشر رجلًا، فظلّ يومه ذلك موتدًا تحت الحجر، فلما أدركه الليل أرسل الله تعالى إليه ملكًا، وذلك أوّل ما أيّده الله بالملائكة، وأوّل ما جاءه الوحي، فقلع عنه الحجر ونزع الأوتاد من يديه ورجليه وأطعمه وسقاه وبشّره بالنصر، فلمّا أصبح أخرجه من السجن، ثم قال له: الحق بعدوّك فجاهده في الله حقَّ جهاده، فإنّ الله يقول لك: اصبر وأبشر، فإنّي قد ابتليتك بعدوّي هذا سبع سنين يعذّبك ويقتلك فيهنّ أربع مرّات، وفي كل ذلك أردّ إليك روحك، فإذا كان في القتلة الرابعة نقلت روحك وأوفيتك أجرك، فلم يشعروا إلّا وقد وقف جرجيس على رؤوسهم يدعوهم إلى الله تعالى، فقال له الملك: يا جرجيس، مَنْ أخرجك من السجن؟ فقال: أخرجني الذي سلطانه فوق سلطانك، فلمّا قال له ذلك مليء غيظًا ودعا بأصناف العذاب حتى لم يخلُ منها شيئًا، فلمّا رآها جرجيس أوجس في نفسه خيفةً وجزعًا، ثم أقبل على نفسه يعاتبها بأعلى صوته وهم يسمعون، فلمّا فرغ من عتابه قال لهم الملك: مدّوه بين خشبتين، فمدّوه ثم إنهم وضعوا سيفًا على مفرق رأسه فنشروه حتى سقط من بين رجليه وصار جزءين، ثم عمدوا إلى أجزائه فقطّعوها قطعًا ودعوا له سبع أسود ضارية كانت له في جبّ، وكانت صنفًا من أصناف عذابه فرموا بجسده إليها، فلمّا هوى نحوها أمرها الله عزّ وجلّ فخضعت برؤوسها وأعناقها وقامت على براثنها[٢] تقيه الألم، فظلّ يومه ذلك ميتًا، وكانت أوّل موتة ماتها، فلمّا أدركه اللّيل جمع الله له جسده الذي قطّعوه وضمّ بعضه إلى بعض حتى سوّاه ثم ردَّ الله إليه روحه، وأرسل الله له ملكًا فأخرجه من قعر الجبّ فأطعمه وسقاه وبشّره بالنصر، فلمّا أصبحوا قال له الملَك: يا جرجيس، قال: لبّيك، قال له: اعلم أنّ القدرة التي خلق الله بها آدم هي التي أخرجتك من قعر الجبّ، اخرج فالحق بعدوّك وجاهده

(١) ألقاه على وجهه، كذا في القاموس، ١٢ منه عمّ فيضهم.
(٢) البرثن كقُنفُذ، مخلب الأسد، ١٢ منه عمّ فيضهم.

....

في الله حقَّ جهاده ومُتْ موت الصابرين، فلم يشعر الملك وأصحابه الآخرون إلّا وقد أقبل جرجيس وهم عُكُوف على عيدٍ لهم قد صنعوه فرحًا بموت جرجيس، فلمّا نظروا إلى جرجيس مُقبلًا قال الملك: ما أشبه هذا الرجل بجرجيس! فقالوا: كأنه هو، فقال الملك: ليس هو حقًّا، ألا ترون إلى سكون ريحه وقلّة هيبته، فقال جرجيس: بل هو أنا، فلبِئْس القوم أنتم قتلتم ومثّلتم، فأحياني الله تعالى بقدرته، فهلمّوا إلى الربّ العظيم الذي أراكم ما أراكم، فلمّا قال لهم ذلك أقبل بعضهم إلى بعض، وقالوا: ساحر سحر أعينكم، فجمعوا له مَنْ كان ببلاد الملك من السَّحرة، فلما جاء السَّحرة قال الملك لكبيرهم: اعرض عليّ من كبير سحرك ما يسرّ عيني، فقال: ادْعُ لي بثور من البقر، فلما أتى به نفث في أحد أُذنيه، فانشقّت باثنتَيْن ثم نفث في الأذن الأخرى، فإذا هو ثوران، ثم دعا ببذر فحُرِث وبُذِر ونبت الزّرع وحصد ثم داس وذُرِيَ وطُحِنَ وعُجِنَ وخُبِز كل ذلك في ساعةٍ واحدة وهم يرون، فقال له الملك: هل تقدر أن تمسخ لي جرجيس دابّة؟ فقال الساحر: أيّ دابَّة تطلب أمسخه لك، قال: كلبًا، فقال الساحر: ادْعُ لي بقدح من ماء، فلما أُتي بالقدح نفث فيه الساحر ثم قال للملك: اعزم عليه أن يشربه، فشربه جرجيس حتى أتى على آخره، فلمّا فرغ منه قال له الساحر: ماذا تجد؟ قال: ما أجدُ إلّا خيرًا، كنت قد عطشت فعطف الله لي بهذا الشراب وقوّاني به عليكم، فلما قال ذلك أقبل الساحر على الملك وقال له: اعلم أيّها الملك أنه لو كانت تقايس رجلًا مثلك إذًا لكنت غلبته، ولكنك تقايس جبّار السمٰوات والأرض، وهو الملك الذي لا يُرام، وقد كانت امرأة مسكينة من أهل الشام قد سمعت بجرجيس وما يصنع من الأعاجيب فأتته وهو في أشدّ ما فيه من البلاء، فقالت له: يا جرجيس أنا امرأة مسكينة ولم يكن لي مال إلّا ثوران كنت أحرث عليهما فماتا، فجئتك لترحمني وتدعو الله أن يُحيي لي ثوريَّ؛ فلمّا سمع كلامها ذرفت عيناه ثم دعا الله أن يُحيي لها ثوريها، ثم إنه أعطاها عصًا وقال لها: اذهبي إلى ثوريك فاقرعيهما بهذه العصا وقولي لهما: احييا بإذن الله تعالى، فقالت له: يا جرجيس إن ثوريّ قد ماتا من سبعة أيّام ومزّقتهما السّباع وبيني وبينهما أيّام، فقال لها: لو لم تجدي منهما إلا شيئًا يسيرًا وقرعتيه بالعصا فإنهما يقومان بإذن الله تعالى، فانطلقت المرأة حتى أتت

....

مصرعهما، وكان أوّل شيء بدا لها من ثوريها ذقن أحدهما وشعر أذني الآخر، فجمعت أحدهما إلى الآخر وقرعتهما بالعصا، وقالت كما أمرها، فقام الثوران بإذن الله تعالى وعملت عليهما حتى جاءهم الخبر بذلك، فلمّا قال الساحر للملك ما قال، قال رجل من أصحاب الملك وكان أعظمهم عند الملك: إنّكم قد وضعتم أمر هذا الرجل على السّحر، وإنكم قد عذَّبتموه فلم يصل إليه عذابكم، وقتلتموه فلم يمت، فهل رأيتم ساحرًا يدرأ عن نفسه الموت أو أحيا ميتًا قطّ؟ فقالوا له: إنّ كلامك لكلام رجل قد صبأ إليه، فلعلّه استهواك إليه؟ فقال: آمنت بالله وأشهد أني بريء مما تعبدون، فقام إليه الملك وأصحابه بالخناجر فقتلوه، فلمّا رأى القوم ذلك اتّبع جرجيس أربعة آلاف آمنوا، فعمد إليهم الملك، فلم يزل يعذّبهم بألوان العذاب حتى أفناهم، فلمّا فرغ منهم قال لجرجيس: هلّا دعوت ربّك فأحيا لك أصحابك هؤلاء الذين قُتِلوا بجريرتك؟ فقال له جرجيس: ما خلى بيني وبينهم حتى حانت آجالهم، فقال له رجل من عظمائهم يقال له مخليطس: إنك زعمت يا جرجيس أن إلـٰهك هو الذي يبدؤ الخلق ثم يُعيده، وإني سائلك أمرًا إن فعلته آمنت بك وصدّقتك وكفيتك، نحن قوم حولنا أربعة عشر كرسيًّا ومائدة بيننا عليها أقداح وصحاف من أشجار شتّى، فادع ربّك ينشيء هذه الكراسي والأواني كما بدأها أوّل مرة تعود خضراء، فيعرف كل عود منها أنبوبته وورقه وزهره، فقال له جرجيس: لقد سألت أمرًا عزيزًا عليّ وعليك، وإنه على الله لهيّن؛ فدعا الله عزّ وجلّ فما برحوا من مكانهم حتى اخضرّت تلك الكراسي والأواني كلها وساخت عروقها وتلبّست اللحم وتشعّبت وأورقت وأزهرت وأثمرت، فلما نظروا إلى ذلك انتدب لهم مخليطس الذي تمنّى عليه ما تمنّى، فقال: أنا أعذّب لكم هذا الساحر عذابًا يبطل به كيده، ثم إنه عمد إلى نحاس، فصنع منه صورة ثور له جوف واسع ثم حشاه نفطًا ورصاصًا وكبريتًا وزرنيخًا، ثم أدخل جرجيس مع الحشو في جوفها، ثم أوقد على الصورة حتى التهب وذاب كل شيء فيها واختلط جرجيس في جوفها، فلمّا مات جرجيس أرسل الله ريحًا عاصفًا فملأت السماء سحابًا أسود فيه رعد وبرق وصواعق وأرسل الله إعصارًا ملأت بلادهم عجاجًا وقتامًا حتى اسودّ ما بين السماء والأرض، فمكثوا أيّامًا متحيّرين في تلك الظلمة لا يفصلون بين اللّيل

....

والنهار، وأرسل الله ميكائيل فاحتمل الصورة التي فيها جرجيس حتى إذا أقلّها ضرب بها الأرض ففزع مِنْ رَوْعها أهل الشام، فخرجوا لوجوههم صاعقين وانكسرت الصورة فخرج منها جرجيس حيًّا، فلما وقف يُكلِّمهم انكشفت الظلمة وأسفر ما بين السماء والأرض ورجعت إليهم أنفسهم، فقال له رجل يقال له طوفليا: لا ندري يا جرجيس إن كنت أنت تصنع هذه الأعاجيب أم ربّك؟ فإن كان ربّك هو الذي يصنع فادْعه يُحيي لنا موتانا التي في هذه القبور، فإنّ فيها أمواتًا منهم مَنْ نعرفه ومنهم مَنْ لا نعرفه، فقال له جرجيس: لقد علمت أن ما يصفح الله عنكم هذا الصفح ويُريكم هذه الأعاجيب إلا لتكون عليكم حجّة فتستوجبوا بها غضبه، ثم إنه أمر بالقبور فنُبِشت وهي عظام رفات، وأقبل جرجيس على الدعاء، فما برحوا من مكانهم حتى نظروا إلى سبعة عشر إنسانًا تسعة رجال وخمس نسوة وثلاث صبية، وإذا فيهم شيخ كبير، فقال له جرجيس: يا شيخ، ما اسمك؟ فقال: يا جرجيس اسمي توبيل، قال: متى متّ؟ قال: في زمان كذا وكذا، فحسبوا فإذا هو قد مات منذ أربعمائة عام، فلمّا نظر الملك وأصحابه إلى ما فعل قالوا: ما بقي من أصناف العذاب شيء إلّا وقد عذّبتموه به إلّا الجوع والعطش، فعذِّبوه بهما، فعمدوا إلى بيت عجوزٍ كبيرة فقيرة كان لها ابن أعمى أصمّ وأبكم مقعد فحصروه في بيتها، وكانوا لا يُوصلون له من عند أحد طعامًا ولا شرابًا، فلما بلغ به الجوع قال للعجوز: هل عندك من طعام أو شراب؟ فقالت: لا والذي يحلف به ما عهدنا الطعام منذ كذا وكذا، وسأخرج ألتمس لك شيئًا، فقال لها جرجيس: هل تعرفين الله تعالى؟ قالت: نعم، قال: إيَّاه تعبدين، قالت: لا، فدعاها إلى الله فصدّقته ثم إنها انطلقت تطلب له شيئًا، وكان في بيتها دعامة من خشب يابسة تحمل خشب البيت، فأقبل على الدعاء فاخضرّت تلك الدعامة وأنبتت له كل فاكهة تؤكل أو تُعرف حتى كان ممّا أنبتت اللّوبيا واللياز هو مثل البردى يكون بالشام، وظهر للدعامة فرع من فوق البيت أظلّه من فوقه، فأقبلت العجوز وهو فيما شاء يأكل رغدًا، فلما رأت الذي حدث في بيتها من بعدها، قالت: آمنت بالذي أطعمك في بيت الجوع، فادع هذا الربّ العظيم أن يشفي ابني، قال لها: أدْنيه مني، فأدْنَته فبصق في عينيه فأبصر، ونفث

....

في أُذنيه فسمع، فقالت له: أطلق لسانه ورجليه رحمك الله، فقال لها: أخّريه، فإنّ له يومًا عظيمًا؛ وكان الملك قد خرج يومًا يسير في مدينته إذ وقع بصره على الشجرة فقال: إني أرى شجرة بمكان ما كنت أعرفها به، فقالوا له: إنّ تلك الشجرة نبتت لذلك الساحر الذي أردت أن تعذّبه بالجوع، فهو فيما يشاء يأكل وقد شبع منها وأشبع العجوز الكبيرة الفقيرة، وشفى لها ابنها، فأمر الملك بالبيت فهُدِم وبالشجرة أن تُقطع، فلمّا همّوا بقطعها أيبس الله الشجرة وردّها كما كانت أوّل مرّة فتركوها، وأمر بجرجيس فبُطِح على وجهه وأوتد له أربعة أوتاد وأمر بعَجل[١] فأوقر أسطوانًا وجَعَل في أسفل العجل خناجر وشفارًا، ثم أمر بأربعين ثورًا فنهضت بالعجل نهضة واحدة وجرجيس تحتها، فانقطع ثلاث قطع، فأمر بقطعه أن تُحرق، فأُلقيت في النار حتى عادت رمادًا، فبعث بذلك الرماد وبعثه معه رجالًا فذروه في البحر، فما برحوا عن مكانهم حتى سمعوا صوتًا من السماء: يا بحر إنّ الله يأمرك أن تحفظ ما فيك من هذا الجسد الطيّب، فإني أُريد أن أُعيده كما كان، ثم أرسل الله الرياح فأخرجته من البحر ثم جمعته حتى صار الرماد صبرة واحدة كهيئته قبل أن يُذرى، فخرج منه جرجيس مغبرًّا ينفض رأسه، فرجعوا ورجع جرجيس وأخبروا الملك خبر الصوت الذي سمعوه والريح الذي جمعته، فقال له الملك: يا جرجيس هل لك فيما هو خيرٌ لي ولك مما نحن فيه؟ ولولا أن يقول الناس أنك غلبتني وقهرتني لاتّبعتك وآمنت بك، ولكن اسجد لأفلون سجدة واحدة واذبح له شاة واحدة، ثم إنّي أفعل ما يسّرك، فقال له: نعم مهما شئت فعلت، فأدخلني على صنمك؛ ففرح الملك بقوله وقام إليه وقبّل يديه ورجليه ورأسه وقال له: أعزم عليك أن لا تظلّ هذا اليوم ولا تبيت هذه الليلة إلّا في بيتي وعلى فراشي وفي كرامتي حتى تستريح ويذهب عنك وَصَب[٢] العذاب ويرى الناس كرامتك عليّ؛ فأخلى له بيته فظلّ فيه جرجيس حتى إذا أدركه اللّيل قام يصلّي ويقرأ الزبور، وكان أحسن الناس صوتًا، فلما سمعته امرأة الملك استجابت له، فلم يشعر إلّا وهي خلفه تبكي، فدعاها

---

(١) عَجَلٌ خشب تؤلف يُحمل عليها الأثقال. اهـ قاموس. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(٢) مُحرّكة المرض. اهـ قاموس. ١٢ منه عمّ فيضهم.

....

جرجيس إلى الإيمان فآمنت به وأمرها فكتمت إيمانها، فلمّا أن أصبح الصبح غدا به إلى بيت الأصنام يسجد لها، فلمّا سمعت العجوز بذلك خرجت تحمل ابنها على عاتقها توبّخ جرجيس والناس مشتغلون عنها، فلمّا دخل جرجيس بين الأصنام ودخل الناس معه نظروا وإذا بالعجوز وابنها على عاتقها أقرب الناس إليه مقامًا، فلمّا رآها جرجيس دعا ابن العجوز باسمه فنطق وأجابه ولم يكن يتكلّم قبل ذلك قطّ، ثم اقتحم عن عاتق أُمّه يمشي على رجليه ولم يكن يطأ الأرض قبل ذلك بقدميه قطّ، فلما وقف بين يدي جرجيس قاله له: اذهب فادع لي هذه الأصنام، وهي يومئذ سبعون صنمًا على منابر من ذهب وهم يعبدونها ويعبدون معها الشمس والقمر، فقال له الغلام: كيف أدعو الأصنام؟ فقال له: قل لهم: إنّ جرجيس يسألك ويعزم عليك بالذي خلقك إلّا ما أجبتيه، فلمّا قال لها الغلام ذلك أقبلت تتدحرج إلى جرجيس، فلما انتهت إليه ركض الأرض برجله فخسف بها وبمنابرها، وخرج إبليس لعنه الله من جوف صنم منها هاربًا فَرَقًا من الخسف، فلمّا مرّ بجرجيس أخذ بناصيته فخضع له وكلّمه جرجيس، فقال له جرجيس: أخبرني أيّها الروح النَّجسة والخلق الملعون ما الذي يحملك على أن تُهلك نفسك وتُهلك الناس معك، وأنت تعلم أنّك وجندك تصيرون إلى جهنّم؟ فقال له إبليس لعنه الله: لو خُيّرت بين ما أشرقت عليه الشمس وبين ما أظلم عليه الليل وبين هلكة واحدة من بني آدم وضلالته لاخترت هلكته على ذلك كلّه، وإنه ليقع لي من الشهوة واللذّة في ذلك مثل جميع ما يتلذّذ به جميع الخلق. ألم تعلم يا جرجيس أنّ الله تعالى أسجد لأبيك آدم جميع الملائكة، فسجدوا له كلّهم وامتنعت من السجود؟ قلت: أنا خيرٌ منه، قال: فلمّا قال هذا خلّى سبيله جرجيس، فما دخل إبليس من يومئذٍ جوف صنم ولا يدخله بعدها فيما يذكرون أبداً.

فقال الملك: يا جرجيس غررتني وخدعتني وأهلكت آلهتي، فقال جرجيس: إنما فعلت ذلك لتعتبر ولتعلم أنها لو كانت آلهة لامتنعت مني، فكيف ثقتك ويلك بآلهة لم تمنع نفسها مني، إنما أنا مخلوق ضعيف لا أملك إلا ما ملّكني ربّي؛ فلمّا قال هذا جرجيس أقبلت امرأة الملك وكلّمتهم وكشفت لهم عن إيمانها وعددت لهم أفعال جرجيس والعِبَر التي أراهم الله تعالى إيّاها، وقالت لهم: ما

....

تنظرون من هذا الرجل إلا دعوة فيخسف بكم الأرض كما خسف بأصنامكم، الله الله أيها القوم في أنفسكم، فقال لها الملك: ويحك يا اسكندرة ما أسرع ما أضلّك هذا الساحر في ليلةٍ واحدة!! وأنا أُقاسيه منذ سبع سنين، فلم يظفر مني بشيء؛ فقالت له: أمَا رأيت الله كيف يظفّره بك ويسلّطه عليك، فيكون له الفلاح والحجّة عليك في كل موطن؛ فلمّا سمع كلامها أمر بها الملك عند ذلك، فحُمِلت على خشبة جرجيس التي كان علّق عليها وجُعِلت عليها الأمشاطة التي جُعلت على جرجيس، فلما آلمها قالت: ادع ربّك يا جرجيس فيخفّف عني، فإني قد آلمني العذاب، فقال لها: انظري فوقك، فلمّا نظرت ضحكت، فقال لها الملك: ما الذي يضحكك؟ قالت: أرى ملكين فوقي معهما تاج من حلى الجنّة ينتظرون به خروج روحي، فلمّا خرجت روحها زيّناها بذلك التاج ثم صعدا بها إلى الجنّة، فلمّا قبض الله روحها أقبل جرجيس على الدعاء، وقال: اللّهمّ أنت أكرمتني بهذا البلاء لتعطيني منازل الشهداء، فهذا آخر أيامي الذي كنت وعدتني فيه الراحة من بلاء الدنيا، اللّهمّ إني أسألك أن لا تقبض روحي ولا أزول من مكاني هذا حتى تنزل بهؤلاء المتكبّرين من سطوتك ونقمتك ما لا قِبَل لهم به حتى تشفي به صدري وتقرّ به عيني، فإنّهم ظلموني وعذّبوني فيك، اللّهمّ وأسألك أن لا يدعو بعد داعٍ في بلاء وكرب فيذكرني ويُنشدك باسمي إلّا فرَّجت عنه ورحمته وأحببته وشفّعتني فيه؛ فلمّا فرغ من هذا الدعاء أمطر الله عليهم نارًا، فلما رأوا ذلك عمدوا إليه فضربوه بالسيف غيظًا من شدَّة الحريق ليعطيه الله بالقتلة الرابعة ما وعده، ثم احترقت المدينة بجميع ما فيها وصارت رمادًا، فحملها الله من وجه الأرض وجعل عاليها سافلها، فمكثت زمانًا من الدّهر يخرج من تحتها نار ودخان مُنْتن لا يشمّه أحد إلا سقم سقمًا شديدًا، وكان جميع مَنْ آمن بجرجيس وقُتِل معه أربعة وثلاثين ألفًا وامرأة الملك. قال الأستاذ: وكانت قصّة جرجيس في أيام ملوك الطوائف، والله أعلم. اهـ بحروفها.

قوله: (وهو حكاية حال ماضية)، يعني أن المناسب لقوله: (﴿خَلَقَهُۥ﴾) ثم قال له: ﴿كُن﴾ أن يقال: فكان، أي: فكان كما أمر الله تعالى إلّا أنه لم يقل كذلك، بل قال: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ حكايةً للحال التي كان عليها آدم عليه السلام.

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۝٦٠﴾

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ (خبر مبتدأ محذوف) أي (هو الحق) ﴿فَلَا تَكُن﴾ أيها السامع ﴿مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ الشاكّين. (ويحتمل أن يكون الخطاب للنبي ﷺ) ويكون من باب (التهييج) لزيادة الثبات لأنه عليه السلام معصوم من (الامتراء).

﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٦١﴾

﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ﴾ من النصارى ﴿فِيهِ﴾ في عيسى ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ (مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ من البيّنات المُوجِبَة للعلم) و«ما» بمعنى «الذي» (﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ﴾ هلموا والمراد المجيء بالعزم والرأي) كما تقول: تعالى نفكر في هذه المسألة ﴿نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ﴾ أي يدع كلٌّ منّا ومنكم أبناءه ونساءه

قوله: (**خبر مبتدأ محذوف**)، أي ما قصصنا عليك من خبر عيسى، (**هو الحقّ**). **قوله:** (**ويحتمل أن يكون الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وآلّم وسلم**)، والخطاب حينئذٍ لا على إرادة حقيقة النهي؛ لأن النهي عن الشيء حقيقة يقتضي أن يتصوّر صدور المنهيّ عنه من المنهيّ، ولا يتصوّر كونه عليه السلام شاكًّا في صحة ما أُنزل عليه. **قوله:** (**التهييج**) الإثارة. **قوله:** (**الامتراء**) افتعال من المِرْية، وهو الشكّ.

قوله: (**من البيّنات المُوجبة للعلم**) فسّر العلم بما يوجبه من الدّلائل العقليّة والدلائل الواصلة إليه بالوحي والتنزيل؛ لأن العلم الذي في قلبه عليه الصلاة والسلام لا يوجب إفحامهم وانقطاع جدالهم وسبابهم، والظاهر أن كلمة مِنَ في قوله تعالى: (﴿مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾) لبيان الجنس. **قوله:** (**﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ﴾ هلمّوا، والمراد المجيء بالعزم والرأي**) لا بالأبدان؛ لأنهم مُقبلون وحاضرون عنده بأجسادهم، وقوله تعالى: (﴿تَعَالَوۡاْ﴾) العامّة على فتح اللام منه؛ لأنه أمرٌ من الله تعالى من التعالي نحو تَراءىٰ يتراءىٰ، أصله: تعاليوا على وزن تفاعلوا من العلوّ اسْتُثْقلت الضمّة على الياء فسكّنت ثم حُذِف لاجتماع الساكنين، فإذا أمرت به الواحد قلت: تعال يا زيد، بحذف الألف للجزم، وكذا إذا أمرت الجمع قلت: تعالوا، لأنك لمّا حذفت أوّل الساكنين تركت الفتحة على حالها، وقُرِىء تعالُوا ـ بضم اللام ـ بناء

ونفسه إلى (**المباهلة**) ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ ثم نتباهل بأن نقول: «بهلة الله على الكاذب منّا ومنكم». والبهلة بالفتح والضم اللعنة، وبهله الله لعنه وأبعده من رحمته، وأصل الابتهال هذا ثم يستعمل في كل دعاء يجتهد فيه وإن لم يكن التعانًا. رُوِيَ أنه ﷺ لما دعاهم إلى المباهلة قالوا: حتى ننظر. فقال (**العاقب**). وكان ذا رأيهم ـ والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدًا نبيٌّ مُرسَل وما باهل قوم نبيًّا قطّ فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لتهلكن، (**فإن أبيتم**) إلا إلف دينكم (**فوادعوا الرجل**) وانصرفوا إلى بلادكم. فأتوا رسول الله ﷺ وقد غَدَا (**محتضنًا للحسين**)

على أنه لمّا اسْتُثقلت الضمّة على الياء نُقِلت إلى اللام بعد سلب حركتها، فبقي تعالوا بضم اللام، ومعناه: طلب العلوّ، أي الارتفاع من المخاطب، فإذا قلت: تعال كان معناه ارتفع، إلا أنّه كَثُر في الاستعمال كونه لطلب كل مجيء سواء كان على سبيل التسفّل أو التصاعد، وصار بمنزلة هلمّ وأقبل. **قوله:** (**المباهلة**) الدُّعاء على الظالم من الفريقين، والابتهال افتعال من البَهْلة والبُهلة ـ بفتح الباء وضمّها ـ هي اللَّعنة. **قوله:** (**العاقب**) من يخلف السيّد والأمير، وهو صاحب مشورتهم واسمه عبد المسيح. **قوله:** (**فإن أبيتم**) أي عن كل شيء إلا إلف دينكم، أي الإقامة على دينكم وعلى ما أنتم عليه من النصرانية. اهـ قنوي رحمه الله. وفي المصباح: أَلِفْته إلفًا من باب علم أنست به وأحببته، والاسم الأُلفة ـ بالضم ـ. اهـ. (**فوادعوا**) أي صالحوا (**الرجل**) أي به رسول الله ﷺ عبّر به إصرارًا على الكفر. اهـ قنوي. والموادعة المصالحة والمتاركة. اهـ شهاب رحمه الله. **قوله:** (**محتضنًا للحسين**) أي آخذًا إيّاه في حضنه، وهو ما دون الإبط.

والحسين ـ بضم الحاء ـ ابن عليّ بن أبي طالب الهاشمي، أبو عبد الله سبط رسول الله ﷺ وريحانته، وهو وأخوه الحسن سيّدا شباب أهل الجنّة. أخرج الترمذي عن يعلى بن مرّة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**حُسين منّي وأنا من حسين، أحبّ الله مَنْ أحبّ حُسينًا، حسين سبط من الأسباط**»، قال الترمذي: حديث حسن. وأخرج أيضًا عن عليّ بن أبي طالب قال: الحسن أشبه برسول الله ﷺ ما بين الصدر إلى الرأس، والحُسين أشبه برسول الله ﷺ ما كان أسفل من ذلك، قال الترمذي: حديثٌ حسن. وحجّ الحسين خمسًا وعشرين حجّة ماشيًا، وكان رضي الله تعالى عنه فاضلًا كثير الصّلاة والصوم والحجّ والصدقة وأفعال الخير جميعها.

آخذًا بيد (الحسن) و(فاطمة) تمشي خلفه و(عليّ) خلفها وهو يقول: إذا أنا دعوت

قُتِل رضي الله تعالى عنه يوم الجمعة، وقيل: يوم السبت يوم عاشوراء سنة إحدى وستّين بكربلاء من أرض العراق، وقبره مشهور يُزار ويتبرّك به، وحَزِنَ الناس عليه كثيرًا وأكثروا فيه المراثي رضي الله تعالى عنه.

قوله: (الحسن) بن عليّ بن أبي طالب، هو أبو محمد سبط رسول الله ﷺ وريحانته. رَوَى عن النبيّ ﷺ أحاديث، وروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها، وروى عنه جماعات من التابعين منهم الحسن بن الحسن وأبو الحِوَاري ـ بالحاء المهملة ـ ربيعة بن سنان والشعبي وأبو وائل وابن سيرين وآخرون. توفي بالمدينة مسمومًا سنة تسع وأربعين، وقيل: سنة خمسين، وقيل: إحدى وخمسين، ودُفِن بالبقيع وقبره فيه مشهور، وإن الحسن رضي الله تعالى عنه حجّ حجّات ماشيًا، وكان يقول: إني أستحي من الله تعالى أن ألقاه ولم أمْشِ إلى بيته، وقاسم الله تعالى ماله ثلاث مرّات، فتصدّق بنصفه حتى كان يتصدّق بنعل ويمسك نعلًا، وخرج من ماله كلّه مرّتين، ومناقبه رضي الله تعالى عنه كثيرة مشهورة.

قوله: (فاطمة) الزهراء بنت رسول الله ﷺ ورَضِيَ عنها، كُنيتها أُمّ الهاد، أُمّها خديجة بنت خُوَيْلد أُمّ المؤمنين، والصحيح أنها أصغر بنات رسول الله ﷺ سنًّا، أنكحها رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب بعد وقعة أُحُد. توفّيت بعد رسول الله ﷺ لستّة أشهر، وهو الصحيح.

قوله: (عليّ) بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي المكّي المدني الكوفي أمير المؤمنين ابن عمّ رسول الله ﷺ، وهو أخو رسول الله ﷺ بالمؤاخاة، وصهره على فاطمة سيّدة نساء العالمين، وأبو السّبطين، وأوّل هاشميّ وُلِد بين هاشميّين، وأوّل خليفة من بني هاشم، وهو أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنّة، وأحد الستّة أصحاب الشورى الذين توفّي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وأحد الخلفاء الراشدين، وأحد العلماء الربانيّين والشجعان المشهورين والزهّاد المذكورين، وأحد السابقين إلى الإسلام، وأحواله في الشجاعة وآثاره في الحروب مشهورة. وأمّا علمه، فكان من العلوم بالمحلّ العالي. روى عن رسول الله ﷺ خمسمائة حديث وستّة وثمانين حديثًا، اتّفق

فأمِّنوا. فقال (**أسقف نجران**): يا معشر النصارى إني لأرى (**وجوهًا**) لو سألوا الله أن يُزيل جبلًا من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني فقالوا: يا أبا القاسم رأين أن لا نُباهلك فصالحهم النبي على (**ألفي حلّة**) كل سنة فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «والذي نفسي بيده إن الهلاك قد (**تدلى**) على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير» وإنما ضمّ الأبناء والنساء وإن كانت المباهلة مختصَّة به وبمن يُكاذبه لأن ذلك آكَد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حيث استجرأ على تعريض (**أعزّته**) و(**أفلاذ كبده**) لذلك، ولم يقتصر على تعريض نفسه له وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبّته وأعزَّته إن تمَّت المُباهلة: وخصَّ الأبناء والنساء لأنهم أعزّ الأهل وألصقهم بالقلوب وقدَّمهم بالذِّكر على الأنفس لينبّه على قُرب مكانهم ومنزلتهم، وفيه دليل واضح على صحة نبوّة

البخاري ومسلم منها على عشرين، وانفرد البخاري بتسعة، ومسلم بخمسة وعشرون. أحوال عليّ رضي الله تعالى عنه وفضائله في كل شيء مشهورة غير منحصرة، وُلِّي الخلافة خمس سنين، وقيل: خمس سنين إلّا شهرًا. بويع في الخلافة في مسجد رسول الله ﷺ بعد قتل عثمان رضي الله تعالى عنه؛ لكونه أفضل الصحابة حينئذ، وذلك في الحجّة سنة خمس وثلاثين. ضربه عبد الرحمٰن بن ملجم المرادي من الخوارج بسيف مسموم في جبهته فأوصله دماغه في ليلة سبع عشرة من شهر رمضان، وهي ليلة الجمعة، ثم توفّي عليّ رضي الله تعالى عنه في الكوفة ليلة أحد التاسع عشر من شهر رمضان سنة أربعين، وتوفي وهو ابن ثلاث وستّين سنة على الأصح، وقول الأكثرين.

قوله: (أسقف نجران) أي عالمهم بأُمور دينهم، الأُسقف ـ بضم الهمزة وسكون السين وضمّ القاف وتشديد الفاء ـ حبر النصارى وعالمهم، معرّب على الصحيح، أي معرب أسكف بالرومية. ونجران بلد من اليمن. **قوله: (وجوهًا)** أي أصحاب وجوه بحذف مضاف أو بكونه مجازًا لغويًا. **قوله: (ألفي حلَّة)** في صفر، وألف في رجب. اهـ قنوي. **قوله: (تدلّى)** التدلّي: النزول من دلّيت الدلو إلى البئر. **قوله: (أعزّته)** جمع عزيز. **قوله: (أفلاذ)** جمع فَلْذ بمعنى القطعة من الشيء. **قوله: (كبده)** في مختار الصحاح: الكِبْد والكَبِد بوزن الكِذْب والكَذِب، واحد الأكباد. اهـ. وفي المصباح: الكَبْد من الأمعاء معروفة، وهي أُنثى. وقال

النبي ﷺ لأنه لم يَرْوِ أحد من موافق أو مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ منا ومنكم في شأن عيسى ونبتهل ونجعل معطوفان على «ندع».

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي قُصَّ عليك من نبأ عيسى ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ هو فصل بين اسم «إن» وخبرها، أو مبتدأ و«القصص الحق» خبره، والجملة خبر «إن» وجاز دخول اللام على الفصل لأنه إذا جاز دخولها على الخبر كان دخولها على الفصل أجوز لأنه أقرب إلى المبتدأ منه، وأصلها أن تدخل على المبتدأ. و«من» في ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بمنزلة البناء على الفتح في «لا إلـه إلا الله» في إفادة معنى الاستغراق، والمراد الرد على النصارى في تثليثهم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في الانتقام ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير الأحكام ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا ولم يقبلوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وعيد لهم بالعذاب (**المذكور في قوله**: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: الآية ٨٨]).

الفرّاء: تذكّر وتؤنّث ويجوز التخفيف بكسر الكاف وسكون الباء، والجمع أكباد وكُبُود قليلًا. اهـ. وفي القاموس: الكَبْد ـ بالفتح والكسر ـ وككَتِف مشهور، وقد تُذكّر جمعه أكباد وكبود. اهـ. وفي لسان العرب: الكَبِد والكِبد مثل الكَذِب والكِذْب، واحدة الأكباد اللّحمة السوداء في البطن، ويقال أيضًا: كَبْد للتخفيف. اهـ.

قوله: (المذكور في قوله) في سورة النّحل: (﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الآية ٨٨]) الذي استحقّوه بكفرهم. قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: عقارب[(١)] أنيابها كالنّخل الطِّوال (﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النّحل: الآية ٨٨]) بصدّهم الناس عن الإيمان، فاللام في المفسدين للعهد، يعني: فإن تولّوا فإنّ الله يعذّبهم العذاب الذي تُعُورف واشتهر في حقّ المفسدين، وهو العذاب المضاعف.

---

(١) تنهشهم في جهنم، ١٢ منه.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هم أهل الكتابين أو وفد نجران أو يهود المدينة ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ﴾ أي مستوية ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل. وتفسير الكلمة قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني تعالوا إليها حتى لا نقول عزيز ابن الله ولا المسيح ابن الله، لأن كل واحد منهما بعضنا بشر مثلنا، ولا نطيع أحبارنا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع الله. وعن (عدي بن حاتم): ما كنّا نعبدهم يا رسول الله؟ قال: «أليس كانوا يُحلون لكم ويحرّمون فتأخذون بقولهم»؟ قال: نعم. قال: («هو ذاك»). ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن التوحيد ﴿فَقُولُوا۟ (ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي لزمتكم الحجة) فوجب عليكم أن تعترفوا

قوله: (عديّ بن حاتم) بن عبد الله بن سعد بن حشرج بن امرىء القيس بن عدي بن ربيعة، هو أبو طريف، وقيل: أبو وهب الطائي الكوفي الصحابي، وأبوه حاتم هوالمشهور بالكرم. قَدِم عديّ على رسول الله ﷺ في شعبان سنة تسع من الهجرة فأسلم، وكان نصرانيًا. رُوِيَ له عن رسول الله ﷺ ستّة وستّون حديثًا، واتّفق منها على ثلاثة، وانفرد مسلم بحديثين، وتوفي سنة تسع وستين، وقيل: سنة ثمان، وهو ابن مائة وعشرين سنة. قال ابن قتيبة: وكان عديّ طويلًا إذا ركب الفرس كانت رجله تخطّ الأرض، وكان جوادًا شريفًا في قومه مُعظّمًا عندهم وعند غيرهم، حاضر الجواب. رُوِي عنه أنّه قال: ما دخل عليّ وقت صلاة إلّا وأنا مشتاق إليها. وكان رسول الله ﷺ يُكرمه إذا دخل عليه، وكان عديّ يفتّ الخبز للنمل ويقول: إنهنّ جارات ولهنّ حقّ رضي الله تعالى عنه.

قوله: (هو ذاك) ضمير هو للأخذ بقولهم: وذاك للإشارة لكونهم معبودين، أو معناه: إنّ اتخاذ الأحبار والرُّهبان أربابًا ذلك، أي إطاعتهم في التحليل والتحريم، وهذا الحديث أخرجه الترمذي وحسّنه. **قوله:** (أي لزمتكم الحجّة) حيث لم تقدروا على دفعها، وهذا المعنى مستفاد من قوله: (﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾)، حيث أوجب عليهم أن يعترفوا بأنّا مسلمون مُهتدون إلى دار الحقّ

وتسلموا بأنّا مسلمون دونكم (**كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع: اعترف بأني أنا الغالب وسلّم إليّ الغلبة**).

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ زعم كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم وجادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين فيه فقيل لهم: إن اليهودية إنما حدثت بعد نزول التوراة والنصرانية بعد نزول الإنجيل وبين إبراهيم وموسى ألف سنة وبينه وبين عيسى ألفان، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بأزمنة متطاولة. ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المُحال.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ «ها» للتنبيه و«أنتم» مبتدأ و«هؤلاء» خبره ﴿حَٰجَجۡتُمۡ﴾ جملة مستأنفة مبيّنة للجملة الأولى يعني أنتم هؤلاء الأشخاص (**الحمقى**). وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ مما نطق به التوراة والإنجيل ﴿فَلِمَ

مُنقادون للحقّ دونكم، وهذا الاعتراف إنما وجب عليهم من حيث كونهم محجوجين، أي مغلوبين بالحجّة والحصر المدلول عليه بقوله: ﴿دُونِكُمۡ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٨] مستفاد من المقام، والمعنى: فإن تولّوا وأعرضوا عن الإجابة لِمَا دعوتهم إليه، فليس إعراضهم ذلك لأجل مساعدة الحجّة إيّاهم، فقل قد أسفر الصبح أو تبيّن الحقّ لذي عينين، فاعترفوا بأنّا مسلمون منقادون للحقّ دونكم؛ (**كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صِراع**) ـ بالكسر ـ بمعنى الطَّرح على الأرض أو نحوهما: (**اعترف بأني أنا الغالب، وسلّم إليّ الغلبة**).

قوله: (**الحمقى**) مستفاد من جعل هؤلاء خبرًا عن قوله: ﴿أَنتُمۡ﴾، فإنهم قد يقصدون بالإشارة بنحو ذلك، وهؤلاء تحقيرًا للمشار إليه واستبعاد لعقله تنزيلًا لبُعده عن ساحة الحضور والخطاب منزلة بعد المسافة. في مختار الصحاح: الحُمْق ـ بسكون الميم وضمّها ـ قلّة العقل، وقد حَمُق من باب ظرف، فهو أحمق وحَمِق أيضًا ـ بالكسر ـ حُمْقًا فهو حَمِقَ، وامرأة حمقاء، وقوم ونسوة حُمْق وحَمْقى

﴿تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾ ولا ذكر له في كتابيكم من دين إبراهيم. وقيل: «هؤلاء» بمعنى «الذين» و«حاججتم» صلته. («ها أنتم» **بالمد وغير الهمز حيث كان: مدني وأبو عمرو**). ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ علم ما حاججتم فيه ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وأنتم جاهلون به. ثم أعلمهم بأنه بريء من دينهم فقال:

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾ كأنه أراد بالمشركين اليهود والنصارى لإشراكهم به عزيزًا والمسيح، أو ما كان من المشركين كما لم يكن منهم ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ﴾ إن أخصّهم به

وحماقى. اهـ. **قوله:** («ها أنتم» **بالمدّ وغير الهمز حيث كان، مدنيّ**) أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني، وليس من السبعة. **(وأبو عمرو)** البصري. عبارة تفسير النيسابوري: ﴿هأنتم﴾ بالمدّ وغير الهمز حيث كان أبو جعفر ونافع وأبو عمرو، ورَوى ابن مجاهد وأبو عون عن قنبل: «هأنتم» على وزن هئنتم(١). الباقون بالمدّ والهمزة. اهـ. وفي السمين: في هذه الآية أربع قراءات، الأُولى: للكوفيّين وابن عامر والبزّي عن ابن كثير: ﴿هاأنتم﴾ بألف بعد الهاء، وهمزة محقّقة بعدها. الثانية: لأبي عمرو وقالون بألف بعد الهاء وهمزة مسهلة بين بين بعدها. الثالثة: لورش(٢)، وله وجهان: أحدهما بهمزة مسهّلة بين بين بعد الهاء دون ألف بينهما، الثاني: ألفٌ صريحة بعد الهاء من غير همز بالكلّية. الرابعة: لقنبل بهمزة محقّقة بعد الهاء دون ألف، واختلف الناس في هذه الهاء، فمنهم مَنْ قال: إنها ها التي للتنبيه الدَّاخلة على أسماء الإشارة، وقد كَثُر الفَصْل بينها وبين أسماء الإشارة بالضمائر المرفوعة المنفصلة، نحو: هاأنت ذا قائمًا، وها هم قائمون، وقد تُعاد مع الإشارة بعد دخولها على الضمائر توكيدًا كهذه الآية، ومنهم من قال: إنها مُبدلة من همزة استفهام، والأصل: أنتم، وهو استفهام إنكار، وقد كَثُر إبدال الهمزة هاء، وإن لم يكن قياسيًا. اهـ.

---

(١) أي على وزن فعلتم. ١٢ منه عمّ فيضهم.
(٢) عن نافع. ١٢ منه.

وأقربهم منه من الوليّ وهو القرب (﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾) في زمانه وبعده ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ خصوصًا خصّ بالذكر لخصوصيته بالفضل والمراد محمد عليه السلام ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من أُمته ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ناصرهم.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ هم اليهود دعوا **(حذيفة وعمّارًا**

قوله: (﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾) خبر إن ودخلت لام الابتداء على الخبر مع أن أصلها أن تدخل على المبتدأ كراهة توالي حرفَيْ توكيد.

قوله: (حذيفة) بن اليمان هو أبو عبد الله حذيفة بن اليمان، واسم اليمان حسل ـ بكسر الحاء وإسكان السين المهملتين ـ ويقال: حُسَيْل ـ بالتصغير ـ ابن جابر بن عمرو. أسلم حذيفة وأبوه وهاجرا إلى رسول الله ﷺ وشهدا جميعًا أُحدًا، وقُتِل أبوه يومئذ قتله المسلمون خطأ، فوهب لهم دمه وأسلمت أمّ حذيفة وهاجرت، وكان صاحب سرّ رسول الله ﷺ في المنافقين، يعلمهم وحده. توفي بالمدائن سنة ستّ وثلاثين بعد قتل عثمان بن عفّان رضي الله تعالى عنه بأربعين ليلة، وقُتل عثمان يوم الجمعة لثماني عشرة خلَوْن من ذي الحجّة سنة خمس وثلاثين، ومناقبه وأحواله كثيرة مشهورة رضي الله تعالى عنه.

قوله: (وعمّارًا) بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة، كان من السابقين إلى الإسلام، وكان هو وأبوه وأُمّه سُمَيَّة ممن أسلم أوّلًا، وكان إسلام عمّار وصُهيب في وقتٍ واحد حين كان النبيّ ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وأسلم بعد بضعة وثلاثين رجلًا، وفي عمّار نزل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: الآية ١٠٦]، وهاجر مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وشَهِدَ معه بدرًا وأُحدًا والخندق وجميع المشاهد. رُوِيَ له عن رسول الله ﷺ اثنان وستّون حديثًا، اتّفقا على حديثين منها، وانفرد البخاري بثلاثة، ومسلم بحديث. رَوَى عنه عليّ بن أبي طالب وابن عباس وأبو موسى وأبو أُمامة وجابر بن عبد الله وعبد الله بن جعفر وغيرهم من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وابن المسيّب وابن الحنفية وأبو وائل وابنه محمد بن عمّار وآخرون من التابعين. قُتِل بصفّين مع عليّ رضي الله تعالى عنه في شهر ربيع الأوّل، وقيل: الآخر، سنة سبع وثلاثين، وهو ابن ثلاث، وقيل: أربع وتسعين سنة رضي الله تعالى عنه.

ومعاذًا) إلى اليهودية ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم لأن العذاب يضاعف لهم بضلالهم وإضلالهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بالتوراة والإنجيل، وكفرهم بها أنهم لا يؤمنون بما نطقت به من صحة نبوّة رسول الله ﷺ وغيرها ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ تعترفون بأنها آيات الله أو تكفرون بالقرآن ودلائل نبوّة الرسول وأنتم تشهدون نعته في الكتابين، أو تكفرون بآيات الله جميعًا وأنتم تعلمون أنها حق ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ تخلطون الإيمان بموسى وعيسى بالكفر بمحمد ﷺ ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ نعت محمد عليه السلام ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فيم بينهم ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي القرآن ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ ظرف أي أوله يعني أظهِروا الإيمان بما أُنزل على المسلمين في أول النهار ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ واكفروا به آخره ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل المسلمين يقولون ما رجعوا وهم أهل كتاب وعلم إلا لأمر قد تبيَّن لهم فيرجعون برجوعكم.

قوله: (ومعاذًا) بن جبل ـ بالذال المعجمة ـ هو أبو عبد الرحمٰن معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاريّ الخزرجيّ الجُشَيميّ المدني الفقيه الفاضل الصالح. أسلم معاذ وهو ابن ثمان عشرة سنة، وشَهِد العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار، ثم شهد بدرًا وأُحدًا والخندق والمشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبد الله بن مسعود. رُوِيَ له عن رسول الله ﷺ مائة حديث وسبعة وخمسون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم على حديثين، وانفرد البخاري بثلاثة، ومسلم بحديث. توفي في طاعون عمواس بالشام سنة ثمان عشرة، وقيل: سبع عشرة، والصحيح الأول، وقبره في مشاق غَوْرَبَيْسان. وعمواس التي نُسِب إليها الطاعون بين الرَّمْلة وبيت المقدس، نُسِب الطاعون إليها لأنه بدأ منها، وهو بفتح العين والميم. وتوفي شهيدًا في الطاعون، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وقيل: أربع وثلاثين، وقيل: ثمان وثلاثين، وأحوال معاذ ومناقبه غير منحصرة رضي الله تعالى عنه.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ (﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ متعلق بقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ) أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ وما بينهما اعتراض أي ولا تُظهِروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أُوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم، أرادوا أسِرّوا تصديقكم بأن المسلمين قد أُوتوا من كتب الله مثل ما أُوتيتم ولا تُفشوه إلا إلى (أشياعكم) وحدهم دون المسلمين لئلا يزيدهم ثباتًا ودون المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْۗ﴾ عطف على «أن يؤتى» والضمير في «يحاجوكم» لأحد لأنه في معنى الجمع بمعنى ولا تؤمنوا لغير أتباعكم أن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق ويغالبونكم عند الله بالحجة. ومعنى الاعتراض أن الهدى هدى الله مَن شاء هداه حتى أسلم أو ثبت على الإسلام كان ذلك ولم ينفع كيدكم وحيلكم (وزيكم تصديقكم عن المسلمين والمشركين)، وكذلك قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۗ﴾ يريد الهداية والتوفيق، أو يتم الكلام عند قوله: «إلا لمَن تبع دينكم» أي ولا تؤمنوا هذا الإيمان الظاهر وهو إيمانكم وجه النهار إلا لمَن تبع دينكم إلا لمن كانوا تابعين لدينكم ممَّن أسلموا منكم، لأن رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع مَن سواهم. ومعنى قوله: «أن يؤتى» لأن يؤتى أحد مثل ما أُوتيتم قلتم ذلك

قوله: (﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ متعلق بقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ﴾)، أي مرتبط به معنًى عامل فيه لفظًا إمّا بتقدير حرف الجرّ إن اعتبر فيه معنى الاعتراف، أي لا يعترفوا بأن يؤتى أو لا يظهروا التصديق بذلك، وإمّا بدونه بمعنى لا يظهروا التصديق أن يؤتى أحد مثل ما أُوتيتم من الكتاب والرسول، وإن يحاجوكم ويغالبوكم بالحجّة يوم القيامة إلا لاتّباعكم، يعني إن علمكم بذاك حاصل لكن لا يظهروه للمسلمين لئلّا يزدادوا تصلّبًا في الدين ولا للمشركين لئلّا يرغبوا فيه، أُوثر في عطف يحاجّوكم كلمة أو على الواو ليفيد العموم، مثل: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: الآية ٢٤]، ولذا لم يجعل بمعنى إلى أن. **قوله:** (أشياعكم) أي أتباعكم. **قوله:** (وزيكم تصديقكم عن المسلمين والمشركين)، الزيُّ[1] مصدر زواه قبضه، أي لا ينفع

---

(١) القبض والمنع.

ودبّرتموه لا لشيء آخر يعني أن ما بكم من الحسد والبغي أن يُؤتَى أحد مثل ما أُوتيتم من العلم، والكتاب دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم، ويدل عليه **(قراءة ابن كثير «آن» بالمدّ والاستفهام)** يعني الآن يؤتى أحد مثل ما أُوتيتم من الكتاب تحسدونهم. وقوله: «أو يحاجوكم» على هذا معناه دبرتم ما دبرتم لأن يؤتى أحد مثل ما أُوتيتم، **(أو لما يتصل به)** عند كفركم به من محاجّتهم لكم عند ربكم ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي واسع الرحمة ﴿عَلِيمٌ﴾ بالمصلحة.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾ بالنبوّة أو بالإسلام ﴿مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ هو **(عبد الله بن سلام)**،

منعكم وإخفائكم تصديقكم عن الفريقين. **قوله: (قراءة ابن كثير)** المكّي (﴿آن﴾ **بالمدّ**[1] **والاستفهام)**، أي بهمزتين ثانيهما مسهّلة بلا فصل لقصد التوبيخ، والباقون بهمزة واحدة مفتوحة. **قوله: (أو لما يتصل به)**، يعني أو يحاجّوكم عطف على (﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾)، ولما يتّصل به ويترتّب عليه من غلبتهم بالحجّة يوم القيامة، دبّرتم ما دبّرتم، أي لم يكن لكم داعٍ إلى هذا الفعل والكيد وباعث عليه سوى الحسد والغيظ وجهة العدول عن الواو إلى أو الإشارة إلى أن كلاًّ من الأمرين مستقلّ بكونه سبب الغيظ والحسد، وحقيقة المعنى: أنه لم يكن لكم باعث على هذا الكيد سوى علمكم بأنّ الإيتاء والمحاجّة المذكورين كائنان البتّة. اهـ تفتازاني.

قوله: (عبد الله بن سلام) بن الحارث الإسرائيلي الأنصاريّ الخزرجيّ الصحابي، كنيته أبو يوسف. رُوِيَ له عن رسول الله ﷺ خمسة وعشرون حديثًا، اتّفقا على حديث، وانفرد البخاريّ بآخر. توفّي سنة ثلاث وأربعين بالمدينة، ومناقبه كثيرة مشهورة. رضي الله عنه.

---

(١) أي بمد الألف على الاستفهام، والباقون قرؤوا بفتح الألف من غير مدّ والاستفهام. اهـ شيخ زاده رحمه الله. ١٢ منه عمّ فيضهم.

استودعه رجل من قريش **(ألفًا ومائتي أوقية ذهبًا)** فأداه إليه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ هو **(فنحاص)** بن عازوراء، استودعه رجل من قريش دينارًا **(فجحده)** وخانه. وقال: المأمونون على الكثير النصارى لغلبة الأمانة عليهم، والخائنون في القليل اليهود لغلبة الخيانة عليهم ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ﴾ إلا **(مدة دوامك)** عليه يا صاحب الحق قائمًا على رأسه مُلازمًا له. **(«يؤده» و«لا يؤده» بكسر الهاء مشبعة: مكي وشامي ونافع وعلي وحفص، واختلس أبو عمرو في رواية.**

قوله: (ألفًا ومائتي أُوقية ذهبًا) الأوقية ـ بالضمّ ـ سبعة مثاقيل(١)، كالوقية. قال الجوهري: إنها أربعون درهمًا، ثم استُعْمِلت في العُرف في عشرة دراهم وخمسة أسباع درهم. اهـ شهاب. وقال العلّامة شيخ زاده ﷺ: الأوقية في الحديث أربعون درهمًا، وكذلك كان فيما مضى، والذي تعارفه الناس وانعقد عليه الإطباق أنّ الأوقية وزن عشرة دراهم وخمسة أسباع درهم. اهـ. وفي المصباح: الأُوقية ـ بضمّ الهمزة وبالتشديد ـ وهي عند العرب أربعون درهمًا، وهي في تقدير أفعولة كالأعجوبة والأُحدوثة، والجمع الأواقي ـ بالتشديد وبالتخفيف للتخفيف ـ قال ثعلب في باب المضموم أوّله وهي الأُوْقية والوُقية لغة، وهي بضمّ الواو، وهكذا هي مضبوطة في كتاب ابن السكّيت، وقال الأزهري: قال اللّيث: الوقية سبعة مثاقيل، وهي مضبوطة بالضمّ أيضًا. قال المطرزي: وهكذا هي مضبوطة في شرح السنّة في عدّة مواضع، وجرى على ألسنة الناس بالفتح، وهي لغة حكاها بعضهم، وجمعها وقايا مثل عطية وعطايا. اهـ.

قوله: (فنحاص) بكسر الفاء وسكون النون والحاء المهملة بعدها ألف ثم صاد مهملة، وقيل: بالكسر والخاء المعجمة. اهـ قنوي ﷺ. **قوله: (فجحده)** في مختار الصِّحاح: الجحود الإنكار مع العلم، يقال: جحده حقّه وجحده بحقّه، وبابه قطع وخضع. اهـ. **قوله: (مدّة دوامك)** إشارة إلى أن ما مصدريّة ظرفية. **قوله: (يؤدِّه ولا يؤدِّه بكسر الهاء مشبعة)** أي مع الصلة، أي وصلها بياء إشباعية **(مكّي)** أي ابن كثير المكّي **(وشامي)**، أي ابن عامر الشامي. **(ونافع وعليّ)** الكسائي **(وحفص، واختلس أبو عمرو)** البصريّ **(في رواية)** أي رواية اليزيد طريق

---

(١) والمثقال عشرون قيراطًا والقيراط خمس شعيرات. اهـ قنوي رحمه الله، ١٢ منه عمّ فيضهم.

غيرهم: بسكون الهاء). ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ترك الأداء الذي دلّ عليه «لا يؤده» ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ أي تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم «ليس علينا في الأُمّيين سبيل» أي لا يتطرّق علينا إثم وذم في شأن الأُمّيين يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب، وما فعلنا بهم من حبس أموالهم والإضرار بهم لأنهم ليسوا على ديننا وكانوا يستحلون ظلم مَن خالفهم وكانوا يقولون لم يجعل لهم في كتابنا حُرمة. وقيل: بايع اليهود رجالًا من قريش، فلما أسلموا (تقاضوهم) فقالوا: ليس لكم علينا حق حيث تركتم دينكم وادّعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بادّعائهم أن ذلك في كتابهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأُمّيين أي بلى عليهم سبيل فيهم. وقوله: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ جملة مستأنفة مقررة للجملة التي سدّت «بلى» مسدّها، والضمير في «بعهده» يرجع إلى الله تعالى أي كل مَن أوفى بعهد الله واتقاه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي يحبهم فوضع الظاهر موضع الضمير وعموم المتقين قام مقام الضمير الراجع من الجزاء إلى «من» ويدخل في ذلك الإيمان وغيره من الصالحات وما وجب اتّقاؤه من الكفر وأعمال السوء. قيل: نزلت في عبد الله بن سلام ونحوه من مُسلِمِي أهل الكتاب، ويجوز أن يرجع الضمير إلى «مَن أوفى» أي كل مَن أوفى بما عاهد الله عليه واتقى الله في ترك الخيانة والغدر فإن الله يحبه. ونزل فيمن حرّف التوراة وبدّل نعته ﷺ من اليهود وأخذ (الرشوة) على ذلك.

أبي أيوب الهاشمي. اهـ تفسير نيسابوريّ. أي قرأ بكسر الهاء من غير صلة[1] (غيرهم بسكون الهاء) على إجراء الوصل مجرى الوقف. **قوله:** (تقاضوهم) يعني رجال قريش طلبوا من اليهود حقّهم.

قوله: (الرّشوة) بكسر الراء وضمّها. اهـ مختار الصّحاح.

---

(١) أي بغير وصل أي مجرد الكسر، ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ﴾ يستبدلون ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدّق لما معهم ﴿وَأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ وبما حلفوا به من قولهم «والله لنؤمنن به ولننصرنه» ﴿ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ متاع الدنيا من الترؤس والارتشاء ونحو ذلك، وقوله: «بعهد الله» يقوّي رجوع الضمير في «بعهده» إلى الله ﴿وَأَيۡمَٰنِهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي لا نصيب ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ **(بما يسرّهم)** ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ نظر رحمة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ **(ولا يثني عليهم)** ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ **(مؤلم)**.

قوله: (بما يسرّهم[1]**)** توجيه لنفي الكلام بأنّ المنفيّ الكلام السارّ، فلا ينافي كلامه لغيره. **قوله: (ولا يثني عليهم)** كما يثني على أوليائه، مثل ثناء المزكّي للشاهد والتزكية من الله تعالى قد تكون على ألسنة الملائكة؛ كقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرّعد: الآيتان ٢٣، ٢٤]، وقد تكون بغير واسطة. أمّا في الدنيا، فكقوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ [التوبة: الآية ١١٢]. وأمّا في الآخرة، فكقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس: الآية ٥٨].

قوله: (مؤلم) بفتح اللام على طريق الإسناد المجازي، حيث أسند الألم للعذاب، وهو في الحقيقة إنما يُسْنَد إلى الشخص المُعذَّب، يقال: ألم من باب طرب، فهو أليم كوجع فهو وجيع، أي متألم ومتوجّع، ولا يقال: إنه بكسر اللام اسم فاعل على طريق الإسناد الحقيقيّ كسميع بمعنى مسمع لخلوّه عن دعوى المبالغة الحاصلة على كونه بفتح اللام، حيث يقتضي أن العذاب لشدّة إيلامه للمعذّبين صار كأنه مؤلم، أي معذّب، فهو على حدّ جدّ جدّه.

---

(١) قيّد به دفعًا لما يتوهم من التدافع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الحجر: الآيتان ٩٢، ٩٣]، وقوله: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٦]. اهـ شيخ زاده رحمه الله. ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب ﴿لَفَرِيقًا﴾ هم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف و(**حيي ابن أخطب**) وغيرهم ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ يفتلونها بقراءته عن الصحيح إلى المحرف، واللَّيُ الفَتْل وهو الصرف والمراد تحريفهم كآية الرجم ونعت محمد ﷺ ونحو ذلك. والضمير في ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ يرجع إلى ما دلّ عليه «يلوون ألسنتهم بالكتاب» وهو المحرّف، (**ويجوز أن يُراد يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب**) لتحسبوا ذلك الشبه ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي التوراة ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وليس هو من التوراة ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ تأكيد لقوله: «وما هو من الكتاب» وزيادة تشنيع عليهم ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ﴾ تكذيب لمن اعتقد عبادة عيسى عليه السلام. وقيل: قال رجل: يا رسول الله نسلّم عليك كما يسلّم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك؟ قال: «لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله ولكن أكرموا نبيّكم

قوله: (حُيَيّ) بالتصغير (**ابن أخطب**) بالخاء المعجمة أفعل من الخطب في الأصل، ثم صار اسمًا. **قوله: (ويجوز أن يُراد يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب)** أي يميلون ألسنتهم بشبه الكتاب، أي مشابهة، ولا فرق بين الوجهين في المعنى؛ إذ ليس في الوجه الأوّل الإظهار المحرّف وهو شبه الكتاب لكن المضاف المقدّر في الوجه الأوّل هو القراءة والباء للظرفيّة أو للاستعانة أو للملابسة والجار والمجرور حال من الألسنة، أي ملتبسة بالكتاب، وضمير تحسبوه لمّا دلّ عليه الفعل وهو الحرف، وفي الوجه الثاني هو الشبه، وضمير تحسبوه للشبه المقدّر والباء صلة، وقيل: للآلة، وقال القنوي: لعلّ الأوّل إشارة إلى كون التحريف بالتأويل، والثاني إلى تبديل كلمة بكلمة ووضعها في مكانها. اهـ.

واعرفوا الحق لأهله» ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ والحكمة وهي السُّنَّة أو فصل القضاء ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ﴾ عطف على «يؤتيه» ﴿لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ ولكن يقول: كونوا ربانيين. والرباني (**منسوب إلى الربّ بزيادة الألف والنون**) وهو شديد التمسّك بدين الله وطاعته. وحين مات (**ابن عباس**) قال (**ابن الحنفية**): مات

قوله: (منسوب إلى الربّ) بمعنى كونه عالمًا مواظبًا على طاعته، كما يقال: رجل إلـٰهِيّ إذا كان مُقْبِلًا على معرفة الإلـٰه وطاعته، **(بزيادة الألف والنون)** وزيادة الألف والنون للدّلالة على الكمال في هذه الصفة، كما قالوا: شعراني ولحياني ورقباني، إذا وُصِف بكثرة الشعر وطول اللّحية وغلظ الرقبة، وهذه الزيادة لا بدّ لها منها في النسبة عند قصد المبالغة، فحينئذ لا يقال: رقبيّ وشعريّ ولحويّ، وهذا قول سيبويه. وقال المُبَرِّد: الربّانيّون أرباب العلم واحدهم ربانيّ منسوب إلى ربان، والربان هو الذي يربّي العلم ويربي الناس ويُعلّمهم ويُصلحهم ويقوم بأمرهم، والألف والنون فيه للمبالغة، كما قالوا: ريان وعطشان وشبعان وعريان، ثم ضُمّت إليه ياء النسبة، كما قالوا: لحياني ورقباني، قال الواحدي: فعلى قول سيبويه: الرباني منسوب إلى الربّ على معنى التخصيص بمعرفة الربّ وطاعته، وعلى قول المبرّد: الربّاني مأخوذ من التربية.

قوله: (ابن عباس) هو عبد الله بن عباس الصحابي ابن الصحابي المكيّ ابن عمّ رسول الله ﷺ، وكان يقال له: حِبْر الأُمّة، والبحر لكثرة علمه. رُوِيَ له عن النبيّ ﷺ ألف حديث وستّمائة حديث وستّون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم منها على خمسة وتسعين، وانفرد البخاري بمائة وعشرين، ومسلم بتسعة وأربعين. توفّي بالطائف سنة ثمان وستين، ومناقبه كثيرة مشهورة ﷺ.

قوله: (ابن الحنفية) هو أبو القاسم محمد بن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه المعروف بابن الحنفية، كان كثير العلم والورع وكان شديد القوّة، وله في ذلك أخبار عجيبة منها ما حكاه المبرّد في كتاب الكامل أنّ أباه عليًّا رضي الله تعالى عنه استطال درعًا كانت له، فقال: لينقص منها كذا وكذا حلقة، فقبض محمّد بإحدى يديه على ذيلها، وبالأخرى على فضلها، ثم جذبها فقطع من الموضع الذي حدّه أبوه، وقيل لمحمّد: كيف كان أبوك يقحمك المهالك ويُولجك المضائق دون أخويك الحسن والحسين، فقال: لأنّهما كانا عينيه، وكنت يديه،

رباني هذه الأمة. وعن (الحسن): ربانيين علماء فقهاء. وقيل: علماء معلمين. وقالوا: الرباني العالِم العامل ﴿بِمَا كُنتُمْ (تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ **كوفي وشامي أي غيركم غيرهم بالتخفيف**) ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي تقرؤون، والمعنى بسبب كونكم عالِمين وبسبب كونكم دارسين للعلم كانت الربانية التي هي قوة التمسك بطاعة الله مُسبّبة عن العلم والدراسة، وكفى به دليلًا على خيبة سعي مَن جهد نفسه وكدَّ روحه في جمع العلم ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل، فكان كمَن غرس شجرة حسناء تؤنّقه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها. وقيل: معنى «تدرسون» تدرسونه على الناس كقوله: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الإسراء: الآية ١٠٦] فيكون معناه معنى تدرسون من التدريس (**كقراءة ابن جبير**).

فكان يقي عينيه بيديه. ومِنْ كلامه: ليس بحكيم مَنْ لم يعاشر بالمعروف مَنْ لا يجد مِنْ معاشرته بدًّا حتى يجعل الله له فرجًا. وكانت ولادته لسنتين بقيتا من خلافة عمر، وتوفّي رحمه الله تعالى في أوّل المحرم سنة إحدى وثمانين للهجرة، وقيل غير ذلك.

قوله: (الحسن) البصري التابعي رضي الله تعالى عنه. **قوله: (**﴿تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾) بضم حرف المضارعة وفتح العين وكسر اللام مشدّدة من علم، فيتعدّى لاثنين أوّلهما محذوف، (**كوفيّ**) أي عاصم وحمزة والكسائي وخلف، (**وشاميّ**) أي ابن عامر الشامي (**أي غيركم غيرهم**) أي الباقون (**بالتخفيف**) أي بفتح حرف المضارعة وتسكين العين وفتح اللام من علم يعلم، فيعدّى لواحد.

قوله: (كقراءة ابن جبير) وهي شاذّة، وابن جبير هو سعيد بن جبير هو الإمام الجليل أبو عبد الله كذا كناه الجمهور، وقيل: أبو محمد سعيد بن جبير بن هشام الكوفي الأسدي الوالبيّ بالموحدة منسوب إلى ولاء بني والبة، ووالبة هو ابن الحارث بن ثعلبة بن دودان ـ بدالين مهملتين الأولى مضمومة ـ ابن أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس سمع سعيد جماعات من أئمّة الصحابة، منهم: ابن عمر، وابن عباس، وابن الزبير، وعبد الله بن مغفل، وأبو مسعود البدري، وأنس رضي الله تعالى عنهم وجماعات من التابعين. ورَوَى عنه جماعات من التابعين وغيرهم، وكان سعيد من كبار أئمّة التابعين ومتقدّمهم في التفسير والحديث والفقه والعبادة والورع وغيرها من صفات أهل الخير ومناقبه كثيرة مشهورة. قتله

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ بالنصب عطفًا على «ثم يقول» ووجهه أن تجعل «لا» مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله: «ما كان لبشر» والمعنى ما كان لبشر أن يستنبئه الله وينصبه للدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة وترك الأنداد ثم يأمر الناس بأن يكونوا عبادًا له ويأمركم ﴿أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ﴾ كما تقول: «ما كان لزيد أن أُكرمه ثم يهينني ولا يستخفّ بي» و(**بالرفع حجازي وأبو عمرو وعليّ**) على ابتداء الكلام، والهمزة في ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾ للإنكار والضمير في «لا يأمركم» و«أيأمركم» للبشر أو لله. وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ يدل على أن المخاطبين كانوا مسلمين وهم الذين استأذنوه أن يسجدوا له.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

(﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾) هو على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك، أو المراد ميثاق الأولاد النبيين وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف.

الحجاج بن يوسف صبرًا ظلمًا في شعبان سنة خمس وسبعين، ولم يَعِش الحجّاج بعده إلّا أيامًا، وكان عمر سعيد بن جبير قيل: تسعًا وأربعين سنة، هذا هو الأصح، ولم يذكر البخاري في تاريخه وغيره من الأئمّة سواه عن خلف بن خليفة، قال: حدّثني بواب الحجاج قال: رأيت رأس سعيد بن جبير بعدما سقط على الأرض يقول: لا إله إلّا الله، رضي الله تعالى عنه.

قوله: (**بالرفع**) أي برفع الراء (**حجازيّ**) إذا اجتمع أهل مكّة والمدينة قيل حجازي، أي ابن كثير المكي ونافع المدني، (**وأبو عمرو**) البصري (**وعليّ**) الكسائي. والباقون بنصب الراء.

قوله: (﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾) الآية. اعلم أنه قد تقرّر بين المسلمين أنّ نبيّنا عليه السلام أفضل من سائر الأنبياء، ولكن الكلام في بيان ما يثبت منه هذا الحكم، فقد تمسّك أهل العقائد على ذلك من الأحاديث الكثيرة، ومن قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠]؛ وذلك لأن خيرية الأمّة

....

تستلزم خيرية مَنْ هم في دينه؛ لأن هذه الأُمّة لمّا كانت خيرًا من جميع الأُمم كان نبيّهم خيرًا من جميع الأنبياء، وكذا الكتاب المُنْزل عليه خيرٌ من جميع الكتب المُنْزلة عليهم. وقد عُلِم منه أنه ليس في القرآن آية تدلّ على تفضيل نبيّنا عليه السلام صريحًا، وإنما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عِمران: الآية ١١٠] التزامًا.

وأقول: يُفهم من هذه الآية المذكورة وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ الآية، تفضيل نبيّنا عليه السلام صريحًا على قول ذلك؛ لأن مضمونه أنّ الله تعالى أخذ من النبيّين ميثاقًا بأنّي آتيتكم كتابًا وشريعة بشرط أن جاءكم نبيّ من بعدكم في آخر الزّمان يختم به النبوّة، وهو محمد رسول الله ﷺ، مصدّقٌ لِمَا معكم من الكتاب والحكمة لتؤمننّ به وتقرّونه وتنصرونه إن ظهر في زمانكم، ثم قال الله تعالى: (﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾) أي عهدي، (﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾) وآمنّا، فقال الله: (﴿فَٱشْهَدُوا۟﴾) أي أشهدوا بعضكم على بعض واشهدوا يا أيّها الملائكة وأنا أيضًا معكم شاهد، فمن أعرض بعد ذلك فأولئك هم المتمرّدون، وإذا كان هذا حكم الأنبياء كان الأُمم به أوْلى، والمعنى أنه أخذ الميثاق من النبيّين وأُممهم واستغنى بذكرهم عن ذكر الأُمم، وبالجملة لا شكّ أن إيمان جميع الأنبياء بنبيّنا وإقرارهم به إنما هو لتفضيله على سائر الأنبياء، وهذا هو ميثاق آخر غير الميثاق الذي أوثق الله به على إقرار الربوبية الذي سنذكره في سورة الأعراف، وإنما لم يتعرّض أهل العقائد لهذه الآية إمّا لأنهم غفلوا عنه، أو لأنهم رأوا فيه تأويلًا آخر أظهر مما ذكرته؛ لأنه يحتمل أن يكون المراد من ميثاق النبيّين ميثاق أولاد النبيّين بحذف المضاف، كما قاله البعض ويدلّ عليه قوله تعالى في تمام الآية: (﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾)؛ لأن الأنبياء لم يعرضوا عن كلمة الحقّ أصلًا، وإنما يعرض عنه أولادهم وهم بنو إسرائيل مثلًا أو يكونوا هم المرادون بالنبيّين تهكّمًا؛ لأنهم كانوا يقولون: نحن أوْلى بالنبوّة من محمّد، ويحتمل أن يكون المراد ميثاق النبيّين من غيرهم، لا الميثاق من النبيّين كما قيل، وكله ذُكِر في الكشاف والبيضاوي، ولأنه لم يأخذ الميثاق من الأنبياء فقط، بل إنه كما أخذه من الأنبياء على تصديق نبيّنا عليه السلام، كذلك أخذه من

والللام في ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ﴾ (لام التوطئة) لأن أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف، وفي «لتؤمنن» لام جواب القسم، وما يجوز أن تكون

نبيّنا على تصديقه سائر الأنبياء، ويكون الغرض من هذا الميثاق حينئذ هو الإعلام للكفار بأن لا عداوة بين الأنبياء ولا مُنازعة لهم فيما بينهم، بل أخذ من سائر الأنبياء الميثاق بأنكم تصدّقون بأن نبيّنا يأتي من بعدنا حقّ صادق دينه باقٍ إلى يوم القيامة وأخذ من نبيّنا الميثاق بأنّ الأنبياء المتقدّمين كانوا صادقين في تبليغ أحكام الشريعة مأمورين به لا يفعلون ما يفعلون من الأهواء النفسانية، وإنْ كان دينهم منسوخًا بديني، ويدلّ على هذا المعنى قوله تعالى في هذه الآية: (﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ﴾)، وقوله في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ۝٧﴾ [الآية ٧] إلى آخره، على تقدير أن يكون المراد منه الميثاق بتصديق كلّ منهم الآخر. وأمّا أن يكون به الميثاق لإجراء كلمة الله على الكفار، كما قيل: إنّ المذكورين في هذه الآية أولو العزم وقد وعدهم الله تعالى بتبليغ الأحكام وإرشاد الأنام، فهو العهد الآخر، ولهذا قيل: إنّ عهود الله كلّها ثلاثة: عهد أخذه على جميع ذرّية آدم عليه السلام بأن يقرّوا بربوبيّته، وعهد أخذه على النبيّين بأن يقيموا الدّين ولا يتفرّقوا فيه، وعهد أخذه على العلماء بأن يبيّنوا الحقّ ولا يكتموه، وذكروها في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [الرّعد: الآية ٢٥]، وبهذا القدر تمّ المقصود. اهـ التفسيرات الأحمدية.

قوله: (لام التوطئة) كأنها وطأت طريق جواب القسم، أي سهلت تفهم الجواب، وقيل: هي التي تدخل على الشرط بعد تقدم القسم لفظًا، أو تقديرًا ليؤذن أن الجواب له لا للشرط، لكن تجويزه كون ما موصولة يدلّ على أن الموطئة لا يجب[1] أن تدخل الشرط، ولقد صرّح بذلك حيث قال في قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ﴾ [الآية ١١١] اللام موطئة، وما مزيدة. اهـ

---

(١) كونها يجب دخولها على الشرط هو المشهور وخالف فيه بعض النحاة، وقال الزمخشري: إنه لا يجب دخولها على كلمة المجازاة، صرّح به في سورة هود في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ﴾ [الآية ١١١] في من قرأ بالتخفيف، ونقله الأزهري عن الأخفش. اهـ شهاب رحمه الله. ١٢ منه عمّ فيضهم.

متضمنة لمعنى الشرط و«لتؤمنن» ساد مسدّ جواب القسم والشرط جميعًا، وأن تكون موصولة (**بمعنى للذي آتيتكموه**) لتؤمننّ به ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾ معطوف على الصلة والعائد منه إلى ما محذوف والتقدير ثم جاءكم به ﴿رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ للكتاب الذي معكم ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ بالرسول ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ أي الرسول وهو محمد ﷺ (﴿لِمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾ **حمزة**) و«ما» بمعنى الذي، أو مصدرية أي لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب والحكمة ثم لمجيء رسول مصدّق لما معكم. واللام للتعليل أي أخذ الله ميثاقهم لتؤمننّ بالرسول ولتنصرنّه لأجل أني آتيتكم الحكمة، وأن الرسول الذي آمركم بالإيمان به ونصرته موافق لكم غير مخالف. («**آتيناكم**»: **مدني**) ﴿قَالَ﴾ أي الله (﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾) أي قبلتم عهدي، وسُمّي إصرًا لأنه مما يؤصر أي يشدّ ويعقد ﴿(قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا) قَالَ (فَٱشْهَدُوا۟)﴾ فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وأنا معكم على ذلك من إقراركم وتشاهدكم من الشاهدين، وهذا توكيد عليهم وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض. وقيل: قال الله للملائكة: اشهدوا.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

(﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾) الميثاق والتوكيد ونقض العهد بعد قبوله وأعرض عن الإيمان بالنبيّ الجائي (﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾) المتمردون من الكفار ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ﴾ دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطفة جملة على جملة، والمعنى فأولئك هم الفاسقون فغير دين الله يبغون، ثم توسطت الهمزة بينهما. ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره: أيتولون فغير دين الله يبغون. وقدّم

تفتازاني ﷺ. **قوله: (بمعنى للذي آتيتكموه)** قدّر الضمير لامتناع خلوّ الصّلة عن العائد وإمّا على تقدير الشرطية، فهي مفعول آتيتكم، والموصولة مبتدأ، ولتؤمنن به سادّ مسدّ جواب القسم وخبر المبتدأ، وعلى التحقيق الخبر محذوف، أي تؤمنون به. اهـ تفتازاني. **قوله:** (﴿لِمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾) بكسر اللام وتخفيف الميم على أنها لام الجرّ متعلقة بأخذ (**حمزة**) والباقون بالفتح. **قوله:** («**آتيناكم**») بالنون الألف بعدها بضمير المعظّم نفسه. (**مدنيّ**) أي نافع المدني وكذا أبو جعفر المدني، وليس من السبعة. والباقون بتاء مضمومة بلا ألف.

المفعول وهو غير دين الله على فعله لأنه أهم من حيث إن الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجّه إلى المعبود بالباطل ﴿يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الملائكة ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ الإنس والجن ﴿طَوْعًا﴾ بالنظر في الأدلة والإنصاف من نفسه ﴿وَكَرْهًا﴾ بالسيف أو بمعاينة العذاب **(كنتق الجبل)** على بني إسرائيل وإدراك الغرق فرعون **(والإشفاء على الموت)**، فلما رأوا **(بأسنا)** قالوا آمنا بالله وحده. وانتصب ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ على الحال أي طائعين ومُكرهين ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على الأعمال «يبغون» و«يرجعون» بالياء فيهما: حفص، وبالتاء في الثاني وفتح الجيم: أبو عمرو لأن الباغين هم المتولون والراجعون جميع الناس، وبالتاء فيهما وفتح الجيم: غيرهما.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (٨٤)﴾

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعمَّن معه بالإيمان فلذا وحَّد الضمير في «قل» وجمع في «آمنا» أو أمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالًا من الله لقدر نبيّه. وعُدِّي «أنزل» هنا بحرف الاستعلاء وفي البقرة بحرف الانتهاء لوجود المعنيين، إذ الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسول، فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالآخر. وقال صاحب اللباب: الخطاب في البقرة للأمة لقوله: ﴿قُولُوٓا۟﴾ فلم يصحّ إلا «إلى» لأن الكتب منتهية إلى الأنبياء وإلى أمتهم جميعًا، وهنا قال: «قل» وهو خطاب للنبي عليه السلام دون أمته فكان اللائق به «على» لأن الكتب منزلة عليه لا شركة للأمة فيه، وفيه نظر لقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: الآية ٧٢]، ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أولاد يعقوب وكان فيهم أنبياء ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ كرر في البقرة «وما أوتي» ولم يكرر هنا لتقدّم ذكر الإيتاء حيث قال: «لما آتيتكم» ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ من عند ربهم ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ

قوله: (كنتق الجبل) أي رفعه فوقهم. **قوله: (والإشفاء على الموت)** الإشراف عليه كأنه بلغ شفا الحياة واطّلع على مبادىء الموت. **قوله: (بأسنا)** أي شدّة عذابنا. اهـ جلالين.

﴿مِنْهُمْ﴾ في الإيمان كما فعلت اليهود والنصارى ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ موحدون مخلصون أنفسنا له لا نجعل له شريكًا في عبادتنا.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ﴾ يعني التوحيد وإسلام الوجه لله أو غير دين محمد عليه السلام ﴿دِينًا﴾ تمييز ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ من الذين وقعوا في الخسران ونزل في رهط أسلموا ثم رجعوا عن الإسلام ولحقوا بمكة.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ والواو في ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ للحال و«قد» مضمرة أي كفروا وقد شهدوا أن الرسول أي محمدًا حق، أو للعطف على ما في إيمانهم من معنى الفعل لأن معناه بعد أن آمنوا ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي الشواهد كالقرآن وسائر المعجزات ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي ما داموا مختارين الكفر، أو لا يهديهم طريق الجنة إذا ماتوا كفّارًا ﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ مبتدأ ثانٍ خبره ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ﴾ وهما خبر «أولئك» أو «جزاؤهم» بدل الاشتمال من «أولئك» ﴿وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ﴾ حال من الهاء والميم في «عليهم» ﴿فِيهَا﴾ في اللعنة ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الكفر العظيم والارتداد ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا أو دخلوا في الصلاح ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لكفرهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم. ونزل في اليهود.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعيسى والإنجيل ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ بموسى والتوراة ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ والقرآن، أو كفروا برسول الله ﷺ بعدما كانوا

به مؤمنين قبل مبعثه ثم ازدادوا كفرًا بإصرارهم على ذلك وطعنهم فيه في كل وقت أو نزل في الذين ارتدّوا ولحقوا بمكة. وازديادهم الكفر أن قالوا: نقيم بمكة نتربص بمحمد (ريب المنون) ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ أي إيمانهم عند البأس لأنهم لا يتوبون إلا عند الموت قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: الآية ٨٥]، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۝٩٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ﴾ الفاء في «فلن يقبل» يؤذِن بأن الكلام بُنِي على الشرط والجزاء، وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر، وترك الفاء فيما تقدم يُشعِر بأن الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبيب ﴿ذَهَبًا﴾ تمييز ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ أي فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يقال للكافر يوم القيامة لو كان لك ملء الأرض ذهبًا أكنت مفتديًا به؟ فيقول: نعم. فيقال له: لقد سُئِلت أيسر من ذلك»، قيل: الواو لتأكيد النفي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ معينين دافعين للعذاب.

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ۝٩٢﴾

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾ (لن تبلغوا حقيقة البرّ) أو لن تكونوا أبرارًا أو لن تنالوا بِرّ الله وهو ثوابه ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها وتؤثروها. وعن (**الحسن**): كل مَن تصدّق ابتغاء وجه الله بما يحبّه ولو تمرة فهو داخل في هذه الآية. قال (**الواسطي**): الوصول إلى البر بإنفاق بعض المحاب وإلى

قوله: (ريب المنون)[1] حوادث الدَّهر فيهلك كغيره.

قوله: (**لن تبلغوا حقيقة البرّ**) يريد أن اللام للجنس والحقيقة، والمعنى نيله الوصول إليه والاتّصاف به. **قوله:** (**الحسن**) البصري التابعيّ رضي الله تعالى عنه. **قوله:** (**الواسطيّ**) هو أبو بكر محمد بن موسى الواسطي خراساني الأصل من فرغانة صحب الجنيد والنوري عالِم كبير الشأن أقام بمرو ومات بها بعد العشرين وثلاثمائة.

---

(١) المنون: الدهر، فعول من منّه إذا قطعه، فإن الدهر يقطع الأعمار، وقد يُطلق على الموت؛ لأنه يقطع الأجل والرَّيْب ما يقلق النفوس من الحوادث. اهـ كمالين. ١٢ منه عمّ فيضهم.

الرب بالتخلّي عن الكونين، وقال (**أبو بكر الوراق**): لن تنالوا بِرّي بكم إلا ببرّكم بإخوانكم. والحال أنه لا وصول إلى المطلوب إلا بإخراج المحبوب. وعن (**عمر بن عبد العزيز**) أنه كان يشتري (**أعدال السكر**) ويتصدَّق بها فقيل له: لِمَ لا تتصدَّق بثمنها؟ قال: لأن السكر أحبّ إليّ فأردت أن أُنفق مما أُحب. ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي هو عليم بكل شيء تنفقونه فيُجازيكم بحسبه. و«من» الأولى للتبعيض لقراءة (**عبد الله**) «حتى تنفقوا بعض ما تحبون» والثانية للتبيين أي من أيّ شيء كان الإنفاق طيب تحبونه أو خبيث تكرهونه. ولما قالت اليهود للنبي عليه السلام: إنك تدّعي أنك على مِلّة إبراهيم وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها فقال عليه السلام: «كان ذلك حلالًا لإبراهيم فنحن نحلّه» فقالت اليهود: إنها لم تزل محرمة في ملّة إبراهيم ونوح عليهما السلام نزل تكذيبًا لهم.

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ أي المطعومات التي فيها النزاع فإن منها ما هو حرام قبل ذلك كالميتة والدم ﴿كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي حلالًا وهو مصدر. يقال حلّ

قوله: (أبو بكر) محمد بن عمر الحكيم (**الورّاق**) أصله من ترمذ، وأقام ببلخ. لقي أحمد بن خضرويه وصحب محمد بن سعد الزاهد ومحمد بن عمر البلخي، له التصانيف المشهورة في أنواع الرياضات والآداب والمعاملات.

قوله: (عمر بن عبد العزيز) الخليفة الراشد والإمام العادل القريشي الأُمويّ التابعيّ بإحسان أجمعوا على جلالته وفضله ووفور عِلْمه وصلاحه وزُهده وورعه وعدله وشفقته على المسلمين وحُسْن سيرته فيهم وبذل وسعه في الاجتهاد في طاعة الله، وحرصه على اتّباع آثار رسول الله ﷺ والاقتداء بسنّته وسنّة الخلفاء الرّاشدين، وهو أحد الخلفاء الراشدين ومناقبه أكثر من أن تُحصر.

قوله: (أعدال السكر) في لسان العرب: العِدْل نصف الحِمْل، يكون على أحد جنبي البعير، كالعدلين. قال الأزهري: العِدل اسم حِمْل معدول بحَمْل، أي مسوّى به، والجمع أعدال. اهـ. والسُّكَّر معرب شكر الفارسية. **قوله: (عبد الله)** بن مسعود الصحابي رضي الله تعالى عنه.

الشيء حلّاً ولذا استوى في صفة المذكر والمؤنث والواحد والجمع قال الله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [الممتحنة: الآية ١٠]، ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ﴾ أي يعقوب ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ **(وبالتخفيف مكي وبصري)** وهو لحوم الإبل وألبانها، وكانا أحبَّ الطعام إليه. والمعنى أن المطاعم كلها لم تزل حِلّاً لبني إسرائيل من قبل إنزال التوراة سوى ما حرَّم إسرائيل على نفسه، فلما نزلت التوراة على موسى حرم عليهم فيها لحوم الإبل وألبانها لتحريم إسرائيل ذلك على نفسه ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أمر بأن يحاجّهم بكتابهم و**(يبكتهم)** بما هو ناطق به من أن تحريم ما حرَّم عليهم تحريم حادث سبب ظلمهم وبغيهم لا تحريم قديم كما يدعونه، **(فلم يجرؤوا)** على إخراج التوراة **(وبهتوا)**. وفيه دليل بَيِّن على صدق النبي ﷺ وعلى جواز النسخ الذي ينكرونه.

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بزعمه أن ذلك كان محرَّمًا في ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعدما لزمهم من الحجة القاطعة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المُكابِرون الذين لا يُنصِفون من أنفسهم ولا يلتفتون إلى البيِّنات ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ في إخباره أنه لم يحرم وفيه تعريض بكذبهم أي ثبت أن الله تعالى صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهي ملّة الإسلام التي عليها محمد ﷺ ومَن آمن معه حتى تتخلصوا من اليهودية التي **(ورطتكم)** في فساد

قوله: (وبالتخفيف) أي بإسكان النون وتخفيف الزاي، **(مكيّ)** أي ابن كثير المكي، **(وبصريّ)** أي أبو عمرو البصري، وكذا يعقوب وليس من السبعة. والباقون بفتح النون وتشديد الزاي.

قوله: (يبكتهم) التبكيت كالتقريع والتعنيف وبكّته بالحجّة تبكيتًا: غلبه. اهـ مختار الصحاح. **قوله: (فلم يجرؤوا)** أي لم يجترؤوا. **قوله: (بُهِتوا)** أي تحيّروا.

قوله: (ورطتكم) الوَرْطة الهلاك وأورطه وورّطه توريطًا أي أوقعه في الوَرْطة. اهـ مختار الصحاح.

دينكم ودنياكم حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب الله (لتسوية) أغراضكم، وألزمتكم تحريم الطيبات التي أحلّها الله لإبراهيم ولمَن تبعه ﴿حَنِيفًاۖ﴾ حال من إبراهيم أي مائلًا من الأديان الباطلة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾

ولمّا قالت اليهود للمسلمين: قبلتنا قبل قبلتكم نزل ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ والواضع هو الله عزَّ وجلَّ. ومعنى وضع الله بيتًا للناس أنه جعله متعبّدًا لهم فكأنه قال: إن أول متعبّد للناس الكعبة وفي الحديث «إن المسجد الحرام وضع قبل بيت المقدس بأربعين سنة». قيل: أول مَن بناه إبراهيم. وقيل: هو أول بيت حجّ بعد الطوفان. وقيل: هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض. وقيل: هو أول بيت بناه آدم عليه السلام في الأرض. وقوله: «وضع للناس» في موضع جر صفة لـ «بيت» والخبر ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ أي للبيت الذي ببَكة وهي علم للبلد الحرام. ومكة وبكة لغتان فيه. وقيل: مكة البلد وبكة موضع المسجد. وقيل: اشتقاقها من بكه إذا زحمه لازدحام الناس فيها، أو لأنها (تبك) أعناق الجبابرة أي تدفعها لم يقصدها جبار إلا (قصمه الله). ﴿مُبَارَكًا﴾ كثير الخير لما يحصل للحجاج والمعتمرين من الثواب وتكفير السيئات ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنه قِبلتهم ومُتعَبَّدهم، و«مباركًا وهدى» حالان من الضمير في «وضع».

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ علامات واضحات لا تلتبس على أحد ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عطف بيان لقوله: «آيات بيِّنات». وصحَّ بيان الجماعة بالواحد لأنه وحده بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة الله تعالى، ونبوّة إبراهيم عليه السلام من

قوله: (لتسوية) أي لتحصيل.

قوله: (تبكّ) بابه ردّ. **قوله:** (قصمه الله) قيل: معناه أهانه وأذلّه، وقيل: قرّب موته. اهـ مصباح.

تأثير قدمه في حجر (**صلد**)، أو لاشتماله على آيات لأن أثر القدم في الصخرة (**الصمّاء**) آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، و(**إلانة**) بعض الصخرة دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصة على أن (﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾) عطف بيان لـ «آيات» ـ وإن كان (**جملة ابتدائية**) أو شرطية ـ من حيث المعنى لأنه يدلّ على أمْن داخله فكأنه قيل: فيه آيات بيّنات مقام لإبراهيم وأمْن داخله، والاثنان في معنى الجمع. ويجوز أن يذكر هاتان الآيتان ويطوي ذكر غيرهما دلالة على تكاثر الآيات كأنه قيل: فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم وأمْن داخله وكثير سواهما نحو انمحاق الأحجار مع كثرة (**الرماة، وامتناع الطير**) من العلو عليه (**وغير ذلك**)، ونحوه في طيّ الذِّكر قوله عليه السلام: «حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث الطِّيب والنساء وقرَّة عيني في الصلاة» فقرة عيني ليس من الثلاث بل هو ابتداء كلام لأنها ليست من الدنيا، والثالث مطوي وكأنه عليه السلام ترك ذِكر الثالث تنبيهًا على أنه لم يكن من شأنه أن يذكر شيئًا من الدنيا فذكر شيئًا هو من الدِّين. وقيل في سبب هذا الأثر أنه لمّا ارتفع بنيان الكعبة وضعف إبراهيم عليه السلام عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه. وقيل: إنه جاء زائرًا من الشام إلى مكة فقالت له امرأة إسماعيل عليه السلام: انزل حتى تغسل رأسك فلم ينزل، فجاءته بهذا الحجر فوضعته على شِقِّه الأيمن فوضع قدمه عليه حتى غسلت شِقَّ

قوله: (صَلْد) أي صُلْب[1] أملس. اهـ مختار الصحاح. **قوله:** (**الصمّاء**) أي الصُّلْب المصمت. **قوله:** (**إلانة**) إفعال من اللِّين. **قوله:** (**جملة ابتدائية**) المراد بالابتدائية المركّبة من المبتدأ والخبر على أنها ليست بشرطية. **قوله:** (**الرماة**) جمع الرامي. **قوله:** (**وامتناع الطَّير**) من العلوّ عليه، أي بل إذا قابل هواءه وهو في الجوّ انحرف عنه يمينًا أو شمالًا ولا يستطيع أن يقطع هواءه إلّا إذا حصل له مرض، فيدخل هواءه للتداوي. اهـ خازن. **قوله:** (**وغير ذلك**) في شرح الكشاف: أنّ منها أن أيّ ركن من أركان البيت وقع الغيث في مقابلته كان الخصب فيما يليه من البلاد. اهـ. وفي التفسيرات الأحمدية: وتلك الآيات الباقيات لعلّها هي إمالة القلوب إليها ودموع العين من رأيها وحضور أرواح الأولياء في كل ليلة الجمع حواليها. اهـ.

---

(١) أي شديد. اهـ مختار الصحاح. ١٢ منه عمّ فيضهم.

رأسه ثم حوَّلته إلى شِقِّه الأيسر حتى غسلت الشِّقَّ الآخر فبقي أثر قدميه عليه، وأمان مَن دخله بدعوة إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾ [إبراهيم: الآية ٣٥] وكان الرجل لو جنى كل جناية ثم التجأ إلى الحرم لم يطلب. وعن **(عمر بن الخطاب)** رضي الله عنه: لو ظفرت فيه بقاتل **(الخطاب)** ما مَسَسْتُهُ حتى يخرج منه. ومَن لزمه القتل في الحل **(بقود)** أو ردة أو زِنًا فالتجأ إلى الحرم لم يتعرَّض له إلا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج. وقيل: آمنًا من النار لقوله عليه السلام: («مَن مات في أحد الحرمين) بعث يوم القيامة آمنًا من النار» وعنه عليه السلام: («**الحجون**) والبقيع يُؤخَذ بأطرافهما ويُنشَران في الجنة» وهما مقبرتا مكة والمدينة.

قوله: (عمر بن الخطاب) بن نُفَيل، اتّفقوا على أنه أوّل من سمّي أمير المؤمنين، وإنما كان يقال لأبي بكر رضي الله تعالى عنه خليفة رسول الله ﷺ. رُوِيَ له عن رسول الله ﷺ خمسمائة حديث وتسعة وثلاثون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم منها على ستّةٍ وعشرين حديثًا، وانفرد البخاري بأربعة وثلاثين، ومسلم بأحد وعشرين، وأجمعوا على كثرة علمه ووفور فهمه وزهده وتواضعه ورفعه بالمسلمين وإنصافه ووقوفه مع الحقّ وتعظيمه آثار رسول الله ﷺ، وشدّة متابعته له واهتمامه بصالح المسلمين، وإكرام أهل الفضل والخير، وأحواله وفضائله وسيرته ورفقه برعيّته وتواضعه وجميل سيرته واجتهاده في الطاعة وفي حقوق المسلمين أشهر من أن تُذكر، وأكثر من أن تُحصر، وطُعِن عمر رضي الله تعالى عنه يوم الأربعاء لأربع ليالٍ بقين من شهر ذي الحجّة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، ودُفِن يوم الأحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين، وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وأحد وعشرين يومًا، وقيل غير ذلك.

قوله: (بقود) القَوَد ـ بالتحريك ـ القصاص. **قوله: (مَن مات في أحد الحرمين)**... الخ. أخرجه أبو داود الطيالسي والبيهقي والطبراني بأسانيد مختلفة، وفي الدرّ المنثور أخرج ابن المنذر عن عطاء: «**مَنْ ماتَ في الحرم بُعِث آمنًا، يقول الله: (﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾)**». وأخرج عن سلمان مرفوعًا: «**مَنْ مات في أحد الحرمين استوجب شفاعتي، وجاء يوم القيامة من الآمنين**». اهـ. وفي المقاصد الحسنة: ويُروى الأمن من فتنة القبر لمن مات في أحد الحرمين، أو في طريق مكة. اهـ. **قوله: (الحَجون)** بفتح الحاء.

وعنه ﷺ: **«مَن صبر على حَرِّ مكة ساعة من نهار تباعدت منه جهنم مسيرة مائتي عام»**.

قوله: «مَن صبر على حرِّ مكّة ساعة من نهار تباعدت منه جهنّم مسيرة مائتي عام» هكذا ذكره أبو الوليد الأزرقي في تاريخ مكّة. وفي التفسيرات الأحمدية: والمآل مِنْ ذكر الآية في هذا المقام أن قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾، وإن كان محتملًا للمعاني، مثل إنه آمَن مِنَ النار أو آمن من الجذام والبرص أو غيره، ولكن الأكثرون على أن معناه: مَنْ دخله في الجاهلية يصير آمنًا من القتل والغارة، ومَنْ دخله في الإسلام يصير آمنًا من الحدود والقصاص، على ما قال الإمام الزّاهد، فيُفهم منه ظاهرًا أنّ من جنى في غير الحرم ثم التجى إلى الحرم لم يُقْتل فيه، بل يكون آمنًا من القتل عندنا، وعند الشافعي رحمه الله: يُقتل فيه. وهذا الاختلاف مبنيّ على اختلاف آخر بيننا وبينه ذكره أهل الأُصول، وهو أنّ قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ عامّ باقٍ على عمومه عندنا، فكان قطعيًا. وعند الشافعي رحمه الله: عام مخصوص عند بعض أفراده، وبيانه: أنّ مَنْ عليه قصاصًا في الطرف مثل قطع اليد وغير ذلك إذا دخل في الحرم والتجى إليه يؤخذ منه ذلك في البيت بالاتّفاق، وكذا من جنى في الحرم واستحقّ له القتل يُقتل فيه بالاتّفاق؛ فالشافعي رحمه الله زعم أن هاتين الصورتين مخصوصتان من قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾، ثم قاس عليهما من جنى في غير الحرم واستحقّ به القتل، فالتجى إليه حيث قال: يُقتل فيه أيضًا وتمسّك بخبر الواحد أيضًا، وهو ما رُوي أنه قيل لرسول الله ﷺ يوم فتح مكّة أن حنظلة تعلّق بأستار الكعبة بعد الارتداد، فقال: **«اقتلوه»**. ونحن نقول: إنّ كلتا الصورتين ليستا بمخصوصتين؛ لأن النص لم يتناولهما، والمخصوص ما كان متناولًا أوّلًا ثم خصّ عنه؛ لأن مفهوم النص هو أنّ مَنْ جنى في غير الحرم ثم التجى إلى الحرم ودخل فيه بعد الجناية كان آمن الذات، ولم يتناول لمن جنى في عين الحرم، ولا لكونه آمن الطرف؛ ففي الصورة الأُولى وإنْ كان ذلك الرجل داخلًا في الحرم بعد الجناية لكنه آمن الذات، وإنما القصاص في الطّرف، والطّرف في حكم الأموال والنصّ لم يتناول لكونه آمن الطرف. وفي الصورة الثانية، إنما يُقتل لأنه ليس بداخل في الحرم بعد الجناية، وإنما الجناية وقعت بعد الدخول، فلما كان هاتان الصورتان غير مخصوصتين، فبالحريّ أن يكون الصورة المقيسة

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ أي استقر له عليهم فرض الحج (﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾: **كوفي غير أبي بكر**) وهو اسم وبالفتح مصدر. وقيل: هما لغتان في مصدر حج (﴿مَنِ﴾) في موضع جر على أنه بدل البعض من الكل (﴿ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ **فسّرها النبي عليه السلام بالزاد والرَّاحِلَة**). والضمير في «إليه» للبيت أو للحج

للشافعي رحمه الله باقية على ما اقتضاه النصّ؛ فمباح الدّم بردّة أو زنا أو قطع الطريق أو قصاص إذا التجى لا يُقتل ولا يُؤذى، ولكن لا يُطعم ولا يُسقى حتى يضطرّ إلى الخروج، ويؤيّده قول عمر رضي الله تعالى عنه: لو ظفرت بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه، وعند الشافعي رحمه الله: يُقتل لما مرّ من القياس وخبر الواحد، والحقّ ما ذكرناه، إلّا أن يقال: إن ضمير ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ﴾ راجع إلى البيت، فكيف يكون داخل الحرم آمنًا، بل ينبغي أن يكون داخل البيت وحده آمنًا لا غير، كما هو مذهب بعض أصحاب الشافعي رحمه الله؛ لأنّا نقول: إنه ثبت بنصٍّ آخر، وهو قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [العنكبوت: الآية ٦٧]، فلا فصل بين البيت وحرمه في كون كلٍّ منهما آمنًا، هكذا في حواشي البزدوي. اهـ.

قوله: (﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾) بكسر الحاء (**كوفي غير أبي بكر**) شعبة عن عاصم، أي حفص وحمزة والكسائي وخلف. والباقون بالفتح. **قوله:** (**فسّرها النبيّ ﷺ بالزّاد والرّاحِلَة**) اختلفوا في استطاعة السبيل، فعند الشافعي رحمه الله: هو الزّاد والراحلة، وسُئِل النبيّ ﷺ عن استطاعة السبيل، ففسّرها بالزَّاد والراحلة. وعند مالك: هو صحة البدن والقدرة على المَشْي والكسب الذي يحصل منه الزّاد والراحلة، وعند إمامنا الأعظم: صحة البدن والقدرة على الزّاد والراحلة مجموعها شرط، بل أمن الطريق أيضًا، هكذا قال القاضي الأجلّ وصاحب الحسيني. وقال صاحب الكشاف: ورُوِيَ أن رسول الله ﷺ فسّر الاستطاعة بالزّاد والراحلة، وكذا عن ابن عباس وابن عمر، وعليه أكثر العلماء. وعن الزبير: على قدر القوّة. ومذهب مالك: أن الرجل إذا وثق بقوّته لزمه، وعنه ذلك على قدر الطاقة وقد يجد الزّاد والراحلة مَنْ لا يقدر على السّفر، وقد يقدر عليه مَنْ لا راحلة له ولا زاد. وعن الضحاك: إذا قدر أن يؤاجر نفسه فهو مستطيع، هذا كلامه. وينبغي أن يُعلم أنه يشترط في الزّاد والراحلة أن يكون ذاهبًا وجائيًا جميعًا، ويكون فاضلًا عمّا يدعها إلى عياله لنفقتهم إلى حين عوده؛ لأن النفقة حقّ مستحقّة

وكل مأتي إلى الشيء فهو سبيل إليه. ولما نزل قوله تعالى: «ولله على الناس حجّ

للمرأة وحق العبد مقدَّم على حقّ الشرع، ويكتفي في الراحلة ما يكتري به شقّ محمل أو رأس زامل، وأنّ النبيّ عليه السلام وإنْ فسّر الاستطاعة بالزّاد والراحلة فقط، لكن يمكن أن يثبت كل من صحة البدن وأمن الطريق أيضًا من الآية، كما أشار إليه صاحب الهداية، حيث قال أولًا: وكذا صحة الجوارح؛ لأن العجز دونها لازم. وقال آخر: أو لا بدّ من أمْن الطريق؛ لأن الاستطاعة لا يثبت دونه، ثم قيل: هو شرط الوجوب حتى لا يجب عليه الإيصاء، وهو مرويٌّ عن أبي حنيفة، وقيل: شرط الأداء دون الوجوب؛ لأن النبيّ ﷺ فسّر الاستطاعة بالزّاد والراحلة لا غير، هذا كلامه. وإنّ في هذا المقام إشكالًا وهو أنهم شرطوا لوجوب الحجّ الحرية والبلوغ، وتمسّكوا بقوله عليه السلام: «**أيّما عبد حجّ عشر حجج ثم أعتق فعليه حجّة الإسلام، وأيّما صبيّ حجّ عشر حجج**[1] **ثم بلغ فعليه حجّة الإسلام**»، وكذا شرطوا الزوج أو المحرم للمرأة بقوله عليه السلام: «**لا يحجنّ امرأة إلّا ومعها محرم**»، والنصّ كان عامًّا من هذه القيودات، كما يشير إليه قوله تعالى: (﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾) بعد قوله تعالى: (﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾) بدلًا منه، ففهم منه أنّ كلّ مَن استطاع إليه يجب عليه الحجّ حرًّا كان أو عبدًا، صغيرًا كان أو بالغًا، رجلًا كان أو امرأة، فغايته أنه عامّ خصّ عنه بعض أفراده بالحديث فيكون ظنّيًا، فينبغي أن يكون الحجّ واجبًا لا فرضًا؛ لأنه وقع فيه شبهة، تأمّل وأنصف. وقال الإمام الزاهد: إنّ الله تعالى ذكر الحجّ مقرونًا بالناس في كلّ موضع، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحَج: الآية ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ [الحَجّ: الآية ٢٥] موافقةً لدعاء الخليل ولغيره، ولكن خُصّ في هذه الآية بقوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، يعني يملك الزّاد والراحلة، ولا يكون ثَمّة مانع من جهة السلطان وخوف الطريق والعدو، غير أن الفقير إذا حجّ يكون عن حجّة الإسلام؛ كالجمعة في حقّ القرويّ إذا قدم المصر يوم الجمعة. وإن

---

(١) جمع حِجّة مثل سِدرة وسِدَر، ١٢ مصباح.

البيت». جمع رسول الله ﷺ **(أهل الأديان كلهم)** فخطبهم فقال: «إن الله تعالى كتب عليكم الحج فحجّوا» فآمنت به ملّة واحدة وهم المسلمون، **(وكفرت به خمس مِلَل)** قالوا: لا نؤمن به ولا نصلّي إليه ولا نحجّه فنزل ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي جحد فرضية الحج وهو قول **(ابن عباس والحسن وعطاء)**، ويجوز أن يكون من

المعتزلة تمسّكوا بالآية على كون الاستطاعة قبل الفعل؛ لأنه شرط لا بدّ من سبقه. قلنا نحن: إن القدرة الحقيقة لا بدّ أن يكون مقارنًا للفعل؛ لأنه عرض لا يبقى زمانين والمذكور في الآية هو بمعنى سلامة الأسباب والآلات ولا نزاع في كونه مقدَّمًا، وتفصيله في علم الكلام. وذكر أهل الأصول أن قدرة الحجّ قدرة ممكنة لا ميسرة؛ لأن الميسرة إنما يقع بخدم ومراكب وأعوان لا بمركب واحد وزاد قليل، فإنه أدنى ما يقدر به، فلو هلك المال كان الوجوب باقيًا، كما في صدقة الفطر على ما هو شأن القدرة الممكنة. ويردّ عليه أنّ في القدرة الممكنة يكفي توهّم الوجود دون تحقّقه، فلمّا أوجبوا الصلاة على من أدرك جزءًا يسيرًا من الوقت لتوهّم امتداده بوقف الشمس، كما كان لسليمان مع أنه نادر، فلأن يجب الحجّ ماشيًا مع غلبة وقوعه كان أوْلى. وأُجيب عنه بأنّ في الصلاة يظهر ثمرته في وجوب القضاء بخلاف الحجّ، فإنه لا قضاء فيه، هذا ما قالوا. اهـ التفسيرات الأحمدية.

قوله: (أهل الأديان كلّهم) بالنصب تأكيدًا لأهل الأديان، والأنسب كلّها بالجرّ تأكيدًا للأديان؛ إذ لم يجمع الأهل كلّهم، وكان المراد التأكيد بحسب الإضافة إلى الأديان. اهـ تفتازاني رحمه الله. **قوله: (وكفرت به خمس ملل)**، هم اليهود والنصارى والصابئون والمجوس والمشركون[1] على ما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٢] الآية، فالإشراك إنْ كان ملة هي عبادة الأوثان فظاهر، وإلا فتغليب. اهـ التفتازاني رحمه الله. **قوله: (ابن عباس)** أي عبد الله بن عباس الصحابي ابن الصحابي رضي الله تعالى عنهما. **قوله: (والحسن)** البصري التابعي رضي الله تعالى عنه. **قوله: (وعطاء)** هو ابن أبي رباح، وهو المراد حيث

---

(١) والمراد بهم عَبَدة الأوثان، وهم على دين إبراهيم، لكنهم ضيّعوه، فهم باعتبار الأصل من أهل الملّة، وإلا فهو تغليب. اهـ قنوي رحمه الله. ١٢ منه عمّ فيضهم.

الكفران أي ومَن لم يشكر ما أنعمت عليه من صحة الجسم وسعة الرزق ولم يحج ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مُسْتَغْنٍ عنهم وعن طاعتهم. وفي هذه الآية أنواع من التأكيد والتشديد: منها اللام و«على» **(أي أنه حق واجب)** لله في رِقاب الناس، ومنها الإبدال ففيه تثنية للمراد وتكرير له، ولأن الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين، ومنها قوله: و«من كفر» مكان ومَن لم يحجّ تغليظًا على تارِكي الحج، ومنها ذكر الاستغناء وذلك دليل على **(المقت)** والسخط، ومنها قوله: «عن العالمين» وإن لم يقل عنه وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء **(لا محالة)**، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل فكان أدلّ على عِظَم السخط الذي وقع عبارة عنه.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ الواو للحال والمعنى لِمَ تكفرون بآيات الله الدَّالَّة على صدق محمد عليه السلام والحال **(إن الله شهيد)** على أعمالكم فيجازيكم عليها؟!

أطلق، واسم أبي رباح أسْلَم، وكنيته عطاء، أبو محمد المكي القريشي مولى ابن خُشَيْم القريشي الفهري، وعطاء معدود في كبار التابعين، وُلد في آخر خلافة عثمان بن عفان، ونشأ بمكّة وسمع العبادلة الأربعة ابن عمر، وابن عباس، وابن الزبير، وابن أبي العاص وجماعات آخرين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم. روى عنه جماعات من التابعين، كعمرو بن دينار، والزهري، وقتادة وآخرين وخلائق من غيرهم، وهو من مفتي أهل مكّة وأئمّتهم المشهورين حجّ عطاء سبعين حجّة، واتّفقوا على توثيقه وجلالته وإمامته. توفّي بمكّة، قال الجمهور: سنة خمس عشرة ومائة، وقيل: أربع عشرة ومائة، وقيل: سبع عشرة رضي الله تعالى عنه. **قوله: (أي أنه حقّ واجب)** بيان لما يُفيده لام الملك. **قوله: (المقت)** في المصباح مَقَته مقتًا من باب قتل أبغضه أشدّ البغض عن أمرٍ قبيح.اهـ. **قوله: (لا مَحالة)** أي لا بدّ.

قوله: (إنّ الله شهيد) الشهيد بمعنى العالم المطّلع.

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾ الصّدّ المنع ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ على دين حق علم أنه سبيل الله التي أمر بسلوكها وهو الإسلام، وكانوا يمنعون مَن أراد الدخول فيه بجهدهم ومحل ﴿تَبْغُونَهَا﴾ **(تطلبون لها)** نصب على الحال ﴿عِوَجًا﴾ اعوجاجًا وميلًا عن القصد والاستقامة بتغييركم صفة رسول الله ﷺ عن وجهها ونحو ذلك ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أنها سبيل الله التي لا يصدّ عنها إلا ضالّ مُضِلّ ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الصَّدّ عن سبيله وهو وعيد شديد. ثم نهى المؤمنين عن اتّباع هؤلاء الصّادّين عن سبيله بقوله:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ قيل: مرَّ **(شاس بن قيس اليهودي)** على نفر من الأنصار **(من الأوس والخزرج)** في مجلس لهم يتحدثون، فغاظه تحدّثهم وتآلفهم فأمر شابًا من اليهود أن يذكرهم **(يوم بعاث)** لعلهم يغضبون، وكان يومًا اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس، ففعل فتنازع القوم عند ذلك وقالوا: **(السلاح السلاح)**. فبلغ النبي عليه السلام فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال: «أتدعون

قوله: (تطلبون لها)... الخ. إشارة إلى أن عِوجًا مفعول به وضميرها من الحذف والإيصال؛ لأن بغى متعدّي لمفعولين أحدهما بنفسه، والآخر باللام كما صرّح به أهل اللغة.

قوله: (شاس) بمعجمة في أوّله ومهملة في آخره **(ابن القيس اليهوديّ)** وهو رجل كان عظيم الكفر شديد الطَّعن على المسلمين شديد الحسد. **قوله: (من الأوس والخزرج)**... الخ. الأوْس والخزرج جَدَّا الأنصار، وكانا أخوين. **قوله: (يوم بُعاث)** ـ بضم الباء الموحدة وفتح العين المهملة وألف وثاء مثلثة ـ يُصرف ولا يُصرف، اسم حصن أو بستان وقعت الحرب عنده بين الأوس والخزرج، وكان الغلبة في ذلك اليوم لأوْس، والغين المعجمة تصحيف. **قوله: (السلاح السلاح)** بالنصب على الإغراء، أي خذوا السلاح، والسلاح ـ بالكسر ـ ما يُقاتَل به في

الجاهلية وأنا (**بين أظهركم**)» بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وألَّف بينكم؟ فعرف القوم أنها (**نزغة**) من الشيطان فألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضًا باكين فنزلت الآية:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ معنى الاستفهام فيه الإنكار والتعجب أي من أين يتطرَّق إليكم الكفر ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ والحال أن آيات الله وهي القرآن المُعجِز تُتلى عليكم على لسان الرسول (**غضَّة طرية**) ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ وبين أظهركم رسول الله عليه السلام ينبِّهكم ويعظكم ويزيح عنكم شُبَهكم ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ ومَن يتمسك بدينه أو بكتابه، أو هو حَثٌّ لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفَّار ومكايدهم ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أرشد إلى الدين الحق، أو ومَن يجعل ربه ملجأً و(**مفزعًا**) عند الشُّبَه يحفظه عن الشُّبَه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ واجب تقواه وما يحق منها وهو القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم. و(**عن عبد الله**) هو أن يُطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى. أو هو أن لا تأخذه في الله لومة لائم ويقوم بالقسط

الحرب ويدافع، والتذكير أغلب من التأنيث، فيجمع على التذكير أسلحة[1]، وعلى التأنيث سلاحات. **قوله:** (**بين أظهركم**) بمعنى بينكم. **قوله:** (**نزغة**) في المصباح: نزغ الشيطان بين القوم **نزغًا** من باب نفع أفسد. اهـ.

قوله: (**غضَّة طرية**) في لسان العرب: **الغَضّ** الطريّ الذي لم يتغيّر. اهـ. وأيضًا فيه شيء طريّ، أي غضّ بيِّن الطراوة. اهـ. قال العلامة التفتازاني: **قوله:** (**غضّة طرية**) مستفاد من المضارع الدالّ على الحال، أعني تُتلى. اهـ. **قوله:** (مفزعًا) في المصباح: فزعت إليه لجأت، وهو مفزع، أي ملجأ.

قوله: (**عن عبد الله**) أي عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه هكذا هو مرويّ في التفاسير وكتب الحديث، وصححه أبو نعيم في الحلية، ووقع في نسخة

---

(١) كحِمَار وأخمِرة ورِداء وأردِية. اهـ. ١٢ منه عمّ فيضهم.

ولو على نفسه أو بنيه أو أبيه. وقيل: لا يتقي الله عبد حقّ تقاته حتى **(يخزن)** لسانه. **(والتقاة)** مَن اتّقى كالتؤدة من اتأد ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ **(ولا تكونن على حال)** سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت.

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ تمسكوا بالقرآن لقوله ﷺ: («**القرآن حبل الله المتين لا تنقضي**) عجائبه **(ولا يخلق عن كثرة الرّدّ)**، مَن قال به صدق، ومَن عمل به رشد، ومَن اعتصم به هُدِيَ إلى صراط مستقيم» ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير المخاطبين. وقيل: تمسكوا بإجماع الأمة دليله ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ﴾ أي ولا تتفرقوا يعني ولا تفعلوا ما يكون عنه التفرّق ويزول معه الاجتماع، أو ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما اختلفت اليهود والنصارى، أو كما كنتم متفرّقين في الجاهلية يحارب بعضكم بعضًا ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ كانوا في الجاهلية بينهم العداوة والحروب فألّف بين قلوبهم بالإسلام وقذف في قلوبهم المحبة فتحابّوا وصاروا إخوانًا ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا

بدل ابن مسعود ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وهو مخالف للمنقول.اهـ شهاب رحمه الله. وعبارة الخازن: قال ابن عباس: هو أن يُطاع فلا يُعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى.اهـ. فافهم. **قوله: (يخزن)** بابه نصر. **قوله: (والتُّقاة)** أصلها وُقيَة قُلِبت الواو المضمومة تاء كما في تراث وتجاه والياء ألفًا من اتّقى أصله أو تقى كالتُّؤْدة من اتّأد، ومعناه تثبت ولبث. **قوله: (ولا تكونن على حال)** يعني أن النّهي راجع إلى القيد.اهـ تفتازاني رحمه الله.

قوله: (القرآن حبل الله المتين) أي المُحكم القويّ والحبل مستعار للوصل، ولكل ما يتوصّل به إلى شيء، أي الوسيلة القوية إلى معرفة ربّه وسعادة قربه **(لا تنقضي)** عجائبه أن لا تنتهي غرائبه التي يتعجّب منها، **(ولا يخلق)** بفتح الياء وضمّ اللام وبفتح الياء وكسر اللام من خلق الثوب إذا بَلِي. **(عن كثرة الردّ)** أي لا تزول لذّة قراءته وطراوة تلاوته واستماع أذكاره وأخباره من كثرة تكراره.

﴿حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وكنتم (مشفين) على أن تقعوا في نار جهنم لما كنتم عليه من الكفر ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بالإسلام وهو ردٌّ على المعتزلة، فعندهم هم الذين ينقذون أنفسهم لا الله تعالى. والضمير للحفرة أو للنار أو للشفا، (**وأنث لإضافته إلى الحفرة**). وشفا الحفرة: (**حرفها**)، ولامها واو فلهذا يثني شفوان ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك البيان البليغ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي القرآن الذي فيه أمر ونهي ووعد ووعيد ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لتكونوا على رجاء الهداية أو لتهتدوا به إلى الصواب وما ينال به الثواب.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

(﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾) بما استحسنه الشرع والعقل (﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾) عمّا استقبحه الشرع والعقل، أو المعروف ما وافق

قوله: (مشفين) أي مشرفين، فإن الإشفاء على الشيء والإشراف عليه بمعنًى، وهو الوصول إلى طرفه. **قوله: (وأنث لإضافته إلى الحفرة)** يعني أن المضاف اكتسب التأنيث من المضاف إليه. **قوله: (حرفها)** أي طرفها.

قوله: (﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾) الآية. اعلم أنه قد تقرّر بين العلماء أن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر من فروض الكفاية، والآيات الدالّة على فرضيّته غير مقصورة ولا محصورة، وكذا الأحاديث في هذا الباب لا تعدّ ولا تُحصى، وإنما اخترت هذه الآية من بين أخواتها لأنها أوّل آية في القرآن في هذا الباب وأظهرها فيه؛ إذ صيغة الأمر فيها موجودة بعينها، ففرضيّته ثبتت من قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن﴾؛ لأنه أمر، والأمر للوجوب ما لم يصرف عنه عارض، وكونه كفاية يُفهم من قوله تعالى: ﴿مِّنكُمْ﴾؛ لأن مِنْ هٰهنا للتبعيض على المختار، وإن جاز كونه للتبيين كما قال صاحب المدارك وغيره، ومن للتبعيض لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية، ثم قال: أو للتبيين، أي وكونوا أُمّة تأمرون؛ كقوله تعالى: (﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾) الآية، ومعنى الآية: ولتكن بعض منكم أُمّة يدعون الناس إلى الخير، أي الأفعال الحَسَنة الموافقة للشرعية، ويأمرون بالمعروف أي الشيء الذي يستحسنه الشارع والعقل، (﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾) أي الشيء الذي يستقبحه الشارع والعقل والمعروف ما

الكتاب والسُّنَّة. والمنكر ما خالفهما، أو المعروف الطاعة والمنكر المعاصي. والدعاء إلى الخير عامٌّ في التكاليف من الأفعال والتروك وما عطف عليه خاص.

وافق الكتاب والسنّة، والمنكر ما خالفهما، أو المعروف الطاعات والمنكر المعاصي، والدعاء إلى الخير عامّ في التكاليف من الأفعال والتروك وما عطف عليه خاص، ثم الأقرب في معنى الكفاية هٰهنا إن اشتغل بها أحد في المجلس سقط عن الجميع، وإن لم يفعلها أحدًا ثم الجميع بمنزلة ردّ السلام وجواب العطسة لا بمنزلة صلاة الجنازة، فإنّها باعتبار المَحلّة والبلد يدلّ عليه ما رُوِي عن أبي بكر الصدِّيق رضي الله تعالى عنه، أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ قوم عَمِلوا بالمعاصي وفيهم مَنْ يَقْدِر أنْ يُنكر عليهم فلم يفعل، إلّا يُوشك أن يعمَّهم الله بعذابٍ من عنده**». وما نُقِل عن أبي سعيد الخدري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ رأى منكم منكرًا فليُغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**». وما نُقِل أيضًا أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إيّاكم والجلوس في طرقات**»، قالوا: ما لنا منه بدّ، إنما هي مجالسنا نتحدّث فيها، قال: «**فإذا أبَيْتم إلا ذلك، فأعطوا الطريق حقّها**»، قالوا: وما حقّ الطريق؟ قال: «**غضّ البصر، وكفّ الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**». فيُفهم من هذه الأحاديث كلها أنّ في كل مجلس وقع فيه خلاف الشرع يفرض على من قدر مِنْ واحدٍ منهم ردّه، لا على سبيل التعيّين، فيكون فرض كفاية بهذا المعنى، وإن لم ينصّ بها رواية، بل وجدت خلافها، ومن تصدّى نفسه للأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر واشتغل بهذه الحرفة أو نصبه الإمام لأجله يكون ذلك عليه فرض عين، ويسمّى ذلك محتسبًا، ولم يتعرّض لأمثاله هذه المباحث أحد من الفحول مثل ما تعرّض له السيد علي الهمداني في كتابه الفارسي المسمّى بذخيرة الملوك، فمن أراد الاطّلاع عليها فليرجع إليه. ثم ذكروا له شرائط أن يكون ذلك تحت قدرته، وأن لا يكون مُوجِبًا للفتنة والفساد وزيادة الذّنوب، كما صرّح به في المواقف، ويدلّ عليه قوله عليه السلام: «**فإن لم يستطع**» في الحديث السابق، ولعلّهم لهذا قالوا: إنّ الأمر باليد إلى الأُمراء، وباللّسان إلى العلماء، وبالقلب إلى العوام، وأن لا يسأله: أتفعل كذا؟ ألا تفعل كذا؛ لأنه تجسّسٌ منهيٌّ عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ [الحُجرَات: الآية ١٢] صرّح به في المواقف أيضًا، وأن لا يأمر

و«من» للتبعيض لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية، ولأنه لا يصلح له إلا مَن عَلِم بالمعروف والمنكر وعَلِم كيف يرتِّب الأمر في إقامته فإنه

بما لا يفعله بنفسه، وإنْ كان لا يشترط عمله على جميع الشرائع، بل على قدر المأمور به فقط؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢﴾ [الصَّف: الآية ٢]، ولقوله تعالى: ﴿۞أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾ [البَقَرَة: الآية ٤٤] وأمثال ذلك، فإن أراد أن يأمر بالمعروف ينبغي أن يأمر أولًا به نفسه، ثمّ على عياله وأطفاله وعشيرته؛ كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ [التّحريم: الآية ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢١٤]، ثم على غيرهم صرّح به في بعض الرسائل، ولكن قال القاضي في تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البَقَرَة: الآية ٤٤]، والمراد به حثّ الواعظ على تزكية النفس والإقبال عليها بالتكميل لتقوّم فيقيم غيره لا منع الفاسق عن الوَعظ، فإنّ الإخلال بأحد الأمرين المأمور بهما لا يوجب الإخلال بالآخر. وأيضًا قال: هو في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ﴾ الآية، والأمر بالمعروف يكون واجبًا ومندوبًا على حسب ما يأمر به، والنهي عن المنكر واجبٌ كلّه؛ لأن جميع ما أنكره الشرع حرام، والأظهر أن القاضي يجب أن يُنهى عما يرتكبه، لأنه يجب عليه تركه وإنكاره، فلا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر، هذا لفظه. وصرّح بكل ذلك صاحب الكشاف، وذكر أن شرط النهيِ أنْ يعلم الناهي أنّ ما ينكره قبيح، وأنْ لا يكون ما ينهى عنه واقعًا، وأن لا يغلب على ظنّه أن المنهيّ يزيد في منكراته، وأن النهي لا يؤثره، وأن شرط الوجوب أن يغلب على ظنّه وقوع المعصية، وأن لا يغلب على ظنّه أنه إن أنكر لحقته مضرّة عظيمة، وأنّ الأمر هو لكل مكلّف وغير المكلّف إذا همَّ بضرر غيره مُنع؛ كالصبيان والمجانين ينهى عن المحرّمات لعدم الاعتياد، كما يؤمرون بالصلاة لذلك، هذا حاصل كلامه. وذكر صاحب المدارك أيضًا: أنه ينبغي أن يكون عالمًا بطريقه وترتيب إقامته، فإنه يبدأ أوّلًا بالسهل واللّينة والتواضع حتى يؤثر فيه، فإن لم ينتفع ترقّى إلى الصعب. ألا ترى أنه كيف قال الله أولًا في مسألة البغي: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ [الحُجرَات: الآية ٩]، ثم قال آخرًا: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ﴾ [النِّسَاء: الآية ٧٦]، وهذا بحثٌ طويل مذكور في الكتب.

يبدأ بالسهل فإن لم ينفع ترقّى إلى الصعب قال الله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾. ثم قال: ﴿فَقَٰتِلُواْ﴾ [الحجرات: الآية ٩]. أو للتبيين أي وكونوا أمة تأمرون كقوله تعالى:

وبالجملة، ففرضيّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ممّا لا شبهة فيه ثبت ذلك بالآيات والأحاديث، وعليه انعقد الإجماع. وأمّا قوله تعالى: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾)، فلا يدلّ على عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنهم قد صرَّحوا بأنّ هذه الآية إنما نزلت في حقّ صحابة أحبّوا إيمان جميع الكفار، يعني أن الكافرين جميعًا إذا لم يؤمنوا فلا يضرّكم كفرهم إذا اهتديتم بأنفسكم، لا في حقّ مَنْ يحبّون الأمر بالمعروف، وقد ذكر صاحب الإتقان فيه كلامًا عجيبًا، حيث قال: من عجيب الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ الآية؛ إذ أوّله منسوخ، وهو قوله تعالى: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾، وآخره ناسخ وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾؛ لأن الأوّل دالّ على نفي الأمر بالمعروف، والآخر يدلّ على ثبوته؛ إذ معناه: إذا اهتديتم بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ولا يخفى ركاكة دعوى النسخ هٰهنا على مَنْ له نوع مهارة في علم الأُصول؛ إذ شرط الناسخ أن يكون كلامًا مستقلاً مُتراخيًا عمّا قبله. وقال الإمام الزاهد: إنّه قرأ أبو بكر الصدّيق هذه الآية، وقال: يا أصحابي لا يغرنّكم هذه الآية في ترك الأمر بالمعروف، فإنّ الله تعالى قال: ﴿إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ ولم يقل: إذا صلّيتم أو صُمتم، ومن جملة الاهتداء الأمر بالمعروف، وهذا الكلام أحسن؛ إذ ليس فيه دعوى النسخ. وقال صاحب الكشاف: إنه ليس المراد ترك الأمر بالمعروف، بل المخاطَب به من يتأسّف على الكفرة والفَسَقة بالكفر والمعاصي، بحيث يذكر معائبهم أبدًا. وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: أن زمانه ليس اليوم، بل يُوشك أن يأتي زمان تأمرون فلا يُقبل منكم، فحينئذ عليكم أنفسكم. ومثله عن أبي ثعلبة الخُشَنِيّ[1]، هذا حاصل ما فيه. وهكذا قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩﴾ [الأعلى: الآية ٩]؛ لأنه يدلّ على انتفاء الأمر بالمعروف وقت عدم النفع؛ لأنه أيضًا في حقّ تبليغ الإيمان إلى

(١) بضم الخاء وفتح الشين المعجمتين وبعدهما نون منسوب إلى خشين الخانة وهو بطن من قضاعة، ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي هم (**الأخصاء**) بالفلاح الكامل قال عليه السلام: «مَن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه» وعن عليّ رضي الله عنه: أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟﴾ بالعداوة ﴿وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ في الديانة وهم اليهود والنصارى فإنهم اختلفوا وكفر بعضهم بعضًا ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ المُوجِبَة للاتفاق على كلمة واحدة وهي كلمة الحق ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ونصب ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ أي وجوه المؤمنين بالظرف وهو لهم أو بعظيم أو باذْكروا ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي وجوه الكافرين. والبياض من النور والسواد من الظلمة ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُم﴾ فحذف الفاء، والقول جميعًا (**للعلم به والهمزة**) للتوبيخ والتعجب من حالهم ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ يوم الميثاق فيكون المراد به جميع الكفار وهو قول (**أُبي**) وهو الظاهر، أو هم المرتدّون أو المنافقون أي (﴿أَكَفَرْتُم﴾) باطنًا بعد إيمانكم ظاهرًا، أو أهل الكتاب، وكفرهم بعد الإيمان تكذيبهم برسول الله ﷺ بعد اعترافهم به قبل مجيئه ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

الكفّار، فهو منسوخ؛ إذ الشرط على وفاق العادة، أو أن معنى عن عدم نفع الذكرى لهم، أو أن بمعنى قد، كما صرّح به في كتب التفسير وغيرها، والله أعلم. اهـ التفسيرات الأحمدية. **قوله: (الأخِصَّاء)** جمع الأخصّ.

قوله: (للعلم به) أي لأنه جواب إمّا. **قوله: (والهمزة)**... الخ. أي الاستفهام في قوله: (﴿أَكَفَرْتُم﴾) لا جواب له؛ لأنه استفهام على طريق التوبيخ والتعجّب.

قوله: (أُبيّ) بن كعب السيّد القارىء الأنصاريّ الخزرجيّ رضي الله تعالى عنه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ﴾ ففي نعمته وهي الثواب المخلد. ثم استأنف فقال: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (لا يظعنون) عنها ولا يموتون.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الواردة في الوعد والوعيد وغير ذلك ﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ﴾ مُلتبِسَة ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾ والعدل من جزاء المُحسِن والمُسيء (﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾) أي لا يشاء أن يظلم هو عباده فيأخذ أحدًا بغير جرم، أو يزيد في عقاب مجرم، أو يُنقِص من ثواب مُحسِن.

قوله: (لايظعنون) في المصباح: ظعن ظَعْنًا من باب نفع ارتحل. اهـ. **قوله:** (﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾)، اعلم أنّ الله تعالى إنما يعذّب مَنْ يعذّبه باستحقاق، ولا يعاقبه بلا جرم، ولا يزيد في عقاب المجرم على قدر استحقاقه، ولا يُنْقص من ثواب المُحسن شيئًا مما وعده بمقابلة عمله، وظلمًا نكرة في سياق النفي، فيعمّ جميع أنواع الظلم، والعالمين جمع محلّى باللام، فيفيد العموم أيضًا؛ فالمعنى ما يريد شيئًا من الظلم لأحدٍ من خلقه، كيف والظلم وضع الشيء في غير موضعه والتصرّف في ملك الغير، وهو تعالى إنما يتصرّف في ملك نفسه، ووضع الشيء في غير موضعه قد يكون بمنع حقّ المستحقّ منه، وقد يكون بفعل ما يمنع منه، ولا ينبغي له أن يفعله، وكل ذلك لا يتصوّر في حقّه تعالى، فيستحيل تصوّر الظلم من الله تعالى، فإنه لا حقّ عليه لأحد فيظلم بنقصه ولا يمنع عن شيء فيظلم بفعله، بل هو المالك على الإطلاق يفعل ما يشاء بقدرته، ويحكم ما يريد بحكمته، فكلّ ما جاء منه فهو مَحْض حكمة وعدل، لا يقال: إنه تعالى قد مدح نفسه بعدم كونه مريدًا للظلم، ولو استحال صدور الظلم منه تعالى لما كان وصفه تعالى بذلك مدحًا لنفسه، فإنه يمدح الملك بأنه لا يظلم رعيّته ولا يمدح أضعف رعاياه بأنه لا يظلم على الملك؛ لأنّا نقول: لا نسلم أنّ المدح بالشيء يقتضي إمكانه في حقّ مَنْ مُدِحَ به، ألا ترى أنه تعالى يُمْدح بقوله: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥]، وبقوله: ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾ [الأنعَام: الآية ١٤]، ولا يلزم من ذلك جواز النوم والأكل عليه، فكذا هنا.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ١٠٩﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ١٠٩﴾ (فيجازي) المُحسِن بإحسانه والمُسيء بإساءته. («ترجع». شامي وحمزة وعلي. كان عبارة عن وجود الشيء) في زمان ماضٍ على سبيل الإبهام، ولا دليل فيه على عدم سابق ولا على انقطاع طارىء ومنه قوله:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ١١٠﴾

(﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾) كأنه قيل: وجدتم خير أمة أو كنتم في علم الله أو في اللوح خير أُمة، أو كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة موصوفين به

قوله: (فيجازي)... الخ. بيان لارتباط الكلام بعضه ببعض. **قوله:** (ترجع) بفتح التاء وكسر الجيم. (شاميّ) أي ابن عامر الشامي. (وحمزة وعليّ) الكسائي، والباقون بضم التاء وفتح الجيم. **قوله:** (كان عبارة عن وجود الشيء) يعني الوجود بصفة؛ لأن الكلام في كان الناقصة. وأمّا التامّة، فمعناها وجد، بمعنى صار موجودًا، وهو معنى وقع وحدث، ولا يبعد أن يدّعي فيها الدّلالة على عدم سابق. وأمّا الناقصة، فلا دلالة فيها على ذلك، ولا على الدوام، ولها معنى الإبهام، فلذلك يستعمل فيما هو حادث، مثل: كان زيد راكبًا، وفيما هو دائم: مثل كان الله غفوراً رحيمًا، فقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ لا يدلّ على أنهم لم يكونوا خيرًا فصاروا خيرًا، وانقطع ذلك عنهم، وليس معنى قوله: وجدتم خير أمّة أنها تامّة على ما توهم؛ لظهور أنها ناقصة. اهـ تفتازاني رحمه الله.

قوله: (﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾)... الخ. فالآية تدلّ على خيريّة الأُمّة، ولا شكّ أن ذلك لكمالهم في الدِّين، فيستلزم خيريّة نبيِّهم الذي هم في دينه، كما يشير إليه قول مَنْ قال:

لـمّا دعى الله داعينا لطاعته ... بأكرم الرسل كنا أكرم الأُمم

هكذا قالوا، ويدلّ أيضًا على فضيلة الأمر بالمعروف، وذلك ظاهر، وقد تمسّك به الإمام فخر الإسلام البزدوي وغيره على كون إجماعهم حجّة؛ لأنه من

﴿أُخْرِجَتْ﴾ أظهرت ﴿لِلنَّاسِ﴾ اللام يتعلق بـ «أخرجت» ﴿تَأْمُرُونَ﴾ كلام مُستأنف بيَّن به كونهم خير أُمة كما تقول: «زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم» بيَّنت بالإطعام والإلباس وجه الكرم فيه ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان وطاعة الرسول ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ عن الكفر وكل محظور ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وتدومون على الإيمان به أو لأن الواو لا تقتضي الترتيب ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ بمحمد ﷺ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ لكان الإيمان خيرًا لهم مما هم فيه لأنهم إنما **(آثروا)** دينهم على دين الإسلام حُبًّا للرياسة واستتباع العوام، ولو آمنوا لكان لهم من الرياسة والأتباع وحظوظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله، مع الفوز بما وعدوا على الإيمان به من إيتاءِ الأجْر مرتين ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمرِّدون في الكفر.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ إلا ضررًا مقتصرًا على أذى بقول مَن طعن في الدين أو تهديد أو نحو ذلك ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ منهزمين ولا يضرّوكم بقتلٍ أو أسْر ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ثم لا يكون لهم نصر من أحد ولا يمنعون منكم، وفيه تثبيت لمَن أسلم منهم لأنهم كانوا يؤذونهم بتوبيخهم وتهديدهم وهو ابتداء

ثمرات خيريّتهم في الدِّين. وقال القاضي الأجلّ: ويستدلّ بهذه الآية على أنّ الإجماع[1] حجّة، لأنه يقتضي كونهم آمرين بكل معروف ناهين عن كلّ منكر؛ إذ اللام فيهما للاستغراق، ولو أجمعوا على باطل كان أمرهم على خلاف ذلك، هذا كلامه. اهـ التفسيرات الأحمدية.

قوله: (آثروا) أي اختاروا.

---

(١) أي إجماع هذه الأمة، لأنها لا تجتمع على الضلالة، كما نطق به الحديث، ودلّت عليه هذه الآية، بالالتزام لأنهم إذا أمروا بكل معروف ونهوا عن كل منكر لم يمكن اجتماعهم على منكر، وإلا لم ينهوا عنه لاتّفاقهم عليه. اهـ شهاب. ١٢ منه عمّ فيضهم.

إخبار معطوف على جملة الشرط والجزاء وليس بمعطوف على «يولوكم» إذ لَوْ كان معطوفًا عليه لقيل ثم لا يُنصَروا، وإنما استؤنف ليُؤذن أن الله لا ينصرهم قاتلوا أم لم يقاتلوا، وتقدير الكلام: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا ثم أخبركم أنهم لا يُنصَرون. و«ثم» للتراخي في المرتبة لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار.

﴿ضُرِبَتْ﴾ ألزمت ﴿عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ أي على اليهود ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ وجدوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في محل النصب على الحال، والباء متعلق بمحذوف تقديره إلا معتصمين أو متمسكين بحبل من الله ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ والحبل العهد والذِّمَّة، والمعنى ضُرِبَت عليهم الذلَّة في كل حال إلا في حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس يعني ذمّة الله وذمّة المسلمين أي لا عزّ لهم قطّ إلا هذه الواحدة وهي التجاؤهم إلى الذِّمَّة لما قبلوه من الجزية (﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾) استوجبوه ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ الفقر عقوبة لهم على قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: الآية ١٨١] أو خوف الفقر مع قيام اليسار ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ذلك إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلّة والمسكنة والبوء بغضب الله أي ذلك كائن بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق. ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ أي ذلك الكفر وذلك القتل كائن بسبب عصيانهم لله واعتدائهم لحدوده.

﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ ليس أهل الكتاب مستوين ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ كلام مستأنف لبيان قوله: «ليسوا سواء» كما وقع قوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بيانًا لقوله: ﴿كُنتُمْ

قوله: (﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ٦١]) أي استوجبوه، عبارة تفسير البيضاوي: رجعوا به مستوجبين له.اهـ. قال العلامة الشهاب عليه رحمة الله الوهاب.

قوله: (رجعوا به)... الخ إشارة إلى أن أصل معنى باء رجع، وأن الرجوع به كناية عن استحقاقه واستيجابه، من قولهم: باء فلان بفلان إذا كان حقيقًا أن يقتل به، أي صاروا أحقاء بغضبه، وهو إرادة الانتقام منهم.اهـ.

خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ جماعة مستقيمة عادلة من قولك: «أقمت العود فقام» أي استقام وهم الذين أسلموا منهم ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ ساعاته (واحدها «إني») كـ «معي» أو «إنو» كقنو (أو «إني» كـ «نحي») ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يصلّون. قيل: يريد صلاة العشاء لأن أهل الكتاب لا يصلونها. وقيل: عبَّر عن تهجّدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل مع السجود.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان وسائر أبواب البر ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن الكفر ومَنهيَّات الشرع ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يبادرون إليها خشية الفوت. وقوله: «يتلون» و«يؤمنون» في محل الرفع صفتان لأُمة أي أُمة قائمة تالون مؤمنون. وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود من تلاوة آيات الله بالليل ساجدين ومن الإيمان بالله، لأن إيمانهم به كلا إيمان لإشراكهم به عزيرًا وكفرهم ببعض الكتب والرُّسُل ومن الإيمان باليوم الآخر لأنهم يصفونه بخلاف صفته، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنهم كانوا (مُداهنين)، ومن المسارعة في الخيرات لأنهم كانوا مُتباطئين عنها غير راغبين فيها، والمسارعة في الخير (فرط الرغبة) فيه لأن مَن رغب في الأمر سارع بالقيام به ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما وصفوا به ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من المسلمين أو من جملة الصالحين الذين صَلُحَت أحوالهم عند الله ورضيهم.

قوله: (واحدها «إني») بكسر الهمزة وفتح النون كمِعًى جمعه أمْعاء، أو إنوِ ـ بكسر الهمزة وسكون النون ـ كقِنْوٍ بمعنى العِذْق جمعه أقْناء وقِنْوان أيضًا. (أو «إني») بالكسر والسكون (كـ «نحي») جمعه أنحاء، فالهمزة منقلبة عن واو أو ياء وهو منصوب على الظرفيّة متعلّق بيتلون أو بقائمة.

قوله: (مداهنين) المُداهنة المداراة مجازًا من الدّهن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. اهـ شهاب ﷺ. **قوله:** (فرط الرّغبة) في مختار الصحاح: أفرط في الأمر جاوز فيه الحدّ، والاسم منه الفَرْط ـ بالتسكين ـ يقال: إيّاك والفرط في الأمر. اهـ.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

(﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ **بالياء فيهما كوفي غير أبي بكر وأبو عمرو. مُخيَّر غيرهم بالتاء. وعُدِّي «يكفروه» إلى مفعولين**) وإن كان شكر وكفر لا يتعديان إلا إلى واحد تقول شكر النعمة وكفرها ـ لتضمنه معنى الحرمان كأنه قيل: فلن تُحرَموه، أي فلن تُحرَموا جزاءه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ بشارة للمتقين (**بجزيل**) الثواب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي من عذاب الله ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في المفاخر والمكارم وكسب الثناء وحُسْن الذِّكر بين الناس أو ما يتقرَّبون به إلى الله مع كفرهم ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ كمثل (**مهلك**) ريح وهو الحرث أو مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ برد شديد عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو مبتدأ وخبر في موضع جر صفة لـ «ريح» مثل ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ عقوبة على كفرهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بإهلاك حرثهم ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بارتكاب ما استحقّوا به العقوبة، أو يكون الضمير للمنفقين أي وما ظلمهم الله بأن لم يقبل نفقاتهم ولكنهم ظلموا

قوله: (﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ بالياء فيهما كوفي غير أبي بكر) شعبة عن عاصم، أي حفص وحمزة والكسائي وخلف، (**وأبو عمرو**) البصري (**مخير**). اخْتُلِف عن الدوري عن أبي عَمْرو، فرُوِيَ عنه من طريق ابن فرح بالغيب، ورُوِي عنه من طريق ابن مجاهد عن أبي الزّعراء التخيير بين الغيب والخطاب فيهما، وصحّح الوجهين عنه في النشر، قال: إلا أن الخطاب أكثر وأشهر. (**غيرهم بالتاء**) الفوقية على الخطاب فيهما. **قوله: (وعُدِّي يكفروه إلى مفعولين)** نائب الفاعل والهاء. **قوله: (بجزيل)** أي عظيم.

قوله: (مهلك) على صيغة المفعول.

أنفسهم حيث لم يأتوا بها لائقة للقبول. ونزل نهيًا للمؤمنين عن **(مصافاة)** المنافقين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً﴾ بطانة الرجل ووليجته خصيصه وصفيّه شبه ببطانة الثوب كما يقال («**فلان شعاري**») وفي الحديث («**الأنصار شعار والناس دثار**) ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ من دون أبناء جنسكم وهم المسلمون وهو صفة لبطانة أي بطانة كائنة من دونكم مجاوزة لكم ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ في موضع النصب صفة لبطانة يعني **(لا يقصرون)** في فساد دينكم يقال: «ألا في الأمر يألو» إذا قصر فيه، والخبال الفساد. وانتصب «خبالًا» على التمييز أو على حذف في أي في خبالكم ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي عنتكم فـ «ما» مصدرية. والعنت شدة الضرر والمشقة أي تمنوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشد الضرر وأبلغه، وهو مستأنف على وجه التعليل للنهي عن اتخاذهم بطانة كقوله: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ لأنهم لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم أن **(ينفلت)** من ألسنتهم ما يعلم به بعضه للمسلمين ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ﴾ مع البغض لكم ﴿أَكْبَرُ﴾ مما بدا ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾

قوله: (مصافاة) أي مودة.

قوله: **(فلان شعاري)** الشِّعار ـ بالكسر ـ اللّباس الذي يلي الجسد، سمّي به لأنه يلي شعره، والدِّثار ما يُلبس فوقه. **قوله:** **(الأنصار شعار والناس)** المراد بالناس هنا سوى الأنصار (دِثار) وسمّى الأنصار **شعارًا** لأنه يلي الشعر، ولأنه علامة لصاحبه، وهذا الحديث رواه الشيخان، قاله صلّى الله عليه وآله وسلّم حين فتح حنينًا في حديثٍ طويل، أي أنّهم الخاصّة والبطانة، ولا يلزم منه كونهم أفضل من المهاجرين؛ إذ يوجد في المفضول من المفاخر ما لا يوجد في الفاضل، فوجود هذه الخصلة في الأنصار دون المهاجرين لا يقتضي تفضّلهم عليهم؛ إذ المهاجرين أفضل من الأنصار. **قوله:** **(لا يقصرون)** من التقصير. **قوله:** **(ينفلت)** أي يخرج بسرعة.

الدَّالَّة على وجوب الإخلاص في الدين وموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما بين لكم.

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ﴾ «ها» للتنبيه و«أنتم» مبتدأ و«أولاء» خبره أي أنتم أولاء الخاطئون في موالاة منافي أهل الكتاب ﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ بيان لخطئهم في موالاتهم حيث يبذلون محبتهم لأهل البغضاء، أو أولاء موصول صلته «تحبونهم». والواو في ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ للحال وانتصابها من «لا يحبونكم» أي لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله وهم مع ذلك يبغضونكم، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم؟ وفيه توبيخ شديد لأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم. وقيل: الكتاب للجنس. ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ أظهروا كلمة التوحيد ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ فارقوكم أو خلا بعضهم ببعض ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ **(يوصف المغتاظ والنادم)** بعض **(الأنامل والبنان والإبهام)** ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به، والمراد بزيادة الغيظ زيادة ما يغيظهم من قوة الإسلام وعزّ أهله ومالهم في ذلك من **(الذل)** والخزي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فهو يعلم ما في صدور المنافقين من **(الحنق)** والبغضاء وما يكون منهم في حال خلو بعضهم ببعض، وهو داخل في جملة المقول أي أخبرهم بما يسرّونه من عضّهم الأنامل غيظًا إذا خلوا وقل لهم: إن الله عليم بما هو أخفى مما تسرُّونه بينكم وهو مضمرات الصدور، فلا تظنوا أن شيئًا من أسراركم يخفى

قوله: (يوصف المغتاظ والنّادم) لأنهما يفعلان ذلك عند الغيظ والنَّدم. **قوله: (الأنامل)** في المصباح: الأنملة من الأصابع العقدة وبعضهم يقول: الأنامل رؤوس الأصابع، وعليه قول الأزهري: الأنملة المفصل الذي فيه الظفر، وهي بفتح الهمزة وفتح الميم أكثر من ضمّها، وابن قتيبة يجعل الضمّ من لحن العوام، وبعض المتأخّرين من النحّاة حكى تثليث الهمزة مع تثليث الميم، فيصير تسع لغات. **قوله: (البنان)** في مختار الصِّحاح: البنانة واحدة البنان، وهي أطراف الأصابع. اهـ. **قوله: (الإبهام)** الأصبع العظمى، وهي مؤنّثة، وجمعها أباهيم. اهـ مختار الصحاح. **قوله: (الذُّل)** ضد العزّ. **قوله: (الحَنَق)** الغيظ.

عليه أو خارج عن المقول، أي قل لهم ذلك يا محمد ولا تتعجب من إطلاعي إياك على ما يسرّون فإني أعلم بما هو أخفى من ذلك وهو ما أضمروه في صدورهم.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ **(رخاء وخِصب)** وغنيمة ونصرة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تحزنهم إصابتها ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أضداد ما ذكرنا. والمسّ مستعار من الإصابة فكأن المعنى واحد، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ [التوبة: الآية ٥٠]، ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ بإصابتها ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ على عداوتهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ ما نهيتم عنه من موالاتهم، أو أن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه وتتقوا الله في اجتنابكم محارمه ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ مكرهم وكنتم في حفظ الله، وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يُستعَان على كيد العدو بالصبر والتقوى. وقال الحكماء: إذا أردت أن **(تكبت)** مَن يحسدك فازدد فضلًا في نفسك. («**لا يضركم**»: **مكي وبصري ونافع من ضارَّه يضيره بمعنى ضرّه**) وهو واضح. والمشكل قراءة غيرهم لأنه جواب الشرط وجواب الشرط مجزوم فكان

قوله: (رَخاء) بالفتح. **قوله:** (وخِصْب) بالكسر ضد الجَدْب. **قوله: (تكبت)** الكَبْتُ الصرف والإذلال، يقال: كبت الله العدوّ، أي صرفه وأذلّه وبابه ضرب. اهـ مختار الصحاح. **قوله: (لا يضركم)** بكسر الضاد وجزم الراء جوابًا للشرط. **(مكيّ)** أي ابن كثير المكيّ، **(وبصريّ)** أي أبو عمرو البصري، وكذا يعقوب البصري، وليس من السبعة. **(ونافع)** المدني **(منْ ضارَّه يضيره بمعنى ضرّه)** والأصل: يضيركم كيغلبكم، نُقِلت كسرة الياء إلى الضاد فحُذِفت الياء للساكنَيْن، والكسرة دالّة عليها، والباقون بضم الضاد ورفع الراء مشدّدة على أن الفعل مرفوع لوقوعه بعد فاء مقدّرة، والجملة جواب الشرط على حدّ مَنْ يفعل الحسنات الله يشكرها، أي فالله. وجعله الجعبريّ وتبعه النويري مجزومًا، والضمّة ليست إعرابًا كلم يرد؛ إذ الأصل يضرركم كينصركم نقلت ضمّة الراء الأُولى إلى الضاد ليصحّ الإدغام، ثم سكِّنت للجزم، فالتقى ساكنان، فحُرِّكت الثانية له لكونها طرفًا، وكانت ضمّة للاتباع. اهـ إتحاف.

ينبغي أن يكون بفتح الراء كقراءة (**المفضل**) عن عاصم، إلا أن ضمة الراء (**لإتباع ضمة الضاد**) نحو «مد يا هذا» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بالتاء: (**سهل**) أي من الصبر والتقوى وغيرهما ﴿مُحِيطٌ﴾ ففاعل بكم ما أنتم أهله. وبالياء: غيرهُ أي أنه عالم بما يعملون في عداوتكم فمعاقبهم عليه.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾

﴿(وَإِذْ غَدَوْتَ) مِنْ أَهْلِكَ﴾ واذكر يا محمد إذ خرجت غدوة من أهلك بالمدينة، (**والمراد غدوة من حجرة عائشة** ﵂) إلى أُحد ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

قوله: (**المفضل**) بن محمد الضبّي. **قوله:** (**لإتباع ضمة الضاد**)، هذا ما قالوا: إن في المجزوم والأمر من المضاعف المضموم العين يجوز الفتح للخفّة والكسر لأجل تحريك الساكن والضمّ للاتّباع، فلا حاجة إلى ما قيل: إنه مرفوع بتقدير الفاء. اهـ تفتازاني ﵀. **قوله:** (**سهل**) بن محمد بن عثمان السجستاني البصري، وليس من السبعة.

قوله: (**والمراد غدوة**) الغدوّ الخروج أوّل النهار، يقال: غدا يغدو من باب سَمَا، أي خرج **غُدْوة**، ويُستعمل بمعنى صار عند بعضهم، فيكون ناقصًا يرفع الاسم وينصب الخبر، وعليه قوله عليه الصّلاة والسلام: «**لو توكّلتم على الله حقّ توكّله لزرقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصًا وتروح بِطانًا**». اهـ. وهذا المعنى الثاني ممكن هنا، فالمعنى عليه: (﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾)، أي صرت تبوىء المؤمنين، أي تنزل في منازل، وهذا أظهر من المعنى الآخر؛ لأن المذكور في القصة أنه سار من أهله بعد صلاة الجمعة، وبات في شعب أحد وأصبح ينزل أصحابه في منازل القتال، ويدبّر لهم أمر الحرب. اهـ جمل.

قوله: (**من حجرة عائشة رضي الله تعالى عنها**) إشارة إلى أنه على تقدير مضاف؛ إذ المعنى: من عند أهلك، وعائشة ـ بهمزة بعد الألف ـ وعامّة المحدثين يبدلونها ياء. اهـ. كذا أفاده العلّامة الشهاب في نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض، وهي الصدِّيقة عائشة بنت أبي بكر الصدّيق أُمّ المؤمنين أفقه النساء مطلقًا وأفضل أزواج النبيّ ﷺ، إلا خديجة؛ ففيه خلاف شهير. ماتت سنة سبع وخمسين على الصحيح رضي الله تعالى عنهم.

تنزّلهم (وهو حال) ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ مواطن ومواقف (من الميمنة والميسرة والقلب والجَناحين والساقة). و«للقتال» يتعلق بـ «تبوىء» ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوالكم عليم بنيّاتكم وضمائركم. رُوِيَ أن المشركين نزلوا بأحد (يوم الأربعاء) فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه ودعا (عبد الله بن أُبَيّ) فاستشاره فقال: أقم بالمدينة فما خرجنا على عدو قطّ إلا أصاب منّا، وما دخلوا علينا إلا أصبنا منهم. فقال عليه السلام: إني رأيت في منامي (بقرًا مذبحة) حولي (فأوّلتها خيرًا)، ورأيت في (ذباب سيفي ثلمة فأوّلتها هزيمة)، ورأيت كأني

قوله: (وهو حال) أي قاصدًا تبوييء المؤمنين؛ لأن وقت الغدوّ ليس وقتًا للتبوييء، ويحتمل أن تكون مقارنةً؛ لأن الزَّمان متّسع. اهـ جمل. **قوله:** (من الميمنة والميسرة والقلب والجناحين والساقة) في لسان العرب: جناحا العسكر: جانباه. اهـ. وفي حاشية الجمل: قوله: جناحا العسكر، أي الجيش، ويسمّى خميسًا لأنه خمسة أقسام: قلب، وهو وسطه؛ ساقه، وهي مؤخّره؛ ومقدمة، وهي أوّله؛ وجناحان، وهما جانباه يمينًا وشمالًا. اهـ شيخنا. اهـ. فافهم. **قوله:** (يوم الأربعاء) ممدود، وهو بكسر الباء ولا نظير له في المفردات، وإنما يأتي وزنه في الجمع، وبعض بني أسد بفتح الباء والضمّ لغة قليلة فيه. اهـ مصباح.

قوله: (عبد الله بن أُبيّ) ابن سلول المنافق، وسلّول أمّ عبد الله، فلهذا قال العلماء: الصواب في ذلك أن يقال: عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول ـ بتنوين أُبي ـ وكتابة ابن سلول بالألف ويعرب إعراب عبد الله؛ لأنه صفة له لا لأبيّ، وكان عبد الله بن أُبيّ رئيس المنافقين ونزل في ذمّه آيات كثيرة مشهورة، وتوفي في زمن رسول الله ﷺ وكفّنه في قميصه قبل النهي عن الصلاة على المنافقين، وإنما صلّى عليه لكرامة ابنه وإحسانًا وكرمًا وحلمًا. **قوله:** (بقرًا مذبَّحة) أي القطيع من البقر. اهـ تفتازاني. أي جماعة لأنه اسم جمع واحده بقرة، ولذا وصفها بقوله: مذبوحة. اهـ قنوي رحمه الله. **قوله:** (فأوّلتها خيرًا) لم يذكره؛ لأن المراد كثرة الشهداء، وجعله خيرًا لِمَا فيه من الأجر العظيم. **قوله:** (ذباب سيفي) ذباب[1] السيف: طرفه الذي يضرب به ويذب. **قوله:** (ثلمة) بالمثلثة بمعنى الكسر. **قوله:** (فأوّلتها هزيمة)

---

(١) بالذال المعجمة المضمومة، سُمّي ذبابًا لأن من شأنه أن يدفع به الأعداء. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(أدخلت يدي في درع حصينة) فأولتها المدينة، فلم يزل به قوم (ينشطون في الشهادة) حتى (لبس لأمته) ثم (ندموا) فقالوا: الأمر إليك يا رسول الله فقال ﷺ: («لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته) فيضعها حتى يقاتل» فخرج بعد صلاة الجمعة وأصبح (بالشِّعب) من أحد يوم السبت (للنصف من شوال).

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿إِذْ هَمَّت﴾ بدل من «إذ غدوت» أو عمل فيه معنى «عليم» ﴿طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ حيان من الأنصار: (بنو سلمة) من الخزرج وبنو حارثة من الأوس. وكان ﷺ خرج إلى أحد في ألف، والمشركون في ثلاثة آلاف، ووعدهم الفتح إن صبروا (فانخذل عبد الله بن أُبَيّ) بثلث الناس وقال: (علام) نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فهم الحيان باتباعه فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ أي بأن تفشلا أي بأن (تجبنا) وتضعفا والفشل الجبن و(الخور) ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾

في النهاية: فأوّلته أن يُصاب رجل من أهلي، فقُتل حمزة رضي الله تعالى عنه. **قوله: (أدخلت يدي في درع حصينة)** في المصباح: دِرْع الحديد مؤنّثة في الأكثر. اهـ. وإدخال يده في الدِّرع تحصين أصحابه بها دونه؛ لأنه معصوم، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المَائدة: الآية ٦٧] الآية. قنوي وشهاب رحمهما الله. **قوله: (ينشطون في الشهادة)** في المصباح: نَشِط في عمله ينشَطُ من باب تعب خفّ وأسرع نشاطًا، وهو نشيط. اهـ. **قوله: (لَبِس لأْمَتَهُ)** بالهمزة، وتُبْدل ألفًا بمعنى الدِّرع، وقيل: السلاح وهو الصواب، لأنه قد مرّ أنه عليه السلام لم يلبس الدِّرع، والقول بأنه لَبِسه حين الخروج ولم يلبسه حين المحاربة ضعيف. اهـ قنوي. **قوله: (ندموا)** من باب طرب. **قوله: (لا ينبغي لنبيّ أن يلبس لأْمَته)**... الخ. أي عزم أن يرجع. **قوله: (بالشِّعب)** ـ بالكسر ـ الطريق في الجبل. **قوله: (للنّصف من شوّال)** سنة ثلاث من الهجرة.

قوله: (بنو سلمة) بكسر اللام. **قوله: (فانخزل عبد الله بن أُبَيّ)** أي انقطع ورجع لنفاقه. **قوله: (عَلَامَ)** أي لأيّ شيء. **قوله: (تجبنا)** في المصباح: جَبُن جُبْنًا وزان قرب قربًا، وجَبَانة بالفتح، وفي لغة: من باب قتل، فهو جَبَان، أي ضعيف القلب، وامرأة جَبَان أيضًا، وربما قيل: جَبَانة، وجمع المذكر جُبَناء، وجمع المؤنّث جَبَانات. اهـ. **قوله: (الخَوَر)** ـ بفتحتين ـ الضعف، تقول: خار يخور

محبهما أو ناصرهما أو متولي أمرهما فما لهما تفشلان ولا تتوكلان على الله ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أمرهم بأن لا يتوكلوا إلا عليه ولا يفوضوا أمورهم إلا إليه. قال (**جابر بن عبد الله: والله ما يسرّنا أنّا لم نهمّ بالذي هَمَمْنا به وقد أخبرنا الله بأنه وليّنا**). ثم ذكرهم ما يوجب عليهم التوكّل مما يسّر لهم من الفتح

خَوَرًا. اهـ مختار الصِّحاح. **قوله: (جابر بن عبد الله)** الصحابي ابن الصحابي رضي الله تعالى عنهما، هو أبو عبد الله، وقيل: أبو عبد الرحمٰن، وقيل: أبو محمد جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام ـ بالراء ـ ابن ساردة ـ بالسين المهملة ـ ابن تزيد ـ بالتاء المثناة فوق ـ ابن جُشَم ابن الخزرج الأنصاري السلمي ـ بفتح السين واللام ـ المدني، وهو أحد المكثرين الرواية عن رسول الله ﷺ، رُوِيَ له ألف حديث وخمسمائة حديث وأربعون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم منها على ستّين حديثًا، وانفرد البخاري بستّةٍ وعشرين، ومسلم بمائةٍ وستّة وعشرين، ومناقبه كثيرة. استشهد أبوه يوم أُحد، فأحياه الله وكلّمه: يا عبد الله ما تريد؟ فقال: أن أرجع إلى الدنيا فأستشهد مرّة أخرى، وثبت في صحيح مسلم عن جابر قال: غزوت مع رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة ولم أشهد بدرًا ولا أُحدًا، منعني أبي، فلمّا قُتِل أبي يوم أُحد لم أتخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوةٍ قطّ. توفّي جابر بالمدينة سنة ثلاث وسبعين، وقيل: ثمان وسبعين، وقيل: ثمان وستّين، وهو ابن أربع وتسعين سنة رضي الله تعالى عنه، وكان ذهب بصره في آخر عمره وحيث أطلق جابر في هذه الكتب، فهو جابر بن عبد الله، وإذا أراد ابن سمرة قيّده.

قوله: (والله ما يسّرنا أنا لم نهمّ بالذي همَمْنا به، وقد أخبرنا الله بأنه وليّنا) عبارة صحيح البخاريّ: (حدّثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان ابن عيينة قال: قال عمرو: هو ابن دينار، سمعت جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما يقول: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، قال: أي جابر، نحن طائفتان: بنو حارثة هم من الأَوْس، وبنو سلمة بكسر اللام وهم من الخزرج وما نحب. وقال سفيان ابن عيينة في روايته مرّة: وما يسرّني بدل وما نحبّ، أنها أي الآية لم تنزل لقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾. ومفهومه أنّ نزولها سرّه لما حصل لهم من الشرف، وتثبيت الولاية، ودلّ ذلك على أنه سرّتهم تلك الهمّة العارية عن العزم).

يوم بدر وهم في حال قلّة وذلّة فقال:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ وهو اسم ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدرًا فسُمّي به، أو ذكر بدرًا بعد أُحُد للجمع بين الصبر والشكر. ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ لقلة العدد فإنهم **(كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر)**، وكان عدوهم **(زهاء)** ألف مقاتل **(والعُدد)**، فإنهم خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد وما كان معهم إلا فرس واحد، ومع عدوهم مائة فرس **(والشِّكة والشوكة)**. وجاء بجمع القلّة وهو «أذلة» ليدلّ على أنهم على ذلّتهم كانوا قليلًا «فاتَّقُوا اللَّهَ» في الثّبات مع رسوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بتقواكم ما أنعم الله به عليكم من النصر.

قوله: (كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر)، وفي رواية: وثلاثة عشر رجلًا ستّة وسبعون من المهاجرين، وبقيّتهم من الأنصار. في المصباح: بِضْعٌ في العدد ـ بالكسر ـ وبعض العرب يفتح، واستعماله من الثلاثة إلى التسعة، وعن ثعلب: من الأربعة إلى التسعة يستوي فيه المذكّر والمؤنّث، فيقال: بضع رجال وبضع نسوة، ويُستعمل أيضًا من ثلاثة عشر إلى تسعة عشر، لكن تثبت الهاء مع المذكّر وتُحذف مع المؤنّث كالنيِّف، ولا يُستعمل فيما زاد على العشرين، وأجازه بعض المشائخ، فيقول: بضعة وعشرون رجلًا وبضع وعشرون امرأة، وهكذا قاله أبو زيد وقالوا: على هذا معنى البضع والبضعة في العدد قطعة مُبْهَمة غير محدودة. اهـ. **قوله:**

(زهاء) بالمدّ والضم، أي مقدار. **قوله: (والعُدد)** في المصباح: العُدّة ما أعددته من مال أو سلاح وغير ذلك، والجمع عُدد مثل غرفة وغرف. اهـ. **قوله: (النواضح)** في المصباح: نضح البعير الماء: حمله من نهر أو بئر لسقي الزّرع، فهو ناضح، والأنثى ناضحة بالهاء، سُمّي ناضحًا لأنه ينضح العطش، أي يَبُلّه بالماء الذي يحمله، هذا أصله ثمّ استُعمل الناضح في كل بعير، وإن لم يحمل الماء، والجمع نواضح. اهـ. **قوله: (الشِّكة)** ـ بالكسر ـ السلاح. اهـ قاموس. **قوله: (والشوكة)** شدّة البأس.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (ظرف لـ «نصركم») على أن يقول لهم ذلك يوم بدر أي نصركم الله وقت مقالتكم هذه، أو بدل ثانٍ من (﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾) على أن (﴿تَقُولُ﴾) لهم ذلك يوم أُحد ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ («منزَّلين» **شامي**). «مُنزِلين» (**أبو حيوة**) أي للنصرة. ومعنى «ألن يكفيكم» إنكار أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة، وجيء بـ «لن» الذي هو لتأكيد النفي للإشعار بأنهم كانوا لقلَّتهم وضعفهم وكثرة عدوهم وشوكته كالآيسين من النصر.

﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجاب لما بعد «لن» أي يكفيكم الإمداد بهم فأوجب الكفاية. ثم قال: ﴿إِن تَصْبِرُوا۟﴾ على القتال ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ خلاف الرسول عليه السلام ﴿وَيَأْتُوكُم﴾ يعني المشركين ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ هو من فارت القدر إذا غَلَت (**فاستعير للسرعة**) ثم سُمِّيت بها الحالة التي لا ريث بها ولا تعريج على شيء من صاحبها فقيل: «خرج

قوله: (**ظرف لـ «نصركم»**) فيكون الوعد بالإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة واقعًا في وقعة بدر، وعلى تقدير أن يكون (﴿إِذْ هَمَّت﴾) بدلًا أوّل من قوله: (﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾)، ويكون (﴿تَقُولُ﴾) بدلًا ثانيًا منه، يكون الإمداد المذكور موعودًا في قصّة أُحد. **قوله:** (منزلين) بتشديد الزاي مع فتح النون اسم مفعول. (**شامي**) أي ابن عامر الشامي. والباقون بالتخفيف مع سكون النون على اسم المفعول، منزلين بالتشديد مكسور الزاي مبنيًّا للفاعل. (**أبو حيوة**) وهي قراءة شاذّة.

قوله: (**فاستعير للسرعة**) أي استُعمل فيها مجازًا؛ لأن فوران القدر وشدّة غليانها يتضمّن مُسارعة ما فيها للخروج، ويمكن اعتبار المشابهة بين المسارعة وغليان القدر استعارة اصطلاحيّة، ثم أُطلق على الزّمان اليسير الذي يقع فيه الفعل الواقع على سبيل السرعة والعجلة، والرّيْث هو الإبطاء والتراخي، يقال: راث عليّ خبرك يريث ريثًا، أي أبطأ، كما يقال: خرج من فوره، أي من ساعته، والتعريج الإقامة، ومعنى الآية: إن يأتوكم من ساعتهم هذه يمددكم ربّكم بالملائكة في حال

من فوره» كما تقول «من ساعته (لم يلبث»)، ومنه قول (الكرخي): «الأمر المطلق على الفور لا على التراخي» والمعنى أن يأتوكم من ساعتهم هذه ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ في حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم يعني أن الله تعالى يعجّل نصرتكم ويُيسِّر فتحكم إن صبرتم واتّقيتم (﴿مُسَوِّمِينَ﴾) بكسر الواو: (مكي وأبو عمرو وعاصم وسهل) أي معلمين أنفسهم أو خيلهم بعلامة يعون بها في الحرب.

(والسُّومة) العلامة. عن (الضحاك): معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الدواب وأذنابها. (غيرهم: بفتح الواو) أي معلمين. قال (الكلبي): معلين بعمائم

إتيانهم لا يتأخّر نزولهم عن إتيانهم، أي يعجّل نصركم ويسهّل فتحكم إن صبرتم واتّقيتم، ومِنْ في قوله: (﴿مِّن فَوْرِهِمْ﴾) ومن ساعتهم للابتداء، أي مبدءًا من الحالة التي لا إبطاء فيها ولا تراخي ولا إقامة على شيء. **قوله:** (لم يلبث) في مختار الصّحاح: لَبِثَ أي مَكَثَ وبابه فَهِم، ولَبَاثًا أيضًا بالفتح فهو لابث، ولبث أيضًا بكسر الباء. اهـ. **قوله:** (الكرخيّ) أي كرخ البصرة بفتح الكاف وسكون الراء في آخرها خاء معجمة، وإليه ينسب الكرخي، هذا اسمه عبيد الله بن دلهم الإمام الكبير أبو الحسن الحنفي، توفي ليلة النصف من شعبان سنة أربعين وثلاثمائة رحمة الله عليه.

قوله: (﴿مُسَوِّمِينَ﴾) بكسر الواو اسم فاعل من سوَّم. (مكّي) أي ابن كثير المكيّ، (وأبو عمرو) البصري، وكذا يعقوب البصري، وليس من السبعة. (وعاصم) بن أبي النّجود الكوفي (وسهل) بن محمد السجستاني البصريّ، وليس من السبعة. **قوله:** (السُّومة) بالضمّ. اهـ مختار الصّحاح. **قوله:** (الضحاك) بن مزاحم أبو محمد، والقسم الهلالي الخراساني صاحب التفسير، ذكر أنه كان فقيه مكتب عظيم فيه ثلاثة آلاف صبيّ، وكان يركب حمارًا ويدور عليهم إذا عيي. **قوله:** (غيرهم: بفتح الواو) اسم مفعول، والفاعل الله تعالى. **قوله:** (الكلبيّ) بفتح الكاف وسكون اللام وبعدها موحدة، هو أبو النصر محمد بن السّائب بن بشر الكوفي صاحب التفسير وعلم النّسب، كان إمامًا في هذين العلمين، وهذه النسبة إلى كلب بن وبرة، وهي قبيلة كبيرة من قُضاعة. توفي سنة ستّ وأربعين ومائة بالكوفة رحمه الله.

صُفْر مُرخاة على أكتافهم، وكانت عمامة (الزبير) يوم بدر صفراء فنزلت الملائكة كذلك. قال (قتادة): نزلت ألفًا فصاروا ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ الضمير يرجع إلى الإمداد الذي دلَّ عليه «أن يمدكم» ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ أي وما جعل الله إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بأنكم تنصرون ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ كما كانت السكينة لبني إسرائيل بشارة بالنصر وطمأنينة لقلوبهم ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا من عند المقاتلة ولا من عند الملائكة ولكن ذلك مما يقوّي به الله رجاء النصرة والطمع في الرحمة ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغالب في أحكامه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي يعطي النصر لأوليائه ويبتليهم بجهاد أعدائه.

قوله: (الزبير) ـ بضم الزاي ـ ابن العوّام الصحابي أحد العشرة المشهود لهم بالجنّة، أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقّاص وسعيد بن زيد وعبد الرحمٰن بن عوف وأبو عبيدة بن الجرّاح، وهو أحد الستّة أصحاب الشورى الذين جعل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الخلافة في أحدهم: عثمان وعليّ وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمٰن بن عوف رضي الله تعالى عنهم، وقال: هؤلاء توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، هو أبو عبد الله الزبير بن العوّام بن خُوَيْلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ القرشي الأسديّ المدني، وكان الزُّبير أوّل من سلّ سيفًا في سبيل الله، شهد بدرًا وأُحدًا والخندق والحديبية وخيبرًا وفتح مكّة وحصار الطّائف والمشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، ومناقبه كثيرة مشهورة، وكان الزبير رضي الله تعالى عنه يوم الجمل قد ترك القتال وانصرف، فلحقه جماعة من الغواة فقتلوه بوادي السِّباع بناحية البصرة وقبره هناك، في جمادى الأُولى سنة ستّة وثلاثين، وكان عمره حينئذٍ سبعًا وستّين سنة، وقيل: ستًّا وستين، وقيل: أربعًا وستّين رضي الله تعالى عنه.

قوله: (قتادة) بن دعامة ـ بكسر الدال المهملة ـ التابعي البصري توفّي سنة سبع عشرة، وقيل: ثمان عشرة ومائة، وهو ابن ستّ وخمسين سنة، وقيل: خمس وخمسين سنة رحمه الله.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

واللام في ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسْر وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسْر سبعين من رؤساء قريش (**متعلقة بقوله**: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾). أو بقوله: (﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾). أو بـ «يمددكم ربكم» ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة، وحقيقة (**الكبت**) شدَّة وهن تقع في القلب فيصرع في الوجه لأجله ﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾ فيرجعوا غير ظافرين بمبتغاهم.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ اسم ليس «شيء» والخبر «لك» و«من الأمر» حال من «شيء» لأنها صفة مقدمة ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على «ليقطع طرفًا من الذين كفروا أو يكبتهم» و«ليس لك من الأمر شيء» اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، والمعنى أن الله تعالى مالِك أمرهم فإما أن يهلكهم أو يهزمهم أو يتوب عليهم إن أسلموا ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ إن أصرّوا على الكفر وليس لك من أمرهم شيء إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم. وعن (**الفراء**) «أو» بمعنى «حتى». وعن (**ابن عيسى**) بمعنى إلا أن كقولك لألزمنّك أو تعطيني حقي أي ليس لك من

قوله: (متعلّقة بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾) أي على تقدير أن يجعل قوله: (﴿إِذْ تَقُولُ﴾) ظرفًا لنصركم لا بدلًا ثانيًا من ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ [آل عِمران: الآية ١٢١]؛ لأنه على تقدير كونه بدلًا منه يكون القول المذكور واقعًا يوم أُحد منقطعًا عن قصة بدر، فجعل ليقطع متعلقًا بنصركم يستلزم الفصل بين العامل ومعموله بالأجنبي. وأمّا على تعلّقه بقوله: (﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾) فيصح على التقديرين، وهو ظاهر. والعامل هو النصر الذي انتقض ما تعلّق به من النفي بإلّا. **قوله: (الكبت)**... الخ. في لسان العرب: الكبت الصّرع كبته يكتبه كبتًا فانكبت، وقيل: الكَبْت صَرْع الشيء لوجهه.

قوله: (الفرّاء) هو أبو زكريا يحيىٰ بن زياد بن عبد الله الكوفي، كان أبرع الكوفيّين وأعلمهم بالنّحو واللغة وفنون الأدب، توفي سنة سبع ومائتين في طريق مكّة، زادها الله تعظيمًا وتشريفًا. **قوله: (ابن عيسى)** هو أبو الحسن علي بن

أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم أو يعذبهم فتشفى منهم. وقيل: أراد أن يدعو عليهم فنهاه الله تعالى لعلمه أن فيهم مَن يؤمن ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ مستحقون للتعذيب.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةًۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ أي الأمر له لا لك لأن ما في السمٰوات وما في الأرض ملكه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ للمؤمنين ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ الكافرين ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةًۖ﴾ («مضعَّفة» مكي وشامي). هذا نهي عن الرِّبا (مع التوبيخ بما كانوا عليه) من تضعيفه كان الرجل منهم إذا بلغ الدَّين محله يقول: إما أن تقضي حقي أو تربي وتزيد في الأجل.

عيسى بن الفرج بن صالح الرَّبعي - بفتح الراء والباء الموحدة وبعدها عين مهملة - هذه النسبة إلى ربيعة النَّحوي البغدادي المنزل الشيرازي الأصل، كان عالمًا إمامًا في النَّحو مُتْقِنًا له، شرح كتاب الإيضاح لأبي عليّ الفارسي، فأجاد فيه. اشتغل في بغداد على السيرافي ثم خرج إلى شيراز، فقرأ على أبي علي الفارسي عشرين سنة ثم رجع إلى بغداد، وقال أبو علي: قولوا لعليّ البغدادي: لو سِرْت من الشرق إلى الغرب لم تجد أنحى منك. وقال أبو علي أيضًا: لمّا انفصل عنه ما بقي له شيء يحتاج أن يسأل عنه، وله عدّة تواليف في النحو، منها: شرح مختصر الجرمي، وانتفع بالاشتغال عليه خلق كثير، وذكره ابن الأنباري في كتاب طبقات الأدباء، وكانت ولادته سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، وتوفي ليلة السبت لعشرين بقين من المحرم سنة عشرين وأربعمائة ببغداد رحمه الله تعالى.

قوله: (مضعفة) بتشديد العين وحذف الألف. (مكّي) ابن كثير المكّي. (وشامي) أي ابن عامر الشامي، وكذا أبو جعفر ويعقوب، وليسا من السبعة. والباقون بإثبات الألف وتخفيف العين. قوله: (مع التوبيخ بما كانوا عليه) إشارة إلى أن هذه الحال، أعني أضعافًا مضاعفة ليست لتقييد النهي بها بحيث ينتفي

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في أكله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ كان (أبو حنيفة) ﷺ يقول: هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المُعَدّة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه، وقد أمدَّ ذلك بما أتبعه من تعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوفرهم على طاعته وطاعة رسوله بقوله:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ وفيه رد على المرجئة في قولهم: «لا يضرّ مع الإيمان ذنب ولا يعذَّب بالنار أصلًا» وعندنا غير الكافرين من العُصاة قد يدخلها ولكن عاقبة أمره الجنة. وفي ذكره تعالى «لعل» و«عسى» في نحو هذه المواضع وإن قال أهل التفسير إن «لعل» و«عسى» من الله للتحقيق، ما لا يخفى على العارف من دقّة مسلك التقوى وصعوبة إصابة رضا الله تعالى (وعزة التوصل) إلى رحمته وثوابه.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ («سَارعوا»: مدني وشامي). فمن أثبت الواو عطفها على ما قبلها، ومَن حذفها استأنفها. ومعنى المسارعة إلى

الحرمة عند انتفائها عند مَنْ يقول بالمفهوم، بل لزيادة التوبيخ والتنبيه على أنهم كانوا على هذه الطريقة المذمومة التي ربما يستقبحها أكلة الرّبا أيضًا. اهـ التفتازاني ﷺ. قوله: (أبو حنيفة) هو الإمام البارع[1] النعمان بن ثابت رضي الله تعالى عنه، وُلد سنة ثمانين من الهجرة، وتوفي ببغداد سنة خمسين ومائة.

قوله: (عِزّة) أي قلّة. (التوصّل) قال الجوهري: عزّ الشيء يعزّ عزًّا وعزازة، إذا قلّ حتى لا يكاد يوجد فهو عزيز، أي قليل الوجود.

قوله: (سارعوا) بلا واو قبل السّين. (مدني) أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني، وليس من السبعة. (وشاميّ) أي ابن عامر الشامي. والباقون بإثبات

---

(١) في القاموس: بَرَع وقيلت بَراعة وبروعًا فاق أصحابه في العلم وغيره أو تَمّ في كل فضيلة وجمال، فهو بارع. اهـ. ١٢ منه عمّ فيضهم.

المغفرة والجنة والإقبال على ما يوصل إليهما. ثم قيل: هي الصلوات الخمس أو التكبيرة الأولى، أو الطاعة، أو الإخلاص، أو التوبة، أو الجمعة والجماعات. ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي عرضها عرض السمٰوات والأرض كقوله: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: الآية ٢١]. والمراد وصفها بالسّعة والبسط فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطه. وخصّ العرض لأنه في العادة أدنى من الطول للمبالغة. وعن (ابن عباس) ﷺ كسبع سمٰوات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض. وما رُوِي أن الجنة في السماء السابعة أو في السماء الرابعة فمعناه أنها في جهتها لا إنها فيها أو في بعضها كما يقال في الدار بستان وإن كان يزيد عليها لأن المراد أن بابه إليها ﴿أُعِدَّتْ﴾ في موضع جر صفة لـ «جنة» أيضًا أي جنة واسعة معدة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ودلّت الآيتان على أن الجنة والنار مخلوقتان. ثم المتقي مَن يتقي الشرك كما قال: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: الآية ٢١] ومَن يتّقي المعاصي فإن كان المراد الثاني فهي لهم بغير عقوبة، وإن كان الأول فهي لهم أيضًا في العاقبة.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

ويوقف عليه إن جعل ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ في حال اليُسْر والعُسْر مبتدأ وعطف عليه ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ وجعل الخبر «أولئك». وإن جعل وصفًا للمتقين وعطف عليه ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ أي أُعِدَّت للمتقين والتائبين فلا وقف. فإن قلت: الآية تدلّ على أن الجنة مُعَدّة للمتّقين والتائبين دون المُصِرِّين. قلت: جاز أن تكون معدة لهما ثم يدخلها بفضل الله وعفوه غيرهما كما يقال: «أعدت هذه المائدة للأمير» ثم قد يأكلها أتباعه. ألا ترى أنه قال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٣١] ثم قد يدخلها غير الكافرين بالاتفاق، وافتتح بذكر الإنفاق لأنه أشقّ شيء على النفس وأدله على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في

الواو. **قوله: (ابن عباس)** أي عبد الله بن عباس الصحابي ابن الصحابي رضي الله تعالى عنهما.

مجاهدة العدو و(**مواساة فقراء المسلمين**). وقيل: المراد الإنفاق في جميع الأحوال لأنها لا تخلو من حال مسرة ومضرة ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ والممسكين الغيظ من الإمضاء يقال كظم القربة إذا امتلأها وشدّ فاها، ومنه (**كظم الغيظ**) وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثرًا. والغيظ: توقد حرارة القلب من الغضب، وعن النبي ﷺ «مَن كظم غيظًا وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنًا وإيمانًا»، ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه ورُوِيَ «ينادي مُنادٍ يوم القيامة أين الذين كانت أُجورهم على الله فلا يقوم إلا مَن عفا». وعن (**ابن عيينة**) أنه رواه (**للرشيد**) وقد غضب على رجل

قوله: (مواساة فقراء المسلمين) في لسان العرب: المواساة المشاركة والمساهمة في المعاش والرّزق، وأصلها الهمزة، فقُلِبت واوًا تخفيفًا. اهـ. **قوله: (كظم الغيظ)** اجترعه وبابه ضرب. **قوله: (ابن عيينة)** هو أبو محمد سفيان بن عيينة - بضم العين والسين - على المشهور، ويقال بكسرهما، وحكى فتح السين أيضًا ابن أبي عمران ميمون الكوفي ثم المكّي الهلالي مولاهم مولى محمد بن مزاحم أخي الضحاك، وهو من تابعي التابعين ومناقبه كثيرة مشهورة. توفي يوم السبت غرّة رجب سنة ثمان وتسعين ومائة رحمه الله. **قوله: (للرشيد)** هارون أبي جعفر ابن المهدي محمد ابن المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، اسْتُخلف بعهدٍ من أبيه عند موت أخيه الهادي ليلة السبت لأربع عشرة بقيت من ربيع الأوّل سنة سبعين ومائة. قال الصولي: هذه الليلة وُلد له عبد الله المأمون، ولم يكن في سائر الزّمان ليلة مات فيها خليفة وقام خليفة ووُلِد خليفة إلّا هذه الليلة، وكان يكنى أبا موسى فتكنّى بأبي جعفر، حدّث عن أبيه وجدّه ومبارك بن فضالة. روَى عنه ابنه المأمون غيره، وكان من أمْيَر الخلفاء وأجلّ ملوك الدنيا، وكان كثير الغزو والحجّ، مولده بالريّ حين كان أبوه أميرًا عليها وعلى خراسان في سنة ثمان وأربعين ومائة، وكان أبيض طويلًا جميلًا مليحًا فصيحًا له نظر في العلم والأدب، وكان يصلّي في خلافته كل يوم مائة ركعة، إلى أن مات، لا يتركها إلّا لعلّة، ويتصدّق من صُلْب ماله كل يوم بألف درهم، وكان يحبّ العلم وأهله ويعظّم حرمات الإسلام ويبغض المِراء في الدِّين والكلام في معارضة النصّ، وكان يبكي على نفسه على إسرافه وذنوبه سيّما إذا وعظ.

فخلاه ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ اللام للجنس فيتناول كل مُحسِن ويدخل تحته هؤلاء المذكورون، أو للعهد فيكون إشارة إلى هؤلاء. عن (الثوري): الإحسان أن تُحسِن إلى المُسِيء فإن الإحسان إلى المُحسِن مُتاجرة.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

(﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾) فعلة متزايدة القبح، ويجوز أن يكون و«والذين» مبتدأ خبره «أولئك» ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ قيل: الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة، أو الفاحشة الزِّنا وظلم النفس القبلة واللمسة ونحوهما ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ بلسانهم أو بقلوبهم ليبعثهم على التوبة ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ فتابوا عنها لقُبْحهما نادمين. (قيل: بكى إبليس حين نزلت هذه الآية) ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ «من» مبتدأ و«يغفر» خبره، وفيه ضمير يعود إلى «من» و«إلا الله» بدل من الضمير في «يغفر» والتقدير: ولا أحد يغفر الذنوب إلا الله، وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، وفيه تطييب لنفوس العباد، وتنشيط للتوبة، وبعث عليها، (وردع) عن اليأس و(القنوط)، وبيان لسعة رحمته وقرب مغفرته من التائب، وإشعار بأن الذنوب وإن (جلَّت) فإن عفوه أجل وكرمه أعظم. ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا

قوله: (الثوري)، هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد الكوفي الإمام الجامع لأنواع المحاسن، وهو من تابعي التابعين اتّفق العلماء على وصفه بالبراعة في العلم بالحديث والفقه والورع والزهد وخشونة العيش والقول بالحقّ وغير ذلك من المحاسن، وأحوال الثوري والثناء عليه أكثر من أن يحصر وأوضح من أن يشهر، وهو أحد أصحاب المذاهب الستّة المتبوعة، وأجمعوا على أنه توفي بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة رحمه الله.

قوله: (قيل: بكى إبليس حين نزلت هذه الآية) أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن ثابت البناني، قال: بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية بكى: (﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾) الآية. **قوله:** (ردع) في المصباح: ردعتُه عن الشيء أردَعُه رَدْعًا منعته وزجرته. اهـ. **قوله:** (القنوط) بالضمّ اليأس من رحمة الله نعوذ بالله منه. **قوله:** (جلّت) أي عَظُمت.

﴿فَعَلُوٓاْ﴾ ولم يقيموا على قبيح فِعْلهم والإصرار الإقامة قال ﷺ: («ما أصرّ مَن استغفر) وإن عاد في اليوم سبعين مرة» ورُوِيَ («لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار») ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ﴾ أي وهم يعلمون أنهم أساؤوا، أو وهم يعلمون أنه لا يغفر ذنبهم إلا الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون ﴿جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ بتوبته ﴿وَجَنَّٰتٞ﴾ برحمته ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف أي ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ ذلك يعني المغفرة والجنات، نزلت في تمَار قال لامرأة تريد التمر: في بيتي تمر أجود، فأدخلها بيته وضمّها إلى نفسه وقبّلها فندم. أو في أنصاري استخلفه ثقفي وقد آخى بينهما النبي ﷺ في غيبة غزوة فأتى أهله لكفاية حاجة فرآها فقبّلها فندم (فساح) في الأرض (صارخًا فاستعتبه الله تعالى).

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾

﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ مضت ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ يريد ما سنه الله تعالى في الأمم المكذبين من وقائعه ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فتعتبروا

قوله: (ما أصرّ مَن استغفر) الحديث، أخرجه الترمذي وأبو داود وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي بكر الصدِّيق رضي الله تعالى عنه. **قوله:** (لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار) أخرج ابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عباس قال: كل ذنب أصرّ عليه العبد كبير، وليس بكبير ما تاب منه العبد.

قوله: (فساح) في مختار الصحاح: ساح في الأرض يسيح سَيْحًا وسُيُوحًا وسِيَاحَة وسَيَحانًا بفتح الياء، أي ذهب. **قوله:** (صارخًا) في المصباح: صَرَخ يَصْرُخ من باب قتل صُراخًا فهو صارخ وصريخ إذا صارخ وصرخ، فهو صارخ إذا استغاث. اهـ. **قوله:** (فاستعتبه الله تعالى) في القاموس: العُتبى بالضمّ الرضى، واستعتبه أعطاه العُتبى كأعتبه. اهـ.

بها ﴿هَٰذَا﴾ أي القرآن أو ما تقدَّم ذكره ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى﴾ أي إرشاد ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ ترغيب وترهيب ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشِّرك (﴿وَلَا تَهِنُوا﴾) ولا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم من الهزيمة (﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾) على ما فاتكم من الغنيمة أو على مَن قتل منكم أو جرح، وهو تسلية من الله لرسوله وللمؤمنين عمّا أصابهم يوم أُحُد وتقوية لقلوبهم ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أُحُد، أو وأنتم الأعلون بالنصر والظفر في العاقبة وهي بشارة لهم بالعلو والغلبة وإن جندنا لهم الغالبون، أو وأنتم الأعلون شأنًا لأن قتالكم لله ولإعلاء كلمته وقِتالَهم للشيطان ولإعلاء كلمة الكفر، أو لأن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار (﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ **متعلق بالنهي**) أي ولا تهنوا إن صحَّ إيمانكم يعني أن صحة الإيمان تُوجِب قوة القلب والثقة بوعد الله وقلة المبالاة بأعدائه، أو بـ «الأعلون» أي إن كنتم مصدقين بما يعدكم الله به ويبشِّركم به من الغلبة.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قُرْحٌ﴾ بضم القاف حيث كان: (**كوفي غير حفص**). ويفتح

قوله: (﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ **متعلّق بالنهي**) من جهة المعنى. وأمّا بحسب اللّفظ، فجزاءه ما يدلّ عليه النهي.اهـ. تفتازاني رحمه الله. وقال العلّامة شيخ زاده رحمه الله: **قوله:** (**متعلّق بالنهي**) يريد به أن جواب قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مَحْذُوف لدلالة قوله: (﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾) عليه، لا أن نفس هذا المذكور جواب له؛ لأن جواب الشرط لا يتقدّم عليه عند البصريّين، ويقولون: المذكور مقدّمًا دليل الجواب لا نفسه، والتقدير والمعنى؛ إن كنتم مؤمنين لا تَهِنُوا ولا تحزنوا بما أصابكم، فإنّ الله تعالى وعد نصرة هذا الدِّين، فإن كنتم مؤمنين عَلِمْتم أن هذه الواقعة لا بدّ من تداولها، وأنّ الدّولة والاستيلاء على العدوّ للمسلمين. وقيل: المعنى إن كنتم مؤمنين مصدّقين بما يعدكم الله ويبشّركم به من الغلبة على المشركين، فأنتم الأعلون عليهم.

قوله: (**كوفي غير حفص**) أي أبو بكر بن عياش وحمزة وعليّ الكسائي وخلف.

القاف: غيرهم. وهما لغتان كالضَّعف والضُّعف. وقيل: بالفتح الجراحة وبالضم ألمها ﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي إن نالوا منكم يوم أُحُد فقد نِلتُم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يمنعهم عن معاودتكم إلى القتال فأنتم أولى أن لا تضعفوا ﴿وَتِلْكَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلْأَيَّامُ﴾ صفته والخبر ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ نصرفها ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي نصرف ما فيها من النِّعَم والنِّقَم نعطي لهؤلاء تارة (وطورًا) لهؤلاء (كبيت الكتاب:

فيومًا علينا ويومًا لنا ويومًا نساء ويومًا نُسَرّ)

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي نداولها لضروب من التدبير وليعلم الله المؤمنين مميزين بالصبر والإيمان من غيرهم كما علمهم قبل الوجود ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ

قوله: (وَطَوْرًا) أي وتارة. في المصباح: الطَّور ـ بالفتح ـ التارة .اهـ. **قوله:** (**كبيت الكتاب**) أي كتاب سيبويه في النَّحو. في وفيات ابن خلكان: كان كتاب سيبويه لشهرته وفضله عَلَمًا عند النحويّين، فكان يقال بالبصرة: قرأ فلان الكتاب، فيُعْلم أنه كتاب سيبويه، وقرأ نصف الكتاب، فلا يُشَكّ أنّه كتاب سيبويه.اهـ.

(فيومًا علينا ويومًا لنا ويومًا نُساءُ ويومًا نُسَرّ)

ذكر الزمخشري في شرح أبيات الكتاب أنه من شعر النِّمر بن تولب.اهـ شهاب ﷺ. وفي الإسعاف: يومًا في المواضع الأربعة منصوب على الظرف، والمعنى: أن الدّهر يومان: يومٌ يكون علينا نُساء فيه، ويوم يكون لنا نُسَرّ فيه على طريق اللّف والنشر المرتّب.اهـ. أي فيومًا يكون الأمر علينا، أي بالإضرار، ويومًا لنا، أي بالنفع، ويومًا نُساء من شيء فلان أُصيب بحزن ساءه أحزنه، ويومًا نُسَرّ من يسرّه جعله مسرورًا. وأيضًا في الإسعاف: والبيت المُستَشْهَد به من المتقارب من قصيدة للنّمر بن تولب العُكْلي.اهـ. وأيضًا فيه: والنمر كَكَتِف، ويقال بالفتح والكسر، كما في القاموس، وهو ابن تولب بن زهير بن قيس بن عبد كعب. والنمر شاعر جوّاد واسع العطاء كثير القرى وهّاب لما له جرى على المنطق مُخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، وفد على النبيّ ﷺ وحَسُن إسلامه وكتب له النبيّ ﷺ كتابًا ونزل البصرة بعد ذلك، ورَوَى عنه ﷺ حديثًا، انتهى باختصار.

شُهَدَآءَ﴾ (وليكرم ناسًا منكم بالشهادة) يريد المستشهدين يوم أُحُد، أو ليتخذ منكم مَن يصلح للشهادة على الأُمم يوم القيامة من قوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: الآية ١٤٣]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اعتراض بين بعض التعليل وبعض، ومعناه والله لا يحبّ مَن ليس من هؤلاء الثابتين على الإيمان المجاهدين في سبيله وهم المنافقون والكافرون.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ التمحيص: التطهير والتصفية ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويُهلكهم يعني إن كانت الدولة على المؤمنين فللتمييز والاستشهاد والتمحيص، وإن كانت على الكافرين فلمَحْقهم ومحو آثارهم ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ﴾ («أم» منقطعة) ومعنى الهمزة فيها الإنكار أي لا تحسبوا ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ﴾ أي ولمّا تجاهدون لأن العلم متعلق بالمعلوم فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقة لأنه مُنْتَفٍ بانتفائه، تقول: ما علم الله في فلان خيرًا أي ما فيه خير حتى يعلمه. و«لما» بمعنى «لم» إلا أن فيه ضربًا من التوقع فدلَّ على نفي الجهاد فيما مضى وعلى توقّعه فيما يستقبل ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ نصب بإضمار «أن» والواو بمعنى الجمع نحو («لا تأكل السمك وتشرب اللبن»)، أو جزم للعطف على «يعلم الله»، وإنما حُرِّكت الميم لالتقاء الساكنين (واختيرت الفتحة لفتحة ما قبلها).

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ خوطب به الذين لم يشهدوا بدرًا وكانوا يتمنون أن يحضروا مشهدًا مع رسول الله ﷺ لينالوا كرامة الشهادة، وهم

قوله: (وليكرم ناسًا منكم بالشهادة)... الخ، فشهداء جمع شهيد بمعنى قتيل في المعركة، وعلى ما بعده بمعنى شاهد.

قوله: («أم» منقطعة) مقدرة ببل وهمزة الاستفهام. قوله: (لا تأكل السمك وتشرب اللبن) أي لا تجمع بينهما. قوله: (واختيرت الفتحة لفتحة ما قبلها) كقراءة: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: الآية ١٦] بفتح الميم. اهـ جمل، وهي قراءة شاذة قارئه النخعي وابن وثاب.

الذين ألحّوا على رسول الله ﷺ في الخروج إلى المشركين وكان رأيه في الإقامة بالمدينة، يعني وكنتم تمنّون الموت قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدّته ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ (أي رأيتموه مُعاينين) مُشاهدين له حين قتل إخوانكم بين أيديكم و(شارفتم) أن تقتلوا، وهذا توبيخ لهم على تمنّيهم الموت وعلى ما تسببوا له من خروج رسول الله ﷺ بإلحاحهم عليه، ثم انهزامهم عنه. وإنما تمنوا الشهادة لينالوا كرامة الشهداء من غير قصد إلى ما يتضمنه من غلبة الكفّار كمَن شرب الدواء من طبيب نصراني فإن قصده حصول الشفاء ولا يخطر بباله أن فيه جر منفعة إلى عدو الله (وتنفيقًا) لصناعته. لما رمى (ابن قميئة) رسول الله ﷺ بحجر (فكسر رباعيته) أقبل يريد قتله فذبَّ عنه (مصعب بن عمير) ـ وهو صاحب الراية ـ (حتى قتله) ابن قميئة وهو يرى أنه رسول الله ﷺ فقال: قتلت محمدًا وخرج صارخ ـ قيل هو الشيطان ـ ألا إن محمدًا قد قتل.

قوله: (أي رأيتموه مُعاينين) إشارة إلى أن رأيتم بمعنى أبصرتم، فيتعدّى إلى واحد، وأن جملة قوله: (﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾) حالية مؤكّدة جيء بها لدفع ما تحتمل الرؤية من المجاز، أو الاشتراك بين رؤية البصر ورؤية القلب، وقوله: (﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾)، يعني أسبابه من السيوف والأسنّة[(١)]. **قوله:** (شارفتم) في لسان العرب: شارَف الشيء دنا منه وقارب أن يظفر به. اهـ. **قوله:** (تنفيقًا) أي ترويجًا. **قوله:** (ابن قُمَيئة) أي عبد الله بن قميئة بقاف وميم وياء وهمزة وهاء بوزن سفينة، عَلَم من القماءة[(٢)]، وهي الصغر والحقارة. (فكسر رَباعيته) بتخفيف الياء هي من مقدّم الأسنان، وفيه تصريح بأنها لم تقلع من أصلها، بل كُسِر طرفها، وهو المصرّح به في السِّيَر. اهـ شهاب رحمه الله. وفي المرقاة: رباعيته ـ بفتح الراء وتخفيف التحتية على وزن الثمانية ـ السنّ الذي بين الثنيّة والناب ـ (وكانت الرباعية المكسورة) هي السفلى من الجانب الأيمن. اهـ.

قوله: (مصعب بن عمير) بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدّار بن قصيّ بن كلاب بن مرّة القرشي العبدري، يُكْنى أبا عبد الله، كان من فضلاء الصحابة وخيارهم، ومِنَ السابقين إلى الإسلام، أسْلَم ورسول الله ﷺ في دار أرقم وكتم

---

(١) في المصباح: سِنان الرمح جمع أسِنة. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(٢) كسحابة ورحمة. اهـ تاج العروس. ١٢ منه عمّ فيضهم.

....

إسلامه خوفًا من أُمّه وقومه، وكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سرًّا فبَصُر به عثمان بن طلحة العبدريّ يصلّي، فأعلم أهله وأُمّه فأخذوه وحبسوه، فلم يزل محبوسًا إلى أن هاجر إلى أرض الحبشة، ثم عاد من الحبشة إلى مكّة ثم هاجر إلى المدينة بعد العقبة الأُولى ليُعلِّم الناس القرآن ويصلّي بهم. بعثه رسول الله ﷺ مع الاثني عشر أهل العقبة الثانية ليفقّه أهل المدينة ويقرئهم القرآن، فنزل على أسعد بن زرارة، وكان يُسمّى بالمدينة المقرىء، قالوا: وهو أوّل من جمع الجمعة بالمدينة، وأسلم على يديه سعد بن معاذ وأُسَيْد بن حُضَير، وكفى بذلك فضلًا وأثرًا في الإسلام. وشَهِد بدرًا مع رسول الله ﷺ، وشَهِد أُحدًا ومعه لواء رسول الله ﷺ، وقُتِل بأُحد شهيدًا قَتَله ابن قُمَيئة اللّيثيّ، قيل كان عمره يوم قُتل أربعين سنة أو أكثر قليلًا، ويقال: فيه نزلت وفي أصحابه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: الآية ٢٣] الآية، وكان قبل إسلامه أنعم فتًى بمكّة وأجوده حلّة وأكمله شبابًا وجمالًا وجوادًا، وكان أبواه يحبّانه حبًّا كثيرًا، وكانت أُمّه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب بمكّة، وكان أعطر أهل مكّة، ثم انتهى به الحال في الإسلام إلى أن كان عليه بردة مرقّعة بفروة. وثبت في الصحيحين عن خباب رضي الله عنه، قال: هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله تعالى، فوقع أجرنا على الله تعالى، فمنّا مَنْ مات ولم يأكل من أجره شيئًا، منهم مصعب بن عمير، ولم نجد له ما نكفّنه به إلا بردة إذا غطّينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطّينا رجليه خرج رأسه، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطّي رأسه، وأن نجعل على رجليه الإذخر. ومنّا مَنْ أينعت له ثمرته، فهو يهديها. ومعنى أينعت نضجت. وقوله: يهديها ـ بفتح أوله وكسر الدال وضمّها ـ أي يجتنيها، وهو إشارة إلى ما فتح الله عليهم من الدنيا بعد فاة رسول الله ﷺ. وكان مصعب زوج حَمْنة بنت جَحْش. عن وهب بن مطر عن عبيد بن عمير قال: وقف رسول الله ﷺ على مصعب بن عمير وهو مُنْجَعِفٌ[1] على وجهه يوم أُحد شهيدًا، وكان صاحب لواء رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: الآية

(١) أي مصروع كما في النهاية. ١٢ منه عمّ فيضهم.

ففشا في الناس خبر قتله (**فانكفئوا**) وجعل رسول الله ﷺ يدعو: (**إليَّ عباد الله**) حتى (**انحازت**) إليه طائفة من أصحابه فلامَهم على هربهم فقالوا: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأُمهاتنا أتانا خبر قتلك فولَّينا مُدبِرين فنزل:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ) قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾ فسيخلو كما خلوا، وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلودهم فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوده، لأن المقصود من بعثة الرُّسُل تبليغ الرسالة وإلزام الحجة لا وجوده بين أظهر قومه ﴿(أَفَإِيْن مَّاتَ) أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ﴾

٢٣]، إنّ رسول الله يشهد عليكم أنكم شهداء عند الله يوم القيامة»، ثمّ أقبل على الناس فقال: «**أيّها الناس ائتوهم فزوروهم وسلِّموا عليهم، فوالذي نفسي بيده لا يسلّم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردّوا عليه السلام**»، ولم يعقّب مصعب إلا من ابنته زينب ﷺ.

قوله: (**حتى قتله**) أي قتل مصعبًا رضي الله تعالى عنه. **قوله:** (**فانكفؤوا**) انكفاء الناس استعارة، بمعنى رجعوا. **قوله:** (**إليّ عباد الله**) اسم فعل، أي ارجعوا، وعباد الله مفعوله. **قوله:** (**انحازت**) أي اجتمعت.

قوله: (﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾) كلمة ما فيه نافية، ولا عمل لها مطلقًا، أي على لغة الحجازيّين والتميميّين؛ لأن التميميّين لا يعملونها البتّة. والحجازيّون يُعْمِلونها بشروط، منها: أن لا ينقض النفي بإلا، فإنّه حينئذ يزول السبب الذي عملت لأجله، وهو شبهها بليس في نفي الحال، فيكون مبتدأ ورسول خبره، ومحمد هو المستغرق لجميع المحامد؛ لأن الحمد لا يستوجبه إلا الكامل والتحمّد فوق الحمد، فلا يستحقّه إلا المستولي على الأكملية أكرم الله تعالى نبيّه بوصفين مشتقّين من اسمه جلّ جلاله محمّد وأحمد، وفيه قال حسّان بن ثابت رضي الله تعالى عنه:

ألم تر أنّ الله أرسل عبده ... ببرهانه والله أعلى وأمجدُ
وشقّ له من اسمه ليجلّه ... فذو العرش محمودٌ وهذا محمّدُ

(الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة التي قبلها على معنى التسبيب) والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرُّسُل قبله سببًا لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل مع علمهم أن خلو الرُّسُل قبله وبقاء دينهم متمسكًا به يجب أن يجعل سببًا للتمسك بدين محمد ﷺ لا للانقلاب عنه، والانقلاب على العقبين مجاز عن الارتداد أو عن الانهزام ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ (وإنما ضرَّ نفسه) ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ الذين لم ينقلبوا، وسمّاهم شاكرين لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ﴾ وما جاز ﴿لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بعلمه أو بأن يأذن ملك الموت في قبض روحه، والمعنى أن موت الأنفس مُحال أن يكون إلا بمشيئة الله، وفيه تحريض على الجهاد، وتشجيع على لقاء العدو، وإعلام بأن الحذر لا ينفع، وأن أحدًا لا يموت قبل بلوغ أجله وإن (خاض) المهالك واقتحم (المعارك) ﴿كِتَـٰبًا﴾ مصدر مؤكد لأن المعنى كتب الموت كتابًا ﴿مُّؤَجَّلًا﴾ مؤقتًا له أجل معلوم لا يتقدَّم ولا يتأخر ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ بقتاله ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي الغنيمة وهو تحريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أُحد ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ من ثوابها ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي إعلاء كلمة الله والدرجة في الآخر ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ وسنجزي الجزاء المُبهَم الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد.

قوله: (الفاء معلّقة للجملة الشرطية بالجملة التي قبلها على معنى التسبيب)، أي الفاء في قوله تعالى: (﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾) للسببية، فإنها تُفيد تعليق الجملة الشرطية، أعني مضمون الجزاء مع اعتبار تقييد الشرط بالجملة السابقة وترتّبها عليها. **قوله:** (وإنما ضرّ نفسه) الحصر مُستفاد من تقييد الفعل بالمفعول ورجوع النفي إلى القيد لا إلى أصل الفعل، فيكون المعنى: أنه بارتداده قد صدر عنه ضرر، ولكن ذلك الضّرر ليس بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ لتعاليه عن الضّرر، ومعلوم أنه ليس بالنسبة إلى غير نفسه، فتعيّن أنه ليس إلّا بالنسبة إلى نفسه.

قوله: (خاض) أي اقتحم، أي دخل. **قوله:** (المعارك) مواضع الحرب.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾

﴿وَكَأَيِّن﴾ أصله أي دخل عليه كاف التشبيه وصارا (في معنى «كم») التي للتكثير. (وكائن) بوزن كارع حيث كان: (مكي) ﴿مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ﴾ («قتل» مكي وبصري ونافع). ﴿مَعَهُۥ﴾ حال من الضمير في «قتل» أي قتل كائنًا معه ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ والرِّبِّيون الرَّبَّانيون. وعن (الحسن) بضم الراء وعن البعض بفتحها، فالفتح على القياس لأنه منسوب إلى الرّبّ، والضم والكسر من تغييرات النسب ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾ فما فتروا عند قتل نبيّهم ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ﴾ عن الجهاد بعده ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ﴾ وما خضعوا لعدوّهم، وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ واستكانتهم لهم حيث أرادوا (أن يعتضدوا بابن أبي) في طلب الأمان من (أبي سفيان) ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على جهاد الكافرين.

قوله: (في معنى «كم») أي الخبرية. قوله: (وكائن) بألف بعد الكاف بعدها همزة مكسورة بعدها نون ساكنة بوزن كارع حيث كان، أي حيث وقع وهو في سبعة. (مكيّ) أي ابن كثير المكّي، وقرأ الباقون بهمزة مفتوحة وياء مكسورة مشدّدة. قوله: (قُتِل) بضم القاف وكسر التاء بلا ألف مبنيًا للمفعول. (مكّي) أي ابن كثير المكّي، (وبصريّ) أي أبو عمرو البصري، وكذا يعقوب البصري، وليس من السبعة. (ونافع) المدني. والباقون: قاتل بفتح. قوله: (الحسن) البصري التابعي رضي الله تعالى عنه.

قوله: (أن يعتضدوا بابن أبيّ) في مختار الصحاح: اعتضد به، أي استعان به.اهـ. وابن أُبيّ هو عبد الله بن أُبيّ بن سَلول المنافق. قوله: (أبي سفيان) صخر بن حرب بن أُميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصَيّ القريشي الأُمويّ المكّي. أسلم زمن الفتح، وكان شيخ مكّة إذ ذاك، ورئيس قريس، ولَقِيَ رسول الله ﷺ بالطريق قبل دخوله مكّة لفتحها، فأسلم هناك وشهد حنينًا وأعطاه النبيّ ﷺ من غنائمها مائة بعير وأربعين أوقية، وشهد الطّائف وفقئت عينه يومئذ، وشهد اليرموك. روى له البخاري ومسلم حديث هرقل من رواية ابن عباس عن أبي سفيان، وكان أبو سفيان من تجّار قريش وأشرافهم، وكان من المؤلّفة ثم حَسُن إسلامه. نزل المدينة وتوفي بها سنة إحدى وثلاثين، وقيل: أربع وثلاثين، وهو

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي وما كان قولهم إلا هذا القول وهو إضافة الذنوب إلى أنفسهم مع كونهم ربّانيين **(هضمًا)** لها ﴿وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ تجاوزنا حدّ العبودية ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في القتال ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالغلبة. وقدم الدعاء بالاستغفار من الذنوب على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على الأعداء، لأنه أقرب إلى الإجابة لما فيه من الخضوع **(والاستكانة)** ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي النصرة والظفر والغنيمة ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ المغفرة والجنة. وخصّ بالحُسْن دلالة على فضله وتقدّمه **(وأنه هو المُعتدّ به عنده)** ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي هم مُحسِنون والله يحبّهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ يُرجِعوكم إلى الشّرك ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ قيل: هو عامٌّ في جميع الكفّار وعلى المؤمنين أن يُجانِبوهم ولا يطيعوهم في شيء حتى لا يستجروهم إلى موافقتهم.

ابن ثمانٍ وثمانين سنة، وهو والد يزيد ومعاوية وأُمّ حبيبة أولاد أبي سفيان وإخوتهم.

قوله: (هضمًا) أي كسرًا. **قوله: (الاستكانة)** في المصباح: استكن إذا خضع وذلّ، وتزاد الألف فيقال: استكان. قال ابن القطاع: وهو كثير في كلام العرب. اهـ. **قوله: (وأنه هو المعتدّ به عنده)** حتى كأنّ ما عداه ليس بحسن عنده. اهـ شهاب رحمه الله. وقال القفّال: يحتمل أن يكون الحسن بمعنى الحُسن؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: الآية ٨٣]، أي قولًا حسنًا، والغرض في أمثاله المبالغة؛ لأن الأشياء الحسنة لكونها عظيمة في أمر الحسن صارت كأنها نفس الحسن، كما يقال: فلان عدل وكرم إذا كان في غاية العدل ونهاية الكرم، فلذا خصّه الله تعالى بأنه حسن من جنس الثواب، ولم يَصِف ثواب الدنيا بذلك لكثرة تعلّقها وامتزاجها بالمشاقّ والآلام وكونها منقطعة زائلة.

وعن (السّدّيّ): إن تستكينوا لأبي سفيان وأصحابه وتستأمنوهم يردّوكم إلى دينهم. وقال عليّ ﷺ: نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ﴾ ناصركم فاستغنوا عن نصرة غيره ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ («الرعب» **شامي وعلي وهما لغتان)** قيل: قذف الله في قلوب المشركين الخوف يوم أُحد فانهزموا إلى مكة من غير سبب ولهم القوة والغَلَبَة ﴿بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ (**بسبب إشراكهم**) أي كان السبب في إلقاء الله الرعب في قلوبهم إشراكهم به ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ﴾ (**آلهة لم ينزل الله بإشراكها حجة**)، ولم يرد أن هناك حجة إلا أنها لم تنزل عليهم لأن الشِّرك لا يستقيم أن تقوم عليه حجة، وإنما المراد نفي الحجة ونزولها جميعًا **كقوله**:

(ولا ترى الضب بها ينجحر)

قوله: (السّدِّيّ) الكبير الكوفي المفسِّر الأعور، أبو محمد إسماعيل بن عبد الرحمٰن بن أبي كريمة التابعي. رَوَى عن أنس بن مالك وابن عباس. روى له الجماعة إلا البخاري، والصغير الكوفي المفسّر صاحب الكلبي، وهو متروك الحديث محمد بن مروان.

قوله: (الرّعب) حيث جاء معرّفًا ومنكرًا بضمّ العين. (شاميّ) أي ابن عامر الشامي، (وعليّ) الكسائي، وكذا أبو جعفر المدني ويعقوب البصري، وليسا من السبعة، والباقون بإسكانها، (وهما لغتان) فصيحتان.

قوله: (بسبب إشراكهم) فالباء للسببية وما مصدرية. **قوله**: (آلهة لم يُنزل الله بإشراكها حجّة) آلهة تفسير لما، وحجّة تفسير للسلطان. **قوله**: (كقوله) أي أوس بن حجر التميمي. **قوله**:

(ولا ترى الضب بها يَنْجَحر)

أي ليس بها ضب فينجحر، ولم يعن أن بها ضبًا ولا ينجحر ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾ مرجعهم ﴿ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ النار فالمخصوص بالذمّ محذوف.

ولما رجع رسول الله ﷺ مع أصحابه إلى المدينة قال ناس من أصحابه، من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فنزل:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم

أي يدخل جحر الضبّ، دُوَيْبة لا تشرب الماء، والانجحار ـ بتقديم الجيم على الحاء المهملة ـ الدخول في الجحر ـ بالضمّ ـ وهو ما حضرته الهوام والسباع لأنفسها. وأوّله:

لا يُـفْـزِعُ الأرنـب أهْـوَالـهـا   يـفـزع مـن أفـزع إذا خـاف[1]

وفي الصحاح: الإفْزاع الإخافة والإغاثة أيضًا من الأضداد، يقال: فزعت إليه فأفزعني، أي لجأت إليه فأغاثني. والأرنب منصوب على أنه مفعول، وأهوالها الفاعل. ويجوز أن يكون يفزع من فزع إذا خاف، فالأرنب مرفوع على أنه فاعل مفعوله الأهوال، ويُروى على صيغة المجهول استشهد به على أنّ المراد نفي السلطان، يعني الحجة والنزول جميعًا لا نفي التنزيل فقط، بأن يكون ثمة سلطان لكنه لم ينزل، كما أن المنفيّ في البيت الضبّ والانجحار جميعًا لا الانجحار فقط، المراد وصف هذه المفازة بكثرة الأهوال، بحيث لا يمكن أن يسكنها حيوان، وهذا من قبيل نفي الشيء بإيجابه، والمعنى: أن هذه المفازة ليس فيها حيوان حتى تفزع أهوالها أرانبها وتفزع أرانبها أهوالها، وترى الضبّ فيها ينجحر. والبيت من السرائع. اهـ إسعاف بالتقاط.

---

(١) وهو شاهد لما فيه انتفاء المقيد لانتفاء قيده اللازم وهذا كقولهم: السالبة لا تقتضي وجود الموضوع، فحاصله أنه سلب لا تقتضي وجود الموضوع، وهو في وصف مفازة وأوله لا يفزغ الأرنب أهوالها، أي لا ضب بها حتى ينحجر ولا حجة حتى ينزلها، فالمراد نفيهما جميعًا. اهـ شهاب رحمه الله تعالى.

مَن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أي حقق ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ تقتلونهم قتلًا (ذريعًا). وعن (ابن عيسى): حسّه أبطل حسّه بالقتل ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بأمره وعلمه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ (جبنتم) ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي اختلفتم ﴿وَعَصَيْتُم﴾ أمر نبيّكم بترككم (المركز) واشتغالكم بالغنيمة ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من الظَّفْر وقهر الكفّار. ومتعلق «إذا» محذوف تقديره حتى إذا فشلتم منعكم نصره، وجاز أن يكون المعنى صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي الغنيمة وهم الذين تركوا المركز لطلب الغنيمة. رُوِيَ أن رسول الله ﷺ جعل أُحُدًا خلف ظهره واستقبل المدينة وأقام (الرُّماة) عند الجبل وأمرهم أن يثبتوا في مكانهم ولا يبرحوا ـ كانت الدولة للمسلمين أو عليهم ـ فلما أقبل المشركون جعل الرُّماة (يرشقون) خيلهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا، والمسلمون على آثارهم يقتلونهم. حتى إذا فشلوا وتنازعوا فقال بعضهم: قد انهزم المشركون فما موقفنا هٰهنا، فادخلوا عسكر المسلمين وخذوا الغنيمة مع إخوانكم، وقال بعضهم: لا تخالفوا أمر رسول الله ﷺ. فمَن ثبت مكانه (عبد الله بن جبير)

قوله: (ذريعًا) أي سريعًا. **قوله:** (ابن عيسى) هو أبو الحسن عليّ بن عيسى النحويّ رحمه الله. **قوله:** (جبنتم) من باب ظَرُف، وفي لغة: من باب قتل. **قوله:** (المركز) وزان مسجد موضع الثبوت. اهـ مصباح. وهو مكانهم الذي أمرهم النبيّ ﷺ بلزومه. **قوله:** (الرُّماة) جمع رام. **قوله:** (يرشقون) الرشق: الرَّمي من باب نصر. **قوله:** (عبد الله بن جبير) بن النعمان بن أُمية بن امرىء القيس، وهو البرك بن ثعلبة بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي، ثم من بني ثعلبة بن عمرو. شهد العقبة وبدرًا وقُتل يوم أُحد، وهو أخو خوّاتِ بن جبير صاحب ذات النحيين، وكان رسول الله ﷺ جعل عبد الله على الرُّماة يوم أُحد، وكانوا خمسين رجلًا، وقال لهم: «**لا تبرحوا مكانكم، وإن رأيتم الطير تخطفنا**»؛ فلمّا انهزم المشركون نزل من عنده من الرّماة ليأخذوا الغنيمة، فقال لهم عبد الله بن جبير: كيف تصنعون بقول رسول الله ﷺ؟ فمضوا وتركوه، فأتاه المشركون فقتلوه، ولم يعقّب. أخرجه الثلاثة يعني ب د ع. اهـ أُسد الغابة. وقوله: ذات النحيين،

أمير الرُّماة في نفر دون العشرة وهم المَعنيّون بقوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ فكَرَّ المشركون على الرُّماة وقتلوا عبد الله بن جبير وأقبلوا على المسلمين حتى هزموهم وقتلوا مَن قتلوا وهو قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي كفَّ معونته عنكم فغلبوكم ﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾ ليَمتَحِن صبركم على المصائب وثباتكم عندها وحقيقته ليُعاملكم معاملة المختبر لأنه يجازي على ما يعمله العبد لا على ما يعلمه منه ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ حيث (ندمتم) على ما فرط منكم من عصيان رسول الله ﷺ ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بالعفو عنهم وقبول توبتهم، أو هو متفضّل عليهم في جميع الأحوال سواء (**أُديل**) لهم أو أديل عليهم، لأن الابتلاء رحمة كما أن النصرة رحمة. (**وانتصب**).

﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمٍّ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾

(﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ﴾) تبالغون في الذهاب في (**صعيد الأرض**)، والإصعاد في صعيد الأرض أو الإبعاد فيه (**بصرفكم، أو بقوله: «ليبتليكم»**) أو بإضمار «اذكروا» ﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ ولا تلتفّون وهو عبارة عن غاية انهزامهم

النِّحي ـ بالكسر والفتح ـ الزِّقّ الذي فيه السمن، ومنه قصة ذات النِّحْيَيْن المثل المشهور: أشْغَلُ من ذات النِّحْيَيْن، وهي امرأةٌ من تَيْم الله بن ثعلبة، وكانت تبيع السمن في الجاهلية، فأتى خَوّات بن جُبير الأنصاري يبتاع منها سمنًا فساومها فحلت نحيًا مملوءًا، فقال: أمسِكيهِ حتى أنظر غيره، ثمّ حلّ آخر، وقال لها: أمسكيه، فلمّا شغل يديها ساورها، أي غالبها حتى قضى ما أراد وهرب، ثم أسلم خوّات وشهد **بدرًا**، فقال رسول الله ﷺ: «**كيف شرادك؟**» وتبسّم رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله قد رزق الله خيرًا وأعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر، أي من النقصان بعد الزيادة. **قوله:** (نَدِمْتم) من باب طرب وسَلِم. **قوله:** (**أُدِيل**) بمعنى جعل الدولة. **قوله:** (**وانتصب**).

(﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ﴾) الخ (**بصرفكم أو بقوله: ليبتليكم**) وما بينهما اعتراض. **قوله:** (**صعيد الأرض**) في المصباح: الصعيد في كلام العرب يُطلق على وجوه:

وخوف عدوهم ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ﴾ يقول: («**إليّ عباد الله**) أنا رسول الله (**مَن يكرّ**) فله الجنة» والجملة في موضع الحال ﴿فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ (**في ساقتكم وجماعتكم الأخرى**) وهي المتأخرة. يقال جئت في آخر الناس وآخرهم كما تقول في أولهم وأولاهم بتأويل مقدمتهم وجماعتهم الأولى ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ عطف على «صرفكم» أي فجازاكم الله ﴿غَمَّۢا﴾ حين صرفكم عنهم وابتلاكم ﴿بِغَمّٖ﴾ (**بسبب غم**) أذقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم أمره أو غمًّا مضاعفًا، غمًّا بعد غمّ وغمًّا متصلًا بغمّ، من الاغتمام (**بما أرجف به**) من قتل رسول الله عليه السلام (**والجرح**) والقتل (**وظفر المشركين**) وفَوْت الغنيمة والنصر ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ (**لتتمرنوا**) على تجرّع الغموم فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ ولا على مصيب من المضارّ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ عالِم بعملكم لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهذا ترغيب في الطاعة وترهيب عن المعصية.

على التراب الذي على وجه الأرض، وعلى وجه الأرض، وعلى الطّريق. **قوله:** (**إليّ عباد الله**) أي أقبلوا إليّ يا عباد الله، إنما قال هذا ترغيبًا للإقبال؛ إذ من شأن عباد الله أن ينصروا رسوله، لا سيّما في وقت الابتلاء والامتحان مع ملازمة التّكلان، كما أن التعبير بالرسول للإشعار بأن دعوته بالوحي، وأنّ الإجابة لازمة، وفيه توبيخٌ عظيم لمن تفرّق من المؤمنين. اهـ قنوي رحمه الله. **قوله:** (**من يَكُرّ**) أي من يرجع. في مختار الصّحاح: الكرّ الرجوع، وبابه ردّ. اهـ.

قوله: (**في ساقَتِكم وجماعتكم الأخرى**) المراد الساقة من العسكر أو جماعة أخرى مطلقًا. **قوله:** (**بسبب غمّ**) فالباء متعلقة بأثابكم، وعلى الثاني الظرف مستقرّ. اهـ تفتازاني رحمه الله.

قوله: (**بما أرجف به**). . . الخ. الإرجاف هو الإخبار بما يورث الاضطراب من الأخبار الكاذبة، ويقال: للأكاذيب أراجيف، وحقيقته الاضطراب فقط. **قوله:** (**والجرح**) عطف على ما أُرجف به. **قوله:** (**وظفر المشركين**) يعني غلبتهم، وإلّا فالظفر كان للمسلمين. **قوله:** (**لتتمرّنوا**) أي تعتادوا. قال العلّامة الشهاب عليه رحمة الله الوهّاب: التمرّن مزاولة الأمر واعتياده. اهـ.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ ثم أنزل الله الأمْنَ على المؤمنين وأزالَ عنهم الخوف الذي كان بهم حتى **(نعسوا)** وغلبهم النوم. **(عن أبي طلحة: غشينا النعاس)** ونحن **(في مَصافنا)** فكان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه.

قوله: (نَعسوا) من باب قتل. اهـ مصباح. **قوله: (عن أبي طلحة: غشينا النعاس)**. . . الخ. حديثٌ صحيح رواه البخاري، وأبو طلحة اسمه زيد بن سهل بن الأسود بن حزام ـ بالزاي ـ ابن عمرو بن زيد الأنصاري النجّاري مشهور بكنيته، من كبار الصحابة ﷺ. رُوِيَ له عن رسول الله ﷺ اثنان وتسعون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم منها على حديثين، وانفرد البخاري بحديث، ومسلم بآخر. روى عنه جماعة من الصحابة، منهم ابن عباس وأنس وآخرون وجماعات من التابعين. عقبيّ بدريّ نقيب، وهو زوج أمّ سليم بنت ملحان أُمّ أنس بن مالك، وهو الذي حفر قبر رسول الله ﷺ ولحده، وكان يسرد الصوم بعد رسول الله ﷺ، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح، وقال النبيّ ﷺ: «**صوت أبي طلحة في الجيش خيرٌ من فئة**»، وكان يرمي بين يديّ رسول الله ﷺ يوم أُحد ورسول الله ﷺ خلفه، فكان إذا رمى رفع رسول الله ﷺ شخصه لينظر أين يقع سهمه، فكان أبو طلحة يرفع صدره ويقول: هكذا يا رسول الله لا يصيبك سهم، نحري دون نحرك، ونفسي دون نفسك؛ وقال له النبيّ ﷺ في مرضه الذي توفي فيه: «**أقرىء قومك السلام، فإنهم أعفّة صبر**». عن أبي طلحة أن النبيّ ﷺ ضحّى بكبشين أملحين، وقال عند الذبح الأول: «**عن محمّد وآل محمّد**»، وقال عند الذبح الآخر: «**عن مَنْ آمن بي وصدّقني من أُمّتي**». وعنه رضي الله تعالى عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ، فرأيت من بِشره وطلاقته ما لم أرهُ على مثل تلك الحال، قلت: يا رسول الله، ما رأيتك على مثل هذه الحال أبدًا؟ وقال: «**ما**

والأمنة الأمن، و«نعاسًا» (بدل) من «أمنة» أو هو مفعول و«أمنة» حال منه مقدمة عليه نحو: «رأيت راكبًا رجلًا» والأصل أنزل عليكم نعاسًا ذا أمنة إذ النعاس ليس هو الأمن، ويجوز أن يكون «أمنة» مفعولًا له أو حالًا من المخاطبين بمعنى ذوي أمنة أو على أنه جمع آمن كبار وبررة ﴿يَغْشَىٰ﴾ يعني النعاس. («تغشى» بالتاء والإمالة: حمزة وعلي أي الأمنة) ﴿طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ هم أهل الصدق واليقين (﴿وَطَآئِفَةٌ﴾) هم المنافقون ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ ما يهمّهم إلا همّ أنفسهم وخَلاصها لا هَمَّ الدين ولا هَمَّ رسول الله ﷺ والمسلمين رضوان الله عليهم

يمنعني يا أبا طلحة وقد خرج جبريل من عندي آنفًا وآتاني ببشارة من ربّي عزّ وجلّ أنّ الله بعثني إليك مبشّرًا أنه ليس أحد من أُمّتك يصلّي عليك صلاة إلّا صلّى الله عزّ وجلّ وملائكته عليه عشرًا». وعن أنس أنّ أبا طلحة قرأ سورة براءة، فأتى على هذه الآية: ﴿انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: الآية ٤١]، قال: أرى ربّي يستنفرني شابًّا وشيخًا، جهّزوني؛ فقال له بَنُوه: قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى قُبِض، ومع أبي بكر ومع عمر، فنحن نغزو عنك، فقال: جهّزوني، فجهّزوه، فركب البحر فمات، فلم يجدوا جزيرَة يدفنونه فيها إلّا بعد سبعة أيام، فلم يتغيّر. وعن أنس أنه كان لا يكاد يصوم في عهد النبيّ ﷺ من أجل الغزو، فلمّا توفي رسول الله ﷺ صام أربعين سنة لم يفطر إلا أيّام العيد. قال المدائني: مات أبو طلحة سنة إحدى وخمسين.

قوله: (في مصافنا) أي في صفّ القتال. **قوله:** (بدل) أي بدل الكلّ. **قوله:** (تغشى بالتاء) المثناة من فوق (والإمالة حمزة وعلي) الكسائي، (أي الأمنة) أي إسنادًا إلى أمَنَة. والباقون بالتذكير إسنادًا إلى ضمير النعاس.

تنبيـــه:

الإمالة أن تنحى بالفتحة نحو الكسرة وبالألف نحو الياء كثيرًا، وهي المحضة، ويقال لها: الكبرى، والاضجاع والبطح، وهي المرادة عند الإطلاق وقليلًا وهو بين اللّفظين، ويقال له: التقليل، وبين بين والصغرى ويجتنب في الإمالة المحضة القلب الخالص والإشباع المبالغ فيه. **قوله:** (﴿وَطَآئِفَةٌ﴾) مبتدأ حُذِف خبره، أي ومنكم طائفة، وجاز الابتداء بالنَّكرة لتقدم الحكم ولتخصّصها

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ في حكم المصدر أي يظنّون بالله غير الظن الحق الذي يجب أن يظن به وهو أن لا ينصر محمدًا ﷺ ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدل منه (**والمراد الظن المختص**) بالمِلَّة الجاهلية، أو ظن أهل الجاهلية أي لا يظن مثل ذلك الظن إلا أهل الشِّرك الجاهلون بالله ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ هل لنا معاشر المسلمين من أمر الله نصيب قطّ يعنون النصر والغلبة على العدو ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ﴾ أي النصر والغَلَبة ﴿كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ (**ولأوليائه**) المؤمنين ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصَّافَّات: الآية ١٧٣] «كله» تأكيد للأمر و«لله» خبر «إن» (**«كله» بصري**) وهو مبتدأ و«لله» خبره والجملة خبر «إن» ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ خوفًا من السيف ﴿يَقُولُونَ﴾ في أنفسهم أو بعضهم لبعض منكرين لقولك لهم: ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي لو كان الأمر كما قال محمد: «إن الأمر كله لله ولأوليائه وأنهم الغالبون» لما غلبنا قطُّ، ولما قتل من

بالوصف، والجملة في محل النصب على أنها حال من مفعول يغشى، والجملتان بعد طائفة صفتان لها، أو يكون يظنون حالًا من مفعول أهمّتهم، أو صفة أخرى لطائفة. اهـ شيخ زاده رحمه الله.

قوله: (والمراد الظنّ المختصّ). . . الخ إضافته إمّا من إضافة الموصوف إلى مصدر صفته، ومعناها الاختصاص بالجاهلية؛ كرجل صدق، وحاتم الجود، فهي على معنى اللام، أي المختصّ بالصدق والجود، فالياء مصدرية والتاء للتأنيث اللازم له، أو من إضافة المصدر لفاعله على حذف المضاف، أي ظنّ أهل الجاهلية، أي الشرك والجهل بالله، وهي اختصاصية حقيقيّة أيضًا. اهـ شهاب رحمه الله. يعني: أن إضافة الظنّ إلى الجاهلية مع أنه صفة الجاهل إضافة الموصوف إلى مصدر صفة دلالة على اختصاص المضاف بمصدره، أي منشأ ذلك الظنّ من الجاهل جهله، فالجاهلية إمّا صفة الملة للمبالغة، أو بتقدير المضاف، أي ظنّ أهل الجاهلية فيفوت المبالغة، ولهذا قدّم الملّة الجاهلية على أهلها. اهـ قنوي رحمه الله. **قوله: (ولأوليائه)** المؤمنين إشارة إلى أن كون الغَلَبة لله كناية عن غلبة أوليائه وحزبه لكونهم من الله بمكان فعلهم فعله. اهـ شهاب رحمه الله. **قوله: (كله)** بالرفع **(بصريّ)** أي أبو عمرو البصري، وكذا يعقوب البصري، وليس من السبعة. والباقون بالنصب.

المسلمين مَن قتل في هذه (**المعركة**). «قد أهمَّتهم» صفة لـ «طائفة» و«يظنون» خبر لـ «طائفة» أو صفة أخرى، أو حال أي قد أهمَّتهم أنفسهم ظانِّين. و«يقولون» بدل من «يظنون» و«يخفون» حال من «يقولون» و«قل إن الأمر كله لله» اعتراض بين الحال وذي الحال و«يقولون» بدل من «يخفون» أو استئناف ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي من علم الله منه أنه يقتل في هذه المعركة وكتب ذلك في اللوح لم يكن به من وجوده، فلو قعدتم في بيوتكم ﴿لَبَرَزَ﴾ من بينكم ﴿الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ (**مصارعهم**) بأحد ليكون ما علم الله أنه يكون، والمعنى أن الله كتب في اللوح قتل مَن يقتل من المؤمنين وكتب مع ذلك أنهم الغالبون لعلمه أن العاقبة في الغلبة لهم، وأن دين الإسلام يظهر على الدين كله، وأن ما (**ينكبون**) به في بعض الأوقات (**تمحيص**) لهم ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص ويمحّص ما في قلوبهم من وساوس الشيطان فعل ذلك. أو فعل ذلك لمصالح (**جَمَّة**) وللابتلاء والتمحيص ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بخفياتها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ﴾ انهزموا ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ جمع محمد عليه السلام وجمع (**أبي سفيان**) للقتال بأُحد ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ دعاهم إلى (**الزلّة**)

قوله: (المَعْرَكة) موضع الحرب. **قوله: (ينكبون)** في لسان العرب: النَّكْبة المصيبة. اهـ. وأيضًا فيه: ينكُبه نَكْبًا ونَكَبًا بلغ منه وأصابه بنكبة، ويقال: نكبته حوادث الدهر فأصابته نكبة. اهـ. **قوله: (مصارعهم)** أي الأماكن التي ماتوا فيها عند أُحد. **قوله: (تمحيص)** في مختار الصِّحاح: التمحيص الابتلاء والاختبار. اهـ. **قوله: (جمّة)** كثيرة.

قوله: (أبي سفيان) صخر بن حرب، أسلم زمن الفتح رضي الله تعالى عنه. **قوله: (الزلّة)** في المصباح: زَلّ عن مكانه زَلًّا من باب ضرب تنحّى عنه، وزلّ زَلَلًا من باب تعب، لغة. والاسم الزِّلة ـ بالكسر ـ والزَّلة ـ بالفتح ـ المرّة، والمزلّة المكان الدحضُ وهو بفتح الميم. وأما الزاي، فالكسر أفصح من الفتح. يقال:

وحملهم عليها ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ۖ﴾ بتركهم المركز الذي أمرهم رسول الله ﷺ بالثَّبات فيه فالإضافة إلى الشيطان لطف وتقريب والتعليل بكسبهم وعظ وتأديب. وكان أصحاب محمد عليه السلام تولّوا عنه يوم أُحُد إلا ثلاثة عشر رجلًا منهم **(أبو بكر الصديق وعلي وطلحة وابن عوف وسعد بن أبي وقاص)** والباقون من الأنصار ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ﴾ تجاوز عنهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعاجِل بالعقوبة.

أرض مَزَلة تزلّ فيها الأقدام، وزلّ في منطقه أو فعله يزلّ من باب ضرب زَلّة أخطأ.اهـ. **قوله: (أبو بكر الصديق)** الأكبر خليفة رسول الله ﷺ، عبد الله بن أبي قحافة، عثمان بن عامر مَنْ يُحصي مناقبه ويحيط بفضائله غير الله عزّ وجلّ، ورُوِيَ للصدِّيق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ مائة حديث واثنان وأربعون حديثًا، اتّفق البخاري ومسلم منها على ستّة، وانفرد البخاري بأحد عشر، ومسلم بحديث. وسبب قلّة رواياته مع تقدُّم صحبته وملازمته النبيّ ﷺ أنه تقدَّمت وفاته قبل انتشار الأحاديث واعتناء التابعين بسماعها وتحصيلها وحفظها، وكان النبيّ ﷺ يُكْرمه ويجلّه ويعرّف أصحابه مكانه ويُثني عليه في وجهه، واستخلفه في الصّلاة، ومناقبه غير مُنحصرة أجمعت الأُمّة على صحة خلافته وقدَّمته الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين لكونه أفضلهم وأحقّهم بها من غيره، وحديث بيعته مشهورٌ في الصحيحين معروف، وقد قال عليّ رضي الله تعالى عنه: قدّم رسول الله ﷺ أبا بكر يصلّي بالناس وأنا حاضرٌ غيرُ غائب، وصحيح غير مريض، ولو شاء أن يُقدِّمني لقدمني، فرضينا لدنيانا مَنْ رَضِيَه الله ورسوله لديننا. مات[١] في جمادى الأُولى سنة ثلاث عشرة، والصحيح أنه توفي وله ثلاث وستّون سنة كرسول الله ﷺ، وعمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه توفي آخر يوم الاثنين.

قوله: (وعليّ) بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قد تقدَّم مناقبه رضي الله تعالى عنه في تفسير هذه السورة.

قوله: (وطلحة) بن عبيد الله الصحابي أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنّة، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام، وأحد الخمسة الذين

---

(١) وفي رواية مات أبو بكر: لليلة خلت من ربيع الأول، وفي رواية: توفي أبو بكر لثمانٍ بقين من جمادى الآخرة. ١٢ منه عمّ فيضهم.

....

أسلموا على يد أبي بكر رضي الله تعالى عنه، وأحد الستّة أصحاب الشورى الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وسمّاه رسول الله ﷺ طلحة الخير وطلحة الجود، وهو من المهاجرين الأوّلين، ولم يشهد بدرًا، ولكن ضَرَب له رسول الله ﷺ سهمه وأجره كمن حضر وشهد أُحُدًا وما بعدها من المشاهد، وكان أبو بكر رضي الله تعالى عنه إذا ذَكَر أُحدًا، قال: ذلك يوم كان كلّه لطلحة. رُوِيَ لطلحة عن رسول الله ﷺ ثمانية وثلاثون حديثًا، واتّفقا منها على حديثين، وانفرد البخاري بحديثين، ومسلم بثلاثة. قُتِل رضي الله تعالى عنه يوم الجمل لعشرٍ خلَوْن من جمادى الأُولى سنة ستٍّ وثلاثين، وهذا لا خلاف فيه، وكان عمره أربعًا وستّين سنة، وقيل: ثمانيًا وخمسين، وقيل: اثنين وستين، وقبره بالبصرة مشهور يُزار ويتبرّك به. رَوَى عنه بنوه موسى وعيسى ويحيىٰ وعامر بن سعد وخلائق غيرهم من التّابعين.

قوله: (وابن عوف) هو أبو محمد عبد الرحمٰن بن عوف بن عبد عوف بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرّة القرشي الزهري المدني، كان اسمه في الجاهلية عبد عمرو، وقيل: عبد الكعبة، فسمّاه رسول الله ﷺ عبد الرحمٰن، وأُمّه الشفا بنت عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة. وُلِد بعد الفيل بعشر سنين، أسلم عبد الرحمٰن قديمًا قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وهو أحد الثمانية السابقة إلى الإسلامْ، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر رضي الله تعالى عنه، وأحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنّة، وأحد الستّة الذين هم أصل الشورى الذين أوصى إليهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بالخلافة، وقال: إنّ رسول الله ﷺ توفّي وهو عنهم راض، وكان من المهاجرين الأوّلين، وهاجر الهجرتين إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع، وشَهِد مع رسول الله ﷺ بدرًا وأُحدًا والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد، وكان كثير الإنفاق في سبيل الله، أعتق في يوم إحدى وثلاثين عبدًا. رُوي له عن رسول الله ﷺ خمسة وستّون حديثًا اتّفقا منها على حديثين، وانفرد البخاري بخمسة. روى عنه ابن عمر وابن عباس وجابر وأنس وجبير بن مطعم وغيرهم من الصحابة وخلائق من التابعين، منهم بنوه إبراهيم وحُمَيد ومصعب بنو

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ (**كابن أُبيّ**) وأصحابه ﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ أي في حق إخوانهم في النَّسَب أو في النِّفاق ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ سافروا فيها للتجارة أو غيرها ﴿أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى﴾ جمع غازٍ (**كعافٍ وعفًّى**) وأصابهم موت أو قتل ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ﴾ اللام يتعلق بـ «لا تكونوا» أي لا تكونوا كهؤلاء في النطق بذلك القول واعتقاده ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم خاصة و(**يصون**) منها قلوبكم، أو بـ «قالوا» أي قالوا

عبد الرحمٰن. توفي سنة ثنتين وثلاثين، وقيل: إحدى وثلاثين، وهو ابن ثنتين وسبعين، وقيل: خمس وسبعين، وقيل: ثمان وسبعين، ودُفِن بالبقيع رضي الله تعالى عنه.

قوله: (وسعد بن أبي وقاص) أحد العشرة، هو أبو إسحٰق سعد بن مالك بن وهب القريشي الزهري المكّي المدني أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنّة، وتوفي وهو عنهم راضٍ، وأحد الستّة أصحاب الشورى الذين جعل عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه أمر الخلافة إليهم، وأسلم قديمًا بعد أربعة، وقيل: بعد ستّة، وهو ابن سبع عشرة سنة، وهو أوّل مَنْ رمى بسهم في سبيل الله، وأوّل من أراق دمًا في سبيل الله، وهو من المهاجرين الأولين هاجر إلى المدينة قبل قدوم رسول الله ﷺ إليها، شهد مع رسول الله ﷺ بدرًا وأُحدًا والخندق وسائر المشاهد كلّها، وكان يقال له: فارس الإسلام. توفي سنة خمس وخمسين، وقيل: سنة إحدى وخمسين، وقيل: سنة أربع، وقيل: سنة ستّ، وقيل: سنة سبع، وقيل: سنة ثمان وخمسين، توفي بقصره بالعقيق على عشرة أميال، وقيل: سبعة من المدينة. وحُمِل على أعناق الرجال إلى المدينة، وصُلّي عليه في المدينة ودُفِن بالبقيع رضي الله تعالى عنه.

قوله: (كابن أُبي) أي عبد الله بن أُبي رئيس المنافقين. **قوله: (كعافٍ وعفًّى)** من عفا الأثر إذا انْدَرَس. **قوله: (يصون)** أي يحفظ.

ذلك واعتقدوه ليكون ذلك حسرة في قلوبهم والحسرة الندامة على فوت المحبوب ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾ ردٌّ لقولهم: «إن القتال يقطع الآجال» أي الأمر بيده قد يُحيي المُسافِر والمُقاتل. ويُميت المُقيم والقاعِد ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فيُجازيكم على أعمالكم. («يعملون» **مكي وحمزة وعلي**) أي الذين كفروا.

﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝١٥٧ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ۝١٥٨﴾

﴿(وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ) فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ﴾ («متم» **وبابه الكسر: نافع وكوفي غير عاصم، تابعهم حفص إلا في هذه السورة**) كأنه أراد الوفاق بينه وبين قتلتم. غيرهم: بضم الميم في جميع القرآن، فالضم من مات يموت، والكسر من مات يمات كخاف يخاف فكما تقول خفت تقول متّ ﴿لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ «ما» بمعنى «الذي» والعائد محذوف (**وبالياء: حفص**).

(﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ﴾) أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ۝١٥٨﴾ لإلى الرحيم الواسع الرحمة المثيب العظيم الثواب تحشرون. ولوقوع اسم الله في هذا الموضع مع تقديمه وإدخال اللام على الحرف المتصل به شأن غنيٌّ عن البرهان. (﴿لَمَغۡفِرَةٞ﴾) جواب القسم (**وهو سادٌ مَسدّ جواب الشرط**)، وكذلك «لإلى الله تحشرون» كذب الكافرين

قوله: («**يعملون**») بالغيب (**مكّي**) أي ابن كثير المكّي (**وحمزة وعليّ**) الكسائي. والباقون بالخطاب.

قوله: (**مُتم وبابه بالكسر نافع وكوفي غير عاصم**) أي حمزة والكسائي وخلف. (**تابعهم حفص إلّا في هذه السورة**)، فإنه ضمّ الميم هنا في الموضعين فقط، كأنه أراد الوفاق بينه وبين قتلتم غيرهم بضم الميم... الخ. عبارة تفسير النيسابوري: متّم ومتنا بكسر الميم من مات يمات حيث كان نافع وعليّ وحمزة وخلف وافق حفص إلّا هٰهنا لجوار قتلتم. الباقون بضم الميم من مات يموت.اهـ. **قوله:** (**وبالياء**) التحتية (**حفص**) التفاتًا وراجعًا للكفار. والباقون بالخطاب جريًا عل قتلتم.

قوله: (﴿لَمَغۡفِرَةٞ﴾) جواب القسم إشارة إلى أن اللام في: (﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ﴾) هي الموطئة للقسم. وكذا في (﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ﴾). **قوله:** (**وهو سادّ مسدَّ جواب الشرط**)،

أولًا في زعمهم أن مَن سافر من إخوانهم أو غزا لو كان بالمدينة لما مات، ونهى المسلمين **(عن ذلك)** لأنه سبب التقاعد عن الجهاد ثم قال لهم: ولئن تمَّ عليكم ما تخافونه من الهلاك بالموت أو القتل في سبيل الله فإن ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت في سبيل الله خير مما تجمعون من الدنيا، فإن الدنيا زاد المعاد فإذا وصل العبد إلى المراد لم يحتج إلى الزَّاد.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ﴾ **(«ما» مزيدة)** للتوكيد والدلالة على أن لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله. ومعنى الرحمة **(ربطه على جأشه)** وتوفيقه للرِّفق والتلطّف بهم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ جافيًا ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ قاسيه ﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ لتفرّقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحد منهم ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ **ما** كان منهم يوم أُحُد مما يختصّ بك ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما يختصّ بحق الله إتمامًا للشفقة عليهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ﴾ أي في أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل عليك فيه وحي تطييبًا لنفوسهم وترويحًا لقلوبهم ورفْعًا لأقدارهم، ولتقتدي بك أُمتك فيها. **(في الحديث)**

أي حذف جواب الشرط لسدّ جواب القسم مسدّه لكونه دالاً عليه. **قوله: (عن ذلك)** الزَّعم.

قوله: («ما» مزيدة) كما في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [النساء: الآية ١٥٥] و﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: الآية ٤٠]، و﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ [صَ: الآية ١١]، ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾ [نوح: الآية ٢٥]، فإن العرب قد تزيد في الكلام ما يُستغنى عنه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٦] فزاد أن للتأكيد. **قوله: (ربطه على جأشه)** أي ربط الله تعالى على قلب النبيّ ﷺ، وهو عبارة عن جعله إيّاه بحيث يحتمل المكروه ولا يتضرّر، يقال: فلان رابط الجأش ـ بالهمزة ـ أي شديد القلب، كأنه يربط نفسه عن الفرار بشجاعته، وإنما جعل الرِّفق ولين الجانب مسبّبًا عن ربط الجأش؛ لأن مَنْ مَلَكَ نفسه عند الغضب كان كامن الشجاعة حيث يكسر سورة الغضب المُوجب لغلظة القلب، فلا جرم يحصل الرّفق واللِّين. **قوله: (في الحديث)**. . . الخ. أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر عن الحسن.

«ما تشاور قوم قطّ إلا هُدُوا لأرشد أمرهم» **(وعن أبي هريرة)** ﷺ: **(ما رأيت)** أحدًا أكثر مشاورة من أصحاب رسول الله ﷺ. ومعنى شاورت فلانًا أظهرت ما عندي وما عنده من الرأي. وشرت الدابة استخرجتُ جريها، وشرت العسل أخذته من مآخذه، **(وفيه دلالة جواز الاجتهاد وبيان أن القياس حجة)** ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فإذا قطعت الرأي على شيء **(بعد الشورى)** ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في إمضاء أمرك على الأرشد لا على المشورة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه والتوكّل الاعتماد على الله والتفويض في الأمور إليه. وقال **(ذو النون)**: خلع الأرباب وقطع الأسباب.

قوله: (وعن أبي هريرة) رضي الله تعالى عنه: **(ما رأيت)**... الخ، أخرجه ابن حاتم. **وقوله: (أبي هريرة)** اختُلف في اسمه اختلافًا كثيرًا جدًّا، قال الإمام الحافظ أبو عمرو بن عبد البرّ: لم يخُتلف في اسم أحد في الجاهلية ولا في الإسلام كالاختلاف فيه، وذكر ابن عبد البرّ أيضًا: أنه اختلف فيه على عشرين قولًا، وذكر غيره نحو ثلاثين قولًا، واختلف العلماء في الأصحّ منها، والأصح عند المحقّقين والأكثرين ما صححه البخاري وغيره من المُتْقنين أنه عبد الرحمٰن بن صخر، روى البيهقي وغيره عن الشافعي رحمه الله قال: أبو هريرة أحفظ مَنْ روى الحديث في دهره، وأسلمت أُمّه رضي الله تعالى عنه وعنها وقصّة إسلامها مذكورة في صحيح مسلم، وروينا في صحيح مسلم عن أبي هريرة قصّة إسلام أُمّه، قال: قلت: يا رسول الله ادع الله أن يحبّبني أنا وأُمّي إلى عباده المؤمنين ويحبّبهم إلينا، فقال النبيّ ﷺ: **«اللّهمّ حبّب عبيدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبّب إليهما المؤمنين»**، فما خلق الله مؤمنًا يسمع بي ولا يراني إلّا أحبّني. قال الحميدي في الجمع بين الصحيحين: وقد ذكر الإمام أبو بكر البرقاني ومسعود الدمشقي في كتابَيْهما وأوّله عندهما: عن أبي كثير، قال: حدثنا أبو هريرة قال: والله ما خلق الله مؤمنًا يسمع بي ولا يراني إلّا أحبني، قلت: وما عِلْمك بذلك يا با هريرة؟ فذكر الحديث.

قوله: (وفيه دلالة جواز الاجتهاد وبيان أن القياس حجّة) وإشعار بمنزلة الصحابة، وأنهم كلّهم أهل اجتهاد. اهـ شهاب رحمه الله. **قوله: (بعد الشورى)** مأخوذ من الفاء. **قوله: (ذو النون)** المصري العارف بالله أحد مشائخ الطريقة وواحد وقته أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم، وكان أبوه نوبيًا. توفي سنة خمس وأربعين ومائتين رحمه الله.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلا أحد يغلبكم وإنما يدرك نصر الله مَن تبرأ من حوله وقوته واعتصم بربه وقدرته ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أُحد ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد خذلانه وهو ترك المعونة، أو هو من قولك: ليس لك مَن يُحسِن إليك من بعد فلان تريد إذا جاوزته، وهذا تنبيه على أن الأمر كله لله وعلى وجوب التوكّل عليه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وليخصَّ المؤمنون ربهم بالتوكّل والتفويض إليه لعلمهم أنه لا ناصر سواه، ولأن إيمانهم يقتضي ذلك.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن (يَغُلَّ)﴾ **مكي وأبو عمرو**) وحفص (**وعاصم أي يخون، وبضم الياء**) وفتح الغين: (**غيرهم.**) يقال غلَّ شيئًا من (**المغنم غلولًا**) وأغلَّ إغلالًا إذا أخذه في خُفية، ويقال: أغلّه إذا وجده غالّا؛ والمعنى ما صحَّ له ذلك يعني أن النبوّة تُنافي الغلول، وكذا مَن قرأ على البناء للمفعول فهو راجع إلى هذا لأن معناه: وما صحَّ له أن يوجد **غالاً** ولا يوجد **غالاً** إلا إذا كان **غالاً**. رُوِيَ أن (**قطيفة**) حمراء فُقِدَت يوم بدر مما أُصيب من المشركين فقال بعض المنافقين: لعل رسول الله ﷺ أخذها فنزلت الآية ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي يأتِ بالشيء الذي غلّه بعينه حاملًا له على ظهره كما جاء في الحديث «أو يأتِ بما احتمل من وباله وإثمه» ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ تعطى جزاءها وافيًا ولم يقل: «ثم يوفَّى ما كسب» (**ليتصل بقوله**: ﴿وَمَن يَغْلُلْ﴾) بل جيء بعام ليدخل

قوله: (﴿يَغُلَّ﴾) بفتح الياء وضمّ الغين من غلّ مبنيًا للفاعل (مكّي) أي ابن كثير المكّي (**وأبو عمرو**) البصري (**وعاصم أي يخون، وبضم الياء**) وفتح الغين مبنيًا للمفعول (**غيرهم**). **قوله**: (**المغنم**) في مختار الصّحاح: المَغْنَم والغَنِيمة بمعنى. اهـ. **قوله**: (**غلولًا**) بالضمّ. **قوله**: (**قطيفة**) أي رداء. **قوله**: (**ليتّصل بقوله**: ﴿وَمَن يَغْلُلْ﴾) يعني: أن ظاهره غير متّصل لعدم الرّابط.

تحته كل كاسِب من الغالّ وغيره فاتصل به من حيث المعنى وهو أبلغ، لأنه إذا علم الغالّ أن كل كاسِب خيرًا أو شرًّا مَجزيٌّ فمُوفّى جزاءه علم أنه غير متخلّص من بينهم مع عِظَم ما اكتسب ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي جزاء كلٌّ على قدر كسبه.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

(﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾) أي رِضا الله - قيل - هم المهاجرون والأنصار (﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾) وهم المنافقون والكفّار ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع (﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾) هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات أو ذوو

قوله: (﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾) جملة اسمية إمّا من قبيل التشبيه البليغ، فالمعنى هم في أتباع الرضوان وقسمهم في تفاوت الجزاء على كسبهم، مثل الدرجات في تفاوتها. وإما على حذف المضاف، أي ذوو درجات وأصحاب منازل ورُتَب في الثواب والعقاب، وقوله: عند الله متعلّق بدرجات باعتبار تضمّنها معنى الفضل، كأنه قيل: هم متفاضلون عند الله، أي في حكمه وعِلمه وقضائه، كما يقال هذه المسألة عند الإمام الشافعي كذا، وعند أبي حنيفة كذا، وضمير هم راجع إلى مَنْ في قوله: (﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾)؛ لأنه في معنى الجمع ويجوز أن يرجع إلى باء في قوله: (﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾)، وإلى مجموعهما؛ لأن كل واحد من أهل الثواب والعقاب، وكذا مجموعهما درجات على حسب أعمالهم، ولفظ الدرجات يؤيّد الأوّل؛ لأن الغالب في العُرف استعمال الدَّرجات في أهل الثواب والدّركات في أهل العقاب، ويؤيّده أيضًا أنه أضاف هذه الدرجات إلى نفسه، وإنما يضيف إلى نفسه ما كان من قبيل الثواب والرحمة، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ﴾ [الأنعام: الآية ٥٤]، ويؤيّد أيضًا رجوعه إلى مَنْ باء بسخطٍ كونه أقرب، وذهب إليه الحسن، حيث قال: المراد به أن أهل النار مُتفاوتون في العذاب؛ لقوله: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٢]، وقال ﷺ: «**إن منها ضحضاحًا**[١]

---

(١) في النهاية: في حديث أبي طالب «وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح»، وفي رواية: «إنه في ضحضاح من نار يغلي منه دماغه». الضحضاح في الأصل ما رقّ من=

درجات، والمعنى تفاوت منازل المُثابين منهم ومنازل المعاقبين أو التفاوت بين

وغمرًا[١] وأنا أرجو أن يكون أبو طالب في ضحضاحها»، وقال ﷺ: «**إنّ أقلّ أهل النار عذابًا له نعلان من نار يغلي من حرّهما دماغه، ينادي: يا ربّ هل يعذّب أحدٌ عذابي؟**» ويؤيّد رجوعه إلى الكلّ أنّ مراتب الخلق في المعاصي والطاعات متفاوتة، فوجب أن تتفاوت مراتبهم في درجات العقاب والثواب؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزّلزلة: الآيتان ٧، ٨]. ورُوِي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: يعني أنّ مَن اتّبع رضوانه ومن باء بسخط منه مختلفا المنازل عند الله، فلمن اتّبع رضوانه الكرامة، ولمن باء بسخطه المهانة والعذاب. ومثله رُوِي عن الكلبي، وتوفية جزاء كل عامل على حسب عمله لما توقّفت على العلم بتفاصيل جميع الأعمال، قال تعالى: (﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾) تأكيدًا لما ذكره من أنه تعالى يعطي كل نفس جزاء ما كسبت تامًّا وافيًا، ثم إنه تعالى لمّا بيّن خطأ من نسبه إلى الغلول والخيانة بيّن منّته عليهم ببعثته ﷺ، حيث قال: (﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾) الآية، وهو جواب قسم محذوف، كأنه يقول: أنا أكتفي في حقّه بأن أبيّن براءته من الغلول والخيانة، لكني أقول؛ إنّ وجوده فيكم من أعظم نعمي عليكم، فإنه يزكّيكم من الطريق الباطلة، ويعلّمكم العلوم النافعة لكم في دينكم ودنياكم، فأيّ عاقل يخطر بباله أن ينسب مثل هذا الإنسان الكريم إلى الخيانة، فإنه نشأ فيما بينكم ولم يظهر منه طول عمره إلّا الصدق والأمانة والدَّعوة إلى الله تعالى والإعراض عن الدنيا، فمن يجوّز كونه الآن غالًّا خائنًا؟ والمنّان في صفة الله تعالى المُعْطي ابتداء من غير أن يطلب عِوَضًا، فقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، أي أنعم عليهم وأحسن إليهم ببعثة هذا الرسول فيهم من حيث إنه يدعوهم إلى ما يخلّصهم من عقاب الله ويُوصلهم إلى ثواب عظيم ونعيم مقيم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧]، لا سيّما إذا كان المراد بالمؤمنين مَنْ آمنَ بالله وبرسوله ﷺ من قومه، لكون بعثته فيهم غاية الإحسان في حقّهم من حيث

= الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين، فاستعاره للنار. اهـ. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(١) في الدرّ النثير: الغَمر ـ بفتح العين وسكون الميم ـ والغمرة الماء الكثير، لأنه يغمر من دخله ويغطّيه. ١٢ منه عمّ فيضهم.

الثواب والعاقب (﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ **عالِم بأعمالهم**) ودرجاتها فيُجازيهم على حسبها.

إنه ﷺ جاء شرفًا لهم وفخرًا؛ وذلك لأن الافتخار بإبراهيم كان مشتركًا بين اليهود والنصارى والعرب، ثم كان لليهود ما يفتخرون به خاصّة، وهو موسى ﷺ والتوراة، وكان للنصارى أيضًا ما يفتخرون به خاصّة، وهو عيسى ﷺ والإنجيل، ولم يكن للعرب ما يُقابل ما لهم من سبب الافتخار، فلما بَعث الله تعالى محمّدًا ﷺ من العرب حائزًا لجميع الخصال الحميدة والأخلاق المرضية وأنزل عليه القرآن العظيم الفائق على جميع الكتب السماوية صار شرف العرب بذلك أتمّ وأكمل بالنسبة إلى سائر الأُمم، حتى صار القرآن شرفًا له ﷺ بالنسبة إلى سائر الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: الآية ٤٤]، فهذا وجه الفائدة في قوله: (﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾)، وأيضًا أنه ﷺ لمّا وُلِد فيهم ونشأ فيما بينهم لم يُشاهدوا منه من أوّل عمره إلى آخره إلّا الصدق والأمانة والعفاف وعدم المَيْل إلى الدنيا والتحلّي بمكارم الأخلاق ومحاسن العادات، ثم ادّعى النبوّة والرسالة التي يكون الكذب فيها أقبح وجوه الكذب، كان إيمانهم به أسهل بالنسبة إلى إيمان مَنْ لم يطّلع على أحواله، فكان نعمته ببعثته ﷺ في حقّهم أتمّ وأعظم، فلذلك خصّهم بكونه مُنعمًا عليهم بالنعمة العامّة لجميع الأُمة. اهـ شيخ زاده رحمه الله.

قوله: (﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ **عالمٌ بأعمالهم**)... الخ، هكذا في تفسير البيضاوي والكشاف. قال العلامة التفتازاني: قوله: عالمٌ بأعمالهم يشير إلى أنه لا معنى لكونه سميعًا بصيرًا سوى العِلم بالمسموعات والمُبْصرات. اهـ. وقال العلامة الشهاب عليه رحمة الله الوهّاب: قوله: عالمٌ بأعمالهم... الخ. تبع فيه الزمخشري، والحقّ خلافه. قال في شرح المواقف: اتّفق المسلمون على أنه سميع بصير، لكن اختلفوا في معناهما، فقالت الفلاسفة والكعبي وأبو الحسن البصري: إنهما عبارة عن علمه تعالى بالمبصرات والمسموعات، وقال الجمهور منّا ومن المعتزلة والكرامية: إنهما صفتان زائدتان على العلم، فإنّا إذا عَلِمْنا شيئًا علمًا إجماليًّا ثم بصرناه نجد فرقًا بين الحالتين بالبديهة، وأنّ في الحالة الثانية حالة زائدة هي الإبصار. اهـ. وقال العلامة القنوي: قوله: عالمٌ بأعمالهم ودرجاتها... الخ.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على مَن آمن مع رسول الله عليه السلام من قومه، وخصَّ المؤمنين منهم لأنهم هم المُنتَفِعون بمبعثه ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا (مِّنْ أَنفُسِهِمْ)﴾ من جنسهم عربيًّا مثلهم أو من ولد إسماعيل كما أنهم من ولده، والمِنَّة في ذلك من حيث إنه إذا كان منهم كان اللسان واحد فيسهل أخذ ما يجب عليهم أخذه عنه، وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة فكان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه، وكان لهم شرف بكونه منهم. (**وفي قراءة رسول الله ﷺ** ﴿مِّنْ أَنفَسِهِمْ﴾) أي من أشرفهم ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي القرآن بعدما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهّرهم بالإيمان من (**دنس الكفر والطغيان**) أو يأخذ منهم الزكاة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ القرآن والسُّنَّة ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ من قبل بعثة الرسول ﷺ ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾ (**عمى وجهالة**) ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر لا شبهة فيه «إن» مخففة من الثقيلة واللام فارِقة بينها وبين النافية والتقدير: وإن الشأن والحديث كانوا من قبل في ضلال مُبين.

لمّا لم يكن جميع الأعمال من المبصرات فسّر البصير بالعالم، قول: المص عالمٌ بأعمالهم ودرجاتها إشارة إلى ذلك، ثم نبّه بزيادة درجاتها على أن علم الأعمال يعمّ إلى علم نفسها وإلى علم مراتبها من الإخلاص التامّ ومراعاة الشروط وغير ذلك وعدمها، وفي ذكر درجاتها نوع لطافة، وقد عرفت أن مراد المص بتفسير البصير بالعلم بطريق ذكر الخاص وإرادة العام، أو ذكر السبب وإرادة المسبّب، بقرينة أنّ جميع الأعمال ليست من المبصرات، لا أنّ مراده أن صفة البصر راجع إلى العلم، كما ذهب إليه البعض، فاندفع إشكال بعض المحشين. اهـ.

قوله: (وفي قراءة رسول الله ﷺ: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾) بفتح الفاء في السمين قراءة عائشة وفاطمة والضحاك ورواها أنس عنه ﷺ بفتح الباء من النفاسة، وهي الشرف، أي من أشرافهم نسبًا وخلقًا. وعن عليّ رضي الله تعالى عنه عن النبيّ ﷺ: «**أنا أنفَسكم نسبًا وحسبًا وصهرًا**». اهـ. وأيضًا فيه الجمهور على ضمّ الفاء من أنفُسهم، أي من جملتهم وجنسهم. اهـ. **قوله: (دَنس الكفر والطغيان)** الدَّنس ـ بفتحتين ـ الوسخ. اهـ مختار الصِّحاح. **قوله: (عَمًى)** بالفتح. **قوله: (وجَهالة)** بالفتح.

﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾

﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ يريد ما أصابهم يوم أُحُد من قتل سبعين منهم ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ يوم بدر من قتل سبعين وأسْر سبعين وهو في موضع رفع صفة لـ «مصيبة» ﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ من أين هذا ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ لاختياركم الخروج من المدينة أو لتركِكم المركز. «لما» نصب بـ «قلتم» و«أصابتكم» في محل الجر بإضافة «لما» إليه وتقديره: أقلتم حين أصابتكم. و«وأنى هذا» نصب لأنه مقول والهمزة للتقرير والتقريع، وعطفت الواو هذه الجملة على ما مضى من قصة أُحُد من قوله: «ولقد صدقكم الله وعده». أو على محذوف كأنه قيل: أفعلتم كذا وقلتم حينئذ كذا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ يقدر على النصر وعلى منعه.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ «ما» بمعنى «الذي» وهو مبتدأ ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ جمعكم وجمع المشركين بأُحُد والخبر ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ فكائن بإذن الله أي بعلمه وقضائه ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ وهو كائن ليتميز المؤمنون والمنافقون وليظهر إيمان هؤلاء ونفاق هؤلاء ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ﴾ للمنافقين وهو كلام مبتدأ ﴿تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي جاهدوا للآخرة كما يقاتل المؤمنون ﴿أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾ أي قاتلوا دفعًا عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم إن لم تقاتلوا للآخرة. وقيل: أو ادفعوا العدو بتكثيركم **(سواد المجاهدين)** إن لم تقاتلوا لأن **(كثرة السواد)** مما تروع **(العدو)** ﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ أي لو نعلم ما يصحّ أن يسمى قتالًا لاتبعناكم يعنون أن ما أنتم فيه لخطإ رأيكم ليس بشيء، ولا يقال لمثله قتال إنما هو إلقاء النفس في

قوله: (سواد المجاهدين) أي جماعتهم. **قوله: (كثرة السَّواد)** أي الناس مما يروّع ـ بالتشديد والتخفيف ـ أي يلقي الروع والخوف. **(العدوّ)** أي في قلوب الأعداء.

التهلكة ﴿(هُمْ) لِلْكُفْرِ (يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ) مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ يعني أنهم كانوا يتظاهرون بالإيمان قبل ذلك وما ظهرت منهم **(أمارة)** تُؤذِن بكُفرهم، فلما **(انخذلوا)** عن عسكر المؤمنين وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الإيمان المَظنون بهم واقتربوا من الكفر، أو (﴿هُمْ﴾) لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان لأن تقليلهم **(سواد المؤمنين)** بالانخذال تقوية للمشركين ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي يُظهِرون خلاف ما يُضمِرون من الإيمان وغيره والتقيّد بالأفواه **(للتأكيد)** ونفي المجاز ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق.

قوله: (﴿هُمْ﴾) إلى آخره، (﴿هُمْ﴾) مبتدأ، و(﴿أَقْرَبُ﴾) خبره وهو أفعل التفضيل من القرب الذي هو ضدّ البُعد، ويتعدّى بثلاثة حروف اللام وإلى ومن، تقول: قربت لك وإليك ومنك، فإذا قلت: زيد أقرب من العلم من عمرو، فمن الأولى بمعنى إلى هي المعدّية لأصل معنى القرب، والثانية هي الجارّة للمفضول بعد أفعل، وقد عدّى أقرب هٰهنا باللام، فإن كل واحد من قوله: للكفر وللإيمان متعلّق به، فإن قيل: لا يتعلق حرفا جرّ متّحدان لفظًا ومعنًى بعامل واحد إلّا إذا كان أحدهما معطوفًا على الآخر أو بدلًا منه، فكيف تعلّقت اللّامانِ هنا بأقرب؟ فالجواب: إن هذا خاصّ بأفعل التفضيل، لأنه في قوّة عاملين لدلالته على معنيين أصل الفعل وزيادته، فيعمل في كلّ واحد منهما عملًا غير الآخر، فتقديره يزيد قربهم إلى الكفر على قربهم للإيمان، وقوله: (﴿يَوْمَئِذٍ﴾) متعلق بأقرب، وكذا منهم ومن هذه هي الجارة للمفضول بعد أفعل وليست هي من المعدّية لأصل الفعل، ومعنى كون قربهم إلى الكفر أزيد يومئذٍ من قربهم إلى الإيمان، أنهم كانوا قبل ذلك الوقت كاتمين للنفاق، فكانوا في الظاهر أبعد من الكفر، فلمّا ظهر منهم ما كانوا يكتمونه صاروا أقرب للكفر، فإن كل واحد من انخذالهم برجوعهم عن معاونة المسلمين وكلامهم المحكيّ عنهم يدلّ على أنهم ليسوا من المسلمين.اهـ شيخ زاده رحمه الله. **قوله:** (أَمارة) أي علامة.

قوله: (انخذلوا) الانخذال بمعنى الانقطاع. **قوله:** (سواد المؤمنين) أي جماعتهم.

قوله: (للتأكيد)، كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: الآية ٣٨]. وقيل: إنه بيان لأنه كلامٌ لفظيّ لا نفسي.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ (**أي ابن أُبيّ**) وأصحابه وهو في موضع رفع على «هم الذين قالوا» (**أو على الإبدال من واو «يكتمون»**) أو نصب بإضمار «أعني»، أو على البدل من «الذين نافقوا» أو جرّ على البدل من الضمير «في أفواههم» أو «قلوبهم» ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ لأجل إخوانهم من جنس المنافقين المقتولين يوم أُحُد ﴿وَقَعَدُواْ﴾ أي قالوا وقد قعدوا عن القتال ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾ لو أطاعنا إخواننا فيما أمرناهم به من الانصراف عن رسول الله ﷺ والقعود ووافقونا فيه لما قتلوا كما لم نقتل ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بأن الحذر ينفع من القدر فخذوا حذركم من الموت، أو معناه قل إن كنتم صادقين في أنكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلًا وهو القعود عن القتال فجِدوا إلى دفع الموت سبيلًا. و(**رُوِيَ أنه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون مُنافِقًا**).

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

ونزل في قتلى أُحُد (﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ **شامي وحمزة**) وعلي (**وعاصم، وبكسر السين: غيرهم**) والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾ («**قتّلوا»: شامي**) ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ (أَحْيَآءٌ)﴾ بل هم أحياء (﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾) مُقرَّبون عنده (**ذوو زلفى** ﴿يُرْزَقُونَ﴾) مثل ما يرزق سائر الأحياء يأكلون

قوله: (**أي ابن أُبيّ**) أي عبد الله بن أُبيّ رئيس المنافقين. **قوله:** (**أو على الإبدال من واو يكتمون**)؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٣]. **قوله:** (**رُوِي أنه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقًا**) بعدد مَنْ قُتِل بأُحد.

قوله: (﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾) بفتح السين (**شاميّ**) أي ابن عامر الشامي، (**وحمزة وعاصم**)، وكذا أبو جعفر المدني، وليس من السبعة. (**وبكسر السِّين غيرهم**).

قوله: («**قتّلوا**») بتشديد التاء (**شامي**) أي ابن عامر الشامي. والباقون بالتخفيف. **قوله:** (**ذوو زلفى**) يعني: أن العندية المكانية مستحيلة، فتعيّن حملها

ويشربون، وهو تأكيد لكونهم أحياء ووصف لحالهم التي هم عليها من التنعّم برزق الله.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠﴾

﴿فَرِحِينَ﴾ حال من الضمير في ﴿يُرۡزَقُونَ﴾ ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ وهو التوفيق في الشهادة وما ساق إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم من كونهم أحياء مُقرَّبين معجَّلًا لهم رزق الجنة ونعيمها. وقال النبي ﷺ: «لما أُصيب إخوانكم بأُحُد (**جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر**) تدور في أنهار الجنة وتأكل من ثمارها (**وتأوي إلى قناديل من ذهب معلَّقة في ظل العرش**)». وقيل: هذا الرزق في الجنة يوم القيامة وهو ضعيف لأنه لا يبقى للتخصيص فائدة. ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ﴾ بإخوانهم المجاهدين الذين ﴿لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم﴾ لم يقتلوا فيلحقوا بهم ﴿مِّنۡ

على أنهم يقربون منه تعالى قرب التكريم والتعظيم، واختلف في رسم ذو ونحوه، فرسمه بعضهم بدون الألف؛ لأن الألف إنما تُزاد بعد واو ضمير الجمع الاسمية، نحو: قالوا، وهذه ليست ضميرًا، ومنهم مَنْ رسمها في واو مثله تشبيهًا لها بواو الضمير في الفعل، وقوله: (﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾) يحتمل أن يكون خبرًا ثانيًا؛ كقوله: (﴿أَحۡيَآءٌ﴾)، وأن يكون ظرفًا لأحياء؛ لأن المعنى: يحيون عند ربِّهم، وأن يكون صفة لأحياء، وأن يكون حالًا من الضمير المستكنّ فيه، وقوله: (﴿يُرۡزَقُونَ﴾) إمّا خبر ثالث أو ثانٍ إن لم يجعل الظرف خبرًا، وإمّا صفة لأحياء. وإمّا حال من الضمير في أحياء، أي يحيون مرزوقين. وإمّا حال من الضمير المستكنّ في الظرف والعامل فيه في الحقيقة، هو العامل في الظرف.

قوله: (جعل الله أرواحهم في أجواف طير) جمع طائر، ويُطلق على الواحد (**خُضْر**) بضمّ فسكون جمع أخضر، أي بمعنى أنّ الطيور للأرواح كالهوادج للمجالس فيها. اهـ جمل. قيل: هو على ظاهره، وأن أرواح الشهداء، أعني نفوسهم التي بها الإدراك والتمييز تحلّ أبدان الطيور الخضر المنعمة في الجنّة، فتلتذّ بذلك أو تتمثّل طيور خضراء. اهـ تفتازاني رحمه الله. **قوله: (وتأوي إلى قناديل من ذهب معلّقة في ظلّ العرش)** أي تحت العرش بمنزلة أوكار الطير.

﴿خَلْفِهِمْ﴾ يريد الذين من خلفهم قد بقوا من بعدهم وهم قد تقدّموهم أو لم يلحقوا بهم لم يدركوا فضلهم ومنزلتهم ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ **(بدل من «الذين»)** والمعنى: ويستبشرون بما تبيَّن لهم من حال مَن تركوا خلفهم من المؤمنين وهو أنهم يُبعَثون آمِنِين يوم القيامة، بشّرهم الله بذلك فهم مُستَبشِرون به. وفي ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمَن خلفهم، بَعثٌ للباقين بعدهم على الجِدّ في الجهاد والرغبة في نَيْل منازل الشهداء ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ يُسَرُّون بما أنعمَ الله عليهم وما تفضَّل عليهم من زيادة الكرامة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ عطف على النعمة والفضل. **(﴿وإن الله﴾: عَليٌّ بالكسر على الاستئناف وعلى أن الجملة اعتراض)** ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بل يوفِّر عليهم.

قوله: (بدل من **«الذين»**) بدل اشتمال.

قوله: (﴿**وإن الله**﴾ **عليّ**) الكسائي (**بالكسر على الاستئناف**). والباقون **بالفتح** عطفًا على ﴿نعمة﴾.

قوله: (وعلى **أن الجملة اعتراض**) يرد عليه أنّ الاعتراض هو أن يُؤتى في أثناء الكلام.أو بين كلامين متّصلين معنى الجملة أو أكثر لا محلّ لها من الإعراب لنكتة سوى دفع الإيهام، فهو بيان التتميم؛ لأنه إنما يكون بفضلة والفضلة لا بدّ لها من إعراب، وبيان التكميل لأنه إنما يكون لدفع إيهام خلاف المقصود، وما نحن فيه ليس من هذا القبيل؛ لأنه لم يقع في أثناء كلام ولا بَيْن كلامَيْن متّصلين معنًى، فجعله اعتراضًا مبنيّ على مذهب من جوّز وقوع الاعتراض آخر جملة لا يليها جملة متّصلة بها. إمّا بأن لا تلي الجملة جملة أخرى أصلًا، فيكون الاعتراض في آخر الكلام أو تليها جملة أخرى غير متّصلة بها معنًى، فالاعتراض على هذا المذهب أن يؤتى في أثناء الكلام أو في آخره أو بين كلامين متّصلين أو غير متّصلين بجملة أو أكثر لا محلّ لها من الإعراب، وقد جرى صاحب الكشاف على هذا المذهب في مواضع منها هذا الموضع.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ مبتدأ خبره «للذين أحسنوا»، أو صفة للمؤمنين، أو نصب على المدح ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ (الجرح). رُوِيَ أن (أبا سفيان) وأصحابه لمّا انصرفوا من أُحُد فبلغوا (الرَّوحاء) ندموا وهمّوا بالرجوع فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يُرهِبهم ويُريهم من نفسه وأصحابه قوة، (فندب) النبيّ أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان، فخرج يوم الأحد من المدينة مع سبعين رجلًا حتى بلغوا (حمراء الأسد) وهي من المدينة على ثمانية أميال، (وكان بأصحابه القَرْح) فألقى الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا فنزلت ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟﴾ «من» للتبيين. مثلها في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً﴾ [الفتح: الآية ٢٩]. لأن الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتّقوا لا بعضهم ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ بدل من «الذين استجابوا» ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ رُوِيَ أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أُحُد: يا محمد موعدنا موسم بدر القابِل. فقال عليه السلام: «إن شاء الله»، فلما كان القابِل خرج أبو سفيان في أهل مكة فألقى

قوله: (الجرح) في مختار الصِّحاح: جَرَحه من باب قطع، والاسم الجُرْح بالضم. اهـ. **قوله:** (أبا سفيان) صخر بن حرب أسلم زمن الفتح رضي الله تعالى عنه. **قوله:** (الرَّوْحاء) براء مفتوحة وواو ساكنة وحاء ومدّ: موضع بين مكّة والمدينة. **قوله:** (فندب) من باب قتل بمعنى دعا. **قوله:** (حمراء) بالمدّ مضاف (الأسد) اسم موضع وليست بدر الصغرى؛ لأن هذه في وقت أحد، وبدر الصغرى بعد سنة. قال الإمام الرازي رحمه الله: مدح الله تعالى المؤمنين على غزوتين تُعرف إحداهما بغزوة حمراء الأسد، وهي المذكورة في الآية المتقدمة. والثانية بغزوة بدر الكبرى، وهي المذكورة في الآية الثانية. **قوله:** (وكان بأصحابه القرح) يعني جراحات من حرب أُحد.

الله الرّعب في قلبه فبَدَا له أن يرجع فَلَقِي **(نعيم)** بن مسعود الأشجعي **(وقد قَدِم مُعتَمِرًا)** فقال: يا نعيم إني واعَدْتُ محمدًا أن نلتقي بموسم بدر وقد بَدَا لي أن أرجع فالحق بالمدينة، **(فثبّطهم)** ولك عندي عشرة من الإبل، فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهَّزون فقال لهم: أتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم فوالله **(لا يفلت)** منكم أحد فقال ﷺ: «والله لأخرجنَّ ولو لم يخرج معي أحد» فخرج في سبعين راكِبًا وهم يقولون: «حسبنا الله ونِعْمَ الوكيل» حتى **(وافوا)** بدرًا وأقاموا بها ثماني ليالٍ وكانت معهم تجارة فباعوها وأصابوا خيرًا، ثم انصرفوا إلى المدينة سالِمِين غانِمِين ولم يكن قتال، ورجع أبو سفيان إلى مكة فسمَّى أهل مكة جيشه جيش السّويق وقالوا: إنما خرجتم لتأكلوا السَّويق. فالناس الأول نعيم وهو جمع أُريد به الواحد أو كان له أتباع يثبطون مثل تثبيطه، والثاني أبو سفيان وأصحابه. ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ فخافوهم ﴿فَزَادَهُمْ﴾ أي المقول الذي هو «إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم» أو القول، أو نعيم ﴿إِيمَٰنًا﴾ بصيرة وإيقانًا ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ كافِينا الله أي الذي يكفينا الله. يقال أحسبه الشيء إذَا كفاه وهو بمعنى المحسب بدليل أنك تقول: «هذا رجل حسبك» فتصف به النكرة لأن إضافته **(غير حقيقية)** لكونه في معنى اسم الفاعل ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ ونعم **(الموكول إليه)** هو.

قوله: (نعيم) بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة بن قنفذ بن حلاوة بن سبيع بن بكر بن أشجع بن رَيْث بن غطفان الغطفانيّ الأشجعيّ أبو سلمة، أسلم في وقعة الخندق، وهو الذي أوقع الخلاف بين قريظة وغطفان وقريش يوم الخندق، وخذل بعضهم عن بعض وأرسل الله عليهم الريح والبرد والجنود وهم الملائكة، فصرف كَيْد الكفار عن النبيّ ﷺ والمسلمين، ولمّا أسلم واستأذن النبيّ ﷺ في أن يخذل الكفار، قال له النبيّ ﷺ: **«خذل ما استطعت، فإنّ الحرب خدعة»** رواه عنه ابنه سلمة. مات نعيم في زمن خلافة عثمان، وقيل: بل قُتِل يوم الجمل. **قوله: (وقد قَدِم معتمرًا)** أي رجع من مكّة وإلى مرِّ الظهران، ومرّ الظهران محل معروف بقرب مكّة.

قوله: (فَثَبَّطَهم) التثبيط التعويق. **قوله: (لا يفلت)** أي لا يخلص. **قوله: (وافوا)** أي أتوا. **قوله: (غير حقيقية)** أي لفظيّة لا تفيد تعريفًا. **قوله: (الموكول إليه)** إشارة إلى أن فعيل بمعنى مفعول.

﴿فَانقَلَبُوا۟ بِنِعۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٍ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

﴿فَانقَلَبُوا۟ بِنِعۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهي السلامة وحذر العدو منهم ﴿وَفَضۡلٍ﴾ وهو الربح في التجارة فأصابوا بالدِّرهم درهمين ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٌ﴾ لم يلقوا ما يسوءهم من كيد عدو وهو حال من الضمير في «انقلبوا»، وكذا «بنعمة» والتقدير: فرجعوا من بدر منعمين بريئين من سوء ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بجراءتهم وخروجهم إلى وجه العدو على أثر تثبيطه وهو معطوف على «انقلبوا» ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضّل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا. ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ هو خبر «ذلكم» أي إنما ذلكم المثبط هو الشيطان وهو نعيم ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ أي المُنافقين وهو جملة مستأنفة بيان لشيطنته، أو الشيطان صفة لاسم الإشارة و«يخوف» الخبر ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ﴾ أي أولياءه ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يقتضي أن يُؤْثِر العبد خوف الله على خوف غيره. («وخافوني» **في الوصل والوقف: سهل ويعقوب، وافقهما أبو عمرو في الوصل**).

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ﴾ («**يُحزنك**» **في كل القرآن: نافع إلا في سورة الأنبياء** ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الآيـة ١٠٣]) ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾ يعني لا يُحزنوك لخوف أن يضرّوك ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾

قوله: (**وخافوني**) بإثبات الياء (**في الوصل والوقف: سهل**) بن محمد بن عثمان السجستاني البصري، (**ويعقوب**) بن إسحٰق الحضرمي البصري، وليسا من السبعة. (**وافقهما أبو عمرو**) البصري، وكذا أبو جعفر المدني، وليس من السبعة (**في الوصل**). والباقون بحذفها وصلًا ووقفًا.

قوله: («**يُحزنك**») بضم حرف المضارعة وكسر الزاي من أحزن رباعيًا (**في كل القرآن نافع**) المدني (**إلّا في سورة الأنبياء:** ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الآية ١٠٣]) ففتحه وضمّ الزاي كقراءة الباقين في الكلّ من حَزن ثلاثيًا إلّا أبا جعفر وحده في حرف الأنبياء فقط، فضمّ وكسر.

(أي أولياء الله) يعني أنهم لا يضرون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم وما وَبال ذلك عائدًا على غيرهم. ثم بيَّن كيف يعود وَباله عليهم بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ أي نصيبًا من الثواب ﴿وَلَهُمْ﴾ بدل الثواب ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وذلك أبلغ ما ضَرَّ بِهِ الإنسان نفسه، والآية تدل على إرادة الكفر والمعاصي لأن إرادته أن لا يكون لهم ثواب في الآخرة لا تكون بدون إرادة كفرهم ومعاصيهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي استبدلوه به ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ هو نصب على المصدر أي شيئًا من الضرر. الآية الأولى فيمن نافَقَ من المُتَخَلِّفين أو ارتدَّ عن الإسلام، والثانية في جميع الكفَّار أو على العكس ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ وثلاثة بعدها مع ضم الباء في «يحسبنهم» بالياء: **(مكي)** وأبو عمرو، وكلها بالتاء: حمزة، وكلها بالياء: **(مدني وشامي)** إلا «فلا تحسبنهم» فإنها بالتاء. الباقون: الأوليان بالياء والأُخريان بالتاء. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيمن قرأ بالياء رفع أي ولا يحسبُن الكافرون. و«أن» مع اسمه وخبره في قوله: ﴿أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ في موضع المفعولين لـ «يحسبن» والتقدير: ولا يحسبن الذين كفروا إملاءنا خيرًا لأنفسهم. و«ما» مصدرية **(وكان حقها في قياس علم الخط أن تُكتَب مفصولة ولكنها وقعت في الإمام متصلة)** فلا يخالف. وفيمن قرأ بالتاء نصب أي ولا تحسبنّ الكافرين وأنما نُملي لهم خيرًا لأنفسهم بدل من الكافرين، أي ولا تحسبنَّ أن ما نُملِي للكافرين خير لهم، و«أن» مع ما في حيِّزه ينوب عن

قوله: (أي أولياء الله) قدّر المضاف للقرينة العقلية عليه. اهـ شهاب رحمه الله.

قوله: (مكّي) أي ابن كثير المكّي. **قوله: (مدني)** أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني، **(وشامي)** أي ابن عامر الشامي. **قوله: (وكان حقها في قياس علم الخط أن تُكتب مفصولة)**؛ لأن ما عدا ما الكافّة سواء كانت مصدرية أو موصولة تُكتب منفصلة، **(ولكنها وقعت في الإمام متّصلة)**، والمراد بالإمام مصحف عثمان رضي الله تعالى عنه، فإنه إمام المصاحف يجب اقتداء جميع المصاحف به.

المفعولين، والإملاء لهم إمهالُهم وإطالة عمرهم. ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ «ما» هذه حقها أن تُكتَب متصلة لأنها كافَّة دون الأولى، وهذه جملة مُستأنفة تعليل للجملة قبلها كأنه قيل: ما بالهم لا يحسبون الإملاء خيرًا لهم؟ فقيل: إنما نُملي لهم ليزدادوا إثمًا. والآية حجة لنا على المعتزلة في مسألتي الأصلح وإرادة المعاصي ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

اللام في ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ من اختلاط المؤمنين (**الخلص**) والمنافقين لتأكيد النفي ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ حتى يعزل المنافق عن المخلص. (**«يميّز»: حمزة وعلي**). والخطاب في «أنتم» للمصدِّقين من أهل الإخلاص والنفاق كأنه قيل: ما كان الله ليذر المخلصين منكم على الحال التي أنتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض حتى يميِّزهم منكم بالوحي إلى نبيِّه وإخباره بأحوالكم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ وما كان الله ليؤتي أحد منكم علم الغيوب فلا تتوهموا عند إخبار الرُسُل بنفاق الرجل وإخلاص الآخر أنه يطَّلع على ما في القلوب اطّلاع الله فيخبر عن كفرها وإيمانها ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾ أي ولكن الله يرسل الرسول فيوحي إليه ويخبره بأن في الغيب كذا وأن فلانًا في قلبه النفاق وفلانًا في قلبه الإخلاص، فيعلم ذلك من جهة إخبار الله لا من جهة نفسه. والآية حجّة على الباطنية فإنهم يدّعون ذلك العلم لإمامهم فإن لم يثبتوا النبوّة له صاروا مُخالِفين للنص حيث أثبتوا علم الغيب لغير الرسول، وإن أثبتوا النبوّة له صاروا مُخالفين لنصٍّ آخر وهو قوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب: الآية ٤٠] ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ بصفة الإخلاص ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ النفاق ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة. ونزل في مانِعِي الزكاة.

قوله: (الخُلَّص) جمع خالص. **قوله:** (يُمَيِّز) بضم الياء وفتح الميم وكسر الياء الثانية مشدّدة من ميّز. (حمزة وعليّ) الكسائي، والباقون بفتح الياء وكسر الميم وسكون الياء بعدها من ماز يميز، وهما لغتان.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ مَن قرأ بالتاء قدَّر مُضافًا محذوفًا أي ولا تَحسبنّ بُخْل الباخِلين و«هو» فصل و«خيرًا لهم» مفعول ثانٍ، وكذا مَن قرأ بالياء وجعل فاعل «يحسبن» ضمير رسول الله أو ضمير أحد، ومَن جعل فاعله «الذين يبخلون» كان التقدير: ولا يحسبن الذين يبخلون بُخلهم هو خير لهم و«هو» فصل و«خيرًا لهم» مفعول ثانٍ ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي البُخْل ﴿شَرٌّ لَّهُمْ﴾ لأن أموالهم ستزول عنهم ويبقى عليهم وَبال البُخْل ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تفسير لقوله: «بل هو شرٌّ لهم» أي سيجعل مالهم الذي منعوه عن الحق طوقًا في أعناقهم كما جاء في الحديث «مَن منع زكاة ماله يصير حيّة ذَكرًا **(أقرع)** له نابان فيُطَوَّق في عنقه **(فينهشه)** ويدفعه إلى النار» ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **(وله ما فيهما مما يتوارثه)** أهلهما **(من مال وغيره)**، فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيل الله؟ والأصل في ميراث موارث فقُلِبَت الواو ياء لانكسار ما قبلها. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ **(وبالياء مكي وأبو عمرو)**، فالتاء على طريقة الالتفات وهو أبلغ في الوعيد، والياء على الظاهر.

قوله: (أقرع) أي الذي لا شعر على رأسه لكثرة سمّه وطول عمره. **قوله:** (فينهشه) في مختار الصّحاح: نَهشَة الحية لَسَعَتْه وبابه قطع.اهـ.

قوله: (وله ما فيهما مما يتوارثه)... الخ. يعني: أن الميراث مصدر كالميعاد، والمراد به ما يتوارث، فهو حقيقة، أو أن المراد أنه يَرِثه، يعني أنه ينتقل إليه ويخرج عن أيديهم ظاهرًا، وإلّا فهو له حقيقة، وعلى هذا فهو مجاز.اهـ شهاب رحمه الله.

قوله: (من مالٍ وغيره) كالمُلك والولاية والأحوال التي تنتقل من واحد إلى آخر، ولا يعدّ في الشرع مالًا، ولعلّ في أهل السماء أيضًا مثل ذلك.اهـ تفتازاني رحمه الله. **قوله:** (وبالياء) التحتية (مكّي) أي ابن كثير المكيّ (وأبو عمرو) البصري. والباقون بتاء الخطاب.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قال ذلك اليهود حين سمعوا قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: الآية ٢٤٥]. وقالوا: إن إلٰه محمد يستقرض منّا فنحن إذًا أغنياء وهو فقير. (**ومعنى سماع الله له أنه لم يخف عليه وأنه أعدَّ له كفأه من العقاب**) ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ (**سنأمر الحَفَظَة بكتابة ما قالوا في الصحائف**)، أو سنحفظه إذ الكتاب من الخلق ليحفظ ما فيه فسُمِّي به مجازًا. و«ما» مصدرية أو بمعنى «الذي» ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ معطوف على «ما». جعل قتلهم الأنبياء قرينة له إيذانًا له بأنهما في العظم أخوان، وأن مَن قتل الأنبياء لم يُستبعَد منه الاجتراء على مثل هذا القول ﴿وَنَقُولُ﴾ لهم يوم القيامة ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي عذاب النار كما أذقتم المسلمين (**الغصص**).

قوله: (ومعنى سماع الله له أنه لم يخف عليه، وأنه أعدّ له كفأه) بكسر الكاف وسكون الفاء، أي مثله. (**من العقاب**)، كذا في الكشاف. وعبارة تفسير البيضاوي: والمعنى أنه لم يخف عليه وأنه أعدّ لهم العقاب عليه. اهـ. قال العلامة التفتازاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومعنى سماع الله تعالى، يعني معلوم أن الله تعالى سميعٌ عالمٌ بالمسموعات، فمعنى تخصيص هذا القول بالذِّكر أنه أعدّ له عقابًا يناسبه على طريق الكناية. اهـ. وقال العلامة الشهاب عليه رحمة الله الوهّاب: وفسّر سماع الله بعدم خفائه عليه وإعداد العقاب عليه وتبع فيه الزمخشري، وهو مناسب لمذهبه في إنكار الصفات، ولكنه ليس مراده ذلك كما بيَّنه شرَّاحه، بل مراده أنه تعالى سميع لجميع المسموعات، فتخصيص هذا كناية عن أنه أعدّ له عقابًا يناسبه، فليس سماع قبول ورضًى كما في سمع الله لمن حمده، بل سماع ظهور وتهديد؛ لأنه سمع ما قالوه من غير تبليغ، فهو أشدّ للغضب عليهم، وأيضًا أنهم أنكروه ولا مجال لإنكاره؛ لأنه سمعه، ولهذا أكّده، لأن إنكارهم للقول بمنزلة إنكار السمع. اهـ. **قوله: (سنأمر الحَفَظَة بكتابة ما قالوا في الصحائف)** ليقرّوا ذلك في جملة أعمالهم القبيحة، فعلى هذا تكون الكتبة حقيقة، والتجوّز إنما يكون في الإسناد، وعلى قوله: سنحفظه تكون الكَتَبة استعارة، والإسناد على حقيقته، وعلى كلِّ تقدير هو تأكيد لما ذكر أولًا بطريق الكناية. **قوله: (الغُصَص)** في مختار الصِّحاح: الغصّة

قال (**الضحاك**): يقول لهم ذلك خَزَنَة جهنم، وإنما أُضيف إلى الله تعالى لأنه بأمره كما في قوله: «سنكتب» («**سيكتب**» و«**قتلهم**» و«**يقول**»: **حمزة**).

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدّم من عقابهم ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي ذلك العذاب بما قدَّمتم من الكفر والمعاصي، والإضافة إلى اليد لأن أكثر الأعمال يكون بالأيدي فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب، ولأنه يقال للآمر بالشيء فاعله فذكر الأيدي للتحقيق يعني أنه فعل نفسه لا غيره بأمره ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وبأن الله لا يظلم عباده فلا يعاقبهم بغير جرم.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ في موضع جرّ على البدل من «الذين قالوا» أو نصب بإضمار أعني أو رفع بإضمارهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ أمرنا في التوراة وأوصانا ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ﴾ بأن لا نؤمن ﴿لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ أي يقرّب قربانًا فتنزل نار من السماء فتأكله فإن جئتنا به صدقناك، وهذه دعوى باطلة وافتراء على الله لأن أكل النار القربان سبب الإيمان للرسول الآتي به لكونه معجزة فهو إذًا وسائر المعجزات سواء ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ بالمعجزات سوى القربان ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ أي بالقربان يعني جاء أسلافكم الذين أنتم على مِلّتهم وراضونَ بفعلهم ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ أي إن كان امتناعكم عن الإيمان لأجل هذا فلِمَ

الشجى[١] والجمع غصص. اهـ. وفي المصباح: الغُصّة ـ بالضم ـ ما غصّ به الإنسان من طعام أو غيظ على التشبيه، والجمع غصص، مثل غرفة وغرف. اهـ. **قوله: (الضحاك)** بن مزاحم أبو محمد والقسم صاحب التفسير. **قوله: («سيكتب» و«قتلهم» و«يقول»)** بياء مضمومة وفتح تائه مبنيًّا للمفعول، ورفع لام قتل عطفًا على ما الموصولة النائبة عن الفاعل، ويقول بياء الغيبة، (**حمزة**). والباقون بالنون المفتوحة وضمّ التاء بالبناء للفاعل ونصب قتل بالعطف على ما المنصوبة المحلّ على المفعولية، ونقول بالنون.

---

(١) أي الحزن. ١٢ منه عمّ فيضهم.

لم تؤمنوا بالذين أتوا به ولِمَ قتلتموهم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم إنما نؤخر الإيمان لهذا.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فإن كذبك اليهود فلا يهولنَّك فقد فعلت الأُمم بأنبيائها كذلك ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الظاهرات ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ الكتب جمع زبور من الزبر وهو الكتابة. («وبالزبر»: **شامي**) ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ جنسه ﴿ٱلْمُنِيرِ﴾ المُضيء. قيل: هما واحد في الأصل وإنما ذكرا لاختلاف الوصفين، فالزبور كتاب فيه حِكَم زاجرة، والكتاب المنير هو الكتاب الهادي.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مبتدأ والخبر ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ﴾ وجاز الابتداء بالنكرة لِما فيه من العموم، والمعنى لا يحزنك تكذيبهم إياك فمرجع الخلق إليَّ فأُجازيهم على التكذيب وأُجازيك على الصبر وذلك قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ﴾ أي تُعطون ثواب أعمالكم على الكمال يوم القيامة فإن الدنيا ليست بدار الجزاء ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ بَعُدَ، والزحزحة: الإبعاد ﴿عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ﴾ (**ظفر**) بالخير. وقيل: فقد حصل له الفوز المطلق. وقيل: الفوز نيل المحبوب والبُعْد عن المكروه ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ شبّه الدنيا بالمتاع الذي (**يدلَّس به على المستام ويغرُّ**) حتى يشتريه ثم يتبيَّن له فساده ورداءته،

قوله: (وبالزبر) بزيادة باء موحدة قبل حرف التعريف، (**شامي**) أي ابن عامر الشامي. والباقون بحذفها.

قوله: (ظفر) من باب طَرِب. **قوله:** (**يدلس به على المستام**) التدليس في البيع كتمان عيب في السلعة عن المشتري والمدالسة كالمخادعة والدّلس ـ بالتحريك ـ الظلمة، والمدلس كأنه يأتيك بالسلعة في الظلام، والمستام[1] هو الذي يريد الشرى والسَّوم إرادة الشرى، تقول منه: سُمْته سَوْمًا واستام عليّ وتساومنا. **قوله:** (**ويغرّ**)

---

(١) بمعنى المشتري. ١٢ منه عمّ فيضهم.

والشيطان هو المدلّس الغرور. وعن (**سعيد بن جبير**): إنما هذا لمَن آثرها على الآخرة، فأما مَن طلب الآخرة بها فإنها (**متاع بلاغ**). وعن (**الحسن**): كخضرة النبات ولعب البنات لا حاصل لها.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ والله لتبلونّ أي لتختبرنّ ﴿فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بالإنفاق في سبيل الله وبما يقع فيها من الآفات ﴿وَأَنفُسَكُمْ﴾ بالقتل والأسْر والجراح وما يرد عليه من أنواع المخاوف والمصائب، وهذه الآية دليل على أن النفس هي الجسم المُعاين دون ما فيه من المعنى الباطن كما قال بعض أهل الكلام (**والفلاسفة**)، كذا في شرح التأويلات ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ﴾ كالطعن في الدِّين وصدّ مَن أراد الإيمان وتخطئة مَن آمن ونحو ذلك ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ على أذاهم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ مخالفة أمر الله ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ فإن الصبر والتقوى ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (**من معزومات الأمور**) أي مما يجب العزم عليه من الأمور، خُوطِب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلقون من الشدائد والصبر عليها حتى إذا

أي يوقع في الغرّة، وهي الغفلة، يقال: رجل غرّ بالكسر وغرير أي غير مجرّب. **قوله:** (**سعيد بن جبير**) من كبار أئمّة التابعين رضي الله تعالى عنه. **قوله:** (**متاع بلاغ**) أي تبليغ إلى الآخرة وإيصال إليها، والبلاغ اسم للتبليغ كالكلام اسم للتكليم. **قوله:** (**الحسن**) البصري التابعي رضي الله تعالى عنه.

قوله: (**والفلاسفة**) أي بعض الفلاسفة. اهـ تأويلات الإمام أبي منصور الماتريدي رحمة الله عليه. **قوله:** (**من معزومات الأمور**) العَزْم مصدر قولك: عزمت على كذا عزمًا وعزيمة إذا أردت فعله إرادة صادقة وقصدًا مصمّمًا، فالمصنّف رحمة الله عليه أوّل المصدر بالمفعول وجمعه لإضافته إلى الأُمور، أي من الأُمور المعزوم عليها، والعازم إمّا أن يكون هو العبد، أي من الأُمور التي يجب على العبد عزمها، وإمّا أن يكون هو الله، أي من الأُمور التي عزم الله عليها، أي فرضه علينا وبالغ في إيجابه.

لقوها وهم مستعدون (**لا يرهقهم**) ما يرهق مَن تصيبه الشدّة بغتة فيُنكرها و(**تشمئز**) منها نفسه.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ واذكر وقت أخذ الله ميثاق أهل الكتاب ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ عن الناس بالتاء على حكاية مخاطبتهم كقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ﴾ [الإسراء: الآية ٤] (**وبالياء: مكي وأبو عمرو وأبو بكر**)، لأنهم (**غيب**) والضمير للكتاب، أكد عليهم إيجاب بيان الكتاب واجتناب كتمانه ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فنبذوا الميثاق وتأكيده عليهم أي لم يُراعوه ولم يلتفتوا إليه، والنَّبْذ وراء الظهر مثل في الطرح وترك الاعتداد، وهو دليل على أنه يجب على العلماء أن يبيّنوا الحق للناس وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئًا لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة وتطييب لنفوسهم، أو لجرّ منفعة أو دفع أذيّة، أو لبخل بالعلم، وفي الحديث («**مَن كتم علمًا**) **عن أهله ألجمه الله بلجام من نار**» ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضًا يسيرًا ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

قوله: (**لا يرهقهم**)... الخ، أي لا يعسر عليهم، يقال: لا ترهقني لا رهقك الله، أي لا تعسرني لا أعسرك الله. **قوله:** (**تَشْمَئِزّ**) أي تنقبض.

قوله: (**وبالياء**) التحتية (**مكّي**) أي ابن كثير المكّي، (**وأبو عمرو**) البصري (**وأبو بكر**) شعبة بن عياش عن عاصم. والباقون بالخطاب على الحكاية، أي وقلنا لهم. **قوله:** (**غُيّب**) جمع غائب مثل رُكَّع وراكع. **قوله:** (**مَن كتم علمًا**)... الخ، وفي التيسير بشرح الجامع الصغير للعلامة المناوي رحمه الله: «**مَنْ كتم علمًا**» شرعيًا «**عن أهله أُلْجِمَ يوم القيامة**» بالبناء للمفعول، أي ألجمه الله «**لجامًا من نار**»، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٩]. قال القرطبي: وأمّا قول أبي هريرة: حفظت عن رسول الله ﷺ وعاءين من علم: أمّا أحدهما، فقد حدّثتكم به. وأمّا الآخر، فلو حدّثتكم به لقُطع مني هذا الحلقوم؛ فحُمِل على ما يتعلق بالفتن من أسماء المنافقين ونحوه. أمّا كَتْمه عن غير أهله، فمطلوب بل واجب. «عد» (أي رواه ابن عدي). «عن ابن

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾

والخطاب في ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ لرسول الله وأحد المفعولين ﴿ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ والثاني بمفازة، وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ تأكيد تقديره: لا تحسبنهم فائزين ﴿بِمَآ أَتَوا۟﴾ بما فعلوا (**وهي قراءة أُبَيّ**) و«جاء» و«أتى» يستعملان بمعنى فعل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ (وَعْدُهُۥ) مَأْتِيًّا﴾ [مريم: الآية ٦١]، ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا (فَرِيًّا)﴾ [مريم: الآية ٢٧]. (**وقرأ النخعي**) «بما آتوا» أي أعطوا ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ

مسعود» رضي الله تعالى عنه وإسناده قوي.اهـ. وعبارة تفسير البيضاوي عن النبيّ ﷺ: «**مَن كتم علمًا عن أهله أُلْجِم بلجام من نار**».اهـ. قال العلامة الشهاب عليه رحمة الله الوهّاب: قوله: «**من كتم علمًا**» الحديث، من أهله وعن أهله وقعا في النسخ. قال العراقي[1]: إنه لم يُرْوَ بهذا اللفظ، وإنما المرويّ في السّنن: «**مَنْ سُئِل عن علمٍ فكتمه ألجمه الله بلجامٍ من نار**».اهـ. فافهم والله سبحانه وتعالى أعلم.

قوله: (وهي قراءة أُبي) وهي قراءة شاذّة، وهو أُبيّ بن كعب السيد القارىء الصحابيّ رضي الله تعالى عنه. **قوله:** (﴿وَعْدُهُۥ﴾) [مريم: الآية ٦١] أي موعوده. **قوله:** (﴿فَرِيًّا﴾) [مريم: الآية ٢٧] أي عظيمًا. **قوله: (وقرأ النخعيّ)** أي شاذًّا، وهو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن أسود النخعي الكوفي فقيه أهل الكوفة، أبو عمران وهو تابعيّ جليل دخل على عائشة رضي الله تعالى عنها ولم يثبت له منها سماع، وسمع جماعات من كبار التابعين منهم علقمة وخالاه الأسود وعبد الرحمٰن ابنا يزيد، ومسروق وأبو عبيدة بن عبد الله وغيرهم. روى عنه جماعات من التابعين منهم السبيعي وحبيب بن أبي ثابت وسماك بن حرب والحكم والأعمش وابن عون وحماد بن أبي سليمان شيخ الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه، وأجمعوا على

---

(١) قال العلّامة القنوي ﷫: نقل عن العراقي أنه قال: لم يروَ بهذا اللفظ... الخ. والنقل بالمعنى شائع. ١٢ منه عمّ فيضهم.

(﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾) بمنجاة منه ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ مؤلم. (رُوِيَ) أن رسول الله ﷺ سأل اليهود عن شيء مما في التوراة فكتموا الحق وأخبروه بخلافه وأروه أنهم قد صدقوه (**واستحمدوا**) إليه وفرحوا بما فعلوا من تدليسهم، فأطلع الله رسوله على ذلك وسَلاه بما أنزل من وعيدهم أي لا تحسبنَّ اليهود الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك ويحبون أن تحمدهم بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عمّا سألتهم عنه، ناجين من العذاب. وقيل: هم المنافقون يفرحون بما أتوا من إظهار الإيمان للمسلمين وتوصلهم بذلك إلى أغراضهم، ويستحمدون إليهم بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة. وفيه وعيد لمن يأتي بحسنة فيفرح بها فرح إعجاب ويحب أن يحمده الناس بما ليس فيه. (﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾) فهو يملك أمرهما، وفيه تكذيب لمن قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ﴾، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فهو يقدر على عقابهم.

توثيقه وجلالته وبراعته في الفقه. توفّي سنة ستّ وتسعين، وهو ابن تسع وأربعين سنة، وقال البخاري رحمه الله: ابن ثمانٍ وخمسين سنة رضي الله تعالى عنه.

قوله: (﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾) فيه وجهان: أحدهما أنه متعلّق بمحذوف على أنه صفة لمفازة، أي بمفازة كائنة من العذاب على جعلنا مفازة مكانًا، أي بموضع فوز. قال أبو البقاء: لأن المفازة مكان، والمكان لا يعمل، يعني فلا يكون متعلّقًا بها، بل بمحذوف على أنه صفة لها. الوجه الثاني: أنه متعلّق بنفس مفازة على أنها مصدر بمعنى الفوز، تقول: فزت منه، أي نجوت، ولا يضرّ كونها مؤنّثة بالتاء، لأنها مَبْنية عليها، وليست الدالّة على التوحيد. وقال أبو البقاء: ويكون التقدير: فلا يحسبنّهم فائزين، فالمصدر في موضع اسم الفاعل. اهـ. فإن أراد تفسير المعنى، فذاك وإن أراد أنه بهذا التقدير يصحّ التعلّق، فلا حاجة إليه؛ إذ المصدر مستقلّ بذلك لفظًا ومعنًى. اهـ سمين.

قوله: (رُوِيَ)... الخ، هذا أخرجه الشيخان عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم، ووجه فرحهم تكذيبهم للنبيّ ﷺ أنه لو كان نبيًا لعَلِم كذبهم، فلما نزل الوحي تبيّن خلاف ما ظنّوه، وانقلب فرحهم غمًّا. **قوله:** (**واستحمدوا**) أي طلبوا أن يحمدوا.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾

(﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ (لَءَايَٰتٍ﴾ **لأدلة واضحة على صانع قديم عليم حكيم قادر** ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾) لمن خلص عقله عن الهوى

قوله: (﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾) قال ابن عباس: إن أهل مكة سألوا النبيّ ﷺ أن يأتيهم بآية، فنزلت هذه الآية. اهـ خازن. (﴿لَءَايَٰتٍ﴾) اسم إن. **قوله: (لأدلّة واضحة على صانع قديم عليم حكيم قادر)** إشارة إلى أن الآية في معرض الاستدلال على قوله: (﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾). واعلم أنّ الله تعالى ذكر في سورة البقرة ثمانية أنواع من الدّلائل، حيث قال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: الآية ١٦٤]، واقتصر في هذه السورة على ثلاثة أنواع منها، وترك الخمسة الباقية منها، وجعل فاصلة هذه الآية قوله: (﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾)، وجعل الفاصلة هناك قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٦٤]. واللّب خالص العقل، فإن العقل له ظاهر وله لبّ، ففي أوّل الأمر يكون عقلًا وفي حال كماله ونهاية أمره يكون لبًّا، وهو في أول أمره وإن احتاج إلى كثرة الدّلائل وتظاهر بعضها ببعض، لكنه في حال كماله لا يحتاج إلى تكثير الأدلّة، بل يكتفي بخلاصة الدّلائل وزبدتها، فإنّ الدلائل مع كثرتها لغاية الكثرة مُنحصرة في ثلاثة أنواع؛ لأنها إمّا سمٰوية أو أرضية أو مركّبة منهما، فأشار إلى الأوّل بقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٤]، وإلى الثاني بقوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: الآية ٣٣]، وإلى المركّبة بقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٤]؛ لأنّ تحقّقه بسبب دَوَران الشمس على الأرض، ووجه دلالتها على ما ذكر من الوحدانية وكمال العلم والقدرة أنه تعالى جعل منافع السماء مع بُعدها من الأرض متّصلة بمنافع الأرض حتى لا تقوم منافع هذه إلّا بمنافع الأخرى، فصيّرهما بحسب اتّصال المنافع كالمتصلين مع بُعد ما بينهما، ولو كان لكل واحدة منهما منافع على حِدَة لمنع كلّ واحد منهما منافع ملكه عن الآخر، فدلّ اتّصال المنافع على اتّحاد الصانع والمالك؛ لأن الأشياء المخلوقة على تضادّ من الطبائع من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة لمّا جُعِلت مع اختلافها وتضادّها

خلوص (**اللُّب**) عن (**القشر**)، فيرى أن (**العرض**) المحدث في (**الجواهر**) يدل على حدوث الجواهر، لأن جوهرًا ما لا ينفك عن عرض حادث وما لا يخلو عن

كالأشكال والأمثال في حقّ اتّصال بعضها ببعض، دلّ ذلك على أن مُنْشئها واحد كامل العِلم عظيم القدرة، وخلق هذه الأشياء لمجرّد الإفناء عبثٌ لا يليق بشأن مَنْ كان في العلم والقدرة بهذه المثابة، فلا بدّ أن يكون خلق السمٰوات والأرض لحكمة، وتلك الحكمة لا ترجع إلى نفسهما؛ إذ لا منفعة لهما في الخلق حتى يكون خَلقهما لأنفسهما، فتعيّن أن يكون خلقهما لمنفعة البشر يستدلّوا بهما على وجود الصانع وجلاله وجماله، ويستعينوا بهما على مصالح معادهم ومعاشهم ويستكملوا بحسب قوّتهم النظرية والعملية ويتوسّلوا بتلك الأشكال إلى نَيْل سعادة الآخرة، ثمّ لما فرغ من ذكر آيات الربوبيّة شرع في بيان العبوديّة، ولمَّا كان الإنسان مركّبًا من النفس والبدن كانت العبودية بحسب النفس وبحسب البدن، فأشار إلى عبودية البدن بقوله: (﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾)، فإنّ ذلك لا يتمّ إلّا باستعمال الجوارح والأعضاء، وأشار إلى عبودية القلب والروح بقوله: (﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾)، وإنما خصّص التفكّر بالخلق لقوله ﷺ: «**تفكّروا في الخلق ولا تفكّروا في الخالق**»، وإنما نهى عن التفكّر في الخالق؛ لأن معرفة حقيقته المخصوصة غير مُمكنة للبشر، فلا فائدة لهم في التفكّر في ذات الخالق، ثم شرع في تعليم الدعاء تنبيهًا على أن الدعاء إنما يجدي ويستحقّ الإجابة إذا كان بعد تقديم الوسيلة، وهي إقامة وظائف العبودية من الذِّكر والفكر، فانظر إلى هذا الترتيب ما أحسنه. اهـ شيخ زاده رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (اللُّب) بالضمّ. **قوله: (القشر)** بالكسر. **قوله: (العرض)** الموجود الذي يحتاج في وجوده إلى موضع، أي محل يقوم به كاللون المحتاج في وجوده إلى جسم يحلّه ويقوم هو به، والأعراض على نوعين: قارّ الذات، وهو الذي يجتمع أجزاؤه في الوجود كالبياض والسواد. وغير قارّ الذات، وهو الذي لا يجتمع أجزاؤه في الوجود؛ كالحركة والسكون. اهـ التعريفات للسيد الشريف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
قوله: (الجواهر) الجوهر ماهيّة إذا وُجِدت في الأعيان كانت لا في موضوع، وهي منحصرة في خمسة: هيولى وصورة وجسم ونفس وعقل؛ لأنه إمّا أن يكون مجرّدًا أو غير مجرّد، فالأوّل إمّا أن يتعلّق بالبدن تعلق التدبير والتصرّف أو لا يتعلق،

الحادث فهو حادث، ثم حدوثها يدلّ على مُحدِثها وذا قديم وإلا لاحتاج إلى محدث آخر إلى ما لا يتناهى، وحُسْن صنعه يدل على علمه، وإتقانه يدل على حكمته، وبقاؤه يدل على قدرته، قال عليه السلام: («ويل لمن قرأها) ولم يتفكّر فيها» وحُكِي أنه كان في بني إسرائيل مَن إذا عَبَدَ الله ثلاثين سنة أظلّته سحابة، فعبدها فتى فلم تُظِلّه فقالت له أُمه: لعل فرطة فرطت منك في مدتك. قال: ما أذكر. قالت: لعلك نظرت مرة إلى السماء ولم تعتبر. قال: لعلّ. قالت: فما أُوتيت إلا من ذلك.

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾

(﴿ٱلَّذِينَ﴾) في موضع جر نعت لِـ «أولي» أو نصب بإضمار أعني أو رفع بإضمارهم (﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾) يصلون.

والأول العقل، والثاني النفس. والثاني من الترديد، وهو أن يكون غير مجرّد إمّا أن يكون مركّبًا أو لا، والأول الجسم، والثاني إمّا حال أو محل، الأول الصورة والثاني الهيولى، وتسمّى هذه الحقيقة الجوهريّة في اصطلاح أهل الله بالنفس الرحمٰني، والهيولى الكلّية وما يتعيّن منها وصار موجودًا من الموجودات بالكلمات الإلٰهيّة، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ١٠٩﴾ [الكهف: الآية ١٠٩].

واعلم أنّ الجوهر ينقسم إلى بسيط روحاني؛ كالعقول والنفوس المجرّدة، وإلى بسيط جسماني؛ كالعناصر، وإلى مركّب في العقل دون الخارج؛ كالماهيّات الجوهرية المركّبة من الجنس والفصل، وإلى مركّب منهما؛ كالمولدات[1] الثلاث. اهـ التعريفات للسيد الشريف رحمه الله. **قوله: (ويلٌ لمن قرأها)**... الخ، أخرجه ابن حبان عن عائشة رضي الله تعالى عنها، أي الهلاك العظيم لمن قرأها، أي هذه الآية، ولم يتفكّر، أي لم ينظر في أحوال المذكورات في هذه الآية، ولم يهتدِ إلى معرفة الله تعالى سبحانه وتعالى.

---

(١) الثلاثة المواليد عند الحكماء المعدن والنبات والحيوان، ١٢ منه عمّ فيضهم.

(﴿قِيَـٰمًا﴾) قائمين عند القدرة (﴿وَقُعُودًا﴾) قاعدين ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي (مضطجعين) عند العجز و﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا﴾ حالان من ضمير الفاعل في ﴿يَذْكُرُونَ﴾. و﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ حال أيضًا، أو المراد الذِّكر على كل حال لأن الإنسان لا يخلو عن هذه الأحوال، وفي الحديث («مَن أحبَّ أن يرتع) في رِياض الجنة فليُكثِر ذِكر الله» (﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾) وما يدلّ عليه (اختراع) هذه الأجرام العِظام (وإبداع) صنعتها وما دبر فيها مما (تكلّ) الأفهام عن إدراك بعض عجائبه من عِظَم شأن الصَّانِع وكبرياء سلطانه، وعن النبي ﷺ («بينا رجل) مُستَلْقٍ على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال: أشهد أن لك ربًا وخالِقًا، اللَّهمَّ اغفر لي، فنظر الله إليه فغفر له»، وقال ﷺ: («لا عبادة كالتفكّر»)، وقيل: الفكرة تُذهِب الغفلة وتُحدِث للقلب الخشية، وما جليت القلوب بمثل الأحزان ولا استنارت بمثل الفكر. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾ أي يقولون ذلك وهو في محل الحال أي يتفكرون قائلين، والمعنى ما خلقته خلقًا باطلًا بغير حكمة بل خلقته لحكمة عظيمة وهو أن تجعلها مساكن للمكلفين وأدلة لهم على معرفتك، و«هذا» إشارة إلى الخلق على أن المراد به المخلوق، أو إلى السمٰوات والأرض لأنها في معنى المخلوق كأنه قيل: ما خلقت هذا المخلوق العجيب باطلًا (﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾) تنزيهًا لك عن الوصف بخلق الباطل (وهو اعتراض) ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ الفاء دخلت لمعنى الجزاء تقديره إذا نزّهناك فَقِنا.

قوله: (﴿قِيَـٰمًا﴾) مصدر بمعنى الفاعل. وأمّا قعود يحتمل أن يكون جمع قاعد. **قوله:** (**مضطجعين**) تفسير لمعنى الجار والمجرور أو لمتعلّقه الخاص. **قوله:** (من أحب)... الخ، حديث مخرّج صحيح. اهـ شهاب رحمه الله. **قوله:** (**أن يرتع**) أي أن يتّسع في التنعّم وأكل الفواكه ونحوها. **قوله:** (**اختراع**) أي إنشاء. **قوله:** (**إبداع**) أي اختراع لا على مثال. **قوله:** (**تكلّ**) في المصباح: كَلّ يكلّ من باب ضرب، كلالة تعِب وأعْيا. اهـ.

قوله: (بَيْنا رجل)... الخ. أخرجه ابن حبان. **قوله:** (**لا عبادة كالتفكّر**) أخرجه ابن حبان والبيهقي. **قوله:** (﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾) مصدر منصوب بفعل. **قوله:** (وهو اعتراض) للتنزيه عن العبث وأن يخلق شيئًا من غير حِكْمة.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ أهنْته أو أهلكته أو فضحته، واحتجَّ أهل الوعيد بالآية مع قوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: الآية ٨]. في أن مَن يدخل النار لا يكون مؤمنًا ويخلد. قلنا: قال **(جابر)**: إخزاء المؤمن تأديبه وإن فوق ذلك لخزيًا ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ اللام إشارة إلى مَن يدخل النار والمراد الكفَّار ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ من أعوان وشُفعاء يشفعون لهم كما للمؤمنين ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ تقول: سمعت رجلًا يقول كذا، فتوقع الفعل على الرجل وتحذف المسموع **(لأنك وصفته)** بما يسمع فأغناك عن ذِكره، ولولا الوصف لم يكن منه بُدٌّ **(وأن يُقال)** سمعت كلام فلان. **(والمنادي هو الرسول** عليه السلام **أو القرآن)** ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ لأجل الإيمان بالله، وفيه تفخيم لشأن المنادي إذ لا منادي أعظم

قوله: (جابر) بن عبد الله الصحابي ابن الصحابي رضي الله تعالى عنهما. **قوله: (لأنك وصفته)** أي الرجل بما يسمع في صورة النَّكرة مثل: سمعت رجلًا يقول كذا، أو فعلت ما يسمع حالًا عنه في صورة المعرفة، مثل: سمعت زيدًا يتكلّم كذا فأغناك عن ذكره، أي المسموع. لكن لا يخفى أنه لا يصح إيقاع فعل السماع على الرجل إلا بالإضمار أو مجازًا، أي سمعت كلامه وإنّ الأوفق بالمعنى فيما جعله وصفًا أو حالًا أن يجعل بدلًا بتأويل الفعل بالمصدر على ما يراه بعض النحاة، لكنه قليل الاستعمال، فلذا آثر الوصفية والحالة. اهـ تفتازاني رحمه الله. **قوله: (وأن يقال)** عطف على المجرور في منه، لكنه بإعادة الجار تقديرًا؛ إذ الحذف من أن وإن شائع. **قوله: (والمنادي هو الرّسول عليه السلام)**، فإنه ينادي ويدعو إلى الإيمان حقيقةً، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ [النحل: الآية ١٢٥]، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [الأحزاب: الآية ٤٦]، **(أو القرآن)** لا الرّسول عليه السلام؛ لأن كلّ أحد لم يلقَ الرسول والصفات المذكورة إنما هي من صفات أُولي الألباب من المؤمنين، لا ممّن شاهد الرّسول وسمع نداءه فقط، بخلاف القرآن، فإنّ كل واحد من أُولي الألباب من المؤمنين سمعه وفهم مدلوله، فإنّ القرآن لاشتماله على

من مُنادٍ ينادي للإيمان ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟﴾ **(بأن آمنوا أو أي آمنوا)** ﴿بِرَبِّكُمْ (فَـَٔامَنَّا)ۚ﴾ قال **(الشيخ أبو منصور)** ﷺ: **(فيه دليل بُطلان الاستثناء في الإيمان)** ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ كبائرنا ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ صغائرنا ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ مخصوصين بصحبتهم **(معدودين)** في جملتهم، والأبرار المتمسّكون بالسُّنَّة جمع «بر» أو «بار» كـ «رب» وأرباب وصاحب وأصحاب.

بيان ما هو الحقّ في كل باب، بحيث كان مَنْ تأمّله يصل به إلى الحقّ إذا وفّقه الله تعالى لذلك صار كأنّه يدعو إلى نفسه وينادي بما فيه، وإطلاق النطق على الدلالة شائع كثير، وما أُسند إليه من النداء، وإنْ كان مجازًا عن الدّلالة والإرشاد إلّا أنه مجاز متعارف.اهـ شيخ زاده ﷺ. **قوله: (بأن آمنوا)** على أن تكون مصدرية على حذف الباء، أي ينادي إلى الإيمان بإيراد لفظ يدلّ على طلب الإيمان وهو صيغة الأمر، فلا يرد أن يقال: لو كانت مصدرية كان المعنى للإيمان بالإيمان، وهو التّكرار. **قوله: (أو أي آمنوا)**، يعني: يجوز أن **تكون** مفسّرة بمعنى أي.

قوله: (الشيخ أبو منصور) هو محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي إمام المتكلّمين ومصحّح عقائد المسلمين، مات سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، والماتريدي نسبة إلى ماتريد محلّة بسمرقند. **قوله: (فيه دليل بطلان الاستثناء في الإيمان)** عبارة تأويلات الإمام أبي منصور رحمة الله عليه فيه دلالة أن لا ثنيا في الإيمان خلافًا لقول أصحاب الحديث؛ لأنهم أطلقوا القول في الإخبار عن إيمانهم من غير ذكر حرف الثنيا، وهو قوله: إن شاء الله تعالى، ولا أمرهم أيضًا مع الثنيا بقوله: (﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾)، دلّ أنّ الإيمان مما لا يحتمل، والله أعلم.اهـ.

قوله: (معدودين) في جملتهم بدل من قوله: مخصوصين بصحبتهم أتبعه به لبيان أن ليس المراد من التوفّي مع الأبرار حقّية المعية في التوفّي، لأن ذلك مُحال ضرورة أن توفيهم، إنما هو على سبيل التعاقب لا المعيّة، بل المراد أن يكونوا معدودين في جملتهم منخرطين في سلكهم على سبيل الكناية، والحاصل أنه ليس المراد من المعيّة المعيّة الزمانيّة، بل المراد المعية في الاتّصاف بصفة الأبرار حال التوفّي.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا (وَعَدتَّنَا) عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ **(أي على تصديق رسلك، أو ما وعدتنا منزلًا على رسلك)**، أو على ألسنة رسلك، و«على» متعلق بـ «وعدتنا» والموعود هو الثواب أو النصرة على الأعداء. وإنما طلبوا إنجاز ما وعد الله والله لا يخلف الميعاد لأن معناه طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد، أو المراد اجعلنا ممَّن لهم الوعد، إذ الوعد غير مُبيّن لمَن هو، أو المراد ثبّتنا على ما يُوصِلنا إلى عدتك يؤيده قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أو هو إظهار للخضوع والضراعة ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ **(هو مصدر)** بمعنى الوعد.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي أجاب، يقال استجاب له واستجابه ﴿أَنِّى﴾ بأني ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ «منكم» صفة لـ «عامل» ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ **(بيان لـ «عامل»)** ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ الذَّكر من الأنثى والأُنثى من الذَّكر كلكم بنو آدم،

قوله: (أي على تصديق رسلك) بتقدير المضاف وحذفه اعتمادًا على القرينة، وهي كون الآية مذكورة عقب ذكر المنادى، وهو الرّسول، وعقب قوله: (﴿فَـَٔامَنَّا﴾) وهو التصديق، وعلى هذا تكون كلمة على متعلّقة بقوله: (﴿وَعَدتَّنَا﴾)، كما في قولك: وعد الله الجنّة على الطاعة. اهـ شيخ زاده رَحِمَهُ اللَّهُ. وقال العلامة الشهاب عليه رحمة الله الوهاب: قدر التصديق للرسل عليهم الصّلاة والسلام؛ لأن المراد بالمنادي الرّسول ﷺ على الأرجح. اهـ. **قوله: (أو ما وعدتنا منزلًا على رسلك)**، أي ويجوز أن يعلّق على بمحذوف منصوب على أنه حال من مفعول آتنا، وهو منزلًا. **قوله: (هو مصدر)** أي اسم مصدر.

قوله: (بيان لِـ «عامل») بمعنى شخص عامل، والشخص يعمّ الذّكر والأنثى بلا تغليب، ولك اعتبار التغليب؛ لأن المراد جنس عامل فغلب الذكر على الأنثى في إطلاق عامل. اهـ قنوي رَحِمَهُ اللَّهُ.

أو بعضكم من بعض في النصر والدِّين، (**وهذه جملة معترضة**) بيَّنت بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله به عباده العامِلِين. عن (**جعفر الصادق**) ﷺ: (**من حزبه**) أمر فقال خمس مرات: «ربنا» أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد وقرأ الآيات. (﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾) مبتدأ وهو تفصيل لعمل العامل منهم (**على سبيل التعظيم له**) كأنه قال: فالذين عملوا هذه الأعمال السَّنِيَّة الفائقة وهي المهاجَرة عن أوطانهم فارِّين إلى الله بدينهم إلى حيث يأمنون عليه، فالهجرة كائنة في آخر الزمان كما كانت في أول الإسلام ﴿وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ التي وُلِدوا فيها ونشأوا ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ بالشتم والضرب ونهب المال يريد سبيل الدين ﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ وغزوا المشركين واستشهدوا، («**وقتّلوا**»: **مكي وشامي**، «**وقتلوا وقاتلوا**» **على التقديم**

قوله: (**وهذه جملة معترضة**) معنى كونها معترضة أنه جِيءَ بها بين قوله: عمل عامل وبين ما فصل به عمل العامل من قوله: (﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾)، فإنه تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم. **قوله:** (**جعفر الصادق**) هو الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم الهاشمي المدني الصادق، أمّه أُم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصدِّيق رضي الله تعالى عنه. رَوَى عن أبيه والقاسم بن محمد ونافع وعطاء ومحمد بن المُنكدر والزهريّ وغيرهم. روَى عنه محمد بن إسحٰق ويحيىٰ الأنصاري ومالك والسفيانان وابن جريج وشعبة ويحيىٰ القطان وآخرون، واتّفقوا على إمامته وجلالته وسيادته. قال عمرو بن أبي المقدام: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد عَلِمت أنه من سلالة النبيّين. قال البخاري في تاريخه: وُلِد جعفر سنة ثمانين، وتوفي سنة ثمان وأربعين ومائة رحمه الله.

قوله: (من حزبه) بفتح الحاء المهملة والزاي المعجمة والباء الموحدة، أي أهمّه، ويجوز أن يكون بالنون أيضاً. **قوله:** (**على سبيل التعظيم** له) أي للعامل أو عمله، وذلك لما فيه من التفصيل بعد الإجمال والتخصيص بعد التعميم والإخبار على سبيل القسم بتكفير السيّئات وإدخال الجنّات وعظم الثواب من الله تعالى الجامع لصفات الكمال. **قوله:** (**وقتلوا**) بتشديد تاء (**مكّي**) أي ابن كثير المكّي، (**وشامي**) أي ابن عامر الشامي. والباقون بالتخفيف. **قوله:** (**وقتلوا وقاتلوا**) ببناء الأوّل للمفعول، والثاني للفاعل (**على التقديم**) أي تقديم قتلوا على قاتلوا،

والتأخير: حمزة وعلي). وفيه دليل على أن الواو لا تُوجِب الترتيب والخبر. ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهو جواب قسم محذوف ﴿ثَوَابًا﴾ في موضع المصدر المؤكد يعني إثابة أو تثويبًا ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لأن قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ﴾ ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾ في معنى لأثيبنّهم ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ أي يختصّ به ولا يقدر عليه غيره.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾

ورُوِيَ أن طائفة من المؤمنين قالوا: إن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع، فنزل ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾ والخطاب لكل أحد أو للنبي عليه السلام والمراد به غيره، أو لأن **(مدرة القوم)** ومقدَّمهم يخاطب بشيء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعًا فكأنه قيل: لا يغرنكم. أو لأن رسول الله ﷺ كان غير مغرور بحالهم فأكد عليه ما كان عليه وثبت على التزامه كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: الآية ٨٦]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤] وهذا في النهي نظير قوله في الأمر ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: الآية ٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟﴾ [النساء: الآية ١٣٦].

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي تقلّبهم في البلاد متاع قليل، وأراد قِلّته في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة أو في جنب ما أعدّ الله للمؤمنين من الثواب، أو أراد أنه قليل في نفسه لانقضائه وكل زائل قليل ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ وساء ما مهدوا لأنفسهم.

(والتأخير) أي تأخير قاتلوا، **(حمزة وعليّ)** الكسائي. والباقون بتقديم المبنيّ للفاعل.

قوله: (مدرة القوم) زعيمهم والذي يكلّم عنهم. اهـ محشيّ رحمه الله.

قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ [القصص: الآية ٨٦] معينًا للكافرين على دينهم الذي دعوك إليه.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ عن الشّرك ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا﴾ (النزل والنزل) ما يُقام للنّازل وهو حال من ﴿جَنَّٰتٌ﴾ لتخصّصها بالصفة، والعامل اللام في ﴿لَهُمْ﴾ أو هو مصدر مؤكّد كأنه قيل (رزقًا أو عطاءً) ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ صفة له ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الكثير الدائم ﴿خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ مما يتقلّب فيه الفجار من القليل الزائل. («لكنّ» بالتشديد: يزيد) وهو للاستدراك أي لإبقاء تمتّعهم لكن ذلك للذين اتقوا. ونزلت في (ابن سلام) وغيره من مسلمي أهل الكتاب، أو في أربعين من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم وكانوا على دين عيسى عليه السلام فأسلموا.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ (لَمَن يُؤْمِنُ) بِٱللَّهِ﴾ **(دخلت لام الابتداء على اسم «إن»)** لفصل الظرف بينهما ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الكتابين ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ حال من فاعل ﴿يُؤْمِنُ﴾ لأن مَن يؤمن في معنى الجمع ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كما يفعل مَن لم يسلم من أحبارهم وكبارهم وهو حال بعد حال أي غير مُشترين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾

قوله: (النزل والنزل)... الخ. يعني بضمّتين أو ضمّ فسكون. **قوله: (رزقاً أو عطاء)** أي رزقوا رزقًا وأعطوا عطاءً. **قوله: (لكن بالتشديد)** أي بتشديد النّون **(يزيد)** هو أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني، وليس من السبعة. والباقون بالتخفيف. **قوله: (ابن سلام)** أي عبد الله بن سلام ـ بتخفيف اللام ـ ابن الحارث الإسرائيليّ الأنصاري الخزرجي الصحابي رضي الله تعالى عنه.

قوله: (دخلت لام الابتداء على اسم إن) أي على اسم إن في قوله: (﴿لَمَن يُؤْمِنُ﴾)، مع أن النحاة منعوا دخول لام الابتداء عليه بناءً على انتفاء المانع من دخولها عليه، وهو توالي حرفي التأكيد، ولمّا توسّط الخبر بين إن واسمها انتفى

(أي ما يختصّ بهم من الأجر وهو ما وعده في) قوله: (﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لنفوذ علمه في كل شيء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟﴾ على الدِّين وتكاليفه. قال (الجنيد) ﷺ: الصبر حبس النفس على المكروه بنفي (الجزع) ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ أعداء الله في الجهاد (أي غالِبوهم) في الصبر على شدائد الحرب لا تكونوا أقل صبرًا منهم وثباتًا ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ وأقيموا في (الثغور رابطين خيلكم) فيها مترصِّدين مستعدِّين للغزو ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الفلاح: البقاء مع المحبوب بعد الخلاص عن المكروه، و«لعل» لتغييب المآل لئلا يتّكلوا على الآمال عن تقديم الأعمال. وقيل: اصبروا في محبتي، وصابروا في نعمتي، ورابِطوا أنفسكم في خدمتي لعلكم

المانع من دخولها عليه، فدخلت لذلك. **قوله: (أي ما يختصّ**[1] **بهم من الأجر)** اختصاص الأجر بهم مُستفاد من إضافته إليهم **(وهو ما وعده في)** قوله في سورة القصص: (﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: الآية ٥٤])، أي لإيمانهم بكتابهم وبالقرآن.

قوله: (الجنيد) أي أبو القاسم الجنيد بن محمد رضي الله تعالى عنه. **قوله: (الجَزَع)** ضدّ الصبر، وبابه طرب. اهـ مختار الصّحاح. **قوله: (أي غالبوهم)**... الخ. يعني أن المصابرة مفاعلة، فهو المجاهدة للعدوّ، أو لأعدى الأعداء، يعني النفس لأنه الجهاد الأكبر، وذكره بعد الصبر العام؛ لأنه أشد فيكون أفضل، فهو كعطف جبرئيل على الملائكة والصلاة الوسطى على الصلوات. اهـ شهاب رحمه الله. **قوله: (الثغور)** أطراف ممالك الإسلام التي يخاف فيها من العدوّ. اهـ شهاب رحمه الله. وفي المصباح: الثغر من البلاد الموضع الذي يخاف منه هجوم العدوّ، فهو كالثُّلمة في الحائط يخاف هجوم السارق منها، والجمع ثغور مثل فلس وفلوس. اهـ. **قوله: (رابطين خيلكم)**... الخ. عبارة الخازن: ورابطوا، يعني وداوموا على جهاد المشركين واثبتوا عليه، وأصل المرابطة أن يربط هؤلاء خيولهم وهؤلاء خيولهم،

---

(١) معنى المخصوص مستفاد من الإضافة في أجرهم. ١٢ منه عمّ فيضهم.

تُفلِحون تظفرون بقربتي. (قال النبي ﷺ: «**اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان**) أو غيايتان (**أو فرقان من طير صواف تُحاجّان عن أصحابهما**») والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

بحيث يكون كلّ من الخصمَيْن مستعدٌّ لقتال الآخر، ثم قيل لكل مقيم بثغر يدفع عمّن وراءه مُرابِط، وإن لم يكن له مركب مربوط.

(ق) يعني أخرج البخاري ومسلم عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «**رباط يوم في سبيل الله خيرٌ** من **الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنّة خيرٌ** من **الدنيا وما عليها، والرَّوحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خيرٌ من الدنيا وما عليها**».

(م) يعني أخرج مسلم عن سلمان الخير، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رباط يوم وليلة خيرٌ من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأُجري عليه رزقه وأمِنَ الفتّان**». وقيل: المراد بالمرابطة انتظار الصلاة بعد الصلاة، قال أبو سلمة بن عبد الرحمـٰن: لم يكن في زمن النبيّ ﷺ غزو يرابط فيه، ولكنه انتظار الصلاة خلف الصلاة، ويدلّ على صحة هذا التأويل ما رُوِي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألَا أدلّكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخُطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**» أخرجه مسلم. اهـ.

قوله: (**قال النبيّ** ﷺ: «**اقرؤوا الزهراوين**) تثنية الزهراء تأنيث الأزهر، وهي المضيء شديد الضوء، أي النيّرتين لنورهما وهدايتهما أو عظم أجرهما، فكأنهما بالنسبة إلى ما عداهما عند الله بمكان القمرين من سائر الكواكب، وقيل: لاشتهارهما شُبِّهتا بالقمرين. (**البقرة وآل عمران**) النصب على البدليّة أو بتقدير أعني، ويجوز رفعهما، أو سمّيتا زهراوين لكثرة أنوار الأحكام الشرعية والأسماء الحسنى العلية، وذكر السورة في الثانية دون الأُولى لبيان كلٍّ منهما، (**فإنهما**) أي ثوابهما الذي استحقّه التالي العامل بهما، أو هما يتصوّران ويتجسدان ويتشكّلان (**تأتيان**) أي تحضران (**يوم القيامة كأنهما غمامتان**) أي سحابتان تظلّان صاحبهما عن

....

حرّ الموقف، قيل: هي ما يغمّ الضوء ويمحوه لشدَّة كثافته، أو غيايتان ـ وهي باليائين ـ ما يكون أدْوَن منهما في الكثافة وقرب إلى رأس صاحبهما، كما يُفعل بالملوك، فيحصل عنده الظلّ والضوء جميعًا. (أو فرقان) بكسر الفاء أي طائفتان (من طير) جمع طائر (صواف) جمع صافّة وهي الجماعة الواقفة على الصفّ والباسطتان أجنحتهما متّصلًا بعضهما ببعض، وهذا بيّن من الأوّلين؛ إذ لا نظير له في الدنيا إلّا ما وقع لسليمان عليه السلام، وأو يحتمل الشكّ من الراوي والتخيير في تشبيه هاتين السورتين، والأَوْلى أن يكون لتقسيم التالين؛ لأن أو من قول الرسول لا من تردّد عن الرواة لاتفاق الرواة عليه على منوال واحد. قال الطيبي: أو للتنويع، فالأُولى لمن قرأهما ولا يفهم معناهما، والثاني لمن جمع بينهما، والثالث لمن ضمّ إليهما تعليم الغير. (تُحاجّان) أي السورتان تدفعان الجحيم والزبانية، أو تجادلان وتخاصمان الربّ أو الخصم. (عن أصحابهما»)، وهو كناية عن المبالغة للشفاعة، رواه مسلم عن أبي أُمامة رضي الله تعالى عنه، والله سبحانه وتعالى أعلم وعِلْمه أتمّ.

تمّت سورة آل عمران،

اللّهمّ وفّقنا لإتمام باقيه وألْهِمْنا لفهم معانيه

والحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسلام على رسوله وآله أجمعين